الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٦٢ — الثلاثاء ٨ من المحرم سنة ١٣٦٣ — ٤ من يناير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

كلمــة مخلصــة

في مشروع المدارس الريفية

أتيحت لنا فرصة الاطلاع على الخطة التي وضعها الفنيون من رجال وزارة المعارف العمومية للمدارس الريفية المزمع إنشاؤها ، كما أتيحت لنا فرصة النظر في بعض المناهج التي رسمت لإنفاذ تلك الخطة . وقد كان ذلك جزءاً من خطة الإصلاح الذي رسمه معالي أحمد نجيب الهلالي باشا في تقريره .

ونرى من واجبنا أن نتجه بهذه الكلمة إلى معالي الوزير مدفوعين برغبة مخلصة في بلوغ تلك الأغراض التي يحرص عليها معاليه ، كما يحرص عليها كل مخلص لشعب هذه البلاد .

الخطة المرسومة ، والمناهج التي فصلت الدراسة على مقتضاها كلها سليمة ، ولا يتردد خبير في أمور التعليم في أنها قد درست دراسة فيها كل ما يتطلبه المرفق من تمحيص ونظر دقيق . ولا شك أن الخطة في مجموعها يمكن أن تعتبر مجهودا عمليا قويا في سبيل إصلاح ما نشكو منه في التعليم الإلزامي . فهناك مبادئ عدة قد اعترفت بها الخطة الجديدة ، وهذا الاعتراف وحده يبعث إلى الاطمئنان على سلامة الاتجاه الجديد .

التعليم في الخطة الجديدة يشمل اليوم كله . والخطة الموضوعة تحتوي على الدراسات النظرية الكافية من لغة ودين وحساب ورسم وصحة ورياضة بدنية .

وتشمل الخطة كذلك الناحية العملية . ففي المدرسة الريفية الجديدة طرف من دراسة الفلاحة والنبات والحيوان والصناعات المتعلقة بالزراعة في الحقل والدار ، والصناعات المتعلقة بغلات الحقل والماشية ؛ وذلك كله يختلف باختلاف سن التلاميذ واختلاف بيئة المدرسة .

وقد بينت الخطة فوق هذا أن تتجه دروس الدين والحساب والأطوال والمساحات والتماوين ودروس الصحة إلى الوجهة العملية .

هذا كله يدعو إلى أعظم الارتياح ، فإن فى هذه الخطة تحقيقا لما نرجوه من توسعة الأفق التعليمى ، وجعل الدراسة حية يستطيع التلاميذ أن يجعلوها جزءا من تفكيرهم الحى .

وتتضمن الخطة فوق هذا أمورا لها أعظم الخطر فى الدراسة ؛ فهناك ذكر لمكتبة تنشأ فى المدرسة الريفية ، والأمل عظيم فى أن تكون هذه المكتبة حقيقة يستطيع المدرس والتلميذ معا أن يستفيدا مما فيها . كما أن بالخطة دلالة على أن عدد حصص المدرس ستكون بحيث تترك له فسحة للتنفس والاطلاع ، فلا يبقى الحال كما هو عليه الآن ، إذ المدرس يعمل اليوم كله بلا انقطاع لا يجد فرصة للراحة ولا للاطلاع .

كل هذه حسنات نرى من الواجب التنويه بها والإشادة بفضل من وضعوها

ولنا بعد ذلك كلمة خالصة رأينا أن نتجه بها إلى أولى الأمر فى وزارة المعارف قياما بما نحسه من واجبنا نحو التعليم .

إذا نحن نظرنا فى تفاصيل الخطة وجدنا مواضع كثيرة نقف عندها فى شك وتردد . فهناك عدد الحصص المقدرة لكل موضوع ، وهناك تفاصيل الموضوعات المختلفة فى مقرراتها وفى إدماج بعضها فى بعض ، وهناك الترابط بين المواد المختلفة فيما بينها والترابط بين جهود المشروعات العملية وجهود التعليم فى الفصول ؛ ثم هناك موضوعات أهمل ذكرها كالتاريخ والجغرافيا ، وأغلب الظن أنها أدمجت فى المعلومات العامة التى قدر لها فى الخطة أن تضم إلى اللغة العربية .

وهناك ما هو أهم من ذلك . كيف يستفاد بالمشروعات العملية فى توسيع الثقافة العامة ؟ فالمشروعات العملية ليست مقصودة بذاتها لتدريب العملى وحده ، بل هى على الأكثر وسيلة من وسائل توسيع أفق المدارك . ولكن المنهج الذى وضع لها لا يحقق مثل هذا القصد .

فنحن بإزاء ذلك لا نرى بدا من أن نطلب إلى أولى الأمر أن يجعلوا أول خطوة فى سبيل إنفاذ المشروع الجديد تلك الخطوة الطبيعية التى لا غنى عنها ، خطوة وضع المشروع موضع التجربة فى نطاق ضيق حتى يمكن بعد حين — سنتين أو ثلاث سنوات — أن تتبين المواضع المحتاجة إلى التعديل ، فيقوم الفنيون بتتبعها وإصلاحها . هذه هى الوسيلة التى تجعل المشروع حيا مرنا قابلا للإصلاح والتعديل حتى يطمأن أخيرا إلى صلاحه ويكون تعميمه ممكنا بعد ذلك .

وأهم اعتبار يحملنا على هذا الطلب هو أن التعليم فى المدارس الجديدة أساسه فهم الروح المقصودة من التعليم ، والتنسيق بين الجهود العملية والجهود الدراسية داخل الفصول ؛ وهذا يتطلب تشرب الروح ، وفهم المقصود ، وإدخال المعلمين إلى لب الفكرة ، وتوجيههم إلى الطريق المؤدية إلى الغاية المقصودة . وهذا لا يكون إلا مع البدء فى نطاق ضيق ، يكون فيه المشروع موضع الدراسة المستمرة والتحوير والتعديل مع المراقبة لسير الأعمال من قريب . نحن نطلب إلى أولى الأمر ألا يبدأوا بالتجربة حتى يتحققوا من أن الآلة المدرسية قد تم التنسيق بين أجزائها ، وأن الأيدى التى تحركها قد مرنت على إدارتها . ونحذر منذ الآن مما آلت إليه الإصلاحات السابقة فى التعليم الأولى عندما بدئ فيه على نطاق واسع قبل أن يتحقق أولو الأمر من صلاح النظام المقترح — لقد كانت تلك المشروعات المدعمة على الورق صالحة لا يظهر فيها عيب ، ولكن الحقيقة لم تلبث بعد مضى الزمن أن ظهرت ، فعلم الجميع أن التعليم الإلزامى لا يؤدى إلى المقصود منه ، وأنه لابد فيه من هدم الكثير قبل أن يؤخذ فى البناء .

وليس من غضاضة فى البدء بوضع المشروع الجديد موضع التجربة لمدة معينة ، بل إن هذا هو السبيل الطبيعى . وأملنا عظيم فى حرص معالى الوزير على تحقيق هذا الإصلاح الجليل ، أن يضع الأسس التى تكفل له أن يكون إصلاحا حقيقيا دائم الأثر .

(ا ...)

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر:

٣ - مدحت باشا

هذا مدحت باشا في مزرعته — يفكر، كل محاولاته في الإصلاح ضاعت سدى لصلابة السلطان عبد العزيز الذي يأبى أن يسمع كلمة «الشورى، والدستور، والعدل، والحرية، والأمة»؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان عرضة للنفي والتشريد والقتل والعزل كما حدث له.

«إن السبب الوحيد لتذمر المسيحيين في الدولة هو فقدانهم الحرية، فمتى منحوها عطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها.

وسبب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية، فمتى شعروا بحريتهم أقدموا على عملهم ونشطوا، وكسبوا، وتعلموا، واستخدموا ذكاءهم ومواهبهم لإسعاد أنفسهم وأسرتهم وهيئتهم الاجتماعية.

وفقدان الجميع الحرية علمهم خوفاً، ويفقدهم رجولتهم ويخلقهم بأخلاق العبيد: من ذلة وضعة، وعدم الالتفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أخس الطرق. وليس الذي وقعنا فيه من طبيعة الإسلام في شيء، فالإسلام يسوى بين الغني والفقير في الحقوق والواجبات، وبين الوزير وراعي الغنم، ويجعل أمرهم بينهم شورى؛ وهذا السلطان يكره كلمة الشورى كما يكره الموت. والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهى عن منكر.

إن الشورى الإسلامية نظمت في العصر الحديث بما يسميه الأوروبيون البرلمان؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكل في المدنية الحديثة بحرية الصحف في النقد، وحرية الأفراد والجماعات في التأليف وإبداء الآراء في صراحة، يستحسنون ما يرون، ويستنكرون ما يرون، ويخطئون كما يشاءون. فلا أحد معصوم، ولا الحكومة معصومة، ولا الوالي معصوم؛ وإنما الذي يقومهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة يقظة الرأي العام وحريته في النقد، وهذا هو ما سمى في القرآن: بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. كل هذا واضح وجلي ولابد منه، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هي الصخرة التي تتكسر عندها كل هذه الآراء.

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض في العالم، وهي مع ذلك أفقر أرض لهجرة كثير من أهلها بالظلم، وإثقال كاهل من بقي بالضرائب، ولا شركات، ولا مصانع؛ فالقطن كثير في البلاد، ومع هذا فالأقمشة القطنية تجلب من أوروبا، حتى الطرابيش التي نضعها على رءوسنا، وعلب الكبريت التي نشعل به نيراننا نجلبه من الخارج. وكل المواد الأساسية متوفرة عندنا؛ ولكن لا عدل، ولا أمن على المال، فلا شركات ولا صناعات. ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة، والمحاكم العادلة، وهذه لا تكون إلا بالحرية، أي الدستور. كل من جاهر بالإصلاح أبعد؛ ففؤاد باشا مات محتقراً مهيناً، وعالي باشا دست له الدسائس حتى عزل من مناصبه، وهما ما هما في الكفاية والاستقامة؛ وإنما يقرب أمثال محمود نديم الشره الجاهل الذي يقدم مال الدولة للسلطان، ثم ينتهب لنفسه ما نالته يده.

رحم الله فؤاد باشا وعالي باشا فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولهما في الإصلاح، ففكرا في حيلة لطيفة أن يشوقا السلطان لزيارة أوروبا، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوروبية فيبينا له ما وصلت إليه من النظام والتقدم، ويشعراه من طرف خفي بأن سبب هذا كله حسن الإدارة وصلاحية الحكم، لعله إذا عاد تحفزت نفسه لحسن التقليد فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح، وسار في أموره غير سيرته، والتفت إلى رعيته؛ ولكن خاب فألهما فقد عاد أشد إسرافاً، وأكثر تبذيراً في ملذاته. عاد ووعد ثم أخلف ما وعد؛ وكل ما فعل أن حقد عليهما لأنهما أشارا

عليه بانتخاب مجلس فى كل ولاية يجدد كل سنة لمشاركة الوالى فى أعماله ، وبذل النصح له ، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدرج إلى البرلمان أو الدستور ، ذلك الشبح المخيف . وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة إنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزانته الخاصة لا باسم الشعب . ثم هذا السلطان يستدين ويستدين ؛ فقد كانت ديون الدولة فى آخر أيام السلطان عبد المجيد ٢٥ مليون ليرة فبلغت بعد ١٢ سنة بفضل عبد العزيز ٢٥٠ مليون ليرة ، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال ؟! ظهر أن لا أمل فى الإصلاح مع وجود « عبد العزيز » ، بل لا أمل حتى ولو أصدر لوائح الإصلاح ، وأوامر إنشاء القوانين والمحاكم والنظم والمدارس ، فقد جربناه فرأيناه يطأطئ للعاصفة حتى تمر ، فإذا مرت عاد سيرته الأولى ، وحل ما عقد ونقض ما أبرم .

لم يبق إلا أمر واحد ، وهو تهيئة النفوس لعزله ، ووضع الخطط المحكمة لإنزاله عن عرشه ؛ ومع الأسف لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش ، وفى هذا خطورته ، ولكن قد تمكنت فى جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات .

فإذا تمت الأمور وعزل عبد العزيز ، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها ، وأعلن يوم توليته الدستور ، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها ، وأنه مدين لعرشه بالدستور فاحترمه وسارت الأمور سيراً حسناً : دستور نافذ ، وسلطان مطيع ؛ وبدأنا حياة جديدة كلها خير على الأمة ، وسرنا فى الطريق الذى سارت فيه الأمم الحية نأخذ محاسنهم ، ونتجنب أخطاءهم ، فإذا الحياة سعيدة ، والعدل شامل ، والدستور حام . فلنسر على بركة الله .

هكذا فكر مدحت ، وهو يشرف على الإصلاح فى مزرعته ، والفؤوس تضرب فى الأرض ، والنواعير تبكى بدموع غزار !! .

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماما . فها هو يدير الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سئموا هذه الحال ويتفق معه فى الرأى حسين عونى باشا (سر عسكر الدولة) ، وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام ، ويتفق الجميع على خلع عبد العزيز فى يوم معين . حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراى طولمة بغجة ، واحتدمت العساكر فأحاطت بالقصر ، ودخل على السلطان من أبلغه خبر العزل ، فاستخف بهذا الخبر فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشدة فاستسلم ، وأنزلوه من السراى ، ووضعوه فى قصر والدته ومعه ثلثمائة أنثى بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادمات ؛ واختصروا حاشيته فاستغنوا عن ١٣٠٠ سائس و ١٠٠٠ طبلكار (حامل طبليات الطعام) و ٦٠٠ قوارقى وأمثالهم من الخدم ، وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التى حلت بالدولة . وبعد بضعة أيام وجد السلطان مقتولا ، فقيل إنه قتل ، ويرى الأكثرون ، ويقرر الأطباء المحدثون ويؤكد ذلك مدحت ، أن السلطان أخذته المزة فقطع شريانا من ذراعه بمقراض فمات من ذلك .

ومهما كان فقد بويع السلطان مراد ، فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله ، فولى السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة أشهر ، وحمل عبء هذه الأحداث العظيمة والتركة الشنيعة ؛ وهو فى أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوروبا ونظمها ويختار أنسبها .

وكان فى ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوروبية والأخرى على حالة الدولة ، فما كل ما يصلح لأوروبا يصلح لها ، وفى ذلك يقول : « إن أخذ القانون من أوروبا ووضعه لنا لأنه أفادهم يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنسيج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من صرفها .

« وفضلا من ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات فى دولتنا ؛ فالقانون الذى يوافق ولايات حلب وسوريا وبغداد لا يوافق ولايات روسه وأزمير وأدرنه ؛ وقد يكون القانون فى بعض الولايات عدلا ، وفى بعضها

ظلما ، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين .

« وإن مسألة استقلال المحاكم ، وأصول جباية الأموال ، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظامات ، قد استعملها الإفرنج فأفادتهم بسبب رقى الأهالى ومدنيتهم ؛ فقانون الأراضى مثلا يقضى علينا بتعيين المهندسين ، ومعرفة مقادير أراضى بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة ، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى ١٥٠ قرشا فى الشهر ، فالإفرنج يعينون لكل قرية لجانا ومهندسين يمسحون الأراضى ويقدرون الضرائب ، ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضينا .

« فيجب تدريب الرجال وإلقاء أزمّة الأمور إليهم بالتدريج ... كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة ؛ فى أوروبا المالية اختصاصها ، وللحربية اختصاصها ، وكذلك للداخلية والعدل ، أما عندنا فالأمور كلها منوطة بالوالى » .

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذى يتلخص فى اختيار خير النظم الأوروبية واختيار أوفقها لحالة الدولة الاجتماعية ، والأخذ بيدها تدريجا كلما ألمّت خطوة انتقل بها إلى ما بعدها .

وبعد القانون الأساسى للدولة ورتب نظام مجلس المبعوثان فلما ولّى السلطان عبد الحميد حتى كان ذلك كله معدا ، وتولى مدحت باشا الصدارة . وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين ، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى ، والمؤسس على اشتراك جميع الرعايا فى شؤون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ؛ ونُظّم للدولة مجلسان : مجلس ينتخب من الأهالى ويسمى مجلس المبعوثان ، ومجلس تعين الدولة أعضاءه ، ويسمى مجلس الأعيان . وتلى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالأستانة فى محفل عام (١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) ، وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية ، واستبشر الناس خيرا ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح . وكان يتضمن

هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم والديوان العالى والمالية الخ ، وكل الدلائل تبشر بالخير . هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزارة . وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مدين لها بجلوسه على العرش ، مدحت يؤيده ، وهو يؤيد مدحت ، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطى ، فماذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير ! !

هكذا قال الناس ، وهكذا قال مدحت .

لقد أخطأ إذ بالغ فى التفاؤل أكثر مما يلزم ، وكذلك أكثر عظماء الرجال تسحرهم الفكرة ، ويلعب بلبهم المبدأ فلا يرون منه إلا النواحى البراقة ، كالفنان يرى فى شجرة الوردة أزهارها ولا يرى أشواكها . استخف بقوة الرجعيين ، ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم ، واقتنع بالبسمة على وجوههم ، ولم ينفذ منها إلى الغيل فى أعماق صدورهم ، ولم يقدر قوة العدو العنيد الذى كان يخشى من الظلم وسيفتقر بالعدل ؛ والذى كان يجرى من كلمة ملق أو تسويد سطر بوشاية فأصبح خائفا من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله من جاهه ؛ والذين يشترون أنفسهم بالحظ لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئا ببذل الجهد .

وشىء آخر هام فاته ، وهو أن من عاش طويلا فى ظل العبودية لا يتعلم سريعا مزايا الحرية ، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطية لاقت الأهوال قبل أن تعتدل ، وتأرجحت كثيرا قبل أن تتوسط ، والذى نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع ، فقضت مدة التجربة وهى آمنة مطمئنة ؛ أما هذه الدولة فلا ينتظر مدة تجربتها أحد ، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح ، وإذا أخطأت لم يقولوا إنه عرض مفارق بل قالوا طبع ملازم .

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتط بعض أعضائه فى القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناهم عنها ، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها نائب

فيها لا غير وليس نائبا عن الأمة ، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة ، ولو كانت لا تتفق ومصلحة الدولة من حيث هي كل ؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما ينوء بفتحه بله قراءته : هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله ، وهذا يلتمس رتبة ونيشانا ، وهذا راغب في وظيفة ، وهذا راغب في ترقية ، حتى بلغ الحال أن مكاريا سرقت دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه .

وربما كان هذا طبيعيا والنظام جديد ، والجهل عتيد ، ولابد من فترة تمر يفهم فيها أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وأن مبعوث الولاية نائب الأمة أولا وولايته ثانيا ، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه مقدرة على نفع أمتهم ؛ ولكن أنى لهم بمن يصبر على سخافتهم ، ويفسح الصدر لمرائهم ، والأعداء كثيرون في الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد ؟!

وزاد الأمر سوءا أن الروسيا إذ ذاك لم يرضها هذا الحال ، فاحتجت على ذلك وتأخرت في الاعتراف بالنظام الجديد ، ولعبت بالبلقان لحركته ، وثارت الثورات في أنحائه ، فثورة في الصرب ، وثورة في الجبل الأسود والبوسنة والهرسك ، والحروب قائمة ، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الدول ، وانتصارات عدوها يفيده . والدولة فقيرة في المال بما أسرف عبد العزيز ، وفقيرة في رؤساء القواد فقد قتل حسين عوني باشا وغيره معه بيد أثيمة ، وروسيا تريد فصل البلقان عن الدولة ، ولكل دولة مطامع ؛ ومدحت يتحمل كل هذه الأعباء الداخلية والخارجية في صبر عجيب ، فنهاره في تنظيم الشؤون الداخلية ، وليله في المشاكل الخارجية ، وفي ذلك يقول : « تحملت من المتاعب من يوم جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية ، وكنت أقول ليست هذه الحياة لي بل للأمة ، وقد وقع الوطن في مصائب داخلية وخارجية ؛ فواجب أن أسعى في تخليصه من مخالبها » .

وفيما هو كذلك سلّم إليه أحد رجال المابين خطابا ففتحه وقرأه ، فإذا فيه عزله وإبعاده إلى خارج الدولة فورا من غير أن يعرّج على أهله ، وذلك بعد شهرين من صدارته . فألح مدحت على رجل المابين أن يراجع السلطان في بيان السبب ؛ فعاد وقال إن السلطان يقول إن المادة ١١٣ من الدستور تخول السلطان حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم ، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان تقريرين وقع عليهما وهما هذان . ففتح مدحت أحدهما فإذا فيه : « أن جاسوساً سمع ضابطا يقول لصاحبه في إحدى القهاوي إن مدحت سيكون رئيس جمهورية » فاكتفى مدحت بهذا ولم يفتح الثاني ، وقال : « إن بلادي التعيسة كمريض حضره نُطُس الأطباء ، وعالجوه حتى كاد يبلّ من مرضه ، فاندس عدوّ له فسقاه سما قضى على حياته » وصدع بالأمر وركب الباخرة « عز الدين » توّاً من غير أن يرى أهله .

وخاف السلطان من الرأي العام ، فطلعت الجرائد ومن ضمنها « الجوائب » ترمي مدحت بأفظع التهم ، هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيانته ، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية ، وهذه تقول إنه قد أوقع الدولة في مشاكل خطيرة ؛ وأدى الشعر رسالته ، وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة ، وأظهر كثير من المعممين ابتهاجهم وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية — والذي يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان . وسكت الناس بين الدهشة والعجب ، والشك واليقين ؛ وشُرّد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولمبادئه . ووسط هذه البلبلة الفكرية صدر الأمر الشاهاني بتعطيل الدستور تعطيلا مؤقتاً ، ولكن ألا تعرف — أيها القارىء الكريم — مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة !!

لم يكن الرأي العام حذراً فحُذّر ، ولا عاقلا فخُدع ، ولا قوياً فامتهن .

أحمد أمين

مطالعات أشتات :

بائع الصحف الأصم

الذي أعطاني وأعطاك النور

للدكتور أحمد زكي بك

قام القطار من بلدة بُرْت هيرون Port Heron ، وسار يقطع الطريق منها إلى بلدة دِتْرُوا Detroit . وكلتا البلدتين بالولايات المتحدة عند الحدود الكندية . حتى إذا بلغ القطار منعطفاً لم يُحسن الرجال إصلاحه ، ارتجّ ، فارتجت بارتجاجه عربةٌ في القطار . ولم يمض على ارتجاج هذه العربة زمنٌ طويل حتى اندلع اللهب فيها . فجرى إليها الحارس ومن معه ، وبعد جهد أطفأوا فيها النيران . ثم وقعت عين الحارس بين الجمع على غلام في الخامسة عشرة من عمره ، فصكّ أذنه صكّةً أعقبته صمماً لم يفارقه حتى عامه الرابع والثمانين .

كان هذا الغلام صاحب عود الفسفور الذي انكفأت زجاجته بارتجاج العربة ، فلم يكد هذا العود أن يتحرر من زجاجته ومن مائها ، فيتعرض للهواء ، حتى دخِن فاحترّ ، فاشتعل ، فالتهب وألهب مما حوله كل ما يصلح طعاماً للنار .

وكيف تأتّى لهذا الصبيّ أن يكون صاحب هذا العود ؟

تأتّى له ذلك بأنه كان يبيع الجرائد والمجلات على القطارات بين هاتين البلدتين . وكان له ذلك بتصريح رسمي ، طلبه ، وأُعطيَ إياه ، وهو في الثانية عشرة من عمره . وإذنْ فقد أعطوه مكاناً في القطار ، في عربة الحارس يضع فيه أحماله من تلك الصُّحُف والكتب . فلما استقر في صناعته هذه ، شاقه ما كان شاق به بيت والده من قبل وضاق به جيبه : معملٌ يجمع به الزجاجات ، ويضع فيه الكيماويات ، ويرسم على بطاقاتها الجماجم والعظام المتصالبة ، ويرسمها بالحق وبالباطل ، ترهيباً وإنذاراً حتى لا تمسها يدٌ دخيلة عابثة . شاقه هذا المعمل المنزليّ القديم ، فأراد أن يؤلفه من جديد في ركن من أركان تلك العربة ، حيث يضع ما يبيع من كتب ، وما يبيع من صحف . حتى إذا وقع هذا الحريق ، كان وقوعه سبباً في اختفاء هذا المعمل المتنقّل وانتهائه ، وانتهت به غبطةٌ كان يجدها هذا اليافع حتى في محض تقليبه ما فيه وترتيبه .

كان هذا الغلام بائع صحف . ولكنّ بيع الصحف لا يستغرق كل وقته . ففي القطار فراغ . وفيما بين القُطُر ، غاديها ورائحها ، فراغ كذلك . وفي مدينة دِتْرُوا ، حيث ينتهي مطافه رسمياً ، مكتبةٌ عامةٌ بالكتب عامرة . وإذنْ راح هذا الصبي إلى هذه الكتب يقرأ فيها في نهم واستيعاب . وخطر في باله أنه إنما يبيع الصحف التي يكتبها غيره ، وذكر المثل الذي يقول ابدأ بنفسك ، فخال أن يكتب هو صحيفة أسبوعية يبيعها . وماذا يكتب فيها ؟ يكتب ما يسمع من أهل هذه النواحي من أخبار . ولمن يبيعها ؟ لركّاب هذه القُطُر وما تقف عليه من بلدان صغيرة ، يحب لا شك أهلوها أن يسمعوا عن أنفسهم وعن جيرانهم كل شائعة شائقة ونادرة . وأين طبعها ومن طبعها ؟ طبعها هو نفسه في ذلك المكان من العربة التي اختصوه ببعضها ليحمل فيه بضاعته .

وقد تحسب أنه لا بدّ درس دراسة شديدة متواصلة في خير مدرسة حتى يستطيع أن تنكشف رغائبه عن حب معمل ، أو تمرُّن يده على كتابة صحيفة . فاعلمْ أننا نتحدث عن غلام بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ولا يمكن أن يكون اتسع عمره لذلك . واعلمْ أيضاً أنه لم يذهب قبل ذلك إلى مدرسة ، غير ثلاثة أشهر ، ضجّ مُدرِّسه في نهايتها من قصور عقله ، أو ما حسبه فيه قصوراً ، فصاح

به « يا قاصر العقل » . فمرّ هذا النداء على أمه ، وخشيت عاقبته على ابنها وحبيبها ، فحجزته في البيت تعلمه هي الكتابة والقراءة . وكانت مدرّسة من قبل . فعلّمته الخط ، فكان خطا جميلا . وعلّمته القراءة ، وعلّمته كيف يقرأ الكتب وحده ، وكيف يستخلص منها بنفسه أنفع ما يمكن استخلاصه . حتى لقال بعضهم إن تلك السّبّة الأولى التي سبّها إياه مدرّسه الأول ، والأخير ، كانت عليه نعمة وبركة ، وأنه لولا أن أخرجته هذه الشائنة من هذه المدرسة ، لبقي فيها ، فانطبع في ذلك القالب الذي ينطبع فيه كل تلميذ ، ولكان كبعض تلك الأشياء التي تخرجها المصانع بالآلاف ، فلا يتميز فيها قميص عن قميص أو حذاء عن حذاء .

إن المصادفات تلعب الألعاب ، والألاعيب ، في حياة الرجال . وما أكثر ما لعبت في حياة هذا الطفل . فالسبّة الأولى التي سبّها الأستاذ إياه مصادفة أولى . وأن كانت له تلك الأم المدرّسة الحنون العاقلة مصادفة ثانية . ثم مصادفة ثالثة فتحت له الباب يقينا إلى تلك الحياة التي تقاضت من سجل التاريخ صفحات ليست بالقليلة عداً ، ولا بالقليلة خطرا : تلك أنه كان يوما في إحدى المحطات ، في تطوافه يبيع الصحف ، فلفتته عربةٌ انفصلت عن قطارها وجرت تهوى إلى حيث كان طفل يلعب . فما أدرك غلامنا ما رأى حتى أعطى للريح ساقيه ، واختطف الطفل ، ونجا به وبنفسه في آخر ثانية . وكان أبو الطفل تلغرافيا ، فأثّر في نفسه ما صنع الغلام ، فعرض عليه أن يعلمه فنّه ، فرضي ، وترك عملا فيه رزق غير قليل ، إلى دراسة لا رزق فيها ، ولكن فيها اشتهاؤه ، وفيها اشتفاء نفسه من علم تلك الأسرار التي أخذت تناوشه محبّباً لها في ذلك السن الباكر .

كان هذا عام ١٨٦٢ . وكان الغلام في الخامسة عشرة من عمره .

ومرّ عام لحذق الغلام فنّه الجديد . ومن هذا العام تقلّب في وظائف التلغراف ، وتنقّل في المدن . ولم يشغله فنّه الآلي عن استطلاع ما خفي وراءه . فظلّ يدرس ، وظل يجرّب وينقّب . حدث مرّة أنه كان في بلدة عند الحدود . فكانت ترسل له المحطة التي في الجانب الآخر رسالة تلغرافية كل ساعة ، نقطا ممدودة ليرد عليها بنقط مثلها ، دليلا على أنه صاحٍ يقظان . وكان من كثرة عمله التجريبي غير الرسمي ، يأخذه النوم . فخشية أن يكتشف أمره ابتدع عجلة ذات أسنان ، ربطها بساعة ، وربطهما كليهما بآلة الإرسال . فكانت كلما دقّت دقات الربعة في مكتبه أجابتها تلك العجلة بما طيّب خاطر الرئيس . ولكن حدث أن دقوا الدقات في غير تمام الساعات فلم يأتهم عنها الجواب . فخيلهم ذلك حينا . ولكن صاحبنا اكتُشف أمره أخيرا فافتضح افتضاحةً لا شك كانت حلوة .

ومما ابتدعه في تلك الحِقبة حِبَلٌ كهربائية تقتل ما في مكتبه من صراصير وفئران .

وأراد أن ينفع الساسة بعلمه ، فما كان أخيبه . لقد فاته أن يتعلم أن السياسة والعلم لا يمتزجان ، في زمنه ذاك وفي كل الأزمان . فاته ذلك في سن الحادية والعشرين ، وهي سن غريرة أمّالة . وقصة ذلك أنه حضر مجلس النواب ، ورأى كيف يضيّع النوّاب كثيرا من الوقت في التصويت فرداً فرداً . فابتدع بدعة تسجل الأصوات فتوفر هذا الوقت الضائع . وتجرأ وذهب بها إلى رجل السلطة في البرلمان ، فاستمع له الرجل الكريم ، ثم ابتسم ، ثم قال : يا عزيزي الفتى الظريف ، إذا استطعت أن تبتدع لنا بدعةً تطيل لنا وقت التصويت فوق ما هو طائل ، فافعل . إن الزمن ليس هنا من مكاسبنا ، ولكن من مكاسبنا أن نعرقل تشاريع إذا هي فاتت سريعاً ضرّت بنا ضرراً بليغاً .

وبلغ الثانية والعشرين ، فاعـتزم أن يودّع منصب التلغراف ، وأن ينصّب نفسه في السوق « مهندساً ميكانيكياً كهربائياً » . ورحل إلى نيويورك فارغ الجيب . ولكنه ما لبث أن شق طريقه ، فلم يمض سنتان حتى كانت له ورشة ، وله رجال يصنعون شتى الأشياء من كهربائية وميكانيكية مما يخال هو ويبتدع . وكان أحسن ما ابتدع في هـذه الفترة التلغراف الرباعيّ . وتفسيره أنه تلغراف ذو سلك واحد ، ولكن عليه تُرسَل أربع إشارات مختلفة في وقت واحد . وأراد أن يبيعه لشركة . فاشترط عليه رئيس كهربائيها أنه لن ينصح الشركة بالشراء حتى يكون اسمه إلى جانب اسمه شريكين في اختراعه . فقبل صاحبنـا أن يبيع من نفسه بالكذب . قال في ذلك : « لقد كنت أحوج إلى المال مني إلى المجد ، وكان الرجل على ما أظن أحوج إلى المجد منه إلى المال ، فتوافقنا » .

وترك الأشياء التلغرافية ، وانصرف إلى الأجهزة التلفونية . وكان « جراهام بيل » Graham Bell ابتدع التلفون ، إلا أنه كان تلفوناً ضعيفاً يعتمد في الأغلب على المغنطيسية في حمل آثار الصوت ، لهذا كان مداه قصيراً . فعمد صاحبنا إلى دراسته ، فأدخل فيه الكهربة أساساً لنقل الصوت ، ووضع وراء القرص من السماعة حبات من فحم تنضغط تارة ، وتتخلخل تارة ، كلما تذبذب القرص مناغمةً للصوت ، فتُضعِف تيار الكهرباء فيها وتزيد ، وينتقل كل هذا إلى مسافات لا يَحُدّ من مداها إلا قوة التيار . وبهذا ، وبأشياء أخرى ابتدعها فيه ، أمكن التلفونَ أن يكون له شأن شامل في حياة الناس .

كان هذا أول عمل ذي خطر تألّق به نجم إدِسُن ، وأخذ يشتهر به معمله في « مينلو بارك » .

ثم إنه إدِسُنْ هذا الذي نترجم له ــ توماس إدسن Thomas Edeson ــ فريسْمدْ بعد الذي قلناه فيه من خفاء .

ثم هو هو بائع الصحف الأصم ، الذي لم يتثقف في مدرسة ، وإنما استقى درّ التعلّم من ثدى أمه أولا ، ثم من أثداء الحياة ، واستقاه منها حلواً مرّة ، ومُرّاً مِراراً .

وانصرف بعد التلفون إلى الصوت يدرس أمواجه ويبتدع الأجهزة لتحليلها . حتى جاء يوم أتم فيه هو ورجاله صنع جهاز غريب ، غنّى في بوق فيه وهو يدور أغنيةً للأطفال شهيرة — « كان لمريم خروف صغير » — ثم سكت المغنّى وأسكت الجهاز ، ثم أداره ، فإذا بهذا الجهاز ، وهو من معدن أصمّ ، يغنّي : « كان لمريم خروف صغير » . بُهِت رجال إدسن ، وبُهت معهم العالم . فقد كان هذا أول حاكٍ لصوت إنسان . وأسماه فونوغرافا ، وأسميناه هكذا من ورائه .

ثم اتّجه هذا الرجل القُلّب إلى الضوء والإضاءة . وكان أقصى ما وصلت إليه الإضاءة بالكهرباء مصباحَ القوس : عودان من الفحم يتقارب طرفاهما ولا يتماسان ، تجرى الكهربة عبرا بينهما ، وتحمل معها من أحد الطرفين جُسيمات الفحم حارةً متقدة ، فينبعث باتقادها الضياء . وهو ضياء يُعشي العين . وله في الأذن طنين . وهو مما لا تستطيع أن تأخذه رشفاً ، ولكن عبّا وزعقاً . قال إدسن : إن كان هذا الضوء من جسيمات فحم تحترّ فتضيء ، فلِمَ لا تجرى الكهرباء في خيط من الفحم رفيع متصل ، فيحترّ هو كذلك ، ويتوهّج . ولكن الفحم يحترق في الهواء . وإذن يوضع خيط الفحم في وعاء من زجاج يُفرّغ منه الهواء . وصنع الخيط أولا من خيط قطن فحّمه . وبعد جهاد طويل ، وبعد نفقة بلغت أربعين ألف ريال ، أخرج إدسن في معمله الشهير — معمل منلو بارك — أول مصباح كهربائي ، كهذا الذي أكتب المشية في ضيائه . وأضاء هذا المصباح أربعين ساعة .

كان اختراعا وليدا لابد من تغذيته وتنشئته وتربيته ،

الآثار المصرية القديمة

لم لا تطالب مصر ألمانيا وإيطاليا واليابان — بعد ما تضع الحرب أوزارها — برد جميع الآثار المصرية القديمة الموجودة فى متحف برلين ، وفى متاحف سائر المدن الألمانية ؟ وفى متحف روما وفى متاحف سائر المدن الإيطاليّة ؟ وفى متحف طوكيو وفى متاحف سائر المدن اليابانية ، جزاء وفاقا لما أصابنا من أضرار جسام فى النفس وفى المال ونحن آمنون مطمئنون فى بلادنا لم نعتد على أحد ولم نتحرّش بأحد ؟ ولا سيّما أن معظم هذه الآثار تسرّبت إلى أوروبا وغير أوروبا من غير الطريق الحلال . إذا ردّت بضاعتنا إلينا يصبح المتحف المصرى أعظم متحف للآثار المصريّة فى العالم كلّه .

فى متاحف ألمانيا وإيطاليا واليابان آثار مصرية ذات قيمة فنيّة وتاريخية عظيمة جداً ، منها مسلاّت ومصاطب ، ومومياءات ونواويس وتوابيت وجعارين وأحجار كريمة — من ذهب وفضّة وزبرجد — ومجوهرات ومصوغات وعملة ذهبية وفضيّة ، وأقمشة وأوراق بردى ، ومخطوطات ولوحات أثرية قديمة عليها نقوش هيروغليفيّة وإغريقيّة ورومانية وعربيّة ، تحدثك عن درجة مابلغه قدماء المصريين فى العلوم والفنون : فى الطب والجراحة والتشريح والتحنيط والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والفقه (حتى الوقف عرفوه) والفلسفة والأدب والموسيقى والشعر والأغانى والرّقص والرىّ والتجارة والزراعة والملاحة والنقش والنحت والخراطة والرسم والتصوير والغزل والنسيج وصناعة الأبسطة والصياغة والصباغة وصناعة الزجاج والورق والخزف والمهار والروائح العطريّة والحناء والكحل والنبات واستخراج المعادن والأحجار الكريمة . وقد بلغت درجة الرقّ عند قدماء المصريين أنه

فقام إدسن ورجاله على كل هـذا . وكان وراء المصباح مصادر الكهرباء ، وشبكات التوزيع ، والمحابس والمفاتيح ، ومئاتٌ من كل هذه الأشياء التى تبدو لنا اليوم لأُلفتنا إياها حقيرة ! ولكن كان لابد عند ذاك من خلقها ، والخلق صعب المِراس . حتى كان عام ١٨٨٢ — أى منذ ستين عاما — أنشأت « شركة إدسون » أول محطة للإضاءة بالكهرباء عرفها الخلق . أنشأتها فى لندن . ولمن يعرف لندن أقول إنها أنشأتها عند نهاية ذاك الشارع الطويل ، شارع هُوبُن Holborn ، أو على الأصح عند الـViaduct . وأنشأتها لتغذى ثلاثة آلاف مصباح . ولم يمض عام حتى أُنشئ مثلها فى مدينة نيويورك ، ثم تتابعت الإنشاءات فى المدن حتى لم تبق مدينة ذاتُ خطر لم يصلها من ضوء هذا الرجل ضياء .

ليس فى الورق متسع للحديث عما صنع هذا الرجل الضخم للدنيا ، ولا عن تلك الكثرة الكبيرة من مبتدعاته ومخترعاته ، فالذى سجّل منها بلغ الألف وزاد . ولكثرة ما ابتدع كان الجمهور يكاد ينتظر منه ابتداعة كل يوم ، وحاطه رجال الصحف كل حين يستخبرون . وجاءه يوما محققٌ شاب مستخبرا ، فلما لم يفز منه بطائل ، ورأى أنه راجع بالخُفّين التقليديّين — خفّىْ حنين — ابتدع هو عن هذا الرجل العظيم خبرا نشره فى صحيفته فاهتزّ له الناس : أن أدسون اخترع قميصا لايحتاج للغسل أبدا . فهو مكوّن من ٣٦٥ طبقة رقيقة ، فما على لابسه إلا أن ينزع منه الطبقة التى تمسّ جسمه كلما اتسخت .

وبلغ الرجل السبعين فالثمانين ، وهو دائبٌ يعمل . واعتلّت صحّـته بغتة عام ١٩٢٩ . ومات فى أول أغسطس عام ١٩٣١ .

أحمد زكى

كان لكل فرع من كل فن ومن كل علم إخصائيون ، فالطب مثلا كان له أطباء إخصائيون في طب الركبة .

نجد في متاحف روما وتورينو ونابولي وبولونيا وفلورنسا وبالرمو ومسينا ، وفي متاحف المدن الإيطالية الأخرى مثل كورتونا وفرارا ورافنا وأستي ومورانو وكورشلو وروفيجو وبجيو وسوربنتو آثارا مصرية قديمة من أيام الفراعنة ومن أيام البطالسة ومن أيام الرومان ومن عهد الإغريق ومن زمن العرب . ونجد في مدينة باري مخطوطات عربية في غاية الأهمية التاريخية والفنية . ونجد في مدينة سالرنو لوحتين مصريتين قديمتين من الجرانيت ذات قيمة فنية تاريخية كبيرة .

في متحف تورينو تمثال لرمسيس الثاني وزوجته نفرتاري ذو أهمية تاريخية كبيرة ؛ وفيه أيضا مجموعة آثار مصرية قديمة نفيسة جدا جمعها مسيو دروفيتي السياسي الإيطالي المعروف ، الذي عينه نابليون قنصلا جنرالا لفرنسا في الإسكندرية في عهد محمد علي باشا الكبير ، فجمع في مدة وجوده في مصر مجموعة عظيمة باع بعضها إلى ملك إيطاليا وهي الآن زين متحف تورينو في إيطاليا ، وباع باقيها إلى ألمانيا ؛ ويوجد فيه جزء من مجموعة بلزوني ، وجزء من مجموعة لازوني ، ومجموعة ماسار . كما يوجد فيه أيضا بردي كتب في عهد رمسيس الثاني حصل مشتراه من بعض أهالي مدينة الأقصر في سنة ١٨١٨ ، مكتوب عليه جدول بأسماء ملوك مصر ؛ ويمتاز جدول هذا البردي على سائر الجداول المعروفة بأنه يبين مدة حكم كل ملك بالسنين والشهور والأيام .

وقد أصدر الملك فيكتور إمانويل الثالث ملك إيطاليا أمرا بتأليف بعثة للتنقيب عن الآثار المصرية تحت رئاسة السنيور أرنستو شياباريللي أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، فحضرت البعثة إلى مصر وبقيت دائبة على أعمال الحفر والتنقيب عشر سنوات (من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩١٣) فيها قامت بأعمال الحفر والتنقيب في مقابر الملوك ، فعثرت على قبر بديع الملكة نيفرتي زوجة رمسيس الثاني ؛ كما عثرت على آثار كثيرة في دير المدينة منها مقابر خاي وماي . ثم انتقلت إلى المنطقة المحيطة بأهرامات الجيزة ومدافن الأشمونيين وأسيوط وأسوان والجبلين والحماميد وقاو وهليوبوليس ، جمعت منها آثارا كثيرة تسرب جزء عظيم منها إلى إيطاليا . وفي متحف تورينو كذلك مجموعة من أوراق البردي ، وهي من الآثار التي جمعها مسيو دروفيتي من مدينة الأقصر ، واشتراها منه ملك إيطاليا كارلو إمانويل الثالث في سنة ١٨٤٤ . كما أن فيه أيضا مجموعة الدكتور دوناتي العالم الأثري الإيطالي المشهور .

وفي متحف نابولي آثار مصرية قديمة منها كتاب الموتى من عهد الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة . كما توجد فيه مجموعة آثار متحف بورجيا .

وتوجد في متاحف ميلانو وبولونيا وفلورنسا أقسام مخصصة لآلهة قدماء المصريين ، وأقسام للمومياء ، وأقسام للآثار الإغريقية ، وأقسام للنقوشات والكتابات المصرية القديمة ، وأقسام للفن الإغريقي الإسكندري ، وأقسام للمقابر ، وأقسام لمركبات الفراعنة ومنها المركبة التي عثر عليها روزليني في الأقصر ، وهذا علاوة على الأقمشة والأسلحة وأدوات الموسيقى والزينة والزخرف . وفيها توجد أيضا النقوش البارزة التي انتزعت من مقبرة سيتوزيس الأول بمقابر الملوك بالأقصر . كما توجد فيه كتابات من عهد سانوزيت الأول فرعون مصر نقلت من معبد بوهن . وفي متحف مدينة البندقية وفي متحف مدينة سان جان دي لاران آثار مصرية قيمة جدا .

وفي روما مسلات مصرية كثيرة منها : مسلة قائمة في ميدان الأمة ، ومسلة منصوبة في ميدان ماري بطرس ، وثالثة في سان جان دي لاران ، ورابعة أمام القصر الملكي ، وخامسة في مونتي شيتوريو ، وسادسة في سراي بربيني ،

وسابعة في ميدان فونتانا دي فيوي ، وثامنة في فيللا ماتي يرجع تاريخ صنعها إلى عهد رمسيس الثاني ، وتاسعة في ميدان سانت ماريا جيوري ، وعاشرة في ميدان مينيرفا ، وهي مسلة صنعت في عهد أحد ملوك الأسرة الثالثة والعشرين وقد نقلت من مصر إلى إيطاليا في عهد الرومان وكانت تزين معبد إيزيس وسيرابيس ، والحادية عشرة منصوبة في ميدان نافونا ، والثانية عشر في مونتي كافالو . وتوجد مسلة في كاتانيا (جزيرة سيسليا) وأخرى في بلدة بنيفنتو ؛ ومسلتان أخريان في القسم المصري من متحف فلورنسا وهما من عهد رمسيس الثاني ، حتى إن أحد أهالي فلورنسا واسمه بوبولي زين جنينة بيته بآثار مصرية ، منها مسلة من عهد رمسيس الثاني كانت منصوبة في هليوبوليس ونقلت إلى إيطاليا في عهد الإمبراطور الروماني كلوديوس .

ولما زار الأرشيدوق مكسيمليان النمساوي (وهو الذي نصبوه إمبراطورا على بلاد المكسيك وأعدمه الثوار رمياً بالرصاص) القطر المصري في سنة ١٨٥٥ أخذ مجاناً لوجه الله جميع الآثار التي تشتهيها نفسه ، واستولى على طائفة كبيرة من أنفس الآثار نقلها إلى قصره « ميرامار » على مقربة من تريستا ، وهي الآن تزين متحف فينا (عاصمة النمسا) .

وجمع مستر هرر قنصل جنرال دولة النمسا مجموعة من الآثار المصرية ونقلها إلى بلاده .

وفي متحف أجرام (بالنمسا) توجد آثار مصرية ، كما توجد في متحف فينا أوراق بردي كثيرة .

وفي متحف برلين توجد رأس الملكة نيفرتيتي زوجة الملك أخناتون ، وهي آية من الآيات ، ويعدها هواة الآثار من أجل الآثار المصرية القديمة . كما توجد فيه بعض (الألواح المسمارية) المعروفة باسم « رسائل تل العمارنة » وهي رسائل تبادلها فرعون مصر أمينوفيس الثالث مع ملوك سوريا في القرن الرابع عشر قبل ميلاد المسيح ؛ كما توجد فيه لوحة أثرية مصرية عثروا عليها في أخميم صنعها نحت مين أول بني للإله تير إله فقط . وفيه أيضاً بردي فيه مرسومان من عهد الإمبراطور تير الروماني ، وبردي مشهور باسم « ريلانس » . كما توجد فيه مسلة معروفة باسم لبسيوس ، وهي من أقدم المسلات المصرية عثر عليها في سنة ١٨٤٠ بالقرب من مدفن بجوار أهرام الجيزة .

ولما تولى مجمع العلوم في برلين أعمال التنقيب في منطقة أبي صير عثر في خلال سنة ١٩٠٠ على ملف من البردي مكتوب عليه ٤٠٠ بيت شعر من نظم تيموتين أعظم شعراء اليونان ، نقل خفية إلى متحف برلين .

وجمع فون ترافورس قنصل جنرال ألمانيا مجموعة من الآثار المصرية نقلها إلى ألمانيا . وروت إحدى السائحات السيدة لي شايلد بأن تادرس افندى قنصل ألمانيا في الأقصر كان يتجر بالآثار المصرية فجمع موميات ومخطوطات ومجوهرات وتماثيل وجعارين وباعها إلى السياح الألمان فنقلوها إلى ألمانيا . ومسيو روكش قنصل روسيا في مصر جمع مجموعة أيضاً أرسلها إلى ألمانيا .

وفي ألمانيا أنشأ الملك فردريك غليوم الثالث قسم التحف المصري بشراء مجموعات الآثار المصرية التي كان جمعها مينوتولي وباسالاكو ودروفيتي وسلوتيه ، وأهمها مجموعة باسالاكو التي اشتراها الملك في سنة ١٨٢٨ وتحوي آثاراً مصرية قيمة جداً .

ولما استوى من بعده الملك فردريك غليوم الرابع أرسل إلى مصر (سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٦) بعثة لتقوم بأعمال الحفر والتنقيب في مصر وفي بلاد النوبة ، تحت رئاسة ريشارلبسيوس ، فجمعت البعثة آثاراً مصرية قديمة كثيرة جداً نقلتها إلى متحف برلين ، منها آثار نادرة يرجع عهدها إلى زمن الدولة القديمة ، ومنها آثار تاريخية من بلاد النوبة . وفي سنة ١٨٤٨ اجتمع لتحف برلين نواة فأنشأوا متحفاً خاصاً بالآثار المصرية ضموا إليه الآثار المصرية التي جمعها ترافورس قنصل ألمانيا الجنرال والدكتور ريتهاردت

والأستاذ بورهاردت وغيرهم . ثم زاد المتحف بالآثار التي أهداها إليه الدكتور جيمس سيمون ، والمستشار يوليوس أزاك ، والأستاذ رودلف مرص ، والأستاذ شوانيفورت ، والأستاذ ليفنزو من إمارة لوبك ، ومن جمعية التنقيب المصرية الإنجليزية ؛ ومن الأستاذ فلندرس بيترى ، والأستاذ مارتين كنارد . وبعض آثارجات المتحف من قبيل الوصايا مثل وصية الأستاذ سبرنجر والدكتور دايل .

وبقيت آثار المتحف تزداد سنة بعد سنة إلى أن تولت الجمعية الألمانية الشرقية أعمال الحفر والتنقيب فأهدت إليه آثاراً كثيرة جداً ، منها آثار جمعتها من منطقة أبي صير .

ونجد آثاراً قيمة أيضاً في متحف مدينة درسدن (بألمانيا) ، وفي متحف مدينة ميونيخ (بألمانيا) ، وفي متحف مدينة كارلسروه (بألمانيا) ، وفي متحف مدينة فرانكفور (بألمانيا) .

وكانت الحكومة الإيطالية والحكومة الألمانية والحكومة النمساوية ترسل بعثات إلى مصر لعمل حفريات فيها واستخراج ما في بطن أرض مصر من تحف وآثار ، وبعد العثور عليها تتسرب إلى إيطاليا وألمانيا والنمسا ؛ كما أن بعض الجامعات الإيطالية والألمانية والنمساوية كانت ترسل بعثات على نفقتها الخاصة لعمل حفريات ، مثل معهد العلوم ببرلين ، وكلية لايبسك (بألمانيا) ، وكلية كوتنجن (بألمانيا) ومجمع العلوم بفيينا (النمسا) ، وجمعية البردي (بإيطاليا) . كما أن بعض المتاحف مثل متحف بالك (المجر) أرسل بعثة لعمل حفريات في مصر ، وما عثر عليه نقله إلى متحف بودابست (عاصمة المجر) .

لم أعثر على إحصائية بعدد الآثار المصرية الموجودة في إيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر واليابان . في المتحف البريطاني بلندرة يوجد ٦٠٫٠٠٠ أثر (حسب إحصائية سنة ١٩٣٠) عدا ما هو موجود في المتاحف الخصوصية التي كان علكها كبار أعيان الإنجليز . وفي متحف اللوفر بباريس أكثر منها ، وربما وصل عدد الآثار الموجودة في فرنسا مائة ألف . وفي المتاحف الملكية ببروكسل (بلجيكا) يوجد ٦٦٣٠ أثرا ، إذا أضيفت إلى الآثار الموجودة في المتاحف البلجيكية الأخرى بلغ عددها ١٠٫٠٠٠ . والذي أرجحه أن عدد الآثار الموجودة في متاحف إيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر يزيد على ٨٠٫٠٠٠ أثر قيمتها في كيفها لا في كمها . في كل أثر من هذه الآثار صفحة من تاريخ مصر القديم ، ومجموع هذه الآثار يؤلف أكبر موسوعة لتاريخ مصر القديم . فلم لا ننتهز فرصة انتهاء هذه الحرب وانهزام ألمانيا وإيطاليا واليابان ونطالبهم برد الآثار المصرية القديمة وهي جزء من تراثنا وجزء من تاريخنا ، كما انتهزنا فرصة انكسارهم في سنة ١٩١٨ وحصلنا على إلغاء الامتيازات الأجنبية .

هذا نداء أوجهه إلى أولي الأمر منا . وفقنا الله لما فيه خير مصر والمصريين .

عزيز خانكي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

* * *

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥	في مصر والسودان
	٣٧/٥	لطلبة ومعلمي الإلزام
	٦٠	في البلاد الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	في البلاد الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

صفحات مطوية من التاريخ الإسلامي :

٢ - البلغار المسلمون

ثم يقول ابن فضلان :

« وقد كان يخطب له قبل قدومنا اللهم أصلح الملك بلكوار ملك البلغار . فقلت له : إن الله هو الملك . ولا يجوز أن يخطب بهذا أحد ، سيما على المنابر . وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب : اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين . فقال كيف يجوز أن يقال ؟ فقلت يذكر اسمك واسم أبيك . قال : إن أبي كان كافراً ، وأنا أيضاً ما أحب أن يذكر اسمي إذا كان الذي سماني به كافراً . ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين ؟ فقلت جعفر . قال : فيجوز أن أتسمى باسمه ؟ قلت نعم ! فقال : قد جعلت اسمي جعفراً واسم أبي عبد الله . وتقدم إلى الخطيب بذلك ، فكان يخطب اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين » .

ومما ذكر ابن فضلان من المشاهد الطبيعية أنه رأى البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه : من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه ، وأن الشمس تطلع كأنها غمامة كبيرة فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وقال : إنهم يتبركون بعواء الكلب جداً ويعدونه بشرى بالخصب والسلامة .

وهذا خلاف ما رآه المصريون في عواء الكلب فهم يتشاءمون به . وزعم أنه رأى الحيات عندهم كثيرة حتى يلتف على الغصن من الشجر عشر منها وأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم .

ووصف شجراً هناك يشبه النخل يستخرجون من ساقه ماء حلوا يسكر إذا أكثر منه الشارب .

ثم قال : « وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الخيل ، على أن الحنطة والشعير كثير في بلادهم . وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق ، غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور . وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة . وليس عندهم شيء من الأدهان غير دهن السمك فإنهم يقيمونه مقام الزيت والشيرج . وكلهم يلبسون القلانس ، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه . فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت إبطه ، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رءوسهم . وقد ذكر بعض الأحوال الفلكية في تلك البلاد ، وكان هذا موضع العجب في البلاد الإسلامية الأخرى . قال :

ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتي لنتحدث ، فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء ، فإذا بالأذان فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر . فقلت المؤذن أي شيء أذنت ؟ قال الفجر . قلت فعشاء الأخيرة ؟ قال نصليها مع المغرب . قلت كالليل ؟ قال : كما ترى وقد كان أقصر من هذا ، وقد أخذ الآن في الطول . وذكر أنه منذ شهر ما نام الليل خوفاً من أن تفوته صلاة الصبح ، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ، ثم يصلي الغداة وما آن لها أن تنضج . ورأيت النهار عندهم طويلا جدا . فلما كانت الليلة الثانية جلست فلم أر فيها من الكواكب إلا عددا يسيرا ظننت أنها فوق الخمسة عشر كوكباً متفرقة ، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب البتة ، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم . والقمر إنما يطلع في أرجاء السماء ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر .

قال ابن فضلان : وعرفني أهل البلد أنه إذا كان

الشتاء عاد الليل فى طول النهار وعاد النهار فى قصر الليل ، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى نهر يقال له إتيل بيننا وبينه أقل من مسافة فرسخ وقت الفجر ، فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها .

— ٥ —

وقصر الليل إلى هذا الحد كان موضع اهتمام الجغرافيين والرحالين والفقهاء .

قال ابن بطوطة : وقد كنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين محلة السلطان (يعنى السلطان محمد أوزبك خان) مسيرة عشر ؛ فطلبت منه من يوصلنى إليها ، فبعث معى من أوصلنى إليها وردّنى إليه ، ووصلتها فى رمضان . فلما صلينا المغرب أفطرنا ، وأذّن بالعشاء فى أثناء إفطارنا ، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر إثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضا .

أقول فى هذا الكلام نظر . فبين غروب الشمس وطلوعها فى أكثر بلاد بلغار وقزان حين يبلغ الميل نهاية القِصَر ستّ ساعات ونصف . وقد ذكر هذا ابن فضل الله العمرى من قبل ، إذ روى عن الإربلى أن أقصر ليالى بلغار أربع ساعات ونصف . والمعروف أن بين الفجر والشروق فى تلك البلاد نحو ساعتين .

وأظن أن الأمر اشتبه على ابن فضلان وابن بطوطة وأمثالها ، لأن الشفق لا يغيب فيبق الضوء بعد غروب الشمس إلى أن تطلع ، فلا فرق بين شفق الغروب وشفق الطلوع ، فلا يجدّ وقت العشاء الذى حده الفقهاء بما بين غياب الشفق إلى الفجر . فإن صدق ما ذكره ابن فضلان وابن بطوطة فقد كان بين أذان الفجر الذى سمعا وبين طلوع الشمس نحو أربع ساعات أو خمس .

وإنما يصدق ما قالا فى بلاد أبعد من بلغار شمالا ، كما قال ابن فضلان فى رسالته : « وحدثنى الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم "ويسو" ، الليل عندهم أقلّ من ساعة » .

وقد ثار الجدل بين الفقهاء فى وجوب صلاة العشاء على أهل بلغار . وكان هذا الجدال سبب شهرة هذه البلاد فى الأقطار الإسلامية . روى صاحب القُنية فى فقه الحنفية أن شمس الأئمة الحلوانى سئل عن حكم صلاة العشاء فى بلاد يطلع فيها الفجر قبل غياب الشفق فى أقصر ليالى السنة ؛ فأفتى بوجوب الصلاة . ثم جاء الاستفتاء إلى سيف السنّة البقالى بخوارزم فأفتى بأن العشاء غير واجبة . فأرسل الحَلوانى إلى البقالى من سأله فى جامع خوارزم : ما تقول فيمن أسقط من الصلاة الخمس واحدة هل يكفر ؟ فلما سمع الشيخ السؤال عرف مقصود السائل فقال له : ما تقول فيمن قطعت يداه من المرفقين ، أو رجلاه من الكعبين ، كم فرض وضوئه ؟ فقال ثلاثة ، لفوات موضع الرابع . قال الشيخ كذلك الصلاة الخامسة . وبلغ الحلوانىّ جواب البقالى فاستحسنه . ووافقه على إسقاط صلاة العشاء فى تلك البلاد .

وقد ثار الجدل من بعدُ فى هذه المسألة ، واختلفت فيها الآراء ، وألّفت فيها كتب خاصة . وكان هذا الجدل فى هذه المسألة مرّة بهذه البلاد العجيبة ، بلاد بلغار ، فتردد ذكرها فى كتب الفقه والجغرافيا والرحلات ، حتى زار ابن بطوطة بلغار ليشهد قصر الليل بها كما سمع .

— ٦ —

وكانت بلغار بإسلامها متصلة بالبلاد الإسلامية تبادلها السِلَع وتتوسط بينها وبين أوروبا المسيحية فى تبادل التجارة . فكانت السلع الآتية من أقصى الشمال تبادَل بالسلع الآتية من الأقطار الإسلامية المختلفة . وقد عثر فى

اسكندناوة على سكة إسلامية ترجع إلى العصر العباسي ، وفي هذا دليل على بلوغ المعاملات الإسلامية هذا الصقع .

وكان أكثر ما يجلب من البلغار وبوساطتها ، الفراء الثمينة والجلود .

وكان أخذ أهل بلغار العلم والدين عن أقرب الأقطار الإسلامية إليهم ، بلاد ماوراء النهر .

وقد حفظ التاريخ أخبار طائفة من العلماء نشأتهم بلغار ، ولكنها لبعدها إلى الشمال وتطرفها لم تسجل أخبارها وأخبار أهلها كثيرا في كتب المؤلفين المسلمين ، وكانت بلاد ماوراء النهر أكثر اتصالا بهم لأنها أقرب إليهم .

وقد عرفت أخبار بعض العلماء الذين رحلوا إلى بلغار ، منهم أبو عبد الله الغرناطي صاحب تحفة الألباب ، وقد رويت عنه أخبار عن الباشقر والبلغار . وكتابه محفوظ في دور الكتب بالأستانة . وكانت وفاته حوالى سنة ٥٣٠ هـ .

ومنهم أبو حامد الأندلسي صاحب كتاب المُغرب في عجائب المخلوقات ؛ دخل بلغار سنة ٥٢٩ وصحب قاضيها يعقوب بن النعمان .

ومنهم ابن بطوطة ، وقد قدمنا ما قال عن رحلته إلى بلغار .

وممن حفظ التاريخ أسماءهم وطرفا من أخبارهم ، من علماء هذه البلاد ، يعقوب بن النعمان قاضي بلغار وقد ألف تاريخا لها ؛ ولكن تاريخه مفقود اليوم . وقد لقيه أبو عبد الله الغرناطي كما تقدم ، ونقل عنه أبو حامد الأندلسي وعدّه من أصحاب إمام الحرمين . توفي حوالى سنة ٥٥٠ هـ

ومنهم الشيخ سليمان بن داود السقسيني ؛ ألف كتابا في الوعظ بالفارسية سماه بهجة الأنوار ، ثم عرّبه وزاد عليه وسماه نزهة القلوب المراض .

ومنهم الشيخ برهان الدين البلغاري شارح فصول النسفي في علم الجدل .

— ٧ —

وهذه المملكة التي ابتدأ تاريخها الإسلامي في أوائل القرن الرابع الهجري استمرت بعد إسلامها أربعة قرون تدافع عن نفسها الأمم المجاورة لها ، والتتار القادمين من الشرق .

وقد خلف جعفرَ بن عبد الله أولَ الملوك المسلمين ابنُه أحمد ، ولعله الذي عناه المسعودي إذ قال عن الأمير جعفر إن ابنه حج ، وقدم بغداد وقوبل بالحفاوة . ثم خلف أحمد ابنه طالب ، وقد عثر على سكة ضربت باسمه في بلغار سنة ٣٣٨ . ثم توالى الأمراء على الملك . ووقعت واقعات بينهم وبين الروس وغيرهم من مجاوريهم إلى أن كانت غارات التتار الكبرى ، فسارت التتار المغرّبة غازين حتى بلغوا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ هـ . ويقول ابن الأثير : فلما سمع أهل بلغار بقربهم كمنوا لهم في عدة مواضع واستجرّوهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء ، فخرجوا عليهم ، وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ، وسارت بقيتهم مشرّقة . واتصلت الطرق بين بلغار والبلاد الإسلامية بعد أن قطعها التتار حينا .

ثم عاد التتار إلى الحرب واضطر البلغار إلى مصالحتهم والدخول في طاعتهم سنة ٦٥٣ . وتقلبت بهم الأحوال من بعد حتى سنة ٨٣٤ هـ . ثم لا تذكر التواريخ المعروفة بلغار بعد هذه السنة ؛ ويظن بعض المؤرخين أن الروس استولوا عليها بعد نضال طويل .

وزوال مملكة البلغار لا يدل على زوال الأمة ، فقد بقيت هذه الأمة المسلمة في موضعها بين الفلجا وجبال أورال حتى اليوم . ولكن غلب على معظم هذه البلاد اسم قزان بدل بلغار ؛ وذلك حينما أخذت مدينة قزان مكانة مدينة بلغار في السياسة والحضارة .

عبد الوهاب عزام

سيرة سيف بن ذي يزن

وهذه سيرة من سير الأدب العربي الشعبي بشرت بالإسلام في الجاهلية وعرضت المسألة السامية الحامية ، في كل جزء من أجزائها السبعة عشر ، وهي تلح على القارئ في وجوب الاعتقاد بأقدمية الإسلام وأفضلية نسل سام . وقد اعتمدت في تأييدها للفكرة الأولى على ديننا الحنيف وتعاليمه القائلة بأنه قديم ، وأنه ملة إبراهيم . كما أنها عند تفضيلها للساميين على الحاميين استكتبت التاريخ ، واستلهمت العصور ، واستخدمت مختلف وسائل الدعاية . ولأمر ما تبدأ السيرة حوادثها بالكلام عن الملك اليمني التبعي ذي يزن الذي ذاع صيته ، واشتهر أمره ، ودانت له بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ له وزيرا حكيما عاقلا تصفه السيرة بأنه لا نظير له في مشرق الأرض ولا في مغربها . وكان اسمه (يثرب) ، وكان مطلعا على كثير من الكتب القديمة والملاحم العظيمة بما فيها التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم الخليل . وقد علم (يثرب) من تلك الكتب أن نبيا اسمه محمد سيظهر الإسلام ، ويبطل سائر الأديان التي لأهل الكفر والطغيان . ومن ثم تأخذ السيرة في عرض العلاقات بين جنوب الجزيرة وشمالها بأسلوب قصصي فكه ، وفي صورة جذابة ؛ فنحن نرى الملك ذا يزن يعد العدة ويجهز الجيوش ويسير هو على رأسها إلى الشمال لمحاربة الملك (بعلبك)، ولم تكد جيوشه تصل إلى بيت الله الحرام إلا ويظهر ذو يزن رغبته في هدم الكعبة ونقلها إلى اليمن [1] ، فينتقم رب البيت منه ، ويسلط عليه مختلف الأمراض التي أتته من عزيمته . وعلى أثر هذه المعجزات يعتنق هو وجيشه الإسلام ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم خليله ، ويكسو الكعبة . ثم نجد الوزير (يثرب) الذي كان يدين بالإسلام سرا يعلن إسلامه ، ويرجو الملك أن يسمح له ببناء المدينة التي أطلق عليها اسمه ، وذلك لأنه قرأ في كتب المتقدمين أيضا أن محمدا سيهاجر إليها . وبعد أن يفرغ ذو يزن من أرض الحجاز نراه يتجه شمالا إلى بعلبك ويبسط سلطانه ، ومن ثم ينتقل إلى أرض الحبشة والسودان ؛ وهنا تنتهي حقيقة حدود مناطق النفوذ العربي الجنوبي . فالنقوش التي عثر عليها رجال اللغات السامية سواء في بلاد اليمن أو على طول الطريق التجاري الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها مارا بمكة ويثرب ومدائن صالح وتيماء وتبوك ومعان ودمشق ، وكذلك في بلاد الحبشة ، تثبت أن تلك البقاع كانت يوما ما خاضعة للنفوذ التجاري أو الثقافي أو السياسي اليمني . لكن في الحبشة والسودان نرى السيرة تنحو نحوا عجيبا ، فهي هنا تمزج المدعوتين الإسلامية والسامية بعضهما مزجا تاما ، فهي بعد أن كانت لا تعنى إلا بالإسلام وأقدميته أخذت تتحدث عن الساميين والحاميين ، فنرى الوزير يقول مخاطبا ذا يزن :

وحلت بيت الله حزاً مُبرّكشا
يحير عين الناظرين مرقّما
وساعدتني حتى بنيت مدينتي
يهاجر فيها سيد الأرض والسما
ويظهر دين الحق شرقا ومغربا
فيا فوز ذاك العصر من كان مسلما

إلى أن يقول :

فإن مليكا علك الأرض كلها
يكن خيِّرا تبَّعيا ومسلما

(١) يذكر ابن هشام وابن الكلبي وتؤيدها النقوش السامية على أنه كانت في الجزيرة العربية كعبات أخرى غير كعبة مكة ، ككعبة نجران باليمن وسنداد بالعراق .

بدعوة نوح داعيا كل أسود
لأولاد سام تابعين وخدّما

وتعرض السيرة بعد ذلك لشرح دعوة نوح هذه كما يرويها أبو المعالى راوى سيرة الأمصار، وسائق النيل من أرض الحبشة والسودان إلى هذه الديار؛ فهو يقول: إن نوحا عليه السلام نام مرة وكان سام قاعدا عند رأسه وحام تحت رجليه، فهب الهواء، وكشف عن عورة نوح، فضحك حام وغضب سام، وتشاجر الاثنان، فاستيقظ نوح واستطلعهما الخبر، فقص عليه سام ما فعله حام، فغضب والدهما غضبا شديدا، ودعا على حام بسواد البشرة وعلى ذريته استعباد نسل سام لها. وفى موضع آخر نقرأ كيف هاجر حام إلى إفريقية وكيف تزوج (قمر شاهق) بنت الملك (كركار)، ومن ذريتهما انحدر العنصر الحامى الأسود. فهذه الفكرة التى تتحدث عنها السيرة أعنى أن الحاميين إخوة للساميين هى فكرة صحيحة، حتى إن علماء الأجناس واللغات يطلقون على الأسرة التى تضم هؤلاء الأقوام أو لغاتهم الأسرة السامية الحامية؛ كما أن القول بأن الجزيرة العربيـة هى الوطن الأصلى للساميين والحاميين صحيح لاغبار عليه. أما هذه العداوة التى نجد صداها فى مواضع كثيرة من السيرة، والتى نقرأ شيئا منها فى شعر يثرب وفى دعوة نوح، وفى قول شامة بنت الملك الإفريقى أفراح:

عسى الصفو يهدى إلى نسل حام
ينالون عزا بقدر مهاب
عسى بطشة الدهر فى نسل سام
يصيرون فى الناس مثل الكلاب

فتفسيرها هـذه الحروب الطاحنة التى قامت بين الساميين من ناحية وبين الحاميين من ناحية أخرى، أعنى بين العرب والحبش والسودان. فالمصادر التاريخية التى بأيدينا سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية تحدثنا عن كثير من هذه الحروب التى اتخذت أشكالا مختلفة، فهى طوراً دينية وطوراً استعمارية، وطوراً تقتصر على الساميين والحاميين، وطوراً تتعدى العنصرين إلى الزنوج والأوربيين[١]. وإن كانت السيرة حريصة الحرص كله على ألا تتعرض للنوع الأخير منها لعدم اتصاله بالعصر الذى تميل إلى تصويره لنا، أعنى العصر الجاهلى. فالسيرة فى حديثها من هذه الحروب تفنن فى عرض الحياة وأعمال البطولة، وهى صادقة فى هذا العرض إذا اعتقدنا أن هذه السذاجة ترجع إلى عصر متأخر لا إلى عصـور سابقة للإسلام أو المسيحية. فسيف بن ذى يزن، الذى ولد لأبيه فى إفريقية، والذى لقب بوحش الفلاة، والذى أتى فى صباه بأعمال كثيرة تدل على بطولته وشجاعته، والذى أسند إليه مؤلف السيرة الدور الرئيسى، شخصية تاريخية لايتسرب الشك إليها، فهو الأمير اليمنى الذى قاد الجيوش العربية الجنوبية وطرد الحبش من بلاده بمساعدة الفرس عام ٥٧٠ م. وقد تحدث ابن هشام عنه وذكر لنا الكثير من الأشعار التى تنسب إليه أو قيلت فيه. ولم تقف شهرة هذا القائد العظيم عند هذا، بل نراه جداً للأسرة الحاكمة فى (بورنو) وبطلا من أبطال قصص سكانها.

ولكن بينما نجد مؤلف السيرة يختار سيف بن ذى يزن قائدا للساميين، إذ به يسند زعامة الحاميين إلى ملك حبشى يدعى (سيف أرعد)، فكان فى اختياره للشخصية الثانية غير موفق، وذلك لأن التاريخ الحبشى ينص على أن (سيف أرعد) هذا حكم البلاد فيما بين عامى ١٣٤٤ — ١٣٧٢ م، أعنى فى القرن الرابع عشر، بينما سيف

(١) فى حوالى منتصف القرن السادس عشر تمكن القائد الحبشى المسلم أحمد إبراهيم من هزيمة نجاشيين من نجاشى الحبشة وهما (لبنا دنجل) وابنه (كلوديوس) فاستعان الأخير بالبرتغاليين الذين أرسلوا حملة تحت قيادة (كريستوف دا جاما) أبيدت عن آخرها (راجع مقالا لى فى هلال ديسمبر ١٩٣٥).

ابن ذى يزن من أبناء القرن السادس . ونقرأ فى التاريخ الحبشى أيضا أن حياة هذا الملك كانت امتدادا لسلسلة أعمال القسوة والإرهاب التى شنها والده عندصيون : (١٣١٤ — ١٣٤٤) على المسلمين القاطنين فى تلك البلاد والأقطار المجاورة ، حتى إنه أغار على صعيد مصر وأطلق سراح بطريرك الإسكندرية الأب مرقس الذى كان قد قبض عليه والى مصر وسجنه لامتناعه عن دفع الجزية . فنحن نرى من هذا أن النزاع بين الحاميين والساميين انتقل إلى مصر بعد أن كاد يكون قاصراً على الجزيرة العربية والقارة الأسيوية . ولعل من الأسباب القوية التى نقلت هذا النزاع إلى قارتنا وخاصة إلى وادى النيل — إلى جانب الخلافات الجنسية والدينية — العوامل الاقتصادية ، وقد أشار إليها مؤلف السيرة وعبر عنها تعبيراً لا يقل طرافة عن أحاديث الإخصائيين من رجال وزارة الأشغال ؛ فقد ذكر فى الصحيفة التاسعة عشرة من الجزء الأول طبع القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ما نصه : واعلم يا ملك الزمان أن هؤلاء الحبشة والسودان لابد أن تنفذ فيهم دعوة نوح عليه السلام ، لأنه مجاب الدعوة بين الأنام ، ولا شك فى ذلك ، وأنهم يخافون على مجرى النيل من نزوله إلى الأرض الوطيئة خوفا أن ينزل إلى مصر فهم جاعلونه على قدر أرضهم ، وإذا فاض يعملون له تصاريف يتصرف فيها إلى الربع الخراب ، وأنهم لا يعملون عملا إلا بإذن الحكماء ؛ وهذا هو الصحيح والأمر الرجيح . وما زال الوزير يثرب يتحدث مع الملك فى مجرى النيل ووادى الأمصار وفى شأن الحبش . ويتفق المقريزى مع مؤرخى الحبشة على أن خصومات قوية قامت بين سيف أرعد وبين المسلمين ، وأن هذه الخصومات كانت سيئة جدا حتى أن مصر اضطرت إلى التدخل لوقف هذا العدوان ، وكان تدخل مصر هذا إلى جانب الأسباب الأخرى من العوامل التى جعلت الأمتين فى سلام حيناً وعداء حيناً آخر . كما أن شخصية سيف أرعد أصبحت بغيضة إلى مسلمى مصر ، وموضعاً للقصص والسخرية؛ وكتابة هذه السيرة التى نرجح أنها وضعت عقب وفاة سيف أرعد ، أعنى حوالى نهاية القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر .

فى تلك الفترة ألفت السيرة ، ومصر هى وطنها . وذلك ما يحسه القارئ فيها ، فمؤلفها خبير بمصر وجغرافيتها ، لغتها وعاداتها ، فهو يذكر لنا كثيراً من بلادها وشوارعها ؛ وقد جاء فى السيرة ذكر أسوان وإسنا وأخميم وأسيوط ومنفلوط وملوى وإهناس وحلوان والجيزة ومصر ، وحارة بير الوطاويط وقلعة الجبل والروضة وبولاق ، كما ذكرت كثيرا من مدن الوجه البحرى كدمنهور وفوة وفارسكور واسكندرية ورشيد ودمياط وسمنود . أما لغة المؤلف فغنية جدا بالتعبيرات المصرية بالرغم من محاولته إلباسها الثوب العربى الفصيح ؛ ونحن نذكر هنا على سبيل المثال (عينى رقت) و (وجه قدر الصينية) و (يا نور عينى) .

والآن قبل أن نختم حديثنا عن هذه السيرة يجب أن نشير إلى ملاحظة هامة لاحظناها عند دراستنا لها ، وهى أنها لم تصلنا كما وضعها مؤلفها ، بل ألحقت عليها مع مر العصور بعض النصوص التى تتعارض والأغراض الرئيسية التى رمى إليها المؤلف ؛ وإلا فكيف نفهم أن سيف بن ذى يزن هو زعيم العنصر السامى وأنه سامى لغة وجنسا وينحدر من نسل حام ؟! كما جاء فى الصحيفة السابعة والخمسين من الجزء الثامن من السيرة : وهو سيف ابن ذى يزن بن أسد البيداء بن حسان التبعى اليمانى بن مهلول بن ماهيل بن أرجوان بن يعرون بن جندح بن حمير ابن هانى بن مرون بن شروان بن حمير بن عفيف بن كوش ابن حام أخو سام بن نوح !

دكتور فؤاد حسنين

٢ – السجون فى مصر

فى العصور الوسطى

وقد ورثت القاهرة المملوكية هذه السجون الثلاثة ، وبقى كلٌّ منها على مأموريته حتى أمر السلطان الملك قلاون الألفى بهدم حبس المعونة . ويقال فى صدد ذلك أنه لما أصبح قلاون من جملة الأمراء الظاهرية بيبرس ، صار يمرّ من داره إلى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا ، فيشمّ منه رائحة رديئة ، ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعرى والقمل ، فحمل على نفسه إنْ استقامت له السلطنة أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا ، فلما آلت إليه سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) هدمه وبنى موضعه سوقا أسكنه بيّاعى العنبر (الكارم) الذى تعمل منه قلائد النساء والمسابح ، وسماه سوق العنبريين ؛ وكان ذلك سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) . وقد ظلّ هذا السوق مشهورا بتجارته حتى تلاشى أمره ، وحلّت محله أخيرا مجموعة الدكاكين التابعة لوكالة يعقوب بك بالتربيعة الحالية ، كما تقدّمت به الإشارة هنا .

غير أنه لم يكد السلطان قلاون ينتهى من هدم حبس المعونة حتى ابتدأ فى بناء سجن جديد سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، وهو الجب بقلعة الجبل ، بالجهة الشرقية من الحوش الحالى منها(١) ، حيث توجد الآن تكنات الجيش المصرى . وقد خصص الجب هذا السجن الذين يقضى السلطان نفسه – فيما يظهر – بسجنهم من أمراء المماليك ، وكان سجنا مهولا مظلما كريه الرائحة ، تسكنه الوطاويط ، ويقاسى المسجونون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . وإذاً فقد غدت القاهرة المملوكية تحتوى على ثلاثة سجون مرة أخرى ، ما عدا أن منها اثنين سياسيين ، وهما خزانة البنود والجب ، وواحداً للذين تجب عليهم عقوبة الإعدام ، وهو خزانة شمائل . وليس معنى ذلك عقلا أنه لم يعد هناك سجن لأرباب الجرائم العادية ، أو أن أولئك صاروا قلة لا تستحق سجنا خاصا ، بل معناه – أكبر الظن – أن تلك السجون وغيرها من السجون فى مصر فى العصور الوسطى لم تخصص تخصيصا دقيقا بحسب أصناف المجرمين ، وأنه كان من المعتاد أن يحتوى السجن الواحد على المجرم العادى ، من سارق وباغ ومعتدٍ أثيم ، إلى جانب السياسى الخارج بمبادئه أو أطماعه الجامحة عن طاعة السلطان ، أو أنه كان بالقاهرة المملوكية فوق سجونها الثلاثة سجن رابع فعلا ، لأرباب الجرائم العادية مثل سجن الديلم ، وهو السجن الذى أورده المقريزى فى قصصه مجرّدا من شرح أو وصف أو تعريف بأصل أو كينونة .

ثم قلّت سجون القاهرة قلة واضحة زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ، إذ رُدم سجن الجب بأمره بناء على إشارة الأمير بكتمر الساقى سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) ، وعُمّرت موضعه طباق (تكنات من دور واحد) لفئات المماليك ، ونقلت محابيسه إلى بعض أبراج القلعة . وقد فعل السلطان ما يشبه ذلك بسجن خزانة البنود ، إذ أبطل السجن به وحوّله إلى منازل للأسرى من الفرنج وغيرهم ، يقيمون فيها بأولادهم وأهاليهم . غير أنه يظهر أن أولئك الأسرى قد أساءوا استعمال تلك المنازل – على حدّ قول المقريزى – إذ تجاهروا فيها ببيع الخمور وشربها ، واشتغلوا بحماية مَن يدخل إليهم من أرباب الديون والجرائم ، حتى ضجّ بهم الجيران ، ومنهم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ؛ فلما صارت نيابة السلطنة إلى ذلك الأمير سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) ، فى عهد السلطان إسماعيل بن الناصر محمد ، كان أول ما بدأ به أن هدم خزانة البنود هدما

(١) هذا التحديد منقول من مذكرات خاصة لصاحب العزة محمد رمزى بك ، ومنها أيضا جميع ما بهذا المقال والمقال السابق من تحديد لمواضع السجون بمصر والقاهرة ، وإنى مبادر هنا بشكر صديقى العالم الخبير بالبلاد المصرية وآثارها ، لما يمدنى به دائما من معلومات دقيقة يرجع فضلها كله إليه .

تماما ، أى أنه لم يعد بالقاهرة من السجون الكبرى فى أواسط القرن الثامن الهجرى (أواسط الرابع عشر الميلادى) سوى سجن خزانة شمائل وسجن أبراج القلعة ، هذا للمجرمين الواقعين تحت طائلة القانون العام ، وذلك لأرباب الجرائم السياسية .

ومن بعد تلك القلة الملحوظة فى عهد السلطان الناصر، أخذ عدد السجون يتطور بين زيادة ونقص على قدر الظروف . فاستجد سجن الرحبة ، الذى جعله الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بقصر الحجازية المشهور ، وموضعه الأرض التى تشغلها الآن مبانى إدارة دمغة المصوغات والموازين والمكاييل ومبنى بيت المال القديم . وكان هذا الأمير قد أصبح ، منذ سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) ، الشخصية الكبرى فى عهد السلطان فرج ، واتسعت سلطاته ونفوذه ، وتعددت وظائفه ، « بحيث صار فى معنى ما كان فيه الوزير فى أيام الخلفاء » العباسيين ، فأقام ذلك السجن وألقى فى غيابته من رأى عقوبته أو قتله أو تعذيبه من أعدائه من الأمراء والأعيان ، أى أن سجن الرحبة كان سجنا سياسياً ، أو شبه سياسى على الأقل . على أن وظيفة الأستادارية لم تحمل معها تلك الحقوق القضائية والإدارية من بعد ذلك الأمير فيما يظهر ، بدليل[1] أن سجنه هذا قد أغلق من بعد وفاته سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م) . ولم يمض على ذلك بضع سنوات حتى أغلق سجن آخر ، من أقدم سجون القاهرة ، وهو خزانة شمائل ؛ وقيل بصدد إغلاقه عبارة تشبه فى جوهرها ما قيل بصدد السلطان قلاوون وحبس المعونة بالقاهرة . وخلاصتها — على كل حال — أن السلطان الملك المؤيد شيخ كان قد حُبس بخزانة شمائل أيام إمارته ، فنذر أن يجعل مكانها جامعاً ومدرسة إذا تيسرت له السلطنة ، ووفى بنذره وفاء تاما فى السنة الثالثة من حكمه ، ببناء جامع المؤيد المشهور سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) . على أنه احتاج إلى سجن جديد لأصحاب الجرائم بدل خزانة شمائل ، فبنى لذلك سجن المقشرة قرب باب الفتوح الحالى ، فيما هو الآن قرافة سيدى الساعى ، شرقى جامع الحاكم بأمر الله . وقد عُرف سجن المقشرة بتلك التسمية نسبة إلى دار لقشر القمح كانت فى موضعه قبل بنائه ، غير أنه سرعان ما بطل استخدامه لسجن أرباب الجرائم سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) ، إذ كثرت الشكوى مما يلاقيه المساجين به من شدة الضيق وكثرة الغم — على حد قول المقريزى — ، فتقرر إغلاقه تلك السنة ، وفتح سجن الرحبة مرة أخرى . ثم تبيّن أن سجن الرحبة لا يصلح — أو لا يسع — ما هنالك من المساجين ، فأعيد استخدام المقشرة مرة ثانية ، وظلت هذه سجنا لأصحاب الجرائم إلى أيام استيلاء العثمانيين على مصر . ومعنى ذلك أن السجون الكبرى بالقاهرة لم تعد اثنين فى وقت من الأوقات منذ أيام السلطان الناصر بن قلاوون ، وأنها لم تزد على ثلاثة فى أى زمن من الأزمنة السابقة لذلك العهد .

يشذ من تلك النتيجة الاستقرائية عدد من الحبوس والسجون التى ترد أسماؤها فى ثنايا المراجع دون تدليل كاف يستعين به الباحث على إدماجها تحت نوع من الأنواع المتقدمة ، مما يرجح تبعيتها لسلطات غير السلطات التى تقع السجون السالفة تحت نظرها ؛ ومن هذه سجن الديلم الذى سبقت الإشارة إليه ، وموضعه دار التوى ودار العارجى وسائر المساكن الواقعة الآن على جانبى زقاق الساعى الخارج من شارع المقادين ، وقد ظلّ مستعملا للسجن حتى أوائل أيام محمد على الكبير فى مصر ؛ ومنها أيضا حبس الحجرة ، وهو خاص بالنساء ، وربما كان تابعا للمحتسب ؛ وكذلك حبس والى الطوف ، وهو سجن مؤقت لمن يقضى هذا الوالى فى أمره بصفة مستعجلة حتى يطلع النهار . وهناك أيضا سجن الخزانة السلطانية بالقلعة ، وهو سجن طارئ ، عمله الأمير منطاش لسجن

(١) الدليل المادى على صحة هذه الدعوى تعريف وظيفة الأستادار فى ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

حول تقرير معالى وزير المعارف

فتحت الثقافة فى مقال سابق مجال التعليق على التقرير القيم الذى وضعه معالى الوزير حول إصلاح التعليم فى مصر بعد الحرب . ولابد لكل من يعلق على هـذا التقرير أن يبدأ بالثناء على الجهد الظاهر الذى بذله معالى الوزير فى إخراجه ، وأن يشعر بكل الاغتباط لوجود وزراء فى مصر يبحثون أمور وزاراتهم بحثاً علمياً هادئاً بأنفسهم ! فيساهمون بالقضاء على الارتجال الحكومى الذى ابتلانا بهذا الاضطراب الذى نراه فى دوائر الحكومة .

وليس هذا العمل فاتحة لخطة جديدة ينهجها الوزراء فى مصر وحدها ، بل فى البلاد العربية كلها . لأن عيوب الارتجال لا تشكو منها الأداة الحكومية المصرية فحسب ، وإنما تشاركها فى شكواها البلاد العربية كلها ، كما تشاركها فى كثير من الأمور الأخرى ... ولذلك سوف ترى البلاد العربية بأسرها تقدر للوزير هذا الفتح الجديد .

وأريد فى هذا المقال القصير أن أقترح على معالى الوزير أمراً يحول نظرة البلاد العربية إلى تقريره من مجرد التقدير إلى الاستفادة من الإصلاحات التى سوف تجنيها مصر منه . فمعالى الوزير قد حصر بحثه فى إصلاح التعليم فى مصر ، ولم يذكر شيئاً من التعليم فى البلاد العربية ، ولم يشر إلى أى ناحية من نواحى التعاون التى يمكن أن تنظم بين التعليم فى مصر والبلاد العربية بعد هذه الحرب ؛ ولم يتناول بالبحث مكتب التعاون الثقافى العربى الذى يعلم القوم فى البلاد العربية أنه أسس فى سبيل هذا الغرض .

ولقد أدى به تجنبه الخوض فى هـذا البحث إلى الامتناع عن ذكر رأيه فى أحد الموضوعات القومية التعليمية التى يتطلع إليها العالم العربى بكثير من الاهتمام ، وهو موضوع توحيد برامج التعليم فى البلاد العربية ؛ مع أن هذه الفرصة التى تفكر فيها مصر فى إصلاح نظام تعليمها وتغيير بعض المبادئ التى يقوم عليها هى أنسب الأوقات لبحث هذا الموضوع الخطير .

فهذا الإصلاح الذى شعر الوزير المصرى بالحاجة الماسة التى تدعو إليه فى مصر ، ليقوم التعليم المصرى بعد الحرب على أسس صالحة ثابتة ، يقابله شعور مماثل فى كل بلد من البلدان العربية . وهذه المبادئ الإنسانية التى يقدمها فى تقريره لتكون أسس الإصلاح المنشود فى مصر وحدها ، قابلة لأن تصير بعد البحث والدرس أسساً للإصلاح فى بقية البلاد العربية .

ولست أعرف ميداناً للتعاون والتوحيد بين مصر

مماليك السلطان برقوق بعد خلعه سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨ م) ، وقد ألغى ذلك السجن عند عودة برقوق إلى السلطنة ؛ وكذلك سجن البحرة بالقلعة ، وكان مخصصا لاعتقال من يخلع من السلاطين ؛ وأخيرا سجن الزردخاناه ، وقد اختار المقريزى أن يصفه بأنه « أرفع السجون قدرا » ، لقصره على أمراء المماليك دون غيرهم فيما يظهر ، وكان الموكل به فضلا عن شؤون وظيفته أمير جاندار . فإذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شيء خطير ، أو أمر بقتله بذنب قبل أن يستفحل أمره ، أرسله إلى ذلك السجن ، حيث لا تطول مدته ، بل يقتل أو يخلى سبيله .

ويضاف إلى تلك القائمة عدد الحبوس والسجون التى كانت للولاة والقضاة بحواضر الأعمال المصرية ، وهى التى دلت عليها عبارة العنوان فى وضوح . ثم إنه كان بعض تلك الحواضر ، مثل دمياط والإسكندرية ، سجون سياسية أيضا ، يرسل السلاطين إليها مَنْ تضيق بهم طاقات سجن القاهرة ، أو مَنْ تقضى المصلحة بإبعادهم عن عاصمة الدولة إبعادا ماديا . وقد اشتملت كبرى الحواضر الشامية ، مثل دمشق وحلب والمرقب ، على عدد من تلك السجون السياسية كذلك ، على أن هذه لا تدخل فى نطاق هذا المقال .

محمد مصطفى زيادة

والبلاد العربية أخصب وأسلم من هـذا الميدان الثقافى التعليمى. ولقد ظهرت بوادره منذ عدة سنوات ، حين أسس مكتب التعـاون الثقافى بين مصر والعراق وأخذ ينظم انتداب الأساتذة المصريين لمـدارس الرافدين . ولـكن التعاون الثقافى بين مصر والبلاد العربية لاينبغى له أن يقف عند هذا الحد ؛ فالحياة الثقافية المشتركة فى البلاد العربية ، وهذا الاتجاه القومى الذى يدفع بها بقوة إلى الوحدة ، يتطلبان عملا أوسع وأعمق من ذلك فى ميدان التعاون الثقافى. إنهما يتطلبان مواجهة فكرة توحيد برامج التعليم فى البـلاد العربية مواجهة عملية ، ورسم الخطة للسير بهذه البلاد نحو برنامج تعليمى واحد للمستقبل القريب أو البعيد.

ولا أستطيع أن أفصل هنا ما أقصد إليه ، وما أفهمه من توحيد برامج التعليم فى البلاد العربية ، فهذا موضوع لدراسات قومية تعليمية طويلة . وإنى أغتنم فرصة درس هـذا التقرير الإصلاحى الجديد فى مصر لأؤكد أن بين البلاد العربية من التشابه فى كثير من المشاكل التعليمية مايؤهل الإصلاحات المقترحة لأن تصبح إصلاحات عربية لا إصلاحات مصرية فحسب.

وللوصول إلى ذلك أقترح على معالى الوزير أن يدعو وزارات المعارف فى البلاد العربية إلى مؤتمر تدرس فيه حالة التعليم فيها ، وتعرض حاجاته ومشاكله ؛ ويدرس إلى جانب ذلك التقرير ، وما فيه من آراء تستطيع البلاد العربية أن تأخذ بها فى تعليمها كما تعتزم أن تأخذ بها مصر .

إن من يطلع على التقرير يلمس فيه من التقارير والأبحاث الأمريكية والأوروبية التى استشهد بها الـكاتب ، قوة الاتجاه فى أمريكا وانجلترا وفى جميع البلدان الديموقراطية إلى التقريب بين مبادئ التعليم فيها ، وتوحيدها ما وسعت الظروف والأحوال هذا التوحيد ؛ ويرى إلى جانب ذلك رغبة شديدة بين هذه الدول للتعاون تعاونا وثيقا فى هذا الميدان التعليمى فى نواحيه المعنوية والمـادية ، حتى أنها تفكر فى تأسيس هيئة دولية تتولى تنفيذ هذا التعاون.

وهذه الروح التى تسود الدوائر التعليمية الأمريكية والأوروبية أحرى بها أن تسود الدوائر التعليمية المصرية والسورية واللبنانية والعراقيـة ، وكلها فى حقيقة الأمر دوائر أمة واحدة . ولست أدرى لماذا سكت معالى الوزير عن هذه الناحية فى تقريره .

ولـكن هذا السكوت لا يحول فى شيء دون المبادرة إلى العمل السريع . فأرجو معالى الوزير أن يبدأ الخطوة الأولى فى هذا الطريق بالدعوة إلى المؤتمر التعليمى العربى الأول ؛ هذا المؤتمر الذى يضع حدا لاستقلال الجهود التعليمية فى البلاد العربية عن بعضها ، ويسير بها نحو الاتصـال والتوحيد الذى تقضى به القومية العربية المشتركة بينها .

حسين صعب
ليسانس فى الآداب
من جامعة فؤاد الأول

أختى العزيزة سميحة

أهديك أشواقى وعسـاك والبك فى صحة وهناء .

حادثتنى تليفونيا منذ أربعة أيام من الإسكندرية ، وفاجأتنى بخبر عودة زوجك للطريق القويم بعد أن شاهد معك فيلما فى سينما الـكوزموجراف . وبدون أن أخبر زوجى بموضوع محادثتنا ونصيحتك لى بالذهاب لرؤية هذا الفيلم ، ذهبت وإياه إلى سينما الـكوزمو بمصر وشاهدنا الفيلم . فإذا به لم يتمالك نفسه من الضحك العالى وقال لى بصوت عال : أما إكرام هانم دى صحيح شاطرة ؛ لأنهـا عرفت أن تصلح زوجها . فهمست له فى أذنه : تحب أعمل لك زى ما عملت فى جوزها حسونه بك وإلا ترجع من نفسك بلطافة كده من غير جنان ؟ فأمسـك بيدى وقال : لا . توبه . أنا لك وأنت لى . وبانت فى وجهه ملامح العطف والحنان .

فلك شكرى يا سميحة على نصيحتك ، ولآسيا ولأبطال فيلم **أما جنان** ، ولمخرجه بركات ، وموزعه بهنا تحياتى وامتنانى لهم ؟

أختك حميدة

أكف النسيان !..

[أكف النسيان كأكف نيسان ، تصافح الحياة ، وتحيلها جنة وارفة بعد جدب وإمحال !

... والنفس الإنسانية كالتربة ، تتقلب بين الخصب والجدب ، وتترع من المسرات كما تمتلئ بها . وتحفل بالآلام حتى ليكاد العقل يجزم بأن بشاشات الحياة قد ولت إلى غير معاد ... ولكن ثمة ما يكفل عودتها .. ثمة ما يكفل بعثها .. ذلك هو النسيان !

وإن أصدق عزاء يقال — إن كانت الكلمات وزن حين لم الملمات .. أصدق عزاء يقال حينذاك « الزمن كفيل بكل شيء » .

... فهذه الحقبات التي تطوى القرون والأجيال ... حرية بأن تطوى معها أحزان الإنسانية جماء !... حرية بأن تمسح دموعاً ، ما كان يقع في وهم العقل أن ترقأ .

هذه الأكف الناعمة ما تزال تمر برفق ، على وجه غضنته تصاريف الزمان ، حتى يعود إلى نضرته ، يستقبل الحياة من جديد !]

الكرداني

دعاء ..!

امحي أيتها الأكف صورة غاصب الحرية عن المكبل بالقيد ، وغاصب اللقمة عن الطاوي الكليل ، ومالك القلب عن المحب الولهان !

امحي صورة الحبيب الغادر والصديق الخائن .

أيتها الأكف الرحيمة ... هدهدى ذلك الطفل الغرير الذي نكلت به الأقدار ، على غير ما تأهب منه أو انتظار !

أيتها الأكف الناعمة إنك كالبلسم ، تمده صنعة الوهوب ، وأنت نفحة الوهاب !

أيتها الأكف الناعمة .. ما أحوجني إليك . ما أحوج كفي الخضيبتين بالدماء ، المنتشبين بالأشواك ، ما أحوجهما إليك .. فصافحيهما .. صافحيهما ، واضغطي عليهما ، واطرحي عنهما الدماء والأشواك !

وأحيلي حياة صاحبهما الجريح غيبوبة تذهله عن حاضره وماضيه !

لقد نفضهما من الحياة ، فما تبقى له سوى ذلك الشوك الذي يحزهما ، ويحز قلبه عندما يتحسسه في وجنات اليأس ، وجلا خائفاً أن تكون دقاته الواهنة قد سكنت سكون القبر !

... ولكن ما باله يخشى .. ما باله يتخوف أن تسكن دقات قلبه ؟ !

أيخاف الموت ذلك الذي يعاف الحياة !

أيخاف عجمة القبر ذلك الذي مل الترنح في لجة القدر !

.. إنه ليخشى المجهول .. ولذا يخشى الموت ، وإن كان يتمناه !

وإنه ليأمل — إن كان حقاً يستطيع أن يأمل — أن تصافحي يديه لينسى ... ينسى إلى الأبد !

* * *

امحي أيتها الأكف حجباً صفاقاً تسد من عينيه الرؤى المفزعة والمرائي القاتمة ، وعن أذنيه مسالك الأصوات الراعدة والأصداء الساخرة !

وأحكمي الستر وكوني وثيقة — كما كنت دائماً — فلعله أن يعيش لغده ، ولا يحيا بماضيه .... ماضيه المروع .. ماضيه الدامي ... ! وأن مسمول الذكريات لينفذ في عنف إلى عقله المخبل حتى ليكاد يطيح بما تبق من غراس الأمل الهالكة التي يشق صاحبها ريها من جديد ! وإنه ليرويها بما تبق له من دماء !

أحكمي الستر أيتها الأكف الحدبة ، وارفقي بالهارب من ضجة الحياة أن تختلط المرائي بالرؤى في عينيه ، والأصوات بالأصداء في أذنيه ، فيلتاث ... ويصيبه الخبال !

عبد العزيز الكرداني

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرجاني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٦٣	الثلاثاء ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٣ — ١١ من يناير سنة ١٩٤٤	السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مطالعات أشتات :

روزفلت

قبـــل الأربعـــين

للدكتور أحمد زكي بك

المعروف الشائع عند الناس أن سن الأربعين هي السن التي يكتمل فيها الجسم ، ويستتم فيها العقل ، وتزدهر عندها في الحياة الآمال . لا تلك الآمال الصغيرة التي تكون والحياة صغيرة ، ولكن تلك التي تكون كبيرة ، وقوة الحياة الدافعة في أشدها ، والقوة العاقلة في عنفوانها ، والقلب الجياش في فورانه .

تصورْ نفسك وقد بلغتَ هذه السن ، أو طلعت على مشرَف قريب منها . ثم تصورْ أنك في كَنَف هذه السنّ تستمرئ العيش ، وتحسّ دفء الحياة حتى يكاد يكون الدفء اصطلاء ، وتحسّه في ماضٍ سعيد ذي جاه وذي ثراء ، وتحسّه في حاضر تدلّ بشائره على مستقبل بالنجاح أملأ ، وبالعمل أزخر . ثم تصورْ أنك ذهبت يوما إلى فراشك تستجمّ من بردٍ أصابك ، ثم أخذتَ تحرّك يسرى رجليك فأبتْ عليك الحركة ، ثم أخذت بعد قليل تحرّك يمناها فأبتْ عليك الحركة ، ثم استطلعت رأي الطبيب استطلاع مُوجسٍ لهفان ، فقال لك إنه الشلل ،

وإنه « لشلل الأطفال » ، وإنه داءٌ عياءٌ لا حيلة فيه للأطباء إلا أن يشاء الله ، وقليلا ما يشاء . فكم يبقى عندك وعندى بعد هذه من الحياة ودفئها ، وإلى أى شيء كان يتطاول بنا الأمل ؟ إلى السكون إلى بقية من العيش نستنفدها فى ركن هادئ من أركان الدنيا لا يكاد يرانا فيه أحد ، ولا يكاد يسمع بنا فيه أحد ، ولا نحب أن ترانا فيه عين ناظر ، أو تحس بوجودنا فيه أذنُ سامع ، حتى من ذوى القربى الأقربين ؟ أم ترانا يتطاول بنا الأمل إلى معترك الدنيا ، إلى حيث موج الحياة أعلى وأصخب ، نطلب ، لا السيادةَ فى قرية ، ولا السيادةَ فى مدينة ، ولكن نطلب السيادة فى أمة ، وفى أمةٍ من أمم الأرض العظيمة ؟

لقد اختار روزفلت ، لما أكمل عند باب الأربعين شبابه ، وأصابه عندها من عَنَت الأقدار ما أصابه ، اختار معتركَ الحياة الأصخب . واختارت له أمّه ركن الحياة الأسكن ، فأبى عليها . لقد أبى أن يعترف بعجزه ، فكان هذا له أول نصر مُبين . وكان نصراً فى ميدان النفس ، وهو أصعب الميادين ارتيادا ، وأخفاها جُندا . والنصر فيه يهون عليه من بعده انتصارٌ يرومه فى ميدان سياسة أو ميدان مال ، أو فى ميدان حرب ونزال . وبهذا النصر الأول ، بهذا النُّجح الأول ، تابع صاحبنا نُجحه فى الحياة حتى صار منها إلى ما نعرف : ثالثَ ثلاثةٍ فى أيديهم زمام هذه الكرة من بعد الله ، إذا سُئلتَ أىُّ هؤلاء الثلاثة أعظم ، وأيهم أحكم ، وأيهم أعلى كعبا وأرفع نجما ، لم تدرِ كيف تجيب .

وُلد فرنكلين رُوزفلت Franklin Roosevelt فى الثلاثين من يناير عام ١٨٨٢ ، فهو مستتمٌّ عامَه الثانى والستين هذا الشهر . وكان أبوه جيمس روزفلت مزارعا ذا ثراء ، وأنجبه أبوه من زوجة له ثانية . ونشأ فى حِجر هذا البيت ، فى حضن الريف ، وعلى النهر ، نهر هَدْسُن ، فتعلَّم على الأرض ركوب الخيل ، وتعلم على الماء قيادة السفن . ونشأ فى غير مدرسة ، فقد علَّمه فى البيت أبوه وعلمته أمه . وجرى مع والده فى الريف الطلْق فتعلَّم من الطبيعة الخيِّرة ، وشرب من أفاويقها . وكان وحيد أمه ، فوجد بعض أُنسه عند الجيران ، فلعب مع أطفالهم ، ومعهم درس اللغات وما تعلِّمه المدرسة من علوم .

وبلغ عامه الخامس عشر ، فبعث به أبوه إلى مدرسة خاصة من خير المدارس ، مدرسة جروتُن Groton . وفى هذه المدرسة دخلت فى نفسه الريبة ، أولَّ ما دخلتْ ، من هؤلاء النفر من ذوى الثراء الذين يطلبون لنفسهم ، حتى على صغرهم ، مركزا بين الناس ممتازا ، يكسبونه على الأكثر بالترفع عن العشرة ، والتحاجز عن الكافة . وفى هذه المدرسة تابعه شغفه بالماء ، وقيادة السفن من فوقه . وجمع كتبا كثيرة عن السفن وأساطيل البحار ، صارت له من بعد ذلك مجموعة من خيرة المجاميع فى هذا الموضوع ، كان من أثرها فى حياته المستقبلة ما كان . وقامت الحرب بين الولايات المتحدة وأسبانيا وهو فى هذه المدرسة ، فحركها يطلب أن يلتحق بأسطول الولايات بحّارا ، ولكنّ الحصبة أصابته عندئذ فارتدّ بها على أعقابه .

وبلغ الثامنة عشرة فى عام ١٩٠٠ ، فذهب إلى الجامعة الشهيرة جامعة هارفَرْد Harvard . فأظهر بها ذكاء ممتازاً ، ولكن فاته صبر التحصيل . وهو إن لم يبلغ فيها مبلغ الطالب الذى يصل بالدرس ليله بنهاره ، فقد تفتّق فيها ذهنه ، واتسع أُفقه ، وغذّته بالمُثُل الطيبة فيها أساتذته . ووقع له فى هذه الجامعة ما وقع فى تلك المدرسة : اشمئزازٌ صارخ من جمعيات تلك الجامعة ، فهى جماعات

طلبت الترفع عن الناس والتحاجز عنهم . فرأى في ذلك الترفع غروراً ، ورأى فيه كذباً . واختير عضواً في هذه الجمعيات فلم يمنعه ذلك من إعلان سخطه ، وقاد الحملة عليها . وقد كان له أن يستمتع بما يستمتع الأعضاء منها ، ولكنه لم يكن به استمتاع بغرور ولا إقرار لأحد بمكانة كاذبة .

وما جاء عام ١٩٠٤ حتى كان روزفلت قد انتقل من جامعة هارفرد إلى مدرسة الحقوق بجامعة كولومبيا . وفي عام ١٩٠٥ بدأ عمله في القانون ، فالتحق بشركة للمحاماة في مدينة نيويورك .

وفي هذا العام ، عام ١٩٠٥ ، وهو في الثالثة والعشرين ، وهو أملأ ما يكون حياة ، وأكثر ما يكون جمال رجولة ، وأبسم ما يكون ثغراً ، تزوج زوجته التي كان لها في حياته ، وفي حياة الولايات من بعد ذلك دور غير قليل . وكانت هذه الزوجة إلينور روزفلت . ولم تكن بابنة عمه وإن أوهم اسمها ذلك ، ولكنها من بنات أعمامه البعيدين . وكان عمها عند ذلك رئيس الولايات المتحدة، تيودور روزفلت Theodore Roosevelt وهو الذي حضر إلى مصر من بعد ذلك ، وإليه وجه شاعرنا شوقي حديثه في قصيدة « أنس الوجود » ، حيث قال :

أيها المنتحي بأسوان دارا
كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع
لا تحاول من آية الدهر غضا

وكان تيودور روزفلت جمهورياً . وكان فرنكلن روزفلت عند ذلك ديمقراطي الميل ، ثم كان ديمقراطي المنهج من بعد ذلك . فقد باعدت المذاهب بينهما كما باعدت الأرحام .

وحضر تيودور الزفاف بالطبع ، فقد كان وصي الزوجة ومُهديها في الحفل إلى زوجها . وكان حفلا أرستقراطياً من الأحفال النادرة . وقد أكسب الرئيس الحفل وجاهة ، ولكنه استأثر بأنظار الناس . ودخل الرئيس إلى مكتبة الدار فتجمهر حوله الناس يستمعون له . وخلا المكان بالزوجين حيث كانا ، فلم يكن لهما بد إلا اتباع الجمهور ، فذهبا إلى المكتبة مع الذاهبين ، ووقفا عند حافة الجمع يستمعان في المستمعين .

ويجيء عام ١٩١٠ ، فينفتح لصاحبنا بابُ السياسة أول انفتاح . خلا مقعد في مجلس شيوخ ولاية نيويورك . وكان يشغل هذا المقعد شيخ جمهوري . وأراد الديمقراطيون أن يشغله ديمقراطي . فبحثوا عن رجل يجمع إلى أصالة الاسم وجاهة الثراء ، فوقعوا على فرنكلن روزفلت . وكان في الثامنة والعشرين . فانتهز هذه الفرصة ليتذوق السياسة أول مذاق . وطاف بالولاية مطاف قادر . وطافها في سيارة . وكانت سيارات هذا العصر — ويعلم هذا من حضر منا هذا العصر في مصر — سيارات لا تكاد تسير حتى تقف ، ولا تكاد تبدأ حتى تنتهي . فكان روزفلت كلما وقفت سيارته للإصلاح ، انتهزها فرصة لخطبة الناس . وفاز بالمقعد .

ولكنه لم يلبث أن خيب رأي الحزب فيه . فقد كانت مجالس الشيوخ بالولايات تختار لمجلس شيوخ الدولة شيوخه . وكان الحزب الديمقراطي قد اختار رجلا لمجلس شيوخ الدولة لم يكن ممن ترتاح له كل الضمائر . فرفض روزفلت قبوله . وتزعم حركة تدعو إلى رفضه . واستشاط الحزب غضباً ، وهددت آلته بهرس من يتصدى لحركتها ، ولكن روزفلت صمد ، وصمد له أصدقاء له في الحزب . وانتصر وانتصروا أخيراً . فاختار الحزب رجلا أقل بالمقعد وأولى .

ولم يكن روزفلت فى هـذا على حزبه متجنّياً . فقد أعلن فى البدء لمختاريه أنه لن يرتبط برأى فرد ولا آلة حزب ، كائنا ما كان ، ما خالف ذلك رأيه .

وعز عام فتهيأ الأحزاب للصراع على رآسة الولايات المتحدة. ويتخذ الدمقراطيون ولسن — الدكتور وُدْرُو ولسن Woodrow Wilson ، الرجلُ الأكاديمى ، أستاذ الجامعة ، ورئيسُ جامعة برنستُن — يتخذونه مرشحاً لهذه الرآسة . ويشترك روزفلت فى الصراع دمقراطياً . ويجاهد فى هـذا ذا رحمه الأبعد ، تيودورَ روزفلت ، رئيسَ الولايات الأسبق ، فقد كان تنصّب مرشحاً جمهورياً . ثم يخفق تيودور ، ويفوز ولسن فى الصراع . ويفوز فرنكلن روزفلت بمنصب فى وزارة حبيبة إلى قلبه من أيام صباه . ذلك منصب سكرتير مساعد فى وزارة البحرية .

كان هـذا عام ١٩١٣ . وكان روزفلت فى الحادية والثلاثين من عمره .

وتأتى الحرب العالمية الأولى ، حرب عام ١٩١٤ . وتأخذ تقترب من شواطئ الولايات كما اقتربت هذه الحرب الحاضرة . ويأخذ روزفلت الشاب يُوجس من اقترابها خيفة ، كما أوجس خيفةً من مثله فى هذه الحرب الحاضرة . ويحاول أن يقنع رئيسه رئيس الدولة ، ولسن ، بالتوسع فى الأسطول ، والاستعداد قبل الفوات . ولم يقنع ولسن إلا بعد أن كشّر من نابه الشرّ ، ولم يعد بعدُ من الحرب مفرّ . وعندها أنفق روزفلت جهده فى إعداد الأسطول للنزال . ودخلت أمريكا الحرب ولم يكد يستتم من ذلك بعض ما اعتزم . ولا شك أن كان له فى هذه التجربة الأولى ، فى تلك الحرب الأولى ، خيرُ معوان لتجربته هذه الثانية ، فى هذه الحرب الثانية ، والموقف واحد ، والعدوّ واحد ، وله مكانَ ولسن ولاّسةٌ كثيرة .

وفى الحرب زار أوروبا ، وزار انجلترا ، واتصل برجال السياسة حيثما ذهب . وجاءت الهدنة ، وجاء السلم ، فزاده عمله فيهما اتصالاً بالرجال . وعاد ولسن إلى الولايات ، ومعه روزفلت ، وعصبةُ الأمم . وبدأ ولسن حملته الفكرة العصبة ، وحملها معه روزفلت ، فخابا جميعا . وجاء ميعاد الانتخاب لرآسة الجمهورية ، فنصّب الدمقراطيون روزفلت وكيلا لرئيس . وبنى روزفلت وبنى الدمقراطيون حملتهم على أساس العصبة ، وأساس اتخاذها نظاما عاليا يحدُّ علاقات ما بين الأمم على أصول من التسامح اجتمعها هذا الدمقراطى الأكاديمى ، أستاذ الجامعة ، وخاب فيها ، وخُدِع كما خُدِع أبو موسى الأشعرى ، قبل أن تطأ قدماه ساحل الولايات عند عودته . وخاب روزفلت فى هذا الانتخاب ، وخاب الدمقراطيون .

وصنع روزفلت بعد ذلك ما يصنعه كل عاقل : انتحى جانبا ليترك للعهد الجديد أن يجرّب حظه من جديد . وعاد إلى ممارسة القانون .

كان هذا عام ١٩٢٠ .

وجاء عام ١٩٢١ فأتاه أمر الله بهذا النازلة الجثمانية التى صدّرنا بها هذا الحديث . وكان فى التاسعة والثلاثين . وحاطته أُمّه ، وحاطته زوجته بالرعاية . وضربا حوله هذا الجوّ الذى لا يضربه غير الخلصاء، إذا سقط الساقط المرزء ، ليخففوا وقع السقطة ، وليصلوا ذلك الحبل الذى انقطع أو كاد بالحياة . وانضم إلى الزوجة والأم صديقٌ صدوق — لويس هاوى Louis Howie — وجعل من واجبه إدامة الصلة بين صديقه والحياة العامة . ومضى عام ، وثانٍ ، وثالثٌ ، والحركة فى رجليه تأبى أن تعود ، ولكنه ظل باسما مستبشرا

أحمد زكى

ملحوظة :

فى العدد القادم : « روزفلت بعد الأربعين »

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

٤ – مدحت باشا

هذه الباخرة «عز الدين» تمخر البحر لتقذف به في ثغر من ثغور أوروبا ، وقد ضاعت كل آماله ! فكل ما حزر من تقدير في الثورة ونتائجها ، والدستور وثباته ، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة ، قُضي عليه في لحظة ، وزال من الوجود في لمحة ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل ، وكدحه المتتابع ! وكل ما في يده الآن غضب السلطان عليه وعلى أتباعه ، وبعده عن أهله ، وتجرُّده من ماله .

لو أن أي إنسان عادي آخر مكانه للعن الإصلاح والمصلحين ، وترك الدولة تجني جزاء ظلم سلاطينها ، وانتظر حتى يشتفي بمنظر الفساد يهدُّ أركانها ، ويفتخر بأنه نصح فلم ينتصحوا ، وأنذر فلم يصغوا ، فارتاحت نفسه بصدق ما تنبأ ، وحدوث ما أنذر .

ولكن لم يكن مدحت في شيء من هذا ، فما مرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها ، وأخذ يفكر من جديد في وسائل إصلاح ما كان ، وعجب من نفسه فوصفها بقوله : « إن حب الإصلاح قد اختلط بدمي فكان كالمرض المزمن لا أُبرأ منه » .

فكر سريعا ، ووصل إلى النتيجة سريعا ، فرأى أن روسيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرَّارة ، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحميس الجند ، والدول كلها تتنبأ بنصرتها ، فواجبه — إذن — أن يؤلب الدول على روسيا ما استطاع ، ويبين لكل منها الأضرار التي تنالها من هزيمة الدولة العثمانية ، وتعديل خريطتها . فهو في أسبانيا يتصل بساسة إنجلترا وفرنسا ، ويحاول إقناعهم بآرائه ، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض ، ويُبرق إلى لايين ويقول : « قد سعيت مدة إقامتي في عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنفع ورفع شأن حكومتنا ، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها ، وأفتخر أني وُفِّقت إلى ذلك بعض التوفيق » . ثم يذهب إلى فيينا لهذا الغرض ويبرق فيقول : « أنا اليوم في (فيينا) أبذل الجهد لترويج نفس المساعي ... وآمل إخباري بما يوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أمنيتي الوحيدة ، وقد وقفت حياتي لتخليص الدولة من ورطتها ، وأنا قادر على القيام بأعباء ما يطلب مني ، ومصلحة الوطن تضطرني إلى ذلك » .

وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدول تردُّ عليه بأنه ليس مفوَّضا ، ولا له صفة رسمية يتكلم بها ، وأنه ليس إلا رجلا منفيا ، فطلب من الدولة تصحيح موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعا !

وأغرب ما في الأمر بعد ذلك أن يَرِدَ إليه « ناظر التشريفات » يشرى أن السلطان ذكره بحضرته ، وسأل عنه كيف يعيش ، فقال « ناظر التشريفات » : إنه في حالة بؤس يتنقل من بلد إلى بلد ، ويعيش بالقرض ، فظهرت رقة قلب السلطان وبكى ، وقال أرسلوا له ألف ليرة ! ثم يختم الخطاب بأن يطلب منه شكر السلطان ، وتضرعه إليه بالعفو عنه .

ظن المسكين « ناظر التشريفات » أن كل النفوس ذليلة كذاته ، مَـلِقة كَـمَلِقه ! ولكن هذا الخطاب وقع من نفس مدحت الأبية موقع السهم المسموم في الفؤاد الجريح فهاج وثار ، وردَّ عليه فقال :

« لقد عبر تم للسلطان من حالي بأنها حال بؤس يتنقل من بلد إلى بلد ، لتستدروا بذلك شفقته ، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور آفاق ، لا رجل مثلي عمل ما عمل وتولى الصدارة بجدارة .

وأنا لما وصفتم من أسباب عيشي وفقري ، فقد اقترضت عشرة آلاف فرنك من خرستاكي في نابولي فنفقت ، وأنا اليوم أسعى في قرض جديد أسد به رمقي ورمق

أسرتي في الآستانة ؛ ولكني فخور بذلك ، فقد ولدت عاري الجسد ، وسأموت عاري الجسد ، وأنا ابن الحاج أشرف أفندي ونعم النسب ، ومع هذا فلا أنتسب إلا إلى الله ، ودخيرتي أني عاهدته أن لا أقول إلا الحق ، ولو أوصلني إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد .

وما الذي فعلت من إجرام حتى أطلب العفو ؟ لقد سعيت في تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز ، فلما مرض سعيت أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد ، وكان جلوسه مقرونا بإعلان الدستور ، ووضع خطط الإصلاح .

« ومنذ خروجي من الآستانة وأنا أفكر في الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك ، ولا أفكر في نفسي ، فماذا في هذا مما يعتذر منه ؟ »

« لقد بلغت السادسة والخمسين ، ولا أمل لي في الحياة ؛ فلم يتجاوز أسلافي الستين ، فأيامي معدودة وكل رجائي أن أعيش منفردا ، وأدعو لولي النعم الأعظم » .

هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به أنه يعبر أصدق تعبير عن قوة مدحت وعظمته ورجولته وسمو نفسه .

لقد وصف « ناظر التشريفات » هذا الخطاب لما قرأه بأنه كالعروس عطلت من حليها ، وعريت من ثيابها ، ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلا ؟ وفي الحق أن هناك عيونا لا ترى الجمال الحق في الإباء والشمم ، وإنما ترى الجمال المتصنع في النفاق والملق .

كان يوما يصطاف في الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز ، وإذا بسفير الدولة العثمانية في انجلترا يقابله ؛ ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته في جزيرة « كريد » ، فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين ، ثم عين واليا لسوريا ، ثم لأزمير ، ثم كانت مأساته التي ختمت بها حياته كما سنبينه بعد .

* * *

هذا هو العمود الفقري في حياة مدحت ، وله بجانب هذا أعمال فرعية في الولايات التي تولاها ، وهي أعمال خالدة لا تزال تذكر من أهل البلاد التي عمل فيها بالحمد والثناء .

لقد ولي العراق ، وولي سلانيك ، وولي الشام ، وولي أزمير ؛ وكان له في كل أولئك خطة واحدة ، يعمد — أولا — إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم ، فإذا الأمن شامل والهدوء عام . ثم ينشر العدل بين الناس فيطمئنون على أنفسهم وأموالهم ؛ ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خيرة الولاية يستشيرهم في أمورها ، ويجرئهم على قول الحق في صراحة ، ويعلمهم كيف يعالجون المشاكل ؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة ، لأن ذلك يعين على الإسراع في ضبط أمورها ؛ ثم يضع الخطط لاستغلال منابع الثروة في البلاد على خير وجه ، كل ولاية بما يناسبها حتى يزيد دخلها على نفقاتها ، ويأخذ من المال الناتج في إنشاء المدارس ونشر التعليم ، وهو بعمله هذا يضع نواة العلم في بلاد فشا فيها الجهل وكادت تعم الأمية .

تولى العراق سنة ١٢٨٥ هـ — سنة ١٨٧٠ م في عهد السلطان عبد العزيز ، فأخضع رؤساء العشائر بعد عنادها ، ودوّخ العصاة وطاردهم في أوكارهم ، ثم أصلح أداة الحكومة ، فأقبل الزراع على زراعتهم ، والعمال والصناع على عملهم وصناعتهم ؛ وأنشأ أول مطبعة في بغداد ، وشجّع على إنشاء جريدة سماها « الزوراء » ؛ وحث الشركات على العمل : فشركة لتسيير البواخر بين بغداد والبصرة ، وشركة لتسيير الترام بين بغداد والكاظمية ؛ وقرّب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة ، وبث المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية ، وأنشأ متنزها عاما في بغداد سماه « بستان الأمة » « ميلّت باغجه سي » .

ومن طريف آرائه أنه عرف أن « بالنجف » كنوزاً مدفونة ، فيها كثير من الأحجار الكريمة كانت تزين بها الأضرحة والمشاهد فدأخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور ، فأخرجها مدحت ، وقوّمها الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة ؛ فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدي

بثمنها بين النجف وإيران (لأنه كان قد اشترك في التبرع بها كثير من الفرس)، فلم يوافقه العلماء على ذلك فبطل المشروع. كذلك من طرائفه أنه ألّف مجلساً للشورى في بغداد يرجع إليه في أمور الولاية، ولم تكن الناس تألف الجهر بالرأي والشجاعة في القول، ولا تعدّ لهم بجانب الوالي شخصية، فجمعهم يوما وقال لهم: إني أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالي في زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون؟ قالوا جميعاً موافقون، هذا هو الرأي، وهي الحكمة؛ فكتب بذلك محضراً وختمه جميعهم؛ ثم جمعهم في اليوم الثاني وقال: لقد فكرت في أمر زيادة الضرائب فتراءى لي أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس، ولكن محضر أمس أرسل، فإذا رأيتم هذا الرأي صواباً كتبنا آخر ألحقناه به، وبيّنا الأسباب الموجبة لنقضه، فقالوا: نِعْمَ الرأي ما رأيت؛ ووقعوا على الثاني كما وقعوا على الأول. فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيده وقال: والله ما أرسلته ولكن أردت أن أختبركم، فما قيمة المجلس إذا وجمتم دائما إلى رأيي وحده؟! ثم ألقى عليهم درسا قاسياً في الحرية وفوائدها، والشخصية وتكوينها، والاستقلال في الرأي ومزاياه.

وكانت ولايته للشام أصعب، فقد ولاها في العهد الحميدي بعد حوادثه مع عبد العزيز واتهامه بالجمهورية، وعداء السلطان والمابين والوزراء له، كلهم يتربص به الدوائر. ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق، فهذه مشاكلها بدو وعشائر، وعلاقته بإيران ونحو ذلك؛ أما مشاكل الشام فأخطر: أمور لبنان تتصل بفرنسا، وأمور الدروز تتصل بإنجلترا؛ ولكل دولة مصالح ومدارس وكنائس، وغير ذلك. فكان أول ما لفت نظره ما ذكر من «أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل ... ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدما ملموسا، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن، فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا».

فشكّل الجمعيات، وجمع الإعانات، وفتح المدارس، وأصلح المساجد وجعلها مدارس، ووضع عقوبة لولي أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله إلى المدرسة، واستعان بأموال الأوقاف في أمور التعليم. وتأسست في عهده «جمعية المقاصد الخيرية» وانتشرت شعبها في البلاد.

ولما حاول الإصلاح الاقتصادي والإداري اصطدم بالدول، فكانت فرنسا صاحبة امتياز لبنان، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة وعشرين ألف ليرة من إيراد جمارك الشام، فكتب إلى رئيس الوزارة بقطع هذا المبلغ فغضبت فرنسا؛ وهكذا وهكذا من مشاكل، والدسائس تحاك حوله، وتشاع الإشاعات بأنه يريد الاستقلال بسوريا، ويستدل على ذلك بأن هاتفا هتف «فليحي مدحت باشا»، وأن كاتبا كتب «الخديوي مدحت». ولذلك لم يتمكن من الإصلاح في الشام كما تمكن منه في العراق، مما لاقى من العناء في الداخل والخارج. فيالله للمصلحين!

وأخيراً نقل إلى أزمير، فلم يطل بها مقامه حتى كانت المأساة.

فبعد خمس سنين من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت المسألة من جديد، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه. وبلغ مدحت وهو في أزمير أنه يراد القبض عليه والتحقيق معه، وكتب إليه صديق له «فاخرج إني لك من الناصحين». وعرض عليه بعض أصدقائه من الأوروبيين ركوب باخرة معدة وسفره إلى الخارج فرفض وقال: «كيف أرتكب الفرار لجريمة لا نصيب لها من الصحة».

وبينما هو نائم في داره إذا بالجنود تحيط به، ويقبض عليه ويرسل إلى الآستانة لمحاكمته بتهمة الاشتراك في قتل عبد العزيز.

من عهد أن تولى السلطان عبد الحميد، وهو لا يأمن جانب مدحت، ومن لف لفّه، ويخشى جد الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز؛ وبلغت به الخشية حد الهوس، فكل قوى المملكة من مال ورجال وسمع وبصر مسخرة للمحافظة على شخصه، ومراقبة مدحت وأمثاله،

لأن من قدر على البدء كان أقدر على الإعادة . وأخيراً اتهم هو وأعوانه القضاء على مدحت وأصحابه بهذه التهمة ، فدُبِّرَت محاكمتهم ، ورتبت شهودهم ، ورسمت خطة الإيقاع بهم . وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام ، فتوسط الإنجليز وبعض سفراء الدول فاستبدل بالإعدام النفي ، ووضعوا في باخرة سارت بهم إلى جدة ومنها إلى الطائف .

وأهينوا من يوم خروجهم من الأستانة بالتضييق عليهم في مأكلهم وملبسهم ومنامهم . وسجنوا في قلعة الطائف ثلاث سنين ، وأجرى عليهم العذاب ألواناً ، وكلما مر عليهم زمن وهم أحياء زادوهم تضييقاً حتى يموتوا . ومن اشتد من الضباط عليهم رقي ، ومن أخذته الشفقة عليهم أبعد . ومدحت يرسل الكتب إلى أهله يطلب منهم مالاً يقتات به ، ويبذل كثيراً من الحيل في إيصالها إليهم ، فإذا أرسلوه لم يصل إليه . وثمانية من سادة القوم منهم مدحت يعيشون على صحن من « شوربة » مصنوعة من الماء وورق الفجل في الصباح ومثله في المساء ، ويريدون بذلك أن يميتوهم جوعاً فلا يموتون . وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذرعاً فقرروا أن يسموهم ، ولكن مدحت وصحبه يكتشفون المؤامرة .

فلما أعيتهم الحيل أوعزوا بخنقه فخنق . وكان آخر ما كتب إلى أهله كتاباً جاء فيه : « سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن .

فقد أخذوا منا الأقلام والدواة والورق ، وضيقوا علينا الخناق ، وقصدوا تسميمنا واحداً بعد واحد ، ولكن ظهرت نيتهم . . .

ولا بد أن يصلوا يوماً ما إلى غرضهم . فإذا جاءكم خبر وفاتي قبل كتابي فلا تحزنوا . وأنا أرجو من الله المغفرة فقد مت فداء الوطن ، وأستودعكم الخالق الباقي » .

***

فقضى مدحت حياته كلها في الإصلاح الاجتماعي ، يختار من المدنية الحديثة أحسن ما وصلت إليه من تنظيم الحكم على أساس الشورى التي تتفق وتعاليم الإسلام ، ويأخذ خير أساليبها في نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد ، ويراعي في ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الاختصاص ، فيعجل ما أمكن ، ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن ، ويحوِّر ما يأخذه حتى يتفق وعقلية شعبه ، ويلتذ من العذاب يصيبه في هذه السبيل لأنه ربطه بعقيدته الدينية ؛ فالدين في نظره ليس صلاة وصوماً فقط ، ولكنه مع ذلك عمل لخير الشعب ، ولا خير أرقى من الأخذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها ، والثورة على من يقف عقبة في سبيل تقدمها — ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئناً مستبشراً ، وهو في منفاه يترقب الموت من ساعة إلى ساعة ، يقول لأهله في بعض كتبه : إني أقرأ القرآن وأستعيد حفظه ، وأستعذب تكرار آية « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » وأعدُّها أكبر عزاء لي ، وأهزأ بما أسمع من هجاء وافتراء ، فقد سلَّمت كل أموري لربي . إن الحياة محدودة وهي كالموتة ومحنتنا يكافئنا عليها ربنا ، ولنا أسوة في الأنبياء والأولياء الذين قتلوا أو سجنوا فصبروا على ما أصابهم .

فإذا فرغ من عباداته ، دوَّن بعض مذكراته .

***

وقد خدمت أفكارَه شناعةُ وفاته أكثر مما خدمها جهاده في حياته ، فقد آلمت النفوس الخيرة مما أصابه ألماً ممضاً ، وتأججت النار في أفئدتهم ، وأفئدة من يتصل بهم ، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود ، فلما التهبت النيران التهمت عبد الحميد كما التهمت من قبلُ عبد العزيز ؛ بل لعلها أيضاً هي التي التهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

***

والآن ننتقل بأجهزتنا إلى مصلح آخر من صنف آخر ، هو السيد جمال الدين الأفغاني ، فإلى اللقاء ؟

أحمد أمين

لى لذة فى ذلتى . . .

لخلود الآثار أسباب وثيقة ، ولتخليدها دواع قوية ، وقد يكونُ الأثر وسطاً أو دوناً فى حقيقته ، فإذا تهيأ له سبب من أسباب الخلود ، وداع من دواعى التخليد ، اجتمعت فيه قوتان تكفلان له بالعلوّ والغلوّ ، فيكون غير نفسه بالأمس ، ويرتفع ثمنه منذ اليوم الجديد على ثمنه القديم ، وهذا أمر مشهود أبداً ، ملحوظ فى أكثر الأشياء ؛ وقديماً قال قائلهم : « والتبر كالترب ملقى فى أماكنه » ، و « اللؤلؤ الرطب فى الأصداف كالحجر » ، و « العود فى أرضه نوع من الحطب » . هذا فى الأشياء المستعملة التى يُعنيها الاستعمال أو ينقص قيمتها الاعتلال ؛ أما الآثار المعنوية كالحكم والفلسفة والشعر والنثر الأدبىّ وفنون الأدب الأخرى ، فهى التى تزكو على مر الدهور ، وتعلو مع كرّ العصور ، ولا يخلو خلودُها وازدهارُها من فترات يعتريها التنازع فى الكمال والتفانى فى الاستقلال ، فكأن سُنة بقاء الأصلح ، وطبيعة فوز الأملح ، باقيه أخرى الليالى وأبد الأبيد . والأثر الخالد هو الذى استجمعت فيه أكثر أسباب الكمال النسبىّ أولاً أو آخراً ، وأصلاً أو اكتساباً . وموضوعُنا فى هذه الكلمة المكتوبة « الشعر » فإنه يقلّ ثمنُه وينخفض ويرتفع ، ويضيع ويشيع ، وينحط ويعلُو ، بحسب الأسباب المتاحة له التى تعتمد على الزمان وأهليه ، والأهواء الأدبيّة والأطوار اللغوية . ومن أسباب كمال الشعر التى ذكرها قدماء الأدباء أن تكون « ألفاظهُ متخيّرة ، ومعانيه منتخبة ، وألفاظه عذبة ، ومخارجه سهلة ، وديباجته كريمة ، وطبع ناظمه متمكنا ، وسبكه جيداً ، وأن يكون له ماء ورونق[1] » ؛ ولكنّ هذا القياس غير مطرد ، وذلك النظر غير لازم ، فإن للكمال أسباباً لا تفنى ، ودواعى لا تحصى ولا يُحاط بها ؛ قال الأديب الكاتب أبو الحسن على بن الحسين الأثير المعروف بابن أخت المصفرىّ من معاصرى أبى إسحاق الصابى : « فلو ترك الناس أغراضهم من النظم والنثر ، والجد والهزل ، اعتماداً على السابقين الأولين لماتت[1] الخواطر ، وسقطت الهمم ، ولكن لكلّ جديدلذّة ، ولكل حديث بهجة ، كما أن كل قديم يُسأم . . . فأنت إذا تأملت شعر امرئ القيس وجدته قد سبق إلى كل معنى نادر ، وذهب بكل فضل باهر ، ولم يترك لمن يليه مجالاً يشق فيه غباره ، ومقالاً يبلغ به شأوه ؛ ولا ترى اليوم[2] أكسد من ديوان شعره بالعراق ، وقد صارت الرغبة كلها فى ديوان أبى فراس والصنوبرى وكشاجم والتلعفرى وأشباههم من شعراء الوقت[3] » . فالجدّة ، عند الكاتب هذا ، كانت سبباً فى إقبال الناس على شعراء زمانهم ، فليت شعرى هل من الأدباء اليوم من لا يعرف الأبيات المغناة التى أولها « لى لذّة فى ذلتى وخضوعى » ؟ وهل كان سبب معرفة الأدباء لها كونها جديدة ؟ ليس الأمر بذاك ، وإن ادّعاه مدّع فليس هناك ؛ لأن الذى رفع ثمن هذه الأبيات ، ورجعها إلى الحياة ، وأولع بها الشيوخ والشبان والفتيات ، هو التغنّى بصوت مغنية عربية بارعة ماهرة مجيدة قادرة ، فذلك الذى خلّد هذه الأبيات الوسط ، ورفعها من هوّة الجمود إلى قمة الخلود . ومن سعادة الشعراء أن يُغنّى بشعرهم ، فإن التغنى بالشعر يزيد ثمنه الأدبىّ « عشرين مرة » لا عشر مرات ، ولذلك يكون من الصعب أن يقابس بين شعر غُنّى به وشعر

(١) الجاحظ فى البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٤٤ — ٥٥ .

(١) كذا ورد باللام والفصيح من دونها ، وهو لغة القرآن الكريم .   (٢) فى القرن الرابع للهجرة .

(٣) أصول التاريخ والأدب ، ج ٢٦ ص ٤٣ ، نقلا من كتاب « المجموع اللطيف » لأمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله الأفطسى القاضى النسابة .

آخر لم يلبس حُلّة الفناء ، ولا تُمحَ فيه رُوح الفناء .
وصاحبُ « لي لذة في ذلتي وخضوعي » من السعداء إذن ، لأن الله قد هيأ له سبباً جميلا لتخليد شعره ، ولكنّ كثيراً من الناس لا يعرفون صاحبه — أعني صاحب الشعر — فمن الواجب الأدبي الذي قبلنا لثله من العلماء والأدباء، أن نذيع ترجمته بين الناس فنقول :

هو شاعر بغداديّ اسمه « أبو الحسن سعد الله بن نصر — وقيل نصر الله بن سعد بن عليّ بن الدجاجيّ » ، ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه[1] ، وجمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثي[2] ، وقاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة الكناني في تعليقة الشعراء المنشدين[3] ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات[4] وابن شاكر الكتبي[5] وغير هؤلاء المؤرخين[6] . ولد ببغداد بالجانب الشرقيّ منها سنة ٤٨٢ أو سنة ٤٨٠ ، وبها نشأ وتأدب ، وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ودرس الوعظ والتذكير ، وقرأ القرآن الكريم بالروايات على مقرئ زمانه ببغداد الشيخ أبي منصور محمد بن أحمد الخياط ، وقرأ أيضاً على الرئيس أبي الخطاب علي بن عبد الرحمن بن الجراح ، وسمع الحديث منهما ومن أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني فقيه الحنابلة في عصره ، ومن غيرهم ؛ وروى فيما رواه مسند الإمام ابن حنبل ؛ ووعظ ببغداد سنين كثيرة ، وأقرأ الناس القرآن المجيد ، وحدّث بالأحاديث النبوية . قال جمال الدين الدبيثي في تاريخه : « قرأتُ على أبي الفضل محمد بن أبي نصر المقرئ ، قلتُ له : أخبركم أبو الحسن سعد الله بن الدجاجيّ — قراءة عليه — وأنت تسمع ، فأقرّ به (وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود) قال قال رسول الله (ص) : « مررتُ ليلةَ أُسري بي بإبراهيم — عليه السلام — فقال : يا محمد ! أقرئْ أمتك مني السلامَ وأخبرْهم أنّ الجنةَ طيبة التربة ، عذبةُ الماء ، وأنها قيعانٌ وأغراسها قولُ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله » . وكان لطيف الكلام حلو الإيراد إلا مُلازماً المطالعة إلى آخر حياته ، وله شعر جيد بالغ فيه الصفدي فعده من الطبقة الأولى ، ومنه الأبيات التي استوجبت هذا البحث :

لي لذةٌ في ذلتي وخضوعي
وأحبُّ بين يديك سفكَ دموعي
وتفرُّحي في رأي عينكَ راحةٌ
لي من جوى قد كنّ بين ضلوعي
ما للذلِّ المحبوب في شرع الهوى
عارٌ ولا جورُ الهوى ببديع
هبني أسأتُ فأين عفوك سيدي
عمّن رجاكَ لقلبهِ الموجوع
جدْ بالرضا من عطف لطفك وانتبه
بجمال وجهكَ من سؤال شفيع

ومن شعره وقد جانس فيه :

ما بكمْ مهجتي بيعاً ومقدرة
فأنتم اليوم أغلالي وأغلى لي
علوتُ قدراً ولكني شغفتُ هوًى
بحبكم هو إغلالي وأغلى لي
أوصى لي الشيخُ أن أشقى بحبكم
فتقطع البين أوصالي وأوصى لي

وأن هذه الأبيات التي قبحتها فتاة الجناس وركاكة الاقتباس من تلك الأبيات ؟! على علمنا باستحالة القياس .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ١٠ ص ٢٢٨ .
(٢) ذيل تاريخ بغداد ، أصول الأدب والتاريخ ج ٢٠ ص ١٧٤ .
(٣) ذلك المرجع ، ج ٥ ص ١٣٤ .
(٤) فيه ، ج ١١ ص ٥٠ .
(٥) فوات الوفيات ، ج ١ ص ١٦٧ .
(٦) كتاريخ الإسلام أبي سعد السمعاني في تاريخ بغداد ، ومثل الحافظ أبي العباس عمر بن أبي الحسن القرشي الدمشقي في تاريخه .

قال قاضي القضاة عز الدين بن جماعة الكناني : « وكان من أعيان الفقهاء والفضلاء ، وشيوخ الوعظ النبلاء ، وكان يخالط الصوفية ويحضر معهم سماع الغناء على عادتهم » . وقال ابن الدبيثي : « انتقل إلى الجانب الشرقي (من بغداد) قبل وفاته وسكن باب البصرة إلى أن مات » . وقال أبو المحاسن عمر بن علي القرشي الدمشقي : « وتوفي سنة أربع وستين وخمسمائة ودفن غَدَ ذلك اليوم » . وقال أبو الفرج الجوزي : « توفي في شعبان من هذه السنة (٥٦٤ هـ) ودفن إلى جانب رباط الزوزني في إرضاء[1] الصوفيّة ، لأنه أقام عندهم مدة حياته ؛ فبقي على هذا خمسة أيام ، وما زال الحنابلة يلومون ويُكدِّرهم هذا ويقولون : مثل هذا الرجل الحنبلي أيُّ شيء يصنعُ عند الصوفيّة ؟ فنبَشَهُ بعد خمسة أيام بالليل وقال : كان قد أوصى أن يُدفَنَ عند والديه . ودفنه عندهما » . ومن أخباره الطريفة أنه سئل في مجلس وعظه عن أخبار الصفات فنهى عن التعرض لها وأمر بالتسليم ، وأنشد :

أبى الغائب الغضبانُ يا نفس أنْ يرضى
وأنتِ التي صيَّرتِ طاعتَهُ فرضا
فلا تهجري مَن لا تُطيقين هجرَهُ
وإنْ همَّ بالهجران خدَّيكِ والأرضا

وقال : كنتُ خائفاً من الخليفة لحادث نزل ، فاختفيتُ فرأيتُ في النام كأني في غرفة ، فجاء رجل فوقف بإزائي وقال اكتب :

إدفع بصبرك حادثَ الأيامِ
وترجَّ لُطفَ الواحد العلاّمِ
لا تيأسنّ وإنْ تضايق كربها
ورماكَ ريبُ صروفها بسهامِ
فلهُ تعالى بين ذلك فُرجةٌ
تخفى على الأبصار والأوهامِ
كَمْ مَنْ نجا من بين أطراف القنا
وفريسة سلِمَتْ من الضرغامِ ؟

(١) أى إرضاءاً لهم .

قال مصطفى جواد الكاتب لهذا : وترك أبو الحسن الدجاجي ابناً له ذكر في تاريخ العلماء ، ولعله ترك غيره . وروى عنه جماعة من العلماء ؛ وممن روى عنه مسند الإمام أحمد بن حنبل العلامة محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني عالم الشيعة في زمانه ، فقد ذكره في أول كتابه « مناقب آل أبي طالب » ، وأثبت أنه روى الكتاب المذكور مع الفضائل عنه ؛ ولكن اسمه تصحّف على طابع الكتاب وهذا نصه : « إسناد مسند أحمد عن أبي سعد بن عبد الله الدجاجي عن . . . »[1] والصحيح « عن أبي الحسن سعد الله الدجاجي » ، ونقله العلامة المجلسيّ مصحفاً ولم يصلحه ولا أصلحه طابع كتابه[2] ، وقد بين الصبح لذي عينين ، والله الموفق لصواب القول .

(بغداد) **مصطفى جواد**

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٦ من طبعة العجم .
(٢) بحار الأنوار ج ١ ص ٢٢ .

وظائف الدولة

قرأت في « الثقافة » مقالا عن تدخل الدولة يقول كاتبه إنه راجع تاريخ الهند والصين واليونان في العصور القديمة، فوجد أن تدخل الدولة في حياة تلك الأمم أدى إلى انحطاطها، ولكنني لا أعرف في تاريخ تلك البلاد أنه قد قامت بها في العصور القديمة حكومات موحدة، وأنه قد كان هناك تدخل من تلك الحكومات. وأنا أترك جانبا الهند والصين، فتاريخ تلك البلاد القديم لا نعرفه لا أنا ولا غيري على نحو يمكننا من الحكم على علاقة الدولة بالفرد؛ وأما اليونان فأنا أعلم أنه لم يكن بها قديما غير مدن كأثينا وإسبرطة وطيبة، وكانت كل مدينة تكوّن دولة. وفي أهم تلك المدن وهي أثينا كان الشعب هو الدولة؛ فالشعب كان الحاكم لنفسه المتدخل في أمر نفسه، وكان في هذا مجد أثينا وقوتها لا ضعفها وانحلالها.

وأما القرون الوسطى فأمرها معروف، إذ فيها ساد النظام الإقطاعي فلم تكن هناك دول، وإذن فلست أفهم كيف تدخلت تلك الدول التي لم توجد في حياة الشعوب؟! وإنما الذي نعرفه هو أن « اتحادات المهن » هي التي وجدت وتحكمت في الأفراد.

بقيت العصور الحديثة، ومن الغريب أن يقول الكاتب إنه لم يجد « مؤلفاً ولا مشرعا ولا كاتباً » دعا إلى تدخل الدولة بصراحة. وأنا طبعاً كنت أتمنى أن أكون المجلي في هذا الميدان، ولكنني لسوء الحظ قد سُبقت إليه. سبقني إليه عشرات بل مئات من كبار المفكرين. سبقني شفلييه، ولويس بلان، وكورنو، ورودبرتس، ولاسال وفنجر! وكثيرون غيرهم ممن يجدهم الكاتب الفاضل في جميع الكتب التي تتحدث عن تاريخ المذاهب السياسية والاقتصادية[1].

وأنا بعد لست بحاجة إلى أن ألفت النظر إلى ما في الآراء المبتسرة من خطر، وليس أقتل لنهضتنا الحالية من النقل عن الأوربيين في غير فهم واضح لاعتبارات التاريخ والبيئة. فما قاله جوستاف ليبون عن سر تقدم الإنجليز السكسونيين وتخلف الشعوب اللاتينية كلام قديم قلما تجد في أوروبا اليوم من يؤمن به؛ فالزمن قد تغير، وجميع الدول تسير الآن راضية أو كارهة نحو التدخل في كافة مرافق الحياة. حتى الإنجليز أنفسهم في سبيل العدول عن مبدأ الحرية، حتى لنستطيع أن نقول إن حزب الأحرار قد مات في انجلترا حيث ولد، وإن نظريات سمث وريكاردو وغيرهما قد دخلت في حكم التاريخ. ثم إننا غير تلك الدول: تاريخنا غير تاريخهم، وتربيتنا غير تربيتهم، وأخلاقنا غير أخلاقهم، وليس الأمر أمر مناقشات نظرية وتعميمات لا حق لنا فيها، وإنما الأمر أمر حقائق واقعية.

وإنه وإن يكن من المفهوم أن المجلات كالثقافة أو غيرها ليست منابر للتدريس، إلا أنني مع ذلك سأحاول إيضاح معنى تدخل الدولة في حدوده وغاياته لسبب واحد، هو أننا قد أوشكنا أن نبدأ في صياغة برامج لأحزابنا تستند إلى أصول عامة في الحكم، ولعله يكون من واجبنا وواجب غيرنا من المشتغلين بالمسائل العقلية أن يوضحوا السبل ويحذروا من الأخطاء، حتى لا تفسد الغرائز والشهوات الفطرية حياتنا العامة.

مبدأ تدخل الدولة لم يعرف إلا في النصف الأخير من

---

(١) يستطيع حضرة الكاتب أن يراجع على الأقل الكتاب الذي يستخدمه جميع طلبة الحقوق فرنسا ومصر وعنوانه (تاريخ المذاهب الاقتصادية) Histoire des doctrines économiques, par Ch. Gide et Ch. Rist حيث يجد من صفحة ١٨٤ إلى صفحة ٥٣٠ فصلا ضافيا عن (اشتراكية الدولة) التي سماها تدخل الدولة.

القرن التاسع عشر ، وقد كان ظهوره كرد فعل لمذهب الحرية في الحياة الاقتصادية . ولكى نخرج من الجدل النظرى الذى اشتبك فيه أنصار وخصوم كل من المذهبين ، دعنا ننظر في بساطة إلى وظائف الدولة لنحدد موضع الخصومة .

هناك وظائف ثلاث لا ينازع أحد في وجوب نهوض الدولة بها وهى : (١) الأمن الذى يحققه البوليس والخفراء (٢) سلامة الوطن التى يحميها الجيش (٣) تطبيق القوانين بإشراف القضاء .

ولكن هذه الوظائف ليست كل شيء في حياة الأمة ، فثمة الحياة الثقافية التى ينهض بها التعليم ، والحياة الاجتماعية بما تتبع من إقامة التوازن بين الطبقات المختلفة ورعاية حقوق كل طبقة ، وأخيراً الحياة الاقتصادية من إنتاج وتداول واستهلاك .

فأما الحياة الثقافية ، فلست أدرى من الذى يستطيع أن يدعو الحكومة المصرية إلى عدم التدخل فيها حتى لا تنحط الأمة ؟! يقول الكاتب إن الجامعات في إنجلترا من عمل الشعب . قد يكون . ولكن ماذا يريد أن نعمل في مصر ؟ هل ندعو حكومتنا إلى أن ترد جامعة فؤاد إلى حالتها الأولى لتظل جامعة أهلية ؟ هل نطالبها بإغلاق جامعة فاروق لتترك الشعب يفتحها متى شاء ؟ ولقد استشهد الكاتب برأى لفؤاد باشا سراج الدين عن وجوب نهوض الشعب بحركة التعاون . طبعاً يجب على الشعب أن يكوّن تلك الجمعيات ؛ ولكن أما ترى أن فؤاد باشا شديد الاهتمام بقانون التعاون وبنك التعاون ، وبتنظيم التعاون ، وعجلة التعاون التى يحاجنا الكاتب بآرائها ؟! وما معنى كل هذا ، أليس هو تدخل الدولة الذى سيقتفي إليه الحكومة ؟! ثم أو ما ترى أن الحكومة الحاضرة سياستها كلها تقوم على التدخل في كافة مرافق حياتنا التى أصابها ركود الإهمال الحكومى ؟ والتعليم بنوع خاص ، ألسنا نرى الدولة تهم بأن تدخل فيما يفزعنا أن تتدخل فيه . لقد اعتزمت دولتنا أن توجه الأجيال القادمة إلى ميادين النشاط المختلفة التى يصلحون لها ، فمنهم من سيوجه إلى مدرسة ثانوية صناعية أو تجارية أو زراعية أو نظرية ؛ وهذه خطوة شهدتُ الكتاب والسياسيين بل الأفراد العاديين يقتتلون حولها في فرنسا أيام الوزارة الاشتراكية وزارة ليون بلوم ، التى لم تجرؤ أن تجعل «التوجيه المهنى» إجبارياً مكتفية بجعله مجرد نصيحة تسدى للأولاد والآباء . وإذا كنا قد وصلنا من التدخل في التعليم إلى هذه الدرجة فهل يأتى اليوم أحدنا فيقول إن أحد وزرائنا يحث الشعب على العمل ، وبذلك تكون سياستنا الآن عدم التدخل ؟! هذا فهم غريب وفقر في ملاحظة التيارات العامة في سياستنا . سياسة حكومتنا القائمة كلها سياسة تدخل ، وهى تذهب في هذا إلى حدود لا نقرها وربما ناقشناها في غير هذا المقال . وأما في إنجلترا أو أمريكا ؛ ففى البلاد الأولى إذا كانت وزارة المعارف لم تنشأ إلا سنة ١٨٩٩ فليس معنى هذا أنه لم تكن هناك هيئات حكومية تشرف على التعليم العام ؛ وكذلك الأمر في البلاد الثانية فليست هناك وزارة المعارف لأنهم تركوا التعليم لاختصاص السلطات المحلية في كل ولاية . ثم ما لنا وإنجلترا أو أمريكا . لنكن في بلادنا . ما هى حالتنا وكيف نقوّم الفاسد فيها ؟ أنتركه للشعب أم ندعو الحكومة إلى العمل ؟ هل نترك الشعب يمحو الأمية وينشر التعليم المهنى ويؤسس الجامعات ؟ أى عاقل يقول هذا القول !

وفى الحياة الاجتماعية نرى أن مصر يبلغ فيها الظلم الاجتماعى حداً كبيراً ، وما أنا بحاجة إلى أن أثير القارئ بوصف حالات الفقر وحالات الثراء التى نلاحظ جميعاً ما بينها من تفاوت مؤلم ؛ وإذا كان العالم كله قد سار نحو التدخل لإنصاف الطبقات المظلومة ، أنأتى نحن اليوم ونقول

للدولة تحتذى بمبدأ الحرية ، مبدأ سمث وردبكاردو ودعه الفرد يعمل والتجارة تمر ؟! لقد أسفرت تلك النظرية عن الحالة التى يعانيها كثير من الشعوب ، وبات القوى كان قويا بنفسه ولكنه قوى بالوراثة ؛ فصاحب رأس المال يستغل العامل ، والمالك يستغل الفلاح ، والناشر يستغل الكاتب ، وليس لهؤلاء إلا أن تحميهم الدولة . لقد وضع العالم المتحضر تشاريع العمل ، وهذا هو التدخل ؛ واستخدم نظام الضرائب لتحقيق العدل الاجتماعى ، وهذا هو التدخل ؛ وأقام الهيئات تفصل بين صاحب العمل والعامل ، وهذا هو التدخل . والدولة بعد لم تعد حاكما مستبدا بل أداة تنفيذ لإرادة الأمة . ثم من الذى سيضمن للفرد علاجه من المرض وقوته إذا أدركته الشيخوخة ، أو العاهة أو البطالة ، أنترك ذلك للشعب ؟ عجيب هذا المنطق ، منطق يكذبه الواقع ويكذبه العقل السليم .

فى النشاط الاقتصادى ، وهنا تدور المعركة ، ولكل فريق حججه التى تستحق النظر . فأصحاب الديمقراطية الحرة يرون أن النقمة الشخصية هى أهم ضامن للنجاح فى الحياة الاقتصادية ، والدولة كشخصية معنوية ينقصها هذا الحافز ، وهم يريدون أن يتركوا الفرد ينمى فى نفسه روح البدء والقدرة على تحمل المسئوليات حتى يترقى تلك التربية الاستقلالية التى أشار إليها الكاتب ، ولكن المصلحة الفردية مصلحة أثرة مدمرة ، وهناك مصلحة الأمة ومصالح الأفراد الآخرين ، فإذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد مع مصلحة فرد آخر ، من يوفق بين هذه المصالح إن لم تكن الدولة ؟ انظر مثلا إلى شركات الاحتكار كشركات الماء والكهرباء ببلادنا ، ماذا يكون مصيرنا إذا لم تتدخل الدولة لحماية مصالحنا نحن المستهلكين ؟ ثم من قال إن المصلحة المباشرة إذا انعدمت فشل كل مشروع اقتصادى . أو ما نرى إلى الشركات المساهمة كيف يديرها عضو منتدب بمكافأة ، ويصل بها إلى ذروة النجاح ! بل أو ما نرى إلى جمعيات يديرها رئيس لا يكسب منها شيئا يذكر ومع ذلك نجحت أى نجاح ! فكر مثلا فى لجنة التأليف . وأبعد من ذلك دلالة الجمعيات الخيرية ، وها هنا إلى جوارى مستشفى المواساة الذى تفاخر به الإسكندرية مدن أوروبا الكبرى . أو ما تعلم أن الذى بناه رجل خير طيب الله ثراه كان وكيلا بالجمرك بالإسكندرية ؟! وبقيت حجة أخيرة ، تقول إن الأفراد أو الشركات أقدر على الإدارة من موظفى الدولة ، ولكن ها هى السكة الحديدية فى مصر ، وها هى شركات النقل ؛ من يستطيع أن يزعم أن شركات النقل أنجح من السكة الحديدية عندنا ؟

والآن فلننظر إلى أحوالنا الداخلية . لدينا ثروات معدنية ، وأراض يمكن أن تستصلح ، وقوى كهربائية يمكن أن تولد ، ومشروعات عامة من ترع وطرق ومصارف وما إليها ، أنترك كل ذلك للشعب وننتظر حتى ينهض بها ؟! وهل نسينا مآسى كهربة مساقط أسوان ؟

وبعد كل ذلك نرى من يفكرون فى الهواء ، فيقولون : لا ؛ إن دعوة الدولة إلى التدخل معناه عدم ثقتنا كأفراد بأنفسنا ؛ معناه أننا ضعاف ، وما إلى ذلك من كلام فارغ . وأفرغ منه ما يجأر به البعض من حرية الفرد ؛ كأننا فى بلاد يحمى حرية الفرد فيها شىء يذكر ! لقد قلت فى مقالى الذى ينقده الكاتب إن من واجب الدولة أن تحمى الفرد من الدولة ذاتها بأحد أمرين ، فإما أن تعطى القضاء العادى حق حمايته من الحكومة حماية فعالة ، وإما أن تنشىء قضاء إداريا يختص بتلك الحماية ، لأننا كما هو معلوم لا نملك الآن هذه الحماية ولا نملك .

لقد حان الحين لأن نصحو إلى الواقع الذى يحوطنا ، وكفى تخبطا فى نظريات غربية لا نجيد فهمها .

محمد مندور

فى حضرة أبى العلاء

فى ليل العاشر من تشرين الثانى دق جرس الهاتف ، فتناولت السماعة فإذا المستشرق المهندس السيو ايكوشار يحدثنى من بيروت ، ويطلب إلى أن أهيئ نفسى إلى السفر إلى المعرة للإشراف على بنائى ضريح أبى العلاء الذى كاد أن يتم ، ولقراءة الكتابات الحجرية التى عثر عليها فى القبور الثلاثة التى وجدت إلى جانب قبر أبى العلاء ؛ فهيأت نفسى .

وفى صباح اليوم الثانى فى الساعة الرابعة توجهنا إلى المعرة ، فكان الجو بارداً والسماء ممطرة . تركنا دمشق فما وصلنا حمص حتى أشرقت الشمس وصحا الجو ، فتركنا مدينة حمص إلى حماه ، ومنها إلى المعرة ، فرأينا البناء قدتم ؛ وعوبناء محمد المهندس ايكوشار فيه إلى إحياء الفن الإسلامى القديم ، فجعل الضريح مدرسة لها مسجدها ومكتبتها وأروقتها . وإنك إذا ما دخلتها توهمت أنك داخل إلى مدرسة من مدارس العصر الأيوبى : صحن واسع ، فيه حديقة حسنة التنسيق فى جنوبه إيوان لطيف ، تحته يقوم القبر ، وإلى جانبى القبر بابان يؤديان إلى مسجد ضخم ، فى جانبه الأيمن غرفتان وفى جانبه الأيسر مكتبة ضخمة . ومن وراء المسجد صحن فيه القبور الثلاثة المكتشفة ، أحدها قبر مجهول ، وثانيها قبر امرأة ماتت سنة اثنين وأربعين وستمائة ، وثالثها قبر أحمد بن إسماعيل بن سليمان التنوخى سنة ٧٦٠ ، وحول هذه القبور الثلاثة كتابات كوفية (من آية الكرسى) بارعة جداً .

أما قبر أبى العلاء نفسه فقبر ساذج ضخم ، له شاهدة واحدة كتب عليها بالكوفى المشجر (قبر أبى العلاء ابن عبد الله بن سليمان) ، وقد أتى الزمان على كلمتى (قبر وأبى) ؛ وعلى ظهر هذه الشاهدة ما نصه : «رحمة الله عليه» . وليس على القبر تاريخ ، ولكن طرز بناء القبر والكتابة يؤكدان لنا أن القبر لم يحدث فيه أى تغيير منذ القرن الخامس للهجرة .

وكان ضروريا أن يحفر العمال قبر أبى العلاء ليعيدوا بناءه من جديد ، فحفروه وكشفوا عن اللحد ، وأقبلت أريد النزول فهيبت أول الأمر ، وتخيلت الشيخ الجليل فيه ؛ ثم تشجعت ونزلت ، فوجدت البناء مهدوماً ، وليس فى اللحد أثر من جمجمة أو عظم أو عجب ذنب . ثم أعاد العمال بناء اللحد كما كان ، وأعادوا القبر حيث كان تماماً . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فقفلنا راجعين إلى دمشق ووصلناها فى منتصف الليل ، فدخلت غرفة نومى وخلعت ثيابى ، وتمددت على فراشى أحاول النوم بعد ذلك النهار المتعب الشاق ، الذى قضينا نصفه فى السيارة تقطع بنا ثمانين أو تسعين كيلو متراً فى الساعة ، ونصفه فى حل الحجارة ، وتصور القبور ، وما إلى ذلك . وعبثاً حاولت أن أجتلب النوم المستعصى ؛ وبينا أنا كذلك إذا بى أرى الشيخ الجليل ماثلا أمامى ، فحيانى ورددت عليه التحية ، وكان إلى جانبه طائفة من الناس عرفت منهم بعضهم ، كالأستاذ المرحوم بدر الدين النعسانى ، والأستاذ سليم الجندى ، والمرحوم أحمد تيمور باشا ، والدكتور طه حسين بك ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، والأستاذ عبد العزيز الراجكوتى . وكأن أبا العلاء أحس أنى لم أعرف بقية صحبه ، فقال : أما هذا الشيخ الذى إلى يمينى فهو أبو طاهر السلفى الحافظ الحيذى التبريزى ، وأما الثانى فهو مواطنك كمال الدين بن العديم الحلبى ، وأما الثالث فهو أبو منصور عبد الله بن سعيد الطائى . وأما هذا الذى إلى يسارى فهو الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن هاشم ناسخى وكاتبى وملازمى ، لم يتركنى منذ أن انزويت فى بيتى سنة ٤٠٠ للتأليف والإملاء ، فأمليت عليه أكثر كتبى ، فتولى نسخها وإتقانها أحسن الله معونته ، وألزمنى بذلك حقوقا جمة وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فى زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه . والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث

الزمن والأرزاء . فقلت : يا سيدي الشيخ أنا والله سعيد بهذه الزيارة فكيف أنت ؟ قال : على أحسن حال ، وأجود بال ، بارك الله فيك وفي الذي بذلت وتبذل أنت وجماعتك في بناء ضريحي ومدرستي ، ولولا أن جزاء المرء على نيته لما سمعت مني كلمة الشكر هذه ؛ فمن قال لك إني أميل إلى رفع الأضرحة وإشادة العمائر على قبور الأموات ؟ فتقدم الدكتور طه حسين وقال : إنهم يا سيدي يقومون ببعض حقك ، وكم كنا نلوم إخواننا الشاميين على تقصيرهم في القيام بهذا الواجب ، ولهم منا الآن أفضل الشكر على أن أتموا ما شرعوا ؛ وأنا أرجو أن يكون يوم الذكرى الألفية يوماً فخماً يليق بمقام الشيخ ويجدد ذكراه الطيبة . فقال الشيخ : جزاك خيراً ربك يا طه ! فأنت تأبى إلا الكمال من كل نواحيك ، وما أنس فلن أنسى أنك أول من أحيا ذكرى في هذا القرن العشرين ، فكتبت عني ما كتبت ، ودفعك حبك الشديد إلى المغالاة ، ولقيت في ذلك من بعض معاصريك نقداً وعتبا ، ولكنك كنت تسير قدماً ، ولا تحفل بما قالوا . فلك أنت شكري لا لأنك أحييت ذكرى ، فأنا أزهد الناس فيه ، بل لأنك كشفت لأبناء عصرك الغطاء عن بعض آرائي في الحياة ، فلعلهم يستهدون بهديها . ثم التفت إلى الأستاذ سليم الجندي فقال : وأنت يا سليم لقد قضيت شطراً كبيراً من عمرك في الكتابة عني ، ولي عندك طلب أرجو أن توفق إليه ؛ ذلك أني أفرح الناس بتخصيص جناح من مدرستي ليكون مكتبة يفيد منها أبناء المعرة وزوارها ، فاسع يا ابن المعرة في تنمية هذه المكتبة فهي أفضل شيء في هذا المشروع . فقال الجندي : سمعاً للشيخ وتلبية . وبينما كان الشيخ يتحدث والأستاذ الجندي والدكتور طه كنت أفكر في سؤال الشيخ عما كتب هؤلاء الأساتذة فيه ، وعن رأيه في كل ما كتبوا . فلما أتم حديثه قلت : أريد أن أسأل الشيخ الجليل أسئلة فلعله يجيبي عنها ، فقال : هات . قلت : ما رأيك فيما كتب هؤلاء السادة المحيطون بك . فقال : سؤال محرج وليتك سألتني عنه وهم غائبون ، فأنا والله شاكر لهم ما بذلوه ، على أن في كل كتاب هفوة أو هفوات ، وما كنت أحب أن أنقد كتبهم في محضرهم ، ولكني رجل كنت قوالا للحق صداعاً به ، وسأكون ذلك الرجل . أما أستاذك وصديق النعساني فهو من الناس القليلين الذين فهموا شعري ، واعتنقوا مذهبي ، وهو على قلة ما كتب عني من أفضل رجال هذا القرن فهما لشعري وأدبي ، ولعله هو الوحيد من بين الذين كتبوا عني وآمنوا بما كتبوا ، واتخذوه دستوراً لهم في الحياة ، فإن آراءه في الدين والحياة والمرأة آرائي . وسكت الشيخ ، فقال بدر الدين الحمد لله الذي حقق ظني ، فقد كنت أتوهم أني أخطأت فهم بعض آرائك ، ولا أخفيك أني يوم كنت ألفظ أنفاسي الأخيرة سألت ربي أن يجمعني بك فور انتقالي إلى الدار الآخرة ، وهذا ما كان ؛ فلما رأيتك وأطمأننت سررت سروراً لا مزيد عليه ، وأنا جد فخور بكلماتك هذه . فقلت : وأنا يا سيدي بدر الدين ، سأنقل للناس من أصدقائك وأعدائك كلمات الشيخ فيك وفي أدبك . فقال : لا لا يا أسعد ، لا تفعل ذلك فإن هؤلاء الناس لا يساوون عندي جناح بعوضة ، وما كنت أحفل بهم في حياتي وأنا الآن أكثر عزوفاً عنهم ، وعن تقديرهم وإعجابهم . ثم أخذ الحديث شيخ المعرة فقال : أما الجندي سليم ، فقد دافع عن إيماني ، وأعاد وأبدأ وكتب عني كتابه الضخم الذي قضى فيه زهرة عمره ، وقد اطلعت على كل ما كتب فأنا له شاكر ، وكم كنت أود ألا يقضي فترة طويلة في الدفاع عن عقيدتي وإيماني ، وليترك الطاعنين في يطعنون ويقولون ما يشاءون ، فليس لقولهم وزن ولا لآرائهم قيمة ، وليته وهو اللغوي المتين انصرف إلى شرح اللزوميات شرحاً يكشف عن غوامضها لدى طلاب علم هذا الجيل . فقال الجندي : أنا باذل وسعي في

تلبية طلب الشيخ أعزه الله . ثم التفت الشيخ إلى تيمور باشا فقال : وهذا رجل كان يستطيع أن يعمل كثيراً ، ولكن الأجل عاجله ! وكتابه الذي كتب عني على ما فيه من فوائد لغوية وتاريخية كثيرة قليل الترتيب ، سيء التأليف. أخذ نفسه بأشياء ليس لها كبير غناء ، وهو كزميله الجندي أطال القول في ديني ، وما كان أغناهما من ذلك . ثم التفت إلى تيمور باشا فقال : نحن في عالم لا يرائي فيه ولا يماري فقال تيمور باشا : أعوذ بالله من أن أشك في صواب نظر الشيخ وحسن رأيه ، وله أعزه الله مل ء الحرية في أن يقول ما يشاء ويحكم بما يريد . ثم التفت الشيخ إلى طه بك فقال : أما ما كتب طه في كتابيه ، فأنا راض عنه كل الرضا ، وشاكر له كل الشكر ، وفخور به كل الفخر ، فهو الذي صحح أوهام المستشرقين ، وبدد ضلالاتهم في أقوالهم فيّ . وهو الذي أخرج للناس بفضل بحثكم أبناء هذا العصر كل فلسفتي وآرائي ، وإن كنت آخذ عليه في هذا شيئاً فأنا آخذ بعض مبالغاته وفهمه من كلامي ما لم أقصده ، ولكنه في ذلك مجتهد بارع ، له ثوابه وشكره ! ولن أنسى مداعباتك يا طه في الكتاب الذي أسميته « مع أبي العلاء في سجنه » ! وإن غفرت لك كل غريبة قلتها فيه ، فلا أغفر لك قولك : « قد نسرف على أنفسنا وعلى الفن الأدبي إن ظننا أن شعر اللزوميات جيد كله من هذه الناحية الفنية الخالصة ، بل نسرف على أنفسنا وعلى الفن الأدبي إن ظننا أن كثرة هذا الشعر جيد ، وإنما الحق أن الجيد من شعر اللزوميات قليل يمكن أن يستخلص في مجلد نحيف يجمع إلى الجمال أدق خلاصة للفلسفة العلائية كلها » ، وهناك كلمات أخرى لك في كتابك هذا لا أحب أن أناقشك الحساب عليها ، وأرجو أن يتيح لي الوقت ذلك في فرصة أخرى .

وأما الأستاذ العقاد فقد راقني أسلوب كتابه ، وأعجبني طريقة معالجته ، وإني معجب كل الإعجاب بقوله على لساني :

« كلا يا أبنائي لا تحذفوا حرفاً مما كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله ، فما هو بجائز لكم أن تجهلوه ، وهو منا في الصميم ، وإنه لباق في النفوس وإن زال من الطروس (رجعة أبي العلاء ص ٢٠) ، وفي كتابك يا عقاد كثير من الآراء التي راقتني ، كما أن فيه آراء لست أدري من أين نسبتها إليّ ؟ وإن أقبح ما نسبته إليّ قولك : « أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي قد كان يغشاها للدرس ومراجعة المذهب ، فإن أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر في العلم بها على السماع ، بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين إلى حين في بعض أيام العزلة كما يتم عليه قوله :

فلا تشربنها ما حييت وإن تمت

إلى الفن فاشربها بغير نديم »

وهذا بهتان عظيم ، فليس في قولي هذا ما يؤيدك ، وليس في حسن وصفي لها ما يؤدي بك إلى أن تقول ما تقول ، فقد وصفت كثيراً مما لم أره ولم أخبره ، ولك في درعياتي وتشبيهاتي ما يردك عن ضلالاتك هذه عفا الله عنك . سمع العقاد هذه الكلمات ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وإنما اكتفى بأن نظر إلى الشيخ نظرة . ثم نادى الشيخ الأستاذ الراجكوتي فقال : يا عبد العزيز لقد كان كتابك حاوياً لكثير من المسائل المحققة ولا أعتب عليك إلا جرأتك في نقد صديقنا صاحب ذكرى أبي العلاء ، فقد كنت أحب أن تكون كلماتك في نقده أرصن وأحكم . وأحب أن أختم الحديث عن كتابك بإعجابي بالفصل اللطيف الذي عنوانه « فذلكة أفكاره وآرائه في معتزله » على أن فيها أشياء موضع بحث ومناقشة .

ولما أتم الشيخ الجليل حديثه الطلي اعتذرت إليه فقال : لا عليك يا فتى ! فنحن إنما متنا في سبيل العلم ، ومتنا في سبيله .

أسعد طلس

تعليق على :

«إصلاح التعليم فى مصر»

كان لهذا التقرير الذى أصدره حضرة صاحب المعالى وزير المعارف فرحة فى قلوب الآباء والأمهات ، إذ وجدوا فيه وعدا صريحا بأن دور العلم ستفتح أبوابها بالمجان للأطفال والمراهقين وكثير من البالغين ، حيث يجدون غذاء العقل ، وغذاء الجسم .

وكان له أيضا صداه بين الأفراد والجماعات من المصريين وغير المصريين ، فتناولوه بالدرس والنقد . ومهما اختلفت فيه الآراء فإنها تكاد تتفق على أنه «دستور تعليمى ثورى شامل» .

وقد يكون من اللباقة واللياقة معا ألا يتعرض مرءوس مثلى للتعليق على إنتاج رئيسه ، ولكن اعتقادى أن معالى الوزير لا يأبى النقد الخالص ، وأنه نشر التقرير «ليكون موضوعا للدرس والبحث ، وليتبين رأى الأمة فيه واضحا جليا» يشجعنى على أن أساهم فى التعليق على هذا المشروع الإصلاحى .

وأول ما يلفت نظر القارئ ، هو أن معالى الوزير قد استقل بوضع هذا التقرير معتمدا على ما قرأ من مئات الكتب والتقريرات ، ومن بينها تقريرات وضعها المديرون العامون والمراقبون فى الوزارة . وقد جرت العادة فى البلاد التى سبقتنا فى الإصلاح أن يوكل وضع مثل هذا التقرير إلى لجان استشارية فنية ، تجتمع وتبحث المشكلات وتقدم مقترحاتها إلى الوزير الذى يقرها مبدئيًّا ثم يعرضها على البرلمان للمناقشة وإبداء الرأى . ولعل معالى وزيرنا لم يلجأ إلى هذه الطريقة التقليدية توفيرا للوقت ، ورغبة فى الإسراع بإخراج المشروع وإتاحة الفرصة لمناقشته فى البرلمان وخارجه . وقد أراد بهذا أن يكون عمل اللجان النقد التكميلى ، وأن تقوم بوضع الخطط التفصيلية التنفيذية لسياسة المشروع العامة .

التعليم الأولى والتعليم الابتدائى : عقد التقرير فصلا طويلا عن التعليم الإلزامى ، وذكر السبب فى إخفاق نظامه ، وأن عيبه يرجع إلى قصر المدة المخصصة له ، وهى سنتان ونصف على الحقيقة . ثم جاء بالإصلاح المنشود لجعل مدته سبع سنوات تبدأ فى تمام السنة السادسة ، وذلك على نظام اليوم الكامل . ويقترح التقرير أن يوجه هذا التعليم «وجهة عملية تلائم حاجة البيئة التى نشأ فيها التلميذ ، زراعية أو صناعية أو تجارية أو ملاحية . . وفى الوقت نفسه يثقف الناشئ تثقيفا عاما كافيا ليعينه على فهم الحياة العامة فى بلاده» . وهذا مثل عام للنظام الذى يجب أن يكون عليه التعليم الإلزامى فى مصر . ولكنْ لدينا إلى جانب التعليم الأولى تعليم ابتدائى ، وهو تعليم يبدأ فى دور الطفولة المتأخرة من حياة التلميذ ، ويمتاز من التعليم الأولى بأنه إعداد للمدارس الثانوية ، ولذلك يأخذ فيه المنهج اتجاها ثقافيا ، ويتعلم فيه التلميذ لغة أجنبية . وقد أشار التقرير إلى أن التعليم الثانوى سيكون فنيا وثقافيا ؛ فبجانب المدارس الثانوية المعروفة «تنشأ المدارس الثانوية الفنية التى تعد التلميذ إعدادا فنيا فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة» .

ولم يتعرض التقرير لصلة بين التعليم الأولى (الإلزامى) والتعليم الابتدائى ، وما إذا كان التعليم الابتدائى بصورته الحالية سيلغى ليحل محله التعليم الأولى الشعبى ، أى توحَّدُ مرحلة التعليم الأولى لجميع أبناء الشعب تحقيقا لمبدأ الديمقراطية ، أو أن النوعين من التعليم الأولى والابتدائى سيظلان قائمين جنبا لجنب . ولعلى لم أخطئ حين فهمت من التقرير أن كلا النوعين سيظل قائما . فإذا صح فهمى هذا واجهتنا أسئلة تحتاج إلى تفكير فى جوابها ، منها :

١ — ما أسباب استبقاء النظامين الأولى والابتدائى

ما دمنا قد جعلنا التعليم ديمقراطيا تتساوى فيه الفرص ، حتى تظهر المواهب الكامنة في أبناء الشعب جميعهم ؟

٢ — أليس من الأصلح توحيد المرحلة الأولى من التعليم ، وإلغاء التعليم الابتدائي بصورته الحالية ، وإدماجه في التعليم الأوّلي ، التعليم العام للشعب ؟! إن هذا النظام المزدوج من التعليم غير معروف في الدول الديمقراطية ، بل لقد كان من نتائج تقرير هادو أن ألغي استعمال عبارة «التعليم الأوّلي» وأحل محلها عبارة «التعليم الابتدائي» . وعلى أية حال فالمشكلة ليست مشكلة ألفاظ وإنما هي مشكلة نوعين من التعليم لا ضرورة لبقائهما معا .

٣ — أمن الضروري تعليم لغة أجنبية قبل البدء في مرحلة التعليم الثانوي ؟

وجوابي عن هذا السؤال بالنفي . وهو جواب أثبتته التجارب الكثيرة . وتعرض له بتفصيل الدكتور وست ، وهو رجل أمضى حياته في تجارب تعليم اللغة الإنجليزية بالهند ، واحتلت كتبه الحيز الأول حيث تعلم هذه اللغة خارج إنجلترا . فهو يقول : « ويمكن أن نستخلص من موضوع كتابنا هذا(١) أنه يجب أن يجيد المتعلم قراءة لغته الوطنية قبل البدء في تعليمه اللغة الأجنبية ، وليس هذا المبدأ قاصراً على الهند بل ينطبق على غيرها أيضا » .

الأزهر والمشروع : هذه نقطة شائكة لأنها ستخرج شيئا من اختصاص وزارة المعارف إلى اختصاص آخر ، ولكني أومن بأنها من الخطورة والصلة بمشروع التعليم الذي ندرسه ، بحيث لا يصح أن أغفلها في مقالي هذا . فالأزهر جامعة دينية تعليمية ؛ لها معاهدها الخاصة ، الابتدائية والثانوية ، ولها كلياتها ، وبها أقسام للتخصص . وهي تعد أبناء الشعب — لا بناته — لوظائف هامة في القضاء الشرعي ، والمحاماة ، والوعظ ، والإمامة ، والتدريس وغيره . ومن بين هذه الوظائف ما يحتفظ بطابعه الديني المحض ، ومن بينها ما يتجه الاتجاه المدني كالتدريس . وقد زاد الإقبال في السنوات الأخيرة على قسم التخصص لإجازة التدريس ، فالتحق به من أتموا تعلمهم في كلية اللغة العربية ، وعدد كبير ممن تخرجوا في كليتي الشريعة وأصول الدين ، وهؤلاء يطلبون التوظف في المدارس المدنية التي تشرف عليها وزارة المعارف أو تديرها . وهؤلاء لا يجدون السبيل الممهد للوظائف عادة كغيرهم من أبناء الدولة ممن ربتهم وأشرفت على إعدادهم وزارة المعارف . وهذا إنصاف وعدل . ولكنّ هناك شيئاً غير طبيعي في تنوع الإعداد وتنوع الإشراف ، على حين أن المدرس الذي يُراد إعداده نوع واحد . وهذه مشكلة طال تاريخها .

وكنت أود مخلصاً أن يتعرض لها هذا التقرير الذي سيكون — إن شاء الله — دستور التعليم في مصر ، فيحلها حلا مرضياً لصالح الله والوطن .

تعليم الكبار وتعليم الأميين : وعقد التقرير فصلا قيما لتعليم الكبار ، وهو ما يسمى بالإنجليزية Adult education وذلك لأن التعليم لا ينتهي بمغادرة التلميذ المدرسة — الأولية مثلا — ولكن تتاح له الفرص المنظمة للدرس والتثقيف والتهذيب ، حتى يتسع أفقه ، وتزداد معارفه . وأشار التقرير إلى أن في وزارة الشئون الاجتماعية اتجاها لتحقيق هذا الغرض ، وأن وزارة المعارف ترحب بهذا الاتجاه ، وهي مستعدة لتقديم « كل معونة فنية في تنظيم هذا التعليم ووضع خططه وبرامجه ، وملاحظة تنفيذ هذه الخطط والبرامج .. » . وهذه مأثرة أخرى من مآثر هذا المشروع ، لأن التعليم الناقص قد يكون أخطر على الهيئة الاجتماعية والفرد من الجهل .

وهنا يجدر بي أن أشير إلى أن في مصر نسبة غير صغيرة من الأميين الكبار . وهؤلاء — وإن كانوا سينقرضون مع السنين — يتوقون إلى التعليم ، حتى ولو اقتصر تعلمهم على القراءة والكتابة . على أن في تعلم

(١) P. 13, learning to Read a Foreign language

الكبار من آباء وأمهات إعدادا للجو المنزلى الصالح الذى يجد فيه التعلم الصغير من والديه إرشادا وتشجيعا وتقديرا للتعليم .

هل تسمح مواردنا بتنفيذ المشروع ؟

نشرت الثقافة فى عددها ٢٥٩ مقالا تحت عنوان « منطق الأرقام » قدر فيه كاتبه أن تنفيذ ما جاء فى تقرير التعليم من إصلاح ، وما تحتاج إليه البلاد فى الشئون الصحية يحتاج نحواً من ٦٥ مليونا من الجنيهات سنويا ، أى ما يعادل ميزانيتنا الحالية .

وسواء أصح هذا التقدير أم لا ، فهناك حقيقة ثابتة وهى أن مواردنا كما هى الآن لا تسمح بتنفيذ ما جاء فى التقرير من إصلاح منشود . ولم يتعرض التقرير للوسائل العملية التى يدبر بها مال التعليم . غير أنه ذكر أنه « قد أجمعت هيئات التعليم ورجال التربية واللجان الدولية التى تشتغل بشئون التربية فى أمريكا ، وتعد النظم لما بعد الحرب على أن العالم بجميع ما فيه من موارد طبيعية وفرص لاستغلال هذه الموارد والانتفاع بها ، وما يقتضيه ذلك من فرص التعليم التى تمكن من هذا كله ، لا ينبغى أن تستأثر بها أمة دون أمة ، أو أن تستبد بها طبقة دون طبقة ، وإنما هو حق الجميع ، ولكل فرد فى كل أمة أن يطلب حظه منه ، كما أن لكل أمة فى الأرض أن تطلب حظ أبنائها منه . واعتمادا على هذا الرأى قرروا ضرورة التزام الأمم جميعا بميثاق دولى أن تتعاون على تمكين جميع الطبقات من التعليم على مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص ؛ حتى لو أن أمة من الأمم المشتركة فى هذا الميثاق لم تجد من مواردها الطبيعية الخاصة أو من طاقتها المالية ما يعينها على تحقيق هذا المبدأ ، كان فرضا على هذه الدول الغنية بمواردها أن تقدم لها المعونة الكافية لتحقيقه . ويشترط لذلك طبعا أن تبذل الأمة ، التى تطلب المعونة ، أقصى جهدها وما تبلغه طاقتها لتحقيق هذا المبدأ بمواردها الخاصة . فذلك واجبها الأول قبل أن يكون واجب الدول الأخرى » .

وهذا النص واضح فى إنه إذا ما عجزت موارد مصر عن تنفيذ سياستها التعليمية فإن هناك مالا احتياطيا نلجأ إليه عند الدول الغنية . ولكن أى ضمان يكفل لنا تحقيق هذه الآمال التى خلقتها الحرب ، والتى لم تخرج عن حيز البحث والتفكير ؟ هذا إلى أن واجبنا يقضى بأن نبذل نحن مجهودنا المالى ضمن مواردنا الخاصة لتحقيق مثل هذا المشروع .

ولقد اتجه معالى وزير المعارف اتجاها عمليا فى البدء بتدبير المال اللازم للتعليم . وكان من مظاهر هذا الاتجاه ما حدث فى مأدبة معالى وزير المالية لرجال المال بعد تغطية القرض الوطنى . فقد اقترح دولة صدقى باشا على معالى وزير المالية أن يعقد قرضا لتحسين حال الفلاح وتنفيذ المشروعات[1] التى تحتاج إليها البلاد بعد الحرب ، « وهنا قال معالى نجيب الهلالى باشا إنه يرجو أن تخصص أموال القرض الجديد الذى يقترحه دولة صدقى باشا لوزارة المعارف لتنفقه على التعليم » . فإذا نجح هذا الاقتراح وأمكن عقد مثل هذا القرض كان لنا أيضا أن نتساءل : أمن المصلحة عقد قرض لإنفاقه فى إصلاح التعليم وأوجه أخرى ضرورية أم تقييد مشروعاتنا الإصلاحية بميزانيتنا المحدودة ؟

إن التعليم تجارة رابحة . وليس عقد القروض للقيام بالمشروعات الإصلاحية أمراً جديدا فى تاريخ الأمم ، فكل الدول — ومن بينها مصر — تعقد قروضا لتنفيذ المشروعات العامة التى تعجز ميزانيتها عن تنفيذها . وقد ثبت بالتجارب والتاريخ أن التعليم يزيد قوة الإنتاج ، وبه يمكن فتح أبواب لموارد من الثروة قد أهملها الجهل ؛ وما أكثر هذه الموارد فى مصر . وقد يكون من المناسب أن أشير هنا إلى أنه من الضرورى أن تقوم بجانب المدارس والمعاهد الفنية مؤسسات صناعية وزراعية حكومية وحرة ، يمكن أن

(١) الأهرام فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣

تعمل فيها الجماعات المدربة التى تخرجت فى هذه المدارس والمعاهد الفنية ؛ وبهذا يكون تطورنا الاقتصادى متمشياً مع تطورنا التعليمى . غير أنه يجب ألا نتوقع زيادة الإنتاج العام فى الدولة بحيث يكافئ نفقات التعليم السنوية ، قبل مضى جيل أو جيلين .

هـذا إذا لجأنا إلى عقد القروض . فإذا لم يكن هذا ممكنا ، فهناك اقتراحات قد يعاون تحقيقها على تنفيذ هذا المشروع التعليمى ، ولو تنفيذا بطيئاً ، نذكر منها :

١ — أن تنهج وزارة المعارف نهج وزارة الصحة فى قبول تبرع الأفراد والجماعات بالأرض والمال لإنشاء مجموعات صحية ، فتشجع وزارة المعارف الجمهور وتقبل منه مثل هذه التبرعات لإنشاء المدارس الريفية والثانوية الفنية .

٢ — أن وزارة المعارف فى الممالك الغربية لا تصرف للتلاميذ الكتب المقررة والأدوات المدرسية التى تصرفها وزارة المعارف هنا . فإذا أعفى الآباء من المصاريف المدرسية فلا أقل من أن يشتروا لأولادهم ما يحتاجون إليه من كتب وأدوات مدرسية ؛ وهذا النظام يوفر على الوزارة قدرا من المال لا بأس به .

٣ — أن توجه المدارس الفنية توجيها تجاريا إلى جانب مهمتها التعليمية ؛ فتباع منتجاتها الزراعية والتجارية لحساب وزارة المعارف . ولا شك أن أثمان هذه المنتجات سيغطى جزءا كبيرا من نفقات هذه المدارس .

٤ — أن تبدأ وزارة المعارف بتنفيذ هـذا المشروع تنفيذا جزئياً عمليا — كتجربة — فى منطقة من مناطق القطر . ولهذه التجربة نتيجتها المزدوجة ، وهى : أولا أنها تعطينا فكرة صحيحة صادقة عن مقدار ما يحتاج إليه المشروع من مال عند تعميمه ؛ وثانيا نتعلم من الأخطاء التى قد تقع فيها أثناء التجربة . وقد تكون التجربة أسلم طريقة لتنفيذ هذا المشروع الضخم .

وليس فى التقرير ما يحتم التعجل بالتنفيذ ، فإنه يشير[1] إلى أن أعضاء البرلمان الإنجليزى لما عرضت عليهم الإصلاحات التعليمية الأخيرة « قالوا : إن البرلمان لا يمكن أن يتقيد منذ الآن بما سيكون فى المستقبل ، ولكنه يوافق مبدئياً على المضى فى الإعداد ، والإصلاح على أساس السياسة العامة المقررة . وكلما تمت مرحلة من مراحل الإعداد وأصبحت ممكنة التنفيذ طلب من البرلمان إقرار الاعتمادات اللازمة لها . ولكن ذلك لا يمنع إعداد التشريعات وإقرارها منذ البدء » .

والتقرير الذى أصدره معـالى الوزير هو من نوع هذه الإصلاحات . فهو مشروع لسياسة التعليم عامة يعرضه على نواب الأمة وشيوخها ليتيح لهم فرصة لم تتح من قبل « لبحث حالة التعليم عامة . فلا يقتصر البحث فيها على نوع دون نوع ، ولا عيب دون عيب . وبذلك أيضا تستطيع مصر أن ترسم للتعليم نهجا عاما على ضوء بأغراضه وأسسه وأهدافه البعيدة وأغراضه العامة » .

عبد العزيز عبد المجيد

(١) صفحة ١٧ من التقرير الذى نعلق عليه .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٤٥	فى مصر والسودان
٣٧/٥	لطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعليّ تبعته وحدى ... ... »

اقرأ ... — الحصان والجوكى ! — ويفرغها الأدب ! — المختار — خطة !

اقرأ ...

أتمت سلسلة « اقرأ » التي تصدرها مكتبة المعارف ، سنةً من عمرها المديد إن شاء الله ، أصدرتْ فيها اثني عشر كتابا لاثنى عشر كاتبا من خيرة كتابنا وأذاعتهم شهرة وأدناهم إلى قلوب القراء ، وأشدهم أثراً في قلوبهم وعقولهم ؛ وإنه لحقٌّ علينا في هذه المناسبة أن نحيّي هذه « المجلة » الناشئة ونرجو لها اطراد التقدم على النهج الذي أراده ورسمه لها القائمون عليها من أهل الفن والأدب الرفيع ، فهي على أيّ أحوالها ثروة أدبية مربحة ، ما دام الغرض الأول من نشرها تحبيب الكتاب إلى قارئه ، واجتذاب طائفة من أهل الفراغ والبطالة إلى أن يشغلوا فراغهم بالقراءة التي تزاوج بين المتعة والتسلية ومحاولة إزجاء الفراغ ، ثم تقريب طائفة من حقائق العلم والفن الخالصة إلى طائفة من القراء ليس لهم فيها تخصّص يعينهم على الرجوع إليها في مصادرها الأولى من مراجع البحث ومطوّلات العلوم والفنون . وإذْ كان هذا هو الغرض الأول من نشر هذه السلسلة ، فليس من حق — في هذه المناسبة — أن أعرض لتفصيل الرأي فيما أخرجته لقرائها في ذلك العام المنصرم ، فإن أول ما نشكو منه في هذا البلد هو انصراف المتعلمين عن القراءة النافعة ، فأيّما كاتب أو ناشر عمل عملا لاجتثاث هذه العلة فهو مشكور على ما عمل في جملته ، لا سبيل لناقد عليه إلا فيما يقول من قول أو يرى من رأى أو يدعو من دعوة تتناول الأمة في دينها أو في كرامتها الوطنية أو في أخلاقها العامة .

الحصان والجوكى !

ودعتْ سلسلة « اقرأ » جمهور قرائها — وكتّابها — إلى استفتاء عام — لمناسبة دخولها في سنتها الثانية — وستُنفق بينهم جائزة ؛ أما الاستفتاء فهو : أى الكتب التي أصدرتها في السنة الماضية — ما عدا الكتب الثلاثة الأولى وهى من وضع أعضاء اللجنة — ينال رضا الأكثرية من القراء ؟ وأما الجائزة فهى ٧٠ جنيها لمؤلف الكتاب الفائز ، و ٣٠ للقارئ الذى يفوز بالاقتراع من بين القراء الذين اختاروا ذلك الكتاب ! ...

... وتمنيتُ حين قرأتُ هذا الاستفتاء الطريف لو كنتُ — في السنة الماضية — كاتباً من كتاب هذه السلسلة ، إذن لكان لى اليوم مطمع في أن أربح سبعين جنيها ، وإنها لمَال !

قال لى صاحبى : إن لم تكن كاتباً يفوز بالسبعين فإنك لتستطيع أن تكون القارئ الذى يطمع في الثلاثين ، وإنك لتملك أن ترى وتحكم فلا تعدو الحقّ فيما تحكم ! ...

قلت : هيهات ! ليس من ذلك عجبي وما أعنى ، وإنما عجبتُ من الجانب السلبي والجانب الإيجابي في هذا الاستفتاء ؛ فذلك مؤلف قد فرغ مما كان عليه من واجب ، قد كتب ما كتب ثم طُبع وذاع منذ أشهر ، فإنه لجالس إلى مكتبه في داره لا يفكر في شيء مما كان حين يدق عليه ساعى البريد بابه في غفلته ليدفع إليه سبعين جنيها هى جائزة قرائه ...

وهؤلاء آلاف من القراء يصطرعون على الرأى في الكتاب الأول ، وإن لكل منهم مطمعا في الثلاثين قد يحمله على أن يكون له تسعة آراء لا رأىٌ واحد ، فيرى كلّ كتاب من التسعة خيرَ كتاب ، ليضمن أن يكون اسمه في كل اقتراع ؛ ثم تكون نتيجة ذلك كله أن يحصل على الثلاثين قارئٌ واحد من بين هذه الآلاف ...

أرأيتهم في هذه المباراة قد سبَقوا بين المؤلفين أو بين القراء ؟

وضحك صاحبى وقال : أرأيتَ « الجوكى » على فرسه في حلبة السباق قد لوّى معرّفة الحصان على كفه وإن الموت ليتربص به في كل عثرة وفي كل حفرة وعلى كل

منحدر وثنيّة ، وإن أنفاسه المبهورة لتتكاثف عرقاً على جبينه وتتلهب دماً في خديه ، ومازال الحصان يعدو به حتى يبلغ غايته فينزل عنه ... أرأيتَ هذا « الجوكي » مرة في حلبة السباق على ما وصفتُ لك من حاله ؟ كم يناله من ربح هذا السباق وكم ينال النظارة وكانوا على كراسيهم هادئين يرقبون بعيونهم ولا يكادون يتحركون ؟ ...

قلتُ : فأنت ترى القارئ في هذا الاستفتاء هو « الجوكي » : عليه أن يبذل الجهد ولغيره الجائزة ؟

قال : لا ، ليس الفرس والجوكي إلا المؤلفَ وقارئه ، وإنما الربح للآخرين ، ليس للنظارة وإنما هو لباعة التذاكر على باب السباق !!

قلت : لم أفهم بعد !

قال : هو ذاك ، ولو قد فهمتَ لسألتَ عنك سؤالاً آخر ... ...

ديمقراطية الأدب !

... وسألتُ نفسي وقد مضى صاحبي لوجهه وخلّفني في حيرة : ما نفع هذا الاستفتاء للمؤلف ، وللقارئ ، وللأدب العام ؟ ... وما نفع السباق للفرس ، وللجوكي ، وللآخرين والأخريات ؟ ..

أما الناشر فإنه ليدري ، إنه ليعرف كم طَبع من كل كتاب وكم باع ، وإن له « عدّاده » الذي يعرف به على التحديد أو على التقريب أي الكتب التي أصدرها قد نال رضا الأكثرية من القراء ؟

وأما المؤلف والقارئ فلستُ أدري ماذا يعنيهما من جواب هذا الاستفتاء إن كان الذي يعنيهما غير الربح والجائزة ! ...

... إني لأخشى أن تنتهي من أمثال هذه المباريات في الأدب — إن كان المقصود منها شيئاً غير الإعلان — إلى نتيجة لا يرتفع معها قدره ؛ فلم يكن ميزان الأدب في جيل من الناس هو حكم الرأي العام ؛ فإنما حقيقة الأدب الرفيع أن يكون إلهاماً ووحياً خالصاً تتنزل به الحكمة على الطبقة الممتازة من أهل الفكر والبيان لتوحي بهم وتعلو وترفع الشعب فوق قدره ، وتسمو بوجدانه ونفسه ؛ بإخضاعه لحكم العامة وأشباه العامة من القراء بأمثال هذه المباريات ، نزولٌ به عن موضعه ونزولٌ بأهله عن مكانتهم ، بل لعل أرفع الأدب مكاناً وأعلاه موضعاً هو أبعده عن رضا العامة ؛ فلو قد جعلنا حكم القراء هو الميزان وهو الحكم لكان ذلك حريًّا بأن يحمل طائفة من أصحاب الأقلام على التماس أسباب النجاح بما يزدلفون إلى العامة من فنون القول التي تطرب لها نفوسهم ويجدون لها روحاً في أفئدتهم ونشاطاً في أبدانهم وقوةً في دمهم ، وتقود الجماهيرُ الأدباءَ وكان حق الأدباء أن تكون لهم القيادة ... ..

... وعاد صاحبي بعد فترة ، فسألته وسبقتُ إلى الجواب ، وعادت إليه ابتسامته عريضةً منبسطةً وهو يقول : ما أسرع ما انتقلتَ يا صديقي من رأي إلى رأي ! لم أسألك هذا السؤال وإني لأعرف جوابه ولا أشك أنك تعرفه مثلي وتتبيّنه ، ولكني أردت أن أسأل : أيكون ذلك لوناً من الديمقراطية التي نصطنع أساليبها في كل ما نعالج من فنون الحياة ؛ فنحن نريد الأدب ديمقراطياً يخضع للرأي العام ويتكيف كيفه ويوافق هواه ؟ ...

قلت : ويَ ! أهذه ديمقراطية الأدب فيما تحسب ؟ ... ألا إن أساس الديمقراطية هو أن تحاول أبداً أن ترفع الشعب لا أن تنزل به ؛ فليس الأدب الديمقراطي هو ما ترنه بميزان العامة ، ولكنه هو ما ينشئه الأديب ليسمو بعامة الشعب إلى حقيقة الإنسانية العالية ويرتفع بهم إلى أعلى حد من الكمال الممكن .

المختار :

وأصدرت سلسلة « المختار » من مجلة « ريدرز دايجست » أربعة أجزاء ، منذ أصدرتْ طبعتها العربية ، وإنه لفرضٌ علينا وقد تحدثنا عن سلسلة « اقرأ » أن نتحدث عن « المختار » ، لا نتحدث عما يتناوله من موضوعات العلم

والفن ، ولكننا نتحدث عن أثر ذلك النوع من « الطالعات » في أدب الجيل .

وإنما ربطنا بين الحديث عن « اقرأ » و « المختار » لأن ثمة تشابهاً ما في الشكل العام وفي الأثر والنتيجة يقتضي هذا الربط على بُعد ما بينهما في الموضوع والوِحدة ... ، فكلاهما نوعٌ جديد من المطالعات الدورية ليس من الكتاب ولا من المجلة وإن كان أدنى شبها إليهما .

وقد أقبل القراء على هذا النوع إقبالاً يدعو الباحث إلى تعرّف أسبابه وما قد يكون له من أثر ونتيجة ؛ أما السبب فيما أرى فهو مستمد من روح العصر الذي هوّن على الناس أفراداً وأسراً أن يهجروا الجلوس إلى المائدة في البيت المهيأ ليتناولوا طعامهم ماشين أو راكبين أو واقفين يقضمون « الشطائر » وهم يتبادلون الرأي في شئون العلم أو في شئون المال ، وكذلك هان عليهم أن يهجروا الكتاب والمجلة إلى هذه الطالعات يتزوّدون منها بما تزوّدهم ماشين أو راكبين أو واقفين في انتظار الترام !

ذلك هو السبب ؛ فما نتيجته وأثره ؟

أما أثره فَسَلْ المريضَ الممعود من أهل المدينة عن سبب علته ، تعرف السبب والنتيجة معاً ؛ لقد فسدت مَعِداتُ الناس في المدينة وساء هضمهم واختلّ نظامهم العصبي من أكل الشطائر ماشين أو راكبين أو واقفين حيث كانوا ؛ فما بُدٌّ أن تفسد « مَعِداتهم الأدبية » إن اقتصر القراء على هذا النوع الواحد من الغذاء الأدبي يتناولونه في القطار أو في السيارة أو في الترام فلا يجلسون إلى كتاب في مكان هادئ إلا متأهبين لامتحان أو لإنشاء بحث ؛ كما لا يجلسون إلى مائدتهم يوماً في الدار للطعام إلا داعين أو مدعوّين أو محتفلين بعيد !

ولو أن الأمر مضى على هذا الوجه لجاء اليوم القريب الذي يختفي فيه الكتاب من سوق الأدب فلا تبقى إلا هذه « الشطائر السوقية » متعددة الألوان مختلفة المذاق متنوّعة الفنون يعرضها العارضون على كل عين وراء الزجاج ، تتناولها الأبصار والأيدي ، وما فيها غذاءٌ ولا دسم ولا شبع من جوع ! ويؤلِّف المؤلِّف العظيم — كما يُذبح الديك الرومي — فلا يقرؤه إلا قارئٌ واحد ليلخّصه في بضع صفحاتٍ من مجلة يقرؤها مئات الألوف واقفين أو ماشين أو راكبين ، كما يوزّع بياع الشطائر لحم الديك الرومي في بضعة أيام على الألوف من الآكلين يقول كل واحد منهم : لقد أكلت الديك الرومي ؛ وما أكل إلا شطيرة !

ويعود الكتاب ذِكرى ، ويصبح الأدب مَسلاة ، ويصير الأدباء أُجَراء عند باعة الشطائر ! !

خطبة !

قرأت في جريدة الأهرام :

« في حفل بهيج تمت خطبة فلان بكلية العلوم لزميلته الآنسة المهذبة فلانة كريمة فلان بك ... »

وهو إعلان مأجور — كما هو واضح — دفع عنه ناشرهُ ، أو ناشرته ، الأجرةَ المقررة وكَتب كما أراد أن يُكتب لم يَزِد فيه أحدٌ حرفا غير ما أراد أن ينشر ؛ ولكن أيّ شيء في هذا ؟ ...

... فيه أن طالباً بكلية العلوم خطب « زميلته » ... وأي شيء في هذا أيضاً ؟

... لا شيء ؛ فإنه ليسرّ ويبهج حقا أن يكون هذا مصير الزملاء والزميلات في كل كلية من كليات الجامعة ، وإنه ليقطع ألسنة ما تزال تتطاول ... ، ولكني أسأل عنه : أي الاثنين ناشر هذا الإعلان ؟ وأيهما خَطب « زميله » ؟ ولِمَن نشر هذا الإعلان : ألهما وحدهما ؟ أم لسائر الزملاء والزميلات ؟ أم للأهل والأقارب وفلان بك والد الخطيبة الزميلة ؟

وحاولتُ أن أعرف الجواب فما بلغت ، ولكني إلى ذلك مسرور ، مسرور جدا ، وكان أتمّ لسروري لو أن هذا الإعلان البهيج كان على الصورة الآتية :

« يعلن فلان الطالب بكلية العلوم إلى زملائه وزميلاته بالكلية ، أن زميلته فلانة قد صارت منذ اليوم خطيبته ، فلا يتعقّبْهما أحدٌ منفردَين أو مجتمعين في ظلال الشجر ، ولا يجعلهما أحد بعد اليوم موضع الحديث والسمر ! ! »

« قاف »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٢٩٩٢ / ٥٢٧٦٩

العدد ٣٦٤ — الثلاثاء ٢٢ من المحرم سنة ١٣٦٣ — ١٨ من يناير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

الإحسان الدولي

اتجاه جديد وموقفنا منه ...

الإحسان لفظ جميل ، تستعذبه الأذن ؛ وعمل جميل تطرب له النفس . حديثه طالما أثلج الصدور ، وأعاد إلى القلوب اطمئنانها ، وإيمانها بأن بني آدم بخير ما دام غنيهم يحسن إلى فقيرهم وقادرهم يمد يد المعروف إلى عاجزهم ، وقويهم يبدي العطف على ضعيفهم ، وكبيرهم يحنو على صغيرهم ، وعالمهم ينير السبيل لجاهلهم .

فأي عجب بعد هذا في أن نرى الإحسان متعدد الأسماء والألقاب ، فهو الإحسان والعرف والمعروف ، والصدقة ، والتضحية ، والأريحية وهلم جرا . وأي بدع في أن نرى الشعراء — وهم الألسنة الناطقة لبني الإنسان — تسبح بحمده وتشيد بذكره :

وَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوفِ : أَمَّا مَذَاقُهُ
حُلْوٌ ؛ وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ ...

ولنا للإحسان من عظيم الأثر ، وجليل الخطر في الحياة البشرية ؛ نراه يتخذ في حياتنا صورا شتى ، ووجوها عديدة . والمحسن الكريم كثيرا ما يمعن النظر ، ويطيل التفكير قبل أن يقرر : إلى أي وجوه الإحسان ينصرف ، وفي أي سبله ينفق . ولئن كان أكثر الناس يتوهم أن وجوه الإحسان جميلة كلها ، وطرقه تفضي جميعا إلى الخير ، وإلى البركة ؛ فإن هذا لم يمنع الناس من التفنن ، وإمعان الفكر في أي وجوه الإحسان أجدى على بني الإنسان ، وأبقى أبلغ أثرا على مدى الزمان ، بحيث يكون

الهدف منه المنفعة الآجلة ، لا الفائدة العاجلة الزائلة ، والجرع أروى ، والرشيف أنقع .

لهذه الأسباب تعددت وجوه الإحسان . فمن رجاله من يؤثر بناء مستشفى ، أو مدرسة أو مسجد ، أو دار لإطعام الفقراء وأشباه الفقراء ، أو ملجأ للأيتام أو مأوى لمن تقدمت بهم السن ، وحرموا مساعدة الأهل ... ومنهم من يفضل أن يرتب للفقراء والمعوزين ، والذين أخنى عليهم الدهر رزقا منظما يأتيهم باطراد في كل يوم أو كل شهر — وهذا الرزق قد يكون عينا أو نقداً — ومنهم من يرى ألا يكون إحسانه مقصورا على أبناء وطنه ، بل يؤثر أن يعم ولا يخص ؛ فتراه يقف المال لسكان الحرمين ؛ أو يرسل البعثات إلى الأقطار البعيدة والأقاليم النائية ، لنشر الدين أو التعليم ، أو إنشاء المعاهد الصحية والأندية التهذيبية ، والمنشآت الثقافية للبنين والبنات ، في كل أرض وتحت كل سماء .

وهكذا تقدم العالم في العصور الحديثة ، وتعدد نشاطه وتنوع ؛ فتعدد الإحسان أيضا وتنوع ، واتخذ صورا شتى وفنونا كثيرة ، ودخله شيء غير قليل من الابتكار والخيال . وها نحن — أولاء — اليوم نشهد مولد نوع جديد من أنواع الإحسان ، وضروب مستحدث من ضروب المعروف . إلا وهو الإحسان الدولي ، الذي تتولاه الدول — ممثلة في حكوماتها ؛ وتنفق فيه من ميزانياتها . . . وأرجو ألا يخلط أحد بين هذا النوع الجديد ، وبين الطراز القديم الذي كان النشاط فيه صادرا من هيئات مستقلة عن الحكومة ، مثل مؤسسة ركفلر ، والبعثات التبشيرية وما شاكلها . فالنوع الجديد يمتاز — أو على الأقل يختلف — بأن الأداة التي تشرف عليه وتباشر تنفيذه ، هي الحكومة بوزاراتها ومصالحها وإداراتها المختلفة ؛ وهي تتولى الصرف عليه من الأموال العامة ، المأخوذة من دافعي الضرائب .

وبين يدي الآن وصف المحاولة الأولى لتطبيق هذا المبدأ الإنساني الجديد ، وهو مبدأ الإحسان الدولي . ولكني أريد ، قبل أن أفصل الحديث عنه ، أن أذكر أن من الخطأ الذي يقع فيه أكثر الناس أن يتوهموا أن وجوه الإحسان خير كلها . بل لقد أثبتت التجربة أن من الأعمال التي تدعى إحسانا ما هو شر ، وفساد للنفوس . فلم يكن من الخير في يوم من الأيام أن تنشأ التكايا التي تؤوي العشرات أو المئات من العاطلين والكسالى ، الذين يؤثرون عيشة القعود والراحة ، على العمل والخدمة . ولقد أوقفت أموال كثيرة لما أطلق عليه بوجه عام اسم « الخيرات » . فقسر القانون بالأمس هذه الخيرات بأنها هبات تمنح للشحاذين المحترفين ، الذين يزعمون أنهم كانوا يوماً ما في رغد من العيش ، ثم أخنى الزمان عليهم . وما يليق بمثلهم أن يعملوا أو يتكسبوا ، مع وفرة الصحة وقوة الجسم .

ولا نريد أن نطيل الحديث عن هذا الضرب من الإحسان الذي هو أدنى إلى الإساءة ؛ فقد أصبح من البديهيات المعروفة لكل مشتغل بالشئون الاجتماعية ، أن المساعدة التي تؤتي ثمرتها هي التي يصحبها مجهود يبذله الشخص الذي يمنح المساعدة . وهي وحدها التي يصح أن تسمى إحسانا .

ننتقل الآن إلى الطراز الجديد من الإحسان الذي تبذله دولة لدولة . والمثال الذي بين يدي آت من أمريكا ، وليس يبدع أن يكون مصدره في العالم الجديد . فلقد كان أبناء الولايات المتحدة سباقين في ميدان الخيرات على ضروبها وأشكالها . ونحن نرى أمام أعيننا في ديارنا ، وفي الأقطار المجاورة لنا مؤسساتهم ومنشآتهم الخيرية ، وكلها تشهد بنزعات قوية نحو الإحسان ، ومقدرة عظيمة على مجاراة هذه النزعات . ولكننا اليوم نشهد عهد تطور جديد في هذه الأعمال الخيرية . وذلك بدخول حكومة الولايات المتحدة هذا الميدان بنفسها بأموالها الطائلة .

فقد سنت أمريكا مبدأ سمته «سياسة حسن الجوار» أو «سياسة الجار الكريم» — Good neighbour police — والجار الكريم شديد الرغبة أبداً في أن يغدق الخيرات على جيرانه المحتاجين، أو الذين يظن فيهم الحاجة والعوز. وهو شديد العطف على جيرانه، إلى درجة أنه قد يرى فيهم حاجة لايحسون هم بها. ويلحظ فيهم عوزاً يجهلونه كل الجهل.

وقد تكونت سياسة حسن الجوار في أمريكا بالتدريج، ولكنها توطدت بتاً كمدت في المؤتمر الذي عقدته جمهوريات أمريكا الشمالية والجنوبية والوسطى في شهر يناير عام ١٩٤٢ في مدينة ريو دي جانيرو. وهنالك اتجاه عند بعض المفكرين أن يتوسع في تطبيق مبدأ حسن الجوار بحيث يشمل العالم القديم، متى ظهر نجاحه في العالم الجديد.

وقد بادرت حكومة الولايات المتحدة باتخاذ إجراءات سخية كريمة لتضع سياسة الجار الكريم موضع التنفيذ. اذ من البديهي أنه إذا أريد بهذه السياسة أن تخرج عن كونها مجرد أمان صالحة، وعواطف نبيلة سلبية؛ فلا بد من تعزيزها بأعمال ومشاريع إيجابية، تشتمل على معاونة الجار القادر لزميله العاجز، وبذل الغنى المساعدة اللازمة لجاره المحتاج.

وغنيٌّ عن الذكر أن تقدم الولايات المتحدة، وتفوقها في الميدان الثقافي والاقتصادي يحتم عليها أن تكون هي البادئة بالنهوض بهذا العبء. لهذا بادرت حكومتها فأرصدت لمشروع حسن الجوار مبلغ ستة مليارات من الدولارات (أي ألف وخمسمائة مليون من الجنيهات بسعر القطع الحالي) وذلك لمساعدة أقطار في أمريكا الوسطى والجنوبية يبلغ سكانها ١٢٠ مليوناً من الأنفس؛ فتكون المساعدة المقررة بنسبة اثني عشر جنيها لكل فرد من السكان. وهذا من غير شك مبلغ ضخم. ولكي نقرب فهمه من فكر القارئ المصري نذكر أنه: لو أن مصر من أقطار العالم الجديد، لكان من الجائز أن ينالها مساعدات قيمتها مئتا مليون من الجنيهات. وهو كما نرى مبلغ لا يستهان به، وتستطيع حكومة مصرية حازمة، شديدة التدبير، حسنة التصرف، أن تفيد الأمة به فوائد جمة.

وهنا تعرض للقارئ، من غير شك أسئلة عديدة وهي كيف تنفق هذه المساعدات في الجمهوريات الأمريكية، وبواسطة أي الهيئات؟ وفي أي الوجوه يكون الإنفاق، وهل هي مساعدات متكررة في كل فترة من السنين، أم هو مبلغ واحد غير قابل للتجديد؟

إن المقال الذي بين يدي من وضع أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكيين، وقد شاهد بنفسه تنفيذ سياسة حسن الجوار، والمشروعات التي تنفق فيها تلك الأموال. وهو شديد النقد لحكومته، ولا يقرها على صنعها هذا. ومن الجائز أنه شديد التحامل، مسرف في نقده. ولكن هذا لا يمنعنا من أن ننظر في أقواله ونوليها ما تستحقه من الاهتمام.

ولابد لنا أن نبدأ بأن ننفي فكرة أن حكومة الولايات المتحدة تبغي من هذه المساعدات زيادة في نفوذها السياسي. فإن من الخطأ أن ننكر أننا نشهد اليوم في الشعب الأمريكي وفي حكومته نزعة قوية إلى إقامة بنيان العالم، على مبدأ سليم من التعاون والمساعدة. وأن من المعقول جداً أن يكون أول اتجاه عملي في هذا السبيل — في الناحية السلمية — هو مساعدة دول العالم الجديد المجاورة لها.

أما الهيئات التي تقوم بتنفيذ تلك السياسة فتتألف من مندوبين عن حكومة الولايات المتحدة، يتعاونون مع الهيئات المحلية في كل حكومة من الحكومات.

وأما الوجوه التي تنفق فيها تلك الأموال فأكثرها مشروعات نافعة يزعم الشيخ المذكور أنها ١٢٫٠٠٠ مشروع، وتشمل ألف نوع من أنواع الأعمال العامة. يذكر منها صاحب المقال — ولا شك أنه يرمي إلى النقد أكثر مما يرمي إلى الشرح: — (١) مشروعات في فنزويلا وبلاد المكسيك لنقل الأسماك إلى البحيرات

والأنهار في البحيرتين ، من أجل تحسين إنتاج السمك في هذين القطرين (٢) وأموال كثيرة أنفقت في إعداد مؤلفات علمية عن سكان أمريكا الجنوبية الوطنيين وثقافتهم ونظمهم الاجتماعية . (٣) إصلاح الأراضي التي خربت ما بين بيرو وأكوادور في أثناء الحرب التي دارت بينهما منذ بضع سنين . (٤) إنشاء الطرق المرصوفة المعبدة ، في داخل عدد من الجمهوريات . (٥) إنشاء مجار في كثير من المدن . (٦) شراء مساحات كبيرة من الأرض للتجارب الزراعية بقصد تحسين الزراعة . (٧) إنشاء المستشفيات وإعدادها بالأدوات الحديثة على الطراز الأمريكي . وقد بلغ عددها إلى وقت كتابة ذلك المقال ثلاثين من المستشفيات الكبيرة إلى جانب مائتي مستوصف صغير . ونكتفي بهذه الأمثلة دليلا على تنوع الأعمال والجهود المبذولة في تنفيذ سياسة حسن الجوار .

ولعل أهم وجوه النقد التي سردها الكاتب ثلاثة : أولها : أن حكومة الولايات المتحدة تريد أن تصوغ الجمهوريات الأمريكية على غرارها ، وأن تطبعها بطابعها بطريقة مفتعلة . ثانيا : إن وكلاء الحكومة الأمريكية في الجمهوريات المختلفة قد أفسدوا الحياة الاقتصادية فيها بما يبذلونه من الأجور العالية (وهي نحو أربعة أمثال ما كان يتناوله العامل من قبل) . وأنها قد خلقت في كل جمهورية حالة من الرخاء المفتعل ستظل قائمة ما بقيت المساعدة الأمريكية ، فإذا زالت أو نقصت نقصا كبيراً فسيكون لزوالها أثر سيء في النظام الاقتصادي .

والنقد الثالث الموجه إلى هذه المشروعات وجيه خاص وهو أن كثيرا منها يقوم على هذه المساعدة التي تبذلها حكومة الولايات المتحدة ، دون أن يكون هنالك مجهود تبذله حكومة بعض الجمهوريات المساهمة في تلك الأعمال ، فإن في هذا مخالفة لأبسط قواعد المساعدة التي وضعها علماء الاجتماع الأمريكيون أنفسهم ، وهي أنه كل مساعدة تأتي من الخارج يجب أن تكون على قدر الجهود المبذول في الداخل . وأن من العبث أن تمد الأيدي إلى إنهاض من لا يبذل جهدا في النهوض بنفسه .

هذه خلاصة — لا تخلو من القصور — لحديث هذا المجهود الجديد في نوع جديد من أنواع الإحسان . وليس من شك في أن كل محاولة جديدة في ميدان مبتكر سيصحبها دائما أغلاط لا بد أن تصححها التجربة على مضي الزمن . ولا يسع المنصف إلا أن ينظر بعين الرضا لما قامت به حكومة الولايات المتحدة ، وأن يتمنى لها في جهودها النجاح والفلاح .

كذلك لا يسع المصري المخلص إلا أن يتمنى أن يتمكن قطرنا من النهوض بنفسه وأن يتوفر على إصلاح شئونه بماله الخاص دون أن يتطلع إلى الإحسان الدولي الذي ينتظر أن يتقرر كمبدأ عام وكجزء من تنظيم العالم كله وإيجاد هيئة دولية تشرف على توزيع تلك المساعدات .

وإن المرء ليذكر اليوم ما حدث منذ عشرين عاما ، حين تقدم رجل من كبار رجال الإحسان في أمريكا ، إلى الحكومة المصرية بعشرة ملايين من الدولارات ، لكي تنفقها حكومتنا في إنشاء متحف جديد للآثار المصرية ، ومعهد لدراستها . وقد رأت الحكومة أن تعتذر من عدم قبول الهبة . وبقي لنا متحفنا القديم ، ومعهدنا المتواضع .

يذكر المرء اليوم هذا الحادث ، ثم يقارن به ما جاء في صفحة ٢٠ من « تقرير عن إصلاح التعليم في مصر » من تطلع إلى تلك المساعدات الدولية ، التي لن تمنحها الأفراد بل الحكومات ، ممثلة في هيئة دولية أو غير ممثلة ، فيرى التغيير الكبير الذي طرأ على تفكيرنا . ومع أننا من غير شك أحسن ظنا اليوم بالمساعدات الدولية مما كنا سابقا ؛ فإن كثيرا منا — على ذلك — يشفق أن يسن نوابنا وشيوخنا دستورا للتعليم في مصر ، يعبرون فيه صراحة عن أملهم في « المعونة » التي تأتينا في المستقبل ، والتي من غيرها لن نستطيع تثقيف أبنائنا وبناتنا .

محمد عوض محمد

طائفات أشتات :

روزفلت

بعد الأربعين

للدكتور أحمد زكي بك

وصلنا روزفلت في الأسبوع الماضي إلى عامه الأربعين ، واليوم نواصل حديثنا هذا الخاطف عما جاء من بعد الأربعين .

ووصلنا به إلى حيث أعجزه المرض ، وأزمن ، وأبت الحركة أن تعود إلى رجليه . فعند هذا جاءه كتاب من شاب أصابه من الداء مثلُ الذي أصابه ، بأن داءه خف ثقله ، ثم انتهى ، باستحمامه بمياه « هُتْ سْبِرِنْج » في مقاطعة جورجيا بالجنوب الشرقي من الولايات . فطار روزفلت إلى تلك المياه طيرانا . وما كاد يحس شيئاً من التحسن بسبب ما جرى من جسمه ، حتى تراءى له أن يقوم على تنظيم تلك المياه حتى تكون مُستراداً ومُستمتعاً وشفاء لكل من يصيبه من عنت الدهر ما أصابه . وأنفق في هذا المشروع نصف ماله . وفي هذا العمل البسيط تنكشف لدارس روح روزفلت ، وتنكشف من العناصر الأولية التي تتألف منها . وهي عناصر في تركيب النفس دائمة ، لا يغير منها زمان ولا مكان ، وهي هي التي تصدر عنها النوايا وتصدر الأعمال في كل ميدان .

ويجيء عام ١٩٢٤ ، ويطلب الديمقراطيون مرشحاً لمنصب الحاكم لولاية نيويورك ، وهو أكبر منصب من مناصب الولايات بعد رياسة الجمهورية . وهو المنصب الذي يُعَدُّ سلَّماً إلى رياسة الجمهورية . ورشحوا لهذا المنصب « آل سميث Al Smith » . فيخرج روزفلت من عزلته ليناصر مرشح الديمقراطيين ، ويأتي يخطب الناس خطبة رائعة ، ويخطبها قائماً . وفي القيام ، حين يعزّ القيام وتأبى القوائم أن تُلبّي ، جهاد للنفس أروع . ولا ينجح « سميث » في الانتخابات . ثم يدور العام ، وتأتي الانتخابات من جديد ، ويرشح « سميث » من جديد ، فينجح ، ويغتبط الديمقراطيون . ثم يدور العام دورة أخرى ، ويطلب الديمقراطيون مرشحاً لحكم هذه الولاية . ويطلبون روزفلت فيأبى . فيلح عليه « سميث » في القبول ، فيرضى أخيراً . وينجح عند الانتخاب .

دخل روزفلت يحكم هذه الولاية ، فمهد بهذا الحكم لحكم الولايات .

واصطدم في حكم هذه الولاية بقوة الماليين ، وجاه الشركات ورجالها ، وكذلك اصطدم بهؤلاء وهؤلاء في حكم الولايات .

فما كاد يستقر في كرسي الحكم حتى كانت خصومة حول القُوى المائية الطبيعية ، قوى مساقط لورانس ، مَنْ يملكها ، ومَنْ يريدها ، ومن يستغلها ؟ الشركات والماليون ؟ وإذن يكون لهم فرض الكلمة على الجمهور ، ويكون لهم الثراء على حساب الجمهور . أم الولاية ممثلة في حكومتها ؟ وإذن يُسبغ على هذا العمل الحيوي ما تسبغه الحكومات في العادة من رتابة وجمود . وعندئذ اختار روزفلت طريقاً وسطاً بين ما راد المحافظون ، وما راد الاشتراكيون ، ولا يُرضي أيهما : أن تكون للدولة الملكية الدائمة ، وهي تستخدم الشركات بعد ذلك في استغلال هذه القوة المائية على واجبات محدودة ، وأن تقام إلى جانب هذه الشركات لجنة تعطي لأصحاب رؤوس المال فائدة عن مالهم معقولة ، وتوزع الكهرباء الناشئة على الناس بأسعار كذلك معقولة .

واصطدم روزفلت في حكم هذه الولاية بالهيئة التشريعية ، كما اصطدم بها بعدُ في حكم الولايات .

فقد كان مجلس هذه الولاية ، ولاية نيويورك ، هو الذي يتقدم بمشروع ميزانية الولاية . ولمن يتقدم به ؟ لنفسه ! فرأى روزفلت في هذا عملا غير معقول . وكانت خصومة ، نقلوها إلى « المحكمة العليا » ، فكان النصر فيها لروزفلت :

وفى حكم هذه الولاية اتجه إلى الزراعة ، ورسم لها خطة إحياء تعيد إلى الأرض خصوبتها الزائلة ، وتأتى الريف بالطُّرُق المهندسة الجيدة ، وتحيى القرى والمزارع بالكهرباء ، وتحمل إلى الريفيين أكثر قسط مستطاع من متّع الحضر .

ومضت سنتان على حكمه ، وجاء عام ١٩٣٠ ، فأعيد انتخابه .

وتمضى سنتان أخريان ، ويجيء عام ١٩٣٢ ، فيهيئه القوم للترشيح لما هو أسمى ، لرياسة الولايات كلها ، لرئاسة الجمهورية ، فلا يجد الديمقراطيون غير روزفلت يعارضون به مرشح الجمهوريين .

فأى دولة هذه التى أريد له أن يترأسها ؟

هى دولة التربة الخصبة التى لا تكاد تُحَدّ ، ودولة المال الذى لا يكاد يُعَدّ ، ودولة الخير الذى يطلب الأيدى أن تمتد إليه لتناله . وفى شدة الطلب ، وزحمة الطلاب ، جرى الإثراء على غير نظام . واحتملت الأرض قلة النظام لوفرتها . وكذلك احتملته موارد الدولة العديدة الكبرى ، واحتملته لوفرتها أيضاً . وكان الناس فى أول الأمر سواسية ، ثم ما لبث أن فرّق محصول المال بينهم ، فتكونت الطبقات . تكونت ، لا على أساس الولد والمحتد ، ولكن على أساس ما جمع الجامعون من أسباب الغنى . فتكونت طبقتان عظيمتان امتازتا بالقوة والجاه ، طبقة رجال الصناعة المسيطرين على الآلات والإنتاج ، وطبقة رجال المال المسيطرين على المصارف . وتقدم الزمان فسيطر هؤلاء وهؤلاء على حياة الدولة فى كل درب من دروبها ، ولون من ألوانها . وكان الرخاء سائداً فى أكثر الناس فلم يفطن أحد إلى تلك السيطرة وأضرارها . بل تقلدت القوم زعامة المال ورجال الأعمال ، فى أمة بكر لا تزال ترتضع أثداء الطبيعة وهى ثرّة ، زعامة طبيعية ما دام أن الغرضَ الأول استغلالُ الطبيعة حيث لم تُستغل ، وإدارة المال وتصريفه فى سبيل ذلك .

وكان من نتيجة هذه « الزعامة الطبيعية » أن نسيت الحكومات أمر المستضعفين . وفى كل أمة مستضعفون فقراء . وهناك الرجل العادى الذى لم يكن من نصيبه الفقر ، ولكن من نصيبه اليسر ، ومن نصيبه الكفاف . فعلى ما بلغت الولايات المتحدة من التقدم والمدنية ، كانت متأخرة عن الأمم المتمدينة فيما يختص بالضمان الاجتماعى . فلم يكن فى تشريعها حماية كافية للعاجزين والمتعطلين ، ولا للشيوخ والمكروبين . والعمال لم يكن فى التشريع حماية كافية لهم من أصحاب الأعمال ، ولم يكن يُعترف لهم مجتمعين بحق المساومة عند الخصومة .

وكثر الطلب على المال ، وأغرى القومَ بريقُ الذهب . وكانوا يطلبونه بالجهود الصادق ، فنشأ بينهم فريق يطلبه بالجهود الكاذب — بتلك الطرق الملتوية التى تُفلت من بين أصابع القانون لدقتها ، ولكنها رقة كدقة الميكروب تفسد فى الحياة ملا تفسده الكبائر التى تملأ العين .

وكانت الحرب العالمية الماضية ؛ وجاء من بعدها السلم ؛ فدخلت أمريكا من بعدها فى عهد من الثراء خُيِّل أنه لا يفنى ، وعلى أسواق خُيِّل أنها لا تنضب . ثم أخذت سحب قاتمة تتجمع فى هذه السماء الصافية . ثم زاد تجمّعها وزاد اسودادها ، وزاد زئيرها ورعيدها ، حتى انكسرت السوق الأمريكية المالية فى حىّ « وال استريت » . كان هذا عام ١٩٢٩ . والمصارف غذاءُ الصناعة الذى لا تمكن أن تستغنى عنه يوما . ولحقت المصانعُ بالمصارف فى انهيارها فأنقصتْ إنتاجها إلى النصف . وزاد عدد المتعطلين فبلغ ١٤ مليون عامل . ولم يزد الزمن هذا السوء إلا سوءا . وآذن الرخاء الأمريكى أن يتمزق شرَّ ممزّق .

فهذه هى الدولة الأمريكية التى اختاروا لها روزفلت رئيسا .

وما كان لهذه الأزمة غير روزفلت مفرّجا . فهى كانت تتطلب الثقة بالنفس ، والثقة بالناس — أى بالطبيعة

البشرية — وقـد كانا فيه . وكانت تتطلب الأمانة والاستقامة ، وكانتا فيه . وكانت تتطلب حسن الصلة بالناس ، من كل الطبقات ، دنياها وسفلاها ؛ وقد كان مهّد لصلته بالناس على جبهات ثلاث عريضة يوم كان حاكم نيويورك . فاستخدم الإذاعة استخداما واسعا ، وأحسن صلته بالصحافة وأوثق بها علاقته ، ولم يكتف بهذين عن المساس الشخصي ، فطاف بالناس في مدارجهم من الحياة .

وبدأ عمله بالحلول العاجلة ، والأدوية المسعفة التي يكون لها فعل سريع حاسم لينجو بها المريض ، ولو لم يكن منها الشفاء . ومن أمثلة هذه تعطيلُ المصارف حتى يمنع الذعر الكائن أن يتزايد ، ثم فحصُ حالاتها مصرفا مصرفا ، ثم الأذن تدريجا بفتح ما كان مركزه سديدا ، وبفتح ما احتاج إلى إعانة من أموال الدولة بعد إعانته ، ثم بإغلاق ما كان الخير في اختفائه . ومن أمثلة هذه أيضا تضييق الزراعة حتى يتصرف من المزروع ما أتخمت به معدة السوق ، ودفعَ للزرّاع عن خسارتهم عوضا .

واتجه إلى محاولة الشفاء الدائم . فاتجه إلى تنظيم الصناعة تنظيما يتفق ومصالحها الدائمة ، ويتفق كذلك مع مصالح الجمهور . ويكون تنظيما وسيلته الصدق ، وغايته العدل . فسنّ لهذا مبادئ تتصل بأجور العمل ، وبساعاته وبالأسعار ، وبالمنافسة الحرّة المعقولة . وأدرك أنه لا فائدة من إجمال لا يتبعه تفصيل . وأن لا فائدة من تفصيل بذلة واحدة تلبس كل الصناعات . فصنع لكل صناعة بذلة تلبسها ، فبلغت لوائحه في هذه الصدد بضع مئات .

واتجه إلى التعطّل يحاول دفع شره . فشرّع المشاريع لتمتص العمال فيها ، وهي مشاريع عظيمة تنفع البلاد في حاضرها ومستقبلها . ولم يخش الدَّين في هذا . ولا عُني بما تُعنى به الدول الأقل ثقة بنفسها من توازن في ميزانية .

واتجه إلى الزراعة يعالج فيها مشكلة من مشاكل أمريكا الكبرى وابتدع لها شتى الحلول . فقد فات الزُرّاع على الأحقاب أن يحفظوا على الأرض تربتها . وهي تربة في بعض الولايات رقيقة ، وهبتها الطبيعة الحشيش الأخضر لتماسك ، ووهبتها الأشجار الكثيفة لتحميها من عسف الرياح وجرْف الأمطار والسيول . فذهب الزارعون الأولون بحشائشها ، وذهبوا بأشجارها ، وزرعوا فيها لا ما يزيد تلك التربة تماسكا ، ولا ما يوافقها ، ولكن ما يجلب في السوق أكبر الأرباح وأسرعها . فأخذت الرياح تذهب بخصبها ، وأخذ السيل يكشف عن هذه الأرض تربتها حتى صار أكثرها يبابا بلقعا .

واتجه روزفلت إلى الإصلاح الاجتماعي فسن قانون الأمن الاجتماعي لأول مرة ، وهو نظام يضمن للمتعطّل رزقه ، وللشيخ معاشه ، وللوالدة أن تضع ولدها في اطمئنان ، وللولد عنايةً من بعد ذلك .

واتجه إلى العمال فسن لهم تشريعا يعترف للعمال بأن تمثلهم نقاباتهم في الخصومات . وكذلك أنشأ لجنة قومية تُحكَّم في هذه الخصومات .

وتمّت سنوات الرياسة الأربع أو كادت . فلما جاء أوان الترشيح ، فالانتخاب ، دخل روزفلت مرةً ثانيةً إلى « البيت الأبيض » دخولا سهلا .

ولكن حدث في رياسته الأولى ، ومن بعدها ، أن استيقظ أصحاب الأعمال وأرباب الأموال من ذهولهم . فقد كانت الأزمة أذهلتهم بصعقتها حينا . وفتحوا أعينهم على كل هذه التشاريع تسلبهم كثيرا من « حقوق مكتسبة » ، وتضيّق عليهم ثوبا كالعباءة فضفاضا تلعب من تحته الأيدي فلا تُرى . وفتحوها على صناعة تُحدّ من حريتها ، وعمّال تُمدّ في قوة نضالهم . فقاموا يناضلون هذا الرئيس « الاشتراكي » الذي يقتل الصناعة بتحميلها نفقات تنوء تحتها ، ويخرب مالية الدولة بميزانياته غير المتوازنة . وغلب توافق هؤلاء القوم في صوالحهم الشخصية ، أو إن شئت فالمهنية ، على صوالحهم الحزبية ، فاجتمعوا من الحزبين ، الدمقراطي والجمهوري ، على معارضة رئيس الدولة . ورفعوا قانونه لتنظيم الصناعات إلى المجلس القضائي الأعلى ، بعد سنتين من تطبيقه ،

يخاصمونه فيه ، فأعلن المجلس الأعلى أنه قانون غير دستوري . وهكذا أخذوا يعارضون بهذا المجلس ما اعتزم الرئيس من إصلاح . وقد نقض هذا المجلس جزءاً كبيراً مما أبرمه روزفلت ، ولكن بقيت بقية كبرى هي أكثر ما أبرم .

وكان هذا المجلس يتألف من تسعة رجال كانوا بنشأتهم وبسنهم ، من بقايا عهود فائتة ، ولا نقول بائدة . فتربّث الرئيس في حربهم حتى رياسته الثانية . وعندها قدم إلى مجلس الشيوخ مشروع قانون بتغيير في تأليف هذا المجلس القضائي الأعلى . فخذله مجلس الشيوخ . فقدم إليه الرئيس مشروع قانون آخر يبيح للرئيس أن يعيّن في ذلك المجلس عضواً جديداً مكان من يبلغ من أعضائه الخامسة والسبعين ويأبى أن يستقيل . فخذله مجلس الشيوخ أيضاً في هذا ، وفرح خصماء الرئيس . ثم مضى عام فعام ، فطبّق الزمن الدوّار بالنيّة قانوناً لا تستطيع المجالس التشريعية أن تمنعه ، لأنه من شرعة الله ، فذهب من ذلك المجلس الأعلى بالموت عضو فعضو ، فعين الرئيس مكانهم أعضاء أوفق بالزمن وأهدى .

وهكذا ظل روزفلت في رياسته الثانية يجاهد في جبهة داخلية كثر فيها خصومه . وخاصمه فيها محافظون لنزعته الحرّة الزائدة . وخاصمه فيها الردكاليّون لنزعته الحرة الناقصة . وبان شبح الحرب في الأفق البعيد ، ثم في الأفق القريب حتى ملأ مجال البصر كلّه . فكان للجبهة الخارجية المكان الأول . وجاءت الحرب عام ١٩٣٩ وجاء الترشيح للرياسة عام ١٩٤٠ . وكره الأمريكيون أن يرشحوا للمرة الثالثة رجلاً واحداً . وكان روزفلت قد صار أكبر من أن يُخذَل فدخل « البيت الأبيض للمرة الثالثة » .

وحديثُ ما جرى منه من بعد ذلك في الحرب الحاضرة مشهور معروف . فهو أراد أن يمنع الحرب فما أفلح . وأراد أن يمنع إيطاليا أن تدخل الحرب فما أفلح . وأعلنت الحرب فأعلن حيادَ أمريكا ، ولكنه أباح « للفكر الأمريكي أن يكون غير محايد إن شاء » . ثم هو يمنع بيع السلاح الأمريكي إلا لمن يشتريه على الساحل الأمريكي ويدفع الثمن . وفي هذا من المعنى ما فيه . ولم يكن هناك شك في ميول الرئيس الطبيعية ، ولكنه لم يُرِدْ أن يسبق الحوادث ، وعلى الأخص لم يُرِدْ أن يمشي أمام الرأي العام الأمريكي بل وراءه . ولكنه أخذ هو والحوادث يدفعان هذا الرأي الأمريكي دفعاً من الوراء ، حتى صارت مناصرته الحلفاء جهراً .

وأكبر ما صنع في هذا إنفاذه قانون الإعارة والتأجير . فبهذا القانون ضمن للحلفاء المعونة الكبرى من مؤونة وعتاد ، وأمِن شرّ المستقبل أن يحدث هذا الدّين تلك المرارة بين الشعوب التي أحدثها دين الحرب الماضية . ففي هذه الحرب الحاضرة يكون للأمم المتمدينة أن تدفع دينها بضاعة لا نقداً . وفي تصريحاته الأخيرة أبان روزفلت أن الأمم قد تدفع دينها خدمات : أرواحاً ودماء .

وأكبر ما ابتدع روزفلت ميثاق الأطلنطي ، وما تلاه من مفاوضات هي له تبع ، ومنه فروع . وما الميثاق إلا عهد جمعية الأمم القديم ، منقّحاً . ذلك العهد الذي ابتدعه ولسن بعد الحرب العالمية الأولى ، وعاد به إلى أمريكا ، وحارب قومه من أجله ، وحارب معه روزفلت ، وخُذلا فيه .

واليوم تأتي الأخبار بأن روزفلت قد يتنحى عن رياسة الولايات المتحدة للمرة الرابعة ، ليترأس اتحاد الأمم بعد الحرب . ومعنى هذا أن يكون رئيس هذه الكرة . وهي رياسة لم تكن تخطر لأحد في بال . ولكنها إن صحّت ، وصدقت النيّات ، فلا نظن أن أحداً بماضيه ، وبحاضره ، وبديمقراطيته الأصيلة القديمة ، وبشخصيته العارمة على عجزه الجثماني — وهو عجز كشف له العجزَ الإنساني في صميمه ، وفضح له الغرورَ الإنسانيّ — لا نظن أن أحداً بكل هذا ، وبغير هذا ، يستطيع أن يقود العالم اليوم بأكبر حظ من رضاء الأمم جماء قيادة روزفلت

أحمد زكي

السيد جمال الدين الأفغاني

١٢٥٤ — ١٣١٤هـ

١٨٣٩ — ١٨٩٧م

لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرمى إلى إصلاح العقيدة، ومدحت باشا يرمى إلى إصلاح الحكومة والإدارة، فالسيد جمال الدين يرمى إلى إصلاح العقول والنفوس، وربط ذلك بالدين. ثم مدحت؟ يرى إصلاح الشعب عن طريق إصلاح الحكومة، وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة عن طريق إصلاح الشعب. مدحت يقول: إن الحكومة راع وإذا صلح الراعي صلحت الرعية، والغاية الدستور فإذا وضع ونفذ فالخير كل الخير للأمة. ويقول جمال الدين: «إن القوة النيابية لأي أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير، أو قوة أجنبية محركة له، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه»، فالعقول والنفوس — أولا — إذا صلحت صلحت الحكومة.

ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح؟، لقد علمنا التاريخ، أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان في الأمة رأي عام يخيفها، ويلزمها أداء واجباتها، والوقوف عند حدها، فإذا لم يكن ذلك، فالطبيعة البشرية تغري على الحكام أن يستأثروا بالمنافع، وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها، فإذا زالت حل محلها من لا يصلح؛ إذ لا شأن للأمة في اختيارها، ولا رقابة لها على أعمالها.

يقول حول سنة ١٢٩٦هـ: «هبوا أن مجلسا نيابيا أنشيء، فستجدون أن حزب الشمال لا أثر له، وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين، وسيكونون كلهم آلة صماء... وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ومناقشة الحاكم الحساب، قلة أدب، وسوء تدبير، وقلة حنكة، وتهور». لا! لا! العقول والنفوس هي المقدمة، والحكومة الصالحة النتيجة.

***

أفغاني الأصل، شريف النسب ينتمي إلى الحسن بن علي (ولشرف النسب في هذه البلاد حرمة وإجلال تفوق ما في غيرها من الأقطار). جمع إلى شرف النسب عزة السيادة؛ فقد كان أهل بيته سادة على عمالة من أعمال أفغان. ولكن ما لنا ولهذا كله فقد تنبت النبتة الطيبة في الأرض السبخة، والنبتة الفاسدة في الأرض الصالحة، فإذا نبتت النبتة الصالحة في الأرض الصالحة! كتفينا بالتسجيل. فأسرة جمال الدين لم تنبت إلا جمال الدين، وأسرة محمد عبده لم تنبت إلا محمد عبده، وما أكثر الأسر التي تشبه أسرتيهما أو تفوقهما، ومع هذا لم تنبت شيئا. فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

تعلم كما يتعلم شباب زمانه في بلاده الفارسية والعربية على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية، ولا تمتاز عنها إلا دراسته الواسعة في الفلسفة الإسلامية، والتصوف كما هي عادة الفرس إلى اليوم، فكان ذلك نواة ثقافته، ودرس في الهند الرياضة على الطريقة العصرية، وساح سياحة طويلة في الأقطار الإسلامية إلى مكة، فأكسبه ذلك تجارب عملية واسعة، وخبرة بحياة الشرق، ووقعت بلاده في منازعات سياسية على من يتولى الملك، فانغمس فيها وتشيع لجانب منها، وقام منه مقام الوزير وانتصر وانهزم، ولمس تدخل الدول فعلمه ذلك السياسة وخصومتها ودهاءها وألاعيبها.

وتعلم الفرنسية وهو كبير؛ أتى بمن يعلمه الحروف الهجائية ثم انفرد يتعلم نفسه نحو ثلاثة أشهر يحفظ من مفرداتها حتى استطاع أن يقرأ من كتبها ويترجم منها، ثم توسع في ذلك أثناء إقامته بباريس فمكنه ذلك كله من أن يقف على الحركات العلمية الحديثة والنظريات السياسية، والتيارات الفكرية حتى يقرأ «مذهب داروين» ورد عليه.

كم من الناس علوا أكثر مما علم، وقرءوا أكثر

مما قرأ ، ورطنوا أكثر مما رطن ، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته . ذكاء متوقد ، وبصيرة نافذة ، وتوليد للأفكار والمعاني من كل ما يقع تحت سمعه وبصره ، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولا لقائل . « له سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه . وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لسن في الجدل ، وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه . . .

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أوّاب ، إذا هو أسد وثّاب ، وهو كريم يبذل ما بيده ، قوي الاعتماد على الله ، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر .

أما خَلْقه فهو يمثل لناظره عربيا محضا من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز . ربعة في طوله ، وسط في بنيته ، قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء قد وفاه الله من كمال خَلْقه ما ينطبق على كمال خُلُقه[1] » .

فهم رسالته وما تتطلب من جهاد ، وما تقتضيه من أعباء ، فلم يرتبط بأسرة ولم يستعبده مال ، وعاش لأفكاره ومبادئه ، تكفيه أكلة واحدة في اليوم كله ، وإن أفرط في الشاي والتدخين ، أعد نفسه للتنقل في كل لحظة ؛ فما فيه لا يتبعه إلا شخصه . ملابسه على جسمه ، وكتبه في صدره ، وما يشغله في رأسه ، وآلامه في قلبه .

لقد طوف في فارس والهند والحجاز والآستانة ، وأقام فيها ، ولكن لعل أخصب زمنه ، وأنفع أيامه ، وأصلح غرسه ، ما كان في مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٦ هـ (مارس سنة ١٨٧١ — أغسطس سنة ١٨٧٩) . ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم الشرقي ، لا بجمال مظهرها وحسن رونقها ، وسعادة أهلها ، ولكن لأنه فيها كان يدفن في الأرض بذوراً تهيأ في الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الإزهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها .

لقد جرّب « السيد » أن يبذر بذورا في فارس والآستانة فلم تنبت ثم جربها في مصر فأنبتت .

كان من حسنات رياض باشا أن أعجب « بالسيد » ورأى فيه عالما لا من جنس العلماء ، يعرف الدين ويعرف الدنيا ويجيد الفهم ويجيد القول ؛ فمكّن له من البقاء في مصر وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهات شهرياً .

كانت هذه السنون الثمان من أشق السنين على مصر إذ كان حالها حال أسرة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، ولكن ربها أسرف فيما ينفق ، ولم يكتف بدخله الكثير فأنفق أضعاف ما كسب مما كان يستدين حتى إذا بلغ الغاية في الدين أخذ الدائنون يحجرون عليه ، ويتدخلون في شئونه ، ويشرفون على مصادره وموارده ولا يتركون له شيئا من حرية التصرف ؛ فإذا الأسرة بائسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هي مغلولة الأيدي والأرجل والأعناق تحاول الخلاص فلا تجده ، وتتلمس طريق الحرية فلا تهتدي إليه .

فقد توالت القروض التي عقدها إسماعيل باشا ، في

(١) من وصف الشيخ محمد عبده .

المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ و سنة ١٨٧٥ بلغت الديون نحو خمسة وتسعين مليونا من الجنيهات ، فجاءت بعثة كيف Cave سنة ١٨٧٥ لفحص مالية مصر واقترحت لضرورة إصلاحها إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها ، وأن يخضع الخديوى لمشورتها ولا يعقد قرضا إلا بموافقتها .

وأنشىء صندوق الدين سنة ١٨٧٦ يتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المالية فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية ، وأنشىء نظام الرقابة الثنائية فى هذه السنة أيضا وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان أحدهما إنجليزى لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات ، وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ، وجاءت لجنة تحقيق عليا أوروبية سنة ١٨٧٨ لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم .

وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوروبيان أحدهما إنجليزى لوزارة المالية والآخر فرنسى لوزارة الأشغال(١) .

ولاشك أن المال عصب الحياة، فالمشرف عليه مشرف على كل شىء . فتوفير المال لسداد الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التى تغل المال ، وهذه الإدارات تحصّل المال من الفلاح ، فلا بد أن يكون آمنا على ماله مهيأة له وسائل إصلاح زراعته ، يعامَلُ بالعدل فى تحصيل الضرائب منه ، فلابد من الإشراف على هذه الشئون كلها من أجل المال ، وهكذا من أشرف على المال أشرف على كل شىء .

كل هذا حدث مدة إقامة « جمال الدين » فى مصر ، وكان من طبعه الانغماس فى السياسة ، وغذّى هذا الطبع نشأته فى بيت حكم ، وانغماسه فيها أيام تنازع الأسرة المالكة فى الأفغان ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة ، وحافزة للناس فى مصر على أن يجاوبوا حركته .

* * *

كان نشاطه التعليمى ذا شعبتين : دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته فى « خان الخليلى » ، ودروس عملية يلقيها بين زواره فى بيته وفى بيوت العظماء حين يرد زيارتهم ، وفى « قهوة البوستة » بالقرب من « العتبة الخضراء » ، وحيثما تيسر له فى المجتمعات .

فأما دروسه فى بيته فكان يلقيها على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه أمثال الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلْمان ، والشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ إبراهيم الهلباوى .

كان أكثر الكتب التى قرأها على هؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة وتصوف وهيئة ، مثل كتاب الزوراء للدوانى فى التصوف ، وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ، والهداية والإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق فى الفلسفة ، وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة القديمة ، وكتابا آخر فى علم الهيئة الجديدة .

هى كلها كتب فلسفة على نحو ما يتصور الفلاسفة القدماء وفى العصور الوسطى ؛ فكانوا يعدون المنطق مقدمة الفلسفة أو مدخلها ، ومن فروعها الإلهيات والطبيعة والفلك والطب وما إلى ذلك .

ويظهر لى أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة فى ذاتها ؛ فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلا يقرأ بعض هذه الكتب فى الأزهر ، وإنما كانت قيمتها فى أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها كان تكأة يستند عليها الشيخ فى شرح أفكاره وآرائه ، والتبسط فى مناحى الفكر ، والتطبيق على الحياة الواقعة ، ونظرته إلى العالم كوحدة ، وإلى العلوم كوحدة ، مازجا التصوف بالفلسفة بالهيئة بغير ذلك . وهذا هو ما أقنع الشيخ محمد عبده من الشيخ وطمأن نفسه إذ قال : إنه « بعد حضوره فى الأزهر سنين ملّ الدروس المعتادة وصارت نفسه تطلب شيئا جديدا ، وتميل إلى العلوم العقلية ، وكان الشيخ حسن الطويل

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب عصر إسماعيل لعبد الرحمن بك الرافعى جزء ٢ .

ممتازاً في الأزهر بعلم المنطق لحضوره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه ، بل كان تتشوف دائماً إلى علم غير موجود … وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة ، ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان درسه احتمالات حتى جاء السيد جمال الدين فوجد عنده طلبته وأقصى أمنيته » .

فهذه الكتب التي قرأها إنما قيمتها في نفس جمال الدين ، والدنيا تتلون بلون منظار الرائي ، والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم ، ولكن لا يفهم منها إلى القليل .

ما هذا الشيء الجديد الذي وجده « محمد عبده » عند « جمال الدين » فاطمأن إليه واعتدت نفسه ؟ هو ما عند جمال الدين من أصول كلية هي عماد الفلسفة يرجع إليها كل ما يقرأ من صفحات الكتب ، وهي الحَكَم في صحة ما يصح ، وبطلان ما يبطل ، ثم شخصية قوية تجزم في الحكم ولا تتردد تردد الشيخ حسن الطويل ، ثم ربط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة . فالتصوف ، والفلسفة ، والدنيا العامة ، ودنيا الشخص ، هذه كلها لا يصح أن يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها بل لابد أن تتقابل وتتناغم وتؤلف دوزا موسيقيا واحدا ، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية ، وبت فيما ينفع وما يضر ، وما يعمل وما يدع ، ووضحت أمامه الأعلام ، واستنارت السبل . أما جملة تصح وجملة لا تصح ، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب ، ومنطق في الكتاب ولا منطق في العمل ، ونظرية في التصوف ينقضها نظرية في الحكمة ، وأقوال في الزهد يسلم بها في حينها ، وأقوال في الحث على الانغماس في الحياة يسلم بها في حينها أيضاً ، فهذه كلها نظرة البدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى السطح دون الأعماق ، والأعراض دون الجوهر ، والأشكال دون الحقيقة .

وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب ولا يستعبدهم الكتاب ، ويسمون عن قيود الألفاظ والجمل إلى معرفة الحقيقة في ذاتها ولو خالفت الألفاظ والجمل .

وكانت طريقته في التدريس عكس طريقة الشيخ محمد عبده . كان جمال الدين يحدد موضوع الدرس فقط من الكتاب ثم يفيض في شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه وبعد ذلك يقرأ نص الكتاب فإذا هو واضح ظاهر ، ويبيّن فيه موضع الخطأ والصواب . أما الشيخ محمد عبده فكان يقرأ النص أولا ويتفهمه ويفهّمه ثم يفيض في التعليق عليه وفي بسط الموضوع من عنده .

هذه هي مدرسته النظامية في بيته ، أما مدرسته العملية فموعدنا بها المقال الآتي إن شاء الله .

أحمد أمين

وزارة المعارف العمومية

المراقبة العامة للامتحانات

إعلان

الطلبة الذين يدرسون مناهج التعليم الثانوي بمنازلهم والذين يريدون التقدم لامتحانات الانتقال في مرحلة الثقافة العامة يمكنهم أن يطلعوا على عدد الوقائع المصرية رقم (١٤٣) الصادر في ١٩٤٢/١٢/٦ والمدرج به أسماء المدارس الأميرية التي تقوم بامتحان طلبة المدارس الحرة وطلبة المنازل وذلك لاختيار المدرسة التي يرغب كل منهم الامتحان أمامها .

ويمكن لكل منهم كذلك الاطلاع على شروط دخول الامتحان والمواعيد المحددة لدفع رسومه وتقديم الطلبات وغير ذلك من المعلومات بالمدارس المشار إليها . ١٧٣٦

إلى علماء مصر! وكتاب مصر! ورجال مصر!

[إنه لقول فصل وما هو بالهزل]

كنت أصفح الرسالة فوقع بصرى على المقالة البارعة التى كتبها أستاذنا الزيات (فى عدد الرسالة أول سبتمبر سنة ١٩٣٣) عن شواطئ مصر وما فيها، فقرأتها حتى بلغت قوله فيها (... جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل، فجريت إلى فوق، أتقى هذا المد الفاجىء، فإذا بى واقف إزاء مظلة جميلة منعزلة، قد انبطحت تحتها فتاة ناهد، لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة، وكان ذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر، فلما وقع بصرها على، نهضت نهضة الظبى الفزع تحيى بالعربية أستاذها القديم.

— أوه ... فلانة؟!

— نعم، ويسرنى أن أراك بعد خمس سنين.

— هل أنت وحدك هنا؟

— كلا، بل معى أخى ... وقد أتعبه صراع الأمواج الثائرة، فذهب إلى «الكابين».

— وكيف حال البك؟

— الحمد لله خير حال، وما أكثر سؤاله عنك، وأشد شوقه إليك، لقد كان جالساً فى الكازينو، ثم انصرف إلى البيت منذ قليل.

قالت ذلك تقيدتى الأرستوقراطية السلفة، وهى تنصب كرسياً طويلاً من القماش دعتنى إلى الجلوس عليه، ثم جلست هى على كرسى آخر، وكانت كأمها حواء لا يستر جسمها العارى إلا «ورقتان» خصفتهما عليه من أمام ومن خلف، فسرعان ما ذكرت ذلك الكتب الفخم الذى كانت تجلس قبالتى عليه تستعد لامتحان البكالوريا، وهى ملففة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل، وعيناها الساجيتان لا تفارقان الصحيفة حياء وخفراً، وثغرها الحيى الدقيق، لا يرسل سهل الكلام إلا فى تلعثم وبطء .....)

* * *

لما بلغت فى المقالة هذه الصورة، كنت متمدداً فى فراشى أهم بإدارة مفتاح النور والاستسلام للنوم، فطار النوم من مقلتى، وتوقدت فى أعصابى نيران الغضب للفضيلة المجنىّ عليها والعرض المزدرى، ودار فى نفسى كلام، لو أنا أطعت النفس وبعثت به للنشر لبعثت عاصفاً يعصف بهذا البك الذى ارتضى لفتاته مالا ترتضيه البهائم لإناثها من غيرتها عليها، وهذا الشاب الذى صارع الأمواج ليثبت رجولته المزورة، ثم انصرف إلى هذا «الكابين» الذى لا أعرف أى شيء هو، وقد صرع شرفه وثلم عرضه، ولأرسلت شواظاً من نار على هذه (المجلات) المستهترة التى سخرها إبليس لهدم الأخلاق ونسف الفضائل والدعوة إلى شرع الشهوات بما تنشر من الصور العارية، وما تحبذ من السفور والحسور والاختلاط، وما تنال من أصحاب الشرف والفضيلة كالشيخ الجليل أبى العيون ...

... ثم رددت القلم إلى قرابه، وأطفأت بكأس اليأس وقدة الغضب، ورجعت على نفسى باللوم فقلت: يا نفس ويحك! هل تظنين أنك وحدك المحقة، وهؤلاء الناس كلهم مبطلون، وكلهم يخطئ، وأنت تصيبين؟ أو لا ترين للناس عيوناً يبصرون بها هذا كله كما يبصره (أبو العيون) ثم يسكتون؟ فلو كان محرماً أو ممنوعاً أكانت مصر تقره؟ أوكان علماؤها يكفون عن إنكاره؟ أو كان كبراؤها وعظماؤها يرضونه لبناتهم وأخواتهم؟ كُفّى يا نفس فقد مضى زمانك وغيرت أيامك، وصرت فى آرائك وأفكارك من آثار الأولين. وهل تريدين أن يعود الناس إلى عصر الجهالة والظلام يوم كان الأب رب بيته، والزوج قواماً على امرأته،

والمرأة لا تعرف الفسيولوجيا والجيولوجيا ، وإنما تعرف الطبخ....لوجيا والكنْس.....لوجيا ، وكان جمال المرأة لزوجها وحده قد حُرمت من عرضه على الناس ، وملكها البيت وحده لا الشارع ولا الساحل . هل تريدين أن يعود الناس إلى تلك العهود حيث القيود أنواع : من قيد الدين ، إلى قيد الخلق ، إلى قيد الآداب ؟ ...

لا ، إن العصر عصر الحرية ، حرية الجنون الذي يفعل كل ما يشاء ، فيخلع اليوم ثوبه ، وغداً دينه وعقله ، ولا يستطيع أحد أن يقول له : دعْ ! حرية راكب السفينة الذي يخرق مكانه ليدخل عليه الماء فيستنقع فيه ، يقول : هو مكاني أفعل به ما أشاء ، فمالكم ولمكاني ، يقول : هي امرأتي ألبسها ما أشاء ، فمالكم ولامرأتي ، هي ابنتي أجردها كما أشاء ، فمالكم ولابنتي ، « فإن أخذ على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » ؛ لأن السفينة إن ملأها الماء لا يغرق من خرقها وحده وإنما يغرق الجميع ، والنار إن شبت في البيت لا تحرق من أضرمها وحده وإنما تحرق الجميع ، والفجور إن انتشر لا يهلك الفاجر وحده وإنما يهلك الجميع .

فيا أيها المصريون ، بل أيها المسلمون انتبهوا ، إنها النار ، النار شبت في ستانلي باي ، وأقبلت تضرمها الرياح الأربع وتهيجها تحرق كل ما تمسه ، واندفعت متدافعاً لسانها تمتد شرقاً وغرباً وإلى الجنوب ، إنها النار ... النار وهاتيكم المجلات تنفخ فيها وتضرمها ، وتحمل إليها الوقود لحوماً بشرية وأعراضاً وأمجاداً !

* * *

يا قوم إن الله خلق الشهوة وأمر بكفّ شرّتها وكسر حدتها ، وشرع لها طريقاً مرسوماً كيلا تطغى كما يطغى النهر إذا خرج عن سبيله ، وجاوز مجراه ، وهذا الطريق هو الزواج ، وأقام لها الحواجز والسدود ، فخوف المرض سدّ ، وخشية الله سدّ ، وتجنب الفضيحة سدّ ، والهرب من الحدّ سدّ ، فعطلتم حدود الله فلا تقام على زانٍ ، ووضعتم قوانين تكاد تبيح ثلاثة أرباع الزنا ، ولا تعاقب إلا على الربع الباقي ، ومنعتم الفضيحة حين جعلتم هذا المنكر معروفاً ، وأعلنتموه وقد كان شراً مستتراً ، وجعلتموه تمدناً وقد كان وحشية وخزياً وعاراً ، وأنسيتم أولادكم خوف الله حين أقللتم من دروس الدين في المدارس ، ولم تدخلوها في الامتحانات العامة ، واستعنتم بالطب على تجنب المرض ، فأدخلتم الذئب على غنمكم ...

إن الشهوة ذئب كاسر فلا تطلقوه عليكم ، فلا تدرون ماذا يفعل ببناتكم وأولادكم . إنه يفسدهم ويفسدهن ، وما العرض الذاهب من رجعة ، إن الشهوة إن أطيعت في الحرام بطل الزواج ، وهذا ما حلّ بنا أو كاد ، وإن بطل النكاح حل السفاح ، وإن حل السفاح صار البشر كالخنازير والعياذ بالله !

فمالكم كيف تحكمون ؟

* * *

إنكم تشكون تقصير الطلاب ، وخور العزائم ، وضياع الأمانة ، وسبب ذلك كله السفور والاختلاط والحسور والتكشف . وكيف ينصرف الجهد إلى درس ، ويقبل معلم على علم ، وتاجر على تجارة ، وموظف على عمل إن شغلته شهوته ، وسيّرته أعصابه ، وركبه إبليس وألجمه بلجام ؟

خبروني هل في الدنيا دين من الأديان أو خلق من الأخلاق يبيح هذا الذي في ستانلي باي وسيدي بشر ؟ فلماذا لا تحارب المنكر ؟ لماذا لا يقوم عليه القائمون على الأخلاق ؟ لماذا لا ينفر منه الأدباء ؟ لماذا لا تحمل عليه جمعيات الهداية والشبان والإخوان والأنصار ، وخطباء الجمعة ؟ هل تريدون كلمة الحق : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) إنكم منذ خالفتم فطرة الله فقلتم المرأة مثل الرجل سواء بسواء ، وقلتم أنها لا تتم المساواة

بين المجلة والقراء

سيدي رئيس التحرير :

ظاهرة عجيبة في الإنتاج المصري الفني سينمائيا كان أم مسرحيا هي المغالاة في ذم الطبقة الراقية مغالاة يشمئز منها العدل ويشمئز منها الفن وقوانينه .

ونحن إذا حاولنا أن نحصي عدد الأفلام التي هاجمت (أولاد الذوات) - على حد التعبير العامي - أو عدد المسرحيات التي خلقت لإلصاق التهم الغريبة بهم لأعيانا الإحصاء .

ولأضرب مثلا بسيطا وبسيطا جدا لذلك ، الأفلام الأولى من إنتاج استوديو مصر هذا العام : (رابحة) و (قضية اليوم) و (حب من السماء) .

فالفيلم الأول كله يعتمد على هذه الفكرة الساذجة من التعريض بهذه الطبقة .

والفيلم الثاني والثالث لا يني عن متابعة الهجوم بل والتهجم عليها .

ولسنا ندري عن البقية شيئاً !

والواقع الذي لا مبالغة فيه أن ٩٠ ٪ من أفلامنا لم تتحرر من هذه « المادة » .

ولذلك سبب واحد ، وواحد فقط

هو استجداء التصفيق من الجمهور . لأن المنتج يعلم جيداً أن الغالبية العظمى من المتفرجين إنما هم من الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكل مذمة موجهة إلى الطبقة الأخرى ستنال - بلا أدنى شك - إعجابهم واستحسانهم .

وأنا لا أستطيع أن أنكر العيوب الكثيرة التي أجدها وتجدها في أبناء هذه الطبقة ، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أن نخصص كل إنتاجنا الفني منذ خلق مسرح رمسيس إلى اليوم لنحمل هذه الحملة العجيبة على هؤلاء الناس .

إن الفيلم الذي يضرب بعد اليوم على هذا الوتر يجب أن يعد فيلماً ناقصاً .

فؤاد محيي الدين
القاهرة. كلية الطب

تصحيح الأوراق

يطيب للإنسان أن يذكر ماضيه مهما كان هذا الماضي مريراً ، وأن يتصور أمحنه ويتحدث بأيامه ويتعلق بأهدابه .

وهذا ما جعلني أجلس إلى تلميذ ، أعهد فيه الأدب الخلق والعلمي وسعة الإطلاع ، أسأله عن المدرسة والدروس؛ فاكفهر وجهه ، واضطرب صوته وهو يقول : « أتذكر يوم قال مدرس الإنشاء على إنه لو كان منا كفأ من أي صاحب هذه الموضوعات لتركها بلا درجة تقومها وعلو حتى تسلوا قانوناً يجبر الزوج أن يحبل سنة والمرأة سنة ، ويرضع شهراً وترضع شهراً ، ويحلق لحيته مرة وتركب لها لحية مرة أخرى ... ومنذ عكستم حكمة الخالق فجعلتم المرأة قوامة على الرجل وجعلتم طاعتها عمداً وورقة وهي منذ خلقت تطيع الشيطان ، ومنذ علمتموها ما لا ينفعها من العلوم وما لم تخلق له ... فتحتم الطريق التي تذهب إلى جهنم مارة بستانلي باي ! وطارت شرارة منها فاضرمت هذه النار ...

إنها النار ... وإني نذير لكم ! فهل تطفئونها قبل أن تستفحل ؟

يا كتاب مصر ! يا علماء مصر ! يا رجال مصر ! إنها النار ... وإنها لن تحرقكم وحدكم ، ولكن تحرقنا معكم لأنا اتخذنا مصر إماماً واستمسكنا بها . إنا جعلناكم قادتنا وتبعناكم ، فالله الله أن تقودونا إلى الدمار والعار وإضاعة الذمار ... وأن نصلى في الدنيا ناراً وفي الآخرة (النار) ! ...

علي الطنطاوي
دمشق (دوما)

أسلوبها ؟ » فقلت : « نعم ! هذا ما أخبرنى به » . فقال : « ولكنى فى هذا العام أنال أخس الدرجات فى الإنشاء بعد أن قرأت كل ما أنتجه الكتاب المعاصرون ، وطرفا صالحا مما أنتجه المتقدمون ، وبعد أن قرأت من دواوين شعراء الأولين والآخرين ما لم يقرأ أحد قبلى » . فأقررته على ما قال من سعة اطلاعه وعجبت من بخس المدرس حقه وكدت أرتاب بالطالب مع أنه لم يقل يوما ما يريب .

فرجوته أن يطلعنى على كراسة إنشائه فى هذا العام ووقعت على موضوع به ثلاث علامات حمراء فانطلق الطالب شارحا أنه سأل أستاذه عن الكلمة الأولى ما خطؤها فاعتذر بأنه لم يرها جيدا . والكلمة الثانية (صَلِى) والمدرس يرى صحيحها (اصطلى) ولم يقتنع إلا بعد أن ذكره الطالب بقوله تعالى : (سيصلى نارا ذات لهب) . أما الكلمة الثالثة فهى (ديمقراطية) رآها المدرس خطأ والصحيح (دستورية) فحاوره الطالب بأن المدلول مختلف ؛ فألمانيا ، وإيطاليا ، وروسيا بكل منها دستور غير ديمقراطى . فضلا عن أن كلمة (دستورية) هى أيضا غير عربية .

ورغم تمكن الطالب من علمه فقد رأيت سحابة تمر عجباء وهو يقول : (هذه آخرة الأدب ، وهذا ما يلقاه ناشئة الأدب من أساتذتهم) .

فأجبته : كلا يا بنى ! لا تسرع بالتعميم فإن فى مصر أعلام الأدب يأخذون بيد كل ناشىء ، ويشجعون كل أديب : سأرسل حديثى معك إلى الثقافة لترى فيه رأيها . وقد تدل إليك برأى فى موقفك يزيل كربتك ، ويكشف غمتك ويزيل ما تستشعره من يأس وقنوط .

نجيب قدرى

على هامش النقد العربي :

أبو الفرج الناقد

عرض أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني شعراء العرب في العصر الجاهلي والقرون الثلاثة الأولى للإسلام وآراء النقاد فيهم وأذواق عصورهم ومعاصريهم . وهو لا يعرضهم عرضنا التاريخي الحديث فيفصل الكلام عن الشاعر ويقسمه ويبوّبه كما نصنع الآن ، إذ نتكلم عن أدوار حياته وبيئته وعصره وظروفه وثقافته ومدى تقليده وتجديده ، وإنما أخبار مفرقة عن الشاعر من هنا وهناك ، تتناول أطرافاً من حياته وما حدث له من وقائع وأحداث ، وأثناء ذلك تتناثر تأملات في فن الشاعر وخصائصه وما يتسمه في شعره وقادحيه . وهي تأملات مصيبة كان يستمدها أبو الفرج من عقل مثقف ثقافة ممتازة بالشعر القديم والحديث ، وهي من أجل ذلك تنتهي به إلى أحكام نقية لا يشوبها هوًى ولا يتعلق بها غرض .

لم يكن أبو الفرج يؤصّل أحكامه في الشعر والشعراء على هوى أو غرض ، إنما كان يؤصلها على المقاييس الفنية الدقيقة ، مقاييس الجودة والرداءة ، وبذلك انحاز عما وقع فيه أفلاطون قديماً وبعض النقاد الغربيين حديثاً من الاحتكام في تقويم الشعر والفن إلى مقاييس الأخلاق ، كأنه كان يشعر شعوراً عميقاً بالنظرية الحديثة القائلة بأن الفن للفن ، فهو لا يحكم عليه بما يعبر عنه من أخلاق وغير أخلاق ، إنما يحكم عليه بما يعبر عنه من شعور ووجدان وقيم جمالية داخلية فيه لا ترتبط بأخلاق ولا بدين ولا بغيرهما من قيم خارجية عنه . وكيف يحتكم أبو الفرج إلى الأخلاق وكثير من الشعراء الممتازين أمثال أبي نواس كانوا ذوي أخلاق مقيتة ؟ إننا في الواقع حين نرتد إلى الأخلاق نحكمها في الشعراء تسقط من أيدينا نماذج كثيرة ، فالشعر يعبر عن الحياة بوجهيها من أخلاق وغير أخلاق ، وهو لا يقاس بأحد الجانبين ، إنما يقاس بمعاييره الخاصة التي تأذن لأبي الفرج أن يرد على النقاد أحكامهم على الشعراء ما داموا يعتمدون فيها على تقويمهم بأخلاقهم كحكم ابن سلام على الأحوص إذ أخره في منزلته بين الشعراء الإسلاميين وجعله في الطبقة السادسة وكان يحسن أن لا ينظر إلى أخلاقه وأن يتقدم به إلى طبقته الحقيقية التي تلائم فنه وشعره . وهذا الفاصل الدقيق الذي أقامه أبو الفرج بين الشعر والأخلاق كان له أثر آخر لا من حيث تقويم الشعراء ، بل من حيث رواية آثارهم وقادحيهم ، فقد ذهب يروي أشعارهم الماجنة وإفكهم وما كانوا يزرون .

والحق أن أبا الفرج كان من أصحاب العقول الحرة التي لا تحجز نفسها داخل نظرات ضيقة في الحكم على الشعراء ، وإن من يتابعه في الأغاني ليلاحظ أنه كان دقيقاً دقة شديدة . وهي دقة تظهر في كل شيء من كتابه ، ولعل من أطرف الدلالة عليها ما نراه من وقوفه عند محيط الشعراء وأوساطهم حتى يعلل تعليلاً صحيحاً لشهرتهم وخمولهم . يقول عن أبي الشيص إنه « غير نبيه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبي نواس فخمل » أما ربيعة الرقي فمع إكثاره وتجويده فإنه أخمله بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء . وعلى هذا النمط يقف أبو الفرج عند أطراف من حياة الشاعر وحواشٍ من معاصريه يستفيد منها في التعليل لخموله ، وليس من شك في أن هذا اتجاه حسن في التعليل والتسبيب .

على أن تأمله في محيط الشاعر ، جعله ينفذ إلى شيء آخر لعله أهم مما ذكرناه ، وهو التقبل للأذواق الحديثة ، بل الاحتجاج لها والتعصب من أجلها ، وقد ظهر ذلك في وضوح عند مناقشته لمن لاموا ابن المعتز على ما في شعره من ركاكة وخروج على موضوعات الشعر التقليدية ، إذ كان يعنى بوصف مجالس اللهو والأنس دون وصف البيد والمهامه والقفار والمنازل المهجورة . ينظر أبو الفرج

فى هذا النقد فيرفضه معللا رفضه بأن مثل ابن المعتز ممن يعيش فى ميادين النور والبنفسج والنرجس والندامى والقيان لا يطلب إليه أن يتكلف ما فوق بيئته ، ولا أن يعبر بأسلوب جيد الكلام ووحشيه ، وإنما يعدل إلى أسلوب بسيط رقيق يفهمه معاصروه .

وليس من شك فى أن أبا الفرج يفصح هنا عن ذوق حديث ، فهو ليس ممن يمتنقون القديم لأنه قديم ، بل هو يرى أن لكل حال لبوسها . فى مواضع يستحسن القديم وفى أخرى يستحسن الجديد ، وكل شاعر عليه أن يمثل وسطه وعصره ، وليس من حق النقاد أن يزروا عليه فإن ذلك — إن صح — يفضى بالشعر إلى ضرب من الجمود والتحجر عند تقاليد محفوظة ، والشعر حقا ينبغى أن يستفيد من التقاليد القديمة والمراسيم الموروثة ، ولكن فى حدود التغيير والتبديل داخل الإطار القديم ، بحيث يستطيع أن ينهض بمذاهب ومناهج تتلاءم مع العصور الحديثة ، فلكل عصر مذاهبه ومناهجه وحركاته الفنية التى تتعاقب فى شكل أمواج ترتفع ثم تنخفض لتحل محلها أمواج جديدة .

وإن من الأشياء الطريفة حقا فى كتاب الأغانى أن صاحبه لم يكن يعنى بتتبع سقطات شاعر . فقد كان يعترف بأن الفنان الممتاز يجيد فى موضع ولا يجيد فى آخر ، بل إن شاعراً نفسه تختلف حالاته فى الموضوع الواحد والنموذج الواحد ، وليس لنا أن نزرى على هدى شاعر إن أسف فى بعض المواضع ما دام يرتفع ارتفاعا حسنا فى المواضع الأخرى . يقول فى التعليق على حملات خصوم أبى تمام وأنه يسف كثيرا : « وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطة إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ، ولا عند الصواب أخطأت » وقد فسر هذا المعنى تفسيرا أتم حين حديثه عن ابن المعتز ، وما يجد قارئوه عنده من هلهلة أسلوب وضعف نسيج إذ يقول إن الشاعر « لا يبخس حقه كله إذا أحسن فى الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير ، وينسب إلى التقصير فى الجميع لنشر القبائح ، وطى المحاسن ، فلو شاء أن يعمل هذا كل أحد بمن تقدم لوجده مساغا وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشئ أحسنه وعلى ما لم يستحسنه فليس مأخوذا به ، ولكن أقواما أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل وتعلو أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك إلا ضعة ، ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعا » .

وليس من شك فى أن هـذه نظرة معتدلة فى الحكم على الشعراء ، فإن من واجب الناقد أن لا يتعلق بضعف يجده فى صحيفة أو صحف من ديوان شاعر فيرفض الديوان كله . إنه إذن يرفض دواوين الشعراء جميعا لأن الشاعر من طبيعته أن يحلق فى الآفاق العليا فى بعض الجوانب ثم يسف فى جوانب أخرى ، بل ربما كان هذا الإسفاف آية على مهارة الشاعر لأنه دليل ارتفاعه وصعوده فى بعض النماذج صعودا يتراءى فى خلاله هذا الإسفاف الذى لا يظهر فى تلك الصورة الواضحة عند الشعراء المتوسطين لأنهم يحلقون دائما فى أفق متوسط مستو . ويفسر ذلك أبو تمام والبحترى ، فالأول على مهارته النادرة يسف كثيرا فى شعره بخلاف البحترى فإنه يعيش فى الأفق القريب ، ولذلك كان لا يظهر عنده الإسفاف كما لا يظهر عنده التحليق فى الأجواء العليا فذلك مدى خارج عن طاقته .

وهـذه النظرة الدقيقة فى الحكم على الشعراء كان يؤازرها نظرة أخرى متغلغلة فى فهم خصائصهم ومناهجهم الفنية . وقد ساعدته تلك النظرة فى أن يتحقق من النصوص التى يرويها إذ نراه يرفض قبيلا منها لأنه لا يتفق ونمط الشاعر ومنهجه . يقول فى قصيدة تنسب لامرىء القيس أظنها منحولة لأنها لا تشبه كلام امرىء القيس والتوليد فيها بين » ويشك فى شعر ينسب للأحوص لأنه « ساقط سخيف لا يشبه نمط الأحوص والتوليد بين فيه ويشهد على أنه محدث » ، ويقول فى شعر ينسب إلى طرفة إنه

شر البليـــة !

قال صاحبي « س » :

مرض ابني فشغلت به عن كل شيء في الحياة ، ورحت أطرق أبواب الأطباء ، وكان اليوم جمعة والأطباء في راحة ، حتى وجدت طبيبا قبل أن يعوده ، وحدد لعيادته وقت الظهيرة .

وأبت إلى المنزل أحمل نبأ قدوم الطبيب فوجدت الدار تزخر بالعائدات من الأقارب والجارات .

وقلت لزوجتي الهالعة :

— هوني عليك فلن تمضي ساعة حتى يأتي الطبيب ونكون من أمره على بينة .

ولم ترد زوجتي ، وإنما ردت سيدة من الأقارب :

— طبيب ؟ وما الحاجة إلى طبيب ؟ أليست علته واضحة لا خفاء فيها ؟

قلت — فكيف وضوحها ؟

قالت — أليست حرارته مرتفعة ؟

قلت — بلى .

قالت — أليست معدته مضطربة ؟

قلت — بلى .

قالت — أفلا ترى ذبول عينيه ؟

قلت — بلى أراه .

قالت — فهل هناك غموض ؟ إنها نزلة برد ، وأيسر ما تلم بأولاده . إنها واضحة ، وعلاجها أوضح منها . فزيت الخروع يجرع منه الطفل ملعقتين ، ويمنع من الأكل ثم يثقل عليه الغطاء فلا يصل إليه نور ولا هواء ، فإذا كان المساء ، فالحقنة الشرجية ضرورية ، وما من الملعقتان من زيت الخروع في صباح غد بد .

ولم يعجب العلاج سيدة أخرى فاعترضت قائلة :

— وما الحاجة لكل هذا العناء ، وملعقة واحدة من الشيح على الريق ، ولبخة من الردة على الظهر والصدر ، وقطعة من مر البطارخ يزدردها قبل النوم فيصبح الصباح ، وكأنه ما مرض قط .

« لا يشبه مذهب طرفة ونمطه » .

وتتردد في الأغاني كلمة مذهب ؛ فالحسين بن الضحاك حلو المذهب لشعره قبول ورونق صاف ، والعباس بن الأحنف له مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ؛ والبحتري شاعر فاضل فصيح حسن المذهب ، أما أبو تمام فله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء .

وليس من شك في أن أبا الفرج كان دقيقا دقة فائقة حين لاحظ ما يتميز به أبو تمام من استخدام طباق جديد ، وربما كان هو الناقد العربي الوحيد الذي تنبه إلى هذا الجانب في صناعة أبي تمام ، إذ رآه يستخدم ضربا جديداً من الطباق لا يستمده من وعاء الذاكرة كالطباق المعروف حين تذكر الليل فيأتي النهار والشيب فيأتي الشباب ، إنما يستمده من وعاء الفلسفة فإذا بعيره يرعى الفيافي وترعاه الفيافي :

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة
رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

وليس هنا مجال البسط في الحديث عن هذا الطباق الفلسفي الغريب ، إنما نريد أن نشير إلى أن أبا الفرج كان ناقدا ممتازا في فهم الشعراء وبيان خصائصهم ، وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أنه لم يعن كثيرا بعرض آرائه في الشعراء وأحكامه . إنما كان يعنى بعرض آراء غيره من النقاد وأن يروى الأخبار المختلفة عن أحداث الشعراء وما وقع لهم في حياتهم ، وهو في الواقع ليس له في كتابه آراء وأحكام كثيرة فما كان يحاول — على ما يظهر — أن يشرح الأخبار والأحداث ، بل كان يتركها لتتكلم بنفسها وكأنه لم يكن ممن يشغلون بفلسفة الحقائق قبل الحقائق ذاتها .

شوقي ضيف

ونظرت إلى السيدة الأولى لأرى رأيها فقالت :

— ما فيها وصفته من ضير ، على أن لا نهمل شربة الزيت في الصباح ، والحقنة في المساء .

قلت سائلا : فيعطى الطفل إذن كلتا الوصفتين ؟

قالتا معا : أجل ! وإن ذلك لأدعى لسرعة الشفاء .

وسكت متظاهرا بالرضى ، وأخذن جميعا أقارب وجيرانا يتحدثن عن شتى الأمراض ، ووسائل التطبيب ، وسهولته لولا ما ابتدعه الطب الحديث من تعقيد في العلاج ، وراحت عليمة منهن تكشف حيل الطب الحديث ، وكيف يستعين بنفس وصفاتهن بعد أن يزوقها ويغير أسماءها .

وطرق الباب وكان الطبيب ، فأقبل على الطفل فتجسس نبضه وحرارته ، وتلمس مواطن العلل في جسمه ثم صمت هنيهة ، وأخذ يكتب الدواء ، وتحفظ فلم يذكر للعلة اسما ، وأعلن إلينا أنه لن يستطيع تشخيصها قبل أن يمضي يومان ترقب خلالهما تغير الحرارة .

وانصرف الطبيب ، وانصرفت من بعده العائدات بعد أن أكدنا لهن إعاننا بما وصفن من علاج ، وانصرفت أنا إلى الصيدلية فابتعت الدواء ، ودفعت مع الثمن كثيرا من التوسلات حتى ظهر بعضه وكان مختفيا .

ومر اليومان ، والطفل على حاله فتفقدت الطبيب فقيل لي إنه في الريف يعود طفلا من أبناء الموسرين ، ولن يعود قبل يومين ، فدلست طبيبا آخر فأقبل ، وفعل ما فعل زميله حتى إذا شرع يكتب الدواء دفعت إليه بما كتب زميله ، وقصصت عليه ما حدث . لكنه مع ذلك أخذ يكتب الدواء كأن الأمر لا يعنيه . فقلت مضطرا :

— وما ترى يا سيدي فيما كتب زميلك ؟

قال — إني أعرف هذا الزميل ، ولا بأس عليه لولا أنه يتبع مدرسة في التطبيب لا أومن بها ولا أتبعها ، ولست أملك إلا أن أصف الدواء على طريقتي وأشير بوسيلة العلاج التي أرضاها .

قلت — فنعدل إذن عن هذه الزجاجات ؟

قال — نعم .

وحمدت الله أنه لم يشر كما أشارت جارتنا بأن نتبع كلتا الوصفتين ، وأوصلته إلى سيارته ، وعدت إلى زوجتي أستطلع رأيها .

قالت — ماذا أنت فاعل ؟

قلت — سأشتري هذا الدواء ما في ذلك شك .

قالت — أفلا تتريث قليلا ، ونستمر على دواء الطبيب الأول ؟

قلت — ألا تخشين عصبية المدرسة الحديثة في تطبيب الأطفال ؟ أما أنا فأخشاها ، وأرى أن نبادر فنتبع علاجها ولن نخسر شيئا فكلاهما دواء .

وعدت بعد ساعة أحمل الدواء ، ومر يومان أيضا ، ووجدنا في اليوم الثاني أن الطفل لا يزال كما هو ، وأخذت أعلل النفس بأن الدواء قد يحتاج إلى وقت ليؤتي ثمره ، وانتصف النهار ، وإذا الباب يطرق ، وإذا به طبيبنا الأول قد آب من الريف وعلم بسؤالنا عنه . فحدثته بما فعلناه ، وقدمت إليه دواء زميله ليرى رأيه ، فتأمل الزجاجات وقد وصف الدواء ، ثم رفع رأسه قائلا :

— إنه الدكتور (م) . إني أعرفه زميلا قديرا لولا أنه يتبع في علاجه مدرسة غير مدرستي ، وأرى أن الحالة تستلزم علاجا غير هذا . .

ومضى يكتب دواء جديدا ، ومضيت أنا أستعيد ما حدث منذ مرض الطفل واستهدى الفكر فيما أنا فاعل ، حتى أتم مهمته وخرج ، فعدت إلى زوجتي أشاركها الحيرة .

قالت زوجتي : — لعلنا وقد رضينا أن نحيل جسم الطفل إلى حقل تجارب للوصفات البلدية أن نضن به على أن يكون ميدانا تعترك فيه مدارس الطب فتتحول به كل يوم من دواء إلى دواء .

قلت — ولا أرضى أنا أيضا أن أعطيه كلا الدوائين وأنزل في جوفه كلتا المدرستين ، وإني لأخشى أن تتكاسل

كل منهما فتعتمد على الأخرى ، ويضيع الطفل بينهما .

قال — فما الرأى إذن ؟

قلت — أن نترك لله أمر شفائه أو نتفق مدارس الطب على علاج ، ونحن آخذان كما ترى بأسلم السبل فما نطعمه شيئاً إلا السوائل ، ولعلنا في غد مهتديان إلى طبيب محايد ، وتكون العلة قد كشفت عن نفسها

وتنفس صباح اليوم التالى ، وقد انتشرت على وجه الطفل بقع حمراء ، وما رأت جارة من جاراتنا ذلك حتى تنهدت عن ارتياح ، وقالت وكأنما هذه البقع ليست نذير مرض وإنما بشير شفاء :

— ألم أقل لكم إنها الحصبة ؟ الحمد لله لقد تبين الأمر ، زملا الولد ودثراه بأغطية حمر ، وألبساه ملابس حمراء ، وعليكم بالعسل الأسود يشربه وبالعسل يحقن به ، والشرا الستائر على النوافذ فلن يدخل الغرفة هواء ، ولا نور . إنها أيام وتزول العلة .

أما أنها قالت لنا إنها الحصبة فذلك ما لا أذكره ، وأما علاجها فما تبعنا منه شيئاً ، وإنما أسعفنا الله بالطبيب المحايد فلم يصف دواء وإنما وصف الحمية ، وحتم الدفء ، ونهى عن التعرض لتقلبات الهواء ، وكانت هى الحصبة فعلا ولطف الله بالطفل فشفى بعد أن بلغ المرض مداه .

وسكتنا ننتظر أن يتم صاحبنا «س» ، لكنه كان قد أنهى حديثه فقلت :

— فما وجه العبرة فى قصتك هذه ؟ ألوم جاراتك أم أطباءك ؟

قال — أما الجارات فشأنهن معروف ، ولسن وحدهن اللاتى يتدخلن فى أمر الطب ، وإنما هو داؤنا جميعاً ، فلا يجلس الإنسان فى مجلس ويشكو مرضاً حتى تنهال عليه الوصفات وألوان الأدوية من كل جالس ، اللهم إذا كان فيهم طبيب فهو وحده الذى يصمت . كلنا أطباء بالفطرة كما يقول بعضهم .

وإنما الذى يلفت نظرى فيما قصصت عليكم هو أمر هذه المدارس . لقد أصبح شر البلية ، وليس هو كما قال الشاعر جهل الطبيب . إنما شر البلية مملاً هو هذه المدارس التى تأبى أن تتنازع وتتطاحن إلا فى جسومنا . هو هذه العشرات من الزجاجات التى تشترى اليوم ثم تقذف فى سلة المهملات وتتربع مكانها زجاجات أخرى ، فإذا طال المرض تحول بيت المريض إلى صيدلية . وكل هذا فى زمن يحصل المرء فيه على بعض أنواع الدواء كما يحصل المدمنون على حاجتهم من المخدر ، وقد لا يحصل عليه أحياناً إن لم تسعفه الحيلة . هذا هو البلاء الحق ! أما جهل الطبيب فقد انتهى أمره ، أو هو منته بما وصل إليه النظام من تقييد المهنة ، وقصرها على درجة من الكفاية والمران والامتحان ، وبما وصلت إليه الدولة من حظر الشعوذة والنهى عن اتباع الوصفات البلدية والدعاية للطب الحديث .

وما يخلق بالطب الحديث أن تتوحد عنده الآفاق ، ويكون الملجأ الأخير ، ثم يكون بعد ذلك عدة مدارس تتطاحن وتتضارب ، ولا تصيب لكلتيها إلا أجسادنا نحن .

صبوح زهنى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٤٥	فى مصر والسودان
٣٧/٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليماً

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعلىّ تبعته وحدى ... ... »

الصديقة بنت الصديق — التاريخ يحتج — حرمة الفن ! ... ...

الصديقة بنت الصديق :

تلقيت أمس الرسالة الآتية من الصديق المحقق الأستاذ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي :

« عزيزي ...

« لعلك قرأت (الصديقة بنت الصديق) للكاتب الجرىء الأستاذ عباس العقاد ، فإن لم تكن قرأت فاقرأ : « وكانت — يعني عائشة — تحفظ من شعر عروة بن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه في موقعه ، كما قالت وهي ترى النبي عليه السلام يتندى عرقاً في يوم قائظ وقد جلس يصلح نعله : لو رآك عروة لكنت المعنىّ بقوله :

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده
لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
لواحي زليخا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي »

كتب هذا في ص ٥٢ — ٥٣ ثم كرره في ص ٧١ : « وقد تقدم أنها رأته في يوم قائظ وقد توهج خداه فقالت تتمثل بكلام عروة بن الزبير ... » وكتب البيتين . وقد سبق للكاتب أن ذكر القصة في كتاب (عبقرية الصديق) ص ٢٠٩ — ٢١٠ بلفظ آخر ، أعتقد أنه تصرف فيه من عند نفسه ، وذكر البيتين محرفين ، ولكن لم ينسبهما إلى عروة بن الزبير .

« فهذه قصة واحدة ، لعب الكاتب الجرىء بألفاظها ، وهي — فيما يزعم — قصة تتعلق برسول الله ، فكان واجب الأمانة يدعوه أن يحكيها بلفظها الذي رآه في مصدرها ، لتكون تبعة روايتها على راويها الأول . وكان الواجب أن يذكر من أين جاء بها ، ليخرج من عهدتها .

« أما هذه القصة فقد أطلتُ البحث عنها في المصادر المعروفة ، من كتب الحديث والسير والتاريخ ، حتى أتعبني البحث ، ثم لم أجدها . وهذا النوع من الكاتبين لا يتورعون عن تكذيب الأحاديث الصحيحة المروية في كتب السنة الصحاح ، والتي رضيها أهل العلم بالحديث ، يكذبونها إذا لم توافق آراءهم وما يدعون إليه من نظريات يتناولون فيها قواعد الإسلام ، ويزعمون أنهم يتبعون بذلك ما يسمونه « طرق النقد الحديث » ثم يحكون عن رسول الله وعن أصحابه الأكاذيب ، لا يرون بحكايتها بأساً ، وينسبونها إليهم نسبة جازمة ، كأنها من الحديث الصحيح ، لا يتحرون ولا يبحثون ، إنما هو سواد في بياض ، يَضل به الناس ، وهم يشعرون أو لا يشعرون .

« أنا لا أجيز لنفسي أن أتهم الكاتب الجرىء بأنه اخترع هذه القصة من عند نفسه ، ولكني أظن أنه رآها في كتاب من كتب السمر ، فاجترأ على أن ينقلها وأن يحكيها على أنها حقيقة تاريخية ثابتة ، ونسى أن أمثال هذه الحكايات تعتبر حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه يجب في الحديث عنه تحرى الصدق والصحة ، على قواعد أهل العلم بالحديث ، خروجاً من تبعة قوله عليه السلام : « من حدَّث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » .

« ثم العجب العاجب أن تتطور القصة بين يدي هذا الكاتب الجرىء ، فيكون هذا الشعر على لسانه من شعر عروة بن الزبير تتمثل به عائشة للنبي عليه السلام تخاطبه به ، ولم يدر بخلده أن يتحرى الحقيقة التاريخية عن عروة ابن الزبير ، وهل كان من الشعراء في الجاهلية أو في صدر الإسلام ، وهل كان إذ ذاك موجوداً على ظهر الأرض ، ولدته أمه وولده أبوه ، أو كان في عالم الغيب ، لم تعرفه عائشة ، ولم يعرفه أبوه ولم تعرفه أمه ، ولم يره النبي عليه السلام ، لأنه لما يخلق بعد ؟ !

« الذي نعرفه من التاريخ الصحيح ، في أمر عروة بن الزبير أنه ولد في آخر خلافة عمر سنة ٢٣ وقيل بعد ذلك ، أي بعد موت رسول الله بأكثر من ١٢ سنة . فكيف تتمثل عائشة للنبي بشعر عروة بن الزبير قبل أن يخلق ؟!

« أفدني ، أفادك الله : أمن قواعد العلم والأدب ، لدى الأدباء الكبار الأجراء ، أن يخرجوا على كل قاعدة وضعها العلماء السابقون ، وأن يأنفوا من التحري والتثبت فيما يقولون ويكتبون ، اعتمادا على قوتهم الجبارة ! وعلى عقولهم الضخمة ! فيحرفون ما يشاءون ، ويثبتون وينقضون ، لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يحاسبهم غيرهم ، أم ماذا ترى من شأنهم ، فأنت أعرف بهم . والسلام .

أحمد محمد شاكر

هذا كتاب صديق كما جاءني ، لم أنقص منه حرفاً ولم أزد ، وإنه في هذا الباب من علم السنة لمن أهل الاختصاص والرأي ، فليس لي تعقيب على ما قال من هذه الجهة ، وإنما أثبت كتابه ليكون تحت أعين القراء يرون فيه رأيهم ، وتحت عيني الأستاذ الكبير صاحب « العبقريات » ، ليجيبه بما يشاء أو يرده إلى الحق إن كان مخطئاً . . .

ويسألني الصديق : « أمن قواعد العلم والأدب لدى الأدباء الكبار أن . . . . . » ولست أدري لم يخشى الصديق بسؤاله ذلك ، ولم يتعجل النتيجة قبل أوانها والأستاذ العقاد لم يزعم فيما كتب أو كتب عنه أنه من أهل الاختصاص في علم السنة ؛ ولو قد زعم ذلك أو زعمه أحد لكان ثمة وجه للمناقشة والجدل ، وإنما أنشأ هذا الكتاب وغيره مما سبق من كتب « العبقريات » على طريقته وفنه وحدود اختصاصه الأدبي في تحديد الشخصيات التاريخية وجلاء صورتها كما هي قائمة في نفسه وبعثها إلى الحياة ، وهو باب من الفن يعرفه قراء العربية للعقاد ، وأحسبه قد أشار إلى غايته تلك في مقدمة « عبقرية محمد » الكتاب الأول من هذه السلسلة ؛ وإنما تتجسد الشخصية الأدبية في نفس منشئها نتيجة لمطالعات شتى في أزمان مختلفة ، متقاربة أو متباعدة ، فإذا تمت الصورة تماماً في نفس الكاتب وامتلأ بها وعيه الباطن شرع يكتب ، وإنما يعتمد فيما يكتب وفيما يرسم من خطوط الصورة على ما وعته الذاكرة في الأزمان المتقاربة أو المتباعدة ، لا على كتاب خاص أو مصدر بعينه ، وقد يذكر الحادثة ولا يذكر مرجعها ، وقد يذكرها ويذكر مرجعها ولا يتأتى له أن يحققها تحقيق العلم لأن نفسه ممتلئة بها منذ قرأها لأول مرة ، فتمر به كما تمر البديهيات لا يسأل سائل عنها برهاناً ولا حجة ، فهذا من ذاك فيما أرى .

تاريخ بيتين :

على أني بهذا الذي أبديت من رأي لا أريد أن أناقض صديق الأستاذ شاكر فيما ذهب إليه من تكذيب هذه الرواية ، بل لعلي معه على الرأي في ذلك ، ثقة بتحقيقه وعلمه في هذا الباب . وثمة حجة أخرى تؤيد هذا الرأي ، ليست من علم السنة ولا من فن التاريخ ، ولكن من نسج البيتين نفسهما :

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده ... ...

فإنه نسج مهلهل ضعيف لا يقع في نفس أحد أنه من لغة العصر الأول أو مما يجري به لسان شاعر من شعرائه ، وأحسب هذين البيتين — إن صح حدسي — لواحد من شعراء الخلاعة بعد القرن السابع ، فالمعنى في « أوصاف خده » غلام رقيق من غلمان الترك أو الروم يلتمس قربه أو يطلب وده ، على طريقة شعراء ذلك العصر وخلعائه ومجانه ، فلم يكن في عصر النبوة ولا بعده بثلاث من السنين ، شاعر واحد ، عربي أو رومي ، كان خليقاً بأن يقول : « فلو سمعوا في مصر » و « أوصاف خده » و « بذلوا في سوم يوسف من نقد » من هذه التعبيرات العامية الساقطة الضعيفة الدلالة ؛ ولم يكن في عصر النبوة ولا بعده بثلاث من السنين ، شاعر واحد ، عربي أو رومي ، كان خليقاً بأن ينزع بشعره ، إلى مثل هذه المبالغة المستحيلة في العقل والواقع في مثل قوله : « فلو سمعوا لما بذلوا في

سوم يوسف » ، وقوله : « لو رأى جبينه لآثرن بالقطع القلوبَ على الأيدى » ؛ ولم يكن عروة بن الزبير ، ولا عائشة بنت الصديق ، من غلاظة الذوق وضعف الحس البيانى بحيث يتأتى لأحدهما أو كليهما أن يسوم محمداً عليه السلام سوم الرقيق فى سوق المزايدة ، ولم يكن أحدهما أو كلاهما ليسمح له دينُه وتحرُّجُه أن يتناول آيةً من القرآن فيستخدمها هذا الاستخدام فى باب من الغزل أو باب من المديح ، وإن القرآن عليهما لأعزُّ وأكرم ...

ثم إنى أسأل : فى أى غرض من أغراض الشعر كان عروة بن الزبير خليقاً بأن يقول هذين البيتين : أفى الغزل ؟ فذلك لونٌ منه لم يُعرف قبل أبى نواس ؛ أم فى المديح وما عُرف فى مدائحهم إلى ذلك التاريخ وبعده أنهم كانوا يتمدحون بأوصاف الخد وملاحة الصورة ! !

ذلك رأيى فى هذين البيتين إن كان صديق الكريم يعنيه أن يعرف رأيى فيهما من ناحية أدبية ، أما ما عدا ذلك من أسئلته فإنى أتركه وصاحب العبقريات يسأل منهما من يسأل ويجيب من يجيب . . .

حرية الفن :

ويدعونى كتاب صديق هذا إلى بحث آخر يتصل بسببه ، فقد ازدحمت المكتبة العربية فى السنوات الأخيرة بطائفة غير قليلة من الكتب تختلف ألوانها والغرض منها وتتحد فى الموضوع ؛ تلك هى الكتب التى تتناول حياة محمد وسيرته وسيرة أصحابه وعصره ، على أسلوب من الفن ، أو أسلوب من رواية التاريخ ، أو فى لون من ألوان التربية الدينية ؛ فثمة عشرات من الكتب والمقالات لعشرات من الكتاب قد اتخذوا عصر النبوّة موضوعاً لحديث ذى أفانين ، يختلف باختلاف من يتناولونه ذوقاً وأداةً وفناً ؛ فثَمّ الكتاب الذى حاول كاتبه أن يجعله للتحقيق والرأى ، والكتاب الذى خرج للفن وإمتاع القارئ ، والكتاب الذى هيأه مؤلفه للحوار أو للمسرح ، والكتاب الذى أنشىء لتصوير عبقرية . . .

... هذه الكتب على اختلاف غايتها ، من أين يتناولها الناقد : أمِن ناحية الحقيقة التاريخية المجردة ، أم من حيث أداؤها للمعنى الذى أُنشئتْ له ، أم من حيث أثرها فى قارئها باعتبار صلتها بعقيدته ودينه ، أم من هذه النواحى جميعا ؟

.. ذلك الكتاب الذى حاول كاتبه أن يجعله للتحقيق والرأى فأصاب ما أصاب فى الرواية والرأى ، وأخطأ ما أخطأ . . .

... وذلك الكتاب الذى أخرجه مخرجه للفنّ فالتمس للفن أسبابه كاملةً وأغفل ما عداه من حقائق التاريخ ...

... وذاك الكتاب الذى أُنشئ ليجلو صورة ويحدد شخصية ، ويبرز عبقرية كما هى فى خيال مُنشئها .

وهذه الفصول ، وتلك الأقاصيص ، وهاتيك الصحف المسوَّدة ، ، ، أيتناولها الناقد من حيث هى فن أم من حيث هى تاريخ ؟

لقد قرأت هذه الكتب جميعاً ، ولعلى قرأت كلَّ أو أكثرَ ما نقد الناقدون ؛ وإنى لأخشى أن أكون مصيباً فى الظن حين أزعم أن عدوى أفسدَتْنا من الأدب الأوربى حين خُيِّل إلى كثير من أدبائنا وكتابنا أننا من تاريخ عصر النبوة بإزاء مادة يستخدمونها فيما ينشئون — للفن أو للتاريخ ، أو لما يريدون غير الفن والتاريخ — كما استخدم أدباء أوربا أساطير الإغريق وخرافات اليونان منذ عصر مَضَى ... ... وإن تاريخ هذا العصر لأعزُّ علينا !

بلى ، إن للفن حريته ، ما فى ذلك شك ، ولكنه هنا ، فى هذه الحقبة من تاريخ الإسلام ، ينبغى أن يقيَّد بقيوده ؛ حتى لا تكون حريته سبباً إلى فساد عقيدة ، أو إلى مَسْخ تاريخ ! ...

« قاف »

حكم فى الجنحة رقم ٦٧٧ عسكرية مصر الجديدة سنة ١٩٤٢ بتغريم كل من إبراهيم على سعد ومحمد حسن عمارة خمسين جنيها وحبس الصادر ضده الحكم ستة شهور مع الشغل ونشر الحكم بجريدتى المصرى والثقافة على نفقتهما .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة ٩ شارع الكرداني باشا — القاهرة — تليفون رقم ٥٣٦٩٩ / ٥٦٢٦٩٩

العدد ٢٦٦ — الثلاثاء ٦ من صفر سنة ١٣٦٣ — ١ من فبراير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

تنظيم الأسرة العالمية

اختلفت الأمم المتحاربة في نوع التنظيم الذي يقترح للعالم الجديد . فأساس هذا التنظيم الجديد عند النازيين تقسيم العالم إلى وحدات إنتاجية تتزعمها الوحدة الأوربية ، أما الوحدات الأخرى فتترتب درجات بعضها فوق بعض وفقاً للمبادئ العنصرية وترتيب الأجناس التي أوردها هتلر في كتابه كفاحي . وفي داخل الوحدة الأوربية تتمدد ألمانيا وتحتضن مجالها الحيوي فيتحقق الرايخ الكبير الذي يتزعم الوحدة الأوربية ويرتب لها درجات من حيث السيادة فيقرر تبعيتها له أو حمايته عليها أو رقابته على شئونها فتتراوح بذلك دول الوحدة ما بين دولة تابعة ودولة محمية ودولة شبه مستقلة ؛ على أن كلا من هذه الدول يحتفظ بشخصيته الدولية لأن النظام النازي لا يريد اندماجاً بين الدول بل ترتيبا رأسياً لها . وهذا الوضع العالمي يؤدي بطبيعته نوع العلاقات التي تنشأ في ظلاله . فالرايخ هو الذي يوجه شئون العالم بحكم سيادة الجنس الجرماني . ولكي يكفل الطاعة والخضوع لهذا التوجيه الصادر من إرادته المفردة يحتكر صناعة السلاح والذخيرة وسائر معدات القتال ؛ فلا يخول لأي دولة مكنة صناعة أي نوع منها وإنما يقوم هو بتوزيع أقدار منه على الوحدات العالمية المختلفة وعلى الدول المندمجة فيها . وجلي أنه ليس الغرض من هذا السلاح الذي يوزع على الدول جميعاً إلا تخصيصه لوظيفة البوليس الوطني فلا صلة له البتة بالعلاقات الدولية لأن الرايخ هو الحكم الأعلى فيما يثور بين دول العالم من منازعات . على حكمه ينفذ ولا معقب عليه ولا رقيب . وهذا الدور الأعلى الذي يلعبه الرايخ في الشئون السياسية في العالم هو ذاته الذي يقوم به في العلاقات الاقتصادية . فالرايخ حريص على أن يكون ويظل موضع أضخم بيوت الصناعة الثقيلة ، ولهذا يوقف التحول الصناعي الكبير في أية دولة أخرى ويضع نظاما عالميا للتخصص الإنتاجي في أصوله وفروعه ويعد هو كل دولة بما وراء كفايتها من المنتجات الصناعية الثقيلة . وأما ما يحتاج إليه الرايخ من الخارج فهو المواد الأولية والمنتجات الغذائية ويفرض على الدول الغنية بها النسب التي

تلزم بتقديمها إليه طبقاً لمقادير إنتاجها . ويصبح الرايخ مارك العملة الأساسية في العالم وتربط به سائر العملات الأخرى .

هذا هو التنظيم الجديد الذي يبشر به النازي وتمليه نزعة التسيطر النازية وتحوطه شراستها المعروفة فلا يفترق كثيرا من الإمبراطوريات البائدة في اتخاذ القهر والعسكرية أساساً للعلاقات الدولية وفي تسخير الدول الأجنبية للإنتاج اللازم للرايخ . فهذا التنظيم أساسه أن لا حرية للشعوب ولا حرية للأفراد ، وإنما يخضع أولئك كما يخضع هؤلاء لتنظيم عسكري صارم ليس فيه إلا السخرة والطاعة العمياء والخضوع الذليل . وإذا كان احتكار الرايخ للسلاح كفيلا على ما يزعمون بمنع الحروب ، فهو في الحق كفيل بذلك فقط في الفترة التي تتأهب فيها الشعوب وتتحفز لتوجه إليه الضربة التي تصدعه وتصرعه ويومئذ لن تقف في وجه قوة الشعوب وإرادتها أسلحة الحرب ومعداتها .

وهناك أخيراً الاتحاد السوفيتي ، أو بعبارة أدق التنظيم الاشتراكي للعالم وهو تنظيم يقوم على فلسفة كارل ماركس والنظام الاتحادي السوفيتي صورة مصغرة لوضع عالمي تعمل روسيا لتحقيقه . وهذه الصورة وإن كانت مصغرة إلا أنها عظيمة الأهمية جديرة بالاعتبار إذ أن روسيا تشمل نصف إقليم أوربا وثلث إقليم آسيا وتضم من ومتيلاتها نحو سدس الإنسانية .

والاتحاد السوفيتي الذي يراه الاشتراكيون صورة مثل مصغرة لعالم الغد يتكون من ست عشرة جمهورية كانت إحداها أو كبراها ، وهي جمهورية روسيا ، إمبراطورية تستعمر باقي الأقاليم على عهد القياصرة . فلما انتهت الثورة الاشتراكية في نوفمبر سنة ١٩١٧ أصدر مجلس السوفييت الأعلى إعلان حقوق الشعوب الروسية مقرراً استقلال جميع شعوب الروسية وتقرير مصيرها والمساواة التامة بينها . وعند ما استقرت الأحوال العسكرية والدولية سنة ١٩٢٢ انعقد في موسكو أول مجلس سوفيتي يضم مندوبين عن جميع الشعوب التي تتكون منها الامبراطورية الروسية وتقرر بإجماع الآراء تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية مع تخويل كل جمهورية حق الانفصال عنه ، وكان هذا النظام أساس دستور سنة ١٩٢٤ ، ثم دستور سنة ١٩٣٦ المعروف بدستور ستالين ، فقد نصت المادة ١٣ منه على أن « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية دولة اتحادية تأسست على قاعدة الاتحاد القبول قبولا حراً مختاراً من جمهوريات متساوية الحقوق » . ونصت المادة ١٧ على أن « تحتفظ كل جمهورية متحدة بحق الانفصال باختيارها عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » . وهكذا لما تملكت الدولة وسائل الإنتاج صار المواطنون جميعاً طبقة عاملة واحدة متماسكة مترابطة تعمل للخير العام . وهذا الوضع هو الذي يدعو الاشتراكيون إلى تحقيقه في صورة أكمل تشمل العالم بأسره .

لا شك أن الإخاء الإنساني لن يصبح حقيقة لها قداستها إلا إذا أقيم صرح عالمي جديد مؤسس على قواعد وطيدة تكفل له البقاء متماسكا ثابتا قويا . ولا جدال في أنه لن يتيسر تشييد هذا الصرح ما ظل هذا العدد الوفير من الدول قائماً وكل منها يدعي لنفسه سيادة مطلقة تبيح له التصرف وفق مصالحه الخاصة ، لا بالاتساق مع مصالح المجتمع العالمي كله . وفي هذا المعنى يقول المفكر السياسي المعروف Laski في كتابه Liberty in Modern State « لقد علمتنا تجربة عصبة الأمم أن أي تنظيم دولي لا يمكن أن ينجح طالما حرصت كل دولة على سيادتها الكاملة ، إذ مؤدى هذه السيادة أن تكون كل دولة أن تجعل مصلحتها الخاصة قانونا لها ، وكما أن التطور الإنساني يحرم على الفرد داخل المجتمع الإنساني الذي ينتمي إليه أن يجعل القانون بين يديه ، فهو أيضا يحرمه على الدولة في المجتمع العالمي » . وفي الحق أن الوحدات السياسية التي لا حصر لها ، والتي يفرغ كل منها في قالب دولة يلقي في وهمها أنها ذات سيادة .. هذه الوحدات أمر شاذ على الطبيعة الإنسانية يؤدي إلى خلق مشاكل اقتصادية وسياسية ، لما بين هذه الوحدات من تنافس في المصالح وتعارض في الخطط في حين أن مصالح الشعوب

متداخلة مترابطة لا يمكن الفصل بينها بحدود واضحة تقابل هذه الحدود المصطنعة بين الدول . ومن هنا ينشأ التعارض بين المصالح الإنسانية ، ويؤدى إلى أن تسيطر الدول الكبيرة على الدول الصغيرة وتداخلها فى مناطق نفوذها وتغلب فيها مصالحها الاقتصادية ، فتصبح السيادة المزعومة وهما من الأوهام . كما يسهل على أى دولة قوية أن تلتهم الدول الصغيرة واحدة إثر الأخرى دون أن تجابهها وحدة قوية منها تجبرها على احترام حريات الشعوب . وفى عالم مثل هذا ترى كل دولة نفسها مدفوعة إلى التسلح تأهباً لأى عدوان محتمل ، فتنشأ حالة نفسية قلقة مضطربة ، لا تجد لها ملاذاً إلا الحرب . وهكذا يصبح العالم والاضطراب يسوده دائماً ، والحرب تعاوده فى دورات شبيهة بالدورات الاقتصادية . ولا سبيل إلى وضع حد لهذه الحال التعسة التى تعانى البشرية مرارتها إلا بإقرار نظام عالمى موحد ، غير أنه ليس من الميسور للعالم أن ينتقل من حالة التمزق التى هو عليها الآن إلى حال اتحاد شامل ينتظم كل شعوب الدنيا ، فهذا أمر يكاد يكون مستحيلا . ثم إنه لو تحقق لأصبح الاتحاد الوليد عرضة للتصدع والانهيار لدى أول تعارض أو احتكاك يطرأ فيه . إنما الطريق المنطقى والعملى لإنشاء نظام عالمى متين هو خلق هيئة عليا تملك أن تحافظ على هذا النظام وتقدر أن تصونه بأن يخول لها من السلطان والقوة ما يمنحها الحق فى أن تملى إرادتها ، ويجعل لها القدرة على أن تنفذ ما تملى . وإنشاء مثل هذه الهيئة يتحقق باقتطاع شطر من سيادة كل دولة بحيث تخضع جميعاً لقرارات تلك الهيئة مستشعرة قدرتها على تنفيذها وقوتها على إلزامها بالرضوخ لها . . بغية تحقيق الخير الإنسانى العام . وتطبيقاً لذلك تتجمع القوميات المتشابهة فى اتحادات لا تتجاوز أصابع اليدين ، ولا يكون هذا التجمع خياراً لتلك القوميات ، وإنما فرض عليها يلزمها به تصميم الإنسانية على أن تتمتع بالرخاء والسلام ويعترف لهذه الاتحادات بالشخصية الدولية . أما القوميات المندرجة فيها فليست دولا ، وإنما هى أقسام إدارية لها حكوماتها المحلية التى تنهض بالخدمات الإقليمية من إنتاج وتعليم ونقل وإدارة وما إليها تحت سلطة الحكومة المركزية التى تهيمن على الاتحاد كله . ويدخل فى اختصاصها تنظيم الصلات بينه وبين الاتحادات الأخرى ، وتشريع القوانين العامة للاتحاد ، وتنظيم توزيع الإنتاج الاتحادى — ولا يكون للأفراد إلا جنسية واحدة هى جنسية الاتحاد ، ويحق لكل فرد منهم التنقل من أى جهة إلى أخرى فيه دون القيود المتبعة فى الحاضر ، وترتفع الحواجز الجمركية بين القوميات الأعضاء فيه . والاتحادات العالم جميعا — ونحرص على التنبيه إلى ميزة قلة عددها — تخضع لسلطة عليا هى الحكومة العالمية التى وإن لم تعتبر حكومة لدولة موحدة فهى حكومة عليا فوق حكومات الاتحاد . أى أنها أعلى سلطة فى الكون بأسره . كلمتها هى النهائية لها ، كل ما يمكنها من أن تقرر ومن أن تنفذ ما تقرر ، ولهذا تحتكر وحدها صناعة السلاح اللازم لقيامها بوظيفتها كضابطة على الأمن الدولى ، وتكون تحت أمرتها القوات العسكرية الضرورية لهذه المهمة ، كما تقوم بتنظيم التبادل العالمى فى المواد والمنتجات بغية إشباع حاجات البشر عامة على قاعدة المساواة . غير أن هذا الصرح العالمى وإن قضى على مشكلة الوطنيات والاستعمار لا يعالج مشكلة الاقتصاد الفردى ، وهو العلة الأزلية للحرب . ولعل من أصدق ما يعبر عن هذه الحقيقة قول برنارد شو : « إن الوطنية حينما يعتدى عليها تجعل الفرنسى والإنجليزى مثلا عدوين لدودين ، أما الرأسمالية فتجعل كل الناس أعداء طوال الزمن ، وعند ما تتحرر كل الشعوب ستدفعها الرأسمالية رغم ذلك إلى التقاتل بقسوة وغلظة إذا كنا من الحمق بحيث نتركها لتفعل ذلك » ، وفى الحق أنه ما بقى الاقتصاد الفردى فلا أمل فى سلام أو رخاء ؛ ذلك أن الاقتصاد الفردى يجعل من الربح المحرك الوحيد إلى الإنتاج ، والإنتاج بقصد الربح يفضى إلى نشوء طبقة ملاك وسائل الإنتاج المعروفة بطبقة الرأسماليين .

زكى هاشم

شيخ كريم

للدكتور أحمد زكي بك

جلست إلى مائدة الصباح أحسو من فنجاني وأقرأ في آن ، فشفتي في الشاي ، وعيني في الجريدة المفتوحة إلى جانبي . ونفذت إلى المائدة أشعة الشمس الباكرة على غير عادتها في الشتاء ، فسقطت بيضاء على تلك الخطوط السميكة السوداء التي بظهر الجريدة ، تلك الخطوط التي قامت تفصل بين أخبار الأحياء ، وأخبار الأموات ، كأنما هي معابر الحياة إلى ذلك الأسود المجهول .

وقرأت أن فلانا قد مات ، ومات إلى رحمة الله ، وشُيِّعت جنازته بعد حياة طويلة قضاها في طيب الأعمال .

أنتابني بالطبع أسف عميق على هذا الرجل الجليل . ولكنه أسف كان أقل من أسف ينتابني لو أن حديثاً في الشيخوخة والموت لم يكن جرى بيني وبين الشيخ الظريف منذ أعوام .

التقيت به في الريف وقد اعتزل عمل الدينة ، وخلع من نفسه ثوب الدينة ، وسكب على نفسه من البيرة والسمت ما يأتلف وحقلا يحصده ، أو بقرة تُحلب ، أو ساقية ترن ربين الثكلى في جو صامت لا مُسعد فيه ولا مجيب . وكان قد تقدمت به السن . فقلت : صحة وعافية نحمد الله ونحمده عليها .

قال : وأحمد الله أن هداني فتعلمت كيف أشيخ .

قلت : وهل يتعلم الإنسان كيف يشيخ ؟

قال : نعم ، ويتعلم كيف يموت كذلك .

قلت : وماذا في الشيخوخة من علم لا يُنال إلا بالتعلم والتحصيل ، وكل ما فيها مستدرك غصبا . ففيها التعطل من بعد اشتغال ، وفيها ذهاب القوة وانحناء الظهر ، وفيها فوات المتع واللذات . ثم هي من بعد ذلك المعبر الذي يؤدي بك إلى بيت في الأرض مظلم ، تبقى فيه بقاء ما حاطك من رمال ، لا تسمع فيه خبرا ، ولا تقلب فيه جنبا ، وليلك فيه ليل ليس له صباح .

قال : نعم . إن الشيخوخة بعض ما قلت وقد تكون شرا مما قلت . ولكن مرد ذلك هذا قبل وقوعه ، والتأهب له ، والتدرج مع العجز إذا وقع تدرجا — وهو لا يقع إلا تدرجا — والتكيف للضعف إذا أمن الضعف ، كل هذا هو ما عنيت بأن يتعلم المرء كيف يشيخ .

قلت : وكيف يتهيأ للعجز إذا هو وقع ، وكيف يتكيف للضعف إذا هو أمن .

قال : يتهيأ له قبل وقوعه . يتهيأ له في شبابه ، وفي كهولته ، بالحركة الدائمة والرياضة المستمرة حتى يتقوى هذا الهيكل الذي يُراد منه أن يحتمل ثقل السنين . ويتهيأ له بشباب نظيف وكهولة طاهرة ليس فيها إسراف . وهو يتكيف مع الضعف إذا نزل بالتعرف إليه ، وبأن يملأ منه كلتي عينيه حتى لا يكون بين المتعارفين شبهة أو خداع . وفي الاعتراف بالنازلة والتسليم بها زوال أكثر ألمها . يجب أن يتعلم الشيخ أن الضعف لا بد منه ، وأن العجز من طبائع الشيخوخة ، وأنه خير له أن ينصرف عن شكواه إياه والتبرم به وإعلانه في الناس إلى الرضاء به والتكيف معه ، وأن يتعلم أن لا يطلب من الأمور مثل الذي كان يطلبه في شبابه ، فلا يطلب من الطعام وسائر اللذائذ ما كان يطلبه والمعدة صفيقة سميكة تتلوى في قوة تلوي الأفعى ، والعصب مديد شديد إذا ضرب رن كما يرن وتر العود وهو جديد .

قلت : تعني أن المرء يتعلم الشيخوخة لينصاع لها ، ويتعلم أن اللذة ذاهبة فلا يطلبها .

قال : صح ما فهمت مني كيف تريد . ولكن اعلم أن الريح العاتية تقصف الشجر الذي لا ينصاع ، ومع هذا ينجو بنفسه من عتوها العشب القصير الذي تعلم كيف يميل وكيف ينحني . ولا تحسبن أنها انحناءة لا ألم فيها ، ولكن شتان بين ألمها وألم القصف . شتان بين انحناءة

اللحم طوعا ، والمحتاجة العظم غصبا . وبعمْ يتعلَّمُ أن اللذة ذاهبة فلا يطلبها . واللذة إنما قصدت إلى لذة مصدرها ما في إهاب الإنسان من حيوان . إن لذة الشباب تقوم على أساسين ، وتنهض على رجلين . لذة الطعام ومتعة النساء . أما لذة الطعام فيُبلي جدّتها تكرارها الدائم . فليتعلم الشيخ أن يزهد في الشيء إذا شبع منه ، لا سيما إذا هو شبع مرارا وتكرارا . وليس معنى هذا أن يمتنع عن طعام كان يستطيبه ، ولكن معناه أن يأخذ منه بمقدار حاجة الجسم المتداعي ، وهي حاجة قليلة . وليتعلم أن أكبر لذة لطعام إنما تكون في لقمته الأولى ، أوفيها وفي الثانية ، أو في اللقمات المعدودة الأولى ، ثم يقلّ حسّ اللسان بها ، وعندها يجري الطعام في الحلق كما يجري الماء في البالوعة وهي من رصاص . ليتعلم الشيخ إذن أن يطلب لذة تلك اللقمات الأوليات وهو يعلم أنه إنما يطلب الزبدة من مخيض العيش ، وأن لعقة الزبدة خير من كوب مخيض

وسكت صاحبي كأنما فاته أن يتمم . فقلت : وما متعة النساء ؟

قال : أما متعة النساء فمتعة لا يطلبها جسم الشيخ بطمعه ، وعلى طوعه ، إلا إذا هو حُرِّك إليها اصطناعا . وليس في ضياعها غرم ، بل فيه تحرُّر من صفة حيوانية مادّية لها خطرها في حينها . وليست هي بالمتعة الخالصة ، بل كثيرا ما حملت شقاءً في ثناياها . وهي دائما تغمر عقل الشاب ، وقد تثقل به وتحطّ منه فلا يرتفع إلى ما هو أسمى وأرفع . وما كان له أن يرتفع والشباب الفوّار قائم يؤدّي وظيفته في إسكان هذه الأرض ، وتعمير خرابها وزرع يبابها ، حتى إذا قضى من ذلك وطرا قالت له الطبيعة أحسنت ، ثم هي تغلق عليه الباب رويدا رويدا ، ولكنها تفتح له باب الروح وهو أروح وأفسح . تفتح عليه متع العقول من بعد متع الأجسام . فبينا يكون الجسم في هبوط يكون العقل في صعود . إنهما بدءا في ارتفاع معا . أو كما يقول الرياضيون : إن خطيهما يذهبان صُعُدا في الرسم البياني ، ولكن الأجسام تبتدئ خطوطها تنحني بينا خطوط العقول تظل في صعود ، ثم تعود تنحني هذه أيضا ولكن بعد حين . فالفترة التي بين الانحناءين هي فترة تسود فيها المتعة العقلية أكبر سؤدد . وهو سؤدد تعزّزه التجارب الواسعة الماضية ، والبصر الشامل الوسيع . وهي متعة ألذّ ما فيها هضم ما كان ، كما تجتر البقرة بعد امتلائها ، ولا أحسب إلا أنها تجد اللذة عند اجترارها أكثر منها وهي تعبّ الطعام عبّا . وهي متعة يتناول فيها العقل هذا العيش في أصوله ، تلك الأصول التي خفيت في زحمة الحياة ، كما تخفى أصول الزرع والزرع مزدحم على الأرض كثيف . إن عقل الشاب قلما يتريّث ليتساءل من أين كان المجيء ، ولا إلى أين المنتهى . ولكن العقل في الشيخوخة ، وقد تخفّف من مطالب هذا الجسم وتخفّف من واجباته ، يجد الفراغ ليتساءل ويتفقّه ، وهو قد لا ينتهي إلى شيء ، ولكن اللذة تكون في هذا التساؤل وفي هذا التفقه . وهو دائما سائر إلى شيء ، رضيّ مُبتهج ما ألقى حبل السجيّة على غاربه .

قلت : ولكنا نرى كثيراً من الشيوخ لا يزيدهم الفكر إلا مرارة من الحياة ، وإلا نقمة على من لا يزالون تشغلهم مطالبها .

قال : إن الشيخ الذي يزيده الفكر مرارة من الحياة ، ونقمة على شبانها ، شيخ لم يتعلم كيف يشيخ ، أو هو تعلّم ولم يحسن تعلّمًا . إن الشيخ الذي ينقم على العيش بعد فواته ، شيخٌ لا يزال يفكر بعقل الشاب ، ولا يزال يطلب مطلب الشباب . هو شيخ انحنى خط عقله عندما انحنى خط جسمه فلم تمض صُعُداً كما تمضي العقول في الشيخوخة على سجاياها . هو شيخ يحسد على المتعة أهلَها وهم في إبّانهم ، وقد فاته هو إبّانه . إن من علائم الشيخ الذي تعلّم كيف يشيخ عطفه على الشباب ، ورفقه بالشباب ، وإحياؤه ذكرى شبابه بالنظر إلى شبابهم ، والمفارحةُ والمؤاساةُ في أفراحهم ومآسيهم عطفاً على مفارحه

هو ومآسيه فى ذلك العصر الحبيب الذاهب الذى لن يعود .

إن الشيخ كقائد الفرقة فى الزمان الأول ، قادها فى الوعر وسبقها إليه ، فإذا بلغ قمة الجبل بعد الجهد ألقى بصره فى هبوط يملأ عينيه من هذا الصف الطويل الذى امتد وراءه إلى أقصى الوادى . ويملأهما مستعطفاً مسترحماً ، لا آنفاً نكداً .

قلت : والشيخ إذا اعتزل تعطّل . والفراغ من بعد امتلاء يورث الكرب والسآمة .

قال : وما للشيخ أن يتعطل . أفتجدنى فى هذا الربع متعطّلا وقد قاربت السبعين . إنى لا أقوى على الحركة الكثيرة . ولكن الأعمال صنفان : صنف يحتاج إلى الحركة الكثيرة والفكر القليل ، وصنف يحتاج إلى الحركة القليلة والفكر الكثير . فهذا الأخير أقمن ما يكون بالشيخ . والشيخ ثروة للبيئة التى هو فيها ، وهو خزانة للتجارب ، أىّ علم كان علمه ، أو حرفة كانت حرفته . إن الناس تعتزّ بالكتب لأنها خزانة عرفان . ولكنها خزانة ميّتة . أما الشيخ فخزانة عرفان حيّة ناطقة . فهى لها فى المجتمع الصالح وظيفة تؤديها .

قلت : على حساب الشباب .

قال : على حساب الشباب ، وبإمرة غضب الشباب ، فى المجتمع غير الصالح الذى لا يعرف كيف يضع الأشياء فى مواضعها . إن الشباب فى كل مجتمع عمله ، والشيخوخة عملها . هؤلاء اليد فى الحركة ، وهؤلاء الفكر فى الجمجمة . إن الخصومة بين الشباب والشيوخ لا تكون إلا فى مجتمع غير متزن ، مجتمع لم يتعلم شيوخه كيف يشيخون ففقدوا عطفهم على الشباب ، وجمدوا على الزمن ونسوا أن زمانهم الأول اختلفت مطالبه عن مطالب أسلافهم ، أو هى خصومة تكون فى مجتمع نسى شبابه فى غمار نشوتهم أنهم إلى الشيخوخة صائرون .

قلت : والشيخوخة سبيل الناس إلى المقابر .

قال : وماذا فى هذا . ماذا فى ترك عيش خبرتَ حلوه ومرّه ولم يبق فيه ماتَخبُر . ماذا فى ترك عيش جئناه ولم ندر لِمَ جئناه ، وله غاية حتما ، ولكنا لا ندرى من كُنهها شيئا . والشيخ يتحرّق لكشف هذا الكُنه ، وهو لا يكشفه إلا تحت أغطية هذه المقابر . وغير هذا : أبى وأمى ، وإخوتى ، والصفوة الذاهبة من أحبابى وخلانى ، لا سبيل لى إليهم ، ولا إلى بلّ الشوق منهم ، إلا بدخول هذه المقابر . فلعلنا فى ظلال الجنة ، والشمل مجتمع ، نستأنف طعاما قطعناه تحت سقف هذا البيت ! أو لعلنا على ضفاف الكوثر نستتم حديثاً قطعناه على ضفاف هذا النيل .

وهنا أطرق الشيخ كأنما خنقته الذكرى .

ذكرتُ كل هذا ، أو شبهاً من هذا ، على مائدة ذاك الصباح . وفرغ الفنجان فملأته ، ثم ملأته . والجريدة وجدتها لا تزال مبسوطة نُصبَ عينى ، والخطوط السوداء السميكة الناعية الناعبة وجدتها على ظهر الجريدة لا تزال ملءَ بصرى .

وقمت عن المائدة أترحم على هذا الشيخ الكريم ، راجيا أن يكون قد لقى من أحبّ من الأهل والأصحاب ، فاستأنف بينهم طعاما مقطوعا وحديثاً مؤجّلا .

احمد زكى

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

٣ - جمال الدين الأفغاني

أقام السيد في حيدر أباد في الهند منفيا لا يسمح له بمفارقتها ولا يستطيع أن يشترك في عمل إلا حديثا مع زائر أو قراءة في كتاب ، أو ردا على سؤال .

وفي هذه المدة ألف كتابه المشهور في « الرد على الدهريين » وعنوانه « رسالة في أبطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران » . وقد كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية ، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة عارف بالفارسية وهو تابع السيد جمال الدين ، عارف أبو تراب .

ردّ في هذه الرسالة على « داروين » ومذهبه في النشوء والارتقاء ، وعلى أمثاله ممن ذهبوا مذهبه .

وقد يعجب القارئ من تعرضه لمثل هذا البحث وهو يتطلب — كما فعل « داروين » — تخصصاً في العلوم الطبيعية من جيولوجيا ، وفسيولوجيا ، وبيولوجيا ، وأمبريولوجيا (علم تكون الأجنة) وغير ذلك .

ولكن عذر السيد أن مذهب « داروين » قد أثار موجة من الإلحاد قوية — وإن لم يكن داروين نفسه ملحداً — وطفا في عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة ، ولا شيء وراءها ، وكل شيء في الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة . والمادة لا تحد ولا تفنى ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهي قديمة أزلية أبدية وليس في هذا العالم شيء يعتريه الفناء ، وإنما تتغير الأشكال . وبناء على ذلك فلا نفس ، ولا روح ، ولا دين ، ولا إله .

وهذا المذهب قديم تراه في البوذية ، وعند قدماء المصريين ، وعند بعض فلاسفة اليونان ، وظهر في العصور الحديثة في الثورة الفرنسية ؛ ودعا إليه كثير من الفلاسفة في إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وعرفه العرب قديما وسموا أصحابه « الدهريين » وحكى مذهبهم الجاحظ والشهرستاني وغيره من مؤرخي المذاهب .

وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل فيما انتقل مذهب النشوء والارتقاء ، ومذهب الماديين ؛ فترجم في مصر «شبلي شميل» مذهب بخنر سنة ١٨٨٤ ، وأثار حركة كبيرة حوله . وفي الهند ظهرت طائفة تعتنق هذا المذهب وتسمى طائفة « النيشرية » نسبة إلى نيتشر nature (وهي كلمة إنجليزية معناها الطبيعة) وترددت هذه الكلمة وقرعت أسماع الكثيرين كما قرعت سمع جمال الدين أيام إقامته في حيدر أباد ، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر آباد في خطاب يقول فيه : « يقرع سمعنا في هذه الأيام صوت « نيشر » ، « نيشر » ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية ، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب « نيشري » فما حقيقة النيشرية وما مذهبهم ؟ وفي أي وقت ظهروا ؟» فكان من ذلك تأليف هذه الرسالة .

ولكن ليس أقوم ما فيها الرد على درون ، وإنما أقوم ما فيها إثبات قيمة الدين ، وضرورته للإنسان ، وأثره في رقيه ، وأثر الإلحاد في انحطاطه . وهذا هو ما يبلغ فيه جمال الدين الذروة .

وخلاصة رأيه في هذا الموضوع أن الدين – على العموم – أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات . والعقيدة الثانية يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل . والثالثة جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي ، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى « بيت الأحزان » إلى دار فسيحة

الساعات، خالية من المؤلمات، لا تنقضي سعادتها، ولا تنتهي مدتها.

أما الخصال الثلاث فهي: الحياء، والأمانة، والصدق.

ويشرح أن هذه الأسس التي أتت بها الأديان هي علة العمران، وعليها تتوقف سعادة الإنسان، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدي تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الإنسان منزلة الحيوان، وتفقده الوازع عن الخير، وتُعده لحياة جامدة ضيقة جافة لا رقي لها، ولا نمو فيها، وفي هذا انتكاس لخلقه، وهدم لكيانه، وحرمان مما أعده الله له.

وفي الإسلام مزايا على سائر الأديان «أولها صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام. فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد في خلق الأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد — علويا كان أو سفليا — بأن له في الكون أثرا من نفع أو ضر، أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال ... أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية في إعماء العقول وطمس أنوارها.

وثانيها: أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها، وأثبت لكل نفس صريح الحق في أي منصبة... ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف، وقوّم الناس بالكمال العقلي والنفسي؛ فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأي شيء آخر. وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

وثالثها: أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون ... فهو كلما خاطب العقل، وكلما احتكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل، وانطفاء نور البصيرة.

ورابعها: أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم، وفرض نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر فقال: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»، وقال: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»

وعلى هذه الأركان الأربعة بني الإسلام، وكل ركن منها له الأثر البالغ في تقويم المدنية وتشييد بناء النظام، وتدعيم السعادة الإنسانية، وقد دارت حالة المسلمين رقياً وانحطاطاً حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها.

هذا ما عمله «جمال الدين» في حيدر أباد.

فلما حدثت في مصر «الثورة العرابية» نقلته حكومة الهند من حيدر أباد إلى كلكتا، وألزمته الإقامة فيها محقورا مراقبا حتى انتهت الثورة بدخول انجلترا مصر، فأبيح له الذهاب حيث شاء (في غير الشرق) فيذكر مستر «بلنت» Blunt أنه ذهب إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية، وأقام بها أشهرا ولم ينفذ ما اعتزمته — ولم يذكر ذلك غير بلنت من مترجميه ولا الشيخ محمد عبده (1).

ثم رأيناه في لندن سنة ١٨٨٣ ولم يطل الإقامة بها، ثم سافر منها إلى باريس، وكان قد كتب إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، ليوافيه بها من منفاه في بيروت ففعل.

ما رأيكم؟ ماذا ينوي من العمل بعد ما جرب، وبعد ما نال من الأحداث وما نال منه؟

ها هو والشيخ محمد عبده يتشاوران فيما يصنعانه من الإصلاح.

(1) وأنا أستبعد رواية مستر «بلنت» لأن السيد لما خرج من الهند سافر بحرا من طريق البحر الأحمر فلما كان في بورسعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده كتابا لا تزال محفوظة صورته الفوتوغرافية يقول فيه: «أنا الآن في «بور سعيد» أذهب إلى لندرة ... إن أخبار العالم كانت قد انقطعت عني مدة سبعة أشهر وإنما لا أدري مستقر العارف (وهو نائمه)، أخبره بمقري.

فأما الشيخ محمد عبده فكاد يدب إليه اليأس من الجيل الحاضر ، بعد أن خبر الناس في حوادث عرابي وغدرهم ، وقلة وفائهم ، وتكالبهم على مصالحهم الشخصية ، فأشار على السيد جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرهما ، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية ، ومن يتوسمان فيهم الخير ، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه ، ويعدانهم للزعامة والإصلاح ، قال : « فلا تمضي عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم ، والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار ».

لم يعجب « السيد » هذا الرأي ، ورأى فيه خورا في العزيمة ، وجنوحا إلى السلامة ، ومبالغة في التشاؤم من الحاضر ، وقال للشيخ محمد عبده : « إنما أنت مثبط »(١)

ووضع « السيد » خطته ، وهي إنشاء جريدة عربية في باريس تنشر منها في العالم الإسلامي ، تفهمه حقوقه وواجباته وتشعل وطنيته ، فكان ذلك ، وكان من هذا جريدة « العروة الوثقى » يكون « للسيد » فيها الأفكار والمعاني ، وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقي ، وكان وراء هذه المجلة جمعية سرية منبثة في جميع الأقطار الإسلامية ، اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين لدينهم ، ووضع لها يمين يقسمه من يدخل فيها ويتعهد فيه « بأن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وإنزالها منزلة البنوة والأبوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، وألا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضررا يعود على الدين ، جزئيا كان أو كليا ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلا وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامي من كل نواحيه بقدر ما يستطيع » الخ . وأنشئت للجمعية فروع في البلدان المختلفة ، وكل فرع يجتمع للمذاكرة ، وفي آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له ثقب ضيق يضع فيه كل ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر — ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بهما ، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجانا .

أصدرا من الجريدة ثمانية عشر عددا في ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ = ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ، وظهر العدد الأخير في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

ماذا كان الغرض من هذه الجريدة ؟

لخصت الجريدة أهم أغراضها في أول عدد من أعدادها فيما يأتي :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات .

ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشيء العلل التي أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم . وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .

(٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية المزرية الجانب .

(٤) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(٥) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

(٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين

(١) ولعل هذه الفكرة هي التي أوحت للسيد محمد رشيد فيما بعد بإنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد في مصر .

الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا . وإذ كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية بالنظم السياسية كانت دعوته شاملة لهذه المناحي الثلاثة .

كان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين ، من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسي .

فيرى أنهم كانوا موحدين حقا معتزين بدينهم ، لا تفرقهم المذاهب والنحل ، مترابطين برباط الأخوة ، فيهم خلق الإباء والشمم ، يبذلون أعز شيء في سبيل عقيدتهم وعزتهم ، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في غير هوادة .

ثم دخلهم الفساد على توالي الزمن من خمسة أبواب : من عقيدة الجبر ، والخطأ في فهم القضاء والقدر ، حتى صرفت النفوس من الجد في الأعمال ، ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع ، فجعلوا المسلمين شيعا وأحزابا ، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة ، ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار ، وعدهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ، ومما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعف الهمم ، وفتوراً في العزائم . ومن ضعف التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ، ونشر العلم بينهم . وزاد في بعض المقالات أسبابا أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط بين العلماء بعضهم وبعض ، ولا بين العلماء والأمراء ، ومنها أن الدين الاسلامي جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة ، يأمرها الله بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، فلما استهانت بهذا الأمر ، ولم تعد تشكل موقف عدته ذلت بعد عزة وضعفت بعد قوة .

وكان يختار بعض هذه الأسباب ويوسعها تفصيلا ، أو يفردها في مقال ، كما فعل في مقال القضاء والقدر . وكان من عادته أن يلهب النفوس بأسواط التقريع ، ثم يدخل الأمل عليها بأن هذه عوارض يمكن أن تزول ما سلم الأصل ، مذكرا دائما بحالة المسلمين في العهد الأول ، وعزتهم الأولى .

وكان مثله الأعلى كذلك حكومة إسلامية واحدة تأتم بالإسلام وتعاليمه ، ولما رأى أن ليس في الإمكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة ، ويكون لها مقصد واحد ، وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولي الأمور ، يقول في ذلك بعد أن دعا إلى اتفاق الأمم الإسلامية : « لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحداً ، فإن هذا ربما يكون عسيرا ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه » .

وكثيرا ما كان يضرب المثل بالأمارات الجرمانية في توحدها بعد تشتتها ، ويدعو إلى حلف بين الدول الإسلامية يتزعمه أكبرها وأقواها[1] .

وخشي أن هذا النظام الذي يدعو إليه يثير الشقاق بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في الأقطار الإسلامية ، فقال : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتنا عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ، ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا الخ » .

(١) أنظر الجزء الأول من تاريخ الشيخ محمد عبده للسيد رشيد ففيه كثير من تفاصيل ذلك .

وقاده هذا التفكير فى نوع الحكومة التى يأملها ، والأخلاق التى يرجوها من العزة والشمم والقوة ، أن يناهض فى الجريدة الاحتلال الأجنبى فى الأقطار الاسلامية وخاصة فى مصر بكل قوته ، ويؤلب عليه فى غير هوادة .
وقد شغل هذا أكبر جزء من الجريدة من كتابة مقالات ورواية أخبار وتعليق عليها ، واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير ، وأعنف أساليب التهييج ، واستغل حوادث المهدى فى السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس .

واستعمل إلى جانب الجريدة رسلا متخفين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التى لا يستطيع نشرها فى الجريدة ، فرسول إلى موسكو ، ورسول إلى الحجاز ، حتى أرسل الشيخ محمد عبده مرة — وهو محكوم عليه بالنفى — إلى مصر وتونس .

كان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السلطة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر من الجريدة ، فأمر بمنعها من الدخول ، وأصدرت وزارة نوبار قراراً بالتشدد فى منعها .

فلما أحست الجريدة شدة المراقبة ، واستحالة وصول الأعداد إلى أصحابها إلا فى القليل النادر وفى كثير من التحايل احتجبت .

احتجبت والأسى يحز فى نفس القائمين عليها . فلا من دعوهم لبوا الدعوة فثاروا يطلبون أن يكون أمرهم بيدهم ، ولا الجريدة استطاعت أن تستمر فى دعوتها حتى تؤدى رسالتها .

وبهذا انتهت مرحلة أخرى من حياة « السيد » مدتها ثلاث سنين قضاها فى باريس كلها عناء ، وكلها جهاد انتهت بما أحزنه وخيب أمله ، وإن كانت المعانى لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم .

وحدث حادثان هامان أثناء إقامته فى باريس نذكرهما فى المقال الآتى إن شاء الله .

(يتبع) أحمد أمين

لعب القدر

— ١ —

لفريدريك شيلر

[لخصنا هذه القصة لأن نطاق القصص في الثقافة لا يتسع لها بتمامها وحرفها . وقد حرصنا فيها على مواضع أوردناها نصيا ، واحتفظنا في المواضع الملخصة بروحها ووقعها . وقد نكون أغفلنا علامات الاقتباس في بعض ما نصصنا ، وأثبتناها في البعض الآخر ، فليغفر لنا القارئ هذا الحيد عن المألوف فإنه قد حملنا عليه ما اتفق لنا من اتساق السرد ، ومطاوعة النص للإيجاز] .

كان ألويزوس فون ج . . . من الحضريين ذوى المكانة ؛ رباه أبوه ، وكان في خدمة إحدى الأمارات ، تربية حرة ، فنضجت عبقريته السعيدة مبكرة . وكان حين التحق بجيش مولاه ما زال لدن العود ، لكنه كان واسع العلم عاص الوطاب ؛ فلم يلبث أن اكتشف فيه الأمير مقدراته العظيمة ، وآماله الكبار . وكان ألويزوس يضطرم بحمية الشباب ؛ وكان الأمير كذلك . وكان ألويزوس جريئا مقداما ، وكان الأمير يقدر هذا الخلق ، لأنه خلقه أيضا . وكان ألويزوس سريع الخاطر ، مليح النكتة ، غزير الاطلاع ؛ فاستطاع أن يبث في محيطه من روحه ، وأن ينشر في كل مجلس يغشاه من مرحه ، وأن يخلع على كل ما يلقاه فتنة ويبعث فيه الحياة . وكان الأمير ممن يقدرون هذه السجايا لأنه كذلك يتحلى بالكثير منها . وكان كل ما يباشره ألويزوس من جد الأمور وهزلها يحمل طابع العظمة ، فلم ترده عقبة عما يروم ، ولم يوهن خطأ من مثابرته . وكان يعلى من قدر هذه الصفات شخصه النبيل الموفور الصحة والقوة . كان يحيش من ذهنه المتقد بالحياة ، ويحف به من مشيته ونظرته وكيانه جلال طبيعي يلطف منه تواضع كريم . وإذا كان ذهن هذا السمير الشاب سحر

الأمير ، فقد استحوذ ظاهره الجذاب عليه استحواذا ، واستبد بحواسه استبدادا . وكان تقارب سنيهما وانسجام ميولهما وشمائلهما ، قد ولد بين الاثنين علاقة سرعان ما جمعت كل ما تملك الصداقة من قوة ، وما يستعر في الحب المتقد من نار . ورفع ألويزوس عند الأمير مرتبة فوق مرتبة . لكن هذه الأمارات الظاهرة كانت دون ما يقدره الأمير في ألويزوس بكثير . وأزهر حظ الشاب ، ورفعه إلى العلا في سرعة فائقة ، لأن رب نعمته كان على رعويته يعبده ، وكان صديقه المشغوف به . وإنه لدون الثانية والعشرين إذا به يلقى نفسه في ذروة هي في حياة أسعد السعداء نهاية المطمع والختام . لكن ذهنه الدؤوب لم يدعه يستنيم طويلا إلى عُجب الفراغ وزهوه ، أو يقنع بمظاهر العظمة الباهرة وهو الشاعر بقدرته على ممارسة جلائلها . فكان والأمير ينتهب اللذات انتهابا ، يكب — وهو ذو الحظوة الأثير — على الأضابير والأسفار يستكنه مستورها ، ويهب الأعمال من نشاطه وجده ما ملكه ناصيتها ، وجعله لها حاذقا ، فلم يترك أمرا ذا خطر إلا زاوله بنفسه حتى بات مشير الأمير الأول ووزيره والمسيطر آخر الأمر عليه ، بعد أن كان واحدا من رفاقه ، وزميلا له في مباذله . وبات الطريق إلى الأمير عن طريقه ، ومقاليد الأمور وتقليد المناصب والمراتب والمنح والمنع بيده .

كان ألويزوس حين بلغ هذه المرتبة ما زال شابا صغيرا ، وحين وصل إلى الذروة قد صعد تصعيدا سريعا فلم يقصد في النعمة بها ، فلم يلبث أن جمح به طموحه ، وأن زايله تواضعه حين أدرك غايته . وأسكر شموخه ما كان يلقى من خضوع أكابر الأمارة ومذلتهم له ، وهو دونهم حسبا وكرامة وثروة . وأبدى سلطانه المطلق قسوة بعينها كانت كامنة في طبعه . فكان أعداؤه يرتعدون منه ؛ وكان أصدقاؤه لا يتورعون عن مطلب عنده مهما بلغ في عسره وسهله . وقد أرى غيره في جاهه أكثر مما أرى هو ؛ ولم يكن يصدر في تصرف عن حق بقدر ما يصدر عن الهوى .

غلا في رضاه غلوا كبيرا ، وأسرف في انتقامه فلم يعرف فيه حدا . وحال حساده وشانئوه أعداء له ألداء ، وانفض من حوله حتى صنائعه وأسرى معروفه ، كلهم يتربص به ، وكلهم طريد غطرسته وعتوه .

وكان من بين هؤلاء نبيل من بيموت يدعى الكونت مارتنجو . رفعه بيده ، ودسه في حاشية الأمير صنيعة من صنائعه ، وبدبلاً له في مبادئه . ولم يكن يخشى ضره إذ كان قادرا متى شاء على رده إلى العدم الذي أوجده منه ؛ بل إن خشية الكونت إياه ، وأنه في مركزه بفضله ، كانا في وهمه يؤمنانه جانبه ، فوقع فيما وقع فيه ريشليو حين ترك الويسه الثالث عشر الفتى لوجران يلهو به . لكنه عجز عما قدر عليه ريشليو . فكان له من ربيب نعمته خصم أمكر من الخصم الذي بطش به ريشليو . فلم يثب في بدء ، بل كان طوع مشيئته ، يظهر له الخضوع والخنوع ، ويلتمس عند مولاه الحظوة . يتذرع بالفرصة التي أتاحها له ألوزوس للتقرب من الأمير ، وتعرف الأفيف نفسه ؛ والطريق إلى كسب ثقته ؛ حتى ألم بدخائله وتسلل إلى قلبه ، ونال آخر الأمر الحظوة عنده .

وقد نالها بأساليب تملم ألوزوس أن يحتقرها ؛ وكان له من كبريائه وعلو نفسه ما يقززه منها ؛ لكن مارتنجو لم يتورع منها . فقد كان يعلم أن سبيل الغواية أحوج إلى التحايل والزيغ من طريق الفضيلة ، وأن علم نقائص الناس أفعل في التسلط عليهم ، فراح يثير شهوات عند الأمير كانت ساكنة ، ثم يعرض نفسه عليه في إشباعها مشيرا ومعينا . وقد دفعه إلى موبقات لا تطيق كثرة الشهود والعارفين ، فعرف من أسراره ملا يعرفه ثالث . ووفق بإفساد الأمير إلى وضع الأساس لخطة القضاء على ولي نعمته ، وتم له الاستيلاء على قلب لم يكن يدور بخلد ألوزوس أن يشاركه فيه أحد .

ولا مرية أن يستغرب كيف تم هذا التحول الخطير ولا يفطنه ألوزوس إليه . وتعليل ذلك بسيط . فقد كان الوزير أوثق بقيمته ومكانته في أن يخطر له أن الكونت يمكن أن يناهضه . وكان الكونت أحضر ذهنا وأشد حذراً من أن تبدر منه بادرة تنم عليه ، أو تذهب بطمأنينة الوزير وأمنه . ولم يكن الوزير يكترث لما بين الأمير وحميره من خصوصيات ، فقد كان نفسه يحتقر أن يكون في موضع مارتنجو . وهو رجل إنما يسمو إلى العلا ، وصداقة الأمير تنفعه في هذا السمو ، فهي وحدها التي تستهويه . لكنه حين بلغ غاية التمني وحقق كل الآمال ، يلتفت إلى طريق العودة ، وترك السلم الذي صعد عليه يسقط من خلفه .

لم يقنع الكونت في مقارنته الأمير بالأدوار الثانوية ، فكان كلما ازداد لديه حظوة تطلع إلى أعلا ، فارتفعت على الأيام مرتبته ، وعرض جاهه ، وازداد حز مذلته لألوزوس في نفسه ، واشتدت عليه وطأة تعاليه . وكان هذا كلما ارتفع صنيعته وربيب نعمته ، يحاول تذكيره بضعة نشأته ، فيزيد الشنآن بغضا له ، وانطواء على نية الأذى ، ومضيا في تدبير السوء .

ووضع الكونت خطة للقضاء على الوزير ؛ ولم يكن متعجلا ، فهو يعلم أن حظوة خصمه عند الأمير متأصلة الجذور ، وأن أية محاولة قبل الأوان خليقة أن تعصف به هو ، وتزيد ألوزوس تمكنا . فعني بأن تكون الضربة التي يسددها مميتة في الحال .

وقد فقد الوزير شيئا من حب أميره ما في ذلك شك ، لكنه عوضه باطراد هيبته . ومن يدع لوزيره الاضطلاع بمهام دولته والنهوض بها عنه يقل استغناؤه عنه ، واستعداده لنكران فضله . وقد أعزه كصديق ، وبالغ في إعزازه ، فهو يجله كوزيره ويغلو في إجلاله .

لكنه كيف حقق الإيطالي غرضه وبأي شيء توسل ؟ هذا ما ظل سرا مكتوما بين القليلين الذين أصابتهم الضربة والذين سددوها . ويقال إن مارتنجو أطلع أميره على

أصول مكاتبات سرية مريبة كانت بين الوزير وبلاط مجاور. وقد تضاربت الآراء في صحة هـذه المكاتبات أو زيفها، وسواء أكانت صحيحة أم مزورة فقد بلغ بهـا الإبطال غايته إلى أشنع حد. وبدا الوزير في عين أميره شر من أنكر في هذه الدنيا جميلا وخان سيداً، وبدا ذنبه فوق منال الشكوك لا يعوزه تحر أو تحقيق. ورتب مارتنجو مع الأمير أن يظل الأمر طي الكتمان، فلا يلحظ ألورزوس في معاملة سيده وادر الأعصار الذي يتجمع فوق رأسه ليعصف آخر الأمر به. ولا يتعك آمنا خالي الذهن حتى اللحظة التي يسقط فيها من حالق الجاه والعز والإجلال والحسد إلى حضيض الهوان والرثاء.

وحين أزفت ساعة الفصل كان الوزير يزور ساحة العرض، وكان في الجيش رتبة «أميرلاي». لكن هذه الرتبة العسكرية لم تكن شيئا مذكورا إلى جانب ما يحمله من ألقاب الأمارة ورتبها وما يتقلده من منصب الوزير. وفي ساحة العرض كان له يوم في السنة يتقرب إليه فيه كل ذي جاه، وترتعد منه فرائص المتشككين في رضاه. كان حتى الأمير إذا حضر هذا اليوم أحس فيه بالعزة، لكنه لا يخطر ببـاله أن يغير من أوضاعه إذ كان أحوج إلى صداقة وزيره، وكانت أجدى من التظاهر عليه.

هذه السـاحة التي كان ألورزوس يتلقى الولاء فيها وكان قبلة الأنظار، قد اختارها مارتنجو مشهداً مرعباً لهوانه. فبينا هو ناعم البال، ومن حوله كذلك خلاة الذهن، يأمر فيها وينهى ويتلقف الكل أوامره إذا بمارتنجو يظهر ومعه بعض مرافقيه — لا كرجل البلاط اللبق المتحلي بالتجلة المفتر الثغر ولكن كأشد ما يكون قحة وزهواً كأنه سيد بما كان قبل لحظة تماماً.

ظهر مارتنجو على هذه الصورة وتقدم الوزير بخطى ثابتة بادية التحدي، ووقف حياله مطأطئ الرأس يطلب سيفه في هدوء بأمر الأمير. وتناول السيف المجرد وغرسه في الأرض ووطئه بقدمه فانكسر قطعتين، وتطايرت شظاياه إلى قدمي الوزير. وكأنما كانت هذه إشارة معطاة فانقض مرافقا مارتنجو على ألورزوس، أحدهما ينزع وسامه الصليبي من صدره، والآخر يحل أشرطة الكتفين وحمائل البذلة، وينزع من القمة رباطها، وحزمة ريشها.

كل هذا في مثل لمح البصر وعلى مشهد من خمسمائة رجل يحيطون بالوزير، فلم ينطق منهم أحد، ولم تتردد فيهم أنفاس، وقد وقف هذا الجمع المذعور ممتقع اللون، خافق القلب، عليه سيماء الموت ونيبسه. وإن ألوفا غير ألورزوس لخلقاء أن تصرعهم غشية الصدمة الأولى من مثل هـذا المصاب. لكن أعصابه الحديدية ونفسه القوية صمدت لهذا الموقف الرهيب، وخبرت المكروه فيه من آخره.

(يتبع) **محمود الدسوقي**

حول الإصلاح التعليمي :

ملاحظات

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

بدأ في هذا العام نشاط غير عادي في الدوائر التعليمية وشك أن يؤدي إلى ثورة فكرية عنيفة أيقظها بحق معالي نجيب الهلالي باشا بتقريره الذي وضعه في الصيف الماضي وقدمه إلى البرلمان عند ابتداء الدورة الحالية فظفر بتأييد النواب والشيوخ المبادىء السامية التي قررها فيه . وبذلك شرع الوزير ومعاونوه في وضع التفاصيل التنفيذية لسياسة التعليم في مصر في ضوء تلك القواعد العامة التي رسمها في التقرير .

وتلا ذلك نشاط ظاهر في الدوائر التربوية فقام عميد معهد التربية للمعلمين ، بوصفه رئيساً لرابطة خريجي ذلك المعهد ، بإلقاء محاضرتين في أسبوعين متتاليين يعلن فيهما للناس رأيه في السياسة التعليمية بمصر ، وكان فيما أبداه أكثر تفصيلا بطبيعة الحال ، واقترح اقتراحات معينة ورسم خطة السير وطريقة صرف مال الدولة حسب أفضلية الأعمال التي يقتضيها تنفيذ السياسة التي رسمها لإصلاح التعليم في مصر .

ولم يكد يمضي على المحاضرة الثانية أيام قليلة حتى أعلن للناس أن المستشار الفني لوزارة المعارف سيتكلم في نفس القاعة التي تكلم فيها عميد معهد التربية عن رأيه في سياسة التعليم في مصر . وألقيت المحاضرة بالفعل وحضرها عدد لم يسبق لمصر أن شهدته في الجمعية الجغرافية ، جاء يستمع لمحاضرة علمية . ولا غرابة في ذلك فالموضوع على جانب عظيم من الأهمية ، والمحاضر من رجال مصر المعدودين ، ومركزه في الحكومة يزيد كلامه في هذا الموضوع أهمية ويحفز الناس على التسابق لسماع آرائه

وهكذا بدأ الاهتمام بأمور التعليم يحتل المكان الذي هو جدير به ، وبدأت المناقشات بشأنه تتخذ صورة حية نشيطة ؛ وكل ذلك في مصلحة الأجيال المقبلة لسكان هذا القطر . وقد شعرت بعد أن اطلعت على تقرير الوزير واستمعت لمحاضرتي الأستاذ القباني ، ولمحاضرة الدكتور طه حسين بك أن عليّ واجباً نحو قراء الثقافة أن أقول كلمة في هذا الموضوع الحيوي الهام :

***

لا شك أن القواعد والمبادىء التي ضمنها الوزير تقريره لا يمكن لأحد أن يعارض فيها بل يرحب بها كل الناس ، وقد رحب البرلمان بها بالفعل وأقرها وشكر وزير المعارف عليها . فهي قواعد ومبادىء صالحة لأن يبنى عليها صرح سياسة تعليمية نافعة ، وفيها ضمان لأن يكون التطبيق أو التنفيذ عمليا ، ومفيدا وعادلا . وقد يبدو لأول وهلة لقارىء تقرير الوزير وسامع محاضرتي الأستاذ القباني أن هناك خلافا كبيراً بينهما . ولكن الذي يدقق فيما قرأ وسمع لا يصعب عليه أن يجد كثيرا من الآراء التي أبداها الأستاذ القباني تصلح لأن تكون تطبيقا جيدا للمبادىء التي قررها الوزير . وإذا كانت هناك بعض النقط التي يبدو الخلاف بشأنها عظيما بين رأي الوزير ورأي العميد ، فقد جاءت محاضرة المستشار بتفسير لبعض ما أراده الوزير وببيان لما يرمي أن يتبعه من خطط . وهذا البيان وذلك التفسير من شأنهما أن يوفقا بين وجهتي النظر اللتين كانتا تبدوان متباعدتين . وسترد بعض الأمثلة في الملاحظات الآتية :

أولا : فيما يتعلق بتوحيد المدرسة الأولى :

فهم بعض الناس من تقرير الوزير ومن تصريحات معاليه في مجلس الشيوخ أن التعليم الأولي والتعليم الابتدائي سيظل كل منهما قائما بذاته مستقلا عن الآخر تمام الاستقلال ، وأن الأول سيتناوله الوزير بالإصلاح الشامل ، وأن الثاني سيبيحه الوزير لكل راغب فيه ويفتح أبوابه للجميع

بالمجان يدخله من يشاء على أن تملأ الخلات الخالية فى المدارس بالمتقدمين حسب ترتيبهم فى الامتحان . ورأى بعض الناس أن ذلك قد يتنافى مع المبادىء الديمقراطية ومبدأ تكافؤ الفرص لأن المدارس الابتدائية لن تتسع للجميع ولأن المدرسة الأولية ستتجه اتجاها ريفيا أو صناعيا أو تجاريا أو ملاحيا بحيث لن تتاح للداخلين فيها نفس الفرص التى ستتاح للآخرين .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن النتيجة الطبيعية المناداة بالديمقراطية وبمبدأ تكافؤ الفرص هى توحيد المدرسة فى هذه المرحلة الأولى من مراحل الدراسة ، إما بجعل المدرسة الواحدة هى المدرسة الابتدائية بشىء من التعديل كما رأى الأستاذ القبانى ، وإما بجعل المدرسة الواحدة هى المدرسة الأولية كما رأى المؤتمرون بمصر فى سنة ١٩٢٥ لما بحثت نقابة المعلمين حينذاك هذا الموضوع . ولأصحاب الرأى الأول حججهم القوية من أن المدرسة الجديدة يجب أن تبعد عن المدرسة الأولية الحالية التى تمت للجميع فشلها كما يجب أن تستمد روحها من روح التعليم برياض الأطفال . ولأصحاب الرأى الثانى حججهم القوية أيضا وهى أن مدرس التعليم الأولى الحالى يصلح بشىء من العناية والتوجيه والإرشاد لأن يضطلع بالمهمة لا سيما إذا جعل على رأس كل مدرسة رئيس مستنير .

ولعل أقوى حجة للفريق الأخير هى أن التعليم الابتدائى فيه كثير من الترف إذ يتكلف التلميذ فيه نحو ٢٥ جنيها بينما يتكلف التلميذ فى المدرسة الأولية أقل من جنيه واحد ، وتحسين المدرسة الأولية يتم إلى حد قريب مما نبتغيه إذا جعل ما يصرف على التلميذ الواحد ستة جنيهات أو سبعة ، ومثل هذا تحتمله ميزانية الدولة أسهل من احتمالها تعميم التعليم الابتدائى . هذا إلى أن جعل المدرسة الأولية هى المدرسة الواحدة يضمن إصلاح تلك المدرسة ويضمن مصلحة الطالب الفقير مما إذا أنشىء نوع جديد قد يستأثر بالعناية وبالنفقة .

وبينما الفريقان يختلفان على أى المدرستين أولى بالتعميم إذا بالمستشار يطلع على الناس فى محاضرته برأى وسط . فهو يقول بأن التعليم الأولى يجب أن يبقى قائما كتعليم صالح لعامة الشعب والجماهير ، وأن التعليم الابتدائى يجب أن يبقى قائما كتعليم يؤهل من يتلقونه للدراسة الثانوية فالعالية أو الجامعية ، فهو إذن تعليم يعد القواد وذوى الرأى فى البلد فلا غنى لنا عنه . وإنما الذى يصح أن يقال وينفذ هو ما وعد به وزير المعارف فى مجلس الشيوخ من فتح ممرات ودهاليز ينفذ منها التلميذ من التعليم الأولى إلى الابتدائى متى ثبت أن استعداداته الفكرية تؤهله للمضى فى الدراسة الثانوية والعالية بنجاح . وصرح الدكتور طه بك بأن هذا الإجراء من شأنه أن يطمئن المتحمسين ويبين لهم أن كل ذوى الاستعدادات والمواهب العالية ستتاح لهم فرصة استغلالها فى التعليم الجامعى أو العالى . هذه خلاصة الآراء التى وردت والتى بقى أن نعرف أيها أسهل فى التطبيق وأنفع للبلد وأيها أقرب لروح العصر ولمبادىء الديمقراطية ولمبدأ تكافؤ الفرص .

ثانيا : فيما يتعلق بالمجانية :

دافع معالى الوزير عنها دفاعا مجيدا مبنيا على أسس متينة ودعا إلى تعميمها فى مرحلتى التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى وأبان أن هذه كانت نية واضعى الدستور المصرى . ولكن العميد يرى أن المجانية الجديرة بالتعميم والتشجيع وبأن تفرضها الدولة على نفسها هى المجانية الخاصة بالمتفوقين وحدهم . أما المجانية المطلقة فلا يصح أن تقررها الوزارة إلا بعد أن توفى التعليم الأولى حقه من الإصلاح حتى يصل إلى المستوى الذى يعتبر حدا أدنى لما يتفق مع الكرامة الإنسانية ومطالب الحياة الحقة . وبعد أن توفى الدولة النابغين المتفوقين حقهم فى تنمية مواهبهم والوصول إلى أرقى درجات التعليم ، وبعد أن تقوم بتيسير أسباب التعليم

الثانوي والعالي على اختلاف أنواعهما للقادرين من غير المتفوقين على أن يتحملوا نفقات تعليمهم كاملة . فإذا بقي بعد ذلك فضل في الميزانية صرف في تيسير أسباب هذين التعليمين لمن يشاء من أبناء الأمة على نفقة الدولة .

أما المستشار فقد دافع عن المجانية دفاع الوزير عنها ولكنه قيدها أيضاً كما قيدها الوزير بأن تمنح للمتقدمين حسب الكفاءة العقلية . وإذا دققنا في الأمر تبين لنا أن هذا الشرط الذي اشترطاه قد ينتهي بإزالة الخلاف بين وجهتي النظر . والمسألة على كل حال جديرة بالبحث الدقيق مع مراعاة جميع الظروف حتى نصل فيها إلى رأي يحقق العدالة الاجتماعية بغير أدنى ريب ، ونطمئن الناس على أن ما ستصرفه الدولة في هذا السبيل سيعود بالنفع على الأمة جميعاً .

ثالثاً : فيما يتعلق بالمدارس الحرة :

يرى معالي الوزير أن التعليم الحر مفيد صالح للبقاء ، جدير بالتشجيع والدعم ، فهو قد أدى في الماضي وسيؤدي في المستقبل خدمات جليلة للتعليم قد تقصر الدولة عن أدائها . لكن الأستاذ العميد يرى أن بعض هذه المدارس غير صالح للبقاء ، وغير جدير بالتشجيع ، والبعض الآخر الذي يوفي شروطاً قررها يستحق كل عناية ومعاونة ليظل باقياً يؤدي رسالته أو يتطور ليؤدي رسالة أخرى . ومن ذلك يتبين أن بقاء المدرسة الحرة مسلم به من الطرفين كما يتبين أن المدرسة الحرة قد يطلب منها في المستقبل أن تقوم بوظائف أخرى كإعداد تعليم ابتدائي خاص لأبناء القادرين الذين لم تقبلهم المدرسة الابتدائية أو الذين لم يجدوا في المدرسة الواحدة طلبتهم ولم تطمئن نفوسهم إليها .

على أن بعض الناس يشفق من أنه قد تتاح لهذه المدارس الحرة ولا سيما الأجنبية منها فرصة لتلعب دوراً خطيراً في حياتنا الاجتماعية ، فهذا الفريق يخشى إذا طبق الوزير نظريته الخاصة بتعميم المجانية على أساس الدرجات أن يفوز بالأمكنة الخالية معظم غير القادرين من أبناء الطبقات الفقيرة لا سيما إذا كانت أعمارهم أكبر من أعمار أبناء الطبقات الأخرى وبذلك تزداد فرصتهم للتفوق على زملائهم في امتحانات القبول . فإذا حدث هذا اضطر أولياء أمور التلاميذ الذين لم يقبلوا بمدارس الوزارة إلى إدخال أبنائهم في المدارس الحرة التي سيهرع الأجانب إلى فتحها وبذلك تنشأ في مصر طبقة من المدارس الخاصة شبيهة بالتي نشأت في انجلترا ودارت في الأيام الأخيرة مناقشات حامية هناك بشأن بقائها أو عدمه . تلك المناقشات التي فصلها معالي الوزير في تقريره . فإذا كان وجود تلك المدارس القومية التي أسدت أجل الخدمات للامبراطورية البريطانية محل تساؤل فإن احتمال نشوء مثل تلك المدارس بمصر تحت إشراف أجنبي أمر يدعو إلى التنبه والحرص والحذر من سوء نتائجه .

رابعاً وأخيراً : فيما يتعلق بالدراسات البيداجوجية والسيكولوجية :

لا شك في أن معالي الوزير يقدر هذه الدراسات حق قدرها بدليل أنه ضمّن تقريره وبنى كثيراً من آرائه على نتائج بحوث رجالها في انجلترا وأمريكا . والأستاذ العميد بطبيعة الحال يضعها في المكان الأول . ولكن الدكتور طه بك اتخذ في هذا الشأن موقفاً قد يبدو غريباً ؛ فهو قد صرح بأنه لا يؤمن بالبداجوجيا ولا بالسيكولوجيا بل بالغ فقرر إنه من خصومهما ، ولكن المدقق يخلص من كلامه إلى أنه كان يداعب بكلمته هذه الأستاذ العميد ورجال التربية ، ولم يكن يقصد بجد ما قاله في هذا الصدد ، إذ لا يعقل أن يكون المستشار الفني بوزارة المعارف خصماً للتربية وعلم النفس ، ووزارة المعارف ليس فيها من الشئون الفنية سوى البحوث التربوية والنفسية . وكل نظام يصح أن يوضع للمستقبل يجب أن يقوم على الأسس التي يقررها علماء التربية والنفس . وأقصد بهؤلاء علماء التربية والنفس بمصر أولئك الذين يحاولون درس العقلية المصرية دراسة

واقية ولا يكتفون بنقل نتائج دراسات علماء أمريكا وانكلترا . وتلك مسألة معقدة تحتاج أيضاً لدرس مستفيض والتغلب على صعوبات قوية .

* * *

وبعد ، فماذا نخلص من هذا كله ؟ إنا لنرى أنه من حظ هذا البلد أن تقوم هذه الحركة التعليمية وأن يتسع نطاق الجدل فيها وتتشعب البحوث . فهي إذن حركة موفقة مباركة نرجو أن تتطور إلى ثورة فكرية لا شك في أنها ستؤدى إلى أحسن النتائج وسيكون لها أجل الأثر في توجيه التعليم بمصر وجهة صحيحة صالحة تجعلنا نطمئن إلى مستقبل النشء ، وحسن إعداد الأجيال القادمة للاضطلاع بأعباء الحياة .

ولكنا نهمس في آذان الجميع أن المسألة ليست مسألة انحياز إلى رأى ولا تحزب لفكرة ، وأنها ليست بالسهولة التي يراها البعض ، وأن من الخير أن يتبادل الناس الآراء فيها ، وأن من المصلحة أن يختلفوا وأن من الواجب أن تشجع الوزارة رجالها على المساهمة في هذه البحوث وإبداء آرائهم . ولعل من الخير أن تنظم الوسائل التي بها يشترك الجميع في الدرس والبحث والتفكير والتعبير عن آرائهم .

بل إننا نذهب إلى مدى أبعد من هذا فنقول بأنه يحسن أن يشترك جميع المفكرين في البلد في تبادل تلك الآراء . ولعله من الخير أيضاً أن يعقد مؤتمر ومؤتمرات لهذا الغرض تبحث فيها المشاكل المديدة التي ستنشأ عند التنفيذ . وإذا كانت الوزارة مشغولة عن الدعوة إلى مثل المؤتمرات فعندنا هيئات كثيرة يصح أن تبحث هذه المشاكل وتدعو إلى مؤتمرات لتبادل الرأى فيها ، وأعنى بها هيئات كجمعية المعلمين ولجنة التأليف والترجمة والنشر ورابطة التربية الحديثة وجماعة دار العلوم وخريجي معهد التربية وغيرها من الهيئات العلمية القائمة بمصر . ولعل تنبيهاً كهذا يكون له صداه وتبلغ الصيحة الآذان وتتسع دائرة البحث وتقوم الثورة الفكرية التعليمية التي نرجو من ورائها الخير الكثير .

أدب الأسبوع . . .

« هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي .... »

من النقد — القارئ الأمي ! — الكتاب المجهول ! ذات السوار !

في النقد !

كتب إليّ صديق يعيب عليّ ما كتبتُ من الأستاذ العقاد في العدد ٢٦٤ من الثقافة ، ويتهمني بالهوى في خصومته ، ويقول فيما يقول : « ألم تجد في كل ما كتب العقاد من محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غير هذه الكلمة التي حشدتَ لها جهدك وجهد صديقك أحمد شاكر ؟ إن كان الأمر كذلك فما كان أحراك وأحرى صديقك بالسكوت إن عزّ عليكما أن تعرفا الفضل لأهله فتنوّها بما أحسن العقاد وأجاد . . .

ويقول : « ليس النقد يا صديقي — ولعلك تعرف ذلك — أن تتبع العورات فتحصيها عدًّا وتُشبع صاحبها لوماً وتقريعاً وسخرية . ولكن النقد أن تنوّه بالحسنة كما تشهّر بالسيئة ؛ وقبل ذلك مرحلة أخرى ، هي أن تعرف وتحاول تعريف القارئ معك فيم أنشأ الكاتب كتابه الذي تحاول نقده ، وإلى أي غرض كان يهدف به ، ومقدار ما أصاب من التوفيق في بلوغ هذا الغرض ومقدار ما أخطأ ، ليكون القارئ معك على بينة من أمره وأمر الكتاب الذي تنقده ، وما أراك وصاحبك قد صنعتما شيئاً من ذلك ، فما هو إلا أن وقعتما على غلطة في كتاب ، أو في طائفة من الكتب ، فتناسيتما ما يجانبها من الحسنات ، ومضيتما تقولان ما تقولان . . .

ويقول : « ولا تحسب يا صديقي أني أتهمك بهذا وحدك ، فأنت والناقدون جميعاً في مصر سواءٌ في هذه الخلة ؛ أو إن شئت الحق فإني أقول بصراحة : إن مصر كلها اليوم ليس فيها ناقد واحد يلتزم هذه الجادة ؛ أو لعل الصواب أن أقول : إن مصر كلها اليوم ليس فيها جريدة أو مجلة واحدة تُعنى بهذا النوع النظيف من النقد ، وإن كان فيها ما فيها من الجرائد والمجلات والنقدة الأعلام . . »

* * *

. . . وأصاب صديقي في بعض ما قال . . . ولكنه أخطأ فيما رماني من تهمه . . . على أنه قد فاته أن يقرر إلى جانب ما ذكر من الرأي : أن مصر كلها ليس فيها أديب واحد يتسع صدره لنقد الناقد ، ولو وُجد هذا الأديب لوَجَدَ الصديقُ هذا الناقدَ الذي ينشد ، ولوجد الجريدة التي تنشر !

تلك حقيقة ليس ينكرها صديقي فيما أزعم ، أو لعله ينكرها ، فإنه على ما يعرف من مذهبي وقصدي في هذا الباب لم يبخل عليّ بالتهمة في كلمة كتبتُها من صديقه — أو على الأصح نشرتُها عنه — وهو مع ذلك لم يصحح لي خطأً واحداً فيها ولم يعترف على صديقه بتقصير . . . فأيّنا الذي يكتب عن الهوى ؟

نعم ، ليس في مصر كلها اليوم ناقد واحد يلتزم تلك الجادة ، وليس في مصر كلها اليوم جريدة أو مجلة . . . » ولكن أيعرف لماذا ؟ . . . ليس في طوقي اليوم أن أتبرع بالجواب ؛ فليسأل صديقه إن أعياه ذاك الجواب ، فلعله يدري ، وإنه لحقيقٌ بأن يدري . . .

القارئ الأمي !

كان يجلس إلى جانبي في الترام وبين يديه صحيفته ، وكان يقرأ . . .

لم يكن يقرأ لي ، فقد قرأتُ أنا صحيفتي منذ ساعات ؛ ولم يكن يقرأ لأحد غيري من الراكبين ، فإنه — فيما يبدو — لم يكن يعنيه أحد من الراكبين ، لا أمام ولا وراء ؛ ولكنه على الرغم من ذلك كان يقرأ بصوت مسموع ، يسمعه مَن أمام ومَن وراء . . .

واستمر يقرأ للراكبين جميعاً . . . لم يترك في الجريدة

جبراً ولا حديثاً ولا إعلاناً ، فلم يكفّ ولم يخافت حتى فرغ من صحيفته !

ذلك قارئٌ من عداد المتعلمين في هذا البلد حين يُحصى الأميون والقراء !

وثمة نوع آخر من القراء لعله في مصر أكثر عدداً . ترى القارئ منهم والصحيفة مبسوطة بين يديه وإنه ليقرأ بعينيه وشفتيه جميعاً وإن لم تسمع له حساً ، فإن شفتيه لتتحركان في صمت وهو يقرأ ، كأنما يصعب عليه أن يتمثل معنى هذه الرسوم المكتوبة إلا أن يُحيلها ألفاظاً يبلغ بها الأذنَ أو يحرك اللسان ؛ فالقراءة عند هذا القارئ وأشباهه عمل عضلي لا يجزئ فيه ما تنقله العينان من صور الكلمات ، بل لابد أن يشاركهما فيه الأذنُ واللسان ، والكتابة عنده ليست هي صورَ المعاني ولكنها صور الألفاظ ، فليس يمكن أن يتأدّى معناها إلى ذهنه إلا أن يصوّت بها ، همساً أو جهراً ؛ فإذا بلغ بها مبلغ الصوت فقد آن أن يفهم ، ولو أنك أردته مرةً على أن يقرأ سطراً مكتوباً لا يُسمع به نفسه ولا يحرك شفتيه لفاته معنى ما يقرأ .....

ليت شعري أذلك عيبٌ في الخلق ، أم عيبٌ في التعليم ، أم هو عيب في الخلق وفي التعليم جميعاً !

إني لأرى الرجلين — أو المرأتين — جالسين في الترام ، ومن يمينهما ناس ومن شمالهما ناس ، لا يعرفهما منهم أحد ، وإنهما ليخرجان من حديث إلى حديث في شئونهما الخاصة ، لا يمنعهما ما يبتذلان من أسرارهما على مسامع الناس . ذلك عيب في كثير من رجالنا وسيداتنا نشهده في كل حافلة وفي كل مركب عام ! ...

أفذلك العيبُ الذي وصفتُ قبلُ في طائفة من القراء الأميين هو لونٌ من ذلك العيب الاجتماعيّ العام ، أم هو عيب معلم القراءة في المدرسة ؟

الكاتب المجهول :

صديقي « فلان » ولوع بالعبث والمجانة ، يكثر إليّ غُدوةً يسألني : أتحفظ المعوّذتين ؟

قلت : نعم : قل أعوذ برب الفَلَق ، من شر ما خلق ...

قال : صَه ، لقد غلطْتَ ، فما ينبغي أن تقرأها كذلك منذ اليوم ، وإنما هي : قل أعوذ برب الفَلَق ، من خير ما خَلَق ! ...

قلت : إخسأ ! أتبلغ من العبث أن تجعل كلام الله لهواً وهزؤاً ؟

قال : حسبُك ! ألم تقرأ اليوم مقالة « الكاتب المجهول » في الرسالة ؟

قلت : ومن يكون ذلك « الكاتب المجهول » ؟ وماذا يعنيني من أمره الساعة ؟

قال : هو « الكاتب المجنون » كما سماه العقاد في « آخر ساعة » ، وإنما يعنيك من أمره هذه المقالة ؛ فإن كنتَ « عاقلاً » فإنك حقيقٌ بأن تفهم منها ما يعنيه إن كان يعني شيئاً فيما يكتب !!

ودفع إليّ صديقي العدد ٥٥١ من الرسالة ، وقرأت مقال الكاتب المجهول من أوله حتى انتهيت إلى آخر حرف منه ؛ وهممت أن أقرأه ثانية لعلي أفهم شيئاً مما يعني ، ولكن الله عصمني .....

... وصنع الله لصديقي ! فلولاه ما أفسدتُ عقلي ولساني ولا ضيّعتُ لحظاتٍ من زمني ...

وألقيتُ المجلة إلى جانبي غضبان ، ولكن صديقي لم يدعني وشأني ، بل أقبل عليّ يسألني : أقرأت ... ؟

وكأنما عزّ على صاحبي ألا أخلو اليوم كله إلى هذا الهراء ، أكرّر قراءته عوداً وبدءاً ، فمضى يقرأ لي فقرات من ذلك المقال :

« ... أما بعد فأنا لا أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ؛ وإنما أعوذ برب الفلق ، من خير ما خلق ، وهو الجمال ... ومعنى هذا أنني سأراجع خطيئتي التالية ، وهي الفتاة اللثوغة الراء ... ... »

والتفت إليّ صديقي يقول : كأنك لم تفهم بعد ! …

قلت : لست أريد أن أفهم !

قال : لو أنك فهمت لقلت شيئاً آخر ! ومضى يقرأ من ذلك المقال :

« … وهل أنسى أني رفضت المشاركة في الاحتجاج على ما صنع الفرنسيون في لبنان ! … من أجل حبها أبيت أن أكتب حرفاً واحداً في تقبيح ذلك الصنيع ؛ فقد بدا لي غير قبيح ، لأنه صدر من أهل سوزان ! … »

قلت : حسبك ! قد فهمت ! …

قال : ماذا ؟

قلت : لقد صدق الكاتب : إنه هذيان الفجر بعد ليلة حمراء[1] .

قال صديقي : لقد فاز بـ ! إلى ذلك الكاتب يزعم أنه من قادة الفكر في هذه الأمة ؛ أفتراه بهذا الذي يكتب وينشر على الناس ، يقود الأمة إلى الخير ، أم تراه يبصق في وجه المُثل العليا ؟ … …

وهممت أن أجيب ولكنني استحييت ! … …

ذات السوار !

… قالوا : وبلغت حيث أرادت ، ونالت الليسانس ، واختارت أن تكون « محامية » ، وطار لها صيت وشهرة ، وإلى بعض الشذوذ ليصنع الجاه … …

ودخلت المحكمة ذات صباح[2] ، واستقبلها كاتبها يشكو إليها خصومة شخصية بينه وبين « زميله » كاتب المحامي فلان ، وغضبت لكرامة كاتبها غضبة أنثى … …

وأقسمت لتأخذن بحقه ، ولم ترض أن تنزل إلى مستوى « الكاتب » الذي خاصم أجيرها فتأخذ منه الحق ، بل قصدت إلى « سيده » المحامي ؛ وكان المحامي الجريء في مجلسه من إخوانه غافلاً عما هناك ، حين خطت إليه « الزميلة » فلطمته ثم انحنت لتتناول شيئاً … …

(١) من عبارة الكاتب في صدر مقاله .

(٢) قصة هذه الفتاة حقيقية ، ولم يزل أمرها معروفاً عن النساء في مصر .

… … وذهل الرجل فلم يجب ، وانصرفت موفورة لم يناها لطمة ولا كلمة … … … … واجتمعت « الزميلين » قصة لم تتم تمامها بعد ! …

قلت لمحدثي : وماذا في هذه الحادثة ؟ رجل وامرأة تخاصما ، ومثل ذلك يحدث كل يوم ، وفي كل الطبقات . أمن أجل أنها محامية وأنه محام ؟ …

قال : لست أعني هذا ، ولكن أليس يدهشك أن تعلم أن هذا المحامي معروف بالأنفة وسرعة الغضب ، ومع ذلك فقد احتمل اللطمة هادئاً فلم يمد لساناً ولا يداً … ؟

قلت : أكنت تظن … إنها امرأة ، أفكنت تحسب أن يمد يده إلى امرأة ؟!

قال : من أجل هذا سألتك ، فهذه المحامية الزميلة هنا ، في هذا المكان ، ليست امرأة كالنساء ، لقد نزلت عن كل حق ، وعن كل امتياز تفرضه الأنوثة ، حين فرضت لنفسها حق « المساواة » ؛ لقد كان للأنوثة حقها من العطف ، والعفو ، والتسامح ، حين كانت « الأنثى » امرأة كالنساء ، أما وقد حطمت هذا القيد ومضت تزاحم الرجال بالمنكب والساعد لتشاركهم فيما كانوا يرون لأنفسهم الحق فيه وحدهم دون النساء ، فقد زال كل ما كان لها من امتياز تتميز به . ألم تطلب هي أن « تساوي » الرجل ؟ فقد اعترف لها الرجل بما طلبت ، فما حقها بعد في الاستمساك بهذه « الامتيازات » ؟ لقد خلعت نفسها من ذلك السلطان يوم لبست ذلك « الروب » !

قلت : لكأنك تسوّغ أمراً منكراً ، أفكنت تفعل لو أنك كنت أنت ذلك المحامي « اللطيم » ؟

ورفع محدثي يده إلى وجهه كأنما يدفع لطمة ، ومر على خده راحته كأنما يحس ألماً ، وقال : آه ! …

وقلت : آه ! … فقد صرنا يا صديقي إلى حال يطلب فيها الرجال « المساواة » بالنساء ، فلا يكادون يبلغون ؛ فاصبر ، لعل مصلحة جديدة تقوم من رجال هذا الجيل مقام قاسم أمين من نساء الجيل الماضي ، فترد إليهم بعض الحرية التي فقدوا … !!

« قاف »

صحيفة النقد :

بيان ومنهاج

النقد الأدبي فصل متخلف في المكتبة العربية ، ولكن هذا التخلف هو الوضع الطبيعي للأمور ، فالنقد هو عملية الوزن والتقويم ، فلا بد أن تسبقه عملية الخلق والإنشاء . لا بد من وجود المادة الخاصة التي يزنها الناقد ويقوّمها .

وقد وجد فصل النقد الأدبي في المكتبة العربية القديمة ، ولكنه — في مجموعه — كان نقد ألفاظ وعبارات لا يكاد يجاوز هذه المنطقة ، فإذا جاوزها تناول المعاني من حيث هي معان . ولم يحاول إلا نادراً أن يحسب حساباً لنفس القائل وحسه ، كما أنه لم يحاول قط أن ينظر إلى خصائص الشخصية في هذا الأدب ، ولا إلى المدارس الفنية (فإذا نظر إلى هـذه الناحية فإنما لينظر إلى التعبير من حيث هو ألفاظ وتراكيب ومعان ، لا من حيث هو خاصة فكرية وسمة نفسية وطريقة شعورية) .

ثم جمدت قوالب النقد في نهاية القرن الرابع ، وصار قواعد محفوظة وطرقاً مرسومة ، بل لم يعد — في الغالب — النقل عن كتب النقد السابقة بلا زيادة تذكر ، وبقي الأمر على هذه الحال نحو تسعة قرون !

ومنذ ثلاثين عاما فقط نهض الأدب العربي نهضته الحقيقية ، فنهض فصل النقد ، ولكن ماذا كان أمام النقد من المادة الخامة في ذلك الزمان .

يكفي أن ننظر إلى المكتبة العربية الحديثة في ذلك الحين فنراها خالية من أعمال العقاد ، وطه حسين ، والمازني ، وشكري ، وتوفيق الحكيم ، وهيكل ، وأحمد أمين ؛ ثم من محاولات تيمور ، وشعراء الشباب ، وشبان المؤلفين ؛ لندرك خواء هـذه المكتبة وعجزها عن إمداد الناقد الأدبي بمادة عمله الأولية !

فلم يكن أمام النقاد في ذلك الحين إلا مجرد التعريف بالأدب العربي القديم وبالأدب الأوربي الحديث ، وكلاهما كان في منزلة واحدة من البعد عن التفات القراء في ذلك الزمان ، وكلاهما كان التعريف به ضرورة لازمة للنهضة الأدبية التي عمرت المكتبة الحديثة في خلال هذه الثلاثين عاما الأخيرة .

ثم وجد إذ ذاك نوع من النقد ، ولكن عمله الأول كان هو الهدم ، الهدم القاسي المصحوب بكل ضجات الهدم وفرقعاته . فلقد كانت الضجة والفرقعة في ذلك الحين هي العمل الجدي الوحيد لإيقاظ الغافلين السادرين في مسارب الجمود القديم .

وكتاب « الديوان للعقاد والمازني » كان معول الهدم الذي يسبق البناء ، ولم تصدر بعده كتب في نقد الأدب المعاصر اللهم إلا كتاب « على السفود » ، وكتاب « رسائل النقد » وإنما نسميهما « نقداً » من باب التجوز ، إذ أن مكانهما الحقيقي هو في فصل « الهجاء » بأوضح معانيه !

ولكن ظهرت مقالات متفرقة للعقاد ، والمازني ، وشكري ، وطه حسين ، وأحمد أمين ؛ ثم ظهر كتاب « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » دراسة وافية للمدارس الفنية في ذلك الجيل ، وفيما عدا هذا كان النقد عملا مساوياً للمدح أو الهجاء عند الكثيرين !

* * *

من هذا الاستعراض السريع ندرك ضآلة فصل النقد في المكتبة العربية وتخلفه عن سائر الفصول . ولكن هذا — كما قلت — هو الوضع الطبيعي للأمور ؛ فقبل ربع قرن لم تكن هناك مدارس أدبية جديدة (غير المدارس التي استعرضها كتاب شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) ولم تكن هناك أعمال أدبية تستحق الفرز والتقويم .

ومهما عيب على الصحف والمكتبات عدم انتباهها لقيمة فصل النقد الأدبي (وذلك صحيح) فإن عدم الانتباه

لم يكن السبب الحقيقي لتخلف هذا الفصل ، إنما كانت هذه العوامل الطبيعية هي السبب الأصيل .

وإنه ليخيل إليّ أن المكتبة العربية الحديثة قد أصبحت اليوم تستحق « نقداً » ! ففيها أعمال أدبية ناجحة ، وفيها مدارس أدبية متبلورة ، كما أن فيها محاولات واتجاهات تستحق الرعاية والاهتمام . فالناقد خليق أن يجد له عملاً في هذه الظروف الجديدة .

ولكن ما هو عمل الناقد على وجه التحديد ؟

للناقد عملان أساسيان : عمله في الجو العام ، وعمله مع كل مؤلف على حدة .

فأما عمله في الجو العام فهو التوجيه والتقويم . توجيه الاستعدادات الكامنة إلى الأهداف العامة ، وتقويم الأعمال الأدبية على هذا الميزان المرسوم . فالدعوة إلى أدب قومي مثلا ، أو إلى أدب إنساني ، أو إلى أدب حيوي ، وتوضيح حدود هذا أو ذاك وقياس الأعمال الأدبية بهذا القياس ، هي مظاهر لعمل الناقد في الجو العام .

وأما عمله مع كل مؤلف ، فهو وضع « مفتاحه » في أيدي القراء الذين يقرءون أعماله متفرقة ولا يدركون القاعدة التي تقوم عليها هذه الأعمال ، ولا يتعرفون إلى شخصيته المميزة الكامنة وراء كل عمل .

وهذا « المفتاح » ضروري لتعريف الأديب ، وإلا كان النقد عملا جزئيا ليس وراءه كبير طائل بالنسبة للقراء . ونقد كتاب دون بيان الحدود « الشخصية » القائمة من ورائه إنما هو عمل ناقص لا يؤدي إلى شيء في هذا الباب

لا بل إن هذا « المفتاح » ضروري للمؤلف نفسه لا لقرائه وحدهم . فكثير من المؤلفين لا يعرفون أنفسهم ، ولا يلتفتون إلى خصائصهم . وهم يستفيدون من الناقد الذي يضع المرآة أمام وجوههم ليتبينوا فيها ملامحهم الأصيلة .

وليس من مهمة الناقد أن يغير طبيعة المؤلف التي زودته ، ولكن من مهمته أن يعرف هذه الطبيعة ويبلورها ، ويقيس أعمال المؤلف بها ويهديه إليها إذا ضل أو انحرف في فترة من فترات الضعف والضلال !

وكلما تناول الناقد أحد المؤلفين مرة ، يجب أن يصير هذا المؤلف « معرفة » لدى القراء ، لا من حيث الشهرة والبروز ، ولكن من حيث تميز الملامح ، ووضوح الخصائص . وعلى الناقد إذا لاحظ فيما بعد اتجاهات جديدة لهذا المؤلف ، أو خطوات أوسع في مجاله القديم أن ينبئ قراءه بهذه الظاهرة الجديدة في مؤلفهم المألوف !

وهذا هو عمل الناقد مع كل مؤلف على حدة .

***

على هذا المنهاج سنسير في « صحيفة النقد » ، ونحن ندرك منذ اليوم أننا لن نخرج منها بالكثيرين من الأصدقاء بين المؤلفين !

فالفنان — بل الإنسان عامة — لا يرى في الغالب إلا الصفحة القوية في نفسه ، لأن هذا الجانب هو الذي يسره ويلذه ويملق كبرياءه ويغذي غروره . فإذا ووجه بالصفحتين جميعاً ، فوجئ بالصفحة الأخرى التي يراها لأول مرة ، وحسبها تزويراً عليه ، وحتى لو اقتنع بأنها صفحته ، فإنه لا يستريح لعرضها على أنظاره وأنظار الناس !

فلا علينا من هذا الطبع المشترك بين الآدميين ! وحسبنا أن نعثر على أصدقائنا بين القراء المحايدين !

ولكن المؤلفين يستطيعون أن يكونوا على ثقة بأنهم هم الراجحون على كل حال ، فمجرد ورود مؤلفاتهم في هذه « الصحيفة » هو دلالة على أنها « تستحق » التقدير ، ولو لم ينلهم إلا النقد الشديد !

والمطبعة تخرج مئات من الكتب ، وليس كل ما تخرجه المطبعة مستحقاً لأن يشغل في هذه « الصحيفة » مكاناً ، إنما يشغل هذا كتاب له قيمته ، ولو خالفنا المؤلف في خط مستقيم !

ذلك هو منهاجنا وعلى الله التوفيق .

سيد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٣٩٩٦/٥٦٢٣٩٩

العدد ٢٦٧ | الثلاثاء ١٣ من صفر سنة ١٣٦٣ — ٨ من فبراير سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

٤ — جمال الدين الأفغاني

حادثان هامان حدثا في السنين الثلاث التي كان فيها « السيد » في باريس ، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير « رينان » وإعجاب كل منهما بالآخر ودخولهما معاً في معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب ؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة « الدبيا » الفرنسية الشهيرة .

فقد ألقى الأستاذ « رينان » في السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث : (١) خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتمدن العرب وفلسفة العرب مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرانيين . والفلاسفة الذين ظهروا في دولة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي ؛ فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ ، وعدم دقة في التعبير . (٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد في الغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان في حماية خليفة أو أمير ، مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التي أخذناها عن المسلمين في أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل لم نستفد منها الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الأصلية . ومع هذا يقول : « إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام ، وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت

بمجاذبية نحو الإسلام بل وتأسفت أن لا أكون مسلماً ... ولكنه حجب العقل عن التأمل فى حقائق الأشياء ... وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر ، وقلة عقل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى - وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمى ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق مهد التمدن الفارسى القديم .

وختم محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية وبه تتقدم الأمم وبه يتحقق العدل وبه يستخدم العقل القوة ... وهو لا يتساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته » .

نشرت هذه المحاضرة فى جريدة « الدبيا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين فى شؤون المسلمين .

فكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفى رده كاد يسلم بالمسألة الأولى وهى أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم بل مدنية الأمم المختلفة التى دخلت فى الإسلام ، وفى المسألة الثانية قال إنه ليس فى دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمى ، وقد تقدم المسلمون فى عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين فى بعض تاريخهم ، وكل سائح الآن يسيح فى البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذه بأساليب التقدم والإصلاح من غير أن يصدهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلقى المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب فى علم الحياة — وقد نشرت هذه المحاضرة فى المجلة العلمية — ... وهى محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامى فى القرون المتوسطة ، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه « سديو » و « دوزى » فى مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب ، وعرف ما عملته هذه الأمة فى العلم مما لا يحصى عدده بينما كانت أوروبا منغمسة فى التوحش والجهالة ما نسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا رغما عن الدين . فإذا كان الإسلام سمح للساطرة والمجوس واليهود فى دولته بهذا التقدم العلمى الذى ذكره مسيو رينان فلماذا لا يكون سبباً فى حمل ملايين المسلمين على الأخذ بأسباب العلم — وأما المسألة الثالثة فلم يمرها مسيو مسمر كبير اهتمام فى الرد .

وقد تحمس الشباب المسلم فى باريز لمقال رينان ورد مسمر فاجتمعوا وكلفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » تعريب المحاضرة والرد عليه فعربهما وقال فى أول ذلك : « لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحب الوطن من الإيمان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير «حسن عاصم» بتعريب الخطبة التى ألقاها رينان ... طعناً فى دين الإسلام والأمة العربية وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر ... والغرض أن تقف على الطعن والرد كلُّ من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، ويمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان فيفعلون إظهاراً للحق » ؛ كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التى أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه فى « الدبيا » أيضاً ، ولكن كان رده هادئاً فى بعض نقطه ، فلعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد مدح رينانَ على بحثه وانصافه وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ، ثم قال : « ان المحاضرة

تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الحياة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؟ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أمصدر هذا الشر عن الحياة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الحياة الإسلامية في العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك ؟ لاريب أن قصر الوقت المخصص لمسيو رينان قد حال دون إجلائه هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله في الأديان الأخرى ، « فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم ما كفوا عن محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعني العلم والفلسفة) »[1] .

قال : « وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي وبعد السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن في خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية . . . فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم ، وقد كانت روما وبيزنطة الدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل منبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها . . . ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، ونهضت فيه نصُبهم التي أقاموها للعلم ودرجت كتبهم القيمة في طي النسيان ، وقد كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على حبهم الطبيعي للعلوم ؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به . بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوي على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بُعْد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم . أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعي للعلوم ؟

« ويقيناً يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية في غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر تحتوي علماء ومفكرين عظاما ، وأن العالم الإسلامي إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية — إذ يقول إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للاسلام كانوا كنابهي السياسيين من أصل حراني ، أو أندلسي ، أو فارسي ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي ، ولكن أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين اعتنقوا بهدي النصرانية . أما ابن باجة ، وابن رشد ، وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في

(١) وقد وقع في رده على هذه النقطة بعض خطأ سنعرض لها بعد .

جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

«ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟ لو عملنا ذلك قلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أسلافهم إليها من بلدان أخرى» .

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : «إن العقل لا يوافق الجماهير ، ونتائجه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم على ما به من جمال لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها» .

رد عليه الأستاذ رينان وبادله مدحا بمدح ، وإعجابا بإعجاب ، وقال : «تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فىّ تأثيرا قويا وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضرتى فى السربون ... والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن أسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلنتها ، وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيّل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجها لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحدا من أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار» .

ثم قال : «ولست أرى فى البحث النفيس الذى عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة ... فلسنا بالتأكيد ننكر ما لرومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة فى حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة روما ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربى ، ولا كل ما نشأ فى بلد مسيحى من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر فى البلدان الإسلامية من ثمار الإسلام ...

«لقد خالنى الشيخ غير منصف فى أنى لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الإسلام ، وأن الاضطهاد بين المسيحية لا يقل عما كان بين المسلمين ، وهذا قول حق ؛ فجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيرا مما لقيه ابن رشد من المسلمين ... وإذا كنت لم أطل القول فى هذه الحقيقة فلأن آرائى فى هذا الشأن معروفة لا حاجة بى إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمالى وآرائى ... ولست أريد من المسيحى ترك عقيدته المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام ؛ ولكنى أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا فى نصف البلدان المسيحية ونرجو أن يتم مثله فى الإسلام . وإن يوما يتم ذلك فيه لما أرحب به أنا والشيخ ونطرب له جميعاً» .

واستمر فى تأييد رأيه الذى قاله فى المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله : «ويلوح لى أن الشيخ جمال الدين قد زودنى بطائفة من الآراء الهامة تعيننى على نظريتى الأساسية وهى أن الإسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية فى الأراضى الإسلامية ، ولكنه فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية وهى فى حظيرته فكان هذا من سوء حظه» (١) .

وهذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهى تؤدى حتما إلى أن ذلك ليس من طبيعة الإسلام ، ولو كان من طبيعته ما شجع الحركة العلمية فى أوله ولا آخره .

وإلى هنا أسدل الستار عن هذه الرواية التى سيعاد تمثيلها — على وجه أشد — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها

(١) لخصنا هذه المقتبسات — من ترجمة حسن باشا عاصم وترجمة رد السيد جمال الدين ورد رينان — من مخطوطة أعارنا إياها صديقنا الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا مشكوراً .

في حفلة شاي

للدكتور أحمد زكي بك

طرقتُ باب الدار ، أو بالأحرى دققت الجرس عند بابها ، فلم ألبث أن انفتح الباب لي من غلام جمع بين ثلاثة ألوان : السواد في وجهه ويديه ، والبياض في عمامته وقفطانه ، ثم حمرة في حزامه وحذائه ، فكان منظراً زاد في جماله وسامة هذا الوجه ، ثم ابتسامةٌ كشفت عن لؤلؤ أسنان تنفّسُها عليه الأوانس الحسان . ابتسم الخادم الغلام تحيّة ، ولكنه ابتسم لا شك أكثر لِما أحدث مرأى هذا الزيّ في نفسي ، أو ما توقع أنه يُحْدثه ؛ لا سيما تلك العمامة وذاك الحذاء الأحمر يلبسهما الصبيّ قبل أن يبلغ الحُلُم .

ومدّ إليّ يديه يطلب طربوشي و « البلطو » ، وكان لا بد مستقرة يفكّر في حاله هو ، فلم يفطن إلى أني حضرت متجهزاً ، فلم أحمل على رأسي غطاء ، ولا على بدني كساء . وعندها اختفت ابتسامته خجلا . فوضعت يدي خفيفةً على أم رأسه ، أو أم رأس عمامته ، وهززتُها ملاطفا كأنما أقول له لا بأس عليك مما كان .

ودخلتُ بهو الدار فاستقبلني ربّها ، واستقبلتني ربتها . وكانت الدار حافلة ، فاعتذرت عن تأخري ، واعتذرتْ زوجتي . وأخذنا نطوّف بمن نعرف في الحاضرين . وكانت وجوها معروفة . فما لبثتُ أنْ اقتربت في زاوية البهو زُمرةً يجري فيها الحديث متدفّقا . ونظرتُ ، فوجدتُها وجوها مألوفة ، بينها وجه صديق لا يفتأ ينصب الفِخاخ . فناداني بين قهقهة الجمع ، فقلت « شر في الجوالق » . قال قد حكّمناك . قلت أحكمُ بعد السلام . وأعطاني السلامُ الزمن

تبوئهم مكانة عليا في العلم والفلسفة .

* * *

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز ، وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأي العام على إنجلترا ، رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها فبعثوا إلى السيد جمال الدين في ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : « رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندرة إجابة لدعوة من نرجو منهم الخير لملتنا ومن نؤمل فيهم حسن النية (إشارة إلى مستر بلنت) ...

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة في المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك في الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثة كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد « هرتنكتن » خلاصتها أن وزير الحربية سأل الشيخ محمد عبده : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصاً وأن الجهالة عامة في أقطار مصر وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبي وحاكم مصري .

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن في المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزي لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد علي انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيبا على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنفرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر فضلا عما لتعاليم الإسلام في هذا الشأن[1] .

وقد اتخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهييج وإثارة الشعور . وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة في خطتها حتى حجبت كما أسلفنا .

أحمد أمين

---

(١) تجد بسط ذلك في الجزء الأول من تاريخ الإمام .

الذي أريده لأتحسس الأرض التي أطؤها . واختصصتُ بالكلام سيدةً عرفتها . فقال صاحبي متعجلاً : قد حكّمناك . وابتسمتْ سيدة أخرى وصديق لي ، فعرفت أنها ابتسامة لها ماوراءها .

قلت : فيم حكّمتني ؟

قال : قبل أن تحكم قل لنا أيهما أكثر عندك ، الصدق أم الكذب .

فنظرت في عينيْ صاحبي استشفّ فيهما مأربه ، فلم أجد إلا لمعان عين باسمة ، حجب ضياؤها ماوراءها ، فكأنه ظلمة الليل الكثيف . ومن الضياء ما يعمى . لجمعت قوتي وقلت في غير تردد : إني لا أكذب أبداً .

قال صاحبي : إذن فقل لنا ما ترى في هـذا الفستان الجديد الجميل فستان السيدة فلانة .

وكانت السيدةَ التي اختصصتُها بالحديث مطاولة . وكان سبق أن ملأتْ عيني من الثياب «الجميل» ، فوجدته قليل الطول على امرأة تَصِفُ زاد جمال قمتها على جمال قاعدتها ، وكان الخيرُ في ستر هذه القاعدة أو بعضها ، ووجدته قصيراً أيضاً عند العنق ، وهو عنق كانت الطبيعة سخية عند خلقه فزادت فيه شبراً كان الخيرُ في خدع الأبصار عنه بحجْب بعضه . وإجمالا كان ثياباً لا يأتلف ولابسته . ولو أنهما أفردا ، لحمد البصرُ هذا وحده ، وهذه وحدها .

ولم يكن بدٌّ من جواب صاحبي . ولم يكن بدٌّ من أن يكون الجواب سريعاً ولا عدّ الأبطاء تردداً في الرأي ، وعُدّ التردّد في الرأي في أمر سيدة نقصاً في شهامته . لجمعت قوتي مرةً أخرى وقلت :

— فستان جميل جداً ، لا أحد أجمل منه إلا من ملأته .

ونظرتُ إلى صاحبي الخبيث أتشفّى .

فقال : يعجبني أن تقول إن الفستان جميل ، ولكن لا يعجبني أن تقول إن السيدة الرشيقة « ملأته » .

وكان من ستر الله أن السيدة بدأت تجيبني ، فلم علا أذنها مما قال صديقي .

قالت : إنك تكذب يا عزيزي ، فأنت كَكُلّ الرجال يكذبون إذا أحرجوا في أمر النساء ، أو أي أمر غيره . إن هـذا الفستان أبغض ما عندي ولكنه ما ترضيه « الموضة » الجارية .

فقلت : مع احتفاظي برأيي في جمال هذا الفستان ، أسألك هل ترين غضاضة في كذبة لا يكون منها إلا إدخال السرور إلى القلوب ؟ وهل ترين حقاً أن الرجال وحدهم يمتازون على النساء في القدرة على إدخال هذا السرور إلى القلوب ؟

قالت السيدة الأخرى ، وقد لحت فيّ بعض الدهشة من تطوّر الأمور : الواقع أننا كنا نتحدّث في الصدق والأمانة ، وكم عند الرجال منها وكم عند النساء . وكان هذا السؤال الذي ألقى عليك امتحاناً .

قال صاحبي متبسّماً : لحنْتَ يا صديقي بجوابك هذا تعززه رأيي في قلة الصدق وقلة الأمانة عند هؤلاء وهؤلاء .

قلت : فهل معنى هذا أنك ترى هذا الفستان الجميل غير جميل .

قال : لا ، أبداً . الفستان والله جميل جداً يا سيدتي .

قالت السيدة : رأيك في الصدق والأمانة والله جميل كذلك .

وضحكنا . ثم صارت الحاباة مكاشفة ، وجرى الحديث تنشّطاً . وأخذنا نستعرض في صراحة كم عند الناس من صدق ، وكم عندهم من أمانة .

قلت : الحق إن الصدق في الأمر الخطير فضيلة ، ولكنه قد يكون في أمور أخرى رذيلة : خذ مثلا — جاءني بالأمس القريب خادم قديم زائراً . وجاء من الريف ، فحمل إليّ من الهدايا ما خال أني أُسَرّ به وأغتبط . فكان لا بد من شكره ، وفي الشكر لا بد من كلمة طيبة عن هديته ، ووصفها بما ليس فيها . فهل

يكون الصدق هنا إلا تحببا للرجل وتقربا ، وهل يكون فيه إلا جزاء الإحسان بالإساءة . على أن هناك مواقف كثيرة تواضع الناس على الكذب فيها ، أو هم تواضعوا على أن لا يحفلوا بالصدق أو الكذب فيها . خذ مثلا — صديقا يبادرني على عجل « كيف الحال » . وقد يكون الحال في ذاك اليوم أسوأ ما يكون ، فهل ينتظر مني أن أقول له إنه حال كالقطران . معنى هذا أني استوقفه . فهو مضطر بعد ذلك أن يسألني تحليل هذا القطران ، أن يسألني تفصيل ما أجملت ، وأنا مضطر إذا هو سأل إلى أن أجيب وأفيض . وأنا أقول على غضاضة ، وهو يسمع في الأكثر على غضاضة ، ثم يفارقني وهو يلعن الصباح الذي جره إلى هذا الصديق الثقيل الذي أريد منه كلمة واحدة ولو كاذبة ، فأعطى قصة طويلة مملة صادقة .

قال صاحبي متحاشيا : لا عذر عن الكذب أبداً . ولك يا عزيزي في الجواب مهرب ومهارب . قل لصديقك إذا سألك كيف الحال ، قل له « نحمد الله » .

قالت السيدة الأخرى : تعني أن يجيب تارة بأن الحال « طيب » أو « بالحمد لله » ، بدل أن يجيب بأن « الحال طيب » أو بأن « الحال كالقطران » . وإذن يتواضع الناس على أن « الحمد لله » هو « الحال القطران » ، وإذن لا رحنا ولا جئنا . إني لا أرى أن تقاس أمانة المرأة أو أمانة الرجل بما يضطره الأدب إلى قوله ، أو تضطره المجاملة إلى إتيانه ، وإنما أرى أن تقاس بما يفعل المرء في مواقف الإغراء . فأنت يا عزيزي قل لي ، لو خرجت في الصباح فوجدت في الطريق محفظة نقود ، وفتحتها ، فوجدت فيها مائة جنيه عداً ، أو حتى خمسين ...

قال صاحبي محتجا مقاطعاً : لا والله ولو خمسة ...

قلت : لثلك ولو خمسة قروش

قال صاحبي : إن الأمانة كالأشياء لها ثمن ، وأنا أربأ بأمانتي أن تباع بخمسة قروش .

قلت : وتبيعها بقرش يا صاحبي . قل لي : إذا أنت بلغت بالترام غايتك ، ولم تكن دفعت أجرة الترام — وأزيد ، إغلاءً في أمانتك ، فأصف الترام بأنه كان مزدحماً ، وأن الكمسارى كان في الطرف الآخر من القطر — فهل ترتفع أمانتك إلى أن تنادي الكمسارى من آخر القطر لتدفع له الأجر .

قال صاحبي : إن في هذا تأخير القطار . وما صواب عمل تكسب منه الشركة مليمات ، ويضيع فيه على الثلاث من الراكبين خمسة دقائق ثمينة من أعمارهم .

قلت بعد أن ضحكنا : الواقع أني لم أحسن امتحان صديقي بهذا المثل . فالإغراء لا شك كبير ، والأمانة حظها قليل ، عندما تتعلق الأمانة بشخص معنوي كشركة ...

قالت السيدة الأولى : أو حكومة .

قالت السيدة الثانية : أو بالجمرك . حضرنا من أوروبا آخر مرة أنا وزوجي . وجئنا من الخارج ببعض الملابس والتحف ، وهي بالطبع جديدة ، وقد خشيت عليها الضريبة ، فلم يكن من زوجي إلا أن بعثرها ، وأخرجها من مظهر الجدة ، ولبس بعضها ، كل هذا تفاديا من ضريبة لم تبلغ إلا جنيهات غير كثيرة . وزوجي مع هذا جواد يجود بالكثير . ولكن لعله « الجمرك » فحسب ، فبين « الجمرك » و « المسافر » خصومة في الدم قديمة .

قال صاحبي : وأنت يا سيدتي ، ألم تلبسي الجديد عند دخول الجمرك .

قالت السيدة وهي تبتسم : أي والله ، ودخلت بهذا القرط الماسي ، وقد دفعنا فيه في بلجيكا ثلاثمائة جنيه . . . ولم نعد هذا نقصاً في أمانة ، بعد أن رأينا فيما حولنا في الجمرك ما رأينا .

قلت : على أن هناك من المواقف ما لا يمكن المرء فيها إلا أن يكون أمينا ، حتى صاحبي هذا .

قال صاحبي متحديا : مثال ذلك يا عزيزي ؟

قلت : هب أنك دخلت مخازن شيكوريل ، واشتريت ما اشتريت ، ثم دفعت الثمن ، وانتظرت الباقى ، فأعطته إياك الصرّافة ، وأعطتك فيه نصف جنيه فوق ما استحققت ، فهل تردّ هذا الزائد ؟

قال صاحبي : أما هذه فنعم ، لاسيما إذا شفع لها جمالها .

قلت : وإن لم يشفع .

قال : وإن لم يشفع .

وهنا كان اقترب منا رجل من رجال الأعمال ، صديق ، فلما اطلع على ما نحن فيه ، رأت صاحبتنا الأولى أن تجرّ رجله فابتدرته .

السيدة : وأنت ياسعادة البك ، نريد أن نمتحن مقدار الأمانة عندك ، فهل لك فى جواب سؤال .

رجل الأعمال : نعم ، ورفقا ؟

السيدة : قالت الجريدة بالأمس أنك تبرعت للمبرة بمائة جنيه . فهب أن المبرة أرسلت لك رجلا يحمل صندوقاً مغلقاً لتضع فى فتحته ما تشاء ، دون أن يراك أو يراه أحد ، فكم كنت تدفع ؟

رجل الأعمال : والله هذا سؤال لم يخطر على بالى أبداً ، وهو يحتاج إلى تفكير .

صاحبي : وسؤال ثانٍ يملأ الفراغ ما بين السؤال الأول وجوابه . إذا جاءك بحكم منصبك الذى تشغله من شركتك خبر تستطيع أن تستغله لخير نفسك ، دون إضرار بشركتك ، فهل تفعل ؟ أجب سريعاً ، واصدق .

رجل الأعمال : أعوذ بالله من الشياطين . أنتم زمرة خطرة .

ودعته زوجته من أقصى الدار للرواح ، فتنفس الصعداء ، وتنفسنا .

احمد زكى

على هامش النقد العربي :

الرواية الأدبية فى الأغانى

لعل أهم ظاهرة تقابل من يتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى أن الأخبار التى يسوقها عن الشعراء والمغنين تُشفع دائماً بسند كما تشفع روايات الحديث ، حتى ليقع فى ظن من يقرأ فيه لأول مرة أنه بصدد كتاب من كتب الحديث ؛ إذ نرى الأخبار تبدأ على هذا النحو « حدثنا أو أخبرنا » ، ثم يتلو ذلك أسماء من حملوا الخبر ، فإن كان له روايتان مثلاً يسردهما حتى يتوثق الخبر على نحو ما يصنع أصحاب الحديث بأحاديثهم ، فإن الخبر أو الحديث إذا جاء من جهتين أو جهات بصورة واحدة ، كان ذلك مرجحاً لصدقه وخاصة إذا كان طويلا ؛ فإن الاتفاق على ما حدث فيه من وقائع يجعل من البعيد أن يكون موضوعاً أو مصنوعاً ما دام الرواة المختلفون قد اتفقوا على هذه الوقائع ، وما يتصل بها من جزئيات وتفاصيل .

وقد خطا أبو الفرج خطوة أخرى ، فوضع على الرواية الأدبية كل ما وضعه المحدثون على روايتهم الدينية من علل ومراصد ، فإذا كانوا قد تعقبوا رجال السند بالتعديل والتجريح ، فكذلك يصنع أبو الفرج صنيعهم برواة الأخبار الأدبية . وقد ألقى الشك على كثير من الرواة للأحداث الأدبية وخاصة ابن خرداذبه لأنه كان قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه كتبه ، فكان يرفض روايته إذا تعارضت مع رواية غيره ، كما كان يرفض كثيراً رواية ابن الكلبى فإنه متهم فى رأيه ، إذ روى كثيراً من الأخبار الموضوعة التى يتضح فيها التوليد .

كان أبو الفرج يجرح بن خرداذبه وابن الكلبى من رواة الأخبار ، كما كان يجرح طائفة من رواة الأشعار ؛ فهو يذكر أن أبا عمرو بن العلاء نحل الأعشى بيته المعروف .

وأنكرتنى وما كان الذى نكرتْ
من الحوادث إلا الشيبَ والصَّلعا

غير أنه يعود فيقول إن يحيى بن معين وغيره وثّقوه ، وكأنه رأى أن هذا الصنيع من أبى عمرو كان شيئاً عارضاً لا يحكم على روايته به حكما عاما . لم يكن أبو الفرج يتهم أبا عمرو ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينص على خلل حدث فى روايته . وهو إذا لم يكن قد اتهم أبا عمرو ، فإنه اتهم عالمين آخرين من مشاهير الرواة وهما خلف الأحمر ، وحماد الرواية ، فقد شكّك طويلا فيما يرويانه . أما خلف فقد جعله يقص سيرته من الانتحال بلسانه إذ كان يقول : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها ، وكان فيه حمق وغفلة » ، وأما حماد فقد كان — فى رأيه — أكثر إفساداً للشعر القديم من خلف ، إذ عرف بكثرة الوضع على ألسنة العرب حتى أسقط المهدى روايته . وقد كان المفضل الضبى — وهو من الثقات — يقول فيه : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

وأبو الفرج كما يرصد رواة الأخبار والأشعار ، فيجرحهم ويعدلهم ، كذلك يرصد الأخبار والأشعار نفسها . فكثيراً ما تقع أعيننا فى كتابه على مثل : « روى ذلك الثقات » ، أو : « لم يدون ذلك أحد من الثقات » ؛ أو يقول : « رواه من لا يوثق به » ، أو يقول : « هو من شاذ الروايات » ، أو يقول : « أحسب هذا الخبر مصنوعاً » ، أو يقول : « هو خبر مختلط » ، أو يقول : « هو خبر موضوع أو مصنوع » ، على حين يوثق الأخبار الصحيحة فيقول : « إن هذا الخبر أثبت » ، أو يقول : « إنه متواتر من عدة طرق » .

والحق أن أبا الفرج تثبت كثيراً فيما يقص أثناء كتابه من روايات وأخبار ، فقد كانت غايته منذ السطور الأولى في أغانيه أن لا يروى أخباراً موضوعة ولا مصنوعة ، إذ هي كما يقول في المقدمة — بأن تكون أخباره ورواياته « متنخلة من غرر الأخبار منتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة بها » . فغايته منذ الخطوة الأولى أن يحقق أخباره ، وأن يأتي بها من مصادرها الصحيحة . غير أنه لم يلبث طويلاً حتى أحس بما تسرب إلى كتابه من مواد موضوعة أو مصنوعة ، فرجع يعتذر عما وقع فيه من خطأ لم يتعمده إذ ضللته بعض الأسانيد أو بعض الكتب ، وقد عبر عن ذلك تعبيراً واضحاً إذ يقول : « وإنما نذكر ما وقع إلينا عن رواته فما وقع من غلط فوجدناه أو وقفنا على صحته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره ، وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترعناه ، وإنما حكيناه عن رواته واجتهدنا في الإصابة » .

والمسألة كانت معقدة فيما يظهر ؛ لأن كثيراً من الأحداث والأخبار الأدبية يدخله الشك وتضعف الثقة به كأخبار مجنون ليلى التي رواها وأحداثه ، فهل يروى مثل هذه الأخبار والأحداث أولا يرويها ؟ رأى أبو الفرج أن يرويها حتى يطرف قراءه بتلك الطرائف النادرة ، وقد تشبث بها بعض المعاصرين ، فظن الظنون بروايات أبي الفرج وقيمتها التاريخية ، وكأنه لم يقرأ بقية الأخبار ، وما يقوله أبو الفرج من أنه يرويها « متبرئاً من العهدة فيها مشترطاً ذلك حتى لا يعاب » .

وإن من يتابع أبا الفرج في كتابه ليؤمن إيماناً شديداً بأنه تعب تعباً مرهقاً في تحقيق رواياته ، والتثبت من أخباره ، إذ كان يكثر من الوقوف عند الرواة ، كما كان يكثر من الوقوف عند المتون والنصوص نفسها ، فهو يتوثق من ظاهر الأخبار كما يتوثق من داخلها ، إذ نراه يعرض الأشعار على دواوينها كما يعرض الحوادث على التاريخ ليتبين هل هي صحيحة أو زائفة . وانظر إليه يقول عقب شعر لداود بن سلم : « وقد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية على ابن يحيى عن إسحق منسوباً إلى الرقاشي ، وطلبناه في أشعار الرقاشيين جميعاً فلم نجده ، وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داود بن سلم » ويروى شعراً للأعشى ثم يشك فيه فيراجع ديوانه على رواياته ، فلا يجده فيها فيراجع شعر كل أعشى ، وما زال يبحث حتى يهديه البحث أن الشعر ليس للأعشى ، وإنما هو لابن المولى .

وليس من شك في أن هذا تحرٍّ شديد ، وهو كما يتحرى في نصوص الشعر فيعرضها على الدواوين برواياتها المختلفة حتى يتحقق من صحتها ، نراه كذلك يتحرى في الأخبار فيعرضها على وقائع التاريخ حتى تتضح له الحقيقة المستورة . فمن ذلك أنه روى خبراً لدحمان مع الرشيد ، ثم عاد فشك فيه فرجع إلى التاريخ يتساءل : هل أدرك دحمان خلافة الرشيد أو لم يدركها ؟ وسرعان ما تبينت له الحقيقة فقال : « هكذا أخبرنا ابن المرزبان بهذا الخبر ، وأظنه غلطاً لأن دحمان لم يدرك خلافة الرشيد » . ثم هو يبحث الخبر في تفاصيله ، فإن اشتمل على شعر ثبت أنه متأخر في وجوده عن حوادث الخبر رفضه جملة على نحو ما صنع بحادثة تنسب إلى الوليد بن يزيد ؛ فقد ذكر من رواها أن الوليد قال فيها :

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسورُ

وقد حقق أبو الفرج هذا البيت فوجده لسلم الخاسر . حينئذ رفض الحادثة كلها وقال : إنها موضوعة لأن سلماً لم يدرك زمن الوليد .

والحق أن أبا الفرج سعى جهده في تحقيق رواياته الأدبية في أغانيه ، إذ وضع عليها كثيراً من العلل والمراصد ، وهي علل ومراصد لا تقف عند النقد الخارجي للروايات من حيث السند ورجاله ، بل تمتد إلى النقد الداخلي فيها من حيث النصوص وما يتفق منها مع الوقائع والأحداث الصحيحة وما لا يتفق . ونحن لا نرتاب في أن هذا التحقيق الواسع ، وما ينطوي فيه من علل ومراصد ، هو الذي يصعد بكتاب الأغاني إلى الذروة بين أهم المصادر العربية ؛ إذ نراه غنياً غنى وافراً بالوثائق والمستندات الصحيحة التي تفسر للباحثين تاريخ العرب وحضارتهم تفسيراً وافياً .

شوقي ضيف

سيرة عنترة (١)

رأينا في سيرة سيف بن ذي يزن عرضاً جميلاً للنزاع الذي قام بين الساميين والحاميين ، وبين العرب الجنوبيين والشماليين ؛ كما رأينا أيضاً كيف أن بلاد العرب كانت إلى جانب القارة الافريقية مسرحاً هاماً لتلك الحروب المتواصلة ، والتي كانت جاهلية حيناً وإسلامية حيناً آخر ، والتي انتهت بانتصار الساميين في الجزيرة ، وتعادل الكفتين في افريقية . وعلمنا من حوادث هذه السيرة أيضاً كيف بسط الجنيون سلطانهم على بعض الأصقاع العربية الشمالية وقربوا بين العقليتين الجنوبية والشمالية ، ومهدوا لعملية التزاوج التي حدثت بين اللغتين العربيتين : القحطانية والعدنانية في الجاهلية ؛ كما ساهموا بنصيب وافر في خلق اللغة العربية الأدبية التي سجل فيها العرب شعرهم الجاهلي ونثرهم غير الإسلامي ، واتخذها الوحي لساناً لتبليغ رسالته . وقلنا إن النقوش التي عثر عليها علماء اللغات السامية والمعلومات التي جاءتنا عن طريق رجال التاريخ وأصحاب السير تؤيد هذا . واليوم نعرض لسيرة أخرى من أهم السير العربية ، أعني سيرة عنترة بن شداد التي تعتبر بحق الياذة الصحراء . فشخصية بطلها ما زالت حية بيننا ، وما زال لفظ « عنتر » المثل الذي يضرب للشجاع ، كما اشتق الشعب منه كثيراً من المفردات التي تتصل بهذا المعنى عن قرب أو بعد . فالشخص القوي يدعى (متعنتر) ، والحمل الثقيل الذي لا يقوى على حمله إلا من أوتي قوة عنتر هو (حمل متعنتر) ، ولباس النساء الذي يبرز ثدي المرأة ويقويه يسمى (عنتري) ، وأكبر مقبرة عرفتها أسيوط القديمة هي (اصطبل عنتر) . شخصية عنترة إذاً من الشخصيات التي تغلغلت في صميم الحياة العربية ، وهي الشخصية التي تتمثل فيها الرابطة السامية الحامية أجلّ تمثيل . فنحن هنا لا نرى نزاعاً بين هذين الفرعين ، بل نلمس صفاء ومودة وسلاماً ؛ فأم عنترة (زبيبة) حامية ، وأبوه سامي ، ويفخر بطل القصة بنسبه هذا ويقول :

يقدمه فتى من خير عبس
أبوه ، وأمه من آل حام
عجوز من بني حام بن نوح
كأن جبينها حجر المقام

وهذه السيرة ، التي تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطة الحجم ، تتحدث عن محمد بن هشام وجهينة اليماني وأبي عبيدة والأصمعي وسعيد بن مالك وغيرهم أعلنت أسماؤهم كرواة لها ، والتي حفظ لنا التاريخ منها روايات بينها شيء يسير من الفروق ونسبت إلى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية ، سجل حافل لحوادث وقعت في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والحادي عشر الميلاديين . فنحن نجد قلب الجزيرة سكنت في منتصف القرن السادس الميلادي بطون كثيرة من قبيلة قيس عيلان ، كما نزل في المنطقة الواقعة بين مكة ويثرب والحجاز وجبال طيء بنو سُليم وهوازن ، وشرق هوازن نجد بني غطفان الذين حل من أفخاذهم بنو بغيض بين عبس وذبيان . وكانت منازلهم الأولى الشرَبَّة الواقعة بين النقرة ومكة . وفي ذلك الوقت الذي تتحدث فيه السيرة كان زهير بن جذيمة قد بسط سلطانه على غطفان ، وما كاد يستقر له الأمر حتى نجد الغارات تلو الغارات بين العدنانيين والقحطانيين ، وفي إحداها سبى العبسيون كثيرين من بني جديلة وقطانهم ، وجواريهم وعبيدهم وعدداً كبيراً من جمالهم التي كانت ترعاها أمة حبشية تدعى (زبيبة) وهي أم بطل السيرة . ثم بعد أن ينتهي الحديث عن العدنانيين والقحطانيين نجد السيرة تنتقل بنا إلى أرض العراق إلى بلاد الحيرة حيث يدور قتال بين عنترة والنعمان بن المنذر ؛ وذلك لأن الفارس العبسي يريد مهر عبلة وهو ألف من النوق العصافير التي لا توجد إلا في العراق . وهنا نقرأ وصفاً جميلاً لبلاد العراق والعراقيين

(١) اعتمدت هنا على الطبعة البيروتية التي ظهرت ١٨٩٣ و ١٨٩٦ و ١٨٩٨ و ١٨٩٩ و ١٩٠٠ و ١٩٠١ .

والعلاقات السياسية التي كانت تربطهم بالفرس . وكما أن السيرة وصلت بين نجد والعراق بمهر عبلة إذا بها هنا توقع عنترة في الأسر ليتخذ المؤلف من ذلك قنطرة يعبر عليها إلى إيران ، ومن ثمّ ينتقل بنا إلى الدولة البزنطية ويبسط لنا السياسة الفارسية تجاه الدولة الرومانية الشرقية ، وهو في عرضه هذا لا ينسى العرب وموقفهم من هذا النزاع القائم بين كسرى وقيصر ، وهذه الخصومة التي اهتم بها القرآن الكريم وأشار إليها في سورة الروم . وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة نرى الراوي يحدثنا عن الحرب التي قامت بين ملك الحيرة المنذر ملك العرب عبدة الأحجار وكسرى ملك الفرس عبدة النار ، وينتصر العرب بفضل عنترة الذي سجل بطولته في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

سلي يا ابنة العبسي رمحي وصارمي
وما فعـــلا في يوم حرب الأعاجم

لكن المنذر يعلم أن الفرس سيعاودون الكرة ، وأدرك هو أن سلامته وسلامة بلاده تتطلب منه أن يكون جبهة قوية ضد العجم ، أعني لابد وأن ينادي بوجوب تعاون العرب واتحادهم في سبيل الوقوف في وجه العدو الخارجي . وهنا نرى السيرة تحدثنا عن الدولة العربية حديثا لا يقل طرافة عن أحاديث اليوم . ففي الصحيفة الثامنة والأربعين بعد المائة نرى المنذر يخاطب عنترة ويقول : ولكن يا ولدي من الرأي أن أكتب إلى سائر القبائل ، وأجمع العرب من الأحياء والمناهل ، وأتأهب لحرب الملك كسرى فإنه لابد أن يعود إلينا ويسطو بعساكره علينا ، وأول ما أرسل إلى قومك بني عبس وعدنان ، وفزارة وذبيان ، وسائر بني غطفان ، ولا أزال إلى أن أقيم دولة العرب ، وأذل عباد النار والله . . . : لكن بينما المنذر يعمل لجمع شمل العرب إذ بعمرو بن نفيلة يظهر على المسرح كوزير المنذر ويعرض عليه خبر التوسط بينه وبين كسرى لإزالة أسباب النزاع ، ثم تقفز السيرة إلى القرن الحادي عشر الميلادي حيث الحروب الصليبية وتحدثنا عن بطريق جبار وفارس من كبار الفرسان يدعى (بفرموت) الذي هو (بوهيمند Bohemund) والذي هزم سائر فرسان إيران

ولم ينقذ كسرى منه إلا البطل العبسي عنترة . وبعد حفلات الوداع والتكريم نراه يعود إلى عبلة ومعه المهر والكثير من الهدايا ؛ لكن عمه مالك يرفض زواجه بها لأن السيرة تلح في خلق خصوم لعنترة يشاطرونه حب عبلة والهيام بها ، وعنترة يكافح ضدهم بإخلاصه للعبسيين حيناً وتنحيه عنهم وقت الملمات حينا آخر ، وفي ثنايا هذا النزاع بين الفارس وقبيلته نقرأ وصفا لمعركة نشبت بين بني عامر تحت امرة خالد بن جعفر والعبسيين بزعامة زهير بن جذيمة الذي قتل في هذه المعركة ونبا سيف ابنه ورقاء عندما هوى به على خالد يريد قتله وإنقاذ والده[1] .

ثم تعرض السيرة للغسانيين وتحدث عنهم وعن النصرانية ، وتصل بينهم وبين نصارى نجران ، ثم تصف زواج عبلة بعنترة وتنتهز هذه الفرصة وتذكر لنا حلفاء العبسيين ومنهم العدناني ، ومنهم القحطاني . وبعد أن تفرغ من ذلك تواصل سرد أعمال عنترة فتخلع عليه ثوبا إسلاميا وتنسب إليه حرب النبي صلعم ليهود خيبر ، ثم تنتقل بنا من قبيلة إلى أخرى حتى نرى عنترة في بلاط قيصر الذي وهبه جارية تدعى مريم والتي وضعت لعنترة ابنه (جوفران) والذي هو في الواقع أحد فرسان الحروب الصليبية المسمى (جود فراي God frey) (أوائل القرن الحادي عشر) وتختم السيرة بالحديث عن الفتوحات الإسلامية ، وعن مصر وشمال أفريقية والأندلس .

والآن بعد هذا العرض نوجه إلى أنفسنا السؤال الآتي : ما هي حقيقة هذه السيرة وأين ومتى ألفت؟ ليس من العسير الإجابة على هذا السؤال ؛ فالقارئ المثقف يستطيع أن يقرأها دون كبير عناء ، وأن يخرج منها بأنها عرض وعرض موفق للقبائل العربية وعاداتها وتقاليدها وحروبها في تلك الفترة التي سبقت الإسلام أو مهدت لظهوره . فهنا نرى العدنانية تنتصر على القحطانية بل وتخالف السنن والأوضاع المعروفة عند العرب من قبل وتلحق بنسبها

(١) وإلى هذه الحادثة أشار الفرزدق معرضا بأخوال سليمان ابن عبد الملك :

إن يك سيف خان أو قدر أبى
ولتأخير نفس حتفها غير شاهد

فسيف بني عبس وقد ضربوا به
نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

لعب القدر

— ٢ —

لفردريك شيلر

خلاصة ما تقدم :

[كان الوزروس لون . ج . فن طوما ، كريم الفعال ، أبيض المخبر ، واسع الاطلاع ، فاستخدمه أمير في حاشيته لبيرته صفاته ، فاتخذه سميره ومشيره . ثم بدأت أن استحوذ على الأمير ، فبات الكلمة كله ، والطريق إلى الأمير عن طريقه . وكان الأمير في مثل سن صفيه متفقا وإياه في الميول والمشارب لولا أن السمير يشهد الطعام ، والأمير يحب الانكباب على الطعام . فكان أن تفرغ الوزروس لشئون الدولة شيئا فشيئا ، وأن خفت من غشيان مجالس الأمير . ولم يكن مناص في أن يحل غيره في هذه المنازل محله ، فاختار لأميره نبيلا إيطاليا يدعى مارتنجو ، جعل كل همه أن ينال الحظوة لدى الأمير في غفلة الوزير ، فلما تمكن منه ، فكر في الإيقاع بالوزير وعض اليد التي أسدت إليه الجميل . وقد تم له ذلك ، وسقط الوزروس من حالق ، وجرد من ألقابه ورتبه على مشهد من جمهور غفير لم يحرك النكبة الوزير ساكنا إلا كمن قد أطغاه السلطان وأمن الزمان ... المترجم] .

وسيق من الساحة إلى مركبة انطلقت به وسط شوارع المدينة فكنت ترى النوافذ مفتحة ، والطرقات حافلة بالطغمة يتصايحون من خلف الموكب : هذا ساخر وذاك شامت ، وآخرون آسفون أسفا شديدا على نفس الأبي من السخر والشماتة .

وألقى ألوزروس نفسه في العراء ، ثم في طريق مفض إلى المحكمة العليا التي كابد أمامها صنوف العذاب من خشية الموت ، ثم اقتيد في طريق مأهول إلى حيث قدر له أن يكون : إلى السجن . وقضى ، بين أن سيق من ساحة العرض وبين السجن ، اثنتي عشرة ساعة حافلة بألوان الهول لم يذق فيها طعاما ولا شرابا ! فتداعت بنيته القوية ، وأخرج من المركبة مغشيا عليه ليُزج به في جُب بشع في سرداب القلعة حيث عاوده الرشد . فكان أول ما أخذ بصره في حياته الجديدة حائط السجن الرهيب ، ثم أجال نظره في المكان فوقع على رغيف ضئيل وجرة من الماء ، وبجوارهما كومة من القش لفراشه .

عنترة ابن الأمة الحبشية وتزوجه عبلة بنت مالك أحد سادة بني عبس فتمحى بذلك الفوارق الجنسية وتحطم الحواجز القائمة بين أفراد القبيلة الواحدة .

لئن عابوا سوادي فهو كري	وجازوا من عناد في ملامي
فلي قلب أشد من الرواسي	ولوني مثل لون المسك نام
وما أمحو بلون الجلد يوما	ولكن بالشجاعة والكلام

وغير هذه البادىء الجنسية التي تعترف بها السيرة ويقرها الإسلام نجد فيها الشيء الكثير عن عادات العرب وأخلاقهم في الحرب والسلم كما نعلم شيئاً عن تقسيم الغنائم وحظ الحر والعبد منها ، ونقرأ بعض صيغ للقسم تدل على شيء كثير من الاعتزاز بالجنس العربي والخلق العربي كقولهم : (وذمة العرب) التي استعمل الإسلام عوضا عنها (ذمة الله) . وإلى جانب كل هذه المعلومات نجد القارىء مئات من القصائد المنسوبة لعنترة وغيره من الشعراء والشواعر ، وكذلك بعض المقطوعات الخاصة بالندب ، والملقات ، وحتى قصيدة الأعشى التي مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وغير الشعر نجد مناظرة لغوية بين عنترة وامرىء القيس نعرف من خلالها كثيرا من أسماء السيف والرمح والدروع والخيل والنوق والخمرة والحيات .

أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية . فنحن نقرأ فيها مثل (فرحنا بسلامتك) و (يا خوى الحمد لله) و (لحد الآن) و (إكراما لعين تكرم ألف عين) إلى جانب ذكر مصر وبعض مدنها . عرفنا الآن موضوعات هذه السيرة ووطنها ، أما عصر تأليفها كما هي بين أيدينا اليوم فيرجح أنه كان في أواخر القرن الحادي عشر مع الإشارة إلى أن القصاص كثيراً ما غيروا فيها حذفا وإضافة كما يتضح لنا ذلك عند قراءة الفصول الخاصة بالحروب الصليبية .

فؤاد حسنين

ولبث على هذه الحال حتى اليوم التالى فإذا كوة فى أعلى الجب تفتح ، وتمتد منها يد بسلة تتدلى إليه بزاد كزاد الأمس . ولأول مرة ، بعد هذا التحول المخيف فى حظه ، يتزع منه الألم والحنين بضعة أسئلة : كيف أتى إلى هنا ؟ وماذا اقترف ؟ لكن أحداً فوق لم يحر جواباً وانسحبت اليدان اللتان أدلتا إليه الزاد وأغلقت الكوة .

وأحصى فى هذا المكان اللعين تسعين وأربعمائة يوم أدليت إليه بعددها أرغفة لا غناء فيها ، من الظهيرة للظهيرة ، وعلى وتيرة واحدة ؛ لا يرى وجه آدمى ، ولا يسمع صوته ، ولا يستخلص شيئاً من هذا المصير المرعب عن مستقبل أو ماض ؛ ولا يخلص نفسه من الشك ، ولا يحييها شعاع من نور ، ولا تنعشها نسمة نقية ؛ بعيداً عن العون ، محروماً من عطف الناس .

وشىء آخر طفح به كيل شقائه واكتشفه فى أوائل أيام اعتقاله . وذلك أنه يعرف هذا المكان . فهو نفسه الذى أمر ببنائه منذ بضعة أشهر ليضنى فيه ضابط كف ، عرضه سوء طالعه لغضبه . وقد جاء إلى هذا المكان بشخصه ليعاين بناءه ، ويحتث تمامه . فالآن يشرف على القلعة ، ويتحكم فى هذا الجب ضحيةُ الأمس وهدفُ انتقامه ليكمل آلامه . وقد حالف شعورَه بشقائه قسوتُه على نفسه واحتقارُه إياها ، والألمُ الذى لا تعرف القلوب الشكيرة أمرّ منه ، وهو أن يكون المرء تحت رحمة عدو لم يرحمه .

لكن عدوه بالأمس كان رجلا شريفاً مستقيماً لا يعرف الدناءة فى الانتقام . وقد آلم قلبه الرحيم أن يقسو على سجينه تنفيذاً للتعليمات التى كان أميناً فى تنفيذها شأن الجندى القديم . ولودّ أن يخفف عنه العذاب لكنه لم يستطع له سوى الأسف والرثاء .

وكان للقلعة واعظ قسيس تناهى إليه خبر السجين متأخراً ، وعلى متن الإشاعات ، فصمم أن يهوّن عليه . وكان قساً مبجلا ، يؤمن بأن وظيفته الرعوية لا تخدم بأنبل من التخفيف عن رجل تعس عَدِم كل تخفيف .

وكان يعلم أن حاكم القلعة لا يملك أمر إدخاله عليه . فسافر إلى حاضرة الأمير ، وجثا أمامه على ركبته ، وناشده الرحمة بالسجين الذى يضنى محروماً من إحسان الدين المتسامح مع أشد المجرمين ، ويذهب قانطاً من رحمة الله .

وطلب القس من الأمير أن يأذن له فى الدخول على السجين الذى هو من رعيته بحق الاعتراف والمسئول هو عن روحه أمام الله . فأجاب الأمير رجاءه ، وإذن له فى إدخال السرور على قلبه بزيارته ، وكان غضبه عليه قد تنفس بشىء ما .

كان أول مُحيا آدمى طالع ألويزوس التعس فى الأشهر الستة عشر التى قضاها فى السجن إلى ذلك الحين وجه مُسْعفه . وقد كان الصديقُ الوحيد الذى عاش له فى هذه الدنيا سبباً لشقائه ، وقد عجز جاهه عن أن يمده بصديق . فهذه الزيارة التى أداها له القس كانت وكأنها من ملك كريم . ولست أحاول أن أصف مشاعره . لكنه جعل من ذلك اليوم ، إذا خنقه البكاء ، يترفق فى البكاء لأنه ألفى فى القس من يبكيه .

وقد تملك القس الذعر حين دخل هذا الجب الذى جعل للقتل ، وفتشت عيناه عن إنسى فيه — فزحف إليه من أحد الأركان شىء مهول يلقى الرعب فى القلوب ، وكأنه زحف من مأوى وحش لا مسكن إنسان . هيكل عظمى شاحب اللون كرض الموت ، قد زايل وجهه كل ما يدل على الحياة ، واحتفر فيه الأسى واليأس تجاعيد بعيدة الغور . وقد نمت لحيته وطالت أظافره بفعل الزمن والإهمال طولا فظيعاً ، وبليت ثيابه من طول الاستعمال بلًى ساحقاً ، وربىء الهواء من حوله من وفرة الأقذار .

هكذا وجد القسيس أثير الحظ وحليفه فى سالف الزمان ؛ فثار لمنظره ثائره وهرول إلى حاكم القلعة يستعطفه للتعس المسكين ويستنديه منة أخرى ليس من دونها نفع المنة الأولى .

فلما اعتذر له الحاكم بتعليماته ، قرر السفر إلى مقر الأمير ليسأله العفو عن السجين . وقد قال له إنه لن يقرب

سجينه بشيء مقدس مالم يرد إليه شبهه بالآدميين فأجابه الأمير إلى ماطلب وبات السجين من ذلك اليوم في عداد الأحياء .

قضى ألوزوس في تلك القلعة عدداً من السنين في حال أخف وطأة من حاله السابقة وأرحم به كثيراً ، بعد إذ أفل نجم المحظوظ الجديد ، وتعاقب على مكانه كثيرون غيره . وكان هؤلاء أكرم نفساً من سلفهم ، وليس ما يثأرون له من سجينهم . وأخيراً حل يوم الخلاص بعد عشرة أعوام — لكنه لم يحاكم ولم يبرأ ، بل تلقى حريته من يد سيده منة ومنحة ، وفرض عليه أن يغادر البلاد إلى غير رجعة .

وهنا ينقطع حبل الأخبار التي تلقيناها من أفواه الناس وأنشأت منها تاريخ ألوزوس فون . ج . وأجدني مضطراً إلى أن أتخطى من الزمن عشرين عاماً بدأ ألوزوس في خلالها حياته الجديدة بالخدمة في جيوش أجنبية . وقد بلغ فيها القمة التي أسقط منها في وطنه . ثم تولى الزمن نصير التعساء ، الذي يحقق العدالة بخطاه الوئيدة ولكنه لا يغفلها — تولى أيضاً قضية ألوزوس . فقد ولت سنو اللهو وإشباع الشهوات من الأمير ، وأخذت الإنسانية تقرر حقها عليه حين ابيض شعره . فأحس الحنين إلى حبيب صباه وهو يمشي إلى القبر ، واستدعى المبعد إلى وطنه ليعوض الشيخ ما ألحق بالرجل . وقد كان ألوزوس عاوده الحنين متئداً رفيقاً ، فحين تلاقيا كان التلاقي مؤثراً ، والاستقبال حاراً خداعاً ، كأنما كان افتراقهما أمس . وحدج الأمير وجه ألوزوس بنظرة فاحصة ، فإذا وجه يعرفه وكأنه لا يعرفه ، وخيل إليه أنه يحصي تجاعيده التي احتفرها بيده . وقد فتش في وجه الشيخ عن قسمات الشاب التي استبدت بحبه ، فلم يجد ما يبحث عنه ، وتكلف كلاهما رفع الكلفة فاستشعرا مثل برود الثلج ! وظل القلبان يفصلهما إلى الأبد الخزي والخوف . والمنظر الذي يذكر الأمير بشرعه لا يمكن أن يشعره راحة الضمير ، كما أن ألوزوس ما كان ليحب من نكبه وكان علة شقائه . لكنه تذكر الماضي هادئاً متعزياً كالحالم الذي يستشعر الراحة بعد التخلص من حلم ثقيل .

على أنه لم يمض طويل وقت حتى كان ألوزوس يتبوأ كل مراتبه السابقة ، يريد الأمير أن يعوضه خير العوض من ماضيه كائناً ميله عنه . لكنه أكان وسع الأمير أن يرد إلى صفيه السابق قلبه الذي ألف فيه الإحساس بالمتعة ؟ أكان وسعه أن يرد عليه سنا الأمل أو أن يصطنع للشيخ هناء يعوضه ما سلبه إياه وهو رجل ؟

لقد ظل ألوزوس فون . ج تسع عشرة سنة أخرى ينعم بهذا الخريف البهيج في حياته ، فلم تستطع المصائب والسنون أن تطفئ فيه نار الشهوات ، ولا أن تكدر فيه صفو الروح الطروب . فكان في السبعين من عمره يستولي على شيخ ضيعة كانت له وهو في العشرين . ومات أخيراً حاكما لقلعة . . . حيث يعتقل سجناء الدولة . وكان في أكثر الظن خليقاً أن يظهر نحوهم من الرحمة ما تعلم تقديره في نفسه ، لكنه كان قاسياً هوائياً في معاملتهم . وفي سورة غضب على أحد هؤلاء التعساء لقي الحتف الذي أرقده في نعشه في الثمانين .

محمود الدسوقي

أدب القاضى الفاضل

ولد عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمى البيسانى — الذى عرف فيما بعد بالقاضى الفاضل — فى إقليم بيسان من أعمال فلسطين ، وكان أبوه قاضيا على هذا الإقليم حتى حدثت جفوة بينه وبين الوالى ، فصرفه هذا عن منصبه وصادر ثروته ، ففر القاضى وابنه إلى مصر ، وكان ذلك فى أواخر العصر الفاطمى .

وفى مصر فكر الأب الشيخ فى عمل يرزق منه ابنه الشاب ، فاستخار الله وبعث به إلى ديوان الإنشاء . وهناك التقى الشاب برئيس الديوان وكان اسمه (ابن الخلال) فسأله هذا : ما الذى أعددت لفن الكتابة ؟ قال الشاب : كتاب الله وديوان الحماسة : قال ابن الخلال : فى هذا بلاغ . ثم أراد ابن الخلال أن يمتحن مقدرة الشاب الكتابية فطلب إليه أن ينثر له شيئاً من ديوان الحماسة ، ففعل الشاب ذلك واطلع الرئيس على إنشائه فاقتنع به وأمره بملازمته .

ثم أتى صلاح الدين إلى مصر ، ووصل فيها إلى منصب الوزارة من يد العاضد الفاطمى ، واحتاج الوزير الجديد إلى كاتب من كتاب الديوان ، ففكر هؤلاء يومئذ فى أن يبعثوا له بالقاضى الفاضل ، وكان قد ظهر تفوقه على زملائه ، فرأوا إبعاده عنهم وبعثوا به إلى صلاح الدين وقالوا لعل هذا الوزير يقتل كما قتل الذين وزروا للدولة من قبله فيقتل عبد الرحيم معه ونتخلص منه .

غير أن القدر الذى كتب الظفر لصلاح الدين قدّره على إزالة الدولة الفاطمية وسخره لإقامة الدعوة العباسية . ونظر التاريخ فإذا صلاح الدين سلطان على مصر ، وإذا كاتبه عبد الرحيم وزيره ومشيره وصنو لذلك العصر .

والحق أن الذين يعرفون شيئا من أخبار الدولة التى أقامها بمصر صلاح الدين ، يستطيعون أن يعرفوا كيف سلمت لكاتبه العظيم زعامات أربع ، لا نكاد نعرف أنها سلمت كلها لرجل مثله فى عصر من عصور التاريخ المصرى الإسلامى ، وهى الزعامة السياسية ، والزعامة الاجتماعية ، والزعامة العلمية ، والزعامة الأدبية . وبذلك أصبح الفاضل قطب الرحى من الحياة الأيوبية كلها ، حوله تدور هذه الحياة ، وبه تمضى دائما فى حركة تطحن بها الحوادث المحيطة بها ، أو تطحنها هذه الحوادث المحيطة بها .

فأما زعامة الفاضل السياسية فيكفى فى تصورها قول صلاح الدين : « ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا رما حكم ولكن بقلم القاضى الفاضل » .

وأما زعامة الفاضل الاجتماعية فيكفى فى تصورها أن نعلم إن شعراء عصره مدحوه جميعا بدون استثناء ، وكان قصارى أحدهم فى حياته أن ينال شرف مدحه ومدح سلطانه . وإذا ذهبت تحصى الأشعار التى قيلت فى مدح الفاضل وجدتها آلافا من الأبيات موزعة على الشعراء توزيعا يتفق ومقدار الصداقة التى بين الفاضل وبين كل شاعر منهم على حدة . وبحسبى أن أحيل القارىء هنا إلى ديوان القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك ؛ ففيه من المدائح التى قيلت فى الفاضل ما يربو على جميع المدائح التى نظمها الشاعر فى غيره . وفى هذا ومثله ما ينهض دليلا على عظم مكانة الفاضل الاجتماعية .

وأما زعامة الفاضل العلمية فتظهر من أنه كان هو القائم على تنفيذ هذه الخطة الذهبية ؛ وهى الخطة التى جاء بها صلاح الدين إلى الديار المصرية . وهى تتلخص فى إنشاء المدارس العلمية التى تحارب بها الدولة الأيوبية عقائد الدولة الفاطمية . ولقد نجح السلطان ووزيره فى تنفيذ هذه الخطة التى رسماها نجاحا لا نعرف مثله . ثم لم يكتف الفاضل بذلك حتى كان يشرف بنفسه على سير الحركة العلمية كذلك . فكان يشجع العلماء على الإنتاج والتأليف ؛ وكثيرا ما كان يشير هؤلاء فى صدور مؤلفاتهم إلى أنهم إنما وضعوها بوحى من الفاضل ومشورته ، بل بتشجيعه ومعونته ، فيكون فى هذا وأمثاله إعلان عن عظمة الرجل العلمية ، وعلى أنها لم تكن بأقل من عظمته فى ميدان السياسة .

وإلى جانب هـذا وذاك كان القاضي الفاضل مجدوداً من حيث المادة . وذلك أنه كان يشتغل بالتجارة — وإن كانت تجارته هذه لم تستغرق جزءاً كبيرا من وقته ، لأن وقته أضيق من أن يتسع لها . غير أن العجيب أن هذا الرجل الذي كان سعيداً موفقا في حياته السياسية ، كما كان سعيداً موفقا في حياته الاجتماعية وحياته العلمية ، كان كذلك سعيداً موفقا في حياته المادية . فقد أراد الله لهذا الرجل أن يكون وفير الحظ من المال ، يشترى بجزء منه بستانا ، ويزرع فيه الفاكهة ألوانا ، وتباع الفاكهة باسمه في أسواق القاهرة ، فتدر عليه تجارة الفاكهة إيرادات هائلة ، وهذا كله عدا ما يكسبه الرجل لنفسه من عمله بحكم مناصبه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أما عظمته الأدبية فهي بيت القصيد من هذا المقال . والغريب أن الناس نسوا أو كادوا ينسون للفاضل الزعامتين السياسية والاجتماعية ، ولكن الزعامة الأدبية بقيت حية في أذهانهم ، كأنما الأدب من بين مذاهب الحياة كلها هو الذي يستأثر دونها بالخلود ، أو كأنما الإنسان نفسه لم يكن يهتدى إلى طريق أبقى له من طريق الشعر والكتابة ، فإذا اتصف بهما ضمنا له هذا الخلود . والحق أن الفاضل كان عظيما من نواح شتى ، أو كان كما يقول الفرنسيون في وصف الرجل المستنير : أشبه شيء بالمنشور الهندسي ذي الأضلاع الكثيرة ، إذا أضأته من داخله أضاءت لك جميع جوانبه .

(وبعد) فهل نحتاج دليلا على زعامة الفاضل الأدبية ونحن نعلم أنه صاحب طريقة فنية عرفت باسمه ، ومذهب كتابي أخذ به وكان له تأثير واضح على أجيال أدبية متعاقبة اصطنعت هـذا المذهب وطال اصطناعها له ، واعتصرت هذه الطريقة حتى تركتها لنا في النهاية قشورا جافة لاحظ لها من الماء ، ولا هي تصلح أن تكون لنا نوعا من الغذاء ؟ لقـد وصف العماد الأصفهاني طريقة صاحبه وأستاذه القاضي الفاضل بقوله : « إنها كالشريعة المحمدية التي نسخت ما قبلها من الشرائع » .

ولسنا نعلم قولا هو أبلغ في مدح هذه الطريقة وشدة تعلق الناس بها في العصور الوسطى من هذا القول .

أم هل نحتاج دليلا على قدرة الفاضل الكتابية وابن خلكان — وهو أحد مؤرخي مصر في العصر الأيوبي — يقول على لسان أحد الفضلاء الثقات : « إن مسودات الرسائل التي كتبها الفاضل إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وهو مجيد في أكثرها ! » .

الحق لقد كان الفاضل أمة وحده في الكتابة والترسل وإن كانت طريقته في الكتابة قد أصبحت لا تلائم أذواق الكثيرين منا في العصر الحديث ؛ ولذلك أسباب كثيرة يتصل أكثرها بالفروق الواضحة بين نوع الحياة التي كان يحياها الناس في العصور الوسطى وبين نوع الحياة التي أصبحنا نحياها نحن الآن ، كما تتصل هذه الأسباب كذلك باختلافنا عنهم في المزاج وفي الثقافة وفي التمدن والحضارة ، وفي غير ذلك من الأمور التي من شأنها أن تخفى عنا معالم الفن الفاضلي ، أو من شأنها أن تدفع بالكثيرين من الباحثين إلى الغض من هذا المذهب الفني ، يفعلون ذلك ظلما وعدوانا وتجنيا وإسرافا منهم على الحق والتاريخ .

أما أنا فشديد الإيمان بعظمة هـذا الفن الفاضلي ، شديد الفتنة به أيضاً . أنظر إليه على أنه صورة من الصور الخليقة باسم الأدب أو الفن ، والأدب عند كثيرين من الناس وعندي نوع من المتاع الروحي لا يقل في شأنه عما يستمتع به الناس أحيانا عند سماعهم الموسيقى بل عند اشتغالهم بها ، أو حين يرون اللوحات الفنية الجميلة ، بل عند ما يمارسونها : وتلك قضية أحب أن أحدث القراء عنها إن شاء الله تعالى في فرصة مقبلة .

عبد اللطيف حمزة

إى نعم : فى التأنى السلامة

كتبت كلمة للأخ الأديب الأستاذ (قاف) نقداً لخبر حكاه الأستاذ عبـاس العقاد فى بعض كتبه ، ونقدت طريقه وطريق أمثاله فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى بالإثبات والنفى ، من غير دليل ولا حجة ، ونشر الأستاذ (قاف) كلمتى فى العدد ٣٦٤ من الثقافة (١٨ يناير سنة ١٩٤٤) وعلق عليها برأيه فيما نقدت . فثارت ثائرته ، وكتب مقالا طويلا فى العدد ٥٥١ من الرسالة (٢٤ يناير سنة ١٩٤٤) يدعى فيه أن الحقد عليه هو دافعى إلى النقد ، وأنى تتبعت كتبه التى نشرها فى العبقريات فلم أجد إلاَّ هذه الغلطة الواحدة ، وإن كان لا يسلم بأنها غلطة .

وأحبُّ أن يعلم « الأستاذ عباس محمود العقاد » أن « أحمد محمد شاكر » لا يحمل فى قلبه ضغناً ولا حقداً على أحد من الناس ، كائنا من كان ، صغر أو كبر .

وإنما أنا رجل أكتب فى العلم ، وأجتهد فى البحث ، لله وفى سبيل الله ؛ ومهما يقل فلن يخرجنى عن خلقى وعما رسمت لنفسى من حدود .

وبعد : فسنعود إلى ما نحن بسبيله من البحث العلمى فى القصة التى رَوى ، والشعر الذى نَسب إلى عروة ، وإلى المصدر الذى أشار إليه فى ردِّه ، لنعرف مبلغ ما فى قوله وروايته من قوة وضعف ، ومن صحة وبطلان .

فقد روى الكاتب هذه القصة ثلاث مرات ، نحكيها عنه بلفظها أولاً ، ثم نذكر المصدر الذى أشار إليه ، ثم ما رأينا فى مصادر أخر .

قال فى كتاب « عبقرية الصديق » ص ٢٠٩ — ٢١٠ ما نصه بلفظه : « فمن ذلك أنه كان عليه السلام يصلح نعله فى يوم قائظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده ، وهى تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه ؛ فسألها : ماذا دهاك ؟ فقالت : لو رآك الشاعر لكنت المعنى بقوله يا رسول الله . فعاد يسألها : أى قوله ؟ فأجابته : حين يقول :

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده
لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد
لَـوامى زليخا لو رأين جبينـــه
لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى

فقام النبى إليها يقبل ما بين عينيْها ، ويقول لهـا : سررتنى يا عائشة سرك الله » .

وأعترف للأستاذ العقاد وللقارئين الكرام أنى قرأتها فى ذلك الكتاب عقيب صدوره ، فلم ألق لنقدها بالاً ، وإن وقع فى نفسى إذ ذاك أنها تشبه ما نقرأ من الأحاديث الموضوعة ، مما يدركه عقل رجل اشتغل بعلوم الحديث أكثر من ثلاثين سنة ، وصارت له فيها فطرة خاصة ، وملكة غالبة ، يفقهها أهل العلم .

ثم رأيته أعادها بشكل آخر فى كتاب « الصديقة » ص ٥٢ — ٥٣ فقال : « وكانت تحفظ من شعر عروة ابن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه فى موقعه ، كما قالت وهى ترى النبى عليه السلام يتندى عرقاً فى يوم قائظ وقد جلس يصلح نعله : لو رآك عروة لكنت المعنى بقوله ... » وذكر البيتين ، ولكنه ذكر فى الأول كلمة « سوم » على الصواب بدل كلمة « سور » التى هى خطأ مطبعى واضح ، وذكر فى البيت الثانى كلمة « لواحى » بدل « لوامى » ، ولست أدرى أيهما فى روايته أصل وأيهما تحريف . ثم عاد إليها فى الكتاب نفسه ص ٧١ فقال : « وتقدم أنها رأته فى يوم قائظ وقد توهج خداه فقال تتمثل بكلام عروة بن الزبير ... » وأعاد البيتين . فحين قرأت هذا مع ذكر عروة لفت نظرى الخطأ الواضح البديهى ، إذ لا يجهل أحد ممن يعرف رواة الحديث أن عروة بن الزبير من التابعين وليس من الصحابة ، فمن المحال عقلا أن يكون له شعر فى حياة رسول الله تنشده إياه عائشة ، إذ لم يكن وُجد بعدُ ، سواء أصحت نسبة الشعر إليه أم بطلت . فبحثتُ وحققتُ ثم كتبتُ نقدى .

وأعترف للأستاذ العقاد مرة أخرى أنى لم أراجع « شرح الشمائل للعلامة محمد بن قاسم جسُّوس » حينئذ ،

لأنى أسقطته من حسابى دائماً فى المراجعة ، وأعرف قيمته العلمية ، ولكنى راجعت فيما راجعت «شرح الشمائل» ؟ للعالم المحدّث المحقق العلامة «مُلا على القارى» . . .

ولرجوعى إلى هذا المصدر الذى طار به الأستاذ فرحاً قصة صغيرة : ففى يوم الجمعة ٢١ يناير سنة ١٩٤٤ زارنى الأخ محمد أفندى فؤاد عبد الباقى ، وفيما جرى بيننا من الحديث سألنى عن شروح «سنن الترمذى» فذكرت له ما حضرنى منها : شرح ابن سيد الناس الذى أتمه العراقى ، ولم يطبع ، وشرح القاضى أبى بكر بن العربى وقد طبع بمصر ، وشرح العلامة المباركفورى وقد طبع بالهند ، وهما عندى ومن مراجعى والحمد لله . ثم شرحى أنا على قسم منه ، وقد طبع منه جزآن يعرفهما الأخ محمد أفندى فؤاد ، فأعاد إلىّ القول أنه سئل عن شرح آخر معيّن اسمه «الجاسوس» ، فضحكت وفهمت ما يريد ، وأخبرته أنه لا يسمى «الجاسوس» وإنما هو «جَسُّوس» ، وأنه ليس شرحاً على «سنن الترمذى» ، وإنما هو شرح على «شمائل الترمذى» . ثم أحضرت له الكتاب فوجدنا النص الذى يشير إليه الكاتب فى الجزء الأول ص ٣٩ ، وهو «ومما ينسب لعائشة رضى الله عنها :

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده
لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد
وصحب زليخا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع الفؤاد على الأيدى »

فأين من هذا النص القصةُ الطويلة التى حكى الأستاذ فى كتابيه ؟ وأين ذكر عروة فيه ؟! فهذا جسّوس ينشد البيتين على رواية غير رواية الأستاذ ، وهو أمر هين ، ولكنه ينسبهما لعائشة نفسها — وإن كان لا يوثق بهذ الكتاب ولا بما ينقله — ثم هو لا يذكر شيئاً قبلهما ولا بعدهما مما قص الكاتب !

على أن هذا النص لا يفيد الكاتب شيئاً فى مصدر القصة التى حكى ، ولا فى نسبة الشعر إلى عروة ، ولا فى موضع احتجاجه بالقصة والشعر على شىء معين ، وهو أن عائشة «كانت تحفظ من شعر عروة بن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه فى موقعه » لأن ذكر البيتين فى مصدره منسوبين إلى عائشة نفسها ، نسبةً صحيحةً أو باطلة ، لا يكون أبداً حجة على أن الشعر لعروة ، وعلى أن عائشة كانت تسوق الشاهد منه فى موقعه ! ! ولا أدرى ماذا يسمى فى طرق البحث والنقد من يدعى قضية ثم إذا طولب بدليلها أتى بدليل ينفيها أو ينقضها ؟

ولكن الأمانة العلمية توجب علىّ أن أخطو بالكاتب خطوة أخرى فى سبيل البحث ، لعلها ترشده إلى ذكر المصدر الذى نقل منه ما نقل ، فأذكر له مصادر أخر لم يهتد إليها ، وإن كان ما سأذكر لا يؤيد دعواه ولا قصته . فقد نقل الحافظ السيوطى فى شرح شواهد المغنى ص ٨٢ — ٨٣ ما نصه .

« أخرج أبو نعيم فى الدلائل والخطيب وابن عساكر بسند حسن عن عائشة قالت : كنت قاعدة أغزل ، والنبى صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبُهِتُّ ، فقال : مالكِ بُهِتِّ ؟ قلت : جعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره ، حيث يقول :

ومبرَّأٍ من كلّ غُبَّرِ حيضةٍ
وفسادِ مرضعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ
وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وجهه
برقتْ بروقَ العارضِ المتهلّلِ »

وهذه الرواية نقلها البغدادى فى خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٧٣ من السيوطى ، وذكر قبل ذلك ص ٤٦٦ أن البيتين من أبيات لأبى كبير فى حماسة أبى تمام ، وفى الشعراء لابن قتيبة ، وأنها من قصيدة طويلة فى أشعار الهذليين .

وقد نقل بعض المؤلفين القصة أيضاً فاختصرها ولم يزد عليها ، فإن الاختصار إذا لم ينقض أصل المعنى جائز ، وأما الزيادة فلا تجوز ، لأنها فى عرف المحدّثين تكون من باب الوضع ، فنقلها عماد الدين يحيى بن أبى بكر العامرى فى كتاب «بهجة المحافل» ج ٢ ص ١٨٦ بلفظ : «وقالت عائشة : بأبى وأمى أنت ، لو رآك الشاعر لعلم أنك أحق بقوله »

وذكر بينى أبى كبير الهذلى على الصواب ، وكذلك فعل الشيخ حسين عبد الله با سلامة عضو مجلس الشورى بمكة ، فنقلها كما نقلها العامرى مختصرة ، فى كتاب « حياة سيد العرب » المطبوع بجدة سنة ١٣٥٣ ج ٤ ص ٢٠٦ ، فأين هذه النصوص مما ذكر العقاد ؟

ولكن بق بعد هذا كله شيء واحد ، هو أصل دعواه ، أين موضع عروة بن الزبير ، وأين موضع شعر عروة من هذه النصوص ؟ هذا حلقة مفقودة ، على الأستاذ العقاد أن يبحث عنها ويفيدنا فيها .

وأما ادعاء الكاتب أنه يستبعد أن يكون عروة ولد سنة ٢٣ أو بعدها ، فهذا إفساد للتاريخ العربى ، وما هو بتحقيق ، فإنه إذا صح أن تاريخ ولادة عروة خطأ فليس ذلك بنافعه فى موضوعه ، فلئن كان الخطأ فى سنة أو فى عشر سنين ، كان عروة مولوداً بعد وفاة رسول الله ، بل لو كان الخطأ فى عشرين سنة لكان عروة طفلاً فى حياة النبى ولم يكن شاعراً « تحفظ عائشة من شعره وتسوق الشاهد منه فى موقعه » فى حياة رسول الله تخاطبه به !!

وقد تعب أئمة الحديث ومؤرخو الرجال فى التنقيب عن تراجمهم وحصر ما أمكنهم حصره ، وتركوا لنا ثروة ضخمة من العلم الغزير ، لا يضيمه ولا ينقضه عصبية كاتب . ولم يذكر أحد منهم قط ، أن عروة كان صحابياً ، وإنما ذكروه فى التابعين . بل إن الحافظ ابن حجر لم يذكره فى الإصابة فى الأطفال الذين ولدوا فى حياة النبى عليه السلام .

وبعد فإن القول يطول لو شئنا نقض كل ما رد به الكاتب ، وليس فى طول الجدال فائدة علمية ، فمن ذلك أعرضنا عنه .

وإن لنا الكلمة فى نقيه حديث عائشة عن سنها حين تزوجها رسول الله ، أو تخطئته إياها فى معرفة سنها إذ ذاك . ولعلنا نجد فرصة مواتية فى نقض ما ذهب إليه ، إحقاقاً للحق ، ودفعاً عن الأحاديث الصحيحة ، إن شاء الله .

أحمد محمد شاكر

(الثقافة) هذا آخر ما ننشره فى هذا الموضوع عرضاً للآراء المختلفة ليتجلى الحق .

صحيفة النقد :

١ – سندباد عصري
و
٢ – سندباد قديم

للدكتور حسين فوزي

– ١ –

في قرارة كل نفس إنسانية « سندباد » أو شعرة من « السندباد » ، ولو لم يطوف مثله في بحار الأرض ويتعرض في طوافه لشتى الأخطار !

فمن هو « السندباد البحري » في حقيقته ؟ إنه المخلوق الإنساني الذي يناديه المجهول فيلبيه ، ويجذبه الخطر فيستجيب إليه ؛ ويتعرض للأهوال الشداد الجسام في كل رحلة من رحلاته ، ثم يبلغ مأمنه بعد الإياس ، ويسترد ثروته بعد الفقدان . ولكن المجهول يناديه والخطر يجذبه إليه ، فما يلبث أن يودع الأمن ، ويستصغر الثروة ، ويعود إلى المجازفة من جديد ؛ وراء ذلك المجهول المحجوب ، وخلف هذا الخطر المحبوب !

ذلك هو السندباد كما تصوره « ألف ليلة وليلة » ، فأية نفس إنسانية ليس فيها من هذا « السندباد » شعرة أو شعرات ؟ ! من منا لم يجذبه المجهول مرة أو مرات ، ولم يستهوه الخطر لحظة أو لحظات ، ولم يستعذب « المعرفة » ولو كلفته التضحية والتضحيات ؟ كل منا فيه من هذا « السندباد » شعرة ظاهرة أو كامنة ؛ ولكنها هي التي تربط الإنسانية بالعالم الأرفع ، عالم « المعرفة » في عليين .

وكم من « سندباد » ظاهر قاد كولمبوس ، وفاسكودي جاما ، وماجلان ، وابن بطوطة ، وسواهم ؛ وكم من « سندباد » خفي قاد العلماء والمخترعين إلى آلاتهم ومعاملهم ، وقاد الفلاسفة والفنانين إلى مغامراتهم الفكرية والوجدانية ، وقاد المتصوفة والعباد إلى شطحاتهم وسبحاتهم ؟

إنه « سندباد » واحد تتعدد مظاهره ونوازعه في شتى النفوس ، أو « سندبادات » كثيرة موزعة في هذه النفوس ، التي تركب الخطر وتستلذ المجازفة ، وهي تلقي بوعيها كله أو بعضه إلى ذلك النداء السحري ، نداء المجهول الذي يهتف بها من هناك ...

* * *

والدكتور « حسين فوزي » هو « سندبادنا » اليوم ! وهو رجل ندب لرحلة علمية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ضمن بعثة عالية لدراسة أحياء البحر والمحيط ، وقد طوف — مع البعثة — على باخرة مصرية طيلة تسعة أشهر ، في البحر والبر ، في الجزر والقارة ، وزار معابد الهند وسيلان وسواها من الجزر المنثورة في المحيط . ثم عاد .

ولحسن الحظ كان « الإنسان » في هذا الرجل أكبر من الموظف الذي ندب لعمل رسمي ، وأكبر من العالم الذي وجه لمهمة علمية . كان « فناناً » فلم يضع هذه الأشهر التسعة في الدراسة العلمية البحتة ؛ بل أدى واجبه ثم بقيت في نفسه بقية لما هو أكبر من هذه الدراسة وأبقى ؛ وعادت البعثة وملء وطابها تجاربها ومعلوماتها ودراساتها ؛ ثم عاد هو وملء وطابه الخاص ملاحظاته الإنسانية ، وانفعالاته الوجدانية ، واستجاباته العاطفية ، وتجاربه النفسية ، فأودع ذلك كله كتابه « سندباد عصري » الذي نتحدث عنه اليوم .

يقع هذا الكتاب في ٢٨٣ صفحة من القطع المتوسط ، مقسمة إلى أربعة أقسام « بحث . وصور . ووجد . ومشاعر » وتحت كل قسم من هذه الأقسام الأربعة فصول يجمعها العنوان .

وخلف جميع العنوانات والفصول يطالعك إنسان حي الوجدان ، متوفر الحس ، مفتوح الحواس ، ينظر ، وينفعل ، ويستجيب ، وتشترك ثقافته العلمية ، وقراءاته الأدبية ، وتجاربه الفنية ، في تلوين ما ترى عينه من

مناظر ، وما يجيش فى نفسه من أحاسيس ، وما يصدر عنه من ملاحظات ؛ ولا يعوزك أن تلمح ريشة الفنان ، تسجل هذا كله فى بساطة ويسر ووضوح ، وبلا تكلف إلا فى النادر ، وبلغة سهلة صحيحة إلا فى مواضع قليلة لم يكن من العسير تحرى الدقة فيها ، وكان من الخير تحريها .

وليس من الضرورى أن توافق « السندباد المصرى » فى آرائه وأحاسيسه واتجاهاته لتؤدى له هذه الشهادة ، فنحن — على العكس — نخالفه فى أساس اتجاهه الذى يعلن عنه « إهداؤه » فى صدر الكتاب حين يقول :

« درجت على حب الغرب ، والإعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوربا ، فتمكنت أواصر حبى ، وتقوت دعائم إعجابى ، فلما ذهبت إلى الشرق ، عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى » .

نحن نخالفه فى هذا « الإيمان بكل ما هو غربى » وفى زرايته على الشرق وعاداته وأساطيره ودياناته (غير الإسلامية والمسيحية) ، وسنناقش منه هذا الاتجاه . . . ولكنا — مع هذا — يعجبنا فيه الإنسان الحى الوجدان ، والفنان المفتوح العين والحس والضمير ، وإنه لحسبك أن تجد « الإنسان » فى أى مخلوق ، ثم ليكن له بعد ذلك ما يكون من الآراء والاتجاهات ، فستجد عنده مادة إنسانية تستحق العناية والاهتمام . وهذا هو المطلوب — قبل كل شئ — فى كتاب يقرؤه الناس فى حدود « الأدب الخفيف » الذى يمثله هذا الكتاب .

وأنت تخالف « السندباد المصرى » أو توافقه فى اتجاهاته العامة ، ولكنك ستعجب به ، وهو يحدثك عن « مشمشة » قطة السفينة ، حديث الإنسان العارف بقدر الحياة فيشركك بالتعاطف الإنسانى بينه وبينها ، هذه « الشمشة » التى « عادت إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد أن طوفت معهم تسعة أشهر فى طول المحيط الهندى وعرضه ، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد ، ثم تزدها الشهرة خيلاء على خيلاء ، ولم تزدها رؤية الأمصار ثروة أو خبرة ، بل ولم تمكنها هذه الحياة من انتقاء عريس صالح بين هررة سيلان أو قطط زنجبار أو سنانير الهند . عادت إلى مسقط رأسها فى السويس عذراء ذهبية الشعر أوفت على سن الزواج ، وقد غادرتها طفلة فى لون الحناء » !

أو حين يقف بك فى هذه السفينة نفسها بعد انتهاء الرحلة وتفرق الركب وخواء المكان ، فيحدثك حديث الشاعر الذى يخلع الحياة على الجماد وعلى الذكريات فتنبض وتتحرك وتستجيب .

« لقد عاد كل منهم إلى وطنه وعمله ، وعادت سفينتنا فى نفوسهم ذكرى يزيدها الزمن ائتلاقاً ، ولكنهم تركونى هنا وحدى ، كالشاعر البدوى ، أبكى فوق الدمن ، وأستبكى الرائح والغادى !. تركونى أجوس خلال هذه القمرات والعامل ، فتتألب على أشباح ذكراهم حتى لأخال نفسى شبحاً بين الأشباح .

« إيه أيتها السفينة ! إيه أيها الجواد الأشهب !

« هل قدر لنا أن ننوء بحمل الذكرى ؟ أو أننا سوف نعود سويا إلى خوض البحار النائية ، حيث الموج اصطخاب وهدير ، والإعصار صرير وصفير ؟ » .

أو حين يتحدث عن « حياة البحار » فينقلك نقلا إلى جو هذه الحياة ، أو حين يقف بك على « منفى الزعيم » فى سيشل فتحس بضربات القلب المصرى ، وخفقات القلب الإنسانى تلتقيان فى خلال الكلمات . أو حين يتحدث عن « غادة ممباسا » فى فصل « نسائيات » فتلتقى بالفنان الحى الذى يعبد الحياة فى أجمل أوضاعها . . . فى جسم فتاة مكتمل جميل ، تزينه الأنوثة ويحوطه الحياء ، ويرفعه الاحترام . أو حين تقف أمام تمثال « بوذا » فيبدو لك الفكر الحر الذى يستروح فى « البوذية » شذا الحرية والبساطة والسماحة ، بعد ما كاد يختنق تحت كابوس القيود والتعقيد والتشدد فى « الهندوسية » التى تخنقه

وتفزعه وتطلقه ساخطا على الشرق كله في بعض الأحيان !

* * *

وهنا يصل بنا الحديث إلى مفرق الطريق بيننا وبين « السندباد » !

أنا لا أعرف المؤلف ، ولم أره ، ولم أشهد صورته كذلك ، ولكني أستطيع أن أستشف من كتابه أنه فنان شديد الحساسية عصبي المزاج . ومن عادة هذا الصنف من الناس أن تستغرقه اللحظة الحاضرة ، وأن تستفزه المشاهد المثيرة ، وأن يفزع من الضغط والكبت ، وأن تمتد ثورته من طرف الشيء إلى بقية الأطراف .

هذا الفنان الشديد الحساسية العصبي المزاج « قضى أهم أدوار التكوين من عمره في أوربا » فبهرته الأضواء ، وأعجبته الحيوية ، وراقه النشاط ، ولذ له الانطلاق . ثم « ذهب إلى الشرق » ، وإلى الهند بوجه خاص ، فالتقى هناك بالوجه الثاني للدرهم ! الزهد والصوفية ، والصمت والسكون ، والكبت والحرمان ، والوراثات والعقائد ... وهان كل ذلك ، لولا أن الحياة الاجتماعية تبدو في أشنع الصور ، وأحط الدركات : العري والجوع والقذارة وظلم الطبقات : النجاسة للمنبوذين ، والتقديس للبراهمة ... إلى آخر المناسك والتقاليد والأوضاع ... وبعد ذلك كله الخوف الديني الموغل في المعتقدات حول تناسخ الأرواح ، وما تلقاه في أطوار التناسخ من العذاب للتكفير عن السيئات ...

لم يكن هناك مفر بعد هذا كله — لمثل صاحبنا السندباد — من السخط على هذا الشرق التاعس ، والهلع من أشباح الخوف الكامنة في هذه المعتقدات . ومن « الإيمان بكل ما هو غربي » كما يقول في إهداء الكتاب .

فإذا شاهد راقصة في كراتشي « ترقص رقصاً توقيعيا لا فن فيه » صاح : « جليلة هي هذا الشرق الطويل المريض الفارغ . هي تلك الشعوب التي ما زالت تفكر وتحس بإحساس القرون الوسطى ، وتصر على حسبان بواقي حضارتها البائدة لا ملكا للتاريخ والمتاحف بل أداة للحياة حتى في القرن العشرين » !

وإذا شاهد صخرة « ما ها بالى بورام » وقد نحت فيها فنان شرقي تشخيصاً لأسطورة ، « نهر الكنج المقدس وقد أقبلت الأناسي والحيوانات من كل فج تشهد ميلاد النبع المقدس في صوفية وخشوع جمل يقول :

« لو أن نحاتا إغريقيا أعمل أزميله في هذه الصخرة تحت شمس « أتيكا » ! ويحي لقد أفسدت الصورة التي طبعتها في ذاكرتي « ما ها بالى بورام » وأفقدتها كل معانيها في نفسي . فلم يكن الإغريقي ليصور نبعا مقدساً ، بل كان في الأغلب ممثلا « أرفيوس » في الشق الأوسط وهو يوقع على قيثاره العجيب وحوله الإنس والجن خاشعة ... إلخ » .

وإذا شاهد فيلما هنديا يمثل الروح الهندية المتسامحة التي تنتهي من الصراع على الحقوق الخاصة إلى الزهد في أعراض الدنيا والاتجاه إلى عبادة الروح الأعظم قال : « أدركت ناحية من نواحي الضعف في بعض الحركات الروحية حين تدخل ميدان السياسة العملية » .

وإذا سمع زميله الإنجليزي يقول عن « النيرفانا » أي الفناء في الروح الأعظم — وهو الغاية التي يطمح إليها الهندي من وراء حرمانه وآلامه : « دعنا من هذا فلا قبل لي بهذا المجمجم وتلك الشعوذة يا عم حسن » لم يجد في نفسه أية حاسة للرد على الكلام . وهكذا وهكذا مما قد يبالغ فيه فيصل إلى حد الزراية والسخط الشديدين على الروح الشرقية بوجه عام .

ومهما افترضنا للسندباد من الأعذار في قسوة الأوضاع الاجتماعية والمظاهر البائسة التي شاهدها في الهند فقد كنا نرجو أن يكون أوسع أفقا وأكثر عطفا وأعمق اتصالا بروح الشرق الكامنة وراء هذه المظاهر والأوضاع ، الروح الصوفية المتسامحة المشرقة بنور الإيمان .

ونحن لا ندعو إلى الروحانية البلهاء ، ولكننا ندعو فقط إلى فهمها والعطف عليها وتقديرها من الوجهة

الإنسانية . فالغربي معذور حين يغلق حسه وفهمه دون روح الشرق الأصيلة ، أما الشرقي فلا عذر له في هذا الإغلاق .

إنه يقول عن لوحة الكنيج المقدس : « لم يكن الإغريقي ليصور نبعاً مقدساً . . . الخ » أجل ! وهذا هو مفرق الطريق بين الشرق والغرب . في الشرق قداسة تمت إلى القوة العظمى المجهولة ، وفي الغرب جمال يمت إلى المشهود الحاضر المحسوس . وليس لي أن أفضل هذا أو ذاك ، فكلاهما جانب من جوانب النفس الإنسانية الكبيرة التي تهش لكليهما على السواء ، إن لم تؤثر في حسابها الروحي والفني جانب المجهول على جانب المشهود .

وهو يسخر بعقيدة « النيرفانا » كسخرية زميله الإنجليزي الذي يقول : ما كنت أحسب أن دينا يعد بنعمة الفناء ! ووجه الخطأ هو اعتبار « النيرفانا » فناء . إنها كذلك في نظر الغربي الذي يصارع الطبيعة وينعزل عنها ، فأما الهندي الذي يحس بنفسه ذرة منسجمة مع الطبيعة ، ويمدها أمارؤوما فيرى في فنائه في القوة العظمى حياة وبقاء وخلودا .

وعلينا أن نفهم هذا ونعطف عليه ولا نراه بعين الغربيين .

وهو يبدو في أرفع صورة في « سادهانا تاجور » فلنقف خشعا أمام هذا السمو الإلهي ولو بعض لحظات ! ! !

وهكذا يجب أن نجاوز مظاهر الجيل وأوضاع الاجتماع ، لننفذ إلى قلب الشرق وإنا لواجدون فيه كثيرا من الكنوز الروحية التي تنقذنا من قسوة الحضارة الآلية التي تخنق أنفاس الإنسانية في هذا الزمان . الحضارة الآلية التي لا قلب لها ولا ضمير ، والتي تنسجم في أصولها مع روح الغرب كل الانسجام .

أيريد الدكتور أن أضرب له مثلا على سطحية الروحانية في نفوس الغربيين المعاصرين وضحولة القداسة في قلوبهم ؟ إنني إذن أدعوه ليعاود في كتابه نفسه قراءة صلاة الراهب الإنجليكاني بالبعثة ، هذه الصلاة التي سبقتها الكئوس ثم أعدا الكوب ليكون مكانا للصلاة حتى إذا انتهت عاد المصلون للكئوس . . . مع ما أحيطت به الصلاة من رسميات . . . فقد انقلبت كل شيء ، حتى الوجدانيات إلى رسميات !

وأخيراً فإنها مرة واحدة هي التي ارتفع فيها المؤلف إلى القمة في « شجرة البودي المقدسة » وهو يقف أمام الزنجي عابد « البوذا » فيحترم عقيدته التي أحالته روحا علوية وهو الزنجي الذي يقوم بعمل الحمار . . . لقد كان « السندباد » « هنا » إنساناً كبيراً يستحق الإجلال .

* * *

ثم أكرر ما قلته من أن الاتفاق أو الاختلاف لا يغير شيئاً من الحكم على قيمة الكتاب ، وهو كتاب يضاف إلى المكتبة العربية في حفاوة وإعزاز في مقدمة الكتب الحقيقية بلا جدال .

سيد قطب

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى بالمنيرة — القاهرة — تليفون رقم : ٢٦٩٩٢ / ٥٦٣٦٩

العدد ٣٦٨ | الثلاثاء ٢٠ من صفر سنة ١٣٦٣ — ١٥ من فبراير سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مجـــــرمو الحرب

أثير البحث فى جرائم الحرب ، أول ما أثير ، فى نهاية الحرب الأهلية الأمريكية . وبعد أن وضعت أوزارها حوكم اثنان ممن نسبت إليهم أعمال إجرامية مختلفة ، وحكم عليهما بالأشغال الشاقة . ثم تجدد البحث ذاته ، بعنف ، خلال الحرب العالمية الأولى ، وأصدر كل من السير أسكويث والمستر لويد جورج تصريحات حاصلها أن الإمبراطور الألمانى وسائر من ارتكبوا جرائم حرب ، سينزل بهم العقاب مهما علت مراكزهم .

ولما أن جلس صانعو السلام سنة ١٩١٩ يضعون نصوص معاهدة فرساى ، ضمنوا هذه المعاهدة نصوصاً تعالج مسألة مجرمى الحرب ، وتقضى بتقديمهم للمحاكمة .

ولقد سبق تلك النصوص تشكيل لجنة دولية ، من خمسة عشر عضواً ، مثل اثنان منهم الولايات المتحدة الأمريكية ، التى رفضت إقرار المعاهدة ، مهمتها أن تبحث مسألة مثيرى الحرب ، وتحقق الوقائع التى ارتكبها المحاربون الأعداء ، مخالفين فيها قوانين الحرب وعاداتها ودرجات المسئولية المترتبة فى عنق أفراد بعينهم فى قوات الأعداء ، وتبحث القوانين التى تطبق والإجراءات التى تتبع فى محاكمة أمثال مرتكبى هاتيك الجرائم ! إلى غير ذلك من المسائل التى ترى اللجنة ضرورة بحثها مما له اتصال بمهمتها .

قدمت اللجنة تقريرها فى ٢٩ مارس سنة ١٩١٩ ، وانتهت منه إلى أن دول أوربا الوسطى وحلفاءها قد ارتكبوا عمداً أعمالا لإثارة الحرب ، وخرق حياد البلجيك ولكسمبورج . ولكن اللجنة لم تشر برأى معين فيما يتعلق بمحاكمة الأشخاص المسئولين . ثم قالت فى تقريرها : إن أبحاثها هدتها إلى أنه قد ارتكبت اعتداءات لا تحصر على قوانين الحرب وعاداتها ، من جانب دول الوسط ، وقدمت اللجنة قائمة الاعتداءات ، وكانت مكونة من اثنين وثلاثين مسألة . وانتهت إلى القول بأن كل من تثبت عليه جريمة من تلك الجرائم لابد من محاكمته جنائياً مهما سما مركزه أو علا منصبه .

جاءت بعد ذلك معاهدة السلام ، فأثبتت فى العموم

توصيات اللجنة ، فنصت في المادة ٢٢٧ على أن إمبراطور ألمانيا يجب أن يحاكم أمام محكمة خاصة مشكلة من خمسة قضاة تنتخبهم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان .

ونصت المعاهدة أيضاً على تسليم ٨٩٦ شخصاً ثبت أنهم قد ارتكبوا مخالفات ضد قوانين الحرب وعاداتها ، كان من بينهم القواد هندنبرج ولودندورف وماكنزن والمستشار الألماني الأسبق بتمان هلويج ، وعديد من أمراء البحر ، في قائمة طويلة .

أما الإمبراطور فقد فر كما هو معروف إلى هولندة — دولة محايدة إذ ذاك — وعند ما طالبها الحلفاء بتسليمه رفضت ، ووقف الأمر عند هذا الحد . بل وقيل إن اغتباط الحلفاء بذلك الرفض لم يعدله سوى خوفهم من أن تجيب هولندة الطلب !

ولقد أثارت القائمة يوم إعلانها معارضة شديدة في ألمانيا ، وتقدم اقتراح يقول : بدلا من تسليم « مجرمي الحرب » ليحاكمهم الحلفاء ، فليحاكموا في ليبزج أمام محكمة الريخ العليا ، وليتدخل الحلفاء كيف شاءوا في تجميع الأدلة وإقامة الاتهام . ووافق الحلفاء على ذلك ، وارتضوا أن يحاكم المتهمون الألمان أمام المحكمة الألمانية . ولكن الأيام مضت ، وإذا بنا لا نجد متهماً سياسياً واحداً يقدم للمحاكمة ، وإذا بالضباط القانونيين ، الذين قدموا تصدر ضدهم أحكام خفيفة ، أو يبرءوا .

على أن استهتار ألمانيا بقرار الحلفاء ، وبمعاهدة فرساي وبوعدها الذي قطعته لم يقف عند ذلك الحد ، بل لقد تحدت هذا جميعه واختارت هندنبرج رأس قائمة « مجرمي الحرب » ثاني رئيس لجمهورية فايمر سنة ١٩٢٥ .

واليوم يتجدد الوضع القديم ، إنما بصورة رسمية أخرى وأشد من وضع سنة ١٩١٨ ، فلا تكاد تمر سنة من سني هذه الحرب ألا ونسمع تصريحاً لقطب من أقطاب الدول المتحدة يعلن فيه عزم الحلفاء على محاكمة الأشخاص المتهمين بجرائم الحرب ، بعد أن تنتهي الحرب .

فقد قرأ المستر روزفلت مثلا خطاباً ألقاه يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٤٢ يقول فيه : « إن الدول المتحدة قد اعتزمت أن تقيم الأدلة على قادة النازي وزعمائهم المسئولين عن أعمال وحشية يخطئها الحصر ، والأدلة تجمع كل يوم وتدخر للمحاكمة المقبلة » .

وصرح الرفيق مولوتوف — وزير خارجية الروسيا — في بيان أصدره يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٢ : بأن حكومة السوفييت تؤيد تصريح الرئيس روزفلت فيما يتعلق بمعاقبة زعماء النازي ، وأنها تعتبر « معاقبة أولئك المتزعمين للعصابات الهتلرية الإجرامية واجباً ملحاً يطالبها بأدائه من لا حصر لهم من الأرامل والأيتام والأقارب ، والأوداء ، الذين سيموا العذاب الوحشي حتى الموت ، بتعليمات صادرة من الأئمة المجرمين » .

ولقد صرح المستر تشرشل بدوره بما يتفق وهذه الآراء . وفي هذين اليومين هيئة دولية تعمل منذ زمن طويل في إعداد الإجراءات اللازمة لمحاكمة مجرمي الحرب ، يرأسها الدكتور مارسل دي باير قاضي المحكمة العسكرية البلجيكية ، مفوضاً بذلك من الجمعية العمومية الدولية في لندن لعصبة الأمم ، ويعاونه الدكتور شلدون جلوبك أستاذ علم الإجرام في كلية الحقوق بجامعة هارفرد ، وغيره من رجال القانون .

***

النظرية الروسية ، وهي التي أعلنها الرفيق مولوتوف ، تقول بالمحاكمة الفورية أثناء الحرب بغير ما حاجة للتربص إلى انتهائها . وأشار على بريطانيا العظمى ، منذ اليوم الذي وقع فيه رودلف هيس الزعيم النازي بين يديها ، هارباً أو مندوباً ، لسنا ندري ، أن تحاكمه . ولقد أصرت روسيا على نظرية المحاكمة الفورية ، فقدمت ثلاثة من ضباط الجيش الألماني وواحداً من الرعايا الروس يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٣ للمحاكمة أمام أول محكمة عسكرية عقدت لمحاكمة مجرمي الحرب في مدينة خاركوف بحضور مئات من العمال

وجنود الجيش الأحمر الذين كان يحمل الكثير منهم علامات ما أصابهم من ضروب التعذيب .

والمتهمون الأربعة هم الأمباتش وبنهاوت ورتز من أعضاء البوليس السري الحربي ، وهانز رتز نائب قائد فصيلة من جنود الهجوم ، والكبتن ولهلم لانجيلد من ضباط فرقة مقاومة التجسس الحربي ، ثم ميشيل بولانوف الروسي ، وكان يعمل سائق سيارة ، وقد تولى قيادة «سيارة الموت» التي كان الروس يوضعون بداخلها فيموتون اختناقاً أثناء الحملة الإرهابية في خاركوف .

وجاء في ورقة الاتهام أن المتهمين اشتركوا اشتراكا فعليا في المدة الواقعة بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٣ في أعمال الإعدام والإبادة الوحشية التي ارتكبت ضد الأهلين المسالمين بوساطة سيارات «لورى» جهزت تجهيزاً خاصاً وأطلقوا عليها إسم «قاتلة الروح» واشتركوا في جرائم الشنق والحرق وإطلاق النار والنهب ضد جرحى الشعب ، وفي السخرية منهم .

دامت المحاكمة أربعة أيام في دار الأوبرا بخاركوف . اعترف فيها المتهمون بفظائع تشيب لهولها الولدان ، وثبت من التحقيقات ومن أقوال المتهمين أنفسهم أن «عربات الموت» التي تقضي على من فيها ، خلال اثنتي عشرة ثانية ، قد ظفرت بموافقة هتلر وهملر ، وأنها كانت تستخدم بكثرة في المدن الروسية لإبادة الروس من سكان المدن المحتلة ممن لم تكن منهم فائدة للألمان !

وفي يوم ١٨ ديسمبر انتهت المحاكمة ، وخلت المحكمة للمداولة ، وأصدرت حكمها بإعدام المتهمين الأربعة شنقا ، ونفذ فيهم الحكم في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة من صبيحة يوم الأحد ١٩ ديسمبر .

* * *

ولقد لقيت نظرية محاكمة «مجرمي الحرب» في الحرب الماضية اعتراضاً من جانب مندوبي أمريكا ، ومندوبي اليابان في اللجنة الدولية التي أشرنا إليها في صدر هذا المقال .

أما المندوبان الأمريكيان — المستر لانسنج ، والمستر سكوت ، وقد كان كلاهما محاميا دوليا نابه الذكر طائر الصيت — فقد قام اعتراضهما على أساس قانوني محض . فقد كانت نظريتهما أن تعبير «خرق قوانين الإنسانية» تعبير غامض لا يبرر اتهاما جنائيا وأنه من المخالف للقانون أن تحاكم رئيس دولة حاليا أو سابقا عن أعمال ارتكبت في عهده ، فليس ثمة قانون ينظم نظر مثل تلك القضية . وأضاف المندوبان إلى ذلك أنهما يشكان في اختصاص المحكمة التي اقترح إنشاؤها بمحاكمة الجرائم التي كان يراد طرحها عليها .

أما مندوبا اليابان فلم يدعما اعتراضاتهما بمثل تلك الأسانيد ، واكتفيا بالقول أنهما في «ريبة» من إنشاء محكمة بعد انتهاء أية حرب لتحاكم أفراداً تابعين للمعسكر الآخر ، مع ما يكون موجها لهم من تهم انتهاك قوانين الحرب وعاداتها . وقد اعترضا بنوع خاص على تقديم رؤساء الدول أياً كانوا للمحاكمة . ولقد قيل ، وجاءت الأيام التالية مصدقة لما قيل : إن هاتيك الاعتراضات ترجع جزئياً إلى أن اليابان يومئذ كانت تدبر خطط الهجوم على الصين صديقتها وحليفتها يومئذ فخشي مندوباها أن يحاكم زعماء أمتهما ، لو قدرت لها الهزيمة بوصفهم مجرمين على هذا النمط .

* * *

وبعد فنظرية محاكمة مجرمي الحرب هي نظرية سليمة فيما أعتقد ، ولا ينتقص منها ما وجهه إليها المندوبان الأمريكيان في لجنة الحلفاء في الحرب الماضية ، من اعتراضات . ذلك لأن تعبير «خرق قوانين الإنسانية» خال من الغموض الذي ارتأياه فيه ؛ لأنه منذ القدم والناس متعارفون على أن أعمالاً بعينها — في الحرب — تعد قانونية ، وغيرها يعد غير قانوني بنصوص القانون الدولي العام أو بحكم العرف ، وهو مصدر معترف به من مصادر القانون . بل لقد كان للإغريق والرومانيين قواعد وقوانين تنظم حركات جيوشهم وقتالها وكانت كلها ترمي إلى تلطيف حدة

فظائع القتال غير المقيد . وفي سنة ١٩٢٦ كتب جروشيوش أبو القانون الدولي العام ، قواعد الحرب والقتال . وفي ٢٤ أبريل سنة ١٨٦٣ أصدر الرئيس لنكولن — وكان محامياً قبل رياسة الولايات المتحدة الأمريكية — ما قيل إنه خير ما أخرج الناس إلى ذلك التاريخ من قواعد ، في عرف كتاب القانون الدولي العام . ومن طريف ما نذكره لك أن تلك القواعد أعدها أساساً الضابط فرنسيس ليبر ، البروسي المولد ، يعاونه لفيف من الضباط الأمريكان .

ولقد دونت قواعد الحرب البرية في قانون أقره مجمع القانون الدولي العام في اجتماع سنة ١٨٨٠ ، وقانون الحرب البحرية الذي أقره المجمع سنة ١٩١٣ ، ونص على تلك القواعد صراحة في المعاهدات الدولية كمعاهدة جنيف سنة ١٨٦٤ المعدلة بمعاهدة سنة ١٩٠٦ ، وكاتفاقيتي لاهاي سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ .

ولا يتسع المقام لسرد تلك القواعد هنا . فلنقدم لك منها أمثلة وجيزة : محظور أن يستعمل المحارب السم ، وأن يقتل عدوه إذا كان قد تجرد من وسائل الدفاع أو إذا كان قد سلم نفسه . ومحظور استخدام أسلحة التعذيب ، ورفع الراية البيضاء غشاً ، وممنوع ضرب المدن العزلاء بالقنابل ، بل ولا يجوز ضرب أية مدينة دون سابقة انذار ! إلى غير من القواعد والأصول .

إزاء هذا لا يمكن أن نرى رأي المدونين الأمريكيين في تعبير « خرق قوانين الإنسانية » من أنه غامض لا يصلح أساساً لاتهام جنائي .

أما قولهم إنه من المخالف للقانون أن نحاكم رئيس دولة حاليا أو سابقا عن أعمال ارتكبت في عهده ، لأنه لا يوجد القانون الذي ينظم نظر تلك القضية فقول مردود . القانون قائم ولا شك ، إن لم يكن هو القانون المكتوب المدون في المعاهدات الدولية ، فهو القانون الطبيعي الذي تمليه المثل الأعلى والعقل السليم ، والذي يعتبر أساس كل قانون وضعي ، والهدف الذي يسعى إلى بلوغه أو محاكاته الساسة والمشرعون . وأما المحكمة فليس تشكيلها بالعقدة التي لا تحل ، إذ ليس أقرب من تشكيل محكمة دولية ، تمهد لها المدة من الآن على أسلوب محكمة العدل الدولية الدائمة التي نصت عليها المادة ١٤ من عهد عصبة الأمم والتي أقرت تشكيلها الجمعية العمومية للعصبة في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ ليقدم مشروعها المؤتمرون إذ يجلسون حول مائدة الصلح .

والتحفظ الوحيد الذي يجوز ابداؤه في هذا المقام هو أن رئيس الدولة قد يكون مقطوع الصلة بتلك الأعمال الوحشية ، وقد يكون هو الآمر بها ، كما ثبت في محاكمة خاركوف بموافقة هتلر وهملر على استخدام « عربات الموت » . فالمسألة إذن ستنحصر في مسألة الإثبات ، والعجز الاحتمالي عنه لا ينهض عقبة في سبيل مبدأ المحاكمة ذاته .

* * *

على أن المتهم قد يدفع عن نفسه بأنه ارتكب ما هو منسوب إليه تنفيذاً لأوامر رؤسائه ، وإنه لدفاع وجيه ، وإنما ينبغي أن يقوم عليه الدليل . فإن دل على رؤسائه ، وكانوا أحياء ، ووجهوا به وتقاذفوا عبء الجريمة كما يتقاذف لاعبان الكرة بينهما حتى تستقر على أحدهما أو على كليهما . وإن كانوا أمواتاً فينبغي أن يصرف النظر من ذلك الدفاع ويطرح ظهريا على أساس أن الأصل هو الأمر باتباع قواعد القانون الدولي العام ، وعلى من يدعي العكس أن يتقدم بدليله .

* * *

على أن المحاكمة ينبغي أن تجرى بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وليس ما يمنع من تجميع الأدلة و « إثبات الحالة » على نحو ما يقع في التقاضي بين الأفراد ، وسماع الأقوال وتدوينها ، والتحفظ على كل ما يفيد المحاكمة . أما أن تتم المحاكمة أثناء الحرب فأمر قد يثير من جانب ألمانيا رغبة الانتقام ، فتعدم أسرى الحلفاء ، ولو بغير مظهر المحاكمة .

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

٥ – جمال الدين الأفغاني

ماتت جريدة العروة الوثقى ، ولكن لم يمت أثرها ، فقد أحيت روح كثير من المثقفين في العالم الشرقي ، وأيقظتهم من سباتهم ، وبصَّرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال ، وعلَّمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون إلى الشعور بالقومية الذي سمي بعدُ بالاستقلال ؛ فإن قلنا إنها كانت أول شرارة في الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبي لم نبعد ، فقد كتبت في الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية ، وعالجتها كلها في حماسة وتهييج بالغين ، ونظرت إلى كل ذلك في ضوء السياسة الدولية العامة ، والتفتت إلى الشعوب تحركها وتثير شعورها ، وإلى الحكومات المختلفة تبين لها أضرارها من احتلال الشرق ؛ وهكذا وهكذا .

لم تتأثر بالدعوة وقتئذ الشعوب ولا الحكومات الأجنبية ولا المحلية ، وإنما تأثرت بها طبقة قليلة من المستنيرين في الأقطار الشرقية المختلفة تأثراً كان نواة للحركات الوطنية بعد . ولست أزعم أنها كانت النواة الوحيدة ، ولكن كانت النواة الأولى .

على كل حال عطلت الجريدة وانفرط عقد القائمين بأمرها . فالشيخ محمد عبده وميرزا باقر يعودان إلى بيروت ، والسيد جمال الدين إلى فارس بناء على دعوة من الشاه ناصر الدين . تلقاه الشاه والعلماء والأمراء في حفاوة ، ولكن سرعان ما دبت الغيرة إلى نفس الشاه وأحس خطره فتنكر له ، فاستأذن السيد في الرحيل ورحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا ، وأقام نحو ثلاث سنين من سنة ١٨٨٦ — سنة ١٨٨٩ .

لماذا اتجه إلى روسيا وماذا عمل في هذه المدة ؟

إن معلوماتنا عنه في هذه الفترة قليلة ، وأكبر الظن أنه شغل فيها بشيئين : ١ — حال المسلمين الروسيين وعددهم نحو ثلاثين مليوناً وكانوا يعاملون في عهد القياصرة معاملة ظالمة جائرة ، فلعله حاول باتصاله برجال الحكم إذ ذاك أن يلطف من ظلمهم ويخفف من جورهم . وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر في طبع المصحف وبعض الكتب الدينية لمسلمي الروس فأذن له في ذلك . ٢ — ما كان لروسيا من أثر كبير في سياسة الشرق ومناهضتها للسياسة الإنجليزية في آسيا ، وضغطها الشديد على الدولة العثمانية ، والعمل على إضعافها ، وتقطيع أوصالها ؛ ومع هذا التنافس والخاصمة على الشرق بين إنجلترا وروسيا فإن كثيراً من السياسيين يرون أن هذه المنافسة أفادت إنجلترا

وهذا هو ما وقع فعلا ، حيث أعلنت ألمانيا ، عقب تنفيذ حكم الإعدام الصادر من محكمة خاركوف ، عزمها على الانتقام من الطيارين الأمريكان الذين في أسرها ، وإن كان من المعتقد أن ذلك العزم غير مقصود منه التنفيذ بقدر ما قصدت منه ألمانيا إلى التفرقة بين الحلفاء ، غير أن حكومات بريطانيا وأمريكا والسوفييت والممتلكات البريطانية المستقلة تدرس ما يمكن اتخاذه من إجراءات دبلوماسية عن طريق سويسرة ، وغيرها من الدول

المحايدة ، مع حكومة برلين .

والمتوقع أن ألمانيا لن تقدم على ذلك لأن أسراها عند الحلفاء أكبر عددا من أسرى الحلفاء عندها .

وإلى كتابة هذه السطور لم يجد على الموقف جديد .

ويبقى أخيراً أن تتشكل المحكمة الدولية المرتقبة من دوائر متعددة ، تيسيراً للإجراءات الحاكمة ، ولكيما تفرغ من مهمتها في أسرع وقت وعلى أكمل صورة .

سامي عازر عبد الله
المحامي

وفرنسا وإيطاليا أكثر مما أفادت روسيا . فلولا ضغط الروس على الدولة العثمانية ما سهل على فرنسا الاستيلاء على الجزائر وتونس ، ولا على إيطاليا الاستيلاء على طرابلس ، ولا على انجلترا الاستيلاء على مصر .

على كل حال انغمس «السيد» أثناء إقامته في روسيا في السياسة الدولية وحرض روسيا على سياسة انجلترا ، ونشر في الجرائد الروسية مقالات في السياسة الأفغانية ، والفارسية ، والعثمانية ، والروسية ، ونقد السياسة الإنجليزية ، وقابل القيصر فسأله عن آرائه في الشرق ، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه فقال إنه الحكومة الشورية ، أدعو إليها ولا يراها . قال القيصر : الحق مع الشاه ؛ فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته . قال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص . فلم يعجب القيصر هذا الحديث ، وقام : علامة الإذن له بالانصراف .

ثم سافر إلى أوروبا على نية أن يزور معرض باريس سنة ١٨٨٩ ، وفي أثناء سفره من روسيا إلى باريس نزل بمونيخ في ألمانيا ، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين فعرض عليه العودة معه إلى فارس ، واعتذر إليه عما كان ، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح الذي يقترحه ، فرفض السيد أولا وقبل أخيراً .

ها هو «السيد» في طهران ، يلتف حوله جمهور من العلماء والعظماء ، ويتبلور فيه ما في نفوس الخيرين من ميل إلى الإصلاح ، فسعى هو ومن التف حوله إلى وضع المشروعات في إصلاح الإدارة ، وإقامة العدل ، وتقنين القوانين ؛ وفوق ذلك تنظيم الحكم النيابي للبلاد . والحركة تشتد وتمتد ، والشاه يظهر الاستعداد لقبول هذه المطالب ، والنفوس العاملة تفرح لقرب النصر ، والأمل في الخير ، ولكن سرعان ما اكفهر الجو وأنذر بالصواعق ؛ فقد وسوس الصدر الأعظم للشاه أن الحكم النيابي يسلبه سلطانه ، والنظام الإداري والقانوني المقترح أعلى من مستوى الناس ، ونحو ذلك من مقالات السوء التي سمعنا مثلها في مصر أيام إقامة «السيد» فيها ، وفي تركيا أيام مدحت ، وفي كل مكان وزمان يدور فيهما النزاع بين دعاة الإصلاح ودعاة الرجعية .

فتجهم الشاه له وأحس «السيد» الخطر منه فخرج إلى مقام «عبد العظيم» أحد أحفاد الأئمة — على بعد نحو عشرين كيلو من طهران — والفرس يعدون مقامه حرما من دخله كان آمناً . اتخذه «السيد» مركزاً لدعايته وخطبه وتهييج الرأي العام لطلب الإصلاح ، وبعض العلماء والوزراء والضباط يحجون إليه ليسمعوا خطبه ، ويصغوا إلى آرائه ، ويعودون وقد شحنوا قوة كهربائية بقدر تحملهم للشحنة وكلهم ثائر هائج يريد الإصلاح . وأقام على ذلك أشهراً والبلاد يزداد غليانها ، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً ، والمنشورات تذاع ، والكتب التغفل من الإمضاء تصل إلى الشاه بالعدل أو العزل ، وبالحكم النيابي أو تولية غيره .

فما راع «السيد» إلا خمسمائة جندي مسلحون يهجمون عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ولا بمرض السيد مرضاً شديداً . وكما يصف هو : «سحبوني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة . . . ثم حملني زبانية الشاه — وأنا مريض — على برذون ، مسلسلا ، في فصل الشتاء ، وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين» ، (ومنها سافر إلى البصرة) يعاني ألم المرض الذي اشتد عليه من هذا الحادث وكاد يودي به لولا لطف الله .

فلو رأيته ثم رأيت رجلاً أكلت منه الحمى الجثة حتى المرض ، وقد تجمع دمه في رأسه يختنق ، وفي وجهه يلتهب ، وفي عينه تقذف بالشرر ، كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب ، المعزز الحسب ، الرفيع الجاه ، العالي المنزلة في دينه وشرفه وعقله ، ورغبته في الخير ، كيف

رجوه الشاه أن يأتى بلده ويمده أن ينفذ إصلاحه ، ويملى كفه ، ثم يعامله معاملة العبد يطرد ، والذليل يصفع ، والحقير يهان .

لقد آلى أن ينتقم منه شر انتقام ، وألا تهدأ نفسه حتى يزله من عرشه ، وقد برّ فيما أقسم . فأخذ يكتب إلى علماء الدين السموى الكلمة يهيجهم على الشاه ، ولا يتورع أن يصفه بأقبح الصفات ، ويبين ضرره على الأمة ، ويثير عاطفتهم الدينية ، ليثبوا عليه حتى يخلع . وكان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكارها « التنباك » فانتهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار ، وأهاب برجال الدين أن يذودوا عن وطنهم ، فاستمعوا إليه ، وهاجوا على الشاه ، وهيجوا عليه ، حتى اضطر إلى فسخ العقد ، ودفع نصف مليون ليرة تعويضا للشركة ، فكانت هذه أول خطوات الانتقام .

ثم لما عادت إليه عافيته سافر إلى لوندرة ، وحاضر النبلاء والكبراء فى مصائب الشاه على فارس ، وساهم فى إخراج مجلة شهرية اسمها « ضياء الخافقين » تصدر بالعربية والإنجليزية ، كان يكتب فيها مقالات بإمضاء « السيد الحسينى » يفضح فيها حكومة الشاه ، وسوء الإدارة ، وانتشار الرشوة ، وتعذيب الأهالى ، ويحرض فيها العلماء على عمل خطير ، وهو أن يصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه ، فإذا هو طريد ، ويختار من الألفاظ والجمل فى مدح العلماء وقوتهم أعذبها وأقواها ، وفى ذم الحكومة والشاه أهجاها وأقساها .

وهذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين دعاه إليها حدته وحبه للانتقام ؛ إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى « العروة الوثقى » ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس .

لقد كان مدحت باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه « عبد الحميد » ، وأخذه رجاله من دست الوزارة إلى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل . ومع هذا فما وضع رجله فى أوربا حتى أخذ يسعى فى دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير فى فضل الأتراك على أوروبا ، ولا ينطق بكلمة فى ذم عبد الحميد الذى عامله معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حدة مزاجه .

لقد رجاه سفير فارس أن يكف عن الطعن فى الشاه وعرض عليه المال الكثير ، فقال : لا ، حتى يلقى الشاه منيته .

تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو « السيد » إلى الآستانة ، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة ، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم ، خصوصا وقد كان السيد اجتمع فى باريس ببعض رجال هذه الجمعية ، وأطلعوه على خططهم فى إصلاح الدولة العثمانية فراقه مذهبهم ، وشجعهم على عملهم ، وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » وبلغ السلطان ذلك عنه . ثم إن الشاه وسّط السلطان فى كف أذى جمال الدين عنه ، فرجا السلطان عبد الحميد أن يزور الآستانة فأبى ، ثم سلط عليه حيله ومكايده ، ووعده ومناه ، وأطمعه وأمله حتى قبل ، وما إن وضع رجله فى الآستانة حتى كان فى قفص من ذهب أحكم بابه . لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الآستانة إذا شاء ، ولكن كان كل ذلك خدعة .

أمر السلطان عبد الحميد باستقباله استقبالا حسنا ، وأجرى عليه ٧٥ ليرة شهريا ، وأنزله بيتا ظريفا فى نيشان طاش ، بالقرب من يلدز ، وجعل تحت أمره عربة وخدما وحشما ، بعضهم للخدمة والتجسس ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية المادية .

لقد خيل إليه أنه بمعونة السلطان يستطيع أن يوسع دائرة إصلاحه ، فيضع خطته لجامعة إسلامية ، يؤلف بها بين فارس والأفغان وتركيا ويلاياتها بنوع من الاتحاد أو الحلف ، ثم يرسم منهج إصلاح الإدارة فى الدولة العثمانية

وإصلاح التعليم ، ورأيه أن جو الآستانة فى عهد عبد الحميد لا يصلح أن تنمو فيه بذرة صالحة ، وكان له فى مدحت وأشباهه العظة البالغة ، وقد زار الآستانة الشيخ محمد عبده بعد وفاة السيد وفى عهد عبد الحميد ، فقال فيها : « إنه لم ير بيئة فى العالم ولم يكن يعقل وجود بيئة كالآستانة فى سوء تأثيرها فى العقل والفكر والقلب ، وإن ذهنه فيها كان ممسوحاً كأنه لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء ، ولهذا كان أحرار الترك معذورين فى شرودهم منها ، وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والمحن » .

قابله السلطان فى يلدز ، فرأى منه شخصية غريبة جريئة فى القول والحركة جرأة لم يشهدها من أحد قبل . يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة الشاه فيقول « السيد » : إنى لأجلك قد عفوت عنه ، فيرتاع السلطان لمثل هذا القول — والسيد فى حضرته يلعب بحبات السبحة ، فإذا لفت نظره رئيس المابين إلى ذلك بعد خروجه قال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء » ، فيفزع رئيس المابين ويهرب من سماعه هذه الكلمة خشية أن يكون قد سمعها أحد .

لقد تحدث إلى السلطان كذلك فى الحكم الشورى للدولة العثمانية ، فخدعه السلطان بتظاهره بحسن الاستعداد له ، وفرح السيد بهذا التظاهر ، واتفق معه على العمل لتكوين الجامعة الإسلامية ، وعرض عليه السلطان منصب شيخ الإسلام — فأبى إلا إذا عُدِّل النظام من أساسه أولا . وكرر مقابلته للسلطان والحديث إليه ، وكوّن أخيراً فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكى واسع الاطلاع على السياسة الأوربية وألاعيبها ، واسع الحيلة فى العمل على ضرب بعض الدول ببعض ، ولكنه جبان يفسد عليه جبنه ذكاءه ومعرفته .

كانت المدة الأولى من إقامته فى الآستانة محفوفة بمطالب السلطان عليه ولو ظاهراً — يزوره السيد ويشير عليه بالإصلاح . قال له مرة : « خذ بحزم جدك السلطان « محمود » وأقص الخائنين من خاصتك الذين يكتمون عنك حقائق ما يجرى فى الولايات ، وخفف الحجاب عنك ، واظهر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكن ذهب كل ذلك مع الريح ، ووُجد له فى الآستانة خصم لدود ، هو أبو الهدى الصيادى الذى أتقن من الحيل والدهاء والدسائس والمؤامرات والغيلة على عقل السلطان ما لا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحته ونصحه ، ففسدت حياة السيد ، وفسد ما بينه وبين السلطان ، وضاع كل أمل له فى التعاون معه على الإصلاح ، وأصبح يقول فى مجالس خاصته : « إن هذا السلطان سل فى رئة الدولة » . واقتصرت قيمة السيد مدة إقامته فى الآستانة — وهى أربع سنين وأشهر — على ما كان يلقيه على زواره وسماره من أحاديث وآراء ، إلى دسيسة بين حين وآخر تحاك حوله ، ويصرف الزمن فى نقضها .

وكل تراثنا منه فى هذه الفترة بعض من أحاديثه الطيبة وآرائه الطريفة (١) ، وتحريكه عقول سامعيه إلى التفكير الحر فى الإصلاح وفى الشؤون الاجتماعية .

فى هذه الفترة كانت تظهر من أحاديثه آثار الأسف والحزن ، إذ يستعرض ماضيه فيرى ما كان منه من جهاد طويل فى تحريك الشعوب الإسلامية ثم لم ينبض لها عرق ، وفى رجال عقد عليهم الأمل ثم غدروا ، وفى شاه خان ، وفى جريدة عطلت ، وفى سلطان لا أمل فيه ، وفى بيئة خانقة . ماذا فى يده بعد حياة طويلة قضاها فى الكفاح وفى النفى ، وفى الحبس ، وفى الطرد ، وفى التفكير والتحرير ، وفى

(١) روى كثيراً منها المخزومى فى خاطراته وشكيب أرسلان فى ترجمته .

إيقاظ العقول النائمة والنفوس الخائرة ؟ لا شيء . إلا أنه أسد في حديقة الحيوانات ، ينشد حرية نفسه فلا يجدها ، بعد أن كان ينشد حرية الأمم الإسلامية كلها ويأمل أن يجدها .

يزوره شكيب أرسلان ، ويدور الحديث حول ما رُوى من أن العرب عبروا المحيط الاطلانطيقي قديمًا ، وكشفوا أمريكا ، فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كما قال لهم الإنسان كونوا بني آدم أجابوه إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاد ، كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم » ، « إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هو شهواتهم » ؛ « هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

ولكن أحيانًا تنقشع عنه سحابة اليأس ، ويعود إلى أمله في الشرق والمسلمين ، ويعود إلى ذكر الداء والدواء ، والأمل في العلاج ، كشكل النفوس البشرية ، تتردد بين الحزن والسرور واليأس والأمل ، وكالطبيعة تتردد بين الصحو والغيم والإرعاد والإبراق ثم الإشراق .

فبينا هو في رفقة من صحبه يحللون أدواء الشرق ويستوصفونه العلاج ، فيقول : إن الدواء هو ما يسير عليه الغربيون من العزة والجري على قول الشاعر العربي : « عش عزيزا أو مت وأنت كريم » فإذا كان هـذا بعيد المنال ، فلابد من تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة ، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم عهدا ألا يفرعوا بابا لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثني عزيمهم الوعيد ، ولا يغريهم الوعد بالنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا التكسب ، بل يرون في المتاعب ، وتحمل المكاره لنجاة الوطن من الاستبداد غاية الغنم وفي عكسه الغرم .

قيل له : وهل هذا في الإمكان .

قال : « إن الأزمة تلد الهمة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك — وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ، سنة الله في خلقه » .

ثم استطرد في هذا المجلس إلى بيان الخطر مما تستعمله بعض الأمم الأجنبية في الشرق من إضعاف اللغة القومية ، وقتل التعليم القومي ، والتنفير من آداب الأمم الشرقية لتُحل محلها لغتها وآدابها مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم » . وكانت محاضراته في مجالسه تدور حول موضوعات عامة تُخلقها المناسبة ، كلها ترمي إلى الإصلاح في العقيدة وفي الاجتماع وفي اللغة[1] . وبين حين وآخر تُثار حفيظة السلطان عليه بما يدبره أبو الهدى الصيادي وصحبه فيزور الأستانة — مثلا — الخديوي عباس ، ويريد مقابلة جمال الدين ، ولا يكون هذا إلا بإذن ، فيرفض السلطان ويأمر جمال الدين ألا يقابله فقال لرسول الخديوي : « إن كنت للسلطان أسيرًا لمضيق في منزله ولكني أذهب كل يوم إلى « السكلدخانه » لتنزه فإن شاء أن يحضر الخديوي إلى هناك فليفعل . فذهب الخديوي وقابله على انفراد فأطرى الخديوي السيد وأبدى له إعجابه به وحياه تحية لطيفة ، وهذا كل ما كان فأثار الجواسيس إشاعات في الجو ، وملأوا التقارير بأن

(١) وردت هذه الموضوعات في كتاب خاطرات جمال الدين للمخزومي .

جمال الدين قد تعاقد مع الخديوي عباس على تأسيس دولة « عباسية » ووضعوا بيتين نسبوهما إلى جمال الدين هما :

شاد الخلافة في بني العباس عباس لكن نمته السفاح
ولأنت خير ممهّد ستشيدها بالبشر يا عباس يا صفاح

وقامت الدنيا وقعدت ، واستدعى السلطان جمال الدين وسأله فقال إن الأمر بسيط فقد كتبت التقارير إنا كنا وحدنا وليس معنا ثالث ، فمن سمع هذا القول ؟ وهل إذا كان هذا الخبر صحيحاً أقوله أنا أو يقوله عباس ؟ ثم أقسم أن شيئاً من ذلك لم يحدث وأنه في حياته لم ينظم شعراً وانتهى الأمر ، ولو — في الظاهر — بعد جلبة طويلة وضجة مفتعلة .

وحدث أن الشاه ناصر الدين — الذي كان بينه وبين السيد الخصومة التي عرفنا — قد قتل وكان القاتل أحد تلاميذ جمال الدين ، وممن كانوا يزورونه في الآستانة ، وروى أنه عند ما أطلق طلقته قال : « خذها من يد جمال الدين » ، وروى عن جمال الدين أنه لما بلغه ذلك قال كلمات تدل على الإعجاب بالقاتل فذلك كله أرعب السلطان عبد الحميد وخاف منه على حياته ، فضيق عليه في مقابلاته ومنع زيارته إلا بإذن فغضب جمال الدين وعزم على الرحيل من الآستانة ووعد بإعطائه التصريح بذلك من المفوضية الإنجليزية ، ولكن السلطان خاف منه في الخارج كما خافه في الداخل ، وهو تحت سمعه وبصره أهون ، فاسترضاه ورجاه في البقاء ، واستعان بأترة إيائه المار من الالتجاء إلى دولة أجنبية ففعل .

ثم حلت المشكلة نفسها بمرضه بالسرطان في فمه ثم وفاته ، وشاعت الإشاعات المختلفة حول موته من إهمال مقصود في معالجته والاتفاق مع طبيب السلطان للتخلص منه .

وأما ما كان فقد مات وشيعت جنازته كأقل الناس — لم يسر فيها إلا أفراد معدودون غلبتهم الجرأة والوفاء ، ودفن كما يدفن عامة الناس ، ومنعت الجرائد في الولاية العثمانية من تأبينه .

* * *

لقد قصدت الآستانة سنة ١٩٢٨ بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة فرأيت واجباً أن أزور قبر هذا الرجل العظيم وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله ، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه ، ورأيت رجلا أفغانيا يعمل خازنا للمكتبة الشهيد على ، فوصف مكانه لي فذهبت مع صديق العبادي مصر يوم الأحد ٨ يوليه إلى « ماچقه » أو « متشكه » فوجدت في ربوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتثرت فيها المدافن ، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد ، فعلمنا أن قبره كان قد تشعث ولم يعن به أحد ، وكادت تضيع معالمه ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذي أفنى فيهم حياته ، إنما ذكره مستشرق أمريكي حضر إلى الآستانة سنة ١٩٢٦ ونقب عن قبره حتى وجده ، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وفي وجه آخر كتابة تركية ترجمت لنا كما يأتي : «أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم الخيّر الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦» .

وقفنا على قبره وقلنا — هنا رقد محيي النفوس ومحرر العقول ، ومحرك القلوب ، وباعث الشعوب ، ومزلزل العروش ، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته ، وتخشى من لسانه وسطوته ، والدول ذات الجنود والبنود تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفسا بحريته .

هنا خمد من كان يشعل النار حيث كان ، في الأفغان ، في مصر ، في فارس في باريس في لندرة في الآستانة .

هنا باذر بذور الثورة العرابية ، وموجج النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك العالم الإسلامي كله لمناهضة الحكومات الأجنبية ، والمطالبة بالإصلاحات الاجتماعية . هنا من حارب اسماعيل وتوفيقا في مصر ، وناصر الدين في فارس ، وإنجلترا في باريس ، وحارب الجهل والأمية والذلة في الشرق ، والجاسوسية والنفاق في الآستانة ، ولم ينتصر عليه شيء إلا الموت .

لقد أجللناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسنا لذكراه ، فكيف كان محضره ومرآه ، رحمه الله . أحمد أمين

الخطأ والنقد البرىء

خير معلم

الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

كثير من الناس يحجم عن القيام بالعمل مخافة ألا يقوم به على الوجه الأكمل ويخشى أن يظهر للناس ما يقع فيه من أخطاء، وما يبدو فى عمله من عيوب . كذلك نرى أن كثيراً من الرؤساء يترددون بل ويحجمون عن تكليف مرءوسيهم ولا سيما الصغار منهم ببعض الأعمال خشية ألا يحسنوا القيام بها . وهناك من الآباء من يأبى أن يمد ابنه بشىء من المال يبدأ به تجارة أو صناعة أو قطعة من الأرض يفلحها بنفسه لأنهم يرجحون أن أبناءهم لن ينجحوا فى تنفيذ مشروعاتهم كما ينبغى لعدم خبرتهم فى العمل وقلة تجاربهم فى الحياة .

ولعل هذه الظاهرة من أهم الأسباب التى تؤخر تقدمنا المالى والاجتماعى والفنى ، فهى إذن تستأهل شيئاً من التحليل والتفكير والمعالجة . وهى تتضمن عدة عناصر جديرة بالتأمل كل منها على حدة .

فهنالك عنصر الاستعجال والطفرة . فالشاب يريد أن يكون من أول الأمر تاجراً كبيراً ، أو صانعاً عظيماً ، أو صاحب مزارع واسعة وإدارة متشعبة . والآباء يريدون من أبنائهم أن يكونوا من مبدإ حياتهم ماليين يحسنون تدبير الأعمال وصرف الأموال واقتناص الربح الوفير دفعة واحدة . والرؤساء كثيراً ما ينسون أو يتناسون أيامهم الأولى وينتظرون من الصغير أن يقوم بالعمل على الوجه الذى يقوم به عليه الكبير سواء بسواء . وهذا كله مخالف للطبيعة وتحميل لها فوق ما تطيقه . فلا شك فيه أن الإنسان لا ينمو إلا من الأخطاء التى يقع فيها أثناء التجربة الفعلية .

ولقد قالوا فيما مضى ونقلنا عنهم أن خير وسيلة لتعليم الصبى السباحة هى أن تقذف به إلى الماء ، وتدعه « يطبش » ويحاول ثم يحاول ويجرب ثم يجرب فلا يلبث أن يعرف كيف يزن جسمه فى الماء ، ويعصم نفسه من الغرق . وطبيعى أن يكون مدرب الصبى قد أعطاه قبل أن يقذف به فى الماء بضع تعليمات قليلة فى الصميم ، وأن يكون قد رتب نفسه على أن يراقبه عن كثب حتى يبادر إلى نجدته إذا رآه قد فقد السلطان على أعصابه واختل توازنه وصار مهدداً بالغرق .

وقد عهدنا أن الصانع إذا أراد أن يعلم « صبيه » ركة فى الورشة يعدل المسمار ثم يدقه ، ويفك الجهاز البسيط ويركبه ، فإذا أخفق مرة حاول أخرى ، وإذا أخطأ مرة صحح خطأه فى المرة الثانية . وإذا استعصى عليه شىء أعمل فكره واحتال بكل ما أوتى من ذكاء لكى يتغلب على صعوباته دون أن يلجأ إلى « الأسطى » . وهذا بدوره تجده إذا كان يعنى بحق تعلم « الصبى » وتنشئته صانعاً ماهراً تجده يرقبه من حيث لا يشعر فى جميع حركاته وأعماله ويعطيه من آن لآخر إرشادات قليلة طفيفة عرضية تعاونه فى فتق الحيلة والتغلب على الصعاب وتصحيح ما يكون قد وقع فيه من خطأ لم يفطن له من تلقاء نفسه أو من أخطاء عرفها وعز عليه أن يكتشف بعد الجهد طريقة تصحيحها بغير مساعدة .

كذلك نجدهم فى بعض البلاد ، حين يريد الشخص أن يكون معلماً ، يدفعونه إلى إحدى المدارس الأولية ويدعونه يقوم بالتدريس فيها شهراً يذوق فيه الأمرين ، ويستهدف للأخطاء والصعوبات ، ويحاول تصحيح الأولى وتذليل الثانية ، فإذا عز عليه ذلك ، يكون على كل حال قد كسب ممارسة الخطأ وتقدير الصعوبات بحيث يستفيد حين يستمع إلى أساتذته بعد ذلك وهم يشرحون الصعوبات التى يلاقيها المدرس ويبينون طريقة التغلب عليها . فهذه الأخطاء تكون ماثلة أمام أعين الذين مارسوها بالفعل وجربوها ،

وتعبوا فيها ، وتشوقوا السماع من يحدثهم عن وسيلة للتغلب عليها . وهذا بعينه هو شأن التلميذ فى دراسته العادية ، فهو لا يستفيد أقل فائدة من الالتفات إلى مدرسه وهو يحل أمامه مسألة صعبة على السبورة إلا إذا كان هذا التلميذ قد حاول بالفعل أن يحل هذه المسألة أو شبيهاتها ، حاول مرة بعد مرة وأخفق بعد بذل الجهد ، فهذا هو الذى يستفيد حقا من الدرس أثناء العمل على السبورة .

فمن أهم عناصر تلك الظاهرة الخطيرة التى نحن بصددها إذن هو تناسى تلك الحكمة الثمينة وهى أن الخطأ أكبر معلم وخير مرشد ، وأن التجربة هى التى تكسب الإنسان المران ثم المهارة عن طريق تصحيح الأخطاء واحدة بعد واحدة ومرة تلو مرة .

من أجل هذا كانت أهم نصيحة تسدى لمن يريد أن يشق طريقه فى الحياة وينجح فيها نجاحاً باهراً ، ولمن يريد أن يقوم بالمشروعات الكبيرة ، أن يمهد لكل عمل ينوى القيام به بتجربة صغيرة على نطاق ضيق يتبين فيها العقبات وطبيعتها ، ويتمرن فيها على الحيل واحدة بعد أخرى للتغلب هذه على الصعاب وما يزال بالآراء يقلبها والأساليب يبدلها حتى يصل إلى أنجع الوسائل للتغلب على الصعوبات ، فإذا تجمعت له الخبرات القيمة جاز له بعد ذلك أن يقوم بالعمل على نطاق واسع ، ويقدم على المشروع الكبير بعد أن رسم له المشروع الصغير طريق النجاح .

لذلك كان أنجح التجار والصناع والزراع هم أولئك الذين بدأوا صغارا وتدرجوا فى النمو والكبر والاتساع تبعا لتراكم الخبرات والتجارب ، ولتوالى النجاح مرة بعد أخرى . ولا يقتصر ذلك على الأفراد بل إن هذا النصح يبذل أيضا للجماعات بل للحكومات . ومصر مقدمة فى الوقت الحاضر على مشروعات عديدة فى مختلف مرافق الحياة لتنشيط الصناعة والتجارة وإحياء الزراعة على أسس علمية حديثة ، وتحسين الصحة لجميع أفراد الشعب ، وتعميم التعليم فى القرى والمدن إلى غير ذلك من مرافق الحياة بوجه عام . وما ينبغى للحكومة أن تقوم بأى عمل من أعمالها فى مبدأ الأمر على نطاق واسع ، بل يجب أن تقوم لكل مشروع بعمل تجربة بسيطة كما قدمنا ، على نطاق ضيق تتبين فيها الصعوبات ليكتسب الرجال المنفذون الخبرة على أنجع الطرق للتغلب على تلك الصعوبات .

* * *

نأتى بعد ذلك إلى عنصر آخر من عناصر هذه الظاهرة على جانب عظيم من الأهمية ألا وهو عنصر النقد . فكثيرا ما يكون إحجام الفرد عن القيام بعمل ما راجعاً إلى تخوفه من نقد الناس لما ينتجه هذا الفرد لاسيما إذا كان لا يجيد العمل الذى يتصدى للقيام به أو المشروع الذى يقوم بتنفيذه وبذلك لا يضمن له الإتقان الواجب . وهذا التخوف يكون أحيانا من صنع الخيال أو الوهم لا سيما عند الأشخاص الذين لهم حساسية بالغة وشعور رقيق إلى حد كبير كما يكون فى كثير من الأحيان تخوفا فى محله .

فالجمهور عندنا حتى جمهور المثقفين أنفسهم لم يتعود احترام جهود المجتهدين والتغاضى برفق وعطف عن أخطاء الناشئين كى لا يشعرهم بالخجل الذى كثيرا ما يقتل فى النفس همتها ويضعف فى المرء اعتداده بنفسه ، وثقته بمقدرته .

ويجد الناقدين فى كثير من الأحيان متحاملين مبالغين متشددين متجاهلين أن النقد لا يمكن أن يكون منتجا مفيدا مقبولا إلا إذا أورده صاحبه بهدوء ورفق وكياسة حتى لا يجرح المنقود ويغيظه ويجرح إحساسه . والنقد العنيف قد يغذى الشخص المستهدف له إذا هو ثار عليه وأخذته العزة فرده إلى صاحبه بعنف أيضا . أما النقد الذى يصدر من صاحبه بأناة وحذر وصراحة المصلحة وحدها فهو نقد يجب أن يتقبله المنقود بصدر رحب وتطيب إليه نفسه ويستفيد منه فى إصلاح أخطائه مقدرا لصاحبه حسن نيته ونبل مقصده . ولكن المشاهد عندنا أن الناس يتفرون

من النقد حتى ولو كان بهـذه الصورة النافعة الضرورية متناسين أن النقد الصحيح هو الذى يضمن الوصول إلى الرأى السليم ، وإلى إتقان العمل وإجادة الفن .

ولعل نفورنا من النقد وعنفنا فيه هو الذى أخر إلى حد كبير تقدمنا الفكرى . فصاحب الفكرة يخشى إذا طلع على الناس بها أن يسفهوه مع أنها قد تكون فكرة تحمل فى ثناياها بذور نظرية صحيحة ، أو اكتشاف خطير كان من الممكن الوصول إليه لو أن الناس تعودوا أن يشجعوا صاحبه ، وأن يبدوا آراءهم فيما يقوله ، ويناقشوا ذلك كله فى جو هادىء تسود فيـه روح السعى وراء المصلحة والجرى وراء الحقيقة . وهذا ما يفعله الجمهور فى البلاد الراقية .

ففى اجتماعاتنا العلمية هنا نقتصر على الاستماع للمتكلم والتصفيق له متى انتهى من كلامه ، ثم ننصرف فيتحدث كل منا بما يعن له من كلام الخطيب أو المحاضر مما يكون غالباً نقداً لاذعاً أو تهكما جارحاً . أما هناك فالناس فى كل اجتماع يستمعون إلى المتكلم فى هدوء ، فإذا انتهى من كلامه أخذوا يناقشون بحرية فى الآراء التى أوردها بروح طيبة يسودها تقدير للرأى أيا كان ، ويعارضونه بأسلوب رقيق تتجلى فيه آداب المناقشة والنقد البرىء . ولاينسون أبداً أن يشيدوا بكل ما ورد على لسان المتكلم من آراء قيمة ، وما وصل إليه من نتائج نافعة .

وناهيك عما فى ذلك من تعويد الناشئين على حسن الاستماع ، وعلى الالتفات إلى مواطن القوة والضعف فى الكلام ، وإلى تنظيم الآراء وحسن التعبير عنها ، والتمرن على الخطابة . فهذه الاجتماعات وما يجرى فيها وما يسودها من جو علمى حر تكون بمثابة مدرسة عملية لتخريج شباب مهذب قوى الحجة سديد الرأى صريح جرىء لا يخشى فى الحق لومة لائم .

من أعاجيب العبيط :

العبيط والاعدام

من المعلوم أن دستوفسكي خالق « العبيط » قد حكم عليه بالإعدام هو وعشرة من رفاقه الذين كانوا يميلون إلى الحرية الدينية والعدل الاجتماعي في عهد القيصر نيقولا الأول . وبينما هم في السجن أيقظهم الحراس في الصباح الباكر وقادتهم العربات إلى حيث لا يعلمون ، وإذا بهم في ساحة الإعدام حيث يتلى عليهم الحكم ويشد ثلاثة منهم إلى أعمدة الموت معصوبي الأعين وفصائل الجند من أمامهم لإطلاق الرصاص ودستوفسكي داخل ينتظر دوره . ومرت بالرجل دقائق ستقرأ أصداؤها عما قريب . وفي اللحظة الأخيرة لم تطلق النيران إذ عفا القيصر عن المتهمين واستبدل الحكم بالسجن أربعة أعوام في سيبيريا ثم النفي أعواما أخرى بنفس تلك البلاد السحيقة المهلكة .

وإذا ذكرنا طبيعة دستوفسكي المرضية وشدة إحساسه استطعنا أن ندرك كيف أن هذه المحنة الخاطفة قد تركت في نفسه أعمق الآثار . لقد خلفت بها مثل وقع السيف المسموم ما إن تنكأه حتى ينزف .

ومن عجب أن يجري الكاتب على لسان العبيط أنفذ ما أوحت إليه تلك اللحظات من إحساس . ولكن ألم نقل من قبل أن الأمير موتشكين لم يكن من العبط بحيث نظن ؟ لا . موتشكين ليس بعبيط . والدستوفسكي أن يسخر من المعقول كما يشاء . استمع إلى عبيطنا يحلل ما في الحكم بالإعدام من فظاعة « تصور مثلا رجلا يعذب . جسمه مغطى بالجراح . إن الألم الجسمي لن يلبث أن يذهله عن الألم النفسي حتى إن جروحه لتصبح إلى أن يموت عذابه الوحيد . ولكن أقسى أنواع العذاب وأعظمها ليس ما توقعه الجراح وإنما هو اليقين من أنك بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ثم بعد برهة واحدة ستطير روحك من جسدك وأنك لن تعود إنسانا وأن كل هذا شيء مؤكد . هذا اليقين هو أشنع العذاب . . . ليس هناك أي تناسب بين الإعدام وبين القتل الذي تكفر عنه تلك العقوبة . فأحدهما أفظع من الآخر فظاعة لا نهاية لها . فالرجل الذي يذبحه اللصوص أو يحزونه بالحبل ، في غابة ، أو على أي نحو كان ، يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بالأمل في أن ينجو بالحياة . ولقد رأينا أناسا ، يحزونهم السكين ، ومع ذلك يأملون ويعدون ويتضرعون . وأما هنا فهذه البقية من الأمل التي تخفف من الموت عشرات المرات ، تراهم يحرمونك منها حرمانا تاما . هناك حكم . واليقين من أنك لن تفلت هو في ذاته العذاب الذي ليس في العالم ما هو أفظع منه . ضع جنديا أمام فوهة مدفع في معركة وأطلق المدفع تر أنه لا يزال يأمل ، ولكن اقرأ على نفس الجندي الحكم عليه بالإعدام تره إما أن يصيبه الجنون وإما أن يأخذ في البكاء . من قال إن الطبيعة البشرية تستطيع أن تحتمل هذا دون أن تخر في الجنون ؟ لم هذه القسوة التي لا فائدة فيها ؟ ربما كان هناك إنسان قرئ عليه الحكم بإعدامه ثم ترك برهة فريسة للرعب ليقال له بعد ذلك . إذهب ! فقد عفي عنك . آه ! هذا الرجل يستطيع أن يقص أحاسيسه . لقد تحدث المسيح نفسه عن هذا العذاب الأليم . لا . إنه لا يجوز أن نسمح بأن يؤخذ كائن بشري بعذاب كهذا ! »

يحدثنا العبيط عن رجل مرت به تلك المحنة فاستطاع أن يقص أحاسيسه . ولكن دستوفسكي كان أبعد خيالا وأغنى نفسا من أن يقف عند ما ابتلى . لقد عاد في موضع آخر فحدثنا بلسان العبيط أيضا عن تنفيذ الحكم بالإعدام فعلا وسار به إلى آخر مراحله على نحو لا نظن أن أحدا قد داناه فيه

« كان السجين يقدر أن الإجراءات العادية ستراعي

ولذلك اعتقد أن أمامه على الأقل ثمانية أيام . ولكن لأمر ما اختصرت المدة . في الساعة الخامسة صباحا كان نائماً وكنا في أواخر أكتوبر ، ولذلك فقد كان الجو في تلك الساعة لا يزال بارداً والنهار لم يشرق بعد . دخل مدير السجن ومعه أحد الحراس ، في غير جلبة ، ووضع يده على كتف السجين فنهض جالسا وسأل وقد رأى الضوء : ماذا حدث ؟ — اليوم بين التاسعة والعاشرة ستنفذ العقوبة . ولم يستطع السجين الذي كان النوم لا يزال بعينيه أن يصدق هذا الخبر فقد كان يزعم أن أمر التنفيذ لن يصل إلا بعد ثمانية أيام ، ولكنه عند ما كمل صحوه أمسك عن المناقشة ولزم الصمت . هذه هي التفاصيل التي ذكروها . ثم قال بعد ذلك : فليكن ! بغتة ... على هذا النحو ؟! إنه لأمر مؤلم ! ثم لزم الصمت من جديد ولم يرد أن يفوه بكلمة . ونحن نعلم كيف تمر الثلاث أو الأربع الساعات التاليات : زيارة القسيس ، الفطور : لحم ونبيذ وقهوة (آه ! يا لها من سخرية قاسية ! ولكن هؤلاء الناس لا يقصدون إلى شر فهم يعتقدون في سذاجة أنهم بتصرفهم هذا يأتون عملا إنسانياً) ، ثم عملية الغسيل والتجميل (وأنت تعلم ما هي هذه العملية بالنسبة للمحكوم عليه بالإعدام) . وأخيراً يحملونه في عربة ويقودونه إلى المقصلة . ولا شك أنه — فيما أعتقد — كان يتخيل أثناء تنقله أنه لا يزال أمامه في الحياة وقت لا نهاية له . « لا تزال أمامي ثلاثة شوارع أعيشها » . إنه زمن طويل ، عندما أصل إلى نهاية هذا الشارع ، سيظل أمامي شارع آخر أتابعه ، ثم ثالث حيث يوجد إلى اليمين مخبز ... وسيمر وقت آخر قبل أن نصل إلى هذا المخبز » . وحول العربة جمهور صاخب . عشرة آلاف رأس . عشرة آلاف زوج من الأعين ، وعليه أن يحتمل كل هذا ، ويتوج ذلك هذه الفكرة : ها هم أولاء عشرة آلاف ولكنهم لن يعدموا أحدا منهم بل أنا الذي سأموت » .

هذا عن المقدمات . سلم يقود إلى المقصلة . أمام هذا السلم أخذ الرجل في البكاء ، وكان رجلا قويا ذا خلق شديد . قالوا إنه كان مجرما كبيرا . والقسيس الذي ركب إلى جواره في العربة لم يتركه برهة واحدة وكان يحادثه باستمرار ، ولكنني أظن أن المسكين لم يكن يستمع إليه . ربما يكون قد حاول أن يصغي ولكنه بعد الكلمة الثالثة لم يعد يفهم شيئاً . وفي النهاية أخذ يصعد السلم والقيود التي تغل قدميه تضطره أن يخطو خطوات صغيرة . وأمسك القسيس — الذي كان بلا ريب رجلا ذكيا — عن عظاته مكتفيا بأن يقدم إليه باستمرار الصليب ليقبله .

لقد كان المجرم شاحبا عند أسفل السلم ، وأما الآن وقد وصل إلى المقصلة فإن وجهه صار أبيض كالصحيفة . لا شك أن أرجله أخذت تتداعى تحته وأن قلبه أخذ يثقل به . وكأن شيئاً قد خنقه وانتشر في جسمه إحساس بالخدر . هذه ظاهرة يولدها الرعب في تلك اللحظات المروعة التي يظل فيها العقل كاملا ولكنه يفقد كل ماله من سيطرة . إذا كان هلاكك مثلا محققا وكنت في منزل سينهار فوقك فإنك تشعر فجأة برغبة لا تقهر في أن تجلس وتغمض عينيك وتنتظر . ليكن ما يكون ... ... ورآه القسيس في هذه الحالة من الضعف فأدنى من شفتيه — في صمت وحركة سريعة — الصليب ، صليب لامع من الفضة . وكرر ذلك عدة مرات ، وعندما أحس به الرجل لاح أنه قد عاد إلى نفسه لمدة ثوان ففتح عينيه ومشى . لقد كان يقبل الصليب بنهم وهو في لهفة قلقة كالمسافر الذي يخشى أن ينسى شيئا سيحتاج إليه في رحلته وإن يكن من الراجح أن كل عاطفة دينية كانت بعيدة عن ضميره . تلك كانت حاله إلى أن شد على اللوح ... ... وإنه لمن الغريب أن الإغماء لا يحدث في هذه الثواني الأخيرة إلا نادراً . وعلى العكس من ذلك تحتفظ الرأس بحياة غزيرة . وتعمل بلا ريب بقوة كبيرة وكأنها آلة تسير . يخيل إلي أن ألواناً من الأفكار تطن عندئذ في الجمجمة . أشباح من الأفكار قد تكون مضحكة وهي لا شك في غير موضعها مثل : آه ! هذا المتفرج بجبهته « حسنة » . الجلاد بذلته زرار

صدى ، ومع ذلك نعرف كل شيء ونذكر كل شيء . وهناك مسألة لا يمكن أن ننساها وهي أنك لا تستطيع الإغماء . وحول هذه المسألة يدور كل شيء . ولتتصور أن هذه الحالة تستمر حتى آخر ربع ثانية . وعندما تمر الرأس من الطوق وتنتظر وتعلم ثم فجأة تسمع السكين تنزلق فوقها ؟؟ ! لاشك أنها تسمع . ولو أنني كنت شخصيا ممددا على الخشبة لأرهفت أذني ولسمعت الصوت ! وهو ربما لا يصدر إلا لعشر من البرهة ولكننا لا يمكن ألا نسمعه . ولتتصوروا أننا لا نزال إلى اليوم نود أن نعرف : هل الرأس لا تدرك — في الثانية الأولى بعد قطعها — أنها قد انفصلت عن الجسم ؟ » .

لست أدرى أصدق العبيط فى قصصه أم لم يصدق ، فنحن لا نعلم — كما قال شكسبير — أن ميتاً قد عاد ليخبرنا بما رأى ، ولا أن محكوما عليه بالإعدام قد وصف لحظاته الأخيرة ، بما فى ذلك برهة قطع الرأس والثانية التى تليها ، ولكنى أستطيع أن أتخيل أوضح الخيال ما يحدثنى به هذا الرجل العجيب . تأمل قليلا تلك الرأس التى تحتفظ بحياة غزيرة ومع ذلك لا تفكر إلا فى «حسنة» بجبهة متفرج ، أو زرار ببذلة الجلاد . أو ما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى يحيى اليأس أشبه إن فى تفاهة ما يدور بها لوحياً برعب الخيال . ثم أى مهارة فى فن هذا العبيط . كم من تفاصيل صغيرة تغزو النفس فى تدرج ماكر ، وكم من حيل يصطنعها ليبلغ منا ما يريد . وحيله نعد من صميم حياتنا القريبة . لحظته فى تقبيل الصليب هى لحظتنا جميعاً عندما نخشى أن ننسى شيئا سنحتاج إليه فى سفر . وشعوره شعور رجل حم به القضاء وأخذ البيت ينهار فوقه فلم يستطع إلا أن يجلس ويغمض عينيه وينتظر إرادة الله . ثم صوت السكين . بأى حرص يريد الكاتب أن نقف عند هذه البرهة أو عشر البرهة لنحققها بخيالنا . لقد خشى أن تمر بها سراعا ، فأوقفنا لنتاقشها . هل سيسمع انزلاقها ، وهل السكين سيمضى لصوتها . ورأى دهاء ، وضع الكاتب نفسه فى هذا الموضع ليخبرنا أنه لابد منصت عندئذ لذلك الصوت المروع ولابد مدركه . وما فعله الكاتب هناك أمل ضمنى فى أن يعقله عنا . وهذه هى سذاجة أهل الفن الماكرة الساحرة . وأخيرا هل أنا بحاجة إلى أن أدل القارىء على ما فى السؤال الأخير (إدراك الرأس فى الثانية التى تلى قطعها أنها انفصلت عن الجسم) من رهبة تقشعر لها الجلود .

وبعد فقد اقتتل علماء القانون حول عقوبة الإعدام ، وكتبوا فى ذلك المجلدات الضخام ، فمنهم المؤيد ، ومنهم الناهض ، ولكنى لا أذكر أن أحدا منهم قد فطن إلى معنى العدالة النفسية التى تصورها دستويفسكى هذا التصور الرائع . إن فى تحليله لعدم التناسب بين القتل والإعدام لحقا لا يدفع . فهذا اليقين الذى يلقى الموت بالنفس وهى حية عذاب لا مثيل لفظاعته . ثم تلك المهجة الحائرة التى أخذ عليها اليأس كل مسلك ، فتراها تعد ما بقى لها فى الحياة بالشوارع التى ستعبرها ، ومع ذلك يستقر فى ضميرها يقين بالفناء ، أو ما ترى فيها أشنع العذاب . وإذا صدق ما يقول هذا الكاتب العظيم أو ما يكون من العدل أن نقدر هذه العقوبة بوقعها النفسى وتكافؤ هذا الوقع مع ما ارتكب من جرم ، وألا نكتفى فى مناقشتها بما نتوقع من صونها لحياة الجماعة .

محمد مندور

حول الوحدة العربية

« الوحدة العربية بدون المغرب وحدة مبتورة »
طه حسين

كنت قد كتبت فى عدد سابق من الثقافة كلمة حول التعاون الثقافى العربى اقترحت فيها على معالى وزير المعارف المصرية أن يدعو الحكومات العربية إلى مؤتمر تعليمى تبحث فيه الإصلاحات التى دونها فى تقريره عن التعليم فى مصر ، ويدرس فيه ما يقبل من هذه الإصلاحات التى اتفقت على مبادئها أكثر الأمم الديموقراطية لأن يعتمد ويعمم فى جميع البلاد العربية .

وقد وجه إلى لوم من بعض إخوانى أبناء المغرب ، على أننى اختصصت بالذكر فى كلمتى البلاد العربية الشرقية ! ولم أشر بشىء إلى البلاد العربية المغربية ، واعتبروا ذلك منى ، كما هو من أكثر المعنيين بالشؤون العربية ، تقصيرا فى حق وطنهم المغربى .

وليس من شك فى أن إخوانى المغاربة على حق فيما ذهبوا إليه من لوم . وأنهم لا يؤدون واجبهم نحو وطنهم المغربى حين ينبهوننا نحن أبناء الشرق إلى ما نقع فيه من إهمال لهذا الجزء العزيز من الوطن العربى فحسب ، وإنما هم يؤدون واجبا ثقافيا وقوميا نحو الثقافة العربية والقضية العربية التى ينبغى التطلع إلى كل منهما على أنها وحدة لا تتجزأ فى المشرق والمغرب .

والعذر الوحيد الذى أتقدم إليهم به — إن كان ينفع العذر — هو أنى اقتصرت فى اقتراحى على ذكر دوائر المعارف العربية فى سوريا ولبنان والعراق والحجاز واليمن لاعتقادى أنها تتبع حكومات عربية مستقلة تستطيع أن تلبى دعوة الوزير بصورة رسمية حكومية إلى المؤتمر حين تعزم مصر أن تدعو إليه

وليس معنى ذلك أننى أرى حرمان البلاد العربية التى لم تستقل بعد ، سواء كانت شرقية أو غربية ، من الاشتراك فى المجهود الذى يبذل فى سبيل توحيد الثقافة العربية أو فى سبيل الوحدة العربية بصورة عامة .

إن هذا ما لا يمكن أن يفكر به عربى يؤمن بمستقبل العرب فى شرقهم وغربهم تسود الوحدة فيه نظام حياتهم ، كما أن هذا لا يتفق مع منطق الحوادث التى تتتابع فى العالم العربى ، وترينا أن البلاد العربية شرقية وغربية تسير فى طريق تحررى واحد نحو الاستقلال ؛ وكل ما فيه من اختلاف هو أن بعضها يسبق إلى خط من هذا الطريق لابد أن يوافيه عنده الآخر مهما لقى فى ذلك من عراقيل وعقبات . . .

ولئن كان الواقع الأليم وصل ببلدان الشرق العربى إلى درجة من الاستقلال لم يبلغها المغرب العربى بكافة أجزائه ، فإن كل ما فى روح أبناء هذا الشرق من مقومات العروبة ، وكل ما يغذى وجودهم من عناصر القومية يهيب بهم ، وهم يتعاونون فيما بينهم لتحصين استقلالهم بسياج الوحدة ، أن يلتفتوا دائما وأبدا نحو المغرب العربى ؛ لينصروه فى جهاده التحررى ، وأن يضعوا هدفا من أهداف وحدتهم الوصول بالمغرب إلى الاستقلال ، ليكمل بذلك عقد الوحدة العربية بانتظامه فيها .

فالمغرب العربى بما فيه من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش لا يمكن سلخه عن الوطن العربى وهو الامتداد الطبيعى الحيوى للعروبة لغة وثقافة ودينا نحو الغرب فى طرفه الأقصى . إنه امتدادها التاريخى نحو المحيط الأطلسى ومطلعها الثقافى على الجنوب الأوربى .

ولا أستطيع الآن أن أذكر الدور الذى استطاع المغرب أن يمثله على مسرح الحضارة حين انتقلت إليه الحركة الثقافية العربية من الشرق فى القرون الوسطى ، ولا أن أحصر فضله على العرب والإنسانية كلها إذ أشعت منه فى ذلك العهد الزاهر حضارتهم على أوروبا

الثافية . فلهذا آثار خالدة ما تزال تنطق فى صقلية وفى زهراء الأندلس وحمرائها ولهذا دراسات تاريخية لا مجال لها الآن .

وإنما أكتفى بأن أورد كلمة سمعتها من أستاذنا الدكتور طه حسين فى محاضرته الأخيرة عن علاقات مصر الثقافية بالعالم العربى ، قال فيها : إن كل تفكير بتنظيم التعاون الثقافى بين البلاد العربية تقوم به مصر ولا تشرك فيه المغرب الذى يكفى دلالة على قوة العلاقات الثقافية بينه وبينها أنه أرسل لها فى القرون الوسطى مفكرا كابن خلدون يعتبر تفكيرا ناقصا ، وإذا أريد أن يكون التعاون الثقافى بين البلاد العربية أساساً للوحدة العربية ، فإن « وحدة لا يكون فيها المغرب هى وحدة مبتورة » .

وتلك حقيقة إن كان العرب جميعاً يؤمنون بها ، إلا أن صدورها عن مفكر مسئول يتولى اليوم بنفسه أمر التعاون الثقافى العربى يشير بأن الحكومات العربية وفى طليعتها مصر سوف تعمل لها . وقد لا يكون هناك حكومات مغربية مستقلة يمكن العمل معها الآن فى هذا السبيل أو فى غيره من السبل التعاونية الأخرى . إلا أن هناك الشعب العربى المغربى فى جميع أجزاء شمالى أفريقيا له هيآته وجمعياته الملية تستطيع حكومتنا المستقلة أن تعاون معها وأن تمدها بجميع ألوان العطف المعنوى والمادى لتؤدى رسالتها الثقافية عربية قومية فى جميع أنحاء المغرب ، فتقاوم بها رسالة المدارس الأجنبية التى تنشر فيه لبث رسالة ثقافية غربية استعمارية .

وهناك الشباب العربى المغربى تستطيع حكومتنا الوطنية فى مصر وسوريا ولبنان والعراق أن تفتح له أبواب المدارس والجامعات العربية على مصاريعها ، يتلقف فيها ثقافة الشرق ، ويتلقى روح الشرق العربى الاستقلالية فيعود كل منهم إلى وطنه رسولا لهذه الثقافة ومبشرا بتلك الروح .

حسن صعب
ليسانس فى الآداب

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
قرش
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

الطب عند قدماء المصريين

لدينا أدلة كثيرة مما أسدته مصر القديمة إلى العالم الحديث فى بعض نواحى العلوم والفنون المختلفة. فعلى سبيل المثال أذكر أن الكتابة المصرية القديمة كانت أساساً لكتابة أغلب الأمم المتمدينة فى العصر الحاضر وأن المصريين هم أول من خط بالقلم على الورق البردى.

ولورق البردى أهمية خاصة لأن عليه دونت العلوم. فالفضل مثلا فى إظهار تاريخ الطب عند قدماء المصريين يرجع إلى ما وجدناه مدوّناً على ورق البردى.

وقد وصل إلينا كثير من مؤلفات قدماء المصريين فى الطب، وأقدم الكتب الطبية يرجع تاريخه إلى الملك «تتا» ثانى ملك من ملوك الأسرة الأولى والذى حكم حوالى سنة ٣١٧٠ ق. م. (أى أوائل عصر التوحيد الأول).

كما أن بعضها كتب فى الجراحة على أساس علمى صحيح دلّ على أن الجراحين القدماء شخّصوا كثيرا من الحالات تشخيصا صحيحاً وعرفوا طريقة علاجها، بل أنهم استعملوا أدوية لتخدير الأجزاء التى يراد قطعها وتشريحها. ومن أهم هذه المؤلفات التى تبحث فى الجراحة بردية «أدون سميث» التى تحوى ٢٢ صحيفة، ويرجع تاريخها إلى حوالى سنة ١٥٥٠ ق. م. (أى أوائل عصر التوحيد الثالث). وتعتبر أقدم مرجع فى العالم فى فن التشريح والجراحة. ومن المحتمل أن تكون هذه البردية نسخت من مؤلفات سابقة لعصرها.

وتشتمل هذه البردية على الجروح التى تصيب الجسم ثم تشخيصها وعلاجها وتبتدىء بذكر جروح الرأس وتنتهى بالقدمين؛ أى متوخية ترتيب الأعضاء من أعلى إلى أسفل. ولعل الاتجاه إلى هذا الترتيب هو الخطوة الأولى فى مقدار معرفتهم بالطب ودقتهم فيه وتنظيمهم له. ويمكن اختصار أهم حالات الأمراض الواردة فى هذه البردية بالطريقة الآتية:

أولاً: أمراض الرأس. ثانياً: أمراض الأنف. ثالثاً: أمراض الفك العلوى. رابعاً: أمراض الصدغ. خامساً: أمراض الأذن والفك السفلى. سادساً: أمراض الشفتين والذقن. سابعاً: أمراض الحلق والرقبة. ثامناً: أمراض الكتفين. تاسعاً: أمراض الصدر والثديين. عاشراً: أمراض العمود الفقرى، (والبردية انتهت هنا ثم ذكرت أمراض إصبع القدم). فيتضح من ذلك أن الطبيب المصرى القديم راعى حسن الترتيب بطريقة علمية منظمة.

كذلك قسمت الجروح إلى جروح نتيجة لمعارك أو عض، وجروح من أثر حريق، وجروح نتيجة ضرب. ثم ذكرت كسر العظام والضلوع وكسر الذراع وهكذا. وهذا مما يدل على مهارة الطبيب المصرى القديم فى تحريه الوقوف عن سبب المرض أو سبب الجرح ثم علاجه، أى وصف الداء، ثم إعطاء الدواء كما يجرى الآن فى وقتنا هذا.

وكذلك وصلتنا أوراق بردية بها وصفات لطرق علاج الأمراض المختلفة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت: مثل ما نسميه اليوم البلهارسيا (البول الدموى المصرى)، والحمى القصيرة أو الطويلة، وأمراض المعدة، والديدان المعوية، والقلب والكبد، وباقى الأمراض الباطنية، وأمراض النساء، كالتهاب الثدى وارتخاء الثديين وتربف الرحم وإيقاف النزيف والتهاب الرحم وغيره من أمراض النساء. ومن أمراض الأسنان مثلا التهاب اللثة أو تلف الأسنان أو تثبيتها. ومن أمراض الأذن فقد السمع أوضعفه أو نزول الصديد من الأذن. ومن أمراض العيون غزارة دموع العين وضعف النظر وورم العين والتهاب العين أثناء الزكام والرمد الصديدى والحبيبى وغيرها.

وكذلك وصلت إلينا الطرق التى تعالج بها حالات القىء، كإيقاف القىء، أو تلطيفه أو إحداث القىء عند اللزوم فى بعض الحالات.

وكذلك عرفوا المسهلات ، بل وكذلك كان قدماء المصريين يعرفون أن الشرايين تبدأ من القلب وتأخذ منه الدم ثم تذهب إلى كل عضو ، أو بعبارة أخرى عرفوا أن القلب له علاقة بجميع الأوعية ومتصل بكل عضو ، بل زيادة على كل ذلك فقد عرفوا النبض .

وقد وصلت دقة المصريين القدماء في تلك العهود السحيقة إلى ما نحن نكافح من أجله في عصرنا الحاضر وهو الوقاية من الأمراض واستعملوا الحقن في إدخال السوائل في الجسم .

وليس أدل على مقدرة المصريين القدماء في الطب درايتهم فيه من فن التحنيط وما استعمل فيه من آلات ، فوصل تحنيط جثث الفراعنة إلى أعلى درجة من الإتقان بدليل تلك الموميات التي أخرجت من قبورها بعد مضى آلاف من السنين وما زالت تحتفظ بشكلها الآدمى كما كانت وقت الحياة . والسبب في اهتمامهم بالتحنيط هو أنه من بين معتقداتهم الدينية أن الحياة لا تنتهى بالموت ، بل إن هناك حياة أخرى بعد الموت وهى البعث . ومن شدة اهتمام المصريين القدماء بأن الروح ترجع بعد الموت فتزور جثتها أن القانون المصرى القديم جعل عقاب من يسرق من مقبرة أو يمس المومياء الإعدام . فلا غرابة أن نجد لذلك عند المصريين رجالاً اختصوا بفن التحنيط وغالباً كانوا من طبقة الأطباء .

وأهم شىء في عملية التحنيط هو استخراج الأحشاء بواسطة شق جدران البطن بسكين حاد وتنظيفها ثم وضعها في صندوق خاص يعرف بصندوق الأحشاء . ثم استخراج المخ من منافذ الأنف بقضبان عقفاء من حديد فيجذبون منه ما يمكن إخراجه من الجمجمة ، وما بقى يستأصلونه بعقاقير يقذفونها في تجاويف الجمجمة ، ثم يملأ كل الجسم بالنطرون ، ثم يغسل ويلف في لفائف من الكتان .

كذلك مما يدل على براعة المصريين القدماء في الطب تخصص أطبائهم في مختلف أمراض فروع الطب . فبعضهم كان يختص بأمراض النساء ، والبعض بأمراض الأسنان والبعض بأمراض العيون والبعض بالأمراض الباطنية ، والبعض يختص بأمراض الحيوان ، (وكانت الحيوانات المقدسة والطيور المقدسة تحفظ لاعتقادهم بقداستها كالعجل آبيس وأبى قردان) .

وكان يطلق على الطبيب باللغة المصرية القديمة اسم سن (سينى) .

وكان للملك طبيب أو أكثر من طبيب خاص . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد وزراء الملك مرض مرة فأرسل له طبيبه الخاص مما يدل على مبلغ ما كان يكنه الملك لوزيره من عطف ومودة .

وكان يتناقل مهنة الطب الابن من الأب في أغلب العصور .

ودلت الأبحاث الطبية الحديثة على أن لقدماء المصريين فضل السبق على اليونان في عالم الطب . فقد كان اليونانيون يشيدون بذكر الأطباء المصريين ، ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بها . ومن اليونان أخذ الكثير من معالم العالم الحديث .

الدكتور باهور لبيب

أدب الأسبوع ...

«هنا رأيي وعليّ تبعته وحدي .... »

علامات الزمن ! — اقتراح شيخ ! — حق السادة ! — أجر الوظيفة !

علامات الزمن ...

يقول الأستاذ العقاد في مقاله بالعدد ٥٥٣ من الرسالة :

«للزمن علامات في أقوال الشعراء والأدباء ، ولأقوال الشعراء والأدباء علامات في الزمن ؛ ولكن العلامات التي تصدق في دلالتها ويقل خطؤها في إشارتها ، هي على الأعم الأرجح علامات الصناعة دون علامات الطبيعة .. » .

ومضى الأستاذ العقاد في تفصيل هذا المذهب والاحتجاج له ، ليخلص منه إلى مناقشة الرأي فيما نُسب إلى عروة بن الزبير من شعر في كتابه : «الصديقة بنت الصديق » ذلك الشعر الذي قلتُ عنه في عدد مضى : « إنه نسج مهلهل ضعيف لا يقع في نفس أحد أنه من لغة العصر الأول أو مما يجرى به لسانُ شاعر من شعرائه ...» .

ولست على خلاف في الرأي مع الأستاذ العقاد فيما يسميه علامات الزمن في أقوال الشعراء والأدباء ، أو علامات الشعر والأدب في الزمن ...

ولست معه على خلاف فيما يسميه علامات الصناعة وعلامات الطبيعة ؛ بل إني لأحتج بكل ذلك وأستند إليه فيما رأيتُ من رأيي نفيتُ به هذين البيتين من شعر عروة ؛ ولا أعيد هنا ما قلت ثمة فليرجع إليه من شاء ، ليعرف من يريد أن يعرف أني نفيتُ ما نفيتُ لأن ذلك الشعر في جملته ومعناه — دع عنك ركاكته وسخفه — ليس مما يتأتى لشاعر في العصر الأول أن « يصنعه » ...

... ولكن ماذا يعني الأستاذ العقاد بعلامات « الصناعة » ؟ أيعني فنونَ البديع دون ما عداها من « صناعة » الزمان والمكان والبيئة ؟ ... وماذا يعني بعلامات « الطبيعة » ؟ أيعني الفطرةَ الأزلية التي كانت منذ كان الناس وستبقى ما بقي الناس ، أم هو يرى « العادة » نوعاً من الطبيعة فليس لها في شعر الشعراء وأدب الكتاب دلالةٌ على الزمن ؟ ...

وكيف يرى « الصناعة » أو « الطبيعة » في قول الناظم :

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده ... لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
لواحي زليخا لو رأين جبينه ... لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

ألا يرى شيئاً ثمة من صناعة البديع ، ومن صناعة الزمان والمكان والبيئة ، ومن أثر « العادة » التي تختلف على الزمان وإن بدت لأهل ذلك الزمان نوعاً من « الطبيعة » ؟

اقتراح شيخ !

قرأتُ في صحف الأسبوع أن الشيخ المحترم « فلانا » تقدم في مجلس الشيوخ باقتراح إلى الحكومة : أن تسمح لموظفيها بالسفر مجاناً في قُطر السكة الحديدية ، أسوة بموظفي تلك المصلحة !

ولا أنكر أني شعرت بشيء من الفرح حين قرأتُ ذلك الاقتراح الظريف ؛ فإني رجل مهاجر ، قد فرقت الأيام بيني وبين أهلي ، وباعدتْ بين عملي وداري ، فأنا أبداً على سفر ، ولكل سفر أجرة ...

وقلت لصاحبي : أيمكن أن يكون هذا ؟

وقال لي صاحبي : ولماذا لا يكون ؟ ... ألستَ ترى كل يوم في غدوك من دارك إلى العمل ، وفي رواحك من عملك إلى الدار ، هؤلاء العشرات من عمال سكة الحديد يزحمونك بملابسهم الزُّرق ، أو السُّود ، على المقعد الضيق ، لم يدفعوا له أجرةً ولا اشتروا « تذكرة » ؟ فإنك مثلهم من عمال الدولة ، وإن لك على الدولة مثلَ حقهم !

قلتُ : فأنت ترى الشيخَ المحترم قد اقترح ما اقترح بحق المساواة الواجبة ؟

قال : نعم !

قلت : فلماذا لا يتساوى أبناء الأمة جميعاً في هذا الحق ، فيركب كلُّ من شاء من الناس إلى حيث يشاء ، لا يدفع أجرة ولا يُسأل عمالة ! أليست سكة الحديد

مرفقا من مرافق الدولة العامة ؟

وسكت صاحبي برهةً لا يردُّ جواباً ، ثم عاد يسألني : فماذا ترى أنت ؟ ...

قلت : لستُ أرى شيئاً ، وما حسبتُ الشيخ المحترم قد عنَى ذلك حين اقترح ما اقترح ، وإنما أراد أن يسأل مستنكراً : لماذا يؤذَن لموظفي سكة الحديد أن يسافروا حيث يشاءون مجاناً دون غيرهم من موظفي الدولة ؟ ولكنه كان شيخاً أريباً ، قد خشي غضبةَ ناخبٍ من ناخبيه ، فجعل « السؤالَ » « اقتراحاً » ... وكما يسمَّى في البلاغة « الاستفهام الإنكاري » يُسمى في السياسة « الاقتراح التعجيزي » ، وهو لفظ مرادف في لغة هذا العصر !

وضحكتُ وضحك صاحبي ، وخلّفتُه عَدْواً لأدرك القطار وفي يدي أجرتُه !

وركبتُ القطار ، وكان آخرَ قطار يُغادر « طنطا » مساء الجمعة إلى القاهرة ، ولم أجد في الزحام مقعداً واحداً أستند إليه بيدي ، فلم يكن لي مطمعٌ في الجلوس ؛ وكان معي سلّة ، وما بدٌّ أن يكون معي سلة كلما عدتُ من طنطا إلى القاهرة ؛ فما تهدأ أمي ولا تقرُّ لها عين إلا أن تزوّدني كلما زرتها بسلة فيها شيء ... شيءٌ ما ، وإن لم يكن لي به حاجة ، وإن كان مثله في القاهرة كثيرا ، وقد تعوّدتُ أن أطيعها فآخذ كل ما تعطيني وإن لم ينلْني منه إلا عناء الحمل . وثقلت السلةُ في يدي ، وخشيتُ أن يضيق بي وبها الطريق في العربة المزدحمة بالركاب ، فتخيرتُ لها مكاناً على الرَّف ، وكان تحت الرف سيد ، سيد ذو أمر ، لو شاء لخلا لي بجانبه مكان ، فإن المقعد ليتسع لأربعة وإن الجالسين لثلاثة ، ولكنه لم يشأ ، ولم أشأ أن أرجوه ؛ ونظر إليَّ مستنكراً وأنا أضع السلة في المكان الخالي من الرف ، وأغضيتُ كأني لم أرَ ، وصاح بي في لهجة آمر : أنتَ ! إحذر أن تسقط علينا السلة ! وسكتُّ فلم أردّ ووقفتُ مستنداً إلى الباب ، ومرّت لحظة ؛ وانحرفت عن الباب قليلا لأتحدث إلى أخي من النافذة حديثاً قبل أن يمضي القطار ، وقام السيد فأغلق دوني باب « الصالون » ، واستقر في بحبوحة مجلسه ؛

ومضى القطار ، وظللتُ واقفاً حيث كنتُ إلى جانب النافذة ؛ وانفتح الباب ورائي ثانية بعنف ، وصاح بي السيد : أنت ! إحذر أن يقطر من السلة شيء على ثيابي ! ...

ولم يكن في السلة شيء مما يسيل أو يقطر ، وغاظني هذا التحدي وإني لواقف لا تكاد تحملني رجلاي ، وإنه لجالس في المقعد الواسع المريح ، وقلت : إن قطَر منها شيء فنَعَم ! ... وضحك راكبٌ إلى جانبه ، وضحك راكب أمامه ، وسكتَ السيد المتأمّر على غيظ ، وكنتُ في موقفي — والقطار ماضٍ في سرعته يكاد يقلبني ويقذفني — أشدَّ غيظاً منه ، ومضى نصف ساعة ؛ وفجأةً صاح السيد : أنتَ ! شيء يقطر على ثيابي من السلّة ! وأجاب ثلاثة من الركاب ضاحكين : نَعَم ! وضحكتُ في هذه المرة ، ودخل التذكري يدق الباب بمقراضه ، وقرض تذكرتي وتذاكر الركاب ، وسأل السيدَ المتأمّر : تذكرتَك ! وأجابه في كبرياء : « مَصلحة » ! ولم يقتنع التذكري بهذا الجواب قبل أن يعرف اسمه وصفته في « المصلحة » ، ووقف السيد يصيح في وجهه غاضباً محتجاً ، وخلا لي مقعد ...... وخلفتُ الرجلين يتلاحيان واقفَين !

وتذكرتُ اقتراح الشيخ المحترم ... فَمِمّن أحسَبُ أنه موظف في المصلحة ؟ ...

بعض السادة !

وقرأت من حوادث الأسبوع أن خادما ذهبت إلى الشرطة تشكو ، لأن مخدومها سطا على « مالها » وفرّ ..

وكنا نسمع عن شكوى المخدومين من سرقات الخدم ، فانقلب الحال وصار السيد السارق !

أتراها كذبة تكيد بها الخادم لسيدها أم حقيقة ؟

وما ذا يمنع أن تكون حقيقة ؟ ... إن كثيرا من الخدم اليوم ليملكون من المال أكثر مما يملك كثير من السادة ؛ وإن كثيراً من الخادمات ....

بل إنها حقيقة ، إن لم تكن هذه الحادثة نفسها فإن

ثمة أشباها لها ونظائر؛ إني أعرف سيداً كريماً قد أقرضته خادمه بضع عشرات من الجنيهات ولم يزل حتى اليوم عاجزاً عن الوفاء بدينه لخادمه؛ فأي فرق بين الحادثتين إلا أن أحد السيدين كان سارة وكان الآخر مدينا، والدلالة المعنوية واحدة.

أهو تطور في الخلق، أم أثر جديد من مؤثرات الحرب؟

إن لهذه الحوادث الصغيرة من الدلالات المعنوية ما يوجب الدرس والنظر؛ إنها عناوين صغيرة للمشكلات الكبيرة التي تتربص بنا بعد الحرب.

إنهم يذكرون مشكلة العمال المتعطلين حين يذكرون مشاكل ما بعد الحرب؛ أتراهم أعدوا العدة لمشكلة المتعطلات من غواني الحرب، من هؤلاء الخادمات اللاتي كن يقرضن ......

هذه واحدة منهن قد اجتمع لها ما اجتمع من المال، ولكنها ظلت في بيت مخدومها حتى شرفها وفر ...

وتلك أخرى قد أقرضت سيدها مما اجتمع لها ...

لا ضرر من هاتين، ولكن هناك ثمانية وتسعين من كل مائة قد آن أن يخرجن إلى شوارع المدينة الزاخرة يبعن ويشترين ... وغداً أو بعد غد تنفض هذه السوق ... فاذا أعدوا لهن من عمل؟ هذه هي المشكلة.

أجر الوظيفة

قرر وزير المالية فيما قرر لتحسين حال الموظفين: أن يمنح الموظف المتزوج وذو الأولاد علاوة اجتماعية لا يتمتع بمثلها العزب.

وقرأت في إحدى المجلات أن أحد الرؤساء في وزارة الأوقاف قد رفع إلى وزيرها تقريرا يطلب فيه فصل أحد الموظفين لأنه في ارتباك مالي دائم ربما دفعه إلى ما لا تحمد عقباه. فلم يوافق الوزير على فصله، وأصدر أمره بمنحه علاوة تنقذه من ذلك الارتباك.

وكان من المقترحات لتعديل «كادر» الموظفين أن يوضع نظام خاص بالنساء الموظفات تكون مدى درجاته أصغر من مدى الدرجات المخصصة للرجال، لأن تكاليف الحياة على الرجال أكثر منها على السيدات.

وتحدث وزير المعارف في تقريره عن إصلاح التعليم وتعميم المجانية، عن واجب الدولة في إقامة التوازن الاجتماعي بإعانة الأسر الكثيرة الولد على احتمال أعباء العيش، وتخفيف ما تلقى من الشقاء والحرمان بسبب ذلك.

وقرأت في جريدة الاهرام منذ قريب كلمة للأستاذ زكي عبد القادر يتحدث فيها عن مرتبات الموظفين ويعيب على الحكومة عدم التسوية في المرتب بين موظفين يعملان عملا واحدا في مصلحة واحدة لاختلاف المؤهلات العلمية أو لاختلاف الأقدمية.

وقرأت في العدد ٥٠٤ من مجلة الاثنين:

« يقول دولة زيور باشا إن عضوية الشركات يجب أن تقتصر على الذين يمكنهم إفادة الشركات بخبرتهم وتجاربهم، والمحتاجين لمكافآت العضوية لحكم الظهور بالمظهر اللائق بالمناصب التي سبق لها أن تولوها ».

قرأت ذلك كله، ثم سألت نفسي: ما هو المعنى الحقيقي للمرتب الذي أقبضه في كل شهر، ويقبضه مثلي آلاف الموظفين في الدولة: أهو حق الوظيفة أم حق الموظف؟ أعني: أهو حق العمل الذي أعمل أم حق الحياة التي ينبغي أن أحيا؟

إن لكل موظف على الدولة حقين: حق الموظف في أجر العمل الذي يعمله، وهو حق خاص؛ وحق المواطن في تأمين الحياة وتيسير العيش، وهو حق عام: أنجمع بين الحقين أو نفرق بينهما؟

إنهما مذهبان في الاجتماع بينهما من الفرق بون بعيد، وإنه لفرض علينا في هذه الحقبة من تاريخنا الاجتماعي أن نعرف ما نأخذ منهما وما ندع، ليعرف كل فرد واجبه على الدولة وتعرف الدولة واجبها. إننا اليوم في فترة من التاريخ توجب علينا أن يكون لنا مذهب اجتماعي ثابت الأساس محدود الغاية، نمضي فيما نعالج من شئون الإصلاح

أيها الشاعر!

أيها الشاعرُ الحزينُ عزاءً   سرَّكَ الدهرُ بالمنى أم أساءَ
كم أنارتَ السبيلَ للعابرِ الحا   ئرِ والضالِّ فاهتدى واستضاءَ
تلمحُ النفسُ أختها فيكَ حتى
تتجلى خلالَها بيضاءَ
أنتَ كالشمعِ في صفاءِ الليالي   زانها البدرُ فاستزادتْ رُواءَ
أنتَ رُوحٌ والروحُ من أمر ربي
لم يُزِحْ عنكما الزمانُ غِطاءَ

• • •

أنتَ في هامشِ الحياةِ كَظِلٍّ
حالَ إلا لاحَ ثمَّ عادَ وفاءَ
أنتَ مُعتَنِقٌ من المعاني غريبٌ
يَتحجَّرُ اللفظُ عنده استعصاءَ
أنتَ طيرٌ على الأراكِ ولحنٌ
في فمِ الدهرِ حيَّرَ الأحياءَ
أنتَ كالنحلِ يَرشُفُ الوردَ شهداً
سائغاً ثم لا يُريدُ جزاءَ
أنتَ كالحلمِ في جفونِ العذارى
إن دعاكَ النسيبُ والوحيُ جاءَ
أنتَ كالبحرِ تنثرُ الدُّرَّ شعراً
والحصا حشواً والرمالَ هُراءَ

• • •

يهمس الناسُ كلما لُحتَ همساً
ويناجيكَ من رآكَ بُكاءَ:
شاعرٌ شاردٌ؟ مجنونٌ يهيمُ ضلالاً
يشربُ الخمرَ صُبْحَهُ والمساءَ

والعيونُ التي تُناجيكَ أقسى
من لسانٍ ينالُ منكَ افتراءَ
لستَ منهم وليس فيهم صديقٌ
كلهم حاقدٌ ومُتَّبِعٌ رياءَ
مشفقٌ منكَ من تظنُّ صديقاً   لا عليكَ الذي يريكَ وفاءَ
لستَ منهم فاربأ بنفسكَ عنهم
إنَّ في الأرضِ مَهرباً ونجاءَ
لستَ منهم فلا تُصدِّقْ كذوباً
يدَّعي الوُدَّ أو يَفيضُ ثناءَ
لا تصدِّقْ فلو رأوكَ رُفاتاً
لاستساغوا العظامَ تُشوى شِواءَ!

• • •

يعرفُ الناسُ منكَ شيئاً وتخفى
غيرَ ما أنتَ مُعلِنٌ أشياءَ
لستَ تشكو لغيرِ شعرِكَ ما تلـ
ـقى فتُذكي شكاتُكَ البُرَحاءَ
شارداً في السماءِ حيناً وحيناً
تذرعُ الأرضَ أو تقيسُ الفضاءَ
تمزجُ الشعرَ والدموعَ مزيجاً
لا تراهُ العيونُ إلا ارتياءَ
والنجيعُ الذي تُشَبُّ الحواقي!
فيه كالجمرِ يستثيرُ البُكاءَ

• • •

أنتَ في الناسِ صالحٌ في ثمودٍ
فادعُ ما شئتَ ... لن يجيبوا دُعاءَ
وإذا جئتَ بالدليلِ مبيناً   أعرضوا عنكَ مدَّعينَ غباءَ
مُتْ وحيداً كما حييتَ وحيداً
واجرعِ الكأسَ مُرَّةً كدراءَ
أيها الشاعرُ الذي ليس يرضى
كيفَ باللهِ قد رضيتَ الثواءَ
قد حملتَ الحياةَ عبئاً ثقيلاً   فاهدأ اليومَ واطرحِ الأعباءَ
أيها الشاعرُ الحزينُ عزاءً   ذهبَ العمرُ والنشيدُ هباءَ!

عزيز فهمي

على نور وبصيرة؛ وإن أهم مشاكلنا الاجتماعية اليوم هو الفقر؛ ولا سبيل إلى علاج هذه المشكلة قبل أن نعرف المذهب الاجتماعي الذي نذهب؛ فإذا اتفقنا على الأساس فلن يضيرنا شيئاً أن نختلف على الوسائل.

«قاف»

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٩٩٩٦ / ٥٦٣٦٠

العدد ٢٦٩ — الثلاثاء ٢٧ من صفر سنة ١٣٦٣ — ٢٢ من فبراير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

المؤتمر الزراعي

انعقد بالقاهرة من ٧ فبراير سنة ١٩٤٤ إلى ١٠ منه مؤتمر الزراعة دعا إليه ونظمه مركز تموين الشرق الأوسط (M. E. S. C)[1] بعد الاتفاق مع الحكومة المصرية ، وقد حضره مندوبون للبلدان الآتية : عدن ، وقبرص ، ومصر ، والعراق ، ولبنان ، وفلسطين ، والمملكة العربية السعودية ، والسودان ، والشام ، وشرق الأردن ؛ كما مثلت فيه الهيئات الآتية : مركز تموين الشرق الأوسط ، والبعثة العلمية الاستشارية للشرق الأوسط ، والهيئة المنوطة بالتقدم الزراعي بمركز تموين الشرق الأوسط ، وممثلو هذا المركز في بعض البلدان الأخرى ، وقد مثل كل هيئة من هذه الهيئات ، وبلدة من تلك البلاد ممثلون يختلف عددهم من واحد إلى ستة أو أكثر .

كما حضر المؤتمر أعضاء زائرون من شرق أفريقية ، ومصر نفسها ، ومن العراق ، وفلسطين ، ومؤسسة الشرق الأدنى .

ومثل في المؤتمر كذلك السفارة البريطانية بالقاهرة ومكتب الوزير الإنجليزي المقيم بالشرق الأوسط والسفارة الأمريكية بالقاهرة والإدارة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة وإدارة الإغاثة والتعمير للأمم المتحدة .

ومن أهم الهيئات المذكورة فيما مضى هيئة التقدم الزراعي بمركز تموين الشرق الأدنى ، والبعثة العلمية الاستشارية ، فهما يضمان خبراء زراعيين عالميين ، واختصاصيين نابهين في مختلف الموضوعات العلمية المتصلة بالزراعة بوجه عام وبالتموين بوجه خاص ، وأعضاء الهيئتين يتنقل بعضهم باستمرار ويتنقلون من بلد إلى بلد فيدرس كل منهم الموضوع المتصل باختصاصه دراسة مستفيضة في كل بلد يزوره ، ثم يتباحث مع زملائه في المركز ويقدم تقريره

(1) Middle East Supply Centre .

قبل سفره ليحل محله غيره وهكذا .

وكان من بين هؤلاء الدكتور كين وكيل محطة روغستيد للأبحاث الزراعية فى لندن وهى أقدم المحطات الزراعية للبحوث الفنية فى أوربا . وقد أذاع الدكتور كين من محطة الإذاعة المصرية كلمة عن هذا المؤتمر مساء الأحد ٣ الجارى .

وكان للمؤتمر رئيسان هما اللورد موين الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأدنى ، والمستر لاندس الوزير الأمريكى مدير العمليات الاقتصادية الأمريكية فى الشرق الأوسط . كان ينتخب لكل جلسة رئيس آخر غير الرئيس الفنى ، فترأس معالى وزير الزراعة إحدى الجلسات ، وسعادة وكيلها جلسة أخرى ، ورئيس وفد العراق ثالثة ، ورئيس وفد الشام رابعة ؛ وهكذا .

ولعله من المفيد قبل أن نتكلم عن المؤتمر نفسه وماجرى فيه أن نشير بكلمة قصيرة إلى الهيئة الداعية إليه ، المنظمة له :

* * *

مركز تموين الشرق الأوسط :

أسس هذا المركز فى سنة ١٩٤١ ، لما وجد الحلفاء أنفسهم فى مأزق فى كل ما يتصل بالشحن والتموين لبلاد الشرق الأوسط والجيوش الجرارة التى لهم فيها ، فشعروا بأنه لابد من وجود هيئة منظمة لهذين الأمرين وهما : الشحن والتموين ، حتى تستطيع الجيوش أن تضمن وصول الامدادات من الرجال والآلات والذخائر والأطعمة ، وتحصل بلاد الشرق الأوسط أيضا على الضروريات اللازمة لها بكيفية منظمة وبنالة الاقتصاد .

وقد كان المركز فى مبدإ الأمر منشأة بريطانية ملحقة بالقيادة العامة للجيش البريطانى ، فلما دخلت أمريكا الحرب صار المركز إنجليزيا أمريكيا ، فهو الآن منشأة تضامن بين الإنجليز والأمريكان ، يتبع سياسة مشتركة ، وتتألف هيئة الموظفين فيه من البريطانيين والأمريكان يعملون جنبا إلى جنب فى جميع أقسامه .

أما الأغراض التى يرمى إليها المركز والوظائف الرئيسية التى يقوم بها فيمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : إنماء الإنتاج المحلى للأطعمة الضرورية والمواد اللازمة لشرق الأوسط بالتعاون مع الحكومات المحلية لجميع بلاد هذا الشرق الأوسط ، وبذلك يقل الطلب على استيراد الأطعمة والمواد الخام بواسطة الشحن من الأماكن النائية ، ويدخل فى ذلك تشجيع استخدام المواد الموجودة محليا بدلا من مواد مناظرة لها كانت تستورد من الخارج وضمان استيراد المواد الضرورية من أقرب مصدر لها .

ثانيا : عمل المباحث اللازمة للتأكد من أن طلبات الاستيراد للبضائع المدنية لشرق الأوسط تقتصر على الضروريات وحدها ، وبذل كل الجهد لضمان وصول تلك الحاجيات الضرورية إلى طالبيها . وذلك بتنظيم توزيع منتجات الأطعمة والمواد فى جميع أنحاء العالم توزيعا يتفق مع تقليل الشحن إلى أدنى حد ممكن .

ثالثا : معاونة حكومات الشرق الأوسط فى ضبط ومراقبة التوزيع بحيث تستخدم المواد المستوردة فى أحسن الأغراض وأنفعها ، وضمان استخدام المنتجات المحلية من المواد ، واستخدام الطاقة البشرية استخداما اقتصاديا موجها نحو إنتاج الضروريات قبل كل شيء .

رابعا : إيجاد مركز لتبادل المعلومات بشأن جميع المسائل الخاصة بالإنتاج الزراعى والصناعى والتوزيع والاقتصاديات بوجه عام ، والعمل على إيجاد خبراء فنيين يستطيعون إسداء النصيحة وبذل المشورة فيما يتعلق بجميع تلك المسائل .

وقد استطاع هذا المركز الرئيسى أن يحقق كثيراً من أغراضه ، وأن يوفر كثيراً من الحيز النافع لشحن المواد ، وأن يحقق توفر الأطعمة ، والمواد الخام ، والأدوات الصحية ، ومطالب النقل من سيارات وإطارات وأدوات تنوير الخ ، وغير ذلك كله من لوازم التموين . كما استطاع أن يقوم بأعمال جليلة لازمة للزراعة والصناعة ، كل ذلك بالتعاون مع الحكومات المحلية .

وليس هذا المؤتمر الزراعى أول مؤتمر عقده مركز تموين الشرق الأوسط ، فنى سنة ١٩٤٢ عقد مؤتمرا لبحث وسائل جمع الحبوب . وفى سنة ١٩٤٣ عقد مؤتمرا لنفس الغرض ، كما عقد مؤتمرات خاصة بالنقل ومقاومة الجراد ، وتوزيع الأطعمة ، والإحصاءات . وفى يناير سنة ١٩٤٣ أيضا عقد مؤتمر الزراعة . فالمؤتمر الذى نحن بصدده هو المؤتمر الثانى الذى يعقده لبحث المسائل الزراعية وما يتصل بها .

* * *

ـات المؤتمر وبحوثه :

عقد المؤتمر ست جلسات بحث فى الجلسة الأولى منها مسائل الزراعة الجافة ، ومسائل الرى والصرف ، فتكلم أحمد خيرى بك فى ضبط الرى والصرف بوادى النيل ، والمستر جوز ممثل مركز التموين فى بيروت عن التقدم الحديث فى الرى فى دول شرق البحر الأبيض المتوسط . والدكتور ريبورن مهندس المياه بقبرص عن إنماء مصادر المياه الصغيرة وحفظها . وقرأ أحد المفتشين الزراعيين بفلسطين بحثا المستر ستدمان دبفز مراقب الإنتاج الزراعى بها عن الرى من الآبار والينابيع ، وتكلم الأستاذ أديسون من كلية الهندسة بمصر عن بعض المسائل العامة الإيدروليكية ، وتكلم الدكتور مارز من هيئة التقدم الزراعى بمركز التموين عن الوسائل الفنية لزراعة الجافة ، والمستر لو عن الزراعة الجافة بمنطقة بئر شبيه بفلسطين ، والدكتور محمد بهجت عن الزراعة الجافة بمنطقة مريوط بمصر ، والمستر هارتل عن طرق الزراعة الجافة بعدن .

أما الجلسة الثانية ، فقد خصصت لإصلاح وإنماء الأراضى الجديدة تكلم فيها محمود حلمى بك عن إصلاح البرارى فى شمال الدلتا ، والمستر بيلى عن بعض المصاعب التى تعترض إصلاح الأراضى (مثل من جنوبى إيران) ، والمستر جاربت عن الإنتاج على نطاق واسع فى وادى الفرات ، والمستر هوبلر عن نمو الفلاحة على نطاق واسع فى المنطقة الشمالية للجزيرة بالشام ، وسعادة محمود يوسف باشا عن الزراعة المجهدة فى الأراضى الرملية المستصلحة .

أما الجلسة الثالثة فقد خصصت لتآكل التربة وحفظها ، وكانت البحوث التى تليت فيها معظمها خاص بقبرص وفلسطين وشرق أفريقيا والشرق الأوسط بوجه عام .

وخصصت الجلسة الرابعة لتحسين الفن الزراعى عن طريق البحث والتعليم ، فتكلم مندوب العراق عن إعداد الموظفين الزراعيين هناك ، والأستاذ الأزارى فلكاف مدير محطة ريهوفوت للبحوث الزراعية بفلسطين عن الأعمال التى تجرى فى تلك المحطة ، والدكتور بولز كبير الفنيين فى القطن بمجلس المباحث القطنية بمصر عن التطبيق العملى للبحوث الزراعية . وقرأ المستر ألن بحث الرئيس دودج عن معهد الحياة الريفية فى بيروت ، كما تكلم الدكتور أحمد حسين عن التحسينات الاجتماعية الريفية ، وسعادة حسين عنان بك عن التحسينات الزراعية الريفية بمصر .

أما الجلسة الخامسة . فقد خصصت لبعض المسائل المحلية ، وكانت معظم البحوث التى ألقيت فيها متصلة بشرق الأردن وفلسطين ، وكان ختامها بحثان ، أولهما : للدكتور على حسن عن تحسين معايير التغذية فى الشرق الأوسط ، وثانيهما : للدكتور صرى مدير قسم الأطعمة بمركز تموين الشرق الأوسط عن العصبة الزراعية لبلدان الشرق الأوسط .

وخصصت الجلسة السادسة للمناقشات وبحث القرارات .

وهناك محاضرة قيمة لم تكن فى البرنامج ، وإنما تليت بناء على رغبة معالى وزير الصحة ألقاها الأستاذ الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك عن الملاريا وأثرها فى بلدان الصعيد المصابة بها ، وتناول فيها حالة الأهلين هناك وما يعانونه من جوع راجع إلى مرضهم المدقع .

* * *

هذه كلمة عابرة عن المؤتمر وفكرته والمواضيع التى تناولها بالبحث ، ولعلنا نستطيع فى فرصة أخرى أن نوافى

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

٦ - جمال الدين الأفغاني

ما تعاليم السيد في كلمة ؟ وما أغراضه في جملة ؟

يقول لوثروب ستودارت الأمريكي Lothrop Stoddard

« إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر في أن الغرب مناهض الشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كمنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامنا في عناصرها ، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامي أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته » .

ويقول : « جولد زيهر » إن جمال الدين كان — كما يرى براون — فيلسوفا ، كاتبا ، خطيبا ، صحفيا ؛ وفوق ذلك كان سياسيا ، يرى فيه محبوه وطنيا كبيراً ، وخصومه مهيجا خطيراً ؛ وكان له أثر بالغ في الحركات الثورية التي حدثت في عشرات السنين الأخيرة في الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية ، السيطرة الأوروبية وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي وإلى ترقية شئونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة ؛ كان يرمى إلى جامعة تنتظم الحكومات الإسلامية ، ومنها إيران الشيعية ، لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوروبي في شؤونها » .

ويقول السيد جمال الدين عن نفسه : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفني الأفغان وهي أول أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فإيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب ، من حجاز هو مهبط الوحي ، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد ، والعراق ، وبغداد وهرونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمرائها ؛ وهكذا كل صقع ودولة من دول

القراء عن بعض البحوث التي ألقيت في هذا المؤتمر .

على أننا يمكننا أن نستخلص من البحث الأخير للدكتور صبري ومن الكلمة التي ألقاها الدكتور كين والتي قال فيها : « إن بلاد الشرق الأوسط تمثل وحدة قائمة بذاتها لما بينها من أوجه شبه كثيرة في اللغة والعادات والجو وقلة الأمطار وقلة استعمال الآلات الزراعية بالقياس إلى أوربا وأمريكا ، وبفقر الفلاح ونشاطه وتشابه حالته الصحية والاجتماعية » . نستخلص أن كل ذلك يجعل من تلك البلاد وحدة زراعية يصح أن تكون أساسا لعصبة أمم شرقية .

ونحسب أنه على هذا الأساس قد وصل المؤتمر إلى أهم قرار اتخذه وهو تأليف مجلس دائم يمثل أمم الشرق الأوسط يكون ممثلا للرأي الزراعي أو الآراء الزراعية التي تنتهي إليها تجارب تلك الأمم الشرقية فرادى ومجتمعة بواسطة مندوبيها ، وقد تألف هذا المجلس من رؤساء المندوبين لكل دولة من الدول الممثلة في المؤتمر .

ولعل هذا الاتصال والتضامن يؤدى في النهاية إلى تعاون فعلى بواسطة معهد أو معاهد تتركز فيها البحوث وتمد فيها طبقات الموظفين الفنيين في مختلف نواحي الزراعة لتلك البلاد كلها .

وبعد فلا شك في أن مصر تستطيع أن تفيد وتستفيد فوائد كبرى من مثل هذه الحركة إذا أحسنت استغلالها وأحكمت خطواتها التي ستخطوها في سبيل ذلك الاتحاد الزراعي المنشود .

● ● ●

الإسلام وما آل إليه أمرهم ، فالشرق الشرق تخصصت جهاز وماله لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف (فعملت على توحيد كلمتهم بنبههم للخطر الغربي المحدق بهم) .

ويقول الشيخ محمد عبده : «أما مقصده السياسي الذي وجه إليه كل أفكاره ، وأخذ على نفسه السعي إليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل في هذا تقليص ظل بريطانيا في الأقطار الشرقية» .

فيكادون كلهم يجمعون على أن له غرضين واضحين :

(١) بث الروح في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه ، وتنقية عقيدته من الخرافات ، وأخلاقه مما تراكم عليها ، واستعادة عزته ومكانته .

(٢) مناهضته الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما ؛ لتتقي الأخطار المحدقة بها .

كان في حياته يعمل في جبهة الميدانين معاً ، فلما مات تفرق الميدانان وتداول المصلحون بعد على حمل واحد منهما — هذا أو ذاك — لا على حملهما معاً . فالشيخ محمد عبده — مثلا — أكبر تلاميذه وأقدرهم — خلفه في حمل العبء الثقافي لا السياسي . لقد تبين بعدُ أن اشتغاله بالسياسة في العروة الوثقى ونحوها إنما كان مدفوعاً إليه بطلب جمال الدين لا بطلبه هو ، ولذلك اقترح عليه بدل إنشاء الجريدة إنشاء مدرسة للزعماء ، كما تقدم . فلما استقل بنفسه كان عمله في بيروت عملا تعليمياً صرفاً ، ولما عاد إلى مصر كان برنامجه التعليم والتثقيف بأوسع ما يستطيع وأتمه ؛ ولذلك اقترح على أولي الأمر بعد عودته أن يعين ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها ، فخشوا من اتصاله بالتلاميذ لتاريخه الماضي ، وعينوه قاضياً أهلياً ليكونوا بمأمن من جانبه . بل رأيناه يأمر في كتاباته السياسة وحروفها ومشتقاتها كراهية لها . بل رأيناه يصرح بأن الواجب الأول على المصلح تثقيف الشعب وتهذيبه ، ثم الاستقلال يكون الخاتمة . بل رأيناه يضع خطة إصلاحه بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادقهم ويتفاهم معهم لينال منهم — بأقصى ما يستطيع — إعانته فيما ينشد من إصلاح داخلي ثقافي . وهذا سبب ما كان بينه وبين «مصطفى كامل» والحزب الوطني من خصومة ؛ بل ربما كان هذا سبباً أيضاً فيما نلاحظه من بعض الفتور في العلاقة بينه وبين أستاذه السيد جمال الدين . فقد كتب من مصر للسيد — وهو في الآستانة — خطاباً غفلا من الإمضاء ، وتقريعاً لبعض الأشخاص من غير ذكر أسمائهم ؛ فهاج السيد وكتب إلى الشيخ محمد عبده جواباً من نار على هذا التصرف ، يؤنبه فيه على الجبن والخوف ، ويقول : «تكتب ولا تمضي وتنقد الأنذار؟ . . . أمامك الموت ولا ينجيك الخوف . . . فكن فيلسوفاً يرى العالم ألعوبة ولا تكن صبياً هلوعاً» . ولعل هذا آخر ما كان بينهما من تواصل .

وما كان بالشيخ محمد عبده من جبن ، ولكن الجسم الملتهب يشعر بالجسم المعتدل بارداً ، وقد كتب السيد جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكم ملكته .

على كل حال اختط الشيخ محمد عبده لنفسه خطة اقتنع بها كل الاقتناع ، وهي رفع أحد العلمين دون الثاني ، فأخلص لمدنه وبذل في ذلك جهده وصحته ووقته وماله ، واتجه إلى كل نواحي الثقافة يغذيها وينميها ويصلحها بقدر ما يستطيع إنسان أن يعمل ، مع ما يوضع في سبيله من عقبات من الخديوي ومن الجامدين من رجال الدين ، ومن دسائس الدساسين ؛ فكانت حياته موزعة بين الإشراف على التعليم في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وإصلاح

الأزهر ودرسه التفسير فيه ، وتأليف جزء « عم » لناشئة المدارس ، وجده في إصلاح الأوقاف والمساجد ، وتحريره المقالات في مجلة المنار لتثقيف العقل وهدايته إلى فهم الدين ، ورده على مهاجمي الإسلام كما فعل في رده على هانوتو رداً حاراً قوياً بأحر وأقوى من رد السيد جمال الدين على رينان ، وسفره إلى تونس والجزائر يحاضر في إصلاح العقيدة الدينية وإصلاح الطرق التعليمية وهكذا . كل ذلك في حدود خطته التي رسمها والتي رآها أوفق لنفسه ، وكل ميسر لما خلق له .

أما الذين رفعوا العَلَم الآخر — علم مناهضة الحكم الأجنبي — فهم عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل ، وفريد ، ثم سعد زغلول فساروا على مثل دعوة السيد جمال الدين ، مستخدمين ما استجد من أساليب ، وما استعمله الغرب من وسائل .

هذا في مصر ومثله في سائر أقطار الشرق ، من زعماء حملوا لواء الإصلاح الثقافي ، وزعماء حملوا اللواء السياسي مما يطول ذكره — وقد نعرض فيما نكتب بعد لبعضه — ولو انتبه « السيد » اليوم من رقدته لحمد من الشرق سيرته ، وإن كان أكبر الظن أنه يجد عليه لبطئه ، فقد كان — رحمه الله — حارا حاد المزاج لا يرضيه من الإصلاح السير على الأقدام ولا ركوب القطارات ، بل لا يرضيه بعض الرضا إلا ركوب الطائرات وحرب الدبابات . يقول الشيخ محمد عبده في وصفه : « إنه طموح إلى مقصده السياسي ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه ؛ وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان . . . وهو شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ؛ وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

ثم كان أشبه الناس في سياسته بعلي لا بمعاوية ، كانت سياسة معاوية عنوانها : « إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل » . أما « علي » فلا يريد الخوض في الباطل ليصل إلى الحق ، بل لا يريد إلا الحق من طريق الحق ، وإلا فلا كان . وهكذا كان جمال الدين . قال الشيخ محمد عبده : « ماذا كان يضر السيد لو مهد لإصلاحه — وهو في الآستانة — بالسعي عند السلطان في إعطاء أبي الهدى الصيادي خمسمائة جنيه ونيشان لابنه أو لأخيه ، فإذا رأى أبو الهدى أن « السيد » يخدمه فإما أن يواتيه ، وإما ألا يناويه » ولكن أبى السيد أن يطلب هذا الباطل وهو يعتقد أن أبا الهدى سافل دنيء ، إذا طلب له شيئا فالشنق .

ولما كان السيد يحكي لخاصته اقناعه السلطان بأن حادثة الخديو عباس دسيسة ، وأن السلطان اقتنع بذلك ، وأخبر أن هذا من دسائس أبي الهدى ، قال له عبد الله نديم : ليتك عند ما صرح السلطان بذلك ذكرت له دسائسه وضرره ، فغضب عند ذلك جمال الدين ، وقال : « أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون همازا مشاء بنميم » .

وهكذا يريد الحق غاية ، ويريد الحق وسيلة ، والدنيا علمتنا أن سياسة معاوية هي التي نجحت ، وأن سياسة الدنيا تقوم على المصالحة وأخذ شيء بترك شيء . فمن أراد الحق كاملا وإلا لا فلينشد ذلك في المثل الأعلى للخلق لا في السياسة ، أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للخلق .

* * *

بقيت مسألة هامة في تاريخ السيد ، وهو اتهامه بالإلحاد — وقد أشرنا إليها في مقال سابق . ولرمي السيد بالإلحاد تاريخ طويل ، فقد رمي به في الآستانة عند زيارته لها أول مرة ، فقد خطب في دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الإنسانية أشبه شيء ببدن الحي ، وأن كل صناعة بمنزلة العضو ، فالملك كالمخ ، والحدادة كالعضد ، والزراعة كالكبد ... الخ ، ولا حياة للجسم إلا بالروح ، وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة .

فاتهموه بالإلحاد لهذا ، وشنعوا عليه بأنه يقول إن النبوة صناعة ، وشغبوا عليه حتى نُصح بالخروج

من الآستانة .

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عليش وبعض العامة بالإلحاد ، والإلحاد فى نظر هؤلاء وأمثالهم شىء هين ، يكفى ألا يسير سيرتهم ، ولا يلبس لباسهم ، وأن يدخن السيجار ، ويجلس فى المقهى ، ويلتف حوله بعض اليهود والنصارى ، ليحكموا عليه بالإلحاد . وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص ، فكذلك تصوره للالحاد يتكيف بذهنه .

ولما ترجم سليم بك عنحورى للسيد جمال الدين فى كتابه « سحر هاروت » رمى السيد أيضا بالإلحاد فقال : « إنه برّز فى علم الأديان حتى أفضى به إلى الإلحاد والقول بقدم العالم ، زاعما أن الجراثيم الحية المنتشرة فى الفضاء ترقى وتتحور إلى ما تراه من أجرام ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وَهْمٌ نشأ عن ترقى الإنسان فى تعظيم المعبود على حسب ترقيه فى المعقولات ... الخ » .

وقد قابله الشيخ محمد عبده وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحر وتدقيق ، فكتب سليم بك فى الجرائد يصحح فيه قوله ، ويقول : إنى قابلت الشيخ محمد عبده ، فأوضح لى بدلائل ناهضة وبراهين داحضة ، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا من آثار الحسد ، وأن السيد كان أثناء مناظراته الجدلية يشرح النّحل والبدع وأقوال المعطلين شرحا وافياً ، ثم يقيم الحجج على بطلانها ؛ فلعل سامعا سمع منه هـذا القول فى مثل هذا الموقف فنسبه إليه ، وقال إنه لم يسمع من السيد هذا الكلام وإنما تلقاه عن بعض المصريين والسوريين . ونقل كلاما للسيد اطلع عليه فى وجوب الدين ، وضرورة الاعتقاد بالألوهية ، ومزايا الإسلام ، وختم مقاله بقوله : « إننا سارعنا لإذاعة هذا ، شأن المؤرخ العادل ، وقياما بحق الأدب ، وضنا بفضل هذا الرجل الخطير من أن تناله ألسنة من لا يعرفونه خطأ وافتراء والله يتولى الصادقين » .

ثم رأينا ما اتهمه به « رينان » بعد ما جالسه فى باريس فكتب كتبه التى نشرناها من قبل ، وهذا أدق موقف ؛ فرينان فيلسوف واسع الذهن دقيق التعبير ، لا يلقى الكلام على عواهنه ، خصوصا وقد ورد فى رد السيد جمال الدين عليه ما يفيد أنه سلم للمسيو رينان بأن الإسلام كان عقبة فى سبيل العلم .

ولكن فى رأيى أن السيد عبر تعبيرا غير دقيق فى تفرقته بين طبيعة الدين الإسلامى وسيرة المسلمين ، خصوصاً وأنه أخذ على رينان تقصيره فى أنه لم يبحث إذا كان هذا الشر نشأ من الديانة الإسلامية نفسها ، أم عن الصورة التى تصور بها الإسلام ، أم من أخلاق بعض الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، وقراءتنا لرده تشعرنا بأنه وقع فى هذا اللبس ، وأنه كان يدور حول فكرة أن للدين دائرة ، وللعلم دائرة ، ويجب أن يسبح كل فى دائرته من غير طغيان ، وأن الدين يجب ألا يعارض العلم فيما ثبت صحته علميا — وهذه الآراء الواضحة فى ذهننا الآن ، والواضحة فى تعبيرنا ، لم ترد واضحة فى رده ، فكان رداً مهوشا ، كما كانت محاضرة رينان نفسها كذلك .

وليس من شك فى أن السيد كان حر التفكير قويا على الجدل ، متشعب طرائق الحجج ، فمن الممكن جدا أن يكون فى مجالسه مع رينان تبحبح فى بعض الأقوال التى من هذا القبيل ، والتى تحدث لكثير من كبار المفكرين فى بعض اللحظات ، فحكم رينان عليه هذا الحكم الشامل خطأ .

ثم كان « السيد » ، كما يحكى عنه الشيخ محمد عبده وبعض خاصته ، متصوفا يدين بعقيدة المتصوفة ، وهى مبهمة غامضة تنتهى بوحدة الوجود ، والتمييز منها قد يلتبس — إلا على الخاصة — بالإلحاد ، ومن أجل هذا رمى محيى الدين بن العربى وأمثاله بالكفر لعدم الدقة فى الوزن .

إن حياة « السيد » مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين ،

وإلى التوحيد ، في كتاباته في « الرد على الدهريين » وفي العروة الوثقى ، وفي مجالسه الخاصة .

يذكر بعض خاصته أنه سمع رجلا كبيرا تكلم كلمة في حق النبي فأمر « السيد » من معه من الأفغانيين بضربه فضربوه حتى خرج يزحف .

وحكى المخزومي مجلساً شهده ، إذ زار رجل جمال الدين في بيته في الآستانة وجرى الحديث فقال هذا الرجل : « إني قرأت كتب الفلاسفة فثبت عندي أن الله غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان » . فضاق صدر السيد ولم يجبه ، ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج ، فتصايحت الديكة وغردت الطيور ، فقال السيد : « كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله » كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من يأكله الدود ؟ إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام ؟ فخرج الرجل الملحد خجلاً من غير أن يودع .

لا يمكن أن تصدر هذه الكتابات وهذه الأقوال ، وهذه الغيرة من ملحد إلا أن يكون قد بلغ الغاية في التصنع والنفاق . ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه ، إنما كان عيبه إفراطه في صراحته ، وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد ، ويقول : « لا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم » ، وأكثر متاعبه في الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم وإعلانه ما يجب أن يسر ، فأخلاق مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد ملحداً يرى الحق والخير في الإلحاد لدعا إليه في صراحة وجرأة وشجاعة من غير ما مواربة ولا إعياء .

لقد كان يؤمن بالأصول ، ويترك لعقله الحرية التامة في الفروع ، ويصل في ذلك إلى نتائج غريبة عن أذهان الجامدين المزمتين فيرمي بالإلحاد ، فكان ينفر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد ، ويذكر في مجلسه قول القاضي عياض ويتمسك به راووه فيقول « السيد » : سبحان الله ! إن القاضي عياضا قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة ؟ إذا كان القاضي عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا .

« ما معنى باب الاجتهاد مسدود ، وبأي نص سُدّ ، أو أي إمام قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ، ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه .

« إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » .

ويرى أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ورسالة محمد ، ففيم الخلاف ولم القتال ؟

ويقول إن الأديان الثلاثة كلها أساسها واحد وإنما يوسع شقة الخلاف بينها اتجار رؤساء الأديان بها .

ويفيض في اشتراكية الإسلام ويقارن بينها وبين اشتراكية الغرب فيرى أن اشتراكية الغرب بعث عليها جور الحكام وعوامل الحسد في المال من أرباب الثراء ، أما الاشتراكية التي كانت في الإسلام فلتحمة مع الدين ملتصقة مع الخلق باعث عليها حب الخير كما في أعمال عمر وأبي ذر .

ويعرض في مجلسه للحديث عن الرجل والمرأة والسفور والحجاب فيطيل القول في ذلك . وخلاصة رأيه أن المرأة في تكوينها العقلي تساوي الرجل ، فليس للرجل رأس وللمرأة نصف رأس ، والتفاوت الذي بينهما لم يأت إلا من التربية

الملاريا

للدكتور أحمد زكى بك

تسألنى عن الملاريا ، ما خطبها ؟

فاعلم أن خطبها كبير ، ومجال الشرح فيها واسع ، يشترك فى استجلائه علم الحيوان ، وعلم الأمراض ، وعلم الكيمياء ؛ وحتى ذلك الفنّان اليدويّ الذى نسميه الطبيب المعالج . واعلم أنه لا علاقة البتّة بين اسم هذه الحمى — الملاريا — وبين خطبها العظيم . فلو أنى أردتُ التستّر على آبائنا لقلتُ لك خذه اسماً كأسماء الأجناس ، كالحجر والحديد والماء ، لا معنى له أكثر من الاصطلاح على لفظة كائنةً ما كانت لمسمىً . ولو أنى أردت تمجيد من نسلوا من الأبناء لذكرتُ أن لفظة « ملاريا » لفظةٌ تسجّل جهل الماضى وعلم الحاضر . فلفظة ملاريا لفظتان : لفظة « مال » ، ومعناها الشىء الفاسد وكل ما تضمّن شراً ، ولفظة « آريا » ، ومعناها الهواء . واللفظتان تجد أصلهما فى اللاتينية ، وفى الإيطالية والفرنسية . فمعنى الملاريا إذن هو الهواء الفاسد . وأنت لا شك تعلم أن الداء لا علاقة له بالهواء فاسداً أو صالحاً . ولكن اللفظة ذائعة فينا ، ومن حقها أن تقوم ، لنذكرها ، فنشكر بذكرها الله أن هدانا .

واعلم أن داء الملاريا داءٌ فى الناس قديم . فأبقراط الطبيب اليونانىّ الشهير ، عرفها ، وهو الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . وفارُّو Varro ، الكاتب العالم الرومانى فى عهد يوليوس قيصر ، عرفها أيضاً ، واقترح أنه داء مصدره المستنقعات . فهل كانت يا تُرى هذه رميةً من غير رامٍ ، أم كانت نتيجة ملاحظة واستقراء ؟ وفى القرون الوسطى ، فى أوروبا ، طغت على أهلها حمّى متقطّعةٌ ، فيها الرعدة ، وفيها العرق ، وتأتى على ميعاد

وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة ، وليس ما يمنع المرأة من التعلم ، إنما يجب أن تعد المرأة للبيت وتربية الجيل ، ومهمتها فى هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل من كثير من الصناعات ، ويخطئ من يطلب مساواة الرجل بالمرأة فى كل شىء . فلكل وظيفته ، وعلى تعاونهما — كل فى عمله — يقوم المجتمع ، ولا مانع أن تعمل المرأة فى الخارج إذا فقدت عائلها واضطرتها ظروفها إلى ذلك ولكن بنية صالحة وذيل طاهر .

ثم قال : « وعندى أن لا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور » .

ويقول « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المتدينين ورؤساء الدين ، حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة — والقرآن برىء مما يقولون — والقرآن يجب أن يُجل عن مخالفة العلم الحقيقى خصوصاً فى الكليات » .

وهو واسع الصدر ينقد شبلى شميل فى آرائه التى اتبع فيها مذهب دارون بل وجاوزه ، ومع ذلك يقدره لصبره على البحث وجرأته فى الجهر بما يعتقد ولو خالف الناس . وهكذا وهكذا مما يراه المتزمتون خروجاً عن المألوف فما أقرب ما يقذفون بكلمة الإلحاد .

سنة مألوفة فى الكون لا يأتى مصلح سابق زمنه إلا رمى بالزندقة أو الكفر أو الجنون ، ثم أوذى ممن يسعى فى الخير لهم ، وممن يضحى بسعادته لسعادتهم ، ولا يقدَّر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته ، وتتجلى صحة دعوته بعد زمنه .

رحمه الله فالزمن لا يسمح بمثله إلا قليلاً .

(انتهى) أحمد أمين

لا تخلفه ، هي حمى الملاريا ؟

وقبل العصور الوسطى سجلها شاعر العرب ، المتنبي في قصيدته الميمية . فوصفها عن خبرة ، فما أخطأ وصفا . وأين أصابته ؟ في مصر العزيزة . قال يصف الحمّى :

وزائرتي كأن بها حياءً
فليس تزور إلا في الظلام
بذلتُ لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها
فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسَّلتني
كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري
مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق
مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شرٌّ
إذا ألقاك في الكرب العظام

فأي داء هذا إن لم يكن الملاريا ؟

وحدث في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، في أوروبا ، والداء يجتاحها ، أن رجع قساوسة الجزويت إليها من جنوب أمريكا ، بقشر شجرة « سنكونا » ، أو ما يسميه عامتنا اليوم بقشر الكينا ، فكان لأوروبا فيه الخلاص من بلاء الداء .

وبهذا الدواء تميزت هذه الحمى من سائر الحميات ، ودُرست وحدها . ولكن جرثومة هذا الداء لم تكتشف إلا عام ١٨٨٠ ، وكثير من أشياخنا الأحياء ولدوا في هذا العام أو حوله . وجاء عام ١٨٩٤ فاقترح عالمٌ ، معروف لأهل العلم ، أن هذه الجرثومة تنتقل إلى الإنسان بواسطة البعوض ، ولكنه أخطأ فظن أن البعوض ينقلها من ماء وغيره .

ولم يهلّ القرن العشرين حتى كانت دراسة هذه الجرثومة تمت ، وتمت دراسة أطوارها ، وأثبت العلماء أن الجرثومة إنما تنتقل من دم إنسان إلى دم إنسان ، وأن ناقلها ضربٌ معيّن من البعوض .

فما تلك الجرثومة ، وما أطوارها ؟

لمعرفة هذه الجرثومة يجب أن نرجع إلى أدنأ الحيوانات على ظهر هذه الأرض ، فعند هذا الرجوع نعلمُ أن أدنأ هذه الحيوانات ، وأدنأ أدناها ، هو الذي يغزو أرقى الحيوانات على هذه الأرض ، فيسبب له الأرق والأوجاع أياما ، وقد يقضي على حياته .

افتحْ أي كتاب في الحيوان ، واقرأ في أوائله الباب الذي يحدث عن تقسيم المملكة الحيوانية ، تجده يبدأ بوصف أدنى هذه الأقسام ، البُروتوزوا Protozoa . وهو يصفها بأنها أبسط الحيوانات وأصغرها . وأن أكثرها لا يرى بالعين العارية . وأن كثيرا منها يحتاج إلى مجهر عظيم التكبير ليريناه إياها . وبعضها كبير جدا حتى ليبلغ حجم رأس الدبوس . وأكثر هذه الحيوانات شفاف فلا بد من صبغه ليُرى تحت المجهر .

وليست البساطة كائنة في صغر حجم هذه الحيوانات وحده ، ولكنها تتعداه إلى تركيبها . فهي من البساطة في التركيب حتى جرى الحديث بأنها خلايا فردية ؛ أي أن الحيوان الواحد منها يتألف من خلية واحدة ، ولو أنها خلية يغلب أن يتخصص أجزاؤها فتتنوع هذه الأجزاء وظيفةً وتركيباً . فهي خليةٌ ، وإنْ تكن واحدة ، إلا أنها اكتملت في وحدانيتها .

وتظل تقرأ فتأتي على أن هذه الحيوانات البدائية تنقسم إلى أقسام ثلاثة كبرى ، أولها حيوانات سريعة الحركة لها ذيول تنمو على أجسامها فتتحرك بها كما يتحرك السابح في الماء . وتسمى الإنفيوزوريا Infusoria ، أي

الذِّقاعيات ، لأنها وُجِدت فى نُقاعة المواد العضوية لما تعرَّضت للهواء زمنا . ومن أمثلتها جرثومة مرض النوم .
وثانى الأقسام حيوانات متوسطة الحركة ، أكثرها يتحرك بنتوءات تنتأ فى جدار خليته الواحدة ، وبهذه النتوءات تأكل . ومن هذا القسم الأميبا ، وهى جرثومة الدوسنطاريا الأميبيّة فى مصر ، وهو الداء الذى صار فى تقليد كثير من الأطباء ، فى هذه الأيام أن يذكروه كلما أعلموا على اضطراب فى الأمعاء جهلوا سرَّه . ثم تأتى فى قراءتك على ثالث الأقسام . وهو يتضمن الحيوانات البِذْرية ، ويسمونها الاسپوروزوا Sporozoa ، لأنها تتكاثر بأن تتحوّل إلى أجسام كرية أشبه بالبذور . وهذه أبطأ ما فى هذه الحيوانات . ولعلها من بطئها صارت طفيلية . والذى يعجز عن السعى فى سبيل الرزق لابد أن يتطفّل . ومنها جرثومة داء الملاريا ، واسمها بلَزْمود Plasmodium . فهى جرثومة حيوانية ذات خلية واحدة ، عجزت عن السعى فتطفلت على دم الإنسان ، على خلاياه الحمراء . وهى تظل فى دم هـذا الإنسان تنتظر بعوضة من النوع الذى يحملها بالعضّ إلى دم إنسان ثان . ومن هذا الثانى إلى ثالث ، وهلمّ جرّا .

من أجل هذا لا يوجد البلَزْمود من الأرض إلا حيث يوجد إنسان . ولا ينتقل المرض إلا حيث يكون بعوض . والبلزمود ، وهذا النوع من البعوض ، والإنسان ، ثلاثة من الحيوانات لابد من اجتماعها ليتم إحداث هذه الظاهرة المرَضية البديعة التى نسميها الملاريا .

ومن شواهد ذلك أن الملاريا لا توجد فى بعض جزر المحيط الهادى لأنه لا يوجد فيها هذا النوع من البعوض . وهى ستظل خالية من الملاريا ولو نُقل إليهـا ألوفٌ من الناس تستعر الحمى فى أجسامهم ، ويسبح البلزمود متكاثرا فى دمائهم ، ما خلتْ هذه الجزر من هذا البعوض . ومن شواهد ذلك أيضا أن الملاريا لا توجد على الأرض بعد خط العرض الستينى شمالا لبرودة الجو ، كذلك هى لا توجد فى الأعلى ودرجة الحرارة دون الخمسة عشر درجة مئوية . والملاريا لا توجد فى أوروبا ، فى جبالها ، فوق ارتفاع ٣٠٠٠ قدم . وفى الهند وأفريقية لا توجد فوق ارتفاع ٦٠٠٠ قدم .

على أن درجة انتشار الحمى ، مع اجتماع أسبابها ، تتوقف على أشياء كثيرة ؛ منها طريقة عيش الناس وطبيعة الأرض التى يعيشون عليها . فكلما طاب العيش ، وانتشرت الأساليب الصحية وانتشار المدنية قلّت الملاريا أو انعدمت . حدث هذا فى أوروبا الشمالية وأمريكا الشمالية فى القرن الماضى ، ففيه تراجعت الملاريا تراجعا عجيباً عن هذه البقاع بعد أن استفحلت . ولا يزال فى البقاع الأوروبية غير الشمالية بقاعٌ تُذكَرُ إذا ذكرت الملاريا . ومن تلك البقاع صقلية ، ومقدونية ، واليونان .

ولكن أسوأ البقاع سمعة فى هـذا الصدد أفريقية الاستوائية ، تليها أمريكا الوسطى . وللتقارب ما بين الشتاء والصيف عند خط الاستواء تقوم الملاريا فى ترويع أهل هذه البقاع صيفَ شتاء . أما فى غير خط الاستواء ، فللحمى أوانٌ تنزل به على الناس ضيفة لا أهلا بها ولا سهلا . وقد تُغير الطبيعة من طقوسها ، فتتخلّف الوافدة بسبب ذلك ، أو هى تفد شرا مما اعتادت . حدث هذا فى جزيرة سيلان بالهند ، فى الجائحة العظمى جائحة عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ ، إذْ تخلفت رياح النسون ، فتخلّف بها المطر ، فجفّت الأنهار ، وجفّت البحيرات ، إلا من حُفَر استنقع فيها الماء فصار مَراتع للبعوض . وبتخلف المطر تخلّف الزرع ، وتخلّفت المحاصيل ، وشاعت فى الناس المجاعة ، وقلّت بشيوعها قدرة الأجسام على كفاح الجائحة ، ففتكت بهؤلاء المساكين شرّ فتك ، فذهبت فى سبعة أشهر بـ ٨٠٠٠٠ روح

لها بقية

أحمد زكى

من أمارات العبط : *

العبط فى الحياة الاجتماعية

فى مقال سابق رأينا الأمير موتشكين – عبيط دستوفسكى – يصاحب الأطفال ويفضلهم على الكبار ولم نستطع إلا أن نقره على سلوكه . فقد تضافر مع أصدقائه فى رحمة فتاة بائسة . نعم إن الفتاة كانت قد سقطت سقطة أخلاقية لم يكن بد للهيئة الاجتماعية من أن تثور لها . ونحن ندع جانبا منبع تلك الثورة . هبها غريزة تناهض ما فى ملكة التفكير من تدمير لحياة الفرد وتقويض لحياة الجماعة إذا أطلقنا لتلك الملكة الخبيثة عنان التبرير الضال . ثم انظر ألم تكفر الفتاة عن إثمها آلم التكفير ؟ ألم تقبل كل ما أنزل بها من تنكيل بنفس صاغرة باخعة ؟ وعندما ينزل القضاء أو ما نرى رحمة الله لابد مرسلة هدبها إلى من تختار من أرواح تحمل إلى اليائسين نسمة من تلك الرحمة ؟ ومن يدرينا لعل الأطفال والعبطاء هم تلك الأرواح المختارة .

نستطيع إذن أن نتردد فى الحكم على موتشكين بالعبط لمصادقته الأطفال أو مسحه لدموع مارى ؟ بل قد نجرؤ فنرى أن الهيئة الاجتماعية التى تصف الأمير بهذه الصفة هى على الأقل العبيطة إن لم تكن الغليظة الحمقاء .

وما الهيئة الاجتماعية إلا نحن – العاديون من الناس – الذين تتحكم فيهم المواضعات فتجعل منهم أحيانا وحوشا لا تعى ما تفعل .

وها نحن اليوم نواجه العبط فى الحياة الاجتماعية . ها نحن نغادر أدب النفس إلى أدب الجماعة . نغادر وحى الضمير إلى عادات المجتمع . ولا نحسبن أننا ننتقل بذلك من مجال صارم إلى مجال هين . فنحن فى الحق أكثر استعبادا للعرف منا للخلق . وذلك لأمر بيّن هو أننا جميعا – إلا من عصم ربى – أشد حرصا على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا . وإذا تعارض ظاهر لنا بباطن كم ممن ترى حولك يستجيبون لنداء الضمير ؟

عاد الأمير موتشكين من سويسرا حيث كان يستطب من التشنج العصبى إلى بترسبورج ؛ ولما كان يعلم أن أسرته العريقة قد انقرضت ولم يبق منها غير سيدة واحدة زوجة لجنرال كبير بالجيش ، فقد رأى أن يذهب إلى تلك السيدة ليتعرف إليها ويستشيرها فيما يعمل وهو الوحيد المنقطع .

« كانت الساعة غير بعيدة من الحادية عشرة صباحا عند ما دق الأمير الجرس ببيت الجنرال وهو فى الدور الثانى . مسكن فى حدود البساطة التى تسمح بها مكانة صاحبه الاجتماعية . وفتح الباب خادم فى بذلة الخدم . وكانت مناقشات طويلة بين الأمير وذلك الرجل الذى نظر إليه هو وحقيبة ملابسه الصغيرة نظرة ملؤها الريبة . وفى النهاية ، وبعد أن أعلن إليه عدة مرات أنه حقيقة الأمير موتشكين وأنه فى حاجة ماسة إلى رؤية الجنرال لأمر هام ، أدخله الخادم إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفة الانتظار ثم انسحب تاركا الضيف بين يدى خادم آخر . رجل فى الأربعين من عمره يرتدى بذلة رسمية وعمله إخبار صاحب السعادة بأسماء الزائرين . وكان فى ملامحه المهمومة ما يدل على مبلغ شعوره بأهمية وظيفته .

قال للضيف : تفضل . أدخل الصالون ، ودع حقيبتك هنا . قال هذا وهو يجلس فى مقعد ضخم برزانة مصطنعة ونظرته المدهوشة القاسية تفحص الأمير الذى لم يتخل عن متاعه المتواضع وأخذ كرسيا وجلس إلى جواره قائلا : سأنتظر هنا – إذا سمحت – فى صحبتك . ماذا أعمل هنالك وحيدا ؟

– ولكنك ، ما دمت قد أتيت لزيارة ، لا تستطيع أن تبقى فى هذه الغرفة . إنك تريد أن تحادث الجنرال نفسه . أليس كذلك ؟ . وفى الواقع إن الخادم لم يكن

يخطر بباله أن يُدخل زائرا كهذا على الجنرال ؛ ولذلك كرر سؤاله الأخير . فأجاب الأمير : نعم إن لدى مسألة ...

— أنا لا أسألك عن شيء . فعملى هو أن أعلن قدومك فقط ولكنى كما أخبرتك مضطر إلى أن أرى السكرتير أولا .

لقد أخذ الخادم يزداد ريبة . فالأمير كان شديد الاختلاف عن الزائرين العاديين . والجنرال — لا ريب — لم تكن مقابلاته قاصرة على الوجهاء ، بل كان يأتيه أيضا أفراد من كافة الطبقات لمصالح مختلفة ، وكان الخادم يعرف ذلك جيدا ولديه أوامر بأن لا يتشدد مع الزائرين ، ومع ذلك فإنه فى هذه الحالة بالذات لم يجرؤ أن يتحمل المسئولية ورأى أن خير حل هو أن يستعين بالسكرتير .

وأخيرا سأل الأمير وكأنه يوجه سؤاله مكرها : أحقاً أنك ... أتيت من الخارج ؟ ولقد أعوزته الشجاعة فلم يستطع أن يوجه السؤال الحقيقى ، وهو : أحقاً أنك الأمير موشكين ؟ وأجاب الأمير : نعم إنى قادم من المحطة مباشرة . ولقد أردتَ فيما أعتقد أن تسألنى هل أنا حقيقة الأمير موشكين ، ولكن اللياقة منعتك من توجيه هذا السؤال . « هه ! .. » هكذا تمتم الخادم مدهوشا .

— أؤكد لك أنى لا أكذبك ، وأنك لن تتحمل بسببى أية مسئولية . وإذا كنت ترانى فى هذا الزى حاملا هذه الحقيبة الصغيرة فليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة . فحالتى الآن ليست على ما يرام .

— هه ! . . . فى الحقيقة ليس هذا ما يخيفنى . إنى هنا لكى أعلن الزائرين . وبعد هنيهة سيخرج السكرتير . وإذا كنت . . . هل لى أن أعرف أنك لم تأت إلى الجنرال كرجل محتاج لطلب المساعدة ؟

— آه ! لا . من هذه الناحية كن مطمئنا كل الاطمئنان . إنى لم آت من أجل هذا .

— معذرة . لقد خطرت لى هذه الفكرة وأنا أتأمل ملابسك . انتظر السكرتير . فالجنرال مشغول الآن مع أحد الضباط . ولكنك سترى السكرتير قادما .... سكرتير الشركة .

— إذا كنت سأنتظر زمنا طويلا . فإنى أسألك أن تسمح لى بالتدخين فى جهة ما . فلدى الغليون والدخان .

فصاح الخادم فى استنكار وهو لا يكاد يصدق أذنيه : بالتدخين ! ؟ .. بالتدخين ؟ ! ... أبدا . إنك لا تستطيع أن تدخن هنا ، بل وما كان يجوز أن يخطر هذا ببالك . آه ! هذا شيء عجيب !

أوه ! إنى لم أقصد التدخين فى هذه الغرفة . فأنا أعلم جيدا أنه غير مسموح به ، وإنما أردت أن أرجوك لتدلنى على مكان أستطيع أن أشعل فيه بيبتى . وذلك لأنى معتاد التدخين ، وها قد مضت على ثلاث ساعات دون أن أدخن . ومع ذلك فليكن ما تريد . وأنت تعلم أن هناك مثلا يقول : فى الدير الأجنبى ...

وتمتم الخادم مكرها : ولكن كيف أعلن قدومك وأنت فى هذه الحالة ؟ مكانك كزائر ليس هنا ، بل فى الصالون . وبقاؤك فى هذه الغرفة سيعرضنى للتوبيخ . ثم أضاف ، وهو يلقى بنظرة جانبية إلى الحقيبة الصغيرة التى كانت لا تزال بيد الأمير ، وقد شغلت الخادم طول الوقت ... ولكنك تنوى ان تقيم عندنا . أليس كذلك ؟

— لا . هذا لم يخطر ببالى . وحتى لو اقترحوا علىّ ذلك لن أقبل البقاء . وغايتى الوحيدة من هذه الزيارة هى أن أتعرف إلى أصحاب المنزل . ولا شيء أكثر من ذلك .

ولاح هذا الجواب للخادم الظنين داعيا إلى الريبة فصاح مندهشا : إيه ! ! أن تتعرف إليهم ؟ ! ولكنك ابتدأت بأن أخبرتنى أنك أتيت لمسألة ما .

— ربما أكون قد بالغت عندما تحدثت عن « مسألة » ومع ذلك فليكن مجيئى إلى هنا ، إذا أردت ، لمسألة ، غير أنى أريد أن آخذ نصيحة . وإن كنت أود قبل كل شيء ، أن أتقدم إلى الجنرال ايبنتشين ، وذلك لأن

زوجته من أسرة موتشكين ، أسرتى . وهى وأنا آخر عضوين فيها .

ولقد بلغت الكلمات الأخيرة من قلق الخادم فصاح ذاهلا : وإذن فأنت من الأقرباء أيضاً ؟ ! !

— تقريبا . لاشك أن هذه القرابة قائمة ، ولكنها بعيدة إلى حد أن نستطيع اعتبارها متمدمة . وعندما كنت فى الخارج كتبت مرة إلى زوجة الجنرال ، ولكنها لم ترد . ومع ذلك فقد رأيت عند عودتى أن من الواجب تذكيرها بى . ولقد استطردت إلى كل هذه التفاصيل لكى أبدد شكوكك وذلك لأنى أراك دائم القلق . أعلن قدوم الأمير موتشكين وبمجرد أن يسمعوا اسمى سيعرفون سبب زيارتى . وعندئذ سيستقبلوننى أو يرفضون استقبالى . فإن فعلوا كان خيرا وإن رفضوا ربما كان أخير . وإن كنت أعتقد أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا . فالسيدة لاشك تود أن ترى الممثل الوحيد الباقى من أسرتها . وأنا أعلم أنها تعتز بأصلها اعتزازاً كبيرا .

وكان الأمير كلما ازداد تبسطاً فى حديثه واسترسالا ربما ازداد إساءة إلى نفسه فى نظر الخادم . فهذا الحديث الذى لاغبار عليه إذا جرى بين أناس من طبقة اجتماعية واحدة ، لم يكن الخادم يستطيع أن يفهم إلا أنه نابِِ عن موضعه نبواً شديداً عندما يدور بين زائر وخادم . ولما كان الخدم أقل غباوة مما يظن أسيادهم عادة فإن خادمنا قد افترض أحد أمرين : إما أن يكون الأمير شحاذاً أتى يستجدى الجنرال صدقة ، وإما أن يكون بكل بساطه رجلاً مخبولا . وذلك لأن أميراً نبيها لا يمكن أن يبقى فى هذه الغرفة الجانبية ولا أن يقص أموره على خادم . وفى كلتا الحالتين هل كان يستطيع أن يعلن قدوم شخص كهذا ؟ »

وأنا أعفى القارىء من بقية الحوار واطمئنه إلى أن الأمير موتشكين قد انتهى بالدخول والتعرف إلى الجنرال وزوجته وأبنائهما ، بل كانت له حادثة غرام مع إحدى بنات الجنرال . والسكرتير طبعاً هو الذى أدخله .

والآن ماذا يرى القارىء ؟ أهو عبيط حقاً ؟ ولك أن تراجع كل أقواله فلن ترى فيها غير الصدق . قد تقول ولكن الرجل عبيط عبيط ما فى ذلك ريب . فهو لا يعرف أن يضع نفسه ولا يقدر نفسية من يخاطبه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحة متصاعدة . وهو أخيراً لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فما ينبغى أن يقال لكل إنسان ، وما إلى ذلك من حكمنا الثمينة . قد تقول هذا وخيراً من كل هذا وأما أنا فاعتقد أن عقولنا نحن هى الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية قد خربت نفوسنا . لقد كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا كلها نفاقا متصلا واتخذت من هذه النفاق قانونا صارما يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى فأصبحنا جميعاً نتساءل عن سر عبط هذا الأمير العجيب بدلا من أن نتساءل عن سر فسادنا نحن خدماً وسادة .

محمد مندور

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	م	
	٤٥	فى مصر والسودان
	٣٧/٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

صيد من بلاد الشام

. . . وبعدُ ، فهذا صيدى ، ستجد فيه كل لطيف طريف من سِيَر العلماء ، وسَمَر الشعراء ، وأسرار الأدباء . ولك عهدى أن لا أتكلّف ولا أتحفّظ ، ولا أنقل غير ما هو حق وصدق .

وما عساىَ أن أقول ، والأدبُ ، كما علمتَ ، صناعة لا ينجو صاحبُها إن تحدّث عن أهلها ، من بعض شر يؤذيه ، أو عتْب يتعرّض له ، أو لوم يناله . إن ذكرت هذا طمن عليك ذاك ، أو تجرت أولئك حقد عليك هؤلاء .

وقد يغضب الذين سأسوق الحديث عنهم ، أو قد يرضون . فقد نال بعضهم الترك بغير سَبب ، وبلغوا البغيةَ بغير آلة . تراهم قد تَصنّفت بهم الحيلات ، وأبطرهم العجب ، فصالوا على الأقران . وهؤلاء تجرحهم الكلمة الناعمة ، ويسوؤهم الذكر الجميل .

وأوتى آخرون العلم والفهم ، وعرفوا بالبراعة والتمييز . أعوزهم المال تارة ، والرياء مرةً ، فظلوا مغمورين مجهولين ، لا يُعرفون ، ولا يُذكرون .

وأنا سعيد فيما أقدمتُ عليه . فلقد وجدتُ ناسا من الناس ، في قطر من الأقطار ، ولا يعرفون عن دمشق وأهلها ، وسوريا وأدبائها ، غير قليل من القليل . أترى هذا ذنبنا ، أم هو ذنبهم ؟ . أما نحن فلا ندعو لأنفسنا دعاية غيرنا ، ولا نعرّف عن عندنا . أما هم ، فلا يقرأون كلّ ما يصدر عنا . أعفوا أنفسهم من كدّ النظر في آثارنا ، وتسقط طريف أخبارنا ، حتى وقع نفر منهم عما يُضحيك ، بل — وحقّك — عما يؤلم .

وصيدى لا يتّبع طريقاً قد سُلك ، ولا يقصد نهجاً قد طُرق . إنما هو أخبار صغار ، لطاف ، خفاف . تتنقل بينهن وكأنك فى بستان ، فتجنى منهن ما يحلو لك ويطيب عندك ، من غير أن يستمك طول البحث ، ولا تُمجك دقة الفرض . ويبقى الصيد ، بعد ذلك ، حبيباً إلى نفسك ، متصلا بذهنك ، ملتحما بعقلك ، يرتاح إليه قلبك ، ويخف الحديث به على لسانك .

والشكر للعلامة الجليل ، أحمد بك أمين الذى طلب هذا الصيد ، ورحّب به .

١ — المجمع العلمى وجوائزه .

وجدير بنا ، أن نتحدث عن مجمع (الخالدين) ، الحديثَ الطويل .

لا جَرَم أنه مفخرة دمشق ولو كره بعض العائدين . ولا شك أن أهل أيامَ نشأتهم ونتاجهم ، كانوا صفوة الشعراء والكاتبين .

لقد هبّ المجمع يعمل ، وأخذ أعضاؤه يكتبون ويُحاضرون . ولا غروَ فى ذلك ، ورئيسه عندنا سيد المشجّعين العاملين .

فى كل يوم مشروعات ، وفى كل أسبوع محاضرات . أما المحاضرات ، فنذكر منها ما وُفق بها صاحبها ، وجوّد كاتبها .

أما المشروعات فكثار .

فنها هذا العام ، جعله للأدباء السوريين ثلاث جوائز تُعطى لمن ألّف أو ترجم كتباً فى موضوعات تتعلّق بأغراض المجمع ، ولا تخرج عن اختصاصه .

ولجنة المطبوعات ، خُصّت بدراسة الكتب ، والدلالة على الصالح العام منها .

ويستطيع المجمع تشجيعاً للعلم — كما ورد فى نظامه — أن يوزّع الجائزة الواحدة على أكثر من مؤلّف واحد .

ويمكنه أيضاً ، أن لا يمنح الجوائز الثلاث ، فى سنة ما ، إذا توفّر لديه ما يدعو إلى ذلك .

أما أغراض المجمع ، كما حدّدها أعضاؤه ، فتنحصر أولاً فيما يتعلّق بعلوم اللغة العربيّة وآدابها ، والحرص على سلامتها ، وجعلها تتّسع للعلوم والفنون والمخترعات . وثانياً فيما كان ذا مساس بتاريخ العرب ، وآثارهم ،

ومدنيتهم ، وعلومهم ، وما كان للأمم ، بالحضارة الإسلامية من صلات .

وإنها لخطوة مباركة . فيها رد على من يزعم أن المجمع لا يشجع الأدباء .

ها هو ذا ، قد وضع الجوائز ، فأين الأدباء ؟

أشخاص معدودون يتقدمون . وعندى أن أكثرهم فيما قدموا مخطئون .

فالأستاذ خلدون كنانى تقدم بمحاضرة ألقاها على الطلبة عن (حسان بن ثابت) وقد طبعها فى كراس صغير .

والسيد أنطون الجناوى تقدم برسالة عن (الطيران) وضعها للطلبة أيضاً منذ سنين . وما أدرى إن كان (الطيران) فى أغراض المجمع العتيد .

والأستاذ ابراهيم الكيلانى قدم كتاباً جمع فيه دروساً ألقاها على طلبة البكالوريا عن (الحجاج) ، وكان قد أخرجه منذ سنوات .

والأستاذ يوسف العش قدم رسالة عن (الخطيب البغدادى ، مؤرخ بغداد) وهى مخطوطة .

والأستاذ صلاح الدين المنجد قدم رسالة عن (سجون بغداد ، فى العصر العباسى) ومقايستها بسجون أوروبة فى ذلك الزمان وهى مخطوطة .

فهؤلاء ممن علمت أنهم تقدموا . وتلك موضوعات رسائلهم . أما المخطوطة منها فما أدرى ما فيها ، أما المطبوعة فليس لى أن أداعب أصحابها الآن ، فلقد نقدتها نقداً .

ولعل هناك غير هؤلاء ، سنذكرهم إن عرفناهم بعد حين .

ولا يقعن فى خلدك ، أن هؤلاء أرادوا أن ينصبوا المجمع حكماً فيما يلقى على التلاميذ ، وما عليه إلا انتقاء الرسالة النادرة ذات الموضوع البكر ، الذى لم يطرق ، الجدير بالجائزة ، مثلا ..

٢ — رسالة الملائكة للمعرى .

وعندى دار الكتب الظاهرية تقدم مخطوطة نادرة لرسالة الملائكة ، التى ألفها المعرى ، جواباً عن مسائل صرفية سأله عنها بعض الطلبة .

وقد ظهرت هذه الرسالة ، قبل سبعة عشر عاماً فى كتاب « أبى العلاء وما إليه » للراجكوتى . ثم طبعها الكيلانى طبعة ثانية ظن أنها كاملة .

وتمتاز هذه المخطوطة من غيرها بأن فيها زيادات لم تعرف من قبل .

وقد أخذ الأستاذ سليم جندى ، عضو المجمع العلمى ، بتحقيق هذه المخطوطة ، ومعارضتها بالنسخ المطبوعة ، وشرحها وضبطها والتعليق عليها .

والأستاذ الجندى هذا ، من شيوخ الأدباء فى الشام . وهو عالم لغوى فاضل ، واسع الدراية ، حلو الرواية . ونقده إذا انقد مر ، وانتقاده إذا تندر مؤلم ، ولكن حديثه إذا تحدث حلو . وله مساجلات مع الكرملى والحمصى ، والمنذر بسبب اليازجى . وقد قهرهم بثبات حجته ، ولم يصنعوا شيئاً . ولم أدرك هذه المساجلات ، ولكنى قرأتها .

ولن تجد كالجندى ولوعاً بالمعرى وبشعره . فهو يفضله ويقدمه ، ويرى فى شعره مشحذة على الفهم ، ومجلبة للحكمة ، ومرمدة للخطأ . وقد قضى فى صحبته ودراسته عشرين عاماً أو تزيد . وله كتاب جامع فيه ، لم يطبع .

وللأستاذ الجندى من التواليف « إصلاح الفاسد من لغة الجرائد » و « امرؤ القيس » و « ابن المقفع » و « على بن طالب » و « رسالة الكرم » و « رسالة الطرق » ، وكلها مطبوعة . و « شرح ديوان النابغة الذبيانى » و « دراسات فى الأدب العربى » و « كتابه عن المعرى » وهذه مخطوطة .

وسيطبع المجمع العلمى رسالة الملائكة ، ويعد أعضاؤه العدة لإخراج كتب مخطوطة ، ودواوين شعرية ، سنتكلم عليها ، وعلى أصحابها فى أسابيع مقبلة .

٣ — مقصورة صريع الدلاء .

قصيدة لطيفة أطلعنى على نسخة مضبوطة منها الأديب

من مصادر التاريخ الإسلامي :

الطبري وابن الأثير

٢٢٥ — ٣١٠هـ — ٥٥٥ — ٦٣٠ هـ
٨٣٨ — ٩٢٣م — ١١٦٠ — ١٢٣٤م

ولد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري بآمل عاصمة طبرستان حوالى عام ٢٢٥هـ (٨٣٨م) وقد درس بها وقتا ثم غادرها إلى الري ، ولما نزح إلى بغداد كان في نفسه أن يسمع من أبي عبيد الله أحمد بن حنبل ، ولكن لم يتفق له ذلك لموت ابن حنبل قبل دخوله المدينة . وقد انحدر إلى البصرة ثم إلى الكوفة ، وعاد ثانية إلى بغداد حيث تابع دراساته للقرآن والقراءات . وفي عام ٢٥٣ هـ وصل إلى الفسطاط ولكنه عاد ثانية إلى الشام . وفي عام ٢٥٦ هـ عاد إلى مصر والتقى أبا الحسين بن السراج ، ولقد كان قبلة لعلماء مصر وموضعا لاحترامهم لما أبداه من أدب جم وعلم وافر . والحق أن الطبري كان دائرة معارف عصره ، فكان عالما بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض . ولما عاد إلى بغداد بدأ عراكه مع الحنابلة الذين هاجموا منزله وآذوه أشد الإيذاء ورموه بالمروق والإلحاد . ولقد أثبت رأيه من ابن حنبل في كتابه (اختلاف علماء الأمصار) ، ويظهر أنه لم يعترف بأحمد بن حنبل كحجة في علم الفقه .

رفض الطبري قبول مناصب عدة ، ورغب في الانقطاع إلى العلم والتأليف ، فتفرغ لجمع مادة تصانيفه من رحلاته إلى البلاد الإسلامية . وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن الطبري مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة . وقيل إن جماعة من تلاميذه قسموا مصنفاته على أيام حياته فخص كل يوم أربع عشرة ورقة .

اعتمد الطبري فضلا عن الروايات التي جمعها في

الفاضل الأستاذ أحمد عبيد . وأظن أنه كان يُعنى بتصحيحها ثم عثرتُ على أبيات منها في «عيون التواريخ» لابن شاكر . المخطوط في المكتبة الظاهرية .

وصريع الدلاء هو أبو الحسن علي بن عبد الواحد . الفقيه البغدادي ، عُرف بصريع الدلاء . وبقتيل الغواني ، وبذي الرقاعتين . وكان شاعراً ماجناً يَغلب على شعره الهزل والمجون . وكان قد قَدِم مصر ، ومدح الظاهر لإعزاز دين الله ، وتوفي سنة ٤١٢ هـ .

وهو جدير بأن يُنوَّه به ، لأنه حلقة من سلسلة ، فيها أبو العبر ، ومَنْ حذا حذوه .

وقصيدته هذه ، عارض بها مقصورة ابن دريد ، وهي ممتعة ، خلط الجد فيها بالهزل ، والحكمة بالسخف .

وهاك بعض أبيات منها .

مَنْ لم يُرِد أن تَنْتَقِب نعالُه
يحملُها في كمِّه إذا مشى
مَنْ دخلَتْ في عينه مسلّةٌ
فسأله من ساعته عن العمى
من صَفَع الناس ولم يدعهمو
أن يصفعوه ، فعليهم اعتدى
مَنْ طَبَخ الديك ولم يذبحه
طار من القِدْر إلى حيث يشا
مَنْ أكل الفحم تسوَّدْ وجهه
وصار سحنُ خدِّه مثل الدجى
مَنْ فاته العلم وأخطاه الغنى
فذاك والكلب على حدٍّ سوا

قال بعضُهم وقد قرأ البيت الأخير : إن هذا البيت خير من مقصورة ابن دريد ، فإنه حكمة بالغة .

لعلّنا الكتابة عن هذا الشاعر ، والتكلم عليه .

دمشق   فؤاد

أسفاره ، على تصانيف من سبقه من المؤرخين أمثال ابن مخنف وابن إسحق والواقدى والمدائنى وابن الكلبى .

وقد اعتمد كثيرا على روايات سيف بن عمر التميمى الذى توفى فى عهد هرون الرشيد ، والذى يمثل مدرسة أهل العراق فى الحديث . اعتمد على كتابين له أحدهما عن ثورة العرب عقب موت الرسول وحروب الردة والفتوحات الإسلامية ، وثانيهما عن الفتنة أيام عثمان .

ويأخذ كثير من المستشرقين على الطبرى أنه لم يحاول مزج الروايات ونقدها وإعطاء رأيه الخاص فيها ، بل اكتفى بسرد الروايات المتضاربة جنبا إلى جنب . ويرى بعض المؤرخين أن فى ذلك فرصة للباحث الحديث الذى أمامه مادة لم تعبث بها يد الطبرى . ويعتقد المستشرق الإنجليزى مارجليوث أن الطبرى لم يكن مؤرخا بالمعنى الذى نفهمه الآن ، فقد كان بطبيعته أديبا تنحصر مقدرته فى نقل أخبار ذكرها الأقدمون . وهو حين يؤرخ لعصره لا يظهر مقدرة كبيرة فى تصويره للحوادث . وفضلا عن ذلك فهو حينما يتكلم عن الفتوحات الإسلامية لا يحدثنا عن الحالة الاجتماعية للبلاد الإسلامية . غير أنه مهما قيل من انعدام النقد التاريخى عند الطبرى فهو بلا شك أول من حاول أن يجمع بين معلومات العرب التاريخية فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك أو التاريخ الكبير » الذى تكلم فيه عن تاريخ الدول الإسلامية إلى عام ٣٠٢ هـ (٩١٥) م .

أما أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير فقد ولد فى جمادى الأولى ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) بجزيرة ابن عمر بالجزيرة ونشأ بها . وفى عام ٥٧٦ هـ (١١٨٠) م نزحت عائلته إلى الموصل ، فسمع بها من أبى الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسى . وقد قدم بغداد مرارا كرسول من صاحب الموصل ، ورحل إلى الشام والقدس ثم عاد إلى الموصل ، وانقطع للتصنيف ، وكان إماما فى الحديث وخبيرا بأنساب العرب . وفى عام ٦٢٦ هـ (١١٢٩ م) تقابل فى حلب مع ابن خلكان حيث كان ابن الأثير ضيفا على شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب . وقد أشاد ابن خلكان بتواضعه ، وكرم أخلاقه وسعة علمه .

وقد حاول بعض النقاد أن يقلل من القيمة العلمية لكتابه « الكامل فى التاريخ » بحجة أن ابن الأثير قام باختصار كتاب « الرسل والملوك » للطبرى ، ولكن العالم الألمانى « بروكلمان » دحض هذا الرأى ، وبرهن على أن ابن الأثير مؤرخ له مكانته العلمية ، وأنه أضاف مادة جديدة « لكتاب الرسل والملوك » . وقد تمكن بروكلمان من مقارنة نصوص ذكرها الطبرى بنظيراتها فى الكامل وتمكن من معرفة المصادر التى اعتمد عليها ابن الأثير فى إضافاته وزياداته .

وأهم ما نلاحظ من اختلاف بين الكامل وبين تاريخ الرسل والملوك ما يأتى :

١ - تمكن ابن الأثير من أن يتحلل من كثير من الإسناد ، ففى عصر الطبرى كان الإسناد أمراً مهما ، ولكننا نلاحظ أن ابن الأثير لم يحذف الإسناد نهائيا ، فقد استعمله فى الكلام عن حياة الخلفاء .

٢ - اختزل ابن كثير من الخطب والخطابات التى أوردها الطبرى ولكنه لم يحذف المراسلات التى تكشف عن التاريخ السياسى لعصر من العصور .

ولكى يبرهن بروكلمان على أن ابن الأثير اعتمد على مصادر أصلية غير « تاريخ الرسل والملوك » بين ما أخذه من ابن هشام ، وما أخذه عن الواقدى ، وما أخذه من المدائنى ، وما أخذه من البلاذرى ، وذكر فى نهاية بحثه أن كثيراً مما نقله إلينا ابن الأثير من تاريخ العرب فى أسبانيا وأفريقيا لم يذكره الطبرى فى تاريخه .

محمد أحمد حسين

المسرحية الثانية للفرقة القومية

يوم القيامة

مسرحنا في جوهره مُلْمح للقصص التي تقتطع له قطعة حية من صميم روح الشعب وأخلاقه وعاداته . ولا مفرّ من الاعتراف بأن هذه الروح تبدو هشة مفتتة . أوَ كان ذلك لأنها بطبيعتها سطحية التيارات ، أم لأننا لم نفلح إلى الآن في سبر أغوارها والوصول إلى أسرارها ؟ من أجل هذا أو ذاك ، اقتصرت معظم المسرحيات الشعبية على نوع من قصص تعتمد كل الاعتماد على التهريج وحشد أكبر عدد ممكن من الشخصيات الهزلية لفظاً أو تصرفاً ملبساً . أفليس في حياة الشعب إذن شيء من الجد ؟

لم يَصف هذا الشعبَ أحد كما وصفه الجبرتي . هو سليل أسرة نشأت في أواسط إفريقيا — الجبرت هي زيلع — جذبها النيل فيما جذب إلى مصر فإذا بالنازح الغريب يصبح أصدق مثل لابن البلد الكريم الذي يعشق القاهرة ، ولا يعدلها حياته إلى الريف ، يخالط كبراءها وعوامها ويقيد حديث قصورها وأكواخها ، جداً وهزلاً . كل كلمة منه تصدر عامرة بالحب والحنان والعطف . لقد مرت على هذا الشعب أحداث كثيرة وتطورات هامة ، ومع ذلك لا تزال الخطوط الرئيسية التي رسمها الجبرتي قائمة إلى اليوم . أهذا علامة على ضعف هذا الشعب أم على قوته ؟

روى لنا عبد الرحمن بن حسن الجبرتي في أسطر قليلة (ج ١ ص ١٤٧) كيف شاع في القاهرة ذات يوم أن القيامة قائمة يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي الحجة « فودع الناس بعضهم بعضاً ويقول الإنسان لرفيقه : بقي من عمرنا يومان . وخرج الكثير من الناس الخلايق إلى الغيطان والمتنزهات ويقول بعضهم لبعض دعونا نعمل حظ ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة »

كم من قارئ مرت عيناه على هذه الأسطر فاستصغرها

ولكن — الأستاذ صبرى فهمي — فطن إلى ما بها من حيوية وخلق منها أفقاً زاخراً بالألوان ، رسم عليه بعد ذلك — ولا قيمة للرسم في مثل هذه اللوحة الرائعة — قصة ساذجة عن قدوم ابن سر تجار الشام وزواجه من ابنة سر تجار مصر .

وقد سبق للفرقة أن أخرجت هذه القصة في الأعوام الماضية فكان إخراجها قاراً غير موفق لانعدام فرقة الأناشيد عندئذ — ثم إذا بها تبرز من جديد هذا العام — كأنها مسرحية جديدة — ووراؤها مجهودات جبارة : حوار لبيرم التونسي الذي يأنف له نبوغه أن تخضع ألفاظه لتطور الزمن ، وألحان لزكريا أحمد الخالص لشرقيته ، من حب لها أو عن صدود عن غيرها ... وغناء لفتحية أحمد التي يمثل في صوتها الخلق المصري ماله وما عليه ... ومن وراء هؤلاء جميعاً الأستاذ زكي طليمات المخرج الأول للفرقة .

ورغم هذه الجهود خرج كثير من النظارة وهم يقولون أن الفرقة القومية هبطت إلى ميدان لم تكن نتوقع أن نراها فيه ...

وكان أمام الأستاذ طليمات طريقان : أحدهما شاق يعتمد على تأكيد الجو الشعبي للمسرحية بحيث تكون استمراراً صادقاً لطوائف الشعب وحركاته واضطرابه وتذكير الناظرين بما يوشكون أن ينسوه ؛ وطريق آخر أسهل من ذلك بكثير ، وهو التهريج الخالص ومحاولة إثارة الضحك لسبب أو لغير سبب والاعتماد على شخصيات مضحكة لا قيمة لها في القصة وإنما اقحمت فيها إقحاماً ، وهذه الشخصيات تضر أكثر مما تنفع ؛ لأن الجمهور وإن ضحك أثناء التمثيل لا يلبث أن يستفيق إذا انصرف فيرى أن الضحك إنما كان على ذقنه ... وماذا تقول إذا رأيت هذه القصة الخصبة تصبح وليس بها شخصية واحدة — واحدة فحسب — ليست هزؤاً وسخرية وهزلاً ؟

نحن نلمس في الأستاذ طليمات — وبالأخص منذ إخراجه لمسرحية شهرزاد — ميلاً متطرفاً ، وأخشى أن أقول — ميلاً طبيعياً — إلى الهزليات « بوفونورى Buffonerie »

صحيفة الفن :

١ – سندباد عصري و ٢ – سندباد قـديم

للدكتور حسين فوزي

– ٢ –

أمضينا أسبوعا سابقا مع « السندباد المصرى » فهل نمض هذا الأسبوع مع « السندباد القديم » . ولكننا لن نسير إليه هـذه القرون وحدنا ، فدليلنا فى صحبته هو السندباد المصرى نفسه ! وهو دليل حصيف ، مزوّد بالعلم الحديث ، والكشوف الجغرافية ، والبحوث التاريخية ، فوق ما علمنا عنه فى المقال الأول من يقظة الروح الفنية ، وتنبه الحس والعاطفة ... وتلك جميعها أدوات تجعل رحلتنا إلى « السندباد البحرى » فى « ألف ليلة وليلة » رحلة مأمونة وممتعة ، مع دليل أمين !

وقبل أن نوغل فى هـذه الرحلة ، يجب أن نكشف للقراء – مقدما – عن برنامجها واتجاهها ، كما رسمها لنا دليلنا « السندباد المصرى » فى كتابه « حديث السندباد القديم » .

كلنـا قد عشنا مع « السندباد البحرى » فى جو « ألف ليلة وليلة » فترة من حياتنـا – إن لم يكن عن طريق القراءة فعن طريق السماع – وكلنا ذاق حلاوة هذه الفترة السابحة فى الأحلام ، الحائمة فى الجواء ، السارية فى البحار . وكلنا قد حبس أنفاسه مع « السندباد البحرى » وهو فى مخاطراته المهلكة ، وطظاته الحرجة ؛ ثم تنفس الصعداء معه وهو ينجو فى اللحظة الأخيرة ؛ ثم استراح واطمأن عليه وهو يبلغ مأمنه ؛ ثم عاد يتابعه من جديد فى رحلة جديدة لا يدرى ماذا تخبئ له فيها الأقدار !

ولـكن أحدا منا لم يحاول أن يخرج من جو الأحلام ،

وقد يستساغ هذا اللون مدة وفى موضعه . أما أن يصبح وسيلته الوحيدة لمعالجة القصص الشعبية التى يخشى عليها من السقوط ، فأمر فيه نظر ؛ إذ لا نود له كفنان أن يكون متأثراً بالجانب التجارى فى الفرقة القومية وإن كان الربح المادى لا يزال عندنا أصدق دليل على نجاح أى عمل فنى . وكنا نرجو أن تظل له عين يقظة على الرسالة التى يجب على الفرقة أن تؤديها إذ لا يحسن أن يطغى الجانب التجارى على الجانب الفنى كل هذا الطغيان .

حبذا لو بقى فى يوم القيامة لون واحد من ألوان الجدّ ليكون قوتها فى المقابلة بين هزل الحوادث وجد العوامل الخطيرة والدوافع الكامنة التى تحرك هذا الشعب وتنفخ فيه . وهذه المقابلة التى كان خليقاً بها أن تكون روح القصة وسرّ قوتها ضاعت وانقلبت المسرحية كلها هزلا رخيصاً فى هزل رخيص .

نقول للأساتذة الفنانين الذين يدرسون فى أوربا إن تمجيد الفن للفن والحرص كل الحرص على البراعة ليس له مكان فى مصر كما يظنون . فنحن لا نتطلب براعة ، بل فهما ، والطريق الوحيد لفهم مصر ، هو الحب والتقدير .

وبعد ، فقد استعانت الفرقة القومية على إخراج هذه المسرحية بأفراد كثيرين لا يمتون إلى المسرح بصلة ، وقد لفت الأنظار راقصة بارعة ، وشاب فى موكب دق الطبول ، وقال الكثيرون لو وجد هذا الشاب وهذه الفتاة من يتعهدها ألا يصبحان يوماً من مهرة الراقصين يغذون المسرح عندنا – كما فى أوربا – بالقصص الراقصة ؟ « البالية Ballet »

ونحن نرجو أن يكون من بعض اهتمام القائمين بأمر الفرقة أن يمدوا أصابعهم الحساسة لتتلمس العناصر الصالحة للمسرح فى أوساط شعبية بعيدة عنه ، فلا شك أنها ستعثر عندئذ على كنوز كثيرة فى هذه الأرض العذراء .

نجيب ...

ويخرج معه السندباد . ثم لقد حاول كثير من الباحثين ـ معظمهم من المستشرقين ـ أن يبحثوا عن تاريخ قصص ألف ليلة وليلة وأن يفهموا تدرجها ، وأن يفحصوا عن الخصائص التاريخية والعقلية واللغوية التي توجد في هذا التنبع. ولكن هذا كله كان شيئاً غير الذي نعنيه ، وهو ما صنعه الدكتور « حسين فوزي » في كتابه الأخير[1] .

فوجهة الكتاب كله ، هي الكشف عن المواد الخامة التي صاغ منها مؤلف قصة السندباد البحري هذا القصص الجميل .

ثم بيان مدى القدرة الفنية في صياغة هذا القصص الفني من تلك المواد الخامة التي كانت في متناول الجميع إذ ذاك ، فلم ينتفعوا بها مثل هذا الانتفاع .

وقد بلغت صفحات هذا الكتاب سبعين وثلاثمائة صفحة استنفدها المؤلف جميعاً في البحث عن أصول القصص البحرية في « ألف ليلة وليلة » دون سائر قصصها ، ثم شاءت له روحه العلمية وتقديره الصحيح لمهمته أن يقول عن بحثه بعد ذلك :

« رحلة خيالية في الزمان والمكان ، لم أقم بها إلا بين الطروس والمحابر ، وصفحات المجلات الدقيقة . فكان هذا الكتاب .

« لا هو من العلم كله ، ولا هو من الأدب كله . صفته من صفة مادته ، وإقليمه نوعاً كإقليمه موضوعاً . هو بين العلم والأدب ، كموضوعه بين الواقع والأساطير . للعلماء أن يقذفوا به إلى مجامع أهل الأدب ، وللأدباء أن يلقوا به في أنابيق العلماء . هو عيال عليهم جميعاً .

« لو أردته بحثاً علمياً لاقتضى من العلوم كثير : تقويم البلدان ، والتاريخ ، « والفوكلور » وعلم اللغات المقارن ، وفحص المخطوطات ، ومقابلة النصوص . ولو أردته بحثاً أدبياً لأعوزني ما يتحصن به بحاثة الأدب من دراسة اللغة : تاريخها وأجروميتها وبيانها وبديعها ، واضطلاع كامل بآدابها ، وفهم اللهجات ، وموازنة للأساليب :

« لم يبق لي بين هذا وذاك غير شيء من العلم بالبحر وأحيائه وأمواجه وتياراته وقيعانه وجوه وشواطئه ، وحب صادق له ، واطلاع عام على الأدب الخاص به ، وخبرة شخصية ببعض أرجاء البحر الشرقي الكبير ، موضع عناية البحريين والجغرافيين وكتاب العجائب وأرباب القصص ممن ألفوا في العربية بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي .

« ليس زيفاً في التواضع أن أقول ما أنا قائل ، هي الحقيقة الصراح أن من يتصدى لمثل موضوع هذا الكتاب لا يمكن أن يكون رجلاً واحداً ، إلا أن يجمع في واحد ما عددناه من أبواب العلم والمعرفة .

« والساع العارف في عصرنا لم يعد يسمح بالشخصيات الإنسيكلوبيدية » ،

وتقرأ هذه الفقرات في نهاية الكتاب بعد أن ترى الجهد الكامل المبذول في ثناياه ، فيروعك هذا التحرج الكريم وتكمل لك الثقة بهذا الدليل الأمين . ثم يحق لك أن تغتبط بأن المؤلف لم يكن غير ما كان ! فلقد كان « السندباد البحري » مع قصصه الجميل خليقاً أن يختنق بين يديه لو كان من العلماء المحضين للبحث العلمي . كما كان خليقاً أن يفوته هذا الكشف والتوضيح لو كان مؤلفنا فناناً فحسب يعيش في جو الأحلام .

هذا كتاب لا بد منه بين بين ، فالحمد لله على أن قيض له مؤلفنا بهذا الاستعداد !

* * *

ولكنا لم نفصل ما أجملناه من برامج الكتاب واتجاهه .

قامت القصص البحرية في كتاب ألف ليلة وليلة وهي بحسب تدرجها وا كتابها في استيفاء صفة « القصة البحرية » : « القرندل الثالث . حسن البصري . عبد الله البري وعبد الله البحري . السندباد البحري » على أسس من الخرافات والأساطير ومن الحقائق والوقائع ، التي كانت

(١) ظهر حديثاً في هذا الاتجاه كتاب « ألف ليلة وليلة » للدكتورة سهير القلماوي وسنفرد له حديثاً خاصاً .

متعارفة فى زمن تأليفها من البحار الشرقية ، وكان فضل مؤلف هذه القصص ، هو حسن استخدام هذه الخامات المتعارفة وصوغها فى القالب الفنى الذى تتجلى فيه مقدرته .

هذه هى الحقيقة الأولى التى يريد مؤلف « حديث السندباد القديم » شرحها وإثباتها . وهى فى صورتها هذه قد تبدو مهمة سهلة ، أو تبدو جدواها قليلة ، ولكن هذا الفهم أو ذاك خطأ لا شك فيه ، وخطأ مبعثه الأول هو حسن العرض والتلخيص لهذه الحقائق الكبيرة . وكثيراً ما يجنى تيسير الحقائق وحسن عرضها على تقديرها فى عيون الناس ! ! !

فأما أنها مهمة سهلة فلا . فلقد استغرقت غربلة الحقائق والأساطير التى كانت شائعة بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر عن البحار الشرقية فى كتب الرحلات وكتب الجغرافية وكتب العجائب ثمانيا وسبعين ومائة صفحة من الكتاب ، يبدو فيها الجهد الواضح فى مراجعة عشرات من هذه الكتب ، وفى تعليل الأساطير التى كانت تروى عن الظواهر البحرية إذ ذاك تعليلا علميا ونفسيا .

وفى هذا التعليل كانت تبدو من المؤلف روح العطف على الإنسانية الجاهلة المشهولة لعجائب البحر فى ذلك الزمان ، وهذه الروح هى التى يلذ للقارىء أن يتابعها ، وأن يلمح الفنان من ورائها كما يلمح العالم فى كيان رجل واحد ينظر بعين تجمع بين السماحة والدقة ، وبين العلم والفن .

وهى تتجلى فى تتبعه وتعليله للحقائق والأساطير حول « الرخ ، والتنين ، وشجرة الوقواق ، وجزائر النساء ، وبنات الماء ، وشيوخ البحر ، والدر واللؤلؤ ، والعنبر والبال » . تلك التى وردت فى القصص البحرية فى ألف ليلة وليلة ، كما وردت فى كتب العجائب والجغرافية سواء بسواء . وطريقته فى تمحيص هذه الحقائق والأساطير هى كما يقول :

« المفروض أن كتاب « عجائب الهند » وكتب القزوينى والتاجر سليمان وغيرها تقرر وقائع لا أن تجمع خرافات . ولكن بعض الحوادث أو الوقائع التى تذكرها تلك الكتب صعبة التصديق ، إلى حد يبعثنا على الحذر فى الحكم عليها . وهذا الحذر يجب أن يكون ذا حدين ، فمن أسهل الأمور علينا أن نهمل ما لا نصدقه ، ونطرحه جانبا على أنه خرافة أو مغالاة ، كما أن من أسهل الأمور على العوام حينما يسمعون بتلك الوقائع أن يصدقوها ، وأن يعملوا على إذاعتها . إلا أننا إذا اتجهنا هذا الاتجاه أخطأنا فهم الكثير مما توارد على ألسنة الرحالة والجغرافيين ومؤلفى كتب العجائب من العرب وغيرهم ...

« فلا أقل من محاولة فهم الواقعة أو الخبر المعروض أمامنا عنها . وإلا فلنلق بكل تلك المؤلفات العربية فى النار ، وهو ما يكاد يفعله المعاصرون من أهل الغيرة على الشرق حين يقتصرون من الآداب العربية على الاهتمام ببعض الشعر والرسائل والنثر المسجع وغير المسجع ، تاركين للمستشرقين مهمة نشر طائفة هامة من مخطوطات المكتبة العربية وشرحها وتصحيحها ، وهى تحوى ما لا يقل عن ثلاثة أرباع تراث العالم من الحضارة الإسلامية .

« وأصدق الحذر وأجداه فى رأينا أن نفرض أولا الصدق فيمن وضعوا وجمعوا وألفوا كتب المسالك والممالك ، والعجائب ، والرحلات ، منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن نضع أنفسنا موضع هؤلاء الكتاب الذين لم يصل إلى علمهم ما تناهى إلينا من معرفة بالظواهر الكونية ، والمخلوقات التى تعيش فى الهواء أو فوق سطح الأرض ، أو فى طبقات الماء . . .

« إن خبرتى الشخصية بالأثر الذى تتركه فى النفوس بعض ظواهر الحياة البحرية حتى عصورنا المتقدمة ، عصور العلم والعرفان ، وصلتى بالصيادين فى أكثر من ساحل ، وسماعى بأخبار البحار وسكانها من من أفواههم ، بل من أفواه بعض المتعلمين ، واطلاعى على أحاديث البحار وفى كتب القدماء والمحدثين . . . كل هذا مؤدّى أن أكون أكثر تسامحا وأقرب فهما

لحكايات البحريين فى القرون الوسطى ، وسبيل ألا أحكم على الأسطورة البحرية بالكذب ثم أنام هادئاً ، إنما أضع نفسى موضع من رأى الحيوان أو الظاهرة الكونية . وأن أكيف عقلى تبعاً لعقليته ، فأستعرف إما يعرف ، وأتجاهل ما يجهل ، ثم أحاول أن أتصور أو أتنظر الغريب فى نفس العربى أو الفارسى من أهل القرن التاسع . ذلك مجهود ذهنى غير يسير ، ولكنه قليل بالقياس لما أحصل عليه من نتائج حين أكشف الواقع خلف الأساطير » .

وهكذا استطاع المؤلف أن يطلعنا على ما كان رائجاً من هذه الصور عن البحار ، وتتبع نشأته وتطوراته ، وفرز الحقائق ، وعلل الأساطير بما كان يتراءى من الظواهر الكونية وما يعلمه الناس عنها ، وما يتخيل لهم حين يرونها ، وما يغريهم بالزيادة فيها ، وفى خلال ذلك رد إلينا الشائع بما سماه بحق « ثلاثة أرباع تراث العالم من الحضارة الإسلامية » .

حتى إذا انتهى من عمله الأول فى هذا كانت الحقائق والأساطير التى حوتها القصص البحرية فى ألف ليلة وليلة مكشوفة أمامنا ، وكان منهج مؤلف هذه القصص معروفاً لنا . فنحن نعلم من أين استقى مواده الخامة ، وكيف ساغها ، فنستطيع إذن أن نحكم على عمله حكماً فنياً مستكمل الأدوات والأسانيد . وهذه هى قيمة الجزء الثانى وجدوى كشف المواد التى صاغ منها المؤلف عمله كفنان .

ولكننا لا نخرج بهذا أو ذاك وحده من « حديث السندباد القديم » .

إن المؤلف وهو يعرض لنا صورة البحر فى نفوس الرحالة ومنهم الشرقيون ومنهم الغربيون قد كشف لنا من حيث شاء أو لم يشأ عن وحدة الإنسانية فى استهوال الطبيعة ، وفى خيالاتها وأساطيرها الناشئة من هذا الاستهوال ، فليس الإغريق وحدهم هم الذين يصوغون عذارى البحر ومفاتن الطبيعة ، بل إن للشرقيين كذلك عرائس بحورهم ومفاتن طبيعتهم . والإنسان هو الإنسان — على اختلاف فى ألوان الأحاسيس — حينما يقف أمام الطبيعة المهولة ، يحس بكبرها وعظمتها ، فلا تغنيه الحقائق المحدودة فى إشباع إعجابه بها وتقديسه لها ، فيفسح لخياله المنان ، ويرضى بذلك شعور الاستهوال والاستعظام .

وإن المؤلف — وهو يحاول تلخيص وعرض القصص البحرية فى « ألف ليلة وليلة » — قد كشف لنا عن موهبة قصصية فى نفسه ، ولا أبالغ إذا قلت إن تلخيصه وعرضه قد أبدى لنا هذه القصص فى صورة لا تقل عن صورتها فى ألف ليلة وليلة ، بل إنها لتفوقها أحياناً . وإنى لأكاد أقترح عليه أن يفرغ لعرض ألف ليلة كلها فى مثل هذا الأسلوب على مثال ما صنع « تشارلس لام » فى قصص شكسبير ! وإلا فليدع لى أن أسرق الفكرة وأخرجها لحسابى الخاص !

وأمر ثالث يلاحظه من قرأ « سندباد عصرى » ثم عاد يقرأ « حديث سندباد قديم » ذلك أن الأسلوب فى الثانى أصح وأقوم ، وقد خلا من الترخص فى التعبير الذى لوحظ بعضه فى الكتاب الأول ، وخلا من الأغلاط التى كانت تضايق هناك ، لأن تحرى الصحة فيها كان مستطاعاً بجهد ضئيل .

* * *

وأخيراً يجب أن نقول : إن لنا أن نسجل لا مجرد تقديم كتابين المكتبة العربية ، بل تقديم كاتب بأكمله إلى هذه المكتبة ، له خصائصه البارزة ، وله مقدرته التى لا شك فيها ، فى نوع خاص من التأليف .

سيد قطب

الوداع

مدى إلى يد الوداع … إلى دنوت من الزماع
وابكى كما أبكى على … عهد من السلوى مضاع
قومى إلىّ وطوقى … نى باليدين وبالذراع
وتأملى تجـدى الشبا … بَ من فراقك وارتياعى
وتمجى ممن تحط … مه الصبابة وهو ساعِ!
نُوحى على الأمل الفتى … ء يغيب عنا بعد ساعِ
والحلم من أحلامنا … يمضى إلى غير ارتجاعِ

ما بين ماضينا وحا … ضرنا اختلافٌ واتفاقُ
بالبين أكمل حبنا … وجدٌ تضرم واشتياقُ
ومدامع الأفراح حا … لت فهى لشكوى تراقُ
وابتزنا تلك الأما … نىّ الحبيبةَ الفراقُ
وعلمت أنّا بالحيا … ة إلى منيتنا نساقُ
فليهن قوم الدهر به … ذلك أن رقمته نفاقُ
ما يستمر وفاؤه … إلا هنيهـة ما يذاقُ

حسمت حياة الحسّ ا … ذنا وإبعاد المكانِ
وتحكمت فينا مُد … يلاتُ المسامع والعيانِ
للروح ما تهوى! فخ … لِّ الجسمَ يسرح فى أمانِ
وبها يقاس هناؤنا … لا بالدقائق والثوانى
نلنا من الدنيا الرِ … ضة ما كفاكِ وما كفانى
فليمض كلٌّ هادئاً … وجدانه ثبت الجنانِ
ونمش سويًّا فى الثّوى … بألذّ من عيش التدانى

ألقى على الذكرى حجا … باً ليس ينفذه الخيالُ
وتمتعى بمـدى عجا … ئب الطبيعة والجمالُ
وخذى لقلبك ما يجد … دُ فما لنا عمّا مآلُ
إن البقاء على تما … دعة التى لهو الضلالُ
والحب — عاش الحب — مث … ل الدهر حلٌّ وارتحالُ
فانسى زماناً طاب فيـ … ـه لنا التنعمُ والوصالُ
لولا يد النسيان ما … راقت لأهل الأرض حالُ

ميلى إلى حيث التقيـ … ـنا فى حبور وانشراحِ
وأشدى مع الصدّاح ها … تفة بأنغام الصباحِ
وهناك إذ رقد الهوى الـ … ـموءود رقدةَ غير صاحِ
جودى على مهد اللقا … ء بما عهدتُ من السماحِ
فمضى مكان وقوفنا … عبق الشقائق والأقاحِ
واحييه لو يصحو من الـ … ـحلم القديم بكأس راحِ
وليحظ منك بنظرةٍ … عند الغدو أو الرواحِ

وإذا وقفتِ كما أرِ … يدُ فلا يخامركِ الحنينُ
ماذا يسوءه يفوت عه … دٌ كله طربٌ ولينُ
ولئن أفاق الدهر فيـ … ـه فرنّ طيبته الجنونُ
فاسى على صرح وإشـ … ـراق تخطفه العيونُ
وصلى حبال الحبّ والـ … ـقسمات بالبشرى تبينُ
تتبددُ الأحزانُ عنـ … ـك وإن تجسّمت الشجونُ
هذه الحياةُ كما نحيـ … ـلها لأنفسنا تكونُ

وترقّبى عودى إذا … ما الصيف أزهر جانباهُ
وبدا الربيع مصوّحاً … لا الوردُ فيـه ولا شذاهُ
وترنحت مثل السكا … رى نخلُه وكبت صباهُ
فهناك روحى يستقر … بحيث لا عينٌ تراهُ
ويسوق ربّ الحب حيـ … ـث أحل مرقده الإلهُ
وهناكِ تلتصق القلو … بُ وإن تباعدت الشفاهُ
وينال من حرم السـ … ـعادة من أحبّته مناهُ

سأعود — فانتظرى — إذا … عصفت الجهالةُ صرحَ فنّى
وتهدّد النسيان مـ … ـوى الحب والصبوات منّى
ومضى وراء السمع ما … يشدو هواىَ وما يغنّى
سأعودُ حين أعفُّ عن … قبسِ الحياة المطمئنّ
وأصد عن قُبل الشبا … ب وإن بذلت بغير منّ
إذ لا تفيد من الصبا … بة غير أوهام وظنّ
سأعودُ فى بُرد الخيـ … ـال وفى جلابيب التمنّى

صبرى (السودان) … رضا

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين – القاهرة – تليفون رقم : ٥٢٩٩٢ / ٥٦٣٦٩

العدد ٢٧٠ — الثلاثاء ٥ من ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — ٢٩ من فبراير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

تعديل الدستور السوفيتي

كان لاقتراب طلائع الجيش الأحمر في شهر يناير الماضي من حدود بولونيا والجمهوريات البلطية القديمة أثر سياسي هام في تنظيم الدولة البلشفية ، وتعديل الدستور الأساسي لاتحاد جمهوريات السوفييت .

وقد استحالت روسيا القيصرية عقب ظفر الثورة البلشفية إلى جمهورية اشتراكية بمقتضى الدستور السوفيتي الأول الصادر في سنة ١٩١٨ ؛ ولكن النظام الاتحادي لوحدات الوطن الروسي القومية لم يتقرر إلا في دستور سنة ١٩٢٤ ، وهو الدستور السوفيتي الثاني ، وبمقتضى هذا الدستور غدت روسيا البلشفية لأول مرة « اتحاد جمهوريات السوفييت الاشتراكي » ، وهو الوضع الدولي الذي ما زالت تعرف به روسيا السوفيتية حتى اليوم .

وكان الاتحاد السوفيتي يشمل يومئذ أربع جمهوريات كبيرة فقط هي : روسيا ، واليوكرين ، وروسيا البيضاء ، والقوقاز ؛ ثم زيد عددها بعد ذلك إلى سبعة ثم إلى عشرة هي : روسيا ، واليوكرين ، وروسيا البيضاء ، وأذربيجان ، وكرجستان (بلاد الكرج) ، وقزاق ، وتركمان ، وبلاد القرغيز ، وطاشكستان ، وأزبكستان ؛ وبذلك حققت المساواة السياسية والدستورية بين القوميات المختلفة التي يتألف منها الاتحاد السوفيتي ، وحصلت الوحدات الإسلامية الأسيوية التي يشملها الاتحاد ، وهي : أذربيجان ، وبلاد الكرج ، وبلاد التركمان ، وبلاد القرغيز ، وطاشكستان ، وأزبكستان (التركستان) على نوع من الاستقلال الذاتي كباقي الجمهوريات السوفيتية الأخرى .

وصدر الدستور السوفيتي الثالث (دستور ستالين) في ديسمبر سنة ١٩٣٦ ، مؤيداً لهذا التنظيم الأساسي لاتحاد جمهوريات السوفييت .

ولما نشبت الحرب الحاضرة ، واجتاح الألمان بولونيا في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، استولت روسيا على جزء كبير من شرقي بولونيا ضمّاً إلى روسيا البيضاء ؛ ثم استولت على الجمهوريات البلطية الثلاث وهي : لتوانيا ، ولاتفيا ، واستونيا ، وأعلنت ضمها لاتحاد جمهوريات السوفييت ، كما انتزعت ولاية

بسارابيا من رومانيا وضمتها إليها . واستطاعت روسيا أيضاً خلال الحرب التي شهرتها على فنلندة أن تنتزع قسما من ولاية كاريليا المجاورة لمدينة لننجراد ، وأن تعقد مع فنلندة صلحاً يقر هذا الاستيلاء .

وكان من الواضح أن روسيا السوفيتية تعمل لاستعادة حدود روسيا القيصرية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وأنها قد انتهزت فرصة اضطرام الحرب الأوربية لإزالة ما وقع بها من حيف من جراء معاهدة برست ليتوفسك التي فرضت عليها في الحرب الكبرى (سنة ١٩١٧) ، واقتطعت منها فنلندة وولايات البلطيق وبولونيا ، وقد جعلت جميعها دولا مستقلة بمقتضى معاهدة الصلح (معاهدة فرساى) في سنة ١٩١٩ .

وعلى ذلك فقد كان الاتحاد السوفيتي في أوائل سنة ١٩٤٠ يشمل جميع حدود روسيا القيصرية إذا استثنينا فنلندة والقسم الذي احتلته ألمانيا من بولونيا ؛ ولعل حكومة موسكو كانت تفكر يومئذ في إجراء التعديل الدستوري الذي قامت بإجرائه أخيرا ، وإدخال هذه الولايات الجديدة في مجموعة الأمم السوفيتية ، لولا أن عاجلت ألمانيا روسيا بالغزو والاستيلاء على بولونيا الشرقية والدول البلطية وبسارابيا في صيف سنة ١٩٤١ .

— ٢ —

والآن وقد استطاعت روسيا بعد كفاح رائع أن تحطم مشاريع الغزو النازية ، وأن ترد جيوش هتلر إلى الوراء ، واستطاع الجيش الأحمر أن يحرر معظم أراضي الوطن الروسي وأن ينفذ إلى الولايات البلطية وإلى بولونيا الشرقية ، فإنه من الواضح أن تعديل الدستور السوفيتي على النحو الذي تم أخيراً إنما يحقق أمنية قديمة للسياسة الروسية ، ويحقق لروسيا مطامع إقليمية وسياسية بعيدة المدى .

وينطوى هذا التعديل الجديد الذي بسطه الرفيق مولوتوف قومسير الشئون الخارجية ، أمام المجلس الأعلى (البرلمان السوفيتي) على إنشاء ستة وحدات سياسية جديدة تنضوى تحت لواء الدولة السوفيتية هي : كاريليا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا (والثلاثة الأخيرة هي الجمهوريات البلطية القديمة) وهي التي يتقدم نحوها الجيش الأحمر الآن بخطى سريعة ؛ ثم القسم البولوني من روسيا البيضاء ، ومنطقة أذربيجان المجاورة لإيران ، وبذلك يصبح عدد الجمهوريات الاتحادية السوفيتية ستة عشر بدلا من عشر كما أقرها دستور سنة ١٩٣٦ .

وإدماج الدول البلطية وروسيا البيضاء البولونية في أسرة الاتحاد السوفيتي يعود بحدود روسيا إلى ما كانت عليه في أواخر سنة ١٩٣٩ قبل الغزو الألماني .

على أنه يبدو أن الناحية الإقليمية ليست هي كل شيء ؛ ذلك أن التعديل الدستوري الجديد لنظام الدولة السوفيتية يقوم على عنصرين جديدين في منتهى الأهمية وهما :

أولا : أن يكون لكل جمهورية داخل الاتحاد السوفيتي حق عقد العلاقات الدبلوماسية المباشرة مع الدول الأجنبية وتوقيع المعاهدات المستقلة معها .

ثانيا : أن يكون لكل جمهورية حق إنشاء جيش إقليمي خاص بها يكون وحدة في الجيش السوفيتي العام ، وبذا تحول قومسيرية الدفاع السوفيتي إلى قومسيرية دفاع للجمهوريات السوفيتية .

وقد اختلف الرأي في تكييف الأغراض السياسية التي ترمي إليها حكومة موسكو من وراء هذا التعديل ؛ وتتلخص التعليقات الرسمية فيما يأتي : « أن الغرض منه هو توسيع نطاق العلاقات الخارجية وتعزيز روابط التعاون بين الاتحاد السوفيتي وبين الدول الأخرى » . فإذا كان ذلك هو حقا كل ما ترمي إليه السياسة السوفيتية ، فإنا نكون بذلك أمام إجراء دستوري امبراطوري يشبه من وجوه كثيرة قانون وستمنستر النظامي الذي أصدره البرلمان الإنجليزي في سنة ١٩٣١ منظما لحقوق الأملاك المستقلة (الدومنيون) وعلاقتها مع التاج ومقررا حقوقها في عقد

العلائق الدبلوماسية المستقلة وتنظيم التمثيل الخارجي الخاص بها ، وإنشاء القوات الدفاعية القومية ، ويكون المقصود بالتعديل الدستوري الجديد هو أن تنظيم العلائق بين حكومة موسكو المركزية وبين الجمهوريات الاتحادية المنضوية تحت لوائها على أسس جديدة ، تستبدل فيها السيطرة المركزية بنوع من اللامركزية الذي تزدهر في ظله الرغبات والاتجاهات القومية المحلية ، ويساعد على توثيق الروابط بين القوميات المختلفة التي يتألف منها الاتحاد السوفيتي وبين روسيا الأم الكبرى على نحو ما هو قائم بين انكلترا وبين الأملاك المستقلة البريطانية .

أما ما يذهب إليه البعض من كون حكومة موسكو ترمي بالتعديل الجديد إلى أن تفوز في مؤتمر الصلح القادم وفي اللجان الدولية لتسوية شئون ما بعد الحرب بعدد من المندوبين يتفق مع عدد الجمهوريات السوفيتية الجديدة ، فتعليل غير مقبول ؛ ويجب أن نلاحظ في هذا الصدد أن روسيا ترى فيما يتعلق بالتغييرات الإقليمية على الأقل ورسم حدود روسيا الجديدة مع دول أوربا الشرقية والوسطى ، أنها مسألة روسية محضة ، وأن روسيا تزمع فيما يبدو أن تحلها بمعرفتها على يد الجيش الأحمر ، ودون تدخل ما من جانب الدول المتحالفة بل ودون طرحها على مؤتمر الصلح وقد رأينا في اتجاه السياسة الروسية في المسألة البولونية ما يؤيد هذا الفرض كل التأييد ، إذ رفضت حكومة موسكو وساطة حليفتيها انكلترا وأمريكا لحل النزاع الروسي البولوني .

وهناك تعليل آخر وهو أن حكومة موسكو ترمي بالتعديل الدستوري الجديد إلى غاية بعيدة المدى ، وهي أن تضع الأسس الحرة المستقبلة لامبراطورية سوفيتية عظيمة الشأن تنضوي تحت لوائها الأمم السلافية الأخرى في شرق أوربا بمحض اختيارها ورغبتها ، وقد تشمل هذه الأمم بولونيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وتغدو أعضاء حرة في مجموعة الأمم السلافية الكبرى ، التي تصبح عندئذ حاجزا عظيما تتحطم عليه محاولات الجنس الجرماني في سبيل النهوض والاندفاع نحو الشرق أو الجنوب ؛ ويكون الدستور الأساسي السوفيتي الجديد مشجعا لمثل هذا المشروع الضخم لأنه يسمح لكل قومية بالحرية التامة في انشاء قواتها الدفاعية الخاصة وتنظيم علائقها الدبلوماسية مع الدول الأخرى ، ويمتد بذلك سيل البلشفية المتدفق من تلقاء نفسه نحو شرق أوربا ووسطها .

تلك هي الفروض التي اقترنت بتعديل الدستور السوفيتي ، وهي فروض ما تزال موضع التخمين والحدس . على أنه مهما كانت الأغراض الحقيقية التي ترمي إليها حكومة موسكو باتخاذ هذه الخطوة الجديدة لتنظيم الدولة السوفيتية فلا ريب أنها تنطوي قبل كل شيء على تحقيق أماني روسيا الإقليمية والسياسية في مناطق لبثت قرونا جزءاً لا يتجزأ من الوطن الروسي .

والظاهر أن هذا الزحف الإقليمي الروسي نحو الغرب ، قد أثار بعض المخاوف والشكوك في بعض الدوائر مما قد تجيش به السياسة الروسية من أطماع جديدة في التوسع في أوربا الوسطى ؛ وقد رأى المارشال ستالين أن يرد على هذه التهمة في تصريحاته التي حملتها إلينا الأنباء الأخيرة ؛ ويؤكد زعيم روسيا السوفيتية أن روسيا لا تفكر مطلقا في بسط سيطرتها على أوربا ، ولا تنوي التوسع في غرب أوربا أو أوربا الوسطى ، وكل ما هنالك أنها تعمل على تحقيق ما تتطلبه حاجات روسيا الاستراتيجية من تعديلات إقليمية في شرق أوربا ، كما أن روسيا لا تنوي أن تضم من الأراضي البولونية شيئاً غربي خط كيرزون ، وهو الخط الذي اقترحته الحكومة البريطانية عقب الحرب الكبرى حسما للخلاف بين روسيا وبولونيا .

وتصريحات المارشال ستالين هذه تعتبر عهدا جديدا من جانب روسيا بحدود سياستها في التوسع الإقليمي . بيد أنه لابد لنا أن ننتظر حتى نهاية الحرب لنشهد كيف ترسم خريطة أوربا الشرقية والوسطى.

محمد عبد الله عنان

جمال الدين الأفغانى

لمعالى مصطفى باشا عبد الرازق

يقول سليم بك العنحورى فى ترجمته للسيد جمال الدين ، على ما جاء فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام تأليف السيد محمد رشيد رضا :

« وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ، ومعجزة من بدائع معجزاته » .

والسيد جمال الدين الأفغانى ، على اختلاف الناس فيه وعلى كثرة خصومه وأعدائه فى الحياة وبعد الممات ، آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ؛ بل لعل الشرق منذ قرون لم يلد مثل السيد جمال الدين الأفغانى .

ويقول أرنست رينان فى مقال كتبه فى جريدة الديبا الفرنسية فى مايو سنة ١٨٨٣ :

« لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فىّ تأثيراً قوياً . . . . وقد خيل إلىّ من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه ، أنى أرى وجها لأحد معارفى من الأقدمين ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو بعض أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من إسارها » .

اختلف الناس فى أمر السيد جمال الدين حتى ليقول الشيخ محمد عبده فيما كتبه من سيرته :

« يحملنا على ذكر شىء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس فى أمره ، وتباعد ما بينهم فى معرفة حاله ، وتباين صوره فى مخيلات اللاقفين لخبره ، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه من قوة روحية ، قامت لكل نظر بشكل يشاكله » .

يختلف الناس فى السيد جمال الدين : هل هو أفغانى النشأة ، أم هو إيرانى ، وهل هو شريف ينتسب إلى الحسين بن على ، أم هو ليس بشريف ولا حسينى ؟ ويزعم بعض الناس أنه من الشيعة ؟ ويقول آخرون بل هو سنى حنفى المذهب ؟ ويرى رينان وغير رينان أنه كان ملحداً من عظماء الملحدين ، ويعتبره بعض المترجمين له رجلا سياسياً ، ويجعله آخرون مصلحاً دينياً .

ولسنا نقصد إلى تمحيص ما اختلف الناس فيه من أمر الرجل ، ولا إلى تفصيل سيرته ؟ فقد كتبت فى ذلك الكتب باللغات المختلفة ، وسيكتب الناس فى السيد جمال الدين ما ذكروا نهضة الشرق الحديثة التى هو بلا ريب حامل لوائها .

إنما نريد أن نعرض لبعض الجوانب التى قد تبدو صغيرة فى حياة العظماء . ذلك بأن بعض الجوانب الصغيرة فى حياة الناس قد تكشف عن سر عظمتهم بأكثر مما تكشف الجوانب الفخمة التى تسترعى كل نظر .

جاء فى ترجمة سليم بك العنحورى التى سبقت الإشارة إليها وصفاً للسيد جمال الدين :

« أسمر اللون إلى صفرة ، مفلفل الشعر أسوده ، نحيف البنية ، أهيف القامة ، جذاب الملامح ، خفيف العارضين ، حاد البصر ، يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه ، يلبس السواد ويتزيا بزى العلماء ، طلق الكلام ، ذرب اللسان ، فصيح الحجة ، بليغ العبارة ، مليح النكتة ، سمح الكف ، طلق المحيا ، وقور السمت ، يجتنب النساء ، ويفطم نفسه عن الشهوات ، يكره الحلو ويحب المر ، وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والراوند ، يتنقل بهما تفكها ، يأكل الوجبة « مرة كل يوم » ، ولا يأكل إلا منفرداً ، يكثر من شرب الشاى والتبغ ، وإذا تعاطى مسكراً فقليلا من الكونياك » .

وبعد أن نقل السيد رشيد رضا رحمة الله عليه ترجمة العنحورى للسيد جمال الدين فى شرح سحرهاروت ، علق

عليه بقوله :

« وقد اطلع الأستاذ الإمام على هذا الشرح أيام كان مقيما فى بيروت واجتمع بالكاتب فأفهمه بأنه مخطىء فيما وصف به السيد من الإلحاد فبادر إلى تخطئة نفسه فى الجرائد .... .. أما ما ذكره المنجورى عن عادته فى أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب ؛ فقد كان يأكل الوجبة ولكنه لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثر من شرب الشاى ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ؛ فإن لم يكن ما قيل من شربه القليل من الكنياك فرية ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كأن يكون رآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكنياك ، أو يكون شرب ذلك القليل تداوياً فظنه الناظر عادة » .

وهذا الفرض الأخير الذى يفرضه السيد رشيد رضا رحمة الله عليه يتفق مع حال فيلسوف يقول رينان حين رآه أنه خيل إليه أنه يرى ابن سينا أو ابن رشد . وابن سينا يقول فى وصيته التى أوصى بها بعض أصدقائه وهو أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى :

« وأما الآنات فيستعملها على إصلاح الطبيعة وإبقاء الشخص أو النوع أو السياسة ؛ أما المشروب فإن يهجر شربه تلهيا بل تشفيا وتدويا » .

ومن العجيب أن الناس اختلفوا حتى فى صفات السيد جمال الدين الجسمية ؛ فبينما يقول سليم بك المنجورى ما أسلفنا يقول أديب إسحق :

« عرفت صاحب الترجمة بمصر ، وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة والإسكندرية ، فكلامى فى ترجمة حاله عن علم واختبار ... والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ، ربعة ممتلىء ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة ؛ وأنه عزب ، عفيف النفس ، قانت كثير القيام ، لا ينام إلا الغلس إلى الضحى ، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم ؛ على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين ، قوى العارضة ، ميال إلى المعارضة ، طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار السرائر ، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج » .

فهل كان السيد جمال الدين « أسمر اللون إلى صفرة مفلفل الشعر أسوده نحيف البنية أهيف القامة » كما يقول المنجورى ؛ أم كان « أسمر اللون ربعة ممتلىء قوى البنية ... مسترسل الشعر » كما يقول أديب إسحق ؟

وربما كان أديب إسحق أولى من صاحبه بمعرفة السيد الأفغانى ، وبالقدرة على تصويره ، فإن المنجورى نفسه يصور فى ترجمته للسيد جمال الدين صلة أديب إسحق به صلة قوية فيقول :

« وبعد أن ذهب المنشىء الكاتب أديب إسحق إلى الإسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رياسة الفاضل المغفور له سليم نقاش ، سنحت عوارض قضت بإلقاء التمثيل فأصبح أديب خالى الوفاض بادى الإنفاض ، فبعث به المرحوم حنين الخورى إلى القاهرة مصحوباً بكتاب وصاة إلى جمال الدين فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من أمارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه ثمة ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العاشق الكلف ... »

أما الشيخ محمد عبده فيصف أستاذه بقوله :

« ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى دموى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل فى النظر ، هش بش عند اللقاء » .

يكاد يتفق المؤرخون على أن السيد جمال الدين الأفغانى كان حاد الطبع عجولا . يقول المنجورى :

« ولو لم يكن طموحا إلى المعالى بإفراط وإعجال ؛ وعاجزاً عن كتمان مبدئه وغايته ، لرحب به التاريخ وأفرد له

من أسفاره صفحات تترى ، زينها برقم أعمال مجيدة تكون قدوة للآتين وذكرى » .

ويقول أديب إسحاق :

« ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج » .

والشيخ محمد عبده يصف أستاذه بحدة المزاج أيضا فى أسلوب يكاد ، لما فيه من فرط التلطف مع الحرص على بيان الواقع ، ينتهى إلى شبه تناقض . يقول :

« أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض منه الشهب ؛ فبينما هو حليم أواب ، إذا هو أسد وثاب . وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى الذى قدمناه ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه . وكثيرا ما كان التعجيل علة الحرمان . وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ؛ وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

ما بال هذه الحدة التى شعرت بغلبة السيد جمال الدين الأفغانى ، وخاصة تلاميذه ومريدوه ، أنها كثيرا ما هدمت ما بنت فطنته ، وجنت على ما كان ينتظر لآثاره من المكانة العظمى فى التاريخ ؟

ألا يكون خلو حياة هذا الرجل العظيم من كل أثر للمرأة سبباً من أسباب هذه الحدة ، وما يتصل بها من عوامل الأخلاق . « كان السيد جمال الدين يتجنب النساء » كما قال العنحورى . وكل ما عرف من تاريخ السيد يشهد بذلك .

بدأ السيد حياته حياة السفر والجهاد ، واقتحام الغمرات فى الثالثة عشرة من سنه . وظل مجاهدا رحالا مقتحما للغمرات حتى استدرجه السلطان عبد الحميد إلى الأسر الذى مات فيه .

عاش الرجل جنديا فى ميدان الكفاح لا همّ لنفسه إلا أن يدمر كل صرح للاستبداد والظلم فى الشرق الإسلامى العربى ، وأن يُشعر أهل ذلك الشرق بعزتهم وكرامتهم وحقهم فى الحرية ؛ يعمل لذلك سراً ويعمل لذلك جهراً ، يسهر لذلك ليله فلا ينام الليل إلا غرارا ، ويتبلغ من القوت بما يقيم صلبه فقرا من رفه العيش وعزوفا عن رفه العيش حتى لقد نسى لذات الحياة وألف عيشة لا يستطيعها إلا رجل عبقرى فيه كل ما فى العبقرية من شذوذ عجيب :

ومن أجل هذا تكاملت فى السيد جمال الدين كل نواحى القوة ، وتضاءلت كل نواحى الضعف ، حتى ما كان منها ضروريا للتعادل بين قوى الإنسان كيلا يطغى بعضها على بعض .

ولقد طغت قوة السيد جمال الدين على الضعف الإنسانى كله طغيانا خرج بها من الحدود المقدرة للكمال والنجاح .

لا ذكر للنساء فى تاريخ السيد جمال الدين ، ولم يتحدث متحدث عن أم له ولا أخت ، ولم يذكر ذاكر له زوجة ولا صديقة ؛ بل لسنا نجد فى شىء من آثاره كلاماً فى المرأة اللهم إلا أن العنحورى يقول فى بعض ما كتبه عن السيد ومُقامه فى مصر أيام إسماعيل :

« وكان قبل ذلك قطع فى الإسكندرية بضعة أيام خطب فى أثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة فى النساء جمعت ألوفا من الفرنكات فوزعت بإشارة منه على الفقراء » .

وكنا نود أن نعرف ماذا قال فى النساء السيد الأفغانى ، وهل كان حين يتحدث فيهن على عهده ؟ كما يقول سليم بك العنحورى : « حاد البصر يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه » .

ومن العجيب أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لم يكتب شيئاً يتصل بالمرأة إلا فى غياب السيد جمال الدين من مصر .

أما ما كتبه الشيخ محمد عبده في أثناء ملازمته لأستاذه في مصر وفي غير مصر فلا حديث فيه عن النساء وإصلاح حال النساء .

وهذا يدل على السلطان العظيم الذي كان لحكيم الأفغاني على نفوس تلاميذه . وهذا السلطان واضح كل الوضوح في تلك الطبعة الروحية التي تدمغ كل من اتصل بالسيد جمال الدين من التلاميذ والمريدين على تفاوت في الكمية لا في الكيفية .

ومن أبلغ مظاهر هذا الأثر ما كان يصف به تلاميذ السيد أستاذهم حين يوجهون إليه الخطاب . وقد أشار إلى ذلك سليم باك العنحوري إذ يقول في الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني : « كما كان بتعظيمهما له في النعوت والألقاب من مثل — مهبط أسرار الحكمة واسطرلاب فلك العلوم وواسطقس هيولى الفلسفة — إلى غير ذلك مما اعتادا أن يصفاه به ، بسبب نماء شهرته وانتشار صيته » .

ونجد في الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام كتاباً منه إلى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر إلى بيروت أوله :

« أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب ، وأعقل العقول ، وأدك بها شوامخ المصاعب ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومنحت من لدنك عزيمة أثبت بها الثوابت ، وأصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق » .

وفي هذا الكتاب : « ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات لا لذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه ! فقد قضت حكمتك البالغة منا مقام الإلهام في قلوب الصديقين أن ننال الحق ولنا الحجة الباهرة ، ونصيب الغرض ولنا البراعة الظاهرة والهمة الطاهرة » .

وقد يكون معذوراً من يتسم من أمثال هذه الأساليب أريج بعض التقاليد الشيعية .

واعتماد السيد جمال الدين في مساعيه الإصلاحية على الجمعيات السرية في مصر وفي غير مصر قد لا يكون خالصاً من أثر بعض الأساليب التي تعتمد عليها فرق من الشيعة .

والسيد جمال الدين من الشيعة كان أم من أهل السنة قد تسامى عن كل معاني التعصب لفرقة من فرق المسلمين ، بل هو قد تسامى عن كل معاني التعصب الضيق الذي يلقي بين الناس إحناً وعداوات . وإذا كان السيد جمال الدين قد أثار في الشرق عاطفة التذمر من الغرب فما ذلك إلا أنه كان عدواً للظلم كله . وكان يحارب في الشرق ظلم الظالمين ، وكان يريد للشرقيين إلا يحتملوا من الغرب ظلماً ولا هضماً .

المـــــلاريا

للدكتور أحمد زكي بك

تسألني عن الملاريا، ما خطبها؟

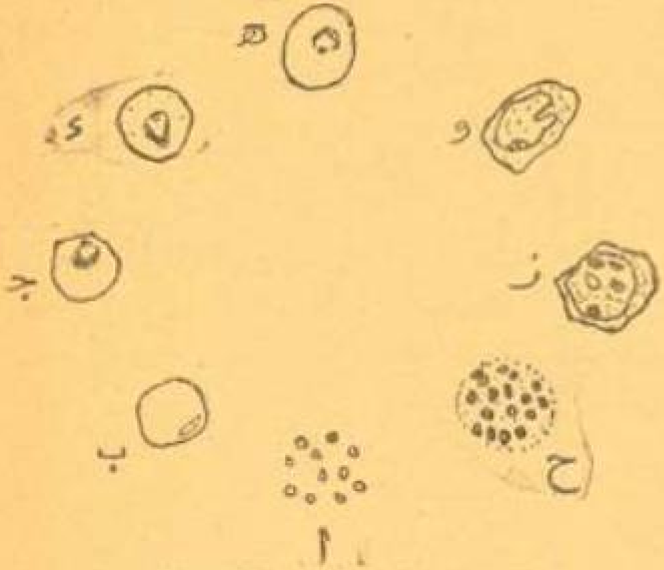
وقد حدثتك فيما سلف عن جرثومتها، واسمها البِلَزْمود وهي في الحجم ضئيلة بحيث لا ترى إلا بالمجهر. وهي في التركيب من البساطة بحيث أنها تتركب من خلية واحدة. وهي من الحيوانات لا من النباتات. وهي أبسط الحيوانات وأصغرها. وهي أقلها نشاطا وحركة واعتمادا على النفس، ومن أجل هذا عاشت تطفلا. وهي تتطفل على دم الإنسان، على خلاياه الحمراء. وهي تنتقل إلى دم هذا الإنسان من دم إنسان غيره. والذي ينقلها البعوض. وليس كل البعوض ناقلها، وإنما هو جنس معين من البعوض.

فماذا تصنع هذه الجرثومة الحيوانية الدنيئة المتطفلة في دم الإنسان؟

وماذا تصنع هذه الجرثومة الحيوانية الدنيئة المتطفلة في جسم البعوضة قبل أن تنتقل إلى جسم الإنسان؟

سؤالان إذا أجبنا عنهما فقد قضينا من هذا المقال وطرا. وسؤالان نجيب عنهما في ساعة، وقد استغرق بنو الإنسان في الإجابة عنهما القرون.

تدخل الجرثومة إلى كرة الدم الحمراء. وما تلبث أن تدخل فيها حتى تأخذ هذه الجرثومة في التغير، وفي التغير حجما وشكلا وتركيبا. أما حجمها فيزيد ثم يزيد حتى يملأ الكرة الحمراء كلها. أما الشكل والتركيب فتبدأ الجرثومة وبها زلالها الذي يسميه العلماء بروتوبلازما، وبهذا الزلال قطعة الصبغة التي يسميها العلماء كروماتين. وهذان من صفة الخلايا الحيوانية جميعا. فتبدأ الجرثومة كروية الشكل (شكل ١ حرف ا). ثم لا يلبث زلالها أن يتراجع إلى جدارها تاركا في أوسطها فراغا، فيصبح الزلال في الجرثومة كالحلقة أو كالهلال، وتكون قطعة الصبغة في طوق هذه الحلقة أو هذا الهلال. وفي هذا الطور يكون قطر الجرثومة قد بلغ ثلث قطر كرة الدم الحمراء (شكل ١ حرف ب، حـ، د، هـ). ثم تأخذ الجرثومة تتزايد، فتنبعج (شكل ١ حرف و). ثم تنقسم قطعة الصبغة التي بها إلى قطعتين فأربع وهلم جرا إلى ما بين ٨ قطع و ١٦ قطعة



شكل ١ — أطوار جرثومة الملاريا في دم الإنسان

(شكل ١ حرف و، ز). ثم يتجزأ كذلك زلال الجرثومة إلى مثل هذا العدد من القطع، أو هو يتهيأ لذلك. وتحتل كل قطعة من الزلال مكانها حول قطعة الصبغة حتى تلفها استعداداً للطور الأخير. وعندئذ يقال إن الجرثومة بلغت ونضجت واستوت (شكل ١ حرف ح). وعندئذ تكون قد ملأت كل الكرة الحمراء، فلا تعرف أيهما الكرة وأيهما الجرثومة. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن ينفقع غشاء

الكرة الحمراء عن عدد من الجراثيم الناشئة الوليدة ، تامة الخلق ، كتلك الجرثومة الأولى التي غزت تلك الكرة الحمراء (شكل ١ حرف ا) .

وقد قصرنا وصفنا على جرثومة واحدة تدخل كرة حمراء واحدة . والواقع أن عدةً من تلك تدخل عدةً من هذه . وتجرى الجراثيم في أدوار التطور معا ، وفي سرعة واحدة . حتى إذا جاء طور البلوغ والنضج والاستواء ، بلغوه جميعا معـا . حتى إذا جاء دور انفقاع الكرات الحمراء ، وانطلاق الجراثيم الجـديدة الوليدة ، انطلقت جميعاً معاً .

وبانطلاق هذه الجراثيم ينطلق من الكرات المنفقعة أجسام غريبة ، إن شئت سمّيتها سموما ، هي بقايا ما حدث في هذه الكرات من تغيّرات كيماوية . وبانطلاق هذه المواد بالجسم ترتفع درجة حرارته . فانطلاق الجراثيم إيذان بوقوع الحمى .

ثم تأخذ هذه الجراثيم الجديدة الوليدة ، هذه الذريّة الأولى ، تأخذ تغزو كرات الدم الحمراء غزوة ثانيـة . وتستغرق بالطبع هذه الجراثيم زمنا تستكمل فيـه أدوارها من جديد داخل هذه الكرات . وفي أثناء ذلك تكون الحمى قد انقشعت ، ويطيب المريض أو يظن أنه طاب . ثم لا يلبث أن تنقضّ عليه الحمّى من جديد بانطلاق الذريّة الثانية من الجراثيم في دمه . وهكذا دواليك .

وهنا يحسن أن نبادر بالقول إن حمّى الملاريا أكثر من صنف واحد ، فأصنافها قد تبلغ الخمسة . ولكن أشيعها ثلاثة : حمى الثّلْث الحميدة ، وحمى الرّبْع ، وهي حميدة أيضا ، والحمى الخبيثة .

أما حمى الثّلث فهي التي تزور صاحبها مرة كل ثلاثة أيام . وأما حمّى الربع فهي التي تزور صاحبها كل أربعة أيام . وأما الحمى الخبيثة فتزور صاحبها كل ثلاثة أيام أيضا . أما وصف حمى الثلث أو حمى الربع بالحميدة فليس معناه أن هذه تُحمد أو تلك تُحمَد ، فليس في الشر ما يُحمَد ، إلا أن يكون حمدا لله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه ، وإنما المقصود أنها حميدة العاقبة .

ولكل من هذه الحمّيات الثلاث جرثومة تختص بها . وإذن فالبلزمود — جرثومة الملاريا — ليس صنفا واحدا بل صنوفا .

أما حمى الثّلث الحميدة فجرثومتها — واسمها بلزْمود فيفاكس P. Vivax — تستتم أطوارها في ٤٨ ساعة ، أي في يومين ، تنزل الحمى في ثالثهما . وإذا أنت امتحنت دم مريضها تحت المجهر وجدت كراته الحمراء قد زادت حجما وامتُقعت لونا ، ثم ترقـط حتى يعمّها الترقـط فتتراءى كأنّ نثرت سمسما في ماء فانتشر فيـه ، لو أمكن هذا . وعند ماتستكمل الجرثومة أطوارها داخل كرة الدم الحمراء ، وتكون على وشك أن تنفقع عن أولادها ، تكون هذه الجرثومة الأمّ قد بلغت حجما أكثر من حجم الكرة الحمراء ، وتكون قد اتخذت شكلا غير كُرويّ ، غير منتظم . وبهذه الصفات ، وبغيرها ، يعرف الفاحص نوع الجرثومة ، فنوعَ الملاريا ، تحت المجهر .

أما حمّى الرّبع فجرثومتها — واسمها بلـزْمود مالاريى P. malarie — تستتم أطوارها في ٧٢ ساعة ، أي في ثلاثة أيام ، تنزل الحمى في رابعهما . وإذا أنت امتحنت دم مريضها تحت المجهر وجدت كراته الحمراء لم تزد حجما ، ولم تمتقع لونا ، بل على النقيض قد يزيد لونها اعتاما . وهي لا تترقط . أما الجرثومة ، داخلَ الكرة ، فتأخذ شكلا كالشريط ، ثم شكلا كحبّة الفاصوليا ، وتكون قطعة صبغها (الكروماتين) أشد بروزا . وهي تكبر ، كغيرها من صنوف الجراثيم ، حتى تملأ كرة الدم الحمراء كلها ، ثم هي تنفقع فتخرج منهـا الجراثيم الوليدة لتنهج منهج الجرثومة الأمّ من حيث غزو الكرات الحمراء ، فالتطور فيها ، ففقعها أخيرا .

أما الحمى الخبيثة فجرثومتها — واسمها بلمزموديوم فلسبارم P. falaciparum — تستتم دورتها فى ٤٨ ساعة ، أى فى يومين ، تنزل الحمى فى كليهما . وإذا أنت امتحنت دم مريض بها تحت المجهر وجدت كراته الحمراء لم ترد حجما ولم تتغير مظهرا . وهى لا تترقط ذلك الترقط السمسمى . أما الجرثومة داخل الكرة فتأخذ فى التطور على عادتها ، ولكنها لا تملأ الكرة الحمراء أبدا . حتى إذا بلغت واستوت واستتمت وتهيأت لتتفتق ، انفقعت فانطلق منها جراثيمها الوليدة .

وقد امتحن الله مصر بهذه الثلاثة الصنوف من الحمى .

ولا أقصد بالحديث من هذه الجراثيم وماتغزوه فى الدم من كرات حمراء ، أن أهىء السبيل إليك لتمتحن بنفسك هذه الأحداث تحت المجهر ولو كنت من أهل العلم . فتلك صناعة يختص بها أربابها . وأنا لم أذكر من وصف هذه إلا قليلا . وإنما أنا ذكرت ما ذكرت لأعطيك صورة عامة مما يجرى فى العمل . حتى إذا جاءك طبيبك — لا قدر الله — وجاء يطلب أن يخز طرف أصبعك بإبرة ، فإذا وخزه عصر هذا الطرف حتى تجمعت قطرة من دمك على موضع الوخز ثم نقل هذه القطرة على شريحة صغيرة من الزجاج فى حجم الإصبعين ، ثم فرش هذه القطرة على الشريحة حتى رقت عليها وانتشرت — حتى إذا جاءك طبيبك يفعل هذا عرفت إلى أى شىء يقصده وأى شىء تتوقع .

واعلم أن الفحص الحديث يقضى على الطبيب غالبا أن يأخذ منك قطرتين ، قطرة يفرشها على شريحة الزجاج ، كما وصفنا ، وقطرة أخرى ينقلها ثقيلة سميكة كما هى على شريحة أخرى . ذلك لأن جرثومة الملاريا ، فى بعض أطوارها ، تتراءى فى الدم الثخين غير مرآها فى الدم الرقيق ، فتزيد هذا فى الحكم وثوقا .

واعلم أنه ينقضى بين دخول الجرثومة إلى دمك ، أو إن شئت فإلى دمى ، بضعة من أيام لا تقل فى العادة عن عشرة ، قبل أن تظهر عليك أعراض الحمى . وقد تطول هذه الفترة طويلا . أما هذه الفترة فتقضيها الجرثومة فى التوالد . ولا عجب . فبضعة من جراثيم ، يبلغ قطر الواحدة منها نحو الثلاثة الأجزاء من المليمتر ، إذا دخلت إلى دم إنسان ، كانت كبضعة من أسماك تدخل محيطا من الماء . فهى لا تؤثر فى هذا الدم ، ولا فى صاحبه ، حتى تتكاثر فيه بالتوالد . وهى تتكاثر حتى يكون منها حشد عظيم يعثو بالفساد فى هذا الميدان العظيم . فإذا أنت أحسست بغزوها مرة — بالحرارة والرعشة ثم بالعرق والأوجاع — أحسست بكل هذا مرة أخرى كلما قضت تلك الجراثيم عدتها ، فهى لا تعيد الغزو إلا فى ميقات معلوم لا تخلفه .

« ويصدق وعدها والصدق شر
إذا ألقاك فى الكرب العظام »

ولكن كثيرا ما يحدث الغزو فى غير ميقاته . فقد تنتظر زيارتها بعد يومين ، فإذا هى تجيئك فى الغد القريب على غير ميعاد . ويحدث أن تصيبك بعوضة وبيئة يوما ، ثم تصيبك من بعدها بعوضة وبيئة أخرى . فبدل العدوى الواحدة تحظى بعدويين . وبدل النسل الواحد من الجراثيم تحظى بنسلين . وبدل الغزوة الواحدة تحظى بغزوتين متقاربتين . وجل من قسم الأرزاق .

واعلم غير هذا وهذا ، أن أعراض الملاريا ليست حمى وعرقا وأوجاعا فحسب . فجراثيم الداء إذا غزت فهى إنما تغزو كرات الدم الحمراء فتفقأها . وكلما زادت هذه الكرات تفقئا ، زاد الدم خسة ، وقل احمراره . واعترى صاحبه الظهر المعروف لفقر الدم . ومن فقر الدم هذا يموت صاحبه .

والآن حسبنا حديثا عما تصنع هذه الجرثومة الحيوانية الدنيئة المتطفلة فى دم الانسان ؟

فما بال ما تصنع هذه الجرثومة فى جسم البعوضة ؟

موعد هذا فى المقال القادم . فثلاث صفحات من علم لو زادت لا تكفأ من يثقلهـا الميزان .

احمد زكى

لندن فى الليل (١)

ولماذا اخترت هذا العنوان : « لندن فى الليل » ؟ أفيكون الإنجليز فى الليل غيرهم فى النهار ؟ قد يكون شيء من هذا . ما أغرب الإنجليز ! ما أغرب طباعهم وأذواقهم ! إن هذا الطفل الذى كان يلاعب القرَدان والأرانب والجرابيع فى ظلال تمثال الشباب الخالد فى « هايد بارك » يمثل الإنجليز فى ذوقه وفى طبعه .

لقد رأيت الإنجليز فى النهار ، فرأيت فيهم الجد والنشاط والهدوء والنظام والرزانة والبساطة ، ورأيتهم فى الليل . رأيتهم فى ملاهيهم ، فى هذه الأماكن التى ينسى فيها الإنسان نفسه ، فيظهر فى حقائق مظاهره . رأيتهم فى هذه الأماكن التى يطرح فيها الإنسان ظاهره ، ويلقى على العيون باطنه ، فمن رأيت ! وما رأيت ! —

إن ما لقيته فى النهار من جد وهدوء ووقار وبساطة قد انقلب فى الليل إلى أضداده ، فالجد أصبح عبثاً ، والهدوء ضوضاء ، والوقار خفة ، والبساطة غرابة . هذا هو الإنجليزى بحقيقته الناطقة ، إنه ابن الطبيعة ، ومثله فى الحياة مثلها ؛ فهى تجد وقت الجد ، وتعبث وقت العبث ، وتهدأ حين الهدوء ، وتضج حين الضجيج ، وتخف زمن الخفة ، وترزن زمن الرزانة ! —

قال لى مستشرق انجليزى فى « لندن » وهو الأستاذ « جيب » : تجمع « لندن » المتناقضات . قلت له : أفلا تذكر يا أستاذ واحدة من هذه المتناقضات ؛ قال : انظر إلى مبانى « لندن » إنك تجد فى بعض الشوارع مبانى عظيمة بنت هذا العصر وحضارته ، ثم تجد وراءها أو على صفها أو إلى جنبها مبانى حقيرة من ميراث العصور القديمة ، أفلا ترى فى هذا كله شيئاً من المتناقضات ؟ أجل ! إنى رأيت هذه المتناقضات ، رأيتها فى المبانى ، ورأيتها فى الطبائع !

سهرة من السهرات فى ملهى من ملاهى « لندن » وهو : « بالاديوم » صوّرت لى هذه المتناقضات بمجامعها . قلت لرجل فرنسى مقيم فى الفندق الذى أقمت به ، وهو يسكن « لندن » من زمن بعيد : أفلا تدلنى على ملهى أقضى فيه ليلتى ، قال : إذهب إلى بالاديوم . —

ذهبت إلى هذا الملهى ، وطلبت الدخول ، فقالوا لى : الأماكن محجوزة من يومين ومن ثلاثة أيام ، وقد سمعت وأنا أطلب الدخول رجلا من بلجيكا يقول لصاحب الملهى : إنى جئت من « أنفرس » خاصة لأشهد هذا المسرح ، فكيف تقول لى : لا محل لك . وبعد يسير من الجهد دخل هذا البلجيكى ، ثم بعد ربع ساعة أذن لى فى الدخول ، وقد حشك القومُ فى المسرح فليس فيه مكان خلاء ! —

أنوار ضئيلة كأنك فى غرفة من غرف لويس الخامس عشر ، ليس فى غرف المسرح شيء زاهٍ ، ولكن فيها أشياء تدخل عليك الدهشة . ماذا على المسرح ؟ من كل فاكهة زوجان . إنها لمناظر مختلفة لا تجد فيهـا شيئاً من الوحدة ، لا فى فنون الرقص واللعب ، ولا فى أجناس الستائر ، ولا فى ضروب التمثيل ، وقد كان عدد المناظر خمسة عشر منظرا .

للانجليز على المسرح أدق الحركات فى المشى والركض والإشارة والضرب على الآلات ، فأين الجد الذى شاهدته فى النهار أين الهدوء ، أم أين الرزانة ؟ قليلا ما ترى الفرنسى يضحك وهو يشاهد مسارح الليل ، ويتأمل معارضها . إنه لا يضحك هذه الضحكات التى يضحكها الانجليزى وهو يشاهد مسارحه فى « لندن » . فالانجليز أصحاب طرب ،

(١) رحلت سنة ١٩٣٤ إلى أوروبة رحلة رجعت منها بخواطر شتى ولكنى لم أجمع هذه الخواطر . وقد شرعت اليوم فى جمعها ناوياً طبعها ونشرها فى كتاب إذا رأيت إلى ذلك سبيلا . وهذا المقال من جملة هذه الخواطر .

وأصحاب إفراط فى هذا الطرب ، إنهم يميلون إلى الفكاهة أكثر من ميل أى شعب إليها . ولكن فلنجعل فرقاً بين نوادر الفرنسيين وبين نوادر الانجليز . فالانجليزى يضحك من ملابس صاحب النادرة على المسرح ، ومن هيأته الغريبة ، أما الفرنسى فانه يضحك من النادرة نفسها ، فإن نوادره بسيطة لا تحتاج إلى غرابة فى اللباس أو فى الهيأة أو فى اللون ؛ فنوادر الانجليز على المسرح محاسنها فى تأليف المتناقضات . فنادرة الانجليز مركبة ونادرة الفرنسيين بسيطة .

صاحب النادرة الفرنسية على مسرحه مقتصد فى إشارته ولباسه وهيأته وألفاظه . أما صاحب النادرة الانجليزية فإنه مسرف فى هذا كله : فى الإشارة وفى الكلام وفى اللباس . فالنادرة الانجليزية لهـا نجة أما النادرة الفرنسية فحلاوتها فى بساطتها .

يميل الانجليز وهم فى المسارح الى الضحك والى الاستغراق فى هـذا الضحك ، فبينا تجدهم وهم يشاهدون فى المسرح منظراً هادئاً من مناظر الرقص التى ليس فيهـا شىء من الهزل وكأنّ الطير على رؤوسهم ، إذ ينقلب هدوؤهم فجأة فى مشاهدتهم الهزل الى جلبة وضوضاء حتى يدوّى المسرح كله بضحكهم ، نسائهم ورجالهم ، شيوخهم وفتيانهم ، فإذا وقع نظرهم فى المسرح على صاحب نادرة متلفف فى رميل من « الكاوتشوك » يعبث به رفقاؤه فيضربونه على بطنه وعلى ظهره ويرفعونه ثم يخفضونه ، ثم يمشون عليه وهو يشبه الإعلانات التى تراها فى الطريق من نوع « ميشلان » إذا وقع نظرهم على هـذا كله وعلى أشباهه ضحكوا وعجّبوا وصاحوا وصفقوا وخفّوا وخبطوا الأرض واستعانوا بكل الحركات وبكل الأصوات على الإفصاح عن طربهم وعن إفراطهم فى هذا الطرب .

فالانجليزى بسيط ومركب فى وقت معاً ، إنه يجد ويهزل ، وإنه يعبس ويضحك ، وإنه ينقبض وينبسط ، ثم يطرب ثم يبالغ فى طربه ، فلا تستطيع أن تدرك روح الانجليز حق الإدراك إلا فى بلادهم !

هل يدرى القارئ الكريم كيف انتهت الفصول التى أشرت إليها ، إنها انتهت بفصل من فصول « كره كوزه » ، إنهـا انتهت بالاعيب « الكره كوزاتى » نفسه ، بصوته وبخبطه وبحركاته ولم ينقصها إلا السراج والفتيلة بدلاً من الكهرباء .

على أنى قبل أن أفرغ من تدوين هذا الخاطر أريد أن أرجع الى الكلام على نوادر الانجليز ، فأجعل فرقاً بين نوادرهم على المسرح وبين نوادرهم فى كتب أدبهم . لقد عرفنا فكاهتهم على المسرح فهى مركبة غريبة ، أما فكاهتهم فى كتب أدبهم فانها بسيطة دقيقة . إن حكاياتهم المشتملة على روح الفكاهة قد طبعت بطابع انجليزى خاص ، فمعظمها يغلب عليه هذا الطراز من القصص الذى يضحك صاحبه ولكنك لا تراه يضحك ، والمهارة فيها لا تظهر إلا فى نهايتها ، فى هذه العبارة الأخيرة التى لا تخلو من خبث إلا أن هذا الحكم لا يجوز إطلاقه . ولا بأس بأن أذكر نمطاً من قصص الانجليز أختم به هذا الفصل وقد انتخبته من حكايات الكاتب « كستلس » قال هذا الكاتب :

« كان التاجر « لو ونج » مقيماً بولاية من ولايات الصين ، فلمّا تجمّلت عليه الثروة فأصبح من المياسير أحب أن ينتخب مؤدباً لولده ، فبحث فى الولاية كل مبحث عن مؤدب من أهل البلد ذى سمعة فى العلم ، فأعياه الأمر إذ لم يجدوا له فى كل الولاية مؤدباً جديراً بهذا الاسم . كان أكثر المؤدبين غشاشين ، فمعظمهم قد رشوا الذين امتحنوهم أو لم يصلحوا إلا للخدمة فى مأوى الأطفال .

فلما انقطع أمله من الظفر بحاجته ، زار أحد أصدقائه فى ولاية قريبة وهو « سين لون » واستعان به على التفتيش عن مؤدب ، فشرع « سين لون » فى العمل .

ما كاد ينقضي يومان أو ثلاثة أيام على هذه الزيارة حتى فوجيء رجال الولاية الذين يحملون شيئاً من العلم بدعوتهم إلى دار « سين لون » .

وبينا الضيوف يجولون فى الدار بين أعشاش الطير ، ومسابح السمك إذ عجبوا من ظهور رجل على مقربة من الباب يحمل ولا ريب نبأ عظيما .

صاح هذا الرجل :

أيها السادة الشرفاء ! ها هو الممتحن الأدبى على الطريق ، متوجه نحو الدار ليشرع فى امتحان المؤدبين الذين تجمعهم هذه الدار !

أما « السادة الشرفاء » فقد قام الدليل على قلة أدبهم إذ أجمعوا على النهوض وفروا مسرعين ، وقد كان « سين لون » و « لو ونج » جالسين عند رأس المنضد فنظر الواحد إلى الآخر نظرة حزينة ، وقال الثانى للأول :

هذا ما كنت أخشاه ! إنهم كلهم غشاشون !

قال له الأول :

إنك مخطىء ! أنظر إلى الشيخ « شين لو » فإنه جالس على الطرف الآخر من المنضد !

فأسرع « لو ونج » من فوره إلى المؤدب العجوز وقال له :

أيها السيد الشريف ! أريد أن تكون مؤدباً لطيفاً لولدى الأخبل !

وقد كان كلامه فيه شيء من التقعر الذى تقتضيه آداب الصين .

صب هذا الرجاء فى أذن المؤدب ثلاث مرات قبل أن يثبت الحادث الفظيع فى ذهنه وذهن صديقه ، ما هو الحادث ؟ مات « شين لو » بمرض القلب !

لقد كان الرجل الميت من بيت أرفع من بيت الصديقين فما الحيلة ؟ لا شك أن أهله سينتقمون انتقاماً رهيباً ، إلا أنه خطر ببال « سين لون » خاطر فقال : للكاهن الكبير فى المعبد البوذى قوة عجيبة فى السحر ، فلنذهب إليه ، ولنستمن » !

فذهبا إليه فوجدا الكاهن مشغولا بمسح تمثال « بوذا » الذى كان يبتسم ابتساماً رقيقاً للناس عامة ، ولكل واحد من الناس خاصة ، وقد كان أجر الكاهن فى السحر باهظاً جداً ، فدهش الصديقان منه ، ولكنهما ما أرادا المساومة ، نظراً إلى الحاجة الماسة .

جمع الكاهن أعوانه ، ومشوا فى موكب يضربون بأصناجهم وانطلقوا إلى دار « سين لون » ولما وصلوا إلى الغرفة التى كان الضيوف فيها محتفلين دنوا على مهل من جثمان « شين لو » ، متحلقين حلقات كانت تضيق كلما قربوا من الجثمان ، ثم وقف الكاهن ذو الهيأة الجليلة فى ثيابه المتموجة على مقربة من رجل الميت ، وانحنى عليه ووشوشه قائلا :

شين لو ! إن الرجل الموكول إليه أمر الامتحان الأدبى قد ذهب إلى بلد الموتى ليشرع فى امتحان المؤدبين الموجودين بين الموتى .

فما كاد « شين لو » يسمع هذا الكلام حتى انتفض وعادت إليه حياته !

(دمشق) شفيق جبرى

حول سياسة التعليم فى مصر :

ملاحظات

للدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك

طلبت علينا لجنة التأليف والترجمة والنشر بكتاب صغير يقع فى ١٤٣ صفحة للأستاذ إسماعيل القبانى عميد معهد التربية للمعلمين عن «سياسة التعليم فى مصر» قوامه المحاضرتان اللتان ألقاهما الأستاذ فى الجمعية الجغرافية فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٣ و ٥ يناير سنة ١٩٤٤ ، مضافاً إليهما تقرير قدمه المؤلف لوزارة المعارف فى يولية سنة ١٩٤٠ عن «حالة التعليم الإلزامى ووسائل إصلاحه» .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى بعض ما ورد فى هاتين المحاضرتين فى مقالنا الذى نشر بمجلة الثقافة فى العدد ٢٦٦ بعنوان «ملاحظات حول الإصلاح التعليمى» وذلك فيما يتعلق (أولا) بتوحيد المدرسة الأولى ، و (ثانيا) فيما يتعلق بالمجانية ، و (ثالثا) فيما يتعلق بالمدارس الحرة ؛ ولذا لن نتعرض لهذه النواحى الثلاث فى هذا المقال تجنبا للتكرار

* * *

الفصل الأول من هذا الكتاب ، مقدمة تاريخية مختصرة موفقة عن التطورات التى مرّ بها التعليم عندنا فى مختلف مراحله من مستهل القرن التاسع عشر إلى اليوم ، وانتهى فيه فيما يتعلق بالتعليم الإلزامى إلى أن كل من درس أحواله أو اتصل به عن كثب «خرج مقتنعاً بأنه قد أخفق إخفاقاً تاما سواء أفى تحقيق الغرض الواسع من التربية وهو تنمية قوى الأطفال وتنوير أذهانهم وإعدادهم لحياة المجتمع الذى سيخرجون إليه أم فى تحقيق الغرض الضيق الذى يرى الكثيرون الاقتصار عليه وهو محو الأمية» .

وقد أرجع المؤلف هذا الإخفاق إلى حد كبير إلى النزعة التى سادت التفكير فى شئون التعليم بكافة أنواعه ومراحله إلى سنة ١٩٣٥ وهى نزعة «لا تبدو غريبة متى تذكرنا أن مصر كانت خارجة من عهد تعمد فيه تضييق شديد فى التعليم ومقبلة على حياة جديدة تقوم على جهود أبنائها وحدهم ... ثم إن الأمة كانت تقبل على التعليم إقبالا شديدا وتظهر فيه رغبة متزايدة فكان لابد للحكومة أن تساير هذه الرغبة» .

أما فيما يتعلق بالتعليم الثانوى فقد ذكر أن أولى الأمر لم يلبثوا أن لمسوا آثار الاهتمام بالكم فى إرهاق التلاميذ وإتلاف صحتهم وأعصابهم وتحويلهم إلى آلات للحفظ ليس إلا ، فبدءوا من منذ سنة ١٩٣٠ يعملون على تلافيها بالتعديل والتخفيف فى المناهج إلى أن كانت سنة ١٩٣٥ ، وفيها صدر تقرير معالى نجيب الهلالى باشا عن التعليم الثانوى ، ذلك التقرير الذى «يصح أن يعتبر بداية لتحول جديد فى سياسة التعليم إذ كان صيحة قوية تدعو للاهتمام بالكيف قبل الكم» .....

«وعندما أنشئت هيئة البحوث الفنية لوزارة المعارف سنة ١٩٤٠ جعلت الاتجاه نحو الكيف رائدها فى معالجة مسائل التعليم التى نظرتها وفى مقدمتها مشكلة إصلاح التعليم الثانوى ومشكلة تعميم التعليم الأولى على وجه مثمر» ، لكن بحوث تلك الهيئة واقتراحاتها العملية للإصلاح لم تجد سبيلها إلى التنفيذ ولا تزال المشكلتان المشار إليهما قائمتين إلى اليوم ، وقد عالجهما معالى نجيب الهلالى باشا فى تقريره الذى صدر حديثا .

* * *

أما الفصل الثانى من الكتاب فيتناول روح التعليم وهو فصل ممتع وفق فيه المؤلف كل التوفيق . تكلم فى أوله عن أهم ميزات التقرير الحديث لمعالى وزير المعارف ، وهى أنه قد بدأ بتحديد الفلسفة التى بنى عليها سياسته التعليمية وهى فلسفة الحياة الديموقراطية ، فشرح المؤلف الحياة الديموقراطية وفلسفتها ، وانتهى إلى قبول هذه الفلسفة

أساساً لسياسة التعليم فى مصر . وانتقل إلى بحث نتائجها النهائية فقال : « إن واجب التربيـة لا يقتصر على تهيئة عوامل النمو للأفراد ، بل يشمل توجيه هـذا النمو بحيث يلائم حاجات المجتمع ويخدم نهضته » . ثم تساءل عن حاجات النهضة المصرية فى مرحلتها الحاضرة ، وقرر « أننا فى حاجة إلى رفع المستوى الصحى ، ومكافحة الأمراض المختلفة المنتشرة فى مصر ، وإلى تنمية الشعور الوطنى فى النفوس ، وتوطيد النظم النيابية فى البلاد ، كما أننا فى حاجة قبل كل شىء إلى رسالة روحية يقوم عليها بناء النهضة المصرية ، وتأدية هذه الرسالة الروحية هى الواجب الأول للمدارس حتى يملأ نفس كل مصرى الشعور بتقديس الحق والواجب والنزوع إلى طلب اللذة والسعادة فى مستوى أعلى من مستوى الحس والمادة ، وتغليب المصلحة العامة على الأهواء الخاصة ووحى الضمير على نداء الجسد » وقرر « أن عالما تغلب فيه القيم المادية على القيم الروحية لهو عالم يسير إلى الدمار ، وانتهى إلى أنه لا شك فى أن توجيه قوى النشء وميولهم النامية نحو القيم الروحية هو الغـاية الأساسية للتربية والتعليم » .

ثم بدأ يتساءل عما إذا كان التعليم فى مصر يحقق هذه الغاية ، وقرر أن تعليمنا لا يمس نفوس المتعلمين ، وإذا مسها فإنه يوجهها نحو القيم المادية لا الروحية ، وأن التلميذ فى مصر كل همه فى الغالب منصب على تحقيق غرض خارجى ملموس هو النجاح فى الامتحان وتحصيل الحقائق والمعلومات التى توصله إلى ذلك . والإنسان حين يحصل الحقائق ، وهو يشعر بأنها مفروضة عليه ، مقطوعة الصلة بما يجيش فى نفسه من ميول وآمال وأغراض ، ينفر عادة من العلم ويعتبره عبئا ثقيلا لا مفر منه ، بخلاف ما إذا كان الإنسان يحصل الحقائق ، وهو يراها مشبعة لميوله ، متصلة بتجاربه ومشكلات حياته ، فهو عندئذ يقبل على العلم ويشعر بقيمته ، ويجد لذة فى تحصيله ، وتتولد فى نفسه عاطفة قوية نحوه ، تجعله علما حيا ذا أثر فعال فى حياته . وتلك الاتجاهات النفسية العاطفية التى تتكون عرضا أثناء الدروس هى التى تؤثر فى سلوك التلميذ وخلقه ، وتجعل منه شخصية قوية . فالعلم إذا اتصل بالنزعات الغريزية والميول العاطفية وتفاعل معها استمد منها قوة ، وساعد من جهته على تنميتها وتوجيهها وتهذيبها والارتقاء بها إلى مستوى روحى سام .

ثم تكلم المؤلف بعـد ذلك عن طريقة المشروعات ، وكيف أنها أقرب الطرق للوصول إلى هـذه الغاية التى تتوخاها من تحصيل المعلومات .

واختتم المؤلف هذا الفصل ببيان « أن إصلاح روح التعليم وأساليبه فى مصر ليست مهمة سهلة ، ولكنه ينبغى أن يكون أهم أهدافنا التعليمية فى الوقت الحاضر وأن لا ندخر جهدا فى سبيل إزالة العقبات التى تقوم فى سبيله » وأهمها أمران « الأول : انعدام الاستقرار والاستمرار فى شئون التعليم وخضوعها فى كثير من الأحيان لاعتبارات غير تعليمية ، والثانى المركزية الخانقة المسيطرة على التعليم » .

ثم مضى يقول : « إن الدعامة الحقيقية لاستقرار سياسة التعليم هى أن يكون القائمون به رجالا يشعرون بشخصيتهم ويؤمنون برسالتهم ويتحملون مسئولية تنفيذ ما يؤمنون به على الوجه الذى يرشدهم إليه تفكيرهم وخبرتهم » ، وهذا لا يتسنى لهم إلا إذا تهيأت الظروف اللائقة للعمل المثمر ، وهذه تحول دونها المركزية القائمة فى وزارة المعارف ، والتى تحرك النظار والمعلمين بسيل لا ينقطع من المنشورات والتعليمات والأوامر التى تشل شخصياتهم ، « والتربية ليست مناهج وأنظمة على الورق وإنما هى تفاعل بين شخصيات المعلمين وشخصيات المتعلمين » . والمعلم إذا لم يشعر بالحرية فى التفكير والتصرف وتحمل مسئولية أفكاره وتصرفاته فقد جردناه من مقومات شخصيته وإنسانيته ، وفاقد الشىء لا يعطيه .

وأما الفصل الثالث فيتناول تعليم أبناء الشعب الذى يجب أن يزودهم « بالقـدر اللازم من الثقافة لاعدادهم المعيشة فى مجتمع راق والمساهمة فى حياته والذى يهيئ الفرص لإظهار مواهبهم وتنميتها حتى يبلغوا العمر الذى يمكن الحكم فيه على المواهب المختلفة وتنويع التعليم تبعا له » .

وقد بين المؤلف أن مصر لم تحقق فى هذا السبيل شيئا لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف ؛ كما بين أن مصر كانت تبخل بالمال اللازم لإصلاح هذا التعليم الإلزامى وتعميمه بينما تنفق بسخاء على غيره من التعليم الذى لا ينتفع به إلا فئة خاصة قليلة هم تلاميذ التعليم العام وطلاب المدارس العليا والجامعة ، وانتهى إلى ضرورة توحيد المدرسة الأولى ورد على الاعتراضين اللذين يقامان عادة على مبدإ التوحيد ، وأولها أن التعليم الإلزامى ينبغى أن لا يقطع صلة الطفل بالبيئة التى يعيش فيها ، والثانى أن مركز مصر الخاص يقتضى تعليم أطفال المدارس الابتدائية المعدة لأبناء الخاصة لغة أجنبية فى سن مبكرة .

* * *

وأما الفصل الرابع فيحتوى اقتراحا جديداً من شأنه أن يغير وجهة النظر فى مراحل التعليم الحالية التى هى مرحلة رياض الأطفال من ٥ — ٨ ومرحلة الابتدائى من ٨ — ١٢ ومرحلة الثانوى من ١٢ — ١٧ فى التعليم العام ، والتعليم الإلزامى الذى يمتد من ٧ — ١٢ والذى سيجعله وزير المعارف من ٦ — ١٣ . فالأستاذ المؤلف يرى جعل التعليم المجانى لجميع طبقات الشعب على مرحلتين ، الأولى ويسميها الابتدائية من ٦ — ١٠ ، والثانية ويسميها المتوسطة من ١٠ — ١٤ ، وتشمل الأولى السنتين الأخيرتين من روضة الأطفال الحالية ، والسنتين الأوليين من المدرسة الابتدائية الحالية ، وتشمل الثانية السنتين الأخيرتين من المدرسة الابتدائية والسنتين الأوليين من المدرسة الثانوية الحالية .

ونحن لا نجد فى الحجج التى أوردها الأستاذ المؤلف والأسباب التى استند إليها مبرراً للعدول عن التقسيم التقليدى الحالى الذى بنى على أسس سيكلوجية معقولة ، ولا مبررا لما يستتبعه اقتراحه من قلب لنظامنا الحالى ومن تغيير جوهرى فى مدارسنا وفى من يقوم بالتدريس بها من معلمين ومعلمات . فهو يقول إن التجربة قد دلتنا على أن التقسيم لمراحل التعليم الحالية لا يلائم الأغراض التعليمية فى مصر ، إذ أن التلميذ يبدأ تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب فى روضة الأطفال ثم ينتقل إلى المدرسة الابتدائية قبل أن يتقن هذه المواد ، ونحن لا نرى فى ذلك عيبا كبيرا ، ولم نسمع منه شكوى صارخة قبل اليوم ، وإذا فرض وكان ذلك مما يستحق العناية فإن سنة واحدة فى نظرنا تكفى لدرء هذا العيب .

كذلك يرى الأستاذ المؤلف أن أسلوب التعليم فى السنتين الأولى والثانية الثانوية قد اتجه فى السنوات الأخيرة إلى التمشى مع أساليب السنتين الثالثة والرابعة الابتدائية ، ونحن نرى هنا أيضا أن سنة واحدة تنقل من الثانوى إلى الابتدائى تكفى للتمشى مع هذه النزعة .

وعلى هذا نرى أنه ما دامت مصر قد شرعت فى فتح مدارس للحضانة ، وستتوسع فيها من غير شك فى السنوات المقبلة وتنشرها فى جميع أنحاء القطر ، فيصح أن تضم السنة الأولى من روضة الأطفال إلى مدرسة الحضانة ، فيبقى فيها الطفل من الثالثة إلى السادسة لينمو فيها كما يقول الأستاذ المؤلف « جسميا وعقليا واجتماعيا من طريق اللعب والنشاط التلقائى ومن غير أن يطالب بتحصيل معلومات معينة » . وبذا تكون رياض الأطفال من ٦ إلى ٩ ، والمرحلة الابتدائية من ٩ إلى ١٣ [1] وهذا يحقق غرضين فى آن واحد : الأول رفع سن الدخول إلى المدرسة الثانوية

(١) وهذا هو السن الذى اتفقت لجان هادو وسبنس ونوروود باجماعها على اختياره ليكون السن اللازم لانتقال الصبى من نوع إلى نوع آخر من التعليم حسب ميوله .

بعد أن انخفض إلى حد غير مرغوب فيه ، والثانى جعل بداية مرحلة الروضة ونهاية مرحلة الابتدائى متفقة مع بداية ونهاية المرحلة الإلزامية كما قررها معالى وزير المعارف ، وهذه خطوة مفيدة فى سبيل توحيد المدرسة الأولى .

ثم إن هذا الوضع ينقل سنة دراسية واحدة من يد المعلمين إلى يد المعلمات ، ويترك روضة الأطفال كما هى ثلاث سنوات ، بينما أن اقتراح الأستاذ القبانى تحويل الرياض إلى مدارس ابتدائية ذات سنوات أربع ستقوم أمامه بلا شك عقبات سببها عدم ملاءمة الأمكنة التى ربت لتسع ثلاث سنوات لأن يراد تنظيمها بحيث تتسع لأربع سنوات .

وهناك مسألة على جانب عظيم من الأهمية ، وهى أن المدرسة الثانوية بالوضع الذى ذكرته سيكون سن الدخول فيها هو ١٣ سنة (أو ١٢ على أقل تقدير) أى أن التلميذ سيدخلها وهو فى دور المراهقة ، وعلى وشك البلوغ فى الغالب ، فتكون مجموعة تلاميذها من دور واحد لا خوف على بعضهم من الاختلاط بالبعض الآخر . أما المدرسة الوسطى كما صورها الأستاذ القبانى فستضم تلاميذ من سن العاشرة (أو ٩،٨) إلى سن ١٥ أو ١٦ لتضاف الاستعداد الذين يضطرون لإعادة دروسهم مرة أو مرتين ، فهى إذن ستجمع تلاميذ من أعمار لا يصح فى نظرنا جمعها فى المدرسة الواحدة .

ننتقل بعد ذلك إلى ما يراه الأستاذ المؤلف من أن المدرسة الموحدة يجب أن تكون فى مرحلتها الأولى هى المدرسة الابتدائية يقوم بالتدريس فيها معلمات وفى المرحلة الثانية منها المدرسة الوسطى ، ومعنى هذا أنه سيترك معظم المدارس الأولية بما فيها من معلمين على حالها تصارع الأيام حتى تنقرض بالتدريج ، ونحن نخالفه أشد المخالفة فى هذه النقطة ونرى أن الطريق الطبيعى للتوحيد هو جعل المدرسة الأولية هى المدرسة الواحدة للتعليم فى المرحلة الأولى من ٦ — ١٣ لجميع أفراد الشعب على أن يبذل مجهود عنيف جبار فى إصلاح حال المعلمين بتلك المدارس ورفع مستواهم وتوسيع أفقهم ، وهذا ليس بالأمر العسير ، ويمكن تحقيقه بإنشاء بضع مدارس معلمين لهذا الغرض يرسل إليها المعلمون الحاليون على التوالى دفعات سنة بعد أخرى تمكث كل واحدة منها عاماً واحداً ، وهذا لا يكلف الدولة إلا إنشاء عدد من الوظائف بقدر الذين ستضمهم مدارس المعلمين هذه التى ستنشأ لهذا الغرض والتى يجب أن تبقى على الدوام لتجديد معلومات المعلمين باستمرار ، فمبدأ هذا التجديد معمول به فى جميع أنحاء العالم . ويصح أن يتوسع فى ذلك بأن تنشىء مدرسة معلمين خاصة لذوى الاستعداد الجيد من المعلمين لتهيئتهم ليكونوا نظاراً يستطيعون أن يوجهوا المدرسين الذين تحت رياستهم فى الاتجاه الصحيح .

***

أما الفصل الخامس فقد تكلم فيه الأستاذ المؤلف عن انتقاء التلاميذ وأورد فيه عدة جداول استشهد بما جاء فيها على أن الامتحانات التى قد وجه إليها من سهام النقد فيما مضى أكثر من أى رجل آخر من رجال التعليم فى مصر لها دلالتها ويصح الأخذ بنتائجها . ويكفى فى هذا المقام أن أهمس فى أذنه بعبارة واحدة قد تغير مجرى التفكير وهى أن الدلالات التى ظهرت فى تلك النتائج المبينة بالجداول راجعة إلى سبب بسيط وهو أن الامتحانات التى تكررت بتقدم التلميذ فى الدراسة وتوالى فحص نتائجها هى امتحانات كلها من نوع واحد ومستهدفة لنفس العيوب فمن الطبيعى أن يظهر هذا التوافق فيما تستنتجه منها من دلالات . فإذا أردنا أن نقدر التلاميذ ونقسمهم تبعاً لاستعداداتهم وميولهم فلا بد لنا من الأخذ بالأساليب الحديثة فى الاختبارات . تلك الأساليب التى لا نجد من يحدثنا عنها خيراً من الأستاذ المؤلف نفسه .

بهذا القدر يجب أن نقنع فى هذا المقال بعد أن طال إلى هذا الحد شاكرين المؤلف ما بذله من جهد وما أداه من واجب يستحق كل تقدير .

زعماء الإسلام في القرن التاسع عشر:

السيد أحمد خان

١٨١٧ — ١٨٩٨

هو في الهند أشبه شيء بالشيخ محمد عبده في مصر بعد مفارقته للسيد جمال الدين وعودته من نفيه ، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالتثقيف والتهذيب والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر ، والاستقلال يأتي بعد ذلك تبعاً ؛ فلا استقلال لجاهل ولا مخرف ، إنما عماد الاستقلال العلم ، العلم بالدنيا وبالدين ، العلم بكل شيء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيميا ورياضة وفلك ، ونفس واجتماع ونظام الحكم والإدارة . ذلك كله إلى دين يحيي القلب ، ولا يقيد العقل ، ويغذي النفس ولا يشل التفكير . والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك ؛ فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل في العلوم ونظم الدنيا إلى غايتها ، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه ، وفيه ما يحيي القلب ، ويوجه الإنسان في حياته وفي عمله وفي تفكيره إلى الخير ، ثم كلاهما كان يرى أن السلطان في مصر وفي الهند في يد الإنجليز ، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والمدافع في البر والبحر ، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته . قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا ، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم ، وضعف خلقهم ، بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم — إذ ذاك — وبحثهم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة ، — كلا — إذن فالأولى مسالمة الإنجليز ، والتفاهم معهم ، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم ، ونُفهمهم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التي يحكمونها عقلياً ، كما ينهضون بها مادياً ، وأنهم مسئولون عن جهل الشعوب التي يحكمونها ، كما هم مسئولون عن فقرها ، وأن العلم والثقافة وإنارة الأذهان في مصلحة المستعمِر والمستعمَر ، ونأخذ منهم ما نستطيع أن نأخذه من طريق الإقناع والمسالمة والمصالحة ، وما نأخذه نستغله في خير الشعوب وتثقيفها خير استغلال ، والزمن — بعد — كفيل بإظهار النتائج .

ثم كلاهما عانى من المتاعب ما عانى الآخر من جهتين : فسالمة المستعمرين لا ترضى — عادة — دعاة الوطنية والاستقلال ، ويرون فيها خيانة . وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مسالمة إلا بعد الجلاء ، وكل من يطلب شيئاً دون هذا بائع لوطنه يستحق أن يهاجم وينقد ويؤنب — ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التي ترى العلوم الحديثة التي أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة ، والقول بأن قوانين الدنيا في الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شيء مبني على السبب والمسبب كفر بالقضاء والقدر ، وإنكار سلطة المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة . فهؤلاء وهؤلاء يشنون الغارة على مثل الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان ، فيشتطون هم دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة . وقد يمد الأعداء دعاة الوطنية ودعاة الرجعية بوسائلهم لتنيل إلى أقصى حد من المصلحين من هذا القبيل لأنهم عموا عليهم الالتجاء إلى معونة الأجنبي دونهم ، ولو التجئوا إليهم — مع الأسف — ما نفعوهم . كل ذلك كان في مصر وفي الهند ، لأن طبيعة الأشياء واحدة ، وقوانين الطبيعة لا تتخلف .

كانا على غير رأي السيد جمال الدين في الإنجليز والاحتلال ؛ كان السيد يكره الإنجليز ويشنع عليهم ما استطاع ، بحكم ما لقي منهم في الأفغان والهند ومصر وباريس ، حتى لقد عاتبه بعض أصحابه يوماً وقال له : إننا نراك عادلا في حكمك على الأشخاص والأمم ، تذكر بالخير حسناتهم ، وبالشر سيئاتهم ، ولا نراك تفعل ذلك في الإنجليز . قال السيد : « ليس من ينكر أن الإنجليز — كأمة — من أرقى الأمم ، تعرف معاني العدل ، وتعمل بها ، ولكن في بلادها ، ومع الإنجليز أنفسهم » ، ثم ذكر

له ما فعلته في الهند ومصر . ولخص رأيه مرة أخرى وقال : « إن الشرقيين تصرفوا في أملاكهم وأراضيهم وبلادهم تصرف السفيه المبذر ، ثم قضى عليهم أن يكون الحاكم لهم هو الغرب ، والغرب — في الحقيقة — ليس من مصلحته إصلاح سيرة الشرقي ولا منعه من السفه ، بل من أمانيه أن يتمادى الشرقي في غيه وإسرافه ليطول عهد الحجر عليه » . فلما كانت عقيدة جمال الدين هذا كانت سيرته في حياته ما ذكرنا .

أما السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده فيريان أن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، يمكن التفاهم معهم ، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجيا لمصلحة الأمة ، حتى إذا نضجت الأمة أمكنها الحصول على حقوقها كاملة ، حيث لا تستطيع أن تنال شيئا منها مع الجهل والغفلة .

* * *

هو السيد أحمد خان بن السيد محمد متقى خان من أسرة أرستقراطية نبيلة ، رحل أجداده من بلاد العرب إلى هراة ومن هراة إلى دلهى في عهد « أكبر شاه » ، وقد ولد صاحبنا في ١٧ أكتوبر سنة ١٨١٧ وتوفى والده وهو في التاسعة عشرة من عمره ، بعد أن ثقفه ثقافة دينية على عادة أهل زمنه وبلده . وقد جرت أسرته على عادة التحرج من الاتصال بالإنجليز وخدمتهم ، ولكنه خالف أهل بيته والتحق بخدمة الحكومة أمينا للسجلات في القلم الجنائي في دلهى ، ثم عين منصفا (قاضيا مدنيا) في « فاتح بور » من إقليم « أكرا » ، ثم منصفا في « بجنور Bignaur » ، وإذ هو في هذا العمل في هذه المدينة اندلعت نار الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ ، وقام الهنود بحركة عنيفة ، يخربون السكك الحديدية ويذبحون الإنجليز حيثما وجدوهم ، ويدمرون ما وصلت إليه أيديهم ، فكانت ثورة جامحة عنيفة أشد العنف ، وهاج الرأى العام على الإنجليز هياجا شديدا . ولكن كان رأى السيد أحمد هادئا متزنا ، مخالفا للرأى العام ، فرأى أن هذه الثورة لا تأتى بنتيجة ، وأن آخرة أمرها عودة الإنجليز إلى السيطرة ثانية من غير فائدة إلا ضحايا الطرفين ، وأن قتل الإنجليز — وخاصة المدنيين — عمل غير إنسانى . لذلك وضع خطة بذل فيها الجهد مع بعض أصدقائه لحماية الإنجليز من القتل ، وإنجاء من تصل إليه أيديهم منهم ، فنجا على يده وبيد أصدقائه كثير ، وضحى في ذلك بالكثير من ماله وباضطهاد أقاربه ، حتى لقد طعن بعضهم بالخنجر بيد الثائرين ، وماتت أمه لهول الصدمة من وقع هذه الحوادث الأليمة . فلما هدأت الثورة عرف له الإنجليز فضله ، وحفظوا له جميله ، وكافئوه ماديا وأدبيا . ومن ذلك الحين تأكدت الصلة بينه وبينهم فاستخدمها فيما وضع من خطة إصلاح .

ومع هذا فقد وضع رسالة في أسباب هذه الثورة باللغة الأردية وترجمت إلى الإنجليزية كان فيها قاضيا منصفا لم يتحيز فيها للهند ولا للإنجليز ، ولم يَرُعْ فيها عداوة عدو ولا صداقة صديق ، فرد على بعض الجرائد الإنجليزية فيما ذهبت إليه من أن الثورة سببها تهييج الأفغان أو الروس للهنود ، وتدبير المؤامرات والدسائس منهما ، وعدَّ ذلك سخافة من القول لا قيمة لها ، وأن حركة الثورة حركة شعبية صادرة من صميم الشعب ، سببها أن كثيرا من المآسى يشعر بها الشعب من سنين ، ثم لا تصل إلى السلطات العليا ، ولا تعلم بها حتى تعالجها ؛ فبينما الحكومة من جانبها تتبع خطتها المألوفة من جهل سعيد بما يدور في أذهان الشعب وما يشعر به من آلام ، إذا بالشعب من جانبه يتهم الحكومة بعلمه بتأسيه وسوء القصد في تصرفها . كما أن الشعب يعتقد أن الحكومة تتدخل في عقائده وشعائره الدينية ، وتؤيد — وفق الخفاء — حركات التبشير في البلاد ... إلى آخر ما ذكر من أسباب كان فيها صريحا مخلصا يقول ما يعتقد .

* * *

على كل حال إنما يهمنا منه دعوته إلى الإصلاح وعمله في سبيله .

لقد نظر فرأى أن بالهند نحو سبعين مليونا من المسلمين فشا فيهم الفقر والجهل والبؤس والقلق ؛ من تعلم منهم تعلم دينى عقيم لا ينتج نظرا ولا يبعث حياة . وهم

خاضعون لرجال دين لا يفهمون من الدين إلا رسمه ؛ يريدون أن يخضعوا المدنية الواسعة لعقليتهم الضيقة ، ولا يعترفون بتغير زمان ، وتلون حياة ، وتقدم علم . يعيشون فى ركود والعالم حولهم مائج ، يرون أن المدنية الحديثة بملها ونظمها ووسائلها ومقاصدها مدنية كفر لا يصح للمسلم أن يستمد منها ولا أن يتعاون مع أهلها ، وأنهم إذا فتحوا صدورهم لها طاحت عقائدهم وأخرجتهم من دينهم . فى كل بلد أو إقليم «مُلاَّ» ، وهذا الملا أو العالم الدينى يتسلط على عقول أهله ، فإذا فتح المبشرون مدارس حرم هؤلاء العلماء على المسلمين أن يرسلوا أبناءهم إليها ثم لا يفتحون هم مدارس مثلها ؛ بل إذا فتحت الحكومة مدارس فكذلك حرموها على أبناء المسلمين ؛ والهندوس يرسلون أبناءهم فى هذه وتلك فيتثقفون ويصلحون للحياة ويشغلون المناصب الحكومية ، والمسلمون بمعزل عن الوظائف لأنهم فى مدارسهم الدينية البدائية بمعزل عن الحياة . فالمدارس مملوءة بالنصارى والوثنيين ، وفيها القليل النادر من المسلمين ، وكانت نتيجة هذا أن أعمال الحكومة المتنوعة ، وخصوصا المناصب الكبرى منها أصبحت وليس فى يد المسلمين منها إلا ما ندر .

وحركات الإصلاح الدينى التى قام بها بعض رجال الدين كانت دعوات سلبية أو قليلة القيمة العملية . ففى سنة ١٨٠٤ قام الحاج شريعة الله يؤلف حزبا إصلاحيا قوامه أن صلاة الجمعة لا تصح فى الهند لأنها ليست دار إسلام ، ولذلك سمى حزبه «جماعة اللاجمعة» ، وما أكثر ما أخذت هذه المسألة من تفكيرهم ووقتهم ، وخلافهم وجدلهم ، ودخل فيها اللاجمعيون من مسلمى بنجاب .

وجاء مصلح آخر اسمه كذلك : «السيد أحمد» (١٧٨٢ — ١٨٣١) لحج واعتنق مذهب ابن عبد الوهاب وجاء إلى الهند داعيا بدعوته من تحريم زيارة الأضرحة والشفاعة بالأولياء ونحو ذلك مما ذكرنا قبل ، وزاد على ذلك دعوته أن الهند دار حرب لا دار إسلام ، وأن الجهاد فيها واجب على المسلمين ، فاصطدم هو وأتباعه بالحكومة الإنجليزية ، وكانت خصومة ، وكانت ضحايا ، ولم تكن هناك نتيجة ذات قيمة .

لم يعجب السيد أحمد خان هذا كله وتساءل فى حزم ما علة هذا الجهل وضيق العقل والفقر وسوء الحال ؟ وأجاب فى حماسة إنه التربية . ومن ذلك الحين ابتدأ يضع منهج التربية التى يريدها . وصادف ذلك أن ثورة سنة ١٨٥٧ كشفت لعقلاء المسلمين فى الهند حالهم ووجوب تغيير موقفهم وشعورهم بتخلفهم عن الطوائف الأخرى فتلاقى تفكير «السيد أحمد» واستعداد الرأى العام المتنور فأنتج هذا التلاقى حركة إصلاح تعد نقطة تحول فى تاريخ المسلمين فى الهند .

قال لقومه يوما : «انظروا إلى انجلترا ، لقد كانت ثروتها تتمشى يوما فيوما مع تربيتها ، كلما زادت تربيتها زادت ثروتها ، وقد كانت منذ قرن وأمامها من العقبات والصعاب التى تعوق التربية أكثر مما عندنا ، ولم يكن لها إذ ذاك سكك حديدية ولا آلات ميكانيكية للطباعة ولا نحو هذا إنما كان لها سعة نظر وقوة إرادة .

«لو أن الهند سنة ١٨٥٦ كانت تعرف العالم وتعرف قوتها وقوة خصمها من الإنجليز وتزن الأمور بميزان صحيح وتدرك نتائج الأمور ما حدثت الحوادث الأليمة التى حدثت سنة ١٨٥٧ — ألا أن الجهل سبب لكل شر» .

وأول ما بدأ به خطته فى التربية إنشاؤه جمعية أدبية علمية فى عليكرة — حيث كان قاضيا بها سنة ١٨٦١ كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة فى التاريخ والاقتصاد والعلوم وترجمة أهم الكتب الإنجليزية فى هذه الموضوعات إلى اللغة الأردية ، وقد كان يرى أن تعلم هذه العلوم باللغة الإنجليزية لا يكفى إلا فى تثقيف عدد قليل لا يجزى ، إنما الذى يفيد فائدة كبرى نقل هذه العلوم إلى لغة البلاد حتى يشترك فى تفهمها والاستفادة منها أكبر عدد ممكن ، ولذلك كانت خطته التى بدأ بها وسار عليها ، نقل هذه الكتب الهامة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الأردية . ولم

يمنعه إعجابه بالإنجليز ولغتهم وثقافتهم من أن يكون صلبا حازما شديدا في طلبه نقل الكتب الإنجليزية للشعب لا نقل الشعب للغة الإنجليزية .

ولكن سرعان ما هاج عليه الرجعيون والمتزمتون من رجال الدين يتهمونه بإفساد العقول وإفساد الدين وإفساد الوطنية ، واشتبك في حرب عوان معهم انتهت بانتصاره بوضعه الحجر الأساسي لكلية فيكتوريا بغازي بور .

وحدث حادث كان له أكبر الأثر في إصلاحه ، ذلك أنه في سنة ١٨٦٩ ، وهو في نحو الثانية والخمسين من عمره ، تقرر إرسال ابنه « محمود » بعثة إلى إنجلترا ، فانتهزها « السيد أحمد » فرصة وسافر معه وحدثت له على السفينة طرائف رويت عنه من أحاديث في الدين تحدث بها مع أصدقائه من الإنجليز تدل على غيرته على الإسلام مع سعة عقل ، وابتهج حين مروره على شاطىء جزيرة العرب لأنها مبعث النبي .

نزل إنجلترا وقابل كثيرا من عظمائها ، منهم توماس كارليل ، وقد حدثه « السيد » طويلا في محمد ، ولعله كان لذلك أثر محمود في كتابة « كارليل » الفصل البديع عن محمد البطل في كتابه « الأبطال » . وأخذ « السيد » يدرس نظم التربية في إنجلترا ، ولفت نظره تربية الشعب الإنجليزي وثقافته أكثر مما لفت نظره تربية الخاصة ، لقد دون إعجابه بخادمة النزل تقرأ وتكتب ، وبربة النزل لها رأي في السياسة العامة ، وبالحوذي يقرأ الجريدة ويحتفظ بها ليتم قراءتها عند انتظار راكب ، ونادى إذ ذاك بفكرته المتغلبة على ذهنه قائلا : « إن الذين يريدون إصلاح الهند الحقيق يجب أن يجعلوا نصب أعينهم نقل العلوم والفنون والآداب الأوروبية إلى لغة البلاد الأصلية ، وأحب أن يكتب هذا الرأي بأحرف كبيرة جداً على جبال الهملايا لتذكره الأجيال القادمة ، إن تقدم الغربيين إنما جاء من أنهم عالجوا الآداب والعلوم بلغتهم ، ولو كانت العلوم والفنون تعلم في إنجلترا باللغة اللاتينية أو اليونانية أو العربية أو الفارسية لظلوا جاهلين جهل الهند ، فما لم نهضم العلوم والفنون ونتمثلها بلغتنا فسنظل في حالتنا السيئة » .

ولعل قارىء هذا يطفر ذهنه — إذا قرأ هذا النداء — إلى حالة البلاد العربية ، ويقول كما قال « السيد أحمد » ما لم تتوحد اللغة العربية والعامية في الأمم العربية ، وتنتقل العلوم والفنون إلى لغة الناس التي يتكلمون بها في بيوتهم وشوارعهم ومعاملاتهم وسمرهم ، فلا أمل في إصلاح حقيقي .

ورحم الله أستاذي « علي بك فوزي » فقد زرته في الآستانة وجلست معه جلسات طويلة ، أستفسر فيها عن ثورة تركيا ونتائجها ومحاسنها ومساويها ، فقال لي مرة : « حبذا لو تعلمتم التركية ، لا لأن أدبها رفيع المقام ، ولكن لتروا كيف استخدم الأتراك لغتهم وآدابهم لإصلاح عقولهم وشؤونهم » . وعقب على ذلك فقال : « لا أمل في إصلاح مصر ما دام هناك لغة للعلم ، ولغة للكلام ، فإما أن ترقى لغة الكلام ، وإما أن تنحط لغة العلم حتى يتحدا ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح والرقي الشعبي » .

وكنت مرة أقدم أديبا مصريا كبيرا لشرقي كبير ، فسألني سؤالا غريبا : « هل هو يكتب للخاصة أو للعامة ، فقلت للخاصة ، قال : ومَنْ من الأدباء يكتب للشعب ؟ قلت : لا أحد ، قال : وا أسفاه !

واهتم « السيد أحمد » بدراسة نظام التربية في المدارس الشعبية وفي الجامعات الإنجليزية ، وكان مما قاله : « إن الطفل في مدارس انجلترا يتربى ويتثقف ، وأما في مدارس الهند فيتعلم ، وشتان بين التربية والتعليم ، وإن الشاب في الجامعات الهندية يفقد أخلاقه بسكناه في أوساط المدن مع المغريات المتعددة ، كما أنه ليس في هذه الجامعات عناية بالأخلاق والآداب والدين ، وأساتذتها ومدرسوها يعتقدون أن واجباتهم تنتهي بانتهاء دروسهم ، وآمال الشبان ومطامحهم محصورة في وظائف حكومية ، من غير تفكير في واجب لأنفسهم ولا لأمتهم » .

يجب تغيير كل ذلك ، ووضع منهج لمسلمي الهند غير النهج الذي يسيرون عليه .

(يتبع) أحمد أمين

من أدب الأسبوع :

ذكريات شاب ... (*)

... قال لى وهو يبتسم : تريد أن تعرف من أمرى بعض ما خفى عليك ؟ ...

وأردت أن أقول : نعم أريد ، ولكنى خجلتُ أن أسأله عن سر لم يحدثنى به ، وأقبلتُ عليه وفى نفسى الرغبة ، وفى نفسى سؤال لم يصرح به لسانى . ومضى صديقى يحدثنى :

قال : أنت ترانى محسوداً على ما أنا فيه من النعمة ، أليس كذلك ؟ ... ألا فاعلم أن كل ما أنا فيه من النعمة والخير واليسرة لا يساوى شيئاً فى نفسى بالقياس إلى ما يثمر فى من السعادة حين أذكر ماضىَّ . لقد كان لى ماض حافل ، لا أظنك تعرفه ، بل لا أظن أحداً من أصدقائى ...

وصمت صديقى برهة ، وصمتُّ أنا أيضاً . لقد كنت أكره كل حديث عن الماضى ، إذ كنتُ فى مرحلة من مراحل النفس أحبُّ شىء إلىَّ فيها أن أنسى ... ؟ فلم أكن أرى الحديث عن الماضى إلا نكسة ، ولم أكن أراه فيمن يتحدث به إلا لوناً من العجز أو نوعاً من الثرثرة أو إغراءً يُغرى بى الداءَ الذى كنتُ أبرأ منه ...

كان ذلك شعورى وقتئذ ، ولكنى مع ذلك لم تطبْ نفسى بالاعتراض على صاحبى قبل أن أعرف من أمره ما يريد أن أعرف ... وظللتُ صامتاً لحظة ، وعاد صديقى إلى حديثه :

قال : لقد جاوزتُ الأربعين منذ قريب ، وإنها لعمر ، ولكن لى فى هذه الأربعين ذكريات لا تُنسى ، ولو قد نسيتها لما كنتُ خليقاً بما أنا فيه اليوم من النعماء والرفاهية .

(*) بقية حديث لم ينشر ! ...

إن هذا الحاضر الذى تراه هو امتداد ذلك الماضى الذى كان ، قلت من ينبئنى عن غدى ! ولكنى يخيل إلىَّ كأنى أعرف ذلك الغد أيضاً ! فهل هو إلا امتداد لذلك الحاضر ؟ إن الطريق المستقيم ليس له إلا غاية واحدة !

قلت : نعم ...

قال : لا أدرى من أين أبدأ قصتى لك ، وإنها لقصةٌ معجبة !

قلت : كأنْ قد عرفتُ ! فهل هذا الحاضر إلا امتداد لذلك الماضى ؟

قال : بلى ، ولكنك لم تعرف بعد ... أنت ترانى فيما ترى من النعماء واليسر ، فهل يقع فى وهمك أنى فيما مضى من أيامى قد مر بى يوم لو رأيتنى فيه لأنكرتَ أمرى كله ؟ ...

. . كان ذلك منذ بضع وعشرين سنة ، وكنت فتى لَدْناً لم يبلغ حدَّ الشباب ، حين مات أبى وخلّفنى وأمى وبضعَ أُخَيّات ، وكنا فى نعمة لم تلبث بموت أبى أن انقشعت ظُلَلُها ، ورأيتنى ذات يوم وليس أمامى إلا أن أخرج إلى الطريق أنا وأمى وأُخيّاتى توشك أن نكون جياعاً عُراةً ... والحمد لله على ما كان ! ...

وعاد صاحبى إلى الصمت لحظة ثم استأنف حديثه :

قال : ولكننا ولله الحمد والمنة ، لم نخرج إلى الطريق ، ولم نجُعْ ولم نَعْرَ ، ولم تزل لنا تلك الدار ، ولم تزل بها أمى حتى اليوم لا تريد أن تبرحها وقد برحتها أخواتى إلى بيوت أزواجهن ...

... تسألنى : كيف ؟ وأنت تعلم يا صديقى أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وأن كنوز الأرض لا تفتح أبوابها بالرُّقى والتعاويذ والتمائم . ذلك شىء فى خرافات الجهال وأساطير الأولين ولكنه ليس من حقائق هذه الحياة . إذن فكيف سترنا الله وقد أوشكنا على العُرى والمعرّة ، ذلك هو السر الذى لا أستحيى من الحديث به إلى الناس جميعاً غير أمى وأُخيّاتى . إنهن لم يعرفن حتى

اليوم شيئا مما كنت أسمع فى تلك الأيام ، ولست أريد أن يعرفن ؟ إن للنساء موازين غير موازين الرجال ! ...

لقد كنت ... ... كنتُ أحمل بيدى ... لا لا ، أريد أن أصدقك الحديث ، ليس فى الصدق معابة ....

لقد كنتُ فى النهار تلميذا بالمدرسة كما قد تعلم ، ولكننى لم أكن أعود إلى أمى وأخياتى إلا فى المساء ، بعد أن يصل إلى محطة القاهرة آخر قطار من قُطر سكة الحديد ...

أفهمت ؟ ولم تكن أمى تدرى ، ولم تكن أخيّاتى يدرين ، وإنما كن يجدن معى مالاً يكفينى ويكفيهن ، فيحسبن ذلك من بقية ما ادخر أبى رحمه الله !

وعاد صاحبى إلى الصمت مرة أخرى ، وهممتُ أن أستوضحه عن شيء مما حدثنى به من سره ولكننى أمسكت . لقد كانت تكفينى فليس من حق أن أسأله التصريح ؛ وكأنما أحس صديق بما يدور فى نفسى ، فابتسم وقال : نعم ، لقد كنتُ حمالا على باب سكة الحديد ، وكان لى جلباب ألبسه حين أزاول عملى ذلك ليستر البدلة التى ألبسها فى المدرسة بالنهار ويقيها أن تمزق !

وذات مساء ، وكانت ليلة شاتية ، كنت واقفا بباب المحطة حين دفع إلىّ رجل حقيبته ، ونظرت فى وجهه ، وقد مددتُ يدى لأتناول الحقيبة ، ثم تخاذلتُ وكدتُ أسقط على الأرض ، لا من الإعياء وثقل الحمل ، ولكن من الخجل ؛ وكان رجلا أعرفه ويعرفنى ، لأنه يرانى كل يوم وأراه ، ولم يكن يدرى حين دفع إلىّ الحقيبة أنى تلميذه فى المدرسة ... تلميذه المدلل منذ كنتُ وكان لى لى أبٌ وكنا فى نعمة ... !

... وعاد إلىّ رشادى سريعاً ، فلم أتراجع ، ومضيتُ بالحقيبة أعدو أمامه ، وكان كل دعائى فى تلك اللحظة أن يعصمنى الظلام فلا يرى وجهى ! واستجاب الله دعائى ...

وتناولتُ أجرتى عند باب الدار ووجهى إلى الأرض ، فلم أكد أقبض عليها يدى حتى عدوتُ فى الطريق رأسا أحمد الله ، ... ... ولكنه نادانى ، وتمنيتُ لو لم أسمع نداءه . وعدتُ إليه ، ودفع إلىّ قرشاً فوق ما أعطانى من قبل ، وكأنما كان يسرُّه أن يعرف موقع هذا الإحسان من نفسى ، فنظر إلىّ ، وحمَن فىّ ، أو هكذا خُيّل إلىّ ، فقد بدت الدهشة فى وجهه كالومضة الخاطفة ، ولكنه لم ينبس بكلمة ...

... ولم يطرق النوم جفنى فى تلك الليلة ، ونازعتنى نفسى إلى عدم الذهاب إلى المدرسة فى الصباح . لم أكن أخشى شيئاً غير سخرية التلاميذ حين يعرفون ، وليتهم حين يعرفون يعرفون الحقيقة الكاملة ، إذن لأمنتُ سخريتهم .. وطال عذابى وهمّى فى تلك الليلة ، ولم يطل ليلى وقد تمنيتُ أن يطول فلا يُسفر صبحُه .

ومضيتُ إلى المدرسة ، فقد كنتُ أخشى شرا أفظع ؛ كنتُ أخشى أن تعلم أمى وأُخياتى ، وهو شيء لا أطيق أن يكون ... ورآنى معلّمى بالمدرسة ورأيته ، ولكنه لم يحدثنى ولم أحدثه ، وكنت أحذر أن تلتقى عيناى بعينيه ؛ ولكنى مع ذلك لم أترك « وظيفتى » عند باب المحطة كل مساء بعد منصرفى من المدرسة .

وخُيل إلىّ أن كل معلّمىّ يعرفون من أمرى ما كنتُ أنكر ، بدا ذلك لى فى أصواتهم حين يتحدثون إلىّ ، وفى عيونهم حين ينظرون ؛ ولكن أحدا منهم لم يحدثنى حديثا عن ذلك الشأن ...

... ودعانى ناظر المدرسة ذات صباح ، فكلفنى عملا أعمله فى مساء ذلك اليوم ، عملا لم تجرِ العادة بأن يكلَّف مثلَه تلميذ ، فلما أنجزته على الوجه الذى أراد دفع لى أجرته ، ولم أرفض ما دفع إلىّ ؛ إذ كنت على يقين أنه قد عرف ... ورتب الناظر لى عملا دائما ، أو إن شئتَ فقل : أعمالا متلاحقة ، كانت أجرتى منها تكفينى وتفضُل عن حاجتى ؛ ولم يحدثنى فى شأنى ولم أحدثه ، ولكن كل نظرة منه ومنى حين يدعونى فألقاه ، كان فيها سؤال صامت وجوابه ، أو إن شئتَ فقل : فيها عارفة وشكرُها ، ولم ينطق لسان ... وظللتُ تلميذا موظفا .. وخلعتُ جلباب الحمّال ... وها أنذا اليوم ...

وأطرق صديقى إلى الأرض ، ثم رفع رأسه وهو يقول : تريد أن تعرف تتمة القصة ؟

من الأدب التركي :

حيرة

كلانا يخاف الخريف ... ...
خريف العمر الرهيب ! ... ...
لأن الشتاء القاسي سيتلوه ...
فيذوى الأمل ، وتقفر النفس ! !

يذهب العمر يوماً بعد يوم
كما تساقط أوراق الشجر ! ... ...
ونحن الآن في المنحدر ...
وغداً نكون في الوادي العميق ! ؟ ...

هكذا دهرنا ، لا يستقر على حال
وداعاً يسير بنا نحو النهاية ...
النهاية المحتومة الأليمة ... ...
وما أشقانا ، حين نرى بداية النهاية ! !

وأين زورق الآمال السابحة
إنه ضل المرفأ الأمين ... ...
فهو مضطرب وسط العاصفة الهوجاء
إلى لألئ من بعيد، بصيصاً من نور، فهل هذا سراب؟!
هل للزورق الحيران أن يرسو على شاطىء الأمن
والعاصفة الجامحة أن تسكن
ويعود الصفاء ، وينقشع الضباب
ونعيش مع اليقين ، بعد زوال الشك ؟..

وأنت يا بحر مرمرة الهادىء
كم من معذب أسمعك آلامه
وكم من زفرات استمعت إلى زفيرها الحرق
فهل لك أن تنصت لأنيني وبلواي ! ! ؟

(استانبول) ابرهيم أحمد أدهم

قلت : قد عرفت !

قال : لا ، لم تعرف شيئاً ؛ إنما قصصتُ عليك فصلاً واحداً من رواية ذات فصول وأبواب ، ولكنك مستطيع بذكائك أن تعرف الباقي ، وإنما يعنيني من ذلك كله أن تستيقن حقيقة واحدة ، هي أن تاريخ الناس يصنعه الناس ؛ كل إنسان هو يكتب تاريخ نفسه ، لأن أعماله هي تاريخه ؛ وأن الرجل الحق ليس هو الذي يذكر الماضي فيأسى على ما فاته فيه ، أو ما ناله منه ؛ ولكن الرجل الحق هو الذي يصنع نفسه ، ويذكر غده حين يذكر أمسه ، ويعرف أن هذا الحاضر الذي يعيش فيه ، هو السلم إلى المستقبل الذي ينتظر أن يصل إليه ...

وانصرف صاحبي وخلّفني !

***

لم أنس هذا الحديث منذ سمعتُه ، وقد سمعتُه منذ بعيد ؛ ولم أنس صاحبي ذاك منذ عرفتُه ، وما عرفتُه إلا يوم حدثني ؛ ولم أفهم مدلول كلمة « ذكريات الشباب » إلا يوم سمعتُ صديقي ذاك يتحدث عن ذكريات شبابه ؛ يومئذ أيقنتُ يقين العارف بعد جهالة ، أن « ذكريات الشباب » كلمة ليس معناها أبداً الحنين واللهفة ، ولا الحسرة والندم ، ولا الأحزان والدموع ؛ فهل يعرف الشاب معناها الحقّ قبل أن يفلت من يده زمامه فيقول : آه ! ياليت ماكان دام ! ... أو ياليت ماكان لم يكن ! ...

إن كل فتى لحقيقٌ بأن يعرفها لو أنه كان يستيقن منذ الشباب أن وراء كل شباب كهولة ، ووراء كل كهولة هرماً ، ووراء كل قوة ضعفاً ومعجزة ؛ ليستيقن من ذلك يقيناً آخر بأن وراء كل نشوة حسرة ، ووراء كل بهجة ندماً ، ووراء كل مسرة مساءة !

ألا ليت كل فتى يدري أنه إنما يصنع في يومه ذكريات غده ، وكما يشاؤها تكون : حسرةً وندماً ، أو أفراحاً ومسرات ! ... ياليت !

«قاف»

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ١٩٩٩٣/٥٦٧٦٩

العدد ٢٧١ — الثلاثاء ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — ٧ من مارس سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

فلسطين

بعد أن وقفت الحكومات العربية موقفها الحميد من المسألة اللبنانية ، وبعد أن كللت الجهود التي بذلت لنصرة الحق وإزهاق الباطل ، بذلك النجاح الباهر ، أخذت تلك الحكومات تسعى مرة أخرى لنصرة جارتنا وشقيقتنا فلسطين ؛ ولعلها — إن شاء الله — بالغة في سعيها هذا نجاحا لا يقل عما أصابته أمس في مسألة لبنان .

إن الذين يرقبون الجهود المبذولة في أمر الوحدة والتحالف بين الأقطار العربية ، كانوا دائما مشفقين من أن تقوم في سبيل تلك الجهود عقبات شديدة حينما تعترضها المشكلة الفلسطينية ... وأنها لن تلبث عندئذ أن تفتر أو تهمد . ومن حسن الحظ أن هذه الظنون لم تتحقق ؛ وأن الحكومات العربية لم تبد أدنى فتور أو تردد أمام هذه المشكلة التي يتوهم كثير من الناس أنها أعقد المشاكل في العالم العربي كله .

والصحيح أن مسألة فلسطين ليست أقل قبولا للحل من أية مشكلة أخرى ، إذا هي عولجت بروح خالصة ، وبُعدٍ عن الشهوات والأهواء ، وتحرر من تلك النزعات الشريرة ، التي خاضت الديمقراطيات هذه الحرب للقضاء عليها ، أما إذا كانت الوسائل المتبعة في معالجتها مبنية على القهر والبطش ، والبعد عن الإنصاف ، فإن مشكلة فلسطين ستزداد على الزمن تعقدا .

لقد عانت جماعات اليهود في كثير من أقطار العالم من الشقاء والعذاب والاضطهاد ، ما هو معروف ، وذلك في العصور الوسطى والعصور الحديثة ، ولكن هنالك دولة واحدة ومجموعة واحدة من الأقطار عاش فيها اليهود في أمن ويسر ورخاء ، ناعمي البال قريري العيون ، متمتعين بالحظوة والعناية والرعاية ، تلك هي الدولة العربية ، والأقطار الإسلامية . ولقد بلغ من اندماج اليهود في الحضارة

العربية أن الأدب العبرى فى العصور الوسطى تأثر كثيراً بالثقافة العربية فى الشرق وفى إفريقيا والأندلس . وعندما لقى اليهود فى أسبانيا النصاب والاضطهاد فى ظل « محكمة التفتيش » ، دعاهم السلطان العثمانى سليمان لأن ينزلوا فى دولته الواسعة الأطراف ، حيث نعموا بالأمن بعد الخوف ، وبالعز بعد الذل ، وبالرخاء بعد الشقة .

وهكذا كانت الأقطار التى يسودها الإسلام ، هى الوحيدة فى العالم التى لم ينشأ فيها فى أى وقت من الأوقات روح بغض اليهود . لهذا كان من العجب أن يكون الشعب العربى اليوم هو الذى يدفع الثمن الرهق للاضطهاد الذى عاناه اليهود فى البلاد غير العربية . ومن العجب ألا تحس جماعات اليهود أنهم بهذا يقابلون الإحسان بالإساءة والجميل بالنكران . ويصبحون أداة لاضطهاد شعب برىء ، وهم الذين طالما ضجوا بالشكوى من الاضطهاد .

إن من المعقول المقبول أن يتعلق الشعب اليهودى بفلسطين ، وبالأرض المقدسة التى نشأ فيها دينهم ، والتى عاش فيها أنبياء بنى اسرائيل ! وأن ينظر إلى ذلك القطر نظرة إكبار وإجلال . ومن الضرورى أن تكون هنالك صلة مقدسة بين اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وبين ذلك القطر الكريم . كما وللمسلمين صلة وثيقة بالجهات المقدسة فى الحجاز وفلسطين . ولكن أقل تفكير — بعيد من التحمس والطيش — يرينا أن تلك الصلة لا يمكن أن تكون صلة روحية ، وأن « الوطن القومى » فى فلسطين لا يمكن أن يكون إلا وطناً روحياً . ومن العبث أن يبنى هذا الوطن الروحى على دعائم من المشاريع الصناعية والتيارات الكهربائية ، والمداخن الطويلة ، التى شوهت وجه ذلك القطر الكريم ، ومسخته مسخاً أليماً .

إن فى العالم اليوم من اليهود نحو سبعة عشر مليوناً من الأنفس . كان توزيعهم قبل الحرب الحاضرة على الصورة الآتية . ونسبتهم المئوية لمجموع السكان :

الولايات المتحدة	٤ر٧٠٠ر٠٠٠	(٪٤)
بولندة	٣ر٣٢٥ر٠٠٠	(١٠)
اتحاد السوفييت	٣ر١٨٠ر٠٠٠	(٢)
رومانيا	٨٠٠ر٠٠٠	(٤)
المجر	٥١٠ر٠٠٠	(٦)
ألمانيا	٤٧٥ر٠٠٠	(١)
فلسطين	٤٤٠ر٠٠٠	(٣٠)
بريطانيا	٣٥٠ر٠٠٠	(١)
تشكوسلوفاكيا	٢٩٠ر٠٠٠	(٢)
فرنسا	٢٨٠ر٠٠٠	(١)
ارجنتينا	٢٧٥ر٠٠٠	(٢)
كندا	١٨٥ر٠٠٠	(٢)
مراكش	١٧٥ر٠٠٠	(٣)
لتوانيا	١٦٥ر٠٠٠	(٧)
سائر الدول	١ر٢٠١ر٠٠٠	—

فهذا العدد العظيم من الأنفس لا يستطيع أى عقل منصف أن يتصور أن يتسع له قطر من فلسطين لا تزيد مساحته على عشرة آلاف من الأميال ! ولقد يرى بعض المتحمسين من قادة اليهود أن من الممكن ، بتحويل فلسطين إلى قطر صناعى أن تتسع لبضعة ملايين من الأنفس ! بل لقد يذهب بعضهم إلى أبعد من هذا . ولكن هذه التصورات لا تعدو أن تكون أوهاماً يولدها الخيال . والذين يحبون الأرض المقدسة وتربطهم بها تلك الروابط الروحية العزيزة ، يؤلمهم أشد الألم أن يتصوروا ذلك القطر الكريم ، وقد شوهته تلك المشروعات الصناعية القتمة ، وألبسته ثوباً من الدمامة يعادل ما تراه فى الأقطار الصناعية فى أوربا .

لقد وسعت فلسطين نحو نصف مليون من اليهود . يعادل ثلث سكان القطر كله . وبهذا زادت نسبة اليهود على نسبتهم فى أى قطر من الأقطار بمقدار كبير . ولا يمكن لأى منصف أن يطلب من سكان فلسطين أن يضحوا بكيانهم الشعبى بأن يسمحوا لأنفسهم بأن يصبحوا قلة ضئيلة فى وطنهم وديارهم .

وليس تغلغل اليهود فى فلسطين مقصوراً على مجرد النسبة العددية . . . بل لقد استطاعوا بفضل أموالهم الطائلة

أن يشتروا مساحة عظيمة من الأراضي الزراعية . أكثرها في الأقاليم السهلة مثل مرج ابن عامر الذي يعد أغنى بقاع فلسطين وأكثرها خصوبة . وفي الخريطة المرسومة هنا وهي منقولة عن تقرير القومسيون الملكي ، برئاسة اللورد بيل ، لعام ١٩٣٦ نرى كيف استطاع اليهود أن يمتلكوا مساحات واسعة في الجهات الشمالية ، وهي الأكثر ماء وخصوبة ، وعلى سواحل البحر المتوسط من عكا إلى قرب الحدود المصرية ، وقد استطاعوا أن يستصلحوا كثيرا من الأراضي الرملية التي لم تكن تزرع من قبل . ولكن من الخطأ أن يتوهم أحد أن جميع أراضي المستعمرات اليهودية هي من هذا الطراز ، بل أكثرها أرض صالحة كانت تزرع من قبل .



وهكذا نرى أن لليهود اليوم في فلسطين عدداً كبيرا من المهاجرين ، قد استقروا في الأرض المقدسة واستوطنوها كما أنهم يمتلكون نسبة عالية من الأرض الجيدة فيها ، يزرعونها ويستثمرونها ، إلى جانب مشاريعهم الاقتصادية الكثيرة ، تجارية كانت أم صناعة .

وليست المشكلة الحقيقية التي تواجه اليهود اليوم هي مشكلة الهجرة ، والحاجة إلى أقطار مثل فلسطين لكي يهاجروا إليها ؛ فإننا إذا تأملنا تاريخ الهجرة إلى فلسطين رأينا ظاهرة غريبة . وهي أن نحو خمسة وسبعين في المائة من أولئك المهاجرين جاءوا من وسط أوربا وشرقها . وأن الذين هاجروا إلى فلسطين من بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا عددهم ضئيل جدا بالنسبة إلى مجموع المهاجرين ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية — وهي التي تحتوي نحو خمسة ملايين من اليهود ، أي أكثر مما يحتويه أي قطر آخر — لم يهاجر منها إلى فلسطين سوى ثمانية آلاف نسبتهم إلى مجموع المهاجرين ثلاثة في المائة !

فمن الواضح أن المشكلة الحقيقية التي تواجهها جماعات اليهود اليوم ليست الحاجة إلى المهاجرة إلى فلسطين التي لا يمكن أن تسع لأكثر من نسبة صغيرة منهم ، بل الحاجة الحقيقية هي أن يعامل اليهود في الأوطان التي يعيشون فيها معاملة حسنة ، مثل التي يلقونها في غرب أوربا وفي الولايات المتحدة ، وهذه هي الوسيلة التي يمكن أن تحل بها المشكلة اليهودية ، وإلى هذا السبيل يجب أن توجه جهود قادة اليهود .

إن أول مهاجرة لليهود إلى فلسطين لم تحدث بعد الحرب الماضية كما يتوهم كثير من الناس . فإن هناك مستعمرات قديمة أسست في أواخر القرن الماضي ، وأوائل القرن الحالي ، وهي من أحسنها وأكثرها نجاحا . ولقد أسست في ظل الحكم الإسلامي ، دون أن تسبب نفورا بين الطوائف التي تسكن فلسطين . وعند نهاية الحرب الماضية كان في فلسطين نحو ثمانين ألفا من اليهود ، يعيشون في وئام وتفاهم مع سائر السكان .

من الخطأ إذن أن يعزى تأسيس الوطن القومي لليهود إلى تصريح بلفور الصادر عام ١٩١٧ ؛ فإن كل ما صنعه هذا التصريح هو أنه قال إن الحكومة البريطانية تنظر بعين الرضى إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ،

ولكن ذلك الوطن في صورته الصحيحة قد أنشىء قبل ذلك العهد . وكان من الخير أن إكمال ذلك الوطن — إن كان في حاجة إلى إكمال — يظل كما كان من قبل أمراً بين اليهود والعرب ، وأن يتمشى بروح الاعتدال التي أسس بها . ولقد كان من الحزن أن الأمور لم تسر في هذا المجرى ، وأن اليهود قد قرروا ألا يكتفوا بإنشاء « وطن قومي » في أرض فلسطين ، بل أن يحولوا فلسطين إلى دولة يهودية . فنادى زعيمهم بأن فلسطين يجب أن تغدو يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية وبلجيكا بلجيكية . وهذا القول — إن دل على معنى — فإنه يدل على إصرار قديم على السيطرة التامة على القطر الفلسطيني ، وتحويل السكان الأصليين إلى أقلية ، قليلة الخطر .

هذه السياسة قد عبر عنها الزعماء اليهود صراحة منذ عام ١٩٣٠ ؛ واضطرت الحكومة البريطانية لأن ترفضها بصورة رسمية لا تقبل الشك أو الإبهام في عام ١٩٢٢ ؛ ثم كررت هذا الرفض في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ . فقد جاء في البند الرابع من ذلك الكتاب العبارة الآتية :

« لقد سبق لحكومة جلالة الملك في الوثيقة الرسمية التي صدرت في عام ١٩٢٢ أن أعلنت أن تصريح بلفور لا يرمى — ولم يقصد به أن يرمى — إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية . والحكومة البريطانية لا تقبل مثل هذا التأويل ولا تقره . ولكن هذا البيان لم يمح الشكوك التي لا تزال قائمة . ولهذا فإن حكومة صاحب الجلالة تعلن اليوم بكل قوة أنه ليس من سياستها — ولم يكن في سياستها في أى وقت — أن تجعل فلسطين دولة يهودية . بل هي ترى أن مثل هذا الأمر مناقض تمام المناقضة لالتزاماتها نحو العرب في صك الانتداب ، ومناقض للعهود المقطوعة للعرب في مناسبات عديدة » .

ذلك ما جاء في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ ، وهو الوثيقة التي تشتمل على الخطة النهائية ، التي قررت فيها الحكومة البريطانية السياسة التفصيلية التي تنوى اتباعها في فلسطين ، تلك الخطة التي اهتدى إليها سياستها بعد التجارب القاسية التي مرت بالقطر الفلسطيني وسكانه في مدى تسعة عشر عاما . وقد التزمت الحكومة البريطانية أن تمضى في تنفيذ هذه السياسة ، التي كانت وليدة التفكير الطويل والمشاورة بينها وبين اليهود من جهة ، وبين العرب من أهل فلسطين ، وممثلي الأقطار العربية — ومنها مصر — من جهة أخرى .

وتتلخص السياسة التي تعهدت بريطانيا بتنفيذها في ثلاثة أمور : أولها أن تنشىء في فلسطين حكومة دستورية وطنية بعد مضى عشر سنوات ، وأن تمهد لذلك بعد انقضاء خمس سنوات من استتباب الأمن في فلسطين . الثاني : أنها لن تسمح بالهاجرة إلى فلسطين لأكثر من ٧٥٫٠٠٠ يهودى وذلك في بحر خمس سنوات ابتداء من أبريل عام ١٩٣٩ إلى نهاية مارس عام ١٩٤٤ . وثالثها : تنظيم بيع الأراضى ، بحيث لا يتعرض العرب لضروب من الشدة والإرهاق بسبب إقبال اليهود على شراء أرضهم .

إن هذه الوثيقة الصريحة هي عهد مقطوع من الحكومة البريطانية . وجميع الشعوب العربية تتطلع بشيء غير قليل من الاهتمام ، لكي تراها تفي بهذا العهد وفاء صريحا لا مواربة فيه ولا مداورة . ففي نهاية شهر مارس المقبل تنتهى الفترة التي يسمح فيها لليهود بالهاجرة إلى فلسطين . وبعد نحو شهرين يحين الوعد الذى تعهدت فيه حكومة بريطانيا بأن يشترك الفلسطينيون في حكم بلادهم ، وأن تنشىء نواة الحكم الدستورى فيها .

ليس من شك في أن الحكومة البريطانية تتعرض اليوم لضغط شديد من هيئات وأفراد ذات نفوذ كبير ، بقطع النظر عما تقوم به جماعة الإرهابيين في فلسطين نفسها ولكن السياسة الحكيمة تقضى بأن تمضى بريطانيا في تنفيذ ما تعهدت به . لأن هذا أمر لا يرتبط بعلاقتها من الشعوب العربية وحدها بل هو متصل بمركزها الدولى كله ، وبسمعتها بين شعوب العالم في هذا الوقت العصيب .

محمد عوض محمد

الملاريا

للدكتور أحمد زكي بك

حدثتكَ عن جرثومة الملاريا ، كيف تدخل جسم الإنسان ، فتطلب خلايا دمه الحمراء لتسكنها . ثم وصفت لك كيف تتطور هذه الجرثومة في هذه الكرات أشكالا مختلفة تنتهي بفتها هذه الكرات ، ثم خروجها عنها ، ذريّةً جديدة من الجراثيم أضعافَ تلك التي دخلت هذه الكرات أول مرة .

واليوم أحدثك عمّا تصنع هذه الجراثيم في جسم البعوضة بعد أن حدثتك عما تصنع في جسم الإنسان .

وقد يكفي أن أقول لك إن البعوضة تخرق جلد الإنسان بأبرتها ، ثم هي ترشف من دمه بفمها ، فيدخل هذا الدم بالذي فيه من جراثيم إلى جسم البعوضة ، ثم هي تعيد هذه الجراثيم إلى دم رجل آخر عند ما تجوع مرّة أخرى فتطلب الطعام .

ولكني بهذا أكون قد ضيعت عليك صورة يقف عندها الفكر يتأمّلها في متعة غير يسيرة ولا ضئيلة ، وأكون في سبيل البساطة قد حجبت عنك وجه الحقيقة الجميل .

فاعلمْ أن الجراثيم التي تدخل جسم البعوضة هي غيرُ تلك التي وصفتُ لك في دم الإنسان . فتلك التي في دم الإنسان جراثيم من نوع واحد ، جراثيمُ سواسيةٌ ، تتكاثر بالتشقق أنصافا وأرباعا وأثمانا . وليس فيها ذكر أو أنثى ، فليس فيها تلقيح ، وليس فيها بيض ، وليس فيها حَمل ، ولا شيء غير الانشقاق .

وهذه الجراثيم تعلم هذا من نفسها ، وتعلم أنه لا فائدة من دخولها إلى جسم البعوضة على هذا الحال . فجسم البعوضة يجب أن يكون التكاثر فيه ، لا انشقاقا ، ولكن تلقيحاً . يجب أن يكون التكاثر فيه بين ذكر وأنثى ، وإذن وجب على هذه الجراثيم ، وهي في دم الإنسان ، أن تخلق من نفسها هذا الذكر وهذه الأنثى .

وهي تفعل هذا عن طيب خاطر .

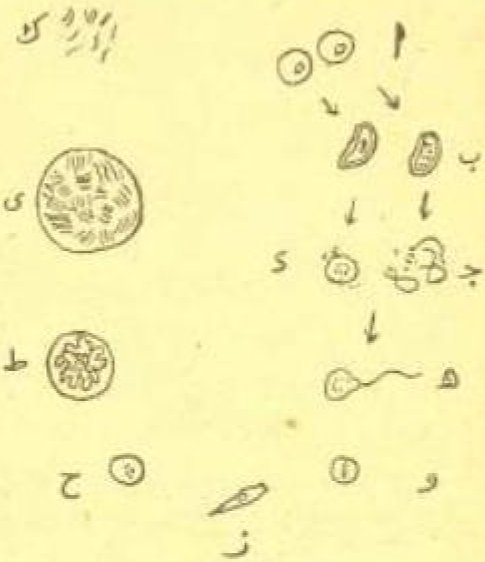
ففي طور من أطوار الحمى في دم الإنسان ، بينما أكثر الجراثيم يتوالد في الكرات الحمراء انشقاقا ، وبذلك يخلق حشدا عظيما ، وجيشا عرمرما ، يغزو تلك الكرات فيفقأها ألوفا من بعد ألوف ، تجد طائفة من هذه الجراثيم اشتغلت ، في سبيل حفظ النوع ، بتحويل نفسها إلى جراثيم جديدة ، بعضها ذكور وبعضها إناث . وهذه إذا تكونت ظلت في مكانها من دم الإنسان تنتظر البعوضة حتى تجيء في طلبها . ومن العجيب أن هذا الذكر وهذه الأنثى ، على وحدة الدار وقرب المزار ، لا يتزاوجان في دم الإنسان أبدا . فإذا جاءت البعوضة فشربت من دم المريض ، حملت الزوجين فيما حملت من دماء .

وهذه الذكور وهذه الإناث إذ تنشأ في كرات الدم بجسم الإنسان أول ما تنشأ ، تنشأ صغيرة داخلَ هذه الكرات ، حتى لا يكاد الناظر يفرق بين ذَكَرها وأنثاها ، فإنما هي عند ذاك أجنّة في أرحام (شكل ١ حرف أ) . ثم يأخذ الذكر في الكبر ، وتأخذ الأنثى في الكبر حتى تملأ كل منهما كرته الحمراء أو يزيد عنها . ويتشكل الذكر غير تشكل الأنثى (شكل ١ حرف ب) . ويتشكل ذُكران حمى الثلث الحميدة غير تشكل ذُكران حمى الربع . ويتشكل ذُكران حمى الربع غير تشكل ذُكران الحمى الخبيثة . وكذلك تختلف الأشكال في إناث هذه عن إناث هذه وتلك . وينتفع الفاحص الكرسكوبيّ من اختلاف هذه الأشكال تحت المجهر في تعرّف نوع الحمّى .

وتدخل الذكور وتدخل الإناث في الدم المرشوف إلى جوف البعوضة ، فلا يلبث الذكر أن يفقع كرته الحمراء ، ولا تلبث الأنثى .

أما الذكر فتنفقع كرته عن خيوط كأطراف الكرابيج

تأخذ تسبح فى سائلها تبحث عن الأنثى لتلقحها (شكل ١ حرف ح) . وأما الأنثى فتتفقع كرتها الحمراء فتخرج منها قوراء كالقمر (شكل ١ حرف ه) .

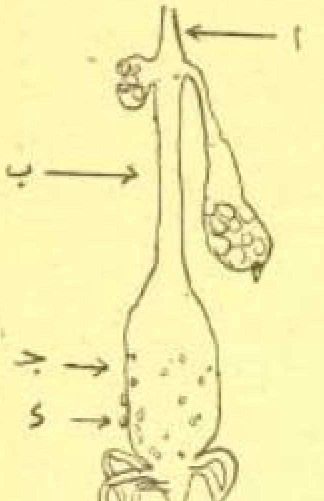


(شكل ١)

ويتزاوج الاثنان (شكل ١ حرف ه) فيتكون منهما جسم (شكل ١ حرف و) يتشكل ويستطيل حتى يصير كالدودة الصغيرة (شكل ١ حرف ز) ، وهى دُوَيدة سبّاحة . فتأخذ هذه الدُّويدة تسبح تطلب جدار المعدة من البعوضة . فإذا وجدت هذا الجدار دخلته ، فاستوطنته . وفى هذا الجدار تتكور (شكل ١ حرف ح) ، ثم هى تقضى فيه ستة أيام أو نحوها يزداد فيها حجمها زيادة عظمى حتى ليبلغ قطرها ما بين ٣٠ و ٤٠ ملّيمِلّيمترا . وتظهر فيها لجوات فتتراءى كالإسفنج (شكل ١ حرف ط) . ثم يتحول جوفها فينقسم إلى عِصِىّ (شكل ١ حرف ى) . ثم ينفقع الغلاف عن هذه العصىّ ، فتخرج كالدود استطالة (شكل ١ حرف ك) . وهذه تغادر جدار المعدة من البعوضة فتدخل لجوة هذه المعدة . ثم من المعدة تذهب إلى الغُدَد اللُّعابيّة للبعوضة . وتعضّ البعوضة رجلا لتشرب من دمه ، فيتلوّث دُمه بلعابها ، فتدخل دمَه تلك الجراثيم . وهى إذا دخلت دمه تكوّرت كالبذور .

وننسى هذه البذور أنها تكوّنت من أب وأم ، فتأخذ تحشد حشودها ، وتُجنّد جيوشها ، لا بالتزاوج كما فعل آباؤها ، ولكن بالإنشاق على ما وصفنا فى المقال السابق . والتكاثر بالتزاوج بطىء لا يُسعف . والتكاثر بالتشقق سريع ، وهو حيلة الحيوانات الدنيا ، والنباتات الدنيا فى مغالبة الحياة ، وهى حياة لَمعْمُرك شديدة قاسية .

وكما أن الفاحص يستطيع تحت المجهر أن يتبين أطوار الجراثيم فى دم الإنسان ، فكذلك يستطيع هو أن يتبين هذه الذكور وهذه الإناث وما ينتج عنهما . ويتبينهما فى معدة البعوضة وفى غُدَدها اللعابيّة .



(شكل ٢)

جسم البعوضة — ا : المرىء — ب : جزء المعدة الأمامى — ح : جوف المعدة — د : الجراثيم فى جدار المعدة — ه : الأمعاء — و : الاست — ز : المبيض وفيه البيض

وأعيذك أن تستصغر البعوضة ، فتنكر أن يكون لها معدة ، ولها غُدَد ، ولها لعاب . فاعلم أن لها غير ذلك فمٌ كفمك ، ومرىء كمريئك ، ومعدة كمعدتك ، وهضم كهضمك ؛ ولها مِعًى كأمعائك ، ولها مخرج كمخرجك . وكل هذه يُفصَل بعضها من بعض بإبرة التشريح تحت العدسات .

فهذه دورة حياة الجرثومة فى دم الإنسان .

وهذه دورة حياتها فى جوف البعوضة

فما بال حياة البعوضة نفسها ، وما أطوارها ، وما صلة هذه الأطوار بحمى الملاريا ؟

ألا فاعلمْ أنه ليس كلُّ البعوض ينقلُ هذه الحمى . وأن الذى ينقلها جنس من البعوض أطلقوا عليه إسم : أنوفليس anophales . وهـذا الجنس صنوف عدَّة ، تبلغ نحو الستين ، تختلف فيما بينها اختلافا يسيرا ، ولكنها تشترك فى مقدار من الصفات تكفى لأن تندمج بها جميعاً فى جنس واحد .

وبعوضة الأنوفليس ، كسائر البعوض ، تتطور من البيضة ، إلى الدودة ، إلى العروس ، إلى البعوضة البالغة .

ولنبدأ بالبعوضة البالغة لأنها هى الطور المعروف المألوف .

وأول شىء تستطيع أن تُميِّز به هذه البعوضة إذا ظهرت فى منزلك هو وضْعُها على الحائط . فهى تميل رأسها إليه ، وتبعد بذيلها عنه . وأنت ترى جسمها كأنه فى خط واحد يصنع زاوية مقدارها ٤٥° درجة أو نحوها مع الحائط ، فكأنها تريد أن تنطح الحائط أو تخرقه (شكل ٣ رقم حـ) . أما الأجناس الأخرى من البعوض فلها أوضاع غير هذه (شكل ٣ حرف ب ، أ) . وفى هذه الأوضاع الأخرى تجد الجسم كله ليس فى خط مستقيم واحد .



جـ ب أ

(شكل ٣)

وتجد البعوضة تميل إلى الحائط بذيلها وبطنها لا برأسها .

ومما تتميز به بعوضة الأنوفليس رُقَطُ أجنحتها . فلو فحصتها من قرب وجدت بالجناح نُقطا قاتمة على أرضية فاتحة . وهذه النقط القاتمة بيِّنة ظاهرة لا سيما فى ما يوجد فى صنوف هذه البعوضة فى مناطق الاستواء .

وبعوضة الأنوفليس تتميز بغير هذا . ولكنها تفاصيل تخص الرجل الحشرىّ أكثر مما تلذّ القارىء العادىّ .

فهذه هى البعوضة البالغة .

أما البيضة .. وأما الدودة ... وأما العروس ...

أحمد زكى

زعماء الإسلام في القرن التاسع عشر:

٢ - السيد أحمد خان

١٨١٧ — ١٨٩٨

عاد السيد أحمد من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين في الهند عقلا ودينا ولغة وخلقا واجتماعا، سواء في ذلك خاصتهم وعامتهم، وصمم على أن يغزو الجهل والجمود بكل ما يستطيع من قوة، وأن يحمل المسلمين بكل الوسائل على أن يتقبلوا المدنية الحديثة في علومها وفنونها قبولا حسنا ويستخدموها في ترقية حياتهم، وأن يبذل الجهد في التوفيق بين الإسلام والمدنية؛ فالإسلام في جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل، غير مناهض لما يثبته العلم، فإذا نُقِّيَ مما لحقه وليس منه أمكن أن يُقبل المسلمون على العلم الحديث من غير حرج.

وضع من أول خططه بعد عودته أن ينشيء في الهند جامعة تكون للمسلمين كأكسفورد وكمبردج في إنجلترا، ترقي الخاصة، ثم هم يربون العامة. ومازال يكد ويسعى، ويجمع المال، ويكافح العقبات توضع في سبيله، وأخيرا فاز بإنشاء كلية عليكره المشهورة، وحدد لها أغراضا ثلاثة:

(١) أن تعلم المسلمين الثقافة الغربية والشرقية في غير تعصب ولا جمود.

(٢) أن يُعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية، فيجدوا فيها سكنا يقيهم شرور المدن ومفاسدها، فيطمئن الآباء — حين يرسلون أبناءهم إليها — على أنهم في بيئة صالحة لخلقهم، مرقية لآدابهم.

(٣) أن يعنى في نظام الكلية بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق معا، وبعبارة أخرى أن يكون الغرض منها «التربية» لا التعليم فقط.

وتم بناؤها، واستقبلت طلبتها، تعلمهم على النهج الذي اختطه، ونجحت في خلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة مع سعة في العقل وسماحة في الدين، وانتشر خريجوها في أقطار الهند يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون ما حولهم، وأصبحت كلمة «عليكره» لا تدل فقط على كلية أو جامعة، وإنما تدل أيضا على نوع من العقلية الراقية والصبغة العقلية والاجتماعية الخاصة.

لقد أخذ الوطنيون من المسلمين على خريجي هذه الجامعة وطلبتها أنهم لا يشتركون في الحياة السياسية مع فضلهم وسعة عقلهم وغزارة علمهم، حتى أنهم لا يضربون يوم تضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسي. ولكن هذه هي الصبغة التي صبغ بها السيد أحمد طلبته: إقبال على العلم وبعد عن السياسة.

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل في اتجاه آخر، فأنشأ مجلة دورية سماها «تهذيب الأخلاق» عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية في جرأة وصراحة، وأخذ يفسر القرآن، ويدعو، إلى أن القرآن — إذا فهم فهما صحيحا — اتفق مع العقل، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته، وأنه يجب أن يفسر على ضوء العقل والضمير.

وتطرف أكثر من ذلك فكان يقول بأن الوحي كان بالمعنى دون اللفظ، ذاهبا في ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم السيوطي في الإتقان إذ قال: «وذكر بعضهم «أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى: «نزل به الروح الأمين على قلبك»[1].

إذ ذاك هاج عليه كثير من رجال الدين وهيجوا عليه العامة، وتعرضت حياته للخطر، وأراد أحدهم أن يطعنه مرة بخنجر فنجا منه بأعجوبة، ومع هذا ظل ثابتا جريئا في دعوته كما هي، لم يتزحزح ولم يداج ولم يمار، بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول، وما ينشر.

(١) وردت هذه العبارة في الاتقان ص ٥٤ جزء أول بالمطبعة الكستلية.

لا يعبأ بنقد ، ولا تهديد بقتل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريئة خطيرة ، كذلك كانت ناحيته السياسية ؛ فكان يرى أن الغرض الذى يجب أن يرى إليه السياسى الهندى هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية فى نفوس معتنقيها فقط ، ولكن هذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر فى الوطنية ؛ فيجب أن يكون عند كل طائفة عقيدتها الخاصة بها ، ووطنيتها العامة عند كل الطوائف . أما النزاع الطائفى الدينى ، والنزعة إلى تقسيم الهند حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدى إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين فى العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفى كل الملل ، وقال : « فى قطر كالهند تقسمه الطبقات ، وتتوزعه النزعات الدينية الحادة ، ولم تنتشر فيه التربية الصحيحة التى تعد الناس فيه كلهم سواء فى الحقوق والواجبات ؛ أرى ، بل أعتقد أن الانتخاب والتمثيل فى شتى المجالس ضرره أكثر من نفعه » . ولهذا رفض أن يشترك فى المؤتمرات السياسية ، والأحزاب على اختلاف ألوانها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء ، ووجه كل همه فى أحب الأعمال إليه من اشتراك فى المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهى أن يجمع مؤتمرا كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين فى الأقاليم الهندية المختلفة ، كل عام فى مدينة ، يلقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التى يرونها نافعة فى ذلك ، وكان الغرض الذى يرمى إليه « السيد » منه بث روح الائتلاف بين المسلمين فى البلاد الهندية وتبادل الآراء فى خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال المفيدة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك . وقد نفذ الفكرة ونجح المشروع ورأس السيد المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برياسة بعض أصحابه وأتباعه .

لقد سيطرت روحه على المؤتمر فى حياته وبعد مماته ، وهى روح تدعو إلى الهجوم على المدنية الغربية ، وأخذ كل شيء حسن فيها ، وخصوصا العلوم والآداب . « إن النور اليوم يأتى من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوروبا علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان فى مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم » . إن « التعليم كان فى الزمن الماضى دينيا محضا لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف فى الأولى وأخل بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » .

« إن العلم اتخذ شكلا جديداً ؛ فلم تعد طبيعيات أرسطو ولا نظريات ابن سينا ولا جبر الخيام ولا كيمياء جابر بكافية ، وهى لا تصلح للدراسة إلا من الناحية التاريخية » .

واهتم المؤتمر بالتربية وشؤونها ، ينتقد التعليم ومناهجه ويقترح الإصلاح ويضع نصب عينه كلية عليكره « حتى تصل إلى درجة تساعد على رقية النشء وتهذيبه ، وحتى تصل إلى درجة تكون فيها منبع العلوم ومحط الرحال للطلبة من جميع الأقطار الإسلامية ؛ وليس من البعيد عند ذلك أن ينبغ فيها أمثال : ابن سينا ، وابن رشد وغيرهما من العلماء السابقين ينشأون فى مهد العلوم الحديثة ويحتضنون فيها وينهضون بها ، فإن هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيماوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبية ، يعيدون لنا سالف مجدنا القديم فيكون فيهم ابن موسى جديد يخترع آلات جديدة ، وطوسى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتباً فى علم الهيئة الحديثة ؛ وهكذا » .

« والذى نريده أن ينشأ أولادنا فى عالم من الحرية بعيدين عن المضار والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تحيط بهم من كل جانب » .

عليكم بالعلم ، فإذا شئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة ، وأخلاقكم الوخيمة ، واهتدوا بنور العلم فى طريق حياتكم التى تسيرون فيها .

«يجب علينا أن نشارك الأمم الغربية فى معارفهم ، وأن نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والأقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل ؛ ولا منقذ لنا من براثن الفقر ومخالب الجهل إلا اختطاف علومهم ، وإدخال مدنيتهم ليكون هناك شىء من التكافؤ بيننا وبينهم حيث لا حافظ لنا من الهلاك فى هذا المزدحم الشديد إلا التكافؤ »

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده فى المؤتمر الهندى الإسلامى وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه(١) .

لقد ظل حياته يكافح فى سبيل المسلمين فى الهند كفاحاً شديداً وهو صابر على رميه بأشنع التهم من كفر وإلحاد وفقدان وطنية ، وأنه آلة إنجليزية . شجاع فى مقابلة كل ما يقف فى سبيله يجتاحه اجتياحا . يرى أن المسلمين مرضى لا يشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية . فقراء لا يشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنىء ، وناموا على الفراش الوثير فى المسكن الفسيح ؛ فعمل على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وفقر ؛ وكذلك كان .

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة جديدة عاقلة مفكرة مهذبة تصلح للحياة ، ورأوا كلية عليكره تنتج فى البلاد حركة فكرية بديعة ، وتؤلف الكتب القيمة فى أسلوب جديد قويم ، وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها ، فآمنوا إذ ذاك بأن « السيد أحمد » مصدر نعمة وبركة ، لا كارثة ونقمة . وإن اختلفوا معه فى بعض آرائه .

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة فى اللغة الأردية . لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية فى عهد الظلام : عشق وغرام ومديح ، وأسلوب مزركش الظاهر فارغ الباطن ، فنقلها إلى آفاق واسعة وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع والأخلاق والدين والتاريخ والأدب ، فى أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء والسعة ، غزير بالمعنى خال من التصنع .

لقد بدأ « السيد » حياته فى اللغة الأردية شاعراً . فكان شاعرا عاديا لم يلفت النظر إليه ، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحا مبينا ، وبدأ ذلك فى جريدته التى أنشأها واسمها « سيد الأخبار » ، فلما أنشأ بعدُ جريدة «تهذيب الأخلاق» بلغ فى ذلك الغاية وائتمّ به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد ، فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل ، وبذلك أخذ الأدب الأردى يشق طريقه إلى التقدم . يقول هو فى ذلك :

« لم آل جهدا فى ترقية العلم والأدب باللغة الأردية على صفحات جرائدى التواشعة ، واتخذت فى ذلك أسلوبا يجمع بين السهولة والجزالة لا تعقيد فيه ولا تكلف . تجنبت فيه الألفاظ الرنانة والاستعارات والكنايات الوهمية التى تنحصر فى الشكل ولا تتصل بالقلب ، وجهدت فى تشويق القارىء إلى ما أكتب فيه ، ونقل مشاعرى وعواطفى إلى مشاعره وعواطفه » .

وتعددت موضوعات كتاباته فطرق كل موضوع ، وعالجه معالجة من يلقى عليه ضوءا كاملا لا يتركه حتى يكون واضحا جليا فى جميع جوانبه .

ثم وجّه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها ، ونقل كثيرا من خير ما فى الآداب الأجنبية إليها . وكان له رأى فى الترجمة إلى اللغة الأردية بديع ، وهو عدم التقيد بالحرفية فى الترجمة ، ويرى أن هذا أسلوب واه ضعيف وإنما الواجب أخذ الأفكار وعرضها عرضا جديدا بطريقة تتفق وذوق المتنود وتلائم أفكارهم . ولم تكن اللغة الأردية تشتمل على مصطلحات علمية ، فجد فى صياغة اللغة صياغة تتناسب مع العلم ووضع المصطلحات ، وسار على هذا النهج طلبته .

قال الأستاذ شبلى النعمانى — عالم الهند العظيم — : «طالما كان النزاع بينى وبين السيد أحمد شديدا فى آرائه الدينية ، وطالما فندت آراءه ، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالى الذى استخدمه فى شرح أفكاره ، فكان أسلوبا رائعا منقطع النظير مملوءا بالفكاهة الحلوة والتنادر الظريف ، حدث مرة أن مولوى على بخش نقده نقدا مراً ، ثم

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر الهندى نشرت فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠١ ، وسنة ١٩٠٢ .

ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علماء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد في « تهذيب الأخلاق » « ما أعجب إلحادي ، قد جعل مني كافراً وجعل منه حاجاً مؤمناً . إني لفي شوق شديد لأن أرى فتواه . إنه كما قال الأول : إذا خرب بيتي بيتُ الأوثان ، قام على أنقاضه بيت الإيمان . إن إلحادي كالأمطار تخرج أحسن الورود في البستان ، وأخس الكلأ في الوديان » .

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدته « تهذيب الأخلاق » كتب في آخر عدد منها :

- طالما طرقت باب النيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا فذلك ما أبغي ، وإن تخبطوا عند انتباههم وترنحوا يمنة ويسرة ، فرحلة لا تستوجب الرضا ، ومع ذلك تستوجب الأمل في يقظة المستقبل ، وليتها تكون .

وعند ما ترى الأم طفلها مريضا تلح عليه أن يشرب الدواء المر وهو يلح : دعيني يا أماه قليلا فسأشربه بنفسي .

وأنا كذلك سوف أطرق باب النيام دائما ليستيقظوا ، وسأصيح بالأطفال المراض اشربوا اشربوا حتى يتجرعوا .

لا أكلّ ولا أملّ .

وظل كذلك يدق الباب ويلح في شرب الدواء حتى أدرك الناس أخيرا جدا أنه قام بعمل جليل في لغة قومه ، وعقليتهم ، وتعليمهم ، وتربيتهم ، مهما عابوه في بعض تعاليمه الدينية وبعده عن التدخل في السياسة القومية .

فلما زار البنجاب في آخر حياته استقبل استقبال الملوك الظافرين والغزاة الفاتحين بل المصلحين الناجحين ، وأنساه نعيم الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الحادية والثمانين من العمر أسلم روحه لخالقه فبكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشد ما بكوه من أجله شجاعته التي لا تحد في تنفيذ خطته وصراحته البالغة في الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، وإصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ بنقد الانجليز في ترفعهم ، والوطنيين في تخلفهم ، ورجال الدين في جمودهم ، ورجال السياسة في تخيلهم ، على حد سواء . ويكونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملي لا يكتفي بالنظريات والمبادىء يثيرها ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه ، بل لا يزال يسعى ويكدح وراء مبادئه حتى يخرجها في بناء وفي طلبة وفي معمل وفي مؤتمر وفي مجلة وفي درس . وهي ميزة ندر أن تكون في المصلحين . ولذلك كانت نتيجته في إصلاحه عملية كبيرة . فلو رأيت مسلمي الهند أيام سلفهم ورأيتهم أيام خلفهم لوجدتهم قد ارتفعوا درجات في العلم وفي الفكر وفي الخلق وفي اللغة وفي الصلاحية للحياة ؛ حتى لو قلنا إن تاريخ المسلمين في الهند قد تحور واتخذ اتجاهاً جديداً في حياته وبحياته لم نعد الصواب .

ثم نرى في بعض المصلحين عيباً كبيرا وهو أنهم لا يربون من يحمل علمهم ويكمل خطتهم ؛ وكثيرا ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التي لا تسمح لشخصية عظيمة أخرى تظهر بجانبهم فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التي تتقن الملق والنفاق وتتغذى بأقوالها وأعمالها عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتنفر منهم الشخصيات القوية لأنها ترى في نفسها ندا أو شبه ند لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيها لرأيهم ، أو تتصنع النفاق للقرب منهم ، فإذا مات مثل هؤلاء ، مات إصلاحهم إلا من الرؤوس أو ثنايا كتب التاريخ — ولم يكن « السيد أحمد » من هذا الطراز ، فهو قوي جبار في اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف ، باذر الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجع لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم ويستعملوا حقهم في صراحتهم ، كما يستعمل حقه في صراحته .

ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته ويسلك منهجه ويحمل رايته ويصلح ما أخذ عليه من مثل : سراج علي ، والسيد أمير علي .

وأظن أن من الخير الوقوف عند هذا الحد حتى لا يمل القارىء ، على أن نعود إلى الموضوع بعد إن شاء الله .

أحمد أمين

صيد من بلاد الشام

٤ — لا تعاقبوا المجرمين لأنهم مرضى !

وهذا حديث فيه من الإمتاع ، قدر ما فيه الإبداع . أصغى إليه ، في الجامعة السورية ، طوال ساعة ونصف ساعة ، صفوة من قضاة دمشق ، وأطبائها ، ومدرسيها وأهل الدراية فيها . أما المحدث فطبيب مشهور ، ووزير مذكور . وأما الحديث فهو : « الدوافع التي تدفع إلى الجنايات ، والأمراض التي تسوق إلى الجرائم » :

وحديث كهذا ، فيه نظريات العلماء ، وتجارب الأطباء ، ونظرات المتفلسفين ، وفيه نقد لهذا المجتمع الضال بأبنائه ، ووصف لهؤلاء الأبناء النكوبين بعقولهم ، الناقصين في خلقتهم ؛ حديث كذا جدير بأن ينشر ، خليق بأن يلخص ويذاع .

بدأ المحاضر حديثه بالسؤال : لماذا يجب البحث في الدوافع المرضية في الجنايات والجرائم ؟ فذكر أن الأمم كلما مضت في الرقي الاجتماعي ، أمعنت النظر في العلل التي تصاب بها الأفراد ، وتؤثر في المجتمع ، لأن البشر لم يخلقوا ليكونوا مجرمين جناة ، وليس الشر هدفهم . فلا بد من علة تشوقهم للجريمة ، وتسوقهم إلى الجناية . فإذا عرفت هذه العلل ودرست ، ثم اتخذت الوسائل لمداواتها ، والوقاية منها ، والابتعاد عنها ، والشفاء منها ، قل الضرر عندئذ ، وخف الفساد .

لقد كانت دراسة الجنايات والجرائم في الزمن الخالي ، تتناول نتيجة العلة التي دفعت إلى الإجرام . أعني الجريمة نفسها ، وكانت لا تحفل بالعوامل النفسية ووصفها . وكان حكم الحاكم ينحصر في تعيين نوع الجرم ، وتقدير العقوبة التي تجب له ، أملاً بإصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج . فكان العقاب غرامة يخسرها الجاني ، أو زمناً يفصل فيه عن الناس ليحرم ما كان له مباحاً ، أو عذاباً يقترن بالسجن فيمنعه من العود إلى الجرم عودة أخرى ، أو قتلا يذهب به من هذه الدنيا ، حيث لا يصلح أن يكون فيها . وفي هذه الأحوال كلها كانت الجنايات تنتهي بقصاص وليس عداوة . فلما ارتقت معارف البشر ، ونالوا من الرقي طرفاً ، وتقدمت العلوم الاجتماعية ، وتناول الطب الشرعي والفلسفة الروحية درس هذه المسائل الدقيقة ، تبدلت نظرة ذوي الشرائع الاجتماعية ، إلى الجريمة . وأخذوا ينظرون إلى الحوادث نظرة تختلف عن النظرة الأولى . مقدرين الوجهة الاجتماعية ، والنفسية ، والأخلاقية . فغدت الجريمة مظهراً مفاجئاً لأمر نفسي ، تدفعه علل مرضية ، يجب وصفها ومنعها قبل ظهورها ، أو مداواتها والشفاء منها بعد ذلك . ومن ثم انتبهت البلاد الراقية إلى هذا ، فجعلت من السجون التي كانت مأوى البؤس والشقاء ، مشافي للإصلاح والمداواة ، لأن التهذيب أصلح للمجتمع من التعذيب .

إن الجنايات كأمراض الجسم ، لا تقع ما لم يتوفر عاملان . الأول : أحوال خاصة في الأفراد ، والثاني : الاستعداد في المجتمع . أما الأحوال الخاصة التي تسوق الأفراد إلى ارتكاب الجرائم ، فهي الدوافع المرضية التي تسيطر على المريض فتوجه أفكاره وتقيد إرادته ، وتدفع به إلى ارتكاب أعمال يراها القانون جريمة .

وإذا تكلمنا على هذه الدوافع ، فلا بد من أن يستفيض بحثنا فيها ، لمعرفة أسبابها وأعراضها ، وآثارها ونتائجها . ولكي نعلم علاقاتها بالقانون وصلتها به ، ونعلم بعد ذلك ، كيف ينظر القضاة إلى رجل مجرم ، كان مجنوناً ، أو معتوهاً ، أو أبله ، أو مريض العقل ؛ أينظرون إليه كما ينظر الطبيب الاجتماعي ، أو الفيلسوف أو العالم النفسي ، فيتناولونه بالإرشاد والإصلاح ، ويرسلونه إلى المستشفى ليبرأ ، أم يدفعون به إلى القصاص والتعذيب والقتل ؟

« ما هي الأسباب التي تدفع إلى ارتكاب الجريمة ؟ »

وإذا أمعنا النظر في أسباب الجريمة ، رأينا أن الإنسان يجرم ، إما خطأ ، كرجل رام أن يصطاد طيراً فأخطأ مرماه ، فصاب رجلاً ، أو لأمر لا حول له على رده ، كمن رأى شرفه ينتهك . أو عرضه يستباح ، أو حياته تهدد ، فهاج وماج ، فقتل . أو كان تحت تأثير غضب شديد ، أو هيجان بالغ ، أو انفعال نفسي ، غشي على عقله ، فلم يجد رادعاً يخفف هيجانه ، فاستيقظ

فيه حس الانتقام ، فأجرم . أو لجنون حدث فجأة ، ورافقه هذيان ، وصور وهمية ، ودوافع مرضية تدفعه للجناية . أو لمرض في العقل ، يجعل صاحبه شاذاً عن سائر الأفراد الأصحاء ، في إدراكه وشعوره ، وحسه . أما الأسباب الأولى ، فإنما يرتكب الإنسان فيها الجريمة تحت تأثير خاص أو ضرورة مجرمة . أما النوع الأخير ففيه الخطر كله . لأن الدوافع المرضية التي جعلناها موضع حديثنا ، لا تظهر لكل إنسان . والمصابون بها منتشرون في كل مكان ، ولأنها تسوق إلى الجريمة ، فيكون صاحبها ضحية المرض الذي فتك به ، وضحية الحاكم الذي حكم عليه ولم ينظر إلى مرضه . تُرى ما هي أسباب هذه الدوافع ؟

أسباب هذه الأمراض

ذكر علماء النفس أن الوراثة من الأسباب ذات الشأن التي تدفع للإجرام . واستدلوا على ذلك باكتشافات (ماندل) . لقانون الوراثة ، وتدقيقات (مورل) — أحد فلاسفة التربية — في الأمراض الذهنية .

وإلى جانب الوراثة ، ينبغي أن نذكر عوامل أخرى ، تستدعي المرض العقلي وتدفع إليه . كالجهد الذهني ، والإفراط في الشهوات ، وإدمان المسكرات والمخدرات ، وداء الزهري ، وسوء نمو الجسم إبان الطفولة . فهذه — كلها — أسباب منقصة للعقل ومضعفة له ، تجعله يقبل الأمراض ، وتجعل صاحبه مريض العقل . ولكن مَن هو مريضُ العقل ، الذي يقترف الجرائم بسبب مرضه وكيف نعرفه ؟

من هو مريض العقل ؟

مريض العقل هو ذو الانحراف عن الأنموذج الصحيح للإنسان . ويُعرف بفقدان التوازن بين مراكز الدماغ ، فيبدو لا انسجام بين تفكيره ، وعواطفه ، وإرادته ، وحركاته ، وأعماله . ومرضى العقول ، أنواع منوعة . يختلفون في الظاهر ، ولكنهم يتفقون في الباطن ؛ لأن لهم جميعاً نفساً واحدة مريضة ، فتوازنهم مختل ، وعزمهم مضطرب . وقد تجد فيهم ذا الحافظة القوية ، ولكنك تراه لا يستطيع أن يسخرها عند البحث في أمر أو التفكير فيه .

وقد ترى أحدهم لا يثبت في أمر ، ولا يقدر على عمل . فإذا بلوته ألفيته كل يوم في واد ؛ فهو شاذ الأحوال ، غريب الأفكار . وقد تلقى بينهم ذا الأحلام والأوهام والأميال ، الغارق في أوهامه وأحلامه ، لا يفارقها ، ويأنس بها . أو تجد الأناني ، ذا الأثرة البالغة ، المغتر بمواهبه ، المحتقر غيره ، أو تصادف ذا الأخلاق الفاسدة والآراء التي لا يقبلها عقل ولا مجتمع ولا دين .

فأناس كهؤلاء ، تسوقهم دوافعهم المرضية إلى الجريمة ، وتستحوذ عليهم ، فقد يقتلون أو يسرقون أو ينتهكون الأعراض . ولكن كيف يُساقون ، بل كيف تستحوذ الدوافع عليهم ؟

ما هو الاستحواذ olesession وكيف يكون ؟

تغزو العقلَ أفكارٌ وصورٌ مختلفات ؛ فيقبل بعضاً ويمانع في دخول بعض آخر . ولكنّ هذه الصور تعود قوية مرتكسة فإذا كانت الإرادة قوية أيضاً استطاع صاحبها طرد تلك الفِكَر ، وهذا يُسمى (الاستحواذ الطبيعي) لأنه لا يتحول إلى دافع مرضي . أما إذا ضَعُفَ العقل وكانت الإرادة ضعيفة ، غلبت الأفكارُ والصورُ الغازية ، وطردت الأفكارَ والصورَ السابقة ، واستحوذت على العقل وما فيه ، بعد عراك وألم روحي . وهذا يُسمّى (الاستحواذ المرضي) ، لأنه غير طبيعيّ . دخل فأثر فاستحوذ . وقد يستعبد هذا الاستحواذ الإرادة . وقد يقودُه إلى حيث يهلك . والإنسان يعلم ما يجري في نفسه ويعلم اضطراره إلى مساوقة تلك الآراء والصور ومسايرتها ، وارتكاب ما لا يرضاه وجدانه وهو يلبي ندائها ويطيعها ، ويخضع لها .

ويتصف الاستحواذ المرضي بصفات ثلاث :

١ — الصحو والنظر للحادث .

٢ — النزاع القوي بين الأفكار السابقة والصور اللاحقة . ٣ — العذاب الروحي في أثناء ذلك .

ويُلازم الدوافع المرضية أمران لا يُفارقانها . الأول : عمل خاص يصدر عن مركز منعزل عن الذهن دون اشتراك القوة البرهانية Reasonning ، والثاني عجز مؤقت في الإرادة الحاكمة Self-Control .

ولكن متى يظهر سلطان الاستحواذ ويبدو أمره ؟

أوقات الاستحواذ

ويظهر سلطان الاستحواذ عند شدة الغضب ، وتنهك القوى العقلية بالتفكير الدائم الطويل ، وعند الإفراط في الشهوات والملاذ . أو عند إدمان المسكرات والمخدرات ، كالحشيش والقوقائين والمورفين ، وعند قراءة الروايات الجنائية التي تستولي على العقل بحادثاتها ، وتوقظ حس الإجرام ، أو إثر نزف دموي في النساء . وقد ساق المحدث أمثلة شتى نذكر منها أن امرأة تخطت الخامسة والثلاثين من عمرها . أسقطت جنينها مرات . وصحب الإسقاط نزف دموي نهك قوتها ، وكانت أمها تدمن الخمر ، وكان أبوها مصابا بالزهري ، وجدها قد فلج في آخر عمره . زوجها قصاب شديد البأس ، فكانت تساعده على تشريح اللحوم وتقطيعها ، وفي ذات يوم ظهرت دوافع الجريمة فيها ، فبينما كانت تقطع اللحم شعرت بميل قوي إلى قتل رجل كان أمامها ، وهاجت مشاعرها ، واستحوذت فكرة القتل عليها وألحت بها . ولكن عقلها حاول صد هذه الفكرة فلم يفلح . فلما عجزت عن المقاومة وأشهرت المدية وهمت بالقتل ، أخذت تجهش بالبكاء ، ثم سقطت على الأرض تنادي : أدركوني ، أبعدوه عني ، كيلا أرتكب جناية . . !

وحدث في (حلب) أن معلما ضعيف العقل ، هام بتلميذ له . فتدلل التلميذ وتغنج وتحرج المعلم في الهيام به وحبه ، فاستعطفه ، وذل له ، كي ينال منه ما يشتهي ، فأبى التلميذ عليه ما أراد . وحدث أن نقل المعلم إلى قرية بعيدة ، فكان يرد حلب كل أسبوع ليرى محبوبه وغلامه . فلما يئس من عطفه ، وخشي أن يتعلق به غيره أو يتمتع به سولت له نفسه أن يقتله [1] . وفي ساعة من ساعات جنونه ، استحوذت فكرة القتل عليه ، فترصده حتى مر ، وطعنه طعنات في قلبه ، فخر صريعا ، وعند ما قبض عليه أقر بما فعل ، وطلب أن يقتل فداء عنه .

وأشباه هذه الحوادث التي تجري في حياة المجتمع سببها مرض العقل ، ووجود الدوافع المرضية واستحواذها على المريض . وقد تسوقه هذه الدوافع إلى السرقة ، ولو لم يكن ذا حاجة ، أو إلى استباحة أعراض الناس ، ولو كان محصنا . أو إلى حرق الدور ولو كان ذا دور وقصور . وهم ، جميعا ، يرتكبون ما يرتكبون ، وهم يعلمون حقارته ودناءته ، ولكنهم يساقون ، ثم يستسلمون ، ويغلبون على أمرهم ، للأسباب التي مر ذكرها وراثية كانت أم مرضية أم كسبية .

نتائج الاستحواذ

إن مظاهر الاستحواذ تكون موقتة ، أو دائمة ، أو متقطعة . فتظهر يوما وتختفي في يوم آخر . يقول (ما غنام) : إن هذه المظاهر موقتة ، ولكنها لتداخلها في حياة المصاب الذهنية لا تفارقه .

فمن نتائج الاستحواذ (المالنخوليا) Mélencolie ، وما يصاحبها من حالات . فالمصاب بها يتعذب روحه العذاب الأشد من الوهم الذي يستولي عليه ، لخطيئة ارتكبها أو هفوة تعمدها ، ثم اعتقد أن لا سبيل للتكفير عنها ، أو لتذكره ما اقترفته يداه من مظالم وآثام ، فيطلب الخلاص مما يحس فيرغب في الانتحار . أو تستولي عليه أفكار وأوهام تدفعه إلى سلوك طرق شتى غريبة ، يخيل إليه معها أن أقاربه سيقاصصونه أو يعذبونه أو يطردونه ، أو يرى أن زوجه ستتألم لأمر ما فيفضل أن يقتلها ليخلصها من العذاب .

وكذلك ينمو في المصابين بمرض (البارانويا) أو الشذوذ العقلي والخلقي ، عداوة وكراهة ونفور لأشخاص يظنون فيهم السوء . فيخيل إليهم أن أولئك يزاحمونهم في أعمالهم ، ويحاولون إقصاءهم عن مناهجهم . وقد يخيل إليهم أن أصواتا قدسية تأتيهم فيدعي بعضهم النبوة ويدعو بعضهم إلى الإرشاد ، ويزعم بعضهم أنهم يغفرون الذنوب . وقد يقولون إن الشريعة تحرم قبول الناصب الرفيعة ، أو يتصدون لنقد نظام المجتمع وينسبونه للفساد . ومن هذا النوع من يتظاهر بالعلم ، وأنه فوق كل مقام ،

(١) هذا يشبه ذلك الجن الذي ذبح محبوبته كي لا يتمتع أحد غيره بها .

وأنه الرجل الذى لا شبيه له ولا نظير ، فإذا أنكر شيئاً فدعواه الحق ، ومن خالفه فأحمق أو جاهل . ومنهم من يحب العظمة حباً جماً ، فيتعاظم على الخلق ، أو يعتقد أنه الكاتب الفذّ الذى لم يكتب مثله أحد ، فهؤلاء كلهم مرضى عقول ، تسوقهم دوافعهم المرضيّة إلى القتل أو الشر أو السرقة أو الحقد .

وكذلك يكون الأمر فى أصحاب (العته الشيخوخى) وفى الصرعى ، لأن المصاب بالصرع يظلّ ، بعد (النوبة) فى حالة يمازجها غموض وتشويش وهذيان ، تجعل الدوافع أثناء هذه الحال قادرة على سوق المريض إلى ارتكاب القتل والانتحار .

العوامل النفسيّة التى تنتهى بالاستحواذ

ليست العوامل النفسيّة التى تنتهى بالاستحواذ ، أو الدوافع المرضيّة نوعاً واحداً ، بل هى سلسلة طويلة تختلف حلقاتها ، تبدأ بالنبوغ الخارق وتنتهى بالبلادة الشديدة . ولذلك يجب تبيان أهم الأقسام الموجودة ، لمعرفة ما يتعلّق بالقانون منها .

١ — العته التام : وهو حال من كان مُشوّه العقل .

٢ — البَلَه : وهو حال من كانت فيه بعض القوى العقلية غير كاملة النمو .

٣ — الضعف العقلى : وهو يدل على أن بعض القوى العقلية قادرة على الوصول إلى درجة معيّنة من النمو . والمصابون بهذا الضعف ، مختلفو القدرة على الاكتسابات الذهنية ، فمنهم من يكون ضعيفاً فى البرهان ، أو فى التلخيص ، أو فى الحفظ ، أو فى جمع الأفكار وتأليفها ، ولكنهم جميعاً يتجلى فيهم اختلاف القوى العقلية وعدم تساوى نموّها .

أما المعتوهون فلا يُسألون عما يفعلون ؛ لأن عقلهم لا يدرك الأشياء ، ولا تجد صلة بين أنفسهم وبين العالم الخارجى ، ولا تؤثر فيهم التربية ولا التعليم وإنما تقودهم الغريزة Instinct .

أما البلهاء فهم أرقى عقلا ممن سبقهم . فقد ينجح الإنسان فى تعليمهم ، ويغلب على الأبله ضعف اللسان ، ونقص الألفاظ ، تدل تعابيره على نقص مداركه ، وقد يظهر فيه ميل للغدر والشر والاستمناء والجبن ... وهذه أشياء تسوق إلى الجرائم كالسرقة والانتحار .

أما أصحاب الضعف العقلى ، فهؤلاء ذوو الشأن فى نظر علم الاجتماع والقانون . لأن عددهم وافر . يعيشون بيننا ، فنجالسهم ونحادثهم ونشاركهم فى الأعمال . لا نراعى حركاتهم ولا أحوالهم . وهؤلاء يقفون فى نموّهم العقلى عند درجة لا يتعدّونها . فالذى بلغ العشرين من عمره ، يحاكى صبياً ذا خمس سنوات . وتغلب عليهم الحماقة ، وإذا كان فيهم من يميز الحق من الباطل ، فإن ضعفه يحول دون ميله إلى الباطل . وهم لا يصغون إلى صوت الضمير . لما يغدون فريسة الشهوات واللذاذات . وتعظم الأثرة فيهم ، ويحتقرون الناس . وهذا وذاك يسوقانهم إلى الحقد والحسد واللجاج ، وهذه علل توقظ فيهم الأثرة ، وتسوقهم إلى المناكسة والمشاكسة والشك والريبة . ويبغضون الناس والأصدقاء والأقرباء . ومن الصفات البارزة فى هؤلاء (الوهلية Shontannée) وهى حالة تحدث فجأة بغير اختيار ؛ فهم ينفذون رغباتهم دون تعقل أو روية .

والآن وقد بحثنا فى هؤلاء المرضى بحثاً مستفيضاً . نتساءل : ما هى آراء الطب فى مسؤولية مريض العقل !

كانت الهيئة الاجتماعيّة فى الأزمان الخالية تنظر إلى الجناية نظرة فيها قسوة ، فتسوق الجانى إلى القتل . حتى جاء الرومان فميّزوا ذا العقل السليم من ذى العقل المريض ، ولكن صَعُب عليهم تعيين الشرط الذى يستدعى فساد العقل فقد يعلم مريض العقل أن ما أقدم عليه محرّم لا يجوز له فعله ، ومع ذلك فهو يرتكب الجناية ، مسيّراً لا حول له .

على أن هذا لا يدفع على جعل مريض العقل مسؤولاً عن عمله . يؤيد ذلك الأدلة المدوّنة فى كتب الطب الشرعى . ولكنّ بعض الحكام لا يزال معرضاً عن قبول المبادىء التى وضعها علماء (الانتربولوجيا) وعلماء الفلسفة العقلية ، ويصرّون على إنزال العقاب بالجانى ، لأن القتل أنفى للقتل .

أما مسئولية مريض العقل فى فترة الصحو ، فمختلف فيها . فالمشرّعون Juriste ، وعلماء الجنايات القدامى يقرون قسما من المسئولية ، تعادل ما فى عقله من قسم صحيح ،

حول عظمة الرسول

كتب الكاتبون فى عظمة الرسول ما كتبوا فلم يبلغوا إلا بعض قدره صلى الله عليه وسلم ، وإنما يصف كل من ذلك ما يطيق .

فن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بأبطال التاريخ وخرج من المقارنة بأنه صلوات الله عليه بطل الأبطال فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل لأنه أوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم أن الرسول والبطل من قبيل واحد ؛ وليس كذلك ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول . فرسالة الرسول صلوات الله عليه خرّجت الأبطال وربّت عظماء الرجال ، بل لم يعرف التاريخ عظمة فى أبطاله تضارع أو تقارب عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم . وأين فى التاريخ — غير تاريخ الرسالة — من سما بنفسه عن الدنيا ومن الهوى كما سما أصحاب الرسول ؟

بل أين — إلا فى تاريخ الإسلام — من دانت له الدنيا بالفعل فأعرض عنها وعن زخرفها غير معتزل فى جبل ولا مترهب فى صومعة ، بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا إياهم بالحق والحزم ، من غير أن يرزأهم من دنياهم إلا بقدر القوت ؟ إن بطولة أبطال التاريخ تتضاءل إذا قيست ببطولة أصحاب الرسول ، فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول وبينهم وبين أصحابه من البعد ما بين أصحابه وبينه صلوات الله عليه .

وفى الناس من التمس فى العبقرية وجه الثناء على الرسول وتقديره . ولو جعله عبقرى العباقرة ما وفى بل ما زاد على أن جعله فردا من نوع متجدد وإن يكن نوعاً نادرا فى الناس . فالذى يثنى بالعبقرية كالذى يثنى بالبطولة ، كل قد غفل عن أن العبقريين والأبطال يوجدون فى كل زمان ، ولا كذلك الأنبياء والرسل ، بله أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله عليه .

ثم فى الناس من جاوز ذلك فزعم أنه يثنى على الرسول حين ينسب إليه ما أجرى الله على يديه ، أو ما أوحاه الله إليه ، كأن ذلك من عمله ، أو كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك أعظم العظماء . كأنه صلى الله عليه وسلم لا يكون أعظم العظماء إلا إذا كانت الرسالة من عنده أو كان وحيها من وحى قلبه وفكره ، كالذى يجرى على قلوب أهل الإصلاح والفكر وعلى عقولهم . وليس هؤلاء ولا أولئك مهما ارتقوا ببالغى أدنى مراتب الرسالة فى أنفسهم أو فى أثرها فى الناس .

إن كل ثناء على الرسول بما ينتقص من رسالته جهل بالرسول وانتقاص له . وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الإلهى الحقيق المعروف فى الأديان ، ويدنيها من المعنى الإنسانى المجازى المعروف فى كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد فى النهاية للتحلل من الدين .

والمسألة ليست مسألة رغبة أو رأى ، ولكن مسألة حقيقة وواقع . فالرسالة بالمعنى الدينى ثابتة للنبى صلوات الله عليه ليس فى هذا شك ، وكل ما كان له صلى الله عليه وسلم من عظمة فهو من رسالته وإليها ليس فى هذا شك أيضا ، فقد لبث فى الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم .

غير أن علماء النفس المحدثين وعلماء الجنايات أشباه (مافنمام) و (لومبروزو) و (غاروفالو) و (بروفه) و (مانوفرى) و (لاقاسان) ؛ يقولون إن الجانى يكون تحت تأثير عاملين : الأول (ذاتى) ، والثانى (خارجى) فلا قيمة لتثنية المسئولية فى مريض العقل .

— النتيجة —

والنتيجة التى ينتهى بها البحث هى أن الطبيب الشرعى إذا دُعى لإعطاء رأيه الفنى فى جناية فعليه أن ينظر إلى الجناية والجانى ، فيعين إذا كان الجانى مجنونا أو مريض العقل ، أو كانت الجناية بسائق دوافع مرضية . فإن كانت وكان ، كذلك ، فنعلم عندئذ أنه كان مجبرا على ارتكاب ما ارتكب . فمن كان هذا شأنه ، لا يعد مسئولا أمام القانون عن جريمته لأنه مريض ، يجب أن يعنى به ويداوى ، فقصاصهم ظلم ، وليس على المريض من حرج .

وبعد ، فهذا ملخص الحديث الذى ارتجله معالى الدكتور عبد الرحمن الكيالى ، وزير العدل ، وإنه لحديث عجيب طريف . حرىّ بأن أصطاده وأقدمه لقرائى . فراس

ولما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم أعم الرسالات وأتمها كان هو صلوات الله عليه أعظم الرسل إذ أداها وأكمل البشر ، وهذا معنى يضيق عنه أن يقال أعظم العظماء .

لقد لبث صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عمرا في الناس فكانوا يثنون عليه كما يثنون على فاضل فيهم . فلما أكرمه الله بالرسالة وأكرم الخلق به تطور خلقا آخر وإنسانا آخر ، وتطورت أمته به أمة أخرى في الأمم ، وتحقق للإنسانية مثلها المعلى الأعلى فيه وفي أمته في عهده .

إن من يعرف معنى رسالة الرسل ولم يطرف كاف من حقيقتها لا يرى فوقها لإنسان مرتقى ولا يخطر له أن وراءها في مجال العظمة وراء . لكن الألفة حالت بين الناس في هذا العصر الحديث وبين حقيقة تقديرها كما تحول الألفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم في الشمس والقمر والماء والشجر والسمع والبصر وسائر ما أنعم الله عليهم به في الفطرة ومظاهرها وآياتها .

إن هذه الفطرة مظهر قدرة الله سبحانه وعظمته وفيض حكمته ورحمته ، فهي منه سبحانه على الناس نعمة ، وهي على وجوده سبحانه دليل ليس وراءه دليل . فما فيها من سر يبهر إنما مرده إليه سبحانه ، وما فيها من عظمة تقهر إنما مستمدها منه سبحانه . فعظمة العظيم في الوجود مرجعها إلى موجد الوجود . هو أوجد وهو أفاض على كل موجود ما أفاض من عظمة بما أودع فيه من سر ، وبما فطره عليه من سنن جلت عن أن يغيرها أو يبدلها مخلوق في الأرض أو في السماء . فإذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالإنسان إلى فطرة الإنسان ، وتصورت أن فاطر الفطرة سبحانه قد اختص واحدا من الناس بوحي مباشر ورسالة إلى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن التي فطر عليها أرواحهم وناط بها وباتباعها عزتهم وصلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الأخرى — إذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لإنسان رسول على هذه الصورة ، أيقنت أن ليس يداني مقامه في الناس أحد وإن عظم ، وأدركت عظيم رحمة الله ، وعظيم نعمته على البشر في ذلك الرسول .

لكن مجرد إحاطة الإنسان بسنن الله في النفس والروح والاجتماع على يد رسول لا يكفي ، فقد يخطئ الناس الفهم والتطبيق . فكان من حكمة الله ورحمته أن جعل رسالة الرسل تشمل شقي التبليغ : تشمل التبليغ النظري على لسان الرسول ، والتبليغ العملي بالحياة العملية للرسول .

فانظر إلى النبي أو الرسول — أي نبي من الأنبياء ، وأي رسول من الرسل — ما أثقل ما حمل وما أعظمه ! كلفه الله بتبليغ دينه للناس على الوجه الحق ، ثم كلفه تفسيره بالعمل بالدين كما أنزل ، لا يحيد عنه ولا يخطئ ، لأن خطأ منه ليس كخطأ من أحد . فالخطأ العمد منه في القول أو العمل كذب على الله ، والخطأ غير العمد إن وقع منه لا يقر عليه بل ينبهه الله إليه ، ويبلغ هو التنبيه إلى الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة ، وحتى لا يلتبس على الناس باطل بحق في دين الله .

ومن هنا يمكن اتخاذ معايير عدة لتقدير عظمة الأنبياء والرسل ، أحدها استنباطي يتعلق بما ينبغي أن يكون عليه النبي أو الرسول حتى يصلح لتلقي الوحي من الله سبحانه ، والباقي معايير تكاد تكون كمية في طبيعتها لأنها تتعلق بمقدار ما بلغ الرسول من قول ، ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل ، ومقدار ما لاقى في سبيل التبليغ من أذى ، ومقدار صبره على الأذى في سبيل الله ، ومقدار تعدد نواحي الحياة التي جاء الدين ليشرع لها وليرقى بها ، ولينظمها طبق سنن الله في الفطرة . ثم هناك معيار إيجابي آخر ما هو أصاب الرسول من نجاح في رسالته كما يبدو من آثارها في الناس .

فهذه معايير عدة صالحة لأن تكون حسابية كما ترى . وتطبيق أي هذه المعايير يحتاج من غير شك إلى إحاطة وجهد وتوفيق . لكننا لسنا في حاجة إلى التطبيق التفصيلي لتبيين أن محمد بن عبد الله صلوات الله عليه هو أعظم الرسل حقا وأكمل البشر . فرسالته أعم الرسالات وأرقاها لم تدع ناحية من نواحي الحياة الإنسانية للفرد والجماعة إلا شملتها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات الله عليه في نحو ثلاث وعشرين سنة أحسن تبليغ وأبينه وأتمه ،

ليلة ميلاد الرسول

أطلت على الأيام فالكون مشرق ونور الهدى فى أفقه متألق

فيا ليلة فيها الهدى لاح نوره فأحيا الأماق فيضه المتدفق

تجاوزت مقياس الجمال فلم تطق عروس القوافى فى معانيك تنطق

وأى جمال عبقرى حويته له الملأ العلوى يرنو فيعشق!

تود السما لو طاف فيها جماله وترشف فيض الحسن منه وتنشق

جمال على الأزمان قد فاح نشره ولاح على الأجيال منه التألق

جمال مدى الأحقاب زاد جدة فلا الدهر يبليه ولا هو يخلق

جمال بأسرار النبوة حافل فنى خاطر الدنيا إليه تشوق

فيا ليلة زهى بأكرم مولد أطلعته تهفو القلوب وتخفق!

يتيمة دهر أنت، يا ليلة التى بنور بقيم بالمروءات ممرق؟

وهل كان فى دنيا الملى كمحمد وليد به غر اللاتك تحدق!

هو المصطفى على الكون نفحة ترف بروح المكرمات وتعبق

وهب النسيم العذب يحمل نشره زكيا أرياه القلوب تصفق

وفاض على الدنيا بهاء جماله فأحيا مغانيها رواء ورونق

فى كل نجد من رواء خميلة وفى كل وهد جدول يترقرق

وفى كل غصن طائر مترنم طروب الأغانى، أو حمام مطوق

وفى كل فج من سناء منارة بلألائها ثوب الدجى يتمزق

فما البيد إلا لجة من أشعة وما مكة إلا فى لج الأشعة زورق!

تسنمت يا أم القرى ذروة العلى فمجدك محبوب، وعزك يونق

لقى فاخر الشرق البلاد بنوره فنورك بالفيض الإلهى مشرق

حباك فرد ليس فى الدهر مثله عظيم له المجد الأثيل مطوق

إذا مثل الأجيال من آل يعرب لديه، فكل خاشع الطرف مطرق

أتى المصطفى الهادى وأبناء يعرب عليهم ظلام الجاهلية مطبق

يعانون ذلا، لا يطاق، وفاقة فبعضهم عات، وآخر مملق

فأرسل فيهم أحمد من رشاده رشاداً، به الفوز المبين معلق

وأشرق عليهم من هداه هداية ترى فتجتاح الضلال وتمحق

وأولاهم فيض التراحم والندى فى كل ربع روعة وتألق

محا بينهم جرثومة البغض والقلى فبعض لبعض خافق القلب شيق

وكون منهم أمة، أى أمة لهيبتها الصيد الجبابر تصعق

بالقول وبالعمل. فالقرآن الكريم هو ما هو ليس للنبى منه حرف ولم يسقط منه حرفا. والسنة الكريمة هى ما هى تفسير القرآن كلام الله تفسير صدق بالقول والعمل. وأثر الإسلام فى الناس فى عهد النبى وفى الإنسانية من بعده لا يزال يعجب منه العاجبون

إن من العجب العجاب أن ينهض إنسان أيا كان بكل ما فى الإسلام من تكاليف وتعاليم وتشريع. إن الإنسانية كلها أفرادا وأمما لم تستطع نهوضا بكل ما كلفها الإسلام بعد الحقبة الأولى التى طبق فيها الإسلام أتم تطبيق فى نصفها الأول فى عهد الرسول، وأقرب تطبيق فى نصفها الثانى فى عهد الخلافة الراشدة، فكيف استطاع محمد صلوات الله عليه أن ينهض بعبء الإسلام كله فى نفسه وفى الناس حتى لم تجد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وصفا له إلا قولها: «كان عمله ديمة» و «كان خلقه القرآن»؟ أشهد أن محمد بن عبد الله هو رسول الله حقا إذ كيف يقوى على سيرته صلى الله عليه وسلم إلا رسول، ورسول محص الله فطرته ومحصها وأمدها واستخلصها سبحانه من بين البشرية كلها طبق سننه فى الاستخلاص والإعداد، حتى إذا آن الأوان وجد فى البشر إنسان واحد كان هو وحده الصالح لتلقى الرسالة العامة الكاملة، وقوى هو على العمل بها، أصولها وفروعها، فى نفسه وفى الناس.

هذا هو القياس الحق لعظمة الرسول صلوات الله عليه: أنه وحده نهض بما كلفت به الإنسانية قاطبة فلم تستطعه كله، وتفرق ما استطاعه صلى الله عليه وسلم فى الناس أجمعين ينهضون به جملة إن استطاعوا، ويتأسى التأسى به فى ناحية يلتزمها فيصبح فى الناس مثلا من أمثلة الكمال.

وبعبارة أخرى إن سنن الله سبحانه التى يتحقق بها الكمال الإنسانى قد تحققت فيه صلوات الله عليه فصارت حقيقة واقعة فى الكون، مجتمعة فى فرد، ومنتشرة فى أمة، وصار ذلك الفرد هو المثل العملى الأعلى للإنسانية، لا يمكن أن يبلغه الناس على مر الزمان وإن اجتهدوا، ولكنهم يقربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا.

محمد أحمد الغمراوى

ذكرى المولد

هيهات يحسن نعتاً فيك إنسانُ　　　عى البيان وحارت فيك أذهان
قد كان للقول ميدان نصول به　　　في كل ضرب من الإبداع فرسان
فما يقول امرؤ يبغي الثناء وقد　　　أثنى عليك بمحض الحمد فرقان
عذر الأديب على الإسفاف أن له　　　وقد كملت شفيعا وهو إتقان
فكنت كالنور لا يخفى على بصر　　　لكنما سره في الذهن حسبان
تفرق الناس فيما جئتهم شيعاً　　　وكلهم نا كس للرأس حيران
كم آية لك في الأسماع مشرقة　　　كأن سامعها المأخوذ نشوان
شمائل كن من طيب يضمن كما　　　يضوع في جنبات الروض ريحان
غيظ الحسود لآيات أتيت بها　　　وميمت الغيظ في الحساد إحسان
فجاحديك عن جهل ومعترف　　　بالحق والناس أصناف وألوان
وما يضير شعاع الشمس إن جحدت
أنوارها من عماء الناس عميان
شجا لساة قريش ما منيت به　　　فدمهن على الحدين هتان
يبكين يتمك من عطف ومرحمة　　　علما بأن يتيم القوم قلبان

وهل درين بأن الدهر أشرفه　　　لليتم منتسب باليتم مزدان
لم يغل أثمان تيجان الملوك سوى　　　يتم اللآلى، إن اليتم أثمان
ويرفع الله أيتاما ذرى شرف　　　تضاءل النجم عنها وهو خزيان
شعبت صدع صدور طالما نغلت　　　به من الحسد المذموم ديدان
نصرت كل هضيم وانتصفت له　　　من ظالم فنعمت في الأمن أجفان
خفضت جنحاً لمظلوم فلاذ به　　　كما تلوذ بجنح الأم ولدان
كم عن عبد يهدي الدين وارتطمت
ذلية في مهاوي الكفر تيجان
أشهرت سيفاً على الباغين تنذرهم　　　وخير ما منع الطغيان طغيان
فأصبح القوم في صف سواسية　　　وليس في الناس أحرار وعبدان
بعثتها صرخـــة لله داوية　　　أصغت لها من ضمير القوم آذان
أسمعت من كان في آذانه صمم　　　فهب ذو وقر وارتاع غفلان
أتيت والناس أنعام مشردة　　　عماية وصدور القوم ركان
فما القرابة عن جهل عاتية　　　حمى القريب وما للخلق أركان
وكل حل على الحلان جبار　　　وكل جار على الجيران ثعبان
هتكت غيهب ليل طالما خبطت　　　به شيوخ وضلت فيه رهبان
تكشف الليل عن فجر طلعت به　　　فحاد عن غمرات الجهل حيران
حررت قومك من أغلال شقوتهم　　　بنعمة العلم إن الجهل سجّان
وكم من الناس في الأحياء تحسبهم
لكنهم في جمود العقل أوثان
ورب حر سجين في شقاوته　　　إن الشقاوة أغلال وأرسان
شدوت باسمك لما هاجني طرب　　　وعادة الطير إنشاد وألحان
شاعت بنفسي من ذكراك أغنية
كأنني في حميا الكأس سكران
تهيجني ذكريات منك ما فتئت　　　كأنها في حنايا الصدر نيران
وأعذب اللحن ما غناه ذو شجن
هاجت بلابله في الليل أشجان
حملت قلبي قربانا إليك وما　　　لدى اليتيم إلا القلب قربان
فاقبل هدية من وافاك معتذرا　　　عن قلة إن خير العرف غفران

دمشق　　　عدنان مردم

مشوق سبيل المجد شداه فيلق　　　يسير إلى العلياء، يتلوه فيلق
أذاوا صعاب الدهر في عزماتهم　　　بكل حسام بالمنية ينطق!
فصولاتهم فيها المنون صواخب　　　وأسيافهم موت إذا هي تمشق
لقد سبقوا الأجيال عزا ورفعة　　　فهم في ميادين المفاخر سبق
وقد أدركوا في ظل راية أحمد　　　مراماً بعيداً في العلا ليس يلحق
ودك صروح المشركين سيوفهم　　　وداهمهم منها المنون فأشفقوا
ومن يرخص النفس العزيزة للعلى　　　ينل قصده بالعز وهو الموفق
ومن يتبع نهج المساواة والإخا　　　فذلك أولى بالحياة، وأليق
فيا خالقاً من أمة الضاد أمة　　　عليها لواء العبقرية يخفق
ثمرت أبناء الجزيرة للعلى　　　ففي كل أفق كوكب يتألق
سننت لهم شرعاً به يدرك المنى　　　وينمو به غصن الرجاء ويورق
وعلمتهم درس الحياة وسرها　　　ووفقتهم في نهجها فتوفقوا
وأنطقتهم آي الكتاب، وإنه　　　حنان وعدل، بل هدى وترفق
سلاماً أعظم الدهر ما لاح شارق　　　وما هب روح بالهداية يعبق
مخلد ذكراك الزمان، وإنها　　　لأحرى بما فوق الخلود وأليق

الكاظمية — العراق　　　علي جليل الوردي

من وحى المولد النبوى :

مولد النـــــور

بين جنح الضلال والنزعاتِ   واختلاف الآراء والنزعات
والضمير الضمير يعسف فى القيـــد وقيد الضمير شرّ الصفات
وحياة العباد فى كل صوب   ظلمات تضل فى ظلمات
والنفوس الكرام ، ياهول شعرى !
قلّبت خــدها على العتبات
بينما القوم فى ضلالٍ عقيم   والدجى جاسم على الربوات
لاح فى الأفق من سنا الله نور
خالد سحره نبيـــل السمات
غمر الأرض والسما ضياء   وسرى فى الحياة روح الحياة
أزهر الجدب يوم لاح وعمّت
نعمة الله هاته الفــلوات
وجرى فى الوجود روح من الخــير بشير بكل خير مواتى
بعد ما كانت الحيــاة رياء   وضمير الحياة عبد الطغاة
بدّد الله ما بنى الجهل دهراً   مرسلا بالهدى نبيّ الهداة
صادق القول والوفاء كريماً   عربياً مبــارك الغدوات

....

أنا عبد يقدم الروح شعراً   طاهر الحب طاهر النفحات
يتجلى الإيمان فيه نشيداً   هل رأيت الإيمان فى النغمات
صغته من سناك يا باعث النو   ر يضىء النفوس والنزعات
ليتنى أستطيع أن أركب الرو   ح إلى عالم وضىء الصفات
عالم الخلد حيث ألقاك نوراً   ينشر الهدى فى جميع الجهات
من لهذا النبى والأمر يسرى   بين شر الهوى وشر الجناة
من له والدجى منيخ عليه   والأمانى تغيض فى الجنبات
عجباً لم يرع ولم يرهب القو   م ولكن مضى شديد الثبات
ومضت حوله نفوس كرام   طهرت روحها من النزعات
بارك الله فى القليل وخير   من كثير مبارك الغايات
وإذا الله رام نصراً لقوم   بلغوا النصر من جبين الطغاة
وجرى بينهم من الله هدْى   يتغنى بنوره كل آت
النبى الكريم يجهد فى الـ   بر ويطوى الفلاة تلو الفلاة
ساعياً والهدى يضىء حواليـ   ـه ويرعاه خالق الجنبات
هاجر الحق فى ركابك لما   بارك الله تلكمو الخطوات
ساعة خلدت على الدهر معنى   خلد الدهر طيب الثمرات
سطعت شمسه بنور جديد   وتبدّت تختال فى الصفحات

....

قــد رموه بكل شرّ   عات ورماهم بآية البينات
عجباً مالهم يخرون صرعى   أين فرسانهم شديدو القناة
مالهم روّعوا فولوا فرارا   وتولت فلولهم خاسرات
هل رأيت البيان يقهر جيشاً   إن قتل الأحرار فى الكلمات
كلمات تصول فيهم وتسرى   سريان الحسام فى الهامات
واضحات كالشمس فى صحوة الظهـ
ـر تبيد الشكوك بالبينات
تلك والله آية الآيات   من سنا الله خالق المعجزات
كم مريض يذوب فى قسوة الدا
ء وفى لجه الجوى والشكاة
أعلات النبى راحت تواسيـ   ـه فكان الشفاء فى الأعلات
لمست كفه الحطام فأحيت   جنبات الحطام فى لمسات
يا رسول الإله عبدك شاك   موجع هدّه السقام العاتى
كلما طالع الحياة ابتساماً   عاقبت قلبه على البسمات
روحه مفعم بكل نبيل   من كريم الصفات والغايات
شاعر روحه يذوب مع اللحـ
ـن كذوب القلوب فى النظرات
ود لو يستطيع أن يركب الرو
ح إلى عالم وراء الحياة
عالم الخلد حيث يلقاك نوراً
ينشر الهدى فى جميع الجهات

الاسكندرية   حسين محمود البشبيشى

صـــــلوات فكر

فى محاريب الطبيعـــة !

نظرتان : عرفتُ فى نفسى نظرتين إلى الطبيعة : حيناً أنظرُها كراصدٍ صورةً فنيةً كبيرة الحجم جداً ، فهو يبتعدُ عنها ليأخذها وضعاً تبدو فيه وحدةً مجتمعةً متناسقة واضحة الخطوط والمعانى التى أرادها راسمُها ، وتترك فى النفس أثراً واحداً رهيبَ الوحى .. !

وحيناً أنظرها من قُربٍ ينطمس معه وجهُها العام وتختفى وحدتُها الجامعة ، وتبـــدو أجزاؤها وأصباغها المفصّلة المـبعثرة .

الأولى أتعمدها حين أريد إدراك معناها العامّ بفكرة واحدة ... وهى نظرةٌ تحرك فى نفسى نوازعَ الشّعر والوجدان والاستغراق الحالم والإيمان المستسلم والشعور بالضآلة بين مجرات الكون ورحابه وأبعاده اللانهائية التى توحى إلى العقل بالصمت وترك الثرثرة ... والثانية أعمدُ إليها حين أريد أخذ المبادىء والأبجديات ودراسةَ المشكلات التى أجدها فى صفحاتها لأملأ بهـا أو عيتى ، ثم أنطقُ وأتحدث وأثرثر لأثبتَ وجودى .. !

وهى نظرة تبعث فى نفسى كفاية العلم والعمل والإحساس بالمادية الإنسانية التى تؤهل الإنسان وتشجعه على أن يجلس بين يدىْ بارىء الطبيعة كتلميذ بين يدى أستاذه ... فلهُ الحقّ فى المناقشة والاستفسار والاقتراح ! وله الفخر والزهو أن يكون فكرُهُ قد سما حتى نفذ إلى بعض أسرار يد الله فى الصنعة ! وله الجرأة أن يمدّ يدَه إلى مصانع الخالق فينقلَ شيئاً من مكانه ، ويُزاوجَ بين شىءٍ وشىءٍ ، ويَفصلَ بين سرٍ وسرٍ ، ويحاول فتح ما يجده من الأسداد والأغلاق ...

وإنى لجدُّ حريصٍ على أن يظل عقلى وقلبى دُولةً بين هاتين النظرتين ...

وإنى لآمرُ من هذه لتلك ومن تلك لهذه ؛ حتى لا تأخذنى الأولى إلى تعطيل قواى ، والشعور بالعجز المطلق .. ولا تأخذنى الثانية إلى الغرور والادعاء ونسيان موضعى الحقير من الكون ومصيرى المجهول إلى ظلمات الفناء !

قوى هائلة : إذا تخيلتَ عُباب البحر بموجه وقاعه حتى يصل إلى سطحه فى طرفة عين ... وإذا تخيلتَ جوفَ البركان يمور مافيه ويضطربُ بحممٍ وسموم وجحيم وجحيم ... وإذا تخيلت اندفاع الريح فى إعصارٍ مجنون يقفز من قمة جبل إلى أخرى ، ويكتسح الوديان والسهول ويجوس المراعى ويقتلع الشجر ويهدم الدورَ فى خطفة صاعقة ... وإذا تخيلت سرعة الشموس والنجوم الكبرى فى دورانها التى يكاد يأخذ الفكر الراصد .. وإذا تأملت أن العالم ملىء بهذه الأهوال ، التى لا يقبل الجهد البشرى بتحملها ؛ لأنه ابن الأرض التى يسير فيها كل شىء بميزان هيّن رفيق تلتقى فيه القوى متناسبةً متوازنةً ... وإذا تخيلت سكان العوالم الجبارة الذين لابد أن يكونوا من القوة والسطوة بحيث تكون هــذه الأهوال مراكبهم ومضاجعهم ... وإذا تيقنت أنه لابد أن يكون هنـاك فكرٌ جبارٌ يصاحبُ هذه القطعانَ الدارمة ويُسيّرها كأنها بعضاً واحداً لئلا تنفرَ جامحة أو تلتقى طاغيةً متناقضة محرّبةً نظامَه ناقضةً أحكامَه ... إذا تخيلتَ وتخيلتَ .. ثم تيقنتَ وتأملتَ ... فاعرف قدرَ الذى يجبُ أن تفيءَ إليه لتلوذَ به وتحتمى فيه من أهوال النار والهواء والماء والتراب الثقيل الفادح ! الذى وضعك فى هذه الأرض بموضعٍ أمينٍ كمهدِ الطفل تهدهدُه الأمُّ .

إن سطح العالم الذى تشاهده عيناك سماً كنا هاوتا فوق فى السماء ، وتحت قدميك فى الأرض ، إنما هو غطاء قدرٍ هائلة تضطربُ فيها كل عناصر المادة وتتحرك قواها وطاقاتها ، مما لا يمكن أن يدركه إلا الذين أيديهم فيهـا وعيونهم عليها من زبانيـةٍ ودفّاعين ورعاةٍ وساقةٍ وقادةٍ ...

أولئك الذين يقبضون الرياح ، ويحبسون البحار ، ويديرون دولاب الليل والنهار ...

الكائنات جبارة عارمة ، ولكن القيود والقوالب

ساقطة جازمة! تحبس كل كائن في دورته الأبدية فلا يستطيع أن ينسلّ من حظيرة لأخرى إلا حين الانطلاقة الكبرى!

مغازل ومناسج: وراء سطوح الحياة تقف قوى وديعة صبور حاذقة دءوب تنتظر وفود البذور والنُّطَف فتتلقاها وتُدير مغازلها وتبسط مناسجها وتنسج منها ديباجة الحياة وتُكوّنها وتصقلها وتخرجها مُوقّعاً عليها من مهندس واحد!

وددتُ لو كنت الفنان النابغ «والت ديزني» لأخرج ما في نفسي من الصور التي أتخيلها في جو هذه الفكرة!.. ما الذي يوقظ البذور والنُّطَف إلى أسرار وراثتها ويدفعها في طريق سُلالاتها؟... ما الذي يدفع البذور إلى التفرع والعلوّ، والجرثومة المنوية إلى الازدواج والنمو؟... ما الذي يُمطّ أجسام الأجنّة ويُخطّ وجوهها وينقل أسرار الأنواع من الآباء للأبناء؟.. ما الذي يأخذ الطفولة من العجز والضعف والغباء والتفاهة إلى القدرة والقيمة والتسلط ثم يردّها إلى الضعف والتحلل والفناء؟... ما هو العامل الخفي في دفع الجراثيم البسيطة إلى مجرى الحياة حتى تصل إلى التركيب والتعقيد؟

الأيام واحدة والليالي واحدة! الشمس والقمر والرياح والأضواء والأتربة واحدة. ومع ذلك فاليومُ الذي يحيي مواتاً هو ذاته الذي يميت حياة!

ما هو هذا الشيء الدقيق الخفي العميق البعيد عن الأنظار والمجاهر والأرصاد، الساري إلى ظلمات الأرحام أرحام النبات والحيوان فلا يدع سرّ نوع يلبس جسم آخر؟

لماذا لا تُنبت الغلال عقارب، والحنظل تفاحاً، والشوكُ حريراً وورداً؟

أيها المنظم الخفيّ الهادي أقدامَ الحياة بين القوى العمياء، الحارس الحافظ لضعفها بين عوامل الموت والجمود والجبروت، المقيم الحواجز بين الأنواع والفصائل لمنع الاختلاط والطغيان، القائل لكل بذرة وجرثومة: إستيقظي وخذي طريقك إلى سلالاتك وأشياعك...

هل تُمسك فكرى أمامك غير هذه الأصوات الهاتفة التي كأنّ روحي ينتزعها من أعماق كلّ كائن ليناديك بها في صلاةٍ جامعة؟!

جثث الماء: حينما تهبّ على وجهي الرياح الباردة، أسافر بخيالي إلى حيث منشؤها ومخضُها هناك... حيث تجتاح العواصفُ الثلجية البوادي والبحار وأريد رسم «لوحة» للطبيعة عند القطب.. حيث أرى الشمس البيضاء والهواء المقرور والماء المشلول والتراب المستخفي بأكفان الثلوج.. حيث تعوي الريح المجنونة في السكون الموحش الواجم الجاثم على البوادي والبحار.. هنالك مكان وحي! هو وحي العدم والتجمد.. حيث قلب الأرض بعيدٌ بناره ودفئه.. حيث يسقط الماء وهو أصل الحياة جثةً ميتةً جامدة... الماء الذي يحرك عوامل الحياة يغدو جسداً مشلولا! سقط في قبضة فيح من زمهرير العدم الأزلي...

هنالك تبدو الشمس أمُّ الحياة، وهي تمد خيوط أضوائها وإشعاعات حرارتها إلى قلوب أحياء تلك الأصقاع كما تمد أمٌّ يدها إلى أبنائها الضعاف الهازيل...

هنالك طبيعةٌ ذات شيب وعقل، برد في جسمها الدم وقلّ فيها سفكه! بعدت عن أتون خط الاستواء الذي تغلي مراجله في أجسام سوداء تحترق فيها عوامل الحياة.. طبيعة معجمة صامتةٌ علّمت أبناءها الصمت والإعجام إلا في قهقهة الدببة وصراخ كلاب الماء...

وهنالك قد نتذكر ما في قلوبنا من حرارة قبست من مصدر مجهول!

نحن في غفلاتٍ عما يدور في الأكوان! غفلات قلوب لا غفلات أفكار... إذ أننا نحصل «العلم» ونحفظ قضاياه وكلماته في «حوافظنا» الباردة ولا نَصِله بالقلب «ليشعر» به ويُضفي عليه من أحاسيسه ما يجعله حياً في الروح.

ولابد للقلب الإنساني من أن يسير وراء الفكر أينما سار، فيرى هذا ليَشعُرَ ذاك... لا بد من أخذ الطبيعة بالقلب كأخذها بالفكر.

ألا أن الحياة رحلةٌ مُمتعة للذين جعلوا رحابَ القلب

أدب القاضى الفاضل

رأينا فى المقال السابق كيف سلمت للقاضى الفاضل زعامات ثلاثة هى : الزعامة السياسية ، والزعامة الاجتماعية ، والزعامة الأدبية . والناس منذ القدم لا يستطيعون أن ينظروا إلى الأدب دون أن ينظروا فى الوقت نفسه إلى صاحب هذا الأدب ، أى أن أدب العظيم لابد أن يكون عظيما ، وأدب رجل أقل منه عظمة لابد أن يكون كذلك وهكذا . ومعنى ذلك أن شخصية الأديب تنعكس على أدبه فتضفى عليه ما شاء من صفات العظمة . والحق أنه ما دام الأدب لسان العواطف وأداة لنقل الشعور ، فالناس معذورون دائما فى أن ينظروا إلى الأدباء هذه النظرة غير المنصفة ، وليسوا مخطئين كل الخطأ فيها . والشهرة الأدبية نفسها بعض رزق الرجل ، ومن الناس من وسع الله له فى رزقه ومنهم من قُدر عليه . فلا نسأل إذن كيف راجت طريقة الفاضل الأدبية فى عصره وتكيفت أذواق الناس بذوقه ؟ فلا غرابة فى ذلك — إذ لو أن زعماء الأدب فى عصرنا هذا قد أريد بهم فاختاروا لأنفسهم طريقة أدبية غير الطريقة التى نألفها منهم لوجدنا أنفسنا بعد وقت قصير نتذوق طرائقهم وننفر مما عداها من الطرق .

هى رحاب الفكر ، ورحابُ الفكر هى رحابُ الأرض ، وما استطاعوا أن يدركوه من رحاب السماء ، فملأوا عيونهم من مشاهد الطبيعة كلِّها ، وتسمعوا إلى أوتارها كلها وشنشنوا أرواحهم بأنغامها قبل الرحيل ...

جزى الله « بيرد » ، و « أمندسن » ، و « نانسن » ، و « شاكلتن » ، و « سكوت » ؛ وغيرهم من الرحالين الرُّوَّاد الذين أضافوا إلى ملكوت الإنسان هذه الأصقاع القطبية النائية التى كان النهار والليلُ يصولان بها فى خفاء ، وظلَّت ضنينة بأسرارها حقباً ضاربة فى أعماق الأزل ، حتى أتى ابن الإنسان .. ابن الكفاح والشوق إلى قهر العوامل الجبارة واقتحام العقبات الكأداء ، فانتزعها من يد المجهول وأدخلها فى رحاب المعلوم ...

عبد المنعم شوقى

قامت الطريقة الفاضلية فى الكتابة على السجع والجناس ، وعلى المقابلة والطباق ، وعلى تشخيص المعانى وتجسيم الجماد ، وعلى غير ذلك من المحسنات اللفظية التى سنشرحها والتى يعرفها الناس إلى عصر هذا الأديب البارع . والألوان كثيرة وقريبة فى متناول كل رسام ، يستطيع تأليفها وتركيبها ، ويستطيع فى الوقت نفسه أن يحصل على ريشة يرسم بها ما أراد . ولكن ريشة الفنان الماهر هى وحدها التى تستطيع أن تخرج من هذه الألوان لوحة فنية ناطقة ، أو هى وحدها التى تستطيع أن تشخص لك المعانى تشخيصاً يخيل إليك فيه أنها أناس تتحدث إليها وتتحدث إليك ، وتحرك مشاعرها وتحرك مشاعرك ، وتضطرب فيها وتضطرب فيك ، وتخلق بينكما هذه الحياة الشعورية التى تنعم بها وتود إلا تفارقك . ومعنى ذلك كله أن الفنان رجل موهوب وأن سر عظمته ليس فى صندوق ألوانه وأصباغه ، وإنما هو فى قدرته على الاستفادة من هذه الألوان والأصباغ . وذلك إذن سبب آخر من أسباب عظمة الفاضل الأدبية كما سنرى بعد أمثلة منها .

وما دمنا نتحدث عن الفن ، وننظر الى الأدب على أنه فن ، فلندرك شيئاً آخر يغيب عن أذهاننا أحياناً ، وهو أن بيننا وبين القرون الوسطى فروقاً من حيث الحياة ، وفروقاً من حيث المزاج وفروقاً من حيث الحضارة ، ولابد لهذه الفروق كلها من أن تترك أثرها فى الأدب . فأما فرق ما بيننا وبين القرون الوسطى من حيث الحياة فيتلخص كله فى أن حياتنا قائمة على السرعة ، وأن حياتهم قامت على الأناة ، فنحن الآن فى عصر الآلة ، والآلة هى التى تصنع لنا الحذاء الذى نلبسه ، والعامل الذى يديرها لا يشعر باللذة التى كان يشعر بها صانع الأحذية فى تلك الأزمان . ومن ثم أصبحت الآلة سببا فى حرمان هذا العامل الحديث حرماناً قاسيا من تلك اللذة الفنية التى كانت تملأ نفس الصانع القديم بهجة ، فيتعوض بهذه البهجة عن نقص الأجر الذى كان يأخذه وعظم الجهد الذى يبذله .

وليس شك فى أن الآلة التى منى بها الأدب فى العصر

الحديث هي « الطبعة » . فمنذ ظهورها والأدباء يحاولون الإسراع في الإنتاج ، ولكن هذا الإسراع نفسه كان لصالح التفاهة وضرر الفن . فلقد كان من نتيجة ذلك أن قدَّم الأدباء للجمهور أدبا لا حظَّ له من الدقة والأناقة ، ولا نصيب له من الأناة والإبطاء ؛ فأقبل الجمهور على هؤلاء ، كما يقبل الناس في إيطاليا في عصرنا هذا على آلة تصنع لهم (المكرونا) ، يسقطون في بعض خروقها قروشا ، فتسقط الآلة في حلوقهم طعاما ، تشتغل في ازدراده أفواههم ، وهم وقوف أمام الآلة حتى تسكت هذه عن عملها ، فتسكت الأفواه عن مضغها ، وهكذا ينتهي القوم من وجبتهم ليعودوا سراعا الى مصانعهم أو مكاتبهم ليقضوا فيه بقية اليوم .

فأين هذا كله من تلك المائدة التي يتمتع بها أصحاب الدور أو القصور ، وهي مزدانة بكثير من الورود أو الزهور ، وعليها ألوان كثيرة من أطعمة لذيذة وضعت في آنية الذهب أو الفضة ؟

ذلك إذن هو فرق ما بين حياتنا نحن وحياة الناس في العصور الوسطى . حياتنا كما قلت قائمة على العجلة ، وحياتهم قائمة على اللذة ، وعملنا آليّ دائما ، وعملهم فني في أكثره ... وكان من نتيجة ذلك أن كل ذي مهنة في عصرنا أصبح ضائقا بها غير مستريح لها ، يتمنى اليوم الذي فيه يتركها ويجرب حظه في مهنة أخرى . أما العصور الوسطى فسكل ذي عمل فيها غارق في هذا العمل ، مستمتع به لأنه إنما يعالجه معالجة فنية تورث صاحبها هذه اللذة التي نتحدث عنها . والمقارنة بين آثارنا والآثار الأدبية التي خلفها لنا الفاضل وأمثاله توضح لنا هذه الفروق كلها بجلاء لا يقبل الشك .

أما الحضارة — كأمر من الأمور التي ينبغي أن نلاحظها عند ما ندرس أثرا مصريا أو شرقيا من آثار القرون الوسطى — فنحن نعلم أن القاضي الفاضل وُلد له مذهبه هذا وهو عصر الفاطمية . وفي العصر الفاطمي بلغت مصر من الحضارة المادية شأوا لا سبيل هنا الى وصفه أو تلخيصه بحال ما .

تلك الأبواب المزدانة بأنواع القصب ، وتلك الأستار المزركشة بشتى الصور أو الذهب ، وتلك الجدران التي تُوشَم فيها النقوش ، وتلك الأرض المرصوفة بالفسيفساء ، وتلك التماثيل الرائعة من الرخام أو البلور وغيرهما من كرائم الأحجار ، كل أولئك كان له أثر واضح في الأدب الرسمي الذي صدر عن كتاب ذلك العهد ووزرائه حين امتلأت أعينهم وعقولهم بجماله وبهجته ورونقه .

والخلاصة أنك من أدب الفاضل دائما أمام غادة حضرية صقلتها الحضارة وجلاها النعيم ، قد وقفت أمام مرآتها أكثر يومها تقص شعرها وتصفّفه على الجبين بطريقة تغري الناظرين . فاذا فرغت من رأسها التفتت بعدُ الى وجهها فصبغته بأصباغ تتحول به الى مخلوق جديد : فمن حاجب لها توشك أن تمسحه من وجهها لترسمه بقلمها من جديد ، ومن فم تضع عليه صبغاً يأخذ به الفم حجما وشكلا كما تشتهي الغادة أو تريد ، ولو قد استطاعت هذه الغادة أن تعبث أيضا بحجم أنفها وشكله الخارجي لفعلت ، ولكنها تعجز عن ذلك وتنتقل منه الى صدرها وجيدها فتزينهما بما تحب من أنواع الحلي والعقود ، ثم من ذلك تنتقل الى اختيار الثوب الذي يتفق وكل هذه الفتنة !

والغريب أن هذه الغادة التي يبدعها لنا قلم القاضي الفاضل تأبى أن تخرج من خدرها مستترة أو كالمستترة التي تطمع فيها من ينظر إليها من المارة في الطريق ، وإنما تطلع عليهم بهذه البزة الحسنة والهيئة المستحسنة ، وهي مع هذا كله أدنى الى الجد وأنأى عن الطيش ، فيزداد الناس فتنة بها وإجلالا لها ، وتنحسر عيونهم عنها وهي ممعنة في إعجابها بنفسها إمعانا يخفيه ما تتكلفه من جد وتحاوله من عقل .

(وبعد) فلما تحدثتُ عن هذا الأدب الفاضلي نفسه ، أو نعرض شيئا ولو بسيطا من نماذجه ، ولا تحدثنا كذلك عن شيء من مصادره وثقافة صاحبه ، فليغفر لنا القراء هذه المقدمات الطويلة ، وموعدهم فيما يرجونه الأسبوع الآتي بمشيئة الله تعالى .

عبد اللطيف حمزة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم { ٤٩٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩ }

العـدد ٢٧٢ | الثلاثاء ١٩ من ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — ١٤ من مارس سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــدد

مستقبل الإصلاح الاجتماعى فى مصر

تقدر أهميـة البرنامج الذى يتخذ أساساً للإصلاح الاجتماعى بما يكون له من التأثير على الحيـاة الاجتماعية بصفة عامة ، ولاسيما على الظواهر البارزة فيها .

ونقصد بالحياة الاجتماعية حالة مجموع السكان دون الاقتصار على فئة معينة ربما كان لها من ظروفها الخاصة مادياً كانت أو أدبية ما يجعلها تتمتع بنوع معين من الحياة الاجتماعية . وإن فى مقدمة الظواهر التى ألفيها واضحة فى المجتمع المصرى تلك الفارقات البعيدة المدى التى توجد بين طبقات الشعب ، بل وبين أفراد الطبقة الواحدة .

ويتخذ هـذا التفاوت ناحية مادية حيث نرى فقراً مدقعاً بجانب يسار فاحش ، أو ناحية عقلية ، إذ بينما يغمر السواد الأعظم من السكان جهلا مطبقاً ، نجد من بينهم فريقاً على حظ كبير من العلم والدرجات الجامعية ، وحتى فى الحياة الخاصة فإنها تتفاوت من حياة بسيطة ضئيلة ساذجة راكدة ، إلى حياة تتناهى فى الترف والرفاهية والحركة .

ومن البديهى أنه لا يمكن أن ينسق حياة اجتماعية فى بلد مع وجود هذه الفارقات فى النواحى التى أشرنا إليها ، وعلى المدى الذى تبيناه ؛ إذ أن على المصلح الاجتماعى أن يكون منصفاً وحذراً ، فبينما يعمل على تمهيد طريق الثراء أمام المجدين من أصحاب الأموال بتنمية ثرواتهم يجتهد فى تغذية موارد المعسرين وتيسير أسباب العيش لهم ، وعليه أيضاً فى الوقت الذى يحاول فيه أن ينشر الآداب والعلوم الرفيعة والثقافة العالية بين المستنيرين ، وخاصة المتعلمين ، أن يساعد غير المتعلمين على الوصول للمعارف العامة والضرورية ، وإذا ما وضع أنظمة الترفيه على الموسرين أضاف إليها الوسائل التى من شأنها التخفيف من المعوزين وأشباه المعوزين .

ومن الغريب أن لهذا التفاوت أثره أيضاً فى وسائل الإنتاج بأنواعه الصناعى والزراعى والتجارى ؛ فلا نزال بين أيدينا من وسائل الإنتاج ما يدعو إلى المرحلة البدائية ، بينما نجد أنه قد استحدث فى السنوات الأخيرة من وسائل الإنتاج ما يعادل نظيره فى الدول المتحضرة .

حقيقة يوجد تفاوت فى البـلاد الأخرى ، ولكن يلاحظ أن ذلك التفاوت هناك يمتاز بأنه يقوم على ضمان مستوى مادى للمعيشة يكفل لأفراد الشعب الحصول على الضرورى بل وعلى أكثر من الضرورى .

كما أنه يقترن بانتشار المعارف العامة والثقافة بين

أفراد الشعب وطبقاته ، ولهذه المعارف والثقافة أثرها في تقوية الروابط بين أفراد الشعب والطبقات وأثرها في تخفيف حدة التفاوت بينهما ، وكذلك الحال في الفارقات التي ذكرناها في وسائل الإنتاج التجاري والصناعي والزراعي ، فإنه مع التسليم بوجوده في الدول الأخرى إنما يلاحظ أن الوسائل الحديثة طغت على الوسائل القديمة ، فأصبحت لها الغلبة عليها ، بينما أخذت الوسائل السابقة في الانقراض والتحول .

أما في مصر فتعتبر الوسائل الحديثة مظهرا عارضاً يخشى عليها إذا لم تدعم أن يعتورها الضعف ، بينما الوسائل القديمة ما تزال لها السبق في أكثر نواحي الإنتاج .

وقد يكون لما تقدم أسباب عدة ، كما قد يكون لتعاقب السنين الطويلة على هذه الحال أثره في بقائها واستمرارها .

إنما الأمر الذي لا شك فيه أن السبب الرئيسي يرجع إلى أن الأغلبية الساحقة أو ما يعادل ٨٥ ٪ من عدد السكان من طبقة الزراع والعمال الذين مضت عليهم أحقاب طويلة دون أن يجدوا تشجيعا أو حافزا يهيئ لهم حياة اجتماعية أرقى ، ويدفعهم إلى أن يأخذوا بقسطهم من الحصول على رزق ميسر كاف والاستمتاع بحالة صحية مرضية والاطمئنان إلى مستقبل هادئ رغيد ، وإلى الأخذ بوسائل الإنتاج الحديثة .

على ذلك فكل إصلاح لا يقوم على الاهتمام وتوجيه العناية بهذين العنصرين الرئيسيين ، وهما طائفة الزراع وطائفة العمال ، لا يعتبر إصلاحا في صميم الحياة الاجتماعية في مصر . ولا ترجع فائدة العناية بإصلاح حالة الزراع إلى أنه أداة فعالة في الإنتاج القومي للبلاد أو إلى ما دلت عليه الإحصائيات من اضطراد الزيادة في عددهم ، فقد كان عددهم في سنة ١٩٢٧ ٣٠٤٣٠٠٠ ، فقفز في سنة ١٩٣٧ إلى ٥٥٥٧٥١٢ بينما عدد جميع أصحاب المهن بما فيه الزراع كان في سنة ١٩٢٧ ٥٨٤٥٦٦٧ فقفز إلى ٧٤٠٠٣٥٥ في سنة ١٩٣٧ .

وإنما يدفعنا إلى شدة العناية بأحوالهم ما لهذه الأحوال من التأثير القوي على عمال الصناعة والتجارة ؛ وذلك لأن سوء الأحوال المعيشية بالقرى تحمل الزراع إلى التطلع إلى المدن وإلى الهجرة إليها . فقد حدث مثل هذا التطلع ومثل هذه الهجرة في بلاد غيرنا عند ما بدأت تظهر فيها الحركة الصناعية ، وقبل أن تأخذ بالوسائل الحديثة في الزراعة ، ولهذه الهجرة المحلية خطرها ، لأنها تهبط بأجور عمال الصناعة ، وتغري أصحاب الأعمال على استخدام الزراع المهاجرين رغم ما في هذا الاستخدام من استهداف الإنتاج لشوبه الجهل .

وكذلك فإن سوء الحالة المادية والعلمية للزراع قد تبين لنا أن العدد الذي وصلوا إليه سيجعلهم لا يتطلبون من حاجيات المعيشة اللازمة لهم ولعائلاتهم إلا القليل التافه من المنتجات الصناعية ، ولا يخفى ما لهذا من الأثر على الصناعة ، ولاسيما أن الصناعة في مصر حديثة ومضطرة إلى أن تعول على الأسواق الداخلية ، لأنها لا تقوى على مزاحمة الصناعات القديمة التي رسخت أقدامها في الأسواق الدولية ، ولن يقتصر أثر هذا على عمال الصناعة وعلى الإنتاج الصناعي ، وعلى المنتجات الصناعية ، بل سيمتد إلى المشتغلين بالتجارة أيضا . فإذا لابد أن يكون هدف الإصلاح الجمع بين الزراع والصناع سواء بسواء ، وربما كان أهم وسائل الإصلاح بالنسبة للفريقين العمل على رفع مستوى معيشتهم ، وذلك بزيادة مواردهم ، ثم تيسير أبواب الرزق لهم ، وخصوصا وقد دلت الإحصائيات على أن متوسط ما يملكه الفرد من الأطيان ١٨ر٢ فدان ومتوسط إيراد الفرد من السكان ١٢ جنيها سنويا ، ومتوسط ما يأخذه العامل من الأجر ٨٢ قرشا في الأسبوع ، وهذه الأرقام توضح تماما الحاجة الشديدة إلى العناية بهذا النهج من الإصلاح .

ويكون هذا النهج بالنسبة للزراع أن يعنى بزيادة مساحة الأطيان الصالحة للزراعة ، إما باستصلاح الأراضي البور أو بتشجيع الأفراد والشركات على استثمار الأراضي المستصلحة استصلاحا على وضع كبير يسمح بالحصول على غلة وفيرة وإنتاج عظيم .

ولا شك أيضا أن لانتشار الجمعيات التعاونية الزراعية ونجاحها أثرا في ضمان حصول الزراع على ما يحتاجون إليه من مستلزمات الزراعة بثمن معتدل وبحالة صالحة وبكميات وفيرة ، كما أنها أقدر على تصريف المنتجات تصريفا مرضيا .

ومما يتصل بما تقدم العمل على انتشار الصناعات الزراعية حتى تستوعب العدد الكثير من عمال الزراعة

الذين يزحون من الأرياف إلى المواسم ويزاحمون على الصناعة فيها ويقيم أغلبهم في المواسم إقامة أقرب إلى حالة التعطل منها إلى حالة العمل .

أما عن توفير العمل لعمال الصناعة وزيادة مواردهم فقد أصبحت الحاجة ماسة إليه في هـذه الأيام خصوصاً في السنوات المقبلة التي تلي هذه الحرب ؛ وذلك لأن الصناعة لم يكن لها شأن كبير قبل الحرب العظمى الماضية ، ولـكن بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها رأى بعض رجال الأعمال أهمية وجود بعض الصناعات وما ينتظر لها من الرواج ولاسيما إذا قيد أو تعذر الاستيراد . وقد عاصر ذلك الاتجاه الرواج التام الذي عم البلاد حينذاك كما عاصرته الحركة السياسية التي ظهرت وبدأ الناس بظهورها يتذوقون الـكثير من الشعور القومي .

فتقدم فريق من أصحاب الأموال وأعدوا الـكثير من المصانع . ولـكن يلاحظ أنه إذا قيست هذه الخطوات بما خطته الدول الأخرى في الميدان الصناعي أو بما تحتاج إليه البلاد لتشغيل العدد الـكثير من السكان الصالحين للعمل وقد بلغ عددهم ٦٫٨٥٩٫٥٠٠ وهو يزيد عن نظيره في الدول الأخرى — تبين أن الجهود التي بذلت لا تزال قاصرة من بلوغ هذه الغاية ؛ إذ أن إحصاء سنة ١٩٣٩ دل على أن عدد المصانع جميعها في أنحاء القطر ٨٨٣٩٥ منها ما لا يستخدم عمالا مطلقا وعددها ٤٥٠٤٠ أي أكثر من النصف ، ومنها ما يشتغل به عامل أو أكثر وعددها ٢٥٥٨٤ ومثل هذه النسبة في المتاجر مما يثبت أن المصانع والمتاجر لا زالت في مصر على وجه العموم تتقدم على أكتاف مجهودات فردية .

ولا يتم توفير العمـل للزراع والعمال إلا بتشجيع الأفراد والشركات الذين يقومون بإنشاء مشروعات زراعية أو صناعية أو تجارية ، وأن يقترن هذا التشجيع بوضع الأنظمة التي تسهل لهم طريقهم حتى يقدموا ويوطنوا أنفسهم على التضحية بأموالهم وعصـارة عقولهم لتنمية الإنتاج القومي ، ولإيجاد ميـادين فسيحة لأفراد الأمة يكسبون منها عيشهم ويزاولون فيها أعمالهم فينالون منافع مادية وأدبية تكفل حياة اجتماعية صالحة .

وربما كان مما يساعد على ازدهار الصناعات في مصر ظهور نهضة صناعية استلزمتها الحرب الحالية ، وكذلك وجود مصانع كثيرة هامة أقامتها الدول الحليفة فلم يبق إذن إلا أن نشجع النهضة الصناعية التي ظهرت ونحـافظ على تقدمها وتطورها بعـد الحرب ، وكذلك نشتغل المصانع الحربية الكبرى فنعمل على استمرار تشغيلها وتغذيتها بالعناصر الصالحة من عمال الصناعة في البلاد . على أن يقترن كل ذلك بقيام الحكومة بعد الحرب بالمساهمة في الأعمال العامة بإنشاء الطرق وكتنفيذ مشروع خزان أسوان وما إلى هذه المشروعات التي تستوعب عددا كبيرا من العمال . ومما يتصل بتنمية موارد العمال وإفساح مجال العمل لهم ووضع الأنظمة التي تكفل تخديمهم وتقديمهم إلى أصحاب الأعمال ويكون ذلك بإعداد بورصات للعمال ومكاتب للتخديم تتولى إرشادهم إلى الأماكن الشاغرة وتقديمهم إلى أصحاب الأعمال ، وربما تولت فيما بعد الإشراف على تدريب العمال تدريبا مرضيا وكذلك على مساعدتهم في الفترات التي ينقطعون فيها عن العمل .

إذا ما فرغنا من تهيئة ميادين يعمل فيها عمال الزراعة والصناعة وتهيئة النظم التي تساعدهم على الالتحاق بالأعمال المختلفة انتقلنا إلى وجوب العمل على رعايتهم جميعا من النواحي المادية والصحية والاجتماعية ، وعلى أن تمتد هذه الرعاية إلى من يعولونهم من أفراد أسرهم ؛ فبالنسبة للزراع تتخذ الرعاية صورا متعددة منها تمكينهم من الحصول على ما يحتاجون إليه من البذور والسماد وأدوات الزراعة وما إليها بأثمان معتدلة ، ثم تمكينهم من إجادة عملهم بإرشادهم إرشاداً فنيا ، ثم تمكينهم أيضا بعد ذلك من بيع محصولاتهم بثمن مجز يساعدهم على مستوى من الحياة معقول .

ويتصل بذلك أيضا العناية بحد أدنى لأجورهم على أن يكون هذا الحد تبعا لمواسم الزراعة وتبعا للمناطق التي يعملون بها ، وأن يعاد النظر فيه من سنة إلى أخرى بواسطة لجان إقليمية تمثل فيها كبار الزراع وصغارهم وتشرف عليها الحكومة .

أما بالنسبة لوضع منهج صحي واجتماعي للزراع يتفق مع التطور الذي ينتظر حدوثه بعد الحرب ، وربما كانت من أقوى وسائله انتشار الوحدات الصحية والمراكز الاجتماعية

وكذلك العمل على تشجيع الهيئات التي تقوم بنشر المعارف والمعلومات العامة والثقافة الشعبية في أنحاء الريف .

أما بالنسبة لعمال الصناعة فرعايتهم المادية تتطلب العناية بوضع نظام ثابت لعلاقة العامل مع صاحب العمل ، وقد يتكفل بهذا قانون عقد العمل الفردي ووضع نظام ثابت لعلاقة طائفة أو طوائف من العمال مع أصحاب الأعمال . ومدار هذا قانون عقد العمل المشترك . ولا تخفى مطلقاً فائدة هذين النظامين سواء للعمال أو لأصحاب الأعمال . ويجب ألا نغفل موضوع تحديد الأجور ، وربما كان من الخير أن يوضع أولا الحد الأدنى للأجور لكل صناعة ثم تحدد الأجور المختلفة ويكون هذا التحديد مرناً يعاد النظر فيه من وقت لآخر ويتم بمعرفة لجان إقليمية يحضرها مندوبون من أصحاب الأعمال ومندوبون من العمال وتشرف عليها الحكومة . ويتصل بما تقدم النظر في تحديد ساعات العمل وخصوصاً أن الاحصائيات قد دلت على أن عدد من يشتغلون أكثر من عشر ساعات من عمال الصناعة ٦٣٫٨٧٢ وعدد من يشتغلون أقل ١٨٫١٤٩ ، بينما عدد من يشتغلون أكثر من عشر ساعات من عمال التجارة ١٩٫٠٤٥ وأقل ١١٩٫٦٣٠ وهذه الأرقام إذا أضفنا إليها ازدياد الشكاوى التي يتقدم بها العمال من إرهاقهم بساعات عمل كثيرة تجعل من الضروري أن يوضع حد لساعات العمل لا يصح تجاوزه بأي حال من الأحوال . ولا شك أن هذه الرعاية المادية على اختلاف صورها واتجاهاتها والنظم والقوانين التي ستوضع لها لا تستقر إذا لم توطد العزم على إيجاد هيئات يكون من حقها التوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال ، بل من حقها في بعض الظروف أن تكون أداة صلح وتحكيم فتفصل بصفة قاطعة وهذا النوع من اللجان موجوداً الآن وإنما أقيم بموجب أمر عسكري .

ويندرج في برنامج الرعاية الصحية للعمال بعد الحرب إعادة النظر في النظم الموضوعة للإشراف الصحي على المصانع والاهتمام بالعنصر الوقائي الذي يخفف من حوادث الإصابات الناشئة عن العمل ومن حدوث الأمراض أثناء قيامهم بأعمالهم داخل المصانع .

ويمتد الإشراف الصحي أيضاً إلى العناية بتيسير العلاج الطبي للعمال ثم إلى تحديد الأمراض التي تتصل بالمهنة التي يزاولونها ، وكذلك العمل على تغذيتهم تغذية صحية وحصولهم على مساكن صحية ثم نشر الوحدات العلاجية في الأنحاء التي يكثر فيها العمال للعناية بأحوالهم الصحية وبأحوال أسرهم .

أما الرعاية الاجتماعية فقد أصبح لها الآن شأن يذكر وستزداد الحاجة إليها بعد الحرب لما ينتظر للصناعة من الازدهار ولعدد عمالها من اطراد فيكون ذلك بالإشراف على تنظيم أوقات الفراغ للعمال وتمضيتها على وجه لا يعود على صحتهم وأخلاقهم بأسوأ النتائج . والطريق إلى هذا هو إنشاء نواد شعبية وساحات رياضية وإيجاد هيئات تعمل على تثقيف العمال وإرشادهم وتقديم الخدمات الاجتماعية لهم .

ويضاف إلى ما ذكر وجوب أن يتقرر مبدأ إعطاء العمال أجازات اعتيادية سنوية يروحون بها عن أنفسهم وأجازات أسبوعية يستجمون فيها وأجازات مرضية تمكنهم من مواصلة العلاج في طمأنينة واستقرار .

ولا تزيد في الأهمية رعاية العمال من النواحي الثلاثة التي ذكرناها وهي الناحية المادية والصحية والاجتماعية عن رعاية من يعولونهم من أسرهم ، وذلك لأن اطمئنان الفرد على أفراد أسرته يبعث فيه حمية وقدرة على العمل ويحمله على الإخلاص والتفاني فيه .

وربما كانت نظم التأمين خير أداة لهذه الرعاية فيجد فيها العامل ضماناً اجتماعياً تطمئن به أفراد أسرته إذا ما مرض أو عجز عن أداء عمله لشيخوخته أو تعطل أو انقطع عن العمل أو انتابته الوفاة .

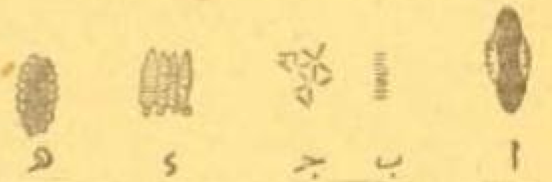
ومن حسن الحظ أن هذه النظم التأمينية قد انتشرت في كثير من البلاد فتعددت مناحيها ، وقد أصبح من الميسور الوقوف على نتائج تطبيقها في أوضاعها المختلفة ، وبذلك يكون من السهل علينا اختيار الأوضاع التي تتفق مع حالتنا الاقتصادية والاجتماعية .

ابراهيم القطريفي

الملاريا

للدكتور أحمد زكي بك

وتضع البعوضة بيضها فوق الماء . ويستطيع الرجل الحشري أن يميز بيض بعوضة الملاريا ، الأنوفيليس Anopheles ، من بيض غيرها من سائر البعوض . فبعوضة الملاريا شكلها كالقارب ، وإلى جانبيها عوامتان كبيرتان تطفو بهما فوق الماء (شكل ١ حرف ا) . وهي تبيض بيضها على الماء بيضة بيضة ، ولكنها ترتب بيضها أشكالا هندسية لا تحيد عنها . فهي إما أن ترص البيض صفاً صفاً (شكل ١ حرف ب) ، أو هي تشكله مثلثات منتظمة ومسدسات (شكل ١ حرف جـ) . أما سائر البعوض فيختلف شكل بيضه عن ذلك . مثال ذلك : بعوض يعرف بالكوليكس Culex ، فهذا تبيض أنثاه البيض لاصقا بعضه ببعض (شكل ١ حرف د) كما تضم عود الخشب إلى عود الخشب حتى تتكون من الأعواد عامة تطفو على الماء ، كالتي يركبها الرجال على الأنهار . ويجتمع عدد كبير من من هذا البيض يبلغ نحو الخمسين والمائة لتأليف عامة واحدة . وبيضة الكوليكس تختلف مظهراً عن بيضة الأنوفيليس



شكل (١)

(الشكل نفسه حرف د) . ومثال آخر لاختلاف البيض : بعوضة الأيدس Aëdes . فهذه بيضها ذات شكل يختلف غاية الاختلاف عن شكل بيضة الأنوفيليس (شكل ١ حرف هـ) ، فهي ليست كالقارب ، ولا عوامات لها على جانبيها . والبعوضة الأيدس تبيض بيضها بيضة بيضة ، وترتبه أشكالا هندسية فوق الماء ، فهي في هذا كبعوضة الملاريا .

وما ضربنا هذين المثلين ، لبعوض غير بعوض الملاريا ، إلا إيضاحا لبعوضة الملاريا وتمييزا لها ، فبضدها تتبين الأشياء .

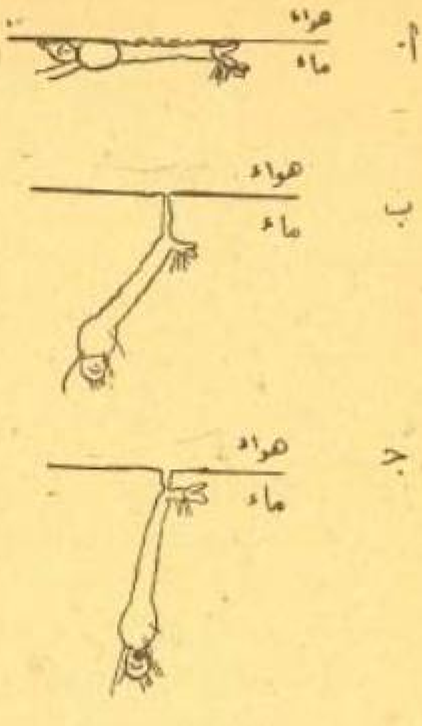
وأنت تلاحظ أننا نتحدث دائما عن البعوضة الأنثى ، دون الذكر ؛ وذلك لأن الأنثى هي وحدها التي تمتص الدماء . والأنثى هي وحدها التي تبيض فتنشر جنسها في الأرض وتنشر الفزع في الناس . أما الذكر فغذاؤه ، إن أكل ، فمن عصير الفاكهة وعصارة النبات .

فهذا عن البيض .

ثم يفقس البيض عن دودة larva اصطلحوا على تسميتها باليرقة . واليرقة طور من أطوار الحشر الحي ، فلابد لها من التنفس ، ولابد لها من الهواء . واليرقة عند ذيلها أنبوبة هوائية تتعلق بواسطتها في سطح الماء (شكل ٢ : حرف ب يرقة الكوليكس ، وحرف جـ يرقة الأيدس) ، وهي تقطع هذا السطح وتفتحه عند مسامها به لتصل ما بينها وبين الهواء .

أما يرقة الملاريا ، يرقة الأنوفيليس ، فليس لها قصبة هوائية تتعلق بها ، وإنما لها شعرات على بطنها تخرق بها سطح الماء ، فتلتصق به أفقية من أسفل (شكل ٢ حرف ا) . أما الخلايا التي تتنفس بواسطتها الهواء ، فتوجد في مؤخرة جسمها حيث يلتصق بالماء ، وعندها ينحسر بعض سطح هذا الماء ليصل بينها وبين الهواء .

ويرقة الملاريا ، يرقة الأنوفيليس ، تتغذى مما تجد على سطح الماء من طعام . ويرقة الكوليكس ، ويرقة الأيدس ، تتغذى كلتاهما مما تجدان في بطن الماء



شكل (٢)

من طعام .

وتتطوّر يرقة البعوض إلى طور العروس . وهو طور وسطٌ في تخلّق الأعضاء وتخصّص المظهر ، بين اليرقة وبين البعوضة البالغة . وهو طور يتشابه فيه البعوض إلا في القليل الذي لا يعنينا .

وبهذا الاختلاف في صُوَر البعوض البالغ ، وفي صُوَر بيضه ، وصور يرقاته ، حتى وفي صور عرائسه ، يستطيع الباحث أن يتعرّف أين تفرخ تلك الأجناس التي تنقل الأمراض ، من ملاريا وغير الملاريا ، وأن يتتبّع مخابئها ومرابطها ، وخطة سيرها عندما تعتزم السير . وهو يتتبّعها تتبّعه العدوّ ليعرف أين يلقاه وكيف يلقاه ، قبل أن ينشر المرضَ في الناس ، فينشر به الموت والفناء .

ومن مكافحة العدوّ أن تعرف عنه كيف يُصبح وكيف يُمسى ، وكيف يطبّع عامّة .

ألاَ فاعلمْ أن بعوضة الملاريا لا تفقس بيضها في أي ماء تلقاه ، من خبيث وطاهر . وأنه إن اختار غيرُها الوسخَ القذرَ من الماء ، فهى تختار من الماء أنظفه وأروقه . فهى في هذا سيدة البعوض . وقد سمّوها من أجل ذلك بالبعوضة الارستقراطية ، على ما في هذه التسمية من لَمْز للديمقراطية . وأحبُّ الماء إليها الماء الطبيعي . وهي تحب من ساحات المياه أضيقها ، وأضحلها ، فإن عَزَّها الماءُ الضيق الضحل طلبت حافات المياه الواسعة حيث ينبت النباتَ في الغيطان فيجعل من تلك الحافات منازل هادئة .

والبعوضة الأنثى ، بعوضة الأنوفيليس ، تطلب طعامها من الدم ، فإن شبعت ، أخذت في هضمه . وهي تهضمه في يومين أو ثلاثة . وتزيد مبايضُ الأنثيات أثناء الهضم وتكبر وتتضخّم ، حتى إذا استوى البيض وضعته على الماء . وبعد بيضها تجوع الأنثى فتطلب الطعام . وهي من بعد الطعام تبيض ، وهلمّ جرّا . وتستغرق هذه الدورة زمنا أقصر في بعوض المناطق الاستوائية من الأرض . وتستغرق الدورة الأولى ، أي والبعوضة بكر ، خمسة أيام ، ثم تصير من بعد ذلك ثلاثة . وفي قصر الدورة ، طولٌ في انتشار البعوضة . وفي قلة أيام البيض ، كثرةٌ في البعوض ، فكثرة في المرض .

وبعوضة الأنوفيليس إذا طَعِمت في مكان ، باضت في غيره . فهي أكثر إدراكا لمعنى التأنق من كثير من الخلائق . وهي في سبيل طلبها السكان المختار لبيضها ترحل الرحْلاتِ الطويلة . وقد تطول رحلتها فتبلغ نصف الميل . ونصف الميل للبعوض غيرُهُ للرجال . وهي على الأغلب لا تعود في طلب طعامها إلى مكانه الأول ، فهي تحب التنقل ، فكأن المُلاَ حدثتها ، وهي صادقة ،

كما حدَّثت الطبراني ، « إنما تُحدِث أن البر في السُّقل » . وفي الرحلات الطويلة لهذه البعوضة ، وفي تنقلها تهيأت الأسباب لامتداد المرض وتنقل الوباء .

ومن صنوف الأنوفيلس ما يستطيب دم الإنسان ، ومنه ما يستطيب دم البهائم . ومنه ما يستق من هذا وهذا ما وجدها . وكثيرا ما تحمَت القرى أنفسها من الملاريا بإقامة الحظائر والاصطبلات حائلا بينها وبين مراقي البعوض ، فتشغل البعوض بدم حيواناتها عن دمائها . والبعوضة الوبيئة ، لا تضر إذا شربت من دم حصان أو بقرة ، فدورة الجرثومة لا تتم إلا في دم الإنسان .

وبعوضة الجمبيا ، تلك التي نالت شهرة نادرة في مصر في يوم وليلة ، وهي طبعاً من صنوف الأنوفيلس ، وهي من بعوض المناطق الاستوائية ذات الإفراخ السريع ، قد حباها الله حبَّ دم الإنسان . فهي لا ترضى منه عن دم الحيوان بديلا ، حتى ولا دم الغزلان ترشفه في الجداول الأفريقية من رقاق تلك السيقان ، أو من محاجر تلك العيون الدُّعج التي طالما أصمت قلب الإنسان .

ويعرف الإنسانُ عادات البعوض ، فيستنبط منها الطرق لإبادته وكفاية نفسه شره .

ومن هذه الطرق التي استنبطها ما يختص بالبعوضة البالغة ، ومنه ما يختص بيرقتها ، ومنه ما يختص بمنازلها التي تبيض فيها .

أما البعوضة البالغة فيكافحها بالطرد أولا ، وهذا أضعف الإيمان . ثم باستعمال النزل والدق على رأسها . ثم بالنوم تحت حجاب يمنع البعوضة ولا يمنع الهواء ، كالناموسيات . وخير من كل هذه سدّ منافذ البيوت وأبوابها بشبائك من السلك ذات عيون صغيرة . ولكن هذه كلفة لا يستطيعها كل الناس . وتكافح البعوضة أيضا برش الحُجَر بسائل قتال ، كالسائل المعروف بالفليت ، والفلتاك ، وغيرهما . وكلها أسماء تجارية لشيء واحد ، هو خلاصة نبات البيثرثرم في بترول كبترول الوقود العادي ، يضاف إليه شيء من الطيب ليكون مقبولا في الأنوف . وكل الناس يستطيع صناعة هذا السائل بالنقع العادي ، وعندها يُفلس أصحاب الاعلانات الضخمة ، أو يهبطون بأسعارهم إلى الحد الذي يستطيعه أكثر الناس .

أما اليرقة فيكافحها الإنسان في منازلها من المياه الرواكد . وهو يستخدم في ذلك شيئين رئيسين : زيتا من زيوت البترول ، أو مادة كيماوية سامة تقتل اليرقات .

أما البترول فيرشه على سطح الماء فينبسط فوقه طبقة غاية في الرقة ، ولكنها تكفي لتحجب الهواء عن اليرقة فلا يدخل إلى قصبة هوائها أو خلايا تنفسها . وهي بذلك تختنق فتموت .

وأما المادة الكيماوية فأكثر ما تكون تلك المادة المعروفة بأخضر باريس Paris Green وهي مادة تُحضَّر بإضافة محلول من خلات النحاس إلى حامض الزرنيخ فيتألف منهما مركب يكون فيه النحاس وفيه الزرنيخ . فإذا طلبت اليرقة الطعام ، دخل في طعامها هذا السم فقتلها . وهو من القلة بحيث لا يضر أناسا أو حيوانا ، وهو يُخلط بشيء من الأتربة لتخفيفه ، ثم هو يُعفَّر فوق البرك . وقد تُستخدَم في ذلك الطيارات لتعفير الساحات الواسعة أو لتعفير مواضع المياه التي لا تنال في سهولة .

ويُستخدَم كذلك نوع من السمك ، يُربَّى في البرك ، فتكونُ اليرقاتُ من طعامه .

أما البرك فيكافح الإنسان المرض فيها بالطبع بردمها — بنفيها من الوجود . ولا يحسبن حاسبٌ أن هذا سهل هيّن في بلد كمصر ، فيه الجهل وفيه الزراعة . فالزراعة تطلب الماء ، والماء يفيض ويغيض ويستنقع . وحتى الحفرة التي تخلفها قدم الفلاح في الأرض البايلة يملؤها الماء فتصير مربّى للبعوض ، وهو لا يكاد يدرك هذا ، حتى ولا يكاد يؤمن بأن البرك مصدر الشقاء . من أجل هذا محونا الكثير من بِرَك يردمها القانون اليوم ، فتقوم إلى جانبها بركة أخرى في الغد ، تحفرها الجهالة وقلة المبالاة .

أحمد زكي

حـــلم عجيب

أصبت بالزكام فى هذا الأسبوع ، وفى ليلة من لياليه أرقت ، فقد اعتدت أن آخذ تنفسى من أنفى وأطبق فمى ، ولكن أنفى وقد زكمت لا تساعدنى ، فلابد من مساعدة فمى ، فإذا أخذ النوم عينى عدت إلى عادتى ، فانضمت شفتاى ، وألزمتا أنفى أن يتنفس وحده وهو لا يستطيع ، فما كاد أختنق فأنتبه ، وهكذا وهكذا مرتان وثلاث ، ثم يكون الأرق الشديد الذى أفضله على النوم المضنى .

وأضأت المصباح ، ومتى أضأته فلابد من كتاب ، وفتحت المكتبة وتلمست كتابا سهلا ، فوقعت يدى على كتاب «علاء الدين والقنديل المسحور» . وقصة مصباح علاء الدين إحدى قصص ألف ليلة وليلة ، ولكنها لم ترد فى المجموعة التى بأيدينا إنما عثر عليها الأستاذ «زوتنبرج» وطبعها فى باريس سنة ١٨٨٨ .

كنت نسيتها ، فأعدت قراءتها من جديد ، وأنسانى لطفها وظرفها الزكام والأرق ، واختلست نفسى ثلاث ساعات أتممت فيها قراءتها فى ست وثمانين صفحة .

وأعجبنى هـذا المصباح العجيب الذى كان يحكه علاء الدين فيظهر له خادم من الجن يقول له : أنا عبدك وعبد من بيده المصباح ، فاذا تأمر ، فإذا أمر أمراً أحضره فى لمحة البصر ؛ يأمره مرة أن يحضر له مائدة أكل لأنه جائع ، ففى طرفة عين تأتى المـائدة من ألذ الطعام فى صحاف من الفضة النقية ، ومرة يأمره أن يحضر جواهر كريمة لا مثيل لها فى العالم ليهديها إلى السلطان يتقرب بها إلى ابنته بدر البدور ، فما هو إلا أن يأمر فتحضر ، ومرة يأمره أن يحضر إليه بنت السلطان وخطيبها ؛ لأن السلطان أبى عليه أن يزوجها له ، فإذا به يحضرهما إليه ، ثم يأمره أن يعيدهما فى الصباح فيعيدهما . وهكذا يبنى له القصور متى شاء ، وكيف شاء ، ويقرب له البعيد ، ويبعد القريب ، حتى يحقق كل أمانيه ، ويتزوج بدر البدور ، ويعيش فى سعادة وهناء ، كل ما فى الدنيا تحت أمره بفضل هذا المصباح .

وأخيرا قبل الفجر أخـذ منى التعب مبلغه من زكام وأرق وقراءة ، فحلمت أننى فى يوم دافىء والشمس ساطعة ، فاستحثنى هذا كله على السير فى صحراء مصر الجديدة ، فتوغلت فيها ، وبينا أنا أسير رأيت على جانب الطريق شيئاً تنعكس عليه الشمس فيلمع ، فاتجهت وجهته ، فإذا به مصباح ، فقلت فى نفسى : ومن يدرى ، لعله مصباح علاء الدين ، ساقته إلىّ المقادير .

رأيته مصباحا صغيرا من جنس المصابيح التى يلعب بها الأولاد فى رمضان ، تكسر زجاج ناحية من نواحيه الأربع وصدأ صفيحه ، ولكن الشمس تسطع على ما بقى فيه من زجاج ، وهذا ما كان يلمع عند ما رأيته .

وخفت أن أحكه فيظهر العفريت من قبل أن أستعد له ، فأرجأت ذلك إلى قرارى فى بيتى ، وعجلت العودة ، ونفسى مملوءة بالأمانى الطيبة ، أسائل نفسى : ماذا تطلب لو كان هو حقيقة مصباح علاء الدين ؟ ففكرت طويلا ، ثم فضلت أن أترك ذلك للقدر ولوحى الساعة .

ثم سرعان ما وصلت إلى بيتى ودخلت حجرتى ، وأغلقتها علىّ من الداخل ، وأخذت المصباح فحككته ، فما هى إلا الحجرة تنشق ويخرج منها شيطان مريد ، فارتعدت فرائصى وكاد يغمى علىّ من الخوف ، ثم تمالكت نفسى ، وعاد إلىّ بعض صوابى ، وإذا به يسأل بصوت جازم ماذا تطلب ؟

تاه عن نفسى كل أمانيها الطيبة ، ورأيتنى أقول فى سخافة : أريد أن أعرف الناس على حقيقتهم ، والتاريخ على حقيقته ، والدنيا على حقيقتها .

رأيته يبتسم من قولى فسرّى عنى ، وقال : إن هذا أول مطلب من نوعه سمعته منـذ خلقت فى عهد سليمان صلوات الله عليه ، وفى كل تاريخى إنما استحضرت لآتى

عيال كثير ، أو جوهر كريم ، أو امرأة جميلة ، أو عرش عظيم ، أو التنكيل بعدو : من إغراق في البحر ، أو رمي من شاهق جبل ، وذلك مما سهل عليّ ، وصرت عليه ؛ فأما مطلبك فيحتاج إلى إعمال فكر في الوسائل ، واتخاذ العدة للوصول إلى الغرض .

ثم غاب عني ساعة أطول مما حكته قصة ألف ليلة في عودته بعد لمح البصر ، وعاد ومعه منظار عجيب فيه مسمار علي تحريكه ليكون من المنظار ثلاثة أوضاع : وضع إذا أردت أن أعرف الناس ، ووضع إذا أردت أن أعرف التاريخ ، ووضع إذا أردت أن أعرف الدنيا ، ثم اختفى .

وضممته على عيني وخرجت لأعرف النـاس فرأيت عجبا ، رأيت على صدر كل شخص بطاقة تظهر حقيقته وتبين قيمته ، راعني أني رأيت من لاقيت له درجات تبين وزنه أكثرها تحت الصفر بعشر ومائة ومائتين ، وألف وألفين ، وقل منهم جدا من هو فوق الصفر ، ورأيت وجيها كبيرا خير منه كناس ، وعظيما خطيرا يفوقه بمراحل ساعي بريد ، ومن أعرف أنه وطني كبير كتب في بطاقته أنه خائن ، وخائن كبير كتب في بطاقته أنه وطني كبير ، وعالم عظيم لقب بمغفل ، وأميّ حقير لقب بحكيم ، ومجنون بعاقل ، وعاقل بمجنون ، وغني له الثروة العريضة والمال الوفير والأرض والعمارات والأوراق المالية بالألوف والمئات كتب في صحيفته أنه فقير ، وفقير لا يملك إلا قوت يومه كتب عنه أنه غني كبير ، وشريفة عالية المقام نبزت بالفجور ، ومتزينة متبرجة وصفت بالعفاف .

وعلى الجملة فقد رأيت الأوضاع انقلبت ، والقيم انعكست ؛ فالصديق عدو والعدو صديق ، والأول آخر والآخر أول ، ومن كانت يده تقبل تستحق القطع ، ومن كان ينبذ ويمتهن يستحق التكريم والتقديم .

ودخلت حفلا رتبت صفوفه ومقـاعده حسب المقام والطبقات ، والوظائف الحكومية والدرجات المالية ، والمنزلة في الهيئة الاجتماعية ، فتصفحت صحائفهم المثبتة في صدورهم فرأيت فيمن جلس في الصدر من يستحق أعلى التياترو ، ومن جلس في أعلى التياترو يستحق الصدر ؛ وعجبت إذ رأيت قادما كتب في صحيفته ألف تحت الصفر ، قد استقبله المشتغلون من خارج البـاب واحتفوا به أشد احتفاء ، وأجلسوه في أعظم مكان ، ومن كتب في صحيفته أنه ألف فوق الصفر لم يؤبه له وحاول أن يدخل فلم يستطع من الزحام فعاد من حيث أتى ، وذكرت الحديث « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » فقلت : لا بد أن يكون صاحب الحديث قد قاله وهو لابس هذا المنظار .

وهاجت عواطفي فرأيتني أصفع وجيها ، وأعانق فلاحا ، وأعرض عن باشا ، وأقبل على مسكين ، وأحيي عاملا ، ولا أرد تحية كبير ، وأتصدق على غني ، وأتحرج من الصدقة على فقير ، وأهزأ بكلام عالم ، وأصغي إلى كلام جاهل . ومن أغرب ما رأيت وأنا أسير في الشارع سيارة فخمة يركبها سائق قد كسي أحسن ثياب ، وصاحب السيارة في داخلها عريان ، ومررت على بنك فشممت رائحة كريهة ، وعلى مصنع فشممت رائحة زكية ، ورأيت سيدة رزينة محتشمة في ملبسها ، جادة في مشيتها ، فقرأت صحيفتها فكدت أرجمها ، ورأيت خادمتها التي تسير خلفها لها قيمة كبرى قدمت لها وردة جميلة اختطفتها من صدر شاب لا يستحقها .

وعلى الجملة رأيتني آتي بأعمال حسبها أقرأ من القيم ، أقل قليل منها يقتضيني أن أكون في مستشفى المجاذيب .

فأسرعت في العودة إلى بيتي .

ودخلت مكتبي ، وغيرت وضع المنظار لأرى التاريخ ، وعمدت إلى كتابي المسعودي وابن الأثير أتصفحهما وأقلب صحفهما فأدهشني ما رأيت ، رأيت أن كثيرا من الصفحات قد شطب وكتب عليه بالخط الأحمر « كذب » ، وأحيانا أرى صفحات قد محي سوادها وكتب في بياضها أنها لا تستحق الذكر ، وأحيانا أرى قائدا كبيرا أو ملكا عظيما قد أعلم

عليه وكتب مكانه تاريخ جندى مجهول أو رجل مغمور ، وكتب فى آخره أنه أولى بالذكر ، ورأيت فى أول تاريخ كل قرن صفحات بيضاء كتب بالأحمر عنوان كبير : « الشعب فى هذا العصر » ثم لم يُكتب شىء . — وأحيانا تفصيلات كثيرة عُلق عليها بأن من غفلة المؤلف أنه ذكر المسببات وأهمل الأسباب ، وكان فى ذكرها الكفاية .

ووقع فى يدى — خطأ — كتاب فى « الطبيعة » ، قرأيت فى آخره تعليقاً واحداً ، وهو أن « هذا علم صحيح بالنسبة لزمنه وستكشف الأيام خطأه » .

وأسرعت فاشتقت إلى الوضع الثالث من المنظار ، وهو الوضع الذى يرى الدنيا على حقيقتها ، واستحسنت أن أرى هذا المنظر فوق سطح بيتى ؛ فصعدت والقمر ساطع ، والجو ساكن ، والدنيا نائمة ، فحركت المسمار ، فإذا بالسقف يئز من تحتى ، ودخان كثيف يملأ الأفق ، والجو ينذر بحادث فظيع أنا مقدم عليه ، فلم أتمالك نفسى وارتجف قلبى ، ولم أشجع على مواجهة ما سيكون ، فقلبت المنظار ، ونزلت من السطح سريعا ، وأحضرت المصباح وحككته ، فظهر العفريت . فقال : لبيك !

فقلت : خذ هذا المنظار واكسره ، لخير لى أن أعيش مغفلا جاهلا فى وسط مغفلين جاهلين ، وفى كتب مغفلة جاهلة ، من أن أعيش عاقلا فى وسط كل هذه الغفلة والجهالة .

تبسم العفريت ، وقال : أتذكر يسمتى يوم طلبت طلبتك ؟

قلت : نعم :

قال : هذا ما كنت أتوقع ، وهذا سر ابتسامتى ، لخير لك أن تطلب منى ما كان يطلبه الناس من أن تتفلسف فى الطلب ، وتتسامى فى العرض .

أأحضر لك كنزا من الذهب .

قلت : لا

قال : فأحجارا كريمة .

قلت : لا .

قال : فزوجة شابة جميلة .

قلت : اخفض صوتك ، لا .

قال : فجاها عريضا .

فغضبت من كثرة العرض وكثرة الرفض .

وصرخت فيه لا لا لا بأعلى صوتى .

فانتبهت من النوم وأنا أقول لا :

وحزنت على الرفض فأغمضت عينى وقلت : « طيب هات » ، ولكن الأمر كان قد فات .

فقمت آسفا ؛ وأنفى يعطس ، ورئتى تسعل ، وجسمى مهدم من سوء ما لاقيت من الأرق ، والزكام ، والأحلام ؛ وقد نذرت إن عثرت بمصباح علاء الدين مرة أخرى لأطلبن ما يطلب الناس .

وأدرت التليفون لأطلب صديقا لى متخصصاً فى تفسير الأحلام على مذهب « فرويد » فلم أجده . فقلت : « بركة ياجامع »

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
د. عبد الواحد خلوف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥	فى مصر والسودان
٣٧/٥	الطلبة وعلمي الإلزام
٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١٥ مليما

الانسان المُعجِز

يشغل «الإنسان» في عقول الباحثين والمفكرين مكاناً محترماً لا يدانيه في الاحترام مكان الحيوان والنبات. وليس ذلك للكرامة الإنسانية ذاتها، فالعلم لا يعني بالكرامة بقدر ما يتوخى الحقيقة ويبحث عن الأصول. ولكن لأن البحث أثبت إلى الآن أن مشكلة الإنسان أغوص من غيرها من مشاكل الحيوان والنبات.

والإنسان في هذه الدنيا وجد بعد أن وجدت، وسيفنى قبل أن تفنى. وقد عاشت الدنيا طويلا، ولا نعلم في أي فصل من فصول الحياة هي، لأننا لا ندري نسبة ما عاشت إلى ما يمكن أن تعيش. وقد قيل إنها بلغت الآن من العمر ملايين من السنين، وقد لا تزال مع ذلك في طفولتها، وقد تكون في ميعة الصبا وشرخ الشباب، وقد تكون أوتيها الشيخوخة من أمد طويل وأشرفت الآن على العقم، وقد تكون قد بلغت من العمر أرذله فهي الآن عجوز شمطاء، لكن الشيب يختفي معارف وجهها، فهي ما تزال «الدنيا»؛ إن أقبلت أسعدت، وإن أدبرت ولى معها الهناء.

على أن عمر الإنسان يختلف عن ذلك، والبحث في كم ألف سنة أخرى يعيش قد تناوله المفكرون. وقد عاش إلى الآن في زعم البعض مئات الألوف من السنين، وإن كان العلم لا يسرف كثيراً في الأرقام ولا يعتد إلا بالحقائق. ومن الحقائق تلك الحفريات من عظام ومحار وأداة. وقد أثبت بعضها أنه كان قبل عشرات الألوف من السنين أناس يعيشون في أوربا، وأنه كان قبل مائة سنة غيرهم أقل منهم مرتبة في البشرية؛ لأنهم كانوا، في وصف العلم، على صورة الحيوان، وإن ارتفعوا في التفكير عن مستواه، واتخذوا من صنع أيديهم أدوات.

وقد قسم الجيولوجيون عمر الأرض إلى أزمنة، ولا أزعم معرفة هذه الأزمنة وعصورها. ولكني قرأت أنه وجدت في الزمن الثالث أدوات، يُظن أن الإنسان استخدمها. وليست الأدوات في ذاتها بالتي تدل على وجود الإنسان؛ فقد يكون الإنسان عاش في أزمنة يلي ما خلفته من حفريات من أمد طويل. وفي الأشياء ما لا يدل عليه وإن كان من الممكن أن يكون استخدمه قبل أن يلم بالمبادىء الأولية لصناعة الأدوات البدائية.

والعلم على كثرة ما كدَّ في البحث من أذهان لم يهتد إلى أصول نشأتنا «الحيوانية»، وكل ما اهتدى إليه على سبيل التخمين هو أننا من فصيلة في عالم الحيوان كانت في مراحل تطورها الأول تحمل كل أمارات «الحيوانية»، لكنها كانت أكثر استعدادا وقابلية للتقدم فتقدمت وبلغت هذا العلو الكبير الذي يتربع فوقه إنسان اليوم المتمدين، وإن كان ما يزال يحتفظ «بحيوانيته» لتأدية وظائفه الإحيائية.

وعلى كل حال فقد بات الإنسان ما بات، وثبت أنه على رغم حيوانيته خير السلالات. وقد تخصص في الحيوان ما يخدم تخصصه غرضا واحداً؛ وتخصص النوع البشري فيما يخدم كل الأغراض. فالسمكة إخصائية في العوم، والطائر إخصائي في الطيران، والحصان إخصائي في الجري. بيد أن الإنسان قد يبز هذه الأنواع الأخصائية أصلها وأكلها، فهو فيها إخصائي في المخ.

والتطور الذي أشرنا إليه إلى الآن قد كان تطوراً حضاريا، فكيف كان إذن تطوره في الخلقة؟ إنه يقال إن حصان اليوم ذا الحافر خرج من حصان الأمس ذي أصابع الرجل الخمس. ولكن كيف انقلبت أصابع الرجل الخمس إلى حافر؟ فهذا لم يفسره العلم إلى اليوم التفسير الشافي؛ وكذلك الحال في الإنسان. ومهما تكن الصورة التي تدرَّج بها أجدادنا في تطورهم؛ فإن الميل الطبيعي إلى الارتقاء التدريجي في الإنسانية لا يبدو جليا كل الجلاء، إلا في المدة الوجيزة التي تتناول مائة ألف السنة الأخيرة. وهي الفترة التي يمكننا فيها أن نتتبع تطور الإنسان البدائي إلى إنسان اليوم المتحضر.

وقد بحث داروين ولامارك في أصل الأنواع، لكنه لا الداروينية ولا اللاماركية قد وضحت التوضيح الكافي كيف نشأ على سبيل المثال الهيكل العظمي للحيوانات

القيرية من الهيكل الغضروفي المرن الذي كان لأسلافها .

وقد ابتكر البحث شيئاً اسمه الفيتالزم Vitalism كنظرية لقوة فعالة من قوى الحياة ، وتساءل : ألا يمكن أن يرجع هذا التطور من ذي أصابع الرجل الخمس إلى ذي الحافر ، ومن الهيكل الغضروفي المرن إلى الهيكل العظمي — ألا يمكن أن يرجع هذا التطور إلى الفيتالزم ، أو تلك القوة الفعالة من قوى الحياة ؟

على أن البحث لم يصل في تلك المسألة العويصة إلى نتيجة تفي بحال ، وما تزال مشكلة الحياة في المشاكل التي تكتنفه وقد تظل بلا جواب . لكن شيئاً لا يصد الباحثين فيها عن البحث والتماس الجواب .

والذي يهمنا الآن هو نشأة الإنسان في ذاته ، أي من طريق التناسل ، ومبادىء ذلك معروفة إجمالا . فكل حيوان وكل نبات وكل إنسان قد ولده أبوان ، وورثاه عتادهما من الاستعدادات والخواص . فالفرس تلد أمهارا ، وثمرة البلوط تنبت شجرة البلوط ولا تنبت غيرها ، والهرة لا تلد كلابا ، والكلب الذئبي لا يلد كلبا من فصيلة بزار . وكذلك الحال في الإنسان .

فالأبوان الزنجيان لا يلدان إلا أطفالا زنوجا ، والأبوان الأشقران من أوربي الشمال الخلص تولد أطفالهما على غرارهما .

وهذه النشأة تثير مسألة من أهم المسائل ، وهي مسألة وراثة الاستعدادات والخواص . وقد كانت إلى عهد قريب لا تستند إلا إلى ملاحظات ومشاهدات قائمة على الاعتقاد . أما اليوم فالبحث فيها علم من العلوم . وهو في العلوم أحدثها وأصغرها سناً ، وقد صادف البحث فيه عقبات كان أعظمها ما يتعلق بالإنسان . ذلك أن الإنسان في وسعه أن يرى النوعين الآخرين ويراقبهما أجيالا متتابعة ، وأن هذين النوعين (الحيوان والنبات) ينفردان تقريبا بتوريث كافة مميزاتهما . فالأرانب البيض الخلص ذات الشعر الأملس تنجب في الجيل التالي أرانب على غرارها ، والأرانب السود ذات الشعر الخشن تفعل ذلك أيضا ، فإذا تزاوجت هذه وتلك أنجبت أولا خليطا يجمع هذه المميزات الأربعة .

بيد أن الإنسان يختلف في هذا عن الحيوان والنبات بأنه لا يورث ذريته كل مميزاته ، وأنه يورث من المساوىء أكثر من المحاسن . فقد انتهى الباحثون والأطباء من دراسة حالات مفردة في الأسرة الواحدة إلى حقائق كان معظمها يتناول استعدادات بشرية شيئة تتوارثها الذرية ، كالاستعدادات المرضية والشواذ الجثمانية . فأمراض العين والصمم والدم والقلب والأمراض العقلية والقماءة وكثير غيرها من حالات المرض والانحطاط قد أمكن تعقبها أجيالا عديدة في أسر عديدة تناولها الفحص .

على أن أول ما جمع من الملاحظات الدقيقة قد كان في ميدان المواهب البشرية الإيجابية . وأول من شق الطريق في هذا الميدان المترامي الذي تصعب الإحاطة به فرنسيس جالتون ؛ فإنه قبل أن يوجد بحث منظم في مسألة الوراثة رتب إحصاءات لما يتصل به ٤١٥ رجلا نابغا من صلات الرحم . وقد وجد أنه في الثلاثمائة الأسرة التي ينتمي إليها هؤلاء النوابغ ١٠٠٠ رجل بارز ، وأن لمائة رجل نابغ في المتوسط ٣١ أبا و ٤١ أخا و ٤٨ ابنا و ١٧ جدا و ١٤ حفيدا ذوي شأن .

وقد فهم جالتون النبوغ فهما جعله يتوقع نابغة في كل أربعة آلاف نفس عاشوا في وقت واحد . لكن ما توقعه كان أقل من الواقع كثيرا . وقد توقع في مائة الأب الذين أنجبوا مائة من المشاهير نسبة قدرها ٢٥ في الألف من النابغة ، فكان أن وجد ١٧ نابغة . وهو فرق كبير جدا بين المتوقع والواقع ، يدل دلالة صريحة على أثر الوراثة . وقد جاءت نتائج البحث بعد جالتون مصدقة لما انتهى إليه ؛ وعزز هذه النتائج مجموعة من الملاحظات أظهرتها اختبارات الذكاء ، والمقابلة بين الشهادات الدراسية للآباء والأبناء مع استبعاد عنصري التعليم والتربية ، ومراعاة القوى العقلية الفطرية فحسب . وقد ظهر أن الأبناء الذين يولدون من آباء ضعاف العقول (وهم كثير في الغالب) هم في كثرتهم الغالبة أيضا ضعاف عقول ؛ كما ظهر من عدة حقائق واقعة أن الوراثة في الذكاء ، والانحطاط الذهني ليست بنسبة واحدة .

ومجرى الوراثة في بعض الكتابات الممتازة معقد

لأن هذه الكفايات تكون أحياناً على صور مركبات أو طائفة كاملة مجتمعة من المواهب. مثال ذلك العبقرية الموسيقية: فهذه الموهبة السامية التي تبدو كأنها وحدة لا تتجزأ، خليقة بالتأمل الدقيق أن تتحلل إلى عدة مواهب مفردة. فالحساسية لما بين درجات النغم من تفاوت إن رفعاً، وإن خفضاً، والتأثر بالتوافق والتنافر، والفطنة إلى تتابع النغم، والشعور بالإيقاع — كل أولئك مواهب من مكونات العبقرية الموسيقية. فإذا ورثها عبقري موسيقي ابناً أو أبناء له مجتمعة كما ركبت فيه، ومعها غيرها، أمكن أن يكون هذا الابن أو هؤلاء الأبناء نوابغ في الموسيقى. وأسرة باخ في ذلك مضرب المثل.

وليتصور المرء كم من المواهب والخواص المختلفة يجب أن تتوفر في إنسان ليكون زعيماً اقتصادياً. فالنشاط في العمل، والمقدرة على التنظيم، والمثابرة العنيدة، والاستمرار، والإقدام الوثاب الذي يرجح الحذر الواقي في حالات كثيرة، ليست كل ما يلزم الرجل لتجعل منه نابغة ينشئ بمجهوده الشخصي مؤسسة صناعية كبرى أو يتعهد مثل هذه المؤسسة ويديرها إدارة ناجحة. بل إنه يجب أن تتوفر فيه قبل شيء تلك الملكات التي تطوع له جمع المال: كالادخار، وحسن التصرف بالأموال، والتمييز الفطري بين ما هو جيد وما هو رديء من رؤوس الأموال، وتحسس فرص الكسب، والقدرة على الإعلان، وإرادة السلطة والسلطان.

والآن نتساءل كيف يحدث التوريث وتتم الوراثة في هذه الملكات والاستعدادات والخواص.

نحن نعلم أن كل كائن حي وكل إنسان يخلق من خلية واحدة؛ من شيء لا يرى بالعين المجردة. لكن ملايينه بل بلايينه تؤلف جسمنا البشري. وهذه الخلية الواحدة المؤلفة في الواقع من خلية من ملايين الخلايا المنوية، وأخرى من الخلايا البيضية — خلايا الأنثى — تسمى خلية البيضة المخصبة أو الخلية الأولى أو اللاقحة Zygote. وهذه تستقر في الرحم وتنقسم في غشائه الواقي وسائله الغذائي إلى أنصاف خلايا، والأنصاف إلى الأرباع وهلم جرا. فتتكون أخيراً كتلة من الخلايا تأخذ هي أيضاً في الانقسام كل خلية بمفردها، فتنمو هذه المؤلفة بأسرها، وتتكاثر، وتقطع كل مراحل تطورها الجنيني المعروف إلى أن يخرج الجنين بشراً سوياً.

هذا بالإجمال ما يقع. لكنه لا تكفي في تفهمه مجرد الإشارة؛ فالمعلوم أنه على أثر تخصيب بيضة الأنثى تنعزل أثناء عملية الانقسام الخلوي طائفة صغيرة من الخلايا المخصبة في مكان تنشأ فيه فيما بعد أعضاء التناسل، وتظل هناك دون أن تشترك في عملية التخصص العام ودون أن تأخذ هي أيضاً في الانقسام. وعملية التخصص هذه هي التي تنشئ في الجسم خلايا الفم وألياف العضل وأنسجة العظام الخ. فبينما تأخذ سائر خلايا الجنين في هذه العملية تظل تلك الطائفة الصغيرة التي أشرنا إليها محفوظة على حالتها الأصلية للتناسل المقبل وضماناً لاستمرار جبلة النواة الجرثومية أو مادة الوراثة. وتظل هذه المادة بعيدة عن التأثر بأي تغيير يصيب الجسم ولو كان بعيد المدى. فقد تبتر ساق إنسان فلا يمنع ذلك أن يأتي أولاده إلى العالم كاملي الخلقة والأعضاء.

هذا تفصيل بعض ما يجري في ذلك العالم الصغير الذي نسميه رحم الأمومة، فكيف يحدث أنه لا يشبه الأطفال أبويهم أو بعضهم البعض شبهاً تاماً؟ وكيف يختلف الأخوة بعضهم عن بعض في وراثتهم لخواص الوالدين واستعداداتهما فيرث أحدهم كل المزايا ويرث الآخر كل التوافه، وتتوزع بين الجميع صفات الأبوين توزيعاً غير متساو إذ كان مرجعه إلى الحظ وإلى الصدفة وحدها؟

هذه وغيرها من المسائل لا يطوع لنا نطاق «الثقافة» تناولها في مقال واحد، وقد عالجها ضمن كتاب شامل باحث ألماني فذ، كانت فيه تمهيداً لموضوع جليل هو مستقبل الحضارة ومستقبل الفن الآلي — بل مستقبل الإنسانية جمعاء. و«بشر المستقبل»، هو اسم هذا الكتاب الذي عارض به البحاثة العظيم جونتر جريندل Guenthea Gruendel كتاب سبنجلر المشهور «سقوط الغرب» وسنعني بآرائه كلما سنحت الفرصة على صفحات هذه المجلة؛ فهو كتاب غني بطرافته، مدعم بالأدلة، خال من التزويق.

محمود الدسوقي

على هامش النقد العربي :

بين اللفظ والمعنى

لعل الجاحظ هو أول من أثار من نقاد العرب مشكلة اللفظ والمعنى إثارة واسعة ، فقد تحدث عنهما في كتبه أحاديث كثيرة . وهو في كل شيء من هذه الأحاديث يرفع من شأن اللفظ ويغض من شأن المعنى ، بل إنه ليسقطه إسقاطا ، فليس له فضل ولا مزية ، ولا قيمة فنية . وانظر إليه يقول في هذا الصدد : « المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولته وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير » . وقرن التصوير بالصياغة في تعريف الشعر جعل كلمة اللفظ تشمل الصور البيانية عند جميع النقاد الذين خلفوا الجاحظ ؛ فهم حينما يتحدثون عن اللفظ يريدون الجانب المادي وما ينطوي فيه من صور وأخيلة .

ويعجب الإنسان إذ يرى الجاحظ يذهب هذا المذهب وهو ممن عرفوا قيمة المعاني وشرفها وطرافتها ؛ بل ربما كان أهم كاتب في عصره عني بمعانيه ، إذ كان يوفر لها كل ما يمكن من جدة وطرافة ، وهو حقا يعنى بألفاظه ولكنها عناية تابعة لمعانيه ، إذ نراه يحدث فيها ضروبا من البسط والتكرار حتى يؤدي أفكاره أداء دقيقا . ليس الجاحظ من الكتاب اللفظيين ، هو يعنى بألفاظه ولكنها عناية محدودة فهي لا تنسيه معانيه ؛ بل لعله يعنى بمعانيه وما تتشعب إليه من شعب وما تتفرع إليه من فروع أكثر مما يعنى بأساليبه وأن تظهر في صور وشيقة ومعارض أنيقة . ولقد كنا ننتظر منه أن يشيد بالمعنى قبل إشادته باللفظ ، أو على الأقل أن يجمع في إشادته بين الطرفين المتجاذبين ، فيدعو للمعنى كما يدعو للفظ ، ولكن المسألة في الواقع لم تكن مسألة مذهب أدبي فقط يدعو إلى تطبيقه ، بل كانت مسألة مذهب ديني .

لم يكن الجاحظ يعتنق فكرة اللفظ كمذهب أدبي ، بل كان يعتنقها قبل كل شيء ، كمذهب ديني ؛ فقد كان المتكلمون من حوله يتحدثون في مسألة إعجاز القرآن وكان كل منهم يحاول أن يفسرها بوجوه وعلل يستنبطها ، وكانوا كلما عثروا على وجه أو علة ردت عليهم فرق الزنادقة ردودا توشك أن تنقضها .

فكر المتكلمون في مسألة الإعجاز وقد دارت بينهم آراء كثيرة ، قالت طائفة : إن القرآن معجز بمعانيه ، ولكن ماذا يراد بالمعاني ؟ لئن كان يراد بها القصص ، فالقصص موجود في التوراة وهي ليست معجزة ، وإن كان يراد بها الحكم فكتب زرادشت فيها حكم كثيرة ، وهذا ابن المقفع يستطيع أن يكتب كتابا كله حكم وأمثال . من أجل ذلك كله رأى المتكلمون أن الاحتكام في بيان الإعجاز إلى المعاني خطر ، فهو يؤدي إلى اعتراضات كثيرة لأن المعاني مشتركة بين الأمم . حينئذ خرج النظام يقول إن إعجاز القرآن بالصرفة فالعرب كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولكن الله صرفهم عن ذلك ، غير أن هذه العلة لا تشفي النفس المؤمنة ، بل إنها تؤذيها ، وقد آذت الجاحظ فيمن آذت ، فأبى أن يأخذ رأي أستاذه وذهب مغاضبا يبحث عن علة صحيحة ، وكان أن هداه تفكيره الدقيق إلى مفتاح يفتح به باب هذا الإعجاز الذي كان يدنو منه أستاذه النظام وغيره من المتكلمين ، وسرعان ما يرتدون عنه يائسين أن يقتحموه ، أما هو فقد فتحه على مصراعيه بهذا المفتاح الطريف الذي سماه في كتبه باسم النظم .

ذهب الجاحظ إلى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه ، ففي هذا الجانب يستقر جماله الفني الذي أعجز العرب أن يأتوا بمثله ، وقد اندفع يشيد في الأدب كله باللفظ ، فهو وحده معيار البلاغة لا المعنى كما يظن بعض الناس ، فالمعاني مطروحة في الطريق تلقى بين العرب والعجم والبدو والحضر . وقد أخذ الجاحظ يرفع في كتبه من شأن اللفظ ويحتج له احتجاجا شديدا تارة بما يذكره من آرائه ، وتارة بما يقص من آراء غيره من الأدباء أصحاب البيان والتحبير . فمن ذلك ما نقله عن الرابيين إذ كان يقول في إحدى عظاته : « أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ،

ومنحه المتكلم قولا متمشقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى ، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدار ما زينت وعلى حسب ما زخرفت» . فاللفظ الرشيق الأنيق يؤثر في القلوب تأثيرا شديدا ، تأثير السحر الذي يبهر العقول ، فإذا بك ترى المعاني والأفكار بصور جديدة غير صورها وفي حلية ترقى بها على حقائق أقدارها

وعلى هذا النمط أخذ الجاحظ يوثق دعوته إلى اللفظ وتحيزه عما يصور من آراء الأدباء والنقاد ، وقد تعقبه ابن قتيبة خصمه العنيد فذهب في مقدمة كتابه الشعر والشعراء إلى أن البلاغة غير مقصورة على اللفظ ، فهي قد تكون فيه فقط ، وقد تكون في المعنى هو الآخر فقط ، وقد تكون فيهما جميعاً ، وقد تنقصهما جميعاً . ليس اللفظ وحده هو الذي يعطي النماذج الأدبية قيمتها من فن وجمال ، فالمعنى يشركه في ذلك سواء بسواء ؛ إذ يوصف بالرداءة والقبح كما يوصف بالجودة والجمال . وانتشرت فكرة ابن قتيبة وتأثر بها كثير من النقاد من مثل قدامة فقد تكلم في كتابه نقد الشعر عن جودة اللفظ ورداءته وجودة المعنى ورداءته ، كما تكلم عن ائتلافهما وما قد يعتور هذا الائتلاف من ضعف . وكذلك ذهب هذا المذهب أبو هلال في كتابه الصناعتين ، فقد احتفل باللفظ والمعنى جميعاً ، أما المعنى فعقد له فصلا بين فيه متى يكون حسناً مستقيما يقبله النقاد ومتى لا يكون . ولكي يدل على قيمته ذكر أن من عرف لغة أجنبية غير لغته مكنته من التنويع في أفكاره والتصرف في معانيه على نحو ما كان من عبد الحميد الكاتب فإن معرفته باللغة الفارسية كانت سبباً مهماً في جودة ترتيبه أفكاره ومعانيه ، ثم رجع فعقد فصلا آخر للفظ نقل فيه بعض عبارات الجاحظ مبينا قيمته وما يضيفه على النماذج من آيات فنية باهرة . وبذلك جمع أبو هلال في كتابه بين الدعوة للفظ والمعنى وكأنه كان يرى أن البلاغة حظ مقسوم دائر بينهما جميعاً .

وواضح أن هؤلاء النقاد السابقين فصلوا بين اللفظ والمعنى إذ تحدثوا عنهما كشيئين منفصلين إلا أن ذلك — فيما يظهر — لم يقع من نفس ابن رشيق موقعاً حسناً ، فرأيناه في كتابه العمدة يقول في فصل فتحه لبحث مشكلة اللفظ والمعنى : إن اللفظ جسم وروحه المعنى ، وكما لا يمكن الفصل بين الجسم والروح كذلك لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى . ويستمر فيشبه ضعف اللفظ بضعف الجسم وما يعتريه من الشلل والعور كما يشبه ضعف المعنى بمرض الروح وتأثيره في الجسم . لم يعترف ابن رشيق بالفصل بين اللفظ والمعنى كما صنعت جمهرة نقاد العرب ، فقد كان يرى أنهما متلازمان وأن ما يصيب أحدهما من آفة يصيب الآخر . وليس من شك في أن تلك نظرة دقيقة ، فاللفظ إذا وصف بالغرابة أو الابتذال كان ذلك وصفاً للمعنى الجاثم وراءه ، وكذلك الشأن في المعنى إن وصف بالوضوح أو الغموض كان ذلك وصفاً للفظ الذي يكشفه ويجلوه . ليس اللفظ والمعنى شيئين منفصلين كالكأس وما يكون فيها من شراب ، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته ، غير أن نقاد العرب لم يلتفتوا إلى ابن رشيق وفكرته ، وظلوا مشدودين إلى الفكرة القديمة فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، وقد استمرت كثرتهم تقف في صف الجاحظ وما يقول به من أن اللفظ هو كل شيء في الأدب حتى لنرى ابن خلدون في القرن الثامن الهجري يذهب مذهبه ويدعو دعوته !

وقد كان لشيوع هذه الفكرة واستقرارها في نفوس النقاد والأدباء آثار مختلفة ، أما من حيث النقاد فإنها لونت أبحاثهم بلون خاص ، جعلتهم يعنون باللفظ عناية واسعة كادت أن لا تترك فيهم بقية لبحث جوانب أخرى في النماذج الأدبية . ويجد القارىء الكريم دراسة مفصلة في كتاب المثل السائر لابن الأثير تستوعب كل ما وضعوه من قواعد وأصول في بحث اللفظ وما ينطوي فيه من قيم فنية مختلفة . وإن من رجع إلى هذه الدراسة ليلاحظ أنها مع اتساعها لم تلم بكل ما كان يحسن أن يلم به في هذا الجانب ، وذلك لسبب بسيط جداً هو أنهم بحثوا اللفظ كشيء منفصل عن المعنى قائم بنفسه مستقل تمام الاستقلال ، فلم يربطوا بينهما أي ربط ولا بحثوا في تشاكلهما أي بحث إلا إشارات طائرة حين يتكلمون عن الجزالة والرقة والإيجاز والإطناب . ولكنها إشارات قلما أفدت شيئاً ، ونحن

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعليَّ تبعته وحدي ... ... »

رسالة الأديب — جيش العروبة — المؤتمر العربي — تعبئة الأسلوب ! ... ...

رسالة الأديب :

في العدد ٥٠٨ من مجلة الاثنين :

« قررت الحكومة البلغارية تعبئة رجال الأدب والصحافة وجعلت الحد الأدنى لما يكتبه كل منهم في الشهر عشر مقالات ! » .

وهو خبر طريف من شأنه أن يثير انتباه كثير من أهل الفضول أو من أهل البحث والنظر ؛ وإلا فقيم تقرر حكومة من الحكومات تعبئة رجال الأدب والصحافة ... في أي غرض ؟ ولأي معنى ؟ وإلى أية غاية ؟

... وكيف وهي حكومةُ بلادٍ تتجاذبها تيارات الحرب من اليمين والشمال ، ويتربص بها القريب والجنيب ، وتتنازعها عوامل الخوف والقلق ؛ فأبناؤها في الداخل شيع ، وعدوُّها على الحدود متربص ، وحليفها النازلُ في أرضها يحكم حكم السيد ، ويتصرف تصرُّف الفاتح المتسلِّط ؛ فهي من أعدائها ومن حلفائها بين شقَّي رحىً إن دارت يميناً سحقت ، وإن دارت شمالاً حطمت ، وقد وقف كلُّ جندي منها في ثغره شاكي السلاح ، مشحوذ العدة ، قد انقطع من ماضيه ومن غده ، فما له عمر ولا فكر إلا في الساعة التي يعيش ...

... بلادٌ في مثل هذا الحرج الماثل تُقرر حكومتها « تعبئة » رجال الأدب والصحافة ؟ ... أهذا أوانه ؟ ... وأين مكان رجال الأدب والصحافة من ذلك الهول الهائل ، والفزع الذاهل ، والخطر القريب ؟ ...

نعم ، هذا أوانه ، وذلك مكانه !

لا ريب في أنهم لو عنوا حقاً بهذا الجانب من الصلة بين اللفظ والمعنى فدرسوه دراسة مستفيضة لخرجت إليهم أبحاث كثيرة في التشاكل بين الفكرة وما يمثلها من صوت ، والوزن وما يلائمه من موضوع ، فكنا نعرف أي الأوزان يصلح للغزل أو الرثاء مثلا وأيها لا يصلح وأي الشعراء يمثل معانيه في ألفاظه وأيهم لا يمثل ، غير أنهم شغلوا عن ذلك كله بأبحاث نظرية في اللفظ فتلك كلمة غريبة في السمع ، وتلك أخرى ثقيلة في النطق وقلما حاولوا أن يدرسوا اللفظ دراسة صوتية عميقة تربط بينه وبين قائله أو تربط بينه وبين موضوعه .

هذا فيما يختص بالنقاد وأبحاثهم . أما فيما يختص بالأدباء ونماذجهم فإن شيوع هذه الفكرة ورسوخها في أنفسهم جعلهم أدباء لفظيين يعنون بتحبير اللفظ وتنميقه وخلع كل ما يمكن من وسائل الزخرف والزينة عليه ، أما المعنى فقد انصرفوا عنه أو كادوا . أليس ملقى في الطريق يمكن كل شخص أن يعثر عليه كما يقول الجاحظ ؟ إنه ليس إذن الجانب الطريف في النماذج الأدبية ، إنما الجانب الطريف حقاً الذي تظهر فيه مهارة الأدباء ويتفاوتون من أجله تفاوتاً عظيما هو اللفظ وما يتصل به من تجويد وتحسين ، وبذلك أصبح الأدباء ، وخاصة بعد القرن الرابع الهجري يعنون بأساليبهم ولا يعنون بأفكارهم إلا في القليل النادر ، فقد أصبح الأساس أن يعنى الأديب بتعبيره لا بتفكيره ، وأن ينمق هذا التعبير بكل ما يمكن من وشي وتطريز . ومن العبث أن تبحث بين هؤلاء الأدباء عن كاتب أو شاعر يزاوج بين حسن التعبير وحسن التفكير ، فقد انصبت عناية الكثرة على اللفظ وما يتصل به من المعارض الأنيقة ، وقلما سمعنا صوتاً يرتفع بالعودة إلى جمال المعنى كما كان الشأن في القرنين الثاني والثالث ، فقد استغرق النفوس أن الجمال المستتر جمال الروح والمعنى لا قيمة له ، إنما الشيء القيم حقاً هو جمال الجسد واللفظ وما يتصل بهذا الجمال من حلي ووشي وترصيع . وسرعان ما أصبح الأدب العربي تحت تأثير هذه الدعوة ورسوخها في القلوب أدب مادة وحسن وزخرف فلم تعد تظهر فيه عناية بمعان جديدة ، ولا موضوعات جديدة ، إذ ولى الأدباء وجوههم نحو اللفظ فهو معيار الجمال ، وواجب الأديب الممتاز أن يوفر له كل ما يمكن من ألوان الوشي وأصباغ الزينة .

شوقي ضيف

وإن رجال الأدب والصحافة تملكون الوسيلة حين يعجز الجندى الشاكى السلاح ، المشحوذ المُدة ... يملكون أن يردُّوا النفوس الحائرة إلى الهدى ، والأعصاب الفاترة إلى القوة ، والقلوب المريضة إلى سلامة الأمل وحلاوة الرجاء ، وأن يَهبُوا العزم لمن لا عزم له ! ...

ثم ، ذلك أوان رجال الأدب وهذا مكانهم من ذلك الميدان ، وإن للأديب فى مثل هذا المعترك الحرج لأثراً فى القلوب أنفذ من أثره فى رخاء الحياة وسلامة الأمن والدعة ؛ فليت الذين يسرفون ظالمين فى ملامة أهل الأدب عندنا على ما يغفلون من جهد الفن حين تجدُّ الحياة أو تهزل ، يستيقنون هذه الحقيقة ! ليتهم يستيقنون أن الأديب الحق تملك من قلوب الناس ما لا يملك صاحب السلطان ، ومن وسائل الدفاع ما لا يملك حامل السيف ، وإنه لجدير بهذين أن يكون لأمته فى الشدة عدة وفى الرخاء جاهاً وثروة !

جيش العروبة :

ذكرتُ ذلك ، وذكرت إلى جانبه تلك المحادثات التى تدور منذ بضعة أشهر بين رجال السياسة فى الشرق العربى لتوثيق أواصر الإخاء بين الأمم العربية ؛ ثم سألت نفسى : أين مكان أدباء العربية فى هذه المحادثات ، وأين رأيهم بين آراء أصحاب السياسة ، وأيهم دعته أمته لتسمع منه ، أو ندبته ليُسمع عنها ؟ ...

... وليست الوحدة العربية من حديث السياسة أكثر مما هى من حديث الأدب ، ولقد شغل أهل السياسة زماناً من ذلك الشأن ولم يشغل أهل الأدب لحظة ؛ ومن حديث أهل الأدب منذ بعيد كان امتداد حديث أهل السياسة فى هذا الأمر الجديد ، فكيف غابت هذه الحقيقة عن أهل السياسة جميعاً فى الشرق العربى حين أخذوا فى حديث الوحدة ، فلم يدعوا باحثاً من أهل الأدب ولم يستمعوا إلى رأى أديب ؟

ويجيب المجيب ، وكأنه يزعم أن للسياسة فى مثل هذا الشأن فناً غير فن أهل الأدب ، فما يستطيعه الساسة من أسباب المداورة وفنون الجدل والاحتيال للمدخل — لا يستطيعه الأدباء ؛ والسياسة كتمان وحيلة ، والأدب كلام ...

... ولعل ما يُجيب المجيبُ حق ، ولكن ثمة معنى آخر يجب أن يقوم بإزاء ذلك المعنى ، هو أن على الأدباء وحدهم فى غد الواجبَ الأول فى تحقيق الوحدة المأمولة معنى وغاية ، كما كان ذلك واجبَهم الأول منذ الماضى ؛ فهل يستيقن هذه الحقيقةَ ساسةُ الأمم العربية ؟ إن كان فإن عليهم منذ اليوم أن يحشدوا جندهم وأن يقرروا « التعبئة » !

إن هذا الجيش من المتطوعين الذين يعملون لتحقيق الوحدة العربية منذ سنين قد آن الأوان لتنظيم قيادتهم ليمضوا جميعاً على خطتهم إلى هدف : قد آن أوان الاعتراف « رسمياً » بهذا الجيش لتحقيق الأغراض العظيمة التى يخفق بها قلبُ كل جندى فيه خفقة أمل وقوة ؛ فإن كتيبة هنا وكتيبة هناك لا تعرف إحداها أين تلتقى بأختها وأين ، وكانت كلتاهما حقيقة بأن تعرف ، لتعرف كلتاهما أين تمضى وأين تبلغ ، فلا يتراشق الأخوان فى الظلام ويحسب كل منهما أنه يحارب عدُوا ، كما حدث ذات مرة بين جندى فى مصر وأخيه فى لبنان ! ...

ولكن ، أين السبيل لتوحيد القيادة ؟ ... لا لا ! إن الحكومات العربية لا تملك من أسباب ذلك أكثر مما نملك نحن الجند . ليس ينبغى أن تدخل حكومةٌ من الحكومات فى هذا الشأن ؛ نحن الذين نعمل منذ سنين إلى التماس أسباب الوحدة العربية ليس ينبغى أن توجهنا حكومة من تلك الحكومات ؛ يجب أن تظل قيادتنا بأيدينا ؛ ولكنْ ، أين السبيل ؟ ...

المؤتمر العربى :

لقد دعوتُ ذات مرة إلى الرحلة ، وإلى التماس أسباب التعارف بالمراسلة ؛ ولست أعنى بالرحلة هذه الأسفار التى نتجهَّز لها فُرادى وقتما نشاء إلى حيثما نشاء ، فذلك شىء لا يتيسر على وجهه لطالبه فى كل حين ، وليس حقيقاً بأن يُحدث أثراً عامًّا ذا بال ؛ ولست أعنى بالمراسلة هذه الكتبَ التى أتلقاها مع البريد ولا أكاد أملك فراغاً من الزمن للرد عليها أو شكر مرسلها ، فأقرؤها ثم أطويها آسفاً بلا ردٍّ ولا جواب ، فإن ذلك لحقيق بأن يحدث جفوة أو

يحمل على مشقة ، بدل أن ينشيء وداً ويحدث ألفة ...

لست أعني تلك الرحلة ، ولا هذه المراسلة ، وإنما أعني أن يقوم على تنظيم الرحلة وأسباب الاتصال بالمراسلة جماعةٌ أو نادٍ من أهل الأدب فارغين له وقتاً من وقتهم على وجه من التعاون يُزيل الكلفة ويخفف المشقة ؛ فذلك نوع من تنظيم القيادة خليقٌ بأن ينشيء أثراً وينفع نفعاً.

... وثمة وسيلة أخرى قد بدأنا فيها بدءاً حسناً منذ بعيد ، تلك هي المؤتمرات العربية ؛ فليس ينكر أحد ما كان للمؤتمر الطبي العربي في دوراته المتتابعة من أثر في توثيق أسباب الاتصال بين الأطباء العرب . وقد قرأت منذ أيام حديثاً للأستاذ زكي عبد القادر في جريدة الأهرام يدعو فيه إلى مؤتمر المحامين العرب ؛ وقرأت في مجلة الاثنين أن الصيادلة المصريين قرروا الدعوة إلى مؤتمر يقتصر في هذا العام على الصيادلة المصريين على أن يُدعى إليه في السنين القادمة صيادلةُ البلاد العربية . ولعلنا أن نسمع غداً الدعوة إلى مؤتمر المعلمين ، ومؤتمر أصحاب الحرف والصناعات ، والمؤتمر التجاري ، ومؤتمرات أخرى ...

ولكن ، أليس عجيباً أن تجتمع هذه المؤتمرات كلها ، ولا يفكر أهل الأدب في مؤتمر لهم يجمع أدباء مصر إلى أدباء الشام والعراق والجزيرة العربية والسودان المصري وبلاد المغرب ، وهم قد كانوا أولى بالسبق ؟

مرة واحدة شهدتُ مثل هذا المؤتمر — أو على الأصح سمعتُ به — يوم اجتمع أدباء العربية من مختلف أقطارها منذ بضع عشرة سنة لمبايعة أحمد شوقي على إمارة الشعر . مرة واحدة ، وتوالت الأحداث والحوادث ، وتجددت المناسبات ، ولم يجتمع بعده في مصر ولا في بلد غيرها من بلاد العربية مؤتمر يضم أدباء هذه البلاد ؛ فهل يكون المؤتمر الذي يُعقَدُ له الآن في سوريا احتفاء بذكرى أبي العلاء هو المؤتمر الثاني ... بعد سبع عشرة سنة ؟

ولكني لا أستطيع أن أثبت على هذا الزعم طويلا ؛ فلا بدَّ من أن أصرح بأنه لا مؤتمر شوقي في سنة ١٩٢٧ ولا مؤتمر المعري في سنة ١٩٤٤ ، يُعَدّ مؤتمراً أدبياً عاماً ، إذ كانت الدعوة إلى كليهما لغرض بعينه لا عموم في معناه ، فإذا كان قد اجتمع في أولهما من اجتمع من أدباء العربية ؛ وإذا كان مقدوراً أن يجتمع في ثانيهما من يجتمع إن شاء الله ، فليس لشيء غير شوقي والمعري كان اجتماعهما ؛ وإنما نريد المؤتمر الأدبي الذي يجتمع في كل عام — في مصر أو في غيرها — لغرض عام لا يكتسب عمومه من اسم شخص يُحتَفى به أو يُراد تخليد ذكره ! فمتى يكون هذا ؟ أيكون يوم يجتمع مؤتمر التعاون الثقافي « الرسمي » قريباً في القاهرة أو في بغداد أو في دمشق ؟ ... ومتى يجتمع مؤتمر التعاون الثقافي ؟

أيها المتطوعون من جيش العروبة قبل أن يكون للوحدة العربية حديث على لسان وزير واحد من وزراء الأمة العربية ، هذه دعوة إليكم أدعوها ......

مجمع الأساليب :

بيني وبين زكي مبارك سبب من الود يُقرِّب بيني وبينه كلما حاول أن يُبعد ؛ فلا يحسبنَّ أحد من قراء هذا الباب أن شيئاً غير هذا المعنى يقوم بيني وبينه إذا رأوني لا أكاد أغفل عن ذكره في حديث الأدب والأدباء . وفي العربية شاعر يقول :

أدِرْ ذكرَ من أهوى ولو بملام !

فإن كان قد اتفق لأحد منهم أن قرأ شيئاً مما كتبتُ في هذا الباب عن « الشاعر الجزار » أو « شاعر الوحل » أو « الكاتب المجنون » ، فلا يحسب أن بيني وبين زكي مبارك خصومة ، أو أن بينه وبيني ... ولكن زكي مبارك رجل ظريف !

وقد كتبتُ منذ أسابيع كلمة عن « الكاتب المجهول » وكتب صديقنا الأستاذ محمد أحمد الغمراوي في الرسالة كلمة أخرى في موضوعها عاب فيها معابة وأحصى عليه مآخذ ؛ فكتب زكي مبارك بعد ذلك كلمة في العدد ٥٥٥ من الرسالة بعنوان « غيمة الأسلوب » يقول فيها :

« ... حاول ناس أن يقلدوا أسلوبي ليؤذوني ، كالذي يصنع الكاتب المجهول ، والكاتب المعروف ، والدكتور بديع الزمان و .... ، وهي أسماء رجال من

صحيفة الفكر :

كتب مترجمة

١ – ألوان من الحب : عبد الرحمن صدقى

٢ – المهاتما غاندى : اسماعيل مظهر

ألوان من الحب :

مجموعة من القصص تبلغ الاثنتى عشرة . ست قصص منها عن الأدب الروسى ، وهى : « نزوة هوى لإسكندر كوبرين ، ومبارزة لنيقولا ليسكوف ، وحبيبها لمكسيم جوركى ، والقبلة لأنطون تشيكوف ، والصمت والعضاض لأندرييف » . وأربع قصص من الأدب الفرنسى ، وهى : « القصر المهجور لبلزاك ، وأرملة وفى ضوء القمر والجواهر لموباسان » ، وقصة واحدة عن الأدب الأسبانى هى : لونان من الحب لبلاسكو إبانيز » وقصة واحدة موضوعة هى : « بلقيس ملكة سبأ لعبد الرحمن صدقى » .

وقد قدم لها مترجمها بمقدمة مختصرة مركزة نيرة ، تعد فى ذاتها فصلا تحليليا لخصائص القصة الروسية والفرنسية والأسبانية ، وللسمات الخاصة بكل مؤلف نقل عنه ، ونحن لانجد أننا نكشف عن منهج هذه المجموعة بخير من هذه المقدمة ، فنكتفى بأن ننقل منها بعض الفقرات .

« مهما يبلغ من صدق القول بأن الحب فى أصوله إن هو إلا قوة زوجية من شهوات الغرائز ، فإنه من تحرى الصدق فى القول أيضا أن يضاف إلى ذلك أن الحب قد تجاوز فى الإنسان طوره البدائى ، وأنه لم يعد مجرد حاجة جنسية ، بل تعداها إلى حال معقدة من العاطفة الوجدانية تنطوى على معان خلقية وروحية . وقد جاء هذا التطور – كما هو معلوم – من أن الانسان كما ابتعد عن حالة الفطرة الأولى فرض الاجتماع عليه من النظم والشرائع والآداب مايجعله فى نزاع مع ماركب فى طينته من الطباع ؟ فإذا اختلاف فى الأمزجة من أثر التفاعل لاضابط له ولا آخر ، وإذا بالنفس الإنسانية تتعدد فلا تتشابه الاثنتان ، بل تتناقض النفس الواحدة حتى لتنكر نفسها فى بعض الأحيان .

« هذا المنى هو الذى ينتظم هذه المجموعة من قصص الحب لأشهر أعلام القصة وأساطينها فى الغرب . فكلها عن الحب ، ولكن شتان بين حب وحب . والاختلاف هنا فى الكم والكيف ، وفى الطبيعة والمزاج ، وفى المقدمات والمعقبات ، وفى أنماط الأفراد وضراب الجماعات ، وفى ظروف الحياة الاجتماعية وخصائص الأجناس البشرية ، وما إلى ذلك من الاختلافات الواقعية .

« ثم فوق هذا جميعه يأتى الاختلاف الفنى فى صناعة القصة ، وهو الاختلاف فى أسلوب العرض وطريقة التناول

تلاميذى ... ... ، ولكن مَن هذا الكاتب الذى ينهمس فى العدد السالف من الرسالة ، فيحمّل الدكتور زكى مبارك جرائر الكاتب المجهول ؟ ... » .

وقلت وقد قرأت هذه الكلمة : لقد برئ ، زكى مبارك من « جرائره » نفسه ؟ فإلا يكن صادقا فى هذه « البراءة » فإنه يتوب بهذا الإنكار توبة كبرياء ، وعفا الله عنه ! .

وجاءنى العدد التالى من الرسالة ، العدد التالى رقم ٥٥٦ ، وتناولته أقرأ الفهرس قبل التصفح ، وقرأت عنوان مقال : « لقد هان ذلك الخطب : الدكتور زكى مبارك » وسط الصفحة لأقرأ ، فإذا المقال بإمضاء « الكاتب المجهول » ...

الكاتب المجهول ؟ وَىْ ! ففيم كان إنكار زكى مبارك فى العدد الماضى ، وفيم كانت براءته من « جرائر الكاتب المجهول » وإن فهرس المجلة ليعترف على الكاتب عما يتنكر على نفسه ؟ ... أهى تميمة الأسلوب كما يقول أم تميمة المطبعة ؟ أم تراه وقد نفى نسبة ذلك المقال المنكر إليه قد ضَنّ عليه ما فعل فعاد يستلحق نسبه ؟

ولكن زكى مبارك فى كل أحواله رجل ظريف ! !

أيعرف صديقنا الأستاذ الغمراوى هذه الحقيقة أم ينكرها ؟ لقد كان صديقنا الكريم حقيقا بأن يعرف ذلك منه ، فلا يعنّيه ويعنّى نفسه بهذا الجهد الصارم فى محاسبته على كلمة نادرة لم يكن يعنيها ، فإن بعض « الظرفاء » لايعنون ما يقولون ! !

قارئ

بين قاص وقاص ؟ فلسوف يلمس القارئ ، هنا بعض الفوارق بين القاصين فى الأمة الواحدة ... »

ثم يمضى فى مقدمته فيتحدث عن « ذلك الفيض من الإنسانية والرحمة الخاشعة يتسع لكل حى » فى القصص الروسى ؛ وعن « الواقعية والمشاهدة » التى تقوم عليها القصة الفرنسية « مهما ذهب بها الخيال » ثم عن « الطلاوة » التى يصور بها تشيكوف فى قصة « القبلة » مبلغ ما فى حياة الناس — علية ودهماء — من الثفالة والتفاهة ، على خلاف ما يعمد إليه أندرييف فى قصة « الصمت » من طريقة التصوير بلمسات عريضة قوية تبرز الأنوار والظلال بأكبر أحجامها وأبلغ تباينها محتفظا مع الهول الذى يرسمه ، برصانة الفنان وموازنته » . ثم يبين الفرق بين « بلزاك » وما فيه من فحولة قوية وبين « موباسان » وما يضطرب فى نفسه من شاعرية »

وأبرز ما تصوره هذه المقدمة هو الفهم الواضح للقصص التى تصدى لها ، ولطريقة كل مؤلف نقل عنه . وقد كان لهذا الفهم قيمته فى نقل هذه المجموعة إلى اللغة العربية . وأعتقد أن وجودها فى هذه اللغة سيكون له أثران بارزان .

الأثر الأول : فى محاولة تأليف القصة فى اللغة العربية . فالذين يتصدون لهذا سيترددون مرة ومرة قبل أن يخرجوا بأعمالهم للناس إذا كانوا يحترمون أنفسهم . فالقصة أمر عسير إذا أريد لها أن تكون عملا فنيا كاملا ، ومن نفسى أذكر أن القصة هى العمل الفنى الوحيد الذى كنت أستهوله وأحجم عن محاولته ، طالما أنا أقرأ القصص الأوربى والروسى خاصة — ثم انصرفت بعض الوقت لقراءة القصص الموضوعة فى العربية ، فرأيتنى أنسى إحجامى ، وأحاول كتابة القصة القصيرة ! فهذه المجموعة الجديدة قد ردت على إحجامى وركنى أقدر الموهبة والمهارة اللازمتين لكتابة القصة الفنية !

القصة هنا عمل عسير لأن الفكرة فيها ليست كل شىء . إنما طريقة التعبير عن هذه الفكرة : الأسلوب . اللمسات . الكلمات . الانسجام الحى بين التوقيعات المختلفة الصادرة عن المنظر والحادثة والعبارة والأثر النفسى .

القصة هنا ليست عملا فكريا فى الموضوع ، وعملا أدبيا فى التعبير فحسب ، إنما هى بعد هذا وذلك عمل فنى فى حاجة إلى ملكة التنسيق القائمة على التصوير والموسيقى فى آن . التصوير الذى يعود العين انسجام الألوان والموسيقى التى تعود الأذن انسجام الألحان . وبعد أن توجد الفكرة يجب أن تشترك اللمسة واللمحة واللفظة فى تكوين الجو المناسب لها . فكل منظر يشار إليه ، وكل حادث يتضمنه السياق ، يجب أن ينسجم مع رنة الأسلوب وإيحاء الألفاظ ، ويجب أن يبرز كذلك أثره فى الانفعالات النفسية المصاحبة ، ويؤلف ذلك كله اللوحة التى نسميها القصة الفنية ... وهذا ولا شك عمل عسير !

والأثر الثانى : فى محاولة الترجمة إلى اللغة العربية . فالذين يتصدون لنقل النصوص الأدبية والأعمال الفنية ، سيجدون فى هذه المجموعة محاولة بارعة لنقل الجو الفنى بجانب النص المعنوى . والجو الفنى هو خير ما فى العمل الأدبى ، وإغفاله والاكتفاء بالمعنى لا يفيد المكتبة العربية إلا قليلا . وفى هذه الترجمة يضطلع الأسلوب العربى بنقل ذلك الجو الغريب عليه ، بل نقل الأجواء المختلفة ، مع المحافظة على السلامة والمتانة والوضوح . والتمكن فى اللغتين لم يكن يكفى وحده لتحقيق هذه المزايا ، ولكن الذى أعان عليها هو التذوق الفنى الخالص لهذه الآثار ، والفطنة للدقائق التى قصد إليها المؤلفون ، واللمسات الخفية التى تندس فى ثنايا العرض وحنايا التعبير .

بقيت القصة الأخيرة فى هذه المجموعة ، وهى من وضع الأستاذ عبد الرحمن صدقى واسمها « بلقيس ملكة سبأ » . وهى قائمة على أساس الشوق الذى ساق الملكة من بلادها إلى صاحب « نشيد الأنشاد » سليمان . هذا النشيد الخالد فى تاريخ الغزل الإنسانى الذى تفيض به الفطرة ، ويفوح منه عطر الشرق ، ويرسم لصاحبه فى قلوب النساء صورة محوطة بالهالات . وقد جاءت الملكة بكامل أبهتها فاستقبلها الملك بكامل أبهته وفى نفسها استجلاء سر « شوليت » صاحبة النشيد ، والأمل فى أن تجد لها مكانا فى ذلك القلب العاشق الحار . فإذا هو قلب قد خمدت شعلته ، وإذا « شوليت » نفسها تنزوى فى زاوية منه مهجورة ، وإذا الرجل كالآخرين

وملء بيته نساء عاديات !

لقد اصطدم كل هذا الشوق المتطلع الحار بكل ذلك الجمود الراكد الآسن . وفي ذات يوم « كان ركب بلقيس بعيدا عن أسوار المدينة العظيمة الرابضة العابسة كالقلعة الحصينة . ونظرت بلقيس خلفها نظرة الفارق بلاعودة ، فإذا شعاع من أعلى الجبل منعكس في شرفات المعبد الذهبية يمتد إليها ، ماض في أثرها كأنه أثر الماضي وشبح الذكرى» لقد عادت الملكة ولكن بقلب كبير !

كل شيء في هذه القصة يدل على أن صاحبها « فاهم » فن القصة .. الفكرة . طريقة العرض . تصوير المناظر .. الخ ولكن القارىء — مع هذا كله يحس أن فيها شيئا ناقصا . شيئا يحرمه لذة الاستمتاع بها .

ماهو هذا الشيء الناقص ؟ تجهد حتى تلمحه ! هو « موهبة القصة » هو « روح الخلق » هو « العطر الخاص » .. لا ياصديقي عبدالرحمن لست موهوبا في القصة . إن مكانك هناك في المقالة والبحث ، وفي التذوق والفهم . وأنت هناك تحاول أن تقف في مقدمة الصف ، فلم تحاول هنا أن تجلس في الصف الأخير ؟

وبعد فإن هناك أيضا مايثيره وجود هذه المجموعة خاصة في اللغة العربية ووجود المجموعات السابقة التي نقلها الاستاذ علي أدهم والأستاذ المازني ، والأستاذ احمد حسن الزيات عامة . إن طابع كل أمة واضح أشد الوضوح في قصصها — مع تحقق الصلات العامة بينها ووضوح استفادة بعضها عن بعض — وأقرب الأمثلة هو القصص الروسي الذي تتلمذ على القصص الفرنسي ، ولكن بذه وفاقه بعمق الروح الإنسانية وبساطة العرض ودقته ، وظهر أدبا روسيا واضح السمات . وهذا الاستقلال يبدو في القصص البولوني والأسباني والألماني والفرنسي والانجليزي .

فأين الأدب المصري الواضح السمات ؟

إن قصارى مابلغه أدبنا المصري حتى اليوم هو وضوح الخصائص والسمات الشخصية لبعض كبار الأدباء . ولكن الخصائص القومية العامة ليس لها في معظم أعمالهم مثل هذا الوضوح . وأغلب الظن أنها حين تنقل إلى اللغات الأخرى يكون أقصى ما تصل إليه كثرتها أن تندمج في نظائرها من هذه الآداب ، ولكنها لا تستقل عنها بشخصية مصرية مميزة :

إن أدبنا المصري قد وصل إلى مرحلة تستحق التسجيل العالمي هذا مما لاشك فيه ، ولكنها المرحلة الأولى . أما المرحلة الثانية فهي وضوح الشخصية المصرية ، بحيث نستطيع أن نجلس إلى المائدة العالمية ، فنقدم من مستوى مايقدمون ، ولكن بنكهتنا الخاصة كما يصنعون !

ويجب ألا نظلم أدباءنا ، فإن لخفاء النكهة القومية أسبابا خارجة عن طوقهم ؛ فمصر بحكم موقعها هي مصب ثقافات وجنسيات ، فلا ينتظر في آدابها وضوح الخصائص القومية كالأدب الروسي مثلا أو الأدب الهندي . وهذا وضع لا حيلة لنا فيه . ولكن هناك سببا آخر يمكن علاجه . ذلك هو انقطاعنا بسبب اللغة عن الكنوز القومية القديمة ، فذلك التراث الضخم من الفن المصري القديم المحفوظ في المتاحف ودور الآثار ، والذي تبدو فيه الشخصية المصرية على أوضح ماتكون يجب أن يضاف إلى رصيدنا الفني ، بالترجمة إلى اللغة التي صرنا نتكلمها الآن وبالشرح والتفسير الذي يرد إلينا طابعنا المصري الأصيل ، ويحيي في نفوسنا من حيث لا نشعر خصائصنا القومية الأصيلة ، ويضيف إلى المكتبة العربية ذخرا تغنى به ولاشك كما تغنى عما ينقل إليها من اللغات الأوربية .

ولسنا نعني بطبيعة الحال من وضوح الخصائص القومية تلك المحاولات المضحكة في تعريب الأسماء والأماكن ، فتلك أشبه شيء بالوجوه التنكرية التي لا تغير شيئا في صميم الشخصيات .

مريانا غامري : (1)

يجيء هذا الكتاب في موعده ، فالعالم كله في مفرق

(1) سبق أن ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ فتحي رضوان المحامي .

الطرق ، وكثيرون يعتقدون أن الحضارة الأوروبية القائمة على المحسوس والمعقول وحدهما لضمور الجانب « الغيبي » فيها وانزواء المقدسات الروحية ، قد أدت دورها وأوشكت على الانهيار ، وأن العالم فى حاجة إلى ينابيع جديدة تكون على الأقل روافد عميقة لحضارة الغرب المادية ، تندّى جفافها ، وتهدئ ضرامها ، وتوسع آفاقها .

ونحن الشرقيين فى حاجة إلى كشف هذه الينابيع ، وإلى الإيمان بها ، وبعث الحياة فيها ، والانتفاع بأدوات الغرب نفسه فى تفجيرها وتصريفها ، للقيام بدورنا فى بناء العالم الجديد .

وحياة غاندى بقلمه أجمل ينبوع نستطيع كشفه فى هذا الزمان . الينبوع الروحى العميق الذى يجعل « الإحساس الأدبى أساس كل الأشياء ، والحق هو النواة الأولى التى تتكون منها شريعة الآداب العليا » . ينبوع الرحمة العاطفة ، والسماحة الواسعة ، والترفع النبيل .

ولقد أتاح لى الأستاذ « اسماعيل مظهر » بترجمة هذه السيرة ، أسبوعا طيبا قضيته مع غاندى الإنسان العظيم ، الذى يمارس الفضائل العليا فى بساطة فطرية ، كأنها من اليوميات العادية ، والذى يتحدث فى أعظم المسائل وأصغرها على السواء بصراحة ساذجة عميقة ، فتصدقه فى كل كلمة يقولها ، كأن الكذب لا يخطر على البال فى هذا الجو العلوى الشفيف .

وفى خلال هذا الأسبوع شهدت تلك الحضارة الأوروبية الشامخة وهى تتخاذل وتتضاءل أمام عظمة الروح الشرقية التى يمثلها غاندى أفضل تمثيل . وشاهدت هذا الإنسان العظيم ينظر بعطف وإشفاق علويين إلى أولئك المتحضرين فى الظاهر المتبربرين فى الضمير ، ويعصم نفسه من مجاراتهم فى أحقادهم الصغيرة ، لأنه إنسان كبير .

إن غاندى عبقرية هندية ، وعبقرية شرقية . وما دامت الهند وما دام الشرق يستطيع أن يخرج هذه العبقرية فهو غنى مرجو .

ولكم وددت أن يرجع الدكتور « حسين فوزى » العالم الفنان ، صاحب « سندباد عصرى » ، وأن يرجع معه الكثيرون ممن يعطون حضارة الغرب أكثر من حقها ، ويصغّرون روح الشرق بالقياس إليها .. كم وددت لو يرجعون إلى سيرة غاندى كما كتبها بقلمه ، ليروا أن هذا الغرب يبدو قزما فى هذا المجال الروحى ، ضحلا فى هذا الفيض الإنسانى . حينما يرتفع غاندى وترتفع معه روح الشرق الكامنة على أضخم الشخصيات الغربية المعاصرة ، وعلى الغرب فى كل عصوره كذلك .

وليس غاندى وحده . ففى هذه السيرة ترتفع شخصيات من عوام الهنود ، من أولئك العمال الأجراء فى مناجم الفحم ، من أولئك الجياع الحفاة العراة .. ترتفع بالمذخور فى كيانها من روح الشرق العميقة الأصيلة على أعظم المتحضرين ، بل على الزعماء البارزين المعدودين ، الذين تفسد تلك الحضارة الحسية مقاييسهم للحياة ، ونظراتهم للأمور ، وتعطل فيهم البديهة الإنسانية ، وتطمس فيهم روح العدالة الفطرية ، حتى تردهم إليها روح الشرقيين ، وإن كانوا من الفقراء الأميين .

يجب ألا نبخس الشرق حقه لأن صروفا طمرت روحه المكنون ، ولأن بعض التقاليد وبعض الأوضاع لا تعجبنا فيه . يجب أن نسترد إيماننا بأنفسنا لنفتح أعيننا على ما فى حضارة الغرب من ضحولة وقزامة وزيف وبريق ، بجانب ما لها من فضائل عمرانية وعقلية ظاهرة .

وبعد فقد جاءت الأنباء فى الأيام الماضية بوفاة عقيلة غاندى ، وقد كتب عنها فى هذه السيرة صفحات قيمة ، وأشار إليها فى مواضع من جهاده السلمى إشارات كريمة . فليت الفتاة المصرية تقرأ هذه الصفحات ، لتعرف عمل المرأة القوم بجانب رجلها العظيم .

سيد قطب

حاشية : كم وددت لو عنى الأستاذ مظهر بصحة اللغة التى نقل إليها الكتاب ، فلقد مضى أسلوبه سهلا مفصحا وأوفى بالغاية . ولكن أكثر من خمس عشرة غلطة نحوية واضحة ، لا يجوز وجودها فى هذا العمل النافع ، والدقة اللفظية فى مثل هذه الأعمال لا تكلف جهدا وهى تحفظ جمالها كاملا ، فعسى أن يتداركها فى الطبعة الثانية بالتصويب

بين أحضان الطبيعة :

سهرة فى النيل

راق الأصيل الساحر الأنوار فانثر قلاعك للنسيم السارى
هيا لنمرح بالطبيعة أنفساً ظمآى إلى الألغاز والأسرار
رمت عكنها البعيد وعيشها محجوبة فى عالم الأسوار
هيا فإنك باتقى ربابنا فى النيل فاخر سيد الأنهار

* * *

إنا انطلقنا فى المياه .. مع النسيم ..
إلى الطبيعة .. شاردى الأبصار
من خلفنا الشمس الوديعة قد هوت
حمراء تشبه كوكبا من نار
بدت الطبيعة تحت حمرة نورها
فى أوجهـــا الفنى للأنظار
أضفت على الآفاق حزناً ممتعا
وعلى الحقول الخضر والأشجار
لاح الوجود كأنه أسطورة وعمية الأوصاف والأخبار
غراء عقها خيال معجز التأليف والألوان والأنوار
فنيت مشاعرنا وذاب وجودنا
فى روح هذا العـــالم الجبار
إن الحقيقة كاد يبدو طيفها لعيوننا شفافة الأستار
وأمامنا فى الأفق رسم شاحب
للبـــدر يبدو وهو كالمحتار
رنو ويرتقب الغروب ليرتدى
حلل الضـــياء الناصع الدخار

* * *

وسرت رويدا مسحة من حسرة
روحيـــة سحرية الآثار
— لم يبق فى الآفاق إلا طائر
متخلف فيها عن الأطيـــار
ما زال يمعن فى المحاق يشربه
حتى اختفى فيها عن الأنظار

وهناك ساد الكون صمت رائع
أبهى من الألحان والأشعار
ومحت بنا غيبوبة خرية عن عالم الإحساس والتذكار

* * *

البدر أيقظنا بسحر ضيائه !! مترقرق التدفق المدرار
قد سار يقدمنا ويهدى زورقا
وسط المياه مع النسائم سار
فى هدأة الليل المفضض ... فوقها
النيـــل ... تاه بفتية أبرار
البدر طهر بالضياء نفوسهم وسما بهم عن عالم الأكدار
حتى صفت وتجردت وتوقدت
ومحت عن الأجسام والأعمار
فكأنها فوق الكواكب .. فى الخيا
ل .. غدت على سفر من الأستار
وكأن زورقنا — يشق بنا السما
ويمتلى — سهم من الأنوار
فى عالم متألق الألوان ... ع
تلف السنى ... متفتح ... معطار
فتضمخت أرواحنا حتى غدت
وكأنها فوح من الأزهـــار

* * *

إنا سهرنا فى الطبيعة ليلة مكشوفة من دون ما أستار
أحبب بأحضان الطبيعة مسرحا للمتدين وزهرة السمار
فيها تطيب الأمسيات الساهرا
ت وليس فى الغرفات والأحجار
شتان بين المنتشى بجمالها والمنتشى بمدامة وعقار
فاترك خشاش الأرض فى ظلم البيو
ت تهيج فى صخب وفى استهتار
واخرج إلى الأرض الفضاء لترتوى
من منبع الأنوار والأسرار

عبد المجيد بن جلون

وحى الربيع

ذلك الكون جمال عبقرى النفحات
ذلك الليل نشيد قدسى النغمات
سرت النسمة فيه كرفيف الذكريات
توقظ الأشواق فى القلب وتذكى الصبوات
وهفا البدر إلى الأرض حَيِىَّ النظرات
والأزاهير يفتحن كأشهى البسمات
نغمة علوية تشمل تلك الكائنات!
كل شىء طافح البشر حقىٌّ بالحياة
نفخ الساحر فيه فصحا بعد موات!

....

كل شىء وله الليلة سحرىّ السمات
وفؤادى بعث الساعة منخور الحياة
تلك نفسى لم تكن تعرها غير شكاة
وأقانين من الشجو ومُرّ الحسرات
ما لها الليلة نشوى لا ككل النشوات!
وفؤادى ذاخر الحس وَحِىّ الخفقات
نفخ الساحر فيه فصحا بعد موات!

....

أنا والكون نجيان شبيها النزعات!
لمسة من ذلك الساحر فنان الحياة
جمعت بين ضميرى وضمير الكائنات!
رقصة الزهرة فى الغصن تحاكى خفقاتى
هذه النشوة فى قلبى سرت فى النسمات
هذه الحيرة فى حسى وفى حس الحياة
وكلانا حالم أو هائم فى سبحات
يحلم الكون بليلات ربيع ساحرات
وأنا أحلم بالحب وعذب الأمنيات

....

إنه ما أجملها اللحظة بين اللحظات
هدأة تشمل نفسى وجميع الكائنات
سكر الكون من الحسن وأغفى فى سبات
أفتفنى هذه اللحظة بين السنوات؟

إننى أسمع لحناً عبقرى النغمات
قد سرى من عالم الغيب خفى الهمسات
«هذه اللحظات للخلد فليست فانيات»
«يذهب الدهر ويفنى وهى تبقى خالدات»!

محمد قطب

صلاة

جمالك وَتيمة الشاعر ودنيا من الأمل الناضر!
وفجر من الحب ضاحى الجبين يطوف بمحرابه خاطرى
وسر من الغيب حارت لديه قلوب الورى ورقى الساحر!
وعطر من الله طافت به رؤى الخلد فى حسنها الآسر
وحقل من النور غنت له عذاراه لحن الهوى الطاهر!

....

جمالك رمز الصبا والحياة تفجر نبع الليالى رؤاه
تطوف القلوب به مثلما يطوف الهوى بنشيد الرعاة
وتمضى النفوس بأسراره فهيهات تدرك ما منتهاه
وتجثو له الروح مرعوشة تهدهده بأغانى الصلاه
تقدس فيه جمال الوجود وتعبد فيه جلال الإله

....

جمالك لحن حبيب الصدى تغنى به الحب لما شدا
وأفق من الفن سامى الرسوم بديع الرواء وسيع المدى
يضم إليه معانى الضلال وتطوى إليه معانى الهدى
وقد يلهم النفس سر الحياة كما يلهم النفس سر الردى
سوى أنه خالد كالزمان يعيش على رغمه سرمدا

....

جمالك فجر الصبا الحالم وفيض من الأمل الناعم
ووحى من الملأ القدسىّ تمثل فى غفوة النائم
لحناه فى سبحات الخيال وشمناه فى لوحة الراسم
ورقت عليه بنات القريض تغنى بقيثارها الناغم
إلى أن أتيت به للوجود فكنت به فتنة العالم!!

فؤاد كامل

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٧٣ | الثلاثاء ٢٦ من ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — ٢١ من مارس سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العدد

ايرلنده على الحياد

في بداية هذه الحرب ، اعتصمت طائفة من الدول بالحياد ، وهي تظن أن موقفها هذا سيدفع عنها الأذى ، ويقيها ويلات الحرب . وبعض تلك الدول — مثل بلجيكا — قد استمد لموقف الحياد هذا قبل نشوب الحرب بأعوام ، كما يستعد بعض الدول لخوض غمار الحرب ، فبادرت بقطع علاقتها بكل معسكر من المعسكرات . لكيلا يكون هناك أدنى شك في أنها ستلزم الحياد في ذلك اليوم العصيب الذي كان يتوقعه الجميع .

كان الحياد هذا حلماً جميلا ، خامر الألباب ، ولعبت حلاوته بالعقول ، فكانت تلك الدول تتوهم أنها تستطيع أن تجتاز هذه المحنة الهائلة وهي واقفة منها موقف المتفرج ، الذي يتمتع بثمرات السلم والأمن ، بينما جيرانه تصلى أوار الحرب ، وتعاني أهوالها .

ولكن الأحداث لم تلبث أن مزقت هذا الحلم . وقد بدأت الحرب والمحاربون أربع دول فقط ، والباقي على الحياد . واليوم أمست جميع دول أوربا في حرب ، أو بعبارة أصح قد غمرتها وشملتها الحرب — ولم يبق منها سوى خمس أو ست تستطيع أن تزعم أنها على الحياد .

وهنالك دول خرجت عن حيادها طائعة مختارة ، مثل إيطاليا وفنلنده ؛ ولكن الكثرة العظيمة من الدول قد زالت عنها صفة الحياد منذ بداية الحرب ، لأنها قد أغير عليها وانتهكت حرمة أرضها ، برغم ما بذلته من جهد . وما منت به نفسها من آمال .

وكانت هذه الدول خليقة أن تدرك — قياساً على ما حدث في الحرب الماضية — بأن الحياد مطلب عسير ، عند ما تكون الدول الكبيرة ذات القوة الحربية الضخمة منهمكة في حرب ضروس ، من أجل ما تسميه الحياة أو الموت . فإن هذه الدول الكبيرة ترغم أنها لا تستطيع

— وهى فى حومة الجهاد من أجل الحياة — أن تبق على استقلال شعب صغير ، أو تتورع عن اقتحام أرض محايدة . وقد أفتى غير واحد من رجال القانون الدولى ، بأن التدخل فى أمور دولة من الدول أمر قد تبرره ضرورة الدفاع ! وبالطبع ستكون الدولة « المتدخلة » هى وحدها التى تحكم بأن هذه الضرورة موجودة أو غير موجودة .

ولا شك أن هنالك ضروبا وأشكالا متعددة لمثل ذلك التدخل ، وفرق كبير بين الوسائل التى اتبعتها ألمانيا فى التدخل فى هولنده ، وبين ما اتبعته روسيا فى التدخل فى استوانيا ولتونيا ولتوانيا ، أو الوسائل التى اتبعت فى إيران .

ومهما يكن من شىء . فإننا أصبحنا وقد غمرت الحرب جميع القارة الأوربية ما عدا بضع بقع لا تزال على نوع من الحيـاد إلى اليوم . وهى : السويد وسويسره وأسبانيا والبرتغال وإرلنده . ونستطيع أن نضيف إليها تركيا التى لا يزال جزء من أرضها واقعا فى القارة الأوربية . وليس حياد هذه الوحدات كلها من نوع واحد ، أو طراز واحد . فقد اضطرت السويد — وهى بعدُ محايدة — أن تسمح لألمانيا بنقل الجند والذخائر الحربية فوق أرض السويد إلى وقت قريب ، ثم آنست من نفسها قوة — أو من ألمانيا ضعفا — منذ بضعة أشهر . فمنعت عن ألمانيا ما سبق لها أن سمحت به ، وعادت إلى الحياد الدقيق .

وهنالك حياد برتغال ، وهى دولة تعطف من غير شك على الفريق الديمقراطى ، وتتمنى له الخير ، وأمكنها أن تترجم هـذا العطف إلى مساعدة قيمة — مع بقائها على الحياد التام ! بأن سمحت لبريطانيا وأمريكا باستخدام القواعد البحرية والجوية فى جزر الأزور .

ولـكن لعل أعجب حالات الحياد جميعا حياد إرلندة ، التى استطاعت وهى جزء من الجزر البريطانية ، أن تلزم الحياد التام منذ بداية الحرب إلى وقتنا هذا .

لقد سبق لى أن عالجت موضوع حياد إرلنده على صفحات هذه المجلة فى الأشهر الأولى من الحرب(١) ، يوم كان هذا الحيـاد تحفة سياسية يقدمها الكاتب إلى قرائه لكى يريهم كيف تستطيع إحدى الوحدات الداخلة فى الإمبراطورية البريطانية أن تخرج على الإجماع ، وأن تنفرد بالتزام خطة تخالف ما قرره الجسم الذى تنتمى إليه . وكثيرا ما كنا فى أحاديثنا ومحاضراتنا نسوق موقف إرلنده هذا دليلا على ماتتمتع به من حرية العمل كل دولة من الدول المستقلة الداخلة فى نظام الإمبراطورية البريطانية .

ولـكن حياد إرلنده أصبح اليوم أجل خطراً من أن يوصف بأنه مجرد تحفة سياسية . فإن شئون الحرب قد مرت بأطوار عديدة منذ ذلك العهد ، وليس من الممكن أن ينظر إلى حياد إرلنده اليوم كما كان ينظر إليه فى الأشهر الأولى من الحرب .

إن الأسباب التى دعت إرلنده إلى إعلان الحياد ، حتى من قبل أن تبدأ الحرب ، تتلخص فى أمور أهمها ما يلى :

١ — إن إرلنده لا ترى أن هذه الحرب تعنيها من قريب أو بعيد .

٢ — رغم المعاهدة السخية التى نالت بهـا إرلنده استقلالها التام عام ١٩٣٨ ، فإن أكثر الإرلنديين لم يزل يصر على ضرورة ضم إرلندة الشمالية — وهى جزء من المملكة المتحدة — إلى دولة إرلنده المستقلة . وعدم تحقيق هذه الرغبة جعل من الصعب على الحكومة أن تقف إلى جانب بريطانيا فى حربها مع ألمانيا .

٣ — وجود عناصر متطرفة فى إرلنده شديدة البغض لإنجلترا ، ورغم قلة هذه العناصر فإن الحكومة تحسب لها حسابها . وخطر هذه العناصر قد يستفحل إذا دخلت إرلنده الحرب إلى جانب بريطانيا .

(١) العدد ٥٦ الصادر فى ٢٣ يناير ١٩٤٠

٤ — الخوف المألوف من ويلات الحرب .

لهذه الأسباب لم تجد حكومة إرلنده مندوحة من أن تلزم خطة الحياد ، وأن تعلن أنها لن يخرجها عن حيادها هذا إلا أن تعتدى عليها إحدى الطائفتين .

فأما الطائفة الأولى ، بريطانيا ، فإن رئيسها تشرشل لم يذهب إلى أكثر من التعبير عن أسفه الشديد من أن بريطانيا قد حُرمت — بسبب حياد إرلنده — حق استخدام الموانئ الإرلندية . وأما الطائفة الأخرى — ألمانيا — فإنها لم تنس أن تذيق إرلنده شيئاً من بأسها ؛ فأغرقت عددا من السفن الإرلندية ، وقذفت طائراتها البلاد الإرلندية بوابل من القنابل المتفجرة وانتهكت الغواصات الألمانية حرمة المياه الإرلندية الإقليمية غير مرة . ولا يهمنا هنا أن نتساءل عن الأسباب التي دعت ألمانيا إلى سلوك هذا المسلك . وكل ما يهمنا تسجيله أن حكومة إرلنده لم تجد فى أى عمل من هذه الأعمال ما يدعوها إلى نبذ الحياد . ولهذا بقيت مفوضيات وقناصل دول المحور فى إرلنده منذ بدء الحرب إلى اليوم .

وقد أرادت إرلنده أن تنشر نظام إطفاء الأنوار فى المدن الكبيرة . فتقدم وزير ألمانيا المفوض فى دبلن ورفع احتجاجا من دولته بأن هذا الإطفاء ينافى الحياد . فبادرت حكومة إرلنده بإنارة العاصمة إنارة متوسطة . تكفى من غير شك لأن يسترشد بها الطيارون الألمان على المواقع الهامة فى شمال إرلنده ، وفى موانئ إنكلترة واسكتلنده الغربية :

ولعل إرلنده كانت — مثل سائر الدول المحايدة — تخشى عدوان ألمانيا ، ولا تريد أن تصدر منها أقل بادرة تدعو تلك الدولة إلى غزو الأراضى الإرلندية ، والقضاء على حيادها . ومن الجائز أن إرلنده — فى حرصها الشديد على ألا تغضب ألمانيا — نسيت أن الأمر الذى وقاها من مصير كمصير بلجيكا وهولنده والدانمرك ، ليس مسلك الحياد الصارم الذى سلكته ، ولا جهودها التى بذلتها لكى تظل ألمانيا راضية عنها . وإنما وقاها خطر الغزو موقعها الجغرافى الذى أبعدها عن ألمانيا ، وجعل غزوها يتطلب أسطولا ضخما ليس فى وسع ألمانيا أن تجمعه . وإذا جمعته فإنها لابد لها أن تتغلب على الأسطول البريطانى قبل أن تصل إلى الشواطئ الإرلندية .

فإذا كانت إرلنده نجحت فى الاحتفاظ بحيادها ، فإن كثيرا من الفضل يرجع إلى القوات التى تدافع عن الجزر البريطانية ، وإرلنده جزء منها . وقد أبت إرلنده أن تمد يد المساعدة إلى تلك القوات فى أية صورة من الصور . ورفضت أن تمنح بريطانيا حق استخدام الموانئ أو المطارات فى إرلنده .

وقد ترتب على هذا الحرمان مشقة كبيرة للأسطول البريطانى الحربى والتجارى ، وكان من نتائج ذلك فقدان عدد غير قليل من السفن التى تجرى بين بريطانيا وأمريكا ، وهى تحمل المؤن اللازمة للجزر البريطانية ، ومن جملتها إرلنده . ولكن الحكومة البريطانية حرصت أشد الحرص على ألا تقوم بأى عمل يشتم منه روح الاعتداء على حياد إرلنده . مع أن هذا الحياد كان بلا شك نافعا لأعمال الهجوم الألمانية ، وضارا بالدفاع البريطانى . وقد عجزت إرلنده أن تساعد بريطانيا وحلفاءها بالقدر الذى ساعدت به دولة البرتغال .

وبرغم هذا كله ظلت بريطانيا محترمة لحياد إرلنده . حتى إن الرئيس الإرلندى دىفاليرا يخبرنا أن سلوك البريطانيين هذا قد قدره الإرلنديون حق قدره . فأصبحوا أكثر عطفا على البريطانيين مما كانوا فى أى وقت من الأوقات . ولا شك أن هذا كسب عظيم للبريطانيين ، ولكن الحرب قد دخلت فى طور جديد لا يكفى معه مثل هذا الكسب . فإن حياد إرلنده لم يعد بالشىء الذى يهم بريطانيا وحدها ، بل يهم حليفتها الكبيرة أمريكا أيضا .

إن دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا ، كان حقيقا أن يدعو الإرلنديين إلى النظر جديا فى تعديل

موقفهم . فإن أمريكا هي أعظم دولة إرلندية في العالم . وفيها من الإرلنديين أكثر مما في إرلنده نفسها . وبين كلا الشعبين — على جانبي المحيط الأطلسي — صلات وروابط ، وقد أصبح الإرلنديون في أمريكا أعداء المحور . وأخذت القيادة العليا للولايات المتحدة ترسل الجيوش الأمريكية إلى الجزر البريطانية ، لإتمام التدريب ، والاستعداد لغزو القارة الأوربية . وقد استقر جزء عظيم — بل لعله الجزء الأكبر — من الجيوش الأمريكية في شمال إرلنده — إقليم ألستر — وحدودها بالطبع ملاصقة لدولة إرلنده . وقد عبرت حكومة إرلنده عن قلقها ، وخوفها على حيادها من وجود هذا الجيش الأمريكي الضخم بجوار حدودها . ولكنها أفهمت أن ليس هناك ما يدعو للقلق .

وتطورت حالة الحرب في الأسابيع الماضية تطورا جعل من اللازم أن تثار مسألة حياد إرلنده من جديد . ذلك أن القوات الأمريكية في الجزر البريطانية ، بما في ذلك القوات المرابطة في شمال إرلنده ، تعد العدة لأعمال عسكرية كبيرة واسعة النطاق . وعلى الجانب الآخر من إرلنده رجال المحور وأعوانهم ، من العصابات التي لا تزال تضمر البغضاء لبريطانيا . وقد ثبت ثبوتا لا يحتمل أدنى شك أن بين النازيين والعصابات القلقة في إرلنده صلات متينة ومن السهل أن يتصور المرء الخطر الذي قد يحدق بقوات الدول المتحدة من جراء وجود هذه العناصر في صميم الجزر البريطانية .

لهذا لم يكن هنالك وجه غرابة في أن يتقدم وزير الولايات المتحدة في دبلن إلى الحكومة الإرلندية في ٢١ فبراير الماضي . فيطلب منها أن تقطع العلاقات السياسية مع دول المحور ، وأن تسعى في إرسال الرعايا الألمان واليابان إلى خارج إرلنده .

ولم يكد الرئيس الإرلندي دي ڤاليرا يتسلم هذا الطلب حتى قابله بالرفض القاطع . ثم أرسل مذكرة يوضح فيها الإجراءات الواسعة التي اتخذتها الحكومة الإرلندية لمنع التجسس ، وأشار فيها إلى التحسن الكبير في شعور الإرلنديين نحو بريطانيا بسبب احترامها لحياد إرلنده . ولكن حكومة الولايات المتحدة لم تزل ترى في وجود المحوريين على أرض إرلنده خطرا كبيرا يهدد الأرواح الأمريكية ويعرقل أعمال الحلفاء الحربية . وقد أبلغت حكومة إرلنده أن حيادها هذا يعمل اليوم — كما كان يعمل دائما — لمصلحة المحور .

ولا شك أن من الصعب على المرء أن يتصور أن إجراءات حكومة إرلنده لمنع التجسس ستعرقل جهود رجال المحور وأعوانهم بصورة جدية ، ولهذا لم يجد إرلنده بين أصدقائها الكثيرين من يقرها على عملها هذا .

ولم يكن بد من أن تقوم الأمم المتحدة بإجراء جدي ، لكي تأمن الأخطار المترتبة على ذلك الحياد الذي يسمح لأعداء بريطانيا . أن يظلوا في داخل الجزر البريطانية ، يمارسون نشاطهم ، ويتابعون جهودهم . وبرغم هذا كله فإن أمريكا وبريطانيا لم تقوما بعمل عنيف ضد إرلنده . ولم تبادر الجيوش المتحدة باختراق الحدود واحتلال الدولة الإرلندية . وهي لو فعلت هذا لما كان هذا الإجراء سوى تكرار لأمر قد اعتدناه في هذه الحرب ، وفي الحرب الماضية ، ولعل المبررات هنا أكبر وأجل خطرا منها في أي مكان آخر . ولكن الدول المتحدة اكتفت بأن قررت إبقاء إرلنده في عزلة تامة ، وقطع مواصلاتها بالبر والبحر ، وعدم السماح بالسفر منها وإليها . ووقف المراسلات البرقية بينها وبين الجهات الخارجية . وفرض رقابة دقيقة على الحدود بين إرلنده الشمالية والجنوبية .

لا شك أن هذه الإجراءات — التي قد تدوم بضعة أشهر — ستسبب لإرلنده متاعب كثيرة . ولكنها ستتمكن على كل حال من الاحتفاظ بحيادها ، ذلك الحياد الدقيق الذي تضعه إرلنده فوق كل اعتبار .

محمد عوض محمد

الملاريا

خاتمة

للدكتور أحمد زكي بك

لم يبق إلا الحديث عن هذا الداء، كما يجده صاحبه .

فاعلمْ أن الحمّى لا تأتيك بعد قرصة البعوضة توًّا ، فلابد للجرثومة الطفيلية التي أطعمتك البعوضة إياها من التطوُّر في دمك والتكاثُر فيه ، حتى يحتشد منها حشدٌ كبير يكون من الكثرة بحيث يستطيع إثارة الحمى في جسدك . وهذا يحتاج إلى زمن . وهذا الزمن ندر أن يقلّ عن عشرة أيام .

ولا يمنع هذا أن يكون للحمى إرهاصٌ من قبل إنجاز ، فتأتيك منها البشائر : تخاذلاً في الجسم ، وتصلّبا في عضلات العنق ، وأوجاعا في العظام ، وقلّة اشتهاء للطعام ، وأرقا في الليل ، حتى وقسطا أولا من أقساط الحمى يُدفَع لك مقدّما ، قصيرا خفيفا ، عربونٌ ولاء من ضيف أنزل بساحتك قهرا وقسرا .

على أن النّوبة تأتي الناس في العادة بغتةً من حيث لا يحتسبون . وتأتي في الأغلب ظهرا أو عصرا . وهي تنقسم إلى أدوار ثلاثة متتابعة : دورة الرِّعدة ، ودور الحرارة ، ودور العرق .

أما دور الرِّعدة فينزل على المريض بإحساس من البرد شديد ، فينتفض جسمه ، وتصطكّ أسنانه . وتضع فوقه الملحفَ فوق الملحف ويقول هل مزيد .

وبينا تكون حرارة جلده واطئة ، تكون حرارة ما في باطن جسمه آخذةً في الصعود . وهي تذهب إلى الأربعين سُنتُمِدا ، فما فوقها . وبذهاب الرِّعدة وارتفاع الحرارة ، يقذف المريض بغطائه يستعيدُ من حُمّاه . ويعتريه ما يعتري صاحبَ الحرارة المرتفعة في العادة من أعراض . فيتصهّد وجهه ! ويحسّ بالقيء ، وقد يقيء ! ويحس بالوجع في رأسه ! وقد تبلغ به الحرارة حدّ الهذيان . وجلدُهُ في كل هذا جافٌ ساخن .

ثم يأتيه الدور الثالث ، فيتصبّب فيه عرقا كأنما فُتحت في جسمه الصنابير . وعندها تنفرج أزمته ، ويحس المريض بالراحة . وعندها تهبط درجة حرارته .

والأزمة تستمر كلها بضع ساعات ، وقد تستمر أربع ساعات ، وقد تستمر خمسا . ولكنها تعود .

وهي في حمى الرِّبع تعود كل أربعة أيام ، فيكون بين النوبة وأختها ٧٢ ساعة . هذا إذا عضّت المريض بعوضةٌ وبيئة واحدةٌ . أما إذا عضّته بعوضتان على فترة ، فدخل جسمه وباءان ، اختلّت بذلك المواعيد واختلفت الأزمان . فعندها قد تأتيه الحمى يومان وتتخلّف يوما . وهو إذا أصابته ثلاثة أوبئة ، جاءته الحمى كل يوم .

والنوبة في حمّى الثّلث تأتي المريض كل ثلاثة أيام ، إذا عضّته بعوضة واحدة فأصابه وباء واحد . فإذا أصابه وباءان أو أكثر من وباءين ، اتصلتْ الحمّى ، وفسدت تلك الصورة العمليّة الجميلة ، صورة المرض يأتي انتيابا وعلى ميعاد .

على أن أكثر المرضى يفضلون الصحة والسلامة على الصورة العملية الجميلة ، فهم لا ينتظرون حتى يروا تلك النوبات يتلو بعضها بعضا في وثوق كالليل الذي هو لاحقٌ النهار ، فيسرعون إلى الدواء يتعاطونه ، وبه يقطعون ما بين النوبة والنوبة فلا تعود أي لا تتكرّر .

فهذه أعراض الملاريا الحميدة — الحميدة عقباها . أما النوع الثالث منها ، وهي الخبيثة ، فأعراضها تختلف بعض الشيء عن هذه . فارتفاع درجة الحرارة فيها أكثر فجاءة ، والإحساس بالبرد فيها قليل ، وقد لا يكون . والرعدة لا تحصل . ودورة الحرارة منها تطول . فإذا جاء دور

العرق لم يكد يتبينه صاحبه . فهي حتى في خبثها مبهمة غامضة ، لا كالحمى الحميدة واضحة سافرة . والشر الذي يأتيك مبهما خبيثا غير الشر الذي يأتيك سافرا عاريا ، جرثومة كان أو رجلا .

ونوبة الحمى الخبيثة تستمر ١٢ ساعة ، وعشرين ساعة ، وما بينهما . وهي مبهمة غامضة حتى في اتيانها . وآلامها أوجع في الرأس ، وفي الظهر . وغثيان النفس فيها أنكى ، وكذلك قيؤها . وفقر الدم فيها أشد .

وأخبث ما في هذه الخبيثة أن جرثومتها تزدحم بهما شعريات الأوعية الدموية ، فتسدها ، فتتوقف الدورة الدموية في العضو بسببها . وقد يحدث هذا في الرأس ، في المخ ، فيصاب المريض بغيبوبة تسلمه إلى الموت . وقد يظهر خبث هذه الحمى في الأمعاء ، فيعترى المريض إسهال كالدوسنطاريا ، وقد ينزف دمه من أمعائه ، فتتلوث به فضلاته . وقد يظهر خبثها صنوفا أخرى ، تفتح للموت أبوابا أخرى ، والموت يدخل من كل باب . فقد يظهر خبثها بالنزيف من أنف المريض ، فيدخل الموت إلى المريض من الأنف . وقد تصيب المريض ذات الصدر فيدخل الموت من صدره . وقد ينفجر طحاله ، فيدخل من باب الطحال . وقد تتغنغر رجله . وقد ينوء بالحمل قلبه .

وفي الملاريا قد تجهض الحامل ، وقد تتعقم .

ثم عن احتمال الموت والحياة .

فاعلم أن المسألة مدارها على قدرة الجسم على التحمل ، فالجسم الضعيف المهلهل المتهشش ، أقل الأمراض يصدمه فيهدمه . وكذلك تفعل الملاريا ، حتى الحميدة . فالغذاء الغذاء ، والملبس الملبس ، للجائع والعاري . ومدار المسألة كذلك على العلاج . والملاريا مرض لا يميت ، ولكنه مع الفقر مميت . والخبيثة مميتة ما تخلف العلاج .

والملاريا ، إذا اشتفى الإنسان منها ، قد تعود . ومن العجب أن أكثر صنوفها احتمالا للعودة أحدها - حمى الثلث ، وحتى الربع قد تعودان ، وتعودان بعد طول الزمان . أما الخبيثة فقل أن تعود من بعد شفاء .

وتعود الملاريا بغير سبب ظاهر ، ولكنها تأتي غالبا بعد إجهاد شديد ، أو تعرض لبرد ، أو اكتواء بشمس . أي في الحالة التي تهبط فيها قوة الإنسان ، فقاومته .

ثم كلمة عن الدواء .

وأدوية الحمى ثلاثة ، وهي اليوم أشهر من ثلاث نيران على علم : وهي الكينين Quinine والأتبرين Atebrin والبلازموكين Plasmoquine .

أما الكينين فهو الأصل الفعال في الكينا ، وهي قشر شجرة تنمو في أمريكا الجنوبية ، وقد نقلوها اليوم إلى غيرها من بقاع الأرض . وأشهر تلك البقاع جاوه ، وفيها زرع هذا الشجر في مساحات واسعة جعلت ذلك البلد المصدر الأكبر للكينا ، فالكينين ، للعالم أجمع . وأين جاوه الآن ؟ وفي يد من هي ؟ أجب ، واعرف سبب قلة الكينين التي تعانيها مصر وغير مصر الآن .

والكينين يقتل الجرثومة وهي في الطور التي تتكاثر فيه داخل كرات الدم الحمراء . (راجع المقالات السابقة) . وهو لا سبيل له على الجرثومة وهي في طورها الخالق قبل أن تنقسم . وهو لا سبيل له على تلك الأطوار الجنسية التي تنتج الذكر والأنثى — تلك الأطوار التي تصبر حتى يأتيها البعوض لتتطور فيه تمهيدا لتطورها في الإنسان . والدواء النافع يكفي فيه أن يقطع الدورة في أي حلقة من حلقاتها ، فهي عندئذ لا تتم ، والجرثومة عندئذ لا تتكاثر . والتي كان تكاثرها ، يتولى شأنه بوليس الجسم ، وأعني به كرات الدم البيضاء التي تدور في شوارع الجسم وحاراته تتصيد فتبتلع كل ما تركب فيه من غريب .

وتعاطي الكينين لا يكون إلا بعد أخذ عينات من

الدم لامتحانه . فقطرات الدم بعد الكينين لا فائدة منها عند الامتحان . وما فائدة دم قُتلت فيه جراثيمه .

وعلى عادة الكيمياء ، لا يظهر دواء طبيعي ، يأتي من شجر أو حيوان ، حتى يأخذ الكيماويون في بنائه من مواد أقرب موردا ، وأكثر مقدارا ، كالتي تأتي من الفحم ومستحضراته ومشتقاته . وفي سبيل ذلك استخرجوا مركبا جديداً أسموه أتبرين . وقد جربوه في العقد الماضي ، بعد عام ١٩٣٢ ، فوجدوه أفعل من الكينين . وهو يُهلك من أطوار الجرثومة ما يُهلكه الكينين ، وهو كالكينين ، لا يؤثر في أطوار الجرثومة الجنسية من ذكر أو أنثى .

ولا يغيبنّ عن الفكر أن هذه الأدوية سموم ، تُعطى بمقدار فتصلح الجسم ، وتعطى بمقدار آخر فتفسده . وهي ، حتى بالمقادير المقدّرة يظهر في الجسم شيء من سوء طبعها .

فالكينين يُحدث في الآذان طنينا ، وقد يحدث فيها بعض صمم ، ولكنهما يذهبان بعد ذهاب الكينين . ومن الناس ما لا تأتلف طبيعته وطبيعة الكينين . ويظهر هذا التنافر على صورة من أعراض شتى ، منها ما يكون في الجلد ، ومنها ما يكون في جفن العين ، ومنها ما يكون نزيفا في الأنف أو الفم أو الأمعاء ، أو في مسالك البول . ولهؤلاء الناس يعمد الطبيب إلى الأتبرين دواء بدل الكينين .

والأتبرين أيضا قد يفضح أصله السُّمي في المعدة والأمعاء ، فيظهر في وظائفها اضطراب . والجلد يصفر لونه ، والأتبرين من أصل صبغي . وهو من نوع الأدوية التي تتراكم في الجسم فلا تُفرز منه بمقدار ما تدخل فيه .

بقي البلازموكين . وهو ثالث الثلاثة . وهو مركب كذلك صناعي ، بناه الزجاج في المعمل لا أوعية الشجر في الحقول . وهو يقتل ما لا يقتله الكينين والأتبرين . إنه يقتل أطوار الجرثومة الجنسية ، ذكرها وأنثاها .

فهو يُعطى مع الكينين ، أو مع الأتبرين ، ليقطع دابر المرض في كل طور من أطواره . وهو يعطى على حذر ، لأنه أسوأ أثرا في الجسم من أخويه .

إن الطبيعة تأبى للناس الخلود ، فترمي الإنسان بجراثيمها . والإنسان يأبى إلا البقاء ، فهو يكافح . وهو يكافح بأسلحة يستنبطها من الطبيعة بعقله . فالطبيعة فيها الداء وفيها الشفاء . والحياة من بعد ذلك عمليات جبرية ، لا حسابية ، حاصل بعضها سالب ، وحاصل بعضها موجب . وحاصل كل العمليات يتأرجح عند رقم تحتمله هذه الأرض وتشاؤه إرادةٌ وراء هذه الطبيعة . وفي هذا الرقم تتركز معاني البقاء والفناء ، لبني الإنسان جنسا ، أو للجراثيم أجناساً . والقلبةُ في هذا علم عجيب تطلبه عند علام الغيوب .

أحمد زكي

القـــوت بعد الحرب

كيف يدبر وكيف يوزع

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

تبذل الأمم المتحدة في الوقت الحاضر جهوداً جبارة في سبيل تنظيم العالم بعد الحرب ، وقد كانت أهم المشاكل التي مثلت أمامهم متطلبة الحل الدقيق السريع الناجع هي مشكلة الطعام ، فالناس في الوقت الحاضر يعيشون في حالة غير طبيعية ؛ والأمم المحاربة تقوم حكوماتها بتوفير الأطعمة الضرورية لرجال الجيش ولسكان البلاد من الصناع ومن النساء العاملات وغير العاملات ومن الأطفال ؛ وهم يستخدمون في ذلك كله جميع مواردهم وجميع وسائلهم ، للاستيلاء والنقل والتوزيع بغير نظر إلى التكاليف .

أما الأمم المحايدة فهي قانعة بما تجده ، تحمد الله على أن جنبها ويلات الحرب ، ووفقها إلى الحصول على ما تجده من الطعام ، وترجو لهذه النعمة زوالاً سريعاً .

وهناك الأمم المحتلة التي غلبها القاهر وأخضعها ، واستولى على مواردها ، ونقل إلى بلده معظم خيراتها ، ولم يبق لها إلا القليل الذي لا يكاد يكفي للكفاف وشظف العيش ، وهي لا تملك أن ترفع صوتها ، وإنما تضرع إلى الله أن يقيل عثرتها ، وأن يهيء لها سبيل الخلاص من أسرها .

وقد تحمل لكل حين مقدار ما يصيب موارد العالم الغذائية يوماً بعد يوم من أضرار بالغة ، وينذر الناس في جميع أنحاء الأرض بسوء العاقبة ، وبأيام عصيبة ، ويصور أمامهم شبح الجوع ماثلاً يقودهم إلى الهلاك . فكم من بلاد خربت ، وأراض زراعية أقفرت ، وأشجار مورقة قطعت ، وزراعات كانت تدر الخيرات قد أوقفت ، وأنعام وأغنام مما يأكل الناس قد هلكت ، وما بقى منها لا يجد العلف اللازم لنموه وتكاثره وصلاحيته لأن يظل كما كان من قبل طعاماً شهياً للإنسان . والمنتجات الزراعية أين هي ؟ ومن الذي تهيأ له الفرص والظروف ليقوم عليها ؟ اللهم إلا الذين تعهد إليهم الحكومات المحاربة بتهيئتها للجنود والجرحى والمرضى .

كل ذلك ينذر بالحرمان ويصور للعالم الحالة التي سينتهي إليها حين يقدر لهذا النضال الشنيع أن يقف ، وتلك الحرب الضروس أن تضع أوزارها . وكلما امتدت أيامها ، وطالت مدتها ، ازدادت تلك الحال سوءاً ، وازداد إشفاق المفكرين مما ستؤول إليه الحالة في العالم بعدها .

من أجل هذا خصص أول مؤتمر عام عقدته الأمم المتحدة لبحث مسائل التغذية والزراعة . ولا تزال هذه المشاكل محل دراسات مستمرة للكثير من اللجان التي شكلت في ذلك المؤتمر وفي المؤتمرات التي تلته ، وفي الهيئات التي أقامتها دول الحلفاء كمركز تموين الشرق الأوسط وغيره ، وتطلع علينا الجرائد والمجلات باستمرار ببحوث قيمة في هذا الموضوع الخطير . وقد رأينا أن نوافق قراء الثقافة ببعض تلك الآراء :

* * *

بمجرد انتهاء الحرب سيكون أمام الدول العظمى مهمتان على جانب عظيم من الخطورة : « الأولى » إسعاف الأمم المنكوبة بما هي في أشد الحاجة إليه من تموين عاجل يسد جوعها ويحميها من الهلاك . و« الثانية » : تهيئة الأسباب لزراعة كل شبر من الأرض واستغلاله إلى أقصى حد ، وذلك بمعاونة كل قادر على الإنتاج أن يقوم به وإمداده بكل ما يلزمه لينتج أكبر إنتاج وأحسنه .

والإسعافات التي أشرنا إليها الآن يجب أن تكون بصورة مؤقتة سريعة . أما تنظيم الإنتاج فيجب أن يكون الأساس ؛ فالأمم المحتاجة للعون لا تبغي إحساناً وإنما تنشد مساعدة تمكنها من أن تعين نفسها بنفسها وتقوم بتهيئة حاجياتها بعرق جبين أفرادها ، وتلعب دورها في الإنتاج العالمي .

ولتحقيق كل من الغرضين ترى الأمم المتحدة أنه يجب أن يكون هدفها الأسمى وغرضها الأول هو توفير الطعام لكل فرد بغير استثناء، وبغير تفرقة قومية أو طائفية أو غيرها. ووسيلتها إلى ذلك هي دراسة جميع المناطق دراسة وافية لمعرفة حاجياتها بالضبط، ومقدرتها الإنتاجية الحالية، ووسائل إنعاش تلك القدرة لزيادة هذا الإنتاج. وهي تستفيد في دراساتها بكل خصائص الأمم وعاداتها وأساليبها؛ فقد يتبين لها عند الدرس أن وسائل التغذية وطرقها المتبعة عند أجهل الأمم تكون أحياناً أنجع وأفيد من المتبعة عند أكثر الأمم مدنية وعلما.

ولتحقيق هذا الغرض قد جندت الأمم المتحدة جيشاً كبيرا من الإخصائيين للدراسات الشاملة؛ فلكل مناخ وموقع وعادة في منطقة من المناطق قد أكسبتها ميزة خاصة وجعلتها تفضل زراعة محصولات خاصة وتحسن تربية حيوانات خاصة. ولابد من دراسة علمية وافية لجميع شئون التغذية ومعايير الاستهلاك ووسائل إنتاج الأغذية وطرق توزيعها. والدارسون يؤملون أن يعينهم هذا الكثير من المعلومات العلمية على تقدير الحاجات اللازمة للعالم بالضبط وتقدير الإنتاج تبعا لذلك، ثم إنهم يعمدون — للحصول على هذا الإنتاج الضروري — إلى استغلال كل بقعة من الأرض أعظم استغلال فيزرعون مختلف أنواع الأطعمة في خير الأماكن صلاحية لها، ويرتبون تموين كل جهة من خيراتها أولا ثم من أقرب المناطق إليها ثانيا وبذلك يرتفع مستوى الإنتاج إلى أقصى حد، وتقل ضرورات النقل إلى أقل حد وتنعدم ندرة وجود بعض لوازم أو ضروريات الحياة أو زيادة كمية بعض الضروريات عن القدر اللازم.

وقد كانت آخر فقرة لقرارات أول مؤتمر عقدته الأمم المتحدة هي: «كل سكان الأرض مستهلكون للطعام وأكثر من ثلثيهم منتجون له، وهاتان الظاهرتان للانتفاع بالأراضي لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى؛ فالناس لا يستطيعون استهلاك طعام أكثر مما يستهلكون، ولا الحصول على طعام أصح من طعامهم الحالي إلا إذا أمكن استنباط هذه الكثرة وهذا الطعام الفضل من الأرض أو من البحر بمقادير كافية. فإذا كان لابد من إكثار إنتاج الأطعمة وتحسينه فيجب أن يعرف المنتجون ما يجب عليهم القيام به، كما يجب أن نؤكد ونضمن لهم أن ما سيبذلونه من جهد سيدر عليهم رزقا كافياً يعينهم على تحسين حالهم ورفع مستوى حياتهم».

* * *

ولكي تقوم كل أمة بنصيبها من هذا الإنتاج يجب أن تعاون وتيسر لها كل السبل وتقدم لها جميع التسهيلات اللازمة. فالخبرة التي اكتسبتها أمريكا في المسائل الزراعية والتقدم الزراعي الهائل الذي ظهر فيها بوجه عام، وفي ناحية الآلات بوجه خاص، كل هذا يجب أن تنتفع به الأمم الأخرى التي هي في حاجة إلى المساعدة من هذه الناحية. وهذا يجرنا إلى نقطة أخرى على جانب عظيم من الأهمية؛ وهي ما تبين من أن الملكيات الصغيرة كثيراً ما تعطل التقدم الزراعي؛ فالفلاح الذي عليه أن يزرع قطعاً صغيرة متباعدة من الأراضي يضيع نصف يومه في الانتقال من واحدة إلى أخرى ولا يستطيع أن يستدخل الآلات والوسائل الحديثة في زراعته، ولذلك يقول كثير من المفكرين بضرورة وضع حد أدنى للملكية بحيث يمنع تقسيم الأراضي إلى ما هو دونه عن طريق البيع أو التوريث الخ. بحيث إذا بلغت قطعة الأرض نهايتها الصغرى وجب اتخاذ تدابير أخرى لتعويض الوارثين — مثلا — حتى يمكن تفادي قسمة الأرض إلى قطع أقل من النهاية الصغرى المتفق عليها.

وقد رأى بعضهم أن ذلك سيؤدي حتما إلى تقليل عدد المشتغلين بالزراعة في بعض المناطق بسبب هذا الإجراء الأخير، فاقترح — علاجا لهذه الحالة — إما أن نعوض الفرد المراد تنحيته من الأرض لكيلا تقسم تعويضه بدلا منها أرضا بكرا جديدة يقوم على استصلاحها وزراعتها، وبهذا تزداد المساحات المزروعة متى وجد إلى ذلك سبيل، فإذا تعذر هذا أو رغب عنه، فهناك اقتراح آخر لا يقل عن هذا أهمية، وهو إنشاء صناعات جديدة في

الأماكن المكتظة بالملكيات الصغيرة تستنفد تلك الأيدي المراد صرفها عن الزراعة . فالنظرية القديمة التي كانت تخير الأمم بين أن تكون صناعية أو زراعية قد ثبت خطؤها وحلت محلها النظرية الجديدة التي تقول بأن كل أمة يجب أن تصر على أن تكون زراعية وصناعية في آن واحد .

ونشوء تلك الصناعات يستنفد عددا عظيما من العمال لا في الصناعات المنشأة وحدها ، ولكن فيما تستلزمه من استخدام عمال للبناء وآخرين لشق الطرق وتمهيدها وغيرهم لتسهيل النقل والمنشئات الصحية وما تستلزمه من عمليات لمد المصانع والعمال بالمياه الصالحة للشرب ، ومد سكان المنطقة الجديدة والصناعات الجديدة بالكهرباء — كل ذلك من شأنه أن يخلق تلك المناطق المكتظة خلقا آخر ، ويبعث فيها روحا ونشاطا وتجديدا .

وقد لاحظ بعض الباحثين أن كثيرا من المنتجين يحرمون أنفسهم من الانتفاع بخيرات أراضيهم ومنتجاتها . فقلما نجد فلاحا يطعم من ماشية أو غنم يربيه ، أو يشرب هو وأسرته القدر الضروري لهم من الألبان ، أو يأكلون ما لا يستغني عنه الجسم من الخضروات الغنية بالفيتامينات مما يسبب اعتلالا في صحة هذا الفلاح وأسرته ، وظهور بعض أمراض خاصة في هؤلاء المحرومين تقلل من نشاطهم وتضعف من مقدرتهم على العمل والإنتاج . وهذا أمر يجب محاربته وهو يرجع إلى أحد عاملين : الأول اضطرار الفلاح إلى بيع المنتجات ليشتري بثمنها بعض لوازمه الأخرى ، ومثل هذا الفلاح تكون منتجاته أقل مما يجب . ولذا يجب معاونته على إصلاح إنتاجه وإكثاره ، فإذا لم يكن إلى ذلك سبيل وجب صرفه عن الزراعة في منطقته وتوجيهه إلى منطقة أخرى أكثر إنتاجا ، أو إلى صناعة جديدة كما قدمنا ، وقد يكون بيعه لإنتاجه وحرمانه نفسه وأسرته من هذا الانتاج راجعا إلى طمعه في المال الذي يبيعه به لغلو أسعاره ، ومثل هذا الشخص يجب أن يبصر بما في عمله من خطأ ، ويفهم ضرورة أخذ حاجته الشخصية الضرورية من منتجاته ، حرصا على صحته وصحة ذويه ، ثم يتصرف فيما بقي بعد ذلك بالبيع .

* * *

وواضح أن نظما كالمقترحة هنا وتنظيمات كالتي أشرنا إليها لا يمكن أن تنجح إلا إذا وجدت من الدول تعاونا تاما دقيقا بإخلاص وصراحة . ولا يصح أن يترك أمرها إلى بضع دول كبيرة تتولاها دون غيرها ، فإن ذلك يثير كامن الحقد في الدول الأخرى مهما صغرت ؛ إذ يشعرها بنوع من التحكم أو الدكتاتورية تفرضها الدول الكبيرة على الصغيرة ، ولذلك يجب أن تتعاون الدول في هذه الشئون بصورة إجماعية .

ثم إن مثل تلك التنظيمات الدولية لن تعدى أن تكون أملا خائبا إذا ظلت أمور التنفيذ بيد الأفراد الذين يجرون وراء الربح والمصالح الذاتية . فالسلطات الحكومية لابد منها لتنفيذ الاتفاقات الدولية . فبغير رقابة حكومية على أسعار السلع وعلى توزيع المنتجات لا نضمن أن يحصل كل شخص على الغذاء الذي يحتاجه بالمقادير الكافية لحاجته صحيا ، فإذا ظلت السوق التجارية حرة فإن ندرة السلع تخدم المنتج كما تخدمه كثرتها هذا إلى أن التوزيع يكون في الغالب تبعا لمقدرة المستهلك المالية فيتخم الغني ويجوع الفقير ، ثم إن الإشراف الحكومي لا مناص منه لضمان التناسق في السياسات الزراعية للأمم المختلفة تناسقا يجعلها كلها تتمشى متفقة تمام الاتفاق مع الخطة المالية التي تتفق الأمم مجتمعة على انتهاجها .

وبعد فإن توزيع الطعام مشكلة أخرى من أعقد المشاكل . ويرى بعض الباحثين أنه يجب أن تضطلع بها هيئات غير سياسية وغير طائفية وغير أنانية — أي ليست لها مصالح ذاتية — هيئات لها اتصالات بجميع أنحاء البلاد المراد عونها . ولكي تكون هذه الهيئات ذات أثر فعال وتقوم

عهدتها خير قيام يجب أن تحوز ثقة سكان البلاد واطمئنانهم لها. ويرى أصحاب هذا الرأى أن الهيئات التى تقوم بذلك كله هى الهيئات التعاونية. فنظام التعاون الذى نشأ فى اسكتلندا ثم انتقل ببطء إلى انجلترا وتسرب بعد ذلك بهدوء حتى عم أوروبا وانتقل منها إلى جميع أنحاء العالم، نظام تطمئن نفوس الأهلين لهيئاته لأنهم يحسون بأنها هيئات يملكونها هم شخصياً. والدليل على ذلك أنه قبل الحرب كان عشر سكان فرنسا وثمن سكان هولاندا وأكثر من ربع سكان بلجيكا وثلث سكان النرويج وثلثا سكان الدنمرك، كل هؤلاء يشترون حاجياتهم من مخازن جمعياتهم التعاونية التى هم أعضاء بها، كما أن هناك آلافا غيرهم كانوا يشترون حاجياتهم أيضا من مخازن تلك الجمعيات التعاونية دون أن يكونوا أعضاء فيها

وهذه المؤسسات التعاونية فى البلاد المختلفة كانت متصلة بعضها بالبعض، اتصالات تجارية وثيقة وكان يضمها كلها اتحاد دولى تعاونى يربطها رباط وثيق. فكان هذا الاتحاد قبل الحرب يضم لعضويته عشرين ألف جمعية منتشرة فى أربعين مملكة، ويبلغ عدد أعضائها جميعا مائة مليون عضو. فهذه المؤسسات التعاونية هى التى يقترح بعض كبار المفكرين أن تتخذها حكومات الأمم المتحدة وكلاء لتوزيع الأطعمة والتموينات الزراعية بعد الحرب فى دول أوروبا المحررة، فهى خير الهيئات التى يصح أن يعهد إليها بمثل ذلك العمل الدقيق المتشعب، ولها فى موظفيها الفنيين المتمرنين خير ضمان للنجاح

ثم إن هذه الهيئات الدولية التى كانت قائمة قبل الحرب فى وسعها أن تعيد الصلات فى البلاد المحتلة التى قد يكون المحتلون قد عبثوا بنظمها التعاونية؟ فالمراكز الرئيسية والهيئات التعاونية الأخرى التى كانت متصلة بتلك البلاد تعرف الأشخاص الذين كانوا قائمين على إدارة تلك الجمعيات وتعرف عناوينهم فهى لذلك أقدر من غيرها على معاودة الاتصال بهم.

حجر القداحة

لا تحسبن الحجر الذى تستخدمه فى قداحتك (ولاعتك) حجرا وإنما هو سبيكة من فلزات نادرة كل منها فى حالة النقاء فلز باهظ الثمن. وإنما تسمى استعمالها حجرا للقداحات تشترى فى الأسواق بثمن بخس، بضع مليمات لكل، لأنها من البقايا الثانوية التى تتخلف عن إحدى الصناعات وهى صناعة أقنعة الوقاية من الغازات.

فصناعة أقنعة الغازات تحتاج إلى عنصر وهو الثوريوم، ومن خصائصه أكسيده أن يبقى متماسكا إذا سخن. والثوريوم يستخلص من معدن «المونازيت»، وهو معدن يحتوى على كميات كبيرة من الفلز النادر «السريوم». وفى صناعة الأقنعة لا يقتضى الحال أكثر من واحد فى المائة مما فى المعدن من السريوم. أما الباقى المتخلف من عملية تكوين مركب الثوريوم فتؤخذ منها أحجار القداحات، وهى تتكون بعد علاجها بالحرارة أو كيميائيا من خليط من الفلزات السريوم واللانثانوم والنيديميوم، وهى فلزات لم يسمع بها الكثير ولا يدور بخلد أحد أنه يحملها فى جيبه. وفى حجر القداحة طائفة أخرى من الفلزات النادرة منها آثار خفيفة من الراديوم، ولو أن فلزا منها كان فى حالة النقاء لكان ثمن الأوقية منه مئات الجنيهات، وإنما رخص ثمن السبيكة مع غلاء المفردات التى تتألف منها لأنها نتاج ثانوى فى إحدى الصناعات، ولأن هذه الفلزات النادرة الداخلة فيها تأتى على حالها الطبيعية ولا يحضر الحجر منها وهى فى حالة النقاء.

الأطباء في الأدب

وقع الأطباء في ألسنة الكتاب والشعراء من قديم الدهر، فمرّة كانت أسماؤهم مقرونة باسم عزرائيل:

يمشى وعزرائيل من خلفه مشمّر الأردان للقبض!

ومرّة كانت مقرونة بالفناء والهلاك:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وحيناً كانت هذه الأسماء مقرونة بالجهل المركب:

قال حمار الطبيب موسى لو أنصفوني لكنت أركب
لأنني جاهل بسيط وراكبي جاهل مركب!

ولقد سلم الأطباء من شر المتنبي لمّا أصابته الحمّى وهو في مصر، فألهاه وصفه الدقيق للحمّى عن بسط لسانه فيهم، وإذا كان الطبيب الذى داواه قد جهل شيئاً فقد جهل طبائعه:

يقول لى الطبيب أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أنى جواد أضر بجسمه طول الجمام!

***

قد تشتمل كتب الأدب على أكثر من هذا الشعر في الأطباء، إلا أنه لا يهمني في هذا المقال أن أستقصي أقوال الكتّاب والشعراء في الأطباء، وإنما الذى يهمني أن أشير إليه أن الأطباء لم يتملّصوا من تهكم المتهكمين، والأدب الذى لم يفلت من سلطانه شيء، لم تفلت منه هذه الطبقة من الناس، فلم يخلُ من صلة بالأطباء إلا القليل، أو أقل من القليل. فمن منّا لم يلجأ إلى طبيب، ومن منا لم يمدح طبيباً ولم يذم آخر، ومن منّا لم يؤلمه تدجيل فئة من الأطباء، ولم يرفع ذكر فئة أخرى؟ فالأطباء لهم نصيب وافر من أحاديثنا في مجالسنا، إلا أنى أريد أن أذكر في هذا المقال قليلاً من نصيبهم من أقلام بعض كتاب الإفرنجة، وحسبي منهم كاتبان: مونتان وفولتير.

فقد «مونتان» أحد كتاب العصر السادس عشر فصلا في كتابه الخالد، تكلم فيه عن قانون الإرث؛ فالناس يرثون تقاطيع الوجوه والأخلاق من أجدادهم، ويرثون الاستعداد للأمراض التى وقع فيها هؤلاء الأجداد، وقد ورث «مونتان» من أبيه وجده وأبي جده وجع الحصى في الكليتين، وورث مع هذه الحصى احتقار الطب فقال:

ليعذرني الأطباء بعض المعذرة، فقد ورثت بغض طبهم واحتقاره...

ولم يكن الطب في أيام «مونتان» إلا عبارة عن جهل ومن تناقض، وعن تردد، وهذه هي الأسباب التي حملت هذا الكاتب الخالد على التعرض للأطباء، وقد عانى في أواخر أيامه عذاباً غليظاً، ولا يتسع هذا المقام لبيان ما ينشأ عن استقرار الحصى في الكلية من العواقب، ولم يهتد الطب في أيام «مونتان» إلى تفتيت الحصى، فلم ينجُ هذا المسكين من أيدي الأطباء في عصره، ولكنه لم يبلع ما كانوا يصفونه له من المفتتات، فلم يمض على تدجيل الأطباء، فقد سلقهم بلسان من حديد، وحاول أن يأتي بالبراهين على بطلان فنهم، وإليك جملة من براهينه، قال:

«عاش والدى أربعاً وسبعين سنة، وجدى تسعاً وستين سنة، وأبو جدى ثمانين سنة بوجه التقريب من دون أن يهرعوا إلى أى طبيب كان».

وهو يتحدى الأطباء، فهل يستطيعون أن يدلوه على أى بيت كان، دخله الطب فاستطاع أن يذوق فيه طول الحياة ثلاثة من ذريته متعاقبون!

ما فائدة الأطباء في رأيه إذا كانوا عاجزين عن تطويل الأعمار؟ وأقبح من هذا أن الأطباء يجعلون الصحيح سقيماً حتى لا يجد فلتاً من سلطانهم؛ فهو يقول: لماذا لا نستثنى

عن الطب ما دامت الأمم القديمة قد استغنت عنه وكانت صحتها حسنة .

عاش الرومان ستة قرون قبل أن ينشأ الطب فيهم ، ولما عرفوا الطب وجربوه طردوه من بلادهم على يد « كاتون القديم » . فقد برهن « كاتون » على استغنائه عن الطب بعمره الطويل الذي امتد إلى خمس وثمانين سنة وبعمر زوجته التي بلغت أقصى الشيخوخة . ولئن لم تستغن عن الطب لقد استغنت عن الأطباء .

فكل شيء ينفع حياتنا إنما هو طب في رأى « كاتون » .

على أن « مونتان » إن كره الطب فإنه لم يكره الأطباء ، فقد قال : إني أجلّ الأطباء لا لحاجة إليهم ، ولكن لحبي إياهم ، فأنا أعرف فيهم كثيراً من الشرفاء ، فهم يستحقون المحبة ، إني لا أنقم عليهم ولكني أنقم على فنهم !

●●●

هل كان « فولتير » أرأف بالطب والأطباء من « مونتان » ؟

آمن فولتير بالطب ما دامت صحته جيدة ، وقد زاد إيمانه به لما مرض ثم صح ، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة ، ومدح الطبيب الذي داواه ، وصح على يديه ، فقد كان طبيبه لم يتخلّ عنه طرفة عين ، كان يراقب كل حركاته ، ولم يصف له شيئاً دون أن يبين له سبب هذا الوصف ، وقد نشأ له بعد البرء رأى وجيه في باب من أبواب الطب ، قال :

« يقول فلان : إن هذا الرجل قد نقه من مرضه بواسطة كذا ... وأنا مصاب بالمرض نفسه ، فينبغي لي أن أستعمل الدواء ذاته الذي استعمله ... فكم من رجل مات بسبب هذا الرأى ، لا يريد الناس أن يعلموا بأن الأمراض التي تقع فيها تختلف باختلاف تقاطيع وجوهنا .

فقد يرتطم المرء من حيث نجا غيره ، ويهلك الإنسان من حيث سلم أخوه » .

إلا أن « فولتير » لم يدم على هذه الآراء ، فقد أصابته آلام شديدة ، ولم يستطع الأطباء أن يشفوه منها ، احتقرهم وتولى مداواته بنفسه ، فتبع قواعد خاصة في شرابه وطعامه وأوصى أصدقاءه بهذه القواعد ؛ فقد كتب إلى إحدى السيدات فقال : إترك الهم والطب ، فقد تركت الطب وصحتي حسنة . فأين مدحه لطبيبه القديم الذي داواه في شبابه ، وأين مدحه للطب ؟ على أنه لم يقاطع الأطباء دفعة واحدة ، فقد كان يرجع إليهم ويستشيرهم ، ولكنه لم يعمل بنصائحهم . كان يهتم بآرائهم وبحوادثهم ، ولكنه لا يؤمن بأدويتهم ، فلم يكن مريضاً يصغى إلى الطبيب ، ولكنه كان فيلسوفاً يحكم ويستهزىء ، ولم يخلص من شر أربع الأطباء ، فالطبيب الدلالى شفى المريض من مرضه لأنه لم يصنع به شيئاً . . .

كان يشكو وجعاً في المعدة والأمعاء ، فالدنيا في نظره لا تعدل معدة صحيحة ، وقد كتب إلى سيدة ممرودة فقال : معدتك تشبه معدتي ، لقد جربت الماء البارد والماء الحار ، وجربت ضروب القواعد ، الحسنة منها والسيئة ، ووقعت في أيدى الدجاجلة والأطباء والطهاة ...

فمن ذكره للأطباء في جنب الدجاجلة والطهاة يعرف القارىء مقدار رأيه في الطب والأطباء في آخر عمره !

وعلى الرغم من أوجاعه عاش أربعاً وثمانين سنة !

(دمشق) شكيب جبرك

صورة من قانصوه الغورى

للسلطان الغورى صورة من أوضح صور التاريخ المصرى وإن لم يكن هو من أعظم السلاطين قوة ومجداً. فلا نظن أنه قد تخلفت عن أحد من عظماء مصر، فى القرون الوسطى، أخبار مثل أخباره تكاد تطلعنا على كل دقائق حياته وعقليته.

هو رجل تقلب فى وظائف الدولة صغيرها وكبيرها حتى آلت إليه السلطنة أخيراً فى عصر مضطرب تكتنفه السحب السوداء من كل جانب، وتهدده الأخطار والكوارث فى الداخل، ومن الخارج؛ ومع ذلك فقد كان شيخاً نيف على الستين عندما وقع عليه اختيار الأمراء الذين كانت أطماعهم لا تعرف حداً. ولا نكاد نشك فى أن هؤلاء الأمراء ما اختاروه إلا لأنهم كانوا يكرهون أن يفوز بالسلطنة واحد آخر من بينهم. كان التنافس على أشده بين الذين كانت الحياة لا تزال فسيحة أمامهم، وكان كل منهم يخشى أن يفوز أحد أقرانه بالسيادة العليا فيحجبها عن الآخرين سنين طويلة؛ فآثروا أن يقطعوا المعقدة قطعاً ويؤجلوا النضال فيما بينهم مدة حياة قانصوه الغورى، وما كانت الحياة لشيخ فى الستين لتمتد فى أغلب الظن إلى أكثر من سنة أو سنوات معدودة. ولا شك أن كلا منهم كان يدبر فى نفسه خطته التى يمهد بها السبيل لنفسه إلى ملك مصر، بعد أن يشيعوا ذلك الشيخ إلى قبره بعد حين قصير.

ولكن للمقادير سخرية معروفة، وقد أبت إلا أن تمتد حياة هذا الشيخ إلى آخر أيام السلطنة المصرية كلها.

كان للغورى نصيران قويان بين الأمراء تعصبا له ودبرا له الأمر حتى رفعاه إلى العرش وهما: قيت الرجبى ومصر باى. ولم يكن هو مرتاحاً إلى هذا الشرف الذى دفع إليه دفعاً؛ لأنه كان يعرف حقائق الأمور ويعرف ما أمامه من صعاب وعقبات وأخطار، ولقد تردد طويلا حتى قيل إنه كان يبكى وهم يلبسونه شعار السلطنة: الجبة البنفسجية والعمامة السوداء. وأكبر الظن أنه كان لا يزال جاحظ محمر العينين من أثر البكاء عندما ركب الفرس الأصيل بما عليه من سرج مذهب وزخارف وزينة. وأكبر الظن أن قلبه كان ثقيلا عندما تقدم الأمير قيت الرجبى لحمل فوق رأسه المظلة التاريخية التى تعلوها صورة الطير الفضية، ثم عندما سار فى موكبه العظيم من باب السلسلة فى القلعة إلى باب القصر الكبير الذى جلس فيه على سرير الملك لأول مرة.

ولكن ذلك الشيخ لم يكن بالفانى ولا بالوانى؛ فإنه احتال فى الحكم احتيالا رائعاً تمكن به من مقابلة الصعاب وتذليل العقبات واحدة بعد واحدة. لم يعجزه تدبير الأموال للخزينة الخاوية، فما لبث أن جمع الأموال العظيمة بطرق بلغت من العنف مبلغاً لم يسبقه إليه أحد من قبله، ثم لم يلبث أن أحس الادلال من نصيريه الكبيرين الأميرين قيت الرجبى ومصرباى، فلم يتردد فى شىء حيالهما وقبض على مصرباى بعد ثلاثة أشهر من سلطنته وسجنه حيناً حتى هرب وثار به بعد قليل فقتله، ثم قبض على صاحبه الآخر قيت الرجبى بعد ذلك بأشهر وبعث به إلى سجنه بالإسكندرية.

ثم انطلق فى الحكم بعد ذلك انطلاقاً.

كان الغورى يعرف كيف يتودد ثم كيف يضرب. كان يجلس مع الأمراء والأعيان والعلماء فى قصره فيسمرون ويتناقلون الأحاديث بين فكهة وجادة، وكان ينزل إلى المدينة لتشييع جنازات الأمراء والأعيان، وكان يكثر من الولائم فيمد سماطه فى أطراف المدينة وبساتين الضواحى ويدعو إليه الجموع من الأمراء والأصدقاء، ولكنه كان يغضب من يوقع بهم عقاباً وحشياً فيختار لذلك من يثق فى تفننه وإبداعه فى ابتكار آلات التعذيب،

واختيار أوجع صنوف العقوبة مثل عصر الكعوب ودق القصب في أطراف الأصابع ؛ وسوى ذلك من مبتكرات الخيال القاسي . وكان مع كبر سنه محباً لفنون الرياضة ، فكلما أقبل الصيف لبس الثياب البيضاء منذ شهر بشنس القبطي (مايو) وافتتح موسم لعب الكرة بالصولجان فوق ظهور الخيل ، ويوالى بعد ذلك إقامة المهرجانات الرياضية مدة ثلاثة شهور ، وكانت هذه المهرجانات من أحب المناظر إلى الناس حتى أن شاعراً من شعراء العصر تغنى في الإعجاب بلعبة الكرة فقال فيها :

يا حسنها كرة كالنجم سائرة
قد طال رودانها بين الجواكين
تفرّق الهم إذ كانت مؤلفة بين القلوب بآلاء السلاطين
لجرّهم لقلوب الجند إذ لعبوا
مع الملوك وهم بعض الساكين

ولم يقتصر حبه للرياضة على لعبة الكرة ، بل كان يحسن السباحة وينزل إلى النيل في يوم وفاء النيل فيسبح عند المقياس حيناً ثم يضمخ عمود المقياس بالخَلوق على العادة القديمة ، كما كان يحب سائر أنواع المباهج العامة ، فأحيا منها ما درس ومن ذلك (الرماحة) ، وفيها كان الفرسان يتسابقون ويطعن اللاحق منهم السابق إذا أدركه . وأعاد موكب المحمل واحتفل به احتفالا عظيما ، وأمر (الرمّاحة) أن يعرضوا ألعابهم على الناس فيه ، فاهتزت القاهرة كلها فرحاً وخرج الناس إلى طرقها يرقصون ويغنون :

بيع اللحاف والطرّاحه حتى أرى دى الرماحه
بيع لى لحاف دى المخمل حتى أرى شكل المحمل

ولما اطمأن له الملك أقبل على البناء والتأنق في المجالس والمواكب ؛ فلم يكد يخلو عام في حكمه من عمارة قصر أو مسجد أو بستان وكان لا يبالي ما ينفقه في سبيل ذلك حتى كان يحمل أشجار الفاكهة وأصص الريحان والزهر من بلاد الشام وغيرها لكي يزرعها في الحدائق والميادين .

وكان ينفق في سبيل ذلك أموالا لا يتحرى مواردها ، حتى أحس أهل القاهرة ثقل وطأته ، ولكنهم كانوا بغير شك لا يكرهونه ، فكانوا يجتمعون حول مواكبه ويحيونه بما عرف من أهل هذه العاصمة من محبة الملوك ، ولم يجرؤوا على انتقاده وسائله الشديدة إلا بطريقتهم المحبوبة منذ القدم ، أقصد طريقتهم في الفكاهة وإثارة الضحك . ومن ذلك أنه بنى مسجده الجميل الذي أعده ليكون مدرسة ولا يزال قائما إلى اليوم في الطريق الذاهب إلى الأزهر إذا قاطع الطريق الأعظم القديم من مدينة القاهرة . وقد أنفق فيه السلطان وأنفق عليه وفرح فرحاً عظيما عندما أتمه واحتفل بافتتاحه احتفالا باهراً ، ولكن أهل القاهرة أطلقوا على ذلك المسجد اسم (المسجد الحرام) ، فجمعوا في هذا اللفظ بين العطف والنقد جمعا لا يوفق إليه كثير من الشعوب إذا أرادت انتقادا .

ولم يكن السلطان الغوري ممن يحتجبون وراء رسوم المكان السامي الذي يستوى عليه ، بل كان ينغمس في غمار شعبه فنكاد نسمع صوته من ثنايا الأخبار المختلفة عنه ، وهو تارة يتبسط في تجمل وعطف وتارة يتجهمهم في صخب وعنف ؛ مرض مرة بعينيه من أثر التهاب واسترخاء في جفنيه حتى لم يجد الأطباء الكحالون من دواء له سوى أن يقطعوا طرفا منهما ، فجزع من ذلك جزعا شديدا ولانت نفسه وهانت عنده الدنيا ، فأقبل على الخيرات والإحسان ومنع الأذى عن الناس ، وخفف من أعباء الضرائب عليهم ، وبالغ في الرقة حتى عرض المسجونين وأطلق من طال عليهم الأمد في ظلمات القلاع وسراديب السجون فانطلقت الألسنة بالدعاء له والتوجه الى الله أن يمن عليه بالشفاء . ولكن جفنيه ما كادا يعودان الى ما كانا عليه حتى عاد كل شيء آخر الى ما كان عليه .

وكان في مصر شاعر اسمه السلاموني وكان رجلا هجاء فهجا بعض الأعيان هجاء فاحشا فشكاه الهجو إلى

بعض القضاة فعزر القاضي الشاعر وأدبه وشهره على حمار وهو مكشوف الرأس جزاء له على قبح هجائه . وكان السلطان الغوري يميل الى ذلك الشاعر ، اذ كانت له فى محبته للادباء بدوات ونزوات ، فغضب لما أصاب السلاموني من الألم وعاقب من أوصل الاذى اليه ثم لاطفه وأحسن اليه فتشجع الشاعر وهجا القاضي الذى عزره وكان هجاؤه على عادته قبيحا فقال فيه قصيدة طويلة مطلعها :

قشا الزور فى مصر وفى جنباتها

ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

فأحرج السلطان فى هذا الامر إحراجا شديدا ولم يستطع إلا أن يرضى القاضى بعد أن قامت البينة على أن الشاعر هو الذى ألف القصيدة ، فقيد السلاموني فى الحديد وأرسله الى السجن حينا حتى هدأت النفوس ثم أفرج عنه .

ولعل الغوري كان يسر شيئا من الرضا عن هجاء الشاعر للقاضى ؛ فقد كان يضمر لمشايخ عصره شيئا كثيرا من الكراهة . ولا ندرى ما الذى حمله على هذه الكراهة ، ولكنا نسمع صوته صاخبا يندد بهم ويذيع عنهم قالة السوء ، حتى أنه عزل القضاة الكبار الاربعة فى يوم واحد على أثر حادثة من الحوادث الشنيعة التى ارتجت لها القاهرة ، وكان فيها السلطان عنيفا فى مهاجمة الشيوخ ، وقضت العاصمة خمسة أيام ليس فيها قضاة فى المذاهب الأربعة جميعا . وقد بلغ من غضبه عند ذلك وسوء ظنه أن دعا والى المدينة (وهو رئيس شرطتها) وقال له : « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه وأنا ألبسك (خلعة) كاملة مخملة بسمور وأركبك فرسا بكنبوش » . فكان هذا تعريضا منه على التعرض للمشايخ وإيقاع الأذى بهم . ولا شك فى أنه كان مغاليا فى سوء ظنه ؛ فما عرف الناس عن علماء مصر فى كل العصور الا الخير . وقد بلغ من حنقه على العلماء أن أصحاب العمائم من الموظفين كانوا فى أثناء غضب السلطان لا يدخلون عليه إلا اذا خلعوا عمائمهم ولبسوا بدلها القلانس الخفيفة أو ما يشبهها من أغطية الرأس . وقد دخل عليه بعض كبار الموظفين المعممين فى يوم من تلك الأيام لابسين (تخفيفة) فوق رؤوسهم فضحك السلطان وقال لأحدهم : « بقيت مثل المماليك الجراكسة » . ولكنه لم يلبث أن رضى عن المشايخ بعد أن زال سبب غضبه عليهم وأعاد تعيين القضاة الأربعة وصار الإعصار فى سلام .

محمد فريد أبو حديد

البنسلين

لا ينقضى العجب من هذا الدواء السحرى « البنسلين » . فقد أشير أخيرا فى تقرير صدر عن هيئة من أطباء الصحة العمومية بالولايات المتحدة إلى أن هذا الدواء نجح فى علاج الزهرى فى ثمانية أيام .

فقد عولج أربعة من المصابين بالزهرى بهذا العلاج وبعد ثمانية أيام ظهر أنهم جميعاً قد شفوا تماما ، وإن كان الأمر يقتضى وضعهم تحت الملاحظة المستمرة لمدة لا تقل عن سنة قبل أن يعتبر شفاؤهم نهائياً .

والمزية الكبرى لعلاج الزهرى بالبنسلين التى يفضل بها غيره من العقاقير المستعملة قبل اليوم أنه ليس له آثار تسميمة . فمركبات الزرنيخ التى تستعمل الآن فى علاج الزهرى لها فى بعض المرضى ردود فعل ظاهرية ، منها ما هو هين ومنها ما هو خطير . أما البنسلين فهو أول عقار غير سام يستعمل فى علاج هذا المرض .

ومجموع ما يعطى المريض فى مدة العلاج ١٢٠٠٠٠٠ وحدة من البنسلين تحقن فى العضل . ويحتاط كاتبو التقرير فيقررون أن الأمر يقتضى تجربة مئات من الحالات وملاحظتها قبل الجزم باعتبار البنسلين شفاء قاطعاً للزهرى .

مأساة سياسية وصحفية شهيرة

قضية الفيجارو ومدام كايو سنة ١٩١٤

في أوائل سنة ١٩١٤ كان الجدل السياسي في فرنسا على أشده حول مسألة الدفاع الوطني ونقص أعبائها ، وحول قانون الخدمة العسكرية . في ذلك الأفق المضطرب وقعت جناية سياسية اجتماعية كان لها أعظم وقع في فرنسا وفي جميع أنحاء أوربا .

فني عصر يوم الاثنين ١٦ مارس سنة ١٩١٤ ، قصدت مدام كايو زوجة الوزير السياسي الأشهر يوسف كايو إلى دار جريدة الفيجارو في ناحية شارع الشانزليزيه ، وكانت الفيجارو يومئذ من أشهر الصحف الباريزية وأشدها ذيوعاً ونفوذاً بين الطبقات الرفيعة وفي أوساط المال والسياسة ؛ وطلبت مدام كايو رؤية رئيس التحرير مسيو جاستون كالميت ، وانتظرت نحو ساعة حتى استدعيت لمقابلته ، وما كادت تجوز إلى مكتبه حتى بادرته بإطلاق خمس رصاصات من مسدسها ، فسقط كالميت صريعاً ، وهرول الحاجب عند سماع الصوت ليشهد المنظر المروع ؛ ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى توفي كالميت في المساء .

وكان كالميت قد التحق بتحرير الفيجارو منذ سنة ١٨٨٠ ، وظل يتدرج في أعماله حتى غدا رئيساً للتحرير منذ سنة ١٩٠٣ ، وذاع اسمه وسمت مكانته الصحفية والاجتماعية . وكان مسيو كايو قد وصل بعد حياة سياسية حافلة إلى رياسة الوزارة في سنة ١٩١١ ؛ ولكنه استقال عقب النقد الذي وجه إلى وزارته من جراء موقفها في المفاوضات مع ألمانيا على المسألة المراكشية ؛ وفي مارس سنة ١٩١٣ دخل في وزارة « دومرج » الراديكالية الاشتراكية وزيراً للمالية ، وفازت الوزارة في البرلمان بالتصديق على سياستها المالية بأغلبية كبيرة . وكانت ثمة جبهة قوية تعارض كايو وسياسته المالية ، وكانت جريدة « الفيجارو » تؤيد هذه المعارضة بسلسلة من الحملات العنيفة ؛ وكانت تنشر كل يوم تقريباً مقالات وصور الوثائق ووسائل تخدش من سمعة كايو وشرف زوجته ؛ وكانت هذه الحملات ترمي إلى التدليل على أن كايو لم يتورع خلال حياته السياسية من أن يستغل مركزه كوزير للمالية ، وأن ينمي ثروته الخاصة على حساب الأموال العامة ، وأنه استعمل نفوذه للتأثير على القضاء في قضية الفضيحة المالية التي ارتكبها أفاق يدعى « روشيت » (سنة ١٩١١) ، وأنه عاونه على الفرار من قبضة العدالة . ولم تقف الفيجارو عند هذا الحد ، ولكنها هاجمت كايو في حياته الخاصة ، وأخذت تنشر صوراً لبعض خطابات غرامية ، كان كايو يكتبها إلى خليلته التي تزوجها فيما بعد وهي الزوج القاتلة ، وكانت لا تزال يومئذ في عصمة زوجها القديم مسيو ليون كلارتي ابن مدير مسرح « الكوميدي فرانسيز » ، وظهر فيما بعد أن الفيجارو استطاعت أن تحصل على بعض هذه الخطابات من مدام جويدان زوجة كايو الأولى التي طلقها ليتزوج من خليلته ؛ وكان كايو يستبيح لنفسه في هذه الرسائل أن يفضي إلى خليلته بكثير من أسرار الدولة والشئون العامة ، خلال الأقوال والوقائع الغرامية . وكان كالميت رئيس التحرير يسبغ على هذه الحملات بقلمه اللاذع صوراً مثيرة ، ويطعن الوزير وزوجه طعنات نجلاء ؛ ولبثت الفيجارو في حملتها العنيفة مدى ثلاثة أشهر ؛ وفي يوم من أيام مارس نشرت مقالا جامعاً بتوقيع كالميت ضمنته جميع التهم والفضائح التي تنسبها إلى كايو ، وهذه خلاصتها :

١ — ان كايو لم يكن يرمي في جميع أعماله العمومية إلا إلى جمع المال لنفسه ، وأنه لم يكن يتورع عن التدخل في أعمال البورصة ومساعدة أعوانه وأصدقائه في الاستفادة من تقلباتها .

٢ — ان موقفه في المفاوضات المتعلقة بالمسألة

المراكشية مع ألمانيا كان موقف تفريط وخيانة ، وأنه عمد إلى مفاوضة ألمانيا بطريقة سرية للتنازل لها عن جزء من الكونغو الفرنسي نظير تنازلها عن دعاويها في مراكش .

٣ — أنه ما كاد يلي وزارة المالية في ٣ مارس سنة ١٩١٣ حتى بادر بالعمل على معاونة صديقه الأفاق « روشيت » ، واستطاع بنفوذه وتدخله لدى النيابة العمومية والقضاء أن يعمل على تأجيل قضيته الجنائية اشهراً حتى استطاع روشيت أن يفر من قبضة العدالة . وقد صرح مسيو جوريس النائب الاشتراكي ، ورئيس لجنة التحقيق في مسألة روشيت ، باستيائه من التدخلات الرسمية في الإجراءات القضائية . ومع أن فضيحة روشيت المالية وقعت في أبريل سنة ١٩١١ ، فقد لبث كايو يسعى إلى تأجيل قضيتها حتى تسقط بمضي المدة ، أو يفر روشيت ، وهو ما حدث بالفعل .

٤ — أن كايو بصفته مديراً للبنك العقاري بالقاهرة (أي لمركزه العمومي بباريس) طرح أسهم هذا البنك في البورصة ، واجتنى من وراء ذلك أرباحاً طائلة ؛ وأنه أضاع أموال العمال وأموال الاقتصاد الوطني ، وساعد الأفاقين على اغتيالها .

تلك خلاصة المقال اللاذع الذي نشرته الفيجارو ، والذي بلغ فيه محررها كلميت الذروة في النيل من كايو ومن نزاهته وسمعته السياسية ؛ ولم يك ثمة ما يدل على أن كالميت قد أفرغ كل ما في جعبته من المطاعن والسهام المسمومة ؛ وكانت الفيجارو تطلع كل يوم بطعنة جديدة ، وكانت زوج الوزير تضطرم حفيظة وسخطاً لتلك الحملات الهدامة لمكانة زوجها وحياته العامة والخاصة ، وتحاول أن تجد الوسيلة لدرء هذه الطعنات القاتلة . ولما نشر كالميت مقاله الجامع في اتهام الوزير ، اعتزمت مدام كايو أمرها ، واشترت مسدساً في خفية من زوجها ، وعزمت على إطلاقه ؛ ووصلت المأساة إلى ذروتها في يوم ١٦ مارس حينما خر كالميت صريعاً برصاص الزوج المنتقمة حسبما قدمنا .

***

وعلى أثر وقوع الجريمة اضطرب الرأي العام الباريزي واعتقلت مدام كايو وأودعت سجن الحقانية ؛ وشيع جثمان كالميت في ٢١ مارس ، وشهده جمهور غفير من علية القوم ، ووقعت أثناء الجناز وبعده مظاهرات عديدة ، واستمرت العاصفة أياماً في هرج ومرج ؛ واستقال مسيو كايو في الحال من وزارة المالية ، وندب البرلمان لجنة للتحقيق فيما أثير من الوقائع والفضائح ، وعرضت نتيجة التحقيق على المجلس ، وأسندت فيه أمور كثيرة إلى الوزير المستقيل وبعض زملائه السابقين ، وأصدر المجلس في حقهم قراراً باللوم بعد مناقشات عاصفة ، واستمر الأفق السياسي على تجهمه بضعة أسابيع حتى انتهت الدورة البرلمانية القائمة ، وبدأت الانتخابات للمجلس الجديد .

وكشف التحقيق مع الزوج القاتلة عن كثير من الوقائع والمثالب المؤلمة . واعترف مسيو مونيس وزير العدل في التحقيق بأن كايو رجاه في العمل على تأجيل قضية روشيت خشية أن ينفذ محاميه تهديده بإثارة بعض الفضائح الرسمية ، وأنه نقل هذا الرجاء إلى مسيو فابر النائب العمومي وأيد كايو وزير العدل في هذا الاعتراف .

وبدأت محاكمة مدام كايو في ٢٠ يولية سنة ١٩١٤ ؛ وكان مسيو كايو بالرغم من وقع الحادث المروع الذي ارتكبته زوجه ، وبالرغم مما ثار حول اسمه ومكانته من الضجيج قد تقدم للانتخابات الجديدة وفاز فيها ؛ وكان يعمل جاهداً لكي يسبغ على هذه المحاكمة الجنائية لوناً سياسياً عميقاً ، وكان يحشد حوله بعض الصحف ويغذيها بحملات سياسية ظاهرة الوحي ؛ وغدت محاكمة مدام كايو يومئذ أعظم حوادث العصر ، ولم يحجب من رنينها مصرع الأرشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا والمجر في سراييفو ، ولا ما بدا على أثره من انحدار أوربا نحو

هاوية الحرب بخطى سريعة .

وتولى الدفاع عن الزوج القاتلة الأستاذ لابورى وعن أسرة كاليت الأستاذ شنى Chenu ؛ وسمع الجمهور من سيدات الطبقة الرفيعة بشهود المحاكمة من وراء حاجز حديدى ، وشهد النائب العمومى المحاكمة بنفسه ممثلا للاتهام ، وقالت مدام كايو فى بدء المحاكمة إنها لم تقصد القتل ولكنها قصدت معاقبة القاذف وإرهابه ؛ وقال مسيو كايو إن تهجمه فى حياته الخاصة قد يكون السبب فى وقوع الحادث ، ولكنه دافع عن نفسه وعن سياسته دفاعا رنانا ، وقال بأن خصومه كانوا يهددونه بنشر وثائق تقضى على سمعته ومكانته . وحدثت أثناء الجلسة مناقشة عاصفة بين الوزير وبين مسيو لازاروس مدير إدارة الفيجارو ، إذ زعم أن مسيو كاليت أطلعه على أوراق تؤيد خيانة كايو ونذالته ، ولما ألح كايو فى طلب هذه الأوراق ، أعلن النائب العمومى أن الوثائق المزعومة ليست سوى صور من أصول غير موجودة ؛ واتهم كايو جريدة الفيجارو بأنها كانت فى خدمة ألمانيا وأنها تتقاضى أموالا منها .

وسمعت المحكمة أقوال كثيرين من محررى الفيجارو ؛ وكان من شهود القضية القصصى الكبير بول بورجيه والكاتب المسرحى هنرى برنشتين . وأدلت مدام جويدان زوجة كايو الأولى بأقوالها ، فروت قصة الرسائل الخاصة التى سرقتها من مكتب زوجها السابق المسيو كايو ، والتى نشرت الفيجارو بعضها ، وأبت أن تقدم أصولها إلى المحكمة ولكنها قدمت صوراً فوتوغرافية منها إلى الأستاذ لابورى ، فأبى بدوره أن يقرأها ؛ وكانت هذه الرسائل التى تبادلها مسيو كايو مع خليلته مدام كلارتى ، وهى التى غدت زوجه فيما بعد ، ثم غدت بطلة القضية ، مستقى خصيبا لمحرر الفيجارو فيما كان يكشفه من أسرار حياة كايو الخاصة وعلائقه الغرامية .

واستمرت المرافعات فى القضية أسبوعا ، واستعرضت خلالها أبشع الصور من فساد الحياة الفرنسية العامة وفضائحها الكثيرة ؛ ولم يتورع الاتهام أو الدفاع عن أن يلطخ بالعار والإثم كل شخصية تناولها مهما كان مقامها أومكانتها ، ما بين وزراء ، ونواب وكتاب من جميع الأحزاب ؛ ولم تحدث الوقائع المادية الحاسمة أثرها فى هيئة المحلفين كشراء مدام كايو للمسدس الذى ارتكبت به الجريمة ، وتمرنها على إطلاقه ، وكذلك المذكرة التى كتبتها إلى زوجها تنبئه بأنها ستأخذ حقها بيدها ؛ ولم يتأثر المحلفون بما فى ذلك من عمد ظاهر وسبق إصرار على ارتكاب الجريمة ؛ وغلبت الدعاية السياسية على جو المحكمة ، وقضى الأستاذ لابورى بدفاعه الرنان الساحر على كل عنصر للإدانة . وفى يوم ٢٩ يوليه أصدرت المحكمة حكمها ببراءة مدام كايو خلال مناظر عاصفة ؛ وما كادت الزوج القاتلة تسمع الحكم ببراءتها حتى سقطت مغميا عليها بين ذراعى محاميها ، واشتد الضجيج والهرج فى ساحة الجلسة وامتزجت أصوات الهاتفين لكايو بهتافات « يا للقاتل » ! وأمثالها ؛ واشتد اضطراب الرأى العام الباريزى وعادت المظاهرات السياسية أشد مما كانت ، يهتف بعضها لكايو وللإشتراكيين ، ويهتف البعض الآخر للملكيين والوطنيين .

وجاء هذا الحكم دليلا جديدا على انحلال القضاء الفرنسى وتأثره بالاعتبارات السياسية ، وخضوعه الواضح لوحى السلطة التنفيذية . ولم يمض يومان على ذلك حتى سقط الزعيم الاشتراكى جان جوريس قتيلا برصاص قاتله راول فيلان ، وهو جالس فى بعض مقاهى باريس (٣١ يوليه) فازداد الرأى العام اضطرابا ، وكان الأفق الدولى المتجهم خلال ذلك ينذر فرنسا وأوربا بالويل : كانت الحرب الكبرى على الأبواب .

محمد عبد الله عنان

الدليـــــل

أخذ مكانه على شاطئ النيل فوق مقعد رخامي يشرف على جسر عباس من الناحيـة الغربى ، وينظر إلى سرحة الجزيرة الخضراء من يساره .

كان قد مضى من الليـل بضع ساعات غاب خلالها ضوء النهار ، ومضى الناس معها إلى مضاجعهم ، وحلّت السكينة ، وساد هدوء عميق لا تكاد تخالطه حركة ولا يكاد ينتهى إليه إلا أصوات ضعيفة خافتة من بعيد .

وكان النسيم يسرى دافئا وادعا حتى لتكاد الأوراق الغضة والأزهار الناضرة أن تنكره لولا هذا البرد الذى يحمله فتختلج له الورود خلجة خفيفة ، فتلفها أوراقها بالدفء والأمن والحنان .

ونظر الفتى إلى النيل فرأى النيل ساكنا ساجيا ، كأنما وقف ماؤه فلا يمضى ، وثبتُ تياره فلا يتدفق . لم يكن يلوح منه إلا خط أبيض من ضباب خفيف يغشى صفحته فلا تكاد تبين ، ويقيّد موجاته فلا تكاد تصطفق ، ويلقى عليه سترا من الخفاء تمّحى معه صورة النهر العظيم . لم تكن هناك آية تشهد بأنه يجرى أو تدل على أنه يتدفق !

ونظر الفتى فإذا غصن كبير يسير الهوينى مع الماء ويقترب من مقعده الرخامى ، ثم يمر به ثم يجاوزه إلى الشمال ثم يلفه الموج والظلام . وعاد إلى الفتى يقينه بأن النيل لم يكف عن حركته الخالدة ولم يقف جريه الأبدى ؛ وأنه ما زال حيا يمضى إلى غايته .

ونظر إلى الجسر فراعه هذا الغموض الذى يطيف به وهذه الظلال التى تتراقص من حوله ، وخيل إليه أنه رسم بارز فى لوحة فنان ، ولم يستطع أن يتمثل فيه ذلك الجسر الضخم البيّن الذى يجتازه كل يوم فى رائعة النهار . وسما بصره يتقصاه من أوله ويمضى معه حتى يبلغ به منتصف النهر أو يزيد ، ثم إذا بصره يضل هذا الرسم فلا يجده ويخطئه فلا يراه ! . لم يكن هناك إلا سلطان الظلام يتيه مختالا فوق الماء ، ويلف الجسر فى ردائه الأسود الثقيل . وخيل إلى الفتى أن الجسر لم يعد جسرا وأنه لم يبلغ الضفة الأخرى حيث يلقى برأسه على ثرى النهر العظيم .

ودلفت سيارة تريد أن تعبر إلى العدوة الشرقية ، وأرسلت أنوارها الزرقاء ترود هذا المحيط الشامل من الظلال . وتابع الفتى ببصره النور حتى إذا بلغ به منتصف النهر أو يزيد ، لم تخطئه عيناه وإنما مضتا معه وهو يشق الظلام حتى بلغ الضفة الأخرى واختفى فى حنايا الطريق .

وعاد إلى الفتى يقينه بأن الجسر لم يزل قائما بين العدوتين ملقيا رأسيه على الضفتين ، وأنه لا يزال برغم الظلام يمضى إلى غايته .

ومن الشّمال لاحت للفتى من بعيد ظلال ثقيلة سوداء تجثم على صفحة الماء فيخبو تألقه وينقطع امتداده ويخال الناظر أن النهر قد ألقى بنفسه فى هوة عدم رهيب ! لقد فقدت سرحة الجزيرة بهاءها ونضرتها ولم تعد تطل على النيل تتأمله فى جلال . لا أشجار هناك ولا أزهار ولا عشاق ولا أطيار ؛ ذهب كل أولئك ولم تبق إلا هذه الظلال الثقيلة السوداء تضغط على صدر النهر الوديع حتى لتخنق أنفاسه وتأخذ عليه الطريق .

ورفّت أجنحة صغيرة لسرب من الطير ، وهتفت أصوات رقيقة فيها من الشوق إلى العش الحبيب وفيها من الفرحة بالإياب السعيد . كان السرب يطير آمنا نحو هذه الظلال الثقيلة السوداء ، وهو يعلم أنها ليست هوة العدم ويثق بأن وراءها سرحته الباسقة وروضته المونقة وأعشاشه الدافئة ونومه الهادىء اللذيذ .

وأيقن الفتى أن السرحة لم تفقد بهاءها ونضرتها

وأنها لم تزل حالية بالزهر ، حافلة بالشجر ، عامرة بالأطيار والمحبين رغم هذه الظلال الثقيلة السوداء .

وعلى غير بعيد من مجلسه الرخامي هجعت ثلاثة زوارق في سكون حزين . كان كل من فيها نيام يحلمون ، وكانت هي أيضا نائمة تحلم . ولكن الفتى لم يتمثلها أحلاما ناعمة سعيدة ولم يستطع بصرف من قلبه هذا الشجن العميق لنظر هذه الزوارق الثلاثة في صمتها الكئيب . تمثل الفتى فيها الأجنحة المهيضة ، والقلوب الكسيرة ، والفل الحزين ! وأين من هؤلاء النائمات الحزينات تلك الأجنحة البيض تخفق على الماء من بعيد فتبعث في النفس الأمل وتحلق في الحياة البهجة ، وتنشر على النهر الجمال .

وأين من هذا السكون تلك الحركة التوثبة ؟ وأين من هذا الخلاء زمر من فتيان وفتيات وشبان وشيب يجوزون النهر كل ساعة وفي صدورهم آمال وفي رؤوسهم أفكار وعلى شفاههم أحاديث !

كم رأت هذه الزوارق النائمة من مشاهد وكم سمعت من همسات وكم حفلت بالحياة في أفراحها وأتراحها وفي عبوسها وابتسامها ! ولكنها مع ذلك مغرقة في صمتها الحزين كالجناح المهيض والقلب الكسير والفل الحزين .

ونظر الفتى فإذا ساريات ثلاث تضرب في الفضاء عزيزة سامية . كان يلفها غشاء رقيق من هذا الحزن المخيم على الزوارق ، ولكنها كانت تلقى في النفس اليقين بأن هذه الشرع المطوية ستنشر بعد حين فتعود أجنحة بيضاء تخفق على الماء تبعث فيه البهجة وتنشر عليه الجمال ، وتنتزع الزوارق من ركودها الكئيب وسكونها العميق . وعلم الفتى أن الزوارق لا تزال تنبض بالحياة ، لم تضيع ما شهدت من مناظر ولا ما سمعت من أحاديث .

واتجه الفتى ببصره إلى مياه النهر ، فإذا أضواء متفرقة شاحبة كأنها بقايا شموع توشك أن تنطفئ . وعجب الفتى لهذه الأضواء الحائلة كيف تستقر في اللجة الباردة جامدة لا تتحرك إلا حركات يسيرة كلما رجف الماء بموجة أو هب على صفحته نسيم شديد . كانت شيئا غير الماء ، ولكن كان من الصعب على الفتى أن يتمثل فيها معنى من معاني النور ؛ النور ذي السنا الفياض والأشعة القاهرة ، والخواطر الراقصة الطروب . لم يكن في هذه الشموع الخافتة إلا نور باهت لم يزل ما للظلمة من سواد ، ولم يحظ بما للنور من تألق . وأطال الفتى نظره إليها كأنما يرجو أن تتلألأ أو تتوهج كجذوة نائمة تنتظر أن توقظها الريح ولكن الأضواء ظلت باهتة جامدة لا تتألق ولا تتحرك !

ورفع الفتى بصره إلى السماء فإذا نجوم لامعة من خلال السحب . نجوم واضحة فيها من سنا الضوء الباهر والأشعة القاهرة . نجوم توحى بما يزخر فيها من عوالم ، وما ينبسط في أرجائها من كائنات ، ساعية إلى غايتها ، سالكة سبيلها المرسوم في نظام الكون العجيب . وعاد الفتى ينظر إلى هذه الأضواء الشاحبة فأكبرها وأجلها ورأى فيها الآن حياة لم يحسها من قبل وإيحاء بليغا بأنها — وإن كانت ظلالا — رمز لحيويات أكبر ، وعوالم أضخم ، وأضواء أكثر لمعانا ، وأعظم تألقا .

إن النجوم برغم ظلالها الشاحبة لا تزال في السماء تمضي إلى غايتها . وكان الهلال لا يزال في مطلع دورته ضئيلا صغيرا لا يكاد يبدد الظلام من حوله ، وهو ينحدر نحو الغرب في بطء وإعياء . وكانت السماء ملأى بالسحب ، سحب صغيرة متعددة الأشكال والألوان يقذف بها الأفق الغربي فتزحف في بطء وإصرار حتى تغمر وجه السماء وتمضي في بطئها وإصرارها نحو الأفق الشرقي وراء الهلال .

وكانت السحب تمر بالقمر فتحجب وجهه حينا وتغشاه في كثير من الأحيان . هذه سحابة خفيفة بيضاء تسري

وشيدة رقيقة فتلقى على محياه نقاباً خفيفاً ينفذ من خلاله ضوءه الهادئ الوديع ثم تمضى فى طريقها لتدعه يتألق مرة أخرى ويسير إلى غايته من الأفق الغربى .

وهـذه سحابة أخرى ليست فى رقة أختها ولا فى شفافيتها ولكنها لم تبلغ من القتامة أن يختفى القمر الضعيف كل الاختفاء . ويظل القمر يجاهد وتظل السحابة تزحف حتى تنجاب فى سلام ويبقى القمر لألاء يتألق فى بهاء !

وتلك غمامة ثقيلة سوداء تنذر بشر وترقص فى طواياها شياطين الظلام ! ولكن القمر هادئ الصفحة باسم الثغر ، ماض فى طريقه إلى الأفق الغربى حتى إذا ظفرت به السحب الثقال غاب ضوءه واختفى محياه . ولكن الفتى مع ذلك كان يحس - وهو ينظر إلى الغمامة - أن خلفها قمراً يجاهد لكى يرسل نوره مرة أخرى إلى الآفاق ، وكان الفتى يحس أن الغمامة نفسها — وإن عدت إلى القمر — تهيئ له سبيل الخلاص بزحفها البطئ نحو الأفق الشرقى وراء التلال .

وأرسل القمر أشعته إلى أطراف السحابة بشراء بين يدى يديه ثم ظهر بعد قليل يتهادى على الصفحة الزرقاء متنفسا مل‍ء رئتيه بعد ما كاد يختنق . إنه يمضى فى طريقه إلى الغرب . إلى غايته

كل شىء يمضى إلى غايته ، هكذا علم الفتى . كل شىء وإن ناله السكون أو ألم به الإعياء لابد سيعود سيرته الأولى ليمضى فى حياته كما كان من قبل . وفى كل سكون دليل على الحركة القادمة ، وفى كل إعياء آية على الوثبة المتوقعة والنشاط الجديد . للجسر سياراته ، وللمسرحة طيورها ، وللنجوم طلالها ، وللقمر خروجه ظافراً بعد كل غماء !

وعادت نفس الفتى إلى نفسها تتساءل عن دليل على حركة بعد سكون طويل وآية على نشاط بعد ركود يشبه الموت وإعياء يشل فيها الحياة . ثلاث سنين طوال قضاها الفتى فى آلام وأحزان ؛ ثلاث سنين كفّر فى خلالها عما نعم به فى سنواته الأربع والعشرين من رضى القلب وابتسام الحياة وراحة البال . ثلاث سنين حملت إليه آلاما مراراً تعذب بها ؛ وتعذب لأن أحداً من أصدقائه لم يستطع أن يدرك حقيقتها . ركود وإعياء وقفا به من حيث كان يريد أن يتقدم ، وأخذ يشهد زملاءه يمرون به واحداً فى إثر واحد وهم ماضون إلى غاياتهم وهو واقف ينظر إليهم فى لهفة ويهم بالسير فتقعد به آلامه ، وينوء بجراحه ، فلا علاج إلا السكون . فأين إذن دليل الحركة ؟ وأين إذن آية النشاط ؟ !

وانبعثت فى الظلام صيحة غردة من طير مرح طروب ؛ صيحة تحمل أصداؤها كل معانى الحياة والنشاط والتفتح . وهنا قلب الفتى إلى الصوت الفرد وخفق خفقة فيها من هذه الحياة وفيها من هذا النشاط وهذا التفتح ؛ وهتف هاتف من الأعماق : هذا الدليل !

مكتبة الجامعة **عبد القادر القط**

على شاطىء البحر :

أمـــــواج قلب

زورق ضلّ على الموج ... وغاب الشطُّ عنه
طال مسراه على اليم ... فملّ اليم منه
قالت المـــوجة للشاطىء رفقاً لا تخنه
هو يا شاطىء حيران على اليم فصنه

• • •

أيها البحر أنا مثلك ... لا أعلم سرى
أنا لا أفهم من معناك إلا وهم فكر
وكلانا طلسم يا بحر فى لجـــة دهر
من ترى يعلم مسرانا ومن يا بحر يدرى

• • •

أيها البحر صحبت الدهر، حدث كيف كانا
من ترى يا بحر قد مرّ على الدهر وهانا
إن فى قلبى ركانا ... فالمس الأمانا
قد رعينا الحب فى شطك والحب رعانا

• • •

ذكرياتى لم تزل فى القلب يحييها وجودى
هذه الصخرة يا بحر وعت سر العهود
يوم دوّت لديهـــا نشوة القلب العميد
من معيدى للذى قد كان ويحى من معيدى ؟

• • •

هذه الأمواج قد جاشت بحرّ اللفتات
ربما جئت من الشوق وراء الأمنيات
فمضت تلق على الصخر ظلالَ الذكريات
تسأل الشاطىء من حبى ومنى وفتاتى

• • •

أيها البحر لقد عدت فهل عادت لقلبى
أتراها اليوم بالشاطىء لا تهفو لقربى
أنا أهواها وأهواك وأهوى سرّ حبى
إن يكن ذنبى أن أهوى فما أنبل ذنبى

• • •

هذه الموجة قد ألقت هوى البحر إليها
وتلاشت لهفـــات مثلما ذبت لديها
عشقتها !! إننى يا بحر غيران عليها
مشفق أن أرى القيد انطلاقاً فى يديهـــا

• • •

أين منى صدحاتى ... أين منى أغنياتى
وانطلاق من قيودى فوق تلك الربوات
يبعث النشوة فى روحى صفاء الأمنيات
من غرام عبقـــرىٍ وعهودٍ خالدات

• • •

فرحى أن أصحب الدنيا على أفق مجهدْ
فاسقنى من فسحة الآمال لى كونا مخلّدْ
واصنعى من نشوة الأطهار فى قلبى معبدْ
ودعى الحب يصلى بين جنبيه ويسجدْ

• • •

ها هنا معبد صوفى يرى فى الحب سؤددْ
ها هنا بين ضلوعى للسنا الوضاء موردْ
هو قلبى ... إن قلبى بات فى ليل ملبّدْ
أطلقى قلبى فما يستطيع أن يحيا مقيدْ

• • •

مثلما تلمس كفاك نسائم الورود
فيذوب العطر فى كفيك كالقلب العميد
ألمسى قلبى بنجواك فى نبل الوليـــد
إنه زهرة إلهامى وينبوع وجـــودى

• • •

عند سرير طفلى

فى شهره الثالث

إغفاءة الوردة فى مقلتيك ... وموكبُ النور على وجنتيك
وبسمة الفجر على ثغركا ... ونفحة الفردوس فى طهركا
تخفف الآلام عن والديك

ويا بسمة فى أفق العابس ... وكوكباً فى ليلىَ الدامس
نم يا ابنى ، يا أنشودتى الغالية ... نم يا مُنى روحى وآماليه
وخلّنى أرعاك كالحارس

يا ولدى هذا الملا حولنا ... غرقانُ فى الأحلام إلا أنا
فإننى من حول هذا السرير ... سهران أرعاك بقلبٍ قدير
فنَلْتقى أنت وأنت المنى

وهذه أمُّك يا مهجتى ... ترنو إلى وجهك فى غبطة
فتضحك الدنيا لها ، والمنى ... تفترُّ عن ثغر مُشعٍّ الصفا
ترقص الأحلام فى نشوة

غذّتك بالقوت وغذّتْ بَنَا ... بالبهجة الكبرى فأرضيتها
وكنتَ قبلا فى ضمير الأزل ... حلماً تناغيه على الأمل
وتحرقُ الروحُ له زيتَها

نم يا ابنى أنت الآن صافى الضمير ... مما يعانيه الملا من شرور
لا الجشع الكلبىُّ من ديدنك ... ولا الأذى والبغى فى معدنك
حتى ولا الزهوُ وحبُّ الظهور

أنت الخلىُّ البال من كلِّ ما ... من شأنه أن يُقلق العالَمَا
فأنت لا تضمر حقداً ولا ... تدوس للمجد رقاب الملا
أو تحسبُ المجد بسفك الدّما

الكون تشقيه العقول الكبار ... فهى التى جرّت عليه الدمار
وأنت مغبوط ولا عقل لك ... يحدوك للشرّ فما أجملك
يا ابنى ، وما أجمل دنيا الصغّار

دنياك يا ابنى هى دنيا الجمال ... أو هى « طوبى » يبتغيها الخيال
ننشدها نحن ولكنها ... تمنعُ عن أبصارنا حسنها
لأننا هِمنا بوادى الضلال

زُحنا عن النور ودرب الرشاد ... وقد سلكنا كلَّ سُبل الفساد
فالشرُّ أطلعنا على آيـــــــه ... والخير أفقدنا تهاويله
حتى أضعْنا الهدى والسَّداد

يُهنيك يا ابنى كونك الحالمُ ... وثغرك المستبشرُ الباسمُ
فاهنأ ونم يا ولدى ناعما ... ترعاك بالحبّ عيونُ السَّما
وقلبُها المستيقظُ الراحمُ

الرملة — فلسطين ... عيسى إبراهيم الناعورى

لا يرى فى الحسن إلا روعة الرب المجيد
حسبه منه على الأيام أشواق الشريد
حسبه أن يشهد الأنوار من أفق بعيد
زاهدا فى كل ما يعشق أبناء الجمود

***

أيها البحر لقد أودعت فى موجك لحنى
هذه الأمواج قد عادت فهل تسأل عنى
صنت أيامى على موجك لكن لم يصن
ذهب العهد الذى كان فن يدنيه منى

حسين محمود البشبيشى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
- ٤٥ فى مصر والسودان
- ٣٧/٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
- ٦٠ فى البلاد الداخلة ضمن اتحاد البريد
- ٧٥ فى البلاد الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٢٦٩

العدد ٢٧٤ | الثلاثاء ٤ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٣ — ٢٨ من مارس سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

الزحف الروسى وآثاره السياسية

الزمت القيادة الألمانية فى هذه الحرب خطة التوسع فى الميادين ، فلم يرضها أن تكون أرضها وأرض أعدائها الأصليين هى ميدان القتال ؛ بل بادرت باحتلال أقطار كثيرة كانت من قبل أرضاً محايدة ، وأهلها شديدو الرغبة فى التزام الحياد ؛ فزجت بتلك الأقطار فى جحيم هذه الحرب ، واستطاعت بذلك أن توسع الميدان الغربى بحيث يمتد من المحيط المتجمد الشمالى إلى حدود أسبانيا ، وأن تطيل الميدان الشرقى بحيث يمتد أيضاً من المحيط الشمالى إلى جزر البحر الأبيض المتوسط .

وقد استلزم توسيع الميادين على هذه الصورة أن تحشد ألمانيا معها فى الحرب شعوباً وأقطاراً عديدة . بعضها أخضعته بالعنف وتسلطت عليه بالقوة مثل هولندة وبلجيكا ودانمارك ونروج ، وبعضها دخل إلى جانب ألمانيا طائعاً مختاراً ، مثل فنلنده ؛ بل لعلها المثال الوحيد لهذا الصنف . وبعضها وقف إلى جانبها بمزيج من الإغراء والإكراه . وذلك مثل رومانيا وبلغاريا وبلاد المجر .

ونستطيع الآن أن نتساءل عن الفائدة التى جنتها ألمانيا من توسيع الميادين بهذه الصورة ، وحشد هذه الشعوب الكارهة إلى جانبها بهذا الشكل . وهل احتمالات النصر أجل وأعظم — بسبب هذا الحشد العظيم ، وهذا التوسع الكبير فى الميادين — مما لو اقتصرت ألمانيا على الأراضى الفرنسية الألمانية فى الغرب ، والأراضى الروسية الألمانية فى الشرق . إننا قد سمعنا فى الأسابيع الأخيرة عن الرغبة فى تقصير هذا الميدان ، واختزال تلك الجبهة ، ولهذا ليس من العبث أن نتساءل عن مزايا ومنافع ذلك التوسع الهائل الذى لم تقدم عليه القيادة الألمانية العليا إلا بعد حساب دقيق ، وتقدير وتدبير ، وإمعان فى النظر والتفكير .

ومع التسليم بأننا لا نستطيع أن نحصى تلك المزايا إحصاء دقيقاً ، فإنه يخيل لنا أن هناك فوائد حربية

واقتصادية جلية للجانب الذى يسيطر على تلك الأراضى الواسعة العظيمة الثروة ، فإن توسيع الميدان يرهق قوى العدو الذى لم يتم استعداده للحرب ، أو الذى يؤخذ على غرة ، بحيث يمكن تسديد الضربات إليه من جهات عديدة لم يكن يحسب لها حسابا . ومن الممكن — وقد سلمنا بأنه أخذ على غرة — أن تحيق به الهزيمة بسرعة . ويكون العامل الأكبر فى هذه الهزيمة السريعة هو تلك الضربات العديدة من جهات كثيرة فى ميدان واسع عظيم .

والمزايا الاقتصادية لا تقل وضوحا من الفوائد الحربية . فإن ألمانيا — بعد أن انقطعت الصلات بينها وبين العالم الخارجى — مضطرة إلى الانتفاع بموارد أكبر مساحة ممكنة من القارة الأوربية . بحيث تستطيع أن تستولى على غلاتها — بالشروط التى تضعها وترضاها — وأن تتصرف فيها كما تشاء . وليس هذا الأمر متاح لها بالوسائل التجارية المألوفة ؛ ولذلك لم يكن بد من احتلال بعض الأراضى احتلالا عسكريا ، واقحامها فى هذه الحرب راغبة أو كارهة . ومن أهم الاعتبارات فى هذه الناحية قطر رومانيا . فإنه يشتمل على خيرات زراعية كثيرة . ويشتمل بنوع خاص على آبار البترول الغنية التى تحتل المكان الثانى فى أوربا بعد آبار القوقاز . وحاجة ألمانيا إلى البترول شديدة جدا . فإنها تستهلك فى كل عام من أعوام الحرب بضعة عشر مليونا من الأطنان تحصل من مواردها الخاصة على نحو خمسة ملايين طن من البترول الصناعى والطبيعى ، وتحصل من رومانيا على نحو ثمانية ملايين . ومن الممكن — مع التدبير والاقتصاد الشديد — أن تكتفى ألمانيا بهذين الموردين . لهذا ، لم يكن بد — وقد قررت ألمانيا أن تغزو روسيا — أن تبادر قبل ذلك باحتلال رومانيا أو محالفتها ، وضمان مساعدتها . ولهذا رأينا ألمانيا فى مفتتح عام ١٩٤١ قد أخذت توثق علاقاتها برومانيا ، وتقوم بتدريب الجيش الرومانى ، وبالتدريج أصبحت لها

السيطرة التامة على جميع مرافق الحياة ووجوه النشاط فى تلك الدولة ، وقد منّيت رومانيا من غير شك أمانىّ كثيرة مثل استرداد بساربيا وبوكوفينا ، وبغير ذلك من الآمال .

إذن لم يكن بد من أن تدخل الحدود الرومانية فى جملة الجبهة الشرقية وقت الهجوم على روسيا السوفياتية ، وقد استتبع هذا الأمر ضرورة إقحام المجر أيضا فى هذه الحرب . وسبب ذلك أن روسيا بعد أن احتلت بكوفينا وبساراييا ، أصبحت ولها حدود متاخمة لحدود المجر . فلو ظلت دولة المجر على الحياد ، لكان هنالك مساحة فى وسط الميدان الشرقى ، بمثابة فجوة محايدة فى وسط جبهة الحرب . وهى تتعرض من غير شك لأن يغير منها أحد الفريقين . وعلى كل حال لم يكن من المعقول أن تترك القيادة الألمانية هذه الساحة على الحياد بعد أن اتسع الميدان وامتد من نهر الطونة إلى المحيط المتجمد الشمالى .

ولكى ترضى المجر بتضحية حيادها ، وتساعد — ولو بدرجة طفيفة — فى الحملة على روسيا ، لم يكن بد من اتخاذ وسيلة الإغراء ؛ لأن القهر والبطش يكلفان نفقات باهظة . لذلك لم تقدم المجر المعاونة المطلوبة إلا بعد أن منحت النصف الشمالى من أرض ترانسلفانيا . وبذلك كانت رومانيا هى التى دفعت ثمن المعاونة المجرية . وهذا يرينا مبلغ تسلط ألمانيا على رومانيا بحيث استطاعت أن تكلفها حشد الجيوش الرومانية للاشتراك فى الحملة الروسية من جهة ، ودفع ثمن المساعدة المجرية من جهة أخرى !

وهكذا نرى أن هنالك فوائد اقتصادية وحربية عظيمة للسياسة التى قررتها القيادة الألمانية بتوسيع الجبهات واحتلال الأقطار المحايدة ، والتسلط على مواردها والتحكم فيها بجميع الوسائل الممكنة . ولكن تلك الفوائد يقابلها من الناحية الأخرى بعض المضار ؛ فإن القلعة الأوربية الضخمة التى تسيطر عليها ألمانيا ، قد احتاجت إلى جيوش جرارة لحمايتها والدفاع عنها ، وإخضاع أهلها وفرض

النفوذ الألماني فيها . وقد كان يُلجأ إلى الطليان من قبل أحياناً لأداء مثل هذه الأعمال . أما اليوم فلابد لألمانيا من الاضطلاع بالشطر الأعظم من هذا العبء الباهظ ، وقد ازداد خطبه واستفحل بسبب تهديد السواحل الغربية بالغزو .

وصفوة القول أن خطة التوسع التي توختها القيادة الألمانية لها نواح من النفع ومن الضرر . ولكن جانب المنفعة يرجح إذا أريد بها أن تكون خطة لحرب هجومية خاطفة سريعة تشن على عدو لم يتم استعداده ولم يستكمل أهبته . وذلك ما قدرته القيادة الألمانية ، وقد اعترفت بعد ذلك بخطئها في بعض الأمور التي قدرتها . وخصوصاً في أمر استعداد حكومة السوفيات . فقد اغترت ألمانيا بحوادث الحرب الفنلندية ، وبنت على ذلك الافتراض خطة هجوم سريع لا تلبث أن تقضي على المقاومة الروسية في حملة واحدة من حملات الحرب . ولئن كان هذا الأمر لم يتحقق فعلا ، فيجب ألا ننسى أنه كان يبدو أحياناً وشيك التحقيق جداً . ولقد توغل الألمان في القوقاز عام ١٩٤٢ حتى دخلوا ستالينجراد ، واستولوا على بعض آبار البترول . ولم يكن بينهم وبين الوصول إلى بحر قزوين سوى خطوات يسيرة ، وبذلك يتمكنون من شطر الجيش الروسي شطرين ، وحرمان روسيا موارد القوقاز الثمينة . وكانت هـذه الثمرة وشيكة السقوط في حجر النازيين . حتى كان الناس يطالعون أنباء روسيا بشيء غير قليل من التلهف والقلق .

فعلى المرء — قبل أن يتناول الخطة الألمانية بالتجريح والتسفيه — أن يذكر أن فشلها لم يكن نتيجة لخطئها ؛ بل الظروف توشك أن تعد في حكم المعجزات .

ويمكننا أن نلخص ما قيل في أسباب فشل الهجوم الألماني بالأمور الآتية :

١ — بدأ الألمان هجومهم في موعـد متأخر : في ٢٢ يونيه سنة ١٩٤١ . بعد أن انقضى من موسم القتال في ذلك الميدان بضعة أسابيع ، فأضاعوا وقتا ثمينا في إبان تلك الحملة الأولى التي كانوا يريدون منها أن تقرر مصير الحرب الروسية .

٢ — جاء الشتاء مبكرا عام ١٩٤١ ، والألمان على أبواب موسكو والقوقاز ، والجيوش الروسية بعد في أول عهدها بالحرب . وقد ضاعت بذلك أسابيع أخرى ثمينة . كما قال لنا الزعيم الألماني مرارا .

٣ — كانت ألمانيا تؤمل أن تكتسب عطف أو رضى الدول الغربية بهجومها على دولة روسيا . ولهذا أرسلت مبعوثها رودلف هس إلى بلاد الإنجليز ، وقد خابت ظنونها ، وأعلنت بريطانيا تضامنها وتحالفها مع روسيا ، وأخذت تبذل لها كل مساعدة ممكنة .

٤ — أساءت ألمانيا تقدير استعداد الروس الحربي ، وأخطأت بوجه خاص في تقدير القوة الروحية للشعب الروسي ، وشدة تماسكه حين يتعرض وطنه لمحنة قاسية . ولا شك أن هـذا العامل الأخير كان له الأثر الفاصل في هذا النزاع العنيف الذي لا يعرف التاريخ له نظيرا

وهكذا فشل الهجوم الخاطف الذي أعد له الألمان عدته . ولم يتحقق ذلك النصر السريع الحاسم ، وهو وحده الذي يبرر خطة توسيع الميدان وحشد هذه الدول الصغيرة إلى جانب ألمانيا . واليوم وقد انقلب الهجوم إلى دفاع ، ظهرت عيوب ذلك الميدان بوضوح ، وأخذت ألمانيا تسعى في تقصير الجبهة بعد أن كانت تسعى في إطالتها . ولكن زمام الأمر لم يعد كله في أيدي الألمان . ولهذا نرى الميدان اليوم لا يقل اتساعا عما كان عليه في أي وقت من الأوقات .

ولا حاجة بنا هنا لأن نصف الزحف الروسي ، الذي اضطر ألمانيا لأن تلزم خطة الدفاع بعد الهجوم . وحسبنا أن

تشير إلى أن هذا الزحف قد بدأ فى ستالينجراد وفى بلاد القوقاز فى أواخر شهر نوفبر سنة ١٩٤٢ . ثم لم يزل مستمراً لا يعتريه فتور ولا هوادة منذ ذلك التاريخ إلى وقتنا هذا . وقد اتسع ميدانه بحيث أصبح يشمل الجبهة الروسية كلها . وكان الزحف الروسى من قبل يستمر فى الشتاء ، ثم يتلوه تقهقر فى الصيف . ولكننا فى هـذه المرة نرى الزحف الروسى يصل الشتاء بالصيف ، دون أن يتأثر بتقلب الفصول ودورة الأرض حول الشمس .

وقد كان من نتائجه أن الجيوش السوفياتية قد تجاوزت فى بعض المواقع الحدود الروسية الغربية والجنوبية فى العهد السابق للحرب . فأصبحت روسيا اليوم وهى تطرق أبواب تلك الدول ، التى انضمت — راغبة أو كارهة — إلى ألمانيا ، وربطت مصيرها بمصير عدوة روسيا . أحست هذه الدول اقتراب القوات الروسية ، حين دنا لهيب نار الحرب من ديارها وأوطانها . فلقـد استطاع الروس فى الشمال أن يفكوا الحصار عن لينجراد ، وأن يفصلوا الميدان الفنلندى عن الميدان الروسى . وأن يتقدموا حتى يتجاوزوا حدود إستونيا . وأخذت فنلنده تحس أوار نار الحرب يلفحها . وقد عزل ميدانها ، فلا يمكن أن يأتيها إمداد من الجهات الجنوبية . كذلك توغلت الجيوش الروسية فى بولنده الجنوبية حتى دنت من لفوف (أولبرج) ولاحت قمم جبال الكربات ومن ورائها بلاد المجر . ونجح الروس فوق هـذا فى تقدم سريع جرىء فى جنوب أوكرانيا ، واستطاعوا أن يخترقوا نهر الدنيستر ، وأن يستولوا على جزء من أرض بسارابيا .

وهكذا نرى روسيا للمرة الأولى فى هـذه الحرب لا تقترب من حدودها الغربية فحسب ، بل تتجاوزها فى بضعة أماكن ذات شأن خطير . وليس بمستغرب والحالة هذه أن تلك الدول الصغيرة التى عاونت ألمانيا — وهى مؤمنة بأن النصر سيكون من غير أدنى شك حليف الألمان — قد استولى عليها شىء من الذهول والقلق ، وأخذت تحاسب نفسها على الخطة التى سلكتها من قبل ، وتحاول أن تجد مخلصاً من هذا المأزق الذى انساقت أو سيقت إليه

وهنا يظهر لنا بجلاء نقطة الضعف فى خطة التوسع التى اختارتها القيادة الألمانية . فلقد سارت الأمور فى مجراها المطرد ، ما دامت الجيوش الألمانية مظفرة ، أو على الأقل متقدمة . والميدان بعيد متوغل فى الأراضى الروسية . أما اليوم وألمانيا تتراجع بانتظام أحياناً ، وبالتضحية بشىء غير قليل من رجالها وعدتها أحياناً ، وقد أبدت عجزها بوضوح عن الاحتفاظ ببعض الخطوط الهامة ، وببعض الحصون التى لا يسهل التسليم بها ، فإن ولاء تلك الدول الصغيرة لا يمكن أن يعتمد عليه بل سيصبح مصدر ضعف للقيادة الألمانية بعد أن كان مصدر قوة .

إن لألمانيا فى كل من رومانيا وهنجاريا وسلوفاكيا وفنلنده أنصاراً أو أجراء لا شك فى أنهم سيعضدونها دائماً ، ويسيرون إلى جانبها ، ويأتمرون بأمرها إلى النهاية . ولكن لألمانيا النازية من غير شك أيضاً أعداء ألداء فى جميع هذه الدول وفى شبه جزيرة البلقان ودول البحر البلطى ، وهؤلاء قد التزموا خطة الهدوء والسكون والإنزواء يوم كانت كفة ألمانيا هى الراجحة ، وجيوشها متقدمة . واليوم استطاعت هـذه العناصر أن ترفع صوتها أو على الأقل أن تزيد نشاطها ، وأن تنهض للعمل لخطة جديدة من أجل سلامة الوطن ، وإنقاذه مما تورط فيه من متابعة السياسة النازية .

فنحن نشهد اليوم فى كل من ثلاث دول على الأقل — وهى فنلنده ورومانيا والمجر — نشاطاً عظيماً . وأحداثاً سياسية خطيرة ، كنتيجة مباشرة للزحف الروسى . ولم تكن مظاهر هذا النشاط واحدة فى الأقطار الثلاثة . فإن حزب الموالين لألمانيا قوى جداً فى فنلنده ، فرفضت حكومتها شروط الصلح التى عرضت عليها برغم تأييدها

رجـــــل وامرأة

للدكتور أحمد زكي بك

من أخطر المواضيع على كاتب ، موضوع المرأة ، فالذي يتلمّسه إنما يتلمّس إيقاظ شرّ كذلك الذي يستيقظ في بعض تلك الأحياء الجبلة الرقطاء ، الناعمة الملساء التي تنام الشتاء ، وتصحو في الصيف . والخير ، إن كان لا بد لكاتب أن يتلمّس هذا الإيقاظ ، أن يتلمّسه بعصا طويلة ، عند طولها السخيّ على منطقة حرام واسعة تؤمّن ظهر الهارب إمّا قضت الحكمة أن يكون المتخلّص هربا .

وقد طلبتُ تلك العصا في بطون الكتب ، فوجدتها عند رجل قديم أرجو أن يكون انطوى في تضاعيف الأيام فصار يمتحي من عَنَت الأقلام .

قال صاحبي دفين الأوراق في المرأة : إن الله قصد ، أولّ ما قصد ، إلى خلق الرجل . فلما خلقه فأحسن خلقه ، فكّر من بعد ذلك في خلق المرأة .

قلت : إن الفنّان من البشر إذا خَلَقَ فأحسن ، ثم عاد يخلق من جديد ، زاد فوق إحسانه إحسانا .

قال صاحبي : على شرط أن لا ينال التعبُ من يده .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن الرجل ، في المتوسط من صفات الرجال ، ينظر إلى سائر من حوله من الرجال فيجدهم سواسية ، إلا في القليل اليسير . فهو من أجل هذا يعاملهم على الأغلب معاملة الأنداد .

قلت : وأما المرأة ؟

قال : أما المرأة فتتشكّل من لسانها ، طولا وقصرا ، وانبساطا والتواء ، وتمج فيه من حلاوة ومرارة ، على درجات شتى تختلف باختلاف من تلقى من النساء .

قلت : فإن لقى الرجل المرأة ، أو المرأة رجلا ؟

قال : يكون الرجل أعسل لسانا ... إلى حين .

قلت : فإذا انقضى هذا الحين ؟

قال : تنتقل العسولة إلى لسانها .

قلت : والرجل يحب العسل الكثير ؟

قال : إنه يحب القليل الدائم على الكثير المنقطع .

من شخصية محترمة مثل ملك السويد ، وبرغم ما قاله القائد مارهايم من أن الجيش الفنلندي لن يستطيع الثبات لهجوم روسي . وبرغم ما أبداه الروس من التسامح ، ولعل العقل يتغلب في النهاية ، وتظفر فنلنده بالصلح والسلم . أما رومانيا فإن قبضة ألمانيا على أمورها وشئونها من القوة بحيث لا تستطيع حكومتها أن تحرك ساكنا . أما بلاد المجر فلعلها أول دولة أحست فشل الهجوم الألماني في روسيا ؛ وقيل إنها سحبت جيوشها من الميدان الروسي منذ زمن غير قصير . وتقدمت بالأمس ألمانيا تطلب منها معاونة أجدى وأعظم في الحرب ، فرفضت الحكومة المجرية هذه المطالب . فبادرت ألمانيا بالقبض على رجال الحكم واحتلال الدولة المجرية ، وإنشاء حكومة من أنصارها وأشياعها .

ولئن كانت الإجراءات التي اتبعتها ألمانيا في المجر عنيفة ، فإنها لم يكن عنها مندوحة ، لأن فقدان واحدة من الدول الثلاثة : فنلنده ورومانيا والمجر ، سيكون له عواقب خطيرة في نتيجة الحرب ؛ فضياع فنلنده يفسح الطريق إلى نروج ، وضياع رومانيا ، يفقدها البترول الثمين ، ويهدد بفقد البلقان . وفقدان المجر يشق القلعة النازية شطرين ، ويهددها بالانهيار السريع . من أجل هذا كان لزحف الروسي السريع كل هذه النتائج السياسية الخطيرة .

محمد عوض محمد

ولكن المرأة تحبه كثيرا دائما . وهي أكثر حساسية لمرارة منها للحلاوة . وأكره ما تكرهه مرارة النقد ، لاسيما على مسمع من نساء .

قلت : إن النقد يكرهه الرجال .

قال : ولكن الرجال تجلس مجالسها ، فينتقد بعضهم بعضا ، فلا يختلف شكل الحجرة ولا موضع الأثاث منها قبل النقد وبعده . ويجلس النساء المجالس ، فينتقد بعضهن بعضا ، فكأنما أطلقت في الحجرة زنابير من أعشاشها .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن المرأة قلما أن تقتنع في حِجاج ، فإن غلبها غالب ، قطعت الحديث عند الجملة التي لو اقتصر عليها السامع ظنّ الغلبة لها ، أو على الأقل ظنّ الأمر معلّقا فلا راجح ولا مرجوح . والرجل الشهم يمهد لها السبيل إلى ذلك .

قلت : كذلك هو عهده وأسهمه في نزول ، فيصطنع الشهامة إذا أعوزه اكتساب الغلبة .

قال : إن الرجل في نقاش المرأة لا يهمه غالباً أو مغلوبا .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن الرجل ينظر إلى الأشياء ، فيأخذها ببصره جملة . أما المرأة فتنظر إلى الأشياء ، فتأخذها ببصرها تفصيلا . إن المرأة تحلل الأشياء إلى عناصرها . أما الرجل فيبقى الأشياء من عناصرها . والرجل لا يضيره أن يرى الفراغ في بعض ما يبقى ، أما المرأة فتبحث عن الخرق في كل شيء .

قلت : إنها تبحث عن الخرق لترْفعه فتسُدّه .

قال : هذا في الجورب والقميص . أما في العلاقة ما بين الناس والناس ، فهي إنما تبحث عن الخرق لتزيده اتساعا .

قلت : إن فضل المرأة على الرجل كبير .

قال : نعم . والرجل الذي ترفعه المرأة لا يطاوله أحد من الرجال .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن الرجل يميل إلى المعنى المجرّد ، والمرأة تميل إلى الشيء المجسّد . فالرجل يعتقد في معنى الصدق ومعنى العدل ومعنى الجمال . أما المرأة فإنْ همّها شيءٌ من هذا فقد يهمّها الرجلُ الصادقُ العادل الجميل .

قلت : نعني أنها أحيانا لا يهمها الرجل الصادق العادل الجميل .

قال : نعم ، وأحيانا كثيرة . فإنها أكثر ما يهمّها في الرجل قوته — قوّة شخصيته ولو عارمة جائرة . إن أكثر ما يهمّ المرأة الكَنَف الذي تحتمي فيه من عصف الرياح — الرياح التي تحمل الثلج الذي يقتل الوجوه ببرده ، أو الرياح التي تحمل الرمل فيشوي الوجوه بحرّه . وخير الأكناف ما كان صخراً .

قلت : إنّ الرجل أحسّ بالألم من المرأة ، أو هكذا أحسب .

قال : نعم . فإن المرأة خلقت للإنتاج عن طريق الألم ومن أجل هذا كانت أقل خوفا من النار .

قلت : ولكن المرأة أقرب إلى الدعاء إلى الله .

قال : لأنها أحرص على ضمان السلامة .

قلت : ولكنها لا تحرص على هذه السلامة في الحب ، فهي تركب سفينة الحب وهي مثقوبة .

قال : وكذلك يفعل الرجل .

قلت : نعم ، ولكنه يحمل القُرعة على ظهره . والقرعة الواحدة لا ينجو بها غير واحد .

قال : والمرأة التي يحوتها ملاّح واحد قلّ أن تأمن في صميم قلبها إلى ملاّح غيره . أما الرجل فأوسع قلباً وأقرب غفراناً .

قلت : لأنه لا ينزل الماء إلا بجلد تمساح ، وهو لباس لا يبتل ولا يشرب الماء . أما المرأة فتنزل إليه في فستان مُنتشي .

قال : إن المرأة تتبع الرجل كما يتبع الصياد صيدَه ، وليس على الصياد أن يشكو إذا جرحته فريسته .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن المنطق عدوّ المرأة .

قلت : لأن المنطق يتصل بالعقل وحده ، ويغفل وحي القلوب . والوحي كثيرا ما يصل إلى نتائج أوثق مما تصل إليه العقول . والعقل يتحرك حركة مكنيّة ، وهو يتلوى في سبيله ليتجنب العقبات . أما الوحي المنبعث من قلب المرأة ، فكالشعاعة التي تنبعث من النار ، تجرى فوق العقبات الأرضية فتصل إلى غايات لا تصل إليها مجالات العقول التي لابد لها من السير فوق الحجر حينا ، وفي الأوحال أحيانا .

قال : إن المرأة تستنصح الرجل ولكن لا لتعرف رأيه ، ولكن ليعرف هو رأيها ، وينزل عليه .

قلت : فإذا هو لم يفعل .

قال : واجهته بالأمر الواقع .

قلت : وأين الإقناع ؟

قال : إن المرأة لا تقتنع أبدا . فهي كقائد الجيش لا يُغلَب وعنده احتياطي . واحتياطيّ المرأة شيء عرمرم لا يكاد ينفد .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن المرأة تقدّر الأشياء بأوزانها .

قلت : والرجل ؟

قال : يقدّرها بأوصافها وألوانها . هذه تقدّر بالكمّ ، وهذا يقدّر بالكيف .

قلت : فهل هي تقدّر زوجها بالأرطال ؟

قال : كلاّ ، ولكن بالأمتار . فالمرأة ، حتى الصغيرة القصيرة تطلب الفارع من الرجال .

قلت : فهل هي إذن تحسن القياس ؟

قال : في البعد الواحد ، فإن تعددت الأبعاد اختلطت عندها المقاييس ، وانبهمت النِّسب .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن الرجل يعيش في ماضيه ومستقبله . والمرأة لا تعيش إلا في حاضرها .

قلت :

ما مضى فات والمؤمَّلُ غيبٌ
ولكَ الساعةُ التي أنتَ فيها

قال : ولكِ الساعة التي أنتِ فيها .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : إن الرجل يكافح الموت ، والمرأة تكافح الشيخوخة . والرجل غايته الإبقاء على قوته ، والمرأة غايتها الإبقاء على جمالها .

قلت : القوّة خلقت للأسد ، والوداعة خلقت للشاة .

قال : وكثيرا ما استأسدت الشياة .

قلت : إن المرأة أشجع روحا ، والرجل أشجع جسما ، وشجاعة الأرواح أفخم من شجاعة الأجسام .

قال : ولكنها إلى الخسران صائرة .

قلت : فما بال المرأة الأم ؟

قال : أما هذه فملاك الكون . وهي رِباطه . فإذا ضعف الرِّباط — إذا هو تبلّل وتطرّى ، تداعت الأجزاء . إن الحب الأبوىّ يَطُول التلال ، والحب الأموىّ يطاول الجبال . إن الرجل لينظر إلى ثدى المرأة الناهد فيشتهي ، وينظر إلى نفس هذا الثدى وهو يُرضع فيُغضي . وما قطرات اللبن إلا الحياة تُوصَل بين جيل وجيل . وما الأمومة إلا ضمان هذا الوصال .

قلت : إنْ لم يكن عندك المرأة غير هذا لكفاني . فسلام .

أحمد زكي

الاصلاح الشامل

هو وحده المنتج

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

نعم لابد من أن تكون هنـاك سياسة مرسومة ، وخطة مدبرة ، وجهود منسقة ، وتعاون منظم ، وتفاهم شامل ، إذا أريد القيـام بحركة إصلاحية منتجة في أية ناحية من نواحي الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الخلقية أو الصناعية أو غير ذلك .

فماذا يجدي تعليم الصبي في المدرسة وتربيته إذا أوى آخر النهار إلى وسط منحط ، وبيت موبوء ، ووالدين لا يقدران ما يلقن من علم ، ويتبرمان مما يغرس فيه من خلق ؟ ويا ليت أثر الآباء والبيت والوسط يكون سلبيا فحسب ، فيقتصر على عدم التقدير أو التبرم ، ولـكن المشاهد أن أثر هؤلاء جميعا يكون في العـادة أثرا سيئا إيجابيا يذهب بما اكتسبه الولد من المدرسة أو يؤدي إلى ضده ، ويقلب الأوضاع رأسا على عقب ، ويترك الصبي حيران معذبا بين هـذه الأضداد لا يدري كيف يتصرف ولا يعرف أي النزعتين أجدر بالاستجابة ، وأي الرأيين أحق بالاتباع .

وما فائدة تعليم التلميذ النظافة وفوائدها ، وتبصيره بالصحة وقواعدها ، وبالطعام ومحتوياته ، وكيف يجب أن يختار ليكون وافيا بحاجات الجسم ، وبالماء وما يعج فيه من كائنات حية سابحة ضارة يجب التخلص منها قبل شربه أو استعماله ليأمن الإنســان المرض ، وبالشمس وفوائدها وأثرها في قتل كثير من الميكروبات ، وضرورة تعريض فراش النوم لها لتنقيته من مثل هذه الشوائب ، وبالهواء وما يحتويه من أكسيجين لابد من استنشاقه بكثرة ونقاء ليصلح البدن ويتقي المرض وتقوى البنية ؟

ما فائدة كل ذلك لمن يأوي آخر النهار إلى غرفة قذرة ليس فيها أثاث ولا فراش ولا نافذة يدخل منها الشمس والهواء ، ولا يملك ذووه قطعة من الصابون يغتسلون بها ويغسلون أمتعتهم وملابسهم وآنيتهم ، ولا يجدون من الماء إلا الآسن الراكد الملىء بالأجسام السابحة فيه الميكروبات التي لا ترى بالعين العارية ، ولا يكادون يجدون من القوت ما يسد الرمق ويدفع الجوع أو يسكن آلامه ؟

وماذا سيجني النشء وتجني البلاد من ورائه من إصلاح التعليم بكافة أنواعه : نظريا وصناعيا وتجاريا وزراعيا ، وإخراج شباب تعلم من الصناعة والزراعة والتجارة خير تعليم ثم يخرج إلى الحيـاة فلا يجد من المصانع والمزارع والمتاجر الـكبرى ما يتلقفه هو وزملاؤه ، ليعمل فيـه ، فيكتسب خبرة يرقى بها في العمل من مركز صغير إلى كبير حتى يشعر بأنه يستطيع أن يقف وحده على قدميه ، ويستقل بنفسه فيفتح له مصنعا أو متجرا صغيرا ، أو يبدأ زراعة على نطاق ضيق ؟

فهذا التعليم الذي تعلمه هذا الشاب في هذه المدرسة الجديدة الجيدة ، ماذا يخلف له ولذويه إلا الحسرة والألم ، بل واليأس من الحياة المرة التي تنتظره .

وماذا تكسب البلاد ويكسب المعلم إذا أعددته خير إعداد وبصرته بواجباته العلمية والخلقية ، وعلمته كيف يربي النشء ، ويصحح عيوبهم ويقوم أخلاقهم ، وأطلعته على أحدث طرق التدريس وأجداها ، وأوصيته بأن يعمل بهذا كله ، وحمسته لأن يفتح في التدريس فتحا جديدا ، ويسلك في مهنته الطريق القويم الذي يهديه إليـه عقله ونتائج تجارب غيره ، وما سيصل إليه هو من نتائج في تجاريبه وعمله ؟

ماذا تكون النتيجة لو خرج هذا المعلم إلى مدرسة كل من فيها من المعلمين يسخر من ذلك كله ، وعلى رأسهم ناظر

لا يؤمن بشيء من تلك الآراء ولا يحفل بتربية ولا بتهذيب ، وكل همه أن يحفظ التلاميذ القدر اللازم لنجاحهم في الامتحان بالطرق التقليدية الإرهابية القديمة ؟ ألا ينحدر هذا المعلم إلى مستوى زملائه ويطيع أمر ناظره ، وينسى ذلك الحلم الجميل الذي صُوِّر له في المعهد الذي أعده ليكون معلما ؟

***

أظنك أيها القارئ الكريم توافقني على أنه إذا أريد القيام بأي إصلاح فيجب أن تتكاتف الأيدي كلها وتتعاضد السلطات جميعها ، ويتفاهم المتصلون به من أية ناحية من النواحي على أن يتعاونوا على تنفيذه وتأييده ، وخلق جو صالح حوله يضمن أن تكون كل العوامل متجهة نحو تنفيذ الإصلاح ؛ لا يشذ منها عامل في أية ناحية من النواحي .

فإذا أريد رفع مستوى الفلاح أو العامل فمن الواجب أن تتعاون كل الجهات الحكومية والسلطات المحلية ، ومنها هيئات الإصلاح الاجتماعية ، على الوصول إلى هذه الغاية . فالمدرس والواعظ والطبيب والمرشد الاجتماعي والخبير الزراعي كلهم يعلمون الكبار والصغار على السواء ، والسلطات الأخرى تمد الجهة أو الحي بالماء النقي اللازم لحماية السكان ، وتحتم على كبار الملاك للزراعات والصناعات أن تبني للزراع والصناع مساكن صغيرة بسيطة صحية ، وتضع حدا أدنى لأجورهم يضمن حصول كل منهم على الأجر الذي يكفيه ليَطعَمَ هو وأسرته طعاما يحميه على الأقل من الأمراض ، ويلبس لباسا نظيفا يشعره بشخصيته وآدميته .

وإذا أريد إصلاح التعليم الصناعي ورفع مستواه ، وترغيب الناس فيه ، فلابد من أن تتعاون الجهات الحكومية كلها على دراسة علمية شاملة دقيقة تستبين من خلالها حاجيات البلد وأدنى الصناعات إلى النجاح ، ثم تشرع بالاتفاق مع كبار الماليين في رسم سياسة عامة وخطة محكمة لإنشاء المصانع بالتدريج ، وتوجيه التعليم الصناعي بحيث يتمشى مع هذه الخطة وتلك السياسة ، سواء من حيث النوع أو الكم ، حتى تقتنع المدارس وتقبل بها الطلاب حسب الحاجة المرسومة بدقة وعناية ، وبذلك نضمن للخريجين عملا ، ونضمن للمصانع الناشئة تخريج العدد والصنف اللازم من العمال ، وهكذا في التجارة والزراعة .

كذلك إذا أرادت المعارف أن توجه سياسة التعليم من حيث التربية والتهذيب ، ومن حيث تحسين الأساليب توجيها جديدا ، فلا يكفي أن تطلب من معاهد إعداد المعلمين إخراج الصنف المطلوب من المعلمين لهذا الغرض ، وإنما يجب أن تقوم بدعاية واسعة بين نظار المدارس والمدرسين الحاليين والمشرفين على المدارس من مفتشين وغيرهم ، دعاية ترمي للغاية التي تقصد إليها حتى يتكاتف الجميع على تحقيقها ويجد المعلم الجديد في الوسط الذي سيعمل فيه أكبر تشجيع ومعاونة لتطبيق الآراء الجديدة والاستفادة من خبرة القدماء الذين سيستفيدون بدورهم مما سينقل إليهم من آراء حديثة لقنها بمعهد إعداد المعلمين ، ويجد قبل كل شيء عطفا وتقديرا ومساعدة من ناظر المدرسة ومن المفتشين .

وبذلك يصبح الجو كله منسجما والجهود كلها متناسقة ؛ وسرعان ما تسري في المدرسة روح طيبة تمكن كل مدرس من العمل على تربية تلاميذه وتهذيبهم كما ينبغي ، ويكون لها أكبر الأثر في هؤلاء التلاميذ بحيث يرتفع مستواهم العلمي والخلقي في أقرب وقت ، ويستحيل التعليم تفاعلا وإيحاء روحيا بين المعلمين والمتعلمين بدلا من أن يكون عملية ميكانيكية ونظاما آليا .

***

ثم إن هذه الفكرة فكرة أن « الإصلاح الشامل هو وحده المنتج » ، قد أخذت بها معظم الأمم التي أرادت أن تقوم بإصلاحات واسعة النطاق في بلاد كبلادنا من حيث تفشي الجهل وتغلب الفقر . ففي روسيا وفي الصين وفي تركيا قد بذلت مجهودات شاملة كالتي ذكرناها هنا . وقريباً نشرت مجلة « المختار » قصة جيمي ين في الصين وكيف استطاع تعليم الملايين بمثل هذه الطريقة التي تركز فيها الجهود ويحشد فيها جمع من الاخصائيين المتحمسين المدربين .

وفي روسيا حين وضع برنامج الخمس السنوات للإصلاح اتبعت نفس الطريقة ؛ تجردت حملة من الإخصائيين في جميع فروع العلوم والاقتصاد والهندسة والتربية الخ ، واختارت أشد الأقاليم تأخراً ، ورحلت إليه فنصبت خيامها ، وأقامت معسكرها ، وشرعت تدرس الإقليم وحاجاته ، ولم تمض فترة طويلة وإذا بالطرق تعبد ، والمباني الصغيرة الصحية تقام ، والتعليم السهل البسيط يبدأ ، وأساليب العلاج الابتدائية تعلم ، والأفلام العلمية والاجتماعية والثقافية تعرض ، وجمعيات التعاون تؤسس على قواعد اقتصادية واجتماعية سليمة . وبالاختصار إذا بثورة حية فكرية إنتاجية بسيطة تقوم في جميع نواحي الحياة .

وكان من نتائج هذه الثورة أن ظهر تقدم عظيم في حال السكان جميعاً في كل ناحية من نواحي الحياة . وأنت تنظر فلا تدري أين يبدأ التعليم ، وأين يبدأ العلاج ، وأين يبدأ الاقتصاد ، وأين تبدأ الأعمال الهندسية والصحية الخ . فالكل مندمج في وحدة متناسقة يشع فيها النور وتنتشر فيها الروح المطلوبة ، وما هي إلا فترة محدودة حتى ينتقل الإقليم من حال مدنية متأخرة إلى حال من المدنية متقدمة ، وإذا بالإقليم يتكون فيه الرجال القادرون على الاضطلاع بكل الأعمال التي يقوم بها أعضاء « الحملة » أو « التجريدة » بحيث يصبح هؤلاء الرجال قادرين على أن يقوموا بالحركة بأنفسهم بعد أن يتسلموها من أعضاء الحملة عند ما يحين الوقت الذي يشدون فيه رحالهم إلى إقليم آخر يقومون فيه بتحقيق المعجزة التي حققوها في هذا الإقليم ، وهكذا .

مواد جديدة في الأفق

من المواد التي أفلح العلماء في استحداثها نوع من الخشب القابل للتشكل . فتحضر صفائح من الخشب رقيقة كالورق ثم تخلط ببعض مواد مشكلة فينشأ عن ذلك مادة جديدة أقوى من الفولاذ لبعض الأغراض ، ولا ينفذ منها الجو . ولا يبعد أن نشهد في المستقبل صناعة جديدة تقوم على هذه المادة التي يقصر استعمالها الآن على حاجات الطيران .

على أن أعظم انقلاب في المواد المستحدثة ينتظر أن يكون في دائرة المنسوجات القابلة للتشكل وتعتبر انقلاباً من حيث أنها لا تنسج على المنوال المألوف في صنع المنسوجات وإنما تقذف بالإدارة من بعض الآلات كالملابس المصنوعة من المطاط .

وستكون مانعة لنفاذ الماء ، مانعة لالتصاق الغبار ، تغسل بالنفض . وينتظر أن تكون باب صناعة واسعة في المستقبل القريب . ولولا حاجة الحرب لكان من المرجح أن يعم استعمالها الآن .

والتلفزيون صناعة تترقب فجر السلام لتشغل كثيراً من الأيدي ، فقد أفلح العلماء خلال الحرب في صنع كثير من أجزاء أجهزة التلفزيون بأسعار أكثر اعتدالا مما كانت عليه ، وحين يطلع التلفزيون مع السلام لن يكون قنية القليل من الأغنياء ، ولكنه سيصبح ضرورة كل منزل وسيكون من الميسور أن تكون نفقة الجهاز في الأسبوع حوالى نصف ريال وبهذا سيشتد عليه الطلب من الكثيرين .

الشباب المثقف
والأعمال الحرة

لا يزال شباننا المثقفون — إلا القليل منهم — يحجمون عن الدخول في مضمار الأعمال الحرة ويؤثرون عليها وظائف الحكومة أو ما يشبهها من الأعمال ذات الراتب الثابت . ولا فرق في هذه النزعة بين من لم تعده ثقافته لمهنة بعينها ومن أعد إعدادا خاصاً للزراعة أو الصناعة أو التجارة فكلهم سواء في التهافت على الوظائف والنفور من الأعمال الحرة . والنتيجة الطبيعية لذلك أن يظل ميدان الحياة الاقتصادية في البلاد خاليا لنشاط الأجانب والمتمصرين لا يزاحمهم فيه من أبناء البلاد مزاحم مستقيم وتبقى مقاليد شئوننا المالية بغير أيدينا .

ولن يتهيأ لنا مع هذه النزعة أن تكون من شبابنا المثقف جيلا من رجال الأعمال يضطلعون بأعباء النهضة الاقتصادية التي نصبوا إليها .

ولا يتسنى ، مع حشد أكثر الكفايات في دواوين الحكومة ومكاتبها وإقفار دوائر الحياة الشعبية من العناصر المثقفة ، أن يقوم التوازن بين الحكومة والشعب ولا أن يزول ظل التميز الذي يرفع طبقة الموظفين فوق بقية أفراد الشعب ، ولا أن تتحقق الرقابة المستنيرة من الشعب لتصرفات حكومته وهي أكبر مميزات الديمقراطية الصحيحة . كذلك ستحرم الأمة من الخير الذي كانت تجتنيه من اندماج طبقة المثقفين في صميم حياتها العامة يبثون الآراء الحديثة في الدوائر المحيطة بهم ويثيرون عامة الشعب بما يقدمونه من الأمثلة العملية في معالجة مشاكل الحياة بأساليبهم العلمية .

فالمشكلة خطيرة تقتضينا أن ننظر في أسبابها وبواعثها وأن نفكر جديا في معالجتها .

فما هي الأسباب التي ترغب الشباب المثقف في وظائف الحكومة وتصرفهم عن الأعمال الحرة ؟

لعل من هذه الأسباب أن الوظيفة الحكومية لا تزال تحتفظ ببقية من مكانتها القديمة التي كانت تتمتع بها في عصور الاستبداد أيام كان الحاكم سيدا مطاعا والمحكوم تابعاً خاضعاً . ولعلنا لم نتخلص نهائيا من الافتتان بالوظيفة واحتقار الأعمال لأن الوظائف كانت مهمة سادة البلاد والأعمال مهمة الاتباع . ولكن هذه الفكرة خليقة ألا يبقى لها اليوم في حياتنا أثر وأن يسود احترام الأعمال جميعاً . وأن نعلم أن الموظف والصانع والزارع والتاجر كلهم مواطنون متساوون يؤدى كل منهم واجبا من الواجبات التي تتطلبها الدولة ولا فضل لأحدهم إلا بإخلاصه في عمله وحسن أدائه لواجبه . والشباب المثقف أحرى أن يدرك سخف تلك الفكرة ، ولا يقيم لها وزنا .

ولعل من المرغبات في الوظيفة أن طريقها سهل معبد لا يكلف طالبها كبير عناء . وأنها لا تقتضى الموظف إلا عملا رتيبا واضح المعالم تحدده اللوائح والمنشورات ، وأنها تعطى صاحبها قسمة كافية من الوقت لراحته ولهوه ، وأنها تكفل له راتباً ثابتا آخر كل شهر يستطيع أن يطمئن إليه ويرتب حياته عليه فينعم بالطمأنينة والاستقرار ، وأنها تكفل له زيادة هذا الراتب على قدر موضوع ونظام محكم وتكفل له في شيخوخته عوضا يريحه عن عناء التفكير في أمر مستقبله ولمستقبل ذويه .

وهي مرغبات خليقة أن تغري من يريد أن يركن للدعة والراحة في هذه الحياة وألا يتعب نفسه بالكد والكفاح ولا يستهدف لتقلبات الأيام .

وإذا كانت هذه المرغبات تجتذب إليها أفئدة المثقفين جميعا فإن لها دلالة مؤلمة تتطلب أن نعيد النظر في الطرق التي تنشىء عليها أبناءنا . فالتربية التي لا تخلق في الطلاب حب المغامرة لا تنفخ فيهم روح الكفاح ولا تجعلهم

يستطيبون العمل والكدح ويستطيعون الشاق وينفرون من الظفر الرخيص الذي لم يبذل فيه عناء، وجهد تربية عاطلة لا تستحق ما بذل فيها من وقت ومال.

أكبر الظن أن شبابنا يتهيبون سلوك طريق الأعمال الحرة لأنه بالنسبة إليهم طريق بكر لم يشقه منهم من قبل إلا القليل، وأنهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم وينير لهم مداخله حتى إذا ولجوها ورأوا ما تفتحه عليهم من خيرات تدفقت فيه جموعهم وتعددت مسالكهم.

إن الفرص كما يقول أحد رجال الأعمال تطرق كل باب ولكن من يراها قليل وأقل منهم من ينتهزها حين يراها.

ولا ندعو شبابنا لأن ينتظروا الفرص حتى تطرق عليهم الأبواب ولكنا نطلب إليهم أن ينزلوا في ميدان الحياة ويفتحوا أعينهم على ما حولهم من ضروب النشاط ويتخيروا لأنفسهم ما يرونه أقرب لاستعدادهم ثم يقدموا بغير نظر إلى النتائج ومن غير خوف من أن يفشلوا في مشروعهم وليوطدوا أنفسهم من البداية على توقع الفشل ولكن ليستفيدوا من فشلهم إذا فشلوا وليعيدوا التجربة من جديد على ضوء ما تعلموه من سابق عملهم وليعتصموا بالصبر والثبات ولا يملوا الإعادة والتعديل والتحوير فإنهم واصلون في النهاية إلى النجاح الثابت المطرد. إن الأعمال كالمعارك لا يخسرها إلا من ضعفت روحه المعنوية، ومن يستشعر الهزيمة ولا يجوز فيها إلا الصابر الذي يصمد ويثبت ويطمئن قلبه في أشد الأوقات حلوكة إلى أنه بالغ غايته ظافر ببغيته مهما قامت في سبيله العقبات.

وهنا يعترض معترض بأن هذه الأعمال تتطلب رؤوس أموال ليس من السهل تعويضها إذا فقدت. وردى على ذلك أن أوجه شبابنا إلى أن يبدءوا حياتهم العملية من أول درجات السلم، وأن تكون مشروعاتهم الأولى على نطاق ضيق لا يهد كيانهم إذا فشلت، وألا يغرهم علمهم الذي تعلموه بالمدارس، ويحسبوا السير على قواعده النظرية كفيلا وحده بنجاحهم، فيبدءوا المشروعات الضخمة الواسعة، فإنهم إذا ركنوا لذلك كانت خيبتهم ألمية، وخسارتهم غير محتملة.

قال لي شاب من خريجي الزراعة العليا إنه كان لديه مائتا جنيه، وظفها في تربية بعض الماشية وزرع أرضا استأجرها برسيما، وقدر أن ذلك سيعود عليه في عام بضعف رأس ماله، ولكن الدودة أكلت البرسيم وهزلت الماشية، فلم يستطع تغذيتها، واضطر لبيعها، وفقد نصف ماله. فلم يستطع احتمال الصدمة، وكان هذا ما دفعه لوظيفته الحالية.

قلت له: أيها الشاب ولكن الفلاحين الجهلة يعلمون أن الزراعة قد تخيب عاما، ولكنهم على ثقة بأن العام التالي يعوضهم عما فقدوه، وأنهم وطنوا أنفسهم على احتمال مثل هذه الصدمات، ولو أنه لم يوظف إلا نصف ماله، وأبقى نصفه احتياطيا لمثل هذا الطارىء، وتثبت لهذه النازلة لكان خليقا أن يرضى عن حاله في عامه التالي.

على أن شبابنا لا ينجح في الحياة العملية إذا كان همه مجرد المحاكاة والتقليد. إن المنتظر من الشباب المثقف أنه يكون مجددا مبتكرا في هذه الميادين، ولعله إذا دخل هذه الحياة وأجال في أساليبها المألوفة نظره أن يختط خطة جديدة يهديها إليه علمه، ويرشده إلى انتهاجها تفكيره الحر، وفي هذه الحالة يكون منفردا بعمله سباقا إلى نهجه فيكون نجاحه أتم وأكمل.

على أن الأمر لا يصح أن يترك لهؤلاء الشبان وحدهم يعالجونه بجهودهم دون عون منا. إنهم بحاجة إلى هيئة مجربة ترشدهم، وتنير لهم الطريق، وتمدهم بالبيانات والإحصاءات، وهم بحاجة إلى المعونة المادية الكافية الشاملة في البداية حتى يقفوا على أقدامهم وينهضوا وحدهم بأعبائهم.

لا يكفي مثلا أن نبيع لخريجي الزراعة أرضا لم تصلح

بثمن مقسط ، وإنما الواجب أن نتولى إصلاحها أولا ، وأن نسكنهم فيها ، ونمدهم بالمواشي والبذور والمال اللازم للصرف زمنا حتى ينتجوا وينجحوا ، ويكون باستطاعتهم رد ديونهم .

ولا يكفي أن نعطي خريجي المدارس الصناعية سلفا . ولكن الواجب أن نمدهم بما يحتاجونه من آلات وخامات وأن نتولاهم بالمعونة والإرشاد حتى يصلوا إلى منزلة الاعتماد على أنفسهم وسداد ما أقرض لهم .

ويجب أن يكون هناك مكتب ثابت يقصده كل طالب فيتولاه بالفحص مرشد جدير ، ويهديه إلى نوع الأعمال التي يستطيع النجاح فيها ، ويجمع له كل ما يساعده على عمله من البيانات والمعلومات ، ويراقب خطواته الأولى ، ويسدي إليه النصائح العملية حتى يأنس إلى عمله ويستغني عن المساعدة .

وأخيرا يجب أن تذاع الأمثلة العملية لمن قام من الشبان المثقفين بجهود موفقة ناجحة في الأعمال الحرة ، ليكون ذلك حافزا لسواهم على اقتفاء آثارهم وترسم خطاهم .

* * *

« معلومات طريفة عن الذرة »

الذرة هي الغذاء الرئيسي للكثرة من سكان الريف في مصر . ولعل القارئ لا يعلم أنها إلى ما قبل سنة ١٩١٤ ، لم تكن تستخدم في أمريكا وأوروبا إلا لتسمين الخنازير والماشية والدواجن . ولكن الحاجة دفعت بعض الشعوب إلى اتخاذها مأكلا للناس ، ولم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى أخذ الأطباء يلاحظون أن الشعوب التي تعيش على الذرة أصح أبدانا من الشعوب التي تعيش على الأرز . ولما كانت الذرة تحتوي على ٧٠ في المائة من السكر وايدرات و ١٠ في المائة من الزلال وخمسة في المائة من الدهن كانت قيمتها الغذائية أكبر من البطاطس أو الأرز ، وإذا كانت آسيا الوطن الرئيسي للحبوب — الأرز والقمح والشعير والقرطم — فإن أمريكا بحق هي الوطن الرئيسي للذرة ، فهي تنتج ٧٧٫٨ في المائة من محصول العالم من الذرة ، وتنتج أوروبا ١٤٫٧ في المائة منه ، وتنتج آسيا ٤ في المائة ، وتنتج أفريقيا أقل من ذلك .

وإذا لوحظ أن هذا الحب يكون طريا وجافا وأن وقت حصاده يختلف عن وقت حصاد أكثر الحبوب ، كان الانتفاع به أعم وأظهر ، لا كغذاء للإنسان والحيوان فحسب ، بل كمادة في الصناعة والطب أيضا . فالنبات تأكله الماشية وسيقانه الخضراء لاحتوائها على السكر تستخدم في صناعة السكر والأشربة والكنياك . وإذا جف النبات صلح لصناعة الورق والخشب كما يصلح لاستخدامه وقودا . ولباب الساق يصنع منه السليلويد والشمع وعجين الورق ، وأغلفة مطره (كيزانه) تستخدم كأوراق للسجائر وغير ذلك من وجوه الاستخدام في الصناعة الورقية . والحب يؤكل خضرا وخبزا ويستخدم في الحلوى وتطعم به الماشية ، ومن الحب الأخضر يمكن صنع الزيت والجلسرين والألوان والصابون والورنيش والمطاط . وهو كغذاء للماشية يسمنها ولكنه لقلة الزلال فيه يكون أثره في زيادة الدهن لا في تكوين العضل .

ويستخدم نحو مليون طن من محصول الذرة في العالم في عمل الجليكوز ، ونحو نصف مليون طن في صنع الكحول . ويصنع من نشاء الذرة الدهون وبعض مستحضرات الزينة والسكر .

وخبز الذرة ناقص من حيث الفيتامينات ، وينشأ عنه لو اقتصر عليه مرض البلاجرا وهو مرض جلدي مزمن . ويكثر في الشعوب التي تتخذ الذرة غذاءها الرئيسي كمصر وإيطاليا ، ورومانيا ، وشمال أفريقيا ، وبعض أجزاء الولايات المتحدة . ولهذا يحسن خلطه بحب غني في الفيتامينات كالحلبة .

عيناها

« يا لمور الذخر في عيني المرأة ! »

أتستطيع أن تثق بعيني المرأة وتصدقهما ؟ وهل تحرزان الحقيقة دائماً ؟

لقد قيل إن العيون هي « نوافذ العقل ووتر العاطفة ومرآة الذاتية » ، وإنها تستطيع التعبير حقاً عن جميع الخوالج .

ونحن نعلم أن الممثلات يستطعن ضبط الأحاسيس التي تنم عليها أعينهن فيسترنها للمبارة عما يردن ، وأنهن لا يستطعن أن يجعلنها تبدو رقيقة ناعسة أو فاترة جامدة ، أو غاضبة مهتاجة . وكثيرات من النساء يعرفن عظيم نفوذ أعينهن ، وما لها من قوة سحرية وأثر فعال ، ولا ينسين ذلك مطلقا ! ونحن نعرف أن تلك القوة التي تكمن في أقوالهن وأعمالهن ، بل في تلك الطوايا الخرساء التي تنطق بها نظراتهن ، وقد تكون تلك النظرات اكتسابية ، وقد تكون خلقية فطرية .

ولبعض النساء الحسان ، عيون متألقة حلوة . تبين عن السحر الحلال . وتفتك بقلوب العباد دون أن يعمدن إلى تسخيرها لشيء من ذلك .

عيون من السحر المبين تبين
يسالمها المشتاق وهي تخون
صحاح مراض ناعسات يواقظ
تقول له : كن مغرما فيكون

كتب شاعر فارسي مرة يصف امرأة حسناء فقال : « قدها الأهيف كشجرة السرو المائلة على حافة الغدير ، وعيناها تمثلان المياه البلورية التي ينعكس عنها ذلك القد المياس ، وهي من وجهها في صباح شامس ، ومن شعرها في ليل دامس ؛ كأنها فلقة قمر في برج فضة ، وعيناها !

يا لعينيها الدعجاوين ! ليس في الكون بأسره ما يماثل تزجيج حاجبيها في استهواء القلوب ، أما أشفارها الوطفاء فيبرق منهما ، وهي تضحك ، سيف ماض ذو حدين ينفذ إلى قرارة النفس » .

ولقد تغنى الشعراء في كل عصر وجيل بمحاسن عيون النساء وما تتصف به من سحر وحلاوة . ولكن ليس لجميع النساء عيون ناطقة بسرائر الذات الخفية ، دالة على قوى الشخصية وأثرها في الحياة ، كما أن النساء جميعا لا يتمتعن بتلك العيون الحلوة التي تعود بركة رقتها عليهن وعلى الآخرين . وليس جميع العيون متشابهة متماثلة . فهناك النساء ذوات العيون الزرقاء التي تلين ليناً خطراً تحت ضغط تأثير خاص ونفوذ فعال .

وهناك النساء المبهمات ذوات العيون الغامضة المومضة التي يتعذر سبرها ، والتي تفيض بلهب أنوار غريبة ، وتتلىء غورها القاتم بظلال وأشباح وإشارات خفية . وهناك العيون الغيرى ، وهناك العيون الخبيثة ، والعيون الجائعة ، والعيون النهمة ، والعيون المحتالة ، والعيون المستفسرة ، والعيون الصابرة ، والعيون التي يخيل إليك أن الألم يكظم فيها وعود الضحك والابتسام !

وهناك النساء ذوات العيون الخالية من كل معنى ..

وفي النساء من هن ذوات عيون يشبه لونها لون عين النمر ، أو ذوات العيون الرقراقة المتألقة ، أو ذوات العيون النجلاء الحوراء .

يقول أرباب علم الفراسة إننا نستطيع أن نتخذ من ألوان العيون المختلفة مقياساً للشخصية ، ويخبروننا أن العيون الزرقاء غاوية مضللة خطرة محتالة . وكذلك حال العيون الخضراء النوارة . ويخبروننا أن العيون السمراء رزينة جدية ، كما أن العسلية والرمادية مخلصة صادقة وفية .

إلا أني لست ممن يعتدون بهذا القياس المجحف ، مقياس الألوان . وعندي أن أفضل العيون وأحلاها هي تلك العيون الرقيقة التي يطل منها القلب الكبير والنفس العظيمة السامية المتميزة ، العيون المكتظة بمعاني الانعطاف والغيرة التي تستحيل نظراتها البليغة إلى الحنان والإشفاق

حكيم قصـــاص

[في العدد ١٧٠ من « الثقافة » قصة للكاتب الألماني الشهير يوحنا يعقوب إنجل Engel هي : « حلم غاليليو » . وقد قدمنا لها بكلمة عن الكاتب لا نرى غضاضة من العود إليها لأن قصة اليوم قصته أيضا . ولعل من قرأ « حلم غاليليو » قد لحظ ما أشرنا إليه من صدق نظر الكاتب ودقة تصويره ، وما نوهنا به من نزعه للشاذ القوي ، وأسلوبه الواضح الشفاف . وفي قصته اليوم لطافة ، وفكاهة ، وحكمة ، هي بعض مسه الرقيق لنواحي الحياة . وقد كان إنجل من خيرة الروائيين ، عالي الثقافة ، سامي الرتبة ، مربيا للأمراء ؛ وكان عضواً في أكاديمية برلين ، ومديرا أول للمسرح الأهلي ، وأستاذاً مشتغلا بالفلسفة ، ومحصلا للغات . وقد ولد في أواسط القرن الثامن عشر ومات في مستهل التاسع عشر في الحادية والستين] .

ولد السيد « توبياس ڤِت » في مدينة متواضعة ، وسط بين المدن ، لا هي بالكبيرة ولا بالصغيرة ؛ ولما شب واستطاع التنقل لم يجاوزها إلى أبعد من القرى المجاورة لها ؛ لكنه خبر الدنيا أكثر مما خبرها غير واحد ممن بدّدوا ميراثهم في باريس أو نابولي . وكثيرا ما راقه أن يقص على معارفه قصصا صغيرة مختلفة مما خبر في الحياة . وهي قصص ليس فيها من الخيال والشعر شيء كثير . ولكن ما فات من خيالها وشعرها ، يعوّضه واقعها وزبده . والغريب المميز في هذه القصص هو أن كل قصة منها تجمع بين دفتيها أقصوصتين مترامليتين ! وإليك المثال :

في ذات يوم جاء السيدَ « ڤِت » أحدُ معارفه ، ويدعى السيد « نِل » ، وجاءه يُطريه ، ويثني على حصافته وعقله . فهلل الشيخ « ڤِت » ، وكأنما أعجبه هذا الثناء من « نِل » الشاب ، فسأله قائلا . أعاقل أنا حقا ؟

— إن الدنيا بأسرها تتحدث بذلك يا سيد « ڤِت » ولوَدِدت أن يكون لي مثلُ عقلك .

— أهنا ! إذا كانت هذه طلبتك فما أسهل ما تطلب — انظر إلى ما استطعت إلى ما يفعل المرورون !

— ماذا ياسيد « ڤِت » ؟ ما يفعله المرورون ؟

— أجل ياسيد « نِل » ! وافعل عندئذ غير ما يفعلون

— مثال ذلك ؟

— مثال ذلك يا سيد « نِل » : في أيام الصبا والشباب ، كان يعيش هنا في هذه المدينة رياضيٌّ يدعى « فايت » . وكان قزَماً ، هزيلا فظا ، لا ينقطع له طواف في الطرقات ؛ يهمهم وهو سائر ، ولا يكلم أحداً . وأندر من هذا عنده أن ينظر في وجه إنسان ، فقد كان دائمًا متجهماً ، منطويًا على نفسه ، يتأمل باطنه . فماذا تظن ياسيد « نِل » أنْ كان الناس يسمّونه .

— كيف ؟ — وماذا عميق التفكير .

— بالضبط ! مغرورا ! كانوا يسمونه مغرورا ! فكنت أقول لنفسي ، وقد كرهت لما قيل هذا اللقب : يجب أن لا يحاكي أحد السيد « فايت » ولا يفعل فعله ، فهذا غير جميل . فليدع المرء باطنه لا ينظر فيه ، وليتأمل الناس في وجوههم ، ولا يخشى أن يُتّهم بالقِحَة . ثم ما همهمته لنفسه ، والناس موجودون ، يستطيع أن يخاطبهم وأن

بسرعة ما دعا إلى الإشفاق والحنان داع ؛ — وقد تكون من أي لون .

إن النساء قد يستطعن بالتطرية والتجمل أن يجعلن لعيونهن تأثيرا ما ، ولكن لا تستطيع امرأة أن ترسل من عينيها نظرة الحنان والإشفاق ما لم يكن في قرارة طبعها كل عناصر الحنان والرقة والعطف والإشفاق والإيثار . أنظر إلى عينيها !

واحذر ! احذر كثيرا إن لمحت في وميض نظراتها قسوة وجمودا ، ولو كان ذلك الوميض مصحوبا بأرق الابتسامات الفاتنة .

وإذا لم يكن في عيني المرأة ضحك خالص بريء من كل شائبة حين تضحك فاعلم أنها متصنعة غير صادقة .

ولا تنس أن المرأة تكون متمكنة من مراقبتك ورصدك حين تتسع حدقة عينيها . أما حين تضيق فعليك أنت بمراقبتها وملاحظتها جيدا . « الزهرة »

يتحدث إليهم! — أليس كذلك يا سيد «نيل»؟ أو لست على حق؟

— بلا ريب! إنما كيد!

— لكنى فى الحق لا أدرى، لا أدرى على التحقيق — فإن شخصاً آخر كان يسير أيضاً فى الطرقات. وكان اسمه السيد «فيلتك»، معلم الرقص. كان ينظر إلى كل إنسان، يحدّق فى وجهه. وكان يتحدث مع كل من له أذن تسمع، سمعَت أو لم تسمع، ولا يدعُ أحداً يُفلت من يده. فهل تدرى يا سيد نل ما كان الناس يسمون هذا

— رجلا مرحا؟ — .

— تقريبا! كانوا يسمونه أيضا ممرورا! فعدت إلى نفسى أخاطبها: هذا غريب! فماذا يجب أن تصنع إذن لتكون فى رأى الناس عاقلا؟ تفعل لا كما يفعل السيد فايت تماماً، ولا كما يفعل السيد فلتك بالضبط، لا كل ما يفعل هذا، ولا كل ما يفعل ذاك. فانظرْ أولا فى وجوه الناس كما يفعل أحدهما معلم الرقص، ولا تخش فى نظرتك لومة لائم. ثم ارجع إلى نفسك وتأملها كما يفعل الآخر الشيخ الرياضى. خاطب الناس جهرا كما يفعل السيد فلتك ثم ناجِ نفسك سرا كما يفعل السيد فايت — أرأيت يا سيد نل؟ هكذا فعلت؟ وهكذا استحققت العقل فى نظر الناس.

* * *

وزاره شاب من التجار يدعى فلاو يندب سوء حظه. ويشكو الزمان فبدأه الشيخ فت بقوله: ما عليك من بأس! ثم هزّه وقال: أطلب الحظ يا سيدى فلاو، ولا تَنِ عن طلبه.

قال: لقد طالما طلبته فما أجدى الطلب — فالنكبة ما تزال تلى النكبة. وإنه ليقوم بنفسى أن ألزم بيتى فى المستقبل واستسلم للأقدار.

— كلا، كلا! يا سيد فلاو! فاطلب الحظ كما قلت دائماً، وامعنّ فى سعيك بالوضع الذى يكون لوجهك.

— ماذا؟ وضع وجهى؟

— أجل يا سيد فلاو! وضع وجهك. وسأبين لك ذلك — لما بنى جارى الذى عن يسارى بيته كان الشارع وقتئذ مكتظا بشتى الأخشاب والحجارة والحواجز؛ فجاء مرة محدثنا السيد تريك، وكان يومئذ شابا متوثباً، يفيض حمية، فاندفع فى غمرة هذه الأكداس مطوحا ذراعيه، مقلصا قفاه، يكاد أنفه يطاول السحاب. — ودفعة واحدة يكبو، فتنكسر ساقه، ويظل يعرج إلى يومنا هذا. فماذا أقصد بهذا يا عزيزى السيد فلاو؟

— آه! الحكمة القديمة: لا تشمخ بأنفك!

— أرأيت؟ كذلك لا تطأطئ رأسك إلى أسفل مما ينبغى. — فإنه لم يمض على حادث السيد تريك وقت طويل حتى كان رجل آخر يسير فى الطريق. وكان شاعر المدينة السيد شال. ولابد أنه كان ينظم قصيدة، أو يقلب فى رأسه بعض هموم بيته، لأنه كان يتسلل حزينا، مطرقا، لا يفارق نظره الأرض، كأنما يود أن يعود إلى التراب. ودفعة واحدة ينقطع حبل، ويسقط «عرق» أمام قدميه كالصاعقة. — فيغمى على الرجل المسكين من الذعر، ويمرض، ويلازمه المرض عدة أسابيع. — أفهل فهمت يا سيد فلاو ما قصدت بوضع الوجه؟

— تعنى أن يكون الوجه فى سمته وسطا بين هذا وذاك؟

— بلا ريب. فلا يختال المرء ويناجى السحاب، ولا يخفض بصره حتى يدانى التراب. فإذا أدار المرء عينيه مطمئنا إلى فوق وإلى تحت، وعن يمينه وعن شماله، تقدم المرء فى مضمار الحياة، ولم يجد باعثاً لشكوى الشقاء.

* * *

وذات مرة قصد إلى السيد فت شاب من المبتدئين يدعى السيد فيلز. وكان يريد منه مبلغاً من المال لمضاربة بسيطة. فاستفتح بقوله: لن يكون لى من هذه الصفقة كبير نفع، فهذا ما أتوقعه من الآن، لكنها مضمونة، وكأنها تندفع إلى يدىّ. فلا أريد من ثم أن أفلتها.

فلم تعجب هذه النغمة السيد فت؛ لكنه سأله: كم

تظن أنه يكفيك يا سيد فيلز ؟

— آه ! ليس ما أطلب بالكثير . إنه شيء بسيط . مائة ريال أو نحوها .

— إذا لم ترد عن المائة فإني أعطيكها عن طيب خاطر . — ولكي ترى أني أريد بك الخير أعطيك فوق المائة الريال شيئاً آخر يعدل بين الأخوان ألف ريال ، ويمكنك ، أن تسعد به . —

— ولكن كيف يا عزيزي السيد ڤث ؟ أتعطيني فوق المائة الريال شيئاً ؟

— إنه شيء بسيط . أقصوصة فقط . — كان لي في عهد الشباب جار خمّار ، رجل مضحك ، يدعى جريل . هذا الرجل اعتاد عبارة تلف في فمه على غيرها فكانت سبباً لشقائه .

وهذه العبارة ! ما هي ؟

— كان إذا سأله أحدهم أحياناً : كيف حالك يا سيد جريل ؟ وماذا دخل جيبك من تجارتك ؟ أجابه بقوله : شيء بسيط ، خمسون ريالا تزيد أو تنقص . وماذا تفعل لي هذه الخمسون ؟ أو يقول له أحدهم : والآن يا سيد جريل ؟ أضاع عليك في إفلاسك كثير ؟ فيجيب : ماذا ؟ إن ما ضاع لا يستحق الذكر . شيء بسيط . خمسمائة . — كان هذا الرجل ميسور الحال لكن عبارته الوحيدة ، تلك العبارة اللعينة جذبته من سرجه ، وطوحت به في عرض الطريق .

فكم طلبتَ يا سيد فيلز ؟

— أنا ؟ — طلبت مائة ريال يا عزيزي السيد ڤث .

— صحيح ! إن ذاكرتي تخونني أحياناً . — لكنه كان لي جار آخر . إنه السيد توم تاجر الحبوب . وقد بنى هذا بيته كله بعبارة أخرى أو لازمة أخرى ، وأنشأ مع البيت ملحقاته الخلفية ومُهرياً للملاك . — فماذا يرى السيد فيلز في هذا ؟

— وبك ما هذه اللازمة الأ ما خبرتني عنها ؟ ما هي ؟

— كان إذا سئل أحياناً : كيف حالك يا سيد توم ؟ ماذا ربحت من تجارتك ؟ أجاب : كثيراً : مالا كثيراً . ثم يرى الناس كم هو منشرح الصدر ، راضي النفس ، متهلل الوجه حين يردف ذلك بقوله : مائة ريال كاملة . — أو حين يخاطبه أحدهم : ما خطبك يا سيد توم ؟ ما بالك ساخطا ؟ يجيب : لقد خسرت مالا كثيرا . خسرت خمسين ريالا كاملة . — وكان السيد توم قد بدأ تجارته صغيرا . لكنه ما لبث أن اتسعت تجارته ، وازدهر عيشه ، فبنى بيته الكبير كله كما قلت ، وأنشأ مع البيت ملحقاته الخلفية ومُهرياً للملاك — والآن يا سيد فيلز : أي اللازمتين تؤثر أن تكون لك .

— وهل يحتاج هذا إلى سؤال ؟ الأخيرة .

— لكن السيد توم لم يكن عندي مع ذلك محقا كل الحق . فقد كان يستكثر المال أيضا حين يعطي الفقير والمحروم ، وحين يدفع الضرائب . وكان الأخلق به أن يستقله في هذه المناسبات ، فيذكره كما ذكره السيد جريل جاري الآخر . — أما أنا يا سيد فيلز ، وأراني أقف موقفا وسطا بين هاتين اللازمتين ، أو هاتين العبارتين ، فقد راعيت كلتيهما ، ووضعتهما نصب عيني . فأذكرهما حسب الظروف والمناسبات ، فتارة كالسيد جريل وأخرى كالسيد توم .

لا . لا ! فإني هنا مع السيد توم ، فبيته ومُهري ملاكه يعجبانني .

— فأنت إذن تطلب ؟

— شيئا كثيرا ! شيئا كثيرا ، يا عزيزي السيد ڤث . مائة ريال كاملة .

— أرأيت يا سيد فيلز . إنه ابرجي منك . فأنت محق كل الحق . فإذا شئت الاقتراض من صديق ، وجب أن تتكلم كما تكلم السيد توم . وإذا تقدمت لمعونة الصديق ، في ساعة الضيق ، وجب أن تتكلم كما تكلم السيد جريل .

محمود الدسوقي

الأدب الخـــالد

محبب إلى النفس حديث الخلود ، فهو حديث العبقرية السامية والذكاء المتوقد . ومن منا لا يحب الخلود ، ومن منا لا يحب أن يكون أنشودة الحياة البريئة ترتلها على مسامع الأجيال لحناً جذاباً .

ومن منا لم يحلق به الأمل فى سماء الخيـال برهة من الزمن ، حيث يشرف على الوجود ، ويشعر بأنه أحـد أولئـك الأشخاص الذين أدوا رسالتهم ، فمالت عن أن تعبث بها الأحداث ، وتبلى جدتها الأيام . بل كانت نغما ظاهرا استرعى أسماع الزمان ، واستلب عواطف الجماهير ، فانحنت أمام روعته هيبة وجلالا ، وكانت علما مرفرفا فى سماء العبقرية تجتمع فى سبيل تمجيده الإنسانية بأجمعها ، وكانت قطعة من الروح لامست كل عاطفة ، وداخلت كل طبع ...

هذا هو حديث الخلود ، مولعة به كل نفس ، مشغوف به كل نبوغ .

ولـكن هل هذا الخلود من نصيب كل نتاج يخرج إلى هذا العالم ؟؟

ولنقصر حديثنا على الأدب ، فهل كل شخص استطاع أن يكون أديباً يستطيع أن يكون خالداً ؟

نستطيع أن نقول : ليس الخلود من نصيب كل أديب ، وإنما هو من نصيب الأديب الذى استطاع أن يكون قيثارة يطرب لسماعها كل جيل ، وسما عن أن تكون مادة أدبه هذه الحوادث الدائرة المادية التى تتجدد فى كل ساعة ، وتتبدل فى كل يوم .

فهذه الحوادث وإن لامست عواطف الحاضر فسوف لا تلائم عواطف المستقبل القريب فضلا عن البعيد .

فليس من الضرورى أن يكون غذاء الروح فى الحاضر هو بعينه غذاء الروح فى المستقبل أو فى المـاضى . مثله فى ذلك مثل كل عنصر فى الوجود يخضع للتطور ، ويسير وفق نظم الترقى ، فالمستقبل يحمل فى طياته ثورة على الحاضر تسير به فى طريق الـكمال خطوة أو خطوات ، وما دام الـكمال غير محدود ، والإنسانية مندفعة بحكم الزمن فى هذا الطريق غير المحدود ، فمن المؤكد أنها تسير من حسن إلى أحسن ، ومن ردىء إلى جيد ، ومن خبيث إلى طيب . وليس معنى هذا التطور أنه يقضى على كل صلة بين الماضى والمستقبل ، فيجعل كل واحد منهما مباينا للآخر تمام المباينة ، مخالفاً له تمام المخالفة . كلا . فليس هكذا التطور ، وليس هكذا الانتقال .

نعم ! التطور تغيير ، والارتقاء تغيير ، ولـكن هناك رابطة تربط مراحل الزمن الثلاث ، ولا يمكن للتطور أن يغيرها ، ولا يمكن للارتقاء أن يوهنها .

هذه الرابطة هى التى تلتقى عندها الإنسانية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ؛ فتطرب لنغمة واحـدة وتلتذ للحن واحد .

هذه الرابطة هى الروح المشتركة بين هذه الأزمان .

هذه هى الحيـاة الثابتة فى هذه المراحل ، وهى سبيل الأديب إلى الخلود ، والأديب الخالد هو الذى يستطيع أن يرسم هذا الجمال الذى ينتظم هذه الرابطة ، هو الذى يكون أدبه مرآة تتراءى فيها هذه الروح المشتركة شخصية واضحة بما فيها من الـكمال والقوة ، هو الذى يقدر أن يكون وتراً حساساً توقع عليه هذه الحياة الثابتة أناشيدها الخالدة فتشبع عواطف كل جيل ، وتغذى وجدان كل زمان ، وتملأ الإنسانية غبطة وسرورا .

هذا هو الأديب الذى تنسج حوله الطبيعة رداء الخلود فيلبسه آمنا فيه من تقلبات الحدثان وأعاصير الفناء .

والأديب لا يمكن أن يكون أدبه معنى فقط ، وإنما يجب أن يكون لهذا المعنى ثوب يوضع فيه ، واللفظ يكون فى تضاعيفه حتى يستطيع الوصول إلى الأفئـدة والقلوب عن طريق الأسماع والأنظار .

وإذا أنت آمنت معى بأن المعنى الخالد يجب أن يكون

الملك الضليـــــل

أخرج الأديب الباحث الأستاذ محمد فريد أبو حديد كتابا عن امرىء القيس بن حجر إمام الشعر العربى ؛ فكان الأول فى طريقته ومنهاجه ، وإن لم يكن الأول فى موضوعه .

وقراء الأستاذ يعرفون له البحث العلمى كما يعرفون الانحاء القصصى . وكتابه الجديد يمثل النزعتين معاً . فقد قصد إلى كتابة قصة ابن حجر على نحو تام يمثل صباه وهواه وجهاده الطويل للثأر لأبيه ، ولم يعتمد فى هذه الكتابة على الخيال وحده ، وإنما اعتمد على حياة امرىء القيس وعلى حياة العرب كما يمثلهما الشعر ، وكما تصورهما الروايات المختلفة ، وبذل فى ذلك من الجهد ما يعبر عنه الكتاب من بدايته إلى نهايته أتم تعبير .

لقد أقبل على حقل فسيح من الروايات المضطربة المبعثرة ، وعلى ميدان واسع من الشعر العربى ، فكشف من الغامض ، ونقى الشوائب ، وألف من الاضطراب نظاما ، ومن التفرق وحدة ، وأدى ذلك كله فى أسلوب مصور بديع يطالعه القارىء العام فيعجب بمتانة القص وجمال الأداء وحسن البيان ، ويطالعه المثقف فيتلمس جهد الباحث واطلاع العالم وثقافة الأديب .

صور حياة امرىء القيس والشخصيات المعاصرة له والأحداث التاريخية المحيطة به مذ نشأ صبياً ماجنا فغضب عليه أبوه ، وأبعده من مقر سلطانه خشية الفتنة وثورة الرعية إلى أن أتاه نبأ اغتيال أبيه فنبذ اللهو والشراب ، وأقبل يتقلب بين القبائل والبلاد الدانية والقاصية طلباً للثأر حتى مات بأنقرة غريباً عن أهله وذويه .

وقد ألقى المؤلف البارع كثيراً من الأضواء الكشافة على حياة الشاعر الغامضة ، فصورها على نحو واضح جلى يقرب منا هذه الحياة التى فصل بيننا وبينها خمسة عشر قرناً ، فتبدو فيها نوازع الحياة الحديثة بمقوماتها الأساسية ، وتثبت بهذا أن عصور البشرية جميعا تتفق فى الأسس العامة وإن اختلفت فى الجزئيات والتفاصيل وطرائق التطبيق .

وكان عنصر القص لازما فى معالجة هذا الموضوع

سامياً ، بحيث يلفت الإنسانية كلها ، ألا نؤمن معى أيضا بأن رداءه يجب أن يكون ساميا هو أيضاً بحيث يتلاءم معه ، ويتوافق وإياه .

وهل تستمرىء نفسك أن تستمع لأغانى (بتهوفن) أو مقطوعات (رابى) حين يرتلها صوت من الأصوات النكرة ؟ أظن من المستحيل ذلك .. هذا هو فضل اللفظ على المعنى .

يتبين من كل ذلك أن الخلود لا يجوز إلا لأدب سما معناه حتى لاءم بين عواطف الإنسانية بأجمعها ، ووضع لمعناه هذا ثوباً من اللفظ المتخير الرائق ، جديرا بهذه المعانى السامية .

إن الداعين إلى الجديد يقولون إن الأدب يجب يكون صورة صادقة أمينة لخير ما فى عصره ، فإن الأدب مهما كان مصدره سيكون حتما صورة للعصر ، لأن الأديب لا يمكن أن يتخلص من قيود البيئة ، ويخرج على قوانين التطور ، ويمرق من نواميس الاجتماع .

ولكن هذا القول لا يمكن أن يحقق لنا وجود أدب عالمى خالد ، وإنما يحقق لنا وجود أدب موضعى فقط . والعالم كله يسير الآن فى طريق الكمال .

ويقول الداعون إلى الجديد إن لغة الأدب يجب أن تكون العامية وهى لغة فضلا عن أنها موضعية لا تكون أن تكون رابطة التفاهم بين أبناء القطر الواحد ، فكيف تصلح أن تكون رابطة بين جملة أقطار . إنها لغة فوضى خالية من كل نظام ، بعيدة عن كل جمال ، وإن النظام سر الجمال فى كل مظاهر الوجود .

دمشق — راغب العطاش

القديم الذي نسجت حوله الروايات كثيراً من الخرافات ولفته في عديد من لفافات الاضطراب والغموض . وبه استطاع الكاتب القدير أن يرضي الذوق كما أرضى العقل ، وأن يكفل لكتابه أسباب التعلق فلا يبدؤه القارئ، حتى يشد إليه ولا يني دون بلوغ غايته مفتوناً بما فيه من صور للحياة العربية وللحياة الرومانية .

لكن الباحث والناقد لا يكاد يطالع موضوعاً ، مهما بلغ من الفتنة والروعة والدقة ، بغير أن يبدي عليه بعض الملاحظات ، وأن تثير مطالعته في نفسه بعض المعاني ، وبخاصة إذا كان الموضوع غامضاً قديماً كموضوع امرىء القيس وحياته .

وأول هذه أن المؤلف الجيد ، في سبيل تقريب البعيد وتيسير المعقد ، صور الشاعر العربي تصويراً قد يتفق مع حاله في العصور المتأخرة أكثر مما يتفق مع حاله في عصر امرىء القيس الذي يعتبر فجر الشعر العربي . ولا يعدم المطالع في الكتاب ذاته ما يدل على هذا . فضعف امرىء القيس منشؤه الشعر ، وأحلامه الشعرية يزدريها قومه ، وعامر صديقه وصديق أبيه يعظه مقدماً للوعظ بحديث الأصابع وتعاونها في العمل كأنما يتحدث إلى فتى تافه لا إلى شاعر يعتبر في عصره زعيم القبيلة أو كزعيمها . لكن الكتاب يقرر ، مع هذا ، أن امرأ القيس كان على صغره أحق أخوته بميراث أبيه ، وأنه كان أقواهم نفساً وأربطهم جأشاً . وعبيد الشاعر منافق متلون يتكسب بشعره على نحو زري ، ليس بالسيد المتبوع أو المطاع .

لكن عبيداً ، على ذلك ، كان يوجه قومه في أدق المواقف ويدفعهم للثورة على ملوكهم ، ويجد فيهم أذناً واعية لآرائه وشعره .

فلعل الإنصاف كان يقتضي أن يصور الشاعر في مكان الزعامة ، أو ما يشبهه ، من قومه ، وأن يفسر أو يلغى ما عدا ذلك من الروايات التي تنال من الشعراء بسبب انحطاط الشعر فيما بعد من ناحية التأثير العملي ، وحلول الخطباء محل الشعراء في التوجيه القبلي .

وثانيها الإبهام في تصوير فاطمة حبيبة امرىء القيس ، ومدى استجابتها لحبه . فقد صورها المؤلف مرة قاسية عليه لا مبالية حرمتها يوم دارة جلجل ، لا تأبه له ولا تحفل باعتذاره . ثم صورها مرة أخرى تذهل للقائه فيغمى عليها ولم تزد ، مع أن حب امرىء القيس لفاطمة كان من المواد الأولى للكتاب .

وثالثها ترك التصور لطفولة الشاعر مع وجود مادتها المغرية في تاريخ الأدب وشعر الشاعر نفسه .

ورابعها تصوير العصبية القبلية على نحو يجعل الكندي القائم بخدمة الملك يحتقر ربيعة بن عمرو ، ويخاطبه بلهجة جافة مع أن ملك الكنديين كان يعتمد على رأي ربيعة كل الاعتماد ويتخذه عوناً ومشيراً . ألم تكن هذه المكانة كافية لأن يغير الكندي من نظرته إلى الأجنبي من قبيلته ، ولأن يكون تصوير العصبية القبلية على نحو أخف ؟

لكن هذه الملاحظات ليست شيئاً بالقياس إلى قيمة الكتاب الكبيرة وفتنته البالغة . ولعل لها تفسيراً عند المؤلف الكبير .

سيد نوفل

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي ... ... »

كلنا كده !

قال لي صاحبي وقد رآني على باب الحديقة في الطريق إلى مسرح الأزبكية ذات مساء : « أين تقصد ؟ » .

قلت : « أتراني غير خليق بأن أكون في هذا المكان ؟ » .

قال : « ستجد جواب ما تسألني بعد ، ولعلي أن ألقاك عند باب الخروج ! »

... واتخذت مكاني وتأهبت لأن أشهد « الكوميديا » الأخلاقية المصرية « كلنا كده » كما يسمونها وكما يصفون ، وتوقعت أن أجد فيها ما لم أعلم ، وحقيقة ما لم أر ، وأن أظفر باللذة والفائدة جميعاً ؛ وماذا أتوقع أن أجد غير ذلك في تمثيلية عنوانها « كلنا كده » يشترك في تأليفها سليمان نجيب ، وتمثلها « الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى » ؟ ...

وشهدت الرواية ...

« كلنا كده » : ليت شعري ما دلالة هذا العنوان في نفس قارئه وماذا يفهم منه ؟ ...

أتراه يدل على شيء في نفسه غير أن ثمة « رواية » يحاول مؤلفها وممثلها أن يصور — على وجه ما — صورة من حياتنا التي نحيا ، ويشخص صفة من صفاتنا العامة التي نتسم بها ، ويبرز خصيصة من خصائصنا الذاتية لا تكاد تتخلف في فرد منا ؟ ... بلى ، هذه دلالة ذلك العنوان وهذا مفهومه ؛ لم أفسره كما بدا لي وحدي ، ولكنهم على ذلك الوجه وحده يريدون أن يفهمه الجمهور ، وعلى ذلك الوجه وحده يتأدى معناه اللغوي ؛ فأين صورتنا الحية ، وصفتنا العامة ، وخصيصتنا الذاتية فيما شهدت من حوادث هذه الرواية ؟ ...

زوج شاب تفاجئه زوجته الشابة بين ذراعي امرأة ، فتغضب وتثور وتزمع القطيعة ، والزوج الشاب لا يجد في فعلته ما يدعو إلى الغضب والثورة والقطيعة !

ويعلم الأب بما كان فلا يثور ولا يغضب ، ولكنه يضحك مل، فيه ساخراً من ولده ، لأن امرأته « ضبطته متلبساً » ، ولو كان ابن أبيه لما ضبطته ! .

ولم تكن الزوجة بريئة ، فقد كان لها — كزوجها — عشيق تمنحه بعض ما تمنح الزوج ؛ ويعلم حموها بذلك ويشهد شواهده ، فلا يثور أيضا ولا يغضب ، ولكنه يضحك في هذه المرة شامتاً ، ويمضي يلتمس الأسباب إلى اللقاء بينها وبين عشيقها ، في داره ، وتحت سقف بيته ؛ ليرضي بذلك « مزاجه الفني » في السخرية والشماتة ، أو ليخلق به فضيحة جديدة يجعلها سبباً إلى الصلح بين ولده وزوجة ولده !

وحتى العمة العجوز وزوجها الكهل ، لم تكن حياتهما — على ما بينهما من أسباب الألفة واتحاد الهوى — بعيدة عن هذه الفضائح ؛ فللعمة العجوز ذكريات لا تجد حرجاً في حكايتها لزوجها لتثير غيرته وتجدد حبه ، فلا يكاد زوجها المغفل يسمع ما تقص عليه حتى يهم بشيء . ، ولكنها تلمح له ببعض ما تعرف من سيرته التي يحاول أن يخفي ، فيهدأ من غضب ويسكن من ثوران !

ذئبون وبغايا : هذه هي القصة ، وعنوانها : كلنا كده . وكلما حاول محاول منهم أو منهن أن يعتذر من خطيئته ، لم يجد عذراً يعتذر به إلا أن يقول : كلنا كده !!

أفكلنا كذلك حقاً ، أم هو إيحاء لكل من يشاهد هذه القصة بأن يكون كذلك ؟ ... أم هو لهو واسب لا يقصد به إلا إضحاك الناس ، ولا اهتمام بما يترك من أثر في أوهام الناس وفي أخلاقهم العامة ؟

يقول الأستاذ محمد حسن بك مدير الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى فى حديث له بالمصور مباهيا : لقد كان صافى أرباح الفرقة فى ١٨ شهراً ١٨ ألف جنيه ! فهنيئاً للفرقة المصرية هذا الثمن إن كان كل ما يعنيها من حساب الربح والخسارة هو أن تعمر خزائنها بالمال !

... ولم ألق صديقى عند باب الخروج لأجيبه جوابى ، فلعله كان يعرفه !

الدنيا ماشية كده !

... وكأنما نسيت ، كأنما نسيتُ ما سمعتُ وما شهدتُ ثمة ، فذهبتُ فى المساء التالى إلى مسرح الريحانى لأشهد رواية « الدنيا ماشية كده ! » .

ولنجيب الريحانى فنٌّ ومذهب ، قالوا : وله فلسفة وقصد صارم فى أسلوبٍ من الفكاهة يجلو صدأ النفس ويزيل الوحشة . وصدّقتُ ما قالوا !

والرواية من تأليف الزجال بديع خيرى ، قالوا : وبديع خيرى رجل مهذّب ، وله أزجال تدعو إلى الفضيلة وتحضّ على البر ، وقد شهدتُ له روايات . وقلت لنفسى : لعلى أشهد فى رواية « الدنيا ماشية كده » من أدب بديع خيرى ومن فن نجيب الريحانى ما يُنسينى بعض ما شهدت فى مسرح الفرقة المصرية « الرسمية » ويصحّح فى مرأى العين وفى وعى النفس ، صورتنا الحية ، وصفتنا العامة ، وخصيصتنا الذاتية ؛ وأرى الدنيا كيف تمشى ... ...

واتخذتُ مقعدى من الشرفة ، ورُفعت الستارة ...

معلم فى مدرسة حرة ، مؤمن بالمثل الأعلى ، صادق النية على النفع العام ، قانع من رزقه بالقليل ، لا يرى له واجبا فى الحياة إلا أن يعمل ، ولا حقًّا له على الناس إلا أن يعيش ... .

ولكنه على براءة نفسه ، وطهارة ذمته ، لم تزل تتكاءده عقباتُ الحياة يرتطم بها عقبةً بعد عقبة ، وهو ماضٍ على نيته فقيراً من المال ولكنه غنى بالفضائل ...

... ولا تزال الحياة ماضية به على وجهه وهو يقاوم حتى ينفد جهده ، فإذا هو طريد شريد لا مال معه ولا عمل له ؛ ويذهب يلتمس أسباب الرزق الحلال ، لا يطمع إلا فى قروش معدودة يُقيم بها نفسه على الحياة . وينفتح أمامه بابٌ فيلجه ، فإذا المال ، والجاه ، والحياة الرغدة ؛ ويُقبل على كل أولئك جذلان مغتبطا لا يكاد يصدق أنه يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ، ويغترف الغرفة الأولى من ذلك النهر الفياض ، فلا يكاد يُدنيها من فمه حتى يشم لها ريحا خبيثاً ، فينفض يده من ذلك كله ويولّى ظهره معرضاً عنه فى إباء ؛ إنه لا يريد الغنى ، ولا الجاه ، ولا السيادة ، إلا من الطريق الحلال ؛ إنه لا يريد أن يبيع شرفه بالمال ، تلك صفقة خاسرة ! ويقهقه الشيطان ساخرا ، ثم يقوده من يده مذهولا لا يكاد يعى ، فلم يزل يعرض عليه مفاتنه ، وينفث فى أذنيه من سحره ، حتى يخضع ويستكين ...

وغشّ ، ونصب ، ودلّس ، وصمت حين كان ينبغى أن يصمت ، وباع ضميره للشيطان ، واختبأ الشيطان خلف الستارة يحرّكه حيث أراد يمنةً ويسرة ، فلم يخالفه فى أمر ولا فى إشارة . وأقبلتْ عليه الدنيا متبرّجة فى أحفل زينة تخطب ودّه !

ومضت بضعة أشهر بلغ فيها مبلغاً لم يكن يحلم به ، فنسى ما كان ، وسعى إليه مَن كان يجفوه ، وتقرب إليه من كان يبرأ منه ، وتراءى تحت قدميه من كان يشمخ عليه ، وصار العالم الأريب الوسيم بعد الجهل والغباء والدمامة ، ولم يبق له فى الناس عدو ولم يكن له فيهم حبيب ؛ إلا شخصاً واحداً : ذلك معلم آخر ، كان مثله مؤمناً بالمثل الأعلى ، صادق النية على النفع العام ، قانعاً من رزقه بالقليل ، وجاءه يسعى بين الساعين بالثناء والتكريم ، يلحاه وينكر عليه ... ذلك رجل واحد !

وتعاقبت الصور على المسرح كما تتعاقب أحياناً فى الحياة ، مقبلةً ومدبرة ، وكان رأى الناس — بين إقبال الحياة

وإدبارها — مختلفا ؛ والعلم الثابت على إيمانه يشهد ، ويسمع ، ويرى ؛ وآمن إيماناً جديداً بما شهد وما سمع ورأى ، وأيقن أن هذه هي الحياة ، فكفر بما كان يؤمن ، وقال لصديقه الذي جاء يلحاه : هاك يدى ! وتمت الصفقة ، وصدق الشيطان على البايعة ، وانضم المجاهد الأخير إلى الحزب الغالب !

« الدنيا ماشية كده ! » : لا شرف ، ولا صدق ، ولا أمانة ، ولا إخلاص ، ولكن المنفعة حيث تكون وبأى وسيلة تكون : هذه هي القاعدة ! !

وقلت لنفسي وقد تخلصت من جو المسرح لأتنسم نسيم الحياة : أهذه هي الدنيا حقاً أم هي ألوان من الإيحاء بالمنكر والفاحشة ؟

ألا ليتني أدرى !

ألوان من الإيحاء !

وجلست الليلة إلى مكتبي وبين يدى صحائف منشورة فيها صور وفيها كلام ، ورأيتُ وقرأتُ ، فلم أزدد إلا حيرة ، ولم أجد سؤالي جوابي ...

وشوشت وبنى : كانا كذلك ؛ هكذا تصوّرنا الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى !

غش ، وتزوير ، وكذب : الحياة كذلك ؛ هكذا يقول الريحانى وبديع خيرى !

نساء بلا عفة ، ورجال بلا نخوة ؛ هذه هي الطبقة الراقية كما تصوّرها مجلاتنا وكما تصفها ! !

أهذا هو المجتمع المصرى الذى نعيش فيه اليوم ، أم هو المجتمع الذى يتعاون هؤلاء السادة من أصحاب المجلات وأهل الفنون على أن يكون ؟

قد تكون هذه الصور كلها صحيحة صادقة التعبير عن رجل وامرأة وأسرة ومجتمع ؛ ولكنها ليست صور نا جميعاً ، ولا صورة الكثير منا ، ولا صورة القليل ؛ فماذا يحرص هؤلاء السادة على التعميم في الوصف والإشارة ؟

إنهم مصريون جميعاً ، صادقو الوطنية فيما أزعم ؛ فماذا يحملهم على الإلحاح في التشهير بالمصريين على هذا الوجه الكريه ؟

أتراهم لا يفرقون بين الخير والشر ، ولا يقدرون نتيجة ما يصنعون ؟

أم نظنهم — كما زعم قائل منهم — يريدون إصلاح الفساد بإبرازه في أقبح صوَره تنفيرا منه ؟ فما أشبههم بمن يريد أن يزيل البقعة السوداء من الثوب الأبيض بتسويده جميعا !

إنه إيحاء ، إيحاء مقصود أو غير مقصود ، ليس له إلا نتيجة واحدة ، هي شيوع الفاحشة وتهوين الرذيلة ؛ وليس له إلا معنى واحد ، هو التشهير بالأمة وتشويه صورتها في أعين الأعداء والأصدقاء !

« قاف »

غمــــوض

جهلتُ فما أدرى أأنت خليقة
تحب فأرضى ، أم ستقضى فأبغض

أراكِ فتثنينى إليكِ يدُ الهوى
بعنفٍ ، ويحمينى الإباءُ فأغمضُ

وأطوى ضلوعى منكِ فوق عواصفٍ
من الشكِ تعلينى مراراً وتخفض

ففيكِ من الحسن النبيل شمائلٌ
ترفُّ على القلب الخلىّ فينبض

وفيكِ من القبح الأثيم خلائق
تهب على القلب الشجىّ فيمرض

كأنك داءٌ للنفـــوس وبلسمٌ
نصح به الألباب طوراً وتمرض

كأنك إنسانان ، برفق واحـدٌ
فيرم ، والثـانى يثور فينقض

كأنك من خلق مـلاك ومارد
فنفسـك للخيرات والشر معرض

على أفقها للمـــلائك مسبحٌ
وفوق ثراها للشياطين مربض

فأنتِ ابنةُ الدنيا ورثتِ غموضها
وكلنا كما عب، على الناس يفرض

علي عبد العظيم

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين – مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٠٩٩٢ / ٥٣٥٠٠

العدد ٢٧٥ — الثلاثاء ١١ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٣ — ٤ من أبريل سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

البـــترول الذاهب

للدكتور أحمد زكي بك

ما أسرع ما ينسى الإنسان . وما أكثر ما تُعين العادة على النسيان .

إن نعمة الله الكبرى ، نعمة الهواء ، ينساها المرء بما اعتادها ، فلا يذكرها إلا إذا هو شَرِق ، أو إذا أصابه داء فاختنق .

ونعمة الله الأخرى ، نعمة الماء ، لا يذكرها ذاكر ما دام على البحر الطامي ، أو تحت المطر الهامي . وإنما يذكرها من الناس رجل ضلّ في صحراء ، فعندئذ يتكشف له لأول مرّة معنى الماء ، حين يصيبه الجفاف في جسمه وفي حلقه وفي لسانه ، فعندها يتلمّسه من أنداء الصباح ، يلعقه على الحجر ، ومن فوق الصخور ، قطرات لا تكاد تبلّ لساناً أو تُرطّب حلقاً .

ولكن الهواء والماء ، وتربة هذه الأرض ، وشعاعة هذه الشمس ، من نعم الله البسيطة الأولى . وأمّ المُدرجات . وهي نعم أربع ، لا تكون الحياة إلا بها . من أجل هذا جعلها الله لا تُفقَد إلا أن يبدّل بهذه السنن القائمة سنناً أخرى .

يتجدد . فالهواء يذهب به الحريق ، ويذهب به تنفس الإنسان والحيوان ، وتنفس النبات ، ولكن لا يلبث أن يجود به اخضرارُ الزرع في وقدة الضياء . والماء قد يذهب به ريُّ الناس والحيوان ، واستقاء الزروع ، ولكن تعود به سحب تزجيها الرياح .

وهذه النِّعَم الأربع تكفي لا شك للعيش ، ولكنه عيش لا طراوة فيه ، ولا سرعة . فهو عيش بطيء ساذج كعيش آبائنا الأولين ، عيش إبراهيم وموسى .

وهذا العيش الحاضر ، هذه المدنية الحاضرة ، لم تقم على هذه النعم الأربع وحدها ، نعمة الهواء والماء والتربة والضياء . وإنما قامت على نِعَم ثلاث أخرى ، ليست في هذا الرُّخْص ولا هذه البساطة ، ولا في هذه السهولة وهذا التيسُّر . تلك نعمة الحديد والفحم والبترول . فهذه أسس المدنية الحاضرة . والمدنيات صنوف وأنواع . وهي أسسها كما هي كائنة ، وكما تُرجّى . وهي ليست بالنِّعَم التي لا تفنى . وهي ليست من النِّعَم التي إذا فنيت بُعثت من

الكثرة ، ومن التحصيل السهل ، بحيث نسى الناس أنها كأكثر الأشياء للفناء . ولقد دخلت هذه النعم فى حياة الناس ، وفى عادة الناس ، حتى لم يدُر بخلدهم أنه قد يكون يومٌ تنقطع هذه النعم فيه . فلما انطلق الصوت من أمريكا فى هذه الأيام ينذر بفناء زيت البترول ، لم يفهم رجل الشارع معنى لما يقولون . وصار الناس ، من غير الخبيرين ، بين مصدّق ومكذّب . وقال بعضهم إنها حِيَل الساسة . وقال بعضهم إنها حيل التجّار ، والواقع الحق أنها أسلوب الطبيعة فى العبث بالأفهام .

فالطبيعة تدع الجسم الحيّ ينمو ويبسط ويقوى ، حتى إذا استتم نماءً ، واستتم بسطة ، واستتم قوة ، جاءه الفناء من حيث يدرى ولا يدرى . وكذلك هى تفعل بالمدنيات ، وبهذه المدنية الحاضرة . فهى قد سهّلت لها سبيل الوجود ، ثم سبيلَ البسطة ، فسبيلَ القوة . ولكنه وجود موقوت ، وبسطة موقوتة ، وقوة موقوتة ، لأن بناء كل هذا على موقوت : على الحديد والفحم والبترول .

وهم إخوة ثلاثة ولدتهم الطبيعة . فهى أنجبت الحديد أولا . وطال بها العقم ، حتى إذا بلغ منها اليأس أو كاد ، أنجبت الفحم . ومضى الزمان فإذا بالفحم يخور ، وتتراخى آخرته على العهد ، فأنجبت الأمُّ ولدها الثالث : البترولَ . وقال الناس إن فى هذا الولد الثالث لعوضا للطبيعة عن ولدها الثانى إذا ما ذهب . وتربّص الناس بهذا الولد الثانى أن يذهب . فإذا بالثالث هو الذى تظهر عليه أعراض المرض وينذر بالفناء . ولكن ، أيّها كان الذاهب أولا ، فلا بد للسابق من لاحق ، والموت حق على الثلاثة أجمعين .

لو ذهب البترول ، كيف يكون حال الدنيا ؟

يكون حالها ما كان عام ١٨٥٩ . فسلوا الآباء ، وسلوا الأجداد ، وسلوا التاريخ كيف كان الحال عند هذا العام ، حتى وفيما تلاه من أعوام حتى ختام القرن الماضى .

فى هذا العام ، عام ١٨٥٩ ، خرق دْرِيك Drake الأرض أوّلَ خرقٍ ليبحث عن الزيت . كان هذا بمدينة بتوسفيل Titusville ، بمقاطعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة . وكان عمق الخرق الذى خرقه سبعين قدماً أو نحوها . ومن بعد ذلك العام زادت هذه الخروق عدداً ، وزادت عمقاً . أما العمق فقد زاد من سبعين قدماً إلى عشرة آلاف قدم . أما العدد فقد بلغ فى الولايات المتحدة وحدها عام ١٩٣٥ مبلغاً هائلا : ٣٤٠٠٠٠ بئر كلها تعمل وتنتج .

وقد بلغ ما أنتجته الولايات المتحدة من زيت البترول عام ١٩٣٥ — ٩٩٠ مليون برميل . والبرميل يحتوى عشر صفائح من صفائح الجاز العادية . وبلغ إنتاجها عام ١٩٣٦ — ١٠٨٩ مليون برميل . وفى هذا العام تبعتها فى الإنتاج روسيا ، فقد بلغ إنتاجها ١٩٣ مليون برميل ، أى ما بين الخمس والسدس مما أنتجته الولايات . ثم فنزويلا ، فقد بلغ إنتاجها ١٥٣ مليون برميل . أما رومانيا فكان إنتاجها ٦٦ مليون برميل . وتبعها إيران بـ ٦٢ مليون برميل . وبذكر إيران نذكر الأمم الشرقية الأخرى : العراق والبحرين . أما العراق فقد كان إنتاجه ٣٠ مليوناً ، أى نصف إيران . وأما جزيرة البحرين فـ ٣٫٦ مليون أى نحو ⅛ العراق . أما ألمانيا فأنتجت ٣٫٣ مليون برميل . وبذكر ألمانيا نذكر اليابان ، وقد أنتجت ٢٫٤ مليون برميل . والعالم كله أنتج فى ذلك العام ١٧٨٠ مليون برميل .

وقد بلغ إنتاج الولايات المتحدة ثلثى ما أنتجه العالم من الزيت . وهاك جدولا به ما أنتجت كل أمة منسوباً إلى ١٠٠ :

الولايات المتحدة	٦١٫١ ٪
روسيا	١٠٫٩ ٪
فنزويلا	٨٫٦ ٪
رومانيا	٣٫٧ ٪
العراق	٣٫٥ ٪
الهند الشرقية	٢٫٩ ٪
المكسيك	٢٫٣ ٪

العراق	١٫٧ ٪
......	....
بولندا	٠٫٣ ٪
كندا	٠٫٠٨ ٪
مصر	٠٫٠٧ ٪

ومصر تجىء فى الذيل ، وليست بآخر الذيل ، فإنتاجها فى ذلك العام بلغ ١٥٥٥٠٠٠ برميل .

والفرض المعقول أن ما ينتج من البترول إنما ينتج للاستهلاك ، وبقدر الاستهلاك . وقد جاءت الحرب بالألوف من الطائرات ، والألوف من الدبابات ، والألوف من السيارات ، مصفحةً وغيرَ مصفحة . وفيما وراء خطوط القتال جاءت الحرب بالعدد العديد من المكنات . وكل هذا يأكل الزيت أكلا . وكلما يزيد آبار الزيت إنتاجا ، ويزيدها استفراغا . والزيت إنْ كان سلاح الحرب ، فهو بعد الحرب سلاح السلم الأقوى .

من أجل هذا أخذت كل أمة تضع يدها فى جرابها تحسس ما بقى ويبقى لها من تلك المؤونة التى تغذى الحياة فى حربها وسلمها . ومن أجل هذا سمعنا النُّذر تترى تحذِّر عاقبة النفاد . وجاءت الصيحة الأولى من أمريكا . ولا عجب . فهى المنتج الأول للبترول ، وهى المستهلك الأول له . وصناعتها ومدنيتها واقتصادها أكثر استنادا على البترول من سواها من الأمم . وأرفقت صيحتها بخطوة عملية خطتها فى سبيل السيطرة على منابع أخرى خارج حدودها لتعوض على نفسها شيئا من الهبوط فى آبارها . وخطت هذه الخطوة ، على غير المألوف ، حكومتها . أم أنّ الحكومة الإنجليزية فى مثل هذا فى إيران سبقتها ؟ ! وعلى كل حال فقد طلعت حكومة الولايات على العالم بأنها نوت استغلال الشاطىء العربى للخليج الفارسى ، بما فى ذلك الحسا وجزيرة البحرين والسواحل العربية السعودية ، ونوت مدّ أنابيب البترول من شاطىء الخليج الفارسى إلى شاطىء البحر الأبيض ، وتتولى هى إقامتها ونفقتها . وحجتها فى ذلك تقلّص رصيد الزيت فى آباره فى الولايات .

والذى يعنينا من هذه الكلمة كم رصيد الولايات ، وكم رصيد الأمم . وهل حقا هذا الزيت ، مقوّمُ المدنية الحاضرة ومُزْجيها ، إلى نفاد ؟

إن الولايات المتحدة أنتجت ، فاستهلكت ، فى عام ١٩٠٠ نحو ٦٣ مليون برميل . وفى عام ١٩١٠ نحو ٢٠٩ مليون برميل . وفى عام ١٩٢٠ نحو ٤٧٣ مليون برميل . وفى عام ١٩٣٠ نحو ٨٩٨ مليون برميل . أما فى عام ١٩٤٠ فقد أنتجت واستهلكت ، أو استهلك معها العالم ، نحوا من ١٣٤٥ مليون برميل . ولا شك أن هذا الرقم زاد باشتداد الحرب القائمة .

فإذا أنت علمت أن مستهلك الولايات فى عام ١٩٤٠ هو ١٣٤٥ مليون من البراميل ، وعلمت أن مقدار ما حسبوا من رصيدها فى الأرض فى ذلك العام هو ١٨٤٨٣ مليون برميل . أدركت بعملية قسمة بسيطة أن هذا الرصيد لن يكفى أكثر من ثلاثة عشر عاما أو نحوها .

والذى يقال فى الولايات المتحدة يقال فى كل أمة أخرى .

فهذا هو جانب الصورة الأسود .

وللصورة جانب آخر أقل سواداً . فالزيت الذى يخرج من الآبار ليس كل ما فى الآبار . فالذى يخرج منها يقدَّر بخمس ما فيها ، والباقى يبقى فى رمال تلك الآبار ، فلا يكون سبيل إلا انتزاعه منها بالطرق المعروفة الحاضرة . فالعالم منذ اكتشف البترول إلى الآن حصّل من هذه الآبار ٣٥٫٠٠٠ مليون برميل ، ولا تزال يتخلف فى رمال هذه الآبار ١٠٠٠٠٠ مليون برميل . فهذا المقدار الهائل ينتظر ابتداع طرق جديدة ليفسح للإنسان فى بقاء المدنية أملا جديداً .

وعدا هذا ، فنى الولايات المتحدة مليونان من الأفدنة يُستحقَل البترول فيها . وأهل الفن يقدِّرون احتمال وجود البترول فى ١١٠٠ مليون فدان أخرى . ومعنى هذا أن البترول يحتمل وجوده فى مساحة أكثر قليلا من نصف أرض الولايات .

ولعل ما يقال من الولايات ستجيز البحوث المستقبلة قوله ، عن سائر الأمم التى بها منابع البترول .

أحمد زكى

ضغط الدم: بعض الحقائق عنه

هل ضغط الدم مرض؟

لا. ليس بمرض وإنما هو مقياس كقياس ضغط إطارات سيارتك، وكمعرفة وزنك أو عدد مرات تنفسك في الدقيقة، وهو ليس إلا وسيلة لمعرفة مبلغ متانة جدر الأوعية الدموية وقوة ضربات القلب وأمور أخر صغيرة. ولكل منا ضغط دم ولكنه يرتفع لدى البعض وينخفض لدى آخرين.

هل ينزل ضغط الدم إذا كبرنا؟

المعتاد عكس ذلك تماما؛ فهو يزيد كلما زاد عمرنا. فالمرء يولد وضغط الدم لديه منخفض ثم يتدرج في الارتفاع كلما ازداد سنه، وهو يرتفع في النهار وقت الظهيرة، ويعلو أكثر من ذلك في المساء. وهو يكون إذا وقفنا أو جلسنا أعلى منه إذا رقدنا، وهو أدنى ما يكون ونحن نيام — إلا إذا طرقنا حلم مزعج فمن شأن ذلك أن يرفعه دون أن يوقظنا.

هل ضغط الدم للشخص السليم يساوي عمره زائداً ١٠٠؟

قد يكون ذلك، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة؛ فهناك اعتبارات تجعل الضغط العادي للمرء يختلف عن ذلك بعض الاختلاف؛ فالرجل الوفور العضلات يكون ضغطه في العادة أعلى من ذلك، والرجل الوفور الجلد يكون ضغطه العادي أقل من ذلك؛ ولكل إنسان ضغطا دم يؤخذ أحدهما حين يضرب القلب بأقصى قوته، وهذا يقرب من عمر الإنسان مضافا إليه مائة، أي يكون ١٤٠ لمن عمره ٤٠ سنة، ويصح أن يقع في مدى بين ١٣٠ و ١٥٠ ويعتبر عاديا. أما الآخر فيؤخذ حين يسترخي المرء ويستريح القلب، ويكون في العادة أدنى من ذلك بكثير. والمألوف أن يقال للمرء أعلى قراءة لضغط دمه، ولكن الطبيب يستفيد من القراءتين ويرتب عليهما تقديره.

هل التنفس يؤثر في ضغط الدم؟

نعم. إذا حبس النفس ارتفع ضغط الدم كثيرا إلى أمد.

هل ضغط الدم مرض حديث ولدته الحياة الحديثة؟

لا. فقد كان ضغط الدم مع الناس منذ خلقوا ولكنه لم يعرف قبل سنة ١٧٣٢. وقد يكون من شأن ظروف الحياة الحديثة أن تزيد في ضغط الدم، ولكن ليس معنى ذلك أنه الآن أسوأ مما كان عليه منذ خمسين سنة ومائة سنة.

هل يشكو النساء من ضغط الدم أكثر من الرجال؟

لا. بل المعتاد أن يكون الرجال أكثر تعرضا لضغط دم غير عادي من النساء؛ فأكثر الرجال إذا جاوزوا الستين يصابون بتصلب الشرايين وهذا يرفع ضغط الدم، وقل أن تصاب النساء بذلك. ولعل ذلك سر من أسرار تعمير النساء أكثر من الرجال — وما يدرينا! لعل النساء هم عامل من عوامل ارتفاع ضغط الدم لدى الرجال!

هل ارتفاع ضغط الدم يورث؟

أراني مضطرا للتحفظ في الإجابة عن ذلك وإن كان يبدو أن ضغط الدم المرتفع ينتقل في بعض الأسر.

هل التغذي بالأرز يخفض ضغط الدم كما هو الحال لدى أهل الصين؟

كثير من الأمم الشرقية التي تعيش على الأرز تمتاز بانخفاض ضغط الدم، ولكن ذلك لا يرجع لنوع الغذاء، وإنما يرجع لطبعتهم من الحياة التي تجعلهم يهونون من أمورها ويتقبلون بهدوء نعماءها وبأساءها.

هل أكل اللحوم يؤثر في ارتفاع ضغط الدم؟

يتوقف ذلك على حال الكليتين؛ فإن كانتا سليمتين فلا يضير المرء أكل اللحوم ولا شأن لذلك بارتفاع ضغط الدم. أما إذا كان فيهما اضطراب فإن الامتناع عن اللحم بعض النظام الغذائي الذي يساعد على تحسين أحوال الكليتين.

هل التفكير يحدث تغييرا في ضغط الدم؟

نعم. كل مجهود فكري يؤثر بعض التأثير في ضغط الدم، ولكن التأثير الأكبر لا يجيء من التفكير، ولكن

تركيا الحديثة

« خرجت الامبراطورية العثمانية من الحرب العظمى أمة مهزومة ، منهوكة القوى ، مضعضعة الموارد ، مقطعة الأوصال ؛ فقدت ولاياتها غير التركية واحتلت جيوش الدول المتحالفة عاصمة بلادها وزحفت الجيوش اليونانية إلى الأناضول لتتم القضاء على ما بقى من كيانها . فى تلك الساعة الرهيبة الحرجة قام كمال أتاتورك بحركته الجريئة التى أنقذت الموقف وغيرت مجرى التاريخ ونفخ فى قومه روحاً استثار الكامن من عزائمهم وهممهم وغذى روح المقاومة تغذية أرغمت فطرد الجيوش المغيرة على بلاده وطهر أرض الوطن من القوى الأجنبية وكفل لبلاده استقلالا تاما اعترفت به الدول وجعل من هذه الأمة المهزومة أمة عزيزة يخشى بأسها ويخطب ودها . ولم تقف جهوده وجهود أنصاره من بعده عند ذلك بل كان نجاحهم فى وقت السلم أبهر وأروع ، فقد خلق من تركيا القديمة المفككة أمة موحدة الهدف منظمة الخطة حسنة الإنتاج تكاد تستغنى بمواردها الخاصة عمن سواها .

وقضى على ما بقى من ظل النفوذ الأجنبى فى شئون الاقتصاد وخطا خطوات واسعة فى إصلاح الأحوال الصحية ونشر التعليم وترقيته . وسيرهو ومن من خلفه دفة سياستها الخارجية بحكمة ومهارة فارتفع شأنها الدول وأمنت العدوان من كل الجوانب » .

● ● ●

لا يعرف الجمهور المصرى عن تركيا الحديثة إلا القليل . وقد يكون هذا القليل الذى عرفه مما صرفه عن تتبع أحوالها وتعرف ما صارت إليه أمورها فى السنوات العشرين الأخيرة ، وهى الفترة التى مضت منذ تم لها الفوز فى حرب الاستقلال الذى طردت به المغير على بلادها وطهرت أرض الوطن من الجيوش الأجنبية التى كانت تحتل عاصمتها .

جل ما نعلمه أن كمال أتاتورك طرد الخليفة ومحا الخلافة وأنه قضى على رجال الدين ونفوذهم وأنه حل الأوقاف المرصودة على التكايا وبعض المؤسسات الدينية وضمها لأملاك الدولة . وألبس الشعب القبعات الأوربية وجعل اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية ونص فى الدستور على أن حكومته لا دينية ، وترك الأفراد أحرارا فى أمور دينهم معتبرا أن الدين علاقة خاصة بين العبد وربه ، واستحدث قوانين جديدة تجرى عليها الأحكام بين الناس مستقاة من التشريع الأجنبى . وبدت فى كل تصرفاته نزعة قوية بارزة نحو صبغ بلاده بالصبغة الغربية وقطع كل خيط يربطها بالحياة الشرقية .

وهذا الذى عرفناه عنه ، كان تغييرا تنفر منه طباعنا ولا يتفق مع نظرتنا للحياة ، فكان من أثره أن باعد بيننا وبين الاهتمام بشئون تلك البلاد . ولم يحن الوقت بعد للحكم المادى على هذا التغيير وبواعثه وتبين مدى أثره فى عقائد الشعب وعقليته . على أنه إذا كان هذا الجانب من جوانب الانقلاب التركى الحديث مما لا يرضينا فقد يكون ثمة جوانب أخرى منه تظفر بإعجابنا وقد تكشف لنا عن حقيقة تلك النهضة والأسس التى تقوم عليها ، وتميط اللثام عن روح القائمين بها . وأعنى بتلك الجوانب النواحى الاقتصادية والثقافية وهى معايير أدل على النهضة من التغييرات الاجتماعية الشكلية التى قد لا تعدو أن تكون رد فعل متطرف لرجعية متأصلة وجمود مزمن بغيض .

فإذا أحدثت الجمهورية التركية الحديثة فى هاتين الناحيتين ، وعلى أية سياسة سارت فى أمور الاقتصاد والصحة والتعليم ؟

ورثت الجمهورية التركية عن الإمبراطورية العثمانية الذاهبة بلاد الأناضول ، ورقعة صغيرة بقيت من

من الوجدان ، كالهم والخوف وسرعة التهيج . وأكثر أنواع التفكير ملازمة لضغط الدم هو الأفكار المادية الرفيعة السائلة ، وأن شئت فقل الأفكار البليدة .

هل يرتفع ضغط الدم فى فصل الشتاء ؟

نعم . وهى حالة طبيعية لا خوف منها ، وكذلك يرتفع الضغط عقب الحمام البارد وإذا تعرض المرء لتيار هواء .

هل يؤدى ارتفاع ضغط الدم الى الحر ؟

كلا . بل الصواب عكس ذلك فالإفراط فى الشراب يرفع ضغط الدم ، وكذلك الإفراط فى شرب القهوة والدخان .

امبراطوريتها الأوربية ، فقنعت بهذا الحيز المحدود ، وقصرت طرفها عن التطلع للامتداد فيما وراءه ، واتجهت بكل قواها للاكتفاء به وبموارده ، ولاستغلاله لأقصى حد مستطاع .

وورثت عن الإمبراطورية العثمانية كذلك دروساً عظيمة النفع ، تعلمتها عما بذلت خلال العصور من مهج وأرواح وأموال ، وأهم تلك الدروس وأغلاها قيمة أن أخطر عوامل الانحلال في الأمة ، هو وجود النفوذ الأجنبي ، وأن مداخل هذا النفوذ هو الشئون الاقتصادية ، وأن فقر الشعب وجهله يجعلان منه فريسة سهلة للنفوذ الأجنبي ، وتربة خصبة لنشاطه الاقتصادي .

لهذا كان هدفها الذي تسمى إليه واضحاً محدوداً ، وغايتها التي ترمى إلى تحقيقها جلية بينة تتلخص فيما يلي :

أولا — استغلال موارد البلاد أفضل استغلال حتى تكفي نفسها بنفسها ضرورات الحياة ، وحتى تكفل لأبنائها مستوى لائقاً من المعيشة .

ثانياً — تشجيع الإنتاج فيما زاد عن حاجة البلاد ، والعمل على ترجيح الميزان الاقتصادي للبلاد بحيث تكون صادراتها أكثر من وارداتها .

ثالثا — القضاء نهائياً على كل نفوذ أجنبي مباشر أو غير مباشر ، بحيث لا تبقى أية مؤسسة اقتصادية أجنبية بالبلاد .

رابعا — اتخاذ كل الوسائل لتعليم الشعب ، وتبصيره بشئون بلاده . وبالضرورة لابد من العناية بالصحة باعتبار ذلك أساساً لكل إنتاج مثمر ، وعاملا هاماً لتقوية الشعب واكثار النسل وطمأنينة العيش .

فكيف اتجهت في تحقيق هذه الأغراض ، وما مبلغ ما كتب لها من النجاح .

هل استطاعت أن تكفي نفسها بنفسها .

يبدو أن طبيعة البلاد تجعل في الإمكان تنويع الإنتاج فيها ، فهي تتألف من أجزاء مختلفة الطبيعة متفاوتة في المناخ والتربة ، فيها الجبال والهضاب والسهول ، وفيها الجاف والرطب ، وفيها البارد والمعتدل ، وما يقرب من المناخ الحار . فهي قابلة للزراعة ، وقابلة لأن تزرع فيها محصولات متنوعة ، وهي غنية بالمعادن ، وفيها مصادر القوة ، ففي محصولاتها الزراعية ومعادنها وما فيها من مصادر القوة ما يهيء جواً ملائماً لانتعاش الصناعة بها ، وهي بحكم مركزها الجغرافي نقطة اتصال بين الشرق والغرب ، فمن السهل أن تقوم لها تجارة بين هؤلاء وأولئك ، إذا كان لديها ما تقدمه من المنتجات التي يحتاجون إليها ، وإذا سهلت وسائل النقل والمواصلات بينها وبينهم .

لهذا كان بالإمكان أن تحقق السياسة الزراعية توفير الأقوات للبلاد ، وتوفير المحصولات اللازمة لإمداد الصناعات المحلية بموادها الأساسية ، كما كان بالاستطاعة قيام نهضة صناعية منتشرة في مختلف الأجزاء تمد البلاد بما يتطلبه الاستهلاك المحلي من حاجات .

ولنكون فكرة أوفى عن ذلك ، نتناول كل جانب منها ببيان أكثر تفصيلا . ونبدأ بكلمة عن الزراعة .

تعتبر الزراعة المورد الأساسي الذي يعيش عليه أربعة أخماس سكان البلاد . والأرض الصالحة للزراعة أرض واسعة بالقياس إلى عدد السكان ، ولكن ما يزرع منها فعلا كل عام يبلغ إذا أخذنا بالإحصاءات الرسمية نحو ١٤ في المائة من مجموع الأرض كلها ، وتبلغ الأرض المخصصة للكروم والزيتون وغيرها من أشجار الفاكهة ١٫٥ في المائة ، وتشغل الغابات ١٢ في المائة ، وتبلغ المراعي ٦٠ في المائة ، ويبقى بعد ذلك ١٤ في المائة من الأرض بكراً لم تزرع بعد .

وأظهر الأقسام الطبيعية في تركيا هو الهضبة الوسطى التي تقع فيها أنقرة وقيسارية ، وأشهر ما تنتجه هذه الهضبة

الحبوب والماشية . وتعتمد الزراعة هنا على المطر ، ولهذا تزرع الأرض سنة وتراح سنة ، حتى تمتص الأرض كفايتها من الرطوبة .

ومجال الإصلاح هنا كبير . وقد سارت الحكومة خطوات واسعة فى هذا السبيل ، منها إنشاء مراكز تجريبية كفلت تحسين نوع البذور ، وأفلحت فى حمل كثير من القرى على استعمال تلك البذور ، وقد نشأ عن إدخال هذا التحسين زيادة كبيرة فى الإنتاج . على أن الخطوة التى ستحدث أكبر انقلاب فى ذلك هى تعميم استعمال الآلات الزراعية الحديثة المصنوعة من الفولاذ ، وستنشأ محطات حكومية لهذه الآلات فى مختلف الجهات يشرف موظفون على توزيع استخدامها بمختلف المزارع ، وتكون الخطوة التالية أن يترك أمر الإشراف عليها لنقابات التعاون بتلك الجهات .

كذلك تعنى الحكومة بأمر المراعى ، وهى ترجو بعد توفير الآلات الزراعية ألا يترك أمر المراعى لما ينبت فطريا من الحشائش ، بل أن تزرع تلك الحشائش ، ويعنى بها عناية خاصة . ونجحت مراكز البحث الخاص بأمراض الماشية فى القضاء نهائياً على كل خطر من هذه الجهة . وقد ازداد عدد الماشية ازدياداً كبيراً ، فبلغ عدد الرؤوس من أغنام وماشية أكثر من عشرين مليون رأس ، وأصبحت تربية الماشية مصدر ثروة للبلاد قابلا للزيادة والنمو ، كما نشأ عنها صناعات لمنتجات الألبان واللحوم المضغوطة .

ويلى الهضبة إقليم الغابات ، ويشغل ثمن مساحة البلاد ، وهو يكسو الجبال التى تكتنف الهضبة الوسطى من جوانبها الشمالية والجنوبية والغربية . والغابات مصدر ثروة للبلاد ، فقد كانت من قبل تستورد كميات من الخشب للوقود ، فخفض ذلك لأدنى حد ونظمت مواردها الخشبية بعد تحسين مواصلاتها . وتصدر تركيا كمية من الأخشاب اللازمة للبناء لمصر وسوريا ، كما تصدر لأوربا بعض أنواع الخشب الفاخر الذى يستخدم للصناعات الرفيعة .

والقسم الثالث هو سهل قيليقيا الذى يحيط بأطنة ومرسين وهو مقر الزراعة الضخمة المنظمة على قواعد رأسمالية ، والمحصول الهام فيها أو المحصول الوحيد تقريبا أن شئت هو القطن ، وهو عمد مصانع الحكومة القطنية فى قيسارية وأورفلى وملاطية والمصنع الخاص فى أطنة بالمادة الخام اللازمة لإدارتها .

والمزارع واسعة تقرب كل من نحو ألفى فدان وتستخدم فيها أحدث الآلات ، وأجريت فى المصانع الحكومية تجارب علمية دقيقة لاستنباط خير البذور ملاءمة وانتهت بتعميم بذرة كليفلاند .

وشرعت الحكومة فى عمل خزان على نهر سيحون وشق ترعة رئيسية طولها نحو خمسين كيلو مترا تخترق مركز الزراعة القطنية وسيكون من شأن ذلك بعد إتمام إنشاء الترع الفرعية والمساقى اللازمة توفير الماء اللازم للزراعة فى مستوى الأرض المزرعة وسيحدث هذا المشروع الذى يقدر تمامه فى سنة ١٩٤٥ انقلابا عظيما فى هذا الإقليم .

والقسم الرابع الشقة الساحلية وهى رقعة خصبة تمتد إلى جانب الشاطىء ، وتتنوع محصولاتها أكثر من الأجزاء الأخرى ؛ ففى الجنوب حيث المناخ حار يقرب من مناخ المناطق الحارة يزرع التين والأعناب والقطن والدخان وأجريت فى قيليقيا وإقليم هاتاى تجارب عن زراعة البن كما أجريت تجارب فى طرابزون على شاطىء البحر الأسود عن زراعة الشاى .

ويقول أحد الصحفيين البريطانيين فى سياق حديث عن تركيا :

تستطيع تركيا تصدير كميات كبيرة من الأعناب والتفاح والكمثرى والخوخ والمشمش والموالح واللوز والطماطم وبها أكبر عدد من أشجار الزيتون فى شرق البحر الأبيض وتستطيع مع زيادة العناية به وبعصر الزيت منه أن تكون من أكبر الدول التى تصدره أن لم تكن أكبرها جميعا .

أما شرق تركيا فقد ظل إلى أمد قريب أرض القبائل الرحل من الأكراد وغيرهم ، وقد اتخذت الحكومة الوسائل لإقرار هذه القبائل وكفالة المراعى الدائمة لها وإدخال الزراعة وأقامت مصنع اللحوم فى طرابزون ، ومصنعا لدقيق اللبن فى قارز كما شرعت فى إنشاء مصانع لتكرير السكر وساعد تحسين طرق المواصلات على حل كثير من مشاكل هذا الإقليم .

ومع أن التقدم الزراعى كان محدودا بالقياس إلى التقدم الصناعى فإننا نستطيع أن نقرر أن الحكومة لم تغفل أية جهة فى البلاد من عنايتها وأنها شجعت إنتاج المحصولات على اختلاف أنواعها وأنها زادت فيما زرع من الأرض فأصبحت نحو تسعة عشر مليوناً من الأفدنة سنة ١٩٣٦ بعد أن كانت حوالى عشرة ملايين سنة ١٩٢٧ . وتضاعف ما تنتجه من الحبوب والدخان ، وزاد ما تنتجه من القطن ثلاثة أضعاف ، وكانت زيادة إنتاج السكر أكبر من ذلك كله ، وعنيت الحكومة بهيئات البحث التى كان لها أكبر الأثر فى تحسين نوع الحبوب وتعميم بذور قطن كليفلاند ، ومكافحة الآفات التى تصيب الفاكهة والقضاء على الأمراض التى تصيب الماشية ونشرت الحكومة النظام التعاونى فى البلاد يشرف عليه من فوقه بنك زراعى متين وتتولى الشركات التعاونية الكثيرة التى عمت أغلب القرى إمداد الزارعين بالبذور والأسمدة والسلف الضرورية لهم . وتخزن محصولاتهم وأقراضهم بعض ثمنها وتولى تصريفها لحسابهم دون تعريضهم لما قد يقع عليهم من غبن بسبب حاجتهم الملحة للمال واغتنام صغار التجار تلك الفرصة لشراء المحصولات بأثمان رخيصة .

ومع هذا كله فإن الزراعة لا تكفى لتوفير العيش اللائق للزارع ولا يزال إنتاجها غير كاف وحده لحاجاته ، ولهذا جعلت الحكومة مراكز الصناعة منثورة فى الأقاليم ليتسنى للزارعين أن يعملوا بها حين لا تحتاجهم الزراعة وبهذا يضيفون دخلا جديدا إلى دخل الزراعة وفوق ذلك سيكون من أثر اتصالهم بالحياة الصناعية زيادة استنارتهم وحسن إدراكهم لمقتضيات الحياة الحديثة .

وتستفيد الحكومة من مدة التجنيد الإلزامى فى تثقيف هؤلاء الزارعين وتعليم الأميين منهم القراءة والكتابة والثقافة الوطنية الأساسية .

كما تكفل بيوت الشعب ما ينقصهم من أسباب التثقيف الضرورى بعد أن يعودوا . وهذا كله لمن فات منهم سن التعلم أما الناشئون ففى المدارس المختلفة ما يغنيهم عن ذلك .

على أنى أرى أن احتمالات التقدم الزراعى لا تزال كثيرة ولم تبلغ الجمهورية فى النهوض بالزراعة ما بلغته فى الصناعة ، وسنفرد للصناعة والصحة والتعليم مقالا خاصا .

●●●

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

مستقبل الأدب العربى

يكاد يعم الناس شعور بأن هذه الحرب — التى لم يكن لها مثيل فى التاريخ — خاتمة مرحلة من مراحل العالم ، تبدأ بعدها مرحلة جديدة تخالف الأولى فى نظمها وعقليتها وما إلى ذلك .

ومن أجل هذا أخذت كل شعبة تفكر فى شأنها ومصيرها وتضع الخطط لمستقبلها ، فى السياسة والمال والنظم الاجتماعية ، وعلاقات الأمم ؛ وغيرها .

فلننظر — على نمطهم وعلى بدع العصر — فى أدبنا العربى ما مستقبله ، وكيف ينبغى أن يكون ، وأى طريق ينبغى أن يسلك ؟

سؤال عسير ينبغى أن تتعاون فى الإجابة عنه أقلام مفكرى العرب وأدبائهم حتى يصلوا إلى منهج واضح ينفع الأدب فى اتجاهه .

فأول واجب على الأدب العربى — فى نظرى — هو أن يتعرف الحياة الجديدة للأمم العربية ويقودها ، ويجد فى إصلاح عيوبها ، ويرسم لها مثلها الأعلى ، ويستحثها للسير إليه .

وبعبارة أوضح ، إن الأدب العربى إلى الآن تغلب عليه النزعة الفردية لا النزعة الاجتماعية ؛ فالغزل والمديح والعتاب والرثاء والفخر والهجاء ونحوها كلها فى الأدب القديم نزعات فردية طغت على الأدب العربى ولونته اللون الذى نراه ، بل وكذلك فى العصور الحديثة تراجم الأفراد أو ترجمة الكاتب لنفسه أو تحليل الأديب لبعض الشخصيات أو روايات الغرام أو نحو ذلك كلها فى نظرى — أيضاً — من قبيل النزعات الفردية . وأرى أن الأدب العربى يجب أن يتجه من جديد — بقوة ووفرة — إلى النزعة الاجتماعية حتى يعوض ما فاته منها فى عصوره المختلفة حتى عصره الحاضر — للأدب نزعتان ومنبعان : أدب ينبع من النزعة الفردية والأدب العربى فيها غنى قوى ، وأدب ينبع من النزعة الاجتماعية والأدب العربى فيها فقير ضعيف ؛ ومستقبل الأمم العربية وحاضرها فى أشد الاحتياج إلى الأدب الاجتماعى ينهض بها ، ولكن ماذا أعنى بالأدب الاجتماعى ؟

أعنى به — فى الأدب العربى — نظر الأدباء إلى مجتمعهم الحاضر يشتقون منه رواياتهم ، وأقاصيصهم ، وشعرهم ، ومقالاتهم الأدبية ؛ ويصوغون منه فنونهم الأدبية . إن مجتمعاتنا مملوءة بالشرور الاجتماعية من عيشة أكثر الناس عيشة تافهة سخيفة ، وليس الناس هم المسئولين عن سوء وضعهم وسوء حياتهم بقدر ما هو مسئول عنها أولو أمرهم والقابضون على زمام التصرف فى شئونهم ؛ فلاح بائس ، وصانع مسكين ، وزوجية تعيسة ، وفقر ومرض ، واستعدادات ضائعة ، وكفايات لا تجد من يوجهها ، وأطفال لا تجد من يربيها ، وأقلية لا تجد ضروريات العيش ، ونفوس مستعدة لا تجد من يرقيها ، وعقول صالحة لا تجد من يفتحها ، ومئات ومئات من أمثال هذه النواحى تنتظر من الأدب أن يعالجها ويشرحها ويحللها ، ولا يقتصر على إعادة وصف ما هو كائن بل يرسم ما ينبغى أن يكون ، فى روايته التى يضعها ، وشعره الذى يصوغه ، وقصصه الذى يحكيه ، ومقالاته الفنية التى يحررها ؛ ولا يكون ذلك حتى يخرج الأديب من عزلته وينغمس فى الحياة الواقعية ويلمسها ويكتوى بنارها . وعلى الجملة يصبح عندنا أدباء هم قادة للرأى العام يبصرونه بموقفه ويطلعونه على مزاياه وعيوبه ويحركونه لغرض نبيل يتسامى إليه — بل هم إذ ذاك يكونون خيراً من المصلحين الاجتماعيين العلميين لأن هؤلاء علماء يبحثون عن الحقائق ، والأدباء فوق ذلك يلهبون بفنهم العواطف ، ففائدتهم أقوى وأثرهم أبلغ عما يبعثون من حرارة الفن ، وتهييج النفوس للخلاص من الشر والوصول السريع إلى الخير . إنهم يثيرون

الكراهية الموجود ، وعاطفة الطموح للكمال ، وهم بذلك يضيئون للناس حياتهم التعيسة التي يعيشونها ، وينيرون السبيل لحياة أسمى يعملون للوصول إليها .

وهـذا النوع من الأدب – ما دام الغرض منه الإصلاح الاجتماعي ، وقيادة الرأي العام وتنبيهه – يجب أن يكون أسلوبه سهلا واضحا جيلا جهد الطاقة ؛ لأنه لا يؤدي رسالته حتى يصل إلى آذان أكبر عدد ممكن في الهيئة الاجتماعية ، فإذا تأنقنا في أسلوبه وملأناه بالمحسنات الفنية ، وعلونا في التعبير ، انقلب الغرض من إصلاح شعوب وأمم إلى إصلاح عدد قليل من الطبقات الممتازة فقط . على أن القطعة الفنية في الأدب متى كان لها موضوع ، وكان لها قضية تكشفها وتؤيدها وتدعو إليها استغنت عن كثير من التجميل الأدبي ، والغلو في الاستعارات والكنايات والمجازات ؛ فإن هذه أشد ما يحتاج إليها عند خلو الكلام من موضوع قيم ، أو أفكار قوية سليمة .

ولست أريد أن أقول إن كل أدب عربي سيتجه في المستقبل هذا الاتجاه ، أو أنه ينبغي أن يتجهه فقط ، فلست أنكر قيمة أنواع الأدب الأخرى من شعر غنائي أو قصص تحليلي أو فن للفن أو نحو ذلك ؛ وإنما أريد أن أقول إن الأدب الاجتماعي يجب أن يكمل في الأدب العربي بقوة وغزارة لأن موقف الأمم العربية في الحاضر والمستقبل أشد حاجة إليه من أنواع الآداب الأخرى .

أطمع أن يكون لنا في الأدب العربي أمثال برناردشو في الأدب الإنجليزي وأناتول فرنس في الأدب الفرنسي وتولستوي في الأدب الروسي ؛ وأمثالهم ، ممن وقفوا أدبهم على خدمة المجتمع وإشعاره بعيوبه واستثارته إلى التسامي .

وهنا هو الأدب الأمريكي يحمل لواءه اليوم رجال مارسوا الحياة العملية في شتى شئونها ، ثم لم يكتبوا في خيال وأوهام وأحلام ، إنما يكتبون أكثر ما يكتبون في مشكلاتهم ومسائلهم اليومية وحياتهم الاجتماعية ، وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان وإنما يستوحون مجتمعهم وما فيه وما يصبو إليه . فللأديب العربي أن يستوحي امرأ القيس ، أو شهر زاد ؛ ولكن يجب أن يكون ذلك نوعا من الأدب لا كل نوع ولا هو النوع الغالب ولا هو الأرقى .

والذي أوقع الأدب العربي في هذا النقص أن الأدب ظل من ظلال الحالة الاجتماعية ، وللبيئة أثر كبير في تكوينه ، والأمم العربية قضت عهدا طويلا في دور قوي فيه الوعي الفردي ، ولم يقو فيه الوعي الاجتماعي ، شأن الأمم كلها . ولكن الأمم الحية قطعت هذه الدور ، وتعلمت الوعي الاجتماعي ، والأمم العربية لا يزال الوعي الاجتماعي فيها في حالة التكون لم يتم ولم يقو ، ومظهر الوعي الاجتماعي نجاح الجمعيات والنقابات والشركات والمؤسسات التي تنشأ من التبرعات ونحو ذلك ؛ فالوعي الاجتماعي يكون حيث يكون شعور افراد الأمة بعلاقاتهم وخيرهم واتجاه تفكيرهم وإراداتهم لخير المجتمع بجانب الشعور والتفكير والإرادة في أشخاصهم ، فإذ بدأ هذا الوعي الاجتماعي رأيت للأمة عادات وتقاليد وعرفا تراعى فيها مصلحة المجموع أكثر مما تراعى مصلحة الفرد ، ورأيت للفرد عواطف نحو أمته كعواطفه نحو ذاته ، فهو يسر للخير يأتيه ، ويتحمس للعمل ينفعه ، ويتألم من الشر يحيق به ، فكذلك تكون عواطفه نحو أمته ؛ وإذ ذاك يكون في الأمة قانون غير مكتوب ، ولكنه يراعى أشد المراعاة : في الاحتفالات والاجتماعات وفي مآسي الأمة ومسراتها ، وفي حروبها ، وفي شدائدها . وإذا نما الوعي الاجتماعي ظهر أثره في نجاح المشروعات الاقتصادية في الأمة ، وفي نظم الأحزاب السياسية ، وفي النقابات الزراعية ، والهيئات التعليمية ، وما إلى ذلك .

وتاريخ الوعي الاجتماعي في الأمة يرجع إلى وجود أفراد سبقوا زمنهم وكانوا قدوة لأممهم ، فشعروا بمجتمعهم

شعورهم بذاتهم ، وكانوا المثل الذى قلد ، والقدوة التى اتبعت ، ثم انتشر تقليدهم حتى كان من ذلك رأى عام واع وعيا اجتماعيا ، يغضب للظلم ، ويتحمس للعدالة ، ويتغنى بالحرية ، ويألم للفقر ، ويغار على كل ما يمس أمته ، ويخصص كل فرد جزءا من حياته لعمل اجتماعى وهكذا . ويقوم الرأى العام فى المحافظة على العادات الطيبة ، والعواطف النبيلة مقام الجيش والبوليس للحكومة .

وفى طبيعة كل إنسان وعى بذاته وشخصه ، ووعى بمجتمعه ، ولكنه فى الأمم البدائية ينمو الأول ويضعف الثانى ، لأسباب كثيرة — فى الأمم البدائية تصدر حتى الأعمال الخيرية ملاحظا فيه الفرد نفسه ؛ فالإحسان لدفع ألمه ، أو لشهرته أو لذكر اسمه فى الجرائد ، أو لتكفير سيئاته ، وفى الأمم الراقية الإحسان لإنهاض الفقير ، وتخفيف الويل عن المجتمع ، وفى الأمم الحية يشعر الماشى فى الشارع أن الشارع له وللناس ، والسينما له وللناس ، وخيرات البلاد له وللناس ، والأعباء لا بد أن يحمل منها ما يستطيع كما يحمل الناس ، ويلوّن بذلك تصرفاته وأعماله .

لست أريد الدخول فى تفصيل الوعى الفردى والوعى الاجتماعى ، وإنما يكفينى هذا القدر لبيان أن الأدب ظل لحياة الأمة فى هذا الباب ، فإذا طغا الوعى الفردى فى أمة كان الأدباء من هذا القبيل ، هم صدى للنزعات الفردية والوعى الفردى فقط إلا القليل النادر ، فنتاجهم الأدبى غزل وحب وغرام وروايات لتحليل أنفسهم أو لتحليل بعض الشخصيات ، أو قطع فنية لإثارة الشهوة الجنسية وحتى باب الأدب نفسه يرجع فى الأغلب إلى نصح الإنسان بصلاحيته كفرد لا كعضو فى مجتمع — وهذا مع الأسف هو الأدب العربى فى عصور طويلة إلى الآن تقريباً .

بل أبو العلاء المعرى نفسه وهو أكبر شاعر عربى نظر فى شعره إلى المجتمع وأبان سيئاته قد أفلح فى مقدماته ولكنه لم يوفق إلى النتيجة كما نرجو الآن . فقد نجح فى وصف سيئات المجتمع من ظلم الحكام ، وفساد المرأة ، وفساد رجال الدين ونحو ذلك ؛ ولكنه شرح ذلك ليخلص منه إلى أن المجتمع لا يصلح للبقاء، ولا يصلح لأبى العلاء، لأن ينغمس فيه . يقول أبو العلاء :

يسوسون الأمور بغير عقل ... فينفذ أمرهم ، ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف منى ... ومن زمن رياسته خساسه

فالمقدمة بديعة لطيفة وإن كانت فى حاجة إلى البسط والنتيجة ليست هى التى نريد فهى نتيجة يائسة وإنما الذى نريده أن يشرح هذه العيوب للدعوة إلى إصلاحها ، وإثارة النفوس للتخلص منها وإحلال المثل الطيبة محلها . نريد من الأدب إذا ألف مأساة «تراجيديا» ألا يقصد إلى شرحها وتحليلها فقط ولكنه يبين مسئولية المجتمع فيها ويثير النفوس للثورة على الخلاص منها ، وإذا ألف ملهاة «كوميديا» ألا يقصد إلى استخراج الضحك فقط من المثل ولكن ليستثير السخرية على من كانوا السبب فيها حتى لا تعود إلى الحياة ، وهكذا — وهناك أدباء من هذا القبيل تقرؤهم فتشعر أن عقلك اتسع ، وعواطفك سمت ، ومشاعرك بالإعجاب من الحسن أو الكراهية للقبيح حيث وتحمست ، وهذا ما نحن فى حاجة إليه .

إن الأمم الشرقية فى بدء عهدها بالوعى الاجتماعى ، فيجب أن يكون لها أدباء يدفعون هذا الوعى إلى الأمام حتى يكمل وينضج ، وهذا ما أتوقعه فى الأدب العربى القريب ، إن الأديب من هذا الطراز رسول أمته وهاديها إلى الخير ، وراسم أغراضها فى الحياة ، يدرك الحقائق قبل أن يدركها الناس ، ويشعر بها قبل أن يشعر بها الناس ، ثم يحرك عقولهم لإدراكها ، وعواطفهم للتحمس للعمل بها ، يشعر من أعماق نفسه أن له رسالة أن يرفع مستوى الناس ويدفعهم إلى حياة أسعد وعيش أصلح ، يجمع بين السمو الخلقى ، والسمو الفنى ، ثم يسخر فنه لخدمة ما يصبو إليه لقومه .

إذا تحقق هذا فى مستقبل الأدب العربى اعتدل مزاجه وكمل نقصه ، وجاوب ما فى الطبيعة البشرية من حب الذات وحب النوع معا .

وهناك آمال أخرى فى الأدب العربى أعرض لها فى حديث تال .

أحمد أمين

الخط العربي مزاياه وعيوبه

— ١ —

حاول الإنسان منذ عَقَل البيان ، أن يُبين عن مقاصده باللفظ والإشارة وأن يثبت معانيه في صُوَر أبقى من اللفظ تبقى ذكرى له حين الحاجة ، أو بلاغا لغيره ممن بعد عنه ، أو علامة على ما يريد أن يميزه من حيوان أو أرض أو متاع .

وقد فقه أسلافنا ضروب الدلالات ، وأبانوا حاجة الناس إليها ، واختلافَها في سدّ تلك الحاجة . قال أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين :

« وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الاشارة ، ثم العَقد ، ثم الخط ، ثم الحال وتسمى النُّصبة . والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات » .

وتكلم في كتاب الحيوان عن أنواع الدلالات ، وبيّن أثر الخط في الحضارة ، وقال :

« وليس بين الرقوم والخطوط فرق ، ولولا الرقوم لهلك أصحاب البزّ والغُزول ، وأصحاب الساج وعامّة التجار . وليس بين الرسوم التي تكون على الحافر كله والخف كله ، والظلف كله وبين الرقوم فرق ، ولا بين العقود والرقوم فرق ، ولا بين الخطوط والرقوم كلها فرق . وكلها خطوط ، وكلها كتاب ، أو في معنى الخط والكتاب . ولا بين الحروف المجموعة والمصوَّرة من الصوت المقطَّع في الهواء ، وبين الحروف المجموعة المصورة من السواد في القرطاس فرق » . وكذلك جعل من الخط كلَّ رسم في الأرض كخط الحازى والعرّاف والزاجر .

ومن أسباب النقش والكتابة وأنواع الدلالات الباقية على الزمان حرصُ الإنسان على تخليد ذكره ومدّ عمره بآثاره . وكما كان خوف الموت حافزا إلى كثير من العلوم والصناعات كما قال المعري :

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهلَه
وعلّم نوحاً وابنـــه عمل السفن

كان خوف النسيان بعد الموت داعياً إلى البناء والنقش وأصناف من الخطوط والأنصاب .

ويقول الجاحظ أيضا :

« وكانوا يجعلون الكتاب حفرا في الصخور ، ونقشا في الحجارة ، وخلقة مركبة في البنيان . فربما كان الكتاب هو الناتيء ، وربما كان الكتاب هو الحفر ؛ إذا كان تاريخا لأمر جسيم أو عهدا لأمر عظيم ، أو موعظة يرجى نفعها أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره أو تطويل مدته كما كتبوا على قبة غُمْدان وعلى باب القيروان ، وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المُشقَّر وعلى الأبلق الفرد ، وعلى باب الرُّها ، يعمدون إلى الأماكن المشهورة ، والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ، وأجدرها أن يراها من مرّ بها ولا تُنسى على مر الدهر » .

حاجة الإنسان إلى البيان ، وحرصه على الخلود كانا سبباً لضروب الكتابة والنقش . وقد مرّ البشر بأطوار كثيرة تلائم إدراكه وحاجته حتى بلغ ما بلغ في عصرنا هذا .

ولا زال بعض الناس في عصرنا يتوسلون إلى البيان بوسائل الجماعات الأولى ، قبل أن يهتدي الناس إلى الكتابة ، ولا زال الناس يَسِمون الحيوان ، والمتاع ، ولا يزالون يحسبون بالعُقَد وبالحصى والأصابع ونحوها .

وقد قرأنا عن ناس في أستراليا يستعينون على تأدية الرسائل إلى البعيدين عنهم بعصاً تسمى « عصا الرسول » : يتأهب الرسول لتلقي رسالته ، ويؤتى بعصا . ثم تلقى الرسالة بينا تحز على العصا حزوز مختلفة يتخذها الرسول تذكرة . فاذا بلغ المرسلَ إليه خلا به وأدى الرسالة ناظرا إلى حزوز

العصا . وبيّن أنه إذا تعددت الرسالات تتخذ تلك الحزوز معانى تقرّ بها من الكتابة .

وقد عرف كذلك من سكان أمريكا الأصليين دلالات مختلفة لأنوال مستعملة بينهم . يدلون — مثلا — على عدد الحيوان المبيع بخطوط تساوى العدد تنتهى بصورة الحيوان ، ويدلون على الثمن برسم دوائر تدل على السكة « النقود » .

وقد قتل رئيس هندى اسمه القباء الأحمر سنة ١٨٠٧ فسجلت الواقعة بتصوير قباء أحمر تخترقه سهام ويسيل منه دم . ودلّوا على المجاعة بصورة إنسان بارز الأضلاع ، وعلى الحزن بتصوير وجه أو عين يسيل منه الدمع . وقد وقعت معاهدة بين جماعة منهم وقائد أوربى فقدّم إليه حزام نظمت فيه أصداف وفى وسطه صورتان تتصافحان » الخ .

فهذا وكثير مثله بقية مما حاوله البشر للبيان منذ انتظمت جماعاته وتفاهمت .

وهكذا نشأت الكتابة فى الأمم القديمة : كان المصريون ، والبابليون ، وأهل الصين يدلون على المقاصد بالصور ؛ فكانت الصورة تدل على المعنى بغير لفظ . ثم دلت الصور على ألفاظ أو مقاطع . ثم انتهت الصور إلى الدلالة على الأصوات المفردة فكانت الكتابة الحرفية التى نعرفها .

٢ — الخط الفينيقى

مهما يختلف الباحثون فى الخط الفينيقى أخترع فى الشام مستقلا غير متأثر بغيره أم كان الخط الآشورى أو المصرى أثّر فيه ؛ فلا خلاف بينهم فى أن الفينيقيين استعملوا خطا هجائيا عرفت منه آثار ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد وأن استعمالهم له ينبغى أن يكون قد سبق هذا التاريخ بحقب طويلة ، وأن هـذا الخط إذا قيس بالخطوط الصورية القديمة أو الخطوط المقطعية التى نشأت عنها ، عدّ فتحا عظيما فى الحضارة ؛ فقد أغنى اثنان وعشرون رمزا صغيرا عن مئات الصور بل آلافها التى كانت مستعملة عند الأمم الأخرى ، وكان لهذا فى الحضارة أثر يشبه اختراع الحروف المنفصلة فى الطباعة . كان بعض القدماء يطبعون بقوالب ، فلما اخترع جوتنبرج الحروف المتحركة فتح هذا الفتح العظيم .

ولا يختلف الباحثون كذلك أن هذا الخط الفينيقى هو أصل الخطوط الأوربية كلها وأصل الخطوط السامية جميعها ، ومنه أخذ الخط السنسكريتى ، والخط الفهلوى ، والخط الذى كتب به بعض اللغات التركية فى جهات سيبريا ، وهو الذى يسمى خط أورخون كما أخذ منه الخط التركى الآخر المسمى الأيغورى . وليس يهمنا فى هذا المقام ولا يمكننا ، أن نبين تطور هذا الخط فى أيدى اليونان حينما أخذوه من الفينيقيين ، ولا كيف تطور فى الكتابة اللاتينية والكتابات الأوربية الأخرى ، ولا كيف أخذت منه الخطوط السامية المختلفة ومنها الخط العربى . فذلكم بحث طويل شاق لا نحتاج إليه فى هذا المقام ، ولكنى أكتفى بما نحتاج إليه لاطراد بحثنا .

الخط المصرى الهجائى الذى تطورت إليه الكتابة المصرية كان مؤلفا من أربعة وعشرين حرفا لا حركة فيها ، والخط الفينيقى الذى تفرعت منه الخطوط التى ذكرتُ مؤلف من اثنين وعشرين حرفاً لا حركة فيها . ولما اتخذ اليونان الكتابة الفينيقية وجدوا فيها من الحروف أكثر مما يحتاجون إليه — وأريد بالحروف كل ما عدا الحركة مما يسمى بالاصطلاح الأوربى : "Consonent" — فحولوا بعض الحروف الزائدة إلى حركات ؛ حولوا الهاء إلى e والعين إلى o والحاء إلى ē والواو إلى u .

وكتب اليونان الحركات مع الحروف وسار على نهجهم فى هذا كل الأمم الأوربية .

ولكن الأمم السامية كلها لم تكتب صور الحركات فى خلال الكلمات مع صور الحروف إلا الحبش فى الطور الثالث من كتابتهم كما يكتبون اليوم . وسنعود إلى هذا بعد .

وأقدم ما كشف عنه البحث من الآثار المكتوبة بالخط الفينيقى يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد . وهو حجر

في المـــرآة

[من آيات البيان للمغفور له الشيخ عبد العزيز البشرى]

كان المغفور له الشيخ عبد العزيز البشرى عضوا كريما من أسرة كتاب الثقافة ، كما كان علما من أعلام الأدب العربي ، وإذ كان القراء قد حرموا نفثات قلمه الجديدة فإنا ننشر قطعة من آثار قلمه الباقية على الدهر في مناسبة ذكرى وفاته التي وقعت في يوم السبت الثاني الخامس والعشرين من شهر مارس .

في حضرة الرئيس (سعد)

ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر . لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلا عظيما ما استطاع ، وهيهات لامرىء أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه ، فكان طالبا عظيما ، وكان قاضيا عظيما ، ثم تناهت إليه زعامة أمة ، فهو فيها ملء السهل والجبل .

بحسبك أن تراه لتعرف أنه سعد ، ولو لم يومىء إليك أحد بأنه سعد ، وكيف يختلط عليك أمره ، وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بأنه ، وإن كان من الناس ، إلا أنه أعظم الناس .

بسطة في العلم والجسم ، بسطة في العقل والحلم ، وعزم تزايل الجبال دون أن يتزايل ، ويقين تتحول الأرض عن مدارها ولا يتحول ، ومنطق يصول في الجلّى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيوفها وعواليها ، ويلطف في السمر حتى لتتمثل أسراب الكواعب وَتَشوّفتْ حليُّها وتضوعت منها غواليها .

وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له في البيان ، وأمكنه من نواصي الحجة كما فسح لسعد ومكّن لسعد . ولقد تتقدم عباراته في الأمر تظن أنك قد بلغت منه الغاية ، ووقعت على الصميم ، وتمنعت منه بالحصن القوىّ ، فما هو إلا أن يرسل عليك الحجة حتى ترى أنه ملك الرأى عليك من جميع أقطارك ، وأنك سُرعان ما وقعت أسيرا في يديه تتقلب فيهما تقلبا ، وهيهات لك الخلاص إلا أن تنزل من أمرك على الإذعان والتسليم .

وأنى أنسى لا أنسى ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشارا كان في محكمة الاستئناف ، معروفا بشدة الجدل ، في مسألة فقهية ، وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار إلى غيره ، حتى إذا ظن أنه تمكن في أفحوصه ثار عليه بالحجة فوثب إلى سواه ، وما زال به

كشف في زنجرلي من شمال سورية . وهو نقش فيه أحد عشر سطرا وفي زاويته اليسرى العليا صورة الملك كلمو أحد ملوك الكنعانيين في ملابسه الحربية .

والظاهر أن مبتكر الخط الفينيقي استعان بالصور ؛ ولكنه لم يضع الصورة للدلالة على المصوَّر ولا للدلالة على لفظ أو مقطع كما نجد في تاريخ المصرية والأشورية بل رمَز بصورة الشىء للحرف الأول من اسمه . فدل بصورة البيت مثلا على الصوت الأول من كلمة بيت وهو الباء ثم اختزلت الصور . ولا تزال أسماء الصور بيّنة في أسماء الحروف السامية . ولا تزال الصور الأولى واضحة في بعض خطوطها : الألف ثور ، وبيت (باء) بيت ، وجمل (جيم) جمل ، والدلت (دال) باب ، وواو وتد ، وزاين (زاى) سيف ، ويود (ياء) يد ، وكاف وكاف كفّ ، وميم ماء ، ونون ثعبان (نحن) ، والسين سمك ، وعين عين ، وفى (فاء) فم .. وريش (راء) رأس ، وشين سنّ ، وتاو (تاء) علامة الخ ...

ولا تزال صور هذه الأسماء واضحة في كثير من الحروف السامية ولا سيما الخط السينائى الذى كشف في بادية سيناء . وفيه تظهر صور رأس الثور والبيت والكف والسمكة والعين واضحة في علامات الحروف : ألف ، باء ، كاف ، سين ، عين .

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

صدراً من الليل ينشره ويطويه وينقله من رأى إلى رأى ، ويحوله من قول إلى قول ، حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل لحوار ولا جدال !

ولا أدرى أكان ذلك من سعد مجرد تهدٍّ للرأى ، وتعقب لموطن الصواب ، أم أنه إنما كان يتلعب بالرجل تلعباً ليزله على معرفة قدره ، فى نفس ذلك المستشار غرور ، وفى أنفه ورم ! أم هى المخيلة تبعثها فى النفس شدة التمكن من النفس ، وإنه ليلذ لها أحياناً ألا تمتعك بذلك الواقع الذى اطمأنت به ، والحق الذى استرحت إليه ، فما هو إلا أن تصول بالحجة عليك حتى ترى أنك إنما كنت تقبض على الهواء ، وأن صرحك الذى أقمته تفرق عنك تفرق الهباء ، فتتولى متخذلا عن يقينك وقد ضربك الشك : أكنت مخدوعاً عن الواقع ؟ أم أن هـذا الواقع دون فوه سعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء ؟ لا أدرى يوماً ماذا كانت إربة الجبار ، والله أعلم .

وسعد قد علت به السن وشاب رأسه ، على أنه ، بسط الله فى عمره ، ما زال يمرح من فطنته القوية فى أفق الفتوة ، وأمرع الشباب . ولو كتب لك الظفر ساعة بمجلس هذا الذى دوّت الدنيا كلها بمجده لنعمت بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طبع فى عذوبة مجلس ، وحديث كأنه قطع الروض رف آسه ونسرينه ، وتضوع ورده وياسمينه ، وبديهة كأنه يقرأ منها فى كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب ، ونادرة تشيع فيك الطرب ، وتهزك من إعجاب ومن عجب ، إذ هو فيما يرسل من القول ، فى جده ومزاحه ، لا يعدو ما ينبغى له من تحشم ووقار .

وإنه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يفرخ روعك ، ويفسح لك فى جوانب القول لتقول ، وإنه ليباريك فى منزعك ، ويدارجك فى حديثك إلى أن يرسلك على سجيتك ويسترسل معك ، حتى إذا ما اطمأنت إليه وظننت أنك فى مساجلة رجل مثلك ، خانته عبقريته ، فوثب به ذهنه إلى ما لا يتعلق به ذهنك ، فإذا أنت قد طرت كل مطير ، وإذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه إلا أن تشعرك أنك فى حضرة سعد زغلول !

يالله هذا الرجل ! وإنه ليعرض فى الأمر فيقول فيه مقالا ، وإنك لتقرر بادىء الرأى غاية ما تعاهد الناس من حجة ، وأقصى ما تعارفوا من دليل ، فإذا هو قد وقع فى تدليله على ما لم تقع عليه ظنون الناس ، وارتفع إلى ما تتعلق به أذهانهم ففتح فى المنطق فتحاً جديداً وأتى بما يبهر ويروع ، وكيف لسعد ألا يرتفع على مذهب حجة الناس ، وقد رفعه الله على الناس ؟

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بأنه إنما يتحدث على آمال أمة ، فهو مهما بارى الجلس فى فنون أحاديثه ، ومهما تدلى به السمر إلى تلك الأسباب الدائرة بين النـاس ، يرفه بذلك عن نفسه وعن صحبه ، يطفر الفينة بعد الفينة إلى حديث الوطن فيشك فيه معنى جليلا ، ثم يعود فيصيب ما شاء الله من حديث القوم . أعلمت أن سعداً لا يصلح إلا للوطن ، وأن الوطن لا يصلح إلا بسعد ؟

أريد أن أكتب عن سعد ، ومن الغرور أن أظن بقلمى الوفاء بوصف سعد مهما تفرج فى جوانب البيان ، فإن البيان إنما يجرى فى غايته إلى ما تعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك النفحات الإلهية التى يرسلها الله تعالى فى العصور الطوال ثنياً بعد ثنى ليقبل أهل الأرض القبلة ، ويهديهم من الضلة — فذلك ما تعجز عنه اللغى ويقصر من دونه البيان .

وبعد فإذا أردت أن تصف للناس سعداً فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعانى مالا يبلغه الكلام ، وإن قدرته العقول وتعلقت به الأفهام .

حكم فى الجنحة ٩٦ عسكرية عالية سنة ١٩٤٣ بتغريم زكى حسين قناوى ٥٠ جنيه والنقد والتعليق والغلق والمصادرة لبيعه زيت بأزيد من السعر المحدد .

فى الذكرى الألفية
لأبى العـلاء

أظلتنا الذكرى الألفية لميلاد حكيم العرب وأعظم شعرائهم غزارة فكر ومادة لغة وعمق روح ، وتقلب رأى ، وأقربهم إلى موضوعية الشعر ، وأبعدهم عن شعر المناسبات : أبى المعرى « المثّال » اللغوى الذى نحت من كل مادة من مواد اللغة العربية تمثال بيان لمعنى من معانى نفسه وما أكثرها !

أظلتنا ذكرى ميلاد ذلك الروح الذى قضى حياته رهين أحباسه وسجونه التى أغلقتها عليه نكبات الطبيعة وتشاؤم المزاج ، وظلم الإنسان ، وحسد الأقران ، وفساد النظم السياسية ، ورياء كثير من رجال الدين ، وانحطاط الخلق ، وزهده فى الاشتغال بصغائر الدنيـا التى تصرف النفس عن التفكير فيا لا يقين فيه هنا ، ويقظته لنفسه وخواطره وتقليبه فكره فيا خلق الله من شىء ، وإرهاف شعوره ، وكبته العنيف لشهواته ، وحمله نفسه على الحرمان المطلق من أكثر طيبات الدنيا ، وتفرده وعزلته التى جملته شديد الحياء ، وحشى الطبع يأنس بالصمت والسكون والبعد عن الناس ، ناسيا نصحه للناس :

إذا ما عرانا كم حادث فتحـــدثوا

فإن حديث القوم ينسى المصائبـا

أجل لقد عاش هذا الروح لا رهين محبسين اثنين كما لقب نفســه ، بل رهين هذه الأحباس والسجون التى لا يفلت منهـا شىء ، حتى أطلقه الموت وأطلق شعره وخواطره ، وحررها من ملابسات الزمان والمكان ، ومن عقابيل الفقر وشدة الحياء ورقة الإحساس ، فإذا بهـا خواطر من الطبقة الرفيعة من الأدب الروحى الثائر على قيود الأرض وأوضاع الاجتماع . . . الأدب الذى يثير الفكر فى القضايا التى ما جاءت الإنسانية للأرض إلا لتحتك بها عقولها ، وتعمق بها قلوبهـا ، حتى تحتوى معانى الحياة احتواء ضنين بها ، أمين عليها ، يقظ لأسرارها ، الأدب الذى تغذيه المادة اللغوية الغزيرة والتعبير الجميل ، والتاريخ المستوعب لدقائق الحوادث والأشخاص فى بلاد العرب وغيرها من أمم عصره ، وفلسفة المتأملين ، وعلم العلماء ، وكهانة الكهان ، وحديث المنجمين ، وتأويلات المتصوفين ورموز الرامزين .

وإننا بعيشنا معه فترات فى ظلال هذه الذكرى سنثير المسائل الذهنية والقلبية التى استبدت بخواطره ، وقضى فى معالجتها والإدمان عليها أكثر من أربعين سنة وهى المدة التى سجن فيها جسمه فى بيته ، وأطلق خواطره تدور حول الإصلاح فى البلاد والعباد ، وتبحث فيا تلقاه من مواريث الفكر والدين والعلم والاجتماع والسياسة والأخلاق ، ثم تسجل وهى الساعة ببيان أجاد التعبير والتصوير لأخفى خوالج النفس البشرية ، وأدق ملامح الحياة الاجتماعية ، وأعنف ملاحم النفس مع الطبيعة ، وأشد معارك العناصر والأخلاط فى الأجساد والأرواح . فكان فكره مجهرا ظهرت به جوانب خافية لم يكن يراها الناس قبله ، وكان خياله وصنعته البيانية من خالقات الصور الذهنية التى تضاف إلى الكائنات المنظورة والمحسوسة فتعمر جوانب الأحلام والتهاويل فى النفس الحائرة الظامئة المتمردة على قيود التجسيم والتشكيل ... مما يجعل فكر قارئه يلتقى بكثير من صور الحياة كما هى ، وكثير من صور الحياة كما يجب أن تكون عليه فى رأى فنان حكيم كأبى العلاء .

وإنى لأتمنى أن يخرج ديوانه — اللزوميات — إخراجا فنيا تتعاون فيه الطباعة الجيدة والتبويب الموضوعى والتصوير الفنى لكل لوحة من اللوحات التى يعرضها ، والتخييل المهوّل لكل معنى ورمز ألم إليه خياله الجوال المتعمق ، فإنه يعرض لوحات عامرة بلمض الحياة كالجمال والقبح ، والإيمان والكفر ، والظلم والعدل ، والصلاح والفساد ، والإخلاص والرياء ، وكل شىء فى دنياه ، وفى دنيا الناس .

وإن ديوانه هـذا لأحق ديوان عربي أن تحشد له الجهود الفنية والعلمية لحذف فضوله ، واختصار معانيه المكررة ، وشرح غوامضه ومقابلة آرائه ، وبيان مناقضاته وتناقضاته ، وتصوير لوحاته ورموزه من مهرة المصورين المثقفين الذين يستطيعون الرجعة إلى دنيا أبي العلاء ، والتسلل إلى نفسه ... وإن حياة المعرى وحده صورة مثيرة موحية تستحق الإخراج والتمثيل ... فما بالك بدنيا أفكاره الزاخرة التي حشرها وعرضها في ذلك الديوان الكبير الذى لا تكاد مقطوعة من مقطوعاته تخلو من لفتة ذهنية من لفتاته ذات الطابع الخاص .

فإلى أكبر أصدقاء أبي العلاء وخدام أدبه ، الدكتور طه حسين بك يساق هذا الرجاء ...

وأنا لست من رأى أبي العلاء في كثير مما ذهب إليه في الفكر والحياة التي أعتقد أن الإقبال عليها والاعتقاد بصدقها ، والمقاربة إلى غاياتها الظاهرة ، والاستسلام لقوانينها وأحكامها أولى بالفيلسوف من رفضها وتكذيبها والباعدة من غاياتها ، والتمرد على أحكامها وطبائعها مادمنا ندخلها بغير اختيار ونخرج منها بغير اختيار ... وقد دل الاستقراء على أن الرفض والتمرد في كل شأن من شئون الحياة الثابتة لم ينتج إلا نتائج مبيرة مضيعة لبقايا الصلاح التي يبقيها الفساد .

وليس من الحكمة فتح كل حجرات الفكر والقلب وحمل الحياة على ما فيهما من آمال السعادة والكمال . وإنما الحكمة أن تبقى على بعض الحجرات مغلقة ، لنلجأ إليها حين نفر من معارك الحياة ومضايقاتها طلباً للاستجمام والاسترواح ... وهذه الحجرات التي تعمرها آمال الكمال والصلاح ليست مما هنا .. ليست من عالم النقص والفساد . وإنما هي مما وراء الحياة المؤقتة . وهي عندى دليل على أننا مخلوقون لعالم كامل ننزع إليه دائماً ، ونقيس حياتنا هنا بما يتراءى لنا من مقاييسه ، وإلا فمن أين لنا هذا النزوع إلى الكمال الذى لم نتمتع به لحظة في دنيانا ؟

وإن الثورات التي جنتها الإنسانية الثائرة مع الحياة وقوانينها ، الصابرة تحت أحكام واجباتها وأعبائها ، الباحثة عن وسائل تحقيق آمالها في دءوب ومثابرة برغم نكسات الخيبة والارتداد ، العامرة القلب بالأمل في مستقبل أسعد وحياة أكمل ، لدليل أعظم دليل على أن أخذ ما تعطيه الحياة وتسمح به أولى من رفضه ، وأجدى على الفرد والجماعة والحاضر والمستقبل .

ولا يليق بالفيلسوف أن يلقى كلمته النهائية في الحكم على الحياة ما دام لم يشهد من روايتها الفصل الأخير الذى تتضح فيه فكرتها وتنحل عقدتها .

من يدرينا بما هو آت في طويل الآباد ؟ إن الليالي مثقلات يلدن العجائب من حياة هذا الإنسان . وعمر أحدنا لا يوازى من عمر الزمان برهة .. والعالم العظيم الذى نرى جزءاً ضئيلا من سطحه في السماء لا يليق بعقولنا وليدة الأرض الضئيلة أن تتصدى له الآن بحكم من الأحكام إلا ما يبيحه العلم المحدود .. فلماذا نقبض اليد من العالم الكبير ، واليأس من اكتشاف مخبآته وهتك الأستار عن مكنوناته ، مادامت الشمس بحمد الله تثب وتطلع مشرقة الوجه باعثة الحرارة مجددة الفصول ، رافدة عوامل الحياة والنماء ، آتية كل يوم بجديد من علم الإنسان ؟ لماذا أيها الفلاسفة الحكماء تتعجلون إصدار الأحكام ؟ ألأنكم ستموتون وتقبرون سريعاً تريدون تعجيل كلماتكم وإلقاء حكمكم على الحياة في أبدها الآتى ؟

إن العقل والإنصاف يقضيان بانتظار النهاية ... وما يضيرنا أن نمضى بدون حكم ما دمنا لم نحصل على «حيثيات» ، وما دامت ذرياتنا تأخذ عنا ميراث المجهولات قرناً بعد قرن ، وتسقط منه مجهولا بعد مجهول ، تدخله في رحاب المعلوم ...

الأمل في المستقبل هو عدة حياة الفرد .

والأمل في المستقبل هو عدة حياة الإنسانية ... القانون واحد !

فلا يغرنك فيلسوف منحرف المزاج متشائم الطبع متمرد الروح ، آراءه المنحرفة المتشائمة المتمردة

الإنسانية جميعها ، ويحاولُ أن يحول مجرى تاريخها … فإنه لن يظفر بطائل من أبناء الحياة الذين يعرفون وجه أمهم واضح القسمات ، وينكرون وجه كل متمرد عليها من المتكلمين ولو سحروا ببيانه إلى حين .

ولكني مع ذلك من المعجبين بأبي العلاء ، المعتقدين بصدق توجهه إلى ما ذهب إليه ، ومن الملتمسين لتضارب أقواله وشذوذ بعض آرائه أعذاراً من إلحاح الألم وضيق النفس بالحبس المضاعف ، وطول الأجل بلا أمل أو عمل يشغل الجوارح ، وانعدام اللذات المرَوِّحات عن القلب آلامه ، من الترفع عن اللهو المباح الذي يستعان به على عنت الأيام وجِدِّ الحياة .

ومن رأيي أن المعري بعد ارتهان نفسه لدى الحبس الاختياري وهو المنزل ، قد منع عن نفسه موردا عظيما من موارد السلوى والتلهي عن إدمان الفكر في المسائل الكبرى التي تتصل بالغيب ، ولا يقين فيها عن طريق الفكر ، فصار بعيدا عن تفاهات الحياة التي لا تكدّ الذهن وعن أضاحيك الناقلين ، وعن بساطة المتسدلين الذين لا يتعمقون أسرار الحياة ، ولا يطلبون ما وراء سطوحها إلا طلبا يسيرا ، عِلْماً منهم بأن وراء سطح كل أمر هوّة قد يُرى فيها الحق ملتبساً بالباطل لبعد المسافة بين عقولهم وبين قرار تلك الهوة ، فلا يرون فيها حدود الأشياء واضحة مميزة .

فبلزوم المعري منزله وعزلته الموحشة خرج على الناس وحياتهم وصدهم من بُعد كأنه خلقٌ آخر غريب عنهم ، وقد فقد قلبهُ حظ الفتنة وأدوات الإعجاب بهم ، وانكشفت له الحياة الاجتماعية سافرة .

وأضف إلى ذلك أنه قد فقد ما يجعل الناس يتمسكون بالحياة . فلا بصر ولا مال ولا شهوة جنسية ولا لذة جسدية ولا تنويع في الطعام ، مع عزلة وسوداوية ، وذكاء نادر ، وثقافة رحبة ، ونقد لاذع ، وإحساس بالكمال ، وتقليب ذهن في المذاهب والآراء . . . ففقدت بشاشة الحياة في نفسه ولم يبق له منها إلا صورتها القاتمة وجوانبها المظلمة .

وإني أتخيله وقد خَلَص إلى نفسه في زاوية مظلمة من زوايا بيته يستقبل زمانا كله ظلام ويتلقى من أخبار الفساد واضطراب الحال والظلم والرياء والمداهنة في عصره ، ما يجعله يوغل في فراره واستيحاشه بالناس ، ويكتفي برصدهم من بعد كأنه ليس منهم ، وفي هذا كل سره .

وقد ترتب على خروجه من حدود الاجتماع أنه وضع عقله على كل شيء ، وكل شخص وكل لفظ . فوجد النقص والفساد يشمل الحياة جميعها ، فلم يستفت طبيعته ليعذرهم ويرحم ضعفهم ، إذ كان قد تحرر من الشعور بشعورهم والقياس بمقياسهم .

فالأصل فيه أنه غريب عن الناس ، مفارق لوجودهم ، كأنه من نوع آخر لا يقدر ضروراتهم ونقصهم الغريزي ، وقد رأى الأديان والأنبياء في نطاق رؤيته للناس بهذا الوضع الذي وضع فيه نفسه . وما كان في شعره من حديث التسامح والرضا عن الناس في بعض الأحيان مرجعه إلى عودته إلى الاعتراف بالطبع الإنساني ورحمته الضعف البشري ويقظة فطرته الأصيلة المشتركة بينه وبين الناس .

ومن سخريات الحياة به أن العالم العربي يحتفل بذكرى « مولده » حين وافى ميعاده الألفي . مع أنه كان يعد ذلك الميلاد نكبة وجناية تلاحقت وراءها جنايات حتى يوم الممات …

فأيّما ردٍّ من الردود التي سيقت دحضا لمذهبه من التعطيل يعدل ذلك الرد الذي تنطق به الحياة الصادقة بين يدي ذكراه ؟ إنها أرغمته على أن يحيا حتى تَنَفُّسه الأخير . وهي الآن ترغم فكره وذكره أن يحييا من بعده غير مبالية بما في فكره من تجديف وتمرد ، وما كان في سلوكه من شرود وعصيان . إذ هي واثقة من سطوتها وسلطانها على النفوس ، ومن وثاقة حبال الشبكة التي تطرحها على الأجسام لتربطها بالأرض . . فلا يضيرها أن أن يقول أمثال أبي العلاء وشوبنهاور ما يقولون ، فإن الناس سيعجبون بما يقولون ، ولكن لا يُقِرُّون ولا يفعلون .

عبد المنعم خلاف

من قصص الصين :

الغــــنى

للأديب الصيني الكبير « بـ — شاو — كين »

في بلد من البلدان كان الآباء يعلمون أولادهم كلمات يروونها مهمة ، والأولاد لا زالوا في مهادهم ، وكان الناس يتمدحون كل أب يستطيع تعليم أبنائه تلك الكلمات ، وأصيب الأولاد بتلك الكلمات حينما ولدوا كما أصيبوا بالرضاع والبكاء ، ولهذا كانوا يؤمنون بهما إيمانا وطيدا ويعملون بها ، وأصبحت منهم كالطعام حين يجوعون ، والشراب حين يصيبهم العطش . تلك الكلمات هي :

« أيها الأولاد ! اجتهدوا في العمل ، فإذا اجتهدتم أمكنكم أن تكسبوا نقودا كثيرة ، وتملأوا بها جيوبكم وصناديقكم وخزائنكم ، وتكونوا أغنياء ! إن أعظم الناس في العالم وأعزهم الغنى ، له سلطان ، وله قوة . إن أسعد الناس الغنى أيضا ؛ لأنه لا يعمل شيئا ولا يتعب ، أيها الأولاد ! اتعبوا أولا ، تكونوا سعداء في الوقت الذي تصبحون فيه أغنياء » .

وهذه الحكاية لم ينس الآباء تعليمها لأولادهم حين يولدون ، ولم يول أبناؤهم عن سماع هذه الكلمات ، حتى كثر الأغنياء ، وظنوا بذلك أن آباءهم لم يخطئوا حين علموهم ، فهذا هو السلطان المرغوب والقوة بأيديهم حقا ؛ فهم إن أرادوا رفع أبنيتهم أو توسيع بيوتهم وجدوا العمال بلا مشقة يرفعون لهم ويوسعون ، وهم إذا حاولوا الانتقال وجدوا الحمالين يحملونهم والآلات تنقل أمتعتهم ، وهم دائما مستريحون ، وإذا طلبوا الأكل والملابس وجدوا ذلك بسهولة ، وهم مفضلون على الناس غاية التفضيل ، ومسرورون كل السرور ، لأنهم لم إلا الضحك والقهقهة ودائما في عيشة سعيدة

ونظر إليهم غيرهم نظرة طموح ، وأخذوا يفكرون ويقولون :

« ما أشرف الأغنياء . وما أسعدهم ! يجب علينا أن نجتهد في العمل أكثر مما كانوا يجتهدون ، لنصل إلى مكانتهم » . واجتهدوا كل الاجتهاد لأنه الوسيلة الوحيدة التي يصلون بها إلى الغنى .

ثم بدأ الأغنياء يكثرون ، وشرع الذي لم يصل إلى مكانتهم يزيد في الاجتهاد ويحمل الأعباء في كل شيء ، كالزراعة والصناعة وغيرهما من الأعمال الشاقة ، وفي هذا الوقت ارتفعت أثمان الحاجيات ، وجاد الأغنياء ، فحصل الفقراء على النقود بسهولة ، ووصلوا إلى مكانة الأغنياء بسرعة . واجتمع الأغنياء يتصادقون ويتضاحكون وجها لوجه ، ويرقصون ويشربون حتى يبلغ بهم الفرح حد الجنون ، وزاد السكر حتى طغى على عقولهم فأخذوا يرتلون هذا النشيد :

« هذا المكان وهذا اليوم

عالم ذهبي

وجنة عدن » .

وقل الفقراء في البلد شيئا فشيئا ، وزاد الأغنياء كل يوم ، وكان يشجع هؤلاء الفقراء القليلين على العمل ما رأوه من أفراح الأغنياء ، وتقلبهم في ذلك النعيم ، وتأكدوا أنهم لابد سيصيرون أغنياء ، وأن الغنى سوف يأتيهم بعد يوم أو يومين ، فاشتغلوا كثيرا ، وتعبوا الليل نهار ، لأن هذا التعب تعب أخير ، وستأتي بعده حياة سعيدة . ومن ذا الذي لا يصبر على هذا التعب الأخير في سبيل تلك الحياة السعيدة ؟

وذهب مُعَدِّن إلى جبل فاتفق أن وجد فيه معدن الذهب بكمية ضخمة في مساحة تبلغ مئات الأفدنة وعمق يصل إلى مئات الأمتار ، ففرح المعدن فرحا شديدا وقال في نفسه : « ما أجمل هذا الذهب الذي رأيته الآن وجعلني غنيا في الحال ! » ثم رجع إلى بيته وجمع أهله — كبارا

وصغارا — فحمل الكبير صندوقا كبيرا ، وأخذ الصغير سلة صغيرة ، ثم ذهبوا إلى الجبل يحفرون عن المعدن ، ويجمعون الذهب حتى أسدل الليل ستاره ، وتعبوا غاية التعب ، فحسب المعدّن أن الذهب الذى جمعه هو وأهله أكثر من الذهب الذى عند أغنى الأغنياء فى البلد وقال فى نفسه : « لقد أصبحت الآن أكبر الأغنياء فى البلد وسأعيش عيشة سعيدة ، وما أكثر الفرح اليوم ! » . ورجع مع أهله إلى البيت .

فلما علم زملاؤه — الفقراء الباقون — هـذا الخبر وعرفوا أنهم سيجدون ذهبا كثيرا بطريق سهل ، ويصيرون أغنياء فى الحال ، تركوا أعمالهم الشاقة ، وذهبوا جميعا — كبارا وصغارا — إلى الجبل ، وحفروا عن المعدن وجمعوا الذهب حتى تعبوا جدا وظن كل منهم أن الذهب الذى عنده أكثر من ذهب أكبر الأغنياء فى البلد ، فيقول فى نفسه : « لقد أصبحت أول الأغنياء » ، ورجعوا إلى بيوتهم .

والآن لا يوجد فى ذلك البلد أحد ليس عنده ذهب كثير ولم يقتنع به ومع ذلك فالذهب الذى بالجبل لم ينقص شيئا مذكورا ولم يؤخذ منه إلا بمقدار اثنين أو ثلاثة من عشرة .

وأصبح كل واحد فى ذلك البلد غنيا وصاحب ذهب كثير ؛ ما أسعد هذا البلد ! ولكن حدث حادث عجيب لم يتوقعه أحد من قبل : فإن الأغنياء الجدد تركوا أعمالهم الشاقة بالطبع وأخذوا يفكرون فى أموالهم الكثيرة : كيف يتمتعون بها وكيف يصنعون الملابس الجميلة وكيف يبنون العمارات الفخمة إذ يجب عليهم أن يظهروا أمام الناس بمظهر الأغنياء ، فأخذوا أكياسهم التى ملؤوها بالذهب واتجهوا إلى شركة الملابس — بعد أن كانوا لا يمكنهم أن يدخلوا هذه الشركة إلا أن يطوفوا وينظروا من الخارج ولكنهم اليوم سيدخلونها مستكبرين ومختارين وسيشترون منها الملابس الجميلة والفساتين الفاخرة — ولكنهم لما وصلوا إلى الشركة وجدوها مغلقة وذهبوا إلى الثانية والثالثة والرابعة و . . . فكانت كلها مغلقة ، وذلك لأن أصحاب شركات الملابس كلهم أصبحوا أغنياء أيضا والملابس التى كانت عندهم وزعوها على أهلهم ولبسوا منها ولهـذا أغلقوا أبواب شركاتهم وركبوا السيارات يرتادون السينما والملاهى .

وبعد أن خاب أمل هؤلاء الشغفين فى شراء الملابس من الشركات قال بعضهم لبعض : « إن كل شركات الملابس مغلقة ولن تبيع أبدا إذن ، فلنذهب إلى مصانع الغزل والنسيج ونشترى منها الأقمشة الجميلة والحرير الجيد ونأتى بالخياطين يخيطون لنا الملابس ليلا ونهارا ونلبسها » ، فذهبوا إلى المصانع سريعاً ، ولكنهم ما كادوا يصلون حتى وجدوها مغلقة ولم ينالوا بغيتهم ولم يجدوا فيها أحدا حتى البواب ، وأين أصوات آلات الغزل والنسيج لم يسمعوا شيئاً من ذلك ووجدوا مداخن المصانع التى كانت ترمى الدخان من فوهاتها إلى السماء ، فيحجبها لا يظهر منها شيء وقد كف الدخان وسكتت عن إرساله إلى السماء ، والعصافير الصغيرة تمشى وترقص عليها ، فلا حول لهم ولا قوة إلا أن يذهبوا إلى الخياطين يستشيرونهم ويطلبون منهم أن يفكروا معهم كيف يأتون بالأقمشة كى يخيطوا لهم الملابس الجميلة وأغروهم بالنقود الكثيرة أجراً لهم على عملهم ذلك ، فضحك الخياطون قائلين :

نحن الآن مثلكم أصبحنا أغنياء ، ونبحث عن الخياطين كى يخيطوا لنا الملابس الجديدة وأما النقود فلن نحتاج إليها ؛ وعندنا ذهب كثير لا يحصى ولا يعد ! » .

وحينئذ تأكدوا أنهم لن يستطيعوا لبس الملابس الجديدة فحزنوا حزنا شديداً لأنهم أغنياء ولا يمكنهم أن يظهروا بمظهر الأغنياء ؛ ولكن لما رأوا الذهب الأصفر الذى ملأ جيوبهم وصناديقهم ومخازنهم وغرهم بريقه فرحوا

وهزوا أنفسهم قائلين :

« على كل حال عندنا ذهب كثير ونحن الآن أغنياء وإن لم نستطع لبس الملابس الجديدة » .

وهناك أمر خطير جعل وجوه الأغنياء البتسمة عبوسة ، ذلك أن الغلال والأطعمة عندهم نفدت ولابد أن يشتروها لكي يسدوا جوعهم ، فذهبوا ومعهم الذهب إلى محل الغلال ، فوجدوا غلال أول محل قد نفدت وأراد صاحبه أن يشتريها أيضا ، ثم ذهبوا معه إلى محل آخر ووجدوه كالأول — نفدت غلاله أيضا ، وذهبوا إلى ثالث ورابع ... ولم يروا أى محل مفتوحاً ، وطافوا بالبلد كله يحملون الأكياس التى ملؤها بالذهب ولثقلها تنزل العرق من جبينهم إذ تعبوا تعباً شديداً .

فقال أحد عقلائهم : « إذا كنا لم نجد الغلال فى المحلات فلنذهب إلى القرى ونشتريها من الفلاحين ! » أيقظهم هذا الكلام ، فقالوا جميعاً : « نعم لنذهب إلى القرى فإن الغلال والحبوب لا تنبت من المحلات والدكاكين وإنما تنبت من الأرض والحقول ، وإذا ذهبنا إلى القرى وجدناها عند الفلاحين حتما ، هيا بنا ! هيا بنا ! » .

ومشوا فى الأرض مهطعين صائحين معتقدين أنهم إذا وصلوا إلى الفلاحين وجدوا الغلال فى الحال ، ثم ذهبوا إلى قرية وقابلوا الفلاحين هناك وقالوا لهم : « فلاحونا الأعزاء ! نريد أن نشترى منكم الغلال ، وسنعطيكم ذهباً كثيراً ، قولوا ! قولوا ! كم من الذهب تريدون ! » .

وضحك الفلاحون وهزوا رؤسهم قائلين :

« إننا مثلكم أصبحنا أغنياء ولسنا فلاحين وعندنا ذهب لا يعد ولا يحصى ونريد أن نشترى الغلال أيضا » .

فذهبوا مع هؤلاء الفلاحين إلى قرية أخرى ولم يجدوا قليلا من الغلال أيضا ، ومشوا فى كل قرية يبحثون عن الفلاحين كأنهم يبحثون عن اللؤلؤ فى الرمال ولكنهم لم ينالوا طلبتهم .

ثم أيقنوا أنهم لن يجدوا الغلال فذهبوا إلى الحقول ليأخذوا قليلا من الذرة أو البطاطة يسدون بها جوعهم وتفرقوا فيها مسرعين يبحثون . وكانت تزرع فى الحقول أشجار الذرة والبطاطة وتغل غلة كثيرة جدا ، ولكن لما أصبح الفلاحون أغنياء ويعيشون عيشة المترفين لم يسقوا الأرض ولم يصلحوها فلم تنبت الأشجار وأكلت الدود الذرة والبطاطة ، واستحالت هذه الحقول الواسعة إلى صحراء قاحلة لم يجدوا شيئا فيها يسد جوعهم ، فحزنوا حزناً شديداً وتركت من أعينهم الدموع كالأمطار ولكن لما نظروا الذهب اللامع فى أيديهم جففوا الدموع وتكلفوا الضحك وتمازوا قائلين :

« وعلى كل حال أصبحنا أغنياء وإن لم نجد الغلال والأطعمة وجاعت بطوننا ! »

جاع الأغنياء كلهم جوعا شديدا فنهكت قواهم وخروا صرعى مترامين فى الحقول هنا وهناك وتحت رؤوسهم أكياس الذهب وفى أيديهم قطع صغيرة منه ويريدون أن يأتوا بها إلى أفواههم ليأكلوها ولكن لا يستطيعون حراكا ، وخرجت من أفواههم أصوات خفيفة كأصوات البعوض — يقولون كلمات آبائهم :

« اتعبوا أولا تكونوا سعداء فى الوقت الذى تصبحون فيه أغنياء ! » . ترجمة : عبد الله ما — جى — كو

صحيفة النقد :

تلاقي الأكفاء : على أدهم

الأستاذ علي أدهم من كتابنا القلائل الذين يحتفلون بما يكتبون ، ويتهيبون له ، ويتحرجون من النقص الناقص والحكم المرتجل ، ويدققون فيما يأخذون وما يدعون .

وطبيعة الأبحاث التي يتجه إليها — وهي في الغالب التحقيقات التاريخية والاجتماعية ، والبحوث الفلسفية والفكرية — تجعل لهذه الخصائص قيمة خاصة ، فهي في حاجة ماسة إليها ، ليطمئن إليها القارئ ، ويشعر لها بالثقة الواجبة .

وقد أنشأ الأستاذ علي أدهم حول هذه الاتجاهات عشرات من المقالات نشرت في شتى الصحف والمجلات ؛ وثلاثة كتب : صقر قريش (هدية المقتطف عام ١٩٣٨) ، والمذاهب السياسية المعاصرة (في سلسلة اقرأ) ، وتلاقي الأكفاء ، في هذا العام [1] .

وفي هذه الكتب والمقالات تتجلى تلك الخصائص التي ذكرناها آنفاً ، كما تتجلى خصائص أخرى ، من الخبرة بالنفس الإنسانية ، والفطنة إلى دوافع الحياة الأصيلة ، والاستعداد لتلقي النماذج البشرية كما خرجت من يد الطبيعة .

ولقد كان من حق هذه المزايا مجتمعة أن تنال من الإقبال والاحتفال أكثر مما لاقت حتى الآن ، فالأستاذ أدهم بالقياس إلى جهده مغموط مغمور . ولقد دفعتني هذه الظاهرة إلى الفحص عن الأسباب الكامنة التي تعوّق بعض ما كان من الحق أن يكون .

قد تكون طبيعة هذه البحوث والموضوعات التي يطرقها الأستاذ أدهم من الدقة والصرامة بحيث لا يحسن استقبالها إلا أولئك الذين تؤهلهم ثقافتهم وطبيعة اتجاههم لمثل هذه البحوث .

ولكنني ألمس هنا هنا سبباً آخر . ذلك أن ملكة الاختيار والتنسيق في هذه الدراسات لا تبرز كما تبرز ملكة الفحص والتقصي . وأنها في حاجة إلى مزيد من اللمسات القوية المباشرة التي تمتد توّاً إلى جوهر الموضوع وروحه ، وكأنما تهتدي إليه بالبداهة أو بحاسة خفية لا تتعثر ولا تتلعثم . بحيث لا يغرق الخبر الدال ، والحادثة المعبرة ، والكلمة الموحية في أشتات من الأخبار والحوادث والكلمات الثانوية في الموضوع ، فوق ما يزحم الحيز المحدود من مادة تكفي لأضعافه ، لحرص المؤلف على ذكر جميع الحقائق والوقائع أو أكبر عدد منها في الحيز الذي عنده ، يكظ هذا الحيز ، ويحمل القارئ — في بعض الأحيان — يصل مجهوداً مكدوداً إلى زبدة الموضوع ، وخلاصته المطلوبة .

وملافاة هذا لا تكلف المؤلف إلا أن يستغني عن بعض الحوادث والوقائع الثانوية ، وأن يكتفي بالرئيسي منها مادام الحيز لا يحتمل سواها ، وأن يعني بإبراز هذه الرئيسيات ، وملء الفراغ بها ، وترك فراغ بين السطور يدع مجالا للأحاسيس الفنية ، فيتهيأ للقارئ متاع شهي مشوق مزود بخصائص المؤلف الطيبة التي تحدثنا عنها في أول المقال .

ولسنا نعطي الأستاذ أدهم أكثر من حقه حين نقول : إن من خصائصه الاحتفال والتحرج والدقة ، وأن من مزاياه الخبرة بالنفس الإنسانية ، والفطنة إلى دوافع الحياة الأصيلة ، والاستعداد لتلقي النماذج البشرية كما خرجت من يد الطبيعة . كما أننا لا نسلبه شيئاً من حقه حين نقول : إن ملكة الاختيار والتنسيق لا تبرز عنده بروز ملكة الفحص والتقصي ، وأن اللمسات القوية المباشرة قليلة نسبياً في دراساته .

فأما الاحتفال والتحرج والدقة فخصائص عامة شائعة في جميع فصوله والاستشهاد عليها يزحم فراغ هذا المقال ، فيستطيع القارئ أن يقرأ عنها هنا وأن يحققها هناك ! وأما الفطنة لدوافع الحياة والخبرة بالنفس الإنسانية ، والاستعداد لتلقي النماذج البشرية ، فيجد خيوطاً منها واضحة فيما ننقله إليه من فقرات .

(١) وأخيراً كتاب المنصور بن أبي عامر ولم نقرأه بعد .

ونقرأ في مقدمة كتابه « تلاقي الأكفاء » قوله :

« فصول هذا الكتاب لمحات تاريخية — أرجو أن تكون كاشفة موحية ، وصور جلية لبعض العلية النادرين من رجال الأقدار وأفذاذ التاريخ ، الذين جازوا بهذه الحياة — وادي العبرات كما سماها بعض القدماء — متغلبين على صعابها ، مستعلين على ضروراتها ، وتبوءوا من التاريخ موضعا ملحوظا ، واستأثروا منه بصفحات حافلات . ولم يكن همي أن أستقصي جملة أخبارهم ، وأستوعب شتى أحوالهم ومنازعهم ، وإنما حاولت أن أجلو طرافة شخصياتهم بطريقتين : إحداهما أن أتخير بعض المواقف الخاصة البارزة في حياتهم ، وطائفة من الحوادث المبينة التي انتابتهم ، وأظهرت مدخر قوتهم ، وكامن ملكاتهم . والطريقة الثانية : توضيح أثر احتكاكهم بشخصيات أخرى تماثلهم في الاقتدار والفحولة ، وتساميهم في الإبانة والسموق ، وتخالفهم في طبيعة الملكات والمواهب ، ولون المزاج ، وطريقة فهم الحياة ، والنظر إلى الكون .

« وإذا صح أن الأشياء تتميز بأضدادها فإني أرجح أننا نعلم أشياء كثيرة قيمة من نابليون بتأمل علاقته برجل مثل تاليران ، ونفهم جوانب هامة من شخصية لينين بدراسة صلاته بمكسيم جوركي . ولعل موقف فردريك من فولتير يمدنا بمعلومات نفيسة عن نفسه وأخلاقه ، ويكشف لنا عن أساليب فردريك في السياسة وأفانينه في الدهاء . ولعلنا نفهم المنصور فهما أدق وأوفى إذا ألممنا بموقفه حيال أبي مسلم من ناحية ، وبموقفه إزاء عمه عبد الله بن علي بطل واقعة الزاب — من ناحية أخرى » .

والفكرة كما ترى جيدة في اختيار مواقف هؤلاء العظماء حيال عظماء آخرين من لون آخر ، ومراقبة التفاعل الذي يكشف من حقيقة عناصرهم في اللحظات الحاسمة ، وهي قائمة على الفطنة إلى النماذج البشرية ، وعلى كشف دخائل النفس الإنسانية .

على أن ما يهمنا هو تلك اللفتة القيمة التي جاءت في سياق هذه المقدمة حين يقول :

« ولست من الذين يبغون من التاريخ استخراج العبر والمثلات ، أو يلتمسون فيه مضرب المثل وموضع القدوة ، والانتفاع بعبر التاريخ في رأيي من الأمور المشكوك فيها ، واتخاذ العظماء قدوة من الأمور السلبية ، ولا يمكن القزم أن يكون عظيما بمجرد اطلاعه على سيرة العظماء ، ومحاولة محاكاتهم ، وربما يصور له الوهم أنه أصبح عظيما ، ولكن الناس سيرون منه غير ذلك » .

« وخير للإنسان أن ينمي ملكاته في الحدود المقسومة لها من أن يحاول صياغتها على مثال خارجي ، وصبها في قالب غير القالب الذي فرضته عليه طبيعته . وإنما أحاول أن أستعين بالتاريخ والتراجم على توسيع آفاق النفس ، والاستكثار من التجارب ، وفهم حقائق الكون وأسرار الحياة . واستجلاء غوامض الحياة لا يلتمس في أغوار البحار وحدها ، ولا في خوافق السماء وخفايا الأرض فحسب ، وإنما في « نفس الإنسان » . ومن ثم أهمية التراجم في الأدب الحديث ، لأنها تتناول صميم الحياة ولبابها ، وتعرض صور النفس الإنسانية ، وتروي قصة أشواقها وشجونها ومساءاتها ومسراتها ، وأجل موضوع دراسة للإنسان هو الإنسان نفسه ، وما أصدق الشاعر الحكيم :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر » .

ففي هذه الفقرات خيوط من خبرة المؤلف بالنفس الإنسانية ، وحسن فهمه لأصالة النماذج البشرية ، ومخالفته الأفكار الشائعة عن مزايا الدراسات التاريخية ، مع بيان ميزتها الكبرى ، وهي عرض هذه النماذج وتوسيع آفاق الحياة بها .

على أننا نميل إلى إثبات فائدة لهذه الدراسات ، وهي أن الفرد الإنساني كثيرا ما تقدح كوامن نفسه جملة أو فكرة أو نموذج بشري ، فتكشف عن قوة في نفسه مجهولة له ، وتوجهها وجهة خاصة . ولعل هذه الظاهرة هي التي حدت بعض الناس إلى القول بأن في التاريخ عبرة ينتفع بها !

ذلك ما للأستاذ أدهم ، أما الذي عليه ، من قلة

اللمسات الباشرة القوية ، فـأية شائعة تدرك فى مجموع الفصول دون الأجزاء التى يستطاع نقلها فى مقال .

وللتقريب ما نريده نضرب مثلا بطريقتين فى التصوير : إحداهما تلك الخطوط السريعة الحاسمة فى إبراز معالم الوجه . والثانية تلك الدقة فى رسم جزئيات الوجه حتى تبرز ملامحه . وكلتاهما طريقة معترف بها لكننى أنا أوثر الأولى على الثانية لبساطتها وبراعتها .

* * *

وبعد ، فإن من حق قراء الأستاذ أدهم أن نبصرهم بأمر آخر ليكونوا على بينة منه فى الطريق

إنهم سيجدون فى أحيان قليلة نادرة لهجة متوعرة وألفاظا متخشنة ، فلا عليهم من ذلك ! إنما الرجل قارىء مطلع على الأدب العربى القديم ، والكتب التاريخية العربية ، ولهذا تخونه حافظته ، فتدفق بعض التعبيرات وبعض الكلمات من ذلك الرصيد المخزون . فليكن تقرأه من ذلك ما يقتنونه حين يمترون به بين الحين والحين !

ولا يفوتنا أن نشير فى النهاية إلى فصل « نابليون وتصادم عبقريتين » فى كتاب « تلاق الأكفاء » على أنهما خير فصول الكتاب وأكثرها طلاقة ، وأملاها نبضا ، وأشدها حرارة . لقلة التفصيلات ، ووضوح السمات . وهو دليل على أن ما طلبناه من المؤلف داخل فى طوقه وليس عليه بغريب ، وأن مهمتنا هنا هى استثارة مقدرته ليستخدم أفضل أدواته !

سيد قطب

الغـــدير

هل شهدت الغدير فى خطراته؟   فشمتك الأنغام من قطراته

ورأيت الأمواج تجرى خفافا   كأغان تفجرت من لهاته !

ولمحت الطيور تهفو حواليـ   ـه وتسعى لرشفة من فراته !

وهو ينساب فى الخميل ويمضى   عابثاً لاهياً إلى غاياته !

كلما مسه الصبا هز عطفاً   وتجلى الدلال فى خطواته !

وشدت حوله البلابل لحناً   تيه الورد من عميق سباته !

.. إنه ساحر أتى ساحة الرو   ض ليحيى بمائه زهراته !

... إنه شاعر ترنم بالحبـ   ـب ففاض الحنين من صدحاته

إنه راهب مزاميره الطيـ   ـر ، وهذا الخرير بعض صلاته

إنه عاشق سبته الروابى   فقضى فى الهوى ربيع حياته

يا غدير الجمال ذكرتنى!!   ماضيى لحنت روحى إلى لحظاته

حين كنا على ضفافك نلهو   فى ابتسام الصبا وفى ضحكاته

ونغنى على الزمان نشيداً   من حنايا الفؤاد ومن خفقاته

ذهب العمر يا غدير فخبر   من ليالى الهوى ومن فاتناته

إن أيامه تولت ... ولم يبـ   ـق القلبى منها سوى آهاته!

أيها الغدير حدث من الأيـ   ـك ، ومن ورقه ومن أغنياته؟

وارو ما شئت بالطروب من الأز   هر وعن حسنه ومن بسماته!

وتحدث إلى الورود عن الفجـ   ـر وعن طله ، وعن نسماته!

.. تلك دنياك أبدع الله فيها   صور الحسن رائعاً فى سماته !

ليت لى مثلها ، لرددت لحناً   يسكر الكون من صدى نغماته!

الإسكندرية   فؤاد كامل

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٠ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٧٦ — الثلاثاء ١٨ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٣ — ١١ من أبريل سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

أمريكا والكتاب الأبيض

كدنا أكثرنا أن ينسى أن بين العالم القديم والجديد محيطاً ضخماً عرضه أربعة آلاف من الأميال ، يفصل بين العالمين ، ويفرق ما بين شقي المعمور . كدنا أن ننسى وجود هذا المحيط منذ أن خاضت أمريكا — أو اضطرت لأن تخوض — غمار هذه الحرب ، وخرجت نهائياً من تلك العزلة التي استمسكت بها دهراً طويلا ، وأخذت تشارك العالم القديم خطوبه وحروبه ، وتشترك في مجامعه ومحافله ، وفي حل معضلاته ومشاكله . هنالك صفق كثير من الناس طرباً ، بأن أمريكا قد أدركت ، بعد لأي ، أن شئونها من شئون هذا العالم ، وأن الشر إذا استفحل في جانب من الكوكب ، فإن سمه لا يلبث أن يسري في الجسم كله ، وأن النجاة من الشر لا تكون إلا بالقضاء على الشر حيثما وجد ، وفي أي ركن من أركان الأرض ظهر .

هنالك أخذنا نحس أن أمريكا قد اقتربت من العالم القديم ، وأن المحيط الأطلسي الضخم يوشك أن يتلاشى ، وأن ليس هنالك فوارق في التفكير والمبادئ تفرق بين العالم القديم والعالم الجديد ، وأن أمريكا — تلك الدولة الديمقراطية العظيمة — ستلقي بنفوذها الهائل ، وقوتها الساحقة ، في جانب الدفاع عن الحق وإنصاف المظلوم ، وفي إنشاء عالم جديد يسوده العدل بين الشعوب كبيرها وصغيرها .

ثم قيل لنا إن أمريكا لم تدخل هذه الحرب — كما دخلت الحرب الماضية — وهي جاهلة بشئون العالم ،

وبالمشاكل العميقة الدقيقة التي تكدر صفو العلاقات بين الشعوب ، بل تدخلها هـذه المرة وهي على علم دقيق بما يجري في كل قطر ، وبما يجيش به الصـدور في كل بلد ، وبمشاكل كل شعب وآماله وأمانيه ؛ ولدى الحكومة الأمريكية التقارير المستفيضة ، مما كتبه رسلها في كل ركن من أركان العالم بعد دراسة وتمحيص .

وهكذا لم يعد هنـاك محل لأن يشكو أحد من أن أمريكا تؤثر سياسة العزلة ، بل أخذت الآمال تملأ قلوب الناس بأن دخول الولايات المتحدة الأمريكية ميدان السياسة الدولية معنـاه أن صفحة جديدة ستفتح في علاقات الشعوب ، وهي صفحة نقية ناصعة خالية من شوائب البطش والعنف والاستغلال .

ونحن ، أبناء الدول الشرقية ، والدول الصغيرة ، قد كنا أول المرحبين بأن أمريكا قد دخلت ميدان السياسة العالمية منتشئة ، ورية رأي ومشاريع واسعة جليلة . فلقد اشتهر عن أمريكا ومن الأمريكيين أمور عديدة محبوبة إلى قلوب الأمم الصغيرة ، اشتهر عنها بغضها للاستعمار في جميع صوره وأشكاله ، ومقتها للوسائل العنيفة تستخدم في إخضـاع الضعيف لإرادة القوي المدل بقوته . ولعل أمريكا أول من ابتكر عبـارة « حق تقرير المصـير » ، ونادت بأنه لا يجوز فرض حالة سياسـية على شعب من الشعوب أو جماعة من الجماعات إلا برضاها وموافقتها .

من أجل هذا كله أخذنا نرقب ما يصدر عن أمريكا من رأي ، وما تبديه من فـكر ، وتتبعنا ما يقول ساستها في خطبهم ، لـكي نرى أي مياه جديدة ستظل العالم ، وأي أرض جديدة ستمهد لحياة الشعوب . وراقبنا بوجه خاص ما يحمله إلينا البرق ، وتنقله إلينا الصحافة عن شئوننا نحن سكان العالم العربي والإسلامي . فإذا بأهم الأمور التي شغلت أمريكا في هذا الركن الكريم من أركان الأرض أمران لا ثالث لهما : الأمر الأول مد أنابيب للبترول من الخليج الفارسي إلى القطر المصري . والأمر الثاني : ضجة هائلة يثيرها رجال السياسة والصحافة هنـاك من أجل إكراه القطر الفلسطيني على قبول عـدد لا حد له من مهاجري اليهود .

لا يكاد يمضي يوم حتى تنقل إلينا صحفنا أنباء من أمريكا عن فلسطين ؛ منها ما يدل على اهتمام البرلمان الأمريكي بشئون ذات القطر ، ومنها ما يشير إلى الملايين من الدنانير يجمعها اليهود من أجل شراء أرض فلسطين ، ومنها تصريحات يدلي بهـا الرئيس ، أو حاخام يتحدث بلسان الرئيس ؛ ومنها بيانات تصدرها الصحف ، أو ينشرها زعماء اليهود . وهذه الأنباء والتصريحات ، مهما اختلفت مصادرها ، فإنها جميعاً تضرب على نغمة واحدة ، وتهتف بدعاية واحـدة ، وهي نغمة كلها إعراب عن العطف الشديد على اليهود ، وضرورة منحهم فلسطين لـكي تكون دولة يهودية .

لم يأت في هذه التصريحات والأنباء ذكر أو إشارة للعرب ، ولم يخطئ زعيم من الزعماء أو كاتب من الكتاب في أمريكا ، فيشير ، ولو من بعيد ، إلى الأمة العربية التي تسكن فلسطين ، كأنهم جميعاً يتعمدون أن يغفلوا ذكر هـذه الأمة التي طالما رحبت باليهود وعطفت عليهم ، ومنحتهم المناصب السامية ، وأغدقت لهم الخيرات .

إني أستعرض — وأنا أكتب هذا المقال — قصاصات من صحفنا اليومية ، كلها خاصة بفلسطين ، وكلها صادرة عن جهات أمريكية عليا ومتوسطة ، وليس في واحدة منها إشارة يشتم منهـا أن في ذلك القطر سكاناً ، اسمهم العرب . فهل يدل هذا الإغفال العجيب على مبلغ علم أولئك الكتاب والرؤساء بقطر فلسطين وشعبه الكريم ؟ وهل يدل ذلك الإهمال على أنهم لا يعرفون أن هنالك أمة اسمها الأمة العربية ، وأن فلسطين وطن من أوطانها ؟ . وبرغم هـذا فقد أخذت تلك الهيئات والشخصيات الممتازة تدلي

بالرأى ، وتشير بالسياسة التى يجب اتباعها فى فلسطين .

فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نزعم أن المحيط الأطلسى قد زال ، وأن أمريكا قد دنت من العالم القديم ، حتى أصبحت تحس نزعاته ونبضات قلبه ، وباتت ملمة أحسن إلمام بما فى النصف الشرقى للكرة من مشاكل . لقد أثبتت لنا تلك الإشارات إلى فلسطين — مع الأسف الشديد — أن المحيط لا يزال حائلا قويا دون اطلاع تلك الديمقراطية الأمريكية الجديدة على شئون بلاد الشرق القديم . فقد أخذت أمريكا تتدخل فعلا فى شئون الشرق العربى ، وتدلى فيه بآراء هائلة ، كأنها صاحبة حق فى تصريف شئون هذا العالم ، ومع ذلك فإنها قد أثبتت أنها لم تلم بعد الإلمام الصحيح بشئون هذا الركن الخطير من الأرض .

وقد نشرت جريدة « إيكونومست » — وهى من الصحف الشديدة الاعتدال ، فى أول الشهر الماضى مقالا عن تدخل أمريكا فى شئون الشرق الأوسط ، قالت فيه : « إن الولايات المتحدة تنوى أن يكون تدخلها دائما فى شئون الشرق الأوسط . . . ولكن التدخل من جانب واحد ، وبدون اطلاع على حقائق الأمور سيكون أسوأ لأمريكا من سياسة العزلة . ولسوء الحظ تظهر حاليا التدخل الأمريكى فى سياسة الشرق الأوسط علامات تدل على قلة النظر البعيد » .

كذلك نشرت جريدة منشستر جارديان مقالا شرحت فيه مظاهر تدخل أمريكا فى أمور البلاد العربية حديثا ، وقالت فيه : « أما من وجهة نظر بريطانيا ، وجميع شعوب الشرق الأوسط ، فإن انسحاب الأمريكيين مرة أخرى من المنطقة نفسها أفضل من هذا النوع من التدخل » * .

وهكذا نرى صحيفتين اشتهرتا بالاعتدال والإنصاف يصفان التدخل الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط بأنه يجرى بدون اطلاع على حقائق الأمور ، وأنه أفضل للعالم ولأمريكا نفسها أن تعود إلى عزلتها بدلا من هذا التدخل الذى لم يبن على علم واطلاع .

ومع ذلك فإن الشعب الأمريكى اشتهر بميله إلى الحرية والإنصاف ، وقد بلغ من حبه للإنصاف أن حكومته أمرت بأن تحفظ باسم الزعيم هتلر جميع الأموال المتحصلة من بيع كتابه المعروف « كفاحى » إلى أن تنتهى الحرب ويبت فى هذه الأموال ، فإما أن ترد إلى صاحبها أو إلى ورثته ، أو يتصرف فيها طبقا لشرعة العدل والإنصاف . ذلك مبلغ حرص أمريكا على حفظ حقوق هذا الزعيم الألمانى الذى أعلن عليها الحرب ، فما مبلغ حرصها على حقوق الشعب العربى الصديق الذى لم يبد نحوها إلا كل صداقة واحترام ؟ .

كان أول مظهر لاهتمام أمريكا بالشعب العربى هذا العام اقتراح قدم إلى مجلسى البرلمان الأمريكى يقضى بتحويل فلسطين إلى دولة يهودية ؛ كأن البرلمان الأمريكى قد فرغ من النظر فى شئون أعدائه من اليابان والألمان ، وقضى فى مصير أرضهم وديارهم ، فأخذ ينظر فى أرض الأصدقاء والحلفاء التى تمد جيوشهم اليوم بالبترول والزاد ، وبمختلف المساعدات القيمة ، فأخذ يتصرف فى تلك الأرض يمنحها اليهود لكى يقيموا فيها دولة .

ثم جاء الرئيس روزفلت نفسه ، فلم يرد أن يتحدث بنفسه ، بل أناب عنه حاخامين عظيمين لكى يعلنا للعالم أن الحكومة الأمريكية لم توافق على نصوص الكتاب الأبيض . ولا ندرى كيف غاب عن الرئيس وعن حاخاميه الفاضلين ، أن الكتاب الأبيض وثيقة ترجع إلى ما قبل هذه الحرب ، تعهدت بمقتضاها الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على فلسطين ، أن تسلك فى انتدابها على الأرض المقدسة سياسة خاصة . تعهدت بهذا أمام العالم العربى ، وأمام عصبة الأمم ، وأقرها على هذه

(*) راجع خلاصة المقالين فى المصرى (١١/٣/٤٤) .

السياسة البرلمان البريطاني ؛ ولم تكن أمريكا في ذلك الوقت عضواً في عصبة الأمم ، وليس لها صلات ببلاد الشرق الأوسط ، وهي ناعمة هادئة في عزلتها التي أحبتها واختارتها . فلم يكن من المعقول أن تدعى حكومتها للموافقة أو عدم الموافقة على كتاب وعهد لا يمسها من قريب ولا بعيد . وليس لها شأن به ولا بما جاء فيه .

وكثير من المتحدثين من فلسطين في أمريكا يخرجون اهتمامهم بأمرها بعطفهم على اليهود الذين تعرضوا في هذه الحرب لويلات كثيرة ، وينادون بضرورة فتح أبواب فلسطين على مصاريعها للاجئين منهم ، ومساعدتهم على الانتقال إلى هذا القطر . وليس من شك في أن العالم كله ناقم على تلك القوى الشريرة التي أثارتها هذه الحرب ، وكان من جرائها أن أصيب كثير من الطوائف والشعوب بالتشريد والتعذيب ، وأنزل الويل والثبور بساحة جماعات بريئة ، ليس لها في هذه الحرب جريرة اقترفتها . ولكن هذا المصير الأليم ليس مقصوراً على اليهود وحدهم ، فقد عم شعوباً وجماعات عديدة ، عانت في هذه الحرب أشد الويلات ، ولم يبد أولو الأمر في أمريكا اكتراثاً بهم وبمصيرهم ، وبما يعانون من ضروب العذاب ، بل قصروا عطفهم ودعايتهم على اليهود ، ونادوا بأنه يجب إرسالهم إلى فلسطين وحدها دون سائر أقطار العالم . ومن العجيب حقاً أن أولئك الكتاب والقادة الأمريكيين ، لم ينادوا بفتح أبواب أمريكا نفسها لهؤلاء اللاجئين ، وأمريكا تزيد في المساحة والثروة بنحو ألف مرة على قطر فلسطين .

ونحن مضطرون في هذه الحال لأن نستنتج أن ليس الغرض الصحيح من كل هذه النداءات والتصريحات إغاثة الشريد ومساعدة الملهوف ، وإلا لأمكن إيواء اللاجئين بسهولة في أقطار واسعة فسيحة بدلا من فلسطين التي نالت قسطها — بل وفوق قسطها — من الهجرات اليهودية ، والتي أصبحت اليوم تضيق عن قيها . ولا نستطيع أن نتحدث عن الغرض الحقيقي الذي تسعى نحوه السياسة الأمريكية ، لأننا لا نريد أن ندلي بحكم في أمر لم يتح لنا الإلمام بدخائله ، وليس يستحسن أن نحكم بالظواهر وحدها .

ولقد أسرفت الدعايات الأمريكية في أمر الهجرة إلى فلسطين إسرافاً يوشك أن يسيء إلى الحكومة والشعب الأمريكي أبلغ الإساءات . فلقد طالعنا بالأمس تصريحاً خطيراً من حاكم ولاية نيويورك ، ولعله أن يكون أحد المرشحين للجمهورية الأمريكية هذا العام ، ينادي فيه صراحة بأن حكومته يجب أن تتخذ الإجراء اللازم للضغط على بريطانيا لكي تعدل عن سياسة الكتاب الأبيض . فهل درى حاكم ولاية نيويورك ما هذا الكتاب الأبيض الذي ينادي بتمزيقه؟ ألم يدر بخلده أن هذا الكتاب يتضمن عهداً قطعته دولة محترمة على حريتها ومن تلقاء نفسها ، وتقيدت به أمام العالم كله ؟ فإذا كان مما يستبيحه حاكم نيويورك أن تحنث الدول بمواثيقها وتنقض عهدها فلم كانت كل هذه الحرب ، ولم كان كل هذا التشهير بألمانيا ناقضة العهود ، وممزقة المعاهدات ؟

لقد قيل في تفسير الظاهرة العجيبة في السياسة الأمريكية أنها راجعة إلى أن هذا عام الانتخابات ، وكل شخص حريص على إحراز أصوات اليهود . وإننا لا يسعنا إلا أن نرجو أن يكون هذا القول صحيحاً ، فإن أسفنا عظيم على أن يكون النظام الديمقراطي دافعاً الناس إلى الإدلاء بهذه الآراء الفجة ؛ ولكن أعظم منه ألف مرة أسفنا على أن تكون أمريكا دولة تتنكب مختارة عن شرعة العدل والإنصاف !!

محمد عوض محمد

تركيا الحديثة

نهضتها الصناعية

كيف كانت الأحوال الاقتصادية في تركيا قبل قيام الجمهورية ، وما التركة التي خلفتها الإمبراطورية العثمانية الراحلة لأتاتورك في الصناعة والتجارة ؟ كان النشاط الاقتصادي أجمع مقصورا على الأجانب ومن هم في حكم الأجانب من الأقليات المتجنسة بالجنسية العثمانية كالأرمن واليونانيين ، وكانت البلاد متأخرة في الصناعة والتجارة فلم يكن بها من الصناعات سوى قليل من النسيج اليدوى لسجاد بلاد الأناضول ، وعمل الفخار والقرميد ببعض الجهات ، ومصانع صغيرة للقطن ، وجهد ضعيف لاستخراج الفحم من مناجمه على سواحل البحر الأسود ، وصناعة كيماوية ضئيلة ، وقليل من « الورش » المختلفة المحدودة الإنتاج ؛ أما صادرات البلاد فكانت لا تعدو الدخان والفواكه ، وكان تصديرها بيد رجال الأعمال الأجانب .

وكانت المرافق العامة الرئيسية في المدن الكبرى كالترام والتليفونات والمياه والغاز والكهرباء ، وأحواض ترميم السفن بالبسفور ومرفأ أزمير ، كلها بيد الأجانب ويغلب أن يكون هؤلاء من الفرنسيين أو الإنجليز أو منهما معاً .

وكان البيت المالي ذو المركز الممتاز في البلاد هو البنك العثماني ، وهو مؤسسة يسيطر عليها الإنجليز والفرنسيون ، وكان له أثر بعيد المدى في امتداد النفوذ الأجنبي ، فقد ربط مالية البلاد بمالية إنجلترا وفرنسا ، ومن طريقه تسربت الديون الخارجية الأجنبية التي اقترضتها تركيا من الدول ، وهو الذي كان يقوم بأهم الأدوار في المفاوضات بشأن مقاولات الأشغال العامة التي مكنت إنجلترا وفرنسا من إنشاء سكك حديدية في البلاد تابعة لها ، وهو الذي كان يتولى إغراق البلاد بمختلف الشركات الأجنبية التي تستغل محصولات البلاد الزراعية والصناعية وتفوز منها بنصيب الأسد في الأرباح ، وهو الذي كان له الشأن الأكبر في إيجاد مصلحة الدين العثماني التي كانت تؤثر تأثيرا عظيما في سياسة البلاد .

فالعبء الذي تلقته الجمهورية على كاهلها كان عبئاً ثقيلا ، والتركة التي تسلمتها كانت تركة ضعيفة مثقلة بالديون . وكان عليها أن تحيي الموات وتعوض ما فات البلاد خلال قرون طويلة سادها التقصير والعجز والإهمال ، وتخلق في أسرع وقت صناعة قومية قوية تكفي البلاد حاجتها ، كما كان عليها أن تغزو الأجانب في هذا الميدان الذي انفردوا به ، وتنتزع منهم معاقلهم وحصونهم التي اعتصموا بها في قلب البلاد . وبغير ذلك لا يتحقق الاستقلال الصحيح للبلاد وتظل عرضة لتكرار المآسي التي كانت تحدث في الماضي ، والتي كانت أخطر عامل في ضعف الإمبراطورية العثمانية وانحلالها .

سارت الجمهورية في الإنعاش الصناعي على مرحلتين : الأولى في السنوات العشر الأولى من قيامها ، أي الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٣ ، والمرحلة الثانية في السنوات الخمس التالية ، أي من سنة ١٩٣٣ إلى ١٩٣٨ .

فأما المرحلة الأولى فكانت سياسة الحكومة فيها أن تترك الصناعة حرة للجهود الخاصة ، وأن تشجع هذه الجهود أكبر تشجيع بشتى الوسائل ، فجعلت للمنشئات الصناعية مزايا كبيرة تتمتع بها ، وتزداد هذه المزايا كلما كبرت هذه المنشئات واتسعت ؛ وكانت تهب المصانع الأرض التي تقام عليها بلا مقابل ، أو تبيعها إياها بثمن زهيد يسدد على آجال طويلة ، كما كانت تقدم لها المساعدات في بنائها ؛ وأعفت المصانع من كثير من الضرائب ، وخفضت رسوم الجمارك على ما تستورده من الخارج من آلات أو خامات لازمة للصناعة . وإذا قيس حال الصناعة في آخر تلك السنوات العشر بما كانت عليه قبل بدايتها ، عد نجاح هذه السياسة باهراً ، فقد اتسعت أعمال التعدين والصناعات الخاصة بإنتاج الأغذية والصناعات التي تستخدم المحصولات الزراعية في البلاد ، وصناعات النسيج ، والصناعات الخشبية . وارتفع عدد العمال سنة ١٩٣٣ إلى

٦٢٠٠٠ عامل ، وكان سنة ١٩٢٣ نحوالى ١٧٠٠٠ عامل وهذا عدا من يعملون فى الصناعات الصغيرة ويبلغ عددهم نحو ربع مليون .

وفى هذه المرحلة التى يصح أن تسمى مرحلة التشجيع لم تشترك الحكومة فى الصناعة اشتراكا فعليا إلا فى حالات محدودة ، فقد كان لها منذ سنة ١٩٢٣ عدد صغير من المصانع ، أهمها مصنع للأحذية ، وثلاثة مصانع للملابس ، وكلها قريبة من استانبول ، وكان يدير هذه المصانع بالنيابة عن الحكومة بنك يسمى بنك الصناعة والتعدين ؛ واضطرت الحكومة لأن تتولى إنشاء مصانع لتكرير السكر ، لما رأته من أن البلاد تعتمد اعتمادا كليا على ما تستورده من الخارج من هذه المادة ، مع أن بالإمكان إنتاج المحصولات الزراعية التى يستخرج منها فى البلاد ، لهذا أنشأت مصنعين لتكرير سنة ١٩٢٦ أعقبتهما بآخرين بعد ، فكان للحكومة فى سنة ١٩٣٣ أربعة مصانع لتكرير السكر تكفى لإنتاج نصف ما تستهلكه البلاد منه .

أما المرحلة الثانية التى بدأت سنة ١٩٣٣ فهى مرحلة الاقتصاد المدبر والخطة المرسومة ، والاعتماد على جهود الدولة لا على جهود الأفراد والهيئات الخاصة . وتسمى هذه المرحلة برامج السنوات الخمس للصناعة . وقد دفع الحكومة لهذه الخطوة أن السياسة التى سارت عليها فى إنعاش النهضة الصناعية فى المرحلة الأولى ، وهى سياسة إطلاق الحرية للجهود الخاصة فى أمر الصناعة وتشجيع المؤسسات الصناعية ، مع تكملة النقص بإنشاء بعض مصانع حكومية متواضعة ، هذه السياسة مع نجاحها النسبى كان سيرها بطيئا لا يحقق التطور الصناعى القوى السريع الذى تنشده الحكومة ؛ فكان لا مفر من أن تنزل الحكومة بنفسها إلى الميدان ، وتتولى بنفسها رسم خطة واسعة شاملة للصناعة القومية تقوم على تنفيذها فى خمس سنوات تبدأ من سنة ١٩٢٣ . وقد يكون مبعث هذا العزم القوى وهذا الاتجاه الجديد فى مهمة الحكومة هو ما شاهدته من نجاح تجربة مماثلة فى جارة متاخمة لها ،

فقد كان نجاح الجمهورية السوفيتية فى برامج السنوات الخمس حافزا لها على أن تنهج فى بلادها مثل هذا النهج ، ومن المحقق أن هذه السياسة الجديدة لقيت تشجيعا من السوفييت ، واستطاعت تركيا أن تعقد قرضا بمبلغ ستة عشر مليونا من الجنيهات التركية أو نحو ثمانية من ملايين الدولارات الذهبية تستعين به على تنفيذ البرنامج .

أما البرنامج فكان ينصب على تحقيق غرضين : الأول إنشاء صناعات تقوم بإنتاج المواد اللازمة للاستهلاك المحلى ، والثانى إنشاء الصناعات الأساسية التى تقوم عليها كل الصناعات ، والتى تمد البلاد بوسائل الإنتاج ، وحدد البرنامج صناعات الاستهلاك التى ستنشأ فى الأصناف الآتية : المنسوجات على اختلاف أنواعها من قطنية وكتانية وصوفية وحريرية ، والورق ، والزجاج ، والصينى ، أما الصناعات الأساسية فهى : الفحم والكوك والحديد والمواد الكيمياوية والنحاس والكبريت ؛ وقد أدخل على الخطة بعض التنقيحات أثناء التنفيذ ، فأضيف إلى هذه المواد الأسمنت . ولما تقدمت الحكومة بالبرنامج أعلنت أنها عند تناول تفاصيل المشروعات وضعت نصب عينها أمورا ثلاثة ، الأول : أن يكون إنتاج المصانع وعددها واتساعها بالقدر الذى يكفى مطالب الاستهلاك فى السوق المحلية ، فلا يبذل أى جهد أو وقت أو مال فيما زاد على ذلك ، ولا تفكر الحكومة فى إنتاج بضائع تصدر للخارج وتنافس فى الأسواق الخارجية صناعة أمم أسبق وأرسخ قدما فى هذا المضمار ؛ والثانى أن تقوم الصناعات المستحدثة على استخدام خامات البلاد من قطن وخشب وحديد وفحم وكبريت ورخام ؛ والثالث أن تنشأ الصناعات التى تعجز الجهود الخاصة عن إيجادها على وجه ناجح .

وقدر لتنفيذ هذا البرنامج أكثر من أربعين مليون جنيه تركى ، وهو مبلغ يزيد كثيرا على ما اقترض من اتحاد السوفييت . ولهذا أسست الحكومة سنة ١٩٣٣ لتمويل هذه المشروعات والإشراف على تنفيذها وإدارتها بنكا جديدا سمته « بنك سومر » حل محل بنك الصناعة

والتعدين القديم ، وحدد اختصاص هذا البنك في قانون إنشائه فيما يلي :

«أن يدير المصانع الحكومية التي تسلمها من بنك الصناعة والتعدين ، وأن يقوم عن الحكومة بنصيبها في الإشراف على المؤسسات الخاصة التي تساهم فيها الحكومة ، وأن يعد التقارير والخطط اللازمة لكل مشروع جديد في الصناعة تكلفه الحكومة درسه ، وأن يتولى تلك المشروعات وإدارتها ، وأن يساعد بقدر ما تسمح به طاقته المالية كل المشروعات الصناعية التي يكون في وجودها نفع للاقتصاد القومي» .

ولم يكن المال هو الصعوبة الوحيدة التي واجهت الحكومة عند البدء في تنفيذ برنامج السنوات الخمس ، فقد كانت تعتزم أن تتم في خمس سنوات مشروعات اقتضى تنفيذها أكثر من خمسين سنة في أمم غربية عريقة في الصناعة ، ولم يكن لديها كفايتها من الخبراء الفنيين ولا من العمال الحاذقين ، وكان الشعب التركي حديث عهد بالاشتغال في المصانع على الأسلوب الحديث ، ووسائل المواصلات كانت عقبة أخرى لا يتيسر معها نقل المواد والبضائع إلى حيث تنشأ المصانع ؛ ومع هذا كله فقد سارت الحكومة قدما في سبيل تنفيذه وذللت كل تلك الصعوبات .

وقد روعي في اختيار مواقع المصانع عدة اعتبارات ، فلم يقتصر على مراعاة قربها من مصادر المواد التي تستخدم في الصناعة وسهولة المواصلات معها ، بل رأى بنك سومر كذلك أن ينشر الصناعة في مختلف أرجاء البلاد ، وألا يركزها في جهات بعينها فيخلق بذلك مدنا مزدحمة بالمصانع والسكان كما هو الحال في انجلترا مثلا . ولعل بعض الاعتبارات الحربية أملت ضرورة هذا الاختيار ، ولكنه كان اختيارا موفقا ملائما لظروف البلاد من ناحية أخرى . فقيام المصانع في قلب الأقاليم الزراعية يسهل للمزارعين الجمع بين الزراعة والصناعة فيشتغلون بالصناعة حين لا تحتاجهم الزراعة ، وبذلك يزداد إيرادهم ويرتفع مستوى عيشهم ولا تفتقر المصانع إلى الأيدي العاملة . وكان أظهر نجاح في برنامج السنوات الخمس في صناعة المنسوجات ، فزاد عدد المغازل من ٧٢٠٠٠ مغزل في سنة ١٩٣١ إلى ١٨٩٠٠٠ مغزل في سنة ١٩٣٨ . والمصانع التي أنشأتها الحكومة مصانع ضخمة بنيت على أحدث طراز ، وألحق بها مساكن للموظفين والعمال ، وأفرد للعزاب منهم بناء خاص ، وللمتزوجين مساكن خاصة تعطى لهم بأجر زهيد ، كما ألحق بالمصانع مستشفيات ومقاصف وملاعب وسينما ومتنزهات وحمامات للسباحة وأندية للخيل ، وأكبر مصانع الغزل الحديثة في قيسارية ، وبه ٣٣٠٠٠ مغزل ، ويشتغل به ألفا عامل على نوبتين ، يشتغل كل فريق ثماني ساعات .

أما الطائفة الثانية من صناعات الاستهلاك التي تم تنفيذها خلال السنوات الخمس تحقيقا لبرنامجه ، فهي : مصانع الورق والزجاج والخزف ، وبنيت أكثرها بالقرب من استانبول ؛ وقد افتتح حديثاً في أزميت مصنع للورق ، أعد على أحدث طراز ، وإنتاجه وحده يكفي نصف استهلاك البلاد ، ويعتمد على مواد تنتج محلياً عدا السيلولوز الذي يستورد من الخارج إلى أن يتم إنشاء مصنع له وهو بسبيل أن يتم . وفي بصابغجه بالقرب من استانبول شرع في إنشاء مصنع للزجاج ينتج سنويا خمسة آلاف طن ، وهو يقرب من نصف استهلاك السوق التركية . والصناعة الوحيدة التي لم تخط الحكومة خطوة فعلية لتنفيذها من برنامج السنوات الخمس هي الأدوات الصينية .

وتم كذلك تحقيق الجزء الثاني من البرنامج ، وهو القسم الخاص بالصناعات الأساسية أي الحديد والفولاذ والمواد الكيميائية ، فأنشئ مصنع الكبريت في قيسرلو سنة ١٩٣٥ ، وهو ينتج سنويا نحو ٤٠٠٠ طن من زهر الكبريت ، ويجرى الآن إنشاء مصانع لحامض الكبريتيك بالقرب من زنجلداك ، وللكلور والصودا الكاوية بالقرب من أزميت ؛ وأنشئ مصنع للإسمنت في سيفاس . ومع أهمية هذه المواد فإن مستقبل تركيا الصناعي يتوقف في النهاية على مبلغ تقدم الصناعة الضخمة . وهناك مركزان عظيمان اختيرا لذلك : الأول زنجلداك على ساحل البحر الأسود ، والثاني قرابوق على بعد نحو مائة ميل منها في الداخل ، ففي زنجلداك حيث مناجم الفحم

ينتج سنويا نحو سبعين ألف طن من الانتراسيت ، وفى قرابوق مصانع للحديد والفولاذ تعتمد عليهما الحكومة أكبر اعتماد فى تحقيق خططها المرسومة لتقدم الصناعة .

وإلى جانب « بنك سومر » قام « بنك اش » أو البنك التجارى ، وهو مؤسسة مستقلة شبه حكومية ، وقد عاون فى البحث عن مصادر الفحم فى زنجلداك وفى بناء مصنع الانتراسيت هناك ، وتولى تمويل صناعة تكرير السكر التى قربت من إنتاج ما يغطى كل الاستهلاك المحلى ، ونظم كذلك حركة التأمين على الحياة وقد كانت من قبل بيد الأجانب .

ومما أعدت الحكومة خطته فى برنامج ثلاث سنوات من سنة ١٩٣٧ التنقيب عن مصادر الثروة المعدنية فى البلاد واستغلالها ، وقد أسست الحكومة لذلك أيضا بنكا هو « بنك إيتى » يقوم فى التعدين بمثل ما قام به بنك سومر فى الصناعة .

وفى البلاد مصادر ثروة معدنية واسعة ، ولكنها لم تعرف تماما ، ولم تستغل استغلالا كاملا إلا بعد قيام الجمهورية ، فقد كان الفحم يستخرج فى زنجلداك منذ قرن ، ولكن الإنتاج السنوى كان غير منتظم ، ولم يزد على نصف مليون طن ، وفى سنة ١٩٢٣ كان حوالى ٩٠٠٠٠٠ طن ؛ أما فى سنة ١٩٣٧ فقد بلغ إنتاجه ٢٣٠٠٠٠٠ طن ، وارتفع فى السنة التالية إلى ٢٥٠٠٠٠٠ طن ، ولا يزال مقدار الانتاج مع هذا قليلا بالنسبة لسعة موارد هذه المناجم ، وسيزداد كثيرا بعد إدخال آلات قطع الفحم الحديثة ، وتدريب العمال على المهارة فى ذلك . وأحسب الحكومة قد أتمت إدخال هذه التحسينات ، وأنها تنتج الآن بالفعل ما يزيد على ذلك كثيرا .

كذلك تقدم استخراج كثير من المعادن تقدما واضحا وزادت أهميتها فى السنوات الخمس عشرة الماضية ؛ وعلى سبيل المثال نذكر أن ما يصدر من الكروم سنويا ارتفع من ٣٤٠٠ طن فى سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٢٠٠٠ طن سنة ١٩٣٧ ، وإنتاج الليجنيت ارتفع من ٤٦١٠ طنا سنة ١٩٢٥ إلى أكثر من ١٠٠٠٠٠ طن سنة ١٩٣٨ . ويشرف على أمر المناجم وفحصها هيئة الدرس والبحث عن المعادن وهى هيئة حكومية قوية ، ودلت مباحثها على أن بالبلاد عدا الكروم كثيرا من الحديد والرصاص والخارصين والنحاس . ويقوم بنك ايتى الآن بالعمل فى ثلاثة مناجم للنحاس بالجهة الشرقية ، وكانت أعمال التعدين قبل قيام الجمهورية بيد شركات أجنبية فرنسية وألمانية وإنجليزية ، وقد تم لبنك ايتى فى برنامج السنوات الثلاث شراء حصص كل هذه الشركات ، وجعلها ملكا للحكومة التركية تتولى إدارتها بنفسها .

كذلك عهد لبنك ايتى بترقية مصادر الطاقة بالبلاد ، ووضع لتحقيقها مشروع سنوات أربع ؛ وقد تم التعاقد على إنشاء محطة كبرى لتوليد الكهرباء فى سنة ١٩٤٠ ، وعملت مباحث عن البترول ، وفى ربيع سنة ١٩٤٠ فتحت آبار للزيت فى الجنوب الشرقى بالقرب من سبيرت ، ويظن أن إنتاجها مع نصيب تركيا من زيت الموصل ، سيسد حاجتها من هذه المادة .

وبالضرورة كان لا بد من تحسين كبير فى طرق المواصلات تماشى هذه النهضة الصناعية الواسعة . وقد قامت الحكومة بجهد كبير فى ذلك ، فأنشأت سككا حديدية متعددة ، تصل المراكز الصناعية الجديدة بمختلف الجهات التى ترتبط بها هذه الصناعة ، كما حسنت طرق السيارات فى أكثر أنحاء البلاد ، وسارت على سياستها الأساسية فاشترت ما كانت تملكه الشركات الأجنبية منها .

وفى سنة ١٩٣٨ أعدت الحكومة برنامجا صناعيا لأربع سنوات يقوم على أساس التوسع فى الصناعات الثقيلة ، وزيادة إنتاج المواد المستهلكة ، ومواصلة النشاط فى كشف المصادر المعدنية واستغلالها ، وتحسين ما بدأته فى طرق المواصلات . وجاءت الحرب العظمى فقطعت سير هذا البرنامج ، واضطرت الحكومة لتعديله ، وجعل المثابة الأولى للصناعة التى تمليها الضرورة الحربية .

ويطول بى الكلام إذا أخذت فى الحديث عن مالية البلاد ونظامها للصرف ، وحسبى أن أقرر أن الحكومة نجحت نجاحا كاملا فى خطتها ، وحررت البلاد من النفوذ الاقتصادى الأجنبى ، وأنها نشطت نشاطا كبيرا فى استغلال مواردها جميعا .

***

شاعر بنى مروان

عبد أسود ، أبوه وأمه نوبيان ، نصح له شيطانه فى الشعر فلقّنه أحسن المديح وأحسن النسيب ، فأفرغ مدائحه على طائفة من أمراء بنى أميّة وخلفائهم مثل عبد العزيز بن مروان وأخيه بشر وسليمان بن عبد الملك وأخويه يزيد وهشام ، فحبوه وكسوه وأحلوا له مجلسه وأحسنوا جائزته .

قرأت جملة من أخباره فى الأغانى فشغلنى النظر فى محاسن عقله من النظر فى محاسن شعره .

تناهى إلينا من صورة هذا العبد أنه كان أسود ، صدعاً ، خفيف العارضين ، ناتئ الحنجرة ، لم يروا قط مثله ولا أشدّ سواداً منه ، وتناهى إلينا من لباسه أنهم لم يروا أنقى ثيابا منه ولا أحسن زيا ، كان يُرى فى بزة جميلة ، وكانت ثيابه فى بعض الأيام قبصاً قوهيا ورداء وحبرة.

هذا كل ما وقع إلينا من ظاهر شكله ولباسه ، ومن نكد الدنيا على هذا العبد أن يضرب عينيه فيرى الفرزدق وجريراً وكثيراً والأحوص والكميت وذا الرمة وغيرهم ، فكان الجو غير خال له ، سد الأفق عليه شعراء كبار ، فاستطاع بفصاحته وتخلصه إلى جيد الكلام وشعره الرقيق وثنائه الأبيض أن يفتح أبواب هذا الأفق ، وأن يجارى ويزاحم من حوله من الشعراء ، ولكن الله تعالى اختصه بشىء آخر غير الفن ، فلم يبخل عليه بمسحة من العقل ، فعاش بفنه جليل القدر فى عيون الأمراء والخلفاء وعاش بعقله راشد الأمر فى دنياه .

هذا العبد نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان .

أول آية من آيات عقله أنه لما قال الشعر كان شاباً ، فأعجبه قوله وهذا شأن كل شاعر فى صدر أمره ، ولكن نصيباً لم تغره هذه الفتنة ، فقد خاف أن يعرض على الناس شعره فيسخروا منه ، إما لأنه عبد أسود ليس له هيبة فى العيون ، وإما لأن الناس لا يعجبهم من شعره ما يعجبه ، فما الحيلة وهو يريد أن يعرف مبلغ شعره من القلوب ؟ كان يأتى مشيخة من مواليه وينشدهم القصيدة من شعره ثم ينسبها إلى بعض شعرائهم الماضين ، فإن استحسنوها نشط إلى الشعر وإن استقبحوها كف عنه ، ومن محاسن حظه أن الشيوخ الذين كان يأتيهم كانوا أصحاب ذوق سليم فى الشعر ، فكانوا يقولون له : أحسنت ! هكذا يكون الكلام ، وهكذا يكون الشعر ! فنشأت بهذا القول ثقته بنفسه ، وطمأنينته إلى شعره ، ولكنه على الرغم من هذه الثقة كان الشك يخامره فى شعره ، فلا بد له من الرجوع إلى غير من رجع إليهم ، فلم ير من حوله أنصح له من أخته أمامة ، قال لها : أى أخيه ! إنى قد قلت شعراً وأنا أريد عبد العزيز بن مروان ، وأرجو أن يعتقك الله به وأمك ومن كان مرقوقاً من أهل قرابتى ، إلا أن أخته كانت عاقلة جلدة ، فلم يعمل فيها هذا الكلام وخافت على أخيها السخرية منه ، فقالت له : إنا لله وإنا إليه راجعون ! يا ابن أم ! أتجتمع عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة للناس ! فلم يجد نصيب مندوحة له بعد هذا الكلام عن أن يسمعها شعره ، فلما أنشدها وسمعت هذا الشعر استحسنته وقالت له : بأبى أنت ! أحسنت والله ، فى هذا رجاء عظيم ، فاخرج على بركة الله .

خرج نصيب على قعود حتى قدم المدينة فوجد بها الفرزدق فى المسجد ، فعرج إليه ، لأنه لا يزال أثر من الشك فى قلبه على الرغم من نصيحة الشيوخ ونصيحة أخته ، فلا بد من معرفة رأى الفرزدق فى شعره ، عرج إلى الفرزدق وعرض عليه شعره ، فقال له الفرزدق : ويلك ! أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك ، قال : نعم ! قال الفرزدق : فلست فى شىء ، إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل .

كيف كانت حالة نصيب بعد سماع هذه الشهادة ، انفضخ المسكين عرقاً ، وانكسر قلبه ، ولكن الله

ما أراد أن يمحو اسم نصيب من الشعراء والعقلاء ، فقد حسبه رجل من قريش كان قريباً من الفرزدق وقد سمع إنشاده وسمع ما قاله له الفرزدق ، فأومأ إليه ، فقام إليه نصيب ، فقال له الرجل : ويحك ! أهذا شعرك الذى أنشدته الفرزدق ، قال : نعم ! فقال : قد والله أصبت ! والله لئن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك ، فإنا لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسرنك !

يعلم الله مقدار السرور الذى دخل على قلب نصيب بعد كلام هذا القرشى ، لقد انقطع كل ظن سيئ بشعره بعد هذا الكلام ، ووقرت فى نفسه ثقته بشعره ، فليس له بعد تكامل هذه الثقة إلا الخروج إلى الأمراء والخلفاء وإفراغ المدائح عليهم .

أجل ، هذا أول مظهر من مظاهر عقله ، لم يتهور نصيب فى فاتحة حياته ، وإنما استعمل عقله وربما أفرط فى استعمال هذا العقل ، ولكن المسكين لم يفرط عبثاً ، فكأنه كان يعلم أنه إذا قدم مصر لمدح عبد العزيز بن مروان وحضر بابه مع الناس فلا بد للقوم من أن يزدروه ويطردوه من الباب وينحوه عن مجلس الوجوه حتى يكون وراءهم ، وإذا دخل على عبد العزيز بن مروان فلا بد لعبد العزيز من أن يصعّد فيه بصره ويصوبه ، ثم يأمر بالسرير فيبرز للناس ويدعو بالأسود وهو يريد أن يضحك منه الناس ، فكأن نصيباً كان يحس بهذا كله ، فلم يشأ الإقدام على الإنشاد قبل التوثق من جودة شعره ، وقد هيأ الله له أمراء بنى أمية وخلفاءهم ، فعرفوا قدره ومنزلته فليزاحم الفرزدق وكثيراً ، ولينقد الكميت وذا الرمة .

ولئن دله عقله على التوثق من بدء النجاح فى الحياة فلقد دله هذا العقل على الرشد فى الحياة كلها حتى استمر نجاحه من أول أمره إلى خاتمته . وكأنه كان يشعر بحسن عقله فعرف قدره ولم يتعدّ حدّه ، فقد نظر إلى الحياة نظرة الفيلسوف الذى لا يطلب فيها إلا هدوء البال ، فلم تنزع به همته إلى شيء من مناصب الدنيا ، مثل منادمة الخلفاء أو غير ذلك ، وإنما كان يكفيه من هذه الدنيا عيش ناعم وفكر هادئ ؛ وأية نعمة أعظم من هذه النعمة ! فقد دخل على عبد الملك فتغدى معه ، ثم قال له عبد الملك : هل لك فيما نتنادم عليه ؟ فقال نصيب : تؤمننى فقعل ، فقال : لونى حائل وشعرى مفلفل ، وخلقتى مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياى بشرف أب أو أم أو عشيرة ، وإنما بلغته بعقلى ولسانى ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تحول بينى وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك فأعفاه عبد الملك .

وكما عرف قدره فى باب الأمراء والخلفاء عرف قدره فى أموره كلها فلم يخرج عنه ، فقد كان له ابن خطب بعد وفاة سيده الذى أعتقه بنتاً له من أخيه فأجابه إلى ذلك وعرّس أباه نصيبا ، فقال له نصيب : اجمع وجوه الحى لهذا الحال ، فجمعهم ، فلما حضروا أقبل نصيب على أخى سيده فقال : أزوجت ابنى هذا من ابنة أخيك ؟ قال : نعم ، فقال نصيب لعبيد له سود : خذوا برجل ابنى هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً ، ففعلوا وضربوه ضرباً مبرحاً ، وقال لأخى سيده : لولا أنى أكره أذاك لألحقتك به ، ثم نظر إلى شاب من أشراف الحى ، فقال زوج هذا ابنة أخيك ، وعلىّ ما يصلحهما فى مالى ، ففعل .

ولم يكن فى ظلال النساء أشد منه اشتطاطا فى ظلال الخلفاء ، فقد قيل له مرة إن ههنا نسوة يردن أن ينظرن إليك ويسمعن منك شعرك ، فقال : وما يصنعن بى ؟! يرين جلدة سوداء وشعراً أبيض ، ولكن يسمعن شعرى من وراء ستر .

ولم تظهر أمارات عقله فى تصرفاته وحدها ولكنها ظهرت فى جوابانه أيضاً ، وافى الحج قادماً من الشام فى بزة جميلة ، فدخل على صديق له وهو يأكل مع جماعة فيهم كثير ، فدعوا نصيباً إلى الغداء فأكل مع القوم ، فرفع كثير يده وأقلع عن الطعام ، وأقبل القوم جميعاً على

كثير يسألونه أن يأكل، فأبى، فتركوه، وأقبل كثير على نصيب فقال له: والله يا أبا محجن إن أثر أهل الشام عليك لجميل، لقد رجعت هذه الكرة ظاهر الكبر، قليل الحياء فقال له نصيب: لكن أثر الحجاز عليك يا أبا صخر غير جميل، وإنك لزائد النقص، كثير المماقة!

وقال له مسلمة يوماً: أنت لا تحسن الهجاء، فقال: بلى والله! أتراني لا أحسن أن أجعل مكان: عافاك الله، أخزاك الله، قال: فإن فلاناً قد مدحته فحرمك فاهجه، قال: لا والله، ما ينبغي أن أهجوه، وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته، فقال مسلمة: هذا والله أشد من الهجاء.

ومن كانت هكذا جواباته فلا خوف عليه إذا عيروه العبودية، فإنه يعرف كيف يدفع كلامهم، قال قائل له: أيها العبد، ما لك وللشعر؟ فقال: أما قولك: عبد، فما ولدت إلا وأنا حر، ولكن أهلي ظلموني فباعوني، وأما السواد فأنا الذي أقول.

وإن أك حالكاً لوني فإني بعقل غير ذي سقط وعاء

* * *

هذا يسير من عقل نصيب، شاعر بني مروان، فهل بلغ كثير منا معاشر البيضان من جودة التصرف في الفعل وفي القول ما بلغه هذا العبد، أحد عقلاء السودان!

(دمشق) شكيب جابري

ضغط الدم

عزيزي رئيس تحرير مجلة الثقافة:

جاء في عدد «الثقافة» الماضي تحت العنوان المتقدم، وهو بغير إمضاء، ما يلي:

«ولكل إنسان ضغطا دم يؤخذ أحدهما حين يضرب القلب بأقصى قوته، وهذا يقرب من عمر الإنسان مضافاً إليه مائة، أي يكون ١٤٠ لمن عمره ٤٠ سنة . . . أما الآخر فيؤخذ حين يسترخي المرء ويستريح القلب الخ».

وأظن أن الصواب فيما كتب كاتبكم الكريم هو ما يلي: إن دم الإنسان له حقاً ضغطان، ولكنهما ليسا على ما وصفتم، فهذان الضغطان واقعان متلاحقين في كل دقة من دقات القلب. فالقلب ينقبض فيدفع الدم في الجسم فيزيد ضغطه في الشرايين فيبلغ مثلا ١٣٠، ومعنى هذا ١٣٠ مليمترا من الزئبق فوق الضغط الجوي. ثم يعود القلب فينبسط فيقل الضغط في الشرايين، كأن يبلغ مثلا ٨٠، ومعنى هذا ٨٠ مليمترا من الزئبق فوق الضغط الجوي. ويسمى الضغط الأول وهو الأكبر ضغط الدم الانقباضي systolic ويسمى الضغط الثاني وهو الأصغر ضغط الدم الانبساطي Diastolic. وهذان الضغطان يتناوبان باستمرار في الدقيقة الواحدة عددا من المرات كعدد دقات القلب. وهما واقعان على أي حال كان الإنسان، صحا أو نام، جاع أو شبع، استراح أو تعب، تصلب أو استرخى. أحمد زكي

حول البترول الذاهب

عالج الدكتور أحمد زكى بك فى افتتاحية العدد الماضى هذا الموضوع بأسلوب الأديب البارع فكان موفقاً كل التوفيق . ولكنا لاحظنا أنه اقتضب الجزء الأخير من البحث الذى أطلق عليه اسم «الجانب الأقل اسوداداً» ؛ ولعله يتكرم فيعود للبحث مرة أخرى ليبين لنا أولا مصير أربعة أخماس البترول الذى فى الآبار التى يستخرج منها الزيت فى الوقت الحاضر ، هل هذا المقدار الهائل تمتصه الرمال ، أم هو يمضى من خلالها فيتسلل إلى عمائق أخرى يستطيع الإنسان أن يتتبعه إليها وينقض عليه فيها فيرفعه إلى سطح الأرض ؟

كذلك لعله يوضح لنا ثانياً كيف أنه مع تقدير أهل الفن احتمال وجود البترول فى مساحة أكثر من نصف أرض الولايات المتحدة ، كيف أنه مع هذا التقدير قد نشأت فكرة اقتراب موارد الزيت بالولايات من الفناء . تلك الفكرة التى فزع الناس منها وأثارت فى الرأى العام الخوف بل الهلع . إن الإنسان لا يستطيع أن يوفق بين هذه المخاوف وتلك التقديرات ، اللهم إلا إذا افترضنا أن تلك الصيحة العالية المنذرة بفناء الزيت كانت بمثابة دعاية سياسية ، تتخذ تكأة : المبادرة بالاستيلاء على زيت بلاد العرب واستثماره .

ومهما يكن من أمر فإن البحث وراء الزيت فى نصف أرض الولايات المتحدة ، ومحاولة استرداد أربعة أخماس الزيت التى التهمتها الرمال فى الآبار الحالية ، كل هذا سيتكلف نفقات طائلة ، وسيكون من أثره أن الزيت الذى سيستخرج بهذه الكيفية سيكون أغلى ثمنا ، كما أن الزيت الموجود فى الآبار الحالية سيرتفع سعره كلما نضب معينه واقتربت نهايته .

أفلا يكون جديراً بالعالم فى مثل هذه الحالة أن يعير اهتماما لمحاولات استخراج البترول من المنتجات الزراعية ومن فضلات الحقول ومن بعض الحشائش ؟ نعم إن مثل هذه العمليات تتكلف كثيراً مما يجعل الزيت المستخرج منها غالى الثمن إلى حد كبير ، لكن كل صناعة جديدة تكون فى مبدأ أمرها عظيمة التكاليف ، فإذا هذبت وحسنت قلت تكاليفها بالتدريج ، حتى إذا وضعت موضع الإنتاج على نطاق واسع انخفض رقم التكاليف كثيراً .

وإذا كان صحيحاً أن البنزين الصناعى يكلف ألمانيا أربعة أمثال ما يتكلفه البنزين المستخرج من الآبار الطبيعيـة ، فإن الموقف يكون مليئاً بالأمل ذلك لأن المواد التى تستخدمها ألمانيا هى وأجر العامل فيها كثيرة النفقة ، بحيث لو أجريت نفس العمليات فى غيرها من البلدان (كالبلدان الشرقية) حيث المواد الخام رخيصة وأجور العمال قليلة نسبيا فإن تكاليف الإنتاج تهبط إلى حد كبير .

واستخراج البنزين صناعياً ليس قاصراً على ألمانيا ، بل إن هناك فى الولايات المتحدة محاولات عدة لهذا الغرض ، وقد قرأنا أن بحوثا تجرى فى هذا الصدد بمعهد كرنيجى التكنولوجى على يد الأستاذ الدكتور إرنست بيرل . فهناك تحت سماء بيتسبرج المجللة بالدخان استطاع هذا العالم ، الذى كلل الشيب رأسه ، أن يحاكى الطبيعة ، وأن يحدث ، بالاستعانة بالحرارة والضغط العالى ، فى ساعة واحدة ما تحدثه هى فى ملايين السنوات . وقد هيأ بذلك عمليات تمكن الإنسان من الحصول على ما يريده من الجاسولين باستخدام المحاصيل الزائدة على الحاجة وبعض الأعشاب ، وجميع فضلات النبط بل أية مادة تحتوى الكاربوايدرات .

أفلا يرى الدكتور أحمد زكى بك أن هذه العمليات التى يجريها الدكتور بيرل وأمثاله فى الولايات المتحدة ، والعمليات التى يستخدمها الألمان فى استخراج البترول

مخلّفات الخشب

إن المنتجات الخشبية أى الأثاث والأدوات وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخشب لا تتجاوز فى مقدارها ثلث الخشب المكون للأشجار التى قطعت لتصنع منها تلك المواد الخشبية ، أما الثلثان الباقيان فيضيعان هدرا ويذهبان هباء فى اللحاء (القشر) وفى النُشارة والنُساحة ، وفى القِطَع الصغيرة التى تتخلف فى الأطراف ، وعند تشكيل الخشب على الصورة المطلوبة ، إلى غير ذلك .

وقد كانت أغلبية هذه المتخلفات لا ينتفع بها إلا فى الحريق فى بعض المصانع والأفران بنسب ضئيلة ، أما الباقى فكانت تضيق به مصانع الخشب ذرعا ، وتعد لحرقه حفرا وأفرانا خاصة تشتغل ليلا ونهارا لتخلص المصنع من هذا الحمل الثقيل .

أما اليوم فقد تغيرت الحال وأصبحت تلك الفضلات الخشبية على جانب عظيم من الأهمية ، وقل بالتدريج ما يحرق منها ، وأصبحت تستخدم فى الصناعات فتستحيل إلى مواد نافعة كما سنبينه بعد ، بحيث أصبح استخدام مثل تلك الفضلات فى الحريق ، حتى فى مصانع الخشب نفسها ، سفها اقتصاديا ، ولما تفضل هذه المصانع أن تشترى وقودا آخر لتنتفع بتلك المخلفات الخشبية انتفاعا يدر عليها ربحا وافرا .

خذ مثلا لذلك النشارة التى يستحيل إليها نحو١٣٪ من الكتل الخشبية التى تتولى قطعها ونشرها الآلات المخصصة لذلك ، هذه النشارة التى كان تراكمها يضايق مصانع الخشب كما قدمنا ، قد اكتشفت لها استعمالات قيمة ، فمنها أمكن صنع حامض الأكساليك ، وحامض الخليك ، والكحول المثيل ، والأثيل ، وسكر الخشب .

وحديثا أخذت طرق إنتاج سكر الخشب والكحول تلفت النظر ، فهناك عدة عمليات صناعية لاستخراج هاتين المادتين من نشارة الخشب وغيرها من متخلفاته ، وقد تقدمت هذه العمليات فى ألمانيا منذ الحرب العالمية الماضية حتى أصبحت من مقومات الإنتاج لهاتين المادتين فيها . وقد فر كثير من رجال تلك الصناعة من ألمانيا ولجئوا إلى الولايات المتحدة حيث وضعوا تجاربهم تحت تصرف البلاد التى أووا إليها . ومن هذه الطرق والعمليات ما نشأ فى الولايات المتحدة من أول الأمر وكان محل دراسة وتعليق واهتمام .

خذ مثلا آخر اللحاء (القشرة) فلم يكن يعرف أحد له فائدة تهم إلا استخدام بعض أنواعه من قديم الزمان فى استخراج العفص المستعمل فى الدباغة ، وفيما عدا ذلك كان يلقى به فى المهملات ؛ إلا أنه منذ عامين أو ثلاثة خطر ببال أحد رجال صناعة الخشب الأحمر فى كاليفورنيا أن يستخدم من الفحم ، أفلا نرى فى ذلك كله ما يقضى إلى الأبد على ما يهدد العالم من قحط فى زيوت الوقود ؟! بل ويفتح لنا ، نحن البلاد الزراعية بصفة خاصة ، سوقا جديدة مربحة لتصريف جميع الفضلات الزراعية وما أكثرها عندنا .

وهل لنا أن نؤمّل حقا فى أنه سيأتى علينا حين من الدهر يدخل المرء فيه إلى المعمل يحمل قدرا من الأعشاب ، فيخرج منه بقدر من الجاسولين ؟! وإذا حدث هذا بالفعل فهلا يكون فيه غنى من محاولات مد الأنابيب الزيتية عبر القارات ، ويجنب ما تسبب هذه العمليات من صراع دولى عنيف ، على مسرح السياسة العلنية ومن وراء الكواليس على أيدى ممثلى الدول العظمى ؟!

لعلنا نظفر من الدكتور أحمد زكى بك بكلمة شافية فى هذا الصدد .

أ . ى

لحاء هذا الخشب فى صنع مادة عازلة ، وسخر لذلك بعض الباحثين من الكيميائيين ليحققوا له غرضه ، وقد ابتكروا بالفعل عملية يفتتون بواسطتها هذا اللحاء بالفرقعة وتم لهم بها ما أرادوا تحقيقه .

إلا أن الطريف فى المسألة أنهم حصلوا بصفة عرضية غير متوقعة على نتاج ثانوى آخر ، وهو أليـاف قد أمكن استخدامها فى النسيج ، وقد فحصت عينات القماش الذى أمكن إنتاجه بخلط هذه الألياف القشرية مع بعض أنواع الصوف بنسبة تتراوح بين ٢٥ إلى ٥٠ فى المائة من الأول وبين ٧٥ و ٥٠ فى المائة من الثانى — فحصت هذه العينات فوجدت من حيث الدفء كالمنسوجات الصوفية الخالصة ، وهى تمتاز برخص ثمنها ؛ وقد اهتمت الحكومة الأمريكية بهذه النتيجة أكبر اهتمام لتستعين بهـا فى حل مشكلة كساء الملايين من جنود الجيش .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الصوف الخالص الذى تنتجه أمريكا الشمالية والجنوبية سنويا يبلغ وزنه نحو مليون ونصف مليون من الأرطال ، بينما إذا استخرجت الألياف اللحائية التى يحتويها كل الخشب الأحمر الذى يستخدم فى صنع الألواح الخشبية ، وحولت إلى نسيج فإنها تضيف إلى مادة النسيج الخام بأمريكا سنويا ما زنته نحو ١٢٠ مليونا من الأرطال .

هذا عن تحويل متخلفات الخشب إلى مواد أخرى نافعة . وهناك طرق عملية ابتكرت للانتفاع بالخشب من غير تحويل فى مادته ، وإنما بإحداث تحويل فى صورته بواسطة الضغط العالى .

ففى إحدى هذه العمليات تسحق النشارة والمساحة والقطع الصغيرة حتى تصير مسحوقا ناعما يزج به بطريقة ميكانيكية فى جهاز يعرضه لضغط يبلغ نحو عشرين ألف رطل على البوصة المربعة ، فيحيل هذا المسحوق الناعم إلى كتل كثيفة متماسكة ، تكون فى الغالب على شكل قوالب أسطوانية قطرها نحو أربع بوصات ، وطولها نحو ١٢ بوصة ، تستخدم وقودا جيدا فى مواقد التدفئة بالمنازل ومواقد الطبخ وغيرها ، بدلا من الفحم ومن الخشب العادى .

وهذه القوالب تمتاز بسهولة تناولها ونظافتها ، وقلة الرماد المتخلف عن احتراقها ، ويصدر عن الرطل منها من الحرارة ما تبلغ قيمته مابين ٨٠٠٠ و ١٠٠٠٠ من الوحدات الحرارية (B. T. U.) . وبالولايات المتحدة عدة مصانع لهذه القوالب ، وعليها طلب كثير ، لأن الناس تتهافت على استخدامها لمزاياها تلك .

وفى عملية أخرى يحول الخشب وفضلاته بالضغط إلى ألواح وصفائح صلبة جامدة قوية تستخدم فى البنـاء ، ويستهلك منها سنويا ملايين من الأقدام المربعة ، أغلبها يبلغ سمكه ½ البوصة ، وإن كان من السهل لم الطبقات بعضها فوق بعض ، حتى تتكون الشرائح المطلوبة من أى سمك يراد .

وهذه العملية بدأت كغيرها من العمليات بقصد استخدام المتخلفات العادمة التى كانت تتراكم فى المصانع التى تشتغل فى خشب الصنوبر ، ولكنها قد اتسعت الآن اتساعا عظيما ، بحيث يجلب لها الخشب الخـام بدلا من الاقتصار على مخلفاته ؛ ولذلك فإن أصحاب تلك المصانع يطالبون ويشجعون زرع الغابات ليضمنوا على الدوام موارد خشبية لصناعتهم .

وفى هذه العملية أيضا يفتت الخشب قطعا صغيرة ، وهذه القطع تتعرض لفرقعة بواسطة ضغط البخار (البالغ ١٠٠٠ رطل على البوصة المربعة) فيحيلها إلى ألياف رفيعة متناثرة ، تنظف وتكرر ، ثم تكبس تحت تأثير الحرارة والضغط فتتحول إلى شرائح أو صفائح كما قدمنا .

من منبر الشرق :

كتابة العصا

فلنستأنف حديثنا من منبر الشرق . . . بعد فترة طويلة .

إلى حضرة الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام المحترم .

سيدي وسندي :

لعمري قد راعتني المحاضرة التي ألقيتموها في الجمعية الجغرافية أخيراً عن نشأة الخط العربي وتأريخه وتطوره أثناء العصور الإسلامية ، وكم آسفني أن ظروفاً حالت بيني وبين حضور محاضرتكم الثانية التي كان أعربتم فيها عن إيمانكم الوثيق بتفوّق الخط العربي على الخط اللاتيني للعبارة عن مزايا اللغة العربية من جهة ، وبصلاحيته للإصلاح في رسمه وشكله من جهة أخرى . وليس مصادفة أن هاتين المحاضرتين تقعان في هذه الأسابيع التي تثور فيها المناقشة في جميع المحافل والمجالس حول مشروع عُرض على هيئة علمية ذات وقار في إبدال الخط العربي بالخط اللاتيني ، أو على الأقل بخط يعالج الحركات معالجة الحروف بوضع تلك على مستوى هذه ، على غير ما هي عليه في الخط العربي خاصة وفي الخطوط السامية عامة ، حيث تكون نسبة الحرف إلى الحركة فيها كنسبة الجسم إلى النفس . ولا يتسع هنا المقام لدخولي في هذه المناقشة .

قد سردتم في محاضرتكم الأولى الأطوار المختلفة التي مرت بها الكتابة الإنسانية قبل أن تصل إلى الخط الأبجدي أو خط الحروف ، وأظهرتم ما كان في ابتكار خط الحروف من العبقرية ، إذ أنقذ تسجيل اللغات المختلفة بل أكثرها من أيدي الكهنة الأفراد أصحاب أسرار وخدع المخاريق ، وأداء صالحاً للاستعمال تحت قدم كل من أحسن نيته في تعلّم ثلاثين علامة كتابية فأقل . ونبهتم عند ذاك إلى الآثار الكتابية القديمة التي كشفت عنها حفائر الحافرين ، والتي وسعت معرفتُها بل حلُّ رموزها نطاقَ ذكر الإنسانية بماضيها . وذكرتم الخطوط الفونيقية وما اشتق منها من الأبجديات الآرامية فالسريانية فالتركية القديمة فالسنسكريتية فالفارسية القديمة والمتوسطة ، هذا إلى الشرق ، وأما إلى الغرب فاليونانية وبعدها اللاتينية ، ومنها كل الخطوط الغربية الحديثة . فكأن ابتكار مبتكر وحيد فتح العالم بحذافيره ، وأهدى إلى الإنسانية جمعاء آلةً تعرب بها عن أفكارها وأحلامها .

وأذكرتم بهذه المناسبة ما أورده أصحاب الأثنولوجيا — أو كما أردتُ أن أجيبهم أصحاب المباحث الشعوبية القبائلية — من القصص الطريفة في شأن ما يدعى عندهم كتابة العصا ، تلك الكتابة السرية التي يقال عنها إنها تستعمل إلى اليوم عند بعض القبائل في قلب إفريقيا أو أميركا . ومبدؤها أن تلف عصا الراعي بسيور من الجلد متلاصقة « ليّاتها » بعضها ببعض ، حتى تكسو العصا بتمامها ، ثم يكتب عليها ما يقصد به إخبار الغير ، ثم تزال تلك السيور عن العصا ، ولا تردّ إلى وضعها الأول إلا عند وصول الرسول إلى من يؤدي إليه رسالته السرية . هكذا قول أصحاب الأثنولوجيا ، وفي الحديث لا شك طرافة ، ولكن أطرف من هذا أن أجدادكم من أدباء العرب قد عرفوا كتابة العصا حق معرفتها ، ووصفوها وصفاً ليس وراءه من دقة .

قد أتيحت لي الفرصة مراراً أن أتحدث عن كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لأبي عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني ، وأن أنقل منه بعض النصوص ، ولا سيما تلك النصوص التي يتكلم صاحبها فيها عن الحروف العربية وأخطارها وحاجتها إلى الإصلاح ، وعن خطوط سائر الأمم من الحميرية والفارسية والعبرية والسريانية واليونانية والرومية (كذا) والقبطية والبربرية والأندلسية

والهندية والصينية شارحاً كل واحد منها على سعة طاقته ومعرفة أهل زمانه .

ونقلت أيضاً من كتاب حمزة ذلك الاقتراح الرائع الذي أورده باسم معاصره أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ الكندي في إصلاح الخط العربي حتى يصبح صالحاً لتجنب التصحيف أولا ، وللعبارة عن أصوات اللغات جميعها على مختلف مخارجها ثانياً . وقد أورد حمزة بهذه المناسبة وصفه الدقيق لما سموه وسماه هو كتابة العصا ، مما يدلنا على أن هذه الكتابة السرية ليس حيّزها ودائرة استعمالها بعض القبائل الهمجية حديثاً ، بل كان استعمالها شائعاً عند الفرس القدماء وأساساً من أسس إدارتهم لبلادهم .

قال حمزة : « . . . وكانت للفرس كتابة أخرى تسمى كتابة العصا حكاها الشلمغاني[1] ولم يعرفها المتوكلي[2] فسمعت بكرا الأقليدسي يقول : سألت الشلمغاني عن معنى هذين البيتين :

أي كتاب بالطيّ نعرفه وعند ضم تبين أحرفه

والنشر مما يزيل صورته وكتبنا كلها تخالفه

فقال : هذا نعت كتابة العصا ، وكانت كتابة لملوك الفرس ، يودعها الأسرار التي يخاطب بها خواصّ عمالها في بلدان أعمالها . ولم يكن بخط بمداد ولا يجري مجراه ، وإنما كان يعمد إلى جلد أبيض فيقد منه سيرا طويلا ثم يعمد إلى عصا القبيج[3] أو السكاري ، فيلف السير عليها ويضم حروف السير بعضها إلى بعض ، ثم يدعو بمسامير فتركب في سير على العصا كي يتماسك ، ثم يكتب عليه ما يخاطب العامل به . وإذا فرغ من الكتابة سلت المسامير وكشف ذلك السير عن العصا ، فكان لا يبين منها إلا نقط متفرقة ، ثم يلف السير ويجعل كالطبق ويقال للقبيج أو السكاري : إذا نزلت منزلا فضع طعامك عليه ليوهم أنه طبق طعامك . فيكون هذا دأب الرسول إلى أن يبلغ إلى حضرة المكتوب إليه ، فحينئذ يرد لف السير على العصا كما كان رسم به ، بأن يجعل الثقب التي في السير تجاه الثقب التي في العصا ويشد المسامير في الثقب ، ثم يضعها عند المكتوب إليه . فهذا هو الكتاب الذي إذا طوى وضم بعضه إلى بعض أمكنت قراءته ، وإن نشر زالت صورته ، فتعذرت قراءته .

« ثم سألت عنها أحمد بن علي البرقي[4] المتكلم فقال : نعم هذا صحيح ، وأخذ درجا من الكاغد بين يديه فكسر منه شيئاً بورقتين وضم أثناءه بعضها إلى بعض ، ثم كتب عليه شيئاً يقرأ ثم نشره وبسطه ، فصار في كل موضع من الورقتين كالعلامة والنقطة ، فقال هذا هو الكتاب الذي وصفه قائل البيتين .

« قال بكر (يعني الأقليدسي) : ولم أدر واحدا من المعنيين ، ولا خطر لي ببال . ولكني مررت بصحّاف عنده مجلد فنظرت إلى حروف الأوراق الممسوحة بالسيف وقد كتب عليه كتاب كذا وكذا ... فكان هذا يقرأ مادام منضاما ، فإذا نشر وتباينت الأوراق صارت الكتابة كالنقطة والعلامة في حروف الورق فهذا الذي أردته » .

فهذا الذي أردته . وياليت كتاب حمزة وفق بعناية ناشر له حسب المخطوطات العديدة التي سردتها في « الثقافة » عدد ٢٢٣ ، لأنه لا يمكن استيعاب الثروة الثقافية والعلمية التي يحويها في مقالات وجيزة من منبر الشرق .

أرجو أن تكونوا راضي النفس مطمئن الضمير موفوري العافية . وتفضلوا بقبول أصدق تحياتي وأطيب أماني .

باول كراوس

(١) هو أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن العذاقر الكاتب من غلاة الشيعة الذي صلب في سنة ٣٢٢ وكان من أصحاب ابن أبي العون الكاتب المشهور صاحب كتاب « التشبيهات الفرقية » راجع عنه معجم الأدباء ج ١ ص ٢٩٦ وما يليها وكذلك فهرست ابن النديم .

(٢) هو زرادشت بن آزر خور المعروف بالموبذ المتوكلي الذي كتبت عنه في « الثقافة » عدد ٢٢٥ معتمدا على كتاب التصحيف لحمزة الأصفهاني وغيره من المصادر .

(٣) كلمة فارسية معربة أصلها باذق ، أو ينفق أي الماشي أو الجندي .

(٤) من متكلمي الشيعة المشهورين .

سقوط مملكة إشبيلية

ومحنة بني عباد

لما انهارت دعائم الخلافة الأموية بالأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري ، وقامت على أنقاضها دول الطوائف كانت دولة بني عباد في إشبيلية أقوى الدول الجديدة وأعظمها شأناً ؛ وكان أمراء الطوائف في شقاق مستمر ، يقاتلون بعضهم بعضاً ، وينتزع القوي منهم أملاك الضعيف ، ويحالفون النصارى بعضهم على بعض ؛ وكان الأمراء النصارى يرحبون بهذه الفرص للتفريق بين الأمراء المسلمين ، وإضعاف شوكتهم ، ثم إخضاعهم وانتزاع أراضيهم تباعاً . ولم يشذ بنو عباد عن هذه السياسة الخطرة ، فمذ قام عميدهم ومؤسس دولتهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد في إشبيلية ، اتجهت أطماعهم إلى محاربة جيرانهم المسلمين وانتزاع ما في أيديهم ، واشتبك أبو القاسم ، ومن بعده ولده أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد بالله ، في سلسلة من الحروب الطاحنة مع أمراء غرناطة ومالقة وقرطبة انتهت باستيلاء بني عباد على قرطبة وقرمونة واستجة وما حولها من الأراضي ، واتسعت بذلك مملكة إشبيلية وغدت أعظم قوة في جنوب الأندلس .

وخلف المعتضد بالله ولده أبو القاسم محمد (سنة ٤٦١هـ) ؛ وتلقب بالمعتمد على الله والظافر بحول الله ؛ وكان المعتمد من أعظم ملوك الطوائف إن لم يكن أعظمهم جميعاً ، وقد اشتهر بخلاله الباهرة من البراعة والشجاعة والفروسية والجود والبذخ ، كما اشتهر برفيع أدبه وروائع نظمه ، وكما اشتهر بمحنته وخاتمته المؤسية ؛ وفي عهده سطعت مملكة إشبيلية وكادت تميد ببهائها وفخامة بلاطها مجد قرطبة الذاهب

ولكن هذا البهاء الخلب كان يغشاه كدر الشقاق المستمر بين الإمارات الإسلامية ؛ وكان المعتمد بالرغم من ذكائه وفطنته يرى نفسه مضطراً إلى سلوك نفس المنحدر الخطر الذي انساق إليه أبوه وجده من قبل في سبيل السيادة والملك ؛ ولم ير بأساً في سبيل تحقيق أطماعه أن يمالئ ملك قشتالة على إخوانه المسلمين ، وأن يتعهد له بدفع الجزية ؛ وكان ملك قشتالة يومئذ أميراً وافر العزم والدهاء هو ألفونسو السادس ، وكان يعمل بكل ما وسع للضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، ويؤلب بعضهم على بعض ولا يضن على حلفائه منهم بعونه وتأييده ؛ وكان المعتمد بن عباد ، يرى في جيرانه بني ذي النون أمراء طليطلة أشد خصومه خطراً عليه ، ويسعى جهده إلى إسقاطهم وسحق دولتهم ؛ وقد نشبت بينه وبين يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون عدة وقائع دموية ، فقد المعتمد خلالها قرطبة وقتل بها ولده سراج الدولة ؛ ثم عاد فاستردها ، وهو يضطرم وجداً وحنقاً ، ويزمع الانتقام من بني ذي النون بأي الوسائل . ولما توفي المأمون ، وخلفه ولده الضعيف القادر ، انتهز المعتمد هذه الفرصة فغزا أراضي طليطلة واستولى على كثير من أنحائها . على أنه لم يقتنع بهذا النصر الجزئي ؛ وكان جل همه أن تسحق مملكة بني ذي النون حتى يخلو له الجو في جنوب الأندلس وفي شرقيه ؛ ولم يكن يحول دون غايته سوى تحالف بني ذي النون مع ملك قشتالة . وكان ألفونسو السادس بالرغم من صداقته الظاهرة لبني ذي النون ، الذين آووه وأكرموا وفادته أيام محنته ، حينما هزمه أخوه سانشو ، واستولى على مملكته قبل ذلك بأعوام ، يضمر لهم في الواقع أخبث النيات ، ويتطلع إلى انتزاع مملكتهم المتداعية ، ولم يكن يخشى في ذلك سوى مناوأة ابن عباد وخصومته وعلى ذلك فقد سعى المعتمد إلى التفاهم مع ملك قشتالة ، وأوفد إليه وزيره الشهير ابن عمار ، وقد كان يومئذ أبرع ساسة الأندلس ، لمفاوضته ، وعقدت بين الملكين محالفة سرية ، تعهد فيها ألفونسو بمعاونة المعتمد على محاربة خصومه من الأمراء المسلمين أو النصارى ، وتعهد المعتمد من جانبه بأن يترك ألفونسو حراً في محاربة طليطلة والاستيلاء عليها ، وأن يؤدي له جزية الخضوع ؛

وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن المعتمد قبل أيضاً أن يقدم إحدى بناته زوجة لملك قشتالة ، وأنها حظيت لديه فيما بعد ، وتنصرت باسم الزابيث ، وأنجب منها ولداً هو سانشو الذي قتل حدثاً في موقعة « إقليش » . وهي رواية تحمل في نظرنا سيما الإغراق والبطلان(1) .

وتم لملك قشتالة ما أراد ، ولم يمض سوى قليل حتى استولى على طليطلة بعد حصار قصير (٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) وانتهت بذلك مملكة بني ذي النون ، وسقط أمنع معاقل الأندلس في يد أسبانيا النصرانية ؛ وشهدت الأندلس جامدة مروعة تلك الكارثة التي تنذرها بشر المصير ؛ وسرعان ما أدرك المعتمد بن عباد سوء تصرفه وفداحة الخطأ الذي ارتكبه . ذلك أن حليفه ألفونسو ، ما كاد يفتتح طليطلة حتى انقلب عليه يطالبه بالجزية ويطالبه بتسليم بعض الأراضي والحصون التي كانت تحت حكمه بحجة أنها تابعة لطليطلة ؛ وثار الخلاف بين الحليفين ، وتوعد ألفونسو المعتمد بشر العواقب . وشعر المعتمد بالخطر الذي يهدده من حليفه القديم ، وشعر أمراء الأندلس جميعاً بأن ملك قشتالة سوف يجتاح قواعدهم وأراضيهم كلها إذا لم يبادروا إلى الاتحاد والتضافر على قمع الخطر المشترك ؛ واجتمعت كلمتهم على توحيد القوى والخطط ؛ بيد أنهم رأوا أن قواهم المضعضعة لم تعد تكفي وحدها لدرء الخطر . وانتهوا بعد البحث والتشاور إلى وجوب الالتجاء إلى إخوانهم المسلمين في الضفة الأخرى من البحر ، ودعوتهم إلى إنجادهم وغوثهم . وهكذا استغاث ملوك الطوائف بعاهل إفريقية أمير المرابطين يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وكان المرابطون يومئذ في أوج سلطانهم وقوتهم ؛ واستجاب أمير المسلمين يوسف إلى نداء أمراء الأندلس ؛ وعبر إليهم في جيش ضخم ، وسارت قوى الإسلام المتحدة إلى قتال ألفونسو السادس ؛ والتقى الفريقان في « الزلاقة » ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وكانت من أيام الإسلام المشهودة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، وفيها استمد الإسلام حياة جديدة .

— ٢ —

وعاد يوسف إلى إفريقية بعد أن شهد أحوال الأندلس وأحوال أمرائها ، وأدرك هذا الأمير النابه الذي كان يؤثر العيش الخشن على ملاذ الملك ونعمائه ، أن الحياة الناعمة التي انغمس فيها أهل الأندلس هي التي قوضت منعتهم ، وفتت في رجولتهم وعزائمهم ، وأن الشقاق الذي استحكم بينهم ، والذي لم ينقطع من بعد عوده ، سوف يقضي عليهم جميعاً بلا ريب إذا تركت الأمور في مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء الجزيرة في أقرب وقت ؛ ومن ثم فقد اعتزم أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المتنابذين ، المترامين على أعتاب العدو في سبيل قتال بعضهم بعضاً .

وفي سنة ٤٨٣ هـ عبر يوسف إلى الأندلس المرة الثالثة برسم الجهاد ، وكان قد عبر إليها من بعد الزلاقة مرة أخرى ولكنه لم يقم يومئذ بغزوات ذات شأن ؛ وازداد سخطاً على أمراء الأندلس لما بدا من تقصيرهم في نصرته . ولما عبر المرة الثالثة كانت تحدوه نحوهم نيات خطرة ؛ وسار تواً إلى غرناطة فاستولى عليها ، وبعث بأميرها عبد الله بن بلكين سجيناً إلى أغمات ؛ ثم ألقى أوامره باجتياح قواعد الأندلس الأخرى ولا سيما إشبيلية إلى قائده سير بن أبي بكر ، وارتد إلى العدوة يجهز الجيوش والإمداد . وزحفت الجيوش المرابطية على معظم قواعد الأندلس وافتتحتها تباعاً ، وقتل جميع أمرائها أو أسروا ، وكان بين القتلى الأمير العالم الشاعر ابن الأفطس عمر المتوكل صاحب بطليوس وولداه ؛ وسار سير بن أبي بكر بنفسه إلى إشبيلية ؛ وأدرك المعتمد بن عباد أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ؛ واستغاث بحليفه ألفونسو السادس

(1) هذا ما ترجمه بعض الروايات الكنسية واللاتينية الأسبانية ، وقد أشار إليها المؤرخ الألماني أشباخ في كتابه : « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » ؛ وتراجع في ١ ص ٣٨١ من الأصل الألماني .

فأمده بجيش كبير ، ولكن المرابطين هزموه على مقربة من قرطبة ؛ واشتبك المعتمد في قواته بالمرابطين في عدة مواقع ؛ ثم ارتد إلى إشبيلية وامتنع بها لما شهد من تفوق المرابطين عليه في الكثرة والأهبة ؛ وشدد المرابطون الحصار على إشبيلية ؛ وسقطت في تلك الأثناء قرطبة في يد المرابطين ، وقتل فيها المأمون ولد المعتمد مدافعاً عنها . ثم سقطت رندة ، وأسر فيها ولده يزيد الراضي بالله ، وقتل بالرغم من العهود التي قطعت بتأمينه ؛ وشعر المعتمد بالأمل يغيض في نفسه شيئاً فشيئاً ، ولكنه استمر على مقاومته حتى اقتحم المرابطون إشبيلية عنوة ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً ؛ واستقبلهم المعتمد في خاصته على باب قصره يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، فاستولى المرابطون على المدينة ، وأسروا المعتمد وآله ، واحتووا على قصره وماله ومتاعه (٢١ رجب سنة ٤٨٤ هـ — سبتمبر سنة ١٠٩١ م) .

وهكذا سقطت مملكة بني عباد كلمح البصر ؛ وخبا نجمها الذي سطع حيناً في سماء الأندلس ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، في مناظر من الفروسة الرائعة تخلق بالأُلى شادوها ؛ ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . ومن الخطأ التاريخي ما تزعمه بعض الروايات من أن المعتمد سلم عاصمته إلى المرابطين بالأمان مختاراً[1] . والحقيقة التي تجمع عليها معظم الروايات الإسلامية ، والأندلسية بنوع خاص ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية وأخذوها عنوة في مناظر رائعة من التخريب والسفك ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة في الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، حتى اقتحم الأعداء قصره ، وأسروه . وقد انتهت إلينا في ذلك رواية شاهد عيان هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة شاعر المعتمد وصديقه ، فهو يصف لنا في كتابه « نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية » مناظر سقوط إشبيلية التي شهدها بنفسه في قوله :

(١) ينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن إشبيلية سلمت للمرابطين بالأمان (ص ١٠١) ولكن ابن الأثير (ج ١ ص ٦٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠٤ و ٤٠٥) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) ، والفتح بن خاقان في قلائد العقيان (ص ٢١ ، ٢٢) والمراكشي (ص ٧٧) والمقري في نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٠٣) يتفقون جميعاً على أنها أخذت عنوة . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٤٩ ، ١٥٠ طبعة جديدة) .

« إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب في الأمر الواقع ، واتسع الخرق فيه على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره ببادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وترامية على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة في البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ؛ وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ...[1] »

ووصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ومعاصرهم تقريباً منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه في تلك العبارات القوية المؤثرة : « ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) ، والموت يتسعر في ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه وحسامه يعد عشاقه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم في رحبة القصر ، وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا ، وملأتهم فرقا ، وما زال يوالى عليهم الكر العاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره ، واستمسك به يومه وليله ، مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته ... »[2]

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه في وصف ذلك اليوم

(١) نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٠٣) .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ في ترجمة المعتمد بن عباد ؛ وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاماً .

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعلىّ تبعته وحدى ... ... »

حديث المال !

حديث الأدب في هذا الأسبوع هو حديث المال ! في الصحف والمجلات ، وفي البرلمان ، وفي الأندية العامة ، وفي المجالس الخاصة — لم يكن للناس حديث إلا حديث المال . ولم يكن هذا الحديث الذى شغل الناسّ واستأثر بتفكيرهم في هذا الأسبوع ، مقصوراً على طائفة من أهل الرأى دون طائفة ؛ فقد كان له من عناية أهل الأدب والاجتماع مثل ماله من عناية أهل السياسة ورجال الاقتصاد ، واستمع الناس إلى رأى طه حسين إلى جانب ما استمعوا من آراء على الشمسى ، وإسماعيل صدقى ، ومكرم عبيد ..

... وكان حديث المال ، في هذه الفترة ، خليقاً بهذه العناية ، حقيقاً بما استأثر من تفكير أهل الأدب والاجتماع ، ومن أهل السياسة ورجال الاقتصاد ؛ لا لمكانة المال من حياة النـاس ، فلم تزل للمال مكانته منذ كان ؛ ولكن لمكانة مصر ، ذلك البلد الذى يعيش ٩٧ في كل مائة من أهله ، عالةً على ما يتصدّق به ٣٪ ... وإنه مع ذلك ليزعم أن له حق الحياة !

بلى ، ليس حديث المال في هذا البلد حقاً موقوفاً على إسماعيل صدقى ، وعلى الشمسى ، وريفيه قطاوى ، وأحمد عبود ، والبدراوى عاشور ، لأنهم وحدهم الذين يملكون المال ؛ فإن كل فرد من هذه الملايين التى تعيش في ذلك الوادى لأكثر حقاً في التحدث عن شئون المال من كل أولئك ؛ لأن هذه الملايين لا تملك من المال ما تقوم به أسباب الحياة ؛ والحياة هبة الله ، فمن حق كل حى أن يتسبب لحياته !

بلى ، وإنه إذا كان حقاً لكل فرد في هذه الأمة أن يتحدث عن المال ، وحسْبُه من المال الحديثُ عنه ، فإنه فرضٌ مفروض على كل ذى رأى من أهل الأدب أو من أهل الاجتماع ، أن يتحدث ، وأن يكتب ، وأن يوجّه الناسَ توجيهه إلى ما يرى ، حتى يعتدل الميزان وتتكافأ الكفتان ويستشعر كلُّ ذى حق حقه فيناله .

هذا مكان القيادة لمن يريد أن يبلغ بأمته مبلغاً !

عبرة الجوع !

أرأيت إلى حديث النـاس عن أخلاق هذا البلد ؟ أعنى حديثَ المصريين عن أنفسهم ...

يقولون : إن مصر ليس لها خُلق عام ، فأشخصها فرداً فرداً تعرف لكل فرد من أهلها خُلقَه الذى يتعامل به مع الناس إن عرفت ، ولكنك لن تعرف لهذه الأمة في مجموعها خُلقاً عامًّا تتميّز به شخصيتها ويتحدد معناها ؛ فثمة الكذب ، والزلفى ، والنفاق ، والوقيعة ، والأثَرة ، وما أشفق أن أحصى من سيئات ؛ حتى لا أرانى مبالغاً إن قلت : إنك لا تجد في جميع من تعرف من أهل هذا البلد اثنين يمكن أن يتعاونا على نفع عام ، إلا أن يكون لكل منهما وجهٌ فيما يعمل فإنه لينظر من ورائه إلى منفعة تناله ! ! .

هكذا يقولون ، وإنى لأزعم أنهم صدقوا .. ولكن ..

الشهود إذ يقول :

إن يسلب القوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ـص عن الحشا شئ دفوع
وبذلت نفسى كى تسيـ ـل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح إن المعتمد لما التجأ إلى قصره بعد سقوط حاضرته وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل في النجاة ، فكر في أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه وتقاه ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى جميع ولده ونسائه وآله .

(للكلام بقية) محمد عبد الله عنان

ولكني لا أتهمهم ؛ إن هذه الأمة لكريمة المعدن ، وليس من طبيعتها هذه الدنايا ، ولا هي جريمة أهلها ، ولكنها جريمة الجوع ! !

ماذا يفعل الجائع حين لا يجد سبباً إلى رزقه إلا أن يداهن وينافق ، وإلا أن يوقع بين الأخوين ، وإلا أن يخطف اللقمةَ التي تحميه وتقيم بنيه على الحياة ، وإلا أن يستذل ويستخذي ويتعبّد لمن لا يستحق السيادة ؟

لستُ أدافع عن هذه الدنيّات . ولستُ ألتمس العذر ، للرجل الكامل من الوقوع فيها ، ولكني أذكر الضعفَ الإنساني في سواد الناس ، وفي المجموع الذي تتألف من أفراده كلُّ جماعة تربطها رابطة الجنس أو رابطة الوطن — أذكر ذلك فأرثي لهذه الأمة التي حكم عليها أن تعيش في الحرمان والجوع ، ثم راحوا يعيبون على أبنائها ما يعيبون من أخلاق يبعث لهم بلقمة العيش !

هم يعيبون على أبناء هذه الأمة ما يعيبون ؛ فليعترفوا لهم بدءاً بحق الحياة ، وليجودوا عليهم عما حبسوا عنهم من رزق الله ، ثم ليمتحنوا أخلاقهم ما شاءوا ؛ يعرفوا من أي معدنٍ صيغَ هذا الشعب الكريم !

عيش الموظف :

وكان الموظف المسكين هو الهدف الذي تترامى إليه النبال من حيث لا يستطيع أن يتّقي ... فهل عرف أولئك الرامون كيف يعيش الموظف في هذه السنين وقبل هذه السنين ...

وهل تتبّع واحدٌ منهم خطاه ساعةً واحدةً في أول يوم من الشهر الكريم ، ليعرف بكم قرش يعود إلى داره في أول يومٍ من الشهر ، وكان منذ ساعة يملك العشرات من الجنيهات ؟ ...

وهل عرفوا كم موظفاً في الدولة يعيش لنفسه فليس له أخ ولا أخت ولا أم ولا زوج ولا ولد ، كلهم يقتضيه مرتباً في أول الشهر بحق الإنسانية أكثر مما تعطيه الدولةُ بحق العمل الدائب ، والجهد المضني ، والكرامة المبذولة طاعةً للرئيس وأصدقاء الرئيس ؟ ...

أحسبُهُم يعرفون مستيقنين أن ما يأخذه الموظف المسكين من خزانة الدولة لا يقبض عليه يده ، ولا ينفع به نفسه ، نفسه ؛ ولكنه رسول الأمانة ، يقبضها ليؤديها إلى أربابها بلا أجرٍ ولا مثوبة ، ليس له منها إلا فخر المعطي ، ورضا النفس بما يُعطي !

فهذه الملايين التي ترصدها الدولة في ميزانيتها كل عام للموظفين ، ليست هي حقّ الموظفين على ما أدّوا للدولة من عمل ، ولكنها حق أولئك الملايين من أبناء الشعب وبناته ، وآبائه وأمهاته ، وإخوته وأخواته ؛ إنها حق أولئك الملايين من الفقراء المعدمين الذين يكفلهم الموظفون ويؤوونهم ويفرضون على أنفسهم أن يعيشوا لهم ، وأن يبذلوا من أجلهم كل ما تمنحهم الدولة من أجر العمل الدائب ، والجهد المرهق والكرامة المبذولة طاعةً للرئيس وأصدقاء الرئيس .

بضعة وعشرون مليوناً للموظفين ! باهْ ! تلك ميزانية الدولة أجور ومرتبات ! ...

أرى هؤلاء اللاغين يثبتون على الرأي لو غيّرت الحكومةُ عنوان هذا الباب من أبواب الميزانية فسمّته بما كان ينبغي أن يُسمّى ولم تسمّه « باب الأجور والمرتبات » — لو سمّته « باب الإعانة والتموين » وإنه لكذلك وإن اختلف العنوان !

إن من حق هؤلاء الملايين الذين يكفلهم الموظفون أن يشبعوا من جوع ، وأن يكتسوا من عُرْي ، وأن يصحُّوا من مرض ، وأن تؤويهم دور صحية يستشعرون فيها طعم الحياة — من حقهم على الدولة أن تيسر لهم أسباب العيش ، وأسباب الكرامة الإنسانية ؛ ولهم على الدولة حق المواطن الحر في الأمة الحرة ، فلو لم يكفلهم أولئك الذين يكفلونهم من الموظفين لكان فرضاً على الدولة كفالتهم ، وطعامهم ، وكسوتهم ، ومأواهم ؛ فكم يكلّف الدولةَ هذا الواجبُ إن كان هؤلاء اللاغون يعترفون بحق كل مواطن على الدولة في أن تُيسّر له أسباب عيشه ؟

... فليحسبوا حِسْبتهم ، ثم لينظروا أي التقديرين أنفع لخزانة الدولة لو سمّيت الأشياء بأسمائها ، أم تراهم لا يعترفون بحق هؤلاء الأحياء في الحياة !

توزيع الثروة :

ويقولون : أوليس فى البلد فقراء مُعدمون من حقهم على الدولة أن يعيشوا ، غير أسرات الموظفين ومن يكفلون من الآباء والأمهات والإخوة والأخوات ؟

بلى ، فى البلد غير هؤلاء ، ملايين لا يبلغها الإحصاء ، من الفلاحين والأجراء والعمال والمنقطعين من أسباب الرزق — من حقهم على الدولة كذلك أن يعيشوا ، وأن يستشعروا طعم الحياة ، وأن يخلعوا عن أعناقهم آصار الذل والعبودية لعشرات ، عشراتٍ من أصحاب الملايين لا يعرفون هم أنفسهم فيم يجمعون هذه الملايين ولا يفكرون فى وجه من أوجه الانتفاع بها !

ولكن هؤلاء الملايين الذين لا يكفلهم موظفون فى الدولة ، ولا ينالهم كثير ولا قليل من «باب الأجور والمرتبات» — هؤلاء الملايين من المحرومين لا يصح أن يكون وجودهم وكثرتهم سبيلا إلى حرمان غيرهم ؛ وإنما ينبغى أن تفكر الدولة فيهم كذلك ، وأن تقوم منهم مقام الأب من بنيه ؛ أترى من حق أن أقول : ينبغى أن تقوم الدولة منهم مقام الموظف من أسرته ؟!

وإنما هى سبيل واحدة ، سبيل واحدة تتحقق بها العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، أعنى بين طبقتَى الشعب : الطبقة التى تملك ولا تُنفق ، والطبقة التى لا تجد ما تنفق ؛ الطبقة التى تملك كل مرافق الدولة ولا تزيد أفرادها على ٣٪ ، والطبقة التى تعدادها ٩٧٪ ولا تملك شيئا من أسباب الحياة ...

... هذه السبيل هى أن تضع الدولة نظاماً لجباية الضرائب غير نظامها ، نظاماً يجعل من حقها أن تحاسب كل ذى مال عن غلته ، ومن حاجته ، وعما يفيض ؛ نظاماً لا يفرض الضريبة على الرأس ، ولا على الفدان ، ولكن على مقدار الغلة ، وعلى ما فوق الحاجة ؛ ليستشعر كلُّ ذى مالٍ أن غناءه غِنى لأمته ، ويستشعر كل ذى خلة أن له حقاً على أمته ؛ فلا يَبْطَرُ الغنىُّ وبتأله ويأخذه سُعار المال فينسى الحلال والحرام ؛ ولا يذل الفقير ويتخفى ويتعبَّد لمن لا يستحق السيادة !

مركب الفقر !

ورأيت موظفاً عند ميدان السباق ، فى بزّة الأمير ، وهيئة السيد المتأمِّر ، وأناقة الوجيه الوارث ؛ وقال لى صاحبى الذى كنت أقص عليه من حديثى : فهذا موظف ، أتراك تزعم أن من حق مثله على الدولة أن تغدق عليه ، وأن تبذل له ، وأن ترصد له ثلث ميزانية الدولة ؟

قلت : فهذا واحد !

قال : ولكنى أعرف مئات مثله ، كلهم خفيف الظهر ، ليس وراءه ما يُعنّيه أو يحمل همه ، لا تلزمه نفقة أم ولا أب ولا زوجة ولا ولد ؛ بل إن منهم ذا الأب والأم ، أو ذا الزوجة والولد ، لا يُلزم نفسه معونتهم ولا بهم فى حاجة ؛ وإنما ينفق ما ينفق مما تمنحه الدولة لشهوته وهواه ، أو للأناقة والمظهر ؛ أفمن أجل هذا دفاعك ؟

... نعم وسيجد اللائمون بابا إلى القول فى مرتبات الموظفين حين يذكرون المئات من أمثال هذا الموظف السفيه ، وإنما صنَع هذا الموظفَ وزيّن له السَّفَه والإسرافَ أولئك اللائمون أنفسُهم ، إن هؤلاء المتبذّخين من أصحاب الثروات الذين يغشَون كل نادٍ ، ويتنعمون بكل منتَعم ، ويبذلون حيث كان ينبغى الإمساك ، ويُمسِكون حيث كان ينبغى البذل — هؤلاء المتبذّخين الذين يلومون هذا الموظف وأمثاله على ما يصنعون ، ويلومون الدولة على ما تعطيهم ، هم الذين زيّنوا له هذا السبيل بالقدوة ، وبالإغراء ؛ لا أقول إنهم دعَوه فأجاب ؛ ولكنى أقول إنه رأى مذهبهم فذهَب ، وكان به نوعٌ من «مركب النقص» أو «مركب الفقر» ، فأسرف ؛ ولو رأى لهم سبيلا إلى الجاه والسيادة غير التأنق فى اللباس والإسراف فى الزينة ، والتأمُّر فى السوق ، والتعالى على الفقر ، لرأوا منه غير ما رأوا ...

ألا ليت هؤلاء اللائمين المسرفين فى الملامة ، رَضُوا أن يعيشوا أسبوعاً من كل عام عيشة الموظف . إذن لكان لهم يومئذ رأى غير ما يرون اليوم . يا ليت ! قاف

امرأة وملاك !

— طاب صباحك يا آنسة فريدة !.. كيف أنت وعلم الأحياء ؟.

— بخير يا عزيزى وأنت كيف حالك مع القانون الرومانى فى أزمة الرومان !.

امتزجت ضحكاتهما وضاعت كدائرة واسعة فى الممر الفضى إلى السلم الكبير فى (البانسيون) الذى تديره أرمنية شمطاء كزة الأنامل شحيحة ، وافترقا إلى اللقاء فى المساء !.

كانت فريدة فتاة سمراء رقيقة الحاشية ، حلوة النكات ، مرحة طروبا كشكل فتيات الجنوب ! .. وكان صوتها رخيماً عذباً يتأرجح فى جمال أخاذ فى أوائل أو أخريات الليل عندما كانت تتعب من المذاكرة والدرس !

كانت تدرس الطب بشغف كبير ، وتعيش من إيراد طيب يردها من أمها فى ابتداء كل شهر .. وكان إحسان على العكس رجلا دائم التقطيب ، كثير الجد والرزانة ، على وجهه سيماء قلق دائم ، وكان منكفاً على دراسة القانون ينظر إلى الأمور بوجه مكفهر ... ومع ذلك فقد كانت الصحبة الطويلة ألفت بين قلبيهما ، وامتزجت خفة روح الآنسة فريدة بصرامة روحه وآلامه وبروده المشهود .

عادت فريدة فى المساء وكانت مرحة ضاحكة كشكل مرة ، وقبل أن تدخل غرفتها المنسقة بذوق فتاة مهذبة مثرية عرجت تسأل عن صديقها وتبلغه تحية المساء !

وكان إحسان مطرق الرأس يفكر ناسياً كل شىء .. وكانت الظلمات تغشى الغرفة والنور الضئيل يحتجب من النافذة الوحيدة المطلة على الشارع الفرعى ، قالت بصوت فيه رعدة الفرح : وماذا بعد يا صديق ؟ .

— لاشىء يا عزيزتى ... إنها خواطر الحياة ! .

— ليس هذا .. إنى أقرأ فى عينيك كآبة عميقة ، قل لى يا صديقى أية عاصفة خيالية تجتاح قلبك الملىء بالأحلام ؟!

— لم تعد لى أحلام يا آنسة فريدة ... إنى أسبح الآن فى ضباب خانق ... إن حياتى تبدأ طريقها المجهولة ولا أدرى كيف سأرى النور ... وكيف أصل النهاية !

— أبهذه القسوة ؟ تعال معى يا صديق .. تعال إلى غرفتى لأدلك على أشياء جميلة ... إن غرفتى مليئة بالأضواء ، وهناك روائح عميقة تملأ سماءها . إنها غرفة شعرية لفتاة تقضى وقتها بالتشريح ورائحة الأدوية .. هم معى .. إنى أقودك إلى واحة مرحة .

— إن الروح المظلمة يا آنسة فريدة لا تضيئها الأنوار ... دعينى أخلد إلى السكون فهو العزاء الوحيد .. إنى أرجو لك راحة البال ! .

مسحت رأسه الأشعث بأناملها الرقيقة . حتى لامست جبهته الغضنة وقالت : قل لى كل شىء بصراحة وإلا هددتك بفقدان صداقتى ... وليس أعز لديك من هذه الصداقة إذا لم أك مخدوعة ! .

— صدقت .. إن صداقتك لشىء ثمين ولكن كآبتى شخصية ... إن لى آلامى الخاصة .

— لا تكن أنانياً ... أريد أن أعرف سبب هذا التحول السريع .

— السبب !.. أتريدين السبب يا آنسة ؟

— أجل .. لابد أن أعرف ... إن قلبك ليس مغلق النوافذ كما تظن .

— إن منشأ ألمى ... آه ... هذه مسألة خاصة .

— ولكنها تهمنى ... أعرف ذلك جيداً يا فيلسوف القانون الرومانى .. سأمزق كل هذه الكتب التى تملأ ذهنك بالكلمات والحذلقات إذا لم تبح وتطلعنى على السبب ...

— حسن إذاً ... (إن أبى قد تزوج ...) .

— ومن أجل ذلك تدخل فى مناحة روحية كالنساء !

— إن المسألة يا فريدة ليست سهلة كما تظنين ... عندما ماتت أمى قبل خمس سنوات تركت وراءها أربعة أطفال ودعاء ... ولكن هذا العنصر الجديد سيملأ تلك الحياة الوديعة بالحقد والأحزان .

إنى أفكر فى هؤلاء الصغار أكثر مما أفكر بأمى أو بنفسى أو بأى شىء آخر ...

— عقلية ساذجة ... ما هذا الهراء ، إن المرأة مهما كانت صلفة فلا تخلو من عاطفة الرحمة ، ثم إنه لم يبق أمامك لإنقاذهم غير سنة وبعض سنة ... هيا معى ... إن لدى أسطوانة جديدة « لكارمن ميراندا » وستضحك كثيرا لأن صوتها أشبه بالمواء ...

وتمشيا معاً صامتين ، ودخلا الغرفة المضاءة حيث كان كل شىء يرحب ترحيباً شعرياً بالقادمين .

***

— أمكتئب أنت من جديد ؟..

— كما ترين !..

— آه إنك تجتاز سلسلة من الأحزان فى هذه الأيام ... هل نسيت أن واجبك الأول النجاح لإنقاذ الصغار الأعزاء ؟

— لم أنس ولكنى لا أستطيع ... لا أستطيع مواصلة الدراسة بعد الآن ...

— يا لك من ساذج ... ما هذا ؟.. إنه كلام خال من كل روية وحكمة ...

— هذا حكم القدر ... إنه إرادته !..

— حكم القدر ؟..

— أجل ، أجل ، لقد قطع أبى عنى الورد الضئيل ولم يبق أمامى غير النزول إلى الحياة والعمل للكسب ... ومن أجل هؤلاء أيضاً سأهدم كل أحلامى العذاب ..وأشتغل ..

— صه ... ما هذا الكلام الفارغ ... وإذا كان الورد قد انقطع عنك ... فهل متُّ أنا أيضاً ؟ ! .

— فريدة !.. ما هذا ... إنى أرفض أية يد تمد إلىّ بمساعدة ... إنى رجل أعوّل على نفسى !

— ولكن أنا ... أنا أملك مالا طائلاً وثروة تفيض من حاجاتى اليومية ... إنى أنفق أكثر راتبى الذى يرد من أبى على توافه الأمور فلماذا لا تناصفنى هذا الورد؟

— أنا أناصفك ؟ أترين هذا معقولا ؟.. كلا كلا !!..

— لابد من القبول!... فكر بدون أنانية فيما أقول!

— آه ... هذا قول جزاف ، باسم ماذا أقبل المساعدة منك باسم ماذا ؟! ... إنه لشىء مؤلم باق على روحى كابوساً لا يطاق ...

واقتربت الآنسة فريدة منه وطوقت عنقه بحرارة وقبلته من ثغره المرتعد قبلة عميقة حارة وقالت : باسم الحياة الحياة الزوجية المشتركة ... أقبل من خطيبتك بعض القوت والمساعدة ريثما تعيد إليها أياماً حافلة بالمسرات !..

ووقف إحسان ذاهل الفكر ونظر فى قرارة عينيها ثم طوقها بذراعيه ، وقال بصوت كالهمس ضاع مع قبلة طويلة : « أنت امرأة وملاك ... وخيم سكون طويل ورسم الصمت قصة المستقبل لفتى وفتاة ! ...

(بغداد) عبد المجيد لطفى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٠٦٢٦٩

العدد ٢٧٧ | الثلاثاء ٢٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٣ — ١٨ من أبريل سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

عبـــاد الله الصـــالحون

للدكتور أحمد زكى بك

واستطرد صاحبى يقول وهو يحاورنى : ... فليس العدل يا سيدى فى سَنّ القانون ، وليس هو فى تأسيس المحاكم ، وليس هو فى انتشار مكاتب المحامين حول هـذه المحاكم ، ولا فى بروز تلك اللوحات على واجهات المنازل تعلن عن تلك المطايا التى يركبها الراكب للوصول عليها إلى ساحة القضاء . وإنما العدل فى القدرة على هذا الوصول ، فى القدرة على دفع الأجْر لهذه المطايا ، وهو ليس بالأجر القليل . هـذا إذا فرضنا فى القاضى حلم القضاة للأمور ، وليس كل مأمور مجبور . فأنت ترى أن العدل — هذا الذى يُفرَض فيه أن يكون بالمجّان ، كالماء والهواء — شيء لابد أن يُشترى . ولا يشتريه إلا قادر . وعلى حسب القدرة يتفاوت الثمن . وبمقدار الثمن تتفاوت مطايا المرء إلى العدالة . ويتفاوت استقبال المرء فى ساحة العدالة ...

قلت : إنك تُبهم يا سيدى ، فما عرفنا أن العدل يتفاوت هكذا فيه غنى وفقير .

قال صاحبى : ويتفاوت فيـه جاهل وعالم . ويتفاوت فيه جاهل فقـير وعالم غنىّ تفاوتاً كبيراً . إنك بالمال والمعرفة تستطيع أن تحجُز خصمك الذى عنـده الجهل والفقر حتى عن بلوغ باب المحكمة .

قلت : وأنت تريد من بعد هذا أن تقول بالطبع إن هذا موقفنا نحن الشرقيين من العالم ؟

قال : بالضبط . ولـكن مع فارق .

قلت : فما هذا .

قال : إن محكمة العالم غير محكمة الأمة ، غير محكمة المدينة . فمحكمة المدينة بها قضاة أجراء ، لا يُهمّهم فى الأكثر مَنْ كسبَ ومن خسر . ولها قانون ، فهو

لازم النفاذ . أما محكمة العالم — المحكمة الدولية — فقضاتها الساسة . والقاضي غير السياسي . القاضي يقضي بالحكم وليس عليه التنفيذ ، أما السياسي فيقضي بالحكم وعليه التنفيذ . فهو لا يقضي إلا بالممكنات . لهذا لم يكن للساسة قانون واجب النفاذ . وإن صاغوا له قانوناً ، فأسموه « النظام الجديد » أو « الميثاق الإطلنطي » ، صاغوه في أوسع الألفاظ معنى ، وأرحب الحلل ساحة . أعني في تلك الحلل التي هي كبعض سراويل أهل البلقان ، تسع الرجل النحيف وتسع للرجل الضخم ، وقد تسع الرجلين والثلاثة من الرجال .

قلت : إنك تسب الساسة .

قال : لا يا سيدي ! فما في الذي أقول من سباب . والسب غاية العاجز . إن في الساسة قوماً يكون القتل أدنى جزائهم ، وما هو بالجزاء الذي يزيد في خير العالم شيئاً . ولكن فيهم قوماً جل همهم أن يصنعوا خيراً ، ويؤدوا خدمة ، لا لأممهم فحسب ، بل للعالم كذلك . وصدقني ، إن عملهم أشق الأعمال ، وواجبهم أثقل الواجبات ، ومسئوليتهم أكبر مسئولية ، وضمائرهم ، إذ يقضون ، أكثر الضمائر ألماً .

قلت : وكذلك مسئولية القضاة ، وكذلك ضمائرهم .

قال : شتان ما بين مسئولية ومسئولية . وبين ضمير وضمير . إن القاضي ليجري في طريق معبد ، وسنن مرسوم ، هو القانون . وهو لا بأس عليه مما في هذا السنن من التواء . وعلى القاضي أن يجري في هذا السنن وله أن يتسخط إعلاناً على التوائه . والقاضي الذكي قليل الضلال قليل العثار ، ولو أني لا أحمد القضاة حظه من القساوة الإنسانية . والقاضي لا يجمع بين القضاء والخصومة . والقاضي لا معقب لكلماته . والقانون يحمي القاضي فلا ينال منه أحد بيد أو لسان . أما السياسي فلحمه مأكول . وهو اللحم البشري الذي تواضع الناس على أكله . والسياسي له قانون من صنع نفسه وحزبه ، وهو يحكم عضويته من بعض صناعه ، فعليه وزر ما في القانون من سوء الصنعة ، وعليه وزر التطبيق . والسياسي دائماً يجمع بين القضاء والخصومة . فهو في الساحة الداخلية ، بين الأحزاب من أمته ، إنما يقضي في الأمور بعين حزبه . وهو في الساحة الخارجية ، بين الأحزاب من الأمم ، إنما يقضي في الأمور بعين أمته . والحزب صوالح . وللأمة صوالح . والسياسي أيضاً صالح البقاء على رأس أمته . فسفينة الساسة دائماً سفينة مثقلة ، تتعاورها الرياح من كل جانب ، فرة تهب جنوباً ومرة شمالاً ، ومرة قبولاً ومرة دبوراً . والربان لا يعفى قدماً إذا تعاورته الرياح ، فهو يلجأ دائماً إلى الصفح والإصلاح . وإذا ثقلت سفينته رمى ببعض بضائعها .

قلت : فأين نقع نحن معشر الشرقيين من بضائع تلك السفينة ؟

قال : إن الربان يرمي في البحر من بضائعه أثقلها .

قلت : إن الذهب أثقل الأشياء .

قال : ولكن له قوة شراء عظيمة . وبه يشترى عند الساحل كل خفيف وكل ثقيل . ألم يهب عليك ريح الأطلسي بخبر ذلك الزعيم الناشئ الذي أعطى قريباً صوته للبيضان ، فلما عتب عليه السودان ، قال هاتوا لي هنا سوداناً يصوتون لي ، أعطيهم صوتي .

قلت : فما العمل ؟

قال : يعنون لكم سفينة تمخر البحار ، فترمون الأثقال فلا ترمون أثقالا .

قلت : زدني إيضاحاً .

قال : تعصب .

قلت : إن تقل حقاً فما عليك من غضبي !

قال : إن التجاء الشرق إلى الغرب باسم الحق يسأله النصفة في كل شيء ، كالتجاء العاجز إلى الله يدعونه

تفريج الكرب . والله يقول : « ولقد كتبنا فى الزّبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ، وقال : « إنّ فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » . وليس عند الله كراهة فى عباده غير الصالحين . فهو مستعد أن يُسبغ عليهم الحياة ولكن غير وارثين — ولكن أجراء غير مالكين ، لهم أجر الخادم من المخدوم . وبهذا أجاز الله أن يصبح قوم فى أرضهم غرباء ، ولو عاشوا فيها القرون . والعباد الصالحون يهبطون أى أرض ، ويحلون تحت أية راية ، ويرثون الأرض تحت أنوف أصحابها ، راغمةً أو غير راغمة . ثم هم يقولون من بعد ذلك : المُلك مُلككم ، والراية رايتكم ، ولكنّ الأرضَ أرضُنا . وليس عليهم من بعد ذلك جُناح فى شرعة الله ، فى شرعة القرآن ، أبداً . فهل ما أقول حقا ؟

قلت : هو الحق المرّ يا سيدى . فما الخلاص ؟

قال : فى ترك سياسة النّعام .

قلت : وما سياسة النعام ؟

قال : تغرز النعامة رأسها فى الرمل فلا ترى الصائد ، فتحسب أن الصائد بالمثل لا يراها ، فتحس فى هذا بالأمن والسلامة . والأمن كل الأمن فى أن ترفع رأسها فتملأ عينيها من كل ما حولها . وفى اليقظة فُرَص النجاة ، فإن كان موت ، فموتة اليقظان تأتيه بين عينيه ، أكرم له من موتة تُعميه فى الدُّبُر ووجه فى الرمل مغروز مستور . إن حُفَر الرمل لا تستر النعام ، ولا أخاديد الرمل تحمى الرجال ، ولو حفروها الأميال الطوال بين محيط ومحيط . وهذا السائل الذى سيجرى فى هذه الأخاديد ، وهذه الأنابيب ، لن يمنعه من التدفق فى بطن الرمل حالة تنعقد عليها الأجواء فوق الرمال . وهذه السياسة الصحراوية فيها طبع الصحراء ، فيها السراب الخادع . فالتعلق بها تعلّق بالأوهام . وهى دليل العجز المتفشّى ، وهى من نوعه . ولكن فيها على كل حال مَشغلة للساسة إلى حين .

قلت : إن الأبواب لابد أن يحميها الساسة .

قال : نعم ، إذا غاب الجند . ولكن المنزل الواحد له بوّاب واحد . فما الحال إذا خرجت كل الأسرة تحمى باب الدار ليل نهار . إذن من ذا الذى يطبخ ، ومن ذا الذى يغسل ومن ينظف ، ومن ينظّم ، ومن يكسب العيش . إن البوابين كثروا فى الشرق كثرة كبرى حتى ازدحمت بهم الأبواب ، وتُرِكت قيعان الدور تشكّى من بناها .

قلت : فماذا نصنع ؟

قال : فى أى المرافق .

قلت : فى الدين مثلا

قال : يرتفع كتاب الله فيكم إلى حيث أراده الله أن يرتفع . وترتفع أفهامكم إلى حيث أرادها الله أن تكون . فلا يرتفع فوق كتاب الله كتاب ، ولا يكون بينكم وبين الله حجاب .

قلت : فى اللغة .

قال : إن هذه اللغة العربية إما أن تكون لغتكم أو لا تكون . فإن لم تكن لغتكم فاطّرحوها ، واتخذوا لغة غيرها من لغات العصر ، أحيى وأقمن بالزمان . ولا يَضير الله أن تبدلوا لساناً بلسان ، فالألسنة كلها من بدائع الرحمن ، والناس كلهم من خلقه . والتركى والفارسى والهندى والصينى والروسى لا يمنعهم لسانهم من إسلام .

وإما أن تكون العربية لغتكم ، فتصرّفوا فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، فأحيوها ، وجدّدوها ، وقلّموها كما يُقلَّم الشجر مما تخشّب من فروعه ، وطعّموها كما يُطعّم الشجر ، وإلا فكيف تستحلّون لأمعدتكم ما لا تستحلونه لألسنتكم . إن عزّ الناس إذا تعارض وعزّ اللغة ، أو مازحموه عزّها ، فتشبثوا به وبها ، ذهب العزّان جميعا .

قلت : فى الأدب .

قال : ألا تكون حياتكم كلها أدبا . وأن تقفّوا من

الأدب الراقص ، فالرقص ينعش ، ولكنه يُمَلّ إذا طال . وليعلم الأدباء أن الدولة الحديثة لا تزال بها مكان لهذا الأدب وهؤلاء الأدباء ، ولكنه يقع منها موقع دور السينما ودور التمثيل ، وهى لا تؤتى إلا عند استرخاء . وليعلم الأدباء أن للحياة مرافق كثيرة أخرى ، ليس الأدب على صورته الحاضرة بأرفعها وأنفعها . وليعلم الأدباء أن الفكر ليس قاصرا على فئة دون فئة ، وأن أرقى الفكر ليس الذى فى المرأة ، وأن الفلسفة ليست نعيا على الدهر ونواحا على الأيام . وإن أدباء الشرق هم فى الجملة أبعد الناس عن الحياة كما تعرفها المدنية الحاضرة فى تعددها وتعقدها ، لهذا لا يجدون أكثر ما يكتبون خطرة الشارع ، أو ضجة الرقص والمسرح ، أو تعرّى الأجسام على مفارق الأرض والماء . ولهذا يهربون من الحياة الحاضرة إلى حياة أسهل اقتناءً فى الكتب ، أكل الدهر عليها وشرب الألفَ والآلاف من السنين . إن الأدب فى معناه الواسع أصبح تخصصاً ، والكتابة أفانين ، ولا علك ناصية كل ذلك رجل ولكن رجال عديدون .

قلت : ففى الزراعة ؟

قال : أن ينصرف الناس إلى التمسك بأرضهم واستغلالها ، لا كاستغلال الآباء ، ولكن كاستغلال الخصماء ، أو من يحسبونهم خصماء . إن هذه الأرض اليوم يستغلها الخصماء استغلالين ، أحدهما داخلى ، وفيه العيش الرخىّ ، والآخر خارجىّ يستجلبون به عطف الأمم . والشرق العربى لا يكاد يدرك كم كان ويكون لهذا الاستغلال الخارجىّ من أثر هائل فى توجيه سياسة الأمم نحو الشرق وخصمائه ، لأن هؤلاء الساسة يؤمنون بالوراثة الصالحة كان من كان وارثها .

قلت : فما قولك فى تلك الصناعات الناشئة ؟

قال . فى منشئها ؟ إن هذا حال لا يغتبط به إلا بلهاء . إنه احتلال يجيزه قانون الساسة وقانون القضاء على السواء . ولا تحسبن أن منه مخلصا إذا هو استقر . إذن لخلصت منه لندن ونيويورك . وما على أهله من ملامة ، فهذه سنة الكون ، سنة الله فى أرضه يرثها عباده الصالحين .

قلت : ففى التجارة والاقتصاد ؟

قال : شأنهما شأن الصناعة . وسيطول الحال هذا الحال ، حتى تحتل أخبار الصناعة والتجارة من رؤوس الناس محلا أرحب مما يحتل خبر بافتتاح برلمان أو سقوط وزارة ، وحتى يهتم الناس بخبر مصنع أو متجر أكثر من اهتمامهم بمرسوم يصدر بتعيين وزير أو ترقية وكيل .

قلت : ففى التعليم ؟

قال : هذا مفتاح الباب . هذا هو المخلص الذى ليس كمثله مخلص . على أن يكون التعليم تدريبا فى الحياة . ولا أكاد أدرك عقلية قوم يرفعون إصبعا فى تعويق تعميم التعليم وإرخاصه .

قلت : ففى السياسة ؟

قال : حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! لقد سقتنى إلى حيث لم أرد أن أسير ، وقوّلتنى ما لم أكن أودّ أن أقول . فكل الذى أردت قوله أن الشرق يجب أن يحل مشاكله بنفسه ، ويحلّها فى الداخل لا من الخارج . وألا يستسمح السياسةَ الخارجية فى طلب حق لا تؤمن به محكمة الواقع . فمحكمة الواقع غير محكمة القضاء . وساسة الدول تؤمن بالعدل الواقعى لا العدل القانونى . وعندهم تجوز شهادة الرجل القوى المثقف القادر الماهر ، على الرجل القذر ذى الأسمال ، ولو حمل فى يمناه قانون موسى ، وفى يسراه قانون عيسى ، والقرآن أيضاً . فلترفع عنا الجهل ، ولترفع عنا الفقر ، ولترفع عنا الجمود ، تكن حجتنا أضخم الحجج فى ساحة السياسة العالمية . وإن تكن أوهى الحجج فى ساحة العدالة المدنية

أحمد زكى

حول مقال :

مستقبل الأدب العربى

كتبتُ فى « الثقافة » مقالا فى « مستقبل الأدب العربى » [1] أدعو فيه إلى أن يتجه الأدباء إلى النظر إلى مجتمعهم كما ينظرون إلى أنفسهم ؛ وكان المقال يدور حول فكرة معينة تدل عليها هذه الجمل بنصها من المقال :

« أول واجب على الأدب العربى — فى نظرى — أن يتعرف الحياة الجديدة للأمم العربية ويقودها ، ويجدّ فى إصلاح عيوبها ، ويرسم لها مثلها الأعلى ، ويستحثها للسير إليه » . « ويجب أن ينبع الأدب العربى من الوعى الاجتماعى كما ينبع من الوعى الفردى ، فيعمد إلى مجتمعاتنا المملوءة بالشرور فيعالجها ويشرّحها ويحللها ، ولا يقتصر على إجادة وصف ما هو كائن بل رسم ما ينبغى أن يكون » .

« وعلى الجملة يجب أن يكون لنا أدباء هم قادة الرأى العام يبصّرونه بموقفه ، ويطلعونه على مزاياه وعيوبه ، ويحركونه لغرض نبيل يتسامى إليه » . « والأديب من هذا الطراز رسول أمته وهاديها إلى الخير ، وراسم أغراضها فى الحياة ؛ يدرك الحقائق قبل أن يدركها الناس ، ويشعر بها قبل أن يشعر بها الناس ، ثم يحرك عقولهم لإدراكها ، وعواطفهم للتحمس للعمل بها ، يشعر من أعماق نفسه أن له رسالة أن يرفع مستوى الناس ، ويدفعهم إلى حياة أسعد وعيش أصلح ، يجمع بين السمو الخلقى والسمو الفنى ، ثم يسخر فنه لخدمة ما يصبو إليه قومه » .

هذا بعض ما جاء فى هذا المقال ، وهو خلاصة الفكرة التى أدعو إليها . فرد علىّ أخى الأستاذ توفيق الحكيم فى « الرسالة » ، وله الشكر — أولا — على عنايته بهذا الموضوع وتفكيره فيه ، والرد عليه ، فالفكرة إنما تحيا بالأخذ والرد ، وتنجلى بالمناقشة وعرض الآراء المختلفة فيها

ولكنى أعتب عليه فى أمرين . الأول : أنه كان من حق عليه أن يعرض الفكرة التى دعوت إليها فى دقة ثم يردّ عليها ، لا أن يأخذ مسألة جاءت عرضاً من الأدب الأمريكى فيناقشها ويوهم القارئ أنها أصل المقال .

والثانى : — وهو الأهم — أنه قلب غرضى رأساً على عقب ، ونسب إلىّ ما لم أقل ، وأخذ يرد عليه فى إطناب وتفصيل ؛ فكانت خصومة ابتدعها ، وحرباً خلقها ، وكل ذلك فى الهواء من غير أصل .

إنى دعوت إلى أن يكون من مصادر الأدب حياتنا الاجتماعية التى نحياها ، فتكون لنا روايات تمثل بؤس الشعوب وأغلالها والاستبداد بها ، وتدعو إلى حياة أسمى من حياتنا ، وإلى تكسير أغلالنا ، والثورة على الظلم الذى يناتبنا ؛ إلى كثير من أمثال هذا .

فاستنتج من هذا استنتاجا عجيبا ، أنى أدعو إلى المادية ، وإلى تسخير الأدب فى خدمة العيش ، وأنى أريد ، على حد تعبيره ، « أن أستخدم الأدب للدعايات الاجتماعية ، وأستغله للإعلان عن السلع التجارية ، وأوجه الشعر لإثارة الجماهير فى الانتخابات السياسية الخ » ، ثم أخذ يرد على هذا الغرض الذى خلقه خلقاً ، ونسبه إلىّ ظلماً ؛ وأفاض فى الرد عليه ، وإنما كان يردّ على شىء فى خياله لا حقيقة فى مقالى ؛ وأنا آسف أشد الأسف إذ لم أحسن التعبير عن غرضى مع بذل كل جهدى فى إيضاحه ، فإذا لم أوفق الى إيصال معانىّ إلى توفيق الحكيم فلمن أوفق ؟

لا يا أخى ! فرق كبير بين الدعوة إلى أن يكون من مصادر الأدب الحياة الاجتماعية والوعى الاجتماعى ، وبين الدعوة الى مادية الأدب وتسخيره للأغراض الوضيعة ؛ فالأدب الاجتماعى قد يكون فى أسمى مراتب الروحانية ، كما إذا ألفتَ رواية فنية ترسم فيها لأمتك طريق السمو ،

---

(١) « الثقافة » عدد ٢٢٥

والتحرر من الأغلال ، أو البعد عن التحريف ، أو ظلم الأغنياء للفقراء ، أو صوّرت لهم الحياة التعيسة التي يحيونها في أي ناحية من نواحيها ، وحثتهم على التخلي عنها ، والترفع عن مفاسدها ؟ فهل هذه كلها مادية وضيعة و « رصاصة في القلب » روحانية رفيعة ؟! وهل الأدب الذي يصوّر المجتمع بخير مما هو عليه ، ويرسم المثل العليا والمدن الفضلى له رسماً فنياً بديعاً يشوّق إليه أدب مادي ، والأدب الفردي الذي يمثل غرامة الشهوة وعبادة الخمر أدب روحاني ؟

الحق أن في الأدب الفردي ما هو مادي وما هو روحاني ، وفي الأدب الاجتماعي ما هو مادي وروحاني ، فتعميمك بأن الأدب الاجتماعي أدب مادي ، وأنه هو الذي أقصده دون سواه ، ظلم في الحكم لا ترضاه ، وتحريف لكلامي عن موضعه أنت تأباه .

وأظن بعد ذلك أن حكاية الغزال السمين ، والنحل وكمية عسله إلى آخر المقال ضربة في الهواء ، وسهم انحرف عن الغرض .

لعل الخلاف الحقيقي بيننا ويبقى أنك تفضل الأدب الذي ينبع من الوعي الفردي على الأدب الذي ينبع من الوعي الاجتماعي ، وأنك تفضل الأدب الذي يستوحي أدب اليونان والرومان أو امرأ القيس وشهر زاد ، على الأدب الذي يستوحي الحياة الاجتماعية الحاضرة ، وتفضل الفن للفن على الفن للمجتمع ، وأنا أخالفك في كل هذا .

إني أسلّم بما نادت به الحركة الرومانتيكية ضد الحركة الكلاسيكية ، من أن كل شيء صالح لأن يكون موضوعاً للأدب ، فكوخ الحقير موضوع للأدب كقصر الملك ، والحياة الشاذة كالحياة الواقعية ، وقد غلا فكتور هوجو وأنصاره في ذلك ، فقالوا : يجب ألا يُهتم بالموضوع الذي عرض له الأديب ، ولا بالمنهج الذي اتبعه ، فليس هناك موضوعات جيدة ولا موضوعات رديئة ، وإنما هناك أديب مجيد ، وأديب غير مجيد ، والأديب لا يُسأل عما فعل ، ولكن يسأل عن كيف فعل ، ولا يسأل ما موضوعه ، ولكن يسأل هل أجاد أو لم يجد ، وأنه يجب أن يتحلل من كل القيود والكلمات والعلامات المرشدة إلى الطريق ، إلى آخر ما قالوا ، وما أنت أعلم به مني .

ولكن أرى أن هذا غلوّ دعا إليه التحمس الرومانتيكية ضد الكلاسيكية ، والأدباء الخبراء يرون أن الفن إذا تساوى في موضوعين فالقطعة الأدبية ذات الموضوع الراقي أرقى .

ألا ترى معي — يا أخي — أن النجار لو صنع دولاباً جميلا جداً من خشب رديء ، ودولاباً مثله في الجمال من خشب جيد ، كان الثاني أفضل ؟! وأن الصائغ الماهر خير له أن يصوغ حلية من ذهب من أن يصوغها من فضة أو نحاس ؟! فإذا عالج الأديب موضوعاً سامياً ونجح فيه من حيث الفن ، كان أفضل من موضوع تافه ينجح فيه ، ثم إذا كان المغني ذو الصوت الجميل يغنّي للناس أفليس خيراً مما إذا غنى لنفسه ؟!

لست أنكر أن الأديب إذا صوّر مشاعر نفسه فهو فنان ، وأنه إذا صوّر خمره اللذيذة وشهواته الداعرة فهو فنان ، ولست أنكر أن أبا نواس في موضوعاته الساقطة فنان ، ولكن مما لا شك فيه عندي أن لو ساواه آخر في فنه وعرض صوراً سامية ، فهو خير من أبي نواس . إن أبا نواس — أحياناً — فنان رغم سقوط موضوعه ، لا بفضل سقوط موضوعه ؛ فكلا الموضوعين أداة خامة في يد الفنان ، وخيرهما من استعمل خير مادة .

كما أني لست أنكر أن الفن إذا قصد للفن فهو فن جميل ، ولكن إذا خدم به المجتمع فهو فن وشيء آخر فوق الفن .

ألست معي أن « يوميات نائب في الأرياف » إذا استوت في قيمتها الفنية مع بجماليون وشهر زاد ، فالأولى أفيد وأنفع وأقوَم ؟!

أوَ من الحق أن تستلهم الأدب اليوناني والروماني

الخـــــط العربي

مزاياه وعيوبه

٣ — الخط العربي اليمني

للعرب خط قديم جداً عرف في بلاد اليمن قبل الميلاد بعصور متطاولة ، وبقي على الآثار اليمنية حتى اليوم ، وانتشر شمالي الجزيرة العربية ، فكان منه الخطوط العربية التي سماها الباحثون في اللغات السامية : الخطُّ الثمودي ، والخط اللحياني ، والخط الصفوي . الخط الثمودي عرف في آثار ثمود المنقوشة على الصخور شمالي الحجاز ؛ واللحياني ينسب إلى قبائل لحيان العربية التي كان لها مُلك في الشمال ؛ والصفوي ينسب إلى الصفاة من أرض حوران ، وقد وجدت النقوش قريباً منها . وهذه النقوش ترجع في جلها إلى القرن الرابع الميلادي .

وقد انتقل الخط اليمني إلى إفريقية فكتبت به اللغة الحبشية وخاصة اللهجة التي تعرف باسم جيعز . ويمتاز هذا الخط ، خط جعز ، من الخطوط السامية كلها بأن انتهى تطوره إلى كتابة الحركات متصلة بالحروف . وكان في هذا وسطاً بين الشكل في اللغة العربية ، وكتابة الحركات علامات مستقلة في اللغات الأوربية ؛ فقد جعل لكل حرف صورة تختلف باختلاف حركاته ، فالباء المفتوحة لها صورة ، والمضمومة صورة أخرى ، والمكسورة كذلك ، وهي صور متقاربة . وكذلك كتب هذا الخط الجعزي في طوره الأخير من الشمال إلى اليمين على خلاف الخطوط السامية . وقد سمى العرب الخط اليمني خط المسند ، وزعموه أصلاً للخط العربي الإسلامي ، والحق أنهما من أصلين مختلفين ؛ المسند يشبه الكنعاني ، ويظن أن أحدهما أصل للثاني . والعربي الحديث مأخوذ من النبطي من الآرامي كما يأتي . وكلاهما ترجع إلى الخط الفينيقي

٤ — الخط الآرامي

خرج الآراميون من جزيرة العرب إلى سوريا ، فيما يظن ، حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، بعد

وتترك استلهام قومك ، وهم أولى بالاستلهام ؟! ونحن أكثر تذوقاً لما يستلهم منا ، وأشد انتفاعاً به من غير أن ينقص الفن شيئاً .

أيعجبك أن ينصرف الأدباء كلهم إلى وصف لوعة الحب ، والاستمتاع باللذة والتغزل في الخمر . ولا يتعرضون لكبلين بالأغلال يجب أن يفكوا ، وإلى غارقين في الجهل يجب أن يتعلموا ، ومصابين بالخمول يجب أن ينشطوا ، ولاصقين بالأرض يجب أن يعلوا إلى السماء ؛ ثم تقول الفن للفن ؟!

وماذا يضير الفن لو نظر إلى المجتمع فرقعه كما فعل ر ... ردشو وتولوستوى وأمثالها ؟

ولعلك رجعت إلى الإنصاف واتفقت معي في النهاية ، إذ تقول قرب الآخر من مقالك : « أما إذا كان في الإمكان وجود فن يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا ، فإني أرحب به وأسلم من الفور بأنه الأرقى ، ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان » . فنحن إذن متفقان بعد الاختلاف ، وأؤكد لك أن الزمان سيجود على الأمم العربية بهذا النوع من الفنانين ، فيكونون قادة غيرهم ، وزعماء مدرستهم ؛ وليس من الضروري أن تكون كل المدرسة على هذا النحو من الكمال ، فهل كل مدارس الأدب الأخرى بلغ تلاميذها هذا الكمال ؟

بقي قولك في ختام مقالك : « إن الفنان إذا لم يقل « أنا » فليس بفنان ، كما أن العالم الذي لا يقول أنا ليس بعالم » ؛ وأؤكد لك أن الفنان الذي يقول أنا ويعني غرائزه وعبره أقل شأناً من الذي يقول « أنا » ويعني أمته وقومه ، والعالم الذي تفنى ذاتيته في علمه ، خير من العالم الذي يفنى علمه في ذاتيته ، أليس كذلك ؟

والسلام عليك من أخ يقدرك . أحمد أبيع

خمسة عشر قرناً من استقرار الكنعانيين فى تلك البلاد، وتمكنوا على مرّ العصور من إقامة دول لهم فى الشام، وحاربوا الأشوريين وغيرهم إلى أن زالت دولهم من الشام سنة ٧١٠ ق م.

وكانت حضارتهم قد ازدهرت، ولغتهم قد انتشرت حتى صارت لغة عامة معروفة ما بين إيران والبحر الأبيض المتوسط.

وقد وصلت إلينا آثار آرامية يرجع أقدمها إلى القرن الثامن ق. م، كُشف من هذه الآثار فى آسيا الصغرى، وفلسطين، ومصر، وجزيرة العرب، وإفريقية الشمالية.

٥ — الخط النبطى

النبط أمة من العرب أقامت مملكة شمالى الحجاز وجنوبى الشام قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أكثر، وبقى لهم الملك إلى أوائل القرن الثانى الميلادى. وكانت لهم مدينتان كبيرتان: سلع، وترى أطلالها اليوم فى وادى موسى على مقربة من معان (وتسمى فى كتب الأوربيين بترا)؛ والمدينة الثانية الحجر، التى تعرف اليوم بمدائن صالح، وهى فى شمالى الحجاز.

وقد اتخذ هؤلاء العرب حضارة الآراميين وكتابتهم، كما استعملوا لغتهم فى بعض شئونهم.

وقد أثرت عنهم كتابة فى سلع والحجر وحوران وبادية سيناء يختلف تاريخها بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادى.

وعلى أيدى هؤلاء النبط تغيرت الكتابة الآرامية إلى الخط النبطى، ثم تغير هذا الخط حتى قارب الخط العربى الإسلامى، ثم تطوّر إلى هذا الخط منذ القرن الخامس الميلادى. وقياس الخطين النبطى والعربى لا يدع شكا فى أن الأول تطوّر عصراً بعد عصر حتى انتهى إلى الثانى. وقد بقيت فيهما مشابه واضحة، وخصائص مشتركة. وهذا الخط النبطى عربى كتبت به أمة عربية لغة عربية.

٦ — الخط العربى الإسلامى

أقدم ما كشف من الآثار العربية يرجع إلى القرن الخامس الميلادى؛ وجدت فى زبد بين قنسرين ونهر الفرات، وفى حرّان، كما عثر فى مصر على أقدم نقش عربى إسلامى، وهو مؤرخ سنة ٣١ من الهجرة. ويتبين من التأمل فى هذه النقوش التماثلُ والتشابه القريب أو البعيد بين الحروف النبطية والحروف العربية، ونرى فيها الصفات الآتية:

١ — حروف الكلمة الواحدة متصلة إلا الحروف الخمسة: الألف، والدال، والواو، والراء، والزاى.

٢ — واختلاف أشكال الحروف فى أوائل الكلمات وأواخرها.

٣ — والحروف غير معجمة.

٤ — والألف لا ترسم بعد الفتحة.

٥ — وتاء التأنيث تكتب تاء، كالكتابة النبطية لا هاء.

٦ — ونرى فى بعض النقوش واو للدلالة على التنوين كما فى الخط النبطى.

انتشر هذا الخط العربى قبل الإسلام شمالا وجنوبا، فقد وجدت نقوش فى شمالى سورية ترجع إلى القرن السادس الميلادى؛ والظاهر أنه امتدّ صوب الجنوب كذلك؛ فإن الخطوط النبطية التى كشفت فى الحجر وشمالى الحجاز تؤذن بتطوّر قريب إلى الخط العربى. بل يظن أن الخط العربى نشأ فى الحجاز وانتشر منه إلى الأقطار الأخرى.

ثم جاء الإسلام فنشر الخطّ العربى فى أقطار كثيرة، فهو يكتب به اليوم ما بين غربى الصين والمحيط الأطلسى، وما بين شواطئ نهر الفلجا إلى جزائر الملايو وسواحل إفريقية الشرقية وأواسط إفريقية؛ تكتب به العربية والفارسية والتركية والأردية ولغات أخرى فى الهند وغيرها.

٧ — فى عصور الإسلام

كان للعرب فى القرن الأول الهجرى خطان: الخط الكوفى ذو الزوايا، وخط آخر مقوّر أو مدوّر، هو أصل خط النسخ الذى نشأ من بعد؛ وكان الكوفى للنقش على الأحجار والسكك ولكتابة المصاحف غالبا. وكان الخط الآخر للكتابة على الرقوق والبردى والكتب غير القرآن. وقد تطور الخطان على مرّ الزمان واكتملت

خصائص كل منهما فتباعدا، وبقى الخط الكوفى مستعملا فى مواضع استعماله إلى القرن السادس الهجرى، ثم ندرت الكتابة به. وعندنا فى مسجد الغورى فى القاهرة مثال منه يرجع إلى القرن العاشر الهجرى.

وفى القرن الذى ندرت فيه الكتابة الكوفية بلغ الخط النسخى أوجه فى الجمال والإحكام. وقد تطور الخط العربى منذ القرن الثانى الهجرى تطورا عظيما: أحدث إسحاق بن حماد فى الشام الخط الجليل أيام السفاح. وأخذ منه إبراهيم الشجرى وأخوه يوسف خط الثلثين والثلث والخط الرياسى. ثم اخترع خط النصف، وخفيف الثلث، والمسلسل، وغبار الحلبة، والمؤامرات، والقصص، والخط الحوائجى فى العراق ومصر. واخترع على بن عبيدة الريحانى فى القرن الثالث الخط الريحانى. وجاء ابن مقلة وأخوه فأجاد الأول خط الرقعة، والثانى خط النسخ فى نهاية القرن الثالث الهجرى.

وتبع ابن هلال فى القرن الرابع. وفيه يقول المعرى:

ولاح هلال مثل نون أجادها
بخط النضار الكاتب ابن هلال

ثم توالى المجددون فى الخط والمجودون فيه على مر العصور. وقد ذكر القلقشندى سندا متصلا فيه جماعة من أئمة الخط من ابن هلال إلى عصره. وذكر من معاصريه زين الدين بن شعبان محتسب مصر.

وقد ساح ابن شعبان فى الحجاز واليمن والهند، ثم أقام بمكة، وله ألفية فى الخط اسمها: العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية.

وعد القلقشندى ثمانية خطوط كانت مستعملة فى الدواوين المصرية أيامه وهى: خط الطومار، ومختصر الطومار، والثلث، وخفيف الثلث، والتوقيع، والرقاع، والمحقق، والغبار.

وقد اخترع الفرس الخط الذى يسمى الفارسى، ثم نسخ التعليق، ثم المكسور (شكسته)؛ ومن عظماء الخطاطين عندهم سلطان على المشهدى، ومير على ومير عماد. ثم افتن الترك فى الخط العربى وقلدوا فيه الفرس، ثم اخترعوا الديوانى وغيره. وكان عندهم فى القرن الحادى عشر الهجرى نحو ثلاثين ضربا من الخط؛ ونبغ منهم خطاطون مثل حمد الله فى القرن العاشر، وحافظ عثمان فى الحادى عشر.

ولا ننسى الخط المغربى وطرائقه المستعملة حتى اليوم فى المغرب.

وقصارى القول أن المسلمين عملوا فى تجويد هذا الخط وتقويمه استجابة للحاجات، وافتنوا فيه، وتنافسوا فى التجويد والتجديد ثلاثة عشر قرنا، وجملوا به الكتب، وزينوا المساجد والمساكن، فاجتمع لهم على مر العصور فن جميل لو لم يكن كتابة لكان هندسة ونقشا، وحلية، وفنا جميلا مستقلا يباهى به أجمل الفنون عند الأمم.

وقد ضبطوا الحروف بالوصف والتصوير، وقدروها بالنقط، وبينوا كيف يبدأ بها، وكيف ينتهى، وكيف تمد الأقلام للخطوط المختلفة، وكيف تبدأ الصفحات والسطور، وكيف تنتهى. ووضعوا فى هذا كتبا منظومة ومنثورة، وصار لهم علم ذو أصول وفروع، وفن مضبوط محكم يتصل بتاريخهم وحضارتهم كل الاتصال.

ضبطوا الخط ودققوا فيه، كما ضبطوا الحروف وبينوا مخارجها بيانا يحدها على مر الزمان، وكما ضبطوا لهجات اللغة وطرق أدائها، ودققوا فى هذا كله تدقيقا لم يعرفه التاريخ لأمة من الأمم الماضية أو الحاضرة.

ذلكم تاريخ الخط العربى من حيث صوره وأشكاله. وأما الكلام عن هذا الخط من ناحية ضبطه للأصوات التى وضع لها أو تطوره فى إحكام هذه الدلالة، ثم من ناحية ما يمتاز به، وما يعاب، وما يتصل بهذا، فموعدنا به المقال الآتى إن شاء الله تعالى.

عبد الوهاب عزام

مستقبل الثقافة الشعبية في مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

يمتاز الشعب المصرى بخصلة من أهم المميزات التى تبين أنه بطبيعته شعب ديمقراطى ، وذلك أنه كتلة واحدة متجانسة انحدرت من كتلة واحدة متجانسة ، لا تفصل بينها فوارق الطبقات . فقد كان الشعب المصرى منذ قرنين متنحّى كله عن أمور السياسة والحكم والحرب منذ كان الأمراء الإقطاعيون يستأثرون بأعباء الحكم كلها . ثم حدثت أحداث تاريخية جارفة قضت على هؤلاء الأمراء الإقطاعيين قضاء تاما ، فلم يبق لهم أثر فى البلاد ، وبقيت كتلة هذا الشعب وحدها تحت حكم الرجل العظيم منشئ الأسرة الملكية الكريمة محمد على باشا ، الذى جعل أساس حكمه وملكه ودولته الجديدة قائما على هذه الكتلة المتجانسة .

منذ ذلك الوقت بدأ الشعب المصرى سيره فى سبيل تكوين مصر الحديثة ، حتى انتهى به الأمر إلى الحكم الديمقراطى الحديث الذى أصبح فيه كتلة عاملة واحدة فى جميع مرافق الحياة ، ليس فوقه إلا علَمه الخفّاق سليل بيت محمد على العظيم مليكنا المحبوب « فاروق الأول » .

فهذا الشعب بطبيعة سيرته التاريخية لا يعرف فوارق الطبقات ، وهو لذلك من أجدر الشعوب بأن يسير على المناهج الديمقراطية ومُثُلها العليا .

وإذا كانت الثروة تختلف بين بعض أفراده وبعض ، فإن اختلاف الثروة لا ينشئ الطبقات فى أمة من الأمم . والمصرى الغنى يعرف أنه عصامى ولا يعرف المباهاة بأصوله ، ولا يذهب به الغرور إلى أن يدعى أن فى عروقه دماء تميزه عن سائر مواطنيه .

فإذا نحن تحدثنا عن ثقافة شعبية للأمة المصرية ، كان جديراً بنا أن نذكر دائما أن هذه الأمة الحديثة لا تعرف سوى المساواة المطلقة بين أفرادها .

وقد أصبحت الدولة فى العصور الحديثة مطالبة بنشر الثقافة بين أفراد الأمة جميعا ، ولو كان فى طوق الدولة أن تنشر بينهم جميعا أعلى ما يمكن بلوغه منها لكان هذا واجباً عليها . وثقافة الشعب لا تقل خطرا عن صحته ، ولا عن تنمية موارد ثروته ، بل هى أساس كل تقدم اجتماعى أو سياسى يمكن الأمة أن تبلغه .

ولكن نشر الثقافة فى أوسع الحدود ليس فى طاقة دولة من الدول ، لأن ذلك يحتاج إلى نفقات عظيمة تعجز عنها أغنى الأمم ، ولذلك اقتصر واجب الدولة على نشر الحد الأدنى من الثقافة ، وهو المقدار الذى يجعل أفراد الشعب جميعا صالحين للحياة الكاملة والإنتاج على قدم المساواة مع سائر شعوب العالم ، والتماس الطريق التى تؤدى بهم إلى الحياة السعيدة . ولذلك اتفقت الآراء على أن تقتصر الدولة على نشر الثقافة فى ناشئة الأمة بين أول سن الإدراك حوالى السابعة وأول سن الرجولة .

وتميل الآراء فى الوقت الحاضر إلى إطالة مدة التعليم ، لأن حاجة الحياة الحديثة تستلزم إعلاء مستوى الثقافة فى الأمة . فتميل أكثر الدول اليوم إلى أن تعلم الناشئة إلى سن تقرب من الثامنة عشرة . ولكن هناك شرطا أساسياً فى نظم التعليم الديمقراطية كلها ، وهو أن يكون مستوى الثقافة لجميع أفراد الأمة واحدا بغير تمييز طائفة على طائفة ؛ وإنه لجدير بمصر الحديثة ، التى لم يعرف شعبها الخالى نظام الطبقات ، أن تساير الأمم الديمقراطية فى أن تجعل معاهد التعليم للناشئة فى المرحلة الأولى فى مستوى واحد ، لا تفريق فيه بين الأفراد ، ولا تمييز فيه لطائفة .

ولقد خطت مصر فى هذه الأيام خطوة جريئة إلى

الأمام ، منذ أصدر معالي وزير المعارف في الحكومة الحاضرة تقريره الذي تقبلت الأمة مبادئه العامة بالاستحسان والشكر ؛ وقد جهر فيه معالي الوزير بأن القصد من التعليم هو إعداد الفرد للحياة الصالحة ، وليس مجرد إزالة معرة الأمية ، فإن الأمية في ذاتها إذا كانت معرة فإن مصلحة الأمة لا تتحقق بإزالتها ، بل تتحقق بإبلاغ مستوى الثقافة إلى مثل ما بلغته في البلاد المتمدينة الأخرى .

وقد رسمت وزارة المعارف صورة من المدرسة القومية استمدت وصفها من تقرير معالي وزيرها ، ووضعت لهذه المدرسة برامج فيها كل عناصر الصلاح والوفاء بالمقصود ، ولكن الصور والمناهج لا تصبح حقائق إلا إذا نفذت بالروح المقصود منها . وقد دلتنا التجربة على أن وضع المناهج وحدها لا يكفي للإصلاح ، بل إننا إذا تأملنا المناهج القديمة التي وضعت للتعليم الإلزامي لم نجد فيها إلا قليلا من وجوه النقص التي كان من الممكن إصلاحها ، لو تنبه أولو الأمر من مبدأ حركة الإصلاح القديمة إلى الطريق الطبيعية التي كان ينبغي لهم أن يسلكوها ، وهذه الطريق الطبيعية هي البدء بتحقيق المناهج وتجسيد الصورة في نماذج ، ثم متابعة هذه النماذج بعد ذلك بالملاحظة والإصلاح والتحوير ، وبث روح الحياة فيها في مدة كافية لتجربتها ، وتعرف مدى ما فيها من عناصر القوة والضعف ، حتى إذا ما تبينوا الحقائق واضحة أمكنهم بعد ذلك أن يعمموا الصورة في يسر وثقة من النجاح . ولكن المصلحين السابقين لم يعمدوا إلى هذه الطريق الطبيعية ، فكانت النتيجة هي هذا الإخفاق الذي يشهد به معالي الوزير الحالي في تقريره إذ يقول : « ليس شيء أظهر إخفاقا في مصر من التعليم الإلزامي » . وإنه لجدير بنا أن نتجنب الإخفاق في حركة الإصلاح الحاضرة بأن نسلك الطريق الطبيعية التي أشرنا إليها ، ونكتفي الآن بإقامة النماذج على سبيل التجريب لمدة محدودة ، حتى إذا وثقنا من أن الصورة التي

جسدناها قد أصبحت تفي بالمقصود من الإصلاح ، قمنا بتعميمها وإذاعتها في أركان البلاد .

ومن الممكن أن تمده النماذج التجريبية ، فليس من بأس على وزارة المعارف أن تقف عند حد المقدار الذي أنشأته من المدارس الجديدة وتجربها حتى تتأكد من وفائها بالغرض المنشود .

وهناك تجربة قائمة قد نهضت بأعبائها رابطة التربية الحديثة ، متعاونة فيها مع الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، ومستعينة بمساعدة قيمة من وزارة المعارف ومن وزارة الداخلية (مجلس مديرية القليوبية) ، وهي مدرسة المنايل الريفية التي كان لها الفضل في توجيه الأنظار إلى فائدة التعليم الريفي ، الذي اعترفت أمم العالم بفائدته . فهذه المدرسة جديرة بأن تهتم بها وزارة المعارف وتجعلها إحدى التجارب التعليمية المعترف بها ، فإذا هي فعلت ذلك قللت من المدة اللازمة للتجربة ، لأن هذه المدرسة قد قطعت شوطا عظيما في سبيل النجاح منذ تأسست في سنة ١٩٤٠ وما زالت تسير إلى الوقت الحاضر .

فإذا استطاعت الوزارة التي توجد لشعب مصر مدرسته الصالحة القومية ، كان جديراً بها أن توحد مستوى مدارس القطر كله ، حتى يستطيع كل فرد في كل أركان البلاد أن يتابع دراسته إذا شاء ، بغير أن تقوم في سبيله العقبة الحالية من وجود مدرستين : إحداهما ابتدائية تبيح للأبناء أن يستمروا في الدراسة إذا شاءوا ، والأخرى أولية أو إلزامية تقفل سبل التعليم في وجه الأبناء المتعلمين فيها ، فلا يستطيع أحد منهم أن يواصل تعليمه وإن كان ممن وهبهم الله من الاستعداد ما يؤهلهم للعرخ أعظم مدى في الحياة الثقافية . فإن في هذا ضياعا عظيما من مواهب كامنة في أبناء الشعب ، كان من الممكن أن تستفيد البلاد منها .

وتوحيد مستوى المدرسة القومية الأولى هو الوسيلة الوحيدة لتكافؤ الفرص بين أفراد الأمة المصرية ، ولا توجد

طريق سوى هذا التوحيد تؤدى إلى هذا التكافؤ فى الفرص وأما الوسيلة التى اختطها معالى الوزير فى محاولة التسوية فى فرص التعليم بين أفراد الأمة فلا نظن أنها تؤدى إلى الغرض الذى يقصده . فقد أراد معاليه أن يحقق هذه المساواة بتعميم المجانية فى المدارس الابتدائية ، ولكن المجانية فى المدارس الابتدائية وإن كانت عملا كريما فى ذاته لا تحقق التسوية لا فى القريب من الزمن ولا البعيد . فإن المدارس الابتدائية لا تتسع للتلاميذ جميعاً ، بل إنها فى مدينة القاهرة مثلا لا تتسع إلا لنحو عشر عدد الأبناء الذين فى سن التعليم الابتدائى . وما دامت هناك مدرستان للشعب إحداهما ابتدائيــة والأخرى أولية أو إلزامية ، فإن من أعسر الأمور أن تجد الوزارة سبيلا عادلة لاختيار الأبناء الذين تعتزم فى دخول المدارس الابتدائية ، لأن الامتحــان وسيلة غير مجدية فى الاختيار فى السن المبكرة التى يدخل فيها الأبناء إلى المدارس الابتدائية . ومهما يكن من الأمر فإن طائفة من الناس وهم الأغنياء أو الأوساط سيرفضون دخول المدارس الإلزامية وسيتجهون فى تعليم أبنائهم إلى المدارس الخاصة ، وعند ذلك ستنشأ فى مصر لأول مرة مدارس خاصة ممتازة لتعليم أبناء الأغنياء ، وكأننا بذلك نكون عاملين على تكوين الطبقات فى مدارسنا ، مع أننا شعب لا يعرف نظام الطبقات .

وإنه لمن المفيد أن نذكر أن فى إنجلترا مدارس خاصة لتعليم أبناء الأعيان والأغنياء ، وهى مدارس لها تقاليد قوية ، وذات أثر عظيم فى التربية الإنجليزية ، ولكن الشعب الإنجليزى ينادى اليوم منكراً وجودها ، ومنكرا اختصاص الأعيان والأغنياء بمدارس خاصة لأبنائهم .

فليس أمامنا من سبيل آمن وأجدر من توحيد مستوى المدرسة القومية الأولى ، والتسوية بين الجميع فى دخولها ، وفتح السبل لجميع الأبنــاء فى كل أركان مصر لكى يستمروا فى ورود مناهل الثقافة إذا شاءوا بعد إتمام مرحلة التعليم الإجبارى الأولى .

ولا يقتصر واجب الدولة على نشر الحد الأدنى من التعليم فى كل ناشئة الأمة ، بل عليها كذلك أن تفتح المعاهد الثانوية الكافية لكل من أراد التعليم فيها ، ثم عليها أن تعد للمعاهد العليا الكافية للجميع ، حتى لا يرد أحد عن بلوغ ما يريد بلوغه من الثقافة العليا إذا شاء ، واستطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن طلب العلم فريضة على من استطاعه ، وهو حق مقدس لن طلبه لا يقل عن حق الأفراد فى الحرية والكرامة .

وواجب الدولة أن تمكن الأفراد جميعا من أداء هذه الفريضة ، فلا تحول بينهم وبينها ، ولا تسد الأبواب أمام من قصدها ، ولا تتدخل فى حرية الأفراد فى التماسها ، اللهم إلا أمر واحــد مسلم به لها ، وهو ألا تصرف من الأموال العامة على الأفراد فى التعليم الثانوى أو العالى إلا إذا كان له من الاستعداد الطبيعى ما يجعله مستحقا لمنايتها ، لأنها إذا أنفقت من الأموال العامة على أصحاب الاستعداد والمواهب عملت بذلك على إنماء الثروة الوطنية من الذكاء والمقدرة .

وهناك مجهود ثالث لا يقل عن مجهودى الدولة السابقين وهو تعليم الكبار ، وقد اهتم به معالى وزير المعارف فى تقريره ، ولكنه بعد مناقشة فكرته فضل أن تقوم به وزارة الشئون الاجتماعية . ولكن وزارة المعارف لا تستطيع أن تتخلص من صفتها التثقيفية ، وهى من ناحية أخرى أقرب اتصالا بالجامعة أو الجامعتين المصريتين ، ونحن لا نزال ننتظر كثيرا من مساهمة الجامعة المصرية فى إذاعة الثقافة بين صفوف الكبار ، مستعينة بأساتذتها فى تنظيم الجهود المختلفة ، وبطلابها فى الخدمة الاجتماعية والثقافية ؛ فإن جهود الشباب كانت فى الماضى ولا تزال إلى اليوم معينا لا ينضب من النشاط والحماسة والوطنية . ويمكن أن تستفيد الأمة من هذا النشاط وهذه الحماسة فى ميادين تثقيفية كثيرة .

ومن جهة أخرى نعتقد أن وزارة المعارف مسئولة عن وضع الخطط الكفيلة بالنجاح فى تعليم الكبار ، فإذا هى أحكمت وضع هذه الخطط أمكن أن تلقى عبء إنفاذ الخطط على وزارة أخرى ، أو هيئة غير حكومية مما أشار إليها معالى الوزير فى تقريره كالنوادى ونقابات العمال وجمعيات التعاون أو البلديات .

ومهما يكن من أمر الهيئة التى تتولى تعليم الكبار فإن الغرض منه لا ينبغى أن يكون مجرد إزالة الأمية ، فإن الشعب لا يستفيد إلا من ثقافة حقيقية تستطيع أن تسمو بمداركه وبعواطفه ، وتزيد من مقدرته على التطور بالحياة . وفى إمكاننا أن نجرب نموذجاً لمدرسة لتعليم الكبار يشبه التجربة العظمى التى أبدعها العبقرى الدانمركى (جروتفج) ، وكان لها أعظم الفضل فى نهضة الدانمرك الحديثة .

وبعد ، فإن الثقافة بالمعنى الأوسع ليست مقصورة على التعليم فى المدارس والمعاهد ، فهناك من وسائل التثقيف الشعبى ما قد يكون أعظم أثراً من التعليم نفسه ، وإن كان لابد للشعب من أساس تعليمى صالح فى أول مراحل الحياة . وتتلخص الجهود الثقافية الأخرى فى أنواع ثلاثة :

الأول : الثقافة الدينية ، وقد فطن العالم اليوم إلى أهمية الروح فى الحياة ، وتتجه الآراء اليوم إلى أن روح الدين هو الذى يستطيع أن يسمو بالشعوب إلى الآفاق العليا ، إذا هو اتجه إلى القلوب وتغلغل فيها . ولسنا نقصد من ذلك مجرد حفظ قواعد الدين ، وحفظ آى القرآن ، فإن ذلك لازم لكى يكون نواة للروح ؛ ولكن الروح الدينى نفسه يجب أن يسرى فى حياة الشعب سريان الماء فى العود الأخضر ، وعلينا أن نتخذ لذلك من الوسائل المختلفة ما يحققه .

والثانى : إذاعة الفكر الأدبى والشعور الفنى بكل ما يمكن من وسائل ، مثل التمثيل ، والسينما ، والراديو ، والأغانى ، والمؤلفات الأدبية .

فالفكر الأدبى والشعور الفنى من أقوى ما يمد الإنسانية بثروتها الروحية إذا اتجهت الجهود إلى إذاعة الصالح منها ، ووسيلة ذلك أن تنفذ هذه الأفكار الأدبية وهذا الشعور الفنى إلى غمار الشعب ، بجعلها قريبة للأفهام ، مستساغة للأذواق ، وأن تتحرى فيها أن تكون الأفكار صحيحة صالحة ، وأن يكون الشعور الفنى مما يبعث على السمو . ولسنا نقصد بذلك أن نفرض على الإنتاج الفكرى والفنى رقابة مانعة ، فإن المنع يهدم ويقتل ، ولا يساعد على الخلق . وإنما نقصد أن الدولة تستطيع أن تساعد على الإنتاج الصالح بالتشجيع . وإنه لما يبشر بالخير أن فى مصر اليوم نشاطاً عظيماً فى التأليف الفكرى والفنى ، فإذا شجعت الدولة النابغين من أبناء الأمة فى هذه الميادين ببذل الأموال عن سخاء ، وبتحقيق سائر وسائل التشجيع أمكن أن نطمئن إلى مستقبل أدبى وفنى زاهر .

والثالث : العناية بالمكتبات ، فإن الموجود منها فى الوقت الحاضر قليل ومحدود . وقد أشارت وزارة المعارف فى مناهج المدرسة الجديدة التى اختطتها إلى استحسان وجود مكتبة فى كل مدرسة أولى .

فإذا نفذ هذا أمكن أن تتغلغل المكتبات فى أنحاء البلاد بعيدها وقريبها ، وكان هذا عاملا جديداً على إذاعة ثقافة حية صالحة فى أبعد أغوار الشعب .

ولكن ملء هذه المكتبات يستلزم من الدولة التشجيع على التأليف ، وإنا لنطمع منها أن تغير نظرتها إلى هذا التشجيع ، بل إننا لنطمع منها أن تسخو بمئات كثيرة من الآلاف من الجنيهات تبذلها فى سبيل تشجيع التأليف ، لأننا فى حاجة إلى عشرات الألوف من الكتب الجديدة الصالحة ، التى تكون لنشر ثقافة صالحة حقيقية بين المواطنين .

صيد من بلاد الشام

هذا ربيع الشام :

أرأيتَ بحراً هَزِجاً ، أمواجه الناعمات زهر ، وجواً غنجاً نسماته الرشيقاتُ عطر ، ودنيا من الجمال ، أبدعها الله لتأرى إليها الفتنة والسحر ...!

أعرفت فردوساً هبط إلى الأرض من الجنان ، أم رنوت إلى النور القدسى يتنزّل من السماء ، وإلى السرور يفيض فى الأجواء ، وإلى الصواحب الرعابيب الحسان ، يحتفلن فى جنبات الحقول ، بين بَسمات الزهور ، فى أبريل أصبح الشهور ، بعرس الدنيا ويقظة الحياة ...

فسبحانك ، سبحانك يا خالق الشام ...

أدباؤنا والربيع :

وأنا لا أستطيع أن أصف جمال هذا البلد الحبيب إلى قلبى ، إن جماله علوىٌّ ، قدسى معجز ... وإن هذه الألفاظ التى تقرأونها ، لأضيق من أن تعبّر عن معانٍ تفور فى صدرى ، وتضطرم فى نفسى ... أألفاظ تصوّر إبداع الله ... ؟

يا لسحرِكَ يا ربيعَ بلدى ، ويا لفتنتِكِ يا غوطتى الغنَّاء ...

وما علىّ وقد أظهرت عجزى ، إلاّ أن أنقل لك ثلاث قطع ، لثلاثة أدباء ، أوحاها إليهم هذا الربيع الساحر الضحوك الجذلان .

هذا أنور العطار ، يصف الربيع — بألفاظ أنيقات تعب فى اصطيادها ، وجوّد فى سبكها — فيقول :

هو ذا موكبٌ لآذار حُلوٌ يتمشى على السهول لعوبا

مــلأ الأرضَ والسموات عطراً

وتق الهمّ ، والضنى ، والشحوبا

وعلى منعطفِ الروح تراءت

قُبَلُ الربيع تنفحُ طيبا

تجِدُ النفس فى شذاها الأمانى

صوراً تترع الجَنان لهيبا

تغمر الروحَ بالهناءةِ والصِّحةْ

وكما يغمر الحبيب الحبيبا

* * *

اليواقيتُ فى النواظرِ ذابَتْ

وجرى السحرُ بالضياء مشوبا

جدولٌ يلهبُ القلوبَ غناء

ظلٌّ من موجه السنىٌّ سكوبا

ألمسُ النورَ فى تلاميعه الزُّ (م)

ر ، وأشتَفُّ روحَه المحبوبا

وأرى العطرَ وهو هيمان فى الدو

ح يناجى فى غصنيه العندليبا

وأحس الحياةَ تركضُ فى العشـ

ب وتسرى بين الحقول دبيبا

كل شىء هنا يُغَنّى ويحيا

نغماً مُمْتِعاً ، وشدواً عجيبا

فهذى صورة من أنور العطار للربيع ..

وإنها لصورة ملأى بألفاظ حِسان ، وصبك بذكرك بالأنغام ، ولكنها فقيرة المعانى جامدة الألوان .

* * *

وهذا صلاح الدين المنجد ، يصف الربيع ، فيتخيّل أن الربيع طوّف فى الأرض ليجد بقعة يأوى إليها ، فلمح غوطة الشام فعشقها وهام بها ، وحمل إليها زهوره وعطوره .. لترضى عنه ... يقول :

« ... يا غوطة الشام !

« قد جئتك مسرعاً ولهان ، وباسماً فرحان .

« خرجت من الغيوم البيض كالعذارى فخفقتُ في الفضاء ، ورنحتُ في الهواء ، وطوّفتُ في الأرض ، ثم سحرتني . . . فأويت إلى أحضانك الريّا . . . يا غوطة الشام !

« حملت إليك ما تشتهين .

« لك الزهر ، لتحلّيك بسماته .

« ولك النحل ، لتطربك هزَجاتُه .

« ولك العطر ، لتسكرك عبقاته .

« فابسمي لبنيّ الحلوتين ... أنا الربيعُ الجميلُ ، جئتك من الغيوم البيض كالعذارى ... وحملت إليك الحياة والجمال ، والنور والصفاء ...

* * *

« اسمعوا ، اسمعوا !

« أيها الشعراء ، والأدباء !

« تعالوا إلى عروس العطار ، وانظروا الجمال الفتان ، يضحك في كل مكان ؛ والكواعبَ الحِسان كباقات الزهر الريّان ، يتنادَيْن ، ويتمازحن ، ويتراشقن بالريحان ، ويرسلن بين هذا ، وذاك ، الأنغام ! ...

« أنصتوا إلى نمائم الهوى المعسول ، وشَدَوات الرعاة ، وسَجَعات الطيور ، وتمتعوا بالربيع النشوان ! زهو بغوطته الفتان . وينفث الرحيق في أشجارها ، وينشر الأريج في أجوائها ، ويحلّي بالآلئ النِّعام أعطافها ، ثم يُداعبُها بالقبل ، ويسكب لحلها الدموع ، فتصبح القُبُلاتُ زهرات ، وتستحيل الدمعات ينابيع متفجّرات !

« هنا ميلادُ الحب ، وهنا عيد الشعر ، وهنا مسرح الغيد والغزلان . أنا الربيع الجميل ، فررتُ من الغيوم البيض كأبدان العذارى ، ثم ... أويتُ إلى جنة الأرض .. إلى غوطة الشام ! »

* * *

فهذا وصف لطيف ، بلفظ حسن ، وفيه شيء طريف ، لقد عشق الربيع غوطة دمشق ؛ وإنها والله لخليقة بأن تعشق ، جديرة بأن تحب ، ثم إنها والله لتفيق كل جميل في هذه الدنيا . ومن يعطف على الجميل غيرُ الجميل ؟ !

* * *

وهذا شاعر من الشعراء — هو زكي المحاسني — لا يعبأ كالعطار بانتقاء الألفاظ ، ولكنه يجهد ، كما يقولون ، بصيد المعاني . يقول :

وربيعُ الشام عملأ قلبي　　وأرى فيه مُتْعتي وشبابي
سجعات من جوه حشو سمعي　　جددت لي على المدى إطرابي
عقبات من زهره الحلو ريّا　　هُنَّ في الشام أجمل الأطياب
غدوة النيربين مسرحُ الحب ...　　وبأفيائها جنونُ التصابي
هامةُ الشام هامتي وأرى في　　ربوة الواد ، خير كل الروابي
قلت للنهر وهو يجري لجيناً　　يا حنين الظماء عند الشراب
ردى ! صفتك جنة الخلد ...　　قد حظينا بها بغير حساب
كلُّنا مُذْنِبٌ إلى الله حتى　　ما أرى الطفل ناجياً من عقاب
فاتركوني في جنة الشام ألهو　　قبل فوت الحياة دون متاب
بأبي تربة ، أكب عليها　　أتنشق المجد في صميم التراب

فهذا وصف يستهويك بما فيه من حنين وَوَلَه وحب لهذه الجنة التي يريد الشاعر أن يلهو فيها قبل فوت الحياة ؛ ويؤثر فيك بصدقه وسذاجته ، فلا يصدمك جمودُ الألوان ... ولا تكلف البيان .

ولست الآن في معرض التفصيل والتفضيل والمقايسة ؛ وإنما أنقل ثلاث مقطوعات ، وقعت تحت يديّ الساعة مصادفة فنقلتها . وإن هناك مقطوعات قد تكون أجود منها وأبرع وصفاً ، ولعلك بعد ذلك تستطيع أن تعلم ما في ربيع الشام ، ثم لعلك أن ترى بعض الرأي في هؤلاء الأدباء الثلاثة . وسأرجع إلى التكلم عليهم بعد أسابيع إن شاء الله .

مؤتمر الأدباء ... !

أذكر أني قرأت دعوة في مجلة الرسالة من الأستاذ

صلاح الدين المنجد ، إلى الأدباء ، يدعوهم بها إلى عقد مؤتمر عام يجمعهم ، فيتبادلون الرأى فيما ينقصنا وفيما نحن بحاجة إليه ...

وكانت أول دعوة إلى هذا المؤتمر ...

ثم كتب الأستاذ « درينى خشبة » مقالاً رحّب بدعوة صاحبنا المنجد وأبان عما سيكون لهذا المؤتمر من أثر وفضل ، وأشار إلى اجتماع كان فى النادى الشرقى لتكريم العاسى وزوجه الأديبة الفاضلة السيدة سكاكينى .

ثم كتب الأديب السعيد « قاف » الثقافة كلمة ، تساءل فيها : « ولمَ لا يفكر أهل الأدب فى مؤتمر يجمع أدباء مصر إلى أدباء الشام والعراق والجزيرة ، والسودان؟» .

وإنه لتأييد جميل من أدباء مصر لدعوة أديب سورى .

وإنه لدليل على أن مؤتمر الأدباء ينبغى أن يقوم ، وأن يكون . . .

وقلتُ لنفسى بعد أن قرأتُ ما قرأت :

الأدب فوضى ، لا مقاييس ولا حدود ولا موازين .

وإن نفراً من الأدباء ، غرّتهم الألقاب تخدرتهم ، وغشت على قلوبهم فهم لا ينتجون .

وإن آخرين يتعامون عما يحيط بهم فى هذا المجتمع ، من بؤس ، وألم ، وفقر ، فلا يكتبون ولا يصوّرون .

وآخرون يخلقون العداوة خلقاً ، فيوقعون ، وينمّون ولا يفقهون .

وإن الدنيا تفور وتثور . وتتجه الدول وجهات متباينات ، وتنحو مناحى مختلفات ، وأدباؤنا ، وهم قادة الرأى ، نائمون ، لا يعرفون أين يتجهون ، أو كيف يوجّهون ، ولا أنى يقصدون .

وإن من الأدباء من يلفظ أنفاسه ليؤلف كتاباً يذكر ، فما يكاد يظهر ، حتى يسرقه الناشرون .

وإن من الناشرين من يذيع السخف والهراء بأساليب بلغت من السفالة المبلغ الكبير ، فى كتب يشرف عليها أدباء كبار ، أو أديب مستبد ، وكلهم يتاجرون . والناس يتلقون السخف ، وسائر الأدباء صامتون . . .

والنقد ، يا ويل النقد ، أضحى مديحاً وتقريظاً ، يزيد الضعيف ضعفاً ، والسخيف سخفاً ، ثم لا يدل على الطريق..

فمتى يقوم مؤتمر الأدباء ، متى يقوم ؟ ...

(دمشق) قراء

كلمات غير من كتاب

١ — قال حكيم للأسكندر .

« أيها الملك . أرد حياتك لرجالك ، ولا ترد رجالك لحياتك » .

٢ — قال أبو تمام :

بَصُرتَ بالراحة العُليا فلم ترَها
تُنال إلا على جسرٍ من التَّعَب

٣ — قال عمر بن الخطاب : كانت العرب أُسداً فى جزرتها يأكل بعضها بعضاً ، فلما جمعهم الله بمحمد لم يقف لهم شىء .

ليالٍ من « ألف ليلة وليلة » لم ينشرها الوراقون :

طائر الحب

« مهداة إلى . . . « تيمور » !! »(*)
[الحب كالحظ ، والحظ كالحب : كلاهما أعمى !!]

... وفي ليلة (...) قالت شهرزاد : بلغني أيها الملك السعيد . أنه كان في قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، ملك جليل الشان ، عظيم الجاه والسلطان ، أجزل الله له في النعم ، من مال وجاه وخدم وحشم ، ولكنه كان كثير الهموم والأنين ، لحرمانه نعمة البنين .

واستفاضت شهرته في أقاصي البلدان ، وتحدثت بأمنيته الركبان ...

وعلم بها منجم له قدم راسخة في الطب والسحر والعرافة ، فقدم على الملك يعرض عليه خدماته ، فقوبل بحفاوة بالغة ، وأنزل في القصر الملكي منزلا مباركا .

وما هي إلا أيام حتى طلع على الملك بالبشرى السعيدة ، وقبّل الأرض بين يديه ثم قال : اعلم أيها الملك المجدود ، أن قد أقبل اليمن والسعود ، فستنجب بنتاً ساحرة فتانة ، جميلة مُشّانة . وسأزرع في روض « القصر » الناضر ، شجرة من الورد النادر ، وستطلع وردة صغيرة ، يوم ميلاد الأميرة ، تنمو بنموها ، وتنضج بنضجها ، وسيتزوج الأميرة الرائعة ، من يحوز هذه الوردة اليانعة . . . . ثم قدم الملك بعض التمائم ، ومزيجا من الأعشاب النادرة ، لتحمل الملكة الأولى ، وتتناول الأخرى .

ثم قبّل الأرض بين يديه ، وانصرف متمتماً بالتعاويذ والدعوات ...

* * *

ومضت أسابيع ، وتحققت نبوءة ذلك المنجم ، وسرت البشائر في طول البلاد وعرضها ، وأشرقت الوجوه بالبسمات ، وتبودلت التهنئات .. لقد حملت الملكة !

وترعرعت شجرة الورد ، وتفتحت براعمها ، وتفرعت أغصانها ، وطالت أفنانها و ...

ومضت شهور ... وإذا البستاني يلمح في ذروة الشجرة العجيبة برعما يتفتح عن وردة صغيرة ملفّفة في أكمامها ... وكان ذلك إيذانا بمولد الأميرة !!

واهتزت البلاد فرحا ، وجُنّت سرورا وطربا ، بمولد الأميرة الغالية ؛ ونصبت الزينات ، وأقيمت الحفلات ، ووزعت الصدقات والهبات .

وأمضت الوردة طفولتها مرحة مدللة عابثة ، يداعبها النسيم عليلا رفيقاً ، ويتساقط عليها الطل ، قطرات صافية صفاء قلبها البريء ، وتشدو حولها الطيور بأناشيد الطفولة الضاحكة الراقصة اللاهية ...

وتتالت السنون ، تتبعها سنون ، وهي تزوّد الوردة بالسحر والفتون ...

وتخطت عقدها الأول ، فاكتمل سحرها ، وتناهت فتنتها ، وتفتحت أكمامها ، واحمرت وجنتاها ... فبدت تسبي اللب ، وتخطف البصر ، وتأسر الخاطر ...

وانقلب النسيم الحثيث عاشقا ولهان ، يلاعبها في قسوة ملاعبة المشوق الهفان ، يهز قدها ، ويداعب خدها ، ويمص بشفتيه من أريجها الفواح .

والطيور !! لقد أضحت تحوّم حولها ، وتهزج لها بأهازيج الغرام ، وتصب في مسمعها ترتيلات الحب والهيام .. والقمر ... والشمس !! ...

* * *

.. في سكون الليل ، وفي ضوء القمر ، وفي غَبْشة السحر ، حين تغفو العيون ، وتلقي النفوس زمامها إلى ملك الرقاد الهنيء ، ويحدوها حادي الأحلام بحداء شجي أخاذ ..

(*) نشر الفنان النابه ... « تيمور » رأيا في مجلة « الاثنين » الغراء في الحب ملخصه : « أنه لن ينجح في حبه إلا ذو العدة القوية » ، وهو رأي طريف .

... فى هدوء الليل ... كان طائر الحب — وهو طائر جميل جميل ، رائع رائع ، ذو منقار ذهبى ، وريش مرقش موشى ، وجناحين ... — يعتلى ذروة شجرة الورد — حيث وردتنا الفاتنة — ويرسل من فمه ذى المنقار الذهبى ألحانه الشجية ، وأنغامه الساحرة ، ويسكب فى مسمع الوردة أغاريد الهوى ، وترانيم الصبابة ، فتفتح قلبها للحب ، وانعقد الخجل فى وجنتيها حمرة ناصعة ، ونبت دلال الأنوثة وكبرياؤها شوكا قويا حادا يحمى غصنها اللدن الرطيب من عبث العابثين .

وتغيرت السكينة ، فأصبحت ترسل بين الفينة والفينة آهاتها ، وتنفث آمالها وأحلامها فى أنفاسها ، فتعطر الجو بأريجها المتضوع العطر .

وكان القمر يحنو عليها ، ويغمرها بفيض من أشعته الفضية ، لتغتسل فيها من أوضار النهار .

وكانت الشمس ترق لحالها فترسل من قرصها الذهبى أشعتها العسجدية ، لتكفكف ما سكبته من الدموع ، وتجفف ما تساقط من مآقيها على خدودها ..

يا للوردة !! لقد تفتح قلبها للحب !! ...

وحان قطافها !! ...

* * *

وأتمت الأميرة الحسناء خمسة عشر ربيعا من عمرها السعيد ، وكانت كأختها الوردة جمالا وفتنة ....

وتفتح قلبها للحب !! ... وحان قطافها !! ...

* * *

وأعلن الملك فى أرجاء البلاد — اتباعا لمشورة منجم القصر — أن طائر الحب سيقطف وردة الأميرة ، وستكون الأميرة زوجا لمن يقدم هذه الوردة ، بعد أن يؤتيه بها طائر الحب

ولا يفوتنى — أيها الملك السعيد — أن أذكر لك أن من المستحيل أن يجرؤ شخص على قطف هذه الوردة بنفسه ، فالحديقة لا يدخلها غير الملك والملكة والأميرة ، فضلا عما أحاطها المنجم من سحر رهيب ، يصعق كل من تحدثه نفسه الأثيمة بالإقدام على هذا العمل الأهوج .

وفاتنى أن أذكر لك أنه كان لوزير الملك ابن فى حب شبابه ، وفورة فتوته ، قد بلغ الكمال من الرجولة ، وتشرب فنون الفروسية وضروبها ، وهو مع ذلك ممشوق القوام ، جميل الطلعة ، قسيم وسيم ، ينبعث من عينيه جاذبية آسرة ....

فلما أعلن الملك هذا الإعلان الغريب ، تطلع الجميع إلى ابن الوزير ، واعتقد الكل أن الأميرة من نصيبه ، فهو غرة جبين المملكة كلها ، وقمرها الساطع ، وشمسها المتألقة ....

ولقد كان هو نفسه مطمئنا واثقا ، معتقدا كل الاعتقاد أن طائر الحب لن يخطئه ، فهو أولى الناس بها لمكانته وقدره فضلا عما يكنه لها من حب جارف عارم .

وكان له تابع ، يتبعه كظله فى الحل والترحال ، وكثيرا ما حظى برؤية الأميرة الجميلة ، وهو فى صحبة سيده ، فكان يهفو نحوها قلبه ، ولكنه يرجع إلى نفسه ، فيخزى ويختفى ..

وكان ينام هذا التابع فى غرفة تجاور مخدع ابن الوزير وتلاصقها ...

وفى ليلة من الليالى داعبته الأحلام ، وظنها هازئة به ساخرة ، فلقد رأى الأميرة أصبحت ملكا له ، يرتشف ريقها ، ويلثم خدها ، ويهصر قدها ، وأنه أصبح أقرب المقربين إلى الملك .... أصبح زوجا للأميرة !! ...

إنه لحلم رائع جميل !! استيقظ على أثره ، ففرك عينيه ، وتمطى وتثاءب ، ولكنه تنشق رائحة قوية حادة تعطر أرجاء الغرفة ، وتعبق فى جوها رائحة مسكرة ...

يالله !! إنه لحلم آخر ، ولكنه من أحلام اليقظة ، واستجمع إرادته وعزمه ، وانتشل نفسه من هذا الحلم أيضا ولكن ليغرق فى حلم أعمق من هذين وأغرب !! لقد وجد على فرشه ... وردة !! ، ويالها وردة !! إنها ليست من

رياض الدنيا ... إنها من الجنة !! لونها !! رائحتها .. جمالها ... سحرها ... أيكون هذا تفسير الحلم ؟! أتكون وردة الأميرة ؟! أتكون ؟ حقا إن الدهر بهذا لضنين ! ...

وأدرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح .

* * *

وفي ليلة (..) قالت : اعلم أيها الملك السعيد أن التابع لما عثر على الوردة ، حين أن يظهرها فضلا عن أن يتقدم بها ، فخبأها في أعز مكان وأمنه ، وفي اليوم نفسه أخبر البستاني الملك ، وردة الأميرة قد قطفت !!

هنالك كانت النفوس مسرحا لمزيج من الأحاسيس المتضاربة ، والمشاعر المتنافرة : من فرح وحيرة ، ورهبة وخوف ... واستطلعوا لما يأتي به القدر ، وأيديهم على قلوبهم .

وانتظروا ، ولكن لم يتقدم أحد ، وطال الانتظار أياما ، وبرّح بالأميرة الصغيرة الحب والجوى ، وكانت تهذي بالنهار ، وتحلم بالليل ، وأورثها الهوى السهد والسقام ، وباتت حالها تنذر بالخطر ...

واستشير منجم القصر ، فأخبر أن وردة الأميرة قد قطفها طائر الحب ، وهي الآن في حوزة شخص يهيم بالأميرة ، وتهيم الأميرة به ، ولكنه في خشية ورهبة من التقدم ...

وأعلن الملك مرة أخرى أن الأميرة من نصيب من يتقدم بوردتها ولو كان ...

وفي الوقت نفسه أوعد كل من يحتازها ولا يتقدم بها ، وجعل الصلب عقابا له ...

هنا لم يجد التابع بدا من الظهور ، واعتقد أن الدهر قد بسم له ، وحقق أحلامه ، فتقدم إلى الملك ، وقبل الأرض بين يديه ، ثم قدم إليه الوردة العجيبة — وكانت ناضرة زاهية كأنها قطفت لساعتها —

ولم تتمالك الأميرة — وكانت حاضرة — أن ترتمي بين أحضانه ، وتشبعه ضما وعناقا ، وكان الملك فعل السحر في نفسها وجسمها ، فارتدت إليها نضارتها ...

ودهش الملك ، وسُقط في يده ، ووجد نفسه أمام الأمر الواقع ، فلم يجد مناصا من إتمام الزواج بعد أن خلع على التابع الخلع السنية ، ونصبه أمينا للقصر .

* * *

على أن الحكاية لم تنته بعد — أيها الملك السعيد — فلقد غيظ الملك غيظا شديدا ، كادت تنفطر منه نفسه ، فأمر حراسه بأن يبذلوا غاية جهدهم لصيد هذا الطائر الملعون — طائر الحب — والإتيان به حياً ، حتى يشتفي منه غليله .

وترصّد له هؤلاء الحراس ليالي متواليات ، وتمكنوا من اقتناصه ، وأتوا به إلى الملك .

... وقبض عليه الملك — في غيظ وحنق — ولم يرعه منقاره الذهبي ، ولا ريشه البرقش ، ولا ...

وضغط على أضلاعه ضغطة كانت فيها روحه ، وقذف به إلى أرض الحجرة ، فارتطم بها جثة هامدة .

وزفر الملك زفرة ، أزاح بها هموما ثقالا كانت جاثمة على صدره ، وأخذ ينظر إلى الطائر الصريع نظرات التشفي والشماتة .

... ولكنه رجع فالتقط الطائر مرة أخرى وأخذ يتفحصه ، ويقلبه بين يديه ، ويطيل النظر إليه ، ولم يصدق عينيه !!

واغرورقت عيناه بالدموع ، وحرك رأسه ، وأرسل آهة عميقة ، وأخذ يقلب كفيه ، ويقول : لقد ظلمتك !! لقد ظلمتك أيها الطائر المسكين

وبدا نادما سادما ، حزينا أسفا .. لقد وجد الطائر !! وجده أعمى !! .

* * *

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

(القنايات — شرقية) عبد المنعم شلبي

حول أصول النشر :

كتاب قوانين الدواوين

للأسعد بن مماتى

— ١ —

منذ سنين اعتدت أن أسمع من الدكتور عزيز سوريال عطية ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى الأوربية بجامعة فاروق الأول ، وعداً بأنه سينشر كتاباً عربياً يأخذ فيه بأصول النشر العلمية كما وضعها الألمان أنفسهم أخذاً دقيقاً يجب أن يحتذى ؛ ولهذا تشطت همتى إلى الاطلاع على كتاب « قوانين الدواوين » للأسعد بن مماتى الوزير الأيوبى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ١٢٠٦ م ، وقد نشره أخيراً الأستاذ الفاضل ، وطبعته الجمعية الزراعية الملكية بإشارة صاحب السمو المغفور له الأمير عمر طوسون .

وإنه وإن كان يحلو لى أن أمتدح كل جهد ، وبخاصة جهداً يبذل فى النشر الذى أعلم ما فيه من مشقة لا يقدرها جمهور المثقفين قدرها الحق ، إلا أنى لا أستطيع أن أقر الدكتور سوريال على المبادئ التى صدر عنها ، وكنت أتوقع منه أكثر مما يعرض علينا اليوم . ولما كانت قواعد النشر من المسائل الجوهرية فى حياتنا العلمية الراهنة ، ونحن على أبواب نهضة إحدى دعائمها الأساسية نشر تراثنا العربى القديم ، فإنى لا أرى بداً من مناقشة هذه المبادئ على نحو مفصل ، حتى نستقر على ما يجب أن نأخذ به فيما نريد نشره .

اعتمد الدكتور سوريال فى نشر الكتاب على أمرين : (١) المصادر المباشرة ، وهى مخطوطات الكتاب ، وقد أخبرنا فى مقدمته بما جمع منها (٢) المصادر غير المباشرة ، وهى الفقرات التى أخذها المؤلفون اللاحقون عن ابن مماتى وأوردوها فى كتبهم فى معرض الاستشهاد أو الاستدلال ؛ وهذه المصادر لم يدرسها الناشر فى مقدمته ولا حدد قيمتها ، ولكنه انتفع بها فعلا فى بعض هوامشه ، وإن يكن انتفاعاً ناقصاً كما سنرى .

إلى هنا نقر الناشر ، إذ من البديهى أننا لا نملك غير هذين المصدرين للنشر ، وذلك مع التحفظ الذى أوردناه عن عدم دراسته المصادر غير المباشرة دراسة عامة فى مقدمته . ولكننا نخالفه فى طريقة انتفاعه بهذين المصدرين ، ومن ثم نخالفه فى كل شىء ؛ ولتوضيح هذا الخلاف نتحدث عن كل مصدر .

المصادر المباشرة وأنواعها :

ليس من شك فى أن أول عمل للناشر هو جمع المخطوطات المختلفة ، وهذه عملية مادية تنتهى بحيازة تلك المخطوطات أو استنساخها أو تصويرها ، وبعد ذلك تبدأ عملية « تسلسل المخطوطات (filiation des textes) » وهذه العملية هى الأساس الأول لكل نشر علمى صحيح ، وذلك لأنه من واجب الناشر أن يميز بين ثلاثة أنواع من المخطوطات :

١ — تحريرات الكتاب المختلفة (versions) ، وذلك لما هو معروف من أن كثيراً من المؤلفين يعودون إلى كتبهم بالتعديل والتنقيح ، والزيادة والنقص ، فمن واجب الناشر أن يميز بين التحريرات المختلفة للكتاب الواحد ، وأن يسلسلها سلسلة زمنية ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وفى اللغة الفرنسية مثل رائع لمثل هذا العمل الدقيق الجليل ، وهو ما فعله الأستاذ فيلى Villey فى نشره لمقالات الفيلسوف الفرنسى مونتين Montaigne .

٢ — مجموعات الكتاب المختلفة (recension) ، ونعنى بها تلك الحالات التى لا يصل إلينا فيها الكتاب كما حرره مؤلفه ، إما لأنه لم يكتبه هو بنفسه بل أمله شفويا ، وهذه حالة الملاحم القديمة : كملاحم هوميروس التى لم تدون إلا بعد

موت الشاعر بقرون ، وحالة الشعر العربي القديم كالمعلقات وغيرها ؛ وإما لأن الكتاب لم تصلنا منه إلا مختصرات يتفاوت بعضها من بعض طولا وقصرا . وفي هذه الحالات من واجب الناشر أن يميز بين كل مجموعة .

٣ — النسخ المختلفة (copies) ، وهنا من الواجب أن نميز بين ما هو بخط المؤلف وما هو بخط النساخ ، ومن بين نسخ النساخ نميز ما هو نسخ من التحريرات والمجموعات المختلفة وبين ما هو نسخ عن نسخ واحدة ، ثم تسلسلها تاريخيا ما استطعنا .

والدكتور سوريال قد كانت لديه كل الوسائل ليقيم « تسلسل المخطوطات » على أصح نحو ؛ ولقد فطن إلى شيء يشبه هذا التسلسل ، ولكنه استخدمه استخداما غريبا . فهو يقسم مخطوطاته إلى ثلاثة أقسام : يضع في القسم الأول منها مخطوطات مكاتب غوطة ، واستانبول ، والقاهرة ؛ وفي الثاني مخطوطي باريس ، ولندرة ؛ وفي الثالث مخطوطي الأزهر ، ومعهد دمياط . وهو ينبهنا إلى أن « نسخ القسم الأول ترجع إلى أصل أقدم من الأصل الذي أخذ عنه ناسخو المجموعة الثانية ، بدليل ما ورد في مقدمة نصوص القسم الأول من الإشارة إلى — الدولة الملكية الناصرية السلطانية الصلاحية ؛ بينما يشير الكاتب في نسخة لندرة إلى — الدولة العزيزية . وإذن فأصل القسم الأول من عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ — ٥٨٩ هـ/١١٦٩ — ١١٩٣م) ، وأصل القسم الثاني جاء في عهد خليفته الملك العزيز عماد الدين (٥٨٩ — ٥٩٥ هـ/ ١١٩٣ — ١١٩٨) » .

وهذه النصوص قاطعة في أن ابن مماتي قد حرر كتابه مرتين : مرة لصلاح الدين ، ومرة للعزيز عماد الدين . ونستطيع أن نضيف إليها نصوصاً أخرى تقطع بنفس الحقيقة ، منها أن المؤلف في طبعة الدكتور سوريال يقول ص ٣٤٥ متحدثا عن صلاح الدين : (وورد عليّ كتاب كريم ناصري بأن . . . أعمل كذا وكذا) ، بينما يقول في نفس الصدد في طبعة الوطن(١) : « فإنه كان ورد على كتاب كريم من السلطان رضي الله عنه ، وسقى عهده ، وروض لحده — بأن أعمل كذا وكذا » ، وهذا يدل كما هو واضح على أن ابن مماتي قد حرر كتابه كما قلنا مرتين : مرة وصلاح الدين حي ، ومرة بعد موته ؛ كما يدل على أن طبعة الوطن مأخوذة عن نسخة من القسم الثاني أو ما يماثلها .

وإذن فمن المؤكد أن كتاب « قوانين الدواوين » قد حرر مرتين ، وفي هذه الحالة ما هو التحرير الذي يجب على الناشر أن يعتمد عليه أولا ؟ أليس من البديهي أن يكون اعتماده على التحرير الأخير الذي نقحه المؤلف كما يرى ، أو على الأقل أما يجب على الناشر ألا يغفل هذا التحرير إذا فضل التحرير الأول ويبصرنا بأسباب هذا التفضيل ؟! ومع ذلك يخبرنا الدكتور سوريال أنه قد اعتمد بنوع خاص على نسخة من مكتبة غوطة ، لأنها — فيما يرجح — « أقدم عهداً من بقية المخطوطات الأخرى » ؛ وهذا سبب عجيب للتفضيل ، فالقدم في النسخ يأخذ به العلماء عندما تكون تلك النسخ عن تحرير واحد للكتاب ، وأما عندما تكون لدينا نسخ من تحريرين مختلفين ، فمن الواجب ، كما يجمع العلماء ، أن نأخذ بالنسخ المخطوطة عن التحرير الأخير ، أو على الأقل أن نجمع بينهما كما قلنا .

ولقد كان لتصرفات الناشر على هذا النحو غير المقبول نتائج خطيرة على النص ، ولو أنه اهتم بمخطوطات القسم الثاني اهتمامه بمخطوط غوطة لتجنب تلك النتائج التي يؤسف لها . بل لقد كان باستطاعته أن يتدارك كل شيء لو أنه لم يحتقر طبعة الوطن المأخوذة عن القسم الثاني كما قلنا ، ولم يحاول أن يزري بها كما فعل في مقدمته ، وإليك مثالين لما نشير إليه :

(١) طبعة الوطن هذه طبعة جزئية لنفس الكتاب التي نشرها الدكتور سوريال ، وهي مؤرخة بتاريخ ١٢٩٩ هـ ومتداولة في المكاتب .

المستخدمون وعددهم :

فى الباب الثالث من طبعة الوطن (ص ١٠) يتحدث المؤلف عن المستخدمين من حملة الأقلام ، فيذكر أن عددهم ثمانية عشر ، وأما فى طبعة الدكتور سوريال فيقول نفس المؤلف فى الباب الثامن (ص ٢٩٨) المقابل للباب الثالث فى الطبعة السابقة : إن « المستخدمين من حملة الأقلام لا يتجاوزون سبعة عشر رجلا » ، ومع أن الدكتور سوريال قد أخبرنا فى مقدمته أنه قد « أثبت فى الحواشى جميع الاختلافات» (ص٤١) ، ومع أنه قد أثقل حواشيه بأشياء كثيرة تافهة لا نرى ضرورة لها ، إلا أنه لم يثبت هذا الاختلاف الخطير ؛ مع أن طبعة الوطن قد أوردت بالفعل اسم المستخدم الثامن عشر ، وهو الضامن ، وعرفته فى خمسة أسطر بآخر الفصل (ص ١٠)

صراع البهنسا :

يستطيع القارئ أن يراجع ماورد فى طبعة الوطن (ص ١٧) عن هذا الخراج وماورد عنه فى طبعة الدكتور سوريال (ص٢٤٥) ، ليرى أن نص الطبعة الأولى أطول بعدة أسطر عن نص الطبعة الثانية ، ومع ذلك لم يثبت الناشر الحديث هذا الاختلاف الجوهرى فى حواشيه ، مع أنه أثبت ما لا يحصى مما يسميه العلماء « عثار النساخ » (Coquilles des copistes) ويهملونه بالإجماع .

هذان مثالان كبيران لما ينشأ من عدم الدقة فى إقامة تسلسل المخطوطات ونقدها حق قدرها ، وهو عيب لا ريب جد خطير .

ونحن بعد لا نريد أن نسهب فى التفاصيل ، مكتفين بأن نتخذ مما فعله الدكتور سوريال مثلا نضعه أمام الناشرين ، معتقدين أنهم سيقرروننا جميعاً على أهمية ما سميناه كما يسميه علماء الغرب «تسلسل المخطوطات» ، ووضعها فى مواضعها تبعاً للنظام الذى بسطناه ، فهذا العمل هو مفتاح النشر ، وهو السبيل الوحيدة لتجنب ما أشرنا إليه من خطر على ما ننشر .

المصادر غير المباشرة :

قلنا إن الدكتور سوريال قد استخدم المصادر غير المباشرة فى بعض حواشيه ، وإن لم يدرسها فى مقدمته كما كنا نتوقع ؛ ومع ذلك فقد كان من واجبه أن يستخدم تلك المصادر فى تصحيح النص استخداماً أوسع وأكمل مما فعل ، فمن المعروف أن المقريزى والقلقشندى قد أخذا الكثير عن كتاب « قوانين الدواوين لابن مماتى » ؛ ولما كانت مخطوطات ابن مماتى مضطربة فى غير موضع كما يقول الناشر ، فقد كان حتماً عليه أن يجهد نفسه فى البحث عن جميع ما نقله هذان المؤلفان عن ابن مماتى ليكون عمله عمــلا علمياً بمعنى الكلمة ، وله فى علماء الغرب ، بل والشرق ، أسوة حسنة . ولو أنه فعل لما رأيناه يكتفى بنسخ بعض الفقرات فى طبعته ويتركها كما هى غير مفهومة ولا قابلة للفهم ، مع أن عمل الناشر الأول هو أن يقدم إلينا نصاً يمكن فهمه ، وبهذا فقط يتميز الناشر عن الناسخ . خذ لذلك مثلا فى ص ٨٢ : (قال : وأمرت غلاماً لى ، أحضر لى من فكاهين (كذا) القاهرة الورد ، والنرجس والبنفسج ، والياسمين ، والحرير ، (كذا) الذى يسمى النثور ، والنسرين ، والريحان ، والسوسان ، والطلع ، والبلح ، والجمار ، والخيار ، والبطيخ الأخضر ، والباقلا والتفاح ، والقلوص ، والأترج ، والنارنج ، والأسيا ، والليمون . . . الخ » . ولو أنه رجع إلى صبح الأعشى : (ج ٣ ص ٣٠٩) لاستغنى عن « كذا » أو اثنين مما ورد هنا ، والكتاب كله ملىء بـ (كذا) والحمد لله كما سنرى ؛ فقد قال صاحب الصبح : «قال المهذب ابن مماتى فى قوانين الدواوين : بعثت غلاماً لى ليحضر من فكاهى القاهرة ما وجد بها من أنواع الفاكهة والرياحين ، فأحضر لى منها الورد ، والنرجس ، والبنفسج ، والياسمين ، والنثور والنسرين . . . الخ » ، ومع ذلك لم يشر الناشر إلى هذا النص لا فى المتن ولا فى الهوامش .

الفجر الكاذب

يلوح في الظلماء كزورق من ضياء
والكون خيّم فيه صمت كصمت الفناء
مبشراً بالصباح الـ قريب والأضواء
نور ضئيل قريب يشوق عين الرائي
شعاعه مائل نحـ و شاطئ الصحراء
ما زال يخفق عند الـ أفق البعيد النائي
فتارة في ظهور وتارة في خفاء
حتى تطوّح خلف الد (م) جنّة السوداء
كزورق بامته الـ أمواج بعد العناء

* * *

جلست عند تخوم الد (م) نيا شديد العياء
سوّبت وجهي إلى الـ أفق في انتظار ذكاء
طال انتظاري لفجر مورّد اللألاء
يسري ويوقظ ما في الطـ بيعة الحسناء
يشيع بهجته في الـ حياة والأحياء

من هنا نرى أن الناشر الفاضل لم يبذل ما كنا ننتظره منه من جهد في خدمة النص بفضل المصادر غير المباشرة ، وإذا أضفنا هذا التقصير إلى ما رأينا في حديثنا عن المصادر المباشرة ، أدركنا أن طبعة الدكتور سوربال لا تزال في الواقع محتاجة إلى نشر جديد أصح من نشرها الحالي

وكل هذا بفرض أن الناشر قد بذل ما يجب من جهد في قراءة النص قراءة صحيحة ، حتى يعتبر عمله نشراً لا نسخاً ، ولكن كيف يكون الحكم إذا لاحظنا أن الناشر الفاضل قد انتهج في نشره خطة لم نسمع أن أحداً قال بها ، فترك النص كما هو ، وذلك فيما يقول « محافظة منه على أسلوبه الأثري » ، وهذا قول لا نقبله أصلا ، ولا بد لإيضاحه من مقال آخر

محمد مندور

فالنفس مني ظمأى لنوره الوضاء
وقد سئمت الدياجي في ليلتي الليلاء
القلب يفزع للوهـ ـم إن بدا في الفضاء
وإن يكن من خيال وإن يكن من هباء
والليل يظهر فيه الـ سراب كالصحراء

* * *

ما كنت أبصر ذاك الشـ ـعاع في الأجواء
حتى فتحت ذرا عي هاتفاً للبهاء
أجري إلى مشرق الشـ ـمس مسرعاً للقاء
لكنه فجأة غا ض من وراء السماء
فكدت أسقط من فر ط خيبتي ورجائي
وجدتني هائماً في سهامه الظلماء
والعين مني ترنو للأفق في استجداء
وعدت أمسح من مـ ـقلتي دموع بكائي

* * *

وكلما لاح فجر فكاذب الأضواء
لا يظهر النور إلا ليستثير عنائي
أريد أن أتلقى في عالم من صفاء
إني لأنتظر الفجـ ـر كي أطيل فنائي
والقلب ظمآن للنو ر حافل بالرجاء
فهل تراني صفت الـ حياة في بيداء
أم هل ترى عبثت بي ضلالة الشعراء

* * *

فأرز إليّ أبا الفجـ ـر صادق الأضواء
لقد فتحت ذراعـ ـيَّ فاستبق للقاء

عبد الحميد بن جابون

نظراً للإقبال العظيم الذي صادفه معرض السجاد التركي القائم الآن بدار الآثار العربية بباب الخلق قد تقرر امتداده إلى ١٥ أبريل سنة ١٩٤٤ ، وهو مفتوح يومياً والدخول مجاناً .

نشيد الليل

إلى التي علمتني كيف أحب وكيف أشعر
إلى « دولا » الصغيرة .

غمرتِ بإشراقِ المحبةِ خاطري
وألهمتِ قيثاري رُؤى كلِّ ساحرِ

فلو أرسلَتْ نغماً مع الليل لانبرى
يُطارحُها نغمَ الهوى كلُّ طائرِ

وأيدعتِني في خاطر الدهر شاعراً
وأجملُ من طيفِ الهوى نفسُ شاعرِ

وأرهفتِ حِسّى فانتشيتُ مُغرِّداً
لحانُ أغاريدى على كلِّ ساحرِ

فيا كرمَ أنغامى ، ونبعَ صبابتى
ويا روض آمالى ، وأفقَ مشاعرى !

أحبُّكِ للحبِّ الرفيعِ وإنّنى
لغيرِ جمالِ الروحِ ما اهتزَّ خاطرى

وليس الذى يهوى ، سعيداً بحبه
إذا كان مأخوذاً بسحرِ الظاهرِ

عرفتُكِ ، قلباً ، كالفراشةِ رقةً
شريفَ المنى ، حيياً ، نقيَّ السرائرِ

عرفتك نفساً ، كالأصيلِ بشاشةً
وكالنسَمِ الذاكى بريّا الأزاهرِ . . .

عرفتك روحاً ، كالدرارىِّ رفعةً
تُنيرُ سبيلى فى اقتحامِ المخاطرِ

سقى الله أياماً نعمنا بظلالها
بحبٍّ كأنفاسِ الرياحين عاطرِ

سقى الله أغصاناً هصرنا فروعَها
فرفرفَتِ الأنداءُ فى كفِّ هاصرِ

زمانٌ به كنّا عزارىَّ غبطةٍ
سعيدَيْن لا ندرى صروفَ المقادرِ

مضى عاطرَ الأنفاس ، خلّى وراءه
خواطرَ ادّكارٍ فى حشاشةِ ذاكرِ

إذا هاجتِ الذكرى بقلبى صبابةً
« تفتّحت وجدانى من الشعر طاهر »

الكاظمية — العراق   على جليل الوردى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٧٨ — الثلاثاء ٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ — ٢٥ من أبريل سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

البترول فى الشرق الأوسط

كنا نعلم منذ زمن أن فى الشرق الأوسط بترولا ، وآباراً عظيمة تدر ملايين القناطير من هذا السائل العجيب ، بعضها فى إيران ، وبعضها فى العراق ، بل وبعضها فى مصر كنانة الله ، سبحانه وتعالى ، فى أرضه . أجل كنا نعلم هذا ، ونحمد هذا العلم ، لأن تلك الآبار قد جعلتنا — من الناحية البترولية — أثناء هذه الحرب العالمية فى حال أرفه وأكرم مما كنا فى الحرب الماضية . ولكننا ، مع علمنا هذا ، لم نكن فى الأيام الخالية ، نفكر كثيراً فى بترول الشرق الأوسط ، لأننا ألفنا وجوده ، وشغلنا عنه من شئون هذه الحرب ، ما هو أجل خطرا وأعظم إزعاجاً للخاطر . ثم اضطررنا فى الأشهر — بل فى الأسابيع — الأخيرة أن نلتفت مرة أخرى إلى بترول الشرق الأوسط وإلى التحدث عن بتروله وأنابيبه وآباره . فإن الشرق الأوسط هو شرقنا ووطننا ، وتلك الأنابيب ستخترق دياراً وأقطاراً اشتهر ذكرها فى الكتاب العربية ، وترددت أسماؤها فى حديث الأدب العربى منثوره ومنظومه . فما أجدرنا نحن أيضا أن نقف لحظة لكى نلقى بنظرنا على موضوع البترول هذا ، الذى أخشى أن يكون اليوم شاغلا لتفكير أولى الأمر فى بريطانيا وأمريكا ، أكثر مما يشغلنا نحن أبناء الشرق الأوسط .

وفى لندن اليوم وفد أمريكى عظيم على رأسه نائب رئيس دولتها ؛ يتحدث مع أولى الأمر هناك فى شئون عديدة ، ليس أقلها خطراً شئون الشرق الأوسط عامة وشأن البترول بوجه خاص .

فإن أمريكا تبدى اهتماماً عظيما بالشرق الأوسط ، كما ذكرت فى حديثى الماضى . ومن أهم ما تعنى به مسألة

البترول . ولا بد لى أن أحاول إيضاح طبيعة هذا الاهتمام ، والظروف المختلفة التى تحيط به .

وأول ما يذكّر به القارئ من شئون البترول ، أن إنتاج هذه المادة الخطيرة مركّز فى أيد قليلة ، وتشرف عليه هيئات محدودة ؛ وقبيل هــذه الحرب كانت رعايا الولايات المتحدة تستخرج ٦١ ٪ من مجموع بترول العالم من أرض الولايات المتحدة ، وتستخرج ٩ ٪ من أراض أجنبية ، فيكون مجموع إنتاجها ٧١ ٪ من بترول العالم . تليها المصالح البريطانية الهولندية ، (وقد اتحدت هذه المصالح منذ الحرب الماضية) ومجموع ما تنتجه يعادل ١٥ ½ ٪ ؛ وروسيا ١١ ٪ ؛ وباقى الدول ٤ ٪ .

الأمر الثانى ، الذى لا بد أن نذكره ، هو أن نميز بين موارد البترول وإنتاج البترول . فإن الإنتاج إنفاق واستهلاك وتبديد ؛ أما الموارد فهى المخزون المدخر فى الخزائن الباطنية . وقد لا يكون هنالك علاقة بين الموارد المودعة فى باطن الأرض وبين المستخرج منها كل عام . ومن المسلم به بوجه عام أن المصالح الأمريكية قد أسرفت فى استخراج البترول ، بينما المصالح البريطانية الهولندية ، تستخرج باعتدال وتدبير ، قد يوصف بأنه تقتير . وتحت تصرف البريطانيين ، كما سنرى ، موارد عظيمة للبترول فى الشرق الأوسط لم تمس إلى اليوم ؛ وقد أدى هــذا التدبير إلى قيام شىء من سوء التفاهم بين حكومة الشاه فى إيران وبين شركة البترول الإيرانية البريطانية ، عام ١٩٣٢ ، لأن هذا التقتير فى الإنتاج كان معناه أن يقلل نصيب الحكومة من المال ، الذى يدفع لها سنويا عن استخراج البترول ، بعد أن تكون الدولة قد نظمت مواردها ومشاريعها الاقتصادية والإصلاحية على أساس دخل ثابت يجيئها من تلك الشركة .

وقد رأى كثير من الأمريكيين هذا الفرق الكبير بين وسائل الاستغلال الأمريكى والبريطانى ، فأخذوا ينادون بأن موارد البترول فى أمريكا وشيكة النفاد ، وأن لا بد للمصالح الأمريكية من إحراز موارد جديدة فى أقطار جديدة . تعالت هــذه الصيحات بعد الحرب الماضية ، وترددت على مر السنين من غير انقطاع ، ثم عادت فاشتدت مرة أخرى إبان هذه الحرب ، التى تنفد فيها موارد البترول بسرعة لم يسبق لها مثيل .

الأمر الثالث الذى يسترعى انتباهنا هو الاختلاف الكبير بين الموارد الأمريكية والبريطانية ، فإن الشركات الأمريكية تستخرج أكثر بترولها من أراضى الولايات المتحدة ، فمواردها والحالة هذه فى متناول يدها ، أما الجزر البريطانية — بل وأكثر الممتلكات المستقلة — فخالية تماما من البترول . والموارد التى تملكها الشركات البريطانية موزعة بين أرجاء العالم ، بعضها فى أمريكا ، وبعضها فى إيران والعراق ، وبعضها فى جزر الهند الشرقية ، التابعة لهولنده ، وبعضها فى رومانيا ، أى أنها واقعة فى أكثر الأحيان فى أقطار ترفرف عليها راية أجنبية ، ومهما كان لبريطانيا فى تلك الأقطار من نفوذ أدبى أو سياسى ، فإن الشركات تدفع مبلغا من المال لا يستهان به لحكومات تلك البلاد نظير استغلال البترول فيها . وفوق ذلك فإن وجود هذه الموارد بعيدا بآلاف الأميال عن أرض بريطانيا ، يجعل استيراد البترول أمراً كبير الكلفة ، وفى وقت الحرب محفوفاً بالأخطار .

الأمر الرابع الذى يهمنا ذكره عن البترول ، أن المصالح الأمريكية كلها فى أيدى شركات مستقلة ، وليس للحكومة سلطان عليها ؛ وهذه الشركات يبلغ عددها اليوم زهاء الستين شركة ، وكانت فيما مضى مركزة فى عدد قليل منها ، أهمها من غير شك شركة ستاندرد ، التى أوشكت فى وقت من الأوقات أن تكون الهيمنة المسيطرة على إنتاج البترول فى أمريكا كلها ؛ ثم صدر أمر الحكومة الأمريكية بتجزئة هذه الشركة إلى أجزاء عديدة تزيد على

الثلاثين ، وكلها قد تحمل اسم ستاندرد ، ولكن كلا منها منفصل عن الآخر تمام الانفصال .

أما الشركات البريطانية فإن أكثرها شديد الاتصال بشركة شل ؛ وتسيطر على شركة شل وجميع الشركات الأخرى الحكومة البريطانية نفسها ، فإن لها ممثلين في مجلس إدارة كل شركة من الشركات ، وذلك طبقاً لسياسة وضعتها الحكومة البريطانية منذ عام ١٩٢٢ ، عندما اتضح لها أن إنتاج البترول أمر له من الخطر ، ومن المساس بكيان الدولة ، ما يجعل من اللازم أن يجعل تحت عين الدولة وبصرها ، وأن يكون لها في شئونه الكلمة النافذة . أضف إلى هذا أن الشركات البريطانية تعمل في أقطار أجنبية ، في أكثر الأحيان ، ولا بد لها من آن لآن أن تحتاج إلى مساعدة الدولة . على أن الحكومة البريطانية لم تحاول أن تتدخل في شئون هذه الشركات إلا بأيسر قدر تتطلبه الظروف والأحوال . ولا شك أن سياسة الاعتدال في الاستغلال ، وتدبير موارد البترول في بعض الجهات ، بحيث لا يستنفد إلا ببطء شديد ، التي تسير عليها الشركات البريطانية ، هي بعض نتائج هذا الاتصال بالسلطات الحكومية .

ولابد لنا أن نذكر أن الشركات الأمريكية أكبر عدداً من البريطانية ، وبرغم عددها الكبير فإنها تمثل مصالح مالية واقتصادية كبيرة ؛ ولهذا لم يكن بد من أن تكون لها كلمة قوية ونفوذ لا يستهان به في دوائر الحكومة الأمريكية . فبعض هذه الشركات يقدر رأس ماله بنحو مائة مليون من الجنيهات ، ودخله السنوي ببضعة ملايين . وذلك في بلاد يقال عنها إن الدينار يعبد فيها من دون الآلهة جميعاً ، وإن القيم كلها تخضع للمقياس النقدي دون سواه من المقاييس .

هذه هي الاعتبارات الأربعة التي لا بد للقارئ أن يستوعبها لكي يدرك الأسس التي تبنى عليها سياسة البترول في الشرق الأوسط . ولم نرد هنا أن نذكر ما للبترول من عظيم الخطر في الاقتصاد القومي والحربي ، ولكيان الدول الكبيرة ، فقد سبق أن عولج هذا الموضوع في « الثقافة » مراراً .

ونريد الآن أن ننتقل إلى النظر في بترول الشرق الأوسط ، وسيجد القارئ هنا خريطة ، مستقاة من صحيفة أمريكية ، توضح كثيراً من الأنباء والإشارات التي كثر ورودها في الصحف أخيراً عن مشروعات البترول .



تقوم باستغلال البترول في الشرق الأوسط — كما هو واضح مما تقدم — شركات بريطانية وأمريكية ، وهناك كذلك بعض مصالح أخرى أقل خطراً . ولا تقوم حكومات البلاد الأصلية لا بالبحث عن البترول ، ولا باستخراجه ، ولا بتكريره أو بيعه ، لأن الشركات التي تقوم بهذا ذات رأس مال ضخم ، ولديها من التجارب والدراية الفنية ما يجعلها أقدر على القيام بهذا الأمر من أية حكومة . والذي تفعله الحكومات هو أن تمنح شركة من الشركات امتيازاً دون سواها باستخراج البترول في مساحة من الأرض واسعة الأرجاء ، في مقابل مبلغ من المال تقدمه الشركة للحكومة ؛ وهذا المبلغ يتقرر عادة بالنسبة إلى كل طن من

النفط يستخرج من الأرض . وقد يكون هذا المبلغ زهاء نصف دينار لكل طن . وإذا استغل البترول استغلالا حسنا ، استولت الحكومة على مبلغ لا يستهان به من المال . ونذكر هنا على سبيل المثال أن حكومة العراق قد بلغ إيرادها من البترول عام ١٩٤٠/٣٩ مليونين وخمسين ألفاً من الدنانير . وأمكن للحكومة في تلك السنة أن تستدين من شركة البترول مليونا آخر بغير فائدة . ولو أن بريطانيا توسعت في إنتاج البترول في العراق لزاد إيراد الحكومة العراقية على هذا المبلغ كثيرا ؛ فإن في العراق ، وفي كثير من جهات الشرق الأوسط ، أقطارا واسعة قد منحت الشركات امتيازا لاستغلالها ، ولكن البترول فيها لا يزال قابعا إلى اليوم في باطن الأرض . وهذا الأمر ينطبق على الجزء الأكبر من أقطار الشرق الأوسط .

والنشاط البترولي في الشرق الأوسط ينقسم إلى أربعة أقسام ، بحسب الجهات التي يتصل بها والشركات التي تعمل في كل قسم منها ؛ وسنورد هذه الأقسام هنا على الترتيب الذي جاء في الخريطة المدرجة هنا .

فأولها الشركة العربية الأمريكية ، وهي تمثل مصلحة أمريكية خالصة ، ويتناول امتيازها جميع الأقطار الواقعة الممتدة من البحرين وخليج العجم إلى حدود العراق والحجاز واليمن وحضرموت وعمان ؛ وتشتمل على أقطار صحراوية وواحات ، وأكثرها واقع في المملكة العربية السعودية . ولم يستغل بعد من هذه المساحة العظيمة سوى جزر البحرين ، التي كانت فيما مضى تخرج اللؤلؤ والتمر ، فأصبحت اليوم تخرج البترول أيضا . وهذه هي المنطقة التي أثارت الضجة حول خط الأنابيب الذي يخترقها من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط .

الإقليم الثاني : يشمل أرض العراق ، وهي ميدانه الرئيسي ، ولكن له فرعا في عمان والأقطار المجاورة لها . والمصالح صاحبة الامتياز فيه بريطانية بنسبة (٥٣٪) ، وأمريكية (٢٣¾٪) ، وفرنسية (٢٣¾٪) ، ولم يبدأ الاستغلال في كل هذه المساحة إلا في بلاد العراق الشمالية ، وتمتد منها أنابيب تحمل البترول إلى طرابلس وحيفا .

الإقليم الثالث : هو الحقل الإيراني العظيم ، وهو الذي تعمل فيه المصالح البريطانية وحدها ، وهو الذي يشتغل أكثر من أي إقليم آخر في الشرق الأوسط ، بل هو خامس جهات الإنتاج في العالم كله . والشركة الإيرانية البريطانية لا تريد أن يستغل البترول في الشرق الأوسط ، بحيث ينافسها ويعوق تقدمها .

الإقليم الرابع : الكويت ، والامتياز فيه مناصفة بين الشركة الإيرانية وبعض الشركات الأمريكية ، ولكن هذا الإقليم ، وبرغم غناه في النفط ، لم يستغل بعد ، ولم يستخرج منه قنطار واحد من البترول .

والشركات الأمريكية التي تعمل في الشرق الأوسط هي ثلاث شركات فقط ، وهذا يترك خمسا وخمسين شركة في الولايات المتحدة ، لا دخل لها في هذه المشاريع كلها . ولذلك ثارت ثائرتها عندما قررت حكومة الولايات المتحدة أن تنشئ خطا من الأنابيب — بأموال الحكومة لا بأموال الشركات — طوله ألف ميل يمتد من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط ، وتبلغ نفقات إنشائه نحو مائتي مليون دولار ، فرأت تلك الشركات أن في هذا تدخلا من الحكومة في شئون البترول ، ومحاباة لبعض الشركات ؛ وتهديدا لمصالح البترول المستخرج من الآبار الأمريكية . ولا تزال هذه الضجة قائمة ، حتى يقضي البرلمان الأمريكي رأيه فيها .

أما في بريطانيا ، فإن المحادثات التي تجري هنالك اليوم ستتناول من غير شك مصالح البترول البريطانية ، ومبلغ التعاون بين المشروعات الأمريكية ؛ والنشاط البريطاني الموجود اليوم . وكذلك لا بد أن تكون هنالك اعتبارات خاصة عند أنابيب البترول في أراض مثل شرق الأردن وفلسطين ، وبينها وبين الإنجليز عهود ومواثيق .

محمد عوض محمد

حول التثقيف الشعبي والعدالة الاجتماعية :

ملاحظات

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

تجددت في الأسابيع الأخيرة المناقشات حول التعليم، فقد أبدى الأستاذ محمد فريد أبو حديد رأيه في مستقبل الثقافة الشعبية؛ وتحدث الدكتور طه حسين بك عن العدالة الاجتماعية، وكيف يجب تحقيقها بوجه عام فيما يتصل بالضرائب، وعرّج على صلتها بالتعليم. وأدلى غيرهما من أفاضل العلماء وكبار الكتاب بآرائهم في هذا الموضوع الجليل على صفحات «الأهرام» الغراء، وعقّب بعضهم على ناحية التعليم بوجه خاص.

وقد كان من أهم ما ورد في حديث الأستاذ محمد فريد أبو حديد دفاع قوي حار عن توحيد المدرستين الأولية والابتدائية، ذلك التوحيد الذي صدفت عنه وزارة المعارف مؤثرة إبقاء الحال على ما هو عليه الآن، والاحتفاظ بالمدرستين الابتدائية والأولية (أو الإلزامية) قائمتين جنباً إلى جنب. وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية، ولذا تستحق أكبر عناية من الكتاب والمفكرين وقادة الرأي. ومن المصلحة القومية أن تناقش آراء الطرفين بشأنها، لتتضح للأمة مميزات الخطتين وعيوبهما في الوقت الحاضر ونحن في مفترق الطرق، حتى لا نسير في طريق ونتبين بعد زمن قليل أن الطريق الآخر كان خيرا منه، فنتورط في الأول أو نغير نظمنا بشيء من الاضطراب لنتجه في الطريق الآخر المفضّل.

فأما أنصار إبقاء الحال على ما هو عليه والاحتفاظ بالمدرستين، فيرون أن بالبلد نوعين من التعليم في المرحلة الأولى قائمين ومستقرين: الأول هو الابتدائي المؤدي إلى بقية درجات السلم التعليمي الموصل إلى أقصى الذروة، والذي كان فيما مضى مقصوراً على الطبقتين الوسطى والعليا، مع بعض شواذ قليل عددهم من رقيق الحال الذين كانوا يحوزون المجانية لتفوقهم؛ والثاني هو الأولي الذي أعد للطبقة الدنيا من الشعب. وأولهما هو الذي يسير في طريق الرقي، ويعتقد الكثير بنجاحه إلى حد ما، فمن سوء التصرف أن نلغيه ونقضي عليه، ونقيم على أطلاله مدارس لا نثق بأنه سيتوفر لها من النجاح ما توفر للمدارس المراد إلغاؤها.

ويقول هؤلاء الأنصار إن واجب الدولة بعد الاحتفاظ بالمدرستين جنبا إلى جنب أن تسعى للنهوض بهما معاً، وتلافي عيوب كل منهما وتحسينهما حتى تكونا صالحتين للغرض الذي قصد منهما. وإن على الدولة أن تيسر التعليم في المدرسة الابتدائية وتجعله مجاناً للجميع، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، وبين الريفي والحضري. وإن على الدولة أيضا أن توجد المنافذ والممرات والدهاليز التي يستطيع الفرد الموهوب الذي التحق بالمدرسة الأولية، وظهر نبوغه واستعداده لمواصلة الدراسة النظرية إلى أقصى حد، أن ينفذ منها إلى المدرسة الابتدائية ويشق طريقه منها في السلم التعليمي مجاناً إلى الدراسة الثانوية فالعالية. فإذا قيل لهم إن تعلم اللغة الأجنبية في المدرسة الابتدائية وحدها كثيرا ما يقف حائلا دون انتقال الصبي من المدرسة الأولية إلى الابتدائية، ردوا بأن هذه مسألة ثانوية لا يصعب إيجاد حل لها مع الاحتفاظ بتدريس اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية.

وإذا قيل لهم إن هذا الوضع فيه حرمان للغالبية الكبرى من أبناء الأمة من التعليم الابتدائي الجيد، ردوا على مناقشيهم بأن انتظروا وأفسحوا لنا في الوقت، فإنا سنجعل لكم من المدرسة الأولية مدرسة ممتازة، لعلها ستفوق في صلاحيتها وجودتها المدرسة الابتدائية،

بل إن رواد هذه المدرسة في المستقبل سيغبطون رواد المدرسة الأولية عليها ، ويتمنون لو كان قد اتيحت لهم من أول الأمر فرصة الالتحاق بها . وهم يرسمون الخطط لتحقيق ذلك عن طريق جعل التعليم بالمدارس الأولية عمليا ، أي ريفيا في القرى وصناعيا في المدن ، كما فعلت الأمم الراقية في العالم .

وأما الفريق الثاني الذي يرى توحيد المدرستين ، فيقول بأن هذا التوحيد هو الإجراء الطبيعي العادل الذي أخذت به جميع دول العالم بغير استثناء ، والذي يعطى أبناء الدولة كلهم فرصاً متكافئة ، وأن وجود المدرستين فيما مضى كان يرجع إلى تقسيم الأمة إلى طبقات ، والرغبة في إيجاد مدارس للخاصة وأخرى غيرها للعامة ، وأن الديمقراطية الحقة تتنافى مع أي إجراء كهذا ، وتحتم على كل أمة ديمقراطية أن تتخلص من وصمة هذا التفريق بين أفراد الأمة ، وأن تعود فورا إلى الأخذ بالمدرسة الواحدة لتسوى بين جميع أفراد الأمة الواحدة تحقيقاً لمبادىء الديمقراطية .

وهم يقولون بأن هذا التوحيد لا يسبب اضطرابا ولا ينزل بمستوى المدارس الابتدائية ؛ فالذي يمر على المناهج الدراسية التي وضعت للمدارس الأولية لا يجدها تختلف عن مناهج المدارس الابتدائية إلا في اللغة الأجنبية ، التي يقول جميع رجال التربية في كل أنحاء العالم بوجوب حذفها من مناهج المرحلة التعليمية الأولى . وإذا اعتبر حذف اللغة الأجنبية إنزالا لمستوى التعليم الابتدائي ، فهلا نتحمل ذلك في سبيل النهوض بالتعليم الأولى الفاشل ، الذي اعترف الجميع بأنه وصمة في جبين الأمة ، وعار يجب أن نتخلص منه بأول فرصة ؟!

ويعتقد هذا الفريق أنه ما دامت هناك مدارس للخاصة يدخلها أبناء الوزراء ، وكبار الموظفين والأعيان والماليين ، فلا سبيل لتحسين المدرسة الأولية ، لأن هذه الفئة الراقية هي التي تحرك الرأي العام ، فإذا كان أبناؤها سيضطرون لدخول المدارس الأولية فإن أفرادها سيرفعون صوتهم عالياً ويضطرون الدولة للنهوض بهذه المدارس ، وجعلها في مصاف مثيلاتها من المدارس في جميع البلدان الراقية .

ويقول أنصار هذا الرأي إن أنصار الفريق الأول لو قالوا بتوحيد المدرستين على أساس إبقاء المدرسة الابتدائية وحدها وجعلها المدرسة العامة للجميع ، وإلغاء المدرسة الأولية التي ثبت فشلها وأخفقت إخفاقاً تاماً — لو نادوا بذلك كما نادى به الأستاذ القباني — لحمدنا لهم ذلك ، ولكنهم يقولون أن تعميم التعليم الابتدائي غير ممكن من الوجهة المالية ، بل إن فيه إسرافاً يحدو بنا إلى العدول عنه . وإلى تركيز جهودنا الفكرية والمالية في رفع مستوى المدرسة الأولية وتعميمها ، فذلك هو الإجراء الطبيعي ، والحل النهائي الممكن عمليا . وأما التماس الحل عن طريق المجانية وتعميمها في المدارس الابتدائية فلن يحل المشكلة ، لضيق هذه المدارس عن أن تتسع لعشر من هم في سنها من جهة ، ولأن اختيار هذا العشر على أساس الاستعداد غير ممكن لا بالامتحان ولا بغيره في هذه السن المبكرة . بل إن هذا الإجراء سيؤدي إلى التجاء أبناء الطبقة الوسطى والعليا إلى المدارس الخاصة التي ستفتح لهذا الغرض ، وتكون بطبيعة الحال مدارس أجنبية ، فكأننا سنخلق في مصر مدارس خاصة تحاول الأمم الديمقراطية في الوقت الحاضر أن تتخلص من نظيراتها عندها .

وأما فكرة الممرات والدهاليز فيعتبرونها فكرة غير عملية ، ولو كانت صالحة لأخذت بها الأمم الأخرى التي تحمل نظمها مرنة إلى أقصى حد . وهب أنها عملية ، وأنه قد اكتشف عند تطبيقها في المدارس الأولية خمسة في المائة فقط من ذوي الاستعدادات الجيدة والمواهب العالية ، فهؤلاء إذا أردت إدخالهم إلى المدارس الابتدائية لم تجد

لم عـلات كافية ، فعددهم يبلغ نصف عدد المدارس الابتدائية الحالية ، فقبولهم يتطلب هو وحده إنشاء نصف العدد الحالي من المدارس الابتدائية ، فهل هذا من الممكن في الوقت الحاضر ؟

ويلاحظ أنصار التوحيد على ما قيل أخيراً ، من أن المدارس الأولية سيرتفع مستواها إلى حد يغبطها عليه رواد المدارس الابتدائية ، أنه إذا صح هذا فلِمَ نحرم فريقاً من الصبية (الذي في المدارس الابتدائية) من التمتع بهذه المزايا والالتحاق بتلك المدارس التي ستصل إلى ذلك المستوى الراقي المرموق ؟!

أليس من المصلحة عندئذ أن تكون هذه المدارس الأولية الجيدة مفتوحة للجميع ؟! ولعل أصحاب الرأي الأول يرون استبقاء المدرسة الابتدائية ريثما يتحقق هذا الأمل ، وهو إصلاح المدرسة الأولية إصلاحاً يوصلها إلى هذه المستوى العمل الجميل ؛ وعندئذ ينادون بالاكتفاء بها والعودة إلى إلغاء المدرسة الابتدائية . فإذا كان هـذا هو ما ينوونه فليصرحوا به ، وليبنوا سياستهم عليه ، وليلغوا اللغة الأجنبية منها ولو بالتدريج ، حتى إذا جاء وقت الإدماج كان هـذا الإدماج ممكناً ، ولم يقف في سبيله عقبات تافهة كعقبة اللغة هذه .

ومن طريف ما في هـذا النقاش الممتع ، أن أصحاب الرأي القائل باستبقاء المدرستين الأولية والابتدائية هم أكبر الناس تحمساً لتطبيق مبادئ المدالة الاجتماعية في المجتمع المصري بوجه عام ، وفي التعليم بوجه خاص ؛ فيتساءل أصحاب مبدأ توحيد المدرستين — وحق لهم التساؤل — أي النظريتين أقرب لتحقيق تلك العدالة الاجتماعية المطلوبة ؟

هل من العدالة الاجتماعية في شيء أن يصرف على كل فرد من أفراد فريق صغير من أبناء الدولة ٢٥ جنيهاً ، وعلى

الفرد من الفريق الآخر الكبير جنيه أو اثنان فقط ؟

وهل من العدالة الاجتماعية في شيء أن يختص فريق من أبنـاء الأمة بتعليم ثبت فشله بصفة قاطعة ، ويختص الفريق الآخر بتعليم فيه ترف وإسراف ؟

وهل من العدالة الاجتماعية أن تهيأ الفرص لفريق صغير من أبناء الأمة أن يدخلوا مدارس توصل إلى جميع درجات السلم التعليمي ، ولو لم يكن عندهم الاستعداد الكافي له ، وتحشد الأغلبية الساحقة الفنية بذوي الكفايات في مدارس لا توصل إلى المراحل العليا من التعليم ، إلا عن طريق دهاليز وممرات لا تزال في عالم الغيب ، ولا يعلم إلا الله أين ستنشأ ، وعلى أي تصميم ستبنى ، ولأي عدد ستتسع ، وإلى أين ستوصل ؟ وقد رأيت فيما مضى أن المدارس الحالية لا تتسع لمن ينفذ منها إذا كان نحو ٥ ٪ من مجموع تلاميذ المدارس الأولية ، وأن هذه النسبة الضئيلة تحتاج لإنشاء نصف عدد المدارس الابتدائية الحالية .

وأخيراً هل من العدالة الاجتماعية أن يحشد المدرسون الذين أعدوا إعداداً جيداً ، والذين تعلموا لغة أجنبية تمكنهم من الاطلاع على ما يجرى في العالم كله ، وأن يختص بالأدوات الجيدة المريحة ، والكتب القيمة ، والمباني الفسيحة ، فريق واحد ؟ هل من العدالة أن يسخر كل ذلك لخدمة فئة قليلة من أبناء الأمة ، وتحرم الأغلبية العظمى منه ؟ إذ يلقى بها في تلك المدارس القذرة المكتظة المهلهلة الفاشلة ؟

استمع عالم نابه لهذا الحوار ، فعلق عليه بأن العدالة الاجتماعيـة النظرية هي من غير شك في جانب فريق التوحيد بين المدرستين ، ولكن إمكان التنفيذ عملياً في جانب الفريق الآخر . فسألوه إفصاحاً فقال : ماذا تفعلون بالمدارس الابتدائية ونحن فيها من المدرسين ، إذا تقرر الإدماج والتوحيد بين المدرستين ؟

فأجابه القائلون بالتوحيد بما يأتي :

أما المدارس فيظل الصغير منها مدارس أولية ، ويحوّل الكبير منها مدارس ثانوية ، فسنحتاج إلى كثير من هذه المدارس الثانوية بعد التوسع فى التعليم ، وإعطاء الفرص المتكافئة لجميع أبناء الشعب ، ومنح النابغين من أبناء الشعب مجانية كاملة بالمدارس الثانوية والعالية ، وتنويع المدارس الثانوية صناعية وتجارية وزراعية .

وأما المدرسون والنظار ، فيحول ذوو المؤهلات العالية منهم إلى التعليم الثانوى ، فهو فى أشد الحاجة إلى أمثالهم ؛ وأما المدرسون العاديون الذين لا يصلحون لمدارس الثانوية فحبذا لو انتفع بهؤلاء نظارا لكثير من المدارس الأولية ، ومدرسين أوائل يشرفون على تدريس موادهم فى المدارس الأولية الكبيرة .

ويجرنا الكلام على المدرسين إلى مدرسى التعليم الأولى أنفسهم ، وهؤلاء يجب على الدولة أن تهيىء الأسباب لهم ليتقدموا ويوسعوا أفقهم وينمّوا ثقافتهم ؛ وحبذا لو أخذ باقتراح الأستاذ محمد فريد أبو حديد بفتح مدارس معلمين ممتازة تلحق بها مدارس أولية نموذجية ، وهذه المدارس يصح أن تتخذ مراكز يختلف إليها على التناوب مدرسو التعليم الأولى الحاليون لتجديد معلوماتهم ورفع مستواهم بوجه عام ، على أن يشجع كل من يستجيب لداعى التطور والتقدم ويتسجم مع تيار الإصلاح ، ويستفيد من هذه الإجراءات لأقصى حد .

وبذلك الإجراء نستطيع أن ننتفع بهذا الجيش الجرار من معلمى التعليم الإلزامى ، ونرفع مستواهم الفكرى بعد أن رفع مستواهم المادى . والأستاذ فريد أبو حديد على حق حين يقول بأن الجزء الأكبر منهم حسن الاستعداد ، وسيستجيب لمثل هذه الدعوة ، ويسير مع القافلة المجددة ، ويرفع دعائم التعليم الأولى الموحّد لجميع طبقات الأمة بلا تفريق .

بذلك كله يصح لنا أن نأمل أيضا فى توفير كثير من نفقات التعليم الأولى ، وندخر أموالا سنحتاج إليها فى توسيع التعليم الثانوى والعالى ليتسع للنابغين ، الذين سيكشف عنهم أو يكتشفهم هذا التعليم الموحد ، ويسلمهم بعده إلى التعليم الثانوى فالعالى لتتم الأمة تعليمهم على نفقتها . فهؤلاء هم الذين نطمع أن يؤسسوا جيلا من العلماء المجددين المبتكرين ، الذين يرفعون سمعة مصر بما يضيفون إلى التراث العلمى والثقافى من فيض علمهم ، ومن نتائج بحوثهم ، وما أشد حاجة مصر فى نهضتها الصناعية والاقتصادية بعد الحرب بوجه خاص إلى أمثال هؤلاء !!

وبعد ، فقد كنا نحب أن نناقش بعض آراء الأستاذ محمد فريد أبو حديد الخاصة بأن الدولة مكلفة بأن تيسر لكل من أراد (حتى ولو كان ضئيل الاستعداد) سبيل التعليم الثانوى فالعالى . ولكن القول قد طال فى هذا المقال . ونحن مع ذلك لا نحب أن نختمه قبل أن نقول كلمة إنصاف للأستاذ أبو حديد ، وهو أنه إذا قدر للتعليم الريفى أن ينجح فى هذا البلد ويعود بالنفع والفائدة على الأمة ، فعلى التاريخ أن يسجل على صفحاته البيضاء ذلك المجهود الجبار ، الذى بذله رجال مدرسة المنايل الريفية ، وعلى رأسهم الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، الذى بث فيهم من روحه ، وبذل لهم فى سبيل الإرشاد قصارى جهده ، وما زال يجرب ويتعب ويجدد ، حتى وصل إلى وضع مناهج يصح أن تتخذ أساساً صالحا للبناء ، وخلق روحا هى وحدها التى ينمو فيها نظام كهذا .

وإنا لنرجو أن تصح البذور التى بذرها ، وأن يشجع الرجال الذين ربّاهم ، وأن تظل هذه التجربة سائرة فى طريقها القويم ، وروحها السليم ، حتى تستقر استقراراً يجعلنا نطمئن لتطعيم غيرها من المدارس ببعض من فيها من الرجال ، ليشع من المنايل نور جديد ، وروح عالية تعم القطر كله .

٢ – مستقبل الأدب العربي

هناك تفاعل تام بين الحالة الاجتماعية لكل أمة وأدبها ، فالأدباء في كل زمان ومكان يؤثرون في مجتمعهم ويتأثرون به ، ويميزهم عن غيرهم أن لديهم نوعاً من الإلهام يدركون به شعور الناس وهو في طور تكونه ، وفي حالة غموضه ، فيعبرون عنه تعبيراً يكشفه ويجليه ، فيتقبله الناس على أنه جديد وليس جديداً ، وإنما كان كامناً في نفوسهم ، ولولا ذلك ما استجابوا له ؛ ولذلك كان الأديب أو المصلح إذا سبق زمانه بمراحل لم يسمع لقوله ، وينتظر الزمان تعاليمه حتى يستعد لها الناس .

والأمم العربية الآن في حالة تكوّن جديد ، بسبب ما ظهر لعيونهم من عهد ماض مملوء بالظلم والاستبداد والاستغلال ، والجهل والفقر ، وبسبب ما رأوا من أمم معاصرة تحيا خيراً من حياتهم ، وتعلم حيث يجهلون ، وتنعم حيث يشقون ، بل ورأوا غيرهم ينعم بخيراتهم ويستغل غفلتهم وجهلهم ، ويستخدم علمه ويقظته في امتصاص ثروتهم ؛ فلما بدءوا يشعرون بذلك كله بدءوا يطمحون إلى حياة أسعد من حياتهم ، وينفضون عنهم غبار جهلهم وخمولهم ، ويعدُّون العدّة للسير على منهج من سبقهم ؛ وهذا — بالضبط — هو الزمن الذي يتمخض فيه — عادة — عن مصلحين تتبلور فيهم آمال الأمة ، وأدباء يحددون لهم ليجدّوا في سيرهم ، ومفتنين يمثّلون لهم بآمالهم ، وفنانين يرسمون لهم مطامح نفوسهم .

ومن أجل هذا أتوقع أن تتمخض الحركة الأدبية العربية والحركات الفنية عن حملة اللواء لهذه الشعوب ، فالرواية والشعر والقصص والمقالة والتمثيل والغناء والنحت والتصوير والرسم كلها تثير مشاعر الشعوب الغامضة ، وتثير العواطف الجامعة ضد الظلم وضد الفقر وضد البؤس ، وهذا لونها الحزين ؛ ثم من وجه آخر تبعث الأمل وتدفع للعمل ، وتبشر بالفوز ، وتؤمل في الإصلاح ، وهذا لونها البهيج .

لست أتوقع — ولا من الخير أن أتوقع — أن يقضى على أدبنا الحالي الذي يخدم المشاعر الفردية من غرام وشهوات جنسية وتحدّث عن النفس ونحو ذلك ؛ فالأمم التي سبقتنا لم يخمد فيها هذا الأدب ، بل هو لابد منه في كل زمان ومكان ، ولكن وجد بجانبه الأدب الاجتماعي الذي يخدم المصالح العامة ، فكان من هذا وذاك جوقة كاملة منسجمة تجاوب نوازع النفوس المختلفة .

إن في كل أدب وفن الوضيع والسامي ؛ وأسمى الأدب ما يُصلح حياة الناس ويُنقّيها ، وخير كتاب أدبي ما إذا قرأته تلذذت من فنه ، ثم بعثك بفنه ومعانيه على أن تكون خيراً مما أنت ، بإثارة عاطفة الرحمة أو الشفقة عندك ، أو عاطفة الجمال في الذات والمعنى والطبيعة ، أو بإفهامك طبائع الناس كما هي ، أو إعجابك بالخير وكرهك للشر ، أو إنارة أي جانب من جوانب الحياة ، أو أي قانون من قوانين الإنسانية ، أو تهييج ضميرك ليحق الحق ويبطل الباطل ، أو باستصراخك لنصرة العدل ومحاربة الظلم ، أو نحو ذلك ، فإن هو أثار عندك عكس هذه المعاني فهو الأدب الوضيع من وجهة النظر الاجتماعي مهما جاد فنه .

والأدباء من هذا القبيل السامي يحركهم نبل الغرض أكثر مما تحركهم المادة ، ويلتجئون إجابة لداعي النفس أكثر مما يتجرون للتجارة ، ويشعرون أنهم يتنفسون بفنهم فإذا سكتوا اختنقوا .

لقد ثار الجدل عند الأدباء الغربيين حول الكتابة للمبدأ والكتابة للعيش ، فكان يرى بعضهم أن الأدب الذي يستحق أن يسمى أدباً حقاً ما عمر الكاتب شعورا باللذة لكتابته ، لا ما كان سدّاً لحاجة ، أو ملأً لخانة ، ولا ما حمل الكاتب على كتابته لاجئاً في كتابته ؛ لأن الأدب الحق وحي ، والوحي لا يمكن القبض عليه وتحويله حيثما أراد الموحَى إليه ، ليس هو كرة تدار ، ولكن صوتاً عميقاً من النفوس يُسمع فيطاع .

ولكن ربما عدّ هذا غلواً في الرأي ، فكثير من الآثار

الأدبية القيمة ألفت تحت ضغط الحاجة إلى المال ، وبعض الأدباء ما كانوا ينتجون ما أنتجوا لولا بؤسهم المالى .

ومع هذا فما لا شك فيه أيضاً أن نوع الأدب الذى وصفناه بالسمو والرفعة لا يصدر إلا عن شعور نبيل الغرض ، ودافع من حب خير الإنسانية ، لأن النوع الأول — وهو ما يكتب تحت الضغط المالى — خاضع لتحكم تجار الكتب وأصحاب المجلات فى نظرهم إلى ما يروج وما لا يروج ؛ وخاضع لمسايرة الجمهور فى ذوقهم وتملقهم ، والضرب على الأوتار التى يحبونها ، وتقديم الغذاء الذى يشتهونه ، ولو كان فيه السم الزعاف .

أما الكاتب الملهم ، الكاتب الذى يتنفس بأدبه ، الكاتب الذى يكتب تحقيقاً لغرض نبيل عنده ، فينتج ما ينتج رضى ناشر الكتاب أو لم يرض ، أعجب الجمهور أو لم يعجب ، بل كثيراً ما يدفعه نبل غرضه أن يصب غضبه على الجمهور لغفلته وغباوته ، ولو أدى ذلك إلى رميه بالحجارة ، واتهامه بالمهانة ، لأنه يريد أن يسيِّر الجمهور لا أن يسيِّره الجمهور ، ويريد أن يجرّعه الدواء ولو مراً لا الحلو ولو سمّاً ، ويريد أن يكون قائداً للعامة لا مقوداً بشهوات العامة .

ومن أجل هذا أتوقع متى تما هذا النوع الرفيع من الأدب أن تتبدل هذه النغمة الصارخة فى أدبنا ، وهى نغمة تملق الجماهير ، وتملق الشباب ، وتملق الشهوات الجنسية ، فنسمع أصواتاً تنقد النقد الحر الجرىء ، ولو أدى بصاحبه إلى البغض والكراهية والاضطهاد . إن الناس ألفوا أن يروا صورة ضيق نظرهم ، وسعة شهواتهم ، وقداسة تقاليدهم ، معكوسة على النتاج الأدبى ، فإذا لم يجدوها عند الكاتب كرهته العامة ولم يقدره إلا الخاصة ، وقليل ماهم . كم فى حياة الأمم العربية من عيوب لا تصلحها حلاوة السكر ، ولكن مرارة الصبر ، ولا يصلحها الملق ، ولكن تصلحها الصرخة القاسية ؛ وهذا لا يكون حتى يكون الأديب مؤمناً بعقيدته ، مؤمناً بغرضه ، يفضل الفقر مع المبدأ على الغنى مع الملق ، وهو ما أرجو أن يكون .

* * *

ثم أتوقع أن يستمر الأدب العربى فى نموه من الناحية التحليلية ، تحليل الأشخاص وتحليل الظواهر الاجتماعية وتحليل العواطف الإنسانية ، وهكذا ؛ ذلك لأن الأدب العربى كان إلى عهد قريب تغلب فيه النزعة التركيبية من أمثال الأمثال ، والحكم والتوقيعات ، والرسائل الوجيزة ، مما تصلح كل جملة منها لو حللت أن تكون كتاباً ؛ فلما اتصل الأدب العربى بالأدب الغربى تأثر من هذه الناحية ، فدخلت فيه النزعة التحليلية إلى حدّ ما ، وكل الظواهر تدل على أنها ستنمو فيكمل فيه النوعان : النوع التركيبى والنوع التحليلى ، كما سيتضح فيه النوعان : النوع الفردى والنوع الاجتماعى .

فأغنى الأدب فى نظرى ما كملت فيه النزعتان الفردية والاجتماعية ، واستوت له الناحيتان التحليلية والتركيبية . والأدب العربى غزير فياض فى الناحية التركيبية والفردية ، متخلف فى ناحيته التحليلية والاجتماعية ، وهذا صدى لنوع البيئة الاجتماعية التى يحياها العرب ، فإذا تغيرت — وهو ما نحن مشرفون عليه — تلوّن الأدب بلونها ، وغنّى الغناء الذى يتفق ومشاعرها .

* * *

وناحية أخرى سيتجه إليها الأدب العربى لا محالة ، وهى « أدب الطبيعة » ، فكم فى بقاع الأمم العربية من بحار وأنهار ، وأزهار ، وجبال ، ووديان ، وحقول ، ونحو ذلك من مناظر فاتنة تنتظر من يتغنى بها ! وذلك يكون حيث ينمو الشعور بالجمال فى هذه الأمم ، وقد عاقها فى الماضى والحاضر عن هذا بؤسها وفقرها ، ووقوعها تحت نير الظلم والاستبداد ؛ ومَن عَدِم القوت نظر إلى الرغيف ولم ينظر إلى باقة الزهر ، ومَن قيِّد القيد الثقيل طمح إلى فك أغلاله قبل أن ينظر إلى العالم وجماله . فما تقدم عليه الأمم العربية من نعيم بخيراتها ، واسترداد لحرياتها ، ونظر صادق لمعالجة شؤونها ، سيرفع مستواها ، سواء فى ذلك حالتها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية ، ونتيجة

هـذا أن يجعلها تفكر في المعاني، وتسمو إلى الاستمتاع بالجمال، فيدرك الأدباء بإلهامهم — الذي يسبق الزمن ببعض خطوات — أن الأمة تتطلع إلى أناشيد الجمال، وتطمح إلى من ينشد قصائد التغني بجمال الطبيعة في شتى نواحيها، فينشئون والنـاس تتغنى بأغانيهم، وتردد أناشيدهم لأنها تجاوب مشاعرهم.

نعم، إن في الأدب العربي كثيرا من شعر الطبيعة من عهد امرئ القيس إلى اليوم، ولكني أتطلع إلى نوع جديد في أدب الطبيعة — إن شعر الطبيعة في الأدب العربي أفسد كثيرا منه الفن الصناعي، وفهم الشعراء أنهم كلما أجادوا التشبيه والاستعارة جادوا شعر الطبيعة، من مثل قول الشاعر:

ولاح هلالٌ مثل نونٍ أجادها
بجاري النضار الكاتبُ ابن هلال

وقول الآخر:

وورد بدا يحكي الخدود، ونرجس
يحكي العيون، إذا رأت أحبابها
ونبات باقلاء يشبه نَوْرُه
بُلقَ الحمام مُشيلةً أذنابها

وقوله:

وكأنما البركة اللألاء تحفّها
ألوان ذاك الروض والزّهر
بُسط من الديباج بيض فُرِّزت
أطرافها بفـــراوزٍ خضر

وكثير من أمثال هذا، فهذا ما لا أريده ولا أعناه، ولا أعده إلا نوعا من البهلوانات التي تأخذ العين ولا شيء وراءها. إنما أريد بأدب الطبيعة أحد أدبين: أدب يفنى فيه الأديب في الطبيعة كما يفنى الصوفي فيها، ويذوب كما يذوب السكر في الماء، فيتناغم هو والطبيعة، وتنسجم نبضات قلبه بنبضاتها، ويشعر أنه هو وهي شيء واحد، وينتشي من ذلك نشوة دونها نشوة الخمر والوصال، فإذا التشى تغنى بجمالها فمس روحك وأمدك بنشوته، وشعرت بأنه يجذبك إلى الجمـال، حتى تحس ما يحس، وأنه أثر فيك بروحه وفنه أكثر مما أثر بلفظه وتشبيهاته ومجازه؟

وهذا النوع من الأدباء تتطلب فناؤهم وذوبانهم الميل أكثر ما يكون إلى الجمال الواسع — إن صح هذا التعبير — كجمال البحار والصحراء والسماء والحقول الفسيحة ونحو ذلك، لأنهـا أقدر بسعتها على امتصاص نفوسهم الواسعة؛ أو أديب يشرب الطبيعة لا تشربه الطبيعة، فهو يحتفظ بشخصيته، ولكن يحققها ويوسعها بالطبيعة يتضم جمالها، وهؤلاء أميل إلى الجمال المحدود كجمال الزهرة وجمال الصورة وجمال جدول الماء، وهم لاحتفاظهم بشخصيتهم يفضلون ما يذوب فيها على ما يذوبون هم فيه، بل قد يشعرون بالضيق للجمال الواسع، لأن شخصيتهم تتضاءل أمامه، وتصغر بجانبه، وقد يرون فيه الجلال لا الجمال؛ وعلى كل حال فإذا تذوقوا هذا الجمال المحدود، ومزجوه بأنفسهم، ووسموا به مشاعرهم، أخرجوه بروحهم وفنهم أدبا جميلا حيا يحيي من سمعه.

وسواء هذا النوع أو ذاك، فكلاهما يرفع مستوى الشعوب، ويرقى شعورها بالجمال، ويكون لذلك أثره الكبير في رقي الخلق ورقي الحياة الاجتماعية، بل إذ ذاك يدركون أن الكذب والظلم والجبن قبيحة قبح المناظر المؤذية، والصدق والعدل والشجاعة جميلة جمال الأزهار والبحار والأنهار والنجوم، فيتعاون الشعور بالجمال والقبح مع إدراك المنفعة والمضرة، وفي هذا ما يرفع الأمة درجات.

كم في الشعوب العربية من يزور مغاني الجمال فيستمتع بها؟ ومن يخرج إلى البساتين في الربيع فيهتز قلبه لها؟ ومن رتّب في بيته الزهّار كما رتب الخباز واللبان؟ ومن يهمه جمال بيته كما يهمه هم بطنه. إن جمال الشرق وفير متنوع، ولكنه لا يجد العين التي تنظره، والروح التي تتفتح له. ولا يفتح العين ويفتح القلب إلا أدباء ملهمون يفقهون الناس على سر الجمال، ويهزون نفوسهم لتذوقه.

بقيت مشكلة يواجهها الأدب الآن، وسيواجهها غدا، نعرض لها في المقال الآتي إن شاء الله.

أحمد أمين

الخـــط العربى

مزاياه وعيوبه

نتكلم بعد هذه المقدمة على مزايا الخط العربى وعيوبه . ونقدم لمقصودنا المقدمات الآتية :

١ — الكتابة المثلى هى التى يدل كل منها على صوت واحد دلالة واضحة ؛ لاتدل بالحرف على أكثر من صوت ، ولا تضع للصوت الواحد أكثر من حرف . ويقول كاتب مقال ألف باء (alphabet) فى دوائر المعارف البريطانية [١] :

« لا كتابة تبلغ المثل الذى نطمح إليه ، وإن كانت فلا تستمر طويلا على هذه الحالة لأن أصوات معظم اللغات فى تغير مستمر ، ولا سيما الحركات ، ولهذا لا يستطاع ضبط ألفاظ اللغات الميتة ، ولا الصيغ المهجورة من اللغات الحية » .

وهذه الدعوى صادقة فى اللغات الأوربية ولغات أخرى ، ولكنها تقابل بالريبة إذا وجهت إلى اللغة العربية ، وليس هذا من صميم موضوعنا . ويقول الأستاذ كاتب المقال أيضاً :

« وقد دل تاريخ الهجاء على أنه لم يحدد قط لغة من اللغات الأوربية تحديداً دقيقاً ؛ لأنه عارية اتخذت مع شىء من التسامح لتدل على أصوات تخالف ما دلت عليه من قبل خارج أوربا » .

فهذه شكوى الأوربيين من الهجاء الذى استعاروه من الساميين . وهذا وصف الأبجدية فى الجملة .

وإذا نظرنا إلى أكثر اللغات الأوربية انتشارا بيننا : الإنجليزية والفرنسية ، رأينا عجباً عجيباً من التخالف بين ما يلفظ وما يكتب ، وبين ما يكتب وما يقرأ ؛ حتى ليتذكر القارئ ما يقال عن مستملى أبى عبيدة أنه كان يسمع غير ما يملى عليه ، ويكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب . ويكاد يتمثل بقول القائل :

أقول له زيداً فيسمع خالداً ويكتبه عمراً ويقرؤه بكراً

نرى حروفاً كثيرة تكتب ولا تلفظ . ولسنا بصدد الاستقصاء ، فحسبنا التمثيل : فى الفرنسية ، وهى أدق اللغات الأوربية لفظا وكتابة فيما يقال ، يلفظ الحرف C كالكاف أحيانا وكالسين أحيانا باختلاف ما يتلوه من حركة ، والحرف S يلفظ كالسين أحيانا وكالزاى أحيانا . ومعنى هذا أن للحرف الواحد أصواتا مختلفة ، وللصوت الواحد حروفا مختلفة . وتختل القاعدة فى نطق C ، S أحيانا فيضعون علامة لتلفظ C كالسين ، فإذا قلت leçon Français أى درس فرنسى ، لزم أن تسم الحرف C بهنة صغيرة ليدل على الصوت المطلوب ، وتقول il donne أى يعطى ، فتكتبها على هذه الصورة ، وتقول أيضا ils donnent أى هم يعطون فينبغى أن تكتبها كما ترى الخ ، فاللفظ واحد ، والمعنى مختلف والرسم مختلف .

ونجد صوتا مثل é فى الكلمات Palais ، Palet ، Craie ، Crêt ، وصوتا مثل o فى الكلمات Pot ، Pose ، Pause ، Chause ، Chaud .

وأما الإنجليزية فقد بلغ فيها الاختلاف بين اللفظ والرسم أن معاجمها ترسم الكلمة كما ترسم اصطلاحا ، وترسمها بين قوسين كما تلفظ . وحسبى أن أذكر كلمة neghbour أى جار ، و daughter ، أى بنت . ومثل هذا كثير . بل تكتب أحيانا حروف بعينها تقرأ على وجهين تبعاً للمعنى ، مثل read إن كانت مضارعاً لفظت بكسرة صريحة ممدودة ، وإن كانت ماضيا لفظت بكسرة ممالة قصيرة .

ومن أجل ذلك يلزم أولادنا الإنجليزية فى المدارس على أن يحفظوا هجاء كل لفظ معه . وإذا سألت إنسانا فى لندن عن اسمه أو سألته عن اسم شارع أجابك باللفظ والهجاء غالباً ، علماً بأن اللفظ لا يدل على الهجاء .

---

(١) وهو الأستاذ Peter Giles .

وليس الأمر كذلك فى الهجاء العربى ، فأنت تملى الكلمة التى لا يفهمها السامع فيكتبها كما تملى ، وقلّ أن يخطئ فيما عدا مواضع الإشكال من الهمزات ونحوها . وكثيرا ما أمليت على طلاب الجامعة نصوصاً فارسية وتركية فأصابوا فى الكتابة وهم لا يعرفون الكلمات . ومع هذا سمعنا استنكارا كثيرا للألف التى ترسم بعد واو الجماعة ، وتراها فى واو عمرو ، وبقى الرسم الأوربى مصونا من استنكارنا بالدول والأساطيل والطائرات ، والهيبة والفتنة اللتين تأخذاننا من كل جانب .

وقد حُدِّثت عن الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى العالم الفارسى الذى أقام فى باريس زمناً طويلا ، أنه كان يكتب « القزوينى » على شكل وتأتيه رسائل يرسم فيها « القزوينى » بأشكال أخرى ، فيأبى عمال البريد أن يسلموه الرسائل حتى اضطر إلى أن يسجّل شكلا يرسم به اسمه ، ويوقع به . فالناس من الحروف اللاتينية فى أمر مريج .

وأذكر أنه جاءت إلى كلية الآداب — إلى الدكتور طه حسين بك فيما أذكر — دعوة إلى توحيد الكتابة بين أمم الأرض ، فتفاوضنا فى الأمر واتفقنا أن يكون الرد : ادعوا الأمم الأوربية إلى توحيد كتابتها أولا ، فإن استطاعوا هذا نظرنا فى مشاركة الأمم الأخرى إياهم فى طرائق الكتابة .

٢ — ثم الناس لا يقرءون الكلمات حرفاً حرفاً ، ولكن يقرءون صورا مركبة ، وقد يقرأ الإنسان الكلمة مرات ولا يبصر ما فيها من غلط لأنه لا يمر على الحروف واحدا بعد آخر ولكن ينظر إلى الصورة ، فإذا وجد الصورة التى اعتاد رؤيتها أو قريباً منها فهم ما وراءها . وقد أمكن رصد البصر أثناء القراءة فإذا هو لا يسير سيرا متصلا متلاحقا ، بل يثب بين الكلمات وثبات ، ويقف وقفات تختلف باختلاف الكلمات . فالدلالة على الألفاظ فى جملتها بصور لا بحروف ؛ ولو كتبت لإنجليزى nabar بهذا الشكل ما فهمها ، فإذا رمزتها على الشكل الذى لا يدل عليها لم يتردد فى فهمها .

٣ — فالمثل الذى يُطمح فيه هو أن يكون للكتابة اصطلاحات معروفة محدودة ، سواء أدلت على ألفاظها بالجملة أم بالتفصيل . ولا بأس بالاصطلاح على حروف تزاد فى الكتابة وليست ملفوظة ، أو تنقص منها وهى ملفوظة ، إن دعا إلى هذا تطور الكتابة أو تيسير القراءة أحيانا ، أو دلالة على أصل الكلمة .

٤ — هذا هو الحد الذى لا تؤدى الكتابة مقاصدها دونه ؛ ومن وراء هذا مزايا منها اليُسر والوضوح والجمال والاختصار أو الاقتصاد ، وهى مزايا تتفاوت فيها الخطوط وسأعود إلى الكلام فيها .

الخط العربى :

ننظر بعد هذه المقدمات ، فى الخط العربى لنرى ما فيه من محاسن وعيوب . كان الخط العربى فى صدر الإسلام ، كالخطوط السامية الأخرى ، عُطلا من الإعجام والحركات ، ثم أعجمه المسلمون ففرقوا بين الحروف المتشابهة بالنقط ، ثم احتاجوا إلى ضبط حركات الحروف فوضعوا الشكل ؛ ولست فى مقام تأريخ الإعجام والشكل فتاريخهما معروف ، وإن احتاج إلى البيان فليس مما يهمنا الآن . غير أنى أقول إن الذى وضع الشكل العربىّ ، الرجلَ المخترع المبتكر ، الخليلَ بن أحمد ، أخذ بعض الحروف فدل بها على الحركات كما فعل اليونان حين أخذوا الخط من الساميين ، فدل على الفتحة بألف فوق الحرف ، وعلى الكسرة بياء تحته ، وعلى الضمة بواو أمامه ، ولم يدخل هذه الحركات فى ثنايا الكلمات . فهل أحسن بهذا أم أساء ؟ أكان يسرّنا أن الخليل جعل الحروف والحركات سواء كما يُعمل فى الخطوط الأوربية ؟ أحسب ، والعلم عند الله ، أن الخليل قد شعر فى هذا بما شعر به مخترع الحروف السامية ، وما فعل كتّاب اللغات الساميات من قبل ، شعر هؤلاء كلهم أن اللغات السامية لغات ثلاثية الأصول ، تفرق بين

الأصل والزائد تفريقاً بيّناً ؛ وهي كلمة الاشتقاق ، تضع للمعنى حروفاً ثلاثة ، ثم تخلق فروع هذا المعنى من حركات هذه الحروف وسكناتها ، وهذا التغيير في الحركات والسكنات لتشقيق الألفاظ الكثيرة لا يعرف في اللغات الأخرى التي نعرفها ، سواء عدّت من اللغات المشتقة كاللغة الفرنسية والفارسية ، أم عدت من المركبات كاللغة التركية.

ففي الفرنسية نجد مادة مثل donn ثابتة في التصريف. فنقول في المصدر donner وفي المضارع Je donne أي أعطي ، وفي الماضي J'ai donné أي أعطيت ، وفي المستقبل Je donnerai ، وفي المفعول donné أي معطىً ، وفي الفاعل donnant أي معطٍ. وكذلك في الفارسية إذا أخذت المصدر المخفف «داد» من دادن أي الإعطاء فهذا أصل التصريف الماضي والمستقبل ، وإذا أخذت المادة «ده» فهي أصل بقية الصيغ. والتركية وأخواتها أبين في ثبات المادة على التصريف ، وعلى صروف الزمان ، فالمادة «باز» من المصدر يازمق أي الكتابة لا تتغير ولا يسبقها شيء في كل الصيغ التي تصاغ منها.

فالمواد في هذه اللغات ثابتة أو كالثابتة لا تتغير صورها بكتابة الحركات.

أحسب الساميين من أجل المحافظة على هذا الأصل والتمييز بينه وبين الحركات رسموا حروف الكلمة دون حركاتها. ومن أجل هذا كتب علماء اللغة في المعاجم مادة الكلمة حروفاً مفردة ، لأنها لا يمكن أن تركب بغير حركة ، وهم أرادوا أن يدلوا على الأصل وحده دون غيره. ولو أنهم كتبوا الحركات أثناء الكلمة لاختلفت صور المادة الواحدة اختلافاً كثيراً : مثل كاتبا ، كوتبا ، كيتابان ، ميكتاب كوتوبون (كتبٌ). وشد ما أعجبني قول أحد المستشرقين وقد فاوضته في هذا : إن هذا الأصل الثلاثي أو الثنائي الأفلاطوني كالمثل الأفلاطونية ، حقيقة ذهنية ثابتة لا تتحقق في الخارج ، ولكن تظهر أفرادها ، كما أن مثل أفلاطون تتصور في الذهن ولا تتحقق في الخارج.

طبيعة اللغات السامية ، ولا سيما العربية ، أكثرها وأكملها اشتقاقاً ، تأبى أن ترسم الحركات أثناء الكلمات. فقد أحسن الخليلُ ، واضعُ المعاجم العربية وواضعُ العروض العربي ، حين رسم الحركات خارج الكلمات. وقد أحسن الخليل حين أتى كتابتنا مختصرة توفر على الكاتب وقته ، وتكاد تمكن اليد الكاتبة من مسايرة اللسان الناطق ، وتيسّر الحفظ لمن يشاء ، وأبرأ لغتنا من الاضطراب والتناقض اللذين يدركهما من يمارس اللغات الأوربية.

أخذ الفرس الحروف العربية ورسموا بها لغتهم وما دخلها من ألفاظ عربية. فوجدوا أن أصواتاً عندهم ليس لها دلائل في الحروف العربية ، فكتبوها بأقرب الحروف إليها ، ثم ميّزوها بالنقط والخط فزادوا على صور العربية پ چ ژ گ

ثم كتبت بعض اللغات الهندية بالحروف العربية ، فأخذت الحروف الفارسية وزيد عليها من الصور ما يلائمها. فالأردية مثلاً فرقت بين صوتين في التاء والدال والراء ، فجعلت علامة تميز أحد الصوتين من الثاني ؛ وجعلوا الياء الراجعة ، وهي التي ترسم مدتها إلى الخلف ، علامة الإمالة ، وهم والفرس يسمونها الياء المجهولة.

ولما كتب الترك بالحروف العربية ، والترك أقوام كثيرون لهم لهجات مختلفة متباعدة الأقطار ، زادوا على هذه الحروف ما زاده الفرس ، واختلفت طرائقهم في رسم الحركات أثناء الكلمة ؛ ولكن كان الاتجاه العام إلى كتابة علامات الحركة أثناء الكلمة في مواضع كثيرة ، وسبب هذا فيما أظن قوة الحركة وأثرها في اللغات التركية خاصة ، واللغات التي تشاركها في الأصل عامة ، وهي اللغات التي تسمى اللغات الأورالية الألطائية. في هذه اللغات قاعدة الانسجام ، وما يعبر عنه الفرس والترك بكلمة آهنكك ، ويسميه الفرنسيون harmonie. هذه القاعدة تقضي أن الكلمة إذا بدئت بحركة ثقيلة

عناصر إيمـــانى

رُغب إلىّ مشكورة ، كوكبة من ذوى النفوس الكريمة ، فى أن أوافيها على صفحات هذه المجلة الرفيعة ، بمقال أسبوعى ، وهنا أسأل قائلة : وما هو هذا المقال الأسبوعى ، فأجيب : إنه فى عقيدتى التحدث إلى معشر القارئات والقراء الكرام . وإنى لأعرف أن الحديث الذى يصدر من ناحية واحدة لا يكون جدّ شائق أو ممتع فى أغلب الأحيان ، وعليه أؤمل أن يتكرموا بتبادله معى ، ولهم عهدى أن أفضى إليهم عما يدور فى رأسى ، ويخالج نفسى ، ما سنحت لى الفرصة ، وواتتنى حالة الصحة المتعثرة ، راجية أن يفيدونى بكل ما يمنّ لهم فيه ، آملة أن يعيننى الله على قضاء حقوق برّهم بى .

ولكنى أرى لزاماً علىّ قبل كل شىء ، أن أورد اليوم طائفة من الأمور التى أومن بها وأحبها ، والأمور التى أجتويها وأجحدها . وأكبر ظنى أنى أجاوز المعهود فى مَنْ يتولون تحرير المقالات المنظّمة من البسطة العلمية والقدرة الكتابية ، وانتهاء الكمال إليهم فى طول الباع وغزارة الاطلاع ، ولا أتردد عن المجاهرة بأنى لم أدركْ إلا نزراً من العلم والمعرفة ، وإن كنت لا أدخر سعياً فى التحصيل ، وأستقصى الذرائع كى أوفى على الغاية ، وأتكمل فى الرأى السديد ، والنظر الحكيم . وعسى أن أسوق من حين إلى آخر ، وجوه النجح التى توخيتها لتحقيق هذه الغاية المقدسة ، ونواحى الظفر التى ارتدتها لأتمم المراحل فى الحكمة العاملة ، والقول السداد الرشاد . أما الآن فأبادر إلى الحديث عن عناصر إيمانى على سرده فأقول :

إنى أؤمن بأن مصرنا الفتاة كيفما تكن النتائج التى يستتبعها لها جوّها السياسىّ ، ستحافظ على سلامة أوضاع الحكومة الملكية الدستورية الصحيحة ، وتعمل على توحيد الصفوف ، وتستزيد قسطها من الديمقراطية والمساواة والحرية ؛ وأومن أن مصرنا ستمعن فى المحافظة على الحرية ، وتحرص على احترام تلك الديمقراطية لتكون أهلاً لتلك المساواة . ويجب أن نذكر على الدوام أن التعصب السياسىّ والحزبى والسلالى ، ينبت فى البيت ، ويمكن

أو حقيقة اطّرد الثقل أو الخفة فى حركاتها وحركات لواحقها ، وثقلت أو خففت الحروف التى تحتمل الترقيق والتفخيم تبعاً لها . فلم يكن غريباً أن يحسّ الترك بخطر الحركة فى لغتهم ورسموها . ولكن قواعد الرسم لم تطّرد عندهم ؛ فتجد فى الكتب القديمة مثل ديوان سلطان ولد ابن جلال الدين الرومى ، وهو أول ناظم بالتركية الغربية : كُنُش (الشمس) وبَـقمَز (لا ينظر) ، وتجدها فى الكتب المتأخرة كونش وبقماز ، ثم باقاز . ثم رسم الترك ، قبل هجر الحروف العربية بسنين قليلة ، الحركات كلها فى أثناء الكلمة إلا ما يحتاج إلى بيان كحركات الضمائر ، فكتبوا نه ميز (نظيف) آرقاداش (رفيق) ، حتى الكلمات العربيةُ الأصل مثل قادرا (قَـدَر) . وسار بعض الترك فى أوربا أبعد من هذا ، فلم يدَعوا حركة إلا صوّروها أثناء الكلمة ، لافرق بين عربية وتركية ، ومن أمثلة هذه الطريقة مجلة يـنى يول التى يصدرها الأديب عياض إسحاق .

والحق أن الترك حين تركوا الحروف العربية واتخذوا الحروف اللاتينية لم يكونوا مدفوعين بالحاجة كما دُفِعوا بالثورة على كل قديم ، والغرام بالانقطاع من أقوام والاتصال بآخرين . ولو كان الأمر إصلاحاً فقط لوجدوا فى الطريقة التى انتهوا إليها صلاحاً . ولو لم يكن فى الأمر إيثاراً للحروف اللاتينية لأنها لاتينية لفكروا فى اتخاذ الخط الروسى مثلا وهو أقرب إلى لغتهم ، فى ظنى . وقد كتبت به بعض اللهجات التركية من قبل ، كما كتب بعضها باليونانية ، والأرمنية .

عبد الوهاب عزام

احتياله من البيت ؛ وأومن أن الضمان الاقتصادي يشمل دائما أو الأمن السياسة المنظمة التي تعرض الحرية الشخصية للخطر ، وأن المساواة في الفرصة هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يضمن للفرد ، وأن هذه المساواة ذاتها يجب أن تكتسب اكتسابا بالسعي والجد والتفوق . وما دام في مقدور سيدة واحدة أن تفوت جارتها في صنع الكعكة الواحدة ، التي تتفق في تحضيرها مع هذه الجارة بالطريقة الموصوفة لكلتيهما على حد سواء ، فلا بد أنها تتيح لأسرتها تناول كعكة أفضل من التي تأكلها أسرة جارتها .

وأنا أومن بأن الأسرة هي أعظم مقومات المجتمع ، وأن الزواج فن عال ، ومهمة خطيرة ، وأن الروابط الزوجية الصالحة المنتجة تتطلب الإيثار والتضحية بالنفس ، والتساهل والتسامح ، والقوة الحيوية والشجاعة ، وغالبية الصفات العليا التي تحلى بها الجنس البشري منذ الأزل .

وأنا أحب الأطفال ، وأومن بأنهم ملائكة الأرض تنقصهم الأجنحة ، ولا أميل إلى الناس الذين يقولون إنهم لا يحبون الأطفال ، أو إن الصغار كالكبار فيهم الظريف وفيهم غير الظريف ، وأعتقد أن هذا القول لغو ، فإن للأطفال ذلك الاستعداد أو الكشوف القابل للانثلام والعطب ، كسائر الكائنات والأشكال التي يمكن تكييفها وصوغها .

وأنا أحب الحدائق من بدء الربيع إلى آخر الصيف .

وأنا شخصيا أوثر المشي على امتطاء صهوة الخيل والتجوال في عربة أو سيارة ، وأوثر السباحة على الركض ، وبالاختصار أنا أحب الألعاب الرياضية ، لأني أومن بأنها تمكن الإنسان من معالجة الصعاب برحابة صدر وتسامح . وأحب تمضية بعض الساعات في جو حافل بضروب اللهو البريء الصحي .

وأحب الصوت الجميل ، وأحب ذوات الشعر الكستنائي ؛ ولا أحب الضوضاء والجلبة والبائعات اللواتي يحاولن أن يحملنني على ابتياع القبعات التي لا تلائم شكل وجهي بتأكيداتهن المستفيضة لي أنها من أجمل ما يليق بي ، ولا أميل إلى السيدات اللواتي يقلن مع كل كلمة يوجهنها إلي : « يا عزيزتي » . ولا أميل إلى أهل الشكوك « اللاأدريين » ، ولا إلى الناس الذين يغلون أعناق كلابهم المدللة بالسلاسل الغليظة حين يتركونهم في حدائقهم الزهرية لحراستها .

ولا أرتاح إلى الناس الذين يعتقدون أن التكلف في الأبهة والكياسة يدعوهم إلى كراهة كل شيء ، ويرون أن المدح المجاهر هم الذين يسخون في امتداح شخص عادي أو رواية تمثيلية بسيطة ، أو منظر طبيعي مألوف .

وأنا أحب التسامح والإحسان والوئام ، وأحاول أن أتجنب التحامل على الذين يفتقرون إلى هذه الشمائل الحسان .

ولا أحب في الناس تلك الخصال التي تجعلهم يبدون الحماسة والمذلة والإكبار للأشخاص الذين من طبقتهم الاجتماعية فقط .

وأعتقد أن الحصيد الذهبي والأشجار الشيخة بديعة ، كما أحب الأشجار الفتية والأغراس الصغيرة .

وأعتقد أن الجو إذا أوغل الإنسان في بحث خواصه وحالاته يصلح لأن يكون موضوعا بهيجا للمحادثة .

وأنا أكره في الناس إفراطهم في التأدب حين يديرون بين فكيهم لسانا أحلى من الشهد يطرفنا بألفاظ معسولة ، ظاهرها مغر وباطنها محجوب عما يضمرونه لنا من المجاملات العذبة ، التي تشتبه علينا وجوه الرشد فلا ندري كيف نتخلص من مجاملتها .

ولي كلف بتجاذب أطراف الحديث في الشئون الشخصية التي يكثر وصفها في المجالس ، وينتشر ذكرها في سامر الرفيقات والأتراب ، ويكثر في غضونها مثل هذه الأسئلة : « تُرى ما الذي يعيبها في نظره ؟ » ولماذا افترقا أو لماذا لم يصرحا لابنتهما بالانتظام في سلك التعليم العالي ؟ وليس ذلك لأني ذات نشوة للأخبار (أي أتخيرها أول ورودها) ، أو لأني أستمرئ مضغ لحوم الناس ، أو أتفكه باغتيابهم . فإني أستعيذ بالله من حصائد اللسان وإطلاقه

بالوقيعة والقدح ، وهو عليم بأنى أريد بجمعة القلب والفكر أن أستقرئ دقائق النفس البشرية وأستجلى غوامضها ، وأحاول أن أتفهم صعابها وخصائصها ، وأحيط بشاذها ومقيسها ، وأرجع كل مايبدو من مركب النقص والتعقيد فيها إلى أصوله ، رجاء أن أظفر بتهذيب هذه النفس التى بين الجوانح ، بعد أن أفدت من دراسة النفس البشرية علما ونظرا .

وأنا لا أومن بأن العمل يجب أن يكون ضربا من ضروب اللهو ، بل إنى لأومن إيمانا جازما بأن الشعور بإنجاز العمل ، والكد لإتمامه ، وامتزاجهما باللذة والفائدة ، يصيران مشقتهما راحة وهناء لا مثيل لها ، ولذلك أشفق على الناس الذين لا يعملون ولا يكدون .

وأنا أومن بأن من أهم الشئون التى لا نرصد لها أعظم جهودنا وقوانا كشعب ناهض فى الحياة هى الشئون الآتية :

— تحسين الصحة العامة ، وإصلاح حالة الفلاح المصرى الصحية أولا ثم الاقتصادية ، وتوفر أولى الشأن على تيسير كل ذريعة صحية للذرارى المقبلة ، لينشأ لنا جيل قوى صحيح البدن .

— نشر مراكز الوقاية من الأدواء الوبيلة التى تمكن منعها ، مثل التدرن والالتهاب الرئوى والزهرى .

— محاربة الأمراض التى لا يزال علاجها معضلا كالسرطان والشلل فى الأطفال والاضطرابات العقلية .

وأومن بأنه يجب علينا كشعب أن يبدى السخط على كل بادرة من بوادر الخيانة والغدر والغش ، ونقاومها ونمحقها .

وأنا عادة لا أومن بالتأديب بالجلد ، ولكننى أنصح بممارستها لمعاقبة ذلكم المجرمين الذين يصيبون جناية القسوة فى الأطفال .

وأنا أدين بالإيمان وأتمسك بمزاياه المتعددة ، أتمسك بمزى الإيمان الدينى الذى يدعونى إلى مراقبة أوامر الله تعالى ، وأتمسك بمزى الإيمان الدنيوى الذى يفيض ثقة بإخوانى البشر ، ويحثنى على أداء حقوقهم ، لأنه الإيمان الذى يؤكد لى أن جذوة الخير كامنة فى البشر ، ولأنه الإيمان الذى أشارك فيه عمانوئيل كنت القائل : إن أبدع شيئين فى العالم هما السموات المرصعة بالنجوم فى الليل ، والإحساس بالواجب فى النفس الإنسانية .

وأنا أومن بأن الحرب هى إفلاج الكير القاسية الهوجاء التى تهدد الحضارة ، ولكنى لا أومن بأننا نستطيع القضاء عليها بالاحتجاج والضجيج على أصحاب معتملات المهمات الحربية ، أو بمحض شباب العالم أجمع على كراهيتها ، بل يجب منعها وهى بعد جرثومة متأصلة فى بذور التخاصل والتحزب والتعصب الجنسى . وأنا أومن بأن نساء العالم هن اللواتى يستطعن القضاء على تلك الجرثومة . الزهرة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن ستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

في الليـــــل

سمعتك الليلة تحدّث صديقك عن تلك القرية التي ذاع في أهلها أن الشمس لن تشرق بعد، وأن الظلام من الغد سيغمر وجه الدنيا فلا تضحك الزهرة، ولا يلتمع في الساقية خيالٌ جميل — وقرأتُ في عينيك أنهما تودّعان شمسها التي لن تُشرق؛ خلّفتَاها وراءهما إلى غير لقاء، فما بهما من ابتسامة، وما يذبولها من ألم؛ بلغتَا آخر الطريق ولم تسلُكاه بعد، فهما باردتان، كالليل، كالشعاع الذي انطفأ.

لقد تعبتْ نفسُك من العدم. أنا أعرف أنها شاخت في طفولتها لأنك أفسدتَ خصبَها وأذريتَ مع الريح قوّتها. أنتَ لمْ مابك من طموح. مابك هو الكبرياء اللاجئ، واطمئنان النبع الدافق إلى أنّ ماءه لن يغيض. ولقد ظللتَ تطلُب الحبّ حتى نسيتَ أن تحبّ نفسك، فخلّفتَها عند السراب تركُن إليه، يغتالها الظمأ ولا تشرب. لم يَغِض ماء النبع ولكنه تناثر في شُعَب الرمل، وغارَ من جديد في بطن الأرض، وتلاشى حتى الكبرياء فلم يبق إلا مجون العدم — وها أنت الآن تهربُ من نفسك إلى الطريق؛ إنك لا تُطيق أن تنظر إليها في غُربتها، وأن تتأمل الحطبَ الذي انتهى إليه وَهَمُ الخصب. تهربُ منها إلى زحام الناس، فإذا امتزجتَ بضوضائهم خيل إليك أنك تموتَ من اللوم وهنئتَ لحظةً بالنسيان، وشُغلتَ بهذا الخدر المغرى عن الوحل الذى ارتطمتَ به.

هذا التشاؤمُ الجَدْب أريد أن أحاربه في نفسك.

التشاؤم هو ألا تستطيع البكاء حين تريد أن تشترى به حياةً جديدة، ضاحكةً رغم الدموع. وددتُك لو تستطيع أن تبكي! أي شيء في الحياة أجمل من عَبْرة على خدّ رجل، تعيد النشاط إلى عينيه، وحرارة الخفقة إلى قلبه، ويدفعها ثمناً لفترة عابرة من حياته لم يَعِش فيها إلا حياة الناس! الدموع توبةُ المؤمن إذ يعود إلى نفسه يستغفرها ليحقق كمالها في فرح عميق! حينئذ تكون لديه القوةُ الكافية ليدفع الحياةَ بيده، وليفرض قدَرَه على الكون.

التشاؤم هو أن تحتجبَ ذكرى الماضي أمام جَهامة الحاضر، فتفنى معها ذاتك في سلبية عقيمة ميتة، وينعدم الشعور بالألم. وددتُك لو تستطيع أن تذكَّر! إذن ليُنجيك من صفارك الوعيُ بالصغار، وليستيقظ فيك من ماضيك خصبُه الرائع وآماله الثرَّة الواثبة.

تستطيعُ الليلةَ أن تملأ رئتيك من نسيم الفجر، وأن ترقبَ طلوع الشمس من مشرقها. إنها ستطلع بلا ريب، لأنها لا تحتجب إلا لمن يُغمض من دونها بصره. والمهم هو أن تخرج أنت لاستقبالها كأنك لم ترَها قبل اليوم، ثم عدْ إلى صديقك الذى تُحبّ وعانقْه في عُنف المشعر أنك أصبحت جديراً به. وحينئذ يكون التشاؤم قد أنتج، لأنه أعاد إلى نفسك الحياةَ الخصبة؛ وعندئذ كلُّ أسرار الكون رجلٌ يبتسم.

نزيه الحكيم

مختارات من إمرسن

فى اليوم الخامس والعشرين من مايو من عام ١٨٠٣ ولد رالف والدو إمرسن فى مدينة بوستن بأمريكا لأب من رجال الدين . وبعدما تخرج فى جامعة هاقرد اشتغل بالتعليم ، ولكنه لم يلبث على هذه الحرفة طويلا ، بل التحق بإحدى الكنائس قسيسا كأبيه . ولما كان عيل بطبعه إلى حرية الفكر ، فقد أخذ يذيع على الناس خلال عظاته مبادئ ثورية لم تتفق وما كانوا فيه يعتقدون . فاشتد سخط العامة عليه ، وتبرمهم به ، حتى اضطر إلى الاستقالة من عمله ثم رحل إلى أوربا والتقى بكبار كتابها وشعرائها ، وتعرف إلى كولردج ، ووردزورث ، وكارليل . وعاد بعدئذ إلى أمريكا واشتغل أستاذا بجامعة بوستن ، وألقى كثيرا من المحاضرات العامة التى لفتت إليه الأنظار . وحينئذ أدرك الناس أن بينهم أديبا كبيرا وقائدا عظيما من قادة الفكر ، وقوة تدفع الرأى الأمريكى إلى الأمام . ومات إمرسن فى عام ١٨٨٢ ، بعدما اعترف له الأمريكيون جميعا بالصدارة فى الأدب ، والزعامة فى الفكر .

كان إمرسن عميق الفكر ، ولكنه لم يكن فيلسوفا بما تحمل هذه الكلمة من معنى . لم يكن فيلسوفا له مذهب خاص وطريقة خاصة ، بل إنه كثيرا ما يناقض نفسه فيما يكتب وما يقول . وأشهر ما خلف لنا هذا الكاتب العظيم «مقالاته» و «كتاب الطبيعة» و «خصائص الإنجليز» الذى نشره إثر عودته من زيارة انجلترا ، و «نماذج الرجال» الذى صاغه على صورة كتاب كارليل «الأبطال وعبادة البطولة» ؛ وله فوق هذا بعض المقطوعات الشعرية الرائعة .

ومن النقاد من يعتقد أن «نماذج الرجال» خير ما كتب إمرسن . فى هذا الكتاب تخير إمرسن تلك الشخصيات البارزة التى كان يراها نماذج للبشرية . ولو ألقينا نظرة عاجلة على من كتب عنهم من الرجال عرفنا كثيرا من مبادئه فى الحياة . لم يشغل كتابه على رجل من رجال الدين أو رجال الأخلاق والإصلاح الاجتماعى ، إذ لم تكن له ثقة بأمثال هؤلاء من عظماء الرجال . الأبطال عند إمرسن هم أفلاطون الفيلسوف ، وسودنبرج المتصوف ومونتينى المتشكك ، وشكسبير الشاعر ، ونابليون رجل الدنيا ، وجيته الكاتب .

يقول عن أفلاطون إنه كان يرى العلم والفضيلة شيئا واحدا ، لأن الرذيلة لاتستطيع أن تعرف نفسها وتعرف الفضيلة ، فى حين أن الفضيلة تعرف نفسها كما تعرف الرذيلة . ثم يقول كذلك : «ليس فى العالم فى وقت واحد أكثر من اثنى عشر شخصا يقرأون أفلاطون ويفهمونه . وليس من بين هؤلاء من يستطيع أن يشترى نسخة واحدة من مؤلفاته . ومع ذلك فإن هذه المؤلفات تنحدر من جيل إلى جيل من أجل هذه القلة من القراء ، كأن الله يحملها لهم بين يديه» .

ويقول فى الشك عند كلامه عن مونتينى : «من ذا الذى لا تداخله الريبة ؟ إن الإنسان لا يستطيع فى مشكلة واحدة من المشاكل أن يصل إلى حل حاسم قاطع لا يتطرق إليه الشك . . . إننا نشك فى نظام الزواج ، وفى الدولة وفى الكنيسة ، كما يشك الشاب فى الطريق التى يسلكها لتكوين مستقبله ...» .

وكان شكسبير لديه نموذج الشاعر الذى يرى للشجرة منافع غير الثمر ، وللغلال فائدة غير الخبز ، وفى الكرة الأرضية شيئا أكثر من أرض تفلح وطريق تمهد .

ونابليون عنده مثل أعلى لرجل العمل والتنفيذ ، الذى طهر الجو من أدران الإقطاع والامتيازات والملكية المستبدة . أجل ! لقد لجأ نابليون إلى حشد الجيوش وإلى العنف والقوة ، وهى — عند إمرسن — وسائل ممقوتة تبررها الغاية النبيلة .

وفيما يلى مقتطفات مما كتب إمرسن اخترناها من

تراثه الأدبي ، ونقلناها إلى اللغة العربية لعل فيها حافزاً إلى الاستزادة لمن أراد مزيداً .

* * *

الجماعة الإنسانية لا تتقدم . إنما هي ترتفع في جانب وتنحط في جانب آخر ، وتسير سيراً ظاهرياً أشبه ما يكون بسير العجلة الدائرة . وهي لا تفتأ تتحول من حال إلى حال ، فهي آونة همجية وحشية ، وآونة أخرى متمدنة متحضرة ، يسود فيها الدين مرة والعلم مرة أخرى . وليس هذا التغير إلى الخير دائماً ؛ فنحن كلما كسبنا شيئاً خسرنا شيئاً آخر . تظفر الجماعة بفنون جديدة ، ولكنها تفقد فضل الغرائز القديمة . ما أشد التباين بين الرجل الأمريكي في ثياب فاخرة ، يقرأ ويكتب ويفكر ، ويحمل في جيبه ساعة وقلماً وصكاً مالياً ، وبين الرجل من أهل زيلنده الجديدة عاري الجسد ، أداته العصا والرمح ، ليس له سوى جزء من عشرين من حظيرة ليستاق تحت سقفها لينام ! ولكن هلا وازنت بين صحة الرجلين ؟ قارن بينهما تجد أن الرجل الأمريكي الأبيض قد فقد قوة النيوزلندي الساذج .

روى لي مسافر — إن صحت روايته — أنك لو ضربت الرجل الهمجي بفأس غليظة التأم جرحه بعد يوم أو يومين ، كأنك تضرب الفأس في القار . ولو أنك أهويت بمثل هذه الضربة على الرجل الأبيض لشيعته بها إلى قبره .

* * *

يؤثر الكاتب في عقول الجماهير بمقدار ما عنده من عمق التفكير . . فالكاتب الذي يستمد موضوعه من أذنه ولا يستمده من قلبه ينبغي أن يعلم أنه يخسر بمقدار ما يربح . . . لا تقوم الشهرة الأدبية على الحظ ، فإن أولئك الذين يصدرون الحكم النهائي على الكتاب ليسوا هؤلاء القراء المتحيزين المتحمسين الذين يضجون للكتاب عند ظهوره ، إنما هي محكمة كأنها من الملائكة ؛ هو جمهور لا يرتشي ، ولا يُتوسل إليه ولا يُروَّع ؛ ذلك الجمهور هو الذي يقرر شهرة الكاتب . ولا يبقى من الكتب إلا ما يستحق البقاء . فالغلاف المذهب والورق الصقيل والجلد الثمين ونسخ الهدايا الفاخرة التي تقدم للكاتب ، كل أولئك لا يكفل للكتاب المبروع إلا إلى أمد قصير .

* * *

كل شيء مزدوج ، هذا يقابل ذاك ، دقة بدقة ، العين بالعين ، والسن بالسن ، والدم بالدم ، والحب يقابله الحب . أعط يعطك الله . من سقى غيره ماء لم يشك العطش . إن أردت شيئاً فلا بد أن تدفع الثمن . إذا لم تغامر لم تكسب شيئاً . جزاؤك يكافئ عملك ، لا يزيد ولا ينقص . من لا يعمل لا يأكل . ألق بنفسك إلى التهلكة تهلك . اللعنة تقع على رأس من يستنزلها . لو أنك استعبدت رجلاً وطوقت جيده بسلسلة من حديد فإن طرف السلسلة الآخر يطوق جيدك كذلك . المشورة السيئة تعود على قائلها بالشر .

هكذا قدر الله ، وهذه هي الحياة ، فإن قانون الطبيعة يسيطر على أعمالنا ونحن راغمون .

* * *

بلوغ الحق هو الغرض من الحياة . ولكنك إن وجهت التفاتك إلى ناحية واحدة من الحق ولم تشغل نفسك إلا بتلك الناحية أمداً طويلاً ، فإن الحق يتشوه ولا يعود حقاً ، وإنما ينقلب إلى البهتان والزور . والحق في هذا يشبه الهواء ؛ وهو عنصر ضروري للحياة وبدونه لا يكون التنفس . فإنك إن تعرضت لتيار شديد مدة طويلة أصبت بالبرد والحمى ، وقد يؤدي بك هذا التيار الشديد إلى الفناء . ما أشد الخطأ يقع فيه الرجل إذا تعصب لعلم النحو ، أو النفس ، أو السياسة ، أو الدين أو لأية ناحية من نواحي المعرفة ! إنه يفقد التوازن بالمبالغة في موضوع واحد ، وهذا لون من ألوان الجنون .

* * *

ويقول عن الإنجليز : في كل ناحية من نواحي النشاط العملي تراهم يضارعون خير الأمم ، فليس هناك سر من أسرار الحرب لم يبلغوا فيه حد الإجادة . إن آلة (وَتْ) البخارية ، وقاطرة (ستيفن) ، ومصنع (رودرتس) للقطن تقوم بالعمل للعالم أجمع . ليس في الأدب ناحية ، ولا في العلم باب ، ولا في الفن المفيد ضرب من الضروب لم يخرجوا فيه كتاباً من خير الكتب . إنما هي إنجلترا التي يتطلع الناس إلى رأيها في الحكم على كل مخترع جديد أو علم مستحدث . وفي مشاكل التجارة والسياسة في إمبراطوريتهم الواسعة كانوا أكفاء لكل مأزق بصواب الرأي وحسن السلوك . فهل هذا هو حظهم أم هو في تركيب عقولهم ؟ . إنما تلك ميزتهم الطبيعية : تراهم يلمحون كل ضوء يشع من أي رأي جديد أو مخترع حديث . هم أسرة يتعلق بها مصير الأمم ؛ وقد قيل عنهم إنهم لا يعدمون أبداً الوريث الذكر . لديهم ثروة من الرجال تملأ الوظائف الهامة ، وتنبه النقد الحزبي عندهم يكفل لهم دائماً حسن اختيار الرجال الأكفاء .

وتتجلى قوة الإنجليز في عدم التطفل ، فيكاد كل منهم لا يلتفت إلى الآخر . كل منهم له طريقته الخاصة يسير ويأكل ويشرب ويلبس ويتحرك في أية ناحية دون الرجوع إلى الواقفين مين حوله ، ولا يهمه أن يتدخل في شأنهم أو يضايقهم . وليس معنى الواقفين من حولهم هذا أنه ينشأ على إهمال أعين الجيران ؛ إنما هو مشتغل بشئونه الخاصة ولا يفكر فيهم . إن كل إنسان في هذا البلد المهذب لا يستشير غير ضميره ... إني لا أعرف بلداً يسمح فيه إلى هذا الحد بالحرية الشخصية التي لا تهم أحداً غير صاحبها . يسير الإنجليزي والطريق بهم مدراراً يلوح بمظلته الثقيلة كما يلوح بعصا السير ، ويلبس شعراً مستعاراً ، وقد يضع على ظهره سرجاً ، أو يقف على رأسه دون أن يتصدى له أحد بإبداء الملاحظة . وقد مارس هذه العادة أجيالاً عدة حتى باتت في دمائه .

وله قصيدة عنوانها « الوداع » هذه ترجمتها :

وداعاً دنيا الغرور ، فإني إلى بيتي سوف آوي
لستِ من أصدقائي ولستُ من أصدقائك
كم قاسيتُ بين جموعك المنهوكة
وكم قاربت مثل بحارك في زورقي
وطوحتْ بي أمواجك كما تطوح بالزبد !
أما الآن ، يا دنيا الغرور ، فإني إلى بيتي سوف آوي
وداعاً وجهَ الملق الذليل
وداعاً أيتها العظمة الكاذبة
وداعاً أيتها الثروة الخلابة
وداعاً أيها السلطان القوي ، وضيعاً كنت أو رفيعاً
وداعاً أيتها القاعات المزدحمة ، وأيتها الساحات والطرقات
وداعاً أيتها القلوب الباردة وأيتها الأقدام المسرعة
وداعاً أيها الذاهبون وأيها القادمون
وداعاً دنيا الغرور فإني إلى بيتي سوف آوي

....

سآوي إلى نار موقدي
وحيداً على صدر تلك التلول الخضراء
إلى ركن خفيّ في أرض بهيجة
خطط أحراشها الجن في مرح وحبور
حيث المنعطفات المشوشة
طوال النهار تردد غناء الطيور
حيث الأقدام الوضيعة لم تطأ قط
هذا المكانَ المقدس عند المؤمنين

....

آه متى أطمئن في بيتي هذا بين الأحراش !
حينئذ أتعالى على صلف الرومان والإغريق
وحينما أتمطى تحت أشجار الصنوبر
عندما يشرق نجم السماء المقدس
فسأضحك من حكمة الإنسان ومن كبريائه
ومن مذاهب السفسطة وجماعة العلماء
فما كل هؤلاء ؟ وفيم غرورهم الشديد ؟
إذا كان الإنسان قد يلقى الله بين الأشجار !

محمود محمود

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي ... ... »

رأى الموظف !

أنا موظف... نعم ، وعامل من عمّال الدولة ، فرضتْ الدولة على خازنها أن يدفع لى كذا وكذا فى كل شهر أجرةَ عملى ، هو لى بحق العمل الذى أعمل ، أو بحق العَقد الذى بين الحكومة وبينى . وإنى لأعمل ، أعمل كل ما تكلّفنى الحكومةُ عملَه ، أو ما تكلّفنى نفسى ، وللحكومة أمر وسلطان يتناول وظيفتى فيما يتناول ، ولها رأيٌ ومذهب ...

وأنا إنسان ، نعم ، إنسان علىّ بحق الإنسانية أن يكون له فيما يعمل رأىٌ ومذهب ، فإنه ليكلّف العمل يوافق رأيه ومذهبه أو لا يوافق ؛ فأين حدُّ الإنسانية فى هذا الوضع من حدّ الوظيفة ؟... هل لى وأنا الموظف ، العاملُ المأجور ، أن أقول فى بعض ما أكلّف من العمل ، أو ما يكلّفه غيرى من الموظفين : هذا العمل يوافق رأيى ومذهبى ، وهذا لا يوافق ؟....

لست أسأل أهل القانون ، فإن رأى القانون صريح فى هذا الشأن ، وإنما أسأل نفسى ، وما سألتُ نفسى قطُّ هذا السؤال قبل اليوم ولا دار فى خاطرى ، ولو قد دار فى خاطرى يوماً لما استطعتُ أن أكون هذا الكاتبَ الذى يعرفه القراء منذ بضع عشرة سنة ، أو لمّا بقيتُ ذلك الموظف ... فإن القانون المصرى يحرّم على الموظف أن يكون من أهل الرأى ، وأن يكتب فى الصحف ، وأن يتحدث إلى الناس فى الشئون العامة ... وإنى لأزعم أنى من أهل الرأى ، ولست أستطيع أن أعطّل قلمى عن الكتابة ، أو أعطّل لسانى عن الحديث إلى الناس فى الشئون العامة ، ولكنى موظف ... !

أتُرى القراء فى مصر وفى غير مصر من بلاد العربية يعرفون هـذه الحقيقة أو ينكرونها ؟ ... وهل يعرفها طه حسين ، وأحمد أمين ، وأحمد زكى ، والكردانى ، والقبانى ، وخلاف ، وفريد أبو حديد ، وزكى مبارك ، ومن لا أذكر من أصحاب الرأى وأهل الأدب فى هذا البلد ؟ ... وهل تعرف الحكومة المصرية أن هؤلاء الموظفين الذين ذكرتُ أسماءهم قبلُ وعشرات ، بل مئات غيرهم ، يزعمون أنهم من أهل الرأى ، ويكتبون فى الصحف ، ويتحدثون إلى الناس فى الشئون العامة — لا يُقيمون وزناً لذلك القانون الذى فرض على الموظفين فى مصر أن يكتموا الرأى ويعطّلوا الأقلام ويعقلوا الألسنة من الحديث فى أى شأن من الشئون العامة !

وكيف تكون الحال لو تنبهت الحكومة إلى واجبها فى هذا الشأن — بعد طول الصمت — فعمدتْ إلى تطبيق ذلك القانون وحاولت أن تعطّل تلك الأقلام وتعقل تلك الألسنة وتكمّ هذه الأفواه ؟

ذلك قانون وضَعَه واضعُه منذ ... مُنذ كَم ؟...

فإنه ليخيَّل إلىّ أن هـذا التاريخ المرقوم فى ديباجة ذلك القانون العتيق لم يَتْرك لعتيق اليوم إلا ليكون سخرية منا ، نحن الذين نزعم أنا فى عصر قد بلغنا فيه من فهم معنى الحرية والدعوة إليها مبلغاً يحملنا فى كثير من الأحيان على المباهاة ، والفخر ، و... والتبجّح !

أين نحن اليوم من ذلك العصر الذى وُضع فيه ذلك القانون ؟ وأين دستورنا السياسى من ذلك الدستور الذى كان ؟ وأين حكامنا من أولئك الحكام ؟ ... ولكن ذلك القانون لم يزل ، ولم تتنبه حكومة من الحكومات المتعاقبة فى مصر منذ عشرات السنين إلى إبطاله ، ولعل بعضها يتنبه إلى تطبيقه ! !

قال لى قائل : ذلك قانون نسخه الزمن ، ولعلك حين تذكره اليوم ألا يكون فى مصر من يذكره غيرك ؛ فقد

بطل حكمه وإن بقى رسمه ، فما حديثك عنه وقد تعطل معناه ؟

قلت : ولكنها كرامة مصر ! ومن يدرى ؟ فلعلك تسمع غداً أن « نائباً محترماً » قد وقف يستجوب الحكومة فى البرلمان لأنها سمحت لطه حسين الموظف فى وزارة المعارف أن يكتب فى الصحف مقالات ذات صدى فى معنى « العدالة الاجتماعية » ، أو يخطب فى المحافل العامة عن التعليم والحرية !

قال : ولكن هذا من حديث السياسة !

قلت : وأين الحد الفاصل بين ما هو من حديث السياسة وما ليس من حديثها ؟ ومتى يباح للموظف أن يتحدث ومتى يحرم عليه ؟ وأين تسمع الرأى الحر فى شأن من الشئون العامة إن حرمت الرأى على أهل المعرفة ، وأين تجد الأحرار من أهل الرأى والمعرفة إن كان أهل الرأى فى مصر لا يجدون سبباً إلى العيش — على الأغلب الأعم — إلا فى وظائف الحكومة ؟

... نعم أنا موظف ، عامل مأجور من عمال الدولة ، ولكننى إنسان ، أملك بحق الإنسانية أن يكون لى رأيى ومذهبى ؛ وأنا وطنى ، أملك بحق الوطنية أن يكون لى فى شئون بلادى العامة قول صريح . ذلك حق الذى فرضته لى قوانين الطبيعة ، فليس يملك أن يحرمنى إياه قانون الإنسان ! ...

... نعم أنا موظف ، أعمل للحكومة برأيها فى حدود الوظيفة وواجباتها ، ولكن لى فوق ذلك رأى الإنسان الحر ، والمواطن الحر ؛ فإذا اقتضتنى واجبات الوظيفة يوما أن أعمل عملا لا يوافق رأيى ومذهبى ؛ فإن على يومئذ أن أختار بين الوظيفة وبين الحرية ؛ بين لقمة العيش ، وكرامة الإنسان الحر !

جريمة موظف !

وفى الحكومة قانون يحرم على الموظف أن يشتغل بالتجارة ... قالوا : ويدخل فى معنى التجارة أن يبيع للحكومة كتاباً من تأليفه ... فلو أن عميد كلية الآداب — مثلا — قد وضع كتاباً فى التاريخ ، أو الجغرافيا ، أو الاقتصاد السياسى ... ورأت وزارة المعارف أن تشترى منه ألف نسخة لتودعها مكتبات المدارس ينتفع بها المعلمون والتلاميذ ، لما جاز أن تشتريها من عميد كلية الآداب ، صاحب الكتاب ومؤلفه ، وإنما تكتب إليه تسأله : أين يباع هذا الكتاب ؟ ... ويحتال المؤلف لإتمام الصفقة ، فيتفق على وجه ما مع ناشر من الناشرين فيدفع له النسخ المطلوبة ، ليبيعها باسمه للحكومة ويقبض منه ثمنها فيدفعه إليه وله جعل ... فإذا لم يفعل المؤلف ذلك لم تتم الصفقة — إلا على وجه الاستثناء — لأن الموظف يحرم عليه أن يشتغل بالتجارة !!

وضحكت حين عرفت ، ولم أملك حين سمعت هذا الحديث إلا أن أضحك ؛ فهذه الحكومة التى حرمت على الموظف أن يبيع لها كتاباً من تأليفه ، لأن ذلك نوع من التجارة ، تعرف معرفة اليقين أن هذا الكتاب الذى تشتريه هو من تأليف فلان الموظف ، فإن كانت التجارة المحرمة هى البيع والشراء ، فلعلها تعرف معرفة اليقين كذلك أن هذا المؤلف الموظف إن لم يكن هو الذى باع لها الكتاب ، فإن الناشر الذى باعه قد اشتراه من ذلك المؤلف ، الموظف ، فقد كان ثمة بيع وشراء على أى حال ، وكانت تجارة ؛ أفما كان حق القانون الذى التزمته فى هذه الصفقة يلزمها أن تعاقب ذلك الموظف لأنه ألف كتاباً فباعه فى السوق ؟ ... بل ، وما كان أحرى أن يقدم إلى المحاكمة التأديبية طه حسين ، وأحمد أمين ، وفلان ، وفلان ، وفلانون ، من أهل التأليف والتحقيق الذين تملأ مؤلفاتهم خزائن المكتبات وقماطر التلاميذ فى مختلف المدارس ؛ وتكون تهمتهم أنهم باعوا كتباً ، أو بتعبير آخر : تكون تهمتهم أنهم مؤلفون ... وتكون

وزارة المعارف هي شاهد الإثبات في الدعوى ... ! !

... أم ترى الحكومة تظن أن المؤلف حين يؤلف كتاباً إنما يهبه للناشر حسبة لله فلا يقتضيه ثمناً ولا يأخذ منه مليما فليس ثمة بيع ولا شراء ولا جرعة ؟ ...

... فهذا أيضاً قانون ، قانون مسطور نافذ لم يعطل حكمه ولم يتعطل معناه . أجِدٌّ ذلك أم هزل ؟

لعل ذلك الشارع الحكيم الذي شرع ذلك القانون منذ أزمان كان يرى بحكمته إلى معنى يغيب عن فطنتنا حين حرَّم على الموظف التجارة ؛ وأين هذا من التجارة ؟..

ألم يكف المؤلفَ المصريَّ ما بقى من طواعية الناشرين في مصر حتى ليكاد يكون لهم كل النفعة فيما يبذل المؤلف المصري من جهد ولا يناله منه شيء ، إلا الشهرةُ بتكاليفها ، والشهرة تكاليف مادية تُشترى بإنكار الذات في غير فضيلة ! !

ألم يكف المؤلفَ المصريَّ أن يكون ذلك حظه فتضع الحكومة القوانين لتزيد الناشرين سلطاناً عليه حتى لا يكاد يفلت من أيديهم ؟

وهل يكون ذلك لوناً من الاعتراف بالأدب الذي نريد أن نؤكد لمصر زعامتها في البلاد العربية ونمكّن لها ؟

وليكن هذا لوناً من التجارة ؛ فلماذا يحرم على الموظف أن يتاجر ؟ يخشون أن يستغل سلطان الوظيفة في التجارة ؟ فهل أمنوا أن يستغل ذلك السلطانَ لأخيه وأبيه وعمه ، والناظور الذي يتاجر باسمه إن كان يريد التجارة ويخشى سطوة القانون ؟

تلك أمور لا يعصم منها إلا الخُلق ، وليس القانون منها إلا لغواً أو مغالطة أو سخرية ، أو تعبيراً عن معنى من سوء الظن يصوِّر خُلق الموظف المصري تصويراً لا يُشرِّف مصر حين تُذكر أخلاقُ الشعوب !

« قارئ »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢٧٩ — الثلاثاء ٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ — ٢ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

شـــئوننا العـــامة

تتيح لنا الحياة النيابية فى كل عام فرصتين تعرض فيهما شئون الدولة جميعاً عرضاً شاملا . الفرصة الأولى بعد أن يلقى خطاب العرش وتبسط فيه الحكومة سياستها العامة ، وتجمل ما اعتزمت القيام به من مشروعات . والفرصة الثانية حين تعرض الحكومة ميزانية الدولة وتقدم لها بيانات تفصل ما اشتملت عليه أبواب إيراداتها ومصروفاتها ، وتوضح الأسس التى بنت عليها تقديراتها . وفى كلتا الفرصتين يختلف على منبرى المجلسين شيوخ الأمة ونوابها من مؤيدى الحكومة ومعارضيها ، فيتناولون شئوننا العامة من كل جوانبها ، ويدلى كل ذى رأى بما لديه من مقترحات ، وما تجمع لديه من ثمرات الخبرة وطول التفكير . والذى يتتبع ما يقال فى البرلمان فى تلك المناسبات وغيرها من الجلسات يحس بأننا لا ينقصنا إدراك مواطن الضعف فى حياتنا العامة ، ولا تنقصنا معرفة الطريق الذى يجب أن نسير فيه لإصلاح أحوالنا والنهوض ببلادنا ، ولكننا مع هذا نتقدم ببطء فى هذا السبيل . فما السر فى ذلك ؟

من المحقق أن الحرب الحاضرة من العوامل الهامة التى عاقت تنفيذ كثير من المشروعات النافعة ، وحالت دون استكمال الوسائل الضرورية لذلك ، كما أنها خلقت مشاكل عارضة تستنفد كثيراً من جهود الحكومة ونشاطها ، وتعطل السير الطبيعى فى كثير من النواحى .

ومن المحقق كذلك أن الحكومة أصبحت تضطلع بأعباء كثيرة لم تكن تضطلع بها الحكومات من قبل ، وأصبحت يرجى منها ما لم يرج من الحكومات فيما مضى من العهود ؛ فلم تعد مهمة الحكومة أن تحكم بالمعنى الضيق الذى ينطوى تحت هذا اللفظ ، بل أصبحت مهمتها مهمة رب الأسرة يرعى شئون أسرته كلها . فنحن لا نكتفى منها الآن بأن تصون الأمن ، وتوفر العدل ، وتكثر من

مشروعات الرى والصرف ، بل نطالبها عدا ذلك بأن تطعم كل جائع وتكسو كل عار ، وتعالج كل مريض ، وتعلم كل جاهل ، وتوجد العمل لكل عاطل ، وتغنى كل فقير ، وتهدى كل حائر ، وتأخذ بيد كل عاثر ؛ ونطالبها بأن ترق أذواقنا ، وتهذب أخلاقنا ، وتوفر لنا وسائل الرياضة واللهو والتسلية ؛ ونحن نطالبها بأن تقوم على تدعيم الإنتاج القومى وتقويته ، تتولاه برعايتها وتحوطه بعنايتها ، فتشجع الصناعة وترقى الزراعة وتنشط التجارة ، وتقوم بنفسها فى ذلك بما تقصر عنه جهود الأفراد من واسع المشروعات . ونحن نطلب إليها أن تكفل لنا من وسائل الدفاع ما يحمى كياننا ويصون استقلالنا . وبالاختصار نحن نطلب إليها أن تقوم على كل شأن من شئوننا جل أو صغر ، نطالبها بهذا كله ، ونحملها ما تحمله الحكومات الحديثة فى أرقى البلاد من تبعات ، ولا نحسب حساب ما يقتضيه ذلك من نفقات وجهود ووقت ، وما يلقيه علينا من فروض قد لا تسخو نفوسنا ببذلها راضين ؛ فلا نراع فى أنه لا توازن بين آمالنا ومقدرتنا ، ولا تكافؤ بين ما نطلب إلى الحكومة أن تحققه وما نتحمله فى مقابل ذلك من تضحية .

ولا جدال فى حرص الحكومة على أن تجيب أكثر ما تستطيعه من تلك المطالب ، ولكن ما يبقى بين يديها من المال والجهد بعد الوفاء بحاجة الأعمال القائمة لا يكفى لتحقيق هذه الأعباء الجديدة كلها ، بل هو قد لا يفى ببعضها ، فلا حيلة لها إلا أن توزعه على وجوه الإصلاح الجديدة ، فإن لم يصبها منه وابل فطل ، وقد لا يمس بعض الأعمال منه إلا رشاش يبل الحلق ولا يبلغ الجوف فلا ينقع غلة ولا يطفئ ظمأ .

ونحن نقدر تماما هذه الاعتبارات العملية التى تحد من مقدرة الحكومة على استحداث المشروعات الجديدة ، ونرى عذرها قائما فى ذلك بسبب هذه الظروف الحربية الشاذة ، وبسبب اتساع أعبائها وازدياد المطلوب منها دون أن يقابل ذلك الاتساع الكافى فى مواردها ؛ ولكننا مع هذا نرى فى الاستطاعة أن نصل إلى غايتنا فى زمن قريب ، إذا أحسنا رسم الخطط الدقيقة لسير نهضتنا ، واصطنعنا فى تنفيذها الأساليب الحديثة التى نجحت نجاحا باهرا فى أمم تماثلنا فى كثير من الظروف .

أول هذه الأساليب وأبلغها أثرا فى النجاح «التركيز» .

وفى الحياة العادية أمثلة كثيرة تبين ما يفعله التركيز وما يحدثه من أثر قوى . فالشمس تشع ضوءها وحرارتها فتقع على الأجسام هينة رفيقة تدفئها ولا تحرقها ، ولكنك إذا اعترضت تلك الأشعة بعدسة تلمها وتجمع متفرقها فى بؤرتها ، أحرقت ما يكون فى تلك البؤرة من مادة قابلة للاشتعال . والمطر يسقط على الجبال قطرات متفرقة ، فإذا حصر فى مسالك ضيقة تجمعت منه سيول جارفة تفيض منها الأنهار . وأنت إذا خرجت من ألف من الجنيهات للبر بالفقراء ووزعتها على ألف فقير ، أصاب كلا منهم جنيه لا يكفيه إلا نفقة بضعة أيام ، ولكنك إذا وزعتها على عشرة فقراء كان نصيب كل منهم مائة جنيه ، وهو مبلغ يصلح أن يكون رأس مال يقوم به بعمل يدر عليه الرزق ما عاش ويكفيه مؤونة الالتجاء لإحسان المحسنين على الأيام .

وفى الحرب الحديثة تجلى نجاح مبدأ التركيز على أروع صوره . فالقوى الموزعة على عدة ميادين يضعف أثرها جميعا ولا تنال من خصومها منالا ؛ ولكن تركيز القوة فى نقطة وتوجيه الضربة القوية فى ميدان محدود ، يحقق الظفر ويمهد السبيل لضربات جديدة فى نقط أخرى .

ونحن إذا رحنا نوزع قوانا وجهودنا على مختلف الأعمال ، لم تحدث فى أيها أثرا بينا ، ولم نبلغ منها مبلغا كبيرا ، ولكننا إذا حصرنا كل تلك القوى والجهود فى دائرة محدودة نجحنا فى إحداث تغيير كامل واضح الأثر ، وفرغنا منه نهائيا لغيره من الأعمال ، نعالجه بنفس القوة

للركزة العلاج الشامل الباقى الأثر .

ونستطيع أن نستخدم التركيز فى إصلاح أحوالنا والنهضة بشئوننا على طريقتين : الطريقة الإقليمية ، والطريقة النوعية .

فنى الطريقة الإقليمية يكون برنامجنا أن نخصص لكل إقليم أو جزء من البلاد زمناً نقوم فيه بالإصلاح الشامل لهذا الإقليم من كل الوجوه . فنستصلح البائر من أراضيه ، ونستكمل مشروعات الصرف والرى فيه ، ونرقى زراعته ، وندخل عليها أحدث الأساليب ، وردم مافيه من برك ومستنقعات ، ونوفر مياه الشرب الصالحة لكل قراه ، وننشئ فيه المستشفيات والوحدات العلاجية الكافية ، ونعمم فيه التعليم ونبنى معاهد التعليم الكافية له ، ونحسن طرق مواصلاته ، ونعمم النظام التعاونى فى كل نواحيه ، وننشئ المصانع الملائمة لطبيعته ، وننتفع بمصادر القوة فيه ، ولا ندع شأناً من شئونه الاقتصادية والاجتماعية إلا تناولناه بالترقية والتدعيم

وفى الطريقة النوعية يكون برنامجنا تحقيق نهضة فى نوع من أنواع النشاط العام فى كل أنحاء القطر فى زمن معين ، حتى إذا فرغنا منه انتقلنا لنوع آخر ، فيكون برنامجنا مثلا فى فترة معينة إتمام مشروعات الرى والصرف أو استغلال مصادر القوة ، وإنشاء مراكزها أو إنشاء الصناعات الضرورية للبلاد ، أو تعميم التعليم ، أو استكمال ما تتطلبه المشروعات الصحية فى البلاد ، أو تحسين طرق المواصلات أو استصلاح الأراضى البور ، أو استغلال الثروة المعدنية فى البلاد ، أو ترقية الزراعة وإدخال الأساليب الحديثة فيها .

ولكل طريقة مزاياها ، وقد جربت كلتا الطريقتين أو مزيج منهما فى بعض البلاد وكتب لها جميعاً النجاح .

وأيًّا كانت الطريقة التى نختارها فإن نجاحها يتوقف على رسم الخطة الكاملة لهذه الأعمال جميعاً ، ودقة التقدير فى توقيت تنفيذها ، وحسن التنظيم لتسلسلها ، بحيث يبدأ بالأساسى الذى ينتفع به ما يأتى بعده من الأعمال ، ويقدم الأهم على ما يقل عنه فى ذلك

ويلى « التركيز » فى حسن الإنتاج التنسيق والتعاون ، ولعلك تدرك ما أقصد إليه من ذلك إذا رجعت إلى الطريقة التى كانت تنفذ بها بعض الأعمال العامة فى بلادنا ؛ فقد كانت مصلحة التنظيم ترصف بعض الطرق وتسويها بالمكدام ، ولا تكاد تفرغ من ذلك حتى تأتى مصلحة المجارى تحفر ما سوت وتفسد ما أصلحت ؛ وقد تنتهى من ذلك وتعاد إصلاح الطريق ، ثم تجئ شركة المياه أو النور لتفسده من جديد ، ولو أن تلك المصالح نسقت جهودها ، وقامت بأعمالها جميعا بالتعاون لوفر كثير من الجهد والوقت .

كذلك نحس أن وزارات الحكومة المختلفة ، بل والمصالح المختلفة فى الوزارة الواحدة ، قد تقوم بأعمال مكررة متشابهة ، وقد تسير فيها على أساليب متباينة ، مع أنها لو نسقت خططها وتعاونت جميعا فى تحقيق الهدف المشترك ، لكان إنتاجها أتم وأكمل وأكثر اقتصادا فى الوقت والجهد .

فإذا أريد تنفيذ برامج الإصلاح المرسومة سواء ركزت فى إقليم واحد أو نوع واحد من النشاط ، فيجب أن يكون أساس ذلك تعاون كل قوى الحكومة فى التنفيذ ، وتوحيد قيادتها جميعا تحت إشراف هيئة تنسق قوة تحول الجهود المكررة ، وتوجه الجميع لتنفيذ الخطة بدقة فى كل الميادين .

والعنصر الثالث من عناصر الأساليب الحديثة فى تحقيق النهضة هو الاستقرار والثبات . ولست بحاجة للقول بأن كل نهضة لا تطبق لهذا العنصر يقضى عليها بالفشل والتعثر . فالخطط المرسومة إذا قطع فى تنفيذها شوط ثم طرأ على الأحوال من التغيير ما يقلبها رأساً على عقب ، أو بدا لأولى الأمر أن يفتروا فى مواصلة تحقيقها ، وانصرفوا عنها لغيرها تصبح جهودا ضائعة وقوى مبددة . فلا مفر لنا

[البقية فى ذيل الصفحة التالية]

من أن توفر الضمانات الكافية لاتصال سير النهضة وسلامة رائحنا من التفاكل والاضطراب وتنازع الأهواء .

وسبيل ذلك أن تكون برامج النهضة والإصلاح برامج قومية ، ترتفع فوق الخلافات والمنازعات ، ويؤمن بها الجميع ويتواصون جميعاً على تحقيقها . ومن الخير أن يشترك في وضعها ورسم تفاصيلها الخبراء الفنيون وذوو الرأى على اختلاف آرائهم ومشاربهم ، وأن تصير دستوراً ثابتاً لا يمس كيانه ، ولا يتعرض بحال للتغيير والتبديل .

ولعلنا حين نشترك في هذا الهدف الموحد ، ونتفق كلنا على هذا البرنامج المحدد ، ونأخذ في العمل المنتج المنظم للنهوض ببلادنا أن يكون ذلك كفيلا بتأليف القلوب المتنافرة ، وتقريب الميول المتباعدة فلا يكون لأحد شغل بغير مصلحة مصر العزيزة الخالدة .

(٠٠٠)

حديث الغرفة

للدكتور أحمد زكى بك

الغرفة التجارية البريطانية ، هي غرفة تجارية كسائر الغرف . ولكن لها مركزا ممتازا بسبب تلك الصفة الأخيرة التي تلحقها . ذلك لأن الإنجليز تجار بالطبع ولو لم يكونوا كذلك لكانوا تجارا بالتطبع ؛ وقد قضوا القرن الحاضر والماضي وما قبلهما يمارسون التجارة بين الأمم عبر البحار والمحيطات . فهم في شئون الاقتصاد لهم خبرة لا يجاريهم فيها غيرهم من الأمم . والغرفة التجارية البريطانية هذه لها سبب آخر للتميز ، ذلك بأنها في مصر ، فهي تمثل المصالح البريطانية ، من تجارية واقتصادية ، في هذه البلاد ، حليفة بريطانيا . فالآراء التي تصدر من تلك الغرفة آراء لابد أن تنفتح لها الآذان وتسمعها .

وقد جرى التقليد بأن يكون لهذه الغرفة تقرير ينشر في الملأ كل عام ، يجهر بإمضاء رئيسها ، يتناول فيه رأيه ورأى الغرفة في الحالة الاقتصادية المصرية . وكان رئيس هذا العام ، وصاحب التقرير ، المستر شرقيه . وهو كنيتي الأب ، ولكنه شرقي الوطن ، فقد قضى في الشرق نيفا وعشرين عاما ربما كانت أكثر من نصف عمره . وهو رجل قد لا يسمع الجمهور المصرى كثيرا باسمه ، ولا تحمل الجرائد دائما رسمه ، لأنه يعمل في جو من الاقتصاد صامت . وأرباب الاقتصاد في أيديهم مقاليد الأمور ، ما بطن منها . وهم أهل حصافة ينظرون إلى هذه الدنيا كما ينظرون إلى الجوزة ، فيطلبون لبها الباطن ، ويتركون لغيرهم قشرها الظاهر .

والمستر شرقيه فوق هذا رجل ظريف وصديق ذاكر .

وقد تناول في تقريره السنوى من مصر أمورا لها خطر كبير .

فما تناوله أمر الغلاء في مصر ، فقال إن علاجه في تقسيط الأقوات والحاجات تقسيطا شاملا كاملا ، وقال إن هذا غير ممكن في هذا البلد « لأن الشرط الأساسى لذلك غير موجود فيها ، وهو رغبة المستهلك في هذا التقسيط رغبة صادقة ، واستعداده للتعاون في إنجاحه » وهذه كلمة لا شك صادقة . فالتعاون في مثل هذا إنما هو مظهر من مظاهر الوعى الاجتماعى الذى لا يكاد يكون له في مصر وجود . والوعى الاجتماعى ضائع لأن العدل الاجتماعى مضيع ، وحيث لا عدالة ينصرف الناس إلى استخلاص حقهم بالحق وبالباطل ، كل على مقدار القوة في ذراعه والطول في باعه . ويزيد في ضياع العدل الاجتماعى ، وجود طوائف كبرى في مصر غير مصرية ، ولكن بأيديها ثروة مصر ، والوعى الوطنى عند هؤلاء ليس من أقواله ؛ وصاحب الثروة أبعد الناس في وقت الضائقة عن وعى اجتماعى يحرمه ما اعتاده من وسعة الثراء ، لا سيما في بلد جاءه لطالب صيد في عدل أو في غير عدل .

وذكر المستر شرقيه في هذا الصدد طريقة استخدمها البريطانيون في مكافحة الغلاء في بلادهم ، هي طريقة

الإعانات تبذلها الحكومة في سبيل تخفيض أسعار السلع حيث السلع أساسية . وضرب مثلا لذلك السكر ، فقال في صراحة شائقة : « إني أعتقد أنه لم يكن هناك حاجة في رفع سعر السكر » ، ولكنه لم يذكر سببا . وقال عن الكيروسين ، إنه ما كان يجب أن يزيد ثمنه ، وإن الزيادة المطلوبة في تكاليفه كانت تعوَّض برفع ثمن البنزين . وهذا رأي لا شك أقرب إلى مؤاساة الفقير . والترام ذكره ، وأجور النقل في المدن وفي الضواحي ، من الترام وغيره ، أنكر رفعها .

وعرَّج السير شرقيه فيما عرَّج على أذون الاستيراد والتصدير . فقال عن الإصدار إن الحكومة أنقصته إلى حدٍّ بالغ ، وإن جدول الأشياء التي يمتنع تصديرها يطول من يوم ليوم ، وإن في هذا خنقا لحرية التجارة أولا ، ثم فيه تضييع لما تصبو إليه مصر من تميّز في سياسة أمم الشرق الأوسط . ثم قال : « إن أمم الشرق الأوسط يجب أن ترتبط أولا بروابط من التجارة قبل أن ترتبط بروابط من السياسة . وإن الروابط السياسية لا يمكن أن تخرج من دائرة الأحلام إلى دائرة اليقظة إلا إذا سبقتها الروابط التجارية . وهذه الروابط التجارية لا يمكن أن تجتمع أطرافها فتنعقد في غير مصر » .

ومن الممتع أن ينطلق مثل هذا الصوت في نفس الوقت في إنجلترا نفسها . فقد كتب السير كنت ولمس في المجلة الأسيوية ، وهي تصدر في لندن ، يقول عن الوحدة العربية : « إن أمل العرب في الوحدة أمل حيّ ، وهي كعبة العرب أجمعين مهما اختلفت طرقهم إليها . وقد أصاب العرب الحكمة لما ركّزوا على الوجهة الاقتصادية والوجهة الثقافية قبل الوجهة السياسية ، فقد علموا أن الكيان السياسي الذي لا يقوم على أسس اقتصاد سليمة لا يبقى طويلا . ومصر في اقتصاد الأمم الشرقية سيكون لها دور هائل تلعبه لخير هذه الأمم جميعا » .

فالمنطق واحد وإن اختلف المنطلق ، وإن انبعث الأول في عاصمة وانبعث الآخر في عاصمة ، هذه مشرّقة وتلك مغرّبة .

ولا شك يتصل بهذه السياسة التي تبيّنت ما يجرى في بلدان الشرق اليوم من مؤتمرات . فمن مؤتمر زراعي إلى آخر مالي ، إلى ثالث ورابع ، لا نحسب أحدها سوف يخرج عن دائرة الاقتصاد . ومعنى هذا أن دائرة الثقافة تُرك أمرها لتلك الأمم تجتمع إليها بدافع من نفسها . ولا شك فيما سيكون لهذه المؤتمرات من نجاح ، فقد أمَّن اجتماعها ، ولو في الصعيد الواحد ، أن الداعي غير عربي ولا شرقي . وأمَّن نجاحها أن الأعضاء سواسية فيما دُعُوا إليه ، وأنها استشارة لا حجر فيها . فإن احتفظ أعضاؤها بحرية العمل ، واقتصرت بريطانيا على النصيحة وأخلصت النية فيها ، وهي لا شك مقتصرة عليها مخلصة فيها ، أنتجت هذه المؤتمرات أداة دافعة للعمل الناجح ، ومهّدت بها لحسن تفاهم موطئه مُهج القلوب لا بطون الأوراق .

ولخطورة هذه الناحية الاقتصادية ، نزيد القارئ اقتباسا مما قرّر رئيس الفرقة التجارية البريطانية . قال : « ويجب على الحكومة المصرية ألا تترك هذه القيود تؤثر في الخطط المرسومة لجعل مصر مخزن الشرق الأوسط ، ومركزا هائلا للبضائع من كل صنف يهرع الجيران لشرائه عن طيب خاطر . وفي سبيل ذلك لابد من احتجاز مناطق تخرج عن الدوائر الجمركية ، ولابد من التيسير للتجارة العابرة أكبر تيسير ... إن هذه فرصة مصر الكبرى في الشرق الأوسط ، ولابد لنا من معونتها على اغتنامها » .

ونزيد نحن فنقول إن هذا كله جميل ، على ألا تكون الفرصة لمصر الأرض ، بل لمصر الناس — المصريين أرومة وجِلْدا . ومجال التعاون في هذا بين مصر وإنجلترا واسع خطير . ولو أن المبادأة في هذا واقعة على المصريين ، والتجهيز له غير يسير .

ومشى رئيس الغرفة بعد هذا يتحدث عن صناعة مصر ، وما استحدثته الحرب منها . وفي هذا قال : « لقد كثر الحديث عن قلب هذا القطر قطراً صناعياً ، وقيل إن في هذا امتناع التعطل ، ورفع مستوى الحياة ، وانتشار الرخاء ، وإني أعيذ من يختطون لمصر مستقبلها أن يعميهم رخاء هذه الحرب . فهم في خطر أن ينسوا أن صناعة النسيج نفسها لم يكن حالها أحسن حال قبل الحرب برغم حماية جمركية عالية . إن كثيرا من الصناعات التي خلقتها الحرب في مصر قد تبقى إذا جاء السلام ، ولكن ليس لمصرى أن ينسى أن امتناع السفن في الحرب ، ونظام الحصص فيها ، وغير ذلك من القيود ، أسبغت على تلك الصناعات حماية لا تقاربها حماية الجمارك . إن النظرية التي تقول إن الأمم الصناعية القديمة يجب عليها أن تدخل الصناعة في الأمم التي ظلت إلى الآن مصدراً للخامات حتى تستطيع تلك الأمم القديمة أن تروج تجارتها بالتصدير الكثير ، نظرية آخذة في التلاشي » ، ثم ذكر بعد ذلك أن الحكومة المصرية في طلب المال رفعت الرسوم الجمركية مائة في المائة . وأنها إذا جاءت السلم فسوف لا تجد الحكومة من الشجاعة أن تذهب بمصدر للدخل تعودته الخزانة . إلى أن قال : « إن ولاة الأمور لن يتمادوا إلى المثابرة على حماية صناعات يكون في حمايتها رفع مستوى الحياة لدى قوم هم قِلّة (يقصد أصحاب المصانع وما بها من عمال) ، ويكون في هذه الحماية إفقار البلاد في مجموعها (يقصد بتضحيتهم على شراء سلع مصرية بأسعار فوق أسعار مثيلاتها الأجنبية) » .

وهذا القول يمثل إجمالا رأى الأحرار الإنجليز في حرية التجارة ، وهو رأى يُستهدى به ولكنه لا يطبق تطبيقاً أعمى ، ولكل حال لبوسها . وهذا الرأى لم تره إنجلترا نفسها من زمن بعيد . هي استخدمت الحماية الجمركية ولم يقل أحد إنها أخطأت ، فكيف يراد من مصر أن تراه وتكون السباقة إليه . ثم إزاء القلة وإفقار الكثرة ، كيف يكون في الصناعات القومية الكبرى كصناعة النسيج ؟! فهذا النسيج عندنا خاماته ، وعندنا فوق العشرة الملايين تلبسه وعلينا إلباسها ، ولأن نتحكم في أقطاننا ، ونختصها في مصانعنا وأسواقنا خير ألف مرة من أن يتحكم فيها الآخرون عند حافة الماء . ونحن اليوم لا نظن أن مصانعنا في النسيج تكفي حاجاتنا ، فلا بد من تمديدها حتى يكون منها الناقص . والعملية في مجموعها لا شك عملية رابحة . وأقول في مجموعها ، أعني منذ أن تبذر بذرة القطن إلى أن يباع النسيج في الأسواق ، مضموماً إليها آثارها المادية الضيقة الصرفة ، وآثارها الاجتماعية والإنسانية معاً . هذا إلى أن الصناعة البادئة تكلف أكثر ما يجب ، ولكن مران السنوات واستطلاع الأخطاء ، لهما أثر كبير في اختصار النفقات .

وإنجلترا ، في أمر تجرها مثلا ، واصطناع السكر منه ، ماذا صنعت فيه ؟ حتمه ، جعلت الحكومة البريطانية تواليه بالمعونة السنوات الطويلة حتى استقام أمره ووقف على رجليه من غير عكاز .

والذي يقال في أمر النسج في مصر يقال في أمر الجلود ، فخاماتها مصرية لأن مصر لابد أن تأكل اللحوم ، ولابد أن تربي الماشية فيها حتى تأكل كل هذه الملايين لحما ، وحتى تلبس كل رجل من هذه الأرجل الملايين حذاء . والذي يقال في القطن والجلد يقال في كثير غيره مما لدينا خاماته . ولن يضير المجموع شيئا في هذه الصناعات الوسيمة الشاملة .

والحال غير هذا بالطبع في الصناعات التي ليس لدينا خاماتها ، وأعدد فأقول حتى تلك التي لدينا بعض خاماتها . فالحديد مثلا عندنا أكسيده . ولكن لا بد لاختزاله من استجلاب الفحم آلاف الأميال . فهنا يجب أن يتريث المرء فيه تريثا كبيرا حتى يستوثق من أن السلعة لا تروج إلا في الحرب وحدها ، ولا تكون إلا للأغراض

الاستراتيجية وحدها ، فإذا جاء السلم كلفت المستهلك أضعاف أثمانها .

إن هذه القاعدة ، قاعدة رئيس الغرفة ، قاعدة من قواعد الاقتصاد هادية ، ولكنها غير لازمة التطبيق واقتصاد الأمم هو ما هو ، وعلاقة ما بينها هي ما هي . وإلى أن يرتفع العالم بأثمان المحاصيل الزراعية إلى أثمان المنتجات الصناعية ، ليس لأمة زراعية بد من معالجة ما تستطيع من صناعة طلبا لأدنى الرزق الإنسانى الذى يطلبه الصناعيون .

وهب أن قطن مصر وقمحها ، وهما من مُجمّد اقتصاد البلد ، زادت نفقة إنتاجهما على نفقة استيرادهما ، فهل معنى ذلك إلغاء القطن والقمح ، فإلغاء عقولنا ، ونحن الذين نلبس القطن ونحن الذين نأكل القمح ؟!

إن واجب المنتج تخفيض النفقات ، وأداة الحكومة في إرغامه هي أبواب الجمارك وأكياس الصيارفة عندها . وهي بتحكمها في التعريفة الجمركية خفضا ورفعا ، تستطيع أن تتحكم في المنتج على أكثر من وجه . ومن تلك الوجهات حماية المستهلك — حماية الجمهور — من مغالاة في الأرباح . وبهذا يذهب ما يخشاه رئيس الغرفة من إفقار الجمهور .

ويذهب المقرّر ، رئيس الغرفة ، من بعد ذلك ، الى مسألة استيراد — لا استيراد البضائع ، ولكن استيراد الرجال من الأجانب . ويجب على الحكومة نظرها القصير في إغلاق الباب إلا للفنيين من هؤلاء . وهو يرى أن يفتح الباب كما كان . وكل الذى ذكره في السطور المنشور ، أن هؤلاء الأجانب أفادوا البلد في تجارتها في الماضي ، فهم لا بد مفيدوها في هذه وفى غير هذه في المستقبل . أما الماضي فلا ينكر أحد ما جناه المصريون . ولكن لا ينكر أحد أن الذى جناه الأجانب ، إن عاد منه قرش على المصريين ، عاد منه قروش على هؤلاء الأجانب في زمن لم تكن عند المصريين فيه كفاية . فإن كان على المصرى ، كما يقول رئيس الغرفة ، ألا يمتنّ على الأجنبىّ بكرم ضيافة ، فكذلك ليس للأجنبي أن يمنّ على المصرى بما أسدى . ولنعدّها إذن صفقة تجارية كسب المصرى فيها سهماً وكسب الأجنبي فيها أسهماً .

إن مصر لن تغلق أبوابها لأجنبي له مكان في اقتصادها وفى تقدمها . فإن كان الأجنبى أستاذ علم ليس عندنا مثله ، فأهلا وسهلا . وإن كان رجل طب ليس عندنا نظيره ، فأهلا وسهلا . أو كان صانعا ماهرا يأتى ليعلمنا تلك الصناعة والمهارة ، فأهلا وسهلا . ولكن كفانا « جرسونات » وكفانا بقالين ، وكفانا صُنّاع خمور وبُيّاعها ، وكفانا خبازين ، وكفانا سماسرة ، وكفانا عمال مخازن أكثرُ ما عندهم الرطانة وقد وهب الله آباءهم وأمهاتهم لسانا عربيا . كفانا كل هؤلاء ، وأضرابٌ شتى من هؤلاء . وليس هذا لصالح المصريين فحسب ، بل لصالح هذه الكثرة الحاضرة من الأجانب أيضاً ، فقد ضاق بهم ، وسيزداد ضيقاً بتزايدهم ، سبيل العيش .

إن المنجر عنه انجلترا حتى يقوى في بلادها ويشتد . ولست أرى فرقا من وجهة الحماية بين الرجال والسّلع . فليكن المصرىّ منجراً ، ولنحمه في حدود المعقول حتى يقوى ويشتد ، وعفا الله عما سلف .

وقال رئيس الغرفة إن امتداح الأجنبي في مصر لا يتعدى دوائر صغيرة ، وإن الغالب في مصر كراهة الأجنبي . وليته ذكر لنا كم من الحب عند الكثرة من الأجانب للمصريين . إن الذى أعرفه أن الكثرة من المصريين لا تزال على طبائعها الطيبة الساذجة الأولى . فلم أجد أجنبيا أو أجنبية في أزمة في طريق إلا امتدت إليه وإليها بالمعونة يدٌ كريمة ساذجة . وكثيراً ما وجدتُ هذه اليد تُرفض لقذارتها . وما قذارتها إلا لأن صاحبها ليس بجيبه قرش يشترى به الصابون . وما الصناعة التى نطلبها لمصر إلا لنغسل هذه الأيدى حتى تمتد للأجنبي بالمعونة كريمة ونظيفة معا .

احمد زكى

ذكرى ابن زيدون

بمناسبة مرور تسعمائة سنة على مولده

بين سُهدي ولوعتي وولُوعي   أيها الشعرُ من إليكَ شفيعي
وخيالٍ قد ضلّ في ظلمة الليـ   ـل شَقِيّاً بقلبيَ المصدوع
أيها الليل! كم بَصُرتُ بدفيك الـ   ـحرق ما بين أعين وضلوع
فإذا القلبُ شعلةٌ من لهيبٍ   وإذا العين لُجّة من دموع
أيها الليل! كم بكَى بكَ الوهـ   ـمُ أناشيدَ نوحةٍ ورجُوع
يتسلّل من السهادِ ويهوي   نحو وادٍ من الكرى والهجوع
فتلوح الذكرى على أفقها السـ   ـحور وتمضي بلحنها المفجوع
فإذا بالفؤاد يهفو إليها   ثم يبكي مثل الوليد الرضيع!

اطوي شجون الليالي   يا فكرتي الحيرى
إلى العصور الخوالي   وعالم الذكرى

وارقصي في مواكب الفجر نشوى   واسبحي في سنا الشعاع الوديع
وتَفَيّئي في رياض «قرطبة» الزهـ   ـراء عند الوادي البهيج المَريع
أنشدي من حلى «ابن زيدون» شعراً   سابي الوحي عبقريّ الصنيع
نشوات الصبا ترقرق فيه   كندى الفجر فوق زهر الربيع
ولهيبُ الشكوى يشع عليه   موجةً من طهارة وخشوع
لهفَ القصر عند مُلك «ابن عبـ   ـاد» يبثّ شجو الفؤاد الوجيع
واسألي من «أبي الوليد» «بإشـ   ـبيليةٍ» في مكانه المرفوع
ذهبَ الدهر بالملوك وبالمُـ   ـلك وأمسى الجميع غير جميع!

اطوي شجون الليالي   يا فكرتي الحيرى
إلى العصور الخوالي   وعالم الذكرى

وعلى شاهق «بغرناطة» الحمـ   ـراء «في وجهها السحيق المنيع
اهتفي بالمجيد من أمّة العُر   ب وإن لم يكن بها من سميع
ترى الصخر يلعن الزمن الوغـ   ـد ويأبى الشكوى لتلك الجموع
ويح شعري! يكاد يصرخ فيه   ثار الكبر بغضةً للخضوع
هيه يا شعر! تلك أندلس الإسـ   ـلام في عزّها السنيّ الرفيع
أنادي الثرى فتنتفض الأر   ض وتروي أخبار تلك الربوع؟
أم هناك الثرى كذلك أضحى   قبضةً في يد الزمان الوضيع؟
أم تراني أستنفر العُرب للمجـ   ـد وهمْ بين ضائعٍ ومضيع!

اطوي شجون الليالي   يا أمةً حيرى
وجاهدي المعالي   واحتضني الذكرى!

القدس   حسن ظاظا

الحنان الأبوي:

ولدي ...

رشفت الهناءة من مقلتيك   وذقت السعادة من وجنتيك
وعلّمت قلبي معنى الحنان   فنبضُ حنانيَ من مقلتيك

***

تُقبّلُ خدّيَّ مستجدياً   وملكتني الكون في قبلتيك!
وتستخرج «القبلَ» من راحتي
وقلبيَ يرقصُ في راحتيك!

***

تَرَضّعُكَ مستلطفاً وجنتيك
فأطفأتُ وجدي في قرصتيك
نظرتَ تُعاتبني ساذجاً   وفلسفة الدهر في نظرتيك!

***

«حُسين» أجبني عن ذا السؤال
ترى أنا أم أنتَ في بُردتيك؟

«الكاظمية — العراق»   علي جليل الوردي

حول مستقبل الأدب العربي

عاد أخي الأستاذ توفيق الحكيم إلى الرد عليّ ، وكان في هذه المرة منصفاً في تحديد موضوع النزاع ، قويًّا في عرض وجهة نظره ، والتدليل عليها ؛ ولكن — مع هذا — أراني مخالفاً له في كثير مما عرض .

وخلاصة رأيه « أن الفنان فوق المصلح ، والأدب الأوروبي بلغ مبلغه بقيمته الفنية ومزاياه الأدبية ، لا بفضل دوره في معترك الحركات الإصلاحية ، وأن الفنان إذا كان فناناً ومصلحاً خلد فنه ، ومات إصلاحه ، بل ربما هزأ النقاد بآرائه السياسية والاجتماعية » . وأخذ عليّ ما أذهب إليه من تقليل قيمة الأدب الذي يدور حول النزعات الغرامية ، والحب العارم ، وأبان أن هذا خطأ ؛ فكم طُرحت ومزِّقت كتب المصلحين ، وخلدت قصة غرام وقصيدة غزل « كروميو وجولييت » ، و « غادة الكاميليا » الخ .

إني أوافقك تمام الموافقة على أن الأدب أخلدُ من العلم ، ومن النظريات السياسية والاجتماعية ، فإلياذة هوميروس بقيت لها قيمتها ، وذهب العلم الذي كان بجانبها ؛ وقصائد المتنبي خلدت والعلم الذي كان يعاصرها لم يعد صالحاً لشيء إلا لتاريخ العلم . والعلة في هذا أن الأدب متصل بالعاطفة ، والعواطف بطيئة التغيّر ، ونزعاتها الأساسية باقية على حالها كما هي ؛ أما العقل ففي تغير مستمر ورقيّ مستمر ، فما يصلح له أمس لا يصلح له اليوم ، وما يصلح له اليوم لا يصلح له غداً ؛ ولكن ألا ترى معي أن مقياس الأفضلية بطول الزمن مقياس غير صحيح ؟! ومثل من يعمل ذلك مثل من يفضّل حياة الحيوان الباقية المستمرة على حياة الإنسان المتغيرة أبداً ، ويفضل الحجر الصوّان الخالد على الإنسان المائت ؟! إن طول الزمن ليس مقياساً صحيحاً في المفاضلة بين الأشياء ، فقد تكون دقائق معدودة مليئة بالسعادة خيراً من عمر طويل مديد لا قيمة له ؛ وبقاء العواطف على حالها هي التي ترمينا بويلات الحرب إلى الآن ، ورقيّ العقل هو الذي يدعو إلى إبطال الحروب فلا تستجيب له العواطف العنيدة الراكدة .

على أني أخالفك في أن العلم القديم قد ذهب ، والنظريات السياسية والاجتماعية في العصور الماضية قد بادت ؛ إنها لم تفن بل هي خالدة خلود الأدب ، ولكنها خالدة فيما ولّدته من نظريات جديدة ، وباقية في هيكل الإنسانية كما بقي آدم في ذريته .

وبعد ، ألا ترانا بَعُدنا عن موضوعنا إذ نقارن بين الفن والإصلاح ، فليس هذا هو موضوع كلامي ، وإنما موضوع كلامي المقارنة بين فن في إصلاح وفن في إفساد ؛ فالفن لم يفارق كلامي . وإذا كان الأدب — على العموم — باقياً خالداً ، فلأن يخلد الأدبَ المصلح خير من أن يخلد الأدب المفسد .

أما مسألة النزعات الغرامية ، والحب العارم ، وأنها كانت مصدراً لأعلى طبقات الفن ، وأن « روميو وجولييت » خلدت حيث فني غيرها من أدب يدعو إلى الفضيلة ، وأن غادة الكاميليا لدوماس الصغير عاشت على الزمن حيث ماتت أكثر رواياته الأخرى التي عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جِدّ وحُسن قصد ، فرأيي فيها ما قلتُ ، من أن الغرام والحب صالح كل الصلاحية ليكون موضوعاً لفن عظيم ، واستشهدت لذلك بفن أبي نواس في الأدب العربي ، وقررت أننا حين نقيس النتاج الأدبي بالقياس الفني البحت يجب ألا نميز بين موضوع يدعو إلى الفضيلة وموضوع يدعو إلى الرذيلة ، ولكني أضفت إلى ذلك أنه إذا تساوى في الفن موضوع أخلاقي وموضوع غير أخلاقي ، فالأول أولى ، ويجب أن يكون أولى .

إن الأدب يجب أن يكون صورة للنزعات كلها ، السامية منها والوضيعة ؛ أما أن يكون كله أو أكثره تصويراً للعلاقات الجنسية ففقر في الأدب ، وضيق في الأفق ؛ إن هذه الكثرة المفرطة في أدب العلاقات الجنسية راجع إلى استنادها على عنصر غريزي يحرك العواطف ، ويشعر فيه الكاتب مع القارئ بالتجاوب ؛ ولكن هل هذا كل شيء في الدنيا ؟ إني لأعذر هنا من يؤلفون للمسرح أو السينما ، لأن غرضهم الأول الناحية التجارية ، وتعويض ما أنفقوا على الإخراج ، والحرص على ربح يعوض جهودهم ، ولذلك يختارون العلاقات الجنسية موضوعهم لأنها أكثر استدعاء للجماهير ، وأكثر نداء للغريزة المشتركة ؛ ولكني لا أعذر الكاتب النبيل ذا الغرض السامي في أن يجعل سلعته من هذا النوع المألوف الكثير في السوق ، ولا ينتج سلعته غالية سامية قليلة في الأسواق . كم في الإنسان من عواطف مختلفة ، وكم فيه من مناح عقلية ، وكم في المجتمع من مظاهر تستلفت نظر الفنان ، أيصح مع كل هذا أن يكون أكثر من تسعين في المائة من النتاج الأدبي مقصوراً على الحب ، ثم تقول لي إن نتاجه أخلد ؟! إنما خلده دون سواه تفاهة الإنسان وسوء تفرغه ، وميل الأدباء إلى مراعاة سواد الناس الذين ليست عقولهم في رؤوسهم ، ولكن في شهواتهم . إن الأدباء بهذا الصنيع يسيرون خلف الناس ، لا يهدون الناس ؛ إنهم بإهمالهم نواحي العقل والعواطف السامية ، وانهماكهم في العلاقات الجنسية ، يصرفون الدينار بالدرهم ، إنهم يعيشون مع سواد الناس في ظلام الهوى لا في ضوء العقل ، إنهم يقدمون فنهم لخدمة الشهوة والناس يصفقون لهم طويلا فيسمّون هذا خلوداً . لخير من هذا كله أديب يسمو بالناس ، ويرجهم إن لم يسمعوا فيرجونه ويعرفون صحائفه ، ولا يذكرون اسمه إلا باللعنة ، فلعنة الأرض — إذن — يقابلها هتاف في السماء . إن الأديب في إنتاجه في الحياة الجنسية يستغل هياج العاطفة ، ويعتمد على ذلك في حرارة أدبه ، ويكره أن يسخّر فنه في مناحي العقل والاجتماع لأنها هادئة لا ثوران فيها ، باردة تحتاج إلى حرارة قوية من الكاتب ، ومهارة كبيرة في الفن ؛ فهو يسترخص العاطفة الهائجة ، لأنها لا تتطلب منه كبير جهد ، ولا عظمة فن ، ويسترخي إلى بساطة العاطفة لأن العقل معقّد ، وظواهر المجتمع مرتبكة ، فهو يستنيم إلى الراحة ، ويميل إلى الشهرة في سواد الناس .

إن أدب الأمة الحق ما صوّر الأمة وصوّر الحياة في مختلف نواحيها ، وكما أن الحياة الحقة ما انسجمت فيها نواحيها ، فكذلك الأدب الحق ما انسجم إنتاجه ؛ فإذا كان أدب أمة واسعاً عريضاً في الحب والعلاقة الجنسية ، ضيّقاً كزّاً فيما عداه ، فهو صورة مشوّهة لا تمثل الواقع .

— إن حياة الناس درجات ، وعقلياتهم درجات ، وعواطفهم درجات ، فيجب أن يمثّل الأدب هذه الدرجات ويكون في الأدب الرفيعُ للرفيع ، والوسط للوسط ، والوضيع للوضيع ؛ أما أن يكون الأدب كله في العلاقة الجنسية فتنكيس للإنسانية ، وضرب على وتر واحد في عود ذي أوتار .

إنكم تقررون أن كل شيء صالح لأن يكون موضوع أدب إذا وددتم على من يطالبكم بناحية في الأدب جديدة ، ثم إذا أخرجتم أدباً لم تخرجوه في كل موضوع ، ولكن في موضوع واحد هو الحب والغرام ، فدعتوا كم في ناحية وعملكم في ناحية !!

وظيفة الأدب الحقة أن يغني نواحي الإنسانية ، ويرقّي مشاعرها ، ويُعلي من مداركها ، ويوسع أفقها ؛ بأن يبعث في القارئ تفكيراً قوياً ، يُشعره بجمال لم يكن يلتفت إليه ، أو يحرك شفقته وعطفه على رجل بائس أو أمة بائسة ، أو يُلقي نوراً على ظلمة ، أو يُحيي مواتاً ، أو نحو ذلك ؛ أما إذا هو استخرج منك الضحك على بائس لبؤسه ، أو حثك على التهكم على مصلح

لإصلاحه ، أو هيّج فيك مشاعرك الجنسية ، فليس بالأدب الراق — وإن كنت لا أنكر فنيّته — مهما كُتب له من الخلود كخلوده خلود إبليس .

لعل نقطة الخلاف الحقيقية بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى ، هو أنه يريد أن يقدر الفن بجماله فقط ، وأريد أن أقدره بجماله وأخلاقيته معاً ؛ فالقطعة الأدبية فى نظره مهما بلغت من الفحش ، ومن سوء الأثر ، ومن تدهور المجتمع ، تقدر بجمالها فقط . وأريد أن أقدرها بجمالها وأثرها فى المجتمع ؛ هو يحكم على قصيدة فى الوطنية وقصيدة فى الخيانة حكماً واحداً إذا استويا فى الفن ، وأنا أفضّل الأولى ، لأنها جمعت إلى الفن السمو الخلقى ؛ هو لا يهمه فى المرأة الجميلة أن تكون عفيفة أو فاجرة ، وأنا أرى أن فى العفة جمالاً من نوع آخر يزيد جداً فى قيمتها ؛ هو يقدر القطعة الفنية بمقياسه الفنى لا غير ، لا دخل فيها للغاية التى ترمى إليها أو الأثر الذى ينتج عنها ، فتغزّلُ أبى نواس فى الغلمان يساوى غزل المجنون فى ليلى ، وغزل أبى نواس الداعر يساوى غزل المجنون العفيف ، فإن تمايزا فبمقدار ما فى كل منهما من فن ؛ وأنا أرى أن فى الغزل الفاجر الفنىّ قبحاً — أشعر به فى موضوعه — يقلّل شيئاً من قيمته ، وغزل المجنون العفيف قد جمع إلى جماله الفنى جمال العفة يزيد شيئاً فى قيمته ، وبذلك أدخل عاملاً آخر بجانب المقياس الفنى هو مقياس الغاية والأثر والنتيجة ؛ أنت تريده جمالاً وكفى ، وأنا أريده جمالاً نافعاً ، ومع هذا لا أبخس الفن قدره حيث كان.

وقلت : « لا ينبغى أن نملى على الفن اتجاهاً بعينه ، ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح الوقور ، إلا أن يشاء هو ويرضى » .

وهذا حق — إلى حدّ ما — ولم أرد فيما قلت أن أرسم منهجاً للأدب أحمل الأدباء على السير فيه ، ولو أردت ما استطعت ؛ ولكنى صوّرت ما أتوقع ، وقلت إن ظروف الحياة الاجتماعية للأمم العربية ستتمخض عن أدباء يشعرون بمآسيها ، ويدركون آمالها ، فيهيج شعورهم ، ويخرجون أدباً اجتماعياً يحدو لهم . إن الظروف الاجتماعية تؤثر فى الأدب وتتأثر به ، فلما وجدت النزعة الوطنية فى السنين الأخيرة رأينا أمثال شوقى وحافظ يتغنّون بالوطنية ويخرجون أدباً وطنياً ؛ وهذه الحرب لما قامت فى أوروبا وأمريكا كان الإنتاج الأدبى فيهما تفوح منه رائحة الحرب وتنشد المثل الأعلى للسلم . فأنا أتنبأ عما سيكون لا أرسم منهجاً لما سيكون ، وشتان بينهما . وأنت خبير بأثر النقد الأدبى فى توجيه الأدب ، فكلما خطا الأدب خطوة سار وراءه النقد يحبّذه أحياناً ويعيبه أحياناً ؛ وكم أفاد النقد الأوروبى أدباء عرفوا به عيوبهم ومزاياهم ، فأصلحوا من عيوبهم واستكثروا من مزاياهم ، وتوجهوا فى أدبهم كما أبان لهم نقادهم ، فإذا رفع النقاد صوتهم بنقد الأدب العربى وأبانوا مزاياه وعيوبه ، وعرضوا للإنتاج الأدبى ، وعابوا عليه إفراطه فى الإنتاج فى العلاقات الجنسية ، وتفريطه فى الشؤون الاجتماعية ، فلِمَ لا يكون نقدك ونقدى ونقد زملائنا ظرفاً قوياً من ظروف الحياة الاجتماعية المؤثرة فى الأدب ، وهذا لا يسلب الأدب حريته ولكن يوجه اختياره ، كموقفنا جميعاً فى الجبر والاختيار .

بقيت مسألة هامة نقدنى بها الأستاذ العقاد ، ووافقه عليها الأستاذ الحكيم ، إذ قال الأستاذ العقاد : « إن وجهة الأدب والأخلاق والشريعة جميعاً إنما تتقدم من الاجتماعية إلى الفردية » لا من الفردية إلى الاجتماعية ؛ وقال الأستاذ الحكيم : « إن الوعى الفردى هو روح الفن ، والفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية ، هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه ، لا بفكر الجماعة وإحساسها » ، ويرميان بذلك إلى نقد ما قلته من : أن تطور الأمم العربية وأخذها فى سبيل الرقى سيشيع فيها الوعى الاجتماعى ، بعد أن كانت لا تعى إلا وعياً فردياً ، وسيتبع ذلك أن الأدب العربى سيكون منه أدب اجتماعى بجانب أدبه الفردى .

ومجال القول في هذا الموضوع فسيح ، ولفظ الفردية والاجتماعية يطلق على معان كثيرة ينشأ بسببها الخلاف بين الكتاب الإفرنج والعرب على السواء ؛ فالفردية التي عنيتها في مقالي السابق هي الأنانية أو الأثرة ، والاجتماعية هي الغيرية أو الإيثار ، ولا شك أن الأستاذين معي بعد هذا التحديد في أن الرقي الأخلاقي والاجتماعي سائر نحو الاجتماعية لا الفردية ، فمن أسباب رقي الغربيين على الشرقيين وعيهم الاجتماعي ، أو بعبارة أخرى شعورهم بوطنهم وأمتهم بجانب شعورهم بشخصهم ، ومن هذا الوعي نظمت الجمعيات والنقابات ، وبذلت الدماء في الحروب دفاعاً عن الوطن ، وكثرت تضحيات الأفراد لوطنهم وأمتهم ؛ وهذا التقدم الطبيعي من الفردية إلى الاجتماعية واضح جلي بمظهره حياة الفرد نفسه ، فالطفل أناني مفرط في الأنانية ، فإذا نما ونضج بعض الشيء بدأ يشعر بأسرته ، ثم بدأ يشعر بمجتمعه ، ويفهم أن له حقوقاً وواجبات ؛ فإذا قلت إن الأمم العربية سائرة في رقيها إلى الوعي الاجتماعي ، وأن ذلك سينعكس على أدبها فهذا ما أعني ، ولا أظن الأستاذين يخالفان فيه ، بل إن الوعي الاجتماعي سائر إلى اجتماعية أسمى وأرق ، وهي الوعي الاجتماعي بالأخوة الإنسانية بدل الوعي بالوطنية والقومية .

على أن الفردية قد تطلق أيضاً على نوع النظام الحكومي الذي يتمتع فيه الفرد بحريته وملكيته وتجارته ، وما إلى ذلك ، من غير أن تتدخل الحكومة في شأنه إلا عند الضرورة القصوى ، وضده الاجتماعية أو الاشتراكية ، وفي هذا المعنى أيضاً أخالف الأستاذين ، وأزعم أن العالم سائر إلى الاشتراكية على نحو ما ؛ ومصداق ذلك أن أعظم الأمم الفردية كانجلترا وأمريكا تصطبغ نظمهما من حين لآخر بما يقربها من الاشتراكية ، فتتدخل في تنظيم الاقتصاد ، وتأخذ من الغنيّ لتعطي الفقير ، وما مشروع بيفردج وأمثاله ، ونمو الأحزاب الاشتراكية فيهما ، إلا دليل على ما أقول ؛ بل العالم العربي نفسه — وفيه مصر — بدأ يظهر فيه هذا المعنى من فرض الضرائب على الأغنياء للفقراء ، والمطالبة بتدخل الحكومات لتقليل الفروق بين الطبقات ، وما إلى ذلك ، وفي كل هذا بُعْدٌ عن الفردية إلى الاجتماعية . وقد علّمنا التاريخ أن الأفكار المتطرفة تتقارب وتتناغم ، فلا النظام البلشفي بحذافيره يستطيع أن يفرض نفسه على العالم كما هو ، ولا الديمقراطية بشكلها الحاضر ستتحجر ، ولكن سيتمخض العالم عن نظام آخذ بلون من كلا اللونين ، كالماء الحار يخالط البارد ، فيأخذ هذا بعض حرارته ، وذاك بعض برودته ، وأيًّا ما كان فالعالم سائر إلى الاجتماعية لا الفردية ، وسينشأ عن ذلك حتماً انصباغ الأدب بصبغة النظام السائد .

وأخيراً أشكر الأستاذين على عنايتهما بهذا الموضوع النافع ، وضربهما المثل الصالح في الجدل الهادئ الذي يُعنى بالفكرة لا بالأشخاص ، ويطلب الحق لا الغلبة .

أحمد أمين

الخـــط العربى

مزاياه وعيوبه

صنع العرب لهذا الخط ما أزال إبهامه، وسدّ نقصه. وكذلك فعل الفرس والترك وغيرهم من الأمم الإسلامية التى اتخذت الخط العربى لكتابة لغاتهم.

ولاريب أن من يسمع دعوانا فى إيثار الشكل على حروف الحركة يتردد فى قلبه أو على لسانه هذا السؤال: كيف يُفضّل هذا الشكل المشكل على هذا الضبط الواضح الذى يحدد صورة الكلمة فيحفظها الرائى كما يراها؟ وما الذى أدى إذن إلى التحريف الكثير الذى نحب علماؤنا فى التحرز منه، وألّفت فيه الكتب؟ وكيف تحمّل الكلمة شكلات كثيرة لا تتسع لها؟

وإنى أجمل الجواب لهؤلاء السُّؤَّال:

إن إهمالنا الشكل ليس عيباً فى الشكل. ولو أنا حرصنا عليه وجرينا فيه على اصطلاح واضح متّبع لتيسّر لنا وضبطنا به لغتنا. وينبغى أن نتدارك اليوم ما فاتنا قبلا.

نحن فى شكل كتابتنا بين إفراط وتفريط؛ نجد كثيرا من المخطوطات والمطبوعات الدينية والأدبية مشكولة شكلا تاما، لا يخلو حرف فيها من شكلة. ونجد مخطوطات أخرى ومطبوعات لا شكل فيها أو يندر فيها الشكل. فأما إهمال الشكل فيؤدى إلى الغلط والتحريف واللبس؛ وأما الشكل التام ففيه عبث، وفيه تحميل الكلمة من الشكل ما يزدحم عليها فيغلّط القارئ ويتعبه. أليس عبثاً أن نضع فتحة على حرف بعده ألف مثلا؟! أليس عبثاً وضع شكلة على حرف فى كلمة مثل قالوا وباعوا، أو شكل ضمير مثل أنت وأنتما وأنتم، أو شكل واو العطف والحرف فى وأمثالها؟! ينبغى أن يترك الشكل فى مثل هذه الكلمات.

ثم ينبغى ألا ننسى خصائص لغتنا، وأن نلغى الشكل الذى تغنينا عنه هذه الخصائص. اللغة العربية لغة أوزان؛ لأفعالها ولأسمائها أوزان معدودة. وقد قلنا آنفا إن الخط إذا جعل لشكل صورة من الحروف لفظا واحداً فحسبه هذا، وإن لم يدلّ كل حرف على صوت فى الكلمة كما بينا فى رسم الكتابة الفرنسية والإنكليزية. فإذا كان فى الكتابة العربية صور من الحروف لا تحتمل إلا لفظا واحدا وجب ألا نشكل هذه الصورة؛ وهذا موضوع يحتاج إلى التفصيل والضبط. ولست أعرض لتفصيله الآن؛ ولكنى أعرض منه أمثلة: ما الذى يدعو إلى شكل اسم المفعول من الثلاثى؟ وهل يلتبس على قارئ العربية النطق بمحمود ومقصود ومطلوب ونحوها، أفلها وجه آخر محتمل؟ ومَثَلٌ آخر مصدر ما زاد على الثلاثة مثل التفعيل والاستفعال؛ فإذا رأى القارئ ألفاظا مثل تكريم وتعليم وتقويم، ومثل استفهام واستخراج واستكبار، أيتردد فى تحديد لفظها؟ أليست هذه أدل على النطق من night و neighbour و laugh وأمثالها؟ فماذا لا نستغنى بأوزاننا عن الشكل؟ وإذا شئنا الاصطلاح على أسس أو أمور غير هذه لتقليل الشكل فلا حرج. قد سمعت من بعض الباحثين فى هذا الموضوع، وصدّق ما سمعت تجربتى أن الفتحة أكثر حركات العربيـة. وقد تتوالى عشر فتحات أو أكثر كما فى الآية «فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى»، والآية «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه»؛ وكنا نسمع الصبيان فى الكتاتيب يلغزون بالسؤال عن عشر نصبات بين مم والنازعات، ونحو هذا. فإذا اصطلحنا على أن نشكل كلماتنا وندع الحرف المفتوح فتكون علامته سلبية، كما يترك الأوربيون علامة السكون، استغنينا عن شكل نصف حروفنا، والتمست الكلمات الشكلات الأخرى. فإذا حسبنا مع هذا حروف المدّ وهى كثيرة فى العربية ومغنية عن الشكل (وقد خلت الحروف اللاتينية من حروف المدّ)، ولم ننس خصائص لغتنا، هان الأمر

جداً. نستطيع أن نكتب — مثلاً — :

«عسى أنْ يبْعثكَ ربُّكَ مقاماً محموداً» فلا نشكل إلا أربعة حروف، ولا يحتمل حرف منها وجهاً آخر. وكذلك:

«ألمْ نشرحْ لكَ صدرَك، ووضعْنا عنكَ وزْرَكَ الذي أنقضَ ظهْرَك، ورفعْنا لكَ ذِكْرَك»، نشكل فيها اثنى عشر حرفاً.

وقد أردت ضبط الأعلام الأعجمية حين نشرت الشاهنامة فوضعتُ قاعدتين: الحرف الساكن أو الممدود لا يشكل، والمفتوح أول الكلمة كذلك؛ فاستغنيت عن شكل كلمات مثل جمشيد وأفريدون وكيكاؤوس الخ

ولست أريد بهذا وضع خطة معينة، ولكن أريد التمثيل ليتبين أن الأمر لا عناء فيه إن صدقت النية.

لعل معترضاً يقول: إن هذه وسائل لا يعقلها إلا العالمون، ونحن نريد كتابة يحسنها العالم والجاهل. وجوابي أن الناس لا يقرءون اليوم إلا مطبوعات، وإنما خط اليد للرسائل الخاصة وأشباهها، وكاتب الخطاب يكتب بلغة عامية أو عربية، ويعرف من يكتب إليه فيكتب له ما يتضح لديه، ويشكل ما يحتاج إليه.

وأما المطبوعات وهي وسائل التهذيب والتعلم في هذا العصر، فيشرف على طبعها عارفون لا يعسر عليهم أن يتبعوا القواعد التي توضع للمطبوعات كلها.

إذا بلغ الخط العربي بهذه الوسائل ونحوها أن يحدِّد ألفاظه تحديداً تاماً، فهل هذا أحسن من رسم الحركات أثناء الكلمة؟ نعم! لأن هذا أقرب إلى طبيعة اللغة، ولأنه أقصر وأيسر على القارئ وعلى المستعمل.

هل الخط العربيّ بعد هذا واضح؟ هل حروفه على صغرها أبين في نظر القارئ من الحروف اللاتينية؟ إني أتهم رأيي في هذا: لأني ألفت الخط العربيّ فلا أدرك غموضه، ولأني أخشى أثر العصبية في نفسي. قد سألت المستشرقين وهم لا يُتهمون بعصبية، ولا بإلف. قال مستشرق ألماني واسع العلم بالعربية والفارسية والتركية، وكنت أحدثه في هذا الشأن في اسطنبول: ما أذكر أني عجزت عن قراءة مكتوب عربيّ أرسل إليّ، ولقد أعجز أنا وزملائي عن قراءة مكتوب ألماني! وقال لي هذا المستشرق مرة أخرى في مصر بحضرة مستشرق آخر نابغة: هل للخط مزايا أعظم من الوضوح والجمال والاختصار؟ إن الخط العربي يجمع هذه المزايا كلها، بل يكاد ينفرد بها. قلت: ولكن يلتبس أحياناً على القارئ. قال الشكل وأمّن نفسك من اللبس.

وأما جمال الخط العربي فأمر وراء البيان والجدل. لقد صار هذا الخط فناً ذا أصول ورسوم، له كُتب وأئمة، كما بيّنت من قبل؛ وقد صار منذ قرون كثيرة حلية وزينة وجمالاً في الأبنية والأوراق والثياب، وافتنَّ فيه الكتّاب والنقّاشون والمهندسون أي افتنان.

وأمر آخر: سمعت من طبيب تركي عظيم من أطباء العيون، قال: إن الخط العربي أكثر ملاءمة للعين وإراحة لها من الخط اللاتيني. فعجبت وقلت: كيف؟ قال: لكثرة الزوايا في الحروف اللاتينية. وأنا أزيد على هذا أن اختصار الخط العربي لم يحوجنا إلى تصغير حروفه كما أحوج الأوروبيين خطهم الطويل. وكثيراً ما يقرأ أحدنا خطاً عربياً في غير إجهاد لنظره، فإذا أخذ كتاباً إفرنجياً تعب بصره فاستعان بالمنظار أو عجز عن القراءة.

نحن لا ندّعي أن خطنا كامل ليس فيه موضع لليت ولعل؛ ولكن ندّعي أنه على علاّته كخطوط الأمم أو خير منها، وأن إصلاحه يسير، وكماله قريب؛ وليس علينا إلا أن نصدق العزم، ونستمدّ العقل.

وبعد، فلو أنّا نعيش في القرن الأول الهجرى لحق لنا أن نقيس خطاً بخط لنختار ما نختار؛ ولكنا نتكلم في خط نُسِج في حضارتنا أربعة عشر قرناً أو أكثر، وصار

لنا تاريخنا وأدبنا وصنعة ، وحوى تاريخنا وأدبنا ومعارفنا ، فإنْ غيّرنا خطنا وأخذنا خطاً آخر فقد قطعنا حاضرنا من ماضينا ، وسددنا الحجب بيننا وبين آدابنا وعلومنا التي تملأ الخزائن في الشرق والغرب ، وعدنا جهالاً نحسد عليه ، وفنّا يُضيء في عيوننا وقلوبنا كلما رأيناه في مصاحفنا ومساجدنا وقصورنا . إن كان منا من يرى تاريخنا عارا ، وماضينا سيّئة ، ويرى الخير في أن نقطع كل مايصلنا بهذا التاريخ ، ونستعير تاريخاً أو نعيش بغير تاريخ ، فله أن يدعو إلى نبذ خطنا فيما ننبذ من تراث الأعصار والأجيال .

لقد سألت صبيًا تركيًا في بروسة قبل ست سنين ، وأنا أتأمل الجمال والجلال في القبة الخضراء ، قبة السلطان محمد جلبي ، قلت : يا غلام أتقرأ هذا ؟ وأشرت إلى جملة جميلة وضّاءة واضحة على جدار ؟ فقال : اسكي تركجه بيلمورم «لا أعرف التركية القديمة» . لا جاء اليوم الذي يدخل فيه أحدنا إلى دار الكتب فيرى مصاحف سلاطين المماليك ويسأل شاباً عربياً مسلماً أن يقرأ البسملة فيقول : «عفواً أنا لا أعرف العربية القديمة» .

إننا نقرأ اليوم مكتوبات القرن الأول الهجرى ، وندّخر مخطوطات القرن الرابع فما بعده ، ونقرؤها في غير عسر ونتشرها . وهي ميزة يحسدنا عليها أمم الحضارات الكبرى المسيطرة على العالم اليوم ؛ كما نفهم لغة العرب قبل الإسلام ، ونتمثل بشعر امرئ القيس مع شعر شوقي . وهذه عجيبة أخرى لا تعرفها لأمة من أمم الأرض اليوم .

ولهذا توالت علينا النصائح : دعوا اللغة القديمة واكتبوا اللغات العامية كيلا تلحنوا ، ودعوا الخط العربي واكتبوا بالخط اللاتيني كيلا تضلّوا . ومن قبل راع الناسَ ما يُرى من التجانس والتقارب بين الأقطار العربية خاصة ، والأقطار الإسلامية عامة ، فدُعينا إلى الارتداد إلى الجاهليات الأولى لتنقطع بيننا الأواصر ، وتتفرق بنا السبل .

أشهد لقد سألت مستشرقاً إنكليزياً منذ سنين عن كتابة الفارسية بالحروف اللاتينية ، فقال يمكن ولا يلزم ؛ ثم سألته عن كتابة العربية بهذه الحروف . فقال : أرى أن اللغة العربية والقرآن والحديث والخط العربي بناء واحد ، إذا هدمتم جانبا منه انهدم كله — أو كما قال — . وأشهد لقد سمعت مستشرقا آخر يقول : إن كتبت اللغة العربية بالحروف اللاتينية صارت كاللغة اللاطينية بعد جيلين .

ثم ، هذا الخط العربيّ ليس لنا وحدنا ؛ هو تراث عزيز عند أمم كثيرة . وأشهد مرة أخرى لقد سمعت مستشرقا يقول : إن هذه دعوة قديمة ، ولو سمعناها من إنكليزي أو فرنسي لقلنا إن له مقاصد استعمارية ، ولكنا سمعناها في مصر فماذا نقول ؟!

ولقد حدثت أديبا عربيا كبيرا مغرما بمصر وأهلها ، كثير الاعتراف بفضلها ، حدثت هذا الرجل فأفاض في الحديث ، ثم احتدّ ، ثم صاح غاضبا : أمصر تدعونا إلى هذا ؟! والله إنه ليعزّ علينا . ثم زاد غضبه فقال : والله لنقاطعنّها ثم نقاطعنّها إن همّت بذلك .

عبد الوهاب عزام

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة ٦ أشهر:
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

السجون فى مصر فى العصور الوسطى

— ٣ —

أحصيتُ السجونَ وأنواعها فى مصر فى العصور الوسطى بمقال سبق فى جزءين تحت هـذا العنوان[1] ، وأرجأت الكتابة فى الطرف الأهم من الموضوع ، وهو الناحية الإنسانية ، أو بعبارة أخرى نظم السجون وأحوال سكانها من مساجين ومظاليم ، رغبة فى فهم شىء من القوانين الجنائية وروحها بصدد الفرد والجماعة فى تلك العصور . والواقع أن معرفة أنواع السجون وأسمائها ، وأعدادها ومواضعها ، قد ينفع التاريخ البحت ، والتاريخ المقارن أيضاً — إن كان على الصنف الثانى من الدراسة مجال فسَوْمة حتى الآن — ، وأما ما ينفع التاريخ الاجتماعى من هذا الموضوع فأحوال السجون والساجين أنفسهم ، وهو ما بقى من هذا المقال .

ولست أريد — ولا أنا مستطيع — التمهيد لتلك الناحية بتصدير فقهى فى أحكام السجن ، إذ الكاتب لا يكلِّف نفسه ولا الموضوع إلا وسعهما ، والموضوع محدود بعنوانه ، والعنوان فى بنائه من الحدود الزمانية والمكانية ما لا يحمل به محلا للإعراب عن الفقه والتشريع النظرى .

على أنى بحاجة إلى تذكير القارئ بوجود نوعين من السجن فى مصر فى تلك العصور الوسطى ، وهما : الحبس رهن التحقيق الابتدائى والمحاكمة ؛ والسجن الصحيح (proper) لتنفيذ الحكم الصادر بعقوبة المحكوم عليه .

أما الحبس ، وهو سجن القاضى ، أو الترسيم ، أو سجن الحكم فى بعض المراجع ، فقد جرت العادة والأنظمة فى مصر السلاطين المماليك — وهو الحد الزمنى لهذه السطور — أن يكون موضعا تجمع به المحابيس من غير اعتبار لأصنافهم أو أعدادهم ، ومن غير حساب لضرورات الحياة اليومية أيضا ؛ وربما لبث به الواحد منهم السنة أو أكثر قبل تقديمه للمحاكمة ، ولو كان حبسه من أجل دين متأخر أو ضمان ؛ أى أن المتهم كان فى نظر القانون والعرف مجرما حتى تظهر براءته ، وتحلّ معاملته بأنواع التضييق والتعويق وإنكار حق المحاكمة فى ميعاد معقول (habeas corpus) . وكل هذا من العصور الوسطى ومعدنها لا يستغرب . والباحث المتزن لا يسأل منها أو يطلب فيها ما ليس من طبعها .

وإذا كان ذلك شأن السلطة القضائية والمجتمع بصدد المحابيس فى حبوسهم ، ولما يحكم القانون فى أمرهم بشىء ، فلا حرج على الكاتب ولا خشية إذا هو قَبِلَ ما بالمراجع فى المساجين وسجونهم على أنها حقائق مسلمة ، لا تزيد فيها ولا مبالغة ، وإذا هو قرأ فى تلك الحقائق ما ليس بها لفظا ونصا من صنوف الشدة القاذعة والانتقام باسم العدالة وحرمة القانون . وآية ذلك أولا أوصاف السجون المختلفة ، مما يصوّر أحوالها الداخلية أوضح تصوير ، فكلها شنيع المنظر والخبر ، وكلها موحش قذر ضيّق ، يشمّ الزائر بقربه رائحة كريهة ، ويسمع صراخ المساجين وشكواهم الجوع والعرى والقمل وشدة الظلام وكثرة الوطاويط ، أى أن الداخلها مفقود والخارج منها مولود ، إن ساغ استعمال هذا التعبير ؛ وكل هذه الأوصاف منقولة عن مرجع معاصر معروف بسلامة القول ، وهو المقريزى .

وبالمرجع نفسه أن المساجين كانوا يستخدمون فى الحفر والعمائر السلطانية ، وعمائر الأمراء أيضا ، وليس فى ذلك ما يسترعى انتباها . غير أنهم لم يكونوا يُطْعَمون فى سجونهم البتة ، باعتبارهم من مسلوبى الوسيلة للكسب

(١) انظر هذه المجلة رقم ٢٦٠ بتاريخ ٢١ — ١٢ — ٤٣ ، ورقم ٢٦٢ بتاريخ ٤ — ١ — ٤٤ .

العيش ، أو في مقابل استخدامهم سخرة في الأشغال الشاقة ؛ بل كانت العادة أن يخرج بهم أعوان السجان في أغلال الحديد إلى عملهم اليومي ، فيسألون الناس في الطريق ، فإذا وصل إلى أيديهم شيء من الصدقة استولى الأعوان على معظمه ، باسم توزيعه فيما بعد ، ولا ينال المسجونين منه — فيما يبدو — إلا ما يقذفون به إلى بطونهم في سرعة أو خفية وقت وصوله إلى أيديهم ؛ وويل لمن اجترأ منهم على الاحتجاج لدى السجان عندما يردون إلى سجونهم آخر النهار .

إنما يظهر من طريق الاستنتاج أن طرح المساجين على صدقات السابلة من مختلف الطبقات ، بدلا من إطعامهم على حساب الدولة أو السلطة المهيمنة على شؤون السجون داخل الدولة ، لم يقصد به الإمعان في العقوبة والإذلال ، بل إصلاح على قدر ما فهمت تلك العصور من الإصلاح . والدليل على ذلك أن السجين حتى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥م) من عهد السلطان محمد بن قلاوون ، كان يدفع عند دخوله السجن مكساً معروفاً في التاريخ المملوكي باسم مقرر السجون ، مبلغه ستة دراهم يأخذها السجان لنفسه ، وذلك "سوى كُلَف أخرى" يقتضيها قيامه بالصرف على طعام السجين — فيما يُفهم — ومعظمها تدخل إلى جيبه الخاص .

ولما كانت وظيفة السجان من أرغب الوظائف الصغرى في الدولة المملوكية ، يتهافت عليها المقطعون ، ويطلبها الضمان أشدّ الطلب ، ويتزايدون في مبلغ ضمانها ، لكثرة ما يتحصل منها ، وقلّة ما يصرف من ذلك المتحصل على المساجين أنفسهم ، سيما وأن المكس المقرر لم يؤخذ من السجين الذي قضت السلطات بسجنه ، بل يؤخذ أيضا من السجين الذي قضت السلطات بإعدامه ، ولو لم يقم بالسجن إلا لحظة . وكذلك كان الحال بسجن القضاة ؛ حتى إنه لو تخاصم اثنان لدى مجلس الحكم ، واقتضى الأمر حبس المدّعَى عليه رهن التحقيق ، ثم انفضّت الخصومة بين الطرفين دون تدخل القاضي ، وجب دفع المقرر على كل حال ، ولو لم يُقِم المدَّعَى عليه بالحبس ساعة من نهار .

لذلك كله كان مقرَّر السجون ضمن عديد المكوس التي أبطلها السلطان محمد بن قلاوون ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) ، إذ ابتغى بسياسة الإلغاء تخفيف أحمال المكوس عن كواهل الناس ، ومنهم سكان السجون والمتكفلون بهم من أهلهم ، كما ابتغى إضعاف الطبقة الإقطاعية من الأمراء وأذنابهم من المقطعين والضمان ، ومنهم ضمان السجون . غير أن ذلك الإصلاح أتى بالوبال على المحابيس والمساجين ، إذ جعلهم تبعة على المجتمع ، وعرّضهم لأسوأ أنواع المعاملة والإهمال والجوع على أيدي السجانين وأعوانهم ، داخل السجون وفي الطريق العام ، مما تقدمت الإشارة إلى بعضه هنا .

لم يكن عجبا إذاً أن يعمل المساجين على الهرب من سجونهم ، وأن يفترصوا الفرص لذلك ولو أدى الأمر إلى ما هو أشدّ من السجن . إنما العجب أن ليس بالمراجع المملوكية طولا وعرضاً ما يسند هذا الاستنتاج المعقول ، ما عدا حادث فردٌ ، وهو ما قام به عدةٌ من أرباب الجرائم سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) ، إذ اتفقوا ذات يوم على قتل السجان فقتلوه ، ثم خرجوا بعد الغروب من باب زويلة شاهرين السكاكين حتى لا يقف أحد في طريقهم إلى الفرار ؛ فركب الوالي في طلبهم ، ولم يظفر منهم سوى برجل أقطع ، فشنقه . على أن قلة الأمثال لذلك الحادث لا ترجع إلى إغفال المؤرخين لذكرها عامدين أو غير عامدين ، أو إلى رضا المساجين بما قُسِم لهم وقُدِّر ، مما قد يتبادر إلى ذهن الباحث ؛ بل هي ترجع — على الأرجح — إلى سبب أقرب وأسهل قبولا ، وهو أن المساجين كانوا يكبَّلون في السلاسل والأغلال داخل السجن وخارجه ، مما لم يدع لهم سبيلا إلى الفرار والخلاص إلا بوسيلة خارجية ، وهذه لم تتيسر إلا أوقات الثورة والفتنة الداخلية ، كما حدث سنة ٦٩٤هـ(١٢٩٤م) ، حينما اجتمع المماليك الأشرفية ، ومضوا

الهـــلالية

وهذه قصة شعبية أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن القصتين السابقتين اللتين عالجناهما في الثقافة من قبل ، أعني سيف بن ذي يزن ، وعنترة بن شداد[1] . فسيرة بني هلال كما يدل عليها اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة ، وحوادثها الرئيسية وقعت في غربي العالم الإسلامي لا في شرقيه ، وفي صقع هو وطن لمزيج من أجناس ، لا في بلاد عرفت بوحدة العنصر وبعدها عن الدخيل ، في شمال إفريقية ، حيث العنصر الفينيقي السامي والبربري الإفريقي ، ذلك الشعب صاحب التاريخ القديم ، والأثر البعيد في حضارة البحر الأبيض المتوسط ، والذي كانت تربطه روما إلى جانب الروابط السياسية الثقافة اللاتينية ؛ لذلك لا غرابة إذا رأيناه يتطلب من العرب المسلمين معاملة خاصة ، تختلف عن سائر المعاملات التي عرفتها البلاد الأخرى التي خضعت للإسلام والمسلمين . فتاريخنا يحدثنا أن أمور تلك البلاد اضطربت اضطراباً خطيراً عقب وفاة فاتحها وقاهرها عقبة بن نافع ؛ ونحن نعلم أيضاً أن قبائل بربرية كثيرة ارتدت عن الإسلام بعد أن اعتنقته ، حتى أن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى إعادة فتحها بإسناد أمورها إلى موسى بن نصير . وبالرغم من يده الحديدية التي حكم بها البلاد فنحن نجد العروبة والإسلام في كفاح دائم ، يختلف حدة وضعفاً باختلاف العصور ، مع البربرية والوثنية . ولعل أجمل صورة من صور هذا النزاع هي تلك التي تقدمها لنا سيرة بني هلال في أسلوبها القصصي الشعبي ، لا التاريخي العلمي الذي تركته لأمثال ابن الأثير وابن خلدون . فسيرة بني هلال وإن لم تكن في حجم سيرة « ذات الهمة والبطال » ، التي تقع فيما يقرب من اثنين وعشرين ألفاً من الصفحات ، إلا أنها تعتبر من كبريات

(١) رقم ٢٦٢ ، ٢٦٧ .

إلى سجن خزانة البنود ، وأخرجوا من فيه من خشداشيتهم (زملائهم) من المماليك ، يريدون العصيان والانتقام لقتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل . وشبيه بذلك الحادث ما وقع بالإسكندرية سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) ، إذ كان بتلك المدينة فتنة بسبب تاجر فرنجي ، فعمد الجمهور إلى السجن ليخرجوا مَنْ كان به من المعتقلين السياسيين ، لولا أن أسرعت السلطات إلى نقلهم إلى أبراج القلعة بالقاهرة .

هذه خلاصة وافية لأحوال السجون المختلفة وأهلها في مصر في عصر سلاطين المماليك ، وليس بنقص الموضوع إلا إشارة واجبة لموقف السلطات الحاكمة والمجتمع من تلك الأحوال التي أجمع الكتاب على شناعتها . والحقيقة أن السلطات الحاكمة لم تكن كلية عن أحوال السجون وسكانها في تلك العصور ، وفي أخبار هدم السلطان قلاون لسجن المعونة وفاء لنذر قديم ، وبنائه سجن الجب بقلعة الجبل ليحل محل المعونة ، ثم قيام السلطان محمد بن قلاون بردم سجن الجب ، وإبطاله السجن بخزانة البنود ، ثم إغلاق السلطان المؤيد لسجن خزانة شمائل في السنة الثالثة من حكمه ، لسابق تجربته بذلك السجن ، ونذره هدمه إذا صارت له السلطنة ، وبنائه جامع المؤيد الشهير في موضعه وفاء لذلك النذر — كل ذلك يشهد باهتمام السلطات الحاكمة بأمر السجون[1] ؛ أما موقف المجتمع فيدلُّ عليه قبول الناس لما فُرض عليهم من إعطاء المساجين أنواع الصدقات في الطريق . على أن لموضوع السجون طرفاً آخر ، وهو شرح ما يلقاه السجين من أنواع المعاملة ، من وقت دخوله متهماً تحت التحقيق إلى وقت تنفيذ العقوبة المحكوم بها عليه كمجرم واقع تحت رحمة القانون ، والموضوع من أجل ذلك حلقة أخرى ، وهي باقية للمستقبل القريب .

محمد مصطفى زيادة

(١) انظر هذه المجلة رقم ٢٦٠ بتاريخ ٢١ — ١٢ — ٤٣ ورقم ٢٦٢ بتاريخ ٤ — ١ — ٤٤ .

القصص العربية الشعبية ؛ وكما أن مكتبة الدولة ببرلين تفخر بامتلاكها لمخطوطة ذات الهمة ، فهى ليست أقل تيها بنسخة السيرة الهلالية التى تخالف النسخ المتداولة بيننا اليوم .

ونستطيع أن نقسم هذه القصة إلى ثلاث حلقات : الحلقة الأولى ، وهى التى تعالج بنى هلال منذ ظهورهم فى الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو ؛ والحلقة الثانية ، تحدثنا عنهم وقد رحلوا إلى نجد ؛ بينما الثالثة ويطلق عليها تغريبة بنى هلال اهتمت بحروبهم وأعمالهم فى الغرب .

أما الحلقة الأولى فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم ، فهى تقول إن هلال بن عامر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه ، وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية ، حتى أن النبى أسكنه وادى العباس . وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم ، ورزق بولد دعاه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده واحترف الفروسية ، وقام بكثير من أعمال السلب والنهب ، ثم تعرف إلى الأمير (مهذب) وتزوج بابنته (هذبا) ، ومضت على زواجهما عشرة أعوام ولم يرزق منها بطفل ، فقرر الزواج بأخرى ، ورحل إلى بلاد (السرو وعبادة) حيث تزوج بابنة الملك الصالح واسمها (عذبا) . وبعد ذلك نرى السيرة تحدثنا أن (هذبا) وضعت له (جابرا) ، و (عذبا) (جبيرا) ؛ ولم تمض على ولادة الطفلين زمن طويل حتى نرى الغيرة تدب بين الاثنتين ، ونرى كلا منهما تريد المنذر لها ولابنها ، وهنا تعرض لنا السيرة هذه الناحية من نواحى الحياة الشرقية الاجتماعية عرضا جميلا ، وينتهى الأمر بطلاق (عذبا) ورحيلها مع ابنها (جبير) إلى نجد . ومن نسل جابر وجبير انحدرت إلينا رجالات بنى هلال ونساؤهم الذين قاموا بالأدوار الهامة فى مختلف فصول السيرة . فجابر ولد له عامر وناصر وهشام وحازم ؛ ومن نسل هؤلاء انحدر (رزق) والد أبى زيد ، وسرحان والد السلطان حسن . أما جبير فقد ولد له رباح وحنظل والنعمان ؛ ومن ذرية رباح دياب . فمن جدول النسب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر ، بينما دياب من ذرية جبير .

وبعد قصة جابر وجبير ، نقرأ خبر زواج (رزق) بخضراء ، وكيف أنه رزق منها بفتاة تدعى (شيحا) وفتى يدعى (بركات) ؛ وكان الولد أسود اللون ، فلذلك اتهمت خضراء فى عرضها ، وانتهى الأمر إلى رحيلها وابنها إلى بلاد الأمير الزحلان عدو بنى هلال ؛ فيكرم الأمير وفادتها ، ويعنى بها وبتربية ابنها ، ويوكل أمر تعليمه إلى خطيب كان يشرف على ابنيه « منعم ونعيم » ؛ ثم يحدث شىء من سوء التفاهم بين الخطيب وبركات ، فيعتذر الخطيب بقصيدة فيها شىء من الطرافة ، لأنها تذكر لنا المواد التى كان يدرسها الخطيب فى ذلك العصر ، فهو يعنى باللغات وخاصة السامى منها :

ولسان عبرانى اليهود بينفعك ... ولسان سريانى تصير مشير

والطب والرياضيات والكيمياء :

والطب أيضا دانيال أعلمك ... وعلم الحساب وكل علم ظهير
وأعلمك علم الصباغات كلها ... تصبغ أرواحا شما تريد يا أمير

ويحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان فيتصدى لهم بركات ويأخذ والده أسيرا ، ويعترف له الهلاليون بشجاعته ، ويطلقون عليه (سلامة) ويعجب به الزحلان فيزوجه بابنته (غصن البان) ؛ وتعلو مكانة (سلامة) فى أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته آخذة فى الزيادة ، لذلك أطلقوا عليه منذ ذلك الوقت اسم (أبى زيد الهلالى سلامة) . وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين مع الزحلان تنتقل إلى سرحان ، وتحدثنا عن خبر تربيته بنيا ووقوعهما فى أسر الإفرنج ونجاتهما بحيلة لطيفة ؛ ثم تسجل لنا بعض الأغانى الشعبية التى نرى ما يشبهها وزنا وقافية فى أغانينا الصعيدية الحديثة التى يسهل حفظها ، ويحلو ترنيمها . وهذا النوع من الفن الشعرى إن ذكرنا شىء

فإنما يمت للأدب السامي القديم ، والتي وصلتنا نماذج منه في الأدب البابلي الأشوري . فاسمع (شما) تصف نفسها :

ربي أعطاك هنى   والكف متحنى
وخشوف وردى   في موج ومويه
انظر لثامتها   هذى علامتها
انظر لقامتها   شبه الرديفيه
والشعر مثل الليل   كأنه سباسب خيل
والوجه مثل السيل   وعيون هنديه

واسمع إلى سرحان يعاتبها :

شما تلفتيني   بحبك ضنيتيني
قومي واسقيني   من فوق شيربه
قومي أنى دورك   وهلكت من جورك
بالليل أنا ازورك   وها لوقت شويه

وقبل أن تنتهي الحلقة الأولى من السيرة نقرأ شيئاً كثيراً من أعمال الهلاليين في اليمن والهند .

أما الحلقة الثانية فتبدأ برحلة السلطان حسن وأبي زيد من بلاد السرو إلى نجد ، حيث تعيش قبيلة زغبة وذرية جبير ، أبي الأمير غانم وابنه دياب ، وسبب هذه الرحلة القحط الذي حل ببلاد السرو . وفي طريقهم إلى نجد نقرأ فصلا طويلا من حروبهم مع يهود خيبر وانتصارهم عليهم ؛ وفي نجد يتزوج السلطان حسن (ناعسة) أخت دياب بعد أن يعده بأخته (نور بارق) أي الجازية . وفي هذه الفترة نجد وصفاً للمعارك التي قامت بين الهلالية والعقيلي حنظل والهيدبي ، ثم تنتهي إلى الاصطدام بين أبي زيد ودياب . ولا تنتهي هذه الحلقة إلا بعد أن تطيل في الحديث عن بطولة العرب عامة ، والهلالية خاصة ، وانتصاراتهم على الأعاجم .

وتغريبة بني هلال أو الحلقة الثالثة من حلقات هذه السيرة تعنى بأعمال الهلاليين في الغرب خاصة ، في شمال إفريقية ، وهذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي صحيحة لاشك فيها ، كما أن بني هلال عرفتهم الجاهلية وعاشوا في الإسلام ، وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر في سبيل العمل على تعريب تلك البلاد جنساً وثقافة . فابن الأثير يحدثنا في كامله بأن رسول الله (ص) تزوج في العام الرابع من زينب بنت خزيمة أم المساكين وهي من بني هلال ، ثم يذكرهم مرة عند الحديث عن غزوة هوازن ، ومرات كثيرة أخرى في مناسبات مختلفة . أما خروجهم إلى إفريقية فقد ذكره أكثر من واحد من المؤرخين ، أذكر منهم هنا ابن خلدون فقد جاء في ص ٦٢ — ٦٣ من الجزء الرابع من تاريخه ما نصه : (كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بإفريقية ، وخطب للقائم العباسي ، وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمائة ، فكتب إليه المستنصر يتهدده ، ثم إنه استوزر الحسين بن علي التازوري بعد الجرجراي ولم يكن في رتبته ، فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب مَنْ قبله ، فحقد ذلك وأغرى به المستنصر ، وأصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال ، وبعثهم إلى إفريقية وملّكهم كل ما يفتحونه ، وبعث إلى المعز : أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولاً ، وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا ..)

وبينما نجد التاريخ جافاً في تصوير هذه الحملة ، إذا بالسيرة تعرضها عرضاً وافياً مستفيضاً ، فهي تخبرنا أنها أعدت كأحسن ما تعد حملة اليوم ، فنحن نقرأ خبر إرسال العيون إلى البلاد أولاً لاستطلاع أخبارها ، ومعرفة قوتها ، وأحسن الطرق الموصلة إليها ، وكان هؤلاء الجواسيس من خيرة أبناء الهلاليين من مرعي ويحيي ويونس وأبي زيد ، ويقع جميعهم في قبضة العدو ولا يخرج إلا عن أبي زيد الذي عاد وجهز الجيوش لفتح تونس ؛ ويسير أبوزيد مع بني زحلان ، وحسن مع بني دريد ، ودياب مع بني زغبة ... ويؤتى بالجازية من مكة لتسكون في الطليعة ؛ ثم نقرأ قصصاً كثيرة حول هذه الجيوش والتقائها بالخفاجي عامر ، والملك الفضبان ، والزناتي ، وشبيب التبعي ، والعردويل بن راشد ، وأشهرها هي قصة بني هلال مع الناصي حاكم صعيد مصر . وما كادت تتحرك هذه

الجيوش للإقالة الزناتي خليفه حتى زودها أبو زيد بخططه الحربية الخطيرة ، فهو يضلل جواسيس العدو مرة ، ويستولى على عيون الماء مرة أخرى ، ويأتى بحيل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب الحالية . وقد أطلق مرة المنادى ينادى فى العرب : (كل من كان عنده ناقة والده يبعد ابنها عنها ، أو فرس والده يبعد ابنهـا عنها ، وكل من كان عنده حصـان طلوق يجيبه عند فرس شايع ويلحقونا على عين الحطيرى ، وتخلى العرب كلهم يدقوا طبولهم فى زولهم على العين ، فيسمع الزناتى حنين المهارى وصهيل الخيل وحس الطبول فينكسر قلبه قبل ما يجى لنا الحرب) . كما أنه كثيراً ما استخدم النساء للتسرب إلى داخل البلاد ، والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الذعر بين الأهلين والتمهيد لدخول الجيوش ؛ وكان تنفيذ هذه المهمة يوكل عادة للجازية التى كانت تقوم بها خير قيام ؛ فاسمعها مثلا تتحايل على منصور أحد بوابى تونس :

يا بوّاب منصـــور افتح لنـــا السور
نسر له بدستـــور ونبيع التجاره
والله ما افتح البـاب لو شفت العـــذاب
ولا اضرب بحراب من غز سكارى
افتح لا تبـــالى دا إحنـا لا عبالى
ونبيـــع الخلالى وأحزمة المهارى
والله يا ظريفـــه خايف من خليفه
له حربه رهيـــفه تمرق من الحجاره

وبعد حديث طويل تجد الجازية تتغلب على منصور ويفتح لها ولمن معها من نساء ورجال ، ويتمكن الهلاليون من إطلاق سراح مرعى ويونس . ثم تدور الدائرة على الزناتى فيقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سعدة التى شغفت بمرعى عند ما كان فى سجن أبيها ، فهى التى أشارت على الهلالية بإرسال دياب إلى أبيها ومنازلته ، لأن دياباً أقدر الفرسان لمنازلة خليفة . خلا الجو للعرب فى تونس واستولوا على عروش الغرب السبعة ، وشرعوا فى تقسيمها بينهم ، كما أخذوا فى الاستعداد لغزو مراكش . وهنا نجد النزاع الذى كان قائما بين العرب فى الجزيرة ، أعنى بين اليمنية والقيسية ، ينفجر مرة أخرى فى إفريقية ، فيمثل أبو زيد القيسية ، ودياب اليمنية ؛ وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد ، فهى فى جدول الأنساب الذى ساقته من قبل جعلت دياباً ينحدر من فرع يجرى فى عروقه دماء حمير ، فهو دياب بن غانم بن رياح ابن حمير بن رياح بن جبير ، فذكر (حمير) هنا لم يأت عبثاً ، وإنما تمهيد لسائر الخصومات التى قامت بين أبى زيد من ناحية ، ودياب من ناحية أخرى ، وهو يعلل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبى زيد فيما بعد .

أدت هــذه القبائل القيسية اليمنية رسالتها فى شمال إفريقية وجعلته عربيا جنسا وثقافة ودينا حتى يومنا هذا . وبعد ذلك نقرأ خبر انتقال دياب إلى السودان والحبشة ، ويقتل دياب ، ويتولى ابنه نصر الدين الزغبى حكم بلاد الغرب . وتنتقل بعض القبائل القيسية إلى صعيد مصر ثانية ، فأعالى النوبة ، فالخرطوم ، فدارفور حيث نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الزريقات نسبة إلى رزق والد أبى زيد ، وقبيلة سليم نسبة إلى بنى سليم . وهنا تؤيد السيرة أبحاث المؤرخين ورجال اللغات السامية ، فهم مجمعون على أن لهجة صعيد مصر وعرب أولاد على ، غرب الإسكندرية ، ومناطق شمالى إفريقية وأعالى النوبة ، وكردفان وجنوب الخرطوم ودارفور لهجة واحدة ، لها مميزاتها الخاصة التى تميزها عن سائر اللهجات العربية .

لكن قبل أن أختم مقال اليوم أحب أن أقول إن استقرار هذه القبائل العربية خارج الجزيرة لم ينسها يوما نجدا وجمال نجد ، وحرية نجد ؛ وقد عبر مرعى عن هذا الحب بقوله يخاطب سعدة بنت خليفة :

يا سعده نجد العريضة مربه وبيت بها أهلى وكل جدود
بلادى ولو جارت عليا مربه وأهلى ولو شحت عليا تجود

فؤاد حسنين

حمار عراف

[ولد يوستينوس كرنر Kerner كاتب هذه القصة في أواخر القرن الثامن عشر . فلما كان في الثانية عشرة كان مقدراً له أن يعمل في صناعة النسيج ، فانتشله صديق شاعر ، بعث به إلى توبنجن حيث درس الطب فصار طبيباً ، ومات في الخامسة والسبعين طبيباً ، وعاش بين ذلك عيشة متعارضة لكنها متماسكة . فقد كان في حياته العامة أغلب ما يكون مرحاً ، جسوراً ، راضياً عن الحياة ، خدناً وصاحباً ؛ بيته منتدى ؛ قل أن لم يقصده كاتب أجنبي أو شخص ذو شأن ؛ وداره مجتمع لقوى المواهب الفنية يمثل لهم العون في ذهن ومادة . لكنه مع ذلك كان يحدوه شوق صوفي إلى الدار الباقية ، وشغل ملح بعالم الأرواح . وقد تولد من هذا التناقض في الكيان غرائب في الشعر ، فإلى جانب أغانيه الناضجة حماسية تشاب النيابة ناعماً ، وتخلص من عالم الحقائق عميق القرار ؛ عامر أحياناً ، وولع بالمهول والمرعب . وخير ما كتب : « ظلال المثل لوكس » ، وهو سفر عامر بالأمثال ، غني بالفكاهة البديعة الفذة . وفي قصة اليوم مثال من فكاهته] .

لم أعمل في ذلك المساء غير أن خرجت للنزهة مع ماتياس إلى ما يسمى بجبل وارتبرج ، وبعد نصف ساعة . وكان جل ما يبغيه ماتياس من هذه النزهة أن يعرف الصياد الشهير ناست ، الذي يسكن الحانة القائمة فوق هذا الجبل ويديرها . وكان لناست أبلق يركبه ويستخدمه في فنون أخرى ، وأرنب يقرع الطبل ، وحمار عراف .

فخرجنا من الباب المسمى باب سيلمر ، فلقينا قروياً ومعه حصان ضخم مشدود إلى عجلة تقل يتجه اتجاهنا . فلم يكد القروي يلمح ماتياس حتى ناداه بأعلى صوته : ماتياس يابن عمي ! إنه لمن حسن الصدف أن نلتقي هنا .

فعرف ماتياس فيه قريبا من أقاربه الدانين ، وقرويا من أهالي أورنجن ، وسر لهذا اللقاء . لكنه لما أخذ يتحدث إليه من بغيته من الذهاب إلى وارتبرج وأنه ينشد معرفة الصياد ناست وحيواناته ، أظلت جبين ابن العم سحابة ، وعلته تقطيبة شديدة ، وانفجر ساخطا بسب الصياد المسكين .

قال : هذا الحصان الجيد ، وإليه قليل من المال قد عدت به من ناست ، وكانت ثمرة معرفته ، ما في ذلك شك . لكنني إن أنس فلن أنسى تلك الضربات التي أنزلها على ظهري ذلك الجحود بنصل حمايلة الأبائل ، ولا الشتائم التي كالها لي . فإذا بلغتماه فقولا له ، وقولا للناس أجمعين : إن الحيوان الذي حمله إلى فرانكفورت على أنه فرس بحر أمريكي (سيد قشطة أمريكاني) لم يكن سوى حصان نغل أمرد طاعن في السن .

فكاد ماتياس يستلقي من الضحك على قفاه ، وقال لابن عمه : ألا إن هذا لشيء عجاب ، فإن أقمت عليه الدليل فإني والله لقاصه على الناس جميعاً ، وآخذ به ثأر ما أصاب ظهرك من ضربات .

قال القروي : وكيف لا أستطيع البرهنة عليه . سل جلاد شتيفورت في ناحية أورنجن ! لقد كان الحصان مريضاً بـ .... فناولته مسهلا ، فلم ينفع معه ، فأعطاه الجلاد جرعة قوية من .... فاختفى المرض ، لكنه اختفى مع المرض كل شعر الحصان فانجرد وامتلس كالحذاء اللامع ، حتى أهداب العينين زالت ، وبات ذيله كثعبان البحر . وبينا أنا سائر به في مثل هذا الأوان في ربيع العام الفائت يجر مركبتي في هذه الطريق إذا بي ألقى الصياد ناست وراءه . فجعل يغلو لي في مبلغ ما أربحه إن أنا قصدت به إلى سوق فرانكفورت تحت رعايته ، وأراه الناس لقاء جعل معلوم ، على أن أكتم خبره فلا أقول أو يقول إلا أن الحصان من فصيلة نادرة من بلد أجنبي ؛ وهو الكفيل بما يبقى . ثم جعل يطاردني ويلاحقني حتى نزل أدار ، فجلسنا إلى مائدة هناك وجعل يسقيني ، وكان يجالسنا طالب من هيلبرون يحمل لناست كثيرا من الود ، فاشترك في الحديث ، وجهد في إقناعي بالذهاب مع ناست والحصان إلى فرانكفورت ، وعرضه في سوقها بوصفه فرس بحر

أمريكي ، فسوف يقبل الناس على مشاهدته ، فإن نفق هناك لم يعدم من العلماء من يحشوه ويضمه إلى مجموعة الحيوان النادر التي يحتفظون بها في متحف الحيوان .

واستطرد القروي يقول : فرضيت . وكنا بعد يومين في فرانكفورت ومعي الحصان ، ومع ناست أنواع حيوانه . وامتطى ناست أبلقه ودار به في الحلقة ينادي أنه جلب إلى أرضه الطبّال وجياره الفرّاف حيواناً نادراً لم تشهده أوربا قبل الآن ، ألا وهو فرس بحر أمريكي على قيد الحياة ، وأقبل الناس على رؤيته إقبالاً شديداً ، ووعدني ناست بثلث الدخل . لكنا اختلفنا بعد ثلاثة أيام ؛ فقد بدا ناست يتبرم بي ، لكنه لا يتبرم بالحصان . وإذ أنكر حقه الذي كان رفيقي ، جرد حلية الأبالق في غمدها وألهب بها ظهري علقة ساخنة . وافترقنا ! وبعث الحصان سيداً محترماً يجوب الأقطار بأسوده وفيلته لقاء مبلغ طيب من المال ، غير كاتم عنه حقيقته وإن كنت تعهدت له بكتمان هذه الحقيقة من غيره عاماً كاملاً على الأقل . وها قد انقضى العام ، وتحللت من وعدي نكاية بناست .

فقال له ماتياس وقد أطربته قطيعة الاثنين : سأذيع الخبر فاطمئن يا ابن عمي العزيز . وودع كلاهما الآخر ، ودرجت بنا المركبة في طريق وايتبرج ثم عرجنا على الجبل .

***

وإنا لننحدر من الجبل الزدان بالكرم إذا رهط من السيدات الأنيقات والسادة المُهَنْدَمِين يلقوننا في الطريق ، ونعلم منهم أنه في مثل هذا اليوم من كل أسبوع يدور الحديث والرقص في البهو الفسيح في تلك الدار القائمة في أعلى الجبل . فلما دخلنا البهو ألفيناه مكتظاً بالراقصين . وعلى حين غفلة ساد السكون ودخل في حلقة الرقص رجل مديد القامة ، قد لف جسده بغلالة حيثما اتفق ، لكن شخته كانت تسترعي النظر . وعصب رأسه بعصابة من القماش تستر نصفه . وكان الرجل ممروراً كما علمت فيما بعد ، وكان مجهول الأصل والمصير . وكل ما يعلمه الناس من أقواله المخبولة ، أنه كان يشغل منصباً رفيعاً في سالسبرج في سالف الأيام ؛ وأن الزمان خانه في صداقة الخلان وحب الحسان ؛ وأنه خرج هائماً على وجهه في الغابات ، فإذا حل الشتاء هبط ليلاً إلى القرى واصطلى .

وهو هنا وههنا يغشى بيت راعي الكنيسة ، ولا يأخذ من أحد مالاً ، ولا يمد يده إلا لتناول ما يسد الرمق . وهو يتحدث إلى رجال الدين باللاتينية واليونانية ، ويعزف على البيان تقاسيم آية في الإبداع . في مشيته ظرف ومهابة ، وفي الهيئة التي تخلعها شخته الهيلة على رأسه وجسده مثل هذا الظرف والجلال . وكثيراً ما يرى حول هامته أكاليل الأزهار . وقد سمل إحدى عينيه غلمان إحدى القرى من قليل الأدب والحياء ، فكان يسترها بعصابة ملفوفة حول رأسه كالعمامة .

كان يطلب في الغابة أعمق غور في جوف الليل ، فلا يشهره منه إلا البطن الخاوي ، والموسيقى الرائعة تتناهى إليه من بعيد . فإذا خرج لم تتعرض له الشرطة ، لأنه لم يكن قد حل الزمن الذي تعتقل فيه الشرطة مثل هؤلاء الأغاط .

وكان فوق هذا الجبل مكان للانتظار عبارة عن برج عال فوقه قبة من الصاج مثل الزر العظيم ، يُصعد إليه بدرج ، ويدخل إليه بمنفذ ، وليس في البرج مأوى ولا سكان . لكن المرور اتخذ من قبته الشبيهة بالزر العظيم مأوى له . وقد كان يأوي إليه حين استرعت موسيقى الجبل انتباهه ، فدخل البهو في سمته الذي ألفه الناس منه ، فكف الراقصون عن الرقص ؛ أما هو فاقترب من فتاة لطيفة ترتدي ثوباً أزرق ، ويقال إنه لما حاذاها تمتم يقول : بلى ، بلى ! لقد كانت ترتدي مثل هذا الثوب ! ثم قدم للفتاة ذراعه يدعوها إلى الرقص فلم تمانع ، فدار معها دورات

طريقة موزونة ، ووقف الناس من حولها ينظرون . وبعد انتهاء الرقص قادها إلى أمها يمهمم بالشكر ، واختفى فى البهو كما حضر سريعا وعلى غير انتظار .

* * *

لوددت أن أتبع الرجل إلى جوف الغابة لولا أن احتجزنى ماتياس ، واقتادنى إلى غرفة مجاورة للبهو فيها رجل يقول إنه قدم إليه قدحا من الجعة بعد أن سمع منه حكاية فرس البحر الأمريكى . وقد دفعنى إليه بقوله لى إنه يعرف أبى ، وإنه رجل رضى الخلق ، لا حاجة بى إلى تهيبه . وسرعان ما انضم إلينا الصياد ناست . فهو مدير هذه الحانة ، وقد جاءنا ناست بكتاب حافل بشهادات من ذوى المقامات الرفيعة ممن أعجبتهم فنون حيوانه . وطفق يقص علينا من طرائفها أن أيلة ، وكان إذ ذاك يطلب السفاد ، ولا يجرؤ إنسان على الاقتراب منه ، سدد إليه أخيرا قرونه وكان على وشك أن يفتك به ، لولا أن سدد إليه هو نظراته فوقفه وألزمه طاعته ، واعتلى صهوته ، وداربه ، والأرنب يطبل ! وهنا قال صديق والدى المزعوم : والحمار يزمر ، وفرس البحر الأمريكى — ثم أطلق مقهقها وهو يقول : آه يا سيدى ناست !

فرجاه ناست أن يمسك عن ذكر هذا الحيوان ، فلم يعد فى قطيعه ولم يعد علكه ! وابتعد بكتابه ، واختفى من البهو .

وكان السيد الغريب الذى أمسك إذ ذاك بيدى وكان حقا من معارف والدى — كان الدكتور جيلين الطبيب والعالم المعروف فى هيلبرون . وقد كان ما زال مبتهجا تشغله قصة ماتياس عن فرس البحر الأمريكى . وعاد ماتياس يقص حكاية ابن عمه ويورد أقواله فى لهجة فكهة أثارت الضحك بين الحضور .

فقال الدكتور جيلين عندئذ : هكذا شأننا دائما نحن العلماء ، فقد أتى بلومنباخ بمحاضرة عن هذا الحيوان ، أعلن فيها على رءوس الأشهاد أن لا غش ولا خداع فى هذه الظاهرة ، بل إن الحيوان فصيلة من فصائل الخيل ، عجيبة غاية فى العجب ، لم تعرف قبل الآن . وقد قرأت أخيرا فى صحيفة من صحف برلين أن هذا الحيوان قد بيع بثمن باهظ ، وأن العلماء الطبيعيين يكدون الآن أذهانهم سعيا وراء حقيقته ، ويفتشون فيه أغرب البحوث .

وسر أحد السادة الحضور فى طلب ناست حتى عثر عليه وأحضره ، وداعبه مداعبة قوية شديدة الوطأة فى شأن فرس البحر الأمريكى . فلم ينكر ناست أمره ، بل أنشأ يقص حكايته كما قصها القروى ابن عم ماتياس ، وماتياس نفسه يحذافيرها تقريبا ، مرتاح البال .

وقال الدكتور : إنى أسخر من أجل الفرس الأمريكى بالسادة العلماء ، ولهم أن يسخروا من أجله بى فيسخروا من أجلى بأنفسهم ! وشأنهم فى هذا شأن الأطباء الذين يروجون لبعض أدويتهم ، وليس البتة من صلة بين هذه الأدوية والأدواء .

وسرى هذا القول عن ناست حتى غفر لماتياس حكايته عن فرس البحر الأمريكى ، أو لعله لم يعرف أن ماتياس هو الذى قصها على الدكتور جيلين . وقد استصحبنا متوددا إلى قطيعه ، لكنه لم يرنا الأيل الذى كان عندئذ فى أوان السفاد ! لكن أرنبه طبل لنا ، وأطلق مدفعا ؟ وهرش حماره حين سأله ماتياس كم سنة يعيش ؟ هرش بحافره هرشة واحدة كأنما يقول له : ستعيش سنة واحدة فقط كلها قلق وهم . فهل كان هذا تدبيرا مقصودا من ناست ، أو أن الحمار — وهو عراف — علم أن ماتياس قريب لذلك القروى الذى لكزه فى فرانكفورت ، فأحب أن ينتقم منه بالتنبؤ له بأن الباقى من عمره سنة واحدة ؟ لا حيلة لنا فى هذه المسألة ولابد من تركها بلا جواب .

محمود الدسوقى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٨٠ — الثلاثاء ١٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ — ٩ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

الهجوم على القلعة النازية

يتقدم الربيع بخطى وئيدة ، وينشر — على مألوف عادته — ألوية الجمال والحياة ، في الربوع التي قدر لها أن تتمتع اليوم بنعمة الأمن والسلم . أما في الديار التي يغشاها سحاب الحرب ، فإن الربيع ليس بشير حياة ، ولا رسول جمال ، بل نذير ويل ورسول عقاب . واليوم — وقد قطع ربيعنا هذا نصف المرحلة التي تسلمه إلى الصيف — تتجه الأنظار والخواطر إلى الحرب الرائعة المرعبة ، والكوارث الهائلة المفظعة ، التي توشك أن تنزل بسكان القارة الأوربية .

لقد قيل عن النازيين — في العهد الأول من هذه الحرب — إنهم قطعوا على أنفسهم عهداً ألا يقاتلوا في ميدانين في وقت واحد — وألا يرتكبوا تلك الغلطة التي اقترفوها في تلك الحرب العالمية الماضية ، والتي كانت — في نظرهم — سبب إخفاقهم ، وهي محاولة القتال في الشرق والغرب ضد قوتين عظيمتين . كذلك كان من الأسباب التي يعزون إليها إخفاقهم في المرة الأولى أنهم اضطروا أمريكا لأن تنضم إلى أعدائهم . وطالما ردد كتابهم أن إقحام أمريكا في الحرب كان غلطاً كبيراً ، لم يكن هنالك ما يدعو إليه .

ولهذا قيل غير مرة إن ألمانيا قد عقدت العزم على ألا تحارب في ميدانين في وقت واحد ، أو تقحم أمريكا من غير مبرر . ودبر النازيون أمرهم ، وحسبوا حسابهم ، وقدروا تقديرهم ، كي يجتنبوا الأخطاء ، التي وقعوا فيها في الحرب الأولى ، والتي كانت سبباً في إخفاقهم . ولكن الحرب سارت في غير الطريق التي أرادها النازيون ، وأخطأ حسابهم الذي حسبوه ، وتقديرهم الذي قدروه خطأ شنيعاً . ومن سخرية المقادير أنهم — هم أنفسهم — الذين سعوا إلى ما كانوا يريدون اجتنابه ! واندفعوا نحو

القوة التى كانوا يريدون الابتعاد عنها . ذلك أن الحساب الأول والتقدير الذى قدروه وقت دخول الحرب كان تقدير من لم يخط بالحرب بعد خطوات ؛ تقدير من يسوق الحرب أمامه ، ويدفعها بين يديه ، فيستطيع أن يوجهها كيف يشاء . ولكن هذه المرحلة سريعة الزوال ، فإن الحرب لا تلبث أن تثار حتى تغدو هى القوة المسيطرة المهيمنة ، وهى التى تدفع قادتها وساقتها فى الطريق التى تريده وتختاره . فلئن كانت الحرب أداة فى أيديهم بالأمس فإنهم اليوم آلة فى يدها الجهنمية ، تدفعهم وتزجيهم ، وتوجههم أينما شاءت ، وتفتح عليهم أبواباً قدروا أنها ستظل مغلقة . وطريقة الحرب فى هذا أنها تحيل عقول قادتها وأفئدتهم ، وتبدل من أنفسهم ، وتخرجها كل ساعة من طور إلى طور . فهم اليوم غير ما كانوا بالأمس ، وهم غداً غيرهم اليوم . وقد يكون الأفراد — بحسب أسمائهم وشخوصهم — هم هم لم يتغيروا ولم يتبدلوا ، ولكن الحرب قد بدلت من أنفسهم وأفئدتهم ، وقلوبهم وأكبادهم ، فإذا أعمالهم اليوم تناقض أقوالهم وأعمالهم بالأمس .

تلك حقيقة ما أجدرنا — حتى نحن سكان مصر والعالم العربى — أن نذكرها ، وأن نحسب لها حسابها فى مختلف الأزمات والمناسبات ، فإن للحرب عقلا غريبا ، يخالف ما ألفناه وعرفناه . وقد كان من جراء هذه الأطوار الجديدة ، أن أصبحت ألمانيا مضطرة إلى الحرب فى جبهات عديدة .

***

خطب زعيم روسيا ، فى اليوم الأول من هذا الشهر ، فأشار إلى ما قامت به دولته من تحرير الأراضى الروسية ، وإخراج العدو منها ، وإلى المساعدات العظيمة التى قدمتها الدول الغربية لروسيا ، بإمدادها بالزاد والذخيرة والعتاد ؛ وحبس عدد كبير من الفرق الألمانية فى إيطاليا وغربى أوروبا ؛ وإلى الواجب الكبير الذى لا بد من الاضطلاع به ، والعبء الضخم الذى لا بد من النهوض به ؛ وهو تحرير الأقطار الأخرى التى احتلها الألمان وأخضعوها لسلطانهم ، ثم أعلن فى صراحة وجلاء ، أن هذا العمل الضخم لا بد لنجاحه من جهود تبذلها روسيا من جانبها ، والدول الغربية من الجانب الآخر ؛ وأن نجاح هذا العمل مرهون بهذا التضامن ، وبهذا التوحيد فى الجهود .

ولعل هذه هى المرة الأولى ، التى نسمع فيها من زعيم مسئول بتقسيم الحرب على ألمانيا إلى مرحلتين : الأولى تحرير روسيا ، والثانية تحرير الأقطار الأخرى الخاضعة لألمانيا . والأمر الأول قد اضطلعت به روسيا وحدها ، وقامت به من غير شك قياما يبعث على رضا الحلفاء . ولئن كان هنالك إلى اليوم جهات فى روسيا لم تحرر بعد من الاحتلال الألمانى ، فإنها قليلة المساحة ، قليلة الخطر ؛ ويعوض من هذا أن جهات أخرى عديدة خارج روسيا ، قد انتزعت من أيدى الجيوش النازية . ذلك العمل الطويل الشاق ، قد اضطلعت به الفرق الروسية ، وأتمته فى حرب طويلة الأمد ، بدأت بمحاصرة الألمان فى ستالينجراد فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، وانتهت فى الشهر الماضى بتحرير أودسا وشبه جزيرة القرم ، — عدا سباستوبول — أى أنها استمرت ، من غير انقطاع تقريبا — سبعة عشر شهرا ، لا تتوقف صيفا أو شتاء ، ولا يعوقها ثلج ولا مطر ، ولا رياح وزوابع .

ولئن كان من المعقول أن تنهض روسيا وحدها بتحرير الأقطار الروسية ، فإن من الإسراف أن ينتظر منها أن تمضى وحدها بعد ذلك فى محاربة الألمان من أجل تحرير الأقطار غير الروسية ، وإتمام هزيمة النازيين . لهذا كان المنتظر أن تكون المرحلة الثانية من حرب ألمانيا عملا مشتركا ، تتعدد فيه الميادين ، ويتناول الهجوم على

« القلعة النازية » من أطرافها المختلفة ، لا من جانب واحد .

على أنّ تحرير الأقطار الخاضعة لألمانيا ، ليس بالغرض الرئيسي الذي ترمي إليه الدول المتحدة ، وإنما هو نتيجة لتحقيق الغرض الأصلي الذي ينشدونه ، وهو هزيمة الجيوش الألمانية . وقد كان من الجائز أن تنتهي الحرب في روسيا من غير حاجة إلى إثارتها في أي ميدان آخر ، لو أنه أمكن أن تهزم الجيوش الألمانية هزيمة تامة في الميدان الشرقي ، ولكن القوات النازية لا يمكن أن يقال إنها انهزمت ، وبرغم فقدان وحدات عظيمة الخطر ، مثل الجيش الخامس في ستالينجراد ، وغيره من الوحدات التي حوصرت في « جيوب » صغيرة أثناء التراجع نحو الغرب والجنوب ، فإن الجيش الألماني لا يزال — كما يذكرنا بذلك أعداء الألمان أنفسهم — قوة حربية عظيمة الخطر ، بالرغم من تقهقره مسافة تزيد على الألف ميل . وإذا صح تشبيه الزعيم الروسي لألمانيا النازية بأنها كالوحش الجريح ، الذي لا بد من تعقبه إلى جحره ، فلا شك أن الجرح ليس بليغا ، والتغلب على هذا « الوحش » لن يكون من الأمور السهلة التي تقدم عليها الدول في خفة وقلة اكتراث .

إن قول زعيم روسيا ، بأن على بريطانيا وأمريكا أن تهاجم ألمانيا من الغرب ، في الوقت الذي تهاجمها روسيا من الشرق ، ليس معناه أن فتح الميدان الغربي أمر لم يتقرر بعد ؛ وإنما يجب أن يعد ذلك القول بمثابة إعلان بأن ذلك الحادث وشيك الوقوع . ولقد قيل لنا من قبل إن إضراب عمال الفحم في بريطانيا فترة من الزمن قد أخر موعد الغزو المنتظر ؛ ولكن هذا أيضا قول يجب ألا ننظر إليه نظرة جدية . ولعل القول الجد هو ما أدلى به رئيس الحكومة البريطانية في خطابه منذ بضعة أسابيع ، من أن أعمالا حربية عظيمة ، تتناول القوات البرية والبحرية والجوية ، وشيكة الوقوع . وسيكون في خلال تلك الأعمال هجمات إيهامية تربك العدو وتضطرب لها قواته . وقد لا يراد بهذه الهجمات الإيهامية أن تستمر وتتسع ، وإنما الغرض منها لفت العدو وصرفه عن المكان أو الجبهات الحقيقية ، التي يراد المضي فيها .

ذلك ما فهمناه مما صرح به رئيس الحكومة البريطانية . وكما قد فهمنا من كلامه أيضا أن ذلك الميدان — وإن لم يقل هذا صراحة — سيكون في غربي أوربا . كذلك لم يذكر في خطابه شيئاً — وما كان له أن يذكر شيئا — عن موعد فتح ذلك الميدان . ولكن لعل الألمان أنفسهم قد أعطونا عن هذا أمثلة نقيس عليها . ذلك أن من البديهي أن مثل هذا العمل الهائل يجب أن يبدأ مبكرا ، لكي يكون احتمال النجاح فيه أكبر ، ولكي تنتهز فرصة الأيام الطويلة والهواء الدافئ ، الذي يسود غربي أوربا الآن . وقد هجم الألمان هجومهم المعروف على هولنده وبلجيكا ولكسمبرج في اليوم العاشر من شهر مايو سنة ١٩٤٠ في الساعة الثالثة صباحا . ولا شك أن الألمان قد اختاروا موعد هجومهم لكي يتفق مع جميع الظروف الطبيعية التي تلائم الغزو . ولكن غزو الحلفاء يختلف بأنه يشتمل على عمليات بحرية برية في آن واحد ، وللحالة الجوية فيها شأن أعظم مما كان للغزو الألماني في مايو سنة ١٩٤٠ . ولكن لا شك أن من المعقول أن يكون الموعدان متشابهان إلى حد ما ، وقد يعترض بأن الألمان سبق لهم أن هاجموا اسكنديناوه في التاسع من أبريل ، وأنه كان في وسع الحلفاء أن يبدأوا الغزو في أبريل ، ولكن الهجوم على اسكنديناوه كان عملا فجائيا من دولة قوية على دولة ضعيفة لم تكن تتوقع هجوماً ولا غزواً ؛ وكان من أهم أسباب نجاحه وجود أشخاص في اسكنديناوه بذلوا للقوات الألمانية مساعدات

عظيمة ، ومهدوا لها سبيل النجاح .

أما فى الميدان الغربى اليوم فقد أقام الألمان حصوناً واستحكامات عديدة ، تتناول ، فيما يقال ، كل ميل من الشواطئ ، ومن الأراضي الواقعة وراء الشواطئ ، ولاشك أن فى هذا النظام تشتيتاً للقوات التى كان يجب أن تركز فى مكان الغزو ، لو أن الألمان استطاعوا أن يعرفوا المكان الذى سيحدث منه الغزو . وسيتوقف نجاح الحلفاء إلى حد ما على مبلغ علمهم بتوزيع هذه الاستحكامات ، ودرجة قوتها ومنعتها ؛ فمن الجائز المقبول عقلا ، أنها تختلف من مكان لمكان . وقد أتيحت للبريطانيين والأمريكان فرص لأن يسبروا غور هذه الحصون ، وأن يلموا بالكثير من أسرارها بفضل الغارات الكثيرة التى قاموا بها ، وبعضها ضخم كبير قد سمعنا به مثل غارة دياب فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٢ ؛ ولكن أكثرها — ولعله أهمها — غارات صغيرة محدودة الذى لا نسمع بها ، ولا يحسها أحد سوى القائمين بها .

ولقد قيل إن لدى الألمان أسلحة سرية خطيرة قد أدخروها خصيصا لكى يدرأوا بها الهجوم على السواحل الغربية . ويكون من العجيب حقا أن تكون لدى الألمان تلك الأسلحة ، ثم يبخلون بها على جيوشهم المتراجعة فى شرق أوربا ، التى لم تزل تتقهقر حتى مكنت الجيوش الروسية من أن تهدد بغزو رومانيا وبالاستيلاء على منابع البترول ذات القيمة العظيمة . لهذا كان الراجح أن الأسلحة السرية لن تكون هى العامل الذى يقرر نتيجة الحرب فى الميدان الجديد ، بل العمليات الحربية نفسها . ولاشك أن الألمان يقدمون ميزة استيلائهم على الشواطئ ، وبطرقهم الحربية لإمداد المحاربين ، وبطول استعدادهم واستحكاماتهم الحصينة . ولكن للحلفاء أيضا ميزات ، منها تفوقهم الجوى ، الذى سيمكن من رجحان كفتهم فى الجو وقت نزول الجنود ؛ ومنها طول الاستعداد والمران ؛ ومنها أنهم وحدهم سيختارون المكان الذى يهجمون منه ؛ وهم وحدهم يعرفون ذلك المكان ويستطيعون أن يركزوا فيه قواتهم . وذلك بعد أن يقوموا بهجمات إيهامية فى أمكنة أخرى لتشتيت قوات العدو .

وقد يكون هنالك زحف آخر من ميادين أخرى ؛ والميدان الإيطالى لم يعده الزعيم الروسى ، فى إحدى خطبه ، هو الميدان الجديد الذى دعا إليه ؛ وذلك لأنه لا يشغل من القوات الألمانية سوى شطر يسير . ولكنه مع ذلك ميدان ثانوى عظيم الخطر ، لأن فقد إيطاليا الشمالية يحرم ألمانيا مزايا اقتصادية وحربية كبيرة . ومن الجائز أن تنشأ ميادين ثانوية أخرى فى جنوبى أوربا ، وسيكون لهذه كلها أثرها فى الحرب . ولكن القتال الرئيسى سيظل دائما فى الميدان الشرقى والميدان الغربى الجديد . لأن الميادين البعيدة لا تتمتع بتلك الإمدادات العاجلة ، والحماية الجوية والبحرية المركزة فى الجزر البريطانية ، والتى لا تمكن أن تؤثر أثرها إلا فى ميدان مجاور لبريطانيا .

وقد خيم الهدوء طويلا على الميدان الشرقى ، مع أن موقف القوات الألمانية فيه قد ضعف كثيراً عما كان عليه . وبديهى أن هذا الهدوء يراد به تجديد قوة الهجوم الروسى بعد المجهود الهائل الذى بذله . وربما أريد به أيضاً أن يتجدد نشاطه فى وقت محدود قد اتفقت عليه الدول المتحدة ، بحيث يكون الغزو فى الغرب مصحوباً بالغزو من الشرق .

لقد علمتنا هذه الحرب ألا نسرف فى التكهن ؛ ومع ذلك فإن من الصعب أن يتصور المرء كيف تستطيع القلعة النازية أن تثبت طويلا أمام هجمات صادقة تشن عليها من الشرق والغرب والجنوب فى آن واحد .!!

محمد عوض محمد

مستقبل الأدب العربي

يعاني الأدب العربي الآن مشكلة من أكبر المشاكل، وهو أنه أدب الخاصة لا العامة، وليس للعامة أدب. ونحن إذا أردنا أن ننهض بالشعوب العربية وجب أن يصل صوت أدبها إلى خاصتها وعامتها معاً؛ فالعامة هم السواد الأعظم في الشعوب، وهم المقياس الحقيقي لرقي الأمة وانحطاطها. فالفلاح في القرى المصرية الذي يكوّن نحو ثمانين في المائة من مجموع الشعب هو الذي يمثل مصر، لا الشاب الذي أخذ درجة من جامعة مصرية ثم أتمّ دروسه في أوروبا أو أمريكا؛ وكوخ الفلاح هو الذي يمثل البيت المصري لا القصر الجميل على ضفاف النيل؛ وشوارع القرية هي التي تمثل شوارع مصر لا شارع الهرم، وهكذا. فإذا أردنا النهوض الحقيقي للأمم العربية فليكن جل اهتمامنا بالسواد الأعظم من العامة لا بالطبقات الخاصة وحدها — إذا أردت تحسين العقلية المصرية أو الشامية أو العراقية فوجّه أكبر همّك إلى تحسين عقلية الفلاح والعامل، ولا تقتصر على العدد المحدود من طلبة المدارس؛ وهكذا في الشؤون المالية والاجتماعية. وإذا أردت وضع «ميزانية» عادلة للشعب فاحسب حساب ما ينال العامة منها وما ينال الخاصة، فإن كان ينال الخاصة أكبر قسط فيها أو نصفها فهي ميزانية أرستقراطية جائرة، وهكذا.

إن من حق العامة أن يستمتعوا بالأدب كما يستمتع الخاصة، وأن يكون لهم أدب يناسبهم كما للخاصة أدب يناسبهم، وأن يكون في أدبهم ما يغذّى عقولهم ويرفع مستواهم، كما يكون فيه ما يتذوّقون منه الفن الجميل — هذا من حقهم على الدولة كحقهم في الماء النظيف يشربونه، والصحة يُعنى بها، وضرورات الحياة تُوفّر لهم؛ فإذا لم يكن للعامة أدب فهم والحيوان سواء، والأمة تجني من هذا الجهل وعدم تذوّق الأدب الصالح والعلم من كثرة الجرائم وانتشار التخريف، وعدم الشعور بالظلم، واستغلال أرباب رءوس الأموال لهم، وهكذا.

والأمم العربية في أسوأ موقف من هذه الناحية. فالكتب، والمجلات، والصحف — وهي الأدب بالمعنى الواسع — ليست إلا للخاصة، ولا شيء منها للعامة؛ ومعنى ذلك أن الخاصة هم الذين يتغذّون عقليا ونفسيا، والسواد الأعظم حرم ضرورات العيش، وحرم أيضا ضرورة العقل والعاطفة وهو الغذاء الأدبي، فأصيب «بالأنيميا» الجسمية والعقلية والعاطفية معاً.

وكم الخاصة وكم العامة؟!

إن الكتاب في العالم العربي يُطبع منه الألف والألفان، وقلما يطبع منه عشرة آلاف، والمجلات والجرائد مهما راجت لا تطبع إلا خمسين ألفاً أو ستين ألفاً، مهما كان أدبها ولغتها متواضعة، ومعنى ذلك أن القراء الذين يتغذون بالكتب والمجلات والصحف لا يتجاوزون المائتي ألف، إذا حسبنا أن الكتاب أو المجلة يقرؤها أكثر من واحد؛ بل ضاعف هذا العدد إن شئت مرة ومرتين وثلاثاً، وانظر نسبته إلى نحو سبعين مليونا يتكلمون العربية في الأقطار الشرقية، فمعنى هذا أن قسمة وستين مليونا فأكثر من الشعوب العربية لا يتغذّون غذاء عقلياً بالكتب والمجلات، ولا يصل إليهم شيء من الأدب في قليل ولا كثير.

وهذه النتيجة مرعبة مفزعة، وهي المقياس الحقيقي للشعوب، وليس هناك أمة حية على وجه الأرض الآن تشقى نصف هذا الشقاء ولا ربعه؛ فالروايات والكتب الأدبية المناسبة تصل إلى آذان الفلاح في حقله، والصانع في مصنعه.

وسبب هذه المصيبة العظمى في الأمم العربية شيئان هامّان:

الأول الأمّيّة الفاشية، فلا تزال نسبتها في الأمم العربية كبيرة جدا بالنسبة للمتعلمين. وحركة انتشار التعليم والتغلب على الأمية — مع ما بذل فيهما من جهد — ضعيفة بطيئة، وليس ينجينا من الأمية السير المتئد الرزين، وإنما الثورة العنيفة على الجهل وعلى الأمية، وحشد كل القوى

المتفشية في الأمة مع إمدادها بكل ما نستطيع من مال لهذه الحرب الشعواء ؛ أما السير الحكيم فلا يمحو الأمية إلا بعد مئات السنين ، والعالم لا ينتظر البطيء فنظل نسير سير الوقور

والسبب الثاني أن لكل أمة عربية لغتين : لغة للكتابة والقراءة والتأليف في العلوم والآداب ، ولغة للكلام في الشارع والمنزل والتعامل ، وأن الفرق بين اللغتين كبير ؛ وهذا عائق كبير عن تقدم الشعوب العربية وثقافتها — نعم إن كثيرا من الأمم كانجلترا وفرنسا وأمريكا لها جمل وتعبيرات وكلمات عامية وأخرى فصيحة ، ولكن الفرق بينهما ليس كالفرق بين لغتنا العامية ولغتنا الفصحى ؛ فلو أنك قرأت كتاباً أو رواية بالإنجليزية على فلاح أو صانع وكان موضوع الكتاب يناسب وعقليته ، أمكنه أن يفهمه في سهولة ، ويشعر أن ليس هناك فرق كبير بين ما يتكلم وما يقرأ ويسمع ، وهكذا الشأن في الفرنسي والأمريكي وليس كذلك عند العربي .

وقد أنتج هذا الفرق الكبير بين العامية والعربية الفصحى نتائج سيئة جداً ، منها صعوبة نشر التعليم في أوساط كثيرة واسعة ، ولا يكون هذا إذا تقاربت اللغتان ؛ ومنها حرمان العامة من تذوق النتاج الأدبي العربي ؛ ومنها أن ما يكتب باللغة العربية الفصحى نفسه في الموضوعات الأدبية التي تمس الحياة الواقعية ليس فيه الحياة التامة ، لأن استعمال الكلمات والجمل في الشارع والمنزل يضفي على اللغة نوعا من الحياة لا تستفيده إذا عاشت بمعزل عن الاستعمال اليومي ؛ فلكل كلمة وكل جملة تستعمل على الألسنة هالة غير المعاني المكتوبة في المعاجم ، فإذا قصرت على التفاهم بين الخاصة لم يكن لها هذه الهالة .

وأهم فرق بين اللغة العامية واللغة الفصحى ، وأهم صعوبة في انتشار اللغة الفصحى — في نظري — الإعراب . لقد فشلنا في تعليمه حتى للخاصة والمثقفين ، فهذا متخرج الجامعة قد صرف تسع سنوات على الأقل في المدارس الابتدائية والثانوية يتعلم النحو ، ثم عدداً من السنين في الجامعة ، ومع ذلك قل جداً من يستطيع أن يكتب صفحة خالية من الخطأ النحوي — ومثلهم المثقفون ثقافة عامة ومن قرأوا لأنفسهم كثيراً وكتبوا كثيراً ؛ فكيف نطمع أن نصل إلى نتيجة باهرة إذا أردنا نشر تعليم اللغة العربية في أوساط العامة ، وكيف نلزمهم أن ينصبوا الجمع المؤنث السالم بالكسر ، ويجروا الممنوع من الصرف بالفتح ونحو ذلك ؟! إذا كلفناهم ذلك فقد كلفناهم شططا ، وكانت النتيجة لا محالة الفشل في تعميم التعليم . إن ذلك قد صعب على الخاصة فكيف بالعامة ! !

هذا أهم عائق يحول دون تعميم التعليم ، ودون فهم العامة للأدب العربي . فما الحل ؟

إني أرى رأياً أعرضه على أولي الرأي للتفكير وتقليبه على وجوهه المختلفة ، وهو اصطناع لغة عربية خالية من الإعراب ، وخالية من الألفاظ الضخمة ، ومستعملة للكلمات العامية التي هي أيضاً عربية ومجردة من خرفشة اللغة العامية . فنقول : «لا أحب» بدل «ما أحبش» ، وأستعمل بدل «حاعمل» ، وأسكن آخر الكلمات كلها من غير إعراب ، فأقول : « محمدْ شاركْ علي في التجارة » ، ونحو ذلك .

وهذه اللغة التي هي وسط بين العامية والفصحى هي التي يجب أن نعتمد عليها في نشر التعليم بين العامة ، ويكتب بها بعض الأدباء رواياتهم ، ويؤلف بها بعض المؤلفين الكتب الشعبية ، ويتحدث بها المتحدثون في الراديو ، والخطباء في خطبهم الشعبية ، وهكذا .

بذلك نستطيع أن نقارب بين العامية والفصحى ، وبذلك نستطيع أن نسهل تعليم العربية ، وبذلك نستطيع أن نوصل الأدب العربي إلى سواد الناس ، ولتبق اللغة العربية الفصحى لغة الخاصة يكتبون بها المتخصصين ، ويقرءون بها التراث القديم ، وينتفعون به ، وينقلون منه ما شاءوا إلى اللغة الجديدة لنفع الجمهور ؛ وستكون هذه اللغة الجديدة صالحة لأن يصاغ بها الفن الأدبي على أشكاله وأنواعه . فاللغة العامية — على سوء ما فيها — استطاعت

أن تخرج الزجل الجميل والروايات الرائعة ، فهذه اللغة الجديدة التي تعد عربية إلا في الإعراب وغرابة الكلمات ، تكون أصلح في هذا من اللغة العامية وأطوع للفن . وستكون أيضاً صالحة للتفاهم بين الأمم العربية كلها لا كاللغة العامية الخاصة لكل شعب .

إن لغة الوقف « تسكين الأخر » هي اللغة التي عمت الإنجليزية والفرنسية والطليانية ، وهي الأصلح للزمان لسهولتها ومناسبتها للجمهور ، وكثير من اللغات تدرج في تطوره الطبيعي من لغة مُعْرَبَة إلى لغة غير معربة .

ستصدم هذه الفكرة — من غير شك — بعض العقول لأنها غير مألوفة ، ولكن أرجو أن تُبحَث في هدوء على ضوء المنفعة لا على ضوء التعصب للقديم .

وإذا كانت عقولنا لا تزال لا تؤمن بالرأي إلا إذا دُعِم برأي عالم قديم ، فأقول إن في ثنايا مقدمة ابن خلدون ما يؤيد هذا الرأي ويدعو إليه . قال في فصل عنوانه : « إن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير » ، يؤيد أن اللغة العامية الساكنة الأخر فيها بلاغة ، وفيها فنون الأدب ، ما نصه : « وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد (أي بعد أن زال الإعراب من لسانهم) ، ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة — أهل صناعة الإعراب القاصرة عن مدارككم من التحقيق — حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربي فسد ، اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من الإعراب الذي يتدارسون قوانينه ، وهي مقالة دسّها التشيع في طباعهم ، وألقاها القصور في أفئدتهم ، وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى ، والتعبيرُ عن المقاصد والتعاون فيه — بتفاوت الإبانة — موجودة في كلامهم لهذا العهد ، وأساليبُ اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم ، وفهمُ الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم ، والذوقُ الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ، ولم يُفقد من أحوال اللسان المدوّن إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط » .

وقال في موضع آخر من هذا الفصل في صميم الموضوع :

« ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد (عهد ابن خلدون) ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها ، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر . فليست اللغات وملكاتها مجانا ، ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته » .

في هذين النقلين عن ابن خلدون أرى أنه يقرّر في النص الثاني إمكان الاستغناء عن الإعراب والاستعاضة عنه بقوانين تحل محله ؛ مثال ذلك — على ما أفهم — أن رفع الفاعل يدل على الفاعلية ، ونصب المفعول يدل على المفعولية ؛ فإذا قلت : « أقرض محمدٌ عليًّا » دل الرفع على المقرض والنصب على المقترض ، ولذلك يجوز لك أن تقول أقرض عليًّا محمدٌ من غير أن تخل بالمعنى ؛ فإذا حذفنا الإعراب فلا بد من قانون جديد يدل على الفاعلية والمفعولية ، كأن تقدم من فعل الفعل ملتزما ذلك ، فتقول « محمد أقرضْ علي » فهذا مثل من أمثلة القوانين التي يقتضيها حذف الإعراب .

وأما النص الأول من كلام ابن خلدون ففيه الدفاع عن لغة الكلام الخالية من الإعراب ، وأن لها بلاغة وأدبا وشعراً ونثرا ، وأن البلاغة والفن ليسا مقصورين على اللغة المعربة ، فليس الإعراب — كما يعبّر في موضع ثالث إلا بعض أحكام اللسان .

إذا تم ذلك رجوت أن تصبح اللغة الجديدة أداة طيّعة لنشر التعليم ، ووصول الأدب إلى أكبر عدد ممكن ، وهذا ما أتوقع أنه سيكون في المستقبل القريب أو البعيد ، وكلما قرب كان أدعى إلى سرعة النهوض ، وانتشار الأدب ورقي العقل والعاطفة في الشعوب ، والله الموفق للصواب .

أحمد أمين

حول توحيد التعليم
الابتدائى والأولى

حضرة الأستاذ المحترم رئيس تحرير الثقافة .

نشرتم فى الأعداد ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ سلسلة مقالات شائقة لصديق الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك ، علّق فيها على وجهات النظر المختلفة التى أبديت أخيراً فيما يتعلق بإصلاح التعليم فى مصر . وقد تناول فيما تناوله بالبحث الآراء التى أدليتُ بها فى المحاضرتين اللتين ألقيتهما فى الجمعية الجغرافية فى الشتاء الماضى ، والكتاب الذى نشرته لى لجنة التأليف والترجمة والنشر متضمنا هاتين المحاضرتين وتقريراً سابقا لى عن التعليم الإلزامى . وإنى أشكر لصديق ما تفضل به من تأييد عام لهذه الآراء ، ومن ثناء كريم على شخصى ، ولكن هناك نقطة فيما كتبه أراها بحاجة إلى التوضيح .

نوّه الكردانى بك بالدعوة التى وجهتها لتوحيد المرحلة الأولى من مراحل التعليم لجميع أبناء الأمة وبناتها ، توصلا إلى تحقيق العدالة الاجتماعية أولا ، وإيجاد أساس مشترك تقوم عليه وحدة الأمة الثقافية والاجتماعية ثانيا ، وتمكين البلاد من الانتفاع بكثير من الكفايات التى تقبر فى المدارس الإلزامية الحالية ثالثاً . وهو يؤيد هذه الفكرة تأييدا حارا ، وقد وفق كل التوفيق فى الموازنة التى عقدها فى مقاله الأخير بين حجج أنصار التوحيد وحجج معارضيه . ولكنه مع ذلك زعم أنه يخالفنى فى الطريقة العملية لتحقيق الفكرة ، إذ يعترض على ما اقترحته من جعل أساس التوحيد تعميم التعليم الابتدائى ، ويقول فى ذلك المقال : « إن تعميم التعليم الابتدائى غير ممكن من الوجهة المالية ، بل إن فيه إسرافا يحدو بنا إلى العدول عنه ، وإلى تركيز جهودنا الفكرية والمالية فى رفع مستوى المدرسة الأولية وتعميمها » .

وقد كتب الكردانى بك كثيرا فى عرض هذا الرأى وتدعيمه ، مما قد يشعر بعض القراء بأن الدعوة لتوحيد المرحلة الأولى من التعليم قد تشعبت إلى فكرتين مختلفتين هناك وجه المفاضلة بينهما . والحقيقة أنه ليست هناك إلا فكرة واحدة ، وأن الخلاف الذى زعمه الكردانى بك بين ما يقوله وما اقترحته ليس إلا خلافا فى اللفظ .

فالكردانى بك يريد أن تقوم حركة التوحيد على أساس تعميم المدرسة الأولية بعد إصلاحها ورفع مستواها . وهو يعلق أهمية كثيرة على هذا الإصلاح ، لأنه يقرر فى مقاله الأول أن المدرسة الأولية الحالية « قد ثبت فشلها للجميع » ، ويؤكد ذلك فى مقاله الأخير ، إذ يقول إن التعليم الأولى « قد ثبت فشله بصفة قاطعة » ، ويقول أيضا إن من فوائد التوحيد أنه يؤدى إلى « النهوض بالتعليم الأولى الفاشل الذى اعترف الجميع بأنه وصمة فى جبين الأمة ، وعار يجب أن نتخلص منه بأول فرصة » ؛ ثم يتساءل فى خلال هذا المقال نفسه « هل من العدالة الاجتماعية أن يحشد المدرسون الذين أعدوا إعدادا جيدا ، والذين تعلموا لغة أجنبية تمكنهم من الاطلاع على ما يجرى فى العالم كله ، وأن يختص بالأدوات الجيدة المريحة ، والكتب القيمة ، والمبانى الفسيحة ، فريق واحد ؟ هل من العدالة الاجتماعية أن يسخَّر كل ذلك لخدمة فئة قليلة من أبناء الأمة ، وتحرم الأغلبية العظمى منه ، إذ يلقى بها فى تلك المدارس القذرة المكتظة المهملة الفاشلة ؟ » .

الكردانى بك إذن يريد أن يلتحق جميع الأطفال المرحلة الأولى من التعليم فى المدرسة الأولية ؛ ولكنها بطبيعة الحال ليست المدرسة الأولية الحالية التى وصفها بكل هذه الأوصاف ، بل مدرسة تكون يد الإصلاح قد تناولت مدرسيها وأدواتها وكتبها ومبانيها ، وهذبتها تهذيباً يزيل ما بها من وصمة تصم جبين الأمة ، وهو يرى أن هذا فى حيز الإمكان . وهذه المدرسة الأولية مدرسة ذات أربع فرق ، يدخلها الأطفال فى سن الخامسة أو السادسة ، ويبقون بها فى العادة إلى سن العاشرة ؛ ومناهجها لا تختلف ، كما يقول الكردانى بك ، من مناهج المدارس الابتدائية إلا فى اللغة الأجنبية .

هذا ما يبديه الكرداني بك ، فما الذي اقترحته في المحاضرتين ؟ قلت : « إن حجر الزاوية في سياستنا التعليمية ينبغي أن يكون تعميم التعليم الابتدائي ، وجعله المرحلة الأولى من التعليم الإلزامي الحالي لجميع المصريين ، على أني لا أقصد تعميم التعليم الابتدائي بصورته الحاضرة ، إذ أن تعديل الغرض المقصود منه وتحويله إلى تعليم شعبي ، لابد أن يترتب عليه تغيير جوهري في نظمه وخططه » . وبعد بحث طويل استعرضت فيه شتى الاعتبارات النفسية والتعليمية ، انتهيت إلى اقتراح تقسيم التعليم العام إلى ثلاث مراحل ، مدة كل منها أربع سنوات ، وتخصص لكل منها مدرسة مستقلة . فالمدرسة الابتدائية لمرحلة الطفولة ، وتكون حدود السن فيها من ست سنوات إلى عشر ؛ والمدرسة الوسطى لمرحلة المراهقة ، وتكون حدود السن فيها من عشر إلى أربع عشرة ؛ والمدرسة الثانوية لمرحلة البلوغ ، وتكون حدود السن فيها من أربع عشرة إلى ثماني عشرة .

فالمدرسة الابتدائية الشعبية التي اقترحتُ تعميمها في مدة عشرين سنة ، هي مدرسة للأطفال من ست سنين إلى عشر ، فهي من هذه الناحية مماثلة للمدرسة الأولية الحالية ، ولكنها تختلف عنها في روحها وأساليبها ومبادئها . وقد رسمت لها صورة تبين أن المقصود أن يتلقى فيها الأطفال من بنين وبنات تعليما ملائما لطبيعة الطفولة ، يقوم على النشاط الفطري للصغار ، ويشتمل على تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، ودراسة البيئة المباشرة دراسة مبنية على المشاهدة الحسية ، ولا تدخل فيها اللغة الأجنبية . ويقوم بالتعليم فيها معلمات ومعلمون يعدّون على نظام مماثل لنظام إعداد معلمات رياض الأطفال في الوقت الحاضر ، ويكون المعلم « معلم فصل » لا « معلم مادة » .

فأي ترف أو إسراف يراه الكرداني بك في هذا ؟ أليست هذه هي الصورة التي ينبغي أن تكون عليها المدرسة الأولية ، حتى يمكن أن يقال حقيقة إنها قد أصلحت إصلاحا فعّالا ؟! الحق أني لا أفهم أن يقال إن هذا ترف ، بل أفهم أن يقال إنه قليل لا يكفي لتزويد أبناء الأمة بالحد الأدنى من الثقافة اللازم للحياة في مجتمع راق . ولذلك قلت إننا بمجرد أن نفرغ من تعميم هذا التعليم الابتدائي ، يجب أن نعمل على تعميم المرحلة التالية له ، وهي مرحلة المدرسة الوسطى إلى سن ١٤ ، وقدرتُ لذلك مدة عشرين سنة أخرى . فإذا حققنا هذا فإننا سنبلغ بعد ٤٠ سنة ما بلغته الإنجلترا مثلا في هذه الناحية منذ أوائل القرن الحالي . فإذا رأينا أن هذا كثير علينا ، وأننا لا نستطيع تدبير المال اللازم له ، فلنعرف قدرنا بين الأمم ، ولنكفّ عن التشدق بألفاظ التقدم والنهضة ومجاراة الحركات العالمية .

بقي أن الكرداني بك حريص على الانتفاع بمعلمي التعليم الإلزامي الحاليين ، وأن تهيأ لهم الأسباب ليتقدموا ويوسعوا أفقهم وينموا ثقافتهم . ولست أخالفه في ذلك ، فإن إخراج المعلمين الجدد للمدارس الابتدائية الشعبية لن يتم في يوم وليلة ، وسنحتاج حسب اقتراحي إلى عشرين سنة لتعميم هذه المدارس ، وفي خلال هذه المدة تكون هناك مدارس أولية من النوع القائم ، ومن الطبيعي أن نبذل كل ما في وسعنا للنهوض بمعلميها . ولقد أدليت باقتراحات عملية لتحقيق ذلك في الصفحات ١٤٠ - ١٤٣ من كتاب « سياسة التعليم في مصر » .

بل إني ذهبت إلى أبعد من ذلك ، إذ اقترحت أن تحوّل المدارس الأولية الحالية التي لها مبان صحية صالحة إلى مدارس ابتدائية من النوع الجديد ، إذ أن أعمار التلاميذ فيها هي أعمار تلاميذ المدرسة الحديثة بعينها ، وأن يختار الصالحون من معلمي التعليم الأولي الحالي ومعلماته للتدريس بهذه المدارس .

أفبعد هذا يبقى بين ما يقوله الكرداني بك وما دعوتُ إليه خلاف يستحق أن يتشعب من أجله الرأي بين أنصار التوحيد ، ويلقي ظلاً من الشك على القيمة العملية للفكرة ؟

اسماعيل القباني

من منبر الشرق :

بطليموس الغريب

لا شك أنك اطلعت على تلك السلسلة من البحوث في تاريخ الفكر اليوناني ، بل الفلسفة اليونانية التي أنشأها صديقنا « عبد الرحمن بدوي » وتأنّق بها تأنّقاً . ولست في حاجة أن أقرّظ أمامك الجهود العظيم الذي بذله « عبد الرحمن » في أداء مهمته ، أي في تقديمه إلى شباب الشرق « المتثقف » النتائج التي وصل إليها علماء الغرب أثناء ممارستهم الطويلة لفكر أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم ، وإقبالهم عليه ، وإمعانهم فيه جيلا بعد جيل ؛ ولا ينتظر صديقنا « عبد الرحمن » مثل هذا التقريظ مني ، بل بالعكس إنه يطالبني دائماً بنقد وبتصحيح ما عسى أن وقع فيه من الهفوات ، إن أمكنني التصحيح ، وأن أشجعه على تنقيح كتبه كي ينشرها نشرة ثانية منقاة من الشوائب ، أو كي يحرر آراءه في المستقبل تحريراً جديداً عند ما يبلغ هذا الشاب أشُدَّه ، ويصبح فيلسوفاً بعد أن كان متفلسفاً .

ومن قصدي اليوم أن أحدثك عن إحدى تلك « الهفوات » التي صاحبها معذور فيها كل العذر ، إذ أنّ المراجع التي تمكننا من تصحيحها لم تكن تحت يده ، بل كانت مدفونة في خزائن الكتب المحفوظة مع سائر ما تحويه تلك الخزائن من الذخائر والكنوز التي تنتظر مَنْ عسى أن يكشف عنها . وقصدي أن أحدثك عن بطليموس الغريب .

ذكر « عبد الرحمن بدوي » في كتابه في فلسفة أرسطو (ص : ٣٧ — ٣٨) ذلك الثبت القيّم لكتب أرسطو الذي لم يصل إلينا إلاّ عن طريق العرب ، إذ قد ضاع أصله اليوناني ، وهو منسوب عندهم إلى شخص اسمه بطليموس الغريب . وقال : « وقد وضع Rose هذا الثبت في مقدمة الشذرات التي نشرها لأرسطو ، وقال إننا نستطيع أن نتعرف هذا الشخص ، إذ يوجد من بين شراح أرسطو شخص اسمه بطليموس ، وهو الذي اعتمد عليه أندرونيقوس في حصره لمؤلفات أرسطو . ويلاحظ أن صاحب هذا الثبت يقول إن لأرسطو ألف كتاب ، ويقصد بالكتاب هنا المقالة . ولكن يلاحظ أن الوارد في الاثنين والتسعين كتابا المذكورة في ثبت بطليموس هذا ، لا يصل إلى ألف مقالة . ونحن نعرف من ناحية أخرى أن أندرونيقوس قد حصر مؤلفات أرسطو ، فقال إنها ألف كتاب ، أي ألف مقالة . ومن هنا يمكن أن يقال إن بطليموس هذا هو الذي أخذ عنه أندرونيقوس »

واعُذرتاه يا عبد الرحمن ! إن أكثر ما تقوله في هذه الصفحة تخمين يزول أمام الحقائق إذا اطلعت عليها ، ولن يبق منه إلا أن الثبت الوارد في بعض الكتب العربية منسوب لرجل اسمه بطليموس الغريب ، وإن كان هذا البطليموس ليس متقدما على أندرونيقوس بل متأخراً عنه كما سترى .

إنها لأثر جليل . تلك الرسالة التي عرفها العرب باسم « رسالة بطليموس الغريب في سيرة أرسطوطاليس ووصيته وفهرست كتبه » . إنها من أهم مصادرهم في أخبار أرسطو ومؤلفاته ، ولذلك تجد أكثر أصحاب تواريخ العلماء يعتمدون عليها منتخبين منها أجزاء أو ملخصين معانيها . فهناك ابن النديم في فهرسته (ص ٢٤٦) الذي ينقل منها فصولا في حياة أرسطو ، وقد اتبعه فيه ابن القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٣٢ طبعة أوربا) ، وأضاف إليها ثبت كتب أرسطو الذي وجده في تلك الرسالة . وقد استفاد ابن أبي أصيبعه (ج ١ ص ٥٤) من مصدره الفائدة الكبرى ، إذ نقل منه أكثر ترجمة أرسطو ، وكذلك وصيته مضيفاً إليه فهرست كتبه على نمط ابن القفطي . غير أنه لم يُعثر إلى الآن على الرسالة بتمامها ، ولم يعرف بعد

مغزاها العام وترتيب أجزائها .

هذا وقد أرسل إلى قبل بضعة سنين الأستاذ العلامة هـ . ريتر قاطن اسلامبول صورة شمسية من مخطوطة محفوظة فى خزانة أيا صوفيا رقم ٤٨٣٣ ، وإذا فيها النص الكامل لرسالة بطليموس التى نحن بصددها .

على أنى لا أريد أن أبادر إلى محادثتك فى تلك المخطوطة قبل أن نتحرّى ما فى سمعة علمنا بمؤلفها . فقد أورد ابن النديم (ص ٢٥٥) وابن القفطى (٨٩) ترجمة لهذا المؤلف « الغريب » وقالا عنه : « هـذا رجل حكيم فى وقته ، فيلسوف ببلاد الروم فى زمانه ، ليس هو مؤلف المجسطى ، وكان هذا يوالى أرسطوطاليس ويحبه وينتصر له على من عاداه ويفيد علومه لمن طلبها منه ، وكان له ذكر فى أوانه واشتهار بهذا الشأن . والبطالسة (جمع بطليموس) من الملوك والعلماء جماعة ، وكانوا يخصصون كل واحد بصفة زائدة على التسمية ليتميز بها . ومن كثرة عناية هذا الحكيم بأرسطوطاليس صنف كتاب أخبار أرسطوطاليس ووفاته ومراتب كتبه »

ليس من شك أن ابن النديم — وكذلك الناقل عنه ابن القفطى — قد تورّط فى خطأ فاحش عندما أراد إظهار معرفته باليونانيات وبشأن البطالسة ملوك مصر ، إذ نسب رسالتنا إلى أحد منهم . ولكن من هو بطليموس الغريب هذا ؟ يظهر أن صفة « الغريب » محرفة ، إذ كان مثل هذا المؤلف غير معروف بين القدماء . على أن هـذا التحريف لم يقع فى العربية بل فى الأصل اليونانى نفسه ، أو فى الترجمة السريانية التى هى كالواسطة بين الأصـل اليونانى والنص العربى . وقد اهتدى العلمـاء إلى أن « الغريب » ليس إلا ترجمة الكلمة اليونانية Ksenos (كسينوس) وأن هذه الكلمة حُرّفت من Khennos (خينوس) لاشتباه حرفى Ks و Kh بالخط اليونانى ، أما بطليموس خينوس فهو مؤلف ذكره البطريرك فوتيوس فى « مكتبته اليونانية » وأخبرنا Suidas أنه عاش فى عهد نيرون من قياصرة الرومان . ولست أعرف إن كان بطليموس هذا هو بطليموس الثـانى الذى ورد اسمه فى بعض الكتب اليونانية المتأخرة .

أما رسالتنا فقد عُثر على ذكرها مرة وحيدة فى الآداب اليونانية ، وذلك أن إلياس الشارح لكتب أرسطو الذى عاش فى القرن السادس للميلاد يقول فى « مقدمته لمقولات أرسطو » ما يلى : « ويجب أن نبحث عن تقسيم الكتب الأرسطية إذ كانت كثيرة ، وكان عددها نحو ألف كتاب كما قال بطليموس الذى عمل ثبتها وحرّر سيرة أرسطو ووصيته » .

وقد استغرب الباحثون ذلك التعارض العجيب الذى يظهر بين ما ذكره إلياس فى شأن ألف كتاب لأرسطو ، وبين الاثنين والتسعين عنواناً التى وجدوها عند ابن القفطى وابن أبى أصيبعة . أما الآن — بعـد عثورنا على نص الرسالة الكاملة — فإنه يتبين أن هذا التعارض لم يكن إلا وهمياً ، ومبنياً على عدم معرفتنا لمقدمة الرسالة . ليس من المقصود بذكر ألف كتاب من أن بطليموس أحصى ألف عنوان فى رسالته ، بل فى ذلك إشارة إلى رسالة أخرى فى فهرس كتب أرسطو ، أعنى رسالة أندرونيقوس التى ذكرها بطليموس فى مقدمة كتابه ، والتى كانت — هى الأخيرة — تسرد ألف عنوان لمقالات أرسطو ومقالات تلاميذه .

لا يسمح المجال كى أورد هنا رسالة بطليموس بتمامها ، وأن أضع أمامك بحثاً مفصلا من قيمتها وعن ترجمتها من اليونانية إلى السريانية أولا ، وإلى العربية ثانياً . وها أنا أكتفى هنا أن أسرد أمامك نخباً ملتقطة من مقدمتها ، إذ كانت تلك الحقائق التى أوردناذكرها فضلا عما تدلك عليه من أسلوب اليونانيين فى تأليف رسائلهم الذى لاشك يذكرك أمثالا ونظائر معروفة لك من الأدب العربى ولعلك توافقنى أيضا على أن لغة الرسالة المترجمة بديعة إلى حد بعيد ، وهى تطلعك على ما كان للمترجمين العرب من

تحليل رأى الجاحظ

عن الطيور المهاجرة

منذ ألّف المستشرق الهولاندى رسالته عن « الجاحظ الفيلسوف الطبيعى العربى فى القرن التاسع » ، أخذ المستشرقون ينظرون إلى الجاحظ بجانب ماله من المكانة فى الأدب وفى الاعتزال كفيلسوف طبيعى من الطراز الأول . ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة ، ولكنه لم يترجم مع الأسف إلى اللغة العربية رغم حاجة الناطقين بالضاد إلى ذلك الحاجة الماسة . ومن الضرورى القيام بدراسة جديدة حول هذا الموضوع لمقارنة ما درسه ذلك الهولاندى وما غفل عنه ، سيما والعلوم الطبيعية قد تقدمت فى زماننا الحاضر ، ولزم معها تجديد تلك الدراسات على ضوء جديد . ولعدم وجود المصادر وعدم اهتمام مجمعنا العلمى فى دمشق فى مثل هذه القضايا الهامة ، فإنى سأضرب صفحا عن هذه الدراسة ، مشيرا إلى أهمية هذه الأبحاث بمثال بسيط عن الطيور المهاجرة التى تترك أوطانها ثم تعود إليها ، مقارنا بين رأى الجاحظ وبين رأى عالم إنجليزى معاصر ، كما نوه عن ذلك فى كتابه نفسية الحيوان ، نشره باللغة الإنجليزية منذ أمد قريب .

يحدثنا الجاحظ فى كتاب الحيوان عن الحمام الزاجل ، وعن كيفية رجوعه إلى وطنه ، ولقد رأى أن فى هذا الأمر عجبا ، ذاكرا لنا محاورة جرت بين أبى إسحاق وبين مثنى ابن زهير ، وقول الأخير إنه يبلغ من كرم الحمام ووفائه وثبات عهده وحنينه إلى أهله ، أنه ربما قص الطائر وهو بعد أن طار منه زمناً طويلا ، فمتى نبت جناحه عاد إليه ، وكلما زهد فيه كان إليه أرغب . ويعلّق الجاحظ على هذه القصة سائلا : هل الطير يحن إلى صاحبه أم إلى عشه

القدرة على التعبير البديع .

وهاك بدء الرسالة : « إنى لما تذكّرتُ ما كنتَ قلتَ لى من أنك تحب أن تقتنى كتاباً فيه ذكر كتب أرسطاطاليس ، فأريتك على المكان ما كتبه فى ذلك أندرونيقس الذى من مدينة رُدُس ، فسألتنى أن أؤلف فى ذلك كتاباً أشدّ اختصاراً وأشرحَ كلاماً ، رأيتُ أن أؤلف لك هذا الكتاب . وتركتُ أن أذكر غرض أرسطوطاليس فى أقواله كراهية التطويل ، ولأنى رأيت ذلك — إن فعلته — فضلا ، إذ كنتَ الرجل الذى ليست حالك حال من يعرف كتب أرسطوطاليس معرفة تمييزها والوقوف على حقائق ما يذكر فيها ... » .

ويقول مؤلفها فيما بعد : « وأنت ستقف على صحة ما ذكرت من مراتب الكتب ، وأنت تعلم أن هذا الكتاب كتاب إنما تمّ بالعناية منى ، وأنه كتاب أوحد ، وأنى لم أستعن على هذا الترتيب بأحد . وذلك لأن كتاب أندرونيقس فى هذا لم يحضرنى . ولذلك لا تمنعك اقتناؤك كتابى هذا من اقتناء ذلك . ولا تعجب من أن يكون أندرونيقس قد عدّد فى كتابه نحواً من ألف قول ، والذى ذكرنا نحن أقل . وذلك أنّا لو آثرنا أن نذكر جميع المقالات المنسوبة إلى أرسطوطاليس والمنسوبة إلى ثاوفرسطس لم يكن عددها بالقليل . — وأنا مبتدئ بقول مختصر أذكر فيه سيرة أرسطوطاليس وخبره ، ثم أذكر فيه وصيته التى أوصى بها وقت وفاته على ما تناهى إلينا ، فإنك سألتنى ذلك .

ثم أذكر بعد ذلك فهرست كتبه من غير أن أبيّن كتبه التى جرت مجرى الإيجاد من غيرها ، لأن ذلك يحتاج إلى زيادة فى القول وطوله . وإن أردت ذلك لمْ أدَعْ أن أتكلفه لك وإن غبت عنى وأكتب به إليك ، أو أعلّمكه إذا التقينا » .

فهذا ما أردت أن أقوله فى هذا الشأن ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

باول كراوس

الذى درج منه ؟ أرأيت أن لو رجع إلى وكره الذى رُبى فيه ؟ ثم لم يجد صاحبه وألفاه غائبا أو ميتا ، أكان يرجع إلى موضعه الذى خلفه ؟ أخيراً يقرر الجاحظ أن الباعث على الرجوع الحنين إلى الوطن ، ويستدل بذلك بالطيور المهاجرة ، التى «خرجت تقطع الصحارى والبرارى والجزائر والغياض والبحار والجبال حتى تصير إلينا فى كل عام . فإن قلت إنها ليست تخرج إلينا على سمت ولا على هداية ولا دلالة ، ولا على أمارة وعلامة ، وإنما هربت من الثلوج والبرد الشديد ، وعلمت أنها تحتاج إلى الطعم ، وأن الثلج قد ألبس ذلك العالم ، فخرجت هاربة ، فلا تزال فى هربها إلى أن تصادف أرضاً خصباً ودفئاً فتقيم عند أدنى ما تجد ؛ قلنا تقول عنها عند رجوعها ومعرفتها بانحسار الثلوج من بلادها ، أليست قد اهتدت طريق الرجوع ؟! ومعلوم عند أهل تلك الأطراف وعند أصحاب التجارب وعند القانص أن طير كل جهة إذا قطعت رجعت إلى بلادها وجبالها وأوكارها وإلى غياضها وأعشتها ... ... ثم لا يكون اهتداؤها على تمرين وتوطين ، ولا عن تدريب وتجريب ، ولم تلقن بالتعليم ولم تثبت بالتدبير والتقويم» . فالجاحظ هنا أمام لغز معقد لم يقدر العلم الحديث أيضا على حله ، كما سنرى ذلك .

يقول عالم الحيوان الإنجليزى « موزو فوكس » فى كتابه نفسية الحيوان الذى نوهت عنه فى بحث الطيور المهاجرة ، بعد أن يصفها لنا وصفاً شائقاً ما يلى : «لعل مهاجرة الطيور هى من أكبر ألغاز العالم ، فالخطاف الذى يترك الجزر البريطانية فى شهر أغسطس يطير إلى إفريقيا ويظل فيها مقيما طول فصل الشتاء ، وهو يعود فى الربيع إلى نفس عشه ... » . وهو يرى أن المسافة شاسعة بين المكان الذى يهاجر إليه الطير وبين موطنه الأصلى التى قد تبلغ زهاء ٦٠٠٠ ميل ، ورغم كل الفرضيات التى يسردها لا يقر على شىء ، معتقدا أن المستقبل سوف يكشف هذه القضية أيضا : «إنه لا يخامرنى شك بأن التجارب العلمية المستقبلة سوف تعطى التفسير» ، فالمحاكمة التى يبديها الجاحظ فى هذا الصدد هى محاكمة منطقية ، وهو لا يجد أى تفسير لهذه الظاهرة الطبيعية الغريبة . وها قد مضى على قول الجاحظ أكثر من ألف سنة وهى لا تزال لغزاً معقدا ، حتى أن الجاحظ لم يتنبأ عن أى مستقبل لهذه الفكرة كما فعل الطبيعى الإنجليزى ، بل كان يكتفى فى تبيان الأمر الواقع ساعيا لتعليل تلك الظواهر تعليلا منطقيا .

ينوه كذلك الجاحظ عن حوادث تدل على وجود الفكر والروية عند الحيوان ، ذلك البحث العصرى الذى استرعى انتباه المدققين فى زماننا الحاضر ، فقد أفرد له موزو فوكس بحثاً خاصاً سماه العقل عند الحيوان ، لأنه وجد بعض أعمال منه تدل على فكر وروية ، لذلك طرح هذا العالم هذا السؤال : «إذا وضع الحيوان بحالة خاصة ، هل له القدرة من تلقاء نفسه أن يفكر بأشياء جديدة فيعمل رأيه ويقوم بأعمال جديدة ؟ وقد أجاب عن ذلك بنعم ، وضرب لنا أمثلة من الحيوانات وخاصة عن القرد الذى استطاع تناول الموز المعلق بوضع صناديق بعضها فوق بعض والاستعلاء عليها . نعم إن الجاحظ لم يصل بتفكيره وخبرته إلى هذا الحد ، ولكنه ذكر لنا أشياء من عالم الطير تدلنا على اقتناعه بوجود العقل عند الحيوان : «وللحمام حسن الاهتداء وجودة الاستدلال ، وثبات الحفظ والذكر ، وقوة النزاع إلى أربابه ، والإلف لوطنه ... ثم الدليل على أنه يستدل بالعقل والمعرفة والفكرة والعناية أنه يجىء من الغاية على التدريج والتدريب والتنزيل ؛ والدليل على علم أربابه بأن تلك المقدمات قد نجعن فيه ، ويحملن فى طباعه أنه إذا بلغ الرقة غمز وأنه قطر إلى الدرب وما فوق الدرب من بلاد الروم ، بل لا يحملون ذلك تمييزاً لمكان المقدمات التى قد عملت فيه وحذقته ومرنته» . هذه الملاحظات والاستدلالات التى يدلى بها الجاحظ تذكرنا بالتجارب العلمية العصرية ، فهو يفرق بين الطيور المهاجرة التى تترك أوطانها

ثم تعود إليها من غير سابق تمرين ومعرفة ، وبين الحمام الزاجل الذي يتعلم ذلك ، فكأنه يدلنا على مصدري المعرفة في عالم الطير التي تشبه عالم الإنسان أيضا ، المعرفة الفطرية والمعرفة العقلية المكتسبة . ولعل هذا التفسير آت من من مذهبه في الاعتزال الذي يجمع بين الوحي الفطري الكائن في الجبلة دون سابق معرفة وتمرين ودون مقدمات ونتائج ، وبين عالم العقل المستمد من العالم الحسي مع عمل الفكر والروية . إذن إن الجاحظ سابق لعلماء العصريين أمثال أرنست هيكل القائل بأن طبيعة الإدراك في الحيوان والإنسان من جوهر واحد .

ثم إن الجاحظ لا يذكر لنا شيئا من طبيعة عقل الحيوان كما ذكر ذلك موزو فوكس في المقال السابق عن القرد ، بيد أنه يضرب لنا مثلا شروداً عن حيلة القرد في تجهيز اللقمة ، وكسر الجوز واستخراج لبه ، وقابليته لتعلم السباحة ؛ غير أن تعلم السباحة يفترق فيها عن الشاهين السابقين ، لأن ذلك لا يكون إلا بتمرين وتقليد ؛ حتى إن التدريب والتقليد هما كما يعدهما فوكس مرحلة بدائية من مرحلة العقل ، فعلى هذا تكون فرضية العقل عند الحيوان قد أتى بها الجاحظ أيضا . وإذا صح ما جاء في المختار في عدد نيسان ١٩٤٤ عن حكمة الحيوان ، وكيف يتخذ تدابير عديدة تدل على فكر وروية ، لا تكفي معها تفسير الغريزة العمياء ، يكون الجاحظ ذلك البحاثة العربي الكبير سابق لهؤلاء العلماء بهذا الرأي .

إن الأغرب من كل ما ذكره لنا الجاحظ مقارنته عالم الأسماك التي تعود إلى أوطانها بالطيور المهاجرة على مبدأ البحث الذي قام به العلامة الإنكليزي الذي نوهت عنه .

يقول الجاحظ : «وأعجب من جميع قواطع الطير ، قواطع السمك الأشبور والجراف والبرستوج ، فإن هذه الأنواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار ، تستعذب الماء في ذلك الإبان كأنها تحمض بحلاوة الماء ، وعذوبته بعد ملوحة البحر .. ونحن بالبصرة نعرف الأشهر التي يقبل إلينا فيها الأشبور وأصناف السمك ، وهي تقبل مرتين في كل سنة ، ثم نجدها في إحداهما أسمن الجنس ، فيقيم كل جنس منها عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر ، فإذا مضى ذلك الأجل ، وانقضت مدة ذلك الجنس أقبل الجنس الآخر في جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريف في نوع من السمك غير النوع الآخر»

إن التدقيق الذي دققه الجاحظ في الحيوانات المهاجرة قد لاحظه غيره أيضا ، حتى أن أكثر معلوماته استقاها من ملاحظات غيره كما يشهد لنا بذلك كثرة الروايات التي يرويها ؛ ولكن عبقريته في هذا الموضوع تتجلى لنا في نقده للأخبار الطبيعية مستمدا ذلك من العالم المحسوس ، مقارنا بينها ، ذاكرا المتشابه والمتباين ، ساعيا لإقامة البراهين بالحجج المنطقية ، منتقلا من المقدمات إلى النتيجة ؛ فمشابهة عالم السمك بعالم الطير المهاجر هو قياس منطقي صرف ، أقره أيضا التتبع الحديث .

هذا وإن رأينا عدم الترتيب في المواضيع التي يعالجها ، فشفيعه بذلك حب نشر المعرفة على أكبر عدد ممكن من الناس ، وعدم إملال القارئ بالنظريات العلمية البحتة ، بل مزجها بالأقاصيص والشواهد أيضا — ومهما قيل في حقه فيكفيه فخراً كما بينت بأنه قد قال بآراء وتفسيرات في عالم الحيوان لم يعرفها إلا أساطين العلم الحديث في العصر الحاضر .

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

شفتاها

لطائفة من النساء أفواه غاوية يحب المرء مراقبتها وهن يحركنها بعذوبة حين يتكلمن ، ويضممنها بهيئة حلوة حين يضحكن ، فتبدو على زواياها غمازات صغيرة فتانة تعبر عن نبل الأخلاق وخفة الروح .

والفم الكامل ينبغي ألا يفرط في سعة أو في ضيق ، بل يجب أن يتناسب مع تقاطيع الوجه . وفي الفم مفرط الصغر معنى مؤثر ، وكثيرا ما يمثل معانى الاستكانة والسذاجة المرتسمة على وجوه الدمى والعرائس .

ولعل الفم الكبير يرمز إلى الكرم والسخاء ، ولكن صغر الفم دون المتوسط كاتساعه قبيح . وتكاد تكون أكثرية الأفواه معبرة عن معان كثيرة ، وإن وجد بينها ما يدل على أنه مخزن أمين لاستيداع الخبز والطعام . . . والشفاه التي تشبه خطين حاسمين حادين وتكون تقويستهما لينة رقيقة قرمزية كقوس كيوبد (دون الاستعانة بالأصباغ) تكون دالة على الصحة والعافية .

ولكن احذر المرأة ذات الشفتين الرقيقتين جداً ، المرأة التي ينطبق فمها بسرعة خاطفة كما تنطبق مصيدة الفيران ، لأن الشفاه الرقيقة تدل في الغالب على الثرثرة والنميمة والتشدق . . . والشفاه الضخمة المنقلبة قليلا مستحسنة كثيرا عند بعض الرجال لما فيها من الدنو إلى الابتسام ، والدلالة على السماحة والسذاجة . وقد قيل لي مراراً إن النساء ذات الأسنان البارزة يندر أن يبقين عوانس ، ولا أدرى مبلغ هذا القول من الصحة ! !

وهناك شفاه أنيقة ممتلئة مغرية دون أن تدرى ، وأهم ملامحها الابتسام الذى يدل على لطافة النفس ووداعتها ؛ ومثل هذه الشفاه توجد عند نساء شعوب كثيرة ، ولكنها تكاد تكون حكرا على اليونانيات في جميع الطبقات ، سواء كن من بنات القرى أم من البائعات في المتاجر ، أم من علية القوم .

وتغلب على فم المرأة الفرنسية ملامح الطمع في الكسب ؛ وفم البرتغالية والأسبانية يميل إلى الامتلاء والتنعم والرفاهية ؛ وأما فم الإيطالية فبديع يستحق العبارة .

إذا أردت الوقوف على حقيقة صفات المرأة فانظر إلى فمها ، انظر إليه وهى فى حالة السكون لاحين تحركه ، وحين تجهل أنك تراقبها ، فإن الخطوط الصغيرة الشكسة المحيطة به تدل على المشاغبة ، وهى لا تستطيع إخفاء تلك الخطوط مهما تحاول .

والطبع الردىء يعلن عن ذاته ، والشفاه الكاذبة المخادعة تنم على نفسها بغير كلام .

وأجمل الأفواه توجد أحياناً عند النساء اللواتى لا يحرزن مظهراً آخر من مظاهر الجمال ، وهى أفواه حلوة لطيفة رقيقة تفيض بالحنو والعطف وحسن الإدراك ، وتشعر المرء بأن صاحباتها لا يمكن أن يفكرن فى الأمور الخسيسة الدنيئة بحال من الأحوال ، لأن شفاههن هى التى تبشر بفرح عظيم .

الزهرة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر	٤٥ فى مصر والسودان
	٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١٥ مليما

الزمن ..!

وقفت ذات يوم بمعبد لقدماء المصريين أنظر إلى عمده وجدره وأبراجه ، وتملكنى ما لابد يتملك من استشعار الروعة ، ومن الإعجاب بقدرة أولئك الجدود ، وصبرهم ومراسهم . وفكرت فى القوم وهم يرفعون قواعد هذا البناء ويمعنون فى كل شبر منه نقشاً ورسماً وكتابة ، هل خطر لهم أى أجيال وأجناس ستنظر ما صنعوا ...؟! وفكرت فيما قد يتخلف عنا من آثار ، وما ستثيره فى الأجيال المستقبلة من خواطر ، وماستنطوى إليه الحياة بعد ألف عام أو آلاف .

وشغل فكرى أكثر ماشغله هذا الشيء الذى نسميه الزمن ونقيسه بالأيام والسنين . ما مكان هذا الزمن بين ظواهر الوجود ، وما نصيبه من الحقيقة أو الخيال ؟... إن يوماً قد يمر بالمرء وكأنه عام ، وعام يمر كأنه يوم ! والفترة من الزمن قد يراها الإنسان طويلة مرة ويراها قصيرة مرة أخرى ؛ يتذكر شيئاً حدث فى العام الماضى فيقول كأنما حدث هذا أمس ، ويتذكر حادثاً فى العام الماضى أيضاً فيعجب من أن لم يمض عليه إلا عام .

هذا فى اليقظة ، أما فى المنام والأحلام فأمر الزمن أغرب ، كذلك الذى رأى حوادث الثورة الفرنسية متتابعة ، ورأى آخر الأمر أنهم ساقوه إلى المقصلة وأهووا على عنقه ، فاستيقظ فزعا ، فوجد شيئا سقط على قفاه وهو نائم ؛ هذا الحلم الطويل مرجعه بالعقل الباطن لذلك الحالم فى اللحظة التى مس قفاه فيها ذلك الشيء !

فالزمن إذا ترك تقديره للنفس بمشاعرها وأثر الحوادث فيها ، لم يكن له معيار ثابت . وإذا كانت معايير النفس الواحدة تختلف فمعايير النفوس المختلفة أمعن فى الاختلاف . لذلك اصطلح الناس على قياس الزمن بظاهرة طبيعية ثابتة لا شأن لها بمشاعر النفوس ، هى دورة الأرض حول نفسها ، ودورتها حول الشمس .

لكن هذه الظاهرة لا تعدو أن تكون اصطلاحاً بين الناس لتقدير شيء لا يتاح لنفوسهم بفطرتها أن تتفق على تقديره ، كاتخاذهم الذهب مقياساً لقيم السلع ، أو كلمات اللغة حدوداً للمعانى . فالإنسان فى قرارة نفسه لا يتقيد فى تقدير الزمن بدورة الأرض ، كما أن الذهب فى ذاته لا قيمة له عنده ، والألفاظ لا تعنيه لو انفرد بنفسه واستقل عن المجتمع .

والآن لننظر إلى هذه الظاهرة الطبيعية ومدى ثباتها . إن الأرض حقيقة تدور حول نفسها وحول الشمس فى انتظام لا يتخلف ، ونحن نعد هذه الدورات واحدة واحدة ، ونرقم كلا منها برقم ، ونقول سنة كذا بعد الميلاد ، وسنة كذا قبله ، ونسمى ما فات منها ماضياً وما سيأتى مستقبلا . هذا كله ثابت بالنسبة إلينا نحن الذين نعيش على الكوكب المسمى الأرض ؛ لكن لنفرض أن أحدنا رحل إلى كوكب بعيد ينتقل الضوء منه إلينا ومنا إليه فى بضع سنين ، ويبتعد عنا بسرعة كبيرة تبلغ نصف سرعة الضوء ، فإذا فرضنا أن هذا الراحل لا يزال يرانا ونحن نراه ، فإنه يرى أرضنا تتم دورتها حول نفسها فى مدة هى فى تقديرنا ٣٦ ساعة لا ٢٤ ساعة ، وتتم دورتها حول الشمس فى عام ونصف مما نعد ؛ ثم إنه يرى من أمورنا ما قد مضى عليه بضع سنين ، فهو يعيش فى ماضينا . وهو من ناحيته يعيب علينا مثل الذى نعيب عليه ؛ فنحن نرى دورة كوكبه حول نفسه وحول شمسه فى مدة تساوى تقديره لها مرة ونصفا ، ونعيش أيضاً فى ماضيه ، فإذا لحق بهذا الراحل غيره من الناس ، ولم يكن بد من الاتصال بهم والتعامل معهم ، وجب أن نبحث عن ميزان ومقياس جديدين للزمن يتفقان وهذه العلاقة الجديدة .

وإذا حدث بعد ذلك ما نرجو ألا يحدث ، وانتقل واحد

إلى كوكب ثالث يقترب منا بسرعة كبيرة ، فإنه يرى يومنا وعامنا أقصر مما نراهما ، ونرى مثل هذا فى يومه وعامه . فإذا لم يكن بد من التعامل مع الكوكبين معاً فسيعيينا البحث عن مقياس للزمن يتفق وتقدير أهل الكواكب الثلاثة . ولما كان فى الكون ملايين من الأجرام تفصل بينها سنون ضوئية ، ويقترب بعضها من بعض أو يبتعد بسرعة هائلة ، فإن أمر الزمن وتقديره وماضيه وحاضره بالنسبة للكون فى مجموعه إشكال أى إشكال ...

يقول الله تعالى : «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» ، هذه الآية الكريمة التى نزلت قبل الكشوف العلمية الحديثة بنيف وألف عام تصرح بأن مقياس الزمن الذى درجنا عليه ليس المقياس الوحيد ، وأن عند الله مقياسا أو مقاييس أخرى . وفى آيات أن الله سخر لنا الشمس والقمر لنعلم عدد السنين والحساب ، وفى الحق أنه لولا ثبات هذه الظاهرة بالنسبة إلينا ، وصلاحها مقياساً للزمن نجتمع عليه ، لاختلط علينا هذا الأمر ... ثم «تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» ، فهذا مقياس آخر ! ثم «الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام» ، من الغباء الآن أن نظنها أيام الأسبوع ! .

ويذهب فرويد إلى أن العقل الباطن للإنسان لا يعرف الزمن وقياسه بالساعة واليوم ، ونسبته بالماضى والحاضر أوالمستقبل ، وتسلسل الحوادث تسلسلا زمنيا ، فهذا كله اختراع قضت به ضرورات حياتنا الواعية . ولا شك أن العقل الباطن هو أقرب جوانب النفس إلى فطرة الوجود وحقائق الكون الجوهرية .

ثم يأتى علماء الرياضيات ويضربون ضربة حاسمة ، ويقطعون بأن الزمن كظاهرة مستقلة بذاتها لا وجود له ، وأن ما له كيان حقيق إنما هو مركب من الزمن مع الفضاء ، وأن لكل شىء أبعادا من الطول والعرض والارتفاع والزمن جميعا . هذه الطبخة الجديدة تجعل الرأس يدور . ويبدو أننا فقدنا صاحبنا الذى نشطنا للكلام عنه إذ فقد هو ذاتيته واندمج فى غيره ، فلنحاول تقصيه فى مركبه الجديد ، فلا شىء ينعدم وإن تغير منه الشكل والملامح .

إذا كان لكل شىء امتداد فى الزمن كما له امتداد فى الفضاء ، فمن العسير أن نقول أى أجزاء الشىء يقع فى الماضى وأيها فى المستقبل ، إذ يتوقف هذا على النقطة التى نتخيرها من امتداد ذلك الشىء ، ونعتبرها حاضرا . إذن فقد الزمن كبرى مميزاته ، وهى تقسيمه إلى ماض وحاضر ومستقبل ، فهذا شىء اعتبارى لا تحتمه الطبيعة . ومن هذه النقطة يمكن أن يثار سؤال خطر ! ... هل الأشياء جميعها وما يحدث لها تم خلقها من الأزل وطويت الصحف وجفت الأقلام على حد القول ؟ وهل كل شىء كائن قائم ونحن الذين نمر به ، مثلنا كراكب قطار يخال أن الأشياء تأتى وتذهب ، بينما هو الذى يحمل إليها ويغادرها ، أو كشاهد خيالة يرى فى كل لحظة شيئا جديدا ولا جديد إلا فى مخيلته وناظريه ؟! ...

إن صح هذا فتحت علينا دنيا من الفكر فى القضاء والقدر ، والثواب والعقاب وما إليه ! وتلك بحوث غير التى قصدنا إليها لا يحتملها هذا المقال . فحسبنا أن نرى كيف يقترب العلم الحديث من الفلسفات الروحية فى بعض المواضع .

أما الزمن على الصورة التى نألف فإنه يختفى فى هذه المرتفعات وتزول قيوده ، مثلنا منه كالسائر على الأرض لا بد له من أن يلزم طريقا معينا ، فإذا صعد فى الجو تحرر من قيد الطريق ، وضرب فى أى اتجاه كان .

عبد المغنى على حسين

على هامش النقد العربي :

ابن رشيق

يشغل ابن رشيق مكانة ممتازة في النقد العربي ، إذ ترك فيه كتاباً مهمًا هو كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده . وقد اشتهر هذا الكتاب قديما وحديثاً ، وأشاد به ابن خلدون في مقدمته ، ومن قوله فيه : « هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة — يريد صناعة الشعر — وإعطاء حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » . وهي شهادة قيمة ترفع من الكتاب ومن صاحبه .

وإذا ذهبنا نبحث في البيئة التي نبت فيها هذا الكتاب ، لنتأكد من الثقافة التي كتب في ظلالها ، وجدناها بيئة غير معقدة ، فقد ألف في القيروان من بلاد المغرب حول منتصف القرن الخامس الهجري ، وبلاد المغرب حتى هذا التاريخ كانت تستمد في تآليفها من كتب أهل الشرق وتعتبرها منابعها في التفكير والثقافة ؛ ومن المعروف أنها لم تنهل من الفلسفة حتى هذا الوقت إلا في حدود ضيقة جدا ، مثلها في ذلك مثل الأندلس ، فهما جميعاً لم تقم فيهما الأبحاث الفلسفية إلا متأخرة . وقد كان لذلك آثار مختلفة في الحياة العقلية هناك فإنها لم تسمها شيات من الفكر العميق ، إذ كان الناس يعيشون في حياة أقرب إلى البساطة منها إلى التعقيد ؛ بل إننا نجد ابن خلدون يثبت للناس هناك حياة متبدية أو كالمتبدية ، وبذلك علل لاختيارهم مذهب مالك وتفضيلهم له على غيره من المذاهب ؛ لأنه لم يكن معقد الحضارة ولا فلسفة ، فهو مذهب أهل الحجاز ، وحياتهم كحياة أهل المغرب تقوم على البساطة ولا تعقدها الفلسفة ولا الحضارة .

لم تكن بلاد المغرب التي ألف فيها كتاب العمدة ذات عقل متفلسف ، يعني يبحث الأشياء بحثا يظهر منه على خصائصها المشتركة ، ولذلك غلبت على الكتب هناك طريقة الجمع والإحصاء ؛ وقلما رأينا كتابا يتعمق موضوعا من الموضوعات ، إنما هي كتب تنقل عن غيرها ، وهي تعنى بتنظيم النقل ولكنه تنظيم غير منظم تماما ؛ إذ تراهم يكثرون من التبويب دلالة على كثرة ما يجمعون من مواد ، ولكنها كثرة تتعب القارئ ، إذ يجد المواد قد تناثرت دون أن توضع في صورة ، فالمادة قد وجدت ولكن الصورة لم توجد ، لأن العقل المغربي لم يكن يحسن تأليف الصور ؛ ولا نقول كما يقول ابن خلدون إنه كان عقلا متبديا ، ولكن نقول إنه كان عقلا غير متفلسف ، فكانت تعوزه الصورة التي يضع فيها مواد الأشياء التي يبحثها ويعني ببيانها والتأليف فيها .

ومن الكتب التي تفسر هذه الظاهرة تفسيرا دقيقا كتاب العمدة ، فقد أودعه ابن رشيق نحو مائة باب ، وهي أبواب كثيرة ، ونفس كثرتها تدل على أنه لم ينظر في صناعة الشعر ونقده نظرة عامة شاملة ، فقد استغرقته التفاريع والتفاصيل استغراقا يدل على أنه لم يتعمق في تفكيره ، فعقله بسيط لا تعقيد فيه ولا تركيب ، ولذلك كانت أبحاثه في كتابه أيضا أبحاثا بسيطة ليس فيها تعقيد ولا تركيب .

وهذه الظاهرة تتضح أكثر إذا قارنا بين ابن رشيق وبين نقاد الشرق ، فالأخيرون إذا كتبوا في النقد حاولوا أن يعمقوا مسائله ، ولذلك كان لكل منهم عمل واضح فيه ؛ فبينما نرى قدامة يدخل فيه فلسفته كما في نقد الشعر ، إذا هو نفسه يضيف إلى الفلسفة منطقا وأبحاثا فقهية كما في نقد النثر ؛ ويدور الزمن دورة ويأتي أبو الفرج الأصبهاني فيدرس الرواية الأدبية ويقيم عليها في كتابه الأغاني كل ما اقترحه أصحاب الرواية الدينية على روايتهم من علل ومراصد ؛ ويدور الزمن دورة أخرى ويأتي الآمدي فتراه يقرر أن هناك مذهبين عامين قائمين في دراسة الشعر وصناعته ، مذهب المجددين أصحاب الفلسفة والمعاني والبديع وعلى رأسهم أبو تمام ، ومذهب المحافظين أصحاب عمود الشعر العربي وعلى رأسهم البحتري ، وهو لا يكتب في ذلك

صحيفة أو صحائف معدودة ، بل يكتب كتابا واسعا هو كتاب الموازنة ؛ ويدور الزمن دورة أخرى فيأتي ابن سنان في كتابه سر الفصاحة ويفتح دراسة واسعة في الصوت ؛ وكلما دار الزمن بنا في الشرق دورة وجدنا نقادا يطورون النقد ويحدثون فيه توجيهات جديدة . فإذا انقلبنا إلى كتاب العمدة لم نجد تطورا ولا توجيها جديدا ، إنما كل ما هنالك كتاب كبير يجمع ركاما هائلا من مسائل النقد ، ولكنه ركام تنقصه الدراسة العميقة ؛ وهو مادة ضخمة ولكن تنقصها الصورة ، ونفس المادة ليست من صنع ابن رشيق بل هي من صنع المشرق ، إذ استطاع أن يجمع هذا النثار الواسع من آراء القوم في الشعر ونقده وصناعته .

ليس في كتاب العمدة منهج في دراسة الشعر العربي ، فالكتاب لا يعنى بوضع المناهج ، إنما يعنى بجمع المواد في شكل يشبه أن يكون إحصاء واسعا يجمع فيه أشتاتا كثيرة ، ولكن دون أن يحدث بينها ربطا منطقيا ، فعقله لم يكن يعرف الربط ، إنما هو عقل نقلي يعنى بنقل النصوص ورواية ما في الكتب . وحقا له بعد ذلك التبويب ، ولكنه تبويب من نوع خاص ، نوع فيه عوج ونقص ؛ فكثيرا ما تصادفنا أبواب كان يحسن أن تندمج في باب واحد ، وأخرى كان ينبغي أن توضع في غير أمكنتها ، وثالثة كان يحسن أن تحذف من الكتاب حذفا . ولو أن ناقدا من نقاد المشرق عني بجمع هذه المادة الكثيرة والتأليف فيها لما رأينا عنده ما في كتاب العمدة من اللامنطقية والانتقالات الفجائية .

ومع ذلك فينبغي ألا نغمط ابن رشيق حقه ، إذ ليس من شك في أنه تعب في جمع هذه المادة وترتيبها على هذا النسق الذي اختار لنفسه . وإن من يتتبعه في عرضه لتلك المادة الوفيرة يجد له كثيرا من الأفكار النيرة ، كتلك الفكرة التي ذهب يعلنها في اللفظ والمعنى ، فقد كان يرى أنهما يتلازمان ، وليس بصحيح أنهما ينفصلان ، وبذلك خرج على رأي من سبقوه ، ولم يحفل برأي الجاحظ ومن خلفوه . وقد لاحظ في أواخر هذا الباب الذي عقده للفظ والمعنى ملاحظة مهمة ، وهي أن للشعر لغة خاصة به ، فالشعراء لهم ألفاظهم وأساليبهم التي يمتازون بها من ألفاظ الكتاب وأساليبهم ، ولذلك أسباب كثيرة ، فهم يتناولون موضوعات كبكاء الأطلال لا يتناولها الكتاب ، وهم يعبرون تعبيرا كله وجدان وعاطفة ، بخلاف تعبير الكتاب فيغلب عليه الفكر والعقل ؛ وأيضا فإن الشاعر مقيد بموسيقاه ، ولذلك كان يكثر في الشعر الغريب ، لأن الشاعر يبحث عن نغمه وما يوافقه من اللفظ ، وقد تضطره النغمة إلى لفظ غير مألوف ؛ ولعل ذلك ما جعل ابن الأثير يقول : « وجدت الغريب يحسن استعماله في الشعر ولا يسوغ » .

ومهما يكن فإن ابن رشيق كان موفقا في باب اللفظ والمعنى ، سواء فيما عرضه عن تلازمهما أو ما ذكره من لغة الشعر وأنها تخالف لغة النثر . وقد عقد بعقب ذلك بابا تحدث فيه عن المطبوع والمصنوع ، وفي هذا ما يفسر العقلية العامة التي كتب في ظلالها كتاب العمدة ، فإننا نجد صاحبه يعرض للمذهبين القائمين في صناعة الشعر العربي ، واللذين سبق أن كتب فيهما الآمدي كتابه الموازنة ، غير أنه لا يستطيع أن يتبين الفكرة ، فنراه يحكم بأن البحتري وأبا تمام من مذهب واحد ومعين واحد هو معين البديع ، أو كما كان يسميه الصنعة ، وغاية ما في الأمر أن البحتري أكثر طبعا من أبي تمام ، وأن أبا تمام أكثر بديعا من البحتري .

لم يستطع ابن رشيق أن يميز الفروق الهائلة التي كانت تفرق بين البحتري وأبي تمام ، تلك الفروق التي جعلتهما يقفان في صفين متقابلين ، أو كما نقول نحن الآن في مذهبين متعارضين عند الآمدي وغيره من نقاد الشرق ؛ وكل ذلك جاء ابن رشيق من أن عقله كان من طراز آخر ، طراز لا يتعمق الأشياء ، إنما ينظر إليها من قرب نظرات طائرة . وقد وقف في هذا الباب يفرق بين القدماء والمحدثين ، فرأى أن كل ما بينهما من خلاف أن الأخيرين يلوّنون شعرهم بألوان البديع وتحاسينه ، على عكس القدماء فهم لا يلوّنون شعرهم بشيء من ذلك ؛ وهي تفرقة غير دقيقة ، لأنه ليس

كل ما بين القدماء والمحدثين يستقر فى تلاوين البديع وتحاسينه ، فهناك تلاوين عقلية وتحاسين فلسفية كان يتشبث بها الشعراء أمثال أبى تمام وأبى العلاء ؛ غير أن ابن رشيق فيما يظهر كان ينحرف عن هذه التلاوين والتحاسين ، أو بعبارة أدق لم يكن يفهم شيئا عن هذه التلاوين والتحاسين .

وقد عنى ابن رشيق فى كتابه بالحديث حديثاً مفصلا عن ألوان البديع وأصنافه ، ففتح لها أبوابا واسعة . ونحن نعرف أن أول من كتب فى البديع ابن المعتز ، وقد ساق فى كتابه المسمى باسم البديع ثلاثة عشر لوناً من ألوانه ؛ ثم تبعه قدامة فزاد فيه سبعة ألوان ؛ ثم جاء أبو هلال فى الصناعتين فأضاف سبعة عشر لوناً ؛ ثم تبعه ابن رشيق فانكب فى كتابه على درس ألوان البديع متأثرا بمن سبقوه . وإن من يقرأ ما كتبه فى تلك الألوان يشعر شعوراً واضحا أنها لم تكن متميزة الشخصية فى ذهنه ، ففيها كثير من الاختلاط وخاصة فى عرض الأمثلة ، كما أن فيها كثيرا من الإبهام والغموض فى تحديدها وبيانها .

وربما كان أهم جانب نسقه ابن رشيق فى كتابه هو جانب موضوعات الشعر ، فقد عرض فيه لهذه الموضوعات عرضا مستفيضا ، إلا أنه تأثر على عادته بمن سبقوه ، فالمديح يعتمد عنده — كما يعتمد عند قدامة — على وصف الفضائل النفسية ، والهجاء كذلك يعتمد على نقض هذه الفضائل ، والرثاء أيضا كما يقول قدامة مديح إلا أنه بلفظ الماضى ؛ كل ذلك ينقله ابن رشيق عن قدامة ثم يضيف إليه من حين لآخر بعض آراء وأفكار . وقد أشار فى المديح إلى أنه يكون بغير الفضائل النفسية ، وطلب إلى الشعراء أن يلاءموا فى مدائحهم بين كلامهم وبين الممدوحين ، بحيث لا يمدحون ملكا بنفس الأوصاف التى يمدحون بها بطلا أو كاتبا . ولعل أهم موضوع عنى به بين موضوعات الشعر هو موضوع النسيب ، فقد فصل الكلام فيه وتحدث عن طريقة أهل البادية وما يستغرقها من ذكر الرحيل والانتقال ووصف الطلول ، والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ، ومرور الصبا والنسيم ، وذكر أزهار البرية مثل الخزامى والعرار ؛ ثم تحدث عن طريقة أهل الحاضرة وما يستغرقها من ذكر الصد والهجر ، والوشاة والندامى ، والورد والنسرين والنيلوفر وما شاكل ذلك .

ومهما يكن فإننا لا نعدم أن نجد عند ابن رشيق من حين إلى آخر أفكاراً قيمة وآراء طريفة ؛ ولعل من أطرف الأبواب التى فتحها فى كتابه باب المعانى المحدثة ، فقد عرض لبعض هذه المعانى ، ولاحظ أن العباسيين لهم معان كثيرة مبتكرة ، وخاصة بشاراً وأصحابه ، «فقد زادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا إسلامى» . وقد كان ابن الرومى أهم شاعر عباسى يعنى بهذا الجانب ، «إذ كان ضنينا بالمعانى حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه وإلى كل ناحية ، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد» . وحقاً إن من يرجع إلى ديوان ابن الرومى يلاحظ أنه إذا تناول فكرة أحكم إخراجها وبسطها إحكاماً دقيقاً ، فما يزال يبسط فيها ويمتد حتى تتسع اتساع الرقاقة فى يد الخباز التى وصفها فى قوله :

ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى لجة الماء يرمى فيه بالحجر

فابن الرومى كان يخبز معانيه خبز هذه الرقاقة ، فإذا هى تنبسط وتتسع اتساعا شديداً . غير أن ابن رشيق لا يقف ليحقق ذلك ، إنما هى فكرة عابرة عنده . ونحن نطلب إليه عنتا إذا أردنا منه أن يطيل النظر فى آرائه أو يتعمق فى عرض أفكاره . ومع ذلك فنحن لا ننكر صنيعه فى كتابه ، فقد جمع مادة ضخمة من النقد الأدبى عند العرب ، وكان له فضل هذا الجمع وما انطوى فيه من تنسيق ، وإن كنا نلاحظ بعد ذلك أنه لم يستطع أن يحرك فى مجرى النقد العمومى بصنع نظرات أو توجيهات جديدة ، فما زال النقد عنده يجرى كما كان يجرى من قبل ، إذ لم يظهر ما يوجب تبديلا فى سيره ، أو تحريفا طريقه .

شوقى ضيف

حول أصول النشر :

كتاب قوانين الدواوين

للأسعد بن مماتى

— ٢ —

تحدثنا فى المقـال السابق عن مصادر النشر مباشرة وغير مباشرة ؛ واليوم نخطو إلى المرحلة التالية وهى قراءة النص ، ثم نختم المقال بالحديث عن الروح العلمية التى يجب أن تسود فيما ننشر أو نؤلف .

قراءة النص : لا شك أن الهدف الأخير لكل ناشر هو أن يقرأ النص قراءة تمكن القارئ من فهمه . ومن المعلوم أن الواجب العلمى يقضى بألا يتصرف الناشر فى النص على نحو يحيله عن أصله ويجعله مماشيا لما قد يظنه هو فهماً صحيحا ؛ ومع ذلك فالعلماء لا يجمعون على وجوب احترام النص احتراما مقدسا ، إلا فى حالة واحدة هى حالة وصوله إلينا بخط المؤلف ، إذ أنه لا يجوز لنا عندئذ أن نتناول النص بأى إصلاح ؛ لأن الأخطاء ذاتها تكون عندئذ عظيمة الدلالة على درجة ثقافة المؤلف فى اللغة أو فى موضوع الكتاب ؛ وأما فيما عدا هذه الحالة فنحن إزاء نسخ يتحمل ناسخوها عادة جزءا كبيرا مما فيها من أخطاء ، ويكون من واجب الناشر حتى يكون عمله نشراً لا نسخاً جديداً أن يصلح من أخطاء هؤلاء النساخ ، وسبيله إلى ذلك ألا يكتفى كما فعل الدكتور سوريال بالاعتماد على نسخة أو مجموعة من النسخ مهملا إلى حد كبير ما عداها ، بل يقابل بين كل المخطوطات التى لديه ، بعد أن يقيم تسلسلها كما وضحنا فى المقـال السابق ؛ وبعد أن يحصى القراءات المختلفة لكل جملة أو جزء من الجملة ، يكون من واجبه أن يفاضل بين تلك القراءات ، (وهنا لا بد أن نشير إلى نوعين من القراءات Variantes) وهما اللذان يسميهما العلماء بالقراءة السهلة (Lectio facilis بالاتينية) ، والقراءة الصعبة (Lectio difficilis) . ويجب على الناشر ألا يسارع إلى قبول القراءة السهلة ، فكثيرا ما تكون من تحريف الناسخ الذى عجز عن فهم ما ينسخ فأحاله إلى شىء يفهمه هو . وكل هذا على فرض وجود قراءتين كلتيهما فهمه ممكن ، فإذا استعصى الفهم وجب على الناشر أن يلجأ إلى ما يسميه العلماء Conjectures ، وله عندئذ أن يثبت تخميناته فى النص بين قوسين أو أن يودعهما فى الهوامش . ونحن نكرر أن هذه الفروض لا نلجأ إليها إلا بعد استقصاء كل القراءات والعجز عن فهمها كلها ؛ وكثيرا ما لجأ العلماء إلى فروض أثبتت صحتها مخطوطات اكتشفت بعد النشر . وحق الافتراض بل واجبه لم ير أحدا من ناشرى النصوص ، وبخاصة النصوص القديمة — كالنصوص اليونانية واللاتينية — يمارى فيه ؛ إذ لا مفر للناشر من أن يعطينا كما قلنا نصا يمكن فهمه .

هذه هى الأصول العلمية للنشر كما عرفناها من أساتذتنا ، وأما ما زعمه الدكتور سوريال من نشره للنص بأخطائه « محافظة على أسلوبه الأثرى » فهذا شىء لم نسمع به ؛ والذى نعلمه أن التماثيل الأثرية ذاتها لا يحجم علماء الآثار عن ترميمها الضرورى حتى لا تنهار . ولإصلاح النص فى الحدود التى بيناها فيما سبق لا بد للناشر من نوعين من المعلومات : ١ — معرفة لغة الكتاب معرفة فقهية عميقة . ٢ — معرفة مادة الكتاب معرفة تخصص . ونحن على تمام الثقة من أنه إذا امتلك هذين النوعين من المعرفة لن يحتاج إلى نشر الكتاب بأخطائه محافظة على أسلوبه الأثرى .

ونحن مع احترامنا للأستاذ سوريال ومع اعترافنا بما أدى من خدمات لتاريخ العصور الوسطى فى الغرب ، نلاحظ لسوء الحظ أنه لا يمتلك نوعى المعرفة اللذين أشرنا إليهما فيما سبق . ولا أدل على عدم تمكنه من اللغة العربية من أنه حتى فى نسخه لترجمة ابن مماتى عن معجم ياقوت قد أخطأ فى عشرات المواضع . ولنضرب لذلك أمثلة : (قوله ص ٩ —

قد تتوق فيها وأجيد ، وصوابها تُتُوِّق فيها وأجيد ؛ وص ١٤ — إحدى عشر مرة ، وصوابها إحدى عشرة مرة ؛ وص ١٦ حُباب الحيا وصوابها حَباب الحبا) . ثم كل تلك الأخطاء الواردة فيما ينقل من أشعار ابن مماتي ، والتي لا يستقيم الوزن دون إصلاحها ، كقوله ص١٧ :

ورأى أن يرسل الأســـهم بالبَرد فراشا

وصوابه بالبرْد . وقوله ص ١٧ أيضا :

وأنت الصبيّ الصَّبا وأذكرت جهلها

وصوابه : وأنت الصبا الصَّبا .

وقوله ص ١٨ :

قل لى أنهاك من محبتك نهاك

وصوابه من محبك . وأمثال ذلك كثير .

وأما عن عدم إلمامه بموضوع الكتاب إلمام تخصص فذلك ما يقوله الأستاذ الفاضل نفسه في مقدمته ، حيث نقرأ ص٤٢ : (ولكننا لم نتعرض للشرح والتعليق على الموضوعات الفنية التي تصدى لها المؤلف ... معتمدين على الإخصائيين في إصدار مباحثهم في صدد مختلف الموضوعات في ملاحق خاصة) .

ولعمري إذا كان المؤلف لا يجيد اللغة العربية ، ولا هو متخصص في تاريخ العصور الوسطى في الشرق ، فلماذا إذن يحرص على نشر هذا الكتاب ؟! وقد كانت النتيجة أنه لم يستطع أن يعطينا نصاً يمكن فهمه . ومن الواضح أننا لا نطالبه بأن يضع التعليقات الفنية في هوامش طبعته ، فمن العلماء من يفضلون نشر تلك التعليقات في ملحقات خاصة ، ولعله يرى هذا الرأي . ولكننا نجزم بأن نشر أي كتاب نشراً صحيحاً لا يمكن بغير البحث عما يعالج من موضوعات فنية ، وفهم هذه الموضوعات فهماً صحيحاً . ومن الثابت أن العلماء الذين ينشرون تعليقاتهم الفنية في ملحقات خاصة ، يضعون تلك التعليقات أثناء نشرهم الكتاب ، حتى إذا فرغوا من النشر فرغوا من التعليقات في نفس الوقت . وما إصدارها في ملاحق أو إدماجها الهوامش إلا مسألة شكلية ، للعلماء أن يتخيروا منها ما يشاؤون .

ونحن لا نريد أن نتتبع ما في الكتاب من جمل وعبارات غير مفهومة ، فهذا أمر يطول . كما لا نريد أن نجادل فيما يعتبر أخطاء لغوية ، قد يرى الناشر أنها ترجع إلى المؤلف ، وقد نرى نحن أنها ترجع إلى الناسخ ؛ وفي الواقع لا سبيل إلى الترجيح إلا بعد جهد وقلما نتفق ؛ وإنما نقف عند بعض الأمثلة التي لا تقبل جدلا . فمن ذلك مثلا كلمة (مركوش) ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ التي وردت في نسخة غوطة على هـذا النحو ، وفي طبعة الوطن بالرسم (ركوش) . ولقد لاحظ الناشر نفسه في ص ٣٤٠ هامش ١٠ أن نقط شين الكلمة ساقطة من نسخة غوطة ؛ ولو أنه كان ملما بموضوعه ، وكان قد درس أسماء السفن التي كانت تستخدم في الحروب الصليبية لاستنتج في سهولة أن صحة اللفظ هي «ركوس» (انظر الفتح القسي للعماد الأصفهاني . القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٢٣٨ ، إذ ورد هذا اللفظ في صيغة الجمع راكيس ، ومفردها كما هو واضح ركوس ؛ كما ذكرها أبو شامة صاحب الروضتين في أخبار الدولتين — القاهرة ١٢٨٧ هـ ج٢ ص١٨٧) . ولقد كان من السهل على الدكتور سوريال الذي كتب في تاريخ الحروب الصليبية أن يفطن إلى أن الكثير من الأسماء التي أطلقها العرب على السفن في تلك الحروب أسماء أوروبية الأصل ، مثل الجلاسة (من الإيطالية Galeazza) ، والشلندى (من الفرنسية Chaland) ، والغليون (من الإيطالية Galeone) ، وبركوس (من الإيطالية Barca والفرنسية Barque) وغير ذلك كثير .

ومن الأمثلة الأخرى على عدم الإلمام بالموضوع ، أن الناشر الفاضل قد نقل من دوزي في فهرست الألفاظ والاصطلاحات المستعصية ص ٤٥٤ تحت كلمة خزانة البنود قوله : (ويعني بها أيضا سجن) ؛ وليس هذا صحيحا . وكان من واجب الناشر أن يصلح خطأ دوزي . فخزانة البنود معناها اللغوي لا تؤدي معنى سجن إطلاقا ؛ ولكنه حدث تاريخيا أن وجد مكان بهذا الاسم تغير استعماله وأصبح سجنا (راجع خطط المقريزي الطبعة الأهلية ج٣ ص٣٠٥ حيث يقول عن خزانة البنود : وكانت أولا في الدولة الفاطمية

خزانة من جملة خزائن القصر يعمل فيها السلاح ... ثم إنها احترقت فى سنة إحدى وستين وأربعمائة . فعملت بعد حريقها سجنا يسجن فيه الأمراء والأعيان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية ، فأقرها ملوك بنى أيوب سجنا) .

ونكتفى بهذين المثلين الواضحين للتدليل على ما يستهدف له الناشر من أخطاء ، عند ما يكون غير مختص بموضوع الكتاب الذى ينشر ، كما رأيناه يستهدف للأخطاء اللغوية التى لا شك فيها ولا مفر من إصلاحها ، عندما يكون إلمامه باللغة قاصراً .

والآن ننتقل إلى المسألة الأخيرة التى نريد أن نتحدث عنها ، وهى الروح العلمية .

وأكبر ظننا أن جميع القراء سيقروننا على مبدئين كبيرين يجب أن يتصف بهما العالم : أولهما التواضع ، وثانيهما إعطاء كل ذى حق حقه من الزملاء المعاصرين أو العلماء السابقين على السواء .

فأما من التواضع فإنه لم يؤسفنا أن نلاحظ أن الدكتور سوريال قد كان أحرص مما يجب على إظهار مجهوده ، وقيادة القارئ إليه قسراً . وفى الكتاب أدلة يلمسها القارئ فى يسر ؛ فالناشر مثلا يقول فى مقدمته عن حياة المؤلف : (وأول شىء يدهش الباحث فى أمرها هو خلو أغلب كتب التاريخ الأدبى من الكلام فيها والعلم بها ، حتى أن دائرة المعارف الإسلامية المنشورة ، بمدينة ليدن نفسها — وهى أعظم الموسوعات فى تاريخ الدراسات الإسلامية — لم تحو شيئاً عن ابن مماتى ، لهذا توجهنا إلى التنقيب فى المراجع القديمة من كتب الطبقات ، ووفقنا فى النهاية إلى العثور على شذرات عن حياته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفى عقد الجمان للعينى وفى المواعظ والاعتبار للمقريزى . ولكن كل هذا لا يقارن عما ورد عن سيرته فى كتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب من تصنيف ياقوت الرومى لناشره المرحوم الأستاذ س . مرجوليوث) . ومن الغريب حقاً أن يشير الناشر إلى « التنقيب » ، وإلى « التوفيق إلى العثور فى النهاية » على ترجمة لابن مماتى ، مع أنه وارد فى معجم ياقوت ، وهذا المعجم فى متناول الأيدى ؛ وخصوصاً بعد طبعة الدكتور فريد رفاعى ، وهو أول ما يتجه إليه كل باحث عن التراجم . ثم نرى الناشر ينقل ترجمة ابن مماتى عن ياقوت وعن ابن خلكان إحداهما فى إثر الأخرى ، ونتساءل عما يدعوه إلى ذلك ، وكتابا ياقوت وابن خلكان يملآن المكاتب . وهلا يرى الناشر الفاضل أننا كنا نطمع منه فى خير مما فعل ؟! نطمع فى دراسة نقدية تحليلية لهذه النصوص ، واستنباط ما تجمع عليه من حقائق ، مع الاكتفاء بالإشارة إلى المكان أو إيراد ما يستدل به من النصوص .

وكما يبتدئ الكتاب بهذه الروح المسرفة فى إظهار الجهد حيث لا جهد ، كذلك ينتهى الكتاب لسوء الحظ ؛ فقد أورد فى نهايته ثبتاً سماه فهرس الاصطلاحات والألفاظ المستعصية . وننظر فى هذا الفهرس فنجد إما ألفاظاً أساء الناشر قراءتها مثل كلمة مركوش السابقة الذكر ، والتى يثبتها الناشر مردفاً إياها بقوله نوع من المراكب ؛ وإما ألفاظاً أوضح معناها الدكتور محمد مصطفى زيادة ، فى فهرس الاصطلاحات الذى أثبته فى الجزء الثالث من السلوك للمقريزى ؛ وإما ألفاظاً نقل الناشر معناها عن دوزى أو « لين » Lane . فما الذى يدعوه إذن إلى تسميتها بالمستعصية ، وما هو جهده فى تفسيرها ؟ ولقد كنا ننتظر منه على الأقل أن يصحح دوزى أو يكمله ولو بالنص الذى ينشره اليوم . ولنضرب لذلك مثلا كلمة شلندى ، فقد نقل عن دوزى أنه (نوع من المراكب لنقل البضائع والأمتعة) ، مع أن ابن مماتى نفسه فى ص ٣٤٠ يعرفه بقوله : (وأما الشلندى فإنه مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره) ، ومعنى هذا أنه مركب حربى . ولقد كان من واجب الناشر أن يشير إلى مناقضة ابن مماتى لدوزى ، وأن يفسر هذا التناقض على وجه من الوجهين الممكنين . فالشلندى إما أن يكون مركباً مسقفاً يستخدم للبضائع أو فى الحرب لرمى الرماة على السواء ، وفى هذه الحالة يوفق بين دوزى وابن مماتى ؛ وإما أن يكون استخدامه مقصوراً على البضائع أو الحرب ،

وفي هـذه الحالة يكون من واجبه أن يرجح بين رأيي الرجلين ، وأن يورد أسباب ترجيحه . ولكنه لسوء الحظ لم يفعل هـذا ولا ذاك ، ومع ذلك يسمي فهرسه بفهرس الألفاظ المستعصية .

وأخيراً يبقى المبدأ الثاني وهو مبدأ إعطاء كل ذي حق حقه . وإنما نثيره هنا لأن الناشر ينبئنا هو نفسه في ألفاظ أحياناً واضحة وأحياناً غير واضحة أنه قد استعان بالأستاذ محمد رمزي المعروف باشتغاله بجغرافية مصر التاريخية . ولقد كان اعتماده على رمزي بك فيما يظهر كبيراً ، وبخاصة في الباب الثالث من الكتاب (في ذكر جملة أعمال مصر وتفصيل نواحيها) . وهذا الجزء يشغل مائة وعشرين صفحة تقريباً من متن الكتاب الذي يقع في ٣٧٠ ص ، أي ثلث الكتاب تقريباً . ودليل اعتماده عليه قوله إنه قد اعتمد في نشر هـذا الباب بنوع خاص على مخطوطتي الأزهر ومعهد دميـاط ، وإنه قد استخدم هذين المخطوطين عن نسختين نقلهما رمزي بك بيده ، إذ الأصول مودعة الآن في خزائن لا يسهل الوصول إليها . وإذا كان الأستاذ رمزي بك قد نقل هذين المخطوطين فهو لم يكتف بمجرد النقل ، بل أعمل في قراءتهما قراءة صحيحة كل جهده . وقد ظهر هذا الجهد في تصحيح هذا الجزء من الكتاب بنوع خاص تصحيحاً لم يتوفر للأجزاء الأخرى . وإنه ليحلو لنـا أن نثبت أن صاحب السمو المغفور له الأمير عمر طوسون قد اعترف لرمزي بك بجهوده المشكور ، فقال سموه رحمه الله في تقديمه للكتاب : (وقد راجع الباب الثالث وهو الخاص بتقويم البلدان ، وصوّب تحريفه ، حضرة الأستاذ محمد رمزي بك ، وبذل في ذلك جهداً يستحق عليه الشكر والتقدير) . وأما الدكتور سوريال فقد قال : (ولما كان الباب الثالث يحتاج إلى عناية خاصة في تحقيق الأسماء الصحيحة لنواحي القطر المصري وإثباتها في النص دون غيرها ، فقد راجعناه مع حضرة محمد رمزي بك مراجعة دقيقة ، واستفدنا منه في الوصول إلى ضبط الكثير من الأسماء الغامضة أو المحرفة في مختلف الأصول) . ومن الواضح أن عبارة النـاشر الفاضل لا تطابق تماماً عبارة سمو الأمير . ولقد كنا نطمع من الناشر الفاضل لا أن يعترف بجهد رمزي بك اعترافاً صريحاً كاملاً فحسب ، بل وأن يضع اسمه على غلاف الكتاب مع اسمه هو . وذلك لا لأن الجزء الخاص بتقويم البلدان يشغل ثلث الكتاب فحسب ، بل لأنه أصح أجزاء الكتاب نشراً ، بدليل أن الناشر قد اعترف هو نفسه بأنه قد استطاع أن يثبت في متنه الأسماء الصحيحة دون غيرها ! وهذا شيء لم يوفق إليه في أجزاء الكتاب الأخرى ، مع أن من بين تلك الأجزاء ما هو مجرد سرد لأنواع من الزراعات والمكاييل والمقاييس والأشهر وما إلى ذلك . وباستطاعة القارىء أن يراجع هوامش هـذا الجزء ليرى إلى أي حد قد استفاد الناشر من مجهودات رمزي بك ، مستدلا على كفاية هذا العالم الفاضل بما أثبته الناشر أخذاً عن بحث رمزي بك المنشور باللغة الفرنسية في Mémoire de l'Institut Français. T. LXVIII; Mélanges Maspero, vol. III, pp. 273—321. Le Caire 1935.) بعنوان (Rectifications à l'auvragé d'E. Amélineau Geographie de l'Égyp t à l'Epoque Cope).

أي تصويبات في كتاب المسيو أميلينو عن جغرافية مصر في العصر القبطي ! ثم بحوالي سبعة وعشرين هامشاً ذكر الدكتور سوريال أنها من تحقيقات رمزي بك .

وتجمل ملاحظاتنا على طبعة الدكتور سوريال بأن روحها العلمية ليست كما كنا نبغي ، وأن أصول النشر فيها لم تراع على الوجه الدقيق ، وبخاصة في إقامة تسلسل المخطوطات ، وفي الأخذ بالمبادىء الصحيحة في قراءة النص ، وبذل ما تتطلب هـذه القراءة من جهود . وأما ما أوردنا من أمثلة وتفاصيل فنرجو القارىء ألا يعتبرها على أي نحو استقصاء لما في الكتاب من أخطاء ، وإنما سقناها تأييداً للقواعد العامة التي أوردناها ؛ وهي بيت القصيد فيما كتبنا (١) .

محمد مندور

(١) يسرني أن أشير إلى أني قد رجعت إلى زميلي المحقق الأستاذ جمال الدين الشيال ، مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فاروق ، لتحقيق بعض مصطلحات العصر الأيوبي الواردة في الكتاب .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٨١ — الثلاثاء ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ — ١٦ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

في القراء والكتب

للدكتور أحمد زكي بك

تحملني الذاكرة إلى أعوام ماضية بعيدة . في ضاحية من ضواحي عاصمة أوروبية كبيرة .

يصبح الصباح فأرى أهل الضاحية يخرجون من كل بيت ، ويسلكون كل طريق ، إلى محطتها . وعند باب المحطة يقف بائع الصحف هو وولده يستقبلان القادمين ، فلا يكادان يلاحقان السيل المنهمر الدائم من طُلَّاب الصحف . وأدخل القطار مع الداخلين ، وهو تحت الأرض ، فيستهويني منظر تلك الصفوف المتقابلة في العربات وهي مكبّة تقرأ في نور الكهرباء ما تمخّض عنه اليوم من أنباء . والرجال والشبان كان أكثر ما يقرأون الصحف . والنساء والبنات كان أكثر ما يقرأن الكتب . تأخذ البنت مقعدها ، فلا تلبث أن تُخرج من حقيبة يدها الكتاب وبه علامة من ورق برزت منه حيث وقفتْ من قراءته في أمس الغابر . ويشق القطار ظلام النفق الطويل شقًّا يحمل تلك الكتلة الآدمية القارئة إلى المدينة ، فتحسب أنه إنما يحمل مدرسة توزّعت فصولها على عربات القطار . وقد يرفع رافع صوته سهواً ، فلا تلبث أن تلتقي عنده الأنظار ، من جوانب الأمين ، ومن فوق النظارات ، فيعود إلى تخفيض صوته أو حبسه آسفا . ويجري القطار في هذا الصمت والسكون زمانا ، كأن الناس على رؤوسهم الطير . ويقف القطار وقفاته ، ليتخفّف من أعبائه ، فلا تسمع إلا صوت الحارس يُجلجل يُعلن أسماء تلك المواقف . ويخرج الناس فتسأل السائل عمن كان من يمينه ، أو عن يساره ، أو قدّامه ، فما يكاد يذكر ، فقد كانت عينه امتلأت بسواد المداد ، فاشتغلت به عن بياض الوجوه .

وكنا نعود في المساء ، من المدينة إلى الضاحية ، والجسم هامد ، والأعضاء متخاذلة ، فتراهم يقرأون صحف المساء ، وهي صحف غير صحف الصباح في طبيعتها ، فقد غير ناشروها

من صفاتها حتى توافق ما فى السماء من عمود أجسام وتحاذل أعضاء. ففيها السياسة قِلّة؛ وفيها أحداث اليوم الكبرى اختصارا. وهى تنبو عن تكرار أخبار الصباح إلا ما لزم للمتابعة. ثم هى تأتيك بكل نادر ممتع فكِه من حياة الناس، مما يقرؤه المرء والظهر فى ارتخاء، والعين خالة، والفم ذو ابتسامة فاترة.

والرجل يفرغ هناك من مشاغل اليوم، ومن مشاغل الجسم ومشاغل الأهل، فيأوى إلى مقعده المختار، بجوار النار، وجليسه بيبة وكتاب يملأ بهما فراغ ما بين العشاء والنوم.

والقراءة هناك ميسورة غاية اليسر، فى صحف سيّارة أو كتب عامرة.

كنا فى عهد الثورة المصرية، فما بعدها، لا يكتفى الطالب منا من أخبارها بما يقرؤه فى الصحيفة الواحدة يشتريها، فيطلب الآراء فيها من كل حزب وكل لون، فيذهب إلى أقرب دار كتب، فيجد صحف اليوم منشّرة على الألواح قائمة، يقرؤها العامل الفقير بقبعته القرطحة الرقطاء، وصاحب العمل غير الفقير بقبعته المستديرة السوداء.

ويطلب الطالب منا الكتب فيجد ألوانا لا حصر لها. فإن طلب القصة وجد الآلاف، ووجدها مبوّبة مفرّعة. وإن طلب الأدب وجد الألوف مقسّمة متنوّعة. وإن طلب الاجتماع، أو طلب الطب، أو العلم، أو التاريخ، أو ما شئت من سائر أنتجة القرائح وجد من ذلك عدد الحصى. وإن طلب الكتب للطفل ذى السنوات الثلاث وجدها. وإن طلبها له صبيا أو يافعا أو شابا كاملا أو رجلا كهلا أو هرما عاجزا وجدها. وإن طلبها للأنوثة الصرفة وملاهى الأنوثة ومشاغلها وجدها. وللصم يجدها وللبكم ومن لا يبصرون. وهى كتب لمحاضر وسيعة ممتدة، تمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وفى كل زاوية بين هذه، ترمى إلى غاية من غايات الإنسان، وتمس كل مَلَكة من ملكاته، وحس من أحاسيسه. وهى الماضى إن طلبت الماضى. وهى المستقبل والآمال إن طلبت المستقبل والآمال.

وكل هذه الكتب المتراكمة فى هذه الغابات الحيّة لأمم أوروبا الحديثة هى نتاج أربعة قرون أو خمسة، أى منذ كانت « النهضة » الأوروبية إلى اليوم.

ونحن اليوم فى مصر، وفى الشرق العربىّ، نقع من تاريخنا حيث وقعت أوروبا من تاريخها فى عصر «النهضة» فى القرن الخامس عشر. فالمكتبة العربية الحديثة لا وجود لها، أو هى صغيرة الحجم صغيرة القيمة بحيث يحسن بنا حفظاً للكرامة إغفالها. والمكتبة العربية القديمة لها وجود حقاً، ولكن على صورة تجعل ورودها صعباً. فهى مورد الرجل المختص لا رجل الحياة العادىّ. والمكتبة القديمة بعضها نافع حقاً، وبعضها قد ينفع، وكثيرها لا ينفع أبداً. وهى مهوّشة كالأثاث المركوم علاه التراب ونسج العناكب، فلا تكاد تصل إلى قطعة منه حتى يبلغ منك جهد الطلب كل مبلغ. فالمكتبتان العربيتان، الحديثة والقديمة، أولاهما غير موجودة، والأخرى غير ميسورة لرجل اليوم الذى يريد أن يحيا الحياة الحاضرة السريعة التى لا تمهل من يتمهّل.

إن الدولة الرومانية بعد سيطرتها الأوروبية ودخولها فى المسيحية تدهورت وانحلت، وجاء بعد انحلالها عصور كلها ظلام، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر فالخامس عشر أخذت تستفيق من سبات تلك الجهالة، فوجدت مخلصها فى الرجوع إلى القديم الأقدم، إلى ما خلّفه الرومان والإغريق من علوم. ونحن كذلك انحلت دولتنا الإسلامية انحلالا. فمن أموية إلى عباسية، إلى فاطمية، إلى ... إلى. وانتهينا بالدولة التركية، وهذه زالت باعتبارها دولة إمبراطورية. وعدنا بزوالها وانحلالها من جديد إلى يقظة النائم كما عادت دول أوروبا عند فجر دورها الحديث. فإن كان التاريخ يعيد نفسه، فهو معيد نفسه فينا على

اختلاف الأجناس واختلاف البقاع وتأخر القرون .

وعلى هذا التشابه فى الموقفين ، موقف أمم الشرق من نهضتها الحاضرة ، وموقف أمم الغرب من نهضتها الغابرة ، توجد بينهما فروق تجعل هذه النهضة الإنسانية الشرقية الحاضرة أسرع وأوحى من تلك النهضة الإنسانية الغربية الغابرة . فى النهضة الغابرة كانت كنيسة تسيطر ، وكان « إقطاع » يسيطر ، فكان لا بد للنهضة من رفع هذين النيرين . أما نحن فى هذا الشرق فالإسلام لم يكن فينا يوما كنيسة ذات سلطان ؛ وفقهاؤنا لم يكونوا يوما قساوسة ؛ فليس فى الإسلام بين العبد وربه حجاب . والإسلام لا يعترف بالفقه صناعة ، ولا بالفقهاء أربابا من دون الله . فإن استعبدتنا بعض آرائهم العتيقة الطائشة ، فمن طواعية منا كان هذا الاستعباد ، وعن طواعية منا سيكون التحرر ؛ وعن طواعية منا ، وبأيسر طاقة ، نسترد عقولنا ونزاحمهم فيما ذهبوا إليه من تفسير ، وما أولوا من تأويل ، وسيكون لرأينا فى هذا الزمن الرجحان لأنه زماننا . وأما الإقطاع فقد زال من الشرق إلا آثارا ، وهذه ذاهب بها لا محالة ما يجرى الآن فى الشرق من حرية فى العمل ، وسهولة فى التقنين ، واستعداد العقول للقبول .

والطباعة التى كانت غير معروفة فى أول تلك النهضة الغربية ، ثم اكتشفت ، فسارت من خطاها ، هى اليوم فى متناول الشرق ، لا بأبخس الأثمان فحسب ، بل على أحسن ما أبدع المبدعون . والورق لا حاجة إلى ابتداعه كما احتاج الأولون . فنهضتنا هذه الحاضر قد تهيأ لها من أسباب النجاح ما لم يتهيأ لتلك النهضة الأوروبية الغابرة .

ولنا فى هذه النهضة سيلان ، كما كان لهم فيها سيلان ، إحداهما قديمة والأخرى حديثة . أما السيل الأولى القديمة « فإحياء العلوم » . وقد قصد الأوروبيون بهذا اللفظ إحياء علوم الرومان واليونان كما قدمنا ؛ ونقصد به نحن إحياء علوم العرب ، وعلوم مصر إن كان للمصريين الأقدمين علوم باقية تحيى . وبالإحياء نقصد كسر هذه الأغلال من تلك الذخائر ، ونفض التراب عنها ، وترتيبها وتنظيمها ، وتنجيرها ، حتى وحلها ثم تركيبها ، حتى تخرج على طراز يلائم وأطرزة العصر ، وعلى أسلوب ينسجم وأفهام هذه الأيام .

إن « دار الكتب » المصرية أشبه اليوم شيئا بالمتاحف لا بدور الكتب ، وتلك الأرفف الكثيرة العديدة التى بها أشبه شىء بخشبات الموتى . وقد درجت الدار حديثا على طبع كتبها فخرجت على ورق أبيض بعد آخر أصفر ، وصقيل بعد آخر أخشن . ولكنها بذلك لم تفعل إلا أن غيرت الأكفان القديمة السمراء البالية بأخرى جديدة بيضاء زاهية . إن الذى نريده ، ونريده عصر « الإحياء » ، إحياء العلوم القديمة ، هدم هذه البيوت الأثرية الفكرية العتيقة ، وبناء أبيات جديدة من لبناتها ، لا ليسكنها راعى الشاة وراكب البعير ، ولكن ليسكنها صاحب المغزل المكنى وراكب الطائرة .

وذاك العلم القديم ليس فيه خطير إلا ما كان أدبا أو دينا ، وبكليهما نفخر . ومن كليهما نود أن نغترف ونروى ، ولكنا نريد أن نروى ، لا ارتواء الرجل البدائى الذى ينبطح على الأرض ليصل بفمه إلى غدير الماء ، ولكنا نريد أن نروى بالأنابيب والصنابير . ولا نريد أن نروى الماء عكرا ولو كان ماء النيل ، ولو قيل فى أوصاف العكر ومزاياه ما قيل .

نريد أن نعرف الدين بغير هذا الأسلوب العقيم ، وبغير تلك الحواشى وذاك الزيف . نريد أن يكتب الدين كما يكتب كتاب فى الطبيعة والنبات . ونريد أن نراه مخرجا من أصوله الأولى تخريج منطق فنستبين به الحلال البين من الحرام البين ، ونعرف به أين ينتهى الفرض ويبتدئ الجواز ، وأين الصدق فيه وأين المين ، وأين ما مصادره الله ورسوله وما مصادره أخلاق رفعهم العامة والعرف فوق مكان الله ورسوله . إن لدينا اليوم فى الورق الأصفر دينا لو اطلع محمد (ص) على جلته ، لاقشعر جسده من جلته ،

واستعاذ بالله منه على جموح في الفكر تارة ، وجمود في العقل تارة ، وعلى سذاجة من أطهار بلغوا حدّ البله ، فجروا بالدين مجراهم في الشعر والأقاصيص . والشعر يُنشَد للنغم ، والأقصوصة تُروَى لدغدغة الخيال . والدين يُنشد لمناغمة العقول فيما تستطيعه ، ويروى للضرب على أوتار القلوب وهي صاحيةٌ فيما لا تستطيعه العقول .

فنحن نريد غربلة هذا الإرث الديني العظيم ، ورفع ما راكمت عليه عصور الظلام الدينيّ من كثلكة . نريد أن نقرأ عن حياة محمد في المائة من الصفحات ، وفي الثلاثمائة وفي الألف ، كتباً يتلقفها السرع ، ويستمهل عندها المستمهل ، ويجلس لها الفاحص الدارس . ونريد أن نقرأ عن حياة خلفائه وخلفاء خلفائه مثل ذلك . ونريد أن نقرأ عن النظم الاجتماعية في الإسلام نظاما نظاما ؛ وأن نقرأ عن الأسرة والبيت ؛ وأن نقرأ عن المعاملات صنفا صنفا ؛ والحقوق المدنية والواجبات واجبا واجبا . ونريد أن نعرف ، ويريد كل طالب حديث أن يعرف ، مَنْ مالك ومن الشافعي ، ومن أبو حنيفة ومن ابن حنبل ، ومن غيرهم من أكابر الرجال وأكابر العقول . ولكنه يريد أن يعرف كل هذا بلغة هذا القرن لا بلغة القرن السادس الهجري والعاشر ، وبلغة الدراسة في الكتاب لا لغة الحلقات في الأروقة ، وعلى أسلوب القاعد عند التُّخت لا أسلوب المتقرفص على الحصير . نريد أن نتعلم كل هذا بلغة الأزهر وأسلوبه في غده الزاهر القريب ، لا في أمسه الغابر البعيد . وما كان في أمسه إلا حميداً .

والأدب العربي ثروة عظمى لا يجحدها إلا الجاهلون ، والعربيةُ من بعدُ لغة آبائنا من الأزل ، أو هي على الأقل لغتهم من أكثر من ألف عام . وفي هذه اللغة عصروا عقولهم ، وعلى صفحاتها أراقوا الدماء من قلوبهم . وهي دماء لا تزال تجري مجراها من عروقنا ، وينزف مثلها من قلوبنا . فهذه الخزائن من تراث الأجداد نريد أن نفتحها ونرتبها من جديد على مثال ما رتب الفرنسيون آدابهم ، ونبوّبها على مثال ما يبوّب الإنجليز وأمم الغرب أبوابهم . نريد أن نعرف مَنْ بشار ، ومن أبو فراس ، ومن البحتري ومن أبو تمام ، ومن الجاحظ ، ومن الثعالبي ، ومن ابن خلدون ، وألا نُحال إذا طلبنا شيئا من ذلك إلى كتب شتى وموسوعات مطوّلة تجمع مما نطلب نُتَفا من هنا ونتفا من هناك ، أو نحال إلى كتب هي للأفهام كالبندقة التي لا تنكسر بين الأسنان .

نريد إحياء آثارنا القديمة وتهذيبها من دين وأدب وتاريخ ، وأن يكون إحياءً تقوم به الدولة والأمة والجامعة والجامعات ، مقصوداً لذاته ، ومشكوراً عليه ، ومخطّطاً له ، حتى نبلغ منه الكفاية . ونريد ألا تُبنَى الخطّة فيه على تملّق الجمهور ، ولكن تملّق الثقافة ، والرُّقي للنهضة ، وإن لم يكن من الجمهور ردّ فعل لها قريب .

فهذه السبيل الأولى لنهضتنا التي نرجوها — سبيل إحياء العلم القديم . أما سبيلها الأخرى ، فسبيل العلم الحديث . ولن نجد نهضتنا في ذلك من العنت ما وجدت نهضة أوروبا في القرن الخامس عشر فالسادس عشر من ذلك . فالعلم الحديث عند ذاك لم يكن له وجود . فكان لا بد لهم من اختراعه . وقد قضوا في اختراعه إلى اليوم خمسة قرون . ومن محاسن هذه العصور التي نعيش فيها أن العلم فيها مباح لكل مقتبس . وقد أغنتنا هذه الشعوب الإنسانية التي شاء الله أن تسكن تلك البقاع الأوروبية ، أغنتنا مشقة الاختراع ، فما علينا إلا أن نغترف من بحرها الطامي بمقدار ما تحمل أوعيتنا . وسبيلنا في ذلك الترجمة . فعصر نهضتنا الحاضر مدموغ بأنه عصر ترجمة ، وهو رغمنا كذلك . فنحن أمة بثقافتها قديمة ، صحتْ منذ سنوات لتجد نفسها وسط ثقافة جديدة لا عهد لها بها . وهي لازمة لعيشها . ولا بد أن نهضم هذه الثقافة بالنقل قبل

[البقية على صفحة ٢٣]

أبو قطيفة

من كلام الجاحظ : وأنت لو حولت سا كنى الآجام إلى الفيافى ، وسا كنى السهول إلى الجبال ، وسا كنى الجبال إلى البحار ، وسا كنى الوبر إلى المدر ، لأذاب قلوبهم الهمّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع ، قال الله عزّ وجلّ : «ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرُجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم» ، فقرن الضن بالأوطان إلى الضن بمهج النفوس !

وأبو قطيفة شاعر من شعراء بنى أميّة أخرجوه من ثلاثة عشرة قرناً من وطنه ، فأذاب الهمّ قلبه ، وأتى عليه فرط النزاع ، على نحو ما يصيب الذين يحوّلونهم إلى غير أوطانهم .

لما شمّر عبد الله بن الزبير للخلافة ودعا الناس إلى بيعته ، نفى بنى أمية عن المدينة إلى الشام ؛ وكان أبو قطيفة المعيطى مع من نفاهم . وأبو قطيفة هذا من العنابس ، من بنى أمية .

قدم الشام أبو قطيفة وفيها بنو أمية ، وفيها عزّ خلافتهم وبشاشتها ، فهل ألهته قصور يزيد بن معاوية فى دمشق عن قصور المدينة وآطامها ؟

القصر ، فالنخل ، فالجمّاء بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جيرون!
إلى البلاط فما حازت قرائنه
دور نزحن عن الفحشاء والهون

فلم تشغله أبواب جيرون فى ظلال مسجد بنى أميه فى دمشق عن قصر سعيد بن العاصى وعن نخله ، وعن الجمّاء ، وغير ذلك من أماكن المدينة .

يبعد المرء عن مائه وأرضه وسمائه ، وقد يرد ماءً أعذب من مائه ، وترحّب به أرض أكرم من أرضه ، وتظلّله سماءٌ أضحك من سمائه ، ولكن المرء لا يبعد عن أى ماء ولا عن أى أرض ولا عن أى سماء ؛ وإنما يبعدونه عن هذا الماء الذى ورده آباؤه وأجداده ، وعن هذه الأرض التى اشتملت على عظام قومه ورفاتهم ، وعن هذه السماء التى باركت لهؤلاء القوم ؛ إنهم يبعدونه عن لحمه ودمه وعظمه ، عن منابت فكره وشعوره وعاطفته !

هل كان يعوز أبا قطيفة وهو فى دمشق بين إخوانه وعشيرته ، شىء من عذوبة الماء ورقة الهواء وحسن السماء ؟! أما كان فيها عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، والخليفة أموى ، والقوم أمويون ! أجل ، كان يعوزه شىء أجلّ من هذه الأمور المادية ، كان يعوزه مراتع رتعت فيها أفكاره وعواطفه فى صباه !

فلننظر كيف كان يذكر هذه المراتع التى رتعت فيها خواطره فى الماضى .

لما حنّ وهو فى دمشق إلى القصر وإلى النخل وإلى الجمّاء ، كانت عاطفته فى هذا الحنين مجرّدة من كل تزويق ؛ فالمدينة أشهى إلى قلبه من أبواب جيرون فى دمشق . وإذا أحببنا أن نستنبط لنا علّة لهذه الشهوة وجدنا أن السبب فيها بُعد دور المدينة عن الفحشاء والهوان !

عاطفة بدوية ، منزهة عن الفحشاء ، خالصة من الذل ، هذا شكل من شعر أبى قطيفة الوطنى ، فلنلتمس لنا شكلاً آخر من هذه الوطنية :

بكى أحد لما تحمّل أهله
فكيف بذى وجد من القوم آلف
من اجل أبى بكر جلت عن بلادها
أمية ، والأيام ذات تصارف

وأبو بكر هذا إنما هو عبد الله بن الزبير ، فقد كان يكنى بأبى بكر ؛ فى هذا الشعر شكل غير الشكل الأول .

لقد جعل أبو قطيفة فى هذه الأبيات حياةً للطبيعة على نحو ما يفعله شعراء الإفرنجة فى فيض خواطرهم ، وصوب قرائحهم ، فقد شرك الطبيعة فى عاطفته وشعوره وألمه ،

لقد استحكمت الألفة بين جبال المدينة وبين الذين أخرجوا منها ، فبكت هذه الجبال بعد جلائهم وحنت إليهم .

كان أبو قطيفة في دمشق مشغول الفكر ، لا يدري هل بقيت قصور وطنه على حالها أم تغيرت :

ليت شعري ، هل البلاط كعهدي
والمصلّى إلى قصور العقيق !

لقد كان في هذا الشعر الكريم يخرج من هذا النوع من الوطنية إلى نوع آخر من القومية ، فكما بكى على أرض آبائه وأجداده وحنّ إليها ، فكذلك بكى على قومه أنفسهم ، واشتاق إليهم :

وهل برحت بطحاء قبر محمد
أراهط غُرّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبّي وصفو مودتي
ومحض الهوى مني وللناس سائره

وقد ردّد هذه النغمة في مقام آخر حيث قال :

أقطع الليل كله باكتئاب وزفير ، فما أكاد أنام
نحو قومي إذ فرّقت بيننا الدا
رُ وحادت عن قصدها الأحلام
خشية أن يصيبهم عنَت الدهـ
رِ وحرب يشيب منها الغلام !

فما أرقّ هذه القومية ! لا يكاد أبو قطيفة يتملكه غمض الليل وهو في دمشق ، ولماذا هذا الأرق؟ إنه يخشى أن يصيب قومه عنتُ الدهر ، وأنه يخشى الحرب بينهم ، فهو كئيب البال الليل كله ، لقد كان قلبه مشتتاً في الحنين إلى أرضه مرّة ، وفي الحنين إلى قومه مرّة ؛ كان مشغول الفكر بالحجاز ، يرمي بطرفه إلى السماء ، حتى إذا رأى السحاب متوجهاً نحو الحجاز ، هاج شوقه واشتد نزاعه :

إذا برقت نحو الحجاز سحابةٌ
دعا الشوقَ مني برقُها المتيامن !

لم تقع عيني من شعر أبي قطيفة إلا على أبيات قلائل في الأغاني ، ولكن هذا القدر اليسير من الشعر يحتوي على أشياء كثيرة من الوطنية . وإذا كانت الوطنية على مصطلح عصرنا هذا ضرباً من الحنو على بقاع الوطن ، وتقديس أرض الآباء والأجداد ، فأبو قطيفة ملئه هذا الحنو ، وشغله هذا التقديس ؛ لقد جمع في شعره بين الوطنية والقومية ، فتغنّى بأرض آبائه وأجداده ، وبكى على عشيرته وإخوانه ، وما أشدّ الحالة التي كان فيها بعد أن أخرجوه من المدينة وقذفوا به إلى الشام :

أحن إلى تلك الوجوه صبابةً
كأني أسير في السلاسل راهن

وهل من حالة أشد من حالة الأسر ، فكيف يكون ليل الأسير ونهاره إذا كان شاعراً رقيق القلب ، لطيف الحس ؟! والمؤلم في هذا كله أن أبا قطيفة بعد فرط هذا الحنين ، وبعد هذه الدموع التي سكبها على وطنه وعلى قومه، أذن له ابن الزبير في الرجوع إلى المدينة لأنه عطف عليه لمّا بلغه شعره ، وقال : من لقيه فليخبره أنه آمن ، فليرجع . فأخبر أبو قطيفة بذلك ، فانكفأ إلى المدينة راجعاً ، ولكنه مات في الطريق قبل أن يتمتع من هذه الأرض التي أحبها ، ومن هؤلاء الإخوان الذين أحبهم .

إلا أن حبّه لأرضه ولعشيرته لم يمت ، فقد بقي خالداً في هذه الأبيات القليلة التي تناهت إلينا ، وهذا صداه بعد أن أتى عليه ثلاثة عشرة قرناً . فرحم الله شاعرنا الأموي ورحم الله وطنيته الكريمة !

(دمشق) شفيق جبري

من الأدب المعاصر :

٣ ـ ميخائيل نعيمة

الشاعر(١)

ميخائيل نعيمة شخصية متعددة النواحي ، فهو قد جمع في شخصيته شخصيات عدة ؛ فهو يضرب في الشعر بكعب عال ، وشعره يجيء في الطليعة بين شعر الجيل الحديث ؛ وهو إلى جانب هذا قاص متمكن من فنه ، ينفذ من خلاله إلى أعماق النفس البشرية ، محاولا سبر ما في السرائر ، وما يدور في الضمائر ، ويختلج في النفوس من شتى المشاعر ومختلف الأحاسيس ؛ ثم هو بعد هذا وذاك ، ناقد بارع ، يعرف كيف يغربل الآثار الأدبية وينزل بها إلى قاعدة في النقد صادقة ، ويبين استناداً إليها نواحي الكمال ، ويظهر جوانب النقص ، فيما يتناوله من الآثار الأدبية ، وهو من هنا من خير النقاد الذين عرفتهم لغة الضاد في مختلف عصورها . وهو أخيراً وبعد كل هذا ، فيلسوف يفرغ فلسفته في فصول يمزج فيها الأدب مع الفلسفة ، ويودع في مقالاته خلاصة تأملاته في الكون والحياة ، وزبدة تجاربه في الدنيا ، وما وصل إليه تفكيره ، وهداه إليه عقله .

ونعيمة يعد من المجددين في شعره ، ومن حاملي لوائه ، وله قصائد ومقطوعات في العربية والإنجليزية ؛ أما قصائده العربية فقد نظمت كلها في الولايات المتحدة ، ما بين عامي ١٩١٦ و ١٩٢٦ ، ونشرت في حينها في مجلات المهجر ، وعلى الأخص في مجلتي « الفنون والسائح » ، ومن هاتين المجلتين ، تناقلت تلك القصائد الصحف والمجلات في سائر الأقطار العربية ، فكثير من تلك القصائد نشرتها الهلال ، والمقتطف ، والإمام ، والرسالة ، والحديث ، وغير هذه المجلات .

وهذا الشعر لم يجمع بعد في ديوان ، ولم ينشر في مجموعة ، اللهم إلا بعض القصائد جمعها السيد محيي الدين رضا في كتابه « بلاغة العرب في القرن العشرين » ، والبعض الآخر جمعت في مجموعة الرابطة القلمية .

أما شعر نعيمة الإنكليزي ، فهو وإن كان أقل من شعره في العربية ، إلا أن له نفس الروح والرواء ، وكلها منظومة في نيويورك بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٣١ ، وقد نشر بعضها في صحيفة « نيويورك تيمس » ، والبعض الآخر في « سير مخفيلد ريا ليكان » .

* * *

يرجع الشعر في مصدره – على رأي نعيمة – إلى ينبوع واحد ينبع منه ، وعين واحدة يخرج منها ويفيض ، وهذا الينبوع هو الحياة ؛ وأنت إذا نظرت إلى الحياة نظرة عميقة لوجدتها واحدة في كل شيء ، متفقة في كل شيء ، فلا يختلف منها شيء عن شيء ؛ والحياة في أكبر حيوان في هذا الكون الفسيح الواسع ، إلى أصغر حشرة تدب على ظهر الأرض وتدخل في شقوقها ، واحدة . فهي في الفيل الضخم ، هي هي في النملة الصغيرة المتناهية في الصغر ، فهما سواء من ناحية الجوهر والأصل . وفي هذا المعنى يقول ميخائيل نعيمة في قصيدته إلى « دودة »(١) :

تدبين في حضن الحياة طليقة
ولا هم يضنيك بأسرار أكوان
فلا تسألي الأرض من مد طولها
ولا الشمس من لظى حشاها بنيران
ولا الريح عن قصد لها في هبوبها
ولا الوردة الحمراء عمن لونها القاني
وما أنت في عين الحياة دميمة
وأصغر قدراً من نسور وعقبان
فلا القبر أغلى عندها من ترابها
ولا الناس أسنى من حجارة صوان

(١) انظر ترجمة حياته في العددين ٦٣ و ٦٤ من الثقافة .

(١) الرسالة : ع ٣١٩ (١٤/٨/١٩٣٩)

هل استبدلتْ يوماً غراباً ببلبل ؟
وهل أهملت دوداً لتلهو بغزلان ؟

أما من ناحية المَرَض والمظهر الخارجي ، فالشعر كالحياة تماماً ، يتفق معها في الأصل ، ويختلف في الشكل ، فتراه متنوع المظهر ، متباين الألوان ، كثير الأصناف والأشكال . وفي هذا التنوع والتباين يظهر الفرق بين شاعر وشاعر ، وتحدث المفاضلة بينهما ، على أساس اتساع المدى في العمق والعلو وانفراج الأرجاء .

وما دامت الحياة ينبوع الشعر ، فيجب البحث عن الحياة الكامنة في قصيدة الشعر . وهذه الحياة تبدو في انعكاس الإحساس الباطني وما يعتمل في نفس الشاعر من أحاسيس ومشاعر ، والتي هي مظهر الحياة ، إلى كلام منظوم له حلاوة ورنة موسيقية في الألفاظ ، ورواء في الأسلوب .

وهذه الميزة نجدها في شعر نعيمة ، فإحساسه الباطني ، وما انطوت عليه نفسه من مشاعر ، نجدها في شعره ؟ ومن هنا كان شعر نعيمة نابضاً بالحياة ، تجري دماؤها في عروقه ، وتهب نسماتها عليه . والحياة التي في شعر نعيمة متخذة لوناً خاصاً عنده ، أتى به مزاجه الخاص ؛ واستقراء هذا اللون يبين طبيعة نعيمة ومزاجه . والحقيقة أنك تحسُّ في شعره الصراع القائم في نفسه بين الواقع والمثال ، وبين كيانه الخفي وكيانه الظاهر ، بين روحه المطوفة السابحة في أجواء السماء ، وبين جسده الأرضي المثبت في الأرض بوتد ، والمشدود إليها ...

وشعره لا يدل في حال أبداً على أنه انتهى إلى حالة من الطمأنينة ، وإنما يدل على حالة نشدانها . ونشدانه الطمأنينة كنشدان الفيلسوف الألماني نيتشة الذي انتهى إلى فلسفة القوة ، كنتيجة لتماسك نفســه العنيفة ، إزاء حالة حلول الجنون فيه ، والذي كان سائراً إليه ، وكان يحسه بغير واعية .

وشعر نعيمة كله يعبر عن هــذه الحالة ، حالة نشدان الطمأنينة ، فهي تتخذ أحياناً حالة شك . وفي هذا يقول في قصيدته إلى « دودة » .

ولولا ضبابُ الشكّ يا دُودةَ الثّرَى
لكنتُ ألاقي في دبيبك إيماني
فأتركُ أفكاري تُذيع غرورَها
وأتركُ أحزاني تكفّن أحزاني
وأزحف في عيشي نظيرك جاهلا
دواعي وجودي أو بواعثَ وجداني
ومُستسلماً في كلّ أمرٍ وحالة
لحكمةِ ربي لا لأحكام إنسان
فما أنتِ عمياء يقودُكِ مبصر
وأمشي بصيراً في مسالك عميان
لكِ الأرضُ مهدٌ ، والسماء مظلّة
ولي فيهما من ضيق فكري سجنان
اللذين ضاقتا بي لم تضيقا بخافقي
ولكن بجهلي ، وادعائي بعرفاني
ففي داخلي ضدّان ، قلب مسلّم
وفكرٌ عنيد بالتساؤل أضناني
توهم أن الكون سرٌّ وأنه
يُنال ببحثٍ أو يُباحُ ببرهان

وأنت في هذه الأبيات تلمس كيف أنه يرى الفكر عائقاً يقف في سبيل الإيمان ، والفكر من حيث يدور حول الحياة محاولا أن يستشف أسرارها ، فهو لا يخلص من هذا بغير الشقاء ، لأن الوجود لا يلقي للإنسان أسراره ، وهو لا يطلب إلى الإنسان السعي في سبيل الحصول على المعرفة الممكن تحصيلها ، وإنما يرجو له حالة من الاستسلام والإيمان ، حيث يحرك الإنسان إحساسه الباطن بالأشياء .

ونعيمة لم ينل من الحياة الخارجية ما كان يأمل ، ولم يكن له فيها نصيب ، فعكف على الحياة في داخله ، يحاول أن يخلص من روحه ما علق بها من أوهام المادة وأباطيل

الدنيا ؛ وأخذت آلام شديدة تنتاب نفسه ، فناء تحتها ظهره ، وهذه الآلام أخذت طريقها فى شعره ، فلا تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها ، وكان أن أصبح حائرا مستوحشاً ، لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، ولا يطمئن له قلب . فيقول فى قصيدته (الآن)(1) :

غداً أردُّ هِبات النّاس للناس
ومن قتامهم استشفى بإفلاسى
وأستردُّ رُعوناً لى بذمّتهم
فقد رهنت لهم فكرى وإحساسى
ورحتُ أتجر فى أسواق كسبهم
فما كسبتُ سوى همٍّ ووسواس
وكم فتحت لهم قلبى فما لبثوا
أنْ نصبوا بطلهم فى قدس أقداسى
غداً أعيد بقايا الطين للطين
وأطلق الروحَ من سجن التخامين
وأترك الموتَ للموتَى ومن ولدوا
والخير والشر للدنيا وللدين
وألبس القُرى درعاً لا تحطمها
أيدى الملائك أو أيدى الشياطين
فلا تروّعنى نار الجحيم ولا
مجالس الحور فى الفردوس تغرينى
غداً أجوز حدود السمع والبصر
فأدرك المبتدا المكنون فى خبرى
فلا كواكبَ إلا كان لى سُبلٌ
فيها ولا تربة إلا بها أثرى
لى فى القضاء قضاءٌ وللمنون مُنًى
وفى ملاحم الأقدار لى قدَرى
غداً ؟ ولا أمس لى حتى أقول غداً
فلتمحها الآن من نطقى ومن فكرى

(1) الكاتب مدين بهذه القصيدة للدكتور أدهم ، إذ لم يجدها فيما بين يديه من مراجع

ويقول أيضاً فى قصيدته تريمة الرياح(1)

ما أنا يا ملاكى السعيد … غير طيفٍ شريد طريد
علمته الحنين … عاديات السنين
فاستطاب الأنين … واسترق النواح
مجيباً بالدموع … فإذن أنت مثلى غريب
أنت مثلى طريد … هائم تستعيد
ذكر ماض بعيد … كان حلما وراح

ويقول فى قصيدة «لو تدرك الأشواك سر الزهور»(2)

يا ساقى الجلاس بالله لا
تحفل بكاسى بين هذى الكؤوس
أترع لغيرى الكاس ، أما أنا
فاحسب كأنى لست بين الجلوس
واعبر . ودعنى فارغ الكاس
لا . لا تقل ما طابت الخمر لى … أو أننى ما بينكم كالغريب
بل إن لى يا صاحبى خمرة … ما مثلها يطفئ روحى اللهيب
أعصرها من قلبى القاسى … الخ

من هذه الأبيات التى نقلتها ترى الحيرة ظاهرة ، والوحدة غير مستورة .

وكان تميمة من الذين خرجوا من هذه الحيرة التى كانت تسد فى وجهه المسالك ، ليكشف آفاقا جديدة لم يكن رآها من قبل ، وليطلع على عوالم لم يكن يبصرها فى الماضى ، فهو قد تحرر من قيود المادة التى تكبله ، وأزاح عنه أستارها الكثيفة ، وحجبها المدلة التى تلصقه بالأرض ، وتستر عنه الروح . فهو حاول أن يتحرر من القيود التى تشده إلى الأرض ليكشف سر الحياة ، وليتغلغل فى أعماق النفس ، ويسبر غور الروح ؛ فهو بذلك قد ترك العرض إلى الجوهر ، والقشور إلى اللباب ، وثانويات الحياة إلى أولياتها ، وخلف وراءه محسوسها إلى ما وراء الحس ، والمشاهد إلى غير المرئى .

(1) الرسالة العدد ٣٢٢ (٤/٩/١٩٣٩)
(2) بلاغة العرب فى القرن العشرين لمحيى الدين رضا ص ١٦٥ / ١٦٧

فنجد في شعره ميلا إلى انعتاق النفس من الأوشاب والأدران ، والسمو بالروح إلى السموات العلا ، فى قصيدته ابتهالات[١] يقول :

بكل الهم عيني بشعاع من ضيائك كي تراك
في جميع الخلق في دود القبور
في نسور الجو في موج البحار
في صهاريج البراري ، في الزهور
في الكلا ، في القبر ، في رمل القفار
في قروح البرص في وجه السليم
في يد القاتل في نجع القتيل
في سرير العرس في نعش العظيم
في يد المحسن في كف البخيل
في فؤاد الشيخ في روح الصغير
في ادعا العالم في جهل الجهول
في غنى المثرى وفى فقر الفقير
في قذى العاهر في طهر البتول

وإذا ما راودتها سورة النوم العميق
فاغمض الهم جفنيها إلى أن تستفيق

ويقول في قصيدته يا رفيق[٢]

يارفيق رفيق جسمي وروحي وشريكي في نعمتي وشقائي
قل رأينا طهارة وجمالاً لا فساداً في صنع رب السماء
فأبحنا للنفس كل مناها وتركنا الحرام للفقهاء

ويقول في قصيدته من أنت يا نفس[٣]

إيه نفسي أنت لحن فيَّ قد رنَّ صداه
وقعتك يد أستاذ خفيٌّ لا أراه
أنت ريح ونسيم أنت موج أنت بحر
أنت شمس أنت رعد أنت برق أنت فجر
أنت جزء من إله !

(له بقية) إبراهيم جبول الدريد

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ – ١٣٠
(٢) السائح ١٩٢٢
(٣) بلاغة العرب في القرن العشرين ص ١٤٠/١٤٢

جرونتفج الداغركي

بعث إلينا حضرة الأديب عدنان النحاس بمعهد الحقوق العربي بدمشق ، يطلب بعض البيان عن تجربة العبقري الداغركي جرونتفج في تعليم الكبار ، ونحن نبادر بالإشارة إلى بعض المراجع في اللغة الإنجليزية مما يسهل تناوله في هذا الموضوع ، لأن المكتبة العربية خالية من هذا الموضوع :

(١) مدرسة الشعب العليا بالداغارك Folk High School of Denmark تأليف بجتروب Begtrup .

(٢) كتاب ثان بنفس العنوان تأليف (لوند) Lund.

(٣) كتاب ثالث بنفس العنوان تأليف (مانيهي) Mannihe.

وهي مطبوعة في مطبعة جامعة اكسفورد Ox. University سنة ١٩٣٦ .

وهناك فصول خاصة بالتجربة ذاتها في كتب كثيرة منها :

(١) التربية المقارنة Comparative Education تأليف (فوت وآخرين) Fought and others

(٢) نحو تربية جديدة Towards a new Education نشره Boyd لندن سنة ١٩٣٠ .

(٣) المستقبل في التربية Future in Education . تأليف لفنجستون طبعة مطبعة كمبردج سنة ١٩٤٣ .

(٤) التعليم لمجتمع جديد Education for a new Society تأليف جرين . مطبوع في لندن سنة ١٩٤٣ .

وقد ورد ذكر لهذه التجربة في مجموعة جامعة كولومبيا يحررها الأستاذ كاندل الأمريكي ، وهي مجموعة كتاب كتب التربية السنوي Educational Year-Book .

ولعلنا نعود إلى معالجة هذا الموضوع الهام في فرصة أخرى .

« الثقافة »

سقوط مملكة إشبيلية

ومحنة بني عباد

— ٢ —

وكان يوسف بن تاشفين قد قرر مصير بني عباد كما قرر مصير مَن قبلهم من الأمراء المغلوبين ؛ وقد رأينا كيف بطش المرابطون بأمراء الأندلس فقتلوا بعضهم ، وأسروا البعض الآخر وألقوا بهم إلى غيابة السجن ، وكان بين القتلى المأمون ويزيد الراضي بالله ، ولدا المعتمد بن عباد ؛ قتل الأول مدافعاً عن قرطبة ، وأسر الثاني ثم قتل عند سقوط رندة . أما المعتمد نفسه فكان نصيبه الأسر والنفي ؛ وربما كانت لدى الظافر في الإبقاء على حياته بواعث أخرى غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه كما رأينا ؛ وربما أراد سيد المرابطين بذلك أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ في التراب ذلك الذي كان قطب الفتنة في الأندلس ، وأن يذيقه من العذاب المعنوي أروع ألوانه . وعلى أي حال ، فقد انتزع المعتمد وآله من « قصر » إشبيلية المنيف ، وحملوا جميعاً إلى السفن التي أعدت لنقلهم إلى المنفى ؛ وسارت السفن من إشبيلية في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى المغرب ، في مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ؛ وضجت جموع الشعب الغفيرة التي احتشدت على ضفتي النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس يرسف وجميع آله في الأغلال ، ويغادر موطن عزه إلى مصيره المجهول . وفي ذلك يقول الشاعر المعتمد أبو بكر بن اللبانة ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، من قصيدة طويلة :

نسيت إلا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كأموات بألحاد

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجه تمزيق أبراد

حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادي

سارت سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها إبل يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد [1]

وأنزل المعتمد وأسرته أولا بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً ؛ وهنالك زاره الحصري الضرير الشاعر ، وألحف في طلب الصلة ، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع في ذلك حرج الوقت ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وقطعة شعر يعتذر فيها عن ضآلة الهبة ؛ فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة ، وقضوا هنالك أشهراً قبل أن يحملوا إلى مقرهم النهائي [2] .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم إلى أغمات ، وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة من مراكش عاصمة المرابطين ؛ وكانت قد اختيرت لتكون منفى للأمراء الأندلسيين ، وإليها سيق عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وآله من قبل ؛ وحل المعتمد بن عباد وآله في أغمات في أواخر سنة ٤٨٤ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ ، وزجوا إلى قلعتها النيمة ؛ وهنالك قضى المعتمد عدة أعوام يرسف في أغلال الأسر ، ويتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المعنى ؛ ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ، بل كان سجناً شنيعاً بكل معاني الكلمة ، ضُيِّق فيه على المعتمد وآله أشد تضييق ، ولم يكن يطلق إليهم ما يكفيهم من النفقة ، فكان

(١) راجع هذه القصيدة في قلائد العقيان ص ٢٢ ؛ ونفح الطيب ٢ ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، والمراكشي ص ٧٩ و ٨٠ .

(١) المراكشي ص ٨٠ و ٨١ .

المعتمد وزوجه اعتماد الرميكية التي كانت تسطع في الأندلس بجمالها وخلالها البارعة ؛ وأبناؤه الأمراء ، وبناته الأقمار[1] يرتدون الثياب والأطمار الخشنة ؛ وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليطعمن والدهن وأسرتهن . وهنالك ما يدل على أن المعتمد كان مصفداً بالحديد في قدميه على الأقل في أواخر أيام أسره ، ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة بلا ريب ، وكانت قسوة لا مبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق في شيء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين من الفروسية والخلال الحسنة ؛ وسنرى فيما بعد كيف يفسر موقفه وكيف يلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوج المعتمد ، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ، ثم توفيت ، ودفنت بأغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ؛ فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد ؛ وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحي ؛ فصدرت عنه في معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية وكلها تلهف على سابق مجده وبكاء على ماضيه ، ورثاء لمحنته ، فمن ذلك قوله :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا
بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم
حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة
وأغرق الدمع آماقا وأحداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها
وقيل إن عليك القيد قد ضاقا

وقوله يوم عيد ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت إساءته
فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا
فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقوله وقد رأى سربا من القطا يمر بمعتقله :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي
سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة
ولكن حنينا إن شكلي لها شكل
فأسرح فلا شملي صديع ولا الحشى
وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل

وأذكت مأساة بني عباد في الوقت نفسه دولة الشعر بالأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر في رثاء دولتهم والتوجع على أيامهم طائفة من القصائد المؤثرة ، التي ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها ؛ وكان أغزرهم في ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقي على صلاته وولائه للمعتمد ، وزاره في سجنه بأغمات ، ونظم في دولته وأيامه ، وفي محنته وأسره ، عدة من قصائده الرائعة ، يضمها كتاب وضعه في تاريخ بني عباد عنوانه

(١) كان المعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . فمن أولاده الذين تذكرهم الرواية الرشيد والمأمون والراضي ، وأبو هاشم وعبد الجبار ، وغيرهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عنهن .

«كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك[1]» .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ؛ بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع فى ظلمات سجنه كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق بها الغمام[2] ؛ وفى أواخر أيامه شدد يوسف فى التضييق عليه ، وأمر بتصفيده بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ؛ وكان ممن أفلت عند سقوطها . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) توفى المعتمد فى سجنه بأغمات ، بعد أسر دام زهاء أربعة أعوام ، وكان سنه عند وفاته سبعا وخمسين سنة وبضعة أشهر (وكان مولده سنة ٤٣١ هـ) ودفن بأغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله فى رثاء نفسه قبيل وفاته ، وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد

(١) تراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ ، ٣٠ وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها .

(٢) يوسف أشباخ فى كتابه «تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين»

وهكذا اختتم المعتمد حياته الباهرة فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ؛ ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبو بحر بن عبد الصمد وهو من شعراء دولته وخاصة المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه ، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله مرثيته الغراء فى المعتمد بن عباد ، ومطلعها :

ملك الملوك أسامع فأنادى أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريته زادت علىّ حرارة الأكباد

فبكى الناس أحر بكاء، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج وكان منظرا يفتت الأكباد[1]

* * *

ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو أربعين عاما غدا قبر المعتمد بن عباد وقبر زوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً ؛ وفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين بن الخطيب ووصفه لنا بقوله : «وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سدرة وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول ، من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما » . وأنشد على

(١) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١

القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات

أناف قبرك في هضب يميّزه فتنتحيه حفيّات التحيات

كرمت حيا وميتاً واشتهرت علا
فأنت سلطان أحياء وأموات

ما رُئى مثلك في ماضٍ ومعتقدى
أن لا يرى الدهر في حال ولا آت

وزاره المقّرى مؤرخ الأندلس في سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢) ورآه كما ذكره ابن الخطيب فوق رابية في مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً[1]

— ٣ —

كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ؛ وما زالت محنة هذا الأمير الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كر العصور بألوانها الشجية . وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص في روايات مؤرخي الأندلس والمشرق ؛ وفي كثير منها يصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ؛ ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ويصمه بأقسى الصفات ، فيقول لنا ابن الأثير مثلا في التعليق على أسر بنى عباد واعتقالهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة . . . وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره[2] »

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلاله سُحُباً لم تمحها جميع الأعذار التي انتحلت لتبرير عمله . وتتلخص هذه الأعذار في أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، وتحالفه مع النصارى على إخوته في الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام في الأندلس إلى الخطر تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه . على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات ثقيلة ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب وظهر شبح الخطر على الإسلام ، كان أول الداعين إلى الوحدة وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل في ذلك السبيل بتضحية حصونه التي طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى في موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون في نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لا ريب أن البواعث التي دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها لم تكن دينية فقط ، بل كانت دنيوية أيضاً ، وأن الأندلس كانت تجتذب المرابطين بخصبها وغناها ونمائها . وإنه ليحق لنا أن نتساءل أي ضرورة ، أو أي حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيبا على النحو الذي اتبعوه بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم ؟ وأي ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا في يده أسرى لا حول لهم ولا قوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات عمله كأمير وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه لتكفير عما أثم بسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشيء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟ !

هذه تأملات تثيرها في النفس محنة المعتمد بن عباد ، ولا ريب أن هذه الخاتمة المؤسية ، قد أسبغت على المعتمد ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

محمد عبد الله عنان

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

معجزة آمون

كان القارب يشق ماء النيل الصاعد الضارب إلى الخضرة ، وينزلق مسرعا مخلفا وراءه خطا أبيض من الرشاش فوق رؤوس الأمواج المضطربة ، وكانت أغاني النوتية تتماوج على الهواء الهادئ الذي يخفق في أذيال السلم الأصفر المرفوع فوق المظلة البيضاء في مؤخر القارب . وجلس (ستناس) تحت المظلة صامتا ، وقد وضع ذقنه على يده متكئا بها على ركبته اليمنى ، وهو ينظر نظرة جوفاء إلى حركة المجاذيف ، إذ تضرب في الماء معا بخشخشة خافتة ، ثم تخرج منه معا وتتساقط منها قطرات لؤلؤية لامعة . ولم يكن (ستناس) في الحقيقة ينظر إلى الماء ولا إلى المجاذيف ، بل لم تكن أغاني النوتية المتكررة المتشابهة تسترعي انتباهه ، لأنه كان غارقا في تأمله ، تسرح أفكاره إلى (طيبة) التي ما زال يقطع نحوها الأميال واحدا بعد واحد ، منذ ركب القارب من قصر فرعون في شرق الدلتا . فهناك في طيبة كانت أمه (حاماسو) سليلة (رمهات) القائد الباسل الذي شتت شمل (الشردن) في غرب الدلتا ، وهزمهم شر هزيمة عندما هبطوا إلى شواطئ مصر من جزيرتهم (سردانيا) في البحر الشمالي في أيام رمسيس الكبير (الثاني) .

وهناك في طيبة كانت (نوبا) الجميلة سليلة بيت فرعون أمنحتب العظيم ، التي نشأت معه منذ الصبا ، عندما كانا يمرحان معا في حدائق قصري أسرتيهما العريقتين ، ويعتليان الأسوار في خفة القردة لكي يطلا من فوقها على النيل ، ويقذفا بحجار الجير إلى الماء ليرى كل منهما مدى ما تصل إليه رميته .

لقد اضطرته حروب مليكه رمسيس العظيم (الثالث) إلى مغادرة طيبة ومن فيها من أحبابه منذ سنوات طويلة ، ولم يجد في مشاغل تلك الحروب المتواصلة فسحة من الوقت يستطيع فيها أن يستأذن مولاه في الخلود إلى الراحة مدة من الزمن ، يتمتع فيها بزيارة وطنه والإقامة فيه حينا بين ظهراني أهله ورفقاء صباه . فكان في تجواله في الآفاق يكتفي بصورة (نوبا) الثاوية في صدره ، يتعلل بها وهو بعيد ، ويأنس بمناجاتها وهو وحيد . ولكم أزالت هذه الصورة وحشته كلما تمثلها وهو في خيمته في صحراء الغرب عند «جبل قرون السماء» ، عندما كان راجعا مع الجيش من الانتصار على قبائل المغاربة (الشوش) . فهناك طالت الإقامة لأن الإمبراطور رمسيس الثالث كان مجهداً من حربه العنيفة ، فقضى شهراً طويلا ليستريح ويتمتع بالصيد في المروج الخضراء التي رواها مطر الشتاء ، بعد أن اطمأن على بلاده من العدو المخيف ، وأصبح الملك (كيبر) زعيم الشوش يرسف في قيوده بين الأسرى .

هناك كانت الأيام تمر بطيئة في وسط المروج الفسيحة الخالية ، فكان (ستناس) يخرج في الصباح الباكر ليرى مطلع الشمس ، ويصلي (لحرماخيس) الشرق ، ويخرج من جيبه تمثال إزيس المقدسة فيتأمل جمالها البارع بقلب خاشع خافق ، وكانت صورة (نوبا) تلوح له عند ذلك في ملامح إزيس ، فيقضي الصباح كله في مناجاتها ، ويملأ روحه بهجة من ذكراها .

ولكم آنسته هذه الصورة نفسها وهو وحيد في خيمته عند جبال حوران بالشام ، أو في وديان فلسطين إذا ما أظلم الليل واشتد البرد في الشتاء ، وأطلت النجوم اللامعة على الفضاء الواسع الذي لا يسمع فيه إلا دوي الرياح الثائرة .

كان ستناس جالسا في مؤخر القارب يفكر في تلك السنوات القاسية ، التي مرت به في الحروب المتواصلة مع مليكه الذي لا يمل الكفاح ، وكان بين حين وآخر يتنفس نفسا عميقاً ، ويفيق إلى نفسه فيبتسم ابتسامة ضئيلة ، ويخفق قلبه خفقة شديدة ، ويقول لنفسه : «ما هي إلا أيام قليلة أخرى ثم يستوي القارب بي على ساحل طيبة » .

كانت الأماني تغمر جنبات صدره كما صور لنفسه ألفاظ الترحيب التي سيسمعها من أحبابه وأصدقائه ، ومن (تويا) التي لم يستمع إلى صوتها منذ ثلاث سنوات إلا من أصداء الخيال .

ومضت عليه الأيام بطيئة ، ثم ظهرت عند الأفق قبل المساء جزيرة كأنها سابحة فوق سطح الماء ، والنخيل الباسق يصعد منها مثل أعمدة المعبد العظيم ، ويميل برؤوسه في رشاقة مع هبات النسيم . وكان (ستنامن) يعرف هذه الجزيرة منذ الصبا ، فلقد طالما صحب إليها أباه بعد هبوط مياه الفيضان عندما تتخلف على سطحها المناقع الفسيحة البيضاء ، ذات البردي الملتف الذي تأوي إليه صنوف الطير ويسهل فيه صيد الأسماك ، وقد يتخلف به بعض صغار عجل البحر الآتية مع الفيضان من الجنوب . فقد كان أبوه الأمير (امنمري) مغرماً بالصيد لا يفوته أن يتمتع به كل عام .

جلس الشاب ينظر إلى الجزيرة من بعيد وقد كساها العشب والشجر الملتف ، وعادت إليه ذكريات الصبا الحلوة ، كأنها مرت عليه منذ الأمس أو اليوم الذي قبله .

وفيما كان غارقاً في تأمل صور هذا الماضي الحبيب ، سمع صيحة رئيس النوتية الذي أوقف حداءه وأشار إلى الشاطئ البعيد قائلاً في هزة سرور : «معبد آمون» !

فأسرع (ستنامن) خارجاً من تحت المظلة ووقف ينظر إلى المعبد المنيف المشرف على النهر ، وخشع قلبه عندما اتجه إلى ربه (آمون) .

ولما كان البدر يقترب من وسط السماء كان (ستنامن) يقبل يد أمه ، ثم يلقي نفسه بين ذراعيها ويختبئ في صدرها ، كما كان يفعل وهو طفل إذا أقبل عليها عائداً من لعبه مع تويا في الحدائق فوق ضفاف النهر .

* * *

وجلست أمه تحدثه عن أهله وعن أصحابه ، فقد كانت لديها جعبة ملأى من أخبار السنوات الثلاث التي تصرمت وهو بعيد يذرع المشارق والمغارب مع جيوش رمسيس العظيم . وكانت الأخبار كلها شائقة تتناول الأهل والصحب ورفاق الصبا ، ولكنه كان يسمعها في ضجر ، لأن الأم لم تذكر في ثناياها أخبار (تويا) ، فهل كانت لا تزال مقيمة في قصر والدها المجاور ، أم قد نزحت عنه ؟ وهل كانت لا تزال تذكره أم قد نسيته ؟ وهل بقيت مقيمة على وده أم قد غيرها البعد الطويل ، وحال عهدها كما يحول عهد النساء في القصص ؟

ولم يستطع الصبر طويلا ، فسأل أمه في دفعة من الحماسة لم يستطع أن يملك نفسه منها ، فقال وهو ينظر نحوها في لهفة : « وكيف حال تويا ؟ »

وكان السؤال مثل صدمة أصابت الأم فجأة فزعزعتها . فسكتت لحظة وأرادت أن تحول عينيها عن نظرات ولدها ، ولكنه أعاد سؤاله في فزع : « هل من شيء أصابها ؟ » فبادرت الأم مادة يدها إلى رأسه تمسحه ، وقالت في عطف : « بل هي بخير يا ولدي » ؛ ثم قصت عليه قصة طويلة .

* * *

لم يبق إلا يومان اثنان قبل زواج (تويا) ، وكان رئيس الكهنة نفسه يشرف على دقائق رسوم الاحتفال في معبد (امنحوتب) الظريف القائم على شاطئ طيبة ؛ فقد أعد الزوج لذلك اليوم مهرجاناً رائعاً يليق بمكانته ، لأنه كان (مربى) النبيل قائد الكتيبة اللوبية في جيش الملك المرابط في طيبة . وكان (مربى) من أولئك المحاربين اللوبيين المغامرين ، الذين كانوا يفدون إلى مصر ليجعلوا أنفسهم جنوداً الملك العظيم ؛ وكان من أحب زعماء اللوبيين إلى رمسيس ، حتى لقد ائتمنه على حماية العاصمة الكبرى القديمة ، لكي يستطيع هو أن يبقى في عاصمته الشمالية في الدلتا ، قريباً من سواحل البحار التي كانت تبعث إلى البلاد أمواجاً متوالية من المتوحشين ، يجيء بعضها سراعاً

في إثر بعض . فكان لا بد لفرعون أن يكون هناك قريبا من الشواطئ ، مستعدا بجيوشه الجرارة للدفاع عن البلاد . واختار مرني من بين قواده الليبيين ليكون أمينا على حراسة الجنوب ، لأنه كان أوثقهم عنده ، وأقربهم إلى نفسه ، وأشجعهم في ميادين الحروب . كان (مرني) عملاقا ، يرفع رأسه كالمسلة الباسقة ، فإذا لبس سلاحه كان مثل أوزوريس نفسه . ولقد طالما رآه (ستنامر) في مواكبه سائرا في طليعة كتيبته في أيام الأعياد ، عندما كان يعرض جنوده في شوارع طيبة ليظهر للجميع هيبة فرعون .

كانت عيناه الزرقاوان تبعثان في (ستنامر) شعورا بالبرد ، يشبه ما يحسه الإنسان إذا رأى لمعان صفحة السيف البتار — كان مرني ينظر أمامه فاتحا هاتين العينين كأنه فهد ينظر إلى فريسته عند الأفق ، وكان أحيانا يبتسم إذا سمع تحية من بعض المرافقين الذين كانوا يتقربون إليه بالهتاف والدعاء ؛ ولكن الابتسامة كانت تلوح على فمه باردة ، تظهر من تحتها ثناياه البارزة إلى الأمام قليلا ، على حين تبقى عيناه الزرقاوان ناظرتين إلى الأمام مفتوحتين في جمود مخيف . فكان (ستنامر) إذا رآه وقف يتأمل نظراته كأنه مسحور بها ، ولكنه كان يجذب نفسه جذبا ليبعد عنه ، وتعتريه رعدة خفيفة تشبه ما يعتري الناظر إلى عيني الفهد القاسيتين . فهل تصبح (تويا) الجميلة الوديعة ، (تويا) ذات الشعر الأسود ، والعينين العسليتين الدافئتين ، (تويا) الرحمة العاطفة التي عاهدته على صدق المودة ، وبادلته إيمان الوفاء ، هل تصبح (تويا) بعد يومين عروسا لهذا الليبي الذي لم يعرف آمون إلا لكي يدخل في خدمة رمسيس ؟

لم يستطع أحد أن يخفف من وقع هذه الأنباء على ستنامر ، وضاقت الآفاق أمام ناظريه ، حتى خيل إليه أن الصحراء تنطبق عليه من الشرق والغرب معا ، ولا تدع لأنفاسه متنفسا بينها . وغمر الشقاء أمه (حاماسو) ، واتهمت نفسها بأنها كانت السبب في يأس ولدها الحبيب ، وجعلت تحاسب نفسها حسابا عسيرا على أنها لم تخفف عنه النبأ القاسي حينا ، أو تسوقه إليه في شيء من الترفق حتى لا تحطم قلبه مثل تلك الحطمة التي صرعته ، وهدمت آماله في مثل لمح البصر ؟ ولم تجد حيلة تخفف بها من آلامها وآلام ولدها إلا أن تذهب إلى معبد (أمنحتب) للصلاة عند محراب (آمون) وكان الكاهن (امنميبي) رئيس معبد (أمنحتب) شيخا مباركا يعرف الجميع أنه حبيب آمون . وكان صادق الرؤيا ، صائب الكهانة ، يتكشف له الغيب في لمحات واضحة ، وينطق الإله على لسانه ، فلا تذهب كلمة من كلامه باطلة . ولما قضت (حاماسو) مأربها من الصلاة عند قدس الأقداس أفضت إليه بآلامها وآلام ولدها ، وسألته أن يضيء لها سبيل الخلاص بوجهه المبارك . فأطرق ساعة وهو يعبث بلحيته البيضاء ، ثم رفع رأسه في بطء ، وقال لها وهو يبتسم هادئا :

«انتظري معجزة آمون» !!

ثم أشار بإصبعه إلى شفتيه يأمرها بالتزام الصمت .

وكانت حاماسو مؤمنة طيبة القلب ، فخرجت من المعبد متهللة مستبشرة ، وذهبت إلى بيتها مسرعة تكاد تثب وتجري في الحديقة وهي متجهة إلى مخدع ولدها ، حتى إذا ما وقعت عينها عليه ورأته يقف حزينا لقائها فتحت له ذراعيها وضمته إلى صدرها ، وقالت له في صيحة مكتومة : «انتظر معجزة آمون» ، ثم رفعت إصبعها إلى شفتيها تأمر ولدها بالانتظار والصمت .

وجاء اليوم الموعود وتمت رسوم الاحتفال بالعقد المقدس الذي ربط (مرني) وتويا . وتحركت طيبة كلها في انتظار الموكب الباهر ، ولبس علية القوم من نساء ورجال أبدع الملابس الزاهية من الكتان الملون ، ولم تستطع حاماسو نفسها أن تمتنع من إجابة الدعوة ، فذهبت إلى المعبد بقلب ثقيل ، وتركت ولدها (ستنامر) يسير مضطربا في الدار ، وهو يصخب ويلعن ، ويكاد يعلن الكفر

الأدب في السودان

السودان كغيره من أمم العالم قد اعتورته أحداث متباينة ، هزت شعور أبنائه فترجموا عنها في صدق وإيمان ، ترجموا عنها في الأمثال وفي الشعر والنثر ، وترجموا عنها في الفن البدائي الظاهر . وهم أصحاب ماض له ضروبه وعوامله التي خلقت ذلك التراث ، وأمدّت ذلك التعبير بكثير من التجارب فاستفاد منها جهد الاستطاعة .

وصلة السودان بمصر قديمة مغرقة في القدم ، بل عرفت هذه الصلة منذ أن حفر النيل مجراه الحالي . والذي يلاحظه الباحثون أن الفراعنة قد اهتموا به إلى حد كبير ، إذ أن «أمنحتب الأول» قد عيّن ابنه حاكماً على السودان ؛ وكانت سياسة رمسيس الثاني هي مسالمة السودانيين والاهتمام باستخراج الذهب . أما عن الصلة الروحية فقد كان السودانيون يدينون بالدين المصري القديم ، ويتكلمون اللغة المصرية .

يحدثنا هيرودوت قائلا : إن « دارا » فرض على بلاد النوبة جزية تدفع له ذهباً وعاجاً وعبداناً ، ومن هنا يظهر لنا أن العلاقة بين مصر والسودان قد امتدت إلى زمن البطالسة ، ولم تقتصر على العهد الفرعوني وحده ، حتى أن بطليموس الثاني لم يأل جهداً في ذلك فازدادت التجارة في وقته ازدياداً عظيماً ...

أما عن انتقال الحياة العربية إلى ربوع السودان ، فذلك ما تحدثنا عنه دائرة المعارف البريطانية إذ تقول : «إن الغزو العربي لشمال إفريقيا في القرن السابع ، والذي جعل من مصر بلاداً إسلامية ، لم يكن له التأثير عينه في بلاد النوبة ؛ ولكن عرب بني أمية قد استطاعوا — تحت ضغط العباسيين — في القرن الثامن العبورَ إلى بلاد النوبة عن طريق البحر

بآمون ، لولا أن أمه أكدت له قبل ذهابها إلى المعبد أن الكاهن (أمنميس) لايخطئ ، وأن المعجزة لامحالة واقعة . ومالت الشمس نحو الغرب ، وصبغت أنوارها أرجاء الأفق بألوان القرمز والذهب واللهب ؛ وسار الموكب العظيم إلى المعبد . وكان مربي يركب عربته الحربية في الطليعة وقد لبس سلاحه كاملا ، ووقف ممسكا بعنان الجياد وهو ينظر إلى الأمام جامدا فاتحا عينيه الزرقاوين الباردتين ، لايلتفت إلى يمين ولا إلى يسار . وكانت العامة من الشعب مصطفة على جانبي الطريق تنظر إلى الموكب الباهر في صمت ووجوم . ودخل (مربي) أخيرا إلى المعبد رافعا رأسه في كبرياء ، وذهب نحو قدس الأقداس .

ولكنه ما كاد يبلغ الباب المؤدي إلى المحراب حتى اعترضه رسول فرعون ومد إليه يده بطومار من ورق البردي ، ثم انحنى ووقف ينتظر في هدوء . وفض (مربي) ختام الطومار في خشوع ، ثم قرأ ما فيه ، وكانت عيناه تزيدان اتساعا كلما قرأ سطراً آخر من سطوره حتى انتهى من قراءته ، وارتعشت يداه وسقطت من بينهما الفافة البردي إلى الأرض ، فانحنى الرسول ورفعها ووضعها عند رأسه ، ثم دسها في منطقته الفضية التي حول جسمه الدقيق .

ثم مد يده نحو (مربي) وقال مشيرا إلى قدس الأقداس : « تقدم ياسيدي وأطع أمر فرعون . هناك تبق حتى تأتيك أوامر مولاى » . فنظر مربي إليه في غيظ ، ثم مضى في حنق نحو المخدع المظلم الذي فيه تتجلى أسرار آمون . وعلت ضجة صاخبة بعد حين في جموع الوافدين إلى الاحتفال ، ثم اضطربوا وتزاحموا على الأبواب يلتمسون الخروج وهم يتصايحون في فزع : «إنه خائن ! إنه متآمر ! أراد الزواج من توبا الشريفة ليتصل نسبه بأمنحوتب العظيم » ، وقال الكاهن (أمنميس) بصوت مريض رنان : «السلامة لرمسيس العظيم محبوب آمون ! اليد التي تريد أن تمتد إليه تشل وتتحطم » . لقد وقعت المعجزة وعاد الإيمان يملأ قلب (سننامر) وهو يصلي لآمون شكراً في ذلك المساء .

محمد فريد أبو حديد

الأحمر ، وهيأوا لأنفسهم موطناً قريباً من سنار التي تقع على النيل الأزرق » .

هذه لحظة عابرة عن تطور الحياة في السودان ، وهي من غير شك ذات أثر ملموس ، لأن الماضي يعمل في توجيه الأفراد والجماعات نحو غاياتهم المتباينة ... وكان من جراء هذا أن يكون التعليم دينياً إلى حد كبير ، وأن يوجد علماء محترمون مطلعون على طائفة من كتب الفقه والحديث واللغة ، يتجهون بحياة البلاد وتفكيرها وجهات تخضع لهم وحدهم . ولكن محمد على حينما فتح السودان بدأ بإنشاء المعسكرات ، وأنشأ مدرسة ابتدائية بالخرطوم كانت تحت إشراف رفاعة بك الطهطاوى ، ومن هنا ابتدأ السودان يعرف شيئاً عن الحضارة الأوربية ويتذوق آثارها الرائعة ، ولكن بدرجة أقل مما كان جارياً في أرض الكنانة ...

اتجهت الحياة الأدبية في السودان اتجاهاً عربياً في أسلوبها وموضوعاتها وتفكيرها ، وذلك لأن طبعة البداوة التي تحدرت من دماء النازحين إلينا ما فتئت توجه الشعور في طريقة الأداء ، فعالج الشعراء موضوعات الحماسة والفخر والإباء والحب والرثاء ، وافتتحوا قصائدهم بالغزل والاعتداد بالنفس ، بل لم يسلم من هذه النزعة حتى أولئك الذين عرفوا العلوم العقلية وأخذوا منها بحظ وافر ؛ فها هو الشيخ الحسين الزهراء قد تلقى علوم الفلسفة والطبيعيات وامتاز فيها ، ولكن يبدو لى أنها كانت كامنة فيه بالقوة ، لأنا لا نجد لذلك مسحة في شعره .

أما الشعراء الذين كان لهم أثر قبل عشرين عاماً ، فقد كانوا يعالجون موضوعات الحماسة والفخر والإباء ؛ فهذا يقول : إنه لا يرجى له في المحامد بدل ، وغيره يتحدث قائلا : إنه سائر إلى العلا والمكرمات ، وثالث يهتف قائلا : لست أرضى بهوان أبداً ، ورابع يتحدث في صوت مسموع مهيباً بنا :

عز الفتى في طاعة الرحمن
وكذا التقى شرف إلى الإنسان

وهذه الاتجاهات قد يلازمها — من غير شك — تكلف في انتقاء الكلمات وعدم ترك النفس على سجيتها ، ويلازمها أيضاً إغراق في المدح ، وتشطير لكثير من القصائد ... هذه بدعة تقليدية إن كنا نغفر لأولئك الذين لم يأخذوا من الحضارة بحظ كبير ، ولم تسمح لهم أسباب المعرفة بحال من الأحوال ، إن كنا نغفرها لأولئك فلن نغفرها للأساتذة عبدالله عبدالرحمن ، وعبدالله البنا ، وكردى وغيرهم ؛ ذلك لأن آثار الإنسانية الرفيعة إنما تتطلب منهم التجديد بأوسع معانيه ...

إذا كان أساتذتنا هؤلاء لم يجددوا رغم الحياة المتجددة التي تحيط بهم ، فإنا نلمح شاعراً فذا عاصرهم في القديم من الزمن ثم ما زال معهم في ركب الحياة ، ولكنه يبذهم بتجديده ، فاسمعه يقول قبل عشرين عاما :

اسكب الراح وناول من طلب
وأدر كأسك فالدنيا طرب
ما علينا أن شربناها وقد
كتب الله علينا ما كتب

ثم اسمعه يقول قبل عامين من قصيدته « نجوى » :

املأ القلب غراماً وهوى
وهياما واشتياقاً وجنون
إنه القلب الذي فيك هوى
وتردّى في غيابات الشجون
لم يضق ذرعاً ولم يشك الجوى
ماجن يعتقد الحب مجون
كما أمعنت فيه كما
سؤله فيك اعتقادا لا يبى
يا خفيف الروح يا حلو اللما
فديت نفسى ولما أياس

ذلكم هو الأستاذ صالح عبد القادر ، ألست ترى معى الآن أن صالحاً قد استطاع أن يساير ركب الحياة الإنسانية ، لأن نفسه لم تعرف اليأس ؛ ذلك لأن الفناء

فى سبيل العلم والأدب هو خلود أبدى من غير شك . . .

فى السودان كما فى مصر كثير من أولئك الذين يؤمنون بأن العربية الفصحى يجب أن يكون لها المقام الأسمى فى التعبير ؛ والمعركة بينها وبين العامية لا تزال آثارها بادية للعيان ، وإن ظهرت هذه فى مصر فى القرن الماضى عند كل من رفاعة وعثمان جلال ، واتجهت الآن اتجاهاً خاصاً فى التأليف ، فإن أثرها فى السودان إنما يتجلى فى التمثيل والأمثال . ولكن الصحافة اليومية ستكون ذات أثر بعيد فى تبسيط اللغة ، وجعل الجيل الجديد فى السودان يدمن القراءة إلى حد كبير . وللأستاذ البناء قصيدة طويلة يتحدث فيها عن مجد اللغة العربية ، ويذكر أيام عبد الحميد ، وجرير ، وبنى حمدان ، والرصافة ، ثم ابن هانئ ، ومما جاء فيها :

أم اللغات رعاك الله باسمة ... فى مصر دائبة بالعلم سقياك
سقا الحيا نفراً فى مصر قد وهبوا ... لك الحياة وحيّاهم محياك
وباكر الزهر قبر اليازجى ومن ... بالشام نضر بالسقيا محياك
فالشام مصر ومصر الشام إنهما ... على محاربة الأيام خدراك

أما النثر فقد كان — فى بادئ الأمر — مكاتبات تتصل بالرسائل ، وقد حدث ذلك بين المهدى وغوردون ؛ ويحلى هذا واضحاً فى الرسائل التى وجهها المهدى إلى رؤساء القبائل ليستجيبوا له ، وينضموا إليه ؛ وهذه يظهر فيها الاقتباس من القرآن الكريم . وظلت الحياة تسير سيرها إلى أن عرفت الآداب الأجنبية عن طريق الترجمة ، وأخذ الشباب يتجه صوب مصر ، ويقرأ صحافتها فى كثير من الرغبة ، ويتتبع مناحى نشاطها الجمة . وعرف الشباب أيضاً شعراء الطليعة فى العالم العربى ، فقرأوا لجبران ونعيمة والريحانى ، وأعجبوا بالزهاوى إلى حد بعيد . كان من جراء هذا كله أن شارك الجيل الجديد فى التراث العربى ، فكتبوا فى أوضاع مختلفة ، منها القصة والمقالة ، والبحث ، والمسرحية ، وعكفوا على أدب التراجم يستخلصون منه العظات التى توجه الإنسانية ، ويحرص عليها حرصاً شديداً . . .

ليس للاتجاهات الفلسفية العميقة أثر يذكر فى توجيه الأدب السودانى ، وإن كان الشباب قد عنى بالنقد إلى حد كبير ، ولكن صلة الأدب وفهمه على ضوء التفكير المحض ، والجهود التى يبذلها فى هذا السبيل الأستاذان الفاضلان العقاد وأحمد أمين ، تلاقى ترحيباً جماً فى أوساط الشباب ؛ واتجاهات الأستاذ عبد الرحمن بدوى تجد إعجاباً خالصاً وتحمساً لها منقطع النظير . إن صلة الفلسفة بالأدب إنما هى صلة العقل بالعاطفة ، وهى ضرورية للتزاوج بين شقى الحياة الإنسانية العاملة .

وخير من يمثل هذا هو شاعر الشباب السودانى المرحوم التيجانى يوسف بشير ، ولكن المنية أوقفته عن المضى فى هذا السبيل .

هناك أفراد نزحوا إلى مصر لطلب العلم ، ثم استهوتهم الحياة العملية ليصلوا منها إلى أبعد حد مستطاع ، وهم يشاركون الآن فى الأدب المصرى المعاصر ، ومن هؤلاء أستاذنا توفيق أحمد البكرى الذى يعرفه قراء الثقافة ، ويعجب به أساطين الأدب ، فاستمع إليه يوجه الحديث لأبناء الشرق :

إن الذى ملأ الكهوف مخاوفاً ... جعل الشباب فتوة ويقينا
لا يرهبون الدهر فى أحداثه ... أو يعرفون تشككاً وظنونا
لو يطلبون النجم فى عليائه ... دانٍ وأصبح باليدين رهينا

وأخيراً نقول إن الذهنية السودانية قد تأثرت فى إنتاجها بكثير من العوامل ، منها الينبوع العربى الفياض ، ومنها الإسلامى الذى درس القرآن والحديث والسيرة

صحيفة النقد :

١ — المذاهب الاجتماعية الحديثة : محمد عبد الله عنان
٢ — المذاهب السياسية المعاصرة : على أدهم
٣ — من سـير الرحـلات : الدرويش محمد

المذاهب الاجتماعية الحديثة والمذاهب السياسية المعاصرة :

شغل القارئ العربي منذ سنوات بأخبار الحرب الحاضرة وبالدعايات المختلفة حولها ، دون أن تتاح له فرصة حقيقية لمعرفة الأسباب الأصيلة لهذه الحرب ، وما يحيط بها من تقلبات . وظل يسمع عن الفاشية والنازية والشيوعية ، — بل عن الديمقراطية نفسها — أقوالا متناثرة لا ترسم صورة ولو تقريبية لهذه المذاهب التى يعترك العالم كله من حولها .

وإذا استثنينا عددا قليلا من الكتب المترجمة وهى : (الديمقراطية لبيرنز ، ونظام أوربا الجديد لأينشتين ، والحركة الاشتراكية لمكدونالد ، ومعرض الآراء الحديثة ، والعدالة والحرية لدكنسن ، وهتلر قال لى لروشننج) ، فإننا لا نجد فى المكتبة العربية شيئا عن هذه المذاهب .

لذلك يعد كتاب الأستاذ « محمد عبد الله عنان » عن المذاهب « الاجتماعية الحديثة » ومن قبله الأستاذ « على أدهم » عن « المذاهب السياسية المعاصرة » ، هما الكتابان المؤلفان الوحيدان فى اللغة العربية عن هذا الموضوع الهام(١) .

وهما كتابان فى موضوع واحد ، إلا أنهما متكاملان لا مكرران . فقد عنى الأستاذ أدهم فى الحديث عن هذه المذاهب ، بأصولها الفلسفية العريقة ، والأسس النفسية التى قامت عليها ، وشرح الناحية النظرية منها شرحاً مستفيضا ، ومس الناحية التاريخية مساً رفيقاً ؛ بينما عنى الأستاذ عنان بالأصول الدستورية والقانونية لهذه المذاهب ، وبالتطبيق العملى لها ، ومدى ما فى هذا التطبيق من بعد أو قرب عن الأصول النظرية ، وتتبع بدقة تطورها التاريخى السياسى ، ومر بالأصول الفلسفية مراً عابراً .

ولقد استغرق الأستاذ أدهم فى شرح مبادئ الديمقراطية والذود عنها ، والموازنة بينها وبين المذاهب الأخرى نحو ٦٦ صفحة من ١٥٦ صفحة من كتابه ؛ بينما بذل الأستاذ عنان عناية متوازنة لكل مذهب من المذاهب المعاصرة . وأدمج الأستاذ أدهم الاشتراكية مع الشيوعية ، بينما فصل الأستاذ عنان الخلافات القانونية الصغيرة بينهما ، وزاد فتحدث عن المذهب الفوضوى « النهليست » .

وقد حلم الأستاذ أدهم أحلاما وضيئة عن المستقبل فى ظل الديمقراطية المنقحة التى تتوازن فيها الحريات ، وفى ظل العالمية التى تلوح فى الأفق ، بينما اقتصر الأستاذ عنان على شرح محاولة عصبة الأمم ، وتسجيل المواثيق الجديدة

(١) للأستاذ العقاد كتاب « الحكم المطلق فى القرن العشرين » سنة ١٩٢٨ ، وكتاب « هتلر فى الميزان » سنة ١٩٤٠ ، ولهما اتجاه خاص فى الموضوع .

والفقه ؛ ومنها الثقافة المصرية وما تذيعه من نقد وفلسفة وأدب واجتماع وترجمة ، ويتصل بهذه إعجاب بجهود الأساطين فى الأدب والفن والعلم ، وسير على خطى المتوثبين من عباقرة الشباب ومفكريهم ؛ ثم أخيرا معرفة الثقافة الإنجليزية وانتشارها بين ربوع السودان ، وتلقى كثير من الشبان دراساتهم الجامعية فى مصر وإنجلترا وبيروت .

أما الذى يرجوه شباب السودان ، فهو أن يكون لهم أدب قوى رائع ، وأن تنصرف الجهود لدراسة الحياة العالمية من ناحيتها الإنسانية العامة ، وأن يفهم هذا الأدب على ضوء الدراسات العلمية المنظمة ، وأن تفسر أصوله ونصوصه على ضوء علوم النفس والأخلاق والجمال ، وأن يصبح ذا أثر ظاهر بين آداب الأمم الشرقية .

(كلية الآداب) عثمان عيسى شاهين

كميثاق الإطلنطى ومبادئ روزفلت الأربعة ، مع بيان الممكنات العالمية على أساسها .

وقد غلبت الحاسة الديمقراطية على كتاب الأستاذ أدمز — وإن لم يقصر فى الإشارة إلى مآخذها — بينما كان الأستاذ عنان معتدلا فى تسجيل العيوب والحسنات ، وفى العناية بالواقع العملى أكثر من المأمول النظرى من هذه المذاهب على اختلافها .

وقد وفق الكاتبان — كل فى اتجاهه — فى إعطاء القارئ العربى صورة مختصرة عن النظريات العالمية الحديثة ، تهديه فى تتبع الصراع العالمى ، وتوسع آفاقه النفسية والفكرية فى النظر إلى هذا الصراع . وسلك كلاهما طريقا مستقلا بقدر الإمكان فى الموضوع الواحد ، فجاء الكتابان — كما قلت — متكاملين لا مكررين ، وضروريين كلاهما للمكتبة العربية .

من سير الرحلات :

ظفرت المكتبة العربية فى القرون الوسطى بعدد من كتب الرحلات ، أو الكتب القائمة على أخبار الرحلات وعجائب البلدان ، كرحلة ابن بطوطة ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ، ومروج الذهب للمسعودى ، ونزهة المشتاق للإدريسى ، وعجائب المخلوقات للقزوينى ... وكثير من أمثالها .

أما الأدب المعاصر فقد ظل فقيرا فى هذا الفصل من التأليف ، والكتب التى ألفت فيه هى على وجه التحديد : الرحلة الحجازية للبتانونى بك (ونسلكها تجوزاً فى كتب الرحلات) و « فى صحراء ليبيا » للرحالة المصرى أحمد حسنين باشا ، و « رحلات ثابت » و « سندباد عصرى » للدكتور حسين فوزى ، وكتاب عن الصيد فى غابات السودان ، لا يحضرنى اسم مؤلفه ؛ ثم هذا الكتاب الذى بين أيدينا اليوم للأستاذ الدمرداش محمد المراقب العام للامتحانات .

وهذه الندرة وحدها تكفى لأن تجعل للكتاب قيمته ، ولكنه يستمد هذه القيمة — قبل ذلك — من مادته ، ومن طريقته . والدكتور طه حسين بك فى تقديمه للكتاب يصفه وصفا صادقا حين يقول :

« هذه الرحلات اليسيرة الخصبة التى أتاحت لصاحبها أن يعرف مصر كما لا تعرفها كثرة المثقفين ، وأن يعرف من أقطار الشرق العربى ما لا يعرف إلا القليلون ، خليقة أن تعرض على الشباب ليفيدوا منها علما وشوقا إلى أن يطوّفوا فى الأرض كما طوّف الأستاذ ، ورقوا بذلك أخلاقهم ، ويثقفوا ضمائرهم كما فعل الأستاذ .

« وقد عرض الأستاذ الصديق رحلاته عرضا يسيرا بغير تكلف ولا تزيد ولا تهويل ، وإنما هو كلام قريب تقرؤه فتبلغ منه ما تريده وما أراد صاحبه فى غير مشقة ولا جهد ، وهو يترك بعد ذلك فى نفسك آثارا مريحة حلوة ، تدعو إلى الخير ، وتغرى بالجد واحتمال المشقة والجهد فى سبيل الخير » .

يستمد الكتاب قيمته من هذا الذى وصفه الدكتور طه حسين بك ، ومن شئ آخر يهمنى كناقد أكثر من مادة الكتاب ومن أثرها النفسى والخلقى ؛ ذلك هو الحياة التى خلعها المؤلف على تلك الرحلات فى تعبير سهل قريب .

لقد دهشت أول الأمر من العنوان « سِيَر الرحلات » ، ولكننى بعد قراءة الكتاب رأيته أصدق عنوان . فكل رحلة من هذه الرحلات صوّرت على تفاوت بينها — تصويراً حيا ، كأنها كائن ذاتى ذو سيرة ، ومخلوق حى له قصة . ومن هذا الباب يدخل الكتاب فى الأدب ، لأن التصوير فيه — على بساطته — هو عمل فنى بلا جدال .

والمؤلف روح « الرحّالة » وحسه ، ولعل ما يصور هذا تصويرا واضحا قوله فى مقدمة الكتاب :

« المقصود فى الرحلات هو الطريق نفسه ، وما يثيره فى النفس من تأملات ومشاعر وإحساسات فى جميع

في القراء والكتب

[بقية المنشور في الصفحة الرابعة]

أن نؤلف فيها ؛ فالتأليف في أكثر شئون هذه الثقافة مستعصٍ في يومنا ، مرجوٌّ في غدنا . وتلك التآليف التي نسمع اليوم بها ، إنْ هي إلا تراجم مستورة . وواجبنا أن نتوجّه إلى الترجمة بالجملة في سَتْر وفي غير ستر ؛ وإن كان في الستر إشباع الغرور ، ففيه أيضاً نفع بيّن لما يتضمنه من تغيير وتحوير . وفي التغيير ملاءمة الطبع ، ومسايرة العادة ، وتسهيل الهضم .

فحاجتنا اليوم إلى جيل من المقمّشين ؛ إلى جيل من التراجمة في كل فن وكل لغة . وحاجتنا إلى خطة شاملة كاملة يهيمن عليها ذو سلطان .

إن من أطرف ما نرى اليوم هيئتين كبيرتين تقوم فينا بالترجمة وبتحضير الترجمين . والطرافة فيهما أنهما غير مصريتين ، إحداهما أمريكية والأخرى إنجليزية ، يتباريان في نقل ثقافة العصر إلينا . ونحن المصريين والشرقيين نرحب بهذا طبعا ، لكنه ترحيب في خجل ألا يكون إلى جانبهما من الجانب المصري إلا هيئة متواضعة كلجنة التأليف والترجمة والنشر تساهم في ذلك بسهم المجاهد الفقير .

فهذان سبيلان إلى إحياء العلوم فينا ، قديمها وحديثها .

لقد جرى الحديث فيضاً كثيراً في قلة من يقرأ في مصر والشرق ، وفي كثرة من ينسى القراءة بعد تعليمها . والسبب في هذا ظاهر لا أدرى كيف خفي عن هؤلاء المتحدثين . إن قلة القرّاء من قلة المقروء . وليس كل مكتوب بمقروء . فالمناسب من المطبوع قليل ، أو هو غير كائن . أين كُتُب الفلاح خرّيج الإلزامي التي تلازمه عن رغبة منه بعد ترك إلزاميته ؟ وأين كُتُب الصانع خريج الابتدائية في المدن تحفظ عليه ما تعلم في ابتدائيته ؟ وأين كتاب الطفل ، وكتاب الصبي يكتب له بلغة محضته مزوّقاً بصور الطفولة ، فيعوّده صغيرا على طلب اللذة على صفحات الأوراق ؟ وأين وأين . . . ونقول أين ، ونحن نعلم أين هي . هي في لغات الغرب كثيرة شتيتة ، سهلة النقل ، نقلا مستورا أو غير مستور . ولن يقف في سبيلنا تحرّج من تقليد ، فالدنيات مقارَضات بين الأمم ؛ ولن يعوّقنا عنها تأزّم في لغة ، فاللغات وسائل لا غايات . وما أولى اللغة العربية بصحبة تكونيها بغُنم الوسيلة إلى أكرم غاية .

إن اللغة ستضيع بين جمود الجامدين ، وثورة الثائرين . ستضيع بين من يتشدد حتى بأن تُسمّى الجزمة في كتب الأطفال حذاء ، والشبشب نعلا ، والدولاب قِطراً ، وبأن يُرفع لهم الفاعل وينصب المفعول ، ويُثنّى المثنى ، وبين من يغنّي فيرى أن لا خلاص للعربية إلا بشَلْتها ، وفرنجة حروفها . واللغة أداة الثقافة ووعاؤها ، فتضييعها تضييع الثقافة ، وإضاعة الثقافة إضاعة للنهضة ، وإضاعة النهضة إضاعة للشرق ولأهله .

أحمد زكي

الحالات والظروف ، في النهار والليل ، في الصحو والكدرة في السهل والجبل ، في الرخاء والأزمات ، في الصحبة والوحدة ؛ وما يبذله الرحالة في سبيل الوصول إلى الهدف من تفكير وتجهيز وتدبير ، وحل مشكلات وتفادي أخطار ، ومن سفر وإقامة ، وإنزال وتحميل ، ومن ارتقاء ونزول ، ومن تيهان واهتداء » .

وإذا كان هناك ما يعاب على هذا الكتاب فهو طريقة طبعه وحجم ورقه . . . إن كتابا عن « سير الرحلات » كان ينبغي أن يطبع طبعا فنيا مشوّقا ، لا أن يدمغ بالطابع « الميري » الثقيل ! وأحسب أنه قد آن للمطبعة الأميرية التي طبع فيها الكتاب أن تسترد مكانتها التي لها يوم كانت أرقى مطبعة في مصر ، فتجعل الذوق الفني جزءا من عملها ، وتخرج الكتب إخراجا حيّا يشوّق للقراءة ، كما تصنع المطابع الأخرى .

سيد قطب

من شعر الأناشيد:

عودة الربيع

هو ذا صوت حبيبي صادحا فوق الجبالِ
طافراً فوق التلالِ
جاء يدعوني كأيل شارد ، أو كغزالِ

....

قال لي هيا أجيبي وتعالىْ . . . .
فالشتاء الساحر المجنون بالأمس تردّى
والربيع الساحر الفتان فى الروض تبدّى
كل طير فيه غنّى لحنه وتمنّى
كل غصن فيه ، وفى حسنه وتثنّى

....

قال لى هيا أجيبي وتعالىْ
فى محاجى الصخر أو بين المروجِ
أسمعينى صوتك الصداح باللحن البهيجِ
ياحبيبي أنت لى وأنا قلبي لكْ
أنت ترعى سوسنى وأنا أرعاه لك
قد دنا الليل فهيّا
نسهر الليل سويّا
وإذا الصبح تهيّا
عدت من فوق الجبال
مثل أيل شارد ، أو كغزالِ

ليلة من ليالى فتاة شرقية

لم ينم قلبي وإن نامت عيونى
هو ذا صوت حبيبي يحتوينى :
« افتحى لى الباب يا أختى ويا سرَّ حنينى
فالندى بلل رأسى وسرى فوق جبينى »
قد خلعتُ الثوب من جسمى ومهدت وسادى
غير أنى عندما شاهدته رقَّ فؤادى
وفتحت الباب لكنَّ حبيبي
فرَّ منى ومضى غير مجيبِ

....

لم تمد روحى ، وقد غاب حبيب الروح معبود الفؤادِ
ملكتنى ثورة الحب فغادرت فراشى ومهادى
وبعثت الصوت لكنَّ حبيبي
فرَّ منى ومضى غير مجيبِ
ورآنى الحرس الطائف فى الحى أنادى
ضربونى ، جرحونى ، نزعوا ثوب رقادى
يا بنات الحى بالغزلان فى الوادى البهيج
إن رأيتنَّ حبيبي فى الربى أو فى المروجِ
قلن فى الحىَّ فتاة ترتجى عطفك مرَّه
شفها الحب وأضناها هوًى تعلم سرَّه

عبد العليم محمد الحبانى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العـدد ٢٨٢ — الثلاثاء أول جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ٢٣ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

الضغط على المحايدين

عنـد ما تستعر نار الحرب ، وتصل بأوارها أمم وشعوب ، نرى فريقاً قد آثر العافية والسلامة ، وتنكب عن طريق الحرب ، والتزم خطة الحياد . هذه كانت السنة في الزمن القديم ، يوم كان الرئيس العربي ينادي بأن لا ناقة له فيها ولا جمل ، وهي السنة اليوم التي رأينـا فيه دولة إرلنده تلتزم الحياد مع أن مليكها ورئيسها الأعلى يخوض حرباً ضيقة شعواء . فموقف الحياد ليس بالشيء الجديد ، المقصور على هـذه الدول المتمدنة ، لأن الحرب هي أيضا ليست من مبتكرات المدنية ؛ بل ذات أصول عريقة في العصر الجاهلي .

ولو أن العالم الجديد سار في طريق الرقي حقاً ، لما كان هنالك حياد بالمعنى الصحيح ، ولـكان هنالك نظام عالمي يحمل المعتدي على دولة واحدة — مهما كانت صغيرة عزلاء — معتديا على جميع الدول . وهنالك يشن الجميع حربا شعواء على المعتدي الأثيم حتى يعود إلى الصواب . وهنـالك لا يكون حياد ، ولا وقوف بلا حراك ... كان ذلك هو الحلم الذي ارتسم في عقول من أنشأوا عصبة الأمم بعد الحرب الماضية . ولـكنه ظل مع الأسف حلما ، لأن طائفة من الدول القوية أبت أن تحققه ، وطائفة أخرى أبت إلا أن تقطعه وتمزقه . فـكان من نتيجة هـذا أن ثارت هذه الحرب بين طائفة من الدول ، وظلت طائفة أخرى ملتزمة خطة الحياد .

والمحايدون يراقَبون أثنـاء الحروب مراقبة دقيقة ، لـكيلا يرتكبوا عملا يتنافى مع الحياد . والدول المحاربة شديدة الانتباه لـكل أمر يصدر من الدول المحايدة ، وتحصى عليها كل عمل تأتيه وتحاسبها عليه — أثناء الحرب ، إذا استطاعت ، وإلا فبعد الحرب — حسابا عسيراً . وكثيرا ما يكون المحارب شديد التبرم بالمحايد ؛ لأنه يرى أنه على حق ، وأنه ينصر الحق ، فـكيف يسوغ لإنسان أن يقعد عن مساعدته وهو ينصر الحق ، وفي نصرة الحق فائدة

الجميع ! وهذا التفكير أيضا ليس بالشيء الجديد ؛ فالمحاربون في الجاهلية العربية كانوا أيضا يتبرمون بمن يقف موقف الحياد وقد ابتكروا لهذا المعنى ذلك القول الشهير الذى لا نزال نردده إلى اليوم وهو : « من ليس منا ، فهو علينا ! » .

وفى هذه الحرب ، التى لم تزل تنمو ميادينها وتتسع حتى عمت الكوكب كله ، بادر كثير من الدول بإعلان خطة الحياد . ولكن المتحاربين كان لهم فى هذا الأمر رأى آخر ، ففى العام الأول من الحرب قضت ألمانيا على حياد نروج والدانمارك وهولنده وبلجيكا ولكسمبورج ؛ وفى العام الثانى قضت على حياد سلوفاكيا وهنجاريا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلاد البلغار . كانت ألمانيا لا يردها عن القضاء على حياد دولة إلا رغبتها فى الإرجاء . وفى مقابل هذا كله لم تقم دول الحلفاء إلا بالتدخل فى سوريا ولبنان ، ثم فى إيران ، مع تقديم المواثيق بأن ما جرى هنالك ما هو إلا ضرورة حربية تزول بانتهاء الحرب .

أما روسيا — التى كانت تتوقع أن العدوان واقع عليها عاجلا أو آجلا — فقد استعدت لذلك بالتدخل فى شئون دول البحر البلطى أستونيا ولتونيا ولاتفيا ؛ وباقتطاع جزء صغير من فنلنده . وهكذا تضاءل بالتدريج عدد المحايدين ، حتى أصبح قلة تافهة إلى جانب الأقطار التى اشتركت — أو أقحمت — فى هذه الحرب . وما دام المتحاربون يظنون أنفسهم منهمكين فى حرب فناء أو بقاء ، فلا شك أننا نلتمس لهم العذر إذا كانوا يحاولون من آن لآن أن يؤثروا فى المحايدين تأثيرا يختلف شدة وقوة من آن لآن .

إن موقف الحياد ، الذى تتخذه دولة من الدول ، يجب أن يكون من الدقة بحيث لا ينتفع به أحد الفريقين المتحاربين . ولا يجوز للدولة المحايدة أن تؤوى جنودا أو سفنا حربية أو طائرات تابعة لأحد المعسكرين ؛ ويجب عليها أن تمتنع ، وأن تمنع رعاياها ، من الاشتراك فى الحرب ، أو بيع أى مادة تستخدم فى الحرب ، ولو بطريق غير مباشر . فليس يكفى أن تمتنع الدولة المحايدة من بيع المدافع والقنابل والسفن الحربية ونحوها مما يستخدم فى الحرب ، بل كذلك الأدوات والمواد الأولية التى يتطلب استخدامها فى صنع أداة الحرب .

على أن هذه الاعتبارات ، إذا اتفقت مع ما اصطلح عليه العرف الدولى فى تحديد معنى الحياد ، فإن التطورات الحديثة فى الأداة الحربية ، قد جعلت هذه الشروط نفسها غير كافية لموقف الحياد من جهة ، وتخلق للمتحاربين مشقة يصبح معها من المستحيل احترام الحياد احتراما تاما من جهة أخرى ، وتسبب للمحايد ضيقا وضنكا من جهة ثالثة .

والحالة الأولى يفسرها بوضوح حياد إرلنده . فإن هذا الحياد يعمل دائما لمصلحة ألمانيا ، فإن الطائرات الألمانية قد استفادت بأنوار إرلنده على توجيه ضرباتها لساحل المقابل من إنجلترا ، أو للأرض الإرلندية الشمالية «ألستر» . ومن المعروف أيضاً أن السفن الألمانية — قد انتهكت حرمة المياه الإرلندية الإقليمية ؛ فلم تفعل حكومة إرلنده أكثر من أن أغمضت جفنها بشدة على هذه الأعمال وأشباهها . وهكذا نرى أن الحرب الحديثة قد جعلت موقف الحياد الإرلندى ليس حياداً بالمعنى الصحيح ، لأنه من غير شك يضر الحلفاء ويفيد الألمان .

أما الحالة الثانية وهى صعوبة احترام الحياد احتراما تاما ، فهى واضحة من مثال واحد بسيط ، وهو النشاط الجوى . فمن المعروف أن الاصطلاح الدولى لا يجيز لطائرات المحاربين أن تخترق جو البلاد المحايدة . ولكن مبدأ حيدة الجو فوق البر المحايد ، مبدأ قد دفعته ضرورات الحرب الحاضرة فى زاوية الإهمال والنسيان . وسويسره — ولعلها الدولة الوحيدة التى هى أدنى إلى مسلك الحياد التام من أية دولة أخرى — لا تكلف نفسها حتى عناء الاحتجاج على اختراق الطائرات لجوها فى صورة لا تكاد تنقطع .

بقى أمر ثالث ، وهو أن شروط الحياد القديمة تعطل

كثيرا من مصالح الدول المحايدة . فإننا إذا سلمنا بأن على هـذه الدول ألا تبيع أدوات الحرب إلى أحد الفريقين المتحاربين ، فإن من الصعب عليها أن تمتنع من بيع كل مادة قد تستخدم فى صناعة أدوات الحرب . وهذا الشرط يرجع فى الراجح إلى الزمن المتقدم ، حين كانت المواد المستخدمة فى صنع الأداة الحربية قليلة العدد ، أما اليوم فإن من الصعب أن تجد مادة أولية لا تدخل فى صناعات الحرب وأعمال الحرب . وإذا كانت الدول المحايدة لا تتصرف فى هذه المواد بالبيع لأحد الفريقين فإن تجارتها تتعطل ، وحياتها الاقتصادية تصاب بارتباك شديد . ولذلك لم يكن بد من أن تخرج الدول المحايدة على هذه القاعدة وأن تبيع ما لديها من المواد لأحد الفريقين . وهى قلما تستطيع أن تبيع للفريقين فى آن واحد ، لأن هذا يتطلب منها قوة عظيمة تمكنها من أن تحمى نفسها شر أى احتجاج أو إرهاق من أحد الطرفين . وليس بين المحايدين اليوم دولة قوية ، بل كلها دول من المرتبة الثانية أو الثالثة ، ولذلك تراها تبيع ما لديها من السلع للفريق الذى تخشى جانبه ، أو الذى تميل إليه .

وقد جاء على الدول المحايدة : تركيا والسويد وأسبانيا والبرتغال ، حين من الدهر كانت تخشى فيه جانب الألمان ، فأخذت تبيع لألمانيا ما لديها من السلع ، وكانت ترضى فى كثير من الأحيان أن تتلقى فى مقابل ما تقدمه من السلع وعوداً بالدفع ، أو سلعاً أخرى ليست فى حاجة شديدة إليها . فلما تبدلت الأحوال ، وشالت كفة الألمان ، ورجحت كفة الحلفاء ، ألفينا هـذه الدول تتحول إلى وجهة جديدة ، وتسلك مسلكا جديدا .

وهذا التحول واضح بوجه خاص فى موقف أسبانيا الذى كثر التحدث عنه فى المدة الأخيرة ، والذى سنخصص له الجزء الباقى من هذا المقال .

إن أسبانيا من غير شك دولة حسنة الحظ ، حيث مكنتها حوادث الحرب وظروفها من أن تبقى بمعزل عنها ، وأن تسلم من غوائلها ؛ ولقد كان من الجائز جدا أن يكون لها مصير غير هذا المصير . فمن المعلوم أن الحكومة الأسبانية الحاضرة مدينة إلى دول المحور بمساعدات ضخمة ، يوم نصرت ألمانيا وإيطاليا فريقا من الأسبان على فريق ، وكانت تلك المساعدات العامل الأكبر فى انتصار النظام الحالى وانهزام الحزب الجمهورى . وفى أسبانيا حزب كبير الخطر يميل إلى دول المحور ، ويرى مصلحته الكبرى فى مناصرتها وتأييدها ؛ وكان من الجائز أن يطالب إلى الحكومة الأسبانية الحاضرة أن تؤدى ما عليها من دين ، وأن تشترك فى هـذه الحرب برجالها ودماء أبنائها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . ولابد لنا أن ننتظر تحقيق المؤرخين فى المستقبل لكى نعلم هل طلب إلى أسبانيا مثل هذا الاشتراك ؛ ولكن يخيل إلينا أن الألمان لم يكونوا فى حاجة أول الأمر إلى جيش أسبانى ، لأن ذلك يكلفهم مؤونة تدريبه وتموينه وتزويده بالعدة الحربية اللازمة ، ونظرا لبعد أسبانيا عن ميادين الحرب الأولى لم يكن مثل هذا الأمر مما يفيد ألمانيا كثيرا . واكتفت الحكومة الألمانية من أسبانيا بمساعدات تجارية ، وبأن يكون حيادها مشربا بروح العطف على ألمانيا وإيطاليا .

ولكن أسبانيا ذهبت إلى أبعد من هذا فى مؤازرة ألمانيا ؛ فإنها فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠ بسطت سلطتها التامة على مدينة طنجة ، وتولت حكمها بنفسها ؛ ولم تستطع بريطانيا فى مقابل هذا العدوان الصريح أن تعمل أكثر من الاحتجاج . ذلك أن طنجة مدينة دولية خاضعة لحكم أربع دول : بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا . وهى واقعة فى الطرف الجنوبى من مضيق جبل طارق ، ولذلك فهى مجال واسع للتجسس ولمراقبة السفن المارة من المضيق ؛ واستيلاء أسبانيا عليها يمكّن للألمان من أن يجدوا فيها ميداناً لبث العيون والأرصاد ، والاستفادة

من ذلك فى مختلف الوجوه . ولم تلبث ألمانيا أن أصبح لها تمثيل قنصلى قوى فى طنجة ، ولم يلبث رجالها أن انتشروا فى أنحائها كما انتشروا فى أنحاء مراكش الأسبانية .

ولقد انتظرت أسبانيا إلى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تحارب ، بمفردها تقريباً ، عدواً شديد البطش مدججاً بالسلاح ، ثم أقدمت على الاستيلاء على طنجة . فكان هذا عملا يصعب أن يوصف بأنه من أعمال الحياد . إن بريطانيا لم تثر مسألة طنجة بعد ، ولا ينتظر أن تثيرها قبل نهاية الحرب .

ومضت أسبانيا فى أعمالها « الحيادية » هذه ! فسمحت بإرسال فرقة محاربة إلى روسيا ، فإن حاجة ألمانيا الآن اشتدت إلى من يعاونها فى مغامراتها الحربية . وتحدّث الناس كثيراً قبل ذلك فى أن أسبانيا قد تسمح لجيش ألمانى بالذهاب إلى إفريقية ، والاستيلاء على جبل طارق . ولا نظن أن أسبانيا كانت تمانع كثيراً فى هذا الأمر ، ولكن ألمانيا — لأسباب وجيهة من غير شك — فضلت أن تظل أسبانيا بعيدة عن الحرب ، وأن ترسل الأمدادات الإفريقية عن طريق صقلية .

ثم دار الفلك دورته ، ودخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء فى ديسمبر ١٩٤١ ، ولم يكن فى هذا أول الأمر ما يدعو أسبانيا إلى أن تحول حيادها الجرمانى إلى حياد أمريكى . ولكن الحال لم تلبث أن تبدلت ، يوم دخلت أمريكا بجيوشها إفريقية الشمالية فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ . وتدفقت قوات الحلفاء إلى شمال إفريقية ، وانهزم الألمان فى ليبيا ، وتونس . وأصبحت السيطرة التامة فى إفريقية الشمالية للفريق الذى لم تكن أسبانيا تخشاه . ولم يكن فى هذه الحالة الجديدة ما يضيرها ، لو أن حيادها كان حياداً دقيقاً ، ولكنه كان حياداً من حيادات هذه الحرب ، يتغير بتغير الظروف والحوادث . ولا شك أن أسبانيا قد تورطت فى حيادها الجرمانى إلى مدى بعيد ، ولم يبق بد من أن تصلح بعض ذلك الفساد ، وأن ترأب الصدع الذى أمعنت فى حفره بينها وبين الأمم المتحدة .

ومع ذلك كان من الصعب على الحكومة الأسبانية أن تتجه بحيادها هذا الاتجاه الجديد . واضطرت الحكومة الأمريكية لأن تقطع عن أسبانيا واردات البترول . وكان فى وسعها أن تستخدم وسائل أخرى للضغط على الحكومة الأسبانية . ولكن هذه أدركت أخيراً أنها تحسن صنعاً لو حولت حيادها وجهة جديدة ، فقبلت جميع الشروط التى تقدم بها الحلفاء ، وبادرت بتنفيذها . ورأيناها فى الأسابيع الماضية تمنع عن ألمانيا صادرات الولفرام ، وهو مادة معدنية من المواد التى تشتمل على عنصر تنجستن ، وهو مادة ثمينة ليس لدى الألمان منها شىء ، فليس فى الأرض الألمانية ولا فى جميع الأقطار التى تسيطر عليها ألمانيا أثر من مادة الولفرام ، وهى من المواد اللازمة لصنع الصلب المعظم المتانة .

كذلك قبلت أسبانيا أن تطرد الجواسيس المحوريين من بلاد مراكش الأسبانية ، وأن تخرج قنصل ألمانيا نفسه من طنجة ، وقد طلبت إلى اليابان أن تلغى قنصليتها أيضاً فى تلك البلدة . كما أمرت تلك الفرقة الهزيلة التى تحارب فى روسيا بأن تعود إلى أرض الوطن العزيز . ولم يكتف زعيم أسبانيا بهذا ، بل بادر بإقصاء أحد الوزراء — وهو من أقاربه — لأنه من أنصار المحور المعروفين .

ولئن كانت أسبانيا حُرمت بيع الولفرام إلى ألمانيا ، فإن الدول المتحدة — على وفرة ما عندها من الولفرام — سيشترون ما تنتجه منه بأثمان أعلى مما كانت تدفعه ألمانيا . ولا شك أن مقدرة الأمم المتحدة على التجارة والبيع والشراء أعظم من مقدرة دولة ألمانيا .

وهكذا نرى أسبانيا وقد لبس حيادها شكلا جديداً ، واصطبغ بلون جديد ، فهو حياد مشرب بروح العطف على الفريق المتفوق أو الذى يُظن متفوقاً . ومن يدرى ، لعل معظم الحياد فى هذه الحرب — لو حللناه — لا يختلف كثيراً من هذا الطراز الأسبانى .

محمد عوض محمد

خطـــــاب

القاهرة في ١/٥/١٩٤٤

أخي العزيز . . . . .

معذرة أن تأخرتُ في الكتابة إليك ، فقد مرضت مرضاً خطيراً طال شهرين .

لقد أضعف المرض جسمي ، ولكنه صهر نفسي ، أتاح لي أن أستعرض حياتي الماضية ، فرأيتني كنت أمس فيها بالسطح دون العمق ، تشغلني التوافه ، وأطمح إلى أوهام ؛ فأخذت — في مرضي — أتعرّف إلى الغرض من الحياة ، وأشتاق إلى تفهم معناها ، وأجتهد أن أجتلي حقيقتها المغطاة بالأشكال والأسماء ، وأبحث عن نقطة الاتصال بين الله والإنسان ، كأن نفسي كانت نبعاً مدفوناً فتفجّر ، وكأن الله كان في السماء فصار في القلب .

لشد ما يكون الإنسان أقرب إلى ربه في مرضه ، وفي أحزانه ، وفي شدائده ، لأنه يطلب النجدة فلا يجدها في الأصدقاء والأقرباء ؛ وإنما يطلبها ممن لا تحدّ قوته ، ولا تقصر قدرته ؛ ولأنه في مثل هذه المواقف تتكشف له النفس الإنسانية فيراها ضعيفة بذاتها ، قوية بربّها .

قلّبت — أثناء مرضي — في دفاتري القديمة ، فوجدتني قد نما عقلي وفتر قلبي ، ولوددت لو كان العكس . وأقسم أني لم أحزن على شيب رأسي كما حزنت على دبيب الشيب إلى قلبي ، فالقلب صلة الأرض بالسماء ، ومهبط الوحي من السماء إلى الأرض ، والقلب هو الحب ، وهو الانسجام ، وهو الجمال ؛ والقلب هو الدين ، وهو الأخوّة ، وهو الإنسانية ؛ وما الحياة بغير هذا كله ! إن العالم لم يسعد بنمو العقل بقدر ما شقي بضعف القلب ، إنه أهدى في الحياة من العقل ، إنه منبع السرور والألم ، إنه منار الحياة .

حُبّب إليّ في مرضي التصوف ، والتصوف الحق سرّ الدين ، والفقه ظاهره ، فقرأت فيه كتابين ، كان خيرما فيهما الحديث عن القلب ، وخير الحديث عن القلب قصة جميلة قصّها متصوف . قال : إن تاجراً ألهته التجارة عن صلاة الجمعة فما انتبه إلا في موعد الصلاة ، فتوضأ على عجل وأسرع إلى المسجد ، حتى إذا أدركه رأى رجلا خارجا منه ، فسأله متلهفاً : أتمّت الصلاة ؟ قال : نعم . فتأوّه التاجر آهة خرجت من أعماق قلبه . فسأله الرجل أتبيعني آهتك بصلاتي ؟ قال : نعم ! وتم البيع والشراء — ثم رأى التاجر النبي (ص) في المنام فعاتبه على بيعته ، وقال له : أتبيع نبض الحياة بعمل الجوارح ، وعصارة القلب بظواهر الحركات ؟! لقد غبنت أيما غبن في بيعتك .

وشغفت — في مرضي — بنوع من الصلاة لطيف ، أن أعبد الله في جمال الطبيعة ، وأعبده بالنظر إلى سمائه وأرضه وفي جميع خلقه ، وأقرأ في كل ذلك فنّا دونه أي فن ، وقلبا ينبض بالحياة ، وموسيقى أنغام وجمال انسجام ، وإبداعا في التكوين ، ووحدة في الوجود ، وتدرجا في الارتقاء ، وحياة متشابهة في الجميع ، « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

ما الفنان ؟ ما الموسيقي ؟ ما المثال ؟ ما الشاعر ؟ ما الأديب ؟ كلٌّ رأى جمال الطبيعة من زاوية ، وقدّسه في نفسه ، وقلّده في فنه ، وفني فيه تحت نتاجه ، ورأى الله فيما تخصص فيه فآمن ولو كان ملحداً ؛ وآية إيمانه إقراره بأن جمال الطبيعة فوق جمال فنه ، وجلاله فوق جلاله ، وإحناؤه رأسه علامة الخضوع ، والإقرار بالعجز عن بلوغ شأوه !

غصون وأوراق وأزهار ، وجبال ووديان ، وبحار وأسماك ونجوم وسماء ؛ كلها تحيا حياة واحدة وإن تنوعت أسماؤها وصفاتها ، ونفس إنسانية هي أعجب العجب ، وكل ذلك وحدة مرتبطة الأجزاء ، إن قرأت الألِفَ فيها قرأت الباء إلى الياء . وكما قال شاعر فارسي ظريف : « لما لم يكن للطفل أسنان كان لبن ، فلما كانت الأسنان كان الطعام الذي يناسب الأسنان » ؛ وكل شيء في العالم مرتبط هذا الارتباط .

* * *

بالأمس أخذت كرسيّ معصراً ، ونزلت إلى حديقتي المتواضعة ، وصعدت إلى السطح مساء في ضوء القمر الساحر . وكان قد استولى عليّ التفكير في نفسي ، ماذا صنعتَ في الحياة؟ أكتفيتَ بأنك تخط بالقلم على القرطاس، وتُخرج مقالا في صحيفة ، أو تنشر كتاباً تؤلفه ، أكل هذا عملك في الحياة؟ أما الانغماس في الحياة الواقعة وإصلاحها بقدر الطاقة ، فقد نفضت منها يدك ، فعاقبتك الطبيعة بشيء غير قليل من السأم ؛ فالطبيعة التي غرست في الإنسان المحافظة على ذاته غرست فيه المحافظة على نوعه ، فمن لم يحافظ على ذاته بَرِم بالحياة ، لأنه انحرف عن سُنَّة الطبيعة ، ومن لم يحافظ على نوعه بعمل في خدمته عاقبته الطبيعة بالسأم والضجر ، لأنه خرج على قوانينها ؛ إنك أخذت في حياتك موقف « المتفرج » من رجال الإصلاح ورجال السياسة ورجال الدين ، وجلست تنظر إلى هؤلاء جميعا نظرك إلى ملعب كرة ، أو رواية في سينما ، أو منظر في تمثيل ، وتلذذت من هذه المناظر أو ألمت ، فكانت اللذة لنفسك والألم لنفسك لا للناس ؛ وتحركك شعور بالطبع بنوع من الإعجاب بنفسك ، لأنك استطعت أن تدرس هذا كله في جو هادئ ، كما تدرس موضوعا في مكتبتك ، وأن تنظر إلى المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية من وجهها الصحيح ووضعها المستقيم ، فلم يصدك عن النظر الصحيح حرارة الحزبية ، ولم يُعمِك عن الحقيقة منافعك الشخصية ، ونظرت إلى الممثلين في هذه الأمور كلها نظرة المؤرخ الصادق ، تذكر ما لكل شيء وما عليه ، وأعجبك فهمُك لهذه المناظر ، إذ ترى أحيانا منظر طامع إلى المجد وإلى الشهرة وإلى المنفعة الشخصية يلبس على المسرح ثياب الطهر والنقاء والتزام الصالح العام ؛ وترى نهم الرغبة في المال يلبس ثياب الزهد في المال ، والمتاجر بالدين أو الوطنية منح على المسرح لسانا طلقا يجعل الناس يؤمنون أنه يعمل ما يعمل لخدمة الدين والوطنية .

وأعجبتك نفسك إذ منحت في هدوئك ودراستك ومكتبتك ما مكّنك من رؤية الممثلين قبل أن يضعوا في وجوههم الأبيض والأحمر والشعر المستعار والثوب المصطنع ، واستطعت بعقلك وخيالك أن تدخل عليهم في حجرة الملابس والزينة قبل أن يتصنّعوا ، ولكن هل من الحق أن تكون قابلا لا فاعلا ، و « متفرجا » لا ممثّلا ؟!

وهكذا أعذل نفسي وأؤنبها ، لأنها رضيَتْ أن تكون على هامش الحياة لا في صميمها ، وكان خيرا أن تنزل إلى المعمعة ، فإما قُتلت وإما قَتَلت ، وإما كان الصدر وإما كان القبر ؛ ثم أرضى عنها وأحمد عملها ، لأنها عاهدت الله ألا تنطق إلا بصدق ، ولا تنتصر إلا للحق ، فإذا أمكنتها الفرص فعلت ، وإلا تنحّت ، ونفسك لا تصلح إلا لما فعلت ، وكلٌّ ميسّر لما خلق له ، وحصانك لا يصلح إلا للسير في الطريق التي قطعتَ . فإن شئت طريقا آخر فغيّر حصانك إن استطعت ، ومثلك الأعلى إما أن تصنعه من مال وجاه وشهرة ومنصب ، وإما أن تصنعه من الحب ، حب الخير والفضيلة والجمال والحق ؛ ومعبودك الذي تعبده إما الوثن وإما الله ، ولا يمكن أن تجمع بينهما .

وهكذا كان العراك بيني وبين نفسي . ولا أكتمك أني عندما أخذت كرسيّ ونزلت إلى الحديقة كانت النظرة الأولى ، وعندما صعدت إلى السطح كانت النظرة الثانية .

أتستطيع أن تحلّل لي ذلك ، وأن تذكر لي أيّ النظرتين أحق وأصدق؟ وما أصعب معرفة خبايا النفس لأنها آخر وأعقدُ ما حاولنا أن نستكشفه !!

لقد تمنّيت أن يصح جسمي وتبقى نفسي صافية صفاءها في مرضي ، أحتقر توافه الدنيا ولا أعبأ بها . ولكن ما هو دم يجري من جديد في جسمي فيحمل في ثناياه الشهوات التافهة والآمال السخيفة ، فما أحرى بالإعجاب أولئك الذين استطاعوا أن يحتفظوا بطهارة دمائهم على غزارتها وحيويّتها .

* * *

المرأة في عاصمتين

للدكتور أحمد زكي بك

دخل عليّ صاحبي في غير ما أعهد من هدوء حال ، وارتخاء بال . قلت : ما بك ؟

قال : دُشٌّ ساخن أخذته توًّا .

قلت : أفي هذا الحر ؟ إذن فتَحَوَّلْ عن التيار .

قال : ليس الدش دشَّ ماء ، ولكن دشًّا نفسانيًّا من الأدشاش التي تتلذّع منها النفس احترارا ، ثم يَتندّى لها الجبين فيبترد .

قلت : ما وراءك ؟

قال : حادثٌ في الترام . في الدرجة الأولى . ثلاثة رجال ملأوا المقعد الأيمن . وثلاثة رجال ملأوا المقعد الأيسر . ودخل رجل عسكريٌّ أجنبي بعد ذلك فوقف . ودخلت امرأة من بعد ذلك فوقفتْ . ومضى القطار خمس دقائق والأنثى تتأرجح يمينا ويسارا من شدة السرعة ، وهي واقفة ، والذكور جلوس . والرجل العسكري تمتلئُ نفسه من هذا المنظر حتى قاض صدره فانفجر .

قلت : كيف ؟

قال : انفجر كبركان ، ونار وثار . قال : ستة رجال كالبغال تكوّمت شحومهم ولحومهم على المقاعد ، وبينهم امرأة تضطرب بلا سند كالريشة في مهب الريح ، وليس منكم من يستحي فيقوم من مجلسه لها .

قلت : فماذا صنعوا ؟

قال : بُهِتُوا وصمتوا . إلا رجلا هزه ما قيل .

قلت : فقام عن مقعده ؟

قال : لا ، لم يهزه للقيام ، ولكنه اهتز للجواب . قال مجيبا بلغة أجنبية سقيمة : « إن الله خلق لها رجلين كما خلق لنا » . فقال له الرجل : « لقد شاء الله أن يخلق لكم أربعا » .

قلت : وبهذا حُسِم النزاع ؟

قال : لا . فأسبابه كانت لا تزال قائمة . رجل أجنبيٌّ تعوّد في بلده أن يقوم الرجل الواحد لتقعد المرأة الواحدة ، فإذا هو يتنظر ستة من الرجال يقعدون وامرأة واحدة تقف ، وذلك في مكان ضيق تتقابل فيها الوجوه وتلتقي المدارك . فأخذ يدمدم كلما قرصه ما يرى . قال في إحدى دمدماته : « إني أتيت من بلد بعيد عَبْر البحار . وبلدي قرية صغيرة فوق جبل ، ولا نعرف فيها الترام . ولكنا نعرف فيها كيف نحترم النساء . وكيف نفرّق بين المرأة والجاموسة » . ثم استشاط غضباً فصاح بملء فيه : « يا كلاباً قذرة » .

قلت : يا خبر ! فماذا صنع الرجال الكرام عند هذه ؟

قال : تصنّعوا أنهم لا يفهمون .

قلت : فماذا صنعت المرأة في الموقف المخجل .

قال : حاولتْ ما استطاعت أن تهدّئ من ثائرة العسكري . فهمستْ له باسمةً : « لا تنسَ أن هذا العصر عصر المساواة في كل شيء ، حتى بين الرجل والمرأة . والقاهرة سبّاقةٌ دائماً إلى التطوّر » .

قلت : وأنت ؟ أين كنت من كل هذا ، وكيف سمعت ورأيت ؟

قال : سؤالك هذا كان أخشى ما خَشِيته . كنت

آسف لأني حدثتك كثيرا عن نفسي ، وقد أردتُه خطابا ، فلما بدأته نسيت فكان مقالا . فقد كنت في الصباح أكتب مقالا فسرت عدوى الصباح إلى المساء . على كل حال أحسب صداقتنا تسمح لك أن تسرّ بجدي وهزلي ، ووقاري ونزقي .

اكتب لي كثيرا فكتبك تقع مني موقع الماء من ذي الغُلّة الصادي .

أهلُك وأصدقاؤك بخير يسلمون عليك .

أحمد أمين

أحد الرجال الستة .

قلت : أنت الذي عاش سنوات في حيث تجلس المرأة ويقف الرجل !؟

قال : والله لا أدري ما الذي جرى . لقد كُنّا هناك يقوم الرجل للمرأة على غير وعي ومن غير تدبير . أما هنا ، فالفكر يتدخّل دائما ، فيوازي ويقارن ، ويستدعي العدالة لتحكم ، ويستدعي المعاذير . ووراء كل هذا طباع متأصلة ، والمرء لطبعه عوّاد . لقد كان فينا نحن الستة من هو أقل مني سنا ، وأشبّ عضلا ، فتربّصت بأحدهم أن يقوم لخاب أملي . وكان فينا الجندي وقد هبطت على كتفيه الزُّهَرة والشتري ، والجندية موطن الشهامة ومظنّة النجدة ، فتربصت به أن يقوم لخاب أملي . وكان فينا طالب الجامعة ، وقد استخفى من غطاء رأسه ، وجرى في رأسه المشط ، وافترق الشعر ، والتمع العطر ، وتدلّى على صدره المنديل الكبير الطويل يطلب أرضا ، فقلت هذا الحداثة ، هذا العصرية ؛ فما لبثتُ أن تبيّنتُها عصريةً وقفت عند الجلد ، لخاب أملي . وضاعت فرصتي أنا بين هذا الانتظار وهذا التربّص . ضاعت فرصتي في الجود ، والجود لا أحبّه إلا مُبادرة ، فبسْطُ اليد يخجل من بعد قبضها ، والإقدام يبوخ من بعد إحجام . فاحتميت في عزة الرافض حينا ؛ وزادني استمساكا بعزة الرافض فورة هذا الرجل الأجنبي وثورته . وبقيت حتى هدأت الزوبعة .

قلت : فماذا صنعت من بعد هدوئها ؟

قال : تلطفتُ فأعطيتُ مجلسي للسيدة .

قلت : إذن لطُف الجوّ من بعد ذلك وراق .

قال : ولكنها رفضت مجلسي بابتسامة عريضة ، وقالت : لا وشكراً . فلم أدر أيها كان أقتل لي ، ابتسامتها أم شكرها . وكأنما ثقُل عليها الموقف فأرادت أن تحسمه ، فنزلت من القطار ؛ ولما سار بنا ، رأيتها على بعد تستدعي سيارة أجرة . ونزل الرجل الصخّاب من بعد ذلك .

وهنا انفتحت الأفواه المُغلقة ، وصالت الألسنة كما تَصول السياط .

قلت : وفي أي شيء ، وقعت السياط .

قال : وقعت في عِرض المرأة ، فكأنما كانوا عرفوا مَنْ تكون . وانطلقت النكتة بذيئة ، شبّروا بها هذه المرأة المجهولة من قمة رأسها إلى إخمصها . وربطوا نزول الرجل بنزولها على بعد الشُّقّة بينهما ، واستدعوا الوطنية يستعينون بها على ما هم فيه . والوطنية جميلة ، ولكن الإنسانية أجمل . والرجل كان رجلا ، والمرأة كانت امرأة ، والطفل العاجز طفلا ، قبل أن تتفرع الأسرة الإنسانية إلى غربيّ وشرقيّ وآريّ وساميّ وحبشي ومصري . وأي وطنية تكون بلا آداب ، وما إقحام الوطنية في مثل هذه الآداب ؟! وقتّ بدوري من هذه الجماعة ، وقد امتلأ الجراب .

قلت : هوّن عليك ، فما حال المرأة إلا بعض أحوالنا . أتسمع مني قصة أخرى حدثت لي في عاصمة أخرى من عواصم الشرق ، ورُبك أن أمم الشرق في حلْبة المجد أفراس رهان ؟

قال : هات .

قلت : نزلت في عاصمة الغساسنة منذ سنوات على غير معرفة . وساقتني الصدفة إلى لقاء رجل كريم ، له لحية سوداء ، وعمامة بيضاء ، وجلباب أسود . وكان ذا وسامة ومهابة . وعرفت منه أنه فقيه ، فأكرمت فيه فقهه . وعرفت منه بعد ذلك أنه لا يتّجر بالفقه ولكن بالحرير ، فأكبرت فيه تجافيه عن دين الله أن يتّجر فيه . وعرفت منه أنه ذو سابقة في الثورة التي جناها الفرنسيون ، وأنه اقتحم البيوت في إطفاء الحرائق ، واقتحم الحصون ، وتعرض للموت صريحا ، فأعظمت فيه هذه المجموعة النادرة : دين وتجارة وحرب . وقلت ما هانت بلد أنجبتْ مثله . وحضر إلى الفندق مبكّراً يطلب صحبتي في المدينة ، فأكبرت فيه كرما ، واستبنت شهامة . وجرت لنا معه أيام لم تنكشف

من الأدب المعاصر :

٤ ـ ميخائيل نعيمة

الوحدة حالة نفسية ، أو أزمة نفسية ألحة تعترى الشاعر وترافقه فى حياته فترة ما ، فتصحبه فى تطورات شعوره وانفعالات نفسه ، وتقلبات أفكاره ، فهى تتخذ من شعره مسرحاً تظهر عليه ألوانا مختلفة ، وأزياء كثيرة متباينة . وهذه الوحدة التى عند نعيمة جعلته صوفياً متزهداً ، ففى شعره مسحة من الصوفية ، وبمراجعة قصائده يتبين ذلك . فالطالع مثلا لقصيدة : لو تدرك الأشواك سر الزهور ؛ وقصيدة الآن ؛ وحبل التمنى ، يجد فيها رنة من رنات الوحدة ونغمة من نغماته ، وهى ملازمة لروحه تأبى أن تفارقه . والشاعر لا يتأفف من وحدته فحسب ، بل يتبرم من هذه الحرب الضروس المستعرة نارها فى نفسه ، بين جسمه الأرضى وروحه العلوية السماوية ، والصراع بين كيانه الحق وكيانه الظاهر ...

تعرض الحياة مشاهد شتى على الناس ، ولكن ليست كل عين ترى ، وليست كل نفس تشعر وتحس ، فما تراه هذه العين ، قد لا تراه تلك ، مع أنهما ينظران إلى مشهد واحد . فهذا يرى أشياء ، لا يراها صاحبه ؛ وقد تمر كلاهما بدودة صغيرة تدب على سطح الأرض فلا يراها أحدهما ، ولا تخطر فى ذهنه ، وتمشى فى سبيله ، وينطلق إلى حاله ؛ وقد يمر الثانى بها ، فتستوقفه الدودة ، ويرى فيها معانى كبيرة فى حركاتها ، ثم لا يلبث أن ينصرف ، وفى نفسه معان ، وفى ذهنه أشياء . ويمر أمام ذهنه شريط سينمائى ، ويصبح رأسه مسرحاً لأشباح وصور متعاقبة ، وقد لا يطول الوقت حتى ترى هذه الأشباح المتعاقبة صورها فى ذهنه قد تآلفت ، واندمجت تلك الرسوم وخرجت فى مقال أو قصيدة ، فتطالعها فتشعر كأن أشباحها سرت أمام عينيك ، ورسومها وضحت أمامك ، وأصواتها رنت فى أذنيك .

ونعيمة قد مر بدودة تدب على الأرض ، فأوحت إليه بقصيدة فيها كثير من المواقف الفلسفية والتأملات العميقة[1]

وشاعرية نعيمة كالرحالة ، فهى دائمة التجوال بين ظواهر الحياة وبواطنها ، فوق الروابى والآكام ، وعلى قمم الجبال السامقة وفى المنخفضات والوديان السحيقة ؛ وفى كل سياحة من هذه السياحات ، وفى كل جولة من جولاته يعود بآثار طريفة ، وذكريات قد حفرت فى قلبه فلا سبيل إلى نسيانها .

(١) سبق أن نقلت بعض الأبيات من هذه القص

حاله لنا فيها إلا عن أطيب المُثُل . وكان كريما معوانا . وحدث من بعد ذلك أن جرى الحديث عن المرأة — عن زوجة له طلّقها . فقلت له : «خسارة!» فقال : «لا خسارة ولا شىء . إنها أم ولد ، كانت فبانت » . فحسبت أنه قصد إلى إعزازها بوصف أنها أم أولاده . ثم علمت أنه إنما قصد إلى أن المرأة ماعون يُهيأ فيه الطعام ، ثم يُلقى به فى الحوض عند بالوعة الماء ليُغسل من أوضاره . وقال فى برود شديد : « إن النساء كالنعال تقدُم ، وعندئذ لا مفرّ من تجديدها » . أفتدرى كم كانت صدمتى منه

وليبق فيه ؟

قال صاحبى : صدمةً مَن

رائعة ، فلما حملها بين يديه ، وقعت فانكسر

قلت : نعم . كانت تَبْتةً من وقع على ورد

وتَترى نضارة ، وعلى وريقاتها ندى الصباح الب

أردتُ ضمّها إلى صدرى وجدتُ فى قلبها بصقةً حم

قال : فألقيتَ بها إلى الأرض ، ودعستها بالرجْ

قلت : لا . أشفقتُ على نعلى أن تتسخ ، و

حرمة الورد أن تمتهن .

أحمد زكى

فهو قد رحل إلى أوربا سنة ١٩١٨ ضمن الجيش الأمريكي ليحارب في صفوف جيش الحلفاء، ولم يلبث هناك كثيرا حتى رجع إلى الولايات المتحدة وقد تحطمت مثله العليا على صخرة الحقيقة القاسية. رجع نعيمة وفي جعبته كثير من ذكريات الحرب وآثارها، وقد تألمت نفسه لهذه الذكريات المرة؛ فهو في تلك الفترة لم يكن يسمع إلا دندنة الرصاص أو زئير المدفع، أو زفير الجرحى وأنين المحتضرين. وقد تجمعت هذه الذكريات وائتلفت فيما بينها قصيدة أخي[2]، وفي هذه القصيدة يقول:

أخي إن ضجّ بعد الحر   ب غربيٌّ بأعماله
وقدّس ذكر من ماتوا   وعظّم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا   ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي   بقلب خاشـــع دام
لنبكي حظ موتانا

أخي، إن عاد بعد الحر   ب جنديٌّ لأوطانه
وألقى جسمه المنهو   ك في أحضان خلانه
فلا تطلب إذا ما عد   ت للأوطان خلانا
لأن الجوعَ لم يترك   لنـــا صحبا نناجيهم
سوى أشباح موتانا

أخي إن عاد يحرث أر   ضه الفلاح أو يزرعْ
ويَبْني بعد طولِ الهجـ   ـر كوخاً هدّه المدفعْ
فقد جفّت سواقينا   وهد الذل مأوانا
ولم يترك لنا الأعدا   ء غرساً في أراضينا
سوى أجياف موتانا

أخي، قد تمّ ما لو لم   نشأه نحن ما تمّا
وقد عمّ البلاء ولو   أردنا نحن ما عمّا
فلا نندب فأذن الغيـ   ـر لا تصغي لشكوانا
بل اتبعني لنحفر خنـ   ـدقاً بالرفش والمعول
نوارى فيه موتانا

أخي، من نحن، لا وطنٌ   ولا أهـــلٌ ولا جارٌ

(٢) الهلال أبريل ١٩١٨ نقلا عن الفنون.

إذا نمنا، إذا قمنا   رِدانا الخزي والعار
لقد خمت بنا الدنيا   كما خمت بموتانا
فهات الرفش واتبعني   لنحفر خندقاً آخر
نوارى فيه أحيانا

فهو هنا قد وقف على كثير من حقائق الحياة وخفاياها، وذاق من مرها الشيء الكثير، وقاسى من ألمها ما قاسى، وخلص من تأملاته العميقة ومن اختباراته بأن السبب في نكبات الإنسانية إنما هي الأطماع التي لا حدود لها، والتي تسيره حسبما شاءت فيسير طائعاً وراء الأطماع.

ونعيمة يؤمن بجمال الطبيعة، ويشعر بجمالها الأخاذ في نفسه، ويرى خلف مظاهر الطبيعة الفاتنة ومشاهدها الخلابة ومجاليها الرائعة صورة الإله؛ وهو يحاول أن يضم الحياة بأسرها إليه، ويشعر بجمال الطبيعة السرى في نفسه، فيحس بنشوة، ويشعر بحالة نفسية تطوف به، فينطلق ليمجد الله القدير؛ وقصيدة النهر المتجمد[1] خير شاهد على ذلك:

يا نهر هل نضبت مياهك   فانقطعت عن الخرير؟
أم قد هرمت وخار عز   مك فانثنيت عن المسير؟
بالأمس كنت مرنماً   بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيـــا وما   فيها أحاديث الدهور
بالأمس كنت تسير لا   تخشى الموانع في الطريق
فاليوم قد هبطت عليـ   ـك سكينة اللحد العميق
بالأمس كنت إذا أتيـ   ـتك باكيا سليتني
واليوم صرت إذا أتيـ   ـتك ضاحكا أبكيتني
بالأمس كنت إذا سمعـ   ـت تنهـــدى وتوجعي
تبكي وها أبكي أنا   وحــــدي ولا تبكي معي
ما هــذه الأكفان؟ أم   هذي قيود من جليد
قد كبلتك وذللتـ   ـها بها يد البرد الشديد
ها حولك الصفصاف لا   ورق عليه ولا جمال
يجثو كئيباً كلما مر   ت به ريح الشمال

(١) الرسالة: ع ٣٢٥ (١٩٣٩/٩/٢٥).

والحور يتدبب فوق رأ   ـــــك نازاً أغصانه
لا يبرح الحسون في   ـــه مهدداً ألحانه
ثانيه أسراب من الفر   بان تنعق في الفضا
فكأنهـا ترثى شبابا من   حيـاتك قد مضى
وكأنما بنعيبها عند الصـ   ـباح وفي المســاء
بوق يشيع جسمك الفـ   ـاني إلى دار البقاء
لكن سينصرف الشتا   وتعود أيام الربيع
فتفك جسمك من عقا   ل مكنته يد الصقيع
وتحكر موجتك الفـ   ـية حرة نحـو البحار
حبلى بأسرار الدجى   تحكى بأحـلام النهار
وتعود تبسم إذ يلا   طف وجهك الصافي النسيم
وتعود تسبح في ميـا   هك أنجم الليـل البهيم
والبـدر يبسط من سماه   عليك سترا من لجين
والشمس تستر بالأزاهر   منكبيك العاريين
والحور ينسى ما اعتراه   من المصائب والمحن
ويعود يشمخ أنفـه   ويميس مخضر الفنن
وتعود للصفصاف بعـ   ـد الشيب أيام الشباب
فيغرد الحسون فوق غصو   نه بدل الغـراب
قد كان لي يا نهـر قلـ   ـب ضاحك مثل المروج
حر كقلبك فيـه أهـ   ـواء وآمال تموج
قد كان يضحى غير ما   يمسى ولا يشكو الملل
واليوم قد جمدت كوجـ   ـهك فيه أمواج الأمـل
فتساوت الأيام فيـه   صبـاحها ومساؤها
وتوازنت فيه الحيـاة   نعيمها وشقاؤها
سيان فيه غدا الربيع   مع الخريف أو الشتاء
سيـان نوح البائـ   ـين وضحك أبناء الصفاء
بـذته ضوضاء الحيا   ة فمال عنها وانفرد
وغـــدا جماداً لا يحن   ولا يميـــل إلى أحـد
وغـدا غريباً بين قو   م كان قبـــلا منهم
وغدوت بين النـاس لغـ   ـزاً فيه لغـز مبهم

يا نهـــر ذا قلبي أر   اه كما أراك مكبلا
والفرق أنك ســوف تنـ   ـشط من عقالك وهو لا

فهذه القصيدة أعدها من أروع الشعر العربي الحديث ولا أشك في خلودها وبقائها على الأيام ما بقيت في الإنسان عاطفة، وما دام شعوره حياً.

وهذه القصيدة تصف الطبيعة الغربية، وقد افتتن بها كثير من الأدباء والشعراء المعاصرين.

يرى ميخائيل نعيمة أن الوزن ضروري للشعر، لذلك تراه لا يخرج عن الأوزان المألوفة في الشعر العربي في مختلف عصوره. ولكنه يرى إلى جانب هـذا أن القافية ليست من ضروريات الشعر، ولا سيما إذا كانت كالقافية العربية بروى واحد يلزمها في كل القصيدة؛ فإذا ما ترك الروى مرة واحدة، عدّ ذلك عيباً في الشعر، وهذه مسألة معروفة في علم العروض.

ولهذا نرى نعيمة ينزع إلى قواف متنوعة مختلفة، خوف أن يترك ملازمة الروى، وهذا واضح في شعره؛ ولا أدل على ذلك من قصائده «ترنيمة الرياح» و«قبور تدور» و«النهر المتجمد» و«من أنت يا نفس» و«صدى الأجراس» وغيرها.

أما قوالبه الشعرية فتجمع بين السلاسة والجزالة، ورقة الألفاظ وبساطة الأسلوب، فلا يلجأ إلى الألفاظ الضخمة والكلمات الرنانة.

وأسلوبه جميل، وهو يحمل شعوره وصدق نفسه، لأنه لا يلجأ إلى الصنعة، لذلك كان شعره خارجاً من النفس، فكان قريباً من النفس.

ونعيمة في بعض الأحايين يخالف النحو في قواعده، والصرف في قوانينه، ولكن ذلك في درجة محدودة جداً، ونادرة جداً.

لذلك كان نعيمة من أصح شعراء المهجر أسلوباً، وأقربهم إلى الصحة والبيان العربي القويم.

إبراهيم جبول الدبر

مقـــــلاع داود

تردحم في رواية من روايات «أناتول فرانس» ، وقد فرغت من قراءتها في هذا الأسبوع ، أفكار شتى في الفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد وما شاكلها . ولكن هذه الأفكار لا يعرضها صاحبها على شكل جامد ، فهي تأتي متقطعة مختصرة في أثناء الرواية ؛ وقد يكون هـذا الطراز من العرض في مذهب الأدب الحديث أعمل في القلوب وأسهل دخولاً على الأذهان ؛ قد يكون هذا النمط من تلخيص أفكار في موضوعات رفيعة ، سواء أعرضت هذه الأفكار في قصة أم في رواية ، أشدّ استهالة للقارئ ، ولكن ليس هذا عرضي في مقالي ، وإنما موضوعي فكر من هذه الأفكار . فقد كان بطل الرواية يبسط لابنته أمراً في الاجتماع ويقول لها : كل جماعة ذهب التناسب بين أعضائها وبين الوظائف التي خلقت لها هـذه الأعضاء إنما مصيرها إلى الفناء ، وقد تسبق هذا الفناء اضطرابات شديدة واختلالات قوية فتنذر بموتها .

وقد سألته بنته في خلال شرحه لهذه المذاهب وأشباهها هذا السؤال : كيف نستطيع منع الظلم ، كيف نستطيع تغيير العالم ؟ فقال لها :

« بالكلام ! لا شيء أعظم سلطاناً من الكلام ، فإن تسلسل البرهانات القوية والأفكار الرفيعة إنما هو الإصر الذي لا سبيل إلى نقضه ؛ مثل الكلام كمثل مقلاع داود ، فإنه يحطم الأشداء ، ويرمي بالأقوياء ؛ الكلام إنما هو السلاح الذي لا يكسر ، ولولا ذلك لكان العالم عبداً للجيوش المتوحشة ، فمن الذي يجير الأشداء والأقوياء على حرمة غيرهم ، الفكر وحده ، الفكر المجرّد ، العريان ، دون أي جيش كان ؟ »

أعجبني تشبيه سلطان الكلام بمقلاع داود ، والعرب تقول في هذا الباب : ربّ قول أنفذ من صول ، وقد أخذت بعد الفراغ من هذه العبارة أتأمل قوتها ، وأنظر في شدتها ، أخذت أتذكر ما استطاع الكلام في غابر الدهور وحاضرها أن يعمله ، فقد ثلّت عروشاً وقوّض عروشاً ، وحلّ معضلاً وخلق معضلاً ، وأنشأ صداقة وجرّ عداوة ، وأطفأ نيراناً وأجّج نيراناً ؛ ولو شئت أن أدل على سلطان الكلام لوجدت المجال واسعة ، وإنما خطرت ببالي جملة من الأمور كان الكلام فيها الأثر الأبلغ ، وقد كان يجب عليّ أن أشير في هذا المقام إلى خطب زياد أو الحجاج لأنها أشبه شيء بمقلاع داود ، وإنما تعدّيتها لشهرتها .

كلنا نعلم حال الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد دهش أولئك الناس ، فكأنهم لا يصدقون أن النبي يموت ، فلما قال لهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه : أيها الناس ! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » !

لقد قرأنا هذا الكلام ، ولكن لست أدري هل تدبرناه حق التدبر ، هل أعطيناه حقه من النظر ، هل فكرنا في العمل الذي عمله هذا الكلام ؟ لما سمعه الناس خرجوا من دهشتهم واستفاقوا من غشيتهم ، ورجعت إليهم عقولهم وثبتت فيهم حواسهم ، وإذا بالأمر الجليل وهو وفاة نبيّ خلق أمة ، وجاء بدين ، وأخرج قوماً من عالم إلى عالم ، وأدخل عليهم أفكاراً لا عهد لهم بأمثالها ، وعواطف لا صلة لهم بأشباهها ، إذا بالأمر الجليل يعود أمراً مثل كل أمر ، فيندفع الإسلام في نموّه وإن ذهب صاحبه ، ويستفيض هذا الدين في مجامع الآفاق ؛ فلولا كلمة قالها أبو بكر في حينها لما علم إلا الله وحده عواقب دهشة المسلمين من وفاة نبيهم .

وكما كان للكلام سلطان في تثبيت أمة وتثبيت دين ، فقد كان له سلطان في تثبيت دولة ؛ امتنع أهل مصر في الماضي من الخراج ، فقدم مصر عتبة بن أبي سفيان ، فقام خطيباً فقال : يا أهل مصر ! قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم ، فقد وليكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ردّكم بيده ، وإن استعصيتم ردّكم بسيفه ، ثم رجا في الآخر ما أمل في الأول . إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز ، ومن حذّر كمن بشّر .

فنادوه : سمعاً وطاعة ، فناداهم : عدلاً ! عدلاً !

فهذا كلام لم يلجأ فيه عتبة بن أبي سفيان إلى سوط أو إلى سيف ، ولولا قوة هذا الكلام لأمعن أهل مصر في منع الخراج عن الدولة ، وإذا منع الخراج فكيف يكون مصير الحكومات ، وأي حياة لدولة لا جباية فيها للخراج ؟! فإذا تباعدت المسافة بين الشعب وبين الحكومة ، فكره الشعب حكومته تخرج على قوانينها ومنع عنها خراجه ، ونقمت الحكومة على الشعب فصبّت عليه نقمتها ، ضاعت الحكومة والشعب في وقت واحد . وقد أدرك عتبة هذا كلّه ، فسأل أهل مصر السمع والطاعة وسألوه العدل ، فأعطوه سمعهم وطاعتهم وأعطاهم عدله ، فعاش أهل مصر وعاشت الحكومة في خير . كل هذا بفضل كلمة كانت أشد من مقلاع داود ، ولكنها اشتملت على الحياة ولم تشتمل على الموت ، لأنها مصدر برهان قاطع وفكر رفيع ، وهذا الفكر أوحى به قلب صادق ؛ ومتى اجتمع إلى شدة الكلام رفعة الفكر وصدق القلب ، نفذ هذا الكلام أعماق القلوب ، وعمل فيها ما تعمله الجيوش !

وقد يكون الكلام سبباً في تثبيت رجال الدولة كما كان سبباً في تثبيت الدولة نفسها . بلغ عبيد الله بن زياد أن سلمة بن ذؤيب الرياحي قد جمع الجموع يريد خلعه بعد موت يزيد بن معاوية ، فصعد عبيد الله المنبر فقال : يا أهل البصرة ! انسبوني ، فوالله ما مهاجر أبي إلا إليكم ، وما مولدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، والله لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ؛ وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثره جنوداً ، وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . انظروا رجلاً تولونه أمركم ، يكف سفهاءكم ، ويجبي لكم فيئكم ، ويقسمه فيما بينكم ، فإنما أنا رجل منكم . فأبوا غيره !

فبهذا الكلام تمّت عبيد الله بن زياد إمارته ، ولكنه دخل الأمور من أبوابها ، فقد أخذ باللين ولم يأخذ بالعنف ، لأن حاله ضعيفة بموت يزيد بن معاوية ، فلابد له في مثل هذا الموقف من الاستعطاف ، ولو كان يملك الأمر على نحو ما يريد لكان موقفه يضطره إلى العنف ؛ ولئن استعطف أهل البصرة فلقد عرف كيف يستعطفهم ، ذكّرهم بهجرة أبيه إليهم ، وبنشأته بين ظهرانيهم ، ولا شك في أن هذه الذكرى تتضمن كثيراً من موجبات العطف ؛ ثم خرج من أفق العاطفة إلى أفق العقل ، فلخّص لهم أعمال أبيه في البصرة مثل تكثير الجيش وتكثير الذرية وتكثير الثروة ، وهذه أمور فيها صلاح البصرة ؛ ولكن كلام عبيد الله بن زياد لم يعمل في أهل البصرة عمله إلا لأنه صورة سياسة رشيدة ، وفي اختياره لهذا الطرز من الكلام تأثير في التنبيه على هذه السياسة والإشارة إلى محاسنها ؛ فلولا كلام عبيد الله ابن زياد ، ولولا فكره في مقام مثل هذا المقام ، لما استطاع أن يملك زمام الأمور والفتنة على الأبواب ، ولا يعلم إلا الله مصيرها !

(دمشق) شفيق جبري

الشعر المستعار

عنـــد الأقدمين

بقلم كوركيس عواد

إنْ كان المدنية الحديثة يدٌ طولى فى ابتكار أساليب التجميل ، والتفنّن فى ضروبها ، فإنّ المدنية القديمة لم تعدم نصيبها من هـذا الشأن . وقد وقفنا على أخبار شتّى تدلّ على ما كان من عنـاية الأقدمين بستر معايب الجسم ، وإخفاء نقائصه ، والظهور بمظهر رضى مقبول . ومن ذلك اتخاذ الشّعر المستعار ، أى المصطنع للرأس أو اللحية . فقد قال أبو الفرج الأصفهانى فى جملة مرويّاته : « إن ابن سُرَيْج المغنّى الشهير « بلغ خمساً وثمانين سنة ، وصَـلِعَ ، فـكان يلبس جُمّةً مركّبة ، وكان أكثر ما يرى مقنّعاً . . . » ثم قال فى الصفحة ذاتها : إنه «صَـلِعَ ، فـكان يلبس جُمّةً ، وكان لا يغنّى إلاّ مُقنّعاً يُسْبِل القناع على وجهه »[1] .

ونظير ذلك ما رواه الأصفهانى فى حكاية طريفة ، جاء فيها أن جميلة المغنّية القائمة الصيت « جلستْ يوماً ولبستْ بُرْنُساً[2] طويلاً ، وألبستْ من كان عنـدها برانسَ دون ذلك . وكان فى القوم ابن سريج ، وكان قبيح الصلع قد اتخذ وَفْرَةً[3] شعر يضعها على رأسه . وأحبّت جميلة أن ترى صلعـته ، فلما بلغ البُرْنُس إلى ابن سريج قال : دُرْتِ علىّ وربِّ الكعبة ! وكشف صلعته ووضع القَلَنْسُـوَةَ على رأسه ، وضحك القوم من قُبح صلعته »[4] .

إلى أن قال : « ثم دعت بثياب مُصبّغة ووفرة شعر مثل وفرة ابن سريج ، فوضعتها على رأسها ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا . . . »[1] .

ومما رواه الأصفهانى فى هذا الصدد ، أنّ جميلة هذه « جلستْ يوماً للوفادة عليهـا ، وجَعلتْ على رؤوس جواريها شعوراً مُسْدَلةً كالعناقيـد إلى أعجازهنّ ، وألبستهنّ أنواع الثياب المصبّغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان ، وزيّنتهنّ بأنواع الحلى . . . »[2] .

ومن هـذا القبيل وضع اللحى المصطنعة ؛ فقد كان بعض المحدّثين « لا يقبل فى مجلسه من لم يكن ملتحياً ، خوفاً من قصص الغرام فيما يظهر . ويُذكر أنّ صبياً كان شديد الرغبة فى سماع الحديث ومُنِعَ من ذلك ، فاتخذ لنفسه لحيةً مصطنعة »[3] .

وأقدم ما انتهى إلينا من أخبـار اللحى المصطنعة ، ما رواه الطبرى فى خبر طويل ساقه فى هرب يزيد بن المهلّب من سجن الحجاج سنة ٩٠ للهجرة (٧٠٨ م) ، فقال : « ... ولبس يزيد ثياب طبّاخه ، ووضع على لحيته لحية بيضاء وخرج . فرآه بعض الحرس فقال : كأنّ هذه مشية يزيد ! فجـاء حتى استعرض وجهه ليلاً ، فرأى بياض اللحية ، فانصرف عنه فقال هذا شيخٌ ... »[4] .

وهـذا الخبر بعينه نقله ابن الأثير[5] عن الطبرى باختلاف يسير ، ولا حاجة إلى إيراد قوله .

(بغداد) كوركيس عواد

(١) الأغانى (١ : ٢٤٩ طبعة دار الـكتب المصرية) .
(٢) البرنس على ما فى تاج العروس (٤ : ١٠٨) قلنسوة طويلة كان الناس يلبسونها فى صدر الإسلام .
(٣) الوفرة وجمعها الوفار : ما سال من الشعر على الأذنين .
(٤) الأغانى (٨ : ٢٢٦) .

(١) الأغانى (٨ : ٢٢٧) .
(٢) الأغانى (٨ : ٢٢٧) .
(٣) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (الترجمة العربية ١ : ٣٠٢) .
(٤) تاريخ الطبرى (٢ : ١٢٠٩ طبعة دى غويه) .
(٥) الـكامل فى التاريخ (٤ : ٤٣٢ طبعة تورنبرج) .

أدباء الأمم العربية
ودعوتهم إلى عقد مؤتمر عربي

منذ أكثر من عشر سنوات والدعوة إلى عقد مؤتمر لأدباء الأمم العربية، أمنية تراود مخيلة الكثيرين من أدباء ومثقفي الأقطار العربية، منوهين بواسطة الصحافة والإذاعة والمحاضرات والاجتماعات بضرورة عقد هذا المؤتمر، ليساعد على معرفة أعلام الأدب والشعر والبيان في الأقطار العربية بعضهم مع الآخرين، فيوحدوا جهودهم الأدبية، ويرفعوا من شأن الفكر العربي ليأخذ مكانته بين آداب الأمم الأخرى.

وقد ارتفع أول صوت بالدعوة لعقد مثل هـذا المؤتمر من تونس، وذلك في عام ١٩٣٤ حيث قام أدباؤها بالتمهيد لهذا المؤتمر، فأذاعوا مختلف النشرات، وأرسلوا المنهج التحضيري لصحافة البلاد العربية وقادة الفكر فيها، وكتبت الصحافة العربية حينذاك منوهة بضرورة إجابة هذه الدعوة والسعي لنجاح هذا المؤتمر، وحثت أدباء العربية على لزوم مساعدة الساعين لعقده؛ ولكن مرت شهور ما لبثت بعدها هذه الدعوة أن خابت لعدم تلبية الأدباء لها.

ثم مات شوقي واجتمع لتأبينه في القاهرة أعلام الشعر والأدب، وفكر بعض الأدباء في ضرورة عقد مؤتمر أدبي يجمع أدباء الأمم العربية سنويا في إحدى عواصم البلاد العربية؛ وأذيع في وقته أن لجنة تحضيرية قد تشكلت لدرس هذا الموضوع الذي وافق الإجماع من الأدباء، ولكن ما لبث أن عاد هؤلاء الأدباء والشعراء كل إلى بلده، وماتت الفكرة في القاهرة.

وبعدها ارتفع صوت من لبنان وأحزرأنه صوت الأستاذ (إبراهيم سليم النجار) صاحب جريدة الديار البيروتية، والباحث المؤرخ في الشؤون العربية، فنادى بإحدى المناسبات بعقد مثل هذا المؤتمر الأدبي، الذي ستكون فائدة اللغة والأدب منه جليلة، علاوة على الدوي والسمعة التي يكتسبها أدباء العرب من اجتماعهم، وتبادلهم شؤون الفكر وما جد من التيارات الأدبية في العالم. وسيكون من شأن هذا المؤتمر توجيه الأدباء نحو السبل المؤدية إلى خدمة الأدب العربي، ناهيك عن إزالته بعض الضغائن الموجودة بين الأدباء، ولكن هذا الصوت أيضاً ذهب مع الريح ...

وبمناسبة الاحتفال بالشاعر العربي أبي العلاء المعري لمرور ألف عام على مولده، واهتمام كافة البلاد العربية بتمجيد هذه الذكرى لشاعر ملأ الدنيا دوياً، ارتفع صوت من مصر على صفحات مجلة «الثقافة» ينوه بكثرة المؤتمرات العربية التي تنعقد الآن في عواصم البلاد العربية، وتراود رجال السياسة العرب واجتماعاتهم ويقول:

«أليس عجيباً أن تعقد هذه المؤتمرات كلها ويجتمع الساسة بعضهم مع بعض ويتزاورون، ولا يفكر أهل الأدب في مؤتمر لهم يجمع أدباء مصر إلى أدباء الشام والعراق والجزيرة وبلاد المغرب، وهم كانوا أولى بالسبق...»

ثم تمنى الكاتب أن يكون المؤتمر الذي يعد له الآن في سوريا احتفاء بذكرى أبي العلاء، والذي سيشترك فيه أعلام أدباء وشعراء البلاد العربية نواة لمؤتمرات عربية يجتمع فيها أدباء الأمم العربية كل عام، في القاهرة أو غيرها من عواصم الشرق العربي.

هذا ما كتبه الأستاذ الأديب (قطب) في الثقافة؛ وطالعت بعد أسبوع مقالا للأديب السوري المعروف الأستاذ صلاح الدين المنجد في مجلة (الهلال) ألحف فيه بضرورة عقد مثل هذا المؤتمر الأدبي، مؤكدا أن الاتحاد الروحي لابد أن يتم قبل الاتحاد السياسي، وهو يعتقد أن هذا المؤتمر إذا لم ينتج عنه إلا أنه رفع الحجر بين الأدباء، وزيد في التآلف والصفاء، ويقوى العطف والمودة، ويوحد

الهوى ، فهو يكفى .

والحقيقة أن ما دعت إليه مجلة الثقافة وما كتبه باقى الأدباء جدير بالتفكير وإنعام النظر ، حيث إن الدعوة إلى عقد مؤتمر لأدباء العرب من أهم ما يتطلبه الوضع الحاضر فى البلاد العربية ، التى تريد أن تجمع كيانها السياسى فى اتحاد عربى يضاعف من قوتها ، ويساعد على نموها فى كافة شؤون الحياة .

إن حاضر البلاد العربية الآن يتمخض عن أمور جسام ، ويجتاز مرحلة دقيقة من تاريخها الحافل بمختلف التيارات ، لذا يجب توجيه هذه الشعوب منذ الآن نحو الأهداف الكافلة لتوطيد كيانها ومعرفتها وثقافتها ، وجميع ما يتطلبه وضعها من تهذيب وإصلاح .

وليس بإمكان ساسة هذه الشعوب القيام بكل هذه الأمور ، بل ليس بإمكانهم عمل أى شىء على الإطلاق إذا لم يتعاون معهم رجال الأدب فى هذه البلاد ، فيقوموا بتهيئة الرأى العام وإرشاده إلى الطريق التى يسلكها ، وتنمية مداركه والسير به فى طريق الكمال والنضوج . ولا يتم هذا إذا كان أدباء الأمم العربية متباعدين ومتفرقين ومتخاصمين ، لأن أصواتهم حينذاك لا يتردد صداها وفق ما نريده لوثبة الأمة العربية وخلق الوعى فيها ، وإصلاحها السياسى والثقافى ، بل يجب عليهم أن يتعارفوا ويجتمعوا ويتحاوروا لكى يكون هناك اتفاق عام حول الإصلاح المنشود .

وهذه هى الغاية من السعى فى سبيل عقد (مؤتمر لأدباء الأمم العربية) ، يجتمع فيه أدباء العرب من مصر ولبنان والعراق وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وبلاد المغرب ، فيتعارفون ويتآلفون ويتباحثون فى مشكلات بلادهم ، وتوجيه الجماهير العربية نحو الهدف الذى يكفل سعادتها وهناءها ، وينير لها المستقبل على ضوء هدى هؤلاء الأدباء وقادة الفكر .

فالاتحاد العربى الذى تهيأ البلاد العربية لدخوله بعد مشاوراته فى القاهرة ، لم يكن سوى فكرة أدبية مهد لها الأدباء والكتاب بأقلامهم وبحوثهم منذ سنوات حتى تهيأ الرأى العام العربى له ، ونضج فى أذهان ساسته ، فكانت النتيجة أن توصلت الأمم العربية إلى أولى درجات الوثبة العربية .

ثم هناك مشاكل فى الأدب والنقد والتأليف فى البلاد العربية ، سيكون من شأن هذا المؤتمر تنظيمها وتوجيهها وفق السبل التى يراها كفيلة بنهضة الأدب العربى ليجارى آداب الأمم الكبرى فى مادته وعمقه .

ويقينى أن مؤتمراً لأدباء الأمم العربية إذا تم عقده ستكون نتائجه أعظم بكثير من عشرات المؤتمرات التى عقدت ولا تزال معقودة فى مختلف عواصم البلاد العربية ، وليس هناك أى محذور يمنع عقد هذا المؤتمر إذا رغب الأدباء فى ذلك . ولكن يجب أيضا على الحكومات العربية أن تشمل مثل هذه المؤتمرات الأدبية التى تعقد فى بلادها رعايتها ، وتهيئ لها أسبابها المادية والمعنوية ، لكى نضمن نجاحها وفائدتها للإصلاح الاجتماعى واللغة والأدب .

أما عن أعمال المؤتمر ، والمجلة التى يصدرها ، والمشروعات التى يقوم بها ، والتوجيه الذى يسير عليه ، فهذا من شأن أعضائه وما سيقررونه . وإنما الذى يهمنا ألا تذهب مثل هذه الدعوات سدى ، بل يجب على أعلام الأدب العربى أن أن يفكروا سريعاً فى عقد مثل هذا المؤتمر الذى ستكون نتائجه عظيمة للأمة العربية ولثقافتها وأدبها .

(بغداد) مهدى القزاز

سيد الصين وأديبها

بقلم أرنست هاوسر

السفير هوه شيه أحـد رجلين يعتبران مسؤولين إلى درجة بعيدة عن وجود الصين الديموقراطية الحديثة . فقد كان صن يات — سين منشئها السياسى ، فى حين كان « هوه شيه » عميد كلية الآداب بجامعة بيكين فى ذلك الحين واضع الأسس الفكرية التى ما كان للصين أن تنهض بدونها وتوجد كيانها الأصيل . ولسوف تدعوه القرون القادمة « أبا النهضة الصينية » .

مجّ فلاسفة الغرب فى أخريات القرن التاسع عشر روح الغرب المادية ، وأظهروا امتعاضهم منها وامتدحوا « حكمة الشرق » . واعتبرت نظم الحياة التى كانت تسود الصين منذ ألفى سنة سابقة — بأشواط بعيدة — أية مدنية من المدنيات السائدة خارج القارة الأسيوية . ولقد جاهد هوه شيه أكثر من سواه لترويج تلك الفكرة . وأشار إلى أن نظام العمل الصينى ومستوى المعيشة المنحط ليسا من آثار الروح المثالية العالية ، وإنما هما من نتائج الانحطاط وفقدان الجدارة . وكذلك رأى هوه شيه أن الصين تحتاج — أول ما تحتاج — إلى لغة جديدة . واسمه فى عالم الإصلاح اللغوى يسطع إلى جانب اسمىْ دانتى وشوسر ؛ وهو — مثلهما — مجدّد الحوار الدارج فى عصره وبين قومه ، وجعل منه أدبا رفيعا . ولقد ظلت الكتابة الصينية تعتبر لغة مصوّرة يعزّ فهمها إلا على الأدباء، وكان لابد لمن يريد الإلمام بها إلماما عاديا أن يعرف زهاء ٤٠٠٠ حرف .

وتحقق هوه شيه منـذ بدء تعلمه الكتابة أن اللغة الصينية فى حاجة إلى تنقيح وتجديد . فبدأ حملته فى عام ١٩١٦ عندما تخرج فى جامعة كولمبيا . وحدث أن انطلق طائفة من أصدقائه فى نزهة بحرية يجدّفون ، فهبت زوبعة قلبت الزوارق ، وسقط أفراد الجماعة فى الماء . وتخليدا لهذا الحادث نظم أحد أفراد الجماعة قصيدة باللغة الصينية القديمة ، وبعث بها إلى هوه شيه لنقدها . ولقد كان الاختلاف بين موضوع القصيدة وطريقة عرضها ، داعيا إلى أن يكتب مقالا جعل عنوانه المتواضع ، «طائفة من المقترحات التجريبية لتجديد الآداب الصينية» . ولقد أثار نشر ذلك المقال فى إحدى المجلات الصينية المتطرفة تعليقات كثيرة .

وغالباً ما كان كتّاب الصين القدماء يستخدمون اللغة المصوّرة لإخفاء ما يقصدون إليه من معنى لا لإظهاره وجلائه . مثال ذلك ما أثر عن كونفوشياس إذ قال : « تجهل الحياة فكيف تعرف الموت ؟ » . واستخدم هوه شيه حروف الكتابة القديمة نفسها ، ولكنه قال فى جرأة : « إذا أنت لم تعرف شيئا عن الحياة ، فكيف تستطيع أن تفهم معنى الموت؟» ، وطعّم لغة الكتابة بثروة من العبارات العامية الدارجة . وكانت النتيجة أن ظهرت لغة جديدة اسمها « باى — هويا » ومعناها « الحديث الواضح » .

وعند ما عاد هوه شيه إلى الصين التحق بالجامعة الوطنية مدرّساً وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، ولقد أيّده فى حماسته أساتذتها الأذكياء المجددون . ولم يأت عام ١٩٢٨ حتى كانت لغة « باى — هويا » الجديدة قد راجت فى الصين من أقصاها إلى أقصاها .

وهكذا قضت حركة هوه شيه على روح الاحتكار الفكرى لطائفة قليلة من الصفوة الممتازين ، الذين راحوا يستخدمون معلوماتهم لتضليل أربعمائة مليون من أهل الصين الذين أخنى عليهم الدهر ؛ وراحت الصحف — التى يحررها رسل لغة « باى — هويا » الجديدة — تطالب ببعث الصين ونهوضها . وطبعت الكتب باللغة الجديدة ،

واعترف بكثير من القصص الشعبية العظيمة مثل « جميع الناس إخوة » — وقد كان الأدباء لا يقدرونها — كنماذج من الأدب الرفيع . وأخيرا طالبت الحكومة الجديدة بطبع الكتب المدرسية بلغة « باي — هوبا » .

ولد هوه شيه منذ خمسين عاما في بيت أجداده بمقاطعة آنهوى . وكان أبوه موظفا صغيرا في الحكومة توفي وولده في الرابعة من عمره . وكان هوه شيه من ذلك الطراز من الناس الذي ينضج قبل الأوان . ولقد أخذت أمه الطموح على عاتقها مهمة صقل ذهنه وتكوين خلقه ، ولقد كان وهو في الثالثة من عمره يعرف ٨٠٠ حرف من الحروف الصينية ، ولم يكن يرغب في اللعب مع سواه من أطفال القرية . وكانوا يصيحون كلما مرّ بهم متأبطا كتبه — « ها هوذا المعلم قادم » ، وسافر إلى شنغهاى عند ما بلغ الثالثة عشرة لتلقي العلم فيها ؛ وفي ذلك الميناء « البابلي » تكشفت له دنيا جديدة باعثة على الحيرة والارتباك ، دنيا « غريبة » لم يرد ما تناهى إلى سمعه منها — وهو في قريته — من إشاعات وأوهام .

وتعلم في تلك المدينة اللغة الإنجليزية والتاريخ والفلسفة؛ وكتب مقالات هدامة حارب فيها الخرافات والتعصب . ولقد كابد في بعض الأوقات غصص الحرمان والفاقة حتى لقد اضطر إلى قطع حبل دراسته ، وتعليم مبادئ اللغة الإنجليزية مرسلا كل ما كان يربحه من مال لوالدته ؛ وكان يسهر الليل بطوله متحدثا إلى أصدقائه ، ومقامرا في سبيل أرباح خرافية . وكان يسكر من احتساء بعض الشروبات الرخيصة ، وهبط « هوه » الشاب ضيفا على السجن في إحدى سكراته العربدة ؛ وفي صبيحة اليوم التالي رحل إلى بيكين حيث جاز امتحانا قاسيا مهد له الظفر بدراسة مجانية في إحدى الجامعات الأميركية . وقبل سفره إلى أميركا اتخذ لنفسه اسم الرجولة جريا على العادة الصينية . ولقد اختار اسم « شيه » ومعناه بالصينية « صالح » ، وذلك جريا على مبدأ داروين القائل بأن البقاء للأصلح . واسم « هوه » معناه « البربرى الملتحى » ، وهو لقب الأسرة ونطاق الاسم بأكمله « هوه شيه » .

والتحق هوه شيه بجامعة كورنيل في عام ١٩١٠ ، وواظب على كتابة يومياته طوال عهد الدراسة ؛ ولقد نشرها في أربعة أجزاء ، ولا تزال حتى اليوم أكثر المطبوعات رواجا في الصين . ولما ظهر نبوغه في الفلسفة عمل بعد تخرجه في الجامعة مساعدا للعلامة جون ديوى الأستاذ بجامعة كولومبيا . وهو يقول إن ديوى قد خلق منه رجلا من الناحية الفكرية . ومهدت له بحوثه الفكرية في عمله ذلك الحصول على درجة الدكتوراه العلمية ، أما درجات « الدكتوراه » السبع عشرة الأخرى فقد كانت جميعها فخرية .

وفي عام ١٩٣٠ تحقق مطمح هوه شيه الذي ظل يصبو إليه طوال عمره عندما اختير عميدا لكلية الآداب بجامعة بيكين ، وبذلك أصبح زعيما للأدب في الصين كلها — وهو مركز يسَّر له أن يصبح سفير بلاده في الولايات المتحدة .

وعند ما قدّم الدكتور هوه شيه أوراق اعتماده في واشنطون منذ ثلاثة أعوام كان اسمه أنبه الأسماء الصينية وأبعدها صيتا في هذا الجانب من المحيط الهادى . وهو معروف بأدبه أكثر مما هو معروف كرجل من رجال الدبلوماسية ، حتى أن إحدى الجامعات كتبت إلى السفير الصيني في الربيع المنصرم تقول :

« نرجو لو تمكن سعادتكم من إلقاء خطاب الجامعة الافتتاحي . فإذا كان ذلك مستحيلا فهلاّ تكرمت علينا فأخبرتنا كيف نستطيع الاتصال بالعالم الصيني العظيم الدكتور هوه شيه » ؟

ولقد عُرِضَتْ على « الجنرالزمو » تشانج كاى تشيك قائمة طويلة بأسماء الدبلوماسيين القادرين ، ليختار من

بينها من يستطيع ملء منصب سفير الصين في واشنطون. ولكن الصين المتعبة المتألمة كانت في حاجة إلى رجل يستطيع أن ينفذ بسحر شخصيته إلى قلوب أفراد الشعب الأمريكي؛ ومن أجل هذا كان هوه شيه النحيل الجسد، الأشيب الشعر، خير مرشح لذلك المنصب. ويؤثر عنه أنه قال لشيانج كاى تشيك: «لا تنتظر مني أن أستجدي مالا أو أقوم بدعاوة ما». ولقد احتفظ إلى حدّ ما بتلك الخطة حتى الآن مما يثير دهشة حكومته في بعض الأحيان. وحدث ذات مرة أن بعثت إليه وزارة خارجية بلاده بمبلغ ستين ألف دولار لتنفق في أغراض الدعاوة، فأعاد الحوالة إلى الوزارة مغضبا، وكتب يشرح السبب في إرجاع المال، قال: «إن في خطبي ما يكفي للدعاية وهي لا تكلفكم شيئا». ولما كان غير خبير بمسائل القروض والتسليح بعث الصينيون بالإخصائيين لتدبير أمورها.

وراجت إشاعة باطلة إبان المفاوضات المشؤومة مع اليابان، مؤداها أن الاتفاق قد تم بين أمريكا واليابان على حساب الصين، ولأول مرة في حياته الدبلوماسية تلاشى هدوء الأديب اللين العبارة، وفقد رباطة جأشه، وتوجه إلى البيت الأبيض حيث ذكر الرئيس روزفلت بجهوده الكثيرة التي قطعها على نفسه للصين. وعلى إثر تلك الزيارة قضى روزفلت وكورديل هل على تلك الإشاعة الخطرة بأن أخبرا اليابانيين صراحة بأن الولايات المتحدة ثابتة على موقفها.

ومن عجب أن يكون هوه شيه الثائر محافظا في حياته الخاصة. وعلى الرغم من أنه وجد رفيقا ساحرا في شخص طالبة صينية حسناء في فاسار (وكانت قد ألِفَتْ زيارته في كورنيل حيث كان يجذف معها في زورق عبر البحيرة متحدثا إليها في شؤون الفلسفة)، فقد أطاع والدته وتزوج الفتاة التي اختارتها له عند ما كان في الحادية عشرة. ولقد توفرت في توج — هسيو كافة الفضائل المأثورة عن الزوجة الصينية، فهي طاهية ماهرة، ويتحدث معارفها ببراعتها في إعداد الفطائر المحشوة باللحم؛ وهي تحب زوجها وتعجب به، فهو الذي علمها القراءة والكتابة، ولكنها تراه بعيد المطامح. ولقد أنفق شهورا طويلة في سبيل إقناعها بأنه لا اختيار عليه أن يصبح سفيرا. ولما كانت مسز «هوه» لا تتكلم الإنجليزية فهي تعمد غالبا إلى دفن وجهها في كبها القصقاصين، مرسلة ضحكات الخجل في حضرة الضيوف الأجانب.

وأنفق هوه شيه أسعد أيام حياته في منزله العصري الطراز بمدينة بكين، أما اليوم فهو يحس بحرمانه من «المسرات البيتية». وعلى الرغم من أن ولديه يدرسان في بعض الكليات الأمريكية الآن، فإن مسز هوه بقيت في الصين اعتقادا منها أن وجودها في واشنطون قد يكون مدعاة لارتباك زوجها وقلقه.

ويستقبل هوه شيه في دار السفارة أفواجا لا نهاية لها من الوافدين، بينهم كثير من الأدباء الممتازين. وحدث ذات مرة أن وجهت إحدى الشابات إلى هوه شيه السؤال التالي: «ما هي أعمالك يا سيدي السفير؟» فأجاب هوه شيه — «أوه! خمسة وتسعون في المائة منها متصل بالشؤون الاجتماعية». فأعادت الفتاة الكرة سائلة: «وماذا عن الخمسة في المائة المتبقية؟» فقال السفير: «دعيني أفكر في ذلك... إنها تتعلق بالمسائل الاجتماعية كذلك». ومن مظاهر نشاطه الاجتماعي أن يخطب في جمعية تجار نيويورك ونادي الاتحاد الرياضي، ويحاضر في جامعة «ييل» وعشرات غيرها من الجامعات. وعلى الرغم من تعلق هوه شيه بالأدب فقد أحرز خبرة وثيقة بالشؤون الفنية، ويكفي أن يسمعه المرء متحدثا عن مزايا «القلاع الطائرة» — وهي من أطرزة الطائرات التي تستطيع الصين أن تغير بها على بلاد اليابان — ليعلم أن الحرب لا تواجه بالفلسفة المدفعة وحدها.

ونشر هوه شيه مؤلفات بينها كتاب « تاريخ الآداب الحية » و « مختارات للأغاني الصينية » وطائفة كبيرة من الموضوعات ومئات من القصائد الدارجة . وحرّر مجلات مختلفة أدبية وسياسية ، وأعان على ترجمة كثير من روائع الآداب الغربية إلى اللغة الصينية . وقد جعل آثار كونفوشياس قريبة من متناول يده ، وسائغة مع مذاقه .

وكان من آثار تعلقه الشديد بالسلام فيما مضى أن حمل عليه بعض المتطرفين الصينيين ونادوا به خائنا . وقد ناهضته حكومة تشانج كاى تشيك المؤلفة من حزب واحد سنوات عديدة، وحمل عليها حملات لاذعة ، بيد أنه عندما صارت الحرب ضد اليابان أمراً لا مفر منه — وكان تشانج كاى تشيك قد ساوره الشك في أفراد حزبه الذين لا يعرفون سوى الموافقة على طول الخط — جمع حوله جماعة أشد منتقديه صراحة ليرى ما إذا كان من الواجب المساومة أو المقاومة ؟ ودفن الجندى والأديب أحقادهما القديمة ، ومع ذلك فنادراً ما ينتقد هوه شيه السفير حكومته . ولقد أبى حتى اليوم الانضمام إلى حزب « الكومنتانج » قائلا : « إنه إذا كانت عضوية الحزب لابد منها في سبيل قيامه بأى واجب سياسى ، فإن الصين لن تكون بلدا ديموقراطية » .

وعلى الرغم من أن هوه شيه رجل أنيس ، إلا أنه ليس من المغرمين المدلهين بالمجتمعات ، وهو لا يختلط كثيرا بالجالية الصينية في أمريكا ، وهم يواظبون على دعوته إلى حفلاتهم ، ولكنه ينيب عنه دائما سكرتير السفارة . ولما كانت أسرة هوه شيه من ولاية آنهوى ومعظم الجالية الصينية في أمريكا من مقاطعة كانتون فالسفير في اعتبارهم غريب عنهم .

ولقد كف هوه شيه عن بحوثه وكتاباته بعد أربع سنوات أمضاها في جو السياسة . وهو يتوق إلى الهدوء مرة أخرى للقيام بجولة واسعة في البحث العلمى ، ينجز فيها كتابه عن « تاريخ الآداب الصينية » . غير أنه لا مناص لأديب الصين الأعظم من مواصلة القيام بوظيفة السفير ما دامت هذه المحنة . والذين يقابلون ذلك الرجل القوى المهيب الواثق ، يعرفون السر في امتناع هزيمة أهل الصين البالغ عددهم ٤٠٠ مليون نسمة . ويقول هوه شيه في تواضع : إن وحدة أمته القومية التى عمل على تكوينها واحد وعشرون قرنا لا يمكن أن تعصف بهما سنوات دموية قليلة .

أقفر الشاطئ

أين مهدى؟ آه لو مهدىَ داما ... يا معانينا على الشطّ سلاما
طاف بالأحشاء يرويها سقاما ... بين جنبىّ لهيب صاخب
وبجسمي من جواها أرقٌ
يا هواها هل لمثلي أن تناما ؟

أنا أشقى وحرامٌ أن أرى ... لذةَ النوم على العين حراما

....

يا لياليها وهل من لحظة ... لحظة منكن تحيى مستهاما
أنا أفديها بعمرى راضيا ... ولتكن يا دهر للعمر الختاما

....

أيها الروح وقد كنت الذى ... شهد العمر وفاء وغراما
أرو يا صاحب من أمسى فقد ... كان كالحلم وكالزهر ابتساما
أرو بالله فما أشهى الهوى ... أشعل القلب كما شئت هياما
أنا لن أبرأ من علته ... وسأمضى في الهوى عاما فعاما
لن يجيد القلب من غايته ... إن تكن ناراً تلظى وضراما

....

إنى فيك غريبٌ مفردٌ ... صنت يا شاطئُ ودى والذماما
فى غضون الأمس كنا ها هنا ... نساقى الكأس صفواً ومداما
وندامای على العهد متى ... أين ولى ومضى عنك الندامى
خاصمونى وارتضوا لى حيرتى ... يا لضنى ذاق جفناه الخصاما
بات والليل على وحشته ... كم سيلقى كم سيشقى أو إلاما؟

....

أقفر الشاطئُ إلا أننى ... لم أجد إلا بذكراه اعتصاما
أطلب السلوى فلا ألقى سوى ... جرحى الموجع لا يبدى التئاما
وأرى الذكرى فأبكى حينا ... أحمد الأيام عن تتعامى

(القاهرة) مصطفى على عبد الرحمن

حول
مستقبل الأدب العربي

كتب الأستاذ أحمد أمين بك مقالات عنوانها « مستقبل الأدب العربي » أخذ فيها على أدبنا مآخذ ، ورأى في ماضيه آراء ، واقترح لمستقبله خططا . والأستاذ ، بارك الله فيه ، يعالج بين الحين والحين أمرا خطيرا في أخلاقنا ، أو سنننا الاجتماعية ، أو لغتنا وأدبنا . وهو موفق إلى الصواب في كثير من مقالاته ، مشكور عليها كلها شكر المجتهد المخلص الذي يعني نفسه ليهدي أمته سبيلها ، ويدعوها إلى تقويم المعوج من أمورها .

وقد بدا لي في مقاله الأخير ، الذي تكلم فيه عن أدب العامة وأدب الخاصة ، آراء ، أردت أن أعرضها عليه وعلى القراء . ولعل الأستاذ الفاضل لا يقول : ما بال فلان لا يكتب في مثل ما كتبنا ولكن يعترض ، ولا يبتدئ ولكن يعقب . لا يقل الأستاذ هذا ، فإني لا أجادله إلا قليلا حين لا أجد من الجدال بدا ، وربما تتوالى أعوام لا أعترض له فيها رأيا . وقد مضى على مناقشتي إياه في الأدب الجاهلي أربعة أعوام ، لم أجادله فيها .

الأستاذ يتناول في مقالاته وفي إذاعته ، وفي أحاديث مجالسه ، كثيرا من أمورنا بالنقد تأدية للأمانة التي حمّلها العلماء ؛ ولكن يبدو في نقده أحيانا نزوع إلى الثورة الفكرية من أجل الإصلاح ، بل يعلن بها أحيانا . والثورة إذا لابست رأيا أو بحثا ، عرّضته لما يكون فيها أحيانا من تعسف ومغالاة ، واضطراب الصلة بين المقدمات والنتائج ، والمسارعة إلى الرأي قبل أن يوفّى حقه من النظر والتمحيص .

* * *

كتب الأستاذ مقاله الأخير في أن الأدب العربي أدب خاصة لا عامة ، وأن مرجع هذا إلى سببين : غلَبة الأميّة ، وأن لكل أمة عربية لغتين ، لغة للكتابة ولغة للخطاب . ورأى أن تزال الأمية ، ويرفع الإعراب مما يقال ويكتب للعامة الخ .

وقد بدأ الأستاذ مقاله بقوله : « يعاني الأدب العربي الآن مشكلة من أكبر المشاكل ، وهو أنه أدب الخاصة ، وليس للعامة أدب » . ولست أجادل الأستاذ على ظاهر دعواه ، فأقول إن للعامة أدبا محفوظا ومكتوبا ، منه مواويل وأزجال وقصص كتب كله باللغة العامية ، كقصص الهلالية والزير سالم وسيف بن ذي يزن ؛ ومنه قصص كتب بلغة قريبة من لغة العامة ، كقصص ألف ليلة وليلة ، وقصة عنترة . ولا يلقى من يستطيع القراءة عسرا في فهم هذا الأدب ، ولا يستعصي فهمه على من يسمعه ممن لا يقرءون ، سواء أكتب بلغة عامية أم بلغة عربية صحيحة ، ولا ننسى هذه المجلات التي شاعت في هذا العصر بلغة عامية أو لغة مقاربة . ثم هذه القصص التمثيلية التي يشهدها العامة والخاصة ، ويستمع إليها في المنازل العامة والخاصة كذلك .

لست أجادل الأستاذ في هذا وأفصّل القول فيه ، فإن مقصده بيّن ؛ يريد أن يقول إن العامة لا نصيب لهم مما يكتب كتابنا وينظم شعراؤنا اليوم ، ولا مما كتب كتابنا ونظم شعراؤنا في العصور الغابرة . وهذه دعوى صادقة في جلتها ؛ ولكن الأستاذ قد حاد عن القصد حين قدّر العامة والخاصة وأحصى القراء في البلاد العربية بالطريقة التي قدّر بها وأحصى . قال : « إن الكتاب في العالم العربي يطبع منه الألف والألفان ، والجريدة والمجلة لا تتجاوزان ستين ألفا » ، وقال : « ومعنى ذلك أن القراء الذين يتغذون بالكتب والمجلات والصحف لا يتجاوزون

المائتى ألف ، إذا حسبنا أن الكتاب والمجلة يقرؤها أكثر من واحد» . فإن طردنا هذا القياس فى الأمم الأخرى فإن الكتاب الإنجليزى يطبع منه خمسون أو مائة ألف ، وإن المجلة أو الجريدة يطبع منها ثلاثمائة ألف أو نحوها . «ومعنى ذلك أن القراء الذين يتغذون بالكتب والمجلات والصحف — فى إنكلترا وأمريكا وأوستراليا وسائر الأقطار التى تتكلم الإنكليزية — لا يتجاوزون مليونا ومائتى ألف» .

فهل يرضى الأستاذ هذه النتيجة ؟ ألا يراها « مرعبة مفزعة » كما قال . ويتصل بهذا الإفراط والغلوّ فى الدعوى والتقدير قوله عقب هذا : «وليس هناك أمة حيّة على وجه الأرض الآن تشقى نصف هذا الشقاء ولا ربعه» .

هل وثق أستاذنا حقاً أنه إذا نظر إلى أمم الأرض كلها فى الشرق والغرب ، وأحصى القرّاء والأميين فى شرق أوروبا وفى إيران وتركستان والهند والصين وجاوة لا يجد أمة تشقى فى هذا ربع شقاء الأمة العربية ؟ أليس هذا ضربا من الإسراف فى الدعوى ، وتحكيم الغضب والثورة فى الرأى كما قلتُ آنفا ؟! أنا راض بما يجيب به الأستاذ الكبير .

إن فى كل أمة جماعات تختلف ثقافتها ونزعاتها ، ولكل كتاب قرّاء ؛ فليس صوابا أن يقدّر قراء أمة بعدد ما يطبع من نسخ كتاب أو مجلة أو جريدة .

ثم قال الأستاذ : «سبب هذه المصيبة العظمى فى الأمم العربية شيئان : الأميّة الفاشية الخ» . ولا يخالف أحد دعوة الأستاذ إلى محو الأمية ، بل نثور معه عليها وندعو إلى محاربتها جهدنا .

* * *

وبعد أن دعا إلى الثورة على الأمية قال : « والسبب الثانى أن لكل أمة عربية لغتين ، لغة للكتابة والتأليف فى العلوم والآداب ، ولغة للكلام فى الشارع والمنزل والتعامل . والفرق بين اللغتين كبير » . ولست أخالف الأستاذ فى أن بين الكتابة والخطاب فى البلاد العربية فروقا ، ولكن لا أجيز لنفسى أن أقول إن لنا لغتين . فالعامىّ الأمىّ يفهم ما يسمع من لغة الكتابة كلّه أو أكثره إن كان الموضوع قريبا إليه . والقرآن والحديث وخطب الجوامع والجرائد ، تقرأ على العامة فيفهمونها ، إلا إن كان الموضوع أعلى من عقولهم وأسمى من إدراكهم . ومنشورات الحكومات العربية تكتب باللغة الفصحى ويفهمها الناس دون مشقة . والصبى حين يذهب إلى المدرسة يسمع الدرس بلغة الكتابة أو ما يقرب منها ، ويقرأ دون حاجة إلى ترجمة من لغة الكتابة إلى لغة الخطاب ، ودون حاجة إلى التفسير إلا قليلا ، إن كان يقرأ فيما عرف من قبل ، أو ما هو قريب من معرفته . وأكثر التفسير لا يرجع إلى اختلاف اللغة ، ولكن إلى المعانى التى يجهلها كما يشرح للطفل الإنكليزى ألفاظ الموضوعات التى يجهلها ؟ ولكن يبقى بعد هذا كلّه الفروقُ الواضحةُ بين لغة الكتابة ولغة الخطاب ، وهذا لا نجادل الأستاذ فيه . ولا ريب أنه عنى هذه الفروق التى نعترف بها حين قال إن لكل أمة عربية لغتين . فليس يعنينا كثيرا هذا الخلاف فى التعبير ، والقصد بيّن .

وكان يسعنى أن أنظر إلى مقصده لا إلى عبارته ، وأقصد إلى الكلام فى هذا القصد . ولكنى جعلتها فرصة لردّ ما يردّده بعض الناس كلما دار الحديث فى اللغة العربية واللغات العاميّة . سمعت كثيراً من يقول إن الصبى المصرى يتعلم فى المدارس لغات أوربية ، ويتعلم العربية وهى لغة أخرى أجنبية يتعلّمها الطفل كما يتعلم اللغات الأجنبية الأخرى . وهذا منكَر من القول وزور ، لا يحوج دحضه إلى عناء . وفى الجملة التى قدمتها غنى عن الجدال فيه .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

ذات مســـــاء

مجموعة قصص للأستاذ صلاح ذهنى

نقد وتقرير بقلم محمود تيمور

تبوأت القصة القصيرة فى عالم الفكر الحديث مكانة مرموقة ، وصارت عنصرا من عناصر الأدب العربى ، بعد أن كانت منذ عشرات قليلة من السنين لا يؤبه لها ولا يعتد بها . ولعلنا لا نجانب الحق إذا قلنا إننا نتفاءل بمستقبل القصة لما يبدو من اطراد رقيها على أقلام المجددين من أدباء الشباب ؛ ولكن هذا التفاؤل لا ينفى ما نلاحظه فيما تطالعنا به الصحف والمجلات من وفرة الأقاصيص التى تعد من الغث الرخيص . ومرجع هذا إلى أن كثيرا من ناشئة القصاصين يقبلون على كتابة الأقاصيص ظنا منهم أن طريقها جد ميسور ، وعزب عن بالهم أن الأقصوصة عمل فنى يقتضى دقة ومهارة ، ويتطلب ثقافة قصصية واسعة ، وتفهما لعناصر هذا الفن ، فضلا عن المرانة واليقظة والمراس الدائب . وأظهر ما يتبين من العيوب الشائعة بين هذه الفئة من ناشئة القصاصين أنهم لا يجشمون أنفسهم عناء التفرقة بين الأقصوصة والقصة ، ولا يسألون أهم مميزات الأقصوصة ، وهى أنها تعالج جانبا من حياة لا حياة كاملة ، وأنها ليست إلا لمحة أو خاطرة أو إلمامة ، بشرط أن تستوفى فى دائرتها القصيرة أصول الفن من تركيز وتحليل . والواقع أننا لا نقرأ فى العدد الجم من الأقاصيص التى يتعجل بها الناشئة مواهبهم وكفاياتهم إلا ملخصات يعولون فيها على السرد المقتضب ، دون التحليل النفسى والمعالجة الفنية . على أننا لا ننكر أن رهطا من شباب الأدب لم يفتهم التزود من ثقافة الفن ، متابعين الدراسة والاطلاع ، مسايرين خطوات الفكر الحديث فى نتاجه المتجدد ، وبذلك لم يعجزهم تفهم روح الأقصوصة ، فعالجوا موضوعاتهم على نحو يشرح صدور الذين يرجون أن تينع ثمار أدبنا العصرى ، وأن تأخذ طريقها إلى السوق العالمى .

ومن هذا الرهط المتميز صديقنا الأستاذ صلاح الدين ذهنى . وليس اسمه بطارئ على الميدان القصصى ، فقد أصدر عدة مجموعات لها دلالتها على الإجادة والتوثب . وكل مجموعة يصدرها يخطو بها إلى الأمام خطوة ؛ والمجموعة التى بين أيدينا الآن المسماة : « ذات مساء » جديرة أن تحتل مكانة كريمة من أدبنا الحديث . ومن مميزاتها أن المؤلف فيها أسلوبا مطبوعا بطابعه ، وتفرده عن بقية الكتاب فيما يصطنعون من أساليب ، وآية الصدق فيه أنه يمثل حديث المؤلف فى مجالسه ، مع ملاحظة الصياغة الفنية التى تستدعيها الكتابة . وفى هذا الأسلوب يتتابع إيقاع الكلمات والجمل فى موسيقية تلذ السمع ، وتبعث الطرب .

والمؤلف فى تصوير أبطاله رسام حاذق ، قوى الإبانة على الرغم من قلة الأوصاف والنعوت ؛ فهو يوجز ولكنه ينطوى فى هذا الإيجاز سر قوته ، فسرعان ما تنبض الصور بالحياة وتشعرك بوجودها بطريقة أخاذة .

وللمؤلف عناية ظاهرة باستخدام التحليل النفسى لحياة الأبطال ، والتزام المنطق السليم فى عرض الحوادث ، ولذلك تخلو أقاصيصه من التنافر بين أجزائها ؛ فالقارئ يتابع الأقصوصة دون أن يحس أى افتعال وتكلف ، حتى يبلغ النهاية الطبيعية فى سلاسة وهوادة وصدق فن .

وفى تضاعيف الأقاصيص جميعا تسرى روح من الدعابة والمرح تستهوى القارئ ، وتشيع البهجة بين جوانحه . وقد وفق المؤلف فى جعل أقاصيصه محتوية على عنصر الفن وعنصر التسلية والتشويق معا ؛ إذ ألف بينهما تأليفا لبقا . فالقارئ الجاد يصيب غذاءه الفكرى الطيب ، والقارئ

المتلقى يترشف متعته المهذبة الحبيبة .

وربما يبدو لغير المتعمق أن ليس لأقاصيص هذه المجموعة مرام خلقية ملموسة ، وأهداف اجتماعية واضحة ، فيأخذ على المؤلف أنه أغفل ذلك الجانب . والواقع أن هذه المؤاخذة الموهومة إنما هى ميزة خليقة بالتقدير ، فإن المتعمق المتفهم يستخلص لنفسه من تلك الأقاصيص أهدافاً ومرامى لها صلتها الوثقى بالأخلاق والاجتماع ، بيد أنها تنكبت الطريق المباشر ، وتغلغلت فى ثنايا الموضوع ، وتوارت وراء الأحداث والصور .

***

والرجاء أن نلتقى المؤلف فى مجموعاته المقبلة تدعمه دائماً تلك الثقافة المتجددة التى يغترف من مناهلها العذاب ، فيتنامى فى مدارج الكمال الفنى الذى لا حد له ولا منتهى .

محمود تيمور

الشهيد . . .

ما مرَّ عيدٌ بعد عيدْ ... إلا ذكرتُكَ يا شهيدْ
وذكرت كيف غضبت فى ... وادٍ تهدهدُهُ القيود
ثُرْتَ - وحىّ العيب - أن ... الضوء يخلقه الوقود
فحملت مشعله نجو ... دُ ولا ثواب لمن يجود
وورثتَ واكداهُ - بل ... واوحشتاهُ - للوئيد !!

ما مرَّ عيدٌ بعد عيدْ ... إلا نسيتُك يا شهيد
ونسيت أن الناس تذ ... كرك الغداة ولا تزيد
فإذا توارى العيد أو ... دعت الثرى حتى يعود !!
أسفى على الذكرى إذا ... أضحت رجيعاً للوعود
أو أمست العبرات تهـ ... تانا يسيل على ركود
أو ذرت آثارك الـ ... بيضاء بالقبر الزهيد
هيهات أن تحيا بما ... لا صدق فيه ولا وجود

ما مرَّ عيدٌ بعد عيدْ ... إلا بكيتُكَ يا شهيد
وبكيت مثواك الذى ... يرنو إلينا من بعيد
يرنو ليوقظ أمةً ... بسطت ذراعاً بالوصيد ...
لحق عليك تخط للـ ... دنيا سطوراً فى جليد
وتموت مبتسماً كأنـ ... ـك قد حظيت بما تريد !!
يهنيك أن درجت دما ... ؤك فى أخاديد الجحود
من ساد حيًّا وحده ... فى الموت أحرى أن يسود

عبد الفتاح البارودى

سمراء

إن أكن سمراء فالحسن نصيرى
إننى ترجمة الوادى النضير
يا بنات الحى لا تنظرن لى ... نظرة الساخر مغلول الضمير
إنها الشمس أحالت مشرقى ... شفقاً فى الحسن مفقود النظير
إخوتى جاروا فيالى منهمو ... لم يكن كرمى لديهم بأثير
فأناموا على كرم لهم ... بينما كرمى مباح للغير

عبد العظيم محمد القبانى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العـدد ٢٨٣ — الثلاثاء ٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ٣٠ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

الجهـــــود الحرة

ونصيبها في نهضتنا القومية

الأصل في الأمم الديمقراطية أن يترك الناس أحراراً فيما يقومون به من أعمال ، وأن تضيق دائرة تدخل الحكومة في شئونهم حتى لا تمس حريتهم الخاصة ، ولا تقيد تصرفاتهم ؛ وفي ظل هذه الروح قامت النهضة الصناعية الكبيرة في تلك الأمم ، وأسست الشركات المختلفة التي امتد نشاطها واتسعت دائرة أعمالها ، حتى صار لها من النفوذ والسلطان ما زاد في قوة حكوماتها ومد في سلطانها .

وظلت الحال كذلك حتى قامت الحكومات الدكتاتورية وأخضعت النظم الاقتصادية في بلادها لإشرافها ، ووضعت يدها على كل موارد الأفراد والشركات جميعاً لتحقيق خططها المرسومة ، وهي إعداد المعدات الحربية التي كانت تبيّت استخدامها في الحرب . ولما قامت الحرب بدأ التباين الشديد بين إنتاج الدول الدكتاتورية والدول الديمقراطية ؛ فالأولى بحكم استعدادها الميت ، وخططها المرسومة في الإنتاج ، وتركيز موارد بلادها جميعاً في يدها ، كانت أقدر من الثانية على الإنتاج ، وأرجح كفة في الاستعداد ؛ ووجدت الأمم الديمقراطية أنها لا مفر لها لإيجاد التكافؤ بينها وبين خصومها من أن تصطنع في مدة الحرب أسلوبا كأسلوبها ، وأمكن بالتعاون بين الحكومة ورجال الأعمال لديها أن تحقق إنتاجا حربياً زاد على ما تنتجه الدول الدكتاتورية .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا التغيير الذي اقتضته الضرورة الحربية ، بل أحدث حركة فكرية كبيرة بدأت تعالج ما ينبغي أن تسير عليه الديمقراطية بعد الحرب ،

وهل تظل سائرة على أسلوبها القديم ، ذلك الأسلوب الذى يدع الأمور تجرى فى أعنتها تبعاً لآراء الأفراد الخاصة ، أو أن تزيد الحكومة فى تدخلها وترسم الخطط العامة الكفيلة لسد حاجات البلاد .

فأنصار الحرية يرون أن الحرية وحدها هى الجو الصالح للتقدم ، وأن التدخل الحكومى من شأنه أن يشل التفكير ويقيد حرية الابتكار ، وأنه ينتهى بالأحوال إلى الجمود والتأخر ؛ فالحكومة لا تعاصر مغامرة الأفراد ، وليست لأنظمتها مرونة الأعمال الخاصة ، ولا يتحقق فى مشروعاتها عامل المنافسة الذى هو سر ارتقاء كثير من المشروعات الخاصة . وأنصار تدخل الحكومة وقيامها بتنفيذ خطة مرسومة فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، يرون أن ذلك وحده هو الوسيلة لتغليب الاعتبارات القومية فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، لا ترك الأمور لأهواء أفراد وشركات تسيّرهم فى تصرفاتهم مصالحهم الخاصة وحدها ، وقد تتعارض هذه فى بعض الأحوال مع مصلحة البلاد ؛ وهو الكفيل بإيجاد التوازن فى ضروب النشاط والإقدام على مشروعات جليلة النفع للبلاد ، لا يهتم بها الأفراد لقلة ما يعود عليهم منها من الربح .

وهم يرون أن سياسة التدخل والخطة المرسومة أتت بالعجائب فى روسيا وتركيا .

والقوم على اختلاف آرائهم مجمعون على الحرص على بقاء النظام الديمقراطى ، ولكنهم يرون أنه أصبح بحاجة إلى تعديل يزيل عنه الجمود ، ويجعله أداة فعالة فى رقى البلاد ونهضتها .

ونحسبنا بعيدين عن هذه المعركة ، وإن كان لا مفر لنا من التأثر بما ستنتهى إليه ؛ وظروفنا تختلف اختلافاً كبيراً عن الأمم الصناعية التى تقوم فيها هذه المشاكل ؛ والجهود الحرة لدينا محدودة الدائرة ، ولكنها مع هذا كله قابلة للنمو إذا توليناها بالرعاية والتشجيع .

بل إن هذه الجهود على قلتها قد أدت وما زالت تؤدى خدمة كبيرة للبلاد ، وفيما قام به المغفور له طلعت باشا حرب من تأسيس بنك مصر وشركاته ، وخاصة شركة الغزل ، أكبر مثل على مبلغ ما تستطيع الجهود الفردية أن تقوم به . ولو وفق الله رجالا آخرين فقاموا فى بعض النواحى بما قام به طلعت حرب لسدوا حاجة البلاد فى تلك النواحى ، ولوفروا جهودها لتبذل فى غيرها من الشئون .

ولو أن الحركة التعاونية التى قامت فى هذه الأيام وضعت أسسها من قبل ، ودعمت ببنك تعاونى يمدها بحاجتها وينظم نشاطها ، ليسرت مشاكل التموين الحاضرة ، ولحفظت البلاد من السوق السوداء ، وأساليب ذوى النفوس الجشعة من التجار ومحترفى البضائع الذين يمتصون دماء الشعب فى أصعب الظروف .

والخطوة الأولى التى نرى أن تسلكها الحكومة فى النهضة هى أن تشجع كل الحركات الاقتصادية والاجتماعية النافعة ، وأن تتولاها بحمايتها ، وتقدم لها المساعدات جهد طاقتها ، وأن تعمل على إيجاد بنوك تموّلها ، فتنشئ بنكا صناعيا ، وبنكا تعاونيا تساهم فيهما بأكبر نصيب ، وأن تنشئ لكل منها مكتبا من الخبراء الفنيين يرسم لها الخطط ويقدم لها المعونة الفنية ويرشدها بما يكفل نجاحها واطراد رقيها .

أما نواحى النشاط الاقتصادى التى لا يتقدم لها الأفراد لجسامتها ، أو لقلة ما يتوقع منها من الربح مع شدة حاجة البلاد إليها ، فيجب على الحكومة ألا تتردد فى القيام بها بنفسها ، ويصح إذا رأت أن تجعلها بعيدة عن الصبغة الديوانية أن تكل أمر الإشراف عليها لبنك وطنى خاص ، وتزيد فى ضمان بعدها عن الصبغة الحكومية أن تجعل لها أسهما يشترك فيها الأفراد .

بقيت الجماعات الخيرية والثقافية والفنية ، وهذه الهيئات تحتاج لأن تعيد الحكومة النظر فى أمرها ، وتعمل على أن

تكون هيئات قوية واسعة الأثر . وخير ما يجب أن تشير به على هذه الهيئات أن تتخصص كل منها في ناحية واحدة محددة ، تقصر عليها نشاطها بدلا من ذلك الإبهام والغموض الغالب على أغراض كثير منها ، وتساعدها بنشر الدعاية القوية المنظمة لها على إنشاء فروع لها في مختلف الأنحاء ، وترغيب الكثيرين في الاشتراك الفعلي فيها ، وأن تمدها مع هذا كله بمعونة كافية ، وأن تعمل جهدها على أن تحمل منها كل العبء فيما تقوم به من خدمة عامة في الباب الذي تخصصت به .

بهذه اللامركزية يتحقق اشتراك الشعب فعليا في هذا النشاط الاجتماعي ، وتصبح مهمة الحكومة تقديم الخبرة الفنية والمعاونة المادية ، والإشراف على سير تلك الهيئات العامة مع المحافظة على كيانها الخاص واستقلالها بأمورها . (***)

قاف ، قطب !

كتب الأستاذ « مهدي القزاز » في عدد الثقافة الماضي مقالا بعنوان « أدباء الأمم العربية ودعوتهم إلى عقد مؤتمر عربي » ، استعرض فيه ما كتبه أدباء العربية في « الثقافة » وغيرها بصدد هذه الدعوة .

وقد كان الأستاذ « قاف » من بين هؤلاء الذين كتبوا ، فترجمه الأستاذ قزاز إلى « قطب » كما يتبادر إلى الذهن ، وله بعض العذر في هذه الترجمة القريبة !

ولما كان هذا فضلا لا أدعيه ، فإني أصحح الوضع فأرد إلى الأستاذ « قاف » فضله ، وهو غير « قطب » . وكفى .

وبهذه المناسبة أسأل : لماذا اختار الأستاذ « قاف » هذا الرمز ، وليس في اسمه كله « قاف » واحدة ؟ وأقف عند هذا الحد فلا « أفضحه » للقراء ! وإن كان أسلوبه يكشف عنه بحيث لا يلتبس بأسلوب « قطب » على كل حال .

سيد قطب

وهم نحوي

يقول الأستاذ المغربي بمجلة المجمع العلمي العربي (ج ١٠ م ١٨) : ضمير (هو) بضم الهاء ، فإذا أدخلت عليه واو العطف قلت (وهُو) أي بإبقاء الهاء مضمومة ، لكننا نسمعهم يقولون (وهْو) بتسكين الهاء . ألا يكون ذلك خطأ من قولهم ؟ بلى .

والصحيح أن الإسكان قراءة سبعية . قال الجعبري في شرح الشاطبية : وجه الإسكان أن هذه الحروف لعدم استقلالها نزلت منزلة الجزء ، فيما اتصلت به ، فصار المذكر كعضد ، والمؤنث ككتف ، فحملا عليهما في الإسكان ، وهي لغة أهل نجد .

عبد الله الجبوري

متفرقات

الذئب وابن عرس

سطا ذئب على قطيع من الغنم واختطف منه شاة وانتحى بها ناحية قصية في الغابة ليأكلها ، وبعد أن مزقها إربا وأعمل أنيابه الحداد في لحمها وعظمها نهشا وقضما ؛ ومع شدة جوعه فإنه أدركه الشبع ، وبقيت منها بقية غير قليلة كومها إلى جواره حتى تكون عشاءه في المساء . واستلقى بعد هذا الغداء الشهي وغلبه النعاس ، وفيما هو نائم تسلل ابن عرس بين الأوراق تجذبه رائحة اللحم الطازج ، وجاء إلى بقية الشاة فأخذ منها قطعة صغيرة ، وفر بها إلى وكره ! واستيقظ الذئب ليرى ابن عرس يجري بغنيمته بعيدا ، فأطلق صيحة عالية جلجلت في جوانب الغابة :

اللص ، اللص ! المعونة ! لقد هلكت ، وسرق اللص مني كل ما أملك !

***

عفريت من الجن : أتؤمن بالناس ؟

عفريت ثان : لا تكن حرفيا إلى هذا الحد .

التفاح فى الأدب العربى

لفت نظرى وأنا أقرأ « كتاب الأغانى » الدور الهام الذى لعبه « التفاح » فى المدنية العربية ، وخاصة فى العراق ، فتفننوا فيه كل تفنن ، وأعجبوا به أيما إعجاب ، وتغزلوا فيه غزلهم فى المعشوق ؛ ولم يجاره فى ذلك أى ثمر وأى زهر ، حتى لو قلنا إن التفاح كان معبود الغزلين لم نبعد .

وحملهم على الهيام به أنه أحمر كالخدود المورّدة ، أو أصفر كوجه المتيّم ، أو أبيض كالطهارة والنقاء ، أو أحمر وأصفر معاً كتحوّل حالات النفس فى الحب ؛ ثم له رائحة عطرية لطيفة ، لا بالقوية ولا بالضعيفة ، فكان لذلك كله مجال الخيال الخصب ، والفن البديع .

وكان يزرع فى بساتين العراق ، وما كان أكثرها ، حتى عدّ مؤرخ البساتين حول بغداد وحدها أيام انحطاطها خمسة وتسعين بستاناً ، غير البساتين الخاصة فى الدور .

وتنوّعت البساتين ، فهذا بستان الورد ، وهذا بستان البنفسج ، وهذا بستان التفاح ، وهذا بستان النارنج ؛ وتنوع كذلك عشق الناس للأزهار والأثمار ، فمغرم بالورد ، ومغرم بالبنفسج ، ومغرم بالتفاح ؛ فحكوا عن الرشيد — مثلاً — أنه كان شديد الغرام بالورد ، وخاصة الورد الأحمر ، واتخذ بيتا فى بستان الورد كان أثاثه جميعه بلون الورد ، وإذا جلس فيه تلبس جواريه الثياب المورّدة ، وتضع على رؤوسها تيجان الورد ، فيكون مجلساً من أغرب المجالس .

وأغرم الناس بهذا غرام الملوك ، وكلهم أجمعوا على الغرام بالتفاح واستجلبوه من الأماكن المختلفة ، واستنبتوه فى أرضهم ، واشتهر فى أيامهم منه أنواع — فمنه النوع القُومسى [1] ، وهو أحمر اللون ؛ ومنه التفاح الداماتى [2] ،

(١) أصله من قومس وهى إقليم فى ذيل جبل طبرستان .
(٢) نسبة إلى داماث ، مدينة قرب الرقة .

وهو نوع كبير حلو أحمر شديد الحمرة ، وضربوا به المثل ، فقالوا خدودها كالتفاح الداماتى ؛ ومنه التفاح الشِّسكى ، وهو نوع مضلّع كبير الحجم ؛ ومنه التفاح القريشى [1] ، وهو حلو شديد الحلاوة ، كبير هش ، أحد وجهيه شديد الحمرة والآخر شديد الصفرة .

هذا التفاح الجميل أوحى إليهم بالخيال الجميل ، والفن الجميل ؛ فأول كل شىء أنهم اتخذوه عوضاً عن المحبوب ، يقوم مقامه إذا غاب ، ويُؤْتَنَس به إذا لم يكن .

لما نأى عن مجلسى وجنَّبه ودارت الكأس مجراها
صيَّرت تفاحة بيننا إذا ذكرناه شممناها
واهاً لها تفاحةٌ أشبهَتْ خدَّيه فى بهجتها ، واها

* * *

ثم أمعنوا فى الخيال ، فأسبغوا على التفاحة ما صنع مع الله الحُلوليُّون ، فالحبيب التفاحة والتفاحة الحبيب .

تفاحةٌ تأكل تفاحة ياليتنى كنت الذى أوكل

* * *

تفاحةٌ من عند تفاحةٍ قريبةُ العهـــد بكفَّيها
أحببْ بها تفاحةٌ أشبهت حمرتُها حمرة خديها

* * *

ولـــا بدا التفاح أحمرَ مُشرقاً
دعوت بكأسى وهى ملأى من الشفق
وقلت لساقينا أدِرْها فإنهـا
خدُود عذارَى قد جُمعن على طبق

* * *

وتفاحـــة فضَّةٍ عقيقيَّة الجـــوهر
تبدَّت بمـــاء الربيـــع فى روضها الأخضر
فلتُ سرورا بهـــا إلى القدَح الأكبر
وأنت لنـــا حاضرٌ وإن كنتَ لم تحضر

(١) نسبة إلى القريشية ، قرية بالجزيرة .

ثم غلوا فى هذا ، فحرَّم بعضهم على نفسه أكل التفاح لأنه والحبيب اسمان لمسمى واحد :

لا آكل التفـــاح دهرى ولو
جَنَتْه كفّى من جنان الخلود
تالله لا آكله من قبلِ
لكننى أتركه للخدود

* * *

أكلت تفاحةً فسائلى
خِل رآها كخدِّ معشوقيه
وقال : خـــدُّ الحبيب تأكله ؟
فقلت : لا ، بل أمصّ من ريقه

ثم لعبوا بالحب عليه ، فعضّوا التفاحة ، وتهادوْها معضوضة ؛ قال ابن المعتز :

تفاحةٌ معضوضـــةٌ
كانت رسولَ القُبَلِ
كأنَّ فيها وجنةً
تقبّلت بالخجـــل
تنـــاولت كفى بها
لامية من أمـــل
لست أرجّى غير ذا
يا ليت هـــذا دام لى

* * *

حيَّاه من يهوَى بتفاحة
قد عضَّ أعلاها بأسنانه
عاذ ولم يبخل بهـــا بعد ما
عـــذّبه دهراً بهجرانه

ودعاهم الغرام بالتفاح ودلالة أن جعلوه صحيفة غرامهم ، يكتبون عليه عُصارة قلوبهم ، وتفننوا فى ذلك فنونا بديعة ؛ فمن ذلك أنهم كانوا يُلبسون التفاحة — وهى خضراء على شجرها — شيئا من النسيج أو الورق ، هو بيت من الشعر أو جملة رشيقة أو إشارات دالة ، فإذا استوت ونضجت كان مكان النسيج أو الورق أصفر والباقى أحمر ؛ أو يلصقون إلى جسم الشجرة ويتركون مكان الكتابة معرضاً للشمس ، فتكون الكتابة حمراء وباقى التفاحة أصفر ، فتقرأ الأبيات أو الأشعار كأنها من فعل الطبيعة ؛ ويتفنن البستانيون فى ذلك ، ويتقاضى منهم العشاق بالمال الكثير .

قال صاحب « فوات الوفيات » فى ترجمة أبى الجعد المعروف بشعر الزنج ، إنه كان ناطورا يحفظ البساتين ، وقد كتب لمحبوبه هذه الأبيات بالبياض على تفاحة حمراء :

جودوا لمن يَهواكم
حبـــكمُ فهاما
وصار ضوء يومه
مِن هجرهِ ظلاما

ثم قال : « إن شعر الزنج هذا أهدى إلى محبوبه يوما تفاحاً كثيراً أحمر كالشقائق ، وأبيض كالفضة ، وأصفر كالذهب ، منه ما كتب عليه ببياض فى حمرة ، ومنه ما كتب عليه بحمرة فى بياض — وعلى إحداها حمراء بأصفر .

نَبَتت فى الغصن مخلوقةٌ
من قلب ذى شوق وأحزان
صفْرتى سقمُ الذى آتوته
يخبر عن حالى وأشجانى

وعلى صفراء بأحمر :

تفاحةٌ صيغت كذا بدعةً
صفراء فى لون المحبّينا
زيّنها ذو كمد مدنَف
بدمعه إذ ظل محزونا
فمن فقد جئت له شاكيًا
وقيت من الجواء ، آمينا

* * *

ومن هيامهم بالتفاح وهيامه عنهم أحيانا أن اتخذوا له تمثالا يتهادى به الأغنياء وأهل الترف ، فصاغوا من العنبر على مثال التفاح ، وكتبوا عليه ما شاءوا بخيوط الذهب ؛ قال فى « الأغانى » : قال أحمد بن صدقة : « كنت عند المأمون ، وقد كان غضب على حظيّة له ، فلما طابت نفسه بالغناء ، وجّهت إليه بتفاحة عنبر مكتوب عليها بالذهب « يا سيدى ! سلوت ! » .

وكتبوا على تفاحة عنبر بالذهب :

ليس شىء يُتهادَى
مثلَ تفاح مكتّبْ
يا مُنى قلبـــى ما ز
لْ لذى عشق معذّبْ ؟

وقد أكثروا من التهادى بالتفاح ، وما أكثر الأخبار التى وردت فى ذلك ، وما كانوا يهدون زنبيلا ولا شيئا

كثيرا ، إنما يهدون تفاحة واحدة صُنعت بها البدع ؛ إذ كان من قوانين الظرف عندهم الاعتداد بالمعنى لا بالمبنى ، وبظرف الهدية وقلتها لا بكميتها وكثرتها . حدّث صاحب الأغاني عن « عريب » المغنية أنها قالت لصاحب لها : قد بلغني أن عندك دعوة اليوم ، فابعث إليّ نصيبي منها ، فبعث إليها طعاما كثيرا ، فلما وصل إليها أنهبته الناس ، وبعثت إليه رقعة تقول فيها : يا أعجمي يا عمي ألقتنتني من الأتراك ووحش الجند ، فبعثت إليّ بخبز ولحم وحلواء ؟! الله المستعان عليك . ثم علمته ظرف التهادي بإهدائه شيئاً قليلا جميلا قيمته في فنه لا في كثرته .

وقد قام التفاح هذا المقام لكثرة ما يستطيع الفنان أن يجيد فيه .

ثم كان من أجمل مظاهر الجمال عند الخلفاء والأمراء والسراة « الفوّارات » أو « النافورات » في البيوت وفي البساتين العامة ، قد صنعت من الخزف الجميل المنقوش ، أو من الرخام ، وقد تصنع أنابيبها من الذهب والفضة ؛ وكان من أساليب تفننهم أن ينثروا الورد فوق عيون الفوارات ، فيدفعه الماء بقوة ويصعده إلى علو كبير ثم ينزل في البركة ، أو ينثر على الناس ؛ وقد اشتهر بهذا الوزير المهلبي .

فكان من إعجابهم بالتفاح أن يهندسوا الفوارة هندسة خاصة ، ثم يضعوا التفاح الأحمر فوق عين الفوارة ، فيدفعه الماء إلى أعلى ، وتتدافع قوة الماء النابع من الفوارة والهواء الذي يدفعه الماء إلى أعلى وثقل التفاحة وميلها إلى السقوط ، فتبقى التفاحة واقفة تدور في مكانها ، فيكون من ذلك منظر عجب . وفي ذلك يقول الشاعر :

وفوّارة سائل ماؤها   بتفاحة مثل خد العشيق
كمنفخة من رقيق الزجاج   تُدارُ بها كُرة من عقيق

ولكثرة ولوعهم بالتفاح ألف الأدباء فيه التآليف المفردة ، فألف الجاحظ « كتاب التفاح » ، وألف بهذا العنوان « غلام ثعلب » و « الوشّاء » ، وإن كنت لم أعثر على شيء من هذه الكتب .

هـذا قليل من كثير مما ورد في الأدب العربي عن التفاح ، ولعل أديباً متضلعا من الأدب الغربي يتحفنا بما ورد فيه ليكون درسا لطيفا للموازنة .

وقد حرمتنا الحرب أن ننعم بالتفاح الجميل اللطيف ، فلا أقل من أن ننعم بذكراه .

أحمد أمين

ياليالى الهموم ! . . .

يا ليالي الهموم لا تهجريني   إن لي في دُجاك خير قرين !

* * *

أنتِ أسعدتني بظلمتك السـو
داء إذ أنها كظلمة نفسي
أنتِ أفرحتني بأشباح حزن
كنت أرنو لها بقلبي وحدسي
أنا في غرفتي تحيط بيَ الأو
هام ، ميتاً ما بين جدران رمس !
لست ميتاً ، فإن قلبيَ حيٌّ
خافقٌ ، منشدٌ أغاريد بؤس
إن حزني خير من الفرحة النشو
ى ، تُطل بكل شؤم ونحس
لي في الحزن نشوة قرّبتني   في سماء الوقار ، من نور قدس
وأنا اليوم في الهموم سعيدٌ
مفرداً أسكب الأسى فوق طرسي
تتغنى مني الدموع نشيداً   ونشيد الدموع يرهف حسي

* * *

ياليالي الهموم لا تهجريني   إن لي في دجاك خير معين

« الكاظمية — بغداد »   **علي جليل الزردي**

تجربة جرونتفج الدانمركى

فى تعليم الكبار

يشغل تعليم الشعب عقول المفكرين فى العصور الحديثة، لأن التجربة قد برهنت على أن التعليم العام الذى تكفله الدول للملايين من أهلها لا يؤدى إلى ما ترجوه من التقدم فى الحضارة والتفكير وأساليب الحياة. حقا أن الشعوب فى مجموعها تستفيد فائدة عظمى من تعميم التعليم الأولى فى كل صفوفها، وحقا أن الحياة الاجتماعية والفكرية اليوم أعلى فى جميع الشعوب المتمدينة مما كانت عليه منذ قرن؛ ولكن الحياة فى تطور مستمر، وإذا لم يساير التعليم حركة التطور وقفت المدنية عند حد محدود، وصارت مهددة بالتخلف عن تيار التقدم المستمر.

ولذلك تهتم البلاد المتمدينة بأن تلقح نظم التعليم العام بها، وتطعّم شعوبها بجهود متواصلة تبعث فيها الحركة إلى الأمام دائما. ومن الأمور التى اتجهت إليها عناية المفكرين مسألة جوهرية لها أعظم الخطر فى حياة الشعوب؛ وذلك أن الملايين الذين يستفيدون بالتعليم العام الإجبارى يخرجون إلى الحياة ويضربون بأسهمهم فى جهادها، سواء أكان ذلك فى الصناعة، أم فى التجارة، أم فى الزراعة؛ فإذا هم اتجهوا فى حياتهم العملية نحو طلب الرزق تركوا الجانب الفكرى والروحى من حياتهم، وأقبلوا على تحصيل المكاسب من أعمالهم، واشتغلوا بذلك كل الاشتغال حتى يصير أمرهم بعد قليل إلى حال تشبه حالة الأمية، إن لم تكن أمية خالصة.

ولعل أكبر السبب فى ذلك أن أثر التعليم العام فى السنوات الأولى من الحياة — وهى سنى الطفولة والصبا — ذلك الأثر لم يكن من القوة بحيث يتغلغل إلى أعماق نفوس الأفراد، ولم يكن كافياً لإحداث أثر دائم فى عقلهم وروحهم، حتى يبقى فعله فيهم مدى حياتهم كلها. ولعل هناك سببا آخر لا يقل فى فعله عن هذا السبب، وذلك أن عقل الطفل والصبى يكون فى دور التعليم العام قاصراً عن إدراك الشىء الكثير من مواد التعليم التى تحتاج إلى خبرة بمعانى الحياة، مثل العلوم الإنسانية جميعا، فإذا انتهى الصبى من دراسة تعليمه العام الأولى لم تكن له القدرة على إدراك كل ما تلقّاه، ولم يستطع أن يهضم كل الغذاء الثقافى الذى قدم إليه إذا صح هذا التعبير.

ومهما يكن من الأمر، فقد أدرك المفكرون أنه من الضرورى مواصلة تعليم الشعوب، بعد أن تضرب بسهمها فى الحياة العملية، وهذا ما يطلقون عليه اصطلاحا عنوان «تعليم الكبار». ولتعليم الكبار عندنا فى مصر، وفى بلاد الشرق عامة، معنى أوسع من هذا، لأن الشعوب الشرقية لم ينتشر بعد التعليم العام الأولى فى كل صفوفها، ولهذا بقيت طوائف من الأهلين لا يزالون على أميتهم الفطرية؛ وهؤلاء يكونون فى العادة متخلفين عن تيار الحياة الجديدة تخلفا عظيما، وتكون الحاجة الاجتماعية ماسة إلى إبلاغهم أولا إلى الحد الأدنى من الثقافة التى لا ينبغى أن يهبط المستوى الثقافى للأفراد عنها فى بلد من البلاد المتمدينة. فتعليم الكبار عندنا معناه أولا إبلاغ الأميين مستوى الحد الأدنى الثقافى، ثم الأخذ بيد الشبان الذين أتموا الدراسة الأولية، ودفعهم مع تيار الحياة المتقدمة مع التطور الإنسانى العام.

وإنه لما يبشر بالخير أن الاهتمام قوى فى مصر والشرق كله بتعليم الكبار، إلى جانب الاهتمام بنشر التعليم الأولى الصالح، وقد ظهر هذا الاهتمام فى صورة واضحة، سواء فى المشروعات الحكومية، أو فى مباحث المفكرين

ومطالبة المصلحين الاجتماعيين . وإنه لما يضيء لنا السبيل أن نعرف كيف عالج المفكرون والمصلحون هذه المسألة في البلاد الأخرى ، حتى نستطيع أن ننقل ما نستطيع نقله من آرائهم ، وأن نقتبس ما نستطيع اقتباسه من وسائلهم ؛ ولنا في كل ذلك أن نعدل آراءهم ووسائلهم ، ونتناولها بالصقل والتهذيب والتغيير حتى تصير ملائمة لظروفنا وتراثنا الثقافي ، وتاريخنا الماضي ، وما نرجوه لحياتنا من التوجيه في المستقبل .

فنحن هنا نعرض تجربة بدأت في بلاد الدانمرك ، وتلقفها المفكرون في بلاد أوروبا ، وعمدوا إلى تقليدها والاستفادة منها . وبلاد الدانمرك تشبه بلادنا في مرافق حياتها ، لأنها في أساسها بلاد زراعية مزدحمة بالسكان مثل مصر . وقد آثرنا أن نلخص هنا ما كتبه أحد المفكرين الإنجليز ، وهو السير رتشارد لفنجستون في كتابه الحديث « المستقبل في التربية » ، قال :

إنه لمن العسير علينا أن نتصور بلاد الدانمرك أرضا حطمها الفقر ، وقعد بها فتور الهمة ، ولكن هذه هي الحقيقة ؛ فإنها لم تكن إلا على تلك الحال البائسة في أوائل القرن التاسع عشر . ثم تحولت بين عشية وضحاها إلى قطر سعيد يسير في طليعة أقطار أوروبا الديمقراطية تقدماً ونشاطاً ، ونجاحاً في الحياة ؛ ولم يكن السبب الأكبر في هذا التحول إلا أثر التعليم في مدارس الشعب العليا ، التي اختطها القس العبقري جرونتفج وشريكه الأسقف كولد . فكان جرونتفج صاحب رسالة ، يبتكر الفكرة ، ويبعث الروح ، وكان كولد رجلا من الشعب ، يفتح المعاهد وينظم ويجتذب الناس من ورائه بقوة خلقه وروحه . فأنشئت أول مدرسة عليا للشعب في سنة ١٨٤٤ ، وكان الغرض منها مقاومة الدعاية الألمانية في مقاطعتي شلزفج وهولشتين ؛ ثم تلتها مدارس أخرى حتى كان عام ١٨٦٤ ، وفيه وقعت الحرب بين الدانمرك وبين ألمانيا ، فحطمتها الجيوش الألمانية حطما . ولكنها ردت على الهزيمة الطاحنة بالاستكثار من مدارس الشعب العليا ، فلم يأت عام ١٨٧٢ حتى كان لديها من هذه المدارس أربع وخمسون مدرسة ، وقد بلغ عددها اليوم سبعا وخمسين .

وتكاد هذه المدارس تكون جميعاً (داخلية) يقيم فيها الطلبة ، ومدة العمل فيها ثلاثة أشهر للنساء في الصيف ، وخمسة أشهر للرجال في الشتاء ؛ وهي مدارس خاصة يملكها الأفراد أو مجموعات من الأفراد ، ويقتصر جهد الحكومة فيها على إعانات تساعدها بها . وأما الطلبة فيها فمن الفلاحين وصغار الملاك ، وقليل منهم من العمال . ولا يقبل فيها إلا من زادت سنه على الثمانية عشرة ، وليس من طلبتها إلا عدد يسير ممن تزيد معارفهم على المعارف الأولية ، فمعظم تلاميذها من الشبان الذين اتجهوا بعد المدرسة الأولية إلى الحياة العملية ، فقضوا في ممارستها ، ما بين سن الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، يعملون في الحقول أو ما سوى الحقول من أعمال الحياة .

وليس ثمة ما يجبر أحداً على الدرس ، ولا ما يطمع الطلبة فيما تعطيه تلك المدارس من شهادات أو درجات علمية ، فالعلم فيها لا يقصد إلا للتثقيف . وتبلغ نفقات الدراسة والإقامة نحو أربعة جنيهات كل شهر للنساء ، وأكثر من ذلك قليلا للرجال . والطالب يدفع هذه النفقة من عنده إلا إذا أعفى من نصفها نظير منحة من الدولة تخصص لإعانة الذين لا يستطيعون دفع تلك النفقات . ومع أن كل نفقات هذه المدارس أو نصفها يقع على كاهل الأفراد ، فقد قدر أن نحو ثلاثين من كل مائة شخص من الفلاحين في بلاد الدانمرك يتعلمون فيها . وإنه لمن المدهش حقاً أن يكون الأمر كذلك في بلاد الدنمرك ، وأن يبذل الفرد هذه النفقة راضياً ، مع أنه لا يتلقى في تلك المدارس إلا ثقافة مما يبدو للأنظار السطحية أنها لا تفيد الشعب العامل في حياته العملية ؛ فإن الدراسة هناك ليس لها صبغة

مهنية ، مع أن الطلبة جميعاً يدخلون تلك المدارس من غمار العمل فى الحياة ، ويزمعون أن ينطلقوا بعد إتمام دراستهم فيها إلى غمار العمل فى الحياة . فالدراسة هناك تتناول آداب اللغة ، والتاريخ ، والإنشاء ، والهيئة ، ومبادئ العلوم ، والرياضة البدنية ، (والغناء أحياناً) ، ثم الموسيقى وبعض المدارس يزيد على بعض فى مستوى دراساته ومناهج تعاليمه .

وهذه المدارس تكون عادة فى الريف ، يدخل إليها الداخل من طريق ضيق تحف به البساتين ، وهى فى مظهرها الشبيه المزارع . ومن أول ما يسترعى النظر فى داخلها ما علق على جدرانها من الصور ، وكثير منها من صنع مشاهير رجال الفن فى البلاد . ثم يسترعى النظر فى منهجها أنها تحتفل بالغناء الجمعى ، والكتاب الذى يجمع أغانيها يحوى طائفة صالحة من الشعر القديم والحديث والمترجم عن اللغات الأخرى .

وليس فى هذه المدارس شىء من أنواع الجبر على الدرس ، وليس فيها امتحان ولا شهادات ، فالطلبة فيها يدرسون لأنهم يحرصون على ورود مناهل العلم حرصاً خالصاً ، لا تشوبه رغبة فى الاستكثار من التظاهر بالشارات العلمية .

فلمدرسة الشعب العليا ثلاث ميزات هى السر فى نجاحها ، الأولى : أنها تعلم الكبار ، والثانية : أنها داخلية ، والثالثة : أنها قوة دافعة للروح .

لم تحاول الدانمرك أن تحل مشكلة تعليم أبنائها بالزيادة فى سن التعليم الإلزامى ، فأكثر الناشئة الدانمركية يخرج من المدارس العامة فى سن الرابعة عشرة ، ثم يعمدون حيناً إلى العمل فى غمار الحياة ، ويعودون فى سن الثامنة عشرة إلى هذه المدرسة العليا لاستكمال دراستهم .

وقد رفض جروندفج أن يسمح لأحد بالدخول فى مدرسته قبل سن الثامنة عشرة ، وأصر على ذلك إصراراً لا هوادة فيه ، ولم يكن ذلك أثراً من آثار رأى رآه بالنظر والفكر ، بل كان رأياً استقر عليه بفضل التجربة المتصلة والأخطاء المتكررة التى وقع فيها وتعلم منها . فقد دلته التجارب على أن الطلبة الصغار لا يستطيعون الاستفادة الكاملة من الدراسة ، لأن ذكاءهم لم يتفتح بعد ، ولأن إقبالهم على الدرس لم يكن على ما ينبغى للطالب الجد ؛ فرسخت فى ذهن جروندفج من هذه التجارب أن فكرة « التعليم الثانوى للجميع » بعد سن الرابعة عشرة ، إنما هى أضمن سبيل للإسراف فى الأموال وإضاعة الوقت الثمين . ومن رأيه أن الذى يريد أن يستفيد بالتعليم الصحيح لا يستطيع ذلك إلا إذا عانى أمور الحياة حيناً ، وتأمل أحوالها عملياً فى نفسه وفى غيره ؛ فهذه هى الوسيلة لا وسيلة غيرها ، إلى تفهم ما فى الكتب من وصف للحياة .

وقد دلت التجربة على أن مثل هؤلاء الكبار الذين أتوا إلى المدرسة بعد ممارسة الحياة ومعاناتها ، يستطيعون أن يدركوا فى ثلاثة أشهر أو خمسة ما يحتاج إلى كد وعناء لمدة خمس سنوات كاملة ، إذا كان الطالب لا يزال مراهقاً لم يختبر بعد شيئاً من أمور الحياة . وليس فى هذا القول ما هو بعيد عن العقل ، وقد أجريت تجربة شبيهة بهذه فى إنجلترا ، فإن جامعة أكسفورد ، قد أباحت للطالب ، إذا كانت سنه فوق الثالثة والعشرين ، أن يعفى من امتحان الدخول بها إذا كان قد أتم دراسة خارجية إضافية بعد وقت العمل لمدة ثلاث سنوات ، ولا تزيد مدة الدراسة فى كل منها على أربع وعشرين جلسة ، كل منها لمدة ساعتين . وقد كان من هؤلاء من نجح فى دراسته الجامعية نجاحاً كبيراً ، مع أن جهود دراسته الإعدادية لا تعد شيئاً إذا قيست بجهود الطلبة المعتادة .

والسر الثانى فى نجاح التجربة هو أن الدراسة فيها داخلية ، فهذه الوسيلة وحدها هى التى تجعل الطالب ينغمر لمدة أشهر متتابعة فى الجو التعليمى انغماراً كاملاً ، فهناك تتأثر الروح ، وينفعل الشخص انفعالاً قوياً بما فى المدرسة من روح حى ، ويزيد هذا الأثر قوة أن المدرسة فى مكان

منعزل فى الريف ، بعيد عن ضجة المدن ومشاغلها ، فيكون أثر الحياة الاجتماعية فيها بالغاً بما فيه من فكر ، وما يحيط به من فن وجمال . وليس ذلك بالمستغرب ، فقد كانت أعظم المدارس القديمة أثراً شبيهة بالمجتمعات فى النوادى والبيوت ، مثل مدرسة سقراط فى رحبات الألعاب ، ومثل أكاديمية أفلاطون ، وليسيه أرسطو ، ومتحف الإسكندرية ، وما إليها .

والسر الثالث فى نجاح التجربة هو اعتمادها على تثقيف الروح والنفس ، وتكوين الشخصية ، فإن التعليم الفكرى لا غنى له عن أن يقترن بتغذية الروح وتقويم الخلق ، ولا تستقيم الحياة إلا بتعاون أخيى المرء والنفس . ومدرسة الشعب تتجه اتجاهاً ظاهراً نحو تغذية الروح ، لأن المقصود منها أن تعد الإنسان للعمل لا لمجرد اكتناز العلوم .

ومن أعجب العجب أن التعليم فى مدرسة الشعب الدانمركية لم تكن له صبغة مهنية ؛ ومع ذلك فقد ساعد على تقدم البلاد تقدماً اقتصادياً يكاد يبلغ حد الإعجاز ؛ فإن طلبة هذه المدرسة لم يتعلموا فيها زراعة ولكنهم يخرجون منها وقد امتلأت قلوبهم بالحماسة إلى الإتقان والإحسان ، فإذا بهم يصبحون خير الزراع . قال أحد رؤساء مدارس الشعب الدانمركية : « إن الطلبة يأتون إلينا نياماً ، ولا فائدة فى تعليم من كان نائماً ؛ فنحن نعمد إلى قلبهم فنوقظ فيه الروح ، فإذا بسائر الكيان يتبعه وتتم فيه اليقظة »

إن الحياة ملأى بالآلات العجيبة والنظم المحكمة ، ولكن هذه جميعاً لا قوة لها إذا لم تبعث لها حركة الروح ؛ والفكر المثالى يستطيع أن يخلق الآلات ويبتدعها ولكن الآلات بغير فكر مثالى لا تلبث أن تصدأ وتبلى .

وقد أثرت المدرسة الشعبية العليا فى الدانمرك أثراً عظيماً فى نواح ثلاث : فى الشخص ، وفى الحياة الاقتصادية ، وفى السياسة .

فأما الشخص فقد تحرك فيه الروح كما تقدم ، فخرج إلى الحياة مليئاً بالحماسة والتفكير السليم ، واستطاع بروحه الطاهر أن يبتدع أحسن نظام تعاونى فى العالم ، لأنه قد صفا روحه فجعله أعظم ثقة بالناس وأقدر على أن يكون محلا لثقة إخوانه .

وقد تكونت من هؤلاء الأشخاص طبقة وسطى مستنيرة ، كان لها أعظم الأثر فى إنهاض الاقتصاد القوى من سقطته السحيقة ، حتى جعلت الدانمرك من أسعد بلاد أوروبا حالا ؛ ثم قد صارت هذه الطبقة الوسطى المستنيرة من أكبر عوامل التقدم فى الميدان السياسى . فحزب الزراع هناك أقوى الأحزاب وأقواها دعوة إلى التجديد والتقدم .

محمد فريد أبو حديد

رسائل صينية

ظل اتصال الغرب بالشرق فى العصور الوسطى اتصال تجارة ، حتى كانت عصور النهضة فبدأ الغرب يتطلع إلى ما ظل طويلا فى أيدى الشرق من نفوذ وسلطان ومال . وأول ما بهر الغرب عند ما زار الشرق ليستكشفه تمهيداً لغزوه ، كان هذا الثراء الضخم والبذخ العظيم اللذين رآهما فى تركيا خاصة ، بعاصمة الشرق إذ ذاك ومقر حكومته .

ولما كان الشرق مجهولا إلا من طبقة المتأدبين ، وحتى تلك الطبقة لم تكن لتعرف عنه إلا النزر اليسير ، فقد كانت الحكومات الأوروبية تختار هؤلاء المتأدبين ذوى الإلمام اليسير بالشرق ، فهو أحسن من لا شىء ، ليكونوا سفراءها إليه ليتعرفوا لها مجاهيله ، فيمهدوا لها سبيل الفتح والسيطرة على أساس من المعرفة الحقة .

ولسنا بصدد ما عمله هؤلاء المتأدبون فى السياسة ، ولكنا نعنى بما عملوه فى الأدب ؛ فقد افتتنوا هم ومن قرأ لهم من الأدباء فى وصف بذخ الشرق واتساع سلطانه ، وأثار إعجابهم بل تعجبهم كثير مما رأوا من عجيب الماديات والمعاملات والنظم . واستشغل الشرق فى الأدب الغربى كثيرا فى تلك الفترة ، فقد فتح آفاقا من الخيال ، وأثار طائفة من العواطف ، بل إنه استُغل كستار مزركش يختفى وراءه الكاتب ما يريد من نقد لأمته لا يستطيع أن يجهر به أمام هذا السلطان الثانى القوى فى الغرب .

وكتب الكتاب كثيرا عن الشرق مبهورين وواصفين وناقدين ، ولكنهم أخيراً تنبهوا إلى أن وراء هذا البذخ بل وراء تلك العجائب روحا يستحق منهم أن يقفوا أمامه ، لا ليتعرفوه فيحترموه فحسب ، ولكن ليتطلعوا إليه فى لهفة ، فقد أفقرت منه مدنيتهم الغربية على جلال جاهها وخطر شأنها ؛ وكلما سارت مدنيتهم فى خطاها الواسعة نحو رقى العلوم وعلو السيطرة على المادة ، وسارت فى الوقت نفسه نحو الافتقار فى الروح الإنسانى والإيمان بالله . أحس هؤلاء الكتاب ظمأهم لهذا الروح العظيم الذى فقد الشرق كل شىء إلا هو ، فعاش راضيا بما فقد ، قويا متطلعا إلى المستقبل فى صبر وإيمان ، بما لم يفقد .

وهذه رسائل على لسان صينى كتبها الكاتب الإنجليزى المعاصر (ج . لويس دكنسن Lowes Dickenson) من الصين ، وسماها « رسائل جون الرجل الصينى » يقارن فيها بين مدنية الروح فى الصين ومدنية المادة فى الغرب ؛ وهو بذلك يرينا صورة من هذا التطلع الغربى نحو روح الشرق ؛ ولقد نشرها منذ أكثر من أربعين عاما دون إمضاء ، ليُخيِّل إلى القرّاء أن كاتبها رجل صينى بالفعل . والعجيب أن القراء صدقوه فى هذا الزعم ، بل قرّاء من أرق الناس فهما لأمور الحياة كالزعيم الأمريكى « برايان » . ولما عاد فنشرها منذ أعوام قليلة باسمه لم تفقد هذه الرسائل بهجتها بعد أن أزاح المؤلف الستار عن خدعته التى أراد أن يخدع بها القراء .

والآن وقد كثر الكلام والنقاش والتفكير حول مدنية الشرق ومدنية الغرب ، والمقارنة بينهما بسبب هذه المحنة التى يجتازها العالم ، والتى لا تبشر بشاعتها بخير ، نرى نحن الشرقيين على الأقل ، فى مثل هذه الرسائل نوعا من الراحة أو الهدوء ، لعل منشأه التطلع إلى مستقبل قريب تقاس فيه المدنيات وتقوّم لا بمقدار ما حققت للحكام من نفوذ وسلطان ، وما أتاحت للأفراد من كسب ومال ، ولكن بمقدار ما حققت للشعوب من طمأنينة ومحبة ، وهدوء وسعادة .

ولما كانت هذه الرسائل قصيرة قليلة فقد رأينا أن ننقلها إلى العربية كما هى حتى لا تتعرض إلى ما قد تتعرض له الآثار الأدبية من تشويه الاختيار ، أو تحلل الاختصار .

الرسالة الأولى :

هذه هي الأحداث الحالية في الصين تظهر الملأ من جديد ، وهذا التنافر الجوهري بين المدنية الشرقية والمدنية الغربية . بل إنها تُظهر كيف أن جهل الواحدة منهما بالأخرى واحتقارها لها قد أدّيا إلى ما أديا إليه ، فأوجدا هذا الإشكال الحالي في الصين . ولقد لزمت الصمت طوال تمثيل تلك المأساة على مسرح الصين ، ولكن شعور السخط المتزايد في نفسي ، وأملي الذي قد يكون في الواقع حلماً من الأحلام في أن يُمحى بعض سوء التفاهم ، قد أرغماني أخيراً على أن أفتح شفتي لأعرض أمام الجمهور البريطاني بعض وجهات النظر التي طالما ألحّت عليّ في أن أعلنها للناس . وأنا لا أريد بحال أن أتحدث في هذه الأزمة القائمة . إن مهمتي في الواقع هي أن أبث في الشعب البريطاني تقديراً لمواطني ولسياستهم أقرب إلى العدل من تقديرهم الحالي . وسبيلي إلى هذا أن أشرح لهم وجهة نظرنا نحن نحو المدنية الغربية ، وأن أبين لهم لماذا نريد أن نحمي أنفسنا قدر المستطاع من آثار مدنيتهم تلك . وإخال أني أهل لأداء مثل هذه المهمة ، فإن إقامتي الطويلة في إنجلترا تخولني الحق في أن أتكلم عن نظمهم بينما غيبتي الطويلة عن وطني لم تجردني من حق في أن أتكلم من نظمنا . إن الصيني صيني حيث كان . وإني إن اعترفت أني أرى فيما وصلت إليه المدنية الغربية كثيراً مما يثير إعجابي ، فإني أعترف في الوقت نفسه أني لم أر بعدُ شيئاً يجعلني أندم على أني ولدت في الشرق . يا له من اعتراف عجيب بالنسبة إلى الرجل الإنجليزي ! فقد اعتدتم أن تنظروا إلينا على أننا همج . وقد يكون لكم في ذلك بعض العذر ، لأنكم لم تكونوا في الواقع تلتفتون إلينا التفاتاً حقاً إلا حينما كنا نقتل واحداً من مواطنيكم . وكان لكم أن تحكموا من مثل هذه الثورات العصبية الجامحة أننا أمة من القتلة الأشرار جامدي الشعور ؛ ونصيب حكمكم هذا علينا من الصحة كنصيب حكمنا نحن على مدنيتكم ، إذا بنينا هذا الحكم على ما نراه من جيشكم في الصين . إنه لا يجب أن يحكم علينا بما تفعله الجماهير منا ولا بما تفعله حكومتنا ، إن حق لي أن أقول ذلك ، فالحكومة في الصين لا تمثل الأمة . ولكن حتى هذه الأعمال الثائرة التي تثير سخط الطبقة المتعلمة من أهل الصين تستحق من الأوروبيين ، فيما أجرؤ أن أرى ، نظرة أخطر مما نالت إلى الآن ، وسخطاً أقرب إلى التأني والحذر منه إلى الاندفاع والتمادي . إن هذه الثورات ما هي إلا تعبير قوي عن شعور عميق في الواقع ، ويجب أن يظل أبداً العامل الأول في علاقتنا بالغرب . وهذا الشعور هو أننا لا نطمئن أبداً إلى مدنيتكم ، بل إننا نكرهها أشد الكراهية ؛ أما أنتم فإنكم ترجعون هذا الشعور إلى جهلنا وتعصبنا . وأما الحقيقة ، واسمحوا لي أن أراها كذلك ، فهي أن هذا الشعور يعتمد كل الاعتماد على المنطق الحق .

ولكي أشرح لكم وجهة نظري فإني أطالبكم ، فرادى ، أن تقدروا هذا الذي أقوله في كثير من الجد وغير قليل من الصبر والتأني : إن مدنيتنا أقدم مدنية في العالم ، وليس معنى هذا أنها تكون بذلك خير المدنيات ، ولكن من المسلم به أيضاً أنها لا تكون بذلك شر المدنيات ؛ بل إن الأمر على العكس من ذلك ، فهذا القدم نفسه ، على أية حال ، برهان قوي على أن نظمنا أو مدنيتنا قد يسرت لنا شيئاً من الاستقرار والثبات تبحث عنهما عند الأمم في أوربا فلا تجدها . وليست مدنيتنا مستقرة ثابتة فحسب ، ولكنها تقوم على نظام خلقي ، كل ما يقابله في مدنيتكم هو الفوضى الاقتصادية . ولست أتعرض الآن إلى المفاضلة بين دينكم وديننا ، أو إلى المناقشة في شيء من هذا القبيل ، ولكن الذي لا شك فيه أن دينكم أضعف تأثيراً في نفوس جماعتكم من ديننا في نفوس جماعتنا . إنكم تعلنون

ولا شك أن دينكم المسيحية ، ولكن مدنيتكم لم تكن مسيحية فى يوم من الأيام ، بينما مدنيتنا نحن « كونفوشية » قلباً وظاهراً ، وبمجرد وصفها بأنها كونفوشية معناه أنها خلقية ، أو على الأقل ، فأنا لا أسوق افتراضات ، إن العلاقات الخلقية بيننا هى العلاقات التى يوحى بها هـذا الدين أصلا . أما عندكم فإننا نرى أن العلاقات الاقتصادية لها المقام الأول بينكم ، ثم تحاولون تطعيم تلك العلاقات بالأخلاق ، ولـكن على قدر طاقتها ليس غير

وهذه وجهة نظر أستطيع تبيانها بالمقارنة بين نظرتكم إلى الأسرة ونظرتنا نحن إليها . فالأسرة عندكم ، حسبما يستطيع الأجنبى أن يرى ، ليست إلا مجرد وسيلة لإطعام الطفل وحمايته حتى يصل إلى سن يستطيع فيها أن يعنى هو بأمر نفسه . فأنتم ترسلون أبناءكم ، مبكرين فى ذلك قدر المستطاع ، إلى مدارس داخلية حيث يحررون أنفسهم فيها بأسرع ما يمكنهم من أثر البيت والأسرة . وما يكادون يصلون إلى سن مناسبة حتى تدفعوهم خارج البيت ليشقوا طريقهم ، أو ليخطوا حظهم ، كما تقولون ؛ ومنذ تلك اللحظة بانتهاء اعتمادهم على والديهم كثيراً ما ينتهى اعترافهم بأن عليهم نحوهم واجبا ، فلهم أن يذهبوا أنى شاءوا ، وأن يفعلوا ما أرادوا ، وأن يتكسبوا وينفقوا كيفما يحلو لهم . بل إنهم مخيَّرون فى أن يُبقوا على الصلات التى بينهم وبين أسرتهم أو أن يفصموا عراها . إن الفرد عندكم هو الوحدة ، وكل الوحدات حرة طليقة . لا أحد عندكم مرتبط بغيره ، ولـكن لا أحد له أصل فى الأرض . إن مجتمعكم حسبما تصفون مجتمع يتقدم . إنكم دائما سائرون إلى الأمام ، كل فرد منكم يحس أنه من واجبه ، بل من المحتم عليه ، أن يشق لنفسه طريقا جديدا . إنه من العار عندكم أن يظل الإنسان حيث وُلد ؛ فالرجل ، ليستحق عندكم أن يكون رجـلا ، يجب أن يغامر وأن يكافح ، وأن ينافس ، وأن يفوز ، وإلى هذه الخصلة فى مجتمعكم يرجع بلا شك هذا النشاط العظيم الذى امتزتم به ، وهذا النجاح الهائل الذى أصبتموه فى كل الفنون المادية . ولـكن إلى هذه الخصلة نفسها يرجع هـذا الذى يصدم الرجل الصينى فى مجتمعكم هذا القلق والاضطراب والقفز فى الخلق ، فلا يوجد بينكم قانع ، وليس بينكم من يجد من وقته الفرصة لأن يحيا ، لأنكم جميعاً منهمكون فى سبيل إنماء موارد العيش . إن « الارتباط النقدى » ، كما يقول بعض كتابكم ، هو الصـلة الوحيدة التى تعترفون بها بين الناس .

أما فى الشرق فإنا نعد هذا كله من أمارات التوحش فى المجتمع . إنا نقيس الحضارة لا بمقـدار ما تجمّع من وسائل العيش ، ولـكن بقيمة هذه الحياة التى نحياها ، وما نمتاز به من صفات . إن مجتمعاً انعدمت فيـه الصلات الإنسانية بين الناس وتعلقات حاله ، ولم يقدّس ماضيه ، ولم يحترم حتى حاضره ، وكل ما فيه تلهف لنيل ما سيأتى به الغد ، إن مجتمعا تلك صفاته ومزاياه لا نعده نحن مجتمعا حقا ؛ إنا لا نرضى بل لا نقبل أن نكون أغنى منكم مالا وأرسخ منكم علما ، وأرقى منكم فنا ، إذا كان ثمن هذا أن نتبع النظم التى تسيرون عليها ! !

إننا فى كل هـذا على النقيض منكم ، فنحن ننظر أولا إلى المجتمع ثم إلى الفرد . إن القاعدة عندنا أن يولد الفرد منا وسط هذه الصلات والعلاقات التى سيستمر محافظا عليها مدى حياته ، ينتهى حيث بدأ فرداً فى أسرته . وعلى ضوء هـذه الحقيقة ، بل وفقا لها يرسم لنفسه خطة حياته ويحياها . إنه يُعلَّم أن يقدّس أجداده ، وأن يجل والديه ويطيعهما ، وأن يعدّ نفسه منذ سن مبكرة لأعباء الزوجية والأبوّة . إن الزواج عندنا لا يحلل الأسرة ولا يشتتها ، فالزوج يبقى فى أسرته لا ينقطع منها ، وزوجه

تُصبح فرداً ينضم إلى جماعته وأقربه . وهذه الجماعة هى الوحدة الاجتماعية عندنا ، لها أرضها المشتركة ، ولها معبدها ومراسيمها الدينية ، ومحكمتها الخاصة التى تفصل فى المنازعات بين أفرادها . إن أحدا فى الصين لا يحس نفسه وحيدا إلا إذا جنى هو على نفسه ذلك بما ارتكب من إثم . وإن يكن ليس من السهل على الصينى أن يثرى ، فليس من السهل أيضاً أن يجوع ؛ وإن يكن ليس ثمة ما يدفعه إلى المنافسة والمكافحة ، فليس ثمة أيضاً ما يدفعه لأن يغش أو يظلم أو يضطهد . وإذ قد تحرر من عذاب الطمع وخوف الحرمان ، فقد تحرر من السعى وراء جمع وسائل العيش ، وأصبحت لديه الفرصة لأن يحيا الحياة نفسها . وبفضل تلك الفسحة من وقته ، وبفضل غريزته الإنسانية أيضاً ، يستطيع الصينى أن ينعم بمباهج الطبيعة حوله ، وأن يرقى خلقه وبهذبه ، وأن يوجد بينه وبين إخوانه علاقات إنسانية طيبة لا تشوبها الأغراض ولا المطامع . والنتيجة لكل هذا ، هى وجود نوع من الإنسان فى الصين لا تملك إلا أن تعتبره من الناحية المعنوية ومن حيث الخلق والقيمة أرقى من السواد الأعظم من مواطنيكم فى أوروبا . وفى الوقت الذى نعترف فيه بعظمة مدنيتكم العلمية والعملية نرى أنه من المستحيل أن نعجب ، بلا قيد وعلى طول الخط ، بمدنية أدت إلى معاملات بهذه الغلظة ، وأخلاق بهذه الخسة ، ومظاهر تبعد عن الجمال كل هذا البعد ، كالتى تصدمنا دائما فى عواصمكم الكبيرة . إننا نعترف أننا لا يمكن أن نوصف بأننا قوم متقدمون ، ولكننا ندرك أن هذا التقدم قد يكون فاحش الثمن . ونحن نفضل مزايانا المعنوية على مزاياكم المادية ، بل إننا مصممون على أن نتعلق بنظمنا التى نؤمن أنها تكفل لنا تلك المزايا الخلقية ، وأن نحافظ عليها ولو كان ثمن ذلك الحرمان من مزاياكم المادية .

الدكتورة سهير القلماوى

نداء إلى الأدباء

بعث إلى صديق من كبار الأدباء والكتاب خطابا خاصا يسيل بعاطفة كريمة نحو كثير من كبار رجال الفكر والأدب ، وقد ضمن كتابه اقتراحا طريفا ، كان معناه يجول فى النفس جولانا خفيا ، فما كادت عينى تقع على كلماته حتى امتلأ قلبى به ، وانعقد عليه اعتقادى . وذلك أن يبعث الأدباء (عريضة) إلى رفعة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا يسألونه فيها أن يعين ذلك الأديب الكبير الذى تحدث عنه صاحب الخطاب عضوا فى مجلس الشيوخ ليكون رمزاً لتقدير الدولة لرجال الأدب والفكر . فبادرت بمخاطبة صديق الأديب الكبير فى هذا الأمر ، فوافقنى على مبدأ إرسال (العريضة) ، ولكنه أبى أن يذكر اسمه خاصة ، وآثر أن يكون الطلب خاصا بالأدب ليس فيه ذكر لأحد الأشخاص . فما رأى رجال الأدب فى هذا ؟ ألا يجدر حقا أن يكون لهم صوت فى برلمان مصر ، وهم الذين يقضون الحياة فى التفكير من أجل مصر . إن فى البرلمان أدباء بغير شك ، ولكنهم إنما ينطقون فيه بلسان السياسة ، ويمثلون فيه مناحى الأحزاب ، ونحن فى حاجة إلى من ينطق باسم الفكر والأدب وحدهما .

أكتب هذا نداء إلى رجال الفكر والعلم ، آملا أن نجتمع كلنا فى هذا الأمر على رأى ، فيختاروا من بينهم واحدا ونعضده — كائنا من كان — ممن يمثلون الأدب خالصاً . وبقى أن رفعة الرئيس الجليل أول من يقدر الأدباء وأصحاب الفكر ، ويحقق رجاءهم ، ويحرص على معاونتهم فى الحكم .

محمد فريد أبو حديد

الإنسان المعجز [١]

— ٢ —

أشرنا في ختام مقالنا السابق إشارة مجملة إلى توارث الاستعدادات في الإنسان ، وإلى وسيلة انتقال الملكات والمواهب من الوالدين إلى الأولاد . وقلنا إنه على أثر تكوّن الخلية الأولى أو اللاقحة في الرحم واستقرارها ، تأخذ هذه الخلية في الانقسام إلى أنصاف خلايا ، والأنصاف إلى أرباع ، وهلم جرا ، حتى تتكون كتلة من الخلايا تأخذ هي أيضاً في عملية أخرى هي عملية التخصص ، فيكون منها في الجنين خلايا الدم ، وألياف العضل ، وأنسجة العظام . ثم نبهنا إلى أنه في أثناء هاتين العمليتين ، عملية الانقسام وعملية التخصص ، تظل طائفة صغيرة من الخلايا بمعزل عن هاتين العمليتين ، محافظة على حالتها الأولى لغرض جليل هو التناسل ، واستمرار جبلة النواة الجرثومية أو مادة الوراثة .

هذا ما أثبتناه في ختام مقالنا السابق . وقد تساءلنا بعد ذلك كيف يحدث ألا يشبه الأولاد أبويهم أو بعضهم بعضاً شبهاً تاماً ، وكيف يختلف الإخوة بعضهم عن بعض في وراثة خواص الوالدين واستعداداتهما ، فيكون لهذا كل المزايا ولذلك كل التوافه ، ويكون لثالث نصيبه من هذه وتلك ، فتتوزع صفات الأبوين توزيعاً غير متساو ، يرجع إلى الحظ وحده وإلى مجرد الصدفة .

فهذه الطائفة الصغيرة من الخلايا التي تكمن في الجنين ، وتستكن في الموضع الذي تتخلق فيه فيما بعد أعضاء التناسل — هذه الخلايا التي تسمى بالخلايا الجرثومية ، والتي هي أصل الوراثة ، إذا عاينتها بالمجهر ألفيت في معظمها أشكالا صغيرة تشبه الخيوط أو الأمشاط ، ويسهل معالجتها أكثر من غيرها من سائر الخلايا بالأصباغ . ومن ثم سميت بالصبغيات . وعدد هذه الصبغيات في كل خلية من خلايا الجرثومة واحد في كل نوع على حدة ، سواء أكان هذا النوع إنساناً أم حيواناً أم نباتاً . وهو في الإنسان يبلغ في الراجح ٤٨ صبغياً .

والمعروف الآن بشيء من اليقين أن هذه الصبغيات الثمانية والأربعين تشتمل على استعداداتنا الوراثية بأسرها . فاللاقحة ، تلك الخلية الخصبة الأولى التي ينشأ منها الإنسان بكل محاسنه ومساوئه الموروثة على صورة من الصور ، هذه الخلية التي تضم الإنسان المُعْجِز الكبير كله على صغرها الدقيق ، تبدو لنا بهذه المثابة أعجوبة من أروع الأعاجيب ، التي كشفت لنا الطبيعة عنها في روعتها الخالدة .

فهذه الصبغيات الثمانية والأربعون الكامنة في خلية الجرثومة لا تنتقل كلها من المورِّث ، بل ينتقل نصفها فقط كما أثبتت المشاهدات العلمية . وذلك أن خلايا التناسل الناضجة التي تفرزها أعضاء التناسل ، والتي يتخلق منها الطفل ، لا تحتوي إلا على نصف عدد الحسيمات الوراثية الموجودة من الأصل . ذلك أنه عند النضوج الذي يسبق القدرة على التناسل ، يقع في هذه الخلايا انقسام تصبح بعد اكتماله كل خلية تناسلية قادرة على الإنسال ، محتوية على نصف الكمية الوراثية التي كانت موجودة في الخلية قبل الانقسام . ومعنى ذلك أن كل موهبة ، أو ملكة ، أو خاصية ، أو استعداد عند الوالدين ، يعدّ للانتقال إلى الذرية احتمال ناقص — وإن شئنا الدقة — نصف احتمال ، وأن الوالدين لا يورثان كل طفل إلا نصف ملكاتهما الوراثية ، تاركين للصدفة وحدها اختيار هذا النصف . وإذ كانت هذه الأنصاف تختلف في تركيبها ، وفي اختيارها كل مرة عن المرة السابقة ، كقطر الدائرة يقسم الدائرة إلى نصفين متساويين

(١) يجب أن نشير إلى أن النظريات العلمية الواردة في هذا المقال والذي قبله والمأخوذة من كتاب « بحر المستقبل » لجروتال لا يتجاوز تحقيقها العلمي سنة ١٩٢٩ .

فى المساحة ، ولكنه إذا كان فوق هذه الدائرة أو فيها ما يختلف بعضه عن بعض ويتفاوت ، فتحريكة بسيطة لقطر يغير محتويات القسمين عما كانت عليه من قبل ، وكلما ازداد التحريك ، كلما ازداد الخلاف أو نقص بين نصفى الدائرة . فالصدفة هنا هى المحرك لقطر الدائرة ، وهى المغيّر لمحتويات نصفى الدائرة . فإذا كانت هذه الأنصاف الناشئة من لعب الصدفة تختلف فى محتوياتها ، فإنه يتضح بلا عناء لماذا يختلف الإخوة غالباً فى وراثتهم عن الوالدين بعضهم عن بعض ، فيرث أحدهم كل المزايا أو بعضها ، ويرث الآخر كل المضار أو بعضها ، ويغلب على هذا الولد الخير ، ويغلب على ذاك الشر .

وهنالك حالة واحدة تتشابه الإخوة فيها تمام الشبه . تلك حالة التوأمين اللذين يكونان من جنس واحد إما ذكرين وإما أنثيين ، واللذين يكون الأصل فى نشأتهما خلية لاقحة واحدة ، انقسمت عند ابتداء عملية الانقسام فى الرحم بصفة خارقة للعادة إلى نصفين مستقلين ، فتنشأ كل منهما نشأة مستقلا . فإذا ولد مثل هذين التوأمين تعذر التمييز بينهما ، ثم هما ينشآن ولكل منهما ما لتوأمه من الخواص الذهنية والمميزات الجسدية تماما ، ولو تغيرت ظروف حياتهما واختلفت كل الاختلاف .

أما التوأمان العاديان فينشآن من لاقحتين اثنتين ، ويكون شأنهما شأن الإخوة العاديين من حيث التشابه وعدمه .

ويمتاز الحيوان والنبات فى التشابه عن الإنسان . ففى وسعك أن تزاوج بين أجناس خُلَّص من هذا النوع أو ذاك فتخرج نتاجا متماثلا ، لكن هذا يتعذر فى الإنسان . ومن ثم نجد دائما فى « أنقى » الأجناس البشرية حدودا بسيطة أو تفاوتا بسيطا فى الذرية ، وإن بقيت كل المميزات الرئيسية مشتركة بين الجميع تكوّن صورة من الجنس « النقى » .

وهنالك ظاهرة فى الوراثة تبدى لك اختلافا بينا بين الصورة الخارجية للإنسان والصورة الموروثة ، وذلك أن تكون بعض الاستعدادات لمميزات بعينها مضمرة فلا تظهر . مثال ذلك ما يبدو على شخص من مظهر الخلو من بعض الأمراض الوراثية ، على حين يكون هذا المرض مضمراً فيه ، منتقلا فى ذريته من جيل إلى جيل حتى يظهر فى واحد من الذرية . ولكى تظهر الاستعدادات المضمرة على الصورة الخارجية للإنسان يجب أن يكون لدى كل من الوالدين عديل هذه الاستعدادات . ويقع هذا فى بعض حالات الزواج بين الأقرب ، إذ يكون احتمال التشابه أو التماثل فى الاستعدادات موجودا . ومن الاستعدادات المضمرة الصلع ، فقد يظهر فى الرجل ويختفى فى بنيه ثم يظهر فى حفيده .

هذه بالإجمال نظرية الوراثة ؛ فنحن اليوم لا نعرف فقط أن الاستعدادات والكفايات الذهنية يتوارثها الإنسان ، بل نعرف أيضا علة التفاوت الظاهر فى توزيعها بين البشر . فهذا من الناس عاقل ، وذاك ضعيف العقل ؛ وهذا عنده أكثر مما عند ذاك ؛ والبعض له من الكفايات الموروثة الممتازة ما ليس لغيره من مواطنيه ؛ والبعض الآخر مزود باستعدادات تمثل انحطاطا وشرا ووبيلا . وهكذا الناس « لا يشبهون بعضهم بعضا ، لا فى الأفكار ، ولا فى الشهوات ، ولا فى الأقوال ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الأديان » .

وإذا كانت هذه الأرزاء والمواهب والأخلاق الموزعة بين الناس ، على هذه الصورة من التفاوت ، وكانت وراثية تقرر مع ما تستكمله من التربية قيمة كل امرئ من الناحية الاجتماعية والثقافية ، فإن من شأن هاتين الحقيقتين الواقعتين أن يفتحا بابا لرفع الجنس البشرى عن مستواه الحالى إلى مستوى خيرته ونخبته ، أو إلى ما يقرب من هذا المستوى ، وذلك بمد الاستعدادات الوراثية القيمة إلى

أكبر عدد من النـاس ، وقصر الاستعدادات الوراثية السيئة على أقل عدد ممكن من الناس . وهذه مسألة لم يبت أصحاب المذاهب الاجتماعية الاشتغال بها أو التشدق بها على الأقل . وقد اختلفت وسائل ذلك على قدر اختلاف أصحاب هذه المذاهب ؛ فبعضها يرى إعفاء ذوي الاستعدادات الشريرة من واجب التناسل ، فيقل الأشرار مع الزمن ، وتزداد نسبة الأخيار تبعاً لذلك ، فيرتفع مستوى الجنس البشري شيئاً فشيئاً ، وتستأصل الأمراض الوراثية الوبيلة مع أصحابها تدريجاً ، فيقل أصحاب العقول الضعيفة والمفطورون على الإجرام ، ويكثر عدد الحاذقين وأصحاب المواهب .

وهذه الطريقة يعرفها مربي الحيوان ، فقد تسنى له إنتاج فصائل قيمة من الحيوانات المنزلية حفظ بها نوع الحيوان المرغوب فيه ، واستكثر بواسطتها خواص نادرة . وقد حققت هذه الطريقة علمياً لتقرير مبلغ نجاحها ، فوجد أنه إذا أخذ على سبيل المثال من نوع ما من أنواع الحيوان أضخمه ، وعني بتناسله ، ارتفع مستوى هذا النوع في المتوسط من جيل إلى جيل ، لكنه تطرأ في خلال ذلك حالات تدل على القهقرى ، ورجوع الأحياء إلى ما كانت عليه في الأصل بدل أن يطرد نموها ، غير أن هذه حالات طارئة لا تمنع من استئناف التقدم وإن عاقته بعض الشيء .

وثمة نظريات أخرى تعارض هذه النظرية الطبيعية التي تقوم على أساس انتقاء الأصلح والأخصب . وهي ترى إلى رفع الجنس البشري بمؤثرات خارجية يظن أنها تحدث تغييراً في مجرى الوراثة ، وتحولا في مادتها . وقد أمكن استخدام هذه النظريات مع النبات والحيوان بشيء من النجاح ، فماذا في زعم أصحابها لا تنجح مع الإنسان ؟

ويحسن قبل أن نتناول ذلك أن نشير إلى أن تغير مجرى الوراثة وتحول مادتها أمر وقع بالفعل فيما سلف من ملايين السنين ؛ فلكائنات الحية اليوم استعدادات لم تكن لأسلافها الأقدمين ، ومعنى ذلك أنها اكتسبتها في وقت ما . وعلم الأحياء يسمى هذه الطارئة تحولا . وقد شوهدت في بعض أنواع النبات ، وتشاهد في الغالب في الحشرات وأنواع منحطة من الحيوان .

وهذا التحول هو عبارة عن تغيير يقع طفرة في جبلة النواة الجرثومية ، ويخلق جديداً فيها يكون حكمه حكمها من حيث التوريث . وقد تناولت الداروينية هذه الظاهرة فقررت أن التحولات التي تحدث صدفة تحسيناً وجدة في النوع ، تتيح لحاملها مزية في الجهاد من أجل الحياة تنتقل منه إلى ذريته . أما ما يكون فيه « التحول » ضاراً مؤذياً فسرعان ما يكون نصيبه الفناء .

فمذهب الانتقاء الذي يرى إلى رفع الجنس بأكمله إلى مستوى خيرته ونخبته ، يجد إذن في التحولات الصالحة ما يكفيه . وهي تحولات تتكرر في مئات آلاف السنين التي يتطور في خلالها الجنس .

ولم يهتد العلم إلى تعليل هذا التحول تعليلا واضحاً كل الوضوح ، فالعهد في تحقيق المؤثرات والظروف التي تخلق مثل هذا الخلق الفجائي في كيان المادة الوراثية الثابتة كل الثبات ، إنما هو على الفروض وحدها . وقد لوحظ أن « التحول » وإن وقع فجأة ، أيقع في أوقات دورية إلى حد ما ، بفعل مؤثرات خارجية لم تحقق التحقيق الكافي .

فإذا كانت التحولات التي تقع فجأة على مر الزمن ، ويكون حكمها حكم المادة الوراثية المركبة في الأنواع من حيث التوارث — إذا كانت هذه التحولات طبيعية لأنها تنتج بمؤثرات خارجية من فعل الطبيعة ، فإن ثمة جهداً وسعياً حثيثاً لإحداث مثل هذه التحولات صناعياً ، وجعلها تتوارث كالتحولات الصناعية .

وقد أجريت تجارب في هذا الباب في كل من الحيوان

والنبات ، فنقلت بعض أنواع الفيران إلى مناخ أحر مما اعتادته . فلما تناسلت جاء النسل طويل الذيول . فأعيدت إلى مناخها الأصلي ، فجاء الجيل التالي محافظا على هذه الظاهرة ، لكنها عادت فاختفت فيما تلا من الأجيال بعد ذلك . وحُقنت بعض الأرانب لتغيير لون أعينها ، فتأثرت الأجنّة بالحقنة ، لكن الأجيال التالية بعدها سلمت من هذا التأثير ، وبقيت المادة الوراثية في هذا النوع على حالها .

وقد قطعت ذيول أجيال متعاقبة من الفيران فلم تولد هذه الأجيال ولا التي تلتها قصيرة الذيل ؛ وقطع ذيل قطة فجاء صغارها قصار الذيل ، فاغتبط أصحاب النظرية بهذه النتيجة ، لكنه سرعان ما تبين أن قصر الذيل إنما جاء من أب قصير الذيل .

فهاتان المحاولتان : الاستعانة في الحالة الأولى بالطبيعة لإحداث تحول في مادة الوراثة كتغيير المناخ ، واللجوء في الثانية إلى مؤثر خارجي كالحقنة ، وكالقص الذي قطع ذيل القطة — هاتان المحاولتان تدلان رغم ما أصاب بعض حالاتهما من النجاح الجزئي العارض الذي لم يلبث أن اختفى أثره ، على أن جبلة النواة الجرثومية أو المادة الوراثية تظل مستقلة عن الجسم لا تتأثر بما يطرأ عليه ؛ فلا تأتي الذرية بلا ساق إذا بترت ساق للأب أو الأم ، ولا تولد قطة بلا ذنب إذا بتر ذنب الأب أو الأم . وإذا حدث تغير في خاصية من خواص الخلقة ، كلون عين الأرانب من حقنة معينة لم يكن هذا « تحولا » بالمعنى الذي أسلفنا إليه ، لأن التحول إذا وقع بات حكمه حكم مادة الوراثة ، وانتقل إلى الذرية جيلا بعد جيل .

* * *

بقي أنه قد جربت مع الإنسان نفسه تجارب لإحداث « التحول » المنشود ، وإكسابه بذلك خواص يتوارثها جيلا بعد جيل ، فلم ينجح في الإنسان ما نجح مؤقتا في الحيوان ، كما شوهد في تلك الفأرة التي نقلت إلى منطقة أحر وكما يشاهد في مخلوقات أحط . فقد نقل الإنسان إلى أجواء أخرى غير جوه للتأثير المباشر في مادته الوراثية ، فلم يتأثر بحال من الأحوال .

ويلاحظ أنه يسود الناس اعتقاد بأنه في مكنة الحامل ، بنوع من المؤثرات الإيحائية ، أن تكسب الجنين محيّا وخواصّ خاصة . بل إن هنالك كتبا تتناول مثل هذه الحالات ، وتبنى عليها طريقة « تَنْبيل » الجنس البشري .

غير أننا نقول إن بعض الحالات التي يجزم بصحتها إنما هي حالات أمهات ثبت أنها على استعداد هستيري من شأنه أن يجعل للقوى النفسية تأثيراً في أجنتها . أما الأمهات اللواتي تكون حالتهن طبيعية فهن بمنجى من هذه التأثيرات .

* * *

فالجهود المبذولة « لتَنْبيل » الجنس البشري ، ورفعه إلى مستوى خيرته ونخبته بطريقة أو طرق مفتعلة ، يمكن أن يقال فيها إنها أخفقت في الوصول إلى هدفها إخفاقا تاما . إذ كانت كل التجارب التي جربت ، والعمليات التي أجريت لم تصل إلى التأثير بصورة دائمة في جبلة النواة الجرثومية أو مادة الوراثة ، ليضمن انتقال التنبيل المزعوم إلى الذرية والأجيال المتتابعة .

وقد تناول جريندل Gruendel في كتابه « بشر المستقبل » هذه المحاولات بالتعقيب الكافي ليثبت أن السنن الطبيعية أجدى في رفع المستوى البشري من الاصطناع . ويحملنا ضيق المقام على الاكتفاء بالإشارة دون الإفاضة ، وعلى إرجاء البحث فيما يُقِلّ بين البشر من أصحاب العقول الضعيفة والمفطورين على الإجرام ، ويكثر من عدد الحاذقين وأصحاب المواهب ، إلى فرصة أخرى .

محمود الدسوقي

نماذج بشرية :

أوليس

١ – فى الإليـاذة

أوليس أحد أبطال هوميروس . رأيناه للمرة الأولى فى الإلياذة على رأس جنده الذين جمعهم من مملكته بجزيرة كورفو ، التى لا تزال الأمواج تلطم صخورها إلى اليوم ، وذلك لكى يساهم مع بلاد اليونان الأخرى فى حملتها الشهيرة على طروادة إحدى مدن آسيا الصغرى .

وكلنا لا ريب يذكر سبب تلك الحرب الضروس ، وأصداؤها التى سجلها شاعر اليونان العظيم لا تزال تتردد بجميع الآذان . ومن يستطيع أن ينسى هيلانة ، هيلانة مضرب الأمثال فى الجمال ، وإن كانت السبب فى تلك المحنة التى أثارت الغرب ضد الشرق عشر سنين متواليات ؟ قالوا : إن باريس أحد أمراء طروادة أتى يوما فى تجارة إلى شواطئ البليبونيزيا ، وإذا بهيلانة زوجة منيلاس ملك إحدى تلك الجهات تلهو على الشاطئ مع رفقة لها ، فهاله جمالها ؛ وكان الأمير مشرق الطلعة ، فوقع هو أيضاً بقلبها ، وكان ما شاءت الأقدار ، فتواعدا على الهرب سويا ، ونشرا القلاع إلى طروادة .

وعلم زوجها بالخبر ، فأخذته شهامة الرجال ، ونفرت مدن اليونان كافة إلى جوار الزوج الذى ثلم شرفه ، وتصدى لقيادتهم أجاممنون أخو منيلاس ، وأعدوا الحملة ، وأبحرت السفن ، وأرست حيث ضرب الجند حول طروادة الحصار ، وكانت معارك تبيض لهولها النواصى ، إذا صح أنها كانت كلها فى قسوة ملاحم السنة العاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءاً منها . وكم من أبطال تميزوا فى تلك الميادين الساحقة ! أخيل أشجع من ولدت الأمهات وأصلب الرجال عزما ؛ وإياس ذو الحول والطول ؛ وهكتور أنبل أهل طروادة وأخلدهم ذكرا ؛ ثم أوليس .

وفى الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الخارقين ، ولكنه أعمق دلالة وأمس بالأغريق المادى رحما من الجميع . أوليس أنموذج للشعب اليونانى ذاته بما فيه من قوة وضعف ؛ هو صورة واقعية للأخلاق اليونانية وللملكات اليونانية . وإلى هذا فطن الإغريق كافة ، فرأى كل منهم فيه نفسه أو جانبا منها بما نعرفه عنهم من الشجاعة وروح المغامرة وتفتح النفس للمعرفة ، والإقدام على المخاطرات مع القدرة على ملابسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة فى معالجة الناس والأشياء ، مما يدفعهم أحياناً إلى إسكات صوت الضمير ، والتعلق بالهدف دون نظر إلى نبل الوسائل أو مدى ما فيها من قسوة . وتلك كلها صفات سنراها عند أوليس فى تاريخه الطويل على تفاوت فى النسب ، وتطور فى الاتجاه وفقاً لسير الزمن وتقدم الحضارة .

صادف أوليس إذن هوى الشعب اليونانى الذى اطمأن إليه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رمزه الحى ، وإذا به يتطور بتطوره ؛ فلم تكد عصور البطولة تنقضى ويأخذ الشعب بأسباب الحياة العملية ، وينصرف إلى السيطرة على المادة ، وارتياد بقاع الأرض ، وركوب متن المياه التماساً للعيش ووجاهة المال ، حتى رأينا بطلنا يحتل المكان الأول فى الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانية ، وما هى إلا قصص لمغامرات أوليس أو أوديسيس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار . ونظر الشعب الإغريقى فرأى أنموذجه يسايره فى تطور خلقه واتجاهات نفسه فزاد به تعلقا ؛ حتى كان القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد ظهور أوليس إلى الوجود بخمسة قرون ، وإذا بسوفكليس المؤلف المسرحى الذائع الصيت يتخذ منه بطلا لروايته الخالدة « فيلوكتيت » Philoctète

وقد عمل الزمن فيه عمله ، فأصبح الماكر الذى لا يتورع من شىء فى سبيل الوصول إلى ما يريد . ومن عجب أن يسير رحلتنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأوديسا ، ثم ينتهى بخبث « فيلوكتيت » ، وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة ، ففساد المدنية .

فلنتبع إذن بطلنا نلتمس فيه صورة الشعب اليونانى بأكمله خلال مراحله التاريخية ، وليكن حديثنا اليوم قاصرا على أوليس الإلياذة ، ففيه حقيقة نفسه فى ذلك الحين ، وأشباح ما سيصير إليه فيما بعد .

وكان يوما مشهودا يوم رأينا أوليس لأول مرة ، فلمسنا ما تحلى به من شجاعة وحزم ومعرفة بحقائق النفوس .

وذلك أن أخيل العاتى النفس — غضب من أجاممنون رئيس الحملة ، إذ سلبه قسرا أسيرة جميلة كانت من بين أسلابه ، فتخلى عن القتال ؛ وكل من يذكر شجاعة أخيل التى لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الإغريق إذ ذاك من أخطار وخصومهم رجال ذوو بأس . وهذا ما كان ، فقد انهزم الإغريق وانسحبوا إلى الشاطئ يعدّون سفنهم للإقلاع ، وكادوا يعودون أدراجهم خائبين ، لولا أن تداركت الأمر « بالاس » ربة الذكاء وحامية الأغريق .

« فانطلقت من أعلى الأولب بأجنحة حثيثة إلى حيث رسو السفن . وهنالك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيس . وجدته جامدا فى مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه . إلى جانب البطل وقفت الإلهة وخاطبته قائلة : يا ابن لايرت ! أيها الإلهى ! أى أوليس الحكيم ! أتنطوون بصدور وطنكم وتتركون لبريام وأهل طروادة غنما لنصرهم هيلانة الإغريقية ؟! وبيلاد الأغريق ولّت ، ومن أجلها هلك كل من استشهد من إغريق حول طروادة بعيدين عن وطنهم ؟ ! هيا ! بلا مهل ! إلى صفوف الجند ! بقولك المقنع أمسكهم عن الهرب ، لا تسمح لسفنهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فإذا بها « بالاس » التى تتجه إليه بالحديث ، وهو الإغريقى الصميم الذى يعرف كيف يجل إلهة الذكاء ، ربين أحضانها نما ، وبإشعاع منها متّ إلى المجد بسبب وهاله الموقف وقد هلعت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجاة . وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير العقول حرصا عليها . فكيف له أن يقف بمفرده أمام جيش بأكمله وقد دب الخوف بين الهاربين ! وهبه فعل ، أو لا يرى أنه هالك لا محالة ؟! قد تستطيع شجاعة حمقاء أن تجازف بحياة صاحبها فى يوم كهذا دون أن تصل إلى شىء . وأما أوليس فقد كان أحكم من الحمق ، وأشجع من الإحجام ؛ كان ذا قلب مفكر ، ولذا أقدم فى حزم المستنير ، فألقى معطفه وأخذ من أجاممنون صولجان الملك ليكون له الحق فى مخاطبة الجند ، ثم التأثير فيهم بما يحمل فى يده من رمز الولاية . ولعله كان يدرك بفطرته السليمة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيه لحديثه ، على نحو ما كانت ألفاظه تستطيعه بدون تلك العصا السحرية أو غيرها من المظاهر التى تعمل فى جماهير الناس ، بل وخاصتهم فعلها العجيب . ثم سار ، « وكلما لقى أحد الملوك أو القادة أوقفه بقوله المعسول : أيها البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفا ؟! اثبت وثبّت جندك . وأما إذا لقى جنديا مغمورا يحث رفاقه على الهرب ، فإنه يضربه بصولجانه ويعنفه بأمرّ القول : أيها الشقى ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيها الجندى الخائر القوى ، المنحل العزم ، يا من لا اعتبار له فى صفوف قتال ولا مجلس مشورة » !

وهكذا تهيئ الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز .

ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف، وقد عرف كيف يمتلكها جميعاً، إما بتحريك معاني القوة والكبرياء في القلوب التي تستشعرها، أو الخوف والخضوع عند من ألفوها. وهذه أدلة الذكاء الذي ينفذ إلى حقائق النفوس ويلابس الواقع، وهو بعد ذكاء لا يعوق الإقدام بل ينير خطواته.

وانتهى به المسير إلى موضع الجمعية التي انعقدت للتشاور في الأمس، وإذا بترسيت يخطب الجند ليحملهم بقوله النادر الخداع على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم. وكان ترسيت هذا ثرثاراً مسرفاً، خصب النفس في الوقاحة والجرأة ومجابهة كل خزي؛ كان يحذق تجريح الملوك يثير به ضحك الجماهير وسخريتها، وهو أخس المحاربين. رجل أحمش أعرج ضيقت كتفاه المقوستان من صدره، وعلى رأسه المدبب كانت تتأرجح بضع شعرات شتيتة. وفطن أوليس لساعته أنه لابد له من تغيير الجو السيطر لتهدأ النفوس من ثورتها، وتعود عن الاتجاه الذي انصرفت إليه. فأسرع إلى ترسيت وضربه بالصولجان ضربة ترك بظهره سناماً كسنام النوق، فخر باكياً منشولا بعد أن كان يصول ويجول منذ هنيهة كأسد الغابة. وكان الجند يعرفون فيه الجبن والفهاهة، فملئت أصواتهم بالضحك. وهذا ما قصد إليه أوليس الذي كسب المعركة، إذ تبدل الجو وسكنت القلوب. وهنا علا المنصة وما زال بالمحاربين يقنعهم بضرورة البقاء ليستولوا على طروادة، حتى استمعوا له وانقادوا إلى رأيه؛ وذلك لأنه عرف كيف يخاطبهم، وهم الرجال المطربون الذين يحركهم الكبرياء، كما يقودهم الجشع المادي والطمع في الأسلاب، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة، وقد قضت تلك الإرادة أن يحاربوا وأن ينتصروا. ففيم التراجع ؟! والخطيب من التفاؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هتفت له مؤيدة متحمسة.

وكان هذا من أجل ما نعرف في حياة أوليس من مواقف؛ وفيه تجلت صفاته النفسية: إقدام في حكمة، وخبرة بدخائل النفوس، وذكاء نافذ، وثقة بالنفس.

وعاد الإغريق إلى أسوار طروادة يشددون عليها الحصار، وبرز لهم أبطال المدينة يدفعونهم عنها. وأما الشيوخ فكنت تراهم يتراءون بأعلى الأسيجة حيث أخفوا أماكنهم ليشهدوا القتال «كتلك الصراصير التي تزقزق فوق الأغصان، بينما الحصاد يعملون مناجلهم في حقول الغلال»؛ وتمر بهم هيلانة فيروقهم جمالها، ويذكرون أن امرأة كهذه تستحق أن يقتتل من أجلها الرجال. وثارت ببريام رغبة الاستطلاع، فأوقف الفتاة يسألها: «حدثيني يا بنيتي العزيزة عن هذا البطل، هذا الذي يقصر عن أجاممنون بمدى رأسه، وإن يكن صدره وكتفاه أعرض منه؛ وسلاحه راقد إلى الأرض الخصبة! وأما هو فيسير بين جنده كما يسير الكبش في الجزة بين نعاج البيضة». وأجابته هيلانة: «هذا ابن لايرت، أوليس الحكيم. غذته أرض إيثاكا التي تعرقها الصخور الجدباء. بطل واسع الحيل حكيم المشورة».

هذا هو الرجل: أيِّد كالكبش، حكيم كريس.

وكم كانت له في الإلياذة من بطولة. ومن العدل أن نذكر سيره في ظلام الليل مع ديوميد ليتعرف على مواقع العدو، وما كانت لهما من مخاطرات جنونية. وفي اختيار ديوميد له أكبر دليل على أنه كان معروفاً بالشجاعة الصادقة إلى جانب أصالة الرأي. ولقد جرح ديوميد في تلك الليلة القاتمة وأحاط به العدو، ولكن أوليس لم يتركه وحيداً، بل ضمد جروحه وعاد به.

ولم تكن شجاعة أوليس جسارة قلب فحسب، بل شجاعة حقيقية؛ فهو قوي الجسم قصير صلب متين ألا

ترى كيف أنه لم يخش بأس نفسه ، بل نازله فى السباق ، وانتصر عليه يوم أن أقام أخيل المسابقات الرياضية الرائعة احتفالا بدفن صديقه العزيز بتروكل !!

ولكنها بعد شجاعة تتميز عما سواها . فهو يخضع فى الأغلب وثباتها لحكمته ، وحكمته إحساس صادق بالممكن ، وقسط واعتدال ، ثم غريزة تدفعه إلى المداراة والدهاء ، ولهذا اختير على رأس وفد ذهب إلى أخيل ليثنيه عن عناده ؛ وهنالك وجه إلى البطل خطبة تكاد تطير بأجنحة خفيفة ، خطبة مؤثرة نافذة قوية ، ولكنه أمام عناد أخيل لا يُلح بل يتركه بابتسامة حزينة .

ومن ثم نراه رغم شجاعته لا يحجم عن الهرب إذا قضت الضرورة . أولم يرفض أن يعود إلى القتال مع أخيل بعد موت بتروكل ! « أخيل ! يا ابن الآلهة ! إنى أعرف شجاعتك ، ولكن الجند جياع ، فلا تدعهم الآن إلى القتال ليطاردوا العدو إلى مدينته . مر الجند يتغذون بالقمح ويطفئون ظمأهم بالنبيذ فتتجدد قواهم . وما يستطيع المقاتل إذا حرم الطعام أن يصمد من الفجر إلى غروب الشمس ، فلابد — مهما كانت حرارة قلبه — أن يثقل التعب قليلا قليلا جسمه المنهك ؛ يهاجمه الجوع والعطش فتتقصف أرجله وسط القتال » .

وأما أخيل فما يريد أن يستمع القول ، وكيف يتحدث عن ولائم وراحة وقد مات صديقه بتروكل وما زال دمه يطلب الانتقام ، وقد حل الأسى قلوب الرجال . ولكن أوليس يرد عليه فى شىء من التهكم بل المرارة : « يا ابن پليه ! أيها البطل الذى لا يقهر ! لست أشك أنك تفوقنى قوة إذا أخذت بسلاحك ، ولكنى أعتقد أنى أفوقك حكمة ، فسنى فوق سنك . لقد توفرت لى السنين فأخذت عنها خبرة تنير لى الطريق . لتدع إذن مشورتى تطامن من حدة نفسك . لقد مل الجند الذابح بعد أن غطت السيوف منبسط الريف بالقش وضعف المحصول . وقد مال زيس — فيصل الحرب — بالميزان . وما بالجوع يبجل الجند موتاهم ، وفى كل يوم تتساقط الأبطال وفيرة العدد . فمتى نضع حدا لآلامنا ؟ ! لنؤد واجب التحية لموتانا ، ولنستجمع عزمنا . لنسكب الدمع يوما على قبور من فقدنا ، ولنشبع جوعنا ، ولنرو عطشنا نحن الذين أفلتنا من الموت حتى نستطيع إذا ارتدينا دروعنا الأبية أن نقاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أوليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالا للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدثه خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شدائد الحرب ووجوب التريث وتجديد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يدفع عنها تعالى أخيل نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يعترف للغير بفضله ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثبت فيها .

وثمة مواقف أخرى تدل على أنه وإن يكن صادق النزعة ، إلا أنه قد عرف دائما كيف يضع صالح الوطن فوق نفسه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعد ورع تقى يخشى الآلهة ويحترمها ، ولكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « بالاس » إلهة الذكاء ؛ فهو يخضع لها خضوعا تاما ؛ وذكاؤها صاف وحكمتها عملية . يعتمد على الحظ ، ولكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يُعد لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلا لأصدق الصفات اليونانية من أى بطل آخر من أبطال الإلياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه المسرف الكبرياء ، المشئوم الشجاعة . ولكن الزمن سار سيره ، وأخذت الحكمة تطغى شيئا فشيئا على نفس أوليس ، وتتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » بالمقال الآتى .

دكتور محمد مندور

في كتاب عبث الوليد :

تصحيفات يغفلها أبو العلاء

كان مما ورد على المعري وهو رهين محبسيه نسخة من ديوان أبي عبادة البحتري فيها تصحيف وتحريف ؛ وقد طُلب إليه أن ينظر فيها فيصلح من خطئها ويعالج من عللها فأملى الشيخ في ذلك كتابه (عبث الوليد) ، وقال في مقدمته : أثبت ما في ديوان البحتري مما أصلح من الغلط الذي وجد في النسخة المكتوب في آخرها أنها بخط ظفر بن عبد الله العجلي ، وإنما أثبت ذلك ليكون مولاي الشيخ الجليل أدام الله عزه كأنه حاضر للقراءة ... إلى آخر ما ذكر .

... ولقد غريت بمراجعة هذا الكتاب وأدمنت النظر فيه ، حتى اصبح لي — بعد تردد — أن أدعي الوقوع على أشياء فيه يمكن أن ندخلها في باب الهنات . وأنا أورد هنا بعض ما ينتظم منها في سلك (التصحيف) فقط ، مما لم يصلحه أبو العلاء على كثرة ما أصلح من التصحيفات ؛ وأقتصر من ذلك على ما لا مجال للجدل فيه ، ولا مرية في غفلة المعري (رحمه الله) من النص عليه وتصحيحه .

١ — جاء من قصيدة البحتري التي أولها : ما يمنَّى ذاك الغزال الغرير :

من قباذٍ ويزدجرْدَ وفيرو ... زَ وكسرى وقبلهم أردشير

قال أبو العلاء : هذا على التقديم والتأخير ، وفرّق بين واو العطف وأردشير بقوله (قبلهم) وإنما الحد أن يقول : وكسرى وأردشير قبلهم ، إلا أنه اضطر إلى ذلك كما قال ثعلبة بن صعير المازني .

أعميرُ ما يدريك أن رُبَّ فتية ... بيض الوجوه وفي الحروب مساعر

أي ومساعر في الحروب ... إلى آخر ما قال مما يدور حول جواز الفصل بين المتعاطفين بشبه الجملة (الظرف كما في بيت البحتري أو الجار والمجرور كما في بيت ثعلبة) . وكل هذا تخريج مبني على تصحيف لم ينص عليه أبو العلاء ، إذ صحة الكلام : (... وفيروز وكسرى وقيلهم أردشير) ، والقيل الرئيس أو الملك .

٢ — ومن التي أولها : لو أسعدت سعدى بتنويلها :

لاكانت الدنيا ، وكانت أرت ... فاضلها تابعَ مفضولها

وقفا عارفةُ لم يكن ... مقلولُها بادي مقبولها

قال : وقوله مقلولها كلمة قلما تردّد في أشعار الفصحاء ، وإنما يتكلم بها العوام ، وكأنهم يضعونها موضع الصفر كما قال[1] الميسور في معنى اليسر ، والمجلود في معنى الجلد . وقد يجوز أن يكون قولهم (كان كذا على المقلول) أي على القلة ؛ ويحتمل أن يكون المقلول في معنى الشيء الذي فيه قلة ، كما يقال رجل مجنون أي به جنون ، ومحموم أي به حمّى . اه

قلت : وهذه تخريجات صحيحة لكلمة (مقلول) ولكن أبا عبادة لم يشر إليها في كلامه البتة . وإنما صحة البيت هكذا :

وقفا عارفة لم يكن ... مقولُها بادي مفضولها

ومعنى البيت واضح ؛ ويكون بين مقولها ومفضولها مطابقة معنوية من تلك المطابقات التي يتعشقها أبو عبادة . وقريب من هذا البيت في معناه قول البحتري في قصيدة أخرى :

حططنا إليه قوله عن فعله ... ومن يفعل الإحسان فهو يقول

٣ — ومن التي أولها : ألا فات من تلاقي تلاف ؟ :

ما تراه أعفَّ في زمن الجوْ ... رِ يُرى منه في زمان العفاف

قال المعري : كان في الأصل أعفَّ في زمن الجور ،

(١) لعله (قالوا) .

والصواب وعفّ بالواو . وهذا كما يقال للرجل : ما تراه وقد عف في زمن الجور يفعل في زمن العفاف ؟ وكأن (قد) ها هنا مقدرة مع الواو ... الخ . قلت : ليت أبا العلاء وقد تنبه إلى هذا كان يتنبه أيضاً إلى أن (الجور) مصحفة عن (الحون) مصدر خان ، إذ المعنى على ذلك أقوم ، ويكون ثمة طباق بين الحون والعفاف في آخر البيت ، مما يغرم بإيراد مثله أبو عبادة .

٤ — ومن التي أولها : لسرو أيسر هذا السير يكفينا :

وإن نشاء شرعنا في نطوله
شروعنا ، فأخذنا منه ما شينا

قال : كان في النسخة (وإن نشأ) وهذا غلط لا يجوز مثله على هذا الرجل ؛ ولعله (وإن همنا شرعنا ..) أو نحو ذلك مما يقوم مقامه مثل : أصدرنا وإن ظمينا وهو كثير . ه .

وأرى أن الأمثل في تصحيح هذا البيت أن نجعله (ولو نشاء ...) . فنحافظ على الفعل (نشاء) مراعاة للترديد الذي قصد إليه البحتري بقوله في آخر البيت : فأخذنا منه ماشينا — مخفف شئنا — والترديد كما عرّفه ابن رشيق هو[1] : أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسيم له ؛ وقد ضرب لذلك أمثلة عدة منها قول ابن المعتز :

لو شئت لاشئت خليت السلو له
وكان لا كان منكم في معاناتي

فالترديد في (شئت ولا شئت) و (كان ولا كان) . على أننا بوضع (لو) موضع (إنْ) نلزم البحتري استعمال لغة مرجوحة ، هي وحذف اللام من جواب لو في حالة الإثبات . وكان الأصح أن يقال : ولو نشاء لشرعنا ... ولكن استعمال اللغة الضعيفة خير في كل أحواله من الوقوع في اللحن أو مخالفة الوزن .

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ج ٢ ص ٢ .

٥ — ومن (الترديد) الذي قصد إليه البحتري أيضاً قوله من بائيته التي مطلعها :

« رأى البرق مجتازاً فبات بلابل »

كريم إذا ضاق الزمان فإنه
يضيق الفضاء الرحب في صدره الرحب

وضع أبو العلاء (يضيع) موضع (يضيق) ثم قال : كان في النسخة يضيق الفضاء الرحب ، وقد يحتمل هذا المعنى على أن تكون (في) مؤدية معنى (عن) ، كأنه يضيق الفضاء الرحب إذا قيس بصدره ، ويضيع أبلغ في المعنى . ه

وأقول إن من أمعن النظر في دراسة البحتري ، وعرف خصائص أسلوبه الشعري يتحقق لديه أن الرجل لا يرضى بكلمة (يضيق) هنا بديلا . فلنشكر أبا العلاء على هذا التخريج الذي خرجه — باعتبار أن الفعل يضيق — من أن « في » تكون مؤدية حينئذ معنى « عن » ، فذلك هو الصواب في البيت لا غيره .

٦ — ومن التي أولها : هواها على أن الصدود سبيلها

متى لم يمل بالنفس فيه عن العلا
إلى غيرها شيء سواه يميلها

يشرح أبو العلاء هذا البيت شرحاً لا يخلو من غموض ، وهو يتوقف خلال ذلك عند الضمير في (سواه) ، ولعله ، كما يفهم من كلامه ، كان يرى صحة الكلمة (سواها) بعود الضمير على (النفس) في الشطر الأول . ولكن كل هذا لا يزيل لبس المعنى ، وإنما يزيله أن ندع (سواه) على حالها ثم نصحح التصحيف الواقع في الكلمة الأولى (متى) وصوابها (فتى) ، ويكون البيت :

فتىً لم يمل بالنفس فيه عن العلا
إلى غيرها شيء سواه يميلها

والمعنى أن هذا الفتى الممدوح لا يميل بنفسه عن العلا شيء ، مهما كان (هذا الشيء) يميل بنفس سواه ويتحرف بها من سبيل المعالي ...

(جرجا) محمود عزت عرفة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٨٤ — الثلاثاء ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ٦ من يونيه سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العــــــدد

الزحف على روما

منذ بضعة عشر عاما أسلمنى قطار الصباح إلى مدينة روما، فرأيتها لأول مرة ... «زحفت» عليها من الشمال، لا كما تزحف الجنود، بل كما يزحف الحجاج، الذين يهرعون إليها فى كل عام من جميع أركان الأرض. كانت الحكومة الفاشية إذ ذاك فى أوج عزها، وفى خير أعوام حكمها، لم تكن وقتئذ تفكر فى الفتح والقتل وسفك الدماء؛ بل كانت منهمكة فى التعمير والإصلاح، والتشييد والبناء. طهرت مدينة روما من تلك الأدران المادية والأدبية التى تشوه جميع العواصم — أوربية كانت أم غير أوربية — من غير استثناء. حتى صارت مثالا بديعاً للأمم، لو أن الأمم قادرة على أن تنهج ذلك النهج. وأخذت ترفع الأحجار والتراب والأنقاض عن آثار العهود الغابرة، حتى جعلت من المدينة سفراً تاريخياً ضخما، يحتوى بين دفتيه صور القرون وأخبار السنين.

ولقد أخذت أطالع ذلك السفر فى شوق ونهم، فأقلب طرفى فى الكوليسيوم، ذلك المحفل الضخم، الذى كان يتسلى فيه الرومان برؤية صراع الأسود، وتطاحن الأبطال لا كما تتسلى اليوم، فى ظل هذه الحضارة الناعمة، بمناظر الكباريه، والدعابة الفاترة، والتهتك الوضيع. وأجوب متاحفها المفعمة، حيث تنعم الروح بروعة الفن الإيطالى فى العصور الوسطى، وفى زمن النهضة. ثم أخترق «التيبر» إلى ضفته الغربى، فأزور أروع معابد أوروبا، كنيسة القديس بطرس؛ وأتجول فى مدينة الفاتيكان، التى لا تزيد طولها على الميل، وعرضها على الميل، وهى مع ذلك أجل مدن أوربا، وأرفعها قدراً. فأرى فيها مجد روما الحديث، والخلف الحقيقى لدولة روما القديمة.

إن في أرجاء الأرض بقعاً أتيح لها من الحظوة وازدهار الجد، ما جعلها ممتازة على البقاع، فاحتلت موضع السيادة والرئاسة بين الأمكنة. ولقد يكون من السهل أن يدرك المرء أن بعض المواقع حقيقة ذو ميزة فائقة، بحيث لا بد أن تنشأ فيه مدينة عظيمة. من السهل أن ندرك مثلا أن مكان ممفيس أو القاهرة حيث تلتقي مصر السفلى ومصر العليا مكان ملائم لعاصمة عظيمة؛ وعلى ضفة البسفور حيث تلتقي أوربا وآسيا، ويتصل البحر الأسود بالبحر الأبيض مكان لمدينة عظيمة، وحاضرة باهرة. ولكن الذي يتأمل موقع روما لا يجد من السهل أن يتبين فيه ما يؤهله لكل هذا الشرف الضخم، والمجد التليد والطارف. فإن ما شئت من ميزات موقعها: من أنه يتوسط الجزيرة الإيطالية بين الشمال والجنوب، ومن أنه على نهر التيبر، وهو من أطول أنهار إيطاليا، وأكبر الأنهار التي تجري في جبال الأبنين، وأنه الموضع الذي تستطيع سفن البحر أن تصل إليه من مصب التيبر. وأن في هذا المكان كثبانا ترتفع فوق مستوى المستنقعات القريبة، ولهذا فهي تصلح لبناء المساكن البشرية... فإن كل هذا وغيره من الميزات الطبيعية، فإنك لن تستطيع أن تجد في ذلك كله ما يفسر تميز الآلهة، التي جعلت من هذا الموقع مركزا من أكبر مراكز الحضارة البشرية على مدى الأجيال والقرون.

لقد ولدت روما في زمن قديم يحيط به ظلام لا تستطيع أن تخترقه أبصار الباحثين والعلماء. وربما كان ذلك قبل ميلاد السيد المسيح بعشرة أو بعشرين قرنا. ثم تأخذ روما في الظهور فإذا هي بلدة مستعبدة مستذلة يحكمها طغاة من سكان أتروريا. وقد كان حكمهم المدرسة القاسية التي تعلم فيها أهل روما حب الحرية وبغض الظلم؛ فما برحوا أن طردوا الطغاة من بلادهم، وأسسوا جمهورية روما في عام ٥٠٩ قبل ميلاد المسيح. ألعل هذا هو السر الأكبر فيما بلغته روما من المجد فيما بعد؟ وأي نشأة لشعب أفضل من أن ينشأ في حومة الكفاح لنيل حريته من العدو الطاغي الذي يريد أن يذله ويستغله؟ مهما يكن من أمر، فإننا نشاهد في الرومان القدماء خلقاً امتازوا به، وهو الثبات في الكفاح، فلقد ينهزمون المرة بعد المرة، ثم يعودون إلى الجهاد بعزم متجدد.

بتلك العزيمة المتينة استطاعت روما أن تبسط نفوذها على إقليم لاتيوم، ثم لم تزل بعد ذلك تتسع وتنمو حتى بسطت سلطانها على الجزيرة الإيطالية كلها. ثم جاء كفاحها الضخم، الذي شب بينها وبين مدينة قرطاجنة. ودارت الحرب بينهما في صقلية في المرحلة الأولى؛ ثم أغار أمير قرطاجنة، هانيبال، على إيطاليا نفسها في المرحلة الثانية، ومنيت الجيوش الرومانية على يديه بالهزيمة بعد الهزيمة. ولكن قوة روما كانت تتجدد دائما، وكان هانيبال يحارب بجيش من الأجراء المرتزقة، وروما تحارب بأبنائها الأحرار. فلم يلبث هانيبال وجنوده أن أجلوا عن أرض إيطاليا. وفي المرحلة الثالثة أغارت روما على أرض قرطاجنة ومحتها من الوجود. ولم يبق بعد زوالها أمام روما عدو يستحق الذكر. فلم تزل تنمو وتمعن في النمو، حتى أصبحت دولة ضخمة تحيط بالبحر الأبيض المتوسط كله، وتنتظم النصف الجنوبي من أوربا.

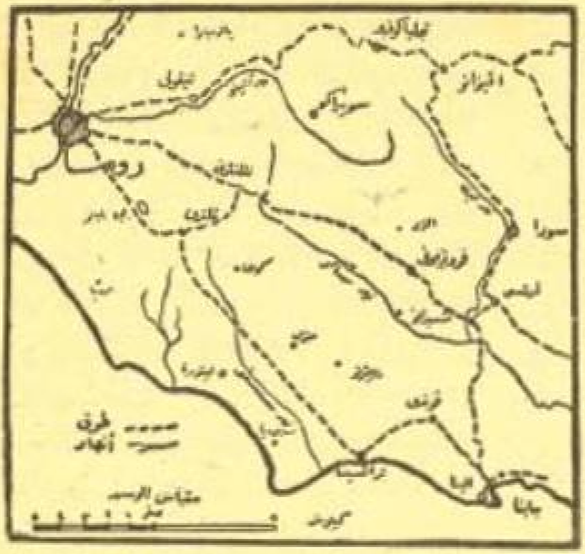
إن روما مثال عجيب، يوشك أن يكون منقطع النظير، لبلدة مفردة لم تزل تنمو وتكبر وتتضخم حتى أصبحت أكبر دولة في العالم. ولكي ندرك هذه الحقيقة يحسن أن نقارن بينها وبين عاصمة مثل ممفيس أو القاهرة. فإن القطر المصري قد وجد وتكون قبل أن توجد له عاصمة. فالقطر هو الذي خلق العاصمة. أما روما فهي العاصمة التي خلقت القطر، وأنجبت الدولة...

ولقد تقلبت على روما الخطوط، وبعد أن ذاقت العيش الرغد، والحياة الناعمة بضعة قرون، أخذت تتجرع الكؤوس المرة، وتعاني من ضروب الشقاء، ما لم يتعرض

له من المدن إلا القليل. كانت تجاربها عظيمة ضخمة واقعًا: فكان مجدها عظيمًا وشقاؤها عظيمًا، والكأس التي تشرب بها واسعة مترعة، تجرعت منها الشهد زمنًا والصاب أزمانًا؛ وقلب لها الدهر ظهر المجن، فبعد أن كانت فاتحة غازية صارت مفتوحة يغار عليها، وبعد أن كانت تزحف على الأقطار والأمصار، أخذت الجيوش تزحف عليها وتوردها موارد الدمار. لم تكن روما تستحق كل هذا العقاب الذي عانته على أيدي الشعوب البربرية. ولكن لم يكن بد من أن تلقى الجزاء الذي لا مفر منه، لمن يمعن في الفتح والغزو والتوسع. فإن سيادة العالم صعب، بأعط لا تستطيع كواهل دولة أن تنهض به إلا فترة محدودة من الزمن، ثم تخور القوى على مر السنين، ويتزعزع العرش، ويسقط الصولجان وسط الرغام.

***

واليوم يتجدد الزحف على روما في ظروف عجيبة، لم يكن يحلم بها أحد. ولو أن إنسانًا أنبأنا منذ عشر سنين أن جيوشًا ستأتي من الجنوب لفتح العاصمة الإيطالية، لما أصغينا إلى مثل هذا القول إلا على أنه ضرب من العبث. ومع ذلك فها نحن نشهد جيشًا عجيبًا قد أظل روما، وليس له في الجيوش التي يعرفها التاريخ نظير. جيش يتألف من جنود من أمريكا بينهم الكندي وساكن الولايات المتحدة والبرازيل. وفي الجيش كتائب من إفريقية الجنوبية، ومن السنغاليين السود؛ وفرق من الجزائر ومراكش؛ وأفواج من شعوب الهند المختلفة؛ وكتائب من زيلندة الجديدة؛ وقوات فرنسية من صميم فرنسا؛ وزمر من أهل بولنده؛ وفرق عظيمة من شعوب المملكة المتحدة: من إنجلترة وسكتلنده وإرلنده وويلس. والغريب في هذا كله، أن هذا الجيش الزاحف على روما يشتمل أيضًا على كتائب إيطالية! ولا عجب إذا كانت المدينة



العريقة تفتح عينيها من شدة الدهشة لرؤية هذا الجيش العجيب، المتعدد الأشكال والألوان، الذي لا تعرف له في تاريخها الطويل نظيرًا.

ولا شك أن قيادة هذا الجيش المتعدد الأجناس والألسن، وما لقيته هذه القيادة من التوفيق، أمر ينطق بالثناء على قادته جميعًا، وعلى القيادة العليا بوجه خاص. أما العدو الذي يحاربه هذا الجيش الضخم، فهو عدو واحد من جنس واحد، وأفراده وقواده يمتون بصلة إلى أولئك الجرمان القدماء، الذين كان الرومان يسمونهم البرابرة، والذين طالما أغاروا على أرض إيطاليا الغنية الوافرة الثمار والخيرات، فأشاعوا فيها الخراب والهلاك.

كانت أرض إيطاليا ذات الهواء الصحو المشرق، والتربة الكريمة الخصبة، مطمح أنظار أولئك الشماليين، الذين حاولت روما عبثًا تمدينهم وإخضاعهم. وهؤلاء أحفادهم اليوم يتراجعون فوق أرض إيطاليا، فلا يتركون وراءهم دارًا عامرة، ولا شجرة قائمة، إذا أمكنهم تخريبها.

على أن الزحف على روما يحدث اليوم في ظروف تختلف عما عهدناه في الأزمنة السالفة. فقد كان الغرض الأكبر

فيما مضى الاستيلاء على روما نفسها ، أما اليوم ، فإن هذا ليس هدفاً مقصوداً لذاته . ومع أن الحلفاء يسرهم جداً أن يزول الحكم الألماني عن العاصمة الإيطالية ، فإن الاستيلاء عليها لا يختم فصلاً من فصول الحرب ، أو مرحلة من مراحلها .

بل الغرض الأول الذي تسعى إليه جيوش الحلفاء هو الانتصار في الميدان الإيطالي كله ، و هزم الجيوش النازية وإجلاؤها عن أرض إيطاليا . ومتى تم لهم هذا كان ذلك بمثابة انتهاء مرحلة خطيرة في القتال . فالمعركة التي تدور اليوم هي معركة إيطاليا لا معركة روما . وقد بدأت هذه المعركة في الخريف الماضي ، يوم خرجت إيطاليا من الحرب ، وقرر الألمان أن يدافعوا الحلفاء عن أرضها ، فجعلوا من بلاد حليفتهم القديمة ميداناً من ميادين الحرب .

وتقدم الحلفاء بسرعة في المرحلة الأولى من القتال ، بحيث لم ينقض الخريف حتى كانوا قد استولوا على الثلث الجنوبي من إيطاليا ، بما في ذلك مدينة نابولي . ثم أخذوا يتقدمون بعد ذلك ببطء وبالتدريج ، لأن القوات الألمانية جاءها مدد كبير ، واستطاعت أن تقاوم مقاومة شديدة .

ثم جاءت مرحلة الشتاء الماضي ، والميدان يمتد من البحر الإدرياتي شرقاً إلى البحر الترهيني غرباً ، في مسافة تقرب من الثلثمائة من الكيلومترات . وهو يمتد في أرض شديدة الوعورة تخترقها جبال أبنين المتقطعة ، التي ترتفع قممها أحياناً إلى ألف وأحياناً إلى ألفين من الأمتار . وسواء أكانت مرتفعاتها عالية أم متوسطة ، فإنها تجعل الحرب في مثل هذا الميدان عملاً شاقاً بطيئاً . ولا شك أن المهاجم يلاقي فيه صعوبات وعقبات أكبر مما يجده المدافع . لذلك لم يكن من المستغرب أن كان تقدم الحلفاء بطيئاً أول الأمر ، وأنهم وقفوا أمام حصن كاسينو مدة طويلة دون أن يستطيعوا التغلب عليه .

وأراد الحلفاء أن يقوموا بعمل فيه تهديد مباشر لروما من جهة ، وفيه — إذا نجح — أخذ للجيوش الألمانية من الخلف من جهة أخرى . فأرسلوا حملة إلى الساحل الإيطالي جنوب روما مباشرة . ولكنهم لم يستطيعوا في الشتاء الماضي تحقيق أغراضهم . وانتهت المرحلة الثانية في شهر مارس الماضي والحلفاء مرابطون حول أنزيو في الشمال ، ووراء كاسينو في الجنوب .

وفي يوم ١١ مايو الماضي بدأت المرحلة الثالثة وقد أعد لها الحلفاء عدة هائلة . فلم تلبث كاسينو التي امتنعت أشهرا أن سقطت في أيام . واتخذ الحلفاء من وادي نهر ليري طريقاً يسلكونه في تعقب أعدائهم . وبالرغم من أن قادتهم حذرونا من أن نتوقع تقدماً سريعاً ، فقد كان تقدمهم من غير شك سريعاً . وعندما وصل الجيش الأمريكي إلى بلدة تراسينا على الساحل الغربي ، كان ذلك بمثابة إيذان للجيش الرابط حول أنزيو بأن يحاول هو أيضاً أن يخترق الخطوط التي تحيط به . فلم تمض أيام حتى اتصل جيش الشمال بجيش الجنوب . وأصبح الجيش الخامس الأمريكي مشرفاً على روما ، لا يحول بينه وبينها سوى جيش ألماني وقف دونها ليذود العدو ، أو ليؤخر تقدمه ما أمكنه التأخير . ولم يكن الغرض من هذا الدفاع الألماني العنيد الدفاع عن روما ، بل الغرض منه أن تعطى الجيوش الألمانية فرصة التراجع ، قبل أن يحاط بها وتضطر إلى الاستسلام .

ولهذا فإن سير هذه المرحلة من حرب إيطاليا يجب ألا يقاس بالاستيلاء على روما ، بل بما فقدته الجيوش الألمانية من عددها وعددها ، وبمقدرتها على الوقوف في خطوط جديدة شمال روما ومداومة الحرب ضد الحلفاء .

لقد وعد قادة ألمانيا بألا يدافعوا عن روما . ولعل هذا الوعد أن يتحقق ، وأن تنجو هذه المدينة الجليلة من التخريب والتدمير ، وإن لم يكن من الممكن أن تنجو تماما من جميع ويلات هذه الحرب .

محمد عوض محمد

عبـــد الله نديم

١٢٦١ — ١٣١٤ هـ

١٨٤٥ — ١٨٩٦ م

لئن كان يستحق الإعجاب من نبغ — والظروف له مواتية — من أسرة عريقة في الجد أو الغنى أو الجاه أو نحو ذلك مما ييسّر للأبناء أن يتعلموا ، ثم يشقّوا لهم طريق الحياة وطريق المجد ، فأولى بالإعجاب من ينبغ والظروف له معاكسة ، لا حسب ولا نسب ، ولا غنى ولا جاه ؛ بل ولا القوت الضروري الذي يمكّن الفتى من أن يجد له وقت فراغ يثقف فيه نفسه .

قد يدعو إلى شيء من الإعجاب منظر شجرة يانعة ضخمة مثمرة ، تعهدها بستانيها بكل ما يصلحها ، من وضع في المكان المناسب ، والغذاء الكافي ، والريّ المتوافر في أوقاته ؛ ولكن أدعى إلى الإعجاب بذرة طرحت حيثما اتفق فمدّت جذورها بنفسها تجدّ في حصولها على غذائها ، فقد تجده وقد لا تجده ؛ ونما كسبها الطبيعة فتكافحها وتتغلب عليها ، ثم هي آخر الأمر تكون أينع ما كانت شجرة وأضخمها وأوفرها إثماراً . كذلك كان من النوع الثاني « عبد الله نديم » ، كل الدلائل تدل على أنه سيكون نجاراً أو خبازاً ، ولو تنبأ له متنبئ متفائل لقال إنه سيكون نجاراً ماهراً أو خبازاً ناجحاً ؛ فأما أديب يملأ الدنيا ويقود الرأي العام ويحسب حسابه في كل ما يخطّه قلمه أو تنطق به شفتاه ؛ فلا يدور بخَلَد أحد حتى فاتح الرمل والضارب بالحصى .

هذا أبوه أصله من الشرقية ورحل منها إلى الإسكندرية وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصناعة (الترسانة) ، ثم لم يعجبه هذا العمل فاتخذ مخبزاً صغيراً يصنع فيه الخبز ويبيعه ، ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش .

فما بالك بأسرة من هذا القبيل ، مسكن متواضع ، وخبز إن توافر فإدام غير متوافر ، وملبس لا يراعى فيه إلا أن يستر الجسم ولا يلفت النظر ، وصحة تُرِكَ البتُّ فيها للقضاء والقدر .

ولكن « م مصباح » والد عبد الله رجل جادّ في عمله ، قنوع بكسبه ، مستقيم — بالضرورة — في حياته ، من بيته إلى مخبزه إلى مسجده . أرسل ابنه إلى الكتّاب على باب حارته كما يفعل الناس من مثل طبقته ، يرسلون أولادهم إلى الكتاب زمناً ما ، فإذا اشتد متنهم وقوي جسمهم أخذوهم إلى دكاكينهم في مثل صناعتهم التي تُتوارث كما يُتوارث المال .

ولكن عبد الله تفوّق في الكتّاب ، وظهرت عليه ملامح الذكاء ، فأراد أن يستمر في تعلمه ولم يمانعه أبوه . وكانت الطريقة المعبّدة لذلك أن يرسل الوالد ابنه إلى الأزهر ، ولكن أين مال الأسرة الذي يحتمل ذلك ؟!

على أنه في الإسكندرية — قريباً من بيتهم — مسجد هو صورة مصغّرة من الأزهر ، يدرّس فيه المشايخ ما يدرس في الأزهر وعلى نمطه ، وذلك هو مسجد الشيخ إبراهيم باشا .

فدرس فيه عبد الله نديم ما شاء الله أن يدرس ، ولكنه كان تلميذاً خائباً في هذه الدراسة ، لا يصبر على جفافها ، ولا يقدر على حل ألغازها ، ولا يتحمل العناء في تفهم كتب نحوها وفقهها ، فكان لا يواظب على درسه ولا يبدى به اهتماما .

ولكن حُبّب إليه نوع من الدراسة غير منتظم ، يوافق مزاجه ، ويناسب استعداده ، وهو أن يصاحب الناشئين في الأدب ويغشى مجالسهم ومجالس أساتذتهم . وما كان الأدب درس منتظم ، ولا هو يعدّ علما ولا فنا ، وإنما هو هواية كدى الصوت الجميل يهوى الغناء ، ويقلد فيه من سبقه ، ولا درس ، ولا فن ؛ ومثل هذا يُنظر إليه من أهل العلم بالنحو والفقه نظرة استخفاف وازدراء ؛ وقد عهدنا

هذا فى أيام دراستنا بالأزهر ، أيام كان الشيخ سيد المرصفى يحلّق حلقة لدراسة الأدب ، فكان هذا عجبا من العجب ، ينظر طلاب الفقه والنحو ومشايخهم إلى حلقته شزرا .

كان عبد الله نديم يغشى هذه المجالس الأدبية التى ليس لها منهج ، فيسمع شعر الشاعرين ، وزجل الزجّالين ، ونوادر الماجنين ، وقصائد الراوين ، فيصغى إلى كل ذلك فى نهم كأنه كله آذان ؛ ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وهذا فنه ، وأنه إنما خلق لهذا لا للنحو ولا للصرف . فاشتاقت نفسه أن يسلك هذا المسلك ويسير فى هذا الطريق ، وقد منح حافظة لاقطة ، وقدرة على التقليد فائقة ، فأخذ يحاكى بعد ما اختزن ، ويلقى بعد ما سمع ، فطورا يوفّق فيستدعى ذلك إعجاب أمثاله ، وطورا يخذل فيستخرج ضحك أقرانه ، ومن كل ذلك كان يتعلم .

وإلى جانب ذلك تعلّم درساً فى منتدى القهوة ، درساً تعلمه حافظ ولم يتعلمه شوقى ، وتعلمه بيرم التونسى ولم يتعلمه توفيق الحكيم ؛ درساً قلّ أن يفقهه الأدباء مع عظم خطره وكبير أثره ، ذلك هو أن نشأته فى صميم الأحياء الشعبية مع رهافة حسه ويقظة نفسه وفقره وبؤسه ، علمته أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب وأدبه ، من أمثال وحكايات ووجوه معاملات وصنوف تصرفات ، فرسم ذلك كله فى نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر فى حياته الأدبية المستقلة ؛ والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار ، وهفهفة الأغصان ، ودبيب النّمال ، وحلاوة البسمات ، وأدق مجال الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه .

ولكن مرحى بذلك كله ، وتبا للحياة المادية ، هل يكسب من ذلك « عبد الله نديم » قرشاً ، وهل يستطيع « عم مصباح » أن يحتمل هذا المقدر طويلا ؟ لقد احتمل الإنفاق عليه فى الكتّاب ، لأنه طفل والكتّاب خير من البيت ، واحتمله يدرس فى « جامع الشيخ » لأنه كان يرجو فى ابنه أن يكون شيخاً معمماً ، وعالما مطمطما ، يُتقرّب إلى الله بتقبيل يده والتمسح بثوبه ، فأما هذا اللغو الفارغ الذى يسمى شعرا ونثراً فهو عبادة الشيطان لا عبادة الله ، ولست أتقرب إلى الله بالإنفاق على عبدة الشياطين .

لقد نفض أبوه يده منه ، فأخذ عبد الله نديم يبحث عن وجه للكسب ، فاتجه اتجاها غريبا ، هو أن يتعلم فن الإشارات التلغرافية ثم يكسب منه ، وكذلك كان فتعلمه واستخدم بمكتب التلغراف ببنها .

ثم نقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديوى إسماعيل ، وقد كان قصراً من أفخم القصور ، يقع على النيل فيما يسمى الآن « جاردن سيتى » ، خدم وحشم وموسيقى وطرب ، وما شئت من ألوان النعيم والترف ؛ وقد علمته عبدالله نديم كيف يعيش الأمراء والسادة ، كما تعلم فى بيته وحارته فى الإسكندرية كيف يعيش الفقراء والعبيد .

وعاد إليه فى القاهرة شوقه إلى الأدب ومجالس الأدباء ، وكان حظ القاهرة فى ذلك أوفى ، ففيها — مثلا — مجلس محمود سامى البارودى ، وكان مجلسا عامرا يسمر فيه السمر اللذيذ : فأدب قديم يعرض ، وأدب حديث ينشد ، وعرض للمعنى الواحد صيغ صياغة مختلفة ، ونقد قيّم لهذا ولذاك ، يتخلله نوادر فكهة ، وأحاديث فى الأدب حلوة . اتصل عبد الله نديم بهذا المجلس وأمثاله ، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر إذ ذاك ، وأخصهم سبعة أولع بهم واستفاد من معارفهم وأدبهم : شاعر مصر محمود سامى البارودى ؛ وشيخ الأدباء عبد الله باشا فكرى ؛ والسيد على أبوالنصر البليغ الشهير ؛ ومحمود صفوت الساعاتى ، الواسع الاطلاع ، الكثير المحفوظ ، المتفنن فى الطرائف الأدبية ؛ والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ؛ ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر الشاعر الناثر ؛ وعبد العزيز بك حافظ عاشق الأدب والأدباء ، الكريم الوفى .

وكان الذى أرشده إلى هؤلاء الأدباء وعرفه بهم ، وأحكم الصلة بينه وبينهم ، الشيخ أحمد وهبي أحد المولعين بالشعر ، الناظمين له ، والمحرر بالوقائع المصرية فى بعض أيامه .

فأتم على هؤلاء وأمثاله دراسته ، وشرب من مناهلهم وارتوى من ينابيعهم ، فهو فى النهار للفراق ، يتقبل الإشارات ورسلها ، وبالليل أديب يتقبل نماذج الأدب ويمليها .

ولكنه لم يمهله الحظ ، فقد غلط فى عمله فى القصر العالى غلطة سببت غضب خليل أغا عليه ؛ ومن خليل أغا ؟ هو كبير أغوات الوالدة (أم إسماعيل) ، وكان القصر مملوءا بالأغوات ، يقومون بشؤون القصر ، ويستقبلون المدعوات ويصحبونهن إلى باب الحريم ؛ ونال كبيرهم خليل أغا من النفوذ ما لم ينله ناظر النظار ولا الأمراء والوجهاء ، لحظوته عند الخديوى إسماعيل ووالدته ، إشارته حكم ، وطاعته غنم ، يخضع له أكبر كبير ، ويسعى لخدمتـه أعظم عظيم ، ورأيه نافذ فى الدواوين والمصالح ، يتحكم فى مصر والسودان ، ويأتمر بأمره كبار الموظفين والأعيان ، حاز الثروة الضخمة والجاه العريض ، كأنه كافور الإخشيدى فى أيامه ، حتى أنه لما عُقد عَقد زواج الأنجال فى القصر العالى حضره النظار والعلماء وكبار الأعيان ، فكان برأس الجميع « خليل أغا » ؛ يدبّج ويستنبح ، ويغضب ويلين مفترسة .

فما عبد الله نديم إذا غضب عليه خليل أغا العظيم ؟ ! إذا غضب عليه غير خليل أغا فُصل من وظيفته ، ولكنه إذا غضب عليه خليل أغا ضرب وطرد ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

سُدت فى وجهه أبواب الرزق فى القاهرة كما سدت فى الإسكندرية ، وانتهى به الأمر إلى أن ينزل على عمدة من عمد الدقهلية يقيم عنده ويعلّم أولاده ؛ ثم ما لبث أن تخاصم مع العمدة ، فأما العمدة فيرى أنه آكَله وأسكنه مقابل تعليم أولاده ، وأما عبد الله نديم فيرى أن هذا حق الضيف ويبقى له أجر التعليم ، وقد قدره بثلاثين جنيها . واختلفت وجهة النظر ، وتشادّا ثم تسابّا ، وعلى مرجل عبد الله نديم ، فكان ذلك نعمة على أدبه إذ انفجر الرجل ، وتدفق عبد الله نديم يصوغ فى هجاء العمدة أدبا لاذعا ، تدفعه عاطفة حادة ، فعرف نفسه أديبا ، وعرفه من حوله نَبِيناً عفّ ناصية القول .

واتصل أمره بعين من أعيان المنصورة ذى مروءة ، فاستدعاه وأكرمه ، وفتح له دكانا يبيع فيه المناديل وما إليها ، فاتخذ دكانه متجرا للمناديل ومتجرا للأدب ، يجتمع فيه بعض أصحابه يتذاكرون الأدب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتبادلون النوادر ، وبين هذا وذاك تأتى شارية لمنديل أو شار « لمَصْنَبَة » .

وكانت هذه العادة فاشية فى المدن ، فقد يكون التاجر ذا ثقافة فقهية أو أدبية ، فيتخذ أصحابه من دكانه مكانا للبحث فى الفقه أو الحديث فى الأدب ، إذ لم تكن قد غزتنا المدنية الأوربية فسلفتنا التخصص ، وأن مكان التجارة للتجارة فقط ، وأما الحديث فى العلم والأدب فله مكان آخر . وقد أدركنا فى أول زماننا شيئا من هذا ، فكانت بعض الدكاكين مدارس ، وخاصة فى الأدب ، لأن الأدب لم يكن يدرّ رزقا ، وإنما هو فن للمتعة . وكثير من أدباء عصر عبد الله نديم كان من هذا الطراز ، فحسن أفندى عبد الباسط الأديب الشاعر الهجّاء ، كان فى بعض أيامه يفتح دكان عطارة فى الزقازيق ، ويجتمع به فى دكانه أدباء الزقازيق وظرفاؤها ؛ والشيخ أحمد وهبي الشاعر الأديب كان له دكان طرابيش بالغورية ، وكانت مجتمع الأدباء والشعراء . ولكن أكثر هؤلاء لم ينجحوا فى تجارتهم ، فالأديب فنان ، والفنان — فى الغالب — سمح ، يقدر الذوق الفنى أكثر مما يقدر الدرهم والدينار ، والتجارة تحتاج إلى الضبط والدقة ، والعناية بالإيراد

من سر المهنة

قد تعترى الإنسان فى بعض أوقاته حال يصير قلبه فيها إلى الخلو من كل حركة ، حتى ليخيل إليه أن ذلك القلب قد امتلأ خلوا ! ولست أدرى كيف يمتلئ الشيء بالخلو ، ولكن هذا ما أحسه فى بعض الأحيان ولا أستطيع له فهما . ولقد اعتدت أن يعتريني شيء من هذا الامتلاء السلبي بين حين وحين ، وكنت أضيق به ضيقاً شديداً ، وكنت أحاول أن أفهم له سبباً فيما حولى أو فيما هو فى داخلى ، ولكنى كنت دائماً أعجز عن إدراك ذلك السر الخفى من نفسى ، بل إنى كنت أشعر بثقل الحركة على عقلى ؛ وكما هممت أن أتدسس فى أعماق صدرى لعلى أهتدى إلى ما هنالك من علة غلبني الفتور على أمرى ، فاستسلمت للأمر الواقع ، وقنعت بالركود الذى يشملني ، وصبرت حتى يمن الله على بالفرج . ثم يمضى حين فإذا بى فى ساعة من الساعات أحس فجأة بحركة وقلق ، فأنبعث من ركودى إلى شيء يشبه الثورة ، فما أزال حتى أضيق بازدحام المعانى فى صدرى ، واضطراب الشجون فى نفسى . وهكذا يمضى مثل حياته بين ضيق من الخلو حيناً ، وضيق من الزحمة حيناً آخر ؛ كأن الأقدار قد حتمت على بعض هذا الخلق أن يجهل معنى التمتع بالحياة ! هذا سر أفضى به إلى من يقرأ هذه الكلمات ، مع أنه سر من أسرار المهنة التى لا يفضى به الإنسان إلا إلى أعز الأعزاء عليه .

والمهم بعد هذا أن أفضى إلى القارئ العزيز بسر آخر ، وهو أنى كنت إذا شعرت بخلو قلبى وضقت به ذرعاً ، عمدت إلى حيل شتى لتحريك أفكارى ؛ فكلما رأيت منظراً فى طريق وقفت عنده أتأمله لعلى أجد فيه ما يثيرنى ؛ وإذا سمعت صيحة فى جهة من الجهات أسرعت نحوها لعل فى

والصرف ؛ والفنان — عادة — مخلوق لا تطيق نفسه القيود والحدود . على كل حال وجد عبد الله نديم بعد رهة دكانه وليس فيها مناديل ولا جوارب ، ولكن جماعة يتناشدون الأشعار ، ويستهلكون ولا يمولون ، فأغلق دكانه وطوف بالبلاد ينزل ضيفاً على هواة الأدب ؛ إلى أن نزل بطنطا ، وصادف مولد السيد فكانت له حادثة طريفة لفتت إليه الأنظار وشهرته بين الناس .

وكانت البيوت أعظم شأناً من الدكاكين فى أنها تجمع الأصدقاء من ذوى العلم والفن ، يسمرون فيها السمر اللذيذ ، ويتحادثون الحديث الظريف ؛ هذا بيته منتدى الأدباء ، وهذا بيته مجمع الفقهاء ، وهكذا ، فيكاد كل رجل يعرف مكانه من هذه البيوت حسب ذوقه وميله ، ويكثر ذلك فى طبقة الأوساط والأغنياء من ذوى الميل العلمى والفنى . وأدركت فى حارتنا المتواضعة ثلاثة بيوت من هذا القبيل ، كان صاحب أحدها قاضياً شرعياً كبيراً ، فكان بيته منتدى الفقهاء والعلماء يتسامرون عنده فى الدين والفقه ؛ والثانى موظفاً ظريفاً يسمر عنده أصحابه فى الأخبار والفكاهات ، ليلة يدعون مقرئاً جميل الصوت ، وأحياناً فكهاً حسن الحديث ؛ والثالث دقاقاً يضرب على الدف فى الأفراح ، فكان عنده كثير من هواة الآلات الموسيقية ، يحيون عنده الليالى الملاح حتى الصباح . فما بالك بالموسرين إذا شغفوا بأدب أو علم أو فن ، وكانوا كراماً يفتحون بيوتهم لهواة من أمثالهم ، يجدون فيها الطعام الشهى والفن الشهى !!

كان بيت شاهين باشا كنج بطنطا — وهو مفتش الوجه البحرى إذ ذاك — من هذا القبيل ، كرم حاتمى ، وذوق أدق ، وظرف نواسى ، فتعرف به عبد الله نديم ، فوجد فيه شاهين باشا قبح منظر ، ولكن طلاقة لسان ، وخفة روح ، وسرعة بديهة ، فغطى ذلك على قبح منظره ، واتخذه له نديماً . (يتبع)

أحمد أمين

صخبها ما يحرك ركودي ؛ وإذا طلعت الشمس أسرعت لأرى منظر شروقها لعل جماله يهزني ؛ وإذا هدأ الليل جلست تحت النجوم لعل وميضها السرمدي يبعث إلىّ قبساً من وحي الحكمة ؛ ثم أكثر من القراءة لعلي أعثر في قراءتي على ما أستطيع أن أردده ، وأكثر من مخالطة الناس لعل أحاديثهم تفتق في ذهني منافذ للنور ، ولكن هذا كله كان لا يجديني شيئاً ، فأعود من كل محاولة من هذه أكثر إظلاما مما كنت وأشد إقفارا .

ولقد اعترتني حال من هذه الحالات في الأيام أو الشهور المنصرمة ، واشتد علىّ وقعها ، ولم أستطع في أمرها احتيالا مع مداومة الاحتيال في أمرها ، فسلمت أمرى إلى الله ، وخضعت لما لا قدرة لى على التخلص منه ، ووطنت نفسي على الاطمئنان إلى ما أرادت بي المقادير ؛ بل لقد جعلت أعزّى نفسي وأقنعها بأن هذه الحال لطف من الله بي ، لأنها تذهلني من التفكير فيما حولي ، وقد يكون الذهول أحياناً من نعم الله على البؤساء .

وكنت ذات صباح منذ أيام أقرأ (الأهرام) على عادتي . فبدأت القراءة من أول حرف في أعلى الصفحة الأولى فوق هامش العنوان ، وما زلت حتى قرأت آخر حرف من حروف التي في الصفحة الأخيرة . كل ذلك وأنا فاتر هادئ لا أكاد أحس لقلبي دقا . ثم أحسست الصحو فجأة ، فإذا بي أنتفض انتفاضاً ، وأثب قائماً على قدمي ، وعتلئ قلبي بالأشجان والمعاني حتى اضطرب في الأسر ، ولم أدر ماذا أفعل بكل الأفكار المتزاحمة التي هبت على فجأة مثلما يهب الإعصار الثائر . اندفعت الأفكار اندفاعا شديداً يشبه تدفق الماء إلى القناة الصغيرة الجافة إذا فتح الفلاح ثقباً صغيراً يوصل إليها الماء من الترعة المجاورة . فلو كان لى أربعة ألسن عند ذلك ، وكان إلى جوارى أربعة من أسرع الكاتبين ، لاستطعت أن أكتب للناس أربعة كتب في كل ساعة من الساعات ما دامت هذه الشجون الثائرة تجيش في قلبي . فلينتظر القراء منى كتابا في إثر كتاب من هذا الفيض العجيب الذى تدفق في صدرى ، وليترقبوا ظهور هذه السلسلة الذهبية الجديدة تحت عنوان « من وحي الأهرام » . هذا سر آخر من أسرار المهنة .

وبعد ، فقد نسيت أن أذكر السبب الذى أحدث في كل هذا الأثر العظيم . هي ضربة معول جاءت عفواً فانفجرت من تحتها العين الفوارة ، هو مجنون يتكلم ، وقد كان لحديث المجانين في عالم الأدب شأن عظيم في كل العصور . فالمجنون إذا تكلم نطق بالحق سافرا بغير تغطية ولا تجمّل ، لأنه لا يدرك قيمة مداراة الناس ، ولا يعبأ بما يظنون فيه . أليس هو مجنونا عندهم ؟ وماذا بعد الجنون من تهمة يحرص المرء على دفعها بالتقيّة والمصانعة ؟ فالمجانين والأطفال وحدهم يستطيعون أن ينطقوا بالحق . ولا شك أن الجميع يعرفون القصة القديمة التي زعم مؤلفها أن ملكاً من الملوك أحب أن يكشف نفاق المحيطين به ، فزعم لهم أن سيلبس ثوبا لا يراه إلا المخلصون له ، ثم تعرى من ثيابه جميعا ، وظهر لهم كما ولدته أمه ، فتسابق من حوله إلى وصف الثوب البديع الذى يغطى جسمه ، وتفننوا في تعديد محاسنه — وهو يضحك من نفاقهم طيبا في سره — حتى أتى طفل فصرخ في وجه الملك بالحق قائلا له : « إنك إنما تسير عاريا » .

والشاهد من كل هذا أنى قرأت في الأهرام قصة مجنون قيل إنه أجرم لأنه اشترك في سرقة فرع من فروع البنك الأهلي الزاخرة بالمال . ولا شك في أنه مجرم خطير ، لأنه مجنون أطاع خياله طاعة عمياء ، فتآمر مع إخوان له من خريجي مستشفى المجانين قصة سينمائية ، وبرهن على أن السينما درس له أثر بالغ في التعليم . وعلى ذكر السينما أذكر أنى كنت منذ زمن أراقب السينما ، فرأيت فلما لم يعجبنى لسوء أثره في الناس ، فحاولت منعه خوفا من أن يكون درسا سيئاً لناشئة الأمة من شبان وشابات ، ولكن بطل الفلم الفنى البارع استطاع أن يهزمني شر هزيمة ، وعرض

الفلو على رغم أنفي ، ولا شك أن ذلك كان درسا قوى الأثر في نفسي وفي نفس الذئبي العظيم ، فما زال منذ ذلك الحين دائبا على تسميم العقول والنفوس بسخافاته .

ما علينا ! أراني أضطرب في الاستطراد مع أفكاري المندفعة . أما ذلك المجرم المجنون فقد أتم جريمته في براعة ، وذهب لينفق بعض ما حصل عليه من المال الوفير كما ينبغي للمجنون أن يفعل ، لأن المال في نظر المجانين إنما هو وسيلة للإنفاق . وجعل يتغنى في أثناء إنفاقه للجنيهات بمباهج الغنى ، ويتنى على الفقراء فقرهم ، ويوجه إليهم قوارص الكلمات ، حتى لقد آلمني قوله لأنني ولا فخر من هؤلاء المساكين الذين لم يستطيعوا أن يسرقوا شيئاً من المال . فأنا أكسب بعرق جبيني ونتيجة كدي في طوال الأيام والليالي ، ثم لا أكاد أجد ما يكفيني ومن أعول لعيش كفاف فيه مروءة . قال ذلك المجنون فيما قال : « لمَ تأكل الطعمية مع أن الفراخ موجودة ؟! » . فأذكرني قوله قول اللص القديم إذ قال :

وإن أسأل المرء اللئيم ببعيره ... وبعران ربي في البلاد كثير

وإنه لرأي خطير يجهر به ذلك المجنون في غير تقية ، وما أظنه نطق به إلا لما رآه حوله من تقديس المال في كل مكان ، والسعي إليه بكل وسيلة من الوسائل بغير تحمل ولا تعفف . ولعل له عذراً في الوقوع في هذا الخطأ الشنيع ، لأنه مجنون لا يعرف المداراة ، ويرى الأشياء على حقيقتها مجردة . أليس مثله في سرقته للوصول إلى المال وإلى نعيم هذه الحياة الدنيا مثل إخوانه من اللصوص الذين يسيرون في الطرق وتزدان بهم المحافل الباهرة الأضواء ؟ أليس صاحب المتجر سارقا إذا هو ابتز من الناس فوق حقه المباح في الربح ؟ أليس صاحب المصنع سارقا إذا هو قذف إلى الأسواق سلعة من صنعه ليس فيها فائدة ، كزجاجة مصباح تسيل وتتكسر إذا وضعت فوق مصباحها ، أو (عدة) وابور تتصدع في أول مرة تستعمل فيها ؟! أليس التاجر المثرى سارقا إذا هو احتال على اقتناص الربح بالتهريب أو البيع في السوق السوداء ، أو بوسيلة أخرى من وسائل اختلاس الأموال ؟ أليسوا هؤلاء جميعا لصوصا مثل ذلك اللص المجنون الصريح ، يريدون جميعا الوصول إلى المال بأية طريق من الطرق ، لا يبالون إذا كانت حراما أو حلالا لكي يستطيعوا أن يأكلوا الدجاج وما هو أعظم من الدجاج ، ويجتنبوا الطعمية والفول وما إليها ، ويلبسوا الحرير ويتمتعوا بسائر اللذائذ ؟

ولقد كان المجنون ساخراً أمر السخرية من المجتمع بقصد أو بغير قصد ، عندما حاول أن يدفع التهمة الخطيرة عن نفسه بأن ادعى أن المال الذي وجد معه إنما هو مما يدره عليه تهريب المخدرات . نعم . أما هذا فلا بأس به ! ولم يكن حرص صاحبنا على المال من أجل أكل الفراخ والحمام وحدهما ، بل لقد كان يطمع في أن يصبح من الأعيان الذين يشار إليهم بالبنان ، فقد قال له شريكه اليوناني برطانته ما معناه : « ستصبح غداً بيكا » . هذا على الأقل ، فإن المال يستطيع كل شيء . والقاعدة على ما قيل إن السالك لا يسأل من أين مسلكه . فإذا صار المال في يد رجل فإنه يستطيع أن يتوصل بطريقة من الطرق إلى أن يصبح في عداد البكوات ، كأن يتبرع بالألوف من الجنيهات في أعمال البر ، وكأن يصبح من كبار رجال الأعمال ، وكأن وكأن . ثم فالمال هو المطية إلى السؤدد في كل العصور قديما وحديثاً . ورحم الله الجاحظ وأبا العلاء ، وبلل القطر تربة محمد عبده وعبد العزيز البشرى ، فإنهم جميعاً عاشوا وماتوا وهم شيوخ لم ينل أحد منهم لقب « صاحب » أو « مفر » أو « بيك » ، ولطف الله بكاتب هذه السطور وأمثاله من المساكين ، فقد عاش إلى الآن وهو (أفندى) بسيط ، لأن الدنانير كانت دائما تهرب منه .

محمد فريد أبو حديد

حول
مستقبل الأدب العربي

قال الأستاذ أحمد أمين بك بعد أن ذكر أن لكل أمة عربية لغتين : « وقد أنتج هذا الفرق الكبير بين العامية والعربية الفصحى نتائج سيئة جداً الخ » . وقد بينت من قبل أنه ليس لكل أمة عربية لغتان . وأقول اليوم إن الفارق البيّن بين الخاصة والعامة يرجع في حقيقته إلى الاختلاف في الفكر والثقافة ، لا إلى اختلاف في اللغة . ولن يستطاع تقريب كلام من كلام إلا بالتقريب بين النفوس المتكلمة . وهب أنك كتبت الأدب العربي بلغة العامة فكيف يقرؤه الأميون ؟! وهب أنهم قرأوه فكيف يدركون ما فيه من دقائق تدق عن إدراكهم ، وتبعد عن معارفهم ؟ ليس الفرق اللغوي الذي ذكره الأستاذ إلا مظهراً من مظاهر كثيرة لحقيقة واحدة هي اختلاف الثقافة اختلافاً بيّناً . وكيف يكون التقريب بين جماعات الأمة ليفهم بعضها عن بعض الحقائق ، ويشارك بعضها بعضاً في العواطف ؟ أيكون بنزول العلماء إلى جهالة الجهال أم برفع الجهال ، جهد الطاقة ، إلى ثقافة العلماء ؟! انشر التعليم بوسائله المختلفة ، بالقراءة وبالسماع والمشاهدة — فليست القراءة إلا إحدى الوسائل التي تنقل بها المعارف إلى النفوس — تجد لغة الأمة قد تقاربت جوانبها ، وتدانت لهجاتها على ألسن المتكلمين ، وعلى القراطيس ؛ ويبقى بعد هذا الفرقُ بين إدراك وإدراك ، وثقافة وثقافة ، ولن يزول هذا أبداً في أمة من الأمم .

إن الأستاذ يدعو إلى الثورة على الأمية ومحاربتها . فهو داع إلى أن تكون الأمة كلها أو جمهورها الأعظم قارئين . ولن تؤتي هذه الدعوة ثمارها حتى يجيد القارئ القراءة إجادة تمكنه من الانتفاع بها . ولا بد لإجادة القراءة والاستفادة بها من مقدار من المعارف يلمّ بها القارئ أو يتلقفها ، بوسائل شتى . فإن تيسرت للأمة كلها أو أكثرها هذه الدرجة من الثقافة استطاع الجمهور أن يقرأ من المؤلفين والكتاب والشعراء وغيرهم ما يلائم إدراكه ، ويسدّ حاجته ، وينقع غلّته ، دون أن يشعر أن للأمة لغتين .

بقيت مشكلة الإعراب وصعوبته على الخاصة بَلْهَ العامة ، « وكيف نلزمهم أن ينصبوا الجمع المؤنث السالم بالكسر ويجرّوا الممنوع من الصرف بالفتح ونحو ذلك ؟ »

وأنا أقدم قبل الحاجّة في هذا مقدمة وجيزة :

لا ريب أن الإعراب من مصاعب اللغة العربية ، ولا ريب كذلك أنه من مزايا هذه اللغة ومن أمارات كمالها . إن الكمال في هذا العالم قرين التركيب والتشعب ، والصعوبة والمشقة : نرى في عالم النبات والحيوان الترقي والتكمل يتدرّجان من البساطة إلى التركيب ، ومن اليسر إلى الصعوبة ، ومن القلة إلى الكثرة ؛ فأدنى النبات أقله تركيباً وتشعباً ؛ وكذلك الحيوان يرتقي من ذي الخلية الوحيدة إلى الإنسان ، والفرق بينهما في النقص والكمال كالفرق بينهما في البساطة والتركيب ، أو الوضوح والخفاء .

وكذلك الحضارة ، ترتقي من الخيمة إلى القصر المشيد ، ومن مضارب البدو إلى المدن الزاخرة بالعمران . والمعيشة في المدن تقتضي من الحاجيات والكماليات ، ومن النظم والقوانين والشرطة والقضاة ، ومن المعارف والصناعات ، ما لا يحس البدوي إليه حاجة ، ولا يراه إلا مشقة في الحياة وكلفة ؛ والكمال الخلقي تكاليف لا يستطيعها إلا الصابرون . تلكم سنة الله في الخلق : تطور دائب إلى الكمال ، وكدّ متصل نحو الرقيّ ، ومشقة يقتضيها الترقي والتكمل .

وكذلكم اللغات ترى فيها الساذجة التي يتفاهم أهلها

بألفاظ قليلة يسيرة تكملها الإشارات ، ولا يتبين فيها اسم من فعل ، ولا ماض من مستقبل . ثم تجد بعد هذا تقدماً في مجاز التشبيع ، ووضوح الفروق ، وكثرة القواعد ودقة القوانين . . . وتستمر اللغة في تطورها فتتجاوز حدود الضرورة والحاجة إلى الكمال والفضل ، فتضع لفروع المعنى الواحد ألفاظاً مختلفة ، على حين تدل لغات أخرى على هذا المعنى في جملته بلفظ واحد ؛ وتفرّق بين المذكر والمؤنث ، والمعرّف والمنكّر ، والمؤكد وغير المؤكد ، وتضع أسماء للزمان والمكان والآلة ، وتسير اشتقاقها على سنن صوتية دقيقة ، فيكثر فيها الإعلال والإبدال ، والزيادة والحذف ، اتباعاً لهذه السنة وهلم جرّا .

واللغة العربية — فيما أعلم — أوفى اللغات نصيباً من هذا الكمال ، وأعظمها عناية بالتفريق بين المعاني المتقاربة ؛ ومن ذلك كانت صعوبتها ، وكثرة قوانينها ودقتها . هي لغة أوزان ومقاييس ، تدل بألفاظها وأوزانها ؛ وهي لغة اشتقاق وتصرّف وإعراب ، تكاد تنطق أوزانها بمعانيها ، وتبين مقاييسها عن مراميها ، ويشف تركيبها عن مقاصدها . ولست في حاجة إلى التمثيل ، ولا المقام مواتياً للإفاضة في هذا .

وهذا الإعراب من أعاجيب هذه اللغة ؛ هل هو إلا إحساس اللفظ بموقعه ، أو إحساس المتكلم بمكانة اللفظ من نفسه ؟ أليس الإعراب تفريقاً في الجملة بين العمدة من ألفاظها والفضلة ، وإعطاء الأول حركة قوية والثاني حركة أضعف منها ؟! أليس الرفع يعبّر عن أقوى الأصوات والفتح بعده ثم الكسر ؟! والإعراب بعد هذا ضربٌ من الدلالة والإبانة ، ونوع من الموسيقى تختم كل كلمة بحركة أو تنوين . أذكر كلمة في كتاب ترجمته من التركية قبل عشرين سنة ، تصف اللغة العربية بأنها لسان رياضي . وقد زادني التأمل ثقة بأن هذه اللغة تشبه قوانينها قوانين الرياضة في الدقة ، والانسجام ، والاتصال .

ويقال إن من لغات الأمم لغات مرّت بالإعراب ثم ارتقت عنه ، فما هذه اللغات التي استعملت الإعراب ثم تجاوزته ؟ لا أعرف بين لغات العالم السامية وغير السامية ، القديمة والحديثة ، لغة كان لها إعراب كالعربية . ولم أقرأ ولم أسمع ممن يعلمون أن لغة كان لها مثل هذه القوانين ، وإنما نعرف حركات قليلة جداً في بعض اللغات السامية ، وجرّ المفعول في اللغة التركية ، ونحو هذا . فأين هذا من القانون المطّرد المنسجم في العربية ؟! أقصد من هذا كله إلى أن الإعراب ليس فوضى في العربية ولا اضطراباً ، وليس نقصاً فيها ولا لجاجة ؛ ولكنه كمال يكافئ صعوبته ، وبيان يوازن مشقته ، وجمال يستحق كلفته ، وأن حتما علينا أن نستمسك به ، ولا نحيد عنه إلا لضرورة . والضرورات تقدّر بقدرها ، كما يقول الفقهاء . فإن اضطرّنا أمر إلى أن نغفل الإعراب فينبغي أن نجعل هذا ضرورة ننوي الخلاص منها والرجوع باللغة إلى إعرابها . ينبغي أن يكون مثلنا الأعلى اللغة المعربة ، وأن نعمل لبلوغها بوسائل شتى ؛ فإذا اضطرتنا ضرورة إلى تركها لم نركن إليها ولم ننس مقصدنا الأخير ومثلنا الأعلى . ينبغي أن نرفع الناس إلى هذه اللغة شيئاً فشيئاً ، وأن ندنو منها على مرّ الأيام ، ولا نبعد عنها إلا ريثما نحتال لبلوغها .

ثم نرجع إلى موضوع الجدال ، لا يرى الأستاذ أن نترك الإعراب فقد قال : « ولتبق اللغة العربية الفصحى لغة الخاصة يكتبون بها للمتخصصين ، ويقرءون بها التراث القديم ، ويختصمون به ، وينقلون منه ما شاءوا إلى اللغة الجديدة لنفع الجمهور » . وإنما يرى الأستاذ أن تقرّب اللغة إلى العامة بترك الإعراب ، ويقترح « اصطناع لغة عربية خالية من الإعراب وخالية من الألفاظ الضخمة ، ومستعملة للكلمات العامية التي هي أيضاً عربية ومجردة من خرفشة اللغة العامية » . وضرب مثلا بهذه الجملة « محمد شاركْ عليّ في التجارة » . وقال عقب هذا : « وهذه

رسائل صينية

الرسالة الثانية

اجتهدت فى رسالتى السابقة أن أبين الفروق البارزة بين مدنيتنا ومدنيتكم ، هذه الفروق التى أدت أخيراً إلى النزاع بيننا . ولقد ولدت الحوادث الأخيرة فكرة أننا نحن المعتدون فى هذا النزاع ، ولكن الواقع أن لا شىء أبعد عن الحقيقة من هذا ، لأننا لو تركنا لأنفسنا ما سعينا قط إلى الاتصال بالغرب ، فليس ثمة ما يحفزنا إلى شىء من هذا . إننا لا نريد أن نبدل عقائد الناس ، ولا نريد أن نتجر معهم . إننا نعتقد ولا شك أن ديننا أقرب إلى المنطق من دينكم ، وأن أخلاقنا أرق من أخلاقكم ، وأن نظمنا أدنى إلى الكمال من نظمكم ، ولكنا فى الوقت نفسه ندرك أن ما يناسبنا نحن قد لا يناسب غيرنا من الناس . ولا يخيل إلينا بحال من الأحوال أن علينا رسالة نحو العالم — ننقذه من الشر أو ندعوه إلى الرقى . وأبعد من هذا أن نتصور أن مثل هذه الرسالة يمكن أن تؤدى بالسيف والنار . نحن قوم راضون قانعون ، نحمد الله إذا استطعنا أن نحل مشاكلنا نحن دون أن نثقل أنفسنا فوق هذا بمشاكل غيرنا .

وإذا كنا غير مضطرين لأن نتدخل فى أموركم رغبة الدعوة إلى ديننا فنحن كذلك غير مضطرين إلى التدخل فى أموركم بضغط حاجاتنا التجارية . إننا فى غنى عن غيرنا سياسياً واقتصادياً ، فالذى ننتجه نستهلكه ، والذى نستهلكه هو ما ننتجه . إننا لا نحتاج إلى إنتاج الأمم الأخرى ولا نسعى إليه ، بل إننا نؤمن أن جانب الظلم فى إشهار الحرب على غيرنا بقصد فتح أسواقهم التجارية لا يقل خطراً عن جانب التهور فى مثل هذا العمل . إن المجتمع الذى يريد لنفسه أن يكون ثابتاً من الناحية السياسية لا بد — فيما نعتقد — أن يكون مستقلا اقتصادياً . بل أكثر من هذا ، إننا

اللغة هى التى يجب أن نعتمد عليها فى نشر التعليم بين العامة ، ويكتب بها بعض الأدباء رواياتهم ، ويؤلف بها بعض المؤلفين الكتب الشعبية» .

وأنا أرد هذا الرأى من جهتين : الأولى أنه يجعل للأمة لغتين حقاً ، ويبقى هذا الفرق البين بين الخاصة والعامة ؛ ويلزم الأديب أن يكتب مرة للعامة ومرة للخاصة ؛ ويضطر القارئ إلى الاضطراب والقلق بين هذا وذاك ؛ فليس بين العامة والخاصة حد واضح ، وكثيراً ما يشتركون فى قراءة مقالات وكتب . أنكتب الجرائد بلغة معربة أم بلغة غير معربة ، أم باللغتين معاً ؟ قد توهمنا أن لنا لغتين فنفرنا من هذا ، ورأينا رأياً للخلاص منه فإذا هو يحقق ما توهمناه ، ويوقعنا فيما أشفقنا منه

وبعد ، فما الضرورة التى تلزمنا استعمال هذه اللغة ؟ بل ما الفائدة المرجوة منها ؟ يقصد الأستاذ بها تيسير اللغة على العامة وإدناءها إليهم . فهل يريد أن يكتب بها العامة ويؤلفوا ، أو يريد أن يكتب بها الخاصة للعامة ، ليقربوا إليهم العلم والأدب ؟ إنه يريد الأمر الثانى لا ريب ، لأن المؤلفين والأدباء الذين يكتبون بهذه اللغة لن يكونوا من العامة . وأنا أزعم أن العامى يستوى عنده أن تكتب له ألفاظاً معربة أو غير معربة ما كان اللفظ معروفاً عنده ، والموضوع فى حدود معارفه . فإذا كتبت له : محمد شارك عليا فى التجارة ، فهمها كما يفهم : محمد شارك على فى التجارة . وإذا كتبت له : قابلنى يوم العيد فى القاهرة عند جامع المؤيد ، فهمها كما يفهم : قابلنى يوم العيد فى القاهرة عند جامع المؤيد . وهكذا . الشرط الأول لكل إفهام أن تضبط له الكتابة ضبطاً ييسر له قراءة الجملة كما أرادها الكاتب ، وسيان عنده ، بعد أن يقرأها مضبوطة صحيحة ، أن تكون معربة أو مهملة . فيجب أن نبادر إلى ضبط كتابتنا بحروفنا وشكلنا على الطريقة المثلى ، التى لا تدع لبساً ولا تعنى القارئ . وهذا أمر يسير قد بينته فى مقالاتى عن الخط العربى .

عبد الوهاب عزام

ترى أن التوسع فى التجارة الخارجية يقود حتما إلى التدهور الاجتماعى .

ومن هذا ترون أن مبدأنا فى هذه المسألة كمبدئنا فى كل شىء آخر ، يخالف مبدأكم كل المخالفة . فأنتم لا تؤمنون أن دينكم وحده هو الدين الحق فحسب ، ولكنكم تعتقدون فى الوقت نفسه أنه من واجبكم أن تفرضوا هذا الدين على الأمم الأخرى فرضاً ولو بحدّ السيف . وإن كان هذا الاعتقاد فى وجوب نشر دينكم يدفعكم إلى الاعتداء على غيركم ، فإن هنالك دافعاً آخر أقوى منه وأشد خطراً ؛ ذلك أن مجتمعكم من الناحية الاقتصادية قد بُنى على نحو يجعله باستمرار على حافة الهلاك جوعا . فأنتم لا تستطيعون إنتاج ما تحتاجون إلى استهلاكه ، وفى الوقت نفسه لا تستطيعون استهلاك ما أنتم مضطرون إلى إنتاجه . إن المسألة بالنسبة إليكم مسألة حياة أو موت ، لا بد لكم من أن توجدوا أسواقاً تتخلصون فيها من إنتاجكم وتحصلون منها على قوتكم وخاماتكم . والصين أليق ما تكون لتحقيق هذا أو قد تكون كذلك . وفتح هذه السوق هو ، فى الحقيقة ، الدافع فى كل معاملاتكم معنا فى هذه السنوات الأخيرة وإن اجتهدتم فى حجب هذا الدافع بقناع شفّاف . أما حكم مثل هذه السياسة من الناحية الخلقية ، أو حتى من ناحية العدل المحض ، فإنى لا أتعرض له ، إنها سياسة تمليها الحاجة المادية ما فى ذلك شك ، وعلى هذا الأساس أرى أنه من العبث أن نناقشها . كل ما أريده الآن هو أن أعرض وجهة نظرنا نحن فى هذه السياسة ، وأن أبين لكم الدوافع التى تدفعنا إلى احتقار اعتدائكم .

إنه لعجيب حقاً ، فيما يرى التاجر البريطانى المادى ، أن نعترض نحن على ما تسمونه أنتم بفتح منابع الثروة القومية . إن التاجر البريطانى المادى ينظر إلى كل شىء كما اعتاد أن يعمل دائما من وجهة نظر الكسب والخسارة ، وهو يعتقد أنه ما دام قد ثبت أن طريقاً من الطرق تعود حتما إلى ازدياد الثروة ، فإن معنى هذا أن مثل هذه الطريق يجب أن تُسلك . وهو مقتنع أن فتح أبواب الصين للأموال الأجنبية والتجارة الخارجية يؤدى بلا شك إلى نماء الثروة ، فيستنتج من ذلك أنه من صالحنا إذن أن نرحب بمشروعاته بدل أن نقاومها . وهو محق بلا شك إذا أخذنا بوجهة نظره ، ولكن وجهة نظرنا تختلف عن هذه جد الاختلاف ، فقد اعتدنا قبل أن نسلك أى طريق ، أو قبل أن نتخذ أى قرار فى سياستنا ، أن نقدر عواقب الأمر لا من حيث مجرد أثرها فى مجموع ثروتنا ، ولكن من حيث ما يختلف عن هذا كل الاختلاف ، من حيث أثرها فى كياننا الاجتماعى . فأنتم أنتم تنظرون دائما إلى وسائل الحياة ، بينما ننظر نحن إلى الحياة نفسها ، إلى صفتها وإلى قيمتها . وعند ما تطالبوننا كما تفعلون فى الواقع ، أن نقلب مجتمعنا رأساً على عقب ، بأن نتحول من أمة زراعية إلى أمة تجارية صناعية ، وأن نضحى باستقلالنا السياسى والاقتصادى فى سبيل رخاء مزعوم ، وأن نحدث ثورة لا فى صناعتنا فحسب ولكن فى معاملاتنا وأخلاقنا ونظمنا ، عند ما تفعلون ذلك لا أقل من أن تعذرونا إذا وقفنا وقفة لننظر نظرة فاحصة متأنية إلى الآثار التى أحدثها عندكم التبدل هذا التى تريدون منا أن ندخله فى الصين .

وإن استعراض هذه الآثار لا تشجعنا ، واسمحوا لنا أن نراها كذلك . إنكم كالأمير فى القصص الخرافى ، قد أطلقتم جنىّ المنافسة من قمقمه لا لشىء إلا لتتبينوا أنكم لستم بمستطيعين السيطرة عليه . إن تاريخكم طوال السنوات المائة الأخيرة ما هو إلا محاولة لتنظيم الاضطراب فى نظامكم الاقتصادى . إن فقراءكم وعجزتكم وسُكاراكم ومرضاكم ومسنّيكم يثقلون كاهلكم ويؤرّقون نومكم . لقد فصمتم كل ما بينكم من عرى إنسانية ، وقطعتم كل ما بينكم من صلات شخصية ، وإنكم لتحاولون عبثاً أن تجعلوا نشاط الدولة ، هذا الكائن الغامض المبهم ، يحل

عملها . إن الصفة البارزة فى مدنيتكم هى عدم المسؤولية لقد أطلقتم قوى لا سلطان لكم عليها . إن الآلة التى صنعتموها عادت فافترستكم ، ففى كل ناحية من نواحى العمل ، وفى كل قسم من أقسامه ، نراكم تستبدلون الفرد بالشركة ، والعامل بالآلة ، محكم الأول أن تقسموا المحصص ، وأما رخاء العامل فليس لأحد أن يعنى به إلا الدولة ! وحتى هذا نرى أن الدولة عاجزة عن أن تقوم به ، فالعوامل التى تتحكم فى هذا الرخاء لا سلطان للدولة عليها . إنكم تعتمدون على كل ما يطرأ على العرض والطلب من تقلبات ، ولكنكم لا تملكون أن تحددوا هذه التقلبات أو حتى أن تحتاطوا لها . إن تلف محصول أو تغيير تعريفة فى قطر بعيد يقلقل صناعة الملايين الذين يعدون منه آلاف الأميال . إنكم تحت رحمة عبقرية مخترع ، أو حظ متأمل ، أو نزوة امرأة ، لا بل إنكم تحت رحمة آلاتكم نفسها . إن رأس مالكم كائن حى يلح دائماً فى طلب القوت . جوعوه ينقلب عليكم ليخنقكم ويزهق أرواحكم ! إنكم تنتجون لا لأنكم تريدون ذلك ، ولكن لأنكم مضطرون إلى أن تنتجوا ! وتستهلكون لا لأنكم ترغبون فى استهلاكه ، ولكن ما قد فرض عليكم استهلاكه . إن التاريخ لم يشهد تجارة مكبلة بالأغلال كتلك التى تسمونها التجارة الحرة . ويا ليتها كانت مكبلة بأغلال أوحى بها العقل . كلا ، إنها أغلال الأهواء المتزاحمة المتكاثفة التى يقف العقل أمامها عاجزاً مشدوها !!

هذا هو اقتصادكم الداخلى كما تكشف صورته للرجل الصينى ؛ ولا تكشف علاقاتكم الخارجية عن صورة أقل استثارة لليأس من هذه . لقد كان ينظر منذ خمسين عاما إلى الاتصال التجارى بين الأمم على أنه سيتوج عصراً ذهبياً من السلم والأمن ، ولا يزال بينكم فيما يلوح من يرى هذا الرأى ويتعلق بهذا المعتقد ، ولكنى لم أر معتقداً يناقضه الواقع والحقيقة كما يناقضان هذا ! فالتنافس على الأسواق التجارية مدعاة للحرب لا للسلم ، وسبب أقوى فى الدفع إليها لا البعد عنها ؛ بل إنه لم يكن فى الماضى سبب يعادله من حيث قوته فى الدفع إلى الحرب ، فلا أطماع الأمراء شىء بالنسبة إليه ، ولا تعصب القساوسة مما يقاس به . إن أهل أوروبا يتكالبون على أى بقعة بكر من بقاع الكرة الأرضية وينقضون عليها كالآساد الجائعة . ولقد قصروا ، إلى الآن ، مشروعاتهم الاستغلالية على هؤلاء الذين عدوهم خارج نطاق حدودهم . ولكنهم وهم يقسمون الغنيمة بينهم ينظر بعضهم إلى بعض بعين الغيرة والحسد أبداً . وعاجلا أو آجلا عند ما ينفد ما يقسم بينهم سينقض بعضهم على بعض . إن هذا هو السبب الأصلى والسر الحقيقى فى تسلحكم . إنكم إما أن تفترسوا وإما أن تفترسوا ، وهذه هى العلاقات التجارية بالقارات التى ترون أنها ستقرب فيما بينكم وتربطكم بوثاق السلم ، هذه هى وقد جعلت كلاً منكم أعدى أعداء الآخرين ستقربكم بما يكفى لإشعال حرب الإفناء بينكم .

ولست ، فى وصفى لمدنيتكم بما وصفتها به ، مدفوعاً بتعصب وطنى جاهل . ولست أعتقد قط أن أهل أوروبا هم بالطبع والسليقة شر من أهل الصين أو أشد منهم جهالة . لا ! لا شىء من هذا ، بل على العكس منه ، فإنه من المعتقدات الأساسية فى مذهبنا أن الطبيعة الإنسانية هى هى أنى كانت ، وأنما هى الأحوال والظروف التى تجعلها إن خيرة وإن شريرة . فإذا كان النقص فى نظام اقتصادكم الداخلى والخارجى قد بلغ الحد الذى نراه قد انحدر إليه ، فالسبب فى ذلك فيما نرى يجب أن يلتمس لا فى نقص طبيعى فى خلقكم القومى ، ولكن فى نفس هذه النظم السياسية والاجتماعية التى تحرضوننا على اتباعها فى بلادنا .

أتعجبون بعد هذا أن نقاوم بكل ما تملك أيديكم فينا ؟ أتعجبون أن الأذكياء منا ، وهم يأسفون على العنف الذى عومل به بعض عملائكم بيننا ، يشعرون أن هذا كله لا يمكن أن يعد شيئاً إذا قيس بالشر المستطار الذى لا يمكن أن يطاق ، والذى ستصطليه لو أن مشروعكم فينا قد نجح ؟

دكتورة سهير القلماوى

نبوغ المرأة وحدوده

كان الأستاذ العقاد نحا نحو شوبنهور في قوله إن النساء جنس غير فني ، بمقال نشره في الرسالة منذ شهور وقد ساق الأدلة على قوله ، وعلله أحسن تعليل . وثارت الأديبة البارعة السيدة وداد سكاكيني ، وطعنت على الرجال ، ونسبت هـذا التحامل على المرأة إلى حقد الرجال عليها والهوبها ، بسبب شهرة يبغونها ، أو تشفياً من حسناء يحسبونها .

وكأن السيدة وداد تريد أن يعترف الناس للمرأة بالنبوغ والعبقرية ، وتحب ألا يقال إن المرأة تخلفت عن الرجل في مضمار الفنون ؛ ولعلها تود أيضاً ، أن يكون المرأة ما للرجال من الرفعة والسمو ... وهذه عاطفة فيها كثير من اللطف الذى عرفت به الأديبة الفاضلة .

والخلاف بين الأستاذ الكبير ، والأديبة البارعة عظيم ترى أى حدود يبلغ نبوغ النساء ، وأى نصيب من العبقرية يؤتين ..؟

هيا بنا يا سيدتى ... لنمض معاً نستعرض الحسان من أقدم الأزمان ، لنرى الحد الذى بلغته عبقريتهن ، والمحل الذى سما إليه نبوغهن في الأدب والفن .

هنا حفل عظيم من الأدباء والأديبات ، في حدائق ورياض . تنظر فتجد الشعراء والشاعرات ، والقاصين والقاصات ، والكاتبين والكاتبات ، والسمعين والسمعات ، وما شئت أيضاً ... كل يحنو على زهرات . قالوا إنهن نساجه في الدنيا . ثم تحدق فترى الرجال في هذا الحشد أكثر عدداً ، وأوفر عزاً . زهورهم رقاقة اللون ، ساطعة الطيب . ولعل في كل مائة أديب ثمانى أديبات ... ليت شعرى لماذا كثر الأدباء يا سيدتى وقلت الأديبات ؟

لا تعترضى ، ولا تثيرى إليهن . ثم هـذى مدام دسيفينيه ، ومدام دريفاند ، وجولى دلسبيناس . إن زهراتهن زاهيات اللون ... وإن رسائلهن كن بارعات ، فيهن الرقة والسذاجة . أعترف أنهن بذذن الرجال . إن رسائل تكتبها مدام دريفاند وصواحبها ، كلها خفة ولطف ، لأظرف ، للتسلية ، من رسائل يكتبها الرجال فيحشونها فكراً وفلسفة ؛ إنها تبعث في النفس الملل ، وتدفع إلى بذل جهد عقلى . أما رسائل النساء فخفاف على النفس . لقد قضى التأمل والإغراق في التفكير على فن الرسالة عند الرجال . انقلبت الرسالة إلى كتاب ، ففقدت سذاجتها ، وذهب رواؤها ، لكنها أضحت أقرب للخلود فيما يخلد من نتاج الفكر . كل هذا صحيح يا سيدتى ، إنهن برعن في الرسائل . ولكن أتساءل : أين بقيت هذى الرسائل ؟ لم نسيها الأدب فما تنى ؟ . احقدى على الهاتف الذى قضى على ما كان يعتز النساء به . إن محادثة قصيرة لتغنى عن الرسالة .. واحقدى أيضاً على الآلة الطابعة يا سيدتى ، لقد اختصرت تلك الساعات الطوال التى كن يقضينها في كتابة الرسائل وتنميقها وزركشتها . ولك أن تفخرى ما زال .. بعد ذلك .

وماذا أيضاً ..؟ أأولئك الشاعرات تريدين ؟ لقد عرف كل عصر شاعرة أو شاعرتين بين مئات الشعراء . هذه «مارى دفرانس» ، وتلك «كريستين دبزان» ، وهناك «لويز لابه» ، وهنا «كونتيس دنوايل» ، بل هذى خنساؤك يا سيدتى وبجانبها عريب وجنان ، وفضل وعنان . لقد قلن الشعر ونظمن ، ولكنهن لم يبرعن فيه ولم يبدعن . انصرفن إلى الشعر العاطفى . وكان شعرهن صرخات أرواح هائجات ضعاف ، بكاء شديد ، زفرات حب قوى ، حنين إلى الرجل ، أحلام عذاب .. شعر بسيط ساذج . ما أبعده من شعر مصقول ، مهذب ، مرصع ، حشوه الفكر الملطف ، ذى رنين وإيقاع . شعر هو وليد الفن ، كشعر ڤاليرى أو أبى تمام .

إن شعر النساء محصول وحى سريع، لا تأمل ولا رويّة فيه. أما شعر الفحول فهو محصول العقل والقلب. يصطادون الفكرة، ويختون اللفظة، ثم ينتقون ويرققون، ويصلون ويفصلون. فإذا أمامك قطعة من الماس، قطعة تترى، فيها قوة ورقة وإبداع. هل تقايسين شعر دى نوايل أو الخنساء بشعر بشار أو مسلم أو لامارتين، بشله فاليرى أو أبى تمام؟... حتى الشعراء الذين كانوا أرق رقة من النساء فى وصف الحزن والفرح والهوى، كالعباس، أو لامارتين يروا ما قلن أيضاً لأن شعرهن بقى ساذجاً، فى حين مضى شعر أولئك نحو الفن الصافى الذى يتطلب الخلق والإبداع.

والروايات...؟ لا بأس. لقد تلطف الأستاذ العقاد فقال إن فى النساء روائيات مجيدات. ثناء لطيف جميل. ولكنى أتساءل: أكان للنساء فى رواياتهن هدف فنى؟ لقد كانت رواياتهن تسجيلاً لكل مايقذف به خيالهن وعواطفهن بلا تهذيب ولا ترتيب! وهن، بعدُ، لم يعرفن ضروب الرواية كلها: السيكولوجية، والفلسفية، والتحليلية... إنما عرفن لوناً واحداً منها. عرفن رواية الحب، فالحب فى ألوانه كان مداراً لرواياتهن. صحيح أن الحب يشغل روايات الأدباء، ولكن الأدباء يتخذون من الحب وسيلة لصيد قلوب القراء والقارئات. إن لديهم أموراً أخرى من ضرورات الحياة يديرون رواياتهم حولها؛ أما المرأة، فليس لديها سوى الحب، هو القضية الكبرى فى وجودها. هى تحلم فى صباها بالحب الذى يوسّع آفاق حياتها الضيقة، وهى تنمى، بعد زواجها، بنعيم الحب إن سعدت، أو تندب هذه السعادة إن شقيت.

وتاريخ المرأة يؤيد هذا. هذى المرأة الفرنسية، مثلاً، كانت قبيل العصور الوسطى تغنى بالحب والحبيب فى ظلام غرفتها، فلما خرجت من سجنها، واجتمعت بأخواتها تحدثت عن الحب، ووضعت قواعد للحب، وعظمت مواطن الحب. وعندما ألّفت أول رواية كانت عن الحب. هذى الآنسة دُ سكوديرى، فتاة عانس حلمت طوال حياتها بالحب، فكانت رواياتها عنه. ومدام دولافاييت، هجرت زوجها، فغنت فى الأميرة دُ كليف، ونشدت الحبيب الذى كانت تود. ومدام دُستال، تزوجت لخاب أملها، فصورت الرجل الذى حلمت أن تحكمه. وجورج صاند، صوّرت لنا قدليليا الحر... ومدام كوليت، و...

إذن فقد عرفن رواية الحب... ولكن هل عرفن شروطها وقوانينها...؟ ولمَ لا نجد بين رواياتهن رواية تسامى ما كتب زولا أو بورك...؟ الجواب أن المرأة لا تستطيع الإبداع، كما يقول فاليرى. والرواية تتطلب خلق عالم واسع ذى صفات خاصة، وأبطال مختلفين؛ وتتطلب قدرة على الخروج من (الذات) وتصور (ذوات) الآخرين. والمرأة لا تستطيع أن تتجرد من ذاتها، لأنها ترى الأشياء كلها تحت تأثير عواطفها وطباعها.

إن الكاتب يبدع أبطاله من موادّ يستمدها من ذاته. هو لا يعرف غير نفسه. إن ما يعرفه عن الآخرين ليس إلا نتيجة المقايسة المتواصلة بين المظاهر الطبيعية التى يراها فى غيره، والحركات الذاتية الخاصة التى يشعر بها. والنساء لا يقدرن على هذه المقايسة المتواصلة ليعرفن دقائق الأشياء؛ ولسن قادرات على تجريد مواد من أنفسهن وطبعها بطابع الآخرين؛ ولذلك كانت بطلات رواياتهن تدل على المؤلفات أنفسهن. إن الأميرة دُكليف ودلفين، وكورين، وإنديانا، وفالنتين، ولبليا، وكلودين، هن مدام دُلافييت، ومدام دُستال، وجورج صاند، ومدام كوليت، مجرّدات عن العيوب التى كانت فيهن.

وعجز المرأة عن الإبداع فى الرواية، دفع أحد نقاد الأدب إلى القول: إن هذه الروايات لا تختلف كثيراً عن أقاصيص العجائز حول المدفأة فى الشتاء.

ولندع الرواية ولننتقل إلى الدراما ، فهل برعن فيها ؟

إن فن الدرامة يتطلّب الدقة والإيجاز ، ولابد للكاتب من الاختفاء وراء أبطاله . والنساء غير قادرات على هذا ولا ذاك . لقد كتب نساء من النساء بعض الدرامات ، ولكنهن كن في تاريخ المسرح نكرات لم ينوّه أحد ببراعتهن أو إجادتهن .

أي أديبة أبدعت مسرحية كمسرحيات راسين أو كورنيل . وأية امرأة استطاعت أن تضحك من صواحبها حسداً أو بغضاً . ولكنها لا تُحسن الإضحاك لأنها لا تبرع في تصوير الشاذ . إن وصفاً من أوصاف موليير لألسيست أو كرزال أو هارباغون ، معجزة بالنسبة للمرأة . إن موليير كان يتخذ من العيوب التي يرى بذورها في نفسه صوراً يخرجها ويوسعها ويحوّرها ، ويُظهر الشذوذ فيها ، لأن الرجل قادر على أن ينقد عيوبه ويضحك منها ، أما المرأة فإنها تخاف ، تخفي كل عيب منها ، وتخشى كل شذوذ يُفقدها محبة الناس ، فكيف تصوّر ما فيها أو في أخواتها من شذوذ لتبرع في الملهاة ؟

وفي الأنغام والألحان . ماذا أبدعت ؟ إن الأصوات التي هزّت البيد ، واهتزت لها القصور ، كانت من صُنع معبد والغريض وإبراهيم وإسحاق ومخارق . لقد كانت المرأة مقلّدة دائما ... وأي موسيقية تذكر اليوم بجانب بتهوفن ، وسزار فرانك ، وڤاغنر ؟

ولا تنظري إلى التاريخ . ولا تفتشي عن سيدة سميت « مؤرخة » . إن التأريخ يحتاج إلى فكر نقاد مجرد عن الهوى ، كي يميّز ، في الحوادث ، الصحيح من الباطل ، ويتطلّب بصراً نافذاً يدرك الصلات الخفيّة بين الحادثات . فأين أجد ، بالله ربك ، هذى الصفات من النساء ؟ بل لم نذهب بعيداً . . أعرفت واحدة جمعت الحوادث جمعاً ؟ أم هل سمعت بامرأة حذت حذو المسعودي أو الطبري ، أو ابن الأثير . ؟

ولن أبحث في العلم أو الفلسفة ، أو النحت والتصوير .

والظاهر الحق ، أن حدود نبوغ المرأة ضيقة جداً ، وأن نصيبها من العبقرية ضئيل .

* * *

إن من الجميل ياسيدتي أن تطغى على الرجال ، ومن الطريف أن تقولي : إنهم يغمزون من قناة النساء ، لبغض أو حب أو شهرة . فقد يكون هذا ، وقدلا يكون . ولكن الحقيقة أن النساء لم يصنعن منذ القديم شيئاً يداني ما صنع الرجال . أنا أذهب إلى أبعد من هذا ، وقد أكون مصيباً ، إن النساء لم يخلقن لهذا ، وإن هذا الذي يحاولنه من أدب وتلحين وتمثيل ، هو وسيلة لإرضاء الرجال . إن هذا يحتاج إلى تفصيل ، وسأعود إليه . ولكن اسمعي ياسيدتي ، إن ناساً من المؤرخين يقولون : حتى هذه الآثار المتوسطة التي تركتها النساء ، صنعت بفضل الرجال ؛ كتبها أو أشرف عليها أصدقاؤهن أو عشاقهن أو أزواجهن . وكيف نذكر مدام دُلافاييت ولا نذكر لاروشفوكولد ، أو مدام دستال ولا نتمثل أصدقاءها ، أو جورج صاند ولا نلمح طيوف عشاقها ، أو مدام كوليت ولا يظهر لنا ڤيلي . .

ومن يدري ؟ فلعلّ سيدتي الفاضلة ، ستكون بما أوتيت من نصوع الأسلوب وقوة السبك ورهافة الذوق ، أول امرأة تكتب أثراً خالداً يسامي آثار الفحول من أرباب العقول .

(دمشق) صموع الدين المجر

تعقيب

سيدى الأستاذ الفاضل

أما بعد : فقد طالعت فى عدد «الثقافة» الأخير (عدد ٣٠/٥/١٩٤٤) مقالك البديع عن (التفاح فى الأدب العربى) ، فهل تسمح لى أن أعقب بكلمة وجيزة ؟ .

فى العقد الفريد ، وفى الصحيفة ٣٧٥ من الجزء الثالث منه ، أن الرشيد كان يحب التفاح للنقوش المطيّب ويقول : إن التفاح هو أحسن الفاكهة ، إذ اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر ، ويلذ به من الحواس العين بهجته ، والأنف بريحه ، والفم بطعمه .

ختمت مقالك بقولك (وهذا قليل من كثير مما ورد فى الأدب العربى عن التفاح . ولعل أديبا متضلعاً فى الأدب الغربى يتحفنا بما ورد فيه ليكون درساً لطيفا للموازنة) . فها أنا ألقى دلوى فى الدلاء :

الفرنساويون يسمون التفاح Pomme وهى كلمة مشتقة من أصل لاتينى معناها فاكهة .

ويطلقون على الطماطم اسم Pomme d' amour .

ويسمون المشمش تفاح أرمينيا Pomme d' Arménie .

ويطلقون على البرتقال اسم تفاح ذهبي Pomme d' or

ويطلقون اسمه على نهد المرأة Sein d'une femme .

وفى التوراة يطلقونه على ثمرة الشجرة المحرمة .

وفى الاصطلاح العامى يقولون Se sucer la Pomme معناها تماثقا .

ويقولون donner la pomme aux femmes للتعبير عن أجمل امرأة ، إشارة إلى ما ورد فى إلياذة هوميروس Homere الشاعر الإغريقى الشهير عن حكم باريس Päris الذى أعطى ڤينوس Venus تفاحة كتب عليها « إلى أجمل امرأة » .

ومن اصطلاحهم قولهم on l'apaiserait avec une pomme ومعناها يهدئونه بتفاحة لتسكين غضبه .

ويقولون une toilete aux pommes ، أى مهندم جيدا .

ومن أنواع الحلوى sucre de pomme هو سكر نبات يعمل من عصير التفاح .

وعند الماسون ordre de la pomme verte وهو مذهب من مذاهب الماسونية ظهر فى ألمانيا فى خلال سنة ١٧٨٠ .

ولعل أشهر تفاحة هى تفاحة العلامة نيوتن Pomme de Newton العالم الإنجليزى الذى اشتهر بالطبيعيات والرياضيات والفلسفة ، وهو الذى كشف قوانين الجاذبية عند ما سقطت تفاحة من شجرة فى بستانه فى وولثروب ، فلفت سقوطها نظره ، وفكر إلى أن اهتدى إلى جاذبية الأرض ، ووصل إلى اكتشاف قوانين الثقل والجاذبية . ولشهرة هذه الشجرة أحيطت بسياج من العناية بعد وفاة نيوتن ، ولما هرمت الشجرة جمعوا بقاياها وحفظوها .

عزيز خانكى

حول الإنسان المعجز

حضرة الأستاذ الفاضل رئيس تحرير مجلة الثقافة .

قرأت المقال الممتع الذي نشرته الثقافة في عددها الأخير للأستاذ محمود الصدوقي بعنوان «الإنسان المعجز» ، متضمناً بعض نظريات علمية مأخوذة من كتاب « بشر المستقبل » لجرونجل . وأحب أن ألاحظ عليه ما يأتي :

١ — أن خلايا الجسم كلها تنقسم الواحدة منها إلى نصفين ، يتحول كل منهما في فترة قصيرة من الزمن إلى خلية كاملة ، ثم يتكرر هذا فتصبح الخلية الأولى عقب تلك العملية خليتين ثم أربع ثم ثمان الخ .

٢ — أن الخيوط أو الأناشيط التي يقول الأستاذ بأنها موجودة في الطائفة الصغيرة من الخلايا ، التي تبقى بمعزل لتؤدي وظيفة التناسل ، موجودة أيضاً في جميع خلايا الجسم ، وليست قاصرة على هذه الطائفة ، مع فرق بسيط ، وهو أن عددها في هذه الطائفة الصغيرة يكون عند الانقسام نصف المعتاد في جميع خلايا الجسم .

٣ — أن هذه الخيوط أو الأناشيط ليست سابحة في الخلية كلها ، وإنما هي موجودة داخل النواة .

٤ — أن عدد الصبغيات في كل نواة (لا في كل خلية) ليس في الإنسان ٤٨ إطلاقاً ، وإنما عددها ٤٨ في الأنثى و ٤٧ في الذكر ، وإلى هذا يرجع كون المولود ذكراً أو أنثى ، فإنه عند التناسل تكون جميع بويضات الأنثى محتوية على ٢٤ خيطاً ، أما الحيوانات المنوية في الرجل فتكون على نوعين : الأول يحتوي ٢٤ خيطاً والثاني ٢٣ ، فإذا تصادف وصول النوع الأول إلى البويضة وإخصابها كان الناتج خلية تحتوي نواتها ٤٨ خيطاً ، أي أنثى جديدة ، أما إذا وصل النوع الثاني إلى إخصاب البويضة كانت الخلية الناتجة محتوية ٢٣ + ٢٤ = ٤٧ خيطاً أي ذكراً جديداً .

محمود مرعي

مفتش التاريخ الطبيعي بوزارة المعارف

من هو هذا النشار ؟

في الترجمة الإنجليزية لديوان « المعتمد بن عباد ملك إشبيلية » طبعة جون موري — لندن ، تقول المترجمة دولبس لوراتس سميث ، إنها استعانت على ترجمة بعض القصائد بالأديب الأمثاني إسماعيل مكي ، وإنها ترجمت سائر القصائد عن الترجمة الألمانية لهامر برجستول .

وتذيل المجموعة بمختارات من شعر شعراء معاصرين المعتمد ؛ وممن اختارت لهم شاعر ذكرته باسم « النشار » بلا لقب ولا كنية . وهذه إحدى القطعتين اللتين اختارتهما له :

The little mole that dallies on her cheek
Is like a small black slave-boy, hidden to seek.
A posy in the garden; see him stand
Weighing the choice, a rose in either hand
Among the lilies

فهل يتفضل بعض قراء الثقافة من المطلعين على الأدب الأندلسي بتعريف القراء بهذا الشاعر ، وبالنص العربي لهذه الأبيات . وهذه ترجمتها :

إن خالها الصغير المتسكع على خدها ، يشبه عبداً صغيراً مختبئاً في حديقة ليختار منها باقة ، فانظر إليه وحواليه من كلا الجانبين وردة بين السوسن الأبيض .

وإني لأرفع بهذه المناسبة تحية خالصة للأستاذ الخليل علي الجارم بك ، صاحب كتاب « شاعر ملك » ، الذي جدد به في مجموعة « اقرأ » ذكرى الشاعر المعتمد ابن عباد ، فوفى بعض ما على المعاصرين من واجب نحو الأندلسيين الذين نجد من آثارهم في لغات الغرب أكثر مما نجده في أدبنا الحديث .

عبد اللطيف النشار

من منبر الشرق :

أبو حيان التوحيدى

ليس من قصدى ولا من شأنى أن أقرظ أمامك الجهد المحمود الذى بذله الأستاذ العلامة أحمد أمين بك ، ومعه الأستاذ الزاوية أحمد الزين فى نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة ، ووضعه فى أيدى هواة الأدب العربى مصقولا ، مصححاً منقى مما شابه من الشوائب فى النسخ المخطوطة التى اعتمد العالمان عليها ؛ كما ليس من قصدى أن أتظاهر بالعلم والنقد بأن أضيف إلى تصحيحاتهما بعض ما عسى أن فاتهما من تنقيح المواضع القلقة ، بل إنى مع جميع من تقع هذه المجلدات الثلاثة فى يده لمن الشاكرين لهما على ما بذلا من التعب والكد فى إبراز هذه التحفة ، من تحف فكر أبى حيان التوحيدى الذى قيل عنه إنه من أكبر أدباء الإسلام بعد أبى عثمان الجاحظ .

قيل هذا عنه فى القدم ، وكرر المحدثون هذا الحكم عليه عن السلف من غير مراجعة حقه ولا مراعاته . ألم يكن من واجبهم ألا يصدروا مثل هذا الحكم إلا بعد أن يتصفحوا آثار الرجل جميعاً ، أو على الأقل تلك الآثار التى أبقاها لنا الدهر بعد أن أحرق صاحبها أكثرها فى آخر عمره لسآمته من فهم معاصريه لها ، ولقلة جدواها فى رأيه ، وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته ؟! أيكفى كتاب الإمتاع والمؤانسة — مع ما يظهر فى طواياه من قدرة الكاتب على تخليد البيئة الثقافية التى عاش فيها — تشييداً لمثل هذا الحكم ؟ ولو كان هكذا ، ألم يجب إذ ذاك نشر آثار أبى حيان بأسرها حتى تأخذ مركزها فى تاريخ الأدب العربى ؟ وماذا عمل إلى الآن ، إذا استثنينا مجهود الأستاذين الجليلين فى سبيل كتاب الإمتاع والمؤانسة ؟ لقد نشر السندوبى كتاب المقابسات نقلا إياه عن طبعة حجر هندية من غير مراعاته للنسخ التى وصلت إلينا من هذا الكتاب ، ولا سيما مخطوطة ليدن ١٤٤٣ التى تختلف عن الطبعة الهندية كل الاختلاف ، مع ما فى طبعة السندوبى من « التصحيح » لأصله الهندى ، مع ما هو أقرب إلى المسخ منه إلى النسخ . وكذلك طبعت منذ سنين رسالة إلى حيان فى الصدق والصداقة ؛ وهذا كل ما فى أيدينا إلى الآن . لعمرى إنى أغار من هؤلاء الإفرنج غيرة على أن تكافئوا — وأى كلفة — إخراج آثار جميع أدبائهم ومفكريهم فى مجموعات كاملة تشمل كل ورقة مما خرج من تحت أيديهم ، فى نشرات منقحة مصفاة لا غبار عليها ، فضلا عما عملوه فى سبيل إخراج الآداب اليونانية واللاتينية والشرقية أيضاً . ولكن هذه قصة أخرى .

وإذ كان هذا هكذا ، فإنى أكتفى بأن أعرفك هنا ببعض آثار أبى حيان التوحيدى ، داعياً الفضلاء الأدباء والعلماء إلى نشرها قبل أن يدعموا أحكامهم على صاحبها ويتكلفوا « نقد أدبه » . وسأبتدئ بكتاب البصائر والذخائر له ، الذى يدعى أحياناً كتاب البصائر والبشائر ، أو كتاب بصائر القدماء وبشائر الحكماء . وقد كثرت نسخ هذا المؤلف الضخم — الذى يزيد على حجم كتاب الإمتاع مرتين أو أكثر — أقول كثرت نسخه فى مكاتب استانبول ، وفى بعض المكاتب البريطانية ، ويكفيك مصدراً للوقوف عليها ما يقوله بروكلمن فى مظانه . وأما أنا فقد اطلعت عليه فى نسخة مصورة عن مخطوطة « فاتح » محفوظة فى خمسة مجلدات فى دار الكتب المصرية ، حينما كانت هذه الدار مضيفة للباحثين قبل أن تخبئ آثارها فى مغارات المقطم حذراً من الغارات الجوية . اطلعت على الجزء الأول منه خاصة ، والتقطت منه ما يمكننى من وصف مزية الكتاب .

هو كتاب ليس كغيره من الكتب ، هو أوراق مبعثرة وروايات مفرقة ، جمعها مؤلفها أثناء خمس عشرة سنة منقباً إياها ، ومهذباً لها بحرافة قلمه . أليس هو يقول فى

مقدمته بعد حمده والصلاة على النبي : « ثَبَتَ — أطال الله بقاءك — الرأيُ المحض بعد الاستخارة ، وصحّ العزمُ بعد التنقيح والاستشارة ، على جمع ما في ديوان السماع ، ورسم ما أحاطت الرواية به ، واشتملت الروية عليه ، منذ عام ٣٥٠ إلى سنة ٣٦٥ ، مع التوخي فصارَ ذلك دون طواله ، وسمينه دون غثه الخ » ويقول في آخره : « هذا آخر الجزء الأول ، وقد مَرّ فيه ما إذا أعشرتني رضاك علمتَ أني وفيت بما وعدت ووددتُ وأربيت . فتوقّعْ ما يتلوه على رسم الأول إن شاء الله » .

لا يمكنني أن أستوعب هنا غزارة المواد التي يحويها كتاب البصائر التي أكثرها ليست مرويات من كتب ، بل عن شفاه معاصري أبي حيان ، فضلا عما ابتكره منها ذهنه الثاقب ، وحبَكَتْهُ براعته الدقيقة . فهناك نوادر أدباء ، مثل ما يرويه — وهو كثير — عن سهل بن هرون « كاتب المأمون على خزانة الحكمة » وعن ابن الكلبي ، والمدائني ، وإسحاق الموصلي ، والصولي ، وابن أبي طاهر صاحب المنظوم والمنثور ، وحماد ، والواقدي ، ومحمد بن زيد الأموي ، وأبي سعيد السيرافي الذي تتلمذ أبو حيان عليه وقيَّد مجالسه ، وعن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزيات صاحب كتاب الرتب ، وابن دُريد صاحب الجمهرة ؛ فضلا عن القصة المزيحة في مضحكَيْ المتوكل الذي اسم أحدهما سُمْرة والآخر بُمْرة . وهناك روايات كثيرة عن صديقه وأستاذه القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروروزي ، ولا سيما ذلك الحديث المشهور « حديث السقيفة » الذي التقطه كثير من المتأخرين من كتاب البصائر . وهناك روايات عديدة عن فم الصوفية التي تدلنا على ما كان للتوحيدي من الميل إلى تجاربهم « الذوقية » ، مما حمل بعض أصحاب ترجمته يعدُّونه من أصحاب التصوف . منهم مثلا الثوري ، والجنيد ، وأبو زيد البسطامي الذي يتكلم في سبب طرده من مدينة أرجان . ومن الطبيعي ألا يذكر أبو حيان الحلاج بكلمة وإن كان روى عن تلميذه أبي بكر الواسطي . وهناك زمرة المتكلمين الذين يودّ أبو حيان الرواية عنهم وسَرْدَ آرائهم ، من النظام وأبي الهذيل مع سائر أقطاب المعتزلة ، فضلا عن رواياته العديدة عن الحسن البصري ومن عاشره . كما أنه مولع بذكر أخبار الشيعة ، ولاسيما غُلاتهم ، مثل أبي الخطاب الجعفي ، وأئمتهم مثل محمد ابن الحنفية ، وساستهم مثل جوهر الفاطمي . وهناك هذه النصوص العديدة التي روى أبو حيان فيها أخبار فلاسفة اليونان وآراءهم ، تلك الأخبار التي التقط معظمها عن أستاذه المعجب به أبي سليمان محمد بن الطاهر السجستاني المنطقي ، كما يتجلى فيها اطلاعه الواسع على كتب الأوائل وكتب نوادر الفلاسفة . وهناك خاصة تلك الروايات العديدة عن فلاسفة الإسلام ومفكريه ، التي تُبْرِز كل واحدة منها نواحي مجهولة من تأريخ الفكر الإسلامي ، فيها مثلا ما يرويه عن أحمد بن الطيب السرخسي ، وعن الكندي ، وعن ثابت بن قرة ، فضلا عن معاصريه الذين قد تعرفنا بهم من كتاب المقابسات ومن كتاب الإمتاع والمؤانسة ، ولا سيما تلك الرواية المشهورة لثابت بن قُرة الصابئ في تقريظ الأشخاص الثلاثة الذين يحسد الأمة العربية عليهـا ، أعني عمر بن الخطاب والحسن البصري والجاحظ ، أليس هي متداولة في كثير من كتب المتأخرين ؟! كما أنه يسرُد أقوال أبي الحسن القطان الفيلسوف (الذي مات في آخر سنة ٣٥٩) في حدود الأشياء ، واعداً على أثرها أنه « سيمر في الكتاب في آخره من حدود الفلاسفة للأمور الطبيعية والمنطقية والإلهية على قدر ما وقع إليَّ منهم باللقاء والمذاكرة . ولا جرم أن تستقصي النظر في جميع ما حوى هذا الكتاب ، لأنه كبستان يجمع أنواع الزهر ، وكبحر يضم أصناف الدُّرَر ، وكالدهر الذي يأتي بعجائب العبر » .

هذا وإني أكتفي بأن أورد لك نموذجا واحدا مما

فى كتاب البصائر من « الدُّرَر » ، وهى قطعة لم أنتقطها من الكتاب نفسه أثناء قراءتى له ، بل عثرت عليها فى « مختصر صوان الحكمة » الذى يرجع مصدره إلى أبى سليمان السجستانى ، وإن كان ظهير الدين البيهقى من علماء القرن السادس قد لخصه وأضاف إليه مما عنده . فها نحن نقرأ فى ترجمة أرسطاطاليس الواردة فى ذلك الكتاب ما يلى :

« وحكى أبو حيان فى كتابه الذى سماه « البصائر » أن الأستاذ الرئيس أبا الفضل بن العميد كان كَلِفاً بأبى عثمان الجاحظ ، حريصاً على كتبه ، ومثله محروصٌ عليه ومتنافَسٌ فيه ، وكان يقول : ينبغى للفاضل أن يذهب فى المعانى مذاهب أرسطوطيليس ، فإنه وطأ طرق الحكمة وضرب منارها ، ونشر أعلامها ، وأنشأه الله فى دهر صالح ، وقَيَّضَ له عَدْلَ مَلِكٍ فاضلٍ ، يعنى الأسكندر ، وحبَّب إليه معرفة أسرار العالم ، وفرغه لتمهيد المنطق ، وألهمه دقائق الحكم ، وأتمَّ على لسانه حقائق ما سلف فى الأمم . قال : وإنما يجهل قدرَ هذا الحكيم على حشوىٌّ أو مَن هو فى طباعه . وإن كان نائياً عن ظاهر أمره ، أو عالماً لم يذق حلاوة الحق ، ولم ينسلخ من جلباب الهوى ، فهو يُشنِّع على هذا الرجل تارة بالكفر وتارة بالجهل ، تملُّقاً لمن يطلب إليه ما فى يديه ، أو يقرح مَرَضَ الجاه عنده . وصاحب هذا الفعل ليس للحكمة عنده محلٌّ ، ولا للعلم فى نفسه مقر ، وإنما هو مُتَشَبِّعٌ بالدعوى ومُظهِرٌ للحيلة . قال : وفى الألفاظ يكون مقتديا بأبى عثمان الجاحظ ، فإنه أوحدُ عزارته وفصاحته . وفى النظم لا يختار على البحترى ، فإنه سهل الطريقة مُحتمِها . ومن عَرَفَ جوهر الكلام ، ومواقع الاستعارة وآثار المعانى ، وسُبُلَ التأليف فى كتابة لا يخل بالمكنىِّ عنه ، وتصريحٍ لا يفضح المصرَّح به ، ورقيةٍ لها تغلغُلٌ فى القلب ، ودقيةٍ فيها مجال للعقل ، وإيضاح يغنى عن تحكُّم الظن ، وتلطُّفٍ خَلُوبٍ للسامع ، عَلِمَ ما دللتُ عليه وأشرتُ إليه . ثم العمل معرض لك ، فخذه كيف وجدتَه وأردتَه » .

فهذا ما أردت أن أقص عليك فى كتاب البصائر لأبى حيان التوحيدى ، كى أقنعك أنه ليس أقل جدارة بأن ينشر من إخوته . وسأحدثك بمناسبة أخرى عن مؤلفات أخرى لأبى حيان التوحيدى ، تدعو أيضاً إلى مَن ينشرها بعد دفنها .

باول كراوس

الربيع يتجدد . . .

لا تخالِ أن الربيع هو الرو ض وأفوافُ زهره المنضودِ !

أو هو الطير فى الفضاء يغنى بالنشيد الجديد بعد النشيدِ

أو هو النهر كانطلاق السكارى أو هو الجو كابتسام الغيدِ !

إن فى كل برعم لَحياةً تتجلى بها معانى الخلودِ !

فاستمع للكون واستقبليه بهوى طارف وقلب جديد!

وابسمى للربيع شاقت مجاليـ ـه ولاحت كخافقات البنودِ !

إن فى طلعة الربيع لسرا هو سر الحياة فى المنقودِ !!

هو قلب الحياة ينبض للعا لم بالحب والرضا والسعودِ

وهو البشر والطلاقة والنجـ ـوى تهادت فى الواقع المشهودِ !

مهرجان الحياة تلهو به الدنـ ـيا وعيد يزهى على كل عيدِ !

وانتباه الجمال فى كل وجه ونداء العناق فى كل جيدِ

البشاشات فى مجاليه سكرى بالصبابات والمنى والوعودِ

والأغاريد فى أساها الطير تروى قصة الحب فى الزمان البعيد

وعبير الصباح ذكرى غرامى وندى الفجر قطرة من عهودى

وبحبك أنت أندى ربيع لفؤادى المتيم المعمودِ

أعلى طبيعة الحسن فيه يتجلى بها جمال الوجودِ !

فتعالَىْ نجدد الحب فالأشـ ـواق تبع يحلو مع التجديدِ

أنت كأسى وخمرتى ونشيدى وربيعى وطارفى وتليدى

(كوم النور) **أحمد أحمد العجمى**

غروب الشمس

في جبال النوبة

أيها الوادى الذى أشتق الجمال
في رباه ما تزجيه الخيال
كيف جاست في مغانيك الظلال
وهى للنور الذى يجنى مجال ؟
هذه الشمس تبدت في الرحيل
في رداء ساحر اللون جميل
ملكت من مهتجى كل سبيل
حين وافتها بأحلام الأصيل
أرسلت أنوارها علك تجيله
تأسر الشط وتستهوى نخيله
كيف ناجتها تخيلات هزيله
سوف تفنى بعد أيام قليله
تلك يا قلبى أوان الغيب
تترامى فوق أحضان الكثيب
ذاكرات لهوى النيل الحبيب
ظامئات مثل أشواق الغريب
كل ظل راح في الوادى رجاء
هائلاً يحكى طيوف القدماء
زاحفاً يركض في إثر الضياء
يرتجى النور ولكن لا لقاء
ذلك المعبد يبدو في جلال
يحتوى شيئاً فشيئاً في الظلال
كم رعى صبحاً وأفنى من ليال
واقر العزة تجرى بالمعالى
ذاك فرعون بأرض الشعب   يتجلى من وراء الحقب
راجياً في الشط عند الغرب   كل مجد لبنيه النجب
يا غروب الشمس في وادى العبير   عند أفق لك معدوم النظير
لا تخاف سطوة الليل المكير   في ربى يسطع فيهن الضمير
إننى أسمع صوت الساقيه   يتشاكى بالحزن الباكيه
إنها تندب شمساً ماضيه   لقضاء في حياة فانيه
هذه الظلمة تجتاح الدنى   حينما ولى من الشط السنا
كل شىء ساكن من ها هنا   يختفى مضطرب إلا أنا
فأنا في الشط مغلول القدم
أرقب الأنوار تفنى في الظلم
يا له من منظر يذكى الألم   مستفيضاً لا توفيه الكلم
أيها الوادى الذى يرقد أمسى
في رباه مذكياً أشجان نفسى
ليتنى ألقى على شطك رمسى
حينما تغرب في الآفاق شمسى

محمد عبد الرحيم ادريس
شاعر النوبة

بيان

تكونت بمدينة القاهرة رابطة باسم (رابطة إصلاح الأسرة) برئاسة سعادة محمد على علوبة باشا، وتضم جماعة ممن يهمهم النهوض بالمجتمع المصرى من طريق إصلاح شأن الأسرة . وتقوم أغراضها على دراسة مشكلات الأسرة المصرية والعمل على صيانتها من عناصر التفكك والانحلال، ودراسة أدواء الأسرة من النواحى الأخلاقية والصحية والاقتصادية والثقافية، والعمل على تلافيها بكل الوسائل المشروعة من مادية وأدبية وتشريعية .

والرابطة إذ تبدأ عملها، وهو عبء ثقيل، ترجو من الله أن يوفقها في مهمتها ؛ وترحب بكل مواطن من الجنسين ممن يتفضل بالانضمام إليها .

وتطلب البيانات من سكرتارية الرابطة ١ ميدان سليمان باشا تليفون ٥٥٧١٧ بعد الظهر

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٨٥ الثلاثاء ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ١٣ من يونيه سنة ١٩٤٤ السنة السادسة

فهرس العدد

رجال العلم ورسالتهم
فى المجتمع

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

رجال العلم المقصودون فى هذا المقال ، هم أولئك العلماء الذين وقفوا حياتهم للبحث ، ولدراسة خواص المادة التى تتكون منها الأشياء المحيطة بنا فى هذا العالم ، والقواعد والقوانين التى يجرى عليها سلوك هذه الأشياء فى مختلف الظروف تبعاً لتلك الخواص التى يكشف عنها العلم .

ويتطلب ذلك بطبيعة الحال تفحص دقائق مختلف المواد ، وتعرّف تركيبها ، وطبيعة تكوينها ، وبذل الجهد فى الوصول إلى الأسباب الحقيقية التى يرجع إليها اختلاف المواد بعضها عن بعض .

وكم من فروض وضعوها فى سبيل ذلك ، وأيدتها المشاهدات واحدة بعد أخرى ، حتى بلغت تلك الفروض مرحلة النظريات ، وظن العالم العلمى أنها تمثل الكلمة الأخيرة ؛ ولكن لم تلبث مشاهدات العلماء اللاحقين فى عصور تالية أن تعارضت معها ، وحتّمت على العلماء أن يعدّلوها أو يبحثوا عن فروض جديدة لتكون أكثر ملاءمة للانطباق على الواقع ، بحيث تتفق مع جميع المشاهدات القديمة والجديدة . وحين وفق بعض الباحثين إلى فروض جديدة تحقق تلك الأغراض هلّل لها العلماء وأيدوها ، وكلما زادت المشاهدات التى تتفق معها زاد إيمان رجال العلم بها ، حتى وصلت هى الأخرى إلى مرحلة النظريات ، وساد الاعتقاد بأنها الكلمة الفاصلة ؛ وظلت كذلك حيناً من الدهر حتى اصطدمت بمشاهدات أدق من سابقاتها ، وعندئذ تحتم العدول عنها ، واقتضى الأمر تغييرها ، وهكذا دواليك .

وليس القصد من مقالنا هذا تتبع بعض تلك النظريات، وبيان الظروف التى نشأت فيها، والمشاهدات التى أدت إلى نقضها، والجهود التى بذلت لصوغ نظريات أخرى تحل محلها، فذلك ما قد نتناوله فى فرصة أخرى؛ وإنما قصدنا الآن إلى ناحيـة أخرى أكثر اتصالا بالحياة العملية وبالمجتمع، وهى ناحية التطبيق.

فهناك طائفة أخرى من العلماء جعلوا مهمتهم استغلال كل كشف علمى جديد لمصلحة الإنسان وراحته ورفاهيته وسعادته ومتعته فى الحياة. فكلما وصل العلماء السابقون إلى اكتشاف خاصة جديدة من خواص المادة، أو صورة جديدة من صور الطاقة، أخذ هـذا الفريق الثانى من العلماء فى بذل الجهد وإعمال الفكر لابتكار وسيلة عملية لاستغلال الكشف الحديث فى تطبيق عملى جديد يسخّر لخدمة الإنسان، فيقدمونه له هدية ينعم بها، وهو بدوره يبذل لهم المال فى نظير ذلك عن طيب خاطر. ولا يزال هؤلاء العلماء التطبيقيون يهذبون من مخترعاتهم ويحسّنونها ويبسّطون من أجزائها ومن طرق استعمالها حتى يصير صنعها سهلا، واستخدامها ميسورا للجميع لبساطته.

بهذه الوسائل العلمية نشأت ونمت وارتقت وتهذبت ملابس الإنسان وأطعمته؛ وأجهزة الإنارة والتسخين والطهى؛ وآلات الحرث والرى؛ ووسائل النقل وأجهزة التليفون والإذاعة، وماكينات الطباعة، والآلات ذات الاحـتراق الداخلى، والطائرات، وآلات الجراحة، والأمصال، وغير ذلك مما لا حصر له من جميع ما ينعم الإنسان به من وسائل الراحة والترف والتسلية والاستغلال، واتقاء أسباب المرض، والتغلب على المسافات، والتمتع بطيبات الحياة وبالآثار الجميلة للمدنية العلمية الحديثة.

وهناك فريق ثالث من العلماء، تخصصوا فى نوع آخر من البحث، وهو البحث الصناعى التكنولوجى؛ فقد تبين للعالم العلمى ولرجال الصناعة على حد سواء، أن التقدم الحقيقى سواء أكان من ناحية تحسين المخترعات وإتقانها، أم من ناحية تقليل نفقات صنعها، يحتاج إلى أمرين: أولهما تخصيص جماعة كبيرة من الباحثين لفحص كل مرحلة من مراحل الصناعة، بغية ابتكار التحسينات المتواصـلة فى كل جزء من أجزائها؛ وثانيهما تنظيم الإنتاج على نطاق واسع، فصنع كل جزء من أجزاء السـيارة مثلا يحتاج إلى آلات دقيقة وعمال فنيين يكلّفون المصانع مبالغ طائلة؛ فإذا كانت الآلة والعمال القائمون عليهـا تنتج فى اليوم ألفى قطعة مثلا، فإن تكاليف القطعة الواحدة تكاد تنزل إلى نصف تكاليفها حين يكون الإنتاج اليومى ألفا فقط. ومن ثم جاءت فائدة الإنتاج على نطاق واسع، مع التخصص الذى يحصر الجهود ويركزها فى ناحية واحدة.

وهذا الفريق الثالث من الباحثين يشتغل عادة لحساب المصانع؛ ويحيط كل منها أعماله بالكتمان الشديد نظرا للمنافسة التجارية بين مختلف دور الصناعة فى المملكة الواحدة وفى الممالك المختلفة.

* * *

هذه الطوائف الثلاث من رجال العلم كانت إلى عهد قريب قانعة بالانزواء فى معاملها، والانصراف إلى عملها فى هدوء وسكينة، غير عابئة بما يجرى حولها من تصرفات، وبما يزخر به المجتمع من تقلبات، وبما يسفر عنه إنتاجها العلمى من تغييرات، بل ومن ثورات اجتماعية. وكان شعارهم الذى توارثوه، صغير عن كبير، هو أن العلوم نشأت على الحياد، ويجب أن تبقى ملتزمة هذا الحياد إذا أريد اطراد التقدم العلمى، وأن البـاحث إن هو إلا آلة ينتفع بها الجميع دون أن تكون له أدنى إرادة خارجة عن نطاق عمله العلمى فى البحث والتجريب والإنتاج.

لكن عاصفة الحرب الكبرى الماضية التي اجتاحت العالم ١٩١٤ ، لما هدأت في سنة ١٩١٨ فتحت أعين الناس إلى قيم الأشياء ، في ذاتها وإلى قيمها النسبية ، كما جعلت كل طائفة تنظر إلى مركزها في المجتمع ، وإلى ما لها من حقوق وما عليها من واجبات ، وتتطلع إلى تحسين حالها وإلى اكتساب حقوق تتناسب مع ما تضطلع به من واجبات . فأخذ العمال يعيدون النظر في شئونهم ، والزعماء وقادة الفكر يبحثون حالة المجتمع والنظم السائدة فيه ، وبالجملة لم تشذ طائفة من الطوائف عن التفكير في حالها ونظامها ومستقبلها .

وكان الرأي الذي تلاقت عنده كل تلك الطوائف على اختلاف أنواعها هو عدم الرضا بالحالة على ما هي عليه ، والإجماع على سوئها ، والإصرار على عدم العودة إلى نظام الرأسمالية العتيق ، وعلى ضرورة إقامة نظم اجتماعية جديدة على أسس جديدة ، تكون أقرب إلى تحقيق المثل العليا للإنسانية كما تصورها كل فريق على حدة .

ولعل رجال العلم كانوا أكثر الناس تنبها وأشدهم عنفا في استشعار الحاجة الملحة لتغيير وجهة نظرهم في الحياة الاجتماعية بوجه عام . فقد أخذوا يتساءلون فيما بينهم : هل نحن محقون في الفكرة التي سادت بيننا من قديم الزمان ، والتي أساسها أن العلوم يجب أن تظل على الحياد دائما ، وأن هذا هو الضمان الوحيد لتقدم العلم والصناعة وارتقائهما ؟

ثم نظر هؤلاء إلى العالم وإلى المجتمع نظرة فاحصة ، فإذا هم يلمحون أثر العلوم وأثر النظرة العلمية وأثر التقدم العلمي في جميع نواحي الحياة ، فلم يقتصر هذا الأثر على الناحية المادية فحسب ، بل تعداها إلى النواحي الفنية والإنسانية والروحية وتخللها جميعاً . فإذا التفتوا إلى الإنتاج الأدبي والفني الحديث في مختلف صوره وجدوه قد تأثر تأثراً ظاهراً بالاتجاه العلمي ، وإذا تلفتوا إلى الناحية العمرانية تجلى لهم الأثر العلمي واضحاً قويا نفاذا .

وإذا ما حولوا بصرهم والتفاتهم إلى الجانب الإنساني في الحياة وجدوه كذلك قد تأثر تأثراً بالغا بالتقدم العلمي . ولكن الأثر في هذه الحالة متناقض ، فبينما نجد الجهود العلمية قد اتجهت من ناحية إلى الأخذ بيد الإنسان وتجنيبه ويلات المرض ، وإلى تقديم مقومات البهجة والسعادة إليه ، إذا بنا نجدها من ناحية أخرى قد اتجهت نحو التدمير والتخريب والتقتيل والتمثيل بالإنسان على أسوأ الطرق وبأبشع الأساليب .

فالمخترعات التي فرح بها رجال العلم وقدموها للإنسان بشيراً بما يسعده ويكمله ، ويرفع مستواه ، قد استغلت في كثير من الحالات لإنزال العذاب وجلب البؤس والشقاء ، ومحو الآثار الزاهرة المدنية التي كان يفخر بها الإنسان ويزهو . وذلك لأنه لما قامت الحرب الحالية واطلع كل من الفريقين المتحاربين على ما أنتجه الفريق الآخر من آلات جهنمية ، اقتنع الكل بأنه لا أمل في الغلبة إلا لمن يبتكر آلات أشد تدميراً من آلات خصمه ، وأقوى أثرا في الفتك من التي يستخدمها عدوه . وإذا بالفريقين يحشدون رجال العلم ويسخرونهم لتحقيق أغراضهم . وقد اقتضى ذلك السباق أن ازداد تشبث الفريقين بسياسة « الإنتاج على نطاق واسع » ، وبالتنظيم الدقيق للبحث والتحكم في عقول الباحثين بتوجيههم وجهات معينة ، بعد أن كانوا فيما مضى أحراراً في اختيار موضوعاتهم وطريقتهم والزمان الذي يناسبهم .

ثم نظر رجال العلم إلى النظم الاجتماعية القائمة وحللوها بطريقتهم العلمية الدقيقة الفاحصة ، فإذا بهم يجدون معظمها أجوف لا يستند إلى مبادئ قويمة ، ولا يقوم على أسس معقولة ، وإنما تقبله الناس لما كانوا فيه (في الفترة التي بين

الحرب الماضية والحرب الحالية) من اضطراب وقلق وتلهف على تغيير الحالة القائمة . وقد كان الدافع الأساسي للشعوب التي ارتضت تلك النظم الواهية الدعائم هو ما أملوه من ورائها من عظمة قومية وتوسع استعماري ، وربح مادي وتفوق عالمي . وهذه كلها تحوي في ثناياها بذور الشقاق بين الأجناس ، ودلائل تأهب الإنسان لافتراس أخيه الإنسان .

* * *

رأى رجال العلم كل هذا فهالهم أن يكونوا مسيرين إلى هذا الحد ، لا يملكون من توجيه السياسة العامة شيئاً مع أنهم عماد الحياة ورقيها في السلم والحرب . عندئذ بدأ فريق منهم يتحرك ويكتب منادياً رجال العلم أن يهبّوا من سباتهم ، ويخرجوا من عزلتهم ، ويتركوا الحياد الذي التزموه ، ويستشعروا أن عليهم واجبات اجتماعية ، وأن لديهم رسالة يجب أن يؤدوها بأمانة للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وليدركوا أن ذلك يستلزم أن يكون لهم صوت مسموع فيما يجب أن يكون عليه المجتمع ، وأن يشتركوا في البحث عن النظم الجديدة التي ستوضع للعالم بعد الحرب . فمن السخف أن يفنوا حياتهم في اكتشاف الحقائق وإخراج المخترعات وتنظيم الصناعة ، ثم يتركوا لغيرهم توجيه ذلك كله دون أن يشتركوا معه في هذا التوجيه وفي استغلال ثمرة عقولهم على الوجه الذي يتفق مع نزعاتهم الطيبة ، ونظراتهم الصائبة ، وميولهم الإنسانية المعقولة . وعندهم أن النظرة العلمية هي وحدها التي تستند إلى أسس منطقية معقولة ، وهي التي تضمن للنظام الجديد الذي يبنى على أساسها استقراراً واستمراراً ونجاحاً ، وتضمن للعالم هناءة وعدالة ، ووفرة وسلامة .

فإذا ما انتقلنا من ذلك إلى بحث الطريقة المثلى لهذا الاشتراك الفعلي لرجال العلم في الشئون الاجتماعية والسياسية ، تشعبت بنا الآراء واختلفت المسالك . ولذلك نجد نخبة رجال العلم البارزين وقادة الرأي فيهم يطلعون علينا في الفترة الأخيرة بكتب جديدة ، ومقالات ممتعة ، تحوي اقتراحات عديدة في هذا الصدد ، ونراهم جميعاً يتناولون تلك الاقتراحات والآراء التي تبدى بالتمحيص والدرس الدقيق بغية الوصول إلى خير الطرق وأنجعها . وشأنهم في ذلك هو هو شأنهم في جميع المسائل الأخرى ، حرية في الرأي لا حد لها ، وتقبّل للرأي أنى كان مصدره ، وقرع للحجة بالحجة في غير مراءاة ولا تهيب . فالجميع مقتنعون بأن كلا منهم قد تنزه عن الغرض الشخصي ، وأنه لا يبتغي فيما يبدي ويقترح سوى المصلحة العامة .

* * *

ونحن نرى لزاماً علينا قبل أن نتناول هذه المقترحات وتلك الآراء بالعرض والنقد ، أن نعرض لما هو أنفع لنا وأجدى علينا هنا ، وذلك أن ننظر أولا فيما لدينا من طبقات العلماء ، وفيما أداه هؤلاء لمصر من خدمات ، وفيما لا يزال ينتظرهم من تبعات ؛ ثم نبحث في نظرة أولي الأمر تجاه رجال العلم هؤلاء ، وفيما يجب على الدولة حيالهم . كل ذلك يجب أن نعرفه قبل أن نحكم إلى أي حد يحق لهم أن يشتركوا مع زملائهم في الدعوة القائمة ، وقبل أن نتبين إذا كان ما ينطبق عليهم هناك في العالم الغربي ينطبق عليهم هنا في العالم الشرقي . ذلك ما نرجو أن نتناوله في المقال التالي .

إلى حضرات المشتركين

حددت إدارة مجلة الثقافة يوم ١٥ يوليه سنة ١٩٤٤ آخر موعد لتسديد النصف الثاني من الاشتراك عن سنة ١٩٤٤ فالمرجو من حضرات المشتركين مراعاة ذلك .

الإدارة

٢ – عبد الله نديم

كان مرة يجلس في قهوة أيام الولد الأحمدي سنة ١٢٩٤ هـ ومعه طائفة من أصحابه ، منهم السيد علي أبو النصر الشاعر ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري الأديب الماجن ، فطلع عليهم اثنان من « الأدباتية » .

والأدباتية طائفة من المتسولين يستجدون بأدبهم العامي ، وطلاقة لسانهم في الشعر ، وحضور بديهتهم ؛ عرفوا بالإلحاح في الطلب ، فإذا رددتهم أي رد أخذوا كلامك على البديهة ، وصاغوا منها شعراً يدل على استمرارهم في طلبهم ، واستهواء ممدوحهم ؛ وقد جمعوا إلى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظراً مضحكاً في ملبسهم وحركاتهم ، فزر خارج العمامة ، وطبلة تحت الإبط ، وحركات يدور معها زر العمامة كأنه نحلة ، وتحريك لعضلات وجوههم كأنهم قردة ، وهكذا . وسموا « أدباتية » جمع مسخرة لأديب . قرا على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله نديم ، فقال أحدهما :

انم بقرشك يا جندى ... والا اكتنا أمثال يا أفندى
لحسن أنا وحياتك عندى ... بقى لى شهرين طول جيعان

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مدبنى ... وانت تقول لى مامشينى
يطلع على حشيشى ... أقوم أملص لك لودان

فرد « الأدباتى » ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك نحو ساعة ، ثم غلب الأدباتى فانصرف مهزوماً .

ونقل السيد علي أبو النصر القصة إلى شاهين باشا كنج ، فاستظرفها جداً ، وخطرت له فكرة ظريفة أيضاً ، أن يقيم حفلاً عاماً ، يدعو فيه كبار الأدباتية والزجالين ويدخلون في مساجلة مع عبد الله نديم ، فيكون منظراً لطيفاً ، ومحفلاً ظريفاً . ففعل ، ونصب سرادقاً أمام بيته ، وأحضر رؤساء هذا الفن ، وشرط عليهم أنهم إن غلبوا كافأهم ، وإن غُلبوا ضربهم ، فرضوا . واستمرت المساجلة نحو ثلاث ساعات ، تغلب فيها النديم ، فكانت الحادثة سبب شهرته بين الأدباء والظرفاء .

لقد أخذ بعضهم عليه – فيما بعد – هذا الحادث ، وعيّروه به ، وقالوا إنه رضي أن يقف موقفاً يساجل فيه المتسولين ، وأن يكون « أدباتيا » مثلهم ، ينازلهم ويغالبهم على ملأ من الناس ، فثله مثل المصارعين أمام « الزفة » ، ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيع النفس ساقط الهمة .

والحق أن وضع المسألة هذا الوضع فيه كثير من التزمت والتعنت ، كالذي تعرض على مسامعه الفكاهة الحلوة فينتقد فيها خطأ نحويا أو لفظا لغويا ، وكمن ينتقد الشيخ الوقور على ما كان منه أيام الصبا ، والغنى الواسع الثراء على ما كان منه أيام البؤس والشقاء ؛ فالمسألة لم تعد أن تكون طرفة لطيفة ، وفكاهة ظريفة ، وقوانين الظرف تبيح من البحبحة في مجالسه ما لا تبيحه في مجالس الجد والوقار .

أخيراً عاد إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩م في نحو الخامسة والثلاثين ، وهو أكثر خبرة بالدنيا فيما لقي من عظماء ووجهاء وأدباء ، وفيما رأى وسمع وعمل في القصر العالي أيام كان موظفاً في تلغرافه ، وفي التجارة أيام تاجر وأفلس ، وبأخلاق الفلاحين أيام كان يعلم أولاد أحد « عمدهم » ؛ ولكنه دخلها كما خرج منها صفر اليدين .

عاد فرأى في الإسكندرية منظراً جديداً لم يكن أيام كان بها ، كانت المجالس الأدبية يوم فارقها تتحدث في غزل أبي نواس ، ووصف البحتري ، وهجاء ابن الرومي ، ومديح الشعراء في إسماعيل ، وفكاهات الشيخ علي الليثي ؛ فإذا انتقلوا من ذلك فإلى من عارض شعر هؤلاء من المحدثين ، وما أنشأه الناشئون من سمار المجالس في مثل هذه الأغراض ؛ ولما عاد إليها وجد المجالس تتحدث في

بقد إسماعيل لإسرافه وتصرفه ، وفى الدول وتدخلها ، ورأى جمعية سرية تسمى « مصر الفتاة » يجتمع أعضاؤها فينقدون هذا كله فى صراحة وحماسة ؛ والأدب يتحول فيأخذ شكل الكلام فى الأمة ومصالحها ، وآلامها وآمالها ، ويحتل ذلك مكان غزل أبى نواس ، وشعر صريع الغوانى ؛ والنفوس بفضل تعاليم « جمال الدين الأفغانى » وصحبه ثائرة تتطلع إلى نوع من الأدب غير الذى كان ، وتجد غذاءها فى الصحف السياسية والمقالات النقدية ، فيشتغل فى الصحافة من هذا النوع « أديب إسحاق » ، و « سليم نقاش » فى جريدتيهما « مصر » و « التجارة » ، ويمدهما جمال الدين وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم .

فأعد عبد الله نديم نفسه للأدب الجديد وللطلب الجديد ، وانغمس فى هذا التيار ، وحوّل قلمه فى هذا الاتجاه ، يمد هذه الصحف بمقالاته فى مثل هذه الموضوعات ، فلقى من النجاح ما لفت إليه الأنظار . وكان له فضل كبير فى إدراك أن الكتابة فى الموضوعات السياسية إنما يناسبها أسلوب متدفق سريع مرسل لا يقيده السجع إلا قليلا ، لينسجم وحركات النفس المتحمسة الثائرة .

وفكّر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية « مصر الفتاة » أن يحوّلوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ؛ تعمل جهاراً فى الأعمال المشروعة ؛ وجدّ هو وصحبه يجمعون المال لها من أعيان الإسكندرية ، وسمّوها الجمعية الخيرية الإسلامية (وهى غير الجمعية القائمة إلى الآن بهذا الاسم) وكان من أهم أغراضها إنشاء مدرسة تعلم الناشئة على نمط غير النمط الجاف الذى تسير عليه مدارس الحكومة إذ ذاك ، فيضيفون إلى تعليم مبادئ العلوم بثّ روح الوطنية والشعور القومى بالأمة ؛ وقد كان هذا غرضاً جديداً دعا إليه الشعور القومى الذى كان فى طور التكون .

وتمّ ذلك كله ، فجُمع المال ، وأنشئت المدرسة ، وجُعل عبدالله نديم مديرها ، وافتتحها بخطبة رنّ صداها فى الثغر ، وكان ذلك فى آخر أيام إسماعيل ، وأقبل عليها كثير من أبناء الفقراء والأيتام ، ووُضع لها برنامج يحقق الغرض . وتكفّل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب ، وأخذ يمرّن الطلبة على الخطابة والتمثيل ؛ وعلى الجملة نفخ فيها من روحه ، ولعلها أول جمعية مصرية إسلامية فى مصر أسست لمثل هذا الغرض .

ثم وثّق الصلة بين المدرسة والقصر ، وكان الخديو إسماعيل قد عزل وحل محله الخديو توفيق ، فتقرب النديم إليه ، واستزاره المدرسة فزارها ، ورجاه أن تنسب الرياسة لولى عهده « عباس » فقبل . وأغرم بتعليم التلاميذ الخطابة ، فكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات يخطب فيها ، ويحضّر الخطب لتلاميذه ليخطبوها ، ثم يمرنهم أن ينشئوا الخطب بأنفسهم ، ويصلح خطأها ويرشدهم ، فأسس بذلك نخبة يحسنون التحرير ، ويحسنون القول . ولم يكتف بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى ميدان الحياة العامة ، فكان يحضر بعض الروايات التمثيلية فى نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه فى بعض الملاهى العامة ، من ذلك أنه أنشأ روايتين اسمهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » ، ومثّلهما فى « تياترو زيزينيا » ، حضرهما الخديو توفيق ، ونجح فيهما نجاحاً أعلى ذكره .

ولكن ظهر فساد فى الجمعية نسبوه إليه ، ففصل من المدرسة ومن الجمعية .

عند ذلك اتجه إلى إنشاء صحيفة ، وحبّب إليه ذلك سابقة اتصاله بصحيفتى أديب إسحاق وسليم نقاش ، ومرانه على الكتابة فيهما ، وشعوره بأن الناس أعجبوا بما كتب ، وأنه كان يكتب فيستغل أصحاب الصحف مقالاته مادة ومعنى ، فلا يؤجرونه على ما كتب ، وكثيراً ما يضنّون عليه حتى بذكر اسمه فى ذيل مقالاته ، بل يتركون القارئ يفهم أنها لهم ومن إنشائهم .

فأخرج صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » ، وفى هذا الاسم دلالة على غرضه وأسلوبه ، فهو يرمى إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه ، فى أسلوب قد يكون لاذعاً وقد

يكون ضاحكا .

وظهر العدد الأول منها في ٦ يونيه سنة ١٨٨١ ، ودعا فيه الكتاب أن يوافوه بمقالاتهم ونتاج قرائحهم على النهج الذي رسمه : « كونوا معي في المشرب الذي التزمته والمذهب الذي انتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية، وتبكيت يبادي بقبيح الجهالة ، وذم الخرافات ، لتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مُثْلة في الوجود ، من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وفي الحق أن هذه الصحيفة كانت عجباً في موضوعاتها وأسلوبها .

انظر العدد الأول ، تجد تنكيتاً وتبكيتاً لأكبر المصائب التي كان يحسها ذلك العصر : مقال عنوانه « مجلس طبي لمصاب بالأفرنجي » ، وهي قصة شاب صحيح البنية ، قوي الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، في رقة ألفاظ وعذوبة كلام ، وفي عزة ومنعة لا يشاركه فيها مشارك ، يلتف حوله أهله يعززونه ويؤازرونه حتى لا تمتد إليه يد عدو ، ولا حيلة محتال — وبينا هو في ذلك تسلل إليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر فأسلمه أهله إليه اغتراراً به . فمرنه هذا الماكر على الأسواق يريه من الغواني من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فانع حيناً ، ولكنه رأى أهل بيته قد وقعوا في مثل هذه الغواية ، وانغمسوا في مثل هذه الضلالة ، فسار سيرهم ، وترك الفار والإباء ، وسار في الطريق الذي رسمه المنافق الخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الأفرنجي (الزهري) ، فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه وسرى في دمه وعروقه ، فصار يقلب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه .

واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ، ويشخصون مرضه ، ويقفون على أصله ، ويركبون الدواء ليقف سريان الداء ، وتعلق بهم أهل المريض يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه ، فطمأنهم الأطباء ، ونصحوهم بالهدوء ، والتحرز ممن كانوا السبب في الداء ، حتى لا يفسدوا العلاج ؛ وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ، ويبذلون الجهد في معالجته .

وواضح أن هذه قصة رمزية ، أراد أن يصور فيها شعور الناس في هذه الفترة بعد ما كان من الإسراف في عهد إسماعيل ، ووقوع مصر في الديون الباهظة ، وتدخل الدول الأجنبية ، من مراقبة ثنائية وإنشاء صندوق الدين ، وما إلى ذلك ، كما يصور بها ألم الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة منه بسعي عقلائهم ، وتفكير أولي الرأي فيهم — كل ذلك في أسلوب روائي مفهوم .

قد كانت هذه المسألة هي صميم المسألة المصرية ، ومشكلتها الكبرى ، فبدأ بها على هذا النحو ، وعالجها هذا العلاج ؛ وكان بارعا في التورية بكلمة « الداء الأفرنجي » .

ويلي ذلك مقال في « عربي تفرنج » ، يصف فيها شاباً من صميم الفلاحين ، تعلم في مصر ، ثم في أوروبا ، وعاد إلى بلاده يستقبله أبواه لما قابله على المحطة وقبله ، كيف يقبله ، ويطالبه أن يسلم عليه بيديه فقط ، ويكتفي بأن يقول له « بن ژور » ، وينسى لغته ، حتى اسم البصل ، فهو لا يعرف إلا أن اسمه « أونيون » — ويختم هذا بالمغزى من القصة ، وهو أن لا أمل في مثل هؤلاء إلا إذا حافظوا على لغة قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم في تقدم بلادهم .

ثم يقص قصة نفر من اجتمعوا في بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم ساهمين لا يتكلمون ولا يتحركون ، فظنهم يفكرون في أمر خطير شغل أذهانهم ، وعقد ألسنتهم ، كتفكيرهم في تقدم الصنائع في أوروبا ، وكيف يفعل ذلك في مصر ، أو يفكرون فيما يزيد ثروتهم ، ويضمن التقدم في عملهم ؛ ثم يتبين بعد ذلك أنهم إنما

اجتمعوا لتعاطى الكيف ، وأخذ « النزول » ليكون الواحد مبسوطا لا يسأل عن الدنيا وما فيها ، فإذا « ونّ » قام إلى مكان نومه ، وقضى ليلة سعيدة — وقال مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف والتلغرافات ، ونحن كلنا بحمد الله فى غنى عظيم ، فعندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلّف لنا آباؤنا من المال ما لا تفنيه الأيام — فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفات .

ثم قصة ترمى إلى نقد ما كان يجرى بين العامة من اجتماعهم فى القهوة ، وسماعهم للقصّاص (الشاعر) ، وانقسامهم إلى معسكرين : متعصب لعنترة ، ومتعصب لزغبة ، وما كان من أحدهم — وقد ختم القصّاص الليلة بوقوع عنترة أسيرا — إذ ذهب إلى ابنه وأيقظه من نومه وأمره أن يقرأ فى الكتاب حتى يخلص عنترة من الأسر ، وإلا مات كمدا ، فلما لم يطعه ابنه ، وأفهمه أن هذا تحريف فى تحريف ، نزل عليه بعصاه حتى أدماه . والجنون فنون .

وفى هذه قصة تمثل الفلاح الجاهل ، والمرابى الماكر ، إذ أراد الفلاح أن يقترض منه مائة جنيه ، فأعطاه سبعين ، وكتب عليه « كمبيالة » بمائة وعشرين ، وحسبها كما يأتى : المائة فائدتها عشرون ، تخصم من المائة فيكون الباقى سبعين ، وتضم الفائدة فيكون عليه مائة وعشرون ! ويقتنع الفلاح بذلك لجهله بأبسط مسائل الحساب . ثم يقدم الفلاح المرابى قطنا وقمحا ثمنهما الحقيقى ١٢٥ جنيها ، يحسبها المرابى بأربعين ، ويغالطه أغلاطا مضاعفة حتى يجعله مدينا بمائتى جنيه وعشرة ، كل ذلك والفلاح فى غفلة لا يدرى ما يصنع به — فلما عوتب المرابى على ذلك قال : ماذا أصنع ! إن الفلاح حمار . وأنا أريد أن أكون غنيا كبيرا فى خمس سنين !

ثم قصة فتى كبير بنى بيتا جليا ، وأثثه أثاثا بديعا ، وكان من أثاثه مكتبة كبيرة ، فلما أتم ذلك كله عرضه على الزائرين ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحوى ، ليعرف أى نوع من العلوم والفنون يهوى ، فقال الفتى صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت فى مضيفة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها منفضة من الريش ، والخادم كل يوم ينفضها ويمسح الزجاج والخزانة ، فظننت أن هذا طراز جديد فى بناء البيوت وتأثيثها ، فقلدتهم فى ذلك ، ولا علم لى بعلم أو فن ، « وهكذا أصبح الكل نائما فى غفلة التقليد » .

* * *

ثم هذا كله فى العدد الأول من صحيفة « التنكيت والتبكيت » ، نقد للسياسة العامة للبلد ، ونقد للعيوب الاجتماعية الخاصة . كل ذلك فى أسلوب يسترعى الانتباه . فقد التزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية ، فقال فى فاتحتها : إنه لا يريد منها « أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ؛ ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئ إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبّر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها ؛ وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى »

ثم هو يدرك أن فى الناس خاصة وعامة ، وكلٌّ يجب أن يقصد إلى تغذيته بالأدب وإشعاره بوجوه النقد ، لذلك يختار موضوعات الخاصة فيكتبها باللغة الفصحى كموضوع « الداء الأفرنجى » ، فهو موضوع دقيق لا يقدر قدره إلا الخاصة ؛ أما الفلاح والمرابى وسمّاعو القصّاص فكثرة للعامة ، فيجب أن تكتب بلغتهم العامية . وهو فى اللغة العامية ماهر كل المهارة ، يعرف أمثالهم وأنواع

كلامهم ، ويضع على لسان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير والغنى ، والساكر والمغفل ، ما يليق به فى دقة وإحكام وظرف .

ثم هو قد فطن لشىء جليل القدر ، وهو أن التعليم والنقد من طريق القصص أحبب للنفس وأعمل فى النقد ، فأ كثر منه بل كاد يلتزمه .

لذلك كله نجح فى صحيفته ، ووصل تداولها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئاً قرأ ، ومن لم يكن قارئاً سمع ففهم

ولم يكتف بذلك بل نراه فى عدد تال يلتفت التفاتة لها خطرها فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة ، وانحصارها – تقريباً – فى خطب المساجد ، وهى خطب لا تمس الحياة الواقعة بحال من الأحوال ، وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تحرك قلباً ولا تفىء حياة .

فكتب مقالا قوياً فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الإسلام ، ودعا إلى أن يحضر خطب المساجد أعرف الناس بشؤون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر فى وضوح ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة فى جلاء ، وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع ديوان الأوقاف ليسمح بإلقاء هذه الخطب فى المساجد ، ثم تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة ؛ وأعلن استعداده للاشتراك فى إعدادها ، ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه .

تتضمن هذه الخطبة النموذجية ، المحافظة على حقوق البلاد ، والنهى عن الظلم والبغى ، والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها فى الأفق ، والاتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والالتفاف حول الخليفة والخديو ، والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرز من إتيان عمل يتخذه وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، من حفظ حقوق تجارتهم ، وعدم الإساءة إليهم .

هذه هى المعانى التى رأى أن الحاجة ماسة إليها فى ذلك الوقت (فى أول حكم الخديوى توفيق قبيل الثورة العرابية) ، صاغها صياغة دينية تناسب صلاة الجمعة ، فبدأها بالحمد لله ، والثناء على رسوله ، وختمها بالحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » — وقد حقق « الراديو » أخيراً فكرة عبد الله نديم فى إذاعة الخطبة شكلا ، ولكن لما تتحقق فكرته موضوعاً .

وانتهت هذه الصحيفة على هذا الوضع .

يتبع أحمد أمين

متفرقات

الآلة صبه خلق عظيم ، فأنت إذا وقفت بك حصان أو حمار وأبى السير فقدت صبرك وتملكك الغضب ، وانهلت عليه ضرباً ؛ أما إذا تعطلت الآلة ووقفت فلن تفكر فى ضربها ، لأن ذلك لا يجدى نفعاً ، بل ستفكر بهدوء وتفحصها من كل جوانبها حتى تهتدى إلى موضع الخطأ فيها ، وتلك هى التربية الصحيحة . الأستاذ جلبرت موري

* * *

امتاز شرلى بسهولة قبضه على المهجين من غير جلبة أو ضجيج ، فسئل فى ذلك ، فقال :

« إنى أتبع نفس الطريقة كثيراً مع زوجتى ، فهى إذا انتابتها نوبة من الغضب وعلا صياحها — كما يحدث أحياناً — لم يكن ثمة فائدة فى أن أقابل صخبها بضجيج أعلى ، ولا أن أرد على كلامها عنها ؛ ووقعت على الطريقة الصحيحة فى مثل هذه الحالة ، وهى أن أقابل هذه الجلبة العالية منها بهمسة خافتة ألقيها فى أذنها ، فتبرد حماستها ، ويسكن ضجيجها . وكذلك اعتدت أن أهمس فى أذن السكير الصاخب فآخذ عليه بهذا الهدوء مسالكه ، ولا يلبث أن يسلم يده . وما أخفقت طريقتى هذه قط » .

رســـــائل صينية

الرسالة الثالثة

« لقد قرأت حديثاً في صحيفة من صحفكم « أن الهدف الأسمى لأمم أوروبا هو أن تمدّن الصين » . فإذا كان الأمر كذلك فإن الوسائل التي اتخذت لتحقيق هذه الغاية وسائل فذة ولا شك . ولست آمن نفسي أن أخوض في سيرتها . فأنا واثق من أن السلب والنهب والفوضى والخراب والقتل والاغتصاب أمور لا توافقون عليها هنا في إنجلترا ، بل إنكم فيما أعتقد تمقتونها ما استطعتم ؛ ولست أرجعها في الواقع إلا إلى الفوضى التي تسود فرقكم من سوء نظامها . إني لا أذكر مثل هذه الأمور في هذا المجال لمجرد إظهار استهجاني لها ، لأن السؤال الذي يتردد في نفسي دائماً عندما تتحدثون عن المدنية هو : أي نوع من الرجال أخرجت مدنيتكم للعالم ؟ وهذه الحوادث الأخيرة في الصين لا توحي فيما يلوح بجواب شاف لمثل هذا السؤال ! ولكني لا ألحّ في طلب هذا الجواب ، فقد تكون المدنية — مدنيتنا ومدنيتكم سواء بسواء — مجرد قشور ؛ وقد يكون الوحش كامناً في أعماق الإنسان أبداً ، مستعداً دائماً لأن ينقض على فريسته متى فتحت له الأبواب بفضل تدبير محكم ، أو فرصة سانحة . إننا في هذا مثلكم على كل حال يُحكم علينا بما يحكم عليكم به ، وما آخذنا ومعايبنا في هذا كمآخذكم ومعايبكم ، ترتد إلى أقوام من يعددونها لأنها تنطبق عليهم هم أيضاً . من أجل هذا أمرّ على مثل هذه المناظر من حيثكم مرّ الكرام ، لأقف أمام أحوال الحياة العادية . والآن أي الرجال نحن وأي الرجال أنتم حتى يحق لكم أن تصفونا بأننا همج متوحشون ؟ نعم ! أي الرجال نحن ؟ إنه لسؤال عسير عليّ أن أجيب عنه . وإني لأقلّبه في أفكاري ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، فلا أجد وسيلة أستطيع بها أن أقدم إليكم شيئاً مما يدور في خلدي من أمر . أجدى من أن أحاول أن أرسم لكم صورة — أن أرسمها صادقة أميناً ، فهي ما إن تزال تطاردني وتملك عليّ نفسي وعقلي كلما سرت في أيام الشتاء في شوارع عاصمتكم السوداء المعتمة .

هناك في الشرق البعيد جداً حيث الشمس مشرقة إثر الغمام تزوره ، فقد لطختم حتى هذا القليل منه الذي عندكم ، ولوثتموه بالدخان ؛ هناك على ضفة النهر العريض يقوم البيت الذي فيه وُلدت . إنه بيت بين الآلاف من أمثاله ، ولكنها كلها تقوم وسط حدائقها الخاصة ، وكلها قد لونت في بساطة بالأبيض أو الرمادي ، وكلها متواضعة بهجة طليقة . ولأميال عديدة على طول الوادي الممتد ترتفع أسطح هذه المنازل ملونة بالأزرق أو الأحمر وسط بحر من الخضرة النضرة ، بينما يلمع هنا أو هناك بريق الذهب الذي يكسو قباب معابدنا الطويلة من بين باقات من الشجر الأخضر . والنهر تخترقه القناطر العديدة وقد غص بالقوارب والزوارق ، يحمل على مجرى مائه الرائق الصافي حركة مرور نشيطة من الأسواق الريفية على ضفتيه . فالفلاحون الوقفون المجدون يملأون المنطقة كلها ؛ يمتلكون الأرض التي يحرثونها ، تلك الأرض التي قد ملكها آباؤهم من قبلهم وحرثوها مثلهم ؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا إن الأرض التي يعملون عليها قد صنعوها هم بأيديهم . ولك أن تنظر إليها لتتبين صدق قولهم ، فهذه التلال الجدبة قد أصبحت كلها تتموج من أسفلها إلى قممها بالخضرة النضرة ، بالقطن والأرز والقصب والبرتقال والشاي ؛ وهذا سفح الوادي قد ازدان بأحزمة فضية من ماء النهر يتساقط من قناة إلى قناة في آلاف من الشلالات اللامعة البراقة ، ثم ينكسر في القناطير ليترقرق في الواسير ويغمر الأرض التي تمتصه حتى تخضر . وهكذا يوزع بالعدل والقسطاس ويلا نمن الخصب والخضرة والحياة في سخاء ووفرة . وإنك لترى في كل ساعة وأنت تجتاز

القناطر الصغيرة والطرق الملتوية المتعرجة آثار الأجيال التي خلت ، وإلى جانبها جهود أبنائهم من بعدهم إلى أن تصل إلى حيث يستسلم الإنسان عاجزا أمام الطبيعة ، فتتجلى حرة لم يسيطر عليها أحد . وإذا المنحدرات قد كسيت كساء ورديا ذهبيا لازورديا من الزهور المختلفة الأشكال والألوان ، زهور فتية قد نمت في وفرة مفعمة بالحياة الفائرة . كم جلست هنا وسط هذا السكون ، سكون بلغ من عمقه أني كنت أستطيع أن أنصت فيه إلى حفيف ظل الشجر يتحرك على الأرض كما قال أحد شعرائنا ؛ سكون لا يشوبه إلا أصوات الفلاحين يتنادون من حين إلى حين عبر النهر ، وإلا صوت نواقيس المعابد يشع في الوادي يدعو الناس إلى الصلاة في الفجر والغروب . أي سكون وأي أصوات ! وأي عطر وأي ألوان ! إن الحواس لتحيا بكل هذا وتنعم به ، بل إنها لترق بسببه إلى درجة لا يمكن لكم في جوكم الشمالي أن تتبينوها أو تدركوها . إن جمال الطبيعة حولنا يتسرب إلى أعماقنا فيشكل الروح والعقل بحيث ينسجمان معه .

فإن امتزنا نحن الصينيين بآدابنا وفنوننا وأخلاقنا فالسبب في ذلك واضح لكل ذي عينين . إن الطبيعة حولنا هي التي علمتنا ؛ ونحن في هذا أحسن منكم حظا . ولكن مما يعود الفضل فيه إلى ذكائنا وليس إلى حسن حظنا ، أننا كنا مستعدين لأن نتلقى عن الطبيعة درسها ؛ ذلك أنه في هذا الوادي الجميل ، كما لا يخفى عليكم ، تعيش آلاف الأنفس لا يحكمهم دستور سوى التقاليد ، ولا يسيرهم قانون سوى قانون الأسرة . إنهم صناعون مهرة نشطوا في صناعتهم ، ولكنها الصناعة التي لا تكادون تعرفونها في أوروبا ؛ إنها صناعة الأحرار يعملون فيها لأهلهم ولذويهم ، يعملون فيها على الأرض التي ورثوها عن آبائهم ليسلموها من بعدهم إلى أبنائهم ، وقد أخصبوها بكدهم ورووها بعرق جبينهم ، ولا مطمع لهم وراء ذلك ، فلا يعنيهم أن يجمعوا الثروة بحال من الأحوال .

ولئن كان منهم في كل جيل من يترك وطنه ليجوب العالم ، فقد كان يرحل عن الصين وملء صدره أمل لا يخيب في أكثر الأحيان ، ذلك هو أمل العودة إلى وطنه حيث ولد ليقضي أعوامه الأخيرة بين المناظر التي أحبها في شبابه ، والوجوه التي كان يعزها في صباه . إنه بين قوم كهؤلاء لا يكون مجال للمنافسات الحقيرة الحادة ؛ فلا سيد ولا مسود في الصين . ولكن المساواة المجسمة الملموسة الحقة هي التي يعتمدون عليها في معاملاتهم ، وهي التي تنظم الصلات بينهم . إن الكد الذي يفيد الجسم والروح ، والراحة الكافية والضيافة الطيبة ، والقناعة التي تدعمت بحكم العادة في نفوسهم ، والتي لا تؤرقها خيالات الأطماع والجشع ، والحس المرهف لكل ما هو جميل ، الذي أوحت به أجمل طبيعة في العالم وعته ورعته ، والذي يتجلى في السلوك الجميل والمعاملة الرقيقة ، إن لم يجد له متنفسا لأن يتجسم في صورة فن خالد ، هي صفات قوت الدين ولحمت بينهم . أيمكن أن تكون الذكرى قد خانتهم ؟ قد تكون . أيمكن أن يكون الخيال قد أضفى جماله على مراتع الصبا ؟ من يدري ؟ ولكن أوقن بشيء واحد ، ذلك أن حياة كتلك التي وصفتها ، حياة قامت على أساس العمل في الأرض ، وبنيت على قواعد المساواة الحقة والعدل التام ، توجد فعلا في الصين ، بل إنها لتملأ الصين طولا وعرضا في ازدهار ونشاط ، فماذا عندكم يا هؤلاء الذين تريدون أن تمدنونا ، مما تستطيعون أن تقدموه إلينا عوضا عن هذه الحياة ؟ واحسرتاه ! إنه باسم هذا الدين قد ارتكبتم ما لا يستطاع وصفه . أأخلاقكم ؟ ترى أين نجدها ؟ ثم أين أخلاقكم تلك ؟ أذكاؤكم ؟ وإلى أين قادكم ؟ أين منكم في إنجلترا صورة يمكنكم أن تقدموها لنقارن بينها وبين ما رسمت لكم من الصين ؟

هذا هو السؤال الذي سأحاول أن أجيب عنه .

دكتورة سهير القلماوي

منزلة الوالدين (١)

تبلغ منزلة الوالدين في أعين طفلهما حد التقديس . فهما في نظره كل شيء ، وهما المبد القدسي والقوة المسيطرة ، ومرجع كل صغيرة وكبيرة ؛ وهما يكونان له وحيا وإلهاماً وعزاءً ، وقوة تزيد في سروره وتنقص من آلامه ، فتجده بين رفقائه فخورا بهما ، يتيه إعجابا لما لهما من « سعة الاطلاع ، ووافر المعرفة ، وغزير العلم » .

* * *

فإذا ما شب وترعرع ، فنمت سواعده الفتية ، وتفتحت قواه العقلية والعاطفية الملتهبة ، وانتقل من مرحلة تدريس إلى أخرى أعلى وأرفع ، فعندئذ يقل مستوى التقديس رويداً رويداً ، وتبدأ في نفسه غريزة طبيعية هي مزيج من الغرور والاعتداد بالنفس . فتجده يقول : « لا ريب أن والديّ قد خبرا الحياة وعرفا كثيراً من حلوها ومرها ، ولكن هناك بعض أشياء ما زالا يجهلانها ... لقد كنت مخطئاً في وصفهما بالكمال ... » .

* * *

ثم ينمو الفتى ، ويضحى شابا طموحا متوثبا ، يتسع أمامه أفق الحياة بعد أن كان محدوداً مركزاً ، وتظهر أمامه العلوم والفنون متشعبة متفرعة ، والآراء فيها مختلفة متباينة ؛ هنا ، يصطدم جيله بجيل والديه ، وتفكيره بتفكيرهما ، ومستقبله بماضيهما . هو نشيط طموح ، وهما رزينان وقوران ؛ هو مندفع بتمنياته وأخيلته ، وهما ثابتان بتجاربهما ؛ هو يتطلع إلى المستقبل منتظراً آماله ، وهما يستمران يحن للماضي . فتجده يهمس بينه وبين نفسه : « إن والديّ لا يدركان مطامع الشباب ومآربه ، إن أفكارهما ونصائحهما القديمة بالية ، إن أفادت جيلا مضى فهيهات أن يسترشد بها شباب جيل يتمتع بدرجة محترمة من التعليم والثقافة والمدنية ... » .

* * *

ثم تمر الأيام ، ويصبح الشاب رجلا حنكته الأيام وعصرته التجارب ، فنضج عقله ، وابتدأ يزن الأمور على حقيقتها ، واستوى فهمه فوثق من نفسه ، وأضحى تفكيره مرتبا منطقيا . في هذه السن ينظر الرجل إلى والديه من جديد نظرة احترام وإجلال ، يعلي من شأنهما ، ويقدر نفسيتهما . فإذا ما سألته عن رأيه فيهما لأجابك : « إن الإنسان لا يستطيع أن يعطي والديه حقهما عليه . إن تفكيرهما لسليم ، غالباً ما يصيب . وكأن العناية الإلهية قد خصتهما بجزء كبير من عنايتها ... » .

وأخيرا ماذا عسى أن يكون رأي شيخ في والديه إذا كان الله قد أطال في عمرهما . أو ماذا عساه أن يقول في رحمته عليهما إذا كانا قد سبقاه إلى القبر . ؟ إنه يصفهما بالحكمة دائما ، فكلامهما درر ، وأقوالهما عبر ... أمد الله في حياتهما أو رحمهما رحمة واسعة !!

محمد أحمد أمين

(١) عن مجلة « بارید » بتصرف .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ قرشاً في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في البلاد الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في البلاد الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١٥ مليما

الطب العربي البابلي

يجتمع قريبا في بيروت مؤتمر الطب العربي لتوحيد الجهود في سبيل محاربة الأمراض المستأصلة ، والاهتداء إلى أقرب الطرق وأنجعها لرفع مستوى سكان البلاد الصحي . لذلك رأيت من المناسب أن أفتح أمام القارئ صفحة من صفحات تاريخ الطب العربي منذ أقدم عصوره .

ولاشك عندي في أن الإلمام ببعض ما كان عليه ذلك العلم في فجر تكوينه ، أعني في الألف الثالث قبل الميلاد ضرورة لا بد منها للذين يعنون بتاريخ الطب وتطوره ، أو تتبع الأدوار المختلفة التي مرت بها مفرداته اللغوية ، سواء منها تلك التي وضعها الشعب يوم كان الطب شعبيا ، أو أوجدها الإخصائيون لما أصبح علميا . ولست في حاجة إلى القول إن القارئ لن يتطلب مني أن أعرض له في مقالي اتفاق الأمراض وتشخيصها ، والعقاقير وتركيبها ، عرضا طبياً دقيقاً ، لسببين لا ثالث لهما : أولهما أن (الثقافة) ليست صحيفة طبية ؛ وثانيهما لست أنا بالطبيب الذي بلغ من المهارة الفنية الحظ الكافي الذي يمكنه من وضع ألفاظ واصطلاحات اللغة الطبية القديمة في أسلوب عربي حديث . وإذا آثرت العرب البابليين الأشوريين على سواهم من سائر الشعوب العربية الأخرى التي قامت لها في الجزيرة العربية وخارجها حضارات ومدنيات ، فإنما لغناء التراث الذي وصلنا عن سكان الرافدين ووفرته ؛ فما نعلمه اليوم عنهم بفضل أعمال الحفر التي تقوم بها الجامعات الأمريكية والأوربية في بلاد العراق وما جاورها ، يفوق بكثير ما نعرفه عن معظم الشعوب العربية الأخرى التي عاصرت البابليين الأشوريين .

وقد رغبت في الطب لعلمي بالاستعداد الفطري الكامن في العنصر العربي ، أو إن شئت فقل العنصر السامي ، لمزاولة الطب والنبوغ فيه نبوغا بوأه منذ القدم أسمى الأماكن وأرفعها . فالتاريخ المصري القديم يحدثنا أن فرعون مصر أمينوفيس الثالث استدعى طبيباً أشوريا لمعالجته ، لما هدته العلة واشتد به المرض ، رغما من ازدهار الطب ورقيه عند قدماء المصريين . وما جاء في المصادر المصرية تردده مصادر أخرى لكثير من شعوب العالم القديم التي كانت تربطها وأرض الرافدين علاقات ثقافية .

ولعل السبب في ذلك النبوغ يرجع إلى أن العربي بطبعه متفائل راغب في الحياة ، آخذ بأسبابها ، كما تدلنا على ذلك أساطير وآداب الساميين القديمة وعقائدهم الدينية المختلفة . السامي راغب منذ القدم في البقاء ، فرفض فكرة الفناء ، واعتقد في البعث ، كما اعتقد في الحياة الأخرى والثواب والعقاب . فمن هذه عقيدته في الحياة طبيعي أن نراه يبذل كل ما في طاقته لجعل هذه الحياة الدنيا سعيدة غير تعسة ، وسليمة غير معتلة . وهو في عمله هذا يؤدي عملا يقرب من العبادة إن لم يكن هو العبادة ؛ لذلك رأينا في سائر الديانات العربية اهتماما خاصاً موجها إلى العناية بالصحة ، والاحتفاظ بالجسم سليما قويا ، ومحاربة كل ما من شأنه إفساد عمل عضو من أعضاء جسم الإنسان أو الإضرار به ، مع الحث على الأخذ بأسباب الحياة الطبيعية غير الملتوية أو المعقدة . الأخذ بأسباب الحياة مع العناية بجسم الإنسان عقيدة دينية ، إذاً رغبة من الرغبات الإلهية ، وكل ما يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ، يجب أن يكون من عمل طائفة غير طائفة الآلهة ، أعني طائفة الأرواح الشريرة . وبما أن هذه الكائنات شريرة وجبت إذاً محاربتها ، ووجبت مطاردتها ، ووجب القضاء عليها إن أمكن . وما هي الوسيلة لبلوغ هذه الغاية ؟ السحر . السحر إذاً وسيلة من وسائل التخلص من الأرواح الشريرة ، أو بعبارة أخرى وسيلة من وسائل العلاج والشفاء ، كما أنه سبب الداء .

ونحن إذا رجعنا إلى معاجمنا اللغوية نطلب إليها الإفصاح عن مدلول لفظ (طب) رأيناها تطالعنا بكثير من

المعاني التي ترجع إلى تلك العصور الغابرة . وصاحب اللسان يروي لنا أن الطب هو السحر ، وقد قال ابن الأسلت :

ألا من مبلغ حسّان عني أطبٌّ كان داؤك أم جنون

ورواه سيبويه أسحر كان طبُّك ، وقد طُبَّ الرجل ، والمطبوب المسحور . قال أبو عبيدة إنما سمي السحر طبًّا على التفاؤل بالبرء . . . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه احتجم بقرن حين طُبّ . قال أبو عبيدة طُبّ أي سُحِر ، يقال منه رجل مطبوب أي مسحور . وفي الحديث : فلعل طبًّا أصابه أي سحرا .

وإذا كان المرض من عمل الشياطين ، فالعلاج يجب أن يأتي من عند الآلهة . والأسطورة البابلية تحدثنا أيضا أن الإله (إيا) هو رب الحكمة وإله المعرفة ، وهو الجد الأكبر للأطباء . والإله (إيا) كما نعلم أيضا هو سيد البحار والأمواه ، ومن الماء جعل الله كل شيء حياة . فالخبير بالماء أو كما يعبر عنه بالبابلية (آسُ) هو الطبيب ، و(أسوتُ) عبارة عن علم الطب ؛ ومن اللغة البابلية الأشورية انتقل إلى سائر اللغات السامية كالآرامية والعبرية والحبشية . والأسا في العربية مفتوح مقصور المداواة والعلاج ؛ وأسا الجُرْحَ أسْواً وأسًا : داواه . والأسْوُ والأساء جميعا الدواء ، والجمع آسية ، قال الحطيئة في الأساء بمعنى الدواء .

هم الآسُونَ أمَّ الرأس لما تواكلها الأطبّةُ والأساءُ

والآسي الطبيب . وإذا تتبعنا هذه المادة في اللسان وجدناها مستعملة في معناها الأصلي المتصل بالماء ؛ فقد ورد والآسي ماء بعينه ، قال الراعي :

ألم يُنْزِلْ قساء بني زُهَيْر على الآسي يُحلّقْنَ القرونا

لكن الماء ليس هو الدواء الوحيد الذي تحتاج إليه أمراضنا وجروحنا ، لذلك نجد إلى جانب الإله (أيا) آلهة أخرى اختص كل منهم بعلاج مرض خاص ، فمنهم الإخصائي في علاج الفم والأسنان من سائر أعضاء الجسم وأطرافه ، ومن أشهر هؤلاء الآلهة الإله (نينجيزيدا) . ومن حسن الحظ فقد عُثر على رمزه ، وهو عبارة عن عصا التف حولها ثعبان . ومن كان يدور بخلده أن الثعبان شعار الطب والأطباء في عالمنا القديم والحديث يرجع إلى هذا الرمز العرقي البابلي ؟ أما السر في اختيار هذه الأفعى فهو الاعتقاد بأن الثعبان باستبداله ثوبا (جلدا) بثوب يجدد شبابه ، فيكتسب حياة جديدة ، فالثعبان إذاً خالد لن يموت ، لذلك قُدس قديما ، واتخذ كرمز من رموز الحياة الأبدية .

ولم يمض زمن طويل حتى أخذ الطب الشعبي الروحاني يفسح الطريق لطب آخر يعتمد على الخبرة والتجارب أكثر من السحر والشعوذة ، أعني الطب العلمي . وأهم المصادر التي يعتمد عليها رجال الساميات اليوم لدراسة هذا الطب العلمي ، هي النقوش البابلية القديمة ، ومن أهمها تلك التي عُثر عليها في مكتبة الملك الأشوري (أشوربانيبال) ، ولو أن علم الطب كان معروفا من قبل بدليل اهتمام شريعة حورابي به ، وتخصيصها الكثير من المواد المتعلقة بالأطباء والجراحين ، سواء كانوا إخصائيين في أمراض البشر أو الحيوان . وأهم هذه النصوص التي عثر عليها في مكتبة (أشوربانيبال) هي تلك التي عرضت فيها بعض الأمراض والعقاقير ، وكيفية تحضيرها وطريقة استعمالها ؛ فقد وصلنا مثلا نص مقسم إلى ثلاثة أعمدة ، في العمود الأول الدواء ، والثاني الداء ، والثالث طريقة استعمال الدواء . مثلا : جذور عبّاد الشمس — لشفاء وجع الأسنان — توضع على الأسنان .

ومن مراجعة هذه النصوص وتلك التي عُثر عليها في سجلات الحكومة الحيثية (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ، يتبين لنا أن الطريقة التي كانت متبعة عند وضع المراجع الطبية هي تقسيم المادة حسب أعضاء جسم الإنسان ، فتذكر مثلا أولا الأمراض الخاصة بالرأس وعوارضها ، والأدوية الخاصة بعلاجها ، ثم ينتقل إلى الصدغين ، فالأذن ، فالعين ، فالصدر ، وقد أمهيت النصوص التي

عثر عليها فى وصف أمراضه ، فمن حمى باطنة ، إلى سعال ، ومن ثقل فى الحقوين إلى وجع فى الظهر ، وقد يكون كل ذلك مصحوبا ببلغم وصعوبة فى التنفس وضيق فى الصدر ، إلى جانب الدم الذى قد يصحب به بصاق المريض أحيانا ، ومتى بلغ المريض هذه المرحلة فى رئتيه صديد ، ومن فم الرئة اليسرى يسيل دم منتن . وبعد ذلك نجد عرضا دقيقا لأمراض أخرى باطنة متعددة ، كتلك التى تصيب المعدة أو القلب أو الكبد أو الطحال . ومن الجدير بالذكر هنا أن الطبيب العرقى البابلى تنبه إلى العلاقة بين داء الصفراء وأمراض الكبد . وفى نصوص أخرى حديثا طويلا عن الأمراض الجنسية والتناسلية وأمراض الرحم والحمل والوضع . وقد اهتدى رجال الساميات إلى نصوص كتاب كامل خاص بالأعصاب ، وفيه كلام كثير حول العضلات والأمراض التى تنتابها ؛ ومن أمثلة ما جاء به أن أعصاب الفخذ إذا لم تقو على مساعدة صاحبها على القيام أو السير فهى مريضة ، وقد يكون مرضها قد أخذ فى الظهور منذ عامين ؛ ومن عوارض هذا المرض أيضا ظهور الدم على الجلد ، ويكون فى الساق وخز كوخز الإبر ، وإذا كانت هناك حرارة فى القدمين فيشعر المريض بثقلهما ولن يستطيع رفعهما ، أما إذا انتفخت أعصاب القدم فلن يستطيع المريض السير ، وإن تقادم به المرض أصيب بالكساح .

أما طرق العلاج فمختلفة ، فمنها العمليات الجراحية ، والتدليك ، والحركات الرياضية ، والبخور ، والاستحمام بالماء الساخن ، إلى جانب العقاقير المختلفة المأخوذة من النباتات أو الحيوانات أو المعادن . أما النباتات فيظهر أنها قامت كما تقوم اليوم بالدور الهام فى تركيب الأدوية ، حتى أصبح اسمها فى البابلية (سَمّ) علما على الطب والعقاقير أيضا ، وبهذا المعنى انتقل اللفظ إلى معظم اللغات السامية (سَمّ) . ومن أشهر النباتات والأشجار والأعشاب التى كانت مستعملة قديما النخيل ، الزيتون ، التين ، الكمثرى ، الثوم ، البصل ، الكمون ، القثاء ، السمسم ، الورد والز .

ومن الحيوانات والطيور : الغنم ، الحمير ، الثعالب ، النعام ، البجع ، الغربان ، البوم والحمام . ومن المعادن : اللازورد ، والكبريت ، والنحاس ، والملح . ولم تستعمل هذه العقاقير بحالتها الطبيعية ، بل كانت النباتات مثلا تجفف ثم تدق دقا يختلف حسب الحاجة والنوع . أما الثمار أو البقول فكانت تقشر ثم تعصر وتمزج أو تتناول على حدة . وكان الدواء يستعمل إما من الظاهر وإما من الباطن ، سواء كان سائلا أو جافا أو لزجا . والسوائل كانت تتعاطى غالبا باردة ، وأنسب الأوقات لتجرعها الصباح قبل الشروق أو فى الليل ؛ وكانت لا تتجرع دفعة واحدة ، بل توزع على ثلاث مرات ؛ وفى بعض الحالات كان يكرر الدواء فى مدة تتراوح بين ثلاثة أيام وسبعة . أما الأدوية التى كانت من الباطن ، فقد استعان الأطباء على توصيلها إلى الداخل بالفتحات الطبيعية الموجودة فى جسم الإنسان مستخدمين أحيانا بعض الأنابيب النحاسية أو البرونزية .

دكتور فؤاد حسنين

مكتبة نقابة الصحفيين

تتوالى على مكتبة نقابة الصحفيين الهدايا العلمية من الهيئات الحكومية ، وأعلام الأدباء والمؤلفين ، وكبار الناشرين ، معاونة لها على تحقيق رسالتها الثقافية . ومنها : مجموعة من مجلس الشيوخ لمطبوعاته ومضابطه من عهد مجلس شورى القوانين إلى سنة ١٩٤٢ .

مجموعة من مجلس النواب لمضابطه من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٤٢ ، ومجموعة من المجمع اللغوى : مجلته ومحاضره ومصطلحات العلوم التى أقرها .

وأهداها مدير قسم النشر بالسفارة البريطانية طائفة من الكتب العربية والإنكليزية والفرنسية .

وأهدتها مكتبة النهضة المصرية ٣٥ مجلدا من نفائس مطبوعاتها الحديثة .

والنقابة تشكر لحضرات رؤساء الهيئات والجماعات والأعلام المؤلفين وكبار الناشرين فضلهم المذكور

من مذخائر كتاب « رسوم دار الخلافة » (١)

العمـــــائم

رسوم لبسها ونزعها (٢)

« في دور الخلفاء والأمراء والسلاطين وبحضرتهم »

تمهيد

قيل قديماً : العمائم تيجان العرب . وقد وصفها أبو الأسود الدؤلي بقوله : « جُنّةٌ في الحرب ، ومِكَنّة من الحرّ ، ومَدفأة من القرّ ، ووقارٌ في الندِيّ ، وواقية من الأحداث ، وزيادة في القامة ، وهي تعد عادة من عادات العرب » . وقال عَمْرُو بن امرئ القَيْس .

يا مالِ والسيّدُ المُعَمَّمُ قد
يُبْطِرُهُ بَعْدَ رأيِهِ السَّرَفُ
نحنُ بما عِندَنا وأنتَ بما عِنْـ
ـدَكَ راضٍ والرأيُ مختلِفُ (٣)

فهذا خير وصف يصوّر لنا العمامة ومنزلتها عند العرب ، وهو الذى يفخر بها وبتيجانها ، ويحرص عليها حرصه على صيته وإبله . والعرب لم يكتفوا بلبسها ، بل تعدّى الأمر إلى أن يستفيدوا منها من غير هذا الوجه ، « لأن العمامة ربما جعلوها لواء ؛ ألا ترى أن الأحنف ابن قيس يوم « مسعود بن عمرو » حين عقد لعَبْس ابن طَلْق اللواء ، إنما نزع عمامته من رأسه فعقدها له ، وربما شدّوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة وإذا طالت العقبة ، ولذلك قال شاعرهم :

دُفِعْنا إليه وهو كالذيخ خاطياً
نَشُدُّ على أكبادِنا بالعمائمِ

وقال آخر :

خليليّ شُدّوا لي بفضلِ عمامتي
على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صميمُها (١)

وأخبار العمائم مما يطول شرحه ويعسر مناله في مقال ، لأن أخبارها منثورة في كثير من الكتب العربية القديمة ، فضلاً عن أن غير واحد من المؤلفين الأقدمين والمحدثين أفرد لها كتاباً قائماً بذاته (٢) .

ومرادنا في هذا البحث أن نتناول رسوم لبسها ونزعها في حضرة العظماء ، وفي دورهم ، فإن في ذلك طرافة أدبية وتاريخية .

١ — تحريم نزع العمائم في دور العظماء وبحضرتهم

كان من الرسوم المتبعة عند دخول الناس على الخلفاء وعلى الأمراء ، وعلى السادة والعظماء ، أن يدخلوا وهم معمّمين ، « لأن ذلك أشبه بالاحتفال وبالتعظيم والإجلال ، وأبعد من التبذل والاسترسال ، وأجدر أن يفصلوا بين أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم » (٣) .

ولكنّ بعض الناس وبينهم من له جلالة ورياسة ، كانوا يدخلون دور العظماء من خلفاء وأمراء وسلاطين لقضاء أشغالهم ، ولم يراعوا الرسوم المتبعة بشأن العمائم

(١) رسوم دار الخلافة لهلال بن المحسن الصابئ (المتوفى سنة ٤٤٨ للهجرة) ، وهو كتاب أعددناه للنشر بعد أن حققناه وعلقنا عليه ، وألحقنا به ملاحق متنوعة .
(٢) مجلة الرسالة الأعداد : (٤١٨ و ٤٢٩ و ٤٥٣) .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٦٩ طبعة السندوبي)

(١) البيان والتبيين (٣ : ٧٢) .
(٢) نذكر منها الكتب التالية :
(أ) فضل لباس العمائم لابن وضاح الأندلسي المالكي .
(ب) تحفة الأمة بأحكام العمة — أي العمامة — لأبي الفضل محمد بن أحمد المعروف بابن الإمام .
(ج) در الغمامة في در الطيلسان لشهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي .
(د) شارح الشفا الأمة في صفة العمامة لشهاب أحمد بن محمد الخفاجي .
(هـ) المدعامة في أحكام سنة العمامة لمحمد بن جعفر الكتاني الحسني .
(٣) البيان والتبيين (٣ : ٧٢) .

وغيرها من لباس الرأس ؛ إذ كانوا يزعمونها ظنًّا منهم أنّ أمرهم يُشْغَل لا يَرْفعه أصحاب الأخبار إلى الخليفة ، أو إلى الأمير ، أو إلى السلطان ؛ لكن الأمر جرى على الضدّ من ذلك ، فلاقوا من الأمر أرذله ، ومن الإهانة أقبحها . فمن ذلك ما رواه محمد بن عبدوس الجهشيارى (المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة) قال : « وكان عيسى (بن عبد الرحمن) كاتب طاهر (بن الحسين) لما دخل مجلس الفضل (بن سهل) نزع قَلَنْسُوَتَه وجعلها إلى جانبه ، ثمّ فَعَلَ ذلك مراراً ، فقال نُعَيْم بن حازم ليعقوب بن عبد الله ؛ وكان يعقوب آلفاً لعيسى : إن العبّاس — يعنى عيسى — إذا جلس فى مجلس الأمير — يعنى الفضل — رفع قَلَنْسُوتَه من رأسه ، وهذا استخفافٌ منه بالأمير ، وقد أنكره الناس وتكلّموا فيه ، فأعلمه ذلك ليمسك عنه فيما يستقبل ، فإنه إن عاود دَنَوْتُ منه ورددتها على رأسه بعنف وإنكار . فقال يعقوب لعيسى ذلك . فقال له : بأىّ شىء رددتَ عليه ؟ قال : قلتُ له : إنه محرورٌ ، ولعلّه قد استأذن الأمير فى ذلك ، أن كان لا يجهل ما يأتى ويذَرُ . فقال : والله ما بى أنّى محرورٌ ، وما استأذنتُ ، ولكنى أريد أن يعلم الفضلُ أولا ، ثم مَن حوله ، أنّه أهونُ علىّ وأدقُّ فى عينى ما دام صاحبى — أعزه الله — حيًّا ، من هذه الشعرة — وقلعَ شعرة من عُرْف دابته — ومن فوق نُعَيْم ، فضلا عن نُعَيْم ، أشدُّ تهيُّباً للإقدام علىّ بشىء أنكره ، فلا يدْخلك من قولهم شىء ، وعرّف نُعَيْم بن حازم ما قلته[1] .

ونظير هذا الخبر ما ذكره هلال بن المُحَسِّن الصابئ بقوله : « وحدّثنى جدّى (أبو اسحق إبراهيم الصابئ)

(١) الوزراء والكتاب (ص ٢٩٤ ؛ طبعة مزيك) = (ص ٣١٠ — ٣١١ ؛ طبعة السقا والأبيارى وشلبى) = (ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ طبعة الصاوى) .

أنّ الكَرْكىّ أبا الهيثم حضر يوماً فى دار عَضُد الدولة ، وأخذ عمامته من رأسه ووضعها بين يديه ، ورآه بعض أصحاب الأخبار ، فكتب عما كان منه ، وخرج أستاذُ دار يُخْرَق به وشتمه ، وأخذ العمامة من رأسه وضرب بها رأسه حتى تقطّعت قطعاً ، ووَكّل به واعتقله . فسُئل فيه عَضُد الدولة ، وقيل : هذا رجل محرور الرأس ولا يستطيع ترك العمامة على رأسه ، وإنما فعل هذا لذاك ، لا الجهل بأدب الخدمة . فبعد مراجعات ما ، أمر بإطلاقه »[1]

ثم ذكر خبراً طريفاً بهذا الشأن فى عرض كلامه على قوانين الحجابة ورُسُومها ، قال فيه : « ... وحدّثنى إبراهيم بن هلال جَدّى ، قال : حدّثنى جعفر بن ورقاء الشيبانى ، قال : كنتُ فى أيام المعتضد رحمة الله عليه ، مع نظرائى من أولاد الأمراء والقوّاد ، مرسومين بالمُقام فى الدار (دار الخلافة) على رسم الخدمة بنوائب كانت لنا ؛ وكنّا نجتمع فى حُجْرة نستريح فيها بعد انقضاء الخدمة وانصراف الموكب ، فننزع خفافنا ، ونضع عمائمنا عن رؤوسنا ، ونلعب بالشطرنج والنرد . فاطّلع علينا أحد أصحاب الأخبار فى الدار ؛ فكتب بخبرنا إلى المعتضد بالله ونحن لا نعلم . فلم يبعد أنْ خرج خادم صغير من خواصّ الخدم ، وفى يده القَصَص المرفوع فى أمرنا ، وعلى ظهره توقيع بخطّ المعتضد بالله رحمة الله عليه ؛ حكايتُه : (يَتَسْتَصْفِعُونَ وما لهم من صَافِع) ، فسلّمه إلى خفيف السَّمَرْقنْدىّ الحاجب ، وصنع الله لى أنْ لم يكنْ ذلك فى يوم نوبتى ؛ فحين وقف على القصص والتوقيع انزعج ونهض واستدعى مَنْ كان فى النَّوبة ، فضرب كلّ واحد منهم عدّة مقارع ، فما رُئى بعد ذلك إلّا لازمٌ للتوفّر على الخدمة ، متجنّبٌ للتبذّل »[2] .

وقد روى هلال فيما نقله عن جدّ إبراهيم الصابئ

(١) رسوم دار الخلافة (المخطوطة ؛ ص ١٠٦) .

(٢) رسوم دار الخلافة (المخطوط ؛ ص ٩٩ — ١٠٠) .

الذي خَدَمَ الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وبرع في آداب الخدمة ورُسُومها ؛ عدة أخبار في هذا الباب ، وكأنه رواها لتكون موعظة بليغة وسبيلا ممهَّدة لمن يهمّ بالدخول على دور هؤلاء العظماء . قال هلال : « وحدَّثني إبراهيم ابن هلال جَدّي ، قال : حدَّثني السكّي أبا علي الحسن ابن محمد الأنباري ، قال : كنتُ أخطُّ بين يدي دِرْ نوَيْه الكاتب ، وهو يتولّى كتابة سلامة أخي نجح (الطولوني) الملقب في أيام القاهر بالله بالمؤتمن ، وسلامة إذ ذاك حاجب القاهر بالله ، وكنتُ أجلس في دهليز باب الخاصة الذي يلي دجلة من دار السلطان ، فأخدم صاحبي فيما يستخدمني فيه ؛ فإني لجالس متملّق على دكّة هناك ، إذ جعلتُ إحدى رجليّ على الأخرى ، وكان بإزائي صديق لي من خلفاء الحُجّاب يودّني ودًّا شديداً ، فوثب إليّ وضرب رجلي ضربةً مؤلمةً بعصاً كانت في يده ، فقمتُ مذعوراً . فقال : يا أبا عليّ ، اعرف لي موضع مسامحتي إياك ، ووالله لو أنّ هاهنا مَن أتخوّف أن يَرْفع الخبر ، لما قدرتُ على مسامحتك . فقلتُ : وأيّ شيء أنكرت مني ؟ وبأيّ شيء سامحتني ؟ — فقال : نحن مأمورون إذ رأينا أحداً من الناس كائناً من كان قد جلس في دار السلطان هذه الجلسة التي جلستها ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، بأن نجر رجله من موضعه حتى نخرجه من حريم الدار ، ونهاني من المعاودة إلى ذلك ، وعن أن أكشف رأسي ، أو أتبذل أو أمزح ، أو أرفث في شيء من تلك المواضع . فشكرته على ما عاملني به وأرشدني إليه »[١] .

هـذه قبضة أخبار ، في جميعها منعٌ وتحريم لنزع العمائم بحضرة العظماء وفي دورهم ، ولكن لكلّ قاعدة شواذ . فهنالك أخبار أخرى تنمّ على تساهل وتسامح بنزع العمائم في دُور هؤلاء القوم أو بحضرتهم ؛ ودونك مَا وقفنا عليه :

(١) رسوم دار الخلافة (المخطوط ؛ ص ١٠٤ — ١٠٦) .

٢ — نَزْع العمائم في دُور العظماء وبحضرتهم :

لعلّ الخليفة المأمون كان أكثر الخلفاء تساهلاً في السماح لمن يغشى مجالسه بنزع العمامة ، ولم يكُن ذلك في مجلس أُنْسِهِ وراحته فحسب ، بل تَعَدَّى الأمر إلى مجالسه الأخرى . فقد نَقَلَ لنا المسعودي حكاية جاء فيها : « وكان يحيى بن أكثم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ، ومَن يناظره من سائر أهل المقالات ، أُدخِلُوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ، وأحضرت الموائد ، فقيل لهم أصيبوا من الطعام والشراب ، وجدّدوا الوضوء ، ومَن ضاق عليه خفّه فلينزعه ، ومَن ثقلت عليه قَلَنسُوَته فليضعها ؛ فإذا فرغوا أُتوا بالمجامر فبخروا وتطيبوا ، ثمّ خرجوا فاستدناهم حتى يدنون منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبّرين . فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس وتُنْصب المائدة ثانيةً فيطعمون وينصرفون ... »[١] .

وذَكَر أبو الفرج الأصفهاني نبأً آخر في هذا الشأن ، قال فيه : « حدَّثني محمّد ، قال : حدّثنا أبو العيناء ، قال حدّثنا محمّد بن عَبّاد المهلّبي ، قال : لما مات أبو عيسى بن الرشيد (سنة ٢٩٠ للهجرة) دخلتُ إلى المأمون وعمامتي عليّ ، فخلعتُ عمامتي ونبذتها وراء ظهري — والخلفاء لا تُعَزَّى في العمائم — ودَنَوت ، فقال لي ... »[٢] .

أما في ديار الأندلس ، فكان التساهل كبيراً في رُسوم نزع العمائم في قصور العظماء وبحضرتهم ؛ وشاهد ذلك قَول ابن سعيد (المتوفى سنة ٦٨٥ للهجرة) في المُغرِب : إنّ « الغالب على أهل الأندلس ترك العمائم ولا سيما في

(١) مروج الذهب (٧ : ٣٨ — ٣٩ ؛ طبع باريس) .
(٢) الأغاني (١٠ : ١٩٠ ؛ طبع دار الكتب المصرية) = (٩ : ٩٧ ؛ بولاق) = (٩ : ٩٣ ، الساسي) .

شرق الأندلس . وقد رأيتُ عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان وإليه الإشارة ، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره . وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو غرب . وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا رأيته بجميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده »(1).

(بغداد) **ميخائيل عواد**

(1) الرسالة (العدد ٣١٤ ، ص ١٣٤٩) ، نقلا عن المغرب فى حلى المغرب .

قصة :

بلسم ...!

قطب الطبيب جبينه ، وأزاح عويناته الزجاجية فى عصبية ، وهو ينظر إلى الباب وقد كان يوصد برفق ، ثم تهالك على المقعد الكبير الذى يواجه المكتب ، وراح يفكر فى هذه اليد المرتعشة التى أوصدت الباب ، وصاحبها ذى الوجه الأصفر المتقع ...

إنه يخطو فى تسرع رهيب نحو القبر ، ودماؤه تنسحب رويداً من كل أطرافه ، تاركة خلفها ذلك الاصفرار الباهت ، وتنكمش فى قلبه لكى تجمد هناك . وهذه العروق التى ضربت أطرافها الدامية فى عينيه كأيدى الأخطبوط ، وتطاولت ترسم دوائر زرقاء حول مقلتيه ... إنها إنذار مخيف ...

أى قوى فى العالم تستطيع أن تقطع ذلك الحبل الضخم الذى يشده إلى الهاوية ... بل أى معجزة ؟

كان الطبيب يعرف ما هو اليأس ، وكان مستعداً دائماً لأن يملأ ضميره بهذه الراحة الفكرية التى لابد منها حين يصبح الرجاء عبثاً ، ولكن هذا الشاب ...؟! إن كل كلمة قالها كانت تنهال على ضميره كالسياط ، وتملأ أذنيه بصيحات مختنقة معذبة ، وأصوات ملوعة كتلك الآتية من بيت يحترق ...

ييأس ؟! أية جريمة إذن يرتكب ...

أخذ يستعيد فى ذاكرته كل ما قاله ذلك التعس :

«أشعر يا دكتور كأنى لست من هذا العالم ، الدنيا مصفرة فى وجهى ، وكثيراً ما تنقلب إلى ظلام . والناس من حولى يموجون ويصخبون ، ولكن لا يصل إلى أذنىّ من ذلك إلا طنين كطنين الذباب . وكثيراً ما تمر بى لحظات أفقد فيها الشعور ، فإن أفقت أحس برأسى كقطعة من الجحيم ، وكثيراً ما تدفعنى أيضاً رغبة ملحة إلى البكاء ، فأبكى حتى تجف دموعى ...

يخالجنى يا دكتور شعور خفى ، ويلاحقنى فى كل شبر أخطوه ، بأن الناس يكرهوننى ويزدروننى ويشمئزون منى ، فأفر منهم وأخفى نفسى عن عيونهم وحدى كئيباً ، حتى كرهت الناس وكرهت نفسى ...

أنا أعيش فى جحيم لا يطاق ، ولطالما نظرت إلى المرآة تخيل لى أنى جثة بلا روح ، وأن ذلك الهيكل الذى لم يعرف من الشباب غير اسمه ، قد أصبح شبحاً من الأشباح ، تختنق على الدنيا ، وحطمت المرآة كى أعيش بعيداً حتى عن نفسى ...

أنا لا أعرف يا دكتور ما الذى يعذبنى ، وكل ما أعرفه أنى إنسان ناقص لا يصلح للحياة . فترقبت الموت كالملاح التائه يرقب الشاطئ . ولكن الموت لما اقترب منى خشيته كما أخشى الحياة ، وكرهته كما أكره الناس ، ووجدتنى أفر منه وأهرول كالمجنون لاختفى من شبحه ...

أنا معذب يا دكتور بين الحياة والموت ، واليقين والشك ، والأمل واليأس ، فأتيت إليك أخيراً لكى ترحمنى وتطمئننى . هل حياة أم موت ؟

ضم الطبيب ما بين حاجبيه ، ثم ضغط بأصابعه الرهيفة على عينيه ، كأنما يريد أن يمحو من مخيلته تلك النظرات الطالعة الضارعة في عيني ذلك التعس . وحانت منه التفاتة إلى خزانة كتبه حيث تجمعت كل ما توصلت إليه العقول من دقائق هذا الجسد العجيب ، وكل ما عرفه البشر من معجزات الطب . هنالك بين طوايا الكتب آلاف من أنواع البلسم ، ومن العقاقير أصناف لا تحصى ...

ولكن . . . كثيرا ما تطفى على كل هذا وتغطيه علامة استفهام كبيرة ، تتراقص أمام عيني الطبيب كابتسامة ساخرة من فم شيطان ! فما الطب ، وما الكتب ، وما الأدوية ، وكل ألوان البراعة البشرية ، أمام هذا اللغز الذي يندس أحيانا في جوف ذلك الإنسان المعقد ، وينفث أعراض الموت في جسم لا يعثر فيه الطبيب على علة ... ؟

ابتدأ اليأس من جديد يفتح ذراعيه الرهيبتين ليطويه بينهما ، فينتشله من عناء الفكر إلى هذه الراحة التي يستشعرها جسد الميت — إن كان الأموات يجدون في رقادهم مثل الراحة التي يشعر بها الناعمون — ولكن سرعان ما تقلصت أسارير وجهه ، وارتسم في ذلك الخط الرهيف الذي بين شفتيه عناد شديد ، ثم انتصب في عصبية وهو يتمتم محنقا . يجب ألا يموت ...

وخطا في حجرة الفحص بضع خطوات ، ثم رجعها مرة أخرى ، وعاد فجلس على المقعد الكبير وراح أيضا يفكر . أجل ! يجب ألا يموت . ولكن ... أى معجزة من معجزات الطب تعطيه الحياة ؟ لقد قال له الآن أن يعود في المساء ، فماذا عساه يقول له في المساء ؟

ورفع الطبيب رأسه إلى السماء ، كأنما يستمد منها العون ، ثم عاد يجول بنظره في حجرة الفحص الهادئة . فهذا هو السرير الذي يتمدد عليه المرضى وقت الكشف ، وهذه منضدة ملأى بالمباضع والماسك ولفافات القطن ؛ وهنالك في الزاوية آلات الأشعة والكهرباء ؛ وتلك في الوسط منضدة أخرى تحوى أصناف الأدوية والعقاقير ، ولكنه أشاح بوجهه ، ونظر في الأرض التي تحت قدميه ، ثم تمتم : كل هذا لا ينفع ...

وفجأة أفاق الطبيب من خواطره على صوت قرع الباب ، فسمح في ذهول لطارق بالدخول . ففتح وظهرت من خلفه الممرضة بوجهها الساذج الصبياني ، وثوبها الأبيض الأنيق ، وطلبت منه في استحياء تشوبه ذلة مستحبة أن يأذن لها بالانصراف إلى بيتها . فتهلل وجهه لهذا المحيا الصبوح . وأذن لها بما طلبت في صوت شجى النبرات . . . وخرجت الممرضة طروبة تتوارد على شفتيها الرقيقتين عبارات الشكر التي يخفيها الحياء فما تكاد تسمع ، وأوصدت الباب خلفها ، واطرد صوت الحذاء وهو يوقع على الأرض نغمة واحدة تتكرر حتى اختفى . . .

وقطب الطبيب جبينه مرة أخرى ... ولكن ما لبث برهة حتى شاعت على محياه ابتسامة مشرقة ، ونهض فجأة في خفة وهو يصيح . يجب ألا يموت ....

وألقى على حجرة الكشف نظرة استخفاف .... ثم خرج وأوصد الباب ... في هدوء ...

***

وهنا سكت صديقي برهة وهو يقص على هذه القصة ليسليني بها في مرضي ، فشوقني سكوته إلى معرفة ما انتهى إليه الزميل المريض . وقلت له أستحثه : ثم ... ؟

قال صديقي : ثم في اليوم التالي أفرد الطبيب لهذا الشاب حجرة مجاورة لحجرة الفحص ، وابتدأ في علاجه . .

قلت : وهل اهتدى إلى دواء يعالجه به ؟

فابتسم ابتسامة خبيثة وقال : نعم . كان يعطيه ملعقتين بعد كل وجبة .. من الماء القراح .: !!

***

لقد وجد في غرفته الجديدة ، كل ما كان يكرهه في بيته ، وجد ذلك السكون الذي كان يفزع منه إلى

الضوضاء ، فتردده هذه مرتميا إلى السكون ؛ ووجد الظلمة التي كانت تصب في عينيه سوادا رهيبا فيرتمي بين أحضان النور ، فيهرول روح الخفاش التي فيه إلى الظلمة ؛ ووجد الجدران التي يضيق بها صدره المضطرم ، فيندفع إلى الفضاء الفسيح الذي يغرق أنفاسه بمثل ثقل الماء ، فيكرّ راجعا كالغريق يضرب بيديه على وجه البحر ، ويلقى بنفسه بين الجدران ؛ ووجد نفسه التي حاول أن يفر منها قد لاحقته صائحة في أذنيه بصيحات الحياة والموت ، واليقين والشك ، والأمل واليأس . . . . . كل ما هرب منه من متناقضات تمزق روحه وجده في بيت الطبيب . . . ولم يجدّ عليه إلا شيء واحد . . .

شيء واحد وجده مغايرا كل المغايرة لشكل ما رآه من أشياء ، شيء أشعره بأن هنالك ستارا كثيفا يغطيه ، ووراء هذا الستار سر ، شيء أحس بأنه — دون أن يعلم — كان يبحث عنه ولا يجده ، شيء تسرب إلى نفسه كذلك الشعاع من ضوء الشمس الذي يخترق غرفة حالكة السواد . . . لقد أحس بهذا الشيء أول الأمر ولم يعرفه ، أحس به أول الأمر إحساسا غامضا لم يعرف كنهه ، ولم يعرف بالضبط مصدره من هذه الشبكة الممتدة في كيانه كأسلاك البرق ، فما كان يشعر منه إلا بمثل ما يشعر به شخص غرزت في جسمه إبرة مورفين . كان يشعر بتخدير يبعث في نفسه رخاوة لذيذة ، ولكن هذا الإحساس ما لبث أن قوى وابتدأ يتبينه . . .

وكانت الدنيا حينئذ تتشكل أمام ناظريه بألوان قوس قزح ، متتابعة ، متعددة ، زاهية ، ويختلط الموت والحياة في مزيج عجيب كان يسكره ، وتمر صور اليقظة أمامه كأنها الحلم ، والأحلام تتراقص في عينيه كأنها حوادث اليقظة ، وتتداخل الأحاسيس في بعضها فلا يشعر منها إلا بنشوة السكران ، والدماء في جسمه تتواثب وتعدو . . .

وكان الطبيب يتتبع كل هذه الأحاسيس في عيني مريضه ، وكان يعرف من قبله ذلك الشيء الجديد الذي وضعه في طريقه ، لأنه البلسم الذي لم تشر إليه أبدا كتب الطب واهتمت أكثر منه بزيت الخروع وكبد الحوت . . . والذي ينظر إلينا الصيادلة ساخرين إذا طلبنا إليهم تحضيره ، وهم معذورون لأنهم يجهلون نسبة مزج الأملاح والأقرباذينات التي منها يتكون . . .

كان الطبيب يتتبع أحاسيس مريضه ، وهذا يدور بعينيه في غرفته ، وقد ظل أسبوعا يدور بعينيه باحثا عن ذلك الشيء الجديد الذي يحس به ولا يراه ، حتى عثر عليه أخيرا ، نعم عرفه وعرف مصدره . . . . إنه كامن في تلك النظرة الطويلة الحنون التي تغرقها في عينيه ممرضته الجديدة حين تسقيه كوب اللبن في الصباح . . .

وسمع الطبيب ضحكة طروبة لم يسمعها من قبل ، فاسترق الخطى إلى حجرة المريض ، وفتح بابها فرآه بعيدا عن سريره في ركن من أركان الغرفة ، وخداه متوردان وهو يصيح صيحات نشوى جذلة ، وقد راح يلاحق ممرضته ، باحثا أيضا ، ولكن . . . عن شفتيها . . .

ابتسم الطبيب ، وخرج يتمتم . . لقد تمت المعجزة . . . وأوصد الباب . . . في هدوء .

• • •

قال صديق وقد كنت أتأوه من المرض : أرأيت . .؟!
قلت : نعم ! لقد أحب . أما أنا . . .

زينب شيخو

مخطوط نفيس

كتاب الفاضل
في الآداب والبلاغات

لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الأعرابي الوشاء

عثرنا في المكتبة الخالدية في بيت المقدس على مخطوط نفيس رقم ٣ باسم « الفاضل في الآداب والبلاغات » لابن الأعرابي المعروف بالوشاء . وقد جاء في آخر الكتاب (فرغ من نسخة ثمان بقين من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وخمسماية)[١] ، فيكون عمر الكتاب اليوم سبعمائة وأربعاً وسبعين سنة .

وقد انتقلت ملكية الكتاب أكثر من مرة ، ويظهر أن هذه النسخة الفريدة كانت ملكا لسريجا بن بدر الدين محمد بن سريجا الملطى[٢] ثم البارودى ، الذى كان من أعيان بلاده في الفقه والقراءآت والأدب ، وله تصانيف منها شرح الأربعين النووية سماه (نشر الفوائد الربعين النبوية في نثر فوائد الأربعين النووية) ، وجنة الجازع وجنة الجارع ، وسد باب الضلال وصد باب القلال في ترجمة الغزالى . ونظم قصيدة في القراءات السبع بوزن الشاطبية ؛ مات بماردين سنة ٧٨٨ وله ثمان وستون سنة ؛ وقد أخذ عنه ولده عقيل الذى مات سنة ٨١٤[٣] . هذا وقد ظهر خط سريجا على الصفحة الأولى من الكتاب ، كما ظهر خط ولده عقيل . وانتقل الكتاب بعد ذلك إلى محمد بن على القرشي المتطبب والحسن بن على الحصنى سنة ٩٦٣ وغيرهم .

وقد تبين من دراسة الكتاب أن المؤلف قد ألف كتبا لم يأت على ذكرها ابن النديم ، حاشا الكتاب الخامس . أما الكتب فهى :

١ — المرتضى في حسن عفو الأدباء عن هفوات الأخلاء .

٢ — أخبار بنى هاشم .

٣ — الابتهاج في الصبر المؤدى إلى الانفراج .

٤ — البلاغة من وصايا المحتضرين ذوى الآراء والعقل الرصين .

٥ — القلائد في أخبار متظرفات الولائد .

٦ — البلاغة من سائر العجم وما يؤثر عنهم من بارع الحكم .

٧ — البلاغة من ذوى الرشاد في حسن وصايا الأولاد .

والمؤلف هو أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الأعرابي الوشاء أحد الأدباء الظرفاء ؛ وكان نحويا ومعلما لمكتب العامة[١] ، والغالب عليه تصنيف كتب الأخبار كالشعر والمقطعات ، وله من الكتب : كتاب مختصر في النحو ، كتاب جامع في النحو ، كتاب المقصور والممدود ، كتاب المذكر والمؤنث ، كتاب الفرق ، كتاب خلق الإنسان ، كتاب خلق الفرس ، كتاب المثلث .

وأما كتبه الأدبية الأخبارية فهى : كتاب أخبار صاحب الزنج ، كتاب الزاهر في الأنوار والزهر ، كتاب الحنين إلى الأوطان ، كتاب حدود الطرف الكبير ، كتاب الموشى[٢] ، كتاب أخبار المتظرفات ، كتاب السلوان ، كتاب الوشيح ، كتاب سلسلة الذهب[٣] . ويلاحظ من هذا أن كتاب أخبار المتظرفات هو ذات الكتاب الذى يشير إليه المؤلف في كتابه الفاضل . وقد جاء في معجم الأدباء ج ١٧ —

(١) يقرؤها البعض وستماية .

(٢) نسبة إلى ملطية بلدة قريبة من ديار بكر تشهر اليوم بملاطيا .

(٣) شذرات الذهب الجزء السادس ص ٣٠١ .

(١) لم نعثر على هذا الاصطلاح إلا في ابن النديم ، ونفهم من ذلك أنه مكتب يؤمه من شاء من الطلاب .

(٢) طبع هذا الكتاب في مصر باسم كتاب الظرف والظرفاء سنة ١٣٢٤ في المطبعة الحسينية .

(٣) انظر فهرست ابن النديم ص ١٢٦ .

ص ١٣٢ أن أبا الفرج بن الجوزي يقول في تاريخه إن أبا الطيب الوشاء مات سنة ٣٢٥، وله ابن يعرف بابن الوشاء ولم يذكر تاريخ ميلاده.

وأبو الطيب ابن الأعرابي هذا النحوي اللغوي غير أبي عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي اللغوي الكوفي، ربيب المفضل الضبي، وصاحب كتاب النوادر (١) والمتوفى سنة ٢٤١ هـ (٢). فالنحوي اللغوي هذا ينقل عن ابن الأعرابي اللغوي الأديب ويروي عنه أكثر من مرة، وبينهما قرن كامل كما لا يخفى.

وقد اشتمل الكتاب على ٣٥ باباً من أبواب البلاغة عدا المقدمة، فبحث في: صفة البلاغة، وفضل الفصاحة، وبلاغة الخطباء، والوفود والأسارى، وبلاغة البلغاء اللسن، ومكاتبات ذوي الألباب، وبلاغة الحكماء، والخلائف الأموية وخلفاء بني هاشم، وبلاغة المعزين والمهنئين والمحتضرين والعلماء والمجانين والمتظرفات والغلمان والأكاسرة والعجم والأمراء والعلماء الخ الخ. وبالجملة فلم يترك باباً إلا طرقه.

وإنا نكتفي هنا بأن نورد مقدمة الكتاب كنموذج لأسلوب المؤلف، الذي يمثل أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع. وبين أسلوبه في هذا الكتاب وكتاب الوشي تشابه كبير، ولكن هذا الكتاب أغزر مادة وأنفس قيمة.

قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين. أطال الله في ظل أفناء السلامة بقاءك، وحجب عن غير نوائب الدهر نماءك، وجعلك لستحق شبوب النعمة ولآمل الأفضال منك موئلا، ومتعك بوفاء عهود أودائك، وبلغك الغاية من تأميل ذوي المروءة من أوليائك. قرأت متعك الله بالسلامة، وحباك بالزلفة والكرامة، ما كنت تشتكيه إلينا في كتابك من قلة الثقة في أصحابك، وسآمتك من مماذقة تلون الصديق، وسرعة ملل الرفيق، وثقل دالة الحميم، وشراسة خلق النديم، وسألت أن أختار لك نوعا متأدبا كريما تستعين به على طوارئ همومك، وتثق به متكاتف همومك، وتفزع إليه في سهرك، وتدعو إليه عند ضجرك، وتعتمد عليه في أمورك، وتستعده لسرورك؛ فرأيت استفراغ المجهود في ذلك عوزاً، ووجدان من ترتضي خلائقه لنادمتك عسرا. وأحببت أن أحبوك بنديم يروقك منظره، ويسرك مخبره، وتطيب مشاهدته وتكثر محادثته، إذا دعوته أسرع، وإذا حدثك أمتع، وإذا سألته أجاب، وإذا تكلم أصاب، وإذا استنطقته نطق، لا يرهقك عسراً، ولا يحملك إصراً، يلقى عنك مؤونة الحشمة، أمين على المال والحرمة، أستدعي به منك دوام الإخاء، وأوجب به عليك جميل الثناء؛ فصنعت لك كتابا في البلاغة والإيجاز والبراعة، ضمنته موجزات الخطب، ومنتخب بلاغات العرب، مما نقط من مليح كلامها ومختصر ألفاظها، وموجز خطبها، وبراعة أدبها، ونوادر حفظ أدبائها، ومسرع جوابها ومعجب بدائهها، إلى بلاغة البلغاء، وبراعة الفصحاء، وجواب الأدباء، وإيجاز الخطباء، ومحاورة الخلفاء، وتهادي الظرفاء، ومكاتبة الأمراء، ونوادر الشعراء، وحصافة ذوي الألباب، وثقافة أذهان الكتاب، ورصانة عقول النساء، وتكامل أدب الإماء. ونظمته بما انتظم به من الحكم المحفوظة عن حكماء العجم، ووصايا المحتضرين، وحكم المجانين. وقدمت ذكر بلاغة العرب على غيرها من الناس، لتقدمها على سائر الأجناس، ولأن الله تعالى ذكره قد شرفها برسوله، وفضلها بتنزيله، وخصها بالخطاب المعجز، واللفظ الموجز، والسؤال الشافي، والجواب الكافي؛ فهم أمراء الكلام، ومعادن العلوم والأحكام؛ إليهم ترد البلاغة، وعنهم تؤخذ الفصاحة؛ فالناس بلفظهم مقتدون ولآثارهم متبعون. وترجمته بكتاب الفاضل لفضله على كل كتاب، وأرسلت به إليك

---

(١) لدى كاتب هذا المقال نسخة من الجزء الأول من هذا المخطوط النفيس. ويتألف هذا الكتاب من جزءين، والجزء الثاني منه مفقود. ويقول البرفسور بركلمان في كتاب له لي سنة ١٩٣٨ إن الكتابين (الفاضل والنوادر) فريدان لا وجود لنسخة ثانية منهما على ما يعلم.

(٢) ترجمه ابن خلكان ص ٩٤٢ — وترجمة الألباء في طبقات الأدباء ص ٢٠٧. كما ترجمه ابن النديم، انظر ص ١٠٢ وذكر كتاب النوادر من جملة مؤلفاته.

من وحي دجلة:

ليلة مقمرة

هدأت سورة الضجيج من الحس هوى في غيابة الأحلام
غير نبح الكلاب ذود حفاظ وعواء يشق صدر الظلام
وحفيف الأشجار يهمس في النفس غناء برقة وانسجام
هل ترى الريح ساقها عبث الخا ئف تسرى كشبة الأوهام
وعلى النهر لشعاع الكسار وبمرآته صدوع التئام
قهقهت موجة تداعب سداً ساخراً من تعاقب الأعوام
واسوداد الشاطئ بكحله الليـ ل وقد سال دمعه المتهامي
مد أهدابه من الشجر الما ل وتخل كمارد في الظلام
وسرت موجة تقول لأخرى كم مررنا بشامخ وركام
كم جنوح هوت هلا كا إلى جذ ب فسيل زها بحسن قوام
وعلى الأفق نثرة من نجوم حجب البدر بعضها بلثام
أين سلمى خلت دياري منها أبعدوها بأوزع قلبي الظامى
في سكون الدجى وتحت سهام النور ترمى من فيض بدر التمام
شهد الدهر حفلة زينتها رقصة من عرائس الأحلام
وحفيف الأوراق في الأفق زارت شاعراً قاطنا جحيم غرام
عاش في هامش الحياة غريبا في قصور شيدت من الآلام
قوته لدعة التشاكى وفي كأ س لذاذاته لهيب هيام
أترى الله حين وزع خير الـ أرض لم يقض لي سوى إيلامى

بغداد ضياء الدخيلي

لامتنا بعليك، لتجعله بدلا من الجليس، وخلفاً من الأنيس. وقد صدرت ما ضمنته لك من ذلك كلاما جزلا في صفة ألسنة البلاغة، وفضل الفصاحة والبراعة. فقف على ما فيه من فضله، وتثبت في معرفته ومقدار نبله، لتعلم إذا أنعمت الاختيار أني قد أحسنت لك الاختيار). انتهى.

وسننشر في فرصة أخرى بعض أبواب من هذا الكتاب النفيس. وأنا لنرجو أن نوفق لطبعه وتعميمه في يوم قريب.

بيت المقدس أحمد سامح الخالدي

أغنيـــة

[تعالى يا حبيبي فهذه ليلتنا فيها نغني]

لَيْلَةٌ مَرَّتْ كَأَحْلَامِ الْوَلِيدِ
نَشَرَ اللَّيْلُ بِهَا طَيْفَ الصَّبَاحْ
أَبْلَجَ الْغُرَّةِ كَالْحُلْمِ السَّعِيدِ
يَتَهَادَى فَوْقَ أَجْفَانِ الْمِلَاحْ
طَافَتْ الفرحة فيها بِالنَّشِيدِ
تُرْقِصُ الْأَلْحَانَ فِي دَلٍّ مُبَاحْ
يا حبيبي هذه لَيْلَةُ عِيدي
أنا فيها طَائِرٌ طَلْقُ الْجَنَاحْ

• • •

الصِّبَا والحبُّ والحسنُ مُعنا
والسَّنا اللمَّاحُ مشبوبُ اللهبْ
وقيانُ الليل نَشْوَى حولَنا
في دَلالٍ يلثن بالقدّ الرطيبْ
وكؤوسٌ بينَ أطيافِ السَّنى
ذابَ في أكوابها نورٌ وراحْ
يا حبيبي ليلتي حُلْمُ الـسنى
أنا فيها طائرٌ طلقُ الجناحْ

• • •

آه قد أذَّنَ صوتُ النَّشيدِ
وأتى الفجـرُ بأفراحِ الضِّياء
يسكُبُ النورَ بجفنِ الأغيدِ
ويَفُضُّ الليل عن سِتْرِ السماء
ليلتي لا تنقضي بَلْ فاخلدي!!
فأنا ما زلتُ مخضوبَ الجراحْ
يا حبيبي ليلتي ملكُ يدي
أنا فيها طائرٌ، طَلْقُ الجناحْ

محمد البدعي

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٨٦ الثلاثاء ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ٢٠ من يونيه سنة ١٩٤٤ السنة السادسة

فهرس العدد



ظللنا بضعة أسابيع نتوقع الميدان الجديد ، حتى أصبح أمراً واقعاً . ولم يكن بمستغرب أن يكثر الحديث ، وتتضارب الظنون حول موعد هذا الغزو الجديد ومكانه وطبيعته . ويحق للناس أن يتطلعوا إلى هذا الحادث العظيم . الذى يُفسح أمامهم الأمل فى اقتراب نهاية هذه الحرب ، ونهاية هذه الويلات التى ما برحت تجرها على العالم كله ... ولقد ذهب التحمس ببعض الأفراد إلى المراهنة بأن هذا الغزو واقع لا محالة قبل انتهاء شهر أيار . وجلّ الخطب عن الرهان والمراهنة ، حين يكون الحادث من الضخامة بحيث لا يقاس إلى جانبه فى الدهر حادث ؛ وحين يكون الأمر من الجدّ والروع ، بحيث تتعلق به أرواح الآلاف ومئات الآلاف من الشباب المُتخيَّر المصطفى ، تكون المراهنة مظهراً لتفاهة بعض الأنفس البشرية .

ومع هذا فإنّ ذلك الغزو كان أمراً لا مفر منه ، إذا أريد محاربة ألمانيا فى نطاق واسع ، ومساعدة روسيا بتحويل شطر كبير من الجيش الألمانى عن الميدان الروسى إلى ميدان جديد . وكان هذا الغزو هو الحادث الذى تتلهف القيادة الروسية شوقاً إلى حدوثه ، والذى كانت

تلح في المبادرة به . وكلما اشتد ضغط القوات الألمانية في الميدان الشرقي ، ازدادت القيادة الروسية إمعاناً في المطالبة بفتح الميدان الجديد . وكان يؤيد الروس في مطالبهم هذه طوائف عديدة من رجال بريطانيا وأمريكا ، إلى درجة أن كثيراً من أولي الرأي كانوا يخشون أن يدفع العطف على روسيا إلى المبادرة بفتح الميدان الجديد ، قبل أن تستكمل له العدة الواجبة .

غير أن القيادة البريطانية الأمريكية لم تندفع ولم تتعجل ، وانتظرت ريثما أعدت تلك العدة الهائلة التي لم يكن يحلم بوجودها أحد ، والتي تضمنت مفاجآت لم تخطر على أحد ببال . ورسمت تلك الخطة الدقيقة التي تشتمل على دراسات مسهبة لكل عمل من الأعمال الحربية المقررة . ولم يحاول قادة الحلفاء أن ينكروا عزمهم على غزو أوروبا النازية في صيف هذا العام . وبعض الاستعدادات لهذا الغزو كانت واضحة للجميع ، منها : عزل إرلنده وقطع كل صلة بها ، بعد أن أصرت على إيواء جماعات من الألمان ؛ ومنها منع السفر من بريطانيا وإليها إلا لأسباب هامة ؛ ومنها إلغاء حق رجال التمثيل السياسي في حقائبهم المعروفة ؛ وغير ذلك من إجراءات تدل على أن الحادث الكبير وشيك الوقوع . وقد وقع الحادث فعلاً في الساعات الأولى من يوم الثلاثاء سادس أيام شهر يونيه الجاري . وقد قيل إن هذا الموعد قد تحدد في مؤتمر طهران في الشهر الماضي ، وإن سوء الحالة الجوية لم يؤخر الغزو عن موعده إلا يوماً واحداً . وقد حدث الغزو في ليلة مقمرة ، ولا شك أن هذا لم يكن من المصادفة ، بل لقد رأت القيادة العليا أن خطة الغزو تتطلب ليلة يضيئها البدر من أولها إلى آخرها . فإن من مصلحتها ، وقد ضمنت السيادة على الجو ، أن تكون الأهداف واضحة بقدر الإمكان . وهكذا حددت الليالي المقمرة في الأيام الأولى من شهر يونيه هذا لتكون موعد الحادث الكبير الذي كانت تتطلع إليه الأنظار .

أما المكان الذي بدأ منه الغزو ، فكان من المستحيل أن يتكهن به أحد ؛ فإن ألمانيا تسيطر على مساحة هائلة من سواحل غرب أوربا ، تمتد من أقصى بلاد نرويج شمالاً إلى أقصى سواحل فرنسا جنوباً ؛ وهي فوق ذلك تسيطر على سواحل فرنسا الجنوبية ، ومساحات أخرى من سواحل البلقان وإيطاليا . ولكن كان من الواضح أن الهجوم سيكون على سواحل أوربا الغربية ، وفي الجهات القريبة من الجزر البريطانية ، وذلك — كما ذكرنا في هذا المكان من الثقافة منذ بضعة أسابيع — « لأن الميادين البعيدة لا تتمتع بتلك الإمدادات العاجلة ، والحماية الجوية والبحرية المركزة في الجزر البريطانية ، التي لا يمكن أن تؤتي أثرها إلا في ميدان مجاور لبريطانيا »(*) . فلم يكن هنالك شك كبير في أن الميدان سيكون قريباً من بريطانيا . ولكن بالطبع لم يدر بخلد أحد — ومن البديهي أنه لم يدر حتى بخلد القيادة الألمانية رغم اطلاعها الواسع — أن هذا الميدان سيكون شواطئ نورمنديا . وقديماً — في عام ١٠٦٦ — أغار من نورمنديا دوق عظيم ففتح بريطانيا ، وأسس بناء ملكها الذي نشاهده اليوم ؛ ثم دارت الأيام دورتها فشهدنا البريطانيين يغزون شواطئ نورمنديا في ظروف جديدة ، شتان بينها وبين ظروف الفتح النورمندي .

وليس من شك في أن لدى القيادة العليا للدول المتحدة أسباباً قوية لاختيار هذا الجزء من القلعة النازية ؛ لكي يكون الهدف الأول للغزو المنتظر . وأنها قررت أن الغزو هنا أدنى إلى النجاح منه في أي مكان آخر ، مع أن الألمان قد حصنوا هذه السواحل تحصيناً شديداً ؛ ولعلمهم أن الحلفاء يقدرون مناعة هذه الحصون ، لم يتوقعوا أن يكون الهجوم الأول على هذه الشواطئ بالذات . ولا شك أن هنالك ظروفاً وملابسات سيظل أمرها مكتوماً عنا حتى يكتب تاريخ هذه الحرب بالتفصيل . وحسبنا هنا أن ننظر في هذا الميدان الجديد ، وفي صفاته الطبيعية .

(*) المقال الأول من العدد ٢٨٠ الصادر في ٩ مايو الماضي .

تستطيع أن نعد الميدان الجديد ممتدا من مصب نهر السين إلى الطرف الغربي من شبه جزيرة شربورغ ، حيث تلتقي نورمنديا بإقليم بريتانيا الفرنسي . ليس هذا الإقليم بأقرب الأقاليم من الجزر البريطانية . وأدنى منه كثيرا إقليم كاليه وبولونيا ودياب ؛ وأقرب منه أيضا من الناحية الأخرى إقليم دنكرك وسواحل بلجيكا . فبين كاليه وبريطانيا مسافة لا تزيد كثيرا على العشرين ميلا ؛ أما سواحل نورمنديا فإن بينها وبين بريطانيا مسافات تتراوح بين الثمانين والمائة من الأميال ؛ ولكن مائة ميل ليست اليوم من المسافات البعيدة . وإذا كان هنالك ميزات أخرى يمتاز بها إقليم نورمنديا ، فإن الفرق بين العشرين والمائة ميل ليس بالأمر الكبير الخطر . وليس في وسعنا أن نذكر على وجه التحقيق الميزات الخاصة التي يمتاز بها هذا الميدان .

ومن المفيد أن نقسم الأرض التي كان يحتمل أن يغزوها الحلفاء إلى قسمين : الأول الأرض الواقعة شمال نهر السين بما في ذلك أرض بلجيكا ؛ والقسم الثاني الأرض الواقعة جنوب نهر السين والتي تمتد إلى حدود أسبانيا . ومن المعقول أن نتخذ نهر السين حدا فاصلا بين الإقليمين ، لأن مجراه مابين باريس والبحر ، مجرى متسع كثير الالتواء والانحناء ، وقد يكون عائقا خطيرا في العبور ما بين الإقليم الشمالي والجنوبي . وقد أخبرنا أحد المراسلين الحربيين أن طائرات الأمم المتحدة دأبت في الأسابيع السابقة للغزو على ضرب جسور السين وتحطيمها ، حتى لم يسلم من هذه الجسور — وعددها ١٢٨ — جسر واحد . ولا شك أن الألمان قد أدركوا من هذا أن الحلفاء يريدون أن يعطلوا حركة النقل ما بين الميدانين الجنوبي والشمالي ، بحيث لا تنتقل النجدات بسهولة من جانب إلى جانب . ولذلك يكون من المستحب أن يعلم الألمان أي الميدانين سيتعرض للغزو ، لكي يستعدوا لذلك بحشد مقدار كبير من قوتهم الرئيسية والاحتياطية . ونجاح الحلفاء السريع في الأيام الأولى من الغزو يحمل على الظن بأن الألمان كانوا يتوقعون أن يكون هجوم الحلفاء في الميدان الشمالي لا الجنوبي ؛ وأن من الجائز أن يكونوا قد حشدوا الجزء الأكبر من قواتهم الاحتياطية على مقربة من ذلك الميدان .

وهنا قد يتساءل المرء : ألم يكن في وسع الألمان أن يحشدوا في كلا الميدانين قوات ضخمة تستطيع أن تواجه الغزاة بمجرد نزولهم إلى الشواطئ ؟ إن الناس تعودوا من القيادة الألمانية الاستعدادات الهائلة السريعة لكل احتمال من الاحتمالات . انظر مثلا إلى سرعة مبادرتهم للدفاع عن تونس ، وسرعة حشدهم الجند لمواجهة الحلفاء في إيطاليا بعد تسليمها مباشرة . ولكن يجب أن نذكر أن أمام ألمانيا في روسيا ميدانا هائلا يستنفد الفيالق والجيوش ، والعدة والعديد الأكبر ؛ وأمامها في إيطاليا ميدان — لعلها تريد تصفيته اليوم — ولكنها خصصت له أيضاً شطراً غير قليل من خيرة جنودها . ولهذه الأسباب لم يكن بدٌّ من أن تحسن ألمانيا تدبير مالديها من القوة المتيسرة في الميدان الغربي ، وأن تحشد أكثرها في الجهة التي تتوقع الغزو منها .

ونحن إذا افترضنا هنا أن القيادة الألمانية قدرت أن الغزو سيحدث في الميدان الشمالي ، فإننا بهذا لا نتهمها بسوء التقدير أو بقصر النظر ؛ فإن منطق الأشياء كان يقضي بأن يكون الغزو من شمال السين لا من جنوبه . فالميدان الشمالي هو الطريق المباشر إلى ألمانيا ، وهو الميدان الأقرب إلى الجزر البريطانية وإلى مصادر الأمداد فيها ؛ والانتصار فيه أجدر بأن يأتي بنتيجة باهرة سريعة من الانتصار في أي ميدان آخر . فلا يستطيع أحد أن يلوم الألمان على أنهم توقعوا أن يكون الهجوم في الميدان الشمالي .

ولا بد لنا أن نكرر أن هذه النظرية التي نسوقها هنا قد بنينا أكثرها على الافتراض المحض ؛ ولكن هنالك شواهد من الواقع تؤيدها بعض التأييد : ذلك أنه في الأيام الثلاثة الأولى من الغزو لم تتعرض السفن البريطانية ، على كثرتها ، لهجمات الغواصات أو زوارق

الطوربيد ؛ وكذلك خلا الجو في الأيام الأولى من الطائرات الألمانية بدرجة مدهشة ، ثم أخذت تظهر ويزداد عددها بالتدريج . ومثل هـذا يقال عن الوحدات البرية نفسها ، فقد انقضت بضعة أيام قبل أن تتمكن القيادة الألمانية من حشد قوات ذات أثر فعال في وقف الغزو وملاقاة الغزاة .

ويمتاز الإقليم الذي غزاه الحلفاء ، بشواطئ ضحلة يغطيها المد إلى مسافات بعيدة ، فإذا حدث الجزر تراجع البحر مسافة واسعة . ولقد يجئ المد في بعض جهات الشاطئ النورمندي بسرعة هائلة ، بحيث يسبق الفارس وهو يعدو أمامه بجواده . وقد انتظر الحلفاء الجزر ، لكي يكشف لهم عن الألغام والعقبات الكثيرة الملقاة تحت مياه الشاطئ . وقد استغرقت إزالة هذه العقبات جهوداً عظيمة ، وأودت بسببها زوارق عديدة .

ووراء الشواطئ عقبات أخرى ، وهي عبارة عن أبنية مدرعة نصبت فيها المدافع ، وهي التي يتألف منها ذلك الحائط المنيع الذي أقامه النازيون للدفاع عن قلعتهم في غرب أوربا . وقد أقبلت جموع الأمم المتحدة في ليلة ٦ يونيه محتشدة في أربعة آلاف من السفن ، ومعها آلاف من المراكب والزوارق الصغيرة ، تحرسها المدارعات والطرادات والمدمرات . وتفرقت هذه القوات في مساحة واسعة تمتد من مصب السين إلى شبه جزيرة شربورغ . وأخذت تذلل العقبات في جهات محدودة منفصلة من الشاطئ ؛ وتمكنت في الليلة الأولى من أنزال عدد عظيم من الجنود في مواضع متفرقة . وفي الوقت نفسه نزلت جموع عديدة بواسطة الجو في الجهات الواقعة وراء السواحل مباشرة ، وأخذت تلك القوات تحارب الوحدات الساحلية وتتغلب عليها بالتدريج ؛ وهي تحاول أن تقترب إحداها من الأخرى ، حتى انضمت القوات الجوية إلى القوات البحرية وتألف منها جميعاً قوة متحدة ؛ وكذلك أخذت المواقع الساحلية التي يسيطر عليها الحلفاء تزداد اتساعاً حتى اندمج أكثرها بعضه في بعض ، وأصبحت للحلفاء السيطرة على مسافة تقرب من المائة ميل على الساحل الممتد من مصب نهر الأورن إلى الساحل الشرقي من شبه جزيرة شربورغ . وإذا وفق الحلفاء للاستيلاء على ميناء شربورغ نفسها فإن في هذا كسباً عظيماً لهم ، إذ يمكنهم من نقل قواتهم إلى الميدان الجديد في سهولة ويسر ، بواسطة ميناء من أحسن موانئ فرنسا .

ولا شك أن هذه المكاسب لم تتم من غير تضحية ، ولكن رئيس الحكومة البريطانية أعلن أن الخسائر كانت أقل كثيراً مما كان يتوقع . كذلك لا شك أيضاً في أن الألمان قد نجحوا في حشد قوات لا يستهان بها في الطرف الشرقي من الميدان أول الأمر ، حيث يحارب البريطانيون ، ثم في الطرف الغربي بعد ذلك حيث يحارب الأمريكيون . وقد انتفعت الأمم المتحدة بسفنها الحربية الضخمة ، فحشدتها على السواحل لكي تساعد الجنود البرية ، برغم ما في ذلك من تعريض لهذه القطع الثمينة للخطر ، ولكن القوات البرية قد ابتعدت من البحر في مواضع عديدة ، ولا بد لها الآن أن تعتمد على وسائلها الخاصة . وفي الوقت الحاضر يجلب الألمان قواتهم من كل مكان ، ويسرع الحلفاء أيضاً في جلب الإمدادات من بريطانيا ؛ وكلا الفريقين يعد العدة لصدام عنيف في معركة كبيرة عامة ، يكون لها أثر أكبر من هذه المعارك المحلية التي نسمع بها الآن .

* * *

وهكذا تعود الحرب إلى فرنسا مرة أخرى ، فيما يمكن أن نسميه معركة فرنسا الثانية ، التي بدأت بعد المعركة الأولى بأربع سنين . وتدور هذه الحرب اليوم في ميدان لم يعرف الحرب منذ مئات السنين . فإن الحروب المختلفة التي تعرضت لها فرنسا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، كانت في العادة لا تتجاوز باريس . واليوم للمرة الأولى قد أصبحت أرض نورمنديا ميداناً للقتال .

محمد عوض محمد

٣ – عبـــــد الله نديم

لم يكن في مصر إلى أواخر عهد إسماعيل رأى عام يشعر بظلم ، وإن شعر فلا ينطق ، لأن عنف الاستبداد أمات الشعور وأخرس الألسن ؛ حتى تدخلت الدول الأجنبية في شؤون مصر المالية ، فبدأ الشعور يتنبه ، وغذاه الخديو إسماعيل نفسه وجرّأه ، لإحساسه بثقل التدخل وخشيته من عاقبته ؛ فأول معارضة من مجلس شورى النواب للحكومة كانت بإيعاز منه ، ولولا ذلك لم يجرؤ ؛ ومظاهرة الضباط ومهاجمتهم لنظارة المالية لتأخير رواتبهم كانت بتدبيره ليتخلص من وزارة نوبار التي تمالئ الأجانب في هذا التدخل ؛ واجتماع أعيان البلاد في دار السيد البكري ، ووضعهم اللائحة الوطنية التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوروبا وضمانها ، وعدم تدخل ممثليها في شؤون البلاد ، كانت فكرة بثها الخديو في أذهانهم .

ولكن هذا كان أول ما أشعر الناس بقوتهم ، وحاجة الحاكم إليهم ، ونبه الرأي العام إلى أنه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بالحقوق ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ورفع صوته بنقدهم ؛ وهذا الشعور إذا وجد في أمة كان لابد له من قادة يشعرون شعور الناس ، ويصوغونه صياغة قوية يلهبون بها شعور من شعر ، وينبهون بها من لم يشعر ، فكان ذلك في السيد جمال الدين ومدرسته . وجاء الخديو توفيق ونواة الرأي العام قد غرست ، ونتائج الأحداث الخطيرة يغذيها وينميها ، والنفوس مستبشرة خيراً بتوليته ، فلم يكن مسرفاً ولا مستبداً ، وكان سمحاً رضياً ؛ وكان قبل عزل إسماعيل يتصل بالسيد جمال الدين ويحبذ آراءه في الإصلاح ، فلما تولى قربه إليه ، وقال له : أنت موضع أملي في مصر .

ودعا شريف باشا لتشكيل الوزارة ، « وصرح برغبته في تحقيق آمال الأمة ، وإخراجها من الحالة السيئة التي هي فيها بالاقتصاد في نفقات الحكومة ، والاستقامة في الوظائف العامة ، وإصلاح القضاء والإدارة ، وتوسيع نظام شورى القوانين ، وإصلاح المحاكم والمجالس ، والسعي لتعميم التربية والتعليم ، وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم » .

ففرح الناس وهللوا لهذه الوعود القيمة ، وتفتحت آمالهم ، ولكن الحكم الشوري لم يُرضِ طوائف كثيرة — لم يرض الحاشية ، وكان السيد جمال الدين أشار على الخديو توفيق بتغيير حاشية إسماعيل ، فأغضبهم عليه ؛ قال الشيخ محمد عبده : « ووكيل دولة فرنسا أخذ يسعى في إقامة الموانع دون إعطاء حق النظر في تصحيح « الميزانية » ، وتقرير الأمور المالية ، ودعا وكيل إنجلترا إلى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة » ، فتغير رأي الخديو توفيق من ذلك كله ، فاستقال شريف باشا ، ونفي السيد جمال الدين ، وأخذت الأمور مجرى آخر كان سبباً من أسباب الثورة .

ثم جاءت وزارة رياض باشا بعد وزارة شريف . وفي تاريخ مصر الحديثة كان شريف باشا دائماً رمز الحكم الشوري ، ورياض باشا رمز الحكم الاستبدادي ، وكلاهما كان يلتف حوله كثير من الخاصة ؛ فحول شريف جماعة ترى أن الحكم الشوري هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الفوضى ، والأمل الوحيد في وقف كل سلطة عند حدها ، والحماية الوحيدة من استبداد الخديو أو الأجانب ، والباعث الوحيد للأمن والحرية في نفوس الأفراد ؛ وحول رياض جماعة ترى أن الحكم الشوري لا يصلح إلا إذا نضجت الأمة وعرفت شؤونها ومجاري السياسة حق معرفتها ، ورزقت من الشجاعة في القول والجد في العمل قدراً صالحاً ، وإلا كان الحكم الشوري نقمة والأمة لم تبلغ هذا الحد . وكان الجدال والنزاع يدور على الفكرتين في الصحف والمجالس ، وعلى كل حال فقد كان هذا درساً لتنوير الرأي العام في السياسة ، وتفتيح الأذهان للنظر في المسائل العامة .

وكانت شخصية رياض شخصية معقدة — ذكى ، خبير بالإدارة ، قوى العزيمة ، صبور على العمل لا يَمَلّ ، معتدّ بنفسه ، لا يرى بجانب رأيه رأياً ، إذا وثق بشخص لم يسمع فيه قول قائل ، وإذا أساء الظن بإنسان فإلى النهاية ، نزيه ، يحب الخير لمصر ، ولكن حسبما يرى هو ، وبالطريقة التى يراها ، قليل الثقة بالمصريين — على العموم — ممتلئ عقيدة بأنهم مملوءون عيوبا ، كبير التعظيم للأجانب ، معتقد فى قوتهم ، يرى أنه لا يستطيع الحكم إلا بالاعتماد عليهم ، أو على أقوالهم ، لا يرى بأساً من إغضاب الخديو وإغضاب الأمة فى سبيل إرضائهم ، ومع ذلك يبذل أقصى جهده فى أن ينال منهم أقصى ما يستطيع — برضاهم — لخير أمته — شديد الحب للحكم لا يعتزله إلا مكرَهاً . فكانت أخلاقه هذه من عوامل التمهيد للثورة العرابية .

ألغى السخرة العامة ، كإقامة الجسور على النيل ، وحفر الترع من غير أجر ؛ والسخرة الخاصة ، كعمل الفلاحين فى أرض سيدهم من غير مقابل ؛ ونفذ ذلك فى غير هوادة ، فأغضب بذلك الأعيان ؛ وأعطى السلطة العامة للمديرين ، فأساءوا السيرة ؛ وضيّق على الصحف ، وعطّل بعضها ، فعملوا سراً بعد أن كانوا يعملون جهراً ، وسافر بعضهم إلى أوروبا يصدر الجرائد فى الطعن عليه ؛ وعارض الخديو فى منحه الرتب والنياشين لمن يراهم أهلا ، كما عارضه فى كثير من رغباته فغضب عليه ، وعاقب المدير الذى سخر الأهالى فى حفر ترعة خاصة بالخديو .

وتصرف ناظر الحربية فى وزارته تصرفات أغضبت رجال الجيش المصريين ، فطلب عرابى وأصحابه تشكيل مجلس عسكرى لتحقيق الشكايات ، فمال رياض إلى إجابة مطلبهم ، ولكن أشيع عنه أنه هو الذى يمانع فى ذلك ، فغضبوا عليه — كل ذلك وهو لا يريد أن يتخلى من الحكم .

تبلبلت الأفكار واضطربت ، وكلها تتفق فى وجوب تغيير الحال وإن اختلفت أسباب كل طائفة ؛ فالأعيان يحبّون رجوع سلطتهم فى تسخير الناس ؛ والضباط يريدون العدل بينهم وبين الشراكسة ؛ وبعض ذوى الرأى يرون أن هذا كله تأييد لوجهة نظرهم فى أنه لا يُصلح الأمور إلا نظام الشورى ؛ والخديو ناقم على رياض ؛ وبعض الأجانب لا يسرهم ما قام به رياض من ضبط الأمور المالية . كل هذا هيأ للثورة العرابية .

وتطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضباط إلى تغيير الحكومة من نظام استبدادى إلى نظام شورى ، إلى التهييج على الخديو توفيق ، إلى المناداة بعزله لالتجائه إلى الدول الأجنبية ، إلى الدعوة للجهاد فى سبيل صد المغيرين . واتسعت الحركة ، من حركة بين الجند والضباط إلى حركة وطنية واسعة تشمل العلماء والأعيان والتجار والزراع وغيرهم ؛ واندس وسط الحركة من يعمل لصالح أمير ليحل محل الخديو توفيق ، كجماعة تعمل لصالح البرنس حليم ابن محمد على ، ومن هؤلاء صاحب جريدة « أبو نضارة » ، ومنهم من يعمل لحساب الخديو إسماعيل لإعادته ، ومن هؤلاء راتب باشا السردار ، وهكذا .

فى هذا الجو الذى صوّرناه صورة صغيرة جداً عمل عبد الله نديم ، واحتضنه العرابيون فكان خطيب الثورة وكاتبها ومشعلها .

اتخذ جريدة « الطائف » بدل « التنكيت والتبكيت » ، ونقل مكانها من الإسكندرية إلى القاهرة ، وبدأها عنيفة قوية ؛ تنقد تصرفات الخديو إسماعيل فى جرأة بالغة ، كيف أسرف ، وكيف استولى على الأراضى ، وتشرح بؤس الفلاحين فى السخرة — فى أيامه — والعذاب المهين الذى يلقونه من الرؤساء ، وما شاهده بنفسه من أحداث ، وكيف يجر الناس قتلى من الجوع والبؤس ، والإعياء والضرب ، وكل رئيس يريد أن ينال حظوة رئيسه الأعلى بالمغالاة فى التعذيب[1] .

وكان عبد الله نديم فى هذه الصحيفة يعبر عن آراء النواب فى ضرورة الإصلاح عن طريق الحكم النيابى .

(1) ومن الناس من يروى أنه اعتمد فى فصوله عن إسماعيل على كتاب فى هذا الموضوع كان ألفه الشيخ محمد عبده .

وكتب سلطان باشا رئيس النواب إلى إدارة المطبوعات ، أن تعتبر جريدة الطائف لسان النواب المعبر عن أفكارهم ، فاعترفت الإدارة بذلك ، ونشر هذا رسمياً بأمر نظارة الداخلية ؛ ولكن لما رأت إدارة المطبوعات عنفه وتهييجه عطلته شهراً .

أصبح الطائف فى الثورة العرابية لسان الدعاية لها ، يذم من عاداها ، ويشجع من والاها ، ويلقب «عرابى» بحامى حمى الديار المصرية ؛ ويتطور بتطورها فينقد الأوروبيين وتصرفاتهم ، وينقد الخديو توفيق لارتمائه فى أحضانهم ، فى أسلوب لاذع وتهكم ساخر . فإذا كانت الحرب نقل جريدة الطائف إلى المعسكر يحرّض الجنود على القتال ، ويحرض الشعب على تقديم المؤونة ، وينشر خبر التبرعات ، وكلما اشتد الأمر اشتد فى تهييجه . وقلّت صفحاته لاشتداد الظروف من أربع إلى اثنتين إلى واحدة ، وهو يهرّج فى أخبار الحرب فيقلب أخبار هزيمة المصريين إلى أخبار انتصار ، وانتصار الإنجليز إلى أخبار هزيمة ؛ وظل كذلك حتى تمت الهزيمة ، وتم التسليم .

هذا عمله فى الصحافة ، وإلى جانب ذلك كان عمله فى الخطابة .

فقد طاف فى كل مجتمع يخطب ، وأعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب ، فما هو إلا أن يحرّك لسانه حتى يتدفق وتنهال عليه المعانى والألفاظ انهيالا . وقد نشر فى البلاد فن الخطابة ، وعلّم كثيراً من الناشئة أن يخطبوا فى المحافل ، وأعطى لهم المثل بمقدرته وكفايته .

وبدأ ذلك أيام كان يعلّم الإنشاء والأدب فى مدرسة الجمعية الخيرية فى الإسكندرية . فلما أعلن الدستور فى أول عهد توفيق (٧ فبراير سنة ١٨٨٢) سرت فى النفوس هزة فرح لا تقدر ، وأمّل الناس أن الحكم النيابى سيصلح كل مفاسد الماضى ، ويرسم كل وسائل السعادة للحاضر والمستقبل — واشتاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير فى هذا الموضوع ؛ فكان عبد الله نديم وجوقته هم الذين يمنّون الناس بآمالهم ، فأقيمت الحفلة تلو الحفلة يدعى إليها النديم هو وصحبه ليخطبوا ، والنديم هو قطب الرحا ، يخطب أولا ، وكلما خطب خطيب وتناول موضوعا قام النديم بعده يعقّب عليه ، ويتخذ من كلامه موضوعاً يُطنِب فيه ؛ وفى هذه الحفلات يحضر النظار وكبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان ، فتطرب نفوسهم لهذا طربهم من عبده الحمولى ومحمد عثمان .

هذه حفلة تقيمها جمعية المقاصد يفتتحها « النديم » بقصيدة ، ثم يشكر الجمعية على احتفالها بالدستور ، ويتلوه إبراهيم اللقانى فيبين الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى ، فيعقبه النديم يكمل موضوع الفروق بين العهدين ؛ ثم يقوم الشاب مصطفى ماهر — باشا فيما بعد — فيتكلم فى الحث على الاجتهاد فى العلوم والفنون ، ويستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين ، ويختم ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد ، فيقوم بعده النديم يتكلم فى هذا الموضوع ؛ ثم يقوم الشيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكومة النيابية ، ويطالب بوجوب أن يكون النواب من المتعلمين ، ويحث على تعميم التعليم ، وعلى احترام حرية القول والكتابة ، وسن القوانين المبينة لحقوق الأفراد وواجباتهم ، ويقوم « النديم » بعده معقباً على قوله ؛ ثم يقوم أديب إسحاق فيتكلم فى شعور النواب وتضامنهم مع النظار فى كل ما يجلب الخير للبلاد ، ويتلوه النديم ؛ ثم يقوم فتح الله أفندى صبرى (فتحى باشا زغلول) فيخطب فى الحث على الاتحاد والثبات ، وينتهى هذا الاجتماع .

وتتكرر أمثال هذه الاجتماعات ، وتقال فيها مثل هذه الخطب ، ويقوم بالدعوة إليها كبراء البلد ، كأحمد محمود ، وإبراهيم الوكيل ، وأحمد أباظه ، وأحمد يكن ، ومحمد طاهر ؛ وكلها على غرار الحفلات السابقة عمادها عبد الله

نديم وإن اختلفت بعض الموضوعات ، كدعوة إبراهيم اللقاني إلى التمسك بأسباب القوة والاتحاد ، والحث على مجانبة الخوف والجبن ، وخطبة فتحي زغلول بالأخذ بالمبادئ التي تمدن البلاد ، والدعوة إلى إنشاء جمعية تفتح مدارس ليلية يتعلم فيها من لم يسمح له عمله بالتعلم .

ويدعى عبد الله نديم إلى حفلة في الإسكندرية على هذا الطراز . وكل هذه الحفلات توصف في جريدة الوقائع المصرية ، ويذكر فيها خلاصة ما دار فيها من خطب فتنتشر في البلاد .

فلما عُطِّل الدستور ، وتطورت الأمور ، وكانت الثورة العرابية ، تحوَّلت خطب عبد الله نديم إلى موضوع الثورة ، وكان يخطب في كل مجتمع : في الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفي حفلات « الأفراح » ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عليهم عبد الله نديم وجماعة من تلامذته يعتلون المكان العالي ويخطبون في موضوعات الثورة ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان « المغني » أين تغنّي الليلة يقول : « في الفرح الفلاني مع عبد الله نديم » ، وهو في هذا الموقف لا يتحرج من التهريج ، فيقول مثلا في بعض خطبه : إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيف حالت الأساطيل الإنكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا ، فيصفق الناس . ويخطب « فتحي زغلول » فيقول النديم : ألا تعجبون لما أبدى هذا التلميذ في خطبه من العلم والبيان والتفنن في المواضيع ، مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعا واحدا ؟! ويخطب مصطفى ماهر فيقول النديم : « أشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يليها أحدق أمرها » .

على كل حال كان عبد الله نديم لسان الأمة في عهده بخطبه ، وقلمها بصحفه ، يتنقل في الأقاليم ولا يكل ولا يمل ، نشر آراءه ومشاعره في أكبر عدد ممكن من الأمة ، وساعد على نمو رأي عام مصري يؤمن بالحكم الشورى ، ويتطلع إلى الإصلاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية — فإن كان السيد جمال الدين رسول الخاصة في هذه المعاني ، فعبد الله نديم كان رسول العامة ؛ قطّر المعاني التي يدعو إليها جمال الدين إلى الشعب ، وأوصلها إلى التاجر في متجره ، والفلاح في كوخه ، والتلميذ في مدرسته . كان السيد جمال الدين بحكم أرستقراطيته في نشأته وثقافته ، والوسط الذي يحيط به ، ولغته في كلامه وكتابته ، معلم الخاصة ؛ وكان عبد الله نديم بحكم ديمقراطيته في النشأة والعلم والوسط واللغة معلم العامة .

لسنا الآن بصدد الحكم على الثورة العرابية وما نفعت وما أضرت ، والمسئولين عنها ، والمآخذ عليهم ، وكل ما يعنينا الآن أن نقول إنه إذا تبخرت أقواله التي دعت إليها فورة الثورة ، وتبخرت أنواع تهريجه وتهويشه ، بقي لنا جانب كبير من جوانب نفع عبد الله نديم في هذه الحركة ، وهو إيقاظ الشعور في الشعب بحقهم في الشكوى من الظلم ، والمطالبة بالعدل ، وإفهامهم أن الحاكم يجب أن يكون مسئولا أمامهم ، وأن هناك نوعاً جديداً من الحكم غير الذي ألفوه من رجوع الأمور كلها إلى إرادة الحاكم يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها ممثَّلا في نوابها ، وأن مصر للمصريين لا للدولة العلية ، ولا لأية دولة أجنبية . وهذه معانٍ قد كانت عند خاصة الخاصة ، فنشرتها الثورة وعبد الله نديم في العامة .

ولئن أخفقت الثورة فيقظة الرأي العام — إلى حد ما — وشعوره بنفسه ، وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يخفق ، ويتجلى ذلك على الأخص إذا قورن بينها وبين حالته من قبل .

(يتبع) أحمد أمين

كتيبة الخـــير

نلاحظ فى هذه الأيام الأخيرة أنه لا يخلو مجلس فى مصر من حديث ، ولا يخلو حديث من ترديد آمال وشكوى من آلام . هذه ظاهرة تسترعى النظر ، ولا شك فى أن لها دلالتها . هل نحن قوم نحلم ونحاول أن نعوّض بهذه الأحاديث عن نقص نحسّه ؟ هل نحن قوم نريد أن نعمل فيخوننا العزم فنلجأ إلى هذه الأحاديث لننفّس بها عن أنفسنا ؟ قد سمعتُ تأويلا بعد تأويل لهذه الظاهرة العجيبة التى يلمسها كل منا فى المجالس والمنتديات ، ولكنى من الممكن أن أذهب فى التأويل مذهبا آخر .

لا شك فى أننا قد أحسسنا بأن هناك فى حياتنا شيئاً يستلزم منا التفكير وبذل الجهود . وليس هذا الإحساس وليد ما تنبهنا إليه من وجوه النقص فى الحياة المصرية وحدها ، بل هو وليد ما تنبه له الشرق كله ، والعالم العربى الإسلامى خاصة ، من أنه فى حاجة إلى عمل كثير لكى يدفع نفسه إلى الأمام ، ويساير أمم العالم الحديث فى تقدمها وكرامتها .

فهذه الأحاديث أقرب إلى أن تكون دليلا على التيقظ وتحرك الحياة فى أفكارنا ودمائنا .

هذه الأحاديث آيات دالة على أننا قد جمعنا الحقائق ووعيناها فى أعماق أفئدتنا ، وبلغنا فيها مرحلة النظر ، واستخلاص الأحكام ، ورسم الخطط ، وأصبحنا نتحفز للعمل والتنفيذ .

نحن فى مصر ، وفى الشرق العربى الإسلامى ، بل نحن فى الشرق عامة ، مثلنا مثل سائر الشعوب ، فينا مزيج من القوة والضعف ، ومن السمو والإسفاف ، ومن الجد والهو ، ومن عوامل الحياة وعوامل الفناء . فينا كل هذه العناصر مجتمعة — وقد تعمل الظروف المحيطة بنا على ظهور الحسنات من هذه العناصر ، كما قد تعمل ظروف أخرى على ظهور السيئات منها .

ونحن نحس بما فينا من عناصر الصلاح فتمتلئ قلوبنا بالأمل ، ثم نحس بما فينا من عناصر الضعف فتثور الآلام فينا ، وهذا هو سبب القلق الظاهر الذى لا يخلو مجلس من ترديد أصدائه .

ولكن هل تحيط بنا ظروف تظهر العناصر الحسنة التى فينا ؟ وهل من الممكن تهيئة مثل هذه الظروف ؟ هذا هو السؤال .

إن العناصر الحسنة موزعة فى الأفراد ، وقد تكون أحياناً غالبة على الفرد الواحد ، وقد تكون كامنة فيه تحتاج إلى ما يُظهرها ، ولكنها بلا شك هناك تنتظر حتى يحين لها أن تنطلق وتتجه إلى غايتها .

فى مصر والشرق ألوف وألوف من الأفراد الذين يريدون الخير ، ويعملون جهدهم على خدمة المثل العليا ، ويحاولون دفع المجتمع إلى الأمام بما استطاعوا إلى ذلك من قوة ؛ ولكنهم أفراد متفككون . كل منهم يفكر ويعيش فى صدره الآمال ، ويتألم ويدفعه الألم نحو محاولة الإصلاح ، ولكن مجهودهم موزّع غير متآلف ، ولا يعرف الفرد من هؤلاء ما يفعله الآخرون . وقد تجتمع حول الفرد منهم دائرة تشبهه فى اتجاهه ، ولكنها تكون دائرة ضيقة محدودة لا تستطيع إلا إنتاجا محدودا ، فمجتمعنا شبيه بميدان فسيح ، قد توزع فيه مجاهدون كثيرون ، كل منهم قائم فى ركن من أركان الميدان يحاول ما استطاع أن يخدم وأن يصلح وأن يكافح عوامل الضعف والانحلال . وهؤلاء المجاهدون من أصناف مختلفة ، وبيئات متعددة : ففيهم المثقف العالى الثقافة ، وفيهم الرجل المخلص الذى لم ينل حظه من الثقافة ، وفيهم الرجل الغنى الذى يعمل عن طريق عمله أن يسمو بمواطنيه ،

وفيهم العامل الذي يدأب على عمله في الليل والنهار وقلبه عامر بالثقة والأمل ، وفيهم الأديب الذي يجاهد في سبيل تفتيح العيون والأذهان وتوجيهها نحو المثل العليا ؛ كل من هؤلاء يبذل كل جهده في سبيل الخدمة العامة ، وكل فرد منهم يحسب أنه في الميدان وحده يجاهد في وجه قوى لاقِبَل له بالانتصار عليها . وكثير منهم ينتهي به النضال بعد حين إلى أن يدب اليأس إلى قلبه فيلق عدة جهاده ، وتفتر همته ، ويقر بأنه قد عجز أو أنه قد أوشك أن يعجز .

فإذا نحن أردنا أن نطمئن إلى مستقبل جهادنا في سبيل الحياة الكريمة ، كان علينا أن نبذل كل جهد لتجميع هؤلاء الأفراد ، وتعريف بعضهم بجهود بعض ، حتى يعرف كل منهم أنه ليس وحده في سعيه الشاق ، وأن له إخواناً يشاركونه في تطلعه وتجرده للخدمة العامة . فإذا نحن استطعنا ذلك أمكن أن تأنس قلوب المجاهدين بالثقة والأمل ، عندما يعرفون أن الميدان الواسع يضم ألوفاً من الزملاء يعملون معاً نحو القصد الواحد .

ولكن هناك عوائق تحول دون هذا التجميع ؛ أولها : أن صوت الدعاية العالي في بلادنا إنما يقرع الأسماع بما لا يؤدي إلى خير . والدعاية هي الوسيلة الأولى للاجتماع . فلا بد من صوت عال ينادي حتى يقرع كل الأسماع في الميدان الفسيح :

« هلم ياجنود الخير تحت هذه الراية ! »

وإنه لما يبشر بالخير أن في الأفق مايدل على أننا قد أخذنا نفطن إلى قيمة الدعاية . ففي المؤلفات الكثيرة التي ظهرت في هذه الأيام صوت قد ارتفع ، وفي الصحافة أصوات تنطق ؛ ولكن هذه الكتب وهذه الصحافة لاتواصل نداءها ، بل قد يفتر صوتها بين حين وحين ، وتشغلها المشاغل عن ندائها . وليست الكتب والصحافة كل وسائل الدعاية ، بل هي جزء منها ، ولعلها اليوم أخفتها صوتاً . ولابد أن نجد الوسيلة لنبلغ الصوت إلى أقاصي الميدان .

يستطيع كل فرد منا أن يكون صوتاً في هذه الدعاية . أينما سرنا ، وأينما جلسنا ، في بيوتنا بين الأصدقاء ، وفي مكاتبنا ، وفي زحمة الحياة . يستطيع كل منا أن ينادي ، وأن يعلن أن عناصر الخير تريد أن تتعارف ، وأنه لا يضعف الجهود إلا أنها جهود أفراد موزعة تنقصها الخطة الشاملة ، وتبادل الآراء وتنسيق الاتجاهات .

وهناك حاجز أخذ يرتفع في هذه الأيام الأخيرة بين الجيل الحاضر من الرجال والجيل المقبل من الشباب ؛ حاجز اشترك في بنائه الشيوخ والشبان على السواء . هؤلاء يظنون في أولئك ظنوناً ، ويجيبهم عليها الآخرون بمثلها . فالشبان يظنون في الشيوخ التردد ، والأنانية ، والضعف ؛ والشيوخ يظنون في الشبان قلة الثبات ، والميل إلى اللهو ، والتحلل من منابت جذورهم .

لا ! لا ! إن في الشيوخ شباناً ، وإن في الشبان شيوخاً . لا فرق بين شيخ وبين شاب إذا كان كلاهما حياً . والحي من هؤلاء جميعاً يليق لأن يكون جندياً إلى جانب زميله ، لا تفرق بينهما مدة السنين إلا في شيء واحد ، وهو أن الشيوخ أكثر تجربة ، وأن الشبان أكثر قوة وحرارة . فليس من مصلحة المستقبل أن تنقطع علاقة الفكر بين هذا الجيل السائر نحو النهاية ، وبين هذه الأجيال الفتية التي ستلقى على عواتقها حمل المسئولية عن مستقبل البلاد بعد حين .

فلا غنى لنا عن أن توجه الدعاية نحو التجميع ، لانفرق بين المجاهدين لأن بعضهم من الشباب وبعضهم من الشيوخ . بل إنه من ألزم الضرورات لنا أن يجتمع هؤلاء وهؤلاء جنباً إلى جنب ، ليستفيد الشباب بتجربة من هم أكبر سناً ، ويستفيد الشيوخ بقوة من هم أشد منهم فتوة .

هؤلاء ، وهؤلاء معاً يكونون كتيبة الخير . فلنعمل على الدعاية لهذا التجميع .

محمد فريد أبو حديد

رســـائل صينية

الرسالة الرابعة

لقد اخترت أن أصور جماعة من الفلاحين حينما حاولت أن أرسم لكم صورة حقة من الحياة فى الصين ، لأنه فى مثل تلك الجماعة أجد المثل الصادق الأمين لأثر مدنيتنا فينا . إن فى الصين مدنا — ولا شك — مدنا مخيفة لا تقل وحشية عن مدنكم أنتم فى إنجلترا . ولكنها عندنا مجرد طفيليات تنمو على جسم الدولة ، والدولة لا تزال كيانها الأصلى زراعى محض . والحال فى هذا عندكم تخالف ما عندنا كل المخالفة ، فليس عندكم ما يستحق أن يسمى حيـاة ريفية . كل ما عندكم مساحات واسعة من الأرض المهملة ؛ وعدد وفير من المستنقعات من جهة ، ومن جهة أخرى قصور وحدائق ؛ وعمال رثة ثيابهم ، حقيرة مأواهم ، بائس أجرهم ؛ ثم قرى حزينة ، ومزارع فى طريق الاضمحلال والفناء ، وحقارة وبلى ، وشر وقسوة ؛ هذه هى الصورة التى رسمتموها أنتم لمناطقكم الريفية . كل شىء ليس من المدينـة فى إنجلترا لا مرد له من أحد أمرين : إما أن يعيش طفيليا على حياة المدن ، وإما أن يقف على حافة الموت السحيق . فإذا كنت أريد أن أرسم صورة عادلة منزهة عن الأغراض لما أتت به مدنيتكم من ثمار ، فلا بد لى من أن أشيح بوجهى عن حياة الريف عندكم لأوليه شطر حياة المدن . فإذا ما فعلت ذلك فأنا لا أتسارع بإحراز نصر سريع هيّن ، بأن أقف مغرضا أمام هذه المظاهر من مدنكم التى لا تغفلون عن قبحها بل استحياء منها . إن هذه الأحياء الفقيرة الغاصة بالبؤساء ، وحانات الخمر وملاهى الفقراء ، والسجون ؛ إنها كلها لحقائق مرة بلا شك . ولكنكم قد أقمتم أنفسكم لمحاربة هذا الشر الذى تمثله تلك الظواهر فى مدنكم ؛ ولست أشك فى أن جهودكم فى هذا المضمار يمكن أن تكلل بغير قليل من النجاح . وما دام الأمر كذلك فإنى أفضل أن ألمح هنا فيما أرسمه من مدنيتكم هذا الهدف الذى تسيرون إليه ، فيما يبدو ، عند ما تكونون قد قمتم بخير ما يمكن أن تقوموا به من جهود . هذه الثمرة الصادقة لمدنيتكم ؛ هذا الرجل المتوسط العادى الذى تسمونه محترما ، إنه هو الذى أريد أن أرسم وأن أصف ، فهو هو النتيجة الطبيعية المحتومة لأثر مدنيتكم فيكم . أى الرجال هو إذن ؟ كم أردد وأنا أحمل نفسى على أن تجيب عن هـذا السؤال ، فأنا غريب بينكم قد نعمت بكرمكم ، وأنا أحجم من أن أكافئ معروفكم بالجحود وقلة الذوق . ولكنى أقدر فى الوقت نفسه أنه إذا كان هناك ما يمكن أن أخدمكم به ، فإنى لا أرى شيئا أقوم من أن أردكم إلى بعض الحقائق . حقائق هامة جدا فيما يبدو لى ، ولكنكم قد تعاميتم عنها تعاميا شاذا فريدا . إن أقدامكم على حافة طريق ضالة ، وأرانى مضطراً لأن أحذركم منها . ولئن كان تحذيرى لكم لا جدوى فيه ، فما يمنعنى هذا من أن أقدمه بروح الصداقة ، بل أن أرجو أن تتقبلوه منى بنفس هذا الروح .

ترى ماذا أرى وأنا أحاول أن أتبين الأثر الذى تركه فى نفسى هـذا الرجل الإنجليزى العادى ، أثرا يعتمد على دراسة سنوات عديدة قضيتها بينكم . إنى لأرى رجـلا قد جفا الطبيعة لخفته ، ولم ينقذه بعد ذلك الفن ؛ رجلا متعلماً ولكنه ليس مثقفا ولا مهذبا ؛ لديه استعداد قوى لأن يتلقى ، ولكنه عاجز عن أن يفكر ؛ قد ربى على مبادئ دين لا يؤمن به فى الواقع ، لأنه يراه معارضاً على طول الخط فى كل علاقات الحياة من حوله ؛ وهو يشعر شعوراً خفياً أنه من الحيطة والتعقل أن يخفى الإلحاد ، الذى ليس عنده من الذكاء ما يسمح له بأن يعلنه تحت قناع من التدين . إن دينه مجرد تقاليد ، وأخطر من ذلك أن أخلاقه هى الأخرى لا تقل عن دينه فى كونها هى أيضاً مجرد تقاليد . فالإحسان ، والطهارة ، وإنكار الذات ، وتحقير

الدنيا والزهد في ملاذها ، كل هذه كلمات يتغذى عليها منذ طفولته ، ولقد ظلت كل هذه الصفات مجرد كلمات في حياته ، لأنه لم ير حوله أحداً يعمل بها ، ولم يدر بخلده قط أن يعمل بها هو نفسه . فإن كان أثر هذه الكلمات كافياً في أن يجعل منه مرائياً مزمناً في الرياء ، فإنها لم تقو بعد على أن تبين له صورة هذا المرائي الذي قد صار إليه بفضلها . وبينما يرى نفسه محروما من سند دستور خلق حتى يتجلى في حياة الجماعة التي هو عضو فيها ، تراه قد خدع بعبادة زائفة لمثل أعلى خائر ضعيف . ولما كان قد تُرك تركا نهائيا لغرائزه تسيره كيف شاءت ، فإنه قد قنع بأن يسير حياته كما يسير الذي حوله من الآخرين ، وأن يكرس نفسه للغايات المادية بعد أن أغفل الروح في حياته ، وبذلك أصبح مجرد أداة ؛ ومن مثل هذه الأدوات يتجمع مجتمعكم .

هذه آثاركم تدل عليكم ، فإن انتصاراتكم في الفنون الآلية ما هي في حقيقة الأمر إلا الظاهر الذي تسترون به فشلكم في كل ما يتطلب الحواس الروحية لإدراكه . إنكم تستطيعون أن تصنعوا الآلات من أي نوع كانت ، وأن تستعملوها بفن قد بلغ حدّ الكمال ، ولكنكم عاجزون عن أن تبنوا بيتا ، أو تؤلفوا قصيدة ، أو ترسموا صورة ؛ بل إنكم عاجزون عن أن تتعبدوا في حرارة ، أو تتطلعوا في شوق . وهذه هي شوارعكم ، إنها صفوف وصفوف من صناديق صغيرة متراصة مكدسة لا يفترق كل منها من الآخر في شيء ، ينقصها كل ما هو أساسي ، بينما قد أثقلت بكل ما هو كماليّ تافه . هذا هو ما تسمّونه عندكم فن العمارة . أما أدبكم فهو الجرائد اليومية بسيلها المتدفق بالتفاهات الجامدة ، والحوادث والأنقاذ والنكات وفضائح البوليس . وأما السينما فهي مجرد قصص ملون لكل ما هو مبتذل ، وقد أصلح من شأنه كيفما اتفق بعض الهواة ، فافتقرت إلى العبقرية افتقارها إلى السنن الفنية . إن حواسكم الخارجية كحواسكم الباطنية قد خمدت وماتت ، فأنتم لا تبصرون ولا تسمعون . إن المنطق قد ألغى كل ما لديكم من تفهم وبصيرة ، وأصبحت حياتكم كلها استقراء ، ومنطقا أبديا لا ينتهي ، ولكنه منطق يعتمد على مقدمات لم تتبينوها ولم تمحصوها ، وهو يقود أيضا إلى نتائج لم تريدوها ولم تتوقعوها . وهكذا في كل شيء ، وفي كل ناحية ، لا نرى عندكم إلا الوسائل ، أما الغايات فإنا لا نراها أبداً ؛ والمجتمع نفسه آلة ضخمة ولكنها آلة مختلة معطلة .

هذه هي الصورة التي تتراءى لخيالي عن مدنيتكم . ولست أزعم أنها هكذا تبدو لكل صيني فطن . فالصينيون على العكس منكم ، قد ركبت طبائعهم بحيث يعجزون عن أن يهاجموا غيرهم . فإذا كنت قد انزلقت إلى هذا الزلل فما كان ذلك مني إلا من أثر استثارتكم القوية لنا . ومع ذلك فإني أحس منذ الآن أني مدين بالاعتذار إليكم ؛ ولكني لا أستطيع أن أنكر كلمة واحدة مما قلت ، وما أحسبني نادما على شيء مما فعلت ، إذا كانت كلماتي قد أوحت ، وهل لي أن آمل ذلك ، إلى بعض قرائي معنى جديداً للصيحة التي يسمعونها : « الصين للصينيين » .

دكتورة سهير القلماوي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
مليم
٤٥ في مصر والسودان
٣٧ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

الروح العربية

عالج أبو حيان التوحيدى موضوعاً دقيق المذهب ، وعر المسلك ، يعالجه اليوم كتّاب الغرب ، وهو الكلام على روح الأمم وتمحيص خصائص هذه الأمم . فى مكتبات الغرب كتب شتى تبحث من الروح الإنجليزية أو الروح الأمريكية أو الروح الروسية ؛ وإذا أردنا أن نمتحن دقة هذه المباحث فحسبنا أن نتصفح أىّ فهرس من فهارس هذه الكتب حتى نشعر بهذه الدقة .

طالعت كتاباً اسمه : الروح الفرنسية لأستاذ من المعهد الفرنسى ، بحث فيه المؤلف عن طبائع الأرض فى فرنسا ، وعن تاريخ هذه الأمة ، وعن عقول رجالها وحسهم ومشيئتهم ، وعن أخلاقهم فى حياتهم الخاصة وحياتهم العامة ؛ ولكل فصل من هذه الفصول فروع لا يستطيع الكاتب أن يخوض فيها إلا بعد أن يقف على أمور كثيرة ، وما أصدق ما قاله « موروا » فى هذا المعنى : يسهل علينا أن نقول إن الأمريكان هم كذا وكذا ... ولكننا نمضى السنين الطويلة حتى نعرف حقائق الأمريكان .

وكم تمنيت وأنا أقرأ هذا الكتاب أو غيره من الكتب المشاكلة له فى الموضوع ، أن أجد بين يدى كتاباً مثله يبحث عن الروح العربية ، من كل ناحية من نواحى أولئك القوم الذين حملوا إلى الدنيا ما حملوا ، وأورثوها ما أورثوا من لغة وأدب وعلم وحضارة .

ولئن فاتنى حظى من مثل هذا الكتاب ، فلم يفتنى الحظ من فصل من فصول أبى حيان فى كتابه الجليل : الإمتاع والمؤانسة ؛ فقد بحث فيه هذا البحث الذى أشرت إليه ، إلا أنه ألمّ بالموضوع إلماماً ، ولم يستقص فيه على نحو استقصاء كتّاب الغرب فى نظائر هذا الموضوع ، على أن كلامه إن لم يكن نفساً مديداً ، فهو لمَح قد يكون فيه بعض المقنع .

نشأ العرب فى صحراوات وصف أبو حيان طُرُزَ حياتهم فيها ، فقال : وبعد ، فالذى لا شك فيه من وصف العرب ولا جاحد له من حالها ، أنه ليس على وجه الأرض جيل من الناس ينزلون القفر وينتجعون السحاب والقطر ، ويعالجون الإبل والغنم وغيرها ، ويستفيدون فى مصالحهم بكل ما عزّ وهان ، وبكل ما قلّ وكثر ، وبكل ما سهل ووعر ، ويرجون الخير من السماء فى سوبها ، ومن الأرض فى نباتها ، مع مراعاة الأوان بعد الأوان ، وثقة بالحال بعد الحال ، وتبصرة فيما يُعمل ويُجتنب ، ما للعرب فيما قدمنا وصفه وكررنا شرحه من علمهم بالخصب والجدب ، واللين والقسوة ، والحر والبرد ، والرياح المختلفة والسحائب الكاذبة ، والمخايل الصادقة ، والأنواء المحمودة والمذمومة ، والأسباب الغريبة !

هذه عيشتهم فى القفار التى نزلوها ، ومن كانت عيشته على هذه الطرز فليس بعجيب أن يأكل اليرابيع والضباب والجرذان والحيات . وقد رأى الجيهانى فى هذا التشكيل مسبة العرب فتناول أعراضها وحطّ من أقدارها ، إلاّ أن أبا حيان ردّ الأمور إلى نصابها بحكمته فقال : من جاع أكل ما وجد ، وطعم ما لحق ، وشرب ما قدر عليه ، حباً للحياة وطلباً للبقاء ، وجزعاً من الموت وهرباً من الفناء .

فالذى يتبين من هذا القول أن العرب عاشوا هذه العيشة فى بيئتهم من باب الضرورة ، ولكن : إذا جادتهم السماء ، وصدقتهم الأنواء ، وازدانت الأرض فهدلت الثمار ، واطردت الأودية وكثر اللبن والأقط والجبن واللحم والرطب والتمر والقمح ، وقامت لهم الأسواق ، وطابت المراتع ، وفشا الخصب ، وتوالى النتاج ، واتصلت الميرة ، وصدق المصاب ، وأرفع المنتجع ، وتلاقت القبائل على المحاضر وتقاولوا وتضايفوا وتعاقدوا وتعاهدوا وتزاوروا وتناشدوا ، وعقدوا الذمم ونطقوا بالحكم ، وقروا الطرّاق ، ووصلوا العفاة وزودوا السابلة ، وأرشدوا الضلاّل ، وقاموا بالحمالات وفكوا الأسرى ، وتداعوا الجفلى ، وتحاموا النقرى ، وتنافسوا فى أفعال المعروف ، كانوا أحسن حالاً وعيشاً .

ليست الغرابة في هذا النحو من المعيشة ، فإن من نزل القفار والصحارى فلا تكون حياته فيها إلا على هذا الوجه؛ ولكن الغرابة كل الغرابة في انبثاق أخلاق من هذه القفار والصحارى ، هذا وصفها :

« العرب قدّسها الله عن أخلاق أصحاب المدن وأرباب الحضر ، مثل : الدناءة والرقة والكيس والهين والخلابة والخداع والحيلة والمكر والخب ، وجبلها على أشرف الأخلاق ، ولهذا تجد أحدهم وهو في بتّ خافياً حاسراً يذكر الكرم ويفتخر بالحمدة ، وينتحل النجدة ، ويحتمل الكلّ ، ويضحك في وجه الضيف ويستقبله بالبشر ويقول : أحدثه ، إن الحديث من القِرى ، ثم لا يقنع ببث العرف وفعل الخير والصبر على النوائب حتى يحض الصغير والكبير على ذلك ويدعو إليه ، ويستنهضه نحوه ويكلفه مجهوده وعفوه .

فللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والبذل والسخاء والحمية والأنفة والحفاظ ، والتهالك في حب الثناء ، والتنكل الشديد عن الذم والهجاء . فهم مستأنسون مع توحشهم ، حاضرون في واديهم ، اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ، ومن أخلاق البادية أطهر الأخلاق ، أنفس كريمة وطباع معتدلة ، وشكائم شديدة وأرواح عبقة ، وعادات رضية وضرائب طيبة

وفي الجملة فإن أخلاقهم أخلاق أهل البرارى الذين وطاؤهم الأرض وغطاؤهم السماء ، فهم بعيدون عن الترفه ، يلقون بالحول والقوة ، ويأنفون من المخازى ، ويعافون القبائح » .

ولقد أثرت هذه الصحارى في تراكيب بنيتهم ، فكان لهم جودة البنية واعتدال الهيئة ، كما أثرت في عقولهم فكان لهم صفاء الفكر ، وصحة الفطرة ، واتقاد الطبع والفطنة ، والخطابة والبيان . وعلى الرغم من نزولهم القفار والصحارى كانت لهم حياة اجتماعية ، فكانت لهم أسواق في الجاهلية تدل على تحضرهم في باديتهم ، وتبديهم في تحضرهم .

أمّا لغة العرب فإنها على رأى أبي حيّان لغة الإفصاح والإعلان ، اشتهرت بسعتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها ، وجولانها في اشتقاقاتها ، ومآخذها البديعة في استعاراتها ، وغرائب تصرفها في اختصاراتها ، ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها ، وفنون تبجيحها في أكناف مقاصدها ، وعجيب مقاربتها في حركات لفظها . ولقد سمع أبو حيان لغات كثيرة من جميع الأمم فما وجد لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، يعني الفُرَج التي في كلماتها ، والفضاء الذي تجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي تذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها .

هذه صورة العرب في طرز حياتها واجتماعاتها وأخلاقها وعقولها وطباعها وتراكيبها ولغتها على نحو ما صوّرها أبو حيان من ألف سنة . على أني لم أصل في هذه الصورة إلى الوضع الذي يدهش العقول ويحير الألباب ، فليست الدهشة في هذه الحياة التي سمعنا وصفها ، أو في هذه الاجتماعات ، أو في هذه الأخلاق ، وإنما الدهشة في هذا التطور الذي تطورته العرب ، فأقرب شيء في حياتهم هذه البراعة في الانتقال من الصحارى والبرارى إلى المدن والأمصار والجنان ، وتلونهم بألوان حياتهم الحديثة ، وأنسهم بهذا الشكل من الحياة ، فكان هذا التطور وحده دليلاً على استعدادهم للحياة ، فإنهم على نحو ما قال أبو حيان : لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف السنين ، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم ، بل أربوا عليهم وزادوا وأغربوا وأفادوا .

* * *

قد يكون هذا المقال خالياً من كل طرافة ، فليس لي فيه إلا فضل التذكير ، فأي فائدة في مثل هذا العصر في الرجوع إلى جيل من الناس قد انقرضت أخلاقهم ، ولكن هذا المقال إذا خلا من الطرافة فإنه لا يخلو من

من منبر الشرق :

قصص الأطبـــاء

لعمرى قد أمتع حضرة الدكتور الأديب أحمد زكى بك قراء « الثقافة » بما قص عليهم من قصص الأطباء والعلماء المحدثين ، هؤلاء الرجال الذين بذلوا كل قوتهم — بل ما فوق قوتهم — فى سبيل مكافحة الآلام الجسمانية والروحانية التى تعانيها الإنسانية حتى كادوا أن يصبحوا أبطالها وفرسانها المعاصرين .

هذا ولست من الذين يدعون أن ما نجده عند المحدثين يجب أن نبحث له عن نظير عند القدماء ، وأن ما للقدماء من القيم لا يهمنا إلا بنسبة ما تذكرنا به قيم المحدثين . على أننا قد نعثر فى الأدب العربى القديم على ثروة وافرة من قصص العلماء ، والأطباء خاصة ، لاريب عندى أنها جديرة بأن تنقذ من أيدى النسيان . ولذلك عزمت أن أقص عليك أيضاً بعض قصص الأطباء التى جمعتها من مصادر شتى غير مطبوعة إلى اليوم ، كى أطلعك على ما كان للسلف من المواقف والمقامات فى هذا الشأن .

لست فى حاجة إلى القول بأن أهم مصادرنا فى هذا المجال تآليف ابن أبى أصيبعة وابن القفطى ، مع أنك لتعرف أن كثيراً من كتب هذا النوع قد تعلو عليها أطباق متراكمة من تراب النسيان فى خزائنها ، أو أضاعها الدهر مآثرها . فهناك كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان السجستانى ، الذى لخصه وكمله ظهير الدين البيهقى ؛ وهو وإن كان من أهم الكتب العربية فى تواريخ حكماء الإسلام ، فإنه لا يزال يترصد بعد ناشره الشفيق ؛ وكذلك كتاب بستان الأطباء فى طبقات الأطباء ، لإلياس بن مطران الدمشقى الذى كان مصدراً من أهم المصادر التى اعتمد عليها ابن أبى أصيبعة فى كتابه . وأما ما ضاع فما كثر ، ولا سيما تاريخ الأطباء لابن جلجل الأندلسى الذى كان مليئاً بالقصص الطريفة ، وكثير غيره ؛ وإلها من ثروة قصصية وأدبية أيضاً مبعثرة فى سائر الكتب العربية من تآليف الأدباء والكتاب وأصحاب عقلاء المجانين وذوى الجد والهزل ، فضلاً عن العلماء والحكماء والأطباء أنفسهم عند ما يحكون لنا أخبار معاصريهم وتجاربهم فى ممارسة حرفتهم .

فائدة المقابلة بين قوم نشأوا فى الصحارى والبرارى ، وبين قوم نشأوا فى المدن والحواضر . لقد أتى على أهل الجاهلية ما ينيف على ألف سنة ، ولكن إذا برزنا عليهم فى علومنا فهل برزنا عليهم فى أخلاقنا ؟ فإذا بعث أبو حيان فى يومنا هذا وامتحن أخلاقنا معاشر العرب ، فهل يجد فينا هذه النجدة وهذا الوفاء ، وهذا البلاء ، وهذه الأنفة وهذا الحفاظ؟ هل يجد فينا كرم النفس وشدة الشكيمة وطيب الضرائب والملق بالحول والقوة والأنفة من المخازى ؟!

لئن تقدمنا الجاهلية بعلومنا فلم نتقدمها بأخلاقنا ، فلا نزال نقتبس عن شعرائها كثيراً من الحكمة ومكارم الأخلاق . ولئن أصبح أدبها لا يناسب روح هذا العصر فإن فى شعرها حكمة وأخلاقاً لا يستغنى عنها عصرنا . فليس من العبث أن نرجع بين حين وحين إلى ماضينا ، سواء أكان هذا الماضى قريباً أم كان بعيداً . إن فى هذا الماضى أشياء كثيرة تهذب أنفسنا وتصقل طباعنا ؛ لقد انتقل العرب من الصحارى والبرارى إلى الدور والقصور والجنان ، فأربوا على من تقدمهم وزادوا وأغربوا ؛ وخالطنا أمماً أرق منا فكراً فأخذنا عنها قشورها واطرحنا لبابها . رغبنا فى عرضها وزهدنا فى جوهرها . لا نزال إلى اليوم فى حاجة إلى الاسترشاد بكثير من أخلاق العرب وسياسة العرب ، فليس لنا غنى عن الاهتداء بالماضى . لقد كان للعرب مثل أعلى فى الحياة فلكوا به الدنيا بحذافيرها ، وحرمنا هذا المثل فلم نحصل على شىء ، فلا نزال مثل الريشة فى مهب الريح ، فهل تخلق لنا مثلاً أعلى فى هذه الحياة لنستقر على حال من الأحوال ؟

دمشق — شفيق جبرى

فهاك الجاحظ أبا عثمان — الذي ترجع إليه الرياسة في كل ميدان من ميادين الأدب ولو في ميدان قصص الأطباء — يقص لنا في طوايا كتبه كثيراً من معاشرته لهم، وممازحته إياهم، حتى إنه ليُروى عنه عنوان لكتاب خاص في مناقضة الطب وتسفيه الأطباء، لو وصل إلينا لجَمَّدَ وجوهنا ضحكاً وحرك أحجبتنا قهقهة. وهاك أحمد بن يوسف صاحب المكافأة والتوحيدي صاحب المؤانسة؛ ومن أصحاب الصناعة الطبية الرازي، والجوسي، وابن بطلان وابن رضوان، وهبة الله بن جُمَيْع طبيب صلاح الدين، وغيرهم ممن صوروا أنفسهم وزملاءهم أشباه، بحللهم الصالح والطالح، وعظموا جلائل خدمات الأطباء الحق، كما استعظموا تمويه المموهين ومخرقة المخرفين.

وقد اخترتُ لك من هذه القصص ما عسى أن يروح بالك في فُكاهيتها أحياناً، ويضع أمام الطبيب الحديث مرآة تتجلى فيها خصاله أحياناً أخرى.

قال هبة الله بن جميع في «الرسالة الصلاحية في إحياء الصناعة الصحية»، تلك الرسالة الرائعة النسيجة وحدها، التي قد تكلمتُ عنها على صفحات «الثقافة» (العدد ٢٣٠ و ٢٣٢)، قال:

«ولعظم منافع هذه الصناعة والافتقار إليها صار الملوك يعظمون الفضلاء من أهلها، ويستجلبونهم من البلاد القاصية، ويبذلون لهم الرغائب، ويبلغونهم من الثقة بهم والقرب منهم في أعلى المنازل وأجل المراتب. ومن الأخبار التي يصلح الاستشهاد بها في هذا الباب ما حكاه القاضي النعمان، وهو أن المعز لدين الله استدعاه ذات ليلة لمهم اتفق له، فوجد في المجلس الذي كان المعز جالساً فيه بالقرب منه سريراً وعليه شخص نائم مغطى. قال نعمان: فخاطبته وأنا مستوفز للقيام، فأنكر ذلك من حالي وقال لي: أتظن أن على السرير امرأة؟! فقلت: نعم يا مولانا. فقال إنما عليه موسى الطبيب، وكان جالساً عندي فرأيته وقد غلب عليه النعاس وهو شيخ كبير، فأمرته أن يصعد على السرير ويأخذ هجعة».

وليست هذه القصة أدل دلالة على منزلة الطب والأطباء من الملوك والعظماء، من تلك القصص العديدة التي أوردها أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتبه ورسائله المختلفة. وهاك خاصة رسالة له «إلى بعض تلامذته» — وهي مخطوطة في الخزانة التيمورية تحت رقم ١١٩ طب — تحفل بقصص رائعة من هذا النوع، يقصها صاحبها قاصداً بها الحث على أخلاق الأطباء، والتحذير للأخطار التي تتعرض لها حرفة الطب. قال:

«ينبغي لمن يختص المتطبب لنفسه من الملوك والأكابر والسوقة أن يبالغ في تطييب قلبه بلطيف الكلام، وأن يرفعه فوق جميع من في مجلسه من خدمة وغيرهم، فإن هؤلاء خدام جسم، والمتطبب خادم روح. وقد كنت ذات يوم في مجلس بعض الملوك، وكان له متطبب اختصه لنفسه، فدخل علينا المتطبب، فغلظ له الملك في القول وقال: وجهك فلان الحاجب إلى داره فلم تجبه! فقال المتطبب: أيد الله الملك، الأصحاء يحضرون إلى الأطباء، ولا يستحضرونهم، إلا الملك. فقال الملك: إنما كان لك ذلك قبل أن توسمت بخدمتنا. فأجاب المتطبب بجواب أعجب الملك والحاضرين فقال: أيد الله الملك، ظننتُ أن خدمته تزيدني رفعةً وعظم قدر لا ضَعَةً وخمول ذكر. ففهمه الملك واعتذر إليه وخلع عليه».

وقال في موضع آخر من تلك الرسالة: «واعلم أنه من أصعب الأشياء للطبيب معالجة المترفين والنساء، فإن الطبيب الحرّ السيرة إذا اشتغل بصناعته وحفظ الخاصة والعامة، فإنه يعيش حراً ويكون عليهم أميراً؛ وإذا توسم بخدمة الملوك ربما صار بخدمتهم أسيراً، لا سيما إذا كان الملك عاصياً. كما أني سمعت أن بعضهم أصابته علة، فأمره الطبيب بالحمية وهو يأباها، وقال: ما أصنع بالطبيب إذن إذا منعني الشتهي، وإنما اصطنعتك لنفسي لآكل ما أريد وتدفع بعلمك عني ما أكره من مضرته. ولم يكن يعلم أنه

من المحال مثل هذا الكلام ، وأنه ليس في قوة صناعة الطبيب ، وأن الأطباء عاداتهم عادات الأمراء ، وأمورهم نافذة على الأغنياء والفقراء ، لأن من عاداتهم أن يأمروا وليس من عاداتهم أن يؤمروا » .

وقص أيضاً : « وقد كنت ذات يوم في مجلس بعض الأكابر وأعطاه الطبيب شربة ، فبسر وجهه ، فقال بعض ندمائه : لم لا أصبت منها ؟ فقال الطبيب : أو كل شربة أو دواء يحضر المجلس يجب علي أن أصيب منه ؟ إني إذن من عباد الله المكلفين . فقال له صاحب المجلس : صدقت . وأمر بتسليم مفاتيح بيوت دوائه وبيوت شرابه إليه » .

وهذه القصة تذكرنا بما رواه ابن جميع في كتابه عن القدماء ، قال : « وما جاء في أخبار الإسكندر وهو أن أمه استشعرت خوفاً أن يقتله طبيبه ، فكتبت إليه تحذره من ذلك . فلما ورد كتابها إليه ووقف عليه ، أحضر طبيبه فاستدعى منه شربة . فلما أتاه بها تناولها منه بيمينه فشربها ، وناوله الكتاب بيساره ، وقال له : قف عليه وانظر ثقتي بك » .

ولكن بين قصص الرازي قصصاً أكثر مزاحاً وطرافة . منها — مثلاً — ما حكاه عن نفسه : « أنه كان لي صديق كثيراً ما كان يختلف إلي عندي[1] ، وكان يعتريه في بعض الأوقات خناق بلغمي . فدخل علي يوماً وقد احمر وجهه وانتفخت عروقه ، مثل ما يكون عليه أوجه السكارى . فسألته عن حاله فقال : كنت جالساً في دكان عطار أحدثه ، ففتق نافجة مسك وسحق منه شيئاً صالحاً على صلايته . لجاء إلى ما عندنا رجل في عقله بعض الخلل يشتري منه الطيب . فلما أشتغل العطار بذلك أخذ الرجل المؤوف ما على الصلاية من المسك ، ولم أكن أحفظ نفسي منه ، فإذا أنا به وقد نفخه في أنفي بغتة ، فصرتُ على ما ترى . ومكث عندي هنيهة ، وقام وخرج تحر في الطريق وأخذته العلة التي كانت تعتاده على الأيام . فذهب به إلى داره صديق له ودعا متطبب غريب لم يعرف حاله ، فظن ذلك الطبيب أنه خناق دموي . ودعيت أنا ، فلما أن دخلت عليه فإذا أنا بالمتطبب وقد عصبه واستعد بفصده بالقيفالين ، فنهيته عن ذلك ومنعته من فصده ، وعالجته من العلاج بما كنت عودته فبرئ . ولو فصده لعمل في إتلاف نفس » .

وأربح بالاً من هذه القصص التي يحكيها الرازي عن الذين يدعون الطب وليسوا منه ، من الزراقين والمخرقين وأصحاب التجارب ، كما سماهم ذلك الجيل ؛ فهاك واحدة منها ، مع ما يضيف إليها الرازي من ملاحظات تدل على ما كان هذا الرجل عليه من الكفاح ضد الغباوة والبلادة الإنسانية طول عمره :

« دخلت مرة قرية مجتازاً بها ، فبقيت هناك أياماً ، فرأيت شيخاً كان يحضر بباب مسجده قوارير الماء ، فكان يأمر بأشياء ، كما يتفق له ويخطر بباله ، ويجري على لسانه . فسألتهم عن حاله ، فقالوا : إن له كتباً كثيرة في علم الطب ، وقد عرف طباعنا بالتجربة . فقتل الشق بعلاجه المنكر من مدة ما كنت هناك عدداً من الناس . فعجبت من غباوتهم وشقاوته ، ومن جهالتهم وجرأته . ولو خليت المرضى والطبيعة ولم تعالج البتة خير لهم وأعود عليهم من أن يستشفوا بمثل ذلك الطبيب . ولو أن رجلاً استوعب مدة عمره فإنه لا يصح له من التجربة أن الإسهال يعالج بدلك الرأس بالخرق الخشنة ليتقرح ، وأن السعال ربما يؤدي إلى السل إن لم يلطخ بدواء الخردل حتى يسقط ويتقيح » .

وقال : « واعلموا أن اللصوص وقطاع الطريق خير من أولئك النفر الذين يدعون الطب وليسوا بأطباء ، لأنهم يذهبون بالمال وربما أبقوا على الأنفس ، وهؤلاء كثيراً ما يأتون على الأنفس النفيسة . وإن من اضطر إلى ذلك لحاجة أو سد مجاعة خير ممن هو مستغن عنه يريد بذلك التشوف والسمعة ، كي يقال إن فلاناً يرجع إلى علم الطب . وأكثر هؤلاء يرجعون إلى الزهد وصيانة النفس ، ولو أمسكوا عنه لكان جزاء لهم ديناً ودنيا وآخرة وأولى ... وإياك أن يغالطك المخرقون المهرجون على الناس بحضرة مخدومك ، فيكلفونك استخراج أشياء ليست من صناعة الطب مما يعتادها

(١) لا تقل أيها القارئ إن هذا الجمع بين حرفي « إلى » و « عند » ليس بفصيح ، لأنه ومثله شائع جداً في كتب القدماء ولا سيما في مكاتباتهم .

الكذبة ؛ إنه قد يمكن الشاهد أن يعرف جميع ما بالعليل من أمره إذا نظر إلى مائه ، أوجس نبضه ، لا بل يعرف ما أكل من قبل ذلك وزاد ، ومن سائر أموره ، والفرق بين الأبوال . وهذا من أعظم الكذب والباطل على صناعة الطب . ولهؤلاء المخرقين — أخزاهم الله — في ترويج حيلهم عند العامة أنواع من الحيل وزرق لطيف جداً . وقد شرحنا هذه الأمور في مقالتنا التي ألفناها في هذا المعنى . فربما أمر المخرق مواطئه أن يجعل بدل البول في القارورة ماء التين أو ماء نقيع المشمش فيرده إليه بحضرة من الناس ، فيغضب لذلك المخرق ويتناوله ويشربه . وربما يدفع إليه في قارورته بول شاة بمرأى من العوام فيقول يحتاج إلى زيادة حشيش ، فيغتر بذلك كثير من أهل العقل والتمييز فضلا عن سوامهم . وإنما صرت بحيث لا يخفى على شيء من هذه الأمور لأني كنت في حداثتي أتأمل المزائم والمخاريق لا يخفى على أكثر وجوهها » .

وكأني به إذ يصب على هؤلاء الناس كؤوس سخريته ، ويباهت بضحكته المريضة معاصريه حتى يقتنعوا أنه ليس طبيباً عظيما فقط ، ولكن عارفاً بمخرقة المخرقين وتمويه المموهين أيضا . وهناك قصة رواها عنه مواطنه أبو حاتم الرازى الداعى الإسماعيلى في كتابه « أعلام النبوة » ، وهى تدل على ما كان الرجل عليه من روح التفكهة والمزاحة فضلا عن غيرهما من الخصال الفريدة .

قال أبو حاتم : « وقد كنت ذاكرت أبا بكر الرازى في ذلك . فقلت له : « أأدركت أنت بطبعك وفطنتك ما لم يسبق إليه من تقدمك فتصدقك في هذه الدعوى ؟ قال : نعم ، أنا أخبرك في هذا بأمر عجيب . كانت لى قصة مع أحمد بن إسماعيل وقت مقامى ببخارا عجيبة . وذلك أنه قد كان خرج يوماً من الأيام متنزهاً وكنت معه في موكبه ، فدفعنا إلى موضع نزه كثير العشب والنور ، فنزل ونزلنا معه ، ونظر إلى حشيشة قريبة منه فقال لى : يا فلان لماذا تصلح هذه الحشيشة ؟ فأجبته على البديهة وقلت : تدر البول ، فأمر أن تختلى تلك ، وحضر الطعام وقدمت المائدة فوضعت تلك الحشيشة على طرف المائدة ، وقعدنا معه ، ودعا بغلام له كان يأكل معه فأقعده في ناحية المائدة التي عليها تلك الحشيشة ؛ وأقبلنا نأكل ، فتناول الغلام تلك الحشيشة على سبيل من تناول البقل ، وهو لم يعرف خبرها وما جرى في أمرها . فما استتم طعامه حتى قام عن المائدة وغاب عنا وبال . فلما انصرف قال له صاحبه : ما شأنك ولم قمت عن الطعام ؟ قال : غلبنى البول ولم أقدر على ضبطه . فتعجب هو من ذلك وتعجب الناس » .

قال أبو حاتم : « قلت له : فهل كنت عرفت هذه الحشيشة قبل ذلك ؟ قال : لا والله ما كنت رأيتها ولا عرفتها . قلت وهل توجد في بلدنا وهل تعرفها الآن ؟ قال : لا والله ما أعرفها ولا أدرى أتوجد ههنا أم لا . قلت له : ألست تعرف شأن هؤلاء الزراقين الذين يقعدون على السبيل ويخدعون عوام الناس بالزرق ؟ قال : هل أحد أعرف بهم منى ! قلت : فإن حديثك هذا هو من نوع الزرق وليس هو من نوع المعرفة بطبائع العقاقير طبعاً وفطنة وتجربة . قال : وأى فطنة ألطف من هذه ؟ قلت : كيف تعد هذا من الفطنة ، وكيف تشبه هذا بفطنة الحكماء الذين تزعم أنهم أدركوا معرفة طبائع الأشياء بفطنتهم واستخرجوا ذلك بالشم والذوق ، وأنت تزعم أنك تكلمت في هذه الحشيشة على البديهة من غير فكرة ولا روية ولا تجربة ، وأنك لم تعرف هذه الحشيشة قبل ذلك ولا ذقتها ولا شممتها ، ولا تعرفها الآن ولا تدرى هل توجد في هذه البلدان أم لا . أوليس قولك هذا هو الزرق ، ودعواك هى بالزرق أشبه منها بفطنة الحكماء وتجاربهم ؟!

وهكذا يستمر أبو حاتم في هذره وهذيانه غير مبال بضحكات الناس القائمين حولها ، الذين يطربهم وقوفهم على فصل ما بين جد « أصحاب الكهنوت » وبين هزل صاحب العبقرية .

فهذا شيء قليل مما وددت أن أقصه عليك من قصص أطباء العرب ، متعة لك وفائدة ، والسلام .

بادل كراوس

أوليس

٢ — فى الأودسا

يحتل أوليس فى الأودسا المكان الذى يحتله أخيل فى الإلياذة ، فهى قصته ، وذلك لأن لفظة «أودسا» مشتقة من «أودسيوس» كنية «أوليس» ؛ وأودسيوس باليونانية هو « جوّاب الآفاق» الذى يقص هوميروس أنباء عودته من آسيا الصغرى إلى وطنه إيتاكا بجزيرة كورفو الشهيرة حتى اليوم بروعة موقعها على مقربة من شاطئ دلماسيا للصيف الأوروبى الجميل .

والحق أن فى اختيار هوميروس لأوليس كبطل للحمته الثانية ما يدعو إلى التفكير ، وبخاصة إذا ذكرنا أنه قد كان هناك أبطال آخرون من بينهم من انتهى إلى مصير جدير بأن يوحى أجمل الشعر كأياس مثلا . أياس الذى حين إذ آثر اليونان أوليس دونه فأعطوه أسلحة أخيل عند موته، مع أنه كان أعظم من أوليس إقداماً وأشد بطشاً ، كان باعتراف الجميع « سياج اليونان » .

ولكن الواقع هو أن اليونانيين قد رأوا فى أوليس أنموذجا قوميا تتركز فيه صفاتهم ، وفى هذا ما يفسر اختيار هوميروس له دون كل الأبطال . لقد كان الشعب اليونانى حريصا على أن يستمع إلى مغامرات البحر ، وهو شعب قد بنى مجده على خوض عباب اليم ، والتماس أسباب الحياة فى الأراضى النائية حيث الغنى الذى لم يتوفر لبلادهم الفقيرة . ثم إن الصفة التى غلبت على أوليس فى الإلياذة هى الشجاعة المستنيرة يوم دعا داعيها . ولكن الزمن قد سار سيرته ، وأصبح الرجل اليونانى يجنح إلى تقدير صفات نفسية أخرى لا تقل عن الشجاعة قيمة فى نظره ، لأنها صفاته التى يصدر عنها فى كل أموره ، ومن بينها الحنكة ، وحسن التقدير ، وفهم النفوس ، والمهارة فى معالجة المشاكل والتغلب على الصعوبات .

ولهـذا عندما نمر من الإلياذة إلى الأودسا نلمح فى شخصية أوليس تطوراً لا ريب أنه قد ماشى تطور العقلية اليونانية كلها ، بحيث نجد فى تصوير هوميروس له حقيقة الروح الإغريقية .

والذى لاشك فيه أن الأدب وبخاصة أدب شاعر واقعى كهوميروس أدل على عقلية الشعوب من أى تراث روحى آخر . فالفلاسفة كأفلاطون أو الرواقيين قد يحدثوننا عن المثل الأعلى فى الأخلاق ؛ فيراه أفلاطون فى أن نعيش وفقاً لطبيعتنا البشرية ، فلا نقاوم غرائزنا ولا نحاول قتلها ، بل نتركها تنمو نمواً طبيعياً حتى لا تفسد حياتنا بكبتها ، مكتفين بأن نتخذ العقل رقيباً يحد من أسرافها ويلائم بين تنافرها . ولقد يدعونا الرواقيون إلى ألا نتأثر بالأحداث ، فلا تنخلع قلوبنا للحزن ، ولا تخف أحلامنا للطرب . ولكن هـذه كلها مثل عليا ، والمثل الأعلى موضع رغبة ، ونحن لا نرغب إلا فيما يعوزنا .

والأدب ليس كذلك ، ففيه نجد حقيقة العقلية اليونانية كما كانت . وعند هوميروس ما يعيننا على فهمها ، فمن بين أبطاله العنيف الانفعال القاسى القلب فى نبل وإباء كأخيل ؛ ومنهم الشجاع فى روية ، الداهية عن ذكاء نافذ كأوليس .

والذى لا ريب فيه أن أوليس لم يفقد شيئاً من صفاته التى عرفناها عنه فى الإلياذة ولكن الأمر أمر نسب وتطور . والذى يبدو لنا فى الأودسا هو أن زمن البطولة الأولى كان قد ولى ، وكأن اليونان قد أنكروا ما فى خلق أبطالهم من إسراف ، فأصبح البطل كأوليس أقرب إلى البشر منه إلى الآلهة ، أقرب إلى الحياة منه إلى المثل الأعلى .

لم يعد أوليس البطل المقدام الذى يغامر فى حرب مثالية يبغى منها أن يستنقذ هيلانه رمز الجمال الكامل ، بل ذلك الداهية الخصب الذكاء ، ذلك السائح الطُّلَعَة الذى يجوب آفاق البحر الأبيض ليرى بعينى رأسه ويعلم من تجربة ، فلا يعود إلى وطنه إلا وقد ملأ ناظريه بجمال ما شاهده

وأغنى ذاكرته بما سمع من قصص . وليس من شك فى أن ألزم الصفات لرجل يسمو إلى ما كان يسمو إليه أوليس هى القدرة على التمييز عن فطنة ومهارة ، حتى يستطيع أن يتدبر لكل حالة حلاً موفقاً ، ولكل مأزق مخرجا يسراً .

ثم إنه لا يزال يحتفظ فى الأوديسا بصفاته الطبيعية وأخصها الشجاعة والصبر . فقواه الجسمية لاتزال سليمة ، وإرادته القوية مابرحت فى قبضة يده يتصرف فيها كيفما شاء . ولكننا نحس أن قواه قد ازدادت خضوعا لحكمته ودهائه ، بل ومكره ، فهو لم يعد بطلا خارقا بل بشراً كسائر البشر .

انظر إلى وصف لاودامس Laodamos أحد أشراف الفياسيين Phéaciens له عند ما ألقاه البحر بينهم : « أيها الأصدقاء ! دعونا نسأل هذه الأجنبى عما خاض من تلك المعارك المجيدة التى قوّم فيها جسمه . وفى منظره ماينبىء بقوة الأبطال . ما أقوى جوانحه ! وما أصلب أرجله ! وما أعرض صدره ! إن فى متا كبه صلابة ، وبأذرعه أعصاب تنبض . إن الشباب لم يفارقه وإن كانت المحن قد هدت من كيانه » .

وما أن وطئت قدماه أرض إيثا كا وطنه حتى بدا له أن يتنكر فى ملابس شحاذ كى لا ينكشف أمره وهو لا يعلم بعد إلام سار ملكه ، أو انتهى الأمر بزوجته النبيلة بنلوب وابنه الشجاع تليماك ؟ ومع ذلك فمن خلف الأسمال كانت عضلاته تطالع الناظر . وهو يصف نفسه فيقول : « لقد صرت إلى خريف الحياة ، ولكن ألبس فى قوة القش ما ينبىء بنوع الحصاد » .

وفى حرص هوميروس على أن يحتفظ لهذا الشيخ بقواه الجسمية ومظاهرها التى يصف فى دقة ، ما يدل على اتجاه مطرد عند اليونان ؛ فهم شعب كان يرى دائماً فى قوة الجسم أمارة تفوّق ، وذلك لافى عصور بداوتهم الأولى فحسب بل فى كل مراحل تاريخهم ، وآية ذلك حرصهم المستمر على الرياضة البدنية . ألسنا نذكر أن أفلاطون نفسه قد حصر فيها هى والموسيقى والعلوم الرياضية مواد التربية بجمهوريته . والتربية عندهم لم تكن تحصيلا أو إعداداً للمهنة ، بل تكويناً للملكات جسمية كانت أو روحية . ثم هل أدل على فطنتهم لصحة الجسم وجماله وقوته من أن نرى سقراط نفسه ، سقراط الشيخ ، يحرص على أن يتعلم الرقص ليقلل من قبح جسمه النبيح ويقوى من ضعفه ، فيقول لأصدقائه وتلاميذه ، وقد اجتمعوا يوماً يتزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أتضحكون منى لأنى أريد برياضة جسمى أن أتعهد صحتى ، وأتمتع بأكل هنىء ، ونوم سليم ؟! أتضحكون لأنكم تعتقدون أن شيخاً مثلى لن يصاحب مدرباً رياضياً إلى الخلاء ، فيعرى جسمه أمام الجماهير ، بل سيقنع بغرفة طعام كهذه التى يكتفى بها هذا الغلام ؟! أتضحكون لأنى سأعرق فى الشتاء تحت السقف ، وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ؟ أم تضحكون لأنى رحت ببطن كبير إلى حد ما ، فأردت أن أرده إلى حجم معقول؟ » . وفى هذا يقول شاعرهم أنا كريون : « عند ما يرقص الشيخ لا نرى فيه عجوزاً غير شعره ، وأما روحه فلا تزال فتية » .

وفى كل هذا مالا يدع مجالا للشك فى أن أوليس كما يصوره هوميروس يمثل بمتانة جسمه صفة كان اليونان يحرصون عليها كل الحرص . والكثير من شعوب أوروبا لا يزالون إلى اليوم يرون ما كان يراه اليونان ، من أن قوة الجسم فضيلة لاتقل أهمية عن الفضائل الروحية ، وإنه لمن الحق أن نحتقرها أو نرى فيها أمراً ثانويا .

ومع ذلك فقوة جسم أوليس لم تعد شيئاً إلى جوار قوة إرادته ونفاذ ذكائه .

ولكم من مرة أوشك الموت أن يتلقفه لولا تملكه لنفسه . ونحن لانعرف ملاحاً سواه مر بمضيق سينا وسمع من أعلى الصخور نداء السيرين Sirènes الساحرات الصوت

ثم صمد لإغرائهن . قالوا إنه أمر رجاله فشدوا وثاقه إلى شراع السفينة على أن يزيدوه شداً كلما طلب إليهم أن يحلُّوه ، وما الوثاق إلا رمز لسيطرته على أهوائه . وهكذا مرت سفينته دون أن تتحطم بالصخور كما تحطمت من قبلها ومن بعدها سفن أخذ ربانها بعذوبة الصوت فدنوا ليلقوا حتفهم . وبفضل تلك السيطرة أيضاً قاوم كاليبسو Calipso الإلهية الجمال ، عندما أرادت أن تستبقيه في كهفها بإحدى الجزر زوجاً لها ؛ كما انتصر على سرسيه Cercé وعلى السكلوب الخيف ، ثم على بوزيدون نفسه إله البحر القاسي . أوليس أقوى من أنصاف الآلهة بل ومن الآلهة ، لأنه قابض على زمام أمره ، وقد انعقد عزمه على أن يعود إلى مملكته حيث زوجته الوفية بنلوب Penelope التي كانت تنتظره في صبر منذ سنين ، والتي لم تكن تقل عنه دهاء ، وقد رأت طلابها الكثيرين وخشيت بأسهم فوعدتهم أن تختار لنفسها من بينهم زوجاً بعد الفراغ من ثوب كانت تطرزه ، ولكنها أخذت تنقض بالليل ما تعمله في النهار ، وبذلك لم تنته حتى عاد زوجها فأنقذها .

ثم أي مقدرة على كبت مشاعره وإخفاء ما يثور بنفسه من انفعال ! انظر إليه وقد عاد متنكراً إلى بيته وزوجته تجهل حقيقته ، فتتحدث عن أوليس الغائب أرق الحديث : « وعندما رأى بكاء زوجته الر استشعر بأعماق قلبه رحمة قوية ، ولكن عيناه لم تتحرك منهما حدقة بجفنيه الساكنين كأنهما من صخر أو حديد . ذلك لأنه يحذق فن التصنع إلى حد يستطيع معه أن يحبس دموعه » .

وما هي إلا لحظة حتى أوشك أن ينفجر من جديد إذ رأى نفسه بقصره شحاذاً مزدرى . يلاقي بقلب جريح من عشاق زوجته كل إهانة ، ويرى ما يلحقونه ببيته من أذى ، « اهتز قلبه بين أضلعه ، وكما ترسل الكلبة الجارحة نباحها القوي وتتحرق للقتال إذا دنا غريب من أبنائها وهي تسير بينهم لحمايتهم ، كذلك زأر قلب البطل وقد أنهكه تحمل ما يرى من هوان . ولكنه لم يلبث أن ضرب على صدره ليلزم الصمت وثبات قلبه القوي . هدوءاً أيها القلب ! لقد تحملت فوق ما ترى اليوم من محن . لقد رأيت بعيني رأسك ذلك السكلوب الذي لا يقهر يفترس رفاقك الشجعان فثبت حتى استطعت بحكمتك أن تنجو من مغارته حيث كان الهلاك محققاً . هكذا زجر أوليس قلبه فسكن وكأنه قد أوثق فخمدت فيه كل نأمة » .

ونجد بطلنا مشتركا مع ابنه تليماك ، وقد عاد من رحلة قام بها بحثا عن أبيه ، وأخذ يعد لهؤلاء العشاق الوقحين وسائل الهلاك في دهاء محكم . قال لولده : « إنني أرى كل شيء ، وما يفلت مني شيء » وتلك هي رؤية الممكن وحدوده لا يعدوها عند وضع الخطط . وما أن علم بوفرة أعدائه حتى لزم التنكر ، وهو في ذلك مثل الكثير من قادة اليونان ؛ وكلنا نذكر بلا ريب فيليب المقدوني الذي عرف كيف يكسو الأسد جلد الثعلب .

ولكن دهاء أوليس لم يصبح بعدُ خسة ، ومصدره فهم لنفوس البشر واستغلال لشهواتهم ، والفخ نصب شراكا فهو لم ينصبها إلا للحمق . ومن الواضح أن هذا الدهاء هو الصفة التي تعلقت الأوديسا بإظهارها . وفي أحد مواضعها تخبرنا هيلانة أصل البلاء ، « أنه قد بلغ بأوليس الدهاء أن دخل طروادة متنكرا في ثياب شحاذ (شنشنة قديمة !!) فرأى كل شيء ، قبل أن يفطن إليه أحد ، ثم قتل نفراً من رؤساء المدينة وولى » . ونحن نعلم من مصدر آخر أن سقوط طروادة كان بحيلة من حيله ، إذ أمر بصنع حصان كبير من الخشب كمن بباطنه هو ونفر من الجند ، ثم تظاهر اليونان بالانسحاب مخلفين الحصان وراءهم ، فأتى أهل طروادة ظانين أنه غنيمة باردة ، ولما كانت أسوار المدينة وأبوابها لا تسمح بدخوله فقد هدموا جانبا منها وأدخلوه . وما إن أحس أوليس وأصحابه أنهم قد صاروا في قلب المدينة حتى وثبوا من الحصان وقتلوا الحراس ،

وكر اليونان ، فاقتحموا على العدو مأواه ، وبذلك سقطت طروادة ، وأصبح « حصانها » مضرب الأمثال للخديعة .

وهذا الدهاء هو نفسه الذي مكن لأوليس من رقاب المشاق ، فإنه لم يزل يعد العدة ، ويستوثق من الوسائل ، حتى تهيأت له كل ملابسات النجاح ، فأغلق باب القصر وفتك بأعدائه أشد فتك . وما أن تم له النصر حتى ظهرت قسوته كما عهدناها في الإلياذة . وأوضح ما نلمح من تلك القسوة هو شنقه للقوادات بسقف منزله ، فذلك منظر شابت لهوله النواصي . قالوا كنت تراهن يومئذ وقد « عُلِّقْنَ كالعصافير تهز أرجلها برهة ثم تفارق الحياة » .

ولكننا رغم هذه القسوة ورغم ذلك الدهاء الماكر لا نستطيع أن نرى في أوليس خلقاً دميماً ، فقسوته لها ما يبررها ، ودهاؤه لم يستخدمه إلا في الحرب أو دفاعاً عن شرفه ، ورداً لحق البشر وأذاهم . بل نحن لا نستطيع إلا أن نعجب لرقته في حديث بإحدى الجزر التي مر بها حيث لقى نوزيكا Nausica بنت الملك ، وكانت فتاة جميلة وديعة ، فعرف كيف يلاطفها ويحييها ويلين لها القول على نحو أشبه بأخلاق الفروسية التي عرفناها في القرون الوسطى منها بأخلاق البداوة الإغريقية التي كانت سائدة في ذلك الحين .

ثم إنه كان يحب وطنه ، وهذا خلق بلا ريب بالغ النبل . استمعوا إليه يتحدث وقد سئل عن ذلك الوطن : « بلدى إيثاكا الشهيرة التي تنظر إليها الشمس باسمة وقت الغروب . فيها ترى الأوراق الكثيفة على سفح النيرت Neriet عند الظهيرة ، وأما البحر فينثر حولها عدداً وفيراً من الجزر الخصبة : دوليكيم Dulicheum وسامية Samé وزاكانت Zacintae الخضراء ! بلدى تقع على مقربة من أرض اليونان ، جزيرة تقطعها الصخور ولكنها منبت فتية بواسل . لا ! ليس في الأرض مكان أحب إلى قلبي

منها . عبثاً حاولت كاليسو أن تستبقيني بكهفها لتحضى بشرف الزواج بها . عبثاً حاولت سرسيه الماهرة بكل ما يعرف السحر من حيل أن أمرض على المرض نفسه فتحتفظ بي موثقاً بحبائل الزواج . لقد تبددت جهودهن هباء ، فعجزن عن إمالة قلبي ، وذلك لأن أرض الوطن وما تقل من أهل وعبق الحياة ، واتصلت قلوبنا بقلوبهم ، قد أوحت إلى بحب رقيق لا يستطيع كل ما في الأرض من مجد وخيرات أن يصرفني عنه » .

ونحن نعلم أنه لم يكد يطأ أرض الوطن حتى قبَّل ترابه ورفع بصره إلى ربات اليم شاكراً أن قدنه إليه .

ذلك هو أوليس الأوديسا : بقية من صحة الجسم وشجاعة القلب ، ثم عقل كبير ودهاء خصب ؛ قسوة حيث تفتقر القسوة ، ولين ورقة قلب حيث تهتز النفس ويثور الفؤاد . ولكنه بلا ريب لم يعد أوليس الإلياذة ؛ وأكبر دليل على ذلك أن نراه يوماً يستمع إلى شاعر متجول بإحدى الجزر فينصت ، وإذا بالشاعر يتغنى بحرب طروادة فيغطى بطلنا المغوار رأسه ويأخذ في البكاء . ونحن على ثقة من أنه لو رآه زملاؤه أبطال الإلياذة في ذلك اليوم لأنكروه .

لا . إن أوليس لم يعد من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفكير يتغلب في نفسه على خشونة البداوة . أخذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه . أخذ يتحضر ، وهذا أمر لا عيب فيه ، ولكن طريق الحضارة طريق زلق سوف نراه في الحديث الآتي ينتهى برجلنا كما انتهى بالشعب اليوناني كله إلى بوادر انحلال خلق ، ستكون إحدى مظاهره ذلك الخبث القبيح الحقير الذي سيصدر عنه أوليس « فيلوكتيت Philoctète » مسرحية سوفكليس الروائي العظيم .

دكتور محمد مندور

طبيب عظيم

قصة مصرية واقعية

الطبيب يولد ولا يُصنع ، ولا دخل لشهاداته ودرجاته الجامعية في مواهبه ، فهي قد تبين مما تعلمه ولكنها لا تكفي للدلالة على ما يستطيع أن يعمله . وعليه أن يعرف من دقائق الجسم البشري ما يعرفه البستاني عن حديقته ، بل يجب أن يعرف من تلك الدقائق أكثر مما ينبغي أن يعرفه البستاني عن جذور وفروع كل شجرة في بستانه .

والجرّاح أولى من غيره من الأطباء بمعرفة كل صغيرة وكبيرة من تركيب الجسم وخوالجه ودقائقه ، وأن يكون له من الإرادة وقوة الأعصاب ما لرجل يواجه أسداً ضاريا في غير هيبة أو رهب ! فقد يكون ماهرا في القبض على مبضعه ، ولكنه مرتبك الذهن ؟ وقد يكون على النقيض من ذلك ، متقد الذكاء ، ألمعي الفؤاد ، ولكن كان الله في عون المسكين الذي يجرى له عملية جراحية مثل ذلك الجراح ! فإن توقد الذهن لا يوائم مهنة الجراح ، ولكنه قد يكون ضرورة قصوى لمن يمتهن الشعوذة ، ويلعب بالسكاكين في الهواء .

ويجب أن تكون يد الجراح رقيقة رقيقة في قوة ومضاء ، وأن يكون شجاعاً ، سريع التفكير ، دائم الاستعداد ، واثقاً من نفسه ، جريئاً لا يهاب ... وهو الذي يناضل من أجل حياة الآخرين ، ويصارع الموت ليصرعه .

هذه الخواطر طافت بخاطري نتيجة لحادث جعلني أفكر فيما يجب أن يتصف به الجراح القدير في عمله . وهو حادث يتعلق بزميل شاب ، بدأ حياته العاملة جراحا في أحد المستشفيات الصغيرة بالقرى ، وسرعان ما أدرك — أو خيل إليه — أنه لم يُخلق لغير الجراحة وحدها ، رغم أن دوره في العمليات الجراحية القليلة بذلك المستشفى كان مجرد مساعدة طبيبه الأول .

وكان ذلك الزميل سعيدا في حياته الزوجية بعد أن تزوج من ابنة أحد الأعيان بتلك القرية ، فوهبته قلبها ، ووقفت على إسعاده حياتها ، وأصبح في نظرها معبودها بعد خالقها !! وباتت تذكر « الدكتور » في حديثها بين أترابها ولداتها وأقاربها بكل اعتداد وكبرياء ، وتتيه فخراً بمعلوماته الفذة وعلمه الغزير ، وقدرته التي تزري بقدرة قادة الطب في القطر المصري برمّته !

وكان زوجها الجراح لا ينقصه الزهو والغرور ، فزادته بتقديسها زهواً على زهو ، وغروراً على غرور !! وسرعان ما صدق ما تدفقه عليه من ثناء ، وراح يمعن في غبطة إلى ما تكيله لعبقريته من مديح بين زوارها ، وتصدّع به رؤوسهم في غير رحمة أو هوادة .

وجاء ... في أحد تلك الأيام السعيدة الراقدة ...

أصيبت الزوجة بالتهاب الزائدة الدودية ؛ وكانت في صغرها قد أصيبت ببعض نوباته دون أن تحفل بالأمر كثيراً ، أو يعنى أهلها بأكثر من حملها على شرب بعض الكمون أو ماء الزهر ليزول ذلك المغص !

وأدرك الزوج برغم عدم شدة آلام زوجته أن الحالة دقيقة تستدعي إجراء عملية جراحية في الحال ، فاقترح عليها أن يطلب إلى رئيسه معونته ، أو أن يستدعي لها من القاهرة جراحاً له شهرته . ولكن الزوجة المفرطة في الثقة بزوجها (العبقري) عارضت الفكرة بكل قوتها ، لأنها لا تطمئن إلى غيره يقطع في جسمها ، ولأنها من عائلة محافظة ، وليس ثمة ما يدعو لأن تعرض جسمها على رجل غريب مادام زوجها جراحاً وأي جراح ! !

وأصمّت أذنيها في عناد عن إلحافه وإلحاحه ، وأصرت على أنها لن تأمن على حياتها إلا لزوجها الطبيب القدير ، وإلا فأي فائدة من الجرّاح وهو يضن على زوجته بمساعدته الغالية ؟! ...

ولما سُقط في يد الزوج ، وانتفخت أوداجه بما تهيل عليه من مديح ، زايلته تدريجاً مخاوفه ، ولم يشأ بأن يعترف

بأنه يفتقر إلى الشجاعة أو المران اللازم . وطاف بخاطره ما سوف يردده المقربون قائلين :

— هاهو الجراح بلغت به الثقة بنفسه أن أجرى لزوجته عملية جراحية دون أن تهتز يداه بالخوف !

ورغم أنها كانت أولى العمليات الجراحية التي يتولاها بنفسه وتحت تبعته ، لم يتردد في أن يعمل على تدعيم ثقة زوجته به وإعلانها بقدرته ، وأسرع يقرأ في مكتبته كل ما حوت من الكتب عن عملية استئصال الزائدة الدودية ، وكيف أن تسع عمليات من كل عشر تتكلل بالنجاح . ثم أرسل في طلب إحدى الممرضات من المستشفى . وما لبثت زوجته أن ارتقت بنفسها المائدة التي أعدها لإجراء عمليته ؛ ثم أخذت ترنو إليه باسمة مطمئنة ، وقد ارتدى معطفه الأبيض ، وبدا في عينيها أشبه بالملائكة . وتمتمت تشد أزره :

— ثق أني لست خائفة يا عزيزي . إني مطمئنة بين يديك ، ولكن لا تنس أن تكون جانبي عندما أستيقظ ؛ لأني أريد أن تكون أول ما تقع عليه عيناي . يالك من طبيب عظيم !!

وبدأت العملية . وأخبرني الزميل فيما بعد أنه عند ما دفع مبضعه في جلد زوجته الجميل ، ورأى الدماء تنبثق من تحته غص في حلقه ومادت الأرض تحت قدميه ؛ ولكن غروره ظل يهيب به أن يتجلد ! غير أنه عند ما تعمق الجرح والتفت عيناه بشيء لم يره في الكتب التي قرأها ، تولاه الارتباك ، وساقه التعجل والجلد إلى ما يشبه النزق والاستهتار فحدث ما روعه ! وكاد قلبه أن يقف بين أضلعه عند ما رأى المزق الذي أحدثه . وخيل إليه أنه يكاد يغشى عليه ؛ وقد تصبب العرق بارداً على جبينه واضطربت أصابعه . وعند ما سألته الممرضة في قلق :

— هل حدث شيء ؟

صرخ فيها أن تصمت . ثم حاول عبثاً أن يرفأ المزق الذي أحدثه ، وراح يتناول آلة بعد أخرى فتسقط من بين أنامله المرتعدة . . إلى أن تغطى جسم زوجته بالآلات الغارقة في الدماء !! ومسح جبينه الملتهب بيده فاصطبغ بالدماء ، وراح يصيح في الممرضة بصوت محموم مختنق :

— خذي هنا . . . امسكي هنا ! بالله لا تنظري إليّ هكذا !!

وأخيراً همست إليه الممرضة أن النبض يضعف ، وأنه يجب أن ينتهي سريعاً من عمليته وإلا قضى على زوجته . فأسرع يقفل الجرح ، ثم غاص في مقعد قريب وقد دفن وجهه بين يديه الملوثتين بالدماء . بينما تسللت الممرضة إلى الخارج دون أن تنطق بحرف . ورفع الطبيب رأسه ليتطلع ذاهلاً من النافذة ، ثم وقع نظره على منديل لزوجته ملقى بجانب المائدة فالتقطه وراح يعتصره في راحته ، ثم ألقاه على الأرض متسائلا ماذا فعل بزوجته التي تحبه وتعبده ؟!! ولمح نفسه في المرآة وقد بدا وجهه الملطخ بالدماء غير آدمي ، بل أشبه بوحش قاتل مفترس ، أو بقابيل الذي قتل أخاه هابيل ! فجرى يغسل يديه ووجهه ثم عاد ليجس نبض زوجته ، فإذا بها أشبه بالجثة الهامدة !! ولم يقو على أن يحتمل ذلك المشهد فأسرع يستقل عربة إلى المستشفى ؛ ثم عاد بعد نصف ساعة مع رئيسه الذي فحص المرأة على عجل ، ثم دفع الزوج خارج الغرفة وأغلقها خلفه .

وأخبرني الزميل فيما بعد أنه جعل يذرع الغرف الأخرى جيئة وذهابا ، وأنه كان يقف أمام مكتبته ويقلب بين كتبها فلا يستطيع قراءة حرف واحد ، فيعود على عقبيه يذرع الغرف من جديد ؛ وأنه مضى أخيراً يعبث بصيدلية المنزل ويحشو جيوبه بكل أنواع الأدوية ، وسرعان ما دخل عليه رئيسه متصبب الجبين بالعرق يقول :

— لقد نجت زوجتك يا دكتور !

فجرى إلى معبودته غير حافل بتوديع رئيسه . وظل إلى جانبها يستخفه الفرح إلى أن فتحت عينيها ورنت إليه باسمة شاكرة . ولما انحنى عليها يقبلها سمعها تهمس في أذنه :

« يالك من طبيب عظيم » !!

دكتور علي شكري

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٩٢ / ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٨٧ | الثلاثاء ٩ من رجب سنة ١٣٦٣ — ٢٧ من يونيه سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

الحرب في نورمنديا

يمتد الساحل الشمالي من فرنسا قبالة الساحل الجنوبي لإنجلترة ، وبين الساحلين ذلك البحر الضيق الذي يدعوه الفرنسيون باسم المانش ، ويسميه الإنجليز القنال الإنجليزي ! وهو أضيق ما يكون في الشرق ، حيث لا يكاد يتجاوز العشرين ميلا . ويتسع ناحية الغرب حتى يزيد على المائة والسبعين ميلا ، ولكن هذا الاتساع التدريجي من الشرق إلى الغرب ليس مطردا ، بل هنالك حالة واحدة شاذة عظيمة الخطر ، وهي أن الجزء الأوسط من ساحل فرنسا الشمالي ، يمتد متوغلا نحو الشمال ، مقتربا من إنجلترة ، في شكل شبه جزيرة ، وهي المعروفة باسم كوتنتان ، والتي تصفها الأنباء باسم شبه جزيرة شربورج . في هذا الوضع تدنو فرنسا من سواحل إنجلترة دنوا كبيرا ، بحيث لا يفصل بين البلدين سوى ٧٥ ميلا . ولابد لنا إنصافا لانجلترة أن نذكر أن سواحلها المقابلة لشربورج تدنو هي أيضاً من فرنسا قليلا ، وذلك بفضل وجود جزيرة شهيرة تسمى جزيرة وايت ، التي تقع شمال شربورج تماما .

كان هذا الساحل الشمالي من فرنسا في الزمن الأول مقسما بين ثلاثة أقطار : نورمنديا في الوسط ، وبيكارديا في الشرق ، وبريتانيا في الغرب . هذه هي الأسماء القديمة التي أزالتها الثورة الفرنسية ، وأحلت محلها أسماء جديدة مقتبسة من الأنهار والجبال والظاهرات الطبيعية المختلفة . ولكن الخيال البشري لا يزال متعلقا بتلك الأسماء القديمة التي تحمل ذكريات وتنبيء من أحداث ذات أثر عميق في تاريخ العالم .

وعلماء الجيولوجيا يزعمون أن شمال فرنسا وجنوب إنجلترة كانا في زمن قديم أرضا واحدة متصلة الأوصال والأجزاء . ثم فصلت حوادث الدهر بينهما ، وغاضت الأرض فيما بينهما ، وهوت تحت سطح الماء . ولكن أحداث الدهر هذه لم تستطع أن تفصل بين الأرضين فصلا شديدا . واستطاع الإنسان أن يصل ما قطعته

الجيولوجيا؛ وجمت أحداث التاريخ الشديدين في مناسبات عديدة: عدائية تارة، وودية تارة أخرى؛ وها نحن أولاء اليوم نشهد مظهراً آخر لهذا الاتصال المتين بين القطرين.

وإقليم نورمنديا — الذى تجرى الحرب اليوم فى جزء منه — يقع معظمه فى غرب نهر السين، ولكن له امتداداً قليلا شرق السين؛ ومن أهم مدنه هنا ميناء الهافر ومدينة روان، وميناء دياب الواقعة فى آخر الطرف الشرقى من نورمنديا.

وقد اشتهر هـذا الإقليم من فرنسا — فوق شهرته التاريخية — بوفرة الخصوبة، وكثرة الغلات، وغزارة الزرع والشجر والمراعى الغنية والمروج اليانعة. وتغلب عليه السهولة بوجه عام؛ فليس فيه جبال عالية، وإن لم يخل من نتوءات وكثبان ومرتفعات منتشرة من غير نظام، وعلى الأخص فى الجزء الجنوبى منه.

وإلى الغرب من سواحل نورمنديا عـدد من الجزر تسمى جزر القنال، وأهمها جزيرة جيرزى وجرنزى. وهذه الجزر قريبة جداً من سواحل نورمنديا، وأقربها لا يبعد عنها بأكثر من عشرين ميلا. ومع هذا فإن هذه الجزر القريبة من فرنسا تابعة لبريطانيا؛ وأهلها يتحدثون بلهجة فرنسية قديمة، وهى من بقايا اللغة التى كان يتحدث بها النورمنديون. وتبعية هذه الجزر لملك إنجلترة تمثل البقية الباقية من دوقية نورمنديا، يوم أن كانت كلها جزءاً من أملاك ملك إنجلترة، ثم زال هذا الملك كله، ولم يبق له منه سوى تلك الجزر.

وفى أواخر الصيف عام ١٩٤٠ رأت بريطانيا أن تخلى تلك الجزر، فإن الدفاع عنها فى ذلك الوقت كان يتطلب جهوداً جبارة؛ ومنذ ذلك الوقت قد أصبحت تلك الجزر تحت سيطرة الألمان، الذين قاموا بتحصينها تحصينا متيناً، بحيث يكون من العبث مهاجمتها اليوم، لأن مصيرها مرتبط بمصير الإقليم المجاور من فرنسا؛ فإذا أجلى الألمـان عن نورمنديا وبريتانيا، فلا بد لهم من الجلاء عن تلك الجزر.

وقد اختار الحلفاء لبدائهم الجديد الثلث الغربى من سواحل نورمنديا، وهو إقليم لم يعرف الحرب منذ زمن بعيد؛ ولابد لنا من الرجوع خمسة قرون إلى الوراء، إلى زمن حرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترة، لكى نرى نورمنديا ميداناً للحرب، ونسمع بتخريب مدن نقرأ أسماءها اليوم، مثل: كان، وبايو. واليوم — بعد هذا العهد الطويل من السلم والرخاء — تعود الحرب مرة أخرى، فى أقوى وأضخم صورها، إلى هـذا الإقليم البعيد العهد بالحروب والقتال.

واقتسم الحلفاء الميدان بينها، فكان للبريطانيين النصف الشرقى، وللأمريكيين النصف الغربى، وهـذا يشبه التقسيم الذى رأيناه فى إيطاليا. وقياساً على الميدان الإيطالى، ليس من الضرورى أن يكون القسم الأمريكى أمريكيا صرفاً، والبريطانى بريطانياً صرفاً. وقد حاولت فى المقال الماضى أن أشرح الأسباب التى تحمل على الظن بأن الألمان كانوا يتوقعون أن يكون الهجوم فى الجانب الشرقى من نهر السين، وأنهم لهذا السبب لم يستطيعوا أن يحشدوا بسرعة القوات اللازمة لمواجهة جيش الغزاة.

لقد كان أمام الغزاة واجبات شاقة مجهدة، إذ كان عليهم أن يزيلوا الألغام والعقبات القائمة على الشاطئ، ثم يتغلبوا على الحاميات الساحلية، ويحتلوا مساحة تمكنهم من العمل والتقدم؛ ولابد لهم فى أثناء هذا كله أن يتابعوا نقل الجنود والذخيرة، من بريطانيا إلى شواطئ نورمنديا الضحلة، التى لا تستطيع السفن أن ترسو عليها، والتى لا بد لها من زوارق خاصة تعمل دائبة للنقل بين السفن والسواحل.

كان فى هذا كله الفرصة اللازمة للألمـان لـكى يجمعوا جموعهم ويحشدوا جيوشهم، ولكنهم فيما يبدو لم يستطيعوا أن يحشدوا قوة كبيرة بالسرعة اللازمة، اللهم إلا فى القطاع الشرقى فى مواجهة القوات البريطانية. وقد

دارت فى هذا القطاع معارك عنيفة حول بلدة كان وتيلى ، وظلت الحرب فيه زمناً طويلا وهى سجال بين الفريقين .

أما فى القطاع الغربى فقد صادف فيه الأمريكيون كثيرا من التوفيق ، فإنهم بعد أن استولوا على كارنتان ، وقطعوا خط الاتصال الرئيسى المتجه إلى شربورج ، واصلوا تقدمهم فى ثلاث اتجاهات : أولها نحو الجنوب حيث استولوا على سان لو ، والآخر إلى الشمال حيث أغاروا على مونتبورج ، والثالث إلى الغرب لكى يصلوا إلى الساحل الغربى من شبه جزيرة شربورج ، ليفصلوها فصلا تاما عن سائر فرنسا تمهيدا لإتمام الاستيلاء عليها . وقد سار الزحف الأمريكى للاستيلاء على شربورج بسرعة مدهشة ، فبينما الجيش الأمريكى يثبت أقدامه فى كارنتان إذا هو يطل على الساحل الغربى ، إذا هو يزحف إلى الشمال ، وإذا هو يحدق بمدينة شربورج ، وهى الثمرة الكبرى التى تطمح إليها أنظار الحلفاء . وهكذا يحالف السعد الجيش اليانكى ، الذى كان بالأمس هو الزاحف على روما فى الجبهة الجنوبية ، وهو الزاحف اليوم على شربورج فى الجبهة الشمالية .

تقع ميناء شربورج على الساحل الشمالى لشبه الجزيرة ، وهذا الساحل يرسم فى تعاريجه شكل حرف التاء . وفى مكان النقطتين جزيرتان قريبتان من الشاطئ تحميانه من الأعاصير الشرقية والغربية . وفى هذا الموضع (أى فى وسط التاء) خليج صغير هو الذى يقع فيه ميناء شربورج . ولحمايتها من الأعاصير والأنواء الآتية من الشمال بنى أمامها فى قاع البحر حاجز ضخم للأمواج ، قلما نجد له بين الحواجز نظيرا ، وقد استغرق بناؤه أزمنة طويلة منذ عهد لويس السادس عشر ؛ طول هذا الحاجز أربعة كيلو مترات ، وسمك أساسه فى الماء ٢٠٠ متر ، وسمكه فوق سطح الماء عشرة أمتار . وهو يمتد من الشرق إلى الغرب أمام شربورج فيمنحها الوقاية اللازمة من الأنواء . وعلى هذا الحاجز حصون أربعة للدفاع عن الميناء ، إلى جانب الحصون المنيعة على الجزيرة ، وحول الميناء شرقا وغربا .

ولكن هذه الحصون واقع أكثرها نحو البحر ، وهى توفر الحماية الحربية الهائلة ضد أية قوة آتية من جهة البحر . وهنالك حصون أخرى إلى الداخل من وراء المدينة من جهة الجنوب ، ولكنها هى أيضا للحماية من الخطر الآتى من البحر . ومن الجائز أن يكون الألمان قد أقاموا من الاستحكامات ما يضمن الدفاع عن المدينة من جهة الجنوب . أما الحصون الواقعة حول الميناء فلعلها قليلة الفائدة فى دفع أى هجوم من جهة البر ، فإن من خلف شربورج مرتفعات تطل عليها ، فإذا زحف جيش من الجنوب فإن المدينة لن تستطيع مقاومته طويلا .

وشربورج بالطبع من أهم الموانى الفرنسية . وهى تجمع بين الصفتين الحربية والتجارية ، ولها مرفآن للسفن : واحد إلى الغرب وسط الصخور وهو المرفأ الحربى ، والآخر إلى الجنوب والشرق وهو المرفأ التجارى . وتمتاز شربورج بالتخصص فى حركة النقل إلى الولايات المتحدة . وكثير من السفن التى تعبر المحيط الأطلسى ، من فرنسا وبريطانيا ، تبدأ عبورها من شربورج ، ولذلك كانت بها معدات ضخمة لخدمة أكبر السفن وأعظمها حمولة . ومهما خرب الألمان من معدات الميناء ، فإن شربورج ستكون ذات فائدة عظيمة للحلفاء ، وستزداد مقدرتهم على نقل الجيوش والذخائر والعدة الحربية ازديادا خطيرا .

وكان بوسع الألمان — أثناء احتلال الأمريكيين لشبه الجزيرة ، وانشغال جزء كبير من جيشهم فى الاستيلاء على شربورج — أن يهاجموهم بقوة كبيرة من جهة الجنوب ، فإن الجيش الأمريكى كان بين القوات الألمانية فى الشمال ، وبين قوات أخرى لا نعرف مقدارها فى الجنوب . ولو أسرف المرء فى التعبير لقال إن الأمريكيين كانوا « محاصرين » بين جيش ألمانى فى الشمال ، وآخر — لا نعرفه تماماً — فى الجنوب . فأما الجيش الشمالى فقد

تراجع إلى شربورج ليدافع عن الميناء ؟ وأما الجنوبي فلم يحاول مساعدة الجيش الشمالي بهجوم يقوم به ، وهكذا أعطى الأمريكيون الفرصة اللازمة للاستيلاء على شبه الجزيرة كلها .

والمرء مضطر ، إزاء هذه الحوادث ، وأمام عجز الألمان عن بذل المساعدة اللازمة لحامية شربورج في الوقت المناسب ، أن يفترض أن ليس للألمان في الجنوب قوات احتياطية عظيمة يمكن أن يتألف منها جيش قوي يغير من الجنوب على مواقع الأمريكيين .

ولئن صح ما افترضناه من قبل ، من أن القوات الألمانية موزعة في جهات عديدة ، وأن لا بد من مضي وقت قبل أن يمكن للقيادة الألمانية أن تجمع جيشاً عظيما تلاقي به الغزاة . فإنها تحسن صنعاً بألا تتسرع بالدخول بالدخول في معارك كبيرة قبل أن يتجمع لديها ما يلزمها من العدة والرجال .

ويجوز لنا الآن أن ننظر إلى موقف الحلفاء الحربي في نورمنديا بأنه يتمتع اليوم بنصيب غير قليل من الاستقرار ، وأن فترة احتمال القذف بالغزاة إلى البحر قد انقضت . وقد ثبتت أقدامهم في مواقعهم الجديدة ، وتعمقوا بعيداً عن البحر ، بدرجة تجعلهم يسرحون في مساحة من الأرض تمكنهم من القيام بعمليات حربية هجومية . والاستيلاء على شبه الجزيرة يهيء للحلفاء قطرا بعيدا نوعا عن أماكن القتال ، ويمكن أن تنشأ فيه المطارات ، وقد يكون مركزاً تحشد منه الجيوش .

واليوم وقد ثبتت مواقع الغزاة وأصبحوا يحتلون مساحة من الأرض لا يستهان بها ، فإن على الألمان أن ينظروا إلى الحرب نظرة جديدة . وأن يدركوا أنها قد لبست ثوبا جديدا . فهم ليسوا أمام غزاة من البحر ولا بد من ردهم إلى البحر ، بل أمام قوة عظيمة تحارب في جبهة جديدة ، أي أن الحالة عادت — بدرجة مصغرة — إلى ما كانت عليه في عام ١٩٤٠ وإن كان القياس مع الفارق . وأكبر مظهر لهذا الفارق أنهم منذ أربع سنين كانوا يحاربون عدواً يعد أعزل بالنسبة إليهم ؛ أما اليوم فأمامهم جيوش مدججة بأحدث الأسلحة وبأشدها فتكا وتدميرا . وفي ذلك اليوم كان الجيش الألماني الهائل يحارب في ميدان واحد وقد حشد فيه معدات فتاكة لم يعرف لها الزمان نظيراً . أما اليوم فالجيش الألماني موزع بين الميدان الشرقي والجنوبي والغربي ، وبين أقطار فسيحة احتلها وبسط عليها نفوذه وسلطانه .

فليس ببدع والحالة هذه أن يكون هنالك بطء في حشد القوات الألمانية في نورمنديا ، فإن العجلة في مثل هذا الأمر غير محمودة العقبة .

وقد تساءل الناس كثيرا — بعد نجاح الحلفاء في النزول بنورمنديا — هل تنزل قوات أخرى للحلفاء في جزء آخر من سواحل أوربا التي تسيطر عليها ألمانيا ؟ لقد نصحت القيادة العليا للحلفاء بأن يقلل صائدو الأسماك بالقرب من سواحلهم وقراهم . ولاشك أن مثل هذا الغزو الجديد ليس بالأمر المستحيل . ولكن النجاح العظيم الذي صادفه الحلفاء في نورمنديا قد يدعوهم إلى إرجاء مثل ذلك الغزو ، حتى يستغلوا نجاحهم هذا الاستغلال الكافي .

محمد عوض محمد

إلى حضرات المشتركين

حددت إدارة مجلة الثقافة يوم ١٥ يوليه سنة ١٩٤٤ آخر موعد لتسديد النصف الثاني من الاشتراك عن سنة ١٩٤٤ فالرجو من حضرات المشتركين مراعاة ذلك .

الإدارة

٤ – عبـــــد الله نديم

انتهت الثورة العرابية بالفشل والهزيمة المنكرة ، وكانت الهزيمة الخلقية أقسى من الهزيمة الحربية ؛ فقد ذلّ أكثر قواد الحركة ، وتحول عنهم أكثر من يناصرهم ، وبدأت السعايات تدب ، وكل مَنْ كانت له خصومة مالية أو عائلية سعى في الإيقاع بخصمه ، بإتهامه بعمل من أعمال الثورة ، وامتلأت المجالس المشكّلة لمحاكمة بالدعاوى والتهم ؛ وأخذ كثير ممن اشتركوا في الحركة يتبرءون مما قالوا وما فعلوا . ولئن استطاع كثير منهم أو حاول تبرئة نفسه ، فعبد الله نديم ليس بمستطيع شيئاً من ذلك ، فخُطَبه لا ينساها أحد ، وأقواله مسجّلة عليه في جريدة « الطائف » ، فلا بد إذا حوكم أن يحكم عليه بأشد العقوبات التي ستوقع على الزعماء ، وكان أغلب الظن أنها الإعدام .

لقد فكر عرابي هو ومن معه أن يطلبوا العفو من الخديو ، وكتبوا رسالة وبعثوها مع وفد إلى الإسكندرية لتقديمها إليه ، ثم بدا لهم أن يغيّروا بعض نصوصها ، فبعثوا بصيغة أخرى مع عبد الله نديم ؛ فلما وصل إلى كفر الدوّار علم أن الخديو رفض العريضة الأولى ، وأمر بالقبض على بعض رجالها ؛ فعاد « النديم » إلى القاهرة وأيقن بالهلاك ، فأعد العدة للهرب والاختفاء ، وإذا به « قص ملح وذاب » . تجدّ الحكومة وتضع له الأرصاد ، وتوجّه كل قوة للبحث عنه ؛ ويبعث كل من سلطان باشا ورياض باشا منشوراً لرجال الإدارة بالجد والنشاط للعثور عليه ؛ وتعلن مكافأة ألف جنيه لمن يرشد عنه ، والعقوبة القصوى لمن يخفيه ، ويذهب كل ذلك سدى مدى نحو عشرة أعوام ، وهو في كل ذلك يحتال حيلا أين منها حيل أبي زيد السروجي في مقامات الحريري ، ويمثّل روايات أين منها الروايات البوليسية المعروفة .

لقد أعيا الحكومة أمره ، فأصدرت عليه حكماً غيابياً بالنفي المؤبد من القطر المصري .

ها هو أول أمره يذهب إلى بولاق ويختفي عند صديق له وقتاً أياماً ، حتى يخفّ عنه الطلب ، فيخرج وقد لبس « زعبوطاً » أحمر ، واعتمّ بعمامة حمراء ، وربط عينيه بمنديل وأطال لحيته ، وأمسك بيده عكازاً طويلا ، وتصنّع أنه من مشايخ الطرق ، ونزل في سفينة مع خادمه إلى بنها ، فلم يفطن له أحد .

وجزع خادمه وكان أمياً ، وأراد أن يرجع إلى أهله فأيقن « النديم » أنه إذا عاد انكشف أمره ، فأخذ يقرأ الجريدة يوما ، ثم فزع قائلا : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . فسأله الخادم عما أفزعه ، فقال « النديم » : إن الحكومة قد جعلت لمن يرشدها عني ألف جنيه ، ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف . فخاف الخادم ، وأخذ يبالغ في التنكر أكثر من سيده ، واستراح من هذا الباب ، وظل معه طول مدة الاختفاء . وقال هو عن نفسه في هذه الفترة : « خرجت من مصر مختفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواي التي أدّعيها ، من قولي إني مغربي أو يمني أو مدني أو فيومي أو شرقاوي أو نجدي ؛ وأصلح لحيتي إصلاحا يوافق الدعوى أيضا ، فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة — مثلا — وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية ، وأسودها في عزبة » . فأحيانا كان اسمه الشيخ يوسف المدني ، وأحياناً الشيخ محمد الفيومي ، وأحياناً سي الحاج علي المغربي ، وهكذا ؛ وأحياناً كان يجتمع بمن يعرفهم فكانوا يعجبون لأن المقدرة مقدرة النديم ، ولكن يختلف في الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جلّ مَنْ لا شبيه له .

وساعد على نجاحه فى هذا الاختفاء أمور ، منها : مهارته فى حيله ، وإتقانه لما يدعى ؛ فإذا ادعى أنه مغربى تكلم بلسان مغربى محكم ، أو مدنى فكذلك . ادعى مرة — وهو فى القرشية — أنه عالم يمنى ، وذاعت شهرته فى العلم والأدب حتى بلغت القاهرة ، فأرسل إليه رياض باشا « سعد زغلول » ليسأله عن معنى مَثَل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهم معناه ، فقابله على أنه عالم يمنى وفسّره له[1] .

وكان من مهارته فى اختفائه أنه رأى جدّ الحكومة فى طلبه ، فاستعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به ، فأشاع عنه أن النديم هرب إلى « ليفورنو » فى إيطاليا ، ونقلت هذا الخبر جريدة الأهرام ، وصدق الناس ذلك ، وعنفت الحكومة رجال الضبط على إهمالهم حتى تمكن من الخروج ؛ فخف عنه الطلب ولم يكن كل ذلك إلا خدعة . وكتب صاحب جريدة المحروسة مرة بعد اختفائه بسنتين : أنه « قد تعددت الأقوال فى مقر عبد الله نديم ، فمن قائل إنه التجأ إلى البلاد الإيطالية ، ومن قائل إنه فرّ إلى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى السودان واتصل بالمهدى وصار له نديما ، وقال قوم إنه سارع فى السفر إلى « سيلان » للاجتماع بعرابى ؛ والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس فى الأيام الأخيرة ، ونشر فيها مقالة أتى فيها على ذكر الحرب العرابية ، وندد بالمصريين ، ونسب إليهم الضعف والجبن » الخ .

ومنها عطف بعض الناس عليه ، وإيمانهم بأن المروءة تقضى عليهم — وقد نزل بساحتهم — أن يخفوا أمره إذا علموا ، وأن يساعدوه على الاختفاء مهما أغروا بالمال ، كالذى كان من عمدة « العتوة » بمديرية الغربية ، وهو الشيخ محمد الهمشرى ، فقد نزل عنده وعرّفه بنفسه ، فأكرم مثواه ، وأقامه فى داره ثلاث سنوات ونيفا ، فى مكان منعزل له باب خاص ، وزوّجه ، وزوّج خادمه ؛ فلما توفى دعت زوجته أكبر أولادها ، وقالت له : هل تطمع فى المكافأة ، أم تكون كأبيك شهماً تحفظ الجار وتحمى اللاجئ ؟ فوعدها بأن يكون كأبيه فى حفظه ، ووفىّ بذلك ، حتى أحس « النديم » بوشاية واش ، فخرج من عندهم حامداً صنيعهم .

وصادفه مرة مأمور مركز شربين ، والنديم فى تنقله بين البلاد ، فعرفه ، فصرف جنده ثم اختلى به ، وقال : لا ضرورة لتنكرك فقد عرفتك ، وأعطاه ما معه من نقود ورسم له خطة السير فى طريقه حتى لا يضبط .

وكان فى أول أمره شديد الحنين لأبيه وأمه وأخيه ، لا يعرف ما صاروا إليه ، شديد الشوق لمعرفة كتبه وتآليفه وأوراقه التى تركها فى بيته بالإسكندرية ، ماذا آل إليه أمرها ؛ ثم وسّط الصديق الفرنسى أن يتعرف كل ذلك ويأتيه بالأخبار ، فعرف الفرنسى أن أسرته تشتتت والناس تنكروا لهم ، والأرصاد وضعت حولهم ، وأن أباه يقيم عند قريبة له فى الريف ، وأن كتبه وتآليفه التى أنفق فيها تسعة عشر عاما ، عند ما ضربت الإسكندرية وهاجر منها أهلها وضعها أبوه فى ثلاثة صناديق كبار وشحنها فى عربة من عربات السكة الحديدية ، فلما وصلت إلى كفر الزيات ازدحم على القطار المسافرون من المهاجرين ازدحاما هائلا ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن يرموا جميع ما بالعربة فى النيل ، ومنها هذه الصناديق الثلاثة وفيها كل ثروته العقلية .

ثم لما هدأت الأحوال وخف عنه الطلب كان يتصل بأبيه وأخيه اتصالا منتظما .

---

(١) هذا المثل هو « بعلة الورشان يأكل رطب المشان » والورشان : طائر يشبه الحمام ؛ والمشان : نوع من أجود التمر ، وأصله أن جماعة عهدوا إلى خادم لهم أن يحفظ تمرهم ، فكان يأكل رطبه ويزعم أن الورشان أكله ، فقيل المثل . وهو يضرب لمن يظهر شيئا والمراد منه شىء آخر .

وتأتى عليه أزمات ثم تنفرج ، فهذا عيد الأضحى وهو فى « برية الندوة » يسكن وسط الغيطان ، لا يساكنه أحد إلا زوجته ، ولا يجد القوت الضرورى ، ويأتيه خادمه الذى يسكن بعيداً عنه يشكو له البؤس والفقر وعدم القوت فى يوم العيد ، فما هو إلا أن يبعث له رجل من أهل البر والمروءة بما علأ بيته قمحاً وعسلاً وسمناً وشيئاً وبفتة حتى القصب واليوسف افندى ، والأطلس والحرير لتلبس زوجته ، ويبعث شيئاً من ذلك للخادم وزوجته . وأتيح له من الفراغ ما مكنه من إكمال نفسه بالدراسة والتأليف ، فكان إذا اطمأن فى قرية قرأ ما تصل إليه يده من الكتب ؛ وكانت مكتبته فى هذه الأيام مكتبة خفيفة يسهل حملها إذا دعا داعى الرحيل السريع : فكانت تفسير القرآن لأبى السعود ، وقاموس الفيروزابادى ، و « الواق » فى المسألة الشرقية لأمين شميل ، وجغرافية ملطبرون الذى ترجمه الشيخ رفاعة . وألف فيما يمن له فى الدين والأدب والتاريخ ، فكان هذا نعمة عليه لم يستطعها فى أيامه الأولى . كتب لصديق له فى هذه الفترة يقول : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشتغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ووقع الشدة ، لاعتقادى أن لكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ؛ فتراني فكرى كليمى ، وقلمى نديمى — تارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم لله المنة ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً أشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع . . . وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ؛ فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة المنحة والمنة ؛ أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشتغل من مرضعة اثنين ، وفى حجرها ثالث وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربّى عشرة وليس له تابع ، أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأقضى ليلى فى دراسة الأحوال ، مشتغلاً بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية ، وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان ، وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما نسيت الطعام يوماً وليلة ، فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها ما دام الماء والنار ، فتى كنت أنظر المخلفات ، وأكتب هذه المؤلفات ؟

لو أن نار مصيبتى ... فى البحر أصلاه الزفير
لكنها فى ساحة ... من فوقها جو مطير
هو صدق إيمانى وصبرى للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتى ... فى باب مولاى البصير

وكان فى رحلته بَرًّا بخادمه « حسين » الذى غير اسمه فسماه « صالحاً » ، وزوّجه ، وعلمه القراءة والكتابة ، وحفّظه جملة سور من القرآن ، وعلمه مبادئ الفقه والتوحيد ، واتخذه صاحباً .

وتواردت عليه أيام بؤس ومحن يشيب منها الوليد ، تغضب عليه زوجته وتلكمه على فمه حتى تكاد تسقط ثناياه ، وربما رأى — مع هذه الحال — أن إظهار نفسه للحكومة أهون عليه ، ثم يترضاها ويصالحها ؛ وأحياناً تتخاصم زوجته مع زوجة خادمه وتشتد الشحناء ، وتهدده كلتاهما بأن تفضح أمره ، فيتدارك كل ذلك بحيله ؛ وأحياناً يشعر بالخطر يهدده فيشتد فى الحذر والاختفاء ، حتى لقد اختفى مرة فى قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب

طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير يضاء بالجاز يملأ الحجرة دخانا ، ويستمر فيها نحو تسعة أشهر ؛ وأحيانا يبلغ به سوء الحال مع الرغبة الشديدة في الكتابة أن يصنع الحبر من هباب الغرفة ، ويضيف إليه بعض قرط السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجناء . وهو على كل ذلك صبور ، يعزيه أن يجد من أهل المروءة مايخفف كربه ، ويضمد جرحه ؛ «فمحمد سيد» الحلاق «بشباس الشهداء» يأويه في بيته ، ويغمره بفضله ، وينفق عليه ما يحرم منه أسرته ؛ و «أحمد جوده» الفلاح بالبكاتوش يصاحبه في انتقالاته في الظلام الحالك ، ويعرض نفسه من أجله للمخاطر .

لشد ما أتعب نفسه في اختفائه ، وأتعب الناس معه ، ولكن ما أكثر ما أمتعهم أيضاً بأحاديثه وفكاهاته ووعظه وسمره .

وأخيراً نزل « بالجيزة » فعرفه محدثها وكتم أمره ، ولكن رجلا اسمه حسن القرارجي — كان جنديا ثم استخدم جاسوسا — عرفه فكتب إلى السراى وإلى الداخلية ، فأمرت بالقبض عليه ، وذهب وكيل حكمدار الغربية ومعه قوة من الجند فالتفوا حول البلدة ؛ وأراد «النديم» الهرب بحيله القديمة فلم يستطع ، فاستسلم . وكان من حسن حظه أنهم لم ينتبهوا إلى أوراقه ، وكان في بعضها هجاء شديد في الخديو توفيق لو اطلعوا عليها لتغير مجرى حياته . وكان القبض عليه في صفر سنة ١٣٠٩هـ . واختفاؤه في ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ . وأرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان وكيل النيابة إذ ذاك قاسم بك أمين ، فأحسن معاملته ، وأمر بأن ينظف مكانه في السجن ، ويضاء كما يريد ، وأن يمكن من شرب القهوة والدخان كما يشاء ، وأمده بالمال من عنده ، وكان هم التحقيق متجها إلى معرفة من آواه ، وهل كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ، وعلى الأخص المنشاوى باشا — وكان قد نزل عنده أياما — فقد ضيقوا على النديم كثيرا ليقر بأنه كان يعرفه ، حرصا منهم على وجود منفذ لمعاقبة المنشاوى ، ولكنه أنكر كل الإنكار أن يكون أحد ممن آواه يعرف حقيقته.

ثم صدر أمر الخديو توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر إلى أي جهة شاء ، فاختار يافا ونزل بها ، فأكرمه أهلها واتخذ بها داراً جعلها منتدى للأدباء والعلماء ، وطوّف في فلسطين يشاهد آثارها ويحج إلى مزاراتها ، ويجتلي حسن طبيعتها .

ثم مات توفيق وتولى عباس ، فعفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر سنة ١٨٩٢ . فعاد وفكر طويلا فيما يفعل وأين يتجه ، وتردد بين مصر والإسكندرية ، وأخيراً عيّن اتجاهه ، وقرر أن ينشئ بالقاهرة مجلة « الأستاذ » ، فكان صفحة جديدة في باب جهاده

(يتبع) أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	مليم	
	٤٥	في مصر والسودان
	٣٧,٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

على شاطئ الامتحان :

ضحايانا الأطفال

ولست أقصد الأطفال وحدهم ، بل هم أبناؤنا جميعاً ، سواء منهم الأطفال الذين يتعلمون في المدارس الابتدائية ، والشبان الذين في المدارس الثانوية ، أو في كليات الجامعة .

ولست أقصد شاطئاً نظيفاً أصفر اللون ، مما يقف عليه الناس في هذا الحر اللافح يتروحون ويترددون ، ويتنسمون أنسمة الأصيل على خرير الأمواج الراقصة فوق رماله الناعمة ؛ بل أقصد شاطئ الامتحان ، ذا اللون الجاهم الذي تضطرب تحته اللجة الزرقاء القاسية ، ويتخبط دونه الأبناء المساكين ، يلتمسون النجاة بأنفاس ضيقة ، وأعضاء كليلة أجهدها طول الكفاح الذي لا هوادة فيه . مساكين هؤلاء الأبناء !

إنهم يقضون العام الطويل في كد متصل ، لا يهدأون في نهار ، ولا ينامون في ليل ، في رهبة من ذلك اليوم الذي يدفعون فيه إلى تلك اللجة الكالحة التي لابد لهم من أن يخوضوا غمارها ؛ وها هم أولاء أخيراً نراهم من فوق الشاطئ يتدافعون في الغمرات ، ثم يستقلون لما لا مفر لهم منه — للخيبة والخذلان وضياع الأمل . نراهم يتلوون من الألم ؛ ولا نملك لهم إلا أن تسيل قلوبنا عليهم رحمة ، وإلا أن تنادى بملء أفواهنا : مساكين أيها الأبناء ! ... ثم كلمة أخرى ، لا نستطيع أن نقول كلمة غيرها في تعليل مصابهم — لا شك في أن ثمة خطأ في هذا النظام الذي يضيع كل تلك الجهود سدى ، ولا يكافئ كل هذا الكد القاطع بغير الخيبة « والسقوط » .

عرفت بعض طلبة الجامعة ، وعرفت بعض طلبة المدارس الثانوية ، وعرفت بعض تلاميذ المدارس الابتدائية ، ورأيتهم في شهور عامهم الطويل مكبين على الكتاب حيناً ، وذاهبين إلى المحاضرة أحياناً ، أو عائدين من معاهدهم بوجوه مصفرة وعيون كليلة أحياناً . وكنت كلما أبصرت ما هم فيه سالت نفسي لهم رحمة ، ودعوت لهم بالتوفيق ، وأنا لا أشك في أنهم يجنون بعد هذا الكد المتصل من ثمار النجاح ما ينسيهم كل المشقات ، فإن هذه سنة تجرى عليها طبائع الأمور . ولكن العام انقضى ثم اقتحموا الغمرة ، ثم ماذا ؟

رأيتهم جميعاً يمسحون الجبين مما تصبب عليه من عرق الخذلان ، وقد فترت نفوسهم ، وامتلأت قلوبهم حيرة ، وأقبلوا يسألون : « كيف تكون الخيبة عاقبة الكد الطويل ؟ »

أيكون هؤلاء جميعاً من حثالة البشرية التي لا نصيب لها من الذكاء ؟ أيكون كل ما عرفته فيهم من إدراك زيفاً ، وكل ما لحته عندهم من توقد في الفهم تدليساً ؟ أتكون الأمة المصرية دون سائر الأمم ليس في أبنائها من يستطيع أن يفهم العلم ، أو أن يدرك حقائق المعاني سوى هذه القلة التي تنجح في امتحاناتها ؟ وإلا فكيف يذهب الطلاب إلى الجامعة بعد قضاء السنوات الطويلة في المدارس ، درجة بعد درجة ، ثم لا يستطيع السير في سبيل الدراسة إلا عشرة منهم ، أو خمسة عشر في كل مائة ؟ إن هؤلاء الشبان قد كافحوا من قبل في امتحان بعد امتحان ، حتى اجتازوا مرحلة الدراسة الثانوية ، وبرهنوا بذلك على أنهم يستطيعون أن يتلقوا دروس المعاهد العليا ، ثم واصلوا الكفاح طوال العام حتى انتهوا إلى ختامه ، ولكن لم يطف منهم فوق اللجة إلا عشرة في كل مائة ، فما دلالة هذا إلا أن تكون هذه الأمة ضئيلة الذكاء ، عاجزة عن إدراك مسائل العلم ؟! أيكون هذا هو حالنا ؟ إذاً فما هذه الأمة ، وأى أمل لها في مسايرة الأمم في سباق الحياة ؟

أنكون شعباً لا أمل في ذكائنا ، فلا يستطيع النجاح من أبنائنا إلا عشرهم بعد الكد والكدح والنضال

الطويل ؟ أم هي نزوات ثائرة جامحة ممن وقف للأبناء يحاسبهم ويناقشهم ، أو كما يقولون يمتحنهم ؟ هل تكون شهوة الجبروت قد جرفت معها الأساتذة فأرادوا أن يظهروا البراعة في فنهم ، بأن يسخروا من ضعف الشبان الذين يريدون أن يتخرجوا في العلم عليهم ؟ لست أدري أي هذين كان علة الخذلان ، فإني لا أعلم إلا شيئاً واحداً وهو أن المجتهد لم يكن له نصيب . ولا شك في أن ثمة خطأ شنيعاً في تسيير الأمور .

أين تقع المسئولية في ذلك الجهد الضائع كله ؟ أتقع على الطالب الذي قضى الليالي في جهده القاطع ، أم تقع على الأستاذ الذي لم يستطع أن يوصل علمه إلى تلميذه ، وتركه يعاني مرارة الخيبة بعد عام طويل ؟ أم أن المسئولية ليست على هؤلاء ، ولا على هؤلاء ، بل هي في النظام الذي يسيرون عليه ؟

قيل إن للصينيين عادة قديمة يقدسونها في علاج مرضاهم : قيل إن الطبيب هناك يتلقى من الناس أجراً ما داموا أصحاء ، فإذا هم مرضوا كان عليه أن يلتمس لهم الطب ويقوم على علاجهم ، حتى يعيد إليهم الصحة بغير أن يفيد منهم مالا على علاجهم ما داموا مرضى ، فإذا عادت إليهم الصحة استحل لنفسه منهم الأجر فتقاضاه . ألا نستطيع في مصر أن نلجأ إلى مثل هذا في أجور الأساتيذ ؟ إنه اقتراح أقدمه للجامعة ألا تعطي لأستاذ أجره إلا ما دام طلبته ينجحون ، فإذا هم قعدوا ورسبوا فلا يكون له حق في الأجر حتى يعودوا إلى سبيل النجاح .

وليت الأمر مقصوراً على طلبة الجامعة ، أو شبان المدارس الثانوية ، فإن لهؤلاء ألسنة يستطيعون أن ينطقوا بها ، وإن لهم حجة يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم بحدها . فإن من الأبناء طائفة أخرى كزغب القطا ، يمرحون من بعض إلى بعض في اختلاج الضعفاء ، وسذاجة البرءاء . ما كين هؤلاء ، لقد عرفت ما كابدوا من المشقة ، وكنت أشفق أن يكون جهد الدرس مفسداً لما لا ينبغي له أن يفسد من قوة أعصابهم ، وهم بعد في مقتبل العمر ، وأمامهم من السنين ما يحتاج إلى قوة الجسم ، وقوة الروح ، والأمل الجرىء ؛ مساكين هؤلاء ! لقد دخلوا أخيراً إلى الامتحان . وها هو ذا امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية تحت يدي ، وأنا أكتب هذه السطور .

هذا هو امتحان اللغة الإنجليزية — وأنا أفهم أن المقصود من تعليم هذه اللغة لتلاميذ المدارس الابتدائية أن يعرفوا مبادئ القراءة والكتابة بها ، فكنت أظن أن امتحانهم لن يكون سوى سؤال عن جملة يكتبها التلميذ ليعلم أستاذه أنه يستطيع أن يكتب جملة إنجليزية . ثم جملة أخرى يقرؤها ويسأله أستاذه عنها ، ليعرف أنه يستطيع فهم جملة إنجليزية . هذا ما كنت أفهمه ، فماذا هناك ؟ هناك خمسة أسئلة طويلة ، في كل منها أجزاء تختلف عدداً وتتباين طولا وعرضاً ، فبعضها يحوي ثلاثة أجزاء ، وبعضها يحوي خمسة .

ثم هذا سؤال منها مترجماً : أيها التلميذ أكمل الجمل الآتية :

١ — لم يقدر أن يحمل الخشب فقال لصديقه : « من فضلك ... ... »

٢ — كسر الخادم الفنجان فقال لسيده : « لا ... »

٣ — قال الرجل في القطار : « الحقائب ... ... »

٤ — لم يكن لديه نقود فقال : « يا أبت ... ... »

٥ — كان في ثوبه قطع فقالت أمه : « ... إرتق »

سؤال طويل فيه كلام كثير ، وقد يكون فيه من الألفاظ ما لا يفهمه التلميذ ، ثم لا يقصد من ورائه إلا جواب مبهم ، لا يدل على معرفة ببناء جملة أو فهم أخرى .

وهناك سؤال آخر : أيها التلميذ اقرأ هذه :

وهي قصة طويلة عن قوم في بلد من البلاد اسمها (إيام) ، كان فيهم مرضى ، فآثروا أن يمتنعوا عن مخالطة

الناس ، وأن يموتوا حيث هم ، وأن يمنعوا الناس من الدخول إلى بلدهم . فقضوا أربعة أشهر محجوزين في قريتهم ، وبعد ذلك وجهت هذه الأسئلة :

١ — لم يستطع أهل إيام أن ينجوا حياتهم ؟

٢ — علام عزموا ؟

٣ — حياة من أرادوا أن يخلصوا ؟

فأي وقت طويل ، وعناء شديد في فهم قصة سخيفة ، لا يقصد من ورائها إلا معرفة ما إذا كان التلميذ يستطيع أن يكوّن جملة قصيرة ! ومع ذلك ، فهل يستطيع الممتحن بمثل هذه القصة أن يكشف عن الحقيقة التي قصد إليها ؟

وسؤال ثالث ، قصة أخرى طويلة أؤكد أني قضيت مدة حتى فهمتها ، مع أني أزيد في معرفة اللغة الإنجليزية على تلميذ السنة الرابعة الابتدائية : قصة جندي محارب أمره ضابطه ألا يكتب إلى أحد عن الوضع الذي يكون فيه ، ثم سافر الجندي إلى الحرب ، ولم يعلم أين هو ذاهب . وأخيراً وصل إلى مكان ما ؛ وكتب خطاباً إلى أمه ، وأرسله إلى الضابط ليقرأه قبل إرساله ، كما هو متبع في الحرب ، وهذا هو كتاب الجندي إلى أمه :

أمي ! لا أستطيع أن أخبرك عن موضعي ، لأن ذلك محرّم عليّ ؛ ولكنني وأنا في خيمتي أستطيع أن أرى الأهرام . والمطلوب من ذلك كله هو :

١ — ما الذي كان يمنع إخبار الجنود عن المواضع التي سيذهبون إليها ؟

٢ — من الذي قرأ رسائل الجنود ؟

٣ — إلى أين ذهب الجندي ؟

ثم طلب من المساكين فوق ذلك أن يتمّوا الجمل الآتية :

١ — عندما قرأ الضابط خطاب الجندي . . .

٢ — كتب الجندي الخطاب الذي . . . .

٣ — الجنود . . . . يخبرون أسرهم أين . . . .

فأي جهد هذا الجهد المنهك للقوى في قراءة كل هذه القصص البعيدة عن تجارب التلاميذ ؟ وأي قصد من وراء ذلك سوى أن يعرف التلميذ كيف يبني جملة .

مساكين أيها الأبناء !

ولم يكن امتحان اللغة الإنجليزية هو البلاء الوحيد ، فقد كان ذلك الامتحان مثلاً من الروح الشامل كله . فلقد خيل إليّ وأنا أقرأ هذا الامتحان أني حيال رجال يشمرون عن أذرعهم لكي ينازلوا بعضلاتهم الأطفال المساكين الذين يختلجون في مشيتهم .

هذا امتحان الحساب جزى الله صاحبه ، وحسبي أن أسوق منه مثلاً واحداً : يريد أن يمتحن التلاميذ من طريقة القسمة النسبية فأبى أن يلقي سؤالاً طبيعياً مما يلقاه الناس في الحياة . أبى أن يسأل عن مبلغ من المال يقسم بين ورثة على نسب محددة ، أو أن يقسم أرضاً بين شركاء على نسب معينة ، بل أتى بمبلغ من المال جعله ثمن مقادير من البن والشاي والصابون ؛ ثم أعطى التلميذ النسبة بين عدد أرطال كل من البن والشاي والصابون ، ثم أورد نسبة أخرى معقدة بين ثمن الرطل الواحد من البن والشاي والصابون ، وطلب من التلميذ أن يعرف وجه الخلاص لنفسه من كل هذه النسب المعقدة لكي يقسم المبلغ الذي قدّره

مساكين أيها الأبناء !

هذا سؤال واحد من ست مسائل كل منها لها ذنب معقد ، أو ذنبان معقدان ؛ فقد أبى للممتحن إلا أن يجعل للسؤال الأول ذنبين معقدين .

أيمكن أن يكون مثل هذا الامتحان وسيلة لدفع الأبناء في سبيل الحياة ؟

حقاً إنها ضحايا الأطفال !

محمد فريد أبو حديد

رجال العلم ورسالتهم

في مصر

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

[تكلمنا في مقالنا السابق عن طوائف ثلاث من رجال العلم : الأولى طائفة المشتغلين بالعلوم البحتة ؛ والثانية طائفة المشتغلين بالعلوم التطبيقية ؛ والثالثة طائفة المشتغلين بالبحوث الخاصة بتنظيم الصناعة والإنتاج على نطاق واسع . وشرحنا الحركة القائمة بينهم في الوقت الحاضر ، والتي ترمي إلى الاشتراك الفعلي في تنظيم العالم بعد الحرب ، وإلى اتخاذ خطة إيجابية فيما يتعلق بمساهمتهم جميعا في الشئون العامة الاجتماعية والسياسية . ووعدنا بأن نخصص المقال التالي لتحليل طوائف رجال العلم في مصر ، والبحث فيما أدوه من خدمات ، والنظر فيما يتطلبهم من تبعات ، حتى نستطيع أن نحكم إلى أي حد يحق لهم أن يجاروا رجال العلم في الغرب في صيحتهم الأخيرة ؟ أو لعلنا ننتهي إلى أن رسالتهم في مصر تتطلب حركة في اتجاهات أخرى تتفق مع حاجيات البلاد وظروفها الخاصة] .

أما رجال العلم المشتغلين بالبحث في مصر ، من أمثال رجال الطوائف الثلاث التي ذكرناها ، فعددهم قليل جدا ؛ وبعضهم من رجال الطائفة الأولى المشتغلين بالناحية الأكاديمية البحتة ، كأمثال أساتذة الكليات العلمية ؛ وبعضهم من المشتغلين بالبحوث التطبيقية ، كأمثال رجال معهد الأبحاث الصحية ، ومصلحة الطبيعيات ، ومصلحة الكيمياء ، وقسم الحشرات الخ . أما الطائفة الثالثة من المشتغلين بالبحوث الصناعية التكنولوجية فلا نعرف من رجالها أحدا في مصر ، ولا نحسب أن لها وجودا عندنا لانعدام المصانع الكبرى ، إذا استثنينا مصانع شركة مصر للنسج والحليج بالمحلة الكبرى . وقد تحرينا عما إذا كانت تجرى فيها أبحاث من هذا النوع ، فتبين لنا أن شيئاً من ذلك لا أثر له فيها . ولكنا نتوقع أن تظهر هذه الطائفة في مصر بعد الحرب في المصانع الموجودة فعلا ، وفي المصانع التي يرجى أن تقوم عندنا حين تضع الحرب أوزارها ، وتستخدم عددا كبيرا من العمال الذين اكتسبوا خبرة ومرانا في مصانع الأمم المتحدة التي أقيمت هنا في خلال الحرب .

ونحن لا نستغرب قلة عدد رجال البحث في مصر ، فقد كان التعليم فيما مضى متجها وجهة ضيقة ، ترمي إلى مجرد تحصيل القشور اللازمة لتكوين الموظفين اللازمين للحكومة ، ولم يدُر بخلد أحد فيما مضى أن يكون من أغراض التعليم خلق طائفة من الباحثين ، الذين يزيدون الثروة العلمية ويضيفون إلى التراث العلمي آثارا جديدة من ابتكارهم . لكن المصريين الذين مارسوا البحث في أوروبا أخذوا يتطلّعون إلى هذه المنزلة السامية التي يحتلها البحث ورجاله ، ويدركون أهمية هذه الناحية الإنسانية من الدراسة ، وشرعوا يحققون آمالهم من هذه الناحية ، ويقومون بقسطهم نحو العلم ونموّه ، والعالم والكشف عن مكنوناته ؛ وإن كنا لا نخفي شعورنا ، بأن رجال الجامعة من هؤلاء ، لم يحققوا ما كان ينتظر منهم في هذه السبيل .

وقبل أن نتكلم عن رجال البحث في مصر وعن مهمتهم ورسالتهم ، نقول كلمة عن الجمهرة الكبرى من رجال العلم القادرين الذين تلقوا العلم في مصر وأوروبا وتعمقوا فيه وأحاطوا بدقائقه وهضموها . وتقوم غالبيتهم بالتدريس بالمدارس الثانوية أو بالمعاهد العالية أو بوظائف التفتيش وما شاكلها . فهؤلاء وإن فاتهم الاشتغال بالبحث العلمي لظروفهم الخاصة وظروف البلد العامة ، فإن عليهم واجبا لا يقل أهمية عن البحث العلمي في ظروف مصر الحاضرة ، ألا وهو المساهمة في نشر الثقافة العلمية العامة على صفحات الجرائد والمجلات ، وفي تنمية المكتبة المصرية بتزويدها بالكتب العلمية المبسطة ، التي يستطيع القارئ العادي الذي أتم الدراسة الثانوية أن يتفهمها ، ويجد لذة في قراءتها تحفزه إلى متابعة القراءة .

لجمهور المتعلمين تعلماً متوسطاً في مصر متعطش إلى أمثال تلك الكتب ، وقد ظهر جلياً ميله إلى اقتنائها ومطالعتها ، وتهافته على الجديد الذي يظهر منها ؛ ولذلك نرى أن مهمة رجال العلم هؤلاء في وضع مثل هذه الكتب العلمية المبسطة المشوقة على جانب عظيم من الأهمية ، وإذا قامت هذه الطائفة من رجال العلم بها أسدت إلى مواطنيها خدمة جليلة . كما أننا لاحظنا أن الجرائد والمجلات قد أخذت تعنى بالناحية العلمية أكثر من ذي قبل ، وكلما ازداد عدد الكتاب المجيدين ازداد عدد القراء وازداد رجال الصحافة اهتماماً بتلك الناحية .

ولعله من الطريف والمفيد أيضاً أن نذكر بهذه المناسبة أن الجرائد والمجلات في روسيا صارت في السنوات الأخيرة حافلة بالمواضيع العلمية ، بحيث لا يكاد يخلو أي عدد منها من مقال علمي على الأقل ، وكثيراً ما تنشر تلك الموضوعات العلمية في صدر الصحيفة أو المجلة تنويها بأهميتها . هذا إلى أن أماكن بيع الكتب العلمية هناك قد صارت في كثرتها معادلة لأماكن بيع السجاير أو الحلوى .

فهل لنا أن نتطلع في القريب العاجل إلى اليوم الذي نصل فيه إلى ما يداني ذلك الاهتمام بالموضوعات العلمية ، وإلى ما يداني تلك الكثرة من الإنتاج العلمي المفيد ؟ ذلك كله مرهون بما تبذله هذه الطائفة من رجال العلم من جهد في سبيل القيام بواجبها نحو المجتمع الذي تعيش فيه ، وبوسائلها العلمية الجديرة بكل عناية . ولئن فعلت ذلك على الوجه الأكمل فستحس أثرها في المجتمع واستجابته لدعوتها ولرعايتها ، وهذا ما يحس له رجال العلم في الغرب في وقتنا الحاضر كما قدمنا .

* * *

والآن فلنعد للكلام عن رجال العلم المشتغلين بالبحث ، والذين هم عماد التقدم العلمي ، وأساس نمو الثروة ، وتحسين الصحة ، وإصلاح التعليم . ومصر بلد ناهض حديث عهد بالتقدم في جميع مرافق الحياة ، فإذا أريد لهذا التقدم وللحركات الإصلاح التي تصحبه أن تكون كلها في الاتجاه الصحيح المنتج ، كان من الواجب أن تقوم كلها على أساس أبحاث تجرى في مصر على أيد مصرية ، مطبقة في البيئة المصرية بواسطة عقول مصرية ناضجة . فلا يكفي أن يقال إن البلاد المتمدينة التي سبقتنا قد قامت بأعمال ما ، واتخذت طرقاً معينة في سبيل الإصلاح فيما يتصل بالزراعة والصناعة وتحسين الصحة وإصلاح التعليم وترقية المجتمع وتنظيمه ، وإن علينا أن ننقل صورة من ذلك كله إلى بلادنا ليتم لنا هنا بذلك ما تم لهم به هناك .

ذلك لأن لكل أمة مميزاتها ، ولكل بيئة خصائصها ، ولكل كائن حي خواصه ، والإصلاح لا يمكن أن ينجح ويثمر إلا إذا بني على هذه الخصائص وتلك المميزات . وهذا يقتضي أن نقتفي أثر الأمم التي سبقتنا ، فنخصص لكل من مرافق الحياة رجالا يتوافرون على البحث ، فيتعرف فريق منهم بطرق علمية دقيقة على خصائص التربة المصرية ، ومن ثم يهدوننا بعد التجارب العديدة التي يجرونها بأنفسهم إلى خير الطرق وأنجعها في إصلاح الأراضي بمختلف أنحاء القطر ؛ كما يدرس فريق آخر المحاصيل المصرية ، ويجرون أبحاثاً وتجارب تدلنا على كيفية تحسينها نوعاً ومقداراً بما يضاعف الإنتاج ويرفع الأسعار .

وينقطع فريق إلى المواشي أو إلى الدواجن ليرسم لنا بعد الدرس والبحث طريقة تحسين نوعها والإكثار من إنتاجها كذلك . وآخرون يدرسون الآفات التي تنتاب المحاصيل ، والحشرات الضارة التي تغير على المزروعات وتجعلها هشيما ، وتصيب المواشي والدواجن فلا تلبث أن تقضي عليها ، وتحرم البلاد من ملايين من الجنيهات لإصابة الحاصلات

والحيوانات مما كان يمكن تفاديه، لو أن البحث العلمي كان متقدماً وجاداً ومحل عناية كافية ناشئة عن إيمان وثقة به.

ونحن نعلم أن في وزارة الزراعة طائفة من هؤلاء الباحثين الذين يقومون بمثل تلك البحوث، ولكننا نعلم أيضاً أن هؤلاء أقل عدداً مما ينبغي؛ كما نعلم أن كثيراً من هيئات البحث هذه تستطيع أن تضاعف نشاطها وإنتاجها وتعمم فوائدها، لو أن الحكومة أجابت طلباتها ولم تضن عليها بالأموال والأراضي والحيوانات والخامات والآلات والأدوات اللازمة. ونحن لا نعرف ناحية من نواحي صرف المال أجدى ولا أنفع من صرفه على البحث العلمي.

ولعل ما أسدته تلك الأقسام الفنية من خدمات جليلة، وما لا تزال البلاد تئن تحته من أرزاء زراعية، وما أسدته البحوث الطبية من خدمات جليلة، وما لا تزال البلاد تئن تحته من أرزاء صحية، لعل في ذلك ما يحفز الحكومة إلى أن تزيد عنايتها بالبحث والباحثين، وتكون أسخى نحوها في البذل والرعاية.

ونود أن تعم هذه العناية والرعاية جميع المرافق، فهناك — مثلا — ناحية من نواحي البحث العلمي لا يكاد يوجد لها أثر في مصر، وهي البحوث النفسية والتربوية، مع أننا لا نعرف شيئاً عن خصائص العقل المصري، وكانت النتيجة أننا لا نصدر في كل محاولاتنا الإصلاحية التعليمية إلا عن مجرد التقليد؛ ولم تعرف مصر للآن المنشآت التعليمية التي يقصد فيها إلى تجربة مختلف الطرق والأساليب والانتفاع باختبارات الذكاء المصرية، مما ينبغي أن يقوم به رجال التربية في مصر إذا أريد النهوض بالناشئ المصري، وبالمدرسة المصرية التي لا تزال تسير في مجموعها طبقاً للنظم القديمة، محرومة من كل تجديد مبني على التربية الحديثة، وقائم على نتائج بحوث علمية مصرية.

* * *

وبعد، فإنا نرجو أن يكون القارئ قد أدرك مما تقدم في مقالينا، أن أعظم عامل من عوامل الترقي والتقدم في العصر الحديث في كل ناحية من نواحي النشاط الإنساني هو البحث العلمي المنظم، وأن الأمم والهيئات لا يمكن أن تصل إلى علاج ناجح لأية مشكلة أو عيب أو آفة إلا إذا مهدت لذلك بسلسلة من البحوث الوافية، التي تتناول كل عامل يصح أن يكون ذا أثر في تلك المشكلة أو العيب أو الآفة المراد التغلب عليها، وعلى نتائج تلك البحوث المستفيضة يجب أن تبنى الاقتراحات التي تقدم لطرق المعالجة والإصلاح.

وما لم يؤمن رجال الحكم ومن بيدهم مقاليد الأمور بتلك الحقيقة فستظل نبني على غير أساس، ونصرف الأموال سدى، ونضيع الجهود هباء.

ومما يؤسف له أن الذين يقدرون أهمية البحث العلمي كان عددهم قليلا إلى عهد قريب، فأغلبية الناس تستكثر صرف الأموال في جهود تتوقف نتائجها في كثير من الأحوال على مجرد الصدفة؛ وينسى هؤلاء أن من أهم عوامل التوفيق في البحث مقدرة الباحثين وبعد نظرهم ونفاذ بصيرتهم، وهذه صفات يحتاج معظمها إلى الخبرة والمران، وهذان لا يتوافران إلا لمن يدأب على البحث ويستمر فيه، ويغالب صعوباته. فأنت ترى أن خلق جيل من الباحثين يكلف الدولة مالا كثيرا في أول الأمر؛ وقد يبدو لقصار النظر أن إنفاقه سفه وعبث، لكن بعيدي النظر يدركون أن خلق هذا الجيل أمر لا مناص منه، وأن تأجيله إن هو إلا تأجيل لأكبر عامل من عوامل رقي الأمة وتقدمها تقدماً مبنياً على أسس سليمة وبأساليب تضمن النجاح.

فمن الخير إذن ألا نضن بالمال نصرفه في خلق جيل من الباحثين في جميع نواحي الحياة العملية وشتى مسالكها؛ ولا يغيبن عن البال أن المال اللازم لهذا الغرض لا يقتصر على تدبير مرتبات الباحثين، وإنما يتطلب كذلك مدهم بالمال

عالم الطبـــاعة

عوامل مختلفة تحفزنى للتحدث عن الطباعة ، ندرة الحديث عنها بيننا ، وفائدة مثل هذا الحديث ثقافياً وتاريخياً ، ثم سلخى خمسة وعشرين عاماً متواصلا فى عالمها ، عاملاً ومعلماً واختصاصيا .

فما هى الطباعة ؟ ليس من الكفاية أن نعرف أنها من أشرف الصناعات وأرقاها ، وأوثقها صلة بالثقافة ، وأصدقها تمثيلا للحضارة ، فهى فى الحقيقة من أبلغ النعم على البشرية ، عارفُها قليل وجاهلُها كثير ؛ ولولاها ، وهى التى ظهرت على يد جان غوتنبرغ فى أواسط القرن الرابع عشر ، لظلّ العالم سادراً فى دياجير الجهالة ، راسفاً فى قيود القناعة ، وإلى هـذه الحقيقة مردُّ جملة (هكذا انبثق النور) التى تُطالع الناظر إلى تمثال غوتنبرغ فى مدينة ستراسبرغ ؛ فالطباعة نورٌ طلع على الأفكار بعد طول الانتظار ، ثم لم يلبث أن كشف عنها غياهب الأباطيل والأوهام ، التى تكاثفت مع مرّ العصور بسعى الإكليروس وأنصاف الآلهة من الحكام والأغنياء . ولعمرى ليست الثورات الخطيرة فى التاريخ ، كالثورة الإنجليزية والفرنسية والروسية ، وهى التى دكّت صروح البغى والجور معلنة حقوق الإنسان والعدل الاجتماعى ، إلا أثراً من الطباعة التى غذّت التفكير والشعور فى العالم بعد نشرها العلم والعرفان .

كان العلم وقفاً على أفراد قليلين فى كل أمة لا يتجاوزهم إلى غيرهم ؛ كان احتكاراً وامتيازاً للطبقة الأرستقراطية ، والإكليروس خاصة ، وكانت الأسفار والكتب المخطوطة من الغلاء والندرة بحيث يصعب اقتناؤها والتوفّر على مطالعتها ؛ فلما أن انتشرت المطابع وانتثرت فى البلاد ، وشاع العلم وذاع ، تفتحت العقول بعد الذبول ، ونشطت بعد طول الخمول ، مستقبلة فجر حياة جديدة مغرية لا عهد لها بمثلها من قبل . وهكذا شرع الناس يتفهمون حقائق الحياة على الوجه المعقول ، وراحوا متنادين إلى الحرية والعدل

اللازم لشراء ما يحتاجون إليه من أجهزة وأدوات وأراض وحيوانات وخامات الخ ، وإطلاق يدهم فى العمل استجابة لما توحى به قرائحهم وما ترتاح إليه أمزجتهم ؛ فالحرية وهدوء البال وتوافر العدات من أهم الأسباب فى نجاح رجال البحث فى عملهم الدقيق ، وجهادهم فى كشف مغاليق الطبيعة ، واستنباط وسائل إكثار الإنتاج وتحسين الثروة ، ومكافحة الأمراض وإسعاد البلاد وأهلها بوجه عام .

ولئن فات مصر فيما مضى أن تقـدر البحث العلمى وأهميته كما ينبغى ، فهى الآن قادمة بعد الحرب على فترة من الزمن عظيمة الأهمية تتيح لهـا فرصة نادرة لتعوض ما فاتها ، ولتبنى صرح مستقبلها على أساس من البحث متين . ويجب أن تتخذ عدتها لذلك من الآن ، فتمد رجال البحث الحاليين بكل ما يحتاجونه من رجال وأموال ، وتعمل على إعداد جيل جديد من الباحثين فى النواحى التى تفتقر إلى ذلك ، كناحية الدراسة النفسية ، والدراسات الاجتماعية ، ولتعلم أن أموالا تصرف فى هذه السبيل ستأتى على مر الزمن بربح وفير ونفع عميم .

وبعد ، فإن على رجال البحث العلمى أن يبيّنوا للأمة أهميته ، وأن يتضافروا على إفهام الرأى العام قيمته ، وأن يجاهدوا حتى يظفروا بتأييد الحكومة لهم وإجابة مطالبهم حتى يؤدوا رسالتهم العلمية على أكمل وجه ، ويؤدوا واجبهم القومى والاجتماعى فتطمئن ضمائرهم ، ثم يمضوا فى بحوثهم حتى تجنى البلاد ثمرة جهادهم وتنعم بآثارهم ، وتفاخر بها غيرها ؛ وعندئذ يصح لهم أن يطالبوا بما يطالب به زملاؤهم فى الغرب ، وذلك أن يكون لهم صوت مسموع فى النظم والشئون الاجتماعية والسياسية . ومن الخير لمصر أن تستمع لرجال العلم من الآن ، وأن تساعدهم على نشر الثقافة العلمية ، وأن تقيم نظمها المستقبلة من الآن على ذلك الأساس العلمى المتين .

والمساواة ، ثم فازوا بالوفير مما تمنّوا . ومن أجل ذلك أجمع المفكّرون على أن الطباعة من أكبر النعم على البشرية ، إن لم تكن من معجزاتها ومفاخرها الكبرى .

والناس اليوم ، حين يتناولون الصحف اليومية والدّورية ، أو أحد الكتب والرسائل وغيرها مما تلفه بطون المطابع في كل يوم ، لا يكلفون النفس عناء البحث في هاتيك التضحيات الجسيمة ، والمجهودات الجاهدة التي استُغرقت في سبيلهم ؛ لا ، ولا يخامرهم أقلُّ تفكير في ذيّاك العالم الواسع الأطراف والأكناف ، المنطوى على شتى الفنون والصناعات انطواءه على القرائح العبقرية ، والهمم الدائبة ، والثروات الطائلة .

فهناك الورق ؛ ويكفي ذكر هذه اللفظة الصغيرة لتتمثل الغابات في البلدان النائية تعجّ بالعمال والعاملات ، يسعون وراء الألياف النباتية ذات السيلولوز ، أي مادة الورق الأولى ؛ أو تتخيّل المعامل الصناعية تستخرج تلك المادة من طحن الأخشاب ، والشوّارين في الأزقة يجمعون المزق من الأقمشة ، وقصاصات الورق ؛ ثم تتصوّر الآلات الجبارة تصخب هدّارة بحركتها في مختلف أعمال الصقل والدعك ، والتصفية والتهوية ، ثم التمديد والتجديد ، فالتلوين والتصميغ ، والتقسيم والتغليف .

وهناك الحبر ، وهو أشكال وألوان ، ولكل شكل توابع ، ولكل لون عِلمٌ وفلسفة ؛ ولابدّ لصنعه من موادّ أولى ، منها الصلب والرطب ، والبسيط والمركّب ، ومنها المعجونات والزيوت ، والأملاح وجواهر كيمياوية أخرى . وكلُّ ذلك يؤتى به متفرقاً من أطراف المعمورة ليخضع لأعمال متباينة من الهيئة الفنية . ولقد زادت خطورة الحبر ومعامله بازدياد أنواع الطباعة وفروعها ، ولا سيما الطباعة الملوّنة التي تتطلب أنواعاً معينة بتركيبها ومزجها ؛ أضف إلى ذلك تقدّم فن الصحافة في العهد الأخير وتضخّم إنتاجها ، واستلزام مثل هذا التضخم من الحبر ما يكاد يحير الفكر ، حتى أن صحيفة واحدة في باريس تستهلك طنا ونصف الطن في اليوم الواحد ، لا في السنة ولا في الشهر ! ...

وهناك الحروف وتوابعها على اختلاف اللغات ، ويدخل في صنعها الرسم والحفر ، ويُستخدم للأمهات الدقيقة فيها معدن الفولاذ ، كما يستخدم لها بصورة عامة الانتيموان لاستقامة متانتها ، والقصدير لحصول لحمتها ، والرصاص للجمع بين المادتين .

فهل يفكر أحدنا في هذا العالم الواسع المؤّار بالحركة الدائمة ؛ هل نفكّر في هؤلاء العمال منضّدي الحروف والمشتغلين بالسكب والسبك والحفر ، الذين يدلفون إلى القبر بذات الصدر في ريعان العمر ؟ ثم هل نفكر في هاتيك المراحل المتعدّدة المتسلسلة التي لا غنى لكل نوع من أنواع المطبوعات من اجتيازها قبل أن تصبح في متناول الأيدي وقيد الأنظار ؟

وإذا كانت الطباعة كما قدمنا نعمةً بين البشر ، فإنها في حدّ ذاتها صناعة وفن معاً ، لأنها ليست وقفاً على العمل اليدوي تتبع أساليب آلية متداولة باستطاعة أيّ كان أن يتوفر عليها بقليل من المرانة والممارسة ، ولأن جلة فنون متصلة بها ، وإذا كانت كذلك فهي أيضاً من معجزات هذا العصر بما انتهت إليه من الرقي والتنوع والتوسع ، فضلا عن أثرها القوى في حياة البشر فرادى وجماعات . وهل أدل على ذلك من صورتها في البداية والنهاية؟

إن فكرة غوتنبرغ مخترع الطباعة أخرجت على صورة تلوح لنا اليوم إلى لعب الأطفال أقرب منها إلى الجدّ والإبداع : طاولة حقيرة تستقل صفحة من الخشب محفورة على شكل الحروف ، تُطلى بمزيج من الزيت وسواد الدخان لتمرّ عليها فيما بعدُ صودانة ضاغطة . وكفى ... تلك صورة ساذجة ربما مرّ بها أطفالنا اليوم متهقهين ؛ ولكن هذه الصورة ما لبثت أن استحالت إلى صورة رائعة حافلة بالعظمة والجلال . فهو ذا عالم الطباعة اليوم يعمل ألوف وألوف بعقولهم وقرائحهم وهممهم ، وتستخدم المعامل والأحراج والقطارات والبواخر والطائرات وسائر

الملك الضـــليل

قرأ الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين قصة «الملك الضليل» للكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد أبي حديد فأعجب بما فيها من تصوير دقيق وأسلوب رائع ، فبعث بهذه الأبيات الرائعة إلى كاتب هذه القصة البليغة يحيّيه بها ، ويحييه على هذه الهدية النفيسة ؛ قال :

أبان عن ظلمه للعلم والأدب
من أنكر القَصَصَ المالى على العرب
إن الخيال وليد الشرق فيه حَبَا
وفيه شبّ ، وحتى الآن لم يشب
ما طار عن أفقه الشرق منتقلا
للغرب إلا شكا أشــواق مغترب
هــذا «فريد» وهذى عبقريته
تجلى روائعها فى قصــة عجب
سمت خيالا ودقّت صــورة فرأت
مصورًا «الملك الضلّيل» عن كثب
حتى تخيلت والأحــداث غائبة
أن الوقائع رأى العين لم تغب
وفى البراعــة لو أحكمت صنعتها
ما يحتقر الريش لو حــلوه بالذهب
نقلت عصراً إلى عصر فأىّ رُقى
وأى سحر بعيد الدهرَ فى الكتب ؟
أجابك العصر من سحر دعوت به
ولو دعــوت بغير السحر لم يُجب
فلو رآك ابن حُجْر ما بكى أسفاً
لفقد مُلك ولم يحفــل بقتل أب

أحمد الزين

المخترعات . وصار من شأن المطابع أنها تخرج فى كل يوم من المطبوعات المختلفة ما يكاد لو قيس بالدنيا طولا وعرضاً ، وما لو عُدل بالجبال وزناً وثقلا لفاض وزاد ؛ بل غدونا إلى حال لا غنية لنا فيها عن الطباعة فى كل شئون حياتنا العامة فى السلم أو الحرب ، وفى الجدّ أو اللعب ، وأمسى شعار العصر : «كل شئ فى الطباعة ، والطباعة فى كل شئ» !

لقد تطوّرت فنون الطباعة وتنوعت بحكم تطوّر الفنون والعلوم . وأخصّ طرائقها فى رأينا ما يأتى :

أولا : التيپوغراف . وهو العنصر الأساسى لأنواع الطباعة أو الأخ البكر لما جاء من بعده . يرجع فضله الأول إلى جوتنبرغ مخترعه . ويلخّص باستعمال الحروف المتحركة ، ولقد تقدّم تقدّماً عظيما بعد اختراع آلة «اللينوتايپ» الكفيلة بجمع الحروف ميكانيكياً بسرعة تشده العقول ، وإبرازها دواماً محافظةً على جدّتها .

ثانياً : الليتوغراف ، ومخترعه «سينيفلدر» فى أواخر القرن السابع عشر ، وهو عبارة عن الطبع على الحجر ، أو على الزنك ، وفى هذه الحال يدعى بأوفست . وأغلب ما يستعمل فى عمل الصوّرات والمطبوعات الملونة .

ثالثاً : الروتوغرافور أو الهيليوغرافور ، ومعناه «الطباعة بواسطة الشمس» . ويعزى اختراعه إلى «كارل كليتش» النمسوىّ المولد ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، فهو بهذا أحدث أنواع الطباعة عامة ، بل هو فى الحقيقة أرقاها لمزاياه المفردة ، كإبراز التباين فى ألوان الصور بشكل لا يختلف فى شئ من الأصل ، وكإمكان استخدام الورق الردئ فيه دون ما تأثير على الطبع ، وكالتلاعب فى عرض الصور والكتابات طبقاً للذوق المرغوب ، وكالنشاف السريع فى حبره .

فإذا أضفنا إلى ما تقدّم تقدّم هندسة الآلات الطابعة وفنّ الزنكوغراف ، وفنّ التجليد ، وطباعة الفوتوتيپ والأنالين والناغر ، والطباعة على البلور والمعادن والأقمشة والأخشاب وغيرها من مستلزمات حضارتنا ، تبين لنا أيةُ عظمة بل أية معجزة تواجهنا حين نرسل الفكر جوّالاً فى عالم الطباعة بهذا العصر .

وجيه يغمور

على هامش مؤتمر الأدباء

. . . كان المجلس من تلك المجالس التي يختلط فيها الجد بالهزل ، والحديث فيها ذو شجون وفنون ؛ وكان البحث يدور حول مؤتمر المحامين الزمع عقده في الصيف القريب ، والآمال التي نعلقها على نجاحه ؛ ثم انتقلنا إلى الكلام عن المؤتمرات العربية وفوائدها إذا تعددت ، وآثارها الحميدة في القضية العامة والوحدة المنشودة ؛ وإذا بسائل يقول :

— وما قولكم في مؤتمر الأدباء الذي يدعو إليه صديقنا الأستاذ النجد ؟

فتصدى أحد الإخوان للإجابة وقال بصوت جهوري :

— فكرة جليلة حقاً ، وخليق بها أن تتحقق ، لولا العقبات التي تعترضها ، والتي لا حل لها على ما أعتقد ...

ثم تابع كلامه بهدوء بعد أن استرعى الانتباه إليه قائلا :

— كلكم يعلم أن المحامين توحد بينهم « الأرواب » السود ، وأن الأطباء يرمز إليهم « بالأقنعة » البيض ، فما الذي يربط بين الأدباء ؟ ! ...

فكاد صوت الجميع أن يكون واحداً عندما وجدوا الجواب على ألسنتهم فلفظوه صائحين :

— القلم ... القلم ... القلم ...

حسناً ، يا أصدقائي ، فهذه هي العقبة الأولى ، لأن « الأرواب » لا يلبسها إلا أصحاب « الميزان » ، والأقنعة لا يستعملها إلا رفاق « الجمجمة » ، أما الأقلام فمن يحملها ؟

إني أخشى يوم ينعقد المؤتمر هجوما على « سوق السكية » لنهب ما فيه من أقلام ...

فضحك الجميع لهذه النكتة . ولكن المحدث استمر في حديثه جاداً :

— وكلكم يعلم أن « سوق السكية » زاخر بأنواع الأقلام : فمن حبر إلى رصاص ، ومن شمع إلى حجر ، ومن ماس إلى فحم ، ومن خشب إلى قصب ، ومن ذات لون إلى ذات لونين ، ومن ذات الرأس إلى ذات الرأسين يكتب بالواحد ويمسح بالآخر ، ومن مقنعة إلى سافرة ، ومن أقلام « الدعاية » الضخمة إلى أقلام قد تضيع في جيبك لطفا وصغرا ، إلى آخر ما هنالك من أنواع منها الغالي ومنها الرخيص ، ومنها العزيز ومنها المبتذل ؛ فهل سيكون المؤتمر يا ترى معرضا يجتمع فيه كل من يستطيع أن يبرز عند البـاب قلما مهما كان نوعه وجنسه ؟ ! أو أنه سيكون وقفاً على حملة نوع من الأقلام دون بقية الأنواع ؟ فإن قلتم بالفكرة الأولى فهل سيختلط هناك الحابل بالنابل ، أو أنه سيشرف على المؤتمر رجال مهمتهم الفرز والتصنيف ؟ فإن كان هذا أفلا تعتقدون معي بأن مهمة التصنيف مهمة شاقة ، وأن قاطع التذاكر على باب المؤتمر لا بد من أن يكون من كبار تجار الأقلام الملمين بكافة الأنواع المعروفة وغير المعروفة ؟ ! وأين نجد مثل هذا التاجر الكريم الذي يتبرع للمؤتمر بوقته الثمين في مثل هذه الأيام التي تنهال أرباح الحرب على التجار ؟ ...

هـذه يا إخواني العقبة الثانية ، فإن اجتزناها فهنالك العقبة الكؤود التي لا . . .

وضاع صوت المحدّث بين ابتسامات البعض وقهقهة الآخرين ؛ وخرج المجلس عن وقاره الموقت ، واختلطت أصوات الجادين بالهازلين ، والمؤيدين لفكرة المؤتمر النبيلة بالمتهكّمين ... فما كان مني وقد أصبح جو الغرفة المحصور مما تضيق معه الصدور ، إلا أن انسللت من المجلس إلى الشرفة حيث أخذت أمتع عيني بمنظر دمشق الرائع ، وقد بدت في الليل كالعروس ليلة زفافها ، ما تركت أهلها وأصدقاؤهم حلية يملكونهـا أو قدروا على استعارتها إلا وقد حلّوها بها كيفما اتفق ، وأينما وجدوا مكاناً خالياً من جسمها أو ثيابها ، حتى ناءت بحملها فاستلقت على بساط من الزبرجد الأخضر ،

واتسكأت على سفح قاسيون ، وقد انفرط بعض عقودها فانتثرت الجواهر واللآلئ على البساط هنا وهناك ...

ويظهر أن النسيم الذي كان يلطف الجو القائظ جعلني أرغى على مقعد كان بجانبي ، فإذا بالنعاس يداعب أجفاني ، ثم كانت غفوة ، ولكنها غفوة قصيرة فاجأني أثناءها أحد الأصدقاء حاملا بيده صحيفة ، وقال اسمع ماترويه آخر صحف المساء عن مؤتمر الأدباء :

« ... مازال الأستاذان دريني خشبة الكاتب المصري اللامع ، وصلاح الدين المنجد الأديب السوري المعروف ، بعد أن تبرعا بالقيام بأعمال التحضير لمؤتمر الأدباء ، الذي فاتنا أمس أن نشير إلى إمكان انعقاده قريبا في محل ما من الأقطار العربية ، يواليان اجتماعاتهما لدرس كل مايتعلق بالمؤتمر ؛ وقد علم محررنا الخاص أن الاتفاق بين الأستاذين تم على النقاط التالية :

١ — يتولى الأستاذ خشبة أعمال الرئاسة على أن يقوم بالدعاية اللازمة لنجاح المؤتمر .

٢ — يتولى الأستاذ المنجد أعمال أمانة السر العامة ، على أن يقوم بتسجيل أسماء المشتركين وتصنيفهم وإعطائهم بطاقات الانتساب .

٣ — يتولى الأستاذ « فواز [1] » شؤون المؤتمر الماشية ، على أن يقوم بتهيئة موائد أنيقة من صيده الفاخر .

٤ — يتولى الأستاذ « الربيع [2] » مهمة الإرشاد والوعظ ، على أن يقوم بمهمة إمام عام في المؤتمر .

٥ — إرسال كتب مضمونة إلى كل من الأساتذة : العقاد ، والكردعلي ، وأمين ، والحصري ، وحسين ، وجبري ، والزيات ، ومردم ، والحكيم ، والطنطاوي ، وهيكل ، والعجلاني ، يرجى منهم فيها نفي ما يشاع عن عدم رغبتهم في تعضيد المؤتمر والاشتراك فيه ، مع التكرم بتهيئة كلمات أو قصائد تناسب المقام لتلقى باسم كل منهم في حفلة الافتتاح .

... وبعد كتابة ماتقدم تلقينا من الأستاذ المنجد أمين سر المؤتمر الدعوة التالية :

تتشرف اللجنة التحضيرية لمؤتمر أدباء العرب بدعوتكم لحضور حفلة الافتتاح التي ستقام نهاراً في المحل المعد لذلك ، راجية مؤازرتها بحضوركم ولكم خالص الشكر .

برنامج الحفلة

١ — نشيد « بلاد العرب أوطاني » يلقيه أعضاء اللجنة التحضيرية مجتمعين

٢ — كلمة الرئيس وموضوعها : « فصل الخطاب في تنشيط أدباء الشباب »

٣ — خطاب أمين السر العام وموضوعه : « الحجج والبينات في فوائد المؤتمرات »

٤ — محاضرة لمدير إعاشة المؤتمر وعنوانها : « أدب الشام المعاصر عنك شاعران وناثر »

٥ — خطبة بليغة لإمام المؤتمر وموضوعها : « مناقشة أرباب العمائم في ابتكار الرقى والتمائم »

٦ — تختم الحفلة بوقوف المؤتمرين وإنشاد القصيدة التالية :

« نحن الشباب لنا الغد » .

حاشية مهمة أن ... »

وقبل أن يتم صديقي قراءة الحاشية المهمة ، سمعت انفجاراً شديداً من الضحك المكبوت فانتبهت ، فإذا بالإخوان جميعهم قد أحاطوا بي وهم يصيحون :

— أين أنت ؟! لقد وصل صديقنا إلى العقبة الخامسة من عقبات مؤتمر الأدباء !! ...

هل كنت تبتسم وأنت نائم ؟ !؟ ... هل كنت تحلم !! ...

فغلبني الضحك وأخذت أروي لهم آخر الأنباء ...

دمشق — عدنان الخطيب

(١) كاتب الثقافة عدد ٢٧٧ وما قبله

(٢) كاتب الرسالة عدد ٥٦٥

من قصص أندرسون :

زهرة السماء

La Fleur Du Ciel

طار ملك فى عليين ، فى صفاء الأثير من جنة الخلد ، وبيمناه زهرة طبع عليها قبلة طويلة ، فسقطت منها ورقة إلى الأرض ، وسرعان ما امتدت جذورها فى إحدى الغابات ، وسمت فروعها وسط الخمائل .

ولكن كل أنواع النبات أبت أن تعترف بها ، وعدتها شذوذاً لا يستقيم . وكان أول ما سخر منها أشواك السعدان ، وأعشاب القُرّاص(١) . فقال السعدان ساخراً : « من أين جلبت هذه ؟ ! لعلها بعض هجين النبات ! » وهمس القراص : « ما أسرع ما تنمو ! أظن أننا سنسندها إذ تميل ، ونحفظها حين تعيا على التماسك ؟ ! » .

وجاء الشتاء ، وغطت الثلوج وجه الأرض ، ونشرت زهرة السماء على الثلج ضياء بهيجاً ، كأن أشعة الشمس تخللته فأشرقت جوانبه .

وفى الربيع حملت تلك النبتة زهرة لم تر الأرض مثلها . وأخبر بها عالم النبات بتلك الجهة ، فأسرع إليها مزوداً بشهادات تنبئ عن غزير علمه ، ففحصها ، ودرسها ، وذاق أوراقها ، إنها لا تشبه شيئاً مما درس ، ولم يجد لها جنساً تندرج تحته ، ولا أصلا تتشعب عنه ؛ فقال : « تلك وحشية شاذة ، لا تدخل فيما عرفنا من نظم النبات » . فردد قوله السعدان والقراص ، ولكن الدوح رأى وسمع ولم ينبس بخير أو شر ، فمثل دور العاقل الحكيم .

وزارت الغابة فتاة صغيرة بائسة ، طاهرة القلب ، نقية السريرة ، قد تم ذكاؤها ، وكمل إيمانها ، لا تملك من الدنيا غير كتاب مقدس تناجى به الله ؛ فخبرت الناس ، وأدركت خبث طويتهم ، لكنها تعلمت أنه ، عندما يدهمنا شرهم ويؤذينا جهلهم ، ويسخرون منا ، يجب أن نتذكر المثل العليا من عباد الله المخلصين الذين أوذوا فقالوا : « ربنا اغفر لقومنا فإنهم لا يعلمون » .

وقفت الفتاة أمام نبتة السماء ترسل أريجها يعبق به الهواء ، وتلمع أزهارها الحمراء على أشعة الشمس كأنها صيغت من لهيب ، ويداعبها النسيم فترسل حفيفها أنغاماً شجية كأنها تهبط من السماء ؛ فوقفت الفتاة دهشة أمام تلك الأعجوبة ، ومالت عليها تتأملها وتتنسم عبيرها ، فأحست كأنما انتعش قلبها ، وأضاءت روحها بالحكمة العليا . وأرادت أن تقطف زهرة ، ولكنها فكرت أن شرا عظيما أن تذوى مثل هذه الزهور ، فأخذت ورقة صغيرة منها ، ووضعتها بين صفحات الكتاب المقدس ، فبقيت خضراء نضرة ، تضوع وتندى .

وبعد أسابيع وضع الكتاب بما فيه تحت رأس الفتاة المضطجعة فى لحدها ، حيث استراحت ، وعلى وجهها الوديع أمارات السعادة ؛ إنها حررت من دنس هذا العالم ولبت نداء خالقها .

وفى أثناء ذلك نمت الشجرة وأزهرت ، فكان الطير ينحنى لها تحية وإجلالا ، فيعيبه السعدان والقراص : « واها لهؤلاء الحمقى الذين يسرفون فى التكريم والإجلال ، معاذ الله أن نتخلق بهذا الخلق » . ثم مر أحد الرعاة يجمع الحطب للنار ، وأخذ يقتلع الأشواك ، ثم اجتث تلك الشجرة الجميلة وهو يقول : « إن مثل هذه تكون طيبة فى إنضاج الطعام » .

ولكن ملك البلاد خيم عليه حزن أسود تعذر منه الشفاء ، لقد حاول أن يتخلص منه بالانغماس فى شئون شعبه ، وبتصفح الكتب القيمة ، ثم المؤلفات الملهية ، فلم يفلح ؛ فتوجه إلى حكيم ذلك الزمان ، فأشار بأنه لا طريقة لشفائه إلا بورقة من زهرة السماء ، التى نمت فى بلاده . ثم وصفها فتحركت الرغبة منذ ذلك إلى استطلاعها .

فقال الراعى : « ويل لى ! لقد اقتلعتها ، ولم يبق منها إلا رماد تذروه الريح ، هذه جناية الجهل ! » . وخجل

(١) نبات عشبى Les Orties .

منتقات

كيف تقرأ

إذا طفقت — وأنت تقرأ — تنظر إلى الساعة متمنياً أن ينقضي الوقت ، أو أن يأتي أحد أصحابك لينقذك من مصابك ، فإن أليق الأوصاف بهذه القراءة هو « القراءة الشنيعة » .

ولكي تكون القراءة ذات ثمر فإن على القارئ أن يخلص الرغبة حتى لتكاد تنساب روحه فيما يقرأ ، وحتى لتظن أن موعد الغداء قد تقدم ساعتين قبل أوانه .

فإذا كان ما تقرأ تاريخ روما للمؤلف الروماني ليفي Livy ، سمعت بأذنيك صوت الأوز الذي كان سبباً في إنقاذ الكابيتول ؛ ورأيت بعينيك الباعة من أهل قرطاجنة يجمعون ما يصل إلى أيديهم من خواتم سادات روما وفرسانها في حرب Cannae (وهي الحرب التي انتصر فيها هانيبال على الرومان عام ٢١٦ قبل ميلاد المسيح) ليصنعوا منها المكاييل .

وحتى لتستغرقن في القراءة ، فإذا دق الباب عليك طارق قلت : عليك الأمر فلم تدر أأنت تقرأ في كتاب أم أنت في سهول لباردي تنظر إلى هانيبال وقد لفحت وجهه السمائم ، وتنظر بإعجاب إلى شدة بريق عينه الواحدة .

فهذه القراءة التي وصفنا هي القراءة الربحة المنتجة . وهي القراءة التي تكون المرء بمثابة ساقين يحملانه ، وهو لا يخشى ضيقاً ولا عنتاً !

مبارك ابراهيم

النشار أم الشاب الظريف ؟

في العدد ٢٨٤ من « الثقافة الغراء » تساءل الأستاذ عبد اللطيف النشار عن النص العربي لشعر مترجم إلى الإنجليزية ، أعاده الأستاذ مترجماً إلى العربية بقوله : « إن خالها الصغير الأسود على خدها يشبه عبداً صغيراً اختبأ في حديقة ليختار منها باقة ، فانظر إليه وحواليه من كلا الجانبين وردة بين السوسن الأبيض » .

والنص العربي لهذا الشعر هو قول الشاعر :

وَبَيْنَ الخَدِّ والشَّفَتَيْنِ خَالٌ
كَزِنْجِيٍّ أَتَى رَوْضاً صَبَاحَا
تَحَيَّرَ في الرِّيَاضِ فَلَيْسَ يَدْرِي
أَيَجْنِي الوَرْدَ أَمْ يَجْنِي الأَقَاحَا ؟!

وهذان البيتان منسوبان إلى « الشاب الظريف » ، لا إلى النشار في مجموعة مطبوعة من شعر الغزل — صفحة ٥٥ — لا أعرف اسمها لفقد بضع صفحات من أولها ، وإن كنت أرجح أنها هي « مسامرات الحبيب في الغزل والنسيب » ، جمعها بشير رمضان ؛ وليس هنا مجال ذكر أسباب هذا الترجيح .

وإذا كان هناك خلاف يسير بين بيتي « الشاب الظريف » وترجمة الأستاذ النشار ، فلعل مرجع هذا إلى عدم الدقة التامة في نقل البيتين إلى الشعر الإنجليزي . هذا ولا أعرف شاعراً باسم « النشار » غير الأستاذ عبد اللطيف النشار الذي يعرفه القراء .

كوم النور — أمين أحمد العجمي

الزاهي من فعلته ، وأسرها في نفسه ، ولكنه أصاب في اعترافه ، فهل كان العلماء مثل ذلك الصواب ؟ .

اختفت الشجرة الطيبة ، ولم يبق من زهراتها إلا أوراق في قبر الفتاة لا يدريها أحد . وحضر الملك بنفسه ليتأكد من زوالها ، ثم قال آسفاً : « ها هنا كان منبتها ! وفي تلك التربة كان مطلعها ! ليقدس هذا المكان » ، وأحاطه بسور من ذهب ، وأقام عليه حرساً ترعاه . وألف عالم النبات كتاباً شرح فيه خصائص زهرة السماء ، وبين فداحة المصاب بفقدها ؛ وزين الملك صفحات كتابه بالذهب ، وأغدق عليه ، فكان هو الرابح بما دون من أقوال لم تغن من الحق شيئاً !!

ودام الملك شجوه وأساه ، وظل الحرس بؤساء في الغابة ، يضنيهم السأم ويقتلهم الملال .

ترجمة : محمد فتحي همول

صحيفة الفكر :

أعلام الإسلام

١ — ابن العاص ... ... العقاد

٢ — منصور الأندلس ... ... على أدهم

عمرو بن العاص :

الذين قرأوا سلسلة « العبقريات » التي أخرجها العقاد في السنتين الأخيرتين ليسوا في حاجة إلى أن نبين لهم « طريقة » المؤلف في تناول شخصية عمرو بن العاص، فهو حلقة جديدة في هذه السلسلة الموحدة الطريقة؛ ومع هذا فنحن نلخص لقراء هذه الصفحة معالم تلك الطريقة.

لقد عني العقاد — وتلك طريقته في كل كتاباته عن الشخصيات — بأن يبرز سمات كل شخصية دون أن يعنى باستعراض حياتها ووقائع هذه الحياة بالتفصيل؛ وكان حسبه من الحوادث ما يوضح السمات الأساسية، وما يرسم الخطوط الرئيسية.

ويخطئ من يفهم أن هذه الطريقة أقل عناء من الطريقة الأخرى التي تعنى بالدقائق والتفصيلات، أو أيسر مأخذاً، أو أقل مصادر. ذلك أنها في حاجة إلى زكانة قوية، وبصيرة نافذة تفرق لأول وهلة بين الأصل والحشو، وتنفذ بحركة واحدة جميع النوافل والزوائد، وتخلص من ورائها إلى الزبدة واللباب. في حاجة إلى اللمسات البارعة العميقة التي لا تتلمس المراكز الحساسة لمساً، وإنما تقصد إليها توة كأنما تهتدي إليها بحاسة خفية!

ويلاحظ القارئ لكتاب « عمرو بن العاص » قلة الحوادث، ولكنه يلاحظ في الوقت ذاته عمق استنطاقها وبراعة الاستدلال بها، كالقاضي الذي يكتفي في حيثيات حكمه ببعض القرائن الحاسمة، وبقليل من الشهود الذين تصور أقوالهم طبيعة القضية، ويهمل ما عدا ذلك من الأقوال المكررة والقرائن المتشابهة.

وميزة هذه الطريقة أنها تبرز الشخصية المترجمة واضحة بخطوط سريعة، وأنها لا تزحم الطريق بالمعالم، فحسبها منها ما يهدي السائر، وما يدع له فسحة للتمتع بجمال الرحلة، فإن حشد الطريق بالمعالم قد يخفي الطريق نفسه، ويبرز المعالم المكتظة فيه!

نحن منذ الصفحة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى، مع « عمرو بن العاص » لا حشو ولا تطويل، ولا مقدمة ولا تمهيد، فالتمهيد هو نفسه من صميم الموضوع « نشأة عمرو ». نشأته لا لنتتبعها يوماً بعد يوم وحادثة في إثر حادثة، ولكن لنعرف في أية بيئة نشأ، ما قومه، وما قبيلته، وما اختصاص قبيلته. فإذا نحن عرفنا أن « بني سهم » بطن قوي من بطون قريش، وأنه كانت إليهم الحكومة والأموال، وأن هذه الحكومة هي حكومة الكياسة والإبانة لا حكومة القهر والغلبة، وأنهم — مع ذلك — أهل تجارة في حاجة إلى الكياسة والإبانة، كما هم في حاجة إلى المرونة والنظر إلى الحياة نظرة عملية؛ إذا عرفنا ذلك كله من ذلك الفصل، فقد استروحنا ريح عمرو بن العاص، وشممنا مخايله، واستشرفنا — على هدى — إلى طبيعته ومواهبه . . . ومع ذلك فهذا هو الفصل الذي يعد تمهيداً!

وعلى هذه الوتيرة يأخذ المؤلف في رسم الخطوط السريعة لهذه الشخصية صفحة بعد صفحة، وفصلا بعد فصل؛ فإذا لجأ إلى الحوادث فإنما يلجأ إلى الحوادث ذات الدلالة الحاسمة على ما ساقها إليه من صفة أو حقيقة:

عمرو بن العاص رجل عملي يلك أعصابه في أحرج المواقف. ما الدليل؟ حادثة حاسمة أو حوادث حاسمات. حادثته مع عمارة بن الوليد المخزومي الذي يداعب امرأة عمرو أمامه ويهم بها، ويلقي بعمرو في البحر ولا يكتم عنه أنه قصد إلى هلاكه؛ ومع هذا كله يبسم عمرو ويضبط

نفسه حتى تلوح له الفرصة فينتقم الانتقام الواحد الحاسم . .

ويشترك عمرو وأخوه هشام في حرب الشام ، فيستشهد أخوه وهو يهجم على ثلة يتخطف الدافعون من يهجم عليها . فيحجم فرسان العرب عن أن يطأوا جثة المستشهد الكريم . فإذا بعمرو يدعوهم فيدوسها ليهجم ويدوسها الناس بعده . وهذا وحده يكفي في الدلالة . ولكن الوقعة تنتهي ، وإذا عمرو يجمع بقايا أخيه بيديه ويحملها في نطع ليواريها ! . . . الخ .

وهكذا كل سمة وكل صفة وكل حقيقة ... فإذا بنا في النهاية نعرف «عمراً بن العاص» جد المعرفة . نعرفه حتى لنكاد نشهده . فهو رجل ذو عبقرية عملية تهتدي للحركة المناسبة في اللحظة المناسبة ، وتنفذ إلى حقائق الأشياء بما يشبه اللمس القريب ؛ وهو رجل يضبط أعصابه ويسيطر عليها ، ولكن هذا لا يعصمه من البدوات التي يدفعه إليها الطموح والرغبة الملحة ، إلا أنها بدوات مأمونة ؛ لأن الزمام في يده ، فهو مطمئن إلى كبحها في اللحظة المناسبة . وهو رجل داهية مداور ، ولكن هذا لا يمنعه من الصراحة والمكاشفة ، كاللاعب الماهر الذي يكشف بعض حيله في اللعب وهو واثق من الفوز لتفوقه ، ولرصيد المكنوز له من الحيل الأخرى . وهو رجل شديد الاعتزاز بنسبه — نسب أبيه — لأن في نسبه لأمه مغمزاً يتقيه . . . إلى آخر هذا التحليل والتجسيم الذي يقيم شخصيته بارزة مكشوفة ، يسهل تمييزها من بين مئات الشخصيات التي تبهمها أو تقاربها على السواء .

ودراسة «عمرو بن العاص» قد كشفت لي عن وجه من عظمة «محمد» ، لم تكشفه لي دراسة أبي بكر وعمر وعلي وعائشة !

لقد وسع محمداً أن يكون هؤلاء ، وغيرهم من العظماء — على عظمتهم — كواكب في فلكه العظيم ؛ ووسعه أن يوجه جميع قواهم المدخرة للخير والبناء . ولكن هؤلاء وسواهم كخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبي وقاص . . . كان في نفوسهم خير أصيل ، وكان عمل محمد هو توجيه هذا الخير وجهته القويمة .

فأما عمرو بن العاص . فهذا هو الرجل الذي خلت نفسه من الخير العام . كان قوة ولكنها قوة أثرة لا أريحية لها ولا غيرية فيها . ومع هذا تمت المعجزة ووسع محمداً — عليه صلوات الله — أن يستخدم هذه القوة في سبيل الخير العام ، ووسعه أن يثير ما فيها من حرص وأثرة لتصنع على أساسهما شيئاً للإسلام ، وشيئاً عظيما في الحقيقة ، دون أن تنحرف — مع هذا — عن الطريق السوي والخط المستقيم ما دام محمد حياً . حتى إذا مات ، وحتى إذا انتهى عهد العمالقة وجاء عهد الأقزام ، عهد معاوية وأمثاله ، ظهر عمرو ابن العاص كما هو . هبط إلى مستواه الذي رفعه منه محمد إلى مستوى الخير العام ! .

تلك معجزة . وكم لمحمد مثلها من معجزات .

ثم يسوقنا هذا الحديث إلى نقطة لم أستطع إلا أن أختلف فيها مع الأستاذ . وهي إحدى نقط كثيرة كنت فيها معه على خلاف ، حتى إذا ذاكرته فيها اقتنعت بأحقية ما ذهب إليه ، إلا هذه فقد بقيت على ما كنت عليه قبلها .

إنه يسلك «عمراً بن العاص» في العظماء . و «وعمرو» كان «يستحقها» بضخامة مواهبه وباسق أعماله وفسحة خطواته ، لولا أن «العنصر الخلقي» مفقود فيه . والعنصر الخلقي عنصر أساسي — في اعتقادي — في كل عظمة حقيقية ، ولا تستطيع أية مزايا أخرى أن تثبت العظمة لإنسان وهذا العنصر الأساسي مفتقد . فعمرو بن العاص — عندي — عبقري ولكنه ليس عظيما . فالعبقرية قد تكون للشيطان نفسه ، وإنه لعبقري كبير !

* * *

منصور الأندلسي :

الذين قرءوا كلمتي في «الثقافة» عن طبيعة الأستاذ علي أدهم وطريقته حينما استعرضت كتابه «تلاقي الأكفاء»

يستطيعون أن يتبينوا بسهولة تلك الطريقة نفسها في كتابه الجديد « منصور الأندلس » ، مع شيء من التعديل الذي يقتضيه الإقرار بالنضوج والتجويد البادين في كتابه الجديد .

وأنا أذكر هنا مجمل ما قلته من قبل عن خصائص الأستاذ أدهم في بحوثه :

« هو من كتابنا القلائل الذين يحتفلون بما يكتبون ويتهيئون له ، ويتحرجون من التقصي الناقص والحكم المرتجل ، ويدققون فيما يأخذون وما يدعون . ومن خصائصه الخبرة بالنفس الإنسانية والفطنة إلى دوافع الحياة الأصيلة ، والاستعداد لتلقي النماذج البشرية كما خرجت من يد الطبيعة . ولكن ملكة الاختيار والتنسيق في دراساته لا تبرز كما تبرز ملكة الفحص والتقصي ، وهي كذلك في حاجة إلى مزيد من اللمسات القوية المباشرة التي تعمد توا إلى جوهر الموضوع وروحه ، وكأنها تهتدي إليه بالبداهة أو بحاسة خفية لا تتعثر ولا تتلعثم . . . الخ »

وليس لديّ ما أزيده — بمناسبة هذا الكتاب — على مزايا الأستاذ أدهم ، ولكني مطالب بأن أبين أن معظم ما كنت آخذه عليه قد اختفى في الكتاب الجديد ؛ فالمزايا الطيبة تكاد تبرز وحدها ! وهذا البيان إنما هو تنفيذ للعهد الذي قطعناه في صحيفة النقد بأن نتتبع كل مؤلف مع القراء ، لنسجل خطواته الجديدة وما فيها من تقدم أو تخلف .

لقد سرنا معه نقفو خطا « المنصور بن أبي عامر » منذ أن كان طالبا بجامعة قرطبة ، يحلم بالآمال الكبار التي تحسب من مثله الناشئ مثناة ، خرفاً أو جنوناً ، والتي حققها جميعاً في النهاية حينما أصبح « ملك » الأندلس ، وإن لم يصبح « خليفة » !

ولقد عرفنا المنصور رجلا بعيد الهمة ، عظيم الطموح بعيد النظرة ، واسع الحيلة ، قاسياً في إزالة العوائق من طريقه ، يكاد يتبع القاعدة المكيافيلية « الغاية تبرر الواسطة » ، ولكنه فيما عدا هذا لا تخلو نفسه من الخير ، ولا تميل إلى الشر لذات الشر .

وفي الفصول المتوالية التي قسم إليها الكتاب : « أصله ونشأته . الخطوة الأولى . وضع الأساس بدء البناء . في سبيل المجد . في طريق البناء . بلوغ الذروة . السنوات الأخيرة . المنصور والأدب والفن . المنصور في الميزان » عرفنا طبيعة المنصور وخفايا نفسه ، كما عرفنا طبيعة عصره وخفايا أحداثه . ووقف المؤلف وقفة المؤرخ البصير الذي لا تستهويه عظمة من يترجم له فينصب نفسه محاميا عنه ، ولا تحنقه سقطاته فيبدي البواعث المفسرة لها . وهذا طراز من البحث نحتاج إليه في تاريخنا الملىء بالفجوات المبعثرة في المطولات .

كلمة عن طريقتين :

لم يكن مجرد مصادفة أن أجمع بين العقاد وأدهم في مقال . فكل منهما نموذج لطائفة ولطريقة .

فالعقاد نموذج للعبقرية الفارعة ، تصيب أعظم الثمر بأيسر الجهد ، وتهتدي بحاسة خفية إلى الأهداف المطلوبة ، وتبلغ باللمسة المباشرة إلى المراكز الحساسة ، فتستغني بذلك عن التلمس والتحسس ، ويبدو في أعمالها اليسر والبساطة ، وهي عند المحاكاة صعبة عسيرة .

والأستاذ علي أدهم نموذج للملكة العقلية الممتازة تبلغ بالجهد الموصول والكد المبذول حد الإتقان ومدى الإجادة ، وتلم في الطريق بالدقائق والجزئيات في فهم وبصيرة . ثم يبقى الطريق إليها كأنما ميسورا لمن يبذل الجهد ويديم الاطلاع .

وبينما يقف العقاد وحده — حتى اليوم — في طريقته ، يجد الأستاذ أدهم زملاء كثيرين فيمن كتبوا من الشخصيات أمثال الدكتور هيكل والأستاذ عبد الرحمن صدقي والأستاذ حسن محمود ... الخ يتفقون في نوع الملكة ويختلفون بعد ذلك في الدرجة .

والحياة في حاجة إلى النموذجين . ولكل منهما وظيفته التي لا يسد الآخر فيها مسده .

سيد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٨٨ — الثلاثاء ١٣ من رجب سنة ١٣٦٣ — ٤ من يوليه سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مصر غـــدا . .

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

تتردد فى هذه الأيام فى أوربا وأمريكا أصداء صيحات كثيرة ، تعبّر عما فى نفوس العالم من مشاعر قوية أثارتها هذه الحرب الطاحنة ، التى تدور رحاها فى مشارق الأرض ومغاربها . فقد تكشفت أمام أعين الجميع ما تنطوى عليه النظم القائمة من عناصر الفساد ، تلك العناصر التى أدت بالإنسانية إلى هذا النضال الهائل الذى يكلف العالم من الضحايا ما لا يستطيع العقل أن يتصوره ، بعضها ضحايا من الأموال والجهود والموارد التى لا يسهل تعويض العالم عنها ، والبعض الآخر ضحايا عزيزة من النفوس البشرية التى لا تقوّم بالأموال ولا بموارد الأرض كلها .

وهذه الصيحات لا تخلو من نبرات الأنغام الحزينة ، التى تعبّر عن الآلام المبرحة التى تقاسيها الإنسانية المعذبة من الكوارث التى جرّتها على الأمم عناصر الشر الكامنة فى بعض النظم ، وفى بعض الثقافات ، وفى كثير من أساليب السياسة الدولية . ولكن هذه الصيحات لا تخلو كذلك من أنغام أخرى مستبشرة ، تعبّر عن الآمال الكبرى التى تعلقها الشعوب المتمدينة على النظم الجديدة ، التى لا مناص من إقامتها بعد أن تضع هذه الحرب الطاحنة أوزارها ، وتنتصر قوى الحق الجاهد على عواصف الطغيان الجامحة التى لا تعترف إلا بالحديد والنار ، ولا تعرف فى الوجود قانونا سوى قانون الغابة — قانون القوة والبطش والافتراس .

وإنه لما يملأ القلوب ثقة بالمستقبل أن السحب القاتمة التى كانت تلبد الأفق كله منذ سنتين ، قد أخذت تتفرق

رويداً رويداً ، ويلوح من بينها لون السماء الأزرق الصافي ، وأن الأعاصير العاصفة التي كانت تهز دعائم العالم قد أخذت تخبو وتضمحل ، ولم تستطع أن تقتلع تلك الدعائم المتينة التي بنتها الإنسانية على مدى قرون طويلة من جهاد ونضال وتفكير وتصميم .

لقد تنبه ذهن العالم عندما هزته هذه الحرب ، وجعل ينظر ويفحص ويتأمل . ولا شك في أن المحن تحمل دائماً على مقابلة الحقائق في صراحة وشجاعة ، لأن الأمم التي تجالد في وجه الموت لا تستطيع أن تغرر بنفسها وتخادعها ، وتداري عنها الحقائق مهما بلغت من القسوة ، لأنها تعلم علم اليقين أن الآلام المبرحة التي تقاسيها اليوم في جهادها ، ليست سوى نتيجة محتومة لعدم جرأتها في مواجهة تلك الحقائق من قبل في صراحة وشجاعة .

فهناك سيل قوي من التفكير في مختلف ميادين الحياة ، وسيل من الكتب التي ألفها قادة الفكر في أوربا وأمريكا ليعالجوا ما في النظم القائمة من عناصر الضعف ، وليرسموا الخطط لنظام إنساني جديد ، يطلع على العالم ويحقق له أعظم قسط مما يصبو إليه من المثل العليا الإنسانية .

ونحن في مصر في قلب العالم المتمدين كله ، وقد قاسمنا الأمم المتمدينة حظها من الشقة ، وشاطرناها آلامها وآمالها ، وقمنا بجهدنا كله في سبيل نصرتها . لم تكن مصر بمنجاة من هذه الحرب ، وما كان لها أن تكون بمنجاة منها ، وهي بحكم موقعها الجغرافي وعلاقاتها الدولية واقفة في قلب ميدان المعمعة العامة . فكان عمالها يعملون كما يعمل العمال الإنجليز والأمريكان في بلادهم ، وفي خارج بلادهم ، في الميدان الداخلي الذي لا يقل في خطورته عن ميدان جبهة القتال ؛ وكانت مصر تجود لحلفائها عن رضا وطواعية بكل ما تملك من وسائل النصر : من مواصلات ومواني ومؤن ومستشفيات ؛ وتؤدي كل ما تستطيعه من المساعدة على إحراز النصر ، صادرة في ذلك عن روح الولاء لمعاهدتها التي أبرمتها مع حليفتها ، لم تأل في ذلك جهداً ، وهي راضية بكل ما يجره هذا عليها من الشقة ، لأنها تقدر وتدرك أن مستقبلها الذي تتطلع إليه مرتبط بانتصار مبادئ الديمقراطية التي تكفل للإنسان حقوقه الطبيعية في الحرية الإنسانية ، وتكفل للأمم كرامتها واستقلالها . وقد أظهر الشعب المصري في أشد أوقات الخطر ثباتاً وإخلاصاً للشرف ، لا يستطيع أحد أن ينكر سموهما ، ولم يتردد المنصفون من كبار ساسة الأمم المتحالفة وزعمائها في أن يجاهروا بإعجابهم بذلك الموقف النبيل الذي وقفه شعب مصر . فنحن نتطلع إلى ذلك اليوم السعيد الذي يعود فيه السلام بعد انتصار مبادئ الحق والعدالة الإنسانية ، مطمئنين إلى يقيننا في أن المستقبل سيحقق لنا ما كنا نصبو إليه دائماً من الحياة الكريمة في ظل استقلالنا المكفول بالمعاهدة . فليس من الغريب إذن أن تتردد في قلوب هذا الشعب المصري كل صيحات المفكرين في أوربا وأمريكا ، وأن تجيش في أعماق قلوبه أصداء تلك الآلام التي تعانيها البشرية ، وتلك الآمال التي تتطلع إليها شعوب العالم المتمدين جميعاً .

فنحن نردد هذه الأصداء لأنفسنا في خلواتنا ، وفي مجامعنا ، وعلى صفحات جرائدنا ، وإن كان مفكرونا لم ينطقوا بها في سيل من المؤلفات يشبه ما صدر عن أوربا وأمريكا .

نحن على يقين من أن المفكرين والزعماء ، ورجال الحكم والسياسة العملية في مصر يعرفون حقيقة الموقف ، ويتخذون له أهبة من الاستعداد النفسي والفعلي ؛ ولكننا لا نزال نتطلع إلى التعبير الصريح عن كل ما في نفوسنا ، ولا نزال نرجو أن تتهيأ لنا صورة واضحة من موقفنا في الوقت الحاضر ، ومن مآلنا في المستقبل بعد تمام النصر ؛ لا نزال نتطلع إلى تجلية الصورة التي سيكون

عليها موضعنا في النظام الجديد الذي سيشمل العالم كله بعد حين ، محققاً تلك المبادئ العليا التي تبذل مصر جهدها مع الإنسانية في سبيل انتصارها . حقاً إن العالم لم يفرغ بعد من جهاده ، ولم تخطر له بعد فكرة السلام ، لأنه لا يزال في قلب المعمة ، ولا يزال همه الأكبر بلوغ الهدف الأوحد وهو النصر ، ولكن ذلك الجهاد الشاق لم يشغله عن التفكير في الغد ، وما يكون فيه من تعمير وتنظيم وإصلاح شامل .

وجدير بنا أن نعد عدتنا منذ الآن لرسم خطط حياتنا في المستقبل ، حتى نكون على استعداد لمشاركة الإنسانية في بنائها إذا ما حان وقت إقامة النظام الجديد .

لقد مرت بمصر تجربة سابقة في الحرب الماضية ، ونرجو أن نكون قد أفدنا من تلك التجربة درساً يحمينا مما وقعنا فيه من الأخطاء منذ ربع قرن ؛ فقد أغفلنا في تلك الحرب ما كان يجب ألا نغفل عنه ، وهو مقابلة الحقائق في صراحة وشجاعة ، وإعداد العدة للمستقبل بتحديد مقاصدنا ووسائلنا ، ورسم الصورة التي نرجو أن نكون عليها بلادنا ، وقنعنا بما كان في نفوسنا من آلام وآمال مبهمة ، فلما انتهت الحرب وجاء وقت التنظيم لم تكن لنا خطة واضحة فيما نريد ، ولا في الوسائل التي نسلكها للوصول إلى أغراضنا ؛ ولذلك لم نستطع أن نتجنب صدمات المفاجأة . فلما بدأ زعماؤنا يتحدثون ويبريون من أماني البلاد لم تكن النفوس مستعدة للتفكير في هدوء واطمئنان ، وحدثت النتيجة المحتومة ، وهي التصادم بين وجهات النظر المختلفة ، وكان ذلك التصادم سبباً في كثير من النكبات ، كما أنه أدى إلى إضاعة سنوات عدة في نضال وكفاح قبل أن نستطيع الوصول إلى التفاهم وتلاقي وجهات النظر المختلفة . ولو كنا قد صارحنا أنفسنا وصارحنا سوانا بكل ذات أنفسنا ، لما كان هناك موضع للمفاجأة بعد الحرب ، ولكنا استطعنا الوصول إلى التفاهم في يسر طبيعي ، لأن المسألة المصرية ليست من الشذا كل المعقدة في شيء ، إذا نظر إليها نظرة عادلة .

إننا نعتقد أن موقف مصر ليس فيه شيء من التعقيد ، فإن نظرة واحدة إلى ماضينا وحاضرنا تكفي لكي تزيل كل شبهة تحيط بمستقبلنا ، فمصر في حاضرها وفي ماضيها أمة جديرة بالحياة الكريمة المستقلة . فهي في ماضيها ذات ثروة من الفضل على العالم كله ، فقد أمدته بأساس ثقافته ، وقامت على نشر المدنية فترة آلاف السنين على الأمم كلها ؛ وشعب مصر كان ولا يزال شعباً عاملا مجداً ، يقدم إلى الإنسانية خدمات جليلة لا تستطيع الاستغناء عنها . وهو يستطيع أن يؤدي إلى عالم الغد خدمات جليلة أخرى أعظم قدراً وأجل شأناً مما سبق له تأديته في كل العصور الماضية .

فمصر في قلب العالم بغير شك ، ولا غنى للعالم كله عن سواحلها وقناة سويسها في حركة الملاحة التي ستزداد قوة وخطورة في السنوات المقبلة بعد الحرب . وجو مصر الصافي وصحراؤها الفسيحة تجعل فيها أعظم مركز جوي يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب لسكان أم الأرض ؛ وشعب مصر العامل ما بين فلاح وصانع يبرهن كل يوم على أنه قوة عظيمة في الإنتاج ، ويستطيع أن يساير أمم الأرض في توفير الخيرات وتحقيق السلام ؛ وسماحة نفوس أهل مصر لا تزيد عليها سماحة نفوس أعظم الأمم الغربية ، إذا لم نقل إنه لا يدانيهم شعب في هذه السماحة ، فقد كانت الدولة المصرية في كل العصور ملجأ آمناً للقاصدين ، ومنزلا رحبا لجهود أصحاب الذكاء والهمة من أبناء الأمم الأخرى ، تفتح ذراعيها لمشروعاتهم ، وتظلهم بعطفها وكرم وفادتها . ولم يخرج شعبها من هذه السماحة في عصر من العصور ، فكان ولا يزال يرحب بالنزلاء ، ويتعاون معهم ، مع أنه قد مرت به أوقات قاسى فيها الشدائد والمحن على أيدي

البعض من الجيشاء من هؤلاء « النزلاء » الذين لم يقابلوا كرم المصرى بمثله ، بل جازوه سوءاً وظلماً ومكراً سيئاً بكرمه ورحابة صدره ولين جانبه وتسامحه . هذه النزات كلها وسواها مما لا يقع تحت حصر تزيل كل شبهة تحيط بمستقبلنا ؛ فمصر أمة صالحة فيها كل عناصر الصلاح للتعاون العالمى ؛ ودولة مصر المستقلة دولة عرفت كيف تحفظ شرفها وكيف تشارك فى توجيه مستقبل الإنسانية نحو الكرامة والحرية .

وإنه ليجدر بنا أن نبدأ بالهدف الأول الذى يهمنا فنظهره صريحاً لأنفسنا ولسوانا . ذلك الهدف هو أن ننظر فى علاقتنا مع حليفتنا فنزيل منها كل لبس ، ونضعها وضعاً جديداً تقتضيه طبيعة الأمور . فقد قامت المعاهدة المصرية الإنجليزية على أساس افتراض مسلّم به ، وهو أن هناك خطراً من اعتداء بعض الدول عليها . ولكن العالم سيكون بعد الحرب غير عالم الأمس ؛ هذا لا شك فيه ، وإنا نرجو بل نكاد نتأكد من أن تغيراً جوهرياً سيطرأ عليه . وذلك أنه لن تكون العلاقات بين الدول قائمة على الفوضى وقانون الغابة ، بل ستكون العلاقات فيما بينها على مواثيق إنسانية قوية مثل (ميثاق الأطلنطيق) . وستكون الدول مجتمعة هيئة عملية على تنظيم تلك العلاقات وإحاطتها بعنايتها ، فلن يكون هناك خطر من اعتداء قوى على ضعيف ، أو استغلال موارد شعب وحرمانه من حق الحياة فى سبيل إنعام شعب آخر وتوفير وسائل الترف له .

ومصر بلاد لا تقاس ثروتها الطبيعية بشىء من تلك الثروات الهائلة التى كشفت عنها هذه الحرب فى البلاد الأخرى . فنحن نلتمس الكفاف من العيش ، كشعب مزدحم ، بوسيلة العمل المتصل والجهاد المستمر للحياة . إن شعب مصر يكسب قوته بنشاطه وذكائه وقوة احتماله . ولذلك كانت أبسط قواعد العدالة الإنسانية أن يعترف له بحقه كاملاً فى حياته ، ويترك لجهاده السلمى ليشارك فى مبادلة دول العالم خدمات بخدمات مثلها . هذا أقل ما يجب لشعب عامل يعتمد فى الحياة على أشرف وسيلة ، وهى عرق الجبين . فما دامت مصر ستصبح بعد هذه الحرب فى مأمن من المطامع الخارجية بفضل النظام الدولى الجديد ، فليس شىء أقرب إلى الطبيعة من أن يعاد النظر فى المعاهدة التى عقدت مع حليفتها ، لأن تلك المعاهدة قد تمت فى ظروف كانت فيها المخاوف ثائرة من الأطماع الوحشية التى كانت تجتاح العلاقات الدولية قبل سنة ١٩٣٩ .

هذا هو هدفنا الأول الذى يجب أن نصارح أنفسنا به ونصارح به حلفاءنا . وأملنا كبير فى أن ما دلت عليه الحوادث السالفة من حسن النية والإخلاص نحو معاهدتنا ، سيكون أكبر عون لنا على الوصول إلى تفاهم سريع يطمئن إليه الجميع .

محمد فريد أبو حديد

٥ - عبد الله نديم

كانت الظروف التي تولى فيها الخديو عباس ظروفاً دقيقة ، شاب ناشئ في الثامنة عشرة من عمره ، دعي من (فينا) حيث يتعلم ليتولى الحكم في مصر ؛ ومصر قد انتهت ثورتها العرابية واطمأن الإنجليز إلى احتلالها ، ووضعوا أسس نظامها ، وتمكنوا من وضع أيديهم على كل شأن من شؤونها ؛ وعباس الشاب قد بُث في نفسه آراء الاستقلال والشعور بالوطنية ، والعزم على العمل لاسترداد مصر ما فقدت ؛ وهو يعتب على جده إسماعيل إسرافه ، ويعتب على أبيه توفيق استسلامه ، وعلى رجال المعية ضعفهم ؛ وشباب الأمة يلمه هذا الشعور فيجاوبه ، فيتوجه الخديو لصلاة الجمعة في المسجد الحسيني فيقابله الشعب في حماسة ، «ويتقدم الطلبة وغيرهم من المتشددين بالسكة الجديدة نحو العربة الخديوية ، ويفصلون جيادها ويجرونها بأنفسهم» ، ويغيّر الخديو رجال المعية بغيرهم ممن هم أقرب إلى نفسه ومبادئه .

وفي ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطئها في سياستها الماضية التي آلت إلى ضعف نفوذها في مصر ، وأخذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت ، فأملت أن يكون من هذه السبل الالتفاف حول «عباس» .

وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف ، وتتجه هذا الاتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يعتمدون على وعد إنجلترا بالجلاء عند صلاح الأمور .

والحكومة الإنجليزية تلوّح في البرلمان الإنجليزي من طرف خفي بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده في مسالمة الإنجليز والتحالف معهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويوسع نفوذه من طريق الرحلات في المديريات ومقابلة الأعيان والعلماء ، وزيارة المعاهد والمدارس ، كما أخذ يميل إلى مباشرة الأعمال بنفسه بالاتصال بالمديرين ، وتكليفه الإخصائيين بكتابة التقارير عن نظم التعليم والجيش ونحو ذلك ؛ فبدا بعد ذلك ومن أجل ذلك شيء من الجفاء بينه وبين اللورد كرومر ، وتسرّب ذلك إلى الشعب .

عند ذلك بدأت تظهر في البلد تيارات مختلفة ، وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة ، وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف المختلفة .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية ، إما عن إخلاص ، وإما رغبة في الاستفادة ، وإما خدمة للسياسة الفرنسية ؛ وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية ، إما رغبة في الاستفادة ، وإما عن عقيدة أيضاً

وظهر أثر ذلك في الجدل في المجالس والمناظرة في الصحف .

في هذا الأفق الملبد بالسحب ، ظهر «عبد الله نديم» ثانية ، وقد سمح له الخديو عباس بدخول مصر ، فمكث قليلاً يتعرف الأحوال ، ويدرس ما فاته من شؤون مصر مدة غيابه ، ثم صحح عزمه على تجديد الغرض وإنشاء جريدة «الأستاذ» ، قال عنها : «إنها جريدة علمية تهذيبية فكاهية» ، تصدر يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وظهر العدد الأول منها في أول صفر سنة ١٣١٠ هـ — ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ ، يتولى هو تحريرها ، ويتولى أخوه إدارتها ؛ وقد كتب في أول عدد منها إنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية ، أما السياسة من حيث هي فن فإنها تدخل في موضوعها العلمي .

كانت في أول أمرها تمد امتداداً لجريدته «التنكيت والتبكيت» من حيث موضوعها وأسلوبها ، فهي تعنى أكثر ما تعنى بنقد العيوب الاجتماعية في المجتمع المصري ، وفيها مقال أو نحو ذلك في شؤون الإصلاح السياسي من وجهة عامة ؛ ثم هي تحرر باللغة العربية الفصحى في المقالات السياسية الإصلاحية ، وباللغة العامية في الموضوعات الاجتماعية .

والمطلع على ما كتب فى هذا العهد يرى أنه بعد رجوعه من غيبته قد فوجئ بموجة من الانحلال الخلقى فى البلاد : بإفراط لم يكن معهوداً من قبل فى شرب الخمور ، وعدم اكتراث الشاربين بنقد الناقدين وعيب العيابين ، وانتشار للخمارات فى المدن والبلاد والقرى ، وابتزاز الأروام للأموال عن طريقها — وشعور النساء بالحرية ، فهن يكثرن من الخروج فى الشوارع متبرجات بزينتهن ؛ ثم الحشيش والمعاجين والإفراط فيها والاحتفاء بمجالسها ؛ ثم استعمال كلمة الحرية وسيلة للانهماك فى اللذات والشهوات ؛ وأعجب من ذلك السقوط فى تقليد المصرى للأوربى تقليداً أعمى فى لوى لسانه بالقول ، والتشدق باستخدامه كلمات أجنبية أثناء حديثه بالعربية ، ولبس الضيق المحبوك من الثياب الإفرنجية ؛ فنقد كل ذلك فى أسلوب قوى جرىء ، واتهم الأوروبيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى يسقط الشرق وتنحل أخلاقه ؛ ونقد كذلك مناهج التعليم فى البلاد ، وخلوها من بث الروح القومية والعصبية المصرية ، وحث أبناء البلاد على إنشاء الجمعيات الخيرية التى تسد هذا النقص ، ونحو ذلك .

وعجب مما رأى من أن كثيراً من أولى الرأى فى الأمة أصابتهم الدهشة والرعب من الاحتلال ، فانطووا على أنفسهم ، ولزموا دورهم ، فإن تكلموا فى الشؤون العامة فمن وراء حجاب ، وتركوا الناس مبلبلة أفكارهم ، مضطربة نفوسهم ، لايعرفون أين يتجهون ؛ فدعا إلى خروج ذوى الرأى من عزلتهم ، واختلاطهم بالرأى العام فى المجامع العامة يخطبون فيهم ، ويشرحون ماحدث وما يحدث ، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم .

فى كل ذلك كتب « عبد الله نديم » فى الأعداد الأولى من « الأستاذ » — ووجد النفوس مستعدة لهذه الدعوات كأنها حائرة تنتظر الدليل ، ضالة تلتمس الهادى ؛ فانتشر « الأستاذ » انتشاراً فاق ما كان يتوقع ، فقد كان يطبع منه حول ثلاثة آلاف ، كأكبر جريدة يومية إذ ذاك ، وأعيد طبع الأعداد الأولى منه .

وقد حاول مرة أن يحرر الجريدة كلها باللغة العربية الفصحى ، فأتته رسائل الاحتجاج الكثيرة تذكر له خطأه ، لأن المرأة تسمع مقالاته فى بيتها ، والعامى يسمعها وهو فى مصنعه ومتجره ، والفلاح فى حقله ، وكلهم يستفيد من نقده ، وكثير يتعظ بنصحه ؛ فنزل على رأيهم ، وأعادها كما كانت عربية فصيحة فى بعضها ، عامية فى بعضها .

ثم نراه تعلو نغمته شيئاً فشيئاً فى الميدان السياسى ، ومناصرة الحركة الوطنية ، ومؤازرة الخديو عباس ، ومناهضة الاحتلال حتى نراه فى العدد الصادر فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ يظهر قوياً واضحاً فى هذا الاتجاه الوطنى ، ويفتتح العدد بمقال جرىء عنوانه : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » ؛ وهى كلمة كانت تتردد فى بعض الصحف الأوربية يخاطبون بها الشرقيين ؛ ويقع المقال فى ست وعشرين صفحة من أقوى ما يكتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ، ووسائل الاستعمار ، وما إلى ذلك ، ويندد بالغربيين فى أساليبهم ، وبالشرقيين فى غفلتهم ، ويشرح ما تفعل الأمم الغربية لرقيها ، وما تنشره فى أمم الشرق لانحلالها ، وما يفعله المصريون فى تخاذلهم وثنيا كلهم ، ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية ؛ ويختم المقال بقوله : « وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى — فإن رفأنا هذا الخرق ، وشددنا أزر بعضنا ، وجمعنا الكلمة الشرقية ، مصرية وشامية وعربية وتركية ، أمكننا أن نقول لأوروبا : نحن نحن ، وأنتم أنتم ؛ وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل والملاذ بالأجنبى فريقاً بعد فريق ، حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا ، وتصدق فى قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا »

واستمر على هذه النغمة كذلك فى الأعداد التالية . والمطلع على الحوادث التى كانت تجرى فى تلك الأيام ، يرى أن علو هذه النغمة كانت صدى لما يحدث من أزمات . ففى هذه الأيام بعينها اشتد الجفاء بين الخديو عباس واللورد كرومر ؛ ففى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ أقال الخديو مصطفى باشا فهمى ، منتهزاً فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين فخرى باشا بتشكيل

الوزارة ، فعارض اللورد كرومر فى أن تعيين الوزارة من غير أخذ رأيه ؛ واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت إنجلترا الخديو إنذارا شديدا ، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخرى وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومر . وانتشر الخبر فى الشعب ، فأقبلت الوفود على الخديو فى ١٨ يناير تلقى الخطب فى تأييده فى موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحاً فى الجرائد التى تناصر الحركة الوطنية ، فكان هذا هو السبب فيما نرى من حرارة مقالات النديم فى تلك الأيام وما بعدها ، ومناصرته للخديو ، ومنازلته للجرائد المخالفة فى قوة ووضوح .

وهو — مع هذا — يتوسع فى اقتراحات الإصلاحات الاجتماعية : فينقد علماء الأزهر فى انزوائهم وعدم معرفتهم بالدنيا وما يجرى فيها ، ويضع برنامجاً واسعاً لإصلاح الأزهر ؛ والزراعة فى مصر وتأخرها ، ووجوب إصلاحها على أساس علمى صحيح ، وفوضى اللغة العربية ، ووجوب إنشاء مجمع يحفظ كيانها ويكمل نقصها ؛ والخرافات والأوهام ، والطرق الصوفية وما يجرى فيها من مخاز وعيوب . . . الخ .

ثم علت نغمته طبقة أخرى ، فأخذ ينقد الإنجليز صراحة فى سياستهم فى الهند ومصر ، ويسب من يلوذ بهم ، ويهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير ، ويقول : إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له فى مذهبه من إنجليزية وعربية وحذرت منه ، وقالت إنه يعيد البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، وبين المصريين بعضهم وبعض ، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ويهيئ لثورة كالثورة العرابية ، ونصحت أولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه ، وإلا ساءت العاقبة . وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتيمس ، والديلى نيوز ، وقالت : إنه متعصب للدين ، مقبح لجميع أعمال الأوروبيين ، وإنه ثورى مهيج وأيدتها المقطم ، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن ، وبعض الجرائد الفرنسية ؛ ولم يأل هو جهداً فى منازلة خصومه والتشهير بهم ، وإعلان عدم المبالاة بما يجرى له ، فقد لاقى العذاب ألواناً فى أيام اختفائه ، فكل ما سيناله هين بالقياس إلى ما لقى ؛ وأعاد نشر قصيدة له فى ذلك كان قد أنشأها فى محنته منها :

إذا ما الدهر صالانا مرضنا ... فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلدٌ على جَلَد يقينا ... فإن زاد البلا زدنا يقينا
إذا ما المجد نادانا أجبنا ... فيُظهر حين ينظرنا حنينا
بعيننا فيلهينا التمنى ... عن الباكى وينسينا الحزينا
ولسنا الساخطين إذا رزئنا ... نعم يلقى القضا قلباً رزينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ... ولكنا نُهينا أن نَهينا

وأخيراً طلب اللورد كرومر من الخديوى عباس نفيه فأطاع ، ولم يستطع أن يحمى من كان يحميه ، وودع « الأستاذ » قراءه فى آخر عدد منه صدر فى ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣ . فكان عمره أقل من عام ؛ ولم يذكر فى وداعه السبب الحقيقى الذى من أجله أغلق « الأستاذ » ونُفى صاحبه ، بل قال إن سبب ذلك المرض وحاجته إلى الاستشفاء ؛ وقال فى آخر وداعه : وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من النقم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكمُ
وماعن قلى كان الرحيل وإنما ... دواع تقضت فالسلام عليكمُ

وكان ينشر ملحقاً « للأستاذ » صفحات من كتاب ألفه وهو فى الخفاء اسمه « كان ويكون » ، جُمع فيما بعد ، ولم يتم — مع الأسف — نشره . كان يريد من تدوينه عرض خلاصة أفكاره الدينية واللغوية والسياسية والأدبية والتاريخية والإنسانية ، ملتزماً فيه حرية الفكر ، وعدم التعصب لدين أو جنس ، ذاكراً فيه ما شاهده فى مصر

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

ما يعانى الترك

من تغيير الكتابة

اطلعت على كلة للكاتب التركى « يابى صفا » نشرها فى جريدة « الجمهورية » سنة ١٩٤٠ ، فاستحسنت أن أترجمها لقراء العربية ، وأنشرها فى « الثقافة » لتكون حجة لاحقة بمقالاتى عن الخط العربى .

قال الكاتب :

« يسأل قارئنا :

« ابنى الصغير فى سن الحادية عشرة ، ولا يعرف الحروف العربية ، وأريد أن أعلمه إياها تعليما خاصاً ، فماذا تقولون ؟ إنى أرى اليوم أن التاجر بل دواوين الدولة تفضل من يجيد معرفة الحروف العربية قراءة وكتابة إلى الحروف اللاتينية . فهل أستطيع أن أعرف رأيكم فى هذا ؟ » .

ثم هناك سبب قوى لتفضيل من يعرف الحروف العربية فى أعمال الدولة ، والأعمال الخاصة ، فإن معرفة هذه الحروف لابد منها لقراءة الأوراق ، والأضابير[1] ، والرسائل ، ولا يعرف إلى متى يستمر هذا الحال .

والقانون لم يحرّم قراءة الحروف العربية بل حرّم كتابتها ، فالأب الذى يريد إجادة تثقيف ولده يستطيع أن يعلّمه الحروف القديمة .

ولهذا الأمر جانب عملىّ ، وجانب ثقافىّ ؛ إنّ محالاً على الناشئ التركىّ الذى لا يعرف الحروف العربية ، أن يتعمق فى تاريخ الترك وآداب الترك إلى أن يبلغ مستوى وسطا . هذا الشاب لا يستطيع أن يقرأ نعيما والبجوى وجودت باشا[1] ولا يستطيع كذلك أن يقرأ المخطوطات ولا النقوش على الأحجار ، ولا يستطيع أن يقرأ كتاباً واحداً من خمسة وأربعين ألف كتاب مطبوع ؛ وآداب الدواوين القديمة ليست عنده إلا قطعاً قليلة يحويها كتاب مدرسى أو كتاب مختارات ؛ وكل كتب التنظيمات[2] تبدو لعينه بقعاً صغيرة على ورق أبيض كأنها آثار برغوث مثل مخطوطات عسكرية متناسبة ؛ ولن يقف كثيراً على أثر أو شخص فى تاريخ الآداب المعاصرة من ضيا باشا إلى عبد الحق حامد . وكذلك الأدبيات الجديدة ؛ فليس من « رباب شكستة ، ولا خلوق ، ولا أيلول » ولا أمثالها نسخ مطبوعة بالحروف الجديدة ؛ ولا

(١) الأضابير : جمع إضبارة ، وهى الدوسيه . وكانت تستعمل فى هذا المعنى فى الدواوين المصرية .

(١) هذه أسماء ثلاثة من كبار المؤرخين الترك .

(٢) عصر التنظيمات من عهود الإصلاح فى تركيا .

من أحداث ، مبيناً ماوراءها من علل .

ووضعه على نمط قصصى ، إذ كان له صديق فرنسى أتى من باريس قبيل الثورة العرابية ، وتعلم العربية والتركية ، وأقام فى مصر متتبعاً حوادثها ، وعرف عبد الله نديم فى الإسكندرية سنة ١٢٩٢ هجرية وتوثقت بينهما الصلة ؛ وكانت له عزبة قريبة من البلدة التى اختبأ فيها « النديم » ، فاتصل به فى مخبئه . وكان الفرنسى يزوره ويخدمه فى قضاء أغراضه ، وكثيراً مايدور الحديث بينهما فى الدين والسياسة ، فبنى كتابه « كان ويكون » على هذا ، ودوّن فيه ما كان يدور بينهما من حديث وجدل ؛ وأكثر ما نشر كان فى أصول الأديان ، وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام ، يتخلل ذلك بعض أخبار عن أحواله فى مخبئه ، وبعض نظرات سياسية . ومما يؤسف له أن إقفال جريدة « الأستاذ » حال بينه وبين نشر القسم السياسى والتاريخ المصرى من الكتاب ؛ وما نشر منه يدل على نظر عميق واطلاع واسع ، وسماحة دينية لطيفة ، وعاطفة جياشة بحب الخير لمصر والشرقيين .

(يتبع) أحمد أمين

طبع بالحروف الجديدة آثار يعقوب قدري ، وفالح رفقي ، وخالده أديب ، بل كتب أزاغيا من الكتاب .

وإذا جاوزنا التاريخ والآداب فكم نعدّ من الكتب التى لابد من قراءتها لمن يحاول الثقافة المتوسطة وهى لم تنشر بالحروف الجديدة . والشاب الذى لم يقرأ أثراً ما من هؤلاء ، لا يصعد إلى مستوى يؤهله لأن يقرأ جريدة يومية أو مجلة أسبوعية ، فلابد لفهم الذين يكتبون فيها الإلمام بالثقافة التى نشأتهم .

قد مضت تسعة أشهر أو عشرة منذ اجتمع مؤتمر النشر ، ولم يمكن إخراج خمسين كتابا ، بل عشرة كتب من الخمسين ألفاً التى جعلت حداً أدنى لما يجب أن يحوّل إلى الحروف الجديدة . سل ما وسعك السؤال فلن تظفر بجواب !

ماذا يقرأ الناشئ الذى لا يعرف الحروف العربية ؟

هذا جوابى : مهما تكن سنّه فلابدّ من أن يتعلم مع الحروف اللاتينية الحروف العربية بصفة خاصة . تلكم هى الوسيلة الوحيدة ، وذلكم رأيى . فسمنى محافظا قبل أن تفهم كلة واحدة مما كتبته آنفا ، فإنى أقبل هذه التسمية .

إن المحافظ لأعلى جداً من الجاهل الذى لا خبر عنده من الآداب والتاريخ ؛ لأن التعصب والرجعية من أخوات الجهالة لا المعرفة ، وأفظع الرجعيات الإمعان بغير هدى .

هذه كلة نشرها كاتب تركى كبير فى جريدة الجمهورية .

ولا يزال الترك فى ثورتهم على الحروف العربية ، ولا يزال القانون يحرّم تعليمها وتعلّمها . وقد عالج الكاتب موضوعا يعدّه الترك من معالم ثورتهم ، ويحرمه القانون فى بلد لا يزال الحكم العسكرى غالبا عليه . فكيف لو أمن الكاتب عما فى نفسه طليقا من كل قيد ، قادرا على أن يقول ما يشاء ؟!

إن القوم قد جرّبوا فانتهت تجاربهم إلى هذه النهاية ، وانتهت إلى أنهم لا يجدون بدًّا من تعلم الكتابة العربية ليقرأ ناشئتهم أدبهم وتاريخهم ، فهل فكّر الداعون إلى تغيير الكتابة العربية فى هذا ؟! مع أن الآداب التركية لا تماس بالآداب العربية ، والخسارة فيها لا تذكر فى جنب الخسارة التى تصيب العرب والمسلمين عامة إن غيّرت الكتابة العربية .

عبد الوهاب عزام

عمل نبيل

اتفق لتاجر من تجار لندن أن يقضى يوم عطلته الأسبوعية مع صاحب له فى إحدى قرى الريف .

فلما أخذا بأطراف الحديث جاء اتفاقا ذكر أوراق النصيب السنوى وجائزته الكبرى . فقال التاجر اللندنى لصاحبه الريفى : سوف أشترى العام المقبل ورقة من أوراق السحب الكبير . فاقترح عليه صاحبه أن يشترى له ورقة باسمه ليجرب حظه . ثم انقضى اليوم : وعاد اللندنى إلى مدينته ، وبقى الريفى فى قريته .

ثم سحب النسيان ذيله على كل ما دار من حديث ، وظل الأمر كذلك شهورا . وإذا بالريفى يفتح عينيه ذات صباح على كتاب وصل إليه من صاحبه ينبئه أنه ربح الجائزة الكبرى وقدرها عشرون ألفاً من الجنيهات .

فطار إلى لندن وحصل على الجائزة ، ثم سأل صاحبه : كيف لم تخبرنى أنك اشتريت لى تلك الورقة ؟! فقال له : لقد اشتريت ورقتين فى يوم واحد ، ووضعتهما معا فى درج من أدراج مكتبى ، ونسيت أمرهما ولم أفكر فيهما .

فسأله صاحبه : وكيف ميزت بين الورقتين ؟ ولمَ أكون أنا صاحب هذا الحظ السعيد ؟ ولمَ لا تكون أنت الرابح ؟ فقال اللندنى : إنى وضعت على الورقة التى قصدت أن تكون باسمك علامة بالمداد ؛ فلما راجعت أوراقى ألفيتها الورقة الرابحة .

وبعد ، فإن هذا عمل ينطوى على النبل الذى ليس بعده نبل . وهو مثل أعلى للجمال الخلقى الذى يبعث أعمق السرور مما تضفيه مظاهر الجمال العليا للخلق فى هذا العالم .

حول رجال العلم ورسالتهم :

صوت العمال وصداه

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

فى العدد ٢٨٥ تناولنا الكلام عن رجال العلم ورسالتهم فى المجتمع ؛ وفى العدد الماضى (٢٨٧) تناولنا الكلام عن رجال العلم ورسالتهم فى مصر . وكنا نظن أن الذين يهتمون بما جاء فى هذين المقالين هم أولا — رجال العلم ، لاسيما المشتغلون منهم بالتأليف أو بالبحث ؛ وثانياً — الرجال المتصلون بالصناعة والذين يهمهم رقيها فى مصر ، وبناؤها على دعائم قوية ؛ وثالثاً — قادة الرأى الذين يوجهون السياسة العامة ، لا سيما ما يتصل منها بمجهودات الحكومة العلمية التى تعود على الشعب بالمنفعة الصحية والمالية ورفع مستواه بوجه عام ؛ ورابعاً — رجال الاجتماع الذين يهمهم درس النظم الاجتماعية والبحث فى مصيرها بعد الحرب ، وفى الأسس التى ينتظر أن تقوم عليها النظم المستقبلة لتكون أدنى إلى الاستقرار ، وأقرب إلى إسعاد البشر ، وأدعى إلى ضمان السلام

هذه الطوائف وأمثالها هى التى كنا نطمع أن نظفر باهتمامها بالآراء التى أبديت فى المقالين المشار إليهما ؛ ولكنه قد تبين لنا أن هناك طائفة أخرى تهتم بها ، طائفة لا تكثر القراء أننا لم نكن ننتظر منها هذه العناية بالمسائل العلمية وتتبعها والإقبال عليها إلى هذا الحد ، ألا وهى طبقة العمال . عرفنا ذلك من خطاب حمله إلينا البريد فقرأناه مغتبطين ، ورأينا أن ننقله إلى القراء بنصه ليطلعوا عليه ويشاركونا الغبطة بما حواه من آراء ، وبما ينم عنه من نهضة فكرية وعلمية واجتماعية بين الرجال الذين ينتظر أن تقوم الصناعة على أكتافهم . وإليكم نص الخطاب :

تحية خالصة وتمنيات طيبة وبعد

فإياكم إياكم أن يشغلكم أمر ما ، مهما جل ، عن الوفاء بما وعدتمونا فى كلمتكم التى طالعتم بها جمهور قراء (الثقافة) القراء بالعدد ٢٨٥ .

سيدى الأستاذ :

إن فى طبقة العمال المصريين الآن آلافاً يتقنون القراءة والكتابة والحساب ، فيمكنهم أن يسايروا الحركة الثقافية الآخذة فى النمو ، لكن لا أظن أنكم ممن يرضيهم أن يترك الأمر لمحض الصدف والرميات « أقصد مكافحة الأمية » البطيئة .

إن طوائف كثيرة من العمال قد انتظمتهم نقابات وجمعيات تعاونية ، وهناك منشآت ومصانع و ... و ... تضم جماهير من العمال ، فمن الميسور أن ينظم دعاة الإصلاح والأدباء والمهندسون محاضرات تبسط الآراء الاجتماعية والعلمية والفنية ، وترقى وعيهم تدريجياً على ضوء التجارب

يا سيدى الأستاذ :

إن الحضارة فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وروسيا واليابان والصين وغيرها ، ذات ألوان يجب أن نعرفها جميعاً .

وإن الأنباء كثيراً ما تفاجئنا بمستحدثات ومكتشفات ، فيجب أن نعرف ما يمكن أن نعرفه من العارفين بها قدر المستطاع .

وإن مصر لمقبلة حتما على انقلاب فى الأوضاع ، وعلى نهضة صناعية ، فيجب أن نعد أنفسنا لمواجهة هذه الحال . يعوزنا أن نعرف صلة العلوم الكيمائية بالتعدين ، والميكانيكا بالكهرباء ، وما كنه الضوء والصوت ؟ وما مدى التأثيرات المختلفة والتفاعلات النفسانية المتباينة فى تكوين شخصيات الأفراد والأمم ؟

ومن لهذا ؟ ومن لنا ؟ غيركم أنتم وأمثالكم من

قادة أو مشعلى الثورات الفكرية والاجتماعية يا أستاذ ؟!

ادفعوا ، زجّوا ، استحثوا ، احملوا !

إننا غرقى فانتشلونا ، وحيارى فاهدونا ، وضالّون فاهدونا . خذوا بيدنا ، احملوا المشعل أمامنا ، وإلا فثقوا أن فى هذه الأمة من يعرف من هو الذى عمل وما ذا كان يعمل ؟ وإن برامج التعليم التى تشغلكم لا تكفى فى نظرنا أن تكون العذر لكم

وتقبلوا كل احترامنا ؟

[من العمال الأحرار] محمد عبد الرحمن السبكى
ميكانيكى بورشة جراج مصلحة التنظيم بالجيزة

* * *

فمن منا لا يطرب لقراءة هذا الخطاب الذى يحمل فى ثناياه البشير بأننا مقدمون على عهد جديد ، وأن نهضتنا نهضة قوية ، وأن نتائجها ستكون بحمد الله باعثة على الأمل ، ومحققة لما نبتغيه من إصلاح ، بشرط أن تجد هذه النهضة من يتعهدها بحكمة ، ومن يوجهها فى الطريق المنتج ، ومن يتتبعها ويوالى توجيه الرأى العام وأولى الحل والعقد إلى واجباتهم نحوها .

وأول ما يلم منه هـذا الخطاب هو تأييد ما ذكرناه فى المقال السابق ، من أن عدد القراء الذين يهتمون بالمسائل العلمية قد تضاعف حديثاً ، وأنه كلما ازداد اهتمام رجال الصحافة بالمسائل العلمية ورجال العلم بتبسيطه اتسعت دائرة القراء ، وكثر عددهم وارتفع مستواهم ، مما يمكن رجال العلم ورجال الصحافة أن يزيدوا مقدار ما ينشرونه عليهم من المسائل العلمية ، ويتدرجون فى التعمق فى تلك المسائل . ومن يدرى ؟ فلعل هـذا يقربنا بتوالى الأيام وموالاة الجهود ومضاعفة الاهتمام — يقربنا إلى حدٍّ ما من الحالة التى وصفناها فى روسيا .

وصاحب هذا الخطاب لا يكتفى فيما يتعلق بحق الجمهور المصرى على رجال العلم ، بما ذكرناه فى مقالنا من وجوب متابعة الكتابة فى المسائل العلمية فى الصحف والمجلات ، والمضى فى تنمية المكتبة العلمية بنشر الكتب المبسطة . وإنما يقترح علاوة على هـذا طريقة أخرى من طرق نشر العلم ، وهى أن ينظم دعاة الإصلاح محاضرات تبسط الآراء الاجتماعية والعلمية والفنية .

ونحن ، ولاشك ، نقره على رأيه هذا ، ولكن نذهب إلى أبعد مما يرجوه ، فقد علمتنا التجارب أن سلاسل المحاضرات التى ينظمها هواة نشر العلم من رجاله على تلك الصورة لا يرجى لها الاستمرار ، كما أنه يصعب ترتيبها بحيث تصير سلسلة متصلة الحلقات يتلو بعضها بعضاً بانتظام واطراد وتقدم . فهى إذن فى ذاتها مفيدة وضرورية . ولكنها ليست وسيلة عملية لتحقيق الغرض الذى يرمى إليه صاحب الخطاب .

أما كيفية تحقيق هذا الغرض ، فهى فى رأينا أن يعهد بهذه المهمة إلى الهيئات التعليمية الفنية ، فهذه هى التى يجب أن يكون من صميم عملها ترتيب محاضرات متسلسلة ومتدرجة فى الصعوبة ، ومتنوعة فى الموضوعات النظرية والعملية . وتلقى تلك الدروس فى المساء مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع على أولئك العمال النابهين ، الذين وهبهم الله الاستعداد العقلى لمتابعة الدراسة ، واستشعروا فى أنفسهم رغبة ملحة وإقبالا عظيما على مثل تلك الدروس ؛ فهؤلاء يستفيدون منها أكبر فائدة ، وهى كفيلة بأن توصل القادر من مستمعيها إلى مستوى من العلم لا بأس به ، وقد تصل بالنابهين منهم إلى أرقى درجات السلم العلمى النظرى أو العملى .

وهذا الرأى لا ندعى ابتكاره ، وإن كنا نؤمن به من زمن بعيد ، ولكن قد سبقنا إلى المناداة به أول مرة المستر مان الخبير الإنجليزى ، الذى استقدمته الحكومة المصرية فى سنة ١٩٢٩ مع الخبير الآخر السويسرى لتسمع

آراءهما في حالة التعليم بمصر ومقترحاتهما على خير الطرق لإصلاحه والنهوض به . كما أن هذا النظام - إعداد دراسات فنية تكميلية للعمال من كل صنف - معمول به في جميع البلاد الأوربية ، وتقوم به الحكومات والهيئات العلمية والشركات والمصانع ، وبعض النقابات حسب الظروف المحلية في مختلف الأحوال .

فالإجماع إذن معقود على أن العامل يجب ألا يُهمَل ، بل يجب أن تتاح له الفرصة لإتمام تعليمه ، فالعلم لا نهاية له ، والرغبة في تلقيه لاحد لها . ومن أخص واجبات رجال العلم أن يتعهدوا كل راغب فيه ، وأن يزودوه بالقسط المناسب والقدر اللازم ، لكل حسب حاجته واستعداده ونوع العمل الذي يزاوله .

ومَن أحق بتلك العناية من العامل الموهوب ، الذي يقوم بصنع بعض الآلات أو بعض الأجزاء ، ويتشوق لمعرفة الأسس العلمية التي تبنى عليها العمليات التي يجريها ، ويندب حظه لأنه لم تتح له الفرصة في صغره قبل دخول معترك الحياة العملية لأن يتلقى شيئاً من الأسس العلمية والقواعد النظرية ؟! هذا العامل إذا وجد فرصة لتلقي تلك الدروس التي تتوق إليها نفسه ، أقبل عليها والتهمها ، وحصل منها في الشهر الواحد ما يحصله الطالب العادي في سنة كاملة .

ولا يقتصر الأمر على استفادة العامل من الناحية الشخصية وسروره باكتساب المعرفة ، وتلذذه من الاطلاع على الحقائق العلمية ؛ وإنما يؤثر هذا العلم الجديد في عمله وإنتاجه ، وذلك لأنه يصير أثناء العمل مفكراً لا مجرد آلة كما كان من قبل . ولا نزاع في أن هذا يؤدي إلى ترقية صنعته ، كما أنه قد يؤدي إلى نقده لبعض الأساليب والطرق ، مما قد يصل به إلى اقتراح أو ابتكار يكون نتيجة مباشرة للتعليم الجديد الذي يحصله .

* * *

على أن الذي يعيد قراءة الخطاب الذي نشرناه يجد فيه طموحاً كبيراً . انظر إلى قوله : « يجوز أن نعرف صلة العلوم الكيمائية بالتعدين والميكانيكا بالكهرباء ، وما كنه الضوء والصوت ، وما مدى التأثيرات المختلفة والتفاعلات النفسانية المتباينة في تكوين شخصيات الأفراد والأمم » .

فالعمال يطلبون دراسة حديثة متنوعة ، يبتغون من ورائها الوصول إلى أصول العلم ، وإلى تفهم الحياة ، وإلى تفهم الإنسان نفسه وكيفية تكوينه وخلق شخصيته ؛ وهذا لا يتأتى إلا بدراسة فنية منظمة ، تقوم بها كما قدمنا المدارس الفنية ومختلف الهيئات الفنية التي تضم رجال العلم والصناعة ، تحت إشراف الحكومة .

وبعد ، فإنا نرجو وزير المعارف ، الذي أفرد لتعليم الكبار جزءاً من تقريره ، من إصلاح التعليم في مصر ، أن يعير هذه المسألة اهتماماً وعناية . ولئن كان قد اختار للأسباب التي ذكرها في تقريره أن يحيل أمر تعليم الكبار بصفة عامة على وزارة الشئون الاجتماعية ، فإن هذه الناحية من تعليم الكبار بصفة خاصة تحتاج بطبيعتها إلى أن تقوم بها وزارة المعارف نفسها ، فهي التي تملك المعامل وتشرف عليها ، وهي التي تعرف رجال العلم والفن ، وتستطيع اختيار الأفراد الصالحين لهذه المهمة الخطيرة التي نحن بصددها ، وهي التي تستطيع توجيههم ومعاونتهم في رسم الخطة وإحكام التنفيذ .

وليس معنى مناشدتنا لمعالي الوزير أن يهتم بهذه المسألة أننا نرى إلقاء العبء كله على وزارة المعارف ، بل إن جميع الهيئات العلمية والنقابات وأصحاب المصانع والشركات ورجال الأعمال كل هؤلاء مطالبون بأن يؤدوا واجبهم من هذه الناحية ، نحو أولئك المتعطشين للعلم ، الذين يطلبون الهداية ويستحثون القادة على أن يحملوا المشعل أمامهم لينيروا الطريق لهم ، وأن يدلوهم على الطريق الذي يسلكونه ليحققوا غايتهم : ألا وهي الوقوف على أسرار الكون ، واكتساب الخبرة والمران العلمي الذي يجعلهم صناعاً مستنيرين يسايرون الحركة العلمية والصناعية الحديثة .

رسائل صينية

الرسالة الخامسة

عندما بدأ اتصالى بالغرب كان أقوى ما أثر فىّ وأسرعه ، هو طبيعة ذكائكم ومستواه ؛ فقد ظهر لى كيف أن عقولكم استطاعت فى نجاح أن تتعرض لمسائل ومشاكل ما كانت لتدور بخلدنا نحن فى الشرق . لقد وصلتم بالتجربة حيناً ، وبالتحليل حيناً آخر ، إلى معرفة أسرار تفاعل القوى الطبيعية ، ثم استخدمتم هذه القوى بطرق بدت لخيالى الفير أنها تكاد تكون معجزة . ولم ينقص الاعتياد شيئاً من إعجابى بما وصلتم إليه فى هذا المضمار ، فأنا أدرك كل الإدراك أن هذا أهم ما يخوّل لكم ادعاء الأفضلية علينا ؛ بل إنى لست أعجب أن أجد من بين خير أذكيائنا من يجد فى حرارة ، بل من يدافع فى حماس عن إدخال هذه الأساليب الغربية حالاً فى الصين . وإنى وإن كنت أشعر بما يشعر به هؤلاء المصلحون من تحمس للصالح العام ورغبة فى الخير ، فإنى فى الوقت نفسه عاجز عن أن أؤيد سياستهم تلك . ولعله من الأفضل أن أبين هنا الأسباب التى قادتنى إلى هذه النتيجة ، فهى نتيجة تلوح لأول نظرة أنها متناقضة .

وأبادر فأعترف بأن وجهة نظرى الأولى قد تغيرت بدراسة تاريخكم طوال القرن الأخير ، وبالتعرف القريب ببناء مجتمعكم . إن هذه الدراسة وهذا التعرف قد علّمانى أن أروع الاختراعات وخير الوسائل فى استخدام العبقرية المخترعة لا تكفيان وحدهما فى صلاح المجتمع . إن ذكاءً قد ركز تركيزاً خالصاً لإنتاج آلات توفر على الإنسان جهده ، قد يقود — بما يقلقل فى النظام الصناعى — إلى الشر أكثر مما يقود — بما ينتجه من ثروة — إلى الخير . لأن نماء الثروة أو توفر أسباب الراحة ليس فيما أرى خيراً خالصاً فى نفسه . إن الأمر كله يتوقف على طريقة توزيع الثروة ، وعلى ما يترتب عليها من آثار فى كيان الأمة الخلقى . وهذا هو الاعتبار الذى يجملنى آسى وأتألم كلما نظرت إلى مشروع إدخال النظم الغربية فى الصين . وها كم مثلا يوضح لكم وجهة نظرى خير إيضاح . لقد رأينا عند ما بدأنا إنشاء أول سكة حديدية فى الصين تصل بين تينسن وبيكين ، أن المشروع قد أثار فى أهل المنطقة مقاومة سرعان ما تطورت إلى هياج وثورة ؛ وكسر الخط وهدمت الجسور ، وأصبح الاستمرار فى العمل مستحيلا . فلم نبعث إلى الثوار بقوة من الشرط تحافظ على الأمن ، وإنما أرسلنا إلى المنطقة حسب تقاليدنا فى الصين موظفاً ليتفاهم مع الثوار أنفسهم ويتبين وجهة نظرهم ؛ وكانت وجهة نظرهم كما هى الحال دائماً سليمة معقولة . إنهم قوم يكسبون عيشهم من الملاحة النهرية ، فهالهم أن الخط الحديدى سيحرمهم من الوسيلة التى يحصلون بها على قوتهم . وأدركت الحكومة فى الحال عدالة مطالبهم ، وقدمت إليهم الضمانات الكافية ألا تتأثر ملاحتهم النهرية أى أثر سيىء من هذا المشروع . وبهذا انتهى الشر وهذا الاضطراب والقلق . إن هذا الحادث وحده لمثل طيب لتبيان الأسلوب الذى نعالج به مثل هذه المشاكل فى الصين . أما الإنجليز الذين رويت لهم هذا الحادث فإنهم جميعاً دون أى استثناء قد أنصتوا إليه وعوامل الدهشة حيناً والحنق حيناً آخر تتناوبهم ؛ فلقد بدا لهم مريعاً فظيعاً أن تعير الحكومة مثل هذه المظاهر من الشعب أى التفات . إنهم لا يتكلمون إلا فى قانون العرض والطلب فى مسألة استنفاد الإنتاج استنفاداً كاملا فى المنافسة والتقدم والحركة وطول المدى ؛ وإنى لأنصت إلى كلامهم هذا فى شىء قل أو كثر من الفهم والموافقة ، ولكن ما من شىء من كل هذا يمنعنى من أن أرى ، بل من ألا أزال أرى الحقيقة . إن اتباع هذه الأساليب الغربية الحديثة فى الحياة معناه ، إلى الآن

على الأقل ، مقدارٌ ما من التقلقل في الصناعة ومقدار غير قليل من الفقر والعذاب والتضور جوعاً . وتاريخكم الصناعي نفسه ملىء بالبراهين على ما أقول . ولست أملك أن ألحظ إلا ، والأسى يملؤني وخيبة الأمل تمزقني ، أنكم طوال هذه السنوات التي قضيتموها كلها في محاولة إتقان فنونكم الآلية ، لم تستطيعوا ، بل إنكم حتى لم تحاولوا ، والذي لا شك فيه أنكم لم تحاولوا في نجاح ، أن تخترعوا أية وسيلة تمحون بها الاضطراب والشقاء والتعاسة التي ابتليتم بها جمهور العمال من قومكم . وليس في هذا ما يثير العجب في الواقع ، فمن عادتكم دائماً أن تجعلوا الحياة في الرتبة الثانية بعد الثراء . ولكن ليس في هذا في الوقت نفسه ما يشجع الرجل الصيني على أن يقدم على اتباع أساليبكم تلك . وأنا على الأقل لا أستطيع أن أتأمل هذا إلا وأنا مدرك كل الإدراك هذه الاضطرابات التي ستترتب حتما ، وستقع فعلا في شعبنا المؤلف من أربعمائة مليون نسمة ، من جراء تعميم الأساليب الصناعية الغربية فينا . ستقولون إن الاضطراب موقوت ، ولكن يبدو لي أنه مزمن عندكم في الغرب . فإذا تركنا هذا جانباً ، فهل لكم أن تأذنوا لي بسؤالكم عما إذا كنا سنكون نحن الفائزين ؟ أما بالنسبة إليكم فالفوز ظاهر ملموس ، وكذلك ستكون الخسارة بالنسبة إلينا ، ولكن ما هذا الذي سنجنيه بالفعل ؟ إنه لسؤال سخيف فيما يبدو لكم ، ولكن اغفروا لصيني أن يراه هاماً . ستجيبون أننا سنجني ولاشك ثراءً ، وقد يكون ذلك حقاً ، ولكن ألسنا سنفقد في سبيله الحياة ، ألسنا سنصبح مثلكم ؟ وهل تنتظرون منا أن نتطلع إلى مثل هذا المستقبل في سكون بارد واطمئنان هادئ ؟ ما هي مميزاتكم ؟ ألا تخبروني ! إن قومكم قد تيسرت لهم ولا شك بعض خيرات الحياة الثانوية ، إنهم يأكلون أكثر منا ، وكذلك يشربون وينامون ، وإلى هنا ينتهي امتيازهم ؛ ولكنهم أقل منا بهجة ، وأقل قناعة وأقل نشاطاً ، وأقل ليناً ؛ أما أعمالهم فأقل ملاءمة للصحة ، صحة الجسم والعقل معاً . إنهم محتشدون في المدن والمصانع ، وقد طلقوا الطبيعة وحرموا متعة امتلاك الأرض . لقد قررت ذلك من قبل وأوضحته ، ولكني أعود إليه هنا لأفسر لكم موقفاً قد يبدو متناقضاً ، موقف هذا الذي يعجب إعجاباً خاصاً بما وصل إليه الذكاء الأوروبي ، ولكنه يشك في الوقت نفسه فيما إذا كان هذا الذكاء قد استخدم خير استخدام ؛ بل إنه ليتساءل على الأقل : أليس هذا الذكاء مقصوراً على ناحية بعينها قاصراً فيما عداها ، بحيث أصبح أهلا لأن يأتي بشر يوازي ما قد أتى به من خير ؟ قد تصلون ، وهذا ما أومن أنكم ستصلون ، إلى إصلاح هذه الحال ، فتبرهنون أنكم أهل لأن تنظموا حياة الإنسان بنفس العبقرية التي تنظمون بها قوى الطبيعة وتسيطرون عليها . ولكن ، إلى أن يحين ذلك الوقت ، أرى ، فيما أظن ، أننا معذورون في أن نتردد في اتباع أساليبكم الغربية وإن كنا نعجب بها كل الإعجاب ، وفي أن نشعر أن المزايا التي يمكن أن نصل إليها من هذا السبيل سندفع ثمنها هذا الاضطراب الذي صاحب أساليبكم أينما اتُّبِعت .

وهناك مسألة أخرى تشغل تفكيري ، إن تكن أقل اتضاحاً فهي ليست أقل خطراً . لابد في كل مجتمع من أن ينهمك مجموع الناس في الأعمال الآلية ، ومجتمعنا في هذا لا يقل عن مجتمعكم ، وهو بلا شك لا يزيد عنه ، ولست أرى إلى الآن أن أي تغيير قد طرأ على هذه الحال بتدخل الآلة في المجتمع . ولكن في الوقت نفسه يجب أن يوجد في كل مجتمع جماعة من الرجال قد أعفوا من هذا العمل الآلي ليكونوا أحراراً في أن يكرسوا أنفسهم لغايات أرق وأرفع . ولقد وجدت في الصين لقرون طويلة خلت تلك الطبقة من الرجال الذين أفردوا منذ أول الأمر حتى يتابعوا

دراسة الفنون الحرّة ، وقد قدّر لهم أن يشغلوا وظائف الحكومة . إن هؤلاء الرجال لا يكونون فى الصين طبقة ممتازة بعينها تتوارث هذه الوظائف الحكومية ، بل إن الميدان عندنا مفتوح لكل صبى أيًّا كان مادام قد امتاز بالمواهب المطلوبة والميول اللازمة . وإنى لأرى أن مجتمعنا فى هذا منذ قديم أوفر مجتمعات العالم ديمقراطية حقة . وأنتم تطلقون على نظام التعليم الذى تتبعه تلك الطبقة عندنا تعليقات عديدة ، وتنتقدونه انتقادات شتى . ولست أريد أن أدافع عن هذا النظام هنا . وكل ما أريد تبيانه هو حقيقة واحدة بعينها ؛ إنه بفضل هذا النظام قد دفعنا قومنا من كل الطبقات إلى احترام كل ما يتصل بالعقل والروح ، واستطعنا أن نحافظ فيهم على هذا الاحترام . وإنه لمن الصعب أن نجد لمثل هذا الاحترام شبيهاً فى أوروبا ، بل إنا لانكاد نجد له أثراً فى إنجلترا خاصة . إن الآداب تحترم فى الصين احتراما يبدو لكم ، لا من حيث الكمّ ولكن من حيث الكيف أيضاً ، إنه غير معقول ، بل إنه مبالغ فيه على الأقل ، وإن كان ذلك صحيحاً . فلقد علم شعراؤنا وأدباؤنا أبناءهم لقرون طويلة أن يبحثوا عن الخير لا فى الثروة ولا فى السلطان ولا فى تنوع الحركة وكثرتها ، ولكن فى تقدير أبسط علاقات الحياة وأكثرها شيوعاً بين الناس تقديراً راقياً ممتازاً دقيقاً .

أن نشعر ولكى نشعر حقاً أن نعبر ، أو على الأقل أن نفهم تعبير كل ما هو جميل فى الطبيعة وكل ما هو صارخ أو رقيق من الإحساسات البشرية ، إن هذا فى نفسه لغاية أى غاية . إن الزهرة فى الحديقة المثمرة ، وظلال الأشجار على العشب ، وزهر اللوز وقد تفتح ، وعبير الأرز وسحر الخمر والقيثار ، إن هذه كلها ، وغمرة الحياة والموت ، والضمة الطويلة الحارة ، واليد التى تمتد فى الفضاء إلى ما لا تستطيع أن تصل إليه ، واللحظة التى تمر بما حملت معها من نغم ونور فتتلاشى فى أطياف الماضى السحيق ، إن كل ما تملك وما لا تستطيع أن تملك من طير الطائر وعطر النسيم ، إن هذا كله قد تعودنا فى الصين أن نهتز له مشاعرنا ، وأن نستجيب له ، واستجاباتنا تلك هى مانسميه أدبا .

إننا نملك كل هذا ، وأنتم لا تملكون أن تعطونا شيئاً منه ؛ ولكنكم واحسرتاه تستطيعون فى يسر أن تحرمونا منه ! إن ضجيج الأنوال والعجلات ليخرس كل هذا الجمال ، ودخان المصانع يحجبه ، والحياة الغربية فى اندفاعها الجنونى تقتله !!

وعند ما أتأمل رجال الأعمال منكم هؤلاء الذين تعجبون بهم أيما إعجاب ، عند ما أراهم والكد يطحنهم طحناً ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، بل عاما بعد عام ، وهم غرقون فى عمل قد فرض عليهم فرضاً ، فلا هو يسعدهم ولا هو يفرغهم ؛ عند ما أراهم يحملون هموم اليوم معهم إلى ساعات راحتهم الشحيحة القصيرة ، وهم يفنون لا من الجهد والكدّ ولكن من الهموم الثقيلة الحقيرة ؛ عندئذ أنظر بعين يملؤها الرضا إلى العمل الآلى البسيط الذى تفرضه علينا صناعتنا ، عندئذ يرتفع فى نظرى درجات فوق طرقكم الحديثة الخطرة قدر تلك الطرق الممهدة ، التى ألفتها أقدامنا من كثرة ما اعتادت السير فيها ، إنها تتيح لنا ونحن نجتاز مشاقها الفرصة لأن نرفع من أبصارنا نحو السماء ، لترى نجومها الأزلية .

دكتورة سهير القلماوى

إلى حضرات المشتركين

حددت إدارة مجلة الثقافة يوم ١٥ يوليه سنة ١٩٤٤ آخر موعد لتسديد النصف الثانى من الاشتراك عن سنة ١٩٤٤ فالرجو من حضرات المشتركين مراعاة ذلك . الإدارة

أولئك شعراؤنا

صيد من بلاد الشام

١ — خير الدين الزركلي

كان زادى اليوم ، عواطف لاهبات ، تصعّدت كالأريج العاطر ، من قلبٍ حيٍّ شاعر . لقد سحرني خير الدين ، وساقني إلى دنيا ملؤها الحب والوفاء ، فأطربني بمليح نغمه وطريف نظمه . ولعله أول شاعر لحل في سورية ، أوتى رقة الطبع ، وفخامة المبنى ، ورقة المعنى ، وجودة السبك . ولقد أثّرت فيّ ، من شعره ، ناحية ذات شأن ، هي تمجيده وطنه والتغنى بجماله ، والبكاء على جنانه ، والرثاء لمصابه . ولعلّ في شعره الباكي صفحة من صفحات المآسى التي مرّت على سورية ؛ وإنها لصفحة ملأى بالتعذيب والتحريق والخسف والذل ، ولعلّ يتردد شعر خير الدين أثير آلام الماضي في نفس خير الدين ، وأذكره بروع البين ، وحنين الغريب . وقد تهفو نفسه إلى هذه الأرض الرشيقة الغانية التي تغنّى بها ، ويصفق قلبه إلى الغوطة الفتانة البسّامة التي عشقها .

وقد يحن إلى صحبه الذين فاتحوه المودة وأحبوه ، وقد يحن أيضاً إلى الناس الذين أحبوا به ولم يروه ؛ أولئك الذين في قلوبهم رائع شعره ، وقوّة حنينه ، ومرارة بكائه ، فأصغوا إلى أنّاته الناعمات ، التي تتمثّل فيها أنين سورية المعذّبة بالفجيعات والنكبات .

لقد لقّبوا خير الدين « بلبل النيربين »[1] . أكرم بهذا اللقب . ولو كنت يوم لقبوه ، لسميته « شاعر الوطن » . إن الذي ينادي ، ويشكو ، ويشيد بجمال بلاده ، ويتغنى برياض أوطانه ، ويبكي مصابها ، ويواسى جراحها ، ويخفف آلامها ، ويستنهض الهمم لإنقاذها ، لجدير بأن يسمى شاعر الوطن . وعندى أن شعره في وطنه ، من أروع الشعر وأحلاه .

شعر غنائى رقيق ، يصدر من قلب شديد الحساسية ، سلس يتدفق بماء الطبع والحياة ، صاف رقاق الصفاء ، يزينه اللفظ الحلو ، والسبك الجيد ؛ شعر رومانتيكى فيه حنين وأنين ، يثيرك ويستدر دمعك ؛ أنات غريب ترك الأهل والوطن ، وغابت من عينه مرابع الأهل ومغاني الوطن ، فقلبه مضطرب كالمٍ خافق ، يمسى مدلّهاً حيران ، ويبيت مؤرقاً أسوان ؛ تطيف به طيوف الوطن البعيد ، تموج بالعطر والطيب ، وتزهو بالحسن والجمال .

استمع إليه يقول :

العينُ بعد فراقها الوطنا — لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريّانة بالدمع أقلقها — ألا تحس كرى ولا وسنا
كانت ترى في كل سانحة — حسناً ، وبات لا ترى حسنا
ليت الذين أحبهم علموا — وهم هنالك ، ما لقيتُ هنا
ما كنت أحسبني مفارقهم — حتى تفارق روحي الوطنا !

فهذا شعر يذوب رقة ؛ شعر صادق ، لا تكلّف ولا تصنّع ؛ شعر يذكرني حنينه بشعراء الطوّافين من أهل الصليب ، وهم يحنون إلى الوطن البعيد . لقد كانت عيناه ترعيان الحسن كل يوم ، وكان في دنيا كلها جمال ؛ ثم مضى ... وبات لا يرى حسناً ؛ ثم حن واشتاق ، وتمنى أن تعلم أحبته ما يلاقي من شوق وهوى .

إني لأذكر — الآن — كيف بكى ذلك الطفل ، وأنا أقرأ شعر خير الدين . كنت يومئذ مدرّساً ، وكنت أنتقى من شعر خير الدين ما يحفظ التلاميذ ، فإني لماضٍ ذات مرة في شرح هذه الأبيات ، أردد بيت التمنى ، هذا البيت الذي يحوى التلهف ، والحب ، والألم ، والحسرة ، والشوق ؛ إذ بي أرى طفلا يترأرأ الدمع في عينيه .. !

وسألته لمَ تبكى يا بنيّ ؟

قال : مسكين هذا الشاعر .. ما صنع بنفسه وبأهله !

(١) النيربان

وكيف استطاع أن يترك وطنه ...؟!

وعلمت يومئذ سحر هذا الشعر ، بعد أن أبكى الصغار ، وفتن الكبار .

لقد أراد خير الدين أن يعلم أحبته ما يلاقيه . ألا رحمة للشاعر الغريب كيف يتمتع بالعيش ؟! .. لا ! لن يتمتع وربّك ، وهيهات ، مهما أرسل نفسه فى المتع والنعيمات ، أن يجد راحة القلب وهدوء البال . ستبقى فى قرارة نفسه حسرة ، حسرةٌ تهيج كالنسمة اللطيفة من حين إلى حين ، فتثورُ الحنين الشديد إلى البلد الحبيب . وعندئذ تتمثل له صور وطيوف ؛ وتتراءى لعينيه قصور ، ورياض ، وزهور .. فيبكى . إن أبسط شىء قادر على أن يهيج هذه الحسرة .. عصفور صغير .. قد يثير الشجو .. ويستدر الدمع :

يا طائراً غنّى على غُصُنٍ والنيل يسقى ذلك الغُصُنا

زدنى وهيج ما شئت من شجنى

إن كنت تعرف مثلى الشجنا

أذكرتنى (بردى) وواديه والطيرُ آحاداً به وثُنا

وأحبة أسررت من كلفى وهواى فيهم لاعجاً كمنا

كم ذا أغالبه ويغلبنى دمعٌ إذا كفكفته هتنا

لى ذكرياتٌ فى ربوعهمُ هن الحياة تألقاً وسنا

ذكرياتٌ هنّ الحياة ! لله درّك يا أبا غيث ! هل الذكريات غير قطع ضاحكة أو عابسة من ماضينا . ذكريات تكون نعماً يتلفت إليه القلب ، أو جحيماً تشمئز منه النفس . لكن ذكريات شاعرنا فى ربوع أحبته يتألقن ويرفقن ، أفيطيق شاعرنا بعد هذا أن ينسى دمشق ، زنبقة الصحراء ، على قول أنور العطار .. فلا يبثها حبه وهواه ؟

أنا فى هواكِ ، كما يشاء هواكِ لى

كَلِفٌ بحبك ، يادمشقُ ، وَدود

ولقد هجرتُكِ حين ضاق بكِ الأذى

ما للأباة على الهوان قعودُ

أقصيتُ عنكِ — ولو ملكتُ أعنتى

لم تنبسط بينى وبينك يدُ

أتريتها الأيام تجمعُ بيننا • وترى عهد صفائها سيعودُ

أتضمنا بعد الشتات خمائلٌ ريانة ، وأزاهر ، وورودُ ؟

فليس من العجيب ، وهذا حبه ، أن يظل متوجعاً ، متفجعاً كليفاً . لا تصيب بلاده نائبة إلاّ وصفها ، ولا تشكو ألماً إلا خفف عنها ، لما يشعر به نحوها من حب أكيد ، وشوق إليها شديد ؛ وكأن هذه المصائب التى تنزل بها ، تنزل به هو أيضاً ، حتى إذا ضاقت نفسه ، وذاب جسمُه ، وتصدّع قلبه ، نادى الزمان ...

متى ترى ، تبسم لى ، يا زمان ألا حنان

أسلفتنى ، لا أنسَ لى ، لا أمان للحدثان

عيناى ، لما تبرحا ، تجريان نضّاختان

أبكى ربوعاً ، لا تطيق الهوان رهن امتهان

أبكى دياراً ، خُلقت للجمال أبهى مثال

أبكى تُراث العز ، والعزُّ غال صعب المنال

أبكى نفوساً ، فعنت بالرجال عن النضال

أبكى جلال الملك ، كيف استحال إلى خيال

ما لرحابى ، وجنان الرحاب آضت يباب

ما لبنيها ، كلهم فى اكتئاب أسرى عذاب

ضاعت بلادى ، يا زمن الصغار والاندثار

الناس يبنون ، وما فى الديار غيرُ الدمار

متى ترى ، تبسم لى ، يا زمان

فهذه قطع من قلب شاعر ، قطع حيّة ، يردّدها الناس ، لأنها أنات سورية فى يوم من الأيام .

* * *

يا أبا غيث ! إن دمشق التى هزّها بكاؤك فى أيامها السود ، تتلهّف إلى غنائك فى أيامها البيض . وأرجو ألا تلهينّك القاهرة العظيمة عن دمشق التى كلفت بها ، وسميت نفسك — من أجلها — بالودود .

دمشق فؤاد

برج بابـــل

في الإصحاح الحادي عشر من السفر الأول من أسفار التوراة، نقرأ رأياً خاصاً باللغة وأصلها، لا من حيث هي توقيف ووحي، أو اصطلاح وتواطؤ، بل من حيث إنها ترجع إلى أصل واحد أو أصول متعددة. فالتوراة تقرر أن لغات العالم ترجع إلى لغة واحدة، وهي اللغة الأم، ثم تقص علينا قصة جميلة حول السبب الذي أدى إلى هذا التنوع في الأجهزة الصوتية والتعدد في اللغات. فهي تحدثنا عن قصة من القصص السامي القديم الذي رددت صداه الآداب العالمية والديانات السماوية، أعني قصة «برج بابل»؛ فهي كما يدل عليها اسمها ليست عبرية، بل بابلية، وإن كانت التوراة قد صاغتها في أسلوب يختلف بعض الاختلاف عن الأصل البابلي. فهذا البرج الذي كان أول الأمر من مستلزمات الديانة لحراستها والدفاع عنها، والذي أصبح فيما بعد مقترناً بالمعابد اقتران المآذن اليوم بالمساجد، وأبراج النواقيس بالكنائس، أصبح في التوراة مظهراً من مظاهر اتحاد الشعوب وجمع كلمتها. لكن هذا التآلف الذي قد يؤدي إلى شيء من الغطرسة والكبرياء أغضب الله، فنزل من السماء وبلبل ألسنة القوم، فوقف العمل، وتشتتت الشعوب. وفي عصر السبي البابلي (القرن السادس ق. م.) نجد اليهود يحدثوننا عن القصة حديثاً آخر يختلف بعض الاختلاف عما ورد في التوراة، ويتفق مع ما نعرفه في الإسرائيليات وقصص الأنبياء وبعض كتب التفسير. لكن بينما القصة اليهودية تدعي أن شعب الله هو الشعب العبري لعدم اشتراك جدهم (عبر) في بناء البرج، إذ بالمصادر العربية تقرر أن العربية هي لسان أهل الجنة؛ فالسيوطي يحدثنا في ج ١ ص ١٧ من مزهره: وأخرج ابن عساكر في التاريخ بسند رواه عن أنس بن مالك موقوفاً قال: لما حشر الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحاً، فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له، فنادى مناد: مَنْ جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتصد البيت الحرام بوجهه، فله كلام أهل السماء، فقام يعرب ابن قحطان، فقيل له: يا يعرب بن قحطان بن هود، أنت هو. فكان أول من تكلم بالعربية. فلم يزل المنادي ينادي من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا، حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً، وانقطع الصوت، وتبلبلت الألسن، فسميت بابل، وكان اللسان يومئذ بابلياً.

ولم يقف أثر هذه القصة عند هذا الحد، بل نجدها تذهب بعيداً، فتخرج لفظ - بابل - من معناه الأصلي (باب إيل) أي باب الله، إلى المعاني المتداولة الآن في سائر اللغات السامية الحامية والهندية الأوروبية، وفي الإنجليزية مثلاً Babel — بابل — يدل على معنى Babbele — بابل — في الألمانية، واللفظان يستعملان فيما تستعمل فيه كلمة — بلبل — في العربية.

وليست الشعوب السامية هي الوحيدة التي انفردت دون شعوب العالم بالاعتقاد في أن لغات البشر ترجع إلى لغة واحدة أصلية؛ فالقصص الصيني يحدثنا أنه كان يحكم تلك البلاد قيصر يدعى (شين هوانج Schin Hoang)، خضع لسلطانه الإنسان والحيوان والنبات، وحتى الظاهر الكونية المختلفة من مطر وريح، ونور وظلام، وسكون وحركة. كما أنه كان يتصف بكل الفضائل وإرجاع سائر اللغات إلى أصل واحد، وظلت البلاد في رغد من العيش حتى تبلبلت الألسنة، فتغيرت الأحوال واضطربت الأمور. وفي الهند نجد نفس الفكرة تتجلى لنا في صورة شجرة تين اسمها (قاتا)، كانت تظل العالم أجمع عند ما كان يتكلم لغة واحدة، وهي لغة الله؛ وحدث أن داخل العجب نفوس القوم، ففكروا في استخدام الشجرة التي بلغت قمتها كبد السماء، وسيلة للوصول إلى مكان الآلهة التي غضبت وحطمت الشجرة وتناثرت أغصانها، فتفرقت

العادات ، وتنوعت الأخلاق ، وتبلبلت الألسن ؛ أما هذه الأغصان التي كان يبلغ عددها أحداً وعشرين غصناً ، فقد غرست من جديد وتكونت منها الأسرات اللغوية العالمية .

لم يقف اعتقاد العالم القديم في اللغات البشرية عند هذا الحد ، أعني أنها ترجع جميعها إلى لغة أصلية واحدة ، وهي اللغة الأم ، بل نظر إلى اللغة نظرة تقديس وإجلال ؛ فقدماء المصريين اعتقدوا أن الكلمة ربّاً خاصاً وهو (توت) ؛ كما آمن اليونان بالإله (هرميس) والرومان بيانوس Janus ؛ واعتقد البابليون في (أبا) ، والهنود في (برهما) ، والجرمان في (أودين) ؛ كما أن بعض الشعوب الأخرى — كالهنود الحمر بالمكسيك مثلا — رأت أن اللغة وصلت إلى البشر عن طريق طائر خاص ، فاللغة في عقيدة تلك الشعوب توقيف ووحي .

لكن فكرة الإنسان في آلهته تطورت وتغيرت مع مرور الزمن ، كما اندثرت ثقافات وقامت على أنقاضها أخرى تختلف عنها في نظرها إلى الكون وتقديرها للوجود . وأخذ يفقد الإنسان تدريجياً إيمانه بتعدد الآلهة والبحث عنهم خارجه ، وأصبح يميل إلى الكشف عن إلهه في داخله . وقد تجلت لنا هذه الفكرة واضحة في المسيحية عند ما نسبت إلى عيسى عليه السلام أنه قال : أنا الكلمة ، والكلمة أنا . فهذا التطور الفكرى الذى أدى إلى القول بأن اللغة ليست توقيفاً ولا وحياً ، سبقه تطور آخر في الفنون والآداب تجلى لنا في لغة الترانيم الدينية الرفيعة ، ولغة كبار الكتاب والشعراء ؛ ففي تلك النصوص نقرأ لغة تختلف عن لغة العامة اختلافاً كبيراً ، ولو كانت اللغة توقيفاً لكانت واحدة ؛ هذا إلى جانب كثرة التوارد والترادف والتضاد والشواذ ، وما إليها من الظواهر اللغوية التي تشوه جمال اللغة ، وتجعلنا ننظر إليها نظرة أقل من نظرنا إلى أي تمثال من صنع الإنسان ، ونعتقد في أنها اصطلاح وتواطؤ . وقد رأى هذا الرأى قديماً كثير من الفلاسفة ، وعلى رأسهم أرسطو ، كما ناصر الفكرة الأولى آخرون ومن بينهم أفلاطون . وقد استمر النزاع قائماً بين المدرستين حتى العصور الوسطى ، إذ انتصرت آراء أرسطو وأصبحت هي الأساس الذى شيدت عليه الآراء المتأخرة حول اللغة وأصولها .

لكن نظرية برج بابل ، التي رددت صداها أساطير الهند وقصص الصين ، والتي كانت العامل المحرك إلى إيجاد تلك الحركة الفكرية حول اللغة وأصلها ، اتجهت بالفكر الإنساني منذ القدم اتجاهاً آخر ، قصد به التثبت من صحة النظرية أولا ، ومعرفة زمن ووطن اللغة الأصلية الأم ثانياً . فهيرودوت يحدثنا أن (بساتيك) أراد الوصول إلى معرفة اللغة الأم أو أقدم شعب على الأرض ، فأمر بإحضار وليدين ووكل أمر العناية بهما إلى أحد رعيانه ، وحذره من أن ينطق أمامهما بمقطع واحد ، كما أمر بوضع الوليدين في مكان بعيد لا يصل إليه صوت بشر . وكان هذا الراعي يزور الطفلين في أوقات مخصوصة ومعه ماعز لإرضاعهما . وبعد مرور عامين دخل عليهما الراعي فوجدهما يركعان صائحين (بيكوس) (Bekos) ؛ فأخبر الراعي بساتيك الذى أمر بإحضار الطفلين إليه ، وعرض عليهم هذا اللفظ ، فظهر أن مدلوله « خبز » في لغة أحد شعوب آسيا الصغرى المعروف بالشعب الفريجي ، فاستدل من ذلك على أن الشعب الفريجي أقدم الشعوب ، كما أن لغته أقدم اللغات . ونفس هذه التجربة التي قام بها فرعون مصر بساتيك نجدها تتكرر في العصور الوسطى ، فالتاريخ يحدثنا أن فريدريش الثاني حاول القيام بهذه التجربة فلم يوفق . لكن هذه المحاولات وإن كانت قد أخفقت ، إلا أنها كانت السبب في خلق علم جديد ، ألا وهو علم مقارنة اللغات الذى استخدم كوسيلة من وسائل البحث عن اللغة الأصلية . ففي القرن الرابع

الميلادى نجد (هيرونيموس)[1] يشير إلى القرابة بين العربية والعبرية والفينيقية ، وتبعه علماء آخرون ، منهم الغربى ومنهم الشرقى ؛ وقد عاونوا جميعاً فى بناء هذا الصرح العظيم الذى تسلمه (ليبتز) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ودعمه ، وذلك لأنه كان يعتقد فى اطراد حياة اللغة الأصلية وانتشارها بين لغات كثيرة ؛ فجمع من تلك اللغات المواد التى كان يرى ضرورة الاستعانة بها لبناء هيكل اللغة الأصلية ، وعاونه على تحقيق غايته اتصاله الوثيق برحالة الصين الإيطالى (كلوديو جرعالدى) وملك بولنده (يوحنا سوبيسكى) ، وقيصرة روسيا (كترين الثانية) . لكن ما كاد يولد القرن التاسع عشر حتى رأينا العلماء ينقسمون إلى فريقين : فريق يستخف نظرية برج بابل ، وكان على رأسه (فولتير) ؛ وآخر يعارضه بزعامة (فلهلم فون هومبولات) . ومن حسن حظ الفريق الأخير أن القرن التاسع عشر كان عصر الاكتشافات اللغوية الخطيرة ، فرموز الهيروغليفية قد حلت ، وطلاسم الأكدية رفع القناع عنها ؛ وتسابقت بعوث الجامعات الأوربية والأمريكية إلى الشرق ونبشت أرضه ، فازداد تعمق اللغويين فى السنسكريتية ، واستطاع العلماء أن يرسموا خطاً كروكياً يبين لنا مجموعة اللغات التى عرفت فيما بعد بالهندية الأوربية . ووفق (فرنس بوب) عام ١٨١٦ عندما نشر كتابه الذى درس فيه صرف اللغة السنسكريتية مقارناً بصرف اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والألمانية ؛ وقد أقام بكتابه هذا الدليل العلمى على قرابة هذه اللغات . ثم تلت هذه المجموعة مجموعة أخرى من اللغات السلتية والصقلبية والألبانية والأرمنية . وهكذا أصبحنا نرى أنفسنا فى القرن التاسع عشر أمام مجموعة من الشعوب تمتد من الهند إلى شمال إرلنده ، تربط بينها رابطة الجنس ، وتوحد بينها اللغات ؛ وكانت نتيجة هذا الكشف اللغوى العظيم أن أقبل تلاميذ فون هومبولات على بقية اللغات ، وأخذ كل فريق يعنى بلغتين أو أكثر ، حتى نجحوا أخيراً فى مد خطوط وهمية تصل بين كل مجموعة وأخرى . واضطر اللغوى إلى التخصص فى أسرة من هذه الأسر ليتمكن من فهم اللغة التى يعنى بدراستها ، ويساهم إن استطاع فى الوصول إلى الهدف الرئيسى ، ألا وهو تحقيق نظرية برج بابل . والواقع أن هذه السنة الجديدة التى أسستها مدرسة فون هومبولات أتت بأحسن النتائج ؛ فقد ظهر من دراسات علماء الأسرات المختلفة أن بين لغات الأسرة الواحدة توجد مجموعة من المفردات والخصائص النحوية والصرفية التى تجب العناية بها قبل أن يقدم العالم على عمل دراسة مقارنة بين أسرة وأخرى . فظهر فى الأسرة الهندية الأوربية أمثال (روجمان) ، والسامية الحامية (بروكلمان) ؛ وبالاستعانة بالنتائج التى وصل بها علماء الأسرتين وغيرهما أصبح من اليسير على (هرمان مللر) ، و (الفريدو ترومبتى) ، أن يقدما للعالم مؤلفاتهما التى تؤيد نظرية برج بابل ، وترجع سائر اللغات إلى لغة واحدة أصلية ، وهى اللغة الأم .

دكتور فؤاد حسنين

(١) ولد فى دلماسيا فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى من أسرة مسيحية ، ودرس فى روما النحو والبلاغة ، ومن ثم اعتنق عام ٣٦٦ المسيحية . ورحل بعد ذلك إلى الشرق — حيث أقام فى أنطاكية — وتعلم بعض لغاته ، وبعد أن أقام مدة فى الشرق رجع إلى روما ، وعاد ثانية مع صديقته بولا وابنتها ، وأقاموا جميعهم فى بيت لحم حيث أسسوا بعض الأديرة التى كانت تحت إشرافه ، وقد عرف بفساد الأخلاق والكذب

مراكش

على جناح الخيال

قست علىّ الليالى أوّاه بعد ارتحالى
فبيننا اليوم سدّ يعجّ بالأهوال
بالحوادث ا مهدى أضحى بعيد المنال
وهكذا يا بلادى إذ سيّرتنى الليالى
وصرت عنك بعيدا تناثرت آمالى
فلا أزورك إلا على جناح الخيال

* * *

هذى جبالك هذى ربوعك الخضراء
هذى هضابك هذى رياضك الفيحاء
مباهج قد علتها سماؤك الزرقاء
فحيث سرت جمال وحيث كنا رُواء
وأينما كنت سحر وبهجة وصفاء
فكيف لا يتغنى بحسنك الشعراء

* * *

أنصت.. فهذا الخرير وذاك صوت الطيور
وانظر.. فهذا ربيع فى عالم مسحور
والشق فهذى رياض فوّاحة بالعبير
واسبح.. فأنت خيال فى عالم من نور
أين القرار لقلبى فى كل هذا الحبور؟
فكل ما زهرة قد أغرته بين الزهور

* * *

حتى إذا ما تولّى ربيعك الفتان
وولّى الحبور ووافى شتاؤك الغضبان
فتعول الريح فيه وتُسلَب الأغصان
ويقبل الرعد يدوى كأنه حيوان
قد ثار فى قفص السحب صوته الغضبان
ترددت من بعيد أصداءه الوديان

* * *

إن كنت فى السكون حسناء يا بلادى الجميله
فأنت أيضا مجال ومهبط للبطوله
وإن يكن فيك حب ففيك أيضا رجوله
يهوى بنوك المعالى والمجد منذ الطفوله
إن الشجاعة فيهم عريقة وأصيله
فكلهم مستميت ضد الحياة الذليله

* * *

فيك الحياة أفاقت كما يفيق الربيع
تدب فيك فيصحو فؤادك المفجوع
هذى الحياة بنا دبك صوتها المسموع
فاستيقظ المجد وأنـ ـار قبره المرفوع
وهبّ شعبك حيا وقد أحس الجميع
شعب كريم عريق فى المجد كيف يضيع!

* * *

مناظر تتوالى توالى الأوهام
فاستأثرت بخيالى واستأثرت بمنامى
لم ينس منك شيئاً تتابع الأيام
إنى أحبك حب الطيور للأجام
مهما تباعدت عنى وكان بعيد مقامى
آه.. فازلت أمشى رباك فى أحلامى

عبد المجيد بن جلون

الشعبة المصرية للجمعية الدولية للتعليم التجارى

بدار نادى التجارة العليا ١٢٠ شارع عماد الدين . مصر

قررت الشعبة إجراء مسابقة فى التأليف المسرحى من رواية تصلح للتمثيل فى معاهد التجارة — وقد خصصت لهذا الغرض جائزتين قيمتهما مائة وعشرون جنيها ، منها ثمانون جنيها للفائز الأول ، وأربعون جنيها للفائز الثانى .

وتقبل الروايات لغاية آخر أكتوبر سنة ١٩٤٩ . والشروط التفصيلية للمباراة يمكن الحصول عليها من سكرتارية الشعبة بنادى التجارة العليا بشارع عماد الدين رقم ١٢٠ إما بالبريد أو بالزيارة من الساعة ٩ — ٨ مساء .

تفكير الحيوان

تنشر مجلة « المختار » تحت عنوان « حكمة الحيوان » طائفة من الوقائع والمشاهدات فى عالم الحيوان، جمعها الكاتب « ألن ديفو » . والأمثلة التى بدأت بنشرها فى عدد أبريل الأخير طريفة حقاً ، وعلى شىء من الغرابة التى تدعو للتأمل والتعجب ، كما أن فى العنوان الذى اختاره الكاتب وفى مقدمته الوجيزة شيئاً غير قليل من البراعة والتوفيق ! إلا أنى أرى أن رد كل ما نشاهده من ضروب الفطنة والذكاء والإدراك عند الحيوان إلى حكمة غريزية فيه ، لا يمكن إلا بوضع مفهوم جديد لفظة « الحكمة » ، فإن كان لا بد من هذا فما أجدر لفظة « التفكير » - التى يستبعدها الكاتب - باستيعاب تلك الأمثلة كلها . وماذا يضير الإنسان إذا اعترف بأن الحيوان يفكر ! وإن كان تفكيره ليس على النمط الذى حدثنا عنه علماء النفس وخصوه بالإنسان دون سائر الأحياء .

لقد شاهدت بنفسى كثيرا من الأمثلة التى تدل على أن الحيوان غير بعيد عن التفكير ، كما أنى رأيت أعمالا وحركات فى عالم الحيوان غير الناطق ، لا يقوم بها كائن حى إلا بدافع غريزى ينبئ عن تمتعه بقسط وافر من التفكير والإدراك ؛ وقد سجلت بعض ما رأيت وعاينت فى مذكراتى بجزء من « صور عن الطبيعة والمجتمع » أنشر اليوم صورتين منها ، لا شك أنهما تدخلان فى حكمة الحيوان التى يحدثنا عنها « ألن ديفو » ، ولعلهما تبرهنان على تفكير تنعم به الحيوانات وتشقى !؟!

١ — صرع :

... كنت أمشى الهوينا ، وأنا أحمل بندقية الصيد وأتطلع إلى الأشجار ، وأصغى إلى أصوات الطيور التى عليها لأصطاد ما أتخيره منها ، ساعة بلغ أذنى حفيف يقترب منى . وسريعاً وقع نظرى على ثعبان منطلق كالسهم فوق الأرض التى كنت أعلوها ببضعة أقدام ، فشددت قدمى وهممت بإطلاق النار ، غير أنى تمهلت عندما تبينت أن الثعبان يستهدف إدراك حرذون كان يعدو أمامه بسرعة بلغت منه أقصاها ، وبما كنت أنه لا بد مدركه بعد بضع خطوات لتفاوت سرعتيهما ، فتبعتهما بنظراتى . ولست أذكر الآن ماذا حدث بالتمام ، وخصوصاً اللحظة التى بدأ فيها ذيل الحرذون يدخل فم الثعبان ؛ غير أنى رأيت فجأة الثعبان مضطربا فاغرا فاه وهو يحاول ابتلاع طريدته . ومن الطبيعى أنى كنت أرى بين فكيه رأس الحرذون ، ولكن لم أعرف سبب توانيه فى ابتلاع فريسته ، إلا عندما بان لى من شدة مراقبتى لحركاته بأن الحرذون كان يحمل بين أسنانه عوداً يابسا طال حتى تعذر على الثعبان ازدراده ... وعندئذ فقط أدركت ما صنع الحرذون ، فقد كان يركض جهده ، حتى إذا ما عثر على العود وقف ليدخله بين فكيه ، وفى اللحظة نفسها كان ذيله بدأ يدخل فى فم الثعبان ...

.. اقتربت من مسرح العراك قليلا لأكون على كثب مما سيتم من شأن القوى الجبار والضعيف المحتال ، وكأن الثعبان أحس بدنوى منه ، فرأيته يلفظ الحرذون ، وقد يئس من ابتلاعه ، وينطلق غضبان متألما ... أما الحرذون فظل فى مكانه لا يبدى حركة ، فظننت أنه قضى نحبه رعبا ، فحصبته فإذا به وقد اطمأن من بعد غريمه يترك العود ويعدو نحو شجرة قريبة فيتسلقها ... (الصائفة صيف ١٩٣٤)

٢ — فارس :

وأخيراً استطاع أن يظفر بإحدى الدجاجات ، ولكن رصاص رجل المزرعة أدركه ، فخر يتخبط بدمه الخبيث ... لقد كان واحداً من عصابة قوية من عصابات ابن آوى التى أخذت تهدد فى هذا الصيف القرية بفناء دجاجها ، وبدأت تهاجم منذ ليال خلت دجاجاتنا العزيزات ، ولولا عين المزارع الساهرة اليقظة لفقدناهن واحدة واحدة ...

كتاب قوانين الدواوين

للأسعد بن مماتى

جمعه وحققه عزيز سوريال عطية

طبع بمطبعة مصر سنة ١٩٤٣ فى ٦٩٩ ص بقطع الثمن الكبير

إن أردت أن تعرف قيمة أى كتاب يقع فى يدك ، فانظر إلى مؤلفه ، وإلى الساعى بنشره ، وإلى ناشره ، وإلى زينته ، أى التعاليق والحواشى والفهارس التى فيه ، والعناية التى بذلت فى إخراجه للناس ، وبثه بين أيدى عاشقى العلوم ، وعشاق الفنون . فإن رأيت تحقيق كل هذه الصفات ، فقل : هذا الكتاب يجب أن يقتنى ويعتز به .

وقد وقع فى يدنا التأليف الذى صدرنا به هذه الكلمة ، فألفينا مصنفه (ابن مماتى) الوزير الأيوبى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ؛ وقد أوحى بطبعه الأمير الكبير ، والعلامة الشهير المرحوم (عمر طوسون) ؛ وحقق ما ورد فيه الدكتور (عزيز سوريال عطيه) ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية ؛ وسعى بنشره (الجمعية الزراعية الملكية المشمولة برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك) .

وقد وضع له ناشره ثمانية فهارس بديعة :

١ : فى أسماء الأنبياء والملوك والأشخاص .

٢ : الأقسام الإدارية الواردة بالباب الثالث وبقية أجزاء الكتاب .

٣ : ترتيب الحروف الأبجدية بالباب الثالث .

٤ : أسماء البلاد والقرى والمساجد والجبال والأنهار والبحار مما فى ذلك النواحى التى وردت فى باب الخلجان والترع والجسور .

٥ : الخلجان والترع والجسور وما يتعلق بالرى .

٦ : الموضوعات .

٧ : أسماء النبات والزرع .

٨ : الاصطلاحات والألفاظ المستعصية .

لقد كانت هذه الحادثة ذات أثر فى حياة الدجاجات الثمانية الباقيات ، فقد انتزعت من نفوسهن الثقة فى حمايتنا لهن ، وأبين بعدها النوم فى المكان المعد لهن ، واتخذن من أرفع أغصان شجرة زيتون باسقة مأوى لهن يعصمهن من غارات ليلية جديدة ...

... أخذت أراقب الدجاجات ، على بضعة أيام ، كيف ومتى يصعدن شجرة الزيتون عند المساء ، فأدهشتنى رؤية ديكهن يقف قبيل الغروب عند جذع الشجرة ، ثم يأخذ بالإيعاز إليهن بالصعود ، بنغمة من صوته معينة ، حتى إذا ما صعدت آخر واحدة منهن قفز خلفها واستعلى ما استطاع .

... ودفعنى العبث إلى إرسال من يفرط عقد الدجاجات ويشتت شملهن إذا ما حان وقت منامهن ، فكان يدهشنى أن الديك ما صعد مرة قبل أن تصعد ثامن دجاجة من دجاجاته ، بل كان يظل يصيح ويزعق إذا ما تأخر بعضهن ، حتى ولو كان لا يراهن ، كأن يكن خلف بعض الجدران القريبة أو فى أحد المنعطفات .

... وعند ما استبدلنا بالفقيدة دجاجة غريبة ظلت بضعة أيام لا ترافق موكب الديك ، ولهذا لم يكن ليدخلها تحت رعايته عند المساء ؛ فلما ألفت أخواتها ، أصبح لا يصعد شجرة الزيتون إلا بعد الدجاجة التاسعة !! ... (جرايا صيف ١٩٣٧) .

***

أنقل هاتين الصورتين وأنا متردد فى الجزم بأن الحيوان يفكر ، وأنه يحسب أيضا . ولعل الدكتور إسحاق الحسينى من الذين يؤيدوننى ويؤكدون معى بوجود التفكير عند الحيوان ، أو عند الدجاج على الأقل !! ...

دمشق — محمد عبد الهادى الطيب

فأنت ترى من هذا الإجمال في القول ، ما انطوى عليه هذا التأليف الثمين الذي يزرى بعقد الجمان ، بل بكل مقوَّمٍ يتصوره الإنسان . وقد قال فيه صاحب السمو الأمير الخطير ، المرحوم عمر طوسون ، رئيس الجمعية الزراعية الملكية ، ما نصُّه : « كنا وفقنا أثناء تنقيبنا بين الكتب إلى الوقوف على « كتاب قوانين الدواوين لابن مماتى الذى نقدمه اليوم إلى قراء اللغة العربية ، وتبيّنّا أهميته العلمية والتاريخية ، فعرضنا على مجلس إدارة الجمعية الزراعية الملكية أمر طبعه ، فأقرَّ ذلك » ... « وهذا الكتاب الذى يعتبر بلاشك وثيقة من أهمّ الوثائق عن حال الزراعة ونظم الدواوين المصرية في عهد الدولة الأيوبية التى لم يصلنا عنها إلى النزر اليسير — فإنا نرجو أن ينتفع به قراء العربية والمشتغلون بشؤون الزراعة والتاريخ ، ويحقق ما قصدنا إليه من خير وفائدة » هـ .

وقد شاهدنا من عمل الناشر ما يدهش كل قارئ فاضل مقدّر لأتعاب من يعنى بنشر التصانيف من مدافنها المظلمة إلى عالم النور . فقد أظهر الأستاذ الكبير الدكتور عطية من المقدرة في إحياء هذا الأثر العظيم ، ما يتحدّى كل عالم عامل أن يصيب فيه عيباً أو خللاً ، إلا ما لا يعتد به ، ولا يلتفت إليه ؛ مثال ذلك ما جاء في ص ٥ : « تكلم ابن مماتى بصفة عامة عن مصر » وأحسن منها أن يقال : ابن مماتى بصفة عامة في مصر . لأنه يقال : تكلم عن كذا ، أى دافع عنه — وفي تلك الصفحة « وجزايرها ومناها » وأفضل منها : وجزائرها ومنياتها . أى بهمز جزائرها كما يصرح به أرباب النحو ؛ وأما مناها فجمع مُنْيَة بمعنى الأمنيّة ، وإنما هنا يراد بها جمع منية التى تضاف إلى كثير من الحروف الدالة على مدينة أو قرية أو بُلَيدة ؛ ويعدّ منها في مصر أكثر من ثلثمائة . على أن تكسير منية على منى جائز ، من باب تكسير العلم والتصرّف فيه تصرف النكرات ؛ فيجمع ويثنى إلى آخر ما هناك ؛ فقد قالت العرب مثلا الزيدون والزيود في جمع زيد . وكذلك فعل ابن مماتى ، فإنه جمع منية على منى وثناها في بعض الأحيان ، فجاء في الكتاب : منى الأمير ، ومنى البوهات ، ومنى القمح في الجمع ، ومنيتى الحوفيين والجانبين ، ومنيتى الطبيل وسويل ، ومنيتى الشرف والعامل ، وغيرها في المثنى .

وفي ص ٦ استعمل الدكتور العلامة : الإخصائيين بمعنى الاختصاصيين ، وقد استَسْمجها مجمعنا اللغوى ، وقال في مكانها : الاختصاصيين . وجاء في ص ٩ : ٥ بالمعنى أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ، ومعه سمكة مصنوعة من عنبر قد تُخُرِّق فيها وأجيد » وقد ضبطت تُخُرِّق بتاء ين مثناتين فوقيتين ؛ وظنها من أغلاط الطبع التى نُسى إصلاحها ، إذ الصواب ظاهر وهو تُشُوِّق أى بتاء ونون مضمومتين وكسر الواو المشدّدة .

ولا أعتبر هذه الهفوات ونظائرها إلا شامات في وجه الحسناء .

وكنا نود أن يوضع على كل خمسة أسطر رقماً يهدى إلى عددها في الصفحة ، لتسهل المراجعة على من يريد أن يهتدى إلى موطن الكلمة من سطور الصفحة الواحدة . وما هذا كله بشيء يذكر بجانب ما بذل الناشر من النَّصَب والنصب ، زاده الله صحة وعافية !

الأب أنستاس مارى الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٨٩ — الثلاثاء ٢٠ من رجب سنة ١٣٦٣ — ١١ من يوليه سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــــدد

ألمانيا في موقف الدفاع

للدكتور محمد عوض محمد

«ألمانيا في موقف الدفاع» ، عبارة توشك أن تكون من المتناقضات . فإن ألمانيا هي التي أخرجت إلى حيز الوجود الفكرة القائلة بأن «الهجوم خير وسائل الدفاع» ؛ وألمانيا هي مبتكرة الحرب الخاطفة ، التي تكتسح وتدمر في أيام قلائل أو في أسابيع قلائل كل قوة أو عدة تعترضها ، والتي تستولي على المساحات الواسعة والأقطار الفسيحة في زمن وجيز . وألمانيا دخلت هذه الحرب بعدة عجيبة لم يشهد لها الزمان مثيلا ، كان لديها من المدافع والدبابات وأدوات الهجوم المختلفة عشرات ومئات الآلاف من القطع . حتى قال أحد قادة الأمم المتحدة إن الألمان قد حشدوا في هجومهم في صيف عام ١٩٤٠ من المدافع عدداً لم يسبق وجود مثله في العالم في أي وقت من الأوقات . وإلى جانب هذه العدة الضخمة عديد هائل من الجند قد أحسن اختيارهم وتدريبهم على استخدام تلك الآلات . فكان الجيش الألماني في بداية الحرب يعمل كأنه آلة واحدة ضخمة تتحرك أجزاؤها بدقة وإحكام ، دون أن يعتريها خلل ، حتى لتوشك حركاتها أن تكون مُسَيَّرةً طبقا لمواعيد وأوقات محددة . واندفعت تلك الآلة في خريف ١٩٣٩ فاكتسحت بولنده في ثلاثة أسابيع ؛ ثم اندفعت في الربيع التالي فاستولت على دنمارکه ونرويج في سرعة مدهشة ؛ ثم بدأت اكتساحها الهائل في الميدان الغربي ، فلم تمض أسابيع حتى دانت لها الدول الغربية هولنده وبلجيكا ولكسمبورج وفرنسا . وفي ربيع العام التالي (١٩٤١) تقدمت تلك الآلة في دورتها الثالثة فلم تلبث أن اكتسحت البلقان حتى جزيرة كريد ، وأدمجت معها دول المجر ورومانيا.

جرى هذا كله والجيش الألماني محتفظ بكامل قوته ،

بل لعله ازداد قوة وبأساً ، ولعله فى صيف عام ١٩٤١ أقدر على الهجوم الخاطف منه فى أى وقت آخر . فإن اكتساح غرب أوربا والبلقان لم ينقص من عدده ولم يضعف من عدته شيئاً . وفى ذلك الصيف الخطير — وربما ذكره الناس فيما بعد بأنه الزمن الذى قرر مصير الحرب — قذف النازيون بجيشهم الهائل — يعضده أعوان من المجر والفنن والرومانيين والطليان — فى ميدان ضخم لم يعرف العالم أكبر منه ، بل لم يُعرف ما يدانيه ضخامة واتساعاً ؛ قذفوا به فى الميدان الروسى الممتد من البحر الأسود إلى المحيط الشمالى ، فى جبهة طولها نحو ألفين من الأميال ؛ فكان ذلك الحادث تجربة هائلة لذلك الجيش الجبار ولحربه الخاطفة . وكانت أعظم تجربة للمبدأ الخطير : « الهجوم خير وسائل الدفاع » . فإن روسيا لم تكن بعد تريد الحرب ، بل لعلها كانت تفضل أن تظل بمعزل عنها ؛ ولكن هنالك احتمال أنها قد تغير على ألمانيا فى يوم من الأيام ، فلابد من دفاعها بالهجوم عليها ، ولابد من التعجيل فى هذا ما أمكن التعجيل ، فلامناص من أن يوجه إليها الجيش الضخم فى صيف عام ١٩٤١ بعد أن فرغ من واجباته وأعماله فى الميادين الأخرى

فهل أبلى الجيش الجبار فى ميدانه الجديد كبلائه السابق ؟ وهل ثبت لهذه التجربة الهائلة التى لم يمتحن بمثلها جيش من قبل ؟ وهل لقى من التوفيق مثل الذى صادفه فى سهول بلجيكا وفرنسا فى العام السابق ؟ أما أن الجيش الألمانى قد أبلى فى الميدان الروسى بلاء عظيماً يفوق كل ما عمله من قبل ، فذلك أمر لا يحتمل الشك . ولكن من الظلم أن ينتظر منه فى هذا الميدان الشرقى المترامى الأطراف أن يبلغ النتائج الباهرة التى أحرزها فى الميدان الغربى ، وفى مدة من الزمن تعد بالأسابيع ، قبل أن يحل الشتاء الروسى ببرده وزمهريره . فالفرق بين الميدان الغربى والشرقى كبير ، فهنالك الميدان محدود صغير المساحة ؛ وهاهنا ميدان واسع هائل يوشك ألا تكون له نهاية . وهناك جيوش دول لم تكن تنتظر الحرب ، ولم تعد لها العدة اللازمة ؛ وهاهنا دولة روسيا السوفياتية التى جاهر النازيون بعداوتها ، ولم يخفوا عن العالم بغضهم لها ، فهى جديرة أن تتأهب لحربهم ، وأن تستعد لها أكمل استعداد . ولذلك وجد النازيون أمامهم للمرة الأولى جيشاً يستطيع أن يحاربهم وأن يوقع بهم الخسائر ، وأن يضعف من شوكتهم شيئاً فشيئاً .

ومع ذلك فقد مضى النازيون فى هجومهم الخاطف ، واندفعوا فى الميدان الروسى فى ثلاث شعب رئيسية : فى الجنوب نحو أوكرانيا ، وفى الوسط جنوب موسكو ، وفى الشمال نحو لينينجراد . وأخذ جيشهم الضخم يخوض المعارك الهائلة التى لم يسبق له أن خاض مثلها ، ويفتح الأقطار ويخضع البلدان ، ولكنه يفقد فى كل خطوة شطراً من صفوة رجاله ، وجزءاً غير قليل من عدته . ولا يستطيع منصف أن يصف الجيش النازى بالعجز أو التقصير . فلقد اندفع فى الجنوب حتى بلغ أبواب القوقاز ، وانطلق فى الميدان الأوسط حتى صار على أبواب موسكو ، وفى الشمال حتى أوشك أن يستولى على لينينجراد ؛ وكان هذا كله نجاحاً عظيماً ، ولكنه لم يكن كافياً . وأدرك الألمان الشتاء دون أن يعدوا له العدة ، فاضطروا لأن يتراجعوا عن موسكو وعن القوقاز ، وأن ينتظروا الصيف .

وجاء الصيف التالى عام ١٩٤٢ والجيش الألمانى لا يزال مالكاً لقوته ، قادراً على هجومه الخاطف العنيف ؛ ولكنه اكتفى بأن يكون هجومه فى روسيا مركزاً فى ميدان واحد يكون النصر فيه من الأعمال ذات النتائج الباهرة ، وذات الأثر الفعال فى الميادين الأخرى . فاختارت القيادة النازية للجيش العظيم عملا يعد متواضعاً بجانب الهجوم التام فى الصيف السابق ، إذ اكتفت بأن يكون الهجوم الجديد مركزاً فى الميدان الجنوبى وحده ، وموجهاً للاستيلاء على القوقاز وآبار البترول ، وعزل هذا الإقليم عن سائر روسيا . ومع هذا فإن هذا الميدان « المتواضع »

تقريباً كان عبارة عن جبهة عرضها أربعمائة من الأميال ، وقد اتسع بعد اختراق نهر الدون إلى مسافة ألف من الأميال .

ولعل هذا الهجوم فى صيف ١٩٤٢ أن يكون آخر هجوم كبير قام به الجيش الألمانى . وقد مضى فى فتحه وغزوه على مألوف عادته ، فاخترق نهر الدون ، وتوغل فى القوقاز ، وكان عليه أن يخترق نهر الفلجا من أقرب نقطة عند بلدة تسمى اليوم ستالينجراد ، وكانت فيما مضى تدعى تساريتسن . أشرف الجيش الألمانى على هذه المدينة التى تحرس معابر الفلجا فى أواخر شهر أغسطس ، ثم أخذ يتأهب للاستيلاء عليها . لم تكن هذه المدينة أكبر ولا أمنع من مدن أخرى سبق للجيش النازى أن غزاها واستولى عليها فى غير مشقة كبيرة ، وذلك فى روسيا نفسها ، بقطع النظر عما غزا وفتح فى أقطار وممالك أخرى ؛ ومع ذلك فإنه قضى أسابيع طوالا — أسابيع كلها هول وويل يعجز العقل عن تصوره — دون أن يبلغ مأربه من تلك المدينة . فقد قرر الروس أن يدافعوا عن كل متر من الأرض ، وعن كل جدار وحجر فى كل بناء من أبنيتها ، وألا يسلموا ركنا من أى شارع من شوارعها إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاع المستميت . وانقضى شهر سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٤٢ ، وليس من الإسراف فى شىء أن يقال إن هذه الحرب العالمية الضخمة كانت مركزة حول بلدة واحدة متهدمة المنازل والمصانع على الضفة اليمنى لنهر الفلجا ، هى بلدة ستالينجراد ، التى اضطر زعيم النازيين أن يعلن فى اليوم الثامن من نوفمبر سنة ١٩٤٢ أنه مكتف بما أحرزه منها ، وأنه لا يريد الاستيلاء على سائرها ، « وكفى ما سُفِكَ من الدماء » .

كانت هذه الجملة ، التى فاه بها قائد النازيين ، عبارة عجيبة حقا ، وكان غريبا جدا أن تصدر من ممثل للقيادة العليا ، التى لم تتورع عن تدمير مدينة روتردام من غير أدنى سبب وبلا مبرر حربى ، ومن غير إثم ارتكبه الهولنديون ! وكذلك لم تتردد تلك القيادة عن تخريب جزء كبير من مدينة بلغراد وغيرها من البلاد العزلاء ، التى لم يقترف أهلها ذنبا ، ولم يضمروا للنازيين شرا . ومع ذلك لم ينطق زعيم ألمانيا بتلك العبارة المأثورة : « كفى ما سفك من الدماء ! » إلا حين عجز عن اختراق نهر الفلجا بالاستيلاء على ستالينجراد .

ويجوز لنا أن نعد تلك الجملة نقطة التحول فى عقلية الحرب الألمانية ، ونقطة الانتقال من خطة الهجوم إلى خطة الدفاع . وقد صادف الارتداد عن ستالينجراد عملا حربيا آخر فيما وراء البحر المتوسط ، وهو التقهقر الألمانى فى الميدان الليبى . وكثير من الناس يزعم أن خطة الألمان الحربية فى صيف ١٩٤٢ كانت تربط بين الميدانين الروسى والليبى ، وأنها كانت ترمى إلى أن يتجه جيش الصحراء إلى الشرق الأوسط بعد أن يخترق الشام والعراق حتى يصل إلى بلاد إيران ، وهناك يلتقى بالجيش الألمانى المظفر الذى اخترق جبال القوقاز . وليس بمستبعد عن خيال القيادة العليا الألمانية أن تمد حربها الخاطفة لقطع هذه الآلاف من الأميال ، وأن توجهها هذا التوجيه الضخم . ولكن ثلاثة أعمال عسكرية متقاربة الموعد ، أودت ذلك الحلم ومزقته كل ممزق . أولها : معركة العلمين ، والثانى : تحرير ستالينجراد ، والثالث : نزول الحلفاء فى بلاد المغرب وفتح ميدان إفريقى جديد . وهكذا قدر للجيش الألمانى الجديد منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ أن يلزم خطة الدفاع ، وأن يتعلم فنا جديدا من فنون الحرب ، لعله لم يكن يعرفه ، أو لم يكن يتقنه ؛ ولكنه اضطر لأن يمارسه ، وأن يحاول بالتدرج إتقان هذه الخطط الجديدة . ونستطيع أن نحس هذه الروح الجديدة فى أعمال القيادة النازية ، وفى خططها الحديثة ، مثل التخلى عن روما من غير حرب ، وإعلان فلورنسا مدينة مفتوحة حرصا على كنوزها الفنية ، وإن هذه النغمة جديدة فى صدورها عن القيادة النازية ؛ وهى متفقة تماما مع خطة الدفاع التى تسير عليها

تلك القيادة الآن . وهذه الأعمال الدفاعية لا تمنع بالطبع أن يقوم الألمان بهجمات مضادة في أجزاء مختلفة من الميادين الثلاثة التي تدور فيها الحرب اليوم . ولكن ليس هنالك مفر من التسليم بأن الجيش الألماني قد اتخذ خطة الانسحاب منذ شتاء عام ١٩٤٢ إلى اليوم . وقد تم له التخلي عن نصف مساحة إيطاليا ، وعن جميع ما احتله من أقطار روسيا ، وعن ١٣٠٠ ميل مربع من أرض فرنسا ؛ وهو في كل هذه المدة يحارب متراجعاً ، فلا يتخلى عن مساحة كبيرة إلا بعد حرب دفاعية ، قد تكون ضخمة كبيرة ، وقد تكون مجرد إلقاء عراقيل تعوق تقدم العدو ، وتيسر للجيش الألماني أن يتم تراجعه دون خسارة كبيرة . ولذلك أمكن لألمانيا أن تحتفظ بالشطر الأعظم من قواتها دون خسارة كبيرة . ولا يزال الجيش الألماني اليوم قوة قهرها يتطلب جهوداً عظيمة .

وهنالك سؤال يخطر للكثير ، وهو : أليس من الجائز أن الجيش الألماني يتراجع اليوم ويتخذ خطة الدفاع ، لكي يتيح لنفسه الفرصة ريثما يتم إمداده وتزويده بالعدة الكاملة ، وتدريب قوات جديدة لم يتم بعد تجهيزها وتدريبها ، ثم يقوم بعد ذلك برد القوات الهاجمة ، وباتخاذ خطة الهجوم مرة أخرى ؟ إن الناس الذين اعتادوا من الجيش الألماني خطة الهجوم دائماً يجدون من الصعب أن يسلموا بأنه قد قرر أن يركن إلى الدفاع .

ويساعدنا في الرد على هذا السؤال أن نتأمل الميادين الثلاثة التي تدور فيها الحرب الآن ؛ ففي ميدان نورمنديا يبدي الألمان اليوم مقاومة هائلة على ضفاف نهر الأرن حول مدينة كان ؛ وكأنهم يريدون أن يثبتوا ريثما تتاح لهم الفرصة لحشد جيش عظيم . وهنا يضحى الألمان بكثير من جنودهم وعددهم لكي يحولوا دون توغل الحلفاء السريع في فرنسا . ومن الجائز أن يتصور المرء أن الألمان لا يزالون مصممين على القيام بهجوم كبير ضد الحلفاء ، بمجرد أن يتم لهم حشد القوة الكافية لمثل هذا العمل العظيم .

ولكننا إذا نظرنا إلى الميدان الجنوبي في إيطاليا ، يصعب علينا أن نتصور أن القيادة الألمانية التي تراجعت في الشهر الأخير نحو مائتين من الأميال ، تنوي الكر مرة أخرى على جيش الأمم المتحدة واتخاذ خطة الهجوم لاسترداد إيطاليا . إننا نستطيع أن نقرر أن مثل هذا العمل ليس في برامج القيادة الألمانية على الأقل في الوقت الحاضر .

وهذه الحال نرى لها نظيرها بدرجة أعظم في الميدان الشرقي . فهنالك نرى الجيوش الروسية هي البادئة بالعمل ، وهي التي تقرر الخطة وتختار مكان الهجوم . وقد بدأت هجومها بالتوغل في فلنده ؛ ثم أخذت تزحف في روسيا البيضاء ، وكانت هي الإقليم الروسي الوحيد تقريباً الذي لا يزال الألمان يحتلونه ، فلم تمض أيام حتى اخترقت خطوط الدفاع الألمانية ، واحتل الروس فيتبسك ، وحرروا منسك ، وأخذوا يخترقون حدود روسيا (لسنة ١٩٣٩) ، ويندفعون في اتجاه فلنا ، ووارسو ؛ والجيش الألماني ملتزم خطة الدفاع في كل مكان . ومن الصعب أن يتصور المرء أن يتخذ الجيش الألماني خطة أخرى هنا . فإن الجيش الألماني اليوم خلاف جيش عام ١٩٤١ . وليس مما يقبله العقل أن تحاول القيادة الألمانية احتلال غرب روسيا مرة أخرى ، فتوجه نحوها هجوماً جديداً .

وبعد ، فإن أحداً لا يستطيع أن يزعم أنه قادر على التكهن بما تنويه القيادة الألمانية ؛ ولكن من الجائز أن يكون من أغراضها الآن تصفية الميدان الإيطالي ، والمقاومة جهد الطاقة في الميدان الشرقي ، وتركيز ما بقي لدى الألمان من القوة الهجومية في الميدان الغربي . لعل هذا أن يمكن الألمان من استبقاء جيوشهم دون خسارة كبيرة إلى ما بعد هذا الصيف ؛ ولعل شعور الملل من طول الحرب أن يجعل من الممكن أن تنتهي بصلح لا بتسليم .

محمد عوض محمد

٦ – عبد الله نديم

خرج « النديم » إلى يافا ، حيث كان قبل العفو عنه ، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيهاً شهرياً يعيش بهما ، على شرط ألا يكتب شيئاً في الجرائد يتصل بسياسة مصر .

وما لبث أربعة أشهر في يافا حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن في سياسة الدولة العلية ، ويلمز السلطان ، فصدر الأمر بإبعاده أيضاً .

فها هو يذرع الأرض لا يعرف أين يستقر ، فلا مصر تقبله ، ولا أي أرض من أراضي الدولة العثمانية تحتمله ، ونزل بالإسكندرية أياماً حتى تحل مشكلته .

وقد كان كثير من أحرار العثمانيين إذ ذاك قد سافروا إلى أوروبا ومصر ، وأنشئوا الجرائد يطالبون بالدستور وبإصلاح الدولة ، وينقدون السلطان نقداً مراً ؛ فكان من سياسة عبد الحميد في بعض الأوقات أن يسترضي هؤلاء الناقمين ، ويحبب إليهم الإقامة في الآستانة تحت سمعه وبصره ، ويجري عليهم الرزق الواسع ، ويسند إليهم بعض المناصب فيشتري أذاهم ، ويستجلب رضاهم . فاحتشد في الآستانة من أرباب القلم واللسان عدد كبير ، منهم السيد جمال الدين الأفغاني وغيره من أدباء الترك وشعرائها وساستها ؛ فكان أن الغازي مختار باشا أشار على الدولة العلية أن تعامل عبد الله نديم هذه المعاملة فقبلت . وسافر إلى الآستانة ، وصدرت الإرادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالي بمرتب ٤٥ جنيهاً مجيدياً ، مضافة إلى الخمسة والعشرين التي يتقاضاها من مصر — ينفق كل ذلك على نفسه وإخوانه ، ومن يبره من أهله وأقاربه ؛ ومن أيام الثورة عرف بأنه صناع القلم واللسان ، أخرق اليد .

دخل الآستانة ، فدخل القفص الذي دخل في مثله جمال الدين الأفغاني ، وغاية الأمر أن قفص جمال الدين ضيق من ذهب ، وقفص النديم واسع من حديد ، يختلفان بمقدار الخطر من كل منهما ومكانته وحسبه ونسبه ؛ فالسيد جمال الدين يخصص له بيت فخم ، ويجعل تحت أمره عربة وخدم وحشم ، ويجري عليه ٧٥ ليرة في الشهر ، وتعرض عليه مشيخة الإسلام فيأبى ؛ وعبد الله نديم يعين مفتشاً للمطبوعات بخمسة وأربعين ليرة ، ولا بيت ولا خدم — ولا غرو فالسيد جمال الدين سيد في طبعه وحسبه ونسبه ، كان يعد نفسه قريناً للشاه والسلطان ، لا يقل عنهما إلا بما شاء القدر من تحليتهما بالملك وعطله منه ؛ وعبد الله نديم يرى أنه من الشعب وابن الشعب وخادمه ، لا يمتاز إلا بما منحه الله من ذكاء ولسن . إذا دعا السيد جمال الدين إلى الإصلاح شعر بأنه يخطب الناس من أعلى مكان يشرف عليهم ، وهو غضوب وقور ؛ وإذا دعا « النديم » شعر بأنه واقف في وسطهم يضحك لهم ويضحك منهم ويصادقهم . ولهذا كان جمال الدين جليلاً يسمع لقوله في رهبة وخشية ، ويتصنع الناس وكأنه يضربهم بالسياط ؛ وكان النديم محبوباً يقابل بالابتسام ، ويقبل قوله في فرح ومرح ، ولذلك كان أسف الناس في مصر على فراق النديم أكثر من أسفهم على فراق جمال الدين ، لأن سؤدد جمال الدين في الخاصة وسؤدد النديم في العامة .

وعجيب أن يقبل « النديم » « وظيفة » مفتش المطبوعات ، وهو الذي كان يتعب دائماً إدارة المطبوعات ؛ وأن يرضى أن يتحكم في الصحف ، وهو الذي كان يأبى أن يتحكم فيه أحد ؛ وأن يرضى أن يكون أداة لتقييد الحرية ، بعد أن كان داعية لتأييد الحرية !! ولكن يخفف من هذا أن « الوظيفة » كانت صورية محضة ، وكان الغرض منها أن يمنح الخمس والأربعين ليرة في مظهر

غير وضيع .

ها هو في الآستانة قد عطلت كل مواهبه ، فلا خطابة ولا كتابة ، ولا تهييج ولا تحميس ، وهو في وسط يكاد يختنق منه ، لا يفرج عنه إلا مجلس السيد جمال الدين ، يحادثه ويسامره ، وكل يشكو إلى صاحبه قفصه .

ولكن أنى لصاحب هذا اللسان أن يهدأ ؟

لقد وقع في الخصومة مع أبي الهدى الصيادي ، كما وقع فيها معه السيد جمال الدين ؛ ولكن السيد عف اللسان في الخصومة الشخصية ، أما « النديم » فويل لمن عاداه .

كان أبو الهدى عجباً من العجب ، إذا أرخت الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد احتل كثيراً من صفحات تاريخها ، وكان مستترا وراء الصفحات الباقية ؛ رن اسمه في كل أنحاء المملكة من مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر ، ويتقرب إليه الولاة في حل كل عظيمة — أثبت به القدر أنه على كل شيء قدير .

سوري من حلب ، فقير المال والحسب ، دفعته المقادير إلى الآستانة ، وكان ماهراً ذكياً ، وسيم المحيا ، ماضي العزيمة ، قادراً على معرفة نفوس الناس ومن أين تؤتى ، فتغلب على عقل السلطان عبد الحميد بأحلامه وتعبيراته ، والطرق ومشيختها ؛ فربط نسبه بأعلى نسب ، فهو قرشي هاشمي علوي ؛ وهو في الطريقة رفاعي ، له الأتباع الكثيرون ، لا يعبأ بالمال يأتيه على كثرة فينفقه ويستدين ، لأن عز الجاه والسلطة عنده أقوى من عز المال .

له أعين تأتي له بكل الأخبار ، فيستغلها أمهر استغلال . لم يقف عند الدين والولاية والصوفية ، بل مد نفوذه إلى الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية ، يحكم فلا حد لحكمه ، ويبطش فلا حد لبطشه ؛ سمي « مستشار الملك » ، و « حامي العثمانيين » ، و « سيد العرب » ؛ استمال كثيراً من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء والأدباء ، فكانوا عوناً له على كل ما أراد ، يبطش بهم حين يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم ، وينظم بهم القصائد حين يريد الأدب والشعر ، إلى كرم وسماحة وحسن حديث .

الدنيا كلها يجب أن تسخر لشخصه ، وأن تخضع لأمره ؛ والحق ما أتى من طريقه ، والباطل ما أتى من طريق غيره — عدو كل إصلاح ، وخصيم كل حر ؛ كم له من ضحايا في السجون ، وفي أعماق البحار ، وفي ذل الفقر ، وفي بؤس النفي ؛ تتملقه الأمراء ، وتهابه العظماء .

وكم أنفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على عبدالحميد فاسترضاه ، وبالغ في المطالب فأوفاه !!

هذا أبو الهدى الصيادي ، الذي لم يتحرز عبد الله نديم أن يخاصمه وينازله ، ويطلق فيه لسانه ، ووضع فيه كتاباً سماه « المسامير » ، لم ينشر في حياته ؛ وهو كتاب لا يشرف الصيادي ولا عبد الله نديم ، لأنه استعمل فيه أسلوباً أشبه بأسلوب المرأة « المتجرية » في أحط الحارات ؛ هو أسلوب أقذر من أسلوب جريدة « حمارة منيتي » ، و « السيف » ، و « الصاعقة » ، وما إلى ذلك من الجرائد المقذعة في الهجاء ، والتي حمدنا الله على الخلاص منها برقي ذوقنا ، فسامحه الله فيما فعل .

وبلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب ، فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضا هجاء له ، فبحث عنه طويلاً من غير جدوى ؛ واستطاع « جورج كرتشي » ، الذي كان متصلا بالسيد جمال الدين و « النديم » أن يحتفظ به ويخفيه ويفر به إلى مصر ، ثم يطبعه .

لم تطل حياة « النديم » في الآستانة طويلا ، فقد أصيب بالسل ، واشتدت عليه العلة ، فمات في العاشر من

أكتوبر سنة ١٨٩٦ ؛ واحتفل بجنازته احتفالاً كبيراً مشى فيه السيد جمال الدين — الذى لحقه إلى ربه بعد أشهر — ودفن فى مدفن يحيى أفندى فى « باشكطاش » .

وكانت أمه وأخوه قد علما بشدة مرضه ، فسافرا إليه ، ولكن لم يدركاه إلا ميتاً ، ووجدا متاعه وأثاثه وكل شىء له قد نهب ؛ فعادا وليس فى يدهما إلا الحزن والأسى .

مات فى نحو الرابعة والخمسين من عمره ، فلم يكن بالعمر الطويل ، ولكنه عمر عريض ؛ فطالما غذَّى الناس بقلمه ، وهيَّجهم بأفكاره ، وأضحكهم وأبكاهم ، وحيَّر رجال الشرطة ، وأقلق بال رجال السياسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، ولا على أى حال كان ؛ حتى هدأه الموت الذى يهدّئ كل ثائر .

مهما أخذ عليه فقد كان عظيما !!!

فتح للناس فى جريدتيه « التبكيت والتنكيت » و « الأستاذ » أبواباً من الإصلاح الاجتماعى كانت مغلقة ، فى التعليم والزراعة ، واللغة والصناعة ، والانحلال الخلق ، وما إلى ذلك ؛ فسار المصلحون على أثره إلى اليوم .

وكانت الجرائد المعروفة فى عهده « المقطم » و « الأهرام » و « المؤيد » و « النيل » ، وكان لها ثلاثة اتجاهات : منها ما يسالم الاحتلال ويؤيده ؛ ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ومن ورائها السياسة الفرنسية ؛ ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ؛ وكل منها يعرض وجهة نظره فى شىء من الهدوء والرزانة والوقار . فلما طلع « الأستاذ » دعا إلى أن مصر للمصريين ، لا لتركيا ولا للأوروبيين ، وناصر الحركة الوطنية والالتفاف حول الخديو أمير البلاد ؛ ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكامنهم ، ويمسحوا الخوف عنهم ، ويتصلوا بالجمهور ليوقظوه ؛ ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى تكون لكل جريدة حزبها ، ولكل حزب برنامجه . ولم يسلك سبيل الهدوء كما سلكه معاصروه ، بل زاد فى الطنبور نغمة ، وزادت النغمة حدّة ، والحدة منه استتبعت الحدة من الجرائد الأخرى ، والغضب يبعث الغضب ، والصوت العالى ينبه الأفكار ويوقظ النائم ؛ فكان فى الجرائد لون جديد شديد قوى ، يميز بعضها من بعض فى وضوح وجلاء .

وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع فى المسائل العامة أكبر موقظ للرأى العام النائم ، يفهمه موقفه وما يضره وما ينفعه ، وأى غاية يريد منه هؤلاء وهؤلاء ، ومواطن ضعفه وكيف السبيل إلى قوته ؛ وللنديم الفضل الكبير فى ذلك .

وكانت جريدة « الأستاذ » هى الأستاذ لمصطفى كامل ، تعلّم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والفاروق .

ثم كان فى « النديم » شىء من التهريج كالذى رأينا قبل . وكان من تهريجه أنه كان فى أول أمره يرتدى الثياب الإفرنجية ، فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتمّ بعمامة خضراء ، وادّعى أنه شريف إدريسى ينتسب إلى الحسن ابن على ؛ وكثير من الواقفين على الحقيقة ينكر ذلك . وربما دعاه إلى هذا شعوره بمركب النقص ، من حيث نشأته الفقيرة المتواضعة ، وما مرن عليه من التصنع أيام الاختفاء ، وحالة الوسط الذى عاش فيه من أنه لا تمجّد إلا ذا الثراء أو ذا الحسب — ومع هذا فالعظيم يقدَّر بكله لا بجزئياته .

كانت عظمته فى ذكائه وقوة لسنه . قال فيه المرحوم أحمد باشا تيمور : « كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدَّث أنه لم يوجز . لقيته مرة فى آخر

إقامته بمصر ، فرأيت رجلا في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا » .

وكان السيد جمال الدين يُعجب بقوة حجته في المناظرة والجدل ، وسرعة بديهته ، وشدة عارضته ، ووضوح دليله ، ووضعه الألفاظ وضعاً محكما بإزاء معانيها إن خطب أو كتب .

ثم هو شجاع لا يخاف ؛ يلذُّ مواجهة العظماء ومنازلة الكبراء في غير خوف ولا وجل ، إلى تواضع مع العامة ومضاحكتهم ومؤانستهم وملاطفتهم ؛ لا يعبأ بالقوة ولا يخاف البطش ، فإذا نازل أحداً وسلّط عليه لسانه كانت الكارثة ؛ نازل الخديو توفيق والاحتلال ، وأبا الهدى الصيادي ، ولكل جاهه وسلطانه الذي أذل أعناق الكثيرين ، كل ذلك وهو فقير يعيش من يده إلى فمه ، ما أتاه أتلفه ، وما وصل إلى يده بدّده ، معتمداً على ربه الذي يرزقه كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا .

ضعيف الجسم كثير العلل ، وربما كان ذلك هو السبب في موت أولاده جميعاً في طفولتهم ، فقد رزق قبل الاختفاء بمحمد ، وعثمان ، وإلياس ، وفاطمة ، وعائشة ، وسكينة ، وخديجة ، كما رزق أيام الاختفاء بحفصة ، وريا ، وكلهم لم يعش طويلا ؛ ومع هذا فهو — على مرضه — دائب العمل دائم الحركة ، لا يعتريه كلل ولا ملل ، يود أن يخلد اسمه بالعمل ، بعد أن حرم تخليد اسمه بالولد .

أعدّ نفسه بالخبرة والتجربة في كل شيء حوله ، فكان كما حدّث عن نفسه : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، وبم يتألمون ، وماذا يرجون ؛ وخالطت كثيرا من متفرنجة الشرقيين ، وألممت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جمًّا من أفاضل الشرقيين المتوطنين في الغرب ممن ثبتت أقدامهم في وظيفتهم ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم — واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة ؛ وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ؛ واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلّقت بعطالة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة — واتخذت هذه المذاهب وسائل لهذا القصد الذي وصلت إليه بعناء ، كما في تحول الشيخوخة في زمن نضاضة الصبا ، وتوّجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

وربما كان أعظم شيء فيه ثباته على مبدئه ، وبيع نفسه لأمته حسبما يعتقد الخير لها ، ولم يتحول من ذلك على كثرة من تحول في مثل مواقفه . هؤلاء زعماء الثورة العرابية حاولوا أول أمرهم أن ينكروا ما فعلوا ، فلما لم ينفعهم إنكارهم وعوقبوا عادوا وخضعوا ، وعاشوا في مسالمة ومهاودة ؛ أما هو فلم ينكر ما قال ، ولاقى في محنته الأهوال . وكان جديراً بمن لقي ذلك كله أن يهدأ ، وإذا هدأ فلا لوم عليه ، ولكنه ظل يجاهد ، ويُنفى فيجاهد ، ويعوز عنه فيجاهد ، ويحذَّر فلا يحذر ، ويطمَّع فلا يطمع ، حتى لقي مولاه .

رحمه الله .

(تم)

أحمد أمين

١ – حقوق المرأة

في تاريخ المرأة مواضع ينبغي أن نقف عندها قبل أن ندرس حقوق المرأة في العصر الحديث . وقد اختلف الباحثون في شأن المرأة اختلافاً كبيراً لا سبيل إلى تلافيه . ذهب بعضهم إلى أن المرأة مخلوق أدنى من الرجل ، وإلى أن الاختلاف البيولوجي بينها وبين الرجل لابد أن يحدث اختلافاً اجتماعياً . وذهب بعض النفسيين إلى أن المرأة ليس لها وجود قائم بذاته ، فهي تعتمد على سائر الناس الذين يلتفون حولها وتلوذ هي بهم ، فشخصيتها تتمثل في أبيها وزوجها وأبنائها ؛ أما الرجل فله شخصية مركزة فيه . وذهب بعض أصحاب الاقتصاد إلى أن مكان المرأة إنما هو المنزل والمطبخ ، وإلى أن واجبها يتصل بتربية الطفل فحسب ؛ أما منافسة الرجل في مجهوده الاقتصادي فهو ضار بها وبالمجتمع . ثم ذهب بعض الشعراء إلى أن المرأة ملاك كريم ، وليس الغزل إلا صفحة من العلاقات الوجدانية بين المرأة وبين الرجل .

وكل هذه النظرات التي أسلفنا جانباً منها ، تدل على أن المرأة وجدت نفسها منذ العصور الأولى في مركز أدنى من الرجل . وقد أثرت في مركزها أربعة عوامل هي التي وضعتها ذلك الموضع الأدنى . ونريد أن نجمل هذه العوامل الأربعة فيما يلي :

خُلقت المرأة أضعف من الرجل ، واختصت بقسط من العمل الجنسي غير قسط الرجل . وقد كان الرجال في معظم الحضارات قوّامين على النساء ، ولأن المرأة كانت ضعيفة ، ولأن الرجل كان قويا فقد استضعفها في أكثر عصور التاريخ ؛ وقد تحيّف حقوقها حتى أنزلها في بعض الأحيان منزلة الرقيق ، وحتى تصرف فيها كما يتصرف في أملاكه الخاصة . وهذا الاستضعاف هو أول هذه العوامل التي هبطت بمركز المرأة ، وهو أكبرها شأناً .

ثم إنه قد غبرت عصور طويلة والإنسان يحيا حياة الخوف والحرب ، وكانت حياة الكفاح التي يعيشها الجنس الإنساني بوجه عام أدعى إلى أن تُوكَل السلطة للأقوياء الذين يستطيعون أن يحموا أنفسهم وذويهم . وكانت المرأة مستضعفة ساكنة ، فكانت هذه الحياة الحربية الخطرة وبالا عليها ، لأنها أصبحت بضعة من المتاع الذي يسلبه المحاربون ؛ وكذلك تأثر مركز المرأة ، وجُعل لها المكان الأدنى بعد الرجل في كل هذه البيئات المحاربة . فتلك ثاني هذه العوامل .

ثم إن القوى الاقتصادية كانت كلها تعاكس المرأة في تاريخها القديم ، بحيث أرادت المرأة أن تشارك الرجل في الأعمال المأجورة التي اختص بها نفسه ، وجدت سياجا يحول دونها وتلك الأعمال . تعرضت المرأة في حياتها الاقتصادية لكثير من الغبن ، مما صدها عن أن تنافس الرجل في الصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك من الأمور ؛ فإنه لم يسمح لها بنفس الأجر الذي سمح به لنفسه ؛ وكذلك خرجت المرأة في هذه القرون الحديثة وهي كَلٌّ على الرجل ، بل هي قد خرجت في حياتنا الاقتصادية الحاضرة وهي خصم للرجل ينظر إليها شزرا ، لأنها تشاركه الرزق ، ولأنها تتقاضى أجورا أقل مما يتقاضاه هو نفسه . فهذه القوى الاقتصادية هي ثالث العوامل التي أنزلت المرأة منزلة أقل من منزلة الرجل .

وقد كان في تاريخ الفكر الإنساني جانب عظيم يدور حول عفّة المرأة . وقد كانت المحافظة على عفة المرأة والاستعلاء بشرفها عن أن يمس ، السبب الأكبر لاعتزالها بمنأى من الرجل . وقد أقامت الجماعات المتحضرة وغير المتحضرة وزناً كبيراً لفضائل المرأة الجنسية وعفافها ، حتى لقد تأثر تاريخ المرأة بذلك أشد التأثر ؛ ففي عصور كان يُحكم على المرأة بأن تقبع في عقر دارها ، ولكن كل عصر من هذه العصور لم يَدُم طويلا ، لأن كل شدة

في أخذ المرأة انتهت بالدين ، وانتهت بفورة من التهتك والتبرج . فالمحافظة على عفة المرأة عامل رابع وجّه تاريخ المرأة وجهة خاصة غير وجهة الرجل .

ولقد تأثرت منزلة المرأة الاجتماعية بهذه العوامل الأربعة التي ذكرنا ، لا فرق في ذلك بين جماعة وجماعة . ولنذكر دائماً أن عمر الإنسانية على ظهر الأرض يمتد إلى أعماق سحيقة من التاريخ ، بحيث لا يقاس به هذا المدى القصير الذي أنتج الحضارة قديماً وحديثاً . وقد ورثت المرأة من الإنسانية تلك العوامل الأربعة التي ذكرنا ، حتى لقد ذهب خصوم المرأة إلى أنها لابد أن تبقى حيث كانت . على أن هذا الوضع نفسه لم يكن يحول في كثير من عصور التاريخ بين المرأة وبين بعض الحقوق . وإذا كانت قد سلفت بيئات تاريخية وجغرافية احتُقرت فيها المرأة احتقاراً شديداً ، كبيئات الصيد والقنص ، وكبيئات البدو ، فإنه قد سلفت بيئات أخرى ارتفع فيها مركز المرأة حتى كاد يساوي مركز الرجل ، كبيئات الزراعة والتجارة .

ويذكر مؤرخو المرأة أنها كانت قد بلغت شأواً بعيداً في الحضارات الزراعية الأولى : ارتبطت بالخصب عند المصريين القدامى ، فلقيت كثيراً من ضروب التكريم ، وأصبحت الأمومة عندهم عنصراً هاماً من عناصر الدين ونشأت من ذلك عبادة « إزيس » ؛ ثم ارتبطت بالخصب أيضاً عند البابليين ، وأنتجت الحضارة البابلية قانون حورابي . ففي سنة ٢٣٤٠ قبل الميلاد استطاع حورابي أن يُشرّع للمرأة قانوناً يرتفع بمنزلتها إلى الدرجة القصوى من الاستقلال والحرية ؛ فقد أثبت أن الزواج لم يكن إلا تعاقداً بين الرجل وبين المرأة ، وأنه ليس للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة مالم تكن زوجه عاقراً أو مريضة مرضاً لاسبيل إلى الشفاء منه ؛ وكان الرجل مسئولا عن زوجه : مسئولا عن الديون التي تستدينها ، وعن البيت الذي تأوي إليه ، وعن الميراث الذي يخلفه لها ولأولادها ؛ وكان الطلاق مباحا بيد الرجل ، فإذا طلّق الرجل امرأته كان لها أن تحتضن أولادها ، فإذا أثبت أنها شريرة استطاع أن يُنزلها منزلة الإماء ؛ وكان للمرأة أن تقاضي الرجل إذا شاءت ، فإذا أرملت استطاعت أن تحل محل زوجها في ملكية الأرض والوصاية على أولادها ؛ وكان للنساء أن يكنّ قاضيات وحاكمات وشاهدات وكاتبات . وكذلك نرى أن مركز المرأة في شريعة حورابي كان أرقى في كثير من الوجوه من مركزها في القرن التاسع عشر في أوروبا .

كذلك لم تحل هذه العوامل الأربعة بين المرأة وبين بلوغ بعض حقوقها في الحضارة الرومانية . ونحن نلتقي بالمرأة الرومانية في أول عهدها ، فإذا هي تابعة لأبيها ، وإذا مركزها القانوني نفسه يتصل أشد الاتصال بمركز الذين حولها من الذكور . لكن هذه التبعية ماتزال تهن ثم تهن حتى تزول ، فتخرج المرأة الرومانية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ولها حظ كبير من الاستقلال والكفاية القانونية ؛ ثم تخرج من هذين القرنين وقد توثقت العلاقة بينها وبين زوجها ، ووهنت العلاقة بين الأب وبناته . وكانت الحياة الرومانية العامة هي التي جعلت للمرأة شخصية مستقلة محترمة ميزت الحضارة الرومانية عن الحضارة الإغريقية التي أهملت فيها المرأة إهمالا تاما .

والشريعة الإسلامية قد فعلت ذلك الذي فعلته شريعة حورابي ، من حيث الطلاق والزواج والكفاية الذاتية وحرية التصرف ؛ وزادت على ما فعلته قوانين الرومان ، فهي قد جعلت للمرأة شخصية مستقلة وكفاية مدنية خاصة . والمرأة في الشريعة الإسلامية لا تفقد شخصيتها بقرانها ، بل تظل متمتعة بحقوقها كما يتمتع بها كل من كان حراً مستقل الإرادة ؛ وهي مطلقة التصرف في ثروتها تفعل بها ماتشاء في حدود القانون ؛ ولها أن تزرع وتتاجر وتفيد من أرباحها ، من غير أن ترجع في كل ذلك إلى

بمناسبة الذكرى التاسعة والثلاثين لوفاة الأستاذ الإمام :

الأستاذ الامام

وأهل التصوف

لم يكن الشيخ محمد عبده يقر موقف بعض المتصوفة وأصحاب الطرق الصوفية الذين انتشروا فى بلاد الإسلام فى العصور الأخيرة . كان يأخذ على فريق منهم ما يزعمون من أن هنالك فرقاً بين « الشريعة » و « الحقيقة » ؛ فإذا اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر ، قالوا فى المذنب إنه من أهل الحقيقة فلا تثريب عليه ، وقالوا فيمن أنكر عليه إنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه ! « كأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين ، وأنه يحاسبهم بوجهين ، ويعاملهم معاملتين ! » .

ويأخذ على فريق آخر تلك الرسوم العجيبة — المشهورة باسم « الموالد » ، أو « حفلات الذكر » — والتى ينفق فيها الأغنياء أموالا كثيرة زاعمين أنهم يتقربون بها إلى الله ، مع أنه « لو طلب منهم بعض هذا المال لنشر علم ، أو إزالة منكر ، أو إعانة منكوب ، لضنوا به وبخلوا ! » .

وقد يتضح رأى الأستاذ الإمام فى أصحاب الطرق الصوفية المحدثين من الحكاية التالية التى رواها هو نفسه بصدد الحديث عن احتفالاتهم الكثيرة . قال : إن بعض كبار الشيوخ فى الأزهر دعوه مرة للعشاء عند أحد المحتفلين بالمولد ، فأبى . فلما سئل عن السبب قال : « إنى لا أحب أن أكثر سواد الفاسقين ، فإن هذه الموالد كلها منكرات » . وسأل الإمام شيخاً صديقاً لصاحب الدعوة : « كم ينفق صاحبك فى احتفاله بالمولد ؟ » فأجاب الشيخ : « أربعمائة جنيه » .

قال الإمام : « لا شك أن هذا فى سبيل الشيطان ! فلو كلف صاحبك فى أن يجعل ذلك لجماعة من المجاورين فى الأزهر يستعينون به على طلب العلم ، فيكون بذله شرعياً ، وهؤلاء المجاورين يذكرونه بخير ويدعون له » !

قال الشيخ : « إن الكون يلزم أن يكون فيه من هذا ومن هذا » .

قال الإمام : « هذا الذى أريد ؛ فإن كوننا ليس فيه إلا هذه النفقات فى الطرق المذمومة ، فأحب أن ينفق صاحبك على نشر علم الدين ، فيكون بعض الإنفاق منه فى الخير ، ويبقى للموالد أغنياء كثيرون » .

فقال الشيخ : « أما قرأت حكاية الشعرانى مع الزمار : إذ رأى شيخاً كبيراً ينفخ فى مزمار ، والناس يتفرجون عليه ، فاعترض فى سره ، فما كان من الشيخ إلا أن قال : « يا عبد الوهاب ! أتريد أن ينقص ملك ربك مزماراً ؟ » ؛ فعلم الشعرانى أنه من أولياء الله !

وما كاد الشيخ ينتهى من هذه الحكاية حتى ترك المشايخُ الأستاذَ الإمام وذهبوا إلى المولد مطمئنين .

* * *

وهذه المعتقدات المنتشرة عند أصحاب الطرق الصوفية ، والتى تنطوى على جهل تام بماهية الدين ، يراها الأستاذ الإمام من أقوى الأسباب لما وصل إليه المسلمون من انحطاط وانحلال . « فبركة التصوف واعتقاد أهله بغير فهم

زوجها . ثم لها أن ترث زوجها وبنيها ، وأن تدخل فى المعاملات المالية ، وأن تطلب العلم ، وأن تسعى للرزق الحلال إن لم يكن لها من يعولها . نقول إن هذا جميعه زاد على ما قرره القانون الرومانى ، لأن هذا القانون لم يجعل للمرأة شخصية مستقلة فى أمورها المدنية . ونقول بل لقد زاد عما قرره لها القانون الإنجليزى فى القرن التاسع عشر ، لأن القانون الإنجليزى لم يعترف باستقلال المرأة وكفايتها فى الأمور المدنية إلا فى أخريات هذا القرن .

يتبع

أحمد فاكى

على هامش النقد العربي:

الموازنة بين أبي تمام والبحتري

— ١ —

ربما كانت أهم موازنة أثيرت بين الشعراء في تاريخ النقد العربي القارن هي الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، فقد مثل كل منهما في الفن وصناعة الشعر منزعا يخالف منزع صاحبه . وقد وقف النقاد من العرب إزاء هذين المنزعين المتباينين في صفين متقابلين : قوم يتعصبون لأبي تمام على البحتري تعصبا شديداً ، حتى ليرتضوا منه جميع أخطائه الفنية ؛ وقوم يتعصبون للبحتري على أبي تمام فيرفضون حسناته ويتعلقون بسيئاته ، مشيدين بفن البحتري الذي لم يفارق عمود الشعر العربي ، إذ كان يسير على الدروب القديمة محتذيا سيرة الأقدمين وأساليبهم الموروثة ، على العكس من أبي تمام الذي كان ينحرف عن تلك الأساليب الموروثة وما ينطوي فيها من مناهج محفوظة ، إذ كان يدخل الفلسفة في الشعر على أنها شيء أساسي ، ولا يكتفي بها ، بل كان يضيف إليها زخرفاً من البديع والتصنيع .

وقد نشبت معارك جدل كثيرة حول فن الشاعرين ، وخلفت هذه المعارك كثيرا من الكتب والمؤلفات التي تعنى بالدفاع عن فن الشاعر ومنهجه في صناعة شعره ، ككتاب الصولي عن أبي تمام ؛ وتارة أخرى تعنى بإتهام الشاعر وتزييف فنه ، فتتحدث عن سرقاته وأخطائه ككتاب بشر بن تميم في سرقات البحتري . وقد ألف الآمدي في القرن الرابع الهجري كتابه « الموازنة بين

ولا مراعاة شرع » اتخذ المسلمون شيوخ الصوفية أنداداً لله ، وصاروا يقصدون زيارة القبور والأضرحة قضاء الحوائج ، وشفاء المرضى ، وسعة الرزق ، بعد أن كانت للعبرة وتذكرة القدوة .

ويرى الأستاذ أن في أقوال بعض المتصوفة وتصرفاتهم إسرافاً يخرج بها عن إنسانية الإسلام واعتداله ؛ فهم قد يدّعون أنهم يميلون بالإسلام إلى جانب الروحانية ، ولكنهم يبثون نظريات عجيبة تميل بهم إلى القعود والجمود ؛ ثم هم ينصرفون عن الدنيا ، ولا يرون فيها إلا بؤساً وشراً ؛ يخشون أن يمسوا سلطة الخالق ، فينزعون عن المخلوق كل قدرة على الفعل ، وينكرون أن يكون له أدنى حرية أو اختيار .

إلى هؤلاء يوجه الشيخ محمد عبده الحديث ، وكأنما يقول لهم : « لم تريدوننا أن نعتزل الدنيا ؟ إنّ الدنيا هي التي يجب التغلب عليها . وإنّ علينا أن نخالط الناس ، وأن نعيش في المجتمع عاملين ، وإن واجب كل مسلم صحيح الإسلام أن يؤدي رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... لا لا أيها السادة الصوفية ! إن الإسلام الصحيح بريء من نظرتكم العابسة ، بريء مما تحتجون به من أسباب متواكلة ، وإن الإسلام ليدعو يقيناً إلى السعي والعمل ، وإنه ليحض على الإقبال على الحياة ، والابتهاج بها ، والاستمتاع بما فيها من خيرات » .

وكذلك لم يرتض الإمام أن يسارع المسلم أهلَ التصوف فيهمل الواجبات الملحّة التي تفرضها عليه مهمته في المجتمع ، وأبى أن يذهب معهم في تواكلهم وقلة اكتراثهم بالحياة ، واستغراقهم في التماس لذات قد لا تتاح إلا للقليلين من أهل الصفاء . وكذلك لم ير الصالح تعارضاً حقيقياً بين الحياة الباطنية وبين الواجبات الاجتماعية ، بل رأى أن حياة السر والباطن هي عماد الأخلاق التي يقوم عليها المجتمع الفاضل .

دكتور عثمان أمين

أبي تمام والبحتري» ، فاستعان بأعمال من سبقوه من أمثال الصولي وبشر بن تميم في إحكام الموازنة بين الشاعرين، وضبط المقارنة بين فنيهما وصناعة كل منهما ، بحيث لا نبالغ إذا قلنا إنه أطرف كتاب يفسر ما كان بين النقاد من صراع عنيف في التعصب للشاعرين .

وقد بدأ كتابه بالحديث عن ذلك المذهبين اللذين قاما في تاريخ الشعر العربي ، وهما مذهبان مختلفان من حيث فهم الشعر ونقده ، ثم من حيث صنعه وعمله . أما أولهما فمذهب المجددين أصحاب المعاني والفلسفة والبديع ، وهو مذهب أبي تمام الذي يفهم الشعر على أنه تعبير عن زخرف حسي من بديع ، وزخرف عقلي من ثقافة وفلسفة ؛ وقد استطاع تحت ضوء هذه الفكرة أن يحدث في الشعر العربي مذهبا جديدا من التصنيع ، فالشعر ليس تعبيراً عن وجدان فقط ، بل هو تعبير قبل كل شيء عن عقل وفكر دقيق وفلسفة ، وهذا التعبير لابد أن يخرج في شكل أنيق وزخرف بديع ، وهذا هو معنى قول الآمدي في السطور الأولى من كتابه : « إن من يفضل أبا تمام على البحتري هم الشعراء أصحاب البديع ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام . . . والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة » .

وهذا المذهب كان يقابله مذهب آخر ، هو مذهب « أصحاب الكلاسيك » أو مذهب المحافظين على الأصول الموروثة . وقد مثل البحتري هـذا المذهب تمثيلا دقيقا ، إذ كان بدويا في نشأته ، فلم يستطع أن يستخدم الثقـافة والفلسفة في شعره أو أن يحترفهما في صناعته ، كما هو الشأن عند أبي تمـام ؛ وهو أيضا لم يستطع أن يستخدم أدوات البديع وأن يحترف صناعته على نحو ما كان يصنع أبو تمـام ؛ لذلك كله ارتد إلى القيثارة القديمة ، قيثارة البدو الرعاة ، يحاول أن يستخرج منهـا أصواتا معجبة يتلافى بها ما يشعره من نقص في أدوات الفكر الجديد ، أو نقص في أدوات البديع الحـديث ؛ وهـذا هو معنى ما يقوله الآمدي في أوائل كتابه، من أن البحتري أعرابي الشعر على مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف ، وأنه كان سهل الـكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة ، وحلو اللفظ وكثرة المـاء والرونق .

وليس من شك في أن قيام هذين المذهبين المتباينين في صناعة الشعر العربي وعمله كان موضع طرافة في تاريخ أدبنا . غير أن نقادنا للأسف لم يثيروا الحديث في المذهبين إثارة واسعة ، فقـد ظلوا في كثير من جوانب حديثهم عنهما يحتكمون إلى حسن في بيت وخطأ في آخر ، ومخالفة لغوية أو مخالفة أسلوبية ، ويجعلون ذلك أساس الحـكم على الشاعر وفنه . ويعجب الناقد الحديث إذ يراهم يعدلون عن السؤال المفتوح في الموضوع ، وهو هل يحسن بالشعر أن يخضع للفلسفة أو لا يحسـن ؟ وإذا كان يحسن فما مدى ذلك وما مظاهره، عند شاعر كأبي تمـام ؟ لقد كان من الممكن أن تـكون هذه مسألة كبرى ، وأن تؤلف فيها كتب منفصلة تعنى بها عناية واسعة ، فتبحثها من جميع جوانبها مستنيرة بما صنعه الشعراء من أمثال أبي تمام ومن خلفوه كالمتنبي وأبي العلاء ؛ غير أن النقد العربي عامة لا يعنى بالبحث في الشعر بحثا واسعا في شكل نظريات كبرى تناقش مناقشة عميقة . وقد كان من آثار ذلك أن نجد نقصا دائما في تصور النقـاد لمذهب الشعراء تصوراً دقيقا .

ونحن نعود للآمدي لنرى كيف قارن بين هـذين المذهبين ، وهل احتكم في مقارنته إلى البحث العام في فن الشاعرين ، أو أنه رجع إلى مسائل جزئية في النصوص ، تاركا للدراسة العامة والنظرة العميقة ؟ ولعل من الطريف أنه أفصح عن منهجه في أوائل كتابه إذ يقول : « ولست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولـكني أقارن بين قصيدتين من شعرهما ، إذا اتفقتا في الوزن والقافية

وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى . فأقول أيهما أشعر في تلك القصيدة ، وفي ذلك المعنى ، ثم احكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والردىء » . ونرى من ذلك أن الآمدى سيقارن بين الشاعرين في القصيدتين تتفقان في وزنهما ورويهما وإعراب الروى ؛ وهو لا يجدد في هذا المنهج ، إنما يرجع بنا إلى الطريقة القديمة المعروفة في الموازنة بين الشعراء ؛ فنحن نعرف أن امرأ القيس وعلقمة حين احتكما إلى زوج الأول أيهما أشعر ، طلبت إليهما قصيدتين تتفقان في الوزن والروى . فالمنهج الذى يحتكم إليه الآمدى في الموازنة بين أبى تمام والبحترى منهج معروف منذ العصر الجاهلى ، وقد كان الشعراء من القدماء حين يتهاجون بهذا اللون من القصائد المعروف باسم النقائض ، يشترطون على أنفسهم حين يردون على خصومهم أن يلتزموا نفس الوزن الذى صنعوا عليه قصائدهم ، كما يلتزمون نفس القافية .

وإذن فالآمدى يستعير منهجه في الحكم بين أبى تمام والبحترى من عمل الشعراء القدماء أنفسهم ، وما شاع بين النقاد من أن الموازنة الدقيقة لا تتم بين الشاعرين إلا في قصيدتين تتفقان في وزنهما ورويهما ، ولكن هل هذا المنهج سليم أو هو منهج مدخول ؟ . الحق أن النقاد من أمثال الآمدى حين فزعوا إلى هذا المنهج ضيقوا على أنفسهم وعلى الشعراء . وقد يكون من حق الشاعر أن يقيد نفسه بما يشاء من قيود ليثبت مهارته وتفوقه على خصمه ؛ أما الناقد فينبغى أن يكون أكثر حرية ، فربما تفوق شاعر على آخر في قصيدتين اتحدتا وزنا وقافية ، ومع ذلك فزميله يتفوق عليه في قصائده الأخرى . وليس من شك في أن الآمدى كان يحسن به أن يفكر في قواعد للنقد المقارن أعم من الاتحاد في الوزن والروى . على أن الشيء الذى يلفت النظر حقا هو أنه سها سهوا غريبا حينما وضع هذا الميزان للمقارنة بين الشاعرين ، لأن أبا تمام والبحترى لم يقم بينهما ضرب من الصراع الفنى على نحو يشبه ما حدث في النقائض بين جرير والفرزدق أو جرير والأخطل . ولسنا نرتاب في أن هذا السهو منه دليل على أن المقارنة بين الشعراء لم تكن قد وضعت لها مناهج واضحة حتى عصر الآمدى ؛ وهو يدل من طرف آخر على أنه حين بدأ كتابه لم يكن يعرف كيف يقارن بين الشاعرين ، ولا كيف يبدأ هذه المقارنة ، ومن أجل ذلك رجع إلى الفكرة التى عرفت في النقائض . ولكنه لم يتقدم في الكتاب حتى عرف خطأ فكرته ، فذهب يعلن أنه سيتحدث أولا عن مساوىء الشاعرين وسرقاتهما وإخلالهما ، ثم يعمد بعد ذلك إلى الموازنة بين القصيدتين إذا اتفقتا وزنا ورويا ؛ وكأن شيئا من الأمل لا يزال يراوده في تحقيق فكرته ، غير أنه لا ينتهى من الجزء الأول ويشرف على القسم الثانى حتى يعرف خطأ منهجه الذى وضعه فيقول : « وقد انتهيت الآن إلى الموازنة بين الشاعرين ، وكان الأحسن أن أوازن بين البيتين أو القطعتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق المعانى التى إليها المقصد ، وهى المرمى والغرض » . وإذن فالآمدى يعدل أخيرا عن منهجه الذى تقدم به في أول كتابه ، ولعل في هذا دلالة واضحة على ما نقوله من أنه لم توضع حدود معينة قبله للمقارنة بين الشعراء ، وهو نفسه حين بدأ كتابه لم تكن فكرة المقارنة واضحة في رأيه .

وإذا أردنا أن نعرف كيف انتهت فكرة المقارنة أخيرا عند الآمدى ، وجدناها تتحول إلى بيان سرقات الشاعرين وأخطائهما الفنية ، ثم المقارنة بين بعض معانيهما في الغزل وغير الغزل ، وبذلك يطلع القارىء على معايبهما من طرف ، ومحاسنهما أثناء الحديث عن معانيهما من طرف آخر . ولعل من الغريب أننا إذا ذهبنا نتتبع الآمدى في كتابه ، وجدناه ينحرف انحرافا تاما عن بيان مذهبى

أبي تمام والبحتري وتفسير خصائصهما الفنية إلى إحصاء لسرقاتهما ، ومقارنات بين بعض أبياتهما لا تدبع فنا ولا سرا من أسرار الفن ، إنما تدبع شغبا لغويا يتحامل فيه تحاملا شديدا على أبي تمام . وقد كان ذلك التحامل سببا في أن يسقط زمام المقارنة الفنية بين الشاعرين من يده ؛ فإن الشرط الأساسي في نجاح مقارنة بين شاعرين ألا يتجنى الناقد على أحدهما ، وأن يقف قاضيا نزيها يعدل بينهما بكل ما يستطيع من موازين العدل الدقيق .

ولكن الآمدي لم يستطع التخلص من هوى نفسه في إيثار البحتري على أبي تمام ، وقد لامه القدماء من أجل ذلك ؛ يقول ياقوت أثناء وصفه لكتبه : « ومنها كتاب الموازنة بين البحتري وأبي تمام ، وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحتري فيما أورده ، والتعصب على أبي تمام فيما ذكره . . . فإنه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري ، ولعمري إن الأمر كذلك ، وحسبك أنه بلغ في كتابه إلى قول أبي تمام .

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعا

وشرع في إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين ، فتارة يقول هو مسروق ، وتارة يقول هو مرذول ، ولا يحتاج المتعصب إلى أكثر من ذلك ، إلى غير ذلك من تعصباته . ولو أنصف وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام » . وياقوت محق فيما يقوله ، فقد تجنى الآمدي على أبي تمام كثيرا ، وشوّه فنه وصناعته تشويها قبيحا . وأكبر الظن أن ذلك جاءه من أنه لم يتصور عمل أبي تمام ومذهبه تصورا واضحا ، ولو أنه بحث المسألة في أفق أرحب لعرف أنه صاحب مذهب جديد ، ولكل مذهب جديد أخطاؤه ، والشاعر لا يُحكم على تجديده بما قد يقع فيه من أخطاء ، إنما يحكم عليه بصنيعه العام ، ومدى نجاحه أو إخفاقه داخل ما يحدث لنفسه من مذهب جديد يحتكم إليه في صناعة شعره .

ومع ذلك فالآمدي لا يقف عند أخطاء أبي تمام الحقيقية والتي تأتيه من استغراق مذهبه له ، بل هو يوسع عمله إلى هجوم عنيف على صاحبنا ، فنراه يفند محاسنه وطُرَفه ، بل إنه يحاول أن ينقل هذه المحاسن والطرف إلى مساوئ ومعايب ؛ وكأنه يؤلف كتابه ليرد الشعراء عن الاحتذاء على هذا المذهب الجديد في الشعر والفن والاقتداء بنماذجه وأمثلته ، وهو حين يصنع ذلك لا يتخذ منهجا واضحا لنفسه في مناقشة المذهب ومناقشة أصوله . وأكبر الظن أنه لم يكن يفهم هذا المذهب الجديد فهما صحيحا ، ومن أجل ذلك حمل حملات منكرة على ما وجد عند صاحبه من صعوبة في التعبير ، أو غرابة في التصوير ، متناسيا أنه يدخل الغموض والفلسفة والفكر الدقيق في شعره ، وأنه يعمد عمدا إلى تحريف الصورة القديمة في فنه .

وأظننا لا نسرف بعد ذلك إذا قلنا إن كتاب الموازنة يفقد قيمته الأساسية في توضيح فن الشاعرين أبي تمام والبحتري وبيان مذهبهما وخصائصهما الفنية ، لولا ما تقدم به في صفحاته الأولى من حوار طريف نشب بين أنصار الشاعرين في فنهما وإيثار أحدهما على الآخر . وسنعرض لهذا الحوار في مقال مقبل .

دكتور شوقي ضيف

الطفلان العجيبان

لجوته Goethe

طفلان جاران من بيتين كبيرين ، غلام وفتاة ؛ فى سن مناسبة لأن يكونا يوما زوجين ؛ تركهما ذووهما يكبران معاً ، وهذا الأمل الطيب رائدهم ، وارتباطهما فى المستقبل بغية والديهما . بيد أنهم سرعان ما لحظوا أن النية تبدو بعيدة التحقيق ، وأن بين الطبيعتين الباهرتين نفوراً غريباً . فلعله كان كلاهما شبيهاً بالآخر : فكلاهما كتوم ، صريح مع ذلك فيما يعلن من مشيئته ، ثابت فى عزمه ، محبب إلى رفقائه ، مكرّم منهم ؛ وكلاهما مناهض للآخر كلما التقيا ، بانٍ لنفسه ، هادم لما يبنى الآخر كلما تقابلا ؛ لا يسعيان إلى هدف واحد ، ولكن يقتتلان لغرض واحد ؛ كلاهما دمث رقيق الشمائل ، حقود مُشارٌ ماقام بينهما أمر .

هذا الموقف العجيب بدا فى ألعاب الطفولة ، وبدا وكلاهما تنمو به السن . وكما كان الغلمان تعلن الحرب ، وتنقسم إلى فرق ، وتدير المعارك ، كانت الفتاة العنيدة الباسلة تتولى قيادة جيشها ، وتقاتل الجيش الآخر بعنف وضراوة تكاد توقع به الهزيمة ، وتلحق به عار الفرار ، لولا أن يصمد خصمها بمفرده ، ويتشبث ببسالة ، فيجرد خصيمته من سلاحها آخر الأمر ويأخذها أسيرة . لكن ههنا أيضاً كانت تدافع وتستميت حتى تمزّق رباط رقبته الحريرى ليشد به يديها إلى الظهر ، مخافة أن تفقأ عينيه أو يناله أذاها .

ولم تغفر له هذا قط . فقد كانت تدبر له فى الخفاء التدابير ، وتسعى جاهدة إلى إيذائه . وكان الوالدان يرقبان هذه النزوات العجيبة ، ويحملان إليها ألمها من زمان . فتفاهم أبو الغلام وأبو الفتاة ، وقررا الفصل بين رهيفى العداء ، وقطعا الرجاء .

وصمّد الغلام فى ظروفه الجديدة ، وأصاب من العلم حظاً عظيماً ، ووجهه أولياؤه ، وميله الخاص إلى مهنة الجندية . وكان محبباً حيثما كان ، موضع التجلة والتكريم ، تواتى الغير طبيعتُه الحاذقة ، وترضى عنه سائر الناس . وكان فى نفسه راضياً سعيداً أن بعد من الخصم الوحيد الذى اختصته به الطبيعة ، ولم يكن وعيه لهذا ظاهراً بل كان شعوره خافياً باطناً .

وتبدلت الفتاة تبدلا فجائياً ، وأقصاها عن العنف مضى السنين ، والتقدم فى التعليم ، وشعور باطن خاص ، فكفت من حالات ذلك الزمان . ولاح على الجملة أن شيئاً ينقصها ، فلم يكن فيما حولها ما يستحق بغضها ، ولم تقع بعد على شخص رقيق .

ولاح فى أفقها شاب ذو مركز وثروة وشأن ، يكبر جارها السابق وخصيمها فى ذلك الأوان ؛ يحبه المجتمع وتطلبه الحسان ؛ فاتجه إليها بكليته ، ومال إليها كل الميل . وكانت هذه أول مرة يخطب ودها فيها صديق وحبيب ، وخادم يتفانى فى خدمتها . وأرضاها أنه آثرها على الكثيرات ممن يكبرنها سنا ، ويفضلنها علماً ، ويفقنها تألقاً وطموحاً . وكان دائب الالتفات إليها ، بعيداً مع ذلك عن التهافت عليها ؛ وكان لها معيناً صادقاً حيثما صادفها طرف ألم . وكان خطبه إياها على غير مشيئة والديها ، إذ كانت ماتزال صغيرة غريرة ، لكنه كان تقربا هادئاً باصراً بالآمال ؛ كل هذا حببه إليها . وزاد فى حبها ما ذاع بين الناس عن مظهر علاقتهما ، فكثيراً ما سميت عروسا حتى باتت تعتده عريسها . ولم يدر بخلدها أو خلد غيرها أن ثمّ امتحاناً تمده الأيام يوم بادلت الخاتم ذلك الذى عدّه الناس من زمن خطيبها ! !

وكان المجرى الذى اتخذته هذه العلاقة هادئاً وئيداً ، فلم تعجل به حتى الخِطْبة . فكان الفريقان يتركان كل

شيء يسير سيره ، وكانا مغتبطين بالعيش المشترك ، يتمدان هذه الأخوة من هنائهما ريما للحياة المستقبلة ، ينعمان به قبل أن يجدّ جد الحياة .

في تلك الأثناء كان « الغائب » قد أشرق عليه الحسن حلة سابغة ، وصعد في الحياة درجة مستحقة ، وجاء مستأجراً ليزور ذويه . ووقف حيال جارته الحسناء موقفاً طبيعياً لا غبار عليه ، لكنه كان مع هذا موقفاً مستغرباً . فهي لم تكن في آخر وقتها تكنّ سوى مشاعر الأسرة والعرس والصداقة ، فكانت تعيش في جو من الوفاق مع من حولها ، راضية عن كل ما يحيط بها ؛ كانت تؤمن بهنائها ، وكان لإيمانها بهذا الهناء ما يبرره . لكن هاهو ذا شيء يعود إلى مواجهتها الآن وكان انقطع عن مواجهتها من زمان بعيد ؛ شيء لا يثير حقدها ، لأنها لم تعد خليقة باستشعار الحقد ؛ لكن الحقد الذي كان في عهد الطفولة مجردو حي مبهم لقيمتها الباطنة ، قد اتخذ الآن صورة من الدهشة الممزوجة بالفرح ، والتأمل الوموق ، والاعتراف الوافى ، والتقرب تارة طوعا وتارة كرها ، ثم هو مع ذلك تقرب لا غنى عنه ، يتعاقب فيه الإقدام والإحجام ، والرضا والتحفظ . والغيبة الطويلة تخلق الأحاديث المستفيضة . حتى عبث الأطفال الذى زاولاه كان باعثا للذكرى ، وداعيا لتفكهة المتذيرَين ، وقام بنفسيهما أن على كليهما أن يصلح بالصداقة والالتفات ما فعل الحقد والنكاية القديمان .

أما هو فأتى من جانبه كل شيء مفهوما مرغوبا فيه . فقد كان له من مركزه ، وأمواله ، وسعيه ، وطموحه ما يشغله شغلا كبيرا ، فلم ير في تودد العروس الحسناء غير تلطف خليق بالشكر ، تلقاه بالارتياح ؛ ولم يجعل منه علاقة بينها وبينه ، ولم ينفسها على خطيبها الذى كان الود بينهما على أشده .

أما هي فكان أمرها يخالف ذلك . فقد خيل إليها أنها استيقظت من حلم ، وأن منازلتها لجارها التي كانت عاطفتها الأولى ، وأن جهادها العنيف الذي اتخذ صورة الخصومة قد كان ميلا فطريا شديداً . كذلك لم تعد كريثاً أنها فعلت شيئاً لم تكن فيه تشعر بحبه . فابتسمت لهذه الطاردة العدائية والسلاح بيدها ، وتمنت أحب الشاعر من محاولته نزع هذا السلاح ؛ بل لقد تصورت أنها شعرت بأعظم غبطة ساعة أن كان يقيد يديها ، وخالت كل ما كانت تصنعه لإيذائه ومضايقته وسيلة بريئة لا غير لتسترعى التفاته . وقد لعنت ذلك الفراق الذى شتت الشمل ، وذلك السبات الذى خيم عليهما ، وذلك الظرف الذى هيأ لها مثل عريسها التافه . لقد تحولت ؛ تحولت تحولا مزدوجاً إلى الأمام وإلى الوراء ، كما تشاء .

ولو تمنّى أحدٌ هذه المشاعر التي كانت تسبقها مطوية ، ولو شاطرها إياها ، لما صدق أحد عنها . ذلك أن عريسها لم يكن على التحقيق ليقف أمام جارها صامداً في مقابله . وإذا كان أحدهما لا يُضَنّ عليه بشيء من الثقة ، فقد كان الآخر يبعث في النفس الثقة التامة ؛ وإذا كان أحدهما تُستحب عشرته ، فالآخر يُحرص على رفقته ؛ وإذا فكر المرء في مواساةٍ كريمة أو حالات عظيمة شك في مواتاة أحدهما ، على حين يحدوه اليقين من ناحية الآخر . وللنساء كياسة فطرية خاصة في مثل هذه الأحوال ، تهيأ لهن الأسباب والفرص للسير بها إلى غاياتها .

وكلما غذت العروس الحسناء مثل هذه الأفكار في الخفاء ، عجز أى إنسان كائنا من كان عن الإفصاح عما يمكن أن يكون في مصلحة العريس مما تقتضيه الأحوال ، ويقتضيه الواجب ، وتتطلبه الضرورة القاطعة . ثم أمعن قلب الحسناء في تحيزه إلى جانب واحد . وبينا هي مرتبطة من ناحية ارتباطا لا فكاك منه ، بالعرف والأسرة والعريس ومواثقتها نفسها ، إذا بالشاب الذى يرقى سلم الحياة لا يُحجم ، من جهة أخرى ، شيئاً من أفكاره وخططه وفرصه ، ولا يعدو أن يكون لها الأخ المخلص لا المحب .

إذ يتحدث عن سفره العاجل ، يلوح كأنما استيقظ فيها روحها الطفل السابق بكل نبيتاته ومعاتفه ، وتسلح بالعناد ليكون فى مرحلة أعلى من مراحل الحياة أخطر شأناً وأشد أذى . لقد قررت مفارقة الحياة لتعاقب من أنفسته طفلا ، وأحبته الآن حباً جما ، على عدم المبالاة ، وليكون لها على الأقل خياله وندمه بعد أن عز عليها امتلاكه ؛ ولتُلازمه بعد ذلك صورتها الميتة ، ولا تكفّ عن تعنيفه ولومه على أنه لم يدرك تفكيرها ، ولم يكتنهه ، ولم يقدره .

وقد لازمها هذا الجنون العجيب أينما حلّت ، فأخفته تحت مختلف الصور . ومهما تبدى للناس من غرابتها ، فإن أحداً لم يكن من دقة الملاحظة أو نفاذ البصيرة بحيث يدرك السبب الباطن الحقيقى لهذه الغرابة .

وفى خلال ذلك كان الأصدقاء والأقرباء والمعارف يهيئون قوائم فى سلسلة من الحفلات . فندر أن مر يوم من دون شىء جديد مفاجئ ، وندر أن بقيت بقعة شائقة من بقاع الطبيعة من غير أن تزين وتستعد لاستقبال الضيوف الكثيرين الفرحين . وكذلك لم يفت زائرنا الشاب أن يقوم بقسطه قبل سفره ؛ فدعا العروسين الشابين ومعهما دائرة ضيقة من أعضاء الأسر الثلاث إلى نزهة نهرية ، فركبوا سفينة كبيرة جميلة تختال على الماء فى زينتها الأنيقة ، يختا من تلك اليخوت التى تحتوى بهوا صغيرا وبضع غرف ، وتنقل على الماء راحة البر .

ومضوا فى النهر الكبير بين عزف الموسيقى . ولاذت الجماعة من قيظ النهار بالغرف السفلى ، واستمتعوا بلُعَب الذهن ولُعَب الحظ . ولم يكن الضيف الشاب يستطيع جمودا ، فجلس إلى الدفة ليخلى الربان الشيخ من نوبته ، ولكيلا يحرمه من نومته ؛ وقد اتخذ منامه إلى جانبه .

وإذ تبلغ السفينة موضعاً تضيّق فيه جزيرتان من حوض النهر ، وتمتد فيه حوافيهما المنبسطة الحصبائية تارة فى هذا الجانب ، وتارة فى ذلك ، فتجعل طريق الملاحة محفوفاً بالأخطار ؛ تتضاعف حاجة مدير الدفة الشاب إلى اليقظة . وكاد أن يتعرض الشاب اليقظ البصير للتجربة ، فيقوم فى نفسه أن يوقظ الشيخ ، لكنه عاودته ثقته بنفسه ، وأدار الدفة صوب المضيق .

فى تلك اللحظة ظهرت على سطح الماء عدوته الحسناء ، يتوج رأسها إكليل من الزهر ، خلعته عن شعرها ، ورمت به مضيفها وهو يدير الدفة ، صائحة به : « خذ هذا الإكليل على سبيل التذكار » . فأجابها وهو يتلقى الإكليل أن : « لا تزعجينى فإنى بحاجة إلى كل قواى ، وكل انتباهى » فصاحت : « لن أزعجك بعد الآن ، ولن ترانى ثانية ! » وما أن قالتها حتى هُرعت إلى مقدم السفينة وقفزت إلى الماء ، فتصايحت الأصوات : الغوث ! الغوث ! إنها تغرق . فوقع الفتى فى أعظم حيرة . واستيقظ الربان الشيخ على الجلبة ، وأراد أن يتناول الدفة من يد الشاب . لكن السفينة لم تكن بحاجة إلى تغيير الربان فقد جنحت . وفى نفس اللحظة تخلص الشاب من ملابسه الثقيلة ، وقذف بنفسه إلى قلب الماء ، ثم سبح فى إثر العدوة الحسناء .

والماء عنصر ودود لمن يعرفه ويحكم قياده . فحمله على ظهره ، وتمكن منه السبّاح الماهر ، فسرعان ما بلغ الحسناء المجروفة ، وأمسك بها وانتشلها وحملها . وجرف التيار كليهما قويا مندفعاً حتى بانت الجزر من خلفهما ، وبدأ النهر يعرُض وينساب رفيقاً متئداً . فأخذ أولا يدعم شجاعته ، ثم جعل يفيق من المحنة الأولى التى فرضت نفسها عليه ، وجعلته يتصرف تصرفاً آليا من دون وعى ، فأدار بصره فيما حوله ، وهو يرفع رأسه ، واتجه على قدر المستطاع نحو موضع دَغِل منبسط يمتد فى النهر مواتياً مقبولا . وهناك وضع غنيمته الجميلة على اليابس . لكنه لم يكن فيها نفس يتردد ، ولا يدل شىء فيها على الحياة ، فتملكه اليأس وكاد أن يقنطه ، لولا أن لمح طريقا مطروقاً بين

الأدغال ، فحمل من جديد حمله الثقيل ؛ فلم يلبث أن وقع بصره على مسكن منعزل فاتجه إليه .

ووجد أهله من خيرة الناس ، زوجين شابين سرعان ما ألمّا بالمصاب وأدركا الضائقة ، وبادرا إلى الشاب بكل ما طلبه ، فأوقدا ناراً ، وزودا فراشاً بأغطية من الصوف ، وحملا إلى الصابين الفراء والجلود وكل ما يدفئ مما عندهما . وكانت لهفتهما على الإنقاذ تطغى على كل تفكير آخر ، فلم يدخرا شيئاً يعيد الحياة إلى الجسم العارى الجميل شبه المتصلب . — ونجحا . ففتحت عينيها ، وأبصرت الصديق ، وطوقت عنقه بذراعيها البديعتين . ولبثت على هذه الحال طويلاً وسيل دموعها ينهمر ، ويكلل شفاهها . وصاحت : « أتريد أن تتركني وقد وجدتك ثانية ؟ » قال : كلا ، كلا ! ، دون أن يدرك ما قال أو ما فعل . ثم أضاف إلى ذلك : « فقط هدئي روعك ، وفكري في نفسك من أجلك وأجلي معاً » .

ففكرت في نفسها ، فتبينت الحالة التي كانت فيها ، فلم يمرها خجل من حبيبها ومنقذها . لكنها سرّحته ليمضي بأمره ، فقد كان كل ما يحيط به مبللاً يقطر ماء .

وتشاور الزوجان الشابان . فقدم الزوج إلى الشاب والزوجة إلى الفتاة حلل العرس ، وكانت معلقة كاملة لتكسو زوجين من الفرع إلى القدم ، ومن الداخل إلى الخارج . وما هي إلا برهة وجيزة حتى كان المتآمران مكتسيين ، بل عليهما زينتهما أيضاً . وكان منظرهما شائقاً حين تلاقيا ، كل من حيث أتى . فنظر كلاهما دهشاً إلى الآخر ، وتعانقا مشغوفين ، يبتسمان ابتسامة واهنة لهذا التنكر . وأعادتهما قوة الشباب وحمية الحب في لحظات قليلة إلى ما كانا عليه . ولم تنقصهما إلا الموسيقى لتدعوهما إلى الرقص .

لقد انتقلت من الماء إلى البر ، ومن الموت إلى الحياة ؛ وانتقلت من بين الأهل إلى متوحشة ، ومن اليأس إلى الغبطة ، ومن قلة الاكتراث إلى النبل ، إلى الهوى — كل ذلك في لحظة . أفهل يقوى رأسها على احتمال ذلك ؟! إنه يكاد أن ينفجر أو أن يلم به الخبل . لكن القلب هنا يقوم بوظيفته خير قيام ، ويعين على احتمال مثل هذه الفاجأة .

وقد فني أحدهما في الآخر برهة ، ثم فكرا فيما يساور المتخلفين من خوف وهموم ، فسرعان ما عراهما الخوف من لقاء هؤلاء ، وساورتهما الهموم . فقال الشاب : أنهرب ؟ أنتوارى عن العيون ؟ وقالت الفتاة : « لنبق معاً » . وتعلقت برقبته .

وقد كان رب البيت ، حين سمع منهما قصة السفينة الجانحة ، بادر إلى الضفة من دون أن يستشيرهما . فرأى السفينة مقبلة في سلام بعد أن بُذل في تعويمها جهد كبير . وكانت تمضي على غير هدى ، يحدوها الأمل في الاهتداء إلى المفقودين . فلما نادى الرجل ركابها ولوّح لهم يسترعي انتباههم ، جرى إلى موضع يصلح للرسو الأمين ، لا ينقطع له نداء أو تلويح ، فعرجت السفينة على الضفة ، فياله من منظر ، منظر النزول !

وقد هرول أبَوا الخطيب وأبَوا الخطيبة ، وسبقوا الغير إلى الضفة . وكان العريس من هول الأمس في ذهول . وما أن علموا أن المفقودين موجودان حتى كان هذان يخرجان من الأدغال ، وعليهما حلتا العرس . فلم يميزهما أحد حتى اقتربا . فصاحت الأمّان : من أرى ؟ وصاح الأبوان : من أرى ؟ وارتمى الناجيان عند أقدامهم . وصاح كلاهما : طفليكم ! وصاحت الفتاة : غفرانكم ! وصاح الفتى : امنحونا بركتكم ! وصاح كلاهما : بركتكم ! والناس من حولهم صُمّ ، ذُهول . ورن الرجاء المرة الثالثة : بركتكم ! فمن عساه بهذا يضن ؟

محمود الدسوقي

التحقيق والتاريخ :

محمد عبـــده

والتنكر له ولآرائه

« بمناسبة الذكرى الثامنة والثلاثين لوفاته ؛ فقد وافاه أجله عليه رحمة الله برمل الإسكندرية فى الساعة الخامسة من مساء ١١ يوليو عام ١٩٠٥ »

اختلف الناس فى أمر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فمنهم من اتهمه بالإلحاد والكفر والزندقة ، وادعى أن ذلك أضعف من حجته أمام خصوم الإسلام ، كما أضعف من حجة أمثاله ممن اتهموا بمثل هذا الاتهام ، وافترى عليهم مثل هذا الافتراء . ومنهم من قال :

« عبده لم يعد من طراز هذا الزمن . وتدقيقه فى أمر البدع يعتبر تهيبا .

كل آراء محمد عبده فى العلم والدين أصبحت متخلفة عن الزمن ، لا لأنها قد قدم العهد بها ، ولكنها أصبحت لا تلائم حال الشرقيين فى توثبهم للحرية الكبرى »[1]

ومنهم من قال فيه وفى أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى : « بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وأن السيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة ؛ والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه إلى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما »[2]

ومنهم من قال : « أعتقد أننا إذا جاوزنا عصر السلف الصالح لانجد رجلا رزق فهما فى هداية القرآن ، ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية ، مثل الإمام محمد

(١) Un Effort, No. 44, Juin, 1943 عن مقدمة كتاب الإسلام والتجديد فى مصر لمعالى مصطفى عبد الرازق باشا

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا

عبده . ولقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها ، كما منحه البصر فى أمور الدنيا »[1]

ولقد سرت تهمة إلحاد الإمام وزندقته إلى كثير من البيئات والأوساط ، وتأثر بها كثير من الناس حتى طلبة العلم ورجال الدين . غير أن الإمام لم يكن بين الزعماء الصالحين أول من تعرض للاضطهاد ، وقوبلت جهوده من بعض الناس بالسخرية ؛ ولم يكن الإمام بينهم أول من رمى بالتهم وانتشرت حوله الأكاذيب والوشايات ، ولم يكن أول من تصدى له أعداء الفكر ، وحاربه دعاة الجمود ، ولكنه كان واحدا من هؤلاء . عارضه أعداؤه فى كل عمل قام أو حاول أن يقوم به ، ووقف الجاهلون أمامه حجر عثرة فى كل مشروع أدلى بدلوه أو فكر فيه ، وأساء الحاقدون عليه الظن بكل عمل خيرى وفقه الله إلى فعله ، ومسخ دعاة الجمود كل مبدأ تعليمى نادى به أو سعى لتنفيذه .

وعزاؤنا فى كل ما لاقاه الإمام أنه كان كما قلنا واحداً من هؤلاء الصالحين الذين تحدث عنهم التاريخ . وكم حوى التاريخ بين سطوره من قصص أمثال هؤلاء المضطهدين ، ما يقف بالفكر حائرا بين تصديقه والشك فيه ... وهؤلاء الأنبياء أنفسهم قد لاقوا من العنت والاضطهاد ما يهد عزائم الرجال ، ويفت من عضد أشجع الشجعان ، لولا عناية الله بهم ، وقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم . وها هو ذا التاريخ قد امتلأت قصصه بأخبار كثير من رجال الفكر الحر الذين قدموا إلى الموت طائعين أو مكرهين ، لأنهم رأوا ما لم تره الدولة ، وجاءوا بما سما على عقول الجماهير ؛ وقد امتلأ التاريخ بأخبار الحروب التى شنت على دعاة الإصلاح فتلطخ من أجلها جبين الإنسانية ، وامتلأ بأنباء المحاكم التى فتحت أبوابها للتحقيق فى تهم بعض رجال القضاء قبل غيرهم تلفيق هذه التهم وبعدها عن

(١) من كلام فضيلة الأستاذ المراغى : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ١٠٢٢

الصواب . حدث هذا كله ؛ غير أن محقق التاريخ تعقبوه مستقصين أخباره ، باحثين عن الحقيقة الثابتة بين سطوره ، واستطاع أولئك المحققون بما بذلوه أن يعطونا فى كل قصة أو نبأ رأيهم ورأى الناس فى العصور المتعاقبة ، وإذا الرأيان ، رأى المحققين ورأى الأجيال المتعاقبة ، يتفقان على أن المصلحين المضطهدين كانوا على حق فيما دعوا الناس إليه ، وأنهم لا يقدّرون إلا بعد أن تنقضى أيامهم ويصبحوا فى ذمة التاريخ .

ولهذا الاضطهاد الذى يلقاه المصلحون أسباب كثيرة ودوافع مختلفة . يقول الأستاذ الكبير محمد كرد على : « ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض فى سيرة الناهضين المصلحين على اختلاف الأعصار ، يجدهم جروا على غير ما يعتقدون ، وطلبوا بمقاومة المصلحين إرضاء العامة ونيل الحظوة لديهم ، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين ، وقليل جدا من كان الإخلاص رائدهم فى أعمالهم ومآتيهم .

« يقاوم فى العادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته ، ويتحامل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه فى صناعته ، ومثيله فى فضيلته ، ويطعن الجامد المتخرق على من يحب أن يعبد الله بعقل ، ويبحث فى عالم الكون والفساد بروية ، ليتظاهر أنه بعيد الغور شديد الغيرة ، وما أقواله إلا رياء ، وما أعماله إلا وساوس وأهواء »[1] .

وحورب محمد عبده لكثير من هذه الأسباب ، فقد كان مقربا من سمو الخديو « عباس حلمى » عند أول عهده بالحكم ، وكان يجتمع به سراً وعلانية فى القاهرة والإسكندرية للنظر فى الشؤون العامة ، والوسائل التى يمكن أن تنهض بها الأمة ، ويرتقى بها الأفراد ، وآلم هذا كثيراً من المحيطين بالخديو ، أو الذين كانوا يطمعون فى التقرب منه ، وأدى بهم الألم إلى الوشاية بالإمام والسعاية ضده . ولقد انتهى الأمر بإيعاز سموه إلى المعارضين من رجال الأزهر والعلماء بنقد طريقة الإصلاح الجديدة التى يسير عليها محمد عبده ، ويحاول بها — كما يظنون — فتنة الناس عن دينهم ، ومحاولة إظهاره بمظهر الرجل الذى لا يحافظ على دينه وكرامته ، وإفهام الشعب أن المفتى الأكبر يحاول منع المسلمين من أداء فريضة الحج بحجة الخوف من الوباء ، إلى غير ذلك من آثار الوشاية والسعاية .

وكان الإمام مجداً فى سعيه لإصلاح الأزهر ، وتطهير الدين مما لحق به من البدع والخرافات ، وآلم هذا كثيراً من رجال الدين الذين خشوا على مكانتهم بين العامة ، وخافوا أن تضيع تلك المرتبات التى يتقاضونها من غير جدارة أو استحقاق ، واستكثروا أن يظهر شاب كان أول أمره كارها للعلم ، راغبا عنه ، منصرفاً إلى غيره من نواحى الحياة ، ثم إذا به بعد ذلك يقبل على العلم إقبال النهم ، وينكب عليه انكباب الملهوف حتى إذا بلغ منه غايته بدأ يسفه آراءهم ، ويتهمهم بالجهل ، ويأخذ عليهم جمودهم وعدم إدراكهم معانى الحياة وتفهم أسرار الكون .

ولقد اشتدت حفيظة أولئك الرجال على محمد عبده ، ولكنها حفيظة بدأت توغر صدورهم منذ أن كان الإمام طالباً يتلقى العلم بالأزهر الشريف ويحضر على السيد جمال الدين الأفغانى . ويعض هذه الوجدة كما يقول الدكتور تشارلز آدمس : « يرجع إلى كراهيتهم لدرس الفلسفة التى كان جمال الدين يبعثها من جديد ، وبعضها إلى نزعته التجديدية على وجه عام ؛ على أنه يبدو أنه كان للغيرة أيضا شأن كبير ، فإن محمد عبده وغيره من الطلاب كانوا على الأرجح يهملون دروسهم فى الأزهر ويتغيبون عنها ليقرأوا على جمال الدين »[1] .

وكان الإمام سياسيا اشترك فى الثورة العرابية . ثم

(١) القديم والحديث لسعادة محمد كرد على صفحة ٥٤ .

(١) الإسلام والتجديد فى مصر للدكتور تشارلز آدمس ترجمة الأستاذ عباس محمود صفحة ٤٠ .

لق مع من لق من زملائها ، ولقى بذلك ما يقاسيه الوطنيون على أيدى رجال الاستعمار ؛ ووقف الإمام نفسه بعد النفى على خدمة مصر بل الشرق الإسلامى كله ، وتوجيه أنظار المسلمين إلى مقدار العنت الذى يقاسونه ، ومقدار الأضرار التى تعود عليهم من الاحتلال ، وتسليم أمورهم لأمم لا تدين بدينهم ولا تربطها بهم رابطة ، اللهم إلا رابطة النقمة والاستغلال . وآلمه هذا كله ضعيف الوطنية والمتملقين والمنافقين وأصحاب المطامع الذين وجدوها فرصة للطعن فيمن يريد أن يضيع عليهم الفرص ، ويحرمهم من آمالهم ، وإن كان تحقيقها على حساب الوطن والشعب .

وكان الإمام رجلا دينّاً خيّراً حر العقيدة والرأى ، يحاول أن يُعبد الله على أساس من الفكر والعقل ، لأن الدعوة الأولى من دعوتى الإسلام « لا يعول فيها إلا على تنمية العقل البشرى ، وتوجيهه إلى النظر فى الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود ، عالما حكيما قادرا ؛ وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان »[1] .

حاول الإمام أن يعبد الله بيقين يسنده العقل كما وضح ذلك فى تعليقه على الآية الكريمة : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمى فهم لا يعقلون » ، فهو يقول : « إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ؛ فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله ونفسه بالعلم والعرفان ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يعلم سوء عاقبته ودرجة مضرته .

« ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده ، فلا يأخذه بالتسليم لأجل آبائه وأجداده ، ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بقوله : صم ، لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم ؛ بكم ، لا ينطقون به عن اعتقاد وفهم ؛ عمى ، لا ينظرون فى آيات الله وفى أنفسهم فهم لا يعقلون »[1] .

حاول الإمام ذلك والدعوة إليه ، فقال الذين يتظاهرون بالورع والتقوى ولا يدركون من أسرار الكون أكثر من الملموسات التى بين أيديهم ، والذين لا يدركون من عظمة الخالق عز وجل أكثر مما قرأوه فى كتب حشوها باطل ، ولا يتفق أكثر ما جاء فيها مع ما اتصف به الدين من تنزيه ، وما أنزل الكتاب لأجله من الهداية والرحمة . . قال أولئك الناس إنه مجتهد ، وإنه مبتدع ، وإنه لذلك خرج على الدين ، ومن خرج على الدين وجب أن يوضع فى عداد الكفار ... وكأن الاجتهاد فى رأيهم جريمة ... وكيف لا يكون كذلك وقد تجاهلوا أن الإسلام « صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسمياً لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان . بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه »[3] .

ولم يجد أعداء الإمام على اختلاف مشاربهم ، وتباين نزعاتهم ، تهمة يمكن أن يصفوها به فينتشر أثرها مثل تهمة

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام .

(١) الإسلام والتجديد فى مصر صفحة ١٢٣ ؛

(٢) رسالة التوحيد صفحة ١٥٨ ، ١٥٩ .

الكفر والإلحاد ... والغريب أن تسرى هذه الفرية بين الناس فيصدقها بعضهم كأنها حقيقة واقعة ، وكأن الأمر لم يكن اتهاماً باطلا من قوم جبلت نفوسهم على الغيرة والحسد ، أو من قوم تسربلوا بأكفان الماضي وعاشوا فيه لا تبرحه عقولهم وأفكارهم .

ومن هؤلاء الذين صدقوا هذه الفرية الكاذبة والتهمة الباطلة شباب لا يعلم كثيرا ولا قليلا عن الإمام ، إما لأنه لا يميل بطبعه إلى قراءة شيء يتعلق بالناحية الدينية وانشغاله عن ذلك بشئون السياسة أو شئون الثقافة الحديثة ، وإما لخوفه من القراءة لهذا الرجل وتتبع آرائه وأفكاره فيتهم في عقيدته كما اتهم الرجل نفسه ... وصدق الفرية عامة يسهل التأثير فيهم ، ثم هم فوق ذلك أكثر رغبة في الاحتفاظ بالقديم ، قليلو الرغبة في مجاراة الجديد ما لم يثبت نفعه أو يرغموا عليه ؛ وصدقها كذلك معارضون يترقبون التهم لترويجها كسبا لقضيتهم الخاسرة أولا وأخيراً ...

ومن الغريب أن تلصق هذه الفرية برجل كان شأنه أجل وأعظم من مئات مجتمعين بل من ألوف .. لقد واجه محمد عبده عالماً إسلامياً مفكك الأوصال ، واهي القوى ، يضرب في ظلمات من الجهل لا يدرى معها إلى أين ينتهي به الطريق ... وواجه عالماً مستذلا يخضع لسلطان دولة تخالفه في الدين ، أو رؤساء واقعين في قبضة النفوذ الأجنبي ، أو ملوكا ظلمة تتحكم فيهم الشهوات والمطامع... ونادى الإمام على صفحات العروة الوثقى وغيرها بمقالات كأنها شعل من نار بإحلال التآلف بين دول ذلك العالم الإسلامي الشتت ، ونظمها في وحدة تستطيع أن تصد هجمات المغيرين ، وتعيد للإسلام عزه الغابر ومجده القديم .

وواجه محمد عبده حياة اجتماعية لا رابط بينها ، وخلقية بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ، وفكرية تثير الأسى والألم .. انتشر التنابذ بين الناس والأمم ، والدين يدعو إلى الوحدة والإخاء .. وعم الفساد وكثر إتيان المحرمات والدين ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؛ وانتشر الجهل فضل الناس سبل الرشاد . ونادى محمد عبده بالرجوع إلى الإسلام الصحيح فهو المنقذ من كل فساد .

يقول الإمام : « ألا إن الدين مستقر السكينة ، وملجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب كل عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من هو فوقه في العلم والفضيلة ، وإلى من دونه في المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية »(١) .

لقد تنكر الناس لمحمد عبده ولآرائه ، وحاربه كثيرون في عقيدته وإيمانه ، وفي خلقه وأعماله ، ولكنهم — علم الله — كانوا في الخطأ واقعين ، وعن الصواب معرضين ، وكانوا في كل ذلك مغرضين . ولقد نصره الله على القوم الجاحدين والمنكرين ، وأدرك العالم الإسلامي كله أنه فقد بوفاته رجلا قل أن يجود الزمان بمثله .

ولقد لقى الإمام بعد وفاته من التقدير والإعجاب أضعاف ما لقيه في حياته . وسجل التاريخ كلمة الحق ، ونحن نسجلها الآن بمناسبة ذكراه التاسعة والثلاثين .

رحمه الله رحمة واسعة ، وألهم رجالنا العمل على تخليد ذكراه .

(أسرة الشباب بعين شمس) عبد المنعم عمارة

(١) رسالة التوحيد صفحة ١٢٨ .

إلى حضرات المشتركين

حددت إدارة مجلة الثقافة يوم ١٥ يوليه سنة ١٩٤٤ آخر موعد لتسديد النصف الثاني من الاشتراك عن سنة ١٩٤٤ فالرجو من حضرات المشتركين مراعاة ذلك . الإدارة

شريد ... !

ذلك الوعـــد قد بِتَّ تناجيه حنينا
كان مِلْءَ القلب شغلا وانتظارا وجنونا !
لم تنم أمس من الشوق ولم تغمض جفونا
بِتَّ تشتاق وتلتذ من الشوق فنونا
وتمنيتَ لو ان القرب قد طال سنينا . . .
لِمَ صارت هـــذه اللهفة بردا وسكونا
حين صار الوعد لقيا والخيالات يقينا ؟

ذلك الوجه أما بتّ تناجيـــه الليالي
ساهراً تحلم بالحب وأحـلام الخيـال
وترى فيه أفانين من السحر الحلال
صاغها الله من الحسن على غير مثـال
وترى فيه هُدًى يهديك في وادي الضلال
لِمَ تلقاه — إذا جاءك — في غير احتفال
لا تباليه إذا جاءك ... وإن غاب تبـالي

هذه الوردة تشتاق إليهـا من بعيـــد
وترى فيها أفانين من الحسن الفريد
وإذا أبصرتَ في عروة مخلوق بليد
زهرةً حسناءَ يختال بها شبهَ سـعيد
خِلْتَها كالغادة الهيفاء باتت في القيود !
فإذا أهديتَها ! يا ويح عشّاق الورود !
تنتشي بضع ثوان . . . ثم تمضي لجديد !

والأماني تُقَضِّي العمر فيهن رجاء
وانتظارا يلهب القلب فيزداد اشتهاء
فهي تحـــدوك على البعد لتزداد مضاء
وترى فيها إذا أظلمت الدنيا ضيـــاء
فإذا حققتَ منها ما سخا الدهر وشاء
لم تجد فيها — على طول تشهّيك — غناء
ووجدت الواقع الملموس جدبا وخواء !

أيها الشارد في الكون ستزداد شرودا
أيها الخافق في جنبيّ لن تحيا سعيدا
سوف تقضي العمر لهفان ، وتقضيه شريدا
كلما حققت حلما عدت تشتاق جديدا
أو أوى الناس إلى العيش تخلّفت وحيدا
هكذا دأبك في التيه فلم تخلق رشيدا
سوف تقضي العمر لهفان ، وتقضيه شريدا

محمد قطب

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

ص	
٤٥	في مصر والسودان
٣٧,٥	لطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦/ ٥٦٢٦٩

العدد ٢٩١ الثلاثاء ٥ من شعبان سنة ١٣٦٣ — ٢٥ من يوليه سنة ١٩٤٤ السنة السادسة

فهرس العـــــدد

روســـــيا الشرقية

إذا صرفنا النظر عن الحرب الدائرة في فنلنده ، نرى الزحف الروسي يتجه من الشرق نحو الغرب ، في قطاعات مختلفة ؛ لكل منها وجهة وغاية ومسلك خاص يسير فيه الهجوم . ففي الشمال زحف على حدود لاتفيا ، وجهته الساحل البلطي عند مدينة ريجا ، وقد كان هذا الهجوم عنيفاً أول الأمر ، ثم قلت حدته بعد ذلك نوعاً ما ، ثم عاد إلى الاشتعال من جديد .

وإلى الجنوب من هذا القطاع يزحف الروس في أرض لتوانيا ، بعد أن استولوا على مدينة فلنا ، وقد أخذت جيوشهم تُطيل العاصمة اللتوانية (كوفنو) . وهذا الطريق ينتهي بلا شك إلى الطرف الشمالي من بروسيا الشرقية ، وإلى موانيها المعروفة ميمل وكونجسبرج وإلبنج ؛ وقد يفضي بعد ذلك إلى دنزج ، تلك البلدة الحرة المشئومة ، التي اقترن اسمها بالأسباب التي أثارت هذه الحرب الشعواء ، كأنها هيلانة طروادة ، حسناً وفتنة وشؤماً ، ووبالاً على بني الإنسان .

وجنوب هذا القطاع زحف ثالث يتجه نحو الشطر الجنوبي من بروسيا الشرقية ، وقد تجاوز هذا الزحف مدينة جرودنو الحصينة ، التي أخلاها الألمان من غير قتال ، وبذلك اقترب الروس من بروسيا في هذا الوضع أكثر مما اقتربوا في القطاع السابق . ولقد كان زحف الروس هنا أسرع منه في أي قطاع آخر ؛ فإنهم لم يكادوا يستولون على منسك ، حتى أخذوا يندفعون نحو الغرب من غير تريث أو تمهل . ولقد كان الاستيلاء على منسك ذاتها عملاً عجيباً ؛ لأن الروس تركوا شطراً من الجيش الألماني وراءهم ، وخلفوا جيشاً روسياً لمحاصرة القوات الجرمانية المتخلفة ، ولم تتم تصفية هذه القوة إلا بعد سقوط منسك ذاتها بزمن ؛ ولا شك أن هذا دليل على أن للروس قوات احتياطية عظيمة . ولذلك استطاعوا أن يمضوا في ذلك الزحف السريع ، بأن يخصصوا جيشاً لمحاصرة المدن أو القوات المتخلفة ، دون أن يعطل هذا من الزحف العام الماضي لطيّته .

وجنوب قطاع منسك — جرودنو ، نرى قطاعاً عجيباً ،

كنا نظن أن الحرب ستكون فيه أكثر ركوداً وهدوءاً. ذلك هو إقليم مستنقعات نهر بريبت؛ وهذا النهر عبارة عن رافد يجرى فى النهاية إلى نهر دنيبر بالقرب من مدينة كييف. ولكنه فى مجراه الأعلى فى بولنده وفى غرب روسيا، يجرى — أو يكاد يجرى — فى أرض سهلة، قليلة الانحدار، فتكثر فيها المستنقعات فى مساحة واسعة، تكوّن قطراً عظيما، قليل السكان، قليل المدن والقرى. والجيوش الحديثة بعددها الثقيلة تتحامى مثل هذا الاقليم، وتتجنبه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وذلك ما فعلته ألمانيا فى زحفها منذ ثلاثة أعوام. ولكن الروس قد اقتحموا إقليم المستنقعات، بأن انقضوا عليه من الشمال، واستعانوا بالزوارق النهرية. حتى تم لهم الاستيلاء على (بنسك)، وهى المدينة الوحيدة الهامة وسط هذه المستنقعات ولم يكد يتم لهم الاستيلاء عليها، حتى اندفعوا نحو الغرب بسرعة عظيمة؛ حتى أشرفوا على حصن برست ليتوفسك الشهير. وطريق هذا الزحف هو الطريق المباشر المفضى إلى وارسو وفى النهاية يفضى إلى العاصمة الألمانية. فإن مدينة بنسك وبرست ووارسو وبرلين تقع كلها على خط عرض واحد تقريباً. وكلما اتجه الروس نحو الغرب ابتعدوا عن المستنقعات، وبلغوا الأقاليم ذات التربة الجافة.

ولهذا القطاع شعبة تتجه نحو بلدة بيالستوك إلى الشمال من برست، ولكن وجهتها لا تكاد تختلف عن الاتجاه العام لهذا القطاع الأوسط.

وفى الجنوب قطاع خامس، لم يبدأ الزحف فيه إلا منذ نحو أسبوع، وهو فى الطرف الجنوبى من أوكرانيا، وإلى الشمال من جبال الكربات، زحف الروس هنا نحو مدينة لبرج (أو لفوف)، فإذا كانت بغيتهم أن يتابعوا الزحف نحو الغرب، فإن الطريق هنا يجتاز مسالك لا تخلو من المرتفعات والمنخفضات، ويفضى فى النهاية إلى كراكاو، المدينة البولندية العظيمة، ثم إلى الإقليم الصناعى الألمانى فى سيليزيا العليا.

تلك هى القطاعات الخمسة، التى يشتد الزحف الروسى فى كل منها، ويسرع فى أحدها تارة، ويهدأ فى الأخرى، طبقاً لما تقضى به الحرب. ولا شك أن هنالك تفاوتاً عظيما بين هذه القطاعات؛ وأن بعضها — إذا نجح فيه الزحف الروسى نجاحا باهراً له أثر أعظم فى تقرير مصير هذه الحرب، والتعجيل بانتهائها. وربما كان القطاع الخامس المتجه نحو سيليزيا العليا، أو القطاع الأوسط الموجه نحو برلين، هو من الناحية الحربية والاستراتيجية، أجل خطراً من سائر الميدان، وأحق أن نرقبه وأن نتتبع أنباءه.

ولكن أكثر الناس اليوم مهتم بأنباء القطاع الشمالى، المتجه صوب بروسيا الشرقية، مع أن نتائجه الحربية قد تكون أقل خطراً. وذلك لأن قطاع جرودنو بوجه خاص قد قرب الجيش الروسى من أرض ألمانية. والدنو من حدود أية أرض ألمانية هو فى ذاته أمر يلفت العقل، لأنه شىء غير مألوف، وكان الناس يعدونه شيئاً بعيد الاحتمال؛ فقد انقضت عشرات السنين، دون أن يقترب جيش أجنبى من حدود ألمانيا. وانقضت الحرب العالمية سنة ١٩١٨، بهزيمة ألمانيا، ولكن أرض ألمانيا ظلت سليمة، لم يقترب منها جيش، اللهم إلا فترة قصيرة من الزمن، وذلك عندما توغل الجيش الروسى فى أوائل تلك الحرب داخل الحدود الألمانية. وفوق هذا فإن أشخاصاً كثيرين — حتى من المحايدين — يودون أن يروا الحرب تدور فى أرض ألمانيا ذاتها، لكى يروا، هل يخرب الألمان مدنهم أثناء تراجعهم، ويحرقون قراهم، ويدمرون كل شىء يصلح للعدو، كما كانوا يفعلون فى أرض غيرهم. من أجل هذا نرى متتبعى الأنباء فى كل قطر لا يعنيهم القطاع الجنوبى بقدر ما تعنيهم أنباء الزحف على حدود الأرض الألمانية.

والأرض الألمانية، التى يزحف عليها الروس من موضعين، هى بروسيا الشرقية، وهى إقليم فذ فريد بين جميع الأقطار الألمانية. فهو فريد لأنه أفرد عن سائر ألمانيا وفصل عنها بمعاهدة فرساى، وامتد بينه وبين سائر ألمانيا ذلك الممر البولندى الشهير، الذى أنشىء ليمكن لبولنده من الاتصال بالبحر. وهو فريد لأنه من الأقاليم القليلة

فى أوربا التى كثر عليها التطاحن والتشاحن ، وارتوت تربتها بالدماء أجيالا طويلة . ومع أنه ليس إقليما غنيا ، فإنه هو وطن الارستقراطية الحربية الجرمانية ، وذلك بحكم نشأته وتطوره التاريخى .

تقع بروسيا الشرقية ما بين نهر النيمن فى الشرق ، والفستولا فى الغرب على وجه التقريب ؛ ولها إقليم صغير فى شرق نهر النيمن ، تعودنا أن نطلق عليه إسم إقليم ميمل ، وذلك تبعا لاسم البلدة الوحيدة الهامة فيه ، وهى ميناء ميمل . فقد رأى الحلفاء بعد الحرب الماضية أن يهبوا إقليم ميمل لجمهورية لتوانيا ، لأنه يشتمل على ميناء ، وليس للجمهورية ميناء آخر صالح لتجارتها ولاتصالها بالعالم الخارجى . وإقليم ميمل هذا ضئيل المساحة قليل الخطر بالنسبة لبروسيا الشرقية ولألمانيا كلها ، ولكنه عظيم للجمهورية الناشئة ، ولبروسيا الشرقية موانىء أجل وأعظم ؛ مثل تلست على نهر النيمن ، وكونجسبرج والبنج وغيرها . ورغم هذا فإن زعيم ألمانيا وجه إلى حكومة لتوانيا إنذاراً فى مارس سنة ١٩٣٩ بأن تسلم إقليم ميمل ، فلم يسع الجمهورية الصغيرة إلا الامتثال .

وليست بروسيا الشرقية إقليما كبيرا ، فمساحتها لا تتجاوز ٤٠٫٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ، وسكانها لا يتجاوزون الثلاثة الملايين . ولكن لها موقعاً ممتازا ، فهى تمثل امتداداً عظيما ، نحو الشرق ، للأراضى الألمانية . وقد انتشرت الجماعات الجرمانية فى العصور الوسطى على السواحل الشرقية للبحر البلطى ، ولكن الانتشار فى بروسيا لم يكن مجرد انتشار ساحلى ، بل توغل برى أيضا . وفى أثناء الهجوم على روسيا كان لمكان بروسيا الشرقية المتقدم فائدة عظيمة ، لأنه يمكن من حشد الجنود ، وتركيز العدة الحربية فى نقطة متوغلة فى أرض العدو . ولهذا السبب نفسه نرى اليوم أن هذا الإقليم بالذات هو أول الأقطار الألمانية تعرضاً للغزو الروسى ، كما كان هو المعرض لزحف جيوش القيصر الروسى فى أغسطس سنة ١٩١٤ .

ومن المفيد أن نعرف كيف انتشر الألمان نحو الشرق إلى هذا المدى البعيد وكيف استطاعوا أن يجعلوا من بروسيا الشرقية وطنا لهم . إن البروسيين القدماء لم يكونوا من الجرمان ، بل كانوا جيلا من الصقالبة الوثنيين . وفى القرن التاسع والعاشر أخذت المسيحية تنتشر فى الغرب وفى سهول ألمانيا وبولنده ؛ وبذلت جهود كبيرة لتنصير أولئك البروسيين فذهبت كلها عبثاً ، وظلت جموعهم على وثنيتها وهمجيتها إلى القرن الثالث عشر .

وتاريخ بروسيا الشرقية مرتبط أشد الارتباط بتاريخ الفرسان التيوتونيين ، الذين لا تزال تقاليدهم راسخة فى البلاد إلى اليوم . وإليهم يرجع الفضل فى تحويل الإقليم إلى النصرانية ، وصبغه بالصبغة الجرمانية .

والفرسان التيوتونيون عبارة عن جماعة أو طريقة أو « مذهب » من المذاهب الدينية العسكرية ، التى نشأت فى أثناء الحروب الصليبية فى أرض فلسطين . وقد نشأ المذهب التيوتونى فى أوائل القرن الثالث عشر بالقرب من عكا ، فى وقت انتشر فيه الطاعون بهذه المدينة . فتأسس المذهب المذكور للعناية بالمرضى ، ومعالجتهم ؛ وقد ظلت العناية بالمرضى وإنشاء المستشفيات جزءا هاما من أعمال الفرسان التيوتونيين ، ولكنهم لم يكونوا مجرد رجال وجهتهم الشفاء من الداء ، بل كانوا أيضا رجال حرب ، يعملون للفتح والغزو ، ونشر المسيحية بسن الرمح وحد الحسام ، وكانت أكسيتهم البيضاء تخفى تحتها دروعا من الفولاذ . وانتشر المذهب وكثر أعضاؤه فى الأرض المقدسة ، وفى بلاد الألمان نفسها ، حتى كان له رئيس أكبر فى فلسطين ؛ ورئيس جرمانى فى أوربا .

فى عام ١٢٢٨ دُعِىَ أبطال المذهب إلى تنصير البروسيين ، وباركت السدة البابوية خطاهم ومساعيهم ، فاندفعوا يعملون السيف فى أولئك الوثنيين ، حتى أخضعوهم أو قتلوهم . ولا شك أن عددا كبيرا من البروسيين قد لاق حتفه فى هذا القتال الطويل حتى ليزعم بعض غلاة المؤرخين أن جميع الرجال قد قتلوا عن آخرهم ... ومهما يكن من شىء ، فإن الغزاة لم يكتفوا بالفتح والغزو ، بل أخذوا يستعمرون القطر ، ويجلبون له المهاجرين الألمان من الزراع والتجار ورجال المدن . وأخذوا ينشئون الحصون

الضخمة ، التي كانت من غير شك شديدة المنعة في زمانها وأعظمها حصن ماريتبرج على نهر فستولا ، وهو مقر الرئيس الأكبر .

وقد كان مقر الرئيس الأكبر للمذهب التيوتوني أول الأمر في عكا ؛ فلما فشلت الحروب الصليبية في الشرق ، وسقطت عكا في عام ١٣٠٨ ، انتقل هذا الرئيس إلى ماريتبرج ، وتقلد زعامة الحكم ، بعد أن كانت معظم السلطة في أيدي وكيله الرئيس الجرماني . وأصبح لهذا الرئيس الأكبر بلاط كبلاط الملوك ، يحيط به الرؤساء والوزراء .

ووزعت الأراضي في بروسيا بين الفرسان ، وأصبح كل منهم أميراً في مقاطعته وقلعته ، ومنهم تألفت الأرستقراطية العسكرية التي لا تزال من أهم ما يمتاز به ذلك القطر الشرقي الذي بات قطراً جرمانياً خالصاً ، تحكمه طبقة أرستقراطية قليلة النظير في أي جزء آخر من الوطن الألماني الأصلي .

كان الاستيلاء على بروسيا الشرقية أكبر عمل قام به الفرسان التيوتونيون ؛ وكان جزءاً من تلك الحركة الهائلة التي اشتهرت باسم « الزحف إلى الشرق » Drang nach Osten التي امتاز بها التوسع الألماني من القرن الثاني عشر ؛ والتي لا تزال شعاراً يلجأ إليه الألمان كلما حداهم الشوق إلى التوسع والاستعمار .

ولا شك أن النجاح الباهر الذي صادفه الفرسان من جهة ، وما قد يبدو في أعمال طائفة منهم من العدوان والغطرسة من جهة أخرى قد أوغر صدور جيرانهم ، مثل المملكة البولونية في الجنوب ، ومدن هنزا في الشمال . وفي عام ١٤١٠ دارت معركة بين الفرسان وبين جيش بقيادة ملك بولنده لادسلاوس . وقد التقى الجيشان في تاننبرج ببروسيا الشرقية ، وأمكن لملك بولنده أن يسحق جيش الفرسان ويمزقه كل ممزق . وكانت هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة كهيئة منظمة ذات سيادة .

وانتهزت العناصر المختلفة التي كانت تبغض الفرسان هذه الفرصة ، وألفت اتحاداً سمته « العصبة البروسية » .

وكان قوام العصبة المدن البحرية مثل كونجسبرج ودانزج وجماعات القسس ، والنبلاء الوطنيين وغيرهم . وهؤلاء قد اتفقوا فيما بينهم ، وأرسلوا وفداً إلى ملك بولنده ليعرض عليه أن يضم بروسيا كلها إلى ملكه .

ولكن ملك بولنده اكتفى بأن يضم بروسيا الغربية ودانزج وبلاداً أخرى ، تاركاً للفرسان بروسيا الشرقية يحكمونها تحت إشرافه ورعايته .

وظل رئيس المذهب التيوتوني يحكم مقاطعة بروسيا الشرقية ، مع الخضوع الرسمي لبولنده ، إلى أن آلت بروسيا الشرقية بالوراثة إلى أمير براندنبرج ، ومقره في برلين ، في عام ١٦١٨ . ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من المملكة التي أطلق عليها فيما بعد اسم مملكة بروسيا ، وعاصمتها برلين .

وهكذا تقلبت الظروف على بروسيا الشرقية ، ومرت عليها الأحداث الكثيرة . ولئن كان مجدها القديم قد زال عنها ؛ فإنها لا تزال وطن الفروسية الألمانية ، والنبلاء العسكريين ، الذين يحنون دائماً إلى إثارة الحروب وخوض غمار القتال . ولقد أتت أجيال على الأرض البروسية وهي حليفة حرب دائمة . وليس في الأراضي الألمانية كلها قطر شهد من الحروب ، وارتوى من الدماء ، بقدر ما لقي هذا القطر .

وفي عام ١٩١٤ كان أول هجوم روسيا القيصرية على ألمانيا في بروسيا الشرقية ، وقد توغل الجيش الروسي حتى اقترب من حدودها الغربية ، ثم لقي بعد ذلك هزيمته المشهورة في معركة تاننبرج الثانية .

واليوم تدنو الحرب مرة أخرى من بروسيا الشرقية ، ولكنها ليست حرباً بين جيشين يسعى كل منهما لقاء صاحبه ، بل هي حرب جيش روسي يتقدم من الشرق ، وجيش ألماني يحارب متراجعاً نحو الغرب . وقد طال أمد هذا التراجع ، حتى بات من الصعب أن نلتمس له ذلك العذر القديم ؛ وهو التراجع طبقاً لخطة موضوعة . والأيام المقبلة كفيلة أن ترينا إذا كان الجيش الألماني سيقف أمام حدود وطنه ليذود الغزاة عنه ، أم يستمر تراجعه إلى ما وراء بروسيا الشرقية .

محمد عوض محمد

نظرات عابرة :

شاعر النيـــــل

المرحوم حافظ بك إبراهيم

[بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاته]

لبّى شاعر النيل المرحوم حافظ بك إبراهيم نداء ربه فى ٢١ يوليو من عام ١٩٣٢ ، وقد مرّت من ذلك التاريخ اثنتا عشرة سنة ، كنا نسائل أنفسنا خلالها : هل حقيقة مات شاعر النيل ، وهل غاب بلبله الصدّاح إلى الأبد ؟

أما أن حافظا قد انتقل إلى الدار الآخرة ، وغاب جسمه فى التراب ، ولم نعد نراه كما كنا نراه من قبل ، ونجادله فى شتى المواضيع فنؤخذ بسحر لفظه وبيانه ، ونستمتع بحلو حديثه وعذب أنغامه ، فما لا شك فيه ؛ أما حافظ الشاعر الذى يصور شعره مطامع أمة ، ويعبر عن أدق ما يحسه الأفراد وتختلج فى صدورهم من عوامل الألم والأمل ، فلم يمت . وهذا شعره حى فى الصدور يتغنى به الناس فيردد على ألسنتهم ذكراه .

رحل حافظ وخلف بعده ثروة من الشعر جعلته فى طليعة الشعراء الذين ستحفظ مصر ذكراهم ، وتلقنها للأجيال جيلا بعد جيل ؛ ولكن أى مكانة كان يحتلها حافظ بين أولئك الشعراء ؟ ولأى من الأسباب كان حافظ شاعر النيل الحبيب إلى أبنائه ، القريب إلى قلوبهم ؟

***

كان حافظ ، كما يقول الأستاذ عباس العقاد(١) ، وسطا بين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى وما بعدها ، وبين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرن العشرين ؛ فهو نديم يلقى جميع سامعيه ، ويعاشرهم فى المجالس ، ويطيب خواطرهم بالمُلَح والأحاديث ؛ تراه فى الأندية السياسية بين الساسة والزعماء ، وتراه فى حلقات الدرس بين رجال العلم والدين ، وتراه فى مجامع أهل الأدب والفن وفى المقاهى العامة بين الأصدقاء والأحباب ، تراه فى كل هذا بين مجادل ومسامر ومطارح للشعر ، ومتندر بحلو النكات وظريف القصص ... ورجل يخاطب قراءه من وراء المطبعة أو ستار التمثيل ، تقرأ له ولا تراه .

وكان حافظ وسطا بين شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية . لم يهمل الناحية القومية ، ترى ذلك واضحا فى كلامه عن اللغة الفصحى ، وعن السفور والحجاب ، وعن مشروع الجامعة الذى يقول فى الحث على تعضيده :

حيّاكم الله أحيوا العلم والأدبا
إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حيـــاة لـكم إلا بجامعة
تكون أمًّا لطلاب العلا وأبا
تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة
من المعالى وتبنى العز والغلبا
ضعوا القلوب أساساً لا أقول لكم
ضعوا النضـار فإنى أصغر الذهبا
وابنوا بأكبادكم سوراً لها ودعوا
قيل العدو فإنى أعرف السببا(١)

ولم يهمل حافظ الناحية الشخصية ، تلمس ذلك فى شكواه وهزله ، وفى مساجلاته ، وفيما يبدو فى قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات طبعه . يقول فى وصف سعيه المتواصل وبؤسه وإبائه ، وتمنيه الراحة من

(١) شعراء مصر ، للأستاذ عباس محمود العقاد ، صفحة ١٤ وما بعدها .

(١) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

ذلك بأوت :

سلام على الدنيا سلام مودّع
رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنما
أضرّت به الأولى فهام بأختها
فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبّى رياح الموت نُكْبا وأطفئى
سراج حياتى قبل أن يتحطما
فما عصمتنى من زمانى فضائلى
ولكن رأيت الموت للحر أعصما (١)

وكان حافظ من الشعراء الذين لم يستطيعوا الاستغناء بثقافتهم العربية عن غيرها من الثقافات . ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا التبحر فى تلك الثقافات ليقال إنهم من عارفى أسرارها وخفاياها ، أو من الذين تأثروا بها وطبعوا بطابعها . يقول الأستاذ أحمد أمين بك :

« وقد كان حافظ يلم بالفرنسية فمكنته من الاطلاع على شىء من آدابها ، وقد ترجم البؤساء لفيكتور هوجو ، وترجم بعض قطع لجان جاك روسو ، واشترك مع الأستاذ خليل مطران فى ترجمة كتاب « موجز الاقتصاد » ، وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الإنجليزى ، كما ترى أثر ذلك فى ترجمته لبعض قطع شكسبير ، ولكنه على كل حال لم ينل حظا وافراً من الأدب الغربى ، ولم يكن أثر ذلك كبيراً فى شعره ، إنما شعره — على الأكثر — نتاج الأدب العربى ، والثقافة العربية ، والتجارب الشخصية » (٢) .

وكان حافظ فى أول عهده بنظم القريض يغالى مبالغة الأقدمين فى شعره ، ولا سيما فى المديح ، ترى ذلك واضحا فى قوله مهنئاً سليمان أباظه باشا بإبلاله من مرض ألم به :

(١) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

(٢) مقدمة الديوان بقلم الأستاذ أحمد أمين بك صفحة ٢٢ .

إذا سرتَ يوما حذّر النمل بعضه
مخافة جيش من مواليك يغشاه
وإن كنت فى روض تغنّت طيوره
وصاحت على الأفنان : يحرسك الله
وكان (ابن داود) له الريح خادم
وتخدمك الأيام والسعد والجاه (١)

فلما تقدمت به الأيام وعرف من أحوال الأمة الشىء الكثير ، وخبر أخلاق رجالها ، خفف من غلوائه ، وقرّب من قصد المحدثين ، وكان مديحه يمثل مراحل الأدب والحرية القومية فى الأمة مرحلة بعد مرحلة .

وكان حافظ وسطا بين من يميلون إلى الشعر القديم ومن يميلون إلى فنون جديدة فيه ؛ قرأ شعر الأقدمين فأعجب به وحاكاه ، ثم ثارت ربة شعره على هذا القديم فحاول الفكاك من تقليده تمشياً مع النزعة الأدبية الجديدة . وقد قال فى ذلك :

آن يا شعر أن نفك قيوداً
قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا
ودعونا نشم ريح الشمال (٢)

* * *

وعاد شوقى وحافظ من سفرهما إلى الخارج : الأول من أسبانيا حيث اللهو واللذة ، وحيث العلم والأدب والفن ، والطبيعة المبتسمة والجمال المضىء ؛ والثانى من السودان حيث الكد الذى لا يفيد ، والعناء الذى لا يغنى ، وحيث الشمس المحرقة والطبيعة المظلمة القاسية . عاد الأول مبتسما راضيا بحياته ، وعاد الثانى حزينا كئيبا ساخطا على الدنيا وعلى الناس . يقول الدكتور طه حسين بك :

« نعم ، عاد الشاعران إلى القاهرة فى هذه الحال ،

(١ ، ٢) عن المصدر الأول .

واستقبل كل منهما أهل القاهرة بما أمكن أن تحتفي به نفسه من الشعر ، وسمع أهل القاهرة غناء حافظ وغناء شوقي ؛ فأعجبوا بشوقي وأحبوا حافظا . وكذلك انتقل إعجاب القاهرة بشوقي إلى أهل مصر ثم إلى الشرق العربي ، وانتقل حب القاهرة لحافظ إلى أهل مصر ثم إلى أهل الشرق العربي ؛ ثم مات حافظ فحزنت عليه مصر والشرق حزن المحب ، ومات شوقي فحزنت عليه مصر والشرق حزن المعجب »(١) .

فما هي الدوافع التي جعلت مصر والشرق العربي يحبان حافظا هذا الحب ، فإذا مات جزعا لموته وحزنا عليه ذلك الحزن ؟

ولد حافظ ونشأ في أسرة من الشعب تحس إحساسه ، وتشعر شعوره ، تفرح لما يفرحه وتألم مما يتألم منه ، فطبيعة نشأته كانت تقرب بينه وبين أفراد الشعب . ولم يكن هناك ما يحجب أحدهما عن الآخر ، على الرغم من صداقته لكثير من عظماء الأمة وساستها ، وعلى الرغم من صداقته لرؤساء الأسر العريقة . وهكذا خالط حافظ الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً ؛ وصور نفسه في شعره فصور الناس جميعا .

وكان حافظ أمنية أشاعت السرور في قلب والديه ، وفتحت في صدريهما أبواب الأمل ، ولكنه لم يكد يتم العامين من عمره حتى مات والده ، وما هو غير قليل من موت هذا الوالد حتى توفيت والدته ، وقد خلف له موتهما اليتم البكر ، والألم الممض ، والحزن الذي تغلغل في أعماق نفسه ؛ ولقد أحب المصريون حافظا لهذه المتاعب والآلام التي تحملها منذ الصغر .

وأحب المصريون والشرق العربي حافظاً لغير هذا وذاك . يقول الدكتور طه حسين بك : « كانت نفس حافظ بسيطة يسيرة ، لا حظ لها من عمق ولا تعقيد ، وكانت لهذه الخصال نفسها محببة إلى الناس مؤثرة فيهم ، وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه النفس البسيطة اليسيرة ، فأحبوه كما أحبوا مصدره ، وأعجبوا به كما أعجبوا بنبوغه »(١) .

ورأى حافظ ما تعانيه الأمة من فوضى الأخلاق ، وأحس شكاية الأمة من شدة وقع الاحتلال ، وأدرك تضييق الغرب على الشرق ، فثارت نفسه وبرمت بتلك الحال . وكان حافظ قد صادق زعماء الوطنية وقادة الرأي ورجال الإصلاح ، فتأثر بهم وأدرك آمالهم ، وما هو إلا قليل حتى عملت هذه العوامل كلها في نفسه ، وإذا به قد خرج على الناس فيثارة رددت شكواهم ، وأذاعت آمالهم .

يقول الأستاذ أحمد أمين بك : « كان حافظ في شعره يقف موقف الصحافة الوطنية ، والخطباء الوطنيين ، وقادة الرأي الاجتماعيين ، يغشى مجالس كل هؤلاء ، ويتشرب من أرواحهم ، ويستمد من وحيهم ، ويتغذى عواطفه من عواطفهم ، ثم يخرج ذلك كله شعراً قوياً ملتهباً يفعل في النفوس - وذلك شأن الشعر الحي - ما لا تفعله الخطب والمقالات »(٢) .

ضاقت الأمة بظلم الاحتلال وقسوته ، فعبر حافظ في شعره عن هذا الضيق ؛ وأملت الأمة في المستقبل آمالا عريضة تحدث عنها حافظ ورسم حولها صوراً براقة جذابة ؛ وبكت الأمة لما حل بها من نكبات ، فبكى حافظ لبكائها . قال في حادثة دنشواى :

أيها القائمون بالأمر فينا   هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا   وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق   بين تلك الربا فصيدوا العبادا

(١) حافظ وشوقي ، للدكتور طه حسين بك ، صفحة ١٩٠ .

(١) نفس المصدر صفحة ١٩٨ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

إنا نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا

... ...

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أقصاصا أردتم أم كيادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أنفوسا أصبتم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التفـ
ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا
كيف يحلو من القوى التشفى
من ضعيف ألقى إليه القيادا
إنها مثلة تشف عن الغيـظ ولسنا لغيظكم أنداذا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم
إنما يكرم الجواد الجوادا[1]

ولهذا أحب المصريون حافظا ، فقد كان شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة والاجتماع ؛ وقصائده تزخر بهذا كله ، وترسم صورة واضحة لهذا كله .

واتسع الأفق أمام حافظ فحلق فى سماء الشرق يدعو إلى الوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية ، وينادى بالقضاء على من يبذر بذور البغضاء بين شعوبه ، ويطالب بتبادل المنافع بين أجزاء هـذا الشرق ، ويردد فى شعره آماله ، ولذلك أحبه الشرق ، فلما مات بكى لموته وحزن عليه حزن المحب .

كان صوت حافظ يسرى فى جمهور سامعيه سريان الكهرباء فى أسلاكها ، وكان حافظ يسرهم بهذا الصوت ، ويأخذ عليهم مشاعرهم ، ويلعب بأفئدتهم ، يستخفهم تارة ، ويحزنهم تارة أخرى ، ويثير نفوسهم مرة ، ويبعث فيهم

(١) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

الهدوء والرضا مرة أخرى . يقول المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى :

« ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتاً جهيراً فخماً رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزاً ، ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات »[1] !

ولذلك كان الناس يحبونه ، ويسرعون إلى مجلسه والإصغاء إليه .

رحم الله حافظا ، فقد كان شعره صدى لأفراح الأمة وأحزانها ، وقيثارة رددت آمال الشرق العربى ؛ رحمه الله فقد كان صورة صادقة لنفوس المصريين ، وقد استحق بجدارة أن يكون شاعر النيل الذى يبكيه ويحزن عليه .

عبد المنعم عمارة — أسرة الشباب بعين شمس

(١) فى المرآة المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى صفحة ١٢٠ .

٢ - الحروف اللاتينية وإصلاح الكتابة العربية

الفرق بين حروف المد والحركات :

يخيل إلينا أننا استطعنا ، فيما تقدم ، أن نثبت بالأدلة الفنية وجوب استبقاء الحروف العربية ، لأنها أصلح من اللاتينية ؛ غير أن المعترض قد يقول : لعل كل الذى ذكرت صحيح ، ولكنك نسيت أن المشكلة الأساسية فى الخط العربى خلوه من الإشارة إلى الحركات فى صلب الكلمة ، وأن الحروف اللاتينية ، بإدخالها صوراً مستقلة للحركات (الفتح والرفع والكسر) تخدم اللغة العربية خدمة تتضاءل معها انتقاداتك الفنية عليها ؛ أو تستخف بشأن هذا الإصلاح ، الذى يجعلنا نقرأ كما نكتب ، ونكتب كما نقرأ ، ويقضى على الأمية المتفشية بيننا ، والتى تؤخر رقينا ؟

كلا ! لا أستخف به ، بل أجله وأعظمه ؛ ولكنى أرى أنه محاولة خاطئة ، سيئة النتيجة ، ودليلى على ذلك التاريخ وعلم اللغات . حتى إذا أتيت بالدليل ، على أن الأمر المنشود من استبدال الحرف اللاتينى بالعربى ، وهو بيان الحركات بحروف معجمة فى أصل الكلمة بعد الحرف أمر تأباه ملكة اللغات السامية ، إنى إذا استطعت ذلك رددت آخر اعتراض للمعترضين . وها أنذا فاعل .

ذلك أن فى اللغات السامية ، كما قرره علماؤها ، إذا أردت أن تضع لمعنى من المعانى لفظاً يدل عليه ، ركبت من الحروف الصامتة Consonnes و من حروف العلة Semi-voyelles أو من حروف المد Voyelles كلمة أصبحت مصدراً لهذا المعنى ؛ ويخرج عن هذا المصدر اشتقاقات كثيرة تدل على حالات زمنية أو شكلية لهذا المعنى ؛ ولكن هذه الاشتقاقات تحافظ على حروف المصدر وتدل على معناه . قال كاهن Cahen : « إن أصل الكلمة فى اللغات السامية هو المصدر Racine ، ولكل مصدر عدد من العناصر الأساسية تكوّنه ؛ هذه العناصر هى بصورة عامة الحروف الصامتة ، وقد تكون حروف المد بالتناوب مع حروف العلة أو الحروف الثابتة . والعناصر الأصلية لا تتغير فى الكلمات المشتقة من المصدر ؛ وهى وحدها التى تدل على المعنى المقصود ، فعلا كان أو اسماً . وتظهر الأهمية الخاصة للعناصر المكونة للمصدر ، تظهر عما للكلمة من معنى ، فى الكتابة التى تكتبها اللغات الشامية والسامية ؛ فالأصل أن الحروف الصامتة وحدها هى التى ترسم »[١] . وقال إسرائيل ولفنسون : « إن اللغات السامية تعتمد على الحروف Consonnes وحدها ، ولا تلتفت إلى الأصوات Voyelles بمقدار ما تلتفت إلى الحروف ، ولذلك لم يوجد بين الحروف علامات للأصوات كما هى الحال فى اللغات الآرية[٢] » .

ألا ترى من أقوال العلماء ، أنه لم يدل على الحركات بإشارة فى أصل الكلمة السامية بعد الحرف ، لأنها لا تعد أصلا من أصول الكلمة ، أو عنصراً من عناصرها ، وأن ما يعد أصلا فيها هو الحرف ، أما الحركة فليست حرفاً عندهم ، ولا يمكن أن تدخل فى صلب الكلمة كحرف مستقل ، حتى إذا دخلت ، خالف ذلك معيار اللغة وأصل وضعها ؟!

قد يبدو هذا الكلام علمياً نظرياً بعيداً فى نتائجه التطبيقية ، إلا عن أفهام أصحاب الإختصاص فى علم اللغات ؛ ويعز على ألا تقرب نتائجه إلى أفهام الجمهور ، وذلك

(١) Les Langues du monde ص ٨٥ .

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ١٤ وانظر عن أهمية الحروف فى اللغات السامية Les Langues du monde, 97, 117 Renan — Histoire générale des langues semitiques — Paris — Calmann I, 436 — الخط العربى مزاياه وعيوبه لدكتور عبدالوهاب عزام الثقافة ٩/٢٧٥ .

بيان من الفرق بين الحركة والحرف فى اللغات السامية ، وهى تأبى المماثلة بينهما . ومع أن هذا البيان يقتضى لتتبعه إجهـاد الفكر ، آثرت إيراده لعظيم فائدته فى الدلالة على ما أقول . وقد اجتهدت فى تبسيطه فوجدت نحاة العرب قد فطنوا للفرق بين الحركة وحرف المد حين سموا الفتح والضم والكسر حركات ، فوصفوا الحروف بها ، فقالوا حركة الكاف من كُتِبَ الضم ، وحركة التاء الكسر ، وحركة الباء الفتح ؛ ثم وصفوا حركات هذه الكلمة وصفاً آخر ، فقالوا بضم الكاف ، وكسر التاء وفتح الباء . فالحركة عندهم هى صفة للحرف لا إضافة إليه ؛ بل قال علماء القراءات : « إن الحركة عرض تحل الحرف[1] » ، بمعنى أنه ينطوى عليها ، أو هى تمتزج به .

أما الألف والواو والياء الممدودة ، فقد سميت حروف المد ، وأدخلوها بالحروف الأبجدية لأنها كالحرف ، لها صوت خاص بها . ذلك ما أدركه واضعو النحو العربى ، وما اصطلحوا عليه ؛ فوافقوا به ما ذكره علماء اللغات السامية ، ودلوا على أن الأصل عندهم هو الحرف ، وأن الحركة صفة له لا تستقل عنه ، بل تحله فتطبعه بنغمتها الخاصـة ، ويتصف بتلك النغمة أو بتلك الحركة على تعبيرهم . وأرى لكلامهم تأييداً آخر فى كيفية النطق بالحركة . وقد اختلفوا فى نطق الحركة ، هل يقع قبل نطق الحرف أو معه أو بعده[2] ؛ فقال بعضهم تنطق الحركة قبل الحرف ؛ وقال ابن جنى بعده ؛ وقال أبو على الفـارسى وعبد القاهر الجرجانى وأبو حيان وأبو البقاء إنها معه . وأرى أن لكل من هذه الآراء اعتباراً يصوبها بعض التصويب . وبيان ذلك أن الحركة ، وهى فى ذلك تشابه

(١) شرح الجزرية للأنصارى /ظاهرية/ قراءة ٢٨ ، ٢٣ .

(٢) انظر اختلافهم فى سر الصناعة لابن جنى ظاهرية نحو ١٦٨ ، ١٤' — ١٦' ؛ وشرح الجرجانى للإيضاح لأبى على الفارسى ، ظاهرية نحو ٣٥٤ ، ٤٣٦' — ٤٣٧' ، وهمع الهوامع للسيوطى ، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ ، ١٩/١ .

حرف المد ، تحدث من أشياء ثلاثة : من الهواء الذى يخرج من الحلق ، ثم من إطباق اللسان على الهواء بشكل ما ، ثم من إطباق الشفتين عليه بشكل آخر ، أما الحروف الصامتة المتحركة فهى محتاجة إلى هواء الحركة ليحمل صوتها . فإذا اعتبرنا مكان النطق أقصى الحلق ، كان هواء الحركة حادثاً قبل الحرف الصامت ، فجاز جوازاً ما القول بأن الحركة تحدث قبل الحرف . على أن هذا الهواء لا يحدث أثراً إلا بعـد أن يتكوّن الحرف الصامت ، فيدع المجال للهواء بالانطلاق ، ومنه وجب القول بأن الحرف يحدثه الحركة . ثم إن الهواء يحمل صوت الحرف الصامت ، يتلوه مباشرة وقبل انتهاء حدوث هـذا الحرف ، شكل انطباع اللسان بالحركة ، فيخرج الهواء من الفم وتجرى عليه الشفتان أثرها بشكل الحركة ، فيظهر مزيج من ذلك ينطلق خارج مجموعة أعضاء النطق ، وهذا المزيج يجيز القول بأن الحركة تنطق مع الحرف .

كذلك يُوفَّق بين الآراء المتناقضة . غير أنه لا شك فى أن صفة خروج الحركة مع الحرف هى التى تطرق أذن السامع فتقترن عنده الحركة بالحرف ويتصف هنا بهـا ؛ وهذا ما قصده علماء العربية من قولهم إن الحركة تحل الحرف . وهذا ما لعلهم قصدوه بمـا قاله برهان الدين الجعبرى فى قصيدته النونية[1] .

والحرف سابق شكله أو بعده وهيا وقول الحق مقترنان

هـذا إذا عنى باقترانهما خروج الحركة من الفم وقد امتزجت بالحرف .

وترى علم الصوتيات Phonetique يؤيد ما ذهبنا إليه ، فيثبت بالتجربة امتزاج الحرف الصامت ببداية حرف المد ، وهو ما يعـادل الحركة فى النطق العربى . قال روسلو Rousselot : « لقد حـكم بأن بعض الحروف وهى (الصامتة) لا يمكن نطقها إلا بمساعدة المد Voyelles . وهناك شعوب

(١) عقود الجمان فى تجويد القرآن ظاهرية قراءة ٥٤ ، ١٦ .

لا تستطيع أن تخرج حرفين متتابعين دون أن تقحم بينهما صوت مد . ويختلط حدوث الحرفين (الصامت وحرف المد) حتى يقترن إطلاق Détente أحدهما ببداية الآخر أو بتقلصه Tension ... والاتحاد بين الحرف والمد أقل في الأحرف الحلقية Aspirés منه في غيرها ، على أنه في الأحرف غير الحلقية يصل إلى درجة من الوحدة ، تتغير معها الصورة الأساسية للحرف الصامت فلفظ الألف (a) مثلا تأخذ الأعضاء (أي اللسان والشفتان) الوضع المطلوب ومخرج الألف . أما النطق بـ(pa) فإن الشفتين تأخذان أولاً وضعية الـ(پ) ، وحين تنفرجان يسمع صوت الألف[1] .

وإذا حدث الحرف الصامت وحرف المد من أعضاء مختلفة ، تهيأت الأعضاء لنطقهما بآن واحد ، ... فيندغم المد في الحرف والعكس بالعكس »[2] . وقد ذكر هذا العالم في فصول مختلفة من كتابه اقتران المد بأصناف الحروف ؛ فذكر مثلا إدغام الفاء بالألف ، وقال بصددها : « يظهر إذن أن هنالك امتزاجا حقيقياً بين صوت الحرف والمد[3] » ؛ وذكر بصدد السين والألف ما يأتي : « ويبدو واضحاً كل الوضوح من تسجيل الصوت اقتران الحرف بالمد[4] » ؛ وقال بصدد آخر : « يوجد كما رأيت انتقال تجانبي لا شبهة فيه بين الحرف والمد[5] » ، ثم يقول : « إن الأمر الذي يتبادله المد والحرف المجاور أمر عام[6] » والذي يؤخذ من بحثه عن امتزاجهما حين النطق أن المد يمتزج بالحرف الصامت حين إطلاق هذا الحرف ؛ والإطلاق[7] detente هو الحين الذي يخرج فيه صوت معظم الحروف الصامتة ، ويتدفق فيه صوت بعضها الآخر . ويتضح من كلامه أن الحروف

(1) Principes de phonétique expérimentale, Paris Didier, p. 937.

(٢) المصدر السابق ص ٩٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣٤ .

(٥) ص ٤٣١ . (٦) ص ٩٤٣ .

(٧) ص ٣٧٠ و ٣٣٨ ، وقد أفرد بحثاً خاصاً لامتزاج =

يقترن أكثر نطقها ببعض وقت حدوثها (وهو آخرها دوماً وحيناً منتصفها وآخرها معاً) بوقت حدوث أول حرف المد . وأول حرف المد أليس هو الحركة[1] في اللغة العربية ؟ بل الأمر أقوى دلالة من هذا ، فأية حاجة تدعو اللغات السامية إلى التمييز بين الحركة والمد تمييزاً رأينا أثره ، مع أنهما في النطق من أصل واحد ومن طبيعة واحدة ؟ أليس إدغام المد بالحرف الصامت هو الذي يعطي للحركة كيانها فيميزها عن المد ويحدد مكانها منه ؟!

والخلاصة أن الحركة تندغم في الحروف الصامتة ، فهي ممزوجة ومقترنة بها ؛ أما حرف المد فيتبعها وإن لم ينفصل عنها . وبيان ذلك في النطق أن اللسان والشفتين تحتفظ بوضعها ، بعد نطق الحرف وحركته ، فتهتز الحبال الصوتية ، وينقل هذا الاهتزاز من الصدر دون انفصال بقية هواء الحركة ، فيحدث حرف المد .

ونرى العروضيين — وهم الثقة في موسيقى اللفظ وإيقاع الحروف — يثبتون الفرق بين الحركة والمد ، فيميزون في أوزان الشعر بين شيئين مختلفين لا ثالث لهما . قال ابن عبد ربه[2] : « اعلم أن أول ما ينبغي لصاحب العروض أن يبتدئ به معرفة الساكن والمتحرك ؛ فإن الكلام لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحركاً » . ألا ترى أن العروضيين لم يفرقوا بين الحرف وحركته ؟! كلا بل ميزوا الحركة من حرف المد الذي يتبعها ، فعدوا حرف المد ، كما نعلم ، حرفاً ساكنا يتبع متحركا . كذلك تبين أن

= الحركة بالحرف ص ٣٧٠ فما بعدها ، ولامتزاج الحرف بالحركة ص ٣٣٩ — ٣٤٢ .

(١) قال ابن سينا : اعلم يقينا أن الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة ، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف ؛ وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة والياء المصوتة إلى الكسرة. (أسباب حدوث الحروف طبعة ١٣٣٢ ، ص ١٤) .

(٢) العقد الفريد ، مصر ، المط. العامرة سنة ١٢٩٣ ، ١٨٨/٣ .

٢ - حقوق المرأة

على أنه مضت قرون بعد بابل وروما ، وقرون أخرى بعد الإسلام أسيء فيها إلى المرأة أكثر مما أسامت . وقد هُضمت حقوق المرأة في الغرب ، كما هضمت هذه الحقوق في الشرق ؛ فقد لقيت في الغرب ضروبا من الغبن نزلت فيها إلى الموضع الأدنى من درجات المجتمع . كانت المرأة في عصور الإقطاع لازمة من لازمات الإقطاع نفسه ، وكانت العلاقة بينها وبين سيد الإقطاع علاقة مادية محضة . واختلفت دنيا النساء عن دنيا الرجال اختلافا سحيقا ، حتى غدت المرأة إما سيدة سكنت القصر ، أو ساحرة سكنت الكوخ ، أو عذراء سكنت الدير . أما حقوق المرأة فقد كانت مضيعة بين سلطة الكنيسة ، وسلطة البابا ، وسلطة رب الإقطاع .

كذلك عبرت قرون على الشرق الإسلامي نزلت فيها المرأة إلى المكان الوضيع ؛ لأن الحرب كانت من بين النظم الاجتماعية التي قامت عليها معظم الهيئات الإسلامية ، ولأن كثيراً من الشرقيين أحلوا لأنفسهم التسري واتخاذ الجواري ، ولأن الترف طغى على الكثير منهم فمالوا إلى اللهو بالمرأة ، ولأن الحياة الفكرية العامة انحطت في بعض الأحيان ، وأغلق باب الاجتهاد . وتشبث الناس ببعض الذرائع الفقهية الواهية ، فأساءوا في استعمال الشريعة ، وأفرطوا في تعدد الزوجات والطلاق والتحجب ، وآمنوا بالأوهام والخرافات .

والفرق بين الغرب وبين الشرق في ذلك لم يكن إلا فرق وقت فحسب ، فقد بدأت تنجاب هذه الظلمات عن الغرب في مبدأ القرن السادس عشر ، أي حين كانت النهضة الأوروبية في إبانها ، لكنها لم تبدأ تنجاب عن الشرق إلا في القرن التاسع عشر . فلا تصدقن ما يقوله البعض من أن الدين في الشرق هو الذي نزل بالمرأة إلى منزلها هذا ، فقد أسيء إلى الدين في الغرب مثل ما أسيء إليه في الشرق ، وقد ظهرت في الغرب نفس السيئات التي ظهرت في الشرق . كان هناك الفسق والفجور ؛ وكان هنا الرق وتعدد الزوجات . كان هناك الانفصال الشرعي لأوهى الأسباب ؛ وكان هنا الطلاق . وكان هناك إهمال شئون المرأة واستعبادها ؛ وكان هنا الحجاب . لكن أوروبا نهضت كما قلنا في القرن السادس عشر وما يليه ، أما نحن فلم ننهض إلا منذ قرن من الزمان . والاختلاف بين نظمنا الاجتماعية ونظمهم واضح إذا قدرنا ثلاثة القرون التي تفصل بين نهضتهم ونهضتنا .

* * *

لم تبلغ المرأة الأوروبية حقوقها كاملة إلا في أعقاب القرن التاسع عشر . وقد كانت الثورة الفرنسية موجهة إلى

الحركة ليست أصلا في الكلمة العربية مستقلا ، بل هي متصلة بالحرف الصامت تحله وتتصف بها . وهذا تأييد لما ذكره علماء اللغات السامية من أن الأصل في هذه اللغات الحروف الصامتة ، وحروف العلة التي تتصف بضروب من الحركة والسكون ، ينجم عنها حالات متعددة من المعنى الأصلي للكلمة ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تدخل الحركة أصلا في المصدر(١) ، لأنها ملازمة للحرف ، لا شأن لها إلا به ، ولا استقلال لها عنه .

وبعد ، فكيف يجوز أن يوضع لها رسم بعد الحرف ، يدل على أنها مستقلة عنه ؟! وكيف يجوز أن تصبح حرفاً ، وهي صفة من صفات الحرف ، ليس لها وجود إلا به ؟! وكيف يجوز أن نرسم لها إشارة بعد الحرف ، وهي لا تلفظ بعده ، بل معه ؟!

(يتبع) يوسف العش

(١) وقد يدخل على حروف المصدر الأصلية حروف إضافية يجمعها قولهم « اليوم تنساه » فينتج حالات من المعنى الأصلي للكلمة ، وهذا لا يعارض ما نحن بصدده .

المساواة ، لكنها كانت تنصب على المساواة بين الرجل والرجل ، لا على المساواة بين الرجل والمرأة . وقد بدأت قصة الحياة السياسية في القرن التاسع عشر بمنح الرجل هذه المساواة السياسية . ومازال هذا المبدأ يغزو الحكومات والممالك ، حتى شمل كثيراً من الطبقات ؛ فمنحت الطبقة الوسطى أولا نفس الحقوق التي كانت للطبقة الحاكمة ، ثم منحت بعض الطبقات الدنيا حقوقاً أخرى ما زالت تمتد وتمتد حتى شملت جميع طبقات المجتمع ما عدا النساء . وهنا قامت بين النساء حركات بلغت في أحيان مبلغ الثورة ، كان من أهدافها أن تبلغ المرأة حقوق الرجل ، وأن تكون مساوية له في كل شيء : في حقوقه السياسية ، وفي حقوقه المدنية والاقتصادية والاجتماعية .

حقاً لقد كانت المرأة في أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها من الممالك الحديثة في حال أحسن من حال المرأة في أوروبا من جهة المساواة السياسية . لقد هاجر إلى هذه الممالك كثير من الأوروبيين ونزلوها مستعمرين . وقد تركت المرأة شئون العمل العنيف للرجل ، لكنها احتفظت بموضع سام من حيث التحضر والتثقف والتعلم .

لذلك كان لها في هذه الأقطار الجديدة شأن لا يقل عن شأن الرجل ، ولذلك استطاعت المرأة في مقاطعة ومنج بأمريكا أن تتساوى والرجل في حق التوظف في سنة ١٨٦٥ . كان هذا شأن المرأة في أمريكا ؛ لكن المرأة في فرنسا ظلت في مكانها حتى أوائل القرن العشرين ؛ أما المرأة الإنجليزية فإنها لم تُعط حق الانتخاب إلا في سنة ١٩٢٨ . وقد كانت الحركة النسائية في أوروبا عاملة مجاهدة طول القرن التاسع عشر ، لأن حقوق المرأة قد أُنكرت عليها ، ولأن المساواة بينها وبين الرجل كانت حلماً من الأحلام يهزأ به رجال السياسة ، ويتخيله بعض الفلاسفة ، ولا يجرؤون على الجهر به .

وقد ساءت حال المرأة في أوروبا حين أقبل عليها عصر الانقلاب الصناعي . فقد كانت النساء قبل ذلك يشتغلن في منازلهن الخاصة ، لكن الآلات الجديدة لم تترك لهن فرصة للعمل القليل الذي كان يدرّ عليهن بعض المال . لذلك زايلت هذه المهن الضئيلة التي كان يمارسها النساء . وخرجت صناعات ضخمة لم تكن النساء فيها إلا إماء يستعبدهن صاحب العمل . كان النساء يقضين أوقاتهن في بطن الأرض يجررن عجلات ويمشين على أربع ، وكان بعضهن يقضين أيامهن ولياليهن على المناسج والمغازل ويتعرضن لخطر الموت ؛ ثم كن بعد ذلك ينلن أجورهن الضئيلة فيأخذها الآباء أو الأزواج قسراً ، لأن المرأة المتزوجة لم تكن تستطيع أن تدعي ملكية شيء قبل قانون الملكية الذي صدر في سنة ١٨٨٢ .

مثل هذه الحال كانت جديرة بأن تبعث كثيراً من المفكرين على التفكير في شأن تحرير المرأة . وفي الحق لقد وجد المفكرون السياسيون نواة لحقوق المرأة في القانون الروماني ، بل إن القانون الروماني نفسه كان هو المشكاة التي اهتدى بها المشرعون الغربيون خلال القرون الوسطى وفي عصر النهضة . كانت رجعةٌ إلى القانون الروماني وتنشئة لعنصر الاستقلال عند المرأة ؛ كان كل ذلك هو الأصل في تحرير المرأة ، لكن المرأة لم تنل حقوقها إلا بعد جهاد طويل عنيف .

وقد ارتفع أول صوت لنيل حقوق النساء في سنة ١٧٩٢ حينما كتبت ماري ولستونكرافت كتابها « في تبرير حقوق المرأة » . لم يكن للمرأة حين ذاك حق التعلم ولا حق التملك ، ولا حق العمل ، وخرجت ماري ولستونكرافت ، وهي زوجة الفيلسوف جودوين ، بكتابها هذا تبشر بكل هذه الحقوق . كانت تعلم أنها تدافع عن نصف مجموع الأمة ، وكانت تريد أن تنتشل النساء من الدرك الذي نزلن إليه ؛ كانت تريد المرأة أن تكون مساوية للرجل في القانون والسياسة والعمل والتربية

والخلق ، بل لقد كانت تريد أن تساويهـا بالرجل فى حقوق الانتخاب ؛ وكانت متحمسة فى ذلك كل التحمس، متطرفة كل التطرف ، لـكن البيئة التى استقبلت هـذا الـكتاب كانت بيئة محافظة سخرت من هذه الأوهام !

ثم يمضى قرن على هـذا الـكتاب وإذا بالفلسفة السياسية فى إنجلترا تنقلب من محافظة متزمّتة إلى حرة تقمية . بدأ المذهب الديمقراطى يغزو المجتمع الإنجليزى ، فذهب فلاسفة السياسة من أمثال بنتام وجون ستيوارت مل إلى أن لـكل فرد من العقل والتمييز ما يسمح له بممارسة حقوق السياسة ، ولم يستثن النساء من هذا الذى ذهب إليه بنتام وجون ستيوارت مل . بل لقد كتب مل كتاباً عن المرأة بحث فيه أسباب تأخرها وأسباب استعباد الرجل لها ؛ ثم لقـد أخرج كتاباً فى سـنة ١٨٦١ عن « الحـكومات النيابية » ، دافع فيه عن حق النساء فى الانتخابات والتمثيل النيابى ؛ وهو يرى أن المرأة كالرجل تماماً فى اهتمامها بالحـكومة الصالحة ، وأن لـكل امرأة الحق فى إعطاء صوتها حتى تضمن بذلك الانتفاع بمثل هـذه الحـكومات ؛ بل هو يذهب إلى أنه إذا كان هنـاك اختلاف بين المرأة والرجل ، فيجب أن تتقدم المرأةُ الرجلَ إلى الانتخاب ، حيث إنها هى أضعف الاثنين ، وحيث إنها ينبغى أن تعبّر عن رأيها تعبيراً صادقاً . ثم إنه يرى أن المرأة الإنجليزية كانت قد تقدمت بعض التقـدم ، وكانت قد اشتغلت بالتدريس والتمريض ، وأنها لم تصبح كما كانت قبل ذلك عالة على الرجل فى كل شىء ، فهى إذن جديرة بأن تأخذ حقها من حيث الانتخابات .

على أن هذا الرأى الذى ذهب إليه فيلسوف سياسى مثل جون ستيوارت مل ، لم يكن له كبير أثر . لذلك انتقلت الحركة النسائية فى إنجلترة من أيدى الرجال إلى أيدى النسـاء ، وتألف فى سنة ١٩٠٣ اتحاد نسائى تزعمته مسز بنكهرست . وفى سنة ١٩٠٥ تولت الحـكم وزارة الأحرار ، فاتبع النساء وسائل العنف ، لأن الأحرار لم يكونوا أكثر رعاية لمطالبهن من المحافظين ؛ فبدأن فتنة صاخبة ، وتظاهرن فى الشوارع ، وحاولن دخول السجون والإضراب عن الطعام فيها . وظلت هذه الحملة يشهرها النسـاء حتى قامت الحرب الـكبرى الأولى سنة ١٩١٤ ؛ وعند ذلك فقط أعلنت مسز بنكهرست الهدنة ، وخصصت وقتها ووقت النساء فى إنجلترة للعمل الجدى . وحينما تقدم الرجال إلى ساحة القتال تقدم النساء يحملن أعباءهم . وقد عمل النساء فى المزارع وفى المصانع ، وفى صنع الذخائر وسياقة السيارات ؛ وقد برهن النساء فى كل هذه الأعمال على أنهن جديرات بهذه المساواة التى ظللن يطالبن بها نصف قرن أو يزيد . وفى سنة ١٩١٨ مُنح النساء فوق الثلاثين حق الانتخاب ، وفى سنة ١٩٢٨ منحت المرأة الإنجليزية حق الانتخاب المطلق .

* * *

على أنه ينبغى ألا نقف عند هذه الحقوق السياسية ، بل يجب أن نقدر ما وراء هذه الحقوق من الخطوات الواسعة التى اتخذتها المرأة . فقد اتجه القانون الإنجليزى إلى حفظ حقوق المرأة فى علاقاتها الزوجية ؛ فقد أصبح للمرأة المتزوجة الحق فى ملـكية ما تشاء من العقار ، بعد أن كان كل ذلك ملـكا لزوجها ، وقد مُنحت هذا الحق بقانون صدر فى سنة ١٨٨٢ ؛ ثم كان لها حق رعاية أولادها وحضانتهم ، وقد مُنحت هذا الحق فى سنة ١٨٨٦ واتسع حقها فى هذا الشأن سنة ١٩٢٥ . أما من حيث التوظف فقد فتحت لها أبواب الوظائف العـامة ، واستولت النساء على كثير من المراكز فى وزارات الصحة والتربية والبريد . وحينما تألفت مكاتب عصبة الأمم فى سنة ١٩١٩ فتحت وظائفها المرأة والرجل على السواء . وفى سنة ١٩١٩ أيضاً ظهر قانون إنجليزى يسوى بين المرأة وبين الرجل فى الوظائف العامة . وكذلك خرجت

المرأة الإنجليزية من العشرين سنة الأولى من القرن العشرين وقد كسبت كل الحقوق التى فكرت فيها مارى ولستونكرافت وجون ستيوارت مل . وقد أصبح الآن فى مجلس النواب الإنجليزى أربع عشرة عضوة من النساء . وأصبح المرأة فى كل العالم المتمدن هذا المركز الذى أفاد الدول المحاربة فى وقت الحرب ، كما أفادها فى وقت السلم .

***

هذه خلاصة لقصة حقوق المرأة ، وهى قصة كما ترى ذات سياق واحد . وكان الأمر فى أمريكا والبلاد الإسكندينافية أسرع من ذلك بكثير ؛ وكان الأمر فى فرنسا أبطأ من ذلك بقليل . لكن هذه الموجة التى شملت أنحاء العالم المتمدن كان لا بد لها أن تصل إلى الشرق الأدنى . وكان عند الأمم المسلمة تلك الشريعة السمحة التى ضمت فى أصولها كثيرا من حقوق المرأة ، وكان لا بد لهذه الأمم المسلمة أن ترجع إلى هذه الأصول ؛ لذلك قام فقهاء فى الهند مثل سيد أمير على ، وقام فقهاء فى مصر مثل الشيخ محمد عبده ، يشرحون حقوق المرأة فى الإسلام . وإذا كان قاسم أمين قد تشبع بفكرة تحرير المرأة ، فإنما كان ذلك لأنه عاش فى فرنسا ودرس الحياة الفرنسية عن كثب ، ورأى ما منحه النساء هنالك ، وما كان يطالب به النساء ؛ ثم إنه درس حياة المرأة الإنجليزية وحياة أختها الأمريكية ، ثم لم يجد بعد ذلك أن الدين الإسلامى يحول دون كسبها بعض هذه الحقوق .

المنصورة أحمد خاكى

تحية الشاعر

إلى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى

قرأ الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتاب تاريخ مصطفى كامل للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى بك فأعجب بما فيه من أسلوب حسن ، وبحوث دقيقة مستوفاة ، فقال هذه الأبيات الرائعة يحيّي بها المؤلف ، ويجيبه بها على هديته النفيسة ، قال :

كاتبٌ كلُّه وفاءٌ وودٌّ
ملكٌ فى مَظاهرِ الإنسِ يبدُو
ماله فى الثبات قبْلٌ فننميه إليه وماله فيه بَعْدُ
لو تَزولُ الجبالُ ما زالَ عمّا
يرتضِي لم يَزُعْهُ فى الرأى نقدُ
ولو اختار غيره لشتّ فى
إثره من مواكب العز جُنْدُ
غير أن الفتى رأى العز فى الرأ
ى فأمسى فى موكبٍ وهو فردُ
قد تلقّيْتُ من هداياك سِفرًا
فيه عقلٌ فوق العقولِ وجُهدُ
وبيانٌ تُزهَى به لغةُ الضا
دِ وسحرٌ من بابلٍ مستمَدُّ
هاتِ من مصطفى أحاديثَ تُذكى
همماً للشباب إنْ جدَّ جِدُّ
ذَكِّر القوم ما نَسُوا من زعيمٍ
كلُّ عُرْسٍ إلى يَدَيْهِ يُرَدُّ
وَيْحَ شَعْبِ البلاد إن نسىَ العهـ
ـدَ فما بعدَ ذاك للشعب عَهْدُ
ليس يُجْدِى المثال فى الخُلْدِ إن لم
يَكُ للعبقرىِّ فى الشعب خُلْدُ

أحمد الزين

ضحى الإسلام

يباع كل جزء من أجزائه بأربعين قرشا

التمثال النصفي!

لم أكن أدري لماذا كان أصدقائي يكررون بلهجة مبهمة :

لا بد أنك سترتاح في هذه الردهة . إذ لم تكن هذه تختلف في مظهرها عن بقية الردهات ، فهنا وهناك مرضى شاحبون ، تصعد أناتهم الخافتة ببطء ، أو تتحرك أطرافهم بملل وإعياء بحثاً عن الأشياء القريبة إليهم .

وكان إلى جوار سريري عجوز طاعن في السن ، تهتز لحيته البيضاء كلما حرك فمه المريض يطلب من الطلبات الكثيرة ، التي لا ينفك يلح في إنجازها عاجلاً !

وجاء الليل ... وكان ليلاً ساجياً .. ندى النسمات . وكان الشباك المفتوح قليلاً يشرف على حديقة برتقال تبعث بروائح زكية ، وتوحى للنفس مشاعر جمة للتأمل والأحلام . . . أما أنا فلم أكن مهيئاً لتلك الحياة الشعرية التي تحف الردهة بجمال طبيعي أخاذ . . . !

انتبهت في منتصف الليل على لمسة خفيفة في جبيني الندى بالعرق البارد ، ونظرت إلى صاحبة اليد التي كانت لا تزال مثبتة على مقربة من فودى . . .

كانت فتاة ناهدة رشيقة بيضاء ، ذات عينين سوداوين ، لم أر في حياتي أكثر منهما صفاء ولمعانا ... وكانت أهدابها وطفاء مسترخية ، وعلى فمها ظل من الألم والأنزعاج . قلت لها وأنا أتطلع إليها :

أرجو ألا أكون أزعجتك . . . ليس بي الآن من شيء . . . فقالت بصوت هادئ النبرة — . . . لا . . . إن هذا واجبي . . ألا تشعر بشيء من الجوع ؟ . .

ثم تركتني مسرعة ، فوجدت بعد دقائق إناء جميلاً فيه فاكهة طرية ذات عبق وكوباً من الحليب ! . . .

إذن فقد أخذت أدرك لم كان أصدقائي يقولون بأني سأرتاح في هذه الردهة . . . وهكذا عرفت فيما بعد أني أعيش في ظل أجمل فتاة في المستشفى ، إن لم تكن أجمل فتاة في البلد . . .

***

جلست في ظل شجرة برتقال عتيقة ذات خضرة داكنة ، أتطلع إلى عش صغير فيه حمامة تنوح ... عندما جاءت «ماتيلدا» تقول : — أأنت هنا ؟ .. قلت : أجل ! إن المساء يطيب لي ، وهذه الحيلة الساذجة تهبني شعوراً جميلاً بحب الطبيعة . فقالت ببشاشة غير معتادة — والمرأة ؟ قلت : مع احترامي لك لا أضمر لها شيئاً كثيراً من الحب . . .

فاتكأت على الشجرة المقابلة وقالت بجد صارم : — ومع احترامي لك أيضاً أقول إني أكره الرجال ، ويؤسفني أن أقول هذا بعد إبداء رأيك ، ولا بد أنك ستظن أني أرد الضربة إليك دفاعا عن جنسي . . ثم أردفت تقول :

— هذه آرائي من قبل ، إني أكره الرجال لأنهم وحوش ، وأكره من وهبني هذا الجمال الذي أصبح حمله لا يطاق . كم كنت أود لو أني فتاة عادية الجمال فأتخلص من تلك الأعين الشرهة التي تطاردني في كل مكان . . .

الكل ينظر في بإعجاب ، ويمد يده مصافحاً ، ويقترب مني ويبتسم لي ، حتى أولئك الحمقى الذين يجودون بأنفاسهم على فراش الموت ! . . . وإني لا أعلم لماذا يفعلون ذلك !

وتوطدت بيننا صداقة عميقة واحترام متبادل على عكس ما كنا نأمل ... ومرت الأيام في أعقاب بعض ، حتى دنا اليوم الذي كان على أن أغادر المستشفى فيه . . . وكان وداع وتهنئة ، وكان أمل إلى لقاء قريب في أول فرصة أعود فيها إلى العاصمة ! . . .

***

أثقلتني شواغل الحياة كثيراً ، فلم أذكر الممرضة الحسناء، بردائها الأبيض، وقامتها المزدهرة المديدة ، وبسمتها الخفيفة على شفتين حمراوين بدون طلاء . . . حتى ذكرني

بها كتاب قصير يقول : « أظنك قد نسيت الفتاة التي تكره الرجال !... عُد إليّ فقد أصبحت أحبهم ، إني أنتظرك لأني بحاجة شديدة إليك » .

« الحزينة ماتيلدا »

* * *

تلقاني من الداخل صوت حزين ... صوت ماتيلدا بجرْسه الهادئ ، ولكني سمعت في ذلك الصوت الرخيم نبرة الحزن العميق واليأس القيم ... وصعدت السلم إلى غرفتها ، وهي غرفة أنيقة تصعد في جوها عطور من زهور جديدة في أوان من البلور الأبيض المزخرف ... ووجدت هناك تمثالا نصفياً جميلا لماتيلدا ... تمثالا صادقاً لتلك النظرة الصافية العميقة ، والبسمة الخفيفة الطارئة ، وقد وضع على شعرها المسترسل ورد أحمر من ورود القرنفل القاني ، وبدا نهدها البض بارزاً قليلا إلى الأمام ، ثم سمعت صوتها الحزين المبغوم ! ... :

— لقد نسيتني ... إنك الرجل الذي كنت أحسبه لا يطارد جمالي ... ولا أدري هل أنت كذلك الآن ؟ كان الصوت يأتي من وراء السجف حزيناً دامياً فيه أنة محرقة ، فقلت مذهولا مما أرى :

— ماتيلدا !... إنك تعرفين شعوري تجاهك ... أو تريدين عهداً جديداً من عهود الصداقة ؟... قالت :

— لا أشك في ذلك ، ولكن هل أنت واثق من أنك لم تحب جمالي ؟ قلت وأنا أخفف لوعتها :

— إني واثق تماما ؛ فلا يداخلك الشك في هذه الأمور ...

عند ذاك أزاحت السجف ودنت نحوي بخطوات مترنحة ... ووقفت مذهولا من الهول ، فماذا أبصرت !!

لقد تغير كل شيء في ماتيلدا ، عدا شعرها الأشقر الحريري فقد ظل يترجرج منثوراً على كتفيها ؛ أما وجهها فقد تشوه بشكل محزن مخيف ... فالشفة ذابلة صفراء مخدشة ، والأنف الأنيق الأشم ما كول محفور ...

قلت وأنا أكسب صوتي عدم المبالاة : — أرجو أن تكوني بصحة . فقالت حزينة متعبة : ولكن روحي مريضة تموت ... لقد فقدت الشيء الذي كنت منزعجة منه ، ولكني فقدت بذلك كل شيء ... لقد ذهب جمالي ... لقد تشوه كله ، فلا تنظر إلى وجهي بل انظر تمثالي ... إنه يذكرك بعز ذلك الجمال الذي أظنه قد تبخر من خيالك من بعيد ...

وعند ما قلت لها كيف حصل لك ذلك ؟ .. ذهبت تعدو وراء السجف وهي تقول : — سل أمي ... إني لا أطيق أن أكون معك في غرفة واحدة ...

فهبطت أودع أمها لأسمع صوتها الناحب يقول : ستموت .. وهذا مؤكد ! إن الكمد يمزقها تمزيقاً .. فليتها لم تقم في ذلك اليوم المشؤوم بإشعال وابور النار الذي التهب بوجهها ، وشوه ذلك الجمال النادر ... كل هذا التشويه ! .

وبعد شهرين قرأت في الصحف أنها ماتت ، ولا بد أنها ماتت كمداً على جمالها المفقود كما قالت أمها من قبل ...

جدة — عبد الحميد الطفي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة أشهر	م	في مصر والسودان
	٣٧,٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١٥ مليما

الأستاذ عبد الرحمن بدوى وكتبه

للأستاذ عبد الرحمن بدوى أكثر من كتاب . خرج له هذا العام ثلاثة من الكتب أو القصص المترجمة ، هى حلقات من سلسلة اختار « الروائع » عنواناً لها ، وتلخيصا لفكرتها . وله فى العامين السابقين مجموعة من الكتب ينتظمها اسم آخر يلخص فكرتها ويبرز وحدتها ، هو : « خلاصة الفكر الأوروبى » .

والأستاذ عبد الرحمن بدوى فى هذه السلسلة ، أو فى تلك ، أو فيما ينشره من مقالات ، أو فيما ينشره على سامعيه من آراء ، أو فيما يعتزمه من مشاريع ، يمثل قلق الذهن المصرى الشاب فى هذه الأيام — وهذا الإنتاج الغزير المتدفق ، الذى كان يمكن أن يكون ثمرة عمر طويل مبذول فى التفكير والاطلاع والتأمل ، ليس إلا صورة من صور هذا القلق .

ولا أحسب أن القارئ غاب عنه المعنى الذى أقصده من كلمة « القلق » ، فلست أقصد الحيرة والاضطراب ، ولا البعد عن الهدف الواضح وتمثله ، والسعى وراءه والعمل على تحقيقه ؛ فعبد الرحمن يعرف جيداً ماذا يريد ، ويحب هذا الذى يريده ويكرره لنفسه ، ويقوله لصحبه ، ويكتبه نظما حينا قليلا ، ونثرا أكثر الأحيان ؛ ولكنه يرى أن الذى يفكر فيه ويراه جديرا بالتحقيق (والتجسيد) ، لا يزال بعيدا جدا فى بلده ؛ ولا يزال يرى مواطنيه الذين يحبهم لا يفكرون فيه ولا يعملون له ، ولا يبذلون فى سبيله ما يبذل ، فلا يعجبه هذا كله ، وبناله غضب كان حريا أن يخرجه عن هدوئه وزمته ، وأن يطلقه إلى عمل عنيف . ولكنه مفكر وصاحب فلسفة ، وهو أيضا صاحب قلم وقارئ كتب ؛ وإرادة العمل عند المفكرين تتحول إلى نظرية يبسطونها للناس ، ويناقشون عنها ، ويفرجون بذلك عن الرغبة فى القتال المكبوتة المحبوسة ، أو إلى عالم ينشئه الخيال تعويضا عن دنيا الحقائق المؤلمة الكريهة .

***

والأستاذ عبد الرحمن بدوى نفسه فى مقدمة كتاب « ديوان شرقى لمؤلف غربى » للشاعر الألمانى « جيته » يقول — فيما حفز جيته إلى نظم هذا الديوان :

« كان جيته يعانى حينئذ حالة نفسية عنيفة ، وصفها »
« هو نفسه بهذا الوصف حيث قال : « شعرت شعوراً »
« عميقاً بوجوب الفرار من عالم الواقع الملىء بالأخطار »
« التى تهدده من كل جانب فى السر وفى العلانية . لكى »
« أحيا فى عالم خيالى مثالى ، أنعم فيه بما شئت من الملاذ »
والأحلام بالقدر الذى تحتمله قواى ... » .

ويرى الأستاذ بدوى أن (جيته) ليس فريدا فى هذا الفرار الروحى ، وهذا صحيح ؛ فكل أديب ، بل كل إنسان يخلق لنفسه دنيا يهرب إليها ، وليست أحلام اليقظة إلا الفرار من الحياة المادية بوجهها الكريه ، وبما انطوت عليه من فشل مؤلم ، وبما تمخضت عنه من صراع ص وجراحات دامية ، ومهانات أقسى على النفس من قطع السيوف . . . وللكاتب الألمانى الإسرائيلى ستيفان زفايج نظرية ساقها وهو يتكلم عن تلستوى الكاتب الروسى العظيم :

« وكانت وثبة تلستوى نحو الإيمان بالله أقصر من »
« أن توصله إلى غايته ، ولكن للفنان الذى يعجز عن »
« عبور خليج ، سبيل آخر يستعين به على تحقيق غرضه »
« — فهو يعرض على الناس جميعا (حاجته) فيجعل من »
« هذه الحاجة (الخاصة) أمراً عاماً . على هذا النهج ارتقى »
« تلستوى بصيحة فزعة (ماذا سيصيبنى ؟) إلى التساؤل »
«(ماذا سيصيبنا جميعا ؟) . ولما عجز عن إقناع نفسه بالجواب»
« حاول تعزية نفسه بإقناع الآخرين . ولما عجز من تغيير »

« حياته ونفسه ، سعى فى تغيير حياة الآخرين . وهذا »
« كان دائما المعين الأول لكل دين . فتلك المحاولات »
« العظيمة فى هداية الناس وإصلاحهم كانت تنبعث دائما »
« من رغبة الذين قاموا بها (فى القرار من أنفسهم) ، فالنفس »
« التى تداولتها أيدى العواصف تبحث عن راحتها من »
« المشكلة التى يعذبها البحث عن حلها بجعلها شاملة عامة ، »
« وبذا يتحول القلق الشخصى إلى قلق إنسانى . . . . »

وزفايج فى هذا يغلو غلوا فاحشاً ، فهو يرى أن كل رسول — رسول فكرة أو رسول عقيدة — يدعو الناس دائما إلى الإيمان بما عجز من الإيمان هو به ، أو قل — تلطفا — إن كل رسول تصادفه مشكلة ويعييه حلها ، يبسطها على العالمين ، ويدعوهم إلى حلها وإلى التفكير فيها ، ولكن صيغة الدعوة تحمل عادة فى ألفاظها ما يوهم أن الداعى قد عرف الحل ، وأحاط بالمسألة ، وأنه يهدى إليه من يثق به ، ويسير وراءه .

وقد يصدق هذا على بعض المفكرين دون عمومهم ، فتلستوى حينما دعا إلى عدم العنف ، وحينما دعا إلى إنكار نظام الحكومة ، وإلى وجوب استبدال قانون الحب بها والعمل بموعظة الجبل التى ألقاها المسيح على تلاميذه ، وحينما دعا إلى إنكار الملكية وإلى التخلى عنها ، حينما هاجم السجون والمحاكم وسك النقود ، لم يفعل ذلك لأنه اهتدى إلى ما بعد هذا الإنكار وهذه الهاجمة من نظام واضح مرسوم يحدد علائق الناس ويرتبها ، وإنما لأنه أحس أن الملكية والفقر والغنى وانتفاء المساواة بين الناس مشكلة جديرة بأن تحل ، وجديرة بأن تستنفد من الوقت والجهد ما تستنفده بقية مشاكل الناس ومسائلهم ؛ فإيمانه ينبعث من هذا ويستند إليه ، ينبعث من أنه رأى أن لا مناص من مواجهة هذه المشكلة ، وأن كل أمل فى سعادة البشر بغير حلها سراب . .

***

على أننا لا يجمل بنا أن يطول بنا الاستطراد حتى نبعد عن جيتة ، وعن عبد الرحمن بدوى ، فجيته فى رأى عبد الرحمن لاذ بالشرق ، لأن الغرب فى ذلك الحين لم يكن يرضى جيته ، ولم يكن يعجبه ، فنسج لنفسه صورة للشرق أحبها ، وحسب نفسه قد رحل إلى هذا الشرق الهادى ، فاطمأنت نفسه إلى هذا الخيال السعيد . . .

وما فعل جيته منذ أكثر من مائة سنة يعمله عبد الرحمن بدوى ، ويعمله كل شاب مصرى ، بل كل شاب شرقى . فنحن لا يعجبنا الشرق ، فينسج كل منا صورة لبلاده من خيوط يختارها لنفسه ، ويعيش فى ظل هذه الصورة سعيدا فترة من الزمان ، ثم يستيقظ لحقيقة التى تدعوه إلى حياة كل يوم ، وإلى السعى ، وإلى النزول على حد الواقع .

والخيوط التى ينسج منها الشباب المصريون دنيا خيالهم كثيرة ؛ فمنهم من يعيش فى صدر الإسلام ويحسبه أسمى وأعلى ما تصبو إليه مصر ، وهو إذا خرج من حلمه وعاد إلى وعيه وأفاق ، وجد نفسه مضطرا إلى اصطناع أمور لا تتصل بالإسلام ، ولكنها تفرج من الأمل المكبوت ، فهو يحرص على إطلاق لحيته مثلا ، أو يكتب التاريخ الهجرى دون الميلادى ، أو يلح فى مطالعة كتب يختارها ، ويتوفر عليها بحثاً وشرحاً واقتباساً وتعليقاً .

ومنهم من يجد الراحة فى عهد من عهود العرب ، دون أن يهمه كثيراً الطابع الإسلامى ، إنما يشغله الطابع العرقى ، لأن الجانب الدينى أقل شأناً عنده من الاعتبار السياسى . وثالث يرى هذا كله عبثاً ويعد التراث الإسلامى والعرقى حطاماً تخلف عن الزمن القديم ، وأن الدنيا التى يجب أن نسعى إليها وأن نعيش فيها هى دنيا الكهرباء والكيمياء ، ودنيا الحرية والمساواة الاقتصادية ، دنيا الاشتراكية أو النازية أو الشيوعية . وأن العقل الجدير بأن يدرس هو العقل الأوربى الحديث .

وليست الغاية من هذا المقال المفاضلة بين هذه الأحلام الجميلة، بل لم يكن القصد النص عليها، وإنمـا أدى القول والاستطراد إلى الإشارة إليها، تعليقا على ما يقوله الأستاذ عبد الرحمن بدوى فى صدد تعلق جيته بأحلامه الشرقية .

* * *

والديوان الشرقى لمؤلف غربى ، فى رأى الأستاذ عبد الرحمن بدوى ، هو وقصة حاثر بائر لأيشندروف ، وقصة أوندين لفوكيه «من روائع الأدب الغربى — وقد عرّف هذه الروائع وحدد سماتها المميزة بقوله :

« كان لها من خطير الأثر فى تطور أوروبا الروحى »
« وخلق تيارات فكرية جديدة ، وإشاعة قيم خالقة لم تكن »
« معروفة من قبـل . وبإيجاز راعينا فى اصطفائها أن »
« تكون ممثلة لأعلى ما بلغته الروح الأوربية من سمو — »
« وأن تـكون كفيلة إلى الحد الأقصى بإثراء المضمون »
« الروحى للإنسان » .

ولست أختلف مع الأستاذ عبـد الرحمن فى اعتباره الديوان الشرقى وقصة أوندين من الروائع التى يسوغ أن ينسحب عليها هذا التعريف ، ولـكن أجدنى مضطراً إلى مخالفته فى قدره قصة «حائر بائر» ؛ فقد تكون جميلة ، وقد يكون مؤلفها صاحب فضل معترف به فى الوصف الحى ، ولـكنى لا أحسب أنها تركت فى عالم الفكر ولا البيـان ما يرفعها إلى سواء « الروائع » ، وما يؤهلها لأن توصف بأنها ممثلة لأعلى ما بلغته الروح الأوربية من سمو — وقد كان جديرا بى أن أتردد فى إصدار هذا الحـكم لسببين : أولهما أنه لم يسبق لى أن تعرفت على مؤلفها من قبل ، فقصة «حائر بائر» هى أول لقاء بينى وبينه ، والعدل يقتضى الناقد ألا يصدر حكمه على المؤلف قبل أن تتوثق الصلة ، وتتأكد العلاقة . وثانى السببين أن أيشندروف شاعر غنائى ، والشعراء الغنائيون يخسرون أكثر مزايا إنتاجهم عندما يترجم من لغتهم الأصيلة إلى لغة أخرى . ولـكن التى حدا بى إلى الخروج من التردد إلى الحسم أمران آخران — أولهما : أن « الروائع » التى حفظها التاريخ ، والتى تركت أثراً فى حياة الأمم العقلية والشعورية ، كانت مكانتها ترتكز فى الأغلب الأعم على الموضوع ثم الشكل — فموضوع القصة أو الـكتاب يجب أن يكون إنسانيا كبيراً ، ينطوى على مشكلة ما وشكلها ، أى أسلوبها ؛ وطريقة عرضها يجب أن يتسم بسمات مميزة .

وقصة حائر بائر ، تكاد تكون بلا موضوع ، والنفوس التى يتناولها المؤلف بالوصف يقنع بظاهرها ، فلا يعرض لجوانبها الخفية ألا بقدر ، ومع تلهف وسرعة .

وثانيهما : أن الدكتور عبد الرحمن بدوى نفسـه قال فى مقدمته عن أيشندورف مؤلف القصة :

« هذا هو السر فى امتيازه فى الشعر وتخلفه فى القصة »
« والمسرحية ، فالقصة عنده خالية من الأحداث فقيرة »
« فى الأشخاص الحية الواقعية ، تكاد كثيرا ما تذوب »
« فى الإطارات الطبيعية التى تعنى أيشندروف قبل أن تعنيه »
« الأشخاص ... » .

وهذا هو بالضبط الذى يخلص منه القارئ بعد مطالعة هـذه القصة ، فهى قصة شاعر تشغله مباهج الطبيعة ، ويصف النفوس والأشخاص ، كما يصف الأنهار والأزهار؛ ولا جدال فى أن الشعر لا يتذوقه متذوق إلا فى لغته الأولى التى أودع فيها صائغها خفايا معانيه ، وحلاوة أغانيه .

ولا يحسبن أحد أنى أريد أن أغض من العمل الأدبى الذى اضطلع به الدكتور بدوى حينما ترجم « حائر بائر » ، فقد صاغ ألفاظها ببراعة وحذق ، أنسيا الإنسان أنه يقرأ كتابا منقولا عن لغة أخرى — فالنسج محكم ، والعبارة عربية أصيلة ، من طراز رفيع ، والمعـانى متصلة متدفقة ، والصور كاملة أخاذة ، وشعورك طوال المطالعة أن مترجم القصة لا يعانى فى أداء المعانى إلى العربية أى جهد .

ولا أخفى عنك أن فى القصة صفحات من الشعر

بين المسموع والمقروء

ليس الموت واحداً :

حُكم على رجل بالإعدام فى جريمة قتل ، فطلب أن يُرسَل إلى خط القتال ليموت مقاتلا ، فلم يمنحوه هذا الشرف .

القرش الأبيض :

ينفع فى اليوم الأسود . من أجل هذا تقوم فى هذه الأيام دعاية واسعة بين جنود الحلفاء تستحثهم على التوفير من مرتباتهم استعدادا للسلم القادمة ، حيث يعودون إلى الحياة المدنية ويبدأون العيش من جديد .

ليت لنا من يدعو دعوة كهذه بين الجيوش من عمالنا الذين سيسرَّحون عند ختام الحرب كما يُسرَّح الجنود .

مجهول الموز :

فى الحرب الماضية سمعنا عن قوم وُلدوا أثناءها ونشأوا فلم يعرفوا الجنيه إلا ورقة بنك نوت ، ولم يروه ذهباً إلا فى المتاحف . وفى هذه الحرب ، حين انقطع وارد الموز عن إنجلترا ، نسمع عن طفلة إنجليزية ولدت قبل الحرب بعام نُعطَى موزة فلا تعرف كيف تقشّرها . فلما قُشرت لها فأ كلتها لم تستطعمها . وكان غرام الأطفال بالموز قبل الحرب معروف مشهور . كان به يطوّع الطفل العاصى ويُستأنس الطفل النافر .

نور بعد الظلام :

على الرغم مما يشاع نقيضا لذلك ، قد تحقق أن إظلام القاهرة بالليل سيزول قريباً ، فتضاء المنازل والشوارع والمحلات العامة وعربات النقل والسيارات ، وتعود الحال كما كانت قبل الحرب بالسرعة التى تستطيعها الإدارات الفنية المختصة ، ولا يبق غير شرط واحد ، هو أن تظل الستائر على استعداد لحجب الضوء تَوّا إذا دعاها الداعى لهذا ، واحتمال هذا بعيد .

يدعوهم ليسرقهم :

زوج شاب وشابة ، جاءتهم هدايا الأصدقاء ، وكان

الذهبى ، الذى يخلبك رنينه وبريقه ، وهو فى جوهره نفيس وذوقيمة . أما الديوان الشرقى ، وأوندين ، فعملان أدبيان ، طوق بهما الأستاذ بدوى عنق الناطقين بالضاد وقارئ العربية عنة كبرى ؛ والنظر فيها يوسع آفاق القارئ .

ونرجو أن نعود إليهما مرة أخرى .

***

يقول الدكتور بدوى :

« لن نستطيع النفوذ إلى أسرار الروح الأوربية »
« حقاً إلا إذا وقفنا مباشرة على ما أبدعته هذه الروح »
« من آثار فى مختلف مظاهر نشاطها الروحى ، لأن »
« المرء مهما يبلغ من الدقة فى التحليل والعمق فى »
« اكتناه الأفكار والسعة فى أفق المقارنة ، لا يمكن مطلقا »
« أن يغنى عن الاطلاع المباشر عن الأصول الأولى التى »
« يقوم هو عليها . . . . » .

وهذا حق كله ، وهو حق كان جديراً أن يكشف عنه منذ زمن بعيد . فإذا كان الدكتور بدوى قد عقد العزم على أن يحقق للغة هذا الخير العظيم ، أو بعضه ، أو حتى أن يشرع فيه ، فهو جدير من أبناء اللغة العربية جميعاً أن يشكروه وأن يهنئوه ؛ وهو حقيق أن يصل إلى الغاية من هذا المشروع ، فلله فى خلقه وفى جلده ، وتلهب إيمانه وعلمه ، ما يعينه على النجاح ، وما يؤدى إلى التوفيق . . . !

فهمى رضوان المحامى

من بينها تذكرتان لسينما ، وهي هدية في حد ذاتها غريبة ، ولعل في غرابتها إغراء بقبولها . وذهب العروسان يشهدان على الشاشة قصة الخيال الحلو ، في الوقت الذي كانت فيه تمثل في دارهما قصة الواقع المر . وعادا إلى بيتهما فوجدا كل هدايا العرس قد ذهبت ، اشتراها اللص القاسي بثمن تذكرتي سينما .

أسبوع المحترفين :

لأول مرة يغلق الحلاقون محالهم يوماً في الأسبوع غصباً بقوة القانون ، وتُحدَّد ساعات العمل للعمال في اليوم بإحدى عشرة ساعة !

قال أحد العمال وهو يقص شعري : إنه أول القَطْر . سيكون لنا مدرسة ، ويكون مستشفى ، والدواء فيه بالمجان . ولن يستطيع صاحب الصالون اليوم بعد خدمة أعوام ، إذا غضب من عامله لتافهة ، أن يقول له اخرجْ فيخرج لتوّه . فإذا سأله عنه صاحب محل آخر بعد ذلك قال إنه أخرجه لأنه كان لصًّا . والإخراج اليوم لا يكون إلا بعد تحقيق بحضره ممثل العمال وممثل أصحاب الأعمال .

قلت : فكم من الأجر تأخذ عن يوم العطلة الجبرى ؟

قال : كيوم المرض ، نصف أجرة .

قلت : فهل ينطبق هذا على الريف ؟

قال : لا . وإنما على القاهرة وحدها . وقد تحرّكت الإسكندرية تطلب تطبيقه .

وقد أكّد لي أنه أمر عسكريّ ، ولكنه لم يصدر إلا بعد التراضي بين الطرفين في حضور مندوب الحكومة . وقد أكبرت في هذا العامل الحلاّق عقله واتئاده ، ثم لفتته . والمنة تحاك الثقافة الذي لا يخلى أبدا .

مصانع تحت الأرض :

تذهب إلى الريف فتجد الحقول عامرة بالعمل ، ففيها الحرث وفيها الحصاد ، وليس في ظاهر الأرض ما ينم على ما باطنها من مسارب كمسارب النمل يعمل فيها الألوف من النساء والرجال ، وتدور فيها المكنات فتحدث من الأصوات المزعجة ما لا يبلغ سطح هذه الأرض وقد خيم عليها سكون الريف .

ومن أمثلة هــذه المصانع محجرٌ في بطن الأرض ، أُهمِل من زمن فانطوى واندثر ، إلى أن نشرته الحرب الحــاضرة . فهذا الحجر قلبوه مصنعاً ، وفي سبيل ذلك أخرجوا من جوفه مليون طن من حجر وتراب ، ثم أخذوا يصممون المصنع في تلك الأعمــاق وقد بلغت مساحته بضع مئات من الأميال . واشتغل في بنائه ٨٥٠٠ رجل ، فكانت منه مدينة صغيرة تحت الأرض .

وينزل إليه الرجال بثمانية مصاعد كهربائية ، فهو يبعد عن سطح الأرض أكثر من مائة قدم ، فهو في منجى من أعنف غارة .

وهواؤه مكيّف ، ودرجة حرارته ثبّتوها بين ١٥ و ١٨ درجة ، لا رعايةً للرجال فحسب ، بل حفظا للآلات الدائرة والآلات التي تُصنَع فيه فهي دقيقة يؤثر في أطوالها التمدد القليل بالحرارة . وتضاء هذه المدينة الأرضية الصغيرة بضوء « فسفوري » أشبه ما يكون بضوء الشمس ، فإذا خرج العامل إلى ضوء النهار لم تَعْشَ عينه فيه .

ويدار هــذا المصنع الأرضي على أحدث ما تدار عليه المصانع . فى غرفة القيادة الرئيسية تُجمَع المعلومات عن سير العمل ، ومنها ترسل الأوامر بالتلفون إلى كل قسم من الأقسام حيثما وقع مكانه .

ولا يَعرف هــذا المصنع معنى النهار ولا معنى الليل . فالعمل يجرى فيه ليل نهار ، وإنما يَعرف أن العمال يتناوبون العمل فيه على ثلاث دفعات .

وللعمال فوق الأرض منازل حديثة . وهي ستة أقسام

يَنزل بالقسم منهـا ستة آلاف رجل وامرأة . وتتوفر فى هذه المنازل وسائل الطب والتثقيف والرفه .

ولهذا المصنع أمثـال كثيرة فى إنجلترا ، قضت بها ظروف الحرب . وكثيرا ما تزيد فيها النساء على الرجال .

والسؤال هل هذه المصانع الأرضية ستكون للسلم كما هى للحرب ؟ والجواب أنها قد تكون للسلم ، ولـكن المحقق أن درجابها ستبقى فى انتظار الحرب القادمة .

لورد « هوهو » :

لم ينصت أحد إلى الإذاعة الألمانية فى سنوات الحرب الأولى إلا وسمع اللورد « هوهو » يقوم بتصيب الأسد فيها ضدّ الحلفاء . وقد منحه الألمان هذا اللقب تفخيما وإغراء . وكان الذائع أنه إنجليزىّ ، دلّت على ذلك لغته الإنجليزية السليمة ولهجته القويمة ، فزاد هذا فى أثر إذاعته .

ومن عام ، حين تنكرت الأقدار للألمان ، كفّ عن الإذاعة رويدا رويدا . وقرأنا عنه أنه اعتراه حنين شديد إلى وطنه أكسبه كآبة دائمة .

ثم قرأنا بعد ذلك أنه عاد إلى وطنه إرلندا ، ذهبت به إلى سمائها طائرة ألمانية ، فهبط منها بپرشوط .

ثم قبض عليه ووجد معه مال كثير وآلة تصوير ومسدّس . ولما أودع السجن هرب . ولقيه أبوه فسلم عليه . وتمزّق قلبه لحظة بين حب الولد وواجب الوطن . ثم قال لولده : يا بنىّ ليس لك إلا الاستسلام . وأخطر البوليس وسلّمه إلى رجاله

ليت شعرى ما الذى عاد بهذا الشاب الضالّ ؟ أزيادة فى خيانة ، أم حنين إلى الأهل . وهل تجتمع الخيانة والحنين فى قلب واحد ؟ !

السكر المر :

فى المحيط الهندى جزيرة صغيرة أكثر مصائبها ثلاثة : العواصف الهوجاء ، والملاريا والسكر . كانت تزرع السكر وتكرره ، وكانت من زراعتها وصناعتها فى رغد العيش . وكانت تبيع سكرها للهند وأستراليـا وجنوب أفريقيا وبريطانيا . ثم حدث أن أخذت أستراليا وجنوب أفريقيا يزرعان القصب . والهند قضت على آثار هذين البلدين . وبريطانيـا العظمى أرادت أن تحمى سكرها من البنجر فزادت الضريبة الجركية على الداخل من السكر إلى بلادها . وبهذا انتقلت هذه الجزيرة من مزرعة للسكر ومصنع للسكر ، إلى مزرعة فحسب . واضطرت أن تبيع سكرها خاما . فهبط بذلك مستوى المعيشة عند أهلها بضياع الصناعة ، وعانى أهلها الفقر ، وهم ٦٠٠٠٠٠ نسمة .

والسكر يصنع فى سياسة الأمم ما لم تصنعه البرلمانات . وهو فى الجزيرة الشهيرة ، جزيرة كوبا ، من الجزر الهندية الغربية ، يأتى بالزعماء الحاكمين ويذهب بهم .

جاء وقت على كوبا كانت فيه مصدر سكر للعالم كبير ، يذهب سكرها إلى أركان الأرض الأربعة . ثم أخذت الأسواق تضيق . فجرّتها المقادير إلى أن تعتمد فى تصريف سكرها على الولايات المتحدة وحدها . وحدث من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٠ أن سلكت حكومة الولايات مسلك الحماية لزرّاعها ، فجعلت على السكر الأجنبى ضريبة يؤديها فى الجرك . فجر هذا على كوبا النوائب ، واهتز عرش دكتاتورها وتقلقل ، وقامت الثورة ، وجرى الدم غزيراً فى شوارع العاصمة ، هافانا . وظهرت مداخن الأسطول الأمريكى فى أفق الجزيرة رهيبة منذرة .

ثم جاء روزفلت بسياسة حسن الجوار الأمريكية . واقتضت هذه السياسة فتح أسواق أمريكا لأنتجة جيرانها ، ودخل السكر الكوبىّ فاستطاعت كوبا أن تبيع فى العام مليونى طن من السكر الأبيض . ومع أن إنتاجها كان فى أيام الرخاء الأولى أربعة ملايين ، ولـكن كان فى هذين المليونين كفاية لتثبيت حكومتها وذيوع الأمن فيها .

ولكن من تحت الحكومة وأذاع الأمن ؟ ساسة وشنجتن .

ومن قلقل الحكومة قبل ذلك وصبغ الشوارع بالدماء ؟ ساسة وشنجتن .

وهل كان عن عمد هــذا وذاك ؟ لا . وإنما هي رقعة الاقتصاد ، أعقد من رقعة الشطرنج ، لاينجو من « كش الملك » فيها إلا خبير بصير كله عيون تصحو والناس نيام .

عند ما يصبح البقال عالما :

طلبنا إلى البقال أن يرسل إلينا بعض الحاجات ، فأرسل مكان الجبن بيضا . فروجع في ذلك فقال : لم يكن لدى جبن جيد فأرسلت بدله أقرب شيء إليه — البيض . وكلاها ، بروتينات » يأفندم والدنيا حرب .

الجرنوسي

بسمة

بسمة من فك العذب يشير في حياتي
هي بشرٌ يملأ النفس بطيب النشوات
هي نورٌ يمنح الروح رُقيّاً منطلقات
هي ليست في خيالي بسمة كالبسمات
هي من أسرار كون عبقري النفحات
هي سحر غامض السر خفيّ اللمسات !

بسمة تطلق قلبي من قيودي العاتيات
بسمة تمسح آلامي وتمحو حسراتي
بسمة تنزع سرا كامناً في خفقاتي
بسمة تبعثني خَلقاً جديداً في الحياة
فكأنى أولد الآن جديد الخطرات !
بسمة تمنح روحي لحظات خالدات
بسمة تَرقى ضميرى من سواد الظلمات
هي ليست في خيالي بسمة كالبسمات
هي في وهمي كون حافل بالمعجزات !

كلما أشرقت بالبسمة فاضت نشواتي
وهَفَت روحي نشوى بأمانٍ مشرقات
فابتسم حين تلاقيني وزدني بسمات
طال عهدي مظلم القلب كئيب الخفقات
مُثقل النفس من الشجو ووقر السنوات
فابعث النشوة في نفسي وبدِّد ظلماتي
بسمة من فك العذب يشير في حياتي

محمد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرمانى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦٢/ ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٩٣ | الثلاثاء ١٩ من شعبان سنة ١٣٦٣ — ٨ من أغسطس سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

تركيا وفنلنـــــده

أخذت تركيا تدنو من الحرب ، وفنلنده تحاول أن تبتعد عنها . هذه تعزل رئيسها وتقيم مكانه رئيساً جديداً ، وترتكب ما يشبه ثورة دستورية ، لعلها تستطيع أن تخرج من الحرب ؛ وتلك تجمع أمرها ، وتعد عدتها لكي تقترب من الحرب ، وتصلى بنارها . . . عانت فنلنده ويلات هذه الحرب الضروس ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، ثم رأت اليوم أن قد آن لها أن تنعم بالسلم . وقضت تركيا خمسة أعوام تنعم بالحياد والسلم ، ثم أرادت اليوم — والحرب مشرفة على نهايتها — أن تخوض غمارها ، وأن تصلى أوارها .

وهكذا تمضى الجمهوريتان — إحداهما فى أقصى الشمال من أوربا ، والأخرى فى أقصى الجنوب — كل منهما تسلك سبيلا يناقض الذى تسلكه الأخرى . وبين الدولتين تشابه فى كيانهما ، وموقعهما الجغرافى من روسيا السوفيانية . وبينهما أيضاً تشابه ثقافى ، إذ يرجع كل منهما بثقافته إلى أصل تركى أسيوى .

واليوم تسلك الاثنتان مسلكين متناقضين : الواحدة تنشد السلم وتسعى إليه ، والأخرى تدنو من الحرب دنواً شديداً . غير أن هذا التناقض ما هو إلا اختلاف شكلى وسطحى . ولو أنعمنا النظر قليلا لألفينا بين المسلكين من التشابه أكثر مما بينهما من الاختلاف . فإن السياسة التى أملت العملين واحدة ، وهى ضرورة الابتعاد عن ألمانيا النازية ، المشرفة فى نظرهما على الهزيمة ، ومحاولة الاقتراب من الأمم المتحدة . وكلاهما قد أرجأ الخطوة الحاسمة غاية الإرجاء ، وظل مصراً على مسلكه الأول إلى أطول مدة ممكنة . حتى إذا خيل إليه أن كفة أحد الفريقين قد باتت واضحة الرجحان ، أدرك أن من اللازم له أن يتودد إلى الفريق المنتصر ، وأن يبتعد ما استطاع الابتعاد عن الفريق الذى ظن أنه مهزوم .

لقد كان بوسع فنلنده أن تظل بمعزل عن هذه الحرب ، وأن تنعم بسلم عظيم ينطوى على مكاسب ومغانم ضخمة ؛ وتخرج بعد الحرب سليمة الجسم وسط أقطار جريحة ، موفورة السلامة بين شعوب عانت أشد الويلات . فتستطيع أن تستأنف بعد الحرب حياتها الكاملة ، شأنها فى ذلك شأن جارتها السويد ، التى أمكنها أن تحافظ على

حيادها جهد طاقتها ، فلم تخرج عنه إلا بمقدار ما أرغمت عليه ولم تملك دفعه .

وفنلنده ، لو أرادت الحياد لما استطاعت ألمانيا أن تخرجها عنه ، لأن موقعها الجغرافي يجعلها في مأمن تام من كل تأثير نازي ؛ فلا تستطيع ألمانيا أن تقحمها في الحرب رغم إرادتها ، كما أقحمت أقطاراً أخرى مثل هنجاريا ورومانيا وبلغاريا . ولكن فنلنده لم ترد الحياد ، بل دخلت الحرب إلى جانب حليفتها عن رغبة واختيار ، ولاشك أنها كانت تظن في ذلك الوقت أن النصر سيكون في جانب ألمانيا . وهكذا لم تخل الخطة التي سلكتها حكومة فنلنده من عنصر المقامرة . وربما قيل في الدفاع عن سياسة الحرب التي سلكتها حكومة فنلنده ، إنها موتورة ، ولم يكن لها مندوحة عن إشهار الحرب على حكومة روسيا وأن تنضم إلى ألمانيا النازية ، لأن روسيا السوفياتية قد سبق لها في العام الأول من الحرب أن شهرت الحرب على فنلنده ، من أجل الحصول على امتيازات إقليمية لم ترد فنلنده أن تمنحها إياها . وهذا من غير شك صحيح . ولقد كان من الخطأ أن تحصل روسيا على تلك الامتيازات بالعنف ؛ لأن خطة العنف هي الأمر الذي نرجو زواله من الميدان الدولي كله . ولكن لابد أيضاً من التسليم بأن تلك الحرب قد انتهت في أوائل عام ١٩٤٠ ؛ وأن روسيا — برغم انتصارها — لم ترهق فنلنده بصلح شديد القسوة . بل من الإنصاف أن نقول إن شروط الصلح كانت تمتاز بالاعتدال ؛ ولولا ذلك لما أمكن لفنلنده أن تحشد جيشها مرة أخرى لمحاربة روسيا . ولا نريد أن نفسح للتكهن المجال ، وأن نتساءل ماذا تكون شروط الصلح تلك ، لو أن الحرب كانت بين فنلنده وبين دولة مثل ألمانيا النازية ؟ ولكن من الحق أن نقرر أن روسيا كانت معتدلة في مطالبها ، فلم ترد كثيراً في شروط الصلح على ما كانت تطلبه من فنلنده بدون حرب . وبقى لفنلنده جيشها وحكومتها واستقلالها التام ، فانتفعت بهذا كله في شن حرب جديدة للانتقام من جهة ، ولاسترداد قطعة الأرض التي فقدتها من جهة أخرى .

ولئن كان هنالك وجوه يلتمس بها العذر لفنلنده بأن أقحمت نفسها — وهي دولة صغيرة — في حروب الدول الكبيرة ، فإن خطة الحزم كانت تقضي عليها — أيا كانت ميولها ورغباتها — أن تتريث قليلا ، وأن تقف فترة من الزمن موقف المتفرج ، لترى أي فريق يرجى له النصر ، إذن لرأت المقاومة العنيفة التي أبداها الروس في سمولنسك ، ولرأت أن الغلبة لن تكون لألمانيا بتلك السهولة التي توهمتها الحكومة الفنلندية .

والظاهر أن هنالك حزباً قوياً في فنلنده يميل إلى مؤازرة ألمانيا والسير معها إلى النهاية . ولذلك ترددت حكومتها طويلا في الشتاء الماضي ولم تقبل الخروج من الحرب ؛ مع أن الشروط التي عرضتها روسيا في ذلك الوقت لم تكن شديدة الإرهاق ، وكان في وسع فنلنده أن تقبلها دون أن تمسها خسارة جسيمة ، لأن أقسى تلك الشروط كان مما يزول بزوال الحرب . ولكن ألمانيا وعدت فنلنده بمساعدة حربية عظيمة ، فأخفقت مساعي الصلح ، وعاد القتال بين روسيا وفنلنده إلى الاشتعال ، وتقدمت الجيوش الروسية وتوغلت مسافة بعيدة في الأراضي الفنلندية .

ثم رأت حكومة فنلنده وبرلمانها ، بعد لأي ، أن رجحان كفة ألمانيا بات أمراً بعيد الاحتمال ، وأن جيوشها تتراجع — بل وتنهزم — في جميع الميادين في شرق أوربا وغربها وجنوبها ؛ فلم تجد مندوحة أن تخلع رئيسها ، وأن تضع مكانه رئيساً جديداً معروفاً بميله إلى الخروج من الحرب . وليس من المنتظر أن تتمنع الحكومة السوفياتية أو أن تفرض شروطاً أقسى وأشد مما فرضته من قبل ، لأن الراجح أن روسيا قليلة الرغبة في التوسع في هذه الأقطار الشمالية ، وأن مصالحها الإقليمية متجهة وجهة أخرى .

أما تركيا فإنها أيضاً قد خطت الخطوة الحاسمة للابتعاد عن ألمانيا النازية ، فقد قررت حكومتها — ووافق البرلمان بالإجماع — أن تقطع صلاتها السياسية والاقتصادية

مع ألمانيا ابتداء من منتصف الليل في اليوم الثاني من شهر أغسطس الجاري . وليس مما يثير الدهشة أن تبادر تركيا اليوم باتخاذ هذه الخطة الصريحة ؛ وإنما الدهش أنها استطاعت أن ترجئها كل هذا الزمن الطويل ، وأن تسوّف في اتخاذها كل هذا التسويف .

فلقد سبق لتركيا — حتى قبل نشوب هذه الحرب — أن أبدت ميلها الصريح إلى المعسكر الديمقراطي ، في صورة لا تحتمل أدنى شك . ولم يكن سبب ذلك الميل بغضها لألمانيا ، بل لأنها توجس شرا من حليفة ألمانيا في المحور : إيطاليا الفاشستية ، التي لم تدخر وسعاً في أن تصدر من التصريحات والإشارات ما يبعث الشك في نفس الدولة التركية .

لهذا كان من المنتظر ، عندما انقسمت أوربا إلى معسكرين متعاديين ، أن ترى تركيا أن مصلحتها في مصادقة المعسكر الديمقراطي ، والابتعاد عن المعسكر المحوري أو مداراته جهد الطاقة . ومن أجل استمالة تركيا إلى جانب الحلفاء، حُلّت مشكلة سنجق الإسكندرونة الحل الذي أرضى تركيا كل الرضا ، بأن منحت السنجق بأكمله ، بعناصره العربية والتركية على السواء ، واقتطعت قطعة من بلاد سوريا العربية الصميمة وضمت إلى الوطن التركي . فكان ذلك عربونا عظيما للصداقة بين تركيا من جهة ، والمعسكر الديمقراطي من جهة أخرى . ثم عقدت قبل الحرب محالفة المساعدة المتبادلة بين بريطانيا وفرنسا وتركيا . ولم يعقد بين الجمهورية التركية وألمانيا حلف أو معاهدة ... ولذلك كان من الجلي الواضح عندما بدأت الحرب الحاضرة في سبتمبر سنة ١٩٣٩ أن الجمهورية التركية تحوم حول الحمى الديمقراطي ، وتوشك أن تقع فيه . واستولت تركيا بفضل هذه المحالفة على مساعدات جليلة مالية ومادية ، استعدادا ليوم قد تضطر فيه لأن تمتشق الحسام وتخوض حومة الوغى .

ولكن موقف تركيا بعد ذلك قد أخذ يدخل في أطوار شتى . وتوخيا للوضوح نذكر أنها قد مرت بها على الأقل خمسة أطوار انتهت بالأمس بقطع الصلات مع المحور ؛ وقد لا يمضي وقت طويل حتى تشترك في الحرب .

أما الطور الأول فهو موقف الحياد المسلح مع الميل إلى الدول الديمقراطية . وقد ظلت هذه الحالة هي الغالبة على السياسة التركية إلى صيف عام ١٩٤٠ .

ثم بدأ بعد ذلك الطور الثاني . فلقد خرجت فرنسا من الحرب ،وضعفت بخروجها المحالفة الثلاثية . ومالت حكومة فيشي إلى سياسة « التعاون » مع ألمانيا . وانقطعت العلاقات بين بريطانيا وبين فرنسا والأراضي الخاضعة لفرنسا ، ومنها سوريا . وظهرت قوة ألمانيا الهائلة — ولاشك أن تركيا لم تكن تقدر أن تلك القوة قد بلغت هذه الضخامة — فلذلك لم يكن بد من أن تقف تركيا في طورها الجديد موقف الحياد الدقيق ، المشرب بشيء من التودد إلى ألمانيا . وقد اشتدت هذه الحالة وضوحا في ربيع عام ١٩٤١ عندما أغارت ألمانيا على بلاد البلقان ، واحتلت يوجوسلافيا واليونان وألبانيا ، وبسطت نفوذها أيضا على رومانيا وبلغاريا ، وأصبحت الجيوش الألمانية واقفة على الحدود التركية ، ومرابطة في بحر اليونان، ومنها جزر كثيرة مثل مدللي وخيوس وكوس، ملاصقة تماماً لسواحل الأناضول . وفي مثل هذه الحال لم يكن بد من أن تبدي تركيا بعض الود نحو ألمانيا ، وأن تعقد معها معاهدة صداقة وتجارة وعدم اعتداء ، وذلك في في شهر يونيو سنة ١٩٤١ . وقد أعلنت حكومة تركيا في ذلك الوقت بصوت خافت ، أنه ليس في تلك المعاهدة ما يناقض المحالفة القائمة بينها وبين بريطانيا . فصدقناها والتمسنا لها العذر . ولكن لا شك في أن الميزان التركي في هذه الفترة كان يميل إلى الجانب المحوري .

بعد ذلك بقليل اشتبكت ألمانيا في حرب شعواء مع روسيا ، وهذا من غير شك قد شغلها وملأ أيديها بأعمال جسام لا تستطيع معها أن تفكر في الاعتداء على تركيا . فتنفست هذه الصعداء ، وساعدها على التنفس الحر أن الجيوش البريطانية والفرنسية غزت سوريا وفتحتها ، ووصلت قواتها مرة أخرى إلى حدود تركيا ، ووجد الاتصال الأرضي المباشر بين معسكر الحلفاء، وبين الجمهورية

التركية . فأصبحت تركيا فى مركز وسط بين المعسكرين . ولعل هذا الطور الثالث هو الذى وقفت فيه موقف الحياد الدقيق . وقد أدركت حكومتها أنها لو استطاعت أن تظل بمعزل من الحرب إلى نهايتها لأدت إلى الشعب التركى أجل الفوائد وأعظمها . وقد دامت هذه الحالة إلى شتاء سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ، أى إلى الوقت الذى أخذت فيه الجيوش الروسية تتقدم بسرعة هائلة ، وجيوش الحلفاء تتقدم تقدمها الباهر فى إفريقيا الشمالية . وأخذ يظهر لذوى النظر الثاقب بدء رجحان كفة الحلفاء . ولم يكن بد من أن تحس تركيا هذا التحول ، لأن انتصار روسيا على ألمانيا ، أى أكبر قوة حربية عرفها العالم ، سيجعل من الممكن أن تطالب روسيا بوضع مشكلة المضايق على بساط البحث ؛ ولا بد لتركيا أن تحسب لهذا الأمر حسابه .

لهذا رأينا تركيا فى شهر فبراير سنة ١٩٤٣ تتخذ موقفاً جديداً ، فيه ميل صريح إلى الأمم المتحدة ؛ وهذا الموقف قد مُهِّد له باجتماع سرى عظيم الخطر بين قادة بريطانيا من جهة ، وقادة الشعب التركى من جهة أخرى . ذلك هو اجتماع أطنه الشهير ، الذى تم فيه توقيع محالفة جديدة تنص على توكيد روابط الصداقة بين تركيا وبريطانيا وعلى العمل لمساعدة تركيا فى المحافظة على « سلامتها الدفاعية » . وطلب المستر تشرشل من الناس ألا يحاولوا تعجل الحوادث ، والتكهن بما قد تنطوى عليه تلك المحالفة من الاحتمالات الخطيرة ؛ وأن ننتظر حتى يكشف لنا المستقبل عنها .

ولقد كشف المستقبل عن جانب كبير من أمر تلك المحالفة . ونحن نعلم الآن أنها كانت تنص على أن يقوم الحلفاء بإمداد تركيا بالأسلحة والذخائر والمؤونة اللازمة لسلامتها ؛ وأنها بعد ذلك ستقدم الأمم المتحدة مساعدات قيمة تمكن جيوشها من مواجهة البلقان ، وتمكن الطائرات البريطانية من الإغارة على المواقع الألمانية . والظاهر أن تركيا قد فهمت من هذه المساعدات أكثر مما رمى إليه قادة الأمم المتحدة ، فكانت ترجو أن تزود بالدبابات الحديثة والطائرات ، إلى جانب المدافع والبنادق والذخائر والمركبات . ولكن المران الطويل على تلك الآلات الحديثة كان حتما سيؤخر الهجوم على مراكز الألمان البلقانية . ولهذا اختلفت وجهة النظر التركية عما رأته الأمم المتحدة ، وعدلت القيادة العليا للحلفاء عن فتح ميدان جديد فى البلقان . ولكن تركيا — رغم هذا — لم تقصر فى توكيد صداقتها للدول المتحدة ، وأجابت رغباتهم فى منع الكروم وبعض السلع الأخرى عن ألمانيا . ولكن كان من الواضح أن هذا كان فى نظر الأمم المتحدة بمثابة « أضعف الإيمان » . ورأت تركيا من جانبها أن انتصارات الحلفاء توشك أن تكون حاسمة فى تقرير الحرب ، وأن التسويات التى تجرى بعد الحرب ستتناول المحاربين والمحايدين على السواء ؛ وأن مشكلة المضايق ستثار بصفة قاطعة . وأنها لا يصح أن تمر كها هذه الحال وموقفها من الفريقين موقف المحايد ، الذى تقاضى أجراً عظيما لقاء حياده دون أن يعمل شيئاً .

وهكذا نرى موقف تركيا يتخذ هذا الطور الخامس ، وهو من غير شك موقف بعيد كل البعد عن الحياد ، بل هو موقف الانضمام الصريح إلى المعسكر الديمقراطى . وليس مستبعد أن تتعرض تركيا فى موقفها الجديد إلى نوع من الاعتداء من ألمانيا ، لأن تجاور المواقع التى ترابط فيها الجيوش التركية والنازية يفسح المجال للحوادث والاحتكاك بين الفريقين . واستعداداً لمثل هذه الحالة لا بد أن ستسمح للقوات الجوية البريطانية والأمريكية أن تساهم فى الدفاع عن الأرض التركية ، وأن يفسح لها منذ الآن مكان فى المطارات التركية فى الأناضول ، وفى تركية أوروبا .

ولقد تتعرض تركيا فى موقفها الجديد إلى شىء كثير من الأذى ، وقد تضطر لأن تخوض غمار الحرب . ولكن قادتها الذين اكتسبوا شهرة واسعة فى الحكمة والتبصر فى العواقب ، يقدرون أن الحرب توشك أن تنتهى بانتصار حاسم للحلفاء ، وأن ما يفقدونه اليوم سيعوضونه غداً بفضل اشتراكهم فى مفاوضات الصلح ، كأحد أعضاء الفريق المنتصر .

محمد عوض محمد

في الهواء الطلق

هذا صديق وأنا نمشي على شاطئ البحر في رأس البر في وقت الأصيل ، ونتنقل من الحديث عن الجو إلى المفاضلة بين الإسكندرية ورأس البر ، إلى أخبار الحرب ومصير العالم ، ثم إذا بنا نتغمس في الجدل في نظرية « التقدم المستمر للعالم » .

قال : إن العالم في تقدم مستمر ، فهو اليوم خير منه أمس ، وهو غداً خير منه اليوم ؛ وقد أتى على الناس زمان كانوا ينشدون فيه مَثَلهم الأعلى في ماضيهم ، واليوم ينشدون مثلهم الأعلى في مستقبلهم . وأذكر أني قرأت جملة لطيفة لكاتب غاب عني اسمه ، وهي : « أن قدماء اليونان كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة فانحدروا ؛ وأما المحدثون فيرون أنهم من نسل القرود فسموا » . وهذا يمثل نوعي النظر في انحطاط العالم شيئاً فشيئاً ، أو تقدمه شيئاً فشيئاً ؛ وأنا ممن يؤمن بهذا التقدم . قد يكون ماضي أمة معينة خيراً من حاضرها ، وقد يقف العالم وقفة يكسّر فيها بعضه بعضاً — كما هو حادث الآن — وقد تقوم الثورات في الأمم فتدك النظام القائم وتقع في الفوضى ، ولكن إذا نظرت إلى العالم من حيث هو كلٌّ ، وفي أزمانه المختلفة ، رأيته يتقدم دائماً ، وإذا وقف فإنما يقف ليثب ، وإذا كسر بعضه بعضاً فليخلق خلقاً جديداً خيراً من الخَلْق القديم ، وإذا وقع في الفوضى حيناً فليبني على أنقاض النظام القديم البالي نظاماً جديداً متيناً ، ثم يبلى الجديد فيُبنى خير منه وهكذا ، وكل بناء جديد خطوة إلى الأمام .

وهذه الفكرة — مع صحتها — نافعة للإنسانية ، ففي القرون الوسطى أيام كان الناس يعتقدون أن عصرهم الذهبي خلفهم لا أمامهم ، غلب عليهم اليأس والتشاؤم وضعفت عزائمهم ، وكان مثلهم الأعلى أن يعودوا إلى الوراء ، لا أن يسيروا إلى الأمام ، وغلبت عليهم الرجعية ، ورموا كل من يدعوهم أن ينظروا أمامهم بالزندقة ونحوها ، وتوقعوا قرب انتهاء العالم ، فما هي إلا أجيال ثم ينقرض ؛ فكان تقدمهم بطيئاً لأنهم تقدموا رغم أنوفهم لا بإرادتهم ، وعاكسوا التيار فعُوّقوا عن السير . فلما جاء عصر النهضة واعتنق الناس فكرة التقدم المستمر ، رأوا عصرهم الذهبي أمامهم لا خلفهم ، فسارعوا إلى السير مع التيار ، فتضاعف تقدمهم ، وانبعث وثبهم ، وانفسح أمامهم المدى ، فالإنسانية في نظرهم أمامها مستقبل بعيد سعيد . ويجب أن يعتنق الشرق هذه الفكرة كما اعتنقها الغرب ، فينظروا أمامهم أكثر مما ينظرون خلفهم ، وينشدوا مستقبلهم أكثر مما يتغنّون بماضيهم ، بل هم إن تغنوا بماضيهم فليستحثهم على السير أمامهم .

فكّر صاحبي هنيهة ثم قال : لا أظن ذلك ! ألا ترى هذه الموجة ؟ — ونظر إلى موجة مسرعة إلى الشاطئ — إنها تتقدم سريعاً حتى تفنى ، وتتبعها موجة أخرى وهكذا ، والبحر هو البحر ، قد يحدث المد ثم يحدث الجزر ، والبحر لا يتغير ؛ والتاريخ يعيد نفسه لأن العالم يعيد نفسه . لعل الخلاف بيني وبينك ناشئ من اختلاف وجهة النظر في مظهر التقدم ؛ فإن عددت مظهر التقدم تغلب الإنسان على الطبيعة وتسخير قوانينها لمصلحته ، ورقي عقله ، واتجاه العالم أكثر مما كان ، وكثرة مكتشفاته ومخترعاته ، فأنا أرى رأيك ؛ وإن عددته مقياس الرقي سعادة الإنسان فإني أخالفك ، فلسنا أسعد من آبائنا ، ولا رقي العقل وكثرة المخترعات قللت من متاعبنا ، بل ربما كان العكس هو الصحيح — إن شئت فانظر إلى عشش رأس البر تر مصداق ما أقوله : هذه عشش وضيعة تحوي ناساً فقراء في المال ، فقراء في العقل ، وهذه عشش غنية مترفة ، فيها الراديو ، وفيها التليفون ، وفيها الطباخ الماهر والأكل الفاخر ، وعقول أهلها أرفع مستوى وأعلى مقاماً ؛ ولكن هل تستطيع أن تجزم بأن الآخرين أسعد من الأولين ؟ ما أظن ذلك ! فلو مررت بجانب عشش الأولين لسمعت الضحك عالياً ، والرضا عاماً كاملاً ، وقد تكون صحتهم أتم ، ولذتهم بالأكل البسيط أوفر من هؤلاء

الأغنياء المعوزين الذين تعدّهم أرقى ، وتقيمهم مثلا للتقدم المستمر . وما قيمة رقى العقل وكثرة المخترعات إذا لم تصحب بالسعادة وكان الأمر كما قال المتنبي .

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم؟

بل ما هذه العقلية التى تطنطن بها ؟ إن الإنسان مع تقدمه المزعوم لم يظفر إلا بمعرفة أعراض المادة ؛ أما حقيقة المادة وحقيقة الروح فلم يتقدم فى فهمهما أية خطوة ، بل لعل الإنسان كان يقوده شعوره إلى السلوك فى الحياة خيراً مما يقوده عقله المطعّم بالمنطق والفلسفة ! إن العالم — فى نظرى — كالرّجل المتردد يقدّم رجلا ويؤخر أخرى ، فهو يبنى ويزخرف ، ثم تعرض له جِنّة الحرب فيهدم ما بنى وما زخرف ، ثم يبدأ يبنى من جديد وهكذا ، وليته ما بنى وما هدم ؛ وكلما أجاد البناء أجاد الهدم . وشجرة المعرفة كشجرة آدم ، كلما أكل من ثمارها خرج من الجنة — والإنسان الكل كالإنسان الفرد — يبدأ طفلا ثم ينمو ، ثم يهرم ، ثم يموت ليخلفه طفل من جديد . وهكذا الأمم وهكذا العالم ، فهو يدور فى حلقة مفرغة .

قلت : لعل خلافى لك ينحصر فى نقطتين : الأولى أنك قللت من قيمة التقدم العقلى ؛ والثانية أنك عممت السعادة ولم تفرق بين سعادة وسعادة . والنقطتان مرتبط بعضهما ببعض أتم الارتباط ؛ فالإنسان إنما ارتقى عن الحيوان بعقله لا بحواسه وغرائزه ، فإذا سلّمت بأن الإنسان أرقى من الحيوان وجب أن تسلم بأن الإنسان الأرقى عقلا أرقى من الإنسان الأضعف عقلا . وإذا سلمت بذلك وجب أن تسلم بأن العالم فى مجموعه إذا كان اليوم أرقى عقلا مما كان فهو فى تقدم مستمر . ثم إن السعادة العقلية أو اللذة العقلية أرقى من الجسمية ، بل إن الإنسان يفضل العقل مع الألم على الجهل مع اللذة ؛ فلو خُيّرتَ أنت بين أن تكون فيلسوفاً ساخطا وأن تكون جاهلا راضيا لاخترت الأولى ، وحكمك أنت فى هذا الأمر أصدق من حكم الجاهل ، لأنك جربت اللذتين : لذة الجهل ولذة العقل ، واللذة المادية واللذة العقلية ، ففضلت الثانية على علم . ولو عرض على المتنبي الذى قال هذا البيت أن يكون الفتى الجاهل أو الفتى المنعّم لما اختار إلا نفسه وآلامها .

ولنعد إلى موضوعنا . إن العالم كله يسير اضطراراً نحو الكمال ، فالسديم إلى نجوم ، والنطفة إلى وليد ، والحيوان الأدنى إلى حيوان أرقى ، والبذرة إلى شجرة ، والشجرة إلى ثمرة . والطبيعة لا تزال بكل شىء حتى تنضجه ، فلِمَ لا يكون الإنسان كسائر ما فى العالم ، يسير نحو النضوج ؟ وقد دلنا العقل على أن قوانين العالم منسجمة ، يسير أكبرها على نحو ما يسير أصغرها .

قال : ولكن النضوج يعقبه الفناء .

قلت : ولكن الفناء يعقبه أن يولد خير مما فنى .

قال : لا دائما .

قلت : لتكن نظرتنا كلية لا جزئية . إن الإنسان سائر إلى الأمام دائما ، والعالم فى كل قرن خير مما قبله فى جملته والشرور والرذائل تقل شيئا فشيئا ، والإنسان بطبعه — وبالضرورة — ككل شىء فى العالم يسير نحو غاية هى الكمال ؛ ونظرية النشوء والارتقاء وتنازع البقاء وبقاء الأصلح ، تصدق على الإنسان كما تصدق على كل ما فى العالم .

قال : كم من شرير قتل خيّراً ، وكم من فئة متبربرة متوحشة غلبت فئة متمدنة راقية ! وميكروب الحمى الحقير أمات محمداً رسول الله العظيم ! وكل يوم نرى أمثلة من الخير يلتهمها الشر . ألم تر اليوم ما فعلت النار بعشة رأس البر كيف أتت عليها وعلى ما فيها ، وفزّعت أهلها ، وأرعبت جيرانها ، والتهمت كل ما وصل إليه لسانها ؟! وأهلها قد أتوا ليستجموا من عناء ، أو يستشفوا من مرض أو يتخففوا من ألم . وما قيمة هذا الحريق فى رأس البر بجانب حريق العالم فى هذه الحرب ؛ فلم كل هذا الشر إن كان يراد بالعالم الخير؟

قلت : أعيد فأكرر قولى يجب أن تكون نظرتنا كلية شاملة لا جزئية خاصة ، فلا تنظر لشرير جنى ، ولكن انظر إلى ما أنتجت الجناية من تحصين ؛ ولا تنظر لميكروب

أمات ، ولكن انظر كيف تقدم الإنسان فعرف مكروبا لم يكن يعرفه ، وفتك بالكثير منه وهو يحاول الفتك بالباقي ؛ ولا تنظر إلى الحرب وويلاتها ، ولكن انظر إلى نتائجها عما أصلحت من نظم ، وأظهرت من مفاسد حركت الهمم لتلافيها ووضع خيرمنها مكانها . ومن قوانين العالم العامة ألا يكون بناء إلا بعد هدم ، ولا علاج إلا بعد مرض — إن شئت الفكرة واضحة فقارن بين الإنسان في جيله الأول وانظر كيف كان يعيش ، وكيف كان يتصور العالم حوله، وكيف كان يتصرف في المسائل التي تعرض له ، وكيف كان يحكم ؛ وبين الإنسان في جيله الحاضر ، كيف يعيش ويتصور ويتصرف ويحكم ، تؤمن بالتقدم المستمر والسير إلى غاية هي الكمال .

قال : إنك تبالغ كثيرا في تقدير المدنية ، وإني لا أعد تقدماً إلا رقي الطبيعة الإنسانية ، وهل هي تقدمت كما تدعي ؟ إن المدنية فيما أرى ليست إلا طلاء براقاً لطبيعة الإنسانية المتشابهة في القديم والحديث . والإنسان متقدم — كما ترى — في حالة عدم الإغراء ، وعدم الاحتكاك ، فإذا أغرى أو وقع في محنة زال طلاؤه ، وتكشف عن طبيعة تشبه طبيعة الإنسان الأول كما تراه في الحروب . إن الأمم في حرب بعضها بعضا لا تراها أكثر إنسانية ولا حباً للعدل ، ولا رغبة عن الانتقام من أسلافها الأولين ؛ ولا أظن أن الإنسان في حاضره قد شابهه أي إنسان آخر قبله في فتكه وإبادته وتخريبه ؛ وحتى في غير أيام الحرب تستطيع أن تقارن بين الاستعمار القديم والاستعمار الحديث . لترى ماذا يفعل الإنسان بالإنسان ، وهل تقدم إنسان اليوم عن جده ؟ ومن الغريب أنك ترى الإنسان المتمدن لم يذبح في حياته دجاجة ، ولم يقتل حشرة ، فإذا دخل في ميادين القتال كان سفاكا فتاكا ، وتكشف عن طبيعة تشبه طبيعة القط رأى الفأر لأول مرة — إن كان هذا فماذا فعلت المدنية ؟ أمدت سككا حديدية ، واخترعت الراديو والتليفون ، وأنشأت الآلات الصناعية ؟ وهل هـذا تقدم في الطبيعة الإنسانية ؟!

لست — من غير شك — أنكر قيمة ما اكتشفه الإنسان الحديث وما اخترعه ، وما استفاد من تجاربه مما غيّر به وجه الأرض ، ولكني أؤمن في الوقت نفسه أنها أمور خارجة عن نفسه ؛ فإذا قسنا الإنسان بقياسه الحقيقي ، وهو طبيعته البشرية ، لم تؤمن بالتقدم الكبير الذي تدّعيه . وهذا يدل على أن الإنسان خاضع لقانون الوراثة أكثر من خضوعه لقانون البيئة ، أو بعبارة أدق ، هو خاضع لهما بنسب متفاوتة جداً .

قلت : إنك تستصغر التقدم الإنساني إذا قسته بالطبيعة البشرية ، وتستنتج من ذلك فساد النظرية . ولكن ...

وهنا قال صاحبي ألم تتعب من السير ؟

قلت : الحديث أنساني تعبي وأنساني تعبي ، فلا أذكر إلا حجة تقرعها حجة ، فهل لك أن نجلس على الرمل نتمتع بغروب الشمس في البحر ؟ فجلسنا وسألني : ولكن ماذا ؟

قلت : ولكن يظهر أنك تقيس الإنسان القريب بالإنسان الحاضر ، والإنسان المعروف في التاريخ بالإنسان اليوم ؛ فأمعن في تاريخ الإنسان الأول يوم لم يكن يفترق عن الحيوان إلا قليلا ، وآمن بما يقوله العلماء المحدثون من أن عمر الإنسان على وجه الأرض مئات الآلاف من السنين ، وأن الطبيعة لا تعرف الطفرة ؛ ولكن تعرف التقدم البطيء ؛ فإذا لم تر إلا تقدما قليلا إذا قصرت نظرك على الإنسان التاريخي ، فإنك ترى التقدم كبيراً إذا ضممت إلى ذلك الإنسان قبل التاريخ ، وكم بين الإنسان الذي يشبه القرد ، وبين فلاسفة العصر الحاضر وعلمائه وشعرائه وفنانيه من فرق !

ثم إن في طبيعتنا البشرية نفسها مصداق ما أقول . إن الطبيعة لم تخلق فينا الأمل والطموح عبثا ، إنما خلقتهما للسعي الدائب للرقي الدائم ، ولو أرادت الطبيعة أن يقف الإنسان عند حد لجردته منهما كما جردت الحيوان . إن للأمل في الإنسان وظيفتين : احتمال متاعب الحياة الحاضرة ، والسعي لحياة مستقبلة خير من حياته التي يحياها ، وهذا مبعث التقدم

الساعة

وهى مقطوعة من الوصف العبقرى الرائع

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

مع الزمان دائرة ... والحساب سائرة
قد قنعت ناحية ... منها وأخرى حاسرة
تحوى الزمان كله ... أوله وآخره
تريك ما تعنى به ... من الزمان حاضره
آتيه فى الغيب وما ... مضى طوال دائره
تبـدأ حيث تنتهى ... دائبة مثابره
تظل طول عمرها ... قادمة مسافره
حائرة وهدبها ... فى أن تظل حائره
صديقها الرفق بها ... كذاك دل ناظره
دعها تسر آمنة ... من عنت أو بادره
إن لم تصن من عبثٍ ... مشت خطاها عاثره
إن صدقت فصدقها ... توجيه غير آمره
أو كذبت فكذبها ... بلا يمين فاجره
لسانها عقارب ... ترحف غير نادره
حسبك من ولائها ... نومك وهى ساهره
تحفها معالم ... حول الطريق دائره
قد قدرت ما بينها ... تلك العقول القادره
وغيرها كم أبدعت ... من معجزات باهره
والله لولا علمنا ... بها لقلنا ساحره
بإحسها فى المعصم الـ ... ـناجى وهى ساقره
معجزة الحسن بها ... لكل عين ظاهره
أسيرة فى طوقها ... وكم تروح آسره
وكم تصاب مرة ... بعلة مساوره
والصدق من طبيها ... يعيد النهاء العاشره
كم يدعى كسراً ولو ... يصدق كان كاسره
أجرته على السقيـ ... ـم والصحيح وافره
ترى له عيادة ... فى كل حين عامره
لا يخرج الساعة إلا ... كى تعود زائره

أحمد الزين

فى مسكنه ، وملبسه ، ومأكله ، وعقليته ، ونفسيته .

قال : هب ما تقول صحيحاً ، فما قيمة « التقدم المستمر » إذا كان مصير الإنسانية الفناء ؟ لاشك أن سيأتى يوم تبرد فيه الأرض تبعاً لبرودة الشمس ، أو نحو ذلك كما كان الحال فى كثير من النجوم ، وإذا بالإنسانية كلها قد فنيت . وإذا كان كذلك ، فسواء صحت نظرية « التقدم المستمر » أو « الانحطاط المستمر » ، فالنتيجة واحدة وهى الفناء ، وبذلك تكون الغاية التى يسير إليها العالم غاية مضحكة ، فإذا كانت غاية مقصودة كانت غاية فى منتهى السخف .

قلت : ذلك يكون صحيحاً لو حسبت حساب هذا العالم المادى وحده ، ولم تضم إليه الحياة الأخرى ؛ أما إذا آمنت بحياة أخرى يستمر فيها الرقى والكمال ، وتكون فيها الروح بعد تجردها من المادة أقدر على الرقى وبلوغ الكمال حتى تقرب من خالقها ، لم يكن لاعتراضك وجه . ثم إنا إذا سلمنا بهذه الحياة الأخرى .

... ...

وهنا طلع علينا صديق مرح : السلام عليكم .

عليكم السلام .

ما لكما ساهمين ؟

نفكر .

فى ماذا ؟

فى نظرية التقدم المستمر .

ها ها ها .

أفى مثل هذا الجو وهذا المنظر يكون هذا الحديث ؟ تكلما فى غروب الشمس الجليل ، أو فى هذا البحر الجميل ، أو فى هذا الهواء العليل ، لا فى هذا الموضوع الثقيل ! ولكنكما كما قال المثل : يموت الزمار وإصبعه يلعب .

رأس البر أحمد أمين

هلال شعبان

لما وقعت عيني أمس على الهلال ، وردّد لساني على غير وعي مني أنشودة الشهر الجديد : « هلّ هلالك ، شهر مبارك ، الخ ... » رأيت أصابعي تعبث في جيبي لعلها تصيب في حناياه شيئاً من النقود الفضية ، كيما أرى على وجهها هذا الهلال ، حتى يكون شهره شهر يمن وإقبال — ولكني ما كدت أفرغ من هذه المراسم حتى غشيتني كآبة أطرق لها رأسي ، ثم سبحت من ذكريات الماضي في بحر عميق . . .

* * *

تذكرت الظروف التي رأيت فيها هلال شعبان في العام الماضي . فذكرت أني كنت أسير بعد الغروب بقليل في شارع مقفر في طرف من أطراف « العباسية » ، وكنت أخبط في الأرض ثقيل الخطا ، موجع القلب ، شارد اللب ؛ أحمل في يدي حقيبة صغيرة فارغة ، ولكني أحمل في رأسي جبهة أوقرتها الهموم — وظللت أرفع قدما وأضع أخرى حتى وجدتني أقف إلى جانب الواقفين أمام (بوابة) مقفلة من بوابات السكك الحديدية تعترض الطريق الذي كنت أسير فيه ... هناك رفعت رأسي المنكس ، فطالعني ذلك القوس المضيء في صفحة الأفق الغربي ، فأنكرته كأني لو كنت لم أره قط قبل ذلك اليوم .

* * *

لم أكن أعرف من الأيام أسماءها في ذلك الحين ، ولم أكن أعرف منها تواريخها ، ذلك لأني كنت خاضعاً في تلك الفترة من عمري لتقويم جديد — تقويم بدايته ذلك اليوم الذي ارتفعت حرارة ابني فيه إلى ٤٠° ، وقال لي الطبيب فيه إنه يجب أن أنتظر ثلاثة أسابيع قبل أن أتطلع إلى أي تحسين !! — أربعون درجة تصهر هذا اللحم الغض والمخ الناعم ثلاثة أسابيع كاملة لو ترفقت بي المقادير ، وإلا فإن المحنة تمتد إلى ما بعد هذه الأسابيع الثلاثة بأسبوع رابع وخامس وسادس أيضا !! فكنت منذ ذلك اليوم أحسب الأيام فأقول إن هذا هو اليوم الرابع في الأسبوع الأول مثلا ، وإن غداً سيكون اليوم الخامس ، وهكذا ... ولم تكن من أيامي الجمعة ولا الأحد ، ولم يكن من شهوري أغسطس ولا شعبان ... ولذلك لم أكترث لهذا الهلال الذي طالعني وأنا أمام « البوابة » لأنه لم يكن ليعنيني ، ولأنه لم يكن في تقويمي الجديد — ولذلك أيضاً لم أستقبله بتلك الأنشودة المأثورة ، ولم تمتد يدي إلى جيبي كدأبي منذ تنبهت لنفسي ، وكان لي جيب ، وكان هذا الجيب ينطوي على شيء من النقود ....

* * *

في ذلك المساء خرجت من مستشفى الحميات ، حيث كنت أودعت ابني في الصباح بناءً على مشورة الطبيب الخاص ؛ وكانت حال المريض قد بلغت من التعقد والخطورة حداً أوجب هذا الانتقال .

وكان مريضنا أعز الناس علينا ، لو سمعناه يعطس يوما لبتنا ليلتنا مسهدين نترقب ما يطلع علينا به الصباح من خير جديد ؛ ولو شكا مغصاً لقرقرت أمعاء أهل البيت أجمعين قبل أن يستوضحوه كيف يشكو وماذا يشكو ؛ ولو أرسلناه إلى الحديقة يوماً يرتع ويلعب كما يفعل أترابه من الأطفال فجرى ، فوقع ، فخدشت ركبته وعاد إلينا (برجل مسلوخة) ، لأفرغنا على جرحه كل ما عندنا من مطهرات ، ولضمدناه بالشاش المعقم ، ولما كفانا أن نعرض أمره بعد ذلك على أقل من على إبراهيم باشا .... فهذا هو الطفل الذي أراد له الله أن يضع رأسه في كيس من الثلج يعيش به شهراً أو نحو شهر ، وهو لا يذوق من طعام أهل الدنيا غير الماء أو ما يشبه الماء !

* * *

وأقبل علينا الطبيب في صباح ذلك اليوم المشهود يقول إنه اتصل بإدارة المستشفى ، وأنهم سيرسلون إلينا بسيارتهم لحمل المريض حوالى الظهر ...

وكان على أم المريض أن ترافقه . وكان علىّ أنا أن أذهب بعد ذلك إلى عملى الجديد فى بلد بعيد جداً عن القاهرة . وكان فى البيت أطفال آخرون لا يستطيعون أن يديروا أمر معاشهم . ولا كان من المستطاع أن نتركهم فى رعاية الخدم ، لأن الخدم لا يؤتمنون فى أمثال هذه الظروف . ولم يبق لهذا الموقف إلا حل واحد يفرض نفسه علينا فرضا ... وهو أن تقيم الأم مع ابنها فى المستشفى ؛ وأن يذهب الوالد إلى عمله فى ذلك البلد النائى الذى لم يكن له معدى عن السفر إليه ؛ وأن يقيم باقى الأطفال فى بيوت الأقارب ، وأن يقفل البيت موقتا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ....

وعلى هذا الأساس تمت التصفية . فجاء إلينا من أهلنا من استلم أطفالنا الأصحاء . وجاءت بعد ذلك عربة المستشفى لاستلام الوديعة الغالية ، فركبتْ مع الطفل أمه . وركبت أنا مع الاثنين ، لأن الحمى التى كانت ترمى جسد الصغير وصل هجيرها إلى عقل الأم فأصبحت أولى منه بالعناية .

وفى المستشفى وجدنا كل شئ جديدا علينا . ولا يخفى ما تحدثه هذه النقلة من اضطراب نفسى ، ولو ربما يعتاد الإنسان بيئته الجديدة . ناهيك عن توفر لهم من أسباب الاضطراب قبل ذلك ما لا يدع زيادة لمستزيد . فكانت تلك الساعات الست ، التى مرت بى بين دخول المستشفى ظهراً وبين إخراج عماله لى عند الغروب ، دهراً كاملاً بكل ما فى طوق الدهر أن يحمله من محن وآلام ...

ومهما يكن من رجاحة عقل الإنسان ، ومهما تكن تفاهة ما قد تمر به فى حياته من تجارب ، فإنه يقضى عليه فى أيام محنته حتى تتجسد فى عينه الأشباح وتتحيز الأوهام ، ويملأ الأمر صدره قبل وقته ، ويضيق به ذرعا إذا وقع ، ويثقل فى نفسه بأشد مما تبتليه به المقادير .

وليس ينقذ الإنسان فى أمثال هذه المواقف إلا رصيدٌ طيب من خلق التفاؤل والصبر والإيمان بالله . وأن يكون من قبل قد راض نفسه على إدراك أن هذه الدنيا مَعْبَرٌ قصير يزدحم عليه الماطل والحالى على السواء ، وهما فى طريقهما من الأزلية إلى الأبدية ، ثم ينتهيان إلى نهاية قريبة واحدة . وإنه لفرط قِصَر هذا المعبر لا يكاد ينتفع الحالى فيه بحليه ، ولا يجوز أن يتأذى الماطل فيه من عطله . وإنه لذلك يجب أن يأخذ المرء من الدنيا ما تعطيه ثم يقنع به . وإنه ما دام يعيش مسيَّراً فى الحياة غير مخيَّر فمن الحكمة أن يجعل شعاره : « إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ! » .

***

طافت كل هذه المعانى برأسى المثقل وأنا أقف أمام « البوابة » فى انتظار مرور ذلك القطار ، الذى قطع علىّ وعلى غيرى الطريق ، وإذا بقعقعة دواليبه وجلجلة حديده تقترب نحونا رويداً رويدا فتنبهنى من تلك الغيبوبة التى أغرقنى فيها تفكيرى ... وإذا بى أنفث من صدرى نفساً عميقاً كأنما زفرت به كل ما كان يعشش فى حناياه من وساوس !

وانطلقت بعد ذلك فى طريقى حتى دخلت دارى الخاوية الموحشة ، فحملت تحية ربى فيها على هذه الصورة ركعتين صليتهما لله . وإنى أحمده تعالى على ما آنس بهما من وحشتى فى تلك الليلة ، وما آمن من خوفى !

***

هذا هو تاريخ اليوم الأول من فترة قوامها ستون يوماً ، سار بنا موكبها الى ، بالحوادث حتى أشرفنا على قباب « حى الفقير » وكدنا نشرف على أقبائه أيضا ، لولا أن

مسلمو بوسنة وهرسك

توجد مقاطعة بوسنة وهرسك فى وسط شبه جزيرة البلقان، وتقع بين نهر درينا فى الشرق ونهر سافا فى الشمال، ونهر أونا فى الغرب، وتمتد جنوبا إلى حدود دالماسيا.

والبلقان كما هو معروف من التاريخ العمومى، كان ولا يزال مزيجا من الشعوب المختلفة الأجناس والأديان، حتى يتعذر علميا ضبط الفوارق الحقيقية بين هذه الأجناس المختلفة، وتعيين انتماء مجموعة معينة من هذه الشعوب إلى جنس معين. ذلك أن البلقان كان مدى القرون قنطرة العبور للأقوام والشعوب المختلفة، التى هاجرت من آسيا إلى أوروبا ومن أوروبا إلى آسيا. فمن وقت حركة الشعوب الأسيوية الكبيرة فى الفترة التى نسميها فى التاريخ «هجرة الشعوب»، عبرت أقوام متنوعة متلونة هذه القنطرة الدائمة زاحفين من الشرق إلى الغرب؛ وكذلك أثناء الحروب الصليبية زحفت الشعوب الغربية المشتركة فى تشكيلات الجند من الغرب إلى الشرق عبر هذه القنطرة أيضاً. وكل شعب من هذه الشعوب المهاجرة العابرة ترك أثرا ما فى الشعوب البلقانية، حتى إن الناحية الأثنولوجية للشعوب البلقانية صعبة التحقيق والتعيين كما قلنا.

وفى القرنين الخامس والسادس الميلادى تحركت الشعوب السلافية من سهول روسيا الوسطى زاحفة نحو الغرب والجنوب، واقتحموا حدود الدولة البيزنطية، وفى مرور الزمن استوطنوا الربوع البلقانية، وأخذوا يستمدون شيئاً فشيئاً مدنية بيزنطة بعد ما اعتنقوا الدين المسيحى. وأسست هذه القبائل السلافية فيما بعد دويلات فى البلقان، وأهم هذه القبائل هم الصرب والكرواتيون. فكان للصرب دولة فى شرق البلقان، وللكرواتيين فى غربه، بينما نشأت فى الوسط، فى مقاطعة بوسنة، دولة سلافية ثالثة هى دولة بوسنة. وكانت هذه الدولة فى بعض الأحيان كبرى الدول السلافية فى البلقان.

انتشرت النصرانية بين السلافيين فى البلقان على أيدى قسيسين من قساوسة اليونان هما كيريل، وميتوديوس. فلما حصل الانشقاق بين بيزنطة وروما وانفصلت الكنيستان، سقط الصرب تحت نفوذ الكنيسة الشرقية، بينما انضم الكرواتيون إلى كنيسة روما. والحد الفاصل بين الكنيستين امتد من بلغراد فى خط متموج إلى البحر الادرياتيكى حتى وقعت بوسنة فى ملتقى الكنيستين.

ومن القرن الثانى عشر الميلادى انتشر فى بوسنة مذهب دينى معروف باسم بوغوميل (معناه «محب الله») وازدهر هنا ازدهاراً كبيراً جداً، حتى الملوك البوسنويون كانوا يدينون بهذا المذهب. وكان هذا المذهب دين الأغلبية الساحقة من أهالى بوسنة وهرسك قبل ظهور الإسلام فى هذه الأقطار. قال السير توماس أرنولد فى كتابه «تاريخ انتشار الإسلام» ما يأتى:

«إن الأغلبية العظمى من أهالى بوسنة وهرسك قبل الفتح العثمانى كانت تنتمى إلى مذهب دينى خاص معروف باسم بوغوميل، وكان هذا المذهب معتبراً من الكنيسة

تداركتنا رحمة الله بجرعة من الدم أجريناها فى عروق المريض وهو فى اللحظة الأخيرة التى كان يرفع الموت فيها رايته البيضاء بعد جلاد شهرين متتالين. فوفقنا بذلك إلى اجتذابه مرة أخرى نحو هذا المعبر الفانى ليتم معنا رحلته عليه.

* * *

وإنى لأعتذر عن تقدمى بهذا الحديث الخاص إلى أسرة الثقافة، فإنى لم أسقه إلا تبريراً لغيابى عنهم كل هذه الشهور الطوال، ولقد شعرت وأنا أعود إليهم أن لابد لى من أن أقول فى ذلك كلمة، فكانت هذه هى كلمتى. ولعل حديثى معهم فى المرة القادمة أن يكون أشرح للصدر، وأروح للنفس من هذا الحديث.

ع . ع

النصرانية الرسمية مذهبا إلحاديا . ومن القرن الخامس عشر كان المعتنقون لهذا المذهب مضطهدين شر اضطهاد من جانب بابا رومة . وفي الكتاب الذي أرسله بابا ژان الثاني والعشرون إلى ملك بوسنة نجد هذه البيانات :

« ولدي العزيز ، ملك بوسنة النجيب إيفان » !

بلغنا أنك ابن كنيستنا الصادق ، لأجل ذلك ننتظر منك إبادة الملحدين الموجودين في مملكتك ، وننتظر أيضاً معاونتك الخالصة مع رسولنا ، مأمور انكزيسيون فابيوس ، إن الروافض قد انحدروا إلى بوسنة من الجهات المختلفة ، حيث وجدوا مكانا خصبا لغرس بذور أشنع الضلالات ، ويسعون بشتى الوسائل إلى إضلال أذهان الكاثوليكيين وإفساد عقائدهم النزيهة ، آخذين بأهداب الدسائس الإبليسية المروقة ، مسلحين بأزهار الكذب والأضاليل ، متظاهرين بتمسكهم بالدين النصراني ، حتى إنهم في الحقيقة ذئاب وحوش في جلود الحملان الأبرياء . وهم يهتمون أشد اهتمام بتسميم عقول قطعان المسيح البريئة وعقائدها المقدسة » .

كان البوغوميل يعيشون سنين عديدة في كفاح مستمر في سبيل حرية عبادتهم ، يعيشون بين المطرقة والسندان ، مضطهدين من الشرق والغرب ، ولكنهم رغم هذا كله لم يتزعزعوا في دينهم ، ولم يتركوه إلى غيره إلى حين ظهور الفرق الإسلامية الأولى في هذه الربوع .

سقطت بوسنة تحت حكم الأتراك سنة ١٤٦٣ م . وهرع البوغوميل إلى اعتناق الدين الإسلامي جملة لما وجدوه في الدين الإسلامي من مشابهة مدهشة بينه وبين مذهبهم . وهذا المذهب الديني كان معروفاً في الشرق في زمان الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فاعتنقه العساكر الرومان ونقلوه من العراق إلى بلغاريا ، ومن هنا انتشر في صربيا انتشاراً كبيراً ؛ حتى إن ملك الصرب استيفان نيمانا خوفا من تسلط هذا المذهب على صربيا كلها أرغمهم على الهجرة من مملكته . فلما هربوا من صربيا جاءوا إلى بوسنة حيث انتشر مذهبهم بين أرقى طبقات الشعب ، واعتنقته الأغلبية الكبرى من الشعب البوسنوي .

كان البوغوميل كما يبدو من طريقة حياتهم وعقائدهم وعاداتهم ، البقية الباقية من الذين حافظوا على دين الرسل والأنبياء ، من عهد سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلى ظهور سيدنا محمد (ص) . قال السير توماس أرنولد في الكتاب المذكور :

« إننا نجد من أقوى الأسباب لاعتناق البوغوميل الدين الإسلامي جملة أن مذهبهم كان في الواقع يشبه الإسلام في نقط كثيرة . فإنهم لم يكونوا يعبدون مريم ، ولم يعترفوا بحق القسيس في غفران الذنوب ، ولذلك لم يكن عندهم عادة اعتراف الذنوب في حضرة القسيس . وكانوا يردون أشكال الرهبانية المختلفة ويبغضون الصليب أشد البغض ؛ بينما اعتبروا وضع الأشكال والصور والتماثيل في المعابد ، والأمانات المقدسة الموجودة عند النصارى ، اعتبروا هذا كله شركا صريحا . أما معابدهم فكانت بسيطة وغير مزينة بالأشكال على عكس ما كانت عند النصارى ، وكانوا متفقين مع المسلمين في استنكار أجراس الكنائس ويسمون هذا الجرس « نفير إبليس » . ما كانوا يعتقدون أن السيد المسيح هو الذي صلب ، وكانوا في هذا الاعتقاد متفقين مع ما ورد في القرآن الكريم في شأن وفاة السيد المسيح . وأما المشروبات الروحية فكانت محرمة عندهم ، وفي الحياة العادية يميلون إلى الرياضة البدنية . كانت النظافة عندهم مفروضة مكتوبة ، وكانوا يصلون خمس صلوات في النهار وخمسا في الليل ، وكانوا يصلون جماعة جاثين على ركبتيهم . فعلى هذا لم يجدوا فرقا كبيراً بين عبادتهم وعبادة المسلمين في مساجدهم » .

فكما نرى من هذه الحقائق كان البوغوميل أقرب إلى الإسلام منهم إلى النصرانية ، وإن كانت النصرانية الرسمية تعتبرهم مذهبا نصرانيا ضالاً . ولكن رغم كل هذه الحقائق الظاهرة يزعم كثير من الجهلاء المتعالمين أن الإسلام انتشر في البلقان وفي غير البلقان بالسيف والنار .

ولكن الجهلاء جهلاء لأنهم لا يعرفون حقائق الأمور . فلما كانت محاكم الانكزيسيون تشتغل في الأندلس في سبيل تنصير المسلمين ، وتنظيف البلاد منهم ومن اليهود بالسيف والنار ، استفتى السلطان سليم شيخ الإسلام على أفندى زمبيل في رد المثل بالمثل بالنسبة إلى نصارى البلقان ، فأفتاه الشيخ قائلا : « لا إرغام في الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وما دام النصارى يؤدون واجباتهم نحو الدولة يجب على الدولة أن تحميهم وتذود عنهم » ، فشتان بين هذا الحكم وبين أعمال الإنكزيسيون ، وما أبعد الإسلام عن إرغام أحد على اعتناق تعاليمه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ومن ناحية أخرى لم ينتشر الإسلام في البلقان بين الشعوب السلافية إلا في بوسنة وهرسك . فللباحث أن يتحرى أسباب هذه الواقعة ، ويجدها بلا شك في نفسية البوسنويين العميقة ، وما كانوا محاطين به من اضطهاد شديد من الشرق والغرب ، ومن قرب دينهم إلى الإسلام .

والإسلام تغلغل في قلوبهم تغلغلا نادراً ، فلا يوجد عند شعب إسلامي آخر ، وعندهم حرارة دينية متقدة في صدورهم ، لاحظها كل من مرّ بهذه البلاد . والإسلام عندهم صاف طاهر ، لا تشوبه شائبة . وهم ضحوا في سبيل هذا الدين المبين بتضحيات لا مثيل لها ، وأقاموا على أقصى حدود لنفوذ الإسلام في أوروبا حصوناً من صدورهم ، يدافعون عن كيان الدولة الإسلامية مدة خمسة قرون . وكانوا لمدة وجود الدولة التركية في البلقان مشمولين بعطف السلاطين ، ولعبوا في أوقات معينة الدور الأول بين مجموعة الشعوب الإسلامية في الدولة التركية ، وكان لهم استقلال تام في داخل حدود مقاطعتهم ، وترقوا إلى أعلى المناصب في الدولة التركية في أزهى عصورها . يكفى لك دليلا ما قاله السير توماس أرنولد : إنه كان من البوسنويين من سنة ١٥٤٤ إلى سنة ١٦١١ تسعة رؤساء وزراء (الصدر الأعظم) ، وهو أكبر منصب في الدولة بعد السلطان مباشرة . وكان أحدهم ، وهو صقلى محمد باشا رئيس الوزراء لمدة ست عشرة سنة كاملة في عهد السلطان سليمان القانوني ، والسلطان سليم الثاني ، والسلطان مراد الثالث ؛ حتى إن المؤرخين يعتبرون بحق بدء انحطاط الدولة العثمانية لا من وفاة السلطان سليمان ، بل من وفاة صقلى محمد باشا . وصقلى هذا هو الذى هدد أوروبا بكلمات مأثورة : « ألا تغضبنى أوروبا فإننى أقدر أن أبنى على حدود الإمبراطورية جداراً لا يتخطى ! » ، وهو الذى قال للإميرال قيلج على باشا بعد معركة ليبانتو البحرية المشهورة حينما انهزم الأسطول التركى شر انهزام : « لا تحزن فإننى أقدر أن أصنع في السفن بدل الحديد فضة ، وفى قلاعها بدل الكتان حريراً » . وهو الذى كان يفكر جدياً في الجامعة الإسلامية وتأسيس دولة تشمل المسلمين كلهم ، وكان قد عزم أن يحفر قناة السويس في الجنوب ، وأن يوصل نهر دون بنهر وولغا في الشمال ، لكى يتسنى له إنشاء المواصلات بين استامبول والهند وآسيا الوسطى . وقد أوشك على تنفيذ هذه المشروعات العظيمة لولا الدرويش الملعون الذى أنهى حياته بضربة قتالة . وليس هو الوحيد من جنسه ، فهناك الكرواتى محمود باشا ، وأحمد باشا هرسكى ، وغازى خسرو بك وغيرهم وغيرهم . وهؤلاء العظماء وأعمالهم الجسام أوحت إلى زعيم شعراء بوسنة وهرسك المرحوم الدكتور صفوت بك بشاغيتش بالأبيات المترجمة في هذا المعنى :

إننا وإن كنا قليلى العدد فالفخر يملأ صدورنا ، لأننا أهدينا الشعوب مدة كباراً منا وعظماء كالبدور .

وأما أعمال البوسنويين في ميدان الآداب والعلوم الإسلامية في هذه الفترة من الزمن ، فالرجوع إلى كتاب « الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة » للأستاذ محمد خانجيتش .

انفصلت بوسنة من الشرق الإسلامي لأول مرة بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، وسقطت تحت نفوذ دولة غربية غير إسلامية . فقد قررت الدول المشتركة في هذا المؤتمر ضم بوسنة وهرسك إلى الإمبراطورية النمساوية بتبرير إجراء النظم الحديثة فيهما . وهذا الانضمام اعتبر في أول الأمر مؤقتا وصوريا ، ولكن النمسا ضمت المقاطعتين فعلا وقانونياً إلى ممتلكاتها سنة ١٩٠٨ ، وأعطت الدستور للبلاد . وبعد احتلال البلاد من النمسا هاجر حوالي ثلاثمائة ألف مسلم إلى تركيا ، ظنا منهم أن النمسا قد تحاول الاعتداء على دينهم . وفعلا كانت هناك بعض المحاولات في هذا الصدد التي يرجع الفضل فيها لقيام المسلمين جميعاً بمطالبة الاستقلال في الشئون الدينية والتعليمية والوقفية ، فنالوا هذا الاستقلال بعد كفاح طويل .

فلما انهارت الدولة النمساوية عقب الحرب الماضية العظمى ، أنشأت من أراضيها التي يقطنها البوسنويون والكرواتيون والصلوونيون ومن مملكتي صربيا والجبل الأسود ، دولة جديدة سميت في أول الأمر دولة الصرب والكرواتيين والصلوونيين ، وأخيراً اتخذت لنفسها اسم يوغسلافيا . وهكذا انضمت بوسنة لأول مرة في تاريخها في دولة واحدة مع صربيا وكرواتيا .

والدولة الجديدة خبطت مدى عشرين سنة من عمرها طالبة شكلا مناسبا للحكم الداخلي ، لكي ترضي رغبات مختلفة لشعوبها المختلفة ، التي أثر التاريخ في كل واحد منها تأثيراً خاصا بحسب ظروفه ومناسباته . فلما طغت النزعة الجنسية على هذه الشعوب سببت اختلافات داخلية شديدة أدت إلى طلقات المسدسات في برلمان بلغراد .

فلما نشبت الحرب الحاضرة وقع ما هو معروف لكل من يقرأ الجرائد اليومية . وأخيراً أبلغتنا هذه الجرائد بوقوع المجزرة البشرية في بوسنة ، وأنه قتل من المسلمين البالغ عددهم مليونا واحدا أكثر من مائتي ألف وتشرد منهم مثل هذا العدد . فهذه ولا شك محاولة جدية مدبرة سلفا ، ومحكمة أحسن إحكام لإبادة المسلمين هناك إبادة تامة . فيالعار ويالفضيحة على المدنية الحديثة وعلى أوروبا المسيحية ! !

نحن لسنا مختصين ولا مدعوين لوصف الأسباب التي أدت إلى هذه الآلام ، هذه الوحشية التي لا مثيل لها في أظلم عصور التاريخ ، ولكن نقدر أن نقول كلمة بسيطة ، وهي أن هذه المحاولة يجب أن تخجل منها لا البلقان وحدها بل أوروبا المتمدنة كلها .

فالوحشية المتناهية التي أيقظت الأحقاد والضغائن المخبوءة في أعماق القلوب ، جعلت من أجمل وأحسن مقاطعة في البلقان مسرحا للآلام لا تتخيلها إلا مخيلة دانتي . فآلاف الأطفال يهيمون في هذه الربوع الخربة كالقطعان المتوحشة من مكان إلى مكان ، ولا يعرفون ماحل بآبائهم وأمهاتهم . وكم من جنين خرقه السكين في بطن أمه قبل أن يرى أنوار الشمس الساطعة ، وكم من عرض قد هتك ، وكم من عضو قد بتر ، وكم من مسجد قد خرب ، وكم من مدرسة كان يتعلم فيها القرآن الكريم قد دمرت ، وكم من دم برىء قد سفك ، وكم من عالم قد استشهد وهو في الصلاة متجها إلى بيت الله الحرم ! فهذا حقا مما يذيب القلب من كمد ، إن كان فيه إسلام حقيقي . وذنب أن هؤلاء المنكوبين لا يعانون كل هذه الآلام إلا لأنهم مسلمون . والصرخة التي أرسلها ممثلوهم من مدينة استانبول إلى صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة المصرية هي صرخة مؤلمة ، هي صرخة المحتضر ؛ فإذا لم تجد هذه الصرخة صدى في العالم الإسلامي فقد كتب على البقية الباقية من مسلمي بوسنة وهرسك نهاية عهدهم في أوروبا المسيحية . فاعتبروا يا أولي الأبصار .

علي يوسف هوديتش

عضو البعثة البوسنوية في الأزهر الشريف

الملاك العصرى !

... قرأت فى إحدى الصحف حديثاً مع فتاة مصرية صغيرة السن جميلة الصورة ، حصلت بين زميلاتها الصريات على أكبر شهادة فى الطيران . وقد جرى حديث الفتاة مع مندوب الصحيفة على الأسلوب الصحفى المعروف فى مثل هذه المناسبات . وأحببت أن أسجل بدورى حديثاً فى هذا الموضوع على أسلوب آخر ؛ فمثلت فتاة أخرى فى نفس الموقف ، جرى الحديث « المتخيل » بينى وبينها على النحو الآتى :

أنا : ما الذى حبّب إليك هذه « الهواية » العجيبة ؟

هى : رغبتى فى أن أعلو حتى أرى الرجال أقزاما ، أو نقطا سوداء صغيرة .

أنا : شىء معقول ! هـذا يوحى لنا بأننا نبدو فى أعينكن كالعمالقة ، وأنكن غير قادرات على التخلص من هذه الصورة إلا بمثل هذه الوسائل البهلوانية .

هى : أو تحسب أننا نكره أن تكونوا عمالقة ! إن القائد فى المركبة يرهبه دائما أن يكون غريمه على شىء من القوة !

أنا : ولكن هلا جعلت فى حسابك أن الرجال لا يرونك أيضا وأنت فى هذا العلو وعلى هذا البعد ؟

هى : إن أزيز الطائرة . كصوت المرأة أبدا ! ولقد أفلح المهندسون فى إدخال كل تطور محتمل على الطائرة إلا فيما يتعلق بهذا الأزيز الفاضح ! ، إنه ليكفى وحده أن يجذب رؤوسكم الكبيرة نحونا .

أنا : ليس كل مايلفت الأنظار مهمًّا . وقد يراك الرجال وأنت محلقة فيحسبونك غرابا ضالا أو صقراً يبحث عن قطعة من اللحم ملقاة فى عرض الطريق !

هى : إننا نفضل لحومكم على اللحوم التى تباع عند الجزارين .

أنا : بل قولى « الجزارات » ؛ فإنكن أولى بهـذا الوصف .

هى : حقاً ! ؟ (تنظر إلى يديها) إن يدىّ أصبحتا خشنتين من مجلة القيادة وإصلاح الأجهزة .

أنا : إن إصلاح أجهزة ألف طائرة لا يعدل خلل جهاز قلبك .

هى : وما الذى أدخل القلوب فى خشونة الأيدى ؟

أنا : بل المسألة هى إدخال الخشونة فى القلوب !

هى : وهل أخطئ حين أزاول عملا يدويا كإحدى القرويات أو إحدى العاملات ؟

أنا : لا تقولى ذلك ! إن العاملة قد تفقد جمال يديها ، ولكنها لا تفقد قلبها . وقد تتشقق يد القروية وقدمها ولكن فى سبيل التئام نفسها وكبح ما ركب فيها من طمع ...

هى : هل تحب القرويات ؟

أنا : إنك تغيرين مجرى الحديث للمرة الثانية ! حدثينى عن شعورك وما تحسين عند قيادة الطائرة وهيمنتك على الأجواء ، واعتلائك فوق الأرضين .

هى : أحس بأنى امرأة . أحس بأنى سيدة كبيرة تسيطر على ملايين البشر ، ثم أفقد هـذه السيطرة حين أهبط ثانية إليهم .

أنا : لو أنك منصفة فى حق نفسك لما هبطت أبداً !؟

هى : هى تضحية كما تراها !! فلعلك تقدرها وتقدر صاحبتها .

أنا : (ساخراً بدورى) إنك مـلاك حقاً ... ... ولكن من نمط عصرى يختلف عن تلك الأنماط العتيقة التى صورتها الكتب المقدسة .

هى : إنك لا تبالغ كثيراً فى هـذا الوصف . وأية صورة أخرى يمكن أن توحى إليك عند ما ترانى أهبط إليك من السماء ؟

أنا : إن السماء ترسل أيضا الرعد والصواعق !

هى : تلك من خطط القيادة العليا !!

أنا : العفو ! ما هذا التواضع ؟!

هى : إنى حقاً متواضعة ...

أنا : هل أحسست يوماً وأنت فى هـذا الفضاء الملائكى إحساسا إنسانياً خاصاً ؟

هي : إنني كثيراً ما أستشعر اللذة كلما تخلت نفسي وأنا في شاهق أملأ حقيبتي بالذهب وأنثره على الناس .

أنا : هذا شيء خليق بتفكيرك .

هي : أظنك لا تهزأ بي في هذه المرة ؟

أنا : مطلقا . وكيف تتخيلين الناس بعد مفاجأتهم بالذهب الذي أمطرتهم به من السماء ؟

هي : (ضاحكة مغتبطة) أتخيلهم وقد اندفعوا في جنون وشهوة يتلمسون القطع الذهبية من تحت الجثث التي أهلكتها شدة الزحام .

أنا : كان سؤالي من «الإحساس الإنساني الخاص» ؟.

هي : (غير منتبهة) ماذا تقترح لاختيار الصورة التي يجب أن تصك على وجه القطع الذهبية ؟

أنا : صورة « الشيطان » هي التي أفضلها . . .

هي : وكيف نحصل على صورة الشيطان ؟

أنا : اسألي عنها أي رجل ، يصفها لك سريعا وأنت واقفة بجانبه !

هي : (لا تزال في نشوتها) ألا تحسب أنه أيسر علىّ وأهون من احتضان الذهب ثم إلقائه ، وما يقتضي ذلك من تعطيل إحدى يدي عن القيادة ، أن أركب زراً في عجلة القيادة نفسها كلما ضغطت عليه انفتح باب تدافع منه المال وانتثر ؟

أنا : ألا ترين أن عاطفتك قد أخضعها « عدّاد » الطائرة ؟

هي : لماذا تحنق يا عزيزي على الطيارات ؟

أنا : إنني أقصر حنقي على الطيارين ، أما أنتن فإني أحصكن بما هو أبشع !

هي : ولكني أجرب أحد أعمال الرجل ، وأقلده وأترسم خطاه !

أنا : خير لك أن تقلدي القردة .

هي : إنني ما زلت أفضل الرجال على القردة .

أنا : لأنهم أشد غباوة .

هي : بل لأنهم أشد ضعفاً !

أنا : ثم تحاربن وترائين ، أنت ولداتك ، وتدّعين بأنكن الجنس الأضعف ؟

هي : إننا نفعل ذلك لإثارة الغرور في نفوسكم .

أنا : أي غرور ؟ إن الهلع ليغمر قلوبكن ، وتطير أفئدتكن شعاعاً لتافه من الحادثات ...

هي : ليس هذا خوف الضعيف ، بل هي أنانية القوي !

أنا : وما الذي يلجئك إذن ، مع هذا الاعتداد ، إلى ركوب الصعب من الأمور ؟

هي : وكيف يسمى الاعتداد باسمه إذا لم يطلّ من فوق قمم السحاب ؟ !

أنا : وأنتن بالرغم من هذا الادعاء فاشلات متخلفات .

هي : متخلفات في أي شيء ؟

أنا : في ميدان الرجل .

هي : إن البقرة الحلوب توجد دائما في المرعى ، أما المهزولة الجافة فتستخدم في أعمال الحقل !

أنا : نحن لا نريد الخروج من أعمال الجو . فسّري لي أولا كيف تناقضين طبيعتك بركوب هذا الطير الميكانيكي المشئوم ، الذي يدل على الخراب والدمار أكثر من دلالته على الخير ؟

هي : إنه لا يدل على الدمار إلا بكم ، فدعوه لنا نحسن استعماله ، ونجعل الفضاء ميادين غزل لا ميادين حرب .

أنا : لعن الله الميدانين . ففي كليهما مصارع الرجال ..

هي : أتظن ذلك ؟ !

أنا : . . . .

. . . ووجدت الخبيثة قد لوت عنقها ، وبدت كمن جرحت ، فكسرت الحدة التي في عينيها وعبأتهما مسكنة ولينا ، وصعدتني برموشها الخاطفة وهي تشبك يديها مستكينة مستضعفة ... فوقفت قبل أن يهبط الضعف بيراشوت على قلبي ... واستأذنتها في إنهاء الحديث على هذه الصورة . وقبل أن أسمع إجابتها موافقة أو معترضة ، لمست يدها في سرعة ، وسلمت هارباً . ! !

محمد علي ناصف

بين المسموع والمقروء

صبر :

الجاويش فريدرك بون ، جاويش بوليس في حيّ الصحافة في لندن . عرف الصحفيون وجهه خمسة وعشرين عاما . يمرّ عليه المحرّرون صباحا فيصيحون به :

— عم صباحا يا مستر فريد .

— عم صباحا يا سيدى .

وتقاعد الرجل قبل الحرب الحاضرة بخمس سنوات . فلما اشتعلت نيرانها استجاب داعى الوطن والتحق بقوة البوليس اللندني ، وعاد إلى مَضربه الجديد من شارع فليت شارع الصحافة ، فرأى من وجوه أهله ما اعتاد أن يراه ، ورأوا من وجهه وجها افتقدوه زمانا .

ولكن في هذه المرة صاحبه سوء الحظ ، فقد أصابت القنابل بيته أربع مرات . ويأتيه الزميل وهو فى دورته من الشارع بخبر ما أصاب بيته ، فيطلب إلى زميله أن يأخذ مكانه ساعة ، ويذهب إلى منزله ، فيتناول المكنسة ويكنس ما يسد مداوس الأقدام من التراب والأنقاض . ويعود توًّا إلى عمله يشبر شارع فليت طولا وعرضاً . حتى إذا دخل الليل ذهب إلى منزله فقضى الساعات يصلح ما أفسدته القنابل ، ويحمد الله أن لم تكن من تلك التى ترفع سافل البيت وتخفض عاليه في ثانية .

وفى رابع مرة أتاه الخبر بإصابة بيته . فابتسم ونظر لزميله وقال : « وهو كذلك . لن أغيب طويلا . وسأكتب إلى هتلر هذه المرة خطابا أسأله فيه أن يغيّر حجم قنابله . فإنا أكره الروتين . ويبقى لن يصبر على طعام واحد » .

وهو إلى الآن ينتظر القنبلة التى تذهب بالبقية القليلة الباقية من بيته دفعة واحدة ، ولكنها لا تجيء .

ثلاثة نوابغ :

هى ثلاثة أسماء ، خرجت بهما أخبار الحرب من بطون الكتب التاريخية إلى كل فكر متقّف ذاكر . تلك هى : مدينة بيزا ؛ ثم برجها المائل الشهير ؛ ثم العلاّمة الرياضيّ الأشهر جاليليو ، وهو الذى زاد هذا البرج ذكراً سيبقى على الأيام مابقى العلم والعلماء .

بيزا المحربة :

مدينة على نهر الأرنو بشمال إيطاليا ، وهى فى الغرب من فلورنسا ، وفى الجنوب الشرقى من جنوا . وقد ذكرنا هذين البلدين بالذات للخصومة القديمة ، خصومة القرون الوسطى ، التى كانت بينهما وبين بيزا ، حين كان الحكم إقطاعيا ، حكم الدوقات والأشراف .

وبيزا اليوم ليست بالبلد الكبير ، فسكانها لايتجاوزون ١٠٠٠٠٠ نسمة . وكل ما يعرف عنها الناس اليوم أن المسافر من روما إلى جنوا يغيّر عندها القطار طلباً لمدينة فلورنسا ، وأن السائحين يتوقفون عندها لرؤية آثارها . فهى قطعة من الماضى ، ولكنه الماضى العتيق الجميل .

وآثارها أربعة : حائطها وطولها ٦½ من الأميال ، وكتدرائيتها ، ومغطس التعميد فيها ، ثم برجها المائل ، وكلها مآثر للمدارس الفنّان ، وهى فى تاريخ الفن أولى مآثره التى قامت فى إيطاليا فى القرون الوسطى ، أى هى الطليعة فى الفنون الإيطالية ، ومن بعدها تابع فن المعمار الإيطالى إلى الإحسان النادر طريقه المعروف . ومأثرة خامسة لهذا البلد يحبها كل عالم ، وكل طالب علم ، أنها مولد جاليليو .

ودارس تاريخ الشرق لا ينسى بيزا . فمن بيزا ، وهى جزء من دوقية تسكانى ، خرجت الجيوش فى القرن الميلادى الحادى عشر تدفع جيش العرب الذى أراد أن يغزو القارة الأوروبية من جزيرة سردينيا وجزيرة صقلية . وكان على رأس الجيش العربى قائد يسميه الإيطاليون

« موجيتو » ويسميه العرب مجاهداً ، ومن بيزا ، عام ١٠٩٩ ميلادية ، خرجت الجيوش تحارب الشرق على أرض فلسطين ، في الحروب الصليبية الثانية . ومن هذه الحروب أفادت بيزا ، لاتصالها بالشرق ، كثيرا من علم وتجارة وثروة ، جعلها تتابع حملاتها على الشرق في القرن الثاني عشر ، فتهاجم العرب بأسطول ذي قوة عند الأندلس ، في جزر البليار .

والقرن الثاني عشر هو القرن الذي بلغت فيه بيزا أوج مجدها الفنيّ ، فآثار الفن فيها تمّت في هذا القرن ، وبأيدي رجالها .

البرج المائل :

وهو مستدير الشكل طويل ، كما وضعت أسطوانة فوق أختها . ويبلغ طوله نحو ٥٥ مترا ، أي نحوا من ١٤ دوراً من أدوار المنازل الحديثة . أما أدواره هو الذي تقسّم إليها فثمانية ، يحيط كل دور منها أعمدة ثلاثون تحمل أقواساً ثلاثين ، إلا الدور الأرضي فأعمدته ١٥ ؛ وإلا الدور العلوي الذي تسكنه الأجراس فيحمل ١٢ عمودا .

والبرج كله من الرخام الأبيض .

وشهرة البرج في اثنتين : أنه مائل ، وما تقام الأبنية مائلة ، وما هي تقام لتميل ؛ وأنه في هذا البرج ، وفي أدواره على اختلاف علوّها ، قام جاليليو بأبحاثه الشهيرة عن جاذبية الأرض .

أما عن ميل البرج فلا يعرف التاريخ عن سببه شيئاً وثيقا . ولكنه إذا تحقق أن بانيه لم يكن رجلا مخبولا ، فلا يبقى إلا الزعم بأن الأرض من تحته مالت في ناحية فال معها . ويزيد هذا الزعم صوابا أن أساس هذا البرج الطويل لا يغور في الأرض أكثر من ثلاثة أمتار وبعض المتر ، وأن ميله هذا يزيد على القرون . فرأس البرج كان قد انزاح في الاتجاه الأفقي عن محوره الرأسي ١٥½ قدما في عام ١٨٢٩ . ولما قيس انزياحه عام ١٩١٠ كان ١٦½ قدما ، أي أنه زاد قدما أفقيا في نحو قرن .

أما عن الجاذبية وأبحاثها فقد أسقط جاليليو من فوق البرج أثقالا من أجسام مختلفة ، أثبت بها أن هذه الأجسام الساقطة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، خفيفة كانت أو ثقيلة ، تصل إلى الأرض من علوّ واحد في زمن واحد . وتابع بعد ذلك أبحاثا أثبت فيها علاقة ما بين سرعة السقوط وزمنه ومسافته ، كانت هي أساس علم الحركة ، والتبشير بقوانينها التي نطق بها نيوتن من بعد ذلك .

جاليليو :

هو أول الفزيائيين ، أي علماء الفيزيقى ، أو ما نسميه بالطبيعة . أولهم في العصر الحديث .

ولد بمدينة بيزا عام ١٥٦٤ ، ومات عام ١٦٤٢ ، أي أنه عاش ٧٨ عاما . دخل جامعة بيزا في سن السابعة عشرة ، وفي سن الخامسة والعشرين عين أستاذاً للرياضة فيها . وأعلن كفره بتعاليم أرسطو ، وكانت إنجيل القوم في العلم والفلسفة عند ذاك ، فتحرّج مركزه في بيزا ، فغادرها إلى جامعة بدوا أستاذاً للرياضة فيها عام ١٥٩٢ . ولكن عادت جامعة بيزا فاستدعته إليها عام ١٦١٠ .

وقد بحث في الحركة وقوانينها ، وفي البندول وذبذبته . ولفت نظره إلى بحوث البندول ما لاحظه بكتدرائية بيزا وهو في سن التاسعة عشرة من ذبذبة قناديلها . فقد وقع عندئذ في نفسه أن البناديل ذات الأطوال الواحدة تقطع الذبذبة الواحدة في زمن واحد مهما كان ثقل البندول .

وبحث في السماء وأجرامها وفي دوران الأرض . وفي هذا اصطدم بالكنيسة . وبعد المحاكمة ، والحكم بكفره ، اضطرته محكمة التفتيش ، وهو الشيخ العاجز ، إلى أن يركع ويقول علنا ببطلان عقيدته في أجرام السماء ، ودوران الأرض . فركع وأعلن بطلان كل ذلك . وعندما وقف ضرب الأرض بقدمه وتمتم من بين أضراسه : ولكنها برغم ذلك تدور .

وزجوا به في السجن . ولكن لم يلبث فيه أياماً حتى استبدل سجنه بالنفي . ثم عاد إلى بيته وقضى أيامه الأخيرة

فى بحوث علم الميكانيكا والقذائف . ثم جاءه الصمم ، وجاءه العمى ، وجاءه اضطراب السلام فى بيته ، ومسه الضر شديداً قبل أن يفارق هذه الدنيا .

من نصف قرن :

« شلل الأطفال » اسم لمرض يعترى نخاع الظهر فيترك الجسم مشلولا ثلثه أو ثلثاه أو أكثر من ذلك أو أقل ، تبعا لدرجة ذهاب المرض عَلَوّاً فى النخاع . وهو يصيب الأطفال والرجال ، وإنما غلب على الأطفال فسمى باسمهم .

فى نصف قرن بيننا الطفلة الصغيرة فلورنس ، وعمرها اثنتا عشرة سنة ، تسير فى الصباح إلى مدرستها ، أحست رجليها تثقل ، ثم عجزتا عن السير فقعدت . فحُمِلت إلى المستشفى . واليوم ، فى نفس المستشفى ، قد احتفلت واحتفلوا بعيد ميلادها الثانى والستين .

وهى لاتستطيع أن تحرك من يديها غير يدها اليسرى ، وبهذه اليد برعت فى فن التطريز ، تطرّز على الأكثر أغطية الموائد ، تعمل فيها بيدها الصالحة ، وتسند القماش على سائر جسمها . وفى بطء طويل وجَلَد كثير تبلغ غايتها .

ومنذ شبّت الحرب أخذت تجدّ فى عملها وتبيع من صناعتها الكثير فتهدى ثمنه اتحادَ رجال الأسطول التجارى للترفيه عنهم ، فهى تُعجَب بهم كثيراً . قالت فى ذلك : إنها طريقتى المتواضعة فى إسداء الخير القليل إلى أبطالنا .

خمسون عاما فى مستشفى ! لست أدرى أيهما أمتدح ، هذه النفس المريضة المخذولة التى لا تريد أن تمرض ولا أن تُخذَل ، أم ذلك النظام الإنسانى الاجتماعى البديع ، فى تلك المدينة فى غرب إنجلترا من جنوب ، مدينة باث ، ذلك النظام الذى يأبى أن يُحمَل المرضى حملا إلى الطريق قبل شفاء ، ولو تطلب هذا الشفاء قرنا أو بعض قرن .

جدة ميكانيكية :

أى نعم جدة ، لها بعل ، ولها أبناء ، لهم أبناء . كلهم فى أسطول الولايات أو فى جيشها يؤدون واجبهم فى هذه الحرب . والجدة تؤدى هى الأخرى واجبها . ولكن أين ؟ فى مخبز ؟ فى مغسل ؟ فى مطعم ؟ لا . ولكن فى جراج حربى ، تؤدى فيه ما كان يؤديه الرجل الميكانيكى من إصلاح السيارات . وتدخل الجراج فتجد هذه الأم التى أنسلت للدنيا جيلين قد ارتمت على ظهرها على الأرض ، فى سروالها الأزرق ، بين محمل السيارة ، وفى يدها مفك مسمار أو مفتاح صامولة .

وامرأة أخرى ، كانت قبل الحرب تنعم بإدارة منزل كبير ، فإذا بها اليوم تنعم بوظيفة مفتشة فى مصنع يخرج الآلات الحربية الدقيقة .

وهكذا دواليك .

٣ ملايين من النساء بالولايات حلّت محلّ الرجال فى الصناعات ، فمكّنت من هذا الفيض الذى لا يفتر من عتاد الحرب .

ليت شعرى ما يكون أثر هذا فى تلك المجتمعات بعد الحرب ؟ إنها ثورة نسائية ستكون ، ما كان ليبلغها ألف كاتب وكاتب لو شحذوا أقلامهم وشهروها قرنا من الزمان .

ونحن هنا سنرقب هذه الثورة من بعيد ونقول : فساد ورب الكعبة !

« شو » يستعد للموت :

جورج برناردشو ، أشهر مؤلفى الإنجليز وأدبائهم لأحقاب خلت أتم عامه الثامن والثمانين ، واحتفل بتمامه فى الأسبوع الماضى فى السادس والعشرين من يوليو .

وقد حرص ألا يجىء هذا اليوم حتى يكون قد أتم كتابة كتاب جديد ، ورواية جديدة ، قال إنهما آخر

صحيفة النقد :

ألف ليلة وليلة

رسالة الدكتورة سهير القلماوي

« ... ثم تأتى البراعة هذه الرسالة من أنها بعد هذا كله دليل دقيق للذين يريدون أن يقرأوا ألف ليلة وليلة قراءة تعتمد على التروية والتفكير . فهى قد ألفت أشتاته ، وجمعت متفرقه ، ولاءمت بين أحاديثه المتنافرة المتنافرة . فإذا أنت تعرف أين تجد القصص الذى يتجه اتجاهاً دينياً ، والذى يتجه اتجاهاً خلقياً ، والذى يذهب مذهب التاريخ ، والذى يعنى بالنقد الاجتماعى ؛ إلى غير ذلك من الموضوعات التى صورها القصاص عن عمد مرة ، وعن غير عمد فى كثير من الأحيان ... »

طه حسين

هذه الفقرات التى اقتطفناها من مقدمة الأستاذ الدكتور طه حسين بك ، لرسالة الدكتورة سهير القلماوى من ألف ليلة وليلة ، تشير إلى أهم عمل قامت به المؤلفة فى الحقيقة ، فقد كان هذا هو العمل الأساسى فى رسالتها ، وهو الجهد الرئيسى الذى بذلته فيها .

وقبل أن نفصل القول فى قيمة هذا العمل أو ذاك مما قامت به المؤلفة لإعداد رسالة الدكتوراه ، نذكر — على الهامش — ظاهرة واضحة يدركها قارئ الكتاب لأول وهلة . فالمؤلفة « تلميذة الدكتور طه حسين » ، كما قالت فى إهدائها ، وإن طابع الأستاذ ليبدو عليها واضحاً قوياً ، وإنه ليبدو أن الدكتور قوى الأثر فى تلاميذه إلى حد بعيد .

ولكن من الحق أن نقول إن سهير « طليعة نظيفة » لا كتلك الطليعات الأخرى « المتلاقطة » . وإنها ربما تجاوزت مرتبة التلميذة إلى مرتبة « المريدة » التى يجىء تأثرها إحساساً باطنياً لا تقليداً ظاهرياً . فى أسلوبها صفاء ، وفى استعراضها سلاسة ، وإن تكن لا تزال ينقصها تمكن الأستاذة ، وقوة اللمسات التى تدل على أنها تملك الموضوع ولا يملكها الموضوع .

والاستعراض هو أقوى ملكاتها ، فحيثما استعرضت أقوال المستشرقين عن ألف ليلة وليلة ، أو الترجمات التى قاموا بها لليالى ، أو أثر الليالى فى الآداب الغربية ، أو الموضوعات التى طرقها القصاص — والتى أشير إليها فى المقدمة — فهى حينئذ تستخدم أقوى ملكاتها ، وهى حينئذ تروق وتعجب ، ويحس قارئها بالتنسيق الجميل ، والتعبير الرشيق ، والأسلوب المنسق . وحيثما تجاوزت هذه المنطقة إلى التعليل والاستنباط ، فهى حينئذ فى غير ميدانها ، وهى تلمس الموضوع برفق ، وتدعه معجلة ، أو لا تستوفى النتائج التى تتيحها لها المقدمات . وعلى العموم فهى لا تبلغ هنا مداها الذى تبلغه فى الاستعراض والتنسيق .

* * *

والآن ننظر فى الجهد الذى قامت به المؤلفة فى إنشاء رسالتها .

تقع هذه الرسالة فى ثلثمائة وعشرين صفحة من القطع الكبير نسبياً ؛ وهى مقسمة إلى ثلاثة كتب : فأما الكتاب الأول فقد استعرضت فيه أولا ما قام به

ما يكتب . وقد فعل . وقال إنه إنما فعل هذا لأنه لن يحيا من عامه التاسع والثمانين غير ثلاثة أيام .

ورتب « شو » أموره استعداداً للنومة الأخيرة التى ليس لها على هذه الأرض من صباح . ومما فعله أنه وهب بيته للأمة البريطانية بما فيه من أثاث ، وما فيه من كتب ، وكذلك بعض المخطوط الباقى من رواياته المطبوعة .

وعلى الرغم من سنه لم تفارقه النكتة التى صحبته دائما أبدا . كتب كتابه الأخير عن الاشتراكية ، فسماه : « ألف باء الاشتراكية » . فلما سئل فى ذلك قال : سميته هكذا لأن الناس كلهم قد عرفوا واوها وياءها .

الجرنوسى

الشرقيون من البحوث القليلة حول « ألف ليلة وليلة » ؛ واستعرضت فيه ثانيا سجلا من الترجمات المختلفة التي قام بها الغربيون لليالي ، وما قدموا به لها من بحوث في تاريخها أو موضوعها ؛ واستعرضت فيه ثالثا تلك الأبحاث العامة التي قام بها المستشرقون عن الليالي ، أو عن قصص منها خاصة ؛ واستعرضت فيه رابعا ما كان لليالي وما نشر حولها من البحوث من أثر في الأدب الغربي واتجاهاته .

وأما الكتاب الثاني فقد تحدثت فيه عن « تأليف الكتاب » ، فذكرت أن قلة النسخ التي وصلت إلى أيدينا من كتاب ألف ليلة وليلة ، وعدم استطاعتنا العثور على جميع النسخ التي وجدت له في عصور متفاوتة ، لا يجعلنا نستطيع الجزم بتاريخ الكتاب ونشأته وتطوره حتى صار إلى ما بين أيدينا اليوم منه . ولكن النظر في مادة الكتاب نفسها قد تعين على شيء من هذا لا يصل إلى مرتبة اليقين .

وقد افترضت أن نواة الكتاب وجدت مكتوبة ، ثم توسع القصاص فزادوا عليها وتوسعوا فيها ، وظلوا يضيفون إليه بطرائق مختلفة حتى صار إلى وضعه الأخير ؛ وأن هناك عوامل أثرت فيه ، أهمها الروح الشعبية التي سيطرت عليه سيطرة قوية ، وإن كان تزمت العلماء وعوامل السياسة قد حدت من هذه الروح فجعلته يخلو من بعض الموضوعات التي تشيع عادة في الآداب الشعبية : كالحديث عن الحياة الأخرى ، وكعفريت الميت المشهور في مصر ، وكالأخذ بالثأر . كما أن الروح الإسلامية سيطرت على الكتاب كله بوجه عام . وكذلك تركت فيه الروح المصرية أثرها الواضح .

وأما الكتاب الثالث ، فهو الكتاب الرئيسي في الرسالة ، وهو الذي درست فيه موضوعات الليالي و « صنفتها » إلى الموضوعات التالية : « الخوارق في ألف ليلة وليلة ، الموضوعات الدينية في الليالي ، الموضوعات الخلقية في الليالي ، موضوعات الحيوان في الليالي ، الحياة الاجتماعية في الليالي ، الموضوعات التاريخية في الليالي ، الموضوعات التعليمية في الليالي ، المرأة في ألف ليلة وليلة » .

وما من شك في أن مجهوداً عظيما بذل في هذا التصنيف الذي يحتاج إلى الدقة والصبر واليقظة . وما من شك في أن استعراض الموضوعات في الليالي كان استعراضاً مشوقاً جذاباً ؛ وأن الحكم الفني على عمل القصاص في ثنايا هذا الاستعراض ، وعلى مواضع إجادتهم ومواضع تقصيرهم ، كان كذلك جيداً ؛ وأن هذا العمل كما قال الدكتور طه حسين بك : « دليل دقيق للذين يريدون أن يقرءوا ألف ليلة وليلة قراءة تعتمد على الروية والتفكير » .

ولكن هل نستطيع أن نسم هذا الجهد كله بميسم « الشخصية المبتكرة » التي « تشترطها نظم الجامعة في رسائل الدكتوراه » كما جاء في المقدمة ؟

نحن مضطرون اضطراراً لأن نخالف الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك في هذا . فالجهد الذي بذل كبير ، ولكنه غير مبتكر . ونريد أن نعرف « الابتكار » الذي نعنيه ، والذي ننتظر أن نراه في رسائل « الدكتوراه » الجامعية ، فهو الذي يبدو فيه نهج المؤلف الخاص لا الذي ينسج على منوال قائم ، أو يتوسع فيه .

وتقسيم الليالي إلى موضوعات ليس عملا مبتكرا — وهذا من الناحية الشكلية — وأما طريقة التقسيم واستعراض الموضوعات في مختلف القصص ، فهي رهينة بجهد « التصنيف » والتبويب ، لا بجهد الابتكار والابتداع . ولم يبد في أثناء ذلك من الدكتورة سهير ، ما يدل على أنها تنفرد في هذا دون أي طالب يستطيع أن يصبر أياما وليالي على « تقليب » الموضوعات . نعم إن طريقتها في الاستعراض جميلة ، ولكن هذا شيء ، والشخصية المبتكرة شيء آخر فيما أعتقد .

وقد يكون منشأ هذا الخلاف أنني أغالي في ما أطلبه

من رسائل الدكتوراه ، وأن الجامعة لا تريد هذه المغالاة؟ فيكون الخلاف إذن لا على رسالة الدكتورة سهير ، ولكن على مبدأ « الابتكار » في رسائل الدكتوراه .

***

وقد ذكرت أن للدكتورة سهير ميزتها في صفاء الأسلوب وجمال الاستعراض ، وأنه ينقصها تمكن الأستاذية وقوة اللمسات التي تدل على أنها تملك الموضوع . فهى حينا كان عمادها الاستعراض ظهرت في ميدانها الأصيل ، وحينا حاولت التعليل والاستنتاج لم تبلغ إلى مداها الذى تبلغه في الاستعراض ، إذ تمس الموضوع برفق وتدعه معجلة ؛ فالآن أذكر بعض الأمثلة على هذه الظاهرة .

لا يستطيع قارئ الليالى ، بعد أن يفرغ منها ، إلا أن يحس إحساساً قوياً أن هذه القصص هي « أحلام الحرمان » ، وذلك هو مفتاحها الأول الذى يصلح لتفسير أشياء كثيرة فيها ، إن لم يصلح لتفسير كل ما فيها . ولم يغب عن الدكتورة سهير — في لطف إحساسها — أن تمس ذلك ؛ ولكنها لمسته في خفة ، ولمسته في ناحية دون ناحية ، ولم تحاول أن تتخذه مفتاحها الأصيل لتفسير الليالى .

لمست في ثنايا الاستعراض كثرة ما تصوره القصص من ألوان الطعام والشراب ، فقالت : إن في ذلك إشباعاً للجوع الذى يسيطر على الطبقة التي استمعت للكتاب ، وهى طبقة الفقراء . ولمست في ثنايا الاستعراض كذلك كثرة ما تصوره القصص من الكنوز التي تفتح فجأة للفقراء ، فينقلبون أغنياء ، فقالت : إن في ذلك تعويضاً من الفقر الذى يسيطر على المستمعين والقصاص . . . وهذا جميل .

ولكنها لو خطت وراء ذلك كله خطوة حاسمة ، ولمست الموضوع كله لمسة قوية ، لرأت أن « أحلام الحرمان » تتعدى الطعام والمال ، فهى أحلام الشبع ، وأحلام الغنى ، وأحلام السلطة ، وأحلام الشهوة ، وأحلام الراحة ؛ وكما وجدت في أحلام الجوع ما يفسر لها كثرة الطعام والشراب ، وفي أحلام الغنى ما يفسر لها الكنوز ؛ فإنها كانت واجدة في أحلام السلطة ما يفسر لها كثرة الملوك وأبناء الملوك الذين أصبحوا مشردين ، وكثرة الأفراد العاديين الذين يصبحون ملوكا وحكاما ، أو يتغلبون على الملوك والحكام ، وقد يتكبرون عليهم كما صنع « جودر » بعد أن ملك القوة والمال ؛ ولوجدت في أحلام الشهوة ما يفسر لها الفحش الذى حشيت به الليالى ، وهذه الأحلام التي كان يزيد حرارتها « سوق الرقيق » ، وما يتخيله الفقراء من متعة الأغنياء بالجوارى المعروضات ؛ ولوجدت في أحلام الراحة ما يفسر لها « جراب جودر » وأمثاله الذى يطلب منه الطعام فيخرجه في لحظة مهيأ بلا تعب ، وما يفسر لها الحصان الطائر ، والعفاريت التي تقطع البحار والجواء والإنسان على ظهرها محمول . وربما يضاف إلى أحلام الراحة في تفسير مثل هذه القصص أحلام الطفولة التي تتصور المعجزات في عالم الواقع ، لأن هذا يرضى ما فيها من سذاجة في الخيال .

ولو استخدمت هذا المفتاح لوجدت تفسيرات لأشياء كثيرة صادفتها في الليالى ، فتركتها بدون تفسير ، أو فسرتها تفسيراً غير حاسم ؛ مثال ذلك : خلو الكتاب من إشعاعات السيرة النبوية ، مع أنه مطبوع بالروح الإسلامية ، وخلوه تقريباً من التطلع إلى معرفة الغيب ... فمثل هذه الموضوعات لا تجد لها مكاناً بين « أحلام الحرمان » التي تسيطر على جمهور الليالى المشغول بالحاضر ومطالب الجسد عن كل ما عداها .

ثم لقد كان هناك موضع لمسة قوية أخرى لم تشر

إليها . فهناك ظاهرة واضحة وضوحا قويا ، فأحلام الحزمان هذه لم تتجاوز الحاضر ، ولم تتجاوز المطالب المادية كما أسلفت ، وليس فيها حلم روحى واحد ، ولا تطلع إنسانى راق ؛ وهذا دلالة على روح الفترة التى ألفت فيها الليالى ، أو معظمها ، وعلى روح الجمهور الذى استمع لليالى . فهى فترة انحطاط روحى لا شك فيه ، وهو جمهور لم يطرق عالمه مثل واحد من الأمثلة العليا ، إما لفقره ، أو للاستبداد الجاثم عليه ، أو للجهل الفاشى فيه ، أو لهذه الأسباب جميعا .

نعم إن قصة « بلوتيا » تشير إلى تطلع روحى ، وقصة « عمر النعمان » تشير إلى بطولة حربية . ونعم إنه كان لهاتين القصتين صدى فى الكتاب ، ولا سيما قصة « بلوتيا » ، ولكن قصة « عمر النعمان » غريبة فى الكتاب كله . أما قصة « بلوتيا » فلها فى الغالب أصل فارسى ، متأثر — كما نعتقد — بأصل مصرى ، ففى قصة « أهورا » المصرية القديمة كثير من وقائعها وتفصيلاتها ، بل ربما كان لهذه القصة أثر فى كل الأساطير حول سليمان ، وكان ينبغى لبحث عن ألف ليلة وليلة من كاتبة مصرية أن تبرز هذا الأثر المصرى العريق .

ومثل آخر لاضطراب التعليل ، فهى قد افترضت فى موضع أن جمهور الليالى كان من الفقراء ، وافترضت فى موضع آخر أن هذا الجمهور كان من التجار ، وذلك لكى تعلل وجود القصص التعليمى المقصد الملىء بالمعلومات الجافة ، ولكى تعلل كذلك كثرة ذكر التجار فى الليالى . والذى لا شك فيه هو صحة الفرض الأول . أما تعليل القصص التعليمى فسهل ، وقد تنبهت إليه هى فى موضع ثالث ، وهو أنه لم يمش على ألسنة القصاص وإنما ضم عند نسخ الكتاب ؛ وأما تعليل ذكر التجار فسهل كذلك ، لأنها الطبقة التى كان يحلم بها الفقراء ، وهى أمامهم فى كل آن .

ولهذين الثائين أشباه كثيرة فى الكتاب ، وإن كان المؤلفة — بجوار هذا — كثير من الالتفاتات الطيبة ؛ ولكنها لفتات ليست حاسمة ، ولمسات ليست قوية ، كما ينبغى لرسالة دكتوراه .

سيد قطب

شاعر ..

مرّ بالسامر محزوناً وحيّيا من بعيد
لا رنين السعد فى الصوت ، ولا لحن نشيد
صوته مثل الصدى الحائر فى أعماق بيد
وعلى سيمائه الأيس ، وإعياء الطريد

قيل : هذا شاعر طال نواحه
قلبه المكلوم لا تؤسى جراحه

كم شدا فى أمسه الغابر باللحن الرفيع
وأناشيد غنتها قارئ الربيع
لم يعد يملك إلا صور الحب الصريع
فى فؤاد لم يعد غير جراح ونجيع

لا غنا الشاعر يعلو ، لا مراحه
قلبه المكلوم لا تؤسى جراحه

وقف الشاعر حيناً ، وتوارى بعد حين
هو فى واد من الصمت قصى وحزين
قد سرى يزرح بالآلام يخطو فى سكون
وتبدى وجهه الناحل جياش الحنين

وجهه سار لم يلح بعد صباحه
قلبه المكلوم لا تؤسى جراحه

بغداد — مذرى فرج مذوقه

من القلب

كلما عيني تراك   يلهب القلب لقاك
أنا قبّلت الأماني   عند ما قبلت فاك
ورضا دنياي عني   كان في يوم رضاك
إن للقلب عيوناً   مثل عيني تراك
غير أن القلب لا تنـ   ـظر عيناه سواك
عشتَ فيه كالسويدا   ء احتواها واحتواك

***

أنا طير الأيك لا يد   ري سوى الطير لحوني
أدمعي شدوي وإن لم   تبك بالدمع عيوني
قد بكى الليل كما أبـ   ـكي بصمت وسكون
غير أصداء صداح   سلن من دمعي الهتون
ذوبت روحي في لحـ   ـني ولحني في شجوني

***

أترى تسمعني في الليـ   ـل والناس نيام
من سهرتُ الليل منها   وتعلمت الغرام
شاعر أسهرت نجمي   في حياة من ظلام
صـورة تنطق بالفـ   ـن ولا تدري الكلام
أنا من أبصر جدّ الـ   ـعيش كالهزل فنام
حالماً واطرح الدنـ   ـيا لتمضي بسلام
خلّنا من ضجة الكو   ن ومن مكر الأنام
لغة الدنيا هي اثـ   ـنان فدمع وابتسام
قصة قد مثلتها الـ   ـناس والموت الختام
فسواء عشت عاماً   بينها أم ألف عام
حسب نفسي أن أرى نفـ   ـسيَ حياً في المنام

***

خلّنا من ذكر أيا   م كأحلام السبات
عمرها ولّى وعاشت   في جحيم الذكريات
أنا فيها مت كالشا   ربع حياً في الرواة
خلّنا منها وهات   لي الكؤوس المترعات
إن يوماً يسعد النفـ   ـس بأيام الحياة
رب موت كحياة   وحياة كممات

***

ذا كتاب الكون لا تبـ   ـصر به شيئاً جديداً
كل ما أبداه النا   س على الناس أعيدا
صورة لن تنقص الأيـ   ـام فيها أو تزيدا
ومن الأحياء من يحـ   ـيا ولا يدري الوجودا
عاش كالأنعام لا يبـ   ـغي سوى القوت سعيدا
والذي يشقى هو الفذّ   الذي يبغي الخلودا

***

شدّ ما ألقاه من قلبي   وقلبي منك يلقى
إن من يهوى جمال الجـ   ـسم لم يعشقه حقاً
تذهب الأيام بالحسـ   ـن ومعنى الحسن يبقى
وأنا من مت في رو   حك لا حسنك عشقا
هو كالخمرة تغلو   كلما تزداد عتقا
وصبا الفجر رطيباً   كلما هُيّج رقّا
ما هو الحب إذا لم   يخلق الإنسان خلقا

***

اسمعي في الليل مزمو   ري على الفردوس يسري
قد تهدت به الحو   ر وغنين بشعري
ذلك التنزيل موسيـ   ـقاه لم تخلق لغيري
خالد في عالم الأحـ   ـزان من أيام عمري
فنيت فيه أيا   مي ولا ينصف دهري
عجزت ثرواتهم عنـ   ـه فأغناني بفقري
خلده يحيا بقيا   وأنا أحيا بقبري

كامل أمين محمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٩٤ — الثلاثاء ٢٦ من شعبان سنة ١٣٦٣ — ١٥ من أغسطس سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء ...

لا تزال الإنسانية تقاسي كثيراً من الآلام في العصور المتعاقبة، لأنها تخطئ خطأ متكرراً من نوع واحد، بغير أن تتعظ بما يقع لها من الألم، فهي دائبة في سبيلها لا تتجنب الخطأ الذي جر عليها تلك الآلام .

ولعل السر في هذا هو أن الجيل الذي يقاسي الآلام من جراء أخطائه يفنى ويمضي عن هذا العالم، ثم يجيء جيل آخر بعده لم يقاس تلك الآلام، فهو يجرب الحياة من جديد، ويقع في الأخطاء من جديد، ويقاسي الآلام ثم يمضي كما مضى من قبله دافناً حسرته في قلبه .

وقد يسمع الجيل الناشئ بعبر الماضي، وقد تمر على قلبه خواطر من رغبة الإصلاح وتنكب الطريق الشائكة، ولكنه لا يلبث أن يندفع مع البواعث النفسية الهوجاء، ويطيع الغرائز العمياء التي تجرفه في سبيلها، فإذا به يعود إلى كل أخطاء الماضي وآلامه رغم تجارب الأجيال الكثيرة، ونصائح الذين جربوا الآلام من قبله . وهذا المثل واضح في سلوك ساسة الدول منذ دوّن التاريخ سجلاته إلى آخر الحرب الماضية . ولكن الجيل الحاضر من ساسة الدول قد جربوا حربين عظيمتين في حياتهم، فهم جديرون بأن يكونوا أكثر تحرياً للحقائق، وأكثر تبصراً في الأمور .

ولعل أكبر باعث على الخطأ في السياسة الدولية، أن زعماء الأمم يميلون دائماً في أعقاب الحروب إلى إرجاع الأحوال إلى ما كانت عليه قبلها .

حقاً إنهم يغيرون ويبدلون في الحدود ويحدثون آثاراً كثيرة في نظم البلاد المختلفة، ويقررون مبادئ متباينة . ولكنهم دائماً يميلون إلى العودة إلى الماضي فيما يتعلق بالأسس الكبرى العزيزة عليهم . وهذا في رأينا هو موضع الخطأ كله لأنهم يستندون إلى قوة الانتصار الجارفة، ويستطيعون

أن يفعلوا مايبدو لهم في فترة ما بعد الحرب ، حتى إذا مر الزمن وخبت فورة الحروب ، وفتر زهو الانتصار ، عادت الطبيعة فأثبتت وجودها ، فإذا بالساسة يبصرون انهيار الصرح الذي أقاموه تحت أعينهم ، وهم لايقدرون على إعادة بنائه إلا إذا أرادوا أن يعيدوا الحرب جذعة لإنفاذ إرادتهم بالقوة .

وقد حدث شيء مثل هذا منذ أكثر من قرن عقب الحروب النابوليونية . فإن ساسة أوربا تعمدوا أن يعيدوا أوربا إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية ، واستطاعوا أن ينفذوا خطتهم قسراً ، لأن القوة كانت في أيديهم عقب النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش المتحالفة ضد نابليون. ثم ماذا ؟ لقد مضى أكثر القرن التاسع عشر في محاولات عدة لتحقيق النظام الطبيعي الذي تجاهله الساسة ، فإذا بذلك القرن يشهد النرويج تعود فتنفصل عن السويد ، والبلجيك تنفصل عن هولنده ، وأسبانيا تنفصل عن البرتغال ؛ وإذا به يرى الملكية في فرنسا تتحول إلى جمهورية ؛ ويرى دولا صغيرة تزول من الوجود بعد أن أقامها الساسة وضعاً وتعسفاً ، ثم دولا أخرى تتجمع وتتوحد بعد أن كانت ممزقة إلى عدة إمارات ، وهكذا . ولسنا ندري هل كان في استطاعة الساسة عقب حروب نابليون أن يكونوا أبعد نظراً ؟! ولكن الذي ندريه حقاً أن القرن التاسع عشر قد مضى بتجاربه المرة ، وأقبل القرن العشرين بتجارب أخرى تحمل نفس عناصر الخطأ الذي ارتكب في القرن السابق .

إنه من المحقق أن عقارب الساعة لاتعود إلى الوراء . ومحاولة الرجوع إلى سياسة « ما قبل الحرب » مقضي عليها بالفشل ، لأنها تعاكس المبدأ الطبيعي الذي لايقهر ، وهو أن الحياة تسير في سبيلها دائبة نحو الذي المقدر لها ، وهي دائماً تتطور وتتغير .

فإذا نحن نظرنا إلى مستقبل بلادنا ومستقبل جيراننا من بلاد الشرق الأدنى على ضوء هذه الآراء ، كان من الضروري أن ننبه منذ الآن إلى أن محاولة الرجوع إلى الماضي لا تؤدي إلى غير الآلام ، ثم الخذلان .

وقد تحدثنا من قبل عن فلسطين حديثاً مكرراً ، ولكننا مع ذلك نرى في خطورة الموضوع ما يحملنا على أن ننظر إليه من زاوية أخرى على ضوء هذه الآراء التي نشير إليها .

لقد تغيرت ظروف الشرق الأدنى ، وتغيرت ظروف الشعوب العربية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وهذا التغير يستلزم تبديلا في السياسة التي تتبع نحو هذا الشرق الأدنى . فإذا تجمدت نظرة الساسة وتحجرت حتى بقيت ثابتة على الفكرة الصهيونية ، التي نودي بها منذ كانت الدولة العثمانية القديمة هي المسيطرة على هذا الجانب من العالم ، إذا تجمدت النظرة السياسية على هذه الفكرة الصهيونية الرجعية ، كانت جهود الساسة بمثابة مقاومة للطبيعة ، وتعسف قائم على القوة والبطش . وكل تصرف قائم على التعسف في مقاومة الطبيعة لا يقدر له البقاء إلا قليلا .

ولندع ذكر فلسطين مؤقتاً ، ولنبحث عن مستقبل مصر على ضوء هذه النظرة أيضاً .

إن سياسة العودة إلى « ما قبل الحرب » بالنسبة لمصر تكون تجاهلا لكل ما طرأ على موقفنا من التغير في هذه السنوات اللائي بالجليل من الأحداث . لقد تغيرت ظروف الشرق الأدنى تغيراً جوهرياً ، وتغيرت ظروف مصر كذلك تغيراً جوهرياً ، ولا شك أن هذا التغير يستلزم وضعاً جديداً للعلاقات الدولية التي تربط مصر بجيرانها وحليفتها وبدول العالم الأخرى . ويحسن بنا أن نشير في إجمال إلى أهم عناصر التغير التي طرأت على موقفنا ، لكي ندرك إلى أي مدى ينبغي أن تقوم العلاقات الجديدة على أسس جديدة .

عندما أبرمت معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا ، كانت تجربة التعاهد لا تزال جديدة على الدولتين جميعاً . فكان من الطبيعي أن تحترس بريطانيا ، وأن تنظر دائماً في حذر إلى الجانب الآخر من التعاقد ؛ وكان من الطبيعي كذلك أن تحترس مصر ، وأن تنظر دائماً في حذر لتعرف مواطئ أقدامها في الطريق الجديد . ولكن المعاهدة مرت بالتجربة القاسية عدة سنوات متعاقبة ؛ ويمكن أن نؤكد أنها قد اجتازت طور التجربة ، وأثبتت أن علاقة التعاهد بين ندّين حرّين هي أدوم وأثبت علاقة دولية . ويمكن كذلك أن نؤكد أن مصر ، قد برهنت في أثناء الظروف العصيبة في هذه السنين على أنها جديرة بكل الشرف المتحدر إليها من أقدم عصور الفراعنة العظام إلى العرب الكرام ؛ إلى الفرسان الأماجد الذين رفعوا أعلام مصر كريمة فوق الأرضين والبحار . لقد برهنت مصر على أنها تستطيع الوفاء بعهدها في أدق الظروف ورغم أكبر المخاوف . وما أجدر حليفتنا بعد هذه التجربة القوية أن تطمئن إلى شرف مصر ، وحسن نيتها ، وسمو نظرتها في الصداقة .

وقد انجلت الحرب في إفريقيا عن تحطيم الدولة الإيطالية في طرابلس ، وزال بذلك عنصر هام جدا في سياستنا الدولية ، وينبغي أن يكون لذلك الاعتبار موضع خاص من تفكيرنا . فهذان الظرفان المتغيران يحتاجان منا إلى تحوير في نظرتنا السياسية الدولية ، ونعتقد أنهما يدعوان حليفتنا الكبرى كذلك إلى إعادة النظر في سياستها نحونا ، وفي شروط المعاهدة التي بيننا .

ولسنا نستطيع أن ننظر في مستقبل مصر بغير أن ننظر إلى التطور العظيم الذي طرأ على علاقتها مع البلاد الشقيقة المجاورة لها . فقد تنبهت الأذهان إلى أنه من الضروري زيادة الروابط بين الشعوب العربية ، واتخذت في سبيل ذلك خطوات عملية منذ حين . ولا يمكن أن تحقق هذه المحاولة بغير أن تدفع قبلها وتجر بعدها نتائج سياسية عظمى ، في علاقة مصر مع حليفتها ومع سائر بلاد العالم المرتبطة بها .

وقد جد في الأفق السياسي أمر آخر له أعظم الشأن في نفوسنا ، وذلك أنه قد حدث أخيراً أن قطعت تركيا علاقاتها السياسية مع ألمانيا . حقاً لم تدخل تركيا في حرب ضد الألمان ، ولكن قطع العلاقات نفسه جدير بأن يزيل حاجزاً كبيراً كان قائماً بين مصر وبينها . إن بين مصر وتركيا علاقات كثيرة من المودة والتعاطف ، وبين الشعبين أواصر قربى من الخير أن تزداد قوة وقربا ؛ ولهذا نرى أن زوال الموانع التي كانت تعرقل الاتصال الكلى بين الدولتين الشقيقتين سيكون له أعظم الأثر في المستقبل .

فدولة تركيا تستطيع أن تتجه في سياستها الشرقية نحو تضامن أقوى مع الأمم العربية عامة ، ومع مصر خاصة ؛ وهي تستطيع بقدرتها وبجدارة شعبها الذكي أن تكون عاملا قويا في حفظ السلام في الشرق الأدنى .

فإذا نحن اعتبرنا هـذه الحقائق جميعها ، كان لنا أن ننادي بضرورة إعادة النظر في مركز مصر الدولي ، وبأنه قد آن لنا أن ننظر إلى المستقبل على ضوء الظروف الجديدة التي أصبحت لا تدع مجالا للنظرة القديمة ، التي كانت متأثرة بظروف تغيرت ، وصار الاحتفاظ بها اليوم جموداً لا تحمد عواقبه .

وإنه لمن المهم لنا أن نوضح لأنفسنا حقيقة نجعلها نصب أعيننا ، وأن نصارح بها حليفتنا الكبرى معتمدين على الثقة التي ينبغي أن تكون بيننا .

ما هي المصالح التي تعني حليفتنا بالاطمئنان عليها في مصر ؟ هذا سؤال خطير بغير شك . ولكن لاغنى لنا عن أن نضعه أمامنا في وضوح وصراحة ، إذا شئنا أن نقيم بناء المستقبل على أساس حقيق . ونحن على يقين من أننا

فلورنس وپيزا

منذ بضعة أشهر ، حينما كانت المعارك الحربية تقترب من المدينة الخالدة (رومة) ، كان العالم المتمدن يضطرم جزعا وإشفاقا على صروحها الأثرية ، وكنوزها الفنية ، ويخشى أن يذهب تراث القرون والعبقريات فريسة النضال المدمر . ولكن شاء القدر أن تنجو المدينة الخالدة ونفائسها التاريخية من ذلك الخطر الداهم ، وأن ينحنى الفريقان المتحاربان أمام جلال التاريخ وعظمة القرون .

ولكن الظاهر أن فلورنس ، وهى التى تلى رومة فى عظمة تراثها الأثرى والفنى ، لن تحظى بمثل هذا المصير الحسن . فنى الأنباء الأخيرة أن الألمان دمروا معظم قناطرها الأثرية على نهر أرنو ، كما دمروا بعض صروحها التاريخية ، وأن المعارك تجرى فى مشارفها وأحيائها الجنوبية . ولم نعرف فى نفس الوقت ماذا كان مصير پيزا صاحبة البرج المائل ، ومصير آثارها التاريخية ، وقد كان آخر ما سمعناه عنها أن المعارك تجرى فى قسمها الجنوبى ، وأن الألمان اتخذوا من برجها الشهير مرصداً .

وقد رأينا بهذه المناسبة أن نعرف قراء الثقافة بفلورنس وپيزا ، وما تحتويانه من الكنوز الأثرية الرائعة ، وهى التى جعلت لهما تلك المنزلة الخاصة بين مدن العهد القديم .

١ — فلورنس

إن أول ما يلفت نظر السائح فى فلورنس ، طابع من النبل يضفى عليها ثوبه ، شأن الأمصار العريقة التالدة ، فتراها وقد أنفت أن تستبدل بخططها القديمة وطرازها « الرينصانصى » تلك الخطط والأوضاع الحديثة التى لا جمال فيها ولا فن ، وآثرت أن تستبق شوارعها وميادينها القديمة التى امتزجت بتاريخها ، وأبنيتها الأثرية الشامخة التى تحف واجهاتها المطلقة نماذج فنية رائعة . وما زالت فلورنس تردان إلى اليوم بعدد من هذه الصروح ، من قصور وكنائس وأديار ، بقيت جميعها على حالها منذ القرون تحفل بأبهائها ونقوشها الرينصانصية البديعة .

نستطيع أن نصل إلى تفاهم تام على الأسس العامة التى تمس هذا الموضوع . إن مصر تستطيع أن تكون أمينة على مصالح صديقتيها لأنها تحس إحساساً عميقاً بضرورة التعاهد معها وصداقتها .

وأول شىء يجب أن نزيل اللبس عنه ، هو أن مصر لن ترضى بأية صورة من صور الإشراف السياسى . فمصر قد تفتح أبوابها للجميع ، وترحب بجهود الجميع الذين يفدون إليها من أطراف العالم ؛ وهى إنما تطمع فى تنظيم العلاقات بين هؤلاء الضيوف وبينها على أساس العدل والكرامة . ولكن مهما يكن من أمر هذه العلاقات ، فقد أصبح سير مصر متجهاً بنفسه نحو مداه ، وليس ثمة من حاجة إلى قيام دولة من الدول بالهيمنة على توجيهه بأى نوع من أنواع الإشراف السياسى .

وهناك حقائق أخرى لا بد من الاعتداد بها فى مواجهة الغد ؛ فإن مصر بحكم مركزها الجغرافى فى العالم سوف تقوم بدور هام فى تبادل الخدمات والمنافع مع الأمم الأخرى ؛ ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شعبها العامل المجد جدير بأن يقدم للعالم خدمات لا حصر لها فى أرض الوطن وبحره وجوه . فالغد يتطلب منا أن نقرر حقيقة موقفنا من حليفتنا على ضوء الظروف المحيطة بنا ، وعلى ضوء آمالنا وعلاقاتنا مع الشعوب المجاورة الشقيقة كلها ، وعلاقاتنا المحتومة مع أمم العالم التى لا غنى لها عن الاتصال بنا بحكم موقعنا الجغرافى الهام . والشعب المصرى لا يتطلب أكثر ولا أقل من أن يكون مستقبله جديراً بمصر الخالدة ، التى كانت أول منبع للضوء ، قبل أن تفتح شعوب هذا العالم له أعينها .

محمد فريد أبو حديد

وأشهر هذه الصروح بلا ريب هو « القصر العتيق Palazzo Vecchio » الذى يتوسط المدينة ، ويجوز إليه من ناحية نهر أرنو على يساره « القنطرة العتيقة Ponte Vecchio » التى اشتهرت فى التاريخ كما اشتهرت فى القصة . ولعل أبدع مناظر فلورنس ، هو منظر نهر « أرنو » يشق المدينة العظيمة إلى قسمين متعادلين تقريباً ، وينساب إلى قلبها تحت قناطره المعقودة . وإن اسم « أرنو » ليمتزج بحياة فلورنس وتاريخها ، كما يمتزج النيل بحياة القاهرة وتاريخها . وأما « القصر العتيق » فإن اسمه يمتزج بحياة فلورنس العامة زهاء ثلاثة قرون هى عصر الجمهورية ، أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى أوائل القرن السادس عشر . وكان هذا الصرح القديم مركز الحكومة الجمهورية إلا فى فترات قليلة ؛ وفيه كانت توجه مصاير فلورنس ، وقد حولت معظم أبهائه اليوم إلى متحف للسلاح القديم . وأمامه فى الميدان الشاسع الذى يطل عليه (بياتزا دللا سنيوريا) كان يجتمع الشعب فى الأيام المشهودة ؛ ولا يزال هذا الميدان التاريخى يحتفظ بكل جلاله القديم ؛ وفى جانبه الأيمن رواق لانتسى (لوجيا دى لانتسى) الشهير ، وفيه مجموعة من التماثيل البديعة ، منها تمثال « برسيوس ومدوزا » من صنع بنفنوتو تشلينى ؛ وإلى يساره مما يلى واجهة القصر تمثال ضخم لنبتون فوق نافورته . ويزين مدخل « القصر العتيق » تمثال ضخم « لداود » من صنع ميكال أنجلو ؛ وتدل واجهته القاتمة ، ونوافذه الحديدية ، وبرجه العالى ، بأنه كان قبل كل شىء حصناً ومعقلاً ؛ ولكنك تنسى إذ تجوز أبهاءه الداخلية ، التى زينت ريشة أعظم الفنانين المعاصرين ، طابع العبوس الذى يرتسم على واجهته الخارجية .

وكم من ذكريات رهيبة ومحزنة يثيرها منظر القصر العتيق فى النفس ؟! فإن التاريخ يذكر لنا أن كثيرا من أعلام عصر الجمهورية شنقوا على نوافذه ، وأن الراهب الشهير سافونارولا الذى نادى بالمبادئ الديمقراطية ، وزعم الحياة العامة حينا فى فلورنس فى أواخر القرن الخامس عشر ، قد أحرق فى ميدان القصر العتيق ، أمام تمثال نبتون ، واعتبر بعد إحراقه قديسا ، وما زال ثمة مكان بعينه يقال إنه مكان إعدامه (١٤٩٨ م) ، إلى غيرها من الذكريات الرهيبة .

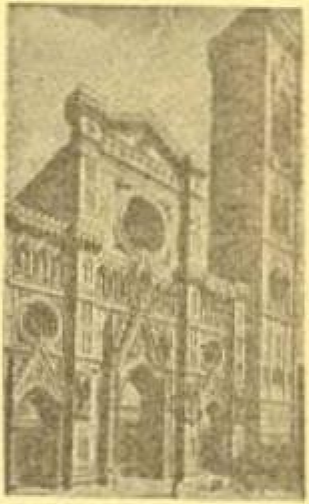


القصر العتيق (بلاتزو فكيو) والميدان (فلورنس)

ولا تزال مجموعة الطرق والأبنية التى تفضى إلى القصر العتيق وتحيط به ، تحتفظ بخططها ونماذجها القديمة التى ترجع إلى العصور الوسطى ؛ ويبدو هذا المنظر القديم فى أقوى مظاهره فى « القنطرة العتيقة » (بونتى فكيو) ، فهى لا تزال تحتفظ بأبنيتها القديمة من الجانبين ، وقد أقيم فى وسطها إلى اليسار تمثال لبنفنوتو تشلينى أحد أبناء فلورنس الأعلام فى الفن والصياغة .

وعلى مقربة من القصر العتيق تقع كنيسة « سانتا ماريا دى فيورى » أو « الدومو » أعظم كنائسها ، وقد

بدئ بإنشائها في أواخر القرن الثالث عشر ، ولم تتم واجهتها العظيمة الفخمة إلا في أواخر القرن الماضي ، وكنيسة « سانتا كروتشي » التي تطل على ميدان صغير به تمثال رائع لدانتي الجبيري ، ولد فلورنس الخالد ، والتي كثيراً ما يمتزج ذكرها بحوادث عصر الجمهورية ؛ وقد أقيمت في ساحتها الداخلية نصب تذكارية لأبناء فلورنس وتوسكانيا الخالدين ، مثل : دانتي ، وميكال أنجلو ،



كنيسة فلورنس الجامعة (سانتا ماريا دي فيوري)

ومكيافيلي ، ودافنشي ، وجاليليو ، وغيرهم ؛ وقصر ريكاردي الذي كان مدى حين مقراً لآل مديتشي ، وهو اليوم مركز لإدارة الشرطة ؛ وكنيسة سانتا ماريا نوفيلا ، إحدى كنائس فلورنس الجامعة . وهنالك أيضا على مقربة من القنطرة العتيقة قصر « بتي » الذي سمي باسم منشئه لوكا بتي أحد رجالات الجمهورية في القرن الخامس عشر ، وقد غدا فيما بعد قصراً لأمراء توسكانيا ؛ وهو اليوم متحف يضم مجموعة من الصور ، منها عدة كبيرة من صنع رفائيل وأندريا دل سارتو ، وبيرو جينو ، وغيرهم من أقطاب الفن الخالدين .

كذلك يوجد في فلورنس عدة مزارات شهيرة ، مثل كنيسة آل مديتشي التي تضم رفات عدد من أقطاب هذه الأسرة ، ودير سان ماركو الشهير الذي كان يقيم به الراهب سافونارولا ، وما زالت به غرفة عمله وكثير من آثاره .

بيد أن أعظم ما تزهو به فلورنس حقاً هو مجموعة الكنوز الفنية الرائعة التي يضمها متحفها العظيم الجامع « جاليريا أوفيتشي » Galeria Uffizi . وإن القلم ليعجز حقاً من أن يقدم إلى القارئ فكرة واضحة عن محتويات هذا المتحف الشهير الذي يعتبر من أعظم متاحف العالم . وهو يشغل البناء المستطيل الواقع على يمين القصر العتيق ، ويمتد بحذائه ، ويتوسطه بهو طويل مزدوج ؛ وقد نظمت به مجموعات من التماثيل القديمة وفنون عصر الإحياء ؛ ويمتد إلى جانبي البهو صفان طويلان من الغرف والأبهاء الشاسعة ، نظمت طبقاً للتواريخ والمدارس الفنية . ويحتوي كل بهو أو غرفة منها مجموعة من الصور النادرة لمصور معين أو لعدة مصورين من نفس العصر والمدرسة . وإن المقام ليضيق حقاً عن الإفاضة في ذكر هذه الكنوز الفنية الرائعة ، بل إن هذا القلم ليعجز حقاً من أن يصف ما تثيره هذه المناظر الساحرة الخالدة في الذهن وفي الروح من متاع وهيام : فهذه غرفة فليبوليبي ؛ وهذه غرفة بوتتشلي ، وبين آثاره صورة الحلم الشهيرة ؛ وهذه غرفة بها مجموعة رائعة لرفائيل منها صورة وجهه الشهيرة التي رسمها لنفسه ، وصورة « العذراء » ، وصورة لميكال أنجلو ؛ وهذه غرف وأبهاء متعاقبة تضم صوراً لآخرين من أعلام عصر الإحياء مثل بيروجينو أستاذ رفائيل ، وأندريا دل سارتو ، وتنتوريتو ، وجيرلانداي وغيرهم . وفي الصف المقابل من البهو الكبير نرى بهو تسيانو البندقي ، وقد عرضت فيه أروع صوره . وإلى جانب هذه الأبهاء التي تضم كنوز عصر الإحياء ، نرى أبهاء أخرى خصصت لآثار المدرستين الهولندية

والألمانية ، وفيها مجموعات نادرة لفان دايك ورمبراندت وألبرت ديرو وغيرهم .

والخلاصة أن متحف « الأوفيتشي » يضم مجموعة من أعظم المجاميع الفنية العالمية ، وفي أروقة أبهائه ينتقل السائح المتأمل إلى عصر الإحياء بجميع عظمته وجلاله .

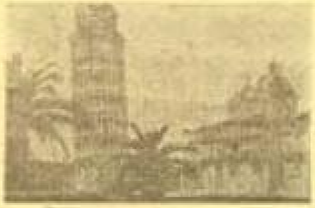
٢ — پيزا

ومدينة پيزا هي عاصمة توسكانيا الثانية ، وهي لا تبعد عن فلورنس إلا نحو ساعة وربع بالقطار ، ويشقها مثل فلورنس نهر آرنو الجميل ، ولا تبعد عن مصبه في البحر إلا بضعة أميال . ولمدينة پيزا كجارتها فلورنس تاريخ زاهر أيام عصر الإحياء ؛ وفيها نبغ عدد كبير من أقطاب الفنانين ، وقامت بها مدرسة فنية زاهرة استمرت زهاء قرنين ؛ وبها ولد العلامة الفلكي الكبير جاليليو .

وپيزا اليوم مدينة هادئة متواضعة ، لا يزيد سكانها على خمسة وسبعين ألف نسمة . بيد أنها مازالت مثل فلورنس تحتفظ بكثير من طابع عصر الإحياء ، سواء في تخطيطها أو طراز أبنيتها .

وإذا كانت پيزا تحتل في نظر طلاب الفنون والتاريخ منزلة خاصة ، بتاريخها الشائق خلال العصور الوسطى ومدرستها الفنية الزاهرة ، فإنها تشتهر مع ذلك في نظر الرواد وعشاق السياحة ببرجها المائل Torre Pendente ، الذي غدا علماً عليها لا تذكر إلا به ، وهو أول مقصد لزوارها العديدين .

والواقع أن برج پيزا المائل تحفة أثرية فريدة ، بل هو كما يقولون إحدى عجائب الدنيا السبع . وهو قائم في غرب المدينة في ميدان رحب هو ميدان « الدومو » ، وهو الذي يسميه الشاعر دانتزيو : « برج العجائب » ، إشادة بجماله وروعة آثاره . ذلك أنه يضم عدا البرج المائل ، كنيسة الدومو الجامعة ، أعظم كنائس پيزا ، والمزار والمقبرة الأثرية ومن ورائها جميعاً بعض أسوار پيزا القديمة . وقد بدئ ببناء البرج المائل في أواخر القرن الثاني عشر ؛ ولم يكن يقصد به أن يكون مائلا ، وإنما بدا الميل فيه فجأة بعد أن بني الطابق الأرضي والطابق الأول ؛ وكان العمل قد أوقف حينا ، وظهر أن هذا الميل يرجع إلى هبوط في الأرض التي أقيمت عليها الأسس الأولى . ومع ذلك فإن المشرفين على البناء لم يكترثوا لذلك ، ومضوا في العمل حتى تم بناء البرج . ويتكون البناء من ستة أروقة مستديرة متعاقبة عدا الطابق الأرضي ،



البرج المائل والكنيسة الجامعة (پيزا)

في كل رواق منه ثلاثون عموداً ؛ وقد أقيمت وسط الرواق السادس منظرة قصيرة مستقيمة تبدو باستقامتها مخالفة لباقي البرج ، وركبت فيها أربعة أجراس ضخمة . ويبلغ ارتفاع البرج كله أربعة وخمسين متراً ، ويبلغ مقدار ميله أربعة أمتار وربعا .

وإنك لتشعر بهذا الميل واضحاً حينما تقف أسفل البرج من الناحية الجنوبية (الواجهة المدينة) ، فيخيل إليك أنه يميل نحوك ؛ وتشعر به حينما تصعد أروقة البرج الحلزونية فتميل بك نحو الجنوب دائماً . وفي أعلى البرج تستطيع أن تشرف من منظرته المستقيمة على منظر طبيعي رائع ، تبدو فيه جبال پيزا والجبورن ووادي نهر آرنو الضاحك ، والبحر التوسكاني ، وجزائر توسكانيا القريبة من الشاطئ .

وعلى مقربة من البرج تقوم الكنيسة الجامعة (الدومو) ، وهي أثر قديم فخم يرجع إلى نحو ثمانية قرون . وقد اشتهرت بواجهتها الكبرى التي تتألف من أربعة صفوف

متعاقبة من الأعمدة المرمرية ، وعنبرها المرمري الفخم الذى صنعه مثال بيزا الكبير جيوفانى بيزانو .



الطبقات الأولى من البرج المائل ، وفيه يبدو الميل واضحا

وإلى يسار البرج والكنيسة توجد مقبرة أثرية قديمة تسمى الحقل المقدس Campo Santo ، وهى تتكون من عدة أروقة . وقد نقشت على جدرانها عدة صور دينية وتاريخية بريشة كبار الفنانين ، ومنها صورة كبيرة رائعة تمثل برج بابل بريشة المصور الشهير كوتسولى .

وتضم بيزا عدا ذلك عدة ميادين وصروح أثرية أخرى فى مقدمتها ميدان الفرسان Piazza dei Cavalieri . وقد سمى كذلك لأسباب تاريخية ترجع إلى بعض المعارك الشهيرة التى وقعت فيه . ويشرف عليه من الناحية الجنوبية قصر آل جيرار ديسكا ، وقد اشتهر بمأساة وقعت فى أحد أبراجه المسمى « برج الجوع » فى أواخر القرن الثالث عشر ؛ وخلاصتها أن سيداً من سادات هذه الأسرة حاصره خصومه فى البرج حتى هلك مع أولاده جوعا وعطشا ؛ وهى المأساة التى خلدها دانتى فى ملحمته الكبرى « الجحيم » .

وفى بيزا عدة كنائس وصروح تاريخية أخرى ، منها كنيسة « سانتا ماريا سبينا » ، وقصر آل مديتشى ، وقصر كورسينى الذى عاش فيه الشاعر الإنجليزى شلى مدى حين ، والقصر الملكى . وبها متحف يضم مجموعة كبيرة من الصور الخاصة بالمدرسة البيزية فى عصر الإحياء .

وجامعة بيزا من أقدم الجامعات الإيطالية ، وقد اشتهرت منذ عصر الإحياء ؛ وكان من أساتذتها الأعلام العلامة جاليليو يلقى دروسه فى الرياضة والفلك على تلاميذه فى البناء الذى تشغله مكتبتها اليوم .

محمد عبد الله عنان

سياست نامه

فى عدل الملوك

— ٢ —

أمرت يامولاى أن أكتب لك هـذا الدستور فلم يسعنى إلا أن أصدع بالأمر ، وكم كانت مهمتى يسيرة عنـد ما استلهمت سيرتك ، ودونت سياستك ، وأنت يا مولاى من أتاح الله تعالى له كل أسباب المجد ووسائل الخلود . وقد أراد الله بهذه الدولة خيراً فنصبك عليها ملكا ، ولم يكن الملك عليك جديدا . وجدودك يملكون العروش منذ عهد جدك العظيم أفراسياب . وقد وهبك ربك من الصفات الجليلة والطلعة البهية ، والطبع المتدل ، والعدل والشجاعة ، والعلم ، والشفقة والرحمة ، والوفاء والتمسك بالدين القويم ، وطاعة الله وتقدير العلماء وأهل الحكمة ، ما يجعل ملكك سعيداً قوى البنيان وارف الظلال .

والركن الأول فى الحكم الصالح أن يكون الملك عادلا يامولاى ، وقد قيل : « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم » ؛ فعلى الملك أن يرضى ربه فى حكم رعيته . واعلم أن الملك الذى يستمد قوته وجاهه من حب شعبه له ، لهو صاحب العرش المكين . وقد حكى أن يوسف عليه السلام أوصى أن يدفن بجوار جده إبراهيم ، فلما مات هموا بدفنه حسب وصيته ، فنزل جبريل من السماء ، وقال : ليس هنا مكانه ، فإن الله سوف يحاسبه عن حكمه يوم القيامة . فإذا كان هذا حال يوسف الصديق فكيف بالملوك من الناس ! وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه : إن الحاكم يحضر يوم القيامة وقد غلّت يده فى عنقه ، فإذا كان عادلا حلّت عقدته وسار إلى الجنة ، وإذا كان ظالماً ظلت عقدته مستحكمة وألقى به فى النـار . وحكوا عن عبد الله ابن عمر أنه حين اقتربت المنية من أبيه ، سأله متى يراه بعد موته ؟ فقال عمر : أراك يوم القيامة إن شاء الله . فقال عبد الله : وددت لو أراك قبل ذلك ! فقال عمر : إذاً ترانى فى الحلم بعد ليلتين أو ثلاث من موتى . ومضت الليـالى الثلاث ولم ير عبد الله أباه . وبعد اثنى عشر عاما جاءه فى المنام ، فسأله عبد الله ألم تقل يا أبت إنى أراك بعد ثلاث ليال من موتى ؟ فقال عمر : لم يتح إلى الوقت ياولدى ، فقد كنت أحاسب عن جسر تهدم أثناء فتح العراق ولم يصلحه العمال ، وقد عثرت به شاة فكسر ساقهـا ! فاعلم يامولاى أن الله محاسبك يوم القيامة عن حكمك الناس ، فعليك ألا تفوض أمر الرعية ، التى اختارك الله لرعايتها ، لغيرك . وعليك أن تعرف مايجرى بين الناس ، حكاما ومحكومين ، سراً وجهراً ، وأن تضرب على يد المتعدين منهم ، وألا تظلم منهم أحـداً . رعاك ربك ويؤيدك ويسدد خطاك .

وإذا كان القضاء يصدر أحكامه باسمك لأنك تستمد سلطتك من الله الذى هو العـدل ، فعليك أن تكون على رأس القضاة . وأن تعقد محكمتك مرتين فى الأسبوع لتسمع شكاوى الرعية ، فتدفع الظلم عمن يتظلم ؛ ولكى يتم ذلك على الوجه الأمثل ، ينبغى أن يستمع الملك بنفسه إلى الشاكين من رعيتـه ، وأن ترفع إليه جميع التحقيقات الخاصة بالقضايا المعروضة ، فيدرسهـا بنفسه ، ثم يصدر الحكم الذى يرى ، متبعاً قواعد العدل والإنصاف . وكم يقلّ الظلم ، ويتضـاءل النزاع ، إذا ماعلم الكافة أن الملك برأس محكمته الخاصة مرتين فى الأسبوع لسماع المظالم والقضاء فيها بنفسه ، فإن هذا يرجع المتعدى عن عدوانه كما يردّ مَـن غوى عن غيه . وقد كان ملوك الساسانيين يامولاى يحرصون على هـذا التقليد أشد الحرص ، وكان الملك يأمر بفتح أبواب قصره فى أيام معلومة ؛ ومن الجرائم

الكبيرة أن يمنع أحد رجال القصر متظلماً من تقديم شكايته للملك فى هذه الأيام . وقد سمعت أن ملكاً منهم ، كان أصم ، وكان يخشى ألا ينقل إليه رجاله ظلامات الناس نقلا أمينا فيحكم بينهم بغير العدل ، فأمر أن يلبس المتظلمون من الرعية ثيابا حمراء ، وألا يلبث غيرهم ثيابا من هذا اللون ، وذلك ليعرفهم الملك ؛ فإذا كان يومُ الفصل فى الشكاوى امتطى فيلا ووقف فى الميدان وجمع حوله ذوى الثياب الحمر ، ثم أخذهم فرادى فى مكان قصى ، وأمر كلا منهم أن يرفع صوته عاليا حتى يسمع شكواه ، ويفصل فى قضيته .

ولم يقتصر الأكاسرة على هذا التقليد الحميد ، بل إنهم كانوا يخرجون إلى الميدان فى عيدى النوروز والمهرجان فى يومين منهما ، للفصل فى القضايا والشكاوى . وكان المتظلمون من الملك أول من ينظر فى أمرهم ، كان ينادى عليهم ، فإذا امتازوا عن الناس ، نزل كسرى عن عرشه ، وسجد أمام كبير الموابذة وقال له : « إن الله قد وكل إليك أمانة الفصل بينى وبين خصمى فى هذه القضية ، فإن أنت ما لأتنى عليه أرضيتنى وأغضبت ربك . وإن أنت حكمت بيننا بالعدل أرضيته . فاحمل عما يجعلك أهلا لهذا الموقف العظيم » . فيجيبه كبير الموابذة — موبذ موبذان — « إن الله إذا رضى عن أمة ولى عليها ملكا يعرف حق الشعب معرفتك إياه ، وإنى حاكم بينكما بالعدل بإذن الله » . ولم يكن كسرى ليتوانى عن إصلاح خطئه وتعويض خصمه إذا ظهر أن الحق بجانبه . وإذا فرغ الموبذ من قضايا المتظلمين من الملك ، نهض هذا واستوى على عرشه ، وأخذ فى نظر الشكاوى من تصرفات الوزير وحكام الأقاليم . وسأحدثك عن هذا فى فصل خاص يا مولاى . ثم ينظر فى شكاوى الناس بعضهم من بعض . وعلى هذا النحو كان الأكاسرة يحرصون على نشر العدالة بين الناس ، وكذلك كانت سيرة أجدادك وآبائك يامولاى . والملك

قرأت فيما قرأت شيئاً من سيرة كسرى أنوشروان وما روى عن عدله ؛ وأنا أذكرك بقصة رويتها لك من قبل فى حياة والدك الملك العظيم رحمه الله ، قصة أنوشروان الذى أمر بأن يوضع فى غرفته الخاصة ناقوس ، وأن يتصل بهذا الناقوس حبل طويل يوضع طرفه بجوار سور القصر ، وذلك ليشده من يتظلم فى أى وقت يشاء فيدق الناقوس ، فإذا دق علم أنوشروان أن متظلماً بالباب فأمر بإدخاله القصر فى الحال . ودق الناقوس ذات يوم ، وخرج أمناء القصر لاستصحاب الشاكى ، فإذا بحمار أجرب يحك جلده فى الجدار ، وعس جنبه الحبل فيدق الناقوس . فلما علم أنوشروان بهذا أمر بالتقصى لمعرفة صاحب الحمار ، فلما عُرف أتوا به أمامه ، فأمره برعاية الحيوان الشاكى ! وليس فى هذا مغالاة أو غلو يامولاى ، فإن الله نصب الملك على العرش ليرعى الناس وليُوفر لهم أسباب السعادة والهناء ، فينشر العدل والرحمة بينهم .

* * *

ولينتبه الملك إلى تقلب الأيام وغدر الزمان . ألم تر إلى عمرو بن ليث الصفار ، وقد امتلأت بالمال خزائنه ، وقويت بالجيش دولته ، فشق على خليفة الله عصا الطاعة ، ومضى فى سياسة أخيه ، مؤثراً العدوان على الوئام ، والحرب على السلم ، وكلما حاول الخليفة أن يهدى من ثورته استفشى ثيابه واستكبر استكبارا ! ساق الجيوش الجرارة وأعمل فى الناس المال الذى تفيض به الخزائن العامرة ، ومضى يقاتل أمير المؤمنين الذى استنجد بإسماعيل السامانى ، فسار هذا لنصرته فى جيش قل عدده وعدته . وشاء ربك أن تغلب قلة السامانى كثرة الصفارى ، وأن يؤسر فلم ينفعه ماله الوفير ولا جنده الكثير . وقد كان عمرو ملكا مترفا ، يلتف حوله الكتاب والشعراء والعلماء ، وكانت مائدته تتسع لمئات منهم كل يوم ، وكان مطبخه يحمل على أربعمائة

جمل حين يرحل ؛ فلما وقع في الأسر وعضه الجوع طلب من أحد الجنود أن يبحث له عما يسد به رمقه ، فسارع الجندي واشترى قليلا من اللحم واستعار موقدا ، وقبل أن يتم نضج اللحم أغرت رائحته كلبا فأتى وكشف عن الإناء الغطاء ، ولما مد فمه ليأخذ منه قطعة أوذى بحرارته فجرى وقد علق الإناء برقبته ؛ فلما رآه عمرو ندم وقال : أرأيت من أصبح أميرا وأمسى أسيرا ! فعلى الملك أن يتبصر لما تخبئه الأيام ، وأن يعمل لغده كما يعمل ليومه ، وأن ينظر إلى تاريخ الملوك ليتخذ منه العظة والعبرة . وقاك الله يامولاى شر الزمان ، وأمنك غيلة الأيام

يحيى الخشاب

مستقبل مصر الثقافي

بعد الحرب

كلما أدمنت التأمل وأنعمت النظر في مستقبل مصر ازددت يقيناً بعلو شأنها ، وتبوئها مكانة رفيعة ومركزاً مرموقاً بين بلاد العالم العربي . فقد أصبحت هذه الحرب بمثابة حاجز بين الماضي والحاضر ، وقنطرة يعبر عليها الجيل الجديد للنهوض بمستوى الشعب الاجتماعي والثقافي ، وسوف يمهد الطريق أمامنا إلى عهد استقرار ، يحدد شخصيتنا ، ويحول نشاطنا الذهني من ميدان الكفاح السياسي إلى مضمار الإصلاح الاجتماعي ، والعمل على استثمار الثروة القومية ونموها واطرادها ، فيسهل علينا الاندماج في الوحدة العالمية ، وتتسرب إلينا النظم والتشريعات الحديثة .

ومما لا شك فيه أنه سيتبع استمتاعنا بسيادتنا ، وظفرنا بحقوقنا كاملة غير منقوصة ، قيام جماعة أو تأليف حزب يعنى بالإصلاح الاجتماعي ، ويدعو إلى التجديد والخروج على بعض الأوضاع الجامدة ، والتقاليد التافهة التئة . فإن هذا الإصلاح وشعورنا العميق بضرورته ، سيتجه مباشرة نحو الرقي بأحوالنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية : فيمنح الفلاح قسطه من الحياة ، ويثقف ثقافة تليق به كعضو نافع في الجمعية البشرية ، ويرفع عن كاهله أعباء الفاقة والجهل والشقاء ؛ ويحرر العامل من الظلم ومن الانحطاط الذهني والمادي ؛ ويزود الطالب من المعرفة الإنسانية ، ومن ضروب الثقافة المختلفة ما يكفل له النجاح في الحياة العملية الصحيحة ، أو الانقطاع للأبحاث العلمية .

وقد باتت الحاجة إلى تكوين حزب اجتماعي يكون أساس الإصلاح فيه فلاح مصر — باعتبار أنه يكون الأغلبية العظمى ، وإلى أنه منبع الثروة الاقتصادية — من الضرورة بمكان .

ومن المقرر أن مستقبل مصر الثقافي لن يقوم على الأدب العربي وحده ، ولا يتطلع إلى النماذج الأوربية ليحذو حذوها ، وإنما سينهض على إحياء التراث القومي ، ويستند إلى ما يصلنا بتاريخ الإسلام من دين وعلم وأدب ، وإلى لغة وسط بين الفصحى والعامية ، فيكون بعث ذلك كله من أسباب إيقاظ الوعي الشعبي ، فتنفض مصر عنها رمال الزمن ، وتمسى عصورها الذهبية الماضية المفعمة بآيات المجد والعظمة مثار وحي وإلهام لأقلام الروائيين وريش الفنانين .

وسوف يتسم العصر الجديد بسمة التفكير المستقيم ، والإنتاج الخصب المنظم ، والأخذ بتوسع في حرية الرأي ؛ ويقترن بظهور طائفة من الكتاب يسايرون أغراض النهضة ، ويصهرون عاطفتهم في بوتقة الوطنية ، فيطالعون العالم بأعمال باهرة تخلد أسماءهم في سجل الفكر الإنساني ، ولسنا ننكر أن لمصر رسالة أدبية خاصة تذيعها في

جوانب العالم العربي ، مما ساعد على خلق جيل جديد من الشباب ، وهيأ الجو لظهور مواهب فذة تعمل على التخلص من العيش في كنف الأدب القديم ، وتميل إلى القيام بنهضة وثابة تقتلع الجذور الفاسدة التي أضرت بالحياة الأدبية . بيد أننا نطمع في المزيد ، فينبغي أن نتحدث عن هذا العالم العربي ، كما نتحدث عن أسرة واحدة ؟ ومن أجل ذلك نطالب بمحو الفوارق الجنسية والطائفية ، ورفع الحواجز الجمركية ، وضرب نقد مشترك بين أمم الشرق ، وتوحيد مناهج التعليم ، والخضوع للغة الفصحى وحدها ، وإنشاء عصبة أمم شرقية من الشباب تتولى فض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

ونطالب فوق هذا وذاك بخلق لون من التعاون الثقافي يقوم بين مصر وبين الذين تجمعهم بها وحدة اللغة والدم والتاريخ ، فتكفل مصر لهذه البلاد حياة راقية ، وتأخذ على عاتقها صيانة التراث العربي المشترك ، وترتبط بوشيجة تآلف قوية ، سداها التفكير في الرقي بأحوال العرب ، وإحكام الروابط التي تجمعهم معاً .

وقد بلغنا طوراً من الحضارة يدعونا إلى توثيق الصلة بيننا وبين غيرنا من الأمم ، وإلى أن نترابط معهم برباط ثقافة واحدة تعمل لصالح البشرية . ولن تكون للكاتب المصري مكانة ملحوظة ، ونزعة كونية شاملة ، إلا إذا تجاوزت همومه تخوم وطنه إلى التفكير في أخيه الإنسان تفكيراً نبيلا حرا ، فيساهم في حل المشكلات الدولية ، ويشترك في معالجة الأزمات الاقتصادية ، ويعمل على مكافحة الأمراض الاجتماعية ، ويدلي برأيه في تنقيح الدين ، أو القضاء على الاستعمار ؟ فإن الحضارة الأوربية التي تسود العالم اليوم جعلت مصالح الأمم متشابكة ، بحيث تتوقف صحتها ، ورواج علومها وسلامها ، على التضامن والتفاهم ، والخضوع لنظام واحد شبه مشترك .

ولا ريب في أن رجال التربية سينجحون إلى حد ما في محو الأمية وضمان المساواة بين الطبقات ، وتقريب الشعور بين أبناء الأمة ، وذلك بفضل ارتقاء الحالة الاقتصادية العامة مع انتشار التعليم الإجباري وتعميم المجانية ، فترتفع نسبة المثقفين ، وتزكو ملكة الذوق والفهم في نفوس النشء ، فتستفيض المذاهب ، وتتنوع الأساليب ، ويربح الكاتب والمؤلف قراء جددا يكونون الصفوة المثقفة الممتازة التي هي ظهير الأدب .

ولا يمكن أن يتفهم الشاب المصري روح الوطن وعبقريته ما لم تفرض الأمة رقابة قوية على التعليم الأجنبي ، وتشرف إشرافاً فعلياً على ضروب الثقافة ، وأن تعتبر العربية لغة أساسية يخضع لها الأجنبي كما يخضع لها المصري في جميع مناحي الحياة ؟ فإن كل ثقافة لا تستند إلى نتاج عقول أبنائها ليست سوى ثقافة مستعارة لا تشرف الأمة التي تنتسب إليها ؟ وكل أمة لا تتصل بماضيها وتفخر بعبقرية جدودها لا تثق بحاضرها ، ولن تقوم لها حياة شريفة ، أو تنمو في نفوس أبنائها نزعة قاهرة للسمو .

وستقتضي سياسة التوسع في نشر المدارس والتطور في التعليم ، ضرورة إنشاء جامعات أخرى في أسيوط والمنصورة والأقصر تشبع رغبات المثقفين . وإذا كانت بعض الأمم التي تبلغ ميزانيتها خمس ميزانيتنا ولا تختلف عنا في درجة الرقي ، بها نحو خمس جامعات ، فقمين أن يكون لدينا أكثر من جامعتين تمد البلاد بطائفة من الشبان الذين ينشرون الثقافة ، ويكونون قوام الحياة الجديدة وزينتها .

أما الأزهر فسيظل مصدر حياة روحية للمسلمين ، ولن يتسنى ذلك إلا بتحويله إلى كلية لدراسة العلوم المتصلة بالدين فقط ، فتؤدي هذه الجامعة القديمة أجل

الخدمات للعالم الإسلامى ، وتخرج طائفة من العلماء النابهين الذين يجمعون بين القديم الطريف وبين روح العصر الحديث . وليس ثمة ما يمنع من أن يسمح للفتاة بالانخراط فى سلك طلابه ، على نحو ما هو متبع فى الجامعة ، فقد آن الأوان لأن ينتهز الأزهر فرصة النهضة الحاضرة فيخرج نساء صالحات لحفظ أبناء الوطن ، وتربية الروح الدينية والخلقية الصحيحة فى نفوسهم .

ومن المرجح أن يستبدل نظام المجمع اللغوى بأكاديمية تسودها النزعة العلمية الشاملة ، ويكون من حق الكتاب والروائيين والشعراء ورجال العلم والسياسة أن يرشحوا أعضاء فيها ؛ وأن تكون لهذه الأكاديمية من النفوذ بحيث تؤيدها الدولة وتدعمها بقواها ، وألا يقبل النقض فى المسائل العلمية التى تصدرها ؛ وأن تبسط هذه الأكاديمية نفوذها على معاجم اللغة ، فتنقحها وتدخل عليها ألفاظاً جديدة تشمل العلوم والفنون والمخترعات ، وتضيف إلى العربية الألفاظ التى تقتضيها حضارة العصر الجديد ، لأن هذه الألفاظ أصبحت فى حوزة الإنسانية ، بغض النظر عن الأمة التى ابتدعتها .

وسيؤدى منح المرأة حقوقها ، وإنصافها من الغبن الذى حاق بها ، وتخلصها من صنوف الذل أو الهوان أو الجهل الذى نزل بها خلال القرون الغابرة ، إلى أن تكون منشئة الجيل وعماده ، فتزود فى ثقافتها النسوية بما يسهل لها تأدية هذه المهمة على أكمل وجه ؛ وإلى أن تساهم فى الحياة الاجتماعية والعلمية مساهمة تتفق وتطور عقليتها ، فتبث روح البر والخير فى النفوس ، وإنقاذ الناس من البؤس والفاقة ، وإرشادهم إلى سبيل الهناء ؛ وسيكون ميدان الخدمة الاجتماعية هو المضمار الذى تبرز فيه كفايتها ونشاطها ، سواء فى اتصالها بالريف وعمال الزراعة ، أو رعاية الطفل ودور اللقطاء واليتامى ، أو مد يد المعونة إلى الأسرات المعوزة ، وتخفيف آلام الغير ، وحل مشكلات الفقراء .

وستشمل الرسالة الأدبية التى يحملها الجيل الجديد تصوير الحياة ونقد المجتمع ، بدلا من الاعتماد على بطون الكتب . ومن أجل ذلك لن يعاد طبع المؤلفات التى توفر أصحابها على صناعة التصنيف ورص الكلمات ، ولا الأشعار السقيمة ، ولا الأوصاف الفاقدة الحس والروح ؛ لأن معنى الأدب سيتطور ويكون عماده التعمق والشمول ، ومحوره الابتكار وغزو عوالم جديدة ، فيعمل الكتاب على أن يقربوا الحياة إلى عقلية القارئ كما يجدها الذين يعيشون بينها ، وليس كما كان يتخيلها السلف .

وستكون نزعة التخصص هى طابع العصر الجديد . ولن يكون الأديب كمعلم القرية يدرس الفقه والجغرافيا والتاريخ ؛ بل سيكون لكل كاتب ميدان خاص يبرز فى محيطه نشاطه وكفايته ؛ وسيقوم الجدال بين الأدباء حول الكشف عن مساوئ الصناعة ، أو تحديد الخلاف بين العلم والدين ، بدلا من أن يقوم حول تحديد لفظ أو معنى ، أو التعرض لكرامات الأدباء وشخصياتهم .

محمد أمين حسونة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

مصـ
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧٫٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

آنا كارنينـــــا

لليون تولستوى

عرض وتحليل

يدور محور قصة « آنا كارنينا » حول امرأة متزوجة دون حب لرجل يكبرها ، وتقع فى شراك ضابط موسر « فرونسكى » فتهرب معه وتهجر زوجها وولدها الصغير ؛ ويرفض زوجها أن يطلقها فيطردها المجتمع ويسقطها من حسابه .. وفى النهاية تعتقد أنها قد حطمت حياتها وحياة عشيقها فتقتل نفسها .

ومأساة آنا كارنينا تعتبر أعظم مآسى الأدب . فنحن إذ نتابع المواطف المختلفة فى سياق القصة نجد أن القوة التى أحبت بها « آنا » « فرونسكى » ما تزال تسيطر علينا ، باقية فى خيالنا ، لا تمحى حتى حين أطلقت سماء حبها .

ويعتبر ماثيو أرنولد الكتاب قصة من الحياة أكثر منها قصة فنية دقيقة الصنع .. الحياة التى رآها المؤلف بعين داخلية ، وأحس بها فى زوايا نفسه وعاش خلالها .. ثم كتبها بإحساس وشعور قويين . ولا غرو فقد قال تورجنيف عن هذه القصة : « إنها طرفة أدبية من أروع ما كتب فى الأدب » ؛ كما أن دستويفسكى يقول : « لقد سمت نحو الكمال الذى لا يضارعها فيه أى عمل أدبى آخر » ؛ كما يعتقد جالسورثى أن موقفى موت آنا وولادة ابنها ، هما أعمق المواقف العاطفية فى الأدب الروسى .

والتطلع إليها يجد أن سحر البطلة يأسرنا ونحن نتابع أطوار حياتها المختلفة من سقطات وأخطار وأحزان .. ومع ذلك نجدنا لا نبرح متأثرين بطبيعتها الفاتنة الصافية ، فإذا بنا لا نحافظ على عطفنا عليها فحسب ، بل على احترامنا لها . فآنا كارنينا قصة كبيرة .. أثيمة .. مرحة .. مشوقة .. ساخرة .. مهزلة فاجعة كالحياة نفسها .

ويقول الناقد الإنجليزى داى لوس : إن « آنا » هى آخر روايات تولستوى التى كتبها قبل أن يتحول مجرى حياته ذلك التحول المعروف ؛ ولعلنا نلاحظ ظلا لذلك الانقلاب فى نفس القصة ، إذ أن المؤلف قد تقمص شخصية ليفين . وفى الكتاب أجزاء توضح لنا تبرمه من أسلوب حياته التى كان يحياها وأحبها من قبل ، والتى لخصها فى « اعترافاته » بقوله : « على كل فرد أن يعيش ليحصل على أحسن ما فى الحياة لنفسه ولعائلته » .

ولكن فى هذه الفترة الأخيرة كان تولستوى قد بدأ يبحث عن المعنى الجديد الذى تعنيه الحياة ، ولم يعثر عليه فى الفلسفة العقلية أو فى المرح النفسانى ، بل وجده — كما وجده ليفين فى القصة — فى الحياة الروحية .. الحياة الوحيدة التى تستحق أن يعيش من أجلها البشر . وعلى ذلك فقصة « آنا كارنينا » تعتبر فى رأس القائمة من ناحية طريقة معالجتها وروحها ، إذ تغلب عليها الواقعية ، وشخصياتها ومواقفها طبيعية ، حتى أن القارئ يتوقف أحياناً عن القراءة بين كل فترة وأخرى ليقول لنفسه : « حقيقة .. هذه حقيقة .. وهكذا تسير الأمور » .

وتتآلف مواقف القصة ومناظرها وحوادثها لتعطى صورة لمجتمع المدنية الحديثة التى بدأ تولستوى يحتقرها ، وجعل ذلك الاحتقار لها يزداد ويحفر فى نفسه على مر الأيام حياة الطبقة الروسية العالية الراقية ، الطبقة المادية الهاربة من المسئوليات ، والتى لا يمكن مقارنتها بطبقة الفلاحين الروس وحياتهم .. الحياة الخشنة النافعة بمسراتها وأفراحها الساذجة ، وقناعتها بأعمال الأرض ، وإيمانها بالقوة الإلهية السامية .

وفى « آنا كارنينا » ندرس شخصية امرأة تنطوى

نفسها على شعور تام بالخير والشر ؛ امرأة ذات جمال باهر وسحر فاتن ، شخصية قوية بالرغم من أنها لا تظهر فى بعض الفصول المتتالية على مسرح القصة ، إلا أننا نشعر أنها المركز الرئيسى الذى تدور حوله كل الحوادث والتيارات النفسية المختلفة .

وإذا تساءلنا ما هى الفاجعة فى حياة « آنا » وجدنا أمامنا إحدى مقدمات أرنست ريس عن القصة التى يقول فيها : « إن البيئة والحالة التى توجد عليها كل امرأة وتعيش خلالها ، إنما هى الاختبار الدقيق للحالة الاجتماعية التى تتأثر بوجودها . وعلى هذا فإن تولستوى يبدو كأنما لمس هذه الحالة تماماً » . والآن تتضح الحقيقة ، وهى أن الأزمة الأخيرة التى حلت بحياة آنا إنما كان سببها الرئيسى الموقف الذى واجهتها به البيئة الاجتماعية حينئذ لاتصالها ذلك الاتصال غير الشرعى بفرونسكى وهجرها زوجها وولدها . ولعلنا نذكر الحقيقة إذا قلنا إن تولستوى أراد أن يظهر بجمالها هـذه الضعف المعنوى الذى لحق بتلك الهيئة الاجتماعية .

وليست مأساة آنا بدائية ، إنما هى النزاع العقلى بين نفسها والمجتمع ، كما أنها ليست امرأة فاتنة بدأت تفقد محاسنها ، حتى إن الكاتب برسى ليوك يقول : « إذا أردت أن أبحث عن أحسن صورة خلقت فى الأدب لامرأة تعيش تحت رحمة الزمن ، متعرضة لحوادث السنوات والأيام ، تستقبلها تارة صريحة كما هى وأخرى فى مداراة ، مسجلة ما ستكون عليه ، فإنى أجدها بالتأكيد فى قصة « آنا كارنينا » ؛ فمع أن صورها مختلفة متنوعة دقيقة ، إلا أن طبيعتها تخضع لضغط الزمن الذى يهاجمها ويخضعها ثم يرمى بها إلى الهوة ... وهكذا يتعقبها تولستوى ويترجم إحساساتها من البداية حتى النهاية » .

ومع ذلك فإن الزمن ليس هو السبب الرئيسى فى مأساة آنا ، فهى لم تقتل نفسها لأى سبب روحى أو مادى أجبرها الزمان عليه .. ولكننا كلما ازددنا معرفة بحياتها مع فرونسكى ، كلما رأينا أنه ينقصهما الاستقرار الناشئ من ذلك الحب الدنس الذى يجمع بين قلبيهما .

وعلى ذلك يمكننا أن نقول إن تولستوى كان ينظر إلى القانون العقلى بشعور عقلى محض .. الشعور الذى يقول : « إن النتائج السيئة تنتج من المقدمات الخاطئة » . وهذه هى الحال بين فرونسكى وآنا .. فكلما تعمقنا فى فهم علاقتهما التى كانت بدايتها تبدو بريئة ولكنها تخفق مسودة ، لاحظنا ذلك الإثم المهلك .. ولاحظناه بإمعان أكثر فى نفسية « آنا » ذاتها . تلك المرأة المتشاغفة الدقيقة الشعور والإحساس اللذين يتنافيان بضعف أعصابها المريضة ؛ وليس أدل على ذلك من أن التمثال الذى نقيمه فى أنفسنا عن شخصيتها المخلصة المتزنة — إذ هى تضحى بالمجيء إلى موسكو لتصلح ما بين أخيها وزوجه — سرعان ما يتحطم حينما يخبرها أخوها أن حارس القطار قد دهسته القاطرة فتنفجر غاضبة وتمتلئ عيناها بالدموع وتقول : « إن هذا لفأل سيئ » . وهذه لحظة لها قيمتها ، فهى تنبئنا من المصير الذى ينتظرها ، وتقتها الضعيفة التى يمكننا متابعتها فى علاقتها مع إليكس زوجها .. وإذ بنا نشعر كما شعرت هى — حين قابلت فرونسكى — أنها وزوجها لم يكونا على وفاق ورضاء تامين .

وأى إشراق فى ذلك الموقف حين عادت إلى بطرسبرج ، فلقد قابلها إليكس على المحطة فكان صدى شعورها هذه الكلمات : « يا إلهى ، لماذا خلقت أذنيه بهذا الحجم الكبير ؟! » شعور مقيت امتلك حواسها حين نظرت إليه ، ولعلها كانت ترجو أن تراه مختلفا . ومرة ثانية حين عادت إلى منزلها وهى تحيى نجلها الصغير العزيز سرجى ؛ فنحن لا نشك فى حبها العميق لابنها ، ولكننا نشعر فى الوقت ذاته —

كما يقول المؤلف — « أن شعورها الأول حين رأت طفلها كان وهماً ، فهو تماماً كنفس الشعور الذى قابلت به زوجها . فلقد كانت تتخيله أحسن مما هو عليه .. وكان عليها أن تهبط إلى الحقيقة لتسعد به » . هاتان النقطتان توضحان ذلك المرض النفسانى الذى تعانيه آنا .

ويقول العلماء النفسيون فى تعريف الشخص الخيالى : « إنه ذلك الذى يخلق حوله دنيا وهمية أكثر رقة ولطفاً وحسناً عن دنياه الحقيقية » . ويمكننا مطابقة ذلك على الشعور الذى قابلت به آنا حقيقة زوجها وولدها بعد عودتها إلى منزلها ؛ ومن هنا يتضح لنا أنه كتب عليها ألا تكون قانعة فى حياتها ، فهى لا يمكنها أن تقبل الحياة على علاتها ، ومحاولاتها فى أن تزن حياتها إزاء أهوائها المختلفة كانت محاولات صعبة لم تتحملها ، فبينما هى فى منزلها نجدها تتوق إلى فرونسكى الذى تتوهمه شخصية غير عادية . . ولكن حين تهرب معه ، وبينما هى منغمرة فى سعادتها الطاغية التى لم تشعر بمثلها من قبل ، نجد تلك العودة المميتة — عودة التبرم والضجر والوهم الخاطئ — تسرى فى قلبها ، حتى إن المنزل الذى هجرته يأخذ لون الورود التى سبق أن رمت بها حبيبها .

ويمكن ملاحظة هذا التطاحن فى نفسية آنا من ترددها حيال مسألة طلاقها ، فهى ترغب دائماً فى أن تجنى من كلا البستانين أشهى الثمار ، أو بمعنى أصح أن تجعل هناك باباً مفتوحاً بين حياتها مع إليكس — سرجى وحياتها مع فرونسكى . وحينما شعرت بنفسها تحمل ابن فرونسكى ، إذ بها تتجه فى عنايتها نحو زوجها ، حتى يخيل إلينا أنه فى الإمكان إيجاد الصلح بينهما . ولكن فى الحقيقة أنه لا هو ولا هى لدى أيهما الرغبة الصحيحة فى بناء حياة جديدة تقوم على علاقات عميقة على أنقاض هذا التقلقل الذى يسود حياتهما . فإليكس عبد طيع لدنياه ، بينما آنا تسقط إلى الهوة بخيالاتها وأحلامها وأوهامها . ومع ذلك فبعد أن فرت هاربة مع فرونسكى لم تجد من نفسها الشجاعة لأن تطلب من إليكس أن يطلقها . . فهى فى اللاشعور ترغب فى ترك كوة مفتوحة حتى لا تنغلق عنها حياة إليكس إغلاقاً تاماً . . ولكنا نلاحظ — حين ضغطت عليها الظروف الخارجية وأجبرتها لأن تحاول الطلاق منه — أن علاقتها بفرونسكى بدأت تتقوض بوضوح أمام أعيننا ، وأن حياتها معه لا تبدو حقيقة واضحة ، بل هى وهم وخيال .

وتولستوى الذى خلقها امرأة حبيبة تنال الإعجاب والعطف عليها دائماً ، لم يضن عليها بالآلام والاحتقار . وتحضرنا الآن تلك الفقرة من « ذكريات » جوركى التى يقول فيها : « إن تولستوى كان يشعر بكراهية حادة مكبوتة نحو النساء جميعاً ، وإن هذا يؤثر فى معالجته لحالة آنا كارنينا فى روايته » . وسواء أكان هذا صحيحاً أم لم يكن ، فإنه لا يضعف من النهاية الفاجعة التى انتهت بها حياة آنا .

فذلك المرض النفسانى الذى تحدثنا عنه والمستولى عليها ، والذى لم يظهر ضرره فى بداية أيامها حين كانت تجد الملاهى والملذات المختلفة والأصدقاء العديدين الذين يعطفون عليها . . ذلك المرض تنغص عليها حياتها حتى أرهق أعصابها وأصبح قاتلاً مميتاً .. وتجمعت حياتها كلها فى فرونسكى فانقلب حلوها مراً ، وانقلبت عاطفتها نحوه غيرة شيطانية كانت تحاول التغلب عليها عبثاً .. وإذا بها تشعر أنه كتب عليها أن تهدم حياتها وحياة فرونسكى معاً بيدها .

وهكذا . . نتابع حياة تلك المرأة من بداية الكتاب حتى نهايته والإعجاب يملأ نفوسنا .. إنها امرأة تختلف عن النساء . . ما أبدعها فى مرحها وأهوائها !! وما أعظمها فى حبها ! وما أنبلها فى لحظات ذلها وهوانها ! ولكنها امرأة — إذا كانت هناك امرأة مثلها — توضحها لنا أباطيل ذات نفسها .

عيسى فتحى خليل

رد على مقال

عبد الله حسن كردى

شاعر السودان

اطلعت بالعدد رقم ٢٨١ من « مجلة الثقافة » الصادر فى ١٦ من مايو سنة ١٩٤٤ على مقال للأديب عثمان عيسى شاهين ، يتحدث فيه عن الأدب فى السودان .

وجميل من أبناء الكنانة أن يعنوا بالأدب فى السودان بعد أن أغضوا عنه زمناً . وما السودان إلا جزء من الشرق ، بل الشرق كله ممثل فيه ، فدينه الإسلام ، ولغته الضاد ، وتراثه عربى ، وأهله شرقيون فى كل ما يحيط بهم من نواحى الحياة ؛ شرقيون فى أخلاقهم وعاداتهم ، وشرقيون فى مآكلهم ومشربهم وملبسهم ، ولو أنهم بدأوا يتأثرون بالحضارة الأوروبية — كما تأثرت بلاد الشرق — مما نجم عن الاختلاط والتعليم .

هنا لا أود أن أتعرض إلى كل ما جاء به الأديب عثمان عيسى شاهين ، ولكنى سأحاول أن أزيل اعتقاداً ربما كان ناتجا عن عدم اطلاع واسع على شعر أحد شعراء السودان الأفذاذ الذين يعرف لهم السودان قدرهم ، ويدين لهم بكثير من رونق نهضته الأدبية منذ عشرين عاما ، والذين لم يسعدهم الحظ ، أو قل لم يسعد الشرق الحظ أن يقرأ كل شعرهم ، نظرا لخلو السودان من المجلات الأدبية المحضة التى تفتح صدرها لمطولاته الشائقة وقصائده الرنانة ؛ وقد نشر بعض شعره فى الجرائد السودانية ، وقليل منه فى المجلات المصرية — خصوصا مجلة الصباح — فى فترات من الزمن متباعدة . ذلك الشاعر هو الأستاذ عبد الله حسن كردى . وإنا عظيم الأمل فى « مجلة الثقافة » وهى لسان الأدب فى وادى النيل ، بل فى الشرق كافة ، أن تبرز لقراء العربية شاعرا نابغا من شعراء العربية .

ذكر الأديب أن الأستاذ الكردى وغيره كالأساتذة عبد الله البنا ، وعبد الله عبد الرحمن ، بالرغم من أنهم متثقفون وأخذوا من الحضارة بنصيب وافر ، إلا أنهم لم يسايروا ركب الحياة ، ولم يجددوا فى موضوعاتهم الشعرية مما يجارى الحياة ، بل اقتصروا على موضوعات الفخر والحماسة والرثاء .

ولكن أيها الأديب — والحق يقال — إن الواقع ينافى ذلك . فإنهم لم يقتصروا على هذه الأبواب من الشعر ، ولم يمنعهم قولهم فيها من أن يسايروا الحياة ويتعلقوا بلسانها ، ولكنهم لبّوا نداء البلاد فى كل ما تدعوهم إليه ، وترجموا من البيئة التى يعيشون فيها . وها هم لا يفوتهم يوم تعليم لا يقولون فيه ، أو مهرجان أدبى لا يقفون على منبره ، أو مسابقة شعرية لا يشتركون فيها ، أو راحل كريم لا يودّعونه ، أو مقبل أريب لا يستقبلونه .

وسوف أعرض على قراء الثقافة صورة عاجلة موجزة من الأستاذ عبد الله حسن كردى ، ولنا عودة على الأستاذين الآخرين . والأستاذ كردى إذا أنصفناه شاعر موهوب بقدر ما فى هذه الكلمة من معنى ، قد أوتى عبقرية شاملة لا تجارى ، وذكاء متوقداً لا يبارى ، وقلباً واعيا لا يدرك شأوه ؛ جمع إلى ذلك شاعرية فذة لا يعروها تكلف ، وتمكن عميق فى أسرار اللغة وأصول البيان ، واطلاع واسع على أدب الأقدمين ؛ وهو إلى ذلك سريع الخاطر ، حاضر النكتة ، محب للاجتماع ، جاء شعره سلساً ، وجاءت عباراته رصينة لا تعرف الوحشى ، وألفاظه جزلة أبعد ما تكون عن النبو والغرابة ، ومعانيه سهلة عالية ، ليس فيها تعقيد . تقرأ شعره فتعجب باختيار ألفاظه وانتقاء معانيه ، وتشعر باستحالة تبديل كلمة بكلمة أنسب ، أو معنى بمعنى أرق ، أو عبارة بعبارة ألطف ، أو قافية بقافية أليق ، أو وزن بآخر أشد وقعاً على السمع أو أعمق أثراً فى النفس . فشعره كامل فى معناه ومبناه ؛ ولا غرو فهو القائل :

من مبلغ الدهر عنى أنى رجل
أرى الرزاية بالأحرار إسفافاً
ولم يك الأنس بالقينات يطربنى
ولا على نديم الكأس قد طافا
هى المحافل أغشاها بقافية
بكر بها الشعر در ليس أصدافا
عودتها السهل فى نظم أتيه به
محلق قد حوى الحسنات ألفافا
وملء بردى عفاف لا يدنسه
عار به المرء يلقى الذل أصنافا

وهو القائل أيضا :

أحب المرء أن أمسى كريما   وأبغض ما حيانا يهوى الدعابا
وأكره أن يضام الحر عمداً   وضيم الحر لم يفتأ مصابا
وأغضب للفضيلة لا لنفسى   وآبى الكبر فى قوم ذنابى

والفخر من الأشياء التى تقبل المبالغة ، ولكن إذا أجمع عليه الناس كما أجمعوا على هذا ، فهو أصدق صورة تمثل صاحبه .

وانظر قوله يصف بديع صنع الله عز وجل :

جل من بالعلم أحصى   عمل الأقوام عدّا
جعل الأرض بساطا   فقدت للناس مهدا
ثم أحياها بقطر   ممرع غوراً ونجدا
وكساها بعد محل   من بهيج النبت بردا
أخرجت بالزرع حبا   قد أصار العيش رغدا
ومن الجنات روض   نظم التفاح عقدا
ومن الرمان طلع   لاح للأبصار نهدا
ومن الفتان زهر   يعشق الأفنان ملدا
أبيض مثل الأقاحى   للغوانى صار وجدا
ومن الأحمر قان   فتح الأكمام وردا
ومن الأخضر حسن   ممتع للنفس جدّا
ومن الأصفر تبر   بعد سبك صيغ نقدا
فاقع والغصن رطب   من حباب الطل أندى
وغصون ناضرات   كالشباب الغض عهدا
رقصت رقص العذارى   وأرتنا البان قدّا

وفيها يقول :

يا عزازى بين روض   ما شكا همّا وسهدا
غن إلى بعد سلمى   قد سلوت اليوم دعدا
وصبا قلبى لحسن   بات فى الجنات فردا
غن إلى مستهام   يشتهى فى الروض خلدا
غن إن الروض يصبى   بالهوى شيباً ومردا
غن إلى بين واد   ضوع الأعراق ندا

وفيها أيضا :

ربى كم أبدعت حسنا   فى الدمى جيدا وخدا !
وقواما ماس غصنا   ثم شعرا لاح جعدا
وجعلت الشمس نوراً   عملأ الآفاق وقدا
والدجى بغشاه بدر   يلبس الجوزاء عقدا
ونجوم من جمال   مثل در ليس يعدا
يدلج السارى عليها   وإذا ما ضل يهدى
وسماء منك فضلا   ترسل المنثور جودا
وتريها البرق خوفا   وهو نعمى منك تسدى
وبحار من فرات   سائغ كم طاب وردا
وبحار من أجاج   قد طغت جزرا ومدّا
وجبال راسيات   ما لها نستطيع هدّا
شمخت تيها بأرض   لم تعد بالناس ميدا

تأمل هذا الشعر السلس ، وهذا الوصف الدقيق ، وهذا اللفظ السهل ، وهذا الأسلوب الرشيق . وانظر إليه كيف صور الطبيعة فى شتى ضروبها ، وكيف أظهر عظمة الخالق . تأمل معى أيها القارئ ، ألست تلمح نفس الشاعر المفعمة بالإيمان تطل من بين هذه السطور ؟! ليس كل من يحاول الوصف يستطيع أن يبرز صورة خلابة تستهوى النفوس وتخلب الألباب .

والأستاذ كردى يجيد الغزل إجادة فائقة ، وله مقدرة تبعث العجب على التشبيه والاستعارة ؛ ولعلك أيها القارئ لمست ذلك فى قصيدته الآنفة الذكر . وهو من الذين يجعلون من القطعة الشعرية الوصفية صورة ناطقة تفصح عن نفسها ، يعينه فى ذلك خيال واسع ، وحس مرهف ، ومعين لا ينضب من اللغة ، وثروة لا تفنى من المفردات ؛ فهو بحق شاعر السودان كما لقب بذلك فى جريدة البلاغ على أثر رثاء شاعر النيل « حافظ إبراهيم » . فاسمعه يتغزل :

غادة بهنانة فتانة … بقوام ماس غصنا رطبا
يتوارى البدر منها خجلا … كلما تبدو ويخفى غيهبا
والدجى يحسد فيها مفرقا … ما رآه النجم إلا غربا
وهب الله لها حسناً به … فتنت غيدا ونامت عربا
وجهها مثل الضحى فى رونق
وبفيها الريق يحكى الضربا
وثناياها إذا ما ابتسمت … لمعت برقا ولاحت حببا
وحلال السحر فى لحظ بها … يتقى هاروت منه العطبا
طوقها حسنٌ قد استغنت به
عن لآل وجمان ثقبا
وهى مذ كانت فتاة لم يكن … حليها فوق التراقى ذهبا
صدرها كالعاج مصقول به
طلع رمان الهوى قد أخصبا

ثم استمع إليه فى قصيدة يحيّى بها بطل الشرق صلاح الدين الأيوبى ، وانظر إليه كيف بدأها فتغلغل فى صميم الواقع ، وخرج بحقائق من صميم الحياة :

عرفت دهرى على الأمجاد قد حاقا
فكيف أرجو من الظلاّم إنصافا
يسبى قوماً وأقواما يميل بهم
ويجتبى للعلا والمجد أجلافا
ويدفع الحرّ للمجلى فيركبها
وإن يكن من عواديها لقد خافا

ثم تأمل قوله يصف صلاح الدين فيشبه أخلاقه تارة بالخمائل ، وتارة بالدجن ، ومرة بالنور ، وأخرى بالماء :

قد كنت سمحاً كريم النفس ذا خلق
سهل طلعت به للناس تحنّانا
يحكى الخميلة ذات الوشى ناضرة
والزهر إما غدا بالنضح محّانا
والدجن لطفاً ونور البدر منبلجا
والماء بالصفو رقراقاً وشفّافا
حلو لدى السلم مرٌّ عند نازلة
صعب على القرب إن عادى وإن صافى
وما اتخذت الصروح الشامخات علا
داراً ولا كنت فى الضراء أفّافا
كلاَّ ! ولا بهجة النعماء قد وجدت
يوما بنفسك بعد الزهد إيلافا

لقد قرأت الكثير فى مدح صلاح الدين فلم أر مثل هذا الشعر القوى ، وهذا الوصف الطبيعى الخالى من أى أثر للتكلف والتعقيد .

ثم استمع للأستاذ كردى فى قصيدته التى كانت الأولى من بين القصائد التى أرسلت للمهرجان الأدبى لسنة ١٩٤٢ ، والذى كان سيقام بنادى الخريجين بالخرطوم وعُدل عنه لأسباب ما ، استمع إليه يخاطب البلاد :

يا بلادى إن الجهاد فلاح … قد عقدنا طرآ عليه رجانا
فإذا ما أتيح عشنا كراما … بين واد من نيله قد سقانا
فاجعلى الدح فى بنيك نشيدا … وهتافا يغرى بك الشبانا
ثم تبقى على الأنام فخاراً … حيث واديك أنجب الشجعانا

ثم يخاطب الشيوخ فيقول :

لا تعيبوا على الشباب جهادا … أذن الله أن يكون فكانا
ليت شعرى ماذا على المرء إما … راح يبغى لحاجة لشدانا
وصمة العار أن نعيش ولما … نقض حقاً نرضى به الأوطانا

بين المسموع والمقروء

عند طبيب :

دققت الجرس ، فانفتح الباب ، فسألت الخادم أين الدكتور ، وما لبثت أن رأيت الدكتور قادماً ... حافياً .

ولم يكن على جسمه من غطاء غير سروال قصير يحجب ما تسميه العورة . قلت : لقد حضرتُ في الموعد . قال : بالضبط .

وساقني إلى حجرة الجهاز ، بعد أن خلعت ملابسي وصرت مثله غطاء جسم . فهو طبيب يتولى علاج الأجسام بالحركة والبخار لا بالأشربة والعقاقير .

وفي حجرة الجهاز قذفني الكرة وقذفته ، ولم تمض دقائق حتى صرت كالخارج من المغطس بللا . ثم جعلني أجري حركات للرياضة أخرى ، كان ختامها أن رقدت على ظهري ، وأخذت أرفس برجلي ، فإذا بي أتحرك كالرقاص البخاري على سطح النيل . لقد كان سطح الحجرة غاية في الملاسة ، وكان ظهري عليه من الماء ما كفى للسباحة ، فلما رفستُ أزلق ظهري وجرى باسم الله مجراه ومرساه .

وما كتفى الدكتور بهذه الظاهرة العجيبة ، وقال : هذا حسبُ جسم يتحرك عنيفاً لأول مرة . وأسلمني بعد ذلك إلى رجاله ، رجال الحمامات والأبخرة .

في الحمامات :

ودخلت حجرة حارة شديدة الحرارة ، ومع الحرارة جفاف . فلم أكد آخذ أنفاسي . وكنت وحدي ، فاقتربت من الباب حتى أطيلَ منه ولو رأسي إذا آذن خطر . ولكن أنفاسي عادت شيئاً فشيئاً . وجلست في هذه الحجرة ،

ومن التقى أن نجانب علماً بات كلٌّ لورده ظمآنا

ولقد جرى حب المروءة وحب العرب في دم هذا الشاعر وخالط وجدانه ، وهو لا يفتأ يتغنى بمجدهم ويشدد ما نرهم في شعره . فاسمعه يقول في هذه القصيدة :

يشهد الله أننا من معد وإلى مجده انتهى منتمانا
إن صدفنا فمن مجون ولهو وغباء في الناس قد أبكانا
أو طربنا فمن رحيق بشعر هزّ سلمى وأختها في ربانا
أو ضحكنا يوما فرب ابتسام ظلّ كربا قد يلهب الوجدانا
عودتنا على الثبات نفوس ملئت من ثباتها إيمانا

وأخيرا انظر إليه يودّع صديقا له :

أفاضل يا نجل الكرام فتى البشرى
وداعاً وإن أبقت شمائلك الذكرى
لعمرك ما أدري بأي قضية
أسوغ لك الأمداح إن رمتها شعرا
خليل وما كل الأخلاء عطفهم
برجي وحرّ لم يكن يعرف النكرا
تداوي سقيما لا لأجر تناله
وتسعى لخير لا أطيق له حصرا

هذه قطرة من بحر ، ولولا ضيق الثقافة عن أن تسع أكثر من ذلك نظرا لأزمة الورق ، لأوردت الكثير من قول هذا الشاعر . وقد أكثرت في هذه المجالة من الشعر وأوجزت في الكلام عن صاحبه رغبة مني أن أترك القارئ يتذوق ، ويحكّم ضميره ، ويحكم عما عليه بعد ذلك . ولعل الأديب عثمان عيسى شاهين يقتنع الآن بأن بيان هذا الشاعر يساير الحياة وينطق عن بيئته وجوّه ، ولم يقتصر على باب دون آخر من أبواب الشعر

محمد عبد الماجد أحمد
كلية الآداب — الخرطوم
السودان

ونظرت إلى ساعة فى الحائط تخبرنى كم بقيت فيها وكم أبقى .

ونظرت على مائدة فى وسط الحجرة عليها الصور وأشباهه . فأخذت أقرأ ، ولذت لى القراءة لأمرين : أولهما أن الحمام كان حماما بلا ماء ، وثانيهما أنى كنت هاربا عُرْىَ الوليد ، ومع هذا أجلس على كرسى وأقرأ آخر الأنباء .

وخرجت من الحجرة الحارة وقد بلغت حرارتها ما يقرب من الخامسة والأربعين درجة ، إلى حجرة أبرد وأرحم ، وفيها الدش ساخناً ، وبارداً ، وخليطا من هذين . فصببته ساخناً .

وأسلمنى الدش إلى حجرة كالحمام ، بها مرقد من خشب يعلو عن الأرض مترا فعلى هذا المرقد رقدت ، أرقدنى عليه سلام ومعه الصابون والليفة . وأسلمت له جسدى ، ظاهره وباطنه ، يغسله غسلا . فإذا أرغى الصابون إرغاء ، أخذ بذلك عضلاتى بعضلات من ساعديه قوية . وخلتنى سرعة انزلاق يديه عن الإحساس بما أحدث لى من ألم .

وخرجت من هذا الحمام إلى الدش البارد . ومنها إلى باب أصل منه إلى مخدع للراحة . وعند الباب تلقانى رجل آخر ، علام ، بثلاثة بشا كير ، أعطانى واحداً ، ثم ثانيا ، ثم ثالثا لم أدر ما أصنع به ، ففهمت أنه زيادة فى كرم .

وفى المخدع ، وهو مكعب الشكل ، رقدت فى السرير بعض ساعة . ثم ارتديت ملابسى . وعند الباب ودعت الطبيب . وعند الباب أخذت محفظة نقودى وساعتى من المكتب .

لم يكن لى بد من الخروج دون أن أنقد سلاما وعلاما شيئاً . فقد أعود فى المرة الثانية . وبقيت أسبوعا أنتظر أن يلين جسدى بعد الذى أصابه من تصلب ، من جراء هذه الحركة العنيفة البالغة والحرارة .

العود أحمد :

وعدت . ولما فرغت من الجباز ودخلت منطقة الحمام لم أجد بها بعض ذلك الترحيب الأول . وفعلت كل شىء وحدى هذه المرة . ولما جاءت رقدة الحمام المعهودة اضطررت إلى نداء سلام ، وناديته عاليا . ولما جاء بليفته وصابونه وجدت فى ساعديه هذه المرة ضعفاً ، ووجدت الدلك يختزل اختزالا . ولما فرغت انتظرت رجل الأسبوع الماضى ، علاما ، يقف عند الباب ، ومعه البشا كير الثلاثة . ولكن علام دخل قبل أوانه ، فلما رأى أنى لم أفرغ بعد ، ترك البشا كير عند الباب . وأقبلتُ على البشا كير ، فإذا الثلاثة اثنان .

« بخرج منها بقطنة » :

وذهبت بعد البشا كير ، أو مع البشا كير ، إلى مخدعى . وكنت سرت إليه منذ سبعة أيام وراء من كان يوسع لى طريقا لم يضق بى ، ولكنى سرت إليه هذه المرة وحدى ، ولم أنه عنه . ورقدت رقدة الراحة بعد عناء . فإذا يترامى إلى أذنى فى هذا السكوت ، صوت الخدم ، ثلاثة أو أربعة ، اجتمعوا يعلقون على ما يلقون من الزبائن . ويشكون أن منطقة المكتب والجباز هى التى تفوز بالبقشيش دون منطقة الحمامات . ويقول أحدهم : يا خويا الواحد منا يعمل ما يعمل والزباين قرصانين . ويرد الآخر فيقول : على كل الحال الدنيا دى فانية . والواحد حيخرج منها بإيه ؟ مش بقطنة ؟

وتبينتُ صوت صاحب القطنة ، فإذا به سلام . ثم سلام الذى يغسّل الأجسام فوق تلك الطاولة بالحمام . وتراءى لى ما بين هذه « القطنة » وتلك الطاولة من رابطة . وتراءى لى أن سلاما كان قبل ذلك مُغسّل أموات . لا شك فى هذا . وتراءى لى عندئذ أنه كان يعمل بى على

تلك الطاولة ، بالصابون والليفة ، ما كان يعمل بالجثث من قبلي . إلا القطنة ، فلم يمسحه بها زميلي .

المال يصلح ما فسد :

كل هذا جرى على أن مصدر البقشيش ، محفظتي ، احتبسها في المكتب عند باب الدار حابس . وارتديت ملابسي ، وصرخت بالخدم ، وقد كانوا لا يزالون في جمعهم الذي منه أرسلوا إلىّ الدرس الذي أرادوه عبرّ الهواء ، فصحت بهم : أين الطريق إلى المكتب لأرد محفظتي ؟ وما كنت أجهل الطريق . وأخذت محفظتي من المكتب ، وعدت إليهم أصيح : يا سلام .

فإذا صوت سلام يجيب عالياً فيرن في المكان :
أفنـــدم .

ففقدته ونقدت غيره نقداً طيباً . وقد كدت أحتضنه فأقول له : إن الميت يخرج من الدنيا بأكثر من قطنة . بخمسة أدراج وبسبعة ، وأكثر من هـذا ، من القطن والحرير والشاش الجميل .

ولكني لم أفعل . لقد كرهت أن أوقظ فيه ذكرى صناعته الأولى ، أو تلك التي لابد كانت صناعته ، ثم أعود فأسلم جثتي إليه في الأسبوع التالي .

البنسلين :

سألت صديق الطبيب عن هذا الدواء العجيب ماهو ، قال إنها مادة كيماوية توجد في نوع من أنواع النباتات التي التي تسمى بالفطريات ، فهو شبيه بعفن الخبز .

استخراج البنسلين :

وسألته كيف يستخرج منه . قال يستخرج من هذا العفن الخاص بعد تربيته على ماء تذاب فيه أغذية وأملاح تلزم لنمائه . فينمو عندئذ على سطح هذا الماء في صحون كما تنمو الأعشاب على الأرض . والذي يقوم بهذه العملية الرجل النباتي . ويقوم بها أيضاً البكتريولوجي لخبرته في تزريع المكروبات . فتزريع المكروبات شبيه بتزريع الفطريات في الطريقة . وعندما يتم هذا ينتهي عمل النباتي ويبدأ عمل الكيماوي .

وغاية الكيماوي استخراج هـذه المادة الكيماوية ، البنسلين من الفطر . وهو يستخرجها بعمليات شاقة ، تنبني على رجّ الفطر بسائل يذوب فيه البنسلين ولا تذوب فيه مادة الفطر النباتية . ولكن هذه المذيبات مع الأسف تذيب مع البنسلين أشياء أخرى غير مرغوبة . فواجب الكيماوي عندئذ أن ينقيه من هذه الأشياء غير المرغوبة . فهو يعيد الرجّ ويغيّر السائل المذيب ، ويبدئ ويعيد في هذا إلى أن ينتهي إلى خلاصة غير نقية تماماً ، ولكن بها الكفاية من البنسلين . فهذه تستخدم في علاج الأمراض .

تحضير البنسلين في مصر :

قلت لمحدثي : أو يستطاع تحضير البنسلين في مصر ؟

قال : لقد حضر إلى مصر من أشهر أحـد الرجلين الذين كشفا البنسلين ، وأخذ يحاضرنا في طريقة تحضير هذه المادة ثلاث ساعات أو أربعًا . فأي نباتي ، وأي كيماوي ، إذا اجتمعا ، لايستطيعان تحضيره بعد ذلك ! إن طريقته مكشوفة . فعمل الرجل المختص هنا تكرار لعمل الغير . والمختصون في مصر اليوم والحمد لله رجال كثيرون ، لايتميز بعضهم من بعض في الكفاية لهذا ، فهي كفاية معتدلة ، غير جبّارة ولا ممتازة .

البنسلين يفيض عن حاجة الحرب :

قلت : وكم تحضّر الأمم اليوم منه ، وأي الأمم تحضره ؟ قال : أنا أعلم يقيناً أن إنجلترا تحضّره .

والولايات المتحدة تحضّره . ولعل روسيا كذلك تفعل . وليس مايمنع أن تكون ألمانيا أيضاً قائمة في تحضيره ، فقد كان كشفَ البنسلين أولَ من كشف رجل إنجليزي ، ثم قام بفصله من بعده رجل ألماني ، ثم غطى النسيان على عمل الرجلين حيناً . أمّا كم يحضّر منه ، فالذى أعلمه أن إنجلترا والولايات يحضران منه اليوم مايكفي لحاجة الجرحى في الحرب ، ولكن يظهر أن الذي حضّر منه إلى الآن زاد عن حاجة الحرب . فقد علمت أن وزير الصحة البريطاني وعد أمته بأن سيزيد محصول البنسلين في العام القادم حتى يكفي حاجة المدنيين منه .

البنسلين يأتي الى مصر :

واستطرد صاحبي فقال :

كذلك الولايات المتحدة أرسلت فعلا إلى الشرق الأوسط منذ أيام بالطائرة من البنسلين مايكفي لمائة مريض من المدنيين . ومعنى هذا أن حاجة الحرب سُدّت . وقد وعدت الولايات أن ترسل إلى الشرق الأوسط من هذا العقّار مثل هذا القدر كل شهر .

قلت : فهل يعطى هذا المقدار إلى وزارة التموين ، ليأخذ البنسلين مثل الطريق الذى أخذه الأنسولين ؟

قال : أظن أن اللجنة الاستشارية للشرق الأوسط هي التي ستفرّقه على الأطباء مباشرة عند ما تطرأ الطوارئ وتنذر المخاطر . فهو دواء ليس مما يذهب إلى يد المريض ، بل إلى يد الطبيب .

قلت : وهل ينفع البنسلين في كل الأمراض ؟ قال : هذا زعم فاسد شاع فأضر . إنه إنما ينفع في بعض الأمراض دون غيرها . ومن الأسف أنه لاينفع شيئاً في أكثر أمراض مصر ، كالدوسنطاريا والتيفود . إن البنسلين مطهّر داخلي ، كما أن الفينول مطهّر خارجي . وهو يستخدم حقنا كما تستخدم العقاقير الكبريتية الجديدة كالسُّلْفانيميد والسيبازول بلدا ، وكلها مطهرات . ومن أجل هذا جاء في نصيحة الأمريكان مع هديتهم من البنسلين ، إنه لندرته لن يُعطَى لمريض إلا إذا ثبت بالتجربة أنه أُعطيَ من هذه العقاقير الكبريتية الأخرى أولا فلم تُجدِ هذه العقاقير في حسم دائه .

« شو » أيضاً :

تحدثنا في الأسبوع السالف عن كاتب الإنجليز الأول ، جورج برنارد شو ، وعن ترتيبه أمور نفسه استعداداً لمفارقة هذه الحياة .

واليوم تأتي الأخبار بأنه أوصى بأن تحرق جثته بعد موته . ثم يقول إنه بعد ذلك لا يهمه ما يصنع الناس برمادها . وإنما الذي يهمه أن يُمزَج هذا الرماد برماد زوجته — وقد ماتت قبله بأعوام — مزجا لا يُعرَف من بعده أيها ترابه وأيها ترابها . بهذا عاهد زوجته قبل وفاتها .

والرأى عند « شو » أنه أكرم للأجسام أن تُحرَق بالنار فتطهّر ، من أن تترك في الأرض نهباً للعفن وطعاماً للديدان .

والرأى عندى أن الحالين واحد ، فما بعد العفن إلا الرماد ، وما بعد الرماد إلا اختلاطه بتراب الأرض . فإن كانت المحارق تؤدى إلى الرماد القريب ، فالمقابر تؤدى إلى الرماد البعيد .

صاح هذى قبورنا تملأ الرحْ
ب فأين القبور من عهد عاد
خفّف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

« الجرنوسى »

عبادة

خفقات القلوب بالحب أحلى   نغم في مسامع الأزمان
ونشيد الهوى أحب وأبقى   ما تغنى الحياة من ألحان

•••

رددته قيثارتي فتبدى   كل شيء محيياً .. فتانا
عانقته روح الحب فأولى   كل شيء محبة وحنانا

•••

أنا أحببت يا نعيمي بحبي   وبأحلام فتنتي وجنوني
واهتدى بمدهشة الفكر قلبي   فوداعا يا حيرتي وظنوني

•••

في دمي نشوة وفي نظراتي   أمل ضاحك ونور جديد
في دمي نشوة وفي خفقاتي   فرح ثائر ولحن سعيد

•••

في دمي نشوة وفي بسماتي   بهجة الفجر وائتلاق الربيع
في دمي نشوة وفي لفتاتي   فرحة الطفل بالصباح الوديع

•••

أنا أحببت يا حبيبي فشاعت   نفحات الإيمان في صلواتي
واهتدى لليقين عندك قلبي   بعد أن بحت لي بسر حياتي

•••

خفقات القلوب بالحب أسمى   نغم في مسامع الرحمن
ونشيد الهوى أحب وأبقى   من نشيد الأبطال والكهان

•••

أنا أحببت يا حياتي حتى
صرت أسمى مباهجي وشجوني
وتمنيت لو تكونين مني   خفقة القلب أو ضياء العيون

•••

فادخلي هيكلي أهبك ترا   تيل وأشدو على جمالك روحي
وأرى فيك عالي مشرق الحسن فأسمو إليـه بالتسبيح

كلية الحقوق   ماهر أبو زهرة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٩٥ — الثلاثاء ٣ من رمضان سنة ١٣٦٣ — ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

معركة فرنســــا

كنا بالأمس نتحدث عن معركة نورمنديا ، فأصبحنا نتكلم عن معركة فرنسا . ولعل هذه الحرب لم تشهد انقلاباً أو تطوراً في أحد ميادينها يجري بالسرعة التي تم بها هذا التطور ، اللهم إلا الانقلاب الذي حدث في الميدان الشرقي بعد معركة ستالينجراد .

إن الميدان النورمندي مقياساً نستطيع أن نقيس به تطورات الحرب فيه ، وذلك أن هذا الميدان عبارة من مساحة من اليابس وقفت فيها جيوش الأمم المتحدة ، والبحر من ورائهم والعدو من أمامهم . والمسافة بين العدو ، أي بين الخطوط الألمانية ، والبحر ، هي القياس الذي نستطيع أن نقيس به أطوار الحرب في هذا الميدان ، لأن هذه المسافة تمثل درجة ثبات القوات الغازية ، وتمكنها من القيام بالحركات والمناورات اللازمة في كل حرب . وقد يمكن لهذه الجيوش أن تحتل مساحة من الساحل في مدة وجيزة ، وأن تتعمق بضعة عشر كيلو مترات في غير موضع ، ولكنها ظلت في كثير من أجزاء الميدان تحتل مساحة ضيقة من الأرض ، وتعالى خطر احتمال تقدم الألمان إلى الساحل ، وشطر القوات الغازية شطرين أو أكثر . ولم يخف كتاب الحلفاء في الأسابيع الأولى من الغزو أن القذف بالقوات الغازية إلى البحر احتمال لا بد أن يحسب له حسابه في كل وقت .

ومع أن الألمان لم يستطيعوا أن يردوا الغزاة إلى البحر ، فإنهم أصروا دائماً على أن يحاولوا الوصول إلى جزء من الشاطئ المحتل ، وأن يبذلوا من أجل ذلك كل جهدهم ، بل وقد يرتكبون ضروباً من المجازفات من أجل تحقيق هذه الغاية التي ترمي إلى شطر قوات الغزو شطرين . وكان آخر محاولة لهم في هذا السبيل هجومهم العنيف على مورتان من أجل الوصول إلى أفرانش ، وفصل قوات نورمنديا من قوات بريتانيا .

وفي وسعنا الآن ، بعد أن انقضى شهران ونصف شهر على الحرب في شمال فرنسا ، أن نقسم أطوارها إلى ثلاث مراحل ، ونلاحظ في أثناء تطوراتها كيف تحول خط

القتال من خط يمتد من الشرق إلى الغرب ، إلى خط يمتد من الشمال إلى الجنوب .

فأما المرحلة الأولى ، فهي تمثل لنا الأساس الذى بنيت عليه خطة الغزو كلها ؛ وعلى صحة هذا الأساس ومتانته تتوقف من غير شك صلابة البنيان الذى يقام عليه فيما بعد . كان أمام الحلفاء إقليمان يستطيعان النزول فيهما ، إقليمان لا ثالث لهما . فلقد كان من العبث ما ذهب إليه المتكهنون بأن الغزو سيكون فى نروج أو فى دانماركه ، أو غيرهما من المواضع ، فقد كان الحلفاء والألمان جميعاً يعلمون تمام العلم أن الغزو ليس له إلا ميدانان اثنان ، وأن على الحلفاء أن يختاروا أحدهما . وهذان الميدانان هما سواحل فرنسا شرق مصب السين ، أو سواحل فرنسا غرب مصب السين ؛ وأولهما أقرب إلى بريطانيا ، وأقرب للزحف على باريس وعلى بلجيكا وألمانيا ، وهو من غير شك أقصر السبل للإغارة على ألمانيا ؛ هذا هو مكان الغزو المفضل . وكان من البديهى أن يقع الاختيار عليه ؛ ولكن على الرغم من هذا ، بل بسبب هذا ، قررت قيادة الحلفاء أن يكون الغزو غربى السين . ولدينا الآن معلومات تؤيد ما ذكرناه من قبل ، من أن الألمان كانوا يتوقعون الغزو من الناحية الأخرى . وقد بذل الحلفاء مجهوداً كبيراً للتضليل ، فكانوا يلقون قنبلة واحدة على سواحل نورمنديا ، فى مقابل قنبلتين أو ثلاثة تلقى فى الجانب الآخر .

ثم جاء أوان الغزو ، فدمر الحلفاء الجسور على نهر السين لكى يعوقوا نقل الجنود بين جانبى النهر ؛ ثم نزلت قوات الغزو ولم تلبث أن استقرت فى شقة من الساحل عرضها ٨٠ كيلومتراً ، ما بين مصب نهر الأورن شرقاً إلى بلدة كارنتان غربا ، واحتل البريطانيون الجانب الشرقى ، والأمريكان الجانب الغربى . وانتهت المرحلة الأولى بتثبيت أقدام الحلفاء



فى هذه الشقة الساحلية ، التى تمتد إلى الداخل مسافة تتراوح بين كيلو مترين أو ثلاثة فى بعض المواضع ، وتصل إلى بضعة عشر كيلو متراً فى مواضع أخرى

ثم بدأت المرحلة الثانية . ولأسباب يسهل تقديرها حشد الألمان صفوة جيوشهم وعددهم فى الجانب الشرقى حول مدينة « كان » ، وجعلوا تقدم البريطانيين نحو الشرق أمراً عسيراً جداً . لأن هذا التقدم نحو الشرق يدنى الحلفاء من باريس ، ومن ألمانيا . أما تقدم الأمريكيين نحو الغرب ، فإنه على كل حال أقل خطراً مباشراً ، ولذلك من الجائز أن القوات الألمانية فى الطرف الغربى من الميدان كانت أقل عدة حربية من القوة المواجهة للبريطانيين

ومهما يكن من شىء فإن الأمريكيين لم يلبثوا أن تقدموا بسرعة نحو الغرب ، واكتسحوا شبه جزيرة شربورج فى زحف سريع خاطف ، وأسروا كتائب عديدة من الجيش الألمانى . ولم تلبث المرحلة الثانية أن انتهت بالاستيلاء على شبه الجزيرة وعلى مينائها العظيمة ، وامتد خط القتال بعد ذلك من « كان » شرقاً إلى الساحل الغربى لشبه الجزيرة . ولا يزال اتجاه الخط بعد

نهاية هذه المرحلة كما كان من قبل من الشرق إلى الغرب ووقفت جنود الحلفاء في مواجهة الألمان بعد ذلك فترة طويلة لا تكاد تتقدم إلا يسيراً ، ووقف الأمريكيون بوجه خاص أمام بلدتي سان لو وكوتانس طويلاً قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على البلدتين . وقاتل الألمان هنا قتال المستيئس ، ولعل في التطورات المقبلة ما يفسر هذا الدفاع العنيف .

بعد الاستيلاء على كوتانس تبدأ المرحلة الثالثة زحف أمريكي سريع نحو الجنوب ؛ وذلك أن القيادة الأمريكية خيل لها — فيما يقال ، ولعلها كانت تبني علمها على أكثر من الخيال — أن عدة الجيش الألماني تنقصها المدافع المضادة للدبابات ، فاستغلت هذا الكشف بأن زحفت بسرعة نحو الجنوب ، فإذا الجيوش الألمانية تنهزم بسرعة ، وإذا مدينة أفرانش تسقط في أيدي الأمريكيين ، فكان سقوطها حادثاً جليلاً ، ونقطة تحول خطيرة في تاريخ هذه الأسابيع الأولى من معركة فرنسا . وليس من الإسراف في شيء أن يقال إن سقوط أفرانش حادث من أخطر الحوادث في تلك المعركة ، لأن أفرانش نهاية نورمنديا ، ومن ورائها تبدأ بريتانيا ، وليس هنالك وقاية طبيعية تقي الجناح الأيسر للجيوش الألمانية ، التي باتت منذ الآن عرضة للتطويق من الجنوب .

وتقدمت الجيوش الأمريكية إلى بريتانيا فوجدتها توشك أن تكون خالية من الجيوش الألمانية ، وليس فيها سوى حاميات موزّعة بين المدن الرئيسية . ولم تلبث مدينة «رن» عاصمة بريتانيا أن سقطت في أيدي الأمريكيين من غير قتال جدي . ولهذا ليس في وسعنا أن نتحدث عن معركة لبريتانيا كما كنا نتحدث عن معركة نورمنديا . فإن بريتانيا قد فتحت في يومين أو ثلاثة دون أن تقوم حولها معركة بالمعنى المألوف .

ولم ترد القيادة الأمريكية أن تضيع وقتاً طويلاً ، أو أن تخصص مجهوداً كبيراً للاستيلاء التام على جميع بريتانيا ، فإنها — رغم خطرها وموانيها العظيمة — ليست على طريق الغزو المباشر ، ولذلك اكتفت القيادة الأمريكية بتخصيص قوات قليلة لإخضاع الحاميات في الموانى الأربع الرئيسية : برست ، ولوريان ، وسان نازير ، وسان مالو ، ثم انصرفت إلى العمل الرئيسي ، وهو التقدم نحو الشرق . ومن وجوه الاختلاف الأساسية بين الأعباء التي يحملها الجيش الأمريكي والألماني ، أن الألمان في فرنسا ، كما في سائر الأقطار الكثيرة التي غزوها ، لا يكتفون بفتح الأقاليم والاستيلاء عليها ، بل يضطرون دائماً لأن يحتلوها احتلالاً عسكرياً ، وأن يضعوا في كل بلدة ومدينة حامية تتولى الإشراف على تنفيذ أحكام القيادة الألمانية ، والمحافظة على الأمن فيها . وهذا العمل وحده يستنفد مقداراً كبيراً من القوات الألمانية ، التي كان من الجائز أن تصل إلى الميدان ؛ ولم تكن ألمانيا تحس هذا الأمر في بداية الحرب ، ولكنها من غير شك تحسه الآن بعد أن تعددت الميادين في شرق أوربا وغربها وجنوبها

أما الأمريكيون ، فليسوا بحاجة إلى حامية كبيرة يتركونها في كل بلدة يفتحونها ، لأنهم يستطيعون إلى حد كبير أن يعتمدوا على معاونة الفرنسيين أنفسهم في المحافظة على الأمن ، وفي إدارة الأقاليم التي يتم «تحريرها»

والآن ، لا بد لنا أن نقف قليلاً لكي نتساءل كيف سقطت بريتانيا بهذه السرعة ، ولماذا خلت من جيش ألماني يدافع عنها ؟ وإذا جاز لبريتانيا وهي المجاورة لميدان الحرب أن تكون خلواً من جيش يدافع عنها ، أليس من الجائز أيضاً أن تكون هنالك أقاليم أخرى في فرنسا ، شأنها في هذا شأن بريتانيا ؟!

إننا لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال إلا إجابة مبنية على الافتراض والترجيح لا على العلم واليقين ؛ وكل ما نقدر أن نرويه : هو أنه عند ما نزلت جيوش الحلفاء نورمنديا في يونيو الماضي ، أخذ الألمان يجمعون من كل إقليم مجاور كل جندي يزيد على الحاجة القصوى للدفاع عن ذلك الإقليم ؛ ولا شك أن بريتانيا المجاورة قد أرسلت جيشها كله على وجه السرعة ، ولم تستبق إلا الحاميات الضرورية اللازمة للذود عن الموانى البريتانية العظيمة الخطر . ومن أجل ذلك رأينا الألمان يقفون طويلاً على أبواب بريتانيا ، وأبلوا في دفاعهم هنا بلاء حسناً ، وثبتوا

ثباتاً قوياً في جنوب نورمانديا الغربي : في سان لو ، وكوتانس ، إلى أن كشف الأمريكيون نقطة الضعف في درعهم ، فنفذوا من أفرانش إلى بريتانيا .

ومهما يكن من شيء ، فإن الاستيلاء على بريتانيا قد غير موقف الجيش الألماني تغييراً تاماً ، فبعد أن كان خط القتال يمتد من البحر إلى البحر ، أصبح مثله كمثل الحبل المثبت في الناحية الشمالية ولكنه مزعزع من الناحية الجنوبية . وهذه حالة جديدة في هذه الحرب . وهي وإن كانت منطبقة على الفريقين ، فإن جيوش الحلفاء أكثر عدداً ، ولا تزال تزداد كل يوم ؛ ولهذا بادر الأمريكيون باحتلال نانت على نهر اللوار ، واخترقوا هذا النهر إلى الجنوب ، ولا نعرف مدى توغلهم في هذا الاتجاه ، ثم اندفعوا نحو الشرق فاحتلوا لافال ولمان ، واندفعوا في هذا الاتجاه نحو باريس متوغلين إلى مسافات بعيدة . وقد ظللنا وقتاً طويلاً لا نعرف شيئاً عن مدى هذا التوغل ، إلى أن سمعنا منذ يومين بالاستيلاء على أورليان وشاتودان وشارتر ، ووقوف الأمريكيين على بضعة عشر ميلاً من باريس .

واجه الألمان هذا الموقف العصيب بخطة جريئة ، وهي محاولة التقدم نحو أفرانش بكل ما لديهم من قوة ، واستطاعوا بهمة فائقة أن يستولوا على بلدة مورتان ، وهي على نحو عشرين ميلاً من شرق أفرانش . ومعنى ذلك أنهم — على حد التعبير الشائع — أرادوا أن يدقوا إسفيناً بين قوات الأمريكيين الشمالية والجنوبية ، وأن يفصلوا نورمنديا عن بريتانيا . وظل النازيون مصرين على بذل هذا المجهود الجبار إلى آخر لحظة ؛ وتعرضوا بذلك لخطر التطويق ، بأن تركوا جيشهم السابع في شبه دهليز يمتد من مورتان إلى فاليز ، يبلغ الستين ميلاً . ولا شك أن النازيين قد أبدوا براعة فائقة ، إذ تمكنوا من سحب جزء من جيشهم وعددهم من بين شق الرحى الهائلة التي تطبق عليهم بالتدريج من الشمال والجنوب

والقتال العنيف الذي قاتله الألمان للخلاص من هذا المأزق ، يدل على أن إخضاع الجيوش الألمانية في النهاية لن يكون من الهنات الهينات ، وأن الحلفاء لا تزال أمامهم حرب خطيرة ، قد يكون ميدانها شرق نهر السين ، حيث توجد في الراجح جيوش ألمانية أخرى كاملة العدة .

ولكن لا تزال أمام القيادة الألمانية مشكلة عويصة تتطلب الحل العاجل ، وهي انكشاف الجناح الأيسر ؛ فهل لديهم قوات في وسط فرنسا يستطيعون حشدها لمهاجمة الجيش الأمريكي المتوغل في الطرف الجنوبي ، والذي وصل في توغله إلى مدينة أورليان ؟ سؤال لا نملك الإجابة عنه ، ولكن الراجح ألا يكون هنالك جيش كبير كاف لتغطية الجناح الأيسر الألماني ، ولهذا يتحتم على الجيش الألماني أن يتراجع إلى شرق السين ، بل قد يضطر إلى التراجع نحو الحدود المحصنة شرق فرنسا . وهكذا نرى أن المصائر الكبرى في معركة فرنسا تتقرر في الشمال . فما خطب هذا الزحف من الجنوب ما بين كان وطولون ، على ساحل الريفيرا الجميل ، الذي كنا نرجو أن ينجو من غوائل هذه الحرب ؟

إن الميدان الفرنسي الجنوبي لن يعدو أن يكون ميداناً ثانوياً ، بعد التقدم الباهر الذي أحرزته جيوش أمريكا . ولعله كان مقرراً منذ زمن بعيد ، في وقت لم يكن يتوقع فيه أن تتطور الجبهة الشمالية هذا التطور السريع . ومع هذا ، فإن فتح الميدان الجنوبي له فوائد لا يستهان بها ، منها : أنه يحمي مؤخرة الجيوش الشمالية من أن تحشد ضدها قوات الألمان المرابطة في جنوب وفي وسط فرنسا ؛ فهذه الجيوش يجب عليها الآن أن تتجه لمقاومة هذا الزحف الآتي من سواحل الريفيرا ، والذي يذكرنا بطريق نابليون في عودته من جزيرة إلبا . ومن فوائد هذا الميدان أيضاً أنه يحول دون ارتداد الألمان من إيطاليا إلى فرنسا ، إذا أرادوا مثل هذا التراجع . كذلك من الجائز إذا نجح هذا الميدان الجنوبي واتسع ، واحتل الحلفاء حوض الرون ، أن يصلوا بطريق مباشر إلى حدود الألزاس . وتتوقف التطورات الممكنة في هذا الميدان الجنوبي على وجود قوات ألمانية كافية من النوع الجيد في جنوب فرنسا .

ولكن الميدان الجنوبي سيظل على كل حال ميداناً ثانوياً ، أو ميداناً مساعداً ، بينما تتقرر الأمور الخطيرة في السهل الشمالي من فرنسا .

محمد عوض محمد

طلعت حرب

بمناسبة ذكراه الثالثة

كنا قبل ربع قرن عيالا على الأجانب فى جل شئوننا الاقتصادية ، فكانت الأعمال المالية وأشغال المصارف سراً مجهولاً لا نعلم عنه إلا القليل ، ولا نتطلع إلى ممارسته ، بل نراه من المزايا التى اختص بها هؤلاء الأجانب وأتباعهم من النزلاء المتمصرين .

وكانت التجارة الكبرى بيد الأجانب ، فهم المصدرون والمستوردون ، وهم المتحكمون فى أسواقنا المحلية ، وهم المتحكمون فى محصولاتنا الزراعية ، وهم المتتبعون لحركة الأسواق الخارجية ، المنتفعون بكل فرصة اقتصادية تتيحها تقلبات الظروف العالمية ؛ وكان نصيبنا من التجارة نصيب التابع الذى يمارس من الأعمال ما يترفع عنه السيد الأجنبى ، وحظنا من الربح معلق بإرادتهم ، وما يسمحون لنا به من فتات موائدهم .

ولم تكن لنا صناعة ، وقيل لنا إنها لا تصلح لنا ولا نصلح لها ، وإننا لم نخلق إلا للزراعة ، وإننا سنبوء بالفشل إذا حاولنا أن نخرج عما خلقنا له . والمصانع الكبيرة التى كانت تقوم بتهيئة بعض المحصولات الزراعية للتصدير ، كمحالج القطن ، كانت مصانع أجنبية ، حظنا منها أن نشتغل عمالا بأجور زهيدة .

فقام طلعت حرب بحركة انقلابية واسعة غيرت الوضع وأبطلت السحر ، وأباحت لنا الفاكهة المحظورة التى كان يختص بها الأجانب .

فأسس « بنك مصر » ، وبث فروعه فى الأقاليم يمارس الأشغال المالية والأعمال المصرفية ، وأخذ البنك بنشر الثقافة المالية ، ويقرب المعاملات المصرفية من أذهان الشعب ، حتى صارت معلومات عامة يفهمها الجميع ، ويدرك أسرارها سواد الأمة .

وربى جيلا من الشباب يقومون بتلك الأعمال ويسيرون فيها على أحدث الطرق ، فدل بذلك على أن المصريين مستعدون للقيام بكل ما يقوم به الأجانب ، قادرون على اقتباس أنظمتهم ، واستخدام أساليبهم وطرقهم .

وجعل اللغة العربية أداة التفاهم والتعامل ، فأبطل حجة القائلين بعجزها عن أن تكون وسيلة المعاملات الحديثة ؛ وبرهن على أنها أداة طيعة تقوم — إذا أحسن استخدامها — بما تقوم به اللغات الأوربية ، ووفر على الشعب عناء تلقى المكاتبات والإنذارات وإبرام العقود بلغات لا يفهمها .

وأفهم الشعب قيمة الانتفاع بشركات المساهمة ، وتوظيف أمواله فى شراء الأسهم والحصص ، بعد أن كان لا يعرف طريقة لتوظيف ماله غير شراء الأطيان والعقارات ، وشراء المصوغات والجوهرات .

وبعد أن وطد أركان البنك أخذ يستعين به على إنشاء الشركات ، واتجه فى ذلك اتجاهاً قومياً بعيد النظر ؛ فرسم خطة منظمة لتوفير الشركات الضرورية لسد حاجات البلاد وتحقيق استقلالها الاقتصادى .

فاتجه للقطن ، وهو المحصول الرئيسى للبلاد ، فأسس شركة لحلج القطن أخذت تؤسس المصانع ، أو تشترى المصانع من الأجانب ، حتى صارت قوة تنافس المصانع الأجنبية وتتفوق فى الإنتاج .

ثم أسس شركة لتجارة القطن تشتريه من المنتج ، أو تخزنه لحساب التجار المصريين ، وتتولى تصديره للخارج . ثم أتبع ذلك خطوة قوية جديدة ، وهى إنشاء شركة لغزل القطن ونسيجه تستهلك جزءاً كبيراً من المحصول ، وتنتج ما يسد جزءاً كبيراً من حاجة الاستهلاك

الشباب . . .

فى حضرة المليك

دعينا إلى الحفل الملكى الكريم فامتلأت نفوسنا أمانى وآمالاً ، وشهدنا جلالة الملك المعظم وصافحناه ، واستمعنا إلى الرسالة الملكية القوية ، فثارت فى نفوسنا معان متنوعة فى مصادرها ، متحدة فى معانيها السامية .

شعرنا بأن الملك المصرى العظيم ، قد أوتيت عنايته الوطنية على كل عناية ، وبلغت غيرته القومية العالية أقصى الذروة ، وأن عينه الساهرة تلحظ كل ما يتجه بهذا البلد إلى الرقى ويتقدم به نحو الكمال ، وأن عطفه الكبير يغمر كل من يلمح فيهم آثار الجد والتوثب ومخايل الدأب والطموح ؛ وأنه — حفظه الله — يقصد بهذا إلى بعث مصر الخالدة ، وإحياء عزها التليد ، واتخاذها الوضع الحقيق بها فى عالم اليوم والغد .

وجلالته يضع بهذا على عاتق الشباب أن يعمل لخلق مصر خلقاً جديداً ، يجتمع له من معانى القوة والعظمة والسمو ما يجتمع للفاروق ، حتى يكون أهلاً لكمال المجاوبة النفسية ، وتمام الاتصال الروحى بين الملك العظيم والشعب الوفى .

وبهذا تحقق مصر أغراض مليكها العظيمة فى الحاضر ، وآماله الكبرى فى المستقبل .

ومن هنا تعظم واجبات الشباب المصرى وتكبر تكاليفه . لكن هذا الشباب قدير على حمل العبء الضخم وإصابة الأهداف البعيدة .

وقدرته أعظم حين تكون أسوته مركزة فى الفاروق ، وقوته مستمدة من روحه ، ومثله الأعلى مصوراً فى سجاياه .

وإن شباباً اجتمع له من عز الماضى القريب والبعيد ، وروح البيئة الخصيبة المعطاء ، وعظمة الملك — ما اجتمع للشباب المصرى — لقدير على بلوغ الغاية أينما كانت ومهما بعدت .

ثم ما معنى إنسان لا إيمان له ، وما معنى حياة لا عمل فيها ؟!

إن القوة لكامنة فى هذه الأمة من أقدم العهود ، وإن الحضارة لأصيلة فى هذا الوطن من أبعد العصور ، وإن الفاروق ليشير بأن النور الذى انبعث من مصر القديمة فأضاء الدنيا ومذاك ، سيتألق فى سمائها من جديد ، فيبهر عالم اليوم ، ويأخذ بيده إلى الرشاد . يحيا الملك !

دكتور
سيد نوفل

الحلى ، فكانت آية كبرى أبطلت حجج المرجفين الذين كانوا يزعمون أن تحقيقها غاية لا تنال .

وهكذا انتزع من الأجانب مزية السبق فى كل ما يتصل بالقطن ، تجارة وصناعة ، وكسب للبلاد فى ذلك مكسباً عظيما فوق كل ما كان يدور بخلد .

وأخذ ينفذ خطته الواسعة فى إنعاش الاقتصاد القومى بإنشاء الشركات المختلفة ، كشركات النقل النيلى ، وشركات الملاحة والطيران ، وغيرها من الشركات

ولو مد فى عمره لحقق كثيراً من الشركات الضرورية ، التى تنتج ما يسد حاجة البلاد فى مختلف الشئون

وكان نجاحه فى بنك مصر وشركاته حافزاً لغيره من الأفراد والجماعات لغزو الميدان الاقتصادى فى التجارة والصناعة . فأى رجل أدى لمصر من الخدمة ما أداه هذا الرجل فى ظروف مثبطة ، وأمام حملات معادية مكشوفة ومتصنعة ، وثبت لها حتى ظفر بغايته ، وقام بذلك كله وهو كهل ضارب فى الشيخوخة ؟! رحمه الله ! لقد كان رجلا عظيما لا يجود الزمان كثيراً بمثله

ه . . . ه

حديث رمضان :

(١)

فى الحياة الروحية

فى الإنسان – فيما أعتقد – قوة أو ملكة غير القوة العاقلة ، يستطيع أن يدرك بها نوعاً من الحقائق فى هذا الكون من غير أن يستعمل الطرق المألوفة فى المنطق ، من مقدمات يستنتج منها نتائج ، وهذه القوة موضع الوحى والإلهام والكشف ونحو ذلك من أسماء ، وهى لا تعتمد على حساب المقدمات وتقدير النتائج ، وإنما هى ومضة كومضة البرق تنكشف بها بعض الحقائق .

نجدها حتى فى الحيوان كما قال الله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) ؛ ونجدها فى الأطفال يدركون بها ما لا يدركه الكبار بعقلهم وتجاربهم ؛ ونجدها فى المرأة أكثر منها فى الرجل ، فلها حاسة غريبة هى نوع من الإلهام تصل بها إلى الأشياء التى تهمها ، من غير أن يكون لها مقدمات معقولة .

وقوة الإلهام تختلف فى الناس قوة وضعفاً كاختلاف القوة العاقلة ، فكما فيهم الذكى والغبى والبليد والأبله والرياضى ومن لا يفقه شيئاً فى الرياضة ، كذلك فيهم الملهَم وغير الملهم ، والمستنير والمظلم ، كما فى الحديث : « إن فى أمتى ملهَمين وإن منهم لعُمَر » . وهذه القوة الإلهامية لا تتصل بمقدار القوة العاقلة ، ولا بمقدار الذكاء ، ولا بمقدار ثقافة الشخص وكثرة علمه ؛ فلعل كثيراً منا شاهد هذا الفلاح غير المتعلم الذى وفد على القاهرة منذ سنين ، وهو لم يتعلم قراءة ولا كتابة ولا حساباً ، وكان يعطى المسألة مكونة من ستة أرقام أو سبعة ليضربها فى أرقام ستة أو سبعة ، فيجيب على البديهة بحاصل الضرب من غير استخدام أى وسيلة من وسائل الضرب المعروفة ، حتى لقد اقتُرح أن يعيَّن فى مصلحة الإحصاء ، لضبط العمليات الرياضية ، كأنه آلة من الآلات المخترَعة لعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة .

وفى حياتنا العملية نرى أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، أناساً يمتازون بإلهامهم كما يمتاز آخرون بعقولهم وتجاربهم ؛ هناك التاجر الذى يعرف السوق بإلهامه فيحدس فى مستقبل السوق حدساً صادقاً يستدعى العجب ، وقد لا يستطيع أن يجاريه فى ذلك الذكى الدارس للاقتصاد وحركة الأسواق وجغرافية العالم ، والمطلع على أحدث النظريات فى الشؤون التجارية ؛ ومثل هذا فى محيط الزراع والصناع ورجال الحرب ونحوهم .

ويتجلى هذا الإلهام بوضوح فى الفن ؛ فالجمال كله مغلَّف بالغموض ، ومهما قيل فى نظريات الجمال ووضع قواعد له تخضع للعقل والتجارب ، فإن كل ما قيل لم يكشف غموضه ، وظل يعتمد فى أكثر شؤونه على الإلهام والذوق لا على العقل والتجارب . إنا نرى كل شىء ينتج مثله ، فالمادة تنتج مادة ، والرأى ينتج رأياً ، والحياة تنتج حياة ، ولكن من أين نتج الجمال ؟ إنه ينتج من أشياء غريبة عنه كالصوت واللون ، بل قد ينتج من القبيح نفسه ! وقد يكون كل جزء فى الإنسان وحده جميلاً ، فإذا رُكِّب لم يكن جميلاً ككل ، والعكس ، فكيف كان هذا ؟ لا ندرى ! وقوة الجمال نفسها كيف تفعل فينا هذه الأفاعيل ، وكيف تلعب بالعالم هذا اللعب ؟ لا ندرى ! وناحية أخرى وهى الفنان نفسه ، كيف كان هذا الفنان فناناً ؟ إن الدلائل كلها تدل على أن هذا الإنسان لا يصلح لشىء ، فإذا هو فنان مبدع ! لعل كثيرين شاهدوا شوقى بك وجالسوه ، ورأوا أنه لا يحسن

حديثاً ولا يحسن تفكيراً ، وعيناه كأنهما رُكّبتا على زئبق ، ومهما أطلت الجلوس معه فلا ترى فيه أثراً من آثار العبقرية ؛ وبعد ذلك ، فهو شاعر عظيم ، بل أعظم شاعر في الشرق في العصور الحديثة - وقد وصف بعضهم شكسبير فقال : « ما أعظم شاعريته ، وما أتفه طفولته وسذاجته ! » . وكان جان جاك روسو من أخيب خلق الله نشأة ، لم يصلح لدراسة علمية ولا فنية ، ولم يصلح لخُلُق ؛ حياته - كما تدل عليه اعترافاته - سلسلة أخطاء وسلسلة سقطات وسلسلة نباوات ، ناقص العقل ، ضعيف الإرادة ، يستجيب للدوافع الوقتية ، لم ينجح في الدراسة المدرسية ، ولا في الدراسة الموسيقية ، ومع هذا كله فقد كان من أنبغ ما أنتجه العالم . استطاع بنتاجه الفني أن يغيّر التفكير في فرنسا ، وقد يكون غيّر التفكير في العالم أيضاً ، ولوّن المدنية الحديثة لوناً جديداً . ما ميزة كل هؤلاء النابغين جميعاً إذا كانت حالتهم كما ترى ؟ لا شيء غير الإلهام ، بدليل أنهم لم ينبغوا من ناحية قوة عقلهم وتجاربهم ، إنما كان نبوغهم من حيث مقدرتهم الإلهامية

ثم الفن نفسه كيف يكون ؟ إذا سألت الشاعر كيف يقول شعره ، وكيف تأتيه المعاني والأخيلة ، وسألت الروائي كيف تأتيه فكرة الرواية وأحداثها وتأليفها ، والرسام كيف يتصور ويتخيّل ، وكيف يؤلّف بين الألوان ، أجاب كل هؤلاء أنهم لا يدرون كيف يجيبون ، وأنهم لا يُعملون في ذلك عقلاً ، وإنما ينتظرون إلهاماً ! وقد يلهَم الشاعر مطلع القصيدة من حيث لا يحتسب ، ثم يعمل فكره وخياله أياماً وليالي ليضم إلى المطلع قرينه فلا يفلح ، لأن الوحي انقطع عنه ، ولا يزال كذلك حتى يأتيه الوحي مرة أخرى فيتدفق ، ولا يدرى كيف وقف وكيف عجز ! ومهما عللت ذلك بالصحة أو المرض ، أو السرور أو الحزن ، أو اعتدال المزاج وفساده ، أو نحو ذلك لم تجد هذا التعليل صحيحاً مطرداً

كذلك كثيراً ما نرى هذه القوة - قوة الإلهام - في النوابغ ، والنابغة الذي أعنيه هو القادر على التعبير عن زمنه وقومه أحسن تعبير ، الدافع لأمته أو لعالمه إلى الأمام ليجعله أقرب إلى المثل الأعلى في تفكيره وعاداته . ولو نظرنا إلى حياة كثير من النابغين من هذا القبيل لوجدناهم قد امتلكوا هذه القوة الإلهامية وكانت هي علة نجاحهم ، أمثال الإيمان بعقيدتهم إيماناً قد لا يرتضيه العقل الفلسفي ، وتصرفوا في حمل قومهم على عقيدتهم تصرفاً قد لا يقرّه الأسلوب المنطقي ، وتأججت عواطفهم ، وساروا في حياتهم كما توحيه إليه نفوسهم أكثر مما توحيه عقولهم ؛ بل كثير من هؤلاء النابغين كانوا شذاذاً في ناحيتهم العقلية ، مما حمل بعض الباحثين في النبوغ يقرن بين النبوغ والشذوذ بل والجنون

بل كثير من المخترعين كان اختراعهم واكتشافهم إلهاماً أكثر منه بحثاً علمياً ، إنما كان البحث العلمي خدمة وتحقيقاً وتأييداً للومضة الأولى الإلهامية . كم من الناس رأوا التفاح والثمار بأجمعها تسقط من أشجارها ، ولكن إلهاماً ألهمته « نيوتن » قرن هذا السقوط بفكرة الجاذبية ، ثم استخدم العلم والعقل لاكتشاف قوانينها . وكم من الناس رأوا مصابيح المعابد معلّقة في حبالها ، يلعب بها الهواء فيحركها حركة البندول ، ولكن جاليليو هو الذي ألهم هذا الإلهام ، فاكتشف به قانون الذبذبة ، وأتى العقل والعلم بعد ذلك يكمل هذه القوانين ويستخدمها في الحركات الميكانيكية . وهكذا كان الإلهام أولاً ، والعقل ثانياً .

ثم الإلهام في المجال الديني ، فهناك رجال من جميع الأديان في مختلف الأزمنة ذكروا أنهم استطاعوا بالإلهام أن يتعرفوا الحقيقة عن طريق الكشف لا عن طريق العلم ، وعن طريق الذوق لا عن طريق العقل ، وأن ما عرفوه من هذا الطريق كان أقوى وأبين ، حتى

كأنهم ينظرون بأعينهم ، ويسمعون بآذانهم ؛ ومن هؤلاء من لا يرتقى الشك إلى أقوالهم ككبار الصوفية ، ومنهم الغزالى ، وكأفلوطين الفيلسوف فى القرن الثالث الميلادى الذى قال : إنه رأى الحق ، ووصل إلى الله ، وتكشفت له الحقيقة فى حياته على هذا الوجه أربع مرات تكشفاً يفوق الوصف ، حكى ذلك عنه تلميذه فرفوريوس ، وكان يعلم حقيقة ما يقول ؛ فقد ذكر أنه هو نفسه فى حياته البالغة ثمانية وستين عاماً ، قد تجلى الله له على هذا الوجه مرة . ويقول هؤلاء وأمثالهم إن العالم يدرك بالحواس وبالعقل وبالروح ، والإدراك بالروح أتم وأوفى وأصدق ، لحقيقتنا روحنا ، وحقيقة العالم روحه ، ولا شىء أصدق من إدراك الروح بالروح . هؤلاء يرون أن الإلهام والكشف يظهر من الحقيقة ما لا يظهره العقل ، وأنهم لذلك يسمون إدراك الإلهام معرفة ، وإدراك العقل علماً ؛ وغاية الأول الحكمة ، وغاية الثانى الفلسفة ؛ ووسيلة الأول الحب والرياضة ، ووسيلة الثانى التجارب والمنطق ؛ وإدراك الأول ومضة ، وإدراك الثانى بالتدريج ؛ ومركز الأول القلب ، ومركز الثانى الرأس .

وقد بدأ علم النفس يدرس هذه الظواهر النفسية لأمثال هؤلاء بعد أن كان ينكرها جملة ، وحيّره ما رأى من صدق بعض هذه الظواهر ، ووصول بعض المتدينين إلى حقائق عجيبة لم يصلوا إليها من طريق العلم لأميتهم ، أو عدم تعلمهم ، أو نحو ذلك

* * *

مظهر كمال العقل الفيلسوف ، أمثال أرسطو ومن سار سيره ، ومظهر كمال الإلهام « النبى » ؛ تريد الفلسفة أن تعرف علة العالم كله ، والمبدأ الأساسى الذى أسس عليه ، والأصل الذى يجمعه من الذرة الأولى إلى أرقى كائن ، ومن الخلية الأولى إلى الملك بل إلى الله ، عن طريق التفكير المنطقى ، من مقدمات بديهية إلى نتائج ، ثم جعل النتائج مقدمات للاستنتاج منها مقدمات أعلى ، وهكذا ؛ فغاية الفلسفة بجميع مجهودها الوصول إلى العلة الأولى ، فإن كان كل علم فرعاً من شجرة فالفلسفة تريد الجذر الذى أسس هذه الفروع ، تريد البذرة الأولى التى تكونت منها شجرة العالم . وهذا الغرض الذى ترمى إليه الفلسفة هو بعينه الذى يرمى إليه الدين ، فهو يريد أن يعرف الحقيقة الأولى والأخيرة لهذا العالم ، يريد أن يعرف الله الذى هو الأول والآخر ، ويوثق الصلة بينه وبينه ولكن لا عن طريق مقدمات ونتائج ، بل عن طريق حب وشوق من الروح الصغرى إلى الروح الكبرى . وفى الإنسان الطبيعتان : الطبيعة العاقلة المفكرة التى يرضيها الفلسفة ، وطبيعة الشعور بالمحبة الشائقة التى يرضيها الدين . فى الإنسان العقل الباحث ، وفيه القلب العاشق لقوة يعتمد عليها فى بلوغه كماله ، وفى معونته فى تخطى العقبات المحيطة به . غاية الفلسفة والدين واحدة ، ولكن الطريقين مختلفان . ولن يسافر الفيلسوف والمتدين فى طريق واحد ، ولن يستعملا وسائل واحدة ، ذلك يركب عقله ، وهذا يركب قلبه ، والأول ينمى ذهنه ، والثانى ينمى شعوره وإن لم يهمل عقله ؛ وإذ كان العقل الكبير شكاكاً ، فهو قلما يؤمن ويجزم ؛ وإذ كان القلب الكبير عاشقاً هائماً ، فهو مؤمن عن حب ، لا يقبل فيه جدلاً ولا شكاً ؛ ولذلك كان رضا المتدين وطمأنينته أكثر وأقوى من رضا الفيلسوف ؛ ولما كانت وسائل الفلسفة عسيرة تتطلب علماً وتتطلب مصطلحات وتتطلب تعليماً ، لم تناسب إلا الخاصة ؛ ولما كان الشعور لا يتطلب كل هذا ، وقد لا يتوقف على ثقافة خاصة ، كان الدين مناسباً للخاصة والعامة على السواء ؛ فلست ترى الفيلسوف الراقى إلا فى الخاصة ، ولكنك ترى المتدين الراقى فى الخاصة والعامة . القلب يعتقد ويجزم ، والعقل قل أن يعتقد ويجزم ؛ القلب يطمئن ، والعقل يحار ، فإذا جزم فإنما يكون جزمه بمدد من القلب ؛ لقد صرخ الفخر الرازى وغيره نادمين على حياة الفلسفة إذ أسلمت إلى الحيرة ، وصرخ « هيوم » بأنه لا يستطيع

بحال من الأحوال أن يجزم بشيء في حقيقة الله وطبيعته. ولكنك لا تجد عميقاً في الدين يشكو الحيرة أو يندم على الحب. رقّ العقل في تجرده، ورق القلب في مده خيوطاً تربط بينه وبين من يحب، ولذلك كان ذو القلب أكثر شعوراً بشخصيته، ومن ثمّ كان أكثر شعوراً بطمأنينته؛ فهو إذا تديّن شعر بأن روحاً عليا تتجاوب مع روح صغرى.

أساس الدين أن هناك مملكة روحية وراء هذه المملكة المادية، وهي ليست مملكة خيالية ولا شعرية، ولكنها مملكة حقيقية — في كل شيء في الوجود. من جماد ونبات وحيوان وإنسان نفحة من الروحانية تستمدها من الروح الأعلى، من الله! (وإنْ مِنْ شيءٍ إلا يُسبّح بحمدِهِ ولكنْ لا تفقهون تسبيحَهم). ولكل شيء رسالته الروحية شعر بها أو لم يشعر. وتختلف هذه الأشياء في روحانيتها، كما تختلف القيمة لأفراد كل مملكة وأشياء كل مجموعة، إنها كنغمات البيانو تختلف ضعفاً وقوة، وغلظاً ورقة، وعلواً وانخفاضاً؛ وطبيعة كل شيء في الوجود اشتمالها على درجات، كجسم الإنسان والأسرة والجيش، ومجموعة الأنهار والجبال والتلال والأشجار والأزهار، والمجموعة الشمسية وغيرها، كل منها درجات يعلو بعضها بعضاً؛ وهي حقيقة التفت إليها «دارون» فأوحت إليه بنظرية النشوء والارتقاء. وكل مجموعة من هذه لا بد أن يكون لها رئيس أعلى يعلو الأجزاء المختلفة في القيمة وفي الوظيفة، وهو الذي يمثل نوعه؛ كذلك في المملكة الروحانية هذا التفاوت في القيمة، وهذه الدرجات المختلفة، وهذا التدرج صُعداً إلى الله.

أفراد هذه المملكة الروحانية يختلفون شعوراً وحباً وهياماً واستطاعة لتلقّي أشعة الروح الأعلى، فاختلفت بذلك منزلتهم في تلقي الوحي والإلهام — وقد أشبهت الديانات بمثال النور؛ ففي المجموعة الشمسية شمس تلقي الأشعة وقمر يتلقى منها ضوءها وينشره على الأرض، وحولها كواكب ونجوم تتلقى عنها بمقادير تختلف حسب وضعها واستعدادها، فكان هذا مثالاً لطيفاً للتعبير عن المعنى الروحي في المملكة الروحانية. وكانت آية النور من أبدع ما ورد في القرآن: «اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ مَثَلُ نورِه كمشكاةٍ فيها مصباح، المصباح في زجاجةٍ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرّيٌّ يوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ، يكاد زيتها يُضيءُ ولو لم تمسسه نار، نورٌ على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثالَ للناس، والله بكل شيءٍ عليم».

هذا الروح الأعلى رأس مملكة تجمع فيه العلم كل العلم، والقدرة كل القدرة، والحكمة كل الحكمة، يفيض منها على من يشاء بما يشاء. ومنزلة الأنبياء منه منزلة القمر من الشمس يتلقى ويُشع، ويستقبل ويذيع؛ وهناك أناس أقل من الأنبياء منزلة يتلقون دون تلقيهم، ويذيعون دون إذاعتهم — كل هؤلاء شرّاح القوانين الروحية بلسان الإنسانية، هم الإجابة لصرخة الإنسانية المعذبة والإنسانية الضالة، وهم البلسم للإنسانية المجروحة، وهم ناشرو النور يقبس منهم كلٌّ حسب استعداده. يخاطبون كلاً بلغته وبمقدار عقله، يؤثرون بقولهم كما يؤثرون بضوئهم الذي ينشرونه على الحياة، ولذلك آمن كثير من أتباعهم بالنظرة لا بالحجة، وقال قائلهم: «ما هذا وجه كذاب». هم يشبعون القلب أكثر مما يقنعون العقل، ويرفعون النفس إلى السماء إن التصق الجسم والشهوات والنزعات بالأرض؛ هم يصلحون مجتمعهم حسبما تتجلى في أصل زمانهم عيوبهم، ثم يضعون البذور في تعاليمهم يسترشد بها المصلحون فيما بعد لإدراك عيوب زمانهم.

والروح الأعلى عند اختيار من هم أهل لوحيه وإلهامه، لا يعبأ بما يعبأ به أهل المملكة المادية من جاه أو مال أو نسب أو علم أو ثقافة، إذ لا يهمه في الاختيار إلا القلب، وهو أعلم حيث يجعل رسالته

أحمد أمين

سؤال وجواب

منذ أيام سمعت ابني الأكبر يعابث أخاه الأصغر ويقول له :

— يزعم فينا أبوك أنك فتى نجيب ! فهيا أرنى نجابتك ، وفسر لى معنى الحوار الذى سأقصه عليك فى هذه الحكاية .

فرد الصغير الخبيث بقوله :

— أنا أفهم أية حكاية بشرط واحد .

قال له أخوه : وما هو ؟

قال : ألا تكون الحكاية « بايخة » .

فقال أخوه : ومن الذى يقرر إن كانت الحكاية بارعة أو با . . . . ؟

فأجاب الصغير : الأمر ظاهر . فإني إن فهمتها فهى بارعة ، وإن لم أفهمها فأنت تعرف عند ذلك ماذا هى . . . .

وتضاحك الفتيان ؛ وانضمت لهما أختهما الكبرى تحضر هذا الامتحان . فطفق الأخ الأكبر يروى حكايته :

« كان فى بلد من بلاد الهند ملك عظيم ، وكان فوق ذلك عالماً كبيراً وفيلسوفاً خطيراً ، ولذلك كان يفرح فرحاً عظيماً كلما ترامى إلى سمعه أنه ظهر فى رعيته عالم أو فيلسوف . وكان لا يتردد فى الذهاب بنفسه إلى هؤلاء النوابغ فى أماكنهم ، يتحدث إليهم ، ويناقشهم فى علومهم وفنونهم . فنما إلى علمه يوماً أن شيخاً كبيراً فى القرية المجاورة لمع نجمه فى الفطانة والذكاء ، فاشتاق أن يراه وأن يختبره بنفسه ، فتنكر فى زى رجل عادي ، وقصد إليه هو وجماعة من حاشيته . فلما دخلوا عليه ألقى عليه الملك السلام ، ثم قال له :

— ما ترى فى البعيد ؟

قال الشيخ : — أراه قريباً !

قال الملك : — وكيف حال الاثنين ؟

قال : — أصبحوا ثلاثة !

فسأله : — وكيف حال الجماعة ؟

قال : — تفرقوا !

فقال : وما خطب الليل ؟

قال : — أصبح نهاراً !

فسأله : وما خطب النهار ؟

قال : أصبح ليلا !

فأثنى الملك عليه ، ودعا له ، وأبدى إعجابه لسعة فهمه وحسن إجابته ، وأمر بعض رجاله أن يترك له هدية مالية قيمة . ثم انصرف مع حاشيته وهم يتعجبون فى أنفسهم . . . عن أى شيء كان يسأل الملك . . . وبأى شيء كان يجيب الشيخ ؟ ! » .

وعندما بلغ الأخ الأكبر هذا الحد فى حكايته تطلع إلى ناحية الأصغر قائلا :

— هذا هو الحوار الذى جرى بين الملك والشيخ ، فهل تستطيعون بنجابتكم تفسير شيء من هذا الحديث ؟

فقال الصغير ببديهته الحاضرة :

— وهل إذا وقف مخرفان يتساجلان مثل هذا الكلام أكون أنا المسئول عن تفسير حديثهما ؟

وهمّ الأخ الكبير بأن يقول شيئاً جارحاً . ولكن الأخت تدخلت فى الوقت المناسب تريد إنقاذ موقف الصغير فقالت : إنها تفهم بعض المعنى فى بعض هذا الحديث ؛ وسألت أخاها الأكبر :

— هل كان هذا الشيخ أشيب الرأس ؟

فقال : — أغلب الظن أنه كان كذلك !

قالت : — إذن يكون سؤال الملك عن الليل الذى أصبح نهاراً إشارة إلى شعر الشيخ الذى كان فاحماً ثم أدركته الشيخوخة فشاب .

فسألها أخوها : — وما قولك فى النهار الذى أصبح ليلا . . ؟ هل يكون قد صبغ شعره ؟

فترددت قليلا ثم قالت : —

— لا بد أن يكون ذلك إشارة إلى قوة إبصار الشيخ ، وأن بصره كان حديداً نيّراً فى صباه ، فأصبح كليلا معتما فى هرمه .

فتراجع أخوها وهو يصيح بها :

— لا لا ! أنت لا بد اطلعت على أصل القصة وتفسيرها . ثم أنت تحاولين الآن التظاهر بأن هذا التفسير من عندياتك .

فغلبها الضحك واعترفت بأنها اطلعت فعلا على أصل القصة . وعرفت منها أن البعيد الذى أصبح قريباً هو « الموت » ؛ وأن الاثنين اللذين أصبحا ثلاثة هما ساقا الشيخ بعد أن ضم إليهما عصاه ليستعين بها على المشى ؛ وأن الجماعة التى تفرقت هى أسنانه التى تساقطت على مر السنين . . . .

* * *

فتقدمت بدورى إلى هذه الفتاة التى أفشت سر أخيها ، وأذاعت جواب امتحانه قبل أن ينظر فيه المسئولون ، وقلت :

— إنى سأضع لك سؤالا واحداً لا أظنه دخل فى دائرة اطلاعك . فإن كانت عندك فطانة حقيقية فهذا ميدان ظهورها !

قالت : وأنا أيضاً أجيب على أى سؤال بشرط واحد !

قلت : وما هو ؟

قالت : أن يكون السؤال نسائياً !

قلت : سبحان الله ! وهل فى الأسئلة أيضاً ما هو رجالى ومنها ما هو نسائى ؟

قالت : إن كان معنى السؤال يتعلق بشئون النساء فهو نسائى .

قلت : إذن دونك هذا السؤال ، فهو فى صميم أحشاء النسائيات كلها . . .

« قال الامام على كرم الله وجهه : غيرة المرأة كفر . وغيرة الرجل إيمان ! » فكيف تفسرين هذا الكلام ؟

قالت : وهل لمثل هذا الكلام تفسير ؟ إنها دعاية قديمة من دعايات الرجال التى يذيعونها من النساء على هواهم ، ما داموا أنهم كانوا هم وحدهم المتحدثين ، الكاتبين ، القارئين . وما أظن أحداً يقول اليوم شيئاً مثل هذا إلا ويجد الرد حاضراً على لسان « الحزب النسائى » و « المرأة الجديدة » وغيرهما وغيرهما من الأحزاب ، التى يفضلها عزّ اليوم جانب المرأة ، وأصبح الرجال يفكرون مرتين قبل أن يلقوا بمثل هذه الأقوال .

قلت : أؤكد لك أن هذا الكلام ما زال اليوم صحيحاً ، كما كان صحيحاً منذ أيام الإمام كرم الله وجهه .

قالت : كيف يصح فى الأذهان أن تكون الصفة الواحدة فضيلة ورذيلة فى آن واحد ، فهى فى المرأة كفر وفى الرجل إيمان ؟ أليست المرأة مثل الرجل ؟ !

قلت : هذا هو الأساس الخاطئ الذى لا يمكن فهم الأمور على وجهها الصحيح إلا بعد تعديله .

قالت : لولا أنك أب ، ولولا أن الكلمة منسوبة للإمام ، لكان مجال الكلام أمامى أفسح وأوسع . فهات تفسيرك ، ولك علىّ أن أصبر حتى تنتهى من شرحه .

قلت : أو ليس الله أحل للرجل تعدد الزوجات ، ثم أليست غيرة الزوجة الأولى قد تحول دون تحقيق رغبة الزوج فى ضم زوجة جديدة إلى زوجته القديمة ؟ فإذا كانت غيرة المرأة تحرم على زوجها ما أحله له الله فإنها تكون قد انتهت بها إلى الكفر . أما الرجل فإنه حين يغار على زوجته لا يكلفها بذلك إلا أن تقطع صلتها بكل رجل سواه ، ولا يحرم عليها إلا ما حرمه الله ؛ وبذلك تكون غيرته من الإيمان !

قالت : أحس بشعورى أن شيئاً من التعسف يكمن فى هذا التفسير . ولكن عقلى لا يستطيع أن يهدينى إليه أو

يدلني عليه .

قلت : استغفري لربك . فهذا تفسير الإمام الشيخ محمد عبده لكلام الإمام علي بن أبي طالب في حكم من أحكام الله سبحانه وتعالى !

فقالت الفتاة في يأس لاعب الشطرنج الذي رأى شاهه وقد أحيط به في اللعبة الأخيرة ، بحيث أصبح لا يستطيع أن يحركه من مكانه :

ما دام تعدد الزوجات من أحكام الله ، وما دام الإمامان يتعاونان على جعل غيرة المرأة بعد ذلك كفراً ، فماذا بقي لي من هذا الحديث إلا أن أسمعك وأنت تقول لي : (كشي !) فأقول لك : (مات !)

فنحاص يسفسط !

لقي الإسلام في أيامه الأولى خصومة حامية من أهل الأديان القائمة ، ومن جملة هؤلاء اليهود . فكان أفرادهم يحاربون أفراد المسلمين بما يسره الله لهم من مختلف الأسلحة ، وكان أحبارهم يجادلون أئمة الإسلام جدالا عنيفاً في أصول دينهم وآيات كتابهم ، ويكادون يفتنون الناس بسفسطتهم في هذا المضمار .

ومن ذلك أن رجلا من أحبار اليهود اسمه «فنحاص» سمع قوله تعالى : « مَن ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » فوجد الفرصة سانحة لشيطانه يصول فيها ويجول . . . فوضع يده في الكتاب ورجله في الركاب ، وانطلق مكباً على وجهه حتى أتى جماعة من المسلمين . .

* * *

وأنت ولا شك تلاحظ أن كلمة « فنحاص » هذه على وزن « خنشاص » ؟ . والخنشاص — فيما أعرف أنا وفيما قد يعرف القارئ اللبيب أيضا — اسم جنس — وهذا الجنس — مع الأسف الشديد — لا يزال ينمو على مر الأيام ويترعرع ، حتى لتغص مجالس اليوم بكل خنشاص فنحاص كما كان العهد تماما في أول الزمان ؛ فتراهم في كل حديث يخوضون ، وفي كل واد يهيمون ، يسفسطون ويهرفون بما لا يعرفون .

* * *

وطرب فنحاصنا عند سماعه لهذه الآية الكريمة . ولكن لا كما يطرب المؤمن بطبيعة الحال ، بل كما يطرب الفنحاص الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . وقد لاح له في وجه الآية ما يسمح له بأن يبصبص بذنبه في تفسيرها . فقال مستهزئاً بمن لقي من المسلمين وبنبيهم وبصاحب كتابهم :

— لو كان الله عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما زعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه ! — أي ويعاملنا به .

والرجل العادي قد يسمع مثل هذا الكلام فيتأثر بوجاهته الظاهرة . ولكن « الفنحاص » لا يعدم داعياً من يقول له : مكانك يا زينة الأحبار ! فإن قياسك هنا قياس مع الفارق الكبير — كما يقولون — . أفإن صادفتَ غلامي في الطريق وهو يجري ويعربد فانكفأ ووقع منه قرشه وانكسرت (سلطانيته) ، وقدر في نفسه ما سيلقى من أهل البيت جزاء عبثه وإهماله فجزع وبكى . ورأيته أنت على هذه الحال فأدركتك له رقة فعوضته قرشا بقرش ، و(سلطانية) بمثلها* ، ورجعت إلى نفسك راضياً بأنك فرجت عن أخيك كربة من كرب الدنيا — وعلمت أنا بخبرك مع الغلام فرأيت أن أكرمك وأثيبك على ما فعلت ، فدعوتك إلى داري ، وأقسمت لك في مائدتي وهيأت لك ديكا رومياً أو حملا مشويا ، أيكون هذا الذي جرى بيني وبينك « تعاملا ربويا » أم « قرضاً حسناً » ضاعفته لك أضعافاً كثيرة ؟! . . يا سقيم الفهم . . يا مسفسط . . . يا . . . . فنحاص !

(ج)

* لعل هذا الغرض بالذات أنشأ أحد رقاق القلوب في مصر وقفا يعرف الآن باسم (وقف السلطانية)

فى معترك الخطوب

الحوادث فى عراك دائم ، والتاريخ فى سيل مستمر . وإنما تبقى الأمم فى معترك الحوادث ، وتثبت فى سيل التاريخ ، بعقل يرشدها ، وخلق يثبتها ، وعمل تدفع به عن حياتها ، وتؤثر به على الأرض آثارها ، وتسطر به فى التاريخ ذكرها . كم أمة جرفتها الحادثات ، وذهب بها الزمان كما يذهب السيل بالغثاء ! وكم أمة ثبتت فى مجرى الأحداث كالصخور ينشق الماء عنها ، ويذهب وهى باقية راسخة !

والأرض ترجف اليوم بخطوب جسام ، وتزلزل بأهوال لم يشهد التاريخ مثلها ؛ تتصادم فيها الأمم بعُدَدها من العلم والصناعة والخلق المتين ، والنظام المحكم ، والجِدّ الدائب ؛ تحترب الأمم فى معارك على الأرض ، وفى السماء والهواء ، وتحترب فى المدن والقرى ، وفى المصانع والدُّور ؛ ووراء هذا كله تتحارب بعلمها وخلقها . وقد خرّت بعض الأمم ، على قوتها وكثرتها ، فى هذا الجلاد ، وثبتت أمم لا تزال تتناحر وتتفانى بكل ما عرف العقل والعلم والصناعة ، وبكل ما أدرك الشيطان من وسائل التدمير والتخريب والقتل والفتك . ترسل بينها إلى الوقائع حطباً لهذا الجحيم ، ويُصَبّ عليها العذاب من السماء صباً . وكم تحطمت طائرات وسفن ، ومدافع ودبابات ، وخرّت حصون ، وتهدمت بيوت . ولكن إرادة الإنسان ، وعزيمة الإنسان ، وعناد الإنسان ، لم تتحطم ولم تنكل .

وقد دلّت بعض الأمم فى هذه الحرب على أن صبر الإنسان لا يهزَم ، وخُلُق الإنسان لا يدمّر ، فهزئت بالحوادث وهى هائلة ، واستخفت بالهزائم وهى ماحقة ، واستنارت بالأمل والظُّلَم مُطبقة ، واستمسكت بالصبر والخطوب مزلزلة ، واعتصمت بالعزة والإباء فى المواقف الهوجاء ؛ وما زالت حتى أخرجت من الهزيمة نصراً ، ومن القلة كثرة ، ومن الضعف قوة ، وأثبتت للجاحدين أن الله مع الصابرين .

وما تزال الخطوب متصادمة ، والأخلاق متلاحمة ، والحوادث متلاحقة ، عبرة لمن يعتبر ، ومثلا لمن يمتثل ، وذكرى لمن كان له قلب . ما يزال الزمان يُشهد أعظم وقائعه ، ويُرى أكبر عِبَره ، وينطق بأكبر عظاته . وفى الأمم من انعظت بنفسها ، وفيها من اتعظت بغيرها ، وفيها من مرّت بها العظات وهى غافلة ، وزُلزلت الأرض تحتها وهى راقدة كأن الذى حولها أحلام هائلة .

وهذه الأمم المتناحرة المتفانية تُلقى عيناً على الحاضر وأخرى على المستقبل ؛ تدبّر هذه الواقعات المدمّرة ، وتُعد لما بعد الحرب الخطط المعمّرة ، وتقبس من هذه النار الحاطمة لتنير المستقبل المرجوّ ، ولا يذهلها يومها — وهو مُذهل — عن غدها ، ولا يشغلها حاضرها — وهو شاغل — عن مستقبلها ، ولا ينسيها العالم الشقى صورة العالم السعيد الذى تنشده .

* * *

ونحن ، والحمد لله ، فى عافية مما ابتُلى به غيرنا ، نسمع ضوضاء المعارك وأنباءها ، وتحيط بنا خططها وآثارها ، ولا ندفع فى مضايقها ، ولا نصلى بنارها ، ولا نحمل مصائبها . نحمد الله على هذا ، فهل نحمده كذلك على أننا فى عافية من عناء التفكير والتدبير والتشاور والقطع برأى فى حاضرنا ومستقبلنا ؟! وفى عافية من أن نشارك العاملين للمستقبل برأى نشير به ، أو خطة نضعها ، أو مطلب نصرّ عليه ؟ ! لعلنا أوفر أمم العالم نصيبا من الفراغ فى هذا الوقت ، فلماذا لا نكون مثلهم تفكيراً فى المستقبل ، وشغلاً بالحاضر ؟ لماذا لا نأتمر بيننا ، وندير الرأى فيما عسى أن نلقى بعد الحرب من

مشاكل ومصاعب . إنا ننتظر القضاء ، قضاء الناس لا قضاء الله !!

« وفي الناس من يُقضَى عليه ولا يَقضى »

وقد رضينا أن نصدق قول الشاعر :

ويُقضى الأمر حين تغيب كعب
ولا يستأمرون وهم شهود

أقول نحن ، وأريد الأمة العربية كلها . نحن لا نلق الحوادث بعدّتها وكفايتها من التفكير والحزم ، وجمع الكلمة . لا يجتمع أهل المملكة الواحدة على رأى جامع ، وخطة عامة تلتقى عندها مطالبهم أو أمانيّهم . ولا يسارع أهل الأقطار كلها إلى البت برأى فاصل فيما يحزبهم من أمور الحاضر ، وما يهمهم من قضايا المستقبل . وحسبي مثل واحد من أمثال :

تشعر البلاد العربية بحاجتها إلى التعاون والتقارب ، والسير على خطة واحدة في الأمور التي تمسّها ؛ وقد أوحى إليها هذا الشعور معرفتها أنها على اختلاف الأقطار أمة واحدة يؤلف بينها ما يؤلف بين الأمم الواحدة على هذه الأرض ؛ والحقائق الماثلة تصدّق هذا ، والتاريخ يؤيده ، والضرورات والحاجات تدعو إليه . وقد فكر قادة الرأى في الأقطار العربية في أن يحققوا هذه الأماني فيوحدوا بين العرب ويجمعوهم على نظام واحد ، أو نظم متقاربة في أمورهم المشتركة . ولا ننكر أن الإنكليز نبهوا إلى هذا مرة بعد مرة . وقد مضت سنوات ، وأوشكت الحرب أن تنتهي ، فماذا فعلنا ؟ لا أدرى ! إن الأمر فيما أرى أوضح من أن تضطرب فيه الآراء ، وأيسر من أن تقعد دونه الهمم ، والزمان ضنين بفُرَصه ، والحوادث لا تعرف الهوادة . إننا لا نصطنع أشياء ، ولا نلفق أموراً تصادم الحقائق أو تخالف الرغبات ، ولكنا نعالج حقائق ماثلة معترَفاً بها ، نريد أن ننظمها وننتفع بها . ومن تنصره الحقائق ، وتُواتيه الرغبات ، لا يجد عسراً فيما يحاول . لو اجتمع ممثلو البلاد العربية الرسميون ، أو أتيح لقادة غير الحكوميين أن يجتمعوا ، ثم وضع هؤلاء ، أو هؤلاء ، خطة وجعلوها للعرب ميثاقاً لا يقبل جدلاً ولا رداً ، لو فعل هذا لتلقينا الحادثات بما تطلبه ، وأعطينا الفرص ما تستحقه ، ولأخذنا السبيل على القال والقيل ، ولاسترحنا من الرجم بالظنون والأقوال .

إن لنا الثقة كل الثقة بمن تصدّوا لهذا الأمر ، واضطلعوا بهذا العبء ، واحتملوا مختارين هذه التبعة العظيمة في الوقت الحرج ، ورأوا في أنفسهم الكفاية لحمل هذه الأمانة التي تسألهم عنها الأجيال الحاضرة والآتية . ولكنا نسألهم سؤال الحريص على طلبته ، ونستعجلهم استعجال القليق على أمنيته .

إنه لا يجدر بنا أن ننام والحوادث يقظى ، ونبطئ والخطوب تسرع ، ولا نلق الحادثات بعدّتها من التدبر والحزم ، وجمع الكلمة ، وإجماع الرأى ، وسرعة الفصل .

عبد الوهاب عزام

درس قيم ...

قديماً في بلدة دسلدورف Düsseldorf الصغيرة بألمانيا كان يعيش المدعو هر جروبلو Herr Grupello أحد مشاهير المثالين في ذلك الزمان ... فطلب إليه الأمير الناخب Prince-Electeure[1] «جان جيوم» Jean Guillaume — وقد توسم فيه النبوغ والعبقرية — أن يقوم بصنع تمثال له، يصوره وقد امتطى صهوة جواده؛ فطفق المثال يعمل طيلة النهار وشطراً من الليل ليحقق العمل الفني، مقدراً لهذا الشرف العظيم الذي أوثر به من دون أقرانه.

... ولما فرغ الفنان من صنع «الأنموذج» دعا الأمير الناخب وجل رجال البلاط لإبداء رأيهم في هذا الأثر الفني قبل أن يقوم بإفراغه في قالبه البرنزي الأخير. وحضر الأمير في اليوم الموعود يصحبه صفوة أتباعه من رجال البلاط. فما أن أزاح المثال الستار عن «الأنموذج» حتى عقد الدهش لسان الأمير لفرط روعته، ودقة صنعه ... ثم ما لبث أن استدار نحو المثال قائلاً، وقد أخذته النشوة:

— حقاً يا هر جروبلو إنك لأهل لهذه الشهرة الواسعة! إني لأرى الشبه تاماً، حتى ليكاد الأمر أن يختلط علي، فأحسب التمثال حياً! ألا إنك لفنان ...!

... ثم شد على يده مهنئاً!

... وهنا أكلت الغيرة قلوب رجال البلاط، ولم تقف عند حد حينما رأوا الأمير يصافح المثال كما لو كان صديقاً قديماً؛ فتعلقت أبصارهم بالتمثال مؤملين أن ينفذوا إلى ثغرة يهوّنون بها من قدر هذا العمل الفني ... بيد أنهم لم يجرؤوا على الغض من صورة الأمير. ولكن واحداً منهم قال وهو يتكلف الظرف:

— حقاً يا هر جروبلو إن صورة صاحب السمو بالغة الإحكام، ولكن ... هل تأذن لي أن أنقد الجواد نقداً خفيفاً. أحسب أن رأس الجواد مفرطة الضخامة، حتى إنها لتكاد أن تفقد هذا العمل صفة التناسق والانسجام الفنيين!

وقال آخر:

— لا ... إنها الرقبة التي إخالها مفرطة الطول!

وقال ثالث:

— لو تفضلت بتهذيب القدم الأمامية! أظن أن ذلك يكون أدعى إلى الارتياح!

... ولكن المثال ظل صامتاً طوال هذه الفترة التي حفلت بمختلف الآراء. ثم التفت إلى الأمير — وقد ساد الصمت — وقال يخاطبه:

— هل يأذن صاحب السمو في أن أحتجز التمثال بضعة أيام أخر، لعلي أستطيع في خلالها أن أحل «توجيهات» حضرات السادة محل العناية والدرس؟

... فلم يمانع الأمير في تحقيق هذا الرجاء.

... وأحاط المثال «الأنموذج» من كل جوانبه بأستار من رقيق الصفائح، وانبرى يعمل في جد واهتمام.

... أما رجال البلاط فقد أخذتهم هزة السرور والخيلاء، إذ سمعوه يعمل طوال أيام عدة، ووقع في روع كل واحد منهم أنه كان على حق فيما ذهب إليه، وأن المثال لم يكن صائب النظر، وأنه — على ذلك — لم يكن أهلاً لهذه الثقة الغالية التي حباه إياها الأمير!

... وتصرمت بضعة أيام ...

... وعاد الأمير ورجال بلاطه إلى الوقوف مرة أخرى أمام التمثال؛ والمرة الثانية أعرب الأمير عن إعجابه وتقديره العظيمين؛ وتكلم رجال البلاط بدورهم ... فقال أولهم:

(١) هذا اللقب كان يطلق على حكام الدويلات الألمانية قبل وقوع الاتحاد الألماني سنة ١٨٧٧. وقد لقبوا «بالناخبين» بالنظر إلى أنهم كانوا يشتركون في انتخاب الإمبراطور (L'Empereur) بطريق التصويت.

بين أنسجة النبات وخلاياه

يحتاج الإنسان في بعض الأحيان إلى أن يغير من بيئته ، فيبحث عن عالم آخر يجد فيه ترويحاً عن نفسه ؛ وليس أحب إلى النفس من رحلة بين الرياض ، فيها يجد الإنسان جميل صنع الخالق ، فمن زهر مختلف ألوانه ، إلى نبت تباينت أشكاله . ومن منا يقف بين هذا النبت وذاك الغرس دون أن يدفعه حب الاستطلاع إلى أن يجوس بين خلاياه ليتعرف إلى ما خفي عليه !؟

ولكي يصل القارئ إلى ذلك يجب أن يترك لخياله العنان ، وليبالغ في تصوره ما شاء ، وليحاول أن يتجاهل الحقيقة وينسى هذا العالم الصاخب بما فيه ؛ فلينظر إلى هذا النبت بمنظار يكبره آلاف المرات ، وليصغر نفسه إلى حد يسمح له أن يسير في كل مسافة مهما صغرت ، حتى يتسنى له أن يتغلغل بين أنسجة النبات

فهذا نبت صغير أمامنا لا يتعدى طوله بضعة سنتيمترات ، اخترناه صغيراً رغبة منا في تيسير الرحلة ، فما كان لبادئ في التسلق أن يرقى جبلاً شاهقاً قبل أن يصعد تلاً . على أن هذا النبت الصغير مع بساطة شكله فهو معقد في تركيبه ؛ فلنحاول أن نقتحمه ولنبحث من فتحة تسمح لنا بأن ندخل إلى عالم جديد ، جديد في مناظره وفي جوه . ها هو سطح الورقة من أعلى ، خلاياه متراصة لا انفراج بينها ، كسته طبقة من الشمع فزادت من قدرته على وقاية ما تحته ؛ فإذا ما دلفنا إلى سطحها السفلي عثرنا على الكثير من الفتحات أو الثغور . وهذا الترتيب له فائدته للنبات ؛ فالثغور واسطة لانتشار الغازات من الجو إلى أنسجة النبات ، ومن أنسجة النبات إلى الجو ، فإذا كثرت على سطح الورقة العلوي تعرضت الفتحات للضوء والحرارة والرياح ، وتعرضت بذلك ورقة النبات

— حسناً . . . إن الرأس ليبدو الآن أكثر انسجاماً عن ذي قبل !

وقال الثاني :

— . . . والرقبة . . . إنها ـ وقد قصرت قليلاً ـ صارت أكثر رشاقة وجمالاً !

. . . وأعقبهما الثالث بقوله :

— إني لأجد القدم اليمنى الآن وقد خلت من كل شائبة !

فالتفت الأمير إلى هر جروبللو ثم قال :

— إن حاشيتي لتبدو الآن شديدة الإعجاب . ولا شك أن السادة الأماثل قد وجدوا أن « التحسينات » التي اقترحوا قد أوفت بالتمثال على الغاية . . .

. . . فقطع عليه هر جروبللو ، وقد انفرجت أساريره عن بسمة ساخرة :

— . . . إني جد مسرور يا صاحب السمو . . . ولكن لا بأس من أن أصرح لسيدي الأمير ـ إظهاراً لوجه الحق ـ أني لم أمس التمثال مذ رآه صاحب السمو حتى هذه اللحظة !

. . . فصاح الأمير ، وقد استغرقته الدهشة :

— كيف ؟! ماذا كنت تعمل إذن طوال هذه الأيام !

— إني كنت أعمل على تحطيم ادعاءات هؤلاء السادة الأغرار في مادة الفن . إن غيرتهم وحدها هي التي خيلت لهم هذه النقائص في تمثالي . . . وأحسب أنها أيضاً قد جعلتهم على تمام الثقة بصحة ما يتوهمون !

فضحك الأمير ملء شدقيه !

أما عن السادة الفطناء ، فقد تسحبوا الواحد تلو الآخر دون أن ينبسوا ببنت شفة !

(عن الفرنسية بتصرف) عبد العزيز الكرداني

إلى كثرة البخر والذبول ، فوجودها على السطح السفلى فيه وقاية لها .

ولو دققنا فى هذه الثغور لوجدنا كلاً منها يتكون من فتحة يحيطها شلفتان ، إن تقاربتا ضاقت الفتحة ، وإن تباعدتا اتسعت الفتحة ؛ والشلفتان هنا خليتان اختلفتا عما حولهما شكلاً وتركيباً ، إذ تحتويان على مادة خضراء ، كما أن جدرانهما ليست على نظام واحد فى سمكها ، إذ زادت جدرانها سمكاً من أعلى ومن أسفل ، وازدادت رقة من جانبيها . فإن امتلأت الخليتان بالعصارة انتفختا وبعدت الجدران العليا والسفلى بعضها عن بعض فينفتح الثغر ، وإن فقدتا ماء ، قربت جدرانها العليا والسفلى ، كما ارتخت جدرانها من جهة الثغرة فتضيق الفتحة ، ويظهر ذلك فى الجزء السفلى من الشكل الأول

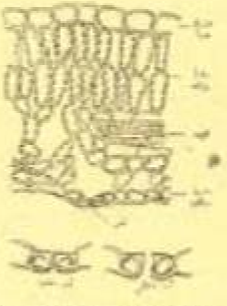
ثم إن الحرارة الشديدة تؤدى إلى غلقها ، والماء الكثير يفتحها ؛ ولكنا نجد أننا لو حاولنا أن نبدأ الرحلة قرب الليل وجدنا الثغور مقفلة مع أن الحرارة منخفضة . والعلة فى ذلك أن الضوء يفتح الثغور والظلام يغلقها . وكل ذلك نتيجة لوجود المادة الخضراء وهى الكلوروفيل ، التى تكوّن بتأثير الضوء سكراً يزيد فى تركيز الخلية التى تحيط الثغر ، فتمتص ماء مما حولها من الخلايا بسبب هذا التركيز فتنتفخ وتتسع الثغرة

وقد يتساءل البعض عما يحدث لو أننا ووجهنا بورقة فيها بقع بيضاء ، فالجزء الأبيض خال من مادة الكلوروفيل التى فرضنا وجودها لتفتح الثغر . وهو اعتراض سليم . ولو فحصنا الأجزاء البيضاء بشىء من الدقة ، لوجدنا أن الثغور فى هذا الجزء يختلف بعضها عن بعض فى مقدار تفتحها ، إذ يزداد التفتح فى الثغور التى تقع قرب الأجزاء الخضراء من الورقة ويقل كلما بعد الثغر عنها . والعلة فى ذلك أن الأجزاء الخضراء أثناء النهار تحول حمض الكربونيك إلى سكرات وأكسجين ، وبذلك تقل حموضة الوسط المحيط بالخلايا . وإذا ما قلت الحموضة نشط أنزيم الدياستاز فيتحول النشا فى الخلايا إلى سكر يزيد فى تركيز عصارتها ، فيؤدى ذلك إلى تفتح الثغر كما تقدم

ومن ذلك يتبين أن كل هذه العمليات تتوقف على وجود المادة الخضراء التى تمتص الضوء . وهذه المادة يمكن استخلاصها بواسطة محلول الأسيتون دون أن تعانى تغيراً كيميائياً ؛ وقد تبين أنها مادة معقدة التركيب تتكون من أربع صبغات . ويدخل فى تركيب الكلوروفيل عناصر الكربون والأيدروجين والأكسجين والأزوت مضافاً إليها مقدار بسيط من المغنسيوم . وباتحاد حمض الكربونيك مع الكلوروفيل يتكون ملح المغنسيوم ومادة خضراء زيتية اللون . وهذا التفاعل يحدث فى الضوء وفى الظلام . وقد وجد أن الضوء يعمل على تكوين مركب مع الكلوروفيل يسمى فوق أكسيد الفورمالدهيد الكلوروفيلى ، وهذا المركب يفقد الأكسجين فى الضوء بتأثير أنزيمات خاصة فيتحول إلى سكر ، ولعل هذه الخطوة تجرى بسرعة تمنع من العثور على الفورمالدهيد فى أنسجة النبات

وإذا دخلنا من أحد هذه الثغور واجهتنا فوهة متسعة يحيطها خلايا كثيرة متلامسة فى بعض أجزائها متباعدة فى البعض الآخر . وهذه الفجوة تؤدى إلى فجوات أخرى أقل اتساعاً وكلها محاطة بخلايا لا انتظام فى شكلها ، يتعرض منها سطح كبير لما يحيط بها من غازات ، كما أن جدرانها متندية بالماء على الدوام لحكمة عظيمة ، إذ الماء واسطة لانتشار الغازات من الفجوات إلى الخلايا ، ومن الخلايا إليها . وفى هذه الممرات والفجوات نجد نسبة عالية من الهواء الغنى بأكسجينه . وقد يتبادر إلى الذهن أن وفرة الأكسجين ناتجة من أن عملية التمثيل هى العملية الوحيدة التى تحدث أثناء النهار ؛ والواقع أنها تحدث مع عملية التنفس جنباً لجنب ؛ بدليل أننا لو أخذنا

أوراقاً خضراء وعرضناها للضوء ، فإن التمثيل يكون أنشط من عملية التنفس ، فيتصاعد أكسيجين فقط ، وذلك لأن غاز الكربونيك المتكون أثناء عملية التنفس يستنفده النبات في عملية التمثيل ، وإذا أنقصنا كمية الضوء، قل نشاط التمثيل ؛ ولما كان التنفس كما هو ، فإننا نلاحظ أن كمية الأكسيجين المتصاعدة تقل ، وإذا والينا إنقاص الضوء تدريجياً وصلنا إلى حد يكون فيه مقدار الأكسيجين المتكون من عملية التمثيل يستخدمه النبات في عملية التنفس ، كما أن غاز الكربونيك الناتج من عملية التنفس يستخدمه النبات في عملية التمثيل ، أي أننا نصل إلى حالة تعادل ، فلا يتصاعد من أنسجة الأوراق أي غاز . وإذا استمر نقص الضوء ضعفت عملية التمثيل ، وظهرت عملية التنفس ، وبدأ تصاعد غاز الكربونيك ؛ ومعنى ذلك أن التنفس عملية تحدث باستمرار ، ولكن في أثناء النهار تظهر عليها عملية التمثيل ، ولذا نجد في تجوات النبات وفرة من الأكسيجين .

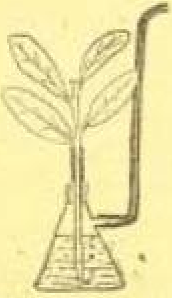


إلى أسفل — شكل الثغور واختلاف السمك في جدرانها
إلى أعلى — أنسجة الورقة كما تظهر في قطاع رأسي

ووجود جو مناسب يساعدنا على قطع مرحلة أكبر في أنسجة الورقة . وكلما تركنا ممراً دلفنا إلى آخر ؛ فهذا الجزء أشبه بالإسفنج لكثرة تجواته ، ولا ينتظر أن نصادف تميزاً يذكر ، إلا لو قدر لنا أن نصطدم بمجموعة من الخلايا المتراصة التي تحمي داخلها أنابيب تقوم بتوصيل العصارات المختلفة من الورقة إلى أجزاء النبات الأخرى ، أو من هذه الأجزاء إلى الورقة . وهذه الأنابيب المتجمعة إن هي إلا العروق تجرى في كل جزء من أجزاء الورقة ، كما تجرى أوعية الدم في أنسجة الجسم .

وإذا اتجهنا إلى أعلى قابلنا عمد من الخلايا المتراصة تجاورت وقلت الفراغات من بينها . والمادة الخضراء فيها قد زادت إلى حد كبير . ولا عجب ، فهذا الجزء من الورقة أكثر تعرضاً للضوء من غيره ، فكثرة الكلوروفيل تزيد من قدرته على التمثيل ، ولكن نظامها صفاً صفاً قد عرضها إلى الضوء بمقدار ، إذ يقع عليها بميل دائماً ، ولا تبلغ شدته حداً يحلل هذه المادة الخضراء ويتلفها . وهكذا نجد ملاءمة عظيمة بين تركيبها وموقعها ، بل ونظامها وتجاورها .

ولو تركنا هذا الجزء ، واتجهنا نحو أصل الورقة ، نجد أننا نسير في طرق تستدق شيئاً فشيئاً ، كما أنها تتلاقى في جسم أسطواني الشكل هو عنق الورقة ؛ وإذا حاولنا أن نسير في هذا الجزء وجدنا تجواته وممراته ضيقة ، يفصلها عن العالم الخارجي خلايا تسمكت جدرانها فأكسبها ذلك مرونة وقوة ساعدت العنق على حمل الورقة ومقاومة الرياح . وقد يظن القارئ أن هذه التجوات لا يمكن أن تتصل ببعضها ، ولكن البرهان على ذلك بسيط ؛ فلو أخذنا فرعاً نباتياً وثبتناه في سداد من المطاط ثبت في زجاجة مخروطية كما هو موضح بالشكل ، ثم



جهاز لبيان اتصال التجوات في أنسجة النبات

بين المسموع والمقروء

أم

دخلت الأم إلى حيث يركع الناس ويعبدون . دخلت بقدم ثابتة وخطى متئدة ، وقلب طارد فيه الأملُ القاصي ما كان به من خوف عاص . ففي هذا اليوم كانت قد ودّعت ابنها الأخير ، ثالثَ ثلاثة ، ذهبوا جميعاً يستجيبون لداعي الوطن المهدَّد ، ويدفعون في البر والبحر عن جزيرة كاد يُنتهك رجاها

ركعت الأم تدعو للثلاثة أجمعين ، وخرجت بعين لم تبللْها الدموع .

ومضى بعض عام ، والأم تكتب كل أسبوع ثلاثة كتب في مواعيد لا تختلف أبداً . وكانت كلما فرغت من كتاب أحسّت قلبها يخف ويذهب ثلث أثقاله . *

سحب الهواء من الفتحة الجانبية ظهرت فقاقيع الهواء آتية من ثغور الورقة إلى ممراتها وتجوانها ، ثم إلى الأنبوبة فالماء فالفتحة الجانبية . وعلى هـذا نجد اتصالا تاماً بين تجوات الورقة . وهذا لا بد من وجوده حتى يخرج الغاز الناتج من تنفس الخلايا المختلفة ، وحتى يصلها الأكسجين اللازم لها

من كل ذلك نرى أن أنسجة الورقة قد تباينت أشكالها ولاءمت وظائفها إلى حد كبير مما جعلها أساساً للوجود . ولا عجب ، فهذه الورقة هي التي تكون المواد العضوية من مواد بسيطة التركيب ، فكلنا مدين لهذا الجزء من النبات الذي يعتبر مصنعاً لبناء كل غذاء للنبات والحيوان على السواء .

محمد أحمد بنونه

بعد عام

وما كاد ينصرم العام حتى دخلت الكنيسة كعادتها ، ولكن بخطى أقل اتزاناً ، وبقلب أقل أملاً . وأخذت تدعو الله لابنين اثنين أن يُرجعهما إلى أمهما سالمين . وخرجت من بيت الله ، وقد تبلل عيناها بالدمع ولمّا تدمعا

ذلك أنه كان أتاها الخبر بأن أحد بنيها أصيبت سفينته وغرق فيمن غرق من رجالها

والكتب الأسبوعية الثلاثة صارت اثنين ، ضمّنتهما كل ما يخفق به قلب الأم من رجاء ونصيحة وقلق .

بعد عامين

ويدور العام الثاني ، فإذا هذه الأم تدخل بيت الله على عادتها ، ولكن برجل تكاد تتعثر في مشيتها . ومضت إلى حيث يركع الناس ، يسألون الخلاص والرحمة من رب الرحمة والخلاص . ولكنها سألتهما هـذه المرة من أجل ولد واحد . فقد كانت وزارة الحرب أبلغتها أن ولدها الأصغر — ولم تزد سنه على سبعة عشر لما التحق بالجيش — قد قتل في إيطاليا . وخرجت من الكنيسة تعصر منديلاً كان ابتل حتى تشبّع . وعند الباب مسحت به آخر دمعة ، فقد كانت تحب أن يرى الله دمعها ، وتجزع أن يراه الناس .

وجلست من بعد ذلك إلى مكتبها مرة واحدة في الأسبوع ، وأرسلت كتابها الواحد يتابع ابنها الواحد حيث كان من الأرض . ولم يكن يبق لهذا الواحد الطوّاف ما يعزّيه في غربته ويثبّته في محنته غير هـذا الكتاب . فقد كان جاءه النبأ بأن زوجته التي خلّفها وراءه قد انهدم عليها البيت في غارة ، فذهبت إلى رحمة الله مع ولد له منها لم يكن بعدُ رآه .

عودة :

وتأتى الأخبار إلى الأم بأن ولدها قادم إليها . ولدها الوحيد الباقى . أى فرحة وأى سرور !! ولم تكن فرحةً لواحد ، ولكن فرحة لثلاثة ، فقد احتوت فرحتها لهذا الولد الثالث ، فرحتيها لولديها الذاهبين .

وأخذت تعد الأيام والليالى . وأخذت تُعدّ شفتيها لتلك القبلات الحارة ، وتحدث نفسها عن هذه القُبل : كيف تقبّل ، وأين تقبّل ، وأى القبلات أكثر إشباعاً وأذهب بأشواق الأمومة اللاذعة . وأخذت تُعدّ أذنيها لتسمع من ولدها الباقى ما فعل بنفسه وما لقى ، وتتخيل أحداثاً مرّت به مريبة ومواقف قضى بها لولا رحمة الله . وأخذت تُعدّ لسانها لتحمل إليه ما تحب أن تفيض به الأم من شوق ، شوق لثلاثة ، تريد أن تفيض به على واحد ، هو كل ما بقى لها من بنوّة ومن أمل .

ومضى الزمن بطيئاً ، حتى لم يبق على مَقدم ولدها غير أسبوع ، فجرت فى قلبها كل المعانى التى جرت بقلب الشاعر العربى حين قال :

لما بلغنا القادسية حيث مُجتَمَع الرفاق
وشممتُ من أرض الحجاز نسيم أنفاس العراق
أيقنت لى ولمن أحب بجمع شمل واتفاق
وبكيت من فرح اللقا كما بكيت من الفراق
لم يبق لى إلا تجشم هذه السبع البواقى
حتى يطول حديثنا بصفات ما كنا نلاقى

وتلاحقت السبعة الأيام الباقية وكأنها الشهور . وحضر الولد . وحصل العناق . وحصلت دموع اللقاء .

وتقدّرون وتضحك الأقدار :

وإلى هنا شاء القدر لهذا المشهد الجميل الأليم ألا يتم . فقد زارت الدار فى تلك اللحظة قنبلة طائرة .

وفى صباح الغد فى مرج من مروج البلد ، كانت حفرة جديدة ، بين حُفَر حولها قديمة ، قد فتحت فاها ، وجادت بجديد الثرى . وكان قد دُلّىَ فى هذه الحفرة تابوت وقف من حوله جماعةٌ شخوصاً صامتين ، لا يُسمع فيهم إلا صوت القس يتلو عبارته الأزلية الأبدية المشهورة : من التراب وإلى التراب ...

فهذه الأم أدّى بها المطاف إلى مرقدها الأخير . فلا قلب واجف ، ولا عين دامعة . ولعل لها الرحمة فى كنف الرحمن .

والابن الواحد ؟ أين الابن الواحد ؟

تجده فى المستشفى ، فى سرير ، وقد ربطته الرباطات ، ولفّته اللفافات فلا تعرف له وجهاً . للقدر وإياه خطتان : إما اللحاق به فإلحاقه بركب الأحباب وراء الحدود ؛ وإما إعفاؤه إلى حين ، ليبدأ الحياة من جديد ، فيأخذ فى طريق مقفرة . مقفرة ممن أنجبوه وممن أنجب ، ومن إخوة هم عون على النوائب ، ومن زوج هى الشراب البارد فى اليوم الصائف . مقفرة من كل هؤلاء ، إلا من الأمل الذى لا بد كائن ولو هشاً ما كانت الحياة .

الفأر والإنسان

يُستخدم الفأر كثيراً فى الطب لتجربة كثير من أمراض الإنسان ، ودراسة مجرى هذه الأمراض ، ثم تجربة علاجها بشتى البِدَع . والمجرّب بالطبع يستطيع أن يفعل بالفأر الأبيض ، وهو ذو نسل كثير ، ما لا يستطيع فعله فى الإنسان دون أن يؤدى به هذا أحياناً كثيرة إلى حبسة السجن إن هو أفلت من حبل المشنقة

والأساس فى هذا أن جسم الإنسان وجسم الفأر سواء فى تقبلهما الداء ، وفى استجابتهما للدواء .

ولم يكن يخطر لى فى بال أن عقل الفأر كعقل الإنسان ، وأنهما سيّان فيما يلحق العقل من خلل ، وفى

الطرق التي تستخدم في إصلاح هذا الخلل

ولكن هكذا يرى علماء النفس

في سينما من سينمات القاهرة عرضوا فلماً ، والحق يقال ، بديعاً في غرابته ، أو هو غريب في إبداعه . وهذا الفلم يصوّر بعض ما يقوم به الإخصائيون من تجارب في هذا :

محظوظ ومتعوس

فأران ، محظوظ ومتعوس ، حبساهما في خزانة صغيرة معلقة في الهواء ، في ركن من أركان الحجرة . فلما جاءا أطلقا من الخزانة ، فوجد الفأران أمامهما طريقاً ، شرائحَ رفيعة من الخشب ، مرفوعة بالطبع في الهواء أيضاً ، وهي متشابكة في متاهات . ووُضع في آخر هذا الطريق من شرائح الخشب صندوق به قطعة من الجبن الفوّاح

فكان لا بد للفأرين للوصول إلى الجبن من قطع هذا الطريق والجرى على هذه الشرائح تحدوهما رائحة الجبن اللذيذ

ولكن مع الأسف لم تكن الطريق سهلة . فبعض هذا الشرائح كان لا يقود إلى طريق الجبن ، بل كان كالحارة المسدودة ، لا يؤدى إلى شيء

أما محظوظ ، وهو محظوظ في عقله ، فسريعاً ما تعلّم كيف يصل إلى الجبن دون أن يدخل تلك الحارات المسدودة . وأما متعوس ، وهو متعوس في فطنته ، فكان لا يكاد يمر على رؤوس هذه الحارات في طريقه حتى يدخلها

والمسألة ، علاجُ متعوس ؟

حاولوا علاجه عن طريق البصر ، بأن أضاءوا له الطريق — بأن أضاءوا له تلك الشرائح التي تؤدى إلى صندوق الجبن . ولكنه كان يضل

وحاولو علاجه عن طريق السمع ، بأن دقّوا له ناقوساً كلما ضلّ . ولكنه ظلّ يضل

ثم حاولوا تخشين تلك الشرائح حتى يحس الهُدَى ويحس الضلال . فنجحت هذه الطريقة . فعرف العلماء من ذلك أن طفل بني الإنسان كذلك يكون أهدى بحاسة لمسه منه بحاسة سمعه أو باصرته

وطبقوا هذا في تعليم الأطفال ، وأدخلوا ما أسموه بالألعاب اليدوية والحِرف اليدوية ، فكان النجاح المألوف المعروف

مركب النقص

وظهرت على الشاشة تجربة أخرى ، عالجوا بها ما تُحدث الخيبة المتكررة في نفس الصبي من خذلان النفس وضياع الثقة بها . أي أصابتها بما يسميه أهل هذا الزمان مركّب النقص

وذلك أنهم جعلوا بين بيت الفأرين وصندوق الجبن لوحين مستقيمين من الخشب يجرى عليهما الفأران سبقاً إلى الصندوق . والصندوق لم يكن يتسع لغير فأر واحد . فكان من ذلك أن الفأر محظوظاً ، كان يصل دائماً قبل متعوس . وتكرر هذا ، فإذا بمحظوظ يخرج للجرى وحده ، وإذا بمتعوس قد قبع من اليأس في ركن بيته . وكرروا التجربة إغراء له فلم يخرج . أصابه مركّب النقص . فما العمل ؟

وضعوا متعوساً في بيت وحده . وكان بيتاً عالى السقف . وفي هذا السقف ركّبوا بكرة . ومن فوق البكرة جرى حبل حتى وصل إلى حيث متعوسٌ من أرض الحجرة . وفي نقطة من هذا الحبل ربطوا قطعة من الجبن . فكان متعوس يجر الحبل إلى أسفل ، حتى ينال الجبن . ومهر في هذا . ثم ضمّوا إليه محظوظاً ليعمل مثل هذا . فكان متعوس أسبق بسبب مرّنه السابق . فعادت إليه الثقة بالنفس .

فلما عادوا به إلى اللعبة الأولى لم يقبع يأساً في ركن بيته .

[البقية على الصفحة التالية]

رأى فى « الضحك »

كتب « إدجار ألن بو » الشاعر والناثر الأمريكى (١٨٠٩ — ١٨٤٩) فى إحدى قصصه يقول :

« هل يعلم القارئ أن فى مدينة (إسبرطة) ، — وعلها الآن بلدة تدعى بالبوكورى — وفى غرب القلعة ، وبين أنقاض الخرائب التى ما تكاد تبين ، تبرز قاعدة لأحد الأعمدة منقوش عليها باليونانية كلمة Velazma ومعناها « الضحك » ؟ ! فإذا علمنا أنه كان موجوداً فى (إسبرطة) ألف معبد وهيكل ، وألف محراب ومذبح ، وهى لعدد لا يحصى من آلهة الأساطير ، إذا علمنا هذا تولانا العجب من إبقاء الزمن على هـذه القاعدة دون سواها » .

وإنى لأرى بعين الخيال أن أبناءنا وحفدتنا سوف لا يحتفظون من كل مخلفاتنا فى الأدب إلا بفكاهتين ، أو ثلاث من فكاهات هذا الزمان التى تستأهل البقاء والتخليد .

ولست تجد اليوم من نقود الإسبرطيين درهماً أو ديناراً ؟ وقد اختفت آلهتهم ، ولم يبق منها إلا إله الضحك كما كانت تصفه أساطيرهم .

فإذا غابت عن أبناء زماننا هذا روح الفكاهة وجب أن يسألوا الله أن يتولاهم بالرحمة والمغفرة .

وقد عرّف بعضهم الضحك بأنه الحالة التى يفاجأ المرء فيها بما يخالف قوانين العرف . ذلك لأن الناس يؤمنون فى قرارة نفوسهم أن للكون نظاماً عاماً شاملا ، ويعتقدون أن لكل شىء غاية حسنة يسير إليها قدُماً .

والمرء يسارع إلى الضحك قبل أن يسعى إليه البكاء كما يقول بومارشيه . والمرء يضحك مما ينال الآخرين من مهانة وتحقير ، ومرد ذلك إلى الأنانية ؛ فهو يحس أن ما نقص من قدر الآخرين قد زاد فى قدره — ويضحك المرء من المفارقات ، فقد تضحك إذا سمعت رجلا يحكى بلهجة الجد أنه رأى سلحفاة تمشى .

وقد تضحك إذا سمعت الحكاية الآتية :

فى جزائر برمودا لا يجد المرء أية حشرة من الحشرات ، ولكن من دعاوى سكان تلك الجزر أن العناكب فى بلادهم كبيرة الحجم جداً ، وأن من تلك العناكب ما يملأ الواحد منها طبقاً كبيراً من أطباق المرق .

ويحكى أن رحّالة سأل رفيقه فى السفر ، وإحدى حذائيه فى يمينه :

— هل هذا الحذاء لك ؟

— نعم .

— إنى إذاً لسعيد ! تصور أنى لمحت فى هذه اللحظة

تعوث بنات

وطبقوا هـذا فى الأطفال . فظهر على الشاشة ثلاث بنات صغار يرسمن . وساء رسم إحداهن فيئست وأخذت تعبث بالفرشة والورق . فـلما رأت المعلمة منها ذلك ، حتى سارعت إلى إبعادها عن الآخرين . وفى مكتبها أجلستها وحدها إلى آلة الكتابة وأخذت تعلّمها بعض الشىء . فنجحت . وبهذا النجاح ولو فى شىء آخر عادت لها الثقة بالنفس .

المقصود من الحكاية

والدرس الذى يستفيده الآباء من هذه القصة ، أنه إذا فقد ابنك ثقته بنفسه من تكرار الخيبة فى عمل ، فأسرع فى إبعاده عنه قبل أن يستفحل الداء . وانقله إلى ما ترجو له النجاح فيه ، ولو لم يكن من ورائه غاية ، بقصد واحد : أن تردَّ إليه العافية فى نفسه ، كما يردُّ الطبيب له العافية فى جسمه .

« الجرنوس »

عنكبوتاً يحملها ويمشي بهـا . وأنه في اليوم التالي وعند منبلج الصبح هـذا العنكبوت بذاته ، خلع إطار النافذة لتمكنه دخول غرفة المحدِّث كي يسرق قيصه ، فسأله زميله

— وهل سرق قيصك فعلا ؟

— كلا !

— إذن كيف عرفت أنه كان آت لسرقة قيصك ؟

— قرأت ذلك في عينيه .

والمثير للضحك في هذه الحكاية عاملان :

العامل الأول : إثارة العجب في نفس السامع من وضع العناكب في صفوف الحيوانات ذوات الأربع ؛ والفرق الهائل بين العنكبوت بحجمه الطبيعي وبين الحذاء !

والعامل الآخر : استحالة تصديق أن عنكبوتاً تكون عنده النية المبيتة للاستيلاء على أشياء موقوف استعمالها على الآدميين . ثم القول بأن النية المبيتة كانت مقروءة في عينيه !!

وإلى القارىء صورة أخرى من صور الفكاهة مبعثها الرغبة في الإيلام والتقريع ؛ وهي محاورة بين رئيس ومرءوس ، وهي صورة كثيرة الشيوع ، ولكن أسلوب المناقشة الفكه هو ما قصدنا إليه بنقلها :

الرئيس لمرءوسه : لقد تغيبت عن الديوان أمس .

المرءوس : نعم يا سيدي الرئيس .

— ولماذا ؟

— لأن صهري قد توفى .

— ماذا تقول ؟ أعد بالله !

— نعم أقولها . وأعيدها . وأقسم على صحة ما أقول .

— هذا عذر غير جديد ! فاليوم قد فقدت صهرك ، ومنذ ثمانية أيام توفيت عمتك ؛ والشهر الماضي نعي النعاة عمك ؛ واغتالت المنون والدك يوم عيد الميلاد ؛ ووافت المنية أمك يوم عيد الفصح ؛ ولم يغفل عزرائيل طرفة عين عن قبض أرواح سائر أقربائك ؛ فقد توليت دفن أبناء أعمامك وبنات عماتك ، وعدد غير قليل من أقربائك البعداء والأقربين ، وكان الدفن بمعدل واحد على الأقل كل أسبوع ؛ فيالها من مجزرة ؟ وأية مجزرة ؟ ثم أذكر أني لم أدخل في حسابي البنت الصغرى التي زوجتها مرتين في العام ، ولا البنت الكبرى التي تلد مرة كل ثلاثة أشهر ! كفى يا سيدي كفى !! إنك تهزأ بجميع الناس ! حسناً ! ولكن لكل شيء حد ! أتظن أن الحكومة يا سيدي تنقدك ألفين وأربعمائة فرنك في العام ، لتقضي حياتك في تزويج بعض أهلك وفي دفن من بقى منهم ، ثم لتكون « عرّاباً وشبيناً » في حفلات معمودية أولادهم أجمعين ؟ إنك تسخر من نفسك وتهزأ بها ! أقول قولي هذا . والويل لك !!

(عن الفرنسية) مبارك ابراهيم

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

—

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

		مليم
الاشتراك لستة أشهر	في مصر والسودان	٤٥
	للطلبة ومعلمي الإلزام	٣٧,٥
	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد	٦٠
	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد	٧٥

ثمن العـــدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٩٦ — الثلاثاء ١٠ من رمضان سنة ١٣٦٣ — ٢٩ من أغسطس سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

حديث رمضان :

(٢)

فى الحياة الروحية

كل من وهب نفحة من الروحانية المستمدّة تلقى الإلهام أظهرها حسب استعداده وميوله ، كالكهرباء تكون مرة حرارة ، ومرة تبريداً ، ومرة ضوءاً ؛ فالموسيقىّ ينعكس إلهامه موسيقى ، والشاعر شعراً ، والفنان فناً ، والنبى نبوّة . والنبى أرقى إلهاماً ، لأن ما يتلقى من الضوء أقوى ، ونوعه أكمل ، ونوره الذى يعكسه أعم نفعاً وأهدى للحقيقة فى صميمها . فى النبى شاعرية وليس بشاعر ، وموسيقية وليس بموسيقى ، وفلسفية وليس بفيلسوف ، وإنما هو فوق ذلك كله ، أقرب اتصاله بالروح الأعلى وقوة ضوئه الذى يعكسه فينير مناحى الحياة المختلفة — نورٌ كشاف يضىء قلوب من وقعت عليه أشعته — أيا ما كان شكل الوحى الذى حُكى فى الكتب المقدسة : من صوت يُسمع ، أو ملَك يُرى ، أو نحو ذلك ، فإنما هو القلب يُرهف حتى تكون له عين تبصر وأذن تسمع ، وحتى يتجلى بهما الحق أقوى مما يتجلى بالأذن الحسية والعين فى وجوهنا .

وما أصعب رسالة النبى ! إن الموسيقى والشاعر والأديب والفنّان يدرك بالإلهام ما يعجز عن أدائه أدوات الموسيقى والقلم واللسان والألوان ، ذلك لأن التعبير عن المعقولات أهون من التعبير عن الإلهام ، ولذلك احتاج الملهَم أن يخترع ما يحاول به أن يكمل نقصه كالاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات عند الشاعر والأديب ،

والإشارات عند الخطيب ، ونحو ذلك عند سائر الفنانين .
وهم — مع كل هذا — يقرّون بالعجز عن أداء ما يشعرون ، ويقرون بالفرق الكبير بين ما يشعرون وما يعرضون — وذلك في النبوّة أعقد وأعسر . إنهم يريدون أن يعرضوا العالم في خريطة مصغّرة ، أو يقدّموا المحيط في زجاجة ، أو يخرجوا السموات والأرض من جيوبهم ؛ ولذلك ما كان أعمق معانيهم وأبعد إشاراتهم ! وما أفقه من وقف عند حدود ألفاظهم ، ولم يتخط ذلك إلى فهم رموزهم !

وصعوبة أخرى أن الأنبياء بحكم رسالتهم ، لابد أن يسيروا على الصراط بين الروح والمادة ؛ لا بد أن يتصلوا بالروح الأعلى ليتلقوا ؛ ولا بد أن يتصلوا بالناس ليذيعوا ، لا بد أن يكون رأسهم في السماء وأرجلهم في الأرض .

وصعوبة ثالثة أنهم يواجهون مطالب القلوب المختلفة صغراً وكبراً ، وضيقاً وسعة ، وظلاماً ونوراً . ولا بد أن يمدّوا كلا بما يحتاجه وبما يستطيعه ، ويوفقوا بين المطالب المختلفة والاستعدادات المتعارضة ؛ ولذلك كانوا دائماً في جهاد مع أنفسهم ، وجهاد مع عدوهم ، وجهاد مع صديقهم ، وجهاد مع العالم . وصدقوا إذ قالوا : « إن الحياة جهاد » . ووضع الناس كلهم أنفسهم موضع القضاة لهم أو عليهم ، وما أقساها حكومة !

للنبي رسالة ظاهرة ، وهي : إقامة الشعائر والتشريع لإصلاح المجتمع ؛ ورسالة باطنة ، وهي : نصب سلّم تتدرج فيه النفوس لتعرف الحق ، وتعرف الحقيقة ، وتعرف الله من طريق القلب . قد تختلف الأديان في الشعائر والشرائع تبعاً لاختلاف البيئات الطبيعية والاجتماعية ورقي الإنسانية ، أما في الرسالة الباطنة فلا تختلف إلا بمقدار الرقي في السلّم ، فالحق غرض كل الأديان . ليس تختلف الأنبياء في حقيقة رسالتهم كما يختلف الفلاسفة في تعاليمهم ، فقد يقرر فيلسوف أمراً وينكره آخر ، وقد ينقض اللاحق ما بنى السابق ؛ أما الأنبياء فيقررون دائماً ، ويبنون دائماً ، ذلك لأن العقل فيما وراء المادة قائد ضرير ، قائد في الظلام ، والقلب في ذلك قائد بصير ، قائد في وضح النهار . إذا تكلم مائة إنسان بقلوبهم اتحدوا ، وإذا تكلم ثلاثة بعقولهم اختلفوا . وما يصد الناس من رؤية الحق إلا إقفال قلوبهم عن رؤية النور ، وتعلقهم بصغائر الأمور ، وبالجزئيات دون الكليات . إن الإنسان الفرد قد يُحَب ، وقد يُكره ، وقد يُعجب به ، وقد يُشمأز منه ، ولكن الإنسانية — ككل — تُحَب وهي موضع الإعجاب .

تتبع سلسلة الأنبياء فترى بينهم قدراً مشتركا من التعاليم والمبادئ ، فهم يؤمنون أقوى إيمان بالله وكماله وقدرته ، وبالإنسان وشرفه ومسئوليته ، وضلاله ووجوب هدايته ؛ وهم يعلنون في جزم أنهم لم يتلقوا تعاليمهم من تقاليد قومهم ، ولا من علمهم ومنطقهم ، ولا من أي شيء خارج عنهم ، ولكن من الله نفسه يحدّث نفوسهم ، ومن نوره يسطع على قلوبهم ؛ وأنهم لا يشكّون في شيء منه ، كما يشك الفيلسوف والعالم ، ولذلك يتحملون أكبر الآلام من قومهم وملوكهم ، ولا ينحرفون قيد شعرة عن عقيدتهم ، لأنهم يرون الحق بقلوبهم أصدق مما يرون الأشياء بأعينهم ؛ وأنهم يبلغون رسالة ربهم كما وعَوها — هم بذلك يقررون أن علمهم بحقيقة العالم وبالخير والشر آت من أعلى إلى قلوبهم ، على حين أن علم العلماء والفلاسفة آت من أسفل إلى عقولهم .

أنكر قوم دعوة النبوة على هذا النحو ، وأرادوا ألا يسلموا بشيء إلا إذا كان عن طريق الجبر والهندسة والرياضة ! ولكن أمن الحق أن كل علمنا ومعرفتنا عن هذا الطريق ؟ إن الإنسان قد يعلم الحقيقة ، وقد يشعر بالحقيقة . إذا علم العقل الجبر والهندسة ، فالقلب يشعر بالحب ، والحب حقيقة كحقيقة الجبر ، والرجاء والأمل

والخوف والأمن حقائق كحقائق الهندسة . والإنسان عقل وقلب، ولكل غذاؤه ، ومكلف الإنسان أن يقتصر على غط الفلسفة والمنطق والعلم إهدار لنصف شخصيته ؛ والمؤمن بمواهب الإنسان المتعددة مؤمن بالدين .

ولكل موهبة طريق تربيتها ؛ فالعقل يربى بالتجربة والمنطق وبالمران على ربط الأسباب بالمسببات ، وعلى ربط النتائج بالمقدمات ؛ والشعور يربى بالرياضة الروحية وتطهير النفس ، ومن هذا القبيل شعائر الدين .

* * *

لقد سلك رجال الدين في تأييده وتقويته مسلكين : قوم حددوا عقولهم ، وقوم أرهفوا مشاعرهم ؛ فأما الأولون فعلماء التوحيد أو علماء الكلام ، وأما الآخرون فصادقو الصوفية - في جميع الأديان - فالأولون جعلوا الدين منطقاً وفلسفة ، وخلفوا لنا تراثاً ضخماً من المؤلفات تبرهن برهاناً عقلياً منطقياً على وجود الله وصفاته وما إلى ذلك . ولكني أعتقد أنهم لم ينجحوا في ذلك نجاح العلماء في البراهين العقلية على قضايا العلم . إن قانون الكيمياء ، أو الطبيعة أو الرياضة إذا قال به أحد العلماء ، وبرهن عليه ، آمن به كل الناس بلا فارق بين أمة وأمة ، وأهل دين وأهل دين ، وشرق وغرب . أما علم التوحيد أو علم الكلام ، فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، وبرهان لصاحب الدين لا لمخالفه ؛ ولهذا لم نر في التاريخ أن علم الكلام كان سبباً في إيمان من لم يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سبباً في إيمان الكثير وإسلام الجم الغفير الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق .

قرأت مرة أن صديقين مثقفين خرجا يتروضان ، وكانا يتحدثان في الدين ، فمرا على حديقة بديعة مملوءة بالأزهار الجميلة : ورد أحمر يانع ، وورد أصفر فاقع ، وورد أبيض صاف ، وبراعيم لم تتفتح وهي آخذة طريقها إلى نضجها وتفتحها ، والجو مملوء بعبيق الأزهار ، والريح تلعب بالأغصان ، وجمال كل شيء حولهما يأخذ باللب ؛ فصرخ أحدهما : هذا أقوى دليل على الله ، وهنا موضع سجود له لجلاله وجمال عظمته ! فقال صاحبه في برود العلماء : وأي برهان على على ذلك ؟ ! ما البرهان المنطقي على أن الجمال دليل الله ؟ إن كان هنا جمال فثم قبح ، وإن كانت الأزهار هنا تتفتح فهي هناك تذبل ! ثم هذا ، هذا بإيمانه وهذا بإلحاده .

وكان نابليون - في حملته على مصر - في سفينة حوله علماء ملحدون ، وفي ليلة بديعة لمعت النجوم في السماء وتلألأت في رونقها وبهائها وجمالها ؛ فقال نابليون : انظروا أيها الرفاق ، ما أبدع النجوم وما أجملها ! فمن أبدعها ؟ قال ملحد ، نحن لا نسأل هذا السؤال ، وما يدور في ذهنك من هذه الأسئلة لا يدور في أذهاننا ، إنما نسأل نحن كيف تطور هذا العالم ، وكيف ارتقى ، وما الظروف التي مر بها ، حتى وصل إلى ما نرى . « إن برهانك - أيها الإمبراطور - دليل جميل لك » .

إن دعوة الإيمان دعوة لما في النفس ؛ فإذا استمدت ، فلكل شيء برهان ، وإذا لم تستمد فلا برهان . في النفس لا في العقل غريزة الإيمان ، والدعوة الحقة بإيقاظها ، لا بمقدمة صغرى ولا مقدمة كبرى ، ونتيجة مؤلفة من موضوع ومحمول ! ليس العقل هو دليلنا الوحيد في الحياة ، بل هناك أدلاء أخر ، منها النفس ، ومنها العواطف ، ومنها الإلهام .

أما الطريق الآخر الذي سلكه صادقو الصوفية ؛ فهو أن يربوا شعورهم ، ويقووا نفوسهم لا عقلهم ، ويصفوا روحهم من التعلق بالمادة وشؤونها ، حتى يتصلوا في نهاية مراحلهم بالروح الأعلى ، بربهم ؛ وهم يقررون أنهم بهذه الرياضة يصلون إلى نوع من انكشاف الحقائق أوضح وأجلى

وأنور من الانكشاف الحسّى ؛ وأنهم يطلعون على عالم روحى لا يخضع لما تخضع له المادة من حدود وأزمان ومكان ، ولكنهم – مع الأسف – عجزوا عن وصف هذا العالم الروحى وصفاً بيّناً لنا ، أو عجزنا نحن عن فهم وصفهم ، ولهذا ساد كتبهم وأقوالهم الغموض التام فى كل دين .

والسبب فى هذا أن طريقة التفكير العقلى عامة عند الناس ، ووسائل إيصال المعلومات العقلية من ذهن إلى ذهن متوفرة ، وليس كذلك الشأن فى الشاعر ؛ فمن السهل أن تقيم البرهان لآخر على قوانين الضوء ، وقوانين الجاذبية ، وقوانين الرياضة والطبيعة والكيميا ، وتقيم البرهان على النظريات الهندسية ، وليس كذلك الشأن فى الشاعر . إذا كان عندك برهان على أن هذا المثلث يساوى هذا المثلث أمكنك أن تنقله إلى من لم يعرفه ؛ ولكن إذا أكلت الكمثرى وشعرت بنوع حلاوتها ورائحتها وطعمها ، لا يمكنك بحال أن تصفها لمن لم يذقها إلا على سبيل التقريب والتشبيه ، فإذا كان قد أكل نوعاً قريباً من الكمثرى أمكن التشبيه وقرّب فهمه وإن لم يكن دقيقاً ، وإلا فما أبعد الفهم ! وكذلك الشأن فيما عندى من حب وبغض وإعجاب ، ونحو ذلك ، كلها مشاعر من الصعب نقلها . فالشاعر والعواطف « تذكرة شخصية » ، على حين أن العقل « تذكرة عامة » يصح أن يحملها كل شخص

بذلك يمكن التفرقة بين معرفة تُنقل ومعرفة لا تنقل . واللغة قد تكون أداة طيّعة للمحسوسات والمعقولات ، وهى أداة غير صالحة للشاعر والعواطف — والمعرفة عن طريق الإلهام ، أو بعبارة أخرى عن طريق الرياضة النفسية ، آخذة بشبه من الطرفين ، طرف العقل وطرف الشاعر ، وهى إلى الشاعر أقرب ، ولشبهها بالعقل تنكشف انكشاف المعقول ، ولشبهها بالشاعر يصعب نقلها .

وإذ كان شعور الصوفى شعوراً شخصياً صعب التعبير عنه ، وأحيط بالغموض ولم تسعفه اللغة ، وكان من يفهمه ويشاركه هو الذى جرب تجاربه ، وسلك طريقه ، وقرب منه أو فاقه فى إلهامه . ويشبه ذلك ما قاله أرسطو من أن الناشئ يمكن أن يكون عالما بالرياضة ، ولكن لا يمكن أن يكون سياسياً ، لأنه يمكن أن يتعلم الرياضة ويحفظ قوانينها ، ويفهم براهينها ، ولكنه لا يمكنه أن يكون سياسياً لأن السياسة قوامها التجارب فى الحياة ، وهو لم يجرّبها حتى ينغمس فى أحداثها ، ويشعر بتياراتها ، ويرى نتائجها

ويبلغ الأمر بالمتصوف فى رياضته ، وصفاء نفسه ، أن يصل إلى نتيجة تختلف كل الاختلاف عن التفكير العقلى ؛ ذلك أننا فى التفكير العقلى نشعر بأن الذى يدرك غير المدرَك ، والذى يعلم غير المعلوم . فإذا فكرت فى حل مسألة هندسية ، فالمسألة الهندسية غيرى وغير عقلى المفكر . ولكن الأمر فى نهاية التصوف ليس كذلك ، إذ تتكسر الحدود بين العالم والمعلوم ، والعارف والمعروف ؛ فإذا وصلت النفس إلى العلم بالله امّحت شخصية العارف ، وصارت هى والمعروف شيئاً واحداً ، ويتحقق هذا عندهم فى هذه الحياة ، كما يتحقق بعد مفارقة الروح للجسم . وأقرب شبه بهذا ما يحدث من هيام المحب بالمحبوب ، حتى يكونا روحاً واحداً ، ويصبح التعبير بأنا وهو ، تعبيراً لفظياً لا تعبيراً نفسياً . أما النفس ومحبوبها فشىء واحد ، وتفنى النفس الزائفة فى النفس الحقة . ومن أجل هذا قالوا : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . وحول هذا تكوّن الأدب الصوفى كله .

أحمد أمين

مشكلتان ...

كثر الخلط في هذه الأيام بين مشكلتين لا علاقة بينهما البتة ، إحداهما دينية عنصرية قد أقحمت في السياسة إقحاماً ، والأخرى سياسية قومية قد علّق حلها بحل الأولى ، كأن بين الحلين صلة !

فأما الأولى ، فهي مشكلة اليهود العالمية وما هم فيه من اضطهاد طال أمده واستفحل أمره ؛ وأما الثانية ، فهي مشكلة فلسطين ومستقبل شعبه السياسي . لقد حيرت هاتان المشكلتان المدمجتان ساسة جيلنا حيرة كبرى ، فدار حولهما جدل ونقاش ملأ الجو الدولي ضجيجاً . ثم جاءت الحرب ، فتضاءلت مشاكل السلم بجانب ما استجد من مشاكل الحرب ، وهدأت لذلك العاصفة الكلامية لانصراف الجميع — بما فيهم العرب واليهود — عن المهم إلى الأهم .

أما اليوم ، والأخبار السارة تتدفق من كل ناحية ، فقد اقتنع الجميع — وعلى رأسهم المستر تشرشل رسول الحيطة والحذر — بقرب انتهاء هذه الحرب الضروس ، فأخرجوا مشاكل السلم القديمة من جعبة النسيان ، وألقوا بها إلى مسرح السياسة من جديد .

ولكن الموقف اليوم بالنسبة إلى هاتين المشكلتين يختلف اختلافاً بيناً عما كان عليه سنة ١٩٣٩ ، فقد جدت عوامل كثيرة — بعضها واضح وبعضها مستتر — غيرت من أسباب اهتمام الرأى الدولى بهما ، وحفزت كل فريق إلى المطالبة الآن بما يدعيه من حقوق ، وبتطبيق ما يقترحه من حلول . وسيكون لهذه المؤثرات الجديدة أهميتها بلا شك عند الفصل في هاتين القضيتين . لذلك ، يجب على الباحث فهمها قبل أن يحاول الإحاطة بالموضوع نفسه أو اقتراح الحلول .

أما أهم هذه العوامل فتتلخص فيما يأتى :

١ — تطور اضطهاد اليهود في أوروبا إلى مجزرة هائلة ، يذبح فيها — على حد قول وزارة الخارجية الأمريكية نفسها — حوالى سبعة آلاف نفس يومياً !

وقد أكد هذا المصدر بعينه هلاك ما يقرب من مليونى يهودى — أى أكثر من ثلث يهود أوروبا النازية — منذ ابتداء هذه الحرب ، وتعرُّض الباقين منهم — وعددهم يربو على ثلاثة ملايين — لهلاك محقق في القريب العاجل ، إن لم تجد الأمم المتحدة سبيلاً إلى إنقاذهم . أفنعجب بعد هذا أن قامت الأرض وقعدت لصراخهم ؟ أنلوم إخوانهم في الدين أن أعماهم منظر الدم اليهودى ، وهو يسيل بغزارة ، عن الحقائق ، فتمسكوا كالمجانين بحل لا ينفع ولا يجدى في محنتهم هذه ؟ إنما نعجب كل العجب لتلك الشعوب المتمدنة وحكوماتها التى لم تعر هؤلاء البؤساء إلا النزر اليسير من اهتمامها ، فهلك من هلك دون أن تبذل مساعى الجبابرة لإنقاذهم . أما اللوم ، فنوجهه إلى أولئك الصهيونيين الذين استغلوا مآسى إخوانهم في أوروبا وعطف العالم عليهم ، فروّجوا لمشروع الوطن القومى ، مع علمهم بأن ليس في تحقيقه خلاص ليهود أوروبا ! وقد نشطت هذه الفئة أخيراً فراحت تضاعف مجهودها لخوفها من أن تنهار الهتلرية في أوروبا قبل أن تتمكن من استخلاص وعد صريح بإعادة فتح باب الهجرة في فلسطين على مصراعيه ، فتفلت من يد الصهيونية حينئذ أكثر الحجج تأثيراً في الرأى العام الدولى .

٢ — اقتراب موعد انتخابات الرئاسة للولايات المتحدة ، ومحاولة كل من الحزبين ، الديمقراطى والجمهورى ، استمالة الناخبين اليهود إليه ؛ وذلك بإعلان العطف على مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين . ففى أمريكا ما يقرب من ستة ملايين من اليهود — ثلثهم في ولاية نيويورك ، وهى أهم ولاية من الوجهة الانتخابية — يتبوأ الكثير منهم مراكز رفيعة في جميع مرافق الدولة . لهذا ، أسرع

الساسة الأمريكان إلى إغداق الوعود عليهم ، جاهلين أو متجاهلين ما في ذلك من نقض لوعود سابقة قطعتها أمريكا على نفسها ، كعهد الأطلنطي وغيره ، أو من مساس بحقوق شعب صغير يكن لأمريكا كل صداقة .

٣ — تحقيق الحرب لبعض ما تبقى من أماني العرب السياسية ، فقد استقلت سوريا ولبنان استقلالا يكاد يكون تاما ؛ ولم يبق بذلك من شعوب العرب تحت الانتداب الأجنبي إلا شعب فلسطين ، فحفزته هذه الحقيقة إلى المطالبة من جديد بحقه المهضوم .

٥ — نضوج فكرة الوحدة العربية ، وتطورها من حلم لذيذ يستبعد تحقيقه إلى سياسة عملية تدور حولها المشاورات والمناقشات . أما أسباب هذا التطور فترجع إلى :

أولا : نيل سوريا ولبنان لاستقلالها ، فزالت بذلك عقبتان كبيرتان كانتا معترضتين طريقة الوحدة .

ثانيا : ما لمسته الشعوب العربية من فائدة التضامن ، كما ظهر جليا فيما أصابته تلك الشعوب من نجاح سياسي باهر ، عند احتجاجها على مجلس الكونجرس الأمريكي بسبب نظره في مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين .

ثالثا : تشجيع بريطانيا لتلك الوحدة ، لشعورها بأن في صداقتها لحلف عربي قوى صونا لمصالحها في الشرق الأوسط

وقد أجمع ساسة العرب كلهم على استحالة تكوين مثل هذه الوحدة دون إشراك فلسطين فيها ؛ كما اشترطوا لتحقيق ذلك أن تنال استقلالا لا يشوبه شائبة عن كل من الصهيونيين والإنكليز . فأصبحت بذلك المشكلة الفلسطينية في نظر هؤلاء الساسة أهم عقبة تعترض سبيلهم ، فانصرفت جهودهم إلى استنباط حل يحقق لفلسطين العربية استقلالها . وقد أصبح لبريطانيا نفسها ، بسبب تشجيعها للوحدة العربية ، مصلحة كبرى في الوصول بأسرع ما يمكن إلى مثل هذا الحل .

٥ — شدة اهتمام الدول الغربية اليوم بالشرق الأوسط ومصيره ، ويرجع ذلك إلى عوامل شتى : منها العاطفية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والحربية . فقد لعب هذا الشرق دورا هاما أثناء الحرب ، فكان مسرحا لعمليات حربية هائلة ، قوضت إحداها دعائم الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وألحقت غيرها بالجيش الألماني « الذي لا يقهر » هزيمة نكراء لم تقم له بعدها في هذه القارة قائمة . فلا عجب إذا أن اهتم الغربيون بالأقطار التي شاهدت بطولة أبنائهم وروويت بدمائهم .

كما أن ساستهم يقدرون حق قدره ما سيكون لهذا الشرق من عظيم الشأن بعد الحرب في عالمي السياسة والاقتصاد ؛ فهو همزة الوصل بين ثلاث قارات ؛ وفيه شعوب فتية تطلب المزيد من ثقافة الغرب وبضائعه ؛ وبه موارد غنية ، كالزيت مثلا ، بدأ التنازع عليها اليوم بين الحليف والحليف .

كل هذه العوامل مجتمعة ، قد حولت الأنظار إلى شرقنا هذا ، وجعلت للدول الغربية مصلحة كبرى في تنمية موارده والمحافظة على هدوئه السياسي . فانكب ساستهم على دراسة مشاكله ، وأهمها مشكلة فلسطين . أيعقل بعد هذا أن تفرض هذه الدول حلا لهذه المشكلة قد ترى شعوب الشرق فيه ما يجبرها على مقاومته بالسيف والنار ؟

٦ — التجاء بعض يهود فلسطين إلى سياسة العنف والإرهاب . وقد أثارت هذه السياسة عليهم — وعلى اليهود إطلاقا — موجة استياء في بريطانيا ؛ كما أن تمسك العرب بأهداب السكينة طيلة هذه الحرب قد زاد من عطف الشعب البريطاني على قضيتهم .

٧ — تسلح كل فريق في فلسطين تسلحا خفيا واسع المدى . فالجميع يستعدون لنضال فاصل لا بد من أن ينشب في القريب العاجل ، إن لم تجد السياسة قبل ذلك مخرجا يصون السلم ويحفظه .

سعد ... و«سعوده»

كانت الوطنية في الجيل الماضي فكرة . وكان المعبّر عنها سعد !

وكانت صفات الرجولة الحقة رسالة ، وكان القائم على تبليغها هو سعد أيضاً ! وظل سعد ملء الأفواه والأسماع في كل من مصر وإنجلترا جيلاً كاملاً . له الأمر الأول في تكوين الروابط التي تربط الدولتين ، وله الكلمة العليا في كل ما ينشأ بينهما من صلات . . . ثم آن لهذه الحركة أن تسكن ، ولهذه الشعلة المتقدة أن تخبو . وقيل ذات يوم إن سعداً قد مات ! ولكن الناس نظروا حولهم ، فإذا «سعود» كثيرة قد تعاونت على رفع الراية وقيادة الجند . وبقي سعد حياً في أبنائه الذين خلفهم من بعده ، والذين نرجو أن يزدادوا على مر الأيام !

واليوم نذكر الساعة التي ذهب فيها هذا الراحل العظيم ، فنراه وقد أصبح أثبت قدماً ، وألمع نجماً ، وأعز نفراً ، مما كان قبل أن يذهب . فقد (انتهى) هو ولما يستكمل استقلال بلاده ، وذهب ولما يستقر دستور وطنه . ولكن الذي ذهب من سعد لم يكن إلا هذا الجسد الفاني ، أما الروح الخالد فهو الذي أتم كل ما بقي من رسالته .

* * *

ولن يستطيع الإنسان أن يحيط بكل نواحي هذا الروح الكبير في يوم ذكراه . فإن من الناس مثلاً الطويل ، ومنهم العريض ، ومنهم العميق . ولكن سعداً كان في الناس الرجل الطويل العريض العميق ! وسوف نسمع في هذه الأيام ذكريات الذاكرين من سعد العظيم بآماله العالية ، وسعد العظيم بآفاقه العريضة ، وسعد العظيم بنفسه العميقة . . . ولذلك يحلو لنا أن ندع هذه الأحاديث لأصحابها ، ونتناول نحن سعداً من ناحية أخرى . نرى أن صورة العظيم لا تكمل إلا باستيفائها . نريد أن نتكلم عن سعد — الإنسان العادي — لا عن سعد الزعيم المتفرد ، ولا عن سعد الخطيب المصقع ، ولا عن سعد الخصم الجبار ؛ فإن قصر الحديث على هذه الناحية وحدها من نواحيه المتعددة خليق أن يضرب بينه وبين الناس حجاباً يحول دون انتفاعهم بقدوته ، والنسج على منواله في الحياة .

وإني لأذكر أن كاتباً من كتابنا النابهين كتب عن شخصية سعد ، فقال ما معناه : إن الإنسان لينظر إلى سعد فيحس أنه على مقربة من رجل ممتاز في جسمه ، كما هو ممتاز في عقله . وإن طلعته لتذكر الناظر إليه بطلعة الأسد . وإنه ليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالأسد في قسماته وملامحه من وجه سعد زغلول . . .

أذكر أني قرأت هذا الوصف في كتاب كنت أرجو أن ألتمس فيه لنفسي عوناً على الوصول إلى شيء من أسباب

---

٨ — تنظيم الدعاية ضد الصهيونية واتساع مداها — فقد أنشأ العرب مكاتب عديدة في لندن وفي نيويورك ، لا هم لها إلا نشر الدعوة للقضية العربية . ثم جاءهم العون أخيراً من ناحية غريبة ؛ فقد قام نفر من اليهود أنفسهم بتأليف هيئة منظمة لمقاومة الصهيونية أسموها مجلس اليهودية الأمريكي . وقد بدأ هذا المجلس أعماله فعرض على العالم وجهة نظر الكثيرين من اليهود الذين يعترفون جهاراً بأن لا حق لهم مطلقاً في فلسطين ، بل يرون في الصهيونية خطراً كبيراً عليهم ، فهي بطلبها لحقوق سياسية لليهود ، وهم هيئة دينية ليس إلا ، قد تضر بمصالحهم الحقيقية ضرراً بليغاً .

وقد يكون هذا التطور الأخير بشيراً بنسف الصهيونية من أساسها ، فترجع اليهودية إلى سابق عهدها طيلة هذه القرون كلها ، لإحدى الديانات السماوية الثلاث ، وينبذ اليهود كل علاقة لهم بالسياسة .

الدكتور
حليم حبيب درس

العظمة التي سلكت سعداً في سجل العظماء . فإن الإنسان ليقرأ سير العظماء ، ويتمنى أن يقع فيها على سرّهم لعله أن يصيب حظاً مثل حظهم . ولكني قمت إلى المرآة بعد قراءة هذا الوصف أتفحص قسمات وجهي ، فلم أر فيها شيئاً يشبه الأسد من قريب ولا من بعيد ، ورأيتني فرداً كغيري من الآدميين الكثيرين ! فارتددت وفي نفسي شيء من خيبة الأمل على أن الطبيعة سلبتني أول مقومات العظمة التي حبت بها زعيمنا الخالد .

* * *

وأنا اليوم لا أريد أن أدفع اليأس في قلب قارئ جديد بالتحدث عن عظمة سعد . ولذلك اخترت أن أتحدث عنه ، لا بوصف كونه أمة في فرد ، ولا بوصف كونه الجبار العنيد ، ولا على أنه الشجاع الأعزل الذي وقف في وجه الدولة المسلحة ، ولا على أي اعتبار آخر من الاعتبارات التي جرت الأقلام على انتحائها ، وهي تكتب عن سعد . ولكني أريد أن أكتب عنه باعتباره إنساناً له نواحي ضعفه أحياناً ، وله من الصفات الكثيرة ما يشاركه فيه كل إنسان آخر . ولست أرمي من وراء ذلك إلا أن أقرب شخصيته إلى المعجبين به ، المحتذين مثاله ، الراغبين في أن ينضموا إلى جملة أبنائه ؛ وإلا إعادة الثقة إلى نفس كل من تحدثه نفسه بأن يتشبه بسعد !

* * *

وأول ما أرى أن أنوّه به من صفات سعد في هذا المقام ، رقة شعوره إلى الحد الذي يكاد ينكره الناس على الرجل العادي . فلقد كان — رحمه الله — من رقاقة الحس ، بحيث تنحدر دموعه إذا رأى شخصاً يبكي في حضرته . ولذلك كان يطلب إلى من حوله أن يعفوه من مشاهدة الباكين قائلاً :

— لا تجعلوا أحداً يبكي أمامي ، فإني لا أطيق البكاء ، وإذا مت ، فخذوا ثأركم مني ولا تبكوني !

والمقربون من سعد يعلمون أنه حين ذهبت إليه أم المصريين في جبل طارق لم يذهب هو لاستقبالها على الرصيف ، بل بقي في حجرة الاستقبال حتى دخلت عليه ، وذلك خشية أن تجيش نفسه لقاء قرينته بعد ذلك الفراق الطويل ، ومخافة أن يغلبه الانفعال فتدمع عيناه على مشهد من الحاضرين .

* * *

ونقطة أخرى أرى أنها أفعل في النفوس من كل ما يثيره الكاتبون من عظمة سعد وقوته وصلابته وجبروته ؛ ذلك أنه كان مصاباً بالربو ، وأنه مع تقدمه في السن جاءه تصلب الشرايين ، كما جاءه ضغط الدم . وفوق كل ذلك كان — رحمه الله — مصاباً بالسكر ، ومصاباً بالزلال .... فهذه أدواء كثيرة تكفل العمل التواصل لمتوصف صغير بأطبائه وممرضاته ومعامله . عاش بها سعد كلها ، ولم يحل شيء منها دون أن يسير الرجل في طريقه الذي اختطه لنفسه ، ودون أن يبلغ منه غايته . فلا عذر بعد هذا الحديث — على الأقل — لأولئك الذين يتخذون من الصيام ، وما يشبه الصيام من صنوف الحرمان الجسدية ، ذريعة يتذرعون بها إلى القعود والبقاء مع المتخلفين ، الذين إذا ذكر العمل وجفت قلوبهم ، كما تجف لذكر الله قلوب المؤمنين .

* * *

ولقد كان خصوم سعد يعرفون عنه أنه الشيخ المريض الذي يحمل أعباء كل هذه الأدواء ، وكانوا يرجون الفرج لأنفسهم من هذا الطريق ؛ ولذلك لم يكن يصعقهم شيء أكثر من أن يترصدوا له ويتاوئوه وهو في نوبات مرضه ، فما أن يصل إليه شيء من أذاهم حتى تثور نفسه ، ويغلي دمه ، ويتطهر جسده من كل ما كان يشكوه ؛ فإذا هو البنيان المتين ، والركن الحصين الرصين ، وإذا هو العاصفة

تقتلع ما كانوا يصيبون ، والعصا التي تلقف ما يأفكون !

* * *

وامل أقصى ما شهده سعد في أيامه الأخيرة ، تلك الأيام التي كان فيها اللورد جورج لويد يرعى شئون دولته في مصر . فقد أمطر سعداً بوابل من أزماته ، لا يكاد الرجل يحل مشكلة منها حتى يرميه بأخرى ، يريد أن يربكه وأن يحطم ما بقي من قوته ، ولكنه لم يملك أخيراً إلا أن صاح فيمن حوله قائلاً :

— إن صحة سعد باشا تتقدم على الأزمات !

وبلغ هذا القول سعداً فكان تعليقه عليه ـ رحمه الله ـ :

— ربنا يطول عمر اللورد !

والنكتة البارعة في هذا الدعاء الكيس أنه يرجو من وراء طول عمر اللورد أن (يتعاطى) من أزماته المصطنعة ما يعالج به أمراضه ، وما يستعين به على تحسين صحته !

وما دام الحديث قد جرنا إلى روح الدعابة عند سعد ، فإنا ننتهز هذه الفرصة لنقول إن عظمة سعد لم تكن كلها في جده ، بل كان كثير منها في فكاهته أيضاً . وكاتب هذه السطور ممن يؤمنون بالفكاهة في الحديث إيمانه بالملح في الطعام . فهي ضرورة من ضرورات الحياة ، وإنها لتحل من مشاكل هذه الدنيا ما يستعصى علاجه على كل جد . بل إن الجد المطلق ليعيق سير الحياة ، ويلقي ظلا ثقيلاً على موكبها ، ويجعل زحمتها كلاًّ على النفوس لا تطيقه ولا تستطيع العمل تحت نيره . وكم من أزمة مستحكمة استوحشت عواقبها لم تتبدد غيومها إلا بفضل كلمة فكهة ! وكم من مأزق حرج لم يكن له من مخرج إلا في دعابة مرحة !

حدث أن جماعة من الأزهريين قصدوا إليه يطلبون وساطته في إرسال بعثة منهم إلى أوربا ، أسوة بطلاب المدارس العالية ، وكان رفض هذا الطلب فيه تخييب لآمال الأزهريين ، وإقرار عليهم بأنهم ليسوا مثل زملائهم من الطلاب ؛ كما أن في الاستجابة إليه توريطاً لعمل ما لم يكن من المناسب عمله في ذلك الوقت . ولم يطل تفكير سعد في كيفية الخروج من هذا المأزق ، فبش في وجوههم وأجابهم مداعباً :

— وإلى أين تريدون أن نرسل بعوثكم ؟ إلى الفاتيكان ؟!

* * *

وعلى هذا النسق الفكه كان سعد يتخطى أيضاً ما يعترض طريقه من أحداث عابسات . فما أظن أحداً من القراء قد نسى تلك الملابسات الصارمة التي نقل فيها سعد مع جماعة من أصحابه إلى مالطة . وحدث بعد وصولهم إلى تلك الجزيرة التي لم يكن يعلم أحد بوجودهم فيها ، أن جلس جماعة ممن كانوا معه يتناجون بشكواهم ، ويذكرون بالحسرة ما يعانيه ذووهم من القلق عليهم ، وعلى الأخص ما تكابده زوجاتهم من جراء هذا الاعتقال المباغت . فصبر عليهم سعد حتى أفرغوا ما عندهم ، واستيقن أنهم فرجوا بهذه الشكاة بعض ما كان يرهق نفوسهم من الألم . ثم نظر إليهم قائلاً :

— هل أدلكم على شيء تعملونه فتريحون أزواجكم وتستريحون ، ويجعل غيابكم عنهن أحسن من حضوركم ؟ اكتبوا إليهن أن نساء مالطة من أجمل نساء العالمين ، وأنكم تزوجتم بها وسكنتم إلى الإقامة فيها ؛ فإن أحداً لن يتمنى لكم بعد ذلك إلا دوام الاغتراب وطول الغياب !

* * *

رحم الله الزعيم رحمة واسعة ، وأكثر في صحابته من أمثاله « سعوداً » كثيرة ، لهم من حسن التدبير ، وفطانة التفكير ، ما يؤهلهم لأن يخطوا بمصر في طريق المجد خطوات جديدة ، تجدد لها ماضيها ، وتعيدها إلى مكانتها الأولى بين الأمم .

ح . ج

الثقافة الشعبية

مهداة إلى الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

« سيدى الأستاذ الجليل : لقدنا أنا معجب بذلك البحث القيم الذى توالون نشره فى مجلة الثقافة الغراء ، فنحن فى الواقع فى أمس الحاجة إليه ، سيما ونحن مقبلون على فترة خطيرة فى حياتنا بعد الحرب .

وقد عنّ لى أن أكتب الكلمة المرفقة مع هذا ، وأن أهديها إليكم اعترافاً بهذا الجهد الطيب الذى تبذلونه فى سبيل الأمة »

حقاً يا سيدى الأستاذ ، ينبغى لنشر الثقافة الشعبية « أن تتكاتف جميع الهيئات ، وتتعاون جميع المصالح الحكومية فى إنجاز هذا العمل » .

والمتاحف على اختلاف أنواعها وسيلة فعالة لتثقيف الشعب وتصفية ذوقه ، وصقل مواهبه ؛ وهى إن أحسنت القيام بوظيفتها أصبحت ضرورة من ضرورات المجتمع ، ولم تعد — كما يخيل للكثيرين — ترفاً تصح بدونه الحياة ، أو تَرِيداً يمكن الاستغناء عنه .

وإذا اخترنا المتاحف الأثرية لتكون مثالا نضربه لبيان ما تستطيع أن تقوم به المتاحف فى هذا الصدد ، وجدنا أن رسالتها للشعب[1] لا يمكن أن تتحقق على وجهها الأكمل ، إلا إذا آمن المشرفون عليها بأن فى أعناقهم لذلك الشعب المصرى الذى لم تحظ أغلبيته الساحقة بنصيب من التعليم أمانة لا تبرأ منها ذمتهم حتى يؤدونها له كاملة غير منقوصة — هى استخدام ما بين أيديهم من تراث الأجداد فى إيقاظ روح القومية ، ثم فى تربية حاسة الجمال .

فتلك الآثار والتحف التى خلفتها لنا الأجيال السابقة تجلو علينا صوراً رائعة لمجد أجدادنا ، وتحدثنا — إذا ما خرجت عن صمتها — حديثها الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عن المادة التى صنعت منها ، واليد التى صنعتها ، والفنان الذى رقشها وزخرفها ، والشخص الذى استعملها ، والموضع الذى استقرت فيه قبل أن ترى الشمس من جديد . ومن ذا الذى يستطيع أن ينطقها هذا الحديث الشعبى إلا أمناء المتاحف الذين فحصوها ودرسوها ، وانتهوا من هذا الفحص وتلك الدراســة إلى أنها دليل قوى لا يتسرب إليه الشك على أننا بلغنا من الحضارة المادية درجة لم تسم إليها معظم الأمم فى الماضى ، ورفعنا لواء العلم عالياً فى العصور القديمة ، ورفعناه عالياً كذلك فى العصور الوسطى ؛ فأرسلنا النور إلى أرجاء العالم يهتك ظلمات الجهل وينير سبل الحياة ، وكان مركزنا من هذه الأمم التى تترسم خطاها اليوم وتسير على هديها كمركزهم منا فى الوقت الحاضر !

بمثل هذا الحديث ينبغى أن يتحدث أمناء المتاحف إلى الشعب ، فى محاضرات عامة تعقد فى المتاحف وتتخذ مادتها مما بين أيديهم من تراث الأولين ، وتدور موضوعاتها حول إذكاء روح الوطنية وبعث العزة القومية فى النفوس ؛ وتلقى فى أوقات يستطيع أن يؤمها فيها أكبر عدد ممكن من الشعب ، ويُدعى لحضورها الهيئات المختلفة حكومية وغير حكومية من العمال والفلاحين وغيرهما من طبقات الشعب ؛ ويكون حضورها عاماً من غير جُعل ، حتى يتسابقوا إليها .

وليس هناك أقل شك فى أن مثل هذه المحاضرات إن أحسن إعدادها ، وكانت موضوعاتها شائقة خفيفة على النفس ، ولغتها واضحة مفهومة ، سيكون لها أبعد الأثر

(١) للمتاحف الأثرية رسالة أخرى تؤديها للعلماء والطلبة ، وقد قامت متاحفنا ولله الحمد بأداء هذه الرسالة على أحسن وجه ، وكان مستواها المادى والمعنوى فى هذا السبيل موضع التقدير والإعجاب

في تثقيف الشعب ؟ فالمصري بطبعه سريع النجاح إذا ما أحسن توجيهه .

* * *

والواقع أننا في أمس الحاجة إلى تهذيب أذواقنا ، وإدراك قيمة الجمال في حياتنا ، والإيمان بأن تربية حاسته فينا أمر لا بد منه ، إن شئنا أن نسمو فوق مستوى الحيوانية . ولا شك أن رؤية التحف الجميلة وإمعان النظر فيها والوقوف على سر جمالها هي أحسن وسائل هذه التربية ، لأن التأمل في الجمال من شأنه أن يرهف الحس ويصقل الذوق . وإذا ما تكوّن الذوق السليم وارتفع لدى الشعب مستواه ، ومرن الناس على تقدير الفن الجميل في شتى صوره ، ارتقت الأمة في حياتها الخاصة وبالتالي في حياتها العامة ، واختفت من الأسواق تلك السلع التي لا ينقصها المهارة في الصنع ولكن ينقصها الذوق والصقل ، وأصبح أفراد الشعب لا يُقبلون إلا على استعمال ما هو جميل ، ولا ترتاح نفوسهم إلا إلى رؤية الجمال ممثلا في كل ما يحيط بهم ، تؤذيهم الفوضى في الحياة المادية وفي الحياة المعنوية ، ويؤلمهم عدم التوازن والانسجام بين الأشياء في داخل منازلهم وخارجها .

ولا ريب أنه لتحقيق هذه الغاية ينبغي أن نعيد النظر في طريقة تنظيم قاعات العرض في المتاحف ، فنجملها بحيث تجذب رونقها وحسن تنسيقها الالتفات ، وتغري على معاودة الزيارة ، ولا نعرض فيها إلا ما كان كاملا جميلا له في التاريخ القومي قيمة كبيرة ، فكلما قل المعروض تضاعفت العناية به والالتفات إليه ؟ ونقرن كل تحفة بوصف لها ، يراعى فيه أن يكون موجزاً مكتوباً بخط واضح يغرينا جماله على قراءته ، حتى تزداد أهميتها في أعيننا .

* * *

وينبغي أن تعنى المتاحف بإصدار كتيبات ، تتناول دراسة ما فيها من التحف من نواحيها التاريخية والصناعية والفنية دراسة خفيفة تكتب بلغة واضحة سهلة ؟ وتُزدان بصور كثيرة تحبب الناس — مهما كانت درجة ثقافتهم — في اقتنائها ؛ وتكون رخيصة الثمن ليستطيع أن يشتريها كل فرد . فالصانع الذي يريد محاولة إحياء مجدنا القديم في الصناعة يمكنه أن يستوحي ما في هذه الكتيبات من معلومات وصور وزخارف وألوان .

وحبذا لو أخرجت فكرة المتاحف الإقليمية إلى حيز الوجود لتتسع دائرة الاستفادة ، وأُكثر من إقامة المعارض المتنقلة لتتاح للشعب فرصاً يستمتع فيها بمشاهدة التحف النادرة ، التي يساهم بها الأفراد والأغنياء والهواة مما لا سبيل إليه إلا بهذه المعارض ، ثم يقترن كل ذلك بدعاية منظمة ، فتستخدم الصحافة والسينما والإذاعة في الدعوة إلى المتاحف ، وفي لفت نظر الشعب إليها ، وفي تحبيبهم في زيارتها ، وإغرائهم على الاهتمام بما فيها والاستفادة منه .

* * *

وبعد ، فالمتاحف من أهم الوسائل التي تثقف الشعب ، وتدفعه إلى الاعتزاز بقوميته ، وإلى احترام نفسه ، وتساعده على تنمية كفايته واكتشاف ما كمن فيه من مزايا . وهي في مصر تعيش على هامش الحياة لا يكاد يحس بوجودها إلا القليلون . وليس من العدالة الاجتماعية في شيء أن تختص المتاحف بجهودها وعنايتها أفراداً قلائل من العلماء والباحثين ، وتتجاهل سواد الشعب الذي تعيش بفضل ما يدفعه من ضرائب ، فهو في حاجة إلى نصيب وفير من هذه الجهود وتلك العناية . ولعل في هذه الكلمة الموجزة ما يحفز القائمين بأمر تثقيف الشعب إلى الاتجاه إلى هذه الناحية .

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

طريقة إصلاح الحروف العربية

إن عيب الكتابة العربية الأصيل، وهو خلوّها من الإشارة إلى الحركات في صلب الكلمة، وصعوبتها الكبرى وهي أن لكل حرف منها عدة صور تبعاً لمكانه من الكلمة، كان أمراً لا يعتد به حين كان العلم وقفاً على طبقة من الشعب، لها من الذكاء، والقوة والهمة ما يسعفها بمغالبة الصعوبات لتعلم القراءة، وإتقان اللغة، وإحسان النحو والتصريف، وإن كانت بالرغم من ذلك تقع حيناً بعد حين في الاضطراب والمشقة والملل. أما اليوم، ونحن نُريد أن تكون الثقافة عامة، يدركها كل إنسان، فمن العبث أن ننتظر من مجموعة الشعب الهمة والذكاء لإتقان اللغة وإحسان التصريف، بعد الصبر والتحمل في تعلم القراءة. وسترى الكثيرين منها لا يفتأون يصدون عن العلم، ما داموا يسلخون سنوات من حياتهم في تعلم القراءة دون أن يُمدهم ذلك لقراءة العلم الحق والأدب الجيد، قراءة خالصة من المشقة؛ وسترى عدداً أكبر يأبون التعلم، ما داموا يجدون أنه يقتضي أكثر من نصف سنة لتلقن صور الحروف، ثم لتهجية الألفاظ.

ألا فأصلحوا أداة الثقافة قبل كل شيء. سهلوا على رجل الشعب تعلم القراءة ما قدرتم. أزيلوا كل صعوبة عند المتعلم في مزاولتها. إذا لم تفعلوا ذلك فلا تنشدوا الثقافة الشعبية العامة، ولا تشغلوا أفكاركم بالتقدم والرقي.

أدرك أرباب الإصلاح تلك الحاجة منذ نحو نصف قرن؛ فهبوا يضعون الطرائق وينشدون الإصلاح. ونظر صاحب المعالي الأستاذ عبد العزيز فهمي باشا بثاقب نظره فيما أحدثوه، فلم يعجبه ذلك، وراح ينشد الإصلاح الكامل: يريد أن يتعلم المرء القراءة في أقصر وقت، وألا يحتاج في القراءة الصحيحة إلى معرفة صرف أو نحو أو لغة.

ولما لم يلف سبيلا إلى هذا الإصلاح في الكتابة العربية، ألفاه في الحروف اللاتينية، فأعلن الجهاد باسمها، وكان له الفضل بالدعوة إلى الإصلاح، وبعثّ الناس على العمل في سبيله. على أنه ظهر لنا، مع احترامنا لرأي هذا الأستاذ الكبير، مفاسد كتابة العربية بالحروف اللاتينية، كما تقدم، فصرنا نقول: أتملك الحروف العربية عجزها عن الإصلاح التام الذي ينشده الأستاذ الجليل، وينشده كل من يحب الإصلاح؟ هل نقر بضعفها أمامه ونُنهي سبيل العاملين عليها بعدم قدرتها عليه؟ ألا نستطيع أن نضع لكل حرف من حروف العربية شكلا واحداً يعرف به، وأن ندخل في هذا الشكل إشارات واضحة تدل على حركة الحرف، فيتعلم المرء الحروف بأقصر زمن، وقد قلّت صورها؛ ويتقن القراءة قبل أن يتعلم النحو والصرف، وقد زالت حاجته إليهما فيها؟!

كانت هذه الأفكار تساورني منذ عهد بعيد، ولكن صروف الأيام كانت تحول دون اعتنائي بها، حتى جاء اقتراح معالي الأستاذ فهمي باشا يقرع الأسماع ويهز القلوب، فألهب حماسي. ولكني كدت أصرف عن العناية بشأنه مرة أخرى، لولا أن أستاذاً كبيراً أمسك عن ذكر اسمه، نزولا عند رغبته، دفعني إليه دفعاً حثيثاً. وقال فيما قال: إنك لن تجد أكثر فائدة من هذا العمل إن وفقت به؛ فأي شيء يعادل إصلاح الأداة التي نتعلم ونفكر ونعلم ونتصل ونتقدم بها؟ لن تكون النهضة التي نحن قائمون بها سريعة تامة قوية، مضاهية لكبريات النهضات، إلا إذا أصلحت الأداة التي توجهها، فلنصلحها! صدقت أي سيدي الأستاذ، وبارك الله فيك، إذ كان ضنيناً بمثلك ضناً قوياً!

دأبتُ على العمل بعد هذا الدفع الجليل المشجع،

فهدانى الله بنعمائه ، وصار يخيل إلى ، بعد جهد طويل وعناء شديد ، أنى وجدت الإصلاح المنشود . وهأنذا أقدمه إلى الأوساط المختصة ، وإلى كل عربى يهمه أن يرى أمته ، وقد أصلحت أداتها الأولى ، فانطلقت بها فى طريقها إلى النهضة والتقدم .

ظهر لى أنه من الممكن التمييز فى الحروف العربية بين قطعتين مختلفتين : رأس الحرف وذيله . أما رأسه ، فهو بدايته حتى يلتقى بذيله ؛ وأما ذيله ، فهو الخط الذى يصله بالحرف الذى بعده ، أو بشكل أعم ، هو الخط الذى ينتهى به . ووجدت أن هذا التقسيم يمكن أن يسرى على كل الحروف سوى الألف ، دون جهد ؛ فقلت لو اعتبرنا رأس الحرف قطعة منه دالة عليه ، لا تتغير أبداً ، واعتبرنا ذيله قطعة أخرى تأخذ أشكالاً أربعة ، تبعاً لحركة الحرف ، حُلّت المشكلة . وبقى أن نجد تلك الأشكال الأربعة التى يبدو بها ذيل الحرف دون أن يتغير أصل صورته . وقد أطلت النظر فى إيجاد هذه الأشكال ؛ ورجعت إلى أصل الخط العربى ، فوجدت الخطاطين ينوعون ذيل الحرف أنواعاً عديدة لتجميله وتزيينه . ووجدت أبسط أنواعهم وأصلحها للدلالة على ما نحن بصدده وأبعدها عن الإبهام الأشكال الآتية ، فأقررتها ، وهى : الخط المستقيم (—) للحرف المفتوح ؛ الخط المنكسر (٧) للحرف المكسور ؛ الخط المقوس المضموم إلى الأعلى (⌒)(١) للحرف المضموم ؛ الخط المستقيم المنكسر بطرفه الأيمن بخط مستقيم آخر (⌐) للحرف الساكن . هذه الإشارات إذا ضم أحدها إلى رأس الحرف ، دلت على حركته . وبقى أن نجد صورة واحدة لرأس كل حرف من الحروف العربية ، لا تختلف عن الصورة الأصلية وتجارى هذه الإشارات . فوجدت تلك الصور (انظرها مفردة فى الشكل رقم ١ مع امتزاجها بالحركات . وانظر تطبيقها مع الإشارات فى الشكل رقم ٢ بالنص الذى اتخذ مثالاً باقتراح الحروف اللاتينية) .



شكل ١

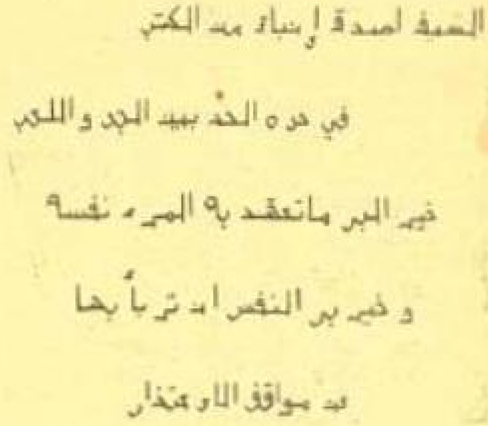
وبعد ، أفلا ترى أن إصلاح الكتابة العربية فى نقصيها الفاضحين قد حصل بهذه الطريقة ، بل إنى أزيدك عليه المحاسن الآتية :

أولا — إن الطابع والكاتب على الآلة الكاتبة يستعملان بهذه الطريقة أربعين قالباً فقط ، بدلا من (١٠٨) قوالب بالطريقة الحالية فى الطبع ، وبدلا من ستة وخمسين باللاتينية ؛ ويسهل على الطابع إدماج الحركات بالحروف حين الصف ، فهو يأخذ قالب رأس الحرف ، ثم يدمج فيه قالب حركته بتجوير متقابل يحدث بكلا القالبين ، بحيث يتماسكان ؛ ثم يأخذ الحرف الذى بعده ويدمج فيه حركته وهلم جرا ...

(١) أشكر العربى الكبير معالى الأستاذ ساطع بك الحصرى أن لفت نظرى إلى ضعف إشارة كنت وضعتها للضمة ، فبادرت إلى إزالة الضعف بهذه الإشارة ، فاستحسنها .

ثانياً — لا يصعب اليوم على المتعلم أن يقرأ هذه الكتابة بعد ائتلاف يسير لا يدوم أكثر من نصف ساعة، فهي أقرب ما يكون إلى الكتابة الحالية.

ثالثاً — إن محاسن الكتابة العربية لم تمس في هذه الطريقة بسوء. فالاختزال فيها باق، والجمال محافظ عليه، والبساطة ظاهرة فيها.



شكل ٢

وخلاصة أمر هذه الطريقة، أنها تحل إشكال القراءة العربية وصعوبتها بصورة لا يعود فيها للحروف اللاتينية أدنى تفوق على الكتابة العربية، وهي إلى ذلك تحافظ على سائر مزايا الكتابة العربية. أو بكلمة واحدة، إنها تجمع محاسن الكتابتين، وتخلو من مساوئهما.

وقد يقول قائل: إن طريقتك لا تسري على الكتابة الخطية إلا بمشقة كبيرة. فأقول: قد وجدت تعديلا طفيفاً يجعلها سهلة بالكتابة الخطية. على أني أوثر عدم ذكر هذا التعديل، لأني أرى أن يحتفظ بالشكل الحالي للكتابة الخطية. وحجتي في ذلك أننا لا نخط بأقلامنا فيما لا يحتاج إلى الآلة الكاتبة، إلا أقوالا ليس الإعراب أصلا وطيداً فيها، ولا حاجة لضبطها. وهناك أهل الغرب يقترحون أن ترفع حروف المد من خطوطهم، لتصبح أسرع وأكثر اختزالا [1]. زد إلى ذلك أن الكتابة بالشكل الحالي إذا بقيت تخط بالقلم كانت همزة الوصل بين القديم والحديث، بحيث لا تدع للأجيال المقبلة مجالا للتدرس من الكتب المطبوعة أو المخطوطة بالشكل القديم.

وقد يقال: ولكنك بهذا الاحتفاظ أبقيت على صعوبة التعلم والتعليم؛ فأنت تضطر إلى درس الحروف الحالية إلى جانب الحروف الجديدة. فأقول: لن يعمد المتعلمون إلى درس الحروف الحالية إلا بعد أن يكتبوا بالحروف الحديثة ويتقنوها، وهي توافق حركة يد المبتدئين، ثم يصبح تعلم الحروف القديمة عندهم أمراً سهلاً، يقربه إليهم تشابه الصور وتناظرها؛ كالطفل الغربي يتعلم كتابة الحروف المطبوعة أولاً، ثم ينتقل منها إلى الحروف المخططة، فلا يتعبه ذلك ولا يتصعبه رغم اختلاف الصور.

هذه هي طريقتي، حتى إذا قيض الله لها النصر والتطبيق، خدمت لغة العرب وحضارتهم وتقدمهم. والله الموفق أولاً وآخراً.

(دمشق) **يوسف العشي**

(١) انظر مقالة الأستاذ محمود عزت عرفة حول مزايا الخط العربي: « الرسالة » العدد ٥٦٨ السنة ١٢ ص ٤٤٠.

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

سياست نامه
لنظام الملك
٣ — الملك ونزاهة الحكم

قال نظام الملك :

وعلى الملك العادل أن يتحرى سلوك عماله ، وألا يتوانى فى تقصى سيرهم ، ليتأكد من نزاهتهم ، ومن رعاية الأمانة التى عهد بها إليهم ، والثقة التى أولاهم إياها . وعلى العمال أن يسيروا فى الناس بالحسنى ، وألا يطالبوا الحراث « الفلاح » بالأموال قبل أن تؤتى الأرض ثمارها ، وإلا اضطر الحراث أن يبيع معجلا ما لا علم له بمقداره وقدره ، فيبيع بالثمن البخس جهده المضنى . وعلى العمال أن يعاونوا الحراثين إذا احتاجوا إلى البذور أو المواشى ، فإن من يعين الحراث على إنتاج الخيرات التى تنبتها الأرض يعين الشعب على عيشه ، ويوفر له غذاءه . وحرام على الحكومة وعلى الناس أن يتركوا قطعة من الأرض بوراً ، فإن من يعمر أرض الله يخدم دينه ووطنه ونفسه ، ومن يرى أرضاً صالحة للزرع ولا يعمرها يغضب الله والوطن والملك . فإذا سار العمال هذه السيرة فى الحراثين سعدت المملكة ، وكثرت خيراتها ، وأمن الناس شر الفاقة والجوع والموت ، إذا ماجفت الأنهار ، وانقطعت الأمطار ، ووقع القحط العظيم .

ألم تر ، يا مولاى ، إلى قباد ، وقد جف الزرع فى عصره سبع سنين ، لم تنتج الأرض خلالها حبة واحدة ، فكانت شدة لا مخرج منها ، فاستطاع بما لدى عماله من الخيرات المخزونة أن يوفر لشعبه الغذاء طوال سنوات القحط ؟ فقد أمرهم ببيع ما لديهم من مخزون الحبوب بأثمان رخيصة ، وسهر على عدالة التوزيع بين الناس ، فلم يمت من إيران فرد واحد بسبب القحط !

وعلى الملك ألا يتهاون مطلقاً فى مراقبة هؤلاء العمال ، وإذا رأى أن أحدهم استولى من حراث على أكثر مما ينبغى عليه دفعه ، رد ما اغتصب إليه ، حتى يعلم الناس أن العدل قائم ، وإن جار العمال . وإذا كان للعامل المغتصب مال أخذ منه أضعاف ما اغتصب من الرعية ؛ وقد يرى الملك نفسه فى حل من أن ينزع جميع أموال العامل الظالم ، ليعلم الشعب أن الظلم مرتعه وخيم . وأما إذا كان العامل قد قصر تقصيراً يسيراً ، فإن على الملك أن يقوّمه ويصلحه ويجازيه حسب مسئوليته .

وأما إشراف الملك على الوزير وحكام الأقاليم فإنه أكثر وجوباً وأبعد أثراً ، لأن أخطار هؤلاء تحسب على الملك نفسه ، وتنسب إليه وإلى حكومته . ولهذا وجب أن يكون الوزير والحاكم من ذوى العدل وأصالة الرأى ؛ ووجب أن يكون الملك يقظاً محاسباً .

وكم أعجبنى منظرك وسلوكك منى يا مولاى ! يوم جئتنى ، وقد أمسك كُمَّيك رجلان يشكوان إليك ظلم والى بلدهما ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيك وأنت تقول : كيف يكون حالى غداً عند الله إذا طولبت بحقوق المظلومين ، وقد قلدتك هذا الأمر لتكفينى مثل هذا الموقف ؟! وكم أسعدنى إنصافهما عملا بأمرك وعدلك يا مولاى ! وأنا أسوق إليك قصة الوزير (رَست رَوِش) الذى وَزَرَ « لبهرام كور » فلم يرع النزاهة فى حكمه !! فطغى وبغى وتكبر ، ولكن انظر كيف كانت عاقبته .

وأنت تعلم يا مولاى أن « بهرام كور » قد اندفع وراء نَزق الشباب ، فترك شئون الملك ، وانصرف إلى الصيد والنساء والشراب ، وأقام مقامه أميراً ضعيفاً لم يكن يستطيع أن يعارض الوزير « رست روش » رأياً أو يعصى له أمراً . وقد استغله « رست روش » أقبح استغلال ، وصوّر له أن ما تبديه الحكومة من الشفقة بالناس قد أفسد أخلاقهم ، وأطمع فى الولاة أشرارهم ،

وأن الأمر إذا لم يتدارك بالحزم ويؤخذ بالشدة لا تحمد عواقبه ، فالواجب « ألا ندع على قيد الحياة مفسداً ، وألا نترك لشيعتهم ما يثير الغرور في نفسه فيخرج علينا ، ولنستحي نساءهم ولنذبح أولادهم ، حتى لا يبقى لأحد سلطان » ... وامتلأت السجون بالأشراف ... وخلت القصور من ساكنيها ، وولى كثير من الأمراء فراراً من إيران ، وقد ملئوا من ظلم الوزير رعباً . ونظر « رست روش » حوله ، فإذا سلطانه يمتد على الشعب وحكومته ، وإذا به يرى باب الإثراء وقد فتح على مصراعيه ، له وحده ، فأخذ يمنح الحرية لمن سجنهم الأمير الذي يشغل مكان الملك ، على أن يمنحوه ضياعهم وأموالهم ثمناً لحريتهم ، وأخذ ينهب ويسلب كما يشاء ! وكلما أرادت الحكومة القيام بمشروع امتلأت جيوبه ، وعمرت خزائنه بالرشوة المستورة والرشوة المفضوحة ، حتى أصبح ترفه حديث الناس في إيران وغير إيران . وظل على هذه السياسة الهدامة سنين عديدة ، حتى افتقر الشعب ، وتحلل روحه ، واختلت الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكومين ، وخرجت من بيوت الأشراف التحف النادرة ، والخيول المطهمة ، والجوارى الحسان ، وكل ما لدى الناس من الخيرات ... لتدخل كلها بيت الوزير « رست روش »

وكان لملك إيران عدو يقف له بالمرصاد ، فاتصل به جماعة من الأمراء الهاربين مستنجدين ، فسارع ملبياً دعوتهم وأغار على إيران ... وأفاق « بهرام كور » من غفلته وأمر بتهيئة الجيش ، والتوسيع على رجاله لتقوى روحه وتشتد عزيمته . ولكن خازن المال وجد خزينة الدولة خالية ! وافتقد وزير الحرب الأشراف والنبلاء وهم القادة فلم يجد منهم أحداً : منهم المسجون ، ومنهم من هاجر . ونظر « بهرام » فإذا إيران يخيم عليها الفقر ، ويبث في عضدها البؤس واليأس ... فسأل ما دهى المال وأفنى الرجال ؟ فلم يجرؤ أحد أن يذكر له ما جرته سياسة الوزير على الدولة من الدمار والفناء . فبات الملك ليله ساهراً يفكر في قلته المتداعية والروم تقترب ... ولم يكد الصبح يتنفس حتى كان ممتطياً صهوة جواده الأشهب وسط الصحراء . هناك في الفضاء الذى لا يحد أبصر ناراً فوق تل فاتجه إليها . رأى قطيعاً من الأغنام ورأى خيمة على بابها كلب مصلوب ! وجلس الملك للإفطار مع صاحب الخيمة الذى لم يكن يعرف ضيفه ، واستمع إلى الرجل يحدثه عن الكلب المصلوب : كان لى من قطيع الغنم هذا رزق كبير ، وكنت أعتمد على هذا الكلب في حمايته ، وكان من القوة بحيث يغلب عشرة ذئاب . وكنت أثق به حتى أنى ، حين أضطر إلى السفر ، كنت أتركه ليقود الأغنام إلى حيث ترعى وليعود بها إلى حيث تبيت ، وأنا آمن هادئ البال . ولكنى لاحظت أن القطيع يتناقص ، ولاحظت الكلب فلم أهتد إلى تقصير في رعايته أو فتور في واجبه . حتى إذا جاء محصل الضرائب وجدت القطيع كله لا يفى بما على من مال ، فأخذه المحصل وصيرنى راعياً للقطيع الذى كان ملكى بالأمس . وتفرغت لرعاية الأغنام فعلمت ما غاب عنى ، وهو أن هذا الكلب قد وقع في شباك ذئبة غادرة . رأيته معها وأنا أحطب فوق ربوة عالية . رأيتها تدنو من القطيع ، ورأيته يهرع لاستقبالها ، ثم أخذ يداعبها حتى إذا بلغ منه الهيام مبلغه انتحى بها ناحية . فلا تلبث الذئبة أن تعود فتفترس أقرب الأغنام إليها وتلتهم من لحمه ما تشاء ، ثم تمضى في سبيلها والكلب ينظر إليها نظرة المتيم الولهان . وهكذا كان ينقرض القطيع رويداً رويداً ، لأن الكلب غلبته شهوته ، ففقد أمانته وضاعت رعايته ! فرأيت أن أقل ما يجازى به هو أن يصلب كما ترى جزاء ضعفه وخيانته !

عاد الملك إلى العاصمة متفكراً في هذا الذى رأى وسمع ، أليس هو صاحب القطيع الذى ملكه الله على الشعب ليعمر به الأرض ؟! أليس وزيره رَسْتْ رَوِش هو ذلك الكلب الذى عهد إليه رعاية الشعب والعناية به ؟! ألم ير

الملك خزائنه خالية وجيوشه مسرحة ورجاله مشردة ، والشعب في بؤس مقيم ؟! ولكن الملك لم يهتد إلى خيانة وزيره ، كما اهتدى الراعي إلى خيانة كلبه ؛ فإن الحاشية كانت تخاف على نفسها من غدر الوزير الماكر الجبار . فأمر أن ترفع إليه التقارير اليومية التي كان الوزير يقضي فيها كل يوم . فإذا به يرى البطش والظلم والبغي . فأدرك أن ما أصاب شعبه من محن مصدره الوزير ، وأن عليه إذا أراد أن يعيد للشعب مكانته وثقته بنفسه وبحكامه ، أن يقتص منه ؛ فلما دخل عليه رست روش قال له : « ماذا جرى لشعبي ، علاه الهم والفقر ، وأقعدته المحن والمظالم ، وماذا انتاب خزائني أقفرت ، وكانت بالخير تفيض ؟! أوليتك لتقتل الناس وتنتهك حرماتهم وتقيد حرياتهم ؟ ولقد وليتك عامر القلب خاوي الوفاض ، وكان هذا تفرك ، فإذا بجاه الوزارة يضلك ، وإذا بك غني ضال ! دخلت الوزارة فقيراً عزيزاً ، وها أنت اليوم تخرج منها ذيباً لا راعية فيك ! » . وحاول رست روش أن يجيب ولكن الكلام لم يواته ، خنقته الدماء البريئة التي سفكها ، والحريات الغالية التي أضاعها ، والأمانة التي خانها . فأمر الملك بسجنه . فانهالت عليه الشكاوى من الناس . ولم يلبث الملك أن علم أن رست روش قد تآمر مع أعدائه على الغدر به ، ليظفر بسلطان أوسع ؛ فلم ير بداً من قتله والتمثيل به . ثم التفت إلى أهل إيران فأصلح أحوالهم ، وتدارك ما فسد من أمورهم ، وأبعد عنهم الذئبة الغادرة التي أبعدها الراعي عن غنمه حين قتل الكلب الضعيف الخائن !

واعلم يا مولاي أن الإسكندر قال حين هزم دارا : « ملكني هذه الدولة ضعف ملكها وخيانة وزيرها » . وقاك الله يا مولاي من الضعف ، وقواك وثبتك ، وألهمك السداد في اختيار وزرك ، ووفقك في مراقبته ونصحه !!

يحيى الخشاب

سلطان العـــــادة

تأليف الكاتب الشهير الدكتور أرنست كوبلك

وزير المعارف الأسبق بألبانيا

في ظهر يوم من أيام الصيف ، وقد اشتدت حرارة الجو ، وأخذت الشمس تقذف الأرض باللهب ، ترك الفلاحون أعمالهم ، وأسرعوا إلى الأشجار الوارفة يتفيأون ظلالها ، ويتمتعون بالراحة ليستأنفوا العمل وقد عاد إليهم النشاط . في هذا الوقت كنت لا ترى في الطريق المتعرجة التي تؤدي إلى القرية ماراً ولا تسمع حركة ؛ فقد هدأ كل شيء وسكن . اللهم إلا فارساً عند مدخل القرية قد استحث جواده ، يخيل للناظر إليه أنه يود لو أمكن أن يستعير جناحي طائر ليصل إلى بغيته في مثل لمح البصر . يدل مظهر هذا الفارس بملابسه الإفرنجية على أنه موظف حكومي . وإذا أنعمت فيه النظر طالعت في عينيه إشعاع الجد والصرامة ، وقرأت في ملامح وجهه الحزم والعزم .

وما أن وصل باب « أوس » الملازم حتى أخذ يطرقه بشدة ، وينادي بلهجة تنبئ عن خطر المهمة التي وكلت إليه . وبعد هنيهة انفرج الباب عن الملازم الذي أخذ يسأل الطارق في كثير من الاهتمام عند أمره ؛ فسلم له الفارس أمر المحافظة ، وهو يقضي على الملازم بأن يضاعف من جهده ، ويشدد من رقابته ببث العيون والأرصاد في منطقة نفوذه ، حتى لا يجتاز أحد الحدود إلى خارج القطر ؛ فقد اختفى أمس صحفي شاب طعن الحكومة طعناً مراً في كثير من مقالاته . والراجح أنه وطد العزم وعقد النية على الفرار ، والحكومة جادة في القبض عليه ، مهما كلفها البحث عنه من نفقات .

نكس الملازم رأسه مفكراً ، ثم قال : ولكن يا عزيزي هل تتأكدون أنه لم يخرج من البلاد للآن ؟ فأجابه الفارس : وهل في استطاعته أن يبلغ الحدود في ليلة واحدة ؟ إنه اختفى ليلة أمس فقط ، ومن غير المعقول أن يأخذ الطريق إلى الحدود نهاراً ، وهو على يقين أن الحكومة تضاعف الجائزة لمن يسلمه إليها .

— إن كان الأمر كما ذكرت ، فلن ندع أحداً يعبر الحدود ولو فعل المستحيل . ثم ألح على الفارس في شهامة وكرم أن يدخل ليستجم نشاطه ، ويريح جواده الذي أنهكه التعب ؛ فاعتذر إليه بأن للأمور في انتظار عودته لاتخاذ ما يلزم من التدابير للقبض على الهارب . فقبل أوس منه هذا العذر ، وودعه وداعاً حسناً بعد أن كلفه أن يبلغ المأمور بأن يغمض عينيه مطمئناً من ناحيته . ثم أشار إشارة الواثق بنفسه إلى الأراضي الواسعة حوله وقال : لن يسلك الهارب هذه الفجاج ما دام في جسدي عرق ينبض . صحبتك السلامة ، ورافقك التوفيق !!

وبعد أن عاد الفارس نادى الملازم ابن أخيه « ميراش » وكلفه أن يجمع الحراس ويأتي بهم إليه في غاية السرعة ، وأن يمر في طريقه بـ « دود » و « نيقولا » ويطلب إليهما أن يتركا العمل ويسرعا إلى البيت . فمضى ميراش مسرعاً لقضاء المهمة التي كلف بها .

عمد الملازم إلى ملابسه العسكرية فارتداها ، وكانت تلك عادته إذا كلف بمهمة رسمية ، وإلا فهو في حالته العادية بملابسه المدنية يقوم بأعماله الخاصة . ولو قدر لك أن تراه في فناء داره ينتظر قدوم رجاله بملابسه الرسمية لرأيت رجلا قصير القامة ، مستقيمها ، عريض المنكبين ، واسع الصدر ، ينبعث من عينيه بريق القوة ، ويوحي إليك مظهره ، وهو متسامح ، بكثير من الشجاعة والشهامة . بدت على فوديه بوادر الشيب ولكن له حزم الشباب .

وهو يتمتع بنفوذ عظيم في المنطقة التي هو فيها ، مرهوب الجانب ، مسموع الكلمة ، ليس لأمره مرد . وقد استطاعت الحكومة أن تستغله لصالحها فعينته ضابطاً احتياطياً وأمطرته بالمال ، وضاعفت له الجوائز . وهي بهذا العمل قوت من سلطانها ، وأكبرت من شأن قوانينها في دائرة نفوذه ، فلم تسمع بسرقة حدثت ، ولا بمخالفة للقانون ارتكبت . يحيط به رجال يقتسمون الموت ما دام فيه رضاه ! وها هم قد أسرعوا مدججين بالأسلحة يتسابقون لتلقى تعليماته عند ما بلغهم «ميراش» أمره .

شرح لهم دواعي الاجتماع . ثم عقب بقوله : ترون الآن أن هذا يوم في مثله تعرف الرجال . سوف لا نذوق للنوم طعما حتى لا يعبر أحد الحدود دون الاطلاع على أحواله .

والأوس من داهية لم يكن هناك من يضارعه علماً بالممرات الخفية ، التي منها يستطيع الإنسان الفرار إلى خارج القطر . ولقد اكتسب هذه المعرفة في ظروف خطيرة مرت به ، واستفاد منها في سد الثغور ، فنصب في كل فجوة زوجاً من رجاله الأشداء .

... التفت إلى أولاده . ثم قال لنيقولا ، ودود : تسلحا واتبعاني . أما أنت يا ميراش فلازم البيت وقم بالواجب نحو من يجيء .. ثم أخذ طريقه يرافقه ابناه ؛ أما أولهما فإنه كثير الشبه بوالده ، وأما الثاني فعملاق طويل . وفي هذا الأثناء كان يسود الجميع الصمت ! وهذه عادة أوس لا يتكلم إلا حين يتطلب الموقف الكلام ، فهو يفكر ويعمل طبقاً لتفكيره في سكون وها هو الآن يتخيل أنه سيقبض على الجاني ويسوقه بنفسه إلى العاقلة يرسف في الأغلال ، وحينئذ يقول لأولي الأمر في تيه وفخر : ها أنذا الآن جدير برتبة « كابتن »

طافت هذه الأفكار بذاكرته فارتسمت على وجهه كل علامات الرضا . وقد كان حسن الحظ ، سعيد الطالع ، قوي الإيمان بأنه ليس هناك ما يحول دون بلوغ مبتغاه . والحق يقال ، إنه كان دائماً يصل إلى ما يريد في أناة وصبر ، اللهم إلا مرة واحدة خانه فيها الحظ ، وجانبه التوفيق ؛ فقد نشبت بين عائلته وعائلة « وانا » معركة حامية الوطيس في العام المنصرم . وعائلة «وانا» هي الوحيدة التي تنافس عائلة «أوس» قوة وشهرة . وقد انجلت المعركة عن قتل شقيق أوس . وها هو العام قد تجرم ، والفلك دار دورة ولم يتيسر الثأر للقتيل ، فقد أخذ الأعداء كل حيطة فما كانوا قط يخرجون منفردين .

بعد ساعة مضت على أوس وولديه منذ غادروا البيت وصلوا إلى فجوة صغيرة ، فقال لولديه : هذا مكان حراستكما ، إذ لا أشك في أن الرشد الذي سيلازم الهارب لا بد أن ينصح له بالخروج من هذه الفجوة ؛ لأنها في ناحية بعيدة ، والظنون أن أحداً لا يهتم بحراستها . وكل ما أستطيع أن أنصحكم به أن الهارب إن فكر في اجتياز هذه الفجوة فلا تدعاه يفلت إلا على أسلاتكم . ثم ودعهما وقفل راجعاً وحده من غير الطريق التي سلكها مع ولديه ، ليمر على الحراس ويرى بنفسه مقدار انتباههم . وعند ما وصل إلى البيت كان الليل قد نشر على السكون ذوائبه ، وبينا هو يصعد السلم ويفكر في أنه سيقضي كل ليلة في الحراسة بعد أن يأكل سريعاً ويستريح قليلا ، مر بحجرة الأضياف فوجدها مضاءة ، ورأى على الجدران بندقيتين معلقتين . وفي هذه اللحظة خرجت زوجته من حجرة الطعام لتتعرف القادم فسألها في دهشة : من في حجرة الأضياف ؟

— جون وانا

— من ؟ ! ألقى هذا السؤال بصوت مختنق ، إذ لم يتوقع أن يكون قاتل أخيه في بيته ، ولكنها أكدت إجابتها بقولها :

— جون واتا مع رجل من المدينة .

جمد أوس في مكانه ، وشعر بقشعريرة باردة اهتز لها جسمه . فقال أخي في بيتي ! في حلم أنا أم في يقظة ؟ ولكنه استجمع قواه أخيراً واجتهد في إزالة آثار الدهشة من هذه الزيارة التي لم يكن يتوقعها . ثم دخل على الضيوف بجأش رابط ، وجنان ثابت ، وعزم هو الحديد صلابة . ثم ألقى هذه العبارة في هوادة ورفق : مساء الخير ! مرحباً وأهلا بقدومكم !!

قام الضيوف لاستقبال صاحب البيت ، وتعانق — كما هي العادة — أوس مع جون واتا أولاً ، لأنه كان في سنه تقريباً وإن كان أطول منه قليلا ، له شارب ماتو طويل يصل إلى أذنيه . ثم عانق الثاني وهو شاب صغير السن ، خفيف الجسم ، أسمر اللون ، أنيق الملبس ، تعلو وجهه مسحة من الكآبة والحزن . ثم جلسوا ، وأخرج أوس علبة التبغ وقدمها لهم ليدخنوا . ثم التفت إلى ابن أخيه وقال : آتنا قهوة . فرد الضيفان : شربنا ولك الشكر . ولكنه أكد فقال أوس : هاتوا ثانية .

مكثوا جميعاً لحظات غير قليلة في سكون تام وصمت مطبق ، ودم أوس يغلي كالمرجل غيظاً . جون واتا — الذي ظل عاماً كاملا يفتش عنه ليرديه قتيلا برصاصة من مسدسه ثأراً لأخيه — في بيته الآن ، ولا يستطيع إلا أن يستقبله كأحسن الأصدقاء مودة ، إذ سلطان العادة يقضي بذلك ! ولكنه أخيراً تغلب على نفسه ، وهدأ من ثائرته ، وتطلع إلى الوقوف على دواعي هذه الزيارة . وكان كلما وقع نظره على الشاب مرت بخاطره فكرة لم يشأ أن يعتقدها حقيقة حتى لا ينقطع عليه معسول الأماني .

وكان الضيفان لا يزالان ممنطقين ومسلحين بالمسدسات ، فقال لهما أوس بعد أن فرغوا من شرب القهوة : خففا السلاح عنكما يا سادة . فأخرج «جون واتا» مسدسه ذا اليد الفضية وسلمه إلى أوس ، وكذلك فعل الشاب . ثم التفت أوس إلى ابن أخيه وقال : يا ميراش ! بنا شوق لشرب النبيذ فأحضر لنا مقداراً من النوع الجيد . ومكثوا يشربون ويدخنون طويلا في جو من الصفاء . إلا أن الشاب كان دائم الصمت ، بادي الحزن ، مطرق الرأس ؛ ومع أن أوس وجون واتا طرقا أبواباً شتى من مختلف الأحاديث فإنهما لم تقع عين أحدهما على صاحبه ، وابتعدا عن كل ما يذكر بما بينهما من عداوة .

بعد زمن رفع جون كأسه ثم التفت إلى الشاب وقال : في حياتك يا حضرة المحترم ! لا تفكر طويلا ، واطمئن ما دمت في كنف السيد أوس وحمايته .

— في عزك وحياتك . قال الشاب هذه الكلمة بصوت الذي استيقظ من نوم طويل عميق . ثم عقب بقوله : معذرة أيها السيدان إذا أنا لم أقاسمكما الحديث ، فإن الأفكار أتعبتني وأنهكت قواي . وقد وصلت بجهد ومشقة إلى بيتكما .

فهم أوس كل شيء !! الآن لا يتسرب إليه شك أن هذا الشاب الذي جاء به جون هو الصحفي الذي من أجله فزع رجاله في الطرق والممرات حتى لا يفلت . «ذكي جداً هذا الشيطان جون» ! لقد كان في استطاعته أن يلجأ إلى حيلة أخرى لنجاة هذا الشاب ، ولكنه عرف بثاقب فكره وبعد نظره ، أنه إن فعل غير ما فعل ستمتد يدي إليه ليس كعدو لي فقط ، ولكن كمجرم أمام الحكومة أيضاً .

لألبانيا — ككل البلاد — عادات وتقاليد عجيبة ، وسلطان تلك العادات والتقاليد من القوة بحيث لا يجرؤ إنسان أن تحدثه نفسه بمخالفته . وأوس من هؤلاء النوادر الذين يتعصبون لعادات بلادهم وتقاليدها ، ويحلونها المحل الأول ؛ فهي عنده فوق كل اعتبار وفوق

كل أمر حكومي ، بل وفوق كل شعور .

التفت أوس إلى جون وقال : خير إن شاء الله . ما قصة الشاب الذي لا أعرف عنه حتى ولا اسمه . فقطع الشاب كلام أوس قائلا : شوكت قاش .

تشرفنا بهذا السيد الذي أسعدنا بنزوله ضيفاً علينا ، سأبذل إن شاء الله كل ما في استطاعتي لأقوم بواجبات الضيافة التي رسمها لنا آباؤنا .

وكانت المائدة قد أعدت ، فانتقلوا إليها ليتناولوا عشاءهم . ولكن جون ابتدأ الحديث عن المهمة التي جاء من أجلها فقال : أدام الله عزك وشرفك يا أوس . ثم نظر إلى عينيه لأول مرة منذ قدومه ، واستمر في حديثه ، هذا السيد — وأشار إلى الشاب — يحدق به خطر دائم ، فالحكومة تبحث عنه ، والويل له إن قبضت عليه . وإنه قد استجار بي ، وإني قد أجرته ، ثم أتيت به إليك لتبذل له معونتك ، فتعبرها لا يجتاز الحدود سالماً مطمئناً .

وفي أثناء كلام جون قرر أوس كل ما سيفعل . ثم نظر إلى مناقشه وقال : من أجلك سأعمل المستحيل يا سيدي . أما الآن فلنأكل ، ثم ندبر ، ثم أخذ يبادلهم التحيات . وبعد أن مضى وقت طويل من العشاء ، قام صاحب البيت وقال : أيها الرجال ! جاء وقت العمل ، هيا تسلحوا . وبعد أن أخذوا الأهبة ونزلوا من السلم ، وفي نهايته قال جون وداعاً : دائماً في الأفراح يا أوس ، ثم عقب على ذلك بقوله : ليس من الضروري أن أجيء معكم ، وسأذهب إلى البيت أطال الله عمرك ، إني عاجز عن شكرك لما أسديت لي من معروف نحو هذا الضيف ! فأجابه أوس قائلا : وفي أفراحك إن شاء الله أمع السلامة . ولكنك لن تذهب إلى بيتك وحدك . ثم نادى : يا ميراش ! رافق السيد جون إلى بيته ، ثم تعانقوا وافترقوا .

كان الجو صافياً ، والنسيم عليلا ، وكانت السماء مطرزة بالنجوم ، وقد قرب النهار أن يطل على الكون مملوءاً بالحركة والنور .

سار شوكت مسترشداً بأوس الذي كان يخطو مطمئناً كل الاطمئنان . وبعد ساعة وصلا إلى ممر ضيق فدخلا في فجوة صغيرة منه . وصاح أوس : نيقولا ! دود ! فجاءه الرد من آخر الممر : من ؟ وما الخبر ؟

— أنا أوس . أين أنتما ؟ وهل معكما أحد ؟

— نحن هنا . وليس معنا أحد .

ولما تلاقوا نظر الشابان إلى السيد الذي يستصحب والدهما في احترام ظاهر ، ولكنهما لم ينبسا ببنت شفة . ونكسا رأسيهما ، ومشيا وراء والدهما في سكون وصمت . في هذا الوقت كان النهار قد أخذ يمسح جبين الكون لمة الظلام ، وكانوا قد وصلوا إلى نهاية الممر ، وبدا لهم نهر طويل وادان شاطئاه بأشجار كثيفة . وهنا قال أوس مشيراً للصحفي : الآن أيها السيد قد نجوت ... بعد هذا النهر وطن غير وطننا . كنت آمل أن أخرج من هذا الممر ضابطاً بثلاث نجوم . وها أنذا الآن أخشى أن أخرج وقد زالت عني النجمتان ! ومع ذلك فلا بأس ولا ندم ، فالحياة بغير تضحية ، وبغير مروءة ، وبغير ضيوف ، ليست لها قيمة في حياتنا . رافقتك السلامة ، وصاحبك التوفيق أيها الضيف العظيم !

— رعاك الله بعنايته ، وأغدق عليك سحر حمايته أيها الجواد الكريم ! لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت . هكذا أجاب الصحفي . وبعد أن تعانقوا جميعاً أسرع الصحفي في خلع ملابسه ، ثم ألقى بنفسه في النهر سابحاً . وبقي أوس وأولاده يراقبونه إلى أن وصل سالماً إلى الشاطئ الآخر ؛ وحينئذ قفلوا راجعين وأوس كله بشر وسرور ، فقد قام بالواجب نحو ضيفه من غير أن يفكر في ضياع رتبته .

تلخيص

إبراهيم عبد الله — رشدي إسماعيل صقر

بين المسموع والمقروء

هدية إلى الروحاني المصري ، الأستاذ أبو الخير

ليس التصديق السهل موجوداً في مصر وحدها ، أو في الشرق وحده ، بل هو كذلك موجود ، أحياناً ، في كبرى عواصم الدنيا . ودليل هذا امرأة عجوز سيقت الحاكمة ، إلى محكمة بوليس في عاصمة بريطانيا ، لندن

أما تهمتها فيستدل عليها من قول النيابة إنها تريد تطبيق قانون احتراف السحر ، قانون عام ١٧٣٢

والمرأة المتهمة أتمت عامها الثاني بعد السبعين . وتهمتها أنها تعقد حلقات تستدعي فيها الأرواح لختل الناس وخداعهم عن أموالهم .

شهد جاويش بأنه حضر إحدى جلساتها . فقالت له المرأة العجوز إن أباه يريد التحدث إليه . وما لبث أن دخلت في غيبوبة . وما لبث أن قالت له بصوت غليظ ، هو صوت أبيه : « لا تحزن ! فأمك وأخوك يوسف معي . وكلنا سعداء هنا » .

قال الجاويش : « ولا يعيب هذا الحديث الذي جاءني من وراء الغيب إلا أن أمي على قيد الحياة ، وأن أخي لا وجود له »

وتهمة أخرى أنها في جلسة دخلت في غيبوبتها المعتادة ، وقالت إن الروح التي تقتادها هذه المرة في عالم الأموات هي روح رجل من الزولو ، وهو شيخ قبيلة في أهله ، وإنه حاضر تلك الساعة بنفسه . وزيادة في الإقناع قالت إن اسمه أمشبا .

وتهمة ثالثة . أخذت من فتاة « شنطتها » لتمس بعض أشيائها ، وهو شرط لا بد من وفائه ، ثم قالت لصاحبة « الشنطة » : « إنك فقدت عزيزاً . كان ذلك من ثلاث سنين . أليس كذلك ؟ »

فردت الفتاة تقول : « إني فقدت أمي منذ ثلاثة أسابيع »

قالت المرأة العجوز : « نعم ! نعم ! هي أمك . وهاك رسالة منها : بارك الله فيك يا وردة . اعتني بأبيك . إني سعيدة في عالم الأرواح »

قالت الفتاة : « ولكن اسمي ليس وردة »

قالت المرأة التي ترى من وراء الحجب : « إن لم يكن اسمك وردة ، فاسمك بنفسج ، أو اسمك فلة أو زنبقة . هو على كل حال اسم زهرة . فإن لم يكن كذلك فلا شك أنك وُلدت في الفصل الذي يجود بهذه الأزهار »

محصول !

في مصر تظهر الشمس أكثر العام ؛ وفي الشمال من الكرة الأرضية تحتجب الشمس أكثر العام . وهي في مصر حارة شديدة ؛ وهي في الأقطار الشمالية ضعيفة باردة . وحيث الشمس حارة تجود الأرض بالزرع والثمر ؛ وحيث هي باردة تجود كما يجود البخيل . ومن أجل هذا يكون للأرض بأقطار الاستواء المحصولان والثلاثة والأربعة من المحاصيل ، ويكون للأرض في الأقطار الأوربية الشمالية محصول أو محصولان .

ولكن رجلا اسكتلنديا ، له بجوار إدنبرة ١١ فداناً ، استطاع أن يحصل من أرضه على ستة محاصيل وثمانية في العام . وليس هذا كل شيء . فانظر لمحصوله من هذه الإحدى عشرة من الأفدنة في عام :

٣٤٣٦٩٥ رأس من الخس ، ٩٤٥٠٠٠ رأس من اللفت ، ١١٠٢٨٠٠ جزرة ، ٤٦٠٠٠٠ قرنبيطة ، ١٥٠٠٠٠٠ كراثة ذات شوشة ، ٢١٩٦٠ حزمة من الفجل الأحمر كل حزمة بها ٢٥ فجلة ، ٢٧١٣٢٠ كرفسة ، ٥٦٠ رطلا من البصل ، ٧٥١٧ قرعة ، ١١٧٠ رطلا خياراً ، ٥١٨ رطلا من الفصوليا ، ٤٨٠ حزمة نعناع ، ٢٢٨٠ رطلا من الطماطم ، ٦ أطنان من الروبارب أو الراوند ، ٢٨٤ كيساً من الكرنب الفرنسي الصغير وبكل كيس عشرون رطلا

فأي محصول هذا ! في بلد كهذا ! وكيف صنع هذا الرجل كل هذا ؟

السر

صنعه بشيئين : الحرارة والسماد

أما السماد : فهو يعطى الفدان الواحد ١٠٠ طن من الأسمدة والمواد المتحللة .

وأما الحرارة : فهو يسخن أرضه تسخيناً . فقد ركب في أرضه ، على بعد قدمين من سطحها ، أنابيب شبرت الأرض كلها من رأسها إلى قدمها . وفي الأنابيب يسير البخار ، كثيراً أو قليلا . وهو يسيّره كثيراً حاراً إذا أراد أن يقتل ما في الأرض من حشائش ، وفي هذه الحالة ، ولهذا الغرض ، يستمر سير البخار ساعة ونصف الساعة .

ولكنه يسيّر البخار هيّنا لتدفئة الأرض إذا برد الجو .

وقسّم أرضه إلى مربعات تحدها عرائض من الخشب تحمل أغطية من الزجاج ، تحفظ على الأرض دفئها عند الحاجة .

وهو زيادةً في تركيز زراعته لا يترك فترا دون أن يقيم فيه ساقاً أو جذراً . وهو يؤلف في البقعة الواحدة بين شتيت النبات . فترى الخس واللفت والجزر والقرنبيط تسكن جميعاً منزلا واحداً ، وتسكنه معاً . فهو يبذر بذور الجزر أولا ، ثم يبسط الأرض ؛ ثم يزرع الخس . وبعد ستة أسابيع يزرع اللفت بين هـذا وهذا . فلا يلبث الخس أن يُقطَع حتى يكون الجزر قد علا وطال نحو الشمس ، وفي هذا الوقت يزرع القرنبيط . وعند تمام نمو القرنبيط ينضج اللفت ، ثم يتبعه الجزر

إن الأرض تجود دائماً ، ولا تقول لا أبداً ، ما أعطيتها دفئاً وطعاماً ، ومع الدفء الضياء . فهي في ذلك مثلي ومثلك

جاري الفلاح

لقد ذكرني بهذه القصة فاستطلعتُها فلاح أراه من شباك منزلي يعمل في أرضه . وهي ليست بالطويلة العريضة . فإني أحسبها فدانين ، ومع هذا يتغيّر وجهها تغيراً سريعاً حيّر بصري . وأمعنت البصر ودققت الملاحظة فعرفت أن الرجل يفهم وظيفة السماد وفي هـذا الصيف أراه قسم أرضه قسمين . وركّز على زراعة الذرة . ولكنه لا يترك الذرة تستتم نموها . فهي لا تكاد تبلغ المتر طولا حتى يقصها قصاً ، ثم هي تُحمَل على العربات لتُعلَف به الماشية . وبينما أحد النصفين يجود ، إذا بالنصف الآخر يُعَد ، والفترة يُعَد ، ولست أدرى كم محصولا من هذه الذرة جنى في فترة ثلاثة أشهر أو أربعة

وحصل مرة أن رأيته جمع الرجال وظلوا ينثرون شيئاً ، في جهد وفي عجلة ، كأنما يطاردون طاعوناً ، وكان الزرع قد نما بحيث اخضرت به الأرض . وسألت فعلمت أنه الكبريت ينثره دفعاً لمرض ، فالرجل إذاً على جهله خبير بالنبات في صحته ومرضه ، وهو مما يقطف من ربح جدير .

إن الأرض خيّرة طيّبة ، وهي خدوم ، ولكنها تطلب السيّد الذي يحسن بالعلم سيادتها

كيف تنام

هل سألت نفسك مرة كم تنام وكيف تنام ؟ أنا نفسي ممن لا يكادون يضعون رءوسهم على الوسادة حتى يغيبوا عن الكون . ولكن زوجتي ليست كذلك . وسألت طبيبي الصديق في هذا ، وقلت له إننا سواءٌ في خلو البال ، أو على الأصح سواءٌ في انشغاله . قال طبيبي : إن استويتما في الهمّ فالأمّ أحس قلباً . فهي أبعد نوماً من الرجل ، والنساء في عمومهن ينوّامون خيرا من الرجال .

قلت : فما الحامل على النوم غير هذا ؟

قال : التعب الجسمي أكثر حملا على النوم ، فكثيراً ما ترى الرجال تنام بعد استفراغ قواهم . فتلك نومة التعب ؛ وهي نومة العافية إلا بعد إجهاد مُضنٍ .

قلت : فالذين يعيشون بأفكارهم ؟

قال : هؤلاء أقل نوماً . وإنك لترى ، إذا استوت الطبائع ، أن الجهل أجلب للنوم من العلم ، والغباوة أجلب له من الذكاء .

مذاكرة النفس

قلت : فكيف لصاحب النوم القليل أن يكثّره ،

وكيف لصاحب النوم المضطرب أن يطامنه ؟

قال : يكون هذا ، أول شيء ، بالموازنة بين مجهود المرء الجثماني ومجهوده العقلي ، ثم بملاقاة أسباب القلق قبل دخول الليل ، وأن تلاقيها وجهاً لوجه .

قلت : وكيف يكون ذلك ؟

قال : عاود نهارك كله بالذكر : ما صنعتَ فيه ، وكيف صنعته ، وأين أحسنت فيما صنعت ، وأين أسأت ، وكيف تعمل حتى لا تعود إلى الإساءة مرة أخرى ؟ ومن الوجهة الجثمانية سل نفسك : كم تحركت وكم قعدت ، وعِدْ نفسك بأن تزيد من الحركة أو القعود في الغد . ومن وجهة العاطفة والشاعر : حاسب نفسك عن غضبك ، ومقدار ما بذلت في يومك من كراهة ، ومن ذلة أو إذلال . واصدقْ نفسك في كل هذا ، ولا تُوارِ عنها ، ولا تبالغ في إساءة أعطيتَ ، ولا إساءة أخذتَ . وإنك لواجدٌ في هذه المواجهة الصريحة شفاء ، فهروب النوم أكثر ما يكون لهمٍّ مُبهم لم يقطع المرء فيه ، أو أمر مُغلَق تخوف كلَّ الخوف في انغلاقه . فافتحه تجده فارغاً .

الويل من ناعبات الليل

قلت : زدني بالله عليك

قال : ونصيحة أخرى تنفع زوجك إذا أخذتَ بها . وتنفعك إذا أخذتْ بها زوجك : إذا جاءك خبرُ سوء ، فلا تطلع عليه أحداً بعد غروب الشمس أبداً . أمهله حتى الصباح . وفي وَضَح النهار ، وفي أشعة الشمس التي تملأ الأرض والسماء ، اسكب الخبر في أذُن من تشاء ، تجد من شدة حسه بحقيقة الوجود والحياة ما يلهي عنه بعض حقيقة البلوى .

صوت عالٍ

مجلسٌ صاحبه الوزير القاسم بن عبيد الله . وفي مجلسه أبو إسحاق الزجاج ، وجارية تغني :

أذِلُّ فأُكرَمُ به من مُدِلٍّ ومن ظالم لدمي مستحلّ
إذا ما تعزَّزَ قابلته بذلٍّ وذلك جهد المقِلّ
وأسلمتُ خدي له خاضعاً ولولا ملاحته لم أذِلّ

فاستحسن القوم الصنعة ، وطربوا الصوت طرباً شديداً .

خبر أعلى

فقالت الجارية لرب المجلس : هــذا شعر حسن ، ولكن له خبراً أحسن منه . قال الوزير : فما هو ؟ قالت الجارية : إنه لأبي حازم القاضي .

فأخذ المجلسَ العجب ، وجرت فيه ابتسامات . ذلك أن القاضي أبا حازم كان معروفاً بزهده وبتقشفه ، فهو أبعد الناس عن الحب ، وأبعدهم من الشعر .

قال الوزير : يا أبا إسحاق بالله عليك إلا ذهبت إلى أبي حازم فسألته عن خبر هذا !!

ومضى أبو إسحاق إلى أبي حازم فيأتيه في الصباح الباكر . ويدخل عليه وقد خلا مجلسه إلا من شاب في زيّ القضاة . قال أبو إسحاق : يابن حازم ، بيني وبينك شيء أقوله على خلوة . وأومأ إلى الفتى الجالس . فقال ابن حازم : قل ما تريد فليس هنا ممن أكتمه شيئاً .

وقص أبو إسحاق خبر المجلس وما ذُكر فيه ؛ فتبسم ابن حازم وقال : هــذا شيء قلته في الحداثة في والدة هذا — وأشار إلى القاضي الشاب ، وقد كان ابنَه — واستطرد يقول : كنت أصبو إليها ، وكانت لي مملوكة ولقلبي مالكة ، فأما الآن فلا عهد لي بمثل هذا الشعر منذ سنين ، وإني أستغفر الله ، مما مضى .

خجل :

عند ذلك وجم القاضي الفتى ، وتصبب عرقاً

الحب في كل قلب

وعاد أبو القاسم إلى الوزير فأفضى إليه بالذي جرى . فضحك لخجل الابن من حبّ أبيه ، ثم قال : يا للحب ! إنه في كل قلب ؛ لو سلم أحد من العشق لكان أبا حازم مع تقبّضه وتزهده .

« الجزنوسي »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٩٧٦٩

العدد ٢٩٧ | الثلاثاء ١٧ من رمضان سنة ١٣٦٣ — ٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

شركة زُرّاع السـودان

تحدثت الصحف أخيراً عن شركة زُرّاع السودان . وتطوعت بعض صحف لندن بهذه المناسبة بإقحام مصر والمصريين . ولا أذكر أني قرأت عبارة في صحفنا تصحيحاً لما ذهبت إليه تلك الجرائد . ولهذا أرجو ألا يكون هنالك بأس ، في أن أتناول هذا الموضوع اليوم . والحديث عن « زراع السودان » ، ليس المقصود منه زُرّاعه الحقيقيون من أبنائه ورجاله ، الذين يحرثون الأرض ويسقونها ؛ وإنما زراع السودان ، الذين جاء ذكرهم في صحفنا وأثاروا ضجة متوسطة الحجم في الأيام الأخيرة ، هم شركة ليس أعضاؤها من السودان ، ولا يمتون إلى أبنائه بصلة الدم أو القرابة . بل هم شركة مالية تجد وتعمل لاستثمار أرض الجزيرة فيما بين النهرين : النيل الأبيض والنيل الأزرق .

وحديث هذه الشركة ليس مرتبطاً بشئون السودان وحده ، بل كان له اتصال متين بشئون مصر أيضاً . ولا شك أنه لولا الحرب الثائرة اليوم وأحداثها الجسام ، لكانت الضجة التي أثيرت حول تلك الشركة أجل وأعظم . بل ليس من المستغرب مطلقاً أن يثار الموضوع مرة أخرى في وقت أشد ملاءمة من الوقت الحاضر ، وبصورة أقوى مما أثير بها اليوم .

أنشئت شركة زراع السودان في عام ١٩٠٤ ، أي منذ أربعين عاماً ، وهي شركة بريطانية مركزها مدينة لندن . وقد أسست ، ولم يمض على إنشاء النظام الجديد في السودان خمسة أعوام . وقد رأى مؤسسوها أن أرض الجزيرة الخصبة لا تلبث أن تؤتي أطيب الثمار ؛ وأن ثمن

الأراضي الزهيد سيكفل الربح العظيم . ومع ذلك ، فقد بدأت الشركة عملها في شيء من التواضع ، إذ كان رأس مالها في وقت التأسيس لا يزيد على ٨٠٠٠٠ من الجنيهات ، ولكن هذا المال قد زاد فيما بعد ، حتى أصبح مليونين ونصف مليون من الجنيهات .

وكان الاتفاق الأول بين حكومة السودان والشركة يقضي بأن تقوم الشركة بزراعة ١٠٠٫٠٠٠ فدان في سهل الجزيرة ، على أن تروى هذه الأراضي بواسطة « قناطر » تبنى على النيل الأزرق ، وتقوم الحكومة ببناء القناطر وحفر الترع الرئيسية ، وتقدم الأرض الزراعية أيضاً ، ثم يقسم الإيراد بين الشركة والحكومة والزراع من أهل البلاد .

وبدأت الحكومة في دراسة المسائل الهندسية الخاصة بالمشروع ، فتراءى لها أن تنشئ بدلاً من القناطر سداً على النيل الأزرق . والقارئ يدرك من غير شك الفرق الكبير بين العملين من مقارنة قناطر محمد علي مثلا ، ووظيفتها الوحيدة هي رفع مستوى النهر من أجل تغذية الترع ، ذات المأخذ المرتفع ؛ أما السد مثل سد أسوان ، فإنه عمل هندسي أعظم وأضخم ، لأن الغرض الأكبر منه ليس مجرد رفع مستوى النهر ، بل وتخزين مقدار عظيم من الماء ، ولهذا لا بد من بناء ذي نفقات باهظة ، لكي يحتمل ضغط المياه المختزنة .

وهكذا اتخذ المشروع صورة أعظم وأفخم . ولكن الحرب العالمية أدركته وهو في بدايته ، فتعطل العمل في بناء السد ، ولم يتم تماماً إلا في عام ١٩٢٥ . وفي تلك السنة أمكن ملء الخزان المرة الأولى .

كان نص الاتفاق الأول بين الحكومة والشركة ، يقضي بأن ينتهي الامتياز الممنوح للشركة في عام ١٩٢٥ ؛ ولكن لم يكن بد بعد التوسع في المشروع والتأخر في تنفيذه ، من عقد اتفاق جديد ينتهي بمقتضاه الامتياز في شهر يونيه سنة ١٩٥٠ ، أي أن الامتياز لا يسري إلا خمسة وعشرين عاماً فقط بعد إنشاء الخزان .

ولا شك ، أنه يبدو لأول وهلة أن في هذا الاتفاق ظلماً غير قليل للشركة ؛ فإن مدة خمسة وعشرين عاماً لشركة خصصت رأس مال يزيد على مليونين من الجنيهات قد تبدو مدة قليلة . ونحن هنا في مصر نعرف أن امتياز شركاتنا يصل في العادة إلى ما يقرب من قرن كامل ؛ وكثير منها يحصل على امتداد الامتياز في غير مشقة كبيرة ، ولهذا يبدو لنا كأن شركة زراع الجزيرة قد عوملت معاملة قاسية .

ولكن من الواجب ألا ننسى أن رأس مال الشركة المذكور يعد قليلاً إذا قيس إلى تكاليف المشروع كله . فإن العبء الأكبر في الإنفاق على المشروع وقع على الحكومة ، وبالتالي على الشعب . فالحكومة هي التي أنشأت خزان سنار ، وحفرت جميع الترع والسواقي الرئيسية التي تغذي أرض الجزيرة ؛ والحكومة هي التي استأجرت الأراضي من ملاكها الأصليين بأجر زهيد لم تكن الشركة لتستطيع أن تحصل عليه بمجهودها الخاص . وقد قدمت حكومة مصر والسودان خبراءها ورجال الري فيها لخدمة المشروع دون أن يتقاضوا على ذلك أجراً . ويبلغ ما أنفقته حكومة السودان على المشروع أضعاف ما جمعته الشركة من مساهميها .

وهنا يعرض للقارئ من غير شك أن يتساءل : كيف حصلت حكومة السودان على المبلغ الضخم الذي لا بد منه للإنفاق على مشروع هائل مثل زراعة الجزيرة وما يتصل به من المشروعات ؟ وقد أريد به أن يشمل في النهاية ثلاثة أو أربعة ملايين من الأفدنة . وليس الأمر قاصراً على إنشاء السد العظيم ، بل لا بد من حفر قنوات

مدينة ، ومد خطوط حديدية لنقل الغلات الزراعية إلى بور سودان ؛ وإنشاء محطات لتوليد القوى الكهربائية ، وغير ذلك من المشاريع التي تتطلبها أعمال الإصلاح والتعمير والإنشاء .

من أجل تنفيذ هذه المشروعات لجأت حكومة السودان إلى الأمر الوحيد الذي تلجأ إليه كل حكومة تنشد أعمال الإصلاح التي يرجى لها أن تثمر وتؤتي أكلها مضاعفاً ، وذلك الأمر هو الاستدانة . فميزانية حكومة السودان لم تكن وقت إنشاء الخزان تزيد على مليونين من الجنيهات ، والمشروع يتطلب بضعة عشر مليوناً . وقد تفضلت الحكومة البريطانية فضمنت حكومة السودان في الأسواق المالية بلندن ، فتهافت رجال المال على اختطاف سندات الديون السودانية ، لأن أسعارها كانت كريمة ، إذ يتراوح الربح ما بين ٤½ و ٥½ في المائة ، ولمثل هذه السندات يتنافس المتنافسون من رجال المال في عاصمة المال .

وأخذت حكومة السودان تقترض بالتدريج من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٧ ، حتى بلغ مجموع ما عليها من الديون ١٥٫٢٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات الإنجليزية(١) . وهذه الأموال لم تخصص كلها بالطبع لإنشاء الخزان وحفر الترع ، بل المشروعات العمرانية الأخرى أيضاً مثل مد الخطوط الحديدية . وهكذا نرى أن الحكومة قد أنفقت على المشروع ستة أمثال رأس مال الشركة ، إذا لم ندخل في حسابنا النفقات التي صرفت من الميزانية العادية ، والخدمات التي يؤديها رجال الدولة . ولو أدخلنا هذا كله في حسابنا لما كان لنا مندوحة من أن نحسب أن ما أنفقته الحكومة يعادل عشرة أمثال ما أنفقته الشركة . وعلى كل حال فإننا لا بد لنا ، إذا أسرفنا في التواضع ، أن نقدر أن مشروع الجزيرة قد كلف الدولة والشركة معاً نحو عشرين مليوناً من الجنيهات ، وأن النسبة بين نفقات الطرفين هي ١٢٪ للشركة و ٨٨٪ للدولة .

أما عن الغلات الزراعية — وعلى الأخص القطن ، وهو الذي من أجله أنشئ المشروع — فإنه يوزع بين ثلاث هيئات : الزراع الوطنيين (٤٠٪) والحكومة (٣٥٪) والشركة (٢٥٪) . وربما تساءل بعضنا لماذا لم تقم الحكومة بهذا المشروع كله من أوله إلى آخره ما دامت في النهاية قد أنفقت عليه كل هذه الأموال التي بلغت ٨٨٪ من النفقات ؟ والرد على هذا السؤال يكون بالرجوع إلى تاريخ المشروع ، فإن الشركة كانت السابقة إلى التفكير في استغلال أرض الجزيرة وذلك منذ أربعين عاماً ، في وقت كانت الحكومة منصرفة إلى تنظيم الإدارة ، واستكمال أداة الحكم ، وأيديها ممتلئة بالأعمال والمشروعات العمرانية في مختلف النواحي ؛ فإلى الشركة يرجع الفضل في أنها أقدمت على مشروع لم تكن واثقة كل الثقة من نجاحه ، وأنفقت المال فترة من الزمن قبل أن تجني أرباحاً .

وبهذه المناسبة لا بد لنا أن نذكر أن الشركة لم تنتظر حتى ينشأ الخزان ، بل أخذت تزرع في الجزيرة مساحة طيبة من الأرض تبلغ ٢٠ أو ٣٠ ألفاً من الأفدنة بواسطة الآلات الرافعة التي تستمد الماء من النيل الأزرق . وكانت زراعتها واقعاً لأحسن أنواع القطن المصري ذي التيلة الطويلة . ولا شك أن توحيد الإشراف الزراعي في يد الشركة قد كانت له فائدة اقتصادية كبيرة ؛ لأن الشركة هي التي تملك المحالج ، وهي التي تتولى شراء البذور الجيدة وتوزيعها على الزراع ، وتتعاون مع رجال الري في السودان على توزيع المياه بالقدر الضروري المفيد ، وهي تتولى بيع المحصول بأحسن الأسعار في الأسواق العالمية .

أما المساحة التي تشرف الشركة على زراعتها فإن لها

(١) يراجع البيان الكامل عن ديون حكومة السودان في التقرير السنوي الذي أصدرته حكومة صاحب الجلالة البريطانية عن عام ١٩٣٤ ، وفيه بيان تفصيل عن مالية السودان ، وشروط إصدار تلك الديون .

حديثاً طويلا ، وخطراً عظيما جعلهــا من المسائل الدولية المالية . فقد شجر خصام حاد عنيف بين مهندسين بريطانيين حول التوسع في زراعة الجزيرة ، حتى اضطرت الحكومة البريطانية لأن تدعو لجنة عالية محايدة إلى حد كبير ، فقضت هــذه اللجنة لما كدونالد وسفهت رأى ويلكوكس . ثم عقد اتفاق بين الحكومتين البريطانية والمصرية في عام ١٩٢٠ على أن تكون مساحة أراضى الجزيرة الداخلة في اختصاص الشركة ٣٠٠٫٠٠٠ فدان ، وظل هــذا الاتفاق سائداً خمس سنين لا تشوبه شائبة . ولكن لا شك أن الشركة لم تكن راضية عنه كل الرضا ، وظلت تتربص الفرص لتعديله . وربما كانت حكومة السودان أيضاً متبرمة بهذا الاتفاق . ولا شك أن تحديد الرقم بثلثمائة ألف من الأفدنة كان أمراً سيعدل بمضى الزمن ؛ ولكن الأمر الذى يأسف له كل مصرى وسودانى وبريطانى ، هو أن ذلك التعديل قد أجرى بطريقة عنيفة وعناصية أثيمة ، وهى الاعتداء على السردار السر لى ستاك . ولا حاجة بنا لأن نطيل الكلام في هذا الموضوع الأليم الذى تناسيناه جميعاً ، بفضل ما تلاه من تحسين الصلات وعقد المحالفات بين مصر وبريطانيا ؛ وقد كان لهذا أثره في تحسين وجهة النظر فيما يخص مياه النيل ومشروع الزراعة في أرض الجزيرة .

ولم يكن من الممكن بالطبع أن يؤجل البت في أمر مشروع الجزيرة ومساحة الأرض الداخلة تحت إشراف الشركة إلى أن تعقد المحالفة المصرية البريطانية . ولذلك عملت الاتفاقية الخاصة بهذا الموضوع في مايو سنة ١٩٢٩ ، وبمقتضاه تقرر ألا تكون زراعة الجزيرة مقيدة بمساحة من الأفدنة ، بل يكتفى بتنظيم فتح وإغلاق أبواب خزان سنار في مواعيد مقررة وموضحة في ذلك الاتفاق ، وفي تقرر لجنة مياه النيل .

ومن الحق أن نقرر أن الشركة لم تنتظر إعلان هذا الاتفاق لكى تتوسع في زراعتها في الجزيرة ، لأنها كانت تتوقعه ، ولذلك زادت المساحة التى تشرف عليها إلى ٣٩٧٫٠٠٠ فدان في عام ١٩٢٨[1] . وهكذا نرى أنه بمقتضى الاتفاق الجديد يصرف النظر عن موضوع المساحة اكتفاء بسحب المقدار المتفق عليه من ماء النيل الأزرق ، وهــذا المقدار المتفق عليه هو من الكفاية بحيث لا تجد الشركة ضرورة لاستنفاده كله ، مع أن المساحة قد زادت حتى قربت مليوناً من الأفدنة .

ولكن هذا المليون فدان لا يزرع كله ، لأن نظام الدورة الذى تتبعه الشركة يقضى بإراحة مساحة من الأرض في كل عام . وكان هذا النظام فيما مضى يتبع دورة ثلاثية . ثم رأت الشركة أن الأرض قد أخذت غلتها من القطن تتناقص عاماً بعد عام حتى بلغت أقل من قنطارين للفدان الواحد ؛ ولذلك قررت الشركة أن تكون الدورة رباعية ، بحيث تزرع الأرض قطناً مرة واحدة في كل أربع سنوات . ولا شك أن هذا النظام قد كان له أثره في تحسين الغلة تحسيناً مطرداً .

ولابد بعد ذلك أن يتبادر إلى الذهن سؤال لا مفر منه ، وهو : هل حقق المشروع الآمال ؟ ولا مفر في الإجابة عن هذا السؤال من أن نذكر أن هنالك آمالا ثلاثة ، وهى : آمال الحكومة ، وآمال الشركة ، وآمال إخواننا الذين يزرعون الأرض ويحرثونها . ولا بد لنا أن نذكر حين نتكلم عن تحقيق الآمال ، أن هذه الآمال معقودة إلى حد كبير بغلة واحــدة هى القطن . ونحن أهل مصر نعرف تماماً أن القطن كثيراً ما يحقق وكثيراً ما يخيب الآمال ؛ هذا شأنه في مصر ، وهذا شأنه في أمريكا ، فكيف لا يكون هذا شأنه في السودان أيضاً ؟

(البقية على صفحة ٢٤)

(١) راجع التقرير السنوى عن السودان عن عام ١٩٣٤ الصادر بلندن سنة ١٩٣٥ ، ونشرته الحكومة البريطانية .

حديث رمضان :

(٣)

فى الحياة الروحية

قرأت مرة « أنه منـذ خمسين عاماً درس عالم طبيعى دراسة دقيقة جـداً ما يحتاج إليه الفأر الصغير لنموّه من عناصر اللبن المختلفة ، ثم جهز لبناً صناعياً يحتوى كل ما أثبته العلم مما يحتاج إليه الفأر من بروتين ودهن وسكر وملح وماء بمقادير كالتى فى اللبن الطبيعى تماماً . وقد أعدّه فى أحسن « معمل » وأتقنه . وإذا امتُحن اللبن الصناعى امتحاناً دقيقاً ظهر أنه لا يختلف أى اختلاف من اللبن الطبيعى ؛ وإذا اختبر فى الذوق لم يختلف عنه كذلك . ثم أطعم الفأر الصغير هذا اللبن الصناعى ، فلم ينمُ ، وقلّ وزنه ، وأشرف على الموت . ثم تقدم العلم فتبين أن هذا اللبن الصناعى ينقصه مادة ضرورية هى صانعة الحياة ، هى الفيتامين ، وربما شىء آخر وراء هذا الفيتامين .

أذكرنى ذلك بالفرق بين العلم والدين ، والمادة والروح ، والعقل والنفس . قد يكمل الشىء فى مظهره ، ويدل امتحانه على أنه لا ينقصه شىء ، ولـكنه فقد روحه كما يفقد هذا اللبن الصناعى هذا الفيتامين .

قد تقدم العلم فى القرن الأخير تقدماً باهراً فى كل فرع : فى الطبيعة ، فى الكيمياء ، فى النفس ، فى الاجتماع ، فى الصناعات ؛ ولـكنه لم يتقدم أى تقدم فى فهم « نظرية الحياة » ؛ وظلت – من غير جواب – تلك الصورة البديعة التى صورها فنان لطفل جيل مستغرب ، فى أرض جرداء ، فى مكان موحش ، وقد كتب تحتها الأسئلة الآتية : ماذا ؟ من أين ؟ إلى أين ؟

تقدم الطب والتشريح والجراحة ، وأتت الاختراعات بالعجائب من : تليفون ، وفونوغراف ، وراديو وعجائب الكهرباء ، وظلت العجيبة الكبرى – على حالها – وهى عجيبة الحياة كيف تدبّ ، والموت كيف يكون ! وعجز العلم بكل أسلحته وأدواته أن يتقدم خطوة فى هذه السبيل ، فمهما كانت الآلة المخترعة ضخمة دقيقة معقدة فهى آلة لا غير ليس فيها روح ، ومهما كان التمثال جميلا رائعاً فهو تمثال ينقصه ما طلب « بيجماليون » من ربّه لتمثاله ، أن ينفث فيه الحياة ؛ وظلت أكبر آلة وأعظم اختراع لا تدهش الإنسان كما تدهشه ذبابة كيف حييت ! وأعظم آلة تحتاج إلى عقل حى ليديرها ويشرف عليها

ما هذه الحياة ؟ من أين أتت ؟ إلى أين تصير ؟ لا يعرف العلم شيئاً ، ونشأتها محوطة بظلمة البطن ، ونهايتها محوطة بظلمة القبر ، وهى نور بين ظلمتين ، ونهـار بين ليلتـين . ومهما اجتمع الفيزيقيون والكيماويون فلن يستطيعوا أن يبعثوا الحياة فى خلية و ... « إنّ الذين تَدْعُون من دون الله لن يَخْلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له »

حلّل الخلية كما تشاء إلى كربون وهيدروجين وأوكسجين ونتروجين كما كان يقول بعضهم ، أو إلى إلكترونات كما يقول بعض آخر ، فإنها كلها ينقصها شىء لتكون الحياة ؛ وهى ليست الحياة ، كما أن اللحم والدم والنفَس ليس الحياة . واشرح نظرية النشوء والارتقاء كما تشاء ، فهى تفسر تدرج الحياة من نوع إلى نوع ، ولـكنها لا تفسر الحياة الأولى للخلية الأولى . إن العالِم يستطيع أن يشرح لنا بناء الجسم الحى من نبات وحيوان وم يتكون ، ويضع لنا المصطلحات لكل جزء ، ولـكن إلى هنا ويقف ؛ أما كيف دبّت الحياة إلى الخلية ، وكيف تنتج خلايا شجرة الورد خلايا مثلها حتى تنبت الورد ، وكيف تخالفها شجرة الياسمين فتنتج ياسمين ، وكيف يختلف الحيوان فى ذلك عن النبات فتكوّن الخلايا بقراً وغنماً

وفرداً وإنساناً ، فذلك ما لا يستطيعه العلم .

ثم كل حيّ إلى موت ، لا يفر منه أي شيء ، هو قانون الطبيعة الذي لا يتخلف . قد يستطيع العلم بمهارته وآلاته ومستكشفاته أن يؤخر الموت ساعات وأياماً ، وإن شئت فقل أشهراً وسنين ؛ ولكن كل وظيفته أن يؤخر لا أن يمنع ، فإذا حاول أن يمنع عجز عجزاً تاماً .

ثم هو عاجز أيضاً أن يفسر لنا ظاهرة الموت ! إن هذه الحياة التي أتت ولا نعرف من أين أتت ، لا نعرف أيضاً أين ذهبت .

إن الدين يبتدئ حيث ينتهي العلم ، فهو يفسر لنا الحياة والموت عن طريق العقيدة لا عن طريق المنطق ، فالله واهب الحياة « يُخرج الحيّ من الميت ويُخرج الميت من الحي ويُحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تُخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون »

وهو محد الحياة أثناء الحياة ، وهو سالب الحياة بالموت ، وهو باعثها من جديد ، « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تَخرجون ، وله مَن في السموات والأرض كلٌّ له قانتون ، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده ، وهو أهونُ عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »

والحياة مراحل ثلاث : دخولنا هذا العالم ، ورحلتنا فيه ورحيلنا عنه ، ولا سلطان لنا في مرحلتيه الأولى والأخيرة ، وإنما لنا مظهر قدرة في المرحلة الوسطى ، ليجري على أيدينا الخير أو الشر ، والنفع أو الضر . إننا لا نستطيع أن نُرجع عقرب الساعة إلى الخلف ولا إلى الأمام ، وإنما نحن « بندول » يتحرك يقيد علينا الثواني والدقائق ؛ قد قيد علينا الماضي وهو يتحرك في الحاضر ، ولا أعرف إن كان يتحرك أو يقف غداً ! وكل ما أنا مكلف به أن أعمل لإسعاد من حولي ، وإسعاد الإنسانية على قدر ما أستطيع .

فأما من آمن فسعد بالشعور باتصال حياته بإلهه ، وبالشعور بخلود النفس ، وأن الموت ليس إلا ظاهرة مادية كظاهرة الولادة ، وأن الروح التي أتت مع الولادة وكانت قبلها ، ستظل بالموت وتبقى بعده ؛ وأما من ألحد فالمستقبل مظلم والفناء مريع . عند المؤمن الموت نهر غزير عليه جسر عبور ؛ وعند الملحد الموت نهر غزير ينغمس هو في أعماق ظلماته . عند الملحد لا شيء يَخلُد ، وعند المؤمن هناك خلود الله وخلود النفس وخلود الحقيقة .

إن الدين يقرر إلهاً كاملاً في صفاته ، ويقرر إعظام الله ، وحسن الصلة بين الإنسان وربه بإقامة الشعائر ، وحسن الصلة بين الإنسان والإنسان باتباع القواعد والأخلاق ، وأخيراً يقرر بقاء الروح والحياة بعد الموت ، والجزاء الأوفى على ما عمل من خير أو شر .

فماذا عند العلم ليقوله في ذلك ؟ لا شيء !

لقد شهد القرن التاسع عشر والقرن العشرون معركة حامية بين رجال العلم ورجال الدين ، لأن كلا منهما كان يحاول أن يغتصب من الآخر ما ليس له ، وكان كل منهما مخطئاً . اغترّ العلم بقوته وبنجاحه في الآلات والصناعات ، وتغييره حياة الإنسان وأدواته تغييراً تاماً ، وإمداده بالقوة في مناحي الحياة المختلفة حتى اعتقد أنه على كل شيء قدير ، وشاع على ألسنة الناس البرهان العلمي والتحقيق العلمي وما إلى ذلك من ألفاظ . واعتقد الناس أن ما قاله العلم هو الحق وهو الصحيح . وطمع العلم أن يجري تجاربه على الإنسان ، كما نجح في تجاربه على قطعة من الحجر فيحلله إلى عناصره الأولى ، حتى حاول أن يرجع الأفكار والعواطف إلى المادة ، وأنها مظهر المادة كبعض صفاتها ؛ وكما تُفرز المعدة عصارة هضم يفرز المخ فكراً . وأخذ يحلله على هذا الأساس حتى شعره وحبه ، وحتى دينه وعقيدته في الله ؛ لا شيء إلا المادة وصفاتها ، والعالم ليس إلا آلة ضخمة كبيرة ،

ثم هي معقدة ، ولكن العلم قادر على شرحها ؛ وأخذ مذهب النشوء والارتقاء يحاول تفسير الأشياء وما يحدث لها تفسيراً علمياً من ألفها إلى يائها . وجرى على أن العالم ليس إلا مادة ولا حقيقة إلا المادة ، وأنها خاضعة في كل حركاتها لما تخضع له الآلة الكبيرة من قوانين ، وأنها تنشأ وترتقي آلياً بنفسها لا بغيرها ؛ لكن العلم على هذا النحو اصطدم بالحياة فعجز عن تفسيرها ، واصطدم بأن العناصر المادية للشيء تتكون ثم لا يكون الشيء ؛ واصطدم بجهله بحقيقة الأشياء وإن عرف مظاهرها وآثارها

إن العلم نجح في شرح مظاهر المادة فأداه غروره إلى أن يعرف حقيقتها ؛ إنه يستطيع أن يعرف « كيف » ، ولكنه لم يستطع ولن يستطيع أن يعرف « لماذا » . إن من اختصاصه أن يقول إن العالم الظاهري الطبيعي مركب من مادة وهو آلة تعمل ؛ ولكنه بدل أن يقول ذلك قال : « إن العالم المادي هو وحده الحق ، والمادة وحدها هي الوجود » . وبدل أن يقول في نشوء العالم إن الحياة ترتقي من البسيط إلى المركب بعوامل مختلفة . قال : « إن أصل الحياة وجد من هذا البسيط وتركب ، وإن أصل الإنسان لم توجده قدرة إلهية ، وإنما هو عمل حرارة الشمس في مادة بسيطة » . وبهذا تعدى العلم طوره واغتصب مالا علك ، وإنما علكه الدين ؛ فالدين وحده هو الذي يستطيع أن يفسر ما وراء المادة من حياة ونفس وإله ، ونحو ذلك من العالم الروحاني .

وقد اغتصب العلم ذلك من الدين رداً على ما حدث في قرون طويلة من اغتصاب رجال الدين لحقوق العلماء . إن من حق العلماء أن يقرروا كل ما يتعلق بالمادة وصفاتها كما تقوم عليه براهينهم . للجغرافي أن يقرر ما يقوم عليه البرهان من دوران الأرض حول الشمس لا الشمس حول الأرض ؛ وللفلكي أن يقرر النظام الشمسي وغيره كما يدل عليه علمه ؛ وللجيولوجي أن يقرر عمر الأرض بملايين السنين أو بالآلاف كما تدل على ذلك براهينه ؛ وللدارون أن يقرر النشوء والارتقاء من البسيط إلى المركب ؛ ولكل رجال علم الحق المطلق في أن يقرروا قوانين المادة التي يكتشفونها ، كلٌّ في اختصاصه كما يشاءون . فإذا اعترض رجال الدين على ذلك كانوا قد تجاوزوا حدودهم ، وتحدثوا فيما ليس من شأنهم . ولجهل هذا الأساس كان التاريخ وأحداثه الأليمة مظهراً من مظاهر اغتصاب رجال الدين لحقوق العلم ، أو اغتصاب العلماء حقوق الدين .

وأخيراً نرى في الأيام الأخيرة بين بعض رجال العلم وبعض رجال الدين حركة محمودة ، قوامها أن للعلم عالماً يجول فيه ما شاء ، وليس للدين أن يعترض عليه ، وذلك هو عالم الطبيعة ، عالم المادة بما فيها العقل والنفس ؛ وأن للدين عالماً يجول فيه ما شاء ، وليس للعلم أن يعترض عليه وذلك هو عالم الروح والله . وأن الخريطة التي رسمها العلماء للعلم مركزها وأفقها ليست هي الخريطة التي رسمها الدين . ويعجبني قول أحد رجال العلم المشهورين الأستاذ « مكس بلانك » ، في كتاب له عنوانه : « إلى أين يتجه العلم » : « ليس هناك تعارض حقيقي بين العلم والدين ، بل إن أحدهما ليُحمّي الآخر ويؤيده . وكل إنسان مفكر جادّ يرى أن عنصر الدين مغروس في طبعه ، ويجب أن يُتعهّد وينمّى ويرقّى كما تُرقّى وتتعهد عناصر الإنسان الأخرى لتتوازن العناصر وتتناغم . وليس من باب المصادفة أن عظماء المفكرين في كل عصر كان الدين متغلغلا في أعماق نفوسهم ، حتى ولو لم يُظهروا أمام الناس قوة شعورهم بدينهم . من التعاون بين العقل والدين ظهرت أجل ثمرة للفلسفة ، وأعني بها ثمرة الأخلاق . والعلم يرفع القيمة الأخلاقية للحياة ، لأنه يعضّد حب الحقيقة واحترامها ، أما حبه للحقيقة فيما أظهره من حب متواصل في معرفة عالم المادة وعالم العقل الذي حولنا ؛ وأما احترامه للحقيقة فلأن كل تقدم في العلم والمعرفة يجعلنا نواجه وجودنا الغامض »

أحمد أمين

النهضة السينمائية فى مصر

السينما هى معرض الحياة القريبة والبعيدة فى جدها وهزلها ، وهى المسرح العالمى الأول الناقل لثقافات الأمم من بعضها إلى بعض

إنى لا أستطيع أن أقدر ساعة أجلسها أمام الشاشة البيضاء، فأشاهد الشعوب من مختلف الألوان والأجناس ، وأرى رأى العين بلادهم ، وأستعرض عاداتهم ، وأسمع شدوهم وغناءهم ، دون أن أحرك فى سبيل ذلك قدماً أو أركب بحراً !

وليس من شك فى أن السينما هى العامل الأول فى ربط الشعوب بعضها ببعض ؛ وقد لا يمر زمن طويل حتى نرى الأمم جميعاً وقد اصطبغت بصبغة واحدة ، وتبادلت الأخلاق والعادات ، وأخذت كل واحدة منها مما عند الأخرى ، ولن يكون الرسل والسفراء فى هذا الشأن سوى شرائط الفلم ، وحسبى للدلالة على هذا ما حدث فى اليابان .

كان اليابانيون أمة محافظة على قديمها ، متمسكة بتقاليدها وعاداتها وأزيائها ، وكانت ترى فى تشبثها بطابعها الخاص شعيرة من شعائرها الدينية المقدسة التى لا تقبل فيها جدلا أو مناقشة .

هكذا كانت ، وهكذا بقيت ، حتى جاءها ساحر مسها بعصاه ، فانتقلت من حال إلى حال ، وتحولت من وضع إلى وضع ، حتى صار أمرها عجبا ؛ ولم يكن ذلك الساحر سوى السينما .

انتشرت دور السينما فى ربوع اليابان فأمها الشعوب ، ورأى الأهلون كيف يحيا الأوربيون والأمريكيون ، وكيف يتعاملون فى الحياة وكيف يعيشون ، وماذا يلبسون ، وما هى طرائقهم فى الجد والعمل ، أو اللهو والعبث ، وكيف تنشأ الأطفال ويربى الشباب ؛ رأوا فى كل هذا شيئاً يختلف عما عندهم ، وأعجبهم بعض ما فيه فأخذوا به وسلكوا سنته ، وقلدوهم فيما يفعلون .

فى عام ١٩٣٨ وضع المؤلف الفرنسى الذائع الصيت « مسيو فرايا » رواية سينمائية عن حياة « جان دارك » ، ضمنها أعمالها المجيدة ومواقفها الخالدة ، وشجاعتها الفائقة ، ووطنيتها المنقطعة النظير ، ثم ختم القصة بمصرعها الدامى المحزن . . . ولكن كيف قدمت إليه المساعدة ؟ وكيف تمكن من إخراج قصته ؟

إنه مؤلف ، ولكن لابد للقصة من مخرج أو مخرجين ، فماذا حدث ؟ ومن أولئك الذين خفوا سراعاً إلى معاونته ؟

حدث أن انتخب للإشراف على الإخراج لجنة مؤلفة من عظماء فرنسا ورجالاتها الأفذاذ ، ووضعت تلك اللجنة تحت رئاسة كردينال باريس « الأسقف ديبوا » ؛ وليس مفكرو فرنسا ورجال الدين هم وحدهم الذين ساهموا فى إخراج الرواية ، بل الجيش الفرنسى نفسه ، فقد اشتركت وحدات منه بأمر حكومة باريس فى تمثيل الموقعة التى خاضت جان دارك غمارها واصطلت بأوارها .

ثم لابد من أمر آخر لتخرج الرواية طبق ما ورد فى بطون التاريخ . . . وهل يمكن أن يتم هذا إلا إذا ظهر الملك شارل السابع ، وإلا إذا أقيمت حفلة تتويجه ؟ !

ولم يكن التتويج يتم إلا فى الكنيسة ؛ إذن فليذهب الممثلون والممثلات إلى كنيسة « رانس » ، وليقم كل فرد بدوره .

وبديهى أن الجيش ورجال الدين ما قدموا هذه المساعدات ، وما خرجوا على بعض التقاليد استجابة لنداء السينما ، إلا لعلمهم بما لها من مكانة جديرة بالإكبار .

وليس قصة إخراج « جان دارك » هى الوحيدة فى التاريخ السينمائى ؛ فها هو ذا « المستر ستول » المخرج الإنجليزى الشهير ، قد أخرج فلماً عن بعض الحوادث الحربية التى انتصر فيها البريطانيون فى الأرض الفرنسية فى غضون الحرب العظمى ، فوضع رواية « مدافع لويس »

ثم تقدم إلى الحكومة الإنجليزية يسألها المساعدة . . . فأعارته مدافع لويس ، وهي نفس مدافع لويس التي انتصر الحلفاء بها ؛ كما سمحت له حكومة باريس بأن يمثل فريق من الجيش الفرنسي في نفس الأرض الفرنسية التي أحرز البريطانيون النصر فيها . وأحسبني في غنية عن القول بأن أمثال تلك المساعدات لا تقدّم من الحكومات إلا على ضوء ما للسينما من رسالة مهمة يجب أن تؤديها ؛ وها أنتم أولاء ترون الدول العظمى ترحب باشتراك أساطيلها وسلاحها الجوى وجيشها البرى في كثير من المشاهد السينمائية التي تستدعي هذا الاشتراك ، وفوق هذا فإنها لا تُلزم الشركات بدفع النفقات .

ها هو ذا الحج ، وهو فريضة على المسلمين من استطاع إليه سبيلا ، كم من الناس كانت تهفو نفوسهم إلى رؤية بيت الله الحرام والطواف بالكعبة الشريفة ، ولكن كانت تقصر بهم السبل وتنقطع الأسباب ، فيقضون العمر وفي نفوسهم لوعة وحسرة ؛ غير أن ريحاً طيبة جاءتهم ببعض ما كانوا يتمنون . فإذا بالسينما تقدم لهم مناظر الحجيج وهم يلبّون في عرفات ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ويسجدون لله حول الكعبة في بيته الحرام .

ولو أن فناً آخر غير فن السينما حاول اقتحام تلك الأماكن المقدسة ، أو حتى التطلع إليها من بعيد لحيل بينه وبين نفسه التي بين جنبيه

لقد وصف الكتّاب وأبدعوا في وصف هذه المشاعر ، ولكن ما راء كمن سمعا ، وما كان للرؤية أن تتحقق إلا بفضل السينما .

وهكذا لم تعد صناعة السينما مقصورة على الأستوديوهات أو القصور والغابات ، بل نفذت إلى الأماكن المقدسة ، والمحاريب الطاهرة ، حيث الصلاة والتسبيح ، وحيث الإنشاد والترتيل .

لم يسمع العالم عن مخترع درج نحو الكمال بمثل السرعة التي سابقت بها السينما الزمان . فمنذ عشرين سنة كانت السينما في دور الطفولة ، وكانت الروايات التي تمثّل إما مضحكات أو مغامرات أو غراميات ، وكانت صامتة . وفي غضون سنة ١٩٢٦ عرض في مدينة نيويورك فلم (دون جوان) وهو أول فلم ناطق ، حيث كان الصوت ينبعث إذ ذاك من اسطوانات موسيقية .

وفي يوليو سنة ١٩٣٨ ، ورد في إحدى المجلات الأمريكية خبر لم يصدقه الكثيرون ، وهو أن في الولايات المتحدة نحو ألف دار للسينما تعد آلات عجيبة لتسجيل الصوت ، وأن الذين يترددون عليها سيسمعون أصوات الممثلين كما يرون حركاتهم ؛ ولم تلبث هذه الأحلام أن صارت حقائق يراها ملايين الناس في أنحاء الأرض كافة . تلك هي السينما الناطقة التي نتمتع اليوم بمشاهدتها ، والتي جعلت أول جهودها العظيمة إخراج الحوادث التاريخية والقصص والروايات التي وضعها كبار المؤلفين ، فما ترك رواية ممتعة لتولستوي ، أو شارلز دكنز ، أو لشكسبير إلا وأخرجت على الشاشة البيضاء .

* * *

والآن أنتقل إلى السينما في مصر

للسينما في مصر نهضة نستطيع أن نتحدث عنها بفخر . نعم ! إن نهضتنا لم تبدأ مع النهضة العالمية ولم تبلغ بعد شأنها ، ولكنها على صغر سنها لم تتأخر كثيراً عن نهضة العالم ، بل لاحقتها بخطى سريعة ؛ وأعتقد أننا عما قريب سنستطيع الوقوف معها على قدم المساواة .

بدأت صناعة السينما عندنا ، أو التمثيل السينمائي بعبارة أدق ، بمحاولات أخفق بعضها ونجح بعضها الآخر ، وظهر منها شيء ، واختفت أشياء . ففي سنة ١٩١٧ تألفت في مدينة

الإسكندرية شركة لصناعة الأفلام ووفقت إلى إخراج فلمين: أحدهما اسمه الأزهار الميتة، والآخر شرف البدوى؛ وقد عرض الفلمان فى أوائل سنة ١٩١٨ بسينما شتشكلير بالإسكندرية.

هذا هو ميلاد صناعة السينما فى مصر، وما هى فى الحقيقة إلا الطفل الجديد الذى رأيناه بعد قليل ينمو ويشب عن الطوق، ثم يجتاز دور المراهقة ويستوى رجلا قوياً كاملا، وكل هذا بفضل المصريين وذكائهم وأموالهم.

وإذ أشرق عام ١٩١٨ رأينا أحد الأجانب وقد استعان ببعض ممثلى دار السلام بحى سيدنا الحسين على إخراج أفلام سينمائية، وكان من جملة أولئك الممثلين: حافظ عباس، وشلبى فوده، وعلى رأسهم الأستاذ فوزى الجزايرلى حيث أخرجوا فصلا مضحكا أطلقوا عليه اسم مدام لوريتا، وقد عرض فى سينما الكلوب المصرى.

وفى سنة ١٩٢١ اشترك فوزى منيب والمرحوم جبران نعوم فى تمثيل فصل سينمائى مضحك باسم «الخاتم المسحور»، وقد عرض فى مدينة الإسكندرية. وما وافى عام ١٩٢٣ حتى اشترك الأستاذان على الكسار وأمين صدقى فى إظهار فلم من فصلين اسمه (الخالة الأمريكانية).

كانت كل هذه محاولات للتمثيل والسينما فى مصر. أى ظهور ممثلين مصريين فى أفلام سينمائية. أما صناعة السينما على الوجه الصحيح والفلم المصرى الطويل الذى يقوم على قصة مصرية مسلسلة الحوادث ... فهو على ما أعرف فلم «ليلى» للسيدة عزيزة أمير. وكان عرضه فى سينما متروبول عام ١٩٢٧، ثم أعقبه فلم قبلة فى الصحراء الذى أخرجته شركة لاما.

وفى سنة ١٩٢٨ ظهر فلم غادة الصحراء للسيدة آسيا، وقد عرض فى سينما متروبول أيضاً. وفى نفس هذا العام رأينا على الشاشة البيضاء رواية زينب أخرجها الأستاذ محمد كريم. وبعد عام واحد أى فى سنة ١٩٢٩ ظهر فلم «بنت النيل» للسيدة عزيزة أمير، وكان عرضه فى سينما الكوزموجراف الأمريكانى.

كانت هذه الأفلام صامتة. ومنذ ذلك الحين لم تعد كذلك، كما أنها لم تعد محاولات، بل أصبحت قصصاً كاملة ذات شخصيات ناطقة. وكان أول فلم ناطق هو فلم (أولاد الذوات) للأستاذ يوسف وهبى، ثم فلم أنشودة الفؤاد، ويعد هذا الفلم أول فلم غنائى ناطق. تتابعت بعد ذلك الأفلام المصرية تطول أو تقصر حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن.

من هذا الإحصاء المقتضب ندرك أن صناعة السينما فى مصر كانت أشبه الأشياء بالرجل العصامى الذى كوّن نفسه بنفسه. وها نحن أولاء نرى الفلم المصرى على خطوات متقاربة من الفلم الأوربى أو الأمريكى. والفضل فى ذلك راجع إلى أهل هذه المهنة من المصريين، فهم أول من حمل الشعل، ودخل حلبة السباق؛ وكانت مهمتهم شاقة، فقد دخلوا السباق متأخرين، والقضاء الواجب أن يكونوا مع السابقين، وإنهم بإذن الله لواصلون.

إن مصر كلها ترقب جهود هؤلاء الجنود، وترجو أن يسيروا على بركة الله، فيعملوا ويتنافسوا ليسجل التاريخ أسماءهم بحروف من نور، وسيقول فيما يقول يوم تؤتى أعمالهم ثمارها: «هؤلاء هم طليعة ميدان السينما الذين وضعوا الأساس، وعاونوا على تقويم النهضة المصرية، ودعموا بناءها، ورفعوا ذكرها فى الخالدين»

محمد حلمى سليمان

التلقيح عند النبات

كل حي يتميز بالتكاثر ليترك من بعده أفراداً تعيد تاريخ حياته ، وهذا مبدأ عام لا شذوذ فيه ، ومن شذ عن ذلك كان مصيره الانقراض . ومن الطبيعي أن يكون للنبات الراقي طريقه إلى التكاثر ، فمن أزهاره تتكون ثماره ، وفي ثماره نجد البذور التي إن أنبتت نمت وأعطت نباتاً يمتد جذره في الأرض وسوقه في الهواء .

وامتازت الزهرة بجاذبيتها منذ ظهورها ، فإن جذبت الحشرات وغيرها ، فلا عجب أن تجذب الإنسان الذي يقدر الجمال ! نعم ، إن نظرة الإنسان في أول الأمر كانت نظرة إلى جمال شكلها وطيب روائحها ، ولكنها الآن نظرة تتوقف عليها حياة الشعوب ! وهي نظرة تختلف عن نظرة حشرة تزور زهرة لتتلمس من رحيقها غذاء شهيا ! وهي إذ تغترف هذا الغذاء ، تؤدي للنبات صنيعاً هو الحياة كل الحياة له .

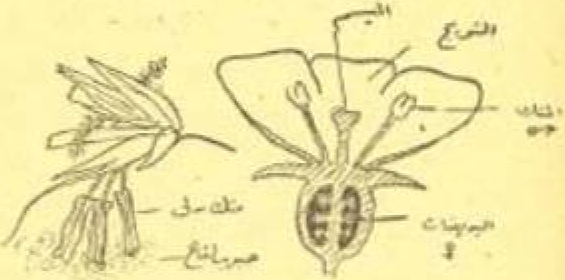
على أن من يفحص الزهرة يجد في تركيبها وتناسق أجزائها ، نظاماً بديعاً يحقق غرضاً خاصاً ، يؤدي في النهاية إلى تكوين ثمار وبذور . فهذه زهرة أمامنا لمّا تتفتح بعد ، ظهرت في شكل كثري تكدست أجزاؤها فوق بعضها فحفظت دقيق تركيبها من أن تعبث بها يد الفساد ! من برد قارس ، أو حر لافح ، أو حشرة تتطفل ، أو قطر يترنم . وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى تتفتح الزهرة فيظهر منها جزء ملون يميزها عن مختلف أجزاء النبات ، وروائحه تغوي بالقرب منها . ولون الزهرة عامل مهم في ظهورها وتمييز الحشرة لها عن بعد . فنحن نميز الزهرة بلونها وشكلها وروائحها . وليس من الضروري أن تميز الحشرة لون الزهرة كما هو الحال عند الإنسان ، إذ يتوقف ذلك على إحساسها باللون . وقد أجريت تجارب عدة لمعرفة العلاقة بين لون الزهرة والحشرات التي تزورها ، وكانت هذه التجارب على النحل ، فوجد أنه ينجذب نحو الأزهار الزرقاء والبنفسجية وكذا الصفراء . ووجد أن الفراش ينجذب نحو مختلف الألوان ، ولكن الأحمر والقرنفلي والبنفسجي ألوان محببة إليه . وقد أجرى « فون فريش » تجارب تبين مدى حساسية النحل لمختلف الألوان ، فاستخدم قطعاً من الورق الملون ، منها الرمادي والأزرق والبنفسجي والأصفر ، ووضع على كلٍّ زجاجة ساعة بها محلول سكري ، وترك الأوراق يومين ؛ ثم قدم للنحل أوراق ملونة وبدون تركيب خاص ، كما أنه لم يوضع عليها محلول سكري ، فوجد أن النحل يحط على جميع الألوان إلا الرمادي . وكان نصيب اللون الأحمر كالرمادي لا يحس النحل بوجوده . ووجد « فون فريش » أن النحل لا يميز بين اللون الأصفر والبرتقالي ، وبين الأصفر والأخضر ، كما أنه لا يميز بين الأزرق والبنفسجي . وعلى ذلك نجد أن النحل يميز أي لون أزرق أو أصفر ، والألوان التي يدخل فيها أحد هذين اللونين . وعلى هذا الأساس نجد أن النحل ينجذب أو يميز الأزرق والبنفسجي ، وهذه الألوان تميز الأزهار العسلية . وما قيل عن النحلة يمكن أن يقال عن الحشرات الأخرى ، ولكن هذا يحتاج إلى تجارب كثيرة تبين العلاقة بين الحشرة والزهرة .

فلون الزهرة يكون بمثابة إعلان عن وجودها . وهذا اللون يميز عادة غلافها الذي يسمى بالتويج ، ويكون أكبر أجزائها غالباً . أما إذا صغر ، فإن الأزهار تتجمع في نورة[1] متكاتفة فتعلن عن وجودها متعاونة .

(١) الأزهار إذا تجمعت سميت نورة

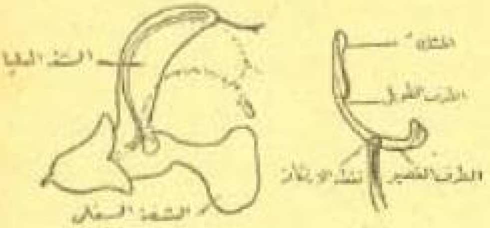
يلي الجزء الملون من الزهرة (ش ١ إلى اليمين) أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، حيث تتكون الخلايا المذكرة والخلايا المؤنثة . وعضو التذكير يتكون عادة من خيط رفيع ينتهي بانتفاخ يسمى « المتك » ، وهذا يتكون من فصين بكل تجويفان . وتحتوى كل تجوة على مسحوق دقيق أصفر اللون يسمى حبوب اللقاح ، وهذه شبيها بالجوهر . وتختلف أشكالها وأحجامها في مختلف النباتات : فقد تكون ناعمة الملمس صغيرة إلى حد يساعد الرياح على حملها من مكان لآخر ؛ وفي البعض يكبر حجمها فلا تستطيع الرياح أن تحملها ، فيكون لها من الحشرات وغيرها واسطة لنقلها ، كما يكون لها من النتوءات ما يساعدها على أن تتعلق بجسم ناقلها .

أما أعضاء التأنيث فيتكون كل منها من جزء علوى منتفخ يسمى الميسم ، يظهر من بين أجزاء الزهرة لتلتصق به حبوب اللقاح ، ويساعده على ذلك ما انتشر عليه من مادة لزجة ؛ ويتصل هذا الانتفاخ بجزء بيضى الشكل يحتوى على أجزاء تسمى البويضات إن أخصبت كونت بذوراً . ويتم الإخصاب بعد التصاق اللقاح بالميسم . وعلى ذلك



شكل ١

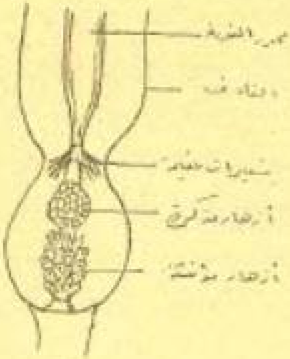
فالتلقيح عملية هامة بالنسبة للنبات ، ونجد دائماً ملاءمة في الزهرة تعينها على تمام هذه العملية ؛ ففي أزهار القمح والأذرة حيث يتم التلقيح بمساعدة الرياح نجد أعضاء التذكير ذات خيوط طويلة لا تقوى على حمل المتك ، فتتدلى (ش ١ إلى اليسار) وتصبح تحت رحمة الرياح ، تحركها كلما هبت ، وتهز ما فيها من حبوب اللقاح الدقيقة فتتناثر من ثقوب جانبية في نهايتها ، ويحملها الريح من نبات لآخر . ومن الطبيعي أن هذه الأزهار لا تحتاج إلى لون أو رائحة أو رحيق ؛ فما الريح بحاجة إلى شيء من ذلك . أما في زهرة أعدت لزيارة الحشرات فنجد في تركيبها ما يؤدى بالحشرة إلى إتمام عملية التلقيح مقابل أجر تتقاضاه ، إذ تتغذى على سائل حلو المذاق يسمى الرحيق ، وكذا على حب اللقاح الذي بما فيه من غذاء .



شكل ٢

فزهرة السالفيا الحمراء أو البنفسجية « ش ٢ » التي كثيراً ما نشاهدها في المتنزهات ، نجد غلافها ذا لون جذاب ، كما تجمعت أزهارها في شكل عنقودي . والجزء الملون يكون أنبوبة مفتوحة من أحد طرفيها ؛ وفي الطرف الآخر نجد رحيقاً تفرزه غدد خاصة . ولهذه الأنبوبة الملونة شفتان : السفلى بمثابة قاعدة تقف عليها الحشرة ، بينما تظل العليا المتك والميسم . ولو فحصنا عضو التذكير لتبين لنا تركيب غريب ، أشبه برافعة بسيطة « ش ٢ إلى اليمين » ، استطال أحد ذراعيها وحمل المتك في نهايته ، أما الذراع الآخر

فهو قصير لا يحمل متكأ ؛ واستندت الرافعة على محور يتصل بالزهرة ، ويتركز الرحيق قرب الطرف القصير من الرافعة . فإذا دخلت حشرة وحاولت أن تصل إلى الرحيق ، دفعت الطرف القصير من الرافعة ، فيتحرك الطرف الطويل إلى أسفل ويصطدم بظهر الحشرة ، فيقع اللقاح عليها ويتعلق بجسمها ؛ فإذا ما انتقلت إلى زهرة أخرى ، وحاولت الوصول سلكت نفس الطريق ، وعند دخولها في الزهرة فإن مياسمها تمس ظهر الحشرة ، فيلتصق بها اللقاح الذي حملته من زهرة إلى أخرى ، وبهذا يتم التلقيح .



شكل ٣

ولعل الملاءمة لهذه العملية تبلغ حداً كبيراً في نورة تشبه نورة القلقاس ومن عائلته (ش ٣) فيتوسط النورة محورها ، وعليه أزهار مذكرة وأخرى مؤنثة ، يحيط كلَّ هذه الأجزاء غلاف ملون يقترب من المحور وعند أعلاه ، مكوّناً اختناقاً تحرسه شعيرات مالت إلى أسفل ، وهذه تسمح للحشرات بالدخول إلى النورة وتمنعها من الخروج . وبعد هذه الشعيرات نجد على محور النورة أزهاراً مذكرة ، تكون متراصة ولما يتم نضجها ، ويليها أزهار مؤنثة قد نضجت . ولما كانت الحشرات تنتقل من زهرة لأخرى ، فالغالب أنها تكون محملة باللقاح ، ولذا تلقح الأزهار المؤنثة نتيجة لحركة الحشرات عليها . وتبقى الحشرات في سجنها تتغذى على ما في السجن من رحيق ، حتى يتم نضج الأزهار المذكرة الذي يتم متأخراً ، لضمان التلقيح بين أزهار تنتمي لنبات آخر من نفس النوع ، ولمنع التلقيح من الأزهار المذكرة في نفس النورة . وعند ما يتم نضج هذه الأزهار تذبل الشعيرات المائلة التي قابلناها عند اختناق الغلاف وتتساقط ، وعند ذلك تجد الحشرات مخرجاً من سجنها ، بعد أن تكون قد تحملت باللقاح لنقله إلى نبات آخر .

ولقد فطن العالم إلى أهمية الحشرات في التلقيح ، فعملوا على تربية النحل في البساتين ، وأدى ذلك إلى زيادة في الثمار ، كما أفادنا النحل بشهد فيه شفاء للناس .

محمد أحمد بنونه

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

قصة رمزية :

ليس بخيال ...

قضى عادل من العمر نيفاً وعشرين سنة مال فيها إلى الخير ، وابتعد من الشر

ولكنه أراد أن يحيد فأغفته عنه التي أحبها ...

ثم أطلقت الدنيا في وجهه ، فأنارها المصباح الذي في يده ...

فتحتُ الباب لعادل في ساعة مبكرة ، فتقدم إلى داخل الغرفة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وطرح طربوشه جانباً ؛ ثم ارتمى فوق المقعد ، وأخذ يمر بيده فوق جبينه ويتنهد ...

ونظرت إليه بعد أن أغلقت الباب خلفي ، وقلت في استغراب : ما بك يا عادل ؟ إني لم أرك عابساً مقطباً من قبل .

فرفع إليّ أهدابه ، فرأيت في عينيه نظرة قلق وأسى ، قلت ووجهي لا تزال تعلوه الدهشة والحيرة : لا تنس يا عادل أني أعز صديق لديك فتكلم . . . من أي شيء تشكو ؟ تكلم عسى أن أخفف عنك بعض ما ألمّ بك

وأخيراً ، وبعد صمت طويل أدار عادل إليّ وجهه بعد أن اعتدل في جلسته ، وبدأ يتكلم ويقص قصته وهو يتريث ويتنهد ويتثاءب

قال : بالأمس . . .

ثم توقف ليشعل سيجاراً ، وعاد يقول : بالأمس عدتُ متأخراً من دار الخيالة بعد أن شاهدت فلم « ألف ليلة وليلة »

فقاطعته في لهفة : أصحيح ؟ أهو جميل ؟

قال : ليس هذا بيت القصيد . إصغ إليّ

ثم استأنف حديثه يقول : كنت منهوك القوى ، محطم الأعصاب ، فارتميت فوق سريري بعد أن أشعلت مصباحي ووضعته فوق المنضدة ، وإن هي إلا لحظات حتى أخذتني سنة من النوم ؛ لم أدر وقتئذ أكانت طويلة أم قصيرة ؛ فقد استيقظت على صوت طرق فوق النافذة .. ففتحت عيني وقلت ونفسي تتساءل عن هذا الطارق اللعين الذي جاء يقلقني ليلا .. وفتحت النافذة على مصراعيها ، ونظرت إلى الخارج علّي أجد أحداً فلم أجد ..

وعدت إلى سريري بين اليقظة والنوم ، وما كدت أتدثر بالغطاء حتى عاد الطرق من جديد ، وكان في هذه المرة أشد وأعنف .. وأخيراً ، بعد أن عيل صبري ، لم أجد بداً من استطلاع الأمر ، فانطلقت في معطفي ، وحملت مصباحي في يدي وغادرت الغرفة ..

ونفث عادل الدخان من فيه ثم قال : كان الظلام حالكاً إلا من بريق النجوم وضوء المصباح ، وكان السكون شاملا إلا من أصوات ضعيفة تناهت إلى سمعي من بُعد .. كانت تشبه أصوات الخفافيش ، ونقنقة الضفادع . ونظرت أمامي محدقاً فإذا بي أجد نفسي أسير في حديقة ممتدة منبسطة بين أعشاب وأشواك وأشجار .. سرت أطويها على الساقين ، مرة على مهل ، ومرة على عجل .. تارة أتعثر وأخرى أتقدم .. وبيدي المصباح ..

ثم صمتَ قليلا وهو يشير بيده كمن يمثل منظراً ، ثم قال : كانت أشجاراً ضخمة عالية باسقة ، طويت منها ثلاثاً وعشرين قبل أن أصل إلى غدير صغير ..

وأنّ عادل أنّة عميقة ، ثم قال كمن لا يُصدق عينيه : يا إلهي ! ثلاثاً وعشرين !

ثم استأنف حديثه فقال : كانت المياه رقراقة عذبة صافية ، والأمواج متلألئة ضاحكة راقصة ، وكان على حافة الغدير صخور ورمال . . . وتوقف عادل وسألني مبتسما : أتذكر يا صديقي نزهتنا إلى القطم ؟ قلت فوراً : وكيف لا ، وقد صعدتها ملتوى الساق ! فضحك عادل ثم عاد يقول : لقد خيل إليّ أني هناك ، فأخذت أقفز من صخرة إلى صخرة

في جذل كما يفعل الغزال الحر الطليق ، حتى وجدت أمامي تلاً عالياً فبدأت أصعده حتى وصلت إلى أعلاه ، ونظرت إلى أسفل فبهت ، فقد كان التحدر شديداً صعباً ، ورحت أفكر فقد كنت حائراً بين الوجل وبين الأمل ؛ وأخيراً بدأت أنحدر ..

قلت مكملا : ولم تلبث أن زلت قدمك فأخذت تتدحرج .

قال مؤيداً : وأتدحرج ... حتى خيل إلى أني سائر إلى هاوية .. هاوية سحيقة .. وأسلمت نفسي ، في أسى وغضب ، وقد فقدت كل أمل ، وطرحت كل رجاء ..

وأخيراً استقر جسدي على الأرض ؛ لقد وصلت إلى أسفل سالماً لم يمسسني سوء .. كنت لا أزال أتنفس ... وكان قلبي لا يزال ينبض بالحياة .. ولكني لم أصدق ؛ فبكثت راقداً على ظهري ، مغمض العينين ولا حراك بي ، كأني ميت مسجى ؛ وفجأة ...

وبلع عادل ريقه ، وصمت طويلاً ، ثم قال : وفجأة أحسست بيد ناعمة باردة تمر فوق جبيني ؛ ففتحت عيني ؛ وعندئذ سرت في جسدي رعدة ، إذ وجدت أمامي فتاة هيفاء جميلة ، ذات شعر أسود فاحم ، وعينين خضراوين ، كانت تشبه شهر زاد .. أوه .. لا .. بل أجمل .. أجمل بكثير ...

وانحنت الفتاة فوقي وقالت مبتسمة في حنان : حبيبي ! أأنت جريح ؟ أحببت في مرارة وقد ارتد إلى طرفي : رباه ! جريح ؟! إن بي ألف جرح وجرح .

وفاضت الابتسامة من فم الفتاة ، وقالت وهي تجذبني من ذراعي : قم معي !

قلت لعادل متهكماً : فأطعت ؟

فأجابني ساخراً : بلا شك ... وهل يملك فتى أن يعصي أمر فتاة ؟ ثم عاد إلى حديثه فقال : فقمنا سوياً ، وسرنا معاً ؛ جنباً لجنب ؛ فوق الرمال ... هي تخشى على السير فأزداد تباطؤاً ؛ وتدفعني إلى الأمام فأجذبها إلى الخلف ، حتى تناهى إلى سمعي صوت تسبيح وترتيل .

وفجأة انقشع الظلام ، وظهر القمر ، واختفت الفتاة ، ووجدت أمامي رجلاً هرماً ، أبيض الشعر ، كث اللحية ، يضع فوق رأسه عمامة خضراء ، ويلف حول جسده عباءة بيضاء ، وكان بيده سبحة .

قلت أسأله في توسل : سيدي ! أين الفتاة ؟

فرفع إلي عينيه المتألقتين وقال مستغرباً : أي فتاة ؟!

وعقدت الدهشة لساني فتلفت حولي ... كان الشيخ يجلس تحت دوحة كبيرة كشجرة الزيتون ... وهو يرتل ويسبح في هدوء وسكون .

قلت أسأله في عطف وحب : سيدي أأنت وحيد ؟ أعني ! أليس لك أصدقاء ؟

فضم سبحته إلى يده في عنف ، ثم ضحك ضحكة مرة وقال : أصدقاء ! إنهم قليلون يا بني ...

قلت متمتماً وقد علا وجهي التأثر : مسكين سيدي ! ولم يتركك الناس ؟ ألا يجدون في صحبتك السعادة ؟

قال وهو يستأنف تسبيحه : السعادة ؟! ليس لدي مال ولا عيال ولا جاه ..

قلت : إذاً ماذا لديك ؟

قال : شيء تافه يا بني ... هو راحة الضمير ..

قلت مستنكراً : راحة الضمير ! إنها كل شيء يا أبي .

وطأطأت رأسي أفكر ؛ ثم رفعتها وقلت ، وقد مال قلبي إلى هذا الشيخ الوقور : سيدي ... أتقبل أن تكون لي أباً رحيماً أو صديقاً حمياً ؟

فهز الشيخ رأسه ؛ وأجاب قائلاً ، بين يأس وأمل : أب ! صديق ! إنك لن تصبر يا فتى ، ولن تلبث أن تخذلني كما فعل الآخرون ...

وهنا استلقى الشيخ على قفاه من الضحك ، ولم أدر لذلك سبباً ؛ فهززته من كتفه مرة ، ثم مرتين ، وأنا أقول : سيدى ، كُفّ ، أتسخر منى ؟

ولكنه استمر يضحك كأنه مجنون ؛ ثم رفع يده وقد تدلت سبحته واهتزت لحيته وأشار بأصبعه . . .

وهنا مرّ عادل بيده فوق جبينه الذى كان يتصبب عرقاً وقال :

أتدرى ماذا حدث بعد هذا ؟

قلت : لا . قال : نظرت إلى حيث يشير ... ثم تريث ليشعل سيجاراً آخر ، وتابع حديثه قائلاً : شاهدت جمعاً غفيراً ، أناساً لا عداد لهم يندفعون نحونا فى صخب ، وقد تقدمهم عملاق أسود يلبس رداء مزركشاً ، ويحمل فى يده سيفاً ...

كان منظره بشعاً ، وفى عينيه نظرة الشر ، ولكن الناس كانوا يتبعونه ، كما يتبع الجنود قائدهم ، ويطيعونه كما يطيع الخدم سيدهم ... وظهر الخوف على وجهى ، والفزع فى عينى ؛ وأخذت أتنقل ببصرى بين الرجلين ... بين الشيخ الهادئ الساكن ، وبين العبد الغاضب الثائر ، ثم رفعت يدى إلى السماء ...

وهنا اهتزت الأرض من تحتى ، وبدأ الرعد يقصف ، والريح تعصف ، وكان لها صفير مدوّ ؛ ثم امتلأ الجو بالغبار .. فلم أر شيئاً بعد هذا سوى أنى أندفع مع الناس .. هذا يطرحنى ... وذاك يدفعنى ... حتى ارتعشت أقدامى وتسارعت دقات قلبى ، وتلفتّ أبحث عن شىء أتعلق به ...

واندفع الحشد فوق جسر يجرى من تحته نهر كبير ، فتشبثت به ووقفت وحدى ، وصدرى يعلو ويهبط ، حتى مرّ الناس يدافع بعضهم بعضاً ويتسابقون ...

وهدأت أنفاسى ، فأدرت رأسى ونظرت إلى حيث يجرى الناس ... إلى الشاطئ الآخر من النهر ... فهل تدرى ماذا رأيت ؟

وقبل أن أجيب بالنفى قال : رأيت ما لم تره عيناى من قبل ... مناظر خلابة تبهر النفس ؛ ومشاهد أخاذة تبهر الفؤاد ... كان هناك أزهار ... وأنوار ... ورقص وكأس ... وغناء ... وطرب ... وموسيقى ...

ثم هز رأسه وقال : أجل ... كان هناك موسيقى ... موسيقى عذبة الألحان ... لم أسمع لها مثيلا ... كان لها نغم هز مشاعرى وحرك وجدانى .

قلت : أنسيت بيتهوفن ؟

قال : لا .. إنها أحلى ... لقد ندمت وقتئذ لأنى تباطأت وتأخرت وجبنت ... حتى أخذت يدى المتعلقة بالجسر ترتعد وتلين شيئاً فشيئاً حتى صارت طليقة ؛ ثم هممت لأعبر الجسر ...

وضحك عادل ضحكة هزيلة ثم قال : ولكن الجسر تحطم وسقطت فى اليم ... وكان الموج عالياً جارفاً ، والتيار قوياً شديداً ، فأخذت أكافح كفاح المستميت ، ولكن دون جدوى ، فقد اتجهت إلى القاع .

وابتسم عادل ابتسامة أمل وقال فى تأكيد : ولكنى لم أصل إلى القاع ... أجل لم أصل ... فإن ذراعاً لدناً ناعماً التف حولى وجذبنى إلى أعلى ... كانت هى الفتاة الحسناء ... هى هى ... بعينيها الخضراوين وشعرها الفاحم .. وابتسامتها الحلوة ...

نظرت إليها وقلت فرحاً : أنت ؟ أنت مرة أخرى ! ؟

قالت : نعم ! أنا ... أنا دائماً ...

وحملتنى متجهة إلى الشاطئ الرملى حيث كنا من قبل ، فصحت قائلا : لا ! هيا بنا إلى الشاطئ الآخر ... لقد ذهب كل الناس إليه ...

قالت وهى تجذبنى بقوة : تعال ... لا تلتفت إلى غيرك ...

ووصلنا إلى الشاطئ فجلسنا نستريح ؛ ونظرت إليها

فى وله ، ثم ربتتُ على خدها وقلت : حبيبتى ... أنا مدين لك بحياتى ... أنت أحبُّ شىء لدى ... أتتزوجين منى ؟

فضحكت الفتاة ، وطرحت شعرها إلى الوراء ؟ ثم همت واقفة وهى تجذبنى معها وتقول كما قالت من قبل : هيا تعال !

ومشينا فى طريق العودة إلى حيث التقيت بالشيخ الهرم ... كان قد كف عن تسبيحه وترتيله ، ورقد على جنبه يغط فى نومه ... وكانت الريح قد ألقت بعباءته بعيداً ...

وملت فوقه أتأمل وجهه ... كان لا يزال هادئاً ساكناً .. كما رأيته من قبل ، فجذبت العباءة فوقه ثم قبلت يده ...

واختلست نظرة إلى الفتاة فرأيتها جامدة ، لا أثر للشعور على محياها ، فأخذت بيدها ، وقت وقد انحدرت من عينى دمعة ؟ ثم سرنا مرة أخرى فوق الرمال ؟ وأخذنا نصعد التل العالى حتى بلغنا القمة ....

وجرع عادل جرعة ماء ثم قال : وعندئذ توقفت الفتاة ، ومدت إلىّ يدها وقالت فى ابتسامة حزينة : هنا سنفترق .

وشعرت كأنما لسعتنى حمة عقرب ، فقبضت على ذراعها ، وجذبتها نحوى ؟ والتزمتها إلى صدرى ، وقلت وأنا أضمها بعنف وأطبع على ثغرها الرتعد قبلة حارة : لا ... لن نفترق ... إنى أحبك ...

قالت وهى تبعدنى : سنفترق ... وداعاً ...

وهنا يا صديقى عاد الظلام واختفى القمر ...

وألقى عادل السيجار من يده كأنه غاضب ثم قال : وخطت الفتاة إلى الخلف ..؟ وقبل أن أوليها ظهرى سمعتها تناديني قائلة :

عادل ! خذ مصباحك ، لقد تركته عند حافة الغدير ؟ خذه ... وإياك أن تنساه !

وفتحت عينى ، فإذا يدى ممدودة إلى « الكتاب » الذى فوق المنضدة ، فابتسمت وقلت وكأنى أجيب الفتاة الحسناء : لن أنساه يا حبيبتى ، لن أنساه .

واندفعت من خلال الباب أختى الصغيرة وقالت فى غيظ : ما هذا يا عادل ، إنى لم أر مثلك أحداً يغط فى نومه . لقد تعبت يداى من الطرق فوق النافذة

فحملقت فيها دهشاً وقلت : إذاً فأنت ... يا إلهى ! لقد حسبته خيالاً

قلت لعادل ، وأنا أقدم إليه قدح الشاى ، فيأخذه فى هدوء ، ويحتسيه فى صمت : خيال !؟ لا يا صديق ... ليس بخيال .

شحاته كرم محمد
طالب بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

اليقظة

هى سلسلة كتب شهرية تصدرها مكتبتنا « العمومية والبابيروس » بدمشق . وقد أخرجت منها إلى الآن خمسة أعداد : (١) نظرات فى الزواج للدكتور شوكة موفق الشطى . (٢) من النقد الفرنسى للأستاذ محمد روحى فيصل . (٣) ما وراء الطبيعة للأستاذ حافظ الجمالى (٤) « قصر الجماجم » ، وهى مجموعة قصص للأستاذ خير الدين الأيوبى ، (٥) شاعر دمشق « محمد بن عنين » للأستاذ محمد ياسين الحموى .

والسلسلة لطيفة الحجم ، كثيرة الفائدة ، خفيفة الروح ، فنرجو لها الدوام والاستمرار حتى تؤدى رسالتها فى بعث مختلف النواحى الثقافية .

بين المسموع والمقروء

هدية الأستاذ الجرنوسى

جاس الأستاذ الجرنوسى بين المسموع والمقروء ، ثم طالع قراءه بقصة مبتورة ، يريد بهما تجريح الروحية والروحيين ، وما كان أحراه باستكمال القصة . وأذكر أنه خلال إلقائى محاضرتى عن « نواحى النشاط فى الدوائر الروحية » فى مؤتمر دار العلوم الذى انعقد فى هذا الصيف فى دار الجمعية الجغرافية — أذكر أنه سألنى أحد الحاضرين عن رأيى فى قضية النصب والاحتيال التى حكمت فيها محكمة الإسكندرية المختلطة بالإدانة ؛ فكان ردى عليه نفس القصة التى يهديها حضرة الأستاذ الفاضل ، ولكنى ذكرتها كاملة . وكان معى عدد « الاجيشيان جازيت » الصادر بتاريخ ٢ أبريل الماضى ، وفيه تلغراف لرويتر عن المحاكمة الجارية فى لندن لم تنشره الصحف العربية ، وقد تضمن التلغراف ملخصاً عن القضية وعن الحكم فيها ، كما تضمن كلمة قالها نائب الأحكام وهى : « إن هذه المحاكمة لا تتضمن أية مهاجمة للروحية ... وإن القضية مهما بولغ فى أمرها ليست أكثر من محاكمة عادية على التدليس والختل »

ونترك مسموع الأستاذ الجرنوسى ومقروءه لنقول : إنه لما استؤنف الحكم كما جاء فى مجلة « سايكك نيوز » رقم ٦٣١ الصادرة بتاريخ ٢٤ يونيه سنة ١٩٤٤ قال رئيس المحكمة فى رفضه أسباب الاستئناف : إنه لا يستطيع أن يأخذ بشهادة شهود النفى ، لأن شهادتهم تنصبّ على جلسات أخرى سابقة عقدتها هذه المتهمة ، لا على الجلسة موضع المحاكمة . وقد رفع المحامى عن هذه السيدة نقضاً إلى مجلس اللوردات .

ويحدثنا تاريخ الروحية أن بعض الوسطاء حين تتقدم بهم السن يفقدون الوساطة ويلجأون إلى التدليس .

ولكن سيان أدان مجلس اللوردات هذه المتهمة فصادق على الحكمين الابتدائى والاستئنافى أم حكم ببراءتها ! فما دخل هذا فى علم قائم ؟ هب أن كيماويا أو طبيباً أو قانونياً أو عالماً اتخذ من علمه وسيلة لختل الناس وخداعهم عن أموالهم ، فما ذنب الكيمياء أو الطب أو القانون أو العلم أيا كان ؟ المدلسون موجودون فى كل بيئة ، والدجاجلة كذلك موجودون حتى بين حملة الإجازات العلمية العالية .

يريد سيدى الأستاذ الجرنوسى بلباقته وفصاحته أن يشهر بالروحية والروحيين فى مجلة الثقافة الغراء ؛ وفى الوقت عينه تكون افتتاحية نفس عدد « الثقافة » مقالاً بقلم حضرة الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك فى صميم العلم الروحى الحديث الذى ندعو إليه ، والذى اعترفت به الجامعات . ويقف قراء الثقافة الغراء حيارى بين كاتب الصدر وكاتب العجز .

والآن ، وقد أصلحنا عوج الهدية نتقبلها ، ونبعث لأستاذنا الجرنوسى نسخة مطبوعة من تقرير مصور تشرفنا برفعه لمعالى وزير المعارف عن « العلم الروحى الحديث فى الجامعات » ؛ وسيعلم منه أن جامعات كثيرة عريقة أنشأت دراسات لهذا العلم ، وأن جامعة فى كبرى عواصم الدنيا ، ونعنى بها جامعة لندن عاصمة بريطانيا العظمى ، قد أنشأت فى مبانيها حجرة للتحضير الروحى هى الأولى من نوعها فى الجامعات . وقد أثبتنا فى التقرير صورة فوتوغرافية لهذه الحجرة وملحقاتها نقلاً عن كتاب « خمسون من سنى البحث الروحى » لمؤلفه العلامة هارى برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية !!

وبعد ، فليسمح لنا الأستاذ الجرنوسى أن نقول معه : « ليس التصديق السهل بموجود فى مصر وحدها ، أو فى الشرق وحده ، بل هو كذلك موجود ، أحياناً ، فى كبرى عواصم الدنيا » .

أحمد فهمى أبو الخير

الشوامخ : امرؤ القيس

ارتبط فى الزمن ، وفى الموضوع كتابا : الأستاذ « أبو حديد » ، والدكتور صبرى عن أمرئ القيس ، وإن اختلفا فى الأسلوب والمنهاج

وقد تحدثت من قبل فى هذه الصحيفة عن الكتاب الأول حديث الناقد الكاشف عن نواحى الإبداع التأليق . وهذه عندى مهمة الناقد الأولى، ومقصد النقد الجدير بالحياة؛ فالناقد الذى يحلق بتقدمقراء ، خير من الناقد الذى يباعد بين الكتاب والقراء .

ثم أجدنى اليوم أنهج فى النقد نهجاً آخر ، على كره منى ، لكن هنالك من الاعتبارات العلمية ما يغلب كل اعتبار ، وما يؤدى إلى إيثار الصعب على السلامة !

* * *

وأول ما يطالعنا فى هذا الكتاب عنوانه : الشوامخ ، فيبعث فى الذهن معانى الجبال والأطواد وما إليها من كل سامق شامخ يبهر النفس بعظمته ، ويهيؤها لتلقى البيان الممتع والدرس المتجز ، ثم يدعها بعد ذلك إذا لم تجد حاجتها مما قدرت إلى وصف هذه التسمية بالتكلف والتزيد .

ورسم لنفسه بعد هذا منهجاً يتركز فى القصد إلى بيان الصلة بين الشاعر والبيئة ، وبينه وبين شعراء الغرب ، فهل حقق ما رسم لنفسه أو بعض ما رسم ؟ !

فى أقل من صفحة ، فى تمهيد من أربع صفحات ، وصف البيئة العربية وصفاً سريعاً ، لا يمت للدرس ولا للتحليل بنسب ، ثم أورد أقوالاً للبارودى ، وإسماعيل صبرى ، وقس بن ساعدة والنابغة وغيرهم ، وختمه مقرراً أن شعر البداوة أسبق الشعر ماء ؛ ومثل لهذا فذكر أن امرأ القيس صنو هوميروس وشكسبير . وإذاً ؛ فقد كان شكسبير فى دور البداوة الإنجليزية ، كما كان هوميروس فى دور البداوة اليونانية ، وكما كان امرؤ القيس فى دور البداوة العربية ؛ وكانت الأقدار التاريخيـة مقدرة فى دقة عند مؤرخنا الأديب ، فى مقام الحديث عن الشعراء المبدعين ! لكنه فى مطلع هذا التمهيد نفسه يذكر حضارة امرئ القيس ورفته ، وملك أبيه فى مقـام الحديث عن امتيازه ، كما يقول فى الفصل الرابع : « ومما ساعد على انتشار شعر امرئ القيس ، أن معظمه يجرى فيه ماء الحضر » ، وإذاً فالحضارة لا البداوة من عوامل الرواج الأدبى بين البدويين !

وفى الفصل الثانى : « حياة الشاعر وشخصيته » تحدث فى إحدى عشرة صفحة عن تاريخ امرئ القيس ، والمنحول من شعره ، وفنه التصويرى ، وحكمته ؛ بل إن هذه الصفحات قد اتسعت كذلك لستة أبيات من شعر زهير وتعليق عليها ، واثنى عشر بيتاً من شعر عدى بن زيد وتعليق عليها ، ولأقوال ياقوت والهمدانى ولويس شيخو والسندوبى وخليل مطران ، معتمداً فى بعضها على نقل الناقلين دون رجوع إلى المصادر الأصلية .

وأتى فيه كذلك حديث عن الفن العربى فى الوصف ، يصوّر طريقة المؤلف ؛ فهو يقرر أن نظرة الأديب العربى إلى الموصوفات كانت فى مجموعها نظرة عامة ، ويستشهد بالرثاء والمدح العامين ، وبحديث البكرى فى صهاريجه عن نابليون .

ثم يخرج امرأ القيس من هذه الطريقة العامة . وهكذا يضع أحكاماً واسـعة تنتظم الأدب العربى من بدايته إلى نهايته . وليس أخطر من التعميم فى مقام الدرس الأدبى .

ويقتضى الإنصاف التفريق بين الشعر العربى فى دور الأصالة والصدور عن النفس ، وبينه فى دور التقليد والتغنى بأصوات الغير ؛ فالشعراء الجاهليون امتازوا بالدقة فى

الوصف والتتبع للموصوف لأنهم كانوا يصورون إحساسهم ومشاهداتهم ، أما من بعدهم فقد قصروا في هذا الباب ؛ لأنهم صدروا عن الاتباع الفني ، لا عن الإحساس الذاتي .

والعجيب أنه يعود بعد هذا فيقول : إنه « يرسم خطاً أو خطين ، فتبدو الصورة حية كما لو كانت كاملة بجميع جزئياتها » . وإذاً فامرؤ القيس ليس ممن يصورون الجزئيات ، كما قرر من قبل ، وإنما يكتفي برسم الخطوط الكبيرة للصورة ! ولعل منشأ هذا اعتماد المؤلف على الأمثلة المتفرقة في غير استقصاء لأوصاف الشاعر كلها ، واستخراج قاعدة من عمومها ، وتعليل ما قد يكون عنده من شذوذ .

وهكذا لا تخرج من هذا الفصل بفهم لحياة امرئ القيس وشخصيته ، وإنما تخرج بطائفة من الاستطرادات والأحكام العامة التي تتناقض أحياناً ، ولا تثبت للبحث دائماً .

وفي الفصل الثاني : « امرؤ القيس كما يراه المتقدمون » لا يصور امرأ القيس كما تصوروه ، وإنما يورد أقوالا مقتضبة لابن رشيق ، وصادق الرافعي ، وصالح سمك ، وأفرام البستاني ؛ ناقلاً عن المحدثين آراء القدماء ، ثم يقول إن هذه جملة أقوال السابقين في امرئ القيس ، مع أن حديث امرئ القيس هو حديث الشعر العربي في أدواره المختلفة .

ويذهب في هذا الفصل إلى أن السابقين قد قصروا في حق امرئ القيس حين اعتمدوا في تقدير فنه على التشبيه والاستعارة والعبارة ، لكنه حين تحدث عن التصوير في شعره ، عقب هذا الفصل ، اتبع طريقهم ، واستشهد بأقوالهم ، واختار الأبيات التي اختاروها ، ثم لم يبلغ مبلغهم في الإحاطة والاستقصاء .

ولم يبرأ هذا الفصل من الاستطراد ، كما لم يبرأ ما قبله ، وكما زادت علة ما بعده ؛ فقد أطنب في حديث ذي الرمة أثناء الحديث عن « الحب والتشبيب عند امرئ القيس » ، كما أورد شعراً لعمر بن أبي ربيعة ، وإسماعيل صبري ، وغيرهما . وأحال حين اعتبر من المعاني الروحانية في الحب قول امرئ القيس عن الحبيبة إنها تذر فتيت المسك على الفراش ، وإنها ناصعة البياض تضيء بوجهها الظلام لضجيعها ؛ فليس من الروحانية في شيء حديث الفراش والضجيع . أما الروحانية الحقة عند امرئ القيس فلا ينبغي أن تلتمس في هذه النزوات التي كان يلهو بها ويتسلى عن هموم الأيام ونكرات الزمان ، وإنما يجب أن نلتمسها في قصة حبه لفاطمة ، كما تمثلها الأخبار لا المعلقة ، وفي وقفاته الرائعة بالأطلال ، وفي بكائه الحار للدمن .

وفي آخر الفصول : « الصناعة والبيان » يقدم للحديث بمقدمة ينقل فيها نصوصاً عن نجد واليمن ، كان الأولى بها حديث البيئة في المقدمة . ويذكر في حديث صناعته وبيانه بعض الأمثلة التي أوردها القدماء كذلك ، ولا يصور هذه الصناعة كما صوروها ، لأنه لا يحيط بما أحاطوا به .

ومن هنا وغيره يتبين أن هذه الصفحات المائة تتحدث عن الأدب العربي من امرئ القيس إلى مطران ؛ وأن المؤلف كان حريصاً على إيراد كل عنده فيها ، ولهذا ران الاضطراب والاستطراد عليها ؛ وأنها لا تعدو الإيراد المقتضب والنظرات العجلى .

لكنها في الحق من قبيل التعبير القريب الهين عن إعجاب قارئ بشاعر اطلع على بعض شعره ، وطائفة من أقوال الناس فيه .

ومن هنا ، فهي حقيقة بالحمد من مؤلف يعتبر نفسه مؤرخاً سياسياً . ومن ذا الذي لا يحمد الاجتهاد وحب التحصيل الأدبي ! ولعل الدكتور المؤلف يرضي القراء حين يطالعهم بمؤلف تاريخي ، يتبينون فيه صدق جولاته في هذا الباب ، بعد أن تبينوا جولاته في باب البيان العربي .

دكتور سيد نوفل

بين المسموع والمقروء

في الحمام التركي

في الحمام التركي ، على النمط الحديث ، تغدو الرجال وتروح عرايا كما ولدتهم أمهاتهم . نعم أمهاتهم ، ولو أني أتحدث عن رجال طال عليهم العهد بالولادة والأمهات .

ومرقتُ هذه المرة بينهم ، وعيني تتفحص ، تطلب هذا التقويم الحسن الذي منحه الله بني آدم ، فلم أجد له وايم الحق ، وعوضني على الله ، مظاهر بينة . فمن جسم مقفّع متلّع مضفدع كبعض الزواحف ، إلى جسم تقوّس ، ولكن إلى الوراء ، من أجل بطن عظيم كريش قضت حكمة السير أن يوازنه تقوّس الظهر .

واتسع جدار البطن حتى فاض فانطوى على نفسه كما تنطوى العباءة طية وطيّة لسعتها .

وأرجل هذه الأجسام عرّفتني لماذا أغرم الرجال بالنظر إلى السيقان وهم في كراسي المقاهي على قارعة الطريق أو في كراسي السينما أمام الشاشة البيضاء . كانت أرجلاً كأرجل الأوز أحياناً ، وكأرجل الفيلة أحياناً إلا أنه فاتها بعض انتظامها .

وخطوط الحدود لهذه الأجسام ، لو أنت ألقيت بظلالها على حائط ما كدت تعرف أين بطونها ، وأين ظهورها .

والشعر ينبت أحياناً في حيث أراده الله ، وأحياناً في حيث لم يرده الله . وهو قد ينبت كثيفاً أسود يذكّر ببعض الأدغال ولكن في غير خفائها وجمالها .

خرجتُ من هذا الحمام وأنا أحمد الله ، لا على حسن تقويم هذه الأجسام ، ولكن على نعمة الملابس التي تستر من العين هذه الشرور والآثام .

الحجاب والسفور

وذكرت بهذا الحجاب ، وذكرت به السفور ، فوقع في نفسي أن السفور إن كان له مزية حيناً ، فكم للحجاب مزايا أحياناً . ووقع في نفسي أيضاً أن تمسك كثير من نسائنا بالحجاب لا يرجع أكثره إلى تمسك بمعنى من معاني الفضيلة ، ولكن إلى خشية أن يفضح السفور ما ستر الحجاب . ولست أعني بالسفور سفور الوجه وحده ، ولكن سفور الجسد أيضاً أو بعض سفوره ؛ أو حتى السفور بالخروج من حيطان المنازل والاختلاط بالناس . كل هذا يتطلب من الطبيعة أن تكون سخية على الأجسام ، ويتطلب النظافة وحسن الهندام ؛ والخروج إلى الناس يتطلب التثقف والعرفان ، فإن أعوزت هذه أو أعوز بعضها احتمى المرء والمرأة في التعزّل والتحجب . وهذا سرٌّ أن الحجاب ، حجابَ الأوجه من وراء البراقع ، أو حجاب الأجسام من وراء الملاءات ، لا يزال باقياً مقيماً في كثير من أوساطنا التي لا تستطيع دفع ثمن السفور .

احتجاب الشيخوخة

وإلى مثل هذا المعنى يرجع التغير في الأزياء بتغير السن ، حتى في الأمم التي من عادتها السفور . فالشابّة تكشف عن الساق والساق شابّة متّسقة . وتكشف عن الذراع وهي رخصة ملتفّة ناعمة . ثم تطول الأكمام من بعد ذلك وتطول ؛ والجلابيب المرفوعة بعيداً عن الأرض تقترب منها . حتى إذا مضى خريف العمر وحلّ شتاؤه ، تبدّتْ لك تلك الشابة السُّفُور وهي عجوز وقور ، قد حجبت شيخوختها ، فما تكاد ترى منها موضع سوار أو مكان خلخال . حتى الرقبة تسترها في الحرير الهندم فتملأ نعومته العين فتغفل عما احتجب دونه من خشونة وتجعُّد .

وشأن الرجال في هذا لا شك كشأن النساء ، إلا أنه يختلف درجة .

وشذّ في هذا من الشيوخ غاندي ، فهو على تهلهل جسمه يعرضه على الناس ، ولعله يعرضه للعبرة إن فاته أن يعرضه للجمال .

خدم :

ولست أذكر الخدم لأعرض لحالهم أو قبحهم ، ولا لحجابهم أو سفورهم ، ولكني لأعرض سوء حالهم ، أو على الأصح سوء حال الناس بهم .

شكت لي سيدة شابة سوء ما تلقى منهم . قالت : كنت قبل الحرب أعطي للخادم جنيهين أو ثلاثة ، ثم بيني وبينه تقوم بخدمة البيت من نظافة ومن طهي ، وكنت أرضى ، وكان الخادم يرضى . أما اليوم فبضعف هذا المبلغ وثلاثة أمثاله لا أجد الخادم الذي يعمل نصف ما كان يعمله خادمي قبل الحرب .

خادمات :

قلت : فلماذا لا تستخدمين البنات ؟

قالت : هكذا استخدمتهن والدتي . ولكني لا أطيقهن . أو قل إنهن لا يطقنني أيضاً . وهن على كل حال لا ينفعن نفع الرجال ، ولا يُغنين غناءهم . ولكن أصعب ما فيهن عندي جيرتهن بعد الفراغ . فالبنت لا بد أن تأنس كما يأنس الناس . فكيف أؤنسها وهي حيث هي من الثقافة . أم أجعلها تطلب الأنس في بيوت الجيران !

جيل وجيل

قلت : فكيف تؤنسهن السيدة والدتك ؟

قالت في صراحة وهي تبتسم : أمي بحكم نشأتها وبحكم جيلها تستطيع أن تؤنسهن وتأنس بهن . وعدا هذا فعندها منهن عدد وافر لا أدري ماذا يصنعن . وفي الوفرة الإيناس . ولكن فيها كذلك قلة الإنتاج ، في حجرات البيت كما في حجرات الوزارات . وفي الوفرة الإغراء بالكسل ؟

قلت : لم ؟

قالت : للخادمات والسيدات على السواء . إن أشد ما يسوءني أن أدخل البيت فلا أكاد أسمع فيه من ربة البيت إلا : هاتي يا بنت كوبة ماء . خذي يا بنت الصينية . دوري لي يا بنت على الشبشب . انظري يا بنت مَن الطارق على الباب . تعالي يا بنت قصي لي أظافري . تعالي يا بنت انفخي لي في أذني . فهل بعد هذا من كسل ؟! وقد تكون السيدة أقرب ما تكون إلى ما تريد من كل خادمة . ثم بعد ذلك تشكو السيدات من ألغفة الشحم التي تلف بطونهن ، وقناطيرها التي تثقل بها أعجازهن ، ومما يصيب أمعدتهن من اضطراب ، وأكبادهن من تضخم ، وأنفاسهن من تقطع . كل هذا لركونهن إلى الراحة بكثرة الخادمات .

جعجعة ولا طحن .

قلت : ولكني لا أجد هؤلاء الخادمات من امتلاء الجسم بحيث وضعت سيداتهن . وهن اللاتي تصفين بقلة الإنتاج !

قالت : إني لم أقل إن الخادمات لا يعملن ولا يجهدن أبدانهن . ولكنهن كالطاحونة التي قيل فيها : أسمع جعجعة ولا أرى طحناً . إن هؤلاء البنات يعملن من طلعة الصبح إلى ساعات كثيرة في الليل . وهن ليس لهن في هذه الفترة موعد للراحة معلوم ، ولا موعد للعمل معلوم . حتى العمل لا يُقدَّر وليس له وقت مقدور . إنه اختلال عام يشمل أكثر البيوت سيدات وخادمات ، وليس هو كذلك في الخادم الرجل الأسود المدرّب الذي اختفى في هذه الأيام . وهو لنظامه ما كان يدخل هذه البيوتات . وهو لنظامه لا تطيقه هذه البيوتات .

أنانية

قلت : أم هي لا تطيقه لأمر يتصل بالأخلاق

قالت : إذن لم أطاقت الخادمات من البنات والنساء ؟ أم هي الأنانية لا تتقى الضرر ما وقع في غيرها ، ولا تدفع أسبابه إلا إذا هو وقع فيها .

نهاية :

قلت : نهايته ، يا سيدتي ، إن الحرب ستنتهي ويعود إليك مَن ترضين من الخادمين .

قالت : لم يبق فيهم ما يُرضى ، فقد أفسدتهم خدمة الجيوش : مال كثير ، وعمل قليل ، ودار المؤونة ليس عليها حارس ؛ فكيف يصلح هؤلاء من بعد ذلك في بيوتنا المتواضعة ؟!

عند هذا حضر زوج السيدة ، فما علم ما نحن فيه حتى رفع يديه مستجيراً إلى السماء .

منطق :

مدرّس في قرية تعيش على استخراج الفحم من مناجمه . وبتلك المناجم يستخدم القوم نوعاً صغيراً من البغال يألفه صبيان القرية .

وجاء درس الجغرافيا ، وكان درساً في شبه جزيرة اسكندناوة ، وهي شبه الجزيرة التي تضم بلاد السويد وبلاد النرويج . وأراد المدرس أن يثبت شكل تلك الجزيرة في أذهان الصبية ؛ فصورها لهم كبغل ارتمى على جانبه ، ظهره النرويج وبطنه السويد ، ورأسه ما تسفل من النرويج ، ورجلاه الأماميتان الطويلتان ما تسفل من السويد .

سمع بهذا ناظر المدرسة ، فاعترض . إن الكتب تقول إن شبه الجزيرة تشبه الدب لا تشبه البغل .

وسمع المدرس اعتراض الناظر فخالف . لأن صبية القرية لم تر الدب ، ولكنها تألف البغال .

قال الناظر : نعم ! نعم ! ولكن الواجب تعريف الصّبية بالدب أولاً ، ثم يكون بعد ذلك التشبيه ؛ فتكون الفائدة فائدتين .

فأي المنطقين يجوز عندك أيها القارئ ؟ وكيف نُظهر أحدهما على الآخر . حاول تجد أن الدفاع عما نحسبه الصواب ليس دائماً يسيراً .

رمضان :

سأل ضابط أمريكي رجلاً مصرياً عن شهر رمضان ، فقال صاحبي المصري : أتريد أن أعرّفه لك على ما هو كائن أم على ما يجب أن يكون ؟ فاختلط الأمر على الأمريكي ساعة ، ثم قال احتياطاً : على كليهما .

قال صاحبي : شهر أريد به أن يكون شهر الجوع ، فصار شهر الشبع ؛ ودليلي على هذا أن الحاكم العسكري أباح اللحم في هذا الشهر كل أيام الأسبوع السبعة ، وقد كان مقصوراً على أربعة . وهو شهر أريد به أن يحس الناس فيه العيش من جانبه الأخشن ، فإذا هم يحسونه من جانبه الأنعم والأرفه ؛ ودليلي على هذا ظهور الحلويات والفطائر والكنافات وقمر الدين والقطايف والشاميش ، وصنوف البندق واللوز في هذا الشهر . وهو شهر أريد أن يكون بسببه في ميزانية البيت فضل يظفر به الفقراء ، فإذا هو أكبر الأشهر ميزانية ؛ ودليلي على ذلك أنه أكثر الأشهر عند الناس استدانة . وهو شهر أريد أن تصح فيه الأجسام ، فإذا هي بالبطنة تعتل فيه ؛ ودليلي على ذلك اكتظاظ عيادات الأطباء من بعد فواته .

سمع صاحبنا الأمريكي هذا ، فكأنما زاد عليه الأمر اختلاطاً . ولكنه سكت خشية أن يكون في الاستطراد مساس بعقيدة .

شيخ عليل ولكن ...

أبو بكر بن عياش عالم من علماء القرن الثاني الهجري ، حدّث فقال :

كنت أنا وسفيان الثوري وشريك ، نمشي بين الحيرة والكوفة ، فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية ، حسن السّمت والهيئة . فحسبنا أن عنده لا شك شيء من حديث رسول الله ، وأنه لابد أدرك من مضى من الأولين .

وكان سفيان أطلبنا للحديث ، وأشدنا بحثاً عنه . فتقدم إلى الشيخ وقال :

— يا هذا . أعندك شيء من حديث رسول الله ؟

فقال الشيخ :

— أما حديث فلا ، ولكن عندي عتيق سنتين .

ونظرنا ؛ فإذا الشيخ خمّار .

«الجزيري»

شركة زراع السودان

(بقية المنشور على صفحة ٤)

فعندما ترتفع أسعار القطن يزداد نصيب الحكومة بحيث يمكنها من أداء ما عليها من أرباح الديون، ويزداد ربح الشركة، فترتفع أسعار السهم حتى تصل إلى تسعة جنيهات (وثمنه الأصلي جنيه واحد). ولا شك أن حكومة السودان — والشركة أيضاً — قد عانتا مشقات في أعوام الكساد (١٩٣٠ إلى ١٩٣٥)، حتى أشيع أن الشركة لا تمانع في بيع امتيازها بثمن معقول. ولكن في السنين العادية تجني الحكومة والشركة إيراداً لا بأس به من قطن الجزيرة. وينتظر أن يزداد هذا الإيراد في الأعوام المقبلة ازدياداً عظيماً، بفضل ما سيحدث من الرواج العام في الأعوام التالية للحرب مباشرة؛ ولعل هذا الأمر هو الذي جعل الشركة، ومعها بعض الصحف البريطانية تأسف أشد الأسف، لأن عقد الشركة لم يجدد. فلقد تقدمت الشركة إلى حكومة السودان تطلب مد امتيازها فترة من الزمن بعد عام ١٩٥٠؛ فأبلغتها الحكومة أنها رفض ذلك الطلب «نظراً لبعض التطورات الحاضرة والمستقبلة في الناحيتين السياسية والاجتماعية. ولكن أكثرية الموظفين التابعين للشركة سيحتفظ بهم للانتفاع بخبرتهم».

ومع أن حكومة السودان لم تتجاوز حدود سلطتها المشروعة، بل وأبدت روحاً طيبة باستبقاء الموظفين؛ ومع أنه بديهي أن كل امتياز محدود بأجل فالمعقول أن ينتهي بانتهاء ذلك الأجل؛ فإن بعض الصحف لم تتورع من أن تنتهز هذه الفرصة للتنديد بالسودانيين والمصريين على السواء، فاتهمت الأولين بأنهم أبدوا «نعرة وطنية اقتصادية»، واتهمت المصريين بأنهم سيشترون «هذه المنشأة بثمن بخس». ولا ندري لماذا نشتري المنشأة ما دام امتيازها قد انتهى، وستؤول بحكم انتهائه إلى حكومة السودان وأهل السودان؟!

لا شك أن حكومة السودان قد أحسنت برفض تجديد الامتياز. والذي نرجوه أن تثبت على هذا الرفض أمام أي ضغط يوجه إليها في المستقبل. وعلى الرغم من كل ما قالته تلك الجريدة، فإن أهل السودان هم أحق الناس باستثمار أرضه، وبالانتفاع بجميع خيرات تلك الأرض. وليس لأي مصري غني أو فقير أي أمنية أعظم من أن يرى إخوته في السودان ينعمون بما تدره أرضهم من الغلات.

محمد عوض محمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٩٨ — الثلاثاء ٢٤ من رمضان سنة ١٣٦٣ — ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مستقبل العـــالم

دارت عجلة الزمن ، وأخذت الأمور تعود من حيث بدأت . وتبدلت الأحوال وانقلبت الأوضاع ، فإذا قوى الأمس يدركه الوهن ، ويخرج مرغماً عن مغانمه كما ظفر بها مرغماً ، ويدبّ الضعف في أوصاله ، فتفلت من قبضته المتخاذلة المتراخية فرائسه التي كان يمسك بها بيد من حديد . وإذا خصومه الذين أخذهم على غرة ، وباغتهم بالحرب قبل أن يعدوا لها العدة ، قد صمدوا لحملاته ، وثبتوا لضرباته ، ولم يستكينوا لجبروته ؛ بل استعانوا عليه بالصبر والجلد ، وراحوا يستكملون الاستعداد ، ويجمعون له الرجال والعتاد ، ويتدربون على أساليب النزال والجلاد ، ويرتبون الخطط الدقيقة لمنازلته ، وتركوه يدل بقوته ، ويتيه برجاله وعدته ، ومدوا له في غروره بما أحرزه من نصر ، وما أنزله بالأمم الضعيفة من بطش وطغيان . حتى إذا اطمأنوا لا كتمال أهبتهم ، ورجحان كفتهم ، وسلامة خططهم ، أتوه من كل جانب ، وضيقوا عليه المسالك ، وطاردوه إلى عقر داره بعد أن دكوا معاقله وقطعوا عليه السبل ، وأخذوا يخرجونه من البلاد التي اجتاحها وسلبها حريتها وخيراتها ، ويفتكون بقواته ومعداته ، فريقاً يقتلون ويأسرون فريقاً . وإذا سارت الأمور في مجراها الحالي ، واستمرت التطورات الأخيرة التي حدثت بميادين القتال ، ولم تجدّ أمور ليست في الحسبان ، جاز لنا أن نتوقع انتهاء الحرب وعودة السلام في أمد قريب .

وإن العالم ليتطلع بشوق ولهفة إلى ذلك اليوم الذي تنزاح فيه عن الناس تلك الغمة التي ظلت جاثمة على صدورهم خمس سنوات طوال ، ذاقوا فيها مرارة الألم ولوعة الأحزان ، وقاسوا فيها ألوان الشقاء ، وتجرعوا غصص

الحرمان ، واحتملوا فيها الشدة والضيق ، وصبروا على ما لاقوا من أذى ، وما فرض عليه من تكاليف شديدة ، وما قيدت به حرياتهم من قيود ثقيلة . رُوّعوا في كل ساعة من ساعاتها بالفزع يأتيهم من فوقهم ومن تحتهم ومن بين أيديهم ، وابتلوا فيها بنقص في الأنفس والثمرات . وامتحن فيها من امتحن منهم بالخروج عن الأوطان ، وفقد الأهل والمال ، وخربت فيها كثير من الديار ، ودمرت في لحظات ما شادته الأجيال في سنوات .

وسيطلع السلام حين يطلع على عالم مخرب محطم القوى ، ممزق الأوصال ، تسوده الكآبة والحزن ، ويشيع فيه البؤس واليأس ، ويعمه الهم والثكل ، ويخترمه المرض والجوع واختلال الأعصاب . وسيمتزج شعور الفرح بعودة السلام بعبرات الحسرة على ما أحدثته الحرب من فجائع ، وما خلفته من هموم .

والمهمة التي تنتظر أقطاب العالم وقادته مهمة ثقيلة ، فإن عليهم أن يبادروا بعد أن تضع الحرب أوزارها بتضميد ما أحدثته من جراح ، وتعمير ما تركته من خراب ، وتدارك من تركتهم على أبواب الفناء ، بتولوهم بالإسعاف السريع الذي ينقذ حياتهم .

وسيجتمع هؤلاء الأقطاب حين يجتمعون حول مائدة الصلح . وتسوية الأمور مع المعتدى المغلوب أيسر الخطوب ، وإنما المشكلة الحقيقية التي سيواجهونها هي أن يصلوا الحل يكفل للعالم سلاماً دائماً ، ويحول دون تكرر وقوع حرب كتلك الحرب الهوجاء التي أتت على الأخضر واليابس ، وأكلت في بعض سنوات ما كدّست الإنسانية في جمعه وتحصيله أجيالا ، ولم يسلم من ويلاتها غالب ولا مغلوب ، ولا قريب أو بعيد ، ولا محارب أو محايد . والمشكلة الحقيقية أن يعيدوا بناء العالم على تلك الأنقاض المهدمة ، وينفخوا الروح في تلك الشعوب المهوكة المضعضعة ، ويبثوا الحياة في أمم قد استنزفت دماءها ، وقطعت أوصالها ، وكادت تفقد كل أسباب البقاء . والمشكلة الحقيقية أن يكفلوا للناس الأمن والطمأنينة ، ويقيموا الروابط بينهم على أسس المودة والتفاهم ، ويزيلوا من طريق تقاربهم العوائق والأشواك ، ويعيدوا بينهم الثقة المفقودة .

ولسنا ندرى إلى أى حد يوفق مؤتمر الصلح فى حل تلك المشاكل ، ولا أى الطرق سيسلك فى معالجتها ، ولكنا نعلم أن هناك أقوالاً كثيرة قد أذيعت ، ومواثيق قطعت ، وعهودات نشرت ، وأن الناس قد مُنّوا الأماني ، وباتوا يحلمون بعالم الغد السعيد ، ويتخيلونه فردوساً حقيقية ينعم فيها الناس بالدعة والوفرة ، ويأمنون فيها الجوع والخوف ، ويتمتعون فيها بالحريات جماء ، وتمتنع بينهم الخصومات وتسود المحبة والوئام ؟ فهل يتحقق ذلك الحلم ، أم يصيب تلك المواثيق والعهود ما أصاب شروط ولسن فى الحرب العالمية الماضية ؟ وهل يكون المؤتمر عبرة فيما كان من معاهدة فرساي وما جرته على العالم من ويلات ، أم تنسيه نشوة الظفر عظات التاريخ ويقع فى نفس الأخطاء ؟ وهل تعالج تلك المشاكل بروح إنسانية واسعة الأفق ، أم تتغلب الأنانية القصيرة النظر وتسود النزعات القومية الضيقة ، فتبذر فى النفوس بذور الأحقاد والفتن ، وتُهيأ الأسباب لحروب جديدة أشد هولاً وفتكاً وأفظع تدميراً ؟

إن الأمر يتوقف إلى حد كبير على ساسة الأمم الكبيرة التى ستحتفظ بقوتها بعد الحرب ، وتكون لها الكلمة العليا فى تقرير مصير العالم ووضع الأسس التى ستقوم عليها من جديد . فإذا كان هؤلاء الساسة يقدرون التبعة الكبرى التى يلقيها التاريخ على عاتقهم ، ويسمون بأنفسهم فوق مرامهم القومية إلى مكانة الزعامة العالمية ، وينظرون للإنسانية جماء على أنها وحدة متماسكة لا يطيب فيها العيش فى جانب إذا شقى جانب ، ولا يسود الأمن

ناحية إذا اختل فى أخرى ، ولا يتم أهلها جميعاً ، حتى يتوزع الخير بينهم ، ويتقاسموا ثمرات الأرض بالعدل والإنصاف ؛ إذا دخل هؤلاء الزعماء مؤتمر الصلح بتلك العقلية الواسعة ، وطرحوا وراء ظهورهم أنهم يمثلون أمة يريدون أن يمكّنوا لها فى الأرض ، ويوطئوها أكتاف الأمم الأخرى ، ويقوونها على حساب غيرها ؛ إذا أقبلوا على معالجة المشاكل العالمية بتلك الروح الكريمة البعيدة النظر أنقذوا الإنسانية ، وخلدوا لأنفسهم المجد الدائم ، وحفظوا أممهم وأمم الأرض كلها من ويلات الحرب .

أما إذا تغلبت الاعتبارات الخاصة ، وعالج المؤتمرون تلك المشاكل العالمية بالعقلية القديمة وأساليب السياسة التقليدية ، فإن الأمر لا يعدو أن يكون تهادناً مؤقتاً ، وسيكون السكون الذى يعقب العاصفة سكوناً خادعاً ، وستعمل فى الخفاء نفس العوامل التى ولدت الحرب الماضية ، ولن تجدى فى منع الكارثة كل الاحتياطات والضمانات التى تتخذها الأمم القوية لنفسها

***

لقد سئمت الإنسانية تلك الحال المضطربة ، وآن أن يقوم فى العالم نظام سليم يماشى الخطوات الواسعة التى خطاها العقل الإنسانى والتقدم العلمى الذى أحرزه ، ولا يصح أن يتعرض العالم لمثل تلك الامتحانات القاسية بسبب أخطاء من يتولون أمور السياسة فى بلادهم . ويجب أن يقوم فى الوجود رأى عالمى عام يوجه أولئك الساسة فى الطريق الصحيح . وأولى الناس بأن يقودوا هذا الرأى العام هم العلماء والحكماء الذين يستطيعون أن يبصّروا الناس عما يتهدد الإنسانية من أخطار بسبب تطاحن أممها وتنازعها ، وما يمكن أن يتوافر لها جميعاً من الخير إذا نظمت أمورها على قواعد العلم ، وتقاسمت ثمرات الأرض على أسس العدل والإنصاف .

وإذا كنا نطمع أن تتغلب الاعتبارات الإنسانية ، وأن تسود الحكمة قرارات مؤتمر الصلح ، ثقة بأعلام الأمم الديمقراطية ، واطمئناناً لما يملأ قلوبهم من الإيمان بالعدالة وحب الحرية ، فإن هذا لا يمنعنا من الحذر والاستعداد لأسوأ الاحتمالات .

إن مصر لم تشترك فى الحرب اشتراكا مباشراً ، ولكنها كانت مركزاً هاماً من مراكزها ، وكان وجودها فى صف الحلفاء ، وإن لم تدخل الحرب بالفعل عاملا هاماً فى تطورها لمصلحتهم . وهى وإن لم يصبها ما أصاب غيرها من الأمم المشتركة بالفعل فى الحرب ، فإنها لم تنج من أذاها ، وقد ساهمت بنصيب مادى كبير فى خدمة قضية الحلفاء .

وسيكون لتلك الاعتبارات بلا شك قيمة حين تعالج المشاكل العالمية ، وتقرر مصائر الشعوب ، ولكننا مع اطمئناننا لذلك يجب أن نحتاط للأمور ونرقبها بكل حذر .

ولن نسيء الظن بأحد ، ولكن يجب أن يتبين الجميع بجلاء أننا قوم لا نتسامح قيد أنملة فى حق من حقوقنا ، ولا نقبل أن تمس كرامتنا على أية صورة ؛ وأننا أصبحنا نتطلع إلى زوال القيود الصغيرة الباقية التى تقيد استقلالنا وتحد من سيادتنا فى بلادنا ؛ وأن التقلبات السياسية التى تمخضت عنها الحرب خليقة أن تطمئن حليفتنا إلى أنها لم يعد لها من تخشاه ممن يجاورنا ، وأنها حرية أن توفر ما كانت تتحمله من متاعب فى سبيل الاحتياط والمحافظة على طريق مواصلاتها للشرق . ويجب أن نكون يقظين متأهبين للعمل ، وأن ننسى الخلافات الصغيرة التى تفرق بيننا أفراداً وجماعات ، وأن نستعد من الآن لعهد عالمى جديد ، لا يصح أن نكون فيه كمّاً مهملاً ، تقضى الأمور ولا يسمع لنا صوت ، ونسيّر من غير أن يؤخذ لنا رأى .

(...)

حديث رمضان :

(٤)

في الحياة الروحية

كان أبو علي بن سينا من أكبر فلاسفة المسلمين إن لم يكن أكبرهم — تربى من صغره تربية فلسفية دقيقة ، فتعلم على أساتذته المنطق والرياضة والطبيعة والفلك ، ثم انصرف إلى ما نقل من اليونان أيضاً من علم ما بعد الطبيعة . فقرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة ، فلم يفهمه ؛ ثم عثر على كتاب للفارابي يشرح كتاب أرسطو ويبيّن أغراضه ، فألهمه إلهاماً ، وانكشف له به كتاب أرسطو انكشافاً ، وفي كل ذلك يعمل عقله الكبير في أعقد المسائل الفلسفية لا يملّ ، وإذا نام حلَم فيما يشغله أثناء يقظته ، حتى وصل إلى فهم الفلسفة فهماً دقيقاً ، وألف فيها الكتب الكثيرة مطوّلة ومتوسطة ومختصرة . ووصل بفلسفته إلى وجود الله ، وأنه علة العلل ، وأنه واحد ، وأنه بريء من الكم والكيف والأين والمتى والحركة ، إلى آخر ما قرره في فلسفته .

وكان يعاصره رجل كبير اسمه أبو سعيد بن أبي الخير ، يُقرن بعمر الخيام فيما له من رباعيات عميقة تفيض بالحياة ، وكان صوفياً فارسياً عظيما ، تربى على النمط الصوفي ، كما تربى ابن سينا على النمط العقلي والفلسفي . إذا قرأ ابن سينا المنطق على أستاذه استعداداً للفلسفة ، فأستاذ أبي سعيد يعدّه للتصوف ، فيأمره أن يستحضر الله بقلبه ، ويتصوّره مكتوباً بأحرف من نور على قلبه وعلى سائر أعضائه ، ويعلّمه رباعية فارسية يأمره أن يكررها ما استطاع ؛ ومعناها :

بدونك — أيها الحبيب — لا أذوق طعم الراحة
وفضلك عليّ — أيها الحبيب — لا يمكن أن يعدّ ولا يحصى
لو أن كل شعرة من جسمي لسان يذكرك
وكلها تنطق بآلاف الثناء ، عليك ما أديت حقك

ثم يتدرج به شيخه في الإرشاد من تأمل وخلوة أحياناً ونحو ذلك ، حتى يصبح أكبر صوفي في عصره يُروى عنه الأدب الغزير في التصوف . فأصبح ابن سينا علَماً في فلسفته ، وأبو سعيد علَماً في تصوفه .

فيحكون أن القدر جمع بينهما في نيسابور ، فاجتمعا ثلاثة أيام بلياليها يتذاكران ما وصلا إليه في فهم الحقيقة ، ثم افترقا . فسأل تلاميذ ابن سينا أستاذهم عن رأيه في أبي سعيد ، فقال ابن سينا : « إن ما أعلمه أنا يراه هو » ! وسئل أبو سعيد عن رأيه في ابن سينا ، فقال : « إن ما أراه أنا يعلمه هو » !

مهما شك المؤرخون في صحة هذه القصة فهي قصة ظريفة تمثل الواقع . هي الفرق بين الفيلسوف والصوفي ؛ وهي الفرق بين العقل ينمّى والقلب يندى ؛ بين العقل يتفلسف والقلب يتديّن ؛ بين ملكتين في طبيعة الإنسان اتحدت غايتهما واختلفت طريقتهما : عقل يسير في طريق المنطق والمقدمات والنتائج ، وقلب يسير في طريق الحب . يقول ابن سينا : « أحياناً كنت أتحيّر في مسألة ، ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في القياس » ؛ وأبو سعيد كان يتحير إذ يجد حرارة حبه قد فترت ؛ ذلك يُعمل العقل حتى يظفر بالحد الأوسط ، وهذا يرهف الشعور حتى تتقد حرارة حبه .

وكما تمثل القصة ملكتي النفس ، فهي كذلك تمثل الناس : هذا رجل عقل جاف نمّى عقله حتى على حساب شعوره ؛ وهذا رجل قلب حارّ نمّى قلبه حتى على حساب عقله . وقلّ من اعتدل

ويعجبني اتفاقهما على تسمية إدراك العقل علماً ، وإدراك القلب رؤية . فالعقل يسلّم عطف الأب على الابن

ولكن قلب الأب يراه ؛ والعقل يعلم أن هناك حباً ولكن القلب يراه .

إن الكون مملوء بتموجات دونها تموجات المحيط ، ترى العين بعضها ولا ترى بعضها ، حتى مما يمكن أن يُرى ، فإذا زادت التموجات أو قصرت عن حد معلوم فلا يراها الإنسان وقد يراها بعض الحيوان ؛ وكذلك السمع والشم . وهناك تموجات يعلمها الإنسان ويراها الحيوان . فالنحل يرى يعسوبه إذا بعد عنه أميالا ، والإنسان قد يعلمه ولا يراه . والطيور الرحالة ترى أعشاشها على بعد آلاف الأميال ، والإنسان لا يراها . والجمل يرى موضع الماء في الصحراء واتجاهه ، وقد يعلم ذلك الإنسان ولا يراه . والنمل يشم السكر في الصيوان ، والإنسان قد يعلمه ولا يشمه . والشيء قد يكون ظلاماً دامساً لإنسان ونوراً ساطعاً لإنسان . فحقاً ما قالوا من أن إنساناً يعلم وإنساناً يرى ! وما العقل والإلهام ، وما التفكير والشعر ، وما الفن والخيال ، وما الفلسفة والدين إلا جداول من ذلك المحيط ، محيط الكون اللامتناهي ، تدرك بعض تموجاته . فضلّة رجال علم ينكرون وحي الدين ، وضلّة رجال دين ينكرون حقائق العلم — لقد قال متصوف : « حقاً حقاً ، إني لست شيئاً إلا فيضاناً من حب » ! فقال عالم : « حقاً حقاً ، إني لا أفهم لغتك ، وما هي إلا هذر » . وقال متصوف : « إني أنا الحق » . فقال عالم : « لست الحق ، ولكني باحث عن الحق لأستخدمه في حياتي » . أما أنا فإني أفهم المتصوف في حبه ، والعالم في علمه ، ولا أفهم إنكار أحدهما على الآخر .

وكما تعددت الملكات في الإنسان الواحد واختلفت في القوة ، وتعددت في الناس واختلفت في القوة ، كذلك اختلفت في البيئات ، فاشتهر من قديم إلهام الشرق ، وعلم الغرب أو فلسفته . فمؤرخو الفلسفة يرون أنها ظلت عقلية بحتة ما استقرت في بلاد اليونان ، حتى إذا أتت الإسكندرية امتزجت روح اليونان بروح المشارقة ، وكونت مزيجاً من عقل الأولين وإلهام الآخرين ؛ وتعاونت الروح الشرقية — التي من خصائصها الطموح إلى ما وراء عالم الشهادة ، والروح الغربية التي من خصائصها التحليل والشرح وربط الأسباب بالمسببات — على إيجاد فلسفة دينية لا هي فلسفة محضة ولا هي دين خالص .

ثم إن الأديان الكبرى من : برهمية وبوذية ويهودية ونصرانية وإسلام ، نبعت من الشرق — من آسيا — ومنه انتشرت في أنحاء العالم ، فما علة هذه الظاهرة ؟

قرأت أخيراً تعليلاً لكاتب إنجليزي أقام طويلاً في الهند يجيب عن هذا السؤال فيقول : « إن الريح الباردة في الشمال ، والسماء الدكناء ، والغيوم والأمطار لا تجذب إليها الإنسان ليكون خارج نفسه ، بل تجعله ينكمش داخلها . إن كل عاصفة باردة ، وكل مطرة غزيرة ، وكل يوم أدكن لا يذكّره بنفسه ، ولكن يذكّره بجسده ؛ فيجب أن يفكر في كيف يدفأ ، وكيف يتغذى ، وكيف يُؤوَى ، ولا ينسى أبداً أن الجو الخارجي عدوه يخاف منه ويحتاط له — وعلة ذلك على أنه إذا أقام في مسكنه فأكره ما يكره أن يكون مع نفسه وحدها . وعزلة الإنسان وانفراد نفسه مع الطبيعة هي وحدها التي تجعله يسمع صوت الكون . إن الطبيعة لا تتكلم إلا همساً ، فيجب أن يسود حولها السكون التام حتى توحي بأسرارها .

والأمر على عكس ذلك في الشرق ، تمر الأسابيع والأشهر وربما نصف العام ، والنهار كامل في نهاريته ، والليل كامل في ليليته . وفي هذا الجو يستطيع أن يكون الإنسان مع نفسه وحدها ، في هذه البيئة يستطيع أن يجد الصحراء العميقة في سكونها ، والغابات التي لا حد لها ، ويستطيع أن يستغرق في سكونه وتأمله فينسى الناس ،

ولا يشعر إلا بنفسه في أحضان الطبيعة ، في أحضان الله !

« إنك في الشرق قليلة حاجاتك ، لستَ في حاجة إلى نار للدفء ، بل ولا في حاجة ملحّة إلى مسكن . وأي غذاء يكفى ، وأي ملبس يكفى ؛ ولستَ في قلق واضطراب وتفكير فيما يواجهه به الريح الباردة والجو المظلم ! يكفي أن يكون مأواك في النهار ظل شجرة ، وفي الليل تسطع على رأسك النجوم بلألائها ، لا تتصل بشيء إلا بالطبيعة ، فإذا أنت أحببتها كما يجب أن تُحَبَّ ، وتعشقتها كما يجب أن تُعشَق ، وناغمتها كما يجب أن تناغم ، وأرسلت نفسك على سجيتها تسبح في مجاهلها ولا نهايتها استطعت عندئذ فقط أن تسمع لموسيقاها الساحرة .

« لهذا سطعت الأديان من أرض الشمس ، لأن الضوء مصدر الإيمان .

« فما لم تر الشرق لا تعرف ما العقيدة ! واعتبر ذلك بما يلفت نظرك عند ما تضع قدميك في الشرق . ما الذي يفجؤك ، ما الذي تشعر أنه الشيء الفعّال النفّاذ في نفوس الناس ؟ إنه الدين ! إن الشرق مخمور بدينه ، يجب أن يدل عليه حتى بمظهره : فهذا الهندوسي بشُعبه الثلاث التي على رأسه ، وهذا المسلم بلحيته وعمامته أو نحو ذلك . هل رأيت إنجليزياً يصلي في الشارع ؟ وإذا رأيته أفلا تلومه وتصيح فيه : «صل في بيتك» ، وتعتقد أنه يعرض صلاته وتقواه ؟ ليس الأمر كذلك في الشرق ، إن الشرق يفعل ذلك ولا يرى فيه موضع مؤاخذة أو غرابة . إنك تركب القطار في الهند ، فترى هؤلاء الهنود من رجال ونساء وأطفال يتجمعون عند طلوع الشمس فيحيونها ويصلون لها ؛ وهؤلاء المسلمين ينشرون ثيابهم على الأرض ، ويتجهون نحو الكعبة يصلون لله على ملأ من الناس ، ويرون ذلك واجبهم ؛ ذلك لأننا في الغرب لا ندرك حقيقة إيمان الشرق ! إن الشرق يعدّ الدين نفسه ، ولا يعده الغربي كذلك — إن الغربي قد يساكن آخر ، ويصاحبه زمناً طويلاً ، ولا يسائله يوماً عن دينه بل ولا يهمه ما دينه ؛ ولكن الدين في الشرق أعز شيء عند أهله .

«وشيء آخر بين الشرق والغرب ، أن الدين في الغرب نُظّم نظاماً دقيقاً كأنه حكومة ، والكنيسة ورجال الدين يسيرون على نظام محكم وعلى رأسه البابا ؛ أما في الشرق فليس هذا هو الشأن ، فلا رئيس في الهندوكية ؛ وخليفة المسلمين ليس له إلا سلطة اسمية ، والدين — على العموم — في الشرق نفسي داخلي ، وليس يحتاج إلى نظام ولا سلطان . فإذا شعر الشرقي بحاجة إلى الدين بحث عنه كما شاء ، واعتنقه كما شاء ، وأسس علاقته بربه كما شاء . إذا نظرت إلى الدين في الغرب رأيته كحديقة خضعت للنظام ، شذّبت أطرافها في دقة ، وعُني بكل شيء فيها ، ومنع من السير على حشائشها ؛ كل شيء فيها بقانون ومنهج وقيود ، لأن بذورها مجلوبة من الخارج فتحتاج إلى مجهود صناعي كبير ؛ أما في الشرق فحديقة طبيعية تنمو أزهارها الحلية كما تشاء ، لا تحتاج إلى بستاني يرعاها ويشذبها ، وكل شيء فيها ينمو حسب قوّته واستعداده الفطري من صغيره إلى كبيره .

لهذا كله كان الشرق مصدر الدين وملهمه » .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

		مليم
الاشتراك لستة أشهر	في مصر والسودان	٤٥
	للطلبة ومعلمي الإلزام	٣٧,٥
	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد	٦٠
	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد	٧٥

ثمن العدد ١٥ مليما

معركة البلطيق

قل أن يهتم نحن القاطنين فى هذا الركن من الكرة الأرضية بما يحدث فى الجبهة الروسية الشمالية ، لا لأننا نعتقد بأنها أقل أهمية من الجبهات الأخرى فى ميادين الحرب ، بل لأن المثقف المتوسط الثقافة لا يعرف شيئاً كثيراً عن الشعوب المكوّنة منها دول البلطيق .

يجب عليك أن تعرف على الفور أنه فى مقدور روسيا السوفيتية اكتساح تلك الجبهة اكتساحاً سريعاً . ولعلك تساءلت أكثر من مرة عن السبب فى تراخيها فى حربها الأولى مع فنلندة ، فتارة نسمع باعتزامها القيام بهجوم عام عليها ، وطوراً تأتينا الأخبار بقيام مسيو باسكيفى لمفاوضة رجال الكيرملن فى عقد صلح منفرد ! ولا يمر وقت طويل على هذا أو ذاك حتى نسمع بأن الجيوش الروسية قد استأنفت هجومها بالفعل ، وأنها فتحت مدينة فيبورى وزحفت غرباً نحو هلسنكى عاصمة فنلندة ؛ ثم تنقطع عنا الأخبار بعض الوقت ، وعندما تستأنف الظهور تفاجأ باختيار الماريشال مانرهايم رئيساً للجمهورية الفنلندية مما يبشر باستقبال عهد مفاوضة ومهادنة ، إن لم يكن عهد صلح مع روسيا .!

حقيقة الأمر أن روسيا يخالجها عاملان قويان يؤثران أيما تأثير فى سير الحوادث حتى ما كان منها عسكرياً !

العامل الأول هو رغبتها الصادقة (ولا مراء هذه المرة) فى كسب ثقة البلاد التى تحاربها الآن ما عدا ألمانيا . وهذه الثقة لا تأتى بطبيعة الحال من طريق الغزو ، بل من طريق المفاوضة والإقناع .

يعلم الروس أن الأمة الفنلندية ، وإن كانت قليلة العدد (أقل من ثلاثة ملايين نسمة) ، هى أمة ذات إرادة فولاذية ترتكز إلى ثقافة اسكنديناوية لا تستطيع محقها بالحديد والنار . فإذا لم يكن بد للدولتين من أن تعيشا جارتين إلى الأبد ، فإن العقل والمنطق يمليان عليها ضرورة البحث عن أساس لتلك الجيرة ولذلك العيش ترضاه فنلندة مختارة حرة ، لا مكرهة صاغرة . لأنك إذا أكرهت الحر بحد السيف كان ذلك إلى وقت قصير . يجب عليك أن تكسب قلب خصمك ما دام مقدّراً لك أن تعيش معه فى صعيد واحد . ما الفائدة فى قمع إرادة الفنلنديين الآن بالقوة ، وهم يصبحون من جراء ذلك القمع فوضويين وثوريين ، لا هم لهم إلا الانتقام ؟

تريد روسيا إذن — وهى قادرة على ابتلاع فنلندة متى شاءت وأرادت — أن تفاوض الفنلنديين بالمنطق فى حل المشكلات القائمة بين الشعبين ، على أساس يرضى ذلك البلد المثقف ، الذى إذا قل عدده فى داخل بلاده لقسوة الطبيعة ، فهو كبير بما أنجب من أبناء يبلغون العشرين مليوناً فى أمريكا وأوربا وفى قلب روسيا نفسها .

الاستقلال التام لفنلندة مثل عال لا يختلف فيه اثنان حتى روسيا . لكن فنلندة ، قد جربت ذلك الاستقلال التام ، وقد كان من نتائجه أن طغت ألمانيا عليها ، وقد تطغى عليها غداً السويد أو روسيا ، إذا لم يكن بين رجال هذه أو تلك قوم يخالج أفئدتهم وقلوبهم ذلك الشعور السامى النبيل ، شعور احترام حقوق الأمم ، مهما تكن صغيرة . ما هو الضمان إذن ؟ أعصبة الأمم ، وقد برهنت على أن لا حول لها ولا قوة ؟!

لا تريد روسيا أن تخرب مدن فنلندة الجميلة ، ولا أن تذبح رجال تلك البلاد ، وجلّهم من عنصر الفلاحين السذج الكادحين الدائبين على العمل ، لأنها تعلم أن ذلك التخريب ، وتلك المذابح تترك فى الأجيال المقبلة أثراً لا يمحوه إلا الانتقام . « تعالى إذن يا فنلندة نحل مشاكلنا معاً . فأنت تطلبين الاستقلال التام ، ونحن نترك عليه

وتعتبره حقك الطبيعى، ولكن كيف تضمنين لنا ألا تتكرر المأساة التي جعلتنا ندخل معك فى حرب ، ألا وهى مأساة تدخل الشعوب كالشعب الألمانى فى شئونك ؟ »

للروس أن يسألوا فنلندة المستقلة هذا السؤال، ولهم أن يطلبوا مختلف الضمانات ؟ وذلك لأن المصالح الروسية إذا اصطدمت بالمصالح الألمانية ، هان على الألمان أن ينالوا من الدب الروسى فى خليج فنلندة فى البحر ، وفى رحابها التى يغطيها الجليد فى البر .

انظر إلى برزخ كاريليا وموقعه الجغرافى من لينتجراد العاصمة الروسية ، تجد أن طلب روسيا ضماناً كافياً لعدم تدخل الألمان فى شئون فنلندة ، طلب عدل مشروع لا نزاع فيه ! ولو أنه لا يمس المصالح الروسية إلا بطريق غير مباشر .

على أن لفنلندة أيضاً مطالب من روسيا ، أولها عدم التدخل فى النظام الاجتماعى القائم بها ، ولم يعرف حتى الآن مدى الضمانات التى تستطيع روسيا إعطاءها من هذه الناحية ، إذ لا يخفى أن الشعب الفنلندى منقسم على نفسه فى هذه النقطة عينها ؟ ففى فنلندة حزب قوى يدين بالمذهب السوفيتى ، كما أن هناك حزباً قوياً مناهضاً له .

على أنه من الواضح أن سيطرة الألمان على المرافق الفنلندية هى التى كانت السبب الحقيقى لإخفاق المفاوضات بين البلدين .

قلنا إن روسيا يخالجها عاملان قويان ، ذكرنا أولهما وهو المفاوضة والإقناع كى تكسب ثقة جارتها الفنلندية ، بدلا من أن تلجأ إلى ضروب القوة التى هى قادرة تمام القدرة عليها إذا شاءت .

أما العامل الثانى ، فهو شعور روسيا بسمو فنلندة الثقافى سمواً لا يجدى معه الإرهاب ، ولا تخضعه القوة الغاشمة ؛ لأنك إذا حملت خصمك بقوة السلاح على عقد معاهدة معك فإنه يقبلها على كره ، وينتقدها وفى قلبه مرض ، ويتربص بك الدوائر كى ينال منك فى الشدائد ، ذلك لأن لسانه يعطيك ما تطلب ، وقلبه يضمر لك ما تكره . فإذا أرادت دولة قوية أن تكسب قلب أمة مغلوبة على أمرها وجب عليها بنية خالصة ، وبحسن إرادة لا شك فيه ، أن تقدم من الضمان ما يشجع الأمة الضعيفة على التعاون معها تعاوناً خالصاً لا نفاق فيه . ولا شك عندى أنه إذا انهارت صروح النازية فى فنلندة فإن الاتفاق بينها وبين روسيا يصبح أمراً محققاً دون اللجوء إلى الحديد والنار .

ولا تختلف مواقف دويلات البلطيق : استونيا ولاتفيا وليتوانيا — وهذه الأخيرة تضم تحت سمائها عشرات الآلاف من السلافيين — عن موقف فنلندة مع روسيا ، فقد عمل النازيون سنوات كثيرة قبل الحرب على إخضاعها مالياً ، وحرصوا على توثيق الصلة بين المصارف الألمانية ومصارفها ، فأصبحت ماليات تلك الدويلات خاضعة للنفوذ الألمانى إلى حد كبير ، كما أن ثقافة شعوبها خصوصاً فى العشرين سنة الأخيرة كانت ألمانية أكثر منها روسية ، نظراً إلى العزلة السياسية التى فرضتها أوروبا على روسيا ، خشية أن تقوم بدعوة إلى قلب أنظمة الحكم .

يجب عليك إذن أن تعرف أن الحرب المستعرة فى تلك المناطق سببها الآن طرد النازيين منها أولا ، ثم عقد معاهدات بين دول البلطيق أساسها حسن التفاهم المشترك والرضاء التام بين شعوب تلك البلاد ، إيماناً بأن قوة الحديد والنار لا تبقى إلا أمداً قصيراً ، فأما كسب القلوب وتبادل الإخلاص فيبقى أثره إلى أجل غير مسمى .

لن نستغرب إذن أن نسمع فى القريب العاجل أن صروح النازية قد انهارت فى مناطق البلطيق انهياراً أبدياً ، وأن عهداً جديداً بين دولها وروسيا يبشر بتعاون تلك الدويلات المتمدنة فى الأسرة الدولية الكبرى ، تعاوناً أساسه تفاهم متبادل واحترام المصالح الخاصة بكل بلد .

على اسماعيل

ســــياست نامه
لنظام الملك
٤ — فى الإقطاع

قال نظام الملك مجدد نظام الإقطاع :

وعلى أصحاب الإقطاع ألا يأخذوا من الشعب غير الضرائب المقررة ، وعليهم جبايتها بالحسنى . وإذا دفع الحراثون ما عليهم من الضريبة وجب أن يأمنوا على أنفسهم وعيالهم وأموالهم ، فلا تغتصب أموالهم ولا يعتدى عليهم . ولكى يتوفر للشعب الضمان من رعاية السلطان له يجب على أصحاب الإقطاع ألا يمنعوا أحداً من دخول قصورهم ليرفع مظلمته ، أو ليطلب إثبات حالة حدثت له أو لما يملك ؛ ويجب عليهم أن يعالجوا هذه المظالم ، وأن يرفعوا للسلطان منها ما ينبغى أن يرفع إليه . فإذا خالف صاحب الإقطاع هذه الأصول نزع منه إقطاعه ، وناله عقاب شديد ليكون مثلا لغيره . وعلى الناس أن يعلموا أن الإقطاع وما كتبه ملك للسلطان ، وأن صاحب الإقطاع والولاة حراس عليهما من قِبَله . وعلى السلطان أن يقيم صلته بالشعب على المحبة والتعاون ليرضى الله عنه ويهديه ويسعد دولته .

وأنا أحدثك يا مولاى عن أنوشروان — الروح الخالد — وسيرته فى رعيته ويقظته فى محاسبة أصحاب الإقطاع . فقد ولى أنوشروان العرش فتى فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان أبوه قباد متساهلاً مع الحكام ، منغمساً فى اللهو ، حتى فشت فى أيامه آراء مزدك التى قلبت الأوضاع فى إيران وبثت الفساد فيها . وقد جمع أنوشروان أصحاب الإقطاعات والولاة ، بعد أن قتل عمه الذى نازعه العرش ، وأوصاهم بالإيرانيين خيراً ، وتوعد بالشر من ينحرف عن هذه النصيحة . . . وعاد هؤلاء إلى بلادهم فساروا سيرتهم الأولى ، يظلمون الشعب ولا يرعون ما قطعوه على أنفسهم من عهد ؛ وكان أنوشروان يقف على أحوالهم وسوء سيرتهم ، فيتدرع بالصبر انتظاراً لفرصة تحين ليلقى عليهم درساً ، وليعلمهم بالعمل ما لم تعه قلوبهم بالحسنى ...

وكان أكبر أصحاب الإقطاعات وأعظمهم ثراء حاكم آذربيجان ، فأراد أن ينشئ لنفسه متنزهاً خارج المدينة التى يقيم بها ؛ وكان جزء من الجهة التى أرادها متنزهاً مملوكا لعجوز بائسة . . . كانت تملك قطعة من الأرض تدفع من غلتها ضريبة السلطان ، وأجر الحراث الذى يفلحها ، ويتبقى لها بعد ذلك ما تشترى منه أربعة أرغفة كل يوم ، تستبدل قليلا من اللبن والخضر بأحدها ، والزيت الذى تضىء به سراجها برغيف آخر ، ثم تأكل الثالث فى غدائها والرابع فى عشائها . . . أما ملابسها فكانت تأتيها صدقة من جيرانها ، وكانت تؤثر الوحدة فتظل حبيسة كوخها لا تخرج منه إلا لحاجة ماسة . فأراد حاكم آذربيجان أن يأخذ مزرعتها ، فأرسل رجاله يقولون للعجوز إن الوالى يسره أن يستولى على كوخها والمزرعة ، فأجابت بأنها تسر بهما أكثر منه وتريد ألا تبيعهما ، فإنها تسكن الكوخ ، وقوتها من المزرعة . قالوا : إذاً نعطيك مزرعة بدلا منها . فقالت : هذه المزرعة هى كل ما بقى من ميراثى ، وهى قريبة من الرىّ ، وأنا سعيدة بجيرانى فهم يخترمون بؤسى ؛ والحق أنى سعيدة بمزرعتى ، فهى متصلة بآلامى ، وعزيز علىّ كل ما يتصل بهذه الآلام ! فنظر إليها رجال الوالى شزراً وولوا ظهورهم وساروا إلى سيدهم غاضبين . . . ولم يتورع حاكم آذربيجان عن أخذ المزرعة عنوة . فهدم الكوخ وأقام السور على الحديقة الغناء .

أما العجوز فألفت نفسها ولا بيت ولا مزرعة ، ولا حام ولا راع . وكلما مر الحاكم فى الطريق رفعت صوتها باكية متضرعة ، فكأن فى آذانه وقراً ، لا يسأل فيم شكواها ! وكلما التمست من ضباطه أن يبلغوه أمرها قالوا إنا فاعلون بإذن الله !

ومضى على ذلك سنتان والعجوز في فقر مدقع ، تأكل من فتات الناس وتعيش على عطفهم ، وكادت تيأس من رحمة الله ؛ إلى أن مر بخاطرها أن في « المدائن » ملكا هو ملك الملوك ، وهو فوق حاكم آذربيجان ، وهو قادر على أن يردّ إليها مزرعتها والكوخ إذا هي أسمعته شكواها .. فسارت إليه .. ولم تطلع على عزمها أحداً .. يضنيها بُعد الشقة ، ويشد أزرها الأمل ، حتى بلغت المدائن ووقفت أمام القصر . ولكن كيف تدخل قصر « الشاهنشاه » ، وهي التي لم يتح لها أن تقف على عتبة قصر أحدٍ من ولاته ؟ فلجأت إلى خادم بالقصر وسألته عن موعد خروج الملك للصيد ، ثم سارت إلى حيث ينزل الملك عن حصانه واختبأت وراء شجرة كبيرة

دعا الملك أصحاب الإقطاعات والحكام إلى الصيد ، فتقدموه جميعاً ليقفوا في انتظاره ؛ وسار الملك ، حتى إذا بلغ المكان المعدّ لنزوله نزل عن جواده ، فالتفت وراءه فإذا صوت ضعيف لسيدة يقول : « إذا كنت حقاً ملك الملوك فارحم التي جاءت تشكو إليك ظلم واليك » ! فأدرك الملك أن أمراً ذا بال حملها على أن تلجأ إليه ، فاقترب منها وسمع شكواها ، ثم بكى وقال : « خففي عنك يا أماه ! إن قضيتك بالأمس هي اليوم قضيتي » . وأمر حاجبه أن ينزل عن حصانه وأن يركب العجوز مكانه ، وأن يذهب بها إلى رئيس القرية لتستريح إلى أن ينتهي من الصيد فيصحبها إلى بيته ... وأمره أن يعطيها كل يوم عشرة أمنان من الخبز ومنّاً من اللحم ، وخمس قطع من الذهب كل شهر ...

وعاد الملك من الصيد ومعه الولاة وأصحاب الإقطاعات ، فأرسل غلاماً من الأذكياء ليحقق بنفسه شكوى العجوز في آذربيجان ، وأفهم الحضور في البلاط بأنه موفده ليتحرى أحوال البلاد وأماكن الصيد وتقدير ما في الأرض من غلات ... وعاد الغلام يقص على مليكه قصة العجوز النبيلة التي مات زوجها وبنوها ، والتي أناخ عليها الدهر ومسّتها الفاقة ... ولم يبق لها إلا مزرعة تأكل منها رغيفين في اليوم ، وتدفع منها ضريبة الملك في انتظام وبلا تذمر ... وكوخ حقير . ثم قص عليه ما كان من أمر الوالي معها .

ودعا الملك ولاته وحكامه ، وأمر بأن ينتظر والي آذربيجان حتى نهاية الجلسة في غرفة وحده ، وسألهم الملك أن يجيبوه في صراحة عما يسألهم فيه . فقالوا : سمعاً وطاعة . قال : ماذا يملك حاكم آذربيجان من النقد ؟ قالوا : ألفي ألف من الدنانير فوق حاجته ! ومن الآنية والمتاع ؟ قالوا : ما يساوي خمسمائة ألف دينار ، وهي من الذهب والفضة ! ومن الجواهر الكريمة ؟ قالوا : ما قيمته ستمائة ألف دينار ! ومن الأراضي والعقارات ؟ قالوا : ليس في خراسان والعراق وفارس وآذربيجان مدينة أو ناحية إلا وله فيها القصور والأربطة (جمع رباط) والأملاك المستغلة . فسأل الملك : بم يُعاقب رجل هذه ثروته ، وعلى مائدته عشرون صنفاً من الطعام ، عدا الخراف والحلوى ، إذ اغتصب رغيفين من الخبز القفر هما قوت عجوز ضعيفة من عباد الله الصالحات ، فحرمها من رزقها ؟ فأجابوا جميعاً إنه يستحق أشد عقوبة . فأمر أنو شروان بأن يسلخ حاكم آذربيجان حياً ، وأن يعطى لحمه للكلاب وأن يحشى جلده بالتبن ليعلق على باب القصر ! ثم أمر بأن ينادي المنادون سبعة أيام ، في إيران كلها ، بأن من يغتصب مال غيره ، ولو كان تافهاً ، يلق ما لقيه هذا الحاكم الطاغية من عقاب . والتفت الملك إلى الحكام وأصحاب الإقطاعات وقال : « لأحمينّ الحمل من الذئب ، ولأقطعن الأيدي التي تمتد بالعدوان ، ولأقضين على المفسدين في الأرض ، ولأعمرنها بالعدل والأمن ، فهذه رسالتي التي ولاني ربي عرش البلاد لأنشرها . ولو أن للقوى مطلق الحرية فيما يؤذي به الضعيف لما أمد الله الملوك بسلطان من عنده .

مستقبل المرأة

يقبنى أن نبحث حال المرأة الأوربية فى الحرب الحاضرة حتى ندرك ما هى مقبلة عليه من التطور فى المستقبل القريب . لقد تحدثنا إليك فى مقال سابق عن الخطوات التى خطتها المرأة الإنجليزية حتى كسبت من القوانين ما سمح لها بالانتخاب ، وما سمح لها بأن تتساوى مع الرجل فى حق التوظف . وقد اتخذنا المرأة الإنجليزية مثلا لما بلغته المرأة الأوربية بوجه عام . فلنبحث حالة المرأة الإنجليزية إذن لنرى إلى أى حد أفاد منها المجتمع الإنجليزى ، ولندرك النظرة الحديثة لشئون المرأة .

منذ أن تساوت المرأة والرجل فى حق التوظف فى سنة ١٩١٩ قامت المرأة بكثير من الوظائف التى كانت قاصرة على الرجال فيما مضى . أما عن صناعة الطب فقد أقبلت عليها النساء ، حتى كان عدد طالبات الطب أربعة آلاف كل عام فى السنين التى سبقت الحرب الحاضرة . وقد أصبح عدد الطبيبات عشرة فى المائة بالنسبة لمجموع الأطباء فى بريطانيا . وساعد على الإقبال على احتراف الطب فتح عيادات قاصرة على الأمهات ومراكز لرعاية الطفل . هذا إلى أن كثيراً من المستشفيات فى إنجلترا قد أصبحت تديرها النساء ، فلا يدخلها إلا الطبيبات . وكانت صناعة التعليم أوسع مجالا للمرأة ، فقد استمرت تقاليد المعلمات فى إنجلترا ، وتفتحت أبواب الجامعات للمرأة ، واضطرت الجامعتان الكبيرتان أكسفورد وكمبردج إلى استقبال الفتيات ، إما طالبات وإما مدرسات وأستاذات . ولم تستطع المرأة الإنجليزية فى ربع القرن الماضى أن تقتحم صناعة المحاماة ، لكن كثيراً من النساء الإنجليزيات قد مارسنها من غير تفوق ظاهر . ثم إن كثيراً منهن قد التحقن بمعاهد الصيارفة وبشركات الأراضى ، وأصبحن مديرات لبعض هذه الجماعات . ويبدو أن تجربة ربع القرن كانت ناجحة إلى أقصى حد .

فضعوا نصب أعينكم أن تؤمّنوا الشعب على حياته وأمواله ، وألا تطمعوا فى القليل الذى عنده ، فإن فى حرمانه من قليله حرماناً من كل شىء ، ولن يزيد قليله كثيركم شيئاً . فإن سرتم فى الناس السيرة التى أوصى بها رضيت عنكم ، ورفعت من قدركم ؛ وإن سرتم سيرة والى آذربيجان أذقتكم ما ذاق من عذاب أليم » . ثم أمر أنوشروان بأن تأخذ العجوز مزرعتها وما عليها من قصر ، وما فيها من خدم ، وما يتبعها من بساتين . وقال لها : اذكرينى عند ربك .

ثم نادى الملك حاجبه وسأله : لماذا أوصد باب قصره فى وجه العجوز ، وكيف يفتح الباب لقادة الجيش ويوصده دون أفراد الشعب ؟ والشعب يدفع الضرائب والجيش ينفقها ! والمعطى خير ممن يأخذ . ولكى يتدارك الملك ما يلقى الشعب من صعوبة فى الاتصال به ، أمر بعمل السلسلة التى تتصل بناقوس فى غرفته ، ويدها بجوار الباب على جدار القصر . وقد حدثتك يا مولاى عنها فى حديثى الماضى .

* * *

فعليك يا مولاى أن ترعى الرعية التى أنت مسئول أمام الله عنها ؛ وأن تراقب من تنصبهم لحكمها نيابة عنك ؛ وأن تحقق لشعبك العدل الذى هو أساس الملك ، تزدهر دولتك كما ازدهرت دولة أنوشروان . فكان الشعب فى اطمئنانه يعمل لمجد إيران ، وكان الجيش مهيب الجانب من الأعداء ، وكان العلماء من الإيرانيين يشتغلون بالعلم والبحث ، فشهر الملك بعدله الذى ضربت به الأمثال .

يحيى الخشاب

وتفتحت للمرأة وظائف الحكومة فالتحقن بها . وسُمح للنساء أن يكنّ موظفات ولكن لم يسمح لهن بعد أن يلتحقن بالسلك السياسي ؛ فليس للمرأة الإنجليزية أن تكون قنصلة ولا وزيرة مفوضة ولا سفيرة . وقد حاولت جماعة من النساء في مبدأ هذه الحرب أن يتقدمن لهذه الوظائف ، ولكن منع ذلك تقاليد الحكومة الإنجليزية ، على الرغم من أن النساء في الروسيا يمثلن بلادهن تمثيلا سياسياً .

ومنذ أن سمح للمرأة أن تكون عضوة في مجلس العموم انتخبت نساء قليلات . ويمثل الجنس اللطيف اليوم ثلاث عشرة عضوة من بين ٦١٥ عضواً يكوّنون المجلس ؛ وهو عدد قليل إذا قسناه بالجهود التي بذلت في سبيل حق الانتخاب ، منذ قام جون ستيورت ميل يؤيده إلى أن أبيح للمرأة في سنة ١٩٢٨ . على أن التمثيل النيابي في الحكومات المحلية وفي المجالس البلدية أوسع من ذلك بكثير . فكثير من النساء يُنتخبن اليوم في مجالس المقاطعات أو المدن ، وكثير منهن يفدن من ذلك كل الإفادة حينما يختلطن بالرجال ، وحينما يحاولن الدفاع عن وجهات النظر التي تراها المرأة دون الرجل

والحكومة الإنجليزية من جانبها تقدر كل ذلك ، لولا أن هناك موضعاً أو موضعين يطالب النساء فيهما بمطلب أو مطلبين .

أما أول هذين الموضعين ، فهو أن المعلمات والموظفات في إنجلترا لا يتقاضين من المرتبات مثل ما يتقاضى الرجال ؛ ويرى النساء أن هذا إجحاف بحقوقهن ، فهن يطالبن بأن يتقاضى النساء ما يتقاضاه الرجال تماماً ، وأن يعاملن معاملة عامة لا تفريق فيها بين النساء والرجال من حيث الرتب .

وأما الموضع الثاني ، فهو أن هذه الحرب قد قلبت بعض الأوضاع ، وأن حقوق المرأة لم تصبح قاصرة على ما كان يفهمه الناس منها قبل الحرب الماضية ، بل لقد انقلبت « حقوق المرأة » فلم تعد شيئاً يختص بالحقوق السياسية ولا بالحقوق المدنية ، بل تلونت بألوان أخرى ، واصطبغت في أساسها بالحياة المنزلية . وصيحة اليوم تكاد تكون ردّ فعل للصيحة التي دوّت في القرن التاسع عشر . « فالعودة إلى المنزل » هي اليوم الصيحة التي تردّدها نساء إنجلترا بعد أن كسبن حقوقهن السياسية والمدنية جميعاً ! ولكن ينبغي أن نبسط لك ذلك بعض البسط .

* * *

حين قامت الحركة النسائية في إنجلترا كانت تنظر شزراً إلى المنزل ، وكان أنصار النساء يعتبرون أنه وكر التقاليد . ذلك لأن خصوم المرأة كانوا من جانبهم يذكّرون المرأة دائماً بأن المنزل هو مكانها الأصلي ، وأنه لا منجاة لها من أن تتقيد بالمنزل . وحينما كان يجاهد النساء في سبيل كسب حقوق الرجال كانوا يحذّرون من ذلك المنزل الذي وقف دهوراً طويلة في سبيل حريتهن . كنّ لا يردن أن يرتبط مصيرهن بمصير المنازل ، بل خرجن إلى الحياة العامة كما رأينا ، وقمن بواجباتهن من حيث الكسب والعمل . ثم جاءت هذه الحرب الحاضرة ، فاستخدمت النساء في مختلف وحدات الجيش ، وأصبحت قوة النساء مما يعتمد عليه الدفاع الوطني كل الاعتماد . ولكن نقول : إن هناك رد فعل لهذا كله . وبعد هذه الحرب ستتجه الحركة النسائية في إنجلترا إلى العودة للمنزل ثانية ، فقد برهنت الحوادث أن الجيل الجديد الناشئ في حاجة إلى تربية منزلية يتخصص النساء فيها ويتوفرن عليها .

حين نالت المرأة الإنجليزية حقوقها ، وحينما اقتحمت الجامعات ، لم تصبح هذه الحقوق أغراضاً في نفسها ، بل لقد أصبحت وسائل . فلم يكن غرض الحركة النسائية أن يُمتع النساء هذه الحقوق ثم يقفن عند حدها ، وإنما كان الغرض من هذه الحركة أن يتخذ النساء حقوقهن

وسيلة للقيام بأعمال خطيرة . وقد برهنت أكثر المتطوعات من حاملات الدرجات الجامعية أنهن يصلحن للحياة المنزلية ، وأن تعليمهن لم يزدهن إلا شغفاً بهذه الحياة وإلا تعلقاً بأزواجهن وأولادهن . ثم إنه قامت حركة بين الشعب البريطاني في السنتين الأخيرتين تدعو إلى العناية التامة بالأطفال ، وذلك لأن هذه الحرب المدمرة قد أطاحت بكثير من الشباب ؛ وهذا الجيل الناشئ من الأطفال هو أمل إنجلترا في تعمير ما دمرته الحرب . لذلك يعني أفراد الشعب الآن بتنشئة أطفالهن على خير الأصول ، ولذلك تساعدهم الدولة ما أمكن ذلك . فللأطفال الأسبقية في تناول الغذاء الكافي ، ولهم الأسبقية عند توزيع الملابس ، ولهم نظم خاصة تشرف عليها الدولة تتناولهم من المهد حتى سن البلوغ .

وحركة تنشئة الجيل الجديد هي التي لفتت المرأة الإنجليزية إلى وكر التقاليد ثانية . وأصبحت تربية الجيل الجديد هو ذلك العمل الخطير الذي ينتظر المرأة بعد هذه الحرب . والنساء اللاتي تشغلهن الحرب الآن ينظرن إلى إلى بيوتهن المنشودة فيما بعد الحرب بشغف شديد . وقد عقد استفتاء بين عدد كبير منهن فأجمعن على أنهن يفضلن حياة المنزل .

* * *

لكن حياة المنزل هذه سوف تستدعي حقوقاً أخرى غير الحقوق التي نالتها المرأة . كانت تطالب المرأة إلى ما قبل هذه الحرب بمساواتها مع الرجل ، لكنها ستطالب بعد الحرب بمطالب أخرى أكثر مما طالب به الرجل . ذلك بأن المرأة بما لها من مركز في المنزل ، وما يتطلبه منها الجيل الجديد ، سوف تطالب بحقوقها في الولادة والحمل ورضاعة الطفل ورعايته والقيام على صحته وتربيته . وكل هذه الاعتبارات قد دخلت فعلاً في مشاريع بعد الحرب .

وقد يُيسَّر المرأة الإنجليزية أن تقوم بذلك كله ، أو قل إنه قد اعترف المشرعون والمصلحون أن كل ذلك من شأن الدولة ، وأنه ينبغي أن يُعترف المرأة بحقوق خاصة من حيث الولادة ورعاية الطفل . ففي مشروع بفردج بنود تمنح المرأة وهي في حالة الوضع معاشاً خاصاً ، وتحدد للأرملة معاشاً خاصاً ، وتفرض للشيخوخة معاشاً خاصاً . هذا إلى أن فكرة مشروع بفردج وغيره من مشاريع بعد الحرب ترمي إلى أن يحيا الطفل وينعم في كنف الحكومة لا بين جدران المنزل فقط .

ولكن ، لعل الانقلاب الذي يتوقعه الجميع بعد هذه الحرب ، هو أن الإصلاح سوف يتناول أفقر النساء وأدناهن . لقد تحدث الكثيرون عن حقوق المرأة ، وملأوا الدنيا وشغلوا الناس دهراً طويلاً بما ينبغي من المساواة بينها وبين الرجل ، ولكن في حياة المجتمع الإنجليزي كثيراً من نساء الطبقات الدنيا اللواتي لم يفدهن تحرير المرأة ولا مساواتها إلا قليلا . أولئك نساء يسكن أقذر المواضع في البيئات الصناعية المكتظة : يعيش أغلبهن على الكفاف ، ولا تزيد مرتبات أزواجهن عن بضع شلنات في الأسبوع لا تكاد تكفي لسد الرمق ؛ ثم إنهن يشتغلن في المنزل من الصباح الباكر إلى المساء لا يكدن يرين شعاع الشمس ، ولا يزرن متنزهات المدينة إلا قليلا ، ولا يرفهن عن أنفسهن إلا في بعض المواسم والأعياد ؛ ثم تدب إليهن الشيخوخة وهن بعد في سن الصبا ، وتزمن في أجسادهن الأدواء ، ويصيبهن النقرس والإمساك والصداع . أولئك نساء الطبقة الدنيا ممن يسمونهن ربات البيوت ! فهل ترى أن حقوق الانتخاب قد أفادت هؤلاء ؟ وهل ترى أن حق الملكية ، قد غير من حياتهن ، وهن لا يملكن شيئاً ؟ كلا ! لم يستفد هؤلاء ، ولن يستفيدن من مساواتهن بالرجال . وهذه الحياة التي وصفت هي الكشف

مقدمة لدراسة
الأدب السورى الحديث

التعارفُ الأدبى بين الأقطار العربية دعامةٌ هامّة من دعائم التعاون السياسى ؛ ولذلك أصبح من واجب كل أديب فى كل قطر أن ينمّى صلاته بأدباء الأقطار الأخرى ، وأن يعرّف هؤلاء الأدباء إلى البلد الذى يعيش فيه ، ويقدّم إليه من نتاجهم ، فتزيدَ قُربى الروح من قربى المادة ، ويتألف الشبابُ العرب فى بلاد العرب مُثلاً عليا قريبة تدفعهم إلى العمل المشترك .

وما أطمع فى أن تكون هذه المقالة أكثر من مقدمة لدراسة الحياة الأدبية فى سورية ، على ضوئها أعرض إلى

الجديد الذى يحاول المصلحون فى إنجلترا أن ينشروه على اللاحى يكون ذلك مبدأ لإصلاح حال المرأة فى الطبقات الدنيا ، لأن فى ذلك إصلاحاً للأسر الإنجليزية التى تكوّن سواد الشعب .

بحثت هيئة من نساء إنجلترا حياة ٢٢٥٠ امرأة من ربات المنازل فى الطبقات الدنيا ، فوجدت أنهن بهذا الوصف الذى أسلفت . وكتبت بعض ربات المنازل أوصافاً مروعة لحياتهن ، حتى ليكاد يتصور القارئ أنه لا يقرأ لنساء فى بلد متحضر كإنجلترا . فليست حياتهن إلا سلسلة من الضنك والفقر والإملاق والمرض . فالإصلاح الاجتماعى فى إنجلترا يتجه إلى التخفيف عن هذه الطبقات . وستصبح الديمقراطية جديرة باسمها حينما تمنح ربة المنزل من الفرص ما يهيئ لها الحياة السعيدة . أما الحقوق السياسية التى منحتها إلى الآن ، فلم تكن إلا خطوة أولى فى سبيل هذا الإصلاح المقبل .

(المنصورة) أحمد فاكى

الأدب الاجتماعى والشعر والقصة ، وإلى ممثليها البارزين ونتاجهم ، وإلى المناحى التى تتخذها ، والألوان التى تصطبغ بها من جيل إلى جيل .

والأمر فى واقعه يحتاج إلى تفصيل ، كيلا يكون مجرد تأملات موجزة مسرودة ؛ ففى مثل هذا الحديث من مصادر الأدب فى سورية يجب ألا نهمل أثر التاريخ الماضى وصلته بالحاضر ، وألا ننسى الخوض فى العوامل السياسية التى تدفع الأدباء والمفكرين ، والعوامل الاجتماعية والدينية التى تحيط بهم ، والطبيعة التى تقدّم لهم ألوان أدبهم ، ونفسية الشعب السورى ككلٍّ قريبٍ من الانسجام ، والتيارات المختلفة التى تأتيه خصبة من الغرب ومن الجنوب .

كل هذا وغيره يجب أن يتناوله الباحث بالإسهاب حتى يؤتى التعارف ثمره ، ويحبّب إلى المصريين أدب السوريين ، ويشجعهم على أن يبادلوهم نتاجهم الفكرى . غير أن صحافة الحرب الضيقة الصدر تؤثر الإيجاز ، وتفضل اللمحة العاجلة على الدرس المتثبت .

* * *

ولعل خير طرائق البحث هى أن نقرن الأدبين السورى والمصرى ، فنعرّف الأول من طريق الثانى .

الأدب السورى الحديث أدب نضال ، نضال داخلى وخارجى ، فى الأرض والتاريخ والسياسة .

فإذا تأملنا تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى ، نرى المصرى ، فى الأحوال العادية ، يستطيع أن يكسب عيشه بأقرب الوسائل ، يساعده عليه خصب أرضه وانسجامها واتساع آفاقها ؛ وهذا النيل الخالد الجرى يمتّعه بالخير الدائم والنعمة المطمئنة ، ويجعله حين يُنتج الفن أو يتذوقه أدنى إلى فهم الفنون التجسيمية ، كالنحت والتصوير والزخرفة ، وإلى نوع خاص من الشعر والغناء يكاد يخيل إليك معه أنه «ملكت كل شىء فى الدنيا فلا يعذبه غير الحبيب» .

لون من الترف لا يُنغصه الفقر العارض ، تضحك فيه النكتة ويُغنيه فى الحقول الأطفال .

فإذا انتقلت إلى سورية صدمَ الطلبَ الطامحَ الأفقُ الضيق ، ورأيتَ إلى هذه الملايين الثلاثة تحيا فى رقعة من الخضرة منكمشة بين الصحراء والبحر ، ولكنها تحمل فى صدرها أمل الكون ، وتبيع فقرها بالجهد الشاق لتشترى به غنى العالم . ويلقن السورى الطفل وهو يدرس الجغرافية أن الدنيا واسعة ، فله فى كل أرض وطن آخر ، يهاجر إليه فيغذيه ويفتدى منه ؛ بينما يظل أخوه على أرضه يتصباها بعناده وهى الصعبة القياد ، ويُخصبها من دمه لتستنتج .
ومن هنا كان السورى العادى شاعرَ التراب أكثر منه شاعر المرأة ؛ بل إن المرأة لتلبس عنده جمال الطبيعة ، فهى مثلها قاسية تُدِلُّ ، تشترى حبَّه بتمنّعها فيغنّيها على نايه الذى صنعه من قصب الأرض ، وفى زجله الذى تستشعر فيه خضرة الرعى ورائحة الزهور البيض . ومن هنا أيضاً كان السورى العادى رجلا شديد القلق بطبعه شديد الطموح ؛ وكان على الأديب السورى أن يعبّر عن هذا الوضع ، وأن يمجده ويوجهه ، فكان خير كتّاب القصة مثلا فى سورية من نجحوا فى هذه الصنعة .

٦ وتقع سورية فى وسط الكون ، فهى ملتقى لألوان من آداب العالم وثقافاته ؛ ومن هنا يتكشف لنا مظهر أساسى آخر من مظاهر الفكر فى هذا البلد ، هو الصراع الأبدىّ بين القديم والحديث .

لقد اتصلت مصر بالعالم الغربى اتصالا وثيقاً منذ قرن ونصف قرن ، فكان القسم الأكبر من أدبائها ومفكريها اليوم يؤلّفون ما يشبه الفريق الواحد ، وكان التقارب التدريجى بين الأزهر ونُظم الثقافة الحديثة أدنى إلى أن يحدّ من شأن الخلاف بين المدرستين . أما سورية فهى ما تزال حديثة الاتصال الجدىّ بالغرب لم تفقد فيها أثره ؛ وهى إلى هذا متصلة بلون طريف آخر من ألوان الثقافة أنتج بعض أدبائها فى المهجر الأمريكى . ويتاح الفكر المصرى يجد فيها إلى جانب هذا وذاك سوقاً رحبة ويكوّن فيها بضاعة رائجة . فإذا استطعنا أن نفهم أن السورى بطبيعته ذو قابلية عجيبة للعدوى ، وأنه ماهر فى التقليد ، سريع فى التمثل ، أدركنا فى يسر كيف أن كل هذه الألوان الجديدة لم يكن لها إلا أن تصطدم ، فى نفوس المتأثرين بها ، مع ألوان المدرسة القديمة الشديدة التمسك بحرفيّة الدين ، الآخذة ثقافتها من ينابيع الكتب الصفراء والأدب الإسلامى المزيج . ولقد كان فى استطاعة الطريقة المصرية كما بدت لنا أن توفر على السورى هذا الصراع لو أنه كانت تقنعه الحلول الوسط ، ولكنه عنيف يطلب النهايات ، ويفضّل أن يتعذب فى الوصول إلى الحل كما تعذّب المصرى فى محاولة الوصول إليه ، على أن يقبله كاملا مفروضاً لا يَدَ له فيه . — وهكذا يجد السورى لحيويته منفذاً جديداً للنضال ، ويتخذ الصراع بين أصحاب الثقافتين «الصفراء» و «البيضاء» صوراً متعددة ، وتتسع له الميادين فيشمل المنبر والجامعة وأندية اللهو ، ويهتم له أحياناً رجل الشارع بقدر ما يُعنى به المثقفون .

ومظهر أساسى آخر من مظاهر الفكر فى سورية ينشأ عن وضعها السياسى .

فعندما ننظر إلى وجهة الأدب فى مصر الآن يتراءى لنا أن ما يعالجه ، إلى جانب الأدب الإنسانى الخالص ، هو على الأغلب المشكلة الاجتماعية . المشكلة الاجتماعية هنا هى المحور الذى يدور عليه أبداً نقاشُ المفكرين والمصلحين ، وبالتالى تقوم حوله ملاحظات الأدباء وأشعارهم وأقاصيصهم . هى مشكلة الغنى والفقير ، والصحة التى تحتاج إليها القرية الجاهلة ،

والعيش السعيد الذي يجب أن يتمتع به العامل والفلاح . وتكاد لا نجد للسياسة في أدب مصر اليوم من أثر مباشر إلا في النادر القليل .

أما في سورية فالأمر تماماً على عكس ذلك ، إذ ما تزال المشكلة الاجتماعية ظلاً للمشكلة السياسية . لقد عاشت سورية أبداً في مراحل متتابعة من النضال السياسي ، لا استقرار فيها ولا لفتة إلى غير شيء . ولم تكن الروح الثورية في الشعب السوري لتجد متنفساً لها في غير الصراع مع الأجنبي ، فكان لابد للأدباء في سورية أن يتجهوا هذه الوجهة . وهكذا ، في خلال النصف الأخير من القرن الماضي ، أنتجت سورية — ومعها لبنان — مجموعة من الأدباء الناشئين هم الرعيلُ الأول من أدباء العرب في عصر النهضة . وامتدت هذه الحال على سورية أعنف وأقوى فيما بعد الحرب القائمة ، إذ اتخذ النضال السياسي مظهراً قومياً يشمل في آماله الوطن العربي كله . ولم تعد السياسة احتكاراً يقوم عليه أناس معينون من المالكين والوجهاء ، يتوارثونه ويتوزعون نعمته ، بل أصبحت القضية العامة جزءاً أساسياً من شواغل الفرد العادي في البيت والشارع ؛ ونشأت ألوان من الأحزاب يختلف بعضها عن بعض بالفكرة الموجِّهة ، التي كثيراً ما تضاءل أمامها الطمع الشخصي . وكان بعض هذه الأحزاب فترة من الزمن متبعَ الشبان عميق الأثر ، فربّى الآلاف من الطلاب ومن عامة الشعب على أن ينظروا إلى الحياة في منظار القومية الناشئة ، وأن يجعلوا من هذه القومية معياراً للقيم ، يطبقونه في الحلول التي يضعونها المشكلات الاجتماعية وفي فهمهم للدين والحرية ، وأحياناً في اللباس والصداقة والرياضة والمعاملات . وهكذا كان من الطبيعي أن يتسع اختصاص التوجيه في السياسة ، فتشمل حركة البعث الكتّاب والمؤرخين . ورأينا بين الأدباء الشبان من يعطيهم الجيل الجديد في سورية صفة الزعامة ، لأنهم كانوا أشد الناس شعوراً بآلامه ، وأقربهم إلى استشفاف رغباته والتعبير عنها في مناهج عامة صريحة . واحتقر الأديبُ الزعيم كبرياء البرج العاجي ، فنزل إلى السوق ، تلتف حوله في المقهى والنادي حلقاتٌ من الطلاب والشبان منظمة وغير منظمة ، تعدّ العشرات والمئات ، تستمع إلى آرائه ثم تنشرها وتدعو إليها بين الناس ؛ فهي بلا ريب بذورُ لحزب قومي كبير يوحّد الشبان في حركة داعية شاملة — وهذا وضع يذكّر في كثير من حدوده بوضع مصر أيام الحركة التي حملت لواءها (الجريدة) والأدباء الذين ساهموا فيها ؛ بل هو يذكّر إلى حد ما بوضع الأدب في فرنسا بعد الثورة . فلقد مضى على فرنسا بعد ثورتها جيلان كان للأدب الناضل فيهما حظ كبير ، وهي مرحلة تهيمن الآن في سورية ، فلا نجد للأدب الإنساني الخالص فيها إلا أقل الشأن ، ولا تلقى للاهتمام الجدي به إلا النقاد والمختصين ؛ ولا ترى تفسيراً له إلا باعتباره محاولة للانطلاق وفراراً من الواقع العنيد ، يلجأ إليهما أدباء يعتاضون بخصب خيالهم ورقة شعورهم عما يعوزهم من الفعالية .

* * *

في نطاق هذه العوامل والاتجاهات ، يجب أن نفهم الأدب الحديث في سورية ، لندرك أن النتاج الذي يخرجه الأدباء اليوم في سورية — وفي الأقطار العربية الأخرى على وجوه مختلفة — يريد أن يكون إجابة لما يطالبه الجيل الجديد من القراء العرب . وهذا الجيل الجديد ، في السير إلى غاياته الكبرى ، هو أشد ما يكون حاجة إلى أدباء بنّائين ، مجدّدين ، معبّدي طريق لم تسلك ، لهم فكرتهم الناضلة التي يؤمنون بها ، ومذهبهم الذي يدعون إليه ، والذي يجعل منهم ، وهم في ذروة فنهم العالية ، مبشّرين وأصحاب رسالات .

نزيه الحكيم

من أحاديث الصيام

فى الريف

ركبت سيارة عمومية أقصد إحدى عواصم مديريات الوجه البحرى ، وإذا بجماعة فى الدرجة الأولى كلهم يقصد نفس المدينة . وانطلقت السيارة بسرعة عظيمة ، ولكن المسافة التى علينا أن نقطعها كانت طويلة تستغرق ما يقرب من الساعتين ؛ فأخذ الركاب يتجاذبون أطراف الحديث ، وقد كانوا خليطاً من أوساط مختلفة وثقافات متباينة : فيهم المهندس والمعلم والفلاح والمزارع والتاجر والعمدة الخ . وكان الحديث الذى دار حديثاً ممتعاً لا يخلو من فائدة ومغزى ، فآثرت أن أنقله بنصه لقراء « الثقافة » القراء ليتسلوا به فى رمضان كما تسليت :

دفع أحد الفلاحين إلى الأفندى الذى بجانبه ورقة ليقرأها ، فجاهد حتى فك طلاسمها وأخبر الفلاح بمحتوياتها ، ولكنه لم يقتنع ، ولم يبدُ عليه ما يدل على أنه قدر الخدمة لصاحبها ، واكتفى بأن عقب بقوله :

غداً سنستفيد من مشروع مكافحة الأمية ونتعلم القراءة والكتابة ، ونفهم الدنيا ، ولا نحتاج لأن نقصد أى إنسان ليقرأ لنا ما معنا من أوراق .

فرد عليه أحد الحاضرين قائلا :

وهل تظن أن ذلك الأمر سيتم حقاً ، وأننا نحن أبناء هذا الجيل سنستفيد من هذا المشروع ، ونخلص من الأمية ، ونتعلم ما ينير عقولنا ويفهمنا ما حولنا كما نرجو ؟

فأجابه الفلاح : ولِمَ لا ؟

عندئذ تحرك المهندس (وهو الذى عندما بدأ الحديث عرّفنا بوظيفته وبمقر عمله) وابتسم ، وبدا عليه ما يدل على عزمه أن يشترك فى الحديث . فتطلع الجميع إليه متشوقين . فقال :

أما عن شخصى فقد كنت مثل أخينا الفلاح كبير الأمل فى هذا المشروع ، وفعلا حدثتنى نفسى أن أساهم فيه كما تملى علىَّ وطنيتى وإنسانيتى ، فأعددت حجرة وسبورة فى محطة الكهرباء التى أعمل فيها ، وجمعت عمّال المحطة وأعلنتهم بأنى سألقى عليهم دروساً متوالية بنظام ، تنفيذاً لمشروع مكافحة الأمية قبل أن تنفذه الحكومة رسمياً . فبدا عليهم السرور والتحمس ، وكانوا جميعاً أمامى فى الموعد المحدد للدرس الأول ، وظل معظمهم مواظباً على الدروس . ولكنى بعد قليل منها تعبت ، وعلى الرغم من ذلك ظللت أجاهد حتى يئست ، وأدركت أن الأمر مستعص وأن تنفيذه مستحيل ، وأوقفت الدروس وسرحت العمال .

بُهت الحاضرون ونظروا إليه باستغراب وتساؤل ، وسرعان ما قال أحدهم :

ألاَ تحدثنا عن سبب التعب والفشل واليأس ؟!

فأجاب الأستاذ المهندس :

أما التعب فمصدره أمران : الأول : أنى كنت أجد تحضير دروس بسيطة فى القراءة والكتابة أمراً ليس بالهيّن . والثانى أنى كنت ألاقى مشقة فى تفهيم الدرس للعمال الذين كانوا على نوعين : الأول لا يكاد يفقه شيئاً ، وظهر لى أن تعليمه ضرب من المحال ، وأنه قد صدق الذى قال بأن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ؛ فمحاولة تعليم الكبار عبث ، وهى حقاً مجهود ضائع . أما النوع الثانى منهم فقد كان يضايقنى فيه ما يبدو عليه من إعياء وملل ظاهر قبل أن يمضى نصف الزمن المخصص للدرس .

وأما سبب الفشل واليأس ، فهو أنى على الرغم من تعبى كنت عاجزاً عن تنفيذ إرادتى وحمل أولئك العمال على الإصغاء والمثابرة والاجتهاد ، فالأطفال الصغار يستطيع الإنسان أن يحملهم على ذلك بالضرب تارة وبالشتم تارة أخرى ، أما الرجل الكبير صاحب العيال فالإنسان لا يمكنه ضربه ولا شتمه . فتصوروا مقدار حيرتى وغيظى من هذا

الوقف المؤلم! واعلموا أنه من ثَمَّ حل فى اليأس وأيقنت بالفشل .

عندئذ ابتسم المعلم (وقد عرّفنا وظيفته من سياق حديثه) ، والتفت إلى صاحبنا المهندس واستأذنه فى أن يبدى بعض ملاحظات على حديثه ، فأذن له فقال :

ألاحظ أولا أنك كنت تتعب نفسك أكثر مما ينبغى ، والمعلم لا يقاس نجاحه بمقدار تعبه ، بل بمقدار تعب تلاميذه من العمل الذى يعملونه راغبين فيه مقبلين عليه ، فكان يصح أن تستعين بأحد أصدقائك المعلمين ليوضح لك كيف تسير فى دروسك لتحقق ذلك .

والملاحظة الثانية أنك أفرغت كل جهدك ، وصرفت كل وقتك ، فى تعليم هؤلاء العمال يوماً بعد يوم القراءة والكتابة وحدهما ، ولو أنك عُنيت بتعليمهم شيئاً جديداً يتصل بأعمالهم الكهربائية فى المحطة لوجدت منهم إقبالا واهتماماً ونشاطاً ، بل إنك كنت تستطيع أن تعلّم القراءة والكتابة خلال تلك الدروس الفنية .

عندئذ قطع عليه العمدة حديثه ليلفت نظره إلى الحكمة القديمة التى ذكرت من قبل ، والتى يظهر أنه نسيها ، ألا وهى أن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ، وأنه مهما كان موضوع الدرس فإن الكبار لهذا السبب لا يمكنهم متابعته وفهمه ، والمثابرة على الدراسة .

فأجاب المعلم : لو أنك انتظرت حتى أتم حديثى لسمعت ردى على تلك الحكمة الموهومة ، فهذا الرد كان موضوع ملاحظتى الثالثة . فليس كل قديم صحيحاً وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فما رأيكم أيها الأفاضل فى أنى قرأت فى بعض الكتب الإفرنجية الحديثة أن بعض العلماء من الأمريكان ، قد بيّن عدم صحة هذه الحكمة التى تتمسكون بها ، وأتى ببراهين عملية لا يمكن نقضها تثبت أن الكبار يتعلمون بسهولة كالصغار تقريباً ، بشرط أن يكون ما يتعلمونه محبباً إلى نفوسهم ، بحيث يُقبلون عليه ويفرحون بتلقّيه ؟!

* * *

عند ذلك وقفت السيارة ، ودخل راكب جديد ومعه طفل صغير ، ولم تكن هناك أمكنة خالية ؛ فأخذ أحد الجالسين الطفل القادم إلى جانبه وأجلسه ولاطفه . وعندئذ تنبه الزارع من شبه غيبوبة ، واعتدل فى كرسيه ، وقال للحاضرين :

انظروا إلى هذا الطفل اللطيف ، ودعوا الكبار وتعلمهم ، والمهندس وفشله ، والأستاذ المعلم وملاحظاته ، وخوضوا بنا فى حديث الأطفال زهرة الحياة وزينة الدنيا ؛ فقد فارقت بيتى وتركت فيه أولادى منذ ثلاثة أيام فقط ، فاستطعت النوم فى الليلة الأولى لتعبى الشديد ، وأفسد علىّ معظم نومى فى الليلة الثانية تذكّرى أطفالى ، أما الليلة الثالثة وهى ليلة الأمس ، فلم ترقأ لى عين طولها لمشغوليتى الفظيعة بالعيال .

وبالأمس أكلت ما لذّ لى وطاب ، فأقسمت لأحملن لهم منه اليوم نصيباً موفوراً ، وأسرع عائداً إليهم حتى أمتع نفسى بقربهم ، وأنعم فى لياليّ القادمة بالنوم الهنىء بعد أن أطمئن عليهم ، وها أنا فى طريقى إلى بلدى .

فتمتم خبيث يقول : مبالغة زائدة على الحد ، وحنان يفوق المعقول ، ثم سأله : أليس لك بنات يا سيدى ؟

فأجابه : نعم ، لقد منّ الله تعالى علىّ بالبنين والبنات ، فلله الحمد والشكر .

فقال صاحبه : وماذا تفعل حين يكبرن ويتزوجن ، ويتركنك إلى بيوت بعولتهن ؟

فأجاب : عندئذ يتولانى الله بلطفه ورحمته .

فلاحظ العمدة أن هذه المشاعر التى تثور فى صدر صاحبنا ، إنما مردّها فى الواقع إلى أنه كان بعيداً من داره . والإنسان منا لا يستريح إلا فى بيته فى الأيام العادية ، فما بالك به فى أيام رمضان ؟! فأكبر ظنى أن هذا السبب

النفس الداخلي هو الذي دفع بصاحبنا إلى الإسراع بالعودة إلى داره . ولعل ضيق صدر أخينا المهندس لغربته وبعده عن أهله هو الذي أفسد عليه دروسه ، وعجّل بيأسه وفشله حتى يوقف الدروس ويلتمس الأعذار ليعود إلى داره ، وينعم بصحبة أهله وعياله وبالراحة في بيته .

وعندئذ التفت إلى أحد الأفندية وسأله : هل أنت موظف ؟ قال : نعم . فلاطفه قائلا :

كان الله في عونكم أيها الموظفون في هذه الأيام السود ، فإني كلما اشتد الغلاء ، ازددت رثاء لحالكم ، وإشفاقاً عليكم ؛ فأنا تاجر ناجح في عملي وقد زادت الحرب في كسبي ، ولكن لي بنات متزوجات موظفين ، وقد عدت الآن من زيارتي لإحداهن ، وقلبي ينفطر ؛ فقد سألتها عن الحال فقالت : بخير ! نحمده ! ولكن كل ما حولها كان ينم عن الشر والشدة ، ويفصح عن ضيق ذات اليد والجهاد في سبيل ستر الحال . فتألمت كثيراً ، ولم يفرج عني كربتي إلا كوني استطعت أن أودع كفها عند السلام ما يعينها على ما هي عليه من عسر

* * *

وهنا غربت الشمس ، وحل موعد الإفطار . فكم كان جميلاً أن يصبح هذا الجمع من الركاب أسرة واحدة ، يشاطر كل منهم الآخر ما احتمله ليفطر به ، ولم ينس الذين أتوا بالطعام أولئك الذين لم يحضروا معهم منه شيئاً مؤثرين الانتظار حتى يفطروا في بيوتهم ، فهؤلاء قد أجبرهم الآخرون على مشاركتهم الطعام ؛ ولم يبق بعيداً عن هذه المائدة المختلطة إلا واحد فقط من إخواننا الأقباط ، أقسم لو لم يكن قد أكل منذ ثلاث ساعات فقط ، وأكل أكلة أتخمته ، لشاركنا الإفطار

وقد تصادف أن كان هذا القبطي إلى جانبي ؛ فأخذ يسألني عن عملي ومقره ، وعن إخواني وتوعهم ، ثم أخذ يسرد أسماء بعض معارفه ممن يعملون مثل عملي ، حتى ساقت الصدفة واحداً منهم أعرفه ، فانتهز الفرصة وأخذ يتحدث عنه ؛ فكال له المدح ، وأخذ يذكر أنه من أسرة مجد عريقة اشتهرت بالكرم والنجدة ومساعدة كل الناس على السواء ، ثم قال : أتعدني أن تحمل إلى صديقك هذا رسالة مني ؟ فلما أجبته بأني مستعد لأن أفعل هذا عن طيب خاطر وبكل سرور ، اطمأن واعتدل وتحمس ، وشرع يقول :

أناشدك الله أن تقنع صاحبنا هذا بأن المروءة وشرف أسرته وقدسية تقاليدها في الصعيد تحتم عليه كلها أن يعيد فتح مضيفة والده من جديد ، ليعود لبيت مجده ويصير كما كان من قبل ملجأ للقاصدين ، وملاذاً للمحتاجين .

قلت : لكن يا سيدي ، يبدو لي أن ذلك ليس في الإمكان ؛ فصديقنا موظف كبير ، وعليه مسئوليات كثيرة خطيرة ، فكيف يتسنى له وهو في القاهرة أن يعيد فتح مضيفة والده في بيت الأسرة بالصعيد !

فأجابني بقوله : الأمر سهل هين ، فما عليه إلا أن يختار بين أحد أمرين : إما أن يترك الوظيفة (وهي الآن كما قال صاحبنا التاجر غرم لا غنم) ويعود إلى مسقط رأسه ويقيم فيه ، وكفاه ما جمعه من المال من وظيفته ، يضيفه إلى ما تدره عليه عزبته في بلدته ، فيعيش في بحبوحة ويسر وسعادة ؛ وإما أن يكلف واحداً من أقاربه بالانقطاع لهذه الضيفة ، على أن يبعث إليه في كل شهر ما يسد نفقاتها .

فعجبت لهذه العقلية لا تزال قائمة في القرن العشرين ، ووجدت أن المناقشة في هذا الموضوع عديمة الفائدة ، ولن تكون أجدى من المناقشة السابقة حول مشروع مكافحة الأمية . وأسعفني للتخلص منها وصولنا إلى العاصمة التي نقصدها . فتبادلنا التهنئة بسلامة الوصول . وانصرف كل منا إلى شأنه .

وبعد ، فإني أرجو أن يكون القارئ قد وجد في هذا الحديث من القراءة المتعة ما وجدت ، وإلا فإني أعتذر إليه

مسافر صائم

بين المسموع والمقروء

العفريت عندنا وعندهم

وأقصد بعندنا نحن الشرقيين . وأقصد بعندهم أقوام أوروبا .

فالعفريت عنـدنا ملؤه الخبث ، والخبث يستوجب الذكاء . أما العفريت عندهم فمن أغبى الخلائق .

وهم يحكون أن فلاحاً من فلاحيهم فرغ من عمل يومه واستعدّ للرواح . وبينا هو آخذ فى سبيله إلى بيته ، رأى فوق حقله كومة متقدة من كتل صفراء تشبه ناراً . فلما اقترب منها وجد على الكومة عفريتاً .

قال الفلاح : إنك أيهـا العفريت تجلس على كنز من ذهب .

قال العفريت : نعم ، نعم . وهو كنز لم تقع عينك على مثله قط ولن تقع أبداً .

الفلاح : إن الكنز على أرضى فهو لى .

العفريت : إنه لك ، لو أعطيتنى نصف ما تنبت أرضك عاماً وعاماً . إن الذهب عندى كثير ، ولكنّى بى شوقاً إلى ثمرات هذه الأرض .

الفلاح : حسن ، حسن . ولكنى لا أودّ النزاع . فلنتفق من الآن على أى النصفين تأخذ ، ما فوق الأرض أو ما تحتها ؟

العفريت : أنا لم أتعود أن آخذ إلا الأعلى .

الفلاح : حسن ، حسن . سيكون لك النصف الأعلى الذى تعودته .

ولما جاء وقت الزرع ، زرع الفلاح الخبيث لفتاً . وجاء وقت الحصاد ، وظهر العفريت ، فلم يجد من نصيبه غير ورق ذابل لا نفع فيه .

وعفر الفلاح من رؤوس اللفت ، وفاز بثمر الأرض .

فاغتاظ العفريت ، ثم قال :

العفريت : لقد خدعتنى أيها الفلاح هذه المرة ، ولن تخدعنى مرة بعدها أبداً . ففى العام القادم سيكون لك ما فوق الأرض وسيكون لى ما تحتها .

الفلاح : قد اتفقنا .

ويحين وقت الزرع ، فيزرع الفلاح قمحاً . ويحين وقت الحصاد ، ويظهر العفريت ، فيجد الفلاحَ قد جمع ما فوق الأرض من قمح ولم يترك له إلا ما تحت الأرض جذوراً لا فائدة فيها ولا عائدة !

لفت السياسة وقمحها

وهكذا سياسة العالم ، فى أى ركن خبىء من أركانه ، أو مسرح ظاهر واضح من مسارحه . إنها تدور دائما على عفاريت كهذا العفريت ، يملؤها الغباء والغرور ، وعلى فلاحين كهذا الفلاح ، يملؤهم الذكاء والدهاء . وتلك المعاهدات التى كانت وتكون بين الأمم ، إن هى إلا ضروب من أمثال هذا العهد الذى جرى بين عفريتنا هذا وفلاحه ، بل فلاحنا هذا وعفريته . والمعاهدات ما أملاؤها باللفت والقمح ، وما أملاؤها بشرط ما تحت الأرض وما فوقها . وويل للأمم التى يخرج ساستها فى النضال القادم بأوراق اللفت أو بجذور القمح !!

مائدة السلام

وإنما أقصد بالنضال نضال الأفكار حول مائدة السلام . فالناس تقول إن مائدة الصلح قريبة القيام . وأنا أقول إنى أراها قد قامت فعلا ، فليت الناس تدرى أنها قائمة !

إن مائدة الصلح فى هذه الحرب لا تطول مدتها ، لأنى أرى ضيوفها خالفوا العرف وآداب اللياقة ، فذهبوا إلى المطبخ يأخذون من هذه الحلة مضغة ، ويلعقون من

هذه الصينية لمقة ؛ فلن يحين افتتاح المأدبة حتى تكون قد شبعت بعض البطون .

حديث البابا

كنا نحسبه حديثاً ، كحديث الشيخ المراغي ، دينياً ، فإذا هو حديث يذاع على العالم فيكشف عن اتجاه هو أول اتجاهات السلم في السياسة قبل أن يحين السلام .

تحدث فضرب أول نغمة لا تتوافق مع أنغام الدور الشهير ، دور « بحّار الفلجا » .

تحدّث فإذا به يحاضر الناس في الملكية الفردية وضرورتها نظاماً للمجتمع النصراني ، ويُعرّض بمن لا يرضون هذه الملكية نظاماً . ويخشى أن يكون قد غالى فيدفع عن نفسه بأنه لا يناصر الأغنياء على الفقراء . وما كان له أن يدفع وموقف المسيحية من الأغنياء معروف مشهور . ولكن الذي كان له ألا يخالف فيه ما أجمع عليه الحلفاء ، فقد قالوا : إن الروس أحرار في اختيار أنظمتهم داخل حدودهم ، كحرية هذه الأمم في اختيار أنظمتها داخل حدودها . وقالوا : إنه ليس في اختلاف النظم في الداخل ، ما يبعث على اختلاف بين الأمم في الخارج .

إن البابا مقرّه روما ، وروما تُطلّ على البلقان وعلى أوربا الوسطى ، وللبابا سفراء في كل هذه البلاد ؛ فهل بلغه ما أراعه فاستل سيفه قبل الأوان ، وقد ظلّ في غمده حتى صدئ خمسة من الأعوام ؟

الدين في أوربا

ولست أذكر حديث البابا لأناصر ملكية فردية ، أو أدافع عن شيوعية ، فالعلم بصلاح هذه أو هذه عند الله ، وعند تجربة الأجيال . ولكني أذكر به مظهراً من بعض مظاهر بعض رجال الأديان . يصمتون حيث يجب الكلام دهراً ، فإذا نطقوا نطقوا ... بهذا .

وأصاب قداسة البابا أو أخطأ ، فالذي نعلمه أن الدين أصبح ذا أثر ضعيف جداً في أوروبا . وهو أكثر ضعفاً في غربها . وفي إنجلترا زاوجوا الدين بالوطن فولدا ديناً وطنياً لا زال يُسمّى بالمسيحية . أما في شرقها ، في البلقان وفيما يلي البلقان من أوسط القارة ، فالدين قوي في النفوس ما جارى الحياة وضروراتها . والحياة شِبَعٌ وريٌّ أولاً ، ثم هي عقيدة . والعقيدة يمكن إنامتها ثم إيقاظها ، والمعدة إذا نامت طويلا لا يمكن إيقاظها .

وليس أدلّ على صحة هذا مما يجري اليوم — حين أكتب — عند البلغار . فهم قوم بالجنس سُلاف ، وبالعقيدة أرثوذكس . أي أنهم هم والروس سواسية جنساً وديناً . وكنائسهم لها مظهر كنائس الروس . وقساوستهم كقساوسة الروس قلباً وقالباً . ولكن أسواقهم ألمانية ، واقتصادهم ألماني . من أجل هذا وقفوا إلى جانب ألمانيا في الحرب الماضية وفي الحرب الحاضرة . حتى بعد أن ضعفت ألمانيا في هذه الحرب ، وكان للبلغار من ضعفها حجة في الخروج عليها ، تشبثوا بموقفهم القديم على رغم الجنس ورغم الدين .

قاتل الحشرات : الدبدبيّ

هكذا سميناه ، ما دام أنه لا بد لكل مولود من تسمية ، وما دام أن غيرنا لم يتطوّع بعدُ لتسمية تكون أصح وأوفق .

توءمان

وهو مولود من مواليد الحرب ، بل هما مولودان توءمان ، أولدتهما هذه الحرب ، وسيكون لهما بعد الحرب عمر طويل مديد نافع كأعمار بعض الخيّرين من أبناء الناس . إلا أن خيرهما لن يُقصر على أهل وطن دون

سائر الأوطان ، ولا على أهل دين دون سائر الأديان ؛ ولكنه سيكون للأقوام البشرية جميعها ما بلغت تلك الأقوام ذلك الحد من الثقافة الذي يلزم لاستبانة الخير من الشر ، والنور من الظلام .

وهذان التوءمان هما : الديدي والبنسلين .

أما البنسلين ، فقد تحدثنا عنه فيما سلف . وأما الديدي فقد تحدث عنه غيرنا ، ورمزوا له كما رمز الإفرنج بالأحرف د . د . ت .

وكلاهما مركبان مما تركب الكيمياء ؛ ولكن أحدهما ، وهو البنسلين ، ركبته في تكاثرها بعض الأحياء النباتية — الفطر — ولم يصل بعد الإنسان إلى محاكاتها بتركيبه في المعمل ؛ والآخر وهو الديدي ركبه الكيماويون اصطناعاً في المعمل ، لا محاكاة عن الطبيعة .

والبنسلين عقار كبعض العقاقير ، ينفذ في الجسم ، فيكافح المكروب فيه ؛ أما الديدي فيمنع المرض قبل أن يصل إلى الإنسان . وذلك بمنع أسبابه . وهو يمنع أسبابه ، وهي مكروبات ، بقتل الحشرات التي تحملها إلى الإنسان .

وناقلات المرض إلى الإنسان حشرات عديدة ، من أشهرها : القمل ، والبعوض ، والذباب ، والبق ، والبراغيث ، والصراصير ؛ والديدي يقتلها جميعاً على ما وردت بذلك الأخبار .

فالديدي سيرفع عن البشر رقماً قدعةً عديدة منها : التيفوس ، والتيفود ، والملاريا ، والدوسنطاريا ، والحمى الصفراء ، والكوليرا ، وأوبئة أخرى غير هذه .

الديدي والتيفوس

والديدي نال سمعته الكبرى إلى اليوم بالذي صنع في إيطاليا ، وعلى الأخص في مدينة نابلي ، عند ما حسم التيفوس حسماً بين أكثر من مليون نسمة في أقل من ثلاثة أسابيع ، وبالذي صنعه في حملة نورمانديا لجيوش الحلفاء . فالقمل ، وهو حامل التيفوس ، أسرع ما يأتي للجند . والقمل شيء لا بد منه في كل حرب ، ولكن الجنود في نورمانديا تحصنوا بالديدي ، رشوه سحيقاً في ثيابهم ، وفي أكمامهم ، وعند مداخل أرجلهم من الثياب ، ومخارج أعناقهم . فهبطت إصابات القمل إلى ستة أشخاص في المليون . بينما إصابات القمل بلغت في الألمان خمسة في المائة ، على الرغم من أنهم يلبسون أقمصة خاصة لا تشجع القمل على ارتيادها .

ابتسامة

إنك أيها القارئ لو طالعتني هذه الساعة لوجدتني أبتسم . أتدري لماذا ؟ لأن هذا القاتل الجديد للحشرات — هذا الديدي — أول من ركبه الألمان .

وهو ليس بجديد على ما زعم الكتاب . إنه أسن مني ، ولا شك منك أيضاً . إنه ولد عام ١٨٧٤ . وأبوه شاب ألماني اسمه أتمار زيدلر . ولده ؛ ولما لم يجد له نفعاً سجله في سجلات العلم تسجيلك ابناً مات بعد أيام من ولادته !

ثم جاء بعد ذلك من كشف أنه يقتل الحشرات على النبات بقدر ، فوقه . إذن فلنجربه في هذه الحشرة ، ثم في هذه ، ثم في تلك . حتى انفتح الباب على مصراعيه . وهو فتح لا يقاربه فتح باريس أو فتح برلين ، حتى ولا فتح ذخائر قارون ! فبالذهب تشترى النعم . ولا نعمى لجسم مريض . فإن كنت في شك من هذا ، وكنت في عافية ، فسل مريضاً ، يكشف لك عما خبأت عنك العافية !

الديدي في المطبخ

والديدي مسحوق كبدرة الوجه . ولكنه كذلك

أبو العلاء والكيلاني

عنى الأستاذ كامل الكيلاني بأبي العلاء المعري ، وتخصص في دراسته سنين طوالاً ، وعكف على كتبه يدرسها في إمعان ، ويحللها ويتعمق نصوصها ومراميها ؛ وأخذ على نفسه أن يقربها للشبان بلغة العصر وروح العصر ، وبعد أن عني بنشر رسالة الغفران وشرحها والتعليق عليها ، أخرج هذه الأيام ثلاثة كتب :

(١) « مصرع الفنان » : بدأه بمقدمة في الأدب ، وتاريخ اتصال المؤلف بأبي العلاء ، والتعريف بأسلوب المعري ونحو ذلك ؛ ثم إلمامة بحياة أبي العلاء ؛ ثم نصوص مختارة ؛ ثم قصص من قصص أبي العلاء ، يبدأ المؤلف بعرضها بلغة لطيفة يسهل فهمها ، ثم يورد النص لأبي العلاء .

(٢) والكتاب الثاني « على هامش الغفران » : يشرح فيها الدواعي التي دعت أبا العلاء لتأليف رسالة الغفران ؛ ثم قصة الحاطبة ، وهي شجرة التين ، وقد وردت في رسالة الغفران وصوّرها المعري صوراً مختلفة ، وقد اتخذها المعري رمزاً للقلب الإنساني .

(٣) والكتاب الثالث « رسالة الهناء » : بدأها بالدراسة والتحليل ، ثم بالنص الكامل .

وهذا العمل الدائب من الأستاذ كامل كيلاني في خدمة أبي العلاء خاصة ، والأدب العربي عامة ، وتقريب ما عسر فهمه من النصوص ، وتحبيب الأدب العربي إلى الشبان ، يستحق الثناء والإعجاب والشكر . ولعل إفراط الأستاذ في حب أبي العلاء حمله أحياناً على أن يبالغ في قيمة الصورة المعروضة ، ويخطب طويلاً في قيمتها الكبيرة

ولو تخصص كل أديب من أدباء العصر بشاعر أو ناثر كبير من نوابغ الأدب العربي يدرسه ويحلله ويقربه للشبان ، كما فعل كامل كيلاني مع أبي العلاء ، لكان لنا مكتبة عصرية غنية تحيي الدفين وتبعث الموتى ، وتنفخ في أدبنا العربي روحاً جديداً . « ... »

يذوب في المحاليل العضوية كالبنزين . فهو على هذا يُذَرّ كالبدرة ، أو يرش كما يرش الفليت وأضرابه .

وإذا أنت رششت بمحلوله حوائط مطبخ استحال بقاء الحشرات فيه . وهو لا يقتلها تواً ، ولكن في غضون ٢٤ ساعة . ويبقى أثره على الحائط ستة أشهر — هكذا قالوا ، فهو لم يرد إلى مصر بعد . وهو يقتل كل الحشرات التي تغشى المطابخ في مصر . وكذلك تلك التي تغشى مجارى المياه في المنازل . وكذلك البق .

الدبري في المعمل

وهم يركبونه من بنزين الفحم ومن مشتقاته ، ومن غاز الكلور . فهو لهذا رخيص لرخص مصادره . وتصنع منه الأطنان دفعات واحدة . وهو سهل التحضير ، فهو لن يجتمع على تحضيره وكيل وزارة ومدير مصلحة وجمهرة من الإخصائيين ، كالذين سمعنا أنهم اجتمعوا في القاهرة على إعادة تحضير البنسلين ! ؟ إنه مادة متواضعة ، تتطلب لتحضيرها كيماويا من الدرجة الخامسة أو السادسة ، في معمل متواضع . على ألا يُطلب إلى الكيماوي المسكين تحضير الأطنان . أطلبوا منه رطلا أو بعض رطل . وموّنوه بالأصول التي ذكرنا .

بهذا حدثنا عارف بالكيميا . والله أعلم .

كان خفيف الروح

ذلك أبو بكر بن عياش . وقلّ أن يجتمع العلم والخفة . ومات هو والرشيد في عام واحد .

حدّث العباس بن بنّان قال : كنا عند أبي بكر ابن عياش ، يقرأ علينا كتاب مغيرة ؛ فغمّض عينيه ، فحرّكه أحدنا وقال له : « أفي الدرس تنام يا أبا بكر ؟ ! » فقال : « لا ، ولكن مرّ ثقيل فأغمضت عيني » !

« الجرنوسي »

من وحي الربيع:

أغرودة الناى

داعبي الناى وهاتى اللحن ينساب الهوينى
فنداءُ الحب يا دنياىَ يدعو شفتينا !
رددى فى مسمع الأكوان ألحانى وشعرى
ودعى ثغرك يهمس بالنجوى لثغرى !
ماعلينا لو أذبنا الليل حباً ...... ماعلينا
بين أحلامٍ ، وألحانٍ ، وأقداحٍ ... وخمرٍ !

* * *

ههنا فى أيكة الحب صدحنا بالأغانى
ونعمنا بين أفراحٍ ... ، وطهرٍ ... ، وتدانى
وبعثنا اللحن يسرى باسماً فوق الربوع !
أغنيات الحب والنجوى ، وأنغام الولوع !
... إنها تنساب فى روحى وتسرى فى كيانى
إنها تبعث فى قلبى حنيناً للدموع .. !!

* * *

يا حبيبى غرّد الطير على الغصن وغنّى
وترامى الزهر نشوانَ طروباً يتثنّى !
فتعالَ ، ننهب الأيام حباً وغراما !
ونقضّى العمر لهواً ومراحاً ... وهياما !
... سوف يروى الحب للعشاق والأجيال عنّا
أننا كنا على الدنيا خلوداً ودواما .....!!

* * *

يافتاتى ! يا مُنى روحى وأحلام حياتى !
يا ضياءً يبعثُ النضرة فى القلب المواتِ !
أنا فى محراب حبى أنشد اللحن الصفىّ !
هو وحى من سماء الروح والإبداع رفّا !
فإذا شاقتك فى عش الأمانى أغنياتى
فارشفيها من ثغور الورق والأزهار رشفا !

* * *

زورق الأحلام يا قلب على اللجة يجرى !
وأغانى الحب تنساب على الموج ... وتسرى !
والذى يُنسمه الوجدُ ، جثا فوق الرمالِ ...
ساجداً لله والحب وآيات الجمال ..... !!
... أيقين ذاك أم حلم لعمرى ... لست أدرى ؟
غير أنى ساربٌ كالسِّرِّ فى عُمْق الليالى !!

فؤاد كامل

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٢٩٩١

العدد ٢٩٩ — الثلاثاء ٢ من شوال سنة ١٣٦٣ — ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

على خط سيجفريد

في وقوف الألمان اليوم على خط سيجفريد ، يذودون العدو عن أرض الوطن الألماني ، رمز للتراجع العظيم الذي اضطرت إليه الجيوش الألمانية ، منذ بلغت أبعد مدى في تقدمها الهائل . لقد ابتكر الألمان قبل هذه الحرب كلمة في معنى التوسع الاستعماري ، وهي Lebensraum أي مكان الحياة ؛ وقد اصطلح كتابنا على ترجمتها بالمجال الحيوي . ولم يكن الألمان أول من ابتكر فكرة التوسع الاستعماري ، فإن التكالب على حيازة المستعمرات ، واغتصاب السلطان وإرهاق الشعوب ، أمر قد سُبق إليه النازيون منذ قرون . ولكن الألمان قد ابتكروا لهذا المعنى كلمة جديدة لا تخلو من طرافة ، ثم مضوا في تنفيذها على طريقتهم التي اشتهروا بها في العلم والفن ، بل وفي كل أمر يمارسونه ، وهي الاستقصاء وبلوغ أبعد مدى ممكن . وما داموا قد قرروا أن يستولوا على المجال الحيوي عنوة وبحد الحسام ، فلا بد أن تعد له أكبر عدة حربية عرفها الإنسان ، وأن يتسع هذا المجال الحيوي حتى يشمل سطح الأرض كله إن أمكن ، وإلا فليشمل أعظم مساحة ممكنة منه . أجل ، ولا بد أن تشن هذه الحرب على كل دولة بالغة ما بلغت من الصولة والقوة ، فلا يكفي أن تشن على بولندة وفرنسا وبريطانيا ، بل لا بد أن تشن على روسيا السوفياتية وعلى الولايات المتحدة الأمريكية . ولا بد لألمانيا أن تستعين بموارد جميع الدول الصغيرة التي تجاورها ، ولذلك لم يكن بد من الاستيلاء السريع على اسكندناوة استعداداً لمحاربة بريطانيا ، وعلى البلقان استعداداً لحرب روسيا .

وهكذا مضت ألمانيا في الاستيلاء على مجالها الحيوي . وسواء أكنا من الذين راعهم استعداد ألمانيا الهائل ، أم من الناقمين على الطغيان النازي ، فإنه لا بد من الاعتراف بأن الجيوش الألمانية قد بذلت جهود الجبابرة من أجل تحقيق تلك الشهوة السياسية ، وأنها لم يكن بينها وبين تنفيذ الخطة النازية الكاملة سوى قيد أنملة . إن الذين ينظرون إلى الجيش الألماني وقد ارتدت فلوله عن شمال

فرنسا إلى حدود ألمانيا ، قد ينسون أن هذا الجيش قد فتح في عامين اثنين مساحة من الأرض لم يتح مثلها لفاتح في أضعاف هذا الزمن . وأن المجال الحيوى قد امتد حتى كان يشكّ غرباً على المحيط الأطلسى وفى الشرق على نهر الفولجا ، وهى مسافة تقرب من أربعة آلاف من الكيلو مترات ؛ وامتد فى الشمال حتى بلغ المحيط المتجمد ، وفى الجنوب حتى توغل فى الصحراء الحارة ، وهى مسافة تقرب من خمسة آلاف من الكيلو مترات . وفى ذلك الوقت ـ أى فى صيف وخريف عام ١٩٤٢ ـ لم يكن بين ألمانيا وبين تلك السيادة الواسعة التى تطمح إليها سوى قيد أغلة أو أغلتين ، واحدة فى الشمال على ضفاف الفلجا ، وأخرى فى الجنوب على حدود مصر . ولكن ألمانيا عجزت عن اقتحام ستالينجراد ، وقطع بلاد القوقاز عن أرض السوفيات ؛ وعجزت عن اقتحام وادى النيل وفتح الطريق إلى الشرق الأوسط والمحيط الهندى . وبهذا عجزت عن تحقيق ذلك الحلم الهائل . ومنذ ذلك الحين أخذ المجال الحيوى ـ فى تلك الفتوح الواسعة ـ فى الانكماش التدريجى أحياناً ، والسريع أحياناً أخرى . وكان الانكماش أول الأمر من ناحيتين : الأولى من الجنوب حيث تراجعت الجيوش الألمانية عن شمال إفريقية حتى إيطاليا ، ثم تراجعت عن إيطاليا حتى حدود لومبارديا ؛ والثانية من الشرق ، حيث تراجعت القوات النازية مرتدة إلى بولندة ورومانيا ، ثم إلى ما وراء بولندة ورومانيا .

ومنذ شهر يونيو الماضى أخذت قوات ألمانيا تتراجع فى مكان ثالث ، وهو غرب أوربا ، فأخلت قواتها معظم فرنسا ، وبلجيكا ولوكسمبورج . وتضاءل المجال الحيوى الذى فتبت فى فتحه الأرواح ، وانكمش حتى بات صورة مصغرة لما كان عليه ، وهو فى كل يوم يزداد انكماشاً وانقباضاً . .

وربما كان صحيحاً ما قيل من أن طائفة من قادة الجيش الألمانى رأوا بثاقب فكرهم فى صيف عام ١٩٤٣ ، أن من العبث التقى فى الحرب ، وأن من الواجب تصفيتها قبل أن تصاب القوات الألمانية بخسارات أفدح . ولكن سواء أصبح هذا القول أم لم يصح ، فإن القيادة النازية العليا ، قررت أن تمضى فى القتال ، ولا شك أنها كانت ترى أن موقف الجيوش الألمانية سيتحسن . ومن الأمور التى نلاحظها بسهولة ـ وإن لم نكن من الخبراء فى شئون الحرب ـ أن القيادة النازية قد اتبعت سياسة التشبث والتمسك بكل مساحة من الأرض إلى آخر لحظة ممكنة ، وعدم التخلى عن موضع إلا بعد جهاد عنيف . وخطة التشبث هذه ليست وليدة أمس ، بل يرجع عهدها إلى ستالينجراد فى أواخر عام ١٩٤٢ ، حيث أمر الجيش الألمانى بأن يحارب إلى النهاية . وكان ذلك الأمر هو الأول من نوعه فى هذه الحرب ، ولكن قد صدر مثله بعد ذلك مراراً . ومن السهل علينا أن ندرك أن المقاومة إلى النهاية فى موضع متقدم مما يساعد فى تأخير العدو عن الزحف ، ولكن هذا التأخير ليس بالأمر الخطير إذا كان العدو جيوش كثيرة ، يستطيع أن يخصص جزءاً منها لمحاصرة ذلك الموضع والتقدم بسائر القوات إلى الأمام ، كما فعلت الجيوش الروسية المرة بعد المرة .

لذلك يحق لنا أن نتساءل : ألم تسرف القيادة الألمانية فى خطة التشبث هذه إلى مدى يجعلها بعيدة عن الحزم ؟ إننا نذكر فى هذا الصدد تشبث القوات الألمانية بنورمنديا بعد أن انكشف جناحهم الأيسر ، وتعرضوا للتطويق مراراً . ولقد قيل فى تفسير ذلك إن القيادة الألمانية أرادت أن تحتفظ بالسواحل المواجهة لإنجلترة أطول مدة ممكنة ، لكى تستبقى القواعد التى تقذف القنابل الطائرة على لندن وجنوب إنجلترة .

ومن الجائز أن يكون هذا الزعم ـ على علاته ـ صحيحاً ، ولكن سياسة التشبث لا تزال تتبع فى جهات أخرى . فى الوقت الذى يهدد فيه الوطن الألمانى فى الشرق من ناحية بولندة وبروسيا الشرقية وسيلزيا العليا ، ومن الجنوب من ناحية هنجاريا وإيطاليا ، ومن الغرب من خط سيجفريد ونهر الرين ، قد يكون من الحزم استعادة

أكبر قوة ممكنة للدفاع عن أرض الوطن المهدد؟ ومع هذا، فإن هنالك فرقاً ألمانية مرابطة في شمال فنلندة إلى اليوم. ومن الصعب أن ندرك فائدة هذه القوات، بعد أن خرجت فنلندة نفسها من الحرب، وتعهدت بإخراج الجيش الألماني من فنلندة إذا لم يخرج من تلقاء نفسه في موعد غايته يوم ١٥ من هذا الشهر؛ وقد انقضى الموعد دون أن تنسحب تلك القوات، ولا شك أن هذا معناه أن فنلندة مضطرة لأن تشهر السيف على ألمانيا، وهو أمر ليس له أي داع. فإذا قيل إن بقاء الجيش الألماني في شمال فنلندة هو للذود عن حدود نروج، فإن بلاد نروج الشمالية من الجهات الوعرة، التي لا نظن أن روسيا ستحاول اقتحامها، وأمامها طرق أسهل إلى بروسيا وإلى ألمانيا.

كذلك تشبثت ألمانيا بالاحتفاظ بجيوشها في بلاد البحر البلطي الأخرى: وهي استونيا ولتونيا ولتوانيا، وقد أحيط الآن بتلك الجيوش، وكان من الممكن أن تسحب في الوقت الملائم لكي تدافع عن أرض الوطن.



وعندما طغى سيل الهجوم الروسي نحو الجنوب، وأخذ يتجه إلى سهول نهر الطونة، وأعلنت رومانيا انضمامها إلى روسيا، كان من الواضح أن القوات الألمانية المرابطة في البلقان مهددة بالعزل التام؛ فلم يصدر لها أمر صريح جريء بإخلاء البلقان والعودة إلى سهول المجر، بل صدر الأمر إلى كل قوة بلقانية أن تحارب إلى النهاية. وها هي اليوم في عزلة تامة، لا تستطيع العودة إلى الشمال، وهي أيضاً لا تستطيع أن تحارب، لأن القوات الروسية اكتفت مؤقتاً بقطع «خط الرجعة» على الحاميات البلقانية، واتجهت بالحرب إلى ترانسلفانيا وسهول المجر ويوجوسلافيا.

وفي الوقت الذي تنادي فيه القيادة الألمانية العليا بضرورة استغلال موارد الدولة في الرجال إلى أقصى حد، يبدو من الغريب هذا التشبث بالمواضع النائية وترك عدد عظيم من الرجال لحمايتها، والذود عنها والعدو على أبواب ألمانيا نفسها

كذلك ليس من السهل أن نفهم فائدة التمسك ببلاد نروج الطويلة في الوقت الحاضر؛ ومع التسليم بأن لسواحل نروج فائدة لا يستهان بها في حرب الغواصات خاصة، وفي مهاجمة طرق الملاحة في بحر الشمال بوجه عام، فإن تموين القوات البرية والبحرية الموزعة في تلك البلاد لا بد أن يستنفد مجهوداً كان حقيقاً أن يوجه للدفاع عن أرض الوطن. ومن الجائز أن نذهب إلى أبعد من هذا ونتساءل عن فائدة التشبث بالميدان الإيطالي نفسه، ومن

الممكن تصفيته والتخلى عن شمال إيطاليا ، والتراجع إلى الأقاليم الوعرة فى بلاد ترنتينو والتيرول ، حيث يمكن لقوة صغيرة أن تدافع دفاعاً طويلاً . ومع أن فقد سهل لباردیا معناه تضحية بعض المواد الغذائية ، فإن هذه المشقة قد تهون بجانب مشقة هجوم عنيف على بلاد ألمانيا نفسها .

ومن الجائز أن يقال إن فى ثبات القوات الألمانية وتشبثها بأماكنها الثابتة أطول مدة ممكنة ، تعطيلاً لجزء كبير من قوات العدو ، ومنعاً لها من الانضمام إلى سائر الجيوش المغيرة على أرض الوطن ؛ وهذا الاعتراض صحيح لو أن ألمانيا تحارب عدواً يضارعها فى العدة والعدد . ولكن العدو الذى تحاربه ألمانيا اليوم يفوقها عدداً بمقادير كبيرة ، وقد يكون متفوقاً عليها فى العدة أيضاً . وفى مثل هذه الحال تكون خطة الحزم أن يقصر الميدان إلى أقصى حد ممكن ، وأن تركز فيه جميع القوى من أجل مجهود نهائى تبذله الجيوش الألمانية ، وقد حشدت كلها للذود عن حياض الوطن المهدد ، وقصرت خطوط تموينها إلى الحد الأدنى ، وأمكن تركيز القوة الجوية الألمانية فى مجهود واحد عنيف ، تستطيع به ألمانيا أن تقاوم التيار ، لعل الظروف أن تتطور لمصلحتها فتظفر بالصلح بدلاً من التسليم بلا قيد ولا شرط . لقد كان من الواضح منذ الربيع الماضى أن خطة ألمانيا فى الحرب قد تحولت من الهجوم إلى الدفاع ، ولا تتفق خطة الدفاع مع هذا التشبث بالجهات النائية فى البحر البلطى وشبه جزيرة البلقان .

واليوم تغير على ألمانيا نفسها جيوش جرارة من الشرق والغرب . والخطر الداهم اليوم هو هجوم الأمريكيين على خط سيجفريد نفسه ، واحتلالهم جزءاً — مهما كان صغيراً — من الوطن الألمانى الصميم فى منطقة مدينة إكس لاشابل ، عاصمة شرلمان ، وفى غيرها من الجهات .

لقد أنشأت ألمانيا خط سيجفريد رداً على إنشاء خط ماجنو . ولم تكن بألمانيا حاجة ملحة لإنشاء مثل هذه الاستحكامات المتينة ، مع استعدادها الحربى الهائل الذى لم يعرف له الزمان نظيراً . ولكن خطة الاستقصاء التى يجرى عليها الألمان دفعتهم إلى إنشاء خط دفاعى هائل ، طوله يزيد على ألف كيلومتر ، يمتد من حدود سويسرة بالقرب من مدينة بال إلى آخر حدود هولندة على بحر الشمال . يجرى هذا الخط أول الأمر موازياً لنهر الرين ، من الناحية الشرقية ، ثم يعبر الرين شمال الألزاس ويجرى موازياً لحدود فرنسا وبلجيكا وهولندة . واستحكامات هذا الخط تبلغ أقصى المتانة فى النصف الجنوبى ، أى من حدود سويسرة إلى بلدة إكس لاشابل ، فى الجهات المتاخمة لحدود فرنسا وبلجيكا . أما شمال إكس ، فإن الجزء المتاخم لحدود هولندة قليل الاستحكامات ، ويعد فى نظر الحربيين عقبة قليلة الخطر . ومتى أمكن للجيش البريطانى أن يصل إلى حدود هولندة الشرقية ، فإن قوات الحلفاء تكون قد وصلت إلى الجزء « الضعيف » من خط سيجفريد . أما اليوم فإن القوات الأمريكية هى التى تهاجم الخط فى مواقعه القوية المتينة ، وقد تسنى لها أن تخترق الحلقة الأولى من الحصون جنوب إكس لاشابل ، وأن تتوغل فى أرض الريخ بضعة أميال ، وسنراقب تقدمها هنا باهتمام عظيم .

لقد مضت أشهر الصيف ، وأقبل الخريف . ومن الممكن فى ظروف جوية ملائمة أن تستمر الحرب فى الميدان الغربى إلى شهر نوفمبر . فإذا ثبتت الجيوش النازية لهجمات الأمريكيين والبريطانيين ، فإن عليها بعد ذلك أن تواجه حملة شتاء تشنها الجيوش الروسية فى الميدان الشرقى . فهل لنا أن نؤمل أن تطالب القيادة الألمانية بالهدنة وحقن الدماء كما فعلت فى عام ١٩١٨ ، مع أن الحرب اليوم قد وصلت إلى أرض ألمانيا ، ولم تبلغ هذا المبلغ فى الحرب الماضية ؟

محمد عوض محمد

سياست نامه

٥ — النساء وشئون الدولة

عند ما اعتنق الترك الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجاً ، واستقلوا بالدولة الغزنوية ثم بالدولة السلجوقية ، وجد سلاطينهم من حسن السياسة أن يوطدوا صلتهم رؤساء العشائر القوية في أطراف البلاد ؛ وكانت المصاهرة وسيلة لبلوغ هذا الغرض . وكثيراً ما كان السلطان يتزوج في آخر سني حياته ، في السن التي يكون الرجل فيها ، دون أن يشعر ، فريسة لأطماع زوجه وشهواتها ، فتسيطر المرأة الشابة على الرجل الشيخ سيطرة لا يستطيع التحلل منها . وقد كانت الفكرة السائدة في القرون الوسطى أن السلطان يستمد سلطته من الله ، وأنه وَلِيّ العرش ليقيم العدل بين الناس ، فكان بذلك حاكماً مطلقاً لا مردّ لحكمه ، ولا محاسب له من الشعب ؛ ولذا كانت السياسة الرشيدة أن يتولى العرش أكبر أبناء السلطان أو من تتوافر فيه صفات السلطنة منهم . ولكن السلطان كان يقع تحت سيطرة زوجه الشابة ، فيؤيد رأيها في أن يلي ابنها ، وقد يكون طفلاً ، العرش بعد أبيه ، وكثيراً ما كانت تجد الزوج من يؤيدها في البلاط . وقد تضل بصيرة السلطان الشيخ ، فلا يأبه لنصح وزير مخلص يرى تنصيب الابن الأكبر لأنه أقدر على تحمل تبعات الملك من الطفل الصغير . وأبصر نظام الملك في آخر حياته أن ملكشاه يريد أن يوصي بالعرش لطفله محمود من زوجه تركان خاتون . وكان الوزير يرى أن بركيارق ، الابن الأكبر من زوج متوفاة ، أقدر على ولاية العرش وأحق بها . وكان نظام الملك بين أمرين ، إما أن يجاري تركان خاتون في سياستها ، فيكسب رضاها ويأمن غضب السلطان أو ضعفه فيترك الأمور تسير في أعنتها ويلي العرش طفل لا يميز ؛ وإما أن يعلن الرأي الذي يراه حقاً وتسخط عليه زوج السلطان القوية ويعرّض نفسه للموت أو للتنحي عن السلطة . وكان يعلم أن تركان خاتون ، قد اختارت أبا الغنائم مستشاراً لها ، وكانت تهيؤه ليلي الوزارة إذا ما عارض نظام الملك سياستها ، فأبعدته عن طريقها . وكان أبو الغنائم يدس عند السلطان ، ونظام الملك يعلم بهذا كله ، ولكنه لم يحد عن رأيه ، وآثر أن ينصح السلطان غير مبال في سبيل مصلحة الدولة بما قد يتعرض له من محن . وقد نجحت تركان خاتون في إيغار صدر السلطان عليه ، كما أفلحت الدسائس في إعلاء شأن أبي الغنائم ؛ ولكن شيئاً لم يحمل نظام الملك على العدول عن رأيه الذي ساد آخر الأمر ، فقُتل أبو الغنائم بعد مقتل نظام الملك ، وفشلت الجهود التي بذلت لتنصيب محمود الطفل وولي بركيارق ، مرشح نظام الملك ، عرش أبيه .

***

يقول نظام الملك للسلطان ملكشاه :

قد سمعت أن السيدات المحجبات اللاتي لا ذكاء لهن يتدخلن في شئون الدولة ، وهن لا دخل لهن فيها . والذي أعرفه يا مولاي ، أن كل ما نطلبه إلى النساء هو أن ينجبن لنا الأبناء ليبقى النسل الطيب ، وكلما علا أصل السيدة زاد تقدير السلطان لها ، وكلما تشددت في الحجاب طاب الثناء عليها . وليعلم الملك أن نصائح سيدات القصر مبنية على ما يسمعن ممن لم تخلص نياتهم ، وأنهن لا يرين ما يجري في الخارج ، فيتخذن من هؤلاء المفسدين عيوناً ، ويستقين من الصاحبة أو الخادمة أو الخادم الأنباء ! ولذا فإن ما يصدرنه من الأوامر يكون بعيداً عن العدل والحق ، وهكذا يتفشى في الدولة الفساد ! وفي هذا يا مولاي مساس بنفوذك ، وفيه مضرة للشعب ، إذ أن به تختل أمور الدنيا

والدين ، وقد تتلف ، إذا استمع الحاكم إلى قول امرأته ، أموال الناس ، وتسفك دماء عظمائهم . وإن أنت أنعمت النظر في التاريخ يا مولاى ، وجدت أنه ما من مرة وقع السلطان فيها تحت تأثير المرأة إلا حل في دولته الفساد والفتنة وصنوف الشر . ولن أطيل عليك في حديثي عن سوء أثر تدخل المرأة في الشئون العامة ؛ فإن هذه القضية مشهورة والشواهد عليها كثيرة ، وهي قديمة قدم الإنسان منذ مس آدم الضر حين استمع إلى قول أمنا حواء ! ومنذ أجيال لقيت المملكة التي تحكمها ألواناً من الشر زهقت فيها أرواح الألوف من الترك والفرس ، لأن كيكاوس الملك خضع لامرأته سُودَبه ؛ فكان ما كان من شر أعوذ بالله من أن توقعنا النساء فيه ، في هذه الأيام التي اتسعت فيها مملكتنا ، وأصبحت كثيرة القصاد .

كانت سُودَبه شابة جميلة ، وقد وقع كيكاوس في حبائلها ، لأنه زوجُ شيخ ولأنها زوج فاتنة ، فسيطرت عليه حتى أصبح لا يعمل بغير مشورتها . وكان له ابن من زوجه الأولى ، اسمه سياوخش ، عهد بتربيته إلى رستم القائد المشهور ، وكان إذ ذاك والى سيستان . وشب سياوخش بطلاً ذاع صيته وتحدثت بفتوته الناس ؛ وبلغ مسامع سودبه أنه ذو جمال رائع فمالت إليه واشتاقت إلى لقياه ، فأوحت إلى كيكاوس أن يستدعي ابنه لجواره ليساعده في عمله ولتمتع نفسه بالنظر إليه ؛ فأطاعها الملك واستدعاه فحضر إلى المدائن ، ثم طلبت إليه أن يأمره بالدخول في « الحريم » ليرى إخوته . وأحس سياوخش أن أمراً يدبر له في الخفاء ، وكانت أخبار سودبه قد سارت في الناس ، فقال للملك إنه من الخير أن يبقى في القاعة الكبرى ، وأن يحضر إليه أخواته فيسلمن عليه . ولكن الملك أمره بالدخول عملا برأى زوجه ، فامتثل . . . ولم يكد سياوخش يدخل حتى احتضنته سودبه وراودته عن نفسه فدفعها عن نفسه مستعصيا وخرج ... ودخل الملك عند زوجه فاتهمت ابنه بأنه ضمها إليه فدفعته وطردته ... وغضب الملك وخرج إلى حيث ابنه ، وسأله عما كان ، فقال : هي راودتني عن نفسي فدفعتها عني وخرجت ! فقال الملك : النار تحكم بيننا يا بني ، فإن هي أحرقتك فأنت كاذب وهي من الصادقين ، وإن كانت عليك برداً وسلاماً فأنت صادق وهي من الكاذبين . وأقاموا حفل الابتهال وأشعلوا النار في الميدان وعلا لهيبها إلى قمم الجبال ، وجاء سياوخش راكباً فرسه « شبرنك » فاقتحم به النار ، وبعد زمن خرج من غير سوء ؛ فصلى الناس وجمع المؤابذة الحطب المتخلف وبعثوا به إلى بيوت النار في أطراف إيران ، وأدرك الملك براءة ولده ، ولكنه سامح زوجه الكاذبة ، وأسند إلى ابنه إمارة بلخ ترضية له . ولم يستطع سياوخش بعد هذا البقاء في مملكة أبيه . واتصل به بيران وزير الملك التوراني افراسياب ، وحبب إليه الانتقال إلى بلاد الترك فهاجر ، وهناك استقبله افراسياب أجمل استقبال وزوجه من ابنته واختصه بحبه ، وأصبح لا يعقد في بلاده أمراً من غير مشورته ؛ فأثار هذا حقد كرسيوز ابن الملك ، فدبر له تهمة خطيرة فأمر الملك بقتله ، وهكذا أريق دم ولي عهد إيران في بلاد الترك . ووصلت الأنباء إلى فارس فغضبت أرواح الأبطال ودوى اللحن الحزين في الأسماع . وبلغ رستم الخبر فغضب وامتطى حصانه وسار إلى العاصمة ، ودخل قصر الملك غير مستأذن « الحريم » حيث كانت سودبه ، فجذبها من شعرها وأخرجها إلى ساحة القصر فقطعها بسيفه إربا ، ثم حمل العلم الكاوياني وتقدم الجيش لمحاربة ملك توران . ودامت الحرب بين الشعبين سنوات قتل فيها آلاف من الترك والفرس . كل هذا لأن كيكاوس ضعف أمام زوجه سودبه فأسلمها زمام نفسه !

* * *

ولو تثبت يا مولاى تاريخ العظماء لوجدت أن أحداً منهم لم يستودع امرأة سراً ولم يتخذها مشيرة . وانظر يا مولاى إلى الإسكندر وقد هزم دارا واستولى على ملكه ، فأراد بعض رجاله أن يزوجوه من ابنة الملك المهزوم ، فأشاروا عليه بدخول « الحريم » حيث ابنة دارا التى ذاع صيت جمالها وعذوبتها ، وبجانبها بنات الأشراف وكلهن على جانب عظيم من الجمال ، فقال الإسكندر : لقد هزمنا رجالهم فلا يجوز أن تسيطر علينا نساؤهم ! ومضى فى الغزو نحو الهند ولم يدخل « حريم » دارا .

* * *

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « شاوروهن وخالفوهن » . وجاء فى التاريخ أنه حين اشتدت على الرسول (ص) وطأة المرض كان بجواره السيدتان عائشة وحفصة عليهما السلام ، فسألتاه عمن يصلى بالناس أثناء مرضه ، فقال : أبو بكر . فأعادتا سؤالهما ، فقال : أبو بكر . قالت عائشة لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل ضعيف رقيق القلب ، وإنه أقرب الصحابة إليك ، فإذا رأى مكانك من الناس شاغراً غلبه البكاء فتضيع صلاته وصلاة الناس ، فالأجدر بإمامتهم عمر فإنه قوى رابط الجأش ! فغضب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال ما معناه : مثلكما كمثل يوسف وكُرْسُف ، وإنى لن أسمع لكما رأياً ، وقد أمرت بما فيه خير المسلمين . اذهبا إلى أبى بكر وقولا له يؤم الناس فى الصلاة . هذا مع ما كان لعائشة من رأى وعلم ، فما بالك يا مولاى بسائر النساء !

قال ملكشاه : وما قصة يوسف وكُرْسُف هذه يا أبا الحسن ؟

فقال نظام الملك :

كان ذلك أيام بنى إسرائيل ، وقد قيل إن الله تعالى يستجيب ثلاث دعوات لمن يقضى أربعين سنة يعبد الله ولا يرتكب كبيرة أو صغيرة . وكان يوسف رجلاً متعبداً زاهداً يخشى الله ولا يسىء إلى أحد ، وكان يعيش مع زوجه كُرْسُف وأولاده فى قناعة وسعادة ؛ وقد آن ليوسف أن يدعو ربه ثلاث دعوات ، ولم يجد غير زوجه مشيراً بالذى يدعوه فإن صلاحها من صلاحه ، وليس أصدق منها ناصحاً . فلما سألها قالت له : ليس لى فى هذه الدنيا سواك ، وأنت منى نور العين ، ويطيب بصحبتى عيشك ، فادع ربك أن يجعل لى جمالا ليس مثله جمال حتى أدخل على نفسك السرور كلما وقع نظرك علىّ . فدعا يوسف ربه أن يمنح كرسف جمالا ليس لواحدة من بنات حواء ، فصارت . وأبصرت كرسف وجهها ذات يوم فى المرآة فإذا هى كالملاك الكريم جمالا ورقة ، وألفت نفسها زوجاً لهذا الزاهد المتعبد القانع الذى لا يجد عنده غير خبز قفار ، والذى لا يعرف إلى كسب الحياة سبيلا ؟ ورأت أن جمالها جدير بملك عظيم يوفر لها أسباب السعادة الحقة ، ويغدق عليها من النعم والخيرات ، ويهبها من اللآلئ والجواهر ما يزدان به جمالها . هكذا وسوس لها الشيطان فأخذت تؤنب زوجها على فقره وتقاعده عن الكسب وأهملت أطفالها . . . وأحس يوسف ما فى زوجه من صلف وغرور ، ورآها تهمل أولادها وبيتها ولا تستمع لنصحه ، فرفع رأسه إلى السماء ودعا ربه أن يعاقب كرسف فيجعلها دبة تهيم على وجهها ، فصارت . وأخذت الدبة تحوم حول البيت وتلتصق بجدرانه والدمع من عينيها ينهمر ؛ واضطر يوسف أن يرعى أولاده وبيته بنفسه ، وأصبح لا يقدر على تأدية الصلاة فى وقتها ، ورأى أطفاله وقد امتلأت قلوبهم حزناً لفقد أمهم ، فرفع رأسه إلى السماء مرة ثالثة ، ودعا ربه أن يعيد كرسف كما كانت من قبل ،

فى دراسة الخلق

إنه من المدهش حقاً ، بالرغم من المران الطويل والفرص العديدة المتاحة ، ألا نعرف عن هـذا الأمر إلا الأقل الأقل .

أما أنا ، فإنى لأحس أنى كلما تعمقت فى الدرس كلما ازداد الفهم عسراً . وإنى لأذكر حديثاً سمعته بين ركاب إحدى « الحاشدات » فى الطريق من باريس ، إذ قال قائل لصاحبيه إن فلاناً بنى على زوجته بعد أن دامت خطبتهما ثلاث عشرة سنة . فقال آخر : لقد أصبح صاحبنا إذن خبيراً بأخلاقها على الأقل . فأجابه محاوره : كلا ! بل على النقيض مما يتوهم الواهم . فقد بدا منها صبيحة اليوم التالى ما يخالف كل المخالفة ما كانت عليه من خلق وسجية ، فثبت عندى أنه يكاد يكون أقرب إلى المستحيل أن نصل إلى أعماق هذا اللغز .

وهناك طرق متعددة لدراسة الأخلاق . وهى : دراسة النظريات ، ودراسة الكلام المنطوق ، ودراسة أعمال الشخص المقصود بالدراسة .

وأولى هـذه الطرق — وإن كانت تبدو طريقاً سطحية — هى أسلم الطرق وأنجعها وأبرؤها من شوائب الخداع والتضليل .

فالحرفة التى يحترفها المرء لا تدل على شىء ، وكل عمل يعمله يمكن أن يزوّق ويزيف ، ولكنه لا يستطيع الهروب من نظراته . وقد قال أحد الأذكياء المشهورين :

« إن الكلام جعل لإخفاء المراد لا لبيانه » .

ولذلك قيل : إن من اشتهروا بالنفاق لم يشتهروا بقلة الكلام .

ومن الكلمات المأثورة عن لورد شسترفيلد ، قوله :

« إذا أردنا أن نعرف الشعور الحقيقى للمرء ، وجب علينا — ونحن نحادثه الحديث — أن نتتبع نظراته لا كلماته ، ذلك لأنه يستطيع التحكم فى مخارج حروفه ، ولكنه لا يستطيع التحكم فى نظراته . وإن حياة المرء بجميع مراحلها وأدوارها ، يمكن أن تكون « كذبة » من الأكاذيب لنفسه وللناس ؛ ولكن صورة يرسمها له مصور نابغ تبين — بوضوح — أخلاقه على الشاشة ، وتفشى سره للذريات المقبلة » .

وأولى المرء وأدعى لتخليده أن يترك صورة حسنة له من أن يعنى بنقش أبلغ قبرية على قبره . فملامح الوجه — فى الأغلب — تنم عن فكرنا وشعورنا ، أما ما بقى بعد ذلك فهباء وعدم .

ولست بقادر على أن أقنع نفسى أن أسمى أحداً من الناس عظيماً ، بينما تنبى ملامحه أنه رجل غبى .

إن نظرات المرء هى من عمل السنين ، وقد طبعتها الحوادث على محياه ، فليس من الهين أن تمحى !

وهناك ناس لا نحبهم وإن قدم العهد بمعرفتهم وخلت صحيفتهم من كل شائبة ، ولكن الذى نأخذه عليهم — كما نقول لأنفسنا — هو ملامحهم . وليس هذا هو كل شىء ، بل لا بد أن يكون هناك دافع آخر لهذا الكره ،

فعادت إلى حالتها الأولى ، وانتهت الدعوات الثلاث ، وأصبح يوسف وقد ضاع عليه نسك أربعين سنة ! كل هذا ، لأنه اتخذ من زوجه مشيراً .

***

وأختم حديثى بأن أذكر الآية الشريفة : « الرجال قوّامون على النساء » . فلا تستمع لمشورتهن يا مولاى ، واجعل من ابنك بركيارق خلفاً لك يحافظ على دولتك ويخلد اسمك ، فإن له من كبر سنه ووفرة تجاربه ومرانه فى فن الحكم ما يؤهله لوراثة ملكك العظيم .

يحيى الخشاب

وقد يكون هذا الدافع بروداً في الطبع أو أنانية أو خفة وطيشاً أو قلة إخلاص ووفاء ، أو ما إلى ذلك مما لا يمكن تحديده ، ولكننا نراه واضحاً ملموساً في عينيهم وملامحهم .

وقد يكون من أول الأسباب الدافعة لهذا الكره ، محاولتهم إخفاء هذه العيوب بكل ما يملكون من وسائل التخفية .

ولقد لقيت مرة رجلا يبدو عليه – عند النظرة الأولى العادية – أنه رجل أنيق مهذب ؛ ولكن يبدو للفاحص اللماح أن لعينيه نظرات غامضة ، ليس من الميسور شرحها ، وكأنه – إذا تلفت – يريد أن يحتويك ويلفك في أهدابه الوطفاء ، حتى لا تستطيع التحديق فيه مرة أخرى . وقد ثبت عند التقصي أن هذا الرجل كان طراراً عالمياً .

أما النساء فهن أسوأ قضاة – كما تقول إحدى بنات جنسهن – إذا جلسن للحكم على أخلاق الرجال ؛ وكذلك الرجال إذا جلسوا للحكم على أخلاق النساء ، وهذا ما يمكن استنتاجه من طريقة اختيارهم لزوجاتهم . فالحب – كما يقولون – أعمى ، وكل الأمر في الاختيار هو للهوى العابر . ومن المحقق أن غير قليل من المحظوظين والمحظوظات ليسوا ممن يظفرون بأكبر قسط من موجبات الظفر بين بني جنسهم . ويلوح أن النساء لسن على يقين من صحة أحكامهن في قضايا الحب ، وهن لذلك يلجأن إلى الأخذ برأي من يحببن ويصدقن دعاواهم فيما ينسبون إلى أنفسهم من شجاعة ومن قدرة على تصريف الأمور

ومن المشاهد أن المحامد التي يتمنى كل رجل أن تكون من خلائقه ، كالفصاحة والفطانة والعلم ، ليست لها المقام الأول عند كثيرات من الجنس اللطيف ؛ وإن كنت لا أنكر أن الذكاء والشجاعة تنال تقديرهن .

وكذلك لست أنكر أن الشباب والجمال ليسا هما الطريق الوحيد إلى قلوبهن .

وليس هناك شيء مما يؤدي إلى تمهيد الطريق التي يسلكها المرء في الحياة أحق بالعناية والدرس من أن يتقصى المرء عيوبه ؛ فإذا عرفها توقاها وأحالها إلى عناصر من عناصر القوة ، إذ لا شيء يرفع من قدره أكثر من معرفته مدى قدرته ، وهو بعد ذلك مستطيع أن يحول هذه القدرة إلى قوة إيجابية دافعة . ومن الناس من حاولوا هذه المعرفة فضلوا الطريق ، ومنهم من لم يهتد إليها أبداً . ومن الناس من صادفهم النجاح في أعمال معينة ، وهم مع ذلك يحسبون أنفسهم تعساء غير مجدودين ، ذلك لأنهم فشلوا في العمل الذي كانوا من هواته ؛ مثلهم في ذلك مثل المحبين الذين قست عليهم قلوب صويحباتهم ، فتولاهم الضنى ، وأضناهم السهر إثر حبيباتهم الغادرات .

«عن الإنجليزية» مبارك إبراهيم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

على هامش المؤتمرات (٢)

أيكون للأدباء مؤتمر أيضاً؟

كان الحديث ، فى الجلسة التى أدون اليوم وقائعها ، يدور حول مؤتمر أطباء العرب الذى عقد فى بيروت فى الأسبوع المنصرم[1] ؛ ولم يكن ليعنينا منه ، وليس بيننا طبيب ولا متطبب ، إلا الاستمتاع بأخبار تلك الروح السامية التى سادت جو المؤتمر ، ووصفتها الصحف اليومية خير وصف ؛ وإلا الكلام على قصيدة الشاعر الكبير على الجارم بك ، وقد كانت نفحة من النفحات التى عودنا أمثالها فى مثل هذه المناسبات الجليلة ؛ وإلا التحدث بإعجاب شديد عن خطاب مندوب « شعب » فلسطين الذى وقف أمام زملائه المؤتمرين يكلمهم بلغة الطب فأسمع العرب فى كافة أقطارهم ، ودوت كلماته فى أذن كل عربى غيور ، إذ قال متسائلاً : « هل يمكن أن يكون جسم الأمة العربية سليماً وفيه عضو مريض ؟ ! » ثم نبه العرب إلى موطن الداء فقال : « إن فى فلسطين جرثوماً خبيثاً دخيلاً » يشتد خطره ، ثم ناشد أطباء الأمة العربية « الإخصائيين » كلاً فى حدود اختصاصه وعمله بالتضافر والعمل متحدين للقضاء على ذلك الجرثوم الخبيث قبل أن يستفحل أمره ، ويسرى داؤه ، وتعم بلواه ...

هذه مادة الحديث الذى كنا آذاناً مشوقة تنصت إلى كل من استطاع أن يتكلم فى ناحية من نواحيه ؛ وإذا بجليس يسأل قائلاً :

— هل قرأتم يا أصدقائى المقال الرئيسى الذى نشرته « الكفاح[2] » ثانى يوم انعقاد المؤتمر الطبى ، حول المؤتمرات العربية ؟

فتباينت أجوبة « إخوان الحلقة » ، ولكن بغية السائل خفيت عنهم جميعاً ، فاستوضحوه سر السؤال فقال :

— السر فى المقال لا فى السؤال ... إذ أن كاتبه الفاضل أشار إلى ضرورة تعزيز الفكرة العربية بعقد مؤتمرات قومية دورية تشمل غير الأطباء « فى الأمس » والحامين « فى الغد القريب » : الصحافيين ، والمهندسين ، والأساتذة والمعلمين ، ورجال الندوات النيابية ، والشباب ، والطلاب ، والفنانين ، ورجال الصناعة ، ورجال الأعمال الخ .

نعم لقد عدد كاتب المقال كل هؤلاء ، ولست أدرى لماذا أغفل ذكر الأدباء ، ومؤتمرهم الذى يدعو إليه الصديق الأستاذ صلاح الدين المنجد ، وهو منذ أمد ما فتأ ينشر المقالات الكثيرة فى صحف سورية وبعض المجلات المصرية ، مفصلة أو بإمضائه الصريح ، ويشير فيها إلى دعوته ووجوب تحقيقها ... فهل لكم أيها الأصدقاء ، وكلكم ممن يعانى الأدب أو يتذوقه على الأقل ، بأن توضحوا لى سبب هذا الإغفال ؟ وهل هو نتيجة سهو ، أو أنه متعمد ؟ ! ...

وكان أسبق الجميع إلى الجواب على هذه الأسئلة ، « أديب كبير » إذ قال :

— لا بل إنه إغفال متعمد من كاتب المقال ، لأن فكرة صديقك يا أخى خيالية أملتها عليه — على ما أعتقد — رغبة خاصة ، وإلا لكنا رأيناه قد صاغ دعوته صياغة تمهد السبل إلى تحقيقها ...

فانبرى للإجابة على كلام « الأديب الكبير » أحد الإخوان « المحامين » وقال بصوته الأجش :

— إنك يا « دكتور » تتحامل فى كلامك على صاحب الفكرة ، وأنا أخالفك فى استحالة عقد مثل هذا المؤتمر ، لا بل إنى أعتقد أن الدعوة إليه أقرب إلى التحقيق ، وأدعم للمصلحة القومية من الدعوة — مثلاً — إلى مؤتمر

(١) افتتح يوم ٨ / ٧ / ١٩٤٤

(٢) جريدة دمشقية كبرى

المهندسين العرب التي باتت في حكم الواقع «المدروس» ... وأية صعوبة تراها يا حضرة «الدكتور» في عقد مؤتمر عربي يجتمع فيه أدباء الأقطار المختلفة لدراسة ما يهم الأمة العربية في مستقبلها ، من الناحيتين الأدبية والثقافية ، وخصوصاً إذا تبنّى الدعوة إليه المجمع العلمي العربي مثلاً ، أو قامت بها أية هيئة ثقافية محترمة ، كلجنة التأليف والترجمة والنشر ؟ ...

فضحك « الأديب الكبير » حتى بانت نواجذه ، وأجاب معارضه قائلاً :

— إنك ياحضرة «المحامي» كنت بليغاً في دفاعك ... ولكنك أتدرى أنك كنت في مرافعتك تؤيد شهود الحق العام — بلغة المحامين — أكثر مما كنت تدفع التهمة عن «موكلك» ؟ ! إني يا أخي لست متحاملاً على صديقك كما توهمت ، وأنا لم أنقد دعوته كفكرة مجردة ، بل حملت على الفكرة بأسلوبها الذي قام «بعضهم» يرددها به ! وإلا فمن يحمل منا على أعضاء المجمع العلمي العربي ، وهو صفوة رجال العلم والأدب في الأقطار العربية ، إذا هم اجتمعوا — وغداً سيجتمعون في مهرجان المعري — بلقب « مؤتمر أدباء العرب » ؟ لا ! بل من لا يحبذ الفكرة إذا دعت إليها هيئة محترمة كلجنة التأليف والترجمة في مصر ، وخصتها بمن تعرفه من أبناء الأقطار الشقيقة ، أديباً بإنتاجه أو بحكم مركزه الثقافي ؟ لا بل من لا يرحب بالفكرة إذا صدرت عن كلية الآداب — مثلاً — وخصتها بأساتذة الأدب في مختلف البلاد العربية ؟ ! ...

وسكت « الأديب الكبير » فساد الصمت برهة غير قصيرة ، قطعه أخيراً أستاذ من أساتذة الأدب بقوله :

— لقد وفق الدكتور في نقده « الدعوة إلى عقد مؤتمر للأدباء العرب » ، وعرضه بعض الحلول المعقولة لتحقيق هذه الفكرة الطيبة ؛ وأنا إن كنت متعجباً من أحد ، فعجبي من صديق الأستاذ النجد ، وعهدي به أنه ما استهدف غاية إلا و « فاز » بها ، وما خاض معركة إلا وكان « الفوز » حليفاً له ، حتى لقّبه إخوانه ومعارفه (بفوّاز) الاسم الذي اشتهر به فأحبه واتسم به . نعم أنا أعجب منه كيف دعا تلك الدعوة ثم أخذ يرددها في مختلف الصحف والمجلات دون أن يحاول تحديدها ودراستها دراسة تخرجها من عالم الخيال والرغبات إلى عالم الواقع الممكن ؟ ! ...

وهمّ (الأديب الكبير) بالتعليق على كلام الأستاذ المحترم ، ولكن دخول زائر غريب من (الحلقة) قطع علينا حديثنا وما فيه من متعة ولذة .

وسنعود إلى تدوين ما يمكن نشره من محاضر هذه الجلسات الدورية التي يعقدها فريق من الشباب والكهول ، وقد حل كل منهم منظاراً مكبراً تُرى من ورائه أكثر الأشياء غموضاً واضحة جلية ...

(دمشق) عبد الهادي الخطيب

ثقافة لغوية

دَقَل

تحدثنا المعاجم اللغوية التي بأيدينا أن الدَّقَل من التمر معروف ، قيل هو أردأ أنواعه ، ومنه قول الراجز :

لو كنتم تمراً لكنتم دَقَلا أو كنتم ماء لكنتم وَشَلا

واحدته دَقَلة . وقد أدقل النخل . والدَّقَل أيضاً ضرب من النخل . وفي نفس هذه المعاني أو ما يقرب منها ، نجد هذا اللفظ في كثير من اللغات السامية .

وحدث في عصر متقدم جداً ، أن استعارت اليونانية هذا اللفظ ، وأصبحنا ، كما يقول رجال اللغات الهندية الأوربية، نجد لفظ (دقتيلوس daktylos) بمعنى « تمر » ؛ ومن ثم أطلق على كل شيء يشبه التمر كالإصبع ، وعلى بحر من بحور الشعر (طويل قصير قصير) نسبة لأجزاء الإصبع . وعن اليونانية انتقل إلى اللاتينية ، ومنها إلى سائر اللغات الهندية الأوربية ، حيث نجد في الإيطالية (دَتّرو dattero) ، والأسبانية (دتيل datil) ، والفرنسية « دت datte » ، والألمانية « دتل dattel » .

زَبُون

من المعاني التي تستعمل فيها مادة « زبن » في العربية هذا النوع من البيع الذي نفهمه من التعبير - زَبَن التمر : باعه على شجره بتمر كيلا . ثم نجد في العربية المتأخرة « زبون » وجمعها زبائن للدلالة غالباً على المشترى ، وقليلاً على البائع . وفي هذه المعاني ، نجد هذا اللفظ ومشتقاته في الآرامية حيث « زبنيتو » بمعنى « ميزان » .

وهذه المادة ، كما يتضح لنا من النصوص الواردة أكدية الأصل قديمة الاستعمال ، وقد جاء فيها لفظ « زبانيث » ومعناه « ميزان » ، فكأن لفظ - زبون - معناه الرجل الذي يتجوَّل ومعه ميزان للبيع والشراء .

سبت

وهذا لفظ لست في حاجة إلى ذكر مكانته من تاريخ شعوب الجزيرة خاصة ؛ والعالم عامة . فهو لفظ ديني مقدس واسم أحد أيام الأسبوع ، وهو أكادي الأصل صيغته « شَبَتّ » ، ودلالته اليوم الخامس عشر من الشهر القمري ، أو بمعنى آخر اليوم الذي يصير فيه الهلال بدراً .

ويرجح أن أصل هذا اللفظ كلمة « شبات » ومعناها (نظّف) وقد استعملت العربية كلمة (سبت) في معنى يقرب من هذا : فسبتَ الرجلُ رأسه : حلقه ، قال الحربي : وبرزت من الحمام بعد سبت رأسي . ثم يظن أن الأكدية أطلقت هذا اللفظ على اليوم الذي كانت تنظف فيه المعابد خاصة ، وكان ذلك عادة في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري . ومن هنا أصبح لفظ « شبات » في الأكدية يقابل كلمة « بَدْر » في العربية ، واكتسب صفته المقدسة وصار يدل - لا في الأكدية فحسب ، بل في سائر اللغات السامية - على يوم الراحة والفرح والسرور ؛ ثم اتصل الإسرائيليون بالأكاديين فاستعاروا هذا اللفظ ، وكانوا الواسطة بين الشعب البابلي الأشوري وسائر شعوب العالم . ويرجح كثير من رجال اللغات السامية أن لفظ « سمطة » الدال في المصرية القديمة على اليوم الخامس عشر من الشهر يرجع إلى الأصل الأكادي .

وقد حرّم سكان الرافدين قديماً أكل الخنزير والنكاح والسباحة والاستحمام وأشياء أخرى كثيرة في ذلك اليوم ، كما اعتقدوا في شؤم المدد سبعة والأعداد القابلة للقسمة عليه ؛ وهذا الاعتقاد هو الذي حدا باليهود في العصور المتأخرة إلى القول بأن نجم هذا اليوم هو زُحَل .

وعن الساميين انتقل هذا اللفظ كاسم من أسماء أحد أيام الأسبوع إلى الغرب ، فنجده عند اليونان والرومان وسائر الشعوب الهندية الأوربية ، مع ملاحظة أن الألمان

والفرنسيين والإيطاليين ، اشتقوا ألفاظهم من الصيغة القديمة ، بينما أخذ الإنجليز لفظ « ستردای Saturday » من اسم النجم اللازم لهذا اليوم ، أعنى «ستورن Saturn» كما اعتقد اليهود فى العصور المتأخرة .

قُفّـة

أقدم نص سامى حفظ لنا هذا اللفظ هو الأكادى ، حيث ورد لفظ « قفّ » بمعنى «صندوق» أو «قفص» ، وعنها أخذته الآرامية فالعربية . وقد انتقل هذا اللفظ إلى الغرب من طريقين : طريق شرق أوروبا ، فنجده فى اليونانية واللاتينية «قوفينوس» ؛ ومن طريق أسبانيا حيث العرب بالأندلس ، فنحن نجد اللفظ فى الأسبانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية . وقد تفننت كل لغة من هذه اللغات فى الكلمة فصاغت منها مختلف الصيغ التى نجدها مدوّنة فى معاجم اللغات الهندية الأوروبية .

كتان

فى الأكادية « كِتو أو كِتنو » ، وهو لفظ يطلق على هذا النوع من القماش الذى يصنع من هذا النبات المعروف لدينا ، ومن ثم نجده فى الآرامية والسريانية والعبرية والحبشية والعربية ، ومن اللغات السامية انتقل إلى الأرمنية واليونانية ، وفى اللاتينية « تُنِكا tunica » — مع تقديم بعض الحروف وتأخير الأخرى — بمعنى هذا الثوب المصنوع من الكتان ، وعن اللاتينية انتقل إلى سائر اللغات الهندية الأوروبية .

وهناك نفر من العلماء يعتقد أن لفظ «قطن» مشتق من مادة «كتن» . وإلى اللفظين ترجع هذه المجموعة من المفردات المنتشرة فى أوروبا وآسيا وأمريكا وافريقية ، والتى تتفق جميعها فى لام الكلمة ، بينما تكتب عينها تاء ، أو طاء ، وفاؤها قافا أو كافا أو هاء .

كَمُّون

يرجح أن هذا اللفظ كان يطلق عند البابليين الأشوريين على «الفأر» ، ومن ثم استعمل للدلالة على هذا النوع من العشب المعروف لدينا ، ويكون معنى اللفظ فى الأصل « عشب الفأر » ؛ وعن هذه اللغة انتقل إلى العبرية وسائر اللغات السامية ، وعنها إلى الهندية الأوروبية كاليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية ، وقد توسعت فى استعماله فاستخدمته فى معانى لم تستخدمه فيها الأسرة السامية .

مسكين

لا شك عندى فى أننا إذا أردنا معرفة مدلول هـذا اللفظ فى اللغة العربية تناولنا معاجمنا اللغوية وبحثنا عنه تحت مادة « سكن » ، وهـذه الكلمة تستخدم بمعنى « قرّ » ؛ وسكن فلان داره : استوطنها ؛ وسكن إليه : ارتاح ؛ وسكن عنه الوجع : فارقه ، إلى غير ذلك من المعانى المختلفة التى حفظتها لنا معاجمنا . وإذا واصلنا قراءة هذه المادة وجدناها تقول : إن المسكين من لا شىء له ، وقيل من له ما لا يكفيه ، وقيل من أسكنه الفقر ، أى قلل حركته ، أو لسكونه إلى الناس . وفى الحديث : « ليس المسكين الذى تردّه اللقمة أو اللقمتان ، وإنما المسكين الذى لا يسأل ولا يفطن له فيعطى » . والمسكين أيضاً الذليل المقهور وإن كان غنياً .

هذه هى خلاصة مادة « سكن » . ومن النظر إليها يتبين لنا أن لغويى العربية اعتقدوا أن « مسكين » من « سكن » ، لذلك اضطربوا عند تعريفهم له ، وحاولوا التوفيق بين مادة سكن ولفظ مسكين . والواقع أن لفظ مسكين لا يرجع إلى مادة «سكن» بل إلى « كين » ، وكان له يكين كينا ، أى خضع ؛ وأكانه الله إكانة : خضّعه وأدخل عليه من الذل ما أكانه ؛ واكتان الرجل اكتيانا :

حزن وهو يسر الحزن ، أي يخفيه ؛ والكِيـنَـة بالكسر الشدة المُـذِلّة . ونفس هذه المعاني الواردة في العربية نجدها أيضاً في اللغة البابلية الأشورية تحت مادة « كان» وأصلها — كون — التي يعتقد أنها الأصل الذي انحدر منه لفظنا العربي . والذي حدث أن البابلية الأشورية لم تقف باللفظ عند هـذا الوزن ، بل صاغت منه صيغة أخرى على وزن مألوف فيها ألا وهو وزن « شفعل » الذي يقابله في العربية « سفعل » ؛ وأصبحنا نجد في البابلية الأشـورية «شكين» بمعنى استكان ، وفي العربية سكين — كما يقال من « حتّ» سَحَتَ ، ومن « طح» سطح — . وبعد ذلك جيء بميم اسم المفعول وصارت «مسكين» .

أما المعنى الأصـلي لهذا اللفظ كما يفهم من البابلية الأشورية فهو الفرد الذي ينتمي إلى الطبقة التي هي بين الأشراف والموالي .

وعن اللغات السامية انتقلت الـكلمة إلى الإيطالية ، حيث نجد «مسكينو meschino» ، والفرنسية «مسكين mesquin» .

ولم يقف هذا اللفظ عند هذا المعنى البابلي الأشـوري القديم ، بل نجـده يستخدم منذ عصر بعيد للدلالة على المريض بالجذام ، وقد ورد بهـذا المعنى في نص سرياني يتصل بحياة «ربولا» ، وفي نصوص عربية كثيرة قديمة وحديثة .

مَلَك

يقال في الأمثلة البابلية الأشورية : المَـلِكُ ظل الله على الأرض ، والشعب ظل الملك . فهـذه الصورة الجميلة التي رسمها لنا هذا المثل الخالد تبين لنا الملك وأخلاقه من ناحية ، والعلاقة بينه وبين شعبه من ناحية أخرى . وكل هذه الصفات وتلك العلاقات تتجلى لنا في مادة « مَـلَكَ » في لغة البابليين الأشوريين ، فهي تستعمل بمعنى أرشد واسترشد ، وقرّر ، وفكر ، وكفل ، وغير ذلك من المعاني التي تتصل بالنصح والعنـاية . وقد استخدمت اللغة لفظ « مالك » بمعنى مستشار ، كما لقبت به كثيرين من الآلهة أمثـال مردوك وشمس وعشتر ؛ وعن الأكدية انتقل اللفظ إلى العبرية والآرامية والعربية ، ومن ثم صيغ في اللغات السامية المتأخرة من الاسم « ملك » الفعل « مَلَك » بمعنى صار ملـكا . وذهبت العربيـة والحبشية بعيداً فصاغتا من المادة لفظ « مَـلَكَ » بمعنى استولى أو أحرز ، وانفردت العربية بسائر المعاني التي نجدها في معاجمنا التي بأيدينا .

منديل

استعارته العربية وغير العربية من اللغات السامية كالحبشية مثلاً من اللاتينية « منتيل mantele » ، واللفظ مركب من « مانوس manus» أي يد و « تيلا tela » أي نسيج ، ومعناه كاملا قطعة النسيج التي كانت تستخدم لتجفيف اليدين بعد الأكل أو توضع على الصدر عند الجلوس على مائدة الطعام . ولعل اللغات السامية هي الوحيدة التي استخدمت هذه الـكلمة في معنى يقرب من معناها الأصلي ، وذلك لأن كثيراً من اللغات الهندية الأوربية التي استعارتها أطلقتها على المعطف ، كما هو مشاهد في الألمانية (منتيل mantel) والإنجليزية (منتل mantle) والفرنسية (منتو manteau) ؛ وتستعمله الأسبانية للدلالة على نوع من غطاء الرأس عند النساء (منتيلا mantilla) كما هو الحال في العربية المصرية .

دكتور
فؤاد حسنين

بين المسموع والمقروء

صورة

شارع طويل عريض ، وقد تجمّع الناس فيه مئات ومئات حتى غطّوا أرضه . وعلى كثرة هذا الخلق لا تكاد تسمع من بينهم همساً . وتنظر إلى وجوههم ، فتجدها كلها شاخصة إلى شيء واحد . معلّق في الفضاء ، يخشون عليه حتى من أصواتهم أن تَرُجّه فيَتَحطَّمَ به الفضاء .

إنه رجل نائم بين السماء والأرض . نائم على عتبة نافذة قد ارتفعت عشرين متراً أو تزيد ، والنافذة في جدار هو كل ما بقي من منزل عظيم أصابته فحطّمته جائحة مما يجتاح المنازل في هذه الحروب .

ولم يكن الشاب ذو الثمانية عشرة نائماً كما ينام الرجال في أفرشتهم . لقد كان فاقد الشعور من الصدمة . وكان منشوراً على قاعدة الشباك كما تنشر الثياب على حبالها لتجف . وهو سيستيقظ لا شك قريباً . فماذا يجد ؟ يجد الهاوية تحت رأسه ، والهاوية عند رجليه . لهذا حبس القوم أنفاسهم حتى لا تكون يقظة على انزعاج . طال انتظارهم ، وتوتّرت أعصابهم ، وجمدت وجوههم ، حتى كأن الطير فوق رؤوسهم .

وأخيراً يتحرك الجسم الجامد عند النافذة ، فتزيد لتحركه أجسام الناس في الأسفل البعيد جموداً ، وتزيد أنفاسهم انحباساً . إنه سينقلب فيسقط ! إنه سيقوم كما يقوم الناس عن أسرّتهم فلا تنال قدماه غير الهواء . أيصيح القوم فينبّهونه ؟! ولكنها قد تكون تنبيهة ينفر بها إلى حتفه ؛ أم هم يهمسون له فيستيقظ كما يستيقظ الطفل ، فيفتح عينيه ويُبدي ضاحكتين في فراشه الدافئ ؟! ولكن لا ! خير من الهمس السكون العميق .

ويشاء القدر أن يفتح النائم عينيه ولا يتقلب كما يفتحهما الطفل الحالم . ويشاء القدر أن يُريَه الناسَ « صغيرة كالنمل من بين هابط التراب ، وصاعد الدخان » . وعندئذ يتبيّن موقفه بين الحياة والموت .

ومدّ رجليه إلى أسفل ما استطاع مدّهما ، فعلم أن أرض الغرفة قد طارت . ولكنه رأى على ظاهر الجدار حرفاً من الأسمنت قد يحمل جسمه . ثم إذا به على الحرف قد وقف ، والناس من دونه يصمتون ويرجمون .

ويسير على الحرف بقدميه ممسكاً بحرف آخر عند رأسه بيديه ، حتى يصل إلى نافذة أخرى . وينظر داخل النافذة فيجد أرض هذه الحجرة بقيت بقية منها . فعلى هذه البقية هبط .

قال عندما نزل إلى الناس : « لقد أعطتني تلك البقية الباقية من أرض الحجرة أول أمل فانبطحت عليها ، ومنها زحفت حتى بلغت باباً بينه وبين ما مسّت بطني هاوية ، ولكني نلته متمدّداً . ومن الباب نطّطت فوق معابر من الفراغ سحيقة ، حتى شاء الله أن أبلغ بئر السلم الحطيم »

ليت شعري ما الذي أوقفني عند هذه القصة وأنا أقرأ ، بينما أنا أجوز كثيراً من الحوادث يفنى فيها الألوف . لعله مرأى الموت ، يَهجم ثم يُحجِم .

حادث

وحادثة أخرى استبدّت ، هجم فيها الموت فما أحجم .

دخلت الحمام تطلب غسل الوضر الذي هو لا بد مصيبٌ أجسامنا ، برضانا وعلى رغمنا ، رقّت هذه الأجسام أو غلظت ، وخشنت بالعمل الشاق على قارعة الطريق أو نُعّمت بالنعمة والراحة على الحرير بداخل القصور

ودخلت الحمام تطلب كذلك استبراداً من حرّ ، فقد كانت الليلة صائفة ، انحبس نسيمها ، وتشبّع بالرطوبة اللزجة جوها .

وانطفأ النور فجأة وهي تحت الرشاش البارد المنعش. فدّت يدها تتحسس مفتاح الكهرباء، تحسب أن النور انقطع بانزياحه. فست يدُها في الظلام سلكاً عارياً، فإذا بالسيدة المسكينة تسقط كتلة هامدة لا حياة فيها.

لقد صُعقت. صعقها فأماتها تيار الكهرباء. فقد كان السلك الذي مسّته حيًّا.

سمعتُ هذا فأسفت، لأن جهلاً بحقيقة بسيطة عن الكهرباء أودى بحياة سيدة امتدت سُبُل العيش أمامها عريضة مديدة.

قطعة من رصاص

إن الحياة الحديثة وسيلتها الكهرباء. وهي وسيلتها في مصر إلى الإضاءة، فقلّ أن يخلو منها منزل ذو اعتبار. حتى مع الفقر المتصل رأيتها تدخل وتأتلف به، وتخفّف من ثقله، لرخصها. وقد أصبحت الكهرباء في كل بيت بكل بلد متمدين ضرورةً كضرورة الماء، ومصادره ومجاريه. ومع هذا أرى العلم بها قليلاً قلّة مُخطرة.

فالكهرباء لأكثر رجالنا، ولكل سيداتنا، شيء يلفّه الظلام، طبقاً فوق طبق، إذا أرسلت أشعة الفكر فيه تكسّرت قبل أن تجوز بواديه، فكيف بالوصول إلى خوافيه.

وأجهل الناس بالكهرباء الأدباء، أدباء مصر، ولست أدرى لماذا!

كنا نأتنس بجمهرة منهم في حجرة، فانطفأ نورها واحترقت أسلاكه احتراقاً. فما كان أمتع أن يستمع المرء إلى الجدل الذي ثار حول السبب في احتراق الأسلاك، وفي وسائل تجنّبه من بعد ذلك. وعلّل معلّلٌ سبب هذا الاحتراق، فذكر السبب الوحيد الذي لا سبباً ظاهراً سواه، فلم يقتنع القوم، وزادوا ارتياباً؛ وفي ضيق صدر صاح صائحهم: هاتوا لنا خبيراً.

هؤلاء المتأدبون، الذين درسوا مُليير وشكسبير والحريري، لم يدرسوا أن في الدورة الكهربائية، في كل بيت، قطعة من الرصاص، تسيح، فتنقطع، فينقطع بها التيار، إذا هو زادت قوته عن قوة معلومة. وأن هذه القوة تزيد عن حدها المعلوم إذا مست أسلاكُ الدورة، خطأً، بعضُها بعضاً؛ فهذه الرصاصة، هذا السلك القصير من الرصاص، هو صمام الأمن. وقد اختير من الرصاص، وبسَمك خاص، ليسيح سريعاً، ولكن الناس، إذا ساح هذا، لم يجدوا في منازلهم مُدّخراً منه. فماذا يصنعون؟ يقعون على أي سلك لديهم، ويكون على الأغلب من النحاس، وبأي سمك يتفق، ويضعونه مكان الصمّام المحروق، ثم يسألون الله من بعد ذلك السلامة.

كيف صعقت:

على أن هذا القدر من علم الكهرباء، قد يعرفه الكثير من الناس، والقليل من الأدباء، غير من لقيت في تلك الليلة؛ ولكن الذي أشك أن يعرفه الكثير، وأن يمثّله الجمهور، هو كيف انصعقت تلك السيدة المسكينة في حمّامها؟!

إن الذنب في هذا يرجع إلى تيار الكهرباء، بمقدار ما يرجع إلى ما كان غطّى جسمها القاني من الماء.

هزة الكهرباء

إن الرجل منا كثيراً ما يمس إصبعُه سلكاً حياً عارياً، فتناله هزة شديدة تحصل من سريان التيار في جسمه إلى الأرض؛ وهي هزة تزيد أو تنقص، تبعاً لزيادة ضغط التيار ونقصه؛ والضغط هو الذي نعبّر عنه بالفولت. وهو في بعض بقاع مصر مائة؛ وهو في بقاع أخرى مائتان؛ فالذي تناله هزّة في ناحية المعادي يحس بها أشد من هزّة تناله في قصر الدوبارة. وهي هزّة لم تقتل. بل على النقيض هي من النكبات التي يُجفل المرء منها نازلة، ثم يحمدها بعد فواتها. فبعد هزّة كهذه يحس أكثر الناس في أجسامهم انتعاشاً. ولا غرابة؛ فقد كانت الكهرباء إلى عهد غير بعيد يستخدم تيارها مباشرة في إنعاش الأجسام

بل في تصحيح أمراضها . وكان يُدار على الناس في الشوارع بصندوق يخرج منه مقبضان يقبض عليهما طالب الانتعاش بعد دفع قرش . فيلف صاحب الصندوق يداً تُخرج الكهرباء إلى جسم صاحب القرش ، حتى يقول أغيثوني . وعندها يرى بالمقبضين . لقد دفع ما دفع ليتألم ، ولكنه ألم لذيذ ، يعاوده من بعد تذوقه المرة بعد المرة .

فالمرة الكهربائية كالتي نصف لا تقتل . وكيف تقتل ، ونحن نرى الكهربائي يمشي منازلنا ، فيريد أن يعرف هل في الدورة تيار يجري ، فيضع إبهامه على أحد طرفيها ، وسبابته على طرفها الآخر ، فيحس التيار فيها ، ثم هو لا يزعج كثيراً .

وهو لا يزعج ، لأن التيار يجري من الإبهام إلى السبابة ، وفي طريقه الجلد ، والجلد ليس بكثير التوصيل الكهرباء .

وكلما زاد جلدك صفاقة قل توصيله الكهرباء . لهذا لا أنصح السيدات أن تمسك صاحبنا الكهربائي الذي تصفق جلد يده بالعمل فصار أشبه بجلد النعال . وستحسين بالتيار يا سيدتي أشد إن كانت يدك من تلك الأيدي الرخاص الناعمة ، التي لم تعرف غير مسكة المشط ، ولمس الدهون والعطور .

إن هذا التيار يجري بين الإصبع والإبهام ، فلا يقتل . فليس بين الإصبع والإبهام عضو ذو بال .

ومن شرط هذا أن يكون الإصبع والإبهام في يد واحدة . فما بال الحال لو كان هذا في يد وهذا في أخرى ؟ يكون الحال غير الحال . فالتيار عندئذ يمر بالصدر في جريانه . يمر بالقلب . وفي هذا الخطر كل الخطر .

ومن لطيف ما يذكر أن التيار يجري بين اليد واليد فيقتل ، ولكنه يجري بين القدم والقدم فلا يقتل . ذلك أن المجرى في هذه الحالة لا يقع فيه قلب أو رأس . ولكنه قد يحرق الرجلين فيغادرهما سليختين .

الجلد البليل

ولقد فرضنا في كل هذه الحالات أن الجلد جاف لا بلل فيه . فماذا يكون الحال إذا ابتل ؟ يكون أسرع توصيلاً للتيار ، فتكون الكهرباء أسرع وصولاً للدم . والدم موصل جيد لها . فإذا وقف المرء من بعد ذلك على أرض بليلة زاد هذا انتشارَ التيار في جسمه ، فوصولاً إلى الأرض فانتشاراً فيها .

بهذا ماتت السيدة المسكينة . فلقد جرى التيار في جسمها المبتل كله ، لجرى فيه كله ، وجرى غمراً . ووقفت في الماء ، لجرى التيار مع الماء حيث جرى في الحمام ومجاريه .

كيف يقتل التيار

وعندئذ يتساءل المرء : كيف يقتل التيار ؟ أبالحرق ؟ والجواب أن التيار يحدث حرارة . وهذه لا تقتل إلا إذا زادت فاحترق الجسم بها . ولكن التيار الذي يجري في القلب ، التيار الذي يقتل ، إنما يقتل بفعله في العضلات .

إنك إذا أمررت تياراً في عضلة انقبضت هذه العضلة توّاً . فإن كان تياراً ذا اتجاه واحد ، كذلك الذي تستمده من بطارية كبطارية سيارة ، فإن العضلة تنبسط من بعد انقباضها ، ولا تحس بعد ذلك من أثر لمرور الكهرباء إلا دفئاً قد يكون صريحاً لطيفاً . ولكنك إذا قطعت التيار ، ثم وصلته ، ثم قطعته ، وهلم جرّا ، أخذت العضلة في الانبساط والتقبض ، فالانبساط والتقبض ، وهلم جرا .

وتيار الكهرباء بأغلب المنازل تيار متقطع ، يغير وجهته عدداً معلوماً من المرات في الثانية الواحدة . فإذا مرّ هذا التيار ، ومرّ في عضلات القلب ، تقبضت وانبسطت إن أسعفها الوقت ، ولكن في غير توافق ، أو في توافق لا يرضاه الجسم ، والقلب مضخة الجسم التي تدفع فيه الدم بالحياة . وما حال مضخة عملت أجزاؤها في غير المعهود من توافقها ؟! إنها تقف من

صحيفة النقد :

من شعراء المجون

١ — بشار ... ... للمازنى
٢ — أبو نواس ... ... لعبد الرحمن صدقى
٣ — أبو نواس ... ... لعبد الحليم عباس

كانت النية عندما أخرجت لجنة دائرة المعارف الإسلامية كتاب الأستاذ المازنى عن « بشار » أن أرجئ الحديث عنه إلى أن يظهر كتاب الأستاذ عبد الرحمن صدقى عن زميله « أبى نواس » ، فأجمع بينهما فى مقال !

ذلك أن كلاهما شاعر ، وكلاهما شهر بالمجون ، واتهم بالزندقة ؛ وكلاهما عاصر فتناً سياسية وفكرية وانقلابات عقلية وخلقية ؛ وكلاهما ضمته دائرة « أعلام الإسلام » فى مداها الذى لا يقتصر على الهداة والبناة ، بل يشمل كذلك الضُّلاَّل والهادمين ، تمثيلا لكل إشعاعات الحضارة التى بلغت إليها الدولة الإسلامية .

ولكن أبا نواس كان حظه أجزل ، فقد أخرجت المطبعة عنه فى شهر واحد كتابين مختلفين : أحدهما للأستاذ صدقى فى « أعلام الإسلام » ، والآخر للأستاذ عبد الحليم عباس (من شرق الأردن) فى « سلسلة اقرأ » . فاتسعت بذلك دائرة الموازنة التى كان فى النية عقدها بين بشار وأبى نواس ، واشتملت على دراسة ثانية للشاعر الأخير

ولحسن الحظ كانت الدراستان المتحدثان فى أبى نواس مختلفتى الطريقة والاتجاه ، فلم تجئ إحداهما تكراراً للأخرى ؛ وكانت طريقة الدراسة فى بشار كذلك متحدة مع طريقة إحدى هاتين الدراستين ، مختلفة مع الأخرى فى النوع . فكان فى هذا الاختلاف والاتحاد مجال فسيح للنقد ، أفسح مما يهيئه الفراغ فى هذه الصحيفة !

* * *

دراسة الأستاذ صدقى لأبى نواس يمكن أن تسمى « ترجمة حياة » ، فى حين تسمى دراسة الأستاذين : المازنى لبشار ، وعبد الحليم عباس لأبى نواس « صورة حياة » ،

أن تضيع ، وكذلك يقف القلب ، فينقطع خيط الحياة .

وخيط هذه الحياة قد ينقطع بهذه الصورة فى الفأر والأرنب ، ثم يعود فيتصل بعد ثوان . إلا خيط الإنسان ، فإنه إن انقطع ندر أن يعود . إلا إذا صحت الأخبار التى جاءتنا هذا الأسبوع ، بأن العالم الروسى الشهير « بافلوف » قد أحيا نفراً من الجند بعد وفاتهم وفواتهم بست دقائق . فوات تلك الحدود التى لا يعود مجاوزها .

حذار من العرق

ولا يكون البلل فى الحمّام وحده ، فهو يكون بالعمل فالاحترار فالعرق . وفى أيام الصيف هذه بالقاهرة يكون حتى بالخلود إلى السكون .

ولقد حسبوا مقاومة الكهرباء فى جلد الفأر ، فوجدوها بضعة ألوف من الوحدات فى السنتيمتر المربع الواحد . ولكنه إذا تبلّل ، هبطت المقاومة إلى دون الألف وحدة

ومن حسن حظ الفأر ، بل والحيوانات أنه وأنها لا تعرق ؛ ولكن يعرق الإنسان والحصان .

ابن عياش أيضا

كان على علمه بالدين والحديث واللغة ، وعلى مهابته ، خفيفاً ظريفاً . حدثوا عنه قالوا :

كان رجل من قريش يُرى يشرب الخمر ، فقال له أبو بكر ابن عياش يداعبه : زعموا أن نبيا ، قد بعثه الله يُحِلّ الخمر

قال القرشى : إذاً لا أومن به ، حتى يُبرئ الأكمه والأبرص . وكان ابن عياش به برص .

وحدّث أبو هشام الدلاّل قال :

رأيت أبا بكر بن عياش مهموماً ؛ فقلت له مالى أراك مهموماً ؟ فقال . سيفُ كسرى لا أدرى إلى من صار .

فعلمت من هذا أنه لا يريد أن يبوح بهمّه .

« الجرنوسى »

فتدل هذه التسمية على أقصى ما تدل عليه الأسماء من الفوارق والحدود .

فصدق يتتبع أبا نواس من نشأته إلى منتهاه ، ونسير نحن على خطاه مع الشاعر مرحلة بعد مرحلة ، ونشهد الأحداث تمر به ، والمؤثرات تتوالى على حسه ، والاستجابات تنفعل بها نفسه ، وننتهي إلى حيث ينتهي ، فإذا هو حي يعيش ، وإذا نحن قد عشنا مع معظم أيام حياته ، أو أهم أيام حياته ، وألفناه في بطء وتؤدة ألفة المعاصر والزميل ، على المدى الطويل .

والمازني وعبد الحليم لا يلتقي كلاهما مع شاعره إلا في فترات ولمحات ؛ ومع هذا يحاولان أن يرسما لنا من الشاعر صورة كاملة واضحة بلمسات سريعة ، تغني عن العشرة الطويلة والألفة المديدة ، ولا تغفل من سماته النفسية ، وملامحه الشخصية إلا ما لا طائل وراءه من التفصيلات والجزئيات .

وأنا أزعم أن هذه الطريقة الثانية أصعب وأعسر — وإن بدت في ظاهرها أسهل وأيسر — وأزعم أنها في حاجة إلى مهارة أكبر ، وبراعة أوفق ، للتجويد فيها وبلوغ غاية مداها ؛ وأن الزلل فيها أقرب وأوضح من الزلل في الطريقة الأولى ، وأن ستر مواضع النقص فيها أصعب وأعسر ؛ والتوسط في الأخذ بها لا يؤدي إلى شيء ذي قيمة ، فإما عبقرية تستخدم الريشة في سرعة ومهارة ، وإما ظهر التخلف و « بانت » الصورة . وقد يتأتى التوسط بين العبقرية والتخلف فيها ، ولكن في جهد ومشقة ومرانة .

ولا يعني هذا تفضيل طريقة على طريقة ، ذلك التفضيل المطلق الحاسم . فقيمة كل طريقة موكولة إلى أسلوب استخدامها ، وقيمة كل ريشة رهن باليد التي تمسك بها . فالعبقرية تأخذ بهذه الريشة أو تلك ، وتستخدم هذا الطريق أو ذاك ، فتظهر سماتها في كل حالة ، ويبرز طابعها في كل مرة .

إلا أن الذي لا أشك فيه أن الطريقة الأولى آمن وأيسر ، والطريقة الثانية أخوَن وأعسر ؛ والزلة هناك قد تستتر ، ولكنها هنا لا تستتر . ذلك أن اللمسات في الطريقة الأولى ضيقة وجزئية تتناول الحوادث والتفصيلات ، وفي الثانية عريضة وكلية تتناول الملامح والسمات . فكل انحراف هنا يبرز ويؤثر في ملامح الصورة تأثيراً حاسماً ، على حين يمكن هناك ملافاته ؛ فانحراف لمسة واحدة صغيرة قد لا يؤثر في الصورة بأكملها تأثيراً محسوساً .

* * *

حدثنا الأستاذ المازني عن « نشأة بشار » في نحو خمسين صفحة ، عرفنا فيها : أن بشاراً فارسي الأصل عربي الولاء ، وقد كان يستثقل فخر العرب بأصلهم فيحض على خلع الولاء لهم والانتساب إلى «ذي الجلال !» ، ويفخر بالفرس عامة عليهم ؛ وأنه عاصر الدولة الأموية في أخريات أيامها والدولة العباسية في أولياتها ؛ وهجا هذه وتلك أشنع الهجاء ، كما هجا الناس جميعاً ؛ وأن هذا الهجاء لم يكن عن عداوة كامنة ولاحقة على العالم ، ولكنه كان سلاحاً لدفع الأذى وجلب الغنى ، فهو طالب لذة ومال . وقد كان مع إقذاع هجائه يخشى الهجاء من غيره ، كما يخشى كل ذي سطوة . ولقد اتهم بالزندقة بسبب طول لسانه لا بسبب فعله ، فالكثيرون كانوا يصنعون ما صنع فلم يلاقوا المصير الذي لاقى ، لأن هجاءه المقذع وبخاصة للخليفة المهدي ووزيره يعقوب بن داود ، وغزله الفاحش المؤذي ، هما عرضاه للسخط والجلد الذي أودى به في النهاية . ولما كان بشار أعمى فقد تركت هذه الآفة في نفسه مرارة وضيقاً ، وقد كان شديد الحساسية من هذه الجهة ، فجعل يحاول تقوية ضعفه من هذه الناحية بالتخويف بالهجاء ، وكان في طبعه غرابة وفي جسمه ضلاعة . ومن الالتفاتات الجيدة هنا أن بشاراً يطلب من مصور أن يرسم له على الجام طيراً جارحاً يروع طيوراً

صغيرة ، وقد أبرزها المؤلف إبرازاً له قيمته في الدلالة على طبيعة الشاعر المؤذية !

ثم حدثنا عن « بشار والمرأة » في نحو الأربعين صفحة ؛ فقال : إن فقد حاسة البصر حرم بشاراً الشعور بالجمال الروحي ، وأحال المرأة عنده « أنثى » تجيب مطالب الحس الغليظ ، ولا ترتفع إلى مرتبة « المرأة » التي تغذي الإحساس الرفيع !

وتحدث في الفصل الثالث عن شعره ، ولا بد لنا هنا أن ننوه بهذا . فقد لاحظنا أن دراسات كثيرة لشعراء شرقيين وغربيين قد ظهرت ، فلم يخصص منها فصل واحد لبيان قيمهم الفنية وطبيعتهم الشعرية . وهذا الفصل ضروري في دراسة كل شاعر ، وهو الفارق بين دراسة الشعراء ودراسة رجال الحرب والسياسة والمال والإصلاح . فكل دراسة لحياة شاعر إنما هي تمهيد لدراسة شعره ، فيجب أن تتوج بهذه الدراسة مهما ضاق المجال . وأيا كانت طبيعة هذه الدراسة ، فالذي صنعه المازني هنا — وهو واجب — صنعه العقاد في دراسة عمر بن أبي ربيعة وجميل في سلسلة اقرأ على صغر حجمها . وترك هذا الفصل هو ما أخذناه على دراسة بودلير لصدقي ، والذي نأخذه اليوم على أبي نواس في الدراستين ، وعلى بيرون للسيدة أمينة السعيد ، وعلى سواهم فيما ظهر من دراسات الشعراء .

وفي هذا الفصل يقول الأستاذ المازني : « وإذا كان لم يجئ في الهجاء بشيء من البراعات ، فلا عجب . فما كان الهجاء عنده إلا زجراً وتخويفاً وإنذاراً يصد به من يهمون أو يتحفزون للوثوب عليه ، ويبهر به من يخوضون فيه » .

وهذا صحيح . ولكنه ليس كل السبب في عدم براعة بشار . فالذي يصدق على بشار من ناحية اتخاذه الهجاء للزجر والتخويف يصدق على ابن الرومي مثلاً ، ولكن ابن الرومي كان فناناً ، وكانت له ملكة مبدعة في التصوير والتشخيص ، فاستحال هجاؤه على ما به من إقذاع عملاً فنياً موسوماً بالعبقرية . أما بشار فلم تكن له هذه الموهبة ، لأنه ، كما يقول الأستاذ المازني : « ذو طبيعة حيوانية ، ولهذا لم يرتق في شعره قط إلى عليا مراتب الفن » ، وذلك هو التعليل الأصح فيما نعتقد .

والفصل الأخير كان « خاتمة » ، وقد رسم فيه صورة سريعة لعصر بشار وما يضطرب فيه من فتن شتى سياسية ودينية وفكرية ، كما رسم صورة سريعة لظروف بشار الشخصية وتفاعلها مع هذه البيئة . وفي اعتقادنا أن هذا الفصل القصير هو أبرع فصول الكتاب ، وأوفاها في تصوير هذه التفاعلات .

وأخيراً ، لقد أدار الأستاذ المازني الحديث في حياة بشار على فقد بصره ، وعلى ظروف عصره . واتكأ على النقطة الأولى اتكاء شديداً من أول الكتاب إلى آخره ، وكان موفقاً في هذا الاتكاء ، ولو أن هناك شيئاً من التكرار والاستطراد كان يمكن الاستغناء عنه بلا نقص في الموضوع . على حين كان هناك متسع للحديث عن طبيعة بشار وشعره من جوانب أخرى . فنحن نحسب أن الحديث عن ضخامة جسم بشار وغلظه وعلاقة ذلك بغلظ حسه بالمرأة لم يستوف ؛ وكذلك الحديث عن الفتنة بشعره الغزلي ما سببها ؟ وأي الخصائص في هذا الشعر كانت تثير الفتنة ؟ فهذا جانب لم يمس إلا مساً . وموقف بشار من الفتن السياسية والدينية في العهود المختلفة ، كلها جوانب خصبة ، وفيها متسع ، وكان تزيد في قيمة الكتاب . فليت الأستاذ قد وفى فيها الحديث !

***

ونعود إلى أبي نواس بين صاحبيه ، وقد بينا طريقة كل منهما في دراسته . ولكن يجب أن نزيد هنا أن بحث الأستاذ صدقي يبدو فيه التمكن والإحاطة ؛ وبحث الأستاذ عبد الحليم تبدو فيه الحركة وسرعة اللمسات . ومكان الأستاذ صدقي في البحث الأدبي قد تقرر بكتابيه عن بودلير وأبي نواس ، وهو في مقدمة صفوف « الباحثين » من حيث الدقة والتمكن وسلامة التنسيق

على طريقته : طريقة البحث المتسلسل الرتيب

أما الأستاذ « عبد الحليم عباس » ، فلست أعرف له إلا كتابه هذا . فإن يكن باكورة ، فأنا أتنبأ له بمستقبل مشرق ، فالريشة في يده ريشة تصور سريع ، ولسانه لسان فنان جيد التنسيق — وهو اليوم في منتصف الطريق إلى القمة التي بلغها بعض أصحاب طريقته القليلين ، ولا ينقصه إلا التمكن والدربة وحشد القوة ، إن كان في الجعبة شيء وراء ما أظهره ، تنضجه السنون !

ويبقى أن هناك بعض الخلافات في الحوادث والتعليلات بين الكاتبين :

فصدقي يثبت حادث والبة مع أبي نواس ، وأثره في مستقبل حياته ؛ وعبد الحليم ينفيه . ونحن نميل إلى رأي صدقي ، فكل ما في حياة أبي نواس يثبت ذلك الحادث ، وليس في نفيه كبير غناء في البحث . لقد كان يعظم غناؤه لو أن سيرته بعده لا تتفق مع إفساد والبة له ، فأما وهذا الحادث يتسق مع سيرته فلا ضرورة للجهد في نفيه ما لم يتحتم ذلك ببراهين قاطعة وهي ليست هناك .

وصدقي يجعل لحادث جنان شأناً في حياة أبي نواس ونفسه وتصريف خطاه في الحياة ، حتى ليجعله نصف الأسباب التي أخرجته من البصرة إلى بغداد ، ودفعته إلى الإغراق في المجون ؛ وعبد الحليم يلم به إلمامة سريعة ، ويجعل هجرته من البصرة بسبب لمز أهلها له في نسبه . ونحن نميل إلى جانب صدقي ، هنا كذلك ، استناداً إلى كثرة ما قال أبو نواس في جنان ، وإلى حرارة ما قال ، حتى ليبدو أن هذا القسم هو أحر ما في الديوان

وصدقي يثبت شعوبية أبي نواس وتماجنه ، ويسند هذا إلى انتشار الشعوبية إذ ذاك ، وبروز العصبية الفارسية الكظيمة ؛ وعبدالحليم ينفي هذا كله عن أبي نواس ، ويعلل هذا التماجن بمزاجه الذي يحب اللذة والنعمة فيجدها في الحضارة الفارسية وآثارها ، ويكره الشظف والتمسك حيث يجدهما في البيئة العربية وتقاليدها .

ونحن نضم هذه إلى تلك في تعليل زراية أبي نواس على العرب البادية ، وهيامه بالفرس والفارسية . فعصبية أبي نواس وشعوبيته لا تبلغ أن تكون فكرة عامدة واتجاهاً جاداً ، فلن ينتظر من مثله الجد في شيء ، ولكنها كذلك لا تنفى في ظروف كالتي عاش فيها ، مع نسب كنسبه يمت إلى الفرس من ناحية أمه ؛ ونفيها نفياً باتاً كما صنع الأستاذ عبد الحليم فيه كثير من التكلف الذي لا ضرورة له .

وكذلك يبرئ عبد الحليم أبا نواس من تهمة الحج لمقابلة جنان ، ويثبتها صدقي ؛ ولست أفهم السر في تلك التبرئة وأنا مع صدقي في تصديقها ، فليس فيها ما يستغرب مع مجون أبي نواس من جهة ، وجنونه بجنان من جهة أخرى .

ويحاول عبد الحليم أن يثبت لأبي نواس أسرة وزوجة وولداً ؛ ويسوق أدلة لا مانع من قبولها ، وإن كانت لا تبلغ بنا درجة اليقين ، ولكنها ليست متهافتة ولا ضعيفة . وكل ما نلاحظه أنه استأنس بكنيته « أبو علي » في إثبات البنين له ، ولم يجزم . وأبو علي هذه كنية اصطلاحية لمن اسمه « الحسن » ، فلا دلالة فيها على وجود ابن اسمه علي !

وهما متفقان تقريباً في وصف مزاجه — كل على طريقته — فهو طالب لذة حسية ، ومتعة سهلة ؛ وفي تحقيق صلته بالرشيد وصلته بالأمين ؛ وفي تفصيلات أخرى — وإن اختلفا في عدد مرات سجنه أيام الأمين أهي مرة أو مرتان ، ولكل من الفرضين ما يؤيده ، وليس أحدهما بأشد أثراً في حياة الشاعر ، فكلاهما سواء في دلالته على مجونه ؛ وضيق الأمين بهذا المجون لأسباب سياسية لا خلقية . وفي حادثة جلوس أبي نواس قريباً من دور بني نوبخت ، يمر به القواد والكتاب وبنو هاشم فلا يتحرك ، حتى يقدم بشار فيهم له ويعانقه : صدقي يقول : إنها أيام الرشيد ؛ وعبد الحليم يقول : إنها

بين المجلة والقراء

تعقيب

نشر الأستاذ النشاشيبي في عدد « الرسالة » رقم ٥٧٧ بالصفحة رقم ٦١٧ حكاية عن سكران تعرض في الطريق لأحد القضاة، فأنشده شعراً، فأعرض عنه القاضي وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه؛ ثم علق على الحكاية بما يأتي:

« في (كتاب القضاة بقرطبة) : ما أتى عن القضاة من الإغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقة عليهم، فلا أعرف لذلك وجهاً يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم، إلا وجهاً واحداً، وهو أن حد السُّكْر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل، ولا أتى فيه حديث ثابت » ا. هـ بحروفه.

ورداً على ذلك أسرد الأحاديث الثابتة، التي وردت في حد السكر:

١ – أخرج الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الحدود، وهو الكتاب السادس والثمانون في الباب الثاني منه (باب ما جاء في ضرب شارب الخمر) عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر أربعين.

٢ – وفي الباب الثالث (باب من أمر بضرب الحد في البيت) عن عقبة بن الحارث قال: جيء بالنعيمان أو بابن النعيمان شارباً؛ فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان في البيت أن يضربوه، قال: فضربوه، فكنت أنا فيمن ضربه بالنعال. وكذلك في الباب الرابع (باب الضرب بالجريد والنعال) عن عقبة مثل الحديث السابق، وعن أنس مثل الحديث الوارد في الباب الثاني.

٣ – وعن أبي هريرة قال: أُتي النبي صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب، فقال اضربوه. قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه. فلما انصرف، قال بعض القوم: أخزاك الله! قال: لا تقولوا هكذا، لا تعينوا الشيطان عليه.

أيام المأمون. ونحن نرجح قول الأخير لمكانة أبي نواس من الأمين.

وما دمنا قد استطردنا إلى الموازنة، فيجب أن نثبت للأستاذ صدق قوة التمحيص وشدة التنسيق، كما لاحظنا؛ ولكننا نثبت في الجانب الآخر براعة اللمسات، وسرعة إبراز الملامح. ففي الفصل الأول « بغداد »: جمع بين مولد المدينة ومولد شاعرها، الذي يمثل روح اللهو فيها، « أبي نواس » في لمسات خاطفة فيها شاعرية ورفرفة. وفي الفصل الثاني « اجوار وخمور »: رسم طرق اللهو بالمدينة وهما مجالا مجون شاعرها، والشذوذ الذي فشا إذ ذاك بجمعه وبجمعها؛ فكأنه وكأنها توأمان في المولد والنشوء! ثم لم ينس أن يبين أن هذه ليست بغداد في حقيقتها؛ فهنالك « الناس » أولئك السوقة الأشقياء الذين يهيئون المدينة رخاءها ولهوها، ولا يحسبون منها، ولا يذكرهم التاريخ بجانبها. إلى آخر هذه اللمسات الشاعرية في بقية الفصول.

للأستاذ صدق التمكن والترتيب والتعميق؛ وللأستاذ عبد الحليم الحركة والسرعة والشاعرية. وكلا البحثين لا يغني من الآخر؛ ولكل منهما نواحي النقص ونواحي الكمال.

سيد قطب

٤ — وعن السائب بن يزيد ، قال : كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإمرة أبي بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى إذا عَتَوْا وفسقوا جلد ثمانين .

٥ — وأصرح من ذلك في ذكر الجلد ما جاء في الباب الخامس (باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، وأنه ليس بخارج من الملة) :

عن عمر بن الخطاب أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يُضحِك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جَلَدَهُ في الشراب ، فأُتي به يوماً فأمر به فجُلِدَ . فقال رجل من القوم : اللهم العنه ! ما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوه ! فوالله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله .

٦ — وأصرح منه في ذكر عدد الجلدات ما جاء في صحيح مسلم في كتاب الحدود ، وهو الكتاب التاسع والعشرون في الباب الثامن (باب حد الخمر) عن أبي ساسان حضين ابن المنذر ، قال : شهدت عثمان ابن عفان وأُتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد الآخر أنه رآه يتقيأ . فقال عثمان إنه لم يتقيأ حتى شربها ؛ فقال : يا عليُّ ! قم فاجلده . فقال عليٌّ : قم يا حسن فاجلده ؛ فقال الحسن : وَلِّ حارَّها من تولى قارَّها (فكأنه وَجَدَ عليه) . فقال يا عبد الله بن جعفر ! قم فاجلده . فجلده وعليٌّ يعدُّ ، حتى بلغ أربعين ؛ فقال : أمسك ! ثم قال : جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وهذا أحبُّ إليَّ .

* * *

هذه الكلمة أرسلتها إلى الرسالة فكان من الواجب عملاً بحرية النشر أن تنشرها ، ولكن امتنعت من نشرها . ولولا أن هذا شيء يمس أصلاً من أصول التشريع لما حركت قلمي فيه .

محمد فؤاد عبد الباقي
بالمجمع اللغوي

من وادى عبقر

الحرب الخفية ... !

[من أدب الحرب]

في مسرح بالغرب حيث الناس دامية الخطوبِ !
والليل مُسوَدّ كمهجة خاطئ جم الذنوبِ
والحزن يجثم في ضمير الليل كالسر الرهيبِ
ما بين نائحة على ولد وثاكلة الحبيبِ !
أو ذاكر وطناً غدا في قبضة الذئب الغضوبِ
في داره تمكنه منها على شجن الغريبِ !
أرأيت ذاك النسر عو د نفسه حُرَّ الوثوبِ ؟
وبلا الأعالى الشرقات ولم يقف عند الكثيبِ !
في رفقة شم الأنو ف مشى إلى الخطر القريبِ
من عزمهم عزمُ الحدي د وعزة الليث الغلوبِ
ساروا وضوء النجم يسـ ـتبق الخطى نحو الغيبِ
متلفتين لما يكِنُّ الليل في صدر اللهيبِ
في كل حين وقفة تزن الخطى خوفَ الرقيبِ !
متنبهين لما تقول الر يح في الدوح الكثيبِ !
يخشون من حَذَر على أسرارهم خَفَقَ القلوبِ !
متجلببين الليل في كنف الدلك والدروبِ
حتى إذا ما شارفوا أهدافهم شأن الأريبِ
ورأوا عدو بلادهم يختال في مرح الطروبِ
وتذكروا وطناً تطلّ ع في السلاسل للمجيبِ
غاضوا على ذكراه في طلب العلا شُعَل اللهيبِ
وثبوا عليه صواعقاً وأتوه كالقَدَر المصيبِ !
ومضوا يذيقون العدوّ الموتَ في عزم دؤوبِ !
كأساً بكأس والردى خمر الفوارس والحروبِ
غرِّيد عازف لحنها أتراه من نوع حبيب ؟

***

ويح لطاغية يشبُّ الـ حرب في عنف عجيبِ
أينام أسْد الغاب عن وطن وعن حق سليبِ
خذها شواظاً من لظى حمراء دامية الشبوب
حرباً خفياً شأنها وولى تجل عن الضريبِ !

***

في كل يوم دولة تصحو على يوم عصيبِ
هل ذاك ما شرع المسيح وتلك فلسفة الصليبِ ؟
أم تلك فلسفة الوحو ش تدب في لغة الشعوبِ ؟

(الخرطوم . سودان) سعد الدين أ . فوزى

الهوى العذرى

إذا ماطاف بالدنيا شعاع من سنا الفجر
وغنّى البلبل الصداح فوق الغصن في الوكر
وحوّمت الفراشات من الورد إلى الزهر
فقومى يابنة الأحلام ضميني إلى الصدر
وغنى واملئى الأجواء بالسلاى بالسحر

***

تعالى بين أحضانى وروّى قلبى الظامى
ومدّينى بأشعار وألحان وأنغام
وهات الوحى بالبلى فمن عينيك إلهامى
ورفقاً بى بإبلى وصونى دمعى الهامى
دعينى أرشف السحر وأشفى جرحى الدامى
وأحيا بالهوى العذرى في صحوى وأحلامى

تلا — منوفية أحمد عبد السلام عبد الغفار

بتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٤٤ حكم في الجنحة ٤٣٨٦ عسكرية الأزبكية سنة ١٩٤٤ بغرم عبد الحميد سعيد خمسة جنيهات والنشر والتعليق لأنه لم يبلغ مصلحة السياحة بأسعار المأكولات التى تباع في محله

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٠ | الثلاثاء ٩ من شوال سنة ١٣٦٣ — ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العــــــدد

مشكلة فلسطين

[قصرنا البحث فى مقال سابق على أوصاف المسرح الدولى الذى عليه تمثل رواية فلسطين . أما اليوم ، فنحصر جل اهتمامنا فى الرواية نفسها ؛ فى أبطالها ، وفى أصولها ، عسانا نوفق إلى استخلاص ما يرجى لها من ختام .

للرواية بطلان ، وبها عدد من الفصول مجهول ؛ طوى منها فصلان ، كما أوشك الثالث على النهاية ، فهل تختم الرواية بالرابع أم لها بقية ؟

هذا هو السؤال الذى يدور على ألسنتنا جميعاً ، وعلى الجواب يتوقف المصير]

الفصل الأول

رُفع الستار على أول فصل فى الرواية سنة ١٨٩٧ ، يوم أن قامت هيئة يهودية دولية منظمة تطالب رسمياً — لأول مرة منذ ألفى عام — بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود . فقد انعقد فى تلك السنة فى « بال » من أعمال سويسرا ، المؤتمر الصهيونى الأول ، الذى قرر فيما قرر ، بث الدعوة للفكرة الصهيونية بين الشعوب والحكومات

أخذت الصهيونية منذ ذلك اليوم تنمو وتترعرع ، يغذيها كل اضطهاد فى شرق أوروبا ، وما يتبع ذلك من هجرة إلى غربها ، حتى أصبح الصهيونيون غالبية بين اليهود بعد أن كانوا أول الأمر أقلية ، واعترف الجميع بخطرهم الدولى . فلما جاءت الحرب الماضية ، شعر الحلفاء بالحاجة إلى خطب ودهم ، فدخلوا معهم فى مفاوضات انتهت سنة ١٩١٧ بإصدار وعد بلفور المشهور ، وفيه تتعهد بريطانيا بتسهيل إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وكانت الحرب قد أيقظت كذلك أمانى العرب القومية ، فاستخلصوا قبل ذلك من بريطانيا سنة ١٩١٥ وعداً صريحاً

بإقامة دولة عربية مستقلة ، تشمل فلسطين ، حالما تضع الحرب أوزارها .

وبهذين الوعدين ينتهي الفصل الأول من الرواية ...

الفصل الثاني

يبدأ الفصل الثاني في مؤتمر الصلح ، عندما صفّت إنجلترا الحساب فيما وعدته أثناء الحرب ؛ فهربت من الوعد السابق للعرب ، وتمسكت بالوعد اللاحق لليهود ، فأقامت نظام الانتداب على فلسطين ، وأدمج وعد بلفور في صكه ، وفُتح الباب على مصراعيه للهجرة اليهودية .

وقد أثارت هذه السياسة ثائرة العرب ، فتطور الأمر من حيرة إلى انتقاد ، إلى احتجاج ، إلى إضراب ، إلى حرب أهلية ! أما اليهود ، فقد نشطوا في إنشاء الوطن القومي ، فدخلوا أفواجاً إلى فلسطين ، تستدعم رءوس الأموال اليهودية ورءوس الحراب البريطانية — وقد زاد عددهم من ٤٠ ألفاً سنة ١٩١٩ إلى ٤٠٠ ألف سنة ١٩٣٩ ، فأصبح بذلك الوطن القومي ، باعترافهم أنفسهم ، حقيقة ماثلة أمام أعين الجميع .

ظل الحال كذلك عشرين عاماً ، والإنكليز في حيرة من أمرهم ؛ يمالئون العرب حيناً فتثور ثائرة اليهود ، ويمالئون اليهود أحياناً فتسيل الدماء ؛ يحاولون إسكات العرب ، تارة بالوعد ، وتارة بالوعيد ، وتارة بالسيف والنار فلا يفلحون ؛ يمشون باللجنة تلو اللجنة تبحث عن حل فلا تجد ؛ حتى اقتنعوا بأن لا سبيل إلى الخروج من مأزقهم إلا إذا تراضوا مع العرب ، وهم الأكثرية ، وأقنعوا اليهود ، وهم الأقلية ، بالعدول عن مطالبهم المتطرفة كالسيطرة السياسية مثلا ، والاكتفاء بما تم لهم فعلاً من إنشاء وطن قومي له طابعه اليهودي من الوجهة الدينية والاجتماعية والثقافية .

أصدرت إنجلترا لذلك كتابها الأبيض المشهور سنة ١٩٣٩ ، وقد بنت سياستها فيه على أسس ثلاثة :

١ — حق العرب في أن تبقى الأغلبية في فلسطين عربية ، فقصرت الهجرة ما بين سنة ١٩٣٢ وسنة ١٩٤٤ على ٧٥ ألف مهاجر ، على أن يكون للعرب بعد ذلك مطلق الحرية في قبول أو رفض كل لاجئ جديد .

٢ — حق العرب في أن تبقى الثروة العقارية عربية ، فلا يسمح لليهود أو غيرهم بشراء أرض إلا في منطقة محدودة لا تتجاوز ١٠٪ من مساحة فلسطين .

٣ — حق فلسطين في الاستقلال ، وذلك بعد فترة انتقال تمتد إلى عشر سنوات ، وتنتهي سنة ١٩٤٩ ، تسلم في أثنائها السلطة تدريجياً إلى أهل فلسطين من عرب ويهود ، وتُضمن حقوق اليهود في وطنهم القومي بمعاهدة تعقدها فلسطين المستقلة .

وقد أعلنت الحكومة البريطانية في صيف سنة ١٩٣٥ عن تمسكها تمسكاً لا رجعة فيه بهذه السياسة الجديدة ، فأسدلت الستار بذلك على الفصل الثاني من الرواية .

الفصل الثالث

تفاءلت العروبة كلها بانتهاء الفصل الثاني ، فجنح العرب في فلسطين إلى السكينة ، وأخذوا يعدّون العدة للقيام بدورهم في الفصل الثالث — فصل الانتقال من عبودية خدموا فيها سيّدَين ، إلى حرية مطلقة — كما تطلع الكل إلى الفصل الرابع والأخير ، حين تتبوأ فلسطين العربية المستقلة المكان اللائق بها بين دول الشرق والغرب .

أما اليهود فقد وقعت عليهم السياسة الجديدة وقع الصاعقة ، فتولاهم أول الأمر ذهولٌ حال بينهم وبين

المعارضة المتتجة ، لكن سرعان ما رجعوا إلى صوابهم . فتبادلوا الرأى فى أنجع وسيلة لنسف الكتاب الأبيض من أساسه

ثم وقعت الحرب ... وشُغل الجميع عن مستقبل فلسطين لاهتمامهم بمستقبل العالم . وتطوع الكثيرون من أهل فلسطين ، عرب ويهود ، فى القوات البريطانية . وقد اعترف الإنكليز أنفسهم بصدق عزيمة الطرفين فى الكفاح ضد المحور .

لكن كفاحهما هذا ، جنباً إلى جنب ضد عدو مشترك ، لم يقرب بينهما البتة ، بل استمرت إلى اليوم تلك الهدنة المسلحة التى أقامتها ظروف الحرب ، وشرع الكل فى الاستعداد ليوم الحساب استعداداً تضاعف كلما أوشكت الحرب على نهايتها ، أو لاحت فى الأفق تباشير السلام ؛ فالناس فى فلسطين يعملون للسلم وغيرهم فى حرب ، وللحرب وغيرهم فى سلم !

لقد غيّرت الحرب معالم الفصل الثالث من الرواية تغييراً جوهرياً ، فأصبح فترة جمود وركود بدلاً من أن يكون فترة انتقال وآمال ، كما كان مقدراً له قبلاً . فهل تبدأ فترة الانتقال الحقيقية بانتهاء الحرب ، أم تطرح المسألة على بساط البحث من جديد ؟ الأرجح هو الأخير . فالساسة اليوم ، وهم يخطّون عالم الغد ، لن يتقيدوا بعهود الأمس واتفاقاته ، بل سيبحثون أمهات المسائل من جديد فيقررون فيها قراراتهم ، مستوحين فى ذلك مبادئ جديدة ومصالح جديدة ، وتوازناً للقوى الدولية جديداً .

لهذا ، يجب على العرب إعادة شرح قضيتهم للعالم ، فقد نجحوا سنة ١٩٣٩ فى إقناع بريطانيا حكومة وشعباً بعدالة مطالبهم ، وهم ناجحون اليوم ، إن شاء الله ، فى إقناع الكل من جديد .

***

تقوم المعارضة للصهيونية على أساسين : أساس عملى هو المصلحة ، وأساس نظرى هو المبدأ . ولعله من سوء طالع الصهيونيين أن تتعدد الأسس هكذا ، فالدول فيما بينها قد تقرر مبادئ عامة للأخلاق الدولية ، ثم تعدل عن تطبيقها فى حالة خاصة إذا وجدت فى ذلك تنافراً مع مصلحة الثالية . أما فى مشكلة فلسطين ، فالمصلحة الدولية والمبدأ متفقان اتفاقاً يجعل من الصعب التمسك بحل لا يحقق كليهما .

***

إن مصلحة العرب فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، دون أن يدخل الغريب مسيطراً ، بديهى لا يحتاج إلى إيضاح ؛ لكن الصهيونيين ، بمنطقهم الغريب ، يحاولون إقامة الحجة على أن فى بقائهم مصلحة كبرى للعرب هم عنها غافلون ، فيوردون الإحصاءات التى تبين — على حد قولهم — مبلغ الانتعاش الاقتصادى الذى حل بفلسطين من يوم أن جاءوا إليهم بعلمهم ومالهم .

ولكن العرب — ولو سلموا جدلا بهذا — يفضلون بلا شك القليل مع العزة الاجتماعية والحرية السياسية ، على الكثير مع الضعة الاجتماعية والرق السياسى .

على أن الصهيونية لا تتفق مع مصلحة العرب فى فلسطين فقط ، بل مع مصلحة الدول العربية كلها . فمصر والشام والعراق وغيرها من بلاد العربية يضيرها كثيراً أن يتوسطها دولة غريبة لا تنتمى إلى العروبة أو الإسلام أو الشرق بصلة ، بل تختلف عنها تماماً فى اللغة والدين والثقافة والاقتصاد ، فتحول بذلك بين وحدتها الجغرافية والاقتصادية والسياسية .

كما أن الصهيونية لا تتفق ومصلحة إنجلترا وأمريكا ، وقد اقتنعت الأولى بذلك أخيراً ، فراحت تخطب ود العرب وتعمل على جمع شملهم ، لشعورها بأن مصلحتها فى إرضاء

العرب والمسلمين . أما أمريكا ، فما زالت أحزابها تعمل لليهود حساباً ؛ لكنها ستقتنع ، إن عاجلا أو آجلا ، بأن لا مصلحة لها البتة – وهي قادمة على توسع سياسي واقتصادي في الشرق – في إغضاب شعوب الشرق العربي بملايينه السبعين ، ومسلمي الهند ، بملايينهم التسعين ، من أجل نفر من اليهود لا يتجاوز عددهم ستة ملايين .

ولعل أعجب ما في الأمر أن الصهيونية تضر ضرراً بليغاً بمصالح اليهود أنفسهم ! فعددهم في العالم حوالى ١٦ مليوناً ، منهم اليوم في فلسطين نصف مليونٍ فقط ، إلى جانب مليون من العرب . ولا تتسع فلسطين اليوم لأكثر من مليونين ، بين عرب ويهود – كما شهدت بذلك اللجنة الملكية البريطانية نفسها . أما إذا نُفِّذت فيها بنجاح مشاريع عمرانية واسعة النطاق كالتي أشار بها بعضهم ، فقد تتسع بعد سنين طويلة لستة ملايين من السكان ، أي لخمسة ملايين من يهود العالم . أما الباقون منهم ، وهم عشرة ملايين – أي الأغلبية الكبرى – فستتعقد بلا شك مشكلتهم ، خصوصاً إذا تألفت في فلسطين ، كما يطلب الصهيونيون ، دولة يهودية لحماً ودماً تمنح رعاياها الجنسية اليهودية . أتمنح هذه الدولة للملايين العشرة من اليهود خارج فلسطين الجنسية اليهودية ؟ أم يحتفظون بجنسيتهم القديمة ، الأمريكية في أمريكا ، والإنكليزية في انجلترا وهكذا ؟ إن مثل هذه السياسة تحوى في ثناياها بذور الشقاق بين اليهود وجيرانهم أينما وجدوا ، فيشعر الجميع بأن اليهودي في وسطهم له جنسية غير جنسيتهم ، كما يدين بالولاء لدولة غير دولتهم ، فيعاملونه معاملة الأجنبي والغريب ، حتى في أكثر الدول تسامحاً !

أفيرضى اليهود بحل كهذا ، فيه سعادة مشكوك فيها لخمسة ملايين من إخوانهم في الدين ، وشقاء أكيد لعشرة ملايين ؟

* * *

هذا عن المصلحة . وقد رأينا أن مصلحة الجميع – بما فيهم اليهود أنفسهم – تتقابل عند سياسة ترك فلسطين للعرب وإقصاء الصهيونية عنها . أما عن المبدأ فأمره هين : يتنازع شعبان اليوم السيادة على فلسطين ، كما يتنازع فردان ملكية عقار . وللأفراد أن يحتكموا إلى قضاة ، يطبقون المبادئ المقررة في قانون تلك البلاد ، أما بين الشعوب فالوضع غير ذلك . فالقانون الدولى ما زال في حداثته . لهذا أخذت الدول من يوم أن كثرت المعاملات بينها تبحث عن مبادئ تُطبق فيما قد ينشأ من نزاع بين الأمم والشعوب . وقد وُفِّقت بعد الحرب الماضية إلى اختيار مبدأ يعمل به في مثل هذه الأحوال ، هو مبدأ تقرير المصير . فلا يحق لشعب أن يدعى ملكية بلد من البلاد إلا إذا أثبت أن أغلبية سكانه الحاليين يوافقونه على امتلاكه .

أما اليهود ، فيثبتون حقهم في فلسطين على امتلاكهم لها منذ ثلاثة عشر قرناً ! وعلى وعد بذله لهم شعب لا حق له البتة في بذل مثل هذه الوعود ، فهو لا يملك التصرف في مستقبل شعب آخر بغير رضاه !

لقد عادت الدول في هذه الحرب ، فأكدت في ميثاق الأطلنطى تمسكها بمبدأ تقرير المصير ، فهل تفي بوعدها ، أم تعتبر أن هذا التضخم في الوعود كتضخم النقد من مستلزمات الحرب ، يُعالج بعد الحرب بسحب «قصاصات الورق» كلها ، من جنيهات ووعود ، والرجوع إلى قاعدة الذهب والاستقلال من جديد ؟

دكتور
حليم حبيب دوس

الريف المصري ومتناقضاته

والأمل في إصلاحه

ما أعجب الريف في مصر ! إنه مستودع المتناقضات . ففي المكان الواحد تجد الغني الذي يلعب بالمال لكثرة مكاسبه وتمو ثروته يوماً بعد يوم ؛ وإلى جانبه الفقير المدقع الذي لا يجد الكفاف لنفسه ولزوجه وبنيه ، والذي كلما طلع عليه يوم جديد فاجأه بارتفاع جديد في أثمان حاجياته الضرورية ، واضطره لأن يقنع بما لا يسد جوعاً ولا يستر عورة .

وفي المكان الواحد تجد الأسرة التي تعيش عيشة صحية فتأكل أطيب المأكولات وأكثرها غذاء ، وتشرب الماء المصفى المعقم ، وتسكن الدور التي حصنت ضد الذباب والبعوض ، وتركب الأنعام والسيارات التي تقرب البعيد وتقتصد في الوقت وتريح الجسم ؛ وإلى جانب هذه الأسرة تعيش أخرى عيشة بؤس وشقاء وفناء تدريجي ، فلا تجد من المأكل ما يحوي العناصر الغذائية اللازمة لنمو الجسم والاحتفاظ بقوته وقدرته على المقاومة ، ولا تجد من الماء إلا العكر الزاخر بالميكروبات ، وإذا آوت إلى دارها هاجمتها جيوش الذباب والبعوض والقمل والبراغيث التي تنقل إليها عدوى مختلف الأمراض ، وتمتص من دماء أفرادها معظم ما تبقى في تلك الأجسام النهوكة من الجوع والمرض والتعب !

وفي المكان الواحد تجد الرجل المتعلم الذي يفهم الحياة ، ويدرك أسرار الطبيعة ، ويطلع على ما يجري في العالم ، ويعرف كيف يستغل الصناعة والمدنية ، ويقدر العلم والفن والأدب ، ويفهم قواعد السلوك ، وطبائع البشر ، وقوانين المجتمع ، وأمور الدين ، وأسس الفضائل الخلقية ؛ وإلى جانبه تجد الرجل الذي لا يختلف عن الحيوان إلا قليلا ، فلا يعرف من أمور الدنيا إلا قواعد العمل البسيطة التي ورثها عن أبيه وجده ، ولا يفقه شيئاً في العلم ولا في منتجات الصناعة والمدنية ، ولا في مقتضيات السلوك والتعاون مع الجماعة ، ولا يطلع على شيء مما يجري في العالم بل ولا في بلاده ، كما أنه يجهل أمور دينه وواجباته الخلقية ، اللهم إلا ما ألفى والديه وكبار أسرته يمارسونه .

وفي المكان الواحد تجد الرجل الذي يعرف ربه ، ويعرف أن الدين المعاملة ، ويصدق إذا قال ، ويوفي إذا وعد ، وينجد إذا استغيث به ، ويؤدي الأمانة ، وله على نفســه من ضميره رقيب فيما يقول وما يفعل ؛ وإلى جانب هـذا تجد الرجل الذي لا خلاق له ، والذي يعبد القرش من دون الله ، فمعاملته كلها رياء وخداع وغش ، وكلامه كذب ونفاق ودس ، فلا يقول صدقاً ولا يفي بوعد ، ولا يرعى ذمة ولا يؤدي أمانة ، ولا يخشى ضميراً ، ولا يراقب ربه في أي عمل من أعماله .

***

هذه الفروق الهائلة ترجع إلى أمور ، منها أن الثروة غير موزعة توزيعاً عادلا معقولا في الريف . فالناس هناك إما من كبار الأغنياء وهم قليل ، ونادر منهم من يسكن بالفعل في الريف ذاته ، وإنما يترددون عليه من آن لآخر ؛ وإما من جيش الأجراء أو العمال الزراعيين ، وهم الأغلبية الساحقة ، الذين لا يملكون شيئاً وإنمــا يكسبون قوت يومهم من الشغل عند كبار الزارعين ، ومن تفليح قطع صغيرة من أراضي كبار الملاك . وأما متوسطو الحال فعددهم قليل أيضاً ، وهم مبعثرون هنا وهناك ؛ فمنهم الذين يملكون قليلا من الأفدنة يعيشون من زراعتها ؛ ومنهم التجار الصغار ؛ ومنهم الموظفون الذين يقع مقر عملهم في صميم الريف فيضطرون للسكنى فيه ، ويختلفون إلى المدن من آن لآخر ولا سيما في فترات إجازاتهم السنوية .

ومن الأسباب المؤدية إلى تلك الفروق العظيمة وذلك التناقض الملحوظ الاختلاف الكبير في الثقافة : فالأغنياء معظمهم قد أتموا تعليمهم في المدارس ؛ والفقراء أميون لم يذهبوا إلى المدارس ولم يذوقوا للتعليم طعما ؛ ومتوسطو الحال قد أصابوا قدراً من التعليم لا بأس به في المدارس التي أتاحت لهم ظروفهم دخولها ، ومن المجتمع بحكم اختلاطهم بمن هم أوسع منهم ثقافة وأكثر اطلاعاً .

ومما يؤسف له أن أثر المتعلمين تعلما راقياً في الجهلاء تافه لا يكاد يُحَس ، وذلك يرجع من جهة إلى قلة عدد هؤلاء المتعلمين كما قدمنا ، ومن جهة أخرى إلى عدم اختلاطهم بالآخرين كلية ، أو اختلاطهم بهم اختلاطاً يسيراً ، وفي حذر ، بحيث لا يتيح للجهلاء فرصة التأثر بهم تأثراً اجتماعياً وثقافياً يرفع من مستواهم ، ويبصرهم بالعالم المتمدن ، ويهذب من نفوسهم وأخلاقهم . وهذه الظاهرة تختص بها الريف ، أما في المدن فإنه وإن عزّ اختلاط الأغنياء بالفقراء فاختلاط الأخيرين بمتوسطي الحال ومتوسطي التعليم ميسور ودائم ، وله أثره الملحوظ في النهوض بفقراء المدن ، وفي توسيع أفقهم الفكري والاجتماعي .

هذه الحال من الفارقات التي وصفناها في الريف سُبَّة في جبين الأمة ، ومؤلمة لكل محب لبلاده ، ومعطلة للتقدم العمراني ، ولابد من تغييرها بأقرب ما يمكن . ونريد الآن أن نبحث فيما إذا كانت الأمور سائرة في هذا الاتجاه ، بحيث تجعلنا نؤمل أن يتحسن الحال في القريب العاجل ، أم أنه يخشى أن تظل الفروق قائمة جيلا آخر غير الأجيال السابقة .

* * *

هناك جهود تبذل في الوقت الحاضر لتحسين حال الريف المصري . فوزارة الأشغال دائبة على تحسين الري والصرف ، وتدبير المياه اللازمة للأرض المزروعة ، أو التي تستصلح في جميع أنحاء البلاد ، وتوفير المصارف الضرورية لاطراد تحسن الأراضي ؛ ووزارة الصحة مهتمة أكبر اهتمام بالمشاريع الصحية التي تقضي على الآفات المهلكة للصحة ، وبالمشاريع التي ترمي إلى توفير وسائل الوقاية من الأمراض وعلاجها ، وجعل ذلك كله في متناول الفلاح في كل جزء من أجزاء القطر المصري .

ووزارة الزراعة لا تألو جهداً في البحث عن وسائل تحسين التربة ، وتحسين البذور ، وتحسين نسل الحيوان ، وتوفير السماد ، وتوفير أسباب مقاومة الحشرات ، وتسهيل حصول الملاك على الآلات الزراعية الحديثة ، واتخاذ العدة لنشر دعاية واسعة النطاق لا تجريبية فحسب ، بل عن طريق الاتصال الشخصي ، وذلك بما تزمعه من نشر رجالها وبثهم في جميع المراكز ، بل والقرى على نطاق واسع لم يسبق له مثيل .

كل ذلك حسن وجميل ، ولكنه يتوقف على حسن استجابة الفلاح ، وعلى استعداده للاستفادة من هذه الجهود ، وذلك لا يكون إلا بتحسين عقليته ورفع مستواه الثقافي وتوسيع أفقه الفكري والاجتماعي . وهذا هو ما نرجو أن تقوم به وزارة الشئون الاجتماعية في خلال تنفيذها لمشروع مكافحة الأمية ؛ فما ينبغي أن تقصر جهودها على أمر (فك الخط) أي تعلم القراءة والكتابة ، وإنما ينبغي ، كما سبق أن قلنا وقال غيرنا ، أن يكون همها الأول النهوض بالفلاح نهضة شاملة من جميع النواحي ، تجعله مستعداً للاستفادة من كل الجهود التي تبذل من أجله في طول البلاد وعرضها ، وفي جميع نواحي النشاط الحكومي والأهلي .

وبعد ، فهل هذه الجهود الحكومية التي ذكرنا أمثلة منها كافية لحل المشكلة وتحقيق الأغراض وإنعاش الآمال ؟ أظن لا . فالحاجة في هذا السبيل يجب ، كما قلنا من قبل على صفحات هذه المجلة ، أن يشترك فيها الأعلون بكل ما أوتوا من قوة ، وبحماسة وإخلاص . فكل فرد

يجب أن يستشعر أن عليه واجباً خاصاً من هذه الناحية يتحتم عليه تأديته ؛ فالعلماء على اختلاف أنواعهم يجب أن يساهموا فى إنارة السبيل لوضع الخطط وفى تمهيده ليكون التنفيذ على الوجه الأكمل ؛ وشباب الأمة الذين ستستخدمهم الحكومة وغيرها من الهيئات فى تنفيذ المشروعات العمرانية الإصلاحية ، يجب أن يقبلوا على عملهم بقوة وإخلاص وروح تعلوها الإرادة ، حتى نضمن أداء العمل على الوجه الذى يحقق الأغراض ويرتاح إليه الجميع .

* * *

والآن فلنضرب بعض أمثلة للتعاون المنتظر :

ولنبدأ بالإشارة إلى الناحية الاقتصادية التى نظنها معقدة كل التعقيد . فقد نادى الناس فيما مضى بأن على ذوى الشأن وأولى الأمر واجباً أن يضعوا حداً أدنى لأجور العمال ، ولكن تبين الآن أن هذا العلاج ليس له أثر محسوس ، فقد ارتفعت أجور العمال الزراعيين بالفعل ارتفاعاً كبيراً ، ومع ذلك لم يجدهم ذلك نفعاً ، ولم يهون عليهم أمور الحياة ؛ وذلك لأن ارتفاع الأجور قد صحبه ولازمه ارتفاع فى أثمان الحاجيات بنسب أعلى بكثير من نسب ارتفاع الأجور ، بل إن هذه الأجور تنقص أحياناً دون أن يصحب نقصانها أى هبوط فى أسعار الحاجيات . فعلى رجال المال وعلماء الاقتصاد إذن أن يدلوا الأمة على طريق حل هذه المشكلة !

أما الناحية الاجتماعية فقد يكون فيها رجاء ، فالناس بدأوا يدركون أن نظام الطبقات نظام فاسد ، وأن الديمقراطية التى ينادى بها الكثيرون ، ويدافع فريق منهم عنها الآن دفاعاً مجيداً ، وروح الإخاء والتعاون الذى أوصى به الإسلام وحض عليه وجعله خير عنوان للدعوة الإسلامية ، هذان الاعتباران يقضيان بأن ترتفع الحواجز بين الأغنياء والفقراء ، وبين المتعلمين والجهلاء .

هذا إلى أن كبار الزارعين وملاك الأراضى ، ولا سيما المتعلمين منهم ، قد أخذوا يقدرون الريف ويطمئنون إلى السكنى فيه وينعمون بجماله ، ويشتركون اشتراكا فعلياً فى حسن استغلاله ، والإكثار من إنتاجه ومن خيراته ، وقد اقتضى ذلك أن أخذوا يرحلون إليه ، ويعمرونه ، ويتصلون بأهله .

فذلك كله سيؤدى إلى زيادة الاختلاط بين مختلف الأنواع ، اختلاطاً سيكون له فيما نرى أعمق الأثر ، وأجل الفوائد من النواحى التى نحن بصددها إذا صحبه عطف من جانب المحظوظين نحو إخوانهم المحرومين ، ورغبة أكيدة من الأولين فى المساهمة فى تحسين حال الآخرين .

وأما الناحية الخلقية فلعلها أصعب المسائل التى أمامنا ، وأعقد المشاكل التى تواجهنا ؛ فهناك موجة من الإباحية اجتاحت العالم بعد الحرب الكبرى الماضية ، ولم نسلم منها ، بل تأثرنا بها نحن هنا فى مصر تأثراً سيئاً . وقد زادت عليها بعض عوامل محلية أخرى ضاعفت ذلك الأثر وزادته سوءاً ، وأصبح الفرد لا يهمه إلا مصلحته الذاتية ، فيقصر سعيه على ما فيه منفعته الشخصية ، ويحلل لنفسه فى سبيلها أن يقترف ما يتنافى مع حسن السلوك وقواعد الأخلاق الفاضلة ، لا فرق فى ذلك كله بين غنى وفقير ، وعالم وجاهل ، وكبير وصغير ، وعظيم وحقير .

وقد كنت أظن أن هذا الشعور قاصر على سكان المدن وحدهم ، وكنت أتوهم أن أهل الريف قد نجوا من هذه السيئات ، لأنهم على الفطرة يعيشون عيشة بسيطة ويحافظون على قواعد الدين ويتمسكون بأوامره ، ويتحاشون نواهيه . كنت أتخيل ذلك ، ولكنى لما اتصلت بالريف عن قرب ، وتعاملت مع أهله وخبرت حالهم ، أدركت أنهم لم يسلموا من هذه الشرور ، بل لعل حالهم من هذه الناحية صار أسوأ من غيرهم ، لأن السواد الأعظم منهم جهلاء ، لا يفقهون القواعد الاجتماعية ولا النظريات الخلقية ، ولا المثل العليا التى

تؤثر في تصرفات الفرد إذا فقد الوازع الديني . فقد كان هذا الوازع بالنسبة لهم هو الأمل الوحيد في عصمتهم من تلك المهالك الخلقية .

ومن ذلك يتبين أن علاج هذه الناحية سيشق على المصلحين وسيتطلب منهم جهوداً جبارة . وهذه ناحية لا يتسنى لهيئة حكومية أن تخدمها ، وإنما يخدمها الأفراد المستقيمون المخلصون في الدعوة إلى الإصلاح ؛ فالأخلاق تعلم بالمثل والتقليد والإيحاء . فهل لنا أن نأمل خيراً ، ونتطلع إلى ظهور كتيبة الخير ، التي دعا إليها الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، لتتولى هذه الناحية الصعبة من الجهاد الاجتماعي للنهوض بأهل الريف خلقياً ، كما يتولى غيرهم النهوض بهم اقتصادياً وزراعياً وصحياً واجتماعياً ؟

أحمد عبد السلام الكرداني

أبو العلاء المعري

[ألقيت بمناسبة مهرجانه الألفي]

بلغتَ بالعقل ما أعياك بالبصرِ
إدراكه فشفيتَ النفس من وطرِ
وليس تدفع عينُ المرء عثرته
ما لم يكن عقله الواقي من الخطرِ
إني رأيت الفتى شتَّى نواقصه
وأقبح النقص موقوف على النظرِ
لله عقلك لم تخدعه بهرجة
من زخرف العيش أو يغترّ بالغِيَرِ
بسطت أعقد ما في النفس من صورٍ
ضريرة النجم في زاوٍ من الصورِ
ولم تدع خبراً إلا ورحت على أعقابه باحثاً عن صحة الخبرِ
يا بؤس ما مثيت نفس اللبيب به
لما هتكت له عن غامض القدَرِ
أريت في كل نفس من هواجسها
عما نفثت جحيم البؤس والكدرِ
تلك الحقائق لم تترك لمبصرها
في صفحة النفس إلا أسوأ الأثرِ
والعيش لولا أباطيلٌ تنمّقه
لكان ميتاً على الأكتاف كالحجرِ
وخفّف البؤسَ أوهامٌ ملفقة
تُملى على الناس في الإمساء والسحرِ
* * *
رأيتَ في كل أنثى ما يراع له لب الحكيم لما تخفي من الوحرِ
ولم تجد قبلها أفعى مذممة
أدعى إلى الخوف منها أو إلى الحذرِ
تبسمت عن محيا مشرق نضر واضمرت باطناً مخلولك الأزرِ
تقلب العين من ألحاظ ذي سقم
والنصل إن دق لا يخلو من الخطرِ
ألقت على الإثم ألواناً مبهرجة
من ساطع الوجه أو من حالك الشَعَرِ
يخال ذو الجهل ما راحت تطالعه
به من المكر ألواناً من الخفَرِ
كم شهوة في حنايا صدرها عصفت
كالريح بعصف مطويّاً على شجرِ
* * *
برمتَ بالناس من غيظ ومن ملل
وضقت ذرعاً بما لاقيت من زمرِ
في كل عصر تسوس الناسَ طائفة
تحكمت بسلاح المكر والغررِ
والناس صنفان : شيطان أفاد غنًى
بمكره ، وغبي عام كالبقرِ
نفضت كفك من يأس وموجدة
علماً بأن الأذى من شيمة البشرِ

فما ثنى المرء عن إتيان مظلمة
إلاّ لسانٌ فتٌّ بالكفَّين من خور
ولو هتكتَ حجاب النفس لانكشفت
عن عقربٍ ذرب أو حية ذكر
فكيف يأمل إصلاح الورى نفر
بالنصح والمرء مفطور على الضرر
رأيت غاية ما يُرجى الصلاح به
نمراً من السيل أو غرباً من الشرر
أما الحياة فلم تخدعك زينتها
وكيف يُخدع بالأوهام ذو بصر
فما أسفت على ما فات من ندم
ولا تشوّفت للمجهول من حذر
شغفت باليأس نفساً طالما نزعت
إلى جنون الصبا والكأس والوتر
وعت عن نَزَوان الحرص في دعة
مستهزئاً باكتناز الناس للدرر
وإنّ ما تمّ عن إدراك حوزته
زهداً أطار جفون القوم للسهر
تكاد لا تسع الآفاق من جشع
على اتساع بها أطماع ذي أشر
يودّ كل امرئ إدراك ما عجزت
عنه الأُلى ضلة في سالف العصر
فاعذر على الطمّع المقوت طائفة
طوت وراء المنى الآفاق بالسفر
فالأرض لولا دجى الأطماع لانكشفت
حافاتها لعيون القوم عن سقر
وعابت الريح لولا رغبة جمحت
في نفسه لم يخاصر أغصن الشجر

***

رسمتَ أقبح ما في العيش من صور
فما لديك عن الأموات من سِيَرٍ ؟
أيذهب الموت أطماع النفوس إذا
ما ألّف الموت بين الشاة والنمر ؟
وهل درى مَن ثوى في اللحد ما قدحت
يد الردى من أسًى في الصدر مستعر[1]
إني لأبصر بالقلب الجريح إذا
غطّى البكاء على الأسماع والبصر
وإن طوى الموت أياماً لنا انصرمت
فكم بعثت قديم الحزن بالذكر
ولم تكن يا أخي ذكراك شافية
وجدي وكيف تطفى النار بالشرر

***

يا شاعراً نظم الآلام أغنية
كم في نشيدك من معنى ومن عبر !
لله شعرك من لحن جمعت به
من كل قلب جليل الآي والسور
ما زلت تنشد غير الأرض أمنية
فهل وجدت أماني النفس في الحفر ؟

(دمشق) محمد ناهد مردم بك

(١) الضمير يعود إلى الفقيد أخي هيثم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

سياست نامه

٦ – الألقاب

بلغت الدولة السلجوقية أوجها فى عهد الملكين ألب أرسلان وملكشاه اللذين وزر لهما نظام الملك . وقد ساهم الأمراء من حكام الأقاليم ، والوزراء والعلماء ، وكبار الموظفين ، وبعض غلمان القصر ، وغيرهم فى مجد الدولة والنهوض بها ؛ وساهم السلطان السلجوقى نفسه بأوفى نصيب فى الجهاد (الدينى) وإدخال أفواج من الترك فى الإسلام ، وبهذا استحق السلطان أن يشرفه الخليفة العباسى بلقب يتفق ورسالته ، كما استحق كل من ساهم فى إعلاء شأن الدولة لقباً من السلطان . وقد أسرف بعض السلاطين فى طلب الألقاب من الخليفة ، كما أسرف بعضهم فى منحها لرجاله ، حتى كادت تفقد معناها . ولذا فإن نظام الملك ينصح السلطان ألا يسرف فى طلبها لنفسه من الخليفة ، وأن يتريث فى خلعها على الممتازين من أفراد شعبه ، وهو يضع لها ترتيباً جديراً بالنظر فيه ، يقول :

إن الامتياز الذى تسبغه الألقاب على المنعم عليه بها هو المثوبة المثلى على الخدمات الجليلة ذات النفع العام . ولذا وجب أن يكون مانح اللقب ، خليفة كان أم سلطاناً ، مدققاً غاية الدقة فى منحه ، حتى يتعادل اللقب وجدارة المنعم عليه ومكانته الاجتماعية . وينبغى عدم الإسراف فى المنح ، فإن الشىء إذا كثر وشاع قلّت قيمته وبعد عن غايته . والألقاب مراتب تتمشى مع القيم التى تستوجب منحها ، وهى تتفاوت بتفاوت الأشخاص وتباين الأعمال ؛ فلقب الأمراء غير لقب العلماء ، ولقب قواد الجيش غير لقب الوزراء ، وهكذا . والألقاب يمنحها ولى الأمر ؛ فلا تُلتمس ولا تشترى ، لأنها جزاء وفاق على عمل مجيد .

والذى يسعى وراء مكافأته على ما قام به ، مكافأة أدبية ، يضع من شأن ما عمل ، ويجعل نفسه غير جدير بما أتاح الله له من توفيق .

ولخليفة المسلمين أن يمنح السلطان من الألقاب ما يشاء . وليس للسلطان أن يطمع فى المزيد من الخليفة ، فإن الألقاب العظيمة التى تمنح للسلاطين قليلة ، والإكثار منها – وخاصة إذا كان منحها من الخليفة على كره منه لخوفه السلطان أو لإلحاح هذا فى طلبها – يقلل من هيبتها ، وبالتالى لا تعبر عن منطوقها . فلا يجوز لسلطان أن يعمل ما عمل محمود الغزنوى مع الخليفة القادر بالله ، فإنه لم يكد يرتقى العرش حتى التمس من الخليفة لقباً ؛ فلقبه يمين الدولة . وفتح محمود نيمروز (سجستان) وخراسان والهند حتى سُمنات والعراق ، فأرسل للخليفة يلتمس لقباً جديداً ، وبعث مع رسوله من الهدايا والتحف ما لا يقدر بثمن ، ولكن الخليفة لم يجب ملتمسه . وفى ذلك الوقت خلع الخليفة على خاقان سمرقند ثلاثة ألقاب : ظهير الدولة ، ومعين خليفة الله ، وملك المشرق والصين ؛ فأثار هذا الإنعام حسد محمود ، فكتب إلى الخليفة يقول : « إنى فتحت باسمك بلاد الكفار وأدخلت أهلها فى دين الله ، وها أنت تهب خاقان سمرقند ، وهو من ولاتى ثلاثة ألقاب ، وتتفضل علىّ مع فضلى العظيم بلقب واحد ! » ، فأجابه الخليفة مهدئاً من روعه ، ومُلطفاً من حدته ، وقال له : إن الألقاب ترفع قدر حامليها ، وأنت برفعة قدرك فى غنى عنها ؛ وأما والى سمرقند ، فتركى جاهل تعلو له الألقاب ، ويظنها تعلى قدره عند نفسه وعند قومه ، وقد يتأثر بها فيعمل بما فى منطوقها ويخفف من غلوائه ، ويتقى الله فى حكمه الناس ، فلا تطلبن ما هو لمن دونك درجة ، وحسبك أنك يمين الدولة . فلم يرق محموداً هذا الجواب ، وبات وهو للغيظ كظيم . وسألته جارية مثقفة ذكية

فى قصره عن سبب ما يعتريه من الهم فبثها شكواه . قالت : عجبت للخليفة يمنح اللقب لمن لا يعرف له قدراً ، ويحبسه عمن هو أهل له ! واستأذنته فى رحلة إلى الخاقان فأذن لها . وبعد زمان بلغت سمرقند ، وأعملت الحيلة حتى وثقت بها الخاتون ، وقربها الخاقان ، واستطاعت بمكرها أن تخدعه وتأخذ من خزائنه براءات الألقاب التى أسبغها الخليفة عليه ، ثم عادت بها إلى محمود الغزنوى ؛ فبعث بها إلى الخليفة مع رسالة يقول فيها : كان أحد موظفى الديوان فى رحلة بسمرقند ، فدخل مدرسة فوجد هذه البراءات مع طفل يعبث بها ، فأخذها منه ورفعها إلىّ ، وأنا أبعث بها للخليفة حتى يعلم على أى خلع الألقاب . ولقد كان على والى سمرقند أن يحترمها ويتوج رأسه بها ، بدلاً من إهمالها ليتخطفها الأطفال ويعبثوا بها ! فلما قدم رسول الغزنوى هذه الرسالة للخليفة ، بعث هذا إلى والى سمرقند يعاتبه .

وأما الرســول فقد لبث فى بغداد ستة أشهر دون أن يظفر ببغية سيده ، فكتب يستفتى قاضى القضاة : أفتنى فى ملك امتشق الحسام ليعز دين الله حتى أحال دار الكفر داراً للإسلام ، وكان الخليفة بعيداً منه وهو لا يستطيع أن يطلعه على ما يعمل ، أيجوز له أن يقيم على العرش شريفاً من بنى العباس ليقتدى أو لا يجوز ؟ فأفتى القاضى بالإيجاب . فأرفق الرسول هذه الفتوى بخطاب إلى كبير حجاب الخليفة يقول فيه : طالت إقامتى ببغداد ، ومحمود يلتمس لقباً ويقدم آيات الخضوع والولاء ، والخليفة عنه معرض ، أفلا يكون محمود محقاً إذا عمل بالفتوى التى قال بها قاضى القضاة ؟! فلما اطلع الخليفة على الخطاب والفتوى بعث حاجب الباب إلى رسول محمود ، فأكرم وفادته وأعاده إلى سيده مكرّماً ، ومعه براءة لقب جديد هو أمين الملة .

مثل هذا اللقب الذى منحه الخليفة مكرهاً لا يعبر عن منطوقه ، ولا يدل على جدارة محمود به . وإنه لمن العار أن يستغل السلطان ضعف خليفة رسول الله فينتزع منه اللقب انتزاعاً . وأنا أربأ بك أن تكون كمحمود ، وكفاك ما خلع الخليفة عليك تقديراً لك واعترافاً بجهادك وجهدك ؛ فأنت معز الدنيا والدين ، وأنت قسيم أمير المؤمنين جلال الدولة .

قال نظام الملك :

وينبغى أن تختص كل طائفة من الشعب بألقاب خاصة بها ، فلا يحمل القاضى لقب الوزير ، ولا الأمير لقب المحتسب . وإذا أنت نظرت إلى شعبك يا مولاى وجدته عدة طبقات : الأمراء ، وقادة الجيش ، وأصحاب الإقطاع ، والوزراء ، والعلماء ، وكبار الموظفين ، وغلمان القصر ، والخراتون .

فالأمراء يلقبون : حسام الدين ، وسيف الدولة ، وأمين الدولة ...

والقواد يلقبون : سيف الدولة ، وحامى الدولة ، وظهير الدولة . . .

والوزراء يلقبون : الأستاذ الجليل ، والأستاذ الخطير ، وكافى الكفاة (ولقب به الصاحب بن عباد) ، وشمس الكفاة (ولقب به الميمندى وزير محمود الغزنوى) ، ونظام الملك ، وقوام الملك ...

والعلماء ومنهم القضاة يلقبون : مجد الدين ، وشرف الإسلام ، وسيف السنة ، وزين الشريعة ، وفخر العلماء .

وكبار موظفى الديوان يلقبون : عميد الدولة ، وكمال الملك ، وعميد الملك .

ولا يجوز أن تدخل كلمة الملك إلا فى ألقاب الوزير والمحتسب (رئيس الشرطة) والمستوفى ، والعارض (الذى يعرض القضايا العامة على السلطان) ، وعميدى بغداد وخراسان .

أما من هم أقل شأناً من الموظفين فألقابهم : الخواجه

في الربيع

للكاتب الفرنسي الكبير جي دي موبسان

في أيام الربيع الأولى من كل عام ، عندما تستيقظ الطبيعة من نومها ، وتتشح بثوبها الأخضر الجميل ؛ عندما تصافح خدودنا الأنسام العطرة ، فتملأ الرئتين وتتغلغل في حنايا القلب ؛ في هذه الأيام الرائعة ، يطغى علينا حنين مبهم إلى لذاذات مجهولة ، وشوق غامض إلى القفز والمرح والسعي وراء الخاطرات ، والتمتع بمباهج الربيع ومفاتنه !

بعد ذلك الشتاء القاسي ، أقبل شهر مايو ، فغمرني بالرغبة في الانطلاق من جميع القيود . كانت هذه الرغبة كالحمى تسري في دمي ، وكالتيار ينساب في عروقي ، في عنف وقوة ! وعندما استيقظت ذات صباح ، لمحت خلال نوافذ غرفتي ، فوق سقوف المنازل المجاورة ، سماء مايو الصافية تغمرها الأشعة الذهبية ! . . . كانت البلابل الطروبة في أقفاصها تهلل لقدم الربيع ، وتحييه بأغاريدها العِذاب ، والصبايا الفاتنات ينشدن أغاني الحب والجمال ، وأصوات المرح من الشوارع المزدحمة تصافح أذنيّ . وفي فيض من النشوة الجارفة غادرت المنزل دون أن أدري إلى أين تقودني قدماي !!

الطبيعة حولي كلها ضاحكة : البسمات تتراءى على الوجوه ، والسعادة تغمر كل شيء حتى النسيم ... وكأنما لمست القريةَ الصغيرة كفُّ ساحر ! وبعد لحظات وجدتني أولّي وجهي شطر السين ، وأصعد إلى إحدى تلك الزوارق الصغيرة الذاهبة إلى سيري سين ، مدفوعاً بحنين لا يقاوم إلى الأحراش والغابات !

كان سطح الباخرة مزدحماً ، وكانت جارتي امرأة : فتاة صغيرة حسناء ، ذات رأس صغير فاتن ، وشعر كأشعة

الرشيد ، والمختص ، والسديد ، والنجيب ؛ والأستاذ الأمين والخطير ، والمكين . ويرقى غلمان القصر حتى يصلوا إلى الحجابة ، ثم الإمارة ، فتخلع عليهم الألقاب كغيرهم .

وإذا قام حرك بعمل يستحق عليه لقباً ، رفعت درجته ثم لقب .

ويعاقب من يدعي لنفسه لقباً ليس صادراً من السلطان ، وتشدد العقوبة لمن يدعي لقباً فيه كلمتا الدين والإسلام .

وهكذا يا مولاي تختص كل طبقة من الشعب بألقاب تليق بها ، وتدل معانيها على امتياز صاحبها ، فتستبين درجة الكبير من الصغير ، والخاص من العام ، ويظهر الديوان بالرونق الذي ينبغي له .

* * *

أما ألقاب السلاطين ، فينبغي ألا تكثر وألا تطول . وقد لقب البويهيون بعضد الدولة ، وركن الدولة ؛ ولقب السامانيون بشاهنشاه ، والأمير السديد ، والأمير الحميد ، والأمير العادل .

ويمنح خليفة بغداد السلاطين الأتقياء من الألقاب ما يؤهلهم لها جليل أعمالهم وحسن سيرتهم في الناس . وقد كان لك من الأعمال الصالحة للآخرة والأولى ما أهلك لأن تكون معز الدنيا والدين .

وكما تدخل كلمتا الدنيا والدين في ألقاب السلاطين ، فكذلك يلقب بهما زوجاتهم وأبناؤهم وبناتهم .

والملك اليقظ الذي يعرف أصول الحكم ، لا يقدم على منح أحد لقباً قبل التحري والتثبت من أحقية المنعم عليه . وهو بهذا يقدر أعمال النابهين من شعبه قدرها ، ويحفظ للألقاب معناها ، ويسبغ عليها من حكمته وحسن تقديره واختياره آيات الشرف والفخر والجلال .

يحيى الخشاب

الشمس تتموج غدائره على عارضيها وتنساب إلى جيدها في فتنة وإغراء .

أخذت أحدّق إليها في نهم ، فأدارت وجهها إليّ ، ولم تلبث أن أسبلت جفنيها ، ثم افترت شفتاها عن مشروع ابتسامة . . ابتسامة فتانة طروب ، أحسست معها أن الكون بأجمعه يبتسم : الطير ، والشجر ، والنهر ، والأمواج الطروبة المتدفقة !

انساب الزورق الصغير فوق مياه النهر بين الضفاف الحالمة ، وكانت الطبيعة كلها زاخرة بالحياة ، ورقصت حارقتا عينيها فقابلتا عينيّ ، ولكنها في هـذه المرة ابتسمت بطلاقة . كم هي ساحرة هذه الابتسامة ! وكم هي رائعة هذه النظرة التي كشفت لي عن عوالم مجهولة من الأسرار الغامضة ! لقد استطعت أن أنفذ من عينيها إلى أغوار عميقة فيها كل مباهج الحياة ! وكل الشعر الذي نحس به في أحلامنا ! وكل الفرحة التي تهفو إليها أرواحنا ! وتملكتني رغبة مجنونة في أن أضمها بين ذراعيّ ، وأحملها إلى مكان بعيد حيث أهمس في أذنيها بأشجى أغاني الحب . . .

كنت على وشك أن أتحدث إليها ، عند ما أحسست بمن ربت على كتفي ، فأدرت وجهي لأرى أمام عينيّ رجلاً في متوسط العمر . . . حدّق فيّ قليلاً ، ثم قال :

— إن لدي حديثاً أريد أن أرويه لك

وكأنما لمح ما ارتسم على وجهي من أمارات التأفف والضيق . فأردف :

— حديثاً مهماً . . .

نهضت من مكاني وسرت معه إلى الناحيـة الأخرى من الزورق ، حيث أخذ يحدثني :

— ياسيدي العزيز . . . عند ما يأتي الشـتاء حاملاً معه البرد والمطر والصقيع ، يقول لك طبيبك دائماً : أكثر من ثيابك ، واحترس من البرد والزكام والتهاب الرئتين . . . فتتخذ كل وسائل الحذر . . . ولكن عند ما يقبل الربيع بموكبه الحافل : الأزاهير والورود ، والدفء ، والأنسام المعطرة ، باعثاً فيك من العواطف والأحاسيس ما لا تستطيع تفسيره ، فإنك لن تجد من يقول لك : حاذر من الحب . . حاذر . . . إنه أخطر من البرد والزكام والتهاب الرئتين . . . إنه يتربص لك في كل مكان . . . وفي كل زاوية ، بأسلحته القوية وعدته الكاملة ، وشباكه المنصوبة ، حاذر من الحب حاذر . إنه لا يرحم ، ولا يرق ولا يلين . نعم يا سيدي : يجب على الحكومة أن تعلق على الجدران إعلانات كبيرة يكتب عليها ، لقد عاد الربيع مرة أخرى يا أهل فرنسا ، فاحذروا من الحب . . . تماماً كما نعلق على أبواب منازلنا تلك اللوحة الخالدة « احترس من الدهان » . إن الحكومة يا سيدي تهمل هذا الواجب . فلأتطوع أنا ، فأقول لك : حاذر من الحب ! إنه يسعى لاقتناصك والانقضاض عليك .

حدقت في دهشة في وجه هـذا الإنسان الغريب وأجبته :

— يلوح لي يا سيدي أنك تتدخل في أمر لا يعنيك في قليل أو كثير . . .

فجاء في رده :

— يا سيدي العزيز . . . يا سيدي العزيز . . . إذا رأيتُ إنساناً على وشك الغرق ، فهل أتركه حتى يموت ؟ . . . دعني أروي لك قصتي ، وستعلم بعد ذلك كيف تجاسرت أن أخاطبك بهذه اللهجة :

كان ذلك في العـام الماضي في مثل هذا الوقت من السنة . . . وكنت أعمل كاتباً في الأميرالية . ومن نافذة غرفتي ، كان النسيم يحمل إليّ أولى بشائر الربيع ، فشعرت بالحنين إلى الحرية والمتعة والمرح . ذهبت إلى رئيسي ادّعي

المرض، وأطلب منه عطلة . فقال لى : إننى لا أصدق حرفاً واحداً مما تزعم من مرضك، وعلى كلٍّ يمكنك أن تذهب إذا أردت ... ولست أدرى ، والله كيف يستطيع الإنسان أن يؤدى عمله كاملاً مع أناس مثلك ؟

ذهبت إلى السين ، وكان الجو رائعاً ، كما هو اليوم ! فركبت الزورق إلى سان كلود ... آه يا سيدى لو أن رئيسى رفض أن أبرح مكان عملى !! شعرت بغرام جارف لكل شىء : الباخرة ، النهر ، الأشجار ، المنازل ، والمسافرين ، كنت أحنّ إلى شىء أعانقه ، أى شىء ! ... وعند التروكادرو صعدت إلى الزورق فتاة تحمل فى يديها سلة صغيرة ، وجلست قبالتى . كانت جميلة ، بلا شك ، ولكن ... كم تبدو المرأة لعيوننا جذابة ساحرة أكثر مما هى فى هذا الجو الرائع عند مولد الربيع !!

نظرتُ إليها ونظرتْ إلىّ بين الفينة والفينة ... تماماً كما كنتَ تفعل معَ فتاتك . وأخيراً اعتقدت أننا نستطيع أن نتبادل الحديث بعد أن تبادلنا النظرات ، فكلمتها وكلمتنى ... لقد كانت ساحرة يا سيدى ، ذلك السحر الغامض الذى يدير الرءوس ! وغادرتْ الزورق فى سان كلود فتبعتها . وعندما عدنا ألفينا الزورق قد غادر الشاطئ فسرنا جنباً إلى جنب ، وكل ما حولنا يبسم لنا بسمات السعادة والهناءة ، والربيع الحلو يباركنا بأنفاسه العطرة .

— سيكون يوماً جميلا فى الغابة بلا شك

— نعم ! أليس كذلك ؟

— هل لديك ما يمنع من أن نطوف بين الأحراش ؟

نظرتْ إلىّ نظرات فاحصة ، كأنما تستشف ما فى صدرى من خواطر ، وصمتت لحظة قبل أن تجيب . وبعد دقائق كنا نسير جنباً إلى جنب بين الأشجار الظليلة ، ... كان العشب الأخضر وقد حجبتْهُ الأغصان بظلها زاخراً بالحياة ، وكانت الطيور لا تنفك عن الغناء !

فى هذا الجو الرائع ، وبفعل الطبيعة الساحرة والأزاهير النضيرة ، انطلقت رفيقتى تجرى وتمرح بين الأحراش ، وأخذت أتبعها مدفوعاً بسحرها إلى جانب سحر الربيع . وفى نشوة المرح بدأت فتاتى تنشد بصوتها العذب مختلف الأغانى ، وعلى الأخص أغنية « موسيت » . كم لاحت لى رائعة تلك الأغنية فى ذلك الوقت ! لقد هزتنى هزاً ، وأيقظت فى روحى ما كان كامناً من مشاعر وأحاسيس ! ... يا سيدى لا تصحب إلى الأحراش فى يوم من أيام الربيع فتاةً تغنى ، وعلى الأخص تلك الأغنية أغنية «موسيت»

وتعبنا بعد لحظات ، فاستلقت على العشب الأخضر وألقيت بنفسى عند قدميها ... وأخذت بيديها البضتين بين يدىّ ، وحدّق كل منا فى عينى الآخر . يا لى من عينى المرأة ! أى قوة تلك التى تكمن فيهما ... تلك القوة التى تريد أن تقهر وتحكم وتسيطر . كم هى عميقة تلك الأغوار والمعانى التى يلمحها الرجل فى عينى المرأة . فكأنما يلمح من ورائهما روحها الشفافة ! وتملكنى جنون جارف ، فضممتها بين ذراعىّ ، وأخذت أسكب فى سمعها كل ما فى قلبى من مشاعر وغرام ، فنظرت إلىّ نظرات عميقة كأنما تريد أن تعرف هل كنت صادقاً فيما أقول أم لا .

وبعد ساعات عدنا إلى سان كلود ولم يفارق أحدنا الآخر إلا فى باريس . وعندما ودعتها ارتسمت على وجهها أمارات الحزن ، فسألتها ما بها ، فأجابت :

— إنى أفكر كم هى نادرة تلك الأيام الجميلة التى يصادفها المرء فى حياته ... كهذا اليوم الرائع مثلا

... وتقابلنا بعد ذلك فى كل يوم أحد . أخذتها إلى بوجيفال، وسان جرمين ، ولافيت ، وبواسى ، وإلى كل مكان مقدس يقصده العشاق ... وأحببتها حباً جارفاً قوياً ، وبعد ثلاثة أشهر تزوجنا .

ثلاثة كُتب

ثلاثة كتب قرأتها منذ زمن ونسيتها — كعادتي — تعود الآن إلى ذهني . لمَ نشك أحياناً في قيمة ما نقرأ ؟ إن الحياة كلٌ ، جريه طليق ، وسحره الخفي نابض ، وزمنه غير محدود . والكلمة المطبوعة جزء ، محاولة خلقت مُقعدة ، في سطورها حتفها ، وعمرها منتكس يتقهقر إلى الوراء ، إلى الماضي ، إلى النسيان ...

ومع هذا ؛ فأنا سعيد بهذه الكتب الثلاثة ، غير آسف على الوقت الذي أضعته في قراءتها . شاهدت في اثنين منها ختام الفصل الأخير لمأساتين ، كنت قد زاملت أبطالها زمناً طويلاً ، وشاركتهم أفراحهم وأتراحهم ، حتى كنت أعدّهم — وإن لم نتعارف — من أعز أصدقائي . أسدل الستار عليهم وبقيت . ولا أكتم أن بقائي بعد فناء هؤلاء الأصدقاء يخامر الآن قلبي بلذة مبهمة ، أقول : مبهمة ، لئلا أقول : مخجلة !

أولها الكتاب الذي ترجم فيه «موروا» نفسه ونشره أخيراً في مهجره بالولايات المتحدة . لقد مرَّ على — وأستطيع أن أقول أيضاً وعلى الجيل الذي أنا منه — عهد كنا مستسلمين فيه لسحر هذا الكاتب . انقلب فن السيرة في يده من دراسة جافة تعتمد على التواريخ وتلخيص المستندات وإزاحة التراب عن شواهد القبور ، إلى قصة إنسانية حيَّة ، يثير فيها البطل مشاعر القارئ ، ويجذبه إليه جذباً . وكذلك جعل قصصه نوعاً من السيرة التي لا تهتم بالحادثة اهتماماً بمعرفة غوامض النفس وتحليل عواطفها ، فلا تقابلك بأشباح جوفاء ، أو عرائس خشبية ناطقة ، بل تأنس فيها إلى أفراد أحياء — ينازعهم الخير

إني أسألك ياسيدي ما الذي يستطيع أن يفعله رجل وحيد ليس لديه من ينصحه ... إن الإنسان يتخيل الحياة سعيدة طيبة مع امرأة ما فيتزوجها ... وبعد ذلك لا تدفك من تأنيبك والشجار معك ليل نهار ... وتكتشف أنها جاهلة وحمقاء ... ودائماً تنشد على سمعك هـذه الأغنية البغيضة .. هذه الأغنية التي لا تطاق .. أغنية «موسيت» ! تتشاجر طيلة نهارها مع الباعة ، وتروى لخدم المنازل المجاورة تلك الأسرار العائلية الدقيقة ، وتسب زوجها التاعس مع كل إنسان ... وتتحدث بألفاظ غاية في القحة ، وغاية في الحمق ، وغاية في البذاءة ، حتى إن المرء لا يمالك نفسه من البكاء عندما يتحدث إليها ...

... ... وتوقف محدثي عن الكلام ، فأخذت أنظر في دهشة إلى هذا المخلوق المحدود العقل . وكنت على وشك أن أردّ عليه ، عندما وقف الزورق في سان كاود ، ونهضت الفتاة التي استرعت انتباهي من مقعدها لكي تبرح الزورق ، ومرت إلى جانبي فنظرت إليّ نظرات عميقة ساحرة ، وافترّت شفتاها عن ابتسامة فاتنة . ثم غادرتني إلى الشاطئ ، ونهضت لأتبعها فأمسك بي صاحبي يمنعني ، واستطعت أن أتخلص منه فأمسك بي مرة أخرى من ذيل سترتي وجذبني إلى الوراء ، وصاح بي بأعلى صوته :

— إنك لن تذهب ... إنك لن تذهب ...

والتفتُ حولي لأرى من على الزورق يتغامزون ويتضاحكون .. ثم تحرك الزورق !

وظلت الفتاة واقفة على الشاطئ تنظر إليّ في رقة وحنان ثم تختفي من ناظريّ ، وقد لاحت على وجهها الجميل أمارات الغضب ، بينما وقف رفيقي يفرك يديه جذلاً مسروراً ، ويهمس في أذني :

— يا سيدي لقد أديت لك خدمة صادقة !

(الإسكندرية)

ترجمة
فؤاد كامل

والشر ، وكأنها تقول لك : « كلنا في الهوى سواء » .

ارتشفنا من سحره ونعمنا ، وهو ساقٍ لم يكد يرى النشوة تدور برءوس الشاربين ، حتى أخذ يعاجلهم بالكأس بعد الكأس ، فأصبحنا سكارى لا ندري ماذا يصيبه الساقي — كعادته — وإن كان من الخالدين في الأكاديمية — في الكؤوس الأخيرة !

ولولا الحرب لما صحونا . فالتاريخ ألاعيب قاسية . انهارت فرنسا انهياراً سريعاً ؛ ولم يتورع أبناؤها من كشف الستار عن حياة رؤسائها السابقين وقادة الرأي فيها ، فتطينا أنوفنا بالمناديل . وهاجر « موروا » إلى الولايات المتحدة ، ليكون مدرساً للغة الفرنسية في إحدى جامعاتها ، وكتب كتابه . وما ذنبنا إذا كنا قرأناه ومأساة فرنسا في أذهاننا ! ليتنا لم نقرأه . لم يحط قلمه كتاباً أتفه من هذا الكتاب ، مع أن موضوعه هو حياة « موروا » نفسه . صحونا أخيراً — والحمد لله — ... وأدركنا أن كل قصصه تدور حول مشا كل تافهة تستند على أنانية طائفية عمياء ، ونزوات مبعثها امرأة ، هي دائماً عشيقة متقلبة الأهواء ، كأنما الحياة كلها إقبال امرأة أو صدها . وأدركنا أن « موروا » في السيرة عمل معنا ما يعمله أدلاء كوك للسياح العجلين ، يقودونهم في سهولة ويسر ورفق ، في جولة سريعة يخيل إليهم بعدها أنهم علموا كل شيء ، وأحاطوا بكل شيء ... ولا يزال هناك كثيرون يفضلون السير وحدهم على الأقدام ، ولذتهم إذا ضلوا الطريق مرة أن يهتدوا إليه في النهاية بجهودهم ، وأن يروا بعيونهم وإن رأوا قليلاً .

كنا نظن أننا سنعود إلى بعض كتبه ، فقد يصل من اعتاد القراءة إلى عهد لا يلذ له فيه إلا أن يقرأ ما قرأه من قبل . ولكننا نقول لأندريه هرزوج — فهذا هو اسمه الحقيق — وداعاً وداعاً ! إن الزمن يسير ، والصداقات كلها لا تدوم ...

أما الكتاب الثاني ، فهو سيرة استيفان زفيج . هي آخر ما كتبه في مهجره بالبرازيل . ولا مفرٌ من أن نتناول هذا الكتاب بشيء من الخشوع . ففي نهايته صورة فوتوغرافية للرسالة التي حررها ليعلن فيها عزمه على الانتحار ويودع أصدقاءه والعالم . وقد يقال إنه لولا إقدامه على كتابة سيرته لما انتحر . والظاهر أنه لم يكن يدري كيف يختم كتابه ، فلم يجد مخرجاً إلا أن يختم حياته . فخاتمة الكتاب هي أشق ما ينوء به المؤلف الحريص على الإبداع . تُرى أيهما كان يفضل أصدقاؤه ومحبوه : أن يغنموا هذه السيرة ويموت ، أو يخسروها ويحيا ؟

لم يُعن زفيج بحياته العاطفية . فالكتاب كله محاولة عنيفة لشبح مخيف يسيطر من وراء الغيب على المؤلف ، حتى من قبل مولده ، وإن كان هذا الشبح لم يتجسم إلا بعد ذلك بزمن طويل ... هو شبح هتلر ومبادئه العنصرية البغيضة . وهكذا يقطع القارئ معظم الكتاب يتتبع بقلب مؤاسٍ بلاءَ يهودي تائه في العصر الحديث . ثم إذا به ، وقد أوشك الكتاب على نهايته ، يقف مرضاً ويقرر مقدمة طويلة ، على ذكر زواج المؤلف . أما « موروا » فقد قدّم لنا وصفاً مستفيضاً لصاحبته ولقائه بها ، وعواطفه وعواطفها ، والآلام والشكوك التي دبت في قلبه بعد أن عاد إليها بعد الحرب الماضية . أما زفيج فلم يكن معنياً إلا بالتأريخ لشعب إسرائيل في ألمانيا ، والمبادئ التي كان يخيل إليه أن الحضارة الأوربية تقوم عليها ، وانهيار آماله في المستقبل . والقارئ معذور إذا رأى نفسه غير قادر على أن يصدر حكماً عادلاً . فالكتاب كله صرخة حارة ضمنها المؤلف دفاعه عن نفسه وشعبه ، أمام قارئ قد فاته سماع أقوال الاتهام .

لقد صاحبنا « زفيج » منذ نشأتنا ، كما صاحبنا قبله زميله موروا . وكم سهرنا الليل مأخوذين بسحر هذا الكاتب

البليغ ، الذى تندفق الكلمات الناصعة البراقة القاطعة من قلمه تدفق السيل يدفعنا أمامه دفعاً ، حتى تكاد تنقطع أنفاسنا ، وتستغيث به أن يتريث ويرفق بنا لحظة واحدة نسترجع هدوءنا فلا يغيث ، ولا نقوى على ترك الكتاب إلا إذا انتهينا منه . فإذا تطلعت عيوننا من بعده للحياة ، كنا لا ندرى هل خرجنا من حلم إلى حقيقة ، أو من حقيقة إلى حلم ...

وقد كشف زفيج – جزاه الله خيراً – عن سر قوة أسلوبه ، وحبذا لو انتفع بدرسه بعض كبار مؤلفينا الذين لا يزالون يتلاعبون بالألفاظ كأنهم أطفال على شاطىء البحر ، تسحرهم بعض الأصداف الفارغة .

وأشهد الله أنى كنت أتمزق إزاء كل كتاب بين الشعور بالرضا لما قرأت ، والسخط لصرعتى بين يدى المؤلف مضطراً . وكنت أشبه نفسى بسليم يتأذى من حقنة الوقاية ، ولكنه يقبلها رغم أنفه . وجاء وقت أصبح فيه زفيج بالنسبة إلىّ كالمخدّر ، كالحشيش أو الخمر ، أعوذ به سيستعبد ذهنى ، ولكنى أعقو إليه . وكان مما يعدلى عنه مقالاته السوداء القاتمة فى وصف الغريزة الجنسية ، وجعلها المفتاح الوحيد لا لتفسير الشخصيات فحسب ، بل لتفسير التاريخ البشرى كله : فالثورة الفرنسية عنده مَلِكة قوية ومَلِك ضعيف ! وتاريخ اسكتلندا وليد عرس امرأة تعذبها مطالبها الجنسية . وقد هبط زفيج فى قصة « اضطراب العواطف » إلى أغوار يضيع فيها الهواء والنور والروح ، ويعذر قارئه إذا تصور أن المرض صحة والصحة مرض .

والغريب أنه إذا وصف لقاء حب بين رجل وامرأة ، كان أقدر على وصف عواطف الأنثى منه على وصف عواطف الرجل ! والكلمة التى تتردد فى معظم كتاباته ويتخذها مثلاً أعلى لكل لذات هذه الحياة هى كلمة الحل والوضع .

فالوحى عنده حَمْل ، والتأليف وضع ، وهكذا ... ولو كنت أباً ، ورأيت ابنى يقرأ زفيج لما منعته . ولكن لا شك فى أنى أحرص على أن أعطيه ، بعد كل كتاب يقرؤه ، بحثاً علمياً يصف الكون والخليقة فى سائها ، حتى لا تكون نظرته دائماً إلى أسفل ... إلى نفسه !

شاخ موروا الفرنسى ، ومات زفيج الألمانى . فمن عاش ؟ عاش السكاتب الإنجليزى سومرست موهام ، الذى ظل طول عمره لا ينفعل ، ولا يجادل ، ولا يأمل ، ولا يحابى . لا يضع لنفسه مبادئ سامية ليبشر بها ، بل اقتصر على وصف الحياة رائعاً يعين النسر المفترس قد قلمت أظافره ! فقد أوفى على السبعين ، وها هو فى أمريكا يواصل تأليفه .

وقد كتب أخيراً سيرته ، لم يطلب فيها من القارئ أن يحكم أو أن يأسى ، أو أن يصلح نفسه .

فما أسعده !

يحيى حقى

بين المجلة والقراء

تعقيب

جاء بعدد الرسالة رقم ٥٧٩ بالصفحة رقم ٦٦٠ بإمضاء عبد الحميد ناصف مدرس بكلية اللغة العربية ما نصه :

« (الصدفة) كلمة لغوية بالرغم مما شاع من عدم لغويتها ، فكثير من المعاجم وكتب اللغة كاللسان أوردها ، وفى حديث أبى ذر « ... والبر ما حاك فى النفس ولم تلده صدفة » ، وقال أبو دهبل الجمحى :

قطوراً أمنّى النفس لقياك صدفة
وطوراً إذا ما لج بى الحزن أنشج »

ولقد طالعت مادة ص د ف فى لسان العرب وقاموس الفيروزابادى ، وصحاح الجوهرى ، ومصباح الفيومى ، فما وجدت لها أثراً . فأين هى كتب اللغة والمعاجم التى أوردتها ؟

ولقد قرأت أحاديث أبى ذرّ ، فى مسند الإمام أحمد الجزء الخامس من الصفحة رقم ١٤٤ إلى الصفحة رقم ١٨١ فما وجدت لهذا الحديث أثراً ، وذلك بعد أن أعيانى البحث عنه فى « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى » .

على أن من يخط بقلمه « والبر ما حاك فى النفس » فإما أن يكون كتبه ذاهلاً ، أو جاهلاً ! وحاش لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : والبر ما حاك فى النفس ، وهو القائل :

« البر ما انشرح له الصدر »

« البر ما اطمأن إليه القلب »

« البر ما اطمأنت إليه النفس »

أما الذى حاك فى النفس ، فليس هو البر ولكنه ... الإثم .

بقى بيت أبى دهبل الجمحى . لقد روى له أبو تمام فى الحماسة ثلاث مقطعات ، وهو ممن يُحتج به ، فكيف عمى الجوهرى والأزهرى ، وما بلغ آذان ابن سيده ، فلم يعقبوا على هذا البيت وهم المعنيّون بجمع أوابد الكلم ، وصيد شوارده ، حتى إذا انقضت هذه القرون الطويلة ، وقع عليه حضرة الأستاذ بهذه السهولة ؟! فليتكرم مشكوراً بذكر المصدر الوارد به هذا البيت لمعرفة قيمة نسبته إلى قائله ونسبته إلى الصحة .

محمد فؤاد عبد الباقى
بالمجمع اللغوى

ولماذا ... ثم ولم لا

العمل الشامى الجميل لا يَقْبح إلا إذا فقد ميزات سماته ، كما يجمُل القبيح إذا فقد سمات قبحه .

فلئن كان الشعراء قد أضفوا على الشعر بهجة التجديد وجماله ، وأطلقوه من دائرته المحدودة إلى دوائر يحددها كلٌّ حسب ما ترتاح نفسه ، فبذلك قد ألبسوا الشعر مسوح الجمال الجديد فى فتنة مبتكرة من البيان والإشراق .

وهو عمل جميل لا يقبح إلا إذا فقد سماته . وما سماته إلا مظهر وضعه وبنائه ؛ لحرى بمن ينهج هذا النهج ألا يجتاز أوزانه التى ابتكرها بنفسه لنفسه ، وأن يلزم نفسه بما ألزمها به ؛ وإلا فقد جرّد شعره من فتنة التجديد المحبوبة ، ووضعه عن منزلة القديم المرنجة . فما هو بالغٌ بشعره هذا ولا ذاك !

واليوم وقد قرأت — بمجلة الثقافة الغراء بالعدد ٢٩٠ الصادر يوم ١٨ يوليه سنة ١٩٤٤ — قصيدة « ولماذا » للشاعر المبدع الأستاذ كامل علاوى ؛ فوجدتها جديرة

بالإعجاب لما بها من معان حية رقيقة ، وكأنما كأنها مسحورة بنفثات شاعريته الفياضة !

بيد أنه وقف بي النظر على بيت من أبياتها لا يتفق وزنه وسائر أبيات القصيدة . ذلك هو :

« كل نفس بسرها لا تفهمه »

ووزنه : (فاعلاتن فاعلاتن فاعلا)

مع أن الوزن الذي التزمه الشاعر هو :

(فاعلاتن . فاعلاتن . فاعلاتن . فاعلاتن) (أربع مرات)

وهذه تفاعيل بحر الرمل ، وأجزاؤه ستة إذا كان تاما ، وأما إذا كان مجزوءاً «صحيحاً أو محذوفاً أو مسبغاً» ، فأجزاؤه أربعة كقول الشاعر العربي :

« مقفرات دارسات مثل آيات الزبور

أو قول الآخر في المجزوء المحذوف :

ما لما قرت به العيـ نان من هـذا ثمن

أو قول الآخر في المجزوء المسبغ :

يا خليلي اربعا واسـ تخبرا ربعاً بعسفان »

والمجزوء المحذوف هو الوزن الذي التزمه الشاعر ؛ فلمَ تفاعيل هذا البيت الذي استوقفني النظر عليه ثلاث فقط مع كون أبيات القصيدة كلها أربع تفاعيل ؟

ومع أنه لا يجوز في بحر الرمل أن تكون تفاعيله ثلاثاً مطلقاً ، بغض النظر عما يدخله من خبن في سائر تفاعيله ، وعما يدخله من حذف وقصر في أعاريضه وأضربه ؟ . . . لعله نسيان لا إهمال ! . . . وغفلة لا شطط ! . . .

وللشاعر الفذ مع وافر إعجابي فائق إجلالي .

(المنصورة) الطنطاوي مبروك أحمد زيد

١ – أسلوب ابن حزم مشهور

عزا الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في عدد مجلة « الرسالة » ٥٧٣ قولاً إلى الإمام ابن حزم في كتابه : (مراتب الإجماع) ، والصحيح أنه من كلام الفقيه البخاري في كتابه (محاسن الإسلام ص ٦٢) المطبوع مع (مراتب الإجماع) في سفر واحد . وعجيب ممن يتولى الحكومة في زعامة الشعر الجاهلي ألا يمايز بين الأسلوبين ؟!

٢ – لكل جواد كبوة

يقول الأستاذ النشاشيبي في عدد مجلة الرسالة ٥٢٤ في ص ٥٦٦ : « هذا من الأحاديث التي صحت عند الإمام أبي حنيفة ، ومقدارها معلوم ، وقد ذكره ابن خلدون في المقدمة » .

وفي حاشية (شروط الأئمة الستة لابن طاهر المقدسي) المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٥٧ (وما قاله ابن خلدون في مقدمة تاريخه من أن أبا حنيفة لتشدده في شروط الصحة لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً ، فهفوة مكشوفة لا يجوز لأحد أن يغتر بها ، لأن مروياته على تشدده في الصحة لم تكن سبعة عشر حديثاً فحسب ، بل هي في سبعة عشر سفراً يسمى كل منها بمسند أبي حنيفة ، خرجها جماعة من الحفاظ وأهل العلم بالحديث بأسانيدهم إليه ، ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغه من أحاديثه ؛ وقلما يوجد بين تلك الأسفار سفر أصغر من سنن الشافعي رواية الطحاوي ، أو من مسند الشافعي رواية أبي العباس الأصم ، اللذين عليهما مدار أحاديث الشافعي . وقد خدم أهل العلم تلك المسانيد جمعاً وتلخيصاً ، وتخريجاً وقراءة ، وسماعاً ورواية ؛ فهذا الشيخ الحافظ محمد بن يوسف الصالحي الشافعي ، محدث

بين المسموع والمقروء

الأدب والمعدة

فى مائدة الإفرنج ، والمتفرنجين ، يشرب القوم فَطاير الخمر قبل الطعام . ويشربونه طعوماً وألواناً . ودعواهم فى ذلك الاستعانة على الهضم . فهم يستعينون على الهضم قبل أن يكون الطعام .

أما أنا فأستعين عليه ، أحياناً ، ولكن بعد أن يكون الطعام ؛ بعد الفراغ من المائدة والقيام عنها .

وخمرى فى ذلك ليست كُمَيتاً مما يُعتّق فى الدِّنان ، ويُسكَب فى الكؤوس فيرقص على سطحه الحَبَب ، ولكن خمرى فى ذلك الأدب ، أسقاه على الأكثر مما عتّقته القرون بين أغلفة من الجلد سميكة .

وأجلس للأدب عندئذ فى شبه احتفاء كما يجلس طالب الشراب ، فى مجلس وطىء ، من ورائه شمس النهار إن كان نهار ، أو مصباح يفتك بظلمة الليل إن كان ليل .

ولا أتناول من الأدب عند ذاك إلا شعراً . فالشعر هو وحده من صنوف الأدب الذى يلتئم والمعدة المليئة ، لأنه الوحيد من صنوفها الذى يلين مع النغم . وهو لا يهضم إلا أن يكون توقيعاً فى الحلق مسموعاً . ولهذا الإيقاع إلى الهضم طريقان : أحدهما يصل إلى المعدة مباشرة فيهزّها خفيفاً رفيقاً ، والآخر يصل عن طريق العصب بارتياح النفس إلى ما تُنشد ؛ وراحة النفس كراحة الجسم ، يطّرد عليها الهضم طيّباً سهلاً .

وإياك أن تطلب الهضم على ما لا تَرضى من الشعر ، فعندها يسوء كلاهما . وقد جرّبت هذا فى كثير من شعرنا الحديث ، لغير الشوامخ ، فساء الشعر فى حلق تغنيه ، فوق هذا مصدّق أن يسوء الشعر فيها هضماً .

إنى بهذا اكتشفت طريقة يُمتحن بها جيّد الشعر من خبيثه ، وهى طريقة عملية آلية كالتى يعتمد عليها العلم فى كشوفه : رغيف وأدام مما يحتاج هضماً ، ثم جلسة كالذى أصف ، تُرسِل فيها النغمَ إرسالاً .

رحمة الله

ولا يُحَدِّثْنَك عن هذه الطريقة — فلا تمتحنها — ألا يكون لك صوت مَعبَد والغَرِيض ، أو تغريدة القمرىّ ونُواح الحمامة ، فقد كفتك هذا رحمةُ الله . فرحمة الله قضت أن يستعذب الإنسان صوت نفسه ولو كان أنكر الأصوات . ذلك أن المرء لا يسمع صوت نفسه أبداً — لا يسمعه على حقيقته . فهو يسمعه من الظاهر كما يسمعه من الباطن — من النفس وإلى النفس — وهذا

الديار المصرية ، وصاحب الكتب المتمة فى السير وغيرها ، روى تلك المسانيد السبعة عشر عن شيوخ له ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجيها فى كتابه (عقد الجمان) ، وكذا رويها بطرق محدّث البلاد الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون فى (الفهرست الأوسط) عن شيوخ له سماعاً وقراءة ومشافهة وكتابة بأسانيدهم كذلك إلى مخرجيها ، وهما كانا زينى القطرين فى القرن العاشر للهجرة . وكذلك حملة الرواية إلى قرننا هذا ممن لهم عناية بالسنة . وما تلك المسانيد والكتب من متناول العلماء ببعيدة ، وكتاب (عقود الجواهر المنيفة للحافظ الزبيدى) شذرة من أحاديث الإمام ؛ وللحافظ محمد عابد السندى كتاب (المواهب اللطيفة على مسند أبى حنيفة) فى أربعة مجلدات ، أكثر فيه من ذكر المتابعات والشواهد ، ورفع المرسل ووصل المنقطع ، وبيان مخرجى الأحاديث ، والكلام فى مسائل الخلاف .

أحمد صقر

الطريق أقوى وأوحى من الطريق الظاهر.

حدثني صديق أذاع بالمذياع كلمة، أعيدت له من بعد ذلك مسجلة. قال إنه استمع لها فعجب أن يكون هذا الصوت صوته. لقد أنكر صوته مسجلاً، بينما لم ينكره من عرفوه. فهل برهان أكبر إقناعاً من هذا بأن المرء لا يسمع صوت نفسه وهو ألزم له في حياته من خياله؟

عجز المرآة

وليس صوت المرء أخفى ما فيه عليه. وجه الإنسان، وهو رمز كينونته وصحيفة وجوده، خفي عليه أزماناً حتى اخترعت المرآة. على أن المرآة لم تفد المرء في كشف نفسه لنفسه إلا قليلاً. إنه لا يرى فيها إلا بعض نفسه، وهو لا يرى هذا البعض إلا إذا قيد عينيه بها. فهو يرى وجهاً واحداً دون سائر الوجوه؛ وهو لا يرى قفاه، وهو وجه من سائر هذه الوجوه، إلا بمرآتين.

حدثني وزير مفوض ظهرت صورته في فلم سينمائي، فلم يتبين نفسه على الشاشة إلا عندما نبه إلى نفسه. وأفلت الفلم أمام عينيه سريعاً. فعاد إلى مشاهدته. وعلق على هذا، قال: كان مفتاح معرفتي نفسي على الشاشة هذا الوجه الذي أراه كل يوم في المرآة عند الحلاقة. فلولاه ما عرفت أن هذا الظهر ظهري، ولا هذا الصدغ صدغي، ولا هذه الحركة حركتي ولا تلك المشية مشيتي. إني أسكن بيتاً عتيقاً، سكنته خمسين عاماً، ومع هذا لا أعرف منه إلا وجهه، ويعرف الناس خلفه والجانبين. وعرفوه ساكناً ومتحركاً. وما عرفت بعضه إلا ساكناً!!

قلت لصاحبي الوزير: فهل حدث ما تكشف لك من هذا البيت آخر الأمر؟ قال: لا. ولقد وددت أني جهلت حتى ما كشفت لي من وجهه المرآة.

عمياء

إن صوتي في توقيع الشعر لا أظن أني أحد، لو أعرته غيري. وليس يناقض شيئاً أن أستعير صوت الموصلي والحولي. إنه عندئذ ينزل منزلة صوتي، لا أحمده ولا أقدره، ولكن يكون لي منه الراحة — الراحة من مناغمة نفسي الداخلة — كالتي تكون لي من صوتي.

ولي ابنتان بينتان، استعرتهما من أجنبي، هما أشبه بأنغام الحداء.

كان الرجل الطيب، طيب الله ثراه، يقضي إجازته السنوية على الأدب، يقرأ فيها كتاباً قراءة دارس. ولما تقدم به السن استبدل بالأدب الفقه والحديث، يتخللهما الأدب حنيناً إلى الشباب الذاهب.

وكنت صغيراً يأخذ بأذني جميعاً حداؤه بشعر المتنبي. فما يقوم من «كنبته» للوضوء والصلاة حتى يتلصص ابن العشر حتى يجلس مكانه؛ يجلس بين الكتب المنشورة على مثل جلسته، ثم يأخذ يحدو مثل حداء أبيه، بشعر لم يفقه له معنى، ولكن فقه له بالشكل مبنى. فقد كان الكتاب للعكبري.

طباع القردة

إن لم يكن هذا من بعض ما فينا من طباع القردة فما يكون؟!

واستيقظ فيّ طبع القرد فقلدت الرجل الطيب في غير الأدب تقليداً دامياً. كنت أراه يحلق ذقنه، فأنظر وأعجب. وما فرغ من هذا ذات صباح حتى تلصص الصبي إلى الموسى والصابون والمرآة. ولم تمض دقيقتان حتى ارتسم خط رفيع على شفته العليا، خطه الموسى أحمر قانياً. ويمسحه بيديه ويغير يديه فما ينحسر الدم عن شفته أبداً. ثم

كان له فى كنف الأم — روّى الله جدثها — السترُ والملاج . فالستر السكن الأول ، والملاج الحل الثانى .

قيس ولُبنى

قدّمت هــذه المقدمة ، التى أفلت زمامها من يدى ، لأقول إنى جلست إلى الأدب بالأمس ، من بعد حين ، لأخفّف من أكلة ثقيلة . ومددت يدى إلى الأرض أنال به كتاباً حيثما اتفق . فكان « قيس ولبنى » . وكنت قرأت هذه القصة التمثيلية عندما ظهرت منذ بضعة أشهر ، فأعجبتُ بها . وكان الوقت هذه المرة عشية ، فقلت أغتبق من بعد اصطباح . فكان غَبوقها وايم الحق أحلى من صَبوحها . ولعل هذا كائن فى كل حسن ، وفى الوجوه الحسان عامة ، ووجه أبى نواس خاصة

يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدته نظراً

ولست أريد الوجه الذى صاحبُه أبو نواس ، ولكن وجه صاحب أبى نواس أو صاحبته الذى قال فيه هذا .

إن قصة قيس ولبنى قصة ممتعة مشهورة . وهى لاشك خالدة لأن حوادثها تتجدد بين الناس فى كل جيل وبكل قبيل . أحبَّ قيس لبنى وأحبته ، ولكنه شبَّب بها . فلما طلب زواجها منع منه قانون البدو والبيداء . وتشفع بالحسين فقُبلت الشفاعة . ثم غارت أم قيس وغار أبوه لاختصاص لبنى بأكثر عطف قيس واحتفائه . ويعمل الشيخان حتى يكون طلاق . ثم تذوب نفس قيس وراء لبنى ولا من سامع أو مجيب . ويطلب السلوى بالزواج فلا تكون سلوى . وتقتص لبنى لعزتها فتتزوج كريماً ماجداً . ثم يجتمع قيس بلبنى فى بيت زوجها وهو فى سبيل تجارة ، وهو لا يعلم أنه بيتها . ويعلم الزوج الكريم بحقيقتهما فينسلّ من بينهما كريماً ، فيعود الحبيبان إلى قديم عهدهما .

ولقد أعجبنى فى هذه القصة ، على ما رواها عزيز أباظه بك ، تلك السلاسة التى وجدتها فى كتابه السابق « آنات حائرة » . ولو أنى خُيّرت أن أميل لملت إلى « أناته الحائرة » . وما كان يمكن أن يكون غير هذا ؛ فتلك كانت آنات صادقة احترق بها قلب الشاعر على حب قطع الموت أسبابه ؛ أما هذه فآنات موصوفة ، احترق بها قلب قيس على حب وصلت الحياة أسبابه .

وإن فى هذه السلاسة لمتانة امتدت فى القصة امتداداً ، حتى فى القول الخارج منها . وهو أسلوب امتدت أصوله فى بادية العرب ، ولكنه نوّر فى حواضر الإسلام . وهو أسلوب امتُحن فى هزل المواقف وجدّها ، وفى حرجها ورحبها ، وفى فرحها وحزنها ، وفى الخطير منها والتافه ، فجاز الامتحان على خير ما يجوزه أسلوب كان عليه أن ينظم ما بين الخمس عشرة مائة من الأبيات والألفين .

وليس يقنع شىء كالمثال أورده احتياطاً .

أنشودة العرس

يا بهجة المُلتقيا لُقيا الحبيبين
إشراقة الدنيا فى حبّ إلفين
والفرحة السكرى فى ضمّة اثنين
تهنيك يا لُبنى يا قُرّة العين
هل يُشرق المَغنى إلا بزوجين
يا نغمة الشادى تحت الدجى غنّى
يا نسمة الوادى يا غصنه الدّنا
يا همسة النجوى أفضى بهــا المضنى الخ .

فهذه أنشودة راقصة ، لا يلبث أن يهتز لها الجسم إذا أنشدها اللسان .

الزهوة للطعام

ويعرض قيس ثم يُبِلّ . وفى إبلاله تغريه زوجته لبنى بالطعام فتقول ويقول :

لبنى : أما شعرتَ بجوع   إن الطعام مُهيَّأ
يا قيس إن شئت مُرْنى   تجد خِواناً شهيًّا
قيس : هاتيه يا نور عينى   هاتيه لى بيديك
فإن طَعِمتُ فرِزْقى   هناك من شفتيك

كلام بسيط ، تقوله أنت وأقوله أنا ، ولكن ليس فى هذه الحلاوة !

أمعرض :

ويأتى الحُباب ، والد لُبنى ، يحملها فى جماعة من قومه عن بيت زوجها بعد طلاقها فيقول :

آن وقت الرحيل يا قوم فامضوا   فالمطايا مزمومة والعِيسُ
ودِّعوا الحىَّ من بنى الليث ما زُ
حَلْ إلا ووِدُّنا مغروس
لا يبيع الرجالَ إلا دَنِىٌّ   أو يردُّ المعروفَ إلا خسيس

ونجد هذا الخلق الكريم والوفاء المَسَمّ شائعاً فى القصة كلها حين لا يُرجى وفاء ولا كرم .

فأبو لبنى يقول هذا الذى قال على هذا الفراق الأليم ولبنى تشقى فتقول مودِّعة بلادَ زوجها :

عليك سلام الله أرضَ كنانة
وداعاً فهل تُرعَى لديك الودائع
نسيمك ريحان وتُربك عنبر   وزرعك ألوان وماؤك ناقع
وصبحك لألاء الفاتن ساطع
وليلك مَوشىُّ الجوانب رائع

وقيس يقيم على ولائه لأبويه الشيخين بعد أن برّحا به وبلُبنَى ما برّحا . حتى وهو يحاول ضم لبنى إليه مرة أخرى بعد زواجها من غيره . تسأله لبنى متخابثة :

لبنى : كيف شيخاك ؟
قيس : أأمى وأبى ؟
بقضبان العمر أغلَلْنَ كراما
أحمد الله على نعمته
ما برومان من الدهر صراما

وتقول مستهزئة :

لبنى : أمقيمان على عهدهما
يا لأن البيت عدلاً وسلاما ؟
قيس : خطأ الشيخين لا أنكره
مَن من الناس عن الظلم تسامى

منبر :

ويفترق العاشقان طلاقاً بائناً . فيحن عاشق ويحن عاشقة .

يحن قيس فيقول :

كنتُ فى نَاعم من الدهر أضحى
وعلى مُونِق من العيش أمسى
بين وشى الهوى وفى خُضَل الرِّفه
ولُبنَى راحى وروحى وأنسى
أين روضى الذى سقيتُ بدمعى
أين ظلّى الذى مددتُ وغرسى
أين عشٌّ قضيت فيه ولبنى
سنوات مرت كلَيلة عُرس
زال عنه هَزاره وجفاه   فتداعى ما بين يوم وأمس

وتحن لبنى فتقول :

أين الليالى الخاليات بحاجرٍ والمنحنى
أيام نمرح بين أعطاف الصبابة والمُنى
ونرى الدنيا وكأنما خُلقت لتجمعنا الدنا
ويكاد لم يَسِلْ العقيق ولم يَرقْ إلا لنا
يا قيس جُرتَ ولم تكن يا قيس إلا مُحسنا
لو كنت أعلم أن حبك مُلبسى ثوب العنا
لنعت حبك يا شقيق الروح أن يتمكّنا
يا قيس لم يهدأ هواك وبيننا ما بيننا

أوّاه قد سحب الفراق على أذيال الصبى
كل الشباب محشمون بحبهم إلا أنا

هذا كلام جميل ، لا يحسّ جماله غيرُ ذى لوعة ، قديمة أو حاضرة .

شوقى لبلى :

وجلست إلى « قيس ولبنى » أقرؤه ساعتين ، حتى أتيت على آخره . أتدرى لِمَ شاقنى ؟ شاقنى إلى صنوه « مجنون ليلى » لشوقى بك . ومددت يدى فجررته من مخبئه على رف الكتب . وأخذت أقرأ لشوقى ، فما أحسست أنى انتقلت بعيداً . كان إحساسى إحساس من انتقل من منشستر إلى لندن ، أو من ليون إلى باريس ، أو من الإسكندرية إلى القاهرة . الناس هم الناس ، واللسان هو اللسان ، وأسلوب العيش هو أسلوب العيش ، والمدنية هى المدنية ، وإنما فى ظرف أكبر . فعزيز يترسم خطوات شوقى ، وله من جزالة لفظه ما يعينه على أن يحاكيه فيقاربه ، ويقاربه كثيراً . وهذه خير تحية يتحلى بها شاعر فى مصر أو فى الشرق كله .

كان هذا إحساسى . إلى أن بلغت إلى قول شوقى على لسان قيس ، قيس ليلى ، إذ بلغ ، وهو فى سبيله إلى ليلى ، جبل التوباد ، ملعبَ صباهما ، ومربع شبابهما .

قال قيس ليلى :

جبل التوباد حيّاك الحيا   وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى من مهده   ورضعناه فكنت المرضعا
وحدونا الشمس فى مغربها   وبكرنا فسبقنا المطلعا
وعلى سفحك عشنا زمنا   ورعينا غنم الأهل معا
هذه الربوة كانت ملعباً   لشبابينا وكانت مربعا
كم بنينا فى حصاها أربُعاً   وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخططنا فى نقا الرمل فلم   تحفظ الريحُ ولا الرمل وعى

الله ! الله !

لم تزلْ ليلى بعينى طفلةً   لم تزد عن أمسِ إلا إصبعا
ما لأحجارك صُمًّا كلما   هاج بى الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعتُ الصبا   فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة   وتهون الأرض إلا موضعا

الله ! الله ! مرة أخرى ، لهذا البيت الأخير .

بلغت هذه القطعة ، فقلت معيار القارئة أن أجد مثلها لقيس لبنى . وبحثت فلم أجد .

أم أنا عميت ؟ ربما

أم أنى نظرت فى الكتابين نظرة القارئ العادى ، ومثل هذا الذى طلبتُ يحتاج ، لا إلى بصر قارئ مثلى عابر ، وإنما إلى بصيرة أديب مكين ؟ ربما أيضاً .

أحمد زكى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠١ — الثلاثاء ١٦ من شوال سنة ١٣٦٣ — ٣ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

الرفق بإيطاليا

منذ أسبوعين كتبت هنا مقالاً لمت فيه القيادة الألمانية على تشتيت قواتها في الأقطار النائية ، من أجل التشبث بكل شبر من الأرض ، بدلاً من حشد الجيش الألماني للدفاع عن الوطن . كتبت تلك السطور في شيء من التردد ، وأنا أخشى أن ألام على التعرض لموضوعات لا أحسنها ؛ ولذلك طالما أمس بشيء من الارتياح ؛ في خطاب رئيس الحكومة البريطانية ، نقداً للخطة التي سار عليها زعيم النازيين ، في تشبثه بكل أرض وكل بلد غزاها ، وتعطيل جزء كبير من الجيش الألماني في البلقان وإيطاليا وبلاد البحر البلطي ...

وهكذا تتوارد الخواطر ، ويقع الحافر على الحافر .

واليوم أتجرأ مرة أخرى فأعالج موضوعاً سياسياً بعيد الغور ؛ ولكني لا أظن أن الحافر سيقع هذه المرة على الحافر ، لأن المستر تشرشل قد أعلن رأيه في الموضوع ، وبات من المعلوم أنه من أول دعاة الرفق بإيطاليا .

إن الرفق بالعدو المهزوم خلق من أنبل الأخلاق وأكرمها . وخصوصاً في حرب لا يسلّم فيها أحد الطرفين إلا بعد أن تنزل به الهزيمة الساحقة ، وحين لا يكون هنالك أي سبيل آخر سوى التسليم ؛ فلا شك أن من النبل بمكان عظيم ، أن تمد ذراعيك لعدوك المهزوم ، وقد خر صريعاً تحت قدميك ، فتنهضه ، وتجلسه إلى جنبك ، وتمسح عينيه بمنديلك ، وتربت على ظهره ، وتعطيه الماء ليرتوي والطعام ليشبع .

والرفق بالمهزوم من الأخلاق المتأصلة في نفوس كثير من البريطانيين ، وقد كان هذا الخلق سبباً في خلاف شديد بين فرنسا وبريطانيا حول معاملة ألمانيا بعد الحرب الماضية ؛ ولعله من الأسباب القوية في عدم التفاهم الذي ساد حيناً من الدهر بين الدولتين . وكان من جملة الأسباب

فى نهضة ألمانيا النازية الحديثة .

وقد اشتهر البريطانيون بعاطفة الرفق ، فهم الذين أنشأوا جمعية من أجل الرفق بالحيوانات ، فانتشر نفوذ هذه الجمعية فى جميع أنحاء العالم ، وعلّمت الناس فى مشارق الأرض ومغاربها أن يعطفوا على هذه الكائنات التى تؤدى للإنسان أجل الخدمات ، ولكنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الشكوى . ولا شك أن تأسيس جمعية الرفق بالحيوانات كان من أجل الأعمال الخيرية التى قام بها الإنسان .

وأرجو ألا يظن أحد فىّ العبث حين أذكر الرفق بالحيوان ، وأنا فى صدد الحديث عن الرفق بإيطاليا ؛ وكل ما هنالك من وجوه الشبه بين الحالين ، هو أن العامل القوى فى كليهما هو الشعب البريطانى . فلم تمض أشهر على هزيمة إيطاليا حتى سمعنا رئيس الحكومة البريطانية يعلن عطفه على الشعب الإيطالى ، ورغبته فى أن يراه متبوئاً مكانه اللائق به بين الشعوب . ثم قال فى مناسبة أخرى إنه لا يحس فى قلبه بغضاً للشعب الإيطالى . وفى أثناء هذا الصيف زار مستر تشرشل إيطاليا لكى يطلع على الأعمال الحربية ، التى كان من نتائجها غزو جنوب فرنسا ، كما زار الميدان الإيطالى نفسه ؛ وعند مغادرته إيطاليا وجه إلى شعبها كلمة ملؤها العطف والرعاية ، وشرح فيها معنى الحرية والديمقراطية بعبارة تجمع بين البلاغة وصحة الأداء . فقال إن الديمقراطية هى حرية نقد الدولة ونظمها ورجالها ، وأن يختار الشعب حكومته ويسقطها ، ويختار غيرها متى شاء ، وإن هذا هو النظام الذى يجب أن يسير عليه الشعب الإيطالى فى حياته المستقبلة .

ومنذ بضعة أيام عاد مستر تشرتشل من زيارته لرئيس الولايات المتحدة ، وأعلن للعالم الخطة التى تنوى حكومتا الدولتين أن تنهجاها نحو إيطاليا ، وخلاصتها أن من الواجب المبادرة ببذل كل مساعدة ممكنة لكى تنهض إيطاليا سياسياً واقتصادياً فى أقرب فرصة . ومما ساعد على انتهاج خطة الرفق بإيطاليا ، أن الألمان سلكوا خطة عدم الرفق بها . فأنشأوا فيها ميداناً للحرب ، تعرضت فيه بلادها وقراها للتخريب والتدمير ؛ وكلما ارتحلوا عن مكان أخذوا معهم كل شئ قد يستفيد منه عدوهم ، وما لا يستطيعون أخذه أحرقوه أو دمّروه . وهكذا رأت إيطاليا أن حليفتها بالأمس قد أصبحت ألد عدو لها اليوم ، فلم يكن لها مندوحة من أن تعلن الحرب على ألمانيا ، وأن تحشد البقية الباقية من جيشها لمحاربة العدو المشترك ، وأن يقف رجالها مع جيوش الحلفاء جنباً لجنب . ولا بد لنا أن نفترض أن قيادة الحلفاء اليوم تزود الإيطاليين بالذخيرة والعدة ، وقد أصبح الجنود الإيطاليون « رفقاء فى السلاح » للبريطانيين والأمريكيين والبولنديين واليونان إلى آخر المجموعة المنوّعة التى تحارب فى إيطاليا اليوم . أما الفئة الصغيرة من الإيطاليين التى ارتدت إلى الشمال مع الجيش الألمانى ، وفضلت أن تتبع الزعيم موسوليني على اتباع ملك إيطاليا وحكومتها الشرعية ، فإن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ؛ ويرى الحلفاء أن أمرهم من التفاهة بحيث لا يؤثر فى خطة الرفق التى لا بد من انتهاجها نحو إيطاليا اليوم .

كذلك قد ساعد على الرفق بإيطاليا أن قد تولت الحكومة فيها جماعات من الأحرار ، بعضهم كان منفياً مشرداً عن وطنه ، وبعضهم كان أسيراً معتقلا فى داره أو فى سجن من السجون الإيطالية ، قضى فيه أعواماً طوالاً ، لا لسبب سوى أنه عدو للنظام الفاشستى ، أى أنه كان عدواً للفاشية قبل أن تعاديها دول الحلفاء ، وأشهر عليها الحرب بسنان قلمه أو بلسانه قبل أن يفكر الحلفاء فى محاربتها ، بل لعل الحلفاء ، كانوا فى ذلك الوقت منهمكين فى مسالمتها ومداراتها . ولهذا السبب يعد كثير من أعضاء

الحكومة الإيطالية اليوم من جملة الحلفاء. ومن أجل هذا لا نجد غرابة في أن حكومة روسيا بادرت بالاعتراف بحكومة روما، وأرسلت مندوباً سوفياتياً فوق العادة إلى هناك.

وهكذا نرى أن عوامل كثيرة قد اشتركت في إملاء سياسة الرفق بإيطاليا؛ وليس أقل هذه العوامل شأناً أن الشعبين البريطاني والإيطالي تربطهما صداقة قديمة، وأن كثيراً من البريطانيين يعد إيطاليا وطنه الثاني، حيث ينعم بالهواء الجميل الذي لا يجد له نظيراً في بلده، والترحيب الحار، والنبيذ الجيد في جميع ساعات الليل والنهار. وكذلك الفرنسيون يعطفون على إيطاليا ويحبونها، وعلى الرغم من بغض الفرنسي لمغادرة فرنسا، فإنه مع ذلك إذا اغترب، طلباً للنزهة أو لقضاء شهر العسل، قلما يقصد بلداً غير إيطاليا. فلا بدع إذن من أن يكون الرفق بإيطاليا رائد الحلفاء في خطتهم بعد أن انتهت الحرب بالتسليم «بلا قيد ولا شرط»، وبعد أن أصبحت إيطاليا «رفيقة» في القتال بعد أن كانت عدوة.

ظاهرة العطف على إيطاليا إذن ظاهرة مفهومة إلى حد بعيد! وحاشا لنا نحن المصريين أن نقدح في تلك السياسة، على الرغم من أن القنابل الإيطالية الطائشة قد ألقيت على مدننا وقرانا، فقتلت بالأبرياء الذين لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل، وشردت عدداً كبيراً من سكان المدن، وخربت مئات من المساكن. وقد لا يكون هذا كله أمراً ذا خطر، ولكننا مع ذلك يحق لنا أن نصغي لما يقوله الفريق الآخر، الذي يرى أن خطة الرفق قد تذهب إلى مدى أبعد مما نرى إليه، أو قد تقصر عن بلوغ الهدف تقصيراً أليماً، ويرى أن من الصعب، بعد نيف وعشرين عاماً من الحكم الفاشستي العنيف أن تمحى آثاره من النفوس بين عشية وضحاها، لا بمعجزة من المعجزات، بل فقط باستعمال الرفق

لقد أعلن موسوليني غير مرة أن لديه ثمانية ملايين من الحراب يوجهها إلى تحقيق أي مأرب تطمح إليه الفاشية. وسواء أكانت هذه الملايين من الحراب ثمانية أو أكثر أو أقل، فإنه لا شك في أن شطراً كبيراً منها قد نشأ في حجر الفاشية، وتغذى بلبانها، وتشرب روحها. وإذا كانت سبعة أعوام من الحكم النازي قد قلبت ألمانيا رأساً على عقب، فإن عشرين عاماً من الحكم الفاشي قد أثرت من غير شك تأثيراً بليغاً في نفسية الشعب الإيطالي. لقد كان زعيمهم يقف أمام تلك الحراب — أو أمام جزء منها — ويصيح لمن الأرض أيها الأبطال؟ فيجيء الرد كالرعد القاصف: «للفاشستي»! ولمن البحار؟ ولمن الهواء؟ كل هذا للفاشستي! ذلك هو نوع الغذاء الذي كان يتغذى به الشباب الإيطالي عشرين عاماً كاملة، في الأندية والمجتمعات، وفي المحافل ومعاهد العلم؛ ولم تكن هذه الصيحات مجرد أنفاس تتصاعد في الهواء، وتظل في الهواء، بل كثيراً ما تحولت إلى طغيان وعدوان. فهي التي تمثلت في احتلال جزيرة كورفو في أول العهد الفاشستي؛ وهي التي دقت أول مسمار في نعش عصبة الأمم؛ وهي التي ألقت بالشيخ الفاني عمر المختار من الطائرة لكي يستشهد على هذه الطريقة المبتكرة؛ وهي التي بعثت الجيوش للقضاء على استقلال الحبشة وأمطرتها وابلاً من الغازات السامة؛ وهي التي سطت على ألبانيا في يوم الجمعة المقدسة، لكي تبدي سخريتها بالديانة المسيحية وتعاليمها.

وفي النهاية لم تهدأ هذه الروح الفاشستية حتى اشتركت مع ألمانيا فيما سموه «المحور». ثم زجت بالشعب الإيطالي في حرب ضروس تحرق الأخضر واليابس، وتضرم في النفوس روح البغضاء والعدوان. فهل يزول هذا كله لمجرد سلوك خطة الرفق؟ إن الذين يجيبون بنعم قد يحسنون صنعاً لو ذكروا أن «المحور» — وفيه

إيطاليا — لم يكن بينه وبين الفوز سوى قيد شعرة أو شعرتين كما أوضحنا في المقال الماضي ؛ فأى مصير كان يساق إليه العالم ؟ وأى رفق يرجوه من المحور لو أنه تم له النصر في العلمين وفي ستالينجراد ؟

لسنا بحاجة لأن نتعمق في الرد على هذا السؤال ، ولكننا نذكر أن إيطاليا قد دخلت هذه الحرب فأطالت أمدها ، ووسعت أفقها ، ومكنت الألمان من أن يبسطوا سلطانهم فترة من الزمن على البحر المتوسط ؛ وكان بحراً يسوده الأمن والسلام حتى دخلت إيطاليا الحرب ، وحتى أخذ أبناؤها يشنون الغارات في ليبيا وفي البلقان ، ويسفكون الدماء .

وسينادى أصحاب خطة الرفق بأن ذلك كان من عمل الحكومة الفاشية وزعيمها الطاغية . ولكن من الإنصاف أيضاً أن نذكر أن الشعب الإيطالي كان يطيع زعيمه طاعة عمياء ؛ بل يقتضينا الإنصاف أيضاً أن نقرر أن الكثرة العظمى من الشعب الإيطالي كانت تحب زعيمها حباً يقرب من العبادة . وكانا قد أحس هذا الحب للزعيم ولمذهبه في كل مناسبة جمعتنا بالإيطاليين في مصر أو إيطاليا أو في غيرهما من الأقطار . ولعل السبب الأكبر في حب الشعب الإيطالي لزعيمه أن الحكم الفاشي لم يكن شراً كله ، بل كان مزيجاً من الخير والشر . وقد أمكنه أن يجتذب الجماهير بما أثاره من الضوضاء ، وكذلك بما قام به من أعمال في الإصلاح والتعمير لا سبيل إلى جحودها . ولو أن إيطاليا أصغت إلى صوت العقل ولم تشترك في الحرب ، لكانت دعائم الحكم الفاشستي اليوم أقوى وأثبت مما كانت في أى وقت من الأوقات . ولكان أنصاره في الشعب الإيطالي أكثر عدداً وأجل خطراً . غير أن الحكومة الفاشية دخلت الحرب ، وباءت بالهزيمة والفشل . ومن الصعب أن نتوهم أن الهزيمة وحدها كفيلة بمحو روح العدوان والبغي التي غرست في النفوس من قبل .

نادى بعض الوزراء الإيطاليين في الحكومة الجديدة بأن من الواجب أن ترد إلى إيطاليا مستعمراتها كاملة غير منقوصة ؛ وتواضع البعض الآخر فنادى برد المستعمرات ماعدا بلاد الحبشة وجزر بحر اليونان ، التي يجوز أن ترد إلى أصحابها . أما ليبيا التي شنت منها الحرب على مصر ، والتي أريد منها أن تكون طريقاً لغزو الشرق الأوسط والهند ، وأما أرتريا وبلاد الصومال وألبانيا فيجب أن ترد إلى إيطاليا . .

ونحن لا نريد أن نعرض لبحث أمر المستعمرات الإيطالية السابقة ، وكيف يتصرف في أمرها على أحسن الوجوه وأفضلها ، ولكننا نلاحظ أن العقلية الاستعمارية متأصلة في قلوب الأحرار الإيطاليين ، كما كانت متأصلة في قلوب الفاشستيين ؛ وأن الهزيمة التامة التي منيت بها الجيوش الإيطالية لم تمح تلك الشهوات من النفوس . ولم يستطع قادة إيطاليا الجديدة أن يدركوا أن في العالم روحاً جديدة تبغض التحكم والاستعمار ، وأن فكرة إخضاع شعب لشعب آخر من الأفكار العتيقة البالية ، وأن من الظلم أن يسمح للشعب الإيطالي بأن يحتل بلاداً عربية أو حبشية ، وأن يحشد فيها الزراع والصناع الإيطاليين لينتفعوا بخيراتها دون أصحاب البلاد الأصليين . لقد أدرك قادة الرأى في الأمم الكبيرة أن من العبث أن يحاولوا نشر العدل في أوربا والظلم في آسيا وإفريقية ، وأن تكون سياسة الدول الكبرى مبنية على الفضيلة في القارة الأوربية والأمريكية وعلى الرذيلة في غيرها من القارات ! فهل يدرك قادة إيطاليا هذه الروح ، وهل يستطيعون أن يبثوها في نفوسهم ونفوس أبناء وطنهم ؟

إن خطة « الرفق » خطة حميدة من غير شك في جملتها ؛ وقد عرضنا من وجوه النظر ما لها وما عليها ، وجدير بمن يعتنقون تلك الخطة أن يدركوا أنها ليست خالية تماماً من التعقيدات واللابسات .

محمد عوض محمد

موسم العـــلم

دار العام دورته ، وانتهى شهر سبتمبر ، وأعلنت نتائج امتحانات الدور الثانى ، وأخذ كل والد يفكر فى ابنه الذى أتم الدراسة الابتدائية ، أو أتم الدراسة الثانوية ، إلى أية مدرسة من المدارس الثانوية أو إلى أية كلية من كليات الجامعة سيدخل هذا التلميذ أو الطالب الجديد ؟ وأخذ كل والد يلتمس الشفاعة ويعد العدة للوساطة ، لدى ناظر المدرسة الثانوية ، أو عميد الكلية ، التى يرجو أن يكون لابنه نصيب فى الالتحاق بها .

ولا يكتفى الواحد منهم بشخص أو شخصين للقيام بهذه المهمة ، بل يكلف بها أكبر عدد مستطاع ممن يتصل رئيس المعهد بصلة القربى أو الصداقة أو النفوذ ، فتكثر بذلك الطلبات على مدرسى المدارس ، وموظفى دواوين وزارة المعارف وبخاصة كبار رجالها ، ونواب الأمة وشيوخها . ويسخر العشرات من هؤلاء جميعاً لكل تلميذ أو طالب واحد متقدم ، لا سيما إذا كان ترتيبه من بين الناجحين متأخراً ، أو كان يطلب مجانية .

ورؤساء المعاهد تنهال عليهم الطلبات ، وتشتد عندهم زحمة الزيارات ، ولا تنقطع لديهم مكالمات التليفونات . فيحتارون فى أمرهم ، ويتعطلون عن إنجاز أعمالهم ومن ترتيب أمورهم للعام الجديد القادم . وكلما اقترب موعد الافتتاح اشتد الضغط ، وزاد الإجهاد على الأعصاب ، وأخذت المناقشات تحتد ، والشكاوى تتخذ سبيلها إلى صفحات الجرائد وإلى مكاتب الوزراء .

ويتمسك رؤساء المعاهد فى مبدأ الأمر بالقواعد التى رسموها لأنفسهم ، أو التى رسمتها لهم الوزارة أو اللوائح ، ويرتبون المتقدمين حسب الكفايات ، ويعدون كشوف القبول ، تبعاً للأعداد التى تسمح بها سعة أماكن الدراسة ، وما تجب مراعاته من الأصول التربوية التى تضمن استفادة كل تلميذ وطالب من الدراسة ، واضطلاع كل مدرس وأستاذ بالقدر المناسب من العمل ، والإشراف على عدد معقول من التلاميذ أو الطلاب .

فما أن يعلن القبول بالمدارس وكليات الجامعة ، ويعلم أن بعض المتقدمين قد رفضت طلباتهم لضعف استعدادهم ، أو لعدم توافر الأمكنة لهم ، حتى تعلو الصيحة فى البلاد أن يجب أن يدبر لكل متقدم مكان ، وألا يرد طالب علم عن مناهله ! فتضطر الوزارة والجامعة إلى حشد أعداد عظيمة بالمدارس وبالكليات .

وكلنا نعلم أن هذا على حساب جودة التعليم ، وأنه يشل حركة القائمين على المدارس من أن يؤدوا واجبهم على الوجه الأكمل ، ويفيدوا التلاميذ أكبر فائدة . وهذه الحقيقة ، وإن كانت معروفة لدى الجميع ، إلا أن أثرها السيئ لا يدركه تمام الإدراك إلا أقلية ضئيلة ، وإلا لكان لهذه البلاد شأن آخر بإزاء هذه الحالة .

ومن الخير أن يعرف الناس أن عملية التعليم ليست مجرد دروس تلقى فى خلال العام ، وامتحانات تعقد فى آخره ، وإنما هى عملية نمو فى الملكات ، وتفاعل بينها وبين الدراسات ؛ وهذه لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا إذا درس المعلم تلاميذه دراسة دقيقة ، وكيف خطة سيره حسب ملاحظاته ، وتبعاً لتقدم تلاميذه .

كما أن عملية التربية والتهذيب الخلقى ليست أقل شأناً من التلقين التثقيفى ، بل لعلها أفضل منه وأجدر بالاهتمام ، وهذه تتطلب من المدرسين عناية فائقة بتلاميذهم ، لا فى فصول الدراسة وحدها ، وإنما فى أوقات الفراغ وفى الملاعب وفى الجمعيات الخ . وهذا كله لا يتسنى القيام به للمدرس المكدود المثقل بالأعمال ، والذى يقوم على عدد من التلاميذ أكبر مما ينبغى ، ومما تحتمله الطاقة البشرية .

التوجيه المهني

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هناك ناحية من نواحي العناية بالتلاميذ وملاحظتهم ، قد أهملت إلى الآن تماماً ، وهي الناحية المتصلة بالإرشاد المهني ، أي بذل النصح للتلميذ وذويه ، وتوجيهه في الدراسة الوجهة التي يصلح لها بحكم استعداده ؛ وهذا التوجيه والإرشاد يكون نتيجة الملاحظة الدقيقة للتلميذ أثناء وجوده في المدرسة وفي جميع نواحي نشاطه العقلي والرياضي النظري والعملي ، وتدوين تلك الملاحظات في سجل خاص به ؛ وتزداد هذه المسألة أهمية بعد أن قررت الوزارة تنويع المدارس الثانوية ، وتخصيص بعضها للذين يرغبون في الاتجاه الصناعي ، وبعضها لمن يرغبون في الاتجاه الزراعي ، وغيرها لمن يتجهون نحو التجارة .

ولعل هذه المسألة جديرة بعناية خاصة من جانب وزارة المعارف . إذ يخيل إلينا أن توجيه التلميذ الصغير في مثل تلك الاتجاهات عقب خروجه من المدرسة الابتدائية سابق لأوانه ، فهذه الاستعدادات المختلفة لا تتكشف فيه إلا حوالى السن التي يكون التلميذ قد أتم فيها دراسته في السنة الثانية الثانوية ، فهلا يكون الأفضل أن تبدأ تلك المدارس الموجهة نحو الصناعة أو الزراعة أو التجارة بعد السنة الثانية الثانوية ، حتى تنتقى تلاميذها من بين تلاميذ السنة الثانية في جميع المدارس الثانوية بالقطر كله ؟ فيكون جميع التلاميذ في السنتين الأولى والثانية الثانويتين محل دراسة دقيقة من المعلمين بقصد تبين اتجاهاتهم واستعداداتهم الفطرية ، وفي نهاية تلك السنة ينصح للتلاميذ وآبائهم بدخول المدرسة التي تناسب هذه الاستعدادات والميول الطبيعية في التلاميذ ؟!

وواجب أن تستمر هذه الملاحظة الدقيقة للطالب في المدرسة الثانوية العادية طول مدة دراسته بها لى آخر السنة التوجيهية ، وتتخذ هذه الدراسة صورة عملية وصبغة جدية ، وتكون محل تجارب واختبارات خاصة من آن لآخر ، حتى إذا أتم الطالب دراسته الثانوية أمكن لمعلميه ، من الملاحظات المدونة في سجلاتهم ، أن يوصوا الطالب وينصحوا لأهله بأن يوجهوه في الدراسة العالية أو الجامعية في الاتجاه الذي ينتظر أن يصادف فيه أكبر قسط من النجاح ، حسب استعداداته وميوله .

وهذا الإجراء ينال أكبر قدر من عناية جميع المعاهد الثانوية بأوروبا وأمريكا ، وقد كتبت فيه عدة مؤلفات ، وكان موضع دراسات عميقة شاملة ، ولذلك وصل إلى مستوى رفيع ، وصار له أكبر الأثر في نجاح الطلبة في دراساتهم العالية ، وبالتالي في حياتهم العملية بعد أن يتموا دراساتهم ويخرجوا إلى ميدان العمل .

أضرار الكثرة وعلاجها

وكل هذه الدراسة سواء أكانت للتوجيه المهني أم للتهذيب الخلقي تتطلب في المدرسين استعداداً ممتازاً ، وإعداداً خاصاً ، وجهداً شاقاً ، وعناية فائقة ، وكلها تستلزم أن يخفف عنهم في الدراسة الثقافية العادية ، وأن يقلل عدد التلاميذ الذين يعهد إليهم بالإشراف عليهم ؛ ويقتضي ذلك كله زيادة عدد المدرسين ، كما يتطلب في نظرنا زيادة عدد المدارس زيادة كبيرة حتى يخف الضغط على المدارس الحالية ، فلا تضطر إلى أن تحشر فيها ما يزيد على الألف تلميذ ، مع أن سعتها الطبيعية حسب الأصول التربوية ينبغي ألا تزيد على نصف عددها الحالي .

وسيقول بعض الناس إنني أتكلم في الهواء ، وألقي القول على عواهنه ، وأدلي بآراء نظرية صعبة التنفيذ ، لأنها تحتاج إلى مال كثير قد تنوء به الميزانية ؛ لكن الذين يعترضون هذا الاعتراض ينسون أنهم هم الذين يريدون مضاعفة عدد التلاميذ ، وإفساح المجال لكل إنسان ، وإعطاء الفرصة للجميع ، دون أن يعدوا العدة اللازمة ، التي تضمن رفع مستوى التربية والتعليم

لا خفضهما ، فهم يضحون بالكيف من أجل الكم . ولا نزاع في أن تعليم عدد صغير تعليماً جيداً أفضل بكثير من تعليم أضعاف هذا العدد تعليماً ناقصاً بل سيئاً .

فالذين يلجأون إلى وزارة المعارف يطالبونها بتيسير التعليم لجميع أبناء الأمة ، يجدر بهم أن يتقدموا إلى البرلمان مع وزارة المعارف يطالبون بفتح الاعتمادات اللازمة للتوسع حسبما تقضى الأصول الفنية ، وبحيث نضمن تحسين النوع مع مضاعفة العدد . فالأمة التي ترغب في تعليم أبنائها تعليماً جيداً صحيحاً يجب ألاّ تضن بالمال اللازم لتحقيق هذا الغرض .

ومن الغريب أن الناس يدركون خطورة تعريض الجسم لما يصيبه بالأضرار الصحية ، ويقدرون الجهود التي تبذل في سبيل رفع المستوى الصحي بتيسير العلاج واتخاذ وسائل الوقاية ، وينادون بوجوب فتح خزائن الدولة لكل مصلح يريد أن يحسّن تلك الوسائل الصحية ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يدركون خطورة ما يصيب العقول من آفات وأضرار بسبب سوء التعليم ؛ ولا تجد من رجال التعليم من يبرزون هذا الخطر ، ويبصّرون الناس به ، ويلفتون نظرهم إلى ضرورة الاهتمام بوسائل الوقاية منه ، وإلى وسائل علاج الضعف في العقل ، ووسائل تربيته وإنمائه كما ينبغى ، حتى تكون البلاد أسخى بالمال على التعليم ، وأكثر اهتماماً بإعداد المعلم إعداداً جيداً ، وأعظم تقديراً للجهود التي تبذل في سبيل إنهاض المعلم ، حتى يقى تلاميذه الأضرار والأمراض العقلية .

مشاكل المجانية

بقى أن نقول كلمة فيما يختص بالمدارس الابتدائية ، وظروفها الجديدة بعد أن تقررت المجانية فيها وعُممت ، وصح ما توقعناه في مقالاتنا السابقة من أن معظم التلاميذ ، الذين هم في سن التعليم الأولى أو الابتدائى ، قد لجأوا إلى الثانى وانصرفوا عن الأول ، بعد أن تساويا من حيث المجانية ، وتفاوتا في نظر الناس من حيث المستقبل . وكانت نتيجة ذلك ، كما قرأنا في الصحف ، أن تقدم إلى معظم المدارس أعداد تبلغ أضعاف أضعاف ما تتسع لقبوله منهم ، فالمدرسة التي فيها أمكنة لمائة مثلا قد تقدم إليها في معظم الحالات خمسمائة أو أكثر .

وليس أمام نظار المدارس إلا وسيلة واحدة للاختيار من بين المتقدمين لها ، وهي امتحان المسابقة التقليدى ، الذى سيكون الفوز منه على الأرجح لكبار السن ، الذين قضوا في المدارس الأولية عدة سنوات ؛ فالتلميذ الذى قضى فيها نحو ثلاث سنوات وأصبح سنه تسعة أو أكثر سيتغلب على التلميذ الذى تتراوح سنه بين السابعة والثامنة .

والاختبارات التي يُعمل فيها حساب لهذا التفاوت في السن هي اختبارات الذكاء ، لأنها تطالب كل سن بدرجة محددة من الإجابة أعلى من الدرجة المحددة التي تطالب بها مَن هم في سن أقل ؛ ولكن وزارة المعارف لم يبد عليها إلى الآن ما يدل على إعانها باختبارات الذكاء هذه ، فلا ينتظر إذن أن تأخذ بها المدارس لتحقق مبدأ تكافؤ الفرص تحقيقاً عادلاً .

وها قد بدأت تظهر آثار هذه الحالة ، والتي سبق أن حذرنا الأمة منها ؛ فقد قرأنا في الصحف أن بعض أصحاب المدارس الحرة قد بدأ يعلن عن فتح مدارس ابتدائية لمخاصة بمصاريف تبدو الآن متواضعة ، لكنها ستزداد من غير شك ، تبعاً لقانون العرض والطلب ، كلما ازداد الإقبال عليها ، كما أنها لن تقتصر على المدارس الحرة المصرية ، بل إن أغلبها ستكون مدارس خاصة أجنبية وذلك لعدة أسباب :

منها أن أصحاب المدارس الحرة من المصريين ستكون لديهم وفرة من التلاميذ الذين ستحوّلهم إليها الوزارة وتدفع عنهم المصاريف لأصحاب المدارس الحرة ؛ ومنها أن المدارس الأجنبية قد اعتادت فيما مضى فتح أقسام خاصة ، بمصاريف كبيرة ، وقد ألف المصريون إرسال

أبنائهم وبناتهم إليها منذ زمن بعيد ، وارتاحوا له .

وسبب آخر أورده ، هو أن بعض المدارس الأجنبية لا يزال يعنى بالكيف قبل الكم ، ويوجه اهتماماً خاصاً للناحية التهذيبية وللتربية الخلقية ، مما سيجعل فرصتها فى إقبال الطبقات الراقية والمتوسطة وما بينهما على إرسال أبنائهم وبناتهم إليها أعظم من فرصة المدارس الحرة المصرية .

أزمة المدرسين وعلاجها

ولعل هذا البحث لا يكمل إلا إذا قلنا فيه كلمة عن المدرسين اللازمين لمواجهة هذا التوسع العظيم فى التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى . فالذى نعرفه أن مدرسى تلك المدارس كانوا مثقلين بالأعمال ، وكنا نود لو قدمنا لو استطاعت الوزارة أن تخفف عنهم لتيسر لهم المساهمة فى التربية بدلاً من الاقتصار على التعليم . فليس هناك إذن زيادة فى عددهم ، أو فسحة فى وقتهم ، تسمح بزيادة أعمالهم ، حتى ولا فى نظير مكافآت مالية إضافية .

ولما رأت الوزارة أن عدد من يتخرجون فى معاهد التربية لا يكفى لسد حاجتها وحاجة المدارس الحرة من المدرسين ، عمدت إلى إنشاء دراسات صيفية فى التربية ، لخريجى الجامعة من مختلف الكليات ، وسيكون الناجحون من هؤلاء عماد المدارس الأهلية على الأقل فى سد حاجتها من المعلمين ، لا سيما بعد أن تعين الوزارة من خيرة معلميها العدد الكبير الذى ستحتاجه لمدارسها لمواجهة التوسع الزمع .

ولا نزاع فى أن هذا الإعداد كان إعداد ضرورة ، ولكنه لا يمكن أن يخلق من هؤلاء الخريجين مدرسين بمعنى الكلمة ، أو بنصف معناها ، مما سيؤدى من غير شك إلى خفض مستوى التعليم بالمدارس الحرة إلى أدنى مما كان عليه . فالتلاميذ الذين سيحولون إلى هذه المدارس الحرة لن يجدوا فيها فرصة للتعليم الصحيح مكافئة للفرص التى سيجدها زملاؤهم الذين قبلتهم المدارس الأميرية ، مع أنهم لضعفهم أحوج إلى معلمين أكفاء .

ولعل خير ما نشير به على وزارة المعارف فى هذا الصدد ، أن تجعل نصب عينيها تكميل إعداد هؤلاء إعداداً فنياً عملياً . والطريقة التى نقترحها لتنفيذ ذلك ، أن تعين الوزارة فى المدارس الحرة الكبيرة مدرسين أوائل ، تكون مهمتهم ، فوق الإشراف الفنى العادى ، زيارة هؤلاء المدرسين الجدد باستمرار ، ومدهم بالنصائح والإرشادات العملية التى تعين على تحسين حالهم كمعلمين صالحين . وقد يكون من المفيد أيضاً تعيين مفتشين لهذا الغرض نفسه ليشرفوا على هؤلاء المدرسين الأوائل وعلى بقية المدرسين الجدد بالمدارس التى لم يعين فيها مدرسون أوائل .

على أنه يجب أن تستمر الدراسات الصيفية لمدرسى المدارس الحرة ، وأن يفرض على هؤلاء المدرسين الجدد حضورها مرة أخرى أو مراراً حتى يستفيدوا الفائدة المرجوة . فخير هذه الدراسات الصيفية ، فى نظرنا ، ما كان تكميلياً لا أساسياً ؛ فالمدرس الذى لاقى صعوبات فى عمله فى خلال العام يستفيد من حضور تلك الدراسات ما يذلل به صعوباته ، ويحل به مشكلاته ، لا سيما بعد التذاكر والتحدث فيها مع زملائه وأساتذته .

* * *

وبعد ، فإن الناس كلهم متطلعون إلى ما سيكون من أمر المدارس فى هذا العام ، وما بعده من أعوام ، ومن أمر الجامعتين بعد أن تتخرج هذه الأعداد الكبيرة فى المدارس الثانوية ، وتلجأ إليهما ملتمسة التعليم العالى .

وإنا لنرجو ، مخلصين ، لمن بيدهم تصريف شئون التعليم فى هذا البلد توفيقاً فى مهمتهم الشاقة ، حتى يكون الجيل القادم أكثر استعداداً ، وأعظم كفاية ، وأقدر على الكفاح وشق طريقه فى الحياة العملية وسط التزاحم القاسى الذى ينتظر أن يلقاه .

أحمد عبد المنعم الكردانى

حياة أديب



ألفر جولدسمث Oliver Goldsmith كاتب إنجليزي من كتاب القرن الثامن عشر ؛ عالج فنوناً مختلفة من الأدب ، فقد كان شاعراً مجيداً ، وروائياً بارعاً ، وكاتباً مسرحياً بليغاً . وكانت حياته نفسها قصة ممتعة كثيرة الحوادث ، فاقتبس منها الكثير وقصّه علينا في روايته الشهيرة «قسيس ويكفيلد»

نشأ جولدسمث في إرلنده — كما نشأ غيره من الكتاب الإنجليز — من أسرة أصلها ساكسوني عريق ، ومذهبها البروتستنتية . وقد لاقت هذه الأسرة كثيراً من اضطهاد العامة بسبب أصلها الجنسي ومذهبها الديني .

تعلم أبوه في مدرسة قروية ، ولما شب تزوج من ابنة صاحب المدرسة ؛ والتحق بخدمة الكنيسة ومارس الزراعة إلى جانب عمله الديني . ولكنه كان — رغم هذا — فقيراً لا يكفي دخله السنوي للإنفاق على زوجه وبنيه .

وفي نوفمبر من عام ١٧٢٨ ولد لهذا القس ولد أسماه (ألفر) . وكان ميلاده في (بالاس) ، وهي قرية منعزلة من أعمال إرلنده تبعد كثيراً عن لندن — تلك العاصمة الكبرى التي قضى فيها ألفر فيما بعد الشطر الأكبر من حياته . وما تزال هذه القرية إلى يومنا هذا نائية من المدن الكبيرة والطرقات العامة ، حتى إن الزائر لموطن الشاعر الأول لا بد له قبل أن يهبط القرية أن يسير طويلا على قدميه . والقرية تقع وسط سهل مقفر موحش يتحول إلى مستنقع كبير في فصل الأمطار . ويتعسر على الراحل أن يدرك قلب القرية لضيق طرقاتها وانتشار الوحل خلال المباني ، حتى إنه ليكاد يستحيل على العربات أن تتابع سيرها حتى تبلغ مهبط هذا الأديب العظيم .

أسلم الأب ابنه إلى خادمته تعلمه حروف الهجاء . ولما بلغ السابعة من عمره بعث به إلى مدرسة قروية يلقن معلموها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، كما يقصّون عليهم قصص الجن والعفاريت وخوارق الطبيعة ، ويسمعونهم الأناشيد الوطنية والموسيقى الإرلندية التي شغفها ألفر طوال حياته

لبث ألفر جولدسمث في هذه المدرسة عامين ، ثم تنقل بعد ذلك من مدرسة ثانوية إلى أخرى متثقفا خلال ذلك باللغات القديمة ، ولم يكن في هذه الفترة سعيداً في حياته . وله في أحد متاحف لندن لهذا العهد صورة يبدو على ملامحه فيها أثر الإعياء ، ومسحة من الكآبة تكاد تبلغ مبلغ القبح والتشويه ؛ وفي قسمات وجهه آثار بيّنة من الجدري لا تخطئها الناظر إليه . وكان قصير القامة ليس بين أعضاء جسمه شيء من التناسب أو التناسق . وأطفال المدارس — كما تعلم — قساة على زملائهم من ذوي العاهات والعيوب الجسمية ، فأثار جولدسمث سخرية التلاميذ ، كما هزأوا بسذاجته الريفية وزلاته اللفظية التي تلقنها وهو يافع في قريته . كان التلاميذ يتحاشون صحبته في اللعب ، والأساتذة يشددون عليه العقاب في الدرس

ودارت الأيام دورتها ، وارتفع هذا الشاب إلى أوج

الشهرة . وعاد زملاؤه فى الدرس بذكرياتهم إلى أيام الطلب ، فتذكروا أن صاحبهم هذا كان كثيراً ما يرد عليهم بنكات تنم عن ذكاء نادر ، كما كان يقرض الشعر فى يسر وسهولة دون أن يلتفت إليه أحد أو يجتذب إليه الأنظار . ويرى الباحث المنصف فى حياته الأولى ، وفى نظمه الباكر ، بذور تلك العبقرية العظيمة التى تفتحت عن قصة « قسيس ويكفيلد » الشهيرة وقصيدة « القرية المهجورة » العصماء .

ولما بلغ الفتى السابعة عشرة التحق بكلية « ترنتى » فى دبلن طالباً بها ، يتلقى العلم بغير أجر ، ولا يدفع شيئاً عن طعامه أو مسكنه ، وذلك لقاء أدائه بعض الخدمات الوضيعة بالكلية : كتنظيف الحجرات ، وتقديم الطعام لزملائه ، وغسل الأوانى وما إلى ذلك . وكان مأواه فى غرفة عليا يساكنه فيها آخرون ؛ وقد نقش اسمه بخط يده على إحدى نوافذ الغرفة ، وما تزال آثار هذا النقش بادية حتى اليوم .

ولكن جولدسمث أهمل الدرس وفشل فى الامتحانات ، وكان دائماً فى مؤخرة التلاميذ . يحاول أن يضحك الطلبة بنكاته وألاعيبه ، ويدعو رعاع المدينة إلى غرفته للرقص واللهو ، حتى اضطر أحد المربين بالكلية أن يقرعه بالعصا عقاباً له على سوء مسلكه .

وبينما كان جولدسمث يحيا هذه الحياة الفوضوية فى دبلن مات أبوه ولم يورث ابنه غير دراهم معدودات . ولما حصل الطالب على درجته الجامعية انقطع عن الدراسة وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ورحل إلى أمه وسكن فى بيتها . وفكر حينئذ أن يقوم بعمل من الأعمال يكسب منه عيشه . ولكن تعليمه الجامعى لم يؤهله لعمل مفيد ؛ وكأنه لم يفد من الدراسة غير إتقان اللبس وآداب المائدة ، وحب الميسر ، والتغنى بالأناشيد الإرلندية ، وعزف الزمار ، واللعب فى الصيف ، ورواية القصص الخيالية إلى جانب المدفأة فى الشتاء . وقد حاول مهناً متعددة فشل فيها جميعاً : تقدم إلى الكنيسة ليشغل وظيفة دينية ، ولكن رداءه الزاهى وعنايته بهندامه وأناقته بعثت الشكوك فى رجال الدين فلم يقبلوه بينهم ؛ ثم اشتغل معلماً خاصاً لأبناء أسرة من أسر الأغنياء ، ولكنه سرعان ما اختلف معهم وفصل من عمله . وفكر بعدئذ فى الهجرة إلى أمريكا ، فامتطى جواداً مطهماً ، وسار نحو ميناء « كورك » ليبحر منها وبجيبه ثلاثون جنيهاً ، ولشد ما كانت دهشة أمه حينما عاد إليها بعد بضعة أيام على ظهر حصان نحيل ، وليس بجيبه بنس واحد ؛ وزعم لأمه أن السفينة التى اعتزم الرحيل على ظهرها أقلعت قبل موعدها المضروب ، وكان فى حفل مع إخوانه فلم يعلم بذلك .

وعزم بعد هذا على دراسة القانون ، وقدم إليه أحد أقاربه الأغنياء خمسين جنيهاً عوناً له على إتمام هذه الدراسة . وما كاد إخوانه القاصرون يعلمون بهذا المبلغ حتى أغروه على المقامرة فى مقهى من مقاهى دبلن ، وخسر فى ليلة واحدة كل ما كان يملك من مال .

وفكر بعدئذ فى دراسة الطب ، وقد تبرع له بعض المحسنين بالتكاليف . فرحل إلى أدنبره وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، وانتظم فى الدرس عاماً ونصف العام تعلم خلالها شيئاً من الكيمياء ، وشيئاً من علم الحياة . ثم رحل إلى (ليدن) ليدرس علم الطبيعة كى يتمم دراساته التمهيدية للطب . وترك هذه الجامعة — وهى ثالثة الجامعات التى التحق بها — فى سن السابعة والعشرين دون أن يحصل منها على درجة علمية ، وليس لديه سوى شذرات يسيرة من علوم الطب ، ولا يملك غير ردائه الذى يرتديه ومزماره يعزف عليه الأناشيد . وكان له هذا الزمار خير رفيق ، فقد انطلق وحيداً يضرب راجلاً فى أراضى الفلاندر ،

وسهول فرنسا ، ومرتفعات سويسرا ، ينفخ فى مزماره فيتجمع حوله الفلاحون يرقصون ، ويمنحونه دريهمات قليلة يشترى بها زاداً يسيراً يتبلغ به . وأمعن فى الرحلة حتى بلغ إيطاليا ، ولكن موسيقاه لم ترُق الإيطاليين فاضطر إلى التسول عند أبواب الأديرة والمعابد يلتمس قوت يوم وفراش ليلة . وقد روى لنا جولدسمث قصته هذه خلال روايته « قسيس ويكفيلد » ، ولكنه لم يلتزم الحق فيما روى ، لأن الصدق لم يكن فى يوم من الأيام ديدنه ؛ ولا بد أن يكون القارئ حريصاً عندما يقرأ لجولدسمث شيئاً يرويه من حياته أو من رحلاته . ويقول الكاتب فى إحدى قصصه إنه حضر بنفسه حديثاً دار بين فلتير وفنتنل فى مدينة باريس ، ونحن نعلم بالتحرى أن فلتير لم يطأ بقدمه أرض باريس طالما كان جولدسمث يجوس خلال القارة الأوروبية .

وفى عام ١٧٥٦ عاد هذا الشاعر المتجول إلى وطنه لا يمينه فى الحياة مال أو صديق . ويزعم أنه كان يحمل شهادة فى الطب من (بادوا) ، ولكنا — كما قدمنا — يجب أن نكون على حذر فى كل ما يرويه هذا الكاتب عن نفسه . ومهما يكن من شئ ، فإنه لم يفد من طبه شيئاً ، ولم تدرّ عليه هذه المهنة درهماً واحداً ، بل لعله لم يمسك بيده قط مبضعا ، ولم يُلحق بنو وطنه لمزماره أذنا مصغية ؛ ولم تكن بالبلاد أديرة ، فاضطر إلى التماس العيش من طريق آخر . اشتغل ممثلا متنقلا ، ولكنه بوجهه المشوه بآثار الجدرى وبقامته القصيرة وشكله القمئ ، لم يلاق على المسرح نجاحا ؛ فاشتغل خادما فى مدرسة ، ومساعداً لصاحب مكتبة . بل لقد كان أحيانا يضطر إلى أن يتسول ويمد يده يطلب الإحسان ! وأخيراً ظفر بوظيفة فى القسم الطبي بشركة الهند الشرقية ، غير أن الشركة سرعان ما فصلته لأنه لم يؤد لها خدمة واحدة تدل على دراية بالمهنة أو خبرة بصيرة بها .

* * *

هذا قليل من كثير مما لاقى جولدسمث أول حياته فى سبيل كسب القوت ، وقد ضاقت به سبل العيش إلى أقصى الحدود . حينئذ التجأ الرجل إلى الأدب ، فاستأجر حجرة وضيعة فى أعلى منزل حقير سكن بها وسكن إليها بعد رحلات طويلة لم يصادفه فيها التوفيق . وأمسك بالقلم وهو فى الثلاثين من عمره ، وبدأ حياته الأدبية تخلف لنا صحائف رائعة ما زلنا حتى اليوم نقرؤها فنجد فيها لذة ومتعة .

وفى السنوات الست التالية أرسل إلى المطبعة بعض ما دبّجت يراعته ، من مقالات المجلات والصحف ، إلى كتب الأطفال ، إلى غير ذلك مما حفظته الأجيال حتى يومنا هذا . وكتب كذلك « بحثاً فى انتشار التعليم فى أوربا » ، ورسالة فى « حياة ناشى » ، وقد عفى عليها الدهر رغم أن ما وصل إلينا منها يدل على أنها مما يستحق الخلود . وكتب تاريخاً لإنجلترا ، وهو بحث سطحى فيه كثير من الأخطاء ، كتبه فى صيغة خطابات من رجل نبيل إلى ولده ؛ كما كتب « صوراً تخطيطية للمجتمع فى لندن » فى صورة رسائل من رحالة صينى إلى صديق له فى الصين .

وقد نشر هذه الآثار الأدبية أول الأمر بغير توقيع ، ولكن القراء عرفوه من أسلوبه . وعرفه أصحاب المكاتب بالتدرج ، وصار كاتباً شعبياً محببا إلى جمهور كبير من القراء . ولم يؤهله تعليمه للبحث الدقيق أو الكتابة الجدية التى تحتاج إلى إدمان الدرس والتمحيص ! لم يعرف جولدسمث شيئاً على وجه الدقة ، لأن قراءته كانت متناثرة متقطعة ، ولم يكن يمعن فى التفكير فيما يقرأ . وشهد جولدسمث كثيراً من الدنيا ، ولكنه لم يحتفظ فى ذاكرته

بين هتلر ونابليون

يستطيع الباحث المدقق أن يتبين من سير الحوادث العسكرية والسياسية فى هذه الحرب الحالية أن هتلر يتتبع - إن عفواً أو قصداً - نفس الخطوات التى تتبعها نابليون الأول إمبراطور فرنسا فى السياسة والحرب ، حتى أصبح أكثر من فرد واحد يجزم تماماً بأن نهاية هتلر سوف لا تختلف كثيراً عن نهاية سيده ومثله الأعلى نابليون .

بدأ نابليون وهتلر حياتهما العسكرية والسياسية تموج نفسهما بحب العظمة والغرور ، فرأينا الهر هتلر محارباً نمسوياً ينضم إلى صفوف الجيش الألمانى فى الحرب الماضية جندياً بسيطاً ليس له شأن يذكر . فلما خرجت ألمانيا مهزومة مدحورة منهوكة القوى فى عام ١٩١٨م ، بدأ ذلك النمسوى الماكر يشق طريقه قدماً إلى الأمام ، وسرعان ما لاح فى الأفق أن ذلك الجندى البسيط سوف يكون له من الحظ السعيد ما يفوق غيره من البشر ، واستطاع فعلاً بمساعدة شرذمة بسيطة من أعوانه بعد مضى فترة من الزمن أن يصل إلى منصب المستشار الأعلى للرايخ الألمانى ؛ وعقب وفاة المارشال هندنبرج خطا هتلر خطوة أخرى أوصلته إلى منصب دكتاتور الدولة وسيدها الأجل وعاهلها الأول .

وفى حالة نابليون نراه يبدأ حياته العسكرية والسياسية ضابطاً كورسيكيا[1] بسيطاً فى الجيش الفرنسى ، فكأنه غريب عن فرنسا ، إلا أنه استطاع بمهارته وحذقه أن يصل إلى زعامتها ؛ وهو فى هذه الحالة شبيه لهتلر الذى توصل إلى زعامة ألمانيا مع أنه نمسوى الأصل .

وقد بدأ كل من نابليون وهتلر حياتهما السياسية بعد وصولهما إلى أكبر مناصب الدولة ، فى كل من فرنسا وألمانيا ، بسلسلة عظيمة من الانتصارات الحربية والسياسية الهائلة .

فمنذ عام ١٧٩٩ إلى عام ١٨١١ استطاع نابليون أن يحرز نصراً كاملاً مبيناً على دول أوربا جميعها ؛ ونرى هتلر بدوره يبدأ كفاحه السياسى والحربى بسلسلة طويلة من الانتصارات . فمنذ عام ١٩٣٩م إلى أواخر عام ١٩٤٢ يتمكن هذا العاهل الألمانى من قهر أوربا كلها : فتسقط بولندا ، وتخر كل من هولندا وبلجيكا صريعة فى الميدان ؛ ثم يخترق الحصون الفرنسية المنيعة ، فتضطر الجمهورية الفرنسية إلى الإذعان والتسليم بمطالب النسر الألمانى فتعقد معه الهدنة فى يونيه من عام ١٩٤٠ م . وقد استطاع هتلر نفسه أن يجبر هنغاريا ورومانيا وفنلندا على الإذعان والتسليم لمطالبه ، فتحتل جنوده بلادهم وتخرب دورهم ، وبذلك أصبحت أوربا جميعها عند موطئ قدميه تدين له

(١) ولد نابليون فى جزيرة كورسيكا ، وكانت فى ذلك الوقت تابعة لفرنسا

بغير حوادث تافهة وشخصيات ليست لها قيمة تذكر ، غير أنها استهوت خياله فصوّرها بالفن الجميل

لم يع جولدسمث إذن كثيراً من العلم ، ولكن القليل الذى كان يعيه عالجه بطريقة بالغة الأثر فى القرّاء . هو كاتب ، إن لم يكن عظيما فقد كان إلى النفوس حبيباً ، أسلوبه سهل فى قوة ، ورواياته شائقة ممتعة ، وأوصافه رائعة ، وفكاهته بارعة وإن كانت لا تخلو من روح الحزن والأسى . وفى كتابته على الجملة نبل لا تتوقعه من رجل عاش أكثر حياته فى الأحياء القذرة من العواصم الكبرى !!

وأخذت دائرة قرائه تتسع شيئاً فشيئاً . وتعرف إلى جنسن عميد الأدب فى عصره ، وإلى رينولدز زعيم المصورين الإنجليز ، وإلى بَرْك الخطيب المشهور ؛ وتوثقت بين الكاتب وهؤلاء الرجال البارزين أواصر الصداقة . وفى عام ١٧٦٣ اختير عضواً رئيسياً فى « النادى الأدبى » الذى كان يختلف إليه فى لندن جل رجال الفن والأدب .

(له صلة) محمود محمود

بالولاء والطاعة ، وتنقذ أراضيه صاغرة .

وعقب سقوط فرنسا نرى هتلر يقف شارداً مفكراً ، إذ ليس أمامه سوى تلك الجزيرة النائية التي طالما تحدث عنها وحلم بدكها دكا ، إلا أن قوة البحرية الألمانية لم تكن بقادرة على تحقيق هذه الأمنية ، فبدأ سلسلة طويلة من الغارات الجوية اعتقاداً منه أن ما تلقيه طائراته من الرعب والفزع في قلوب البريطانيين سوف يمكنه من تنفيذ رغباته ، ويساعده على إنزال جنوده على سواحل الجزيرة البريطانية ؛ إلا أن هذه الغارات لم تأت بالنتيجة المرجوة ، فبدأ حلة أخرى أراد من ورائها عقد الصلح مع بريطانيا ، وكان رسوله في هذه المرة صديقه وزميله الهر هس ، إلا أن الأسد البريطاني أظهر أنه أشد دهاء ومكراً من النسر الألماني ؛ فما لبث أن أسر هس ، وبذلك ضاعت آماله وآمال سيده هتلر في عقد الصلح .

وكان نابليون في عام ١٨٠٧م قد عقد معاهدة صداقة وتحالف مع روسيا ، وكان غرضه من هذه المعاهدة تأمين ظهره لما سوف يقوم به من فتوحات في أوربا الغربية ، ألا أن أحلام نابليون لم تتحقق ، إذ كان يعتقد أن روسيا سوف تسلم بما آل إليه نفوذه وسلطانه في الغرب ، فأظهرت الأيام عكس ما كان يرجوه ، فقد بدأ الإسكندر قيصر الروس مباداته ومعاداته . وعندئذ تبددت أحلامه وأوهامه ، ووجد نفسه في عام ١٨١٢ أمام تيارين : أحدهما يرى إلى القضاء على عدوته الأولى إنجلترا وغزوها في بلادها ، وإرغامها على التسليم بفتوحاته وانتصاراته العظيمة في القارة الأوربية التي امتدت من الأتنى شمالاً إلى البحر الأبيض جنوباً إلى جبال الكربات شرقاً ؛ ثانيهما يرى إلى الاعتداء على صديقته روسيا لبرغمها سريعاً على الإذعان له وإجبار قيصرها على التسليم دون قيد أو شرط . ولما كانت إنجلترا قوية شديدة البأس لا يقوى على فتح أراضيها أو النزول بجنوده على سواحلها ، فقد فضل نابليون الاتجاه بقواته ناحية الشرق ليقضي من الروس أولا ، ثم يلتفت إلى الجانب البريطاني قوياً شديد البأس ، فتخر له بريطانيا صاغرة وتعترف له بفتوحاته الهائلة .

إلا أن الأيام أظهرت عكس ما كان يأمل ، إذ أن غزو الروسيا في صيف عام ١٨١٢ واجتياح أراضيها ووصوله إلى موسكو ودخوله قصر الكرملين — قصر الحكومة الروسية — لم يجلب عليه سوى الهزيمة والعار ، إذ كر عليه الروس وأرجعوه مهزوماً مدحوراً إلى بلاده تطارده فرسان القوزاق القوية القاهرة .

وفي حالة هتلر نراه يعقد في عام ١٩٣٨ نفس المعاهدة التي عقدها نابليون مع الروس في عام ١٨٠٧م ، وكان الغرض الألماني من هذه المعاهدة شبيهاً بالغرض الفرنسي النابليوني السابق ، إذ أراد هتلر أن يؤمن ظهره لما يقوم به في أوربا في المستقبل القريب من حروب . فلما سقطت فرنسا في عام ١٩٤٠م ، وجد هتلر نفسه أمام نفس التيارين اللذين وجد نابليون نفسه أمامهما في عام ١٨١٢م ، فهذه بريطانيا رابضة كالأسد بعد سقوط حليفتها فرنسا ، وهذا عاهلها تشرشل يعلن على الملأ عزم الشعب البريطاني الأكيد على الاستمرار في الحرب ورغبته الأكيدة في دحر الألمان وزعيمهم هتلر — وهذه روسيا تقلب له ظهر المجن ، وترتاع لهذا التقدم الهائل في البلقان ، عقب تسليم بلغاريا ورومانيا وهنغاريا لمطالبه ، وعقب اجتياح يوغوسلافيا واليونان ؛ ففضل أن ينتهج السبيل الذي سار عليه نابليون في عام ١٨١٢ ، فغزا روسيا في نفس الوقت وفي نفس الشهر الذي غزاها فيه نابليون ، فوصلت جنوده في مدى عامين من (١٩٤١ ـ ١٩٤٢) إلى قلب القوقاز ، واحتلت معاكره بلاد اليوكرين . إلا أن الدب الروسي الذي طرد نابليون وتعقبه إلى حدود بلاده في القرن الماضي ، استطاع

بمهارته العظيمة وقوة شكيمة زعيمه ستالين أن يكر على النسر الألماني ، فرده إلى بلاده مهزوماً ، وها هو الآن يربض على حدود الرايخ الألماني يهدد ويتذر باختراقها والأخذ بثأره من هذا المعتدى الأثيم .

وفى الجملة يجمل بنا أن نقول إنه إذا كانت روسيا هى الصخرة التى تحطمت عليهـا آمال نابليون وأمانيه فى عام ١٨١٢ ، فإنها نفس الصخرة التى تحطمت بل انهارت عليها جل آمال هتلر فى عام ١٩٤٣م .

وعقب غزو الروسـيا من كل من العاهلين الفرنسى والألمانى تبدأ فترة جديدة فى حياة كل منهما ، إذ يصبح كلاهما عند مفترق الطرق ! فالتقهقر النابليونى من البلاد الروسية كانت له رنة فرح عظيمة فى أنحاء القارة الأوربية ، فهذا هو الإمبراطور الذى دوخ أوربا واقتلع عروشها فطأطأ له ملوكها رؤوسهم صاغرين ، ينهزم لأول مرة فى حياته أمام جحافل الروس الهائلة ! فلما رأت أوربا هذه الهزيمة الساحقة سرت روح القومية بين شعوبها ، وأخذوا يأملون فى تلك الساعة التى يستطيعون خلالها تحرير أنفسهم من ربقة الحكم الفرنسى ؛ وسرعان ما انضمت السويد والنمسا إلى بروسيا والروسيا وإنجلترا ، فقويت شوكة الحلفاء ، وأطبقوا عليه بجنودهم ، فسلم صاغراً ورضى لنفسه النفى إلى إلبا ؛ ودخل الروس والإنجليز باريس وقضوا على أنصار ذلك الطاغية الجبار . وإذا كان نابليون قد استطاع العودة إلى بلاده وإعادة ملكه من جديد ، فإن هذا النصر المفاجئ لم يطل ، إذ انهزمت جنوده مرة أخرى فى صيف عام ١٨١٥ على يد القائد الإنجليزى ولنجتون ، وبذا ضاعت إمبراطورية نابليون ، ودفنت معها آماله ومطامعه .

وهذا هو هتلر يتقهقر عن بلاد الروس فيصل إلى حدود ألمانيا مهزوماً مدحوراً ، ويجبره الإنجليز على التقهقر من شمال إفريقيا ، ثم ينزلون جنودهم فى إيطاليا ، ويفتحون جبهة جديدة فى شمال فرنسا وأخرى فى جنوبها ، وتتقدم قواتهم فتحتل باريس وبروكسل ؛ وتخطو جنودهم قدماً إلى داخل الأراضى الألمانية ، فتتنبه أذهان أوربا ، فيقاومه الفرنسيون ويجبرونه على التقهقر سريعاً أمام قوات الحلفاء العظيمة ، ويعمد الأتراك إلى قطع علاقاتهم بألمانيا ، وتطلب رومانيا وبلغاريا وفنلندا وهنغاريا الصلح من الحلفاء ، وبذلك تقوى شكيمة الجانب البريطانى ، ويلوح فى الأفق أن ساعة هتلر آتية لا ريب فيها ، كما حلت ساعة زميله نابليون من قبل .

محمد كامل الصيرفى
ليسانسيه فى الآداب بامتياز من جامعة فؤاد الأول

من أسرار الحياة

بالأمس شاهدت فيلماً سينمائياً يدور محور قصته حول حياة كلب يدعى « لاسى » ، عاش عيشة هانئة هادئة وسط أصحابه من الناس ، يحبهم ويحبونه ، وكأنه فرد منهم ، إلى أن جاء ذلك اليوم الذى اضطر فيه رب البيت مرغماً إلى بيعه ! فكانت صاعقة أصابت أفراد العائلة ، وهزت من كيانهم ، وزلزل بها نظام معيشتهم واضطرب . وإذا ما تتبعنا الكلب فى حياته الجديدة وجدناه هو الآخر حزيناً مهموماً ، ينفر من أسياده الجدد ، ويمنى نفسه لو استطاع الهرب ، فيحيا حياته الأولى بين قوم تفانى فى خدمتهم فأحبوه وأطعموه .

إلى هنا تكاد تكون القصة عادية تمثل الواقع ، ونشاهدها فى كل مرفق من مرافق الحياة : حب متبادل بين الحيوان والإنسان ، وتضحية من طرف فى سبيل إسعاد الطرف الآخر . أما الغريب فى موضوع القصة ففيما يلى :

يترك السيد الجديد بلدته ـ لانكشاير ـ فى إنجلترا . ومعه كلابه ، ومن بينهم «لاسى» ، إلى بلد آخر فى اسكتلنده تبعد عن الأولى بضع عشرات من الأميال . فيحزن لاسى لذلك كل الحزن ، ويفكر جدياً فيما بينه وبين نفسه فى الهرب . فإذا ما أتيحت له الفرصة ونامت عنه عين حارسة ، نجده قد حلّ سلاسله وأطلق لنفسه العنان ، مخترقاً هضاباً وغابات ، سابحاً فى بحار كادت مياهها تتجمد ؛ وإذا ما حل به التعب استراح ليستأنف رحلته إلى مسقط رأسه ، إلى أهله وعشيرته فى لانكشاير .

وأخيراً يصل بيته الحبيب ، ولكن بعد أن يكون التعب قد أخذ منه مأخذه ، والجوع والعطش قد أضنياه وسلخا من جسمه قطعاً . ولكنه لا يبالى ، بل نجد علامات السرور والرضا مرتسمة على محياه .

تلك هى قصة «لاسى» أو قصة الكلب الأمين .

***

والواقع أن القصة تحوى فى طياتها مشكلة علمية من أدق المشكلات وأصعبها ، حار فى حلها العلماء ، وافترضوا لها شتى الفروض : كلب يقطع عشرات الأميال فى بقاع لم يسبق له معرفتها ، تقوده قوة خفية تفوق فى قوتها قوة المغناطيس . لعمرى إنى أكاد أجزم أن إنساناً مهما أوتى من درجات الذكاء ليضل فى تلك البقاع إن لم يسترشد بدليل أو تخطيط بعد كل فرسخ من سيره . فهل هى قوة إلهام أم قوة ذكاء ؟ أم هى تموجات لاسلكية لا تراها العين ولم نهتد إليها بعد ؟ أم ترى أنها حاسة سادسة قوية كل القوة عند بعض الحيوانات ، ضعيفة كل الضعف عند الإنسان ؟ ثم ما هو التعريف العلمى لهذا الإلهام ؟ وما هى الغريزة ؟

أسئلة لا يزال على العلم حلها ، وإقامة الدليل التجريبى إذا أوجدوا لها حلاً . إن تلك القوة التى أنارت للكلب طريقه إلى موطنه هى نفس القوة التى تدفع النحل إلى يعسوبه ، والطيور إلى أوكارها .

فانظر مثلاً إلى تلك الجموع من الطيور ، تعد بالعشرات بل بالمئات ، تهجر أوطانها فى فصل من فصول السنة لتعود إليها فى فصل آخر طالبة الدفء ، حيثما حل . انظر إليها وهى تسير فى سرعات متباينة ، يقودها قائد لم يسبق له معرفة الطريق ، لا يستعين بشىء ، اللهم إلا «قوة إلهامه» أو «قوة حاسته المجهولة» أو قوة غريزته !!

سبحان ربى ! إن الذى يراها طائرة يكاد يجزم أنها متفقة على خطة واحدة ، واضعة ثقتها فى قائدها وكأنها تشاركه فى قوة إبصاره ، أو كأنها « ترى » معه وطنها الجديد .

قال بعضهم : إن هذا القائد هو الذى عرف الطريق ودرسه فى رحلة أو رحلات ماضية حتى تمود عليه ، وقد كان أحد أعضاء مجموعة سافرت سنوات متوالية ... ومما لا شك فيه أن لهذا الرأى قيمته ، وقد أخذ به فى وقت من الأوقات ؛ وعملت لذلك تجارب عدة ، فعُلمت الطيور بعلامات خاصة : للأعضاء لون ، وللقائد لون مخالف ، فكانت النتيجة عكسَ ما كان متوقعا . وهذا ما كان معلوما لذوى الأنظار البعيدة ؛ إذ كيف يتسنى لطير يطير على ارتفاع شاهق ، فوق بحار لا أول لها ولا آخر ، ليلاً أو نهاراً ، فى جو صاف أو فى غيوم مستمرة ، أن يعرف موقعه أو اتجاهه ؟! إن قوة غريزته هى التى تدفعه ، وتلك القوة لا تعترف ببحار أو سحاب ، ولولاها ما وصل الطير سالماً أو ما رحل .

وقال البعض : إن لتلك الطيور حاسة تسمى « حاسة الاتجاه » تمتلكها أيضاً بعض الحيوانات بصورة ظاهرة ، وخصت بها الطبيعة بعض المحظوظين من بنى الإنسان ، فنى استطاعة بعض الناس أن يسيروا من محطة سكة الحديد فى قلب بلد لم يطرقوها من قبل ، ولم يزوروها فى يوم من الأيام ، ثم يتجولون فى طرقاتها ويطوفون بأجوائها ، فإذا ما انتهت جولتهم رجعوا من حيث أتوا دون استشارة أو سؤال . لقد وجد فيهم نوعٌ من « قوة ذاكرة الحركات » يضمون فيها ثقتهم العمياء ، وقليلاً ما تخيّب ظنهم . وتلك القوة تختلف اختلافاً تاماً عن قوة الذاكرة أو قوة الملاحظة التى يعتمد فيها على رسم صور لبعض المنازل أو أسماء الشوارع الخ ...

إن تلك القوة هى التى ترشد الطيور إلى أوطانها ، وهى التى دفعت « لاسى » إلى أصحابه من اسكتلنده إلى لانكشاير .

وأخيراً ظهر على العالم رأى جديد ونظرية بديعة تستهوى الأذهان ، قدمها عالم روسى تجنس بالجنسية الفرنسية ويدعى لاخوفسكى . قال :

إن كل جسم حىّ وكل خلية حية تشع فى الفضاء أمواجاً لاسلكية يختلف ترددها أو عدد ذبذباتها باختلاف طبيعة الجسم أو تكوين الخلية .

وما الكائن الحى إلا مصدر أمواج تُشَع منه فى كل اتجاه ، وكأنه محطة إرسال أو عدد من المحطات فى جسم واحد . وما يزيد الأمر عجباً أن بعض الأجسام لها قابلية خاصة لاستقبال تلك الأمواج من الأجسام الأخرى ؛ وهى نامية عند بعض الحيوانات والطيور أكثر منها عند الإنسان . وما « توارد الأفكار » إلا أمواج تصدر من خلايا الدماغ ، فتصدم خلايا دماغ آخر قابلة لتلك الأمواج ، فتحرك فيه فكراً يشبه الفكر الذى سببه وأصدره الدماغ الأول .

نظرية لها طرافتها ، لا يستطيع أحدنا أن يخفى ابتسامة إذا ما طرقت أذنه لأول مرة . أما لاخوفسكى فقد دعم كلامه بالبرهان ، وتحدى فى ذلك معارضيه . قال :

ما الحياة إلا إشعاع كهربائى مغناطيسى يصدر من الخلايا الحية فى الأحياء ، من أدق الميكروبات حتى أعلى المخلوقات وهو الإنسان ، وإن جميع الأفعال الحيوية التى تصدر منها إنما تصدر من أمواج هذا الإشعاع . فإذا أخذت بعض إناث الفراش ووضعتها فى قفص ، ثم انتقلت بها إلى مكان بعيد عن موطنها — حيث ينعدم هذا النوع فى المنطقة الجديدة — لراعك وجود جمع غفير من الذكور فى يوم من الأيام يرفرف بأجنحته حول القفص ، وقد جاء إليه منجذباً بقوة خفية . فما التعريف العلمى لتلك القوة التى يسميها البعض بالغريزة أو بالإلهام ؟ إنها موجات تشابه أمواج الراديو فى طبيعتها ، ولكنها أقصر منها طولاً وأكثر منها ذبذبة ، تصدرها الإناث فتصدم نوعاً

خاصاً من خلايا الذكور فى قرونها أو نتوءاتها تكفى لتنبيهها وتوجيهها إلى حيث وجدت الإناث .

تلك هى النظرية الحديثة التى وضعها لاخوفسكى ، وبيّنها فى كتابه «سر الحياة» الذى ترجم إلى الإنجليزية مارك كليمنت سنة ١٩٣٩ ، والتى تفسر مجهولات كان العلم يتخبط قبلها فى بحر من الفروض والاحتمالات .

وبتلك النظرية كان يفسر بعض المعضلات فى علوم البيولوجيا والباثولوجيا والبكتيريولوجيا والسيكولوجيا .

وقد بنى جهازاً دقيقاً يشع أمواجاً ذات ذبذبات مختلفة أفاد العلم فائدة لا تقدر ، وعالج بهما بعض الأمراض المستعصية ، ولنا فيها كلمة آتية إن شاء الله .

محمد أحمد أمين

من قصص الأطفال الصينية :

السمك المغامر

للكاتب الصينى الكبير « بي - شاو - كين »

فى هذا النهر الجميل الساكن يقطن السمك . وعندما يأتى النهار ترسل الشمس أشعتها الذهبية على أمواجه الدقيقة الرقيقة فتظهر كأنها الحرير الهندى ؛ وحين يقبل الليل ، يسطع نور القمر الفضى ومن حوله النجوم المضيئة كأنها الماس ، وتغمر أضواؤه الهادئة كل شىء فوق النهر أو على شاطئه ، فينام نوماً آمناً ملؤه الأحلام المبهجة . وتحت تلك الحريرة الهندية ، ونور القمر ذلك الفائر ، وأضواء النجوم المتلألئة ، يعيش السمك - كباره وصغاره - عيشة ناعمة مفعمة بالأحلام الحلوة .

لم يدرك السمك فى هذا النهر الأهوال ولم يهرب منها أو يحذرها ، من أجل ذلك لم يفهم معانيها ، وأخذ يتجول فى النهر عائماً ، صاعداً هابطاً ، مقبلاً مدبراً ، كما يتجول الناس فى الحدائق ، يغمره الفرح ويعمه السرور . وكم من مرة لعبت الأسماك حول النبات المائى ، فهى تحرك زعانفها وتهز ذيولها ، وتمرح فى الساحة ، حتى تدخل ورقة فى فم سمكة فتذهب بها إلى القاع ويجىء غيرها إلى مكانها ؛ وتصطدم الرءوس بعضها ببعض ، وتتلاطم الذيول وتضطرب الزعانف ، فيرمين الورقة فى القاع فيتسابقن إليها واحدة واحدة ، حينئذ تعلو الأصوات ويظهر الزبد الكبير على وجه الماء . وما تنقضى برهة حتى يذهب الزبد وتتلاشى الأصوات ، ويعود السمك فيسبح فى هدوء ، والنهر ساكن ؛ فإذا نظرت إلى الماء ، ما ظننت به سمكاً ! تلك كانت عيشة السمك .

وكان للسمك أصدقاء من طيور الشاطئ تسكن الحشائش على جانبيه ، كالحجل والقاق وغيرهما ؛ وتستطيع تلك الطيور أن تسبح فى النهر كالزوارق الصغيرة ، فتذهب إلى الماء تزور السمك ، ويذهب السمك إلى الحشائش يزورها ، فتقص على السمك القصص الطريف ؛ أو يغنيها السمك غناء رائعاً ، ولعلهما قد يرقصان رقصة جميلة ، إذ كل يوم عندهما الحفلات الفاخرة ، سعدت بها حياتهما .

من أجل ذلك حسن ظن السمك بالحياة ، واعتقد أن كل أرض يسطع بها نور الشمس ويشرق عليها نور القمر والنجوم يضارع نهره ، فيها العيشة السعيدة ، والأصدقاء المخلصون كأصدقائه ، وحفلات فاخرة تقام كل يوم كحفلاته . وتحدثت كبار السمك باعتقادها على مسمع من صغاره ، فأجاب الصغار :

« إننا نعيش هنا عيشة سعيدة ، لذلك نعتقد أن كل أرض توجد فيها أنوار الشمس وأضواء القمر والنجوم مثل نهرنا ، هائنة بعيشتها ، ما أسعد هذا العالم وما أسعدنا ! »

وأصبحت هذه الكلمات أنشودة السمك ، فعندما تغرب الشمس وتغنى خفاف الرياح ، ويبزغ القمر وتشرق

النجوم ، ويكون النهر عند المساء كجنة عدن ، يردد السمك أنشودته الجميلة فرحا بحياته السعيدة .

وذات يوم جاء النهر زورق صغير ، لم يستغرب به السمك ، لأن البنين والبنات كانت تركب الزوارق كل يوم تقريباً وتمر به ، يحملون الخبز والكعك وينادونه بأصوات رقاق : « أيها السمك ، تعال نطعمك خبزاً وكعكا فعندنا أكل كثير ، تعال يا سمك تعال ! »

ويعوم السمك إلى وجه الماء يأكل الخبز والكعك ويلعب مع البنين والبنات . فلما أتى هذا الزورق ظنه من زوارقهم فسبح إلى وجه الماء ، فرحا مغتبطاً كعادته .

ولم يجد السمك في الزورق البنين والبنات ، وإنما وجد رجلا يدفعه بالمجداف ، وقد وقفت فيه بضعة عشر من طير القاق ترفع رؤوسها إلى السماء ، فقال السمك في نفسه : لعل هذه القاق أخوات أصدقائنا التي تسكن الحشائش ، وربما أحبت الصداقة كما تحب أخواتها ، وتلك أول مرة تمر بنهرنا ، فيجب علينا أن ندعوها ونكرمها ؛ فناداها بتعظيم :

« أيتها الأصدقاء الغرباء ، فلما أتيتن إلى هنا ، فتعالين استرحن عندنا ، فإن لنا أصدقاء مخلصين أخواتكن اللاتي يسكن الحشائش ؛ تعالين نتصادق ونخلص الصداقة ، وانزلن في الماء نلعب معاً ونمرح » !

وعند ما وجه السمك دعوته الخالصة إلى القاق رفع رؤوسه ينتظر نزولها إلى الماء .

ولبت القاق دعوة السمك ، فنظرت إلى الماء وبسطت أجنحتها ونزلت كلها فيه ، ولكنها أمسكت السمك بأفواهها ، ثم رجعت إلى الزورق ورمته في طست خشبي .

وهاج النهر واضطرب ، وارتفعت الأمواج بالضوضاء ، وعرف السمك الهول والرعب ، وأحس بالهلع والفزع لأول مرة في حياته ، فهرب إلى قاع النهر ، بل اختبأ في الطين ؛ وعرف أنه يجب أن يترقب في أي وقت عودة هاته الضيوف المتوحشة وأن يحذرها .

وبعد برهة ذهب الزورق وعاد الهدوء ، وسكن وجه الماء ، وانقطع تطاير الزبد ، حتى كأن النهر لم يحدث به شيء ، غير أن قلوب السمك ما زالت تستشعر الخوف والرعب ، وقد أحست بفقدان كثير من أخواتها ، فبكى بكاء مراً على فراق أخواته العزيزات . ومخافة أن تعود هاته الضيوف المتوحشة مرة ثانية لخطف السمك كله .

ولم يكن السمك يعتقد أن هاته الوحوش التي تشبه أصدقاءه لصوص ، فتساءل : لماذا وجدت هاته الوحوش في العالم ؟ وعنت عنده فكرة جديدة ، لأنه ظن أن النهر أخذ يتغير الآن ويشابه جهنم ؛ إذن كل مكان تشرق عليه الشمس ، وتسطع به أنوار القمر والنجوم ، هادئ الظاهر لكن باطنه يحكي جهنما ، مثلما حدث في نهره . واعتقد كل السمك هذا الاعتقاد ، فقال جميعاً :

« حقا ، إن نهرنا يتغير الآن ويصير كجهنم ، وإلا فلماذا اختطفت الوحوش أخواتنا مع ترحيبنا بها واستقبالنا لها بالإخلاص ؟ وإذا نظرنا إلى تغير هذا النهر فربما كان العالم قد تغير قلبه ، وأصبحنا نعيش في عالم مخيف ، ما أشقانا ! »

وأصبح السمك وهذه الكلمات أنشودته الحزينة .

ولنعد الآن إلى السمك الذي يرقد في الطست الخشبي ؛ نرى في الطست ماء قليلا يبلغ أنصاف أجسام السمك فقط ، وكان السمك قد أغمي عليه حين أمسكت به طيور القاق من شدة رعبه ؛ وبعد وقت قصير أفاق من غشيته فشعر بالتعب والألم ونظر بعين واحدة إلى السماء ، ووجد الدنيا تغيرت ، وحاول أن يعوم فأخذ يحرك زعانفه وذيله ولم تفده الحركة شيئاً ، لأن جسمه لا يزال ملتصقاً بقاع الطست ، فحزن أشد الحزن ، وقال في نفسه : كيف أصبحنا في هذه الحال السيئة ؟ وأين نحن الآن ؟ لا نرى إلا السور

الحشبي وأخواتنا الراقدات بجوارنا ! فسأل بعضه بعضاً قائلاً :

« هل تعرف أين نحن الآن ؟ وهل ترى منظراً آخر ؟ إن رأيت أو فهمت أكثر فستطيع أن تقدر هذا المكان الذي نحن فيه الآن » .

وكاد الجواب أن يكون واحداً :

« لا إني مثلك ، لا أعرف في أي مكان نحن الآن ، فكيف أجيبك ؟ ولا أرى إلا السور الخشبي وأخواتنا الراقدات ؟! »

« إن هذا المكان لعجيب ! لا نجد فيه إلا ماء قليلاً ، وها هو السور الخشبي يحيط بنا ، حتى لا يمكننا أن نتحرك ، ويحتمل ألا نرجع إلى وطننا العزيز ونرى أخواتنا المحبوبات ، وربما متنا هنا ! » . قالت هذا الكلام سمكة ، ثم زفرت زفرة طويلة جافة ، إذ لم تجد ماء كافياً منذ وقت طويل .

واشتد التعب بسمكة صغيرة ، فأغمضت عينيها الباقية وقالت : « على كل حال لا أفهم لماذا جئنا هذا المكان العجيب ! هل نحن في عالم الأحلام ؟ »

وحركت سمكة طويلة ذيلها كأنها تنذر أخواتها وقالت :

لقد تذكرت ، فهل تذكرن أن زورقاً صغيراً جاء نهرنا وعليه ضيوف مثل أصدقائنا اللاتي يسكنَّ في الحشائش ، فرحبنا بها ودعوناها إلينا ، فنزلت في الماء ، ولما أمسكتني إحداها بفمها ذهب رشدي وأغمي عليَّ ، فربما كانت تدعونا إلى هذا المكان العجيب » !!

فقالت السمكة الصغيرة : « إذن ، نكون في عالم الأحلام بالتأكيد ، لأننا رحبنا بالضيوف ودعوناها بإخلاص ، ولكنها جلبتنا إلى هذا المكان العجيب ؟ هذا أمر غير معقول » .

فقالت سمكة أخرى بصوت حزين :

« هل نحن في عالم الأحلام أو في غيره ليس أمراً مهماً ، وإنما يهمنا جفاف أجسامنا الآن وتعبنا وألمنا ، فيجب علينا أن نفكر فيما يخفف التعب ويزيل الألم » .

« لو كسرنا السور الخشبي » .

« لو جئنا بالماء من النهر » .

« لو صبرنا على الوجود في هذا المكان مع عدم وجود الراحة ! » .

قالت هذه الجمل بعض الأسماك ، ولكن البعض الآخر ردها في الحال بالجمل الأخرى :

« إن أجسامنا لا تستطيع الحركة فكيف نكسر السور ؟ » .

« نعم ، إن الماء يفيدنا ، ولكن من يقدر على الإتيان به ؟ » .

« ولو أمكننا أن نصبر على الوجود في هذا المكان ما خفنا شيئاً ، ولكن لن نجد الماء وسنموت عطاشاً » .

حاولت كل الأسماك أن تنتقل من المكان الذي هي فيه قليلاً ؛ فحركت زعانفها وضربت بذيولها ، ولكنها لم تستطع شيئاً ، فزفرت زفرة طويلة ، ولم تر عيونها التي التصقت بقاع الطست إلا الظلمة ، وما رأت عيونها الأخرى إلا السور الخشبي وأخواتها المسكينة .

فقالت سمكة : « قد مرت الضيوف بوطننا العزيز مرات ، وقد رحبنا بها كل مرة ، فمن يدري أننا خدعنا هذه المرة ؟ » .

وقالت أخرى : « ليس هذا ذنبنا ، لأن هاتيك الصوص المتوحشة من أخوات أصدقائنا اللاتي يسكنَّ في الحشائش ! وكنا نظن أنها كأخواتها مستأنسة مخلصة تقبل ترحيبنا ، ومن يدري أن نفوسها قد تغيرت ومالت إلى الوحشية ، وليست مثل أخواتها ؟ » .

وقالت أخرى : « ما فائدة بقائنا هنا ؟ أوليس الجدير بها أن تكرمنا كالضيوف ونعظمها كالضيفين ؟ »

وقالت أخرى : « وجود هؤلاء المتوحشين فى هذا العالم أليس عيباً عليه ؟ وقد مدحناه من قبل ، وظننا أنه لا يحوى إلا فرحاً وسروراً ، ونحن الآن لا نجد به إلا الألم والبؤس ؟! إذن يجب أن نلعنه » .

وقالت أخرى : « نعم ، يجب علينا أن نلعنه ! إننا أسماك صغار ، وإن أصواتنا ضئيلة ، ولكن صياحنا يستطيع أن يحمل عواصف العالم تثور وتقضى على كل الآلام والأحزان ! »

وقالت أخرى : « نعم نعم ، لا نستطيع الآن إلا أن نلعن ، فلنلعن هذا السور الخشبي الذى جعلنا نعجز عن رؤية الأشياء الخارجية ! ولنلعن هاته اللصوص التى لم تقبل تحيتنا وخدعتنا ! ولنلعن أيضاً هذا العالم الذى فيه هذا السور وهاتيك اللصوص ! » .

شغلت الأسماك اللعنة ، ولم تحاول أن تتحرك لتغادر هذا المكان ، وتخللت أصوات لعنتها الزفرات الطويلة ، ولم تفكر فى بقائها فيما يهددها بالموت عطشاً وجفافاً .

مكثت الأسماك على هذا مدة طويلة ، وإذا بها ترى نفسها قد شعرت بالرطوبة حول أجسامها ، وأدركت أنها لم تمت عطشاً ، بل هذا الماء يحيط بها ، إن هذا لغريب ! ترى هل ندمت اللصوص على تركها فى الطست بدون سبب وأتتها بالماء لإنقاذها ؟ أو انكسر السور الخشبى ودخل الماء الذى حوله ؟ ولكن سمكة صغيرة أدركت بذكائها حقيقة الأمر ؛ فقالت لأخواتها :

هذا مستحيل ! كيف يساعدنا هؤلاء اللصوص ؟ بل كيف يتكسر السور الخشبى بنفسه ؟ تلك دموعنا خرجت من قلوبنا إلى عيوننا ، ثم تقاطرت فى الطست حتى امتلأت فأنقذتنا من الموت والعطش ! »

وسمعت الأسماك قول أختها ، وعرفت أن الماء الذى حولها إنما هو من دموعها بالتأكيد ، ورأت أنها تنجو من الموت بدموعها ، وتنقذ حياتها بنفسها ؛ فعلمت أن العالم الذى يستحق اللعنة قد يوجد فيه قليل الخير مع قليل الفرح والسعادة ؛ وأدركها تأثر شديد ، فسالت دموعها كتدفق الينابيع .

واستطاعت الأسماك أن تتحرك بعد رقادها ، وها هى تذهب وتجىء ، وتعوم فى الماء الذى حولها .

وسالت الدموع بلا انقطاع حتى ملأت الطست وفاضت عنه ، ونزلت فى الزورق حتى ملأته ، فعام الطست على الدمع ، ومال الزورق إلى جانبه قليلا فاندفع الطست إلى النهر .

وعامت الأسماك بسرعة بعد الرقاد الطويل ، ووجدت الماء من جديد ، ولكنها لم تستطع أن تتخطى السور ، فزرت مرة ثانية . وقفزت سمكة من الطست فسقطت فى النهر ، ووجدت الأمواج الدقيقة الرقيقة تحيط بها كأنها الحرير المندى ، فأدركت أنه وطنها العزيز فغمرها الفرح ، ولم تطق أن صاحت بأخواتها قائلة :

« اقفزن من هذا السور الملعون ! فهذا وطنكن ، وافرحاه ! أنا الآن فى الوطن ! »

ولما سمعت الأسماك فى الطست كلامها قفزن سراعاً متتابعات ، حتى لم يبق فى الطست إلا الماء ، فطفا على وجه النهر وجرى فى تياره إلى مكان مجهول .

وخرجت الأسماك من قاع النهر تستقبل أخواتها التى نجت من الموت ، وأقبلت طيور الحجل والقاق التى تمكث فى الحشائش إلى النهر تؤانس صديقاتها الخلصات ، وسالت دموع من عيونها سيلاناً ، لهذا ظل الماء فى النهر لا ينضب !!

ترجمة

عبد الله ما — صبى — كو

بين المسموع والمقروء

تقرير بفردج

لا أظن أن رجلا مثقفا، يقرأ، أو يستمع لمن يقرأون، لا يعرف اليوم اسم الرجل الإنجليزى الاقتصادىّ الذى سمّاه أبوه وليم، ولقبه بفيردج، ولا يعرف ذلك التقرير الذى دبّجته يراعته، بعد أن فتّقت مسائله الشتيتة دراسةٌ عميقة طويلة، ونوّر مسالكه الضيقة فكرٌ ثاقب جبّار.

لقد صار هذا التقرير منذ كان أملَ الفقير، ومصباح من حار فضلّ فى ظلمات العيش، وبشير المناكيد الذين لم يعرفوا البشرى فى أفقهم المُطبِق الداجى إلا بروقاً كواذب.

هو كان هذا، وصار هذا، فى مولده من أرض الإنجليز. ثم هو صار من بعد ذلك فى سائر الأمم، شطَّ البحر الذى يغترف منه الكُتّاب، ومهبط الوحى الذى تستوحى عنده الساسة، ومداد القلم الذى منه يستمدّ الدعوةَ الدعاة.

لقد مضى على إذاعة هذا التقرير نحو العام — أم هو أكثر من عام أو أقل؟ ومضى على قبول الحكومة الإنجليزية لمجمل مبادئه مثل هذا الزمان. وهو وعد لم يكن بقبول هذه المبادئ فحسب، بل بالتشريع على مقتضاها.

فما الذى جرى لهذا التقرير المنشود، وما الذى جرى لهذا التشريع الموعود؟

طريقة الإنجليز فى الإصلاح

وقبل أن أجيب عن هـذا أودّ أن أنبّه إلى طريقة الإنجليز فى الإصلاح وفى قبوله. إنهم أبداً لا يقبلون إصلاحا لحسنه وجماله. إنهم يعشقون — فى بلادهم — حرية الكتابة وإعلان الرأى، وهم يتركون الكتّاب يفكرون ويدرسون، ويخطئون ويصيبون، ويسيئون ويحسنون. ويخرج من هـذه الكتابة الحرّة وهؤلاء الكتّاب الأحرار آراء بديعة تسبق الجيل أزماناً. ويقرؤها الساسة الإنجليز فيُعجَبون. وقد يهزّون رؤوسهم عليها إعلاناً للمتعة المخيلة. وهم يضعون الكتاب من بعد ذلك فى أجل ركن من مكاتبهم تكريماً له وصيانة. ولكنهم فى كل هذا إنما يُعجَبون بالفكر إعجابهم بالشعر، ويصونون كتب هـذا صيانةَ كتب ذلك. ثم لا تجد أثراً لهذا الفكر البديع السبّاق فى منزل أو شارع، ولا فى حقل أو مصنع

وأظهر ما يكون هذا الذى أحكى عنهم فى دوائر الاقتصاد القومى. فالأمة الإنجليزية أمة رأسمالية من أمّ رأسها إلى قدمها، محافظةٌ من شعر جمّتها إلى ظفر رجلها، ومع ذلك تجد فى قلب عاصمتها ذلك المعهد الرسمىّ الذى يسمونه مدرسة الاقتصاد. وهو مباءة كل اقتصادى ثائر على الرأسمالية ثورة بركان، ومنشأ كل عالم فحل يكتب فكأنما يكتب ليهدم فى ساعة ما حواليه من بيوت المال ونُظُم الأعمال، ويهدها لأنها نظم فى رأيه عتيقة لا تتفق ونظرةَ الرجل العصرى، ولا آمال الإنسان المدنىّ، ولا رجاء البشرية المنتظَر

الحق والقوة

وسبب هـذا أن ساسة الإنجليز، حتى فى بلادهم، لا يعتقدون أن الحق هو ما يراه الفكر حقاً؛ ولكن هو الذى يستطيع أهله أن يدعوه، ثم بالقوة يأخذوه، ثم هم من بعد هذا قادرون على أن يمارسوه. فالحق عندهم غير الحق ما لم يكن وراءه طالب. ولا طلب فى تقاليدهم لضعيف.

ويمتحك ضعف الطلب وقوته عندهم، وفى بلادهم، الرأى العام. وهو يمتحكه كذلك على الأكثر فى غير بلادهم، إلا أن ينقسم الرأى العام فيصبح رأيين أو ثلاثة. ومن نعمة الله عليهم أن ساستهم والزعماء تنحنى للرأى المجتمع كما ينحنى الغصن للريح. فى عقولهم لدونة،

ولكنها لا تلين إلا للريح العاصف ، عصف هذا الريح من لندن أو واشنجتن ، أو من كلكتا أو القاهرة

الحرب الماضية والإصلاح

فهذا هو الذي جرى ويجرى فى إصلاحهم الاجتماعى عامًّا . فهذا الإصلاح لا يُقترح ولا يُقبل اقتراحه إلا من بعد حرب . وأكبر إصلاح اجتماعى حصل فى إنجلترا كان بعد الحرب العالمية الماضية ، لمّا عادت اللاجئين من ميادين القتال علقوا الآمال التى أثارها الحكام ، بين قصف المدافع وانفجار قنابلها ، تصبيراً وتحميساً حتى يكون النصر . وأجال الحرب بحماها فقراء الأمم . وكان أكبر داع لها فى الحرب الماضية لويد جورج ؛ فهو مؤسس التأمين الاجتماعى فى إنجلترا وبادئه ؛ وهو رجل ممن ربّت ورعرعت الأكواخ . ولو كان ممن ولدوا بين أعمدة القصور وتحت قبابها ما فعل غير هذا ، لأن الرأى فى هذا كان عاماً شديداً عاصفاً . وأشدّ منه وأعصف منه ، كانت نُذُرٌ تراءت فى الأفق الشرقىّ من أوروبا ، نُذُر البلاشفة

الحرب الحاضرة والإصلاح

وفى هذه الحرب الحاضرة أيضا ، هم يخضعون لرأى عام أشدّ ، أمامه نُذُرٌ فى ذلك الشرق القريب أشدّ . فروسيا كانت فى ختام الحرب الماضية مسألة كمسألة الرياضة غير محلولة . وكان من السهل على كل أحد أن يقول إنها مسألة خاطئة لا تُحَل . ولكن الزمن حلّها حلا موفّقا لم يستبنه الناس إلا فى هذه الحرب التى امتُحنت فيها الأمم شرّ امتحان . وروسيا كانت بُعَيد الحرب الماضية وبعدها تُستخدم لتخويف الأمم وإذعارهم ، كما تستخدم العفاريت لإخافة الأطفال وتطويعهم . ولكن الحرب الحاضرة كشفت غطاء الصندوق فلم يجد الأطفال فيه إبليساً مخوفا ، بل عروسا ، إن لم يكن بها جمال كثير ، فهى على الأقل ليست دون عرائس قد عهدوها جمالاً أو قبحا .

فروسيا فى هذه الحرب وبعدها ، قد فقدها الساسة نذيراً يرفعونه على الألواح فى صالات الاجتماعات يُرهبون به الناس ويخدعونهم به عما يطلبون . والساسة الإنجليز ، والزعماء فيهم ، رجال حُصَفاء كيّسون ، يؤمنون كل الإيمان ، إذا لم يكن مهرب ، بالمثل القديم الذى صاحت به صائحته : بيدى لا بيد عمرو . فيدهم على كل حال تكون أرفق على رقاب الرأسماليين ، وهم منهم ، من أيدى الجماهير الحمراء الناقمة . وقد منّ الله على تلك الجزيرة بقوم من أصحاب الذوق والحصد والتراء يؤمنون بتغير الزمن ، ويؤمنون بالشىء الكثير من الإنسانية فى بلادهم . وفوق هذا يعرفون متى تنضج التفاحة على شجرها فلا يجادلون فى حمرتها وخضرتها حتى تسقط من استواء وإعياء .

لقد علم هؤلاء الساسة والزعماء من بعد تجاربهم المرّة فى هذه الحرب أن لا فائدة من الزاوغة ، ولا غاية من المطاولة ، فعجّلوا بما ظنوا أن الناس طالبوه .

صرخة أشعب

ولقد كان لا بد لكل حرب صرخة . فكانت صرخة هذه الحرب الديمقراطية . والديمقراطية المساواة فى التضحية ، فالمساواة فى المنافع من بعد ذلك .

وقد ساوى الإنجليز حقاً فى التضحية فى هذه الحرب ، من رب القصر فى علائه إلى عامل المنجم فى حضيضه ، فكان لا بد من التسوية فى المنافع .

إنها صيحة صاحوها للضرورة . ولكنها صارت كصيحة أشعب لها غاية هم لا بد بالغوها . حكوا أن أشعب أراد أن يعبث ، فصاح بالناس أن عند فلان وليمة ، وجرى إليها وجرى الصبيان وراءه . ثم تخلّف وهم يجرون . ونظر إليهم ، فوقع فى نفسه أنه قد تكون هناك حقاً وليمة ، وأن الله ذو حكمة فى تدبير الأرزاق ، فأطلق ساقيه للريح يعدو وراء الصبية .

فهكذا يجرى ساسة الإنجليز اليوم وراء جمهورهم ، على صيحة هم أثاروها .

عودة إلى المشروع

والآن نعود إلى جواب تساؤلنا : ماذا جرى لذلك التقرير المنشود ، وذلك التشريع الموعود ؟

أخذت الحكومة البريطانية ذلك التقرير ، تقرير بفردج ، ودرسته كما تدرسه الحكومة المسئولة ، ثم أعلنت هذا الأسبوع الحاضر نواياها فيه ، وأخرجت للتأمين الجامع نظاماً اعتنقته ونشرته ، وستتقدم به إلى مجلس نوابها لرضاه أو بعده .

ومشروع الحكومة هذا مؤسس على ما ارتضى بفردج لمشروعه أسساً . فهو لا يطابقه تماماً مطابقة الكف للكف . فقد ضنّت الحكومة حيث سخا بفردج ؛ وسخت الحكومة حيث ضنّ بفردج . ولكن مشروع الحكومة كان في مجموعه أسخى . فمشروع الحكومة قد ينقص عن مشروع بفردج طولاً ، ولكنه زيد عليه عرضاً ، وزيد عنه مساحة ، ومع إعلان الحكومة لمشروعها أعلنت لبفردج شكرها .

ومشروع الحكومة البريطانية شامل جامع . وفي شموله هذا ضمّ "الليوبيز" إلى الزبال ، والعامل إلى صاحب العمل ، والرجل الذي يعمل لغيره والذي يعمل لنفسه ، والذي لا يعمل أصلاً ؛ وجمع الفرد المتزوج إلى الذي لم يتزوج ، وجمع الرجل والمرأة ؛ وانتظم الطفل الراضع والشيخ الهاكم ؛ وانتظم الصحيح والمريض حتى ومن فارق الحياة . ولم ينس المرأة إذ تتأيّم ، ولا الصبية والصبايا إذ يتيتّم الصبية والصبايا . وفي شموله هذا سوّى بين الطبقات ، فسوّى بينهم في الواجبات ، واحتفظ للفقير بالكرامة .

فرض لا إحسان

ومن احتفاظ المشروع بالكرامة أنه لم يكن مشروع إحسان ، ولكن نظام تأمين ، يدفع عنه صاحب التأمين أقساطاً لا تخرج عن طوقه .

وفي مقابل هذه الأقساط ينال فوائد ـ مالاً يُدفع له إذا هو تعطّل عن العمل ، أو إذا هو مرض . وإذا توفاه الله كان لزوجه وأولاده معاش مقدور . وإذا اعتزل العمل لشيخوخة كان له معاش الشيخ . وإذا مات كان له ثمن الكفن والجنازة . والولد الذي يولد يعان في بطن أمه ومن بعد وضعه إذا دعت إلى ذلك حاجة .

ولنضرب الأمثال

في التعطّل

فعند التعطّل يأخذ الزوجان ٤٠ شلناً في الأسبوع ، ويأخذ غير المتزوج ٢٤ شلناً . والذي دون الثمانية عشر عاماً ١٥ شلناً . وتدوم هذه ثلاثين أسبوعاً ، وقد تطول عن هذا . والمتعطّل إذا ازدحمت صناعته قامت الحكومة بتدريبه على صناعة أخرى ، على نفقتها . وسيكون للحكومة مختصون يتعقبون الصناعات ويتحسسونها حتى يتنبأوا بالذي يصيبها من ازدحام أو تخفّف كما يتنبأون عن الجو ، وعدة معدة قبل الأوان ، فيقابلون الأزمات بهذا التحوّل في العمل وبين العمال .

في المرض

وفي المرض يعطى المريض والمريضة ما يعطاه المتعطل . ويعطاه ٣ سنوات إذا طال المرض . فإن أزمن بعد ذلك أعطى المريض معاش المزمنين . والخدمة الطبية في كل بلد ، ولكل أحد ، خدمة بالمجان . وبالمجان أيضاً سيمتد الغذاء للأطفال بالمدارس .

في الموت وعند الميلاد

وعند الشيخوخة واعتزال العمل يُعطى الشيخ معاشاً ٢٠ شلناً عند بلوغه الخامسة والستين ، وتعطى الشيخة مثلها عند بلوغها الستين . وفي الموت يعطى المرزؤون مبلغاً قد يعلو إلى العشرين جنيهاً .

وفي الناحية الأخرى ، ناحية الميلاد ، تعطى النُّفَساء ،

جنيهات لتخفيف أحمالها . فإن كانت عاملة وتعطلت بسبب وضعها ، نالت ٣٦ شلناً فى الأسبوع مدة ١٣ أسبوعاً . فإذا لم تكن ممن يستحققن شيئاً تحت نظام هذا التأمين أعطيت ٢٠ شلناً فى الأسبوع لمدة ٤ أسابيع أجرة خادم .

إعانة الأسرة :

والأسرة سيكون لها إعانة تشجيعاً على بناء الجيل الجديد . وهى تبدأ من المولود الثانى ، فيعطى ٥ شلنات فى الأسبوع إلى أن يبلغ السادسة عشرة من عمره . والأيتام يُعطى الواحد منهم ١٢ شلناً فى الأسبوع ، ويدخل فيهم الولد الأول . ولا عبرة بعدد من خلف الأموات .

الكلفة :

وهذه الأمثال كثيرة من أكثر . وهى كلفة لا شك عظيمة ، ستصل فى عام ١٩٧٥ إلى ٨٣١ مليوناً من الجنيهات فى العام الواحد . ومن العجيب أنها ستكون عندئذ صفقة متوازنة بين الحكومة والأمة . فما تدفعه الحكومة فى ذلك العام تحت نظام التأمين هذا ، سيدفعه الجمهور أقساطاً من بعض ما يُرزقون . وما أرزاقهم إلا ما ينتجون . فأى رزق هذا ! وأى إنتاج هذا !

نحن وهم

ويسمع المصرى هذا فيتطلع فيقول : فما بالنا نحن ، وما نصيبنا من مثل هذا ؟ وتعلو الصيحة بالنقمة فتردد أصداؤها فى جنبات البلاد .

ويجيب على هذه الصيحة الأدباء تارة ، والحكومة تارة . أما الكتّاب فسبيلهم فى ذلك أصبحت معروفة مألوفة ، هى الإنحاء باللوم على الأثرياء . وأما الحكومة فتدبر القوانين التى تعيد تنظيم الأرزاق بين الناس بما يكون أقرب للعدالة القومية ، وأقمن بالحقوق الإنسانية .

وهذا كله جميل . ولكن ما جال تدبير يُنظر إلى آخره ولا ينظر إلى أوله ؟! ما جدواء تنظيم الرى وتوزيع المياه فى صدر النهر وفى مجراه وعند انصبابه فى البحر ، فى حين لا يُؤْبَه عند مؤخرته بروافده والمنابع ؟! ما فائدة التركز على نفقات الدولة ، ودخل الناس حقير وإنتاجهم أحقر ؟!

لقد كان للحكومة الحاضرة الفضل فى تنظيم توزيع الدخول بين الناس بما هو أكثر انطباقاً على روح العصر . وتمس مصرىٌ لا يعترف لأخيه المصرى بفضل يأتيه دونه . ولكن مسألة الإنتاج لم تعمل لها الحكومات كثيراً . حتى وإن قيل عملت ، فما كان هذا بالقدر الذى روى عاطشاً ، وما هو بالتركز الذى يقتضيه هذا التعطل الذى فينا ، وهذا الفقر الذى يُبلينا .

قال لى صديق : ليت لنا بفردج .

قلت لصديق : ليت لنا فورد ، وكوداك ، ووُلْنهامستد ، ومنشستر ، وشيفيلد . حفنة من هؤلاء السادة الصناعيون والزراعيون والباحثون ، وحفنة أخرى من تلك المدن ذات الإنتاج العظيم ، ثم حدثنى بعد ذلك يا صاحبى عن بفردج ، أجد لك من أمثاله حفنات .

أحمد زكى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥	فى مصر والسودان
	٣٧,٥	لطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٢ — الثلاثاء ٢٣ من شوال سنة ١٣٦٣ — ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

متاعب الناس

في هذه الأيام

من الأمور التي أصبحت مصدر عناء كثير للناس في هذه الأيام ، مشكلة « الزحام » ؛ فقد صار الظفر بمقعد أو موضع قدم في قطار السكة الحديدية ، أو مركبة الترام ، أو السيارة العمومية ، مطلباً عسيراً يقتضي همة ومغامرة ، وتضحية بالوقت والجهد ، واستعداداً لاحتمال أذى كثير .

ولم يقف أمر الزحام عند وسائل النقل ، بل تعداها إلى كل جهة تقوم بأداء خدمة عامة للجماهير ، أو تسد حاجة من حاجاتهم الضرورية ، فالمتاجر ، والمصانع ، والمطاعم ، والفنادق ، والمدارس ، والمستشفيات ، ودواوين الحكومة والشركات والمصارف ، ودور السينما والملاهي ، كلها تعاني ضغطاً شديداً من الجماهير التي تتزاحم في لهفة وعجلة للسبق بقضاء مآربها وتحقيق مطالبها .

وحيث يشتد التزاحم على أمر من الأمور ، والتلهف على السبق في إحراز مطلب من المطالب ، يكون هناك خلل في التوازن بين العرض والطلب ، ونقص حقيقي أو وهمي في الكمية الموجودة لسد حاجة الراغبين .

ولا نعمد إلى التحقيق هل أصبحت وسائلنا قاصرة عن كل حاجاتنا ؟ فالإحصاءات الدقيقة لمثل هذه الشئون غير متوفرة ، ولكننا نحس أن الأمر لم يلق منا العناية التي يستحقها ، وأنه كان من الممكن ، بالتدبير المحكم والتنظيم الدقيق ، أن يُخفف كثير من الضغط ، وأن يراح الناس من كثير مما يلقونه من العناء .

ففي شئون النقل كان من الممكن ، بشيء من التنظيم ، توزيع الحمل على وسائل النقل بتعديل المواعيد ، وتغيير طرق السير ، وزيادة الوسائل حيث يشتد الضغط ، وتقليلها حيث يقل ، والتدخل في أوقات العمل بالمصانع والمصالح ودور السينما ، وتحديد مواعيد مختلفة لبدايتها ونهايتها ؛ وأحسب الحكومة فكرت في شيء من ذلك ، ولكنها لم تضعه موضع التنفيذ .

وفي شئون التموين استطاعت الحكومة أن تقف

تدافع الناس وذعرهم ، وتنظم التوزيع فى أمر البترول والسكر والشاى والأقمشة الشعبية . ولكنها وقفت عند ذلك ، ولو سارت فى سياستها إلى النهاية ، وحصرت كل الحاجيات الأخرى ونظمت توزيعها ، لكفت الناس ما يلقونه من عنت التجار ، واضطراب الأسعار ؟ ولوقفت نجاح السوق السوداء التي يلجأ إليها المضطر حين لا يجد فى السوق المشروعة سداً لحاجته .

وفى شئون التعليم ، انتهجت الحكومة سياسة دعقراطية حميدة ، فجعلت التعليم الابتدائى بالمجان ، وجعلت القبول بالمدارس الثانوية لأفضل المتقدمين نجاحاً ، قدر على دفع مصروفات التعليم أو لم يقدر . ولا شك أن الروح التى أوحت إلى الحكومة هذه الخطة روح وطنية نبيلة ، ولكن تنفيذ هذه السياسة الجيدة قد خلق صعوبات جديدة ، كان تستحق أن يحسب لها حساب ، وأن تدبر لها الحلول .

ففى المدارس الابتدائية صح ما توقعه بعض المفكرين من أن تقرير المجانية سيغمرها بسيل من الطلبات ، ينهال عليها من تلاميذ المدارس الأولية الذين فتح لهم الباب المحظور ، وأتيحت لهم الفرصة بسلوك الطريق المؤدى لأعلى درجات التعليم ، فأقبلوا عليه جميعاً ، وزحموا أبناء الطبقات الوسطى والعالية . وقد يكون للأولين حظ التفوق على أولئك فى مدارس الحكومة والمدارس الحرة ، واحتلال مقاعدها ، فأين يذهب الآخرون ؟ قد يقال : لا شأن لنا بهم . فشأن من يكون ؟ إن من العدل أن تختص الدولة النابهين من أبناء الأمة بالتعليم على نفقتها ، ولكن هل من العدل أن يلقى فى الطريق بغيرهم من الراغبين فى التعليم القادرين على احتمال نفقاته ، وليس بالبلاد مدارس خاصة تتسع لهم ؟! أليس من العدل أن تسلم الحكومة هؤلاء على نفقتهم الخاصة إلى أن تسمح لها ميزانيتها بإيجاد الأماكن الكافية لتعليم الجميع على نفقة الدولة ؟!

وفى التعليم الثانوى . مادامت الدولة لم تقرر مجانيته الكاملة ، فلم لا تقبل النسبة المقررة للمجانيين ، وتملأ المحال الباقية بالراغبين فى التعليم على نفقتهم ؟ ولم يختار الجميع على أساس التفوق ، وقد ينجلى الأمر عن عجز أكثر المقبولين عن دفع نفقات التعليم ؟! إننا معجبون بالروح الكريم الذى أملى على الحكومة انتهاج هذه العامة ، ولكنا كنا نحب أن تسلك فى تنفيذها خطة التدرج ، ما دامت الظروف لا تسمح لها بتعميمها على الجميع وإيجاد الأماكن لكل الطلاب .

أخشى ما نخشاه أن تكون الحكومة فى حرصها على إنصاف الفقراء ، وإتاحة الفرص التعليمية لهم ، قد حرمت القادرين من التعليم ، ولم تدخل فى حسابها إنصافهم وعدم الحيلولة بينهم وبين التعليم الذى كان ميسراً لهم .

ولعل هذا التزاحم الشديد على المدارس يكون حافزاً للوزارة لأن تعد من الآن عدتها لعام المقبل ، وترتب الحل الكفيل بتخفيف الضغط على المدارس ، وإراحة الآباء من هم تدبير أماكن فى المدارس لأبنائهم .

ويسوقنا الحديث من التلاميذ إلى مشكلة المعلمين . قيل إن الوزارة قد اضطرت تحت ضغط الحاجة إلى تعيين معلمين من خريجى الكليات التى لم تعد أبناءها للتعليم ، كخريجى الزراعة والتجارة وغيرها . ولا ضير فى ذلك ، سيما وقد تولت هؤلاء بدراسة تكميلية فى الصيف فى التربية وأصول التدريس . ولكن هذا الأمر يثير التفكير من ناحية أخرى :

إذا كانت البلاد لا تحتاج لهؤلاء الخريجين فيما أعدتهم له من التعليم الزراعى والتجارى وغيرهما ، وكانت حاجتها الشديدة هى للمعلمين ، فلم لا يوفر على هؤلاء سلوك هذا الطريق البعيد ، ولم لا يختصر السبيل ويعدون من البداية لتلك المهنة ؟ وبعبارة أخرى ، لم لا تنشئ الوزارة كلية أو كليات للتعليم ، تستوعب عدداً ممن يضغطون على مختلف الكليات ثم لا ينتفعون أخيراً بما تعلموه ، ويلجأون لمهنة التعليم ؟!

مارى باشكيرستف

كانت حياتها على هذه الأرض قصيرة ، مثل أعذب أحلام الحياة ، فقد انقضى عمرها كما ينقضى عمر الورود . وُلدت فى أكتوبر سنة ١٨٦٠ ، وتوفيت فى الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

وكانت بيضاء اللون ، شقراء الشعر ، مرتفعة عظام الخدين ، فارغة الوجنتين ، قصيرة الأنف ، رقيقة الشفتين ، عميقة النظرات ، لها عينان تسطعان كعينى المحموم .

وهى حفيدة الجنرال نخريفوريقتش باشكيرستف ، وكانت من جلة أبطال سباستوبول . قرأتْ أرسطو ، وأفلاطون ، ودانتى ، وشكسبير ، وهى لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، وحفظت « هوراس » وقرأته من ظهر قلبها . وكان إعجابها لاينقضى بشعر «هومير» ، وقد قالت فيه : « لا يستطيع أحد أن يفلت من عبادة الأقدمين ، فلم تترك لى مأساة مدينة ، ولا قصة طريفة مما كتبه دوماس ، أودبَّجه يراع جورج ساند العزيزة ، مثل الأثر العميق الذى تركه فى نفسى وصف الاستيلاء على طروادة ؛ حتى كان يخيل إلىّ أنى أشهد الفظائع ، وأسمع العويل والصياح ، وأرى النار تلتهم تلك البلاد » .

وكانت ذاكرتها مستودع الكتب والروايات على اختلاف أنواعها ، ولذلك كانت هى واسعة الاطلاع ، غزيرة المادة ، ينتقش فى صفحة ذهنها ما استفرغته من أوعية شتى ، ويرتسم على لوح حافظتها ما وعته من مختلف الكتب والروايات . وقد شغفت بالسياحة والتنقل ، فكانت تطوى المراحل وتجوب الأمصار ، وتنظم حاشيتى البرّ والبحر ،

لقد يبدو شيء من التناقض بين سياسة الوزارة فى توسيع التعليم ، وسياستها فى تضييق معاهد تخريج المعلمين ، فلعلها أن تعيد النظر فى هذا الأمر وتوليه ما يستحقه من عناية .

بقى الكلام عن ضغط الجماهير على دواوين الحكومة ، وتزاحمهم على مختلف مكاتبها ، وهى ظاهرة مؤلمة ، أساسها اعتقاد الجمهور أن مسائله فى الحكومة لا تنجز إلاّ إذا سايرها خطوة خطوة ، ولجأ إلى مختلف الوسائل لحمل من بيدهم مسألته على التعجيل بها ؛ ولا شك أن هذا الضغط يسبب اضطرابا شديداً فى الأعمال ، ويعطل الموظفين عن فحص المسائل بدورها ، ودرس ما يحيط بها من ملابسات فى جو هادئ ؛ وهو فوق ذلك يشغل هؤلاء الموظفين عن كثير من شئون العمل العامة ، ويضيع كثيراً من أوقات غيرهم ممن لا علاقة لهم بتلك المسائل الخاصة ، ممن يلجأ إليهم الجمهور للاستعانة بهم على من بيدهم شئونهم .

وعلاج هذه الحال لا يكفى فيه تحديد مواعيد لمقابلة ذوى الحاجات ، فهذه المواعيد لاتحترم ، ولا يعدم الجمهور الوسيلة لتخطيها ؛ ولكن علاجها أن يسير الموظفون على نظام دقيق لايتخطونه لأى سبب ، يعالجون فيه المسائل بدورها دون تأثر بأى اعتبار ، وأن يكونوا أسرع إنجازا لما بين يديهم من الأعمال ، حتى يثق الجمهور بأن النظام العادى كفيل بإراحة الجميع .

إلى هنا كان كل ماذكرناه من علاج لتخفيف تزاحم الناس هو ماتستطيع الحكومة أن تفعله ؛ ولكن من الحق أن الشعب يستطيع أن يفعل كثيراً من جانبه لتخفيف متاعبه فهو يستطيع إذا راض نفسه على النظام واحترام حقوق الغير أن يحول دون التدافع ، فلا يتخطى أحد مَن سبقه ، ولا يجور أحد على حق غيره .

وهو يستطيع ، بالتعاون ، أن يقف فى وجه الجشعين والمتلاعبين ، ويحول دون منتهزى الفرص وقناص الغنائم فى أوقات الأزمات .

وهو يستطيع أن يعاون الحكومة فى ترجمة من خطط بالإخلاص فى اتباعها ، وتقديم ماتتطلبه الحاجة من تضحيات

« س »

فى رومه ، وباريس ، وفينه ، وبرلين ، وبرج (إذ ذاك) دون أن تستطيع التملص من الضجر الذى رمت به، واستحوذ على حياتها الفنية ، وجعلها مريرة المذاق خاوية الوفاض ؛ ومما يؤثر عنها قولها : كل ماليس أليماً فى هذا الوجود فهو مخيف ، وكل ماليس سخيفاً فهو أليم » ! ! ومع ذلك فقد كانت شديدة التعلق بالحياة ، وتقول : « إنى أحب الحياة وأستسيغ كل شىء فيها حتى الدموع وحتى الألم » !

وقد قصرت نفسها على التصوير ، واستغرقت أيامها فى معالجته ، وأخذت له دروسها منذ سنة ١٨٧٧ ، فجعلته مراد أمانيها وحديث أحلامها ، وسلكت كل سبيل إلى مبلغات النجح فيه ؛ وقد خلفت طائفة من الرسوم والنقوش وكأنها قطع من جمال الطبيعة وجلال الحياة ، تريد أن ينفذا إلى حياة الناس ليزدادوا بالحياة إحساساً وبالطبيعة استفادة ، وإذا المعانى العليا والفضائل السامية فى صورها تحملها وحياً إليها ، وإن كان قد وقع من قبل لجميع الرسامين . وقد أصيبت بالصمم فى تلك الأثناء ، واشتد عليهـا مرض السل الذى أودى بحياتها فى النهاية ، وقد كتبت تقول : « لم يخلقنا لنتألم ، وإذا كان هو الذى خلقنا ، فلم خلق معنا المكاره والآفات والبلايا ؟ إنى لن أبرأ من دائى العضال ، وسيبقى بينى وبين العالم حجاب دائم ، فلا أسمع حفيف الريح ، ولا تساقط المياه الصافية ، ولا خرير الغدران العذبة ، ولا قطرات المطر على الزجاج ، ولا رنين العبارات التى يذيعها الهمس » !

ثم شعرت بأن الداء يدأ كل وقتها ، فصاحت وهى تتحرق قائلة : « حبذا لو أمكن أن أعيش عشر سنوات أخرى ، لأنه إذا أتيح لى أن أحيا إلى الثلاثين من عمرى ، فإنى أكون قد حييت إلى الأبد » .

وإذا كانت الحياة تفر منها كان ولعها بها يعظم ويربو ، فالفنون والموسيقى ، والتصوير ، والكتب ، والناس ، والترف ، والنميمة ، والصمت ، والحزن ، والأسى ، والحب ، والشمس ، وفصول السنة الأربعة ، وسهول روسيا ، وجبال نابلى ، والثلوج ، والمطر ، والنجوم ، كل ذلك كانت تحبه غاية الحب ، وتعجب به ، حتى الموت عينه كانت تهواه ، مع أنها قد تهيبته ...

ولما عارض المرض أطماعها باليأس ، وكشف لها برق مناها عن سحاب خلب ، وشوه إليها وجوه آمالها ، وعابت الحقيقة وجهاً لوجه ، قالت : « سأدخل غداً ، وأغيب فى جوف الثرى ، وتغيب معى كل آمالى وأماقى وأنا لا أعدو الرابعة والعشرين من عمرى » ! !

وفى يوم ملأ الضباب جوه ، لفظت أنفاسها الأخيرة ، وكان موتها أشبه شىء بآخر ما جرت به ريشتها قبل وفاتها بقليل .

وكانت لها يوميات رائعة ، قال الكاتب الفرنسى أناتول فرانس فى وصفها : « إن الذى يقرأ يوميات مارى باشكيرستف ، يخيل إليه أن نفسها الكبيرة لا تزال حية ، وأن طيفها يسير متنقلاً بين شعورها وهو ينوء بأفدح الآمال » : ولا عجب أن كانت قد رزحت تحت أعباء الأمانى المحطمة ، وأثقال الأحلام غير المحققة ، لأن الأمانى الضائعة والأحلام الزائلة لا تموت ، ولكنها تسكن فى قرارة النفس ، ولا يستطيع صاحبها أن يتخلى عنها أو يجحدها ، بل يستبقيها وبها لم فى سبيلها .. وكانت فى آلها مستبسلة ، ولأمانيها وفية ، لأنها كانت تبغى القيام بجلائل الأعمال فى عالم الله الوسيع ، عالمة أنه كلما اشتغل العقل ، ولهج القلب بما فى هذا الكون من الأمور النبيلة الجليلة ، قلت أثرة الإنسان ، وعظمت غبطته ، مهما يعرض لنا من المتاعب والهموم ، والنوائب والسقام ، فى هذه الحياة .

الزهرة

ستالين القائد

كان ستالين قد أعدته أمه كيا يكون واعظاً يبشر بدين المسيح ، فخرج من مدرسة الكنيسة ثائراً يبشر بمذهب كارل ماركس الشيوعي ، وينحرف إلى طريق الثورة ويسجن وينفى ، ويعود من المنفى ليبدأ سيرته الأولى ، وليسجن وينفى من جديد .

ولم يكن عجباً أن تأخذ هذه الثورة بيده إلى قمة النفوذ والسلطان ، حيث يستقر في مقر القياصرة قيصراً غير متوج ، يبسط إرادته في سدس الكرة الأرضية مساحة وما يعادل عشرها سكاناً ! ولكن العجب حقاً أن يصبح هذا الرجل العجيب عبقرياً في الحرب كما كان في الثورة ، وقائداً مظفراً فيها كما كان زعيما مبرزاً .

ووجه العجب ، أو وجه الإعجاب ، أن ستالين لم يدرس فنون الحرب في مدارسها ، ولم يلتحق بالجيش طول حياته ، ولكن دلته مواهبه الممتازة على مواطن الفن في أمور الحرب لحذقها ، وطبّق دروس الحياة العملية على الأمر الواقع فلم يخطئ الحساب ، وقادته بصيرته النافذة إلى مواطن القوة أين تكون فاستغلها ، وعلى مهابط الضعف أين تقع فتنكبها ؛ وهكذا نقل ميدان الحياة إلى ميدان الحرب ، وصب فيه عصارة مواهبه وتجاربه فأطاعت ، واستطاعت أن تجعل منه المنظم والقائد المنتصر .

كانت الثورة أول دروس الحرب التي تلقاها ستالين ، فقد كان عليه أن يدبر المظاهرات والاضطرابات ويديرها ، وكان عليه إذن أن يعمل حساب الشرطة وفرسان القوزاق ، وكيف ينتصر منهم إذا هاجموه ، وكيف ينتصر عليهم إذا هاجمهم .

وقد اشتبك فعلا مع الشرطة في معارك كثيرة أثناء قيام هذه الاضطرابات ؛ وقد انتصر عليها في معركتين هامتين :

كانت الأولى في سنة ١٩٠١ . وكان قد قاد مظاهرة من العمال في باطوم ، وظفرت الشرطة ببعض المتظاهرين وقبضت عليهم وسجنتهم ، فما لبث ستالين أن قاد مظاهرة أخرى اشتبك بها مع الشرطة في معركة حامية حتى استخلص المسجونين .

وكانت الثانية في شهر مايو سنة ١٩٠٥ حينما دبر مع صديقه (كامو) خطة للاستيلاء على أوراق نقدية مرسلة إلى بنك تفليس ، وفي الموعد المحدد ، وبينما كانت الأوراق في طريقها إلى البنك تحرسها قوة من القوزاق ، برز كامو في زي ضابط واشتبك مع القوة الحارسة ، وقتل هو ورفقاؤه ثلاثة من رجالها ، وفاز بالمال .

وفي سنة ١٩٠٥ انتظمت روسيا كلها ثورة جامعة ، وكان ستالين إذ ذاك في القوقاز ، واستطاع القوقازيون بتدبيره أن يزعزعوا مظاهر الحكم القيصري من بلادهم ثلاثة أشهر . فكانت هذه الثورة هي أولى الحركات الحربية العامة التي أدارها ستالين ، كما كانت الدروس الأولى التي تلقاها في فن الحكم .

وقد أدرك لينين – وكان في المهجر – عقب هذه الثورة أن الثورة العامة قد صارت وشيكة ، وأن على الحزب الشيوعي أن يمهد وأن يستعد لها ؛ فأوحى إلى ستالين أن يجند الرفاق ، وأن يقدم إلى زميله كراسين ليتولى أمر تدريبهم عسكرياً ، وكان هؤلاء الرفاق النواة الأولى للجيش الأحمر .

وجاءت ثورة سنة ١٩١٧ التي أطاحت بعرش القياصرة ، فكان هؤلاء الرفاق هم عصب هذه الثورة ، ولكن كيرنسكي اختلس الحكم من رجال الثورة هؤلاء ، حيث كان لينين في المهجر ، وستالين في المنفى . فلما عاد ستالين دبر حملة عسكرية وجهها إلى حكومة كيرنسكي ، فأزاحها سريعاً دون أن تراق الدماء .

وإلى حسن تدبير ستالين الدقيق الحكم في هذه الحملة ، لم يتمكن كيرنسكي من أن يثيرها حرباً أهلية ثانية

تقضى على الثورة ، وعلى نتائجها .

وقامت بعد ذلك الحرب الأهلية (١٩١٧ — ١٩٢٠) بتحريض من الألمان أولا ، وبتشجيع ومساعدة الحلفاء ثانياً ؛ فإن الألمان كانوا قد وعدوا الأوكرانيين بمساعدتهم فى إنشاء حكومة مستقلة ، وكان الألمان يزحفون إذ ذاك صوب (كييف) ، فأصدر الزعيم الأوكرانى (رادا) نداء دعا فيه إلى مساعدة الألمان لطرد الشيوعيين من أرض (الوطن) ، واستجاب الأوكرانيون لنداء الزعيم ، وألف الجنرال كاليدين جيشاً من فلول الجيوش القيصرية ، وقام قوزاق الدون يؤيدونه ، وبذا بدأت الحرب الأهلية .

وخرج الألمان من الميدان لأنهم كانوا قد عقدوا مع البلشفيك معاهدة برست ليتوفسك فى ١٩١٨/٣/٣ .

ورآها الحلفاء فرصة سانحة للتدخل كيما يجبروا ألمانيا على الحرب فى جهتين ، وليقضوا على البلشفية قبل أن يمتد خطرها .

واستطاع الحلفاء أن يشنوها على البلشفيك حرباً حامية تلاحقهم أخطارها من كل صوب ؛ فى الجنوب جيوش كاليدين وقوزاق الدون . فلما سحقهم القائد البلشفى (ايفيستكو) عاد القوزاق فتجمعوا تحت قيادة (كراسنوف) ، وظهر جيش الجنرال دينكين كذلك — وكان هذا قائداً موهوباً — يقود جيشاً قوياً مجهزاً ، فاستطاع أن يتقدم إلى أن حاصر تساريتزن (ستالينجراد) ولم يفلح فورشيلوف فى الدفاع عنها فأخلاها .

وفى هذا الوقت ظهر جيش الأميرال كولشاك فى الشرق ، والسابت كذلك جيوش الحلفاء من ثغر مورمانسك . وقد نجح (بلوخر) فى أن يبدد جيوش كولشاك . ولكن دينكين زحف صوب موسكو ، حتى شارفها ؛ وكان ستالين يتولى القيادة فى هذه الجبهة ، وهى أخطر الجبهات ، ليواجه أخطر القواد وأخطر الجيوش . وأدرك ستالين أنه لا يستطيع مواجهة دينكين على طول الجبهة فكان يجمع جيوشه فى نقطة واحدة يراها أضعف النقط فى خط جيوش دينكين ، ويضرب بها ضربة قاصمة ، ثم يفرق جيوشه على طول الجبهة لتقاوم ما استطاعت ، ثم يجمعها مرة أخرى ليختار نقطة ضعف أخرى يضرب فيها ضربة ثانية ، وهكذا حتى أضعف جيوش دينكين واضطره إلى الانسحاب .

ولكن الخطر ظهر من جديد ، فقد جهز الحلفاء جيشاً جديداً ، وولوا قيادته الجنرال (يودونتشين) ، وفى الوقت نفسه كان (دينكين) قد أعاد تنظيم جيشه ، وزحف يؤيد يودونتشين ، ووجهتهما معاً بتروغراد ، وفى مواجهتهما ستالين أيضاً ؛ وبينما كان الجيشان الزاحفان يستعدان المعركة الحاسمة فاجأهما ستالين وبدد شملهما .

وكان ستالين فى هذه المعركة قد خالف أوامر اللجنة المركزية وأوامر لينين ، التى كانت تشير بعدم اشتباك القوات البلشفية فى ميدانين معاً ، ولكن ستالين ، كعادته ، كان لا يتقيد بالأوامر ما دامت لا تتطابق مع الظروف ، وكان لا يتردد فى مخالفتها محتملا المسئولية ، وهى مسئولية كبرى لو أدت مخالفتها إلى وقوع ما كان يخشى وقوعه .

وعاد دينكين يكوّن جيشه من جديد ، فأعلن التجنيد العام فى أوكرانيا ؛ ورأى البلشفيك أن يبدأوه بالهجوم ، لكن ستالين أصر على أن يمهلوه حتى يندمج الفلاحون المجندون حديثاً فى جيشه ، وليجعل منهم نقطة الضعف التى يهاجمها منه .

وفى الوقت نفسه أمد الجيش الأحمر بفرق الفرسان ، لأول مرة فى تاريخه وباقتراح ستالين ، وولى قيادتها (بوديني) .

ولاقى دينكين نجاحاً فى أول الأمر ، فقد زحف بقواته من أوريل إلى كيرسك ، ومن هذه استولى على (فورونيز) وصار على بعد مائتى ميل من موسكو . ولكن ستالين لم يلبث أن وجّه بوديني بفرسانه ليشتبك مع فرسان دينكين

بينما كان هو فى الوقت نفسه يهاجم قوات دينكين من الناحية الضعيفة فيها حيث الجنود الجدد ، واستطاع أن يوقع فى صفوفها الاضطراب . وهكذا ارتد دينكين نحو نوفوروسيسك (ميناء على البحر الأسود) .

وكان على ستالين أن يتتبع دينكين ، وكان ستالين عند ذلك فى تساريتزن ، فكان طبيعياً أن يختار الطريق المستقيم القصير الممتد بين البلدين ، ولكنه أدرك أنه يقوم فى وسط هـذا الطريق مناطق تعادى البلشفية ، وأن أقصر الطرق إذن هو أسدها ولو كان أطولها ، ولذلك اختار الطريق من تولا إلى نوفوروسيسك حيث يمر عتاجم الدونتز وبخاركوف ، وهما منطقتان يغشاها العمال الناصرون للبلشفيك ، وهكذا قضى نهائياً على دينكين

ولكن الحلفاء أعدوا مع هذا جيشاً آخر قوياً يقوده قائد آخر موهوب كذلك هو الجنرال (ورانجل) ، فوكلت اللجنة التنفيذية إلى ستالين مجابهة هـذا الخطر الجديد ، وأعطته سلطة غير محدودة لاتخاذ ما يراه لازماً . وتقدم ورانجل واستدرجه ستالين حتى بعد عن قواعده فانقض عليه وألحق به هزيمة قاصمة . وبهذا انتهت الحرب الأهلية ، وانتهت فى شبه معجزة ! فالجيش الأحمر كان فقيراً فى كل شىء ، فى التدريب والعـدة والقيادة ، وكان يسند ظهره إلى روسيا المنهوكة التى خربتها الثورات والحرب وفساد القيصرية ! بينما كانت الجيوش الأخرى غنية بكل شىء ، بالتدريب ، وبمدد الحلفاء ومالهم اللذين لا ينفدان ، وبقواد حاذقين من أمثال دينكين وورانجل . ولكن هذا الفقر فى الجيش الأحمر كان يكمله شىء واحد ، هو ستالين وصبره وإيمانه وثاقب بصره ، وحكمه العميق السليم على الأسباب والنتائج .

قال « كاجونفتش » أيامئذ : « لقد كان كل شىء يدعونا إلى الفرار ، ولكننا لم نفر لأن ستالين قال : سننتصر ! » أما أثر قيادته فى هذه الحرب فموضوعه مقال آخر .

ابراهيم زين الدين المحامى

الأدب العربي المعاصر

وخلوه من تراجم المعاصرين

تصدر إلينا مطابع القاهرة وبيروت في كل أسبوع بعدد من الكتب تعالج مختلف أنواع الثقافة وقضايا الأدب وشؤون الفكر لأدباء عرفوا — في الدنيا العربية — بعمق تفكيرهم ونضج أدبهم ، وما امتازوا به من عوامل الابتكار والإبداع والذوق ، وما في أساليبهم من متع أدبية وإشراق روحي وأدب رفيع .

وهذا تيار أدبي له تأثيره في رفع مستوى العقل العربي وإنارة الأذهان ، وخلق رأي عام مدرك مثقف يتلقف ماق هذا النتاج من آراء جديدة ، ووثبات جريئة ، ومادة دسمة تهديه إلى آفاق واسعة من الحياة ، وترشده إلى النور وتزيد في ثقافته .

ولكننا نشاهد مع عظم هذا الإنتاج الأدبي وغزارته ، والثروة الفكرية التي يقدمها إلينا أدباء مصر ولبنان ، وما يتكبدون في سبيل ذلك من جهد ذهني ومراجعة مستمرة وتتبع طويل ، أنهم مقصرون تقصيراً مهماً في معالجة ناحية هامة من نواحي الأدب والثقافة ؛ وهذه الناحية تؤرخ أدب العصر ومختلف التيارات التي تجاذبته ، وأعني بها كتب (تراجم المعاصرين) من أصحاب النبوغ والإلهام والأدب والفكر ، الذين كان لهم أثر بارز في تكوين الأدب العربي والنهضة الثقافية ، وما يتردد الآن في جوانب الدنيا العربية من علم وافر وأدب وابتكار .

هذه الناحية قد أهملها أدباء العرب المعاصرون ، مع علمهم بأهميتها ومعرفتهم بأثرها في دنيا الفكر وإعلاء شأن الأدب ورجاله ، في حين أنهم يعالجون في كتبهم مختلف الدراسات الأدبية من شعر ونثر وقصص ؛ كما أن بعضهم يقوم بإحياء تراث المتقدمين من رجال الفكر والأدب والسياسة ، وجلاء تلك العصور الغابرة عما تخلفه من ثقافات وتيارات أدبية . أما تراجم الأدباء المعاصرين فلا تحظى منهم بكبير عناء واهتمام ، مع أن مثل هذه الدراسات لهؤلاء المعاصرين مُعنى بها من قِبَل الأدباء والمفكرين في الغرب ، وتحتل مكاناً مهماً لديهم .

ففي أوربا وأمريكا لا يموت أحد الشعراء أو الأدباء وكل من له أثر ملحوظ في الثقافة العامة ، إلا وتقوم المطابع بعد فترة قصيرة لا تتجاوز أشهرا بإخراج عشرات الكتب التحليلية لشخصية هذا الشاعر أو الأديب ، ودراسته من كافة نواحيه ، مؤرخة بهذه الواسطة أدب العصر وتياراته المختلفة وألوان الثقافة العامة . ونرى الكتاب المعاصرين يختص كل منهم بدراسة ناحية هامة من نواحي هذا الشاعر أو الأديب ، والعناصر التي اجتمعت في إنتاجه فكونت منه شخصية أدبية مرموقة لها خصائصها التي امتازت بها في عصرها ، فيتركون للأجيال المقبلة ثروة أدبية ممتعة ، تكون من أحسن المراجع وأصدقها لهؤلاء الأدباء والأدب المعاصر .

لذلك نشاهد أن القسم الكبير من أدبائنا البارزين عندما يبحثون في الأدب الغربي والأدباء اللامعين فيه ، يبرزون لنا صوراً واضحة المعالم ، دقيقة التحديد ، مشرقة العبارات ، وذلك لأن المصادر لديهم متوفرة وغزيرة . أما إذا اضطروا إلى دراسة أديب عربي معاصر وتحليل شخصه وأدبه وأثره ، فتراهم يتعثرون في أبحاثهم ويسيرون بحذر شديد وخوف ظاهر ، وذلك لقلة المصادر لديهم وندرتها ، أو استحالة وجودها .

وهذا نقص بارز في أدبنا العربي المعاصر ، كنا نود مخلصين لو أن أدباء الأمم العربية اهتموا بتلافيه في هذه الآونة ؛ خاصة وأن أدبنا العربي المعاصر في بدء سيره إلى

النضج والكمال ، وأن أدباءه الذين ذهبوا وكانوا قد ساهموا في بنائه وتكوينه ووضعوا اللبنات في أساسه لا يزال أكثر الذين عاصروهم من أدبائنا البارزين أحياء يرزقون ، وهم قادرون على ترجمتهم وتحليلهم ، وبيان الخصائص الأدبية التي امتازوا بها في آثارهم التي تركوها ، والتراث الفكري الذي خلفوه .

إن دراسة هؤلاء الذاهبين من الأدباء المعاصرين من قبل إخوانهم الأدباء الباقين من المعاصرين ليكوّن ثروة أدبية في الأدب العربي المعاصر ، تكون من أحسن المراجع وأصدقها لهذه الفترة من حياتنا الأدبية وأدبائها المبدعين ، ستتلقاها الأجيال المقبلة بغبطة وشوق ؛ وذلك لأنها كتبت بأقلام أدباء عاصروا وسايروا هذا الأدب ، وعرفوا عنه كل خصائصه ومميزاته ونواحي إبداعه ، فيكون ما يكتبونه ويترجمونه مصدراً من أهم مصادر التاريخ للأدب العربي المعاصر .

وبالعكس إذا بقى أدبنا ناقصاً من مثل هذه الدراسات الهامة ، ولم يولها أعلام الأدب عنايتهم واهتمامهم ، سيكون من الصعب على الأدب العربي الذي سيأتي في الجيل المقبل القيام بمثل هذه الدراسات ، وذلك لكونه يعيش في عصر غير عصر المترجَم له ؛ فإذا أقدم على مثل هذه الدراسات والتراجم فيحدث في كتاباته من الزيادة والنقصان والتشويه والكذب ما نشاهده في أغلب الدراسات الأدبية لبعض أعلام الشعر والأدب الذين عاشوا في العصر الذي سبق عصرنا .

فمن واجب كبار أدباء العرب المعاصرين في مصر ولبنان وسوريا والعراق القيام بهذا الواجب الأدبي الذي أهملوه ، مع أنه أولى بعنايتهم من كل موضوع آخر ، لأنه علاوة على كونه ميداناً لإبراز عبقريتهم وإبداعهم ، ينتج ثروة أدبية لها أثرها في الأدب العربي ؛ وأبسط دليل على ما نقوله ما يتمتع به الكاتب الذائع الصيت «إميل لودفيك» من مركز أدبي رفيع في العالم .

* * *

لقد مات المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي ، وكانا — رحمهما الله — أصحاب مدرسة أدبية ذات لون خاص في الأدب العربي ، وإن تأثيرهما في الأدب المعاصر وفي بعض الأدباء المعاصرين لا ينكره أحد ، علاوة على كونهما أديبين بارزين في مصر والبلاد العربية ، ويستحقان عناية الدرس والتحليل ، فما هي الكتب التي صدرت تترجم هذين الأديبين ، اللهم إلا كتاب (سعيد العريان) عن الرافعي؟! وهذا لا يكفي لدراسة أديب دوى اسمه في مصر والبلاد العربية فترة من الزمن !!

ومات حافظ إبراهيم وأحمد شوقي ، وكانا علمين بارزين في الشعر ، أجمعت كافة البلاد العربية على إكبارهما ، واعترف الأدباء بعبقريتهما الشعرية ، وما امتاز كل منهما بخصائص جعلته طائر الشهرة وذائع الصيت ، ليس في البلاد العربية فقط بل في أكثر أقطار العالم ، وكان لها تأثير كبير في الأدب العربي المعاصر ؛ فمثل هذين الشاعرين كان يجب أن يعنى بدراستهما عشرات الكتاب المعاصرين ويؤرخوا عصرهما ، ويجلوا هذه العبقرية التي ألهمت كلاً من الشاعرين هذا الشعر الذي هز العواطف العربية ، وشاركها في خيالاتها وأمانيها وطموحها .

ثم مات عبد القادر حمزة والبشرى ، وكان لهما من الصيت والدوى والمركز الأدبي والثقافة الشخصية ما جعل لهما مكانة مرموقة في جميع البلاد العربية ، علاوة على مركزهما الممتاز في مصر ، وإن تأثيرهما في الثقافة العامة لا ينكره أحد ؛ فمن الجحود أن يرموتهما بدون أن يتحرك هذا الرعيل العاصر من زملائهما الأدباء والصحفيين بتخليدهما بتراجم توضح مدى أثرهما في خدمة الأدب والمعرفة !

ومات الريحاني وفيلكس فارس والآنسة مي ، وكانوا

من الأدباء البارزين فى العربية ، ولهم جولات صادقة فى خدمة الأدب والثقافة ، وكان تأثيرهم فى الأدب المعاصر ملحوظا ، علاوة على آثارهم التى تركوها وكان لها ولا تزال مركزها الأدبى الممتاز لدى قراء الأدب العربى وأدبائه ؟ هذا مع العلم أن « الريحانى » انتشر صيته الأدبى فى الدنيا الجديدة أيضاً ، فعرفوا فيه الأديب الناضج والمؤرخ الصادق. مات هؤلاء بدون أن يثير موتهم أى اهتمام من جانب الذين عاصروهم وعرفوا فيهم عمق ثقافتهم وأثرهم فى الأدب العربى المعاصر .

ومات الشهبندر وكان علماً من أعلام المعرفة علاوة على كونه زعيماً وطنياً ، وله فى دنيا الفكر جولات صادقات ، تشهد بها مجلة الهلال والمقتطف وصحف الدنيا العربية ، كما يتمتع بصيت بلغ أوربا والدنيا الجديدة ، وله فى الأدب المعاصر آراء وآثار . فهل من الإنصاف أن يمر موته وتمضى السنون بدون أن يقوم أحد من هؤلاء الأدباء الذين تعج بهم الدنيا العربية فيؤرخ لنا الشهبندر ؟!

ويموت الزهاوى فى العراق فلا يهز موت هذا الشاعر العظيم الذى أفنى شبابه وكهولته فى خدمة الشعر العربى أحداً من معاصريه ، الذين يقدرون فيه شاعريته التى أفاضت بروائها على كافة البلاد العربية تيارا قويا جدد الحياة فى العراق ، ورددته صحارى بلاد العرب وسهول سورية وجبال لبنان ، وأطرب وادى النيل ! لا يهز موت هذا الشاعر فيوحى لعارفيه بما يحتمه الواجب الأدبى من دراسته وتحليله تخليداً له وخدمة للأدب العربى المعاصر .

هؤلاء الأدباء والشعراء وغيرهم بالعشرات فى البلاد العربية ، ماتوا وكانوا فى حياتهم رواد هذا الأدب الذى جاهدوا مخلصين فى سبيل تجديده ، بدون أن يحرك موتهم هذا إخوانهم المعاصرين من الأدباء ، فيقومون بإخراج كتب بتراجمهم توضح مراحل الأدب العربى وتطوره من وراء دراستهم وتحليلهم ، فى حين أن مثل هؤلاء الأدباء وأقل منهم شهرة ، لو كانوا فى بلاد غير البلاد العربية لكانت تلك البلاد قد ألفت عنهم مئات الكتب التى تروى حياتهم وإنتاجهم وأثرهم فى عصرهم .

هذا النقص فى أدبنا العربى يشعر به الآن المثقفون ، وحتى أنصاف المثقفين فى جميع البلاد العربية ، متمنين أن يقوم أعلام الأدب فى ديارهم بواجب الالتفات إلى هذه الناحية المهملة فى أدبنا المعاصر ، فيتركوا لنا وللأجيال المقبلة ثروة أدبية تكون عوناً لنا بالتعرف إلى أدبائنا وآثارهم ، وتخليداً لهؤلاء الذين كانوا فى أيامهم يملأون دنيا الأدب والثقافة بثمار قرائحهم ، وتموجات أفكارهم ، ومذاهبهم فى الحياة .

بغداد مهدى القزاز

قصة مصرية واقعية (١)

علاج للأعصاب

يجدر هنا أن أدع الريضة تتحدث عن نفسها : —

أنا امرأة عصبية تفضي بأهوالها إلى كل من تلقـاه دون أن تظفر بما تنشده من عزاء . وبت أحس أنى صوت ثقيلة الظل وأنا لا أدع الغير يتحدثون عن أنفسهم ، لأنى أملأ الوقت كله بالتحدث عن نفسي وعن الأعراض التى تنتابنى فى غير رحمة أو هوادة ! حتى زوجى أخذ يمل حديثى المعاد ، ويصر على أن آلامى مجرد أوهام لايبـاليها العقل! وكثيراً ما تبرم وثار كلما سمع تأوهاتى وأنـاتى قائلا: إنه لايفهم أن أشكو وأن أظل أشكو وكل أساريرى تنطق بأنى غاية فى الصحة والعافية ، وأمام ملء عينى وآكل بشهوة يحسدنى عليها الكثيرون ! وهو بهذا السلوك يزيد حالتى سوءاً ، دون أن يدرى ، اعتقاداً منه أن إظهار الرثاء لحالى يضرنى ويبالغ فى آلامى الواهمة !! وعبثاً حاول فى أول الأمر أن ينصحنى بتصنع المرح ، وطالما ضرب صدره براحته وقال فى صوت مجلجل يصدع الرأس : —

انظرى إلىّ ! أنا لست عصبياً ولا أجد مايدفعنى إلى ذلك !

وأنا بدورى لا أجد سبباً لحالتى العصبية الرهقة ، ولا يد لى فيها ولا حيلة ، ولكنها كما يخيل إلى لعنة من السماء لا أستحقها ، ولا أردد فى أن أتنـازل بطيب خاطر عن جميع ما أملكه لأتخلص من نيرها الماقى . بل إنى لأفضل العمى على أن أشعر بأن أعصابى المحطمة ستفضى بى يوما إلى الجنون والخبل ، لأنى أكون إذ ذاك موضع رثاء زوجى وشفقته ، بدل أن أظل كما أنا موضع تبرمه ونقمته .

وكثيراً ما نصحنى صديقاتى بأن أفضى إليهن بما يثقل قلبى وأكبته فى قرارتى ، لأن فى التنفيس عن آلامى ما يفرج كربتى . وصارحنى بعضهن بأنهن عانين نفس ما أعانى ، ولم ينقذهن غير البوح بما يشجيهن لبعض الصديقات !

وخيل لى مرة أن أدعى الإغماء فيما يشبه الوت لأسمع ما يقوله زوجى إذ ذاك ، وهو يجدنى ضحية لاستخفافه بحالتى ، فأستطيع أن أذكره بما قال كلما عاد إلى إظهار ضيقه وتبرمه .

وبت أرهب من السكت فى الظلام ، وأنهض من النوم فى حالة سيئة ، وبين جوانحى شعور عجيب بأن أحداثا مروعة ستقع . وأظل فى فراشى أشبه بالمحكوم عليه بالإعـدام عند ما يقال له إنه قد نام نوماً هادئاً فى الليلة السابقة لسوقه إلى الشنقة . إنه ربما استيقظ راضياً يتثاءب ويبتسم ، ولكنه لم يلبث أن يذكر المشنقة وعنقه العلق فيتصبب جبينه بالعرق وينتفض رعبا . وأنا كذلك أعمل قليلا أثناء النهار ما تستدعيه واجبات ربة البيت ، ولكنى سرعان ما أحس بالخور والإعياء ، وإذا بأضأل ضوضاء تهض أعصابى وتعذبنى أشد العذاب ؛ حتى مزاح زوجى بصوت عال كان يدفعنى إلى أن أصيح متوسلة إليه أن يتركنى وشأنى ! ! وكان يطلب إلى أن (أشد حيلى) ولكن عبارته كانت تغيظنى وتحنقنى ، إذ كنت أشعر برعب الغريق وضيقه عند ما يراه إنسان على الشاطئ وهو يلاطم الأمواج فى يأس ويكتفى بأن يصيح به أن يشد حيله ! !

وكنت لا أقوى على الخروج والسير فى الطرقات بمفردى خشية أن أصاب بدوار أو إغماء ، فكنت إذا اضطررت إلى ذلك مشيت على مهل بجانب الجدران أو الأسوار الحديدية ، لأتشبث بها إذا مادت الأرض تحت قدمى وكدت أن يغشى على ! ! وعندما يضطرنى زوجى

(١) من مذكرات طبيب — تحت الطبع

إلى مرافقته إلى مسرح أو دار للسينما كنت أوثر أن أجلس فى مقصورة خاصة ، لأننى جلست مرة فى مقعد بالقاعة وسط المقاعد الأخرى ، فخيل إلى أننى سجينة ، وأن سائر المتفرجين المحيطين بى حراس عمالقة ، وأن أنفاسهم ستخنقنى !

أما الأدوية فقد تناولت منها الكثير ، وإنى لأغبط النساء اللاتى يعتقدن فى المقويات مادامت هذه العقيدة تريحهن . وكم أعجب عندما أذكر صديقة لى تحطمت أعصابها لأن خطيبها فصم خطوبتهما فجأة وبلا جريرة من جانبها ، فاستمات بعقو للأعصاب تتعاطاه والدتها ، فما لبثت بعد أسبوع واحد أن استفادت صحتها وبرئت أعصابها المحطمة ! !

وقد ذهب بى زوجى فى يوم إلى أحد الأطباء الذائعى الصيت ، فلما كشف على قرر أن صحتى جيدة ، وأن كل ما يجب على أن أقلع عن التفكير فى نفسى ، ونصحنى بأن أستغنى شهراً عن الطاهية وأتولى بنفسى الطبخ فى كل يوم .

ولما ذهبت إلى طبيب آخر ربت على كتفى حانياً ونصحنى بتغيير « الهواء » وقضاء أشهر الصيف فى لبنان أو اليونان ، وأعطانى خطاباً لطبيب فى لبنان مختص فى الأمراض العصبية . وحال نشوب الحرب الحالية دون القيام بتلك الرحلة ؛ فلما فتحت خطابه وجدت فيه ما ترجمته :

« عزيزى الدكتور كنعان .

أرجو أن تكون بخير . حاملة خطابى السيدة . . . وهى عصبية لا تطاق بسبب أوهام ووساوس تتسلط على عقلها ، وترجع فى الغالب إلى خمولها وحياتها المترفة ... »

ولما لم تتحسن حالتى برمت بأصدقائى ومعارفى لجرمهم الظاهر بى ، فأخلدت إلى العزلة واعتكفت فى المنزل ، ولم أعد أقرأ خطاباً أو صحيفة من الصحف . وأخيراً عرضنى زوجى على الطبيب الكبير مرة أخرى ، فألح بضرورة بقائى فى مصحته لمدة أسبوعين على الأقل ، ليوفر لى بيئة تتفق مع العلاج اللازم لأعصابى . ولم أر مندوحة عن الامتثال بعد أن زهدت فى كل شىء . وانتقلت إلى الطابق الأرضى من مصحته .

ولم يمض يومان حتى شاهدت فى الحديقة رجلا وسيدة يبكيان فى جزع ، فلما سألتهما ما بهما أخبرانى أن وحيدتهما البالغة من العمر ثمانية عشر عاما مصابة بالتهاب الزائدة الدودية ، وأن عملية جراحية ستجرى لها فى صبيحة الغد بالطابق العلوى من المستشفى ! !

أدركت أننى فى مستشفى ولست فى مصحة ! واشتد جزعى فى الصباح الباكر عندما سمعت جلبة أقدام غير عادية على أرض الغرفة التى تعلو غرفتى مباشرة ، ولما تحريت السبب علمت أن بها ستجرى العملية لنفس الفتاة . ولما دقت الساعة التاسعة عرفت أن المريضة تدخل الغرفة . وخيل إلى أننى أسمع وقع نعلها الخفيف ، ثم إغلاق الباب، — آخر أمل لها فى الهرب — خلفها . وتحرك مقعد من مكانه فعرفت أنها تصعد إلى منضدة العمليات .

وتلا ذلك صمت رهيب فأدركت أنهم كانوا يخدرونها . وتوهمت بخار ذلك البنج يخترق سقف غرفتى ، وشعرت أننى أختنق ، ورحت ألهث حتى خيل لى أن صدرى يوشك أن ينفجر ، وكان الصمت قاسيا فلم أجرؤ على أن أصيح . وهممت أن أدق جرسى ، ولكن فكرة الضوضاء التى سيحدثها منعت يدى وربطتها إلى جانبى ؛ ومضيت أحلق فى السقف والعرق البارد يتصبب على جبينى ، وجعلت أدلك أصابعى لئلا تكون قد فقدت كل شعور وإحساس .

وسمعت أنات مروعة تناهت إلى أذنى من الغرفة التى فوقى ، ثم سمعت وقع أقدام يقبعث من جديد ، فأدركت أن العملية بدأت . واستطعت أن أتصور السكين وهى تندفع

فى جسم تلك الفتـاة المنكودة وقد استسلمت للقدر فى صمت مدهش ورضـوخ عجيب ، ولم أدر كم ثبت أرمق السقف ذاهلة العقل زائغة البصر ؟! ولم أدر كم طال ذلك (القتل) ، ولا إلى متى قضى أن تظل تلك المخلوقة المسكينة فى غيبوبتها المؤلمة ؟

وفجأة عاد الهرج والمرج ، وسمعت قوائم (المنضدة) تزحف على الأرض فى سرعة ، فعرفت أن العملية قد أجريت أو أن خطأ ما قد وقع ، لأننى سمعت قدمى رجل تندفعان هابطتين على الدرج ، ثم سمعت صوته يصيح فى طلب عربة ما لبثت أن أخذت تنهب أرض الشارع كأنما تسابق الريح . وأخيراً عاد الرجل وأسرع يرقى الدرج راكضاً إلى الطابق العلوى . وتساءلت ماذا حدث للأب والأم المنتظرين فى الردهة على مضض ؟ أتراها قتلهما الارتقاب ؟ ولماذا لم يندفعا إلى غرفة العمليات صارخين مولولين ليخطفا وحيدتهما قبل أن يمزق جسمها ؟ !

وظللت أحملق فى السقف وقد نسيت نفسى وقلبى الغائص بين جنبى وأنفاسى اللاهثة ، ورعبى ودهشتى رأيت بقعة من الدم القانى وسط سقف غرفتى الناصع البياض ! وأدركت أنها من دماء الفتاة ، وما زالت تكبر إلى أن غدت فى حجم طبق كبير . وخيل لى أن هـذه الدماء ستتساقط على رأسى ، وسرعان ما سقطت نقطة على فراشى فغمرنى العرق والبرودة ، كأنى غرقت فى بحيرة أو نهر كبير فى ليلة من ليالى الشتاء القارسة . وسقطت نقطة أخرى كأنها حجر ، فأسرعت أخفى رأسى بين المخدات دون أن أجرؤ على الحراك . ورحت أستمع لوقع النقط الثقيلة كما أستمع لتساقط قطع من الرصاص ! وشبه لى أن هـذه النقط لن تلبث أن تنفذ من الغطاء إلى جسمى فتلهبه بالنيران ، وامتلأت أذناى بطنين عجيب أصمهما ، ويبدو أنى أغمى على ، لأنى لا أذكر سوى أن ممرضة دخلت غرفتى وطلبت إلى أن أغير ملابسى فصحت بها :

— هل ماتت ؟

ولكنها أجابتنى فى هدوء :

— كلا وستعيش بإذن الله !

— ألم يقتلها الرعب ؟

— كلا بل مضت إلى المنضدة وارتقتها باسمة مستبشرة معتذرة عن تأخرها بضع دقائق . .

وبعد أسبوع عدت إلى منزلى بعد أن شفيت وعاود أعصابى هدوءها . وكان سر شفائى أنى استصغرت شأنى وأنا أرتعد وأرتجف لأتفه الأشياء ، بينا هذه الفتاة الشجاعة الجريئة استهانت بالموت واستقبلته باسمة مشرقة الأسارير — فارتقت (منضدة) العمليات مستبشرة غير حافلة ! ! . .

وسر الطبيب لبرئى ، وزاد إيمانا بقدرة الراحة على شفاء الأعصاب ، ولم أجرؤ على أن أفضى إليه بأنى إنما شفيت بفضل الفتاة التى استقبلت الموت بثغر باسم ، وإلى بقعة الدماء التى نفذت من سقف غرفتى بصحته .

ولم ألبث أن تعرفت بالفتاة ، ظنا منى أنى سأرى أمامى «إلهة» صغيرة ، ولكننى لم أر فيها سوى شابة فى مقتبل العمر ، صبيحة الوجه بالأمل والرجاء .

دكتور على شكرى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٤٥ فى مصر والسودان
٣٧,٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

نظرات فى التصوير

عند العرب

من مآثر لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع كتاب «التصوير عند العرب» للعلامة السيد أحمد باشا تيمور ، مع دراسات فنية وتعاليق نافعة ألحقها به الدكتور زكى حسن . وقد قرأنا الأصل واللاحيق وتبين لنا منهما العلم الواسع والاستقصاء الجليل ، إلا أنا رغم تقنا من الاستمرار فى القراءة واستدامتها أمور قليلة ، رأينا فيها ما يستوجب التلبث والتمكث ، ثم استمررنا أدراجنا حتى آخر الكتاب . وإنا زاهون من غيرة «لجنة التأليف» على الثقافة أن تنشر أقوالنا فى تلك الرسالة ، وإنها لأرحب صدراً من أن يضيق بالملحوظات بمنتنا على نشرها خدمة الثقافة نفسها .

فنقول أولاً لإتمام بحث كتبناه فى هذا الموضوع :

إن أول كلمة « مصوِّر » رأيناها أطلقت على إنسان معالج لفن التصوير ، هى التى وردت فى ترجمة ابن البواب الخطاط الكاتب المشهور ؛ وكان مستعملها من مؤرخى القرن السابع للهجرة وأوائل الثامن ، وهو أبو الفضل كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشيبانى المعروف بابن الفوطى ؛ فقد قال فى ترجمة ابن البواب المذكور فى كتابه الموسوم بتلخيص مجمع الآداب المرتب على معجم الأسماء فى معجم الألقاب ، ما هذا بعضه : « قدّس الله فى أرضه : أبو الحسن على بن هلال بن عبد العزيز البغدادى الواعظ المترسل الكاتب ، واضع الخط . كان قبل الكتابة مصوراً للدور ، ثم صوّر الكتب . وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة . وإلى الآن سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لم يلحق أحد شأوه وهيهات » .

هذا الاستعمال لكلمة « المصور » يدل على نوع من الحرية الدينية فى عهد المغول بالعراق . وعلى تراخى الدولة فى مراعاة « الحسبة » المبنية على الشريعة الإسلامية وآدابها . والمعنيون بالتاريخ يذكرون خبر النزاع الذى جرى بين أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسى ، وأبى نصر ابن أبى كاليجار آخر ملوك بنى بويه ببغداد ، من جراء تلقبه بالرحيم : اسم من الأسماء الحسنى . وذكر ابن الفوطى من المصوّرين رجلاً تركى الأصل صوفياً ، قال فى باب الملقبين بعز الدين : « عز الدين أبو محمد الحسن بن عبد الله ابن إبراهيم الرومى ، نزيل بغداد الفقير ، كان من الفقراء المجردين والزهاد المنقطعين ، وكان قليل المخالطة للناس ، مُقبلاً على شأنه ؛ استوطن بغداد إلى أن مات بها فى شوال سنة تسع وتسعين وستمائة ، وكان أوحد عصره فى صناعة النقش ، واستدعى من بغداد إلى أذربيجان لتصوير الحيطان فى عمارة السلطان » ، وإن الباحث ليعجب من مقدرة عز الدين الرومى فى فن النقش والتزويق والتذهيب والتلوين والتزوير والتصوير ؛ بحيث استُدعى من بغداد إلى بلاد العجم ، وهى مباءة أهل الفنون ، ومثابة البارعين فى الصناعات ، ليصوّر حيطان تربة غازان وما حولها من مدارس وخانقاه ومرافق ! إنها البراعة لا غير .

وذكر المؤرخ نفسه نسخة من كتاب «شاهنامه» مصورة منظومة نظماً جديداً ، صنعها أبو الفضل أحمد بن منجبير الكازرونى الملقب بالقانع الشاعر ، نزيل بلاد الروم ، فقد نظمها من أولها إلى آخرها ؛ وتخلص فى آخر ترجمة كل شاه بذكر السلطان هولاكو ومديحه ، وعرضها بحضرته فى سنة «٦٦٠هـ = ١١٦١م» . فأمر بأن تقرر له مُشاهرة وافية وجامكيّة وافرة . قال كمال الدين بن الفوطى : « ورأيت هذه النسخة فى ثلاث مجلدات قطع النصف ، وقد صورها وهى بخزانة كتب الرصد » .

والآن نبدأ بذكر ملحوظاتنا التى لحظناها فى كتاب « التصوير عند العرب » واستوجبت منا التعقيب :

١ — جاء فى ص ٧ من الكتاب : « ومنها دار

رضوان ، وفيها يقول الرشيد عماد الدين عبد الرحمن بن النابلسي ... » . وفي قوله «الرشيد عماد الدين» غلط ، فإنه اشتهر بلقب « رشيد الدين » ولم يلقبه أحد « عماد الدين » ، ولا اختلف مؤرخان في لقبه . والألف واللام في « الرشيد » عوض من « الدين » كما قالوا « الفخر الرازي » و « العَلَم البرزالي » لفخر الدين وعلم الدين .

قال ابن شاكر الكتبي : « عبد الرحمن بن بدر بن الحسن ابن الفرج بن بكّار ، رشيد الدين النابلسي الشاعر الجيد ... وكانت وفاة الرشيد في شهور سنة تسع عشرة وستمائة ... »

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام : « عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرّج : رشيد الدين النابلسي الملقب بعلوية ، سمع مقامات الحريري ... »

٢ — وجاء في ص ٣٩ من الكتاب : « ... وجد لجعفر ابن يحيى بعد قتله ركاز في داره التي في سويقة جعفر ، فيها أربعة آلاف دينار ، وزن كل دينار مائة دينار ودينار ، وعلى كل دينار من أحد جانبيه :

وأصفر من ضرب دار الملوك يلوح على وجهه جعفرُ

ومن الجانب الآخر :

يزيد على مائة واحداً إذا ناله مُعسر يُسر

ولا ندري إن كان المراد صورته أم اسمه ؟ » اهـ

وقال مصلح الكتاب ومخرجه في ص ١٧٠ منه : « ويرجح عندنا أن المراد اسم جعفر لا صورته . انظر كتاب النقود العربية ، وعلم النُّميّات للكرملي ص ١٢٣ » اهـ .

وقد نظرنا في الكتاب الذي أشار إليه فلم نجد مناسبة بين ما رجح واسترجح ، والذي أحال عليه ، لأن كتاب النقود احتوى على الأسماء المكتوبة على النقود الباقية المعروفة من عهد الرشيد ووجود الاسم لا ينفي وجود الصورة ، وإن لم يعثر الباحثون على دينار مصوَّر من تلك الدنانير لأسباب سنذكرها ؛ فقد حدّث محمد بن عمران بن يحيى بن خالد قال : أمر جعفر بن يحيى بن خالد أن تضرب دنانير في كل دينار ثلاثمائة مثقال ويصوَّر عليها صورة وجهه ، فضربت ؛ فبلغ أبا العتاهية ، فأخذ طبقاً فوضع عليه بعض الألطاف فوجّهه به إلى جعفر ، وكتب إليه رقعة في آخرها بيتان من الشعر — وذكر البيتين — وفي الشطر الأول من البيت الثاني « ثلاث مئين يكن وزنه » ، لأن اختلاف الوزن أدى إلى اختلاف الكلمات . قال : فأمر بقبض ما على الطبق ، وصيّر عليه ديناراً من تلك الدنانير ورده إليه » . فالخبر هذا مثبت لذلك الخبر ، ومؤكد أن صورة جعفر البرمكي كانت مصوّرة على تلك الدنانير العظيمة الوزن والسعة بالإضافة إلى دنانير العادة ، حتى لقد احتاج أبو العتاهية أن يهيّئ طبقاً يتخذه مهدىً ويُرسل به إلى جعفر ، ليأمن على الدينار الواسع الأقطار ، من البروز والانكشاف ؛ ومثل هذا الدينار لا يؤمل أن يُعثر عليه اليوم ، لأنه صعب الخزن وقليل الأشياء في أوّليّته ، فهو من دنانير الأفراح والأعياد ، يُهاب ويُباع بالمثاقيل بعد ضربه .

٣ — وجاء في ص ٧٧ وصف للساعة المائية التي كانت في إيوان الساعات مقابل المدرسة المستنصرية ببغداد ، قال : « رأينا وصفها في حوادث سنة ٦٣٣ من جزء قديم في التاريخ عندنا لم نعرف اسمه ولا اسم مؤلفه . ونص عبارته ... » قلنا : هو كتاب (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة) لكمال الدين عبد الرزاق المعروف بابن الفوطي ، مؤرخ العراق في عصره على الإطلاق ؛ ونحن قمنا بإصلاحه والإشراف على طبعه بنفقة أحد المتجرين بالكتب ، واتخذته لجنة إصلاح (النجوم الزاهرة) مرجعاً للتحقيق ، وذلك لعظيم فوائده وفريد أخباره ، وهو الكتاب الذي أشار إليه مؤلف (التصوير عند العرب) قبل هذا في ص ٥٣ منه . فأما الخبر الأول فقد جاء في ص٣٠٣ من المطبوع ، وأما الخبر الثاني ففي ص٨٢—٣ منه . ومما ورد في ص ٧٧ التي علقنا هذا الكلام على ما فيها ، هذه الجملة : « ثم تطلع أقمار من ذهب

في سمـاء لازوردية في ذلك الفلك ، مع طلوع الشمس الحقيقية » والصـواب : (ثم تطلع شموس) ، لأن الشموس الصناعية تطلع مع الشمس الحقيقية . أما الأقمار فقد قال المؤرخ فيها : « فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها » وقد أصلحنا نحن الغلطة في الطبع . قال المؤرخ عبد الرحمن الإربلي في وصف هذه الساعة : « وتطلع شموس من ذهب في سماء زرقاء في ذلك الفلك مع طلوع الشمس ، تدور مع دورانها وتغيب مع غيوبها ؛ فإذا غابت الشمس وجاء الليل ، فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ... » . فهذا تأكيد تاريخي أوردناه بعد القول العقلي .

٤ — وجاء في صفحة ١٣٦ وهو من التعاليق واللاحيق قول المصلح الفاضل في الصور والتماثيل التي كان الناس يستندون إليها قدرة محدودة « كالحيات المنقوشة على قلعة حلب وفي باب الطلسم ببغداد ، وكالتمثال الذي أقامه المنصور على رأس القبة الخضراء . . . » ، وأحال في الحاشية على معجم البلدان لياقوت ، وتاريخ بغداد للخطيب ، والدر المنتخب لابن الشحنة . وكان حرياً أن يحيل — بادىء ذي بدء — على كلام المؤلف ، فقد ذكره في ص ٥٢ — ٣ من الكتاب ، ونقل تفنيد ياقوت لمثل هـذه الأباطيل . أما باب الطلسم ببغداد ، أعني الباب المعروف قديماً بباب الحلبة ، وقد نسفه الأتراك في شهر آذار من سنة ١٩١٧ فلم يعرف عن الخليفة الذي أمر ببنائه أدنى ركون إلى السحر وأقل تصديق به .

٥ — وجاء في ص ١٦٢ من اللاحيق أيضاً : « انظر إلى مقالنا عن الشكاوات الزجاجية في عصر المماليك » وفي هذه الجملة ثلاث غلطات ، نذكرها على سبيل التمثيل بأن نقول : الصواب « في الشكيات الزجاج » ، وفي ص ٥٤ : « الصور الخشب »(1) وهو الصواب .

(١) لم يقل « الخشبية » لأنه لفظ سمى آخر هو كون بعضها من الخشب .

٦ — وورد في ص ٢٠٢ : « السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه » ، والصواب : « محمود بن محمد بن ملكشاه » . وسبب ذلك أنه ذكر مع اسم هذا السلطان سنة « ٥٢١ » هـ ، وهي من عهده ، وقد توفي سنة ٥٢٥ هـ ؛ أما محمود بن ملكشاه فلا صلة له بهذا العصر ، لأنه سُلطِنَ وعمره أربع سنوات وأشهر سنة ٤٨٥ ، وتوفي بعد أن بقي في عهد اضطراب سنتين وأشهراً .

٧ — وورد في ص ٢٣٢ : « فإن أقدم مثال مؤرخ من هذا الزنك موجود على باب حران في مدينة الرُّها ، ويرجع إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي ، الذي حكم الرُّها من سنة ٦٠٨ إلى سنة ٦١٧ هـ » . قلتُ : وقد أحال في الحاشية على كتاب ، ولكننا شككنا في التاريخ حينما قرأناه ، والصواب إلى سنة « ٦٤٦ » هـ مكان سنة « ٦١٧ » . قال المقريزي في وفيات سنة ٦٤٦ هـ ما هـذا نصُّه : « وفيهـا مات الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الرها ، وقام من بعده ابنه الكامل محمد في سلطنة الرها وميافارقين » .

ومن الثابت هو أن الملك المظفر حكم في تلك النواحي إلى أن مات وهو على الحكم ، فما الذي دعا إلى اختيار سنة « ٦١٧ » غاية لحكمه ؟

٨ — وورد في ص ٢٣٤ شرح لصورة أبي زيد السروجي وجله التي وُجدت في مخطوط باريس ، قول الشارح : « وهذا المخطوط أبدع المخطوطات المصورة التي نعرفها من مدرسة التصوير السلجوقية في العراق ... » . وأحال على كتاب نشرته دار الكتب الوطنية بباريس ، وكتاب لبجون ، وثالث لبلوشه ، ورابع لمارتن ؛ فإن كان الشارح الفاضل تابع هؤلاء ، فإن ذلك لا ينقص عجبنا بل يزيده ، لأن الصورة مؤرخة بسنة « ٦٣٤ » هـ ، أي « ١٢٣٧ » م ؛ فأي سلجقة بقيت في تلك الأزمان ؟

مجالات فى النقد :

الدكتور محمد مندور

فى الميزان الجديد

... وأخيراً بعد ترقب طويل ، وتنظر لما قد جرى ، وكان حرياً بحمل المعول فى طريق الهدم والبناء ، طلع علينا الدكتور مندور بيواكير نظراته فى الأدب ، فكان لصنيعه صدى أراح الحريصين على حياة النقد والنقاد فى مصر ، وذلك لأن الأقلام التى كنا نأمل من ورائها بعث حركة الصيرفة وتوجيه الأدب والأدباء انصرفت إلى المجاملة الخالصة ، أو إلى التشفى إذا وقفت على نتاج فنى أو أثر أدبى .

ولعل صديقنا الدكتور مندور قد هاله مصير النقد فى مصر بعد عودته من أوروبا ، وشق على نفسه الأمثلة وأمانيه المريضة ، فأقبل على استيعاب بدائع الكتاب والشعراء ، وساعده ما طبع عليه من جلد وما عنده من حسن استعداد ورحابة صدر وقوة إيمان ، مما باعد بينه وبين الهوى الذى ما لعب بقلم إلا مال به عن جادة الرأى الصريح .

ولدى الآن كتاب الدكتور الذى نشره فصولا متتابعة فى المجلات ، أجد فيه صدق النظرة للمجتمع : « نحن قوم متزمتون يظنون النفاق الاجتماعى فضيلة ؛ قوم حسيون ، إذا تغزلنا جاء غزلنا إما إسفافاً فى الخضوع وإما (طرطشة) فى العاطفة ؛ قوم تعوزهم القوة المتماسكة .. » ص ٦٩ .

وهو بعد يسير فى تواضع العالم واطمئنان القوى الواثق الذى يبصر ويخبر لا يلتق للتحكم بالآراء : « أنا لا أريد أن أملى ذوقى على أحد ، ولكنى أبصر بالقيم الإنسانية التى يجب أن يتجه إليها أدبنا إذا أردنا أن نلحق بغيرنا بدلا من الجمود على الباطل الذى نحن فيه » .

أجل انقرضت الدولة السلجوقية من العراق سنة « ٥٤٧ » هـ انقراضاً كاملا ، وبقيت آثار لها ودماء ، فى بلاد العجم حتى سنة « ٥٩٠ » هـ فاستؤصلت ، فكيف كانت المدرسة سلجوقية ؟ والصحيح أن هذا من طبقة الصور العباسية ، أى المدرسة العباسية — إن جاز لنا التعبير بالمدرسة ، وليس هنالك — وهى الطبقة التى ابتدأت من خلافة أمير المؤمنين أبى العباس الناصر لدين الله الشافعى . والمختصون بهذا الفن يعلمون أمر صورة الرجل التى كانت فوق باب الطلسم بين ثعبانين ، وأن الشكل بنى سنة ٦١٨ هـ بأمر هذا الخليفة الهمام ، فهى إذن طبقة الرسوم العباسية الناصرية ، ولا وجه لتسميتها باسم خيالى مخالف للتاريخ .

٩ — ونختم كلمتنا بالإشارة إلى تساهل الشارح الفاضل فى ترجمة « الشكلات الفنية » . فقد ورد فى الشكل ذى الرقم (٣٢) مقابل الصفحة (٢٥٨) ما هذا بعضه : « تمثال خنزير من الخزف ذى الدهان الأزرق » ، والعرب سمت هذا الخزف « الحنتم » ، قال المبرد : « وكذلك قال أهل اللغة : الحنتم : الخزف الأخضر ؛ وقال الأصمعى : كل خزف حنتم » . وهذا يفيد أن الحنتم يشمل ذا اللونين لتقاربهما . وفى ص ٣٤٩ : « وبينهما حاجز شرفة بارزة (بلكون) ... » والعرب سمت مثل ذلك بالجناح والروشن . وللأجنحة أى البلكونات أحكام فى الحسبة ؛ قال الماوردى فى الأحكام السلطانية : « وهكذا القول فى إخراج الأجنحة والأسبطة و ... يقر ما لا يضر ويمنع ما ضر » . أما الشرف والشرفات فتكون كالأسنان على السطوح .

(بغداد) مصطفى جواد

وهو فيا حاول يقدم لك الدليل على سمو ذوقه ، وطرافة متجهه ، واستيعاب منحاه ، يستشير ويتحسس حتى بدائع الأذواق (البلدية) .

يجادل حول نظرية عبد القاهر الجرجاني في نقاش بينه وبين بعض الكتاب فيجنح بهم إلى طريق القلب ، « إلى الإحساسات المختلفة التي يثيرها في أنفسنا تصغيرنا العامي في قولنا مثلا (حتة ولد) ، و (حتة نتفة ولد) » بفضل روحه الخفيف وسماحته الحلابة ، وبعده عن عنجهية تفسد على المثقف حياته الأدبية .

وهو الداعي إلى التجديد والمكافح في طريقه ، «ولكن على شرط أن يكون التجديد إنسانيا عميقا جيلا ، وأما إذا أخذنا بالقشور والهيا كل تاركين اللباب والمعاني الدقيقة ، فسنفقد عندئذ أصالتنا دون أن تستعيض عنها بأصالة أخرى . . .» ص ٧ .

فهو مؤمن بالتجديد وحريص على التوجيه ، ولكن في تعقل الآمل وتحمل الحريص على الأدب ، المسرف في الغيرة والإنصاف لتراث آبائنا . هو لا يجحف ، ولا يتخذ من اطلاعه على أدب اليونان وغير اليونان ذريعة لطعن الأدب العربي في أعز ما لديه .

واسمع للدكتور مندور في (أبي العلاء ورسالة الغفران) ص ١٠٦ يقول : « الناقد ذو الخيال ، القادر على تصور حياة العرب والإحساس بها قدرة الممثل الجيد على أن يحيا الدور الذي يلعب ، يستطيع أن يدرك ما في بكاء الديار عند هؤلاء القوم الرحل من جمال وصدق لا أعرف لهما مثيلا في أدبنا ؛ ومع ذلك كم نرى من أحمق يسخر من هذا البكاء ، بل كم من ناقد لا يرى فيه إلا مجرد تمهيد لأغراض الشعر عند العرب» !! وكثيراً ما يقيم الدكتور من نفسه محامياً يدافع عن قضية الحق في الأدب ، ويرد غوائل مبطل الرأي ومن يشط به قلمه . وعلى القارئ أن

يشهد روعة المحامي الذره في فصل عقده تحت عنوان «النقد والمرفقة» ، وفيه يتجلى حماس المؤمن ، ودفاع المستميت ، وحرص المخلص على الفوز البالغ . وعندي أن الدكتور نجح كناقد لأنه مستكمل لخصائص النجاح ، رائده الصراحة والصدق والإخلاص ، وهو بعيد عن المجاملة حتى لنفسه ، وفوق هذا فهو مؤمل غير متشائم ، وهو واسع الرجاء ، يعيش بمنجاة عن النفاق لا يخدع بالزخرف . انظر إليه واقرأ رأيه في علي طه المهندس : «وها أنا اليوم أنظر في «أشباح وأرواح» للشاعر على طه فأرى صوراً مغربة وحيلا في الطباعة تهش لها العيون ، ثم أفتح الكتاب وآخذ في القراءة فتنطوي النفس وينفر الإحساس » ص ١٩

ذلك موقفه من على طه الذي خدع الناس جميعاً وصرفهم إلى مدح شعره بالحق وبالباطل .

لكن مندوراً كان صريحاً معه ومع الدكتور طه في دعاء الكروان ، مع اعترافه بفضل الدكتور وإسرافه في الإخلاص له والاعتراف بيده عليه ، حتى ظننت به ظن السوء أول الكتاب ، ثم أرضاني أخيراً إذ صارح ووفى النقد حقه .

والدكتور مندور قوي الصبر في العرض ، مطيل في مواقف التحليل ، عالج نتاج أقلام هي قيثارات هذا العصر ، منها : طه ، الحكيم ، المازني ، العقاد ، وتيمور ؛ وأثار الرأي والأقلام حول الشعر المهموس ، وأظهر حبه وإخلاصه في تطرق لشعر المهجر ؛ وتحدث ممتناً عن الشعر الخطابي وتحمس فوق ما كنا نبغي له وهو الجانب للهوى ! ونسي أو أنسى أن يعرض لألوان الشعر ومدارس الشعراء «المعاصرين» ، ولو في إيجاز ، وذلك أول شيء يجب أن ينظر فيه الناقد ، لأننا في طور إفلاس الشعراء ، أو على الأقل في مرحلة أحب أن أسميها «بلبلة الشعراء» !! وكنت

حنين ونجوى

طالَ مكثى ، فامشى معى — نصحبِ اللهِ
لَ — إلى شاطئٍ ، من الناس قفْرِ
وانظرينى ، هناك ، أشدو فيصغى الْـ
ـماء ، والرَّملُ ، والنسيمُ لشعرى
واسمعينى أبثكِ وَجدى نشـيداً
يتلظى شـواظَ نارٍ بثغرى
وأحـدثكِ عن جريحٍ سجينٍ
يترَدَّى صَبابةً طىَّ صدرى
رامَ نورَ الحياة ، فاعتسـفَ الدَّهـ
ـرُ ، وما نالَ غيرَ ظلمةِ قبرِ
طارَدَتْهُ الهمومُ وهو أسـيرٌ
ماله فى إساره من مَفرِّ !
هل رأيتِ الهزارَ يهيضَ جناحا
هُ ، فأمسى ما بين نابٍ وظفرِ ؟
ذاكَ قلبى ، هلاَّ عطفتِ عليه
بحنانٍ على الذى مُستَـترٌ ؟
نظراتُ الحنانِ من عينيكِ السَّكـ
ـرى ضِمادٌ لجرحهِ المستَترْ
فاضمِديه ، وناولينى عُـودى
واصحبينى إلى مَواطنِ بِشرى
نتمشى فى خاطرِ الليـلِ حُلماً
سابحَ الظلِّ فى أشعة بدرِ
نتمشَّى على الرِّمالِ ، ولِلَّـ
ـهِ رمالٌ ما بين نهرٍ وزهرِ !
عطفتْ « دجلةٌ » عليها حَناناً
لحَبتها بكلِّ روعةِ سحرِ

***

آه ! يا موطنَ الصِّبا ، والصَّبابا
تِ ، ومَلهى قلبى ، ومسرحَ فكرى
كَمْ توضأتُ بالدُّموعِ ، وأدَّيـ
ـتُ صَلاتى هنا ، وأدَّيتُ « ذكرى » !
وتضرَّعتُ بالدُّعاءِ ، فأمَّنْـ
ـتَ على ما دعوتُ تأمينَ بَرِّ !
ثمَّ أوقفتُ فيكَ تَعتقَ الأو
لى ، على مَسمع الحبيبِ الأغرِّ
آه ! يا موطنَ الصِّبا ، كم تمنيـ
ـتُ لو أنى أقضى بواديكَ عمرى
حيث لا حاسـدٌ حقودٌ ، ولا ظا
لمٌ ثقيـلٌ ، ولا مجاراةُ غِرِّ
وإلى جنبىَ الحبيبُ ، يناجيـ
ـهِ ضميرى نَجوَى بسرٍّ وجهرِ

أريد للدكتور أن يقف قليلا عند شعر الشاعر الكبير « محمد الأسمر » ومن على غراره مثل الأستاذ « محمود غنيم » ؛ فعند الأول رنة عنترية ، وفى الثانى عزاء عن شاعر النيل حافظ . ولعل للدكتور عذره ، لأن غبار الجدل وما منى به من مهاترات ألهى الدكتور عن دراسة أمثال « الزين » والشاب الشاعر « مختار الوكيل » ... وأنا بعد أخالف الدكتور فيما يريده للشعراء ، « نريد أدباً مهموساً أليفاً إنسانياً » . نعم ! نريد أدباً « أليفاً إنسانياً » ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون الهمس أظهر خصائصه ، نريده مهموساً مرة وعاصفاً مرة أخرى ، نريده خريراً هادئاً ثم تياراً جارفاً ، نريده موسيقى ثم رعداً يروع الخامد ويوقظ الغافل ؛ نريد أدباً ملوناً لأن القرائح لا تخضع للتقنين ، وإنما هى رهينة التفنين والتلوين

كامل محمد عجلان

لا صلاح لأمة

أرزاقها بيد الغرباء

حياة الفراديس لا يلقاها إلا الذين صبروا ، وأولئك قلة ؛ أما الكثرة الغالبة من الشعوب ، فتحل مشاكل عيشها عن طريق اقتسام الأرزاق . وليس من المستطاع تقسيم الأرزاق إلا إذا امتلكت الأمة أرزاقها ، فإذا ما تسربت أرزاق الأمة إلى أيد طارئة ، تسربت أخلاق الأمة المستضعفة إلى مناطق الذل والخنوع والجوع .

فمَن مَلَك رزق ملكني ، ومن ملكتُ رزقه امتلكته ، إلا العظماء ؛ بل قل وكذلك العظماء . فالذي يمسك الإنسان بالأرض القوت ، والذي يمنع الإنسان من التحليق في أجواء العقل القوت ، والقوت طواغيت كبرى ، اسمها البروج المشيدة فوق أكتاف الاستعلاء وشهوات الاستحواذ .

فالقوت أكثر من مشكلة ، وأبعد من مسألة ، وفوق كل ذي فكر ورأى سليمين . فالحياة مهددة بالفناء إن أنت هددتها بمنع الأقوات ؛ والحياة تصير إلى زوال إن أنت باعدت بينها وبين ملء الأمعاء . لأن خالق المخلوقات قدر لها أن تغتذي ، والغذاء عملية قضم وهضم ، فتوزيع بقسطاس مستقيم ، فدبيب حياة إلى خلايا الأجسام ، فحركة ، فهذا السكون ، أو هذا المدد الهائل من الأحياء الذين ينتشرون في الأرض ليعمروها ويثيروها ، ويزينوها .

ففوق العقل كابوس ، اسمه أين القوت ! وفوق البصائر كابوس ، اسمه هل يمكن التغلب على القوت ! ومن هنا تستذل أمم وتستعلي أمم ، وتوجد الفوارق بين الأفراد والجماعات وبين الشعوب .

فقضية الشرق تحل عن طريق حل قضية القوت . وليس من الحقيقة في شيء أن يتعالى بعض الناس وهم يزعمون أن القوت من المحقرات ، وأن الفقراء وحدهم هم الذين يقومون له ويقعدون . فأمعاء هؤلاء ذات اكتظاظ ،

لا رقيبٌ ، سوى رقيبٍ عفافٍ
لا قيودٌ ، سوى نقاءٍ وطهرِ

* * *

ههنا ، يا مناى ، قد بث الحبُّ (م)
بطرفٍ ، ومُهجـــةٍ ، وبثغرِ
ههنا اشتفّت الجوارحُ نورَ ال
حبِّ ، كأساً ممزوجةً أيَّ عطرِ
ههنا سَرحةُ الهوى ، فاسألي السّر
حةَ عن زاهرٍ من العمر نضرِ
كم نقشنا على لحاها عهوداً
لم تزلْ من محلّها قيدَ شبرِ !
أيكونُ الشبابُ أولى بعهدى
منك ، يا منيتي ، وأرعى لذكرى ؟

فتعالى ، نستدرك الحلمَ الصا
برَ لَيْلاً ، على أشعة فجرِ

* * *

ما الذى كانَ فاعتسفتِ وحلّو
تِ فؤادى رهينَ يأسٍ وأسرِ ؟
ألأنى أدميتُ رجلٌ ، تسعينا
في تَرَضّيك ، بين شوكٍ وصخرِ ؟
أمْ لأنى ألبستك الشّعرَ ثوباً
رائعَ الوشى مِنْ بيانٍ وسحرِ ؟
أمْ لأنى توّجتُ مَفرقَكِ الفا
حمَ ، تاجَ الجمالِ من كلّ فخرِ ؟
. . . فتعالى من قبل أن ينضبَ الما
ء ، فيذوي في روضة الحب زهرى

على جليل الوردى

ولولا اكتظاظها لما قالوا قولهم هذه . ومنهم جياع ، ولكنهم يتعالون تعالى العبد وُجد فى مكان به أثرياء أقوياء ، فشمخ بأنفه ، ليوهمهم أنه لا يقصر عن ملاحقتهم فى بحبوحة عيشهم . هى كبرياء كاذبة مضللة ، أضرت بالأذهان ، ولبئس قول المضللين .

وحل قضيـة القوت فى مصر يأتى عن طريق رد الحقوق إلى أهلها ، إذ أكثر من نصف ثروة مصر يملكها الأجانب ، ونصف النصف بيد الشعب ، والباقى بيد فئة قليلة العدد كبيرة الامتلاك .

فالحق أن الاستقلال استقلال الاقتصاد ، والباطل أن يكون الاستقلال عن طريق إصلاح النفوس . لأن النفس لا تصلح ولا تفضل إلا إذا وفرت لها الغذاء . نجد من الناس أرزاقهم تدفعهم لباس الجوع ، وإنه لأقسى صنوف الآلام ، وإنه للممهد الأعظم لاستعباد شعب من الشعوب .

فإذا نظرت إلى التاريخ أمكنك أن تلمح اتجاهه يميل وينحرف ، تبعاً لميل القوت وانحرافه . فلقد أحل الله الفىء للمسلمين المجاهـدين حتى يمكن للمسلمين حكم الشعوب المفتوحة . ولقد حكمت بريطانيا نصف المعمورة عن طريق التصرف فى أقواتهـا . وحُكمت أوروبا منبع الثورات والحريات عن طريق التصرف فى أقواتهـا . وهاهى الولايات المتحدة تزحف إلى الميادين بقوة الأرزاق لا بقوة العقائد فقط . ولقد أقفرت الصحارى من السكان لانعدام الأرزاق ، واحتشـدت الأنفس فى مجارى الأنهار لأن الأقوات ميسورة ومبذولة .

ومن أدلة قوة القوت ، أن ألمـانيا ضاعت فى الحرب العظمى الأولى ، بضياع القوت ؛ والأمم الإسلامية استعبدت من طريق امتلاك الأقوات .

فالقوت القوت القوت ! وليحذر الناس أن يهوّنوا من أثره ، تحت تأثير الأقلام المريضة التى تحقر من أثر الأقوات فى النفوس ، وهى نفسها ما احترفت الكتابة إلا لترتزق . وليثق الناس أن الحياة أعقل من الأفراد ، وأن للطبيعة نواميسها المحكمة التى لا تحوى خللا أو تبلبلا . والطبيعة تقول من الحتم أن يأكل الإنسان ليعيش ، ولا تقول من الحتم أن يعيش الإنسان ليأكل . فأنا مع سقراط فى حكمته هذه ، إن كان هو الذى قالها ، وأنا أدعو الناس ليتأملوا معى حكمة هذا الفيلسوف ، ولسوف يجدونها أعمق من المحيط الإطلانطى .

أنا آكل لأعيش ، ولا آكل لآكل ، لأن من مسببات الحيـاة أن يدخل الطعام الأمعاء . فإذا ما فرغت من حشو الأمعاء وجب فوراً أن أنطلق إلى غاية الحياة العظمى ، وما غاية الحياة الدنيا إلا الإدراك ، وما الإدراك إلا عبادة رب العالمين . مثل هذه الحياة الدنيا كمثل شجرة جذورها الدين ، وجذعها الفلسفة ، وأغصانهـا العلوم ، وأزهارها الفنون . وهذه المناطق جميعا تنعدم بانعدام الغذاء السارى فى خلايا الشجرة ، وغاية الشجرة أن تعطى رائحة أو ثمراً ، أو غير ذلك كثير . وغاية الإنسان إذا ما ألمّ بهذه المناطق ، وسار على نسق منها وهدى من ربه متين ، أن يعطى عبادة . وأرفع أنواع العبادات ، الجهاد فى سبيل الله ، والله هو الحق الأعلى والمثل الأعلى .

فإذا أمكنك أن تجد الرائحة تفوح من الأشجار من غير تغذية هذه الأشجار ، أمكنك أن تجد الإنسان الأعلى فى الإنسان من غير أن تغذى الإنسان . فالقوت أس الضروريات لحفظ الحياة ، وما أوجد الله هذا المعمل العظيم الذى نحويه فى باطننا عبثا . إن لكل شىء غاية ، وغاية الأجسام أن تتغذى ؛ وإن لكل غاية غاية أعظم منها ، وأعظم من الأجسام العلو بالأجسام نحو المناطق العقلية .

ذلك من أسرار الحياة ، نكشف عنه ، ولقد كان معلوما ، وفى النفوس مفطورا ، ولكنه ظل مطمورا . فإلى الذين بيدهم توجيه هذ البلد ، أن يحسنوا سياسة البلد ، ويحفظوا أرزاق البلد بيد أبناء البلد !!

محمود شفيق

بين المسموع والمقروء

أمة تُبتلع وتُهضم بسوء

جان جاك روسو كاتب من كتاب فرنسا الكبار، في القرن الثامن عشر. كتب لصديق بولندي يقول: « إنهم سيبلعونكم. ولكن احذروا ثم احذروا أن يهضموكم ».

وصدقت نبوءة روسو. فبين عام ١٧٧٢ وعام ١٧٩٥، اختفت دولة بحالها من خريطة أوروبا، هي الدولة البولندية، بعد أن ظلت تعيش وتحيا قرابة ثمانية من القرون، في ظل ملوك ذوي عرش وأبهة وسلطان. وكان اختفاؤها ابتلاعا. واشترك في ابتلاعها ثلاث دول. وابتلعوها، لا كما يبلع الثعبان الطير بعظمه ولحمه وريشه دفعة واحدة، ولكن على دفعات، وبعظمها ولحمها وريشها أيضاً كما تبلع الثعابين. حدثت البلعة الأولى عام ١٧٧٢؛ وكان على المائدة ثلاثة قياصرة عظام: القيصر الروسي والقيصر الألماني، والقيصر النمساوي. وكانت البلعة الثانية عام ١٧٩٣، وكان على المائدة قيصران: قيصر الروس وقيصر الألمان، ولأمر ما تغيّب الضيف الثالث. وكانت البلعة الثالثة عام ١٧٩٥، واجتمع عليها ثلاثتهم فلم يتغيّب منهم غائب.

وخشية أن يطفح الطافح بما ازدرد، تعاهد القياصرة الثلاثة على استبقاء ما في بطونهم حتى يكون هضم، وأسموا هذا التحالف بالتحالف الثلاثي القيصري Dreikaiserbund. ولكن الزدرَد لم ينهضم أبداً، وظلت الأمعدة الثلاث تنوء بسوء هضمها. فالدولة البولندية كانت قد ماتت، ولكن الأمة البولندية لم تمت حتى في ظلام هذه البطون. وكلما ثارت، فالتوت هذه البطون من ألم ما احتوت، ثار أحرار أوروبا يرفعون الأصابع في وجوه أصحابها مهدّدين منذرين، حتى صارت بولندا مثلا للظلم والإجحاف يتمثل به المتمثلون، وبؤرة يجتمع عندها عطف العاطفين. فهذا العطف الحاليّ الذي نراه اليوم في أمريكا وفي أمم أوروبا الغربية، على الأمة البولندية، عطف لا يمكن استئصاله لأنه عطف إجماعي قديم.

وجاءت الحرب العالمية الأولى، حرب عام ١٩١٤، فسنحت فرصة تكوين الأمة البولندية من جديد، فكانت، وسلخوا لها من ألمانيا وروسيا والنمسا ما كان لها قديماً. وكان رئيس دولتها من بعد البعث المرشال بلسودسكي Pilsudski.

حاجز يُرفع ثم يعود

لقد نشأ العنصر البولندي أول ما نشأ بين النهرين الشهيرين، نهر الفستولا ونهر الأودر، ثم أخذ يتمدد هذا العنصر في الجهات الأربع. وبولنده أرض منبسطة تتصل في أوروبا بين سهلين عظيمين، سهل روسيا وسهل ألمانيا. ويحدها في الشمال بحر البلطيق، أو كان قديماً يحدّها؛ وفي الجنوب حاجزها الطبيعي الوحيد المنيع، جبال الكربات. وأمة في هذه السهولة من الأرض، وبين هذه السهولة من أرض الجيران، لا يمكن أن تحتفظ باستقلالها، ولا أن تذود عن كيانها، في عالم التناجز والتناحر هذا، إلا بالسواعد والسيوف. وهي إما أن تأكل أو تؤكل. وقد كانت بولنده قوية فيما مضى، فأكلت. ثم واتاها الضعف في القرن الثامن عشر، فأُكلت. وهي من قبل أن تؤكل، في قوتها، كانت فاصلا جميلا، يحمده السياسيون، يفصل ما بين عنصرين لم يشأ التاريخ ولا التقليد إلا أن يكون بعضهما لبعض عدوّاً، العنصر السلافي والعنصر الجرماني، أي روسيا وألمانيا. ولكن الحاجز لا يرضاه المتحاجزون إلا أن يكون قوياً.

فلما ضعف ، وسهل اختراقه ، تراضى المنتصران على رفعه مما بينهما فرفعاه ، وظل مرفوعاً نحوا من مائة وعشرين عاماً . وفى قاعة فى فرساى ، فى عام ١٩١٩ ، أنشأ الساسة الدولة البولندية بصورتها القديمة لتقوم بواجبها القديم ، فتفصل من جديد بين سلاف الروس وتيتون الألمان .

ولقد أراد الساسة الغربيون عام ١٩١٩ أن تقوم بولنده ، لا بفصل روسيا عن الألمان فحسب ، بل بفصلها وفصل بلاشفتها عن سائر أوروبا ، فلا تنتقل إليها مبادىء الشيوعية كما تنتقل جراثيم الأدواء . فكان أول عمل الزعيم البولندى الجديد للدولة البولندية الجديدة مناهضة الروس وانتقاص دولتهم من أطرافها .

بلسودسكى يحارب الشيوعية

إن تاريخ بولنده الحديثة ، ماقبل الحرب الماضية وفيما بعدها ، مرتبط أشد ارتباط بتاريخ زعيمها بلسودسكى .

نشأ هذا الزعيم فى بولنده الروسية . ونشأ على كراهة الحكم القيصرى ، ونفى فى محاولة فاشلة لاغتيال القيصر إلى سيبريا . وقبضوا معه على أخ للينين ، ولكنهم لم ينفوه بل قتلوه . فلم ينس لينين . ولم ينس بلسودسكى .

وفى سبيل كراهة القياصرة جنح بلسودسكى إلى العمال ، حتى الروس منهم ، يؤلبهم على حكم ظالم فيهم . وأسموه رفيقا . واعتنق الاشتراكية مذهبا . ولكن يظهر أنه لم يعتنق الاشتراكية إلا كراهة للقيصرية ، فكل عدو للعدو حبيب .

ولكنه ما لبث أن أنال بولنده استقلالها حتى ظهرت كراهة خفية فيه للروس ، قياصرتها وعمالها . فى نوفبر عام ١٩١٨ دعاه بعض الشيوعيين بالرفيق بلسودسكى . فقال لهم مؤنبا . « أيها السادة . لست رفيقاً بعد الآن . إننا اتجهنا أول الأمر وجهة واحدة ، وركبنا قطاراً واحداً دهنتموه باللون الأحمر ، ولكنى نزلت من القطار لما بلغ بى محطتى ، « استقلال بولنده » ، أما أنتم فسائرون به إلى أن يبلغ بكم محطتكم ، « الاشتراكية » . فلكم منى حسن التمنى والدعوة الصالحة . ولكن من الآن فصاعدا أرجو أن تدعونى بالسيد إذا ما دعوتم » .

يحب ويبغض من أجل بلاده وحدها

كانت غاية بلسودسكى بولنده ، لا غيرها . وفى سبيلها صادق الروس وعاداهم . وفى سبيلها عادى الألمان والنمساويين وصادقهم . وهو قد عادى وصادق كلما دعت دواعى بولنده إلى صداقة أو معاداة .

نشبت الحرب الماضية ، فما لبث أن هاجم روسيا ، روسيا القيصرية ، بجيش بولندى ألفه . فنال بذلك الحظوة عند الألمان حتى أعلنوا استقلال بولنده . وما كادت تستقل بولنده ، والحرب قائمة ، حتى كوّن جيشا يستطيع مغالبة الألمان إذا ما أضعفهم القتال . وصدق حدسه ، فما تورط الألمان وحلفاؤهم فى الحرب فنالهم الضعف حتى مال عليهم يطرد البقية الباقية منهم من بلاده . وجاء عام ١٩٢٠ ، فوجد حدوده الغربية آمنة ، أمنها انخذال أعدائه فى الغرب . ونظر إلى الشرق فوجد الروس دولة محطمة ، قد ناوشها الرأسماليون بجندهم من كل جانب . إذن هذه فرصة قل أن يسمح بها الزمان .

مغامرته الروسية

نظر إلى أكرانيا وإلى ما تفيض من أرزاق ، فشاقته أكرانيا فأخذت تتراءى له فى الأحلام . وإنها لعلى قيد خطوات من مواطىء نعال جيشه . ودول الغرب لا يمكن أن تتدخل أبداً ، وإن هى تدخلت فلا شك إلى جانبه ، فمن منهم لا يخشى البلاشفة ، ومن منهم لا يكون عونا على إضعافهم فإفنائهم .

وبدأ مغامرته فهاجم الروس . ودخل كييف ، عاصمة أكرانيا ، فى الخامس من مايو عام ١٩٢٠ . وكان من وراء بولنده دولة المرسيّيز ، دولة الحرية والمؤاخاة والمساواة .

لا فى جند أو عتاد ، ولكن فى شخص القائد الفرنسى ، هنريس Henreys . وصبر الروس حتى فرغوا من جيوش الرأسمالية الثلاثة ، ثم انصرفوا يمشون بالبولنديين ، ولم يلبثوا طويلا حتى انكفأ ميزان الحرب ، فصار الغالب مغلوبا ، والمعتدى عاديا . وقارب الروس فرصوفيا ، عاصمة بولنده ، ووقفوا عند أبوابها مثل وقفتهم اليوم ، ولم يبق على دخولها غير يوم أو يومين .

ولم تستطع الحكومات الغربية لبولنده إمدادا ، وودّت لو فعلت . ولكن من يحارب الروس منهم ، وجنودهم قد جنحوا للسلم من بعد حرب مُرّة . ومن يحمل الذخيرة إلى بولنده ، والعمال يأبون أن يحملوها فيطفئوا بذلك تلك الشمعة الضئيلة التى تراءت لهم فى الأفق الشرقى تشع عليهم بمعنى العيش جديد ، وتحيى فيهم أملا كاد يذهب فى الحياة .

عزّ الجند ، وعزّت الذخيرة . إذن فى المشورة الكفاية . وبعث الحلفاء إلى البولنديين بعثة عسكرية على رأسها الجنرال الشهير ، الجنرال ويجاند ؟ وهو هو نفس الجنرال الذى لجأت إليه فرنسا فى هذه الحرب عند انخذالها ليدفع عنها آخر مرّة ففشل . وهو هو نفس الجنرال الذى اختلف فى موته الرواة اليوم .

وبلغ الروس أطراف فرصوفيا كابلغوها اليوم . وصارت الحرب سجالا . ثم كان النصر للبولنديين . ألهمهم إياه خطأ فى خطة القائد الروسى . فقد استهان بقوة خصومه ، وأراد أن يأخذ عاصمتهم لقمًا لامواجهة ، فوزّع قواه فخفّت ، فحاقت به الهزيمة .

وانعقدت المعاهدة بين روسيا وبولنده فى أكتوبر من نفس العام . وعادت بكلتيهما من الحدود إلى حيث كانا قبل الحرب . فكانت حربا غير كاسبة ، إلا الضغائن والأحقاد .

لم تكسب بولنده من حربها روسيا غير الحقد والضغينة ، ولكن أوروبا الغربية كسبت من نتيجة هذه الحرب هدوء البال واسترخاء النوم . إن البلاشفة قد خُذلوا ، وشرّهم قد تقاصر ولو إلى حين .

ما أشبه الليلة بالبارحة

إن ظروف هذه الحرب العالمية الحاضرة قد اختلفت عن ظروف أختها الماضية . فروسيا اليوم دولة فى أول الحرب وآخرها صديقة . ولكن رجالها اليوم هم رجال الأمس . والمبادئ التى يعتنقونها اليوم هى نفسها التى اعتنقوها بالأمس ، إلا قليلا . وكذلك رجال الديمقراطيات الغربية اليوم هم رجالها بالأمس ، وإنما أكبر سنًا ؛ وهم أهل الحين ، ولعلهم قد يكونون أكثر شماتة مما كانوا . ومن الطبائع الإنسانية الرذيلة أن الإنسان لا يستطيع أن ينسلخ عن جلده ، ولو مرة واحدة فى العمر ، كما تنسلخ الثعابين ؛ وأن الخلايا الخبيئة العجيبة فى رأس هذا الإنسان لها صفة سمجة : أن تحتفظ بذكر الماضى حفظا وثيقا ، وتحتفظ بأساليب الفكر دهراً مديدا . وهوى الأنفس ليس كهواء الريح قلّبا .

من أجل هذا لابد للمستقرئ متاعب الحاضر وأسبابها أن يستقرئها فى غضون الماضى القريب . فعناصر الخُلف اليوم هى عناصر الخلف بالأمس مهما اختلفت أسماء الزعماء واختلف تواريخ السنين !!

إن روسيا أقدمت فى بولنده ، ثم أحجمت ، وكان لبولنده من هذا الإحجام من بعد إقدام بؤس وشقاء .

والبلقان ، كان فى مؤخرة رءوس الناس حتى بلغ القفا ، فإذا به فجأة يثب إلى الأمام حتى يكاد يخرق الجباه ! والذى أوثبه إنما هم الروس .

وديجول ، فى فرنسا ، ينصره قوم ويخذله أقوام . وهو ينظر إلى الشرق تارة وإلى الغرب أخرى . وله عينان تحاول الجمع بين مشرق ومغرب فى آن . وله قلب إمبراطورى يحاول أن يجمع الدنيا كلها فى مهجة واحدة . وهى مهجة صغيرة لا تتسع لهذا .

ونحن ننتظر ، والأمم تنتظر ؛ وسيقول الناس من بعد كل هذا : ما أشبه الليلة بالبارحة ! !

أحمد زكى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٣ — الثلاثاء ٣٠ من شوال سنة ١٣٦٣ — ١٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مستعمرات إيطاليـــــا

في مقالي الماضي ، الذي تحدثت فيه عن ظاهرة « الرفق بإيطاليا » ، حاولت أن أتناول هذه الظاهرة بالتحليل ، وأن أوضح ما قد يقال لها أو عليها . كما تعرضت لذكر طائفة من قادة الرأي العام البريطاني ، وحبهم التقليدي لإيطاليا ، التي يعدها كثير منهم وطناً ثانياً لهم . وبعد نشر هذا المقال بأيام ، جاءت إلينا البرقيات بأن لها اتصال كبير بهذا الموضوع : أولها نبأ من فرنسا ، تشكو فيه جماعة من الفرنسيين أن فرنسا لا تلقى من المعاملة — على الأقل من جهة الأمريكيين — ما تجده إيطاليا ؛ فبينما الحكومة الإيطالية قد اعترف بها ، لا تزال الحكومة أمريكا ممتنعة عن الاعتراف بحكومة فرنسا الحالية ، إلى أن يتاح للشعب الفرنسي بواسطة التصويت والانتخاب أن يعبر عن رأيه وميوله في وضوح وجلاء . أما في إيطاليا فليس هنالك داع لا لتصويت ولا لانتخاب .

وهكذا جاءنا تأييد جديد لظاهرة الرفق بإيطاليا . ولو توسعنا في المقارنة بين معاملة الحلفاء لإيطاليا ، ومعاملتهم لبعض الدول الصديقة ، ولبعض الشعوب التي خدمت قضية الحلفاء خدمة صادقة ، مثل شعب فلسطين ، لأدهشتنا المقارنة ، وحرنا في تأويل هذه الظاهرة العجيبة ، التي يصبح من الممكن معها أن يعامَل العدو برأفة ورفق ومودة لا ينال الصديق منها شيئاً !!

ولكن ليس جميع قادة الرأي في الأمم المتحدة مسرفين في عواطفهم نحو إيطاليا إلى هذا الحد . فقد جاءنا نبأ آخر بأن وزير خارجية بريطانيا ، قد أعلن في صراحة لا يشوبها أدنى غموض ، بأن مستعمرات إيطاليا لن ترد إليها ؛ وأياً كان مصير هذه « الممتلكات » فإنها لن تعود إلى الإيطاليين بحال من الأحوال . كان تصريحاً قوياً — لا لبس فيه ولا إبهام — وكان مثل الرياح الهابة التي قضت على كل شك وعبث . فإن وزير الخارجية البريطانية لا يفضي بمثل هذا الرأي إلا أن يكون ذلك التصريح صادراً عن

روية وتفكير وتمحيص ، وبعد محاورات طويلة بين عشاق إيطاليا من جهة ، وبين المتدنين في حبها من جهة أخرى . وقد أثر هـذا التصريح الخطير أثراً عميقاً في نفوس قادة إيطاليا ، وتدل عباراتهم التي أدلوا بها على أن هذا البيان كان صدمة قوية لأمانيهم ومخيباً لظنونهم ؛ فقد غرتهم تصريحات من قبل صـدرت من بعض قادة الحلفاء ، تنم عن العطف والحب لإيطاليا . بل من الجائز أن يكون بعض الساسة من محبي إيطاليا قد أطمع بعض رجالها بأن من المحتمل — بل من الراجح جداً — أن ترد إلى إيطاليا مستعمراتها جميعاً ، ما عدا الحبشة وبعض الجزر في بحر اليونان . لذلك كانت دهشة الساسة الإيطاليين عظيمة ، عندما علموا بأن إيطاليا ستحرم استرداد ممتلكاتها ونسى هؤلاء الساسة أن إيطاليا هـذه هي التي انتظرت حتى أوشكت فرنسا أن تنهزم فطعنتها من الخلف تلك الطعنة التعسة ، في تلك الساعة الحزينة ، فكأن إيطاليا لم ترد أن تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا فقط ، بل رأت من الضروري أن تدخلها في ظروف وفي صورة تثير في النفوس إحساس المقت والاشمئزاز .

ثم ما هذه المستعمرات التي يحزن ساسة إيطاليا اليوم على فقدها ، وبأي الوسائل حصلوا عليها ؟

لقد دخلت إيطاليا الميدان الاستعماري متأخرة ، لأن تكوينها السياسي لم يتم إلا في الثلث الأخير من القرن الماضي ؛ ولكنها لم تكد تتم وحدتها ، وتؤسس مملكتها ، حتى أخذت تتطلع إلى التملك والاستعمار فيما وراء البحار ، وهي بعد في حاجة لأن تصلح من شئونها الداخلية ، ولأن تنشر الثقافة والإصلاح الاجتماعي في داخل بلادها . فكأنها أرادت أن تجري قبل أن تتعلم المشي . ونحن لا نقول هـذا متحاملين على إيطاليا ؛ وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله المؤرخ الإنجليزي الكبير جوتش ، وهو ممن يعطفون على إيطاليا ، في كتابه عن تاريخ عصرنا هذا :

« كانت إيطاليا في ذلك الوقت — أي الوقت الذي كانت تطمع فيه بالاستيلاء على الحبشة في أواخر القرن الماضي — في أشد الحاجة لأن تكرس كل جهودها لإصلاح منزلها الذي تعيش فيه ؛ فلقد كان الشعب يرزح تحت عبء الضرائب الثقيلة والغلاء المنتشر ؛ وقد أخذ الناس يفقدون إيمانهم بحكامهم ، واشتدت الأزمة في عام ١٨٩٨ فانتشرت الثورات في المدن . وكانت مدينة ميلانو مسرحا لحرب أهلية دامت ثلاثة أيام ، وقد استولى الذعر على الملاك وأصحاب الثروات ، وساد الاضطراب والفوضى واختل الأمن . وقتل الملك أمبرتو في عام ١٩٠٠ مع أنه من خيرة ملوك إيطاليا » . ثم يقول المؤرخ نفسه في مكان آخر : « ومما يدل على أن إيطاليا فقيرة في الرءوس ، التي تستطيع أن تعالج المشاكل الإدارية المعقدة ، ما حدث من سوء التصرف في مشكلة إغاثة السكان بعد زلزال سنة ١٨٩٨ » .

وهكذا يمضي الأستاذ جوتش في تحليل الحالة السياسية التي كانت تسود إيطاليا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، بما لا يدع مجالا للشك في أن إيطاليا كان يعوزها النضج السياسي والاجتماعي ، وكانت سنة التطور الطبيعي تقضي بأن تعنى رجالها بإصلاح شئونهم الداخلية ، قبل أن يتطلعوا إلى امتلاك الممتلكات وإنشاء المستعمرات .

ومع ذلك فإن الحكومة الإيطالية صممت — ولما يمض على تأسيس إيطاليا المتحدة عشرة أعوام — أن تدخل الميدان الاستعماري ، لكي تكون في مصاف الدول الكبرى . فإن الوهم الذي يملأ كثيراً من الرءوس ، ويخالط كثيراً من النفوس ، بأن العظمة الدولية لا تتم إلا بإحراز الممتلكات والمستعمرات ، كان متمكنا في عقول ساسة إيطاليا الجديدة .

ولكن إيطاليا — كما قدمنا — دخلت الميدان

الاستعماري متأخرة . وفوق هذا فإن الدول الاستعمارية العريقة كانت من غير شك تنظر إليها وإلى مطامعها الاستعمارية نظرة امتهان وازدراء . ولئن كانت الأقوال لاتدل على تلك النظرة ، فإن أفعال تلك الدول تنطق في وضوح وجلاء .

كان الزمن الذي حددت فيه إيطاليا نفسها بامتلاك المستعمرات فرصة جيدة لإحراز شيء جيد . ففي ذلك الوقت كانت تجري المفاوضات والمداولات بين الساسة في مختلف الحكومات من أجل اقتسام القارة الإفريقية . فلو أن لإيطاليا أدنى مكانة في نفوس أولئك الساسة لعطفوا عليها وعلى مطامعها ، ومنحوها مستعمرة تستحق الذكر . ولئن كانت بلجيكا — تلك الدولة الصغيرة — تمنح حوض نهر الكونجو العظيم بخيراته ومعادنه وغاباته ومزارعه ؛ فإن من المعقول أن تمنح إيطاليا أيضاً شيئاً له قيمة . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . ولو أن إيطاليا أهملت تماما لكان ذلك أشرف لها من أن تأخذ ماسمح لها بأخذه ؛ فقد تركت لها الدول الاستعمارية — بناء على شبه تفاهم بينها — ساحلين من أفقر وأفقر سواحل إفريقية ، وليس وراءهما سوى أرض صحراوية قليلة الزرع والنبات ، شديدة الحرارة ، كثيرة الأوبئة ؛ هذان الساحلان هما : ساحل إرتريا في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر ؛ وساحل الصومال الإيطالي المقفر ، وهو أشد سواحل المحيط الهندي جدبا وفقرا . ثم سمح لإيطاليا أن تتوسع فيما وراء السواحل على شرط ألا تجور على الأقاليم التي احتفظت بها الدول الاستعمارية الكبرى لنفسها .

وقد حاولت إيطاليا أن تتوسع من سواحل إرتريا إلى بلاد الحبشة وأعالي النيل ، ودارت بينها وبين منليك الثاني ملك الحبشة تلك الحرب المشهورة التي انتهت بمعركة عدوه ، حيث هُزم الإيطاليون ونكل بهم أشنع تنكيل . ولم تكن هزيمتهم سبّة لإيطاليا وحدها ، بل قد أساءت أيضا إلى سمعة الدول الاستعمارية عامة .

وهكذا قنعت إيطاليا — وهي كغيرها إذا ردّت إلى القليل تقنع — بأن تظل إرتريا كما نعرفها اليوم مساحة تمتد على الساحل من السودان إلى قرب بوغاز باب المندب ؛ وفيها مدينة مصوع ، التي اغتصبت من المصريين . كما أنها تشتمل في الداخل على مساحة من الهضبة الحبشية ، حيث توجد المدن الشهيرة : أسمره وكيرن وغيرهما . وأصبح لإيطاليا — إذن — مستعمرتان ، تغلب عليهما الطبيعة الصحراوية والهواء الحار ، فيما عدا الهضبة الإرترية ؛ وبذلك تنتهي الفترة الأولى من تاريخ إيطاليا الاستعماري .

ثم بدأت الفترة الثانية في عام ١٩١١ بالإغارة الصريحة والاعتداء السافر على طرابلس الغرب ؛ وهي أيضا بلاد تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . فكأنه قد كتب على إيطاليا الاستعمارية أن يكون إحراز الصحارى من خصائصها ومميزاتها التي انفردت بها من دون الدول . ومع ذلك فإن امتلاك «ليبيا» قد كلف إيطاليا ثمناً باهظا ، لأن مقاومة القبائل العربية استمرت بضعة عشر عاما . ولم يتم إخضاع ليبيا للنفوذ الإيطالي إلا في عهد الزعيم موسوليني . ولكن نستطيع أن نعتبر أن الفترة الثانية من الاستعمار الإيطالي قد ختمت بمعاهدة أوشي بين إيطاليا وتركيا . وقد تنازلت الدولة العثمانية فيها عن كل حق في برقة وطرابلس ؛ وتعهدت أن تسحب جميع قواتها من ليبيا ؛ وسمحت لإيطاليا بأن تحتل جزيرة رودس ، وجزر دوديكانيز ضمانا لقيام تركيا بتعهداتها . وقد ضمت هذه الجزر نهائيا لإيطاليا ، مع أن سكانها لا يمتون إلى الإيطاليين بأدنى صلة .

ثم جاءت الفترة الثالثة من تاريخ الاستعمار الإيطالي ، بعد أن تبوأ الزعيم الإيطالي منصب السلطة والجبروت في المملكة الإيطالية — وكانت إيطاليا قد وعدت من دول

الحلفاء مكافآت استعمارية مختلفة تحريضا لها على دخول الحرب الكبرى ضد ألمانيا ؛ ولكن لم يتحقق من هذه الوعود إلا القليل . فقد حصلت إيطاليا على تعديل الحدود بينها وبين مصر ، استولت بمقتضاه على واحة جغبوب ، وانكمشت بناء على ذلك حدود مصر الغربية انكماشا واضحا . وكذلك عدلت حدود السومال الإيطالي لمصلحة إيطاليا ، وكذلك حدود تونس . وقد تمت هذه الأعمال كلها في عهد الزعيم موسوليني ، وإليه يرجع الفضل في الإلحاح المستمر من أجل الحصول على هذه التعديلات ، ولو أنها لم تكن عظيمة القيمة .

وكان موسوليني يدرك أن هذه الإضافات كلها لا تشفي غلته الاستعمارية ، وأن لا بد له من دخول الميدان الاستعماري بقوة وعنف . ولكنه كان أعقل وأحزم من ساسة إيطاليا الذين سبقوه . فلم يبدأ حملته الاستعمارية الجدية وبلاده تشكو الشقاق والفوضى . وقد أمكنه بلا شك أن يكسب إيطاليا مظهرا من الوحدة ، وأن يكتسب الأنصار ، ويسكت الخصوم أو يطاردهم ؛ كما أمكنه أن يزيل الفوضى التي كانت تسود جزيرتي سردينيا وصقلية ، حيث كانت العصابات أشد صولة وأعظم سلطانا من الدولة والقانون .

ويود عشاق إيطاليا اليوم لو أن موسوليني وقف عند هذا الحد ، ولم يسقه الطمع الأشعبي إلى الزج بأمته في مهالك السياسة الاستعمارية العقيمة . ولكن عقلية الزعيم الإيطالي لم تكن تستطيع أن تتصور أن تكون دولة هو زعيمها قانعة بهذا العدد القليل من المستعمرات الصحراوية ، وكان يرى أنه لا بد له أن يحتل مكاناً رفيعاً بين قادة العالم ، وأن لا بد له بوجه خاص أن يمحو ما توهم أنه عار لحق الشرف الإيطالي في معركة « عدوه » . لذلك أخذ ينادي ويصيح صيحاته المعروفة ، بأن إيطاليا لن ترضى أن تظل « محبوسة » في داخل البحر المتوسط ، وأنه لا بد لها أن تساهم في الأعمال الإنسانية (يريد بالطبع المشروعات الاستعمارية) . وتمهيداً للخطة التي يريد انتهاجها أعد قوة حربية لا بأس بها ، وأقدم في عام ١٩٣٥ على ذلك الحدث الخطير ، الذي اعتدى فيه على دولة بينها وبينه عهود ومواثيق ، وهي الحبشة . وشنّ عليها تلك الحرب التعسة التي انتهت بالاستيلاء على « إثيوبيا » وطرد حكومتها الشرعية منها ، وتأسيس ما سمي فيما بعد الإمبراطورية الإيطالية . فإن هذا الفتح الجديد قد جعل إثيوبيا متصلة اتصالا مباشرا بالسومال الإيطالي وإرتريا . فتألف منها جميعا كتلة واحدة يصح أن تسمى إمبراطورية . كما صح أيضا أن يسمى الملك نفسه ، ملكا وإمبراطورا ، تقليداً لملك بريطانيا .

ولم يكد الزعيم الإيطالي أن يظفر بهذا النصر ، حتى حدثته نفسه بنصر جديد من نوع مبتكر طريف ، فزج في سنة ١٩٣٦ بالجيوش الإيطالية في الحرب الأهلية الأسبانية ، فنصر فريقاً على فريق ، لكي تكون لإيطاليا حظوة في أسبانيا .

وفي ربيع سنة ١٩٣٩ اعتدت الحكومة الإيطالية عدوانها المعروف على ألبانيا ، إذ عز عليها أن تنال ألمانيا كل تلك الغنائم في النمسا وتشيكوسلوفاكيا . ثم انتهت هذه الفترة الثالثة من تاريخ إيطاليا الاستعماري بدخولها الحرب لأغراض استعمارية خالصة . ولها مطامع واضحة في اليونان وتونس ومصر .

***

هذه خلاصة مجملة لتاريخ إيطاليا الاستعماري . وهي تعطينا صورة لا تنطوي على كثير من النبل ، ولئن كان التاريخ الاستعماري مليئاً بالمخازي بوجه عام ، فليس من شك في أن لإيطاليا نصيبا أكبر مما لغيرها . ولا بد لمحبي إيطاليا والمترفقين بها من التسليم بأن تاريخها الحديث لا يبرر هذا التسامح الكثير الذي يطلبه ساستها وقادتها في الوقت الحاضر .

محمد عوض محمد

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

— ١ —

السيد عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥ — ١٣٢٠ هـ

١٨٤٨ — ١٩٢٠ م

من بيت في «حلب» يعتز بنسبه وحسبه وعلمه وجاهه وماله ؛ فأسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الأشراف في حلب ، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية ، وأبوه أحد المدرسين في الجامع الأموي بدمشق والمدرسة الكواكبية في « حلب » .

تعاون على تربيته بيئته وما في تقاليده من عزة وإباء ، وشمم وأنفة من الصغائر ؛ وخالة له تعهدته بعد وفاة والدته وهو صغير ، وكانت من نوادر النساء في الشرق ، عرفت بالأدب والكياسة وكبر العقل . وقبل ذلك ، فطرته التي فطر عليها من ميل إلى الحق ، وحب الخير والاستجابة للتربية الصالحة .

كل هذا جعل منه رجلا يستعصي على ناقد الأخلاق نقده . مؤدب اللسان حتى لا تؤخذ عليه هفوة ؛ يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، حتى لو ألقى عليه السلام لفكر في الإجابة ؛ متزن في حديثه ، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتم حديثه ، ثم يصل ما انقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه ؛ نزيه النفس لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب ؛ شجاع فيما يقول ويفعل ، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد ؛ وهو مع أنفته وعزته وصلفه على الكبراء ، متواضع للبائسين والفقراء ، يقف دائماً بجانب الضعفاء ؛ يشع على من يجالسه الاتزان والتفكير المادئ ، وحب الحق ونصرة المبدأ ، والتضحية للفضيلة .

تعلم كما كان يتعلم ناشئة زمانه الدينيون ، من لغة عربية ودين في مدرسة أسرته « بحلب » — « المدرسة الكواكبية » — وكانت مدرسة تسير على الطريقة الأزهرية فيما يقرأ من كتب ، وما يتبع من منهج ؛ ولكنه أكمل نفسه بقراءته بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، وأحضر له والده من علمه الفارسية والتركية ، وطالع بنفسه كثيراً من الكتب التاريخية ، وعني بدراسة قوانين الدولة العثمانية .

فلما أتم دراسته انغمس في الحياة العملية ، وتنوعت أعماله ، وتباينت اتجاهاته : فمن محرر لجريدة رسمية ، إلى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، إلى قاض شرعي في بلدة من البلاد السورية ، إلى رئيس البلدية . ثم هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشئ لنفسه جريدة في «حلب» اسمها الشهباء ، أو يشتغل بالأعمال التجارية ، أو يقوم بمشروعات عمرانية ؛ ومن كل ذلك يستفيد خبرة وتجربة بالحياة . وفي كل الأعمال الحكومية والحرة يصطدم بنظام الدولة ، وباستبداد الحكام وفساد رجال الإدارة ، فينازلهم وينازلونه ، ويحاربهم ويحاربونه ، وينتصر عليهم حيناً ، وينتصرون عليه حيناً ؛ وسلاحه دائماً النزاهة والعدل والاستقامة ، وسلاحهم دائماً الدسائس والاتهام بخروجه على النظام ، ودعوته للشغب ، وما شاكل ذلك مما هو من عادة الظالمين . وكانت البلاد التي يعيش فيها موبوءة بحكم « عبد الحميد » ، لا يستطيع أن يعيش فيها حر صريح ، ولا ينجح فيها تاجر نزيه ، ولا موظف جريء مستقيم ؛ وهذا النوع من الحكم عدو كل كفاية ، وقاتل كل نبوغ !!

ارتفع شأنه في بلده ، فكان يقصده أصحاب الحاجات لقضائها ، والشاكون لحلها ؛ ورجال الحكومة أنفسهم

يستشيرونه فيما غمض عليهم ويعتمدون على رأيه ؛ وهو في كل ذلك جريء فيما يرى وفيما يقول ؛ لا يقرّ ظالما على ظلمه ، ولا يسالم جائراً لمنصبه أو جاهه . من أجل هـذا غاضب « عارف باشا » والى « حلب » ، وأخذ يعدد سيئاته وينقم عليه تصرفاته ، ويحرّض النـاس على رفع صوتهم معه بالشكوى منه لرؤسائه في الآستانة ؛ فانتقم « عارف باشا » لنفسه ، فزوّر على « الكواكبي » أوراقا ، واتهمه بأنه يسعى لتسليم « حلب » لدولة أجنبية ، وحبسه وطلب محاكمته ؛ فبذل الكواكبي ورجاله جهداً كبيراً ليحاكم في ولاية غير ولاية « حلب » ؛ وحوكم في بيروت فحكم ببراءته ، وظهرت خيانة الوالي ومكايده فعزل .

وكان من أعداء « الكواكبي » أيضا « أبو الهدى الصيادي » ، الذي سبق وصفه في ترجمة « عبدالله نديم » ، لأن « الكواكبي » أبى الاعتراف بصحة نسبه ، ولاعتداء « أبي الهدى » على بيتهم بأخذ نقابة الأشراف لنفسه منهم ؛ فكان « أبو الهدى » أيضاً يدس له ، ويغري ولاة الأمر به .

فكان من نتيجة محاكمته على التهمة التي اتهمه بها « عارف باشا » ، ومن مماكسة « أبي الهدى » وأعوانه له حتى في تجارته ، أن خسر ألوف الجنيهات من ماله ، فاحتمل ذلك بنفس قوية لا تجزع ولا تتحول .

وأنصع صفحة في تاريخ حياته قوة شعوره بفساد حال المسلمين ، وتخصيص جزء كبير من حياته في تعرف أحوالهم في جميع أقطار الأرض ، وتشخيص أمراضهم وتلمس العلاج لهم ؛ فعكف على مطالعة تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم ، وما كتبه الكتاب المحدّثون في ذلك في الكتب والمجلات والجرائد ؛ ودرس أحوال المسلمين في المملكة العثمانية ، ثم رحل إلى كثير من بلاد المسلمين : فساح في سواحل إفريقية الشرقية ، وسواحل آسيا الغربية ؛ ودخل بلاد العرب وتجوّل فيها ، واجتمع برؤساء قبائلها ؛ ونزل بالهند وعرف حالها . وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية ، وحالتها الزراعية ، ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة . ونزل مصر وأقام بها ، وكان في نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ، ولكن عاجلته منيته .

أخرج نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت في كتابين : اسم أحدهما « طبائع الاستبداد » ؛ والآخر « أم القرى » . الأول في نقد الحكومات الإسلامية ؛ والثاني في نقد الشعوب الإسلامية غالبا .

لقد كان الحديث في مثل هـذه الموضوعات التي مسها « الكواكبي » في « طبائع الاستبداد » ، و « أم القرى » من الموضوعات المحرمة ، لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم ، وتفقههم على مناحي الظلم والعدل ، وتهيئهم للمطالبة بالحقوق إذا سلبت ، والقيام بالواجبات إذا أهملت ؛ وهـذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد . لذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحه أي باحث بعده ، وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلا نتيجة . والعلوم التي حوفظ عليها واستمرت دراستها هي علم النحو والصرف واللغة والفقه ، لأنها لا تمس الحاكم من قريب ولا بعيد ، ولا تفهم الناس أين هم من حاكمهم وأين حاكمهم منهم . والأدب مدّاح الملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلا ، وفسادهم صلاحاً ؛ فإذا أعطاهم الحاكم قليلا مما سلبه منهم هللوا وكبروا ، وعجبوا من هذا الكرم الحاتمي ، والسخاء الذي لا نظير له ؛ وإذا تبسم بسمة أشرقت الشمس ، وإذا عبس عبسة اكفهر الجو ! وهكذا كان الحاكم هو كل شيء في الأمة ، حتى المؤرخون لا يؤرخون إلا شخصه في حياته وأعماله وحروبه وزوجاته وأولاده . أما الشعب فلا شيء ، إلا أن يكون مزرعة للحكام . وأحب علم إلى الحكام وأدعاهم لنصرته هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه ؛ ورجال الدين المقربون هم الذين يستطيعون أن يؤلفوا المعاني من مثل « السلطان ظل الله في أرضه » و « من أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني » ،

أما علم الاجتماع فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتاً

كان هذا في الشرق ؛ على حين أن الغربيين بدءوا بعد ابن خلدون يبحثون في المجتمعات بحثاً واسعاً ، يتعرفون علل الجماعات وأمراضها ، وأنواع الحكومات ومزايا كل شكل وعيوبه ، ويتحررون من القيود ، ولا يعبئون بالتضحيات في سبيل الحريات ، ويبني لاحقهم على ما وصل إليه سابقهم .

وبلغ الضيق في الشرق منتهاه في عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن شدة الضغط تولّد الانفجار ، والقسوة تعلم الحيلة ، وتوالي الاضطهاد يولّد البغضاء ؛ فكثرت في هذا العهد الجمعيات السرية تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ، وتعمل لوضع نظام ديمقراطي لا يكون فيه السلطان الحاكمَ بأمره ؛ وفر كثير من العثمانيين إلى أوروبا يدرسون نظم الحكم الأوروبي ، وما وصلت إليه أوروبا من البحوث الاجتماعية ، وأخذوا يكتبون في ذلك في جرائدهم ومجلاتهم التي يحررونها خارج الحدود العثمانية ، ومنها تتسرب إلى البلاد نفسها . وأخذت مصر بعد انفصالها من حكم العثمانيين تؤوي الأحرار ، وتؤيد القول في نقد نظام الحكم ؛ وظهرت في الجرائد والمجلات مقالات بالعربية في تشريح أحوال الجماعات وأصول الحكومات ؛ وترجم إلى العربية «أصول النواميس والشرائع» لمونتسكيو . وبدأت موجات البحث الاجتماعي في أوروبا تصل إلى الشرق عن طريق الترجمة وطريق المثقفين في أوروبا

في هذا الوسط طلع الكواكبي ، وكان ظهوره بكتابيه جرأة كبيرة . لقد استفاد مما نقل عن الغرب ، ولم يكن يعرف لغة أوروبية ، إنما يعرف العربية والتركية والفارسية فاستفاد مما نقل إليها ، ومما كان يترجم له في هذا الباب خاصة . وقد ظهر أثر هذا الاقتباس في كتابه «طبائع الاستبداد» ؛ أما كتابه «أم القرى» فبحث مبتكر ، وهو الذي يدل على كبر عقله وقوة تفكيره ، وسعة اطلاعه ، وصدق غيرته على العالم الإسلامي .

أما كتاب «طبائع الاستبداد» ، فقد نشره — أولا — مقالات في بعض الصحف عندما كان في مصر سنة ١٣١٨ هـ ، ثم جمعها في كتاب وقال في أوله : «إني نشرت في بعض الصحف أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ؛ منها ما درسته ، ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ، ولا حكومة مخصصة ، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ؛ عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الأغيار ، ولا على الأقدار .. ثم أضفت إليها بعض زيادات ، وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب» .

وقد اقتبس فيه كثيراً من أقوال «ألفيري» ، ولا أعرف كيف وصلت إليه ، وألفيري «Allieri Vittoria» ، كاتب إيطالي عاش من سنة ١٧٤٩ — ١٨٠٣م ، من بيت نبيل ، وقد ساح في أوروبا نحو سبع سنوات ، ودرس كتب فولتير وروسو ومونتسكيو ، وتشبع بآرائهم الحرة ، وتعشق الحرية وكره الاستبداد أشد الكره ، ووجه أدبه للتغني بالحرية ومناهضة الاستبداد ، يُنطق بذلك أبطال رواياته ويبثه في كتاباته ؛ ولكن الكواكبي هضمها وعدلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الإسلامية ، وزاد عليها من تجاربه وآرائه .(١)

(يتبع) أحمد أمين

(١) أذيع بعض هذا المقال في محطة إذاعة الشرق الأدنى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٤٥ في مصر والسودان
٣٧٫٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

حافظة إمام

في هذه الأيام التي يجتمع فيها العالم العربي لإحياء ذكرى أبي العلاء ، فيتبارى أئمة الأدب في الكشف عن حقيقة فلسفته ومذاهبه ، ويشيدون بمواهبه ومناقبه ، ويضربون الأمثال على ألمعية ذهنه وحدة ذاكرته ، ويقصون القصص عن تقشفه وزهده — أرى ذهني يحتشد بذكريات قوية عن إمام آخر من أئمة العصور الأولى ، كانت له أيضاً فلسفة ومذاهب ، وكانت له مواهب ومناقب ، وكانت له ذاكرة حادة وذهن جبار ، وكان في تقشفه وزهده لا يشق له غبار .

يروى الرواة عنه أنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وتفقه في الدين وهو ابن عشر ، وأذن له في الإفتاء وهو ابن أربع عشرة سنة . نشأ يتيماً في حجر أمه في قلة عيش وضيق حال . فلما لمع نجمه وطوّف في الأقطار أقبلت عليه الدنيا ، وكان المال يتدفق على راحتيه تدفقاً ؛ فلم يكن يحبسه فيهما إلا ريثما يجد من يأخذه منه . قيل إنه قدم مرة من صنعاء إلى مكة ومعه عشرة آلاف دينار ، فأشار عليه أصحابه أن يشترى بها ضيعة لنفسه حتى يكون له منها دخل ثابت يواجه به صروف الأيام ؛ فكان جوابه أن ضرب خيمة خارج مكة وصب الدنانير ، فكل من دخل عليه قبض له قبضة وأعطاه . فلما جاء وقت الظهر قام من مجلسه ونفض الثوب ، ولم يبق له من هذا المال شيء . ومن أقواله المأثورة في هذا المعنى :

بالهف نفسي على مال أفرّقه على المقلّين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني
ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعنه يروى أيضاً هذان البيتان ، وهما عندي من أقوى ما قيل في الزهد في الشعر العربي كله :

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا

ذلك هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس — الشافعي — الذي ولد في غزة بأرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ ، في نفس اليوم الذي دفن فيه الإمام أبو حنيفة النعمان بالرصافة . وكان يعاصره الإمام مالك الذي كان يقيم في المدينة المنورة ؛ والإمام أحمد بن حنبل الذي كان يقيم في ذلك الوقت ببغداد .

* * *

وقد اشتهر الشافعي بقوة حافظته مذ كان يحفظ القرآن في « الكتّاب » . فإن أمه لفقرها لم تكن لها طاقة لدفع نفقات تعليمه ، فأهمله معلمه وانصرف عنه ، وكان هذا سبباً في أن يعتمد الصبي على نفسه في التحصيل ؛ فكان يقترب من مجلس المعلم ويلتقط منه كل ما يقول ، ويحفظ عنه كل ما كان يمل على تحفيظه لباقي الصبية ؛ فشحذ هذا من قوة ذاكرته ، حتى لقد كان يعي في صدره من مرة واحدة ما لا يستطيع أن يعيه غيره بعد عشر مرات . وكان يجلس إلى التلاميذ في غياب معلمه فيلقي عليهم ما وعاه عنه ، ويساعدهم على حفظه ، فأحبوه ، والتفوا حوله ، ورفعوه فوقهم ، وانصاعوا لأمره . وعرف المعلم ذلك فالتفت إليه بعد انصراف ، وعطف عليه بعد صد ، وأعفاه من طلب الأجر إعفاء [1] .

ولكن الشافعي لم يلبث بعد أن أتم حفظ القرآن حتى انسلخ من هذا الكتّاب . ودخل المجلس الحرام يجالس العلماء ، ويحفظ الحديث ، وعلوم القرآن . وكان لشدة فقره يجمع العظام البالية من الطرقات فيكتب عليها ما كراته عن العلوم التي يسمعها ، ويلتقط القصاصات من تحت أقدام الكتّاب ليدون عليها دروسه . فكثرت عنده هذه

(١) إلى الأستاذ الفاضل مصطفى منير أدهم يرجع الفضل فيما تحويه هذه الكلمة من بيان .

الرقاع ، وضاق بها صندوقه ، واكتظت حجرته . فجلس إليها ذات يوم يحفظ كل ما فيها عن ظهر قلب ثم يلقى به خارج الغرفة . وحبس نفسه على هذه الحال أياما حتى تم له ما أراد ، وخرج من الحجرة وهو يقول :

علمي معي حيثما يممت ينفعني
صدري وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوق

* * *

ولما بلغ من العمر الخامسة عشرة كان قد أتم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب والشعر ، ولما رأى أستاذه الإمام مسلم بن خالد أنه وصل إلى هذا الحد في العلوم أجازه في أن يتولى إفتاء الناس . فكان إذا دخل الإنسان إلى المسجد الحرام في ذلك العهد رأى الشافعي ، وهو في هذه السن المبكرة ، فوق كرسيه يلقى دروسه على الناس ، ويفتيهم في أمور دينهم .

وتصادف أن جاء من بغداد إلى مكة لأداء الحج الإمام أحمد بن حنبل وصاحباه إسحاق ويحيى . ودخلوا المسجد الحرام فوجدوا الشافعي وهو في الخامسة عشرة جالسا على كرسيه يقرأ للناس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا حلقته أكبر الحلقات . فقال إسحاق لابن حنبل : بالله سله يا أحمد عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أمكنوا الطيور في أوكارها» . فقال أحمد : هذا معلوم ؛ أي دعوا الطيور في ظلمة الليل في أوكارها . فلم يقتنع إسحاق بهذا التفسير وقال : والله لأسألنه ! ثم التفت إلى الشافعي وقال له : يا مطلبي (وهي نسبته التي كان ينادى بها لأنه من أولاد عبد المطلب) : ما تفسير هذا الحديث ؟

فقال الشافعي : كان أهل الجاهلية إذا أرادوا السفر أخرجوا الطيور من أوكارها ، فإن أخذت يمينا أو إلى الإمام استحسنوا ذلك الفأل وسافروا ؛ وإن أخذت شمالا أو رجعت إلى الخلف تطيّروا ورجعوا عن السفر ؛ فلما جاء النبي عليه السلام نهى عن ذلك وقال : «أمكنوا الطيور في أوكارها ، وبكروا على اسم الله تعالى» .

فقال إسحاق لابن حنبل : والله لو لم نأت من العراق إلى الحجاز إلا لطلب تفسير هذا الحديث لكفى .

فقال أحمد : وفوق كل ذي علم عليم !

* * *

ولما بلغ العشرين من عمره ظهر في الناس كتاب «الموطأ» للإمام مالك ؛ فكان كتاب الجيل ، واشتهر بين الناس ، فاشتاقت نفس الشافعي إلى رؤية مؤلفه العظيم والاتصال به والإفادة من علمه . فاستعار كتاب الموطأ من رجل من أهل مكة وجلس إليه حتى حفظه في زمن يسير كعادته ، ثم زود بكتاب من والي مكة إلى والي المدينة ليقدمه به إلى الإمام مالك . . . فلما كان بين يدي الإمام دفع والي المدينة إليه بكتاب التوصية . فما كاد الإمام يلمح ما فيه حتى ألقاه من يده وقال :

— يا سبحان الله ! صار علم رسول الله بحيث يطلب بالوسائل والشفاعات ؟! وهمّ بالانصراف غاضبا . فتقدم له الشافعي ، وعرّفه بنفسه وبنسبه ، وشرح له جملة حاله ، واستعطفه ؛ فعطف عليه وطلب إليه أن يجيئه في الغد ليقرأ عليه الموطأ . فقال الشافعي :

— إني أقرؤه يا مولاي حفظا !

قال مالك : — اقرأ !

فأخذ الشافعي يقرأ ومالك يسمع له . وكلما خشي الشافعي على مالك أن يمل سكت ، فيقول له : زد يا فتى فإني أستحسن قراءتك .. وظل الشافعي يتردد على بيت مالك في كل يوم يقرأ عليه الموطأ حتى أتمه في أيام قليلة . وبعد ذلك أذنه مالك في حضوره دروسه التي كان يلقيها في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

وجلس الإمام مالك على عادته في قراءة الحديث فقال : حدثنا نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر — وضرب بيده إلى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام —

وقرأ يوما خمسة وعشرين حديثاً ؛ وكان كلما قرأ حديثا كتبه الشافعي على ذراعه بريقه بواسطة عود أخذه من الأرض . والإمام ينظر إليه خلسة . حتى إذا ما انقضى المجلس أشار إليه مالك ، فدنا الشافعي منه ، فقال له : يا غلام — أرى فيك إساءة أدب ، حيث رأيتك وأنا أملي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تلعب بريقك على يدك . فقال الشافعي :

— لم أكن لألعب بريقي يامولاي ، وأنما كنت أكتب ما تمل ، وذلك لعدم وجود قراطيس عندي . فأخذ مالك يده فلم ير عليها شيئاً . فسأله . فقال الشافعي : إن الريق لا يثبت ، ولكني أستعين به على تثبيت ما أسمع ، وقد فهمت وحفظت كل ما حدثت به . فتعجب الإمام مالك من ذلك وقال له :

— أعد عليّ ولو حديثاً واحدا مما قلت .

فقال الشافعي :

— حدثنا أستاذنا الجليل مالك عن نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر — وأشار إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام كإشارة الإمام مالك تماما — وصار يعيد من الأحاديث التي سمعها حتى أعاد عليه الخمسة والعشرين حديثاً كلها . وكانت الشمس قد غربت ، وحانت صلاة المغرب ، فصلى مالك المغرب ؛ وأمر عبده أن يأخذ بيد الشافعي إلى منزله ، وسأله النهوض معه فامتثل . وأقام الشافعي ضيفاً عند الإمام مالك ثمانية أشهر يلازمه في البيت وفي المسجد . ويقدم له مالك الطعام والماء بيده ، ويأخذه في صحبته إلى المسجد . وبعد ما يقرأ مالك على الناس الموطأ يعطيه للشافعي ليمليه عليهم ، وهم يكتبونه . فأزداد الشافعي بذلك حفظاً للموطأ وفهما له ، وعرفه الناس .

* * *

وبدا للشافعي بعد ذلك أن يسافر إلى العراق شوقاً منه إلى لقاء الصاحبين (أبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان) . وفي مدينة الكوفة التقى بالإمام محمد بن الحسن ، فوقع في نفسه أجلّ موقع منذ المقابلة الأولى . وأخذه الإمام معه من المسجد إلى البيت . وهناك دخل به مكتبته وأخرج له منها الكتاب « الأوسط » لأبي حنيفة ، وناوله له ليطالع فيه ؛ فأخذه الشافعي وسهر عليه طول ليلته حتى حفظه . ولما أصبح الصباح حضر الشافعي مجلس محمد بن الحسن ، وقد رفعت إليه مسألة ؛ فقال محمد الجواب عليها كذا كما قال أبو حنيفة . فنظر الشافعي إليه وأشار إليه همسا بما يفيد أن الجواب ليس كذلك . فلما انفرد به ابن الحسن بعد ذلك سأله : من أين علمت هذا ؟ قال : من الكتاب الذي أعرتنيه أمس ، وهذه المسألة مدونة في صحيفة كذا من جزء كذا ، وتسبقها المسألة الفلانية ، وتليها المسألة الفلانية . فأمر محمد بالكتاب فأحضر إليه ، فتصفحه فوجد القول كما قال الشافعي ؛ فزادت منزلته عنده ، وأعجب بذكائه إعجابا شديدا ، وأباح له أن ينسخ لنفسه من مكتبته ما يشاء .

* * *

هذا طرف وجيز جدا من أخبار الشافعي نكتفي بذكره اليوم ، فإن الحديث يطول بنا إذا نحن تعقبنا أخباره في كل بلد نزل فيه . ولكن هناك حكاية مشهورة وقعت له وهو في العراق ، إذ بلغ من نباهة ذكره ، وعلو قدره فوق أقدار من كان فيها من العلماء ، أن امتلأت قلوب نظرائه حسدا عليه . فاتفق نفر منهم على تدبير (مؤامرة علمية) يهاجمونه بها في مجلس الرشيد ، فيوجهون إليه أسئلة معماة يدبرونها ويقدرونها ، على أن تكون في مرتبة الأحاجي والألغاز التي يستعصى على الذهن إدراكها ، حتى إذا عجز عن حلها ، وقصر في فهمها ، سقط من أعين الناس ، وعادت لهم الأولوية عليه في نفوس الجماهير .

ولهذا المجلس حديث شائق ومفيد ، قد نعود إليه في فرصة قريبة إن شاء الله .

ع . ج

عناصر الفشل فى أبنائنا

يكثر الضجيج وتتعدد الآراء بإزاء سوء نتائج الامتحانات فى كل عام ! وقد اطلعت على هذه الآراء ، ووجدت أن هناك ناحية لم يُشر إليها حضرات الباحثين فى الموضوع ، قد يكون لها تأثير غير قليل فى مشكلتنا العظمى . وقد رأيت أن أعرض لهذه الناحية ، ولنرى بعد ذلك ما يقوله الإخصائيون من تأثير أو معارضة .

فهناك سبب هام ، أو قل سبب أساسي يؤدى إلى سوء نتائج الامتحانات المدرسية والامتحانات العامة ، مع أن المعروف أن المدارس تتشدد فى الامتحانات التى تسبق الامتحانات العامة ، حتى تحافظ المدرسة بقدر الإمكان على نتيجتها العامة التى تُعلي أو تُخفض من شأنها أمام وزارة المعارف وأمام الناس أجمعين ! هذا السبب هو سوء حالة التلاميذ أنفسهم . ولا أقصد بذلك حالة الصحة الجسمية ، فهذا أمر قد أعطته وزارة المعارف عناية كبيرة ، وهى سائرة فى إصلاحه فى طريق النجاح . وإنما الأهم من ذلك ، والعامل الذى يؤثر فى الحالة الصحية نفسها والحياة المدرسية والحياة بوجه عام ، هو حالة التلاميذ النفسية . إن معظم المصريين مصابون بالأمراض النفسية ! ونحن لا نكاد نرى عائلة من المصريين تعيش فى وفاق ووئام وتفاهم ، ويسعد فيها كل فرد من أفراد المنزل ، إلا فى حالات قليلة . وأنا لا أخرج عن موضوعى إذا كنت أشير إلى حالة العائلات المصرية ، فأطفالنا تنشأ فى وسطها ، ويكونون الضحايا البريئة لتربية المنزلية السيئة ، التى لا ينفهم منها أرق وأفضل الأشخاص خلقاً وتعليماً قليلاً أو كثيراً .

انظروا إلى حالة التلاميذ النفسية أيام المذاكرة ، فهناك أيام خاصة بالمذاكرة عند معظمهم هى التى تسبق وتتخلل أيام الامتحان . إن الذى يشاهده الناس ويتحدث به الآباء ، وتتفطر له قلوب الأمهات ، هو ما يعترى التلاميذ أولا من خوف وقلق شديدين ! هذا الخوف لا يوجد كله بسبب الامتحان ، فجميع الناس يُمتحنون إن لم يكن فى المدرسة ففى الحياة ، والامتحانات المدرسية ليست إلا جزءاً لا يذكر من الامتحانات التى تمر فى المستقبل على الشخص فى كل يوم . وأنا أفهم أن الامتحان يجب أن يثير اهتمام التلاميذ بدلا من أن يخيفهم ، أما تلاميذنا فهم يخشون الامتحان فقط ، ولا يدفعهم هذا الشعور إلى الاستعداد له استعداداً كافياً مناسباً . وإنما حالة الخوف هذه حالة داخلية تتصل بها نفس الشخص ، وتأتى من طريقة معاملته فى الصغر ! هذا الخوف الداخلى يتخذ الامتحان — وهو مشكلة أو صعوبة تحتاج إلى شىء من المجهود وشىء من تحمل المسئولية — مناسبة للظهور فيها . ويعتقد التلاميذ أن السبب الأساسي للخوف هو مشكلة النجاح فى الامتحان ، مع أن الخوف كما نراه عند معظم التلاميذ ليس إلا حالة من الحالات النفسية المختفية ، والتى تظهرها الظروف المختلفة .

وقد يكون الخوف شديداً ويصاحبه التردد فيمتنع بعض التلاميذ من دخول الامتحان ، أو قد يمتنعون ثم يدخلون بالضغط عليهم أو بالمحايلة ، أو على الأقل يتمنون ألا يدخلوا هذا الامتحان الثقيل على نفوسهم .

وقد عرفت حالة أحد هؤلاء التلاميذ ، كانت تنتابه هذه النوبات ، نوبات عدم الرغبة فى دخول الامتحان ، حتى اعتقد المشرفون عليه أن عنده مرضاً عقلياً ، ووُضع فعلا تحت المراقبة فى قسم الأمراض العقلية بإحدى المستشفيات ، وبعد مدة ارتاحت فيها نفسه دخل الامتحان ونجح فيه .

وطالب آخر نجح فى مراحل التعليم حتى أتى الامتحان النهائى ، وهو المشكلة الكبرى ، فتغلب عليه الخوف وأبى أن يتقدم إلى الامتحان ، وكان يضرب برأسه الحائط خوفاً من الرسوب .

وكانت عندى تلميذة فى السنة التوجيهية درست لها قبل ذلك ، وهى ذكية نشيطة منتبهة ، ولكنها أخذت تتغيب كثيراً ، وتعتذر عن غيابها بالمرض ، وأخيراً أخبرتنى أنها لا ترى أملا فى نجاحها فى الامتحان ، وأنها ترددت كثيراً فى التفكير فى دخوله . ثم أرسلها أهلها إلى مكان للنزهة وشعرت بتحسن ، ولذلك عادت إلى المدرسة واقتنعت

بدخول الامتحان . ولكنها تعتقد أنها لن تنجح ؛ بهذه الحالة دخلت الامتحان ورسبت ، وقلل رسوبها نسبة النجاح في المدرسة .

وقد يكون من الضروري بعد ذلك أن أذكر على الأقل حالتين متممتين للحالات السابقة ، أو موضحتين شارحتين لها . الحالة الأولى : حالة شاب تحدثه فتجده ممتلئاً بالذكاء ، كان في إحدى كليات الجامعة ووصل إلى السنة الثانية ، ثم انتابه الخوف وأبى أن يدخل الامتحان ، وعالجه أهله عند أحد المحللين النفسانيين فشفي ، ونجح بتفوق وكان ترتيبه الثاني في السنة النهائية .

أما الحالة الثانية فحالة شاب زميل للسابق في العلاج ، هذا الشاب كان أحد اثنين يقومان بالمذاكرة سوياً ، ويظهر أن طريقة استذكارهما للمواد كانت وسيلة لإظهار حالة مرضهما المتشابهة وتفاقمها ؛ فساءت حالة الأول وعولج عند أطباء الأعصاب وغير الأعصاب ، وانتهى به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية ؛ أما زميله الذي نحن بصدده فقد قرأ شكراً للطبيب النفساني المذكور في إحدى الجرائد ، فعولج عنده علاجاً نفسانياً ، غير الإيحاء وغير الأوهام الباطلة ، وتحسنت حالته ، وقد رأيته ولما يقطع إلا مرحلة بسيطة في العلاج ، وكان يقول إنني الآن أبتسم ، إنني أضحك ، إنني أقدر على الوقوف معتدلا ، إنني أشعر بالراحة ، إنني أشعر بالثقة . وقد ذكر للطبيب حالة زميله ، ولكن الوقت كان قد فات ، وكان الطبيب يقول إنني آسف على شاب فقدته مصر

هذه بعض الحالات التي وصلت إلى مرحلة بعيدة في الأمراض النفسية . وهناك ما هو أشد منها ، وهي حالات وإن كانت قليلة نسبياً ، فهي حالات يجب أن تلفت نظر الأمة بأجمعها إلى وجود الحالات غير الواضحة عند معظم التلاميذ ، وهي أشد خطراً لأنها لا تعالج ، ولأنها تحط من مستوى التلاميذ المدرسي وغير المدرسي ، حتى لو كانوا ناجحين ؛ فهي تضيع معظم ما يبذلونه من مجهود في مدرستهم وفي حياتهم .

والصفة الثانية التي تلازم تلاميذنا غير الخوف هي عدم الثقة بالنفس . ونحن نرى ونسمع كثيراً من التلاميذ ، أو قل معظمهم ، يتنبأون برسوبهم في الامتحان ، وقلما نسمع من يقول إني سأنجح بإذن الله ، لقد أديت واجبي وليكن الله معي ! عدم الثقة بالنفس صفة شائعة إلى حد كبير بين المصريين ، بالرغم مما أوتوا من ذكاء ، ومهما أوتوا من صحة ومقدرة . وقد تظهر بصورة عكسية كحالة غرور ، فنسمع بعض التلاميذ يتحدثون عن الوقت الذي أمضوه في المذاكرة والكتب التي اطلعوا عليها ، وهذه حالة تغطية لعدم الثقة بالنفس ، والشعور بالنقص ؛ ولذلك نسمع هذه الأحاديث عادة من الذين أمضوا معظم السنة في اللعب ، وقرأوا بضع كلمات في آخر العام على أمل أن يمروا ولو في نصف المواد ، ولا يبقى إلا النصف الآخر — فقط — للدور الثاني .

وحالة ثالثة تلازم تلاميذنا ، هي ضعف روح العمل عند الكثيرين منهم ، ويرجع ذلك أيضاً إلى معاملة الآباء والأمهات في المنزل بإزاء استذكار الدروس . فطريقة الضغط الشديد التي يتبعونها مع الطفل الصغير تجعله حتما يكره الدروس والمدرسة ، ثم يكره العمل إطلاقاً . فاستذكار الدروس مقترن عند الطفل في مرحلة رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية وفي المرحلة الثانوية ، بعضها أو كلها ، بالتأنيب والتوبيخ والغضب والأمر والنهي ، وفي كثير من الحالات بالضرب الشديد والإرهاق في العمل . والآباء وجلون خائفون ، يدفعون أولادهم إلى المذاكرة بهذه الوسائل خوفاً عليهم من الرسوب ، وهم لا يدركون أن المذاكرة القليلة المناسبة في السن الصغيرة مع اللعب والترويض أشد فائدة وأرحم للطفل ، من الوجهة النفسية والعقلية والجسمية ، من الطرق القديمة العتيقة التي تميت في الطفل روح العمل . فالعمل عنده مقترن بمضايقات ومخزيات ومتاعب ، فيشب الطفل وهو ينتهز كل فرصة ليترك المذاكرة كلية عندما لا يوجد من يأمره وينهاه ؛ وهو حين يكبر يشعر أن لديه القدرة على عدم طاعة المشرفين عليه ، فهو يدعي المذاكرة مرة ، ويجاهر بأنه لا يشتغل إلا في آخر العام مرة أخرى ، وهكذا .

وعامل آخر يؤثر في نجاح التلاميذ ، هو ضعف الناحية الخلقية عندنا . فالمصريون في منازلهم ما زالوا يتخذون

أخبار الجيران وغير الجيران الخاصة حدثاً هاماً يروونها ويعلقون عليها ، ويأخذونها بالنقد والتقريع ، وما زالوا يتخذون الرياء والنفاق أساساً لمعاملاتهم وعلاقاتهم بمن يتصلون بهم . وليس هناك عموما ما نسميه الأدب العالي الذي لا يتدخل فيه الناس في شئون غيرهم ، والذي يوجهون فيه جهودهم لخدمة أنفسهم وغيرهم ، ويشعرون أثناءه بحب الخير وحب الغير والتضحية من أجل الأسرة والدين والوطن . وليس هناك الجو الذي يخلو من مشاحنات ومشاكسات على أتفه الأمور . وليست هناك الروح الرياضية التي تأتي من رياضة الأبدان ورياضة النفوس ! وأخيراً ليست هناك الروح الدينية ، روح الإيمان بالله ، وهذه توجد الإيمان بالعمل ، والإيمان بالحق ، والإيمان بالواجب والإيمان بالخير وغيرها . والمعروف أنه ليس هناك معظم عائلي لايؤمن بدين ما إيماناً قوياً ، فالإيمان شعور يبعث الطمأنينة في النفوس والرضا في القلوب ، والقناعة في الصدور . ولو دخل التلاميذ امتحاناتهم معتمدين على ربهم ، مؤملين الخير في وجهه الكريم ، لأدوا امتحاناتهم بهدوء ، وسلام ونفس مرتاحة ، ولشعروا بوجود ناحية قوية تحميهم وتحييهم ، يرتكنون عليها ويستعينون بها فتهديهم وتوفقهم

يدخل أبناؤنا الامتحانات ويواجهون بعد ذلك الحياة مزودين بهذه الصفات التي نمدهم بها بتربيتنا الخاطئة ، ونحن بعد ذلك نضج ونقيم الدنيا ونقعدها أسفاً على سوء نتائج الامتحانات ، وفشل الكثيرين منهم في الحياة . تلاميذنا ضحية لجهلنا ، فهم معذورون ، ونحن علينا أن نتلقى اللوم . وقد نبحث في موضوع العلاج في عدد قادم ، قبل أن يحق لنا أن نحاسبهم .

عائدة عيسى

قنبلة توجو مزراحي الثانية
(ابن الحداد)
تمثيل وإخراج
الأستاذ يوسف وهبي



أتى الأستاذ توجو مزراحي القنبلة الأولى فيلم « كدب في كدب » فكان لها صدى داويا في عالم السينما بمصر ، وتقبلته الجماهير أحسن قبول ، وما زال وهو في أسبوعه الرابع يلقى نفس الإقبال الذي لقيه في أسبوعه الأول . ولكن رغبة منه في عرض إنتاجه كله في هذا الموسم ولكي يتسع الوقت لذلك رأى أن يبدأ في فيلمه الثاني ابتداء من ١٢ أكتوبر بسينما الكوزمو بالإسكندرية ، ومن ١٩ أكتوبر بسينما الكوزمو بالقاهرة . وهذا الفيلم يعتبر بحق فخر الأفلام المصرية . ويعد انتصارا عظيما للصانع المصري . وفيه دفاع حار عن المصاميين . ويلقى صرخة داوية ضد المتطرسين . ويقوم بدور البطولة فيه فنان مصر الأول الأستاذ يوسف وهبي مع نخبة مختارة من نجوم السينما البارزين وعلى رأسهم مديحة يسرى ، وعلوية جميل ، وفؤاد شفيق ، ومحمود المليجي ، ومحمد كامل ، ومحمد الديب ، وزكي إبراهيم ، والراقصة البدعة نبوية مصطفى

مصير سكير

لشارلز ديكنز

سنجرؤ على القول بأنك قلما تجد رجلا — من الذين اعتادوا السير كل يوم فى أى شارع من شوارع لندن المزدحمة — لا يذكر من بين الناس الذين يعرفهم بالنظر — كما يقولون — امرأ قبيح الهيئة ، منكر الطلعة ، جافى الخلقة ، ينحدر يوما بعد يوم إلى حمأة الهوان بخطى لا تكاد تحس . حتى إذا كرّت الأيام انطبعت له فى مخيلة رائيه صورة قاتمة من صور الفجيعة والألم .

وقلما تجد امرأ ممن خالطوا الجماعات ، أو ممن تقضى عليهم مهنتهم بالدخول فى غمار الناس وزحمتهم — لا يذكر مخلوقا هزيلا أعجف ، كان يسير يوماً ما وراء خطوه ، مثالا ناطقا للإملاق والعُدم ، وشبحا مجسما للمرض والسُّقم ؛ يسير فى أطمار رثة ، ويمشى فى أسمال بالية ، بعد أن كان ذا مال وربّ تجارة ، وصاحب حرفة . وقد تنكّر له أخدانه ، وانحرف عنه خلانه . . ذلك لأنه شرب الخمر فشربت عقله ، وتمشت فى عظامه :

مازال يشربها وتشرب عقله خبلا وتؤذن روحه برواح

فقضت على سعادته وأودت بهنائه . فتنكر لزوجه ، وبرم بأولاده ، وسئم السعى والعمل . وقد يكون من أشباه هـذا الرجل الذى وصفنا ، من هوى إلى منحدر الرذيلة إثر فاجعة من فواجع الدهر ، كخسارة فى المال أو خيبة فى الآمال ، أو موت حبيب ، أو ظلم قريب . ولكن الفريق الأكبر من أشباه هذا الرجل يرمى بنفسه إلى اللجة — وهو عامد — حتى يبلغ الماء فاه ؛ حتى إذا هوى إلى القاع وحاول النجاة كان لا سبيل إلى النجاة

وقد وقف الرجل الذى نقصّ خبر مأساته إلى جانب سرير امرأته المحتضرة وأطفالها حافّون حولها راكعين ، تمتزج أناتهم الحزينة بصلواتهم الطاهرة البريئة . وكانت الحجرة مظهرا من مظاهر الرثاثة والحقارة .

ونظرة إلى وجه المريضـة الشقية ينبئك شحوبه أن الحزن والعوز والهم المقيم المقعد كانت — منـذ سنين — تحز فى قلب البائسة حزاً غير رفيق .

وكان إلى جانب المريضة امرأة عجوز يبلل وجهها الدمع وهى تسند رأس المريضة ، التى كانت تحمل طفلها على ذراعها ... ولكن وجه المريضة الشاحب لم يكن يرنو إلا إلى وجه زوجها . فكانت تمسك ذراعه بأصابعها المرتعشة ، وكانت تنظر إليه بعينين سيغمضهما البلى عما قريب ، حتى تولت الرجل رجفة من أثر تلك النظرات ؛ وكان ساعتئذ قد جىء به من حانة خمر منتفخ الأوداج ، بعيون ملتهبة يكاد لا يستطيع أن يفتحها .

وكان إلى جانب السرير مصباح ذابل الفتيلة ، يرسل شبه ضوء على ما حوله من أشباح ، ويدع ما وراءهم من أركان الغرفة فى ظلام دامس .

وكان سكون الليل وهدوءه يملآن الرحب خارج المنزل . وكان سكوت الموت يخيّم على الغرفة .

وكان على رف المدفأة ساعة تدق ، وكانت دقاتها الخافتة تبعث صدى رهيبا منذرة بصعود روح إلى بارئها عند ما تتم الساعة دورتها .

وإنه لشىء رهيب ترقّب نهاية محتضر ، وأن يعلم المترقب أن الأمل قد فقد ، وأن من المستحيل الشفاء . فإذا طالت ليالى الاحتضار ، كان حزن المترقبين مما لا يستطيع وصفه إلا من قضى عليه القضاء القاسى بشهود محتضر طال احتضاره .

ومما يذهل ويزعج أن يقضى على المرء أن يسمع ما يبوح به القلب من أسرار طال احتباسها ، فتنفس عنها قرب انفكاك القلب من أسره ، حتى لتحس قلة غناء ما تضمه الحياة من أقفال وقيود ، عند ما تتولى الحمى بهذيانها كسر الأقفال وفك القيود . وكم من قصص حكاها المحتضرون ساعة

شرودهم ، وهى قصص تكون أحياناً من قصص الإثم والجريمة ، حتى إن الواقفين إلى جانب سرير المحتضر يتولاهم الرعب ، ويعلوهم الفزع ؛ وكثيراً ما ولوا فراراً خشية أن يذهب الرعب بعقلهم من هول ما سمعوا .

أما مريضتنا فما كنت تسمع حول سريرها غير نحيب أطفالها ونشيجهم .

وكانت بعد أن تراخت مفاصلها تنقل نظراتها بين أطفالها وأبيهم . ثم سقطت على الوسادة بعد أن حاولت عبثاً أن تقول شيئاً ، ثم تولتها غيبوبة ؛ فحنا عليها أطفالها ونادوها باسمها نداء رفيقاً أول مرة ، ثم نادوها نداء عنيفاً قوياً بدافع من اليأس . ولكن لات حين جواب !! ثم تحسسوا أنفاسها ؛ ثم تسمعوا خفقات قلبها ، ولكن من أين للقلب أن يخفق ، وقد قضى الأمر وانطلقت الروح إلى بارئها ؟!

وسقط الزوج متهالكاً على كرسى بجانب سريرها ممسكاً بيديه جبينه الملتهب ، متفرساً فى أطفاله واحداً بعد واحد ، فإذا تلاقت عيناه بعيون أطفاله الدامعة خارت عزيمته . ولم يظفر بنظرة عطف أو كلمة تعزية ، فقد تحاماه أولاده وأجفلوا منه .

وقد أتى عليه حين من الدهر ، قبل أن يصبح سكيراً مدمناً ، كان كثير الأصدقاء والخلصاء ، فأين هم الآن ؟ وقد أصبح أحق الناس بالعطف والمواساة ؛ إنهم قد تولوا معرضين !!

أما زوجه فقد بقيت على وفائها فى سرائه وضرائه ، فى الخير والشر ، فى الصحة والمرض ، فى الفقر والغنى . وكان جزاؤها على وفائها أن يؤتى به من الحانة ليراها وهى تلفظ آخر أنفاسها .

ولم يلبث بعد أن قضت نحبها أن خرج هائماً على وجهه ، وقد أذهله تأنيب الضمير والخوف والخجل ، وقد خبله الخمر ، وذهب بلبه منظر الموت الذى رآه رأى العين منذ لحظة . ثم عاد إلى حانته ، وبدأ يعب كأساً بعد كأس . فصعد الدم إلى رأسه ، ودارت به الأرض الفضاء . ثم قال مخاطباً نفسه : كل الناس ميتون ! فلماذا تشذ هى عن القاعدة ؟ إنها كانت تحسن إلىّ ، وكان أهلها يقولون ذلك ، ألا لعنة الله عليهم . فماذا عليهم لو بقوا إلى جانبها ولم يتركوها تعانى آلام الاحتضار وحيدة منفردة ؟ ...

والآن ليس يجدى الندم ! إنها قد ماتت ! وقد تكون سعيدة ! ثم نادى الخمار : إلىّ بكأس أخرى . كأس غير مطفقة . إن الحياة سعيدة ما بقيت ، فلنظفر بأعذب ألحانها !!

ثم دارت الأيام دورتها ، فإذا الأطفال الثلاثة قد ارتفعوا عن سن الحداثة وجاوزوا حد الصغر ؛ أما أبوهم فقد جاوز الحد بؤساً وإملاقاً .

وقد أصبح الفاسق الذى لا يبارى ، والسكير الذى لا يرعوى ولا يكاد يفيق .

أما الصبيان فقد هاموا على وجوههم عملا متشردين .

وأما الصبية فبقيت تعمل بيديها ، وكان أبوها يحصل على ما تكسبه من دريهمات ؛ وله إلى ذلك وسيلتان : الإلحاف حتى تلين ، والضرب حتى تستكين !! ثم دارت الأيام دورتها ، فإذا به يجيئها ذات ليلة ؛ فلما أحست بقدومه سألت وهى تنتفض من الخوف من يكون الطارق ؟

فأجابها : ومن تظنين أن يكون غير أبيك ؟ ثم سألها ما خطبك ؟ ألم تعلمى أنى لم أشرب اليوم إلا قليلا من الخمر ، ذلك بأنه لا خمر بلا نقود ، ولا نقود بلا عمل ؟!

فلما لم تجبه أعاد سؤاله : ما خطبك يا بنية ؟

فأجابته : إنى مريضة ! بل مريضة جداً !

فأجابها بلهجة الرجل الذى يجبر على تجرع الحقيقة المرة : يجب أن تعملى على أن تستعيدى عافيتك ، ذلك لأننا فى حاجة إلى نقود . . . وعليك أن تبادرى إلى طبيب (الأسقفية) ليعطيك الدواء ، فإنهم — قاتلهم الله — يؤجرون على ذلك ويثابون .

ولما لم تفسح له الطريق ، سألها لماذا تمانع فى دخوله ؟

فأجابته هامسة وهي تقفل الباب وراءه : إن وليم قد عاد ؟ فصرخ الرجل كمن أصابه مس : من ؟ ... قالت الصبية : اسكت ؟ إنه وليم ... أخي وليم ...

وماذا يبغي ؟ أنقوداً ، أم طعاماً ، أم شراباً ؟ إن كان يبغي شيئاً من ذلك فقد أساء اختيار المكان .

فلما سمع الصبي ذلك طلب إلى أخته أن تغلق الباب ! ثم دار بينه وبين أبيه الحوار الآتي :

— تنظر إليّ نظر غير العارف . ولا عجب ! فقد طال العهد على طردك إياي والقذف بي إلى الشارع !

— وماذا تريد الآن ... ؟

— أريد ملجأ حصيناً ، ومخبأ أميناً — فقد نزلت بي داهية ، وأصابتني مصيبة ! ودع تفصيل القول الآن . وحسبك أن تعلم أنه إذا قبض عليّ فالموت لاحقٌ بي لا محالة !

— وتفسير هذا أنك إما سارق أو قاتل ؟

نعم ! وقد فعلت . وهل في هذا ما يثير عجبك ؟ ...

— وأين أخواك ... ؟

— أين هم ... لا أين ؟ فإن أحدهما قد مات ، والآخر رحل إلى أمريكا فطوته الغربة . وقد مات أخي بين ذراعيّ ، مات كما يموت الكلب برصاصة من يد أحد حراس الصيد ، وقد دعا ربه وهو يجود بروحه أن يأذن لأمه أن تدعو ربها أن يغفر خطيئة أصغر أولادها . . . وقال لي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة : إنها كانت تحبني ياوليم ، فقد كنت بها باراً ولها مطيعاً !

وقال لي : إنه لا ينسى آخر لطمة نالته من يدك وأنت في نوبة من نوبات سكرك .

وقد تذكر ياوالدي أننا هربنا معاً . وهذه — كما ترى — نهايتنا !!

وكل ما أبتغيه الآن أن أبقى هنا حتى أدبر الوسيلة للفرار إلى بلاد ناءٍ بعيد .

وبقي الصبي مع أخته وأبيه يومين ، وفي مساء اليوم الثالث ساءت حالة الأخت ، وكان على الوالد أن يخرج لإحضار الدواء . فلما عاد به وبقليل من نقود جاد بهما أحد المحسنين كي يستطيع أن يقيم أوده وأود الصبية والولد يومين أو ثلاثة ، مرّ على حانة في الطريق ، فتردد أول أمره ، ثم غلبته شهوة الخمر فدخل ... فلقي رجلين غريبين يرقبان الطريق ، وقد أوشك اليأس أن يصدهما عن مواصلة البحث عن طريدهما (وكان هذا الطريد ولده) ؛ فلما دخل انتباه النظر ، ثم بادر أولهما إلى تقديم الكأس الأولى متفضلا .. وقال الآخر : وكأساً أخرى تحية مني وتكرمة ! وظلا يسقيانه ... حتى نسي بنته المريضة وابنه الطريد !

فلما تحقق رجلا العدالة أن الخمر قد ذهبت بلبه سألاه عن مقر ابنه ، فلم يستطع إنكارا ، ولم تمض خمس دقائق حتى كان الولد في قبضة العدالة .

فلما رأى الولد أن قد قضي الأمر هاج هائجه ، وجاش مرجل غضبه . ثم توجه لأبيه يخاطبه ، وهو يكاد يتميز من الغيظ ويتمزق من الحنق :

إن دم أخي ودمي في عنقك ، فلم نظفر منك منذ أحسسنا الحياة بكلمة ود أو نظرة عطف ، وكنت أنت رائدنا إلى الجريمة ، وقائدنا إلى الهلاك ، فمت أنت متى شئت وأنى شئت ، فإن شبحي سوف يلازمك ملازمة الظل !!

وأنا أتكلم الآن كرجل ميت ، وإني لمنذرك أنك يوم تقف بين يدي الله سوف يقف أولادك يشهدون على ما ارتكبت من جرائم ، وما اقترفت من آثام !!

ثم اقتيد إلى خارج الغرفة وهو يتوعد ويهدد ، وفي يديه الأغلال والقيود . ثم دارت الأيام دورتها ، وإذا بالسكير البائس يصبح ذات صباح فلا يجد في الغرفة أحداً . . . فقد تركته ابنته ، تركته لتجوع منفردة ... وليجوع هو منفردا . . . ثم دارت الأيام دورتها فإذا بالسكير البائس المسكين قد ألقى بنفسه في اليم ، فطواه الماء ، فأصبح من الغرقين .

مبارك إبراهيم

البيئة والوراثة

يتحكم في تكوين كل كائن عاملان : عامل الوراثة وعامل البيئة . فبيضة الدجاجة المخصبة تعطي صغاراً تعيد تاريخ حياة أمها مهما كانت عوامل إفراخها . وبذرة الفول تعطي نبات الفول في أي تربة غرست ، وتحت أي ظروف نمت . وهكذا يعين عامل الوراثة نوع الكائن من حيث تركيبه وشكل أجزائه . بعد ذلك يأتي عامل البيئة ؛ فصغار الدجاج إن غذيت غذاء كاملا ، وأخذت من الهواء والضوء كفايتها ، نمت وترعرعت وأعادت تاريخ آبائها . وإن قتر عليها في غذائها وما يلزمها من عوامل النمو المختلفة ، ضعفت أجسامها وقل نموها ، وأعجزها الحرمان عن أن تواصل حياة طبيعية، وذلك رغم ما ورثته عن آبائها . وبذور الفول بالمثل ، إن غرست في تربة صالحة ووفرنا لها الغذاء والضوء والهواء وغير ذلك من العوامل الضرورية لنموها ونضجها ، نمت ونضجت وأثمرت ؛ أما إن حرمناها غذاءها ، وحجزناها من الضوء ، ضمرت أجزاؤها وعجزت عن أن تواصل حياتها .

فالكائن محصلة لعاملين : عامل الوراثة وعامل البيئة ، ولا يمكن أن نفصل أحدهما عن الآخر . وهذا مبدأ عام ينطبق على جميع الكائنات مهما كانت مرتبة رقيها ، نباتية كانت أو حيوانية . على أنه قد يطرأ للقارئ أن البيضة الكبيرة تنتج نتاجاً حسناً ، والبيضة الصغيرة تعطي صغاراً ضعافاً ، وكذلك في حالة البذرة . وهذا حقيق إلى حد كبير ؛ فإن الجنين يتغذى على ما يدخر في البيضة أو البذرة حتى يصبح الكائن معتمداً على نفسه في غذائه . فإذا توفر الغذاء بدأ الكائن حياته وقد زود بما يعينه على مصارعة الحياة ؛ أما إذا بدأ الكائن حياته على الكفاف والعسر فإن ذلك يحد من مقاومته ومصارعته ، ويجعل مآله الانقراض .

ولنفرض أن كائنا ورث عن آبائه ما ورث ، وبدأ حياته وقد توفر له من الغذاء ما يكفيه ، ثم أحطناه بظروف غيرت من صفاته ، فهل تورث هذه التغيرات وتنتقل من جيل إلى جيل ؟ لقد اختلف الكثير من العلماء في مدى هذه التغيرات التي تحدثها البيئة ، وفيما إذا كانت تنقل من جيل إلى آخر ؛ فانقسم العلماء إلى فريقين : فريق يؤمن بوراثة الصفات التي يكتسبها الفرد بتأثير بيئته ، وفريق يعارض هذا الرأي ، ولكل فريق حجته وبرهانه . فلكي يصدر الإنسان حكمه في هذه القضية ، يجب عليه أن يستعرض من الأمثلة ما ينير له الطريق .

يقول معارضو الرأي إن لبعض الأجناس البشرية من العادات ما يؤدي بها إلى إحداث تحور أو تغيير في شكل جزء من أجزاء الجسم ، ومع تمسكهم بهذه العادات فإن أطفالهم تولد عادية لا تحور في أجسامها . فأهل الصين يرون جمال المرأة في انضغاط قدميها ؛ وبعض قبائل الهند وأواسط أفريقيا يضغطون رؤوسهم؛ وغيرهم يشدون شفاههم السفلى فتمتد أمام وجوههم . وكل هذه عادات تتكرر في كل جيل ، ومع هذا لا تورث بتاتاً . وأكثر من ذلك أن هذا الفريق يعارض وراثة الصفات المكتسبة ، بحجة أن ابن الحداد لا يرث القوة في عضلاته ، لو وضع منذ صغره في بيئة تباعد بينه وبين تقوية عضلاته ؛ كما أن الإنسان لا يرث لغته ، فلو أخذ الطفل المصري وربي في بيئة تنطق بغير لغته لتكلم لغة من يحيطونه .

على أن هذه الأمثلة تتناول جزءاً معيناً من جسم الكائن ، فضغط القدمين عند نساء الصين ، وشد الشفاه عند بعض القبائل في أواسط أفريقيا ، هذه تغيرات أو أحداث تنتاب الشخص أثناء حياته ، وتأثيرها موجه إلى جزء بسيط من جسم الكائن ؛ وكان الواجب أن يعرض الجسم بأجمعه إلى ظروف أو تغيرات خاصة ثم

جسمه ، كأن تعرضه لضوء أو حرارة أو تغير فى الغذاء ، ثم تتبع مدى تأثير هذه التغيرات فى الأجيـال الجديدة ، ذرية بعد أخرى .

وقد كان العالم لامارك بطل الرأى القائل بوراثة الصفات البيئية ، وقد فسر التطور على أساس نظريته التى تتلخص فى أن كل كائن إذا أحيط بظروف جديدة ، فإن ذلك يؤدى إلى حدوث تغيرات فيه لمواجهة هذا التغير ، وقد يكون هذا التغير مصحوباً بزيادة نشاط أجزاء خاصة من جسم الكائن وخمود البعض الآخر ، مما يؤدى إلى نمو فى الأجزاء النشيطة وضمور فى الأجزاء الخامدة . وقد طبق هذا الرأى على الزرافة فقال : إن وجودها فى بيئة تنمو فيها أشجار مرتفعة اضطرها أن تمد فى عنقها ، فزاد هذا فى نمو عضلاتها العنقية ، وقويت جيلاً بعد جيل ، فاستطالت الفقرات العنقية تبعاً لذلك ، وانتقلت هـذه التغيرات سلالة بعد سلالة ، حتى وصل بها الحال إلى ما هى عليه الآن . كذلك الحوت الذى يرضع صغاره كما ترضع صغارنا ، والذى يتنفس الهواء برئتيه كما نتنفسه ، فهو حيوان ثديى ، أخذ إلى الماء ، وعاش فيه كالأسماك . فكان من الطبيعى أن يفسر لامارك وجوده فى الماء على مبدأ وراثة الصفات البيئية ، فقال : إن أطرافه تحورت إلى ما يشبه الزعانف ، ولو أن عظامها هى عظام أطرافنا عظمة عظمة . وقويت أطرافه الأمامية بطبيعة حركته فى الماء ، وضمرت أطرافه الخلفيـة ، فأصبحت مجرد زوائد مطمورة فى عضلاتها ، وسَمُك جلده وزاد دهنه ، فأصبح جسمه ينساب فى الماء ويعيش فى بيئته قانعاً بها .

ولقد بالغ أتباع لامارك فى التمسك بهذا الرأى ، وأخذوا يتلمسون له الأمثلة من قريب أو من بعيد ، فقالوا بوراثة الأمراض والمناعة والقوة والخبرة والعلم . وقد أيد داروين لامارك فقال ببقاء الأصلح : فقد نأخذ صغيرين من نتاج واحد ولكنهما يختلفان قليلا ، فإذا عرضناهما لظروف واحدة فإنهما لابد مختلفان ، فيتميز أحدهما على الآخر ؛ وقد يساعد هذا التميز على أن يكون لأحد الفردين من الصفات ما يساعده على أن يعيش فى هذه البيئة أحسن من غيره ، ولذا يسبق زميله فى نموه وفى تكاثره . وهذا طبيعى ، فالحياة صراع ، ومن بز غيره فى صراعه كتب له البقاء . وليس من الضرورى أن يكون الصراع صراعا فى القوة بل قد يكون فى الفكر ، أو صراعاً فى تحمل عامل خاص إلى غير ذلك . ويتضح من رأى داروين أنه لم ينص صراحة على تأثير البيئة بتقوية بعض أجزاء الجسم وضمور البعض الآخر ، ولكنه لم يعارض لامارك بل يتفق معه إلى حد كبير . وعلى هذا وافق داروين «لامارك» ، وجاراه هيكل ؛ وعارضهم فايزمان فقال إن التغير فى البيئة لا يورث إلا إذا أثر فى الخلية الجنسية التى تعتبر واسطة الوراثة ، والناقلة للصفات من الآباء إلى الأبناء .

وقد حاول فايزمان أن يفند رأى لامارك بتعرضه لكثير من الأمثلة التى تقابلها فى الحياة . وقد بين أن كثيراً منها مصادفات أو فلتات لا يمكن أن تُكوِّن مبدأ عاما ؛ كما أن بعضها فُسِّر تفسيراً غير صحيح . ومثال ذلك ما حدث فى إحدى مقاطعات الولايات المتحدة ؛ إذ تعود أحد مربى الأغنام أن يضع أسلاكا شائكة تمنع أغنامه من التعدى على أرض جيرانه ؛ ولاحظ فى بادئ الأمر أن معظم الأغنام تصاب بجراح كثيرة من جراء محاولتها اقتحام هـذه الأسلاك ، ولكنه لاحظ بعد ذلك أن الإصابات قد قلت ، كما وجد أن صغار الأغنام عندما تولد لا تقترب من الأسلاك بتاتا . وقد فسرت هذه الظاهرة تبع رأى لامارك بأن الصغار ورثت الحذر عن الكبار . ولكن فايزمان عللها بأن الصغار قلدت آباءها ، بدليل أنه لو أخذت صغار بعد ولادتها وتركت فى حقل لا أسلاك فيه

وبعيدة عن آبائها لمدة ثلاثة أشهر مثلا ، ثم وضعت بعد ذلك حيث الأسلاك الشائكة ، فإنها تعانى ماعانت آباؤها من قبل عندما ووجهت بسياج من هذه الأسلاك .

وحدثت بعض حوادث فردية لأبناء ولدوا مشوهين كآبائهم وأمهاتهم ، فكانت أجسامهم تحمل هذه التشويهات ، ولكن هذه الحوادث إن هي إلا عدد محدود من ملايين الحوادث التى لايظهر فيها أى أثر للوراثة . والواقع أن الذى دفع بعض العلماء الاعتقاد بوراثة مثل هذه الحوادث ، أن الوراثة كانت تفسر بأن كل عضو من أعضاء الجسم له إفرازات خاصة ، وهذه الإفرازات تنتقل من العضو إلى الخلايا الجنسية ؛ وعلى هذا الرأى تكون الخلية الجنسية مشحونة بجميع الإفرازات التى تمثل مختلف أعضاء الجسم ، وعند حدوث الإخصاب وتكوين الجنين يقوم كل إفراز بتكوين العضو الذى أفرزه من قبل . وعلى هذا الرأى فإذا بتر جزء من أجزاء الجسم منع تكوين إفرازه ، فلا تتحمل الخلية الجنسية بهذا الإفراز ، وعلى ذلك ينمو الجنين دون أن يتكون هذا العضو . وهذا يخالف الواقع ، فإن فايزمان جرب ذلك على الجرذان ، فكان يقطع ذيولها باستمرار ، ومع هذا ولدت صغارها كاملة غير مصابة بسوء .

وقد أخذت البحوث فى وراثة الصفات البيئية تتخذ صبغة عملية تجريبية . وكان البطل فى هذا الميدان العلامة كامرر فى فينا . وقد استخدم حيوان السمندل Slamander ، وهو حيوان توجد منه أنواع كثيرة تختلف فى ألوانها ؛ فمنها نوع أسود اللون مع بقع صفراء ، ومنها نوع أصفر مع بقع سوداء . والحيوان فى طوره اليرقى يعيش فى الماء ، وله خياشيم ريشية ، شأنه فى ذلك شأن الضفدعة . وقد أخذ كامرر النوع الأسود ذا البقع الصفراء ، أخذها عند ابتداء تطورها ، أى عند تركها الماء ، وقسمها قسمين ، وربى أحد القسمين فى بيئة أرضها صفراء ، والقسم الآخر فى بيئة أرضها سوداء . وكانت هذه الحيوانات تعيش فى ضوء اصطناعى يسقط عليها من أعلى . وقد وجد أن الحيوانات التى تعيش على أرض صفراء ، زادت بقعها الصفراء ، والتى عاشت على أرض سوداء زاد فيها اللون الأسود وطغى على البقع الصفراء . أما إذا عاش الحيوان على أرض يتساوى فيها اللونان ، الأصفر والأسود ، أو على أرض لم تضأ من أعلى ، فإن السمندل ينمو نمواً طبيعياً دون أن يعانى تغيراً يذكر .

بعد ذلك أخذ الحيوانات التى عاشت على أرض صفراء ، وتركها تتكاثر فى تربة عادية ، وعندما بدأت تتطور قسمت قسمين : قسم وضع فى بيئة صفراء ، وقسم آخر فى بيئة سوداء ؛ فوجد أن الحيوانات التى عاشت على أرض صفراء زاد اصفرارها واتصلت بقعها الصفراء ببعضها ، مكونة خطوطا طولية فى طورها البالغ ؛ وزاد اللون الأصفر فظهرت خطوط عرضية اتصلت بالخطوط الطولية حتى أصبح ظهر الحيوان أصفر تقريبا . أما الحيوانات التى عاشت على أرض سوداء ، فإن البقع الصفراء ظهرت فى خطين طوليين متصلين بتأثير البيئة الصفراء التى تعرضت لها آباؤها من قبل ؛ وباستمرار تعرض هذه الحيوانات للبيئة السوداء بدأت البقع الصفراء فى التلاشى ؛ وعندما وصلت إلى طورها البالغ أصبح اللون خطاً متقطعا .

وقد عرض « كامرر » أن يكون للرطوبة أثر فى إحداث هذا التغير . وقد وجد أن التربة الصفراء تحتوى على نسبة أكبر من الرطوبة ، ووجد أن لهذه النسبة أثراً فى إحداث التغير فى اللون . فلما ربى الحيوانات فى تجاربه على أوراق ملونة بدلا من التربة ، واختار حيوانات فيها اللون الأسود هو اللون الغالب ، ووضعها على أوراق صفراء ، كانت النتيجة زيادة مساحة البقع الصفراء الموجودة ولم تظهر بقع جديدة . ولما ربيت سلالتها تحت

بين المسموع والمقروء

فى أعقاب السنما :

حضرت الآن من السنما . من رؤية فلم طويل الأخبار ، وكانت الأخبار أخبار الحرب . وأخبار الحرب صارت اليوم شيئاً معروفاً . وصور الحرب ومآسيه صارت اليوم صوراً مألوفة . ومن ألفتها أنك ترى الناس تُجزَّر وتَطيح منها أشلاؤها ، فلا تُنكر منها إلا كما تنكر من الجمل أن يُعقَر ، أو من الماشية أن تذبح ، ثم تراها من بعد ذلك فى دكان الجزّار منشّرة على الأعين طعاما للراغبين .

الإنسان والدم :

إن ابن آدم من طبيعته أن يكره الدماء — أن ينظر إليها ، بلهَ أن يغمس إصبعه فيها — لأن فى الدم معنى الموت ، وهو إنما خلق ليحيا الحياة ويحب العيش . وإنما تطغى على طبيعته الأولى هذه ما يتعوّد بعد ذلك من أشياء . وترى هذه الطبيعة بيّنة فى الطفل الذى لم تطمئنه إلى الدم نشأتُه الأولى . والطفل الأوروبى الغربى ، من أهل المدن ، طفل كالذى أصف .

نفس تجيش :

حضرتْ مرة طفلةٌ إنجليزية ذات عشر سنين أو تزيد ، حضرت فى غير مدينتها ثوراً يذبح ، فجاشت نفسها ، ولم تستطع من بعد ذلك أن تمس اللحم أشهراً . وقد كنت أعرفها تأكل اللحم قبل هذا ، فتمضغه وتَستمرئه وتَزْدرده ؛ ولكن صلة ما بين هذا اللحم ومأتاه ، وكيف أتى ، ورؤية هذا البهيم ينتقل من الحركة إلى السكون ، وهو يأبى هذا الانتقال رفضاً ، كل هذا لم يبن للطفلة الصغيرة هذا

نفس الظروف ، وجد أن البقع ازدادت فى مساحتها حتى اتصلت ببعضها وكونت شريطين على طول جسم الحيوان . ولكن اللون الأصفر كان يميل إلى الاحمرار . والذى حدث أن اللون الأصفر امتد كطبقة رقيقة تحت الجلد اختلطت باللون الأسود ، ولم تتكون بقع جديدة . وهذا يثبت أن للرطوبة دخلا كبيراً فى تأثر الجسم واكتسابه لوناً جديدا . وقد استمر كامرر فى تجاربه ليبان أثر الرطوبة على السمندل ، فوضع هذه الحيوانات على أرض لا صفراء ولا سوداء ، وغيّر نسبة الرطوبة ، فوجد أن الحيوانات ذات البقع الصفراء إن ربيت على أرض رمادية وفى رطوبة تتراوح بين ٨٠ ٪ و ٩٠ ٪ ظهرت بقع صفراء كثيرة العدد ، وخاصة على السطح السفلى للحيوان ؛ أما إذا كانت الرطوبة حوالى ٥٠ ٪ فإن البقع الصفراء الموجودة تقل مساحتها ثم تتلاشى ، وذلك لامتداد الصبغة السوداء واجتياحها اللون الأصفر .

فمن هذه التجارب يتبين أن التربة الصفراء تزيد فى مساحة البقع الصفراء وامتدادها واتصالها ببعضها ، أما الرطوبة فإنها تعمل على تكوين بقع جديدة . وكل من التغيرين ينتقل إلى الصغار بالوراثة . ولا يكون التغير فى الصغار بالدرجة التى وصل إليها الآباء بل يكون أقل قليلا .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا تتبع أبحاث « كامرر » فى هذه الناحية . والواقع والثابت من هذه التجارب أننا إذا غيرنا من بيئة السمندل فإن هذا يؤدى إلى تغير فى اللون ، وهذا يورث إلى حد ما ؛ غير أننا إذا لم نحط الحيوان بظروف تساعد على تقوية هذا اللون فإنه يبدأ فى الضمور والتلاشى . فكأن وراثة اللون هنا محدودة بما يحيط الصغار من لون الأرض أو رطوبتها .

محمد أحمد يونس

البيان . فلما بان لها اصطدم مع فطرتها التي لم تكن فسدت . أو إن شئت قلت لم تكن تغيرت . فعند الله علم فاسدها والصالح .

بريم بفزع :

وليست كراهة الدم وقفاً على الإنسان ، فهي لا شك تشمل الحيوان . لهذا كان من القسوة أن يذبح الذابح بهيمته ، إن كان لا بد من ذبح ، على مرأى من أخواتها . وليس أوضح في التمثيل لهذا من ذلك العجل الذي ذاع اسمه في مصر والشرق منذ بضعة أشهر ، لما جفل من رؤية أخيه يعقر ، فخرج من المذبح يذرع الأرض ذرعا ، ثم قاده الطالع المشرق إلى كنف مليكنا ، فكان له في ظله إجارة المستجير أولا ، ثم العيش الوديع الهانئ من بعد ذلك .

دموع شيخوخة :

نظرت إلى مآسي الحرب ومفاجعها على الشاشة مراراً ، فصار اجتلاؤها عادة لا تتحرك لها النفس إلا قليلا . ولكني في هذه المرة التي أحكي ، كانت نفسي لأمر ما قد تخلصت حيناً من ربقة هذه العادة ، وتحررت ساعة من أن تصب الكأس في حلقها دهاقا ، وهي مرة كالعلقم ، فلا تحس لها طعما . لقد عضني ما أبصرت هذه المرة عضا .

عضني مرأى تلك الأم الروسية العجوز وهي تنتشل في خطاها المتعثرة ما تستطيع من متاع بيتها ، وقد اندلعت النار فيه ؛ ثم نظرتها من بعد ذلك إلى محط آمالها ومهجع شيخوختها ، فلا ترى منه إلا كومة من حطام أسود . لقد انمحى كما تمحى الفكرة من الخاطرة سرعة وكلاً . وظلت العجوز واقفة حيث كانت في سكون وجمود ، كالشجرة امتدت جذورها في الأرض . ونظرت إلى وجهها فإذا الدموع تسيل على خديها الجعد هادئة في غير نشيج أو عويل . فكأنما هو قطر الندى ، يجمع على لحاء الشجر ، ثم انحدر يطلب إلى الأرض مسيلا في غير جلبة أو ضوضاء !!

شباب كالورد :

وعضني مرأى تلك الأم الشابة الجميلة تحمل طفلتها ، وكلتاهما في نضرة الورد ونظافته ، تجري عبر الطريق تطلب مخبأ ، فلا تكاد تناله حتى تصيبها رصاصة تخرق صدرها ، فتتلوى على الأرض منها ، ولا تكاد تفهم الطفلة مما جرى إلا الفزع . ثم تأتي الأيدي الراحمة من بعد ذلك تفصل جسما تدب فيه الحرارة من جسم سرى فيه ابتراد . ثم يجتمع بعض الأخيار حول الطفلة يراطون لها ، حتى يعجبها رطانهم فترأط معهم ، وتضحك ، وتصفق بيديها ، ولو عقلت وفقهت وقدرت لقضت الساعات لطماً على ذلك القلب الذي ذهب فما تغني منه مجتمعة كل القلوب !!

خراب شامل :

ثم عضني من الناحية العمرانية هذا الخراب الشامل . في الريف ، قرى تذهب فلا تذكرك إلا بالمنازل يقف عليها الشعراء في البدو الغابر يبكون الديار ، وما ديار إلا النؤى والأثافي . وفي المدن أصقاع برمتها ذهبت بما احتوت ، فلم يبق منها غير الحجر والتراب . مجهودات هائلة للإنسان في البناء ذهبت كما ذهب الرمل مع الريح . وذكريات غالية لابن آدم وبنات حواء ، وآمال متطاولة ، طاحت كما يطيح الحلم الجميل في الليل الداجي ، يطارده إشراق الصباح الضاحي . وما محوته إلا لتزيد حقيقة الرزء حقيقة ، ولون الرزيئة سواداً .

لقد قال قائل منهم منذ يومين : إن إنجلترا ، لو جمع رجالها بعد الحرب كل عزمهم ، وجمعت النساء ، أمكنها أن تسترد رخاءها في ... جيل .

فما بال إيطاليا ، وهولندا ! ثم ما بال الروس ! وما بال ألمانيا ، وقد هدتها الحرب من السماء ، وتنذر أن تذهب بالبقية الباقية منها حرب الأرض !

السلم تمهيد لحرب !

فهذا ما أظهرت وتظهر للناس الحرب ، فما بال الذى تخفيه السلم القادمة !

ستكون سلماً مُرّةً كما كانت حربها مرّة . ستكون سلماً تورث البغضاء بين الأمم بغضاء كالتى عناها الشاعر :

تساجلك العداوة ما حيينا وإن متنا نورثها البنينا

وسيكون للثورة فى سبيل تعكير السلام تعكيراً دائماً أكثر من بؤرة . وسيكون للحرب القادمة من الأسباب أكثر من سبب . ولعل أكبر بؤرة وأمتن سبب ، هو ما خلّف ويخلّف النازيّون من شباب يُنشأ على أشياء لا تلتئم وسلم العالم أبداً .

الشباب الهتلرىّ :

لقد نُشّئ الشباب الهتلرى على أن الجنس الجرمانىّ الآرىّ سيد الأجناس . وأنه الجنس الذى أراده الله على هذه الأرض خليفة وسيداً . ونُشّئ الشباب الهتلرى على إزاحة الضمير جانباً فى سبيل الواجب ، وعلى القسوة المفرطة استجابة للوطن . ونشّئوا على احتقار الثقافة والفكر ، وعلى طاعة إمامهم طاعة الماشية ، ليس لها أن تفكر لتختار الطريق ، زعماً أن فى هذا تفريق القطيع .

لقد كنت أزعم أن ما أقرأ من هذا بعض الدعايات والدعايات ، وللرجل الديمقراطىّ أن يؤمن بما يتراءى له أنه الإيمان ، ويكفر بما يتراءى له أنه الكفر . كنت أزعم هذا حتى أذكرنى صديق بما كان من هتلر زماناً قبل الحرب من تقتيل أصدقائه لما اختلفوا عليه ، إذ طار إليهم وهو رئيس الدولة ، وأطلق من مسدسه ما أطلق ، ثم عاد كما يعود الرجل من نزهة فى الريف أو وليمة على النهر . وأذكرنى صديقى بصغار الأسرى من الألمان الذين رفضوا وهم فى خطر الموت أن يمزّ دمهم ، وقد ذهب بالكثير منه النزيف حتى أفقره ، بدماء لم يقم الدليل على أنها دماء آريّة . وأذكرنى بما يجرى فى معاقل أسراهم ، وريّسُهم فيها منهم ، من مُظلم قاسية أقاموها بينهم كانت كالتى لهم فى بلادهم ، فيها يحكم بالموت يُنفّذونه فيمن خانه اللسان فنال زعيمهم من قريب أو بعيد ؛ ومن حوادث يقوم فيها المحكوم عليه طوعاً بالموت يأتيه شنقاً !

وأجدى من هذا حجة ، مقالة قالها هتلر ، أقرأنى إياها صديق :

« إن الذى أطلبه ، من شباب هذه الأمة ، شبابٌ جبّار عنيف قاسٍ قسوة الوحش ، أرى فى عيونه لمعة العُجب والاستقلال التى أراها فى عين جوارح الطير . ولن يكون لهذا الشباب عندى تدريب عقلىّ ، لأن فى العرفان فساد الرجال وفناءهم » .

وأقرأنى لهتلر :

« إنى سأشفى الرجال من ذلك الخيال والخبال الذى أسموه ضميراً » .

وأقرأنى :

« لا يزال بيننا بقية من عتاق الفكر ، عتاق الأسلوب ، لا يصلحون لشىء أبداً . وهم مع هذا يعطّلون سيرنا بمعارضة خطانا كما تعترضها القطاط والكلاب . فهؤلاء لن نحتفل بهم ؛ ولكنا سنأخذ أبناءهم منهم ، ونبعدهم عنهم ، لننشّئهم نشأة جديدة لا يقعوا بعدها فيما وقع فيه آباؤهم من أطرزة للفكر عتيقة عقيمة ؛ سنأخذهم فى سن العاشرة ، وننشّئهم على الروح الجديد حتى يبلغوا الثامنة عشرة . ولن يفلت منا منهم أحد . ثم يلتحقون بالحزب النازى . ثم يدرّبون على الحرب سنتين . فمن ذا الذى يقول إن تنشئة كهذه ، وتدريباً كهذا ، لا ينتجان مواطناً ألمانياً من خير طراز ؟!! »

احتلال ثقافي :

إن مشكلة الشباب الهتلري ، والأمة الهتلرية جمعاء ، مشكلة لاشك خطيرة ، حدَتْ بالحلفاء أن يرسموا الخطط من الآن لاحتلال ألمانيا احتلالاً ثقافياً وعسكرياً معاً ؛ فهم يريدون أن يهيمنوا على التعليم جيلاً من الزمان ؛ حتى الكتب يريدون أن يكتبوها لهم كما يكتبها الديمقراطيون ، وهذا نوع من السيطرة جديد لم يألفه الأمم .

وبينما جماعة من الحلفاء في حجاجهم هذا ، إذا بصائح ألماني صديق يصيح فيهم :

دعوكم مما تزعمون من كتب النشء الألماني وتأليف . ثم علموهم الحب كيف يكون . أوقدوا فيهم جذوته تحترق ما في قلوبهم من خبائث . علموهم حب الآباء والأمهات ، وعلموهم حب الطبيعة ، وحب الموسيقى ، وحب الكتاب الممتع ، وحب تلك الأشياء الكثيرة الضئيلة الجميلة ، التي يأتيها الناس صباحَ مساء ، فتبهج القلب الإنساني وتضيء الحياة .

واستطرد الصائح الألماني يقول :

إن هتلر انتزع من قلوب الشباب الألماني الحب ، وانتزع من رؤوسهم الفكر . انتزع ذلك الميل الغريزي في عقل الإنسان إذا سمع أمراً أن ينظر وينقد ، لا أن يصغي ليطيع . فعلى أولياء الأمر في السلم القادمة أن يعيدوا إلى هؤلاء الناشئين ما أُخذ من رجولتهم وانتُزع من إنسانيتهم ؛ أعني الفكر حراً طليقاً يمارسه المرء اختياراً ، كما يمارس الشرابَ والطعامَ والغدوَّ والرواح ، والنوم واليقظة ، لايقف شيء منها عند مقدار ، ولا يُحدُّ شيء منها بميعاد .

بين الفكر والطاعة :

لقد استوقفتني هذه الكلمة الأخيرة لهذا الرجل الناصح — الفكر الطليق — وساءلت نفسي : إذا أطلق الفكر إطلاقاً فأين تكون الطاعة ؟ وإن كانت الطاعة وأمان التفريق فأين يكون الفكر الطليق ؟

إن في انطلاق الفكر في الأمم التفرقة والتشتت والضعف ، وفي تقييد الفكر التماسك والنظام والقوة . ومن أجل هذا كانت الأحزاب ؛ فهي في الأمم الديمقراطية حيث يطلق الفكر إطلاقاً تقوم لتنظم ما ينشأ عن هذا من خلاف وتشتت . فالحزب في الأمة الديمقراطية يجمع متفقين في كبار الأمور مختلفين في صغارها ، ولا يجمع سواسية متطابقين تطابق الكفتين أبداً ، متوافقين توافق الخراف أبداً . وفي تنازع الأحزاب تكون الغلبة لأكثر الآراء توافقاً . وهذه هي الديمقراطية السياسية ، على أن يكون للفكر وحده السلطان في كل ذلك ، لا للهوى ، إلا في الأزمات وكيان الأمم في خطر .

قال ذلك العربي الديمقراطي القديم :

فلما عصَوْني كنتُ منهم وقد أرى
غَوايتهم أو أنني غير مهتدي
أمرتُهمُ أمري بمنعرَج اللِّوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ
غَوَيتُ وإن تَرشُد غزيَّةُ أرشُدِ

لقد وازن ابن الصمة في أبياته هذه بين الفكر الطليق والطاعة الواجبة خير موازنة .

أحمد زكي

من وادى عبقر :

الرمال ...!

« قيلت في سهول كردفان الضاحكة »

إني حننت إلى الرما   ل وكنت من عشاقها !
وبعثت خفاق رسو   ل هوى إلى خفاقها
ولكم هتفت بسرها   وسبحت في أعماقها
هي عالم رث ولكن   بعد حل نطاقها
صاحبتها عند الصبا   وقبست من إشراقها
في أحلام طلق الشبا   عن نال من إطلاقها

• • •

كم من ليال والصبا   • بعد سحراً مشركا
ولقد أطال البدر من   طرف السماء ، وقد غفا
في نوره شجن القلـ   ب وبعض حلم قد عفا
وأنا المدى حرم الصبا النشوان ألعب مسرة
فإذا تعبت أقول يا   أبتِ إلىَّ وقد صفا
البدر ! هات البدر لى   تعلى أداعب من جفا

• • •

الليل والنجم الخوا   لد فوق كثبان الرمال
والجدول الرقراق مو   ج سيره بعض الدلال
والبهم ترتع في السهو   ل وتختفي خلف التلال
وأنا أرف مع الهوى   بين الأشعة والظلال
ولرب مزمار خف الـ   بع مندفع الخيال
هاجت به الذكرى ، وها   ج مع السنا قلب الليالي

• • •

ولكم رنوت إلى السما   • أبثها أمل الصغير
وسبحت في دنيا اللآ   لئ بين ولدان وحور
وسكرت من نجوى الكوا   كب سلسلت مثل الغدير
بيضاء في طهر الضيا   • نقية مثل الضمير
وإذا تعبت من الطو   اف غفوت في كنف السرير
وحلمت بالآصال بالد   نيا البعيدة ، بالحرير

• • •

كم منظر والشمس تنـ   فض ثوبها فوق الحقول
صفراء من أثر النعا   س تطل في بعض الذهول
كالعاشق المضنى ، كزه   ر ضل في قلب السهول
وكأنها وقفت أوا ن   مسيرها خطو العليل
وكأنما وقف الزما   ن مراقباً أمر الدليل

• • •

ومضى الزمان بركبه الصـ   خاب في دنيا عجائب
ما بين جياش الضلو   ع وبين عربيد الشباب
فغدوت في لجج الحيا   ة كزن أفاء إلى عباب
لجج تقاذفني وتقـ   صمنى كتكسر الحراب !
والناس في الدنيا أخو   وهم وفلسفة كذاب
أو غاشم يختال في الد   نيا على ظفر وناب

• • •

وغدوت هل تجدي البرا   عة عند فلسفة السيوف ؟
أشـدو ولا من مأمل   يبدو سوى سحب الخريف
متألقات كالزهور الـ   بيض في الأفق اللطيف
زهقن من درن الحيا   ة ومللن من هم الصروف
وخطرن من صدر السما   • برقة الأمل الرهيف
ملكات حسن لو غضبـ   ن لجدن بالويل العنيف !

الخرطوم — سودان   معهد الربع . أ . فوزى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٤ — الثلاثاء ٧ من ذى القعدة سنة ١٣٦٣ — ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

على هامش الحكم

ماذا نريد

[إننا نطالب بأن يكون تدبير الأمور الفنية في الوزارات من شأن الموظفين الفنيين الدائمين]

ليس من طبيعة الأشياء أن يكون في الحياة ما هو خير محض ، ولا ما هو شر محض . فالمحاسن وأضدادها تجتمع في الصعيد الواحد في أكثر الأوقات ، وكلما زادت تجارب الإنسان في أمور الحياة وزاد اطلاعه على الحقائق ، تبين له أن الأشياء الجميلة قد تخفى تحتها بعض ملامح لا تمت إلى الجمال بسبب .

أقدم هذه المقدمة القصيرة على سبيل الاعتذار بين يدي رأي أريد أن أسوقه في الديمقراطية . فالديمقراطية هي النظام المفضل في العالم كله ، وهي النظام الذي قد ارتضيناه في مصر ، وهي عند وزن النظم ومقارنتها بعضها ببعض أفضل طرق الحكم . هذا لا شك فيه ولا تردد في الإقرار به . ولكن الديمقراطية نظام أقامه الإنسان ، والإنسان ليس إلهاً منزهاً ، فهي مثل سائر أمور الحياة البشرية لا يمكن أن تنطوي على خير محض خال من كل شر . بل لقد ثبت أن لها مساوئ تحاول الأمم جميعها أن تدمن النظر إليها والاحتيال في علاجها ، وتدبير ما يحفظ المجتمعات من آثارها .

فمن مساوئها التي يحسن بنا ألا نغفل عنها ، أنها تجعل الحكم في يد طائفة من المواطنين الذين لم تسبق لهم في كثير من الأحيان خبرة بأمور الوزارات التي يلونها

ففي النظم الديمقراطية مثلاً يختار الوزراء من بين السياسيين الذين لا يشترط فيهم أن يكونوا من أهل الخبرة في الأمور الفنية . لأن السياسي إنما يصرف جل اهتمامه إلى الشئون العامة ، وأكثر ما يعنيه من أنواع الدراسة هو ما يمس النظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ وإذا اتفق أنه من الفنيين فإنه يجد في مشاكل الحياة العامة ما لا يبقي له وقتاً لتخصص فني معين .

وقد يكون الوزير في الحكم الديمقراطي الصحيح عضواً في حزب من الأحزاب ، يمتاز بقوة شخصيته أو بمقدرته على الكفاح ، أو بسحر بيانه وأثر فصاحته في جماهير الناس ،

ومثل هذا لا يطلب منه أن يكون صاحب تخصص فني أو علمي . فجمل هذا القول أن الوزير في الحكم الديمقراطي قد يلي أمور وزارة من وزارات الدولة مع أنه لا يدعي إلماماً بما تحتاج إليه تلك الوزارة من علم أو فن .

وهذا بغير شك من المساوئ التي لا بد منها في الحكم الديمقراطي ، والحكومات الديمقراطية تعرف هذا العيب المنطوي في نظامها ، وتحتال عليه بحيلة بسيطة : وذلك أنها تخصص الوزراء لأمور السياسة العليا ، وتوجيه الشئون نحو الهدف الأسمى الذي تتجه إليه ؛ وأما رسم خطط السير وإنفاذ التفاصيل فلا يتدخل الوزراء فيها ، بل يكلونها إلى المختصين من موظفي الدولة الذين يقضون حياتهم في معالجتها والتوفر على درسها . فمن أشد الأمور خطراً على الحكومة الديمقراطية أن يحاول الوزراء الجمع بين الهيمنة العليا وبين رسم الخطط وإنفاذها ، فإن هذا الخلط لا يمكن أن ينتج إلا اضطراباً وفساداً وتناقضاً .

هذا قول عام يصدق على النظم الديمقراطية في العالم كله ، ويشمل مصر كما يشمل كل دول الغرب والشرق التي تتمتع بالحكم البرلماني . ولكن مصر تختلف عن كثير من البلاد الديمقراطية الأخرى فيما للوزير من نفوذ عظيم لا نظن أن وزيراً يتمتع به في الأمم الديمقراطية الأخرى . فلا نحسب أن في بلاد العالم وزيراً يستطيع أن يمحي إلى جانبه كل نفوذ للموظفين الذين يساعدونه كما يمحي نفوذ الموظفين المصريين إلى جانب وزرائهم ! هذه حقيقة أساسية يجب علينا أن نتحقق منها ، وأن نحلها محلها من العناية ، وأن نتدبر في آثارها لكي نحتال عليها بما يحقق المصلحة العامة التي نرمي إليها .

فالوزير المصري يستطيع أن يأمر بما يشاء بغير أن يجد ما يحد من سلطته في النظام القائم والعرف المتبع ؛ والوزير المصري يحجر فيما يبيحه للموظفين الذين يساعدونه من فرص إبداء الرأي أو رسم الخطط أو إنفاذها ، ولو شاء أن يكون هو المتصرف المطلق في أمور وزارته لما منعه من ذلك مانع من قانون أو عرف . فإذا أصيبت وزارة بوزير يحسب أن له كفاية خاصة تجعله قادراً على كل شيء ، وأن له ذكاء يمكنه من إدراك كل شيء ، وأن له سعة في العلم تجعله يقدر على تدبير كل شيء — إذا أصيبت وزارة مصرية بوزير مثل هذا — لم يستطع شيء أن يقف في سبيله ، وأمكنه أن يكون المحرك لكل ما في وزارته ، والمدبر لكل شئونها !

ولقد دلت التجربة على أن الجمع بين معالجة المشاغل السياسية والمشاغل الفنية أمر غير متيسر في الحياة ، وأن الوزراء الذين يدعون القدرة على ذلك لأنهم من أفذاذ البشرية ، إنما ينتهون بوزاراتهم إلى شيء يقرب من الإفلاس ، ويقتحمون بها من الوسائل ما يقرب من السخف والسخرية . ولنضرب لذلك مثلاً ما حدث في وزارة المعارف في بعض العهود الماضية ، عندما جاء إليها الوزير الذي يحسب أنه من فلتات العبقرية التي تستطيع كل شيء ، وتقدر على كل شيء ، وتسيء الظن بكل ما خرج من غير دائرتها الذهنية .

ولسنا نلقي القول جزافاً ، بل نذكر يوماً منذ سنين طلع فيه مثل هذا الوزير على وزارة التعليم :

لم يكن لذلك الوزير علم بأمر من أمور التعليم ، كما هو طبيعي لمن كان مثله في دراساته ووجهة حياته ، وليس ذلك بعيب فيه ، فقد يكون له امتياز في طريق آخر لا ينازعه فيه منازع . ولكنه كان يقبض على صولجان الوزارة ، وكان في استطاعته أن يأمر وأن ينفذ ، فظن أنه قد يبلغ من العلم بالتعليم مالم يبلغه رجال خصصوا كل حياتهم له . وأعد عدته واطلع على بعض كتب التربية ، ثم لخص بعض ما رفع إليه من مذكرات ، وأعجبته بعض أفكار هنا وهناك فيما قرأ من ذلك كله ، فتحمس لها حماسة بالغة ، وآل به الأمر إلى رأي قاطع في ضرورة الإصلاح في نظم التعليم بحسب تلك الأفكار ، ودعا إلى إصلاحه دعاية فسيحة . ثم أصلح التعليم الثانوي ... ومنذ ذلك الإصلاح ارتفعت أصوات كليات الجامعة تلوم التعليم الثانوي ، وتلقي

عليه تبعة إسفاف التعليم الجامعي . ولسنا نشك في أن الإخفاق الذريع الذي يصيب طلبة الجامعة في أول عهدهم بالدرس فيها راجع إلى وقت الإصلاح الذي ابتدعه ذلك الوزير المتحمس . ولقد قرأ ذلك الوزير ، فيما قرأ من الكتب والتقارير ، أن إذاعة الروح أمر لابد منه إذا شئنا أن يكون التعليم مجدياً ، وسمع أن هناك شيئاً اسمه التعليم بوساطة النشاط الذاتي ؛ فاخترع مراقبة أسماها مراقبة النشاط المدرسي ، وابتكر أسماء استعارها استعارة من بعض ما سمع عنه في بعض المدارس الإنجليزية ؛ نذكر منها نظاماً سماه نظام الأسرات . ومضت سنوات فإذا بمراقبة النشاط المدرسي قد أصبحت أداة ، لكي تجعل النشاط باباً من أبواب التظاهر لا روح فيه ؛ وإذا بالأسرات تنام قريرة العين تحت طبقات من رمال النسيان !

ثم عاد ذلك الوزير مرة أخرى إلى الوزارة فأراد أن يدخل في التعليم بدعة جديدة تضيف إلى مجده القديم مجداً جديداً ، فأقبل على بعض الكتب يقرؤها ، وبعض التقارير يعتكف على استيعاب ما فيها ؛ وكان لا يفتأ يتحدث عن عجز من معه من الموظفين ، ويباهي بأنه وحده الذي يعمل ويجتهد ، حتى عثر مرة أخرى على صيد ثمين في صورة اسم ديمقراطي جميل ، وهو « تسوية الفرص » ذلك بأنه قد علت في بلاد الإنجليز صيحة من وجود مدارس ممتازة في بلادهم ، ينال المتخرجون فيها قسطاً أوفر من سواهم في وظائف الدولة وفي ثقة جمهور الأمة ، وأراد الصائحون الإنجليز من تلك الصيحة أن يسووا بين الناس جميعاً بأن تكون لهم مدارس متساوية ، ينال المتخرجون فيها حظوظاً في الحياة متساوية .

فأعجبته تلك الصيحة ، فاعتكف مرة أخرى وأخرج تقريراً ، يردد الصيحة قائلاً : « يجب أن نسوي الفرص في التعليم » .

والحق إنها لصيحة كريمة تلك التي ترددت في بلاد الإنجليز . وإنه لجدير بمصر أن ترددها وأن تعمل على تحقيقها ، لأن هذه التسوية هي لب الحياة الديمقراطية ، ولا تستحق الديمقراطية أن تسمى باسمها إذا هي لم تسو بين أبناء الأمة في فرصة التعليم . ولكن ماذا أعد ذلك الوزير لتلك الصيحة وراء الدعاية الواسعة التي دعا بها ؟

فلينظر الناس حولهم ليروا الأبناء الذين يترددون على أبواب المدارس لايجدون فرصاً متساوية ولا غير متساوية . وليتبصر المصريون في عواقب ما ينشأ من هذه الحال ، إذا قامت في مصر مدارس خاصة ممتازة لتعليم أبناء الطبقات الموسرة أو المتوسطة التي لاغنى لها من التعليم ثم ليحكموا ماذا أدى إليه رأي الوزير الذي أراد أن يفوز بالفخر كله ، وأن يكون هو الذي نقل الصيحة ، وهو الذي رسم الخطة ، وهو الذي أجاب نداء الديمقراطية .

إنه لم يستطع شيئاً لأن طبيعة الأشياء تأبى إلا أن يكون الإصلاح مراميه وخططه ووسائله .

فعلينا الآن أن نتدبر في الخروج بالتعليم من الورطة التي تورط فيها ، نتيجة محاولة الجمع بين التوجيه الأعلى وبين تدبير الغايات والوسائل . ولا مناص لنا إذا أردنا الإصلاح من أن نرد الأمور إلى نصابها ، وأن يلجأ الوزير إلى الموظفين الساعدين الذين جعلوا حياتهم كلها لذلك التدبير . فإذا كان هؤلاء حقاً لايستطيعون شيئاً كما كان يدعي ذلك الوزير في مجالسه ، فالأمر هين ؛ فلنبحث عن سواهم ممن يستطيعون ، اللهم إلا إذا كانت البلاد كلها قد صارت عاجزة حقاً عن أن نجد في ألوف المثقفين من يستطيع مساعدة الوزير !!

إن تغيير الوزراء أمر طبيعي للحكم الديمقراطي ، فإذا كان الوزير يعمل وحده ويجتهد وحده ، تعرضت شئون الإنشاء والإدارة للتغير المستمر تبعاً لتغير الوزارات . وهذا أمر يدعو الاضطراب والتخبط في شئون الأمة العامة ، والاستمرار على نقض ما أبرم وإبرام ما كان نقض . ولا دواء لكل ذلك إلا بأن توجد في كل وزارة هيئة فنية جديرة بالثقة ، وأن يوكل إليها تدبير الأمور في كل شأن من الشئون الفنية .

محمد فريد أبو حديد

التفوق العلمى

كيف يقدر وكيف يشجع

لا يزال نصيب العلوم من التقدير والتشجيع فى بلادنا ضئيلا ؛ فقد عرفت مصر قيمة الآداب وما يتصل بها من بعض الفنون وأولتها شيئاً من العناية ، ولكن العلوم ظلت إلى الآن مهضومة الحق بل منسية . فإذا استثنينا بعض الجهود الضئيلة التى يبذلها بعض المتحمسين من رجال العلم فى مصر بتنظيم محاضرات ، أو نشر مقالات ، أو عقد مؤتمرات على نطاق ضيق ، قلنا إن الحركة العلمية من حيث التقدير والتشجيع تكاد تكون راكدة .

فوزارة المعارف عندنا لم تنتبه لعقد مسابقات من أجل التفوق العلمى إلا حديثاً جداً ، وبصورة بدائية ، ولكنها على أى حال نواة نرجو أن تنمو وتتسع دائرتها . كذلك بدأت بعض الهيئات تنظم سلاسل محاضرات ، والبعض الآخر ينظم مؤتمرات لبحث بعض المسائل كتدريس المواد العلمية ؛ ولكننا نؤمل أن يتخذ هذا النشاط كله صبغة جدية ، وأن تزداد عمقاً ، وأن يدخلها بالتدريج عنصر المسابقة حتى يظهر التقدير ويتجلى التشجيع ، فيهما حافز للكبار وللصغار على السواء إلى مضاعفة الجهود العلمية .

فى البلاد الراقية نجد الحركات العلمية التى يقصد بها تقدم العلم ، وبث الروح العلمية ، وتقدير مجهودات العلماء ؛ وتشجيع الناشئين ممن يرجى أن يكونوا فى المستقبل من العلماء ، حركات فى غاية النشاط ، وتتكرر باستمرار ، ويشترك فى تنظيمها والمساهمة فيها وسد نفقاتها ، الهيئات العلمية ، الرسمية وغير الرسمية ، والنوادى العلمية التى عم انتشارها فى أنحاء تلك البلاد ، والشركات الصناعية التى تقوم بأعمال ترتكز على العلوم التطبيقية ؛ ومن ثم يهمها استمرار البحث العلمى واتساع دائرته ، واطراد تقدمه وتوالى الاكتشافات العلمية التى قد تجنى من وراء تطبيقاتها العملية فى الصناعة أرباحاً طائلة .

وبين يدىّ الآن وصف بديع لأحد تلك المواسم العلمية العظيمة الشأن ، التى تعقد كل عام فى أمريكا ، نشرته إحدى المجلات العلمية المعيدة ، فى عددين متتاليين فى أبرز مكان بها ، وحلته بصور كثيرة . وسأنقل إلى القراء صورة مصغرة من ذلك الموسم العلمى كما وصفته تلك المجلة ، وهو واحد من كثير ؛ فهذه الأحداث العلمية أصبحت عادية فى أوربا وأمريكا ، وكثيرة العدد ، وتلقى اهتماماً عظيما من جميع الطبقات .

البحث عن الموهبة العلمية وجوائزها :

تقوم النوادى العلمية فى أمريكا متضامنة ومستظلة براية هيئة علمية كبيرة تعرف «بالخدمة العلمية» ، ومستعينة من الناحية المالية بتعضيد إحدى الشركات الكهربائية الصناعية العظيمة التى تبذل المال بسخاء ، تقوم فى كل عام بحركة واسعة النطاق فى جميع أنحاء أمريكا يطلق عليها اسم « البحث عن الموهبة العلمية » .

وقد ظل هذا البحث عن الموهبة العلمية ، فى هذه المرة التى نصفها ، مستمراً أربعة أشهر ، أعطيت فى خلالها امتحانات صارمة ، وكتبت رسائل قيّمة ، وعقدت اختبارات شفوية دقيقة ، المتقدمين من طلبة الفصول النهائية من المدارس الثانوية الشهيرة ، فى طول تلك البلاد وعرضها ، بلغ عددهم ١٥٫٠٠٠ طالب وطالبة . وكانت الهيئة المشرفة على امتحان المسابقة هنا مؤلفة من صفوة من العلميين ، وعلى رأسهم ثلاثة قضاة محكّمين من مشاهير رجال العلم الذين يشغلون أرفع المراكز العلمية .

وقد فاز فى هذه المسابقة أربعون طالباً وطالبة ، وزعت عليهم جوائز مالية بلغ مجموعها ١١٫٠٠٠ دولار ، فنال كل من الفائزين الأولين (وهما فتى وفتاة) ٢٫٤٠٠

دولار ؛ وهذا مبلغ كبير يكفي كلا منهما لسد نفقات إتمام تعليمه العالي كله في أية كلية من كليات أمريكا . ونال كل من الثمانية التالين لهما (فتاتان و٦ فتيان) ٤٠٠ دولار ، كما نال كل من الثلاثين الباقين من هذه الصفوة الممتازة المختارة ١٠٠ دولار .

وقد روت المجلة عن الفائزين الأولين المعلومات الطريفة الآتية :

كان الفائز الأول من الفتيان ابن أحد العلماء البكتريولوجيين الذين فروا من ألمانيا ولجأوا إلى الولايات المتحدة ، ومن الإخصائيين في فصائل الدم ، ومكتشف خاصة الدم المعروفة بالعامل ؟ أما الفتاة التي تفوقت على الفائزين جميعاً ، فبنت أحد علماء النفس المشتغلين بدراسة خاصة اسيكلوجية قيادة السيارات ، وما يتصل بها من تحليل نفسي لمن يكونون دائماً عرضة للحوادث ، وكذلك التحليل النفسي المتصل بعوامل الأمن وغيرها .

وكان الفتى على حداثة سنه يدرس لزملائه الرياضة والطبيعة واللاتينية والإنكليزية ، وفاز في مسابقات عديدة إحداها في الخطابة ، كما كان رئيس تحرير المجلة التي تصدرها مدرسته . وأما الفتاة فكانت على صغرها تعاون أباها في دراساته النفسية ، وكانت مولعة بالموسيقى ومتفوقة في اللعب على الكمان ، وكثيراً ما ظهرت في الحفلات العامة ، وفازت بتقدير الجماهير لكفايتها ، كما كانت فنانة ممتازة ظفرت بعدة جوائز في الرسم ؛ ولها فوق ذلك كله موهبة عملية تتجلى في بعض أعمال كالتجارة .

صور أخرى من التكريم :

ولم يقتصر تكريم أولئك الفائزين على الجزاء المادي السخي الذي ذكرناه ، بل تعداه إلى صور علمية وأدبية واجتماعية طريفة نجملها فيما يلي :

نقل هؤلاء المتفوقون الأربعون من بلادهم إلى وشنجتن ليقيموا فيها خمسة أيام كاملة ، على أن يدفع المنظمون المسابقة كل نفقات سفرهم وإقامتهم . وقسمت أوقاتهم في وشنجتن بين استماع لمحاضرات نظمت خصيصاً لهم ، وقام بإلقائها رجال من أئمة العلم والهندسة والاختراع بأمريكا في معهد أقيم لهذا الغرض ، وسمي « معهد الموهبة العلمية » ؛ وبين مشاهدة معالم المدينة وما فيها من ينابيع البهجة والسرور ، وبخاصة المتاحف ومعامل الأبحاث . وانتهت هذه الرحلة بمقابلتهم لنائب الرئيس روزفلت وهو المستر هنري ولس الذي كانت له شهرة في عالم البحوث البيولوجية قبل أن ينغمس في الحياة السياسية العامة .

ومن مظاهر التكريم التي ظفر بها هؤلاء النابهون في خلال تلك الاجتماعات العلمية أن تبنى كلَّ واحد منهم أحدُ مشاهير رجال العلم الأمريكيين ، كلٌّ بحسب المادة العلمية التي ظهر حسن استعداد الطالب إلى متابعة الدراسة فيها أكثر من غيرها .

والآن نورد إلى القراء عينة مما ألقاه عليهم هؤلاء العلماء الفطاحل ، وهي خلاصة لمحاضرة أحد كبار علماء الحياة ، فهي مثال يحتذى لما يقال في مثل تلك المناسبات :

الموهبة والحث :

« أريد قبل كل شيء ، أن أهنئكم رجال العلم في المستقبل ، وإني لا أدري الباعث الذي حدا بالمنظمين لهذه المسابقة أن يختاروا العدد ٤٠ للفائزين ، لكن لعلهم اقتبسوه من المجمع العلمي الفرنسي الذي تحدد عدد أعضائه « بالأربعين الخالدين » . على أن اختيار أربعين من خمسة عشر ألفاً يدل على أن هؤلاء الأربعين صفوة ممتازة بلغت من التربية والتعلم أرفع الدرجات . ولكني أبيح لنفسي أن أفشي سراً من أسرار الامتحان حتى لا يتسرب الغرور إلى أنفسكم ، وذلك أننا معشر الممتحنين وجدنا صعوبة كبيرة في اختياركم من بين الكثيرين من زملائكم لعظيم التشابه بين قدراتكم » تأمل هذا الأسلوب الجميل في الاحتياط لعدم تسرب

الغرور إلى هؤلاء الفائزين ، وتأمل ما فى هذا الكلام من مجاملة رقيقة لبعض من خانهم الحظ من النابهين من غير الفائزين ، مجاملة تشجعهم على المضى فى جدهم ، وتبعث فيهم الأمل فى النجاح فى المستقبل . ثم مضى الأستاذ المحاضر يقول :

« وأرى من واجبى أن أذكركم بأنكم لن تنالوا فى مستقبلكم درجات تنم عن التميز فى العلوم إلا بالجد والكد . فعندما كنت تلميذاً فى المدرسة كانت وسيلتنا لتحسين الخطوط تكرار كتابة بعض جمل قصيرة ، ومنها حكمة لم أنسها أبداً ، وأرجو أن تعيها قلوبكم أنتم أيضاً ، وتلك هى : لا تميُّز بغير الجهد الشاق » ، أو بعبارة أخرى شهيرة : من طلب العلا سهر الليالى .

العلوم البحتة والعلوم التطبيقية :

« وهدف العلوم هو تفهم الظواهر الطبيعية والسيطرة عليها بقدر الإمكان . والعلوم التى ترمى إلى التفهم تكون من النوع المسمى بالعلوم البحتة ، أما التى ترمى إلى السيطرة فتسمى بالعلوم التطبيقية . وقد يكون العالم فى وسط هذه الحرب الضروس أكثر اهتماما بالعلوم التطبيقية منه بالنظرية منها ، لكن التطبيقات العلمية كلها مؤسسة على نتائج العلوم البحتة .

وإنى لمعجب بالأستاذ الذى لفت النظر إلى المغالطة التى يقع فيها الكثيرون حين يفترضون أن الغرض الأساسى من العلوم هو النجاح المادى فى الحرب وفى السلم ، وكلنا نعرف المثل القائل إن العلوم هى القوة ؛ وكثير من الناس يخالها الشهرة والثروة ؛ وهذه كلها قد تنتج من تطبيقاتها . لكن العلوم البحتة لها فائدة أعم ، فإن نفعها لا يقتصر على جعل التطبيقات ممكنة ، وإنما يتجلى فى إشباع رغبة البشر فى المعرفة ، وفى توسيع الآفاق العقلية ، وفى التسامى بأخلاق الباحثين وراء حقيقة الأشياء وكنهها .

رسالة علم الحياة ومستقبله :

« على أنه قد طلب إلىّ كأحد المشتغلين بعلم الحياة أن أحمل إليكم إحدى رسالاته . وليس هناك شىء يهم الإنسان بقدر ما يهمه تفهم الحياة ، حياته هو ، وحياة الحيوان والنبات . فالدرس المظيم الذى نتلقاه عن التطور ليس أننا من سلالة القردة (وهذا غير صحيح) ، وإنما هو أن الحياة كلها — حياة النباتات ، وحياة الحيوان ، وحياة الإنسان — متشابهة فى أسسها . فنحن ندرس خلايا ثعبان البطن (الأسكارس) ، والوراثة عند حشرة الدروسوفيلا ؛ وآثار أشعة إكس فى الداتورة ، وآلاف أخرى من الحيوانات والنباتات ، ندرسها لا لأنها تهمنا بالذات ، ولكن لأن لها جميعاً تطبيقات تمس الإنسان .

« وقد اقتُرح علىّ أن أحدثكم عن المستقبل البيولوجى ، ولست أميل إلى هذا النوع من الحديث ، وإن كانت الصحافة ترحب به ، والجمهور يتلذذ من قراءته ، ولا سيما إذا كانت تنبؤات الكاتب تحوى أموراً مغرية ومثيرة للخيال والعواطف . فلا تنتظروا منى أن أخوض فى حديث كهذا . ولكنى أعلم أنكم صفوة مختارة ، وأنه سيكون منكم قادة فى ميادين العلوم المختلفة ومنها علم الحياة . فأىّ فرص ستجدونها فى ميدان هذا العلم تهيئ لكم المساهمة فى ترقيته وإنمائه ؟ إليكم قائمة بنواح قليلة العدد ستجدون فيها مجالات للعمل ، فالحاجة فيها ماسة لكثير من المعلومات الجديدة .

فتح مجالات للبحث :

« ١ — أيكم سيكون دارون المستقبل ليكشف عوامل التطور المجهولة ؟ فالعلماء كلهم يدركون أن عاملا أساسياً عظيما ، قد يضارع قانون الانتخاب الطبيعى ، لا يزال مجهولا ينتظر الكشف عنه ؛ فعلم الحياة فى الوقت الحاضر فى نفس الموقف الذى كان فيه علم الطبيعة قبل اكتشاف الفعل الراديومى ، فمن منكم سيكون مدام كورى فيكشف العنصر الذى ينقصنا ؟!

٢ — أينكم سيكون باستور الغد فيكشف من أسباب السرطان، فقد يأتي هذا الاكتشاف العظيم على يد أحد البيولوجيين كما جاءت اكتشافات باستور في بيولوجية العدوى والمناعة على يد كيماوى. فمنذ عدة سنوات حدثني مدير معهد كروكر للسرطان بقوله: إنا ننتظر منكم معشر علماء الحياة أن تقودونا إلى الطريق.

٣ — من سيكون من بينكم مُورجَن المستقبل فيكتشف كيف تتحكم عوامل الوراثة الموجودة في الأماشيط (الكروموسومات) في توجيه نمو النبات أو الحيوان أو الإنسان، فنحن نعلم أنها توجه هذا النمو، ولكنا نجهل إلى حد كبير الكيفية التي تؤدي بها عملها.

٤ — وأخيراً من منكم سيكون الكولمبس الذي يجوب البحار التي تفصل بين عالم الحياة وعالم الموت. ولقد كان هذا أعظم ما خفي علينا، حتى ظنه البعض منا غير قابل للكشف؛ لكن اكتشافات جديدة لبعض البكتريا الصغيرة وغيرها من الكائنات التي بلغ من دقتها أنها تستطيع النفاذ من خلال أدق الرشحات الصينية، هذه الاكتشافات تبدو كأنها قادرة على اجتياز ذلك الخليج الذي يفصل بين الكائنات الحية والكائنات التي لا حياة فيها.

والمجهر الجديد الذي نُرى الكهربات (أو الكهارب) من خلاله قد يكون في ذاته وسيلة أمل تعبُر بنا إلى أحدث العوالم. فمن منكم سيصحب أميرال هذا المحيط في سفراته؟

«وإني أختتم كلمتي بعبارة منقولة عن العالم الشهير لويس باستور ومنقوشة على جدران مقبرته في معهد باستور بباريس وهي: السعيد هو الذي له في نفسه وفي زوايا قلبه إله أو مثل أعلى يستمع له ويطيعه على الدوام — مثل أعلى للفنون، ومثل أعلى للعلوم، ومثل أعلى للفضائل. ففي هذه كلها تكمن ينابيع الفِكَر العظيمة والأعمال الخالدة. فهي جميعاً تشع علينا نوراً متعكساً من الأبديَّة».

أحمد عبد السلام الكرداني

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

– ٢ –

السيد عبد الرحمن الكواكبي

ذكرنا في المقال السابق أن أهم آثاره كتابان : « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » .

فطبائع الاستبداد يدور حول تعريف الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان ، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولاعقاب » . ويأتي هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف لا يقيّدها قانون ولا إرادة أمة ، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى . والحكومات ميّالة بطبعها إلى الاستبداد ، لا يصدها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها ، وإلا قوة الرأي العام وعظمة سلطانه .

والمستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ؛ ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي ، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدّها عن النطق بالحق ومطالبتها به .

والمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها .

والمستبد يودّ أن تكون رعيته بقراً يُحلب ، وكلاباً تتذلل وتتملق ؛ وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمة له ، أو هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة مستعدة لأن تقف في وجه الظالم المستبد تقول له لا أريد الشر ، ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ؛ فإن الظالم إذا رأى المظلوم يحمل سيفاً لم يجرؤ على ظلمه .

وقد بحث بحثاً مستفيضاً في علاقة الاستبداد بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم في أن الاستبداد في السياسة متولد من الاستبداد في الدين أو مساير له . فكثير من الأديان تبث في نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول ، وتهددهم بالعقاب بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص ؛ ثم تفتح باباً للخلاص والنجاة بالالتجاء إلى الأحبار والقسس والمشايخ ، بالذلة لهم ، والاعتراف أمامهم ، وطلب الغفران منهم . والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريق فيسترهبون الناس بالتعالي والتعاظم ، ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال ، حتى لا يجدون ملجأ إلا التزلف لهم وتملقهم ! وعوام الناس يختلط عليهم في أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام ؛ فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وترفعهم عن سؤالهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقاً في مراقبتهم على أعمالهم ، كما أنه ليس لهم حق في مراقبة الله فيما يفعل !! ولهذا خلعوا على المستبد صفات الله كولىّ النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل القدر ، وما إلى ذلك ! وما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله أو تربطه برباط مع الله ، ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله !!

ولقد رأى « الكواكبي » أن الإسلام في جوهره الأصلي لا ينطبق عليه هذا القول ، فهو مبني على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والأرستقراطية ؛ فهو مؤسّس على أصول ديمقراطية (أي المراعاة التامة للمصلحة العامة) ، وعلى شورى أرستقراطية ، أي شورى الخواص وهم أهل الحل والعقد . فالقرآن مملوء بتعاليم تقضي

بإماتة الاستبداد، والتمسك بالعدل، والخضوع لنظام الشورى من مثل: «وشاورهم في الأمر»، «وأمرهم شورى بينهم» حتى في القصص من مثل: «ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون»؛ ومظهر هذا كان في أيام النبي (ص) والخلفاء الراشدين. ثم لا يعرف الإسلام سلطة دينية، ولا اعترافاً، ولا بيع غفران، ولا منزلة خاصة لرجال الدين؛ ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين، فتفرقت كلمة المسلمين وانقسموا شيعاً، وتحول الحكم من نظام شوري إلى استبدادي، فصغرت نفوس الناس وخفت صوتهم، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو المبدأ الذي به يراقب أولو الأمر في الأمة، فصار أمر المسلمين إلى ما نرى.

ولم يتعرض «المؤلف» للرد على الشطر الأول، وهو ما يوحيه تصور الله بالقوة والعظمة والسيطرة من خضوع النفوس المستبد. وعندي أن الإسلام بجعله «لا إله إلا الله» محور الدين، تتكرر في كل أذان وفي كل مناسبة، كان كفيلا أن يذكّر النفوس دائماً بأن العزة لله وحده وأن النفوس لا يصح أن تخضع لأحد سواه، وأن هذه الكلمة توحي بالضعف أمام الله والقوة أمام من سواه كائناً من كان؛ ولكن بتوالي القرون، ودخول الدخيل من العقائد، أصبحت «لا إله إلا الله» عند أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا روح فيها، تبعث الضعف ولا تبعث القوة، وتبيح أن يُشرَك مع الله الحاكم المستبد والرئيس المستبد، بل والمال والجاه والنصب؛ فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله، وفقد المدلول الحق لـ «لا إله إلا الله»!!

***

ثم أبان أن الحاكم المستبد يخشى العلم، لأن العلم نور، وهو يريد أن تعيش الرعية في الظلام، لأن الجهل يمكّنه من بسط سلطانه. (وأعرف أن حاكماً مستبداً شرقياً كان له مرب سويسري، فقال له يوماً بعد أن تأمّر: ليتك تُعنى بتربية الشعب وتعليمه! فقال الأمير: كلا! إني إن علمته صعب عليّ حكمه)!

والحاكم المستبد لا يخشى علوم اللغة والأدب، ولا علوم الدين المتعلقة بالمعاد، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده في استبداده، بسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدته. إنما ترتعد فرائصه من الفلسفة العقلية، ودراسة حقوق الأمم، وعلوم السياسة والاجتماع، والتاريخ المفصل، والقدرة على الخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تنير الدنيا وتثير النفوس على الظالم، وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان، وما هي حقوقه، وكيف يطلبها، وكيف ينالها، وكيف يحفظها؛ فإن المستبد سارق، والعلماء من هذا القبيل يكشفون السرقة.

ولذلك يكون الحاكم المستبد وهؤلاء العلماء في صراع دائم، العلماء يحاولون الإنارة والمستبد يحاول إطفاءها؛ وكلاهما يحاول كسب عامة الشعب، فالمستبد يخيفهم ليستسلموا، وهؤلاء العلماء يثيرونهم ليقولوا ويفعلوا.

والحاكم المستبد تسرّه غفلة الشعب لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم: يغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم؛ ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسة؛ ويسرف في أموالهم فيقولون إنه كريم؛ ويقتلهم ولا يمثّل بهم فيقولون إنه رحيم؛ وإن نقم عليه بعض الأباة، قاتلهم بهم كأنهم بغاة!!

والحاكم المستبد يخاف رعيته كما تخافه رعيته، بل خوفه منهم أشد، لأنه يخافهم عن علم وهم يخافونه عن جهل. وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره، ودرجة عدله بمقدار طمأنينته؛ كما يستدلون على عراقة الاستبداد في الأمة بفخفخة الحكام، وإمعانهم في الترف، وكثرة الحجّاب، ودقة نظام

المقابلات . ومن دلائل تغلغل الاستبداد في الأمة استكناه لغتها ، فإن كثرت فيها ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع ، كاللغة الفارسية ، دلت على تاريخها القديم في الاستبداد ؛ وإن قلت كالعربية قبل امتزاجها بغيرها دلت على الحرية .

وعلى الجملة فأخوف ما يخافه المستبد من العلم ، العلم الذي يعلم أن الحرية أفضل من الحياة ، والشرف أعز من المنصب والمال ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وقيمتها ، والعبودية وضررها .

وقد كان « الكواكبي » في كل هذا يقرأ نتائج القرائح التي كتبت في الاستبداد ؛ وينظر إلى الدولة العثمانية في عهده ويستمل منها آراءه وأحكامه .

* * *

ثم عرض للاستبداد والمجد ، ويعني بالمجد رغبة الإنسان أن تكون له منزلة حب واحترام في قلوب الناس ؛ وهو مطلب طبيعي شريف ، ويبلغ عند بعض الأفراد درجة تجعلهم يتساءلون أيهما أقوى : الحرص على المجد أم الحرص على الحياة ؟ و « الكواكبي » من قبيل من يرى الحرص على المجد أقوى وأوجب من الحرص على الحياة ، ولذلك عاب على ابن خلدون رأيه في تقديم الحرص على الحياة ، عندما نقد (ابن خلدون) الإمام الحسين بن علي وأمثاله ، وقال إنهم يعرضون أنفسهم الموت بخروجهم في فئة قليلة على الخليفة ذي السلطان والعدد والعدد ، فيلقون بأنفسهم في التهلكة . فقال « الكواكبي » إنهم معذورون ، لأنهم يفضلون الموت كراما على حياة الذل التي كان يحياها ابن خلدون ، وهم في ذلك ككرام سباع الطير والوحوش التي تأبى التناسل في أقفاص الأسر ، وتحاول الانتحار تخلصاً من قيود الذل — وعصبية الكواكبي على ابن خلدون سببها عصبية لأهل البيت إذ كان من الأشراف ، وفيه نزعة لحب المجد ولو كان فيه فقد الحياة . فابن خلدون يتحدث بالعقل ، والكواكبي يتحدث بالعاطفة .

والمجد أنواع : « مجد الكرم » وهو بذل المال في سبيل المصلحة العامة ، وهو أضعف أنواع المجد ؛ « ومجد العلم » وهو نشر العلم النافع رغم عوائق السلطات ؛ و « مجد النبالة » وهو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار في سبيل نصرة الحق ، وهذا أعلى المجد . ويقابل المجد التمجد ، أي المجد الكاذب ، وهو أن يكون الإنسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم ، وهذا يزدهر في الحكومات المستبدة ، لأن الحكومات الحرة تحافظ على التساوي بين الأفراد ولا تخالف ذلك ، ولا تميز بعض الأفراد إلا بخدمة عامة للأمة أو عمل عظيم يوفق إليه — أما في الحكومات المستبدة فالمتمجدون أعداء للعدل أنصار للظلم ، يتخيرهم المستبد الأعظم ليقوي بهم سلطانه ، ويختارهم من ضعاف النفوس ويستغويهم بالمناصب والمراتب ؛ وأكثر ما يعتمد على العريقين في التمجد ، الوارثين من آبائهم وأجدادهم مرض الاستبداد ، ومن هنا ظهرت في الأمم نغمة التمجد بالأصالة والأنساب . والحكومة المستبدة يظهر استبدادها في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي ، إلى الفراش ، إلى كناس الشارع ، ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقته ، لأنه لا يهمهم المجد باستجلاب محبة الناس ، إنما يهمهم التمجد باكتساب ثقة رئيسهم المستبد . والوزير في الحكومة الاستبدادية وزير المستبد الأعظم لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه ؛ فالهيئة كلها تتمجد ولا تمجد ، وكلهم شركاء في جريمة الضغط على الأمة وظلمها . والاستبداد يقتل المجد ويحيي التمجد !!

وهذا حق ، فالحكومة المستبدة تقتل في النفوس العزة الحقيقية بالمفاخرة بالأعمال النافعة ، وتخلق نوعاً من السيادة الكاذبة ، وتجعل أولي الأمر سلسلة تبدأ من المستبد

الأعظم إلى الشرطي في الشارع ، كلٌّ يخنع لمن فوقه ويستبد بمن تحته ؛ وعلى العكس من ذلك الحكومة الديمقراطية ديمقراطية صحيحة ، فهي تُشعر كل شخص في الدولة بالعزة التي يحميها العدل ، وبأن له نصيباً في حكم بلاده ، وصوتاً مسموعاً فيما يجب أن يُعمل وما يجب أن يترك ؛ وأن حكومته ليست قائمة إلا برأيه ورأي أمثاله ، إن شعروا يوماً بجورها أسقطوها ، سلطة الرأي العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان .

* * *

ثم عرض للاستبداد والمال ، ويعني بذلك الحكومة الاستبدادية وأثرها في الثروة أو الحالة الاقتصادية في البلاد . وهو في هذا الموضوع يرى الخير في نوع معتدل من الاشتراكية . نعم ! لا ينبغي أن يتساوى العالم الذي أنفق زهرة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصانع الماهر في صنعة مفيدة ، وذلك الجاهل الخامل النائم في ظل الحائط ؛ ولكن العدالة تقضي أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ، ويقاربه في معيشته . وقد مال الإسلام إلى هذا النوع ففرض ٢٫٥ ٪ من رءوس الأموال تعطى للفقراء وذوي الحاجة ؛ وحرّم الربا ، لأنه وإن أجازه الاقتصاديون لأسباب معقولة اقتصادياً للقيام بالأعمال الكبيرة ، ولأن الأموال المتداولة في السوق لا تكفي للتداول فكيف إذا أمسك المكتنزون قسما منها ؛ ولأن كثيراً من القادرين على العمل لا يجدون رءوس المال ، فإن الدين ورجال الأخلاق ينظرون إليه من حيث ضرره الأخلاقي ، لأنه متى انتشر قسم الناس إلى عبيد وأسياد ، وكان سبباً في ضياع استقلال الأمم الضعيفة .

والحكومة الاستبدادية سبب في اختلال نظام الثروة ، فهي تجعل رجال السياسة والدين ومن يلحق بهم يتمتعون بحظ عظيم من مال الدولة ، مع أن عددهم لا يتجاوز الواحد في المائة ؛ وهي تخصص المال الكثير لترف المستبد وسرفه ؛ وتغدق على صنائعها ومن يستخدم لتحصيل شهواتها ومن يعينها على طغيانها ، وسائر أفراد الشعب في شقاء وفقر وبؤس !

والحكومات العادلة تعمل على تقريب المسافات بين أفراد الشعب ، فلا غنى مفرط ولا فقر مفرط . وهذه حكومة الصين المدودة غير متمدنة لا تجيز للشخص الواحد أن يملك أكثر من خمسة أفدنة ؛ وروسيا وضعت لبعض ولاياتها قانوناً أشبه بهذا ، ومنعت سماع دعوى دَيْن غير مسجّل على فلاح ، ولم تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من خمسمائة فرنك . وحكومات الشرق إذا لم تعالج الفروق الكبيرة بين سادتها وعبيدها ساء مصيرها .

ثم الحكومات المستبدة تيسر للسفلة طرق الغنى بالسرقة والتعدي على الحقوق العامة ، ويكفي أحدهم أن يتصل بباب أحد المستبدين ويتقرب من أعتابه ، ويتوسل إلى ذلك بالتملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس ، ليسهل له الحصول على الثروة الطائلة من دم الشعب .

هذه صورة سينمائية لكتاب « طبائع الاستبداد » ولو أنسئ في عمر « الكواكبي » حتى يرى النظريات الاقتصادية الحديثة ، وتطور النظم السياسية ، والدولة الشيوعية ، وحركات العمال أمام استبداد رءوس الأموال ، وعلاقة الغرب بالشرق ، وما اخترع الدكتاتوريون في أوروبا من نظريات أرغموا العلم إرغاماً على أن يؤيدها ، ونحو ذلك من أوضاع ، لكان له من كل ذلك مادة خصبة يبدع فيها فوق ما أبدع .

(يتبع) **أحمد أمين**

موسيقانا القومية

للمرحوم الأستاذ محمد كامل حجاج

أطوار الموسيقى الشرقية — تطورها في الشرق — ثروتها — مقارنة بين الثقافة الموسيقية العربية والمصرية الحديثة — رقيها في عصر سلامة حجازي وعبده ومحمد عثمان وأبي خليل القباني — تدهورها في العصر الحاضر — موسيقى الفركي تفتقد فروة الفن — كلمة لمعهد الموسيقى العربية

أطوار الموسيقى الشرقية

نشأت الموسيقى العربية بادئ الأمر في الحداء، ثم تدرجت في الرقي حتى ازدهرت في عصر العباسيين، ونبغ فيها رجال وقيان كانوا فخر قومهم، وخلدت ذكرهم الأيام مثل معبد، وإسحاق الموصلي، وجميلة، وعزة الميلاء، وغيرهم، واشتهر في الأندلس زرياب؛ وقد تركوا لنا من الألحان تراثاً لا يحصر ملأ مجلدات الأغاني للأصبهاني وغيره من كتب الأدب.

ثم طفقت الموسيقى تتدهور بعد العباسيين، لأن الألحان كانت تنتقل بالتواتر من جيل إلى جيل، حتى انفرط عقد التواتر، واختلت الألحان وذهبت فريسة النسيان.

أشفق الفلاسفة والأطباء والموسيقيون على الموسيقى فتداركوا اضمحلالها بعد انفصام عرى التواتر، فدونوا لها مؤلفات قيمة؛ فكان في طليعة هؤلاء الأعلام الخليل بن أحمد، وقد توفي في دمشق سنة ١٧٠ هـ، وقد وضع كتاباً في الأوزان، وآخر في المقامات. وكتب يعقوب بن إسحاق الكندي رسالة قيمة في الموسيقى، توفي سنة ٢٤٨ هـ؛ ويحيى ابن المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ هـ، وله رسالة مشهورة؛ واشتهر بعده بقليل محمد بن زكريا الرازي، وتوفي سنة ٣١١ هـ. ثم أتى بعده فيلسوف الإسلام أبو نصر الفارابي، ومن أهم مؤلفاته كتاب الموسيقى الكبير، والمدخل؛ وقد ترجم الأول إلى الفرنسية البارون دير لانجيه، وتوجد من الثاني نسخة فتوغرافية في دار الكتب المصرية. وظهر في القرن الخامس ابن سينا، وله رسائل قيمة. وبدار الكتب طائفة عظيمة من المخطوطات العظيمة في الموسيقى.

دار الفلك دورته، وتوالت الأعوام ونهضت الموسيقى الفارسية. ثم انتقلت إلى تركيا فهذبتها وسمت بها إلى أوج الرقي؛ واضمحلت الفارسية وتركت مكانتها الرفيعة إلى التركية، ثم انتشرت في مستعمراتها في الشرق الأدنى مثل الشام وفلسطين ومصر وتونس والجزائر. ولكن الموسيقى التركية تلونت في كل قطر بلون خاص وطابع محلي، بسبب تعدد اللهجات واختلاف الأوزان.

ثروتها

لقد أحصى مؤتمر الموسيقى العربية، الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٣٢ بحضور المستشرقين المشهورين ممن تخصصوا في الموسيقى العربية، المقامات المستعملة في الشرق الأدنى، فإذا هي تقارب المائة؛ كما أحصى الأوزان فإذا هي تبلغ المائة، ويا لها من ثروة لا نجد لها مثيلاً في العالم.

إن الموسيقى الأوروبية لا تملك غير مقامين اثنين: الكبير والصغير، ويمكن تحويرهما بتغيير مفتاح النوتة؛ ورغماً من هذا الضيق فإن الموسيقيين الأوروبيين قد أنشأوا من طريف مختلف الألحان مالا يحصى ولا يحصر، والفضل في ذلك راجع إلى ثقافتهم العامة وشاعريتهم ورقة عواطفهم.

مقارنة بين الثقافة الموسيقية عند العرب وفي مصر الحديثة

اشتهر أغلب المغنين والقيان عند العرب بالشعر والأدب والتاريخ وأيام العرب. وكان إسحاق الموصلي من أكبر شعراء عصره، أديباً عالماً متفقهاً في الدين، فضلاً من كونه أعظم موسيقي في عصره.

لم تر في مصر من فجر نهضتها الموسيقية إلى يومنا هذا من الموسيقيين المثقفين غير اثنين، وهما: الشيخ شهاب الدين الشاعر الكبير صاحب السفينة، وأبو خليل القباني؛ وكان هذا الأخير يؤلف بنفسه رواياته ويلحنها ويمثلها.

وكيف ننتظر ممن لم يصادف أية ثقافة أن يستطيع أن يعبر لنا بموسيقاه عما يجيش بصدره من مختلف العواطف

أو يصف ما يشاهده . مثل هؤلاء كمثل من تعلم الهجاء ثم انبرى لدراسة العروض ، زاعماً أنه سيصبح من فحول الشعراء .

رقيها في عصر سلامة حجازي وأبي خليل القباني وعبده ومحمد عثمان .

لا مراء في أن الكنوز الفنية التي خلفها لنا هؤلاء الفضلاء قد بلغت ذروة الكمال ، مما يدل على غزارة المادة وحسن الذوق ، وخلوها من الألحان والأوزان الأجنبية ، حتى صارت نقية خالصة من أية شائبة أو تهجين يذهب بطلاوتها .

لم نر في عصرنا هذا من استطاع أن يشق غبار الشيخ سلامة حجازي ، ولم نشاهد أحداً استطاع أن يقلده أو يقتفي أثره .

ولم يكتف هذا النابغة بترقية الموسيقى المصرية بأنواعها ، بل أوجد التمثيل الغنائي بمصر ، ونهض بالمسرح بعد انحطاطه وتدهوره . ولقد أعجبت به سارة برنارا أيما إعجاب ، وقالت عنه إنه من الممثلين القلائل الذين لم يتلقوا الفن في مدرسة ، بل كانوا معلمي أنفسهم ، كمثل كبار رجال المسرح عندنا ، مثل بوكلان وأخيه ، وسليفان ، ولميير ، ودي فيرودي ، ولولوار ، وغيرهم .

تدهورها في عصرنا الحاضر وسيرها نحو هوتها المرتقبة

أخذت موسيقانا في عصرنا الحاضر تنحط وتضمحل يوماً بعد يوم ، وأباح المحترفون لأنفسهم أن يرقعوها بمختلف الموسيقات الأجنبية ، حتى أصبحت فنا هجيناً تنفر منه النفوس ، وتمجه الأذواق ، إذ لما أعيتهم الحيل وجفت القرائح ، وسد الجهل عليهم المنافذ ، وتورطوا في تلحينهم ، هرعوا إلى السرقات المرذولة والتشويه المنفر لقلة البضاعة ونضوب الذهن ، حتى صارت موسيقانا كثوب أهل الكدية (الدراويش) مرقعة متباين الألوان .

ولم يبيح البعض إدخال الموسيقات الأجنبية على موسيقانا ليستسيغوا الموسيقى الأجنبية ، ولا يبيح هذه العملية في لغتهم ويطعمها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية !!؟؟

ولقد تغلغل هذا الداء الوبيل في موسيقانا حتى فقدت طابعها الخاص وجمالها الفتان .

رثى المستشرقون لما حاق بموسيقانا ، وشق عليهم ما شاهدوا من المسخ والتشويه ، وقالوا لنا في مؤتمر الموسيقى العربية : لقد رحلنا إليكم والشوق يغالبنا ، وكنا نمني النفس بعد حرماننا الطويل من سماع الموسيقى العربية الخالصة ، وظننا أننا سنعثر على ضالتنا بمصر ، ولكن خاب ظننا وخاننا الأمل !!

موسيقى القرآن تقتعد ذروة الفن

إننا نحمد الله الذي من علينا في عصرنا هذا بعبقريين يفخر بهما الشرق بل العالم الإسلامي أجمع ، إذ يرقبونهما بجانب النوابغ رقبة الأعياد ، أحدهما حجة في علم القراءات والتجويد ، فصيح في مخارج الحروف ، بليغ في الإلقاء ، قوي في التعبير ، يسود تلاوته خشوع أخاذ ورهبة عظيمة . ووهب الثاني صوتاً جهورياً رناناً ، وفنا موسيقياً ساحراً ، وفصاحة في التلاوة نادرة ، وطريقة فتانة لم يسبقه فيها أحد ، وذوقاً سليماً رفيعاً في الفن . وتلك المواهب لم نصادفها مجتمعة لدى أحد من المغنين والمغنيات في عصرنا الحاضر .

كلمتنا لمعهد الموسيقى العربية

شاءت إرادة المغفور له مولانا فؤاد الأول أن ينهض بالموسيقى العربية ، فافتتح لها سنة ١٩٣٢ مؤتمراً دولياً بالقاهرة ، ضم أشهر من اشتغل بالموسيقى في أقطار أوروبا ، كما ضم علماء الموسيقى النابغين في جميع البلاد العربية ، وأنفقت الحكومة مبالغ طائلة لنفقاته وطبع أعماله ، فشخصوا الداء ووصفوا لنا الدواء ، ولم يبق علينا إلا تحضير العلاج .

مضى على المؤتمر أحد عشر عاماً لم يحرك فيها المعهد ساكناً ، ولم يعمل شيئاً مما وصى به المؤتمر حتى السلم الموسيقي المصري ، وما فتئ حائراً ضالاً لا يعرف له أساساً ولا قاعدة . واكتفى القائمون بأمره أن يجعلوه مدرسة لتعليم الصبيان ولتخريج المحترفين .

إن البلاد تعج بالموسيقيين والملحنين ، ولا تنقصها المعاهد الموسيقية ، ولكنها أصبحت تبحث عن نصير لفنها الضائع ، وحام يذود عن حياضها المتهدمة ، وينهض بها بعد كبوتها واضمحلالها ، ويعيد إليها مجدها السابق ، ويغار على قوميتها ، فإن الموسيقى تعتبر بحق عند جميع الأمم أشرف الفنون الرفيعة .

عاونوا أبناءكم على النجاح

يشكو مجتمعنا الحديث من عيوب عديدة فى أفراده ، صغيرهم وكبيرهم . فيهتم الباحثون الاجتماعيون بدراسة الأسباب التى تؤدى إلى فشل كثير من شبابنا عندما يواجهون حياة العمل والمنزل . ويهتم المشرفون على الأعمال الحكومية بدراسة الأسباب التى تؤدى إلى عدم إتقان رجالها لأعمالهم وما يترتب على ذلك من تعطيل الأعمال وسوء النظام . ويهتم المشرفون على التعليم بظاهرة الفشل فى معاهد التعليم المختلفة التى تبدو واضحة عندما تظهر نتائج الامتحانات العامة فى كل عام . ويهتم رجال الدين بانحطاط الناحية الخلقية والدينية فى كثير من أفراد الأمة .

ومعنى ذلك أن المصريين عموماً يفشلون ، ويكونون موضع بحث عندما يواجهون مشاكل الحياة المختلفة ، سواء كانت فى صورة امتحانات مدرسية ، أو واجبات يتطلبها العمل والمنزل ، أو واجبات وقيود يفرضها الدين والعرف والتقاليد . ولو جمعت أسباب الفشل التى وصل إليها الباحثون المختلفون لوجد أنها هى هى بعينها ، وإن كانت تظهر فى صور متباينة فى المراحل المختلفة من حياة الأفراد .

وقد تكلمت عن بعض هذه الأسباب مفصلة فى مقال سابق باعتبارها تؤدى إلى سوء نتائج الامتحانات ، وهى جميعها تعود إلى حالة التلاميذ النفسية وما يلازمهم — عندما يواجهون أولى مشاكل حياتهم — من الخوف والتردد وعدم الثقة بالنفس ، وضعف روح العمل ، وعدم تقدير المسئولية ، وضعف الناحية الخلقية والدينية ؛ ورأيت أن أتمّ حديثى بذكر نواحى الإصلاح التى يمكننا بها أن نأخذ بأيدى أبنائنا إلى طريق النجاح . وإذا كان من حق الأمة أن تطالب أبناءها بأداء واجباتهم نحو أنفسهم ونحو مجتمعهم ، فعلى الأمة وعلى الآباء والأمهات أن يؤدوا واجبهم أولا نحو أبنائهم قبل أن يحاسبوهم على ما يقعوا فيه من أخطاء .

والإصلاح منصبٌّ فى ناحيتين ؛ الأولى : ناحية وقاية الأبناء من عوامل الفشل فى الحياة بتقويم التربية المنزلية ، بعد أن يدرك الآباء والأمهات معنى هذه التربية أولا وقيمتها ثانيا . والمعروف أن كل عمل يقدم عليه الشخص يجب أن يعمل على إعداد نفسه للقيام به خير قيام ، فهو يُلمّ بنواحيه المختلفة قبل أن يبدأ فيه . ولكن هناك عمل يؤثر فى الفرد ويؤثر فى الأسرة ويؤثر فى الأمة ، هو أهمّ وأجلّ وأخطر الأعمال ؛ ولعله أقل الفنون لأنه فى الواقع فن لا عمل ، وهو فن الأبوة والأمومة ، أو فن معاملة الأطفال ، أو فن التربية . ولا تجد مصريا أو مصرية يحاول أن يعرف شيئاً عن هذا الفن قبل أن يصبح أبا أو تصبح أما ، أى مربيا أو مربّية والمعروف أن تربية الطفل تبدأ قبل ولادته بتربية أمه .

وإذا كانت الأمهات المصريات قد خانهن الحظ فلم يعطين مبادئ هذه التربية ليستزيدوا منها بعد ذلك ، فإن ذكاء الأم وحسن إدراكها وإحساسها بالواجب نحو طفلها ، كل ذلك كان جديراً أن يدفع بها إلى أن تعوّض مافاتها بنفسها .

ولكن أين الفتاة التى تقرأ كتابا عن سيكولوجية الطفل ، أو كتابا عن كيفية معاملة الطفل ، أو كتابا عن مشاكل الطفل وعلاجها . إنها لو قرأت كتابا عن العناية بالطفل من الوجهة الصحية — وهو بلاشك شىء ضرورى — امتلأت نفسها بالغرور واعتقدت أنها أدّت أكثر من واجبها . ولكن أمهاتنا لا يدركن أن هناك ناحية تزيد أهمية عن الناحية الصحية ، هى الناحية النفسية التى تؤثر بدورها فى الوجهة الصحية ، وذلك لأن الأخيرة يمكن علاجها بسهولة أكثر من معالجة الاختلال الذى يحدث فى شخصية الفرد . فأين الأم التى تعرف أن معاملة الطفل فى خمس السنوات الأولى من حياته هى التى تترتب عليها شخصيته وهو يافع وهو شاب وأخيرا وهو رجل ؟! وإن شخصية الفرد ليدخل فى تكوينها تفكيره ومعالجته لمشاكل ، وحكمه على الأشياء ، وتقريره للأمور ، وتصرفاته كرجل يعمل

وتصرفاته كرجل يعيش في مجتمع ، وتصرفاته كرجل يحب ويتزوج ، وتصرفاته كأب يعامل ويربي .

أين المصرية التي درست ميول طفلها ، والتي تتصرف لترضي هذه الميول في فلذة كبدها ، لا أن تطلب منه بعقله الصغير وإدراكه الضعيف أن يرضي هو ميولها ؟! أين المصرية التي تصاحب طفلها من الصغر إلى المتنزهات لتشرح صدره ، وإلى أماكن الفنون لتغذي روحه ، وإلى المعارض لترضي استطلاعه ، وإلى المتاحف لتنير ذهنه ، وإلى المكاتب لتوسع أفق تفكيره ، وإلى الأفلام والروايات المناسبة لتزيد ثقافته .

أين المصرية التي تعطي طفلها حقه من وقتها لتشترك معه في ألعابه ، وتستمع إليه وهو يشرح أعماله فتقدرها وتشجعه على إتقان العمل وإتمامه ، وتبث فيه روح الثقة بالنفس والاعتماد على النفس ، والاستقلال ، وحب الغير ، وعمل الخير وتقدير الواجب ؟! أين المصرية التي تدرك أن من أخطر الأمور على الطفل في مستقبله كرجل كثرة العناق والتقبيل في طفولته المبكرة ؟! أين المصرية التي تعرف أن الطفل في حاجة إلى أن يغذى بالحب قبل أن يغذى بالطعام ، وأن الحب عند الطفل هو أن تعضده وتكون بجانبه لا أن تداعبه وتدلله ؟! وأخيراً أين المصرية التي تجدها صديقة لابنها يرتاح إلى الإفضاء إليها بمشاكله ومتاعبه ، فتستمع له وترشده وتنير له الطريق بتجاربها بدلا من أن تنهره وتؤنبه .

الأمهات المصريات مقصرات كل التقصير في واجبهن نحو أبنائهن ؛ والأمة تشترك معهن في هذا التقصير نحو أبنائها . الأمة التي تحارب الأمية في القراءة والكتابة عليها أن تحارب الأمية في تربية الأطفال لمن تعلمن القراءة والكتابة ؛ عليها أن تنشئ الفصول النهارية والليلية ، وتدفع بالأمهات والفتيات ليتلقين الكثير مما فاتهن معرفته أجيالا طويلة عن أهم واجباتهن . إنني مدفوعة بالرغبة في وقاية أطفالنا وشبابنا ورجالنا مما هم فيه من خلل في شخصياتهم ، أكاد أقول : امتحنوا كل فتاة في فن التربية قبل أن تسمحوا بالزواج .

أما الآباء فهم يمضون نصف نهارهم ونصف ليلهم بلا عمل خارج المنزل ، وكان الأجدر بهم أن يمضوا هذا الوقت في عمل ثقافي أو مادي مفيد ، ليمكنهم بعد ذلك أن يبثوا روح العمل والاستقلال عند الأبناء من الصغر ، ولكي يعودوا أطفالهم على تذوق العلوم المختلفة ؛ وهو ليس بالأمر الشاق ، فذلك يرضي في الأطفال كثيراً من الميول الطبيعية ، كحب الاستطلاع والسيطرة والظهور والميل إلى الحفظ والتكرار . وكل عمل يمكن أن ننظر إليه بمنظارين : المنظار الأسود الذي لا يرينا إلا متاعب العمل والضيق من تحمل مسئوليته ؛ والمنظار الأبيض الذي يرينا جانب التسلية التي تأتي من العمل ، والراحة التي نشعر بها بعد حل إحدى مشاكله ، والإحساس بالسرور الذي يأتي من تذوق العمل أثناء قيامنا به وبعد المجهود الذي نبذله ، خصوصاً إذا كان في اتجاه معين يختاره الفرد بحسب رغباته الخاصة . والنظر إلى النواحي المفيدة المادية والثقافية التي تعود علينا من العمل النافع ، وتقدير قيمة العمل الذي نقوم به في حد ذاته ، وشعور الثقة بالنفس الذي يأتي عند إتقانه .

بهذا المنظار الثاني يمكن الآباء أن يجعلوا الأطفال ينظرون إلى العمل ، وعليهم لكي يحببوا أبناءهم في عملهم المدرسي أن يتعاونوا معهم لوضع نظام خاص يقضون فيه وقتاً في الاستذكار ، ووقتاً للعب والترييض . الآباء يجب أن يقدروا أن الإرهاق في العمل يعطل ملكات الأطفال ويضعف قواهم العقلية والجسمية ، ويقتل فيهم الرغبة في العمل ، ويقتل فيهم روح الاستقلال ، ويميت فيهم شعور الثقة بالنفس ، ويوجد عندهم الخوف والقلق ، وأن يتعاونوا مع أبنائهم على إصلاح الأمور بالرفق والحزم .

والمدرسة عليها أن تقدر هذه الناحية ، فليس من المعقول — كما يحدث — أن يعطي كل مدرس ما شاء له من الواجبات بدون تقدير لما يأخذون من واجبات أخرى . فعلى المدرسين أن يعقدوا الاجتماعات ليتفقوا على الأعمال

پول كراوس

ما كنت أحسب حين حيّانى ظهر يوم الخميس ١٢ أكتوبر فى مكتبة الجامعة أنه ذاهب إلى حيث يلقى ربه بأحسن الأعمال وأقوم الخلال وأنصع الصفحات ؛ وما كنت أحسب أن هـذا الشاب الذى لم يتجاوز الأربعين من عمره ، والذى عرفته فى باريس يلقى دروسه القيمة فى مدرسة الدراسات العليا بالسربون ، والذى توطدت صلتى به حين عملنا سوياً فى جامعة فؤاد الأول ، ما كنت أحسب أنه حين هز يدى قائلاً إنه سأل عنى فى الكلية ثم فى البيت ، أنه أتى ليودعنى وذهب منى ليودّع الحياة . ومن منا نحن أصدقاءه كان يتصور أن هذه الحركة الدائبة وأن هذا الذكاء الوقاد ، وأن هذه الحياة المنتجة الخصبة ، وأن هذا الرحالة الذى يحاضر فى جامعة فؤاد وفى جامعة بيت المقدس ، والذى يشرف على مكتبة جامعة فؤاد ، ثم يذهب إلى فلسطين ليشترى الكتب لمكتبة جامعة فاروق ؛ والذى تراه ومن حوله طلبته فى النهار ، ثم هو مع جماعة العلماء فى المعهد المصرى بالليل ، من منا كان يتصور أن أن هذا كله سيخبو ، وأن ساعة غير ميمونة ستحمله على ترك الدنيا وما فيها ومن فيها ؟!

ولكنه الأجل المحتوم الذى لامفر منه ! والذى سبقنا إليه صديقنا المحبوب پول كراوس .

حقاً ياصديق ! لم يكن هذا الجد العلمى الذى بلغته بجهدك وذكائك ومثابرتك وجدارتك ليُنسيك ما دهى الإنسانية فى العهد الأخير من ويلات . ويشاء ربك أن تكون من الزمرة التى لقيت من هـذا الاضطهاد أبشع صنوفه وأقسى آلامه ! ولم يكن بد لصديقك الكبير «بيكر» من أن ييأس من القدرة على حمايتك مع ماله من

التى تُعطى للتلاميذ فى فترات معينة ، ولتكن فترات أسبوعية مثلا .

والناحيـة الأخرى من نواحى الإصلاح هى ناحية العلاج . وعلاج اختلال الشخصية وعدم توازنها الذى يترتب على المعاملة الخاطئة للطفل فى الصغر ، قد يتم بمعرفة الدوافع السيكولوجية التى تدفع الفرد للقيام بمختلف الأعمال .

وقد يكون العلاج على أيدى إخصائيين فى الدراسات السيكولوجية . وعلى الأمة أن تزيد فى عدد الذين يقومون بهذه الدراسات — بدلا من أن تحاربهم — وعلى الآباء والأمهات أن يدركوا فائدة هذا العلاج ، ولا يخلطونه بالخرافات والتدجيل التى تعودنا عليها قبل ذلك .

وإننا فى مدارسنا محتاجون للعيادات السيكولوجيـة قبل العيادات الطبية . إن المدرسين يتناولون الطفل الشاكى فى المدرسة بالتأنيب والضرب أحياناً ، والعقاب بطرده من الفصل أو من المدرسة ؛ بينما فى البلاد الأجنبية يُرسَل مثل هذا الطفل إلى العيادة السيكولوجية ، ويتعاون المدرسون والآباء مع الإخصائيين على معاملة الشخص معاملة مناسبة بعد دراسة حالته .

إننا فى منازلنا ومدارسنا لاننظر إلى الدوافع التى تدفع أبناءنا للقيام بأعمال قد نعتبرها مخلّة بالنظام ، وقد نعتبرها مخلّة بالآداب ، وقد نعتبرها مظاهر إهمال وعدم اعتناء ؛ وإنما نحن ننظر إلى أعمال التلاميذ نفسها فقط فنعاقبهم عليها ولا نبحث عن الدوافع لنعالجها . فالمشكلة فى هـذه الحالة يجب ألا تكون معرفة الأخطاء التى يرتكبونها فقط ، بل معرفة الأخطاء الأساسية التى ارتكبت فى حياة الطفل المبكرة ، والتى أدت إلى جعله طفلا مُشكِلا أو فاشلا .

إن تربية الأبناء تربية خاطئة وتركهم بغير علاج ، ومحاسبتهم على أخطائهم بعد ذلك ، ليزيدهم خوفاً على خوف ، وتردداً على تردد ، وقلقاً على قلق ، وإهمالا على إهمال ، وفشلا على فشل .

فائزة الرفيعى

سلطان وزارة روسيا فى الحكومة الديمقراطية ؟ ولم يكن بد لصديقك الكبير بكر من أن يرسلك سنة ١٩٣٣ من برلين إلى باريس ، ويستودعك الله ويعهد برعاية شئونك ومساعدتك إلى صديقه ما سينيون ؟ ولم يكن ظهورك على أقرانك فى باريس ، وبلوغك الذروة التى يطمح إليها أكثر العلماء ثقافة ، وما أتيح لك من التعلم فى أرقى جامعات الأرض ، وما أفاء الله عليك من خصب الإنتاج وثقة العلماء فيما تكتب ؛ لم يكن هذا كله ليسدل الستار على فكرة الأجنبى الذى يكرمه الفرنسيون من العلماء والطلاب ، والذى ترحب به باريس وتتسع له وتفتح له باب جامعتها ! فقد كان ينبغى أن يظهر هذا الأجنبى فى بلاده التى طرد منها وهو فخرها . وقد كان من حق هذا الأجنبى أن يكتب بلغة قومه ، وأن ينعم برفقة أهله وعشيرته ! نعم ، وكم كان يحلو فى عينيه منظر الجبال والوديان فى براغ ! وكم كان حلواً هذا البيت الصغير وقد ازدان مدخله بالحديقة الصغيرة ذات الورود النائمة ! وكم يعظم ، عند الذى حرمت عليه بلاده ، الحنين إليها !! أنا ياصديقى أقدر هذا كله ، وقد قرأت فى «دنيا الأمس» الكتاب الذى تركه مواطنك العظيم ستيفن تسويج قبل مغادرته الدنيا راضياً هادئاً آمناً مع زوجه البارة ، وهو مؤمن بطلوع فجر جديد لم يصبر على انتظاره ، وتمنى لأصدقائه أن يروه بعدما طال الظلام .

نعم يا صديقى ! وما كان أتفه المجد الذى أسبغته عليك كتبك عن جابر بن حيان والرازى والحلاج ! وأبحاثك عن الأوزان الشعرية فى العربية والعبرية ؛ وآراؤك فى أشعار العهد القديم ؛ وآثارك هذه الخالدة التى حملت العلماء فى كلية الهندسة فى مصر وفى فلسطين على دعوتك لتتحدث إليهم فى تاريخ العلوم عند العرب ، والتى حملتنا نحن أصدقاءك على متابعة دروسك فى فقه اللغة والنحو المقارن ، والتى جعلت لك بين تلاميذك والمعجبين بك مقاما عليا يصبو إليه المشتغلون بالبحث الحر والعلم الخالص ! ما كان أتفه هذا المجد وأقله ! كان يكفيك لأن تعيش سعيداً فى بلدك ومع أسرتك . ويشاء ربك أو يشاء كسب القوت أن تأتى مصر سنة ١٩٣٦ ، فتعطى لك الجامعة مكاناً بين أساتذتها ، فإذا بك فخر للجامعة وكسب لها . وها هى آثارك التى هى بعض ما تركت : قاعة اللغات الشرقية التى وسعت آلاف المجلدات تشهد على جهدك المحمود فى تنظيمها ، وتيسير النفع بها للطلاب ؛ وها هى مدرستك تعمل فى رسائل الجاحظ وكتاب الحيوان ؛ وها هم أصدقاؤك يعاونونك فى تعريب كتاب تفسير ورسائل الرازى ؛ وها هو يا كراوس معملك فى شارع حشمت موصدة أبوابه فى وجه مساعديك من أبرع الطلاب . وما أتفه هذا كله حقيقة يا صديقى ! فقد كان خيراً منه أن تجد الذى إذا رآك حزيناً رحم الابنة المشردة فى باريس ، وقد تركتها لتكسب قوتها وقوتك ، بعد أن حمل الألمان أمها على تركها حملا ! نعم ! خير منه أن تجد الذى يرحم من مات زوجه وهى تلد الصغيرة الجميلة التى أبعدتها منك صروف الزمان فى بيت حضانة فى القدس ! بل خير منه أن تجد من يواسيك إذ تلقيت من أختك خطابا تحدثك عما تلقى من هوان وقد أصبح أخوك عائلها من المفقودين ، فإذا هى وسط الذئاب لاحام ولا راع !!

وإنه لزمن يا صديقى قل أن تجد فيه من يرحم الذى يحيط به مجد العلم ، وتهزأ به صروف الزمان !

اللهم ارحمه ولا ترحم من أخرجه من بلاده ، فجعله وهو الزهرة التى تنشر أريجها فتنعش ما حولها ومن حولها محتاجا إلى عطف الناس ! اللهم ارحمه ولا ترحم الذى عكر عليه صفو حياته ، فجعله ينقم على ما فتح به ربه عليه ، ويسخر مما وهبه الله من ذكاء ، ويضيق بما أسبغ عليه من نعم ! اللهم ارحم كراوس بقدر ما أفاد العلم ، وبقدر ما تحمل من إيذاء !!

صديقك

يحيى الخشاب

بين المسموع والمقروء

ذكرى فيلسوف :

في الخامس عشر من أكتوبر ، عام ١٨٤٤ ، أي منذ مائة عام كاملة ، ولد رجل في قرية ألمانية غير نابهة ، لا نبالغ إذا قلنا إنه لولاه ما جرى التاريخ الحاضر هذا المجرى العنيف الدامي الذي لف الكون أجمع بكل بدعة طريفة من بدع الموت ، وكل محنة جديدة من محن العيش

لقد أعطى هذا الرجل لأمته ولأوروبا فلسفة جديدة قضت ، في كثير من العقول وفي عقول المتأخرين خاصة ، على كل القيم التي عرفها الناس منذ كان الناس ، لمعنى الخير والحق والجمال ؛ وقضت في كثير من القلوب على كل حرمة تجدها هذه القلوب للأديان ، وللدين المسيحي خاصة ؛ وأذكت في كثير من الصدور كراهة للجهود بأنهم عبيد الأمم في التاريخ القديم وجبابرتها في الحاضر الحديث . ثم هو خلق في لغة أمته ، وفي لغات الأمم ، كلمة جديدة ، هي بالألمانية Übermensch ، وهي بالإنجليزية Superman ، ولعلها بالعربية الإنسان الكامل ، الإنسان الأرقى ، أو الأعظم والأضخم ، أو أهل الإنسانية الأقوى والأمتن . وهي كلمة مهما اختلف في اللغات لفظها ، وتباين جرسها ، لا تحمل إلا معنى واحدا ، هي عبادة القوة أين كانت وكيف كانت ، والكفر بالضعف أين وجد وكيف استبان .

مولده ونشأته :

وإن تعجب فعجب لهذا الكافر بالمسيحية وهو إنما ولد من صلبها ، وتربى في حجرها ، فأبوه كان قسيسا ، وكذلك جده ؛ وكذلك أمه لو كانت ذكرا ، فقد كان أبوها قسيسا .

ولد صاحبنا الفيلسوف نتشة Nietzsche ، من أبوين صالحين ، ونشأ في أسرة مسيحية تعمل للدين ، ومن عملها ترزق . وكان في رزقها هذا كفاف من عوز . وكان في الأسرة قناعة ، وكان فيها بهجة ، وكان بها حب الشعر وحب الموسيقى . ومن أسرته استقى نتشة حبه لهذا وهذه .

ودخل المدرسة فأحسن وأجاد . وأدخلوه الجامعة ، جامعة مدينة بن Bonn ، ليتعلم الفقه المسيحي ، وليتعلم الفلسفة القديمة ، فجنح إلى فقه اللغات القديمة يدرسه . وتأثر بأستاذه رتشل Ritschl تأثرا عظيما .

وحزن أهله لتركه الفقه المسيحي حزنا كبيرا . وهو في هذه السن الصغيرة لم يكن ترك الفقه المسيحي وحده ، بل طلق ما بينه وما بين المسيحية دينا إلى الأبد .

وبلغ سن الخامسة والعشرين فعين أستاذا لفقه اللغات بجامعة بازل عام ١٨٦٩ ، وكان ذلك بنفوذ أستاذه رتشل . وبقي في بازل يدرس عشر سنوات . ثم استقال لاختلال صحته . فمنحته الجامعة معاشا صغيرا ، اعتمد عليه وعلى دخل خاص صغير في العيش طليقا ، يركد من مدن أوروبا ومواقعها ما ظن أنه أعون على استرداد صحته الذاهبة

جنونه ثم موته :

وقضى أكثر زمانه في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا . وفي تورين بإيطاليا ، في يناير عام ١٨٨٩ ، أي وهو ابن خمس وأربعين عاما ، جاءه لطف الله فجن جنونا . واختلف الناس في جنونه ، أكان من العمل الكثير المضني ، أم كان لثورة روحية باطنة ثارت ريحها هوجاء فاجتثت واقتلعت ، أم كان لخيبة في إسماع صوته لمن يرضى من الناس ، أم كان للوحدة الشديدة في الغربة في غير أنس ولا ابتهاج ، أم كان لكل هذه مجتمعة ؟

كان فيلسوفا كاتبا شاعرا ، ولكن لم يكن له تلاميذ ولم يكن له أتباع .

كتب إلى أخته قبل جنونه يقول : الواقع أني لا أشكو المرض ، فصحتي عادية ، ولكن الذي أشكوه حساسة نفسي . إني أتوق أشد التوق إلى أصدقاء خلصاء من مثلي . هات لي رفقة قليلة من رجال يستمعون لي

ويفقهون ما أقول ، يذهب كل مابي من مرض .

وعاش من بعد جنونه مع أمه في نمبرج Naumburg بألمانيا حتى ماتت ، ثم مع أخته المترملة في فيمار Weimar إلى أن مات في كنفها عام ١٩٠٠ ، بالغاً من العمر ستة وخمسين عاما ، عاش منها في يقظة الحياة خمسة وأربعين عاما قبل أن ينزل النقاب على عقله أسود كثيفا .

بينه وبين شوبنهور والموسيقار فجنر

كانت نفس نتشة من تلك الأنفس القلقة المستعدة لأن تنقلب أي انقلاب في ساعة . نشأ وترعرع على الدين ، فما كاد يقرأ بالمصادفة كتابا للفيلسوف الألماني شوبنهور ، وقد لحقه يافعاً في شيخوخته ، حتى خرج على الدين في طراوة من العمر لم يكن يُنتظر فيها كفر مؤمن أو إيمان كافر . واتخذ لنفسه هذا الفيلسوف الألماني من بعد هذا معلماً وإماماً . والتقى بالموسيقى الألماني الشهير فجنر Wagner فاتفقت أفكارهما وأمزجتهما ، وأحب موسيقاه وأغرم بها . ثم إذا به بعد حين ينقلب على هذا الفيلسوف وهذا الموسيقار . أما الأول فلأن الدراسة هدته إلى أن في فلسفته مغامز للضعف ، وهو يعبد القوة ؛ وفيها ذلك الإرث القديم البالي ، إرث المسيحية ، من تعاطف وتراحم ، وهو لا يرضى العيش إلا عنيفاً جباراً ؛ وفيها تلك السوداوية المزمنة ، وهو لا يرى الحياة إلا البهجة في قوة وصراع . أما الثاني ، صاحبنا الموسيقار ، فقد أعطاه ظهره لأنه اكتشف أن موسيقاه ، تلك التي أحب كثيراً ، وأغرم بها طويلا ، ليست إلا دغدغة لأقوام ليّني الظهور ، ضعفاء الشكائم مخنثين ؛ ليست إلا عقاراً يتعاطاه جيل هذا الناس ليذهب بالوعي عن نفسه ، فيتقبل الجيل بذهاب الوعي عما به من فساد وانحطاط وانحلال !!

مصدر فلسفته

استمد نتشة فلسفته من مصدرين : من الإغريق الأقدمين ، فيما قبل سقراط ؛ ومن المبدأ الدرويني الحديث ، مبدأ النشوء والارتقاء . أما الإغريق فقد أعطوه معنى القوة في الإنسان ، ومعنى المناصرة في الحياة ؛ وأعطوه الإعجاب بهرقل والآلهة ، وأن الحياة سلسلة من أحداث فوّارة بالحياة ، فيّاضة بالحركة ، في قمم الجبال وفي أغوار الوديان ، تستقبل عصف الرياح وانتفاخ الموج بقلب غلاّب وصدر رحب ووجه متهلل . وأما دروين فأعطاه معنى التطور . فالإنسان حيوان متطوّر ، بلغ مبلغ القرود ، ثم مبلغ الرجال ، وهو لاشك سائر إلى غايته من هذا التطور إلى الهدف الأسمى — إلى الإنسان الأكمل .

معايير القيم في المسيحية

واعتبر نتشة ما حوله من رجال ، وما حوله من أمم ، أمم القرن الماضي ، القرن التاسع عشر ورجاله ، فساءوه حالاً ، وأغضبوه رجالا ! وعلم أنهم في طور سكن عن التطور ، بل تراجع وكان من حقه أن يتقدم . ونظر في أسباب هذا الجمود وهذا الجمود ، فعلم أنه جمود قديم كان مذ كانت المسيحية ، وأن قيم الأشياء التي سنّتها المسيحية هي السبب في وقف هذا التقدم . ونظر في تلك القيم فتركّز على ما أعطته المسيحية من معنى الخير والحق والجمال . ورأى في تلك المعاني سبباً للضعف ، والضعف ليس سبيل الترقي . وأنحى على هذه المعاني بأنها معانٍ كواذب ، لا تمتّ إلى طبيعة الإنسان بسبب ، ولا تربطها بغرائزه الأولى رابطة ، إلا الرابطة التي تخلقها الدعاية التي دامت عشرين قرنا من الزمان ، وتخلقها اصطناعا . فليس في الرجل القيّم ، الذي يجري على سجيته ، من ميل للخير إلا أن يكون خداعا وانخداعا ؛ وليس به من إيمان بالحق إلا أن يكون ذلة وإذعانا ؛ وليس به من متعة الجمال إلا لذة مائعة هي أشبه بالرجل المنحل منها بالرجل الفحل الذي يهدف إلى الغاية الإنسانية الكبرى .

معايير المسيحية معايير يهودية

ومَن أوجد كل هذه القيم لمعاني الخير والحق والجمال التي خُدع بها الإنسان طول هذه الألفين من السنين ؟ أوجدها اليهود لما ضعفوا فضربوا في رحاب الأرض

أشتاتاً . وهم ما كانوا كذلك ، وما كانت هذه قيمهم لما كان لهم مُلك عزيز وملوك جبابرة أعزة . فالخير عند ذاك كان ما تراءى لهم جريئاً عنيفاً قاسياً عزاما ، وهو مع هذا ذو فرحة ضحاك .

ثم ذهب مُلكهم فخضعوا وذلوا ، وغيّروا قيمهم تبعاً لذلك ، فصار الخير عندهم ما كان حذراً وتواضعاً ومداورة وسلاما ، وصفعةً على الخد الأيمن تتلوها أختها على الخد الأيسر . وصار الشر عندهم اعتداداً بالنفس ومشية القوة ، والضحكة العالية الفاجرة ، أو التي أسموها فاجرة ، لأنها ضحكة الأسد لايبالي أي إذن أسمع ، ولا أي مضجع أقلق ونوم جفن أطار .

والرأي عند نتشة أنها هذه اليهودية السامية هي التي نشرها الدين المسيحي في الأرض ، وقام عليها قساوسته بالدعاية كما يقوم دعاة الساسة ، فساد الضعف والخذلان ، وتراجع الإنسان عن غايته الكبرى تراجعا كبيراً . فهؤلاء القساوسة هوّدوا أوروبا وهم لا يشعرون . والناس تهوّدوا وهم لا يحسبون .

الديمقراطية يهودية مسيحية

ومن جرّاء هذه القيم للخير والحق والجمال كانت الديمقراطية . أليست هذه القيم تقضي بالحنو على الضعيف ؟! أليس أن المسيح شاء لنفسه أن يُصلّب ويعذّب ويُهين لخلاص الضعفاء ؟! أليس صاحب القوة والسلطان وصاحب المال إلى النار ؟! وهل في معنى الحق غير المساواة ؟!

وخرج الناس من كل هذا على المساواة بين أعالي الناس وأسافلهم ، وبين القادرين والعجزة ، فصاروا قطيعا واحداً أشبه بالخراف سمةً ومظهراً . فبدل أن يتطوّر الإنسان بالتقدم والتوثب ، ربطوه بالنعاج التي ارتبطت بالأرض وقنعت بالحسيس من حشائشها . وما بالرجل المتطوّر مُسكت في أرض أو قناعة بعيش ! إنه لا خلاص للدنيا ، ولا عودة بالإنسان إلى ما أرادته الطبيعة له من بلوغ الكمال إلا باطّراح ما خلّفته اليهودية من قيم أخلاقية ، وباطّراح ما نتج عن هذه القيم من ديمقراطية تأباها حوافز الإنسان الطبيعية .

شعب الله المختار :

ومن أقوى هذه الحوافز حب الغلبة ، ومشيئة الإنسان لحيازة القوة .

والقوة لن يحوزها كل الناس ، ولا كل الأجناس . إنما يحوزها من الناس من أهلتهم الطبيعية لهذا قوةَ أجسام وقوةَ عقول . فهذا الجنس لابدّ أن يتقدّم وتتأخر الأجناس . لابد أن يعيش ويسيطر وتنضمر الأجناس من بعد حين وتموت ؛ كما يحدث في تطوّر الطير والحيوان تماما . وهذا الجنس الأقوى ، شعب الله المختار هذا ، هو الذي يكون له حكم الأرض من بعد ذلك .

خاتمة :

وبعد ، أفليست هذه النازية بعينها . ومسألة الدماء ، الدماء الآرية والسامية ، أليست هذه غير ثياب جديدة ألبسها القرن العشرون لصنم القديم ، صنم القرن التاسع عشر الذي نحته نتشة فسوّاه وأقامه ؟! والعداء للديمقراطية ، وفتح مدارس لتنشئة الحكام لا يدخلها من الألمان غير كل مختار ، أليست هذه إلا نوافح نتشة وتواصيه ؟! وشعب الله المختار ، أليس هو الشعب المتطرى ؟!

والعجب العُجاب أن نتشة لم يكن ألمانيا أصيلا . وما أحسبه أنه أراد بشعب الله المختار الشعب الألماني . فقد كان نتشة من أصل بولندي بعيد ! وكان يصف نفسه بأنه أرستقراطي بولندي .

ومع هذا يأبى الألمان على نتشة إلا ألمانيته . وهم يحتفلون بذكراه كما حان حينها . واليوم ، في ذكراه المئينية ما أحراهم بإحياء هذه الذكرى . ولكني أحسبهم اليوم في حال غير ما وصف فيلسوفهم من حال ، وإلى مآل ماتنبأ به متنبئهم من مآل !

أحمد زكي

رحلة فى جانبولاد

أطبق علىّ الخبيث الصغير وقال :

لقد أعفيتك ١٥ يوما كاملا كنت تتظاهر فيها بأنك مشغول ، فصبرت عليك لا أتقاضى منك حتى فى تلك الحكايات الصغيرة التى كان لى منها واحدة فى كل مساء . والآن تريد أن تسترسل فى هذا الذى تشغل به نفسك ، ولكن الصبر الجميل أوشك أن يعى ويتضعضع — كما تقول « صاحبة العصمة » فى بعض أغانيها — فهيا سدّد ولو قسطا واحدا مما عليك .

قلت : يا فتى إنك تطلب شططا ! فهل تريدنى أن أحفظ خمس عشرة فكاهة جديدة فأقصها عليك؟ إنى لا أعثر على الواحدة إلا بشق النفس . وإن الدائن العاقل لا يرضى أن يثقل على مدينه مرة واحدة حتى يضمن بقاء حبل المعاملة متصلا بينه وبين مدينه ؛ فهلا اكتفيت بحكاية واحدة تبدأ بها حسابا جديدا ، ويعفو الله عما سلف ؟!

قال : أمرى معك لله ! هات ما تريد والسلام . ولعل الله يعوض صبرى خيراً ، فتكون نكتة الحكاية من النوع الجيد الذى يغنى قليله من كثيره .

***

وسرنى أنى كنت قد ظفرت قبل ذلك بأيام قليلة بنسخة من كتاب «جحا فى جانبولاد» ، الذى أخرجه الأستاذ فريد أبو حديد فى الشهر الماضى . فاستمهلت صغيرى سويعات ريثما أراجع هذا الكتاب ، على أمل أن أجد فيه ضالتى - وهل يمكن أن يوجد جحا ولا توجد القصص الفكهة والنوادر المرحة ؟ ....

وأقبلت على الكتاب وأنا أفرك يدىّ فرحا ، وأتلمظ سلفا على ما سوف أجده فيه من الفكاهات والدعابات والطرف والملح . ولكنى ما مضيت فيه قليلا حتى تجلت لى روح الفلسفة التى تشعّ من بين سطوره ؛ وإذا أنا أتقلب فيه بين رياض وغياض من الحكمة والتفكير القوى . ثم إذا كل إناء ينضح بما فيه ، وإذا جحا بين يدى أستاذنا الكبير رجل فقيه زاهد وفيلسوف مقتدر ، لا تكاد تظفر منه بشىء من الفكاهة يذكر ، ولكنك تجد عنده ما شئت من الخطرات الفلسفية فى العلم والدين ، والسياسة والاجتماع ، والتربية والاقتصاد ، وعشرات الموضوعات الأخرى التى لو حاولت عرض شىء منها على صغيرى لما رضى أن يلقى علىّ بعدها تحية الصباح .

استمع مثلا لجحا كيف يقول :

كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا فى أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة ، لأنى أخذت نفسى بما علمت . والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور . سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة ؛ فليس بى من حقد أن يذهب به الناس ويستأثروا به ، حسبى من الدنيا ما أصبت من رزقى الضئيل ! ولكن الذهب شىء ، والكرامة شىء آخر ، ولا علاقة بين هذه وذاك ؛ فالكرامة حق وهبه الله الناس منذ خلقهم ناسا . فإذا كانت « جانبولاد » تهب لى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها (ص ٦١) .

ثم استمع إليه أيضا وهو يحكى :

— قال لى صاحبى : إنه من التعسف أن نكلف الناس ما تأباه الطباع ؛ فهل تطمع فى «جانبولاد» أن يحرم الناس أنفسهم بعض مسراتهم فى سبيل إطعام الجائع أو كسوة العارى أو مداواة المريض ؟ — ثم أردف قائلا : من شاء الخير فليتدسس إلى الشهوات ! ..... وأخذنا ندبر خطتنا على هذا الأساس ..... وكان نجاحنا منقطع النظير ، وانهال علينا المال انهيالا ؛ فأمكنتنا أن نطعم الفقراء ، ونكسو المساكين ، ونعين المرضى على الدواء . ولكنى مع هذا النجاح كنت أحس أنى أخطأت سبيلى ، وأنى أحيى

ألف سيئة في سبيل حسنة واحدة . وكنت أحس أن الله لن يرضى عن عملي ، فما كان الله ليبارك في خير جاء من سبيل الشهوات !......

واستمع إليه أيضاً :

قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل ...... أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا في العمل — العمل الدائم وإن تغير وتنوع . ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل في سواه (ص ٨١) .

وتأمل ما يقول في صحيفة ١٠٥ وهو من أقوى ما يمكن أن يقال في مثل هذا المقام :

ما أكرم مساكين « جانبولاد » ! ليس لبلد أمل في الحياة إذا فقد مساكينه ، فهم الأيدي ، وهم الأرجل ، وهم القلوب ، وهم الأحشاء — ولكن الطغيان أعمى ولا سبيل إلى فتح عينيه إلا بأن يظهره المساكين على أنه لا حياة له من غيرهم . يستطيع المساكين أن يعيشوا في الأرض الفسيحة ، فإن عندهم الأيدي والأرجل تعمل وتسعى ، وهم يجدون وطناً حيث يحلون .. لم أشك في أن « تيمور » قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين الذين أرادوا الخروج من جانبولاد .

أيها الأشقياء ! لو أطلعتم على ما في قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم ما تطلعون عليه . إنهم يخشونكم وأنتم صرعى ، ويعرفون ضعفهم وقوتكم !!

واستمع إليه وهو يتم هذا المعنى :

— السوقة والرعاع ؟ .... من هؤلاء ؟ ... لا أعرف سوقة ولا رعاعاً إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فساداً ! وأما رجل الحقل الذي يلوث يديه بالطين ويسير عاري القدمين ممزق الثياب ، فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين (ص ١٠٨) .

— ليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب به صاحب السلطان ! (ص ١١١) .

— لقد مررت يوماً بغابة ، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشرات . وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التي أعدها الله للإنسان : أن يعيش على قانون الرحمة والحب ، لا على القانون الطليق الذي يحكم الغابة . ولكني كلما تأملت بدا لي أن من بني الإنسان من يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن يمسخوا الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعاً فيما يصيبونه من وراء ذلك من مجد حيواني وحشي . وهؤلاء ليسوا سوى نكسة من نكسات الحياة ، وفلتة من فلتات أقدام الإنسانية في صعودها نحو العلا (ص ١٢٨) .

— إن الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا التماسها ، وياليتهم إذا أرادوا البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضبع إلى فريسته مكشراً صريحاً لا يعرف مواربة ولا رياء . ليتهم يفعلون ذلك فيلغوا العذر ، لأن هذا هو قانون الغابة ، ولا بأس فيه على القوي إذا سطا بالضعيف ! ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمونه من القواعد ويسمون ذلك عدلاً ! (ص ١٠٠) .

الخ ... الخ ...

* * *

فيارحمة الله لعقل الطفل الصغير من كل هذه النظرات النافذة في عالم الفكر والحكمة . لقد تركت هذا (الجحا) الفيلسوف وطفقت أطوف بكتبي الأخرى التي أعرف أني قد أجد فيها ما ينشده الصغير من الحديث الخفيف ، فوفقت ولله الحمد على هذه النادرة .

يروى أن أحد شيوخ خراسان كان يأكل ، فمر به رجل فسلم عليه فرد السلام ، ثم قال له : هلم عافاك الله ! — يدعوه بذلك إلى طعامه — فلما نظر الخراساني إلى الرجل وقد اتجه إليه وقف مذعوراً وقال له :

— مكانك ! فإن العجلة من الشيطان .

قال الرجل : ألست قد دعوتني إلى طعامك ؟ !

قال الخراساني : ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام !

المسألة كما يأتي : أنا الجالس وأنت المار ، تبدأ أنت فتسلم فأقول أنا حينئذ مجيباً : وعليكم السلام . فإن كنت لا آكل شيئاً سكت أنا بعد ذلك وانصرفت أنت . وإن كنت آكل فهاهنا بيان آخر ... وهو أن تسلم فأرد السلام ، ثم أقول لك : هلمّ ! فتجيب أنت تقول : هنيئاً ! ثم تنصرف . فيكون كلام بكلام . فأما كلام بطعام ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف !

***

فلما فرغت من حكايتي نظر الصبي إليّ وقال :

— أهذا الذي أضعت يومك بين الكتب في البحث عنه والتنقيب عليه ؟ إذن ما أشد إفلاس هذه الكتب إن كان هذا خير ما فيها ! إن نسخة واحدة من جريدة (البمكوكة) خير من كل ما حوته هذه الخزائن التي تحيط بك من كتب مفضضة ومذهبة ، ومجلدات مرصوصة عليها كل سمات هيئة كبار العلماء !

قلت : اقصد بأنني ! فهذا جهد ماقي كتبي ، فأرني أنت جهد ماقي (بمكوكتك) إن شئت أن تفاضل بين ما عندي وما عندك !

قال : دونك إذن هذه الحكاية ، وأنت الرابح في صفقة هذا النهار الأسحم على كل حال ...

— يحكى أن جندياً من جنود الدولة الخليفة مر في حي من أحياء القاهرة ، فرأى عرساً يقام في منزل عظيم تزدان جدرانه بالأنوار الساطعة المتلألئة ؛ فحدثته نفسه بأن وراء الأكمة ما وراءها . وأحب أن يعرف كيف تكون الأعراس عند المصريين . ولم يكن معه من يأخذ بيده . فخالات الزفاف ليس لها (تراجمة) بعد كتراجمة الأهرام وأبي الهول . وبينما هو يفكر فيما يصنع ، إذ رأى أمامه لوحتين : وضعت واحدة منهما على كل باب من بابي المنزل . وكان على اللوحة الأولى : «باب دخول المدعوين» ، وعلى اللوحة الأخرى : «باب دخول المدعوين» . فدخل من هذا الباب الثاني وهو يعلم أنه ليس مدعوا . ولكنه لم ير بأساً في ذلك ، ففي ميدان الأفراح عادة متسع للجميع . على أنه ألفى نفسه بعد خطوات أمام بابين آخرين علقت على أحدهما لوحة كتب فيها : «باب دخول من يحملون الهدايا» ، وعلى الأخرى «باب دخول من ليست معهم هدايا» ؛ فرأى ألا يتورط في دخول الباب الأول مادام لا يحمل معه شيئاً ، ودخل من الباب الثاني . فلم يكد يتجاوزه إلا قليلاً حتى رأى نفسه في الطريق العام مرة أخرى ! ولكن فاتني أن أذكر لك أهم كلمة في الحكاية ، وهي أن هذا العرس كان في بيت أحد اليهود ....

قلت : ما أحسن حكايتك ! ولكن هل تعرف الآن مقدار الفرق بين كتبي وبمكوكتك ؟

قال : قل !

قلت : إنك تدخل بهذه البمكوكة في ميادين العلم من باب الذين لا يحملون الهدايا فتخرج بها إلى الطريق العام من جديد ؛ أما أنا فأدخل بكتبي من الباب الآخر فأجد وراءه ما أشربه وما آكله !

ع . ج

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

ذكرى ضائعة

أبعدَ بَيْنِيَ بالصبا والأهل والوطن
أبكي الغداة على الأطلال والدمن ؟
أودى الشباب فلا بالدمع يرجع لي
ولا أمانيه يدنيني بالحزن
مضت على رمش الأيام خاطفة
كالحلم حولي فلما انفض أيقظني
ورحت أنظر ما حولي فما نظرت
عيني سوى غريب الأهل والوطن
كأني لم أكن حيا ولم أك في الد
نيـــا ولم أر أيامي ولم ترني
أعيش في الوهم كالصهباء عتقها
دن السـنين وأغلتها يد الزمن
أباع في حانة الأقدار لا ظفرت
يدي بنشوة ســكير ولا ثمن
كأني العود في صمتي فتضربه
أيدي الزمان ليبكيني ويسمعني
فضاع في ضجة الدنيا صداي فلا
أسمعت صوتي ولا التاريخ ردّدني !!

كامل أمين محمد



طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٠٥ — الثلاثاء ١٤ من ذي القعدة سنة ١٣٦٣ — ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مشكلة فلسطين

تحت هذا العنوان نشر الدكتور حليم حبيب دوس بحثاً فى الثقافة (عدد ٣٠٠) ، عرض فيه المسألة الفلسطينية عرضاً خرج منه القارئ على أن النزاع حول فلسطين هو نزاع بين الصهيونية والعروبة ؛ كما قال إن الحرب الأوربية الأولى انتهت بعد أن قطعت إنجلترا على نفسها عهدين أولهما للعرب أخلفته وثانيهما لليهود أنجزته . والواقع أن تصور المسألة الفلسطينية بهذه الصورة يتفق والسياسة الاستعمارية ويخالف الحقيقة والواقع ، فلو كان النزاع حول فلسطين قاصراً على العرب والصهيونيين لهانت الأمور وتيسرت الأمور ؛ لكن المشكلة الفلسطينية قبل أن تكون قضية العرب واليهود هى قضية إنجلترا والإمبراطورية البريطانية . فالتاريخ يحدثنا أن الجنرال اللنبى وقف فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر عام ١٩١٧ أمام باب يافا بالقدس وقال جملته المشهورة : « إن الأرض الموعودة ليست للعرب أو الفرنسيين أو اليهود وإنما للإنجليز » ! وعد الجنرال اللنبى بلاده فلسطين ، وكان وعده هو الوعد الرابع ، إذ سبق أن وعدت بها إنجلترا العرب فى أكتوبر عام ١٩١٥ ، والفرنسيين فى مايو عام ١٩١٦ ، واليهود فى نوفمبر عام ١٩١٧ ، ووعدت إنجلترا نفسها فى ديسمبر من العام نفسه . لذلك تهكم الساسة الغربيون على العهود الأربعة التى قطعت ، والوعود التى بذلت ، وأطلقوا — على فلسطين : « الأرض التى تعدد الوعد بها » — « too much promised » .

مشكلة فلسطين قديمة ، وأقدم من مؤتمر بال الصهيونى الذى عقد فى سويسرا عام ١٨٩٧ . فنحن نعلم أنه فى القرن التاسع عشر انتشرت بين أشراف الإنجليز فكرة (إرجاع

اليهود (Restauration of the Jews) ادعاء منهم أن رسالة المسيحية التي انسلخت من اليهودية لن تتم إلا بإرجاع هؤلاء اليهود إلى فلسطين . ولعل هذه الفكرة كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالحقوق السياسية والنيابية التي نالها اليهود في إنجلترا ، والتي تقتضاها أسسوا عام ١٨١٧ ما يعرف بجمعية نواب اليهود البريطانيين (Board of Deputies of British Jews) . وقد شغلت هذه الفكرة الرأى العام البريطاني كثيراً حتى أثناء حروب إنجلترا مع محمد على باشا عام ١٨٤٠ ، حتى قال إرل أف شفتسبري (Earl of Shaftesbury) لوزير خارجية إنجلترا في ذلك الوقت وهو (بلمرستون) : إن الوزير أرسل من قبل الله لإرجاع اليهود إلى فلسطين . والواقع أن اهتمام إنجلترا بفلسطين في ذلك الوقت لم يكن رغبة في تحقيق رسالة المسيحية أو مساعدة اليهود ، بل لمصلحة الإمبراطورية البريطانية . ففلسطين تتصل بالشام ومصر ، وفلسطين تقع على طريق الهند كما أشار بذلك صراحة الكولونيل (جولر Gawler) عام ١٨٤٥ في كتابه من سوريا . والكولونيل نفسه هو الذى زار عام ١٨٥٠ فلسطين ورفقته زعيم يهود إنجلترا ورئيس جمعية النواب اليهود ، ألا وهو موسى مونتفيور . وهذا اليهودى هو الذى نجح في إدخال عدد كبير من أعضاء جمعية النواب اليهود في طبقة أشراف إنجلترا ، حتى إننا نجد من بين أعضائها في القرن العشرين أمثال السير هربرت صموئيل ، ولورد روتشيلد ، والسير روبرت ولى كوهين ، ولورد بيرستد ، ولورد ملشت ، ولورد ريدنج ، الذى كان نائباً للملك في الهند من ١٩٢١ — ١٩٢٦ ، ووزيراً لخارجيتها عام ١٩٣١ ؛ وهؤلاء وغيرهم من بين الذين وجهوا سياسة إنجلترا التوجيه الخاص نحو الشرق العربي وفلسطين .

لكن يهود القارة الأوربية تنبهوا للأغراض التي ترمى إليها إنجلترا من وراء سياستها نحو اليهود وفلسطين ، فسارعوا إلى تنظيم أمورهم بفضل (تيودور هرزل) المؤسس الحقيق للصهيونية . ولما رأت إنجلترا أن المسألة كادت تخرج من يدها ، بادر وزير مستعمراتها في ذلك الوقت (جيو تشمبرلين) إلى استدعاء (هرزل) إلى إنجلترا ، وعرض عليه عام ١٩٠٣ وطناً قومياً لليهود ، لكن ليس في فلسطين بل في أوغندة ، وكان الوسيط بين الطرفين هو المحامي لويد جورج . ووزير الخارجية (أرثر جيمس بلفور) الذى شاءت المقادير أن تضمه في نفس المنصب عام ١٩١٧ كما وضعت لويد جورج رئيساً للوزارة .

عرض (هرزل) هذه المنحة على المؤتمر الصهيوني السادس الذى عقد في بال عام ١٩٠٣ فرفضت . وأدرك الإنجليز أن اليهود يلحون في المطالبة بفلسطين ، وأدركوا أيضاً أن روتشيلد أمد يعد اليهود بالأموال الطائلة لاستيطان فلسطين ، فعدلت عن عرضها الأول وأخذت تتحين الفرص لتحقيق أغراضها . ثم أعلنت الحرب الأوربية الماضية ، وإذا بأستاذ الكيمياء في جامعة منشستر وهو (حاييم فيزمان) يعد نفسه لتزعم الحركة الصهيونية . ويأتى عام ١٩١٦ فيستدعى من الجامعة إلى وزارة الذخائر الحربية حيث كان (بلفور) وزيراً للبحرية . ويلتقى الاثنان ويدور بينهما حديث ، وكان حول فلسطين ؛ وذلك لأن إنجلترا أدركت بعد مضى عامين من الحرب أن كسبها مرهون بإشراك أمريكا التي آل الحكم فيها إلى الحزب الديمقراطى نصير اليهود وحاميهم . لذلك سافر (بلفور) إليها ومضى هناك عام ١٩١٧ ليدرس الأمور عن كثب ؛ واقتنع أخيراً بأن نفوذ اليهود في البيت الأبيض عظيم جداً ، وأن إنجلترا لن توفق في ضم أمريكا إلى صفوف الحلفاء إلا إذا نجحت في كسب عطف اليهود هناك وإشراكهم في المسألة الفلسطينية . وقد أطلع (بلفور) على هذه الرغبة صراحة

اليهودي (لويز برنديز) أكبر الحائزين لثقة الرئيس ولسون وأعز أصدقائه في أبريل سنة ١٩١٧ . فرض بلفور رأيه على حكومته فاقتنعت به؛ وأرسلت لوقتها يهودياً إنجليزياً وهو السير روفوس إسحاق (اللورد ريدنج نائب الملك في الهند فيما بعد) إلى أمريكا للاتفاق مع اليهودي الأمريكي (لويز برنديز)؛ وكانت نتيجة الاتفاق اعتراف إنجلترا بجعل فلسطين الوطن القومي لليهود ، وعضدت الحكومة الأمريكية هذا الطلب وقدمته إلى مجلس الوزراء البريطاني . وهنا نجد الحكومة البريطانية تترك أسلوبها السياسي التقليدي ، وتوفق بين مصالحها وأماني اليهود القومية؛ وذلك لأنها لو وافقت على المشروع كما عرض عليها لخسرت بترول الموصل والطريق إلى الهند ، والدفاع عن قنال السويس والشرق الأدنى .

ولعل الفضل في إصدار تصريح بلفور الغامض المكون من ثمان وستين كلمة ، والذي يعترف صراحة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مع المحافظة على الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من سكان البلاد ، يرجع إلى المدرسة الإنجليزية المصرية التي وضع حجر أساسها اللورد كرومر ، والتي كان عملها قاصراً على وادي النيل والحجاز والشام . ومن أكبر شخصيات تلك المدرسة (أوبري هربرت) أحد رجال قلم الاستعلامات السري و (ت . لورنس) و (ملنر) . وكانت تلك المدرسة تميل إلى جعل السيادة البريطانية في الشرق العربي مقسّمة؛ وأن تعترف إنجلترا لسائر الشعوب العربية بحق تقرير مصيرها واختيار نوع الحكومة التي تريدها ، أو تسمح لها بأن تكوّن فيما بينها حلفاً تحت إشرافها .

وقد خطت الحكومة البريطانية فعلا الخطوة الأولى في سبيل تحقيق تلك الأغراض عام ١٩١٣ ، إذ بدأ اللورد كتشنر الاتصال بالأمير عبد الله (أمير شرق الأردن الحالي) أحد أبناء شريف مكة . وفي يوليه ١٩١٤ ظهر الأمير مرة أخرى في القاهرة لمباحثات سرية مع الإنجليز . ثم أعلنت الحرب ، والأمير في الأستانة . ولم تكد تركيا تعلم أن روسيا انضمت إلى الحلفاء حتى سارعت إلى ألمانيا . وعجّل الأمير بالعودة إلى القاهرة ، وضاعف الإنجليز نشاطهم لكسب العرب إلى جبهتهم ، فكتب كتشنر خطاباً إلى الشريف أرسله مع ابنه؛ فطالب حسين باستقلال سائر البلاد العربية (ما عدا عدن) ، وكان ذلك في خطابه المؤرخ ١٤ يوليه ١٩١٥ . ثم حدث أن خلف السير مكماهون اللورد كتشنر ، واستؤنفت المراسلات بين السير هنري مكماهون وبين الشريف ، وانتهت إلى وثيقة ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ التي أجاب فيها الإنجليز مطالب العرب كاملة ، وكان هذا هو الوعد الأول الذي أيدته إنجلترا فيما بعد بالاشتراك مع فرنسا في وثيقة أخرى بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩١٧ ، وما زالت هذه الوثيقة مع سائر الوثائق في عمان ، وثانية بتاريخ ٨ فبراير ١٩١٨ . وفي ٩ نوفمبر بلغ الممثل الفرنسي في وشنجتون الرئيس ولسون اعترافات حكومته والحكومة البريطانية للعرب ، هذه الاعترافات القائمة على مبدأ حق تقرير مصير الشعوب . وبناء على هذه الاعترافات وتلك الوعود قاتل العرب إلى جانب الحلفاء هذا القتال الذي قال عنه الجنرال اللنبي أمام مؤتمر الدول الأربع الكبرى : إن مساعدة العرب لا يمكن تقديرها . ولما عقد مؤتمر السلام بباريس ، وتعارضت مطامع فرنسا مع وعود إنجلترا ، قال لويد جورج أمام ولسون : لقد حشدت بريطانيا ألف ألف جندي لمحاربة تركيا ، وبالرغم من ذلك لم تستغن عن مساعدات العرب!

لكن بينما توفق إنجلترا في الشرق إذ بالقدر يقسو عليها في الغرب ، فتهزم جيوشها في ٢٠ ديسمبر ١٩١٥ في غاليبولي ، وتجلو منها نهائياً في ٩ يناير ١٩١٦ وفي كوت

ـ الإمارة بالعراق ـ اضطر القائد الإنجليزي (تونزهند) إلى التسليم في ٢٩ إبريل من العام نفسه ، فانتهزت روسيا وفرنسا حاجة إنجلترا إلى مساعدتهما وطلبتا منها بعض الامتيازات التي أقرتها إنجلترا في الاتفاقية المعروفة باتفاقية (سيكس — بيكو) في ١٦ مايو ١٩١٦ . وقيدت إنجلترا نفسها فيها بوعود لفرنسا تتعارض مع وعودها للشريف ووثيقة مكماهون التي لم تسمع عنها فرنسا إلا في مؤتمر السلام الذي عقد في ربيع ١٩١٩ . وكانت هذه الاتفاقية هي وعد إنجلترا الثاني . أما الوعد الثالث ، فقد كان لليهود في نوفمبر ١٩١٧ ، والرابع وعد الملك لإنجلترا في ديسمبر من العام نفسه .

نجحت الدسيسة الإنجليزية الصهيونية في الاحتفاظ بالسيادة البريطانية على فلسطين . وفي عام ١٩٣٠ أعلنت انتدابها وأصبحت المشكلة الفلسطينية أعقد من ذنب الضب . في الموصل آبار البترول وفي حيفا تنتهي أنابيبه ، وفلسطين ضرورية جداً من الناحية الاستراتيجية لكل دولة تريد أن تهيمن على الشرق الأدنى ، أو تشرف على العلاقات بين الشرقيين أو الشرق والغرب . فلسطين إذاً يجب أن تبقى بريطانية ، ويجب أن تدافع عنها بريطانيا بمختلف وسائل الدفاع ؛ تدافع عنها ضد العرب وضد اليهود وضد التيارات السياسية العالمية . لكن العرب يدركون تماماً أن البلاد بلادهم ، يؤيدهم التاريخ ويعززهم الواقع ، فهم أسبق إلى فلسطين من بني إسرائيل . فالتاريخ يحدثنا أن تلك البلاد قطنها عنصران قبل أن يخرج الإسرائيليون إليها أحد العنصرين سامي ، وكان يتكون عادة من البابليين فالكنعانيين فالآراميين فالعرب ؛ وبعدهم جاء العنصر غير السامي وإليه ينتمي الحيثيون والفلسطينيون الذين نسبت البلاد إليهم ؛ ومن بعدهم جاء بنو إسرائيل . ولم يكد يستقر اليهود في البلاد حتى سباهم الأشوريون في القرن الثامن والبابليون في السادس ، وشتتهم البطالسة وطاردهم الرومان وأحرقوا معبدهم عام ٧٠ م ، كما أطلقوا على أورشليم (إيليا كابيتولينا) . واستمر حال اليهود كذلك بين اضطهاد الوثنية والمسيحية وتشريد اليونان والرومان ، حتى جاء الإسلام فحنا عليهم وأحسن إليهم ، وبعث فيهم الرغبة في الحياة والاستعداد للمساهمة في تشييد الحضارة وقيام المدنية . واليهود أنفسهم يقررون أن الفضل في ازدهار علومهم وآدابهم في مصر وشمال إفريقية والأندلس وسائر الأقطار الإسلامية يرجع إلى الإسلام والمسلمين . كل هذه المعلومات يعرفها العرب حق المعرفة ، فهم حريصون على الاحتفاظ بفلسطين وطن الآباء والأجداد ؛ والمسلمون حريصون عليها أيضاً لأنها بلد المسجد الأقصى ؛ والشرق العربي حريص عليها لأنها الحلقة التي تربط بين أطرافه ، والحجر الأساسي لبناء صرح الوحدة العربية .

دكتور فؤاد حسنين

على هامش الحكم

فى ثنايا حديث

جرى الحديث فى المجلس عن مصر ؛ وأى حديث تنبسط إليه النفوس انبساطها إلى حديث مصر ؟ إن الآمال لتستشرف المستقبل ، وإن الآلام لتطل عانية من ثنايا العبر المتكررة فى الماضى ، وإن القلوب لتتأمل هذه وتلك فى عزة مخلصة لا تحمل على الآلام حقداً ، ولا تستسلم للآمال غروراً . بل تتطلع إلى الغد راجية أن يكون خيراً من الأمس فى خشوع المجرب الذى عركته الحادثات ، وخرج من بينها بندوب تذكره بالنضال الطويل . وكانت الساعة صافية هادئة تجردت فيها النفس من الأهواء ، وسبحت فى عالم المثل والصور ، حتى شعرنا بأن المجلس يغشاه ضوء أزرق رفيق من أضواء الأفق الأعلى .

وكان النيل يجرى تحت أعيننا ، ذلك النيل الذى شهد تصرم الأجيال وتقلب الدنيا بين الدول والأجناس ، فكان يذكرنا بمصر الخالدة التى ابتنت على ضفافه مدنية وحيدة فى عالم موحش مقفر من المدنيات ، والتى عاشرت أمم العالم واحدة بعد واحدة ، حتى وقفت فى هذا القرن العشرين مرة أخرى فى مفترق الطرق ، تدعو بنيها أن يشدوا النطاق حول الأوساط ، وأن يستعدوا للوثبة الجديدة مع المدنية الجديدة .

لقد كان ذكر مصر فى ذلك المجلس عطراً للجو ، ونشوة للفكر ، وعلالة للقلب المتوثب القلق ! ولقد خيل إلىّ وأنا فى ذلك المجلس أن قلبى ينفث لهباً بعد أن حسبته قد اكتهل وهدأ ، وأحسست الشعلة القديمة تشب فجأة لتدلنى على أن الجذوة لا تزال هناك تتقد فى طى مكمنها ، ولا تزداد على الأيام إلا تمعقاً .

كان الجمع من الأصدقاء فى منزل الدكتور بهى الدين بركات باشا ، وهو غنى عن التقديم لأهل مصر جميعاً ، فلا حاجة بنا معه إلى تقديم . غير أن شيئين فيه يقربانه إلى «الثقافة» ويجعلانه من أسرتها . فهو رجل من رجال الفكر الحر ؛ والثقافة ما زالت منذ نشأتها منبر الفكر الطليق . وهو رجل وهب نفسه لمصر كافة غير مقيد بحزب ، بل يخدم الحقيقة وحدها ، والثقافة منذ أوليتها تهب نفسها لمصر كافة ، ولا تخدم إلا الحقيقة وحدها .

وتشعب الحديث وتدفق حتى بلغ الحكم ومسئوليته أمام الأمة ، فقال أحد الأصدقاء مشفقاً : «لقد شاعت فى البلاد التهم حتى سادت الظنون ، ولا ندرى إذا صحت مقالة السوء هل يمكن الإصلاح ؟»

فانبرى صاحب الدار يتحدث فى صوته الهادئ : «ليس من الحق أن نحكم على الأمة بما نراه على ظاهرها . لم توجد أمة فى العالم جمعت كل الخير ، ولا أمة اجتمع لها كل الشر . هكذا كانت الأمم قديماً وحديثاً ، وهكذا الأمة المصرية اليوم . فكل شعب يضم ثلاثة صنوف من الناس : صنف من الأخيار الذين يميل بهم الطبع إلى تحقيق الخير ، وهؤلاء طائفة صغيرة تختلف نسبتها إلى جمهور الشعب ؛ فقد تزيد فى بعض البلاد ، وقد تنقص فى الأخرى ، ولكنها فى كل الأحوال قليلة إذا قيست بمجموع الأمة . وهناك صنف آخر من الأشرار الذين يتصفون بالجرأة على مقارفة الشر ؛ وهم كذلك فئة قليلة إذا قيسوا بمجموع الأمة . وأما كثرة الناس والسواد الأعظم من الأمم ، فأفراد يجاهدون فى غمار الحياة ، فيهم دوافع كامنة غامضة ، لا يوجبون على أنفسهم واجباً فى الخير ، ولا يقحمونها قسراً فى مقاحم الشر ؛ وهؤلاء قد ينصرون كتيبة الخير ، كما قد تنتصر بهم كتيبة الشر ، لأن فيهم عناصر كل ذلك متفاوتة كامنة . ومن هنا تتمثل لنا

مسئولية الحكم . فإذا أتيحت الأمة قيادة من الأخيار أظهرت كل ما في سواد الشعب من عناصر النبل والكرم والإيثار والتضحية ، وإذا تولت شئون الأمة قيادة من الأشرار ، أظهرت كل ما في سواد الشعب من الجشع والأثرة والظلم والقسوة » .

وساد المجلس صمت قصير . ونظر صاحب الدار إلى ما وراءه نحو النهر الساكن الذي كان يتلألأ تحت أنظارنا . ثم انطلق صوت متحمس فقال :

« وهكذا استطاع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يسمو بالعرب مع رسالته إلى أعلى الآفاق ، وهم هم العرب الذين كانوا من قبل أضيع الأمم شأناً » !

— وقال صوت آخر :

— وهكذا استطاع سعد أن يحدث في مصر تاريخ نهضة .

وقال ثالث في حيرة :

« ولكن هذا الرأي يبرئ الأمم من تبعات الحياة ، ويجعل الحكم هو المسئول وحده ، مع أن روح الحكم أحرى أن يكون صورة من روح الأمة » وتطاولت الأعناق نحو السائل تتحفز للجواب ؛ وسبق صاحب الدار هادئاً فقال :

لاشك في أن الحكم والأمة يتكاملان في الصورة ولو بعد حين ، بحيث تسمو الأمة في مجموعها بسمو الحكم بغير شك ، وحيث تسف الأمة في مجموعها يوشك الحكم أن يتبعها إلى الإسفاف . ولكن الذي يأخذ بيد الأمة نحو العلا أو يتدهدى بها إلى الهوة هو رأسها . هم قادتها المسئولون عن مصائرها .

فعاد السائل فقال :

ولكن الأمة تختار قادتها ، وهم يكونون على صورتها ، فالمسئولية الكبرى عائدة إليها لأنها هي التي أخرجتهم على الصورة التي تختارها ! نعم . قد يفرض بعض الناس سلطانهم على الأمم قسراً ، ولكن سلطانهم لا يدوم إلا حيناً قصيراً مادامت لهم القوة على القسر والإرغام ؛ ثم تعود الأمم فتنطلق وتختار لنفسها .

فقال صاحب الدار في حرارة :

لك أن تقول ذلك بغير شك . فالأمة هي التي تختار قادتها ولو كان ذلك بعد نضال طويل وتجارب مُرّة . ولكنها إذ تختارهم تلقى إليهم قيادها وتأتمنهم على مصيرها ، فليس لهم أن يعتذروا بشيء في الأمة ، أو يحاولوا الاستتار وراءها . والأمم لا تتردد في طاعة القادة فيما يتجهون إليه إذا أنست منهم أنهم يتخيرون لها السبيل في حزم ونزاهة ، وإذا وثقت أنهم يعملون لها ويخلصون في النصح والاجتهاد في خدمتها .

إن القادة أشبه الناس بالرعاة . وصورة الراعي هي الصورة التقليدية للزعيم . فالقادة مطالبون بأن يتخيروا السبل للشعوب التي يرعونها ؛ فإذا ادعوا أنهم قد ضلوا السبيل ، لأن الأمة هي التي ضلت بهم ، كانوا مثل الرعاة الذين يعتذرون عن هلاك القطيع بأنه هو الذي صرفهم عن سواء السبيل وجمح بهم إلى الهاوية .

وأي راع ذلك الذي ينقل طرفه في سواد قطيعه متردداً ، ثم يلحق به حيث سار ؟ ..

وعاد الصمت حيناً واتجهت الأنظار إلى النهر الهادئ الذي عاشر طوال العصور ، وسبح الخيال واثباً نحو المستقبل عندما يتعاقب على هذه الأرض جيل بعد جيل ، وتمثلت لنا سيرة هذا العصر الحاضر ، إذ تتناقلها الأحاديث بعد دورة السنين الطويلة ؛ وسألت نفسي : ليت شعري ماذا يكون حديث المستقبل عن هذا الحاضر ومكانه بين حقب الزمان ؟!

« م »

حكمة

أيها الأمل الذى لاح فى أفق حياتى باسماً كالزهرة الفاتنة، آسراً كالنظرة الساحرة، مشرقاً كالومضة اللامعة! أيها الأمل الذى انتشر كالضياء الشامل، فجذبنى لرؤيته، لقد دنوت إليك فأومأت يوى بأشعتك. ولكن لما انصرفت عنك أدركتنى الحلكة الدامسة فبتّ أسفاً حسيراً، ساهماً حزيناً!

أيها النور الذى انبثق فجأة أمام عينىّ فملأ الفراغ كالبحر الموّار، وأحاط بالكون كالأثير المنتشر، فأهمنى هداية، وأفعمته عرفاناً، لقد أحسنت إلىّ، ولكنك أيأستنى لما تلاشيت رويداً رويداً فى الأصيل. فهل ستضىء سماء قلبى غداً أم ستتركنى أعانى الآلام؟!

أيها النغم الحائر على شفة الحبيب، متردداً كالطائر الحلق الوحيد، مضطرباً كاللحن بين الأوتار، أأنت صوت ملاك يبحث عن رسول مقيم، أم أنت نار سعير عقاباً للهجران؟!

أيها الخلجة التى هبّت فى صدرى المكلوم فهزت جميع أعضائى، عاصفة كالريح العاتية، ثائرة كالأمواج الغاشية — كلما تذكرتك شعرت بعتاب الحبيب الحنون، وأحسست بالعقاب والتأنيب وذقت نار الحرمان!!

أيها الأوار المشتعل فى فؤادى ليل نهار، كلما سعيت فى إطفائك انبعثت منك ألسنة النيران، وكدت لا تبقى على سويداء قلبى، فهل سيمدّك الحبيب طويلا فتحرق عودى، أم سيخمد جذوتك الإنكار والنسيان؟!

أيها الطيف الذى أشعر به، ولا أراه، أأنت الذى ترشقنى بسهامك الصائبة، وتهز شعورى بوحيك، وتقوّى خيالى بوحيك فتدفعنى لكتابة هذه الكلمات؟!

أيها اليوم المحدود الذى اختفى وراء الأبصار، ثم أشرف على آمالى، ثم دنا، ثم أبطأ فى الهبوط فأخلف الوعد، ونكث العهد، متى ستحث الخطى فتدرك الحبيب الهارب؟

أيتها البسمات التى خلقت بين الشفتين فما عمّرت أكثر من لمح الأبصار، أأنتِ ناموس التجدد فى عالم السرور، وبشائر الحب التى تترى للفؤاد المؤمن!!

فخرى محمد سيف

مقطوعتان لم تنشرا

فى ديوان حافظ

الرجاء واليأس

رجونا وكان اليأس لولاك راحة
فرُدّ لنا بالله ما أنت سالبه
فأنت امرؤ أطمعتنا وحملتنا
على مركب لا يهدأ الدهر راكبه

***

خيبة الأمل

وخيّبَ آمالى وقوفك دونها
وأنك عند الظالمين مكينُ
يسرك أنى نائم الجَدّ عاثر
ويرضيك أنى للخطوب أبينُ
ليَهْنيك ما بى من أسى وخصاصة
وتقليبى الكفّين حيث أكونُ

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

— ٣ —

السيد عبد الرحمن الكواكبي

عرض «الكواكبي» بعد ذلك لأثر الاستبداد في فساد الأخلاق ، فالاستبداد يتصرف في أكثر الميول الطبيعية والأخلاق الفاضلة فيضعفها أو يفسدها ؛ فهو يُفقد الإنسان عاطفة الحب ، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ؛ ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه ؛ وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيداً فيها ؛ وهو لا يركن إلى صديقه لأنه قد يأتي عليه يوم يكون فيه عوناً على الاستبداد ومصدر شر له

الإنسان في ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها .

والاستبداد يلعب بالأخلاق ، فيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل : فيسمى النصح فضولا ، والشهامة تجبرا ، والحمية طيشا ، والإنسانية حمقا ، والرحمة مرضا ، كما يسمى النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفا ، والنذالة دماثة وظرفا .

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسموا الجبابرة الفاتحين عظماء أجلاء ، مع أنه لم يصدر منهم إلا الإسراف في القتل والتخريب ؛ ثم شادوا بذكر السلف تملقاً للخلف .

والاستبداد يفقد الثبات في الخلق ، فقد يكون الرجل شجاعاً كريماً فيصبح بعوامل الاستبداد جباناً بخيلا . ولا أخلاق ما لم تكن ثابتة مطردة !

وأقل ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ، ويعين الأشرار على فجورهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة ؛ لأن أكثر أعمالهم تظل مستورة لا يجرؤ الناس على قول الحق أمامهم خوف العقبى .

وأقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وما إلى ذلك ؛ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور لغير ذوي المَنَعة ، وقليل ما هم ، ويصبح الوعظ والإرشاد ملقاً ورياء .

في الحكومات التي نجت من الاستبداد أطلقت حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، ورأت أن الفوضى في ذلك خير من تحديد الحرية ؛ لأنه متى وضعت القيود نفذ منها الحكام ، وتوسعوا فيها حتى خلقوا منها سلسلة من حديد يخنقون بها الحرية .

والاستبداد يُفقد الناس ثقة بعضهم ببعض ، ويُحل الخوف محل الثقة ، فيقلّ التعاون بين الأفراد ؛ والتعاون حياة الأمم .

والأنبياء سلكوا في تكوين الأخلاق مسلكاً خاصاً ، فبدءوا بفك العقول من تعظيم غير الله ، وذلك بتقوية الإيمان المفطور عليه الإنسان ؛ ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة ، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته وحريته في أفكاره ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد . ثم أبانوا أنه مكلف بقانون الإنسانية واتباع المبادئ التي ترقيه وترقي جنسه — وكذلك فعل السياسيون الأقدمون من الحكماء .

أما الغربيون المحدثون ، فوضعوا الأخلاق غير مرتكزة على الدين ، ولكن على ما أودع في فطرة الإنسان من ضمير وحب للنظام ؛ وساعدهم على ذلك انتشار العلم عندهم والرغبة في التقدم ، واستعانوا على ذلك بالوطنية .

ثم وازن بين أثر التربيتين فقال: إن الغربي مادىّ الحياة، قوى النفس، مضبوط المعاملة، حريص على الاستئثار، حريص على الانتقام؛ والشرقى غير مادى، يغلب عليه ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان، والرحمة ولو فى غير موضعها — وقد نجح التربيون المحدثون فى محاربة الاستبداد، واستباحوا التدابير القاسية لمحو الظلم والاعتساف، فنالوا ما أرادوا من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً. وما أحوج الشرقيين إلى حكماء لايبالون بغوغاء العلماء الأغبياء، والرؤساء القساة؛ يجددون النظر فى الدين فيبيدون إليه النواقص المعطلة، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، فيملكون الإنسان إرادته وحريته وإنسانيته.

***

ثم الاستبداد والتربية — التربية تنمية الاستعداد جسماً ونفساً وعقلاً، وهى قادرة أن تبلغ بالإنسان أعلى حد من الرقى لو صلحت.

والحكومات العادلة تعنى بتربية الأمة من وقت تكوّن الجنين، بل قبله، بسن قوانين الزواج الصالح، ثم بالعناية بالقابلات والأطباء، ثم بفتح بيوت اللقطاء، ثم بإنشاء المكاتب والمدارس وتنظيم خططها متدرجة إلى أعلى مرتبة، ثم تسهيل الاجتماعات، والإشراف على المراسح، ثم تشجيع النوادى وإنشاء المكتبات، وإعلاء شأن النوابغ بإقامة النصب ونحوها، ثم بتنمية المشاعر القوية بشتى أنواعها، وتيسير الأعمال وغير ذلك.

أما الحياة فى الحكومات المستبدة فمجرد نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية فى الغابات والأحراش، يسطو عليها الغرق والحرق، وتحطمها العواصف، والأيدى القواصف.

فى الحكومة العادلة يعيش الإنسان حراً نشيطاً، يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة؛ وفى الحكومة المستبدة يعيش خاملاً خامداً، ضائع القصد حائراً.

الأسير المعذّب يسلّى نفسه بالسعادة الأخروية، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة، وقد جنى على المسلمين علماؤهم، فأفهموهم أن الدنيا سجن المؤمن، وأن المؤمن مصاب، وإذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، وهكذا مما ابتدعوه؛ ويتغافلون عن حديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»، وحديث معناه: «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غرسة فليغرسها»! وكل هذه الثبطات تحوّل الأذهان عن معرفة أسباب الشقاء، إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر. وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التى تجعل الخضوع للحاكم ديناً، كالسلطان ظلّ الله فى أرضه، والملوك ملهمون الخ.

وعلى الجملة فالتربية الصحيحة لا تمكن فى ظل الاستبداد!!

***

ثم الاستبداد — على الإجمال — يمنع الرقى. والرقى الحيوى الذى يسعى إليه الإنسان هو — أولا — الرقى فى الجسم صحة وتلذذا، ثم الرقى فى الاجتماع بالعائلة والعشيرة، ثم الرقى فى القوة بالعلم والمال، ثم الرقى فى الملكات بالخصال والمفاخر. وهناك نوع آخر هو الرقى الروحى؛ وهو الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى ترقى إليها على سلّم الرحمة والإحسان — والاستبداد بالأمة عدو ذلك كله؛ بل هو يحوّل الميل الطبيعى فيها إلى طلب التسفل، حتى لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور! وعندئذ يكون الاستبداد كالعلَق، يمتص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها. والاستبداد يجعل الأمة منحطة فى الإحساس، منحطة فى الإدراك، منحطة فى الأخلاق. وهو يضغط عليها فتكون كدود تحت صخرة؛ والمشفقون عليها يجب أن

يسعوا في رفع الصخرة ولو حتًّا بالأظافر ذرة بعد ذرة !!

وهنا ضرب مثلاً يصح أن يخاطب به الخطباء في الناس ليستيقظوا ؛ فوضع خطبة نموذجية لتنبيه الشاعر . وقال إن الرق الذي ينشده في ظل العدل هو أن يكون الشخص أميناً على جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن المحافظة عليه ، أميناً على ملاذاته الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة بإيجاد أسبابها ، أميناً على حريته فلا يُعتدى عليها ، أميناً على نفوذه كأنه سلطان عزيز فلا يمانَع في تنفيذ مقاصده النافعة ، أميناً على ماله وشرفه ، وما منحته الطبيعة من مزايا ؛ فإن لم تتحقق هذه فالحكومة مستبدة ليست بيئة لترقي شعبها .

وأخيراً ما وسائل التخلص من الاستبداد ؟ هو يرى أن الاستبداد لا يقاوَم بالقوة إنما يقاوم باللين وبالتدريج ؛ ببث الشعور بالظلم ، وهذا يكون بالتعليم والتحميس ، ذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات : كقوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة الأغنياء ؛ فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس ! وإنما الواجبُ المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة . والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة في قلبه ، كما قيل : كم من جبّار عنيد جندله مظلوم صغير !!

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يحل محله ، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة . ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعي في إقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء بها ، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى يصبح عقيدة ، فيتلهفون جميعاً على نيل الحرية وتحقيق المثل الذي ينشدونه ؛ عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طوعاً أو كرهاً .

وقد حدّد في ثنايا كتابه ، ماذا يقصد بالحكومة المستبدة ، فقال : إنها تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق ، كما تشمل حكومة الجمع ولو منتخبا إذا استبد ؛ بل قد يكون هذا الحكم أضر من استبداد الفرد . ويدخل في أنواع الاستبداد أنواع الاستعمار ، فالمستعمر تاجر لا يرى إلا مصلحته . ولا عبرة بأسماء أنواع الحكومات ، إنما العبرة بحقيقتها ، وكل أمة فيها لون من ألوان الاستبداد ، ولكنها تختلف فيه كمية وكيفية ، فبعضها مسه الاستبداد مساً خفيفاً ، وبعضها تغرق فيه من قدمها إلى مفرق رأسها . والغرب سبق إلى تقدير معنى الحرية والعدالة ، ولكنه لا يأخذ بيد الشرق ، بل يستغله لمصلحته . وواجب الغرب أن يرعى للشرق سابق فضله ، فيأخذ بيده ليخرجه إلى أرض الحياة ، ويعامله معاملة الأخ لأخيه لا السيد لعبده ، ليتعاونا بعدُ على السير بالإنسانية .

وبهذا ينتهي الكتاب . وهو فيه قويّ مخلص ، مملوء غيرة وأسفاً وتلهفاً على رفع نير الاستبداد عن الشرق وهو إن استمد الفكرة من الغرب ، فهو يبسطها ويمدّها ويعني بتطبيقها . وقد يؤخذ عليه حصر نفسه في دائرة النظريات . وكان الكتاب يكون أوقع في النفس لو ملأه بالشواهد ومارأى وسمع من أحداث ، وهو معروف بسعة الاطلاع ؛ فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعاً ، ولكن يظهر أن قد منعه من ذلك أنه أراد أن يستتر فأخفى اسمه ولم يضعه على الكتاب . وقال في مقدمة الكتاب إنه لم يقصد ظالما بعينه ولا حكومة مخصوصة ، وهو لو أتى بالشواهد لدل على الحكومة التي يقصدها . وما كان في ذلك من ضرر ، بل كان فيه كل النفع . ولكن الأمور تقدر بأوقاتها وظروفها ، وهو فيما أكتنفه من ظروف كان في عرضه النظريات فقط شجاعاً جريئاً .

(يتبع) أحمد أمين

بعير يقود قافلة

قرأت للأستاذ أحمد أمين بك مقالا مفيدا فى الثقافة ، عالج فيه موضوع الوحى والإلهام . وقد ورد فى هذا المقال ذكر للحواس المجهولة التى يتمتع بها بعض أنواع الحيوان والطير ، والتى بواسطتها يمكنها أن تهتدى إلى مواطنها ، ولو كانت بعيدة عنها بآلاف الأميال . وقد ذكرنى هذا بحادث وقع لنا فى إحدى رحلاتنا فى الصحراء الغربية ، يوم أن ضللنا الطريق وكنا على وشك الهلاك ، لولا أن قيض الله لنا بعيرا ملهما قاد قافلتنا فى أحرج الأزمات إلى السلامة . ذلك أنه فى ربيع سنة ١٩٢٥ رافقت قافلة من الجمال كانت متجهة إلى الواحات البحرية فى الصحراء الغربية ، وكانت القافلة مكونة من اثنى عشر جملا ، محملة بسلع لبعض تجار الواحة . وكان قائدها ودليلها الحاج مصطفى من عرب الفيوم . فحصل بعد أن توغلنا فى الصحراء مسيرة يومين أن أصيب الحاج مصطفى بمرض شديد أعجزه عن متابعة السير ، فترك قيادة القافلة لوكيله ، وركب هو أحد الجمال فى المؤخرة . وكان الشيخ نوفل وكيل الحاج مصطفى المذكور شريكا له كذلك فى جمال القافلة ، وكان رجلا طاعنا فى السن ضعيف النظر .

وكان من عادة القافلة أن تسير بالليل إلى ما يقرب من منتصفه ، ثم تستريح حتى بزوغ الشمس فى اليوم التالى ، ثم تستأنف السير حتى الظهر ، ثم تستريح حتى العصر ، ثم تبدأ السير وهكذا .

وقد حدث فى تلك الليلة أن اختلط الأمر على الدليل ، فحاد عن الدرب ، ودخل بالقافلة فى منطقة واسعة غير مطروقة من غرود الرمال ؛ ولم يتنبه أحد من قادة الجمال الآخرين لهذا الخطأ ، لظلام الليل ، وتشابه المسالك ، وحداثة عهدهم بالصحراء ، فأوغلت القافلة بين الغرود فى تيه عظيم لا آخر له كالمحيط . وبقينا نضرب فى هذا التيه على غير هدى حتى قبيل ظهر اليوم التالى حينما اعترض سيرنا واد عميق ، فتقدم الشيخ نوفل ليستطلع الوادى ، وهنا كانت وقفة لا أنساها ما حييت — فقد شاهدت الرجل يقف على حافة الوادى ، ثم يتطلع إليه مليا ، ثم ينقلب إلينا مهرولا مذعورا كالمجنون ، وهو يصيح بصوت أجش كالمخنوق : لقد ضللنا الطريق يا حاج مصطفى !! كانت صيحة منكرة ، ومثلنا فى الصحراء الهلاك على أبشع صورة . فكان وقعها فى نفوسنا شديداً أثما تفككت لها أوصالنا ، وهلعت لها نفوسنا .

واستيقظ الحاج مصطفى — وكان لا يزال محمولا على الجمل — على صياح الشيخ نوفل وضجيجنا ، فقفز من ظهر البعير كالمخبول ، وجسمه يرتجف من شدة الحمى ، واندفع نحو الوادى يجر جسمه جراً ، وقد بدا عليه الضعف وشدة الهزال .

وعلى حافة الوادى نظر هو الآخر إلى الوادى نظرة فاحصة ، ثم ارتمى على الأرض وأخذ يندب سوء المصير ، متوعدا وكيله بأشد أنواع العقاب — وأصاب القوم مس من الجنون فهاجوا وماجوا ، وأخذوا يسبون بعضهم بعضا ، ويكيلون للشيخ نوفل اللعنات ، ثم اشتبكوا فى مشاحنات وعراك . واستمروا هكذا نحو ساعة حتى استنفدت أعصابهم الهائجة حدتها وهدأت ، فسكن القوم وسكتوا ، واستسلموا للقدر ؛ وأفاق الحاج مصطفى من الصدمة وعاد إليه رشده ، وتذكر واجباته نحو القافلة كقائد لها ودليل ، فتجلد وتقوى ، ودعانا حوله واعتذر إلينا عما حصل ، وطمأننا على السلامة ؛ وقال إنه رأى بالليل وهو نائم سيدنا الخضر عليه السلام وقد أقبل على القافلة من جهة الغرب ثم استلم زمامها وقادها حتى أوصلها إلى الواحة بسلام . ثم صاح فينا : أبشروا ولا تحزنوا ! الله معنا ! ثم وقف منفعلا وقد تقلصت

عضلات جسمه ، وتجهم وجهه ، وجحدت عيناه ، وشاح بوجهه نحو السماء كمن يستلهم المعونة وسداد الرأي والهداية .

وبعد أن مكث على هذه الحال نحو دقيقة ، لا يتكلم ولا يبدى حراكا ، كأنه في غيبوبة ، عاد إلى حالته الطبيعية وقد زال عنه الاضطراب والقلق ؛ ثم قال إنه قد أصبح منهوك القوى ضعيفاً ، ورأسه تدور لا تقوى على تعيين الاتجاهات ، ولهذا فقد عول على تسليم قيادتنا لبعيره الخاص . وقال وهو يقدمه لنا إنه بعير أصيل ، ولد في هذه الصحراء ونشأ فيها ، وإنه جربه في أسفاره السابقة إلى الكفرة والجغبوب فكان بعيرا موهوبا يمكنه أن يهتدى من تلقاء نفسه إلى عيون الماء ، حتى ولو كانت على مسيرة خمسة أيام . فتقبل الجماعة قراره بالإذعان والتسليم ، ثم عاونوه في ركوب البعير فاستلقى على ظهره كما كان ، بعد أن أرخى للبعير الزمام . وشخصنا بأبصارنا إلى دليلنا الجديد وأملنا الوحيد الباقي في النجاة ، نتبع حركاته وسكناته بلهفة واهتمام . ونظرت إلى البعير فرأيته مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، يجول بعينيه في جميع الآفاق وقد بدأ عليه الجد والاعتداد بالنفس .

ولما صدر الأمر بالسير على بركة الله ، تقدمنا وحده حراً طليقاً ، فسار الهوينا على حافة الوادي نحو ساعة ، ثم وقف ووقفنا . ورفع رأسه إلى أعلى ، وأخذ يشم الهواء بشهيق عميق ، ثم تحول نحو الشمال الغربي وأوغل بين كثبان الرمال ، وبعد نحو ساعتين وقف مثل وقفته الأولى ، وأخذ يشم الهواء ، ثم اتجه نحو الشمال وأخذ يهرول والجمال الأخرى في أثره تتبعه كظله ، لا تحيد عن أثره كأنها عالة بحرج الموقف .

وتابعنا السير في هذا اليوم من غير توقف ونحن في غم وهم ، لا ندري ما خبأه لنا القدر ، مستسلمين لحيوان أعجم يقودنا منذ الصباح حيث شاء ، من سهل إلى نجد ، ومن نجد إلى سهل ، في فيافي صحراء جرداء شاسعة واسعة لا نبات فيها ولا ماء .

وقبيل العصر خرجنا من منطقة الغرود ؛ وبعد ساعة اتجهنا نحو الغرب ، وأخذنا نرتقي هضبة عالية (قارة) . وعند الغروب وقرص الشمس يحتجب وراء الأفق البعيد ؛ في تلك الساعة ، وقد أدبر النور وأقبل الظلام ، كنا نجاهد للحياة جهاد اليائس البائس ، ونتبع البعير خطوة خطوة من غير أن يكون لنا إرادة أو عقل أو تفكير — في تلك الساعة كنا قد بلغنا القمة وانكشف السهل من تحتنا ، فأبصرنا أمامنا شريطاً طويلا أبيض ، يمتد عرض الصحراء من الشرق إلى الغرب . ولم تكد الجماعة تتبينه حتى هاجوا وصاحوا وهللوا وكبروا ، وفاض بهم الفرح فبكوا للنجاة والخلاص . إنه كان الدرب الذي أضاعه الدليل منذ أن حل مساء الأمس !! وتدافعوا مقبلين على البعير يقبلونه ويتبركون به ، وعلى الحاج مصطفى يقبلون يديه ورأسه . وأدرك البعير أنه قد أنجز مهمته فبرك على الأرض ليستريح .

الدمرداش محمد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧٫٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

تمثال الرخام والراحلة

[هنريش هينه Heinrich Heine كاتب هذه القصة شاعر يقف على عتبة الشعر الألماني الحديث ، وإن عاصر جيته Goethe ؛ ونازع مثله ناصية الأدبية ، فأسلمت له القياد ، وبوأته الصدارة في عصره . اتسم أسلوبه بالفكاهة والرشاقة والسخر ؛ يحركه الحب للشعر والحماسة المتقدة ، ويحركه السخر اللاذع والتهكم اللاذع من أحمق الأحماق . تخالط مشاعره الصبيبة أحياناً لمسة دينية . أحب ألمانيا وطنه وأبغضها معاً ، وعاش على معاش من الحكومة الفرنسية . فهو في نظر البعض موضع إعجاب يرفعه إلى عليين ، وفي نظر البعض الآخر وصمة في جبين . ولد سنة ١٧٩٩ في دسلدورف من أسرة يهودية ، وتنصر بعد ذلك ومات سنة ١٨٥٦] .

في هذه اللحظة استيقظت المريضة ، فتطلعت إلى الصديق عيناها الحنونان ، الزرقاوان ، وكأنهما ترنوان من أعماق حلم تسألان وترجوان . . . قالت بذلك الصوت الناعم الذي تسمعه للصدور فيرعشك : فيم كنت تفكر الآن يا مكسمليان ؟ وهو صوت تسمع فيه نغمة الطفل ، وتغريدة الطير ؛ وتسمع فيه مع ذلك حشرجة الموت في صدر المحتضر افيم كنت تفكر الآن يا مكسمليان ؟ وهبت من ضجعتها وقد عاودت السؤال ، فتلوت خصلتها الطويلة حول رأسها كأفاع من عسجد مسها الروع .

فصاح مكسمليان : « ربك ! » ، وردها على الأريكة في رفق ، ابقى مضطجعة حيث أنت ، وأمسكي عن الكلام ! سأقول لك كل شيء ، كل شيء أفكر فيه وأشعر به ، بل سأقول لك ما لست أعرفه .

ثم استطرد يقول : وفي الحق أني لا أدرك تماما ما أفكر فيه وما أشعر به . صور من طفولتي تمر بخاطري غائمة مبهمة : فهناك قصر أمي وحديقته المهجورة ، وهناك تمثال الرخام الجميل الملقى فوق العشب . وقد قلت « قصر أمي » ، فلا تتصوري بالله شيئاً فخماً تحف به الروعة ؛ فقد اعتدت هذه التسمية ! وقد كان أبي يؤكد كلمة « القصر » توكيداً خاصاً ، ويبتسم لهذا التوكيد ابتساما غريباً . فلما تقدمت بي الأيام أدركت معنى هذا الابتسام ، وكنت إذ ذاك غلاما في الثانية عشرة أسافر وأمي إلى القصر . وكان سفري هذا هو الأول ؛ لبثنا فيه طول النهار نقطع الغابة الكثيفة ، وترتسم في ذاكرتي ملامحها المظلمة . وعند المساء وقفنا بمعارضة أفقية تعترض الطريق إلى مرعى فسيح ، فمكثنا نصف ساعة ننتظر قبل أن يأتينا الولد من الكوخ القريب ويرفع الحاجز وندخلنا . وأقول « الولد » لأنه هكذا تنادي العجوز مارتا ابن أختها البالغ من العمر الأربعين . وقد تركنا ننتظر هذا الوقت الطويل لأنه لم يشأ أن يستقبل سادته إلا بما يليق ، فذهب يرتدي بذلة التابع التي لخاله المتوفى ؛ وإذ كان يعلوها الغبار فقد جعل ينفض عنهما غبارها قبل أن يرتديها . ولولا أننا لم نمهله للبس جوربيه كذلك ، وهكذا ظلت ساقاه العاريتان المديدتان الحمراوان ، وليس بينهما وبين سترته القرمزية القانية من تباين يذكر . هذا إلى أني لم أدر آنئذ هل كان يرتدي تحت سترته سراويل ؟! ولما قادنا « الولد » إلى بناء صغير متهدم ، استغرب خادمنا بوحنا أن يكون هذا هو القصر الذي كان يسكنه والدي المرحوم ، وقد طالما سمع ممنا عنه . وإذ تأمره أمي أن يذهب فيأتي بفرش النوم يسقط في يده ؛ فكيف يتصور أن ليس في القصر فرش للنوم ، وهو إما أنه لم يسمع بتاتاً ما أمرته به أمي عند السفر من أن يحضر معه فرشاً ، وإما أنه وجد أن لا ضرورة للتعب فلم يصدع بالأمر .

وكان البيت الصغير المؤلف من طبقة واحدة يحتوي أيام عزه الغابر على خمس غرف صالحة للسكنى ؛ أما اليوم فهو صورة حزينة من صور الماضي : أثاث محطم ، وطنافس مهلهلة ، وألواح من الزجاج لم يسلم واحد منها من العطب ، وأرض المكان منزوعة هنا وهاهنا ، وفي كل مكان آثار سيئة لما كان من بني الجند وعدوانهم . وقال « الولد » وعلى

وجهه ابتسام الغباء : لقد كان نزول الجند عندنا مسلياً جداً . لكنه لما أشارت أمي بأن ندعها وحدها ، خرج الولد مع يوحنا لأعمالهما وذهبت أنا إلى الحديقة أعاينها ، فإذا هي أيضاً صورة لخراب عديم العزاء . فالأشجار الكبرى إما مقطعة الأوصال ، وإما مُطَاحة يعلو جذوعها النقالة نبات طاغ ، وكأنه يسخر منها . وقد عمت الأدغال هنا وهاهنا فوق ما كان من مسالك ؛ وهنا وهاهنا تماثيل قائمة طاحت رؤوس معظمها ، أو جدعت أنوفها على الأقل ؛ ومن بينها تمثال لديانا فعلى الطحلب المتسلق نصفها الأسفل في أعزه صورة ، وتمثال آخر لإلهة الوفرة والخصوبة قد أزهر على قرنه تجيل كرمه الرائعة ؛ إلا تمثالا لا أعلم كيف سلم من يد الإنسان والزمان ، قد أتى عن قاعدته على العشب فظل ملقى هناك لم يمسسه سوء ؛ تمثال إلهة من الرخام ذات قسمات صافية بديعة ، وصدر نبيل بارز الثديين ، يتجلى من بين العشب النامي كما تتجلى رؤى الإغريق وقد كنت أرتاح حين رأيته ، إذ سرت إلىّ منه هيبة غريبة قابضة ، وأقصتني عن منظره الطريف غباوة خفية .

كانت أمي حين عدت إليها واقفة بالنافذة ، غارقة في الفكر ، يعتمد رأسها على ذراعها اليمنى ، وتجرى دموعها من دون انقطاع على خديها ؛ ولم أكن رأيتها تبكى هكذا من قبل . فضمتني إلى صدرها في حنان ولهفة ، ورجتني الصفح أن حرمني إهمال يوحنا من فراش أنام عليه . قالت : « ومارتا العجوز تشتد عليها وطأة المرض ، فلا تستطيع يا بني أن تنزل لك عن فراشها . على أن يوحنا سيحضر لك وسائد الركبة يمدها لمضجعك ، وسيجعل معطفه غطاء لك . أما أنا فسأنام هنا على القش ، فهذه حجرة أبي المرحوم ، وكانت قبلا ذات رواء . والآن دعني وحدي » . وتفجر من عينيها الدمع أغزر من ذي قبل .

فهل كان المضجع الذي لم آلف ، أم الفؤاد الذي هاجه الشجن ، هو ما أطار عن جفني النوم ؟ كانت أشعة القمر تنفذ رأساً من الألواح الزجاجية المحطمة ، وكأنها تستهويني إلى الخروج إلى ليل الصيف الزاهي . وقد تقلبت فوق فراشي على الجنبين ، وقد أغمضت عيني ، ثم عدت أفتحهما تبرما ، فما كانت لتفارقني صورة التمثال الرخامي الجميل ، أو ينقطع تفكيري فيه ، ولم أستطع تفسير الغباوة التي تملكتني لمرآه ! وقد غاظني هذا الشعور السخيف ، وقلت أخاطب نفسي في خفوت : غدا نقبلك أيها الوجه الرخامي الجميل ، ونقبلك من ذلك الفم الذي تضامت شفتاه عن ثغر في أظرف تكوين ! وتولاني قلق لم أحس مثله قط ، سرى في جميع أعصابي فلم أعد أقوى على مغالبة الدافع الغريب الذي كان يدفعني . فوثبت أخيراً من فراشي ، والشجاعة الجريئة تتملكني ، وقلت : سأقبلك الليلة أيها التمثال العزيز فليس هذا بضائري . وتركت البيت مخافتا حتى لا تسمع أمي خطاي ؛ وسهل عليّ ذلك أن مدخل البيت ، وإن زوّد بلوحة كبيرة تحمل شارة الأسرة ، كان خلواً من الأبواب . وجعلت أتحسس طريقي متمهلا بين عرائش النبات في الحديقة المهجورة ، والسكون شامل ، والرهبة سارية ، وضوء القمر الساجي يغمر المكان . وقد كانت ظلال الأشجار كأنها مسمرة فوق الأرض ؛ كذلك كانت الإلهة الحسناء مستلقية فوق العشب الأخضر بلا حراك . لكن الذي قيد حركتها لم يكن ، فيما بدا لي ، موات الحجر بل سكون الكرى . فلما اقتربت منها خشيت حقاً أن يوقظها أخفت صوت فترفع جفنيها ، فحبست أنفاسي حين انحنيت عليها أتملى قسمات وجهها الجميل ؛ ثم صدفني عنها وجل سرى في ضلوعي ! لكني عدت فردتني إليها شهوة طفلية خفق لها فؤادي ، كما لو كنت مقدما على جريمة قتل ! وأخيراً قبلت الإلهة الحسناء ، بحرقة وحنو ويأس ، كما لم أقبل في حياتي . وإني أنس لا أنس هذا الإحساس المرعب الحلو

الذي استولى على حين مست في برودة الشفتين الرخاميتين تشعرني الهناء .

وسافرنا في اليوم التالي ، ولم أر التمثال الظريف بعد ذلك . لكنه لبث سنوات أربعاً يشغل قلبي ، وبات يفعم نفسي في ذلك اليوم شغف بالتماثيل الرخامية عجيب . فأنا إلى هذا الصباح أشعر بجاذبيتها القوية ، فقد جئت من لورنزانا ، مكتبة آل مدسيس ؛ ووقفت ، ولا أدري كيف وقفت ، على المصلى الذي اتخذت لها فيه هذه الأسرة الإيطالية المجيدة مضجعاً من الحجارة الكريمة نامت عليه ملء الجفون ! هناك في هذا المصلى لبثت ساعة كاملة أطيل التأمل في تمثال رخامي لامرأة ، يشهد تكوينه الجثماني القوي بقدرة ميكائيل آنجلو وجرأته ، بينا شخص التمثال ترف حوله حلاوة أثيرية ليس من عادة المرء أن يطلبها عند هذا المعلم . هذا الرخام قد احتبس دولة الأحلام بكل ما فيها من غبطة ساكنة ؛ وفي هذه الأعضاء البديعة سكن هدوء حنون ، وبدا ضوء القمر اللطف وكأنه يسري في العروق ... هذه ليلة ميكائيل آنجلو بوناروتي . ألا ليتني أستطيع أن أنام نومتي الأبدية بين ذراعي هذه الليلة ...!!

* * *

واستطرد مكسمليان بعد هنيهة يقول : لقد كانت رسوم النساء دائماً أقل تأثيراً في نفسي من التماثيل . لكني شغفت مرة بلوحة حباً ، وكانت لعذراء بارعة الجمال عرفتها في كنيسة بمدينة كولونيا على نهر الرين . كنت إذ ذاك من رواد الكنائس المواظبين ، وكانت نفسي مدلهة بروحانيات الكثلكة ، قمينة بأن تجاهد كفارس من الأسبان ، طيلة الزمان ، في سبيل مريم ملكة الملائكة ، وأجمل سيدة في السماء والأرض ، وأن تجعل من جهادها مسألة حياة أو موت ! كنت أهتم إذ ذاك بالعائلة المقدسة جمعاء ، وكنت أرفع قبعتي هاشاً كلما مررت بصورة للقديس يوسف . بيد أن هذه الحال لم تدم طويلا ، فقد انصرفت فجأة و« من دون انذار » من « الأم » حين تعرفت في متحف للفن القديم بحورية يونانية قيدتني بأصفادها الرخامية زمناً طويلا .

وتضاحكت ماري قائلة : وحبك ألهنساء المنحوتات أم المرسومات ؟

قال مكسمليان : لقد أحببت منهن أيضاً من مات ! وانتشر على وجهه شجن عظيم ، ولم يلحظ أن ماري ارتاعت لهذه الكلمات ، فمضى يقول في هدوء :

من أغرب ما كان أني أحببت فتاة بعد أن ماتت بسبع سنوات ؛ فحينما تعرفت بفيري الصغيرة راقتني كثيراً ، ووقعت من نفسي موقعاً حسناً . ظللت ثلاثة أيام مشغولا بها أحس الهناء كاملا في كل ما تفعل وما تقول ، وفي كل تعبير لكيانها الفاتن العجيب ؛ وأنا في كل هذا لا أنشط في النفس ولا أسرف في الحنان . وكذلك حين علمت بعد هذا بأشهر أنها توفيت فجأة من حمى في الأعصاب ، لم يروعني الخبر ترويعاً شديداً ، ولم يهزني من الأعماق ؛ وقد نسيتها نسياناً تاماً ، وأنا مقتنع بأني لم أفكر فيها مرة لمدة سنين !! حتى إذا مضت سبع سنوات كاملة على الوفاة ، وكنت يوماً في بوتسدام أنعم بالصيف الجميل في وحدة مسترسلة دون إزعاج ، لا أختلط بأحد ، ولا أعدو تطواف التماثيل الموجودة في حديقة سان سوسي Sansouci ، حدث أن تذكرت ملامح وجه ، وأسلوباً في الحديث والحركة متناهياً في اللطف ، دون أن أتذكر لمن هذه الملامح وهذا الأسلوب . وليس يعذب كالتنقيب في الذكريات القديمة عن شيء مفقود . ومن ثم شد ما سرني أن فوجئت بتذكر فيري الصغيرة ، وأن تبينت أن ما كان يقلقني ويداعب ذاكرتي ، إنما هو وجهها الحبيب المنسي . وقد اغتبطت بهذا الاكتشاف شأن من يلقى صديقاً حميماً على حين غفلة بعد طول الغياب .

التطور والطفرة

رغم مايقام من اعتراض فى مدى وراثة الصفات البيئية، فإنه لايمكن أن نجهل أثر البيئة فى إحداث تغيرات لا بد أن تورث، وإلا هدمت نظرية التطور واستحال التفكير فيها؛ لذا كان من الضرورى أن يكون للبيئة أثر يورث. واستمرار حدوث هذه التغيرات يحدث تغيراً ينقل بواسطة الخلايا الجنسية، ولذا لابد من تأثير الخلايا الجنسية، وهذه كيفية ينقل هذا التغير.

وهذا مايحدث فى الطبيعة؛ فقد يوضع الكائن تحت ظروف معينة، وتؤثر هذه الظروف فى الكائن ويستمر أثرها إلى أن يؤثر ذلك فى تكوين الجاميطات التى لاتلبث أن تصبح واسطة لنقل هذا التغير، فيظهر فجأة نتاج يحمل صفات جديدة، يرثها الخلف من السلف جيلاً بعد جيل مدة قرون، دون أن تعانى تغيراً مهما غيرت من بيئتها وهذه مايعبر عنه بالطفرات.

وفى عام ١٧٩١ فوجئ أحد مربى الأغنام بظهور حمل غريب، له جسم طويل وأرجل قصيرة؛ ولم يظهر مثل هذا الحمل من قبل. وكان هذا التاجر فى حيرة من أمره، إذا تعودت أغنامه أن تقفز الحواجز إلى حقول جيرانه. أما النوع الجديد ذو الأرجل القصيرة فلم يتمكن من ذلك. وقد كان هذا الفرد ذكراً، فتركه مع نعاجه بعد أن تخلص من الكباش الأخرى. وسمى النوع الجديد « Ancon ». وقد وجد أن اجتماع هذا الكبش الأنكونى بنعاج عادية ينتج أغناماً من نوعين، أنكونى وعادى. وبانتقائه النوع الأنكونى تمكن بعد بضع سنوات من إحراز قطيع كبير وفر عليه متاعبه التى عاناها من جراء اقتحامها للحواجز. وقد انتشر هذا النوع فى جميع مقاطعة مساكوزيت بأمريكا.

فجعلت الألوان الباهتة تزهو شيئاً فشيئاً؛ وأخيراً تمثلت الإنسانة الصغيرة الحلوة لناظرى لحماً ودما، تبتسم وتعبس، وتتندر، وتبدو أجمل من ذى قبل. من ذلك الحين لازمتنى هذه الصورة الظريفة ولم تتركنى، ملأت حنايا النفس، فحيث كنت ووقفت وقفت، وكانت إلى جانبى تتحدث إلىّ وتضحك معى فى غير ما ضير، ومن دون غلو فى الحنو. أما أنا فازددت مع الأيام افتتاناً بالصورة، وازدادت الصورة كل يوم تحققاً فى ناظرى.

ومن السهل أن تستحضر الأرواح، لكنه من الصعب أن تردها إلى عدمها البهيم؛ فإنها لتنظر إلينا عندئذ متوسلة فتكون قلوبنا لها أقوى شفيع ... وقد تعذر علىّ التخلص من قيرى فأحببتها بعد موتها بسبع سنين. وقضيت فى بوتسدام ستة أشهر غارقاً فى هذا الحب. وعظمت عنايتى بتجنب الناس من ذى قبل، فإذا مر أحد فى الطريق قريباً منى، أحسست أشد الضيق؛ وبات يحدونى من كل لقاء مثل الهيبة التى تحدو أرواح الموتى الهائمة بالليل؛ فإنهم يقولون إن هذه الأرواح إذا لاقت حياً نفرت منه كما ينفر الحى من الشبح. واتفق أن جاء بوتسدام سائح لم يكن مناص من ملاقاته لأنه شقيق. فحين رأيته وسمعت منه ما وقع من حوادث الأيام الفائتة تنبهت كما ينتبه النائم من حلم طاغ، وشعرت فجأة، وأنا مذعور، بمبلغ الوحدة التى كانت تطوينى؛ فقد مرت بى فصول السنة فلم ألحظ تغيرها، ولم أفطن إلى الشجر الذى تساقط ورقه من أمد، وأكثنى بنضج الخريف، فرعيته عندئذ متعجبا. وبارحت بوتسدام على الأثر، وودعت فيها قيرى الصغيرة. وفى مدينة أخرى كانت تنتظرنى فيها أعمال هامة، انخرطت بطروقى وصلاتى الوثيقة فى سلك الحقيقة الجافة.

محمود الدسوقى

ومن الأبحاث التي أوعزت بوجود الطفرات ما أجرى على حيوان قشرى يعيش في الماء العذب ، ويسمى براغيث الماء Daphnia ، فهذه البراغيث أعطت مايقرب من (٣٩٣) جيلا يعيش في درجة ٢٠° م ، وتموت إذا ارتفعت الحرارة إلى درجة ٢٦° م أو انخفضت تحت ١١° م . وبعد مضى ١٤ عاما على تربية هـذه الحيوانات ظهرت سلالة جديدة (طفرة) تتحمل درجات حرارة تخالف السابقة . فصغارها تموت إن بقيت في درجة ٢٠° م ، وتعيش بحالة جيدة إن عاشت في درجة ٢٧° م ، وتموت بعد درجة ٣٠° م . ويتفق هذا النوع مع سابقه في شكله وتركيب أجزائه ، ولا يختلف عنه إلا في تحمل درجة حرارة أعلى . وظهور مثل هذا النوع الجديد يساعد الحيوان على المعيشة في بيئة جوها أكثر دفئاً .

وفي الولايات المتحدة ظهر نوع من التبغ لا يزهر في المناطق الشمالية ، بينما كان النوع الأصلى يزهر في هذه المناطق . وتبين أن هذا النوع الجديد يزهر إذا أضىء إضاءة اصطناعية تتناسب وطول النهار في أشهر الصيف بالبلاد الحارة . وقد ظهر هذا النوع فجأة ، وأعطى سلالات ثابتة تتصف بهـذه الصفة الجديدة وأصبحت تتحمل جواً جديداً .

هذه الأمثلة المختلفة تسمى طفرات ، إذ أننا حصلنا على نوع جديد توالد وأنتج أفراداً تشبه الآباء ، ولكنها تختلف عن الأجداد . وقد علل ظهورها بحدوث تغير في تركيب أجزاء النواة في الخلية الجنسية .

وقد اهتم علماء الحياة بهذه الطفرات ، وبحثوا في كيفية حدوثها وحاولوا أن يحدثوها صناعياً . ومن أهم الأبحاث في هذه الناحية ما أجرى على ذبابة الفاكهة ، التي تبين أن تركيب النواة في خلاياها الجنسية قابل للتغير المستمر الذى يعطى طفرات باستمرار . وقد حول تهجين الطفرات مع بعضها فأنتجت أفراداً تختلف تماماً عن الحشرات العادية ؛ ولولا معرفة نشأتها من هذا التهجين لما عرفت علاقتها بذبابة الفاكهة .

وقام العلامة « Muller » بتجارب كثيرة على ذبابة الفاكهة ، وتتلخص أهم تجاربه في تعريض هذه الحشرات لأشعة X . ولم يظهر أثر الأشعة في هذا الجيل ، بل ظهر في صغارها ، إذ نتجت أفراد تخالف آباءها من حيث لون العين وحجم الأجنحة .

وقد لوحظ أن هذه التغيرات ثابتة ، إذ أن هذه الأنواع الجديدة عندما تكاثرت أعطت أفراداً تحمل صفات هذا الجيل الذى ظهرت عليه التغيرات الجديدة ؛ ومعنى ذلك أن أشعة X أو الأشعة السينية أعطت طفرات . وقد توبعت هذه الدراسات وجرب التهجين بين هذه الطفرات ، فوجد أنها تتبع قانون مندل ، كما وجد أن بعض هذه الصفات يكون متنحياً أى يظهر على غيره ، بينما يكون الآخر متنحياً أى لا يظهر . وقد وجد أيضاً أن الطفرات التي ظهرت كان بعضها معروفاً من قبل والبعض الآخر كان حديثاً ؛ وهذا معناه أن استخدام هذه الأشعة قد عجل بظهور الطفرات . وعلل هذا الظهور بأن الأشعة السينية موجودة في الطبيعة ولكن بمقدار بسيط ، ولذا لا تظهر الطفرات في الطبيعة بسرعة التجربة . ولا تنفرد الأشعة السينية بإحداث الطفرات ، إذ وجد أن لبعض المواد الكيماوية أثر كبير في إحداث الطفرات . وأثبت ذلك العالم البيولوجى Harison ، فقد لاحظ قلة نوع معين من الفراش الأسود في بعض المناطق بإنجلترا ، وكان هـذا النوع معروفاً بكثرته منذ سنين مضت . ثم حدث بعد ذلك أن كثر هذا الفراش إلى حد كبير ، ووجد أن كثرته تتناسب وعدد المصانع ، فكلما زادت هـذه الأخيرة زاد الفراش ؛ أما في الريف فإن هذا الفراش يكون نادراً . ولوحظ أيضاً في المناطق

الصناعية تغلب أنواع الفراش الأسود وقلة الأنواع البيضاء .

وقد أخذ Harrison في بحث المناطق الصناعية من حيث نباتاتها التي تتغذى عليها هذه الحشرات ، فوجد أن أوراق النباتات يكون عليها طبقة سوداء ، بها أملاح معدنية سامة ترسبت عليها مما تلفظه مداخن المصانع ، فخطر لهاريسن «Harrison» أن تكون هناك علاقة بين هذه المواد وحدوث الطفرات . فغذى الحشرات بغذائها الطبيعي مضافاً إليه مقادير بسيطة جداً من أملاح المعادن الثقيلة ؛ وقد تحقق ما خطر له ، فظهرت طفرات ذات أجنحة سوداء ، وهذه تعطى أفراداً ذات أجنحة سوداء رغم تغذيتها بغذاء عادي لا يحتوي على أي مقدار من الأملاح . ولذا يكون للمواد الكيماوية أثر كبير في إحداث تغير في تركيب محتويات النواة في الخلية الجنسية .

ومعنى ذلك أن عوامل البيئة سواء كانت طبيعية أو كيماوية تؤثر على الكائنات فتحدث فيها تغيرات ، وهذه التغيرات تقوى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما أثرت في الخلايا الجنسية أمكن نقل هذا الأثر من جيل إلى جيل ، ويظهر هذا على شكل طفرات . ويلاحظ أن هذه الطفرات لا تكون موجهة نحو غرض خاص للاءمة ظروف معينة ، بل قد لا توافق البيئة التي تظهر فيها ويكون مصيرها الانقراض ، وقد تلائم البيئة فتبقى وتتكاثر ويكتب لها البقاء .

فالنباتات التي تنمو بالقرب من شواطئ البحار تكون أوراقها لحمية ، وهذه صفة وراثية لا تتغير مهما تغير من بيئتها . فكيف نشأت هذه النباتات ؟ من المعروف أننا لو أخذنا نباتاً كالجارونيا وروى بماء مالح نوعاً ، تكونت له أوراق لحمية ، وإذا روى بماء عذب فقد هذه الخاصية ؛ وعلى هذا فقد كانت نباتات الشواطئ نباتات عادية في بدايتها ، ثم تلحمت أوراقها جيلاً بعد جيل ، حتى ظهرت طفرة بعد ذلك تحمل صفة ثابتة لا تتغير مهما تغيرت ظروفها ، فساعدها ذلك على أن تصارع الحياة وكتب لها البقاء . أما ما دون ذلك فقد انقرض واختفى .

وبالمثل يمكن تفسير سواد اللون في أهالي المناطق الاستوائية ، فاللون القاتم ضروري لحماية الأنسجة الداخلية للجسم من أشعة الشمس فوق البنفسجية . ويلاحظ دائماً أن الأشخاص ذوى الجلد الأبيض تكتسب سمرة عند ذهابهم للشواطئ وتعرضهم لأشعة الشمس . وهذا اللون القاتم ضروري لحماية الأنسجة طالما وجد الإنسان في هذه البيئة ؛ أما إذا انتقل إلى بيئة أخرى أقل أشعة فسرعان ما يعود لون جلده إلى طبيعته . أما الزنوج فلونهم ثابت لا يتغير ، وهؤلاء الزنوج طفرات ظهرت من قديم الزمان وعاشت وقاومت وهج الشمس فكتب لها البقاء .

على هذا نجد أن الكائنات تتأثر بعوامل البيئة حتى يمكنها أن تقاومها . ويستمر هذا التغير موجهاً بهذه العوامل حتى تصل إلى حد تتأثر فيه الخلايا الجنسية ، عند ذلك يصبح هذا التغير قابلا للوراثة بقيت عوامل البيئة أم تغيرت ؛ وهذه ما يعبر عنها بالطفرات . وهذه الطفرات إن هي إلا أنواع جديدة تظهر من وقت لآخر دون ضابط أو توقيت ، وتظهر بدون نظام ولا قصد ؛ وقد ينقرض بعضها وقد يبقى الآخر ، ولكن لابد من ظهورها ، ولا بد من بقاء بعضها حتى يضمن البقاء للأحياء ، وحتى يستمر التطور . وما أشبه الطفرات بالعقرب في الساعة ، فباستمرار ساعة غير منتظمة يتحرك فيها العقرب فجأة ، ثم يبقى ساكناً سنين بل قد يكون أجيالا

محمد أحمد بدوي

حياة أديب

عُرِف جولدسمث في أوساط الأدباء وبين القراء، فتوفر له المـال، وهجر الغرفة الحقيرة التي كان يقطنها، وشغل حجرة فاخرة في أحسن أحياء المدينة؛ ولكنه كثيراً ما كان يعود إلى الحياة الوضيعة الأولى كلما اشتدت به الأزمة وضاق به العيش. وفي عام ١٧٦٤ أفلس الرجل ولم يبق في جيبه درهم واحد، وهددته ربة الدار بإخلاء مسكنه، فأرسل إلى صديقه جنسن يطلب إليه النجدة، فبعث إليه جنسن بجنيه واحد، وبلّغه الرسول أن صديقه آتٍ على الأثر. ولما جاء جنسن ألفى صاحبه قد اشترى بهذا المـال اليسير زجاجة خمر، فجذبها من يده وعنّفه على سوء فعلته، وطلب إليه أن يثوب إلى رشده وأن يحسن التصرف في ماله؛ فأجابه جولدسمث أن لديه رواية قد أعدّها للطبع والنشر، فألقى عليها جنسن نظرة وقدرها قدرها، ثم أسرع بها إلى أحد الناشرين وباعها على الفور بستين جنيها وعاد بالمبلغ إلى صديقه. فدفع جولدسمث أجر حجرته، ودعا صاحبة الدار وصديقه الأديب إلى تناول الخمر على حسابه ... هذه الرواية التي باعها جنسن هي الرواية الخالدة «قسيس ويكفيلد».

ولكن قبل أن تطبع هذه الرواية بلغ جولدسمث أوج الشهرة الأدبية. وذلك أنه في ديسمبر من عام ١٧٦٤ نشر قصيدة عنوانها «المسافر»، وهي أول أثر أدبي أخرجه مذيلا باسمه. وقد رفعته هذه القصيدة تواً إلى مصاف كبار الأدباء الإنجليز، وشهد له النقاد بالإتقان والجودة. وتختلف القصيدة عن كل ما كتب جولدسمث طوال حياته الأدبية: فالآراء عنده أجل دائماً من الفكرة، ولكن الفكرة هنا خير من الآراء. «المسافر» قصيدة فلسفية، موضوعها أن جوّالاً إنجليزياً ألقى عصا التسيار على قنة من قنن جبال الألب، حيث تلتقي ثلاث من ممالك أوروبا العظيمة؛ ويرسل الرجل الطرف إلى ماحوله من فضاء، ويذكر رحلته الطويلة، ثم يأخذ في وصف مختلف المناظر والأجواء، والحكومات والأديان وطبائع الأمم التي مر بها؛ ثم ينتهي إلى أن سعادة الإنسان لاتتوقف كثيراً على النظم السياسية للدول، وإنما عمادها مزاج الفرد واستعداده العقلي.

وقد أعيد طبع هذه القصيدة أربع مرات قبل أن تظهر قصة «قسيس ويكفيلد». وما أن ظهرت هذه القصة حتى لقيت رواجا كبيراً؛ وبقيت حتى اليوم من خير ما في الأدب الإنجليزي من قصص. وفي تكوين القصة كثير من العيوب: فكثير من حوادثها لايحتمل الوقوع، وفيها إغراب في الخيال لاتجده حتى في قصص الجن والسحرة، ولا يربط حوادثها رباط من العقل والمنطق. ويقول المؤلف نفسه في مقدمة الكتاب:

«في هذا الكتاب مئات من الأخطاء، ولديّ مئات من الأدلة أستطيع أن أسوقها لبيان ما في هذه الأخطاء من جمال، ولكن ليست بي حاجة إلى ذلك؛ فالكتاب قد يكون ممتعاً رغم كثرة مافيه من أخطاء، وقد يكون مملا دون أن تجد فيه مغمزاً واحداً. وبطل هذه الرواية يجمع في شخصه ثلاثاً من أعظم مايتميز به الإنسان من صفات: فهو قسيس، وفلاح، ورب أسرة. رحمتُه معلماً غيره، متواضعاً، قليل الثراء، عظيما في المحن. ولكن هل تسر هذه الشخصية أحداً في عصرنا هذا الذي يطمح إلى جمع المـال وإلى تعقيد العيش؟ إن أولئك الذين يغرمون بالحياة الرفيعة قد يزدرون السذاجة التي تتجلى في الدفأة الريفية التي يأوي إليها هذا الرجل. وأولئك الذين يخلطون بين الفكاهة البريئة وبذاءة اللسان، قد لايجدون في حديث هذا الرجل البريء ما ينم عن فطنة وذكاء. وأولئك الذين تعلموا السخرية بالدين، سوف يضحكون من رجل يستمد عزاءه في بلواه من عقيدته الراسخة في الحياة الآخرة».

وفي الفصول الأولى من هذه القصة حلاوة الشعر الرقيق، كما أن فيها حيوية للاهي.

وقد شجع نجاح جولد سمث ككاتب روائي أن يعالج المسرحية . فكتب رواية « الرجل الطيب » . ولم يبلغ جولد سمث بمسرحياته حد الإجادة ، غير أنها درّت عليه ربحاً وافراً .

وفي عام ١٧٧٠ أخرج جولد سمث قصيدته الشهيرة « القرية المهجورة » ؛ وقد قصد بها تصوير الموات الذي لحق بالقرى بعد الثورة الصناعية في إنجلترا ، وهجرة الناس إلى المدن . ولاقت هذه القصيدة من القراء ترحيباً أكثر مما لاقت قصيدته السابقة « المسافر » . في هذه القصيدة ينقم الشاعر على الثروة والترف ، ولكنه يقدم — دفاعاً عن رأيه — منطقاً سقيماً لا يقبله العقل السليم .

ولكن هل نحكم على القصيدة بما فيها من صحة الفكرة ؟ كلا ! فليس من واجبات الشاعر أن يحسن التعليل والتدليل ، وإنما عليه أن يجيد الوصف ، كما أن عليه أن يفتح عينيه على العالم الذي يعيش فيه ، وأن يكون دقيق الملاحظة ، وأن يرسم لنا من الحياة صوراً صادقة من الواقع ، وألا يعرض علينا صوراً مشوهة من الحياة الواقعية لا وجود لها ولا يمكن أن يكون لها وجود . وما أشبهه أن فعل هذا بالمصور الذي يخلط في صورة واحدة بين مناظر الربيع ومناظر الشتاء ، فيجمع في صورة واحدة بين الزهر والجليد . وهل يكفينا دفاعاً عن مثل هذه الصورة أن نقول إن المصور أتقن إبراز الألوان في كل جزء على حدة ، فالزهر زهر والجليد جليد ؟!

في قصيدة « القرية المهجورة » مثل هذا الخلط بين الزهر والجليد ، فيها صور مختلفة ليس بينها انسجام أو تناسق . فالشاعر يصور لنا القرية في صورتين : يصورها لنا جميلة سعيدة ، ثم يصورها بعدئذ بائسة قبيحة . والقرية الجميلة التي يصورها الشاعر صورة خيالية لبلد لا وجود له ، وما حل بها من خراب مبالغة إلى أقصى الحدود .

ثم عاد جولد سمث إلى الكتابة المسرحية ، فأخرج رواية « أذلت نفسها فتمكنت » ، وهي ملهاة مثيرة للضحك ، وقد نجحت نجاحاً كبيراً وراجت ، وأقبل الناس يرونها ممثلة على المسرح .

وبينما كان جولد سمث يشتغل بكتابة هذه المسرحية وينظم « القرية المهجورة » ، كان يقوم بعمل آخر ليست له قيمة أدبية كبيرة ، ولكن درّ عليه مالا كثيرا . وذلك أنه أخرج لتلاميذ المدارس كتابا عن « تاريخ روما » ، وآخر عن : « تاريخ انجلترا » ، و« تاريخ اليونان » ، و« التاريخ الطبيعي » . ولم يكلف نفسه في تأليف هذه الكتب مشقة البحث ، وإنما اكتفى بالاختيار والاختصار ، والتعبير بلغة واضحة سهلة عما كان في بطون الكتب الأخرى التي كان حجمها وجفاف لفظها يجعلانها غير صالحة لاستعمال التلاميذ . وقد أخطأ في هذه الكتب أخطاء فاحشة ، لأنه هو ذاته لم يعرف شيئاً على وجه الدقة . فجاء في كتابه « التاريخ الطبيعي » خرافات عن عمالقة يقطنون بتاجونيا ، وقردة تنطق بالحكمة ، وبلابل تستطيع رواية الأحاديث الطويلة . ويقول دكتور جنسن عنه في هذا الصدد : « إن أقصى مايعرف جولد سمث عن علم الحيوان أن يميز بين الحصان والبقرة » . ومما يؤيد ضعف معرفته بالعلوم الطبيعية ما ذكر من أن الشمس يستطيل شكلها في الأبراج الشمالية ، وأن الإنسان يحرك فكه الأعلى عند مضغ الطعام . ولكنه — رغم جهله في هذه الناحية — من الكتاب القلائل الذين حاولوا تبسيط العلم وتيسيره على الطلاب . وقد كان بارعاً في الاختيار والتلخيص ، فكان الأطفال يستمدون من كتبه متعة كبيرة ؛ وهي — من أجل هذا — تستحق منا شيئاً من العناية والدراسة » .

وأصبح جولد سمث الآن رجلا ثريا يستطيع أن ينعم بالراحة والترف ، وبات يتمتع بشهرة عريضة ، وأخذ نجمه في الصعود ، واختلط بأعلى الأوساط العملية والأدبية ، وعرف خير المحدّثين في زمنه : عرف جنسن زعيم الأدب في عصره ، وبَرْك الخطيب المصقع ، وجارك مدير المسارح الكبيرة في لندن ؛ وتطلع إلى أن يباريهم في طلاقة اللسان والحديث . ولكن من العجيب أن هذا الرجل الذي كان يتميز أسلوبه حين يكتب بالوضوح والحيوية

والرشاقة ، كان كلامه حين يتحدث فأرة يكاد يكون مجهجاً بغير معنى . وما أبعد الشقة بين ما كان ينشر وما كان يقول . قال عنه جاركْ : «إذا كتب فهو ملاك ، وإذا تحدث فهو ببغاء» . الفكرة الأولى إذا طرأت لجولد سمث مضطربة سخيفة ، فإذا أعطيته فسحة من الوقت اتضحت الفكرة في ذهنه وعبر عنها تعبيراً جيلاً . ومن ثم فإن جولد سمث إذا كتب سحر قارئيه ، وإذا تحدث صدّع سامعيه . وقد أدرك ضعفه في الحديث ، ولكنه لم يملك القدرة على ضبط لسانه ، فلم يمتنع عن الإدلاء بالرأي إذا دعا الداعي ، ولكنه سرعان ما يحس ركاكة القول وتعلو خديه حمرة الخجل .

ومن أجل هذا كان عارفوه وخلطاؤه لا يقدرونه قدراً كبيراً ، يحبونه ولا يحترمونه . كان طيب القلب إلى حد الضعف ، كريماً إلى حد البذخ ، متسامحاً إلى حد يشجع غيره على النيل منه ، جواداً حتى لم يبق له ما يسد به دَيْنه . وكان مغروراً ، مندفعاً وراء شهواته ، مستهتراً ، مسرفاً ، قصير النظر . وفوق هذا كله كان يأكل قلبه الحسد . غير أنه كان يكتم في قلبه حسده ، فلا ينال بالدسيسة أو النميمة من منافسيه . كان صريحاً صراحة الأطفال ، لا ينافق ولا يداهن ، ولا يخفي رأيه حتى وإن كان في الرأي إيذاء لسامعيه . إذا أحس الغيرة لا يتظاهر بعدم الاكتراث — كما يفعل غيره من الأدباء — ولا يطري إطراء خفيفاً ينم عن عدم الرضا والقبول ، ولا يسل سيفه الجارح في الظلام يقتل به العدو دون أن يراه ؛ وإنما كان قلبه على لسانه ، يصرّح بما في نفسه من غيره . سمع بُزْوِل — مؤرخ حياة جنسن — مرة يكيل المدح لهذا الأديب العظيم فقال له : « أرجوك ألا تمدح الرجل بهذه النعوت ، فإنك تحطم قلبي أيما تحطيم » . لم يكن جولد سمث ذلك الأديب الذي إذا لاقى أديباً غيره أطنب في مدحه والثناء عليه ، وإذا ما خلا إلى نفسه أرسل فيه النقد اللاذع ينشره في الصحف بغير توقيع . ولم يتخذ يوماً من التآمر وتدبير الحيل مكيدة لغيره .

ويعتقد كثير من مؤرخي الأدب أن جولد سمث كان رجلاً بائساً قست عليه صروف الدهر ، وقضت عليه ظروف الحياة أن يكافح المشقات والمصاعب حتى تحطم في نهاية الأمر روحه . ولكني ما أبعد هذا القول عن الحق والصواب . أجل إن الرجل لاقى في حياته كثيراً من أسباب البؤس والشقاء ، ولكن ذلك كان قبل أن يلج باب الأدب . وما أن ظهر اسمه على الصحيفة التي نشرت له قصيدته «المسافر» حتى أخذ المال يهال عليه انهيالاً ، ويتدفق إلى جيبه كالسيل العرم . ولئن وقع بعد ذلك في المحن فَلْيُلْقِ على نفسه اللائمة وليبرئ منها الظروف . ولكن جولد سمث لو استحوذ على كنوز سليمان ما كفته ، فقد كان ينفق ضعف ما يربح . يتأنق في اللباس ، ويسرف في الولائم ، ويرمي بالمال عند أقدام الحسان ، وما تقدم إليه فقير إلا أعانه . ولكن هل تبددت كل ثروته في اللباس والولائم ، وفي الصدقات وعند النساء ؟ كلا ! لم يكن ذلك ، وإنما كان جولد سمث منذ حداثته مقامراً جريئاً مغامراً دون أن يمهر في اللعب أو يتقنه ؛ فاضطر إلى الاستدانة من باعة الكتب والناشرين حتى نضب ماله وأفلس ، ولم يكد يجد ما يسد به الرمق ، فتحطمت قواه ، وخارت روحه ، وألمت به حمى شديدة . واعتمد على علمه بالطب وتمرض لنفسه بالعلاج ، ولكن ياليت ثقته في طبه كانت كثقة الناس فيه — إذن لأنقذ حياته من براثن المرض ! قال لصديق له يوماً : «إنني لا أمارس مهنة الطب ، ولا أتكسب بها ، ولكني أصف لأصدقائي العلاج بغير مقابل» . فأجابه الصديق : « بل صفه لأعدائك ! » . ووصف جولد سمث لنفسه الدواء ، فتضاعف عليه المرض ، واضطر إلى استدعاء الأطباء الخبراء . ولكن بعد ما استفحل الداء . وعزّ عليه النوم ، وفقد شهية الطعام ، واختل توازن عقله في أيامه الأخيرة .

وفي ٣ أبريل من عام ١٧٧٤ فاضت روحه وهو في السادسة والأربعين من عمره ، وبكاه أصدقاؤه وأحباؤه بالدمع السخين .

محمود محمود

صحيفة الفكر :

من أعلام الإسلام

محمد عبده . . . للدكتور عثمان أمين

« محمد عبده » من أعلام الإسلام فى العصر الحديث وفى جميع العصور . وقد أحسنت « لجنة دائرة المعارف الإسلامية » بضم هذه الشخصية الإسلامية الحديثة إلى سلسلة أعلام الإسلام ، فالإسلام وحدة فى جميع الأجيال ، ورجاله هم رجاله من قدامى ومحدثين .

ولكن شيئاً واحداً قد أثر فى قيمة هذا الاختيار الموفق . ذلك أنه كان من المستطاع أن تكون هذه الدراسة خيراً مما كانت ؛ فشخصية الأستاذ الإمام وسيرة حياته أخصب بكثير من تلك الصورة التى أخرجها الأستاذ المؤلف : الدكتور عثمان أمين .

ولقد تمتعت شخصيات كعمرو بن العاص والمنصور ابن أبى عامر ، بل كبشار وأبى نواس ، من شخصيات هذه السلسلة بما لم تتمتع به شخصية الأستاذ الإمام من الدراسة والتمحيص ، ومن التجلية والتصوير !

لقد جمع المؤلف الفاضل طائفة صالحة فى هذا الكتاب من أخبار الأستاذ الإمام وأقوال بعض إخوانه وتلاميذه عنه ، وآراء بعض من عاصرهم أو قابلهم من الشرقيين والغربيين فيه ، تعد من يريد الكتابة عن « محمد عبده » بمادة خامة صالحة للكتابة ؛ ولم يكد يتجاوز هذا فى كتاب عنوانه : « محمد عبده » .

ونحن نعتقد مخلصين أن « الإنسان » ليس هو الحوادث والأخبار ؛ إنما هو استجاباته لهذه الحوادث ، ودلالة هذه الاستجابة على « نفسه » وطبيعته . وليست تعنينى أخبار كائن من كان إلا بمقدار ما أعرف « من هو » هذا الكائن ؛ وإلا بمقدار ما أجد فيها « مفتاح شخصيته » وطبيعة نفسيته .

وشىء من هذا كله لم يتعرض له مؤلف « محمد عبده » إلا لماما . إذا كان همه موجهاً إلى جمع طائفة من أخبار نشأته وتعليمه وأسفاره وأعماله ، مما تفرق فى كتب الشيخ رشيد رضا وتشارلز أدمز وعبد الرحمن الرافعى ، وفى بعض الصحف والمجلات من هنا أو هناك .

ولا أريد أن أقلل من أهمية جمع هذه الأخبار والأقوال ، فهى المادة الأولية الضرورية للدراسة ، وجمعها هو الخطوة العلمية المبدئية . ولكن الوقوف عند هذه الخطوة تقريبا لا يجعل هذا العمل بحثا ولا ترجمة ولا صورة حياة . ولا بد من الخطوة التالية ، وهى تنسيق هذه الحقائق وتلوينها ، واستنطاق هذه الشواهد وتحليلها ، وتوجيهها جميعا لإحياء « الشخصية » المعروضة ، وكشف دخائلها النفسية ، ومنحها العنوان المميز لها من بين الشخصيات .

ولقد أراد المؤلف الفاضل أن يصنع هذا فى النهاية فكتب فصلا أسماه : « شخصية الأستاذ الإمام » استغرق فيه ثمانى صفحات .

ونحن نعتقد أن المجال لم يكن ضيقاً أمام المؤلف ، لو أنه عمد إلى طريقة أخرى غير طريقة السرد والجمع التى عمد إليها ، وأن هذا الفصل الأخير وحده كان فيه متسع لو زاده بضع صفحات يتسع لها حجم الكتاب ؛ بل لو اتبع فى هذه الصفحات الثمانية طريقة التصوير السريع ، واستخراج دلالة الحادثة التى يسوقها وعدم الوقوف عند تسجيلها .

فالمهم أولا فى دراسة رجل كالشيخ محمد عبده ، هو رسم صورة واضحة مكتملة للعصر الذى عاش فيه ، والبيئة التى عاملها ؛ وهذه الصورة لا تلزم فى دراسة أخرى لزومها فى دراسة محمد عبده « المصلح الدينى الاجتماعى » ، الذى

يقاس جهده وتقاس عظمته بمقدار ما صارع بيئته وما ترك فيهـا من آثار . والشيخ محمد عبده بالذات لا تبرز عظمته إلا بوضع هذه الصورة أمام صورته ؛ ومقابلة عقلية جيله بعقليته . ولا يكفي أن يذكر المؤلف طريقة الدراسة في الأزهر أيام دراسته في هذا الاختصار الذي ذكره ، ولا ممارضة الأزهريين له يوم أن هم بإصلاح الأزهر فيما بعد .

كلا لا يكفي هذا لبيان عظمة محمد عبده بالذات ، فمحمد عبده — في الواقع — كان يواجه جيلا كاملا في شتى نواحيه العقلية والنفسـية والدينية ، ولم يكن الأزهر إذ ذاك إلا صورة من صور الجيل ، الذي هزه جمال الدين أول هزة ، وترك لمحمد عبده أن ينشئه نشأة أخرى ، وقد فعل وبذل حياته كلها ليصل إلى هذه الغاية الكبيرة ، بحيث تعد النهضة العقلية الحاضرة بما فيها الجانب السياسي إشعاعات لهذه الموجة الكبيرة ، موجة الإمام .

وواجب من يكتب عن « محمد عبده » أن يبرز هذا كله ، لا في سياق الحوادث والأخبار ، ولكن بالتصوير والتحليل ، وإلا كان عمله تصغيراً لهذه العظمة من حيث لا يريد .

أقول « تصغيراً » وأعنيها ؛ ذلك أن أقوال محمد عبده وأعمـاله حين تذكر دون أن توضع أمامها مرآة العصر الذي قيلت أو عملت فيه ، قد تبدو لأبناء جيلنا صغيرة ، بالقياس إلى ما بلغنا إليه اليوم ، وإن كان بعضها ما زال محتفظاً بعظمته حتى في الجيل الحاضر . ولـكن دلالة هذه الأقوال والأعمال هي التي تحتفظ بقيمتها على ممر العصور . وهذه الدلالة هي التي أهملها الدكتور المؤلف في معظم الأحايين .

هذا وشيء آخر . ما لون هذه العظمة واتجاهها ؟

إن العظماء كثيرون ، ولـكل منهم سمـة واتجاه ، فما سمة محمد عبده واتجاهه ؟

إن قول المؤلف : « إنها شخصية معقدة قوية نشأت أولا في نطاق ضيق ، نطاق الدين واللغة والفلسفة ، ولـكنها ما لبثت أن جاوزته وامتد نشاطها إلى دوائر أوسع » . أو قوله : « كان رجلا عظيما لأنه عاش لأمته ورسالته أكثر مما عاش لنفسه ولأسرته . . . . »

هذا القول العائم لا يعطي شيئاً عن نوع هذه الشخصية ، وما قاله عنها هنـا تشترك معها فيه شخصيات أخرى كثيرة ، وفي عصر محمد عبده بالذات قد يشترك جمال الدين وسعد زغلول معه في هذه المشخصات !

إنما وظيفة الدراسة الحديثة أن تميز لنا أنواع العظمة في هؤلاء المتعاصرين أولا ، وفي كل عظيم بين عظماء الإنسانية جميعا .

وهـذا لا يحتاج إلى فراغ كبير ، إنما يحتاج إلى خبرة « بتصنيف » العظمات ، وتمييز النفسيات .

لقد كانت عظمة محمد عبده عظمة « المصلح » في غير ثورة ولا طفرة ؛ وكانت عظمة جمال الدين عظمة « الثائر » الذي يجيد النفخ في الثورة ؛ وكانت عظمة سعد زغلول عظمة « الزعيم » الذي يلهم قيادة الملايين .

وهذه العظمات الثلاث قد تتكافأ في قوتها ، ولـكنها تختلف في اتجاهها ، كما تختلف في محيطها .

فجمال الدين كان يريدها ثورة سياسية أولا ثم اجتماعية في الشرق كله ؛ ومحمد عبده ، كان يريدها إصلاحا دينياً ونفسيا وفكريا واجتماعيا في العالم الإسلامي ؛ وسعد زغلول كان يريدها نهضة وطنية مصرية .

وكان أمام المؤلف ما يحدد به طبيعة الإمام واتجاهه من الأخبار والأقوال التي أوردها في نفس كتابه ، ولـكنه تركها غفلا بدون استشهاد ولا تحليل .

لقد كان يجد في موقفه من الثورة العرابية ، وعدم موافقته على الطفرة في المطالب الدستورية ، وارتيـاحه لإصلاحات رياض باشا ، وفي طريقته في إصلاح طريقة

التدريس والمناهج بالأزهر ، وأخذه ذلك بالرفق المصحوب بالعمل ، وفي قوله حين عين قاضيا : «لم أخلق قاضيا ولكني خلقت معلما ...» ، وفي كثير غيرها من الحوادث والأخبار والأقوال لمحات واضحة من هذه الطبيعة الموحدة .

ثم لقد كانت للإمام صفات نفسية وعقلية أساسية :

قوة الشخصية التي لا تهيئ لخصومه مواجهته فيدسون له الدسائس من بعيد ، ثم تنكل شخصيته لإفسادها ، ويبلغ من قوتها أن يلتجئ إليها خصومه أنفسهم حينما يقعون في الأزمات الشديدة ؛ وحادثة الخديو عباس والرجل الأرمني والمعتمد البريطاني معروفة ولها نظائر أخرى ...

والمروءة التي تلزمه مالا يلزم الناس ؛ ومناصرته للثورة العرابية بعد تورط زعمائها — مع مخالفته لهم في مبدئها — مثل من هذه المروءة النادرة ، ومثلها في الدلالة حوادث أخرى فردية مذكورة ، كاف نفسه فيها — دفاعا عن الحق ونجدة للضعفاء — ما لم يكلفه أحد ، وما لم ينتظره أحد كذلك .

وقوة المنطق ووضوحه ؛ ومحاوراته وردوده الشفوية والمكتوبة كثيرة . وقد ذكر المؤلف بعضها حوادث وأخبارا وأقوالا ، دون أن يبرز هذه السمة وينص عليها .

* * *

إن موضوع «محمد عبده» لا يزال في حاجة إلى الدراسة على نحو جديد ... وإن كان الدكتور عثمان أمين يستحق الشكر لجمعه هذه المادة الخامة من المؤلفات المتفرقة والصحف الموزعة . فقد هيأ لمن يكتب عن «محمد عبده» جزءاً قيما من مواد الدراسة ، ووضع لبنة في هذا العمل تذكر له .

سيد قطب

الثقافة
AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٦ — الثلاثاء ٢١ من ذي القعدة سنة ١٣٦٣ — ٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

على هامش الحكم :

حول « ماذا نريد »

[من المسئول عن الارتجال في المسائل الفنية ؟
وكيف يتحقق لها الاستقلال والاستقرار ؟]

كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد في العدد ٣٠٤ من هذه المجلة تحت عنوان « ماذا نريد » ، وفي سبيل المطالبة بأن يكون تدبير الأمور الفنية في الوزارات من شأن الموظفين الفنيين الدائمين ، كتب يشرح كيف أن بعض الوزراء يهملون معاونيهم الفنيين وينفردون بالاضطلاع بأعباء الوزارة اعتداداً منهم بمقدرتهم ، أو شكاً منهم في مقدرة معاونيهم . وقد بين الأستاذ أبو حديد الأضرار التي تنجم عن هذا ، وضرب لذلك مثلا بما حدث في وزارة المعارف في بعض العهود الماضية ؛ كما بين ما تعانيه تلك الوزارة بل ما يعانيه الأهلون جميعاً من جراء تلك السياسة التي جرى عليها وزير ذلك العهد .

وقد ختم الأستاذ مقاله بأن انفراد الوزير بالعمل يعرض شئون الإنشاء والإدارة للتغير المستمر ، ويذيع الاضطراب والتخبط في شئون الأمة العامة ، والاستمرار على نقض ما أبرم وإبرام ما كان نقض ؛ ورسم العلاج بقوله : « ولا دواء لكل ذلك إلا بأن توجد في كل وزارة هيئة فنية جديرة بالثقة ، وأن يوكل إليها تدبير الأمور في كل شأن من الشئون الفنية » .

ونحن نوافق الأستاذ على هذا المبدأ كل الموافقة ، ونحسب أن كل عاقل يتمنى لو وجدت في كل وزارة هيئة دائمة ناجحة مستقلة تضطلع بالشئون الفنية . ولكننا نخالفه في أمرين : الأول لوم الوزير وحده على تلك السياسة التي اختطها ؛ والثاني ما قد يتبادر إلى الذهن من أن مجرد خلق تلك الهيئة الفنية الجديرة بالثقة ، وترك تدبير الشئون الفنية لها ، فيه الضمان الكافي لحسن سير المسائل من الوجهة الفنية كما ينبغي .

فأما عن الأولى فإننا نرى أن في عنق الموظفين الفنيين بكل وزارة أمانة ، هي أن يرعوا الشئون الفنية ويخصوها بعنايتهم ، وأن يدافعوا عنها بكل قوة إذا أصابها شيء من الضرر أو نالها سوء من أي جانب من الجوانب ، وعلى يد أي شخص من الأشخاص مهما كانت شخصيته ومهما علت منزلته . فلو أن الفنيين في وزارة من الوزارات رأوا الوزير يتخبطهم في المسائل الفنية بالكيفية التي صورها الأستاذ محمد فريد أبو حديد لكان من أواجبهم أن يقفوا مدافعين عن وجهة نظرهم الفنية ، لا يخشون في ذلك لومة لائم ، ولا ينظرون لأي اعتبار خلاف الاعتبارات الفنية والمصلحة القومية .

وليس معنى هذا أني أقصد أن أكلف هؤلاء الفنيين شططاً ، بمطالبتهم بمحاربة الوزير ، ومناصبته العداء ، ومهاجمته بالعنف ، فهذا مالا يقول به إنسان ؛ فالوزير على كل حال هو المسئول الأول عن وزارته ، وله الكلمة الأخيرة في كل شأن من الشئون . وإنما الذي أقصده أن على الموظفين الفنيين أن يؤدوا واجبهم ، ويبرئوا ذمتهم ، ويريحوا ضمائرهم ، ببسط وجهات نظرهم بالحسنى مدعمة بأقوى الحجج الفنية ، ومستندة إلى الأرقام الإحصائية ، ومبينة وجه الضرر فيما يريد الوزير إبرامه ، ووجه النفع فيما يشيرون عليه باتباعه .

وقد يعتذر ضعاف الإيمان بأن ما ندعوهم إليه وما نعده من واجبهم ، أمر غير معقول ، وأنه قد يكلفهم تدخلا قد يحسب عليهم من وجهة آداب المجتمع وقواعد السلوك غير مرغوب فيه . فالرجل الفني في نظرهم موجود في مركزه ويتقاضى مرتبه على أن يقوم بما يطلب منه من آراء ، وما يكلف به من أعمال ، على الوجه الذي ترتضيه المصلحة ؛ فإذا كان الوزير في حاجة إلى نصيحة قدمها ، وإن استغنى عنها فليس من الحكمة أن يقحمها عليه .

ونتيجة الأخذ بهذا الرأي ، أنه عندما يوجد الوزير الذي وصفه الأستاذ فريد أبو حديد يوجد إلى جانبه عشرات من الرجال الكبار ، ومئات ممن يلونهم ، لا عمل لهم ، مادام الوزير قد استخار الله ، وعقد النية على أن يعمل بنفسه منفردا بغير حاجة إلى مشورة الرجال الفنيين حسب مقتضيات مراكزهم ، وطبقا لنوع عملهم ، وإنما يكتفي بواحد أو اثنين يصطفيهما للاستشارة من آن لآن ، إذا شعر بحاجة إلى تلك الاستشارة .

فهؤلاء القوم الذين وُضعوا على الرف ، ولم يطلب منهم استخدام عقولهم ومواهبهم ، وبذل قصارى جهودهم في سبيل الإنتاج ، قنعوا بأن يروحوا ويجيئوا كل يوم إلى مكاتبهم منتظرين حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ، ويأتيهم الفرج بتغير الحال ، ولم تحدثهم أنفسهم — طبقا للقاعدة الذهبية التي ذكرناها من قبل — بأن يتناولوا مشروعات الوزير وأعماله بخير ولا بشر . فهل وجهة نظر كهذه يصح أن تُقبل من أصحابها ؟

لا نظن ذلك ، فنحن لا نقر مثل تلك القاعدة التي يتخذها البعض تكأة لإرضاء الضمير ، وحجة للسكوت ، وسبباً للتغاضي عما يجري أمامهم وتحت أعينهم من الخلط والعبث ؛ وإنما نرى أن كل موظف فني يجب أن يعتبر نفسه مسئولا عن كل ما يجري حوله ، مطالَباً بأن يؤدي واجبه الفني ولو لم يطلب ذلك منه . والطرق لأداء هذا الواجب عديدة بحيث إذا سد أحدها في وجهه فأمامه طرق أخرى يسلكها . فهو لا يعدم وسيلة لإسماع الوزير رأيه ونشره على الناس ، وتأييده بكل الطرق المشروعة ، وبسطه لقادة الرأي في البلاد والدفاع عنه أمام الجميع .

وقد يعترض معترض بأن من يفعل ذلك يستهدف لغضب الوزير ونقمته ، كما حدث بالفعل في بعض حالات معروفة ، ولكن هذا راجع إلى أن الذين يتصدون لمثل

تلك الأعمال قليلون بحيث يستطيع الوزير أن ينال منهم . أما إذا كان الرجال الفنيون فى جملتهم أقوياء متضامنين ، ضمائرهم حية ، وتحمسهم للفن والمصلحة عظيم ، وإيمانهم برسالتهم راسخ ، فإن الوزير ما كان يستطيع أن يهمل رأيهم ، ولا أن ينال من بعضهم ، ولا أن يستهين بالشئون الفنية ويحسبها مجرد تسلية ! وذلك لعلمه أن وراءها حراساً يقظين لا يمكنون أحداً من العبث بها ، وعندئذ يحسب لهم ألف حساب ، ويتردد قبل أن يتخذ خطوة كالخطوات التى أشار إليها الأستاذ أبو حديد .

* * *

والآن فلنتكلم عن الأمر الثانى ، وهو : هل مجرد خلق هيئة فنية جديرة بالثقة فى كل وزارة لتدبير الشئون الفنية فيه الضمان الكافى ؟

الواقع أن كل شىء يتصل بهذه الهيئة متوقف على جدارتها بالثقة ، وليس يكفى فى نظرنا أن تكون جديرة بالثقة من الناحية الفنية وحدها . فكم سمعنا عن هيئات فنية قديرة وضعت مشاريع أو نظماً أو قواعد فنية ، وأيدتها بحجج فنية قوية ، ثم لا تلبث نفس هذه الهيئات ، عندما تتبدل الظروف ويبدو لها أن اتجاه أصحاب السلطان قد تغير ، أن تتقدم بمشاريع أو نظم أو قواعد فنية فى نفس الموضوع السابق ، مخالفة للتى وضعتها من قبل ، أو لعلها على عكسها تماماً ، ولم تعدم حيلة لدعم هذه المشاريع أو النظم أو القواعد المضادة بحجج فنية جديدة قوية تؤيدها ، وتبرر الأخذ بها دون سابقاتها !!

فهل مثل هذه الهيئات على كفاية أعضائها الفنية جديرة بالثقة ؟ أظن لا . وإنما نحن نطلب الجدارة بالثقة من ناحية أخرى ، وهى ناحية القوة النفسية ، والشجاعة الأدبية ، والأمانة الدقيقة ، التى تجعل هذه الهيئة تخضع لسلطان واحد فقط هو سلطان الضمير وسلطان المصلحة العامة الحقيقية ، ولا تتأثر بأى اعتبار آخر ، ولا تستجيب لأى إيحاء ، ولا تلين أمام أى تهديد ، ولا تحسب حساباً لأى شخص أو مصلحة خاصة من أى نوع من الأنواع .

على أننا نرى أن تحقيق هذا الأمل لا يتأتى إلا إذا سرت هذه الروح فى الأمة ، وأحس الناس فى قلوبهم بحاجة ملحة إلى ذلك الاستقلال الفنى ، وملكت هذه العقيدة على أفراد الشعب - ولو المستنيرين منهم - نفوسهم ، وأصبح هناك رأى عام يؤيد هذا الاتجاه ويعززه وينادى به .

فهذا فى نظرنا هو سر نجاح استقلال الهيئات الفنية فى البلاد كإنجلترا ؛ فالقوم هناك كلهم مؤمنون به فلا تملك الحكومات أن تحيد عنه ، ولا يجرؤ وزير أن يعبث بهذا الاستقلال الفنى لأية هيئة من هيئاته ، فى أية ناحية من نواحى الحياة العامة .

فعلينا إذن أن نجاهد لإذاعة هذه الروح ، ونعمل لكسب الاستقلال الصحيح للهيئات الفنية . فكما أن الاستقلال السياسى لا يتحقق إلا بعد جهاد ، والمبادئ الديمقراطية لا تستقر إلا بعد دعاية قوية ؛ لأن السلطة تستهوى النفوس ، وكل شخص يتلذذ من الاستمتاع بالسلطة والنفوذ الذى لا حد له ، فليس إذن من السهل إقناعه بأن ينزل عنها مختارا ، بل لا ينزل عنه إلا مرغماً .

فكذلك الأمر هنا يحتاج إلى كفاح ، فهو ليس بالهين الذى يحل بمقال أو مقالين ، أو بتقرير أو اثنين ، أو حتى بقرار أو قرارات ؛ وإنما هو مبدأ يتطلب منا دفاعا قوياً ، وسعياً حثيثاً ، ودعاية واسعة ، ومحاربة بالطرق المشروعة لمن سيقفون ضده ، وتأييداً لأولئك الفنيين المتصفين بالشجاعة فى الدفاع عن الحق ، حتى يكثر عددهم ، ويقوى حزبهم ، وينتصر جانبهم .

فإذا تم لنا ما يقرب من هذا كله ، كان لنا أن نؤمل فى أن يكون «تدبير الأمور الفنية فى الوزارات من شأن الموظفين الفنيين الداعين» ، كما يقول الأستاذ أبو حديد . ومن يدرى فلعل ذلك مستطاع وقريب المنال !!

أحمد عبد السميع الكردانى

يرحم الله

الدكتور عبد الواحد الوكيل

كان مثلا لابن مصر الذى تتقد فى قلبه جمرة الإخلاص ، وكان مثلا للصديق الذى يتسع قلبه الرحب للوفاء ، وكان مثلا للإنسان الذى يحس آلام الإنسانية وهو بنتجى منها ، ويعرف حق المحروم وهو مستكفٍ لم عنه الحرمان . كان أحب الآمال إليه أن يسعف الملهوف ، وأن يرفه عن المكدود ، وأن يبث الحياة إلى المريض ، ويرسل الدم إلى عروق الجائع ، وكان فوق ذلك يذيع كلمة المعروف .

عرفته شاباً ، وعرفته رجلا ، ثم عرفته وزيراً ، فما كان فى حال من تلك الأحوال إلا روحاً واحداً وقلباً واحداً ، لا تزيده الأيام على مرّها إلا قوة فى الفكر ، وبسطة فى أمل الخير ، وسعة فى أفق الخدمة العامة .

كان للوطن كله ، لا يدخر وسعاً أن يعين بيده ، وأن يمد الأصدقاء الذين يعملون معه بفيض من روحه ؛ فكان حيث تراه قطباً للبر والخير والمعروف .

اتجه بكل نفسه إلى خدمة ذلك المواطن الفقير الذى يقيم فى الريف ، وكانت طبيعته الخيرة لا تكاد تعرف اليأس . جاس خلال القرى فرأى الشعب المحطم ينظر فاتراً إلى كل محاولات الإصلاح نظرة كابية يائسة ، ولكنه أشاع الأمل حيث سار ، وأقبل على علل الريف يدرسها ويحاول أن يجد الوسيلة لعلاجها ؛ وقابلته الصعاب ، واعترضته العقبات الكأداء التى تخذل نفوس المصلحين ، وتضعف الثقة فى قلوب الرواد الإنسانيين ، ولكنه كان دائم البشر لا ينطوى صدره إلا على الأمل . وكم قال فى ثنايا حديثه : « إن الإخفاق هو وسيلة النجاح » ! ولكم تبسم عندما كان يرى بعض خططه فى الإصلاح تنهار تحت عينيه فلا يزيد على أن يقول :

« لقد استفدنا من هذه الخيبة درساً جديداً يعلمنا أن نعدّل خطتنا » !!

ثم يقبل على خططه فيعيد النظر فيها ، ويعود إلى الإصلاح ، فيتجه إليه بنفس قوية لم تزدها قسوة التجارب إلا مضاء .

وقد رآه الناس وعرفوه وزيراً . كان يجاهر بأنه إنما ينتسب إلى الوطن ، وأنه إنما ينتمى إلى هذا الشعب كله ، وأنه إنما يهب نفسه للوزارة لعله يستطيع فيها أن يجد من القوة والسلطة ما يعينه على الخدمة العامة التى امتلأ قلبه بالحماسة لها . وقد قضى مدة الوزارة مجاهداً فى سبيل شائكة تهب عليها عاصفة هوجاء من المرض والجوع والعُرْى ، عاصفة زادت العبء على عاتقه ؛ فلم يكن له إلا أن يجهد نفسه فى الليل والنهار ، لا يكاد يستقر فى قرار ، وهو لا يملك إلا نفسه القوية وأمله الواسع يجاهد بهما ما استطاع .

وكان آخر العهد به أن ضرب مثلاً جديداً رائعاً من أمثلة الرجولة النادرة ؛ فقد عرض نفسه بعد أن تخلى عن الوزارة ، وكان عرضه كريماً جديراً بنفسه الإنسانية عرض على وزارة المعارف أن يقوم على مراقبة الصحة المدرسية ، كما كان يقوم عليها قبل أن يدخل فى صفوف الوزراء . ولم تقعده ذكرى سلطان الوزير عن أن يتقدم للخدمة جندياً من الجنود !!

ولقد لقى عرضه هذا تقديراً وثناء ، وكان نجاحه فيه من أعظم ما تم جهاده ، لأنه وضع به أمام الشباب مثلاً يجدر بهم أن يحتذوه .

فإذا كان القلب يدمى من الحزن على فقده ، وإن كانت الحسرة تملأ الصدور لحرمان البلاد منه ، فإن ذكراه الطيبة ومثله الكريم جديران بأن نتخذهما تراثاً جليلاً .

وإن كان عبد الله خلى مكانه فما كان وقافاً ولا طائش اليد

عليه سلام الله فى الأبرار لقد عرف كيف يملأ حياته ، وكيف يمضى عنها كريماً .

محمد فريد أبو حديد

زعماء الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث :

— ٤ —

السيد عبد الرحمن الكواكبى

أما كتابه الثانى « أم القرى » فأدل على الابتكار وأوضح فى إظهار الشخصية . يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض ، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ، ويصف علاجه فى أسلوب قصصى جذاب . تحدث فيه عن جمعية من المسلمين عقدت فى مكة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامى ؛ فعضو شامى ، وعضو إسكندرى ، ومصرى ومقدسى ويمنى وبصرى ونجدى ومدنى ومكى وتونسى وفاسى وإنجليزى وروسى وكردى وتبريزى وتترى وقازانى وتركى وأفغانى وهندى وسندى وصينى . وأسندت رياسة الجمعية للعضو المكى ، والسكرتارية للسيد الفراتى ، ويعنى به الكواكبى نفسه . واجتمعوا كلهم فى مكة قبيل الحج ، فى مكان متطرف فى مكة ، يتداولون فى حال المسلمين . وكان أول اجتماع لهم فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ .

فهل كانت هذه الجمعية حقيقية أو من نسج خياله ؟ يقول هو إن لها أصلاً من الحقيقة ، وأن الخيال تممها . فهل هذا صحيح ، أو هو من قبيل تأييد الخيال كما يفعل كثير من الروائيين ؟ أرجح الرأى الثانى .

على كل حال انعقدت الجمعية — فيما يقول — ووضع الرئيس منهج البحث ، وهو الكتمان ، لأنه أدعى إلى إفضاء كل بما فى نفسه فى صراحة ، وتناسى الاختلاف فى المذاهب ، فلا سنى وشيعى ، ولا شافعى وحنفى ، فالكل مسلم . ثم التجرد من اليأس فى الإصلاح ، فهذه أمم كثيرة كالرومان واليونان واليابان ، استرجعت مجدها بعد تمام ضعفها ، خصوصاً وأن الظواهر كلها تدل على أن الزمان قد استدار ، وبدأت تظهر أعراض الصحة على المسلمين ؛ ومن أعظم الظواهر انعقاد مثل هذه الجمعية . ووضع برنامج المؤتمر ، وهو يتلخص فى بحث موضع الداء فى المسلمين وأعراضه وجراثيمه ودوائه وكيفية استعماله الخ .

قال الرئيس : إن أوضح عَرَض من أعراض مرض المسلمين فتورهم ، وهو فتور عام شامل لجميع المسلمين فى جميع أقطار الأرض ، لا يسلم منه إلا أفراد شواذ ، حتى لا يكاد يوجد إقليمان متجاوران ، أو ناحيتان فى إقليم ، أو قريتان فى ناحية ، أو بيتان فى قرية ، أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين ، إلا والمسلمون أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً ، وأقل إتقاناً من نظرائهم فى كل فن وصنعة ، مع أن المسلمين فى جميع الحواضر متميزون عن غيرهم من جيرانهم فى المزايا الأخلاقية ، مثل الأمانة والشجاعة والسخاء ، حتى توهم كثير من الحكماء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان ! فما هو السبب ؟

وقد لفت نظره العضو الهندى فى أنه مع تسليمه بما قال الرئيس ، يود أن يستثنى بعض حالات فيها المسلمون خير من جيرانهم ، كبعض الوثنيين فى الهند ، والصابئة فى العراق ؛ فوافقه الرئيس وشكره على دقة ملاحظته .

ثم أخذوا — بعد التسليم بوجود المرض — يبحثون فى الأسباب ، وذهبوا فى ذلك كل مذهب ؛ فالشامى رأى أن سبب الفتور يرجع إلى ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية ، فهذه العقيدة فى القضاء والقدر على هذا النحو آلت إلى الزهد فى الدنيا ، والقناعة باليسير والكفاف من الرزق ، وإماتة المطالب النفسية كحب المجد

والرياسة والإقدام على عظائم الأمور ، فأصبح المسلم كميْت قبل أن يموت . والعقيدة بهذا الشكل مثبطة معطلة لا يرضاها عقل ، ولم يأت بها شرع .

والقدسي رأى أن السبب تحول نوع السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى استبدادية ، فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق .

ورأى التونسي أن بعض الأمم الأوروبية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع ذلك من تقدمها ، وإنما السبب في نظره الأمراء المترفون الذين لم يرعوا للأمة حقوقها .

وقال الرومي : إن تحميل الأمراء التبعة كلها غير سديد ، فإنهم إلا نفر قليل من الأمة . والسبب الحقيقي في نظره فقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها : من حرية تعليم ، وحرية خطابة ، وحرية البحث العلمي ؛ فبفقد الحرية تفقد الآمال وتبطل الأعمال ، وتموت النفوس ، وتختل القوانين ، وتسأم الأمة حياتها فيستولي عليها الفتور .

ورأى التبريزي أن السبب ترك المسلمين أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاسترسل الأمراء في أهوائهم وشهواتهم ، وعدمت المراقبة عليهم .

وقال الفاسي : إن السبب هو إهمال الناس الاهتمام بالدين ، حتى لم يبق له أثر إلا على رءوس الألسن ، وأمراؤهم مثلهم لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطانهم على البسطاء من الأمة ، هذا إلى ظلمهم وجورهم . وقد كان المسلمون أعزاء يوم توثقت بينهم الرابطة الدينية ، فلما انحلّت ضاعت الأخلاق فتفرقوا وخمدوا .

أجاب المدني بأن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً لهذا الفتور العام . وعنده أن السبب تدليس رجال الدين وغلاة المتصوفين الذين لوّنوا الدين بلون سيء فأضاعوه وأضاعوا أهله ؛ وذلك أن العلماء العاملين أهلٌ لكل تجلة واحترام ، فلما حسدهم من لا يستحق هذه المنزلة سلكوا مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيف المقدرة إلى التصوف كما يلجأ فاقد الجد إلى الكبر ، وقليل المال إلى التظاهر بزينة اللباس والأثاث ، فأفسد هؤلاء الدين بما أدخلوا فيه مما ليس منه ، كالعلم اللدنّي ، وترتيب المقامات ، ووراثة السر ، والرهبنة ، والتظاهر بالعفة ، والتبرك بالآثار والكرامة على الله ، والتصرف في القدر ، فسحروا عقول الجهلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء كالنساء ، والنساء يذرن هذه البذور الضارة في أبنائهن وبناتهن ، فماتت النفوس وخرفت العقول . وهؤلاء المدلّسون وُجدوا في بغداد ومصر والشام وتلمسان ، وعمروا السوق في الآستانة ، وسرى من هذه المواضع إلى جميع الآفاق فأصبح المرض عاما .

وانضم « الرومي » إلى هذا الرأي وزاده إيضاحا ، فقال : نعم ! إن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين والجهال المتعممين ؛ وبلغ أمرهم في البلاد العثمانية أن صارت الألقاب العلمية منحة رسمية تعطى للجهال حتى الأميين والأطفال (كمشيخة الطرق عندنا) . فقد يكون طفلا ويمنح بالوراثة لقب « أعلم العلماء المحققين » ، ثم « أفضل الفضلاء المدققين » ، ثم وثم حتى يوصف بأنه « أعلم العلماء المتبحرين ، وأفضل الفضلاء المتورعين ، وينبوع الفضل واليقين » ، وأكثرهم لا يحسنون حتى قراءة ألقابهم . وطبيعي أن هؤلاء يقابلون السلطان بالمثل ، فهو صاحب العظمة والإجلال ، المنزه عن النظير والمثال ، مهبط الإلهامات ، مصدر المكرمات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين — وأصبح التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية سلعاً تباع وتشرى ، وتوهب وتورث . وتسلط هؤلاء المتعممون على المجالس والإرادات ، واتخذ الأمراء من ذلك وسيلة يعتذرون بها عند الدول الأجنبية بأن الرأي العام — وعلى رأسه المعممون — لا يقبلون الإصلاح المدني .

أجاب الكردى بأن هذا الداء خاص ببعض الولايات . ولكن عَرَض الفتور عام فى الولايات الإسلامية التى فيها هذا الشأن وغيره ، فلا بد أن يكون السبب شيئاً أعم من ذلك . وعندى أن السبب هو أن المسلمين أصيبوا باقتصارهم على العلوم الدينية وإهمالهم العلوم الدنيوية ، كالرياضة والطبيعة والكيمياء ، على حين أن هذه العلوم نمت فى الغرب وترقت وظهر لها ثمرات عظيمة فى كافة الشؤون المادية والأدبية ، حتى صارت عندهم كالشمس لا حياة لهم إلا بنورها ؛ وأصبح المسلمون فى أشد الحاجة إليها فى جميع أمورهم : من تربية الطفل إلى سياسة الدولة ، ومن عمل الإبرة إلى عمل المدافع والبوارج ، ومن استخدام اليد إلى استخدام الأسلاك والبخار — فابتعاد المسلمين إلى الآن عن هذه العلوم النافعة الحيوية ، جعلتهم أحط من غيرهم من الأمم ، وكلما تمادت الأيام بعدت النسبة بينهم وبين جيرانهم .

أجاب الإسكندرى : إن هذا يصلح سبباً ، ولكن ليس كل السبب ؛ لأن فقد العلوم لا يصلح سبباً لفقد الإحساس الشريف والأخلاق العالية . وإنما السبب نومنا وبأسنا .

قال التترى : إن هذا شكاية حال لا شرح أسباب . إنما السبب عندى فقدان القادة والزعماء ، فلا أمير حازم يسوق الأمة طوعاً أو كرهاً إلى الرشاد ، ولا زعيم مخلص تنقاد له الأمراء والناس ، ولا رأى عام يجمع الناس على غرض نبيل .

والأفغانى يرى أن سبب الفتور الفقر ، وهو قائد كل شر ، ورائد كل فساد ، فمنه الجهل ، ومنه الانحطاط الخلقى ، ومنه تشتت الآراء حتى فى الدين ؛ فليس ينقصنا عن الأمم الحية إلا القوة المالية . ولكن المال لا يأتى إلا بالعلوم والفنون العالية ، وهذه لا تنتشر فى الأمة إلا بالمال . وبهذا تحدث مشكلة الدور ، ويجب أن نبحث عن حلها .

أجاب المولى الإنجليزى إن الفقر فى المملكة الإسلامية ليس طبيعياً ، فهى بلاد غنية ، لو نفذت تعاليم الإسلام من تحصيل الزكاة والكفارات وما إلى ذلك ، وصرفت فى وجوهها لخفت وطأة الفقر . وإنما سبب الفتور فى نظره فقد الاجتماعات والمفاوضات وتبادل الآراء ، فنسى المسلمون حكمة تشريع الجمعة والجماعة والحج ، وصارت الخطب التى تلقى تافهة لا قيمة لها ، وكان الغرض منها التحدث فى الأحوال الطارئة . وبلغ من سوء رأيهم أنهم عدُّوا التحدث فى الأمور العامة فضولا ، والكلام فيها فى المساجد لغواً ، فلما انعدم الكلام فى المصالح العامة أصبح كل شخص لا يهمّ إلا بنفسه ولا اهتمام له بالصالح العام ولا بغير ذلك من الشؤون ، حتى لو بلغهم خبر تخريب الكعبة — لاقدَّر الله — مازادوا عن أن يقطبوا جبينهم لحظة وينتهى الأمر . والأمم الحية فى الوقت الحاضر تهيء الفرص للاجتماعات ومبادلة الآراء ما أمكن ، بكثرة النوادى والمجتمعات وتنظيم الرحلات والسياحات ، وكثرة الخطب والمحاضرات حتى فى المتنزهات ، وعقد المؤتمرات المناسبات ، وتذكيرهم بتاريخهم وأمم أحداثهم ، وبثهم فى الأغانى والأناشيد ما يبعث حب البلاد والحرية ويحمس للخير العام .

ورأى الصينى أن السبب هو تكبر الأمراء وميلهم للعلماء المتملقين المنافقين ، الذين يتصاغرون لديهم ، ويتذللون لهم ، ويحرّفون أحكام الدين ليوفقوها على أهوائهم ، فإذا رجى من علماء دين يشترون بدينهم دنياهم ، ويقبّلون يد الأمير لتقبل العامة أيديهم ، ويحقرون أنفسهم للعظماء ليتعاظموا على ألوف من الضعفاء ؛ فأفضل الجهاد عند الله الحط من قدر العلماء المنافقين عند العامة ، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين . وعندنا فى الصين رجال حكماء نبلاء ، لهم نوع من السيادة حتى على العلماء ، وهؤلاء هم

الذين يسمَّون فى الإسلام أهل الحل والعقد ، وهم خواص الطبقة العليا فى الأمة الذين أمر الله نبيه بمشاورتهم . وتاريخ المسلمين يدل على ارتباط القوة والضعف بمنزلة أهل الحل والعقد فى الأمة . والخلاصة أن سبب الفتور استحكام الاستبداد فى الأمراء ، وانعدام أهل الحل والعقد من الأمة .

وقال « النجدى » : إن سبب فتور المسلمين الدِّين الحاضر نفسه بدليل التلازم ؛ فالدين الحاضر ليس دين السلف . إن الدين الحاضر ترك إعداد القوة بالعلم والمال والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عْن المنكر ، وإقامة الحدود ، وإيتاء الزكاة إلى غير ذلك مما بيَّنه إخواننا . قد يقول قائل : إن كل دين دخل عليه التغير ولم يؤثر فى أهله الفتور ، بل قال كثير من رجال الغرب إنهم ما أخذوا فى الترقى إلا بعد فصلهم الدين عن شؤون الحياة الدنيا . والجواب أن كل أمة لا بد لها من نظام ثابت تسير عليه ويلائم نفسها وبيئتها وعلاقتها التجارية والسياسية ؛ والقانون الطبيعى الذى يتفق والطبيعة البشرية هو إذعانه لقوة غالبة هو الله الذى يوحى به الإلهام الفطرى . ولهذه الفطرة علاقة عظمى بتنظيم شؤون حياته ، وهى أقوى وأفضل وازع — وكل الأديان راجعة إلى أصل صحيح واحد ، فإذا تغير أو فسد فسد الناس لاختلال هذا الوازع ، قال تعالى : « ومن أعرَض عن ذِكرى فإنّ له معيشة ضنكاً » . « والأمة كلما قربت من الأصل الصحيح والمبادئ الصحيحة قربت من الكمال » .

وهنا أعلن الرئيس أن البحث فى أعراض الداء وأسبابه قد نضج أو كاد ، فيكتفى فيه بهذا القدر ، ويجب نقل البحث إلى موضوع آخر . قال : وكلمة أخينا النجدى تلهمنا الموضوع الآتى الذى نبحثه ، وهو ما هو الإسلام الصحيح ؟ .

(يتبع) أحمد أمين

المسرَّة

(التليفون)

وهى منظومة من الوصف الدقيق الرائع

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

مسرَّةٌ تُسعِفُ الحبِّا ... تردُّ بُعدَ المزارِ قُربَا
إذا أدرْتَ البنانَ خمساً ... بها نهبتَ الفضاءَ نهْبَا
إلى الذى كم ظللْتَ ترجو ... لقاءه والزمان يأبى
تُدلُّلُ البرق تمتطيه ... وقد سلكتَ الهواء دَرْبَا
لم تتخذ للسفارِ زاداً ... ولم تذقْ فى الرحيل خَطْبَا
ولا جهدْتَ المطىَّ حتى ... شكتْ لعرض الفلاة كَرْبَا
كأنَّ عرض الفضاء فيها ... نادٍ يضمُّ الرفاق صَحْبَا
أمينـــة لا تذيع سِراً ... لمن قلاَ أو لمن أحبَّا
حفيظة لا تُضيع حرفاً ... ولا تزيد الكلام كِذْبَا
فجِدٌ فى أذْنها أو اهزل ... وقلْ ثناء بها وثلْبَا
فلا تراها تسُدُّ أذْناً ... مهما تطل لو قرأت كُتْبَا
وقاطعُ القول عن أخيه ... تردُّه بالصفير سَلْبَا
فيـــالها آلة ترَبِّى ... ذا الجهل بالذوق لو يُرَبَّى
وكم تحـــايا تحمَّلَتْها ... أدَّتْ لقلب الصديق قلبا
وكم سمعنا بها حـــديثاً ... سرى لقلب الشُوق طِبَّا
وكم ثقيل الحديث لولا ... جمودها أوسعته سبَّا
تكاد ممـــا يُطيل فيها ... تفرُّ ممن دعا ولبّى
ألْقَى علينا بها رجوماً ... مثل الصَّفا أو أشدَّ ضربَا
وكم تراها تثير سُخطاً ... وكم تراها تُجيدُ حُبَّا
فذلك الهزْلُ لا قشورٌ ... نلهو بهـــا لا تفيد لُبَّا

دقاقة الجامعة [1]

يلقاني رنينها في طريقي إلى الجامعة مستعجلا أو مُمهلا ، فأحثّ الخطى أو أسير الهوينى ؛ وأحياناً أسمعه وأنا في الزورق عابراً النيل فأخاله يموج في الهواء والماء ، ويخيّل إليّ أن النهر يتجلّد من هزاته . ويدوّي جرسُها ، وأنا في الجامعة ، صاخباً راثماً ، يقطع عليّ الحديث أو يقف الاسترسال في الفكر مُعلناً أن الدرس قد حان . وبينا أفيض في الدرس ناسياً الوقت أسمع دقاتها مخبرة بما مضى من الوقت وما بقي . وأحياناً أسأل نفسي أبقي من الوقت ما يتسع لمسألة أخرى أزوّد بها الطلاب ، فتجيبني دقاتها كأنها سمعت سؤالي ! وهأنذا أسمعها الآن وأنا أخط هذه الأسطر تعدّدت دقات مؤذنة بأفول الشمس ، وقد صرفني عن الأفق الإكباب على الكتابة .

ويعبر دويّها النيل أحياناً خلال الظلام ، ومن وراء أشجار حديقة الأرمان [2] يهز سكون الليل ، وهدوء النفس ، فأرتاع له حيناً وآنس به حيناً . أجده تارة جَلَبة في الليل الهوّد ، وضوضاء في السكون الساجي ، ورهبة في الظلام المطبق ؛ وتارة أجده أنسا في الوحشة ، وحديثاً في الصمت ، ورنيناً في الوجوم ، وصاحباً في الوحدة ، ونجيّا في الخلوة .

وأحياناً أسمعه خافتاً في جوف الليل يخترق حجب الظلام ، وهمود النيام ، وسكون المضجع ، قائلاً إن الفلك دائر وإن سكنتَ ، والزمان يقظان وإن نمت ، والساعات ذاكرة وإن غفلت ، والأعمار مسرعة وإن هجعت ، والدقاقة مصلصلة رضيت أم سخطت ؛ فيستيقظ في نفسي الزمان كله ماضيه وحاضره وآتيه ، وما أروع الزمان حين تزدحم ذكرياته ، وتترادف عظاته — إنها تدق الآن ربما فتنبّهني إليها وإلى الزمان الذي ذهلت عنه وأنا أكتب فيه .

وإن هذا الرنين في الظلام الداجي ليذكرني بقول حافظ الشيرازي :

ما لنا علم بما نقصده إنما نسمع صوت الجرس

وكأنه صوت الوجدان يجلجل في ضمائر الأحرار حين تُظلم الشبهات وتدجو الأهواء .

يا له من مناد لا يصمت ، وواعظ لا يفتُر ، ونذير لا ينام ، وأذين لا يغفل [1] ، يا له صوتاً رهيباً ، ورنيناً محبوباً ، وداعياً ومحيياً !

أيتها الدقاقة القائلة في برجها الرفيع ! أأنت قلب الزمان الخافق ، وعرقه النابض ؟ أم أنت تمثال الزمان السائل ، وندائه الهائل ؟ أأنت صور الدهر قد تجسّم ، أم أنت نشيده بالرنين مُقَسّم ؟ أوجهك هذا الفلك ، وهذه الاثنا عشر بروجه [2] ؟ ألست تُسَمعين الزمان كله ، وتسايرين الفلك كل حين ؟! وليت شعري أعقرباك هذان ، أم هما الجدثان يسيران ، والملوان يتقلّبان ، والفتيان يلعبان أو يجدّان [3] .

إن في هذا السير الوجود والفناء ، والبدء والانتهاء ، والزوال والبقاء ؛ وإن فيه للحياةَ والموت ، والدَّرك والفوت ؛ وإن فيه للشبابَ والهرم ، والصحة والسَّقَم . ليس من هذا السير بدّ ، ولا لهذا المرور حدّ . الوقوف محال ، والتوقّ خيال :

مُشيبٌ الذي يبكي الشبابَ مُشيبه
فكيف توقّيه وبانيه هادمه ؟

أيتها الدقاقة ! إن صوتك الذي يحركنا كالزمان

---

(١) الساعة الدقاقة في جامعة فؤاد الأول

(٢) الأرمان باللغة التركية : الغابة

(١) الأذين المؤذن

(٢) الاثنا عشر علامة على وجه الساعة

(٣) الملوان : الليل والنهار ، وكذلك الفتيان

كتاب مرفوع

إلى حضرة صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا

سيدي الأستاذ صاحب المعالي، أطال الله بقاءه، ورفع له قدره، وأعز به العلم وأهله.

أنا ياسيدي من المعجبين بفضلك، وجلالة قدرك، لمالك من صفات نبيلة قل إن اجتمعت في إنسان؛ فعلمك بالقانون والتشريع لا يجاريه مجار، وبحوثك في الأدب واللغة من أمتع البحوث، وسيرتك في القضاء أطهر السير، ونشاطك العلمي الدائم عجيبة من الأعاجيب، وعطفك على العلم وأهله وإعانتك إياهم في السر والعلن مما طبّق الخافقين، فالله أسأل لك دوام الخير، مُعاناً على فعله، مؤيداً بالتوفيق في القول والعمل.

قرأت ياسيدي تقريرك الأول الذي قدمته إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية، لما عاد شيخنا الرئيس محمد بك كرد علي من جلسات المجمع، وسمعت ملاحظاته وملاحظات الأستاذ الجليل الشيخ المغربي؛ ثم قرأت في المجلات والصحف بحوثاً ومناقشات حول التقرير وما جاء فيه. وكان من الموافقات الطيبة أن يكون حضرة صاحب السعادة العلامة المشرّع عبد الرزاق السنهوري بك آنئذ يقيم بيننا في دمشق؛ وكنت أنا والأخ الأستاذ يوسف العش نتذاكر والسنهوري بك في مباحث التقرير الخطير مذاكرات طويلة. وقد انتهت هذه المذاكرات بالرد الممتع الطويل الذي كتبه أخونا السيد العش في «الثقافة»، وهو في الحق حسن بالغ صاحبه في تقويته، ولم يأل جهداً في تدعيم آرائه بأحدث ما وصل إليه العلم والفن من أبحاث الصوت والرسم. وقد لقي هذا الرد قبولا لدى معاليك، فكتبت عنه نحواً من خمس وثلاثين صحيفة في كتابك القيم، الذي جمعت فيه الردود على من ناقشوا تقريرك الأول، ونشرته في أغسطس سنة ١٩٤٤ باسم «الحروف اللاتينية لكتابة العربية». وقد قرأت كتاب سيدي الباشا هذا كله وعجبت لأسلوبه الحلو، وحيويته الفذة، ونشاطه العجيب، وغيرته التي لاضريب لها؛ وقد أدهشني ما رأيته في هذا الكتاب من حماسة مدهشة، وإخلاص للفكرة التي يدعو إليها على الرغم من كثرة المعارضين وقوة حججهم. فقد سعى الباشا الجليل إلى هدمها، وهدم بالفعل قسماً كبيراً منها هدماً لا أظن أن أصحاب الردود يقوون على الوقوف أمامه مرة ثانية. ولست آخذ على الباشا — أيده الله — شيئاً إلا شدة لهجته وتهكمه في بعض المواطن، وأظن أن هذه اللهجة التهكمية قد جعلت بعض الناس يميلون عنه.

وبعد، فأنا ياسيدي من المعجبين بالفكرة وبصاحبها أشد الإعجاب، وأنا من المقدرين لنظرية سيدي حق قدرها وخطورة أمرها، كما أني من أشد المؤمنين بأن الذي دفع سيدي إلى القول بها هو إخلاصه في حب العربية وسعيه إلى تسهيلها وتيسير تعليمها. وأنا أرجو أن تتم هذه الحركة في هذه المرة بما فيه خير العربية وصلاحها؛ فقد عالج الناس قبلنا هذا الأمر وبحثوا فيه، ولكنهم تركوه آخر الأمر دون أن يصلوا إلى نتيجة طيبة.

ياسيدي! إن الكتابة العربية عيوبا كثيرة ضاق بها ذرعاً جمهور من الغيورين عليها في القديم والحديث. وأقدم من عرفنا ممن تعرض لذكر فسادها حمزة الأصفهاني،

لا يدعنا نغفل عنك حيناً؛ فهأنت تعدّين ثلاثة أرباع. ولما أبلغ من التفكير ما أريد. إنك لتقولين: إن الزمان لايجارى، والساعات لا تبارى، وإنه لأسرع مما قال أبو العلاء:

أرانا على الساعات فرسان غارة
وهنّ بنا يجرين جرى السلاهب

وإن الزمان أسرع من أن يوصف، وأعظم من أن يُعرف! إن الفكر كليل، في هذه السبيل، وأن القلم خزيان، في هذا الرهان! فألق القلم، واسمع هذا النغم

عبد الوهاب عزام

المؤرخ الأديب العظيم الذي كان يعيش إلى أواسط القرن الرابع للهجرة ؛ فقد ذكر هذا الأديب في كتابه القيم النفيس المسمى : « التنبيه على حروف التصحيف »[١] : (إن الذي أبدع صور حروفها — الضمير يرجع إلى الكتابة العربية — لم يضعها على حكمة ، ولا احتاط لمن يجيء بعده ، وذلك أنه وضع لخمسة أحرف صورة واحدة ، وهي الباء والتاء والثاء والياء والنون . وكان وجه الحكمة أن يضع لكل حرف صورة مباينة للأخرى حتى يؤمن عليه التبديل . . . وبعد أن ذكر تاريخ حدوث نقط الحروف أيام الحجاج ، وأن الناس غبروا زماناً طويلاً لايكتبون إلا منقوطاً ، فكان مع استعمالهم النقط يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام والشكل ، ولكن هذا لم يوف بالغرض أيضاً . ولما رأوا أن العربية لم تنج من التحريف التمسوا حيلة ثالثة فلم يقدروا عليها . فقد بان لمن عقل وأنصف من نفسه أن اعتراض التصحيف في هذه الكتابة مع ما جلب إليها من الزيادة في البيان بالنقط والإعجام ، ليس إلا من ضعف الأساس) . هذا ماقاله حمزة الأصفهاني . وقد كان حمزة مخلصاً في حبه للعربية ، ولم يكن شعوبياً ، كما يزعم جرجي زيدان ، بل كان محباً لها ؛ قضى عمره في الدفاع عنها وفي نشر أدبها وإحياء تاريخها ، كما يقول بروكلمان في كتاب تاريخ الأدب العربي . وإذا كان هذا قول رجل في القديم كحمزة ، ورجل في الحديث كعبد العزيز فهمي ، وكل منهما مخلص غيور ، وجب على أهل الأمر أن يفكروا في هذه القضية الهامة تفكيراً أعمق وأهدأ . وأنا لا أدعو إلى ترك الحروف العربية ، ولا إلى إبقاء القديم على قدمه ، وإنما جئت أحث الغير على الاهتمام بهذا الأمر . على أن عندي بعض اللاحظات أحببت أن أذكرها .

ياسيدي صاحب المعالي :

إن ترك الحروف العربية والاستعاضة عنها بالحروف اللاتينية سيقضي على ثقافة وآثار قيمة خلفها لنا الآباء . فقد حدثني أمس الأستاذ العلامة الفارسي الكبير السيد عباس إقبال ، الأستاذ بجامعة طهران ، وقد كنا نتباحث في هذه القضية فقال : لقد نكبنا نحن الفرس في تاريخنا الأدبي بنكبتين عظيمتين قضتا على أدبنا ، وكان ذلك من جراء تبديل حروفنا بحروف أخرى . فقد كان لنا أدب وشعر وحكمة وتراث مكتوب بالفارسية القديمة ، فلما غيرنا حروفنا بالحروف البهلوية ضاع كل أولئك . ثم عبرنا زماناً نجدد آدابنا وآثارها ، حتى إذا جاء الإسلام تركنا الحروف البهلوية إلى الحروف العربية ، فانهدم كل شيء ؛ وليس عندنا اليوم من آدابنا القديمة شيء ذو خطر . اتركوا معاشر العرب حروفكم العربية إذا شئتم . أما نحن فلن نتركها ، فإن العاقل لايلدغ من جحر مرتين .

هذا يا سيدي قول أستاذ فاضل يغار على أمته وعلى أدبها ولغتها ، وهو مخلص في قوله كل الإخلاص ، ولا سبيل إلى الطعن في شهادته . وإذا كان هذا حال الفرس مع الحروف العربية ، فهل يصح أن يكون حالنا نحن العرب معها غير ذلك ؟! إن الآداب الفارسية من شعر ونثر لاتضارع عشر معشار الآداب العربية ، فكيف يصح لنا أن نتركها أو نبعد الشقة بيننا وبينها ؟ فليس من الخير ولا من العقل أن نتركها تركا كلياً كما فعل الترك ؛ بل الأفضل والأحزم أن نصلح حروفنا .

أنا ياسيدي صاحب المعالي مؤمن كل الإيمان بنقص الحروف العربية وصعوبة تعلمها ، ولكن ليس في الدنيا ياسيدي شيء سهل خالصاً ، والحياة وكل ما فيها جهاد في جهاد . وماخلق الإنسان إلا ليناضل ويجاهد ، وخصوصاً إذا كان النضال في سبيل تعلم لغته وحفظ تراث آبائه الذي توارثه منذ أربعة عشر قرناً . لحرام ياسيدي أن نهدم هذا التراث ، لأن في تغيير الكتابة الهدم المحقق كما يقول العالم الفارسي . والواجب يقضي أن نسعى في إصلاح الكتابة العربية مع المحافظة على هيكلها القديم . وأنا أرى أن من أهم الأمور التي يجب الالتفات إليها في هذا الإصلاح ما يأتي :

(١) من هذا الكتاب نسخة وحيدة في مكتبة مجلس النواب بطهران ، تفضل علينا الأستاذ العالم الفارسي عباس إقبال بها . وقد أعددناها تحقيقاً وسننشرها في القريب إن شاء الله .

١ — حذف الزيادات التي لا فائدة منها في الكتابة العربية مثل ألف (رموا) وواو (عمرو) و (هؤلاء) وما أشبه ذلك .

٢ — إعادة النقصان المحذوف من الكلمات العربية بلا موجب ، مثل ألف (هذا) و (ذلك) و (لكن) وما أشبه ذلك .

٣ — تبسيط قواعد الهمزة .

٤ — تيسير قواعد النحو بطردها وحذف القواعد الشاذة . وأنا أرى أن بحث العلامة أستاذنا إبراهيم مصطفى الذي دعا إليه في كتابه (إحياء النحو) ، ثم بحث أستاذنا الجليل أحمد أمين بك في تيسير قواعد العربية ، الذي قدمه إلى المجمع اللغوي ، من أهم ما يجب الاعتماد عليهما لتذليل قواعد العربية .

٥ — كتابة المصاحف كما تقرأ ، وعدم التقيد بالكتابة العثمانية ، فإن القرآن لم ينزله الله سبحانه إلا ليقرأ وليفهم ، وليس من الدين في شيء أن تكتب كلمة (العلمين) لتقرأ (العالمين) ، أو كلمة (ملك) لتقرأ (مالك) ، وهكذا .

٦ — وضع كتابة عربية جديدة تكون الحركات فيها ضمن الكلمات ، وليس هذا أمراً مستحيلا . وأرى الموافقة على الكتابة التي وضعها أخونا السيد العش ، والتي يقرظها معالي الباشا حفظه الله ، وهي طريقة تجعل الكتابة العربية (مستوفية ما ييسر لكل فرد من أية الطبقات أن ينطق بها على الوجه الصحيح بلا لحن ولا خطأ ولا توقف أو إعمال فكر) .

وبعد ، فأستصرخ رجال التربية والتعليم في البلاد العربية ، وأخص منهم العلامة الرقي ساطع الحصري بك لمعالجة هذه المشكلة الكبرى والاتفاق فيها على رأي ، وتهيئة ذلك قبل موعد اجتماع مجمع اللغة العربية المصري ، فإن الوقت قد أزف ، والناس في اضطراب عظيم وبلبلة مزعجة .

والسلام ورحمة الله وبركاته على سيدي صاحب المعالي

دمشق دكتور أسعد طلس

نقطة تاريخية

مجلة الثقافة صحيفة العلماء المتازين بالدقة في البحث والتعمق في الحقائق التاريخية ، يشكل ما كتبته منزلة خاصة لدى الطبقة المثقفة ، فيحلونه محل الحقائق الثابتة التي لا تقبل الجدل . وقد قرأت في عدد (٣٠٣) من السنة السادسة في موضوع « حافظة إمام » نقطة لا تتفق مع التاريخ ؛ مع أن المقال يشهد لكاتبه بالبراعة الأدبية وحسن الذوق في الاختيار . تلك النقطة هي قوله : (وتصادف أن جاء من بغداد إلى مكة لأداء فريضة الحج الإمام أحمد بن حنبل وصاحباه إسحاق ويحيى ، ودخلوا المسجد الحرام فوجدوا الشافعي وهو في الخامسة عشرة جالساً على كرسيه يقرأ للناس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » الخ . وكاتب المقال نفسه يقول : (ذلك هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الذي ولد في غزة بأرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ)

ومن هذا نعلم أنه بلغ الخامسة عشرة من العمر في سنة ١٦٥ هـ . والإمام أحمد بن حنبل مولده سنة ١٦٤ ، أي أن سنه كانت سنة واحدة وقت أن كان الإمام الشافعي يلقي دروسه في الحرم ، كما جاء في كتاب حماة الإسلام المرحوم مصطفى بك نجيب — وقد راجعه المرحوم محمد أحمد جاد المولى بك — ص ١٠٥ ج ٢ ، قال في الكلام عن الإمام ابن حنبل : (خرجت أمه به من مرو حاملا فولدته في سنة ١٦٤ هـ) .

فلا يصدق أن الإمام ابن حنبل ذهب لأداء فريضة الحج وسنه سنة واحدة . ولكن الذي نصدقه أن كاتب المقالة سها قلمه ؛ فعليه التصحيح ، وذلك لا ينقص من قدره ، ولا يقلل من قيمته العلمية والأدبية .

م . م . ا

العطـــر

كان الوقت وقت الظهيرة حينما مضى بى صديق إلى أحد المطاعم الأفرنجية بشارع فؤاد الأول . وكان صديق يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، وكأنما أدرك عما نمّت عنه ملامحى أنى أستبينه مغزى هذه الابتسامة ، فأنشأ يقول وقد انبسطت أساريره :

— أتدرى ؟ إن ذكرى من ذكرياتى اللطيفة قد أثارها الساعة مرورنا بمحل (...) ونحن فى طريقنا إلى هذا المطعم !

قلت : إنه محل للتجمل والزينة ... أعنى أنه يبيع لوازم النساء . فهل الأمر يتعلق ب ... ؟

... وقطع علىّ صديق قائلاً :

— .. أجل إنه لكذلك .. غير أن « الحادثة » ليست « مأساة » جرّت إليها مغامرة من مغامرات الشباب ! إنها لا تعدو أن تكون « ملهاة » تستثير الضحك والإشفاق ... ولعلها تستذرف الدمع أيضاً ! وإنى لأرى أن نتلهّى الساعة بذكرها ، فإنه ليحلو للإنسان عادة أن يجترّ ذكرياته « الطريفة اللطيفة » يتندّر بها وهو يملأ معدته بالطعام ؛ فإن ذلك ليجعله مستطاباً سائغاً دون شك !

... وضحكنا .. ثم تشاغلنا قليلاً فى التهيؤ للطعام — وبعد برهة وجيزة بدأ الصديق أن يتكلم .

— كان ذلك منذ خمس سنوات على التقريب ، حينما كنتُ بوزارة المعارف ، وكان عملى يقتضينى السفرَ بين آنٍ وآخر إلى الثغر . وكنتُ قد اعتدتُ هذا السفرَ اللبافتَ ؛ فكان ثمة حقيبة صغيرة عندى ، مُعَدّة دائماً لهذا الغرض . وكانت فترة غيابى لا تتجاوز — عادة — أياماً ثلاثة . ولا أطيل عليك .. فنى رحلة من رحلاتى تلك ، حدثت « الحادثة » ولم يتجاوز ميدانها القطار !

* * *

كان صباحاً جميلاً منعشاً ، وكانت الشمس تغمر الأرض ، وكان الجو فى هذا اليوم يُغرى بالحركة والخفة والنشاط ، فقصدت بخطى سريعة متأهبة إحدى عربات الدرجة الأولى . وما أن جلستُ حتى فاح عطرٌ عجيبٌ فذٌّ فى أرجاء العربة ، وتسرّى العطر إلى خياشيمى ، وملأ رئتىّ ، وتسرب فى رفقٍ إلى أعصابى تخدّرها ، وأحال جوّ القطار فى لحظةٍ واحدة بستاناً من البساتين الشجراء الفيحاء ! فأغمضتُ عينىّ واسترسلتُ فى أحلامٍ لذيذة . وأذهلنى هذا الجو الجديد الذى ابتعثه العطر عن كلّ ما كان يجرى حوالىّ ؛ فلم أعد أرى السَّفْر وهم جلوسٌ فى « الصالونات » أو وقوفٌ فى الممشى ؛ ولم أعد أسمع صوتَ عجلاتِ القطار المدوّى ؛ ولم أعد أرى سحبَ الدُّخَانِ المتصاعدة التى أحسبها دائماً تحجبُ جزءاً غير صغير من هذا القطار الضخم المفرط فى الطول . لم أعد أحس شيئاً من ذلك على الإطلاق .. بل انتقلتُ طفرة واحدة — نقلنى هذا العطر — إلى «جو العاطفة» ، « جو الوجدان » ؛ والساعات أنغامٌ رائعةٌ إلى أذنىّ أو هكذا خُيّل إلىّ ، وشعرت فجأة بنشاطٍ عجيبٍ يدب فى كلّ أوصالى ، وكأنما هذا العطر قد ضربَ على كلّ وترٍ فى قلبى ، وشدّ — فى عنف — كلّ عصبٍ من أعصابى ، واستفزه إلى إدراكِ الجمال والإحساس به إحساساً غريباً !

... واستغرقتُ — وأنا على هذا الإحساس — فى تأملاتٍ ذهبية ، وخفق قلبى خفقاناً شديداً ، إذ تملكتنى — وأنا غارقٌ فى تأملاتى تلك — رغبة ملحة فى أن أتعرف إلى صاحبة العطر ، التى لا شك فى أنها تجلس الآن فى نفس العربة فى أحد « الصالونات » .

.. وحاولتُ أن أطرد هذه الخواطر قليلاً من نفسي ، أو أمسك زمامها ، ولكنها كانت في جموحها وخفيانها كالفيضانات الجنونية الطائشة ! وقد هداني فطرتي إلى أن هـذا العطر ليس مما يتطيب به الرجال ، فهو لا محالة مما تتعطر به النساء ، ودفعني هذا الخاطرُ إلى الاسترسال في خواطرَ أخرى تتصل بذات الموضوع ، فهداني منطقي إلى أن صاحبة العطر لا يمكن إلا أن تكون شابة أو امرأة نصَفاً على الأقل ، فما يتعطر المتقدمات في السن بمثل هذه العطور .

.. وهذه الشابةُ — أو المرأة النَّصَف — ألا ينبغي أن تكون جميلة . . بل فاتنة ؟ !

لا بد أن يكون الأمرُ كذلك . . . وإلا لاستحيت أن تتعطر بمثل هذا العطر ! . . وهنا بدا لعقلي أن يحتج قليلاً على جموح منطقي هـذا . . فإن من النساء الدميمات القبيحات من يسرفن في التجمل والتزين . . . بل لعل دمامتهن تكون حافزاً لهن على المبالغة في ذلك . وعلى كلِّ حال فإن المرأة الدميمة لا تقتنع — عادة — بهذه الحقيقة ولا تُسلِّم بها سريعاً ، وتخيل إليها — وهي أقبحُ القبيحات — أنها أجملُ خلقِ الله طُرّاً !

.. غير أن عواطفي الفائرة الثائرة ما لبثت أن اجتاحت كل هذه الاحتجاجات وأزهقت أنفاسها سريعاً . . ولم يبق في خاطري إلا أن هذه الشابة لا بد أن تكون مفرطة الملاحة والبهاء !

ومن الإنصاف لنفسي أن أقول : إنه في مثل هذا الجو الذي يثير المشاعر ويستفز الخيالات البديعة يصعب على الإنسان جداً أن يتصور « الدمامةَ والقبحَ » ! فلم يكن غريباً إذن أن يرسم خيالي لتوه — وهو أسير هذا العطر الفذ — صورةَ المرأة التي أنشدها . . . أي المرأة المثالية في نظري !

.. . ثم شطح خيالي — وقد أخـذه الزهو بهذا التجنيح — فأبى إلا أن يكون كريماً ! وطفق يُجمِّلُ « معبودتي » ويُضفي عليها الثيابَ الأنيقة ! وها هو ذا قد صوَّرها تلبسُ الفراءَ الثمين — وكنا في فصل الشتاء — وها هو ذا يكمل الصورة — حتى لا يُتهم في إبداعه وقدرته — فيضع في يديها قُفَّازاً غريب الشكل واللون ! وهاهو ذا يترفق بالعابد الولهان فيجعلها تبتسم ابتسامة حلوة تنم عن الرضا والاطمئنان إلى الحياة وانشراح البال .. فهي اليوم إذن سعيدة .. لاشك في ذلك ، ورجح هذا الحدسَ أن اليوم صحو ، والجو جميل ، واليقظة تدبُّ في عروق الأرض ، فتنتبضُ بالحياة ، وتنتفضُ انتفاضةَ الحيوية !

* * *

.. وانتعش قلبي ، ورأيتني أكاد أرقص من فرط النشوة ، مما لفتَ إليَّ أنظار الجالسين ، ولكنني لم أعبأ لهذا كثيراً .. فقد كانت الفرحة تشيع في كياني وتتمرّق !

ورأيتُ أن أخرج إلى المشي لألتمس صاحبة العطر على هـدْي « الرائحة » .. بيد أنني — إذ خرجتُ إلى المشي — خانتني شجاعتي ، وشعرت كأن قلبي يكاد يخرج من ضلوعي ، وشعرت كأن الأرضَ تميدُ بي ، وحال لونُ وجهي . وكان ذلك كله نتيجة التفكير في « جمال » هذه المرأة ! .. لعلها تقلب حياتي رأساً على عقب . !

.. لعلها تتحكم في قلبي وتجعلني أسيرَ جمالها الفذ !

ولعلها تكون .. متزوجة !!

وتوقفتُ عند هذا الخاطر ، وتصبب العرقُ بارداً على جبيني ، وخُيِّلَ إليَّ أنني محموم ! فما ينبغي لمثلي أن يُعرِق في الخيالات إلى هذا الحد ، وأن يستغرق في هذه « الصبيانيات » المضحكة !

.. ورفعت رأسي متثاقلاً ، وقد تكدّرتُ بعضَ الشيء .. بيد أن بصرى وقع فى تلك اللحظة عينها على أختى المتزوجة فى الريف !

.. وتصافحنا فى حرارة ، وسألتُها سِرَّ سفرها إلى الثغر ، فأجابت أنها أتت إلى القاهرة منذ أسبوعين على التقريب لزيارة « المعرض » ، وآثرت ألا تبرحها إلى الريف – محلِّ إقامتها – قبل تمضية بضعة أيام فى الإسكندرية ؛ وأضافت أن جوَّ الإسكندرية يعجبها فى الشتاء أكثر مما يروقها فى الصيف على خلاف المألوف !

.. والمهم أن أختى قد استشعرت فضولها اضطرابى وترددى ، فسألتنى عن السبب ، فأكدتُ لها أن لا شيء على الإطلاق !

ولا أكتمك أن مقابلة أختى هذه ضايقتنى مضايقة شديدة ، فما كنت فى حالةٍ ترضينى مقابلتها وأنا عليها .. وكنت أيضاً مشغولاً بخواطرى تلك من كلمات المجاملة ، وما تستلزمه تلك المقابلات المباغتة من السؤال عن الصحة والزوج والولد ! وفضلاً عن هذا كله فإن « مسألة صاحبة العطر » كانت وقد استبدت بى استبداداً عجيباً وشغلتنى حتى عن نفسى .!

ولستُ أدرى على التحقيق .. أكان مَرَدُّ هذا إلى هذا النشاط العجيب الفذ الذى كنت أشعر به هذا الصباح ؟ وكأنَّ الأقدارَ قد لفّقَت هذه « المسألة » لأستنفدَ شيئاً من هذه الطاقةِ المتفجرةِ حيويةً ونشاطاً .. وأرتاح !

. . . وقالت أختى تحدّثنى

– ألا ترى أنها حاقة ؟

قلت :

– ماذا ؟ !

– أن أشترىَ شيئاً من « الكماليات » بمبلغ خمسة جنيهات !

فقلت – وقد بدأتُ أفطن سريعاً إلى حقيقة الأمر .

– وما هذا الشيء ؟ زجاجة عطر ؟

فسألتنى مستفسرة .

– كيف عرفتَ ذلك ؟ !

.. فأجبتُ وأنا أغتصب ضحكةً مقتضبة .

– ليس هذا بغريب .. فإن الإنسان لينفذ أحياناً إلى الغيب المجهول وكأنه ضوء النهار الساطع يغشى عينيه . !

... ثم حوّلتُ مجرى الحديث فى خفة ولباقة . . . !

عبد العزيز الكرداني

ابن الحداد

يستمر عرض فيلم « ابن الحداد » أسبوعاً ثالثاً بسينما الكوزمو بمصر بنفس النجاح الذى لاقاه فى أسبوعه الأول ، وما زال الإقبال يزداد على مشاهدته يوما بعد يوم . ولا عجب فى ذلك فالفيلم من إنتاج « شركة الأفلام المصرية » ، وتأليف وإخراج وتمثيل الفنان الكبير الأستاذ يوسف وهبي ، مع مديحة يسرى ، وفؤاد شفيق ، وعلوية جميل ، ونخبة من أبطال السينما فى مصر .

حبة القمح

لحبة القمح تاريخ مجيد ، فأينما نمت وأثمرت وُجدت المدنية والعمران ، وما ذلك إلا لأنها غذاء صالح يكوّن الأجسام السليمة ذات العقول السليمة . فالشعوب التي تتغذى على القمح شعوب ذات تاريخ حافل ؛ فكان لشعوب البحر الأبيض مدنية سجلها التاريخ لأن القمح نما عندهم منذ القدم كما ثبت في تاريخ مصر القديم ؛ فلا عجب أن يكون عصرهم زاهراً بمدنية سبقت غيرهم . ومن الغريب أن يحكم آكل القمح غيره من الأقطار ، فقد حُكمت الهند آكلة الأرز ، وحُكمت أمريكا لما كان غذاؤها الذرة والفول ، واليابان لم تتقدم إلا بعد أن بدأت تأكل القمح !

وقد حاول العلماء أن يكتشفوا نوعاً من القمح البرى ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا عام ١٩٠٦ ؛ وقد كان هذا الكشف نتيجة لمنشور أحد علماء النبات عن نوع من الحشائش وجده مجففاً مع نبات آخر في معشبة المتحف الأهلى بفينا ، وكان ذلك عام ١٨٩٩ . وقد ذكر هذا العالم أن النبات هو نوع من القمح البرى ؛ وكان قد جُمع من جبل حرمون بفلسطين عام ١٨٥٥ . بعد ذلك بدأ العلماء يبحثون عن ضالتهم في جبال فلسطين حتى وفق عالم يهودى إلى الوصول إلى بغيته ، فعثر على القمح البرى نامياً على صخرة في الجبل ، وبذا ثبت منشأ هذا النبات .

وقد زرع الإنسان القديم نبات القمح ، وجاء من بعده البابليون وقدماء المصريين ثم اليونان والرومان ، وكان القمح عنصراً أساسياً في غذائهم . ولم يعرف بالضبط كيف توصل الإنسان لمعرفة قيمة القمح الغذائية ، وربما كان ذلك في العصر الحجرى ؛ في ذلك الوقت عاش الإنسان على ما يقتنصه الرجل من حيوانات . وربما حدث أن أحد النسوة فقدت عائلها فلم تتمكن من الوصول إلى حيوان تتغذى عليه مع صغارها ، فاضطرت إلى أكل ما ينمو حولها من حشائش ، وقد يكون نبات القمح واحداً منها فاستساغت طعمه وأشبعها بعد جوع ؛ فلما تبينت ذلك حاولت أن تغذى صغارها بحبوب القمح الجافة ، فلم يتمكنوا من طحنها لضعف أسنانهم ، فطحنت بعضاً من هذه الحبوب بين حجرين صلبين . ولا يبعد مطلقاً أن تكون المرأة أول من عجن القمح وأول من خبزه .

ولم يكن القمح البرى بالكثرة التي تكفى لسد رمق عائلة ، لذا كان من الضرورى أن يحاول الإنسان القديم زرعه في مساحة محدودة ، يتعهده بالرعاية والرى . ويعتقد أيضاً أن المرأة كانت أول مُزارعة ، فعرفت أنه إذا تعهدت نباتاً بعد بذره حصدت محصولاً أكبر مما تجمعه من نباتات تنمو برياً . فاقتلعت الحشائش من بقعة من الأرض ثم غرست الحبوب ، وبذا حصلت على مقدار أكبر من القمح . واكتشاف هذه الحقيقة كان تطوراً كبيراً في عالم الزراعة ، وبدونه ما تكونت مدن ، ولبقى الإنسان معتمداً على ما ينمو برياً ، ولبقى الجنس البشرى مشتتاً في مساحات شاسعة .

وتمتاز حبة القمح على غيرها من الحبوب لاحتوائها على مقدار كبير من النشا وبعض البروتين . ولمعرفة تركيبها يجب علينا أن نفحص طبقاتها المختلفة ، ولكى يسهل ذلك تترك الحبة في الماء لتنتفخ وتلين ، ونلاحظ أن لحبة القمح شقاً طولياً ، فلو قسمت إلى نصفين بشقها طولياً مبتدئين بهذه القناة ومنتهين بالجهة المقابلة لها ، اتضح لنا تركيب الحبة ؛ فيحيطها من الخارج أغلفة تنفصل عند الطحن على شكل نخالة ؛ ويليها من الداخل طبقة مكونة من مادة بروتينية ؛ وأخيراً جزء كبير يشغل معظم حجم الحبة ، وهو نسيج يخزن في خلاياه حبيبات

النشا . وفي الجزء الأسفل من الحبة نجد تركيباً آخر ، وهو ما نسميه بالجنين ، وهو ما يكون النبت الحديث إن



استثمرت الحبة في إنباتها . والجنين هنا يتكون من الجذر والساق . ويفصل الجنين من النشا نسيج خاص وظيفته تكوين خمائر ، ويعمل على تحويل النشا وغيره من المواد المخزونة في الحبة إلى مواد بسيطة يمكن امتصاصها بواسطة الجنين فينمو ، ويكون نباتاً له ورق أخضر يعتمد على نفسه بعد ذلك في صنع غذائه . من هنا يتبين أن الحبة تحتوى على مواد نشوية ومواد بروتينية ؛ وهذه الأخيرة توجد في الغلاف الذي يحيط النشا كما توجد في الأجزاء الجنينية من الحبة . وقد دل البحث الحديث على أن القيمة الغذائية لبروتين القمح لا تقل عنها في بروتين اللحوم . فالجزء الجنيني يحتوى على ٣٠ ٪ من وزنه من البروتين ؛ كما وجد أنه سهل الهضم ، ويمتاز عن بروتين اللحوم بوجود كمية أكبر من الفيتامينات والمركبات المعدنية وخاصة الحديد .

ومنذ معرفة هذا الكشف بدئ بإمداد بروتين القمح بطريقة تجارية لمحاولة سد النقص الناتج من عدم توفر اللحوم في الظروف الحاضرة . ولما كان الجنين في حبة القمح يكون حوالى ١٠ ٪ من وزنها ، وكان من الممكن فصل نصف الجنين بسهولة ، فإنه يسهل الحصول على كميات كبيرة من البروتين من هذه الأجنة ، وخاصة أن وجودها في الحبة يعوق الصناعات الأخرى التي تستخدم فيها حبوب القمح . وقد أحصيت كمية الأجنة الممكن الحصول عليها في الولايات المتحدة ، فوجد أنها تقرب من ٥٠٠ مليون رطل بعد أن يستخلص منها الزيت والدهون .

والطريقة أن تعالج عجينة القمح السائلة بمحلول كبريتيت الصوديوم (مادة قابضة يتحصل عليها في صناعة الورق) ويتفصل البروتين على شكل جلط تطفو على سطح السائل ؛ وهذه إذا جففت فإنها تشبه بياض البيض . وقد حسب ثمن الرطل بعشرة مليمات ، وهو ثمن صعب التصور . وبعد فصل البروتين يبقى محلول يستخدم في صناعة الكحول .

لا شك أن القمح البرى كان صغير الحبوب ، وكانت كمية المواد الغذائية التي تحتويها الحبة قليلة ، وباستمرار غرسها وتعهدها زادت محتوياتها . وقد عمل الإنسان على هذه الزيادة إذ أصبح القمح محصولا أساسياً في غذائه . وقد كان من الطبيعي أن يشغل القمح جزءاً كبيراً من وقت علمائنا النباتيين ، فبدأوا في تهجين أنواع مختلفة لكل ميزته ، وقصدوا بهذا التهجين أن يجمعوا محاسن الأنواع المختلفة في نوع واحد .

وكان من الصعوبات التي واجهت العلماء ، أن القمح الجيد الذي يحتوى على كمية كبيرة من الجلوتين يصاب بمرض الصدأ الذي يسبب خسارة كبيرة للمحصول ، بينما نجد أن هناك نوعاً من القمح يكون حبوباً رديئة النوع ولكنه منيع لا يصاب بالصدأ . وقد خطر للسير بيفون في كمبردج أن يحاول إيجاد نوع من القمح يجمع الصفات المرغوب فيها بعد ما كثرت الشكوى من القمح . وقد بدا له أن يهجن بين مختلف الأنواع ، وبهذه الطريقة يجمع الفضائل في سلالة واحدة . وقد أجرى هذا التهجين فعلا ،

تحصل على جيل كل أفراده تصاب بالصدأ ، إذ كانت هذه الصفة متغلبة ، ولما ظهرت على صفة المناعة . وهذه نتيجة تدعو إلى اليأس ؛ ولكن لم يقف بحث السير بيفون عند هذا الحد ، بل واصل عملية التهجين بين أفراد الجيل الأول ، فكانت نتيجة ذلك أنه حصل على أنواع مختلفة تجمع تشكيلات متنوعة من الصفات ، ومن بينها نوعان يمتازان بأنهما يحملان صفة الجودة والمقاومة لمرض الصدأ . ومع أن هذين النوعين لم يظهرا في السوق قبل عام ١٩١٢ ، إلا أنه لم يأت عام ١٩٢٧ حتى كان ثلث الأراضي المزروعة قمحاً في العالم من هذين النوعين .

ومن الأبحاث التي أجريت على القمح محاولة إيجاد سلالات تنضج في وقت أقصر ، وقصر هذه المدة معناه زحف النبات إلى المناطق الأكثر برودة . فكل يوم يختصر في متوسط الوقت اللازم لدورة النبات ، معناه زحف النبات بضعة أميال نحو الشمال . وقد تقدم هذا البحث في أوائل القرن العشرين على يد عالم من علماء الوراثة يسمى Saunders ، وساعده ولداه في ذلك وتمكنوا من الحصول على سلالة تدعى الماركيز ، وهذه يتم نضجها في مدة تقل أسبوعاً عن غيرها . وبين عامي ١٩١١ ، ١٩١٦ زحفت هذه السلالة خمسين ميلا إلى الشمال . واستمر البحث بعد ذلك فاستنبطت سلالات تنمو وتنضج بسرعة عن غيرها فزحفت أربعين ميلا أخرى إلى الشمال . وليس هذا معناه أن الزحف لن يتوقف ، إلا أن هذا لم نصل إليه بعد . على أن البحث مستمر ، وهو يعمل على إيجاد سلالات يتوفر فيها كل ما نرجوه من صفات تسد حاجة الجنس البشري في معظم مناطق العالم .

محمد أحمد يونس

من أدب أناتول فرانس :

« بلزاك »

أو شيطان الفن

بينما كنت(١) في أحد الأيام أنقب عن كتب قديمة في دار من دور الكتب الكثيرة التي يغص بها الحي اللاتيني ، رأيت في ركن من أركانها رجلا قد أرسل شعره ، وهو لا يزال يتمتع ببقية من شباب ، كان يتصفح أحد الكتب ، وكانت نظرته وابتسامته ، والتجاعيد الساكنة في جبهته ، والتفاتاته الصريحة ، كان كل ذلك يتكلم منه قبل أن يجد هو من يجاذبه أطراف الحديث . ولم أكن في حاجة لموهبة خارقة كي أحكم عليه أنه شخص زنان ، شعرت بأنه يجب علي أن أهرب أو أصبح ضحيته ، ولكني مع ذلك آثرت البقاء . لقد كان (سوفوكل) على حق حين قال : « لا يستطيع الإنسان أن يتفادى ما كتب له في لوح القدر » . فهذه الكلمة الحكيمة قد تحققت في حياتي مرات عدة .

أخذ الرجل يمشي بثبات ووقف غير بعيد عني ، وكانت في يده نسخة قديمة من الكتاب المقدس ، وقال وهو يشير بأصبعه إلى سفر الخروج(٢) : اقرأ . . . إنه القانون المقدس . . . . قانون الرب .

فقرأت العبارة الآتية :

« إنك لن تصنع مطلقاً صوراً منحوتة(٣) » .

ثم قال ثانية : إن الإنسانية في الحضيض لمخالفتها هذا الأمر . علمت أنني في حضرة رجل معتوه ، ولكن ذلك لم يكدرني ، فإن هذه الطائفة تدخل على قلوبنا — في بعض الأحايين — السرور والتسلية .

قلت معارضاً : المعذرة . . . . ولكني فنان متيم بكل جميل من الصور(١) ! فقال : وأنا كذلك أحب الصور لدرجة الجنون ، ولقد قاسيت منها ألف موتة وموتة . . . . ألم تسمع بالقصة الواقعية لذلك الرجل الذي أفقدته « غزليات ليونارد » عقله فألقى بنفسه في أحضان السين ! . . . . ألا تتذكر ما قاله « لوسيان دي ساموسات » عن ذلك الإغريقي الشاب الذي أحالت « فينوس » ربة الجمال حبه إلى نوع من الفجور المشئوم ؟ . . . ألا تعلم أن الناس تحج زيارة تمثال هرمافروديت المرمري القائم في اللوفر ، حتى اضطرت إدارة المتحف — لحمايته من التلف — أن تخفيه عن أعينهم ؟

وعلى ذلك يمكن القول — بوجه عام — إن اللوحات والتماثيل تعكر شعور الشخص وتضلل روحه ، وتلهمه الكراهة والبغض والخوف من الحقيقة ، وإنها قد زادت شقاء البشر ففقدوا بذلك سعادتهم التي كانوا ينعمون بها في حالتهم البدائية الأولى . ولكني عارضته — بجبن — قائلا : ليس للنحت والتصوير إلا أثر ضئيل في تحريك الشهوات ؛ فالفن — على النقيض من ذلك — يجلب لمحبيه ملكة ذوق الرفاهية الهادئة الساكنة .

أقفل محدثي الكتاب المقدس القديم وقال :

إن الصور الخيالية هي التي تلهم أدباء القصة والشعراء . إنها تكون لهم أسلوب أبطالهم ، وترسم لهم شخصياتهم . وإن هؤلاء الأبطال ليعيشون عيشة إيحائية . ونحن لا نغالي إذا قلنا أن مبدعي هذه الشخصيات من المؤلفين يلقونهم بيننا فكأنهم ألقوا بالشياطين لغوايتنا وهلاكنا . وكيف السبيل إلى الهرب منهم وهم يسكنون في مخيلتنا ويملكون زمامنا . . . لقد أخرج « جوت » « فرتر » للعالم فتزايدت جرائم الانتحار . . . . إن كل

(١) الضمير عائد على أناتول فرانس .
(٢) أي خروج بني إسرائيل من مصر .
(٣) يريد بالصور المنحوتة الأوثان والأصنام .

(١) يريد بالصور هنا التماثيل وغيرها من الفنون الجميلة المرسومة والمقروءة (الأدب والشعر) .

الشعراء وكل أصحاب القصص — من غير استثناء — قد عكروا صفو السلام فى الأرض . إن الجرائم على اختلاف أنواعها قد تزايدت منذ أن ظهرت إلياذة هوميروس ، وجرمينال زولا[١] . وإن أكثر هؤلاء براءة — كديكنز[٢] — ليس فى الواقع إلا من كبار المذنبين ، فإنهم يحولون عواطفنا النبيلة من حنان ورأفة ورحمة لأشخاصهم الخيالية ، بدل أن تسلك هذه العواطف طريقها الطبيعى نحو إخواننا فى البشرية . إن بعض أدباء القصص يخلقون بقصصهم الفجور ، وبعضهم الخلاعة والمجون ، وفئة ثالثة منهم ... القتل ! ولكن أكثرهم وحشية هو شيطان الفن ... بلزاك . لقد خلق عالما جهنميا تحققه بأنفسنا اليوم ، فشخصياته هذه قد أدخلت فى نفوسنا الغيرة ، والشراهة ، والقوة المشئوم .... إن بلزاك هو أمير الشر ، وإن مملكته قد آن أوانها .

سكت محدثى ليسترد أنفاسه ، فقلت : إن ما تقوله ياسيدى لا يخلو من بعض الحق ! ولكن عنصر الشر موجود فينا وجد الفنان أم لم يوجد . فتلا آتيلا وجنكيز خان[٣] لم يعرفا شيئاً من إلياذة هوميروس . ولكنهما مع ذلك شنا الحروب ، وأحدثا من الدمار والخراب مالم يحدثه الإسكندر الأكبر . كذلك الفلاح يقتل صديقه القديم وهو لم يقرأ شيئاً فى الأدب ، وكذلك التنافس بين البشر قديم وجد قبل بلزاك . إن الفنون تلهمك الكثير من الحقد والكراهة والبغض ، لذلك أخشى يا سيدى أن تكون من المتزمتين .

كلا ياسيدى !.. إنى مثال وشاعر وأديب قصصى .

فلما ذهب قال لى صاحب المكتبة : إنه رجل جم المواهب ، ولكنه شقى ، فقد أفقده بلزاك عقله !

كانت ذكرى هذه الحادثة تعودنى كلما قرأت فى « الملهاة الإنسانية » ... نعم ! لقد أبدع بلزاك عالما خياليا وخلق له أشخاصا ليسكنوه .

* * *

لننتقل الآن إلى عالم بلزاك الخيالى ونعيش فيه برهة نخالطفيها شخصياته ، ونضطرب معهم فيما يضطربون فيه .

تزيد[١] شخصيات بلزاك فى ملهاته على الألفين ، وهذه الحقيقة تدلنا على المقدرة الغريبة التى يتمتع بها ذلك الأديب ... قدرة الخلق والابتداع . هو مؤرخ ناقد للمجتمع فى عصره ؛ فقد رفع عنه أستار الغموض ، وكشف لنا من الحقائق الخافية التى أغفلها التاريخ . لقد امتاز بلزاك عن غيره من الأدباء بما يمكن أن نسميه « غريزة تفهم الحياة » ؛ فقصصه الكثيرة بالرغم من أنها لا تقصد إلى التاريخ — تعيننا — بطريقة سهلة ناجحة على تفهمه . هذه القصص لا تتكلم عن شخصيات تاريخية ، فإن الأديب المبرز فى ميدان القصة ... الأديب الملهم الموهوب ، لا ينتقى أبطاله من شخصيات التاريخ المعروفة ، بل يختارهم من غمار العامة .. من هذه الطائفة التى أهملها التاريخ فأهملها . هذه الطائفة لا شئ ، ولكنها فى الوقت نفسه هى العالم كله . من هذه الناحية تستطيع قصيدة الشاعر أو قصة الأديب أن تظهر لنا الشعب كله جملة .. ذلك الشعب المختفى وراء أشخاص التاريخ وأبطاله . ومع ذلك فإن بلزاك لم يخرج رجال التاريخ من دائرة قصصه . بل نراه قد أسند إليهم أدواراً يقومون بها ولكنها خيالية ! ولذلك نجد أن نابليون ، وهو من الشخصيات التاريخية البارزة ، لم يظهر فى الملهاة إلا ست مرات وفى ظروف ثانوية

هذا هو العالم الخيالى الذى ابتدعه « أونوريه دى بلزاك » شيطان الفن .... !!

عن الفرنسية بتصرف — عبد الرحمن صادق

---

(١) Germinal Zola ، لإميل زولا أديب فرنسى كبير .

(٢) Dickens أديب كبير غنى عن التعريف .

(٣) Atila et Gengis-Khan .

(١) اختصرنا فى الترجمة خشية الإطالة

بين المسموع والمقروء

مخالب القطط

كتبت في «الثقافة» ، منذ عام كامل ، مقالة عنوانها «كلبي» ، أعجب بها كلبي كثيراً ، وأعجب بها سائر الكلاب ، فجاءتني طائفة منها تحييني بالورد والريحان .

وفي الأسبوع الماضي هزني الشوق إلى حمرة الورد ورائحة الريحان ، فقلت أكتب هذه المرة عن قططي ، فلست أحسب أن القطط أقل وفاء من الكلاب .

فكتبت مقالة شائقة حقاً في قطتي ، وفي قط ولد لها أنجبته من أشهر قليلة ، فكان نجيباً . وتحدثت فيها عن جلد لها أملس كالحرير ، في رقط كترقط النمر جميل ، وعن عين خضراء ، وأنف فطساء ، ووجه نبيل ؛ وتحدثت عن حركة كحركة الفهود ، وجلسة كجلسة الأسود . كل هذا قلته ، وقلت أكثر منه ، وخيراً منه .

وقد كنت علمت قطتي القراءة استجابة لدعوة القائمة بمحو الأمية ، وقياماً بواجب كل رب أسرة أن يمحو ما استطاع منها في بيته ، ثم في بيت الجيران ، وجيران الجيران ، ثم الأبعدين .

وخرجت لحاجة من داري ، وتركت مقالتي الثمينة منشورة على مكتبي . أفتدري ما حدث ؟

عدت فوجدت القطتين قد استمرأنا منتظرين لي ، وجلستا على المكتب تقرآن . وما أحستا رجوعي حتى عكفتا على المقال تمزقانه شر تمزيق . وفعلتا ذلك في سرعة البرق ، فما استطعت أن أستخلص منهما قطعة من ورق .

ما كنت أحسب أن مخالب القطط هذه السرعة هذه القسوة .

وهل تدري لماذا كان هذا ؟ كان لأني غفلت فذكرت شيئاً جيداً عن كلبي . ونسيت ما بين القطط والكلاب من عداء قديم مقيم .

في الكتب

قال المتنبي :

أعز مكان في الدنا ظهر سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

وقال بيكن :

تحفظ رفات الملوك والعظماء كريمة في مقابر فاخرة ، أما رفات الكتاب فتحفظ كريمة على الأرفف في دور الكتب .

وقال منتسكيو :

ما أصابني ألم أو نزلت بي ضائقة ، إلا خففت من هذا وفرجت من هذه بقراءة ساعة في كتاب طيب .

وقال هيوم :

ماذا أريد أن أنال فوق ما نلت ؟ زوجة ؟ فهذه ليست من ضرورات الحياة ! أم كتباً ؟ فهذه من ضروراتها ، وعندي منها فوق ما يكفيني .

وقال ماكولى :

لو خيرت لاخترت أن أكون رجلا فقيراً يعيش في حجرة حقيرة ، وحولي كتب كثيرة ، على أن أكون ملكاً في قصر كبير ليس فيه كتاب .

وقال شيشيرون :

الكتب غذاء الشباب وعزاء الشيخوخة ، وهي في النعمة زينة ، وفي البؤس راحة ، وهي في وحدة الليل أنس ، وفي السفر رفقة ، وفي عزلة الريف صحبة .

وقال بيكن أيضاً :

من الكتب ما يكفي المرء منه مذاق ؛ ومنها ما يبلع بلعاً ؛ ومنها ما يمضغ ويهضم هضماً .

دين إنج والكتب

وقال دين إنج Dean Inge ، صاحب هذه الاقتباسات ، وهو من أشهر ذوي الفكر في هذا العصر :

إن الرجل العجوز الذي تبلى أذناه قبل أن تبلى عيناه ، يندفع بحكم الضرورة إلى القراءة الكثيرة . لقد كانت الكتب أكبر مُتَعى في هذه الحياة ، واليوم في هذه السن صارت هي كل متعتي .

يذكرني هذا بقول عمر بن الخطاب في شيخوخته . قال ما معناه : لم يبق لنا من لذة العيش إلا محادثة الرجال ذوي العقول الراجحة . ولم يكن بعصر ابن الخطاب قراءة ولا كتب . ولو كانت لقال : إلا محادثة الرجال ذوي العقول الراجحة في الكتب الرواجح .

وقال دين إنج أيضاً ، ينصح قارئه :

لا تقرأ ما يُسئم ، ولا مالا يُفهَم ، واقرأ ما فيه لذة لك أو نفع .

ولا تبتئس لكتاب تقرؤه فلا تفهمه . لقد قرأتُ أنا للفيلسوف الألماني كَنْت Kant ، وقرأت لمواطنه هيجل Hegel ، فتعسّرا على فهمي حتى ضاق بهما ذرعي . وقرأت حتى للكاتب وَيْتهد A.N. Whitehead ، ولمثله لمثي ، ومع هذا قضيت الأسابيع أحاول أن أفهم ما يقول وما يعني (وأنا مغتبط بهذا الإقرار ، لأن هذه تجربتي أنا أيضاً) .

واحفظْ لك كراسة تنقل إليها مختارات قصيرة مما تقرأ . لقد حفظتُ لنفسي كتاباً كهذا ، وحفظته ستين عاماً ، وهو اليوم لي أمتع كتاب في مكتبتي .

وإذا أنت عدت من إجازة لك ، فوجدت مكتبتك قد اختلط الحابل فيها بالنابل ، فلا تجزع ؛ فإنما هم الأحبة من أهل بيتك وأبنائك وحفدتك أرادوا بهذا أن يشيئوك فيسرّوك بأنهم زاروا مهبط وحيك يستوحون .

وإذا أنت عزّتك الفطنة فرضيت لكتبك أن تعار ، فاكتب على صفحتها الأولى : « لا تسرق » ! فكتاب كان بالأمس قرضه ، يكون في هذا اليوم ردّه » .

ضمير

كثيراً ما نسمع أن الدين رادع ، وأن الإنسان بلا دين لا وازع له من نفسه ، ولا ضمير . ومع هذا كثيراً ما تجد ذا دين لاضمير له ، وكذلك قد تجد ذا ضمير لا دين له . وليس في هذا مايحط من قدر الدّين وهو رفيع ، ولكن فيه مايرفع من الطبيعة البشرية التي أودع الله فيها أسراراً منه كباراً ، ومنها الضمير .

والخير عندي أن يكون في المرء ضمير ، وأن يكون له دين ، ذاك طبع وهذا اكتساب . وقد يكون الدين طبعاً بغير رسول أو رسالة ، إلا رسالة تأتي المرء من أعماق نفسه ، ينبعث شعاعها أبيض ناصعاً من سواد قلبه ، فيكون هو الرسول ومن أرسِل إليه معاً . وهذا أغنى الإيمان وأمتعه .

ومن أمثلة الضمير الحيّ النادر ما قرأته عن شاب إنجليزي في مَيْعة الصبا ، خرج عن وطنه وعن أهله ، ثمانية أعوام كاملة ، من أجل ..... نصف شلن .

اشتدت إلى التدخين رغبته ، وخلا جيبه ! وأمامه مَكِنة بضع في ثقبها الواسع نصف شلن فتخرج له علبة من السجائر كاملة . وتملّكه الإغراء ، فاحتال على المكنة حتى أعطته علبة دون أن يعطيها ثمناً . وعمّه ما صنع ، فمكّر صحوته وأقلق نومه . وألح عليه اللوم حتى صار مرضا . فلم يجد بداً إلا بالخروج عن البلاد كلها . وإلى أين ؟ إلى حيث يلتجئ البؤساء ، ومن خانهم الزمان ، إلى فرنسا ، إلى فرقة جيشها الأجنبي فتجند بها أربعة أعوام .

وقامت الحرب ، فحارب الألمان على أرض فرنسا . وجُرح ، وبينا هو على سرير مرضه أخذه الألمان أسيراً .

وعاش في الأسر متنقلا في ضنك وذلة أربع سنين ، على مقربة من باريس . وحرره الحلفاء لما حرروا باريس . وعاد إلى إنجلترا ، إلى بلده . وبعودته عادت أشباح الماضي ، وعادت ذكراه بشيمة ألمة . واستيقظ ضميره ، فما كان أشد صحوه . فلم يجد بدا هذه المرة من الفزع إلى البوليس يحكي له ما كان . وظهر أمام المحكمة فعجبت من حكايته . واستفسرت عن حاله وعن أعماله فكان خير حال وكانت أحسن أعمال . فقضت المحكمة بحبسه يوما . وكان قضى الليلة في دار البوليس . فلما انتهى يوم المحكمة انتهى يومه هو أيضا .

وخرج يقول : الآن قد انشق قلبي من بعد ثمانية أعوام .

القرض الحسن

هو هذا الذي أقرضه المزارعون ، بقرية دوكام ، مزارعا من جيرانهم ، لما هبطت على مزرعته قنبلة فذهبت بخمسة أبقاره مرة واحدة .

كان أول ما جاءه من المدد بقرة وعجل ، أرسلتهما إليه مزارعة تبعد عنه ميلين . ثم اجتمع أهل الناحية ، في أحد الحقول ، فأنشأوا صندوقا أسموه صندوق «حسن الجوار» . واجتمع في الصندوق مما تبرعوا به ما كفى لشراء أبقار تصل بالمزارع المرزوء إلى مثل ما كان له قبل النازلة . وبقيت ١٦٠ جنيها تبرعوا بها للمستشفى .

شيخ مرح

شيخ بلغ عامه الثامن والثمانين وهو ضاحك أبدا . ولما مات أوصى أن تحرق جثته على أنغام الموسيقى . واختار الدور الذي يعزف عند ذلك ، فكان دورا راقصا ، هو الدانوب الأزرق ، وهو دور جميل مشهور . ومن الذي عزفه ؟ الحانوتي . أي والله ! فقد كان من أهل المرح أيضا ، وكان يهوى الموسيقى ؛ فكان له إلى جانب تدفينه الأموات ، فرقة تدفن بالموسيقى هموم الأحياء . فهذه الفرقة هي التي أرسلت أنغامها عالية غريبة بين المقابر ، تغري بالرقص قوما عز عليهم القيام ، وطال عهدهم بالتخطر على الأقدام .

ليت شعري أمرح هذا الذي كان بالشيخ ، أم فلسفة سوداء ، عابثة ناخرة ؟!

شجرة طماطم

حكت لي سيدة ، قالت إنها ذهبت إلى الريف ضيفة وهي صغيرة ، فطلبت إليها ربة البيت أن تخرج فتجمع لها شيئا من الطماطم . ولم تكن عاشت في غير المدينة . وكان على مقربة من بيت الريف هذا أشجار لمون وتفاح ؛ فذهبت بينها تبحث عما تطلب ، فلم تجد من بينها شجرة تحمل هذا الثمر الأحمر . وعادت إلى البيت تخبر أهله أن الشجر لم يطرح طماطم .

ذكرت هذه الحكاية عندما قرأت أن هاويا من هواة الزرع استنبت شجرا ، في بيت من الزجاج دافئ ، ارتفع إلى أربعة أمتار ، وهو يأمل أن يرتفع إلى خمسة أمتار فما فوقها . وهو يحمل ثمرا كثيرا ... من الطماطم .

برنارد شو

كاتب إنجلترا الأشهر . وابن الثامنة والثمانين اليوم ، لا يزال مصدر فكاهة لكل قارئ في كل لغة . حدثوا عنه قريبا قالوا :

مثلت له ممثلة روايته الشهيرة « كنديدا » . وبعد الليلة الأولى أبرق لها «شو» يقول : لا أحسن من هذا ولا أجمل !

فأبرقت له الممثلة تقول : هذا مدح كثير وإطراء زائد !

فأبرق لها الخبيث يقول : إنى قصدتُ الرواية . فأبرقت إليه الخبيثة تقول : وهكذا قصدتُ .

وحدّثوا عنه قالوا :

أخرجت إحدى شركات السينما رواية «شو» المعروفة «بجماليون» . وحضر عرضها الأول . وكان فى تلك الليلة كثيرَ الفرح كثيرَ الابتهاج . وطلب إليه الكثيرون إمضاءه فى بعض أوراقهم لذكرى ، ففعل عن طيب خاطر . ورجوه أن يظهر فى ختام الرواية على المسرح . ودهش القوم عندما رضى حتى بهذا . وكان بالطبع تصفيق شديد هزّ المكان . ولما هدأت العاصفة صفّر له شاب فى أعلى الدار . فماذا يصنع شو ؟

صنع ما لا يخطر على بال .

لوّح للشاب بيديه يحييه . ثم قال له :

نعم نعم يا صديقى ! إنك على حق . وأنا معك فى رأيك هذا الذى أعلنته بالصفير . ولكن ماذا يصنع عاقلان مثلى ومثلك فى هذا الحشد المجنون .

وعندها انطلقت الضحكات عالية تهز المكان من جديد !!

أحمد زكى

إنه فى يوم الاثنين الموافق ٤ ديسمبر سنة ١٩٤٤ من الساعة الثامنة أفرنكى صباحا بناحية مليج وزمامها ويوم الثلاثاء ٢١ منه بسوق مليج

سيباع بطريق المزاد العلنى الأشياء المحجوز عليها تنفيذا بمحضرى الحجز بتاريخ ٩ مايو و ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ملك محمد أفندى كامل الشتوانى كطلب سعادة مراد محسن باشا بصفته مديراً لديوان الأوقاف الخصوصية الملكية تنفيذا للعقد الصادر من محكمة مصر المختلطة بتاريخ ١٨ يونية سنة ١٩٤٣ فى القضية المدنية رقم ٤٦٩٢ سنة ١٩٤٣ وفاء لمبلغ ٦١٠ جنيه و ٧١٧ مليم خلاف ما يستجد فعلى راغب الشراء الحضور .

من شاطئ الذكرى

ملء عينيك الهوى والصبوات   وهوى للروح دنيا وحياة
ومعانٍ فسرتها النظرات   وأغانٍ رددتها الهمسات

طمئنت روحى واستهامت   وعليها نفسى الحيرى ترامت
خمرة كالحلم فى عينيك حامت   فى كؤوس لم تلامسها الشفاه

دقتها فى نظرة والحب صادى   فتمشت كالأمانى فى فؤادى
فهى من دنياى أحلامى وزادى   وهى شعرى أرقصته النغمات

أى دنيا من جمال وفتون   أودعت للسحر فى تلك العيون
فتنة نامت بشطآن الجفون   أيقظتها من غرامى همسات

فاسمعيها فهى من ألحان قلبى   واحفظيها إنها آمال حبى
وسليها هل جفا المضجع جنبى   واستراحت فى فؤادى الصبوات

طاف بى فى شاطئ الذكرى خيالى
حائراً يهتف بى أين الليالى
أين من دنياى أيامى الخوالى   أين أنسى والأمانى الغاليات

أين منى ساعة حين التقينا   وجناح الحب رفاف علينا
بين زهر ضاحك يرنو إلينا   وطيور أسمعتنا النغمات

إذ سرى فى الروض همس قد دعانا   هاهنا هيأت للنجوى مكاناً
ومنحت الحب صفوا وأمانا   هاهنا الأحلام تصفو والحياة

فانتشت آمالنا فى ناظرينا   وأدرت للهوى كأس علينا
وسكبنا الصفو راحا فى يدينا
فارتوت منها الأمانى الظامئات

وجرى الجدول نشوان يغنى   يهوى الفرحة فى أعظم لحن
وتراءى الأفق فى أبهج لون   وبقايا النجم فيه ساهرات

ومشى الفجر على الروض الرطيب
يجتلى الأزهار للصبح القريب
وسقينا العمر من نجوى القلوب
وسرت فى الروض تحكى النسمات

وهنا من شاطئ الأحلام همس   هاهنا الزورق والأحباب يرسو
فانتبهنا فإذا الأيام كأس   أترعتها فى يدينا الذكريات

(القاهرة)   عبد الرحمن حسن أحمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرماني — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٧ | الثلاثاء ٢٨ من ذى القعدة سنة ١٣٦٣ — ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

على هامش الحكم

شؤون الموظفين

كان لنا قبل الحرب العالمية الأولى نظام بسيط للخدمة المدنية ، ولكنه على بساطته وضيق نطاقه كان نظاما دقيقاً واضحاً ، يشبه فى كثير من الوجوه نظام الخدمة العسكرية ، فكان الموظف يعرف حدوده ومسئولياته وخطوات سيره فى سلك الوظائف ، والنتائج المحتومة لكل تصرف من تصرفاته ؛ وكان يستطيع أن يتكهن إلى حد ما بما سيكون عليه مستقبله الشادى بعد فترة من الزمان . وبعبارة مجملة كان هذا النظام يتسم بالوضوح والدقة والتسلسل التدرج ، وكان فوق هـذا نظاماً موضوعياً لا يتأثر بالاعتبارات الشخصية ؛ وبهذا سلمت أداة الحكم من التصرفات الشاذة التى لا تستند إلى قواعد معروفة .

ومع أن ذلك النظام كان لا يخلو من عيوب — وليس أقلها جموده وإضعافه شخصية الموظف ، والحد من حرية تصرفه وحصره فى مجال ضيق لا يسمح بتحقيق آماله الواسعة وإشباع طموحه إلى الرقى — مع هـذا كله فقد كان الموظفون فى ظله يشعرون بشىء من الطمأنينة والاستقرار ، ويجدون فى صرامة أحكامه وازعاً يزعهم عن التقصير والإهمال . ولئن كان ضيق نطاقه قد وقف بهم عند حدود لا تمتد لأبعد منها آمالهم ، فقد كان لهم فى التسوية بينهم فى المعاملة ، والتزام قواعد عامة تطبق عليهم جميعاً بعض العزاء عما كان ينقصهم .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى . وللحروب ظروف خاصة تجيز المحظور وتحظر الجائز ، وتفرض على الحكومات واجبات جديدة لم يكن لها عهد بممارستها ، وتؤتيها سلطات

واسعة لم تكن تتمتع بها فى أوقات السلام ، وبهذا دخل كثير من التغيير على النظام البسيط الذى كانت الخدمة المدنية تسير عليه قبل الحرب ، وحل محله فى كثير من الأمور نظام مؤقت جديد تغيرت فيه الحدود والمسئوليات ، واختلفت فيه الأحكام وتبدلت فيه المعايير . وخضع الجميع لهذا التبدل الذى طرأ على أوضاع الخدمة المدنية ، واعتبروه ضرورة تزول بزوال الحرب ، ثم لاتلبث الأمور أن تعود سيرتها الأولى متى وضعت الحرب أوزارها .

ولكن هذا التقدير كان بعيداً عن الصواب . فالتغيرات التى تمت خلال الحرب كانت أعمق غوراً وأبعد أثراً من أن تزول بزوالها ؛ وكان الرجوع إلى نظم ما قبل الحرب ، أمر يتنافى مع طبيعة الأشياء ، فقد وطدت كثير من التصرفات التى تمت خلال الحرب أقدامها ، وألف الناس أوضاعها بحيث لم يعد سبيل لتركها .

وزاد فى صعوبة ذلك قيام الحركة الوطنية المصرية ، وتطلع الآمال لعهد جديد يقوم على أسس قومية ، أوسع مدى وأسمى هدفاً من أن تصلح لها أداة الحكم السابقة التى اقترنت بالعهد البغيض ، الذى لم يكن للمصريين شأن فى إدارة سياسته العليا .

وتولى المصريون أمورهم فدخلت الخدمة المدنية فى انقلاب جديد ، نكون ظالمين لأنفسنا إذا لم نقرر أن هذا الدور الجديد قد امتاز بنشاط قوى دب فى كل نواحى الحياة الحكومية ، وبتفكير مصرى خالص أنتج مشروعات كثيرة نافعة فى مختلف الوزارات . ولكننا يجب أن نصارح أنفسنا بأن هذا النشاط صحبته مع الأسف بعض أمور كان لها أثر كبير فيما وصلت إليه حالة الخدمة المدنية اليوم فى بلادنا مما نشكو منه .

من هذه الأمور أن الأداة الحكومية قد استغلت الرغبة الظاهرة فى النهوض بها ، وأخذ كل قسم من أقسامها يوسع نطاقه ويكثر موظفيه وينحلهم الألقاب ، ويغالى فى طلب الدرجات التى تناسب الوضع الجديد دون أن تقتضى ذلك مصلحة العمل ، ودون أن يكون لهذا التغيير أثر فى الإنتاج .

ويرى هذا الروح فى كل نواحيها ، فأخذت المصالح والإدارات تتنافس فى هذا التفخيم لمظاهرها ، والتوسيع فى عدد موظفيها ودرجاتهم حتى تضخم عدد الموظفين وتضخمت ميزانيتهم تضخماً مصطنعاً لايقابله إنتاج جديد .

ومن هذه الأمور أن الرغبة فى تيسير سبل الخدمة المدنية لكل مصرى صالح لها قد استغلها كثير من الذين لايصلحون لها ، والتمسوا الوسيلة إليها بمختلف طرق الوساطة والإلحاف حتى ظفروا بها من غير استحقاق ، وأضافوا إلى عدد الموظفين الزائدين على حاجة العمل عدداً جديداً لايعملون ولا يصلحون لعمل . وطبيعى أن يكون هذا التضخم المصطنع عاملا من العوامل التى تعيق السلطات الحكومية عن الرقابة الدقيقة لكل فروعها ، ومحاسبة المهمل والمقصر ، وتبين الكفايات الممتازة ؛ وبهذا سادت روح الاستهتار بالواجبات ، ودب اليأس فى قلوب الأكفاء الذين أصبحوا لايحس أحد بوجودهم ولا يلمس جهودهم وكفاياتهم .

وزاد الطين بلة اشتداد الخلاف بين الأحزاب التى تتعاقب على كراسى الحكم ، وانتهاز الوصوليين فرصة هذا الخلاف للمغامرة بالانتفاع منه ؛ فأخذ كثير من الموظفين يشايعون أحزاباً معينة — وقد لا يكون ذلك إلا حين يلمحون فى الأفق أملا فى اقتراب توليها الحكم — ويستغلون صلتهم بتلك الأحزاب لتخطى رقاب غيرهم من الموظفين الأكفاء ، والوصول قبل دورهم إلى أعلى الدرجات .

وهكذا انتهت الحال فى أمر الموظفين إلى جعل الاعتبارات الحزبية عاملا فى تعيينهم وترقيتهم وفصلهم .

وبهذا فسدت بعض روح الموظفين واعتلت ضمائرهم .

وأحسب أساس هذه الحال فكرة خاطئة نبتت في رؤوس بعض السياسيين ، وقوّاها هؤلاء الوصوليون في نفوسهم حتى خدعوا بظاهر نفعها وعموا عن نتائجها الوخيمة على البلاد .

تلك الفكرة هي اعتبار حكومة بعينها ، أو بعبارة أصح هيئة سياسية خاصة هي الهيئة التي يجب أن يدين لها الموظف وحدها بالولاء ، ويناصب من عداها البغض والعداء ؛ وليس من شك أن هذه الفكرة بهذا الوضع تخلط بين الحكومة والدولة ، أو بعبارة أوضح بين حزب معين والدولة .

إن الأحزاب والهيئات السياسية التي تتعاقب على الحكم هيئات عارضة قد تتبدل وتتعدل ، ويقوم مقامها أحزاب وهيئات غيرها يوليها الشعب ثقته ؛ ولكن الدولة فكرة خالدة تبقى مهما تغيرت الحكومات وتعاقبت على الحكم الأحزاب . فهي تمثل روح النظام والقانون والهدف المشترك الذي يتجه إليه المصريون جميعاً ، والتاريخ المشترك الذي يؤلف وحدتهم ؛ هذا الشخص المعنوي هو وحده الذي يجب أن يدين له الموظفون بالولاء ويخلصوا له في أداء واجبهم . وكل حكومة شرعية تلي الحكم يجب أن يعاونها كل موظف في حدود قيامه بواجبه المرسوم طبقاً للقواعد الموضوعة . ويجب أن تحترم الحكومات جميعاً هذا الوضع ، وألا تنظر للموظف بعين غير عين التقدير لمدى إخلاصه للدولة وأدائه لواجبه نحوها . هذا مبدأ عام يجب أن يسلم به الجميع وتتفق الأحزاب كلها على احترامه مهما اشتد بينها النزاع ؛ وهذا هو المعمول به في الأمم الراقية التي توطد فيها نظام الخدمة المدنية . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إنه لا يجوز أن يقام أي وزن في تقدير الموظف لمذهبه السياسي ، وإن عمله وحده وأداءه واجبه الحكومي المنوط به يجب أن يكون هو أساس تقديره .

ولا محل لمكافأة موظف وتخطي رقاب من يسبقونه من الموظفين إلا أن يكون ذا كفاية ممتازة يعترف بها الجميع . وخير ضمان لذلك أن يترك هذا الحق لهيئة عليا بعيدة عن أن تؤثر فيها الاعتبارات الحزبية ، ولا محل لأن يعاقب موظف أو يفصل إلا لاعتبارات تتصل بعمله وواجبه ، وتتولى عقابه هيئة قضائية بعيدة عن المؤثرات .

وأخيراً يجب أن يطمئن الموظف إلى أن الأمور كلها تسير سيراً طبيعياً ، لا تتدخل فيه الوساطات والشفاعات والصلات الحزبية أو العائلية .

أما التضخم ووجود كثير من الطفيليين لا يعملون ، فيجب أن يكون محل عناية الحكومة ، وأن تشكل لهيئة نزيهة نشيطة تفحص كل فروع الوزارات والمصالح وأعمالها ، وتقرير الاختزال الواجب إجراؤه في موظفيها ودرجاتها ، ووضع نظام دقيق يحدد اختصاصها وعمل كل موظف فيها .

بهذا تعود الطمأنينة والاستقرار والثقة بالعدالة لجمهور الموظفين ، وبهذا يتسنى قيامهم بواجبهم على الوجه الصحيح . (***)

يوم الجهاد الوطنى

لقد تطاول العهد على ذلك اليوم التاريخى ولم يزل جديداً فى نفوسنا ، وكلما حل موعد ذكراه تحركت الأفئدة وجاشت فى صدورنا الآمال .

كان ذلك منذ ستة وعشرين عاما . ونحن اليوم ننظر إلى ورائنا ونتأمل الرحلة التى قطعناها مع سير الزمان ، فنرى الحوادث الماضية يكاد يحجبها عنا ضباب السنوات الطويلة ؛ ولكنا نلمح معالم الفدافد العسيرة التى اجتزناها ، نهبط فى أغوارها حيناً ونصعد حيناً فى كثبانها ، وتستقر أنظارنا على ذلك اليوم الخالد كأنه ربوة عالية تلوح متلألئة بأنوار قدسية شامخة ، لا تزيدها البعد إلا روعة وجلالا . فهو أوضح معالم الطريق التى سلكناها ، وأطهرها صعيداً ، وأطيبها ظلالا .

كان يوما يشبه اللحظة الوسيقية التى يهتز لها الحس فى حينها هزة نحسبها عارضة تمر كما مر غيرها من اللحظات ، ولكنها كلما ترددت مع أصداء الذكرى بدت على حقيقتها تملأ القلب بجمال تبقى نضرته أبدا ، ونشوة تتجدد سَورتها أبدا .

كانت مصر فى ذلك اليوم قلباً واحداً يهتز بالأمل الأسمى ، ولساناً واحداً ينطق بالوحى الأصدق . كان يوما امّحت فيه الفروق بين الناس ، فلا غنى ولا فقير ، بل الجميع أبناء مصر تهيب بهم آمال المستقبل الكريم ، وتدفعهم كبرياء الماضى المجيد ! وامّحت فيه الفروق بين العقائد ، فلا مسلم ولا مسيحى ولا إسرائيلى ، بل الجميع للوادى المقدس تربط بينهم المودة والمصلحة ، مجتمعين على تراث مشاع من أجيال طويلة صهرتهم فى أثنائها الحوادث ، ومازجت بينهم فى شعب متحد هو كالبنيان المرصوص أو أشد تماسكا

هناك على لوحة الذكرى فى ذلك اليوم تتبدّى صورة كريمة عزيزة ، صورة عاهل مصر الأمجد «أبى الفاروق» ترف فوق صفوف الشعب تظلهم بظلها ، وتهديهم إلى السبيل فى سكون وحكمة .

لقد مرت السنون الطويلة ، وبَعُدنا عن موطن الزحام ، حتى لتستطيع الأنظار أن تنفذ من خلال الضباب الزاخر ، والغبار الثائر ، لترى جناحى السلطان فؤاد إذ يبسطهما فى رفق ليدرأ عن شعبه وحكومته ما يستطيع هو وحده أن يبصره من العواصف التى كانت تبدو تحت عينيه عند الأفق .

وهنـاك على تلك اللوحة السعيدة نرى سعداً العظيم وهو يجاهد مثل عملاق فى صدر الجموع المحتشدة ، لا تردّه عن قصده رهبة من قوة ، ولا يخذله عن جهاده قعود فى همة . وإلى جانبه ومن حوله هالة رائعة من الأبطال ، بعضهم فى دست الحكم ، وبعضهم من نواب الشعب ، وبعضهم من صحابة أبرار ، قد استجابوا لنداء الواجب ولكل منهم شأن ولكل منهم مكان ! ولكنهم كانوا جميعاً يتجهون إلى غاية واحدة وقصد محدد معلوم . كانوا جميعاً يجاهدون فى ميدان فسيح مضطرب كثير المعاثر ، لم يدبروا فيه الأمر عن روية وأناة ، ولكن السير اتجه عفواً كأنه مدبَّر بينهم تدبير الأناة ؛ ولم يرسموا خططا على بصيرة وحكمة ، ولكن خططهم اتجهت إلى غايتها عفواً كأنها رسمت على بصيرة وحكمة . هناك وقف سعد ومعه شعراوى وعبد العزيز فهم يتأهبون للذهاب إلى دار عميد بريطانيا العظمى ، وكان من حولهم جمع كريم من شبان وكهول وقفوا يسندونهم من وراء ، ينتظرون الدعوة ليسرعوا إلى حيث يدعوهم الجهاد .

وهناك فى الناحية الأخرى وقف رشدى وعدلى يؤدون فى الحكم واجبهم ، ويسيّرون دفة السفينة بين

الصخور المقدسة محاذرين أن نرتطم بها وتتحطم على جوانبها ، وقلوبهم دائمة الوجيف ، تتقد فيها الشعلة المقدسة التي تشتعل في سائر القلوب !!

لقد مضى ذلك اليوم المجيد ومرت بعده السنون على بعضها بعضاً ، وتعاقبت على البلاد الأحداث وهي مزيج من مواقف متباينة ، بعضها متلألئ بأنوار الإيثار والتضحية ، وبعضها يحيط به إطار قاتم من الأحزان ؛ ولكن صورة ذلك اليوم ما تزال تبدو من خلال السنوات باهرة بارعة تفيض وحياً وجلالا . كان يوماً في تاريخ طويل ، وكان تاريخاً طويلاً في يوم ، فلتذكره الأجيال عاماً بعد عام ، وليبق على الأيام عيداً ترتفع فيه الأعلام خفاقة زاهية ؛ فهو يوم خالص من أيام الجهاد النبيل . ولكن ذكرى هذا اليوم الخالد تبعث إلى الخاطر طائفة من المعاني ، قد آن لنا أن نحلها المحل اللائق بها من الاعتبار ؛ بل إن طبيعة الظروف نفسها توحي إلينا بأن نفكر فيها ونطيل التفكير . وقد حدثت بنا أحداث منذ ذلك التاريخ وجهت سير تاريخنا توجيهاً محتوماً نحو مستقبلنا .

وأول هذه المعاني علاقتنا ببريطانيا ، التي كانت في يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ هي الطرف الثاني الذي يقف وجهاً لوجه أمام جهادنا . ولقد مر بنا من الوقت ما يسمح لنا أن ننظر إلى الميدان البعيد نظرة هادئة بعيدة عن شطط الخصومات وصغائر الحزازات والمصادمات . فنستطيع اليوم أن ننظر إلى الخلف ، ونتأمل موقف الذين قد كانوا منذ حين خصوماً وصاروا اليوم أصدقاء حلفاء ، نعتز بصداقتهم ، ونبني أعظم الآمال على صدق مودتهم . ولا يسعنا إلا أن نقر أنهم قد برهنوا حتى في أشد أوقات الخصومة عنفاً على أنهم أبناء أمة متمدينة يعرفون مقدار الأمة المصرية وما لها من نسب عريق في المدنية ، ويحملون في قرارة نفوسهم اعترافاً بما لمصر من استعداد لمشاركة الإنسانية في جهودها على قدم المساواة والمعاونة الصادقة .

لقد كانت الخصومة عنيفة بغير شك ، وارتكبت فيها أخطاء من الجانبين بغير شك ، ولكن صدق النية وضبط النفس اللذين يتصف بهما الشعب البريطاني ، وحسن النية والاستقامة اللتين يتصف بهما شعب مصر ، كانت كلها عوامل أزالت الأشواك من الطريق ، فأمكن لسعد العظيم أن يصف هؤلاء الخصوم بكلمته الصريحة : إنهم خصوم شرفاء . نقول هذا قياماً بواجب الصدق ، واعترافاً للحليفة بحقيقة نحس بها إحساساً قوياً في قرارة نفوسنا .

وأبناء مصر اليوم موقنون أن هذه الحليفة الصادقة ستقف من المصالح المصرية مثل موقف الأمة المصرية من مصالحها عند ما تضايقت حلقات الأزمة الحربية من حولها . ونحن اليوم ننظر إلى المستقبل في ثقة لا تتزعزع ، آملين أن تكون المحالفة المصرية الإنجليزية عاملا من أكبر العوامل على خلق جو صاف من السلام يسود وادي النيل كله والشرق الأدنى .

وهناك معنى آخر يتوارد على قلبنا في الإصباح والإمساء ، إذ نتساءل عن الحكم المصري الذي آل أمره إلينا بعد إبرام المعاهدة . وإنه لمن العدل أن نراجع أنفسنا فيما نحسه من اللوم والعتب على أساليب هذا الحكم ، لأن فترة الانتقال من طبعها أن تكون مهداً لكثير من الاضطراب والخطأ ، ونحن لا نزال على سبع سنوات من أول هذه الفترة الخطيرة . لسنا نحاول الدفاع عن أنفسنا ، فإن ذلك قد يخرج بنا إلى أن نقفل أعيننا ونصم آذاننا عن الواقع ، ولكننا نردد عذراً نراه طبيعياً لمن كان في مثل حالنا . والخطأ كان دائماً طريق الصواب ، والتجارب وحدها هي التي تصقل العقول وتهديها ، وقلوبنا ممتلئة بالأمل في المستقبل . ومهما يكن من شيء ، فقد تحقق لنا ربح عظيم ؛ إذ قد تبين لنا كثير

مما فى أساليب حكمنا من الاعوجاج ، وفتحت لنا التجربة ميادين كثيرة للإصلاح . إن الزمن يسير إلى الأمام ، ولن تستطيع أمة أن تقنع بمواقف ماضيها إلا إذا شاءت أن تتخلف وتتراجع عن التقدم . ونحن الآن فى منتصف القرن العشرين ، وقد أشرفنا على مفترق الطرق ؛ وإنه لمن حسن حظنا أن الآلام الشديدة التى عانيناها قد نبهتنا إلى ضرورة التحرّى فى اختيار السبيل .

أمامنا جهاد طويل غير يوم الجهاد . وإنه الجهاد الأعظم بغير شك ، فهو جهاد أنفسنا . هذا الشعب – الذى نحن منه وهو منا – ينتظر الكثير من قادته ، فهو يأمل أن يعيش فى مستوى الإنسان ، وهو يأمل أن يعلم ما يعلم الإنسان ، وهو يريد أن يُحكم كما يحكم الإنسان ، وهو يريد أن يكون له من حقوق الحياة ما للإنسان !! إن له الحق فى أن يكون صحيح الجسم موفور الرزق مثقف الذهن ، قادراً على حسن الإنتاج ، مسايراً لأرقى الأمم فى خدمة الإنسانية ، مشاركا لها شركة الزمالة الحرة . هو يأمل فى ذلك كله ، وقد وضع أمله فى قادته ، وإنه لبصير بموضع ثقته . وهو يحمد الله الذى قيّض لمصر مليكا حدبا عليه ، قد امتلأ قلبه بحب مصر وشعب مصر .

نحن عند مفترق الطريق وأمام المستقبل ؛ فإذا نظرنا إلى يوم الجهاد الأول كنا جديرين بأن نتحفز لاستمرار الجهاد فى سبيل الحياة ؛ وسيكون عهد الفاروق ابن فؤاد بمشيئة الله ، عهد الجهاد الأكبر فى سبيل الحياة .

محمد فريد أبو حديد

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

— ٥ —

السيد عبد الرحمن الكواكبي

بعد هذا انتقل بحث المؤتمر إلى تحديد « الإسلام الصحيح » وما دخل عليه من تغيير . وقد أفاض في ذلك العضو النجدي ، فقال : « إن الإيمان بالله أمر فطري في البشر ، وحاجتهم إلى الرسل لإرشادهم إلى كيفية الإيمان ؛ ويختلف الناس في تصور الله . والعقول البشرية مهما قويت واتسعت لاتتحمل إدراك صفات الله الأزلية المجردة عن المادة والزمان والمكان فاحتاجت إلى من يرشدها .

وأساس الإسلام جملتان : « لا إله إلا الله » و « محمد رسول الله » ؛ وثمرة الإيمان بالأولى عتق العقول من الأسر ؛ وثمرة الثانية الاهتداء بمحمد في تعاليمه التي تحول بين المرء ونزوعه إلى الشرك .

ولكن إدراك التوحيد والاحتفاظ به عسير على النفس ، فسرعان ما يخرج منه إلى الشرك . والشرك أنواع ثلاثة : « شرك في الذات » وذلك في عقيدة الحلول ؛ « وشرك في الملك » كاعتقاد الناس في بعض المخلوقات المشاركة في تدبير شؤون الكون ؛ و « شرك في الصفات » بإسباغ صفات الكمال على بعض المخلوقات .

وقد فشا في المسلمين هذا الشرك ، كتعظيم القبور ، وبناء المساجد والمشاهد عليها ، والطواف بها ، والإسراج لها والتذلل لها ؛ وكدعوى أن هناك علماً يسمى علم الباطن خُص به بعض الناس ؛ واتخاذ الدين لهواً ولعباً بالتغني والرقص ، ولبس الأخضر والأحمر ، واستخدام الجِنّة والشياطين ، فكل هذه وأمثالها شرك محض أو مظِنَّة إشراك .

وعرض للإسلام غير الشرك أمران خطيران ، وهما : التشدد في الدين بعد ما كان يسراً سهلاً ، فكانت كل فرقة تأتي تزيد في هذا التشدد حتى صار عسراً صعباً ؛ والأمر الثاني تشويش الدين بكثرة المذاهب والشيع وطرق التصوف .

وقد لاحظ الرئيس أن عضوين من الأعضاء لم يتحدثا فرغب أن يسمع صوتهما ، وهما العضو السِّنْدي والعضو القازاني ؛ فأما السندي فقد تكلم في التصوف وما دعا إليه ، وما فيه من حق وما فيه من باطل ؛ وأما القازاني فقص عليهم قصة جرت بين مسيحي روسي أسلم ومفتي قازان ، تدور حول دعوة المفتي إلى تقليد السلف والاقتصار على ما قالوا ، ودعوة الروسي المسلم إلى ضرورة الاجتهاد وعدم التقليد ، وحكى ما جرى بينهما من حجج وأدلة ، وأخيراً انتصر المسلم الروسي المستشرق على المفتي ، فاقتنع بأن التقليد ضار جر عليه الكسل ، وأن الاجتهاد واجب ولكن يحتاج القيام به إلى جد وعناء .

ثم دعا الرئيس السيد الفراتي السكرتير ، وهو « الكواكبي » لتلخيص المحاضر السابقة للمؤتمر وتعداد أسباب فتور المسلمين ، وتكليفه أن يزيد عليها من الأسباب ما يراه إن وجد غير ما ذكره الأعضاء ؛ فلخص أسباب فتور المسلمين في :

(١) أسباب دينية أهمها عقيدة الجبر ، ونشر ما يدعو إلى التزهيد في الدنيا ، وترك السعي والعمل ، واختلاف المسلمين فرقاً وشيعاً ، وإضاعة سماحة الدين وتشديد الفقهاء المتأخرين ، وإدخالهم في تعاليمه الخرافات والأوهام ، وعدم المطابقة بين القول والعمل في الدين ، وتهوين غلاة الصوفية شأن الدين وجعله لهواً ولعباً ، والتوسع في تأويل النصوص ، والتحايل

على التحرر من الواجبات ، وإيهام الدجالين أن فى الدين أموراً سرية ، واعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين، وتطرق الشرك إلى عقيدة التوحيد ، وتهاون العلماء فى تأييدها ، والغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة والحج .

(٢) وأسباب سياسية أهمها السياسة المجردة من المسئولية ، وحرمان الأمة من حرية القول والعمل ، وفقدانها الأمن والأمل ، وفقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة ، وميل الأمراء للعلماء المدلسين ، واعتبار العلم صدقة يحسن بها الأمراء على الخاصة ، وإبعادهم للناصحين وتقريبهم المتملقين ، واستبداد الأمراء وانغماسهم فى الترف ودواعى الشهوات .

(٣) وأسباب أخلاقية : من الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه ، واستيلاء اليأس على النفوس ، والإخلاد إلى الخمول ، وفساد التعليم ، وفساد النظام المالى ، وإهمال طلب الحقوق العامة جبناً ، وتفضيل الوظائف على الصنائع ، والتباعد عن المداولات فى الشئون العامة .

وقد زاد السكرتير أشياء على ماسبق ، أهمها : الغفلة عن تنظيم شؤون الحياة ، وعدم توزيع الأعمال توزيعاً عادلا ، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهن ، وسقوط الهمّة وانتشار داء التوكل .

ولم يرض المؤتمر بالاكتفاء بالبحث فى الأمراض وعلاجها ، بل اقترح إنشاء جمعية دائمة تعنى بإصلاح المسلمين، وتشرف على تنفيذ برنامجها فى الإصلاح ؛ وهذه الجمعية تؤلف من مائة عضو : عشرة عاملون ، وعشرة مستشارون، وثمانون فخريون ، ولا عدد للأعضاء المساعدين المنتسبين ؛ واشترط فى الأعضاء العاملين شروطا دقيقة من العفة والأمانة والإخلاص وسعة العلم والقدرة على التأثير وإمكان التفرغ للعمل لأغراض المؤتمر ؛ وجعل مركزها فى مكة ، ولها شعب فى الآستانة ومصر وعدن ، والشام وطهران وتفليس وكابل وكلكتا ، وسنغافورة وتونس ومراكش وغيرها ؛ والجمعية لاتكون تابعة لحكومة ما ، ولا تتقيد بمذهب دينى خاص ، ويكون شعارها : «لانعبد إلا الله» ، ويكون من أهم أغراضها تعميم التعليم بين المسلمين ، والترغيب فى العلوم والفنون النافعة ، وإيجاد المدارس العالية يتخصص كل منها للتوسع فى فرع من فروع العلم ، وتوحيد أصول التعليم ، ووضع مناهج للرقى بالأخلاق وتنفيذها ، وإنشاء مجلة شهرية للجمعية لتأييد أغراضها الخ الخ .

وقد اتفقوا على أن يكون مركز الجمعية المؤقت هو مصر ، لتقدمها فى العلم والحرية ، ولأنها أسبق الأمم الإسلامية فى ذلك .

وأخيراً تعرّض الكواكبي للنزاع القائم بين الترك والعرب فى زمنه ، وناصر العرب على الترك ، ورأى أنهم أصلح للأخذ بزمام الدولة ؛ ووضع مشروعاً لنظام الحكم بينه وأوضحه . وانفض المؤتمر بعد أن اجتمع اثنى عشر اجتماعا وصل فيها إلى النتائج الآتية :

١ — المسلمون فى حالة فتور عام .

٢ — يجب تدارك هذا الفتور .

٣ — أسباب الفتور .

٤ — جرثومة الداء الجهل .

٥ — الدواء تنوير الأفكار بالتعليم ، وإيقاظ الشوق للترقى وخصوصاً فى الناشئة .

٦ — تأسيس الجمعيات التى تقوم بهذا العلاج .

٧ — المكلفون بذلك كل قادر على عمل ، وخاصة نجباء الأمة من السَّراة والعلماء .

٨ — تشكيل الجمعية الكبرى لهذا الغرض ، وتسمى «جمعية تعليم الموحدين» .

***

هذه نظرة الطائر إلى هذه الرواية العظيمة العميقة القيمة ، وهذا تفكير « الكواكبي » من نحو نصف قرن يشف عن سعة اطلاع وصدق إخلاص ، وسمو فكر وبعد نظر ، وشجاعة وصراحة !! فإذا نحن اطلعنا على ما كان يُكتب قبله في المجلات والصحف في مثل هذه الموضوعات رأيناها كانت أقرب إلى موضوعات إنشائية جوفاء ، فنقلها هو إلى بحوث علمية عملية ، يحلل ويذكر المرض وسبب الداء وعلاجه في صبر وأناة واستقصاء .

كتاب « أم القرى » رواية جدّية ليس فيها غرام وغزل ، بل فيها غرام بالعالم الإسلامي يعاني في سبيله ما يعاني المحب الهائم ، ويود من صميم قلبه أن يصل محبوبه إلى أعلى درجات الكمال ، ويضحي من أجله ماله الذي ضيعه عليه الظلمة لتمسكه بالحق ، ويضحي بوطنه فيهجره لأنه لم يستطع أن يجهر برأيه في حلب فجهر به في مصر ؛ ولا بأس فكل بلد إسلامي وطنه — كان يحب التخصص ، وأن كل قادر يحصر نفسه في فرع من فروع العلم أو الفن حتى يتقنه ؛ حتى وضع ذلك في نظام المدارس التي كان يتمنى إنشاءها . فطبق ذلك على نفسه ، فلم يوزّع نفسه بين فقه ولغة ، وما إلى ذلك ، إنما وهب نفسه لإصلاح المسلمين ، فدرس التاريخ الإسلامي في دقة وإمعان يتعرف فيه الأسباب والنتائج ، كما تدل عليه كتابته ، وساح في البلاد الإسلامية سياحة فاحصة منقّبة ، ودرس كل قطر إسلامي ومزاياه وعيوبه ، حتى إنه لما وضع روايته « أم القرى » أنطق كل عضو بعقلية قطره : النجدي يشكو من ضياع الدين ؛ والروسي يشكو من ضياع الحرية وسلطة المتعممين ؛ والإسكندري يشكو ضعف الأخلاق ؛ والإنجليزي ينعى على المسلمين عدم المجتمعات وتبادل الرأي بالخطب والمحاضرات ونحو ذلك .

اكتوى السيد جمال الدين الأفغاني من السياسة الأوروبية وأمها بالمسلمين ، فصب عليها جام غضبه ، واستغرقت حملته على السياسة الإنجليزية أكبر قسم في العروة الوثقى ؛ واكتوى الكواكبي بالسياسة العثمانية فكانت موضع نقده — نظر الأفغاني إلى البيئة الخارجية للمسلمين فدعاهم إلى أن يناهضوها ؛ ونظر الكواكبي إلى نفس المسلمين فدعا إلى إصلاحها ، فإنها إن صلحت لم تستطع السياسة الخارجية أن تلعب بهم . ولذلك كانت معالجة الأفغاني المسائل معالجة ثائر ، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية ؛ ومعالجة « الكواكبي » معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء ، ويكتب الدواء في أناة . الأفغاني غاضب ، والكواكبي مشفق ؛ الأفغاني داع إلى السيف ، والكواكبي داع إلى المدرسة . ولعل هذا يرجع أيضاً إلى اختلاف المزاج ، فالأفغاني حاد الذكاء ، حاد الطبع ، والكواكبي رزين الذكاء هادئ الطبع ؛ إذا وضعت أمامهما عقبة تخطاها « الأفغاني » قبل ، وتخطاها « الكواكبي » بعد ولكن من خير نقطة تُتخطّى ! فلا عجب إن كان للأفغاني دويّ المدافع ، وكان للكواكبي خرير الماء ، يعمل في بطء حتى يفتت الصخر !

لو مُكّن له معرفة لغة أجنبية ، ووقف على ما وصلت إليه بحوث علم الاجتماع الحديث ، لكان له منبع فياض إلى جانب غزارة فكره .

وبينا الناس تُعجب بما ينشره من مقالات إصلاحية في المجلات والجرائد ، ومجلس الفضلاء في مصر عامر بحديثه وجدله ودعابه المؤدب من آرائه ، إذا بالصحف المصرية تطلع بنبأ موته الفجائي يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ فأسف عليه كل من كان محباً لإصلاح المسلمين ، وبكى إخوانه الذين كانوا يرون فيه رجلا نبيل الخلق ، سامي القصد ، عف اللسان ، نقي الضمير . فرحمه الله !!

(تم البحث)

أحمد أمين

فى معارك الصحراء الغربية

كان ميدان الصحراء الغربية ألصق ميادين الحرب الحاضرة بمصر، وأهمها لنا من حيث دراسة الخطط، وأساليب المعارك، وما ترتب عليها من الآثار والنتائج.

فمنذ أن أعلن «موسولينى» الحرب على الحلفاء فى ١٠ يونيه سنة ١٩٤٠ إلى أن استسلمت آخر قوات المحور فى تونس فى مايو سنة ١٩٤٣ — ظلت عين مصر تتطلع إلى الغرب تستفتى رمال الصحراء، ونجومها كل ليلة ماذا سيسفر عنه الغد القريب من شئون وأحداث.

وإذا كانت الضرورات الاستراتيجية والعملية قد اقتضت ألا تخوض مصر مع الخائضين غمار هذه المعارك، وأن يحرم جيشها فرصة ثمينة يبلو فيها أساليب القتال الحديثة، ويستعيد بعض تاريخه الحربى المجيد، فقد ساهمت مصر فى ذلك الميدان بجهود كان لها كبير الأثر فى النصر الأخير؛ وكأن الله كافأ هـذه الجهود فصرف صواعق التدمير عن مدن مصر وطرقها ومنشآتها التاريخية والدينية.

وإذا كان بعض المصريين، وفى طليعتهم رجال الجيش، قد قاموا بزيارة الأماكن التى شهدت أروع المعارك، ودرسوا شيئاً من الخطط التى اتبعتها الجيوش المتحاربة فى كرّها وفرّها، فإن مراسلا حربياً إنجليزياً قد أتاح للجميع فرصة تتبع هـذه المعارك، ودراسة أشخاصها وأحداثها، وتقلب الحظ فيها، فى كتاب تاريخى أدبى ممتع فى أكثر من أربعمائة صفحة، عنوانه: (ثلاثة ضد رومل)[1]. والثلاثة — كما هو معروف — «ويفل» و «أوخنلك» و «الكسندر»؛ فقد كان من عمل أولهم أن وضع النواة الأولى فى حياة الجيش الثامن، وتعهده فى مراحل طفولته الأولى؛ وكان من نصيب الثانى أن شهد نمو هذا اليفع إلى مرحلة الفتوة والشباب؛ ثم كان من حظ الثالث أن صحبه ناضجاً تام الرشد، فسار به (يشد أزره «مونتجومرى») إلى ذروة المجد والانتصار.

رسم الكتاب الخطوط الأساسية فى شخصيات أبطاله الثلاثة: فيبدو لك «ويفل» فى صورته العبقرية الصامتة، التى استطاعت من طريق الخداع والمغامرة والحدس الصادق أن تقضى على ربع مليون من الإيطاليين، بجيش لم يتجاوز ستة وثلاثين ألفاً، وبخسارة لم تزد على ثلاثة آلاف. ثم يختفى «ويفل» ليظهر على المسرح «أوخنلك» ذلك القائد ذو الحياة الحربية الناجحة، الخالية من شذوذ العبقرية، والقائمة على الصراحة والجلد، والذى كان من نصيبه أن خلع قائدين من قواده، واحداً بعد الآخر، والمعركة دائرة الرحى، وأن يتولى بنفسه قيادة الجيش الثامن، وظهره إلى الحائط، كما يقولون، والعدو على الأبواب. أما ثالث الثلاثة (الجنرال الكسندر) فيظهر على المسرح ليقدم «مونتجومرى» ذلك الرجل القصير النحيف، الذى نشأ نشأة دينية لم يعرف فيها حتى التدخين، والذى أحبه جنوده حباً جماً.

والكتاب فى نواحيه التاريخية والحربية والأدبية يكاد يكون فريداً بين الكتب التى صدرت عن الحرب الحاضرة إلى الآن؛ وقد لا يدانيه فى معظم هذه الصفات إلا كتاب لكاتب هنغارى حارب فى صفوف الجيش الفرنسى، فى الكتيبة الأجنبية، وأسره الألمان، ثم نجح فى الفرار، وصوّر مأساة انهيار فرنسا سنة ١٩٤٠ فى أسلوب يأخذ بالقلوب، تحت عنوان (ألوف سوف يصرعون)[1].

وأطرف مايعجبك ويدهشك معاً فى كتاب الصحراء، تلك الصراحة السافرة التى يصطنعها الكاتب الإنجليزى

---

(١) "Three Against Rommel" by Alexander Clifford.

(١) «A Thousand Shall Fall» by Hans Habe»

حين يتكلم من شخصيات القواد الإنجليز ، وعن أخطاء كل منهم ، والأزمات التى مرت به ، ثم ذلك الإنصاف الرياضىّ السمح الذى يحلى عليه الاعتراف ببطولة الأعداء ، والشهادة لهم بما يبرعون فيه من وضع الخطط واغتنام الفرص . ثم يوقفك فيه تلك الموازنات التى يعقدها المؤلف بين الألمان والإنجليز فى صفاتهم الحربية ونظمهم فى القتال ، ثم بين الجيوش الثلاثة الإنجليزى والألمانى والإيطالى وموقف كل منها نحو الصحراء ؛ يقول فى التعقيب على نهاية الجولة الثالثة حين استرد البريطانيون « ليبيا » لأول مرة : « لقد أظهر الألمـان مهارة رائعة ، وشجاعة كبيرة فى تنظيم إصلاح الدبابات العاطلة فى المركة ، فقد كانت هذه تسحب ، والمعمة لاتزال على أشدها ، فتصلح فى دار إصلاح متحركة ، ثم يرسل بها فى الغد مرة أخرى إلى القتال . أما الوحدات البريطانية ، فقد كانت تبذل أقصى جهدها ، ولكنها لم تكن منظمة تنظيم الفرق الألمانية ، بل لقد كان أفرادها أشبه بعثة من الأطباء فى بلد دهمه الطاعون فتجمع لديهم من المرضى عدد أكبر مما يستطيعون علاجه . ولقد كان تفوق « رومل » فى هـذه الناحية هو الذى مكّنه من أن يظهر كل يوم بعدد من الدبابات فوق ما كنا نتوقع » . ويقول : « وإذا كان البريطانيون قد أظهروا ضروباً من البطولة والتدبير الفردى ، فإن روح الفريق عند الألمـان كانت أكثر نظاما وتدريباً .. والواقع أن الصحراء قد أظهرت الفروق النوعيـة بين الشعبين واضحة جذابة ؛ فإن الصحراء تنزع عن الناس طلاء المدنية ، وتترك الخصائص الفطرية مكشوفة عارية ، حتى لترى الناس يتجردون من كل ما يعطى الحياة قيمتها ، فلا يبقى منهم إلا ما يجعلها ممكنة مجرد إمكان ؛ هنالك يذهب كل شئ ، فلا يبقى من العناصر إلا الطعام والشراب والدفء والبرد والنوم والصحة والأمن والموت .. وتكون النتيجة أن تبرز إلى العيان تلك الميول النوعية الأساسية التى كثيراً ماتخفى معالمها تحت غشاء التقاليد والثقافة وما إليها . . . وهكذا ظهر الألمـان فى مظهرهم الأصيل من فناء الفرد فى المجموع ، بل صيرورته تُرساً صغيراً فى آلة كبيرة ؛ ولبسوا خواصهم التى نادى بها « نيتشه » والتى ترجع إلى العهد التيوتونى القَبَلىّ . لقد اهتدى « رومل » بغريزته إلى أن يحشد دباباته معاً ، ولم تكن هذه خطة حربية جيدة فحسب ، بل كانت تمشياً صالحاً مع مقتضيات السيكلوجيا الألمانية .. إن الألمان يقاتلون فى مهارة إذا كانوا جماعة ، بل إنهم ليقاتلون إذ ذاك فى تهور وتضحية غير عابئين بخسائرهم .. أما جيشنا (البريطانى) فقد كان خليطا من الرجال — من بريطانيا ونيوزيلندا وأستراليا وبولنـدة وغيرها — غير أنه إذا كانت هؤلاء مختلفين فى السلالة واللون واللغة ، فإن صفة واحدة تجمعهم ، تلك أنهم ليسوا « إنتاجا بالجملة » ، ولكنهم أفراد ، يقاتل الواحد منهم ولو كان وحيداً ، ويتحمل مايلقى من حرّ وقرّ وجوع وعطش . فجنود « المـاورى » يؤثرون القتال فى الظلام ، والجنود ميالون بطبيعتهم إلى ما يشبه حروب العصابات السريعة فى الصحراء ، والبولنديون بما أبغضوا الألمان يندفعون ضد أى شئ .. وقد ترتب على هذا أننا حين كنا نطلب أشخاصاً قليلين لاستطلاع أو لغارة فدائية كنا نجدهم ، فى حين لم يكن الألمان يستطيعون ذلك . على أننا إذا كنا قد ارتكبنا أخطاء فى هذه المركة ، فقد كانت فرصة ثمينة تعلمنا فيها من هذه الأخطاء ، إذ تجمعت لدينا مادة أولية وفيرة للدرس والتحليل ؛ وقد أفدنا كثيراً من أن المركة لم تسر فى يُسر وسهولة ، فإن قتالا شديد المراس أجدى فى النهاية من انتصار رخيص .. لقد واجهت دباباتنا دبابات الألمـان مباشرة ، وقاتل مشاتنا مشاتهم ، وأمكننا لأول مرة فى هـذه الحرب أن نستولى على معسكراتهم ومعداتهم ،

ومعامل إصلاحهم ، ووثائقهم وقوادهم ؛ وقد قابلناهم فى الأرض وفى الهواء هاجين ومـدافعين ، واضطررنا أن ندرس خططهم وطرقهم ومُعَدَّاتهم لا نظريا ولكن عمليا ، واتخـذنا من الصحراء منضدة عمليات . وكانت بعض الدروس التى تعلمناها فنية عميقة ، وبعضها سرية خفية ، ولكنها كلها كانت جديرة بأن تُتعلم . إنه لم يكن بد لمعركة الصحراء هذه من أن يُصطَلى بنارها ، فكان علينا – إذن – أن نعرف كل ما هنالك منها . ولقد أفدنا كثيراً مما كشفنا عن الجنود الألمـان فى طعامهم ولباسهم وكتبهم وكل نواحى حياتهم ... »

وبعد ، فماذا كان موقف كل من الجيوش الثلاثة نحو الصحراء ؟ « أما البريطانيون فقد كانوا يتصرفون كأن لم تكن هناك صحراء ، فلا هم يقاتلونها ولا هم يخطبون ودها ؛ وإذا كان الشىء مما يحدث بطبيعته تركوه يحدث ، وإلا أهملوه ؛ والجندى البريطانى لا يهتم كثيراً بشئون حياته فى الصحراء ، فهو لا يقلق على طعامه أو شرابه ، ولن تنتظر منـه أى شكوى ما دام واثقاً من وجود الشاى القوىّ وشىء من السكّر فيـه ، ثم شىء من لحم العلب ومن البسكويت ؛ وإذا جنّ عليه الليل نام على الأرض ملتفا فى غطائه ! فهو فى الحقيقة يعيش عيشة الصحراء ، ولا يحاول أن يُجَمِّلها إلا فى القليل النادر .. »

« وأما الإيطالى فإنه يحاول أن يجمل الصحراء داراً صالحة للسكنى : يبنى فيها بيوتا صغيرة بالحجارة والطين ، ويزرع فيها حدائق الزهر حيث لا شىء ينمو ، ويجلب معه حُلله الأنيقة وأوسمته وعطوره وأخر أدوات مطبخه ؛ ويشرب الخمر بأنواعها ، والمياه المعدنيـة من زجاجاتها ، ويأكل من أطايب الطعام ما كان يأكل فى منزله . إنه يكره الصحراء ، وهو لا يحتملها إلا إذا استطاع أن يجملها إيطاليا ثانية » ..

« وأما الألمـان فهم بغريزتهم يقاتلون الصحراء ، فالناظر فى معسكراتهم – وقد فارقوها معجلين – يعجب كيف أجهد العلماء والفنيون والخبراء النازيون أنفسهم فى اختراع وسائل المنامة والراحة فى هذا المكان الذى تصوروه قطيماً غير طبيعى ! وكيف أعدّ معهد المناطق الحـارة فى « همبرج » لباسا وعددا خاصة بالصحراء ، وأعطى الجنود فى بعض الأحوال تدريباً خاصاً على سكنى البيوت الحارة قبل إرسالهم إلى إفريقيا ، مما يدل على أن كل شىء كان موضع بحث وتفكير ! وفى اللحظة التى ينزل فيها الجندى الألمـانى ساحل إفريقيا كان يعطى كتابا صغيراً يحذره أخطـار النساء والرذيلة ، والقذارة والمرض ، والهوامّ والحرارة والماء ، وخيانة الأعراب ، وخواص الجو . ثم إنك تجد فى مخازن المعسكر ما شئت من أصناف الطعام المسحوق وأقراص الفيتامين ، والأقراص المجددة للنشاط ، وماء غسل الفم والعين ، ومطهرات المـاء ومساحيق الحشرات . وتجد فى رسائلهم الواردة من أهلهم فى ألمانيا كل عبارات العطف على الجنود المساكين الذين يعيشون فى هذا المكان الفظيع ، وفى الخطابات المرسلة من الجنود كل عبارات الشكوى والحنين إلى خضرة شمال أوروبا .. على أنه إذا كانت البروباجندا البريطانية قد صدقت فيما زعمت من أن الألمان يكرهون الصحراء ، فإن البريطانيين أخطأوا فى ظنهم أن الألمـان – من أجل هذا – سوف لا يبلون بلاء حسنا فى القتال . لقد مزج الألمان البروباجندا والنظام والتدريب والتهذيب ، ثم أخرجوا من كل ذلك جيشاً صحراوياً حسن القتال . ومن الخطأ وقصر النظر أن يُدَّعى غير هذا .. »

(يتبع) محمد خلف الله

دانتى

١٢٦٥ — ١٣٢١

فى أحد شوارع مدينة « رافنا » ، مدينة المبعدين والمنفيين ، وفى إحدى الكنائس الصغرى يقوم نصب تذكارى منقوش عليه الكلمات الآتيه :

« هنا أرقد ، أنا دانتى ، المبعد عن شواطئ موطنى » !

وقد رقد هناك نيفاً وستمائة عام . ولما طلب أهل فلورنسا — حيث شواطئ موطنه — أن تعاد لهم رفاته ، لم يلب شعب « رافنا » الطلب ، ولم يجيبوا الدعاء ؛ ذلك لأن أهل فلورنسا كانوا فيه من الزاهدين يوم كان حيًّا ، وكانوا عن عظمته من الغافلين .

وقد قال بعضهم فى صدد غفلة أهل الجيل عن عظمة عظمائهم : « إذا تقدم العظيم زمنه بضع خطوات تبعه قومه ، أما إذا تقدم زمنه ألف خطوة عميت عنه عيونهم ، ففاتت عنهم عظمته » . وكان هذا حال دانتى مع قومه ، فهو بينهم نكرة من النكرات يدعى : دانتى « اليجيرى من أهل فلورنسا » ! وكان خاملاً مجهول الذكر فى تلك المدينة ذات الشوارع المظلمة المتعرجة ، اللاتى بقصور النبلاء ، والتى تكثر فيها الكنائس والبيع بأجراسها التى لا ينقطع رنينها ، كما تكثر بين أهلها العداوة والشحناء .

وكانت عائلة دانتى من عائلات الأوساط ، وكان له — أيام صباه — نصيبه فى القصف واللهو ، كما كان له نصيبه فى الحرب ثم فى السياسة .

وقد شهر بالأدب ، وبأن له بضع قصائد بليغة ، وهذا كل ما ظفر به من تقدير أهل زمانه ! !

وكانت الفئة القليلة ممن يعرفون قدره ، يرون فيه الرجل المحمود المآثر والمأثور المحامد ، يوم كان فى غض الإهاب ، رضى الأخلاق ، ويوم كان جنديًّا ، ويوم كان يشارك فى دنيا المباهج ويسامر ، ثم يوم تزوج ، ثم يوم مسته نار الأحداث السياسية .

أما مَن عرفوه يوم عضه الفقر بنابه ، ويوم غاضت بشاشته وطوى بساط أنسه ، ويوم أصبح يهيم على وجهه يشكو الزمان ويضرب الأمثال ، فقد رأوا فيه الرجل المهين الذليل .

وعلى الرغم من هذا ، فقد كان كل ما يملأ جوانب مخيلة هذا الحالم العابس ، هو أن يصور عقيدته الروحية صورة خالدة تبقى على الزمن !

وقد عمل على بلوغ غرضه بذكاء يكاد يرقى إلى درجة الإلهام ، مستعيناً بعلوم عصره ، غير عابئ بعوائق التقاليد وقيود اللاهوت ، « وقد ملأ قصيده بالتأملات الفلسفية » .

ولم تكن الصورة التى يطمح إلى تصويرها صورة يوم مضى أو يوم يجىء ، وإنما هى صورة الآمال غير المستقرة ، بل هى صورة الخوف فى مختلف ألوانه ، وآمال الروح الإنسانية فى شتى أشكالها ؛ وفيها تتجسد كل الانفعالات والأحاسيس ، وفيها يتجسم العقاب والكره ، وفيها تتمثل التوبة والندم .

ويرى كاتب المقال فى لغته الأصلية أن الصورة التى صورها دانتى « المطهر » والجحيم والجنة هى صورة واضحة ، وأنها تذكره بإحدى رباعيات عمر الخيام الشاعر الفارسى التى يقول فيها :

إنى أرسلت روحى آنفا ... فى دياجى الغيب كيما أكشفا
غامضاً من عالم الخلد اختفى ... فانثنى روحى وقالت إنما
أنا فردوس صفا . نار انتقام

(وهذه الرباعية منقوله من كتاب « رباعيات عمر

الخيام » المرحوم الكاتب الأديب محمد السباعى)

ولكى نحسن فهم الجانب غير الدينى من قصيدة دانتى ، يجب علينا أن نستقرئ أحوال الدنيا يوم كان دانتى من أبناء الدنيا وقطانها .

فقد كان العالم يومئذ عالما ضيق الرقعة محدود المساحة ، مثله كمثل إناء مقلوب ، يحده من الأفق مدى ضيق ، والشمس والقمر والنجوم تدور حوله كعوالم تؤدى عملا إضافيا . والنظرية العلمية القائلة إن الأرض تدور حول الشمس ، وإن الأرض جزء صغير من عالم لا نهاية له ، لم تكن قد عرفت بعد .

وكانت جمهوريات سينيا وبيزا وجنوه والبندقية — فى نظر شعب فلورنسا — هى كل ممالك الأرض .

أما الخصام والجدل فكان مدارهما النزاع بين أنصار البابا ومخالفيه . وكان أنصار البابا — ودانتى منهم — يمثلون جماعة الأحرار من الطبقة الوسطى للشعب ، حيث كان هدفهم أن تكون إيطاليا دولة مستقلة تحت حكم البابا ؛ أما مخالفوهم فى الرأى فكانوا يمثلون حزب الأمراء الأقوياء ومن لف لفهم من النبلاء ، الذين كانوا — إبقاء على مالهم من امتيازات — ضالعين مع الإمبراطور .

ثم انقسم أنصار البابا إلى قسمين : البيض والسود . وقد كانت العداوة والبغضاء بينهم لا تقل شدة وضراوة عن عداوتهم لخصومهم من الحزب المخالف .

إلى هذا الدرك الأدنى من الخصومة واللجاج انحدر الحزبان ، حتى إن السود استصرخوا البابا أن يجعل من شارل أوف فالوا (١٢٧٠ — ١٣٢٥) نائباً له وممثلا .

أما البيض — ومنهم دانتى — فقد أدت بهم الخصومة والمرام إلى أن يعارضوا فى كلتا الزعامتين : زعامة البابا وزعامة شارل .

وكان الفوز حليف السود . واستتبع هذا الفوز إقصاء دانتى عن كل عمل حكومى ، ثم الحكم عليه وعلى أصحابه بالنفى ؛ فقضى حياته بين البؤس والتشريد ، وصودرت أملاكه ، وحاول أن يستعيد مكانته فلم يفلح ، بل ازدادت الحال سوءاً . وهناك فى أضابير قسم المحفوظات بفلورنسا حكم يقضى بحرق دانتى حيًّا أينما وجد ! فكان رجلا لا مأوى له ، وكان طعم النفى عنده كأنه نقيع الحنظل .

واتخذ له حماة يعيش فى كنفهم عيش السؤال ، وكان يشكو مرّ الشكوى مما رماه به القدر .

أما نحن فلا يحق لنا أن نجزع مما ناله من بؤس وتشريد . فلو سارت الأمور وفق ما يهوى لما زاد دانتى عن أن يكون عمدة لمدينته ، وصاحب زوجة ورب عائلة ، ولنسى حبه الأكبر أيام شبابه فى شخص بياتريس التى تزوجت رجلا آخر .

أما وقد سارت الأمور وفق ما قدر لها ، فإن العيش المرّ والاغتراب المضنى ، والبغض الذى طوى عليه أحناء صدره لهذا العالم الجاحد للجميل ، كل أولئك قد استحال عنده وقوداً للرؤيا :

وفى هذه الرؤيا كان عالم الخلود الذى صوره بشعره الصوفى العميق هو الحقيقة ولا حقيقة سواه .

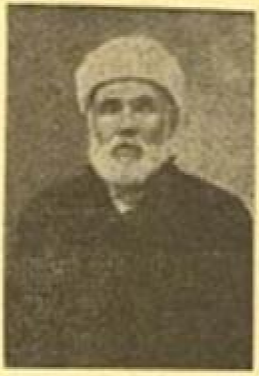
وكانت قمم هذا العالم وسفوحه ، وعذابه وثوابه ، كانت كلها حقائق ملموسة كأنها أوصاف لما يشاهده فى الحياة الدنيا .

وفى هذه الرؤيا استحالت حياته المادية إلى حياة روحانية . واستحالت معبودة فؤاده بياتريس — تلك المرأة الطفلة التى أحبها ثم أضاعها — روحا للعتاب الرقيق وللندم الصحيح . والشعر الذى جمله وقفاً عليها هو بلا مراء أنقى وأصدق ما جاء به خيال شاعر محب ملهم .

وقد رسم — فى قصيده — بريشة الفنان البارع وخيال الشاعر المبدع شعب بلاده ، وقص قصصهم . فهذا

الرحالة المسلم الكبير

الشيخ عبد الرشيد إبراهيم



ورد إلينا من استانبول نعي الشيخ عبد الرشيد إبراهيم الرحالة العظيم في العصر الأخير. توفي إلى رحمة الله في ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٤ بطوكيو عاصمة اليابان، حيث كان يعمل فيها على نشر الإسلام منذ سنة ١٩٣٢.

ولد الشيخ عبد الرشيد بمدينة تارا في سيبريا سنة ١٨٤٦، وتلقى مبادئ العلوم في المدارس الإسلامية في روسيا؛ ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره سافر إلى الحجاز ليتضلع في العلوم العربية والدينية وظل فيها نحو عشرين عاما. وصادف بعد هذه السنين العشرين الطويلة، أن جاء نصر الدين آبتكين إلى الحجاز لإقامة فريضة الحج، وهو من أغنياء سيبريا المشهورين ومن مواطني الشيخ عبد الرشيد، فأخذه معه إلى سيبريا وأسس له مدرسة بمدينة تارا؛ ولم تمض إلا سنون قليلة حتى ذاع صيته في سيبريا، فبلغ محكمة أورنبورج الشرعية التي بمدينة أوفا، وهي المحكمة الشرعية الوحيدة لمسلمي روسيا الشمالية، أنشأتها المليكة كاترينا الثانية لغاية سياسية سنة ١٧٨٧ م، فانتخب قاضيا فيها سنة ١٨٩١.

شغل منصب القضاء نحو سنتين، وقام بوكالة الإفتاء نحو ثمانية أشهر أثناء تغيب المفتي محمد يار سلطانف لأداء فريضة الحج. وما أن عاد المفتي من الحجاز حتى استقال الشيخ

القصة الخالدة، قصة باولو وفرنسيسكا، وهي قصة كأنها حكيت من أشعة قوس قزح على رقعة من سواد؛ وهنا مأساة «اجولينو» وقد أصابه — وأطفاله معه — سعار من الجوع وهو في السجن يرسف في قيوده؛ وهناك الطغاة وأصحاب الصولة في زمنه، ومنهم البابا بونيفاش، ذلك الرجل العجوز الحانق الخلقة الذي ظل على كرسيه ثلاثة أيام لا يبدي حراكا، بينما أعداؤه واقفون ببابه يتنفضون من الغضب؛ وهنا أصحاب الخطيئة، وهنا البررة الأطهار؛ وهنا القصاص وهنا العقاب. وأنى توجهت فإنك ملاق صورة مزدوجة للأمل المريض والحزن الممض، وأن أنفاساً رقيقة من التوبة تذهب صعداً إلى عرش الرحمن الرحيم..

ومهما أوتي المرء من بلاغة فليس بقادر على أن يجيء بوصف شامل أو وصف مقارب لهذا الشعر البالغ غاية السمو.

وكان من عادة نساء رافنا — كلما مرّ بهم دانتي — أن يشرن إليه ويتهامسن قائلات: «هذا هو الرجل الذي نزل إلى أعماق الجحيم»! وإذا علمنا أن «دانتي» لم تزعزعه الحوادث ولم تلن قناته للنائبات، بل سما بنفسه واتخذ من الشدائد دروعا، فصفت روحه وخلف للأجيال بعده هذا التراث الخالد؛ إذا علمنا هذا كان حتما علينا أن نسلكه في عداد الأبطال الخالدين فقد اتخذ من دم قلبه مداداً لكلمات كتابه الذي أودعه تاريخ حياته.

وقد كانت حياته الفانية قصيرة، إذ مات في السادسة والخمسين. وقد أخذه حزن تنقضّ منه الجوانح. ولكن الذي لا شك فيه ولا ريب أنه كان الموسيقي الخالد الذي سجل بأنغامه ما مرّ بالقرون الوسطى من آراء وأفكار.

من الأميرية — مبارك ابراهيم

عبد الرشيد من القضاء، لاطلاعه في هذه المحكمة على نيات حكومة القياصرة الخفية نحو المسلمين. فسافر إلى استانبول، وطبع فيها، بطريقة خفية، رسالة في نقد السياسة الروسية مع المسلمين، ونشرها في مسلمي الروسيا بطريقة خفية أيضا.

والشيخ عبد الرشيد من أوائل مسلمي روسيا الذين شعروا بحاجة ملحة إلى الجرائد والصحف في السنين الأخيرة من القرن الماضي وأوائل القرن العشرين، وكانت دولة القياصرة تمنع ذلك بكل الوسائل، فسافر إلى بطرسبورج واستطاع أن يستخرج رخصة بإصدار رسائل موقوتة؛ وكانت الغاية منها الوصول إلى نشر ما يشبه الجرائد. فجمع حوله جماعة من مثقفي عصره، وأصدر باللغة التركية القازانية رسالة بعنوان: «ألفت»، ورسالة أخرى بعنوان: «المرآة»، وثالثة بعنوان: «فرياد» (صيحة). وفي الوقت نفسه أصدر باللغة العربية رسائل عنوانها: «التلميذ». وكانت هذه الرسائل تقوم مقام الصحف اليومية في ذلك العهد، ولا تكاد تصدر حتى تتلقفها الأيدي وتختفي من السوق.

ولما نال المسلمون قسطا من الحرية بعد سنة ١٩٠٥ على أثر انهزام الروس أمام اليابان، ووجد من المسلمين كتاب يقومون بشؤون الصحف اليومية والمجلات، رأى الشيخ عبد الرشيد أن يقوم بالرحلات في البلاد الإسلامية واليابان التي لبث يفكر نحو نصف قرن في نشر الدين الإسلامي فيها. وسافر في سنة ١٩٠٧ إلى تركستان وسيبريا وبلاد المغول ومنشوريا، وبلاد اليابان وكوريا، والصين وسنغافورة، وجزائر ما وراء الهند والهند وبلاد العرب. ولما عاد من أسفاره الطويلة إلى الآستانة سنة ١٩٠٩ كان الحكم قد تغير فيها، فنشر رحلاته في مجلدين كبيرين بعنوان: «عالم إسلام» واشتغل بالتحرير في مجلتي «معلومات» و «صراط مستقيم» العلميتين.

وكان الشيخ عبد الرشيد جم النشاط، قوي البنية وقوي الإيمان بمستقبل الإسلام والمسلمين؛ وكان له شأن في سياسة مسلمي روسيا، وقد دافع عنهم في كل المناسبات والظروف، وله مواقف مع حكومة الاتحاد والترقي في استانبول. وقد اشترك مع أنور ورفاقه في حرب طرابلس. ولما قامت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ذهب إلى جبهة القوقاز مع الجيش العثماني، ثم أرسل إلى ألمانيا للاتصال بأسرى المسلمين فيها، فأرسل منهم طوابير إلى تركيا. ولما سقطت الدولة الروسية القيصرية سنة ١٩١٧ شرع المسلمون في السعي للحصول على الاستقلال، وعقدوا مؤتمرا عاما في مدينة أوفا سنة ١٩١٨، وكان الشيخ عبد الرشيد في برلين، وأراد الاشتراك في ذلك المؤتمر الذي انتظره سنين طويلة، ولم يجد وسيلة للمواصلات إلا قاطرة ذاهبة إلى كييف لأمر خاص فسافر فيها واشترك في المؤتمر.

وكانت له رغبة ملحة في نشر الإسلام في بلاد اليابان، وقد زارها منذ ٣٥ عاما، واتخذ له أصدقاء من عظماء اليابانيين، ثم سافر إليها منذ اثنتي عشرة سنة ليتم ما بدأه من الدعاية للإسلام في أوائل هذا القرن، ولم ينقطع عن الدعوة للإسلام حتى نفسه الأخير. وكان من أخص آماله بناء مسجد في طوكيو، وقد عُدَّ رأيه هذا كثيراً لبعده عن أذهان كثير من الناس؛ ولكن الله استجاب دعوته ومدّ في عمره، فلم يمت إلا بعد أن رأى مسجدين عظيمين في مدينتين عظيمتين من المدن اليابانية.

وإذ نكتب هذه النبذة عن حياة الفقيد الطويلة المفعمة بخدمات الإسلام، نقدم أصدق عزائنا لأصدقائه من الأمراء والعظماء والعلماء، وهم كثيرون في جميع البلاد.

وندعو الله سبحانه أن يتغمده برحمته وغفرانه.

حمزة طاهر

في معرض الطبائع الآدمية :

المُشَوَّه...!

(مهداة للدكتور أحمد زكي بك بمناسبة مقاله عن بي النازية نقده)

مات صديق الفكر الخالص ، المشوه الخلقة ، المحروم من الجاه والثروة ، الموهوب من الحكمة وصدق الإحساس ، فتحررت أفكاره العظيمة من شخصه الضعيف وجاهه المغمور ، وانقطعت الصلة بين الكاتب الضئيل والمكتوب العظيم ، وابتدأت كلماته تدب فيها الروح ، وتبرز مستعلة بهيئتها المجردة من هلهلات ملابسه وسقم جسمه ومهانة فقره !

وكان يدرك ما يجول بخواطر الناس عنه حين يغشى مجالسهم ويحتك بهم من الاستصغار لشأنه ونبو البصر عنه ! فكان يجتهد أن ينأى عنهم ، ويتحرج أن يغشى مجامعهم التي يعرضون فيها أجسامهم الرشيقة ، وملابسهم الأنيقة ، وأحاديثهم اللبقة التي يتحدثون فيها من أمانيهم واختباراتهم في علائق الطين والذهب ، وضجيج المخاصمات والمنازعات التي لاتتصل بصميم الحياة ولبابها ، ولا بقدس الفكر وحقائق العلم .

ولم يشأ أن يترك صورة لشخصه ، حتى لايقترن وجهه — وكان دميم الخلقة — بأفكاره وميراثه الروحي ، فتذهب قباحة زيه وهيئته بقداسة فكره ونزاهة حكمته . وقال : أتركها كلمات يتيمة محررة من وجهي وجملة جسدي ، كما تلقيتها كلمات طليقة محررة أتسربت إلى فؤادي موجات عذراء ليس لها نسب إلا ضمير الكون !

وكان فيه (مركبات نقص) كثيرة ، يشعر بها شعوراً عميقاً عصاً فاً .. عصف بزهرة صباه وضحوة شبابه ، إذ كان مبكر الحساسية بذاته وشذوذها عن ذوات أترابه ولداته ! وضاعف من آلام شعوره بشذوذه الجسمي ما كان يلقاه من عبث أولئك الرفاق الصغار به ، وسخريتهم من قامته وخروج خلقته على غير استواء .

وفي قلوب الصغار جبروت وقساوة لا ترحم الضعف أو القبح في حيوان ولا إنسان ، إذا لم يعودوا أن يستقبلوا الدنيا بشيء قليل من فلسفات رحمة النقص والقبح ، لأن القبيح أو الناقص لم يخلق نفسه ، ولم يخير هواه ، ولو خير لاختار وكان المذهب الكامل الجميل .

ولما مضت به السن من بيئة الطفولة العابثة الساخرة بألوان من السخرية الصريحة القاسية ، وأقبلت به على بيئة الشباب الذي عرف من ضروب الحياة ألواناً غير غير ألوان الكمال والجمال ، وعرف من آداب الاجتماع أنواع المجاملة والمصانعة التي قد تخفي من الرحمة والرثاء أو الهزء المقنع والسخر المبرقع ، أقسى أنواع الإيذاء على النفس الحساسة الشاعرة بنقصها بين الكاملين ... أيقن أنه لا قبل له بزحمة الاجتماع ، ولا احتمال منه لصدمته وقسوته ! فأخذ يرتد عن موارد الحياة الاجتماعية ، وانحاز إلى نفسه وحدها ، وانطوى عليها في صبر وسكينة وبراءة صدر من ذلك الغل والحقد الذي يعتري كثيراً من الناقصين ، حين يطاردهم زحام الكاملين القادرين الذين سلحوا بالغفلة أو بالفجور أو بالاقتحام أو بالثروة أو بالجاه ، فينقلبوا إلى أبواق سخط وبؤر تشاؤم ومصادر إجرام ، ليحصلوا ما فاتهم الحصول عليه من طريق السباق الشريف والمواهب القادرة ، أو ليحموا المتاع الذي لم ينالوا منه شيئاً ونال منه غيرهم أي منال !

قلت له مرة : — « يا كمال — وكان هذا اسمه ! وكأنه كان من تمام سخرية الظروف به — إنك لاتصلح لجد الحياة وصرامتها التي أخذت بها نفسك ، لأن للجد والصرامة أدوات مادية من السمت والقامة والقوة تكون إطاراً لازماً لمعانيها ، وليس لك من ذلك شيء !

وإنما أراك تصلح لعبث الحيـاة وبحبوحاتها وأضاحيكها التي تفرّج عنك ضيق ذلك الجد الذي حبست فيه نفسك، وتفرج فن الناس حين يرون منك الاعتراف بنقصك، واستغلالك إياه في العبث بالحياة والناس وبنفسك ... أو يكون هذا مع الأقل وسيلتك الإيجابية لإثبات وجودك في هـذا المجتمع الذي يصيح فيه كل شخص لإثبات شخصه والإعلان عن ذاتيته » ؟!

فقال : « نعم ، منذ طفولتنا برغم نقصي تعشقت الكمال وهِمتُ به ، وأنا أعلم أني لا أمثله ، وأن الأرْوَح لي وللناس أن أرسل نفسي على سجيتها، فأعترف بعجزها ونقصها ، وأستخدمها في فن الضحك والتضحيك على الأقل ، وأعلم أني حينئذ أكون قريباً إلى قلوب الناس حين أرضى إحساسهم بكمال شخصياتهم بمشاهدتها بنقص شخصيتي . ولكني من أجل عشق الكمال وشدة شوق إليه تمسكت بالسبب الوحيد الذي أتيح لي منه ، وهو هذه السكينة وهذه العزلة النفسية ، وهذا الرضا المستسلم بالواقع المقسوم لي من حظ الدنيا ، وهو الفكر المخلص الذي يرصد الحياة والناس بعين غريب عن الحياة والناس . وإنك لاتدرى ما أهتدى إليه من فجوات لا يهتدى إليها المغمورون بضجة الحياة القادرون على الخوض في زحامها . ودائماً يلقط الضعيف ما فات القوى ، وكثيراً ما يفوت ! فالقوى دائماً مشغول بعنف نفسه وكثرة ما يحصله من مظاهر الحياة عن الاشتغال بما تحت الظاهر . والضعف يسبب للضعيف الذكي يقظتـه إلى ما يفعله القوى وما يتركه ، ويجعله يظفر بالحق المغمور في دنيا القوة . والتجربة دلت على أن الضعفاء ، أو الذين فيهم « مركب نقص » هم دائما خدام الحياة ، وموطدو الاجتماع على أساس الحق والواجب ، والرحمة والعدالة .

وصمت قليلا ثم رفع إلىّ عينيه المنطفئتين ، وقد رأيت فيهما بريقا لم أعهده من قبل ، وقال : إن الحياة مدينة لنا نحن الناقصين بأعظم نصيب . وإن الأقوياء المدلّين بقدرتهم على الخوض في معترك الحيـاة لايدركون أن « مركب النقص » أعظم عامل في حمل أصحابه على الإنتاج ومتابعة خطوات الكمال الحضارى والخُلـُق .. لأن الفاقد يدرك لذة الواجد وَحَـوْلها هالة من أحلام الحرمان . . ولأن الناقص يكمل الحياة بإرهاف حسه بالفجوات التي في حياته وحياة الناس ، ويزيد عليها مالم يستطع أن يحققه في نفسه . والاستعراض التاريخي لمن كملوا الحياة من العلماء والحكماء والصالحين يكفي أن يقيم الدليل على على تلك الدعوى . فقد كان دائماً الرواد في الخلق والسلوك والعمل والإنتاج هم من يشعرون بعدم القدرة على الخوض في معترك مظاهر الحيـاة مع الأقوياء المسلحين بأدوات القدرة على الزحام ! ثم قال : من أجل ذلك تحملت العزلة والحرمان من المتاع بالناس ، لأفكر في وضعى ووضع أمثالي ، ولأذود قسوة الجاهلين عن الضعفاء والشاذين ، ولأحاول إحداث انقلاب في نظرة أولئك لهؤلاء حتى يروا أنهم شركاؤهم في خدمة الحياة شركة متساوية ، وأنهم حتى ولو كان شذوذهم وضعفهم عن غباوة وتخلف ذهن هم وحدات من الإنسانية لاغنى عنها ، وأن للغباوة عبقرية كعبقرية الذكاء !! هي عبقرية الصبر والاحتمال والقيام بتوافه الأعمال التي لا غنى للحياة عنها ، والسير في الحياة في ذهول وغفلات وقدرة على تقبّل العمل الرتيب المكرور في غير سأم ولا ملال .

فلئن كان للذكى فضل السبق إلى كشف واحات جديدة في الحيـاة ، وفضل إضافة ما ليس منها أو تنقيح ما يستحق التنقيح فيها ، فللغبى فضل عظيم في احتمال واقع الحياة بدون تذمر ، وعدم تطلع إلى شيء غير ما كان ، وفي التعبد للحياة والتعلق بها ..

وله كذلك فضل الرضا بما يكلفه فيهـا من عمل ضرورى حقير كالكنس والكسح والخدمة وما إليها .

وإلى أتخيل الحياة خالية من المحدودين فى آمالهم وعقولهم ، فأراها حينئذ سعيراً محتدماً بين الأذكياء القادرين الذين يتطلعون جميعاً إلى السيطرة فى السيادة ، ولديهم وسائل الخديعة والغلبة ، وفيهم الحسد والقلق والحقد والنفاق ، والجرأة والاقتحام . ! فالذكى دائماً منتقض على الحاضر ، يحاول أن يغير ما يحيط به ، ويخلق لنفسه عالماً آخر يكون هو وحده رأسه وغيره الذُّنابَى . . وإن الذئب أذكى من الحمار والشاة ، ولكن شتان بين نفعهما الحياة ، وإضراره بها ! ولذلك أهدرت الحياة ذكاءه وطاردته ؛ شأنها مع كل ذكاء بارع يعتدى على قوانينها فى سبيل غاية شخصية ، لأن الذى يهدم دعامة بيت ليستعملها أرجوحة مُزَوَّقة يتمتع بها ، يجب عقابه وإهداره مهما كان عظيم الصناعة بارع الافتنان . . وقد ثبت أن عالم الذكاء الإنسانى يشتط كثيراً فى الخروج عن نطاق الطبيعة وحدودها ، ويأتى بأشياء غريبة عنها ؛ فواجبٌ الاحتراس منه !

وأغلب ذكاء أذكيائنا القادرين وعلومهم كذكاء الثعابين والذئاب : لا رحمة معه ، ولا خلق ولا شعور بالمسئولية الاجتماعية ، ولا بالمعانى السامية التى تحمل على العطف والتواضع ورحمة النقص وتقدير حياة الأقل ذكاء وقدرة . فكلهم يخاتل ولا يخلص للجماعة ، لأنه لم يشعر بالجسم الاجتماعى الواحد ، ولم يؤمن بديانة الجنس .

إن الأولى أن نعتقد أن الحياة الاجتماعية مبادلة بين القادرين الأذكياء والعاجزين الأغبياء . . فلقد أخذ الآخرون من الأولين عبقرية الفكر وانتفعوا بها . . وقد أخذ الأولون من الآخرين عبقرية الصبر والاحتمال والعمل وانتفعوا بها كذلك لتحقيق أفكارهم وأحلامهم . . وأكثر من ذلك : أخذوا منهم غفلتهم ونقائص خلقتهم وصيروها « قفشات » وتهريجات وأضاحيك أوسعت مدى أفراحهم ومباهجهم ومسلاتهم !

ثم قال : تلك هى التعزية عن حياتى وحياة أمثالى من الذين خرجوا على غير استواء . . جنت عليهم الجهالة القديمة ، وأوشكت الثقافات والتأملات الحديثة أن تنصفهم وتضعهم مواضعهم فى خدمة الحياة مع خدمات القادرين الكاملين . . ولولا ضعف قوتى وعوائق على الناس ، وقلة أدواتى السادية للدعاية بين الجماهير لهذه المعانى ، لصدعت بها دعوة إلى تكريم كل كائن بشرى والعناية به ، وتفهم الحكمة فيه مهما بدا به من نقص ظاهرى ؛ فليس المهم أن يكون المرء تاجاً على رأس الإنسانية ، وإنما المهم أن يكون نافعاً ولو كان نَعْلاً لها !

***

استمعت فى عجب إلى هذا الحديث الصادق الذى ملك علىّ منافذ السمع ، ودوّى فى فؤادى ، ووجه فكرى لبعض أسرار الإنسان ، وجعلنى وأنا من « وحدات » الإنسان العادى الذى لا يشعر بنقص أو يخيل إليه بذلك — أتضاءل أمام هذا الذى ينْبُو عنه نظر أكثر الناس ازدراء له وتهويناً من شأنه ، وتذكرت به لُباب الإنسانية الذى ضيعه وأخطأه الناس وراحوا يبحثون عن القشور المزوقة ، ويقيسون المرء بعرضه وطوله ، ولونه وثيابه ، مغفلين وزنه بمن أصغريه : قلبه ولسانه . .

ثم قلت له : لقد كنت أرثى لبعض الرثاء لك ولأمثالك ممن أخطأهم حظ كمال الأجسام وأصابوا من كمال الفكر والروح . . ولعلى الآن أرثى لنفسى وأمثالى ممن لا يفقهون شيئاً من أسرار الحياة ، ولا يبقى منهم شىء حين يُشَرَّحُ لهم فى القبور التى يستوى لديها جسم العملاق وجسم القمىء ، والوجه الجميل المصقول والوجه المقبوح المجدور الممسوخ ، ولا يستعصى على ظلماتها إلا نور الفكر والروح اللذين ليسا مما يحمل إلى القبور ، وإنما يخلدان فى الأفئدة والصحف والسطور !

فقال : لا ترث لى ولا ترث لأمثالك . . فإنما نحن جميعاً

حافظيــــة

لم تنشر فى الديوان

قال المرحوم حافظ بك إبراهيم يرثى المرحوم أحمد حشمت باشا :

حبس اللسانَ وأطلق الدمعا … ناعٍ أصمَّ بنعيك السمعا
لك منةٌ قد طوّقت عنقى … ما إن أريغ لطوقها نزعا
مات الإمامُ وكان لى كنفاً … وقضيت أنت وكنت لى درعا
فليشمت الحسّادُ فى رجل … أمست مُناه وأصبحت صرعى
ولتحمل الأيامُ حملتها … ناض المعين وأجدب المرعى
إنى أرى من بعدهِ تسلُّلاً … بيد العلا ، وبأنفها جدعا
وأرى الندى مستوحشاً قلقاً … وأرى المروءة أقفرت ربعا
قد كان فى الدنيا أبو حسنٍ … يولى الجميلَ ، ويحسن الصنعا
إن جاء ذو جاهٍ بمحمدةٍ … وترآ شآهُ بمثلها شفعا
فإذا نظرتَ إلى أنامله … تندى حسبت بكفه ينبعا
سَلْنى فإنى من صنائعه … وسل المعارف ، كم جنت نفعا
قد أخصبت أم اللغات به … خصباً أدرّ لأهلها الضرعا
تالله لولا أن يقال أتى … بدعا لطفتُ بقبره سبعا
قد ضقت ذرعاً بالحياة ومن … يفقد أحبته يضق ذرعا
وغدوت فى بلد تكنفنى … فيه الشرور ولا أرى دفعا
كم من صديق لى يحاسننى … وكأنّ تحت ثيابه أفعى
يسعى فيخفى لين ملمسه … عنّى مسارب حيّة تسعى
كم حاولتْ هدمى معاولهمْ … وأبى الإله فزادنى رفعا
أصبحت فرداً لا يناصرنى … غير البيان ، وأصبحوا جمعا
ومناهمُ أن يحطموا بيدى … قلماً أثارَ عليهمُ النقعا
ولربَّ حرٍّ عابهُ نفرٌ … لا يصلحون لنعله شسعا
من ذا يواسينى ويكلؤنى … فى هـذه الدنيا ومن يرعى
لا جاه يحمينى ولا مددٌ … عنى يرد الكيد والقذعا
بك كنت أدفع كل عادية … وأجيب فى الجُلَّى إذا أدعى
وأقيل عثرة كل مبتئس … وأفى الحقوق وأنجح المسعى
حتى نعى الناعى أبا حسنٍ … فوددت لو كنت الذى يُنعى
غيظ العداة فحاولوا سفهاً … منهم ، لحبل ودادنا قطعا
راموا له بتّا — وقد جهلوا … طمعاً — فكان لوصله أدعى

● ● ●

يا دوحة للبر قد نشرت … فى كل صالحة لها فرعا
ومنارة للفضل قد رفعت … فوق الكنانة ، نورها شعّا
ومثابة للرزق ، أعهدها … ماردٌ مسكينا ولا دعّا
إنى رثيتك والأسى جلل … والحزن يصدع مهجتى صدعا
لا غرو إن قصّرت فيك فقد … جل المصاب ، وجاوز الوسعا
سأفيك حقك فى الرثاء كما … ترضى إذا لم تقدر الرجعى

(حافظ)

تمثل « رواية » الحياة التى لا بد فيها من اختلاف شخصيات التمثيل وأنواع الأدوار ، حتى لا تكون الرواية حديث شخص واحد ، وموقف ممثل واحد يتكرر تكرير الرقم الواحد فى الملايين . .

لا رثاء . . وإنما فهمٌ وتفاهم وتبادل تقدير ، وتساوى نظرات من الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، إن صح أن فينا أعلى وأدنى . . وتلك حدود ديانة الجنس . . »

● ● ●

لقد مضى الجنس الناقص ، وخلف هذا الكلام الكامل . . ولا عجب فالنحل وهو ذباب يخلف الشهد المصفى . . . وقد أحسن حين لم يترك صورة « الصدفة » الحسية حتى لا تجنى على « اللؤلؤة » النفيسة ، بل تركها دُرّةً عذراء ، ليس لها نسبٌ إلا جيدُ الغادة الحسناء المشوقة : الإنسانية !

عبد المنعم خفوف

رد على تعقيب

فى مساء الخميس ٢٢ نوفبر سنة ١٩٢٨ ، ألقى الأستاذ الفاضل مصطفى منير أدهم بدار الجمعية الجغرافية الملكية محاضرة قيمة عن « رحلة الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى مصر » — وقد سمع هذه المحاضرة جمهرة من أهل الفضل والعلم والأدب ، فشهدوا للمحاضر بفضله وعلمه وأدبه . وتبرع فضيلة الشيخ عبد الرحيم الدمرداش باشا بنفقات طبع هذه المحاضرة تلبية لطالب المستمعين الذين أعجبوا بها . فطبعت فى سنة ١٩٣٠ .

كل هذه الملابسات كان لها شأنها فى اعتبار تلك المحاضرة من المصادر التى يصح الوثوق بما فيها من بيانات .

وقد كانت هذه المحاضرة أمامى ، وأنا أكتب كلمتى التى نشرتها « الثقافة » تحت عنوان : « حافظة إمام » بالعدد ٣٠٣ . وقد حرصت منذ بداية المقال على أن أشير إلى مرجعى فيه فقلت :

« إلى الأستاذ الفاضل مصطفى منير أدهم يرجع الفضل فيما تحويه هذه الكلمة من بيان » .

وإلى هنا وكل شىء يسير سيره الطبيعى ...

ثم ظهر العدد ٣٠٦ من « الثقافة » وبه كلمة بتوقيع م . م . ا . عنوانها « نقطة تاريخية » ، لاحظ فيها كاتبها المحقق أن القصة المنسوبة إلى الإمام أحمد بن حنبل من أنه زار مكة ، ودخل المسجد الحرام فوجد الشافعى وهو فى الخامسة عشرة يقرأ للناس حديث رسول الله — لاحظ حضرته أن هذه القصة تحتاج إلى تصحيح ؟ لأن الإمام الشافعى ولد فى سنة ١٥٠ هـ ، فهو يكون قد بلغ الخامسة عشرة من عمره فى سنة ١٦٥ هـ . ولما كان الإمام أحمد بن حنبل قد ولد فى سنة ١٦٤ ، فلا يصدق أنه ذهب لأداء فريضة الحج وسنه سنة واحدة ....

وإلى هنا أيضاً وكل شىء مازال يسير سيره الطبيعى ...

فإن الملاحظة فى محلها . والقصة المذكورة لابد أن تكون قد وضعت وضعاً لإضافة مجد جديد إلى ما كان للشافعى من أمجاد كثيرة . ودليل وضعها مقارنة هذه التواريخ الثابتة بعضها ببعض . والتصحيح العلمى لاغضاضة فيه ، بل إن طالب العلم لينتشط بأمثال هذه الملاحظة الرشيدة اغتباط الرجل الرياضى الذى يكسب منه زميله نقطة فيقوم لمصافحته إعجابا بمهارته فى اللعب !

ولقد تولانى مثل هذا الشعور فعلا عقب فراغى من تلاوة هذه الملاحظة القيمة . وأحببت أن أقول لصاحبها : «أشكرك !» وفى نفس الوقت لم يسترح ضميرى إلى أن أترك الأستاذ مصطفى منير أدهم دون أن أشركه معى فى هذا الكسب الجديد ، لعله أن يفكر فى إعادة طبع محاضرته هو أو من يقيضه الله لها من أهل الفضل فيتدارك هذا الخطأ فى طبعته الجديدة .

وإلى هنا أيضاً — والمرة الثالثة — وتزداد الأمور توفيقا فى أن تسير سيرها الطبيعى ...

ولكنى عندما أمسكت بقلمى لأكتب الرسالتين ، وجدت أنى سأكتب إحداها باسم الأستاذ : م . . مصطفى م . . نير أ . . دهم ، والأخرى باسم م . م . ا ! فتوقفت . ذلك بأن الأمور بدت كأنها تسير فى غير سيرها الطبيعى ! إذ هل من الممكن مثلا أن يكون الأستاذ م . م . ا هو نفس الأستاذ مصطفى منير أدهم ؟ اللهم إن هذا بعيد . فإن لم يكن بعيداً فاجعله اللهم بعيداً ! إنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب !

ونحن على أية حال فى حاجة إلى سماع رد الأستاذ منير أدهم على الأستاذ م . م . ا ، فأحدهما صاحب الفضل الأول ، والثانى صاحب الفضل الأخير . أما نحن فشأننا معهما مثل الشاعر الذى يقول :

يجود علينا الخيرون بمالهم   ونحن بمال الخيرين نجود

ح ٠ ع

حاشية : حاولت أن أتصل بالأستاذ مصطفى منير أدهم لأستأذنه فى نشر هذه الكلمة فلم أجد له رقماً فى دفتر التلفون ، ولم أجد من يرشدنى إلى مكانه

بين المسموع والمقروء

روزفلت

منذ أيام قضى الشعب الأمريكي فيمن يكون رئيسه في السنوات الأربع المقبلة ، فكان روزفلت . وبهذا تحقق الاستمرار الذي رغبته كل الأمم ، ولم تستطع أن تبس بكلمة عنه خشية القيل والقال — خشية أن يعدّ الشعب الأمريكي ما قد يقال تدخلا في حرية الانتخابات يكون جوابه لاشك انصراف كثير من الناخبين عن روزفلت . فالأمم الحرة أشد ما تكون حساسية لحريةٍ لما ينال منها ، أو تخال أنه قد نيل منها ، ولو بالكلم الغريب ، يقال في البلد الغريب ، ولو قامت دونه البرارى والبحار .

وبانتخاب روزفلت لم يتحقق استمرار رَغبتْه الأمم للحرب ، بل يتحقق كذلك استمرار رغبتْه للسلم القادمة . فالأمم لا تزال تذكر الصدمة الكبرى التي قصمت ظهر النصر الذي كسبه الحلفاء في الحرب العالمية الماضية ، بخروج الرئيس « ولسن » من البيت الأبيض بسقوطه في انتخاب الرئاسة الذي جرى عقب تلك الحرب مباشرة . إذ بخروجه ضاع كسب السلم الماضية ، وضاعت ما رجته الآمال في جامعة الأمم . وانزوت الولايات المتحدة انزواءها المعروف عن مشاكل الدنيا ، فاختذل بذلك أنصار السلام ، واتساقت الفرصة لدعاة الحرب ، وانفتح الباب لأطماع هؤلاء وهؤلاء ، حتى كانت الحرب الحاضرة التي أزلقت إليها الولايات وهي راغمة ، لأنها بعض الدنيا . فعودة روزفلت اليوم قد نفّست من حلفاء الولاياتِ المتحدة خشيةً ضاقت بها صدورهم شهراً كاملا ! فقد ضمنت لهم هذه العودة أملا معقولا في سلام مكسوب ، وضمنت لهم أن أمريكا لن تعتزل عن العالم كما اعتزلت في ماضيها الأليم القريب .

وقد عاد الرئيس روزفلت إلى البيت الأبيض بما بذل له عمّال الولايات من معونة ، وما بذل له رجل الشارع من صوت — رجل الشارع الذي يعبّر عنه الأمريكان « بالرجل الصغير » little man . فأساس انتخابه إذاً ديمقراطيّ . فهو سيتجه بحكم انتخابه ، وبحكم طبعه ، إلى وجهات ديمقراطية ، أغراضاً وأساليب .

روزفلت والصهيونية

ونعلم أنه انصاع لضغط حزبه ، فرضى أن يؤيد حزبُه ما تطلب الصهيونية ؛ وليس هذا من الديمقراطية في شيء . ونعلم أنه لولا ظروف الانتخاب ما انصاع ، فقد كان ما يُرتجى لروزفلت من أصوات ، وما يرتجى منها لخصمه ، متقاربين متلاحقين ، تخشى الأنصار بحق أن يكون صوت اليهود مرجحاً . وبدأ أنصار المستر « ديوى » يستميلون اليهود بتصريحهم المعروف . فلم يكن بد لأنصار روزفلت أن يردّوا التوازن ، والحظوظ متقاربة ، بتصريح كتصريح خصومهم ، وهم إن لم يفعلوا ، إذن لفقدوا الرئاسة ، وفقدوا القيام على دفة السياسة ، وأضاعوا وأضاع العالم معهم شيئاً كثيرا مما يُرتجى على يد الديمقراطية من خير . وهو خير يتضاءل معه وعد يمدونه للصهيونية تحت ضغط الحوادث ، وكذلك يتضاءل إنكاره إذا ما انفرجت الحوادث وانبسطت أساريرها .

إن الصهيونية شهرت مسدسها وصوّبته إلى رأس الديمقراطيين ، وأمرُ رجوعهم إلى البيت الأبيض مشكوكٌ فيه أكبر الشك ، وقالت لهم : وعدٌ لفلسطين منكم وإلا أسقطناكم ! فوعدوا . ولكن والمسدس ذو حشو وذو إصابة ، فهو وعد تحت إكراه ، يزول في ظلّ الأمن ، وفي حماية البوليس ، وفي كنف القانون .

على أنه مَنْ وعد؟ إنه حزب . والحزب في أصوات

رجاله وسطور جرائده وإذاعات أنصاره ، خبيرٌ في دست الحكم .

وعلى أنه فهم وتَعدٌّ وعَددٌ وعُدد ؛ وعدد فيما لا يملك . وهو رأى لأمة إلى جانبها أمم . وهو رأى عن أمة إلى جانبها أمم أنصار حلفاء . وهو رأى سيكون محكّ الديمقراطية التي يتغنى بها اليوم كل إنسان . فإما إنصافٌ فشكرناهم ، وإما غير هذا فعرفناهم .

خُلقٌ عظيم

إن الأمريكان قوم على خلق في السياسة عظيم ، لا يستطيع المرء أن يجمع بينه وبين تلك اللوثة التي لاثوا بها ثوبا لهم عرفه الناس أبيض طاهرا . ولهم كل يوم في مجال المثل جولة ، وفي معرض الجمال صولة ، ولهم في الخلق قدوة .

وهل قدوةٌ كهذا الحديث الذي أذاعه منافس رئيسهم ، المستر ديوى ، بعد أن بان له الخذلان . أذاع على الأثير ، والميل ضارب أطنابه ، يقول للناس ، وقد غلبتهم حتى الانتخاب على ما بأعينهم من نعاس :

« إن الرئيس روزفلت قد انتخب لمرة رابعة ، ولا شك أن كل مواطن صالح يذعن لإرادة الشعب من طواعية . إنى لأتقدم للرئيس روزفلت بتهنئتي الخالصة ، وأدعو الله ، ويدعو معى كل أمريكي ، أن يحفظ الله رئيسنا ويحميه ويهدى خطاه في السنوات العسيرة القادمة » .

خطورة الإعلان

وعلى ذكر الانتخابات الأمريكية نذكر أن أمريكا ، على نقيض إنجلترا ومصر ، بها أكثر من هيئة للإذاعة واحدة . ومحطاتها ، على نقيض مصر وإنجلترا أيضاً ، تأذن بالأعلانات أن تذاع منها ، ومنها الإعلانات التجارية والخطب السياسية . وقد استخدم الرئيس روزفلت هذه المحطات في حملته الحاضرة للرآسة ، وكذلك استخدمها منافسه ، وكان منافسه أكثر استخداما بالطبع لها ، لأنه أكثر قرانا ، فهو ليس يحمل مسئولية الحكم ، وهو ليس يحمل مسئولية الحرب . وقد تنبأ المتنبئون بنجاح « ديوى » ، وقد بنوا هذا على عدد ما حظى به من إذاعات ، وإيمان أهل الرأى في أمريكا بخطورة الإعلان والنشر والإذاعة لا يقاربه إيمانٌ في أمة أخرى . والإعلان من أجل هذا له ثمن في أمريكا لا يقاربه ثمن في أمة أخرى .

الإذاعة تجارة رابحة

حتى الإذاعة عند الأمريكيين بثمن . فالإذاعات فيها ليست للحكومة ، ولكن لبيوت التجارة حرة ، تتخذ من الإذاعة وسيلة لكسب المال . فهى تؤدى إلى الجمهور خدمات ، من تثقيف وتفريح وتفريج ، وموسيقى وأخبار . وهى تؤديها بالمجان . ولكنها تسترد نفقة كل هذا ، وفوق هذه النفقة كثيراً ، من ثمن الإعلان . وهى لهذا تتنافس فيما بينها في تأليف أحسن البرامج ، وفي إغراء أحسن الفنانين وأشهر المتكلمين ، وهى بهذا الطُّعم تصطاد أكبر السمك وأدسمه في بحر التجارة والصناعة والأعمال ، وهو بحر ملىء بالخير والصيد الكثير .

علقم معسول

وقد كان الإعلان دائماً غير محبَّب للسامعين ، لا سيما الإعلان عن معجونة للأسنان أو جلاء للنحاس بين قوم يسمرون ؛ فهو نشازٌ دائما في أسماعهم ، مرٌّ كمرارة العلقم في حلوقهم . ولكنهم يصنعون به ما يصنع الصيدلىُّ بالعلقم ، يغشّيه بالسكر فلا تحس عند البلع بمرارته . وطريقتهم في ذلك أن يأتوا بالإعلان السمين الثمين ، ويأتوا بخير المغنين . ثم يطلقون المغنّى على الهواء يرسل الأنغام إرسالا ، حتى إذا ظنوا أنه ملأ أسماعا ، وحرّك قلوبا ، ولم يُشبع بعدُ ، قطعوا عليه بالإعلان يسمعه الناس غصبا أو رضاء . ثم يعود المغنّى ليصل ما انقطع حتى يُمتع ويُشبع .

والمغنى يأخذ أجرين: أجراً لغنائه، وأجراً لقطع غنائه. وكذلك يأخذ الفنّانون ذو الشهرة الكبيرة من غير أهل الغناء.

وبين يدى الآن أمثلة مما يأخذ هؤلاء الفنّانون أجراً للإذاعة الواحـدة. وهو يتراوح بين ألفين وأربعة آلاف من الجنيهات.

ولـكن كذلك بين يدىّ أمثلة مما يدفع أصحاب الإعلان من ثمن لملقمهم، وهو أضعاف ماتدفعه إدارات الإذاعة للفنانين؛ وهو يزيد ثمنا كلما زاد السكر الذى يقطيه إلى حلوق الناس حلاوة.

والذى جاز ويجوز على أرباب الإعلانات التجارية، جاز فى هذا الشهر الذى مضى على أرباب الإذاعات السياسية فى تلك الحملة الانتخابية. فكان على السياسى الذى يريد إذاعة، أن يدفع أجر الفنّان الذى يريد أن يقطع عليه فنّه، وأن يشترى صاحب الإعلان التجارىّ الذى كان له أن يقطع على المغنى لينزل من صفقته التجارية لتستبدل بها الحملة صفقة سياسية.

وقد بلغ ما دفعه روزفلت فى إذاعة واحدة ١٧٤٧٥ من الجنيهات. وهو عدد غير مستدير، أى عدد يدخل فى تقديره الحساب بالجنيه الواحد لا بالمئات، وهو دليل حسبة مفصّلة عسيرة نتجت عن جمع جملة من أعداد، ودخل فى تسويتها عدّة من اعتبارات. وهو مبلغ كبير، وليس بدافعه روزفلت، وإنما يدفعه حزبه، حزب الديمقراطيين. ولديه بالطبع مال كثير، ولـكنه محدود بالقانون، فهو لا يزيد على ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات.

أحمد زكى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٨ | الثلاثاء ٥ من ذي الحجة سنة ١٣٦٣ — ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العــــــــدد

على أبواب الانتخابات

صدر مرسوم بحل البرلمان ودعوة البرلمان الجديد للاجتماع في يناير القبل . وهكذا تشهد البلاد بعد أسابيع قليلة معركة انتخابية عامة تشترك فيها الأحزاب جميعاً — فالمفهوم أنها لن تقاطعها أية هيئة من الهيئات السياسية كما حدث في بعض الانتخابات السابقة — ويشترك فيها كذلك كثير من المستقلين ومن هواة السياسة القاصرين .

ومن الطبيعي في كل أمة تقوم فيها الحياة النيابية على أسس ديمقراطية سليمة ، أن يرجع إلى الأمة — وهي مصدر السلطات جميعاً — لتعرّف رأيها كلما جد من الأمور والأحداث ما يدعو لذلك ، وكلما بدا تباعد ظاهر بين الرأي العام وممثليه في بعض الاتجاهات . بل إن كثيراً من الحكومات لتلجأ إلى استفتاء الرأي العام في كثير من الظروف مع تيقنها من ميوله قطعاً للشك وزيادة في التثبت ، واستعانة بتأييده على المضي فيما تنهجه من خطة . وقد حرصت الدساتير جميعاً على أن تجعل انتخاب النواب موقوتاً بفترة قصيرة من الزمن لتتيح للأمة الحكم على أعمالهم ، وإعادة النظر فيمن تراهم أقرب لتحقيق رغباتها وأجدر بنيل ثقتها .

فالانتخابات العامة هي فرصة الأمة للحكم على رجالها العموميين ، ووسيلتها المباشرة لتوجيه سياستها العامة في الطريق الذي ترتضيه .

وهي على هذا الأساس من مقومات الحياة النيابية الصحيحة ، بل هي عامل هام من عوامل تربية الشعب على الاهتمام بالشئون العامة وممارسة سلطته العليا ، والفصل في

الخلافات التي تقوم بين أحزابه وهيئاته ، فيطمئن الجميع لحكمها ، وبهذا تهدأ حدة النزاع وتخف عوامل الفرقة ؛ وسيستمع الشعب لأقوال المرشحين وما يعدونه به من وعود لإصلاح حاله وتحقيق رغباته ، وسيبتغون له الوسيلة لكسب ثقته والظفر بصوته ، وسيقول في النهاية كلمته . ولكن ليذكر الشعب أن هذه الكلمة ستكون حكما عليه ، كما هي حكم على من رشحوا أنفسهم أمامه .

ستكون هـذه الكلمة امتحاناً للشعب يبين مدى استنارته وتقديره للأمور ورعاية لمصالحه العامة ، وتمييزه بين الصادقين في خدمته والخادعين الذين يشترون ثقته بالقول المموه والحديث الخلاب ، ثم لايلبثون بعد أن ينهضوا على أكتافه أن يزوروا عنه ويولوه ظهورهم ، ولا يشغلوا أنفسهم بغير منفعتهم الخاصة ، وخدمة أنفسهم وذويهم . فليكن الشعب يقظاً بصيراً ، وليرجع كل فرد إلى أهل ثقته من ذوى الإيمان الصادق والضمير الحي والنظر الثاقب ، وراجعهم فيمن يوليه ثقته من المرشحين ، ومن يحمله أمانة تمثيله ، والتعبير عن رأيه ؛ وليستعرض سيرته الخاصة والعامة ، وينظر إلى أعماله قبل أن تسحره أقواله فإن وجده رجلا عف اليد واللسان ، قوى القلب والجنان ، صادق الحس ، طاهر الوجدان ، يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ويخاف الله قبل أن يخشى الناس ؛ إذا وجده رجل جد وعمل لا رجل لعب وكسل ، ورجل عدل وإنصاف لا رجل مجاملة ومداراة ؛ إذا وجده حراً صريحاً لا منافقاً مداوراً ، قوياً لا يخشى في الحق لومة لائم ، كريم النفس يجود للناس بماله ووقته ، ويسعى لخدمتهم راضياً مستبشراً لا مستثقلا متاجراً ، فليوله ثقته ، وليمنحه صوته ، وإلا فليرفضه مهما كانت المؤثرات ، ومهما استخدمت معه المغريات .

هـذا واجب كل فرد من أفراد الشعب . والمثقفون المستنيرون عليهم في هـذا واجب مزدوج ؛ واجبهم في حسن استخدام حقهم في التصويت ، وواجبهم في إرشاد جمهور الشعب الذي تخفى عنه كثير من حقائق الأمور ، والذي تستغل سريرته الطاهرة ونيته الطيبة ، فتشوه له الحقائق ، وتموه له الأمور ، ويخدع بالدعاوة والأكاذيب الماكرة ، ويحاط بالدعاة المأجورين يختلسون منه ثقته . فواجب الشباب المثقف أن يحول بين الشعب وبين تلك العوامل المفسـدة ، وأن يبث نفسه في أوساطه هادياً مرشداً ، داعياً إلى الحق هاتكا حجب الخداع والنفاق والدعاوة المأجورة .

ويؤخذ مما تتناقله الألسنة من الأحاديث ، أن الأحزاب التي تتولى الحكم قد تفاهمت فيما بينها على أن تخص كل حزب منها بعدد من الدوائر لا تنافسه فيها الأحزاب الأخرى ، وبهذا يمكن اعتبار هذه الأحزاب جبهة واحدة أمام من قد يخاصمها من الهيئات السياسية الخارجة عن الحكم . وهذا التفاهم طبيعي بين أحزاب متفقة متعاونة . وسيخفف هذا التفاهم من حدة المعركة ويحد ميدان التنافس .

والواقع أننا إذا استعرضنا برامج أحزابنا جميعاً لم نجد بينها تفاوتاً واضحاً ؛ فأحزابنا لا تقوم على أساس مذهب تفكيرى خاص يميز كلا منها ، كالمحافظة والتجديد ، والاعتدال أو التطرف ، أو آراء اجتماعية خاصة كمذهب الحرية والاشتراكية وما إلى ذلك ؛ ولا تقوم على أساس فروق الطبقات كأحزاب الأعيان ورجال الأعمال والعمال . لا تقوم أحزابنا على أساس من هذه الأسس ، ولا يستطيع الدارس لطبيعة أحزابنا أن يتبين بينها وجهاً للخلاف في المبادئ والغايات ، فكلها تسعى لخدمة مصر في الداخل والخارج ، وكلها تسعى للإصلاح . وفي كل منها المحافظ والمعتدل والمتطرف ، وفي كل منها أعضاء من كل الطبقات ؛ وإنما كان الخلاف بينها في الواقع خلافاً في

على هامش الحكم :

ضرورة رسم الخطط

وتبين الأهداف

من علينا منذ تسلمنا مقاليد بلادنا وأصبحنا مسئولين عن تصريف أمورنا ورسم سياستنا وتنفيذ مشروعاتنا نحو عشرين عاما . فهل إذا استعرضنا ما تم فى تلك الفترة الزمنية الطويلة من إصلاحات ، وما نفذ فيها من مشاريع ، وما أفادت البلاد من هذا الحكم الوطنى ، وما جنت من الخير على يد أبنائها ، هل إذا استعرضنا كل ذلك اطمأنت له نفوسنا وارتاحت إليه ضمائرنا ، ولمحنا فيه أملا فى مستقبل زاهر ، وتبينا من خلاله ماذا سيكون شأننا بعد عشرين سنة أخرى ، وإلى أى مستوى سنصل فى شتى نواحى الحياة ، وماذا ينتظر أن تكون نواحى القوة فينا ، وأين يخشى أن تكون نواحى الضعف لا تزال كامنة ، إلى غير ذلك من التنبؤات والاستفهامات ؟

لا أظن أن فينا الكثيرين ممن يجرؤون على الإجابة عن تلك الأسئلة بالإيجاب ، وأن يقرروا إمكان تحقيق هذا كله ! وما ذلك إلا لأن الأمور قد جرت عندنا خلال تلك الفترة تقريباً على غير أساس ، وسارت سيراً مضطرباً ؛ فالسياسة التى توضع من آن لآن فى بعض الأحوال سياسة ارتجال ، والخطط التى ترسم قد تكون وليدة الصدفة . ويأتى الإيحاء بهذه الخطط وتلك السياسة فى العادة نتيجة لظروف عارضة ، أو رغبات تبدو من جهات عالية ، أو فكرة عابرة تروق فى عين أصحابها من ذوى النفوذ ، أو ميل خاص واتجاه معين فى الوزير الذى يتولى الوزارة ، أو رغبة فى الدعاية الشخصية والسياسية ، أو غير ذلك من الصدف والظروف الطارئة .

والذى يستعرض بعض خطب العرش يجد أمثلة كثيرة تؤيد ذلك . فيجد مثلا فيما يختص بوزارة المعارف (وهى التى سنخصها بالكلام فى هذا المقال) أن بعضها يهتم بالتوسع الجامعى ، وبعضها يهتم بالوعد بالنهوض بالتعليم الصناعى ، وبعضها يبدى عناية بالفنون الجميلة ؛ والطابع الذى يغلب عليها جميعها تقريبا هو التعميم فى الكلام ، وإيراد وعود شاملة عائمة كالنهوض بالتعليم ومسايرة التقدم ، والعناية ببعض النواحى من غير تحديد أو ارتباط باتجاه معين . والطابع الثانى الذى يلمح فى هذه الخطب هو ما ينم عن العناية بالكم قبل الكيف ، فيتردد فيها صدى التوسع فى التعليم الأولى وفتح المدارس والفصول الجديدة إلى غير ذلك ، مع أن

مواهب القائمين على أمورها وصفاتهم الشخصية ، وقد تتبلور هذه الصفات يوماً لتصير ميزة يمتاز بها كل من هذه الأحزاب ولوناً يصبغ به .

وما دامت المعركة الانتخابية الحالية ليست معركة مبادئ ولا صراع مذاهب تفكير ، وإنما هى معركة كفايات خاصة ومزايا شخصية ، فخير ما تستطيع به الأحزاب أن تربح المعركة أن تتقدم للترشيح أوفى عناصرها العامة ، وأفضل أعضائها خلقاً واستعداداً ، وأكثرهم تشبعاً بالروح العام ، وألا تخضع فى الترشيح لعوامل العصبية والمراقة فى الحزبية وما إلى ذلك . وكل محب لمصر يرجو أن تنتهى هذه المعركة باختيار نواب أكفاء صادقى الرغبة فى خدمة الأمة والنهوض بها .

وأن تمر بسلامة دون أن تثير أحقاداً جديدة ، أو تخلق أسبابا للفرقة ، والله يهدى إلى سواء السبيل .

* * *

البلاد تشكو من أقصاها إلى أقصاها ، ومن الرجل العادي إلى الوزير ، يشكو الجميع فشل التعليم الأولى وضعف الروح فى التعليم العام ، وعدم تبين الهدف فى التعليم الفنى ، إلى غير ذلك من العيوب التي كانت أولى بالعلاج .

* * *

فهل آن الأوان لأن تستدبر البلاد هذا العهد الغامض العائم ، الذى يسود فيه الارتجال وتتحكم الصدف ؟ هل سنصدف عن نفس المشروعات التى يوحى لأولى الأمر بتنفيذها ، أو المشروعات البراقة التى تصلح أداة للدعاية الواسعة ، ولفت نظر الجمهور والفوز بالتهليل والتصفيق والمديح والثناء ، وندرسها كلها دراسات سطحية لنتخذ فيها قرارات سريعة بغية التعجيل بإخراجها إلى حيز العمل ، ونشرها على الناس ليتناولوها بالتعليق والتقريظ ؟!

ألم يحن الوقت بعد لأن نستقبل عهداً جديداً يكون أساس الحكم فيه الدراسة الهادئة الوافية العميقة لكل مشكلة من مشاكل الحياة ، ولكل نقص ظاهر فى المجتمع ، ولكل ضعف يجر على البلاد الشر والوبال ، وبالاختصار لجميع العوامل التى تؤدى إلى التأخر وتقف عقبة فى سبيل النهضة والتقدم ، ثم نرسم فى ضوء كل تلك الدراسات خططاً محكمة للعلاج وإتلاف كل تلك العيوب ؛ ويكون لهذه الخطط أهداف معينة تصل بنا إلى مستويات معقولة من الرقى ، فى فترات محدودة من الزمن ، بأساليب تتفق مع روح العصر وحاجيات البلاد ، وعقليات بنيها وبناتها واستعداداتهم وميولهم ، والمثل العليا التى تلائمنا وتتمشى مع ظروفنا وتتفق مع تقاليدنا وتاريخنا بوجه عام ؟!

وأعود فأؤكد ضرورة بناء سياسة المستقبل ورسم الخطط له ، واختيار الوسائل والأساليب على الدراسات الواسعة المستفيضة فى غير ما تسرع أو إهمال لأحد العوامل ، وبغير تقيد بالأشخاص أو الزمن ؛ فالمهم فى هذا الأمر هو استيفاء البحث من جميع نواحيه . وبين يدى الآن مثل رائع يوضح ما أعنيه فى هذا الشأن ، أورده للقراء لتوضيح الفكرة التى أقصدها . فهذا تقرير عن التعليم الثانوى فى إنجلترا معروف بتقرير Spens سبنز ، وصادر فى نوفبر سنة ١٩٣٨ ، ويقول واضعوه فى مقدمته إنهم بدأوا فى درس المسائل التى عهد إليهم بها فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ . ومن هذا يتبين أن دراسة الموضوع من أوله إلى آخره حتى تقديم التقرير استغرقت خمس سنوات كاملة . وقد عقدت اللجنة بكامل هيئتها أربعة وسبعين اجتماعاً ، فيما بين أكتوبر سنة ١٩٣٣ إلى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، واستمعوا إلى ١٥٠ شاهداً ، وناقشوا معهم . وهذا عنصر على جانب عظيم من الأهمية ألا وهو التحدث إلى المشتغلين بالموضوع ، ويهتمون بالأمور التى هى محل الدراسة والبحث . وقد أثبتوا فى آخر التقرير أسماء هؤلاء الأشخاص الذين استطلعوا آراءهم . ونظرة واحدة إلى هذه القائمة تدل على مبلغ اهتمام اللجنة بتعرف آراء جميع الهيئات ، وعدد من الأشخاص يمثل وجهات النظر المختلفة ونواحى العمل والوظائف ؛ فمن هؤلاء الذين حادثوهم من يشغلون وظائف حكومية رسمية ، كالمفتشين وكبار المفتشين ونظار المدارس ، ومنهم من يمثلون الإدارات المشرفة كمديرى التعليم فى مختلف المناطق ، ومنهم من يمثلون جماعات المعلمين من مختلف الطوائف البنين والبنات ، أو اتحادات النظار والناظرات ، أو أساتذة الجامعات ورجال العلم والاجتماع ، وغير ذلك كله مما يجعل الدراسة شاملة وافية ملمة بجميع النواحى كما قدمنا .

وقد ألفت تلك اللجنة الرئيسية لجاناً فرعية لدراسة مختلف نواحى البحث الذى عهد إليها به ، كالمناهج ومحتوياتها وأهميتها ، وارتباطات مختلف الموضوعات بعضها ببعض ، وأوجه النشاط فى المدارس القديمة التقليدية والمدارس الحديثة ، كما خول للجان الفرعية أن تضم إليها من تشاء . وفى فبراير

سنة ١٩٣٦ انتخبت الهيئة الرسمية الأساسية لجنة صغيرة مؤلفة من سبعة أعضاء منهـا ، لوضع اقتراحاتها بشأن نص التقرير النهائي ؛ وهذه اللجنة اجتمعت ٣٨ مرة فيما بين مارس سنة ١٩٣٦ وأكتوبر سنة ١٩٣٨ .

وقد أرفقت اللجنة قائمة أخرى بأسماء الهيئات والأشخاص الذين أمدوها بالمذكرات والإحصاءات ، وغير ذلك من البيانات المتصلة بالبحث ، ومن هؤلاء الأشخاص الذين ساهموا في هذا العمل كثير من رجال التربية وعلم النفس البارزين في إنجلترا .

* * *

أوردت هذه التفاصيل لأبين نوع الدراسة الجدية التي أقصدها ، والتي يرجى من ورائها رسم سياسة خالصة لوجه المصلحة ، مبنية على أسس علمية وبيانات رقمية وتجارب شخصية ، واتجاهات الرأي العام العلمي السائد ، وأماني الذين يضطلعون بالمسئولية ويقومون على التنفيذ ، كالمدرسين والنظار والمفتشين وغيرهم .

وبعد ، فمن الذي سيضطلع بمهمة تلك الدراسات ؟ هل ندعها لمكاتب الحكومة والأفراد الذين جربناهم ، والذين درجوا على الاهتمام بالرسميات والإداريات لا بالدراسات الفنية؟! فهذه وزارة المعارف مثلا تتبع نشاطها تجده أكثر ما يكون في أمور تافهة في مواسم محدودة ؛ ففي أول العام يمضي شهر أو اثنان وكشوف التنقلات يعتمد الواحد تلو الآخر . وهي حركة لو فحصتها لم تجدها قائمة على سياسة ثابتة معينة مبنية على قواعد منطقية ومبادئ عادلة ؛ وفي آخر العام يُصرف شهران أو ثلاثة في امتحانات صارمة ، لعلها أشد وبالا على التعليم من جميع العلل الأخرى وأعظم دواعي فشله . ومن الغريب أنه كلما كثر الكلام في عيوبها والتحدث عن أضرارها ازدادت الوزارة اهتماما بها وتعظيما لشأنها ! !

أن هذه المسائل التافهة من الدراسات الضرورية لسياسة الوزارة نحو أمور هامة كفلسفة التعليم وأهدافه ، والروح التي تسود المناهج والتدريس وإعداد المعلم وتوجيهه ، والتربية الخلقية والدينية ، وإعداد الشبان للكفاح في المجتمع الحديث ، ورسم سياسة رشيدة للمباني والشئون الصحية ، وغير ذلك من المشاكل التي تنتظر الحل ؟!

ورأيي أن مثل تلك الدراسات سواء في وزارة المعارف أو في غيرها من الوزارات يجب أن تكون هدفا لمختلف الأحزاب ، ليضع كل منهـا لنفسه بإزائها سياسة مرسومة ورأيا واضحا ينادي به ويكسب له الأنصار . كذلك هي أمانة في عنق المتعلمين المستنيرين المجربين المستقلين في آرائهم . وواجب على هؤلاء أن يتشاوروا ويتعاونوا ، كل طائفة منهم في دراسة الناحية المتصلة بعملها وفنها ، ووضع سياسة مناسبة ورسم خطة محدودة يدعون إليها ، يفعل ذلك رجال الزراعة ورجال الهندسة ، ورجال التعليم ، ورجال الاقتصاد ، ورجال الطوائف الأخرى كل فيما يخصه .

أحمد عبد السلام الكرداني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر (بالقرش صاغ):
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـدد ١٥ مليما

بين الفن والمال

إعوبيليا (١)

وصاعدة فى الجوّ يطمح بُرجُها
بمارد جبار أشمّ وأطراف
يشقّ فؤادَ الأفق منها ذؤابةٌ
وزحم رُكَّ الرّيح منكبها الصافق
على عارضيها رهبةٌ وجلالةٌ
وفى عضدَيها ربضة الأسد الفائق
أرى جبروت المال فيها فأنثنى
على رجفة فى صفحتىّ وأعماقى
فليس حديداً ما احتواه أديمها
ولا حجراً. لكنه الذهب الصافى

* * *

يروعك منها — وهى خرساء — حكمةٌ
مقاطعها الفصحى صياغة آلاف
خطيبٌ وإن لم يرفع الصوت أو يشر
فقى صمته الإقناع والنطق الشاقى
خبيرٌ بأسرار البيان مفوّهٌ
وإن يكُ لم ينطق كرائم أصداف
يحدّثُ أن المجد للمال وحده
يسودُ الورى فى ظله كلّ معتاف
يقول: هنا رقة الحياة وطيبُها
لذى مرتع نضر الخميل ومصطاف
هنا لغة الأرقام، ماق حسابها
مجالٌ لشعر ذى خيال وأطياف
هنا عصبُ الدنيا، وشريان قلبها
وموكب دهر فى جنود وأسياف

هنا الشعر، إلا أن جرسَ رنينه
لأصفر محمود الوضاءة رقّاف
هو المالُ. مصباح الحياة لسالك
يبدّد من آفاقها كلّ أسداف
إذا مالَ ميزان الحظوظ أعادهُ
إلى خطة مثلى، وشرعة إنصاف
طبيبٌ، وإن لم يشتهر عنه مبضعٌ
شقيقٌ، وإن لم يجتمع صلب أسلاف
أخٌ لم تلدهُ الأمُّ، يوفى بوعده
وربَّ شقيق فى الأبوة خلّاف
متى تلق عيشاً فى حمى المال تلقه
على ماجد ضخم الدّسيعة مضياف
يردُّ الحرمانَ الكبرَ أروعَ مدرَها
ويُغرى إلى هيجائها كلّ خوّاف
ويحفظ وجهَ الحرّ عن أن يُريقه
لعباس وجهه فى مقالته جاف
ويغنيك عن لُقيا وجوه بغيضة
تنافق مضطراً على بغضها الوافى

* * *

على المال امضتها يد العدل قسمةً
على سوقة فى العالمين وأشراف
فما بالهم أضفوا على الفن زخرفاً
فلائل مدح فى تهاويل أفواف
لعمرك. ما الآداب إلا عُلالةٌ
كما عُللت بالغزل إصبعُ صوّاف
وما الفنُّ — حتى الشعر — فيما أظنه
سوى سجع كهان، وكذبة عرّاف

على شرف الدين

(١) أكبر عمارة بمدينة القاهرة.

جرائم الدكتور پيسيو

صفحة جنائية مروعة

ورد في أنباء باريس الأخيرة أن رجال الشرطة استطاعوا القبض أخيراً على الدكتور مارسيل پيسيو Petiot ، السفاح الباريسي ، في إحدى محطات المترو على مقربة من غابة فنسان ، وكان متنكراً في زي ضابط من ضباط القوات الفرنسية الداخلية .

وهذا النبأ ينطوي على مأساة من أروع مآسي الإجرام الحديثة . ذلك أن الدكتور پيسيو متهم بأنه ارتكب أثناء الاحتلال الألماني نحو خمسين جناية قتل بطريقة وحشية ، وبأسلوب في منتهى البراعة ؛ ولو لم تكشف أمره المصادفة المحضة لبقيت جرائمه كلها سراً دفيناً .

ولم يحدث في ثبت الإجرام الباريسي — وهو عادة حافل بأروع صنوف الجريمة — منذ أيام لاندرو قاتل النساء الشهير ، حادث أشد هولا وغموضاً من ذلك الحادث الذي يشغل الشرطة الباريسية منذ بضعة أشهر . ومن عجائب الاتفاق أن يوجد ثمة تماثل مدهش في الظروف بين جرائم الدكتور پيسيو وجرائم سلفه هنري ديزيريه لاندرو ؛ فقد بدأ لاندرو ارتكاب جرائمه منذ أواخر الحرب الماضية ؛ وكان ضحاياه فيها من النساء اللاتي يستدرجهن باسم الزواج ويسلبهن ما علكن من مال وحلي ، ثم يصحبهن في رحلة أخيرة إلى منزله المنعزل في « جامبيه » في ضاحية باريس ، وهنالك يقضي عليهن ، ثم يحرق جثثهن في فرن خاص أعده لذلك . ولم يكشف أمره إلا في سنة ١٩١٩ ، بعد أربعة أو خمسة أعوام من بدء جرائمه ، وبعد أن قضى بهذه الوسيلة على خمس عشرة امرأة أو تزيد . وكذلك خلفه الدكتور پيسيو بطل المأساة الحالية ، فإنه رأى الفرصة سانحة للعمل في ظل الاحتلال الألماني ، وكان يستدرج فرائسه ، ومعظمهم من النساء ، بحجة العمل على تهريبهن إلى المنطقة غير المحتلة ، ثم يجهز عليهن بعد الاستيلاء على مالهن وحليهن بطريقة فنية مروعة ؛ ولم يكشف أمره إلا بعد أن زهق على يديه بهذه الطريقة الوحشية زهاء خمسون من الأنفس .

وكان اكتشاف أمره بطريق المصادفة المحضة . ففي صباح يوم ١١ مارس الماضي ، أخطر مكتب البوليس تليفونياً من بعض سكان شارع لسوير ، أن مدخنة المنزل رقم ٢١ تنفث دخاناً مريباً يحمل رائحة اللحم البشري ، فكان ذلك بدء اكتشاف ثبت من أروع الجرائم التي عرفتها فرنسا منذ أكثر من عشرين عاماً .

ويقع منزل الجريمة في شارع لسوير ، في حي « الايتوال » ، أعني في حي من أعظم الأحياء الأرستقراطية الباريسية ؛ وهو منزل صغير قديم جدد منذ حين ؛ تعاقب عليه المستأجرون ، ومنهم الممثلة الشهيرة سيسيل سوريل ، ثم بيع في سنة ١٩٤١ إلى مالك جديد هو الدكتور پيسيو ، وهو طبيب يزاول مهنته في عيادة في شارع كومارتان . ولم يكد المالك الجديد يتسلم المنزل حتى جاء العمال لإجراء بعض أعمال فيه . وكان المنزل فناء خلفي مستطيل يفصل بينه وبين المنزل المجاور جدار عال ؛ وفي مدخله مخزن كبير يتألف من غرفتين ، تطل إحداهما على فجوة مظلمة مثلثة ، فقرر الدكتور أن يحول هذه الغرفة إلى مكتب ، وأمر العمال بإقامة فاصل مزدوج في وسط الفجوة يحتجز منها زاوية مظلمة ، وأن يبطن الحاجز من الجانبين بالقماش السميك العازل ، قائلا إنه سيضع في هذا الزاوية محركا لإدارة أجهزته الخاصة بالأشعة ، وإنه لا يطيق العمل في الضوضاء ، فلذلك يود إخماد الصوت بقدر المستطاع ؛ ثم أمر بأن يعمل في أعلى الجدار الأيسر للزاوية المظلمة ، وهو الذي يفصلها عن الفناء الداخلي ، ثقب صغير ثبت عليه

جهاز بعدسة يستطيع الإنسان أن يرى بواسطتها ما يحدث داخل الزاوية ، قائلا إنه يريد أن يرقب عمل المحرك ؛ كما أمر بأن يصنع فى الجدار الفاصل بين الفجوة وبين البناء المجاور باب وهمى بمصراعين . وكان المنزل محاطاً بأبنية عالية لا يرى ما بداخله إلا من ناحية واحدة ، فى هذه الناحية ابتنى الدكتور جداراً عالياً أبيض يحجب جميع الأنظار التى يمكن أن تطل على الداخل .

وأما بطل الجريمة ، الدكتور پتيو ، فهو رجل فى الحلقة الخامسة من عمره ، وفى ماضيه ما يلقى ضوءاً على نفسيته ؛ فى الحرب الماضية كان طبيباً فى مستهل حياته العملية ، ولكنه تظاهر بالجنون ليفر من الخدمة العسكرية ، فحجز فى مصحة للأمراض العقلية ، وهنالك عاش حيناً بين المجانين . وفى سنة ١٩٢١ بعد أن حصل على درجة الدكتوراه ، استقر فى مقاطعة « يون » ونزل إلى ميدان السياسة ، وانتخب عضواً بالمجلس المحلى ؛ ولكنه لم يكن فى حياته مثلا طيباً ، بل كان يثير من حوله الريب بسلوكه وتصرفاته ، فاستقال من النيابة . وحامت حوله الشبهة بارتكاب جريمة قتل لم يقدم من أجلها للقضاء لعدم وجود الأدلة الكافية ؛ فانتقل إلى باريس وافتتح له عيادة بشارع كومارتان ، وكان يحيط نفسه بمظاهر فخمة ، ويزعم القدرة على شفاء الأمراض المستعصية ؛ وتخصص فى معالجة صرعى المخدرات ، واستطاع تحت ستار هذا العمل أن يتجر فى المخدرات ، وأن يستغل المدمنين ؛ وكشف أمره وقضى عليه بالعقوبة ، ولكنه عاد فاستأنف عمله وتجارته المشينة . ولم يكن يعف عن السرقة البسيطة ، فكان يسرق ما تصل إليه يده من تحف أنيقة وغيرها . وكان مسرفاً مبذراً ، وكانت حاجته إلى المال تشتد يوماً عن يوم ، ولم تعد تجارة المخدرات تفى بمطالبه وأطماعه ، فعندئذ عول على تنفيذ مشروعه الإجرامى الضخم .

وكانت الفرصة سانحة للعمل المثمر . ذلك أن الاحتلال الألمانى قد أثار الروع والقلق فى العاصمة الفرنسية ، وكان كثير من ذوى اليسار من الأجانب والمشبوهين من أهل الحرف والأعمال المريبة يتوقون إلى الفرار من العاصمة إلى الخارج . وإذن فليتقدم الدكتور پتيو إلى إرشادهم ومعاونتهم على تحقيق هذه الأمنية . وسخر الدكتور بعض الوسطاء لجلب الفرائس ، ومن هؤلاء أربعة قبض عليهم فيما بعد ، فى مقدمتهم كاتب مسجل قديم يدعى نيزنديه . وكان يؤتى بالفرائس تباعاً إلى عيادة شارع كومارتان وهنالك تعقد الصفقة ، ويتعهد الدكتور بالقيام بكافة الإجراءات ، وبأنه سيوصل العميل أو العميلة إلى جمعية خاصة تقوم بتهريبه إلى أمريكا الجنوبية . وبعد أن يعقد الاتفاق يلقى الدكتور نصائحه ، وخلاصتها أنه لا ضرورة لإحضار أمتعة كثيرة ، ويكتفى بما خف حمله وغلا ثمنه من حلى وأوراق مالية ونقود بحيث لا يزيد ذلك على حقيبتين ؛ وكان المقرر أن العميل إذا لم يكن مليئاً ، ولم تكن أسلابه ونقوده تصل على الأقل إلى مليون فرنك ، فلا داعى للاتفاق معه .

وإليك الآن أروع منظر فى هذه المأساة ، وهو منظر يقول التحقيق إنه تكرر زهاء خمسين مرة . عندما يحل اليوم الموعود ، وتأتى الفريسة مثقلة بأسلابها ، إلى عيادة كومارتان ، يسير پتيو مع فريسته تواً إلى شارع لسوير ، وهنالك ينفذان معاً خفية إلى المنزل المنعزل ؛ ثم يقود الدكتور صاحبه إلى غرفة المكتب ، وقد جهزت بمقعدين كبيرين من الجلد . وبعد التحية والسيجارة ، يقول الدكتور إنه سيدخل مضيفه بواسطة مدخل سرى إلى المنزل المجاور المطل على شارع آخر ؛ وفى هذا الملجأ السرى يجب على الطالب أن ينتظر موعد سفر الفوج الراحل إلى بلاد الأرجنتين . ذلك أنه حرصاً على السلامة يجب

ألا يرى الدكتور وصاحبه يخرجان معاً من منزل شارع لسوير . ثم يقود الدكتور مضيفه إلى الباب المزدوج المفضى إلى الفجوة السرية الثالثة ؛ وهنالك فى جانب الجدار الفاصل بينها وبين المنزل المجاور باب مغلق ذو مصراعين ، ولكنه باب وهمى لا يفضى إلى شيء . ويقرع الدكتور زراً إلى جانب الباب فلا يأتى أحد . وعندئذ يرجو الدكتور صاحبه أن ينتظر حتى يخرج إلى المنزل المجاور ويفتح الباب بنفسه .

ثم يغلق الدكتور باب الفجوة المزدوج ، وبعد بضع ثوان يبدأ العمل الشيطانى ، ويقذف الدكتور إلى الفجوة من ماسورة صغيرة إما بنوع من الغاز القاتل أو المخدر القوى فيملأ هواء الفجوة الضيقة بسرعة . ويرتد بعد ذلك إلى ناحية الفجوة الخلفية مما يلى الفناء الداخلى ، ويتسلق الجدار ويسلط على الفجوة نوراً قوياً ، وينظر من الثقب ذى العدسة ليرى ما يحدث للفريسة ، فإذا اطمأن إلى نتيجة عمله ارتد إلى المكتب ، وقد يضطر إلى أن يجهز على الفريسة بحقنة قاتلة ، وهو يضع على وجهه قناعاً واقياً . ثم يحمل الجثة الهامدة وينقلها إلى « الجراج » حيث يضعها مؤقتاً فى حفرة أعدت لذلك تحت البلاط . فإذا جن الليل عاد الدكتور إلى المنزل ليتم مهمته ، فيرفع الجثة من مرقدها ويحملها إلى مطبخ المنزل ، وهنالك يضعها على مائدة اللحوم ويعمد إلى تقطيعها إرباً ؛ ثم يحمل هذه البقايا البشرية فى كيس يضعه فى دراجته ، ويرميها تحت جنح الظلام فى نهر السين أو غابة بولونيا أو غيرها من الأحياء المنعزلة . وقد عثرت الشرطة ببعض هذه البقايا فى سنة ١٩٤٢ ، ووصف الدكتور بول ، الطبيب الشرعى الشهير ، الجانى بأنه رجل من أهل الفن .

ومنذ سنة ١٩٤١ ، يتابع الدكتور يسيو عمله المروع فى منزل شارع لسوير دون أن تفطن السلطات إلى جرائمه .

وفى مايو سنة ١٩٤٣ قبض عليه بأمر سلطات الاحتلال بتهمة معاونته فى تهريب بعض الأشخاص المشبوهين ؛ واستمر اعتقاله أشهراً ، وأسندت إليه تهم وأعمال عديدة ، ولكن أحداً لم يفطن إلى ماوقع فى منزل شارع لسوير . وفى تلك الأثناء استطاع الدكتور يسيو أن يتصل بأخيه موريس ، وكان يقيم فى بلدة أوكسير ، وأن يكلفه بنقل أمتعة الفرائس من منزل شارع لسوير ، فصدع بإشارته ؛ وبلغت الحقائب التى عثر بها سبعاً وأربعين ، وأدرك لأول مرة ماذا كان يجريه أخوه فى المنزل المنعزل .

واستمر اعتقال الدكتور بضعة أشهر ، وهو يرتجف خوفاً خشية اكتشاف أمره . ولكن أفرج عنه أخيراً ، فهرول إلى شارع لسوير معتزماً أن يصفى كل شيء . وكان قد ترك فى الحفرة عدة جثث لم يوفق إلى التخلص منها ؛ فاستحضر بواسطة أخيه موريس مقداراً من الجير وألقاه فى الحفرة مدى حين ، ثم استخرج هذه البقايا البشرية وعمد إلى إحراقها فى الموقدين الواقعين فى الطابق الأرضى .

وهنا حدث ما لم يتوقع . ذلك أن النار سرت إلى المدخنة العليا ، وانتشرت مع الدخان رائحة كريهة مريبة حملت الجيران على أن يبلغوا البوليس ، فجاء رجال المطافئ إلى المنزل المريب ، ونزلوا إلى الطابق الأرضى ، وألفوا فى أحد الموقدين جذوات من عظام بشرية ، وبقايا جماجم ظاهرة ، وعثروا فوق ذلك على بقايا جثة امرأة فى كيس من القماش .

وعلى أثر ذلك هرول الشرطة إلى المكان وبدأ التحقيق . ولكن الدكتور يسيو كان على حذر ، فما كاد التحقيق يبدأ حتى توارى من الأنظار ، ولم يعثر إنسان بأثره ، وقبض على زوجه وأخيه ، وبعض الوسطاء . واستمر يسيو مختفياً زهاء عشرة أشهر حتى تطورت الحوادث ، وبدأ

العامل وكيانه الاجتماعى

لم يكن للعامل حتى أواخر القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر أى كيان اجتماعى ؛ ولم يكن يوجد عمال بالمعنى الذى نفهمه اليوم . وكل ما خلفه لنا التاريخ من مبان شاهقة وآثار ضخمة قبل اختراع الآلات كان من عمل عبيد مُسَخَّرين . وكان هؤلاء كذلك يقومون بالأعمال الزراعية ، لأنهم كانوا جزءاً متمماً للأرض ، يمتلكهم الشريف مع الأرض ، وتنتقل ملكية الأرض وعمالها من شريف إلى شريف .

ولقد بدأت تظهر شخصية العامل فى أواخر القرن الثامن عشر فى ميدان الزراعة ، حينما بدأت الملكيات الكبيرة تتحول إلى ملكيات صغيرة ساعدت على ازدهارها الثورة الصناعية وما صاحبها من إنتاج المعاول اللازمة للزراعة ، والتنافس بين أصحابها فى استغلالها إلى أقصى حد ممكن . ولم يكن يسعفهم فى ذلك الحين نظام العبودية ، لأن العبد بطبيعة كونه عبداً لم يلق بالاً إلى عمل لا يعود عليه منه أى نفع . وهنا بدأ العمل بالمعنى الفنى الذى نعطيه له اليوم ؛ فاستأجر مُلاك الأراضى عمالا كانوا ينقدونهم أجرهم كل أسبوع أو كل شهر . وهـذا النظام الجديد ، على ما كان ينطوى عليه من ذلة فى بادئ الأمر ، إذا اعتبرنا الأجر عن أسبوع أو عن شهر ثمناً لشراء العامل واحتكار جهده خلال هذه المدة ، كان على أية حال أكرم من العبودية ؛ وكان من نتائجه المباشرة زيادة نشاط العامل أملا فى ارتفاع الأجر ، وبالتالى زيادة الإنتاج .

وربما كان من الضرورى ونحن نطرق هذا الموضوع أن نوضح المراد بقولنا « العامل » ، إذ يظهر أن كتابنا المعنيين بالشئون الاجتماعية قد خلطوا فى تحديد مدلوله ، وعلى الأخص حينما يعتبرون كل فرد يضمه المصنع عاملا . والواقع أنه لا اعتراض على ذلك من الناحية اللغوية ؛ فعمال المصنع جميعاً عمال ، وموظفو الحكومة جميعا عمال ،

الفرو ، وحررت باريس ، وما زالت أعين الشرطة ترقبه وتقتفى آثاره ، حتى جاءت الأنباء الأخيرة بالقبض عليه

وزعم بتيو أنه برىء ، وأنه ضحية لدسائس الجستابو (البوليس السرى الألمانى) ، وأنه لم يرتكب إثماً سوى خدمة وطنه بالانتظام فى سلك القوات الداخلية المحاربة ؛ وقد قبض عليه بالفعل وهو فى زى ضابط من هذه القوات . ولكن هذا الزعم تدحضه قرائن وأدلة عديدة استطاعت الشرطة أن تجمعها خلال بضعة أشهر . ومن قبل زعم سلفه لاندرو أنه برىء ، وأنه لم يقتل أية امرأة من اللائى اتهم بقتلهن . وذكر محاميه الأستاذ مورو جافيرى أنه برىء يتمتع بقوى روحية خارقة . على أن الذى لا ريب فيه أن قضية الدكتور بتيو سوف تشغل الرأى العام الفرنسى والصحافة الفرنسية أشهراً ، وسوف تتخذ مكانها بين أروع المآسى الجنائية التى عرفها القضاء الفرنسى فى عصرنا .

وهل لنا أن نقول إن فرنسا تكاد تنفرد وحدها بهذا النوع من الجرائم الاجتماعية الخطيرة ، وأن العالم المتمدن لم يشهد فى عصرنا مثل جرائم لاندرو وبتيو ، كما أنه لم يشهد مثل الفضائح المالية الكبرى التى اقترنت فى فرنسا باسم ستافسكى ومدام هنو ؟ أليس فى ذلك ما ينم عن ظاهرة اجتماعية خطيرة ، لعلها تمت بأوثق صلة إلى العوامل التى أدت إلى ذلك الانهيار المؤلم الذى مازالت فرنسا تعانى محنته وآثاره ؟!

محمد عبد الله عنان

وهكذا — ومن الأدلة على خطأ إطلاق لفظ عامل على جميع عمال المصنع بلا استثناء ، أن من العمال أفراداً مهرة يتقاضى الواحد منهم في اليوم جنيهاً أو جنيهين أو أكثر . فحينما نتكلم عن بؤس طبقة العمال وشقاء أفرادها يجب أن تستبعد هؤلاء منها .

وعلى ذلك فالعامل بالمعنى الضيق هو الذى يسمى فى الاصطلاح بالعامل العادى Common labourer ويمكن أن نطلق هذه التسمية مع التجاوز على العامل القريب من العامل المدرب أو الماهر Semiskilled labourer بل وعلى من يحققون والعامل العادى فى ظروف العيش وإن لم يعملوا فى داخل المصانع ، كصغار الكتبة فى دواوين الحكومة ومكاتب الشركات . أما العمال المهرة والقريبون من أصحاب المهن وأصحاب المهن فهؤلاء عادة يخرجون من دائرة العمال ، وهم فى الأغلب لا يعتبرون أنفسهم عمالا .

ويتميز العامل العادى :

١ — بالعمل اليدوى .

٢ — بقلة احتياج عمله للذكاء .

٣ — بالبون الشاسع بينه وبين أفراد المجتمع الذين يساهمون فى التنظيم الاجتماعى وضبط الحياة الاجتماعية ، وذلك من حيث أهمية العمل . بدليل أن خطأه فى عمله لايترتب عليه ضرر للجماعة ، بينما تتأثر الجماعة كلها بأى تصرف خطأ يقع من قائد جيش ، أو كاتب كبير ، أو مخترع أو موسيقى ، أو تاجر كبير ، أو أستاذ فى الجامعة حين يوجه تلاميذه توجيها غير سليم .

وإذن فطبقة العمال بالمعنى الضيق هى التى تتكون من هؤلاء العمال العاديين . وقد كان ينظر إليها على الأقل فيما مضى على أنها طبقة منحطة ، (وليس هنا مجال تفنيد ذلك الزعم والرد عليه) ، وهى فى جميع العصور أقل تقديرا وأبسط أجراً وأضعف نفوذاً من الطبقات الأخرى . ولقد أدى نمو الصناعة ونظام تقسيم العمل إلى تخصيص هؤلاء العمال فى أعمال قد تكون فرعية وصغيرة جداً ، يقضون فيها عشرات السنين من أعمارهم فلا يصلحون آخر الأمر لغيرها ، ويؤدونها بطريقة آلية فينعدم لديهم الابتكار ، وينطفئ ذكاؤهم حتى إنهم لايدرون ما يفعلون فى حالة غلق المصنع وتسريحهم . ومن أجل هذا يقول الأستاذ جدنجز Giddings : «إن هذه الطبقة التى طالما قيل لنا إن ثروة العالم تقوم على أكتافها ، لاتكاد تنهض بأعبائها المعيشية لصعوبة حصولها على ما يسد رمقها» !

وطبقة العمال (ونقصد بها دائماً العمال العاديين الذين أشرنا إليهم وهم الكثرة) فى نزاع مستمر مع أصحاب العمل أو الرأسماليين . وربما كان نظام المصنع بالذات هو الذى وسع شقة الخلاف بين الفريقين ؛ فأصحاب العمل ، رغبة منهم فى استثمار الأموال بأقل النفقات وفى تنظيم العمل بأقل جهد ، جمعوا مئات العمال وألوفهم فى مكان واحد ، ووضعوا لهم نظاما للعمل يحقق هاتين الرغبتين معا ، فكانت النتيجة أن تكونت لهم حالات عقلية خاصة mental patterns نشأت من طبيعة عملهم (اليدوى الآلى) ؛ فقد أثرت بساطة هذا العمل فيهم من ناحيتين : الأولى بأن جعلتهم بسطاء يسلمون قيادتهم بسهولة لأى فرد قوى الشخصية يستطيع أن يؤكد لهم إخلاصه فى الدفاع عن مصالحهم . والثانية بأن قوت عندهم الإحساس بالإخاء الإنسانى نتيجة لاجتماعهم معا ساعات طويلة من النهار أو الليل ، تزيد فى أكثر الأحيان على الساعات التى يقضونها بين أهلهم وذويهم . وتدل الوقائع على أن كثيرين منهم لاتقع عيونهم على أولادهم إلا فى أيام الراحة أو العطلة ، بسبب استيقاظهم لعملهم مبكرين أثناء نوم هؤلاء ، وعودتهم منه آخر النهار وقد آووا إلى فراشهم . وهم فى العادة لايتفرقون بعد العمل لأن لهم أنديتهم وملاهيهم الخاصة . هذا الإخاء الذى ربط بين العمال جعل العلاقات بينهم قائمة على الأمانة والشرف ، وإننا لنلاحظ فى هذه الطبقة الفقيرة مبادئ خلقية عالية ،

قلما تجدها فى الطبقات التى اصطلحنا على تسميتها بالطبقات الراقية؛ فهم بصفة عامة يتعاونون فيما بينهم فى حالة البطالة والمرض تعاونا يكاد يكون منظما وإن كان ضعيفاً على قدر مواردهم . وقد أدى إخاؤهم إلى اتحادهم لدفع شرور الرأسمالية . وتتلخص مطالبهم فى زيادة الأجر ، وتقليل ساعات العمل ، والتأمين الصحى .

أما أصحاب العمل فيرون أن العامل الذى يؤدى بيده عملا صغيرا لايحتاج لدربة ولا ذكاء ينبغى أن ينقد أجراً تافهاً؛ بينما يرى العامل أن كل رأس ماله وهو جهده يضعه فى العمل، وأن عمله برغم تفاهته يعد مساهمة منه فى الاختراعات والاكتشافات ورقى الحياة الاجتماعية .

أما موقف الحكومات بين هؤلاء وهؤلاء ، فيتلخص فى أنها لاتوافق على أساليب العنف والإضراب ، لأن الإضراب تهديد للدولة أكثر منه لصاحب العمل ، والدولة مسئولة عن سلامة الجمهور الذى يتعرض بلا شك لأشد الأخطار فى حالة الإضراب . وترى فيما يتعلق بالعمال ناحية إنسانية يدعو إليها المثل الأعلى الاجتماعى ، وهذا يعتمد على تأييد من الدين ومن فكرة الوطن ، فجميع الكتب المقدسة تدعو إلى معالجة الفقر . وقد كان البابا ليون الثالث عشر يشعر بخطر المسألة الاجتماعية ويعمل لوجوب حلها بإزالة الفوارق التى بين طبقة العمال والطبقات الأخرى . وإذا كان رجال السياسة من أمثال بسمرك يرون مسألة العمال من المسائل الاقتصادية البسيطة التى تستطيع الدولة أن تحلها بما لها من سلطان ، فإن البابا ليون الثالث عشر كان يرى على العكس من ذلك أن لهذه المسألة ناحيتين خلقية ودينية ، وينبغى أن تتعاون الكنيسة والمجتمع مع الدولة على حلها .

أما تأييد فكرة الوطن للمثل الأعلى الاجتماعى فواضح فى قضية بديهية ، مؤداها أن كل أمة ترغب بطبيعتها فى تنمية قوتها وإعلاء شأنها ، وهذا لايتأتى إلا إذا جاهدت كل طبقة من طبقاتها فى سبيل تحقيق الخير العام للجماعة .

وقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر صراعا عنيفاً لتحقيق المساواة الاجتماعية . واليوم تعتبر الدولة من أول واجباتها توكيد هذه المساواة وإزالة كل أثر للخلافات الاقتصادية والاجتماعية ، بحيث تحترم الكرامة الإنسانية لكل عامل عن طريق تيسير حصوله على حاجاته الضرورية . ومن مبادئ الحكم أن من حق الدولة ، بل من واجبها لمنع النزاع بين الطبقات ، أن تتدخل فى الحياة الاقتصادية بطريق التشريع ولو كان فى هذا التدخل اعتداء على الحرية الفردية ، وأن تعمل على أن يكون رأس المال فى خدمة العمل ، لا العمل فى خدمة رأس المال

على أحمد عيسى

فى معارك الصحراء الغربية

قلت إن المؤلف وقف من الأشخاص والحوادث والنجاح والفشل موقف المؤرخ الصريح النزيه — فى أغلب الحالات — وليس أدل على صراحته ونزاهته مما من ذلك النموذج الجرىء من التحليل والتعليق اللذين تناول بهما كل فقرة من حديث « مونتجومرى » إلى المراسلين الحربيين ، يوم أن بدأ هذا القائد الظفر معركة العلمين .

يقول « مونتجومرى » : « أيها السادة ! إن المعركة ستبدأ الليلة . وعلى ضوء القمر سيحدث قتال رهيب . إن هدفى أن أزيل الألمان من شمال إفريقيا ؛ وقد يأخذ هذا زمناً ، ولكنا سنفعله . إنى لأظن أن هذه المعركة ستكون نقطة التحول فى الحرب . ولقد كانت سياستى دائماً ألا تقبل فشلا بعد اليوم » .

فيعلق المؤلف على هذه الفقرة قائلا : (إن هذا الكلام من « مونتجومرى » شديد بعض الشىء على من سبقه من القواد ، فلم يكن لديهم من الظروف المواتية ما توفر لديه الآن . لقد جمعوا اللاعبين ودربوهم فى صبر طويل ، وجاهدوا ليوفروا لهم آلات اللعب ، والآن يواتى الحظ « مونتجومرى » فيعطيه قيادة هذه الأوركسترا الكاملة) .

يقول « مونتجومرى » : « إن أهم شىء هو الروح المعنوى ، فإذا تساوت الأشياء الأخرى وكان الجانب ذو الروح الأعلى هو الغالب » . ويعلق المؤلف : (هذا صحيح ، ولكنه واضح بالبداهة ، فإذا تساوت الأشياء الأخرى ، فالجانب ذو المدافع الأرجح أو الأحذية الأمتن سيغلب . ولكن الأشياء الأخرى يندر أن تتساوى . ولقد برهنت الحرب الأسبانية وحرب فنلندا أن الروح المعنوى وحده ليس كافياً) .

يقول « مونتجومرى » : « إذا نظرتم إلى التاريخ ، وبحثتم فى أسباب الفشل ، فأنا أقول إنها يمكن أن ترد فى أساسها إلى القيادة الخاطئة وعدم كفاية أعوانها . أما الجند. Soldiery — تلك الكلمة القديمة الجيدة — فإنهم لن يخذلوكم » . ويعقب المؤلف : (إنها لكلمة جريئة تصدر من القائد العام فى مساء المعركة ، ولكنها غير منصفة لأسلاف « مونتجومرى » من القواد . لقد جعل الروح المعنوى أساس النجاح ، والقيادة الخاطئة سبب الفشل ، ثم اعتبر الجند هم العامل الثابت الذى يمكن الاعتماد عليه ؛ ولكن هذه التعميمات أوسع مما ينبغى . ثم ماذا تكون الحال مع جنود روحهم المعنوى ردىء ؟ إن الجنود الإيطاليين من غير شك قد خذلوا قوادهم ! لقد أهمل « مونتجومرى » عاملين أساسيين : تدريب الجند ، والمعدات التى يزودون بها ؛ ومن هذين تجىء ميزته على سابقيه) .

يقول « مونتجومرى » : « كل ضابط وكل جندى يعرف اليوم ما يراد . لقد خاطبت جميع الضباط حتى رتبة « لفتنانت كورنل » ، وقد عرفوا كل شىء عن هذه المعركة ، ثم بلغوا ما عندهم من المعرفة إلى الجنود » . فيعلق المؤلف : (هذه من غير شك فكرة رائعة . إن جندى اليوم ليس مجرد حشو لفم المدفع . إنه يحتاج إلى أن يكون رجلا ذكيا . وكلما عرف أكثر كان قتاله أحسن) .

ويصف المؤلف لك كل معركة فى أدق تفاصيلها وأغمض حركاتها ، وما لعبت فيها كل فرقة من دور ، وما ذهب من الخطط مع الريح . ولكنه ينبهك إلى أن أحداً لا يستطيع قط أن يصف معركة ما وصفا مرضيا ، فإنها شىء كالموسيقى — وما أشبهها — فوق طاقة اللغة الإنسانية . إنك تستطيع أن تعطى بيانا عن الحركات والعمليات ، وتحصل منه من اللذة ما يحصله المستمع لوصف لعب الشطرنج حركة حركة . يمكنك أن تصف كل شىء فى طاقة الإنسان أن يحسه أو يراه ، ويمكنك أن تضع معا كل العبارات المألوفة فى قاموس الحركات الحربية ، ثم لا ينتج لك كل هذا إلا نسجا مهلهلا ، أو ظلا غامضاً مما

حدث . إن الصعوبة كلها لغوية ، فإن حقائق الحرب الحديثة قد أصبحت وراء التجارب الإنسانية العادية ، وليس ميدان اللغة إلا هذه التجارب . إن البلاغات الحربية تستعمل مثلا عبارة (قذائف المدفعية الثقيلة) ، ولكن هذه لا تخبرك إلا قليلا عن ذلك الإحساس المأزوم الذى تحسه وأنت تنتظر وصول القذيفة ؛ وعن ذلك الصوت الصارخ المحزون ، صوت القذيفة وهى مقبلة ، وعن دويها المحطم للأعصاب وقد انفجرت ، وعن زمزمة أجزائها المتناثرة من حولك ، ثم عن إحساسك بالفرح وقد أخطأتك هذه الأجزاء ، والتفاتك إلى جندى بجانبك وقد أصيب .. »

* * *

والآن ما مكان مصر فى هذا الكتاب ؟ إن الكاتب — كما أشرنا — إنجليزى ، وهو يتحدث عن ميدان اكتوت إنجلترا بنيرانه ثلاث سنوات ، وتقلب عليها فيه الحظ بين هزيمة وانتصار ، ثم خرجت منه فى النهاية فائزة فوزاً يصدق نبوءة « مونتجومرى » فى كونه نقطة التحول فى هذه الحرب . وقد قضى المؤلف جل وقته فى الصحراء ، فلم يزر القاهرة والإسكندرية إلا لماما ، ولم تترك له جاذبية المعارك الطاحنة وقتاً يدرس فيه مصر ، ويتعرف فيه مشاعر المصريين على حقيقتها ؛ فكان طبيعيا — إذاً — أن تجيء إشاراته عن مصر عابرة ، وأن تجيء أحكامه على أهلها وطوايا قلوبهم خلوا من ذلك العمق الذى امتاز به وصفه للصحراء .

يتحدث عن « ويفل » فى أول الكتاب فيثنى على حسن تدبيره وكتمان استعداده للهجوم الأول ، رغم أن مركز قيادته فى فندق من فنادق القاهرة . والقاهرة — فى رأى المؤلف — لا يبقى فيه السر سراً أكثر من بضع ساعات ! ويتحدث عن حالة القاهرة عند اقتراب الألمان من « العلمين » فيذكر كيف ظل القاهريون يأخذون زينتهم — كعادتهم — ويذهبون فى حرّ الظهيرة إلى حديقة « جروبى » لتناول المرطبات والأخذ بأطراف الأحاديث ؛ وكيف كانت المعركة تدور على أبواب مصر ، والمصريون فى المقاهى يتجادلون فى شأنها جدالا عنيفاً يتصبب له العرق من وجوههم ، ولكنه جدل أكاديمى لا نتيجة له . ولقد كان قريباً من المستحيل أن يتبين المرء أكان القاهريون يُعنون حقاً بنتيجة المعركة !

لقد ظلت مصر محتفظة بحيادها ، فقد كان من المهازل العجيبة أن تقع مصر بين مخالب الهجوم ، ثم لا تكون فى حالة حرب ! وقد اضطرتها الصدفة الجغرافية أن تؤجر إحدى صحراواتها لتكون ميدان معركة ، والآن توشك المعركة أن تتدفق من الصحراء إلى الوادى الخصيب !

يقص المؤلف أنه التقى ذات يوم من تلك الأيام بمصرى (شمرىّ) هرم . فقال له المصرى : « نحن على هذا المسرح بمثابة النظر ، وأنتم الممثلون ، تجيئون وتذهبون » . ثم يقول المؤلف : « لقد كان هذا حقا ، وقد بقى النظر ثابتا فى مكانه فى هذه اللحظة الدرامية الرائعة . غير أنك إذا تعمقت الأمور وجدت شيئاً كثيرا من الحركة ؛ فقد كشفت أخبار البلاط والبلاغات الرسمية عن عدد من الاجتماعات والمؤتمرات ، وأخذت الوزارة المصرية تبحث فيما يجب أن تعمله . وحاول السفير البريطانى أن يعلم ماذا قرر الملك والحكومة المصرية إزاء هذه الأزمة ، واحتدمت المناقشات حول مسألة النسف والتخريب (على يد الجيش المنهزم) ، وعقد البرلمان جلسات سرية أطلقت كل منها أفواجا من الإشاعات ، وبدأت السفارة البريطانية ومركز القيادة العليا يحرقان أوراقهما ، وارتفعت أعمدة الدخان — متباطئة متثاقلة — من وثائق ربما رجع تاريخها إلى أيام غوردون وكتشنر ... ثم أخذت القاهرة بالتدريج تلبس لباس مدينة تواجه حالا طارئة ، فأصدرت فيها

من قصص الأطفال الصينية :

الأحمق

للكاتب الصينى الكبير « بـ — شاو — كين »

لم يكن الناس يعرفون للأحمق اسما .

لأنه لما خرج من بطن أمه أرسل إلى الصندوق الكبير المعلّق على حائط ملجأ اللقطاء . هل عرفتم يا أصدقائى الأطفال الأعزاء هذا الصندوق ؟ إنه واسع عميق ، طليت جوانبه بالقار كأنه تابوت ميت صغير . ومن خبره أنه إذا ولد مولود ولم يرض والداه عن بقائه عندهما أرسل إلى هذا الصندوق فى ليلة حالكة ، ولا يعلم به إلا واضعه ؛ وعندما يصبح الصباح يرى أهل الملجأ الطفل فيأخذونه ، ثم يسلم إلى المراضع . ولكن هل اللبن الذى لم ينبع من ثدى الأم ذو لذة وحلاوة ؟! كلا ! وإنما رُبى الأحمق بهذا اللبن الذى عدم حلاوته ولذته .

وبلغ عمر الأحمق سنتين ، ولم يزل ضعيفا نحيف الجسم ، قد ارتسمت على وجهه خطوط دقيقة كأنها خطوط الكبر ، لا يعرف الكلام وإنما تسمعه يصوّت « وآ وآ وآ وآ وآ ... »

فهو لم يعرف مناغاة الناس ، فقد فَقَدَ من يحبه ويناغيه ، فلا أب ولا أم ، ولم يعرف الضحك أيضا !!

وذات يوم كانت المرضعة مسرورة فحملته تداعبه ، وأخذت قطعة من الحلوى بفمها وقربتها من فيه ليأخذها ، فعندما همّ بقضمها لم يتمكن من ذلك ، وقطعت ثناياه الجديدة الحادة شفتها ونزل الدم وشعرت بألم شديد ، فثارت وضربته ضربا مبرّحا وشتمته قائلة : « أنت أحمق ! » . من ذلك اليوم عرف بين الناس « بالأحمق » .

وغادر الأحمق ملجأ اللقطاء وقد بلغ ست سنوات ، فأخذه نجار تلميذاً له . وجدّ الأحمق وأجهد نفسه فى العمل ،

تعليمات بشأن الغارات الجوية ، واتخذت الاستعدادات لحفظ مستوى الأثمان ، والاحتياطات ضد الطابور الخامس . وفعل الألمان كل ما استطاعوا لإثارة الاضطراب ؛ فكان مما صنعوه أن أرسلوا فى جو مصر عدداً من المنشورات يدعون فيها المصريين إلى الثورة واستعمال أساليب التعطيل والتعويق ، وألقوا القنابل على عدد من الأماكن فى منطقة القنال . ولكنهم لم يجنوا من كل ذلك ثمرة ما !

فقد جاء رد فعل الجمهور المصرى لهذه الأحداث الجسام غير متوقع حقا ! إن البريطانيين لم يخدعوا أنفسهم يوما من الأيام بأن يظنوا أنهم محبوبون فى مصر كل الحب . إنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أنه لا شىء ينجح فى الشرق مثل النجاح ! وأن القوة تفعل فى نفوس أهله ما لا يفعل البرهان ! وقد كان من مزية الألمان فى هذه الناحية أمران : الأول أنهم لم يفتحوا — أو يحتلوا — كما فعلت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا — أى واحد من الأقطار العربية . وكل ما يعرفه الناس هنا عن « هتلر » أنه اضطهد اليهود ، وتلك فعلة لا يعترض عليها العرب كثيرا إذا ذكروا فلسطين ! والاعتبار الثانى أن الألمان كانوا إلى ذلك الوقت موفقين فى كل ميدان .

ومع ذلك ففى هذه اللحظة — والبريطانيون جاثون على ركبهم — لم ينهض المصريون ليرفسوهم بأرجلهم ! لا بل سلكوا مسلكا رائعاً كله مجاملة وهدوء ! وقد يكون هذا نوعا من عدم الاكتراث ، أو قد يكون يقينا جاء فى آخر لحظة بأن مصر لن تفيد من الألمان ما أفادت من الإنجليز ، بل ربما كان هذا ولاء عاطفيا شعر به المصريون لحاجة نحو الإنجليز ! وأيا ما كانت البواعث فقد كان موقف المصريين مدينا حقا فى تلك الأيام الحرجة » . . .

محمد خلف الله

فكان كلما رفع القَدُّوم ارتعشت يده وسقطت بالقدوم على الخشب فلا يقطع إلا قليلا من قشره ، وكلما جر المنشار احمرّ وجهه لضعف جسمه ، فيساعده النجار بعد أن يضربه ضربا شديداً ؛ ولكنه لا يبكي لأنه لم يعرف البكاء ، وكأنه لم يعرف الألم ! بل إذا استطاع رفع القدوم قطع الخشب ، وإذا أمكنه جرُّ المنشار نشره بلا انتظار ، حتى قال جيران النجار حين رأوه : « أحمق بغير شك » !

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة ظل الأحمق يعمل ، ذلك لأن غنيا طلب إلى النجار بناء حجرة خشبية لتكون مدفئة في الشتاء ، وتعجَّله في ذلك . فأمر الأحمقَ والصبي الآخر بأن ينشرا الخشب طول الليل قائلا : « لا تناما حتى تنشرا الخشب كله لنأخذه غداً إلى بيت الغني ، وإن لم تما نشره عاقبتكما عقابا شديداً » . ثم ذهب إلى حجرة نومه وراح في سبات عميق .

ولما سمع الأحمق غطيط النجار أدرك أنه قد نام ، فقال لصاحبه بصوت خافت : « إن الجو بارد جداً متعب لك ، فيجب أن تنام » .

فقال صاحبه : « نعم ! قد أخذني النوم الآن حتى ليصعب عليّ فتح عيني ، ولكن إن لم يتم نشر الخشب فكيف نواجه معلمنا غداً ؟ » . فضرب الأحمق صدره قائلا : « لا تخف ، فإني كفيل بإنهاء ذلك الليلة . إن لحافك لا يكفي لدفئك فخذ لحافي والتف به مع لحافك » .

فأخذ الصبي لحافه ولحاف الأحمق القديم الممزق وفرشهما على الأرض ، وراح يغط في نوم عميق ويسبح في عالم الدفء والراحة .

وسُرّ الأحمق لأن صاحبه أطاعه ، ولأن لحافه أصبح حدود عالم الدفء والراحة ، وقال : « ما أجمل هذا المنظر ! » ثم جر المنشار واستمر في عمله . وهب الهواء بارداً فقيد حركة الأحمق ، وصار لا يحس بالمنشار في يده من شدة البرد ، وأخذت ذبالة المصباح الضعيفة تتمايل وتضطرب تحت تأثير تيار الهواء الداخل من ثقب النافذة ، وانطمست أمامه الخطوط السوداء المرسومة على الخشب لضعف الضوء . كل ذلك لم يوهن من عزيمة الأحمق فلم يهتم لشيء منه ، وأخذ ينشر الخشب كأنه آلة صنعت لذلك .

وأشرق الفجر ، وقد بقي لدى الأحمق قطعتان من الخشب لم ينشرهما . واستيقظ النجار وصوت المنشار لا يزال يرتفع ، فوجد الأحمق ينشر الخشب وحده . وأما الآخر فلا ينفك غارقا في سبات عميق وقد التف في اللحاف القديم الممزق ؛ فثار وهبّ من سريره ، وقصد النائم ورفع اللحاف عنه يريد ضربه ، فأسرع الأحمق وأمسك بيده قائلا : « إنه لم يرد النوم وإنما أنا دفعته إلى النوم ، فلا يجمل بك أن تضربه يا عم » .

وزاد غضب النجار عند ما سمع ذلك ، إذ وجد الأحمق أفسد صاحبه وساعده في الفساد وأعاره لحافه ، وكان بذلك سببا في تأخير الميعاد مع الغني وهو يخاف عتابه ، فأخذ عصا طويلة وضربه وشتمه قائلا : « أنت أحمق ! » .

ومنع الأحمق عن الطعام يوما كاملا جزاء عمله . واكتفى الأحمق يومذاك برؤية غيره يأكل بشهية ولذة .

وذات يوم رجع الأحمق مساء من بيت صاحب العمل ، وبينما هو يدلف في أحد الشوارع إذ وقعت قدمه على شيء فالتقطه ، فإذا به كيس ثقيل ، ففتحه وقربه من مصباح الشارع ، فوجد به بضعة عشر ريالا من الفضة لامعة تخطف النظر .

فوقف الأحمق وقال : « هذه الأشياء البيضاء اللامعة لا تنفعني أبدا ، إذ أنني آكل كل ليلة رغيف خبز ، وألتف بلحافي القديم الممزق ؛ وهما في البيت ؛ وإذا أخذت تلك الأشياء إلى البيت ورآها النجار أحبها حبا جما ، وأنا لا أعرف لماذا يحبها ؟ »

وفكر الأحمق وأطال التفكير، ولكنه لم يدرك لذلك سببا، فقال في نفسه: «لماذا أفكر في ذلك؟ في حين أني لا أحتاج إلى تلك الأشياء، وأظن أنه من الخير أن أطرحها». ولكنه لما هم بطرحها في صندوق القمامة عادت نفسه تحدثه قائلة: «لعلها ضاعت من شخص مثل نجارنا يحب أمثال هذه الأشياء، وهو لا بد حزين لضياعها، ولعله يبكي الآن حتى يكاد يموت»! فظل واقفا مكانه تحت المصباح.

عاد باعة الليل المتجولون إلى منازلهم، وأرجع السكران إلى بيته، ومر الشرطي يجوب الشوارع بعد أن أغلقت المحال التجارية أبوابها، وخلت الشوارع إلا من تلك المصابيح الكهربائية البيضاء الهادئة، والأحمق منتظر ولم يأته أحد يبحث عن هذه الأشياء. فقال: «هذا غريب! هل أضاعها هذا المصباح؟ وإلا فلماذا يفتح عينه اللامعة ويأبى أن يغمضها لينام كما ينام الناس؟».

وفجأة سمع صوت أقدام مسرعة خفيفة، فأيقن أن الآتي لا بد صاحب تلك الأشياء. ولما مر صاحبها أمام المصباح وجده عجوزاً قد ملأت عينيها الدموع، وهي تدقق النظر إلى الأرض، فلم تر الأحمق.

فناداها: «ياسيدتي! هل تبحثين عن كيس فيه أشياء بيضاء لامعة؟ هاهوذا!»

«هات! الحمد لله!». قالت العجوز هذه الكلمة وعلت الابتسامة وجهها المتجعد النحيف - فكانت ابتسامه قبيحة غاية القبح.

* *

ولما وجد النجار أن الأحمق لم يرجع إلى البيت ظن أنه غرق في النهر، أو خدعه أحد وأخذه إلى مكان ما، ونام في ميعاده كأن لم يحدث شيء، ولم يبحث عن الأحمق. وعندما عاد الأحمق وجد غرفته حالكة الظلام فدخلها يتلمس طريقه كالأعمى، وغطيط النجار يقلق الليل، حتى عثر بلحافه القديم الممزق فالتف به مسرعا ونام نوما عميقاً.

وفي الصباح رآه صاحبه نائما بجواره، فأيقظه وسأله أين كان أمس. فأجابه بتفصيل ما حدث له. فأخرج صاحبه يده اليمنى من لحافه وأشار بسبابته إلى جبين الأحمق وقال له: «أنت أحمق!».

وذات يوم بدأ الأحمق وأصحابه بناء بيت عند أسرة كبيرة، وفي العادة أن يوزع صاحب البيت في بدء البناء الكعك والخبز على العمال للتبرك، فأخذ الأحمق منهما كعكتين ورغيفين من الخبز.

وحينما عاد الأحمق قابل في الطريق جماعة من الفقراء اللاجئين، ورأى بعض نسائهم يحملن أولادهن العرايا في جيوبهن الممزقة القذرة على ظهورهن، وبعضهن يحملن أولادهن في أحجارهن يرضعنهم، وهم يصيحون صياحا مؤلما، ويسترحمون الناس كأنهم غربان سنة القحط.

وشعر الأحمق كأن عيونهم ترى أشعتها إلى كعكه وخبزه، فقال: «غريب جداً! هل يريدون أن يأكلوا الكعك والخبز؟ لعلهم لم يعرفوا أن الكعك حلو وأن الخبز لذيذ، فيجب علي أن أذيقهم الكعك الحلو والخبز اللذيذ، وخصوصاً أنه لاحق لي في أكلهما، فالجزء ينتظرني عند النجار آكله حين أعود إلى البيت».

فوزع الكعك والخبز على اللاجئين.

ولم يكن اللاجئون يتوقعون مثل هذه الهدية الفاخرة، فكفوا من الصياح، وأخذوا يقطعونها قطعاً صغيرة ويوزعونها على أنفسهم — صغيرهم وكبيرهم — وتحركت أفواههم معاً، وأكلوها بشهية كما لو كانوا يأكلون الحمام أو الدجاج. فسر الأحمق لذلك المنظر سروراً كبيرا وانصرف.

وعلم جاره أنه سيرجع الليلة ومعه الكعك والخبز، فانتظره حتى أتى، وأوقفه قائلا: «هات نصف كعك

البناء وخبزه » .

فأظهر له الأحمق يديه الخاليتين وضحك قائلا : « لِمَ لَمْ تقل لي من قبل ؟ فقد وزعتهما على اللاجئين . وإني آسف من أجلك جداً » .

فغضب وعبس وجهه ، وبصق على الأرض وقال وهو يغط صوته احتقاراً : « أنت . . . . أحمق . . . . ! » .

وفي يوم ترك العمال أعمالهم واستراح الناس أجمعين ، وذهبوا إلى الميدان الكبير ليستمعوا إلى خطاب سيلقيه الملك في ذلك الميدان . وكان هذا الملك شجاعا ، ما حارب عدواً إلا وقهره ، ولكنه هزم في المرة الأخيرة ، وهي أول هزيمة أصابته .

وذهب الأحمق مع زملائه إلى الميدان ، والناس مزدحمون كأنهم نمال . وحاول في ذلك المزدحم أن يرى الملك فخاض بين الناس حتى وصل إلى المنبر ؛ فلما رفع رأسه رأى وجه الملك قد علاه الغضب ، وكأن عينيه جمرتان من نار ، ولحيته تشبه الأسلحة قامت على جانبي وجهه . وأخذ يخطب الناس ، فقال : « . . . إن هذه الهزيمة لمن أكبر العيوب ! إن هذه الهزيمة لمن أكبر العيوب ! لقد كنا نَقهر ولا نُقهر ، أما اليوم فقد صرنا من المقهورين أهل من أحد يأتي الآن فأقطع رأسه بضربة واحدة !! . . . »

وكان الهدوء يسود الميدان فلا يسمع إلا صوت الملك .

ورأى الأحمق أن الملك المسكين قد يقضي عليه غضبه ، فلا بد من حيلة لإزالة ذلك الغضب ؛ ففكر قليلا وواتته الحيلة فصاح قائلا : « يامولاي الملك ! أظن أنه لن يأتيكم عدو ، وإن كنتم تريدون قتل أحد حتى يفرغ غضبكم فها هو ذا عنقي ! » .

« يا أحمق ! يا أحمق ! » هكذا ناداه الناس في الميدان وسبوه كما يسبون الكلاب والخنازير ، فقد قطع خطاب الملك الخطير ، وضحكوا من حمقه .

ولكن الملك لما سمع كلام الأحمق ذهب عنه الغضب سريعاً ، وشع نور الرحمة من عينيه ، وعلت الابتسامة وجهه ، وقال للأحمق :

« إنك الآن تؤذيني ! إذ أنني أريد قهر عدوي وأود لو قتلته ، ولكنك ترضى لنفسك الموت بدلا عنه ، ولذلك كنت أكرم مني ؛ والله لن أحارب أحداً بعد اليوم ! » .

فأمسك الملك بيد الأحمق راجعين إلى القصر ، ودعاه إلى وليمة كبرى ، وكانا يشربان وجهاً لوجه .

ولما علم الملك أن الأحمق نجار ، أمره أن يصنع قوس نصر خشبياً كبيراً مرتفعاً ليكون تذكاراً لتحريم القتال . فصنعه الأحمق بدقة وإحكام ، وكانت تملؤه صور آلهة السلم تحمل على أيديها آلات الموسيقى ، وصور حيوانات خاشعة كأنها تستمع إلى الموسيقى ، وحولها صور الأشجار الكثيفة والأزهار المتفتحة تظهر جميعها فرحة مسرورة .

وتم صنع القوس . وفي يوم الاحتفال بإزاحة الستار عنه ، جاء الملك وعلق بيده الكريمة إكليلا كبيراً في وسطه ، فهتف الناس وهللوا ورفعوا الأحمق على الأعناق وصاروا يرمونه بالأزهار والرياحين .

ومن ذلك اليوم كلما مر إنسان بهذا القوس أشار إليه قائلا : « هذه مأثرة الأحمق » .

ترجمة

عبد الله ما — يي — كو

أبو نواس

لما أصدرت لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية كتاب « بشار بن برد » فى مجموعة كتبها الحديثة ، التى اختارت لها اسم « أعلام الإسلام » ، وهو تأليف حضرة الأديب الناقد الكبير الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ، كتبت كلة تقريظ له فى المقطم يوم ١٥ مايو الماضى ، قلت فيها : « ولنا أن نسأل كيف يصح أن يوضع بشار فى مجموعة أعلام الإسلام ، مع أن المؤلف شك فى سلامة إسلامه . ؟ » ورأينا كثيرين من الأدباء يشاركوننا فى هذا التساؤل . ولكن اللجنة أخرجت كتابها الجديد « أبو نواس » ووضعته فى المجموعة ، مع ما هو مشهور عنه من فسوق ! غير أن مؤلفه الأستاذ عبد الرحمن صدقى بين فى مقدمة كتابه « أن المجموعة ليست وقفا على الهداة الصالحين ، والفقهاء المجتهدين ، والأبطال المحاربين من حوزة الدين ؛ فالمجموعة فيما أرادته اللجنة أوسع من ذلك مجالا وأرحب أفقا ؛ فهى تشتمل على هؤلاء وعلى غيرهم ممن تفيد الترجمة لحياتهم فى تمثيل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى فى بداوته وحضارته ، وفى جده ولهوه ، وفى إعانه وظلمته ، حتى يخلص من ذلك كله صورة كاملة صادقة لما كانت عليه تلك العهود ، وما دخل عليها من آثار ، وما اختلف عليها من أطوار ، فيتمثلها المطالع العصرى على جليها وخفيها ، ويتعرف موجبات تقدمها ورقيها ، ودواعى تدهورها وسقوطها » . وبذلك يكون الأستاذ صدقى قد جلى للقراء صورة صادقة للمنهج الذى توخته اللجنة فى مجموعتها . ولقد فهمنا علاوة على ذلك أن هذه المجموعة كانت وزارة المعارف عازمة على إصدارها على هذا الشكل وبهذا الأسلوب ، ولكنها عدلت عن نشر المجموعة ، فجاءت اللجنة وتولت إصدار المجموعة على ما كانت مهيأة عليه من قبل .

ونريد أن نقول إن الأستاذ عبد الرحمن صدقى تحرى فى تأليف كتابه أن يجلى للقراء صورة فاضلة لأبى نواس ، فأظهرنا على عزة نفس يندر وجودها عند الأدباء والشعراء المرتزقين ، فقال : « ولم يكن النواسى مع اعتماده فى طلب العيش على الكبراء ، وأرباب الدولة بالذى يتحاقر ويتهضم نفسه لهم ، ويستشعر الضعة والصغار ويتجنبهم ؛ فقد كان عنده من ذلك شعوره القوى بما للفن الذى يعالجه من شأن وقيمة ، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . . . فجعل يمر بأبى نواس القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليه وهو متكئ ممدود الرجل لا يتحرك لأحد منهم ، وإذا جلساؤه ينظرون إليه قبض رجليه ، ووثب وقام إلى شيخ قد أقبل على حمار له ، وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر فاعتنق أبا نواس يحادثه » .

فهذا موقف يعز ظهور مثله عند المرتزقة ، فهو يعظم نفسه عند العظماء والسادة ، ويحترم زميلا له ويتواضع له ! ! بل إن له موقفاً أرفع من هذا مرتبة ؛ فقد حج الخليفة هارون الرشيد وحج معه وزيره الفضل بن الربيع وأبو نواس ومحمد بن مناذر ، وذلك بعد ما نكل الخليفة بالبرامكة ، وكان ابن مناذر مسرفاً فى مدح البرامكة فى عهودهم ، وقد أعد الشاعر قصيدة فى مدح الخليفة وحاول أن ينشدها بين يديه يوم التروية (٨ من ذى الحجة) ، ولكن وزير الخليفة أفسد عليه الأمر ، وقال للخليفة : هذا مادح البرامكة ! فتنكر وعبس وأمر بضربه ، فضرب ضربا مبرحا حتى أظلمت الدنيا فى وجهه ، وأخرج من حضرة الخليفة وهو لا يعى شيئاً ؛ فما كان من أبى نواس إلا أن دفع إليه صرة فيها أكثر من مائة دينار وقال له : خذ هذه ، وتبلغ بما فيها . مع أنه سبق له أن حكم بالسبق للحسين بن الضحاك عليه ! فهذه روح عالية حقاً وصدقاً تتجلى فى الكتاب ، وتشع نوراً فى سيرة أبى نواس الشاعر المشهور بمجونه وتهتكه .

ولقد أبدع الأستاذ صدقى فى تصوير عصر أبى نواس

ترجمة الكتب الطبية فى عصر العباسيين

جالينوس العرب

يعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى أعظم طبيب فى العصور الوسطى . وإن نبوغه وكثرة مؤلفاته الطبية لتجعلنا ندعوه بحق جالينوس العرب . ولن أحاول فى هذا المقال مناقشة آرائه الفلسفية والدينية ، ولكنى سأعنى بعرض بعض مؤلفاته الطبية وتحديد ما نقله إلى العربية من آراء جالينوس وأبقراط .

إن ما وصلنا عن حياة الرازى قليل جداً بالقياس إلى مكانته العلمية ، وفضلا عن ذلك فإن فى كثير من الروايات عنه غموضاً واضطراباً . ولد بالرى حوالى عام ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) ، وهناك درس الرياضيات والفلك والفلسفة والأدب والكيمياء ، وكانت عنايته فى أول الأمر موجهة إلى الكيمياء ، فنبغ فيها ؛ وكان أول من أدخل المستحضرات الكيميائية بين المفردات الطبية . ونحن لانعرف عنه أى نشاط فى الطب قبل الثلاثين من عمره ، إذ ظل إلى ذلك الوقت من حياته مغرما بالموسيقى . وقد درس الفلسفة مع يحيى بن عدى ؛ وأثرت نظرياته الفلسفية فى كثير من رجال الشيعة ؛ وهاجم المعتزلة ، واعتقد أن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر محال . وقد لخص كثيرا من معتقداته الدينية فى كتابه « نقد الأديان » . ولا يهمنا فى هذا المقال شرح آرائه فيما وراء الطبيعة ، غير أننا نورد ماقاله القاضى صاعد فى كتابه التعريف بطبقات الأمم فى صدد موقف الرازى من الدين ، قال صاعد : « إن الرازى لم يوغل فى العلم الإلهى ولا فهم غرضه الأقصى ، فاضطرب لذلك رأيه ، وتقلد آراء سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة ، وذم أقواماً لم يفهم عنهم ولا اهتدى لسبيلهم »(١) .

دبر الرازى بيمارستان الرى ، وتقلد وظيفة رئيس أطبائه . ولما ذاع صيته قلده عضد الدولة بن بويه وظيفة رئيس أطباء البيمارستان العضدى ببغداد . وقد قيل إن الرازى نفسه هو الذى اختار الموضع الذى شيد عليه ، وكان ذلك بين عامى ٩٠٢ و٩٠٧ م

ترك الرازى ثروة من الكتب الطبية قل أن ينفرد بمثلها طبيب ، فقد ذكر صاحب الفهرست ما يقرب من ١٤١ كتابا من مؤلفاته ؛ وذكر ابن أبى أصيبعة مايقرب من ٢٣٢ ؛ كتابا ولسوء الحظ أن معظم هذا التراث القيم قد عفا واندرس . وسأصف بشىء من الاختصار بعض موسوعاته الطبية التى أودع فيها ما نقله إلى العرب من الطب اليونانى .

(١) كتاب الحاوى : ويسمى الجامع الحاصر لصناعة

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة . المطبعة الوهبية ج ١ ص ٣١٠ .

وحياة الفن فى ذلك العصر ، وتأثير البرامكة فى العصر ، وفى ما أشيع من نوادر وحكايات مع هارون الرشيد ، وأثبت لهارون الرشيد تدينه وكثرة صلاته وحجه ، وأثبت لأبى نواس إيمانه وتصديقه فى قلبه (ص ١٨٤) . وأفاض القول فى تحزب أبى نواس للفرس وتهكمه بالشعر العربى حتى المعلقات (ص ١١٧) ؛ وأحسن جدا فى تعليل ما تسلط على أبى نواس من روح الخلاعة التى لازمته حتى الكهولة وحتى الممات ، وتمنى لو أن حبيبة الشاعر جنان رضيت به زوجا لها ، وقدر أنها كانت قمينة أن تصلح نفسه وترتقى به لأنها استطاعت أن تخلق منه عذريا ، وأن يحج وينشد فى حجته تلك القصيدة التى ناجى بها الله عز وجل مناجاة طيبة ، ومطلعها :

إلهنا ما أحكمك ... مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك ... لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك (ص ٨٧ — ٩٣)

وامتاز هذا المؤلف بديباجة قوية وأسلوب متين ، وبحث دل على علو منزلة المؤلف فى علم النفس والرجوع إلى حقائق التاريخ ؛ فوفق توفيقاً عظيما فى بحثه وتحقيقه ، وخلق من أبى نواس شخصية ممتازة فى دعابته وجده وسيرته . فجاء كتابه تحفة أدبية تاريخية محببة .

محيى الدين رضا

الطب ، وقد جمع فيه كل ما وجده متفرقا عن الأمراض والأدوية ؛ فهو موسوعة طبية تحصر أغلب آراء أبقراط وجالينوس . ويقول ابن أبي أصيبعة إن ابن العميد كان له الفضل في إظهار هذا الكتاب . فقد بذل دنانير كثيرة لأخت الرازي حتى أخرجت له مسوداته وقام على ترتيب فصوله وتنسيق مادته[1] . ولا يمكن أن تكون معلوماتنا عن هذا الكتاب دقيقة ، إذ لا توجد منه في العالم نسخة كاملة . ويعتقد الدكتور براون أن نصف هذا الكتاب قد فقد نهائياً ، وما يوجد منه موزع في مكتبات أوروبا . فثلاثة أجزاء منه في مكتبة المتحف البريطاني بلندن ، وثلاثة في البودليان بأكسفورد ، وخمسة بالأسكوريال بأسبانيا ، وبعض مختصرات منه في مكتبة الدولة الألمانية [2] . ولا يمكننا أن نحصر بالضبط أقسام الكتاب وترتيب فصوله ، فما يذكره صاحب الفهرست يخالف ما يذكره المترجمون الذين قاموا بنقله إلى اللغة اللاتينية . وليس ذلك بغريب ، فالمؤلف لم يقم على ترتيب فصوله . وقد ذاع هذا الكتاب في العصور الوسطى ، وكان يدرس في كلية الطب بجامعة باريس ١٣٩٥ م ، وترجم إلى اللغة اللاتينية في مدينة البندقية عام ١٥٠٠ و ١٥٠٦ م .

(٢) الكتاب المنصوري : صنفه للأمير منصور بن إسحاق بن إسماعيل صاحب خراسان وماوراء النهر . وهو في عشرة أقسام : يبحث القسم الأول في شكل أعضاء الجسم ؛ ويقول العالم فريند إنه مأخوذ عن أبقراط وجالينوس . ويبحث القسم الثاني في تعرف مزاج الأبدان وهيئتها ، وهو مأخوذ عن De Humoribus لأبقراط و De Temperamentis لجالينوس . ويبحث القسم الثالث في الأغذية ، وقد اعتمد في كتابته على كتاب De Dieta لأبقراط و De Alimentorum facultatibus لجالينوس . أما القسم الرابع فموضوعه وسائل حفظ الصحة ، وهو مأخوذ عن De Sanitate tuenda لجالينوس . أما القسم الخامس فقد تعرض فيه لدراسة أمراض الجلد وأدوات الزينة ، وهو مأخوذ عن كتاب De Compositione Medicamentorum secundum locos . ويبحث القسم السادس في الأغذية ، وهو مأخوذ عن مصادر يونانية مختلفة . وقد عالج في القسم السابع صناعة الجبر والجراحات والقروح . وفي الثامن السموم . أما التاسع فهو أمتع هذه الأقسام ، وقد جمع فيه كل ما وجده متفرقا عن الأمراض وعلاجها ، وقد ذاعت شهرته في العصور الوسطى ، وكان يسمى Nonus Almansoris ، وهو مأخوذ عن كتاب De Morbis لأبقراط ، وكتابي De Compositione medicamentorum secundum locos & De locis affectis لجالينوس[1] .

وقد قام الشراح في العصور الوسطى بكتابة تعليقات كثيرة على هذا القسم ، وكان يدرس في جامعة تيبنجن Tübingen بألمانيا في أواخر القرن الخامس عشر . وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية ، ونشر ككتاب قائم بذاته ، وعليه تعليقات الشراح في مدينة البندقية عام ١٤٩٧ م ؛ وقد نشر ريسكا Reiske عام ١٧٧٦ م بمدينة هلا Halle بألمانيا النص العربي ومعه الترجمة اللاتينية .

أما القسم العاشر من الكتاب المنصوري فيبحث في الحميات ، وقد اعتمد الرازي في كتابته على كتاب De Crisibus لجالينوس .

من هذا العرض السريع لمحتويات كتابي الحاوي والمنصوري يتضح أن الطب اليوناني هو المعين الأول الذي نهل منه الرازي ، وأن معظم مؤلفاته الطبية ترجع إلى أصول يونانية .

للبحث بقية

محمد أحمد صبيح

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ١ ص ٣١٤

(٢) Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur. Band 1. P 234 E. G. Browne : Arabian Medicine. Cambridge, 1921 P. 5

(١) D. Campbell : Arabian Medicine. Vol. 1 London 1926 P. 67

بين المسموع والمقروء

حظوظ وحظوظ

لقد عرف الناس أن حظوظ أبناء آدم دائمة الاختلاف ، وكذلك حظوظ بناته . وتبدأ هذه الحظوظ عند الميلاد : فنُطفة تتشكل في قَصْر ، ونطفة تتشكل في كوخ ؛ ونطفة تصدر عن طباع تكفي لردّها إلى سواء السبيل الإشارة الخفيفة السمحة ، ونطفة تصدر عن طباع لا يكفي لردها إلا وَلْت ضربُ النعال ثقيلةً صفيقة . وهي من بعد الميلاد تتبدّل حظوظها تبدّل الأجواء .

وكذلك تختلف حظوظ الحيوان ، فكلب الغني غير كلب الفقير ؛ وهذان لهما حظ فوق حظ الكلب الذي لا صاحب له . فالأول له طعامه يُشترَى خصيصا كبعض مؤونة البيت الكبير ، وله بين الطعام البسكوت والحلوى يتفكّه بها ، وله المأوى الطيب الدافئ يأوي إليه شتاء ، وله خضرة الحشيش الطريّ الندىّ يقيم عليه في البستان الواسع إذا احترّ الصيف . وأما الثاني فطعامه ما بقي من مائدة البيت الصغير وهي قليلة ، ثم هو يستكمل طعامه من بقايا موائد الجيران إن كان فيها بقية ، وهو من بعد هذا يطوى أكثر الليالي نصف جوعان . أما الثالث الذي لا صاحب له فسكنه الشوارع والحارات جميعاً ، وأرض الله الواسعة الفضاء . ولكن الطعام لا يوجد على قارعة الطريق إلا في المزابل ، فمن هذه طعامه . وإلا مما يَسنح له الفينةَ بعد الفينة من شقوق البيوت والحوانيت ، فمن هذه اختلاسه واختطافه . وهو من بعد هذا رقيق الجسم ، قارع الجلد ، ذابل الشعر ، وضيع الذيل ، مخفوض الرأس من ضيام وذلّة !!

وكحظ الكلاب حظوظ القطط ، وحظوظ الخيل والبقر ، وحتى حظوظ الذباب . ولكن حظ هذا الأخير حظ معكوس ، فهو أرغد عيشا عند الفقراء منه عند الأثرياء . فهو يَنعم على القذر الكثير ، ويشقى حيث الصابون يسير والماء غزير .

والنبات له حظّ كحظ الحيوان من أعجم وفصيح . فهذا الشجر له التربة الخصيبة السمينة ، وذاك له التربة العجفاء . وهذا له الهواء الطلق والشمس الناضرة ، وذاك يتلوى ذات اليمين وذات الشمال يطلب فسحةً في الهواء وفُرجَة إلى أشعة السماء . وكذلك المزروع من النبات له حظوظه في الحقل كحظ ما يدبّ عليه من ماشية ، ومن يدب عليه من إنسان . فهو في حقل الصعلوك يتغذى من الأرض بمقدار ما فيها ، ويشرب من الماء على قدر ما تسمح وسائله إليه ؛ وقد لا يجد الماء في أوانه ، ثم يجده في غير أوانه ؛ وقد يأتيه الوباء فيذهب به ، كما يذهب بصاحبه ، وببهيمة صاحبه ، في ليلة وضحاها . أما هو في حقل الأمير فيتغذى من الأرض بمقدار ما يهوى — بمقدار ما يضع فيها الأمير من سماد . وهو يشرب الماء عند ما يهوى الماء ، من قناة جارية أو آلة رافعة . وهو إذا اعتلّ تحرّك له القصر الرفيع بالتطبيب ، فمن كبريت يُذَرّ ، إلى أدخنة تُساق ، إلى أدوية تُرشّ ، إلى أنامل كعدد الحصى تُعنَى بالشجر والشجيرات ، فرادى ، كما تُعنى أناملُ الممرضات خفيفةً رخصةً بأجسام المرضى في المستشفيات .

وكحظّ النبات حظّ الجماد ، هذا ينعُم ويشقى بصاحبه ، وهذا ينعم ويشقى بساكنه . ورُبّ بيت سكنتُه ، كان له منّا الإعزاز والتدليل ، وكان لبستانه من بستانيّنا التنسيق والتنميق ألوانا وأفانين ، زرته من بعد زمان فأنكرته ، ثم من بعد لأْيٍ عرفته ، فرثيت له كما يرثي الصديق لصديق قديم ذلّ من بعد عزّة ، وتطامن من بعد ترفّع وإدلال .

ومنذ أيام هزّني الشوق إلى زيارة أحياء مصر العتيقة ،

حىّ القلمة فا دونها؛ فجمعتُ خلالها بين ماضٍ كبير كريم، وحاضر صغير حقير. فاجتمع لي مما رأيت، وما ذكرت وتصوّرت، مقارناتٌ أليمة بين حظوظ البشر، وحظوظ الحجر، وحتى حظوظِ الشجر. وكان أكثر ما فعل في نفسي شجرة تراءت لي على المدى عتيقة، مدّت أعناقها إلى السماء في جهد الشيخوخة، تحاول أن تتنفس من بين بيوت تكاثرت عليها، أكثرها العتيق الرفيع السامق، وهي جميعاً تكاد تهمّ بالسجود قِدماً. واقتربت منها فتراءت لي تلك الشجرة في زهو الصبي، قبل قرن من الزمان، في أغصان لينة وريقة، وأوراق ناضرة خضراء، في فسحة من الهواء وغمرة من الضياء، ينعم تحت ظلالها الحور والولدان، ويَعبَق في جوّها العطر والريحان؛ ثم مدّ الزمن في عمرها حتى خرجت عن زمانها، إلى زمن ضاقت فيه من تحتها مسالك الناس سعياً وراء الرزق الحقير، وانبعث فيه إلى أنفاسها اللاهثة بخار الزيت في المِقلاة، وأنفاس العفن من روث البهائم، وروائح الفقر البالغ التراكم.

ونظرت إليها فارعة الطول، متهدّمة الأوصال، قليلة الأغصان، على أوراقها القليلة صفرة تخالطها على استحياء خضرة، وهي تتطاول على ضعف تريد أن تسمو على ما حولها من ضيق، وتهرب مما اكتنفها من فقر؛ وأنّى لها السموّ، وأنّى لها الهرب، وأقدامها في أرض ذلك القصر، أو ما كان قصراً، دفينة، وجذورها في تلك التربة العتيقة بحكم العشرة الطويلة مقيَّدة رهينة؟! لقد اجتمع على هذه الشجرة السيّئتان، الفاقة والشيخوخة، من بعد ما اجتمع عليها الحسنتان، النعمة وطراوة العمر، وبئس البديلان وبئست العقبى.

فهذه حظوظ الإنسان والحيوان، وهذه حظوظ النبات والجماد، متباينة متحولة. وحتى ما لم يكن حياً أو جماداً له كذلك حظوظه؛ فالكلمات المنطوقة لها هي الأخرى حظوظها وأقسامها. فكلمة الجمال، وكلمة الرشاقة والحسن والدعج، والنغم والموسيقى، والغبطة والسرور، كلها ألفاظ ينفتح لها السمع، وتهشّ لها الوجوه وتنبسط الأسارير. وكلمة القبح والدمامة والبذاءة، والنشاز، والحسرة والحزن، كلمات تنسدّ منها الأسماع، وتتجهم لها الوجوه وتنقبض الصدور. وقد لا يسعف الحظ الكلمات كل الإسعاف. فمن الكلمات ما قد يحسن معنى ويسوء سمعاً: كالخبيصة، وهي الضامرة البطن، تحسن فهماً وتسوء جرساً، وهي بمعنى الخبيصة والتخبيص أشبه. ومن الكلمات ما يسوء معنى ويحسن لفظاً. فكلمة الموت ما أخفها على اللسان، وهي تخرج من بين الشفاه خفيفة كالنسيم، ولكن ما أكثر ما يشق الحلق بها من راحل وقطين!

حتى الأعداد، لها هي الأخرى أقسام وأرزاق. فالعشرة الطيّبة؛ ولم أسمع قط أحداً يقول العشرة السيئة. والثلاثة عشر عدد الشؤم، فهي في العصر الحديث كنعيق الغراب وصُياح البوم في العصر الغابر القديم.

والسبعة امتازت بين الأعداد بالخلود، فهي خالدة كالدهر. ذلك أن الدهر يتألف من أسابيع، والأسبوع سبعة أيام. فوحدة العيش سبعة، يتقلب الناس عليها بين العمل والفراغ، وبين الفراغ والعمل، وعليها يؤجر كثير من الناس في كثير من الأمم. والسماوات سبعٌ طباق. وعجائب الأرض سبعة، ولا تسألني عنها فتحرجني، فالذي أعرف عنها أنها مُثُل خالدة من روائع الفن، أو هكذا اعتبرها القدماء من أهل الإسكندرية، في عهدها الإغريقيّ. وقد أذكر نصيب مصر منها. فلمصر منها أهرام الجيزة وفنار الإسكندرية. وثالثٌ، حضريّ، وهو برج بابل، وقيل لا بل حدائقها، وأسموها حدائق سيميراميس Semiramis نسبة إلى أميرة بابل وملكتها التي زعموها بانية بابل وصاحبة مجدها. وباسمها سُمّي فندق القاهرة الشهير، وقد أطلّ على النيل، وكان من حقه أن يُطلّ على الفرات.

وللسبعة تكريمات وتشريفات أخرى : فالسنوات العجاف التي حلّت بمصر ويوسف صاحب خزائنها كانت سبعاً ؛ وأهل الكهف كانوا سبعة . ولست أدرى أهؤلاء مَنْ ذكر القرآن أم غير هؤلاء . فالقرآن الكريم يقول: إن الله أعلم بعدّتهم ، ولكن القصة التي جرت على ألسنة أهل روما من النصرانيين كانت غير ذلك . وحكايتها أن سبعة من الشباب المسيحيّ حكم عليهم الطغاة الكافرون بأن يُدفنوا في الكهف أحياء . كان هذا في القرن الثالث من الميلاد . فلما دخلوا الكهف جاءهم النوم فناموا مائتي عام كاملة . حتى إذا مرّ بالكهف راعٍ دخله ، فاستيقظوا على دخوله . وقاموا فبعثوا واحداً منهم إلى المدينة يشترى خبزاً . فلما بلغ أسوارها راعه أن يرى الصلبان على أبوابها . وتفقد صاحب الخبز ثمنه ، فإذا به دراهم لاعهد له بها . فاختصما إلى رجال الشرطة ، فقصّ عليهم قصته ، وساقهم إلى الكهف حيث كان أصحابه . وذهب القيصر إلى الكهف ، فقال له الشبان السبعة إنها مشيئة الله بعثهم من بعد دهر طويل آيةً لقوم لا يؤمنون .

وإذ أدّوا رسالتهم عادوا إلى الكهف فاتخذوا فيه مراقدهم ، فجاءهم النوم هذه المرة إلى غير استيقاظ .

ومن مأثور السبعة أنها عدد المرّات التي يطوفها الطائف بالشيء إذا أراد له تكريما . جاء في قصيدة حافظ التي نشرتها له الثقافة في عددها الماضي ، في الرثاء ، قوله :

تالله لولا أن يقال أتى   بدعا لطفت بقبره سبعا

والطواف بالبيت العتيق سبع مرّات .

ومن مأثور السبعة أن خلايا الجسم تتجدّد كلها كل سبع سنين ، أو هكذا قالوا . ومن مأثورها أن وقفات المرء في عمره تكون عند السبعة فمضاعفاتها . فعند السبع يخرج الطفل من عهد الطفولة الأولى ، وأظن أن عندها يوجب عليه الإسلام الصلاة . وفي الرابعة عشرة يكون البلوغ فيفترق الجنسان إناثاً وذكورا . وعند الحادية والعشرين يكون تمام الرشد . وعند ضعف هذه السن أى عند الثانية والأربعين تتم الرجولة ويأخذ صاحبها ينحدر إلى الكهولة . وعند السبعين يكون يأس الحىّ من الحياة .

وعلى ذكر الموت والحياة ، أذكر أن الولد يبقى في بطن أمه تسعة شهور ، فإن سنّ البقاء نزل في العادة بعد سبعة . وهو عندها قلما يعيش ، وإن عاش فقلما يقوى ويشتد .

والخمسة تنافس السبعة منافسة قريبة ، فتكاد تسبقها . وهي خالدة مثلها . وكيف لا يخلد عددٌ جاءت أصابع اليد على وفقه . وهي ليست أصابع اليد بل اليدين ، بل الرِّجل ، بل الرجلين ، في الإنسان وكثير من الحيوان .

وكيف لا يخلد عددٌ خُلِقَ كل الأعداد ، فهو أبوها جميعاً . فالعشرة من خلقه ، والعشرون والثلاثون ، والمائة والألوف . ويسمى هذا التعداد بالتعداد العَشرى ، وهو بالخمسىّ أولى . فالذى سمّاه عَشريا عدّ أصابع اليدين جميعاً ، والذى يسميه خمسيا يعد أصابع يد واحدة .

وكيف لا يخلد عدد تشكل سطح الأرض على حسبته . فالقارات خمس والمحيطات خمسة .

وأركان الإسلام خمسة ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . والصلاة نفسها خمس صلوات .

وبالأمس قرأت مقالا جاء فيه أن دول المحور أخطأت أخطاء فقدت بسببها الحرب ، وأن هذه الأخطاء خمسة . فقلت ولِمَ الخمسة ، ولِمَ لم تكن ستة أو سبعة أو ثمانية ، فكان هذا المقال . ولعلى أذكر هذه الخمسة الجديدة مفصّلة في فرصة أخرى .

أحمد زكى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٩ | الثلاثاء ١٢ من ذي الحجة سنة ١٣٦٣ — ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مرحلة الفصـــــل

كان شهر يونيه الماضي من الشهور الحاسمة في تطورات الحرب الحاضرة ، وفيه تدخل الحرب في مرحلتها الأخيرة ، أو فيما يمكن أن نسميه بداية النهاية . ونظرة واحدة إلى ميادين الحرب الحالية وميادين الأمس القريب تؤيد هذه الحقيقة . فقبل شهر يونيه كانت الجيوش الألمانية لا تزال تحتل فرنسا والبلجيك وهولنده ولوكسمبرج والدانمارك والنرويج في الغرب ؛ وكانت في الشرق لا تزال تحتل رقعة كبيرة في شمال غربي روسيا ، كما كانت تحتل سائر بلاد البلقان وأواسط إيطاليا وشمالها . وكان يقف إلى جانبها في هذا الصراع عدة من الدول الصغرى هي فنلنده والمجر ورومانيا وبلغاريا . وبينما كانت الدعاية الألمانية تشيد بمناعة القلعة الأوربية النازية ومناعة جدار الأطلنطيق ، كان العالم يتساءل دهشاً كيف يستطيع الحلفاء تحطيم هذا الصرح الهائل ، وكيف ومتى يستطيعون الوصول إلى ألمانيا ؟ بيد أنه لم تمض أيام قلائل من شهر يونيه حتى وقعت المعجزة ، وبدأ الحلفاء غزو القارة الأوربية من الغرب بقوات وأهبات لم يسمع بها ؛ وبدأت معركة فرنسا أو معركة الدول الغربية كلها ، في رقعة ضيقة من سواحل نورماندي الصخرية ، ولم تنجح أسطورة الجدار الغربي أو مقاومة الألمان المريرة في رد هذا السيل المتدفق لتحرير أوربا وغزو ألمانيا .

فماذا نرى اليوم بعد أشهر قلائل فقط من بدء الغزو ؟ لقد تداعت المقاومة الألمانية في الغرب بسرعة لم يتوقعها أشد المتفائلين ، وقد حررت فرنسا والبلجيك ولوكسمبرج وجزء من هولنده ، وارتدت الجيوش الألمانية إلى ما وراء حدود « الريخ » ، واخترقت الجيوش المتحالفة حدود

ألمانيا في القطاع الشمالي ، واستولت على مدينة « آخن » (إكس لاشابل) الكبيرة ، واستولت في هجومها الحالي على رقعة كبيرة في شمال شرق آخن ، وهي تندفع الآن بقوة في السهل المؤدي إلى وادي الرور معقل ألمانيا الصناعي .

ولم تكن تطورات الميدانين الشرقي والجنوبي أقل روعة ؛ ففي نفس الوقت الذي وقع فيه الغزو في الغرب ، بدأ الروس هجومهم الصيفي الكبير ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى وصلوا إلى مشارف وارسو واخترقوا حدود بروسيا الشرقية في عدة مواضع ، وانحدروا من جبال الكربات إلى سهول رومانيا والمجر ، وهم يحاصرون اليوم بودابست العاصمة المجرية . وكان لضربات الروس القوية أثرها في تداعي خط الدفاع الألماني كله في الشرق والجنوب ؛ فأذعنت فنلنده لعقد الصلح الذي رفضته غير مرة ، وسلمت رومانيا وبلغاريا ، وتم تحرير اليونان ومعظم ألبانيا ويوجوسلافيا . وأما في إيطاليا فقد دخل الحلفاء رومه منذ الرابع من يونيه ، وهم يشرفون اليوم على سهول لمبارديا ، الفاصل الأخير بينهم وبين حدود ألمانيا الجنوبية .

وهكذا تغدو ألمانيا الهتلرية بعد خمسة أعوام من الحرب وقد فقدت معظم الأراضي التي استولت عليها ، وطوقها أعداؤها أو اقتحموا أراضيها في غير موضع ، ولم يبق من آثار نصرها الخلاب سوى احتلالها لهولنده ودانمارك والنرويج وبعض أراض في بولونيا ومنطقة البلطيق وشمال إيطاليا ، وسوى الدمار المروع الذي تركه الغزاة الألمان في كل مكان وطئته أقدامهم . وقد اضمحلت قوى النازية الهائلة بعد معارك مضطربة استمرت أربعة أعوام ؛ ولكنها ما زالت مع ذلك تبدي منتهى الإصرار والعزم في مدافعة أعدائها ؛ وقد استطاعت بالفعل أن تؤخر زحف الروس في الشرق عند حدود بروسيا الشرقية وأمام أبواب وارسو وبودابست ، وأن تؤخر زحف الإنجليز والأمريكيين في الغرب عند خط زيجفريد .

وحينما استطاعت القوات المتحالفة أن تخترق الحدود الألمانية في القطاع الشمالي ، نجدها تشق طريقها إلى الداخل ببطء في وجه مقاومة ألمانية تزداد شدة وعنفاً .

وكان الظنون قبل أن تقف الجيوش الألمانيـة هذه الوقفة المتينة عند أبواب الوطن الألماني ، أن الحرب قد تنتهي قبل نهاية العام الحالي (١٩٤٤) ، ولكن تطورات القتال في الأسابيع الأخيرة عدلت من هـذا الرأي . والظاهر أيضاً أن دخول الشتاء وتغير الأحوال الجوية سيكون له أثر في تأخير المعركة أو المعارك النهائية ، وقد صرح لنا مستر تشرشل في خطابه الأخير بأن الحرب في أوروبا سوف تمتد إلى صيف سنة ١٩٤٥ ؛ وقال الرئيس روزفلت في خطاب ألقاه منذ أيام قلائل إن الحرب لم تنته بعد ، وسوف لا تنتهي إلا بعد معارك تكبدنا غرماً غالياً ، وهذا التأخير بالذات سوف يتيح للألمـان فرصة أخرى للتأهب ومضاعفة جهودهم الدفاعية .

وليس معنى ذلك أن ألمانيا النازية يحدوها اليوم أي أمل في النصر ، فقد نبذت هذا الأمل منذ بعيد ، ولكنها تعرف جيداً أي مصير مروع يجره عليها التسليم أو الهزيمة . وما زالت الأمم المتحدة تصر على تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط ، وتؤكد أنها لا تقبل الدخول مع ألمانيا في أية مفاوضات للصلح قبل أن تلقي السلاح وتضع نفسها تحت رحمة الجيوش المتحالفة ؛ وما زال زعماء النازية من جانبهم يؤكدون بأن ألمانيا لن تسلم ، وأنها سوف تقاتل حتى تحصل على صلح شريف . وهذا هو السر فيما نشهده اليوم من اضطرام المعارك من الفريقين ، ولاسيما على حدود الريخ الشرقية والغربية ، وما يبدو من استماتة الألمان في الدفاع عن الوطن الألماني عسى أن يحمل الحلفاء بذلك على تغيير موقفهم الصارم متى رأوا ما يقتضيه النصر من ثمن فادح وتضحيات لا نهاية لها .

ولا ريب أن ألمانيا تخوض اليوم آخر المعارك التي

تستطيع خوضها ، بيد أنها تخوض معركة عقيمة ؛ فمصير الحرب قد استبان منذ بعيد ، وتأكد منذ الصيف الماضي بما بدا على جيوش الريخ من مظاهر الإعياء والتفكك ، وما لحقها من هزائم متوالية في الشرق والغرب . ولسنا نستطيع أن نتصور اليوم كيف يمكن أن تنجو ألمانيا من قدرها المحتوم ، ولا سيما بعد أن تطورت الحوادث على هذا النحو ، وظهرت بوادر الكارثة واضحة في الأفق

وقد حدثنا هتلر قبيل وقوع الغزو في الغرب عن عبقرية الاختراع الألماني ، وأشار إلى الأسلحة السرية التي يمكن أن تقلب ميزان المعركة ؛ وظهرت القنابل الطائرة بعد الغزو بأيام قلائل ، وأخذت تحدث آثارها في إنجلترا ، وأخذت الدعاية الألمانية من جانبها تهول من شأن هذا السلاح الألماني السري ، وتمني الشعب الألماني في شأنه بأطيب الوعود ؛ ولم يخف مستر تشرشل يومئذ خطورة الفتك الذي تحدثه القنابل الطائرة بين المدنيين ، ولا الجزع الذي ساور الشعب البريطاني من جرائها ؛ على أنها لم تحدث في سير المعارك أي أثر يذكر . وقد تبين بعد استيلاء الحلفاء على قواعدها على الشاطئ الفرنسي أنها سلاح قصير المدى . والمظنون أن الصواريخ الألمانية الجديدة التي تلقى اليوم على إنجلترا ، لن تزيد بالرغم من فتكها الشديد في أثرها المحدود عن القنابل الطائرة ، ولن يكون لها أو لغيرها من الأسلحة المماثلة في تطور المعارك الحربية أثر يذكر . وإذا كانت الدعاية الألمانية قد استطاعت يوم ظهور القنابل الطائرة أن تبعث إلى الشعب الألماني شيئاً من الأمل الخلب في كسب الحرب بواسطة الأسلحة السرية الجديدة ، فإنه يصعب عليها اليوم ، والجيوش المتحالفة تقتحم أراضي الوطن الألماني في عنف وقوة أن تحدث مثل هذا الأثر في نفوس شعب أضحى يرى شبح الهزيمة ماثلا أمام عينيه!

ولكن إلى متى تستطيع ألمانيا أن تصمد لأعدائها في ميدان الحرب ؟ إن مدى المعارك الدفاعية التي يمكن أن تخوضها ألمانيا لم يبق رهيناً بقوة الجيش الألماني وحده ، بل أضحى يتوقف بالأخص على مصير الجبهة الداخلية الألمانية ؛ فإذا استمرت الجبهة الداخلية على تماسكها ، وإذا استطاع الزعماء النازيون أن يستمروا في السيطرة عليها ، فقد يستطيع الريخسفر (الجيش الألماني) أن يصمد في ميدان الحرب أشهراً أخرى ، وهنا يتأكد ما يتوقعه مستر تشرشل من استمرار الحرب إلى ربيع أو صيف سنة ١٩٤٥ . على أنه يبدو من جهة أخرى أن الجبهة الداخلية الألمانية تقوم اليوم على بركان مضطرم قد ينفجر بين آونة وأخرى ؛ ذلك أن الأنباء المتناقضة التي تتسرب من ألمانيا إلى الخارج تكاد تجمع على أمر واحد ، هو أن هيئة أركان الحرب الألمانية ليست على اتفاق مع الحزب النازي ، الذي يستأثر اليوم داخل ألمانيا بكل سلطة ، ويحرص على تماسك الجبهة الداخلية بأعنف الوسائل ؛ ويبسط الجستابو وهو عماد الطغيان النازي اليوم على ألمانيا حكم إرهاب لم يسمع بمثله . وقد أنشأ النازيون قوة داخلية جديدة من الحرس الوطني لتحافظ على سلامة الجبهة الداخلية وتعاون في أعمال الدفاع الوطني ، وتولى همار رئيس الجستابو ، وهو اليوم حاكم ألمانيا الحقيقي ، القيادة العليا مكان هتلر ، وأضحى من الصعب على أية قوة معارضة أن ترفع رأسها في الداخل . ولكن زعماء «الريخسفر» الذين فشلوا في اغتيال هتلر في حادث ٢٠ يونيه الماضي ، قد يحاولون مرة أخرى سحق الإرهاب النازي بسحق زعمائه والتمهيد بذلك لوقف الحرب . وقد تنهار الجبهة الداخلية فجأة بصورة أخرى ، ولا سيما متى تقدم هجوم الحلفاء على ألمانيا من الشرق والغرب ، واستطاعت الجيوش المتحالفة أن تتوغل في مناطق «الريخ» الحيوية ؛ قد يحدث هذا أو غيره مما يصعب التكهن به ، وعندئذ تحل الخاتمة فجأة ، وتجثو ألمانيا أمام الظافرين .

محمد عبد الله عنان

الحيرة

لست أنسى تلك الأيام التي قضيتها في فندق « أوريان بالاس » في دمشق أيام مهرجان المعري ، وكان الشباب السوري يتحلق حول العلماء الوافدين ويمطرهم بالأسئلة الاجتماعية والسياسية والأدبية

إن كان هناك طابع عام لهذه الأسئلة فهو « الحيرة » : الحيرة فيما يجب أن يعملوا لأنفسهم ولصالح أمتهم ؟ والحيرة في المذهب السياسي والاجتماعي الذي يجب أن يعتنقوه ؟ والحيرة في موقفهم إزاء المدنية الحديثة ماذا يأخذون وماذا يذرون ؟ والحيرة في كيفية التوفيق بين مطالب الإسلام ومطالب المدنية .

وليس الأمر مقصوراً على الشباب السوري ، فالشباب الشرقي كله حائر في هذه الأمور وأمثالها ، بل كل المثقفين وأولي الأمر حائرون

ولهذه الحيرة أسباب خاصة في كل قطر ، وأسباب عامة في العالم .

إن العالم كله اليوم حائر ، لأنه هدم قديمه ، ولمّا يبن جديده ، كالسائر يمشي في الطريق الواضح المعلّم حتى إذا أتى إلى مفترق الطرق حار أين يتجه . نقم المصلحون على الوطنية لأنها جرّت التنافس إلى حد التناحر ، ولأنها أدت إلى المغالاة في حماية الصناعة الوطنية والتجارة الوطنية ، وفرض كل أمة صناعتها وتجارتها وسياستها ورجالها على مستعمراتها ، وأشعلت نيران العداوة والحسد والغيرة بين الأمم حتى أدت إلى هذه الحروب الطاحنة ، ونادوا بأن تحل الإنسانية محل الوطنية ، وأن تفتح البلاد للتجارة الحرة تتنافس تنافساً مشروعاً أساسه الرخص والجودة وما إليهما . ولكن كيف نرسم هذه الخطط لبرنامج الإنسانية ، وكيف نحافظ على مزايا الوطنية ونتجنب أضرارها ، وكيف نتخلص من إرث قديم في نفوسنا ، وأين الساسة القادرون على أن يقودوا الرأي العام لا أن يقودهم الرأي العام ؟ كل هذا لم يتبين بعد فالناس حائرون !

وشكا آخرون من التربية وقالوا إنها علة العلل ، وإنها تخدم الوطنية وتؤججها ، وتبعث في نفوس الناشئين ضيق النظر وعصبية الجنس والأمة ، وتعدّ للحرب والخصومة والسير على آثار من قبلهم في تصور نظم الحكم ؛ ولكن كيف الإصلاح ؟ وكيف يعم هذا الإصلاح الأمم كلها حتى لا يتسلح قوم بالوطنية والخصومة ، بينما الآخرون متسامحون يؤسسون تعاليمهم على الإنسانية والعطف والإخاء ؟ وكيف ينفذ الإصلاح لو عرف ، والقابضون على زمام التربية والتعليم عقليتهم من جنس عقلية حكومتهم التي تحافظ على القديم وتكره الجديد ، خصوصاً إذا كان جديداً ثائراً ؟ هذا موضع حيرة .

ورجال الدين يصرخون ضاع الدين ففسدت الأمم ، وماتت الروح فضاعت القيم ، ولا نجاة إلا بعودة الدين إلى حياته ليعود الضمير إلى محاسبة النفس ؛ ولكن ماذا فعل رجال الدين ليصوروه دين روحانية لا مادية فيها ، وسمو أخلاق لا ضعة فيها ، وعقل لا خرافة فيه ، وسماحة لا ضيق فيها ، وصفاء نفس لا شائبة فيها ، وخدمة للإنسانية لا كراهية فيها ، وعون على التقدم الاجتماعي لا رجعية فيه ، وتصفية العلاقة بين العبد وربه لا تكدرها ، وتجرد عن خدمة السياسة والاستبداد والشهوات والأغراض ؟ ! هذا موضع حيرة .

والمصلحون السياسيون ينادون أن النظام الحالي للدول سبب البلاء ، فأمم متقاطعة ترتكز سياستها على ضيق النظر وكسب المغانم على حساب غيرها ؛ وتوجيه الشعوب لمصلحة حكومتها لا توجيه الحكومة لمصلحة شعبها ؛ ونظم تتنازع العالم بين شيوعية ونازية وديمقراطية ، ويؤول تنازعها إلى انقسام العالم إلى معسكرات وفناء الملايين من بني البشر ، وتسخير العلوم والفنون للحرب ، وغير ذلك . ولكن ماهي النظم التي يجب أن تحل محل

القديم ، وكيف تفرض على الجميع ، ومن الذي ينفذها ؟ لسرعان ما توضع المبادئ الإنسانية في الحرب ، ثم تنسى في السلم ، فكيف ينفذ في السلم ما يقال في أيام الحرب ؟ هذا أيضاً موضع حيرة .

ورجال الأخلاق يشكون من ضياع الأخلاق الفاضلة ؛ فقد ضاع عطف أفراد الأسرة بعضهم على بعض ، وعطف رب المال على العمال ، والعمال على رب المال ؛ وضاعت حرمة القوانين والمبادئ كما ضاعت حرمة المعاهدات ؛ وفشا الشك في قيمة الفضيلة كما فشت الفوضى في العقول . ولكن كيف السبيل للإصلاح ؟ إن المواعظ والنصائح وكتب الأخلاق لا تؤثر مالم يدعمها الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وقد أبنّا صعوبته وحيرتنا فيه ! فهنا حيرة كذلك .

العالم كله غارق في الحيرة من هذا ومن أمثاله .

* * *

ثم للشرق حيرة أخرى بجانب هذه الحيرة العالمية بل حيرات . إن مصيره مرتبط بمصير العالم ، فهل تتغلب المبادئ الإنسانية والعدالة الاجتماعية فتنظر للشرق كأنه أخ للغرب ، إن تخلف عنه يأخذ بيده حتى يتقدم ، كما يأخذ الأخ العاقل العادل الكبير بيد الأخ الصغير فيعلمه ويعزّه ويعده لمستقبله خير إعداد ، ويؤهله للتعاون معه في إعلاء مجد الأسرة ؟ أو يسلك معه في الحاضر ما سلكه في الماضي فيكون كالأخ الظالم الكبير يتولى الوصاية على الصغير فيسلبه ماله ، ولا يعلمه لأنه ينتفع بجهله ، ويعينه على الفساد لأن فساده خير له من صلاحه ؟ هـذا موضع حيرة ! وحيرته في هـذا مشوبة بالخوف ، والخوف مبعث القلق ، والقلق يؤدى إلى الاضطراب ، والاضطراب ليس في مصلحة الحاكم ولا المحكوم ، ولا الغالب ولا المغلوب .

ثم هو قد توزعته الدعاة ، فداع إلى المثل القديم يريد نظام التشريع القديم ويريد التعليم على الأساس القديم ، ويريد التمسك بالعادات والأوضاع القديمة ، فلا سفور للمرأة ، ولا أخذاً من التشريع الحديث ، ولا أخذاً من المدنية الغربية إلا أن تقرها المدنية القديمة ، وإلا في حدود ضيقة جداً ؛ ودعاة يدعون إلى التجديد في كل شيء ، ونقل الشرق إلى الغرب في نظمه وتربيته وكل شؤونه . وهؤلاء وأولئك جادون في دعوتهم ، مقتسمون الشباب فيما بينهم ، مؤيَّدون بالبراهين القوية وجهة نظرهم . يرمي الأولون الآخرين بالتهور ، ويرمي الآخرون الأولين بالجمود ، والشباب بينهما حائر ! !

ثم دعاة التجديد فيما بينهم منقسمون ومتوزعون على المثل العليا ، تقسمتهم المذاهب السياسية والمذاهب الاجتماعية ، وبعضهم حرب على بعض ، وكثيرون ينظرون إلى هؤلاء وهؤلاء ، فيصرخون من أعماق صدورهم ، أين الحق ؟

إن رمي الغرب بحيرة فقد رمي الشرق بحيرة خاصة بجانب الحيرة العامة .

لست أكره هذه الحيرة ولا أمقتها فهي دليل الحياة ، ودليل النشاط ؛ ولكن أشفق على أهلها إشفاقي على الهائم في طريقه ، الضال في مسلكه ، أو المريض تضاربت في علاجه أقوال الأطباء .

ولعل أكبر سبب لإشفاقي ، وأكبر سبب لحيرة الشباب ، ندرة الزعماء المتميزين ، وكثرة الأعضاء الصالحين لا يقودهم رأس صالح . إن الزعيم القوي يبعث في النفوس إيماناً قوياً يذهب بالحيرة ، وناراً حارة تأكل التردد ، وعيناً حادة تعيّن الطريق عند مفترق الطرق ؛ والزعيم القوى يلتهم الخلافات فلا يكون لها أثر ، ويوحد بين الآراء المتشعبة فيكون منها رأى واحد يؤمن به الجميع إلا من لا يعبأ به . والويل إذا تقارب الرؤساء في الكفاية ، ولم يضطرهم رئيس ممتاز أن يخضعهم لكفايته ، ويسيّرهم لاعتقادهم بميزته .

ولكن الزمان علمنا أن الحيرة تخلق الزعامة ، كما يتكوّن السديم نجماً ؛ والضلال يسبق الهدى ، كما يكون الفجر الكاذب إرهاصاً للفجر الصادق .

أحمد أمين

فشـــــل ولسن

من كتاب (مد الحظ وجزره)

« لستيفان تسفايج » Stefan Zweig

ستيفان تسفايج مؤلف معاصر جنى عليه عصره في دينه ووطنه . فلقد ولد في النمسا وولد يهوديا ، وامتدت به الحياة إلى أن رأى سلطان النازية ينشأ حتى بلغ الأوج ، ويضعف ولكن ليس حتى يبلغ النهاية ، فلقد سبقت نهاية تسفايج نهاية النازية التي تحمل من أجلها أشد أنواع العذاب ؛ إذ قضى سنواته الأخيرة مشرداً طريداً جوّاب آفاق ، يعيش من قلمه ويعتمد على مروءة الشعوب التي قرأت له فقدرته . وانتهى به المطاف آخر الأمر إلى البرازيل فألف منها كتاباً قيماً ، وظن نفسه يبدأ حياة جديدة في أرض جديدة ، ولكن اليأس لاحقه . وكان قد كتب كتاباً عن حياته سماه « عالم الأمس » ووقف عند نهاية الكتاب حائراً ، فلم يجد خير ما يختم به هذا الكتاب ، بل خير ما يختم به تلك الحياة التي يصورها كتابه من أن ينتحر . وطلع الكتاب على الناس بعد وفاته مذيلا بوثيقة بخطه يثبت فيها أنه انتحر مريداً كامل العقل .

ويقول في تعليل ذلك الانتحار : « إن المرء ليحتاج إلى قوى فوق الطاقة ليبدأ حياته من جديد بعد الستين من عمره ؛ أما قواي فقد أنهكتها سنين طويلة قضيتها مشرداً طريداً ، لذلك أرى من الأفضل أن أختم في الوقت المناسب وعلى النحو الموافق حياة كانت أرقى السعادات التي ذاقتها سعادة الجهد العقلي ، وأعظم الخير الذي أحسنته الحرية الشخصية . حيا كم الله أصدقائي . ألا فليمن الله عليكم برؤية الفجر بعد طول هذا الليل البهيم ، أما أنا ، وقد راني القلق وخانني الصبر ، فإني أمضي قبلكم » .

ومن أمتع ما ألف تسفايج كتابه هذا عن « مد الحظ وجزره » ، أي إقبال الحظ وإدباره . يصف في أسطر قليلة موضوعه ، فيقول : « إن التاريخ كالطبيعة نفسها لأنه مرآتها الروحية ، يتخذ لنفسه صوراً لا يحصى عددها ولا يحد شكلها . إنه ليهزأ من النظام ويحتقر القانون ، فهو حينا كالسهم الثاقب يعدو وكأنه يسير نحو غاية مرسومة ، وحينا يتبع الصدف التي تلهو بها الرياح . وإنك لتراه يبني عصراً من عصوره بالصبر المتواصل المتأني الذي يتجلى في تبلور البلور في الطبيعة ، ثم تراه وقد أتت ساعة من ساعاته المنيفة المزدحمة بالحياة ، فإذا الأجرام المتزاحمة كلها تتبلور في لمح البصر . لكنه خالق مبدع أبداً ؛ ولذلك كانت هذه اللحظات المفعمة بنشاط التكوين والتبلور والتركز هي التي تكشف عن الجانب الفني ، بل عن نواحي الإبداع في إنتاج التاريخ . حقاً إن عالمنا مشبع بتلك القوى الحية ، ولكنه في هذه الساعات المركزة المنيفة وحدها تصبح حقيقة تلك القوى لا تحتمل شكاً . »

« ولقد انتقيت من القرون الطويلة اثنتي عشرة ساعة حاسمة من هذه الساعات ، لم أحاول أن أشوب حقيقتها بأي لون من عندي ؛ فالتاريخ عندما يخرج لنا أثراً ناضجاً كاملا لا يحتاج إلى فن الكاتب لإبرازه . إن مجرد السرد الأمين الواقع ليكفي »

ويختم تسفايج كتابه بهذا الفصل « فشل ولسن » يصور فيه تصويراً رائعاً ما علق الناس من آمال على مؤتمر الصلح عقب الحرب الماضية ، وكيف خابت تلك الآمال أملا أملا ، فكانت معاهدة قادت إلى حرب شر من سابقتها . ترى ماذا سيكون مصير آمالنا التي نعلق اليوم على مؤتمر الصلح القادم ؟ وهل تحظى بعد تسفايج بالكتاب الذي يصورها ويصور في هذه المرة تحقيقها إن شاء الله ؟

يقول تسفايج في هذا الفصل : —

في الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٩١٨ وصلت

الباخرة العظيمة « جورج واشنجطون » إلى ميناء برست مقلة وودرو ولسن رئيس الولايات المتحدة . ولم يشهد التاريخ من قبل مثل هذه الملايين عدداً ولا مثل هذا الحماس حرارة في استقبال رجل أو في استقبال باخرة . فلأربع سنوات طويلة ظلت دول العالم تتطاحن وتتناحر ، وتقتل المئات بل الآلاف من خيرة أبنائها بالبنادق السريعة والحراب، وبالقنابل والمدافع وقاذفات اللهب والغازات السامة، بل إنها ظلت طوال هذه السنوات الأربع تتراشق بالحقد والبغضاء ؛ ومع هذا فلم تكن هذه الفورة الجنونية لتسكت الأصوات الخرساء التي كانت تتجاوب في نفوس الناس ، تهتف بهم أن ما كانوا يعملونه سخيف حقاً ، وأن ما كانوا يقولونه جنون مطبق ، بل إنه عار عظيم على هذا القرن الذي نعيش فيه ! وظل يذكي هذه الملايين من المحاربين ، شعرت أو لم تشعر ، إدراك خفي أن الإنسانية قد انزلقت إلى فوضى الهمجية .

وعندئذ دوّى صوت واضح وعبر المحيط من الدنيا الجديدة ، تتردد أصداؤه في ميادين القتال، ولمّا تزل أرضها مخضبة بالدماء ، ليقول : لا « حرب بعد اليوم » ! نعم لن يكون هذا العداء بين الشعوب ولا هذا التنافر بين الأمم ، ولن تقوم قائمة لمثل هذه السياسة الغاشمة التي كانت تدور في الخفاء فقادت الأمم إلى المجزرة دون علمها أو رضاها ؛ ستتبدل الحال وسيُظل العالم نظام جديد أفضل من كل ما سبق من نظم — نظام يسود فيه القانون المؤسس على رضا المحكومين المدعم برأي الإنسانية الرشيد .

وإنه لما يثير العجب أنه ما من أمة بل ما من لسان إلا استجاب أهله في الحال لهذا الصوت . إن الحرب التي كانت بالأمس نراها لا طائل تحته من أجل الأراضي والحدود، ومن أجل الخامات والأسواق ، ومن أجل المعادن والبترول، قد اكتسبت فجأة دلالة أسمى ، دلالة تكاد تكون قدسية إنها أصبحت مقدمة السلم الدائم — مقدمة العالم السماوي المنشود — عالم الحق والإنسانية . وفجأة بدا للناس وكأنما دماء الملايين لم ترق سدى ، وكأنما جيل بأسره لم يعذب إلا لكي ينفي مثل هذا العذاب عن وجه الأرض إلى الأبد . واتجهت مئات الآلاف بل الملايين الذين تملكهم جنون الثقة نحو هذا الرجل الفرد وودرو ولسن آملة أنه يستطيع وحده أن يعقد الصلح الدائم بين الغالب والمغلوب، وأن هذا الصلح سيكون صلحا عادلا . إن ولسن سيأتي إلى هؤلاء الذين خبلتهم الحرب بألواح من الوصايا كألواح موسى عليه السلام ، تقام على أساسها رابطة جديدة بين أمم الأرض . وفي أسابيع قليلة أحيط ولسن بهالة قدسية ، فأطلق اسمه على الشوارع والمؤسسات والمواليد ، وأرسلت كل أمة حائرة أو مغلوبة مندوبيها ، وغمره من كل قارة من القارات الخمس سيل من الرسائل والتلغرافات زخرت كلها بالأمل والرجاء والطلب والإلحاح ، وبلغ عددها آلافا وآلافا ، وملأت حقائب وحقائب ، أفرغت كلها على الباخرة التي أقلته إلى أوروبا . إن العالم قد ارتضاه حكماً في المنازعات بين دوله ليصفي حسابها قبل أن يعقد هذا الصلح الذي طال التطلع إليه .

ولم يستطع ولسن أن يقاوم النداء . ونصحه أصدقاؤه في أمريكا ألا يحضر بنفسه مؤتمر الصلح . قالوا إنك رئيس الولايات المتحدة، والواجب يحتم عليك ألا تترك وطنك ؛ ويكفي أن تسيّر دفة الأمور أثناء المباحثات من بعيد . ولكن ولسن لم يعبأ بالنصح . إن أقصى ما يمكن أن يخلعه الوطن من مناصب ما هو إلا رئاسة الجمهورية ، وما تلك إذا قورنت بما ينتظره هناك على الضفة الأخرى من المحيط من مهام جسام . إنه لن يقنع بأن يخدم قوماً بعينهم ولا قارة بالذات، إنه يريد أن يخدم الإنسانية كلها، وأن يكرس نفسه لا لهذه اللحظة من الزمن وحدها ، ولكن لما فيه الخير الدائم لمستقبل العالم . إنه لا يرضى أن يحد من آماله فيجعلها تتلخص في أن يرعى مصالح أمريكا، لأن «المصالح

صور قضائية :

لمبروزو ونظريته

كان الغلام فى نحو الثالثة عشرة من عمره ، قصير العنق حتى ليكاد يحسب الناظر إليه أن رأسه ركز تركيزا بين منكبيه ، أفطس الأنف ، واسع المنخرين ، كثيف شعر الحاجبين مقرونهما ، غليظ الشفتين ، واسع الفم . تنطلق نظرات عينيه كما لو كانتا ترميان إلى هدفين اثنين لا إلى هدف واحد ، وذلك من عدم استقرار مقلتيه وشدة قلقهما ، كأنما يحس صاحبهما بأن من ورائه طالبا يطلبه .

وكانت مهمة هذا الغلام أن يؤدى الشهادة على « متهم » فى جناية .

وكانت الجناية أن هذا « المتهم » أعد وكراً لإيواء هذا الغلام وأمثاله ، يدربهم فيه على السرقة والنشل ، ثم يطلقهم وراء الفرائس التى يختارها لهم ، فيجمعون له من المال والعروض الأخرى ما تصل إليه أيديهم .

ودعى الغلام للشهادة فقال : إن المتهم أغراه بالمال على أن ينضم لعصابته ؛ وإنه كان ينفق عليه وعلى زملائه الذين معه عن سعة ، فيطعمهم أطيب الطعام ، ويدخلهم دور السينما ، ويمتعهم متاعا حسنا ؛ وإنه نجح بذلك فى إغرائهم على ترك دور أعمالهم ، وعلى هجر ذويهم للسير فى ركابه ، والعيش فى رحابه . ولكنه لم يكن يكتفى منهم بما يجمعون له من مال ، بل كان يستبيح لنفسه أحيانا عرض من شاء منهم . وإنهم ظلوا يعيشون معه فى هذه الحياة إلى أن ضج أهلهم بالشكوى من تغيب أبنائهم . فكان ذلك سبباً فى لفت نظر البوليس إلى المتهم وكشف أمره .

ولم يشأ المتهم أن يوكل محاميا للدفاع عنه ، فندبت له المحكمة من يقوم بمهمة هذا الدفاع ، فإن هذا هو النظام المتبع أمام محاكم الجنايات حتى لا تمر قضية متهم بين المحكمة دون أن يقوم بدراستها شخص إخصائى فى القوانين وتطبيقها ، يكفل للمتهم أن تعرض قضيته فى أصدق صورة ، ويحيطه بكل ما تخوله القوانين من ضمانات .

وكان المحامى موفقا كل التوفيق فى رسم خطة دفاعه . فإنه وجد أنه لا دليل على صدق الاتهام إلا ما قرره ذلك الغلام . وكان الغلام قد عرض على الطبيب الشرعى لفحصه والتحقق من صحة مزاعمه التى رمى بها هذا المتهم ، فقرر الطبيب أنه لا يوجد بالصبى ما يشير إلى حدوث أى اتصال جنسى به ، وأنه ما زال على فطرته الأولى التى فطره الله عليها سليما معافى لم يطمثه إنس ولا جان . فرأى المحامى اللبق أن يدخل من هذا الباب ليدفع هذا الجانب من شهادة الشاهد بالكذب . حتى إذا تم له ذلك تحول إلى جانبها الآخر فزعزع عقيدة قضاته فيه ، إذ أنه متى ثبت كذبه فى شق من روايته كان خليقا أن يكون غير مصدق فى شقها الآخر .

ولكى يضفى المحامى على دفاعه لونا جديدا من ألوان الطلاوة ، وليزيد فى تدعيمه وتقويته ، أمسك بيد الغلام الشاهد وأخذ يعرضه أمام المحكمة على أنه لا يصلح لأداء

تقطع أسباب المودة بين الناس ، ولا تقرب بينهم » . إنه سيعمل للخير الجميع ، ويجب أن يتحقق بنفسه من أن الفرصة لن تتاح بعد اليوم لرجال الجيش والساسة ليلهبوا الشعور القومى فى الشعب . إن هؤلاء الساسة سيقرع ناقوس موتهم رجل يستطيع أن يضمن المستقبل للإنسانية . إنه هو نفسه سيكفل تحقيق مداول الجملة : « إرادة الشعب وليست إرادة حكامه هى التى ستتحكم فى مصير الأمم » . إن كل كلمة ستقال فى مؤتمر الصلح (آخر مؤتمر من نوعه فى تاريخ العالم) . يجب أن تقال والنوافذ والأبواب مفتحة على مصراعيها ، لا بل إنها يجب أن تدوى حول الكرة الأرضية كلها .

« يتبع » سهير القلماوى

الشهادة، ولا يجوز أن تكون أقواله محل ثقة وتصديق، لأنه هو نفسه نموذج من نماذج المجرمين الذين وصفهم لمبروزو؛ فهذا أنفه، وهاتان شفتاه، وتانك عيناه، وذانك حاجباه، إلى آخر ما فصلناه في صدر هذا الكلام.

***

وكانت هذه الإشارة من ذلك المحامي اللبق هي التي دفعتني إلى كتابة هذه الكلمة. فإن لمبروزو لم يعد اليوم مع الأسف ممن يستشهد بآرائهم في مسائل الإجرام والمجرمين، كما أن التحدث عن نماذجه التي وصفها في شرح نظريته لم يبق له مجال بعد الكشوف العلمية الحديثة التي نسخت أحكام تلك النظرية، والتي شهد بعضها لمبروزو نفسه قبل وفاته في سنة ١٩٠٩ م. ولشرح ذلك أرى أن أقول كلمة عما كانت عليه الحال قبل وفاة لمبروزو، ثم كلمة ثانية عما صنعه لمبروزو، وأخيراً كلمة ثالثة عما صار عليه الحال بعد لمبروزو.

***

فقبل لمبروزو كانت الفكرة السائدة في أمر الجريمة والمجرم، وفي الأسباب التي تؤدي إلى ارتكاب الجريمة، والمسئولية التي يجب أن يتحملها المجرم عن ارتكابه لهذه الجريمة — كانت الفكرة في ذلك كله تقوم على أساس أن الإنسان «حر الإرادة»، وأن خلقه وسلوكه من صنع يده وحده. فهو إذا ارتكب جريمة يكون قد ارتكبها لأنه أرادها. ويحق عليه العقاب بسبب هذا العمل الإرادي الذي قارفه. ومن أثر ذلك أن العقاب كان يرتبط بالجريمة وحدها ولا ينظر في شأنه إلا شخص المجرم؛ فنوع الجريمة هو الذي يحدد عقوبتها. فإذا كانت جريمة الضرب مثلا عقوبتها الغرامة، فإن كل من ارتكب جريمة ضرب يحكم عليه بالغرامة سواء أكان الضارب طفلا صغيرا أم شابا مميزا أم شخصا معتوها أو مجنونا، وسواء أكان الضرب عدوانا صريحا أم كان لدفع عدوان صريح؛ لأن نظر الشارع في ذلك العهد لم يكن يتجه قط إلى شخص المجرم وظروفه.

ومما تسهل ملاحظته أن هذه صورة من صور تفكير الأطفال. فإن الطفل إذا دفعه زميله مثلا فأوقعه على الأرض يكون أول عمل له بعد أن يقوم على قدميه أن يركل هذا الزميل أو يلطمه. وهو يسلك نفس المسلك ويدفع نفس العقاب لو أنه كان يستند الى باب مثلا فاندفع الباب فجأة بفعل الهواء، وأوقعه على الأرض، فإن أول ما يفعله في هذا المقام أيضا أن يركل الباب بقدمه أو يلكمه بيده، ثم ينسحب من مكانه راضيا عن نفسه وعن عمله أتم الرضاء.

وكان أهل تلك القرون الأولى يرون أنه ما دام الفعل المعين يستوجب في ذاته عقوبة معينة بصرف النظر عن فاعله، فإن المنطق يسوغ أن تحاكم الكلاب والخنازير ونحوها أمام المحاكم على ما يقع منها «من الجرائم». ولم يكن من المستغرب في تلك العهود أن تقدم الحيوانات إلى المحاكم عما جنت أيديها — أو أظلافها وأنيابها — فيحكم القضاة بحبس بقرة مثلا لأنها رعت زراعة الجار، ويحكمون بحبس كلب لأنه عض أحد عابري السبيل.

ومما تجدر الإشارة اليه أن طابع العقوبة في ذلك العصر كان طابع الانتقام، حتى إن القانون لم يكن ينص إلا على الحد الأدنى للعقوبة، ثم يترك الأمر للقاضي فيرتفع بحدها الأعلى إلى حيث ترضى فيه غريزة الانتقام.

***

ثم تطورت الأمور، واختلفت وجهات النظر، وظهر روسو وتقدم بنظرية «العقد الاجتماعي» التي تنادي بأن المجتمع قام على أساس شبه تفاهم بين أفراده، على أن يرعى كل واحد حقوق صاحبه، وأن الفرد الذي تحدثه نفسه بالخروج على أحكام هذا العقد فيطمع في مال جاره مثلا يعتبر خروجه هذا جريمة ضد المجتمع يجب أن تقمع

بالعقاب ؛ ويكون مقياس العقوبة في هذه الحالة تلك الدرجة التي أوذى بها الجمهور ومبلغ ما أصاب المجتمع من ضرر . ولم يكن يوضع في الميزان شيء من معايير شخصية المجرم نفسه أو نيته أو الباعث له على ارتكاب جريمته . وكان هدف العقوبة في هذه المرحلة الردع والتحذير . أما إصلاح حال المجرم ومعالجة مواطن الانحراف فيه فلم تكن تدخل في حساب الشرعيين في ذلك الزمان ، ولذلك اكتفوا بإيجاب أن تكون العقوبة سريعة ، علنية ، متناسبة مع درجة جسامة الجريمة ، لا يراعى فيها الانتقام من المجرم بقدر ما يراعى تخويف من تحدثه نفسه بالعودة إلى مقارفة مثل عمله .

فأنت ترى أن « شخصية المجرم » ظلت على الرغم من هذه التحسينات الظاهرية المحسوسة بعيدة من أن تستلفت نظر الشرعيين أو أن تحظى بشيء من اهتمامهم وتقديرهم . ولكن كان من المبادئ التي كسبها أهل هذا العهد أن العقوبة أصبح يتولى تقديرها القانون في حديها الأعلى والأدنى ؛ فلم تبق للقاضي تلك الحرية الأولى التي كانت تطلق يده في توقيع ما يشاء من العقوبات الانتقامية الصارمة ، وأصبح ملزما بأن يصدر أحكامه في نطاق هذه الحدود .

* * *

ثم سار العالم خطوة أخرى إلى الأمام . وظهر في سنة ١٨٥٩ كتاب «أصل الأنواع» لداروين ، فكان له أعظم الأثر في توجيه علم الإجرام وجهة جديدة . لأنه لفت الأنظار إلى أهمية الناحية (الأنثروبولوجية) في تكوين الإنسان ، وإلى المميزات الخلقية التي يمتاز بها كل فريق من السكانات . وكان في إيطاليا في ذلك الوقت طبيب اسمه Cesare Lombroso (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) كان يعمل في أوائل عهده طبيبا في الجيش ثم طبيبا في السجون . وكان وهو في الجيش يعنى بتتبع ما بين أجسام الجنود من سمات وما بين ميولهم نحو الخير والشر ، ويحاول أن يربط بين هذه السمات وهذه الميول . ثم حدث له أن التقى وهو يزاول مهنته في السجون الإيطالية بنزيل من بين نزلائها كان يمتاز عن زملائه الآخرين بأنه شديد الاعتداد بنفسه كثير التمدح بجرائمه ، وأن نفسه كانت تطفح صلفا وغرورا . فاهتم لمبروزو بتعقب أطواره وأحواله ؛ ولما مات قام بتشريح جثته ، فلفت نظره في الدماغ عيوب تشريحية ظاهرة . فدفعه هذا الكشف إلى الاعتقاد بأن النزعات الإجرامية قد تكون نتيجة لعثرة يعثرها التكوين الجسماني في شخص ما ، فينتكس بها صاحبها في سلم المدنية درجة أو درجتين ، ويرتد إلى نموذج من نماذج البشرية الأولى حين لم يكن الإنسان قد استوفى حظه من التقدم والتهذب . وبذلك سمى نظريته هذه بنظرية «الارتداد الوراثي» . وقال عن « المجرم » إنه فرد لم يشمله التطور البشرى كما شمل غيره ، وإنه صورة بيولوجية متناسلة من الإنسان الهمجي المتوحش .

وعلى أساس هذا الاعتقاد الذي تأثر فيه بآراء داروين وضع نظريته التي نادى فيها بأن المجرم نموذج خاص من الناس يتميز من غيره بصفات وسمات أنثروبولوجية(١) معينة .

* * *

وفي الكلمة التالية سنتوسع إن شاء الله في شرح هذه النظرية ، ثم نعرض لما نقدها به الناقدون ، ثم نبين ما انتهى إليه علم الإجرام من النظريات الحديثة في تعريف الجريمة ، وفي تحديد مسئولية المجرم وطريقة محاسبته على ما اجترح .

ع . ج

(١) الأنثروبولوجية «Anthropology» : علم الجنس البشري الذي يبحث في تركيب أعضاء الجسم ووظائفها .

صورة من الماضي :

آخر أبطال غرناطة

لم تشهد شمس اليوم الواحد والعشرين من المحرّم سنة ٨٩٧ هـ حينما أطلّت على غرناطة ، تلك المدينة الضاحكة للحياة ، الساكنة إلى النعيم ، السابحة في جوّ من النغم العذب والعطر الأريج ؛ بل رأت مدينة واجمة حيرى ، قد أقفرت من الرجال ، إلا قبضة من الأبطال رابطت حيال الأسوار ، هي بقية ذلك الجيش الذي دانت له أسبانيا كلها ، وأظلت ألويته فرنسا وإيطاليا ... قد وقفت تدافع عن آخر حصن للإسلام في هذا القطر المرح ، تذود عن بيوت الله ، ومقابر الأجداد ...

ولقد جازت غرناطة أياماً سوداً عوابس ، ورأت مصائب ثقالاً متتابعات ، ولكنها لم تجد مثل هذه الليلة التي قضتها مسهّدة مذعورة ، تنظر حوالها فلا تبصر إلا مدناً خضعت للعدوّ فجاس خلالها واستقرّ فيها ، وقد كانت أرض العروبة وكانت ديار الإسلام ، وأمة استذلّت واستعبدت ، وقد كانت أعزّ من النسور وأمنع من العقبان ؛ وبقيت هي وحدها تحمي الحمى وتدافع عن الأرض والعرض والدين ، وتحمل وحدها أوزار الماضي وما كان فيه من تخاذل وأثرة وانقسام ؛ وتؤدي وحدها الدّين دين الجهاد الذي كان في أعناق مدن الأندلس كلها والمسلمين أجمعين ، فنامت عنه مدن الأندلس وشغلتها خيالات الإمارة وألقاب مملكة في غير موضعها ...

وجعلت تنظر غرناطة إلى القصر البهي المعظم ، وهو آخر هاتيك القصور التي شغل رواقها الأمراء ، وأنستهم سكناها أخلاق حرائهم الأولى ، فكانت مقابر لأمجادهم .. طفقت تنظر إليه فلا ترى من شاة الحمراء إلا الرجل الضعيف ـ المرأة المتحجبة التي اسمها أبو عبد الله الصغير ـ وأمّه الشريفة الأبيّة ؛ الرجل الذي خُلق في جسم امرأة : عائشة ! حولت وجهها عن القصر إلى جهة السور تسأل : هل عاد موسى ؟

ولقد كان « موسى » أمل هذا الشعب وإليه مفزعه ، وعليه بعد الله اعتماده ، بدا له في ساعة الخطر كما يبدو النجم الهادي للضال الآيس ، لقد طلع فجأة من الظلام ، ظلام الدهماء ، فإذا هو يلمع في لحظة واحدة التماع البدر المنير — وكذلك يقذف هـذا الشعب العربي بالأبطال كلما حاقت الشدائد وادلهمّت الخطوب — وإذا هو أمل أمة ، وإذا هو ملء السمع والبصر ، وملء السهل والجبل ، وإذا هو بطل المعركة المكفهرة ؛ دعا إلى القتال شعباً كلّ من القتال ، فلبّاه على كلاله هذا الشعب الذي علّمه محمد كيف يلبي كلما دُعي إلى التضحية والجهاد ، لبّاه وتشققت أسماله البالية عن أسود غاب ، وسباع عرين ، ووقف بهؤلاء الأسود في وجه السيل الأسباني الطامي ، وما زال ثابتاً ولكن أسوده قد سقطوا صرعى في ميادين الشرف .

خرج موسى منذ إحدى عشرة ساعة يضرب الضربة الأخيرة ينال بها إحدى الحسنيين ، إما النصر وإما الشهادة ، ورد العدو الذي أتى عليه حلم المسلمين فلبث مغزوا في مغارات البرنس (البيرنه) ذليلاً خائفاً ، حتى إذا رأى الضعف قد حل الانقسام إلى المسلمين ، قوي بضعفهم ، واشتد بلينهم ، وانتزع منهم الأرض قرية قرية ، وبلداً بلداً ، حتى أقبل يطردهم من آخر منزل لهم في الأندلس ، من غرناطة .

***

وعلت غرناطة فترة الجزع ، من خوفها على (موسى) ، لقد جعلته قائدها ، وسلمته الدفة ليقود السفينة الهائمة على وجهها وسط الأعاصير والزوابع إلى الشاطئ الآمن ، فإذا عجز موسى عن نجاتها لم ينجها أحد من بعده .. وقد كان

موسى آخر خيط من خيوط الرجاء، وآخر شماعة من هذه الشمس التي سطعت فملأت الأرض نوراً وهدى ثم أدركها المغيب، فإذا انقطع هذا الخيط عمّ ظلام اليأس والشر ... وقد كان موسى آخر مقطع من هذا النشيد الذي ألّف مطلعه طارق، ثم توالى على نظمه (شعراء ...) البطولة، عبد الرحمن وعبد الرحمن وعبد الرحمن، الغافقي والداخل والناصر، تحمله الأبطال المساعير إلى الأقاصي والأداني، وتجاوبت بأصدائه سهول فرنسا، وبطاح إيطاليا، ثم ضعف وتخافت ولم يبق منه إلا هذا المقطع، فإذا انقضى جف النشيد على الشفاه وانقطع ومات .. وقد كان موسى آخر سطر في سفر الحق والبطولة والمجد، ذلك الذي كتبه العرب المسلمون في ثمانمائة سنة، فمحاه الأسبان في سنوات، ولم يبق إلا هذا السطر، فإذا طمس ذهب السفر وباد ... وقد كان موسى آخر نفس من أنفاس الحياة في الأندلس المسلمة، فإذا وقف هذا النفس الواحد، وسكن هذا النماء الباقي، صارت الأندلس المسلمة أثراً بعد عين، وصارت ذكرى مرزة في نفس كل مسلم، وأمانة في عنقه إلى يوم القيامة ...

* * *

وانطلقت الصيحة من أعلى الأسوار أن « لقد عاد موسى »، فتقاذفتها الألسنة وتناقلتها الآذان، فطارت في أرجاء المدينة، وسارت في جوانبها مسير البرق، فبلغت الساحات والدروب، وولجت الدور والمنازل، وأوغلت خلال البيوت والسراديب، فلم تلبث أن نفضتها نفضاً فألقت بأهليها إلى الأزقة والشوارع، فإذا هي ممتلئة بالناس من كل جنس وسن ومنزلة، وإذا هي تزخر بهذا النهر الإنساني الذي يجري صوب الأسوار صخاباً جياشاً مزبداً، يتحدر ويسرع مجنوناً، كأنما تدفعه قوة خفية هائلة، احتوتها هذه الكلمات السحرية (الكهربية) الثلاث:

« لقد عاد موسى » !

لقد كان يوماً من تلك الأيام الغر التي تضيء الطريق لمن يسلك لجاج التاريخ، وتجيء في الليالي كالعبقري في الناس، وتضع العجائب لتكون معجزة في الزمان؛ ما شهدت مثله غرناطة، ولا أبصرت مثله (إلا قليلاً) عين الوجود! يوم أضاع فيه الناس غريزة المحافظة على الذات في غمار غريزة النوع، ونسوا نفوسهم ليذكروا الدين والوطن، وانتشوا من الحاضر المقيت ليعيشوا في الماضي الفخم؛ فماج في سوح غرناطة بحر من الأجسام البشرية حمل أصحابها أرواحهم على أكفهم، وقدموا بين أيديهم دماءهم التي غضب فيها ميراث ثمانية قرون كلها مجد وعز، ونفوسهم التي عصفت فيها ذكريات ألف معركة منصورة، فمشت في الأعصاب النار، واستعد كتّاب التاريخ ليكتبوا أعجب موقف للشعب إذا هب.

ووصل موسى، ذلك البطل البدري الذي أخطأ طريقه في الزمان فلم يأت في سنوات الهجرة الأولى، بل جاء في الأواخر من القرن التاسع، ولم يطلع في الحجاز التي كانت تبتدئ تاريخها المجيد، بل في الأندلس التي كانت تختتم تاريخها.

وكانت تعلوه كآبة، فأنصت الشعب واحترم كآبة هذا الرجل الذي لو سبق به الدهر لصنع يرموكاً أخرى أو قادسية ثانية! ونظر موسى حوله، فإذا حوله شيوخ قد أراق الكرم على شيباتهم بهاءه ونوره، وأطفال كالزهر فتحوا عيونهم على الدنيا فوجدوها غارقة في بركة من الدم، ونسوة تفتحت عنهن البيوت تفتح الأكمام عن زهراتها، فرأت الطرقات من لم تكن الشمس تراهن صيانة وتعففاً قد برزن يسرن إلى المعركة ويزاحمن الرجال، ولم يكنّ يخشين على جمالهن فقد غطت عاطفة الجهاد على عاطفة الجنس، فكان كل رجل أخاً فيه لكل امرأة، فأحنى رأسه. ورأى الناس في عيني البطل دمعة تترقرق، وفتح

فيه لحبس الناس أنفاسهم .

فإذا هو يعلن النبأ الهول ، نبأ تسليم أبي عبد الله الصغير مفاتيح غرناطة !

نبأ بدأ صغيراً كما تبدأ المصائب ، فلم يدر الناس لهول الفاجأة ما أثره وما خطره ، ولكن القرون الآتيات درت ما أثر هذا النبأ ، ولم تفرغ إلى اليوم من وصف فواجعه وأهواله .

ونظر موسى فإذا الصرح الذي أنفق في إقامته الدهر الأطول ، قد انهار في دقائق ، وإذا هذه الديار التي سقيت بدم الجدود وامتزجت برفاتهم ، وقعت على أيديهم بسلها جبان مأفون للعدو المغير ، وإذا السادة صاروا خولاً والملوك عبيداً . . . وجعل يفكر في هذه الفئة التي حوله في أكرم زهرات غرناطة وأزكاها ، هل يجنّبها الموت الحاصد ويردها إلى حيث وجدت الراحة والدعة ، أم يخلصها من حياة كلها ذل وألم ويسوقها إلى موت شريف ؟

وإنه لفي تفكيره وإذا بأطفال غرناطة ينشدون ذلك النشيد الذي لا يعرف مَن نظمه لهم ، فيصغي الناس ويستمع الفلك الدائر :

« لا تبكي يا أماه ، إنا ذاهبون إلى الجنة »

« إن أرض غرناطة لن تضيق من لحد طفل صغير مات في سبيل الله .

إن أزهار غرناطة لن تمنع عطرها قبراً لم يمتع صاحبه بعطر الحياة .

إن ينابيع غرناطة لن تحرم ماءها ثرى لحد ما ارتوى صاحبه من مائها .

أنت يا أرض غرناطة أمنا الثانية فضمينا إلى صدرك الخافق الذي ضم آباءنا الشهداء .

لا تبكي يا أماه بل اضحكي واحتفلي لعبنا ، سيأتي إخوتنا فيلعبون بها .

فذكريهم بأننا تركناها من أجل هذا الوطن .

سنلتقي يا أماه ! إنك لن تؤثري الحياة في ظلال الأسبان على الموت تحت الراية الحجازية .

ولن تضيق عنا أرض غرناطة . ما ضاقت أرضنا بشهيد » .

***

ولم يعد يطيق موسى أكثر من ذلك ، فلكز فرسه ، وانطلق إلى حيث لا يدرى أحد ، كما جاء من حيث لم يدر أحد .

وكذلك ذهب آخر أبطال الأندلس ، لم يخلف قبراً له في الأرض ، ولا سيرة واضحة في التاريخ ، بل مر على الدنيا كأنه حلم بهيج !

رحمة الله على موسى بن أبي الغسان وعلى أولئك الأبطال .

دمشق الشام : **علي الطنطاوي**

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن ستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

بين المجلة والقراء :

تعليقات وملاحظات

ختم الأستاذ الكبير أحمد أمين بك مقالاته القيمة عن السيد عبد الرحمن الكواكبي . وبهذه المناسبة لا بد من ملاحظة أن والد السيد عبد الرحمن لم يكن مدرساً في الجامع الأموي بدمشق ، كما ذكر صاحب العزة أحمد أمين بك ، ولكنه كان أحد مدرسي الجامع الأموي بحلب ؛ وأن جامع حلب الكبير يسمى الأموي ، كما يسمى بذلك مسجد دمشق العظيم . ولعل ذلك هو السبب فيما وقع فيه الأستاذ الجليل من السهو ؛ فإن كثيراً من القراء والكتاب لا يعرف أن جامع حلب الجامع يسمى بالأموي . فإذا قيل إن فلاناً كان مدرس الأموي انصرف ذهنه لأول وهلة – ولو كان المتحدث عنه حلبياً لم يغادر حلب في حياته – إلى الجامع الأموي بدمشق ، هذه واحدة . والأخرى : هي أن الأستاذ أجمل القول في حياة الكواكبي بمصر ، وهي الفترة التي قضاها بعد عودته من مؤتمر أم القرى ، فلم يذكر لنا شيئاً عن حاله في القاهرة ، ثم أوجز جد الإيجاز في خبر وفاته الفاجئ في ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ .

وكنت أحب لو أن الأستاذ الجليل – وقد تصدى للكتابة عن الكواكبي – جلى هذه الفترة الغامضة من حياة الكواكبي ، وناقش الظروف والملابسات التي صاحبت وفاته الفاجئ ، فإن الظن الغالب أنه لم يمت ميتة طبيعية ؛ وإن قليلا من البحث في تلك الظروف والملابسات ربما كشف لنا عن مأساة من مآسي الاستبداد ، ذلك الاستبداد الذي لاحق الكواكبي وطارده في كل مكان ، والذي حاول الكواكبي تحطيمه وهدمه بكتابه طبائع الاستبداد .

* * *

وما دمنا في سبيل الحديث عن الكواكبي فلا بأس من بعض الاستطراد . ففي مثل هذا الشهر من العام الماضي نشر كاتب نابه الاسم مقالا في مجلة المصور (١) يقول فيه : وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي من أعلام العرب العراقيين النازحين إلى مصر ؛ ثم ذكر أنه كان من دعاة الوحدة العربية . وحاول هذا الكاتب الفاضل أن يصبغ كل أعمال الكواكبي بالصبغ العرقي .

ويظهر أن صاحبنا كان معجلاً – بحكم عمله في صحيفة أسبوعية لا بد من صدورها في موعدها المحدد – فلم يتبين أن الكواكبي سوري حلبي لا عراقي ، كما لم يدرك أن الكواكبي لم يكن من دعاة الوحدة العربية ولا من محبذيها ، لأنه كان يدعو – ما وسعته الحيلة – إلى فكرة أسمى وغرض أعلى من الوحدة العربية ، فإنه كان من دعاة الوحدة الإسلامية العامة الشاملة .

ولو أن كاتب ذلك المقال قلب صفحات « أم القرى » وقرأها لتبين له مبلغ ما حشا به مقاله من أوهام .

٣

في العدد (٣٠٠) من الثقافة الغراء ، نقل الأستاذ أحمد صفوان ٢٨ سطراً في الرد على العلامة الشاطبي ، قال إنه نقلها من حواشي شروط الأئمة الستة ، ولكنه لم يحدثنا بشيء عن صاحب هذه الحواشي التي نقل منها ٢٨ سطراً كاملة ؛ وأنا أقول للقارئ الكريم إن هذه الحواشي من وضع العلامة محمد زاهد الكوثري وكيل شيخ الإسلام الترك سابقاً ونزيل القاهرة الآن . كما أهمس في أذن الأستاذ صفوان بأن تلك الحواشي ليست كتاب شروط الأئمة الستة – كما توهم – وإنما هي على كتاب شروط الأئمة الخمسة المنشور مع كتاب شروط الأئمة الستة .

برهان الدين الداغستاني

(١) العدد (٩٩٥) الصادر في ٥ – ١١ – ١٩٤٣

لوعة الذكرى

يهتف القُمْرىُّ من برح الجوى
كلما هاج له شجواً غرامُ
وله من رقة الشكوى إذا
قلب الشوق عتاب وملام
فترى للغصن فى رأد الضحى
نفضة الصَّب إذا وافى الحمام
والأزاهير عيون فتّحت
للهوى والطلُّ من صفو مُدام
أيقظتها منية فانتبهت
وعلى الأهداب للذكرى ابتسام
نظرت رَيْثاً فثبّت لوعة
فاض منها الدمع واعتاد سقام
ما رمينا نظرة عن هدف
أخطأته ولكم طاشت سهام
الهوى كأس أدارتها يد
للصبا والناس من سكر نيام
ولهمس الريح آهات إذا
عمر الأطباق فى ليل ظلام
وأريج الزهر أنفاس الصبا
حين يذكى جامح الشوق ضرام
عبقت فى الروض من أنفاسه
نفحة طابت لخيشاها الغمام
أحيت الذكرى نفارت دمعة
فى كوى العين وحنَّ المستهام
واستفاق الصب من تزنيقه
ينفض النوم كما أرفض الحسام
ما على القلب إذا عاوده
من رُؤى الماضى جنون وهيام

•••

تنشد الروح السماوات العلى
كلما انجاب عن الروح ركام
وتراها لأنى من لوعة
ترمق الأفق وللدمع انسجام
كلما همت لترقى سدرة
قلها من شهوة الجسم لجام
كهيض الجنح حالت دونه
وارتقاء الجو أدواء جسام
فطوى الجنح على الكسر وفى
صمته إن عزه النطق كلام

دمشق عدنان مردم بك

قصة مصرية:

انتصار!

نحن نذكر كل شيء .. وكيف لا نذكر ذلك وقد كانت تلك الفترة أسطع فترات حياتنا جميعاً .

كنا أطفالاً ، نسكن في شارع واحد ، منازلنا متجاورة ، وكنا نقضي الوقت جميعاً نلعب ونلهو في الشارع أو في أحد منازلنا . وكنا ذكوراً جميعاً إلا هي .. وهي بمفردها فقد كانت مليكتنا التي نرعاها وأهم جوهرة في تاج حياتنا .

كنا أطفالاً ، ولم تكن الفوارق الجنسية ذات معنى حينئذ ، فكانت تختلط بنا ونختلط بها ، ولكن مع ذلك كانت صلتها بنا جميعاً واحدة .

ونشأنا معاً جميعاً ، وترعرعنا ، وما زلنا حتى الآن نذكر ألعابنا ولهونا ونحن صغار . إن ذكريات تلك الفترة من حياة كل إنسان تبقى خالدة في رأسه وفي قلبه وفي روحه ولا يمكن نسيانها أبداً .

ولم نكن نحن فقط الذين تجمعنا تلك الرابطة المقدسة رابطة الصداقة البريئة .. بل كانت عائلاتنا كذلك . كانوا يقضون سهراتهم في أحد المنازل ليلة وفي الثاني أخرى .. وكان سمراً لطيفاً .. وكنا نجتمع بهم في المساء ، نجري ونلعب حتى يدركنا التعب .

وعشنا تلك الحقبة من حياتنا في ذلك الشارع من أحد أحياء الإسكندرية الهادئة .. وأحببنا الحياة على هذا المنوال ، إذ لم تكن تقوم بيننا عداوة أو بغضاء ، اللهم بعض المشاحنات الصبيانية التي سرعان ما نزيلها ابتسامة أو لعبة جديدة .

وكان كل عام يمر في حياتنا تتغير فيه ، تكبر أجسامنا ، وتتغذى أرواحنا ، وتعلو مداركنا عما كنا عليه في العام الذي قبله . وقد كانت هي دائماً مليكتنا وراعيتنا وتاجنا ، فهي منذ طفولتها ذات شخصية قوية ؛ كانت تشاركنا لهونا في تعقل ، وكانت هي التي تنصحنا بأن نفعل كذا وكذا ، وهي التي تسرع إلى أحدنا إذا ما مسه ضر أو أصابه جرح فهي التي تضمده ، وهي أول من تبكي إذا تألم أحد منا .. وهي التي تجمع قلوبنا إذا ما قامت المشاحنات بيننا .. وكانت تقول دائماً :

— إني سعيدة حين نكون كلنا مسرورين .. فرحين .. إخواناً ..

وحقاً لقد كنا إخواناً ، وما زلنا إخواناً .. إن تلك الرابطة المقدسة منذ الطفولة هي التي جمعت قلوبنا حتى الآن .. وستجمعها حتى نهاية أعمارنا .. فلم تتطرق إلى نفوسنا عداوة ولم تحتل أفئدتنا أية بغضاء .. بل الحب والوئام والإخلاص دائماً .. والفضل الأول في ذلك إنما يرجع إليها فقط .

ومرت السنوات .. وأحببناها جميعاً .. أحببناها حباً خالصاً .. كانت أول من نلجأ إليه حين ينغص حياتنا شيء .. وكانت همسة أولية منها تزيل كل كروبنا وتسعدنا .

وكبرت هي كما كبرنا .. وقوى عودها كما قوينا .. وبدأت تنمو فيها الأنوثة الحية .. فعلت وجنتاها حمرة تصبغهما كلما رفعنا أنظارنا إليها ، وامتلأ جسدها ، وبرز صدرها شيئاً فشيئاً .. وكانت تترك شعرها الأسود يتدلى على ظهرها فيزيدها فتنة وجمالاً ..

في تلك السن التي وصلنا إليها بدأت أبخرة جديدة تتصاعد من نفوسنا ، وشعرنا شعوراً جديداً لم نكن قد جربناه من قبل . فهذا شيء يتحدث في نفوسنا ، شيء غامض كان كل منا يستمع إليه .. ولكنه لا يفقه معنى لما يقول ! وهذه قلوبنا بدأت تخفق خفقات غريبة ، ليست خفقات الخوف أو خفقات الفرح أو خفقات الحزن .. كلا .. إنها خفقات أخرى لذيذة .. ولكنها هي

الأخرى غامضة ! وهذه دماؤنا تسرى فى عروقنا حارة .. متدفقة .. قوية .. كأنها تيار النهر الجارف الذى يأتى على كل شئ فى طريقه فيكتسحه معه .. ولا ندرى فى أى مصب سيهوى به !

رفعنا أنظارنا إليها فى هذه السن .. فتخضبت وجنتاها بحمرة الشفق .. وأخفضناها فى إجلال وإكبار .. فتحدث ذلك الشئ الغامض فى نفوسنا ، وخفقت قلوبنا .. وسرت دموعنا حارة ! .. وبدأنا نفهم كل شئ .

لم تعد تظهر كثيراً كما كانت من قبل . لم تعد تشاركنا اجتماعاتنا فى أغلب الأحيان كما عودتنا ذلك ، بل كانت تختفى فترات فتهفو نفوسنا إليها .. وتظهر فترة .. فنسرع إليها وتقابلنا بابتسامتها المعهودة .. ابتسامتها الطاهرة التى تعبر عن روحها وصفائها .. ابتسامتها التى تحوى الحنان والحب والعطف لنا جميعاً .. ولكل منا فى درجة واحدة .. لا زيادة لهذا ولا نقصان لذاك .

ولا أتحدث عما نشعر به من فراغ حين تغيب عن مجتمعنا .. أى فراغ وأى تفاهة شأن نشعر بها جميعاً .. إنها النور الذى يسطع علينا فيبدد ظلمات نفوسنا . حين كانت تتكلم كنا ننصت إليها سامعين .. لقد عودتها ذلك منذ طفولتنا .. لأنها مليكتنا ونحن رعاياها .. وكانت تشعر هى بذلك .. فكانت تعاملنا معاملة واحدة .. كانت مليكة ديموقراطية لا تفرق بين طبقات شعبها الأمين .

وكلما تقدمت بنا السن .. كلما ازدادت هى جمالا وزدنا لها إجلالاً وإكباراً .. فقرمنا بها ، وبدأنا نشعر شعوراً جديداً . أصبحنا نجدّ فى الاستذكار ويحاول كل منا أن يكون متفوقاً على زملائه ، لاحباً فى العلم ، ولكن طمعاً فى المستقبل الزاهر .. بحياة طيبة تسعده وتسعد أمله الذى يحلم به ويسعى إليه .. أمله .. بأن يكون هو الفائز بها .. بأن ينتصر .. فيستحوذ عليها لنفسه ..

ويتزوجها !

وكانت تلاحظ هى ذلك منا فتشجعنا بنظراتها وابتساماتها ولا تقول شيئاً .

وأصبحنا نخشاها .. كلما تحدثت إلينا شياطين نفوسنا بأن نحاول الاقتراب منها ، كما تدفعنا تلك القوة الغامضة الكامنة فى نفوسنا سرعان ما نذكر ذلك الحادث الذى وقع لأحدنا .

استلب الشيطان يوماً عقله ، ولم يقدر على ضبط شعوره وساعدته الظروف على أن ينفرد بها يوماً ، وإذ به يشرح لها هواه ويقبل يدها ويرجو أن تبادله عاطفة بعاطفة مثلها ، ولكنها نظرت إليه فى أسف وقالت :

— كيف يتسنى لى ذلك وأنتم سواء لدى .. لا أعرف كيف أختار أحدكم وأوثره عن الآخرين .. إن والدىّ هما اللذان سيختاران أحدكم يوماً ما .. ولست أنا .. لأن شعورى نحوكم جميعاً سواء .

وتركته يومئذ .. وفى اليوم التالى كنا جميعاً حولها ، وإذ بها تتلو علينا ما حدث من زميلنا فيتندى جبينه عرقاً ويكاد يبكى خجلا .. ولكنها قامت إليه وابتسمت فى وجهه ابتسامتها المشرقة وهى تقول :

— لا تؤاخذنى .. أنا فعلت ذلك لتكون عبرة لهم جميعاً ! .

ومنذ ذلك اليوم ونحن نخشاها ونحاول ألا نجد تلك الهمسات فى نفوسنا طريقها إلى عقولنا !

وجعلنا نجاهد فى دراساتنا .. حتى يكتب الانتصار لأحدنا .. ولكن .. بينما نحن مندفعون فى هذه المعركة الطاحنة ، وفى هذا الجهاد النبيل .. إذ بها تمرض فجأة .

حين تلقينا الخبر جزعنا جميعاً ، كان مرضها مرضاً قاسياً .. وأسفنا لذلك .. وحاولنا أن نخفف من الأسى على نفوسنا بأن كنا نتوهم بأنها ستشفى سريعاً .. وكنا

نرفع أكفنا بالدعاء إلى الله أن يرحمنا ويرحمها .. ويشفيها .. لتعود إلينا .. وترعانا .. وتضفى على حياتنا النور والسحر .

ولكن المرض استبد بها .. وقضينا ليالى مسهدة .. حتى طلبنا رؤيتها وأجبنا إلى طلبنا .

ودخلنا عليها جميعاً .. نحن الخمسة الأصدقاء .. ووقفنا حول فراشها وكأننا نحميها من المرض ، ونقلت بصرها من أحدنا إلى الآخر حتى ميزتنا جميعاً ، وسرعان ما انفرجت شفتاها الذابلتان بابتسامتها المعهودة .. كانت هزيلة .. صفراء الوجـــه .. لا تقوى على النهوض .. ولكن ابتسامتها مازالت مشرقة ذلك الإشراق الفاتن .. وتحركت شفتاها تهمس :

— لا أدرى كيف أشكركم ..

ومسحت دموعها على خديها . وقلنا فى صوت واحد :

— نحن نرجو لك الشفاء ، وندعو الله أن يجاب دعاؤنا . فهزت رأسها وإذا بالدموع تلمع فى عيوننا جميعاً . وتركناها يومئذ صامتين لا نتبادل كلمة واحدة .

وأحاطت بها قلوبنا فى مرضها ، كانت تدفع عنها أذى المرض ، ولكنها تجمعت يوما ما لتكون قوة واحدة ، تجمعت لتخوض معركة أخرى جديدة ، وكانت ترجو أن يكتب لها النصر فيها لأنه خيل إليها فى بادئ الأمر أن ذلك العدو الجديد عدو هين .. ولكنه كان شراً وكان قوة .. فهاجمها .. وتقدم فى ثبات .. وكانت قلوبنا تخر أمامه صريعة .. قلبا .. بعد قلب .. حتى الأخير .. وإذا بالعدو ينتصر .. وياله من انتصار !

كان هو الموت .. فأخذها غنيمة رائعة .. واستلبها فاستلب أرواحنا ونفوسنا !

ووقفنا صامتين يومئذ لا ندرى ماذا نقول . وتقابلت أعيننا ، وكان شعورنا واحدا . شعور الأسى والحزن .. وخيل إلينا أن الظلام قد غمر حياتنا جميعاً . وأن قوة هائلة تعتصر قلوبنا فتجزع وتتألم صابرين ، ولكن عيوننا تنهمر منها الدموع مدراراً ..

لقد عقدت ألسنتنا ولكنا كنا متفاهمين ، وسرنا يومئذ فى جنازتها . وحملنا نعشها على أكتافنا .. ووقفنا نودعها الوداع الأخير وجسدها يواريه التراب ... وخيل إلينا أن قلوبنا ما زالت تشاركها وأنها دفنت معها ولم يبق لنا شىء .

● ● ●

لا تسألونى عن أيامنا بعد ذلك . لقد تسرب الملل واليأس إلى قلوبنا ، وأصبحت حياتنا فارغة تافهة لا قيمة لها . فلم نعد نجاهد ونستذكر ونحاول التفوق والفوز والانتصار . أى انتصار لنا نسعى إليه ما دامت تلك القوة الجبارة قد هزمتنا وأذلتنا جميعاً ، واستأثرت بها دوننا فلم تعد لنا آمال ولا أحلام !

ومرت بنا الأعوام ، وتقلبت الدنيا علينا بأحوالها ، وأجبرتنا الحياة على أن نسير فى ركبها ، واختلفت بنا المسالك ، واختلطت علينا الأمور ، وتوزعنا كل فى ناحية من النواحى ، وتطور كل منا حسب ظروفه وأحواله ؛ فمنا من تزوج ، ومنا من بقى أعزبا ، ولكن حين تجمعنا الظروف يوماً ما لا ندرى لماذا نشعر أنه مازال ينقصنا شىء ، شىء مهم جوهرى مكمل لأرواحنا نفتقده دون جدوى .

فإذا بأعيننا تتقابل فى أسى ، وإذا بشفاهنا تهمس بالدعاء إلى الله أن يترفق بها فى آخرتها كما رفقت بنا فى دنياها .

حسن فتحى خليل

بين المسموع والمقروء

السنهوري بك في وزارة العدل

كتب أخونا السنهوري بك في الأسبوع الماضي مقالا ، استكتبته إياه مجلة « الاثنين » ، كان أكثره مذكرات يومية كتبها عندما تولى وكالة وزارة العدل في هذا الشهر الحاضر .

قرأت هذا المقال فوجدته ، على الرغم من حلاوته ، وعلى الرغم من جرأته ، من أقدح ما كتب الكتاب في وصف الوظيفة الحكومية ، حتى كبرائها في الدولة ، ويغير نظر إلى عصر دون عصر ، وعهد دون عهد ، وقد تكون بلا نظر إلى أمة دون أمة .

وصديقنا السنهوري قانوني ضالع ، عرفناه في التأليف متدفق الأسلوب ، فتانا المعاني ؛ ولكن هذه هي المرة الأولى التي أعرفه فيها بالكاتب الذي يسميه الإفرنج سينكا Cynica ، وهذا لفظ شق على الكتاب ترجمته لأنه لفظ ذو تاريخ ، فهو أرستقراطي عتيق . واللفظ الأرستقراطي العتيق لا يسهل بل لا يجمل أن يقابل في ساعة بلفظ ديمقراطي يختار شعبيا من جمهور الألفاظ ، فلا يكون له ذلك الماضي الطويل النبيل .

و « السنك » لفظ إغريقي قديم معناه الكلب ، فإذا استخدم صفة كان معناه كلبيا ، نسبة إلى ما في الكلاب من عبوسة وفظاظة وجفاء ، فلا بد أن كلب الإغريق كانت هكذا صفته . ثم غلب اللفظ على طائفة من فلاسفة الإغريق ، عرفوا بالكلبيين ، لا يؤمنون بالغرض الإنساني أنه يوجه إلى غير النفع الشخصي .

ومن هؤلاء الفلاسفة ذلك الفيلسوف الذي سار في ضحوة النهار ، وبيده مصباح موقد . فلما سئل ماذا يصنع قال : أبحث عن إنسان .

و « السينك » في العصر الحديث تطلق على كل نزعة ساخرة لا يؤمن بالصلاح الإنساني ولا بالبراءة الخالصة أن تكون في أعمال الإنسان .

ومن هذه الصفة نشتق صفة لصديقنا السنهوري فيما كتب ، أو على كل حال هكذا حسبت .

فهو قد تولى وكالة وزارة المعارف منذ أعوام ، وهو يتولى هذا العام وكالة وزارة العدل ، فلا يكاد يحس فرقا بين حاله في تلك بالأمس ، وحاله في هذه اليوم . بل هو يجهد نفسه إجهادا ليجعلها تدرك أن هذه وزارة غير تلك ـ أن هذه العدل وتلك المعارف صدقا لا كذبا .

وهو يقول : ما أشبه الليلة بالبارحة . المهنئون هم المهنئون ، وموظفو ديوان العدل لا يختلفون في أعمالهم عن الموظفين في ديوان المعارف . فمديرو الإدارات والمراقبون ورؤساء الأقلام لا تختلف « اختصاصاتهم » عن « اختصاصات » أمثالهم في وزارة المعارف .

ثم هو يتساءل : أتكون وزارة العدل هي وزارة المعارف ؟

فأي سخرية صادقة هذه السخرية ، وأي قداعة !

ثم هو يتداول « تصريف الأوراق » فلا يجد فيها من جديد : قاض ينقل اليوم من محكمة إلى محكمة ، كما كان ينقل بالأمس مدرس من مدرسة إلى مدرسة ؛ وأوراق للحسابات والمستخدمين تمضي كتلك التي كانت تمضي بالأمس تماما ، تحملها إليه وجوه أشبهت تلك التي حملتها بالأمس ! وتقارير عن تفاتيش كالتي كان يطالعها من سنوات قريبة ماضية . ثم يخرج من هذا بأنه ليس في وزارة المعارف ، ولا حتى في وزارة العدل ، وإنما هو في وكالة وزارة وحسب ، وحسبه بذلك إدراكا وإعانا .

ويريد أن يجدد ، فيطلب أحد المديرين ، ويقول : هيا انتهز فرصة أني وكيل جديد ، وتقدم باقتراحاتك

الجديدة قبل أن أصبح وكيلا قديماً . فيندهش هذا المدير المسكين ، ويخرج مبهوتاً . وعندها يذكر صاحبنا ، صاحب الكرسي الجديد ، أنه إنما استصحب للتجديد موظفاً صار بحكم الزمن عتيقاً .

وتريد أن يخرج عن الروتين . فيأخذ يصغي إلى رجال القضاء فيما يحقق المصلحة العامة ، فيجد من الآراء التي تُعرض ما يتصل بتحسين حال رجال القضاء ، ويجد أن هذه هي مسألة المسائل .

ثم هو يجمع هذه الآراء ، ثم يتفهمها وينظمها ، ثم يحملها إلى الوزير ، كما يصنع الساعي بريده تقريبا . ثم هو يجد من الوزير أذناً صاغية وقلباً واعياً . ومعنى هذا أنه في غير هذا العهد ، ومع غير هذا الفرد ، قد يجد أذناً صمّاء ، وقلباً نساءً مضيِّعاً .

فهذا هو جملة ما ارتآه صديقنا في كرسيه الجديد ، وصفه وصف رجل عالم يرى نفسه فوق الكرسي وفوق الوظيفة ، في زمان يتهافت فيه على الكراسي أكثر جهّال البلد وأكثر علمائها .

وما كان لي أن أسوق هذا الحديث ، وأعيد وأؤكد فيه من معان ، لولا مجلسٌ حضرته أمس ، ضاق به صدري أكبر الضيق ، لظاهرة انتشرت بين الكثير من كبار الموظفين ، منذ عشرة وعشرة من السنين ، منذ أن كثر سقوط الحكومات ، وتعدّد انحلال البرلمانات . ذلك أنهم يرحبون بكل تغيير وإنما يعرفون أين هم منه ، وأين أقدامهم من درجاته ، فإن درجوا على السلم إلى أعلى زادوا بالحكم ترحيباً ، وزادوا لرجاله حمداً . وإن كان غير ذلك فترت هممهم ، وغاب حمدهم ، وحضر ذمهم ، ولم يروا لا في الحكم ولا في البلد ولا في الدنيا خيراً يرجى .

والعجيب أنهم يخدعون عن أنفسهم ، فيذكرون أسبابا لهذا الاستياء ، هذا الفعل ، وهذا الصنيع ، وهذا الحل وهذا النقض ، وقد يكونون فيما يذكرون صادقين ، وقد يكونون فيما يذكرون خاطئين جائرين ، ولكن العبرة في كل هذا أن مرده كله إلى ما خفي في صدورهم من سبب دفين ، يتعلق بذواتهم أكثر مما يتعلق بذوات الحاكمين ، من ملائكة وشياطين .

ثم إلام هذا الصبو ، وإلى أي شيء هذا التطلع ؟ إلى مثل ما وصف صديقنا السنهوري في ذلك الأسلوب البريء القاتل .

إن الأعمال الإدارية الكبرى في البلد أعمال لا شك ذات خطر ، ولكنها ليست دائماً مما يحمدها ويرضاها عاقل لعقله ، ولا كاتب لقلمه ، ولا عالم لعلمه ؟

ومنذ عام أو عامين تكرم أحد الوزراء بإهداء كتاب له إليّ ، ولم يكن عندئذ في الوزارة ، ولكن كان ينتظرها ، فكتبت إليه شاكراً ، ودعوت له الله أن يجعله أكثر فراغاً لما هو أنفع وأبقى على الدهر . وعنيتُ بالأنفع والأبقى أنتجة تأليفه . وإني لأعجب حقاً لوزير يكون على جمجمته تلك الخصوبة ، وبقلمه هذه السيولة ، ثم هو يرضى أن يسكن إلى مكتب يتكاكأ الناس عند بابه ، وأكثرهم نفعيّون ، كما يتكاكأ العامة ، من كل ماهبّ ودبّ ، وعلا وسفل ، على مكتب للبوابين بالموسكي أو بولاق . نعم إن في هذا قضاء مصالح الناس ، ولكن الرجل الذي هيأه الله لغير هذا ، ولخير من هذا ، أولى باستيفاء حاجات العقول وقضاء ديون الثقافات منه بإدارة هذه الحاجات الرتيبة الفانية .

وكل يوم تذكر الجرائد أسماء رجال تقول عنها إنها لمعت كالنجوم في سماء الدواوين . وقد أذكر رجالا سابقين لمعت كذلك أسماؤهم في سماء الدواوين ، ولكن إلى حين ، فلما هبطت إلى أرض كانت كالنيازك انطفأت قبل أن تمس التراب . وكان أولى بهذه الجرائد أن تقول إنها أسماء لمعت كبعض الكواكب ، وإنه يراد بها أن تتنقل في أبراجها ؛ وأمثال هؤلاء لا يضيرهم خفض أو ارتفاع ، فهم حيث كانوا من فوق الأرض أو من تحتها ، في أبراجهم ،

لهم سماء ، لهم فيها التماع

وأشاعت الجرائد حديثاً أن العقاد ستكون له وظيفة كذا ، وهي وظيفة كبيرة له طمعها عند من يحسنون تذوّق طعوم الوظائف ، وهي في واجباتها أشبه بواجباته هو في سوق الثقافة الحرة . وحمد الناس هذا القران ، وحمدوه للزوجة أكثر مما حمدوه للزوج . ولقد أعجبني وشفا نفسي أن أرى الكاتب الكبير يكبرُ على الوظيفة التي كبرت ، ويرى لنفسه في وظيفة الحياة شأناً فوق هذا الشأن .

وأحمد أمين كذلك ، وهو لا يطّلع على ما أنشر في « الثقافة » ، له موقف يحمده المثقفون الأحرار . كان أحمد أمين عميد كلية الآداب في عهد قريب مضى . والآن تذكر الجرائد أنه سيعود إلى عمادة هذه الكلية ، صح هذا أو لم يصح ، ولكن العبرة فيما أحكي أن بعض الصحف سأله في صحة هذا ، فكان جوابه : إني أصغر من أستاذ ، ولكني أكبر من عميد .

وهذه كلمة من الكلمات الجوامع ، لعله لا يفهمها حق فهمها إلا الجامعيّ . ولعلك تسألني أيها القارئ ، إن لم تكن جامعياً ، كيف كان ذلك ؟

ألا فاعلمْ أن الأستاذ هو عماد الكيان الجامعي ، والأستاذية هي الغاية التي يُتوّج بها العالِم حياته . وهي قمة الجبل التي إذا بُلغت لا يكون عند بلوغها لمتحوّل غير النزول . وتجد دونها على جانب الجبل الشرقيّ الطلبة والمعيدين والمدرسين ووكلاء الأساتذة ، وتجد دونها على الجانب الغربي العمداء ومديري الجامعات . ذلك الجانب للإشراق والصعود ، وهذا للغروب والهبوط . وهو في العادة هبوط إلى القبر أو استعداداً له ، عند ختام الحياة .

فالعمادة عمل إداريّ أصلاً وفرعاً ، وظاهراً وباطناً ، إلا أن يكون العميد أستاذاً . وهو لن يكون في العمادة إستاذاً إلا بماضيه ؛ أما حاضره فلا يمكن أن يتسع لعمل أو مكتبة . وقد لا يتسع لدراسة من أجل تدريس . وهو في مصر على الأغلب ناظر مدرسة ، فهو القائم على النظام بين الطلبة الصغار وبين الرجال الكبار ، وهو المشرف على توزيع الجداول والحصص ، وهو القائم على النفقة في داخل كليته ، أو على الأقل عليه اقتراحها . وهو مفسر القانون وحلّال المعضلات ، ولا بد له أن يقتبس من أخلاق رجال الشرطة ما يعينه على تسهيل السير ، لا سيما في الحوادث الكبيرة الصارمة التي يتحرك فيها سكان الكلية ، لا فرادى ، بل جماعات .

ورجل هذا حاله ، وهذه مشاغله ، أشبه بمدير لمديرية منه بأستاذ بكلية ؛ هو عميد ؛ هو عمدة كلية . وبهذا تقضي طبيعة الأشياء .

لهذا لا يُولّى العمادة في الجامعات إلا رجل أحاله العلم على المعاش لضعفه وكبر سنه . أو رجل فاقت مواهبه الإدارية مواهبه العلمية ، فوضعوه فيما أهلته الطبيعة له . أو عالم يحب الجاه على العلم ، وأن يكسب من سذاجة الجماهير ، فاختار أن يلمع في سماء العامة دهراً على أن يلمع في سماء التاريخ دهوراً .

والأستاذ المتعمّد يطلّق غصباً ما بينه وبين العلم ، إلا مراودة غير مثمرة .

من أجل هذا لم يكن في غير مصر للعميد خطر بسبب عمادته وحدها . وفي إنجلترا يعافها الأساتذة العظام فيتركونها لمن دونهم ولو لم يكن أستاذاً ، لأنه أكثر فراغاً وأكثر نشاطاً .

عرف هذا أحمد أمين ، وعرفه سماعاً وعرفه ممارسة ، فقال ما قال : أنا أصغر من أستاذ وأكبر من عميد .

وما يقال في العمداء يقال في مديري الجامعات ، لأنهم أقدم في الإدارة ، فأبعد كرى للعلم . ولكن مع هذا فى ذهن العامي أين يقع مدير الجامعة من رجالها ؟ عند القمة . وقد يكون عند القمة بعلمه ، بماضيه ، إن كان

له علم ماض. ولكنه في عين العقلاء هو بحاضره دون العقلاء الأساتذة مقاماً. وما أصدق من سمّاه مدراً.

وبالطبع لا أقصد أن أنال مما أقول شخصاً معيناً بالذات، إذ لو تساوت الأشخاص لم يكن ليجرى على لساني إلا كل خير حلو، وإنما أصف المراكز خالية من أصحابها.

وإنما أفعل هذا لأشيع الحقيقة عارية، حتى يخفّض الناس من غلوائهم في تقدير تلك المراكز وأمثالها، فيكون من هذا تخفيض غلواء طلّابها، فلا يكون تكالب على زيف. وكذلك ليفهم كل رجل في الدولة أن مكانته منها لا يستدل عليها حتماً من مكانته بكتاب ميزانيتها، وأن له نصيباً في عجلتها الدوّارة الكبرى، أين كان موضعه منها؛ وأنه مهما صغر، كالمكنة قد يعطلها أصغر شيء فيها، مسمار ذو برمة صغير.

أحمد زكي

كتاب:

مهـــــدى الله

أخرجت لجنة دائرة المعارف الإسلامية سلسلة تراجم أعلام الإسلام، فساهمت بذلك مساهمة قوية في النهضة الأدبية، التي نلمح أثرها واضحاً في هذه الأيام التي تدوى فيها أركان العالم بأصداء المعمعة الهائلة الدائرة في الشرق والغرب. ولا عجب في ذلك، لأن الهزة الكامنة في أعماق نفوسنا تتخذ من هذه النهضة الأدبية وسيلة للتعبير عن شعورنا المنفتح وآمالنا المتوثبة. ولقد كان آخر ما اطلعنا عليه من هذه السلسلة الموفقة، سيرة رجل لا نعلم أن أحداً استطاع من قبل أن يصور له صورة إنسانية خالية من التحامل؛ هو رجل جمع بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية، وخاض غمار معركة كبرى صادم فيها مصالح مختلفة، وعادى طوائف ذات نفوذ متغلغل في أطراف متباعدة. فليس من العجيب أن تثير العداوات حول ذكراه عاصفة هوجاء ليس من طبعها أن تكون عادلة في وصفها، ولا منصفة في أحكامها. قام السيد محمد أحمد المهدى يدعو إلى ما امتلأت به نفسه من الآراء الإصلاحية في الدين والسياسة، وأدت هذه الدعوة إلى ثورة مسلحة ضد الحكم المصري في السودان، وتدخلت عوامل مختلفة بين شخصية وسياسية في موقفه من الحكم، فاستفحل أمر الثورة، وانتهى أمرها إلى أن صارت تياراً لا يقاوم. واستطاع الرجل الذي بدأ دعوته خالصة للدين أن يؤسس دولة عظيمة في قطر فسيح جعل لها أم درمان عاصمة، وكان يطمع في أن يمد سلطانه إلى حدود مصر ذاتها.

فالظروف التي نشأت فيها دولة السيد المهدى في السودان فسحت المجال لأقوال كثيرة، وتأويل بعيد لكل ما كان منه منذ ظهر إلى أن انتهى الأمر إلى المأساة الأخيرة، التي زالت فيها دولته الناشئة بعد موته بمدة يسيرة.

وقد استطاع الأستاذ توفيق البكرى مؤلف هذه السيرة أن يتخلص من العوامل التي أثرت في حكم الذين تناولوا حياة السيد المهدى بالحديث في مؤلفاتهم. ولقد كان من الطبيعي أن يتخلص الأستاذ توفيق البكرى من هذه العوامل، لأنه من أبناء السودان الذين يقدرون أن يتغلغلوا إلى أعماق النفس السودانية ويكشفوا عن حقيقة أحاسيسها؛ وهو فوق ذلك من الأدباء الأذكياء الذين تؤهلهم ثقافتهم للتسامي فوق التيارات التي تجرف الأحكام وتضل بها، ولهذا أمكنه أن يضع نفسه حيث يرى البواعث التي بعثت ذلك الزعيم الديني على النهوض إلى دعوته الإصلاحية. ثم أمكنه بعد ذلك أن يصفى أخبار التاريخ مما داخلها من الشوائب، فوصف الوقائع في صراحة وعدل، وكشف الغطاء عن كثير من التيارات الخفية التي كانت تعمل من وراء الحوادث في تلك الحقبة من التاريخ.

ولعل أبرز ما في الكتاب ناحيتان: الأولى تلك الصورة الواضحة التي رسمها للرجل نفسه، فقد استطاع أن يبدعها

صورة حية تنمو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ، لا يكاد القارئ يرى فيها طفرة ولا تهويلا . قال فيه ، وهو في أول الشباب إذ كان يطالب العلم :

« ويرتقب محمد أحمد في غير تطلع ووجل رسالة أهله ليدفع بها عن نفسه غائلة الحاجة ويرد عادية الجوع ، وهو في هذا الترقب مطمئن إلى مورد المال الذي يرسلونه إليه ، فهو كد أيديهم وعصارة عرقهم . . . فإذا ما جاءه المال ألفاه كثيراً يربو على حاجته . . . إنه إن ادخر شيئاً لغده فقد تكالب على الدنيا . . . . ولن يستطيع أن يصف ورق . . . . ثم صمم فقرر وتصدق بذلك المال . واتخذ منذ اليوم الغابة سبيله ، فاحتطب منها وحمل أحطابه إلى السوق فباعها وتصدق ببعض ثمنها ، واقتات بالقليل الباقي » .

ثم قال : « فإذا أورقت الأشجار وجفها الندى وعسر عليه قطع أخشابها ، ذهب إلى النيل يصطاد أسماكه ولكنه لن يضع في صنارته طعماً فذلك تحايل وخداع . . . وقد يمضي عليه يوم ويتلوه آخر والأسماك لا تقترب من صنارته فيطويها صابراً متجملا . . . ويرتفع ماء النهر ، وترتحل الأسماك إلى لجته ، فلا يبقى له من شيء سوى ما يلمحه من بقايا البصل في جروف الزرع القائمة على شاطئ النيل ، ويهم بأخذ شيء منها وتحاسبه نفسه أنه لا يحق لها أن تنال شيئاً من مال غيره ، فيستأذن أصحابها في أن يأخذ ما يقع عليه جزاء عمل يقوم به » .

وقد واصل الرسم في مثل هذه الألوان الطبيعية حتى انتهى إلى صورة صادقة لرجل لم نعلم إلى اليوم أحداً من الكتاب كلف نفسه عناء الصدق في وصفه .

وأما الناحية الثانية التي يمتاز بها الكتاب ، فهي أنه استطاع أن يكشف الستار عن كثير من أسرار سياسة المهدي ؛ فقد بين أنه كان رجل دولة يعرف مواطن أقدامه قبل أن يخطو خطوته ، وأنه كان ثائراً مصلحا لم يتحدث عن السودان وعن مصر ، ولم يكن يعرف قومية تقوم في أرض محدودة ، ولم يحاول أن يثير فكرة وطنية سودانية تناضل سيادة مصرية أجنبية ، بل كان صاحب دعوة لا يبالي فيها أن يكون تابعه أبيض أو أسمر ، ولا يهمه إن كان الذي يتلقى الدعوة في مصر أو أم درمان ، بل كان يطلق دعوته صريحة لا يطوي تحتها عصبية . إنه لم يكن يريد « ملكا ولا جاهاً ولا مالا ، وإنما هو عبد يحب المسكنة ويكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين » .

وكان يسعى إلى أن « يجدد لهذه الأمة ما اندرس من معالم دينها » .

إنها هذه الأمة . هذه الأمة التي نسيت الإسلام وقد جاء هو يذكرها به . إنها الأمة الإسلامية التي لا تعرف الحدود بين الوطنيات .

وكان شأنه في هذا شأن سائر المصلحين الثائرين في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر .

وقد أحسن المؤلف الفاضل في أنه بين في كتابه رأي رجل من عظماء معاصري السيد المهدي ، وهو عرابي باشا ، إذ قال فيه : « إننا نرى أنه قائم بدعوة دينية » . وقال فيه أيضاً : « كل داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدي » . إن المهدي كما قال الأستاذ المؤلف لم يكن صاحب « حركة استقلالية أراد بها استقلال السودان وفصله عن مصر ، بل كانت حركته دينية بحتة . . » ، كان فيها « صاحب دعوة إصلاحية ورسالة دينية ، ولم يكن رجل دنيا أو طالب ملك » .

وإنا نعتقد أن هذا الكتاب الصغير قد خدم حقيقة العلاقة التاريخية بين مصر والسودان في القرن التاسع عشر خدمة عظمى ، وأذاع احتجاجاً قوياً على حملة دعاية قوية قام بها مؤلفون جبابرة من قبل حاولوا بها الإيهام ، أن السودان قطر له في الاستقلال عن مصر أرب قديم ، مع أنه لم يكن في كل حياته سوى الجزء الجنوبي من الوطن . وادي النيل .

محمد فريد أبو حديد

عودى ....

عُودِى لمحرابى فالحبُّ نادانا
ياصبح أسرابى عودى لدنيانا
وأمشى إلى بابى فى موكب الفجر
يحدوك من غابى ركبٌ من الزهر

* * *

عُودِى وغنّينى أنشودة الحبِّ
لحناً يواسينى فى عزلة الصبِّ
حرانُ فاسقينى من منهل الفنِّ
صادٍ فروّينى من ذلك الحسن

* * *

ياحلوَ أيامى أين التى أينا
يامَهد أحلامى عودى كما كُنَّا
ياليتَ أنسامى تهفو حواليكِ
أو سحر أنغامى يسرى بأذنيكِ

* * *

عُودى فما أحلى أيام ماضينا
مرّتْ بنا عجلى كالدهر يطوينا
ياطولَ ما صلّى قلبى يناديكِ
لبّيكِ ياليلى الروح تفديكِ

* * *

عُودى إلى حبى فى معبدى النائى
فالحبُّ للصبِّ أروَى من الماء
يافتنة اللبِّ ياجنّة الدنيا
دُنياكِ للقلبِ أفقٌ به أحيا

* * *

عُودى إلى نفسى فى برجها الأسنَى
فتّانة اللمس كالزهرة الوسنى
واستمرئى كأسى فالنور فى راحة
لمحٌ من الشمس يزهو بلمّاحة

* * *

أضرمتِ فى صدرى نارَ الهوى الضنى
حتى ذوى زهرى فى نضرة السنّ
ياضيعةَ العمر لم يبق لى منه
إلا سنى يسرى تمّ الدجى عنه

* * *

يا روضةً كانت لى روضةً غنّا
يا ليتها دامت منضورةَ المغنى
أيامُها راحت فى غمرة الشكّ
ضاعت وما ضاعت إلا بكفّيكِ

محمد الدرعى



الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣١٠ — الثلاثاء ١٩ من ذي الحجة سنة ١٣٦٣ — ٥ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

النزعات السياسية في مصر

الشعب المصري شعب قريب العهد بالاستقلال بشئونه ، حديث الاشتغال بأمور السياسة العملية . دخل ميدانها متأخراً بغير خبرة سابقة بأساليبها ، معتمداً في ذلك على ما هدته إليه فطرته ، وما استرشد به من تجارب من سبقه في هذا المضمار من الأمم .

وبهذا يمكن أن نعتبر الدور الذي نجتازه في حياتنا السياسية دور بداية وتكون ، أو دور تجريب ومحاولة لبناء كياننا السياسي وتدعيم أركانه . ومن الطبيعي في مثل هذا الدور أن نتعرض لأخطاء ، وأن نفاجأ بظروف لم تدخل في حسابنا ولم نعدّ لها العدة من قبل ، وأن تمر بنا فرص يفوتنا انتهازها ، وأن نتخبط من حيث لا نشعر في بعض تصرفاتنا . ولا ضرر في هذا كله متى كنا نراجع أنفسنا في كل حالة من تلك الحالات ، ونفيد من أخطائنا ما يعصمنا من الوقوع في مثلها بعد ذلك ، ونتعلم من كل ما يمر بنا دروساً تنفعنا في مستقبل حياتنا . بل إن مثل تلك الأخطاء والمفاجئات من الأمور الضرورية لكي نربى تربية سياسية قوية ، ولكي نتمرس على الظروف والمشاكل التي تعرض لكل شعب في حياته السياسية .

وأحوج ما نحتاجه في مثل هذا الدور ألا تمر بنا هذه الأخطاء دون أن تُكشف ويُنبَّه إلى تصحيحها ، وألا نغضي عن عيوبنا خوفاً أو مجاملة أو ستراً لعوراتنا . ولا تتم هـذه المصارحة إلا في جو يفسح فيه المجال للنقد الحر النزيه .

ولكن النقد المثمر يتطلب شرائط يجب توافرها فيمن يقوم به ، واستعداداً نفسياً خاصاً فيمن يتناولهم النقد من رجال الأمة وكبارها .

فأما الناقد فيجب أن يتحرى الأمانة والدقة فيما يتناوله من المسائل ، وأن يتوخى الهدوء والاعتدال في الأسلوب

الذى يعالج به عرضها ، وأن يرى الإنصاف والعدل فيما يستخلصه من النتائج والأحكام ، وألا يغفل تلمس المعاذير لمن أخطأ متى كان خطؤه من اجتهاد وحسن نية ، وأن يترفع بنقده عن أن يمس الجوانب الشخصية أو أن يخرج عن دائرة موضوع نقده ، وأن تكون روحه فى نقده روح طالب الحقيقة الساعى للإصلاح والتقويم لا روح المتهجم المجرّح الذى يقصد إلى التشهير والإيذاء .

أما من يتناولهم النقد فحريّون أن يفسحوا له صدورهم ويتقبلوه تقبل النصيحة الخالصة التى يراد بها وجه الوطن ، وألا تأخذهم العزة بالإثم فيصدوا عنه ويسيئوا به الظن ، ويحملوه على غير محمله ؛ وهم خليقون أن يعترفوا بالحق ويرجعوا عن خطئهم متى بدا لهم وجه الصواب . وبعبارة أخرى يجب أن ينظروا للنقد نظراً موضوعياً يخرجون فيه عن ذواتهم وعواطفهم ، ويقدروه بقدر ما فيه من بيانات صحيحة واستنتاجات سليمة . بهذا التعاون بين النقد الحر وبين من يتولون الأمور من رجال الأمة يمكن الاطمئنان إلى أن كل خطأ سيصحح ، وكل خلل سيعالج .

وتغلب على تفكيرنا السياسي فى الوقت الحاضر نزعات تقتضى درساً وتحليلا لتعرف أسبابها ونتائجها ، وبهذه الدراسة والتحليل يمكن المصلحين أن يرسموا الخطط التى يجب أن توجه إليها جهودهم .

فأول ما يلاحظ أن المسائل السياسية تشغل من اهتمام الشعب ووقته أكثر مما ينبغى . وإذا كنا نغتبط باهتمام الشعب بالشئون العامة ، فإننا لا شك نتردد فى الاغتباط متى صارت المسائل السياسية الدقيقة الشغل الشاغل لرجل الشارع . إن الطبيعى المألوف ألا يعنى الشعب نفسه بتفاصيل الشئون السياسية إلا فى ظروف الأزمات القومية الشديدة ، وإلا فى الفترات التى تهيئها له الحياة النيابية فى ظروف الانتخابات والاستفتاءات العامة ؛ أما فيما عدا ذلك فهو يكتفى بمتابعة هادئة مجملة لسير الأحوال ، ويدع لرجال السياسة الاشتغال بالتفاصيل . وهو لا يدع هذه الشئون السياسية تتداخله فى حياته الخاصة أو فى حياته الاجتماعية بحال من الأحوال . وقد يكون مرد هذا الاهتمام الكثير بالسياسة وتفاصيلها بين طبقات الشعب ، التى يجب أن تكون بنأى عن معمعتها ، شيوع البطالة بين كثير من أفراد الشعب ، والسياسة كما يقولون عمل من لا عمل له .

وقد يكون من أسباب ذلك التجاء كثير من رجال السياسة إلى إثارة اهتمامهم بأساليب الدعاوة المختلفة ، استعانة بهم على تقوية مراكزهم فى بعض الظروف .

من الخير ألا يقحم الشعب فى مسائل خلافات شائكة تقوم بين كبار السياسيين ، فإن ذلك من شأنه أن يعقد ويوسع شقة الخلاف ، وتنقل المعركة إلى ميدان غير ملائم يستباح فيه ما قد يضعف وحدة الأمة .

الأمر الثانى الذى يسترعى النظر غلبة الاعتبارات الشخصية على حياتنا السياسية .

وليس من الميسور إزالة العامل الشخصى من أية حياة عامة ، ولكن هذا الأمر من الممكن تخفيفه برسم قواعد عامة يلتزمها الجميع ، تحول بين صاحب السلطان وإساءة استخدام سلطته .

ولم يصل النضج السياسى بعد إلى حد تقدير التصرفات والآراء مجردة عن الأشخاص الذين تصدر عنهم ؛ ولكن الأيام كفيلة بذلك متى حرص قادة الرأى العام على إنكار ذواتهم واحترام آراء مخالفيهم ، وتقدير الفكرة الصائبة مهما صغر المصدر التى تصدر عنه ، وتشجيع الأتباع على النقد الحر . ولعل الصحافة تستطيع المعاونة فى ذلك بالإقلال من عبارات الحمد والثناء التى تحيط بها كل ما يصدر عن كبار الزعماء من التصرفات والآراء ، والنقض مما يصدر من صغار المواطنين من أفكار قيمة .

على هامش الحكم

ضرورة رسم الخطط

وتبين الأهداف

كتبنا فى هذا الموضوع منذ أسبوعين ، وبينا كيف يجب أن نقلع عن الأعمال الارتجالية ، ونعمل على وضع سياسة ثابتة ورسم خطط واضحة فى ضوء نتائج بحوث تجرى على نطاق واسع فى جميع نواحى الحياة . وقلنا إنه إذا عز على مكاتب الحكومة العادية أن تقوم بذلك العمل ، فعلى الأحزاب أن يضع كل منها لنفسه مثل تلك السياسة الثابتة ، وترسم مثل هذه الخطط واضحة لتكون جزءاً من برنامجها الإصلاحى الداخلى تجتذب به الناس وتكسب الأنصار . كما قلنا إن كل واحد من المتعلمين المستنيرين عليه واجب فى عنقه أن يساهم فى هذا العمل بكل ما أوتى من قوة ، وعلى كل طائفة أن تجمع من بينها جماعة تدرس تلك المسائل وتتقدم باقتراحاتها فيها .

ونحن وإن كنا نرى أن المكاتب الوزارية الحالية لا تستطيع الاضطلاع بتلك المهمة ، إلا أننا نرى ضرورة قيام هيئات جديدة فى الوزارات يعهد إليها بإجراء تلك البحوث العلمية المقترحة ، وجمع النتائج التى نريد أن نرسم سياستنا على ضوئها . ويجب أن ندرك أن عمل هذه الهيئات الفنية على جانب عظيم من الأهمية ، وألا نضن عليها بالاستقلال الضرورى لرجال العلم والفن حتى يؤدوا عملهم كما ينبغى ، وكذلك لا نضن عليها بالمال اللازم ، فكل قرش يصرف فى هذا السبيل يؤتى ثمرته ، ويكون سبباً فى ازدياد الثروة فى البلاد بما يؤدى إليه من تحسينات فى جميع نواحى الإنتاج الصناعى والزراعى ، وفى الشئون الصحية والاجتماعية والتربوية ، وغيرها مما ينهض بالسكان نهضة متعددة النواحى لعل النهضة الفكرية والخلقية من أهمها وأعمقها أثراً .

وكما خصصنا المقال السابق بالعناية بشئون التربية والتعليم بوزارة المعارف ، فنريد أن نخص بالعناية فى هذا المقال شئون الفلاح ، لا سيما ما يتصل منه بوزارة الزراعة ، فلعل هذه الشئون تلى فى الأهمية شئون التربية ، بل قد تسبق هذه فى الأهمية فى نظر الكثيرين من ذوى الرأى .

النزعة الثالثة التى تسترعى البصر هى عنف الخصومة وتطرفها . ومع أننا لسنا بدعا فى ذلك ، ففى الأمم الحرة ما سبقنا لمثل ذلك ، إلا أننا كنا نتمنى أن تكون المعركة بين الخصوم السياسيين أعف وأكرم ، وأن تخلو من التجريح والتشهير ، وندع جزاء المجرم للهيئات القضائية .

إن من حق الشعب أن يعلم خدامه الأمناء المخلصين ، ومن يستغله لمصالحه الخاصة ويسىء استعمال ما أولاه من ثقة ؛ ولكن من حقه ألا تؤذى أسماعه بعبارات شديدة قد تكون نابية فى كثير من الأحوال .

ونحسب أن الخصومات السياسية بهذا العنف تنقطع متى وفق البرلمان إلى وضع أسس سليمة تحد من سلطات الحكام وتلزمهم السير على قواعد عادلة ، ومتى قام البرلمان بوظيفته الصحيحة وهى محاسبة الحكومة ومراقبة سيرها .

وإنا لنتمنى أن نرى اليوم الذى يختلف فيه الخصوم السياسيون أشد الاختلاف فى الآراء والمذاهب ، ثم يكونون بعد ذلك أصدقاء أحباء يتبادلون الود والمجاملة والاحترام .

هذه بعض النزعات الغالبة على تفكيرنا السياسى ، ومن الإنصاف لأنفسنا أن نقرر أننا فى سياستنا الخارجية نتفق جميعاً على سياسة التعقل والاعتدال ، وأننا نتجافى كل ما يحرج ساستنا أو يفسد خطتهم فى التفاهم مع الدول العظمى فى المحافظة على حقوق البلاد وكرامتها .

* * *

قلنا في عدة مناسبات إنه على الرغم من النهضة الزراعية التي يرى البعض أننا نهضناها فإن أثرها في الفلاح لا يزال ضعيفاً غير محسوس ، فهو لا يزال يئن تحت نير الجهل والفقر والمرض ، ولا يتقدم خطوة واحدة ذات أثر ملموس في حياته الخاصة ، لا من حيث عمله العادي في الحقل ، ولا من حيث حياته الخاصة في المنزل أو العامة في المجتمع ، ولا من حيث حمايته مما يفتك به وبزراعته وماشيته من آفات وحشرات ومكروبات ، ومما يمتص دمه قبل ماله من الوحوش البشرية التي تعامله أسوأ معاملة ، وتستغله أعظم استغلال بغير أدنى شفقة أو رحمة ، أو خشية من ضمير أو خوف من قانون .

والإصلاحات التي تمت فيما يمت بصلة إلى عمل الفلاح كلها هي الأخرى وليدة الصدفة أو الظروف الخاصة ، أو السعي وراء الدعاية الخاصة أو الدعاية السياسية ، أو الاهتمام بالقشور دون اللب ، أو بالظاهر دون التغلغل في صميم الحياة الداخلية للفلاح والاهتمام بتفاصيلها ، وبالناحية العملية التي لها أثر مباشر في حماية نفسه وحماية محصوله وحماية ماشيته ، وأثر محسوس في كيفية قيامه بأعماله المهنية وأعماله الصحية وأعماله المعيشية وأسلوب الحياة التي يحياها .

كل ذلك يؤيد ما ندعو إليه من قيام هيئات فنية تدرس مشاكل الحياة الريفية ، وتمكننا من أن ندرأ عن أنفسنا الخسارة الجسيمة التي تصاب بها البلاد من جراء الآفات والحشرات التي تصيب مختلف المزروعات والمحاصيل ، ومن جراء التصرفات السيئة التي أساسها جهل الفلاح وتخبطه على غير هدى ، وعدم أخذ الأغلبية العظمى من الزراع ، حتى من كبارهم ، بالأساليب الحديثة كاستغلال الآلات وانتقاء التقاوي والطلوقة ؛ وكذلك من جراء الأمراض التي تفتك بالإنسان والحيوان ، والعطل والخلل والفساد الذي يحل بالآلات الزراعية من جراء تسليمها لأسطوات جهلة أو لا ضمير لهم .

وإلى القارئ بعض مقترحات عملية لما يمس الفلاح في صميم عمله وحياته ، يصح أن يتخذ أساساً لما ندعو إليه من دراسة علمية دقيقة وتجربة عملية شاملة ؛ فلعل هذه التجربة وتلك الدراسة تؤدي بنا إلى أهداف معينة نضعها نصب أعيننا ، ونرسم لتحقيقها خططاً عملية ومنهاجاً واضحاً كالذي ندعو إليه ، بحيث نتبين من خلال ذلك كله ماذا يصح أن ننتظر أن تكون عليه حالة الفلاح بعد مرور خمسة أعوام أو نحو ذلك .

***

فهناك أولاً هيئات البحوث : نلاحظ أن الموجود منها في الوقت الحاضر مركز في القاهرة ، بعيداً بعداً تاماً عن الفلاحين حتى المستنيرين منهم . والواجب يقضي بأن تنتشر مراكز البحث في القطر كله ، بحيث يقسم مثلاً إلى عدة مناطق ، ينشأ في كل منها مركز أو أكثر لهذه البحوث ؛ ولا بد من أن تمثل إحداها الجهات الساحلية ، وأخرى المناطق البحرية ، وثالثة النواحي الصحراوية ، ورابعة المناطق القبلية على اختلافها وهكذا .

وتبحث هذه المراكز طبيعة التربة ، وأثر الأحوال الجوية ، ومختلف أساليب الري والصرف ، وتعمل على تركيز مجموعة من المحاصيل الأكثر توافقاً مع ظروف البيئة في الأقاليم من جميع النواحي . وسيقتضي ذلك دراسات شاملة للمحاصيل في مختلف ظروف الزراعة والري والجو ، ومحاولات علمية دقيقة لانتقاء خير أنواع المحاصيل ، وتحسين تلك الأنواع بالتدريج حتى تصبح بذرته خير البذور الملائمة وأنقاها ، وطرق زراعته خير الطرق الملائمة وأجداها ، وبالجملة تعمل على أن توفر الظروف لرفع مقدار الإنتاج وتحسين أنواعه إلى أقصى حد .

وتدرس هذه المراكز مختلف الآفات والحشرات التي تنتاب مختلف المحاصيل ، فتقف على كيفية نموها وانتشارها تمهيداً للعمل على مقاومة نموها وحصر دائرة انتشا[ر]

والوصول فى النهاية إلى إبادتها وتخليص الإقليم من شرورها . وذلك عمل لا يتسنى للفرد أن يقوم به مهما أوتى من مقدرة وسعة فى المال ، ومهما استعان بالأساليب العلمية وحده منفرداً ؛ فإنه حتى لو نجح فى إبادة ما فى حقله فسرعان ما ينتقل إليه مدد جديد من الآفات والحشرات من جاره ، إذا لم يكن هذا الجار متخذاً نفس الاحتياطات ومهتماً نفس الاهتمام ؛ فالحاجة إذاً ملحة إلى هيئة علمية ترسم الخطط وترشد الجميع .

ويتصل بهذا أيضاً عمل من أهم الأعمال التى تستطيع هذه المراكز أن تساعد الفلاح بشأنه ، ألا وهو إعداد المحاصيل للتصريف ، فهذا فى ذاته فن لا يتقنه إلا قليل ؛ فهناك أمور بهذا الصدد يجب أن يتعلمها الفلاح مثل فرز المحصول فرزاً جيداً ، وترتيبه ترتيباً تدريجياً من حيث جودة صنفه ومن حيث درجة نقائه ؛ ومثل مراعاة الأصول العلمية فى تعبئته ، ثم فى خزنه بحيث لا يتعرض للآفات بسبب خطأ فى التجفيف أو بسبب تعرض للحرارة أو للرطوبة ، إلى غير ذلك مما لابد منه لحفظ المحصول فى حالة جيدة إلى أن يأتى الوقت المناسب لتصريفه فى السوق ، وبذلك يحصل الفلاح على أعلى الأسعار ، ويتفادى فساد المحصول ، كما تؤدى هذه الخطة إلى انتظام التموين فى القطر على مدار السنة كلها .

ويتبع هذا إلى حد ما الصناعات الزراعية التى تقوم على بعض المحاصيل التى تظهر أحياناً بكميات هائلة ، بحيث يضطر الفلاح إلى بيعها تواً مخافة تلفها ، فيضحى بها بأثمان بخسة ، ولو أنه استطاع أن يصنع منها أصنافاً محفوظة يعرضها فى السوق وقت غياب الطازج منها لحصل على فائدة كبرى ، وانتفعت البلاد بهذه المحاصيل أكبر انتفاع لا فى داخليتها فحسب ، بل عن طريق التصدير أيضاً .

وما يقال عن المحاصيل الحقلية ينصرف كذلك إلى محاصيل الخضر والفاكهة والأشجار الخشبية والنباتات الطبية الخ .

وتدرس هذه المراكز الزراعية الحيوانات الأكثر انتشاراً ونفعاً فى الإقليم بغية الوصول إلى انتقاء خير السلالات وتحسينها بحيث تصير عالية الإنتاج ، سواء من جهة ما تدره من لبن أو ما تحمله أجسامها من لحوم ، أو ما تنتجه من بيض وصوف أو من جهة عدد ما تلده الخ . ويدخل فى ذلك بالطبع دراسة خير الطرق للتربية وللتغذية وللعلاج مما تجهله الآن الأغلبية الساحقة من الفلاحين ، إذ يتبع معظمهم طرقاً تقليدية عتيقة لا يقوم كثير منها على أسس علمية ، وقد يكون بعضها ضاراً بالفعل .

* * *

لكن هذه الهيئات العلمية الفنية المنقطعة للبحث فى حاجة إلى هيئات أخرى تنفيذية إدارية ، تكون واسطة اتصال بين هيئات البحث هذه وبين جمهور الفلاحين ، تنقل إليهم نتائج تلك البحوث وتنشر بينهم ما تشير به تلك الهيئات الفنية ، وتدعو لاتباع نصائحها ونتائج تجاربها بشتى طرق الدعاية والإقناع ، وتعمل حقول نموذجية تطبق فيها الأساليب العلمية الحديثة ، ويدعى الفلاحون لمشاهدتها وتفقد حالتها حتى يقتنعوا عملياً بفائدة هذه الطرق وتلك النصائح والإرشادات .

ثم إن هذه الهيئة الوسيطة تقوم أيضاً بخدمة الهيئة الفنية عن طريق آخر ، وهو جمع البيانات والإحصاءات ، ونقل آراء جمهور الزارعين وملاحظاتهم ومتاعبهم ورغباتهم إلى تلك الهيئات الفنية لتسترشد بها فى أبحاثها ، وتحاول بوسائلها الفنية حل صعوبات الفلاحين وما يعترضهم من مشكلات ، وترد على ما يقيمون من اعتراضات ، وتكيف أعمالها تبعاً للبيانات والإحصاءات . وبذلك ترتبط الشئون العلمية البحتة بالشئون العملية البحتة ، وتكون كلها سلسلة واحدة متصلة الحلقات .

وهناك ناحية على جانب عظيم من الأهمية لما يتجلى فيها من تعاون وتساند ، وما تبذل فيها من جهود جمعية

يساهم فيها كل فرد من أفراد الشعب ، وينتفع الفرد بجهود المجموع ، ألا وهي حركة التعاون الزراعي ، التي بها يستطيع الفرد الصغير أن يساهم في الأعمال الكبيرة التي ما كان يستطيع أن يزج بنفسه فيها ويظفر بقسط منها بغير فكرة التعاون . وإليك بعض أمثلة توضح ما نقصد من ذلك .

فشراء الأراضي الواسعة ولا سيما البور منها وإصلاحها وزراعتها ، وما يتطلب ذلك كله من نفقات ابتدائية كبيرة لا يستطيع الفرد أن يضطلع بها ، كل هذه يسهل القيام بها تعاونياً . وكذلك استخدام الآلات الحديثة الغالية الثمن عادة والتي تحتاج لنفقات كبيرة ، كل هذه لا يمكن أن يصرفها الفرد حتى ولو كان قديراً من أجل أرض ضيقة المساحة ، فإن فائدتها لا تظهر إلا عند استخدامها في العمل بمساحات واسعة من الأراضي ، فعندئذ يكون عنصر توفير الوقت والنفقة واليد العاملة ظاهراً للعيان .

هذا من جهة المصاريف التأسيسية ، ولكن هناك مصاريف أخرى وإجراءات للإدارة والصيانة والتصليحات ، فبالتعاون يمكن الحصول على أسطوات وميكانيكيين مهرة وتدريبهم جيداً وعمل ورشة منظمة مما لا يتسنى للفرد أن يقوم به ، فإن نجاح مثل هذه الأعمال لا يكون إلا على نطاق واسع . وهذا لا يتم إلا عن طريق الاشتراك والتعاون . فهذه الهيئات التعاونية تستطيع استخدام عدد معقول من الآلات وإدارتها وصيانتها على أكمل وجه ، وتمكين أكبر عدد من الزارعين من الانتفاع بها إلى أقصى حد وبأقل نفقة ممكنة .

كذلك تستطيع هذه الهيئات التعاونية أن تربي الطلائق الجيدة الغالية من الحيوانات لتكون في خدمة المجموع لتحسين النسل ، وتسعى لإقامة أسواق عامة منظمة ، ولإنشاء مستشفيات بيطرية جيدة ، ولتنظيم المعارض المختلفة في المواسم اللائقة ، وتيسير حصول الفلاح على ما يحتاجه من غذاء وكساء وسماد وتقاوى الخ بأثمان معتدلة وبدون غش وفي حماية من المستغلين الذين لا يرحمون .

وبالتعاون يمكن تحسين الحياة الصحية والاجتماعية عن طريق عمل مشروعات المياه الصالحة للشرب وللحمامات العامة ، وتوفير الأدوية اللازمة وعمل معازل للحيوانات المريضة ، وتوفير أسباب العلاج لها محليا أو بواسطة مستشفيات متنقلة ، وعن طريق عمل مشروعات للترفيه كإعداد راديو وجهاز سينما وعرض أفلام مناسبة ، وترتيب محادثات شائقة وغير ذلك من مستلزمات الحياة العلمية الحديثة مما يروح عن النفس ويشرح الصدر ويوسع العقل ويخلق الألفة بين الناس .

* * *

وبعد ، فهذه رءوس مواضيع واقتراحات تعرض على سبيل المثال فحسب من رجل ليس له صفة فنية ، وإنما هو متصل بالريف وفلاحيه وحقوله ، لامس للحاجة الملحة لإنشاء هيئات كالتي وصفها هنا ، تقوم بمثل تلك الأعمال التي سرد جانبا منها ، بغية حفز الفنيين على متابعة الدراسة وإبداء آرائهم ليعاونوا السلطات على تبين أهدافها ، وعلى رسم الخطط للنهوض بالفلاح وتحسين حالته من جميع النواحي .

أحمد عبد السلام الكرداني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥ في مصر والسودان
	٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
	٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١٥ مليما

لم لا نستدين؟

ومع ذلك فإن الدَّين ما زال مخيفاً لنا منذ أجيال أفراداً وجماعات ، والأمثال المتداولة فى لغتنا تعبر بوضوح عن هذا الخوف الشديد ، فالدين ذل بالنهار وهم بالليل ، والفقر بلا دين هو الغنى الكامل .

ونقول ركبه الدين ، وتورط فى الدين إلى آخر ذلك مما يدل على نظرتنا إلى ثقل وطأته ، وعظم مخاطره . ولكن ما أحرانا كأمة حديثة أن ننظر إلى الدين نظرة أخرى . ما أحرانا أن ننظر إلى دول أوربا التى تحسب ديونها بآلاف الملايين من الجنيهات ، والتى تعتبر الاستدانة وسيلة طبيعية فى الأزمات الحربية ، أو فى أوقات الحاجة الملحة إلى الإصلاح السريع .

بل إن النظام الاقتصادى فى العالم كله قد أصبح قائماً على الاستدانة ، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فليست شركات التأمين إلا قائمة على نوع من الاستدانة ، والأسهم والسندات فى كل شركات الإنتاج ليست سوى أنواعاً من الاستدانة ، واقتصاد العالم كله قائم على جهود مثل هذه الشركات بغير نزاع .

فليس هناك فى حقيقة الاستدانة ما يجدر بنا أن نرهبه فى هذا العصر .

هذه كلمة عرضية ثارت فى نفسى عند ما قرأت تصريحاً لدولة رئيس الوزراء بشأن خطة مصر المستقبلة فى الإصلاح الشامل الذى تتطلع البلاد إليه .

استعرضت فى نفسى ميادين الإصلاح التى تحتاج إلى أن نقطعها بغير تردد . فوجدت تلك الميادين متعددة وكل منها مترامى الأطراف ، يتسع لجولان أسرع الطائرات الإصلاحية . فكلما خطونا خطوة تبين لنا أن هناك إصلاحاً ضروريا لا بد لنا منه فى الخطوة التالية .

تسير فى الطريق نحو القرية لزيارة أو لتجارة ، فتبدأ السير فى طريق المعاهدة مثلا . وهو طريق مرصوف جميل نظيف لا تحس فيه قلقاً ولا وجعاً من الارتجاج ، ويخيل إلينا ونحن نسير فيه أن مصر من أجمل بلاد العالم منظراً وأطيبها هواء ، حتى الغبار الذى كنا نشكو منه دائماً قد اختفى ، فلا يعكر الجو حولنا ولا يملأ صدرنا . ولكننا لا نلبث أن نعرج يمنة أو يسرة نحو القرية التى تبعد ميلا واحداً عن الطريق ، فماذا نجد ؟ هناك نذكر الضرورة الملحة لإصلاح الطرق ، وتحملنا المشاق التى نجدها على أن نفكر فى الفوائد العظيمة التى نجتنيها من ذلك الإصلاح . فإن محصولات القرية يمكن أن تبلغ البندر فى سرعة وسهولة ، فعربة نقل من اللورى تستطيع أن تجمع خضر القرية فى ساعة واحدة إلى السوق الذى تباع فيه ، ويعود صاحب الخضر بما يملأ جيبه . وتاجر القرية الذى يسير على قدمه أو على حماره إلى السوق أو من السوق حاملا بضاعته مكدسة فى خرج يضغطها ويفسدها ، ولا يستطيع أن يبلغ نهاية رحلته إلا بعد جهد وضياع وقت طويل ثمين ، هذا التاجر يقدر على أن يصل إلى غرضه فى سهولة إذا أصلح الطريق له ، ويمكنه عند ذلك أن يحافظ فى أثناء الرحلة على سلامة بضائعه . والطبيب الذى يريد زيارة القرية لا يتردد ولا يتعطل ، والمعلم كذلك ، والتلميذ الذى تبعد المدرسة عنه نحو ميل لا يتردد فى الذهاب إليها ، بل يجد فى قطع الطريق لذة إذا كانت طريقاً نظيفة ممهدة .

هذا كله فيما يتعلق بالطرق .

فلننظر إلى المساكن . إن مساكن القرى تثير فى الذهن صورة كئيبة . فنحن إذا نظرنا إليها خيل إلينا أننا كنا نشارك فى حرب طاحنة ، وأن هذه الأبنية ليست سوى بقايا حطام الغارات العنيفة ، ولكنها حطام تتخللها قاذورات من فضلات المواشى والناس .

وهناك فى وسط هذه الأكداس الخربة يوجد مبنى

ابيض اللون في بعض الأزقة . هذه هي المدرسة التي واظب على الحضور فيها ربع تلاميذها ، ولم يواظب ثلاثة أرباعها ، وحضر نصف مدرسيها وتخلف عنها النصف الآخر . وهناك على مقربة من المدرسة في زقاق ضيق آخر بناء آخر مسكين . هو المستوصف الذي يصبح محتجاً على إغفال كل قواعد الصحة فيما حوله .

وهناك كومة قمد الأطفال فوقها وهم عراة . ماذا يعملون هناك ؟ إنهم يخطئون فيحسبونها دورة صالحة المياه ، ولهم العذر في ذلك لأنهم لم يروا في حياتهم دورة مياه .

وأما ماء الشرب ، فإنه يحمل على الرؤوس من أقرب ترعة ، فإذا لم توجد ترعة ، فمن أقرب جدول ، فإذا جف هذا وتلك ، فمن حفرة في الطين الملوث .

فإذا نحن تركنا القرية ، وذهبنا إلى ما هو أعظم من القرية ، وجدنا في كل ركن مسألة نقف عندها نلوم أنفسنا أحياناً ، ونلوم غيرنا أحياناً ، ولكنا في كل الأحوال نتمنى أن ننهض يوماً من الأيام نهضة حقيقية نحو الإصلاح .

كل مرافقنا تحتاج إلى الإصلاح بغير شك ، وقد عرفنا ذلك ولمسناه . بل لقد خرجنا من بحوثنا الكثيرة على حقيقة واحدة ، وهي أننا في أشد الحاجة إلى الإنشاء والتعمير ، وإن حاجتنا إلى هذا الإنشاء وهذا التعمير ليست أقل من حاجة الأمم السكينة التي طحنتها هذه الحرب طحناً .

والفرق الذي بيننا وبين هذه الدول هو أن القرون الماضية هي التي تولت طحننا على مهل .

فماذا نصنع في هذا كله ؟ إننا إذا أردنا أن نقنع بالمقدار الذي تتحمله ميزانية الدولة سنوياً من الإصلاح التدريجي كان علينا أن ننتظر طويلا إذا لم يكن علينا أن ننتظر إلى الأبد . لأننا إذا بدأنا أول الإصلاح الآن — في مثل هذه الميادين الواسعة — لم تكد تبلغ نهاية الإصلاح حتى يفسد الجزء الأول منه . فيكون علينا أن نبدأه من جديد .

ولن نقدر على الاستفادة الصحيحة من الإصلاح إذا تمهلنا فيه بمثل هذا التقسيط ، فمثلا إذا أصلحنا جزءاً من الطريق لم نستطع أن نستفيد به لأن الذي يريد السير على الطريق يحتاج أن يصل فيه إلى نهايته . ويمكن أن نقيس على هذا كل ميادين الإصلاح . هناك رجل مصري واحد استطاع بذكائه وإرادته أن يدرك الحقائق التي لم نستطع إدراكها إلى الآن ، ومع ذلك فإن هذا الرجل العظيم قد تعرض إلى كل أنواع الدعاية الفاسدة حتى كان من العسير على الناس أن يعرفوا مقدار عظمته إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن .

هذا الرجل العظيم هو ساكن الجنان اسماعيل باشا أبو الملوك . فقد عرف أن إصلاح مصر يجب أن يكون سريعاً إذا أردنا أن نستفيد منه ، ووجد أنه إذا تمهل وأصلح شيئاً فشيئاً لم يفد إصلاحه شيئاً ، وقد يتعرض الإصلاح للفساد أو النقض . وعلى كل حال فإنه قد أدرك أن إصلاح الشيء الواحد يجب أن يكون شاملا في مرة واحدة . فاستطاع مثلا أن ينشئ لنا الطرق الحديدية ، وأن يصلح ميناء الإسكندرية ، وميناء السويس ، وأن ينشئ طريق الأهرام فعلينا كلما سافرنا في أنحاء البلاد ، أو وردت إلينا بضاعة من الخارج ، أو ذهبنا إلى نزهة إلى الأهرام الجيدة ، علينا أن نذكر اسمه مقروناً بالحمد والاعتراف . واستطاع كذلك أن يبني لنا قصوراً عظيمة ندخل اليوم إلى واحدمنها للنزهة وهو حديقة الحيوان ، وتقيم وزاراتنا في بعضها الآخر ، بل لقد اتسعت هذه القصور لغير أهل مصر . فعلينا جميعاً أن نترحم عليه كلما تنفسنا نفساً طلقاً أو تبسمنا للحياة . ثم استطاع أن يشيد دار الأوبرا في ميدانها الفسيح ، وأن ينشئ دور الكتب والآثار ، ومعاهد العلم ، وأن يبعث البعثات . وأن وأن وأن . . . . .

ولم يخف من القيام بذلك الإصلاح كله في مدة حكمه القصيرة ، ولم يخف من الاستدانة . ونحن اليوم إذا أردنا

فشل ولسن

من كتاب (مد الحظ وجزره)

«لستيفان تسفايج» Stefan Zweig

— ٣ —

هكذا وقف ولسن على الباخرة يتأمل الشاطئ الأوروبي البعيد الذي بدا له من خلال الضباب مختلطا غامضا كلفه بالتآلف المرتقب بين شعوب الأرض. هكذا وقف معتدل القامة طويلها، صلب الملامح صارمها، ذا عينين حادتين تلوحان رائقتين من خلال منظاره، بارز الذقن بروزها عند الأمريكيين المعروفين بالنشاط والحركة، غليظ الشفاه تنم غلظتها بالهيبة والوقار. لقد انحدر من سلالة رهبان ورث منهم صلابة في التفكير وتحديداً وتزمتاً كتزمت هؤلاء الذين لا يرون الحق إلا واحداً وهم على يقين من أنهم يعرفونه ويؤمنون به. وورث عن أجداده أيضا حماس الاسكتلنديين والارلنديين وتعصبهم؛ وألهب حماسه هذا أنه كان من هؤلاء الذين يؤمنون بأنهم إنما أتوا إلى العالم منقذين، عليهم وحدهم — وخاصة إذا كانوا من القادة أو المفكرين — تقع مهمة إنقاذ البشرية من الخطيئة والإثم. وكانت نفسه تنقل أبداً بعناد الخوارج وصلابة الشهداء هؤلاء الذين يفضلون أن يذهبوا إلى المقصلة أو يحرقوا أحياء على أن ينزلوا عن حرف مما آمنوا أن الدين يمليه عليهم. ولم يكن يرى في ألفاظ كالديمقراطية أو العالم أو الإنسانية أو الحرية أو التحرر أو حقوق الإنسان مدلولات جوفاء وإنما كانت هذه الألفاظ عنده مقومات الإيمان. ولقد أعد العدة لأن يدافع عنها حرفاً حرفاً، ولأن يجاهد في سبيل هذا الدفاع كما جاهد أجداده من قبل في سبيل الدين.

أن نحسب فوائد إصلاحاته الجمة، أمكننا أن ندرك أنها تدر علينا من الفوائد المادية والمعنوية ومن المسرات ما يربو على فوائد تلك الديون التي تحملتها البلاد. وإذا كان أصحاب هذه الديون قد مكروا بإسماعيل العظيم وخادعوه في حساب الديون، فليس ذلك بمانع لنا نحن من عظيم الإعجاب بجرأته، وتفوق نظره، وحبه لمصالح مصر.

فإذا نحن سرنا على مبادئ العصر الحديث، والتجأنا إلى الوسائل الاقتصادية السليمة في تدبير الاستدانة، استطعنا أن نقوم بهذا الإصلاح العميم الذي نحس شدة الحاجة إليه وإلا قطعنا الدهر كله قطعة بعد قطعة، ونحن نندب نحو الإصلاح، ولا نستطيعه. فليس أمامنا من وسيلة سوى أن نتجرأ ولا نخشى الدين كما كان يخشاه واضعو الأمثال. إننا نعيش في القرن العشرين، فلا مناص لنا من مسايرة القرن العشرين.

لقد أصاب دولة رئيس الوزراء الهدف الذي نتطلع إليه جميعاً عندما قال: إننا نستعد للوثبة الجديدة استعداداً جدياً، وإذا كنا إلى الآن لم نخط خطوة عملية تبشر بتحقيق الأمل، فقد وعد دولته بأنه سيتوفر على درس وجوه الإصلاح دراسة صحيحة تمهيداً لأن يأخذ في أسباب تحقيق الآمال بالعمل لا بالوعود؛ وإنها لكلمة طيبة ننتظر بعدها العمل الطيب.

ولاشك أن الدراسة الصحيحة ستنتهي بنا إلى التأكد من أن العمل الذي نريده عمل هائل يحتاج إلى جهد الجبابرة والكنوز الزاخرة. فأما الجهد فكل مصري مطالب بأن يبذل منه ما تشاء المصلحة العامة؛ وأما المال فقد كان دائماً عقبة كأداء، فإذا وقف مرة أخرى في سبيلنا كان علينا أن نتساءل: لم لا نستدين؟

محمد فريد أبو حديد

ولكم خاض من معارك وحروب !

وها هى ذى الباخرة تدنو من شاطئ أوروبا رويداً رويداً رويداً فتتضح معالم هذا الشاطئ ، ويرى نفسه وقد اقترب من الأرض التى سيواجه فيها القضية الفاصلة . وتقلصت عضلات وجهه دون وعى . لقد صمم أن يدافع عن النظام الجديد « فى رفق إن أمكن وفى غاية العنف إذا كان لابد من ذلك » .

ولكن الصلابة فارقت هذا الوجه الذى سددت عيناه نحو الشاطئ البعيد . وبينما كانت الباخرة تدخل الميناء دوت المدافع ورفرفت الأعلام تحية له . ولم تكن تلك تحية رسمية لرئيس الولايات المتحدة باعتباره رئيس دولة حليفة ، كلا لقد انبعثت من الجماهير على الشاطئ هتافات داوية تعبر عن أكثر من مجرد استقبال مرسوم منظم وتصور أكثر من ابتهاج قد أعد إعداداً . إن الذى حياه لم يكن إلا الحماس المتدفق من قلب الجماهير وروحها . ولما أخذ مكانه من القطار الذى انطلق به نحو العاصمة رفرفت الأعلام على كل بلدة بل على كل قرية بل على كل بيت وشعت برفرفتها الآمال فى كل مكان . ومدت الأيدى واشرأبت الأعناق وانبعثت باسم ولسن الهتافات . ولما سارت سيارته فى طريق الشانزيليزيه تدفق الحماس المتقد من الجانبين من الجدران التى أصبحت حية بما تكدس عليها من كتل بشرية . إن أهل باريس ، إن أهل فرنسا — وهم يمثلون أهل أوروبا البعيدين — كلهم كانوا يصرخون ويهتفون صائحين مهللين فرحين تغمرهم عاصفة من التلهف والأمل . وتراخت عضلات وجه ولسن وهدأت ، وافتر ثغره عن ابتسامة سمحة طلقة سعيدة . ولوح بقبعته يمنة ويسرة كأنما يريد أن يصافح الجماهير فرداً فرداً ، إنه يريد أن يحيى العالم . لقد أصاب بلا شك فى أنه حضر إلى هنا بنفسه ، إن الإرادة

الحية هى وحدها التى تستطيع أن تقهر صرامة القانون وصلابته . كيف يمكن أن يفشل فى أن يحقق لهذا البلد السعيد بل لهذه الجماهير المهللة فرحا آمالها فى الحاضر والمستقبل . إنه لن يستريح أكثر الليل وفى غد سيذهب إلى العمل ليهيئ للعالم السلم والأمن اللذين حلم بهما آلاف السنين . وهكذا سيتاح له أن يقوم بعمل لم يصل الإنسان بعد ما قام به من أعمال ، إلى أن يقوم بما يدانيه جلالا وعظمة .

* *

واحتشد رجال الصحافة ، وهم وحدهم جيش أى جيش ، فى قلق وشوق أمام القصر الذى أعدته الحكومة الفرنسية لإقامة الرئيس ولسن وأمام فندق « كريتون » حيث نزل ممثلو أمريكا فى المؤتمر . وكان منهم مائة وخمسون صحفيا آتين من أمريكا وحدها ، وأرسلت كل مدينة هامة مندوبى صحفها حتى لم تبق مدينة على وجه الأرض لم تمثل صحافتها . وكان هؤلاء الفرسان ، فرسان القلم ، يلحون فى طلب البطاقات التى تبيح لهم حضور كل جلسة من جلسات مؤتمر الصلح . نعم كل جلسة من جلساته . ألم يضمنوا للعالم شرط العلانية فى المؤتمر ؟ ألم يؤكدوا له أنه لن تكون فى هذه المرة جلسات سرية ولا اجتماعات خفية ؟ إن أول شرط من شروط ولسن الأربعة عشر ينص صراحة على هذه العلانية ، ينص على أن جلسات المؤتمر « جلسات يتفق فيها فى صراحة مكشوفة على السلم ، ولن يكون بعد ذلك أى اتفاق تنفرد بعض الدول لعقده فيما بينها » . إن وباء المعاهدات السرية الذى قتل من البشر أكثر مما قتلت منهم كل أوبئة الأمراض مجتمعة لابد من إبادته نهائيا . وهذا مصل ولسن الواقى الجديد . مصل السياسة الصريحة المكشوفة .

ولكن أمل رجال الصحافة القلقين قد خاب . لقد

سادفهم من بشائر التحفظ والتكتم ما لا يستطيعون قهره. إنهم ستحضرون الجلسات الكبرى كأسكم، بل إن محاضر هذه الجلسات العلنية (التي ستكون قد طهرت من قبل من كل ما يمكن أن يكون هناك من توتر) ستعلن على العالم أجمع. أما الآن فليس ثمت معلومات جديدة يمكن أن يدلى بها إليهم. إن خطة سير المؤتمر لابد من أن ترسم أولا. ولم يكن بد لرجال الصحافة المتحمسين من أن يدركوا أن شيئا ليس على ما يرام يدور خلف الستار. إن خطة السير كانت ترسم بلا شك. ولكن منذ الشروع حتى في هذا أدرك الرئيس ولسن مما بدأ به ممثلو الدول الكبرى كلامهم أن الحلفاء في الواقع عصبة عليه. إنهم لم يكونوا يريدون العمل الصريح المكشوف. ولهم الحق كل الحق. لقد كانت هناك في ملفات كل أمة من الأمم المتحاربة وفي خبايا سجلاتها معاهدات سرية تضمن لكل منها أنها ستحظى بنصيب عدل من غنائم الحرب. إن هناك بلا ريب كثيراً من الفضائح والمخازي يجب أن تطهر أولا ولا يجوز لهذا التطهير أن يكون معلوما، بل إنه حرصا على سمعة المؤتمر نفسه لابد من البدء بمناقشة هذه الموضوعات أولا ليتم تطهير مبدئي خلف الستار. ثم ظهرت إلى جانب ذلك خلافات أعنف من مجرد الاختلاف حول خطة السير والمحضر. إن كل فريق، الأمريكيين من جهة والأوروبيين من جهة أخرى، كان متجانسا متفاهما فيما بينه وبين نفسه على ما يريد فعلا. إن المؤتمر سيعقد سلمين لا سلماً واحداً. سلماً معجلا مؤقتا لإنهاء الحرب مع الألمان، وقد سلموا وألقوا السلاح؛ وسلما عويصا معقداً يراد له أن يكون أبديا. سلما يراد به أن تصبح الحرب بين الأمم مستحيلة إلى الأبد. أما السلم المؤقت فلم يكن بد من أن يكون قاسياً حازما لا هوادة فيه كسائر ما عرف التاريخ من سلم في مثل هذه الظروف وأما السلم الأبدي فإنه بدع ليس للتاريخ به عهد. ولكن بأيهما يبدأ؟

هنا اختلف الفريقان اختلافاً حاداً واضحا. فالرئيس ولسن لم يكن معنيا بالسلم المؤقت. إن إقامة الحدود الجديدة بين الأمم وفرض غرامات الحروب وتقدير نفقات التعمير الجديد، إن هذه كلها أمور، فيما يرى، من شأن اللجان والفنيين أن يبتوا في أمرها بشرط أن يكون ذلك وفقا للأسس التي وضعها ونص عليها في الشروط الأربعة عشر. ولكنها أمور تافهة لا شأن له بها وهي من اختصاص المختصين وحدهم. أما قادة الأمم وساستها فقد كان عليهم عبء من نوع آخر — عبء الخلق والبعث والتعمير ومحو الحدود بين الأمم جميعا لا تحديدها وجعل العالم وحدة متماسكة تكون الأساس لتشييد السلم الدائم.

واقتنع كل فريق اقتناعا تاما بالحاجة الماسة إلى الإسراع في عقد السلم الذي يريده أن يكون أولا. وصمم الحلفاء الأوروبيون، وهم على حق في أن يصمموا، على أنه من المستحيل أن يظل العالم ينتظر شهوراً أخرى ليعرف شروط الصلح وقد أنهكته أربع سنوات من الحرب واستنزفت دمه. إن انتظاراً كهذا يعود إلى الخراب والفوضى في أوروبا كلها. ولابد من أن تحل الأمور المستعجلة أولا. فالحدود يجب أن تحدد والإصلاحات يجب أن تبين وتوضح، والجنود الذين مازالوا تحت السلاح يجب أن يسرحوا ليعودوا إلى أهلهم ووطنهم، والعملة يجب أن تثبت، والتجارة والمواصلات وكل مرافق الحياة يجب أن تعود سيرتها الأولى. وبعد هذا بعد أن يتصلح شأن العالم يمكن السراب — سراب المشاريع الواسعة — أن يشع نوره على العالم في اطمئنان وهدوء. وكما كان ولسن لا يحفل في الواقع بالسلم المؤقت المعجل فكذلك كان كليمنصو ولويدجورج وسونينو وهم المحنكون المجربون والساسة البارعون لا يحفلون كثيرا هم أيضا بما كان يصبو إليه ولسن. لقد وزنوا وجهات النظر السياسية وقدروها من جهة، وأحسوا بما أحس به العالم من تطلع وشوق إلى تحقيق هذه المطالب الإنسانية من جهة

بين المجلة والقراء

بعثت إلينا حضرة السيدة صفية القوصي برسالة ضمنتها بعض ملاحظات على قصتين نشرتهما الثقافة لحضرة الدكتور (علي شكري).

وإنا نشكر حضرة السيدة الفاضلة على تنبيهها وحرصها على الحقيقة، ونأسف إذ أغفل حضرة الدكتور الفاضل أن يذكر أن القصتين مترجمتان من الانجليزية وأنه عربهما واتخذ لهما أشخاصاً مصرية.

قالت السيدة الفاضلة في ثنايا رسالتها عن القصة الأولى «ولو أن الكاتب أنصف لذكر تحت العنوان أنها مترجمة بدلا من أن يقول إنها قصة مصرية واقعية وما كان هذا ليقلل من قيمة القصة».

وقالت عن القصة الثانية:

«ثم طلع علينا العدد ٣٠٢ من مجلة الثقافة وبه قصة أخرى «مصرية واقعية أيضا» للدكتور علي شكري اسمها «علاج للأعصاب»، وفي هذه المرة لم تكن القصة مترجمة فحسب، وإنما هي منقولة بعنوانها الذي اختاره المؤلف الانجليزي "A Cure for Nerves"

وقد اضطر الدكتور إلى حذف جزء كبير من كلام المؤلف لكي يجعلها تناسب الفراغ الذي تتسع له المجلة. وأراد بعد ذلك أن يمصر القصة فقال إن أهل الزوجة كانوا يرغمونها في صغرها عند ما تأتيها نوبات المغص على تعاطي «بعض الكمون» و «ماء الزهر»، ولم يكن في الأصل شيء من هذا لأن الانجليز ليس عندهم علم بمثل هذه الأدوية.

وكذلك اضطر الدكتور إلى أن يجعل المريضة تسافر إلى لبنان، وتحمل معها رسالة موجهة إلى الدكتور كنعان مع أن الأصل الانجليزي يجعل المريضة تسافر إلى (خارج انجلترا) فقط وتحمل رسالة إلى الدكتور (هارق).

ولا يسع الثقافة إلا أن توافق حضرة السيدة الفاضلة على أن واجب صاحب القلم يحتم عليه أن يربأ بقلمه عن كل شبهة، وأن الترجمة تخدم الثقافة العامة كما تخدمها التأليف ولا ضير على الأديب إذا هو ترجم ما يروقه من روائع الأدب الأجنبي على أن يظهر القارئ الحقيقة كاملة.

أخرى فلم يسعهم إلا أن يعلنوا أنهم موافقون إجمالا على مشروع عصبة الأمم. وهل كانوا يستطيعون غير ذلك بعد أن هزتهم - أدركوا ذلك أم لم يدركوه - قوة الإيمان بالمبادئ الإنسانية التي انفجر بها قلب الشعب في أممهم المختلفة. لذلك قالوا إنهم على استعداد لأن يناقشوا المشروع ولكن بشرط أن يلطفوا منه قليلا ويدخلوا فيه بعض تعديلات معينة، أما الآن فإنهاء شروط الصلح مع ألمانيا واجب أولا لإنهاء هذه الحرب. وبعد ذلك، وليس قبله بحال من الأحوال، يصبح الكلام في الميثاق ممكنا معقولا.

سهير القلماوي

على حافة الفجر
وشاطئ النيل

الليل قد مضت ساعاته ، ودارت دورتها نجومه ، بين بعيد عن القطب قد غرب أو كاد ، وقريب منه تزاور عن الأفق الغربي شطر الشمال . والشرق هزه بنات نعش الصغرى طائرات صوب الشرق ، والفرقدان يتطلعان إلى أشعة اليوم الوليد وراء الأفق

فاسأل الفرقدين عمن أحسّا ... من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار ... وأنارا لمدلج في سواد

وبنات نعش الكبرى كادت تلامس الأفق وكأنها جواد مُحضير على حافة الأفق يبغي مستقره قبل الصبح .

وها هي الثريا جاوزت جوز السماء نازعة إلى أفقها البعيد في الغرب تذكّر بقول ذي الرمة :

وردن اعتسافاً والثريا كأنها
على قمة الرأس ابنُ ماءٍ محلّق(١)

ووراء الثريا الدبران يحثّ قلاصه ، ليدرك خطيبته بهذا الصداق ، لم ييأس منها على طول إعراضها ، ولم يملّ على تمادي السير(٢)

وهناك المجرّة نهر السماء الذي لا يُبصَر لججه ، ولا يُدرك غوره ، بل نهر الزمان يسيل بالعصور والدهور ، يحسر الفكر على شاطئه ، ويعيا الوهم دون منبعه وغايته ، عالم وراء العالم ، وفلك فوق الفلك .

وصُوَر أخرى رائعة هائلة تتجلى بها السماء في هذا الصفاء .

(١) ابن الماء طائر

(٢) في أساطير العرب أن الدبران خطب الثريا وساق إليها مهرها من الإبل وما يزال يتبعها بهذا المهر وهذه الإبل نجوم تظهر بين الدبران والثريا .

يرق الفكر إلى هذه المشاهد العُلوية فيُوغل فيها ثم يوغل حتى ينبهر ، فيهوي حسيراً مرتاعاً كشيطان الرجم ، يلتمس مكانه على الأرض ؛ يهول الفكر هذا العظمُ الذي لا يحدّ ، والجلالُ الذي لا ينتهي ، والغَور الذي لا يُبلغ ، والحجاب الذي لا يخترق ، ويفزعه جوّ تتحطم فيه الأجنحة ، ومدًى يعيا الطيران في أوله ؛ فيفر من هذه السعة الهائلة التي يخفى فيها المكان إلى الأرض ، ثم إلى مكانه الصغير منها ، ويعتصم من هذا الكون الفسيح الذي يتيه فيه الزمان ، إلى الزمن ، ثم إلى ساعة منه . يحتمي بهذه الحدود ، ويأنس بهذه القيود .

ثم تطمح النفس الإنسانية ، بل الشعلة الإلهية ، إلى الملاء ، طموح النسر إلى متقلَّبه من جوّ السماء . فتقطع قيداً بعد قيد ، وتجتاز حدّاً بعد حدّ ، وتخرج من دائرة بعد دائرة ؛ فإذا هذا الجسم المحدود ، والعقل المكدود ، هائم فيما وراء الحدود يحاول الأمر الذي لا ينتهي ، والعلمَ الذي لا يُنال .

ثم يعيا وينبهر فيهبط إلى أرضه ومكانه ، ووقته وزمانه ؛ ولكنّ بصره إلى السماء ، وهمّته إلى الملاء ، وطموحه إلى الإدراك ، في الأفلاك وما وراء الأفلاك .

وهكذا يعلو ويسفل ، ويتقدم ويُحجم ، ويَنزع ويرجع ، حائراً بين كونه المحدود ، وطوقه المجهود ، وبين طموحه الذي يأبى القيود ، متردداً بين عالمه الأصغر ، والعالم الأكبر ، بين نفسه الصغرى والحقيقة الكبرى ، بل بين الإنسان والله .

* * *

أفزعني هذا المراد ، وهالني هذا الجهاد فأويت إلى الحدّ بعد الحدّ ، والستر من وراء الستر ، حتى أمنت على نفسي في موقفي الضيّق ، على هذه البقعة الصغيرة ، فوق هذه الأرض المحدودة ؛ فنزلت من الحقائق الواسعة ، إلى الدوائر الضيقة ، من الوجود المطلق إلى الوجود المقيّد ،

وما زلت أجتاز أجناساً الى أجناس ، وأنواعاً إلى أنواع ، فإذا أنا معطل من داري على شاطئ النيل في ليلة من ليالي رمضان وقت السحر .

وأشفقت أن ترفعني صُوَر النجوم في الماء ، إلى حقائقها في السماء ، وأن يُسلمني نهر النيل إلى نهر المجرة ، وأن تؤدي إلى حيث فررت ، هذه الصلاتُ الوثيقات بين الصغير والكبير ، والمطلق والمقيد ، وبين الذرة والشمس فألححت على الفكر أن يُحبَس ، في هذا المشهد الممتد وألزمت العقل الإخلاد إلى هذه الارض .

ثم كدت أسير مع النيل الى منتهاه ؛ فيصلني بالأبد ، أو أرجع معه الى منبعه فيُسلمني إلى الأزل ، فحبست عيناي على ما أمامي ، وفكري في مرآي ، كما يحبس الطائر الوحشي في قفص ، ويُلهى بالحب عن أطباق الجو .

* * *

ورأيت النيل رَهْواً تتراءى في صفحته مصابيح ساكنة خافتة مُطلة من شاطئ الجزيرة ، ورأيت الزرع ناعماً تمسحه نسمات الفجر رفيقة مشفقة كأنها أم توقظ طفلها . وآنسني الليل الساجي ، والمنظر الصامت والمشهد المُصغي ، والطبيعة الناعسة بل الخليقة الحالمة . لا أسمع ركزاً إلا صيحات متفرقة من ديكة متباعدة كأنها قبل صيحاتها للفجر ، نغمات متقطعة تمهّد بها الموسيقي لألحانه المتصلة ، وإلا نقيق ضفادع قليلة شتيتة ، وإلا صرير الجنادب بين الزروع موحّداً متصلا خافتاً لا يقطع الفكر ، بل يسايره مطرداً كأنه مرور الزمان .

ثم انتقل الفكرُ في الناس فإذا هم بين يقظان انطوت على البر جوانحه ، وعُمّر بالخير قلبه ، ونطق به لسانه ، يسبّح الله ، ويفكّر لخير نفسه وخير الناس في مثواه ، وآخر يقظ يقظة الصل ينساب في مجاهل الظلام إلى الآثام . وإذا هم بين نائم يستجم بالرقاد ليستأنف الجهاد ، ونائم أنامته البطالة ، وأماتته التخمة ، لا يفتقده ناعماً عمل ولا أمل ، ولا تحمده يقظانَ حركة ولا سكون . وإذا هم بين حالم سوّدت أعماله أحلامه ، يحشره النهار للضر ، ويطويه الليل للشر ، ويسلمه النهار الأثيم إلى الحلم الأثيم . وآخر أضاءت رؤياه يقظته ، وازدهرت بالحلم الطيب طويّته ؛ فهو خيّر اليقظة والنوم ، طاهر الحقائق والرؤى . وضروب أخر من البشر طاف بها الخيال واسعَ المجال ، ثم انثنى قلقاً مضطرباً .

وكاد يخلّ هذا التفكيرُ المتناثر ، بهذا المشهد المتآلف ، ويقطع الهمّ المضطرم ، هذا النغم المنسجم ، فعدتُ إلى النيل أطالعه ، والزرع أراقبه ، والخليقة آنس بها ، وأسكن إليها ، وأتغلغل فيها وأناجيها .

ودوّت الأرجاء بالصياح من ديكة الصباح ، وانبجست النواحي بالأذان ، يتجاوب في القلوب والآذان . وسرت في الخليقة قشعريرة هزّت يقظانها وهاجعها . وأنعشت حيّها وهامدها . وتوهجتْ أشعة الفجر الخفية ، تخالط هذه الأصوات الندية ، بل خلت الأشعة استحالت أصواتاً ، أو الأصوات تحولت أشعة .

استحال العالم كله معبداً ، وبدا كل شيء راكعاً أو ساجداً . فهذه الأضواء وهذه النسائم ، وهذه المياه ، وهذه الزروع ، والديكة المؤذنة ، والجنادب الصارّة ، كلها في خشوع وقنوت أو تسبيح وتهليل . والنجوم الغاربة على الأفق ساجدة ، والسماء المحدودبة الخاشعة ، لجلال الخالق راكعة . سمعت من الخليقة ومن قلبي ومن لساني الآية الكريمة تفسيراً لما أرى وأسمع وأتوهم :

« تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ . وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

لم أجد غيري خالياً من الصلاة ، ولم أر سواي شذوذاً في هذا النغم . فرددت نظرات في العالمين ، ثم أسرعت لأكون مع الساجدين .

عبد الوهاب عزام

من الأدب الألباني :

وفاء

لو أن الظروف ساقتك إلى زيارة غابة « دومبا » الواقعة في شمال ألبانيا ، لاستولى عليك خوف يملأ قلبك ، وترتعد منه فرائصك ، عندما يطالعك منظر الغابة عند مدخلها بأشجارها الكبيرة الضخمة ، التي لم تشهد لها العين مثيلا ، والتي لا تسمح للشمس أن ترسل أشعتها إلى الأرض تحتها لكثافتها ، وتشابك أغصانها . لكنك لو اجتزت المدخل ، وسرت قدما في طريقك لذهب عنك الخوف ، وعاد إليك الاستقرار ، إذ أن منظر الطبيعة — الذي واجهك عابسا عند المدخل — تزول عنه عبوسته ، ويأخذ في الابتسام كلما تقدمت بك الطريق ؛ فالأشجار تنزوي ، والأغصان تتناثر ، وأشعة الشمس تستطيع أن تحتل مكانها من أرض الغابة . وهكذا يزداد المنظر رواء حتى يملك عليك مشاعرك فتضطر إلى أن تكف عن مواصلة المشي لتتمتع بالسحر الحلال في هذه البقعة الجميلة من هذه الغابة ، فالأزهار تستقبلك بمنظرها البديع ، وعرفها الشذي ، والطيور تغرد أعذب الألحان ، وتتنقل في لهو وعبث ، ورقص وطرب ، بين الأغصان التي تداعبها هبات النسيم ، والينبوع الصافي الذي جعل من هذا المكان متنزها طيب الهواء . يذهب بالهموم ، ويأسر النفوس ، ويأخذ الألباب .

تتناثر حول هذه الغابة قرى كثيرة ولكن إحداها هي التي تستوقف النظر ، وتدهش الناظر ، تلك هي قرية « بليشت » . وهي تقوم على سلسلة هضبات تتوجها مروج خضراء . وتحيط بها بركة — تحمل اسمها — صافية الماء قريبة الغور ، يتراقص فيها خيال الأبنية والأشجار المحيطة بها في منظر جذاب بهيج . في هذه القرية نشأت أسرة « كهرمان أغا » في بحبوحة عيش ، واطمئنان بال ، وسعادة حال ، ينظم عقدها ، ويتمم نعيمها ويجلب لها السرور غلامان عزيزان ؛ أما أحدهما فنفس « سلطانة » ثمرة غرس الأسرة ، ووحيدتها ، جاءتهم على شوق ولهفة ، بعد طول انتظار ولوعة ، ولقد أبدعت يد القدرة في تسطير جمالها ، وتكوين جسمها ، حتى إن اللغة تكاد لا تسعف بالألفاظ التي تعبر تماما عن هذا الجمال الفاتن ، والحسن البارع . وأما الثانية فنفس « بتريت » وهو شاب يتيم تربطه بالأسرة قرابة قريبة ، فاحتوته منذ الصغر لترعاه وأنزلته منها منزلة « سلطانة » وزاد في عطفها عليه أنه ظريف جذاب ، تقرأ في عينيه الطموح في وداعة وفي حركاته الشجاعة في تواضع ، وفي وجهه عبوس رجال الجبال وصرامتهم . وقد شبت « سلطانة » وشب « بتريت » يتقاسمان حب الأسرة وعنايتها ، ولما أن بلغا مبلغ الفتيان اشتركا في رعي شاء الأسرة ؛ فكانا يخرجان بها كل يوم في الصباح ، ويعودان في المساء ، بعد أن يقضيا سحابة اليوم في سعادة تامة ، تمتزج فيها روحاهما ، وتصفو نفساهما فانطبع في قلب كل منهما حب الآخر ، ثم أخذ هذا الحب ينمو ويترعرع ، ويزداد على الأيام عنفا وقوة ، حتى أصبحا لا يطيقان الفراق لحظة ، وكنت تستطيع أن ترى ذلك في حديثهما وحركاتهما ، ولكن أحدا منهما لم يجد من نفسه الشجاعة التي يقدر معها أن يكاشف أخاه بما يكن له في قلبه فكانا ينفسان عن نفسيهما بأغنيات الغرام ترسلها الفتاة بصوت رقيق عذب ، وألحان من قيثارة الفتى تستهوي السمع ، وتخلب اللب . وظل هذا حالهما حقبة من الزمن تتنازعهما العواطف في قوة ، وهما ناعمان هادئان في رأي العين ، وإن كانا يطويان الضلوع على أحر من الجمر . وفي يوم من أيام الصيف اشتدت فيه حرارة الشمس ، والتهب الجو فأخذ منهما العطش أثناء رعيهما فأسرعت « سلطانة » إلى الينبوع ، تطفئ ظمأها ، وتملأ سقاءها ، وأسرع « بتريت » إلى ظل شجرة ظليل ، فوافته هناك بالسقاء فارتوى هو الآخر ولكنه أطرق شأن من يفكر في أمر

ذى بال . وساد بينهما الصمت طويلا ثم قطعه الفتى بصوت متهدج : «تظنين يا سلطانة أن حرارة الجو ، وجفاف الريق وشدة العطش تحرق كبدى ؟ لا !! هناك شيء واحد ، شيء واحد فقط هو الذى يقطعه ، ويفتته ويذيبه ، ثم احتبس صوته وخنقته العبرات ، ولكنه استرسل الحديث فى مشقة فقال ، «ذلك هو حبك !! الذى صدع أركانى ، وهد كيانى ، وأوهن قواى ، ومع ذلك فلست به شقيا ! وإنما الذى يشقينى بل يميتنى أنى أخشى أنك لا تبادلينى هذا الشعور ثم تفقد ما بقى من صبره ، وخانه التجلد ، فاستمر باكيا ، فوثبت إليه سلطانة تجفف دمعه ، وتهدئ روعه ، وارتمت بين ذراعيه باكية ، وأقسمت له صادقة أنها هى التى كانت تخشى أن قلبه لا يجاوب قلبها ، وأنه لا يبادلها فى عواطفها ولم ينقض ذلك اليوم حتى تعاهدا على الزواج ، وتعاقدا على الوفاء .

مضى على هذا الحادث عام كامل وحبهما فى اشتعال مستمر ، وهما يستعجلان ذلك اليوم الذى يتوج زواجهما ويبتدئان به حياة جديدة أهنأ وأسعد ، وأبقى وأدوم . ولم يخطر لهما ببال أن القدر سطر لهما فى صحيفة الحياة لوعة دائمة وفرقة مؤلمة ؛ فقد اجتاحت أرض الوطن فرقة صربية بقيادة ضابط كبير عسكر فى الجبال القريبة من قرية «بليشت» مسقط رأس «سلطانة» و «بتريت» ومثوى غرامهما ، ومسرح حبهما . وكانت هذه الفرقة من الغلظة بحيث أعملت مداها فى رقاب زهرة الشباب الألبان جزاء لهم على استبسالهم دفاعا عن بلادهم ، ولما أمن الأهالى استياءهم من هذه الوحشية المنكرة ، لجأ العدو إلى حيلة أخرى ؛ فاستاقوا من تصل اليه أيديهم من الرجال والفتيان بحجة التحقيق لمعرفة منظمى الدفاع وواضعى خططه ، ومن الطبيعى أن يكون فى مقدمتهم «بتريت» .

فى هذا الوقت كنت لا تسمع فى القرية الا عويلاً مصدره أمهات وزوجات وأخوات ، وصراخا مصدره أطفال صغار . وكنت لا ترى إلا وجوهاً كساها الذعر ، وأطفأ سراج بهجتها الأسى ، وارتسم على محياها القلق . أما سلطانة فقد شفها الوجد ، وأنهكها اليأس ، ونال منها الإشفاق على حياة بتريت ، فغاض ماء جمالها ، وذوى زهر ملاحتها ، واستحالت شخصاً آخر لا يصله بالسرور سبب . .

مضت أيام ثلاثة لم يصل القرية نبأ ما عن المعتقلين فى معسكر العدو ، وفى نهاية اليوم الثالث رجع «كهرمان أغا» والد سلطانة ثقيل الخطو ، مطرق الرأس ، عبوس الوجه ، يحاول أن يكون عاديا ، ولكن نبرات صوته ، وتقاطيع وجهه تنم عن حاله ، وأنه يعلم عن المعتقل أخبار سوء . فأخذت سلطانة تستخبره فى لهفة عن سر كآبته ، وطال بها الإلحاف والإلحاح . وأخيراً قال : إنى لا أقوى على الكلام ، وأحتاج الى الهدوء والراحة ، فأخذت بيده الى غرفته الخاصة . وعاونته فى استبدال ملابسه ، ولكنها لم تمهله كثيراً بل ركعت بين يديه — فى منظر يذيب الصخور — ضارعة اليه أن يحدثها فى صدق وصراحة عن «بتريت» وغلظت له الأيمان أنها ستتحمل فى صبر وجلد كل خبر . ولكن الرجل الذى يعلم من أمر ابنته وأمر بتريت كل شيء لم يطاوعه قلبه فى أن يتحدث عنه بشيء فأخذ يتلوى فى الإجابة ، ويتلون فى الحديث ، مصراً على أنه مثلها لا يعرف شيئاً . وكيف يستطيع والد يحب ابنته مثل هذا الحب أن يقص عليها وهى فى حالها تلك الفظائع التى ارتكبها العدو مع المعتقلين وفيهم أعز مخلوق لديها ؟ الواقع أن التاريخ لم يتحدث حتى فى عصور الظلمات عن مثل فظائع الصربيين مع الألبان البواسل ؛ فقد شدوا وثاقهم — فى خيانة وغدر — إلى أعمدة نصبوها ، وأعملوا فيهم المدى فى منظر يشيب منه الوليد ، وأفظع من ذلك أن الأخ كان يرى أخاه ، والصديق يرى صديقه تطير رأسه ولا يملك الدفاع عنه . .

أعيا سلطانة أن تستنطق أباها جلية الخبر فانصرفت عنه الى خارج المنزل فانبلج لها صبح الحقيقة ، إذ سمعت الناس يتحدثون فى جزع أن العدو قتل بالشباب قتل الجزار

بالبقر ، فأيقنت أنه قد حم الفراق بينها وبين بثريث ، فرجعت من حيث أتت تندب حظها العاثر وحبيبها الشجاع في بأس قاتل ، ولكنها لم يقر قرارها فخرجت هائمة على وجهها عند ما طلع الفجر إلى الأماكن التي كانا يغشيانها كل يوم ، وأخذت تبلل الأرض بدموعها ، وتطوف في ذهول حول الشجرة التي تبايعا تحتها على الوفاء ، وتعاقدا على الإخلاص ، وظلت كذلك طول اليوم ، إلى أن هجمت طلائع الليل ، وأطل القمر على الكون حزيناً باهتاً يعبر عن ذلك نوره الضئيل الذي أرسله إلى الأرض فلم يبدد ظلامها ولم يبين في وضوح مسالكها . فأخذت تتحسس الطريق إلى القرية ، وبعد لأى ومشقة وصلت إلى المنزل وتسللت إلى حجرتها ؛ فاستلقت على فراشها ، وأرسلت عنان أفكارها . ومع ما بها من وصب ونصب ، لم يغمض لها جفن ، وشل الصندوء الطريق إلى قلبها ، وخيال بثريث ماثل أمامها يذكرها سابق العهد ، ويطلب إليها الوفاء .

وأخيراً قررت الذهاب إليه مهما كلفها ذلك من مشاق فالحياة بغيره سجن لا يطاق ، فاستجمعت قواها ، وكان الليل قد أوغل ، وبارحت المنزل في سكون شامل ، ويممت المسكر عن طريق الغابة الملتوى المتعرج الذي يعلو تارة ويهبط أخرى ، ويضيق مرة ويتسع أخرى ، وهي تعتقد أن الطبيعة تشاطرها الحزن ، فأزهار الغابة ذاوية ، وطيورها ساكنة . اللهم إلا البوم فإنها ترسل أصواتاً حزينة تنعى الشباب الذاهب ، وتندب البطولة النادرة .. مشت سلطانة في هذا الطريق على تلك الحال غير قليل ، ثم وصلت إلى حفرة في الغابة — وياهول ما رأت فيها !! — أجساماً مشوهة ، وأعضاء مختلطة مبعثرة ، ودماء منثورة ، في منظر يبعث الخوف إلى القلوب ، والهلع إلى النفوس ، ولكن سلطانة لم تشعر بشيء من هذا ، وكان كل همها أن تهتدى إلى جثمان حبيبها لتتزود منه بالنظرة الأخيرة ، ولتؤكد له إخلاصها والوفاء بعهده . وكان أخوف ما تخافه أن يكون وحش من وحوش الغابة أكل لحمه وشرب من دمه ، ولكن دفعها إلى متابعة البحث عنه دافع داخل نفسي ؛ فرأت أخيراً تحت شجرة منفردة شاباً غارقاً في الدماء ، عرفت فيه فتاها بعد مشقة فاستلقت بجواره تبكى بكاء من فقدت وحيدها ، ولكنه اهتز هزة خفيفة ، فوثبت على قدميها رافعة يديها إلى السماء ، تسأل الله تعالى في توجع وتذلل ، أن يمد خيط أجله ، ويكتب له النجاة ، إلا أن القضاء سبق لغير ما كانت ترجو .

أفاق الفتى على صوت سلطانة ، فنظر إليها نظرة شفقة وحب ، واستطاع أن يسمعها هذه الكلمات التي وعتها بعد جهد جهيد ، « سلطانة ... أحمد ... الله الذي ساقك في هذه الآونة .. لأراك ... فقد كنت ... متعطشاً لرؤياك ... إلى ... أموت ... اذكرى ... العهد ... الوداع » . ثم فاضت روحه .

بعد أيام رؤى بين القبور رمس لم يجف ترابه ، نثرت فوقه أزهار كثيرة ، وبجانبه فتاة في ثياب سود تلفت عيناها من كثرة ما بكت . وفي الناحية الثانية من القبر زهرة أخذت طريقها إلى الذبول بعد أن كانت ناضرة ، تتأملها الفتاة في ذهول ، وكأنها تقارن بين حالها في حزنها وجفاف ماء ملاحتها ، وحالة هذه الزهرة في ذبولها وذهاب بهجتها . والواقع أن سلطانة الآن غير سلطانة المعهودة لنا ، فقد نضب معين حياتها ، وانطفأ ما كان في جسمها من قوة ، وما كان في نفسها من همة ، وأصبحت لا تربطها بالحياة ولا بالأحياء صلة . ومهما بالغ إنسان في وصف ما كانت عليه ، وما كانت تقاسيه من عذاب نفساني ، فلن يستطيع أن يعطى القارئ صورة صحيحة أو حتى قريبة من الصحيحة من حالها .

مسكينة !!! فقد اضطربت حياتها بعد بثريث ، تحس دائماً أن عليها أن تفعل شيئاً ، ولكنها لا تدرى ما هو ذلك الشيء الذي يجب أن تفعله ... وأخيراً رأت أن الحياة التي تحياها ليست فيها معنى الحياة ، وأن الموت خير منها ألف مرة ؛ وكانت تقول : « أعرف أنني آثمة إذا أنا قتلت نفسي ، ولكني مع ذلك أعلم أن الله تعالى أعدل من أن

مصارف الأنسجة

فى مصارف الأموال نودع ما فاض من أموالنا ، وما نخاف عليه من غالى الثمن ليكون فى أمان . وإيداع كل ذلك أمر هين على من يودعه ، كما أنه لا يحتاج من رجال المصرف أكثر من أخذ الحيطة والحذر . وقد طلعت الحرب علينا بالتفكير فى إنشاء مصارف من نوع جديد ، تضطرنا إليها ظروف الحرب القاسية ، وهذه هى مصارف الأنسجة ؛ فيها تتكدس الخلايا تسحب منها وقت الحاجة وتسحب لحساب من يفتقر إليها دون أن يكون له رصيد قد وضعه فى هذا المصرف من قبل . وما أشد الحاجة إلى مثل هذه المصارف التى قد يسحب ما تكدس فيها من أنسجة بصك تسجله شظية فى جمع حافل أو قوة تقاتل

ومصرف الأنسجة ما زال فى بدايته ؛ إذ يحتاج إلى الكثير من اليقظة والحيطة وشدة الحيلة ، وما ذلك إلا لأننا نضع فى هذه المصارف أنسجة حية تتنفس وتخرج ، ولذا تحتاج إلى بيئة خاصة تساعدها على البقاء .

خزائن الدماء .

وأول هذه المصارف وأقربها إلى أذهاننا مصارف الدماء ، لحوادث النزف أكثر من أن تعد ، فيها يتعرض المصاب لفقد جزء كبير من دمه . ولما كان التطوع لا يكون دائماً على قدم الاستعداد لبذل دمه ، فكروا فى أخذ جزء من دمه وحفظه طازجا بإضافة كيمائيات خاصة ، ثم وضعه بعد ذلك فى مبردات تحفظه إلى أجل بسيط ؛ فإذا ما أريد إسعاف مصاب بنقل الدم إليه ، أمكن إجراء العملية بأخذ دم محفوظ .

وكانت الطريقة القديمة أن ينقل الدم بجميع عناصره من كريات حمراء وبيضاء وبلازمة وغير ذلك . وقد وجد حديثاً أن هذا إسراف لامبرر له . فالشخص المصاب إما أن يعانى فقراً فى الدم ، وفى هذه الحالة فهو يفتقر إلى الكريات الحمراء ، وإما أن يكون قد أصيب بصدمة فهو محتاج إلى البلازمة ؛ لذا وجب أن يكون الدواء على قدر الداء .

ولما كان فقر الدم ناتجاً من نقص فى الكريات ، تلك الخلايا التى تقوم بحمل الأكسجين إلى أنسجة الجسم ، فقد لجأ الطب لإيداع الكريات فى مصارف لتنقل إلى من يفتقر إليها . وهذه الكريات توضع فى خزائن ، ولكنها خزائن من زجاج تتكدس فيها الكريات تكدس النملة ، يحيطها فى الزجاج سائل مالح تركيزه كتركيز البلازمة فى الدم ؛ وتوضع الزجاجات فى مبردات وتبقى لمدة أسبوع ، ويمكن استخدامها خلال هذه المدة . وقد نقلت كريات الدم المحفوظة فى سائل صناعى لأشخاص أصيبوا بنزف شديد ، ووجد أن هذا النقل كفيل بشفاء المريض فى مدة أقصر مما لو عولج بنقل الدم بجميع عناصره . فالمصاب يحتاج إلى ستة أسابيع فى هذه الحالة الأخيرة ليتغلب على أعراض فقر الدم ؛ أما إذا نقلت له الكريات فقط فإنه يشفى بعد بضعة أيام . ولا شك أن توفير ذلك

يؤاخذنى بهذا الإثم ، وهو يعلم ما أقاسى فى هذه الحياة الدنيا ، ثم إن رحمته وسعت كل شىء ، فإن لم يكن لى قسط من هذه الرحمة فلمن تكون ؟! رب ! أنت تقول : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ، وها أنذا أموت سعيدة لأنى سأسلم إليك روحى متمسكة بعهدى مع بتريث . ثم أسلمت روحها ..

فى الصباح غدت الرعاة إلى الغابة مبكرة ، فوجدوا جثة سلطانة ملقاة لا حياة فيها بجوار قبر بتريث ، فأبلغوا أهلها .. وفى اليوم التالى كنت ترى لها قبراً بجوار قبر بتريث ، حفرت عليها هذه العبارة :

« هنا ترقد سلطانة الوفية » .

تلخيص وهبى اسماعيل حقى — ابراهيم خير الله

للقوات المحاربة سيؤدي إلى سرعة شفاء من أصيبوا بنزف شديد. ويمتاز قصر النقل على الكريات الحمراء باقتصاد وتوفير لعناصره الأخرى التي توجد في البلاسمة. فالمقدار الذي يؤخذ من متطوع قد تستلزمه لإنقاذ شخصين؛ إذ تنقل الكريات لشخص مصاب بأنيميا، بينما تنقل البلاسمة لشخص مصاب بصدمة عصبية. وقد وجد أيضاً أن نقل الكريات الحمراء يفيد في جميع أنواع الأنيميا

وتفصل الكريات من البلاسمة بواسطة آلة طاردة مركزية (Centrifuge)، إذ ترسب الكريات وتبقى البلاسمة التي يمكن فصلها بعد ذلك. وتفيد البلاسمة في حالة الصرعة والحوف والإصابة بحرق شديد، لأن مثل هذه الأحداث تسبب امتصاص الخلايا لبلاسمة الدم، وبسبب ذلك خللا في حركته فيؤدي هذا بدوره إلى اختلال في جميع الوظائف، ولذا يعالج المصاب بنقل البلاسمة حتى يحوي الدم سائلاً يكفي لحركة خلاياه.

وليس من الغريب أن يعاجنا العلم باستخدام سائل ملحي لمعالجة أثر الصدمات التي كثيراً ما تؤدي إلى امتقاع لوننا، وهذا ليس بالحديث علينا؛ «فطاسة الخضة» معروفة للجميع، فإذا ما خاف الطفل من شيء يهاجه صرعان ما تسعفه بجرعة من الماء، وما ذلك إلا لأن الأنسجة في حالة الخوف تمتص من الدم ما يحتويه من ماء، وتقل حركة الدماء، فشرب الماء يعوض هذا النقص. وعلى هذا لا يدهش القارئ إذا وصف الملح علاجاً لما تحدثه الصدمات العصبية من أثر في الجسم ويشترط في هذا المحلول أن يكون في تركيزه قريباً من تركيز البلاسمة. وقد جرب ذلك على الجرذان، فوجد أنها إذا أصيبت بحروق ثم أعطى بعضها جرعة من محلول الملح، فإنه يؤدي إلى زيادة نسبة من ينجو من الموت، وإذا زيد في مقدار الجرعة على فترات زادت نسبة النجاة. فإعطاء جرعتين الأولى بعد ساعة والثانية بعد أربع ساعات من إصابة الجرذان بالحرق أدى إلى النتيجة الآتية:

من عدد مائة جرذ أصيبوا بحروق نفق منها ثلاثة عشر في اليوم الأول، وسبعة عشر في اليوم الثاني، بينما في حالة الجرذان التي لم تعط أية جرعة نفق منها ثلاثة وتسعون.

خزائن الأعصاب:

أما وقد أصبح الدم ميسوراً تخزينه، وما هو إلا خلايا تعيش في سائل يحملها ويحميها، فلماذا لا يطبق نفس التخزين على غير الدم من أنسجة؟ وما قول الأعصاب في ذلك؟ لقد لاح في الأفق القريب شعاع من الأمل يفتح لنا الطريق نحو تحقيق ما نصبو إليه من تخزين بعض من أعصابنا وعظامنا. ولكن كيف الحصول على جزء منها مهما صغر مقداره؟ إنها على قدر معلوم، ولا غنى لنا عن فتيلة منها. ولكن إذا عرف القارئ أن في كثير من العمليات الجراحية تستأصل أجزاء يلقى بها دون أن يستفاد منها، مع أنها أنسجة غالية، زالت دهشته. والآن قد يكون منها مصرف نأخذ منه معيناً يكون فيه إنقاذ لمن يصيبهم حادث.

وهذه المصارف ستحوي خزائن، بها أجزاء صغيرة من الأعصاب والعظام وأربطة العضلات في أحجام مختلفة لتسد جميع الحاجات، ولتعوض نقصاً في جسم المصاب. ولقد تمكن العلماء من تحقيق الأمل في تخزين الأعصاب. وما زال العلم يجاهد في الوصول إلى تخزين ما سواها من الأنسجة؛ وقد وصلت خزائن الأعصاب إلى الجرذان والقطط والقردة. وإننا ننظر إلى المستقبل القريب عندما تخزن أعصاب البشر وما أحوجهم إلى ذلك!

وبطل هذا البحث عالم الحيوان الدكتور بول فايس بجامعة شيكاغو. فقد كون مصرفاً للأعصاب الحيوانية عمله، وهذا المصرف يتلخص في مجموعة من القنانى

الزجاجية المحفوظة فى مبردات ، وفى كل مخبار أنابيب صغيرة مقفلة من جهتيها ، وفى كلٍّ قطع صغيرة من فتائل ملتوية جيرية اللون ، تبلغ ما يقرب من سنتيمتر ؛ وهذه القطع البيضاء إن هى إلا أجزاء متجمدة من أعصاب مجففة أخذت من جرذان أو قطط أو قردة . وهذه الأجزاء تخزّن إلى أجل بعيد دون أن يصيبها تلف . والتطعيم بهذه الأجزاء يحتاج إلى مهارة كبيرة حتى يوضع الجزء فى مكانه تماماً ، وبحيث تقابل أطراف القطعة العصبية أطراف العصب المصاب . ويشترط أن يكون الطعم مأخوذاً من حيوان من نفس النوع حتى يلتئم العصب وينمو ، كما هو الحال فى العصب الحى .

وتعد الأعصاب لتخزينها بأن تجمد وتجفف ، فتزال الأعصاب من الجسم فى جو خال من الجراثيم ، ثم تغمس فى أزوت سائل فى درجة ١٩٥° م تحت الصفر . وبهذه الطريقة تتجمد الأعصاب فجأة ، ثم تنقل إلى فراغ تام باستخدام مضخة التفريغ ، ويكون التفريغ مصحوباً بالتجفيف بوساطة خامس أكسيد الفسفور فى درجة ٤٠° م تحت الصفر ، وبعد ذلك تكون قطع الأعصاب معدة للتطعيم .

وقد عرف التطعيم بالعصب منذ الحرب الماضية ، ولم تكن النتائج مشجعة فى هذا الوقت ، وقد أوصى بها جراحو بريطانيا كآخر ما يلجأ إليه الجراح لإسعاف المصاب . وكانت العقبة فى ذلك الوقت عدم الحصول على الأعصاب بمقياس معين يتفق تماماً والعصب المصاب ، كما أنهم لم يتمكنوا من حفظ العصب بطريقة التبريد والتجفيف كما هو الحال الآن .

وإذا تمكن الدكتور قابس من إجراء عملية التطعيم للإنسان باستخدام أعصاب أعدها بطريقته ، فقد يساعدنا ذلك على التغلب على الخطوة الأولى من هذه العملية . أما الصعوبة الثانية فهى إصلاح ما أصاب العصب من قطع أو تهتك ؛ فالذى يحدث عند حدوث قطع فى العصب ، أن نهاية القطع التى نحو المخ تنمو منها زوائد دقيقة ليفية ، إذ تبقى حية ، أما الطرف الآخر فإنه يموت ، فإذا تمكنت هذه الألياف من أن تقابل الطرف الحديث وهو البعيد عن المخ فإن الألياف الدقيقة تستمر فى نموها حتى تصل إلى نهاية العصب المصاب ، ويتم اتصال هذا النمو الحديث بعصب آخر يكون سليما ، وبذلك يضمن استمرار التيار العصبى دون انقطاع .

ولما كان العصب ينمو دون توجيه معين ، فإنه إذا لم يقابل طرف العصب الآخر فسرعان ما تنمو الأنسجة المحيطة بالجزء المصاب وتسد الثغرة ، فلا تجد الألياف المتكونة طريقها إلى نهاية العصب . وإيجاد نهاية الأعصاب وتطعيمها ليس بالأمر الهين ، حتى ولو استخدم الجراح المجهر ، فقد يخطىء الموضع ، إذ أن نهاية الألياف من الدقة بحيث لا يمكن رؤيتها حتى بالمجهر . وقد تغلب قابس على هذه الصعوبة باستخدام قطعة من شريان دقيق ، ويكون عملها كعمل أنبوبة المطاط التى تصل أنبوبتين من الزجاج . وقد أدى استخدام الأنبوبة الشريانيـــة إلى مساعدة الألياف على إيجاد طريقها نحو الطرف الميت من العصب المقطوع ، ووجد أن الأنبوبة الشريانية تعمل كنفق يتجمع فيه ما يفرزه الطرف الحى من العصب من سائل يساعد على نمو الألياف وأغلفتها ؛ كما تمتاز هذه الطريقة بأن الشريان ينكمش فيقرّب طرفى العصب المقطوع ، ويضيق الشريان بتجلط ما به من دم فيزيد ذلك فى ضيق النفق ويساعد على توجيه الألياف النامية نحو الطرف الآخر من العصب . وقد استخدم بعض الجراحين فى بريطانيا بلازمة الدم لتقريب طرفى العصب بدلا من الخياطة ، كما استخدموها لتثبيت الطعم فى مكانه . وسواء كان هذا أو ذاك فكلاها عمليات ما زالت فى فجرها ، وما زال العالم ينتظر تقدمها وتطبيقها . وإن غداً لناظره قريب

محمد أحمد يحوة

بين المسموع والمقروء

بائع الدواء الجوّال

لو طلب طالب أساليب الخطابة في مصر لوجدها أشكالا وألوانا . فخطاب المسجد ، وخطاب السياسة ، وخطاب حفلة التكريم (وحفلة التكريم في مصر قد أصبحت مؤسسة من مؤسسات مدنيتها الحاضرة لا يمكن أن يغفلها باحث) ، وخطاب الممثل على المسرح ، وخطاب الممثل على الشاشة ، وخطاب الأستاذ في قاعة المحاضرة إذ تحتوى الثلاثمائة والأربعمائة ، وخطاب الرثاء على القبر ؛ ثم أنواع صغيرة أخرى كخطاب الحاوى فيمن تحلّق حوله من الناس ، وخطاب بائع الدواء على قارعة الطريق فيمن استطاع أن يستهويهم فيجمعهم الاستماع له من صنوف المارة .

وأنظر في هذه الأنواع أعرّق أصدقها طريقة ، وأفعلها نتيجة ؛ فيخطف بصرى أولّ خاطف هذا النوع الأخير الحقير ، خطاب بائع الدواء على قارعة الطريق ، وهو ما لا بد من تسميته حقيراً لنحفظ على الأنواع الأخرى من أنواع الخطاب شيئاً من وقارها ، وإلا كانت المرطقة شديدة قاسية على النفوس .

مررت منذ أسابيع برجل من هؤلاء الذين كُلّفوا ترويج هذه البضاعة . ولست أذكر بالضبط ما كانت ، فلعلها دواء للمغص ، أو رفع المغص ، أو تسكين لآلام الأسنان . ولكن الذى عطف بى إلى الرجل حسن حديثه وشائق خطابه . ولم يكن يتحدث ويخطب عن الدواء ، ولا عن الطب ، ولا عن شيء مما جاء من أجله أصلا . كان يحكى حكاية . واستمعت إلى الحكاية ، أو إلى ما لحقت به منها ، فوجدتها ذات تصميم بارع أشك في أن يقدر عليه الكثير من كتابنا . وقد اختار لقصته مكاناً بالريف ، واختار الواقعة التى يذكرها بيت فلاح . واختار أشخاصها أبا دقاق ، وولديه سرحانة ، ثم دقاق والجاموسة . وتكوكب عليه الفلاحون في هذا السوق الريفى كما لا يتكوكب أحدهم طوعاً على سياسى خاطب . فإن كانت الخطابة تقوَّم بتأثيرها ، فلقد كان هذا الرجل خطيباً حقاً . بل إنى لأزيد فأقدّمه بمناسبة الانتخابات الحاضرة مثلا يحتذيه الخطباء في الريف من طلاب النيابة .

ولا غضاضة في هذا أبداً . فنحن في مصر ديمقراطيون ، والديمقراطية تلزمنا بأن نطلب العبقرية أينما كانت ، وعند من وجدت ، ولو عند نداء ينادى على دواء . وغير هذا ، فإن هذا النداء عثل البورصة الناجحة في هذا الريف خير تمثيل ، فاستجداؤه واحتذاؤه واجب ، ويجب أن يكون احتذاء كاملا .

وعندنا هذا فالحياة غاية ووسيلة . وهذا الخاطب بدوائه له غاية وله وسيلة ؛ وذلك الخاطب بسياسته له غاية وله وسيلة . هذا له بضاعة من عقاقير يُزجيها ، وهذا عنده بضاعة من آمال يزكيها . ووسيلة هذا اللسان ، ووسيلة ذلك اللسان . والعقل الذى يلعب فيه اللسانان بالخير أو بالشر واحد ، فهو عقل الريفى ، وعلم الريفى بالطب والأطباء لا يعلو كثيراً على علمه بالسياسة والسائسين .

والآن فلننظر مليّا في أسلوب هذا الرجل الناجح ، النداء بالدواء ، لنرى الحكمة ، أو الحكم ، التى أدت إلى نجاحه .

فأول هذه الحكم أنى لم أسمعه ينطق بالفصحى أبدا . كان يتكلم بلغة القاعة والزريبة ، وهى لغة خصيبة خضراء ، تصغر ذبولا إلى جانبها لغة الكتب والمحابر . فعلى النداء بسياسته أن يقلد صاحبنا ، نداء الدواء ، في هذا أولا . وقد يعترض السياسى فيقول إنه لن يكون للاجتماع روعة ومهابة ، ولن يكون به تلك الشقشقة التى يهدر بها فحول الخطباء ، ولا تلك العنجهانية التى هى شيمة الكبراء والعظماء . وهذا صحيح . ولهذا أحيل المعترض إلى ديوان الحماسة ، ينتقى منه أبياتا قليلة تشق والمقام ، يصدر بها الحفلة الانتخابية ، كما تصدر بالقرآن الكريم الحفلات التكريمية ، فيحدث التأثير المطلوب . وإنى إسعافا لمن ليس عنده هذا الديوان حاضراً ، أنتقى له الأبيات الآتية ، وهى للحارث

ابن هشام المخزومى ، وكفى بمخزوميته تزكية وتقديما .
قال حفظه الله :

الله يعلم ما تركت قتالهم … حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم … فى مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا … أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبة فيهم … طمعا لهم بعقاب يوم مرصد

يقولها بصوت جهورى لا يقل من صوت الأستاذ حسن يسن أبدا ، فهو النهاية الصغرى للتأثير المطلوب . تقول إنهم لن يفهموها ؟ بالطبع يا سيدى ، فهذا مفروض ، بل هو مطلوب . إذ كيف يجتمع الفهم والتأثير المرغوب ؟ إن أشياء الدنيا تعجبك ، أنت أيها المثقف ، وتدهشك ، لأنها لا تفهمك ! وإنك لتزيدها إكراما واحتراما ، كلما زادتك غموضا وإبهاما ! ما الحياة ، ما الموت ، ما هذه الكواكب التوابع ، وما تلك النجوم المتقدة اللوامع ، لولا ما اكتنفها من غموض وإبهام ؟ حتى الأدب ، ألم تقرأ ما كتبه صديقنا الدكتور طه بك فى غموض الأدب منذ أعوام ؟ ذلك الأدب الرمزى الغامض لذلك الكاتب الفرنسى الذى تقرؤه فلا تكاد تفهمه ، ولكنك مع هذا تحس فى قلبك منه دفئا ، وفى أطرافك منه رعدة ، دونها دفء الحبيب ورعدته عند اللقاء .

الغموض ، الغموض ، أيها السادة ! وسيأتى بعد ذلك عصر ، سموه عصر النور ، ستكون غبطة الناس فيه من الفهم والعلم ، ولكن أين تقع هذه من لذة عصر الظلام ، لذة الإعجاب فى ترنح من غموض وإبهام ؟!

ثم ماذا فعل الخطيب المطار ، من بعد ذلك ، فى خطبته عن دوائه .

لم يذكر هذا الدواء إلا أخيرا !! أدخله بين أشخاص روايته فى رفق فما نكاد نحس له دخولا .

وهل كان له أن يفعل غير ذلك . إن الدواء طب وتشريح وفسيولوجية وفرماكولوجية ، ولوجيات أخرى كثيرة . فأين من كل هذه جماعة ؟ بل أين هو منها ؟ إنه بالقصة البارعة فتح الأسماع ، وشرح القلوب ، ثم ذر فيه ذروره .

فهكذا فليفعل طالب النيابة البارع ، فى الريف ، فى أكثر مصر . يفتح الأسماع ، ثم يشرح القلوب ، ثم الذرور من بعد هذا توا . والأسماع تفتح ، والقلوب تشرح ، باللسان الذرب ، وبغيره . «وغيره» هذه من نوع «غيره» الذى يوحى بها قول الشاعر : ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . «وغيره» هذه ليست قاصرة على مصر ، فهى فى إنجلترا وفى أمريكا ، وهى توجد حيث توجد الديمقراطية . هى نوع من الترفيه عن الناخبين ، جعلت له إنجلترا حدا أعلى لطالب النيابة ، ٥٠٠ جنيه ، ينفقها ولا يزيد عليها . وجعلت له أمريكا ¾ المليون ، هى الحد الأعلى من النفقات جميعا للحزب الواحد ، ينفقها فلا يزيد عليها . وبهذه المبالغ الضئيلة حرصت الأمم الديمقراطية على أن يقتصر الأمر على الترفيه ، فلا يكون شراء .

نعم ! تعترض حتى على الترفيه ؟! تقول إنه يؤثر فى الناخب فيخشيله فلا يحسن اختيارا ؟ لا يا سيدى ! إن الناخب ، على الأقل فى بلدى ، لا يختل عن شىء أبدا . إنه رجل من أحسن رجال الأعمال ، لو حز عقله رجال الأعمال بالقاهرة ، لأصابت مصر فى مالها خيرا كثيرا . إن رجل الريف فى بلدنا لا يضحك عليه . إن الفلاح الألمانى معروف بذكائه ودهائه ، ولكن فلاحنا يفوق هذا فى ذكاء ودهاء . إنه يقبل الترفيه ، ولكن على أنه دفعة أولى ، تتلوها دفعات ، من وساطات وشفاعات ، تأتى من قبل الانتخاب ، فتكون كالفؤوس مصلتة فوق الرؤوس ، وتأتى من بعدها ، فتكون كوخز المسامير فى الكرسى الوثير . ألا كم عانى ويعانى النائب الصغير ، والوزير الكبير ، من مسامير الانتخابات وفؤوسها . وذلك فى كل عهد وبكل حزب .

كنا ندرس فى المدارس قديما مادة سموها علم الأشياء ؛ علمونا فيها أن لكل شىء لونا ، إلا الماء ، فهو لا لون له ، وعلمونا أنه كذلك لا شكل له ، وأنه يكتسب شكله ولونه من شكل إنائه ومن لونه .

وهكذا الديمقراطية ، لا لون لها ولا شكل ، إلا

من أوانيها .

وتلك الآنية التي اخترناها لديمقراطيتنا ، نحن المصريين ، آنية زجاجية بلورية مزركشة مصوَّرة من آخر طراز أبدعه الفن ، وهي لهذا لم تأتلف ولن تنسجم مع ما وضعناه فيها أبداً .

وما الآنية إلا قانون الانتخاب .

إنه قانون اخترناه لأنفسنا في العقد الثالث من هذا القرن . وكان من حقه أن نختاره للعقد الثامن أو التاسع إذا اطرد ما نحن فيه من تقدّم وما نحن آخذون فيه من تعليم . إنه قانون وضعه حلاّمون أمالون .

إن كل أحد ينادي بتغيير هذا القانون ، فأين العمل ، ولم لا يكون النفاذ ؟

لقد قرأت للسنهوري بك في «أخبار اليوم» اقتراحاً باقتباس ، نقتبسه لانتخاباتنا ، من نظام للانتخاب فرضته بلجيكا على نفسها يوم أن لم تكن في مثل ما هي اليوم فيه من تربية وثقافة ، ثم ألغته إلى مثل نظامنا الحاضر لما بلغ شعبها رشده منذ ربع قرن من الزمان .

ومن حق هذا الاقتراح أن يذاع مراراً وتكراراً . وأحسبه مما تجتمع على الرضاء به الأحزاب جميعاً . فهو يستبقي الاقتراع العام المباشر ، ولكنه يعطي أصواتاً إضافية لكل ميزة يتميّز بها ناخب . وحصر تلك الميزات في ميزة السن ، وميزة الثقافة ، وميزة المال تتأدّى عنه للدولة ضريبة . فمن الخامسة والعشرين فما فوقها من أسنان لها صوت واحد ، ولكن إذا زادت السن عن الخامسة والثلاثين كان لها صوتان ؛ وللعقار الذي تبلغ قيمته ألفين من الفرنكات فما فوق ذلك صوت واحد فوق ما لصاحبه من أصوات ؛ وللثقافة العالية صوتان فوق ما لصاحبها من أصوات .

إنه اقتراح على بساطته بديع حقاً ، لأنه يجمع بين حقوق الأجسام من حيث إنها لحم يوزن ، وبين حقوق العقول من حيث إنها القوّامة على الأجسام ، وبين حقوق الألفين من الفرنكات بحسبان أنها الحدّ الأدنى للملكية في شعب ديمقراطي فيه ضمير وله كرامة واحترام .

أحمد زكي

أفلام حرب . . .

. . . . تقدم :

شابة جميلة صغيرة السن حسنة الصوت خفيفة الدم . تطلب عريساً جميلاً وجيهاً مسبسب الشعر ، عنده سيارة مودرن ، يشترط أن يشبه أنور وجدي ولي أمرها على طلعت حرب والمأذون فريد الجندي والزفاف في استديو شبرا والموسيقى والألحان لنويره والقصبجي وحسن مختار صقر وفريد غصن وإبراهيم فوزي . والغناء ليلى حلمي وحامد طاهر وشافيه ونوال محمد . والرقص فتحية فؤاد ، والمنلوجات محمد الجندي . وسيكون في مقدمة المعازيم بشاره واكيم وحسن فايق والقصري وحسن كامل ومحمد كامل والسيد بدير ولطفي الحكيم ومحمود رشاد وزينات صدقي وعمل التواليت للعروسة أنور المحمودي ومصور الحفلة الحاج مصطفى حسن وتوزيع علب الملبس شركة أفلام تلحمي .

حافظيـــة

لم تنشر فى ديوانه

قال المرحوم حافظ بك إبراهيم يرثى الاثنى عشر طالبا الذين أصيبوا فى حادث القطار فى أوربا تحت عنوان :

شهداؤنا الاثنا عشر

عـلّمونا الصبر نطق؛ ما استعر
إنما الأجر لمفجوع صـــبر
صدمةٌ فى الغرب أمسى وقعُها
فى ربوع الشرق مشئومَ الأثر
زلزلت فى أرض مصر أنفساً
لم يزلزلها قرارُ المؤتمر
ما اصطدام النجم بالنجم على
ساكن الأرض بأدهى وأمرّ

قطف الموت بواكير النهى — فجنى أجمل طاقات الزهر
وَعَدا الموتُ على أقمارنا — فتهادَوْا قمراً بعد قمر
فى سبيل النيل والعلم وفى — ذمة الله قضى الاثنا عشر
أى بُدُورَ الشرق ماذا نابكم
فى مسار الغرب من صرف القدر

نبأ قطع أوصال المنى — وأصم السمع منا والبصر
كم بمصر زفرة من حرها — كنس الأعفر والطير وكر
كم أب أسوان دام قلبه — مستطير اللب مفقور الظهر
ساهم الوجه لما حلّ به — سادر النظرة من وقع الخبر
كم بها والدة والهة — عضها الثكل بناب فعقر
ذات نوح تحت أذيال الدجى — علم الأشجان سكان الشجر
تسأل الأطيار عن مؤنسها — كلما صفق طير واصطحر
تسأل الأنجمَ عن واحدها — كلما غوّر نجم أو ظهر
نهب العمر لن يُنْبِئها — أنه أفلت من كف القدر

ويح مصر كل يوم حادث — وبلاء ما لهَا منه مفر
عشان ما نلقاه إلا حَطبها — فى تراث من بنيها مدخر

* * *

أمة الطليان خففت الأسى
بصنيع من أياديك الغرر
جمت كفاك عقداً زاهياً
من بنينا فوق ناديك انتثرْ
ومشى فى موكب الدفن لهم
من بنيكم كل مصباح أغر
وسعى كل سرى مفضـــل
بادىَ الأحزان مخفوض النظر
وَبَكتْ أفلاذُكم أفلاذَنا
بدموع رَوَّضت تلك الحفر
وصـــنعتم ، صنع اللهُ لكم ،
فوق ما يصـــنعه الخلُّ الأبرّ
قد بكينا لكمُ من رحمةٍ
يوم (مسّينا) فأرخصنا الدُّرَر
فحفظتم وشكرتم صُنعنا
وبنو الرومان أولى من شكر
أىْ شبابَ النيل لا تقعد بكم
عن خطير المجد أخطار السفر
إن من يعشق أسباب العلى
يطرح الإحجام عنه والحذَر
فاطلُبوا العلم ولو جشّمكم
فوق ما تحملُ أطواقُ البشر
نحنُ فى عهدِ جهادٍ قائم
بين موت وحياة لم تقرّ

حافظ ابراهيم

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣١١ | الثلاثاء ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣٦٣ — ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مشكلة فلسطين

لا يختلف اثنان فى أن الاستعمار لعب بالأمس أهم دور فى خلق المشكلة الفلسطينية ، وفى تطورها بعد ذلك ؛ لكنى أخالف الدكتور فؤاد حسنين فيما ذهب إليه فى الثقافة (عدد ٣٠٥) من أن الاستعمار اليوم يحول دون الوصول إلى حل المشكلة ؛ كما أخالفه فى قوله : « لو كان النزاع حول فلسطين قاصراً على العرب واليهود لهان الأمر » .

فقد يجد الدكتور فى حوادث الأمس ، كمفاوضات فيصل مع وايزمان فى ١٢ يناير سنة ١٩١٩ ، ما يبرر مثل هذا الرأى ؛ أما اليوم ، فأين الدليل على استعداد أحد الطرفين أو كليهما للتهادن والتراضى ؟

إن كراهيته للاستعمار قد أغمضت عينيه عن حقيقة الموقف فى فلسطين الآن ، فخلط بين الأمس واليوم ، ناسياً أن السياسة لا تعرف جموداً — فقد وقع هذه الأيام تطوران أساسيان قلبا الموقف فى تلك البلاد رأساً على عقب ؛ فأصبحت بريطانيا اليوم مناصرة للعرب ، وأصبحت الخلافات بين الطرفين من الحدة ، ومكانة كل فريق فى البلاد من القوة ، بحيث يُخشى على البلاد جديا من اندلاع حرب أهلية فى المستقبل القريب . ولا سبيل إلى فهم هذا الموقف الجديد فهماً صحيحاً إلا إذا تبيَّنا أسباب هذين التطورين ، واقتنعنا بما تم اقتناعاً لا يقبل جدلاً أو حواراً .

التطور الأول :

تحولت سياسة بريطانيا بين الحربين من مناصرة صريحة لليهود فى أول عهد الانتداب إلى مناصرة مستترة للعرب فى هذه الأيام . ويُعزى هذا التحول إلى شعور بريطانيا بأن مصالحها أصبحت تتعارض وآمال اليهود

فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، وتنفق وأمانى العرب فى إنشاء دولة فلسطينية مستقلة ، تشترك مع جيرانها فى حلف عربى قوى .

فالإنكليز اليوم يعدلون عن سياستهم التقليدية نحو اليهود التى جروا عليها قرناً من الزمان ؛ فقد كانت إنجلترا منذ أوائل القرن الماضى نصيرة اليهود دولياً ، وذلك لأسباب مختلفة ، منها الدينية والعاطفية والسياسية والاقتصادية :

١ — تعلّق الإنكليز أكثر من غيرهم من الشعوب الغربية بالدين المسيحى ، خصوصاً فى عهد الملكة فكتوريا ، ولليهود فى هذا الدين مركز ممتاز ؛ كما أن فى الكتب المسيحية واليهودية المقدسة آيات مشتركة يفسرها البعض بأنها وعد إلهى بعودة اليهود إلى وطنهم الجغرافى يوما ما ، ودعوة المؤمنين من يهود ومسيحيين للعمل على تحقيق ذلك .

وقد اقتنع بعض الساسة الإنكليز بهذه الفكرة فعملوا على توجيه سياسة بريطانيا توجيهاً يحقق هذا الوعد .

٢ — ارتقاء الفكر السياسى فى بريطانيا أثناء القرن الماضى ، فبلغ التسامح الدينى والعنصرى أقصاه ، واشترك اليهود فى جميع مرافق الدولة ، بما فيها السياسة ، على قدم المساواة مع غيرهم من البريطانيين ، حتى كان منهم رئيس الوزارة المشهور دزرائيلى ، الذى تعتبره بريطانيا بحق من أعظم أبنائها .

أما باقى شعوب أوروبا ، فقد كان اضطهاد اليهود فيها كالبحر اللجاج ، له مدّ وله جزر ، وله دائماً أمواج ؛ لذلك فقد اتجهت أنظار يهود القارة إلى بريطانيا ، وعطفت هذه عليهم مستهجنة ما عانوه من صنوف العذاب .

٣ — تشابه الوضع الاقتصادى للشعبين ، مما ساعد كلا منهما على فهم عقلية الآخر وتقدير دوافعه . فالإنكليز شعب يكسب رزقه بالتجارة وإقراض المال ، والتوسط فى الأعمال الاقتصادية بين الشعوب والحكومات ؛ واليهود يكسبون رزقهم بالتجارة وإقراض المال ، والتوسط فى الأعمال الاقتصادية بين الأشخاص .

وقد وجد الإنكليز فى اليهود خير عون لهم فى هذه المسائل ، لاتصال كليهما بدوائر التجارة والمال والاقتصاد فى كل بلد ، ونفوذ اليهود الكبير فيها .

٤ — اهتمام بريطانيا منذ القرن الماضى بالشرق الأوسط ، لتوسطه بينها وبين الهند ، ولوجود قناة السويس به وهى الشريان الحيوى لتجارتها . لذلك نجد السياسة البريطانية تعمل على زيادة نفوذها فيه وإنقاص نفوذ غيرها ، فقاومت كل دولة قوية حاولت التسلط عليه ، كفرنسا فى عهد نابوليون ، ومصر فى عهد محمد على ؛ وانتهزت كل فرصة لتزج بنفسها فى شئون بلاده ، فانتهزت فرصة الاضطراب المالى فى مصر فى أيام إسماعيل ثم حركة عرابى فى أيام توفيق لبسط نفوذها على مصر — وقد رأى المستر جوزيف تشمبرلين فى تعضيد بريطانيا لليهود ومساعدتها لهم على إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ما قد يوطد النفوذ البريطانى فى ركن آخر من أركان الشرق الأوسط ، فتكون الدولة اليهودية فى الشرق « كالستر فى إرلندا » ، أى منطقة نفوذ بريطانية فى وسط شعوب مناوئة لبريطانيا ؛ كما طلب الصهيونيون أنفسهم بأن تكون دولتهم مرتبطة بأوثق الروابط مع الإمبراطورية البريطانية .

كل هذه العوامل قد لعبت دوراً فيما مضى فى علاقة الإنكليز باليهود وفى مساعدتها لهم ، تلك المساعدة التى بلغت أقصاها بإصدار وعد بلفور المشئوم ؛ فقد كان من دوافع إصداره وقتئذ حاجة إنجلترا الماسة إلى مساعدة أمريكا المالية ، وكان الماليون من يهود أمريكا قد أعلنوا مقاطعتهم لما طُرح فى نيويورك من قروض لإنجلترا ، وذلك بسبب كرههم لروسيا حليفة بريطانيا فى ذلك الوقت لاضطهادها الشنيع لهم قبل اندلاع الحرب الكبرى الماضية بسنين قليلة ، وحبهم لألمانيا التى كانت وطن اللايين من

إخوانهم ، وكانت فى ذلك الوقت تعاملهم معاملة حسنة . فأرادت بريطانيا بإصدارها هذا الوعد أن تجذب الملايين من يهود الطرفين إلى جانب الحلفاء ؛ كما أرادت أن توطد مركزها الجديد فى الشرق العربى بأن تخلق فيه دولة جديدة تكون تابعة لها فى السياسة الدولية .

لكن بريطانيا ترى نفسها اليوم مضطرة إلى إعادة النظر فى سياستها هذه ، بل إلى تغيير سياستها فى الشرق الأوسط تغييراً جوهرياً ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — لم يلب عدد كاف من اليهود نداء بريطانيا والصهيونيين لإنشاء دولة لهم فى فلسطين ، خصوصاً قبل ظهور هتلر ، فلم تقم فى تلك البلاد دولة يهودية قوية يمكن لبريطانيا الاعتماد عليها فى سياستها فى تلك المنطقة .

٢ — اقتنعت بريطانيا بخطئها فى تقدير مقاومة العرب لها فى أول الأمر ، كما أخطأت فى تقديرها لسرعة نمو القومية العربية فى الشرق الأوسط — فقد قامت فيه دول عربية فتية ، لشعوبها قومية عربية قوية وتضامن فيما بينها يزداد بمرور الأيام — وقد قوت الحرب الحاضرة هذه الشعوب من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فوصلت دور البلوغ بعد أن كانت وقت صدور وعد بلفور فى دور الطفولة .

٣ — منافسة الصناعة اليهودية الناشئة للتجارة البريطانية فى الشرق ؛ والإنكليز يرون أنها ، ولو لم تبلغ بعد من الأهمية ما قد يقلق بالهم ، لكنها إذا حافظت على سرعة نموها هذه واستمر اليهود فى هجرتهم إلى فلسطين بألوفهم وبملايينهم ، فقد تصبح فى المستقبل أكبر منافس لبريطانيا فى الشرق .

٤ — عطف مسلمى الهند على عرب فلسطين لاشتراكهم معهم فى الدين الإسلامى ؛ ولا تريد بريطانيا عمل ما قد يغضب هذه الملايين التسعين بالهند ، لأنها تعتمد عليهم فى بقاء سلطتها فى تلك البلاد .

٥ — اعتناق يهود فلسطين لمبادئ الاشتراكية والبلشفية ، فهم مركز الدعاية للبلشفية فى الشرق الأوسط ولا مصلحة لبريطانيا فى انتشار مثل هذه الأفكار فى منطقة نفوذها .

التطور الثانى :

نما الشعور القومى المتطرف عند كل من العرب واليهود نمواً خطيراً فى الوقت الذى زادت فيه قوة كل شعب منهما زيادة كبيرة ؛ ويرجع ذلك إلى عوامل شتى : منها ازدياد عدد اليهود بالهجرة من ٤٠٫٠٠٠ إلى ٤٠٠٫٠٠٠ ، والعرب بالتوالد من ٦٠٠٫٠٠٠ إلى ١٫١٠٠٫٠٠٠ ؛ ونجاح اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين فى بناء الوطن القومى نجاحاً منقطع النظير ، مما زادهم تحمساً له والعرب تحمساً ضده ؛ وتسلط اليهود الاقتصادى على فلسطين بفضل علمهم ونشاطهم والمائة المليون من الجنيهات اليهودية التى دخلت البلاد بين الحربين ؛ والنهضة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى عمت الشرق العربى كله فى زمن قصير ، والتى سرت عدواها إلى عرب فلسطين فطالبوا باستقلال كاستقلال جيرانهم ولو كان مبتوراً ؛ وانتشار التعليم بين العرب مما زادهم إدراكاً لمصالحهم الحقيقية ، ومقاومة لكل مغتصب لها ، ودربة ونظاماً وقوة فى تلك المقاومة ؛ واضطهاد اليهود فى أوروبا اضطهاداً زاد عطف العالم عليهم وزود الصهيونيين بسلاح ماض وحجة قوية ؛ ونجاح العرب نجاحاً جزئياً بثورتهم المسلحة ضد الاستعمار والصهيونية ، فلفتوا الأنظار إلى قضيتهم ، وأقنعوا جانباً مهماً من الرأى العام الدولى بعدالة مطالبهم ، واضطروا بريطانيا إلى إعادة النظر فى سياستها نحوهم ؛ إلى غير ذلك مما لا يتسع المكان أو الزمان لسرده .

لقد زادت هذه العوامل الهوة بين الفريقين اتساعاً ، حتى أصبح انطاحنهما المقام الأول فى المشكلة بعد أن

كانت تدور حول الاستعمار والتخلص منه ، وأوجس الكل خوفاً مما قد يجره الخلاف بينهما من عواقب وخيمة على البلاد . فالحرب الأهلية تهدد اليوم فلسطين تهديداً لا شك فيه ؛ وقد انتهز كل فريق فرصة الحرب القائمة فراح يستعد لها ، فتطوع أبناؤه في القوات المتحالفة للتدرب على استعمال الأسلحة الحديثة .

لقد تطورت المشكلة إذاً من خلاف على استقلال فلسطين بين العرب والإنكليز لعب فيه اليهود دوراً ثانوياً ، إلى خلاف على امتلاك فلسطين بين العرب واليهود .

لقد جنت الجغرافيا على التاريخ في فلسطين ، فمركزها على عتبة الشرق قد جعل منها ، طيلة هذه القرون كلها ، ممراً لكل فاتح ومقراً لكل استعمار ؛ مثلها في تاريخ الشرق القديم والجديد مثل بلجيكا في تاريخ أوروبا الحديث — فقد تداولتها أيدي الفراعنة ، فالبابليين ، فالأشوريين ، فالفرس ، فالإغريق ، فالرومان ، فالعرب ، فالأتراك ، فالفرنسيين ، فالمصريين ، فالأتراك ، حتى استقرت أخيراً بعد الحرب الماضية في أيدي البريطانيين — وكان الفاتح في كل عهد يتوخى في حكمها مصلحته الذاتية فقط ، فلم تكن للشعوب المغلوبة وقتئذ حقوق ، بل كانت الحقوق الدولية وقفاً على الشعوب القوية .

أما اليوم ، فلأول مرة في التاريخ الطويل يجد المستعمر لفلسطين أن من مصلحته أن يعمل على استقلال الكثرة من أهلها ويوجه سياسته لتحقيق ذلك . وقد تكون هذه الفترة فترة انتقال بين استعمارين ، الاستعمار البريطاني والاستعمار الأمريكي ، فقد خرج الأمريكان عن عزلتهم القديمة وأعلنوا ، في جرأة غريبة ، عن تعضيدهم لليهود في فلسطين تعضيداً كاملاً شاملاً — ولا تقتصر الدوافع لهذه السياسة الجديدة على محاولة إرضاء اليهود الأمريكان الذين لهم نفوذ كبير في السياسة والاقتصاد ، بل تعزى أيضاً إلى خروج أمريكا عن عزلتها القديمة ، واهتمامها اليوم بالشرق الأوسط ، لما فيه من زيت لمصانعها ، وأسواق لبضائعها ، وممرا كز لطائراتها وسفنها ، إلى غير ذلك ؛ وهي تعتقد خطأً أنها تستطيع أن تخلق لنفسها نفوذاً فيه وتعارض بذلك نفوذ بريطانيا ، إذا هي انتصرت لليهود وأقامت لهم دولة في فلسطين ، كما أن بريطانيا تنتصر للعرب ولا تعارض في تكوين حلف لهم .

إن مستقبل العالم العربي كله يتوقف على مبلغ استعداد الشعوب العربية لانتهاز هذه الفرصة ، فإن أحسن انتهازها كتب للشرق العربي مستقبل كله أمل .

حليم حبيب درس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

على هامش الحكم

لقد ورثنا إرثاً ثقيلاً بغيضاً من العصور الماضية ، وهو ترك الحكام وشأنهم يعملون ما يشاءون وحسابهم عند ربهم ؛ وهو أثر من آثار العقيدة بأن الحُكْم فريضة القدر ، إن شاء رحم الشعب فهيأ له حكومة عادلة ، وإن شاء قهره فهيأ له حكومة ظالمة ، والقدر يفعل ما يشاء بلا حساب . وكل ما يُعرف من قوانين القدر ، أنه إذا كان الشعب صالحاً يؤدى الفرائض الدينية كما أمر هيأ القدر له حكومة عادلة ، وأما إذا ارتكب الخطايا عوقب بحكومة ظالمة .

وكان نموذج الرجل الطيب بناء على هذا هو من يبتعد عن السلطان ، وبعبارة أخرى عن رجال الحكم ، فلا يأخذ عطاءهم ، ولا ينقد عملهم ، وإنما ينقطع للعبادة ما أمكن ، فإن شارك فى أعمال الدنيا فبالأعمال الصالحة ، وهى تكاد تنحصر فى الإحسان إلى الفقير ، وإطعام الجائع ، وكسوة العريان ونحو ذلك . ونقرأ فى الكتب القديمة فنرى هذا هو المثل الأعلى للرجل ، عبادة وعزلة ، والاكتفاء بذلك إن كان فقيراً ، وصدقة وبناء مسجد إن كان غنيا . أما موقف الشعب من الحكومة ، فهو كموقفه من الشمس لا يستطيع إليها الصعود ولا تستطيع إليه النزول ، ولا يستطيع أن يغير حرارتها إن اشتد القيظ ، ولا يزيد حرارتها إن اشتد البرد ، كما قال الشاعر :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعزّ الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

وتلوّن كثير من الأدب العربى فى العصور الوسطى بهذا اللون من إعلاء شأن السلطان وعدم التعرض له بخير أو شر ، ومدح الذين نفضوا أيديهم من الأمر ، والإشادة بشأن من دعوا للمشاركة فى الحكم فأبوا ، وللقضاء فامتنعوا ، ولعطاء السلطان فهربوا — وامتلأ الحكم والمواعظ والأمثال من هذا القبيل .

هذا شأن الأتقياء، وأصحاب الزهد والورع ؛ فأما أهل الدنيا مثل الشعراء — كما كانوا يسمونهم — فإغراق فى المدح ، وتفنّن فى البديع ، وإفراط فى وصف الحاكم بحسن الصنيع ، يُمدح إذا أتى بالخير ، ويُمدح إذا أتى بالشر ؛ فإعطاء الألف كرم يفوق كرم السحاب ، وقتل البرىء حزم ، والانهماك فى اللذات ظرف ، والكلمة العادية حكمة . وهكذا كان قوم سلبيون لا يتعرضون بخير ولا شر ، وقوم إيجابيون « كالطيّب » المتنبيات ، فأما جهر بالرأى ونقد للحكم فلا ، إلا فى القليل النادر !!

كان هذا هو الشأن أيضاً فى العهد الرومانى ، وكان هو الشأن فى أوروبا قبل الثورة الفرنسية ، ولكن كل هذا تغير عندهم إلى حد كبير وعندنا إلى حد صغير ، ويجب أن يكون عندنا — أيضاً — إلى حد كبير .

فى العصور الماضية كان الفرد مسئولا فقط عن نفسه ، فإن تعداه قليلا فعن أسرته ، وكان الحكم مسئولا عنه القدر وحده ؛ أما اليوم فالحكم الصالح أو الفاسد فى الأمة مسئول عنه كل فرد — أنا وأنت وهو مسئولون عن وزارة المعارف كيف يجرى فيها نظام التربية والتعليم ، وعن وزارة العدل كيف يجرى فيها تحقيق العدالة ، وعن وزارة التموين كيف يصل الغذاء الكافى واللباس الكافى لأحقر فلاح فى أبعد أرض ، وعن وزارة الخارجية ماذا فعلت فى المشاكل المصرية بينها وبين الأمم الأجنبية ، وكيف حلتها أو أهملتها . ومسئولون عن الوزارة كلها ككل ؛ هل نرضى عن سياستها فتبقى ، أو لا نرضى فتعزل أو تسقط .

ونزل الحكم من شمس فى السماء إلى كرة فى الأرض نوجهها حسبما نشاء ، ونصيب بها الغرض الذى نشاء ، فإن أطاعت وإلا قذفناها إلى غير رجعة .

فإذا شكونا من وزارة خانت فلنشك من أنفسنا الذين مكناها من الخيانة ، وإذا مدحنا وزارة عدلت فلنغتبط إذ نحن الذين حملناها على العدل .

لقد أصبح الرجل الطيب لا من يتنحّى عن العمل ويعتزل في صومعة ، ولكن من يقول ويعمل كما يقول ؛ وأصبح الشاعر الطيب لا من يمدح بالحق وبالباطل ، ولكن من يمدح حيث يجب المدح ويذم حيث يجب الذم ؛ وأكثر من ذلك من يعبر عن مشاعره في صدق ؛ والعمل الصالح ليس في إعطاء فقير وكسوة عريان فقط ، بل في نقد أعمال الحكومة أيضا ، والبطل ليس هو القديس ولكنه هو المصلح .

والشعب الصالح للبقاء ليس هو الشعب الذي يقول : دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولكن الذي يقول : ما لقيصر وما لله لله وللأمة ؛ هو الذي منح شعوراً مرهفاً بالظلم يمقته حيث كان ، في الشركات ، في الوزارات ، في الحكومات ، فإذا رآه صرخ وقال : «لا ظلم» على فيه .

والشعب الصالح للبقاء من لا يكتفي بتضميد الجرح ولكن يتقي الدم — هو لا يقنع كما كان يقنع الأول بالبكاء على الرذيلة ، ولكنه يعمل ليبسم للفضيلة .

لم تعد الصومعة ولا الدير موطن البطولة ، إنما موطنها ميدان العمل ، فكافحة الملاريا أفضل عند الله من ألف صلاة تزيد عن الفرض ؛ وتنوير الشعب بحقوقه وواجباته خير من الصوم الدائم ، وتحسين حال الصناع والعمال والفلاح أقرب إلى الله من الرهبنة !!

وأصبحنا نفهم الزكاة بمعنى أوسع ، فليست الزكاة واجبة على الأغنياء في أموالهم فقط ، وإنما هي واجبة أيضا على العالم في علمه ، والفنان في فنه ، والقادر في قدرته ، والموهوب في مواهبه ، كل عليه زكاة يؤديها لخدمة المجتمع .

وأول واجب يطالَب به الناس كافة إقامة الحكومة الصالحة العادلة التي ترعى حقوق الشعب .

تسألني وكيف يستطيع الشعب القيام بذلك ؟ أقول إن الحكومة الظالمة لا تستطيع البقاء في منصبها يوما واحدا إذا صرخ الشعب كله صرخة واحدة صاعدة من قلب يشعر بالظلم ؛ صرخها الكناس في الشارع ، والعامل في العمل ، والصحفي في صحيفته ، والنائب في برلمانه .

لقد روي في الأثر : « كما تكونوا يولّ عليكم » ، وهو حق صحيح ولكن لا بالمعنى الشائع . وهو أنكم إذا صلحتم منّ عليكم القدر بحكومة صالحة ، ولكن بمعنى ارتباط السبب بالسبب والعلة بالمعلول ؛ فإذا صلحت الأمة صلح الحكم ، لأن الأمة لا تصلح حتى تضع عينها على الحاكم تعرف ماذا يعمل ، وتستخدم لسانها لتوجيهه أو نقده أو زجره — وأما إن هي تركته يعمل ما يشاء ، وأخذ المخادعون والمنافقون والكتاب والأدباء والشعراء والصحف يطرون ظلمه ويسبحون بحمده ، أو أخذوا بأضعف الإيمان ، وهو الاستنكار بالقلب ، كانت النتيجة لا محالة حكومة فاسدة وحاكما ظالما . ومن الحق ما قاله أبو الطيب :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وليس يمنع حاكما من ظلمه مثل أن يرى أمة لا تقر ظالما على ظلمه ، ورأيا عاما جريئا يشعر بالعدل ثم يعبر في صراحة عما يشعر به ، وشعبا يحلل أعماله وينقدها ويقوّمها .

وليس يمكن أن يصل شعب إلى هذه الدرجة إلا بتنويره وتثقيفه ، ولست أعني الثقافة العلمية الخاصة ، ولكن الثقافة العامة بالصحف والمجلات والراديو وخطب المساجد وما إلى ذلك في الموضوعات الواقعية التي تواجهنا كل يوم ، فكم من مثقف في النحو والصرف والرياضة والطبيعة والكيميا ثم لا يفهم شيئاً من أمور الدنيا ولا مما يجري حوله من مظالم . فإذا ثقف الشعب هذه الثقافة السياسية والاجتماعية العامة ، أمكن أن يكون له رأي عام يخيف الحاكم ويحمله على العدل .

إن أول واجب أن يفهم الشعب أن الحكومة من عملنا وليست من عمل القدر ، وأن ظلمها وعدلها وصوابها وخطأها وضلالها ورشدها صورة منعكسة لحالة الشعب من قوة أو ضعف ، وتنبه أو خمود ، ورقابة أو إهمال .

قد يرزق الشعب الجاهل الغافل بحاكم عادل ، ولكن شأنه في ذلك شأن الرجل غير المستحق كسب ورقة في «اليانصيب» ، إنما الضمان الحقيقي للعدالة المستمرة هي تنبه الشعب ويقظته ورقابته وشجاعته .

أحمد أمين

كتاب :

هارون الرشيد والبرامكة

أهدت إلينا مكتبة « حلبي » بدمنهور كتاباً باسم « من تاريخ هرون الرشيد والبرامكة » ، صدّره الأستاذ الكبير شاعر القطرين بأبيات رائعة ، جاء في آخرها قوله :

والآداب أحساب عوالٍ   إذا اتصلت بأنساب عريقة

ومؤلفة الكتاب مصرية — لا أستطيع أن أقول سيدة أو آنسة ، فقد شاءت أن تخفي نفسها ، واستعارت اسماً ظريفاً ، هو (بنت بطوطة) ؛ والكتاب مترجم إلى العربية ، لأن حضرة المؤلفة كتبته بالفرنسية .

هذه كلها حقائق حول الكتاب تحمل الإنسان قسراً على التساؤل : من تكون الكاتبة الفاضلة ؟ وإن كان ذلك فضولا ، فهو على الأقل مغتفر ، لأنه طبيعي في مثل هذه الظروف مجتمعة .

ولكنا إن جهلنا حقيقة شخصية المؤلفة الفاضلة ، فإن كتابها يكاد ينم عليها ، بل إنه مع فلتات أخرى هنا وهناك يكاد يشير إليها بالبنان — فخليل مطران شاعر القطرين يقول : إن الآداب قد اجتمعت فيها بالأنساب العريقة ؛ وهي في (البحيرة) ، وهي جوّابة للأقطار ، وهي ذات دراسة عميقة في الآداب والتاريخ بغير شك . ولمن شاء أن يحدس بالظن ، فإن الظن يكاد يكون يقيناً .

هذه تقدمة الفضول ؛ وبعد هذا أرجو القارئ الكريم أن يطلع على قطعة من المقدمة ، فهي الأخرى تشير وتحدث .

قالت المؤلفة الفاضلة : « إنه ليعوزني حذق المؤرخين وقوة إقناع الفلاسفة ، وفراسة علماء النفس ، فمعذرة عما أكون وقعت فيه من أخطاء ، ولست إلا راوية متواضعة ... »

على أن الكتاب متعة أي متعة لمن قرأ بعد ذلك ، وإنه لجدير بأن يفخر به الكاتب إذا كان ممن توفر على البحث وكان من كبار الفلاسفة وعلماء النفس . وإنه لما نفخر به ، نحن معاشر الرجال من أهل مصر ، ونعجب به ونقدره إذا كنا من رجال العلم أو الأدب ، أن تقرأ لمصرية مثل هذا الكتاب . فهو قصة في تاريخ ، وهو تاريخ في قصة . له من روعة القصص ارتفاع الخيال وتحليقه ونفوذه إلى ما وراء الظاهر ، كأنه يخترق حجب الغيب من وراء القرون ؛ وله من التاريخ صدقه وتجرده من التعصب والتحيز .

تحدثت المؤلفة الفاضلة في أول الكتاب عن أسرة بني العباس وكيف وصلوا إلى الحكم ، متعرضة إلى النضال الطويل بين بني أمية وهاشم ، وتغلغلت وراء الحوادث الظاهرة إلى الأسباب النفسانية الباطنة ؛ فكانت في عرض الحوادث تعرض فلما ملوّناً ، لا سجلاً مفصلا .

ثم عرجت بعد ذلك على بغداد ، مدينة المنصور ، فصوّرت منها صورة ، ولكنها لم تكن الصورة التي تراها العين ، بل الصورة التي يراها القلب المثقف الشاعري . ثم تناولت المجتمع العباسي ، ونظرت إليه من خلال منظارها السحري ، فإذا بها تصوّر خلجات نفسه ، وإذا بها تجمع إليه العالم الغربي الذي يحف به — عالم أوربا في القرون الوسطى ، فتلقي عليه شعاعة — وهكذا تستمر في استعراضها الرائع الذي يدل على إحاطة شاملة بتاريخ الشرق والغرب معا .

فلما انتهت أخيراً إلى هارون الرشيد وعصره ، كانت قد أتمت رسم الستار فيما وراءه ؛ ستار سحري شامل مكون من لمسات فنية بارعة ، إن لم يكن جامعا للحوادث ، فهو جامع لعناصر الروح بغير شك .

وسألت في أول معالجتها لعصر الرشيد : « كيف ينظر الناس إلى هارون » ، وأخذت تورد ما علق في أذهان الناس عن ذلك العاهل الذي « ينظرون إليه من وراء ستار من الترف ضاعت معالمه منذ عهد كسرى ، وخلف سحمة من البذخ والتبذير ، والكرم والقسوة ، ومن وراء البخور المتصاعد من قصص ألف ليلة وليلة ... » .

ثم قالت بعد حين : « والواقع أن هارون لم يبتدع شيئاً عجيباً ولا خاصا ، إلا أن الصدفة قد جعلت دولته في فجر مدنية سامية فعضدها ..... إن تلك الصدفة جعلته يتمتع

بذلك الشيء العجيب الذي يصعب تحديده ، ويتعذر تفسيره ، ويتجاوز كل منطق ، ولكنه مع ذلك يعد كل شيء ، لا شيء أو كل شيء ، أوهما معا . ذلكم هو الحظ » .

ثم استطردت تدلل على ما ترى .

وكان لا بد لها من أن تذكر جعفر بن برمك ، وأن تذكر قصة العباسة . وهناك نسمع المرأة تحلل وتصف وتفلسف . هي المرأة تتحدث عن مأساة غامضة كانت بطلتها المرأة ؛ وهناك استطاعت أن تبدع إبداعا لا يبارى . ولو حاولت أن أقتبس من روائع كلماتها لما وقفت دون أن آتي على أغلب الجزء الأوسط من الكتاب ؛ فهناك العباسة وزبيدة ، وهما من خلف الستار تحركان وتدبران ، والمؤلفة النابغة تندس إليهما بالطبع السليم والخيال المواتي والغريزة الذكية فتكشف ما لا يستطيع الرجل أن يكشفه .

وفي مثل الضوء الخافت الذي ينبعث من الشرق مع الفجر نسمع صوتا في الكتاب يرنو في وسط الحوادث الرهيبة التي تتعلق الأنفاس من التأثر عند قراءتها ، ذلك صوت الكلمات التي صورت بها الكاتبة الفاضلة حزن العباسة لقتل جعفر ؛ قالت : « عند ذلك علت صيحة ، صيحة واحدة ، صيحة انتزعت من أحشاء معذبة ، وعلت على جميع الصيحات ؛ تلك الصيحة الوحيدة الفذة التي دوت كأنها صوت الرعد أو نداء الجنون ، ومزقت الآذان والقلوب ، وظلت إلى الأبد ماثلة لجميع من سمعوها وفهموها ، تلك هي صيحة المرأة أمام رجلها الذي ضحى به » .

ولم ترض المؤلفة الفاضلة بعد ذلك أن تترك هارون في آخر أيامه بغير صورة خلابة ، فصورت منه الرجل المعذب الذي لم يستطع الملك نفسه أن ينسيه جرائمه ، ولا الترف كله ومتاع الحياة أن يغرق فزعه . حتى التدين واللجوء إلى الله لم يستطع أن يعيد إليه السلام .

إنها قطعة من الفن الجدير بكل إعجاب .

وإننا لنفخر حقا أن تكون مؤلفة مثل هذه التحفة مصرية فاضلة . إن بلدا فيه مثل هذه الكاتبة لجدير بأن يطمح إلى أعلى الآفاق . « ق »

لمبروزو ونظريته

— ٢ —

— لماذا يرتكب المجرم جريمته ؟

— وما هي خير الوسائل لتحديد مسئولية المجرم عن عمله ؟

— ثم ما هي خير الوسائل لمعالجة الجريمة وإصلاح المجرم ؟

هذه هي الأسئلة التي يبحث « علم الإجرام » عن جوابها . ولقد كان لهذه الأسئلة بالذات عند كل عصر من العصور السالفة جواب .

فقال الأولون إن المجرم يرتكب جريمته لأن الشيطان في داخله .

ثم تطور تفكير الناس فقالوا إن المجرم إنما يرتكب جريمته لأنه لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل والخير والشر — ثم قالوا إن الإنسان « حر الإرادة » ، وإنه حين يرتكب جريمته يعلم ما يريد ، ويفعل فعلته وهو يدرك مسئوليته عما يفعل .

ثم ظهر من قال إن الناس كلهم يولدون وفيهم استعداد فطرى لعمل الشر وارتكاب الجرائم — ولذلك انصب اهتمامهم على الجريمة في ذاتها ، فجعلوا العقوبة على قدر جسامة الجريمة بصرف النظر عن مرتكبها ؛ فكانت العقوبات توقع على الطفل والبالغ على السواء ، كما كان يسوى فيها بين المجنون والمميز مع ما في هذا العمل من ظلم صارخ ؛ إذ كيف يسأل المجنون مثلا عن عمل لا يد له فيه ، ولا هو يعقل مغزاه ، ولا يدرك مداه ؟!

فتلك كانت على كل حال خصائص المدرسة القديمة في تفسير الجريمة وفي علاجها .

* * *

ومن بعد ذلك ظهرت « المدرسة الإيطالية » الحديثة التي كان من أبرز أفرادها « لمبروزو » ، ذلك الطبيب العبقرى الذى كان أول من لفت الأنظار إلى « شخصية » المجرم ووجوب دراستها للوصول إلى حقيقة أسباب الجريمة . وكان أول ما جذب نظر هذا الباحث نحو هذا الميدان ، أنه لاحظ على بعض الأشرار أنهم يمتازون من غيرهم ببعض السمات الأنثروبولوجية التي لا يشاركهم فيها عامة الناس ، فوقع في نفسه أن هذا الانحراف الخلقي هو الذى يدفع المجرم إلى ارتكاب جريمته . وقد حدث في سنة ١٨٧٦ أن توفى بسجن تورينو شقى كبير اسمه فيلِلا Vilella ، كان من مشاهير رؤساء العصابات الذين دوّخوا الحكومة وشغلوا الرأى العام سنين طويلة بمغامراتهم ومخاطراتهم ؛ فتولى لمبروزو تشريح جثته بعد وفاته ، فلاحظ في تكوين دماغه فرقاً كبيراً بينه وبين الرجل العادى . إذ شاهد فجوة بين العظام الخلفية للجمجمة لم تكن مما اعتاد أن يراه المشرحون في هذا الوضع ، اللهم إلا عند بعض الحيوانات الثديية الأخرى . فاستدرجه هذا الكشف إلى الاعتقاد بأن المجرم يختلف في طبيعة تكوينه وتناسب أعضائه عن الرجل العادى .

وتعصب الرجل لفكرته هذه ، فلم ير أن يمتحنها الامتحان العلمى الكافى الذى يكشف عما فيها من صواب أو خطأ . ولكنه جعل يتشبث بعقيدته على أنها نظرية علمية ثابتة ، وسماها « نظرية الارتداد الوراثى » ؛ لأنه بات يرى أن المجرم خارقة أنثروبولوجية من خوارق الطبيعة ، وأنه أحط درجة من الإنسان العادى ، وتميزه من غيره سمات تشريحية ، فهو مقدّر عليه بطبيعته أن يكون مجرماً . ومضى لمبروزو متوسعاً في إثبات نظريته ، فأعطى أوصافاً

مسهبة مفصلة قال عنها إنها متى اجتمعت فى شخص فثمت « مجرم » يجب أن يعرف المجتمع مكانه .

ويمكن تلخيص الصورة التى وضعها لمبروزو للمجرم بأنه شخص يمتاز بشذوذ فى حجم جمجمته ، فهى إما أكبر من الحجم المتوسط أو أصغر منه ؛ ذلك إلى أنها غير متماثلة الشقين ، مشوهة إلى حد كبير ، تعترضها نتوءات وأغوار وأخاديد غير عادية . وأنه يمتاز ببروز عظام الخدين ، كما يمتاز بأهداب ثقيلة فوق عينيه . أما الجبهة فهى ضيقة منخفضة متراجعة إلى الخلف ؛ وأما الفكان فبارزان غير مستويين ؛ والأنف غالبا ما يكون ناتئاً منحرفاً ذات اليمين أو ذات الشمال . ويغلب على صفحتى الوجه أن تكونا غير متماثلتين ، وعلى الأسنان أن تكون غير منتظمة ولا متسقة ؛ حتى الأضلاع قد يزيد عددها أو ينقص عما هو عليه عند سائر الناس ؛ أما الأذرع فهى فى العادة طويلة كأذرع الغوريلا ، وفى سيقان المجرمين وأصابع أقدامهم ما يجعلها أشبه بنظائرها عند القرود . وليس من النادر أن يزيد عدد أصابع يد المجرم أو يقل عن المعتاد . هذا فضلا عن انشقاق الشفة ، وارتفاع سقف الحلق ، واستعمال اليد اليسرى، وغلبة روح الأنوثة عند الرجال وغلبة روح الرجولة عند الإناث . وفوق هذه العلامات أعطى لمبروزو علامات أخرى ، فقال إن المجرمين أقل إحساساً بالألم من غيرهم ، وإن معظم حواسهم شىء من الكلال ، فالسمع والذوق والشم عندهم أقل حدة من المتوسط ، إلا أن حاسة النظر عندهم أقوى وأحدّ مما هى عند غيرهم .

ولم ينس لمبروزو أن يتم صورته التى رسمها للمجرم ، فعطف على الناحية النفسية وقال إن المجرم فى الغالب سريع الغضب شديد الغرور ، نزّاع إلى الانتقام ، به ميل إلى المقامرة وانجذاب نحو الفسق والفجور ، بليد الضمير لا يعرف كيف يكون وخزه ، ولا يندم على ما فرط منه إلا فى القليل النادر .

* * *

تلك هى الصورة التى وضعها لمبروزو لطائفة من المجرمين سماهم : « المجرمين المطبوعين » ، تمييزاً لهم عن « المجرمين المجانين » الذين تكون أمراضهم العصبية سبباً فى إجرامهم ، وعن « المجرمين بالعاطفة » الذين يمتازون برهافة حسهم وسرعة انفعالهم وانسياقهم تحت الظروف الملائمة إلى ارتكاب الجريمة ، وعن طوائف أخرى من المجرمين لا حاجة إلى التوسع فى الحديث عنها .

ووجه الخطأ فى نظرية « الارتداد الوراثى » ، التى وضعها لمبروزو ونادى فيها بأن من الناس من يولد مجرما بحكم تكوينه الجسمانى ، أنه أراد أن يردّ الجريمة عند من سماه « المجرم المطبوع » إلى أصل واحد هو الخاصة الجسمية فى شخص المجرم ؛ مع أن الجريمة ثمرة تفاعلات ومؤثرات شتى تتضافر فيها الوراثة والبيئة والظروف الاجتماعية .

وقد يكون من الصواب أن المجرم يولد مزوّدا باستعدادات ناقصة ، كأن يقذف به فى هذه الدنيا وهو مصاب بضعف فى عقله ، أو عدم اتزان فى مزاجه ، أو إسراف فى غرائزه ، ولكن هذا لا يخلق منه مجرما حتما ؛ فإن هذه الاستعدادات الناقصة إذا صادفت فى البيئة التى يعيش فيها صاحبها ظروفا مواتية نجا من عواقبها وتقوّى وتقوم ولم يتردّى فى حمأة الإجرام . أما إذا صادف صاحب هذه الاستعدادات بيئة ذميمة استجابت نفسه لدوافعها ، ولم تكن عنده الحصانة ضد مغرياتها ، ولم تكن مناعته الوراثية بحيث تساعده على الإفلات من مؤثراتها ، فإنه يلبى نداء الجريمة وينجذب إليها كما ينجذب العود الذى يقع على حافة دوامة الماء .

والجريمة فى حقيقتها ليست إلا نوعا من الزيغ فى السلوك . وهى تعبير من جانب المجرم عن خلق ملتو خاطئ . وأخلاق الإنسان وسلوكه هما فى أصلهما تركة يتلقاها بالميراث عن أصوله الذين انحدر منهم . ثم هما يتأثران بعد ذلك بكل ما يمر بالإنسان من مؤثرات منذ ساعة مولده حتى ساعة وفاته . فمن شاء أن يصل إلى معرفة الأسباب التى تؤدى إلى السلوك الإجرامى فإنه يخطئ إذا تلمس ذلك فى التكوين الجسمانى لشخص المجرم ، لأن الطريق الحقيق للوصول هو أن يدرس نشأة المجرم أولا ، ثم يعقب على ذلك بالبحث الدقيق فى كل ما صادفه من اختبارات أثناء نموه .

وإن الأطباء المصريين الممتازين ليتبعون نفس الطريقة فى تشخيص شكاوى مرضاهم . فقد كان الطبيب فيما مضى يقع على مريضه فيستمع لدقات قلبه ثم يطبل على بطنه وينقر على صدره ثم يصف له الدواء . أما اليوم فإن الطبيب المستنير يدرك أن المرض لا يظهر عادة فى الجسم كما يظهر «النبات الشيطانى» فى الفلاة ؛ ولذلك يكون أول عمله أن يسأل المريض عن نوع المرض الغالب فى أسرته أو الذى كان يشكو منه آباؤه وأجداده عادة ؛ ثم يبدأ به منذ مولده فيسأله عن تاريخ حياته المرضى وماذا ألم به من الأوصاب فى طفولته ثم فى صباه ، ويتعقب ذلك خطوة خطوة حتى يصل إلى الحالة الراهنة التى جاءت بالمريض إلى عيادته . وذلك لأن الحقيقة التى أجمع على صحتها اليوم كل العلماء أن الإنسان ينفعل جسمه كما تنفعل نفسه بكل ما يصادفه من مؤثرات منذ الدقائق العشرة الأولى من مولده .

* * *

والخلاصة أن « المدرسة الإيطالية » التى تزعمها لمبروزو فى « علم الإجرام » فى أواخر القرن التاسع هى صاحبة الفضل الأول فى إقامة هذا العلم على أساس علمى صحيح ، حين وجهت الأنظار إلى « شخصية المجرم » بعد أن كانت لا تتجه إلا إلى « الجريمة » . فإن كانت نظريات علمائها جاءت مشوبة بشىء من الشطط فى التصور أو الإغراب فى التقدير فإنها ما زالت صاحبة الفضل فى إحداث هذا الانقلاب الذى انتفع بثمراته علماء الاجتماع ، وعلماء النفس المعاصرين ، والذى قام على أساسه « علم النفس الاجتماعى » Social Psychology لتحل نظرياته محل نظريات علم الطبائع الجنائية Criminal Anthropology الذى وضعه لمبروزو « وعلم الإجرام الجنائى » Criminal Sociology الذى وضعه زميله Enrico Ferri .

* * *

أما المدرسة الجنائية الحديثة التى تقوم على أحدث الكشوف النفسية ، والتى تتجه نحو دراسة طبية عقلية ، والتى تعتنق مذهب العلاج الطبى للمجرم بدلا من معاقبته ، فقد تكون لنا عنها كلمة قريبة إن شاء الله .

ع . ج

تصحيح

وقع فى المقال المنشور فى العدد الماضى بعنوان « على حافة الفجر وشاطئ النيل » تحريف هذا تصحيحه ، جاء فى أول المقال : « تزاور من الأفق شطر الشمال . والشرق هزه بنات نعس » . والصواب شطر الشمال والشرق . هذه بنات نعش الخ .

وفى ص ١٤ س ٨ المشهد الممتد . والصواب المحدود . وفى الصفحة نفسها س ١٤ رأيت النيل زهوا والصواب : زهوا بالراء . وفى س ١٧ والمشهد النصق . والصواب : الصيفى بالفين .

عبد الوهاب عزام

السم الذى يسمى تاريخا

للكاتب الكبير هـ . ج . ولز

للكاتب الكبير هـ . ج . ولز آراء صائبة فى مستقبل العالم ، بسطها فى كتبه الكثيرة ومقالاته فى الصحف ومحاضراته التى ألقاها على الهيئات المختلفة فى إنجلترا وخارجها . وله فوق هذا نبوءات صادقة اجتماعية وسياسية تحقق الكثير منها . ويمتاز المستر ولز بتفكيره الحر الجرىء الذى لا يتقيد فيه بالآراء السائدة فى هذه الأيام ، ولا بالتقاليد المسيطرة على عقول معاصريه .

ومن أهم آرائه الاجتماعية رأيه فى التاريخ الذى يدرس الآن فى المدارس والجامعات وفى طريقة تدريسه . وقد بسط هذا الرأى فى محاضرة ألقاها فى جمعية تقدم العلوم بأستراليا وزيلنده الجديدة ، ونشرت بعدئذ فى كتاب له بعنوان : «فى البحث عن ماء حار «In search af hot water

بدأ المستر ولز محاضرته بقوله إن الآراء التى سيعرضها على مستمعيه — وكانوا كلهم من المدرسين — ستغضب العدد الكبير منهم ومن جماعات المدرسين المنتشرة فى أنحاء العالم ، لأنها ستصطدم بما ألفوه من العقائد القديمة التى رسخت فى عقولهم رسوخ العقائد الدينية ، فأصبحت لا تقبل جدلا ولا نقدا . ولكن الرجل الذى يعنى بالبحث العلمى ، والذى يهمه أن يصل إلى الحقيقة سواء اتفقت مع آراء الناس ومعتقداتهم أو لم تتفق ؛ هذا الرجل يستطيع أن يتحمل غضب جماعات المدرسين وسخطها عليه مهما يكن شديدا .

ثم انتقل بعد هذه المقدمة إلى موضوع المحاضرة فقال : « إن العالم فى الوقت الحاضر يعانى حالة من الفوضى والاضطراب لم يشهد مثلها من قبل ، وسيواجه فى المستقبل القريب (وقد قال هذا قبل الحرب الحاضرة) حالة من الفوضى والاضطراب شرا من حالته التى يعانيها الآن .

ومن أكبر العوامل فى خلق هذه الفوضى تلك الطريقة البالية العتيقة التى يدرس بها التاريخ فى مدارس العالم أجمع ، والموضوعات التى تدرس على أنها تاريخ ، والآراء التى يبثها مدرسو التاريخ فى عقول الأطفال والشبان فى المدارس والجامعات ، والتى لا تتفق مطلقا مع حال العالم الراهنة التى أوجدتها الاختراعات والاكتشافات الحديثة . ومن أجل هذا أصبح التوفيق بين الاثنين — بين حال العالم فى الوقت الحاضر وما أوجدته الاختراعات والاكتشافات من قوة هائلة يمكن توجيهها إلى الخير أو إلى الشر وبين دراسة التاريخ — من أهم المشاكل التى تتطلب الحل العاجل ، لأن التناقض القائم بينهما يؤدى دائما إلى الخراب والعذاب وسفك الدماء ، والاستعباد والفوضى فى أبشع صورها . وستظل هذه الفوضى قائمة حتى ينتبه المدرسون إلى أثرهم فيها وقدرتهم على وقف تيارها ، أو حتى تصل إلى غايتها فتقضى على المدنية الحاضرة كما قضى على المدنيات التى قامت قبلها .

إن التاريخ يدرس بطريقة خاطئة شديدة الخطر على العالم وعلى قضية تنظيمه فى المستقبل ، وكل محاولة ترمى إلى تنظيمه من جديد على أساس ضمان السلم وتخفيف ويلات الإنسانية مقضى عليها بالفشل لا محالة ، ما دام التاريخ يدرس كما يدرس الآن .

إن اهتمام المدرسين الشديد بالماضى يعميهم عما يحدث حولهم فى الوقت الحاضر ، ولذلك لا يحاولون تعديل آرائهم بما يلائم الحقيقة الماثلة أمامهم ؛ وهى أن العالم تمزقه الأفكار القديمة مسلحة بأسلحة فتاكة حديثة ، وأن ما يبثه المدرسون فى عقول الأطفال والشبان من آراء درجوا عليها من المجد القومى والسيادة القومية والفتوح والانتصارات

والثأر والانتقام ، وهو ما يسمونه تاريخا وما أسميه أنا سما زعافا ، هو الذي يحول بين العالم وبين التطور الاجتماعي المنشود ، ويبيء العقول بل يدفعها دفعا للحروب المتوالية وما تجره على الإنسانية من ويلات .

إن أهم ما يعنى به التاريخ بشكله الحاضر هو الفوارق الاجتماعية والاقتصادية القائمة في العالم ، وهو يعدها حقائق ثابتة لاسبيل إلى التخلص منها ، بل إنه يعمل على توكيدها وتثبيتها في عقول المتعلمين، فيشب الصغار وهم يعتقدون أن الفرنسيين والإنجليز والألمـان واليهود أقوام مختلفون بطبيعتهم ، وسيظلون مختلفين مدى الدهر لا يمكن التوفيق بينهم بحال ! والحقيقة أن الفروق بين الشعوب المختلفة فروق سطحية ليس فيها شيء غريزي ، تلقنها الناس من صغرهم وتعلموها وفرضت عليهم فرضا . ولو أنك نقلت أطفال أمة على بكرة أبيهم ونشأتهم في أمة أخرى لشبوا كما يشب من حولهم ، ولما تبينت في طباعهم وتفكيرهم ما يختلفون فيه عن غيرهم ؛ ذلك بأن القومية حلة مصطنعة عارضة اصطنعها التاريخ كما يعلمه الآباء والأصدقاء ، وكما تعلمه الأعلام الوطنية والحفلات الرسمية ، وكما تعلمه المدارس بنوع خاص . وبفضل هذه القومية المصطنعة في المدارس وفي سبيل هذه القومية المصطنعة في المدارس تتعرض الحضارة بأكلها لخطر الزوال .

يضاف إلى هذا كله أن هذا التاريخ في حد ذاته ناقص خاطئ معيب . فليس هو في الحقيقة كما نتصوره أو كما يصوره لنا مدرسوه رواية حقيقية كما حدث في المـاضي ، وهو أبعد ما يكون عن النزاهة ، فمصدره الوثائق المخطوطة والكتب والنقوش والقصص الشعبية ؛ ومن يدرينا أن ما جاء في هذه كلها صحيح . إننا إذا قسنا الماضي بالحاضر كان أقل ما توصف به هذه المصادر أنها عرضة للشك ، وأن ما تحتويه لا يصح أن يؤخذ كله على علاته ، وأنه لا يمثل الحقيقة كل التمثيل .

والمؤرخون عادة يهملون الأسباب والعوامل الفعالة الخفية ، لأنهم لا يعرفون منها إلا القليل ، ويكتفون بوصف النتائج الظاهرة ، أي أنهم يتركون العلة ويكتفون بالمعلول ؛ وهم في كثير من الأحيان يلونون الحوادث ويرسمون الصور كما يتخيلونها لا كما حدثت في واقع الأمر ! ومن أجل هذا كان التاريخ في أغلب الأحيان بعيدا كل البعد عن النزاهة ، وكثير منه توجهه الأغراض الشخصية أو ما هو شر من الأغراض الشخصية ؛ ومنه ما تغلب عليه الصناعة اللفظية أو الغرض الفني ، كتلك الرواية الزائفة البعيدة عن الحقيقة التي خلقها جبن Gibbon خلقا وسماها « اضمحلال الدولة الرومانيـة وسقوطها The Decline and Fall of the Roman Empire » .

وأ كثر التاريخ قد كتب وهو كله يعمل لصياغة عقول الناس وجمعها حول فكرة عامة يريدها المجتمع الذي يعيشون فيه . وأهم ما يعنى به كتـاب التاريخ القومي ومدرسو التاريخ القومي في المدارس والجامعات أن يجعلوا الناس مواطنين ، وأن يلهبوا فيهم نار الحماسة الوطنية ويجمعوهم حول فكرة المجد القومي والاعتداء على غيرهم من القوميات الأخرى ، ويزيدون من كبريائهم وإعجابهم بأنفسهم . ولقد كان هيرودوت نفسه وهو أبو التاريخ ، داعية من دعاة الحرب على فارس . ولا يزال معظم التـاريخ إلى يومنا هذا دعاية قومية أو إقليمية مزجت بهـا القرثرة والقصص الزائف ، بعيدة كل البعد عن المثل الإنسانية العليا .

ولقد بذلت في السنين الأخيرة عدة محاولات لكتابة تاريخ جامع للجنس البشري ؛ ولـكن كل ما فعله المؤرخون الذين حاولوا هذا أنهم جمعوا التواريخ المتفرقة المعيبة التي كتبتها كل أمة عن نفسها ، فـكانت كتبهم من أجل ذلك خليطا مهوشا من هذه التواريخ ، فصل فيها عن هذه الأمة وفصل عن تلك ، وفصل عن هذا الإقليم ، وفصل عن ذلك

ولم يكتب أحد منهم تاريخاً للإنسانية على أنها وحدة مجتمعة. وأراد بعضهم أن يعمموا ولكنهم عمدوا إلى تلك الخيالات والأوهام الدهشة العجيبة، فكتبوا عما سموه «روح الشرق» و «روح الغرب» و «الروح اليونانية» و «الروح العبرية» و «فضائل الجنس النوردى» و «الأمم الناشئة» و «الأمم القديمة» و «العصر الذهبى» و «الأمة المختارة» وما إلى هذا.

ذلك هو أرقى ما وصل إليه تفكير المؤرخين فى كتابة التاريخ وتدريس التاريخ، وهو تفكير قاصر يسيطر عليه الروح القديم، ولا يؤدى إلى خير على الإطلاق، وسيظل العالم يعانى من جرائه ما يعانيه الآن من عداوات وضغائن.

والشواهد كثيرة على ما يبثه هذا التاريخ فى العقول من سموم، وماينشأ عن هذا التفكير من أضرار. وسنكتفى بذكر شاهد واحد منها وهومشكلة اليهود، تلك المشكلة التى يخيل إلى الكثيرين أنها مستعصية على الحل.

لقد سيطر الميديون والفرس واليونان واللاتين من بعدهم على الشعوب السامية التى كانت تسكن فى أرض بابل وفينيقية وقرطاجنة، وأخضعوها لسلطانهم واحدة بعد واحدة بفضل تفوقهم الحربى، وإن كانوا أقل منها دراية بالشئون المالية والتجارية، وفى كثير من مقومات الحضارة بوجه عام. وخضعت هذه الشعوب السامية لسلطان المغيرين ولكنها ظلت تسيطر على شئون المال والتجارة فى غرب آسية وفى أوربا، وتوالت المحن عليها فألفت بينها؛ ومن أجل ذلك كنت تجد فى هذا الصقع من العالم القديم شعوبا سامية مغلوبة على أمرها من الوجهة السياسية، متشابهة فى مدنيتها وعقليتها وعاداتها وطقوسها واحتفالاتها ومواسمها. وحلت رابطة الدين محل الرابطة القومية، فنسيت هذه الشعوب أصولها الفينيقية والقرطاجنية والبابلية، وكان طبيعيا جدا أن تعزى نفسها عما حل بها من المحن باعتقادها أنها شعب الله المختار، وأنها على الرغم مما هى فيه من بؤس وشقاء ستنال النصر فى مستقبل الأيام، فتعود عزيزة قوية كما كانت فى عهد داود وسليمان.

كان ذلك تفكيرا طبيعيا من الوجهة النفسية، ولكنه كان عظيم الضرر من الوجهة التاريخية، فقد كانت نتيجته أن قسما كبيرا من بنى الإنسان يشمل طائفة من أذكى الناس وأقدرهم على تصريف شئون التجارة والمال وغيرهما فى أوربا وغرب آسيا، قد انفصلوا بتفكيرهم هذا عن سائر الأقوام المحيطة بهم، وزادت عزلتهم على مر الزمن كما نمت تقاليدهم وقدم تاريخهم، حتى لم يعد فى وسعهم أن يندمجوا فى هذه الأقوام. وتسممت أفكار اليهود بتلك الأسطورة القديمة، أسطورة الشعب المختار والوطن الموعود وما تجمع حولها على مر الزمن من أساطير أخرى وتقاليد.

ولو أن هذا التاريخ قد أغفل برمته، ولو أن التاريخ قد درس كما ينبغى أن يدرس ولم تسمم به أفكار الناس على هذا النحو، لما كان لهذه المشكلة وأمثالها وجود. إن التاريخ الذى يدرس فى جميع أنحاء العالم إنما يقصد به التفريق بين الناس لا الجمع بينهم؛ ولا يكتفى لإصلاح هذه الحال أن يعلم تاريخ العالم كله بحالته التى يكتب بها الآن فى كل بلد من بلاده، لأن ذلك لا يحل المشكلة القائمة، بل الذى يحلها أن يتعلم الناس تاريخا من نوع جديد، وأن يعلموه بطريقة جديدة».

* * *

وهذا التاريخ الجديد، وهذه الطريقة الجديدة، قد شرحهما السترولز فى محاضرته، وسنلخصهما فى المقال الآتى.

محمد بدران

فنون الرجل الفطرى

— ١ —

لم يخلد عمل من أعمال الجنس البشرى كما خلدت الفنون التى أنتجها الإنسان فى كل العصور ، ولا يوجد بين مخلفات الإنسان القديمة كلها ما يفوق قيمة الفنون كمفتاح لتاريخ المدنية وتاريخ ذلك الإنسان . إذ أن معلوماتنا عن عادات الجنس البشرى وتقاليده وعقائده تبنى لمدة آلاف من السنين على دراسة تلك الآثار الفنية ، ولم يأت التاريخ المدون لإعانتنا على معرفة التاريخ إلا منذ عهد قريب نسبيا .

ولقد درس العلماء الآثار الفنية للجنس البشرى رغبة فى الوصول إلى الحقائق التاريخية التى استقوها منها ، بيد أن طبيعة هذه الآثار أومكانتها من عالم الجمال الفنى أو الذوق الرفيع معترف بها ، وهذا هو السبب فى المكانة العالية التى تحتلها تلك الآثار .

ويرجع تاريخ منتجات الإنسان الفنية التى تم اكتشافها حتى الآن إلى عهد يتراوح بين ٢٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠ سنة مضت قبل الميلاد ، وهذه هى منتجات الرجل الفطرى الذى عاش فى العصر الحجرى ، وهى تكشف عن الفن فى مراحله الأولى . ومن اختبار بقايا الجماجم والعظام البشرية يبدو أن تلك السلالات التى عاشت فى العصر الحجرى قد انقرضت ، وأنها لا تمت بصلة ما للسلالات الفطرية التى تعيش فى العصر الحاضر . ولكن هذا الاكتشاف لا أهمية له فى هذا الصدد ، لأن الحكم على السلالات الفطرية أو السلالات التى اتفق الرأى على إطلاق هذه التسمية عليها ، لا دخل له بالخصائص الجثمانية .

وهذه التسمية « الرجل الفطرى » أو « الرجل الأول » لا تطلق على الإنسان الذى عاش قبل عصور التاريخ مجرداً من كل مدنية وحضارة فقط ، بل هى لفظ عام يطلق على قبائل عاشت فى عصور التاريخ ، كما يطلق على قبائل لا تزال لها وجود قائم فى عصرنا الحاضر .

ولا بد أن نعرف أولا قبل الدخول فى صلب الموضوع تحديد معنى اللفظ « الفطرى » ، أو بعبارة أخرى تحديد معنى المدنية والحضارة التى يفترض بأن الرجل الفطرى مجرد منهما ؛ وهذا أمر ليس باليسير ، لأن تحديد معنى المدنية فيه شىء من التعقيد وتختلف فيه الآراء . فيحاول بعض من بحثوا الموضوع أن يبنى هذا التحديد على العقائد الدينية ، ويحاول البعض الآخر اتخاذ المبادئ الأخلاقية مقياسا للتحديد ؛ ولكن يتضح بتتبع التسلسل المنطقى أن هذا لا يكفى ، لأن بعض القبائل التى تعيش عيشة أولية ويحكم بتجردها من أى حضارة ، نجد أنها تتمسك بمبادئ أخلاقية لا تقل صرامة عن المبادئ التى تتمسك بها أشد الأمم تقدما ورقيا . ونجد كذلك أن بعض القبائل الوثنية التى لا تدين بدين من الأديان المنزلة ، تصر على ناموس أخلاق من درجة عالية جداً .

وهكذا راح الباحثون يفتشون عن معان أخرى لا تتوفر لدى تلك القبائل الفطرية ، إلى أن أجمعوا الرأى على معان خاصة ؛ منها مثلا التضحية بالراحة الجسمية فى سبيل إرضاء الروح ، بدون أن يكون من وراء هذه التضحية فائدة عملية أو مادية ؛ ومنها أيضا قوة إدراك قيم الأمور . والمقصود من هذا أن الشعب المتحضر هو الذى يكون فى استطاعته أن يكافح وأن يتكبد مجهودا شاقا كبيراً فى سبيل إدراك معنى من المعانى الجليلة السامية ، وقد يستغرق إدراك هذه الغاية زمنا طويلا . وبعضهم يقيس مدى الرقى بالمنزلة التى تحتلها النساء بين الأمة . بيد أن التحديد الذى أراه مبسطا ومباشرا لتعريف الشعوب الفطرية هو : تلك الشعوب التى تعيش خارج نطاق .

أولا : الحضارة الأوروبية الحديثة .

ثانيا : الحضارات الشرقية العظيمة .

وبمعنى آخر ، الشعوب التى لا يرتفع مستواها الثقافى إلى مستوى الحضارات السالفة الذكر .

والآن وقد أتيت على أبسط تحديد للفظ «الفطرى» ، انتقل إلى التكلم عن فنون الرجل الذى يُنعت بهذا اللفظ .

يقال إن الفن هو ظاهرة عالمية ، ولكن لا يجب أن يفهم من هذا أن الفنون على اختلاف أنواعها (كالموسيقى والرسم والتلوين والنحت والرقص والغناء) هى لغة تفهمها السلالة البشرية فى كل أنحاء العالم وفى كل العصور بدرجة واحدة ، لأن الأمر ليس كذلك ؛ فالموسيقى التى تشجى شعبا معينا قد لا يتحرك لها شعب آخر ، بل قد لا يستسيغ سماعها ؛ وتختلف كذلك فنون الإنسان التصويرية من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر فى مدى التأثر بها .

ولكن المقصود هو أن الفنون لم تقتصر على شعوب دون غيرها ولم ينفرد به عصر دون سواه . فالفنون بكل أنواعها ترجع إلى عهد بعيد جداً ، ولم توجد سلالة بشرية مهما بلغت درجتها من التأخر والانحطاط وبعدها عن أسباب الحضارة لم تبتدع لنفسها طرقا لتعبيراتها الفنية من رقص أو تصوير أو ما خلافه . وقد وجدت فى بعض العصور سلالات بشرية حقيرة الشأن لم تستطع أن تفكر فى صنع كساء تتدثر به ، ولم تبتدع لنفسها عقيدة ما ، ولكنها مع ذلك لم تخل من قدرة على التعبير الفنى .

والفنون ليست ظاهرة مستقلة ، بل هى تكون جزءاً من مدنية تتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الشعب أو السلالة التى تنتسب إليها ، وبتاريخ البقعة التى عاشت فيها السلالة ؛ أى أن الفنون بعبارة أخرى هى مرآة تنعكس عليها حالة السلالة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية . ومن هنا يتضح أن المعلومات التاريخية عن شعبٍ ما تعين الباحث على فهم فنون ذلك الشعب ، كما أنه من دراسة الفنون تستخلص نتائج تاريخية عظيمة القيمة .

وهكذا نفهم من عبارة «فنون الرجل الأول» أنه لفظ عام يغطى عددا من الظواهر التاريخية ، وهو عبارة من إنتاج سلالات مختلفة وعقليات وأمزجة متنوعة ، ويعبر من وقائع متفرقة ، وهو نتيجة تأثير بيئات عديدة .

ولا يوجد من الناحية العملية عنصر واحد يشترك بين كل أنواع الفنون التصويرية التى أخلفها الرجل الفطرى القديم أو المصرى ويكون وجود هذا العنصر مما يميزها عن إنتاج أخيه المتحضر ، بل إن مجرد غرابتها علينا فى مواضيعها ومحتوياتها وفى طريقة التعبير الفنى لصانعها يسهّل علينا وضعها فى مجموعة واحدة مستقلة . ولكن لا يجب أن يغيب هنا أن هذه الغرابة التى نحسها ونحن نمعن النظر فى شىء من منتجات الرجل الفطرى ، قد يكون من شأنها أن تحرك فى نفوسنا الإعجاب ، أو تحرك إحساساتنا كشىء يمتاز بجمال فنى ؛ ولكنها قد تحدث شعوراً مضادا فى نفس الوقت ، إذ يبدو أن الإنسان لا يستطيع أن يقدر جمال الشىء تقديراً كافيا ما لم تكن هناك صلة بين ذلك الشىء وبين الثقافة المنتشرة فى العصر الذى يعيش فيه ذلك الإنسان ، وأن تكون له قرابة للمثل العليا السائدة عن الجمال الفنى ؛ ففى هذه الحالة يدرك الإنسان مقدار الجمال الذى يحتوى عليه الشىء ، إلا أن إحساساته لا تتأثر به بالدرجة التى تحدث وهو ينظر إلى فن من إنتاج العصر الذى يعيش فيه ، أو على الأقل عصر يشابهه فى الحضارة .

وفنون الرجل الفطرى التصويرية وغيرها تحتوى على العموم فائدة عملية ، ولكن يجب أن نعرف أن هناك فرقا أو تمييزا بين الفن كعامل اقتصادى ، أو الفن كخاصية متعلقة بالأشياء التى صنعت لتكفى حاجة مادية ، وبين الفن كتعبير لمثل عليا أو تعبير روحانى يتعلق بالخيال الخالص . ولنضرب مثلا هنا ، فنذكر الأبنية الدينية كالمساجد أو الكنائس التى شيدت فى العصور الوسطى ، فلقد كانت هناك أسباب ودواع دعت إلى إقامتها ، بيد أن الدواعى التى سببت بناءها على طراز معين هو شىء آخر .

يتبع

ميشيل حافظ

من الخطأ أن نستدين

في « ثقافة » الأسبوع الأول من ديسمبر ، مقال لحضرة الأستاذ الكريم محمد فريد أبي حديد ، جعل عنوانه: « لم لا نستدين ؟ » وصمم غايته فكانت دعوة حارة ملحة إلى أن تستدين مصر ؛ وأطلق القول فلم يحدد باللفظ نوع القروض : أتكون داخلية فقط أم تكون داخلية وخارجية ؛ ولكن مقاله في جملته وتفصيله لا يدع مجالا للشك في أنه يدعو بالذات إلى القروض الخارجية ولا يأبى بداهة أن تضاف إليها قروض داخلية .

الاقتراض الخارجي ، بالنسبة لمصر ، خطأ وخبط ، وكذلك الاقتراض الداخلي إلا أن يقصر على المصريين . هذا هو المبدأ الذي يعز على أن يجتاز إلى دفاع .

وعلىّ الآن أن أرد على الحجج التي جاء بها الباحث الجليل وَفق الترتيب التي وردت به .

١ — بدأ الأستاذ يحاول أن يعيد الاعتبار إلى فكرة الدين بوجه عام ، أكان في دائرة الأفراد أم في محيط الدول ، فقال : « ما أجرانا أن ننظر إلى دول أوربا التي تحسب ديونها بآلاف الملايين من الجنيهات ، والتي تعتبر الاستدانة وسيلة طبيعية في الأزمات الحربية ، أو في أوقات الحاجة الملحة إلى الإصلاح السريع » .

هنا نجد قياساً مع الفارق : فإن الدولة القوية بنفسها ، أو بالإضافة إلى دولة أو دول تنطوي تحت « حمايتها » ، تقترض باللفظ وتستوهب بالحقيقة ، أي أنها تقترض ثم لا توفي ، وإن وفت فبالجزء دون الكل ؛ أما نحن فقد اقترضنا فدفعنا القرض الواحد قروضاً ، ثم دفعنا في أعقاب القروض كرامتنا واستقلالنا وكراسي وزارتنا فاقتعدها وزراء أوربيان ، وفرض علينا صندوق الدين فكان دولة فوق الدولة لا مجرد دولة داخل الدولة .

لقد استدانت مصر فرأينا كيف عاملتها الدول ، واستدانت فرنسا وغيرها فلم يقف الأمر عند الامتناع عن الوفاء ، والرضوخ لهذا الامتناع ، بل نشأت إلى جوارها نظريات فقهية تجعل الالتواء بالدين الدولي شيئاً مباحاً لا شية فيه ، وقد يسمو الفقه فيجعله فضيلة مندوباً إليها ثم واجباً يلام على التقصير فيه .. إني أقتبس من مؤلف مصري العبارة الآتية . « يتعين على الدول الكبرى إقراض حلفائها حتى يستطعن موالاة القتال : إقراض في النقود وإقراض في الذخائر . ولكن عقبات كثيرة واعتبارات وجيهة تحول بين الدول المتحاربة وبين استرداد إحداهن ما أقرضته للأخرى . ولعل أوجه الاعتبارات أن هذا يتعارض مع روح العدالة . ففي حرب عالمية كالحرب الأخيرة تقوم كل دولة من الدول المتحالفة بدفع حصتها من دماء بنيها وذخائرهم وأموالهم في سبيل إحراز النصر للقضية المشتركة ، فإذا كانت الدولة التي جادت بما ملكت من دماء بنيها قد رقت حالها وأعوزها المال فاقترضته من حليفاتها ، فإنه ليس من العدل أن يطالبنها فيما بعد برد هذا القرض الذي أنفق على نصرهن جميعا . هذا رأي الأستاذ Jèze وهو ما صرح به كثير من الماليين في إنجلترا وأمريكا وصرحت الحكومة البريطانية أنها لا تنتظر من حليفاتها إلا سداد نصف ديونهن »[1] . فهل تستطيع مصر أن تطمئن إلى مثل هذا الفقه وإلى مثل ذلك الرأي العام ؟

(٢) ومالي أذهب بعيداً وها نحن أولاء ندين غيرنا بملايين من الجنيهات ، فهل استطعنا أن نحصل على مجرد وعد بالوفاء ، ولو عيناً ؟ وهل يستطيع مثلنا أن يهضم حقوق غيره وهو عاجز عن استيفاء حقوقه ؟

(٣) واستطرد الباحث يقول: « فليست شركات التأمين إلا قائمة على نوع من الاستدانة والأسهم والسندات في كل شركات الإنتاج ليست سوى أنواع من الاستدانة واقتصاد العالم كله قائم على جهود مثل هذه الشركات بغير نزاع » .

وأنا ألاحظ على هذا القول أمرين : الأول أن الدول شيء والشركات شيء آخر ، فلو نادى الباحث بتأسيس شركات مساهمة مصرية تبيع أسهمها كلّ راغب من كل جنس ، لكنا أمام قضية أخرى غير اقتراض الدولة وهي قضية خارجة عن هذه المناقشة ؛ والثاني أن هذا التكييف لشركات المساهمة محل نظر والأقرب إلى الواقع وإلى القانون

(١) مبادئ علم المالية العامة للدكتور العربي ج ١ ص ٨١ و ٨٥ .

اعتبار المساهمين كما يدل اسمهم شركات فى رأس المال لا دائنين ، فإن الشركة المساهمة لو أفلست لما استرد المساهم مادفع فيها ، أما الدائن فيسترد الدين والفوائد أو بعضهما مقدما على أولئك المساهمين إلخ .

ولعلى لا أبعد عن الموضوع حين أشير إلى أن الاقتصاديين إذ أثنوا على فكرة الشركات المساهمة قد جعلوا فى طليعة مزاياها أنها تشجع على الادخار وتتيح لصغار المدخرين فرصة طيبة لتوظيف نقودهم الضئيلة ، فهنا نرى مؤسسات تقوم على الادخار وتشجيع عليه لا مؤسسات تقوم على الاستدانة وتغرى بالتبذير والإنفاق .

(٣) ثم يقول الأستاذ الفتوح فى تبرير الدين إنه « استعرض فى نفسه ميادين الإصلاح التى تحتاج إلى أن نقطعها بغير تردد فوجد تلك الميادين متعددة وكل منها مترامى الأطراف يقسع لجولان أسرع الطائرات الإصلاحية فكلما خطونا خطوة تبين أن هناك إصلاحاً ضروريا لا بد منه فى الخطوة التالية » .

حسن ! فما معنى هذا ؟ معناه أن القرض المقترح ليس مليونا ولا عشرة ولا مائة ولكنه مئات ، ويكفى أن نتذكر الرقم الخيف الذى قدره المغفور له وزير الصحة السابق لتحقيق مشروع الوحدات الصحية فى القرى . فأين نقف إذن فى سياسة الاقتراض ونحن « كلما خطونا خطوة تبين أن هناك إصلاحاً ضروريا لا بد منه فى الخطوة التالية » ؟ إن تيار القرض سيجرفنا إذن خصوصاً أن كثرة المشروعات المطلوبة ليست من النوع المُغِلّ ، والمُغِلّ منها لن يؤتى ثمرته إلا هونا ما وبعد آجال واسعة ! لن نقف إذن إلا حين يصيح الدائنون : قفوا لنستصفّ دماءكم بعد أموالكم .

(٤) أليس أفضل من هذا الطوفان أن « نجرِّد » مشروعاتنا كما يفعل القضاة فى الجلسات فلا ننسق إلا الصالح المرافعة ونؤجل سائر القضايا ؟ أليس الأولى أن نقدم الأهم والمستعجل على المهم وغير المهم والميتسر ؟ إنى أزعم أنا بهذه الطريقة نستطيع أن نعيش فى حدودنا ونستدق باحاقنا ونجنى الثمار مُتَجمِّعة ولكنها ناضجة غير فجة .

لقد ضرب سيدى الأستاذ مثلاً الطرق الزراعية ، فهل ثمت مانع أن نركز الإصلاح فى طريق واحد حتى يتم فعلاً فنأخذ فى غيره ؟ إنى أقول بهذا ولا أقول بصف الثلث وترك الثلثين « فلا نكاد نبلغ نهاية الإصلاح حتى يفسد الجزء الأول منه فيكون علينا أن نبدأ من جديد » كما يخشى الأستاذ . بل إنى أفضل إنشاء طريق واحد على إنشاء طريقين فى عين الوقت ! وذلك لأن إنشاء الطريق قد ينقلب مضرة إذا لم نقرنه بإصلاحات واحتياطات أخرى فقد ثبت فعلا أن عصابات المجرمين فى بعض الريف قد انتفعت بطرق حديثة ممهدة فواجب المصلح إذن حين يفكر فى انشاء سكة أن يدرس ملابساتها وموضعها الجغرافى فإذا رأى أنها تسهل مهمة الإجرام وتهريب الماشية مثلاً إلى البرارى وجب عليه أن يقوى آلة الأمن العام فى هذا الوطن تقوية تقابل التسهيل المشار إليه ؛ ولو استطاع أن يلتمس وسيلة لإنارة السكة فأنارها وزاد قوات ووسائل الشرط فيها لكان هذا خيراً من إنشاء عشرة طرق مع بقاء قوات الأمن فى حدودها الأولى واستمرار الظلام وقاء للمجرمين .

لقد أصبنا — وأنا لا أوجه بكلامى هذا إلى سيدى الباحث — بمرض التكاثر والإحصاء فنحن مظهريون لا طلاب حقيقة ، نريد أن نفتخر بالعدد فى كل شيء حتى قيل إنه وجد فى كلياتنا من يحرص على أن يناقش فى عهده أكبر عدد من الرسائل فهو يتسهل ويترخص فى إجازتها لأن المهم عندنا هو الكمّ لا الكيف ، ولو استطعنا أن نقاوم هذه الحالة النفسية لحققنا إصلاحاً لا يقل خطراً عن إصلاح الطرق الزراعية .

إن سياسة « توسيع الجرن » التى استولت على الملاك والفلاحين المصريين ردحاً من الزمان يجب أن تستبعد وتقاوم ؛ كان صاحب الفدادين العشرة يشترى عشرين بالقسط ثم تضله الكثرة عن حقيقته فيسير سيرة البذخ ثم يعجز عن الوفاء فيخسر الجديد والقديم ؛ فمن الخير لنا أن نكون مُقِلِّين نعالج قليلنا ونستغله خير المعالجة وأحسن الاستغلال بدلاً من أن نكون مكثرين مكاثرين فلا تغنى عنا الكثرة ولا التكاثر إلا إلى حين .

(٥) ويشير الباحث الفاضل إلى إصلاحات العاهل العظيم إسماعيل ؛ والخديوى إسماعيل إصلاحات خالدة لا يجوز

إنكارها ولا تخفى على أحد لأنها تعلن عن نفسها ، ولكني لم أستطع أن أمنع نفسي من هذا السؤال : هل استدان محمد على حين أسس القناطر الخيرية وحين أنشأ الجيش والبحرية وحين جعل مصر دولة صناعية قادرة على الاكتفاء الذاتي بدرجة محسوسة ؟ وهل استدان فراعنة مصر حين كانوا فراعنة مصر وكفى بهذا الوصف بياناً ؟ وهل استدانت روسيا الشيوعية إلا القروض الداخلية أي الوطنية ؟

بل هل استدان بنك مصر وشركاته وقد كان بنده المقدس أن أسهمها مصرية للمصريين ابتداء وانتهاء ؟

هذه هي حجج الأستاذ معروضة ومردودة فلأرد على ما تقدم الاعتبارات الآتية .

(٦) إن كثيراً من الإصلاحات العامة المؤثرة يمكن تحقيقها بمال تافه ؛ وقد ضرب الأستاذ مثلاً من الطرق الزراعية وأنا أرتفع أمتاراً قليلة فوق هذه الطرق لتأخذ عيني أكوام الدريس والحطب التي تعلو سطوح البيوت في القرى ؛ ليس منا من ينكر أن وجودها مصدر خطر على الأنفس والثمرات ، ومع ذلك فإن هذا الخطر جاثم لا يزال فهل نحن مضطرون إلى عقد قروض خارجية للتخلص منه ؟ إن شيئاً من حزم العمد ورجال الإدارة ، وشيئاً من نصح الناصحين المثقفين ، وبعض خطب من خطب الجمعة وكلية من أحاديث الراديو وتدبير أمكنة تحل محل هذه الأسطح ، كل هذا متضامناً بعضه مع بعض كفيل أن يخفف من هذا الخطر إن لم يستأصله .

(٧) ثبت أن ضخامة الأموال في خزائن الحكومة تغري بالتبذير وتضعف إحساس الرقابة وتشجع التنافس في اختلاق وجوه الصرف دون سبق درس وتمحيص ، وتشفع لتنافس الجهات الحكومية المختلفة في التكبير الذاتي والنفخة الكاذبة ، بل قيل « إن ازدياد إيراد الدولة عما يطلبه لكفاية مصروفاتها يغري أول الأمر بتبذير هذه الحصيلة الجزلة كما حصل في الولايات المتحدة في خلال القرن التاسع عشر حيث ربا الدخل الجمركي عن كل ما قدر له فاندفع البرلمان إلى السفه في الإسراف وافتن في أساليب إفناء هذا الفيض في الدخل »[1] .

(١) المرجع السابق ص ٧٥ .

وإذا كان البرلمان هو الذي يسقط في السفه فأي عاصم لنا ؟ ومن عجب أن الضعف الإنساني يعمينا فنتصور أن ثمت فائضاً عما يطلب لكفاية المصروفات في حين أن مرافق الدولة المختلفة لن تعجز عن تقبل أية زيادة في الإيراد وهضمها !

(٨) إن اللجوء إلى الاستدانة بغير تحصين الأخلاق السياسية بالنزاهة يجعل الضرر ضررين ؛ وإن « مبلغ الأخلاق السياسية من النزاهة أو التلوث له أثر كبير في تبذير الأموال العامة أو القصد فيها ، فإذا استوت دولتان في كل شيء إلا أخلاق ساستها ، فالتي سعدت بساسة هم فوق كل دنيّة وعصمهم من كل فتنة تنفق أقل مما تنفقه الأخرى التي رزئت بساسة نفعيين »[1] .

فهذا الإصلاح الخلقي إذن ليس مجرد ربح أدبي ولكنه فوق ذلك ربح مادي يقدم لنا مصدراً جديداً من المصادر التي تغنينا عن الاقتراض ، في حين أن اهمال هذا الإصلاح سيجعلنا دائمي الاحتياج ودائمي التفكير فيما يسده من وسائل بعضها القروض الخارجية .

(٩) إن سدّ حاجاتنا بالقروض يضعف اهتمامنا بتنمية ثروتنا الخاصة من زراعية وصناعية وتجارية وسياحية ومعدنية وغيرها ، ويقلل اهتمام الأداة الحكومية بتحصيل الضرائب المقررة ويلهينا عن المطالبة بديوننا .

(١٠) وهذه القروض إذا التمسناها عند المصارف وحملة الأسهم والسندات على الخزانة فإنما نلتمس أكثرها أو جزءاً هاماً منها عند طائفة معلومة ليس من صالحنا ولا صالح جيراننا بفلسطين أن تزداد تغلغلاً في شئوننا وتمكّناً من أعناقنا .

في سنة ١٩٣٦ أثيرت في مجلس الأمة العراقي قضية القرض الخارجي فنهض أحد النواب يحذر قومه ويطالبهم بأن يتعظوا بمصر ، واضطر رئيس الوزراء آنذاك المغفور له السيد ياسين الهاشمي أن يعترضه قائلاً إنه لا يسمح بالتعريض بدولة صديقة .

فهل نريد غيرنا أن يتعظ بنا ، ونأبى نحن حتى أن نتعظ بأنفسنا ؟ هذا نوع من الشقاوة لم يخطر ببال الحكيم !

عبده حسن الزيات

(١) المرجع السابق ص ٧٨ .

في الميزان الجديد :

محمد على الـكبير

نشرت لجنة دائرة المعارف الإسلامية في الأيام الأخيرة كتاباً قيماً لشفيق غربال بك عن محمد على الكبير ضمن سلسلة أعلام الإسلام . وطالعت الكتاب فحفزني للكتابة عنه خصائص عامة ، قد يكون من الخير أن نمهل في استعراضها بعد أن أخذت تتمدد لديها كتب التاريخ واتجاهات المؤلفين .

لو أني لم أكن أعلم أن المؤلف قد استهل حياته العلمية بدراسة العصر الذي كتب عنه[1] لاستطعت أن أستنتج ذلك من كتابه ، فقد ذكرني بكلمة قالها مؤرخ فرنسي شهير هو فوستيل دي كولانج : « لزمنا سنوات في التحليل لكي نعمل يوماً واحداً في التركيب » ، وفي هذه الكلمة جماع من التاريخ . ومعناها هو أن المؤرخ لا يستطيع أن يعرض لوحة عامة لعصر من العصور أو لشخصية من الشخصيات ، ما لم يمهد لذلك بالعمل سنين طويلة في جمع الوثائق وتحليلها ، واستخراج جزئيات الحقائق التي تحملها كل وثيقة ، قبل أن يسمح لنفسه بتركيب تلك الجزئيات في اللوحة ، وبغير ذلك لا يستطيع أن يكتب شيئاً ذا قيمة علمية صحيحة .

وكتاب شفيق غربال بك وإن كان معداً للقراءة العامة ، ولم يقصد مؤلفه إلى التنقيب العلمي الذي لا يتقدم خطوة إلا ووثائقه بيده ؛ بل ولا يجازف فيمتد إلى الشخصية بأكلها أو عصر برمته ، بل يقف عند ناحية من النواحي ليفصل القول من نظم الحكم أو الاقتصاد أو التعليم أو الحياة الخاصة أو غيرها من النواحي ؛ أقول إن كتاب مؤلفنا وإن لم يكن من كتب التنقيب العلمي التي من هذا النوع ، إلا أنه بلا ريب كتاب أستاذ عملت ناصية فنه ، ويتميز في منهجه وروحه بخصائص العلم الدقيق ، بحيث يعتبر عرض مبادئه ومناقشتها دراسة لفن التاريخ في ذاته .

فأما منهج المؤلف التاريخي فباستطاعة القارئ أن يلاحظه في أمرين كبيرين : أولهما سير المؤلف من العام إلى الخاص وربط كل ظاهرة بالحالة الدولية السائدة ؛ وثانيهما عدم اكتفاء المؤلف باستعراض حوادث التاريخ وحقائقه ، بل مد بصره أو على الأصح بصيرته إلى احتمالات التاريخ . فهو لا يحدثك عما كان فحسب ، بل يحدثك أيضاً عما كان يمكن أن يكون ، ويرتب على تلك الاحتمالات ما كان من الجائز أن ينتج من نتائج . وهذان أمران عظيما الخطر ، ولا بد من إيضاحهما بضرب المثل .

لكي يستطيع المؤرخ أن يضع الظاهرة المفردة في مكانها من التاريخ العام لا بد أن يكون واسع الأفق الفكري ، ممتد الثقافة العامة ، وهذا ما نجده في كتاب المؤلف ؛ فالفتح الشامي وأسبابه ونتائجه يربطه المؤلف بحالة أوروبا العامة من جميع نواحيها سياسية واقتصادية ؛ وسياسة محمد على الاقتصادية يضعها في موضعها من الاقتصاد الإسلامي عامة ، وبذلك يرسل ضوءاً قوياً على حوادث التاريخ وتفسير مجراه . وكذلك الأمر في احتمالات التاريخ ، فإنما يستطيعها من عنده من قوة الخيال ونفاذ الحكم ، ما يستطيع معه أن يتصور للتاريخ سيراً غير ما اختط ، وبذلك يفتح للتفكير آفاقاً جديدة ، بل ويعيننا على فهم ما كان فهماً أدق . ومن غريب الأمر أن نعثر في استطراد المؤلف إلى تلك الاحتمالات على حقائق عامة صارمة الصدق ، فهو يتطرق مثلاً إلى الحديث عما كان يمكن أن ينتهجه الاستعمار الفرنسي من خطط ، لو أنه استمر ، فيقول : « الحاكم الغربي يجب أن تكون قواعد الإنتاج المادي غربية صرفة ، لأن هذه القواعد تزيد الإنتاج ، والزيادة مما يهمه . ولكن يكره من المحكومين الشرقيين الانقلاب الاجتماعي والبحث العلمي الحر ، وذلك لأسباب : منها حرصه على ألا يظهر للعامة في مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين . ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لا بد وأن تؤدي في النهاية إلى الرغبة في الاستقلال ، ومنها الميل إلى المحافظة على

(١) المؤلف كتاب بالإنجليزية نال به درجة الأستاذية من أنجلترا بعنوان : « نهوض محمد على » The Rise of Mohamed Aly

الظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ بالطرائف والتحف ». وأستاذية الكاتب تظهر فيما يحوط به تلك الاحتمالات من قيود ، فهي ليست مجرد استنتاجات ذهنية ، ولا هي مقحمة على الموضوع ، وإنما استمدها المؤلف « مما كتبه بوناوت وغيره من تواليهم ، ومما شرعوا في تحقيقه فعلا ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسي في غير مصر من الأقطار الإسلامية » ؛ ثم إنه يتخذ منها عونا على تفسير كراهية المصريين للفرنسيين ، وذلك عند ما اضطرت الظروف هؤلاء الفرنسيين إلى عدم الدقة في تنفيذ تلك السياسة في غير رفق فمسوا ما تواضع عليه المصريون من عادات اجتماعية . ثم إن في عرضها ما يعين على زيادة فهمنا لسياسة محمد علي ، وذلك عن طريق المقارنة .

وكما يطالعك من ثنايا الكتاب المنهج الذي عرضناه تحس أيضاً بالروح العلمية التي تشربتها عقلية المؤلف . وأظهر ما تكون تلك الروح في تفسير الظواهر واستخلاص النتائج بغير تحيز . ثم القدرة على أن يتقمص الأفكار العامة لعصر الذي يدرسه ، وأن يحكم على الظواهر وفقاً لتلك الأفكار . وليس في كتابة التاريخ ما هو أخطر من أن نحكم على الماضي بعقليتنا الحاضرة ، كما أن فيه أكبر مخالفة للروح العلمية الصحيحة . ولسنا نقول جديداً إذا أوضحنا أن العلم لا تضطرب أحكامه بشهوات نفسية حتى ولو كانت أسماها ، فالنزعة الوطنية ذاتها لا يجوز أن تطغى على نظرتنا إلى الماضي ، ما دمنا نبحث عن الحقيقة في ذاتها . وهذا هو ما يدفع المؤلف إلى أن يحكم على المصريين أيام المماليك بأن خضوعهم إنما كان « لأنهم يكرهون التعب أكثر مما يحبون الحرية » ؛ وإلى أن يفسر ثورتهم على الفرنسيين بأنها كانت لتضيهم من إخراج المتلين لهم عما ألفوه من طرق الحياة ، وتلك روح تنم عن محاولات جدية من المؤلف لكي يجرد نفسه من كل اعتبار . ولكننا لا ندري إلى أي حد قد نجحت دائما تلك المحاولات . وفي موضع بالذات من الكتاب نتساءل هل استطاع المؤلف أن يكبح من إعجابه بعاهل مصر العظيم .

وذلك عند حديثه عن مذبحة القلعة ، فقد حرص على أن يلقي تبعتها على الجند الألبانيين ، ولم يترك لمحمد علي في حدوثها غير الإذعان لأولئك الجند الذين كانوا يخشون الأمراء على أموالهم وحريمهم ، فأرادوا التخلص منهم قبل أن يرحلوا إلى حرب الوهابيين . وهذا رأي قد تكون له وجاهته ولكننا إذا ذكرنا الوسائل السياسية التي كان يستخدمها محمد علي وغيره من باشاوات مصر وأمرائها في ذلك الحين ، لا ندري كيف وقف محمد علي من هذه الحركة الخطيرة ذلك الموقف السلبي ، وبخاصة وأننا لا نستطيع أن نقطع في الحكم إذا كان الصحيح هو أن محمد علي قد دبر أو ساهم في تدبير تلك المذبحة على نحو إيجابي ؟ ! ولم يكن بد من أن يسلك إلى النصر كافة السبل التي يسلكها خصومه .

هذا من منهج المؤلف التاريخي وروحه العلمية ، وهو فيهما مثل يحتذى في جملته . ولكن فن التاريخ ليس منهجا وروحا فحسب ، بل هو أيضا أسلوب كتابة ، وهنا موضع الضعف ؛ فالجمل ليست دائما سليمة البناء ، فهو يقول مثلا عن الألبانيين : « وأخيرا أقاموا حاكم الإسكندرية من قبل الباب العالي خورشيد قائمقاما » والأصح أن توضع لفظة خورشيد بعد أقاموا . وأمثال ذلك . وتأثير اللغة الإنجليزية على الأسلوب واضح في عدم الربط بين الجمل ، وهذه ظاهرة كثيرة الحدوث ، ونكتفي بذكر مثل لها أو مثلين : ففي ص ١٣٨ يقول : « ولم تطل إقامة إبراهيم في السودان ، ألزمه المرض بالعودة لوطنه » . واللغة العربية تستلزم الربط بين الجملتين بلفظة مثل « إذ » أو « فقد » . وفي ص ١٤٤ يقول : « ألا ترى استحالة المحافظة على الدولة العثمانية ، قد ترقع هنا وقد ترقع هناك ولكن بلا جدوى . . . » ، وكان الأفضل الربط بين الجملتين بقوله « فهي قد ترقع » . والأسلوب في جملته أقرب مما ينبغي إلى لغة الحديث ، فنرى المؤلف يقول ص ١٣٢ : « هل قنعوا بذلك ؟ لم يقنعوا بذلك » . وأصول الكتابة أن يكتفي (بكلا) أو أن يضيفها قبل الجواب ، وكثيراً ما يسوق إهمال المؤلف للأسلوب إلى الغموض ،

بين المسموع والمقروء

طبيب يقول فتسكته النساء :

لقد عرفت مصر اليوم ما الحاضن . فى الحاضن تترك الأمهات أطفالهن يوما أو بعض يوم ، لتتحرر من قيد البيت بعض الزمان . وقد كثرت الحاضن فى مواطن المدنية كثرة كبيرة ، بسبب ما أقبلت الأمهات عليها ، لاسيما العاملات والفقيرات ، وحتى متوسطات الحال اللاتى ليس لهن فى منازلهن من يرعى الطفل مكانهن ، من قريبة أو مربية .

ومنذ قريب كتب دكتور تقريراً ذم فيه هذه الحاضن ، واقترح إلغاءها ، فما أسرع ما انهالت عليه النساء تسخف رأيه حتى سكت فلم يحير جوابا . وانهالت عليه الخطابات من كل فج فما استطاع لها رداً . والويل كل الويل لرجل يقحم نفسه هكذا بين النســاء ، فهو إن هرب فسلم من نعالهن « وأقلامهن » ، لم يسلم على البعد من ألسنتهن وأقلامهن ! ولا ينجيه أن يكون قد أقحم نفسه باسم العلم والعلماء .

قال الطبيب فيما قال : إنى لأرجو ألا تنتشر هــذه الحاضن فى الأمة أبدا . فترك الطفل بين أغراب عمداً قسوة لا تأتيها أم عاطفة . وتركه بين أطفال يعرضه للعدوى فى سن تقل فيها المناعة .

ولكن لعل أكثر ما أساء إلى النساء فى نقد طبيبنا هذا ، أنه شبه تركهن للأطفال فى الحاضن ، بترك صاحب السيارة سيارته فى مواقفها من الشوارع حتى يعود ، أو إسكانها الجراج . فسمى الحاضن مواقف كمواقف الحمير والعربات ، وسماها جراجات .

وانبرت له فيمن انبرين من ذوات اللسان المتدفق ، سكرتيرة الشرف لجمعية الحاضن القومية البريطانية . قالت : « إنى لم أسمع فى حياتى سخفا كهذا . أيحسب حضرة الدكتور البارع أن المرأة إذا أنجبت غلاما ، وجب عليها أن ترتبط من أجله بالمنزل فى اليوم أربعا وعشرين ساعة ، فلا يكون لها منه خروج ، ولا يكون لها فى الحياة استمتاع ! حتى الخروج مع زوجها تحرمه ، لأنها عندما يأتى المساء تكون قد بلغت من التعب مبلغا يقعدها ويعجزها ؟ ! أما عن العدوى ، فأين تكون العدوى أكثر احتمالا ؟ فى الحاضن ، أم فى الترامات والعربات والشوارع والسينما ، أو حتى فى بيت الطفل ذاته ؟ » .

وقالت سيدة أخرى ، من ذوات اللسان الخفيف ، تجيب أيضا . قالت : « إن الأم لا تود أن « تجرج » ولدها أبداً فى أى مكان كان ، وإنما هى تريد لنفسها فراغا بين حين وحين . وهى إن حرمت هــذا الفراغ فكيف تحصل معرفتها بالدنيا التى هى خارج منزلها ، وبالحياة ، وبالناس ؟ ثم كيف يرجى منها أن تشترك فى الحيــاة العامة وتؤدى واجبها فى التصويت لنائب فى مجلس المدينة أو نائب فى البرلمان ؟ إن هذه الحرب زادت فى عدد الحاضن زيادة كبرى ، بسبب ما اضطر إليه النساء من الخروج للعمل فى المصانع والمكاتب والأسواق . ورجائى أن تزيد هذه الحاضن بعد الحرب ، لا أن تنقص ، وتزيد فى واجباتها فتكون فوق

كقوله ص ١٤٣ من محمد على : « واندهش من منع فرنسا فى عرضها الشىء الوحيد فى نظره الذى أعطى الموضوع أية قيمة ؟ أربع سفن حربية كبيرة بضمها الأسطوله » بدلا من « واندهش من عدم عرض فرنسا الشىء الوحيد الذى يعطى الموضوع قيمة فى نظره . . »

وليست القيمة الأدبية للأسلوب بالشىء الهين الذى يجوز لمؤرخ من هذا الطراز أن يهمله ، فللصياغة جمالها وتأثيرها فى النفس ، وقديما قال أفلاطون : « لو صيغت الحقيقة امرأة لأحبها جميع الناس » .

ولكنه كتاب فيه من غزارة التفكير الجديد ومن القدرة على الإيحاء ما يشغل القارىء . لقد استفدت منه الكثير ، وبودى لو استفاد غيرى ! محمد مندور

حضانتها للطفل مناصح تستنصحها الأمهات فيما يعرض لهن من أمور الطفولة وشئون الأمومة ».

وهرع رجال الصحافة إلى الدكتور المسكين يسألونه هل عنده من ردّ على هذه الحملة ، فقال : لا . فقد علمني الكلام قيمة السكوت ، وأصبحت أومن بالمثل القديم الذي يقول : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب !!

المسجل الأكبر :

قضت المدنيـة أن يكون لكل بيت عدد ، ولكل عربة ولكل سيارة عدد . ورُخّص الحير لها أعدادها . ورجال الشرطة لهم أعدادهم . ومن زجّتهم البوليس من الناس في السجون لهم أعدادهم .

فلِمَ لا يكون لي ولك ولكل أحد عدد يُعرف به في الأمة ؟

فإذا كتبتُ لك خطابا عنونته بحضرة رقم ٥٦٣٩ بالمنزل رقم ١٥ بالشارع رقم ١٠ مثلا ، ستضحك من هذا وتهزأ ، ولكن المدنية أراها صائرة إلى ذلك لضبط الناس وضبط أمورهم ، في الحرب والسلم على السواء . وسيكون بالطبع للناس ما يشاءون من أسماء فيما بينهم . ولكن للحكومة الضابطة ، سيكون الفرد معروفا عندها بعدده وباسمه ، ولكن بعدده أكثر من اسمه .

وحكاية هذا أن الحرب ، في الأمم المتحضّرة التي دخلت الحرب ، فرضت على الناس نظام البطاقات . وقد أَلِفَ الناس البطاقة يحملونها للتموين ، وصار الرجل الذي لا يحمل بطاقة يجوع . فالبطاقة صارت له أهم من ملبوسه ومركوبه .

واليوم يراد أن تكون البطاقة للسلم أيضا . ولن تسمى بطاقة تموين ولكن بطاقة تشخيص ، أو بطاقة تعريف بالشخصية ؛ وهي تولد مع الرجل في يوم ولادته ، فيعطى المولود عدد كما يعطى له اسم ؛ ثم تصير هذه البطاقة من بعد ذلك أشبه شيء بملخص من تاريخ حياة الشخص ، يُكتب فيها كل ما يحدث له في الحياة من أحداث ، مما لا يخجل المرء من إعلانه ، وتتوق الإدارات الحكومية إلى عرفانه .

ويُجمع كل ما في البطاقات في سجل للدولة عظيم ، يحتوي من ملايين الصفحات بقدر ما بالأمة من ملايين الأفراد . كل بعدده . فيصبح عدداً كالاسم لا ينساه صاحبه أبداً .

ومن الأشياء التي تكتب في هذه البطاقات المولد طبعاً ، والزواج ، وبأي « عدد » تزوّج ، وكم خلف من الأبناء ومن خلّف ، وفيها يكتب الطلاق . ويزاد إليها غير ذلك على الزمن كل علم بشيء يؤدي إلى تسهيل الإدارة ، لاسيما بعد الحرب ، عند ما تنفذ قوانين الإصلاح الاجتماعي الجديد .

وتغني هذه البطاقة عما عداها من بطاقات . فتغني عن بطاقة الانتخاب ؛ فبها يستطيع أن يذهب المرء إلى مركز الانتخاب فيبديها فتُفتح له الأبواب . .

وآخر ما يكتب في البطاقة تاريخ موت حاملها .

وقد أخذت إنجلترا في تنفيذ هذا النظام من سبتمبر عام ١٩٣٩ ، أي منذ بدء الحرب الحاضرة ؛ فكل طفل وُلد من هذا التاريخ صارت له بطاقة برقم مسلسل ، لا غنى له عنه في بلد منظّم ، ليحيا ، ثم ليموت .

أستاذ بجامعة :

قرأت لكاتب أجنبي وصفا لأستاذ بجامعة ما في أوروبا ، واختار لقلمه أستاذا بكلية آداب .

قال إنه أستاذ في أوسط العمر ، يشغل كرسيا للأستاذية مأمونا مضمونا ؛ وقال إنه لو شاء لجعل عيشه أطيب عيش ، وعمله أخف عمل في الدنيا . فهو يستطيع أن يسكن الأميال بعيداً عن الجامعة ، فهو لا يأتي الجامعة كل يوم ؛ وهو يستطيع أن يترك المدينة والجامعة ظهر الجمعة إلى الريف ليعود إليها مساء الثلاثاء . وإذا فرضنا أن عليه دروسا ، وله طلبة — وبعض الأساتذة ليس له طلاّب ، وبعضهم لا يحبّذ الفكرة فلا يسعى لها — فقد يكون كل

واجبه أن يعطي ما بين محاضرتين إلى عشر في الأسبوع. وإن كان حيًّا ضميره، اتفق مع مدرّسيه على تناوب الموضوعات عاما بعد عام؛ وهو كل عام ينقّح ما يعطي من محاضرات حتى لا تتأخر ويتقدم الزمن. وإن كان من ذوي الضمائر الناعسة، فهو يظل يلقي محاضرات الموضوع الواحد عاما بعد عام؛ وهو يلقيها على صورتها التي كانت لها منذ عشرين من الأعوام، حتى ليصبح كل ما عليه أن يذهب إلى درج مكتبه، عند كل محاضرة، فيخرج أوراقها لينفض التراب من فوقها مرّة كل اثنى عشر شهراً.

وللأستاذ إلى جانب المحاضرات، واجبات أخرى، يتوقف عليه كل التوقف أسلوب أدائها. فهو قد يجعل منها شيئا، وقد يجعل منها لا شيء.

وأول هذه الواجبات الأبحاث يقوم بها بنفسه. فهذه يستطيع أن يغفلها كل الإغفال ما ضمن كرسيه، وهو في العادة مضمون طول الحياة. ثم أبحاث طلبته يُشرف عليها؛ وهذه تتوقف على مقدار إثارته لرغبة البحث في الطلبة. فإن كان عند الأستاذ جذوة، قبَس الطلبة منها. وإن كان ليس عنده غير الثلج والزمهرير، فقد كفاه الله مؤونة ذلك، ولم يحصّب بابه طالب واحد.

ومن واجباته الأخرى، التي لا يستطيع منها إفلاتا، تصحيح الأوراق عند الامتحان. وهذه تكون مرة في العام أو مرتين.

وقد يطلب إليه الطالب شهادة عن حسن سير، أو نجاح في عمل، فهذه في الغالب يكتبها الأستاذ على نمط معروف مرسوم. وقد تضطره الحال إلى استقبال طالب سقط في الامتحان لينصحه ويحصّنه للفرصة التالية، وقد يستقبل الطالبَ من أجل تغيير برنامج، أو تخليص من ورطة، وهذه لن تتطلب وقتا طويلا.

ثم حضور مجالس الكلية ومجالس الجامعة، فهذه تأتيه الطلبات بحضورها كل حين وحين، وعندئذ قد « يخطف رجله » إلى مكان الاجتماع ينفق فيه ساعتين أو ثلاث، ولو أنه شاء ما حضر، فهذا واجب يقضي به الأدب والعرف ولا يقضي به القانون.

فهذه فيما أحسب كل واجبات الأستاذ، وقد رأيتَ إلى أيّ الحدود الدنيا يستطيع أن ينزل بها. ثم لا تنسى أن السنة نحو من خمسين أسبوعا، تبلغ الإجازات والعطلات فيها عشرين أسبوعا، فلا يبقى منها للعمل غير ثلاثين. وهو، لو رضي ضميره، ما اشتغل في هذه الأسابيع الثلاثين أكثر من عشر ساعات في الأسبوع؛ ولو ضممت هذه الساعات بعضها إلى بعض، وقسمتها على ثمانية، وهي عدد الساعات التي يُفرض على العامل اشتغالها في اليوم الواحد في هذا القرن الحاضر، لكان الناتج ٣٥ يوما، هي كل ما يعملها الأستاذ بهذا المعيار في العام الذي تبلغ أيامه ٣٦٥ يوما.

فإن كان الأستاذ ممن ليس لديهم فصول، وليس لهم طلبة، اختفى حتى هذا القليل الأقل من العمل.

قرأت لهذا الكاتب الأجنبي هذا الذي قال في وصف هذا الأستاذ الأجنبي، كتبه على ضفاف السين، أو ضفاف التامز. فأغمضت عينيّ أتصور أي صورة يتخذ هذا الوصف لو كتبه كاتب على ضفاف النيل؟!

ثم سألت نفسي: ولم أستاذ كلية الآداب وحده؟ لم لا يكون هذا الوصف لأستاذ الطب أو أستاذ الهندسة أو أستاذ التجارة، إلى ما هنالك من أساتذة كليات؟

ولم يغب عن بالي بالطبع أن هناك نفراً من الأساتذة على نقيض ما وصف صاحبنا. ولكن هنا يعرض سؤال آخر: أين يقع مركز الثقل من هذا العاتق الذي تعلّق به أقدار الأساتذة؟ إلى يمين أم إلى يسار؟ فوضع هذا المركز هو الدليل على فلاح كلية أو فشلها.

ولكن من يطلب هذا الدليل؟ لا أحد.

ففي داخل الجامعات تمنع منه المجاملات والمقارضات.

وفي خارجها يمنع منها استقلال الجامعات.

والاستقلال الذي ينطوي على فساد، سواء في الأمم أو في الجامعات، لا يلبث أن يأتيه العنف، من داخله أو من خارجه، فيمزّقه تمزيقا.

أحمد زكي

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣١٢ — الثلاثاء ٤ من محرم سنة ١٣٦٤ — ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

محمد والتوحيـــــد

إن أردنا أن نلخص الإسلام في كلمة قلنا : « التوحيد » .

وإن أردنا أن نوجز عمل النبي (ص) من بدء مبعثه إلى يوم وفاته ، قلنا : « العمل على التوحيد » .

وإن أردنا وصف الناس عند دعوته ووصفهم عند أن أسلم روحه لخالقها ، قلنا : إنه تعدد وتفرق لا حد له ، أخذ يزول شيئاً فشيئاً ، ويتجمع شيئاً فشيئاً ، حتى حل التوحيد محل التعدد .

هذه هي العرب في جزيرتها يوم تسلمها ، قبائل متعددة لا تربطها رابطة ، لكل قبيلة لغتها ؛ ولكل قبيلة صنمها ، ولكل قبيلة مكانها ومرعاها ، وشيخها وتقاليدها ؛ إن عرفت قبيلة قبيلة أخرى فإنما تعرفها يوم تغار عليها ، ثم يكون الحرب والقتال والأخذ بالثأر ، وكف المغلوب على مضض ، وكف الغالب حتى يستمد الوثبة ، وهكذا . غرض الفرد في الحياة أن يأكل ما يجد ، وينهب إذا لم يجد ، ويقاتل مع أفراد القبيلة إذا قاتلت ؛ وغرض شيخ القبيلة أن ينعم بطيبات الغنائم ويرأسها في القتال ؛ وغرض القبيلة أن تستمد الوثبة يوم تغير ، والدفاع يوم يغار عليها !! وهذا ملخص حياتها .

فماذا فعل الإسلام لتوحيد الكلمة ، وماذا فعل محمد ؟

أسس الإسلام عقيدة عامة يجب أن يعتنقها كل مسلم ، فليس الإله إله قبيلة ، ولكنه رب العالمين ! وليس الفخر بالقبيلة ولا بالأنساب ولا بالمال والبنين ، ولكن بالعمل الصالح ، والعمل الصالح هو ما يُحسن العلاقة بين الإنسان وربه ، والإنسان والإنسان ، وكل إنسان مسئول عن عمله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . الغنى والفقير سواء ، والقرشي والباهلي سواء ، وبنت محمد وبنت غيره سواء ، والرجل والمرأة سواء ، لا يعبأ الله بقبيلة ولا يعبأ بنسب — لا لأن

ولا عزّى ، ولا قرابين ولا أوثان ؛ ولكن لا إله إلا الله ، هو الخالق وهو المحاسب ، وهو الغرض : «فأينما تكونوا فثَمّ وجه الله» — إذن فالفروق بين القبائل لا معنى لها متى اتحد الغرض واستوت الأفراد ، والأصنام التى تميز بين القبائل لا معنى لها لأنها آلهة باطلة ، والاعتزاز بالحسب والنسب والقبيلة لا معنى له لأنه لا يدخل فى ميزان الأعمال .

وطبيعى أن تحدث مثل هذه الدعوة اختلافاً بيّنا بين مؤمن بالتعاليم الجديدة وكافر بها . ولكن مهما كان فقد نشأ تطور جديد حتى فى الخلاف ، فبعد أن كان الخلاف بين قبيلة وقبيلة أصبح الخلاف بين معتقدين بالدين الجديد ومحافظين على الدين القديم ، وهذه طائفة مهما تعددت قبائلها ، وتلك طائفة مهما تعددت قبائلها ؛ وأعلن رسول الله أن المؤمنين إخوة ، وأن الكفر ملة واحدة . وكان لهذا الخلاف فضل ، إذ جعل جزيرة العرب معسكرين اثنين بعد أن كانت المعسكرات بعدد القبائل .

وجدت فى الدعوة الإسلامية نقطة ارتكاز ، قوامها الرسول وطائفة معه قليل عددها قوىّ إيمانها ، تدعو دعوتها فى سلام ، وكل وسائل إقناعها الحجة والبرهان ؛ ماذا تغنى اللات والعزى ، وما يغنى التكاثر بالمال والبنين ، وما الفخر بالنسب إلى نحو ذلك ؟!

ولكن القوم خرجوا من مقارعة الحجة بالحجة إلى مقارعة الحجة بالسيف ، فالرسول يضطَهد ، والمؤمن يعذَّب والدعوة تُكبت .

فلا بد — إذن — من مقابلة القوة بالقوة ، والسيف بالسيف ، والحرب بالحرب ؛ فاتسعت الدائرة ، وأصبحت العقيدة الجديدة تحميها القوة المادية بجانب القوة الروحية ، ويتمثل جيشها فى المهاجرين والأنصار ؛ كما احتمت العقيدة القديمة بالقوة ، وتمثل جيشها فى صناديد قريش . ووجد مركزان للفريقين : «المدينة» للمسلمين و«مكة» للكافرين .

إذن لابد من الدعوة ، ولابد من القوة تحمى الدعوة .

وظلت القوتان تتقاتلان نحو عشر سنوات انجلت عن نصرة الإسلام وتوحُّد جزيرة العرب تحت لوائه ، تدين كلها بدين واحد ، وتؤمن بعقيدة واحدة ، وتخضع لنظام واحد ، ويدوّى فى أرجائها كلها : لا إله إلا الله .

لم يكن السيف وحده هو القوة الفعالة ، فقد كان سيف أعدائه أقوى من سيفه ، ولا كانت القوة المادية وحدها هى العاملة فى هذا التوحيد ، وإنما كانت هناك خطط توضع بعيدة الغرض صحيحة القصد ، تعين على الوصول إلى هذه النتيجة ، فما هى ؟!

أول كل ذلك تعاليم الدين نفسه ، فاتحاد الغرض ، وهو إعلاء كلمة الله الذى يتمثل فى اتحاد القبلة وتوجّه المسلمين كلهم جهة واحدة ، جعلهم قلباً واحداً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ؛ ثم ضمّ الآخرة إلى الدنيا فى الحساب جعل الحياة رخيصة فى سبيل المبدأ ، فهو يجاهد بكل قلبه وبكل قوته ، فإن عاش عاش سعيداً ، وإن مات فهو أسعد ، فالتضحية العظيمة فى النفس والمال اتحدت مع الأنانية فى سعادة باذلها ، فإذا دميت الإصبع قال قائلهم :

ما أنت إلا إصبع دميتِ وفى سبيل الله ما لقيتِ

وإذا ذهب المال قال صاحبه : «إن المال عرض زائل» .

وإذا أشرف على الموت فى الجهاد تمثل بقول الشاعر :

لبِّثْ قليلا يلحق الهيجا حَمَلْ

لا بأسَ بالموت إذا الموت نزل

ثم قيادة حكيمة حازمة رحيمة ، لا تضحى جندها لخيرها ؛ ولكن تضحى نفسها وجندها لعقيدتها ؛ ولا تسخّر جيوشها لتجلس على أكداس غنائمها ، وإنما غنائم الجيش له وللمسلمين ، وقائدهم أحدهم ؛ ثم قوة فى القيادة عظيمة علمت عظمتُها الجنود كيف يطيعون ولا يختلفون ، فلكلٍ مركزه كما رسمه القائد الأعلى ، ولو كان عمر فى جيش أسامة ،

وكل يؤدى واجبه ولو أُمِّر عليه عبد حبشى كأن رأسه زبيبة .

فاتحاد الغرض وحّد القلوب ، ووحّد بين الرئيس والمرءوس ، ووحّد فى التضحية بين القائد والجندى ، فأصبحت جزيرة العرب واحدة ، لأن كل شىء فى إدارتها كان يرمى إلى التوحيد — الفرص متكافئة لكل رجل ، ولو كان من أوضع قبيلة ، ليتفوق بحسن عمله ؛ ومَن بلال ومن صُهيب ، ومن سلمان الفارسى ، لولا تعاليم الإسلام بإهدار الدم والجنس والقبيلة ، والمناداة بأن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ !

ليس هناك نظام للطبقات تؤسس على الغنى والفقر ، ولا طبقات تؤسس على الفروق بين الحاكم والمحكوم ، ولا طبقات تؤسس على الدم والحسب والنسب ؛ بل كلٌّ يقوَّم بعمله ، و « رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه » . وراء المادة روح ، ووراء العمل قلب ، ووراء الأعمال الظاهرة بواعث نفسية ، وأمام كل مسلم غرض هو إعلاء الحق وكلمة الحق وتطهير النفس ؛ وهذا الغرض الواحد أمام الجميع يوحّد الأعمال ، وإن اختلفت مظاهرها .

ثم هذا الإسلام ، وهذا محمد ينادى بالأخوة فى العقيدة ، ويعمل عليها وينشرها فى جو الجزيرة العربية ليستنشقها كل مسلم — إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم — المسلم أخو المسلم — المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى — المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس — المؤمن أخو المؤمن يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه . وهكذا — ومنذ أن ظهر الإسلام ومحمد يؤاخى بين الصحابة ويراعى فى ذلك مزاج المتآخين ؛ وعدم الفروق المالية والقبلية ، فهذا مكّن لهم فى تعاطفهم وتوحدهم أخوةٌ بين الفرد والفرد ، وبين القبيلة والقبيلة ، وبين الفرد والحاكم ، وبين الرجل والمرأة ، حتى كادت الأخوة تكون شعار الدين .

ثم القرآن وحّد اللغة كما وحد الدين ، فضعفت اللهجات الأخرى غير لهجة قريش ؛ وماجت الجزيرة العربية بأهلها فى الحرب وفى السلم ، وكثر تقابلهم وتحادثهم وامتزاجهم ، وكثرت تلاوتهم للقرآن والحديث ، فإذا اللغة متحدة أو متقاربة كالدين .

لقد تسلم « محمد » جزيرة العرب وهى « أقطاع » تقتطع كل قبيلة منها قطعة تستقل بها ، وخلّفها أمة واحدة فى دينها وفى لغتها وفى غرضها ، تخضع لنظام واحد وتشريع واحد ، وليس هذا بالأمر اليسير ؛ فتوحيد بلاد الفرس فى أمة أو بلاد الرومان فى أمة ، أيسر ألف مرة من توحيد سكان جزيرة العرب فى أمة ، لبعد ما كان بين بعضهم وبعض فى الأرض وفى النفس ، ولأنهم لم يخضعوا لنظام سابق ، ولم يمرنوا على الخضوع لحاكم ولا لإطاعة أحد غير شيخ القبيلة ، وكل واحد منهم ملك فى نفسه معتز بدمه وعصبيته وأنفته وإلهه ، فتوحيد أشتات كهؤلاء وجعلهم أمة فيها كل خصائص الأمة معجزة المعجزات ، وصدق الله إذ يقول : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

وقد أعلن (محمد) فى خطبته فى حجة الوداع الأسس التى بنى عليها توحيد العقيدة ، وتوحيد الجزيرة ، وكيف وصل إلى الغرض ، ففيها :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

« إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم » .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » .

« إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه » .

« إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« اتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً » .

هذه هي وحدة العقيدة ، وهذه هي الأخوّة !! ثم أعلن هدم نظام الطبقات من أساسه ، فلا ربا ، لأنه يساعد على نظام طبقات من غني وفقير ؛ ولا ثأر يحسب ، لأنه يعين على تأسيس طبقات على أساس الدم ، فقال :

« إن ربا الجاهلية موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون .

« وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السّدانة والسقاية » .

ثم أشاد بهذا النظام الذي أسس على هذه المبادئ وأوجب التمسك به : « لا ترجعُنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده » .

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه » .

فالتوحيد أول كلمة في الإسلام وآخرها ، وأول عمل من أعمال الرسول وآخره .

***

لقد رمى الإسلام أن يوحّد العالم بعد أن وحد جزيرة العرب ، وما الذي يمنع من ذلك ؟ إن رب العرب رب العالمين ، ورب السماء والأرض ورب الطبيعة كلها — فلو عبد الناس كلهم ربهم الحق لتوحدوا في العقيدة ، وأصبح العالم وحدة ، وما يمنع الناس أن يؤمنوا بهذه العقيدة إلا دين انحرف عن القصد ، وربانيون تجار ، وملوك يحتفظون بملكهم ، فيجارون شعور شعبهم وسلطة ربانيهم .

إن الإسلام مرتبط بالطبيعة أشد ارتباط ، يذكّر دائماً بالنظر إليها والعبرة فيها والاستدلال منها على خالقها ، فيدعو إلى التفكير في السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، والأرض كيف سطحت ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض ، والشمس والقمر يتعاقبان ، والبحار والأنهار تجري بأمره ، فاذا يحول بين الناس وبين خالقهم في كل بقعة من بقاع الأرض أن يفكروا فيعبدوا الله وحده خالق هذا الكون ومبدعه ؛ اقرءوا إن شئتم : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها » .

ثم هذا الإسلام يؤمن بكل ما أتى به الأنبياء من قبل ، من آدم إلى عيسى ، ويعظمهم ويمجدهم ، ويرى أنهم رسل كمحمد ، وأن الله الذي أرسله أرسلهم ، وأن دعوته ودعوتهم واحدة عمادها التوحيد وعدم الشرك ، ومن آمن بدعوتهم صحيحة كان كمن آمن بدعوة محمد : « ولقد أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، « إن الذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالأساس واحد كما أن إله الجميع واحد ؛ وما فرّق بين الناس إلا الأغراض والشهوات ، وحب الدنيا وحب الرياسة : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » ، فلم لا يزول هذا الخلاف في العقيدة ، وتتحد عقيدتهم كما توحد خالقهم ؟

هذا جانب العقيدة . أما الجانب العملي في الحياة فكذلك ؛ أليس من الخير أن يسود الناسَ العدل فلا يكون ظلم ، ويُعلّى شأن الفرد فلا تكون عبودية ، وتكون الحكومة للفرد لا الفرد للحكومة ، ويسوّى بين الناس ، فلا يُقوّم الرجل إلا بعمله ؟! فما بال من حول جزيرة العرب من فرس وروم وأحباش تسوء حالة رعاياهم ، فغنى مفرط بجانب فقر مفرط ، وإسراف حكام في الملاهي والملذات على حساب الشعوب ، وطبقات عالية تستولي على الخيرات ولا تترك للطبقة الدنيا إلا الفتات .

ما بال العالم لا تتوحد قواعده الأساسية في الحكم كما توحد في العقيدة ، فيكون عدل مطلق ، وحرمة للرعية

دقيقة ، وأمن شامل ، ونظام شامل ، وأخوة شاملة ، وإهدار للجنسية ، فلا عرب ولا روم ، ولا فرس ولا أحباش ، ولكن خلق الله يتآخون أفرادا ويتآخون أمما ، وتحل الإنسانية محل الجنسية ، وعبادة الله الحق وحده محل الآلهة المصطنعة المتعددة ، فيكون توحيد في العقيدة ، وتوحيد في العمل ، وتعاون في العالم ؟!

على هذا الأساس أرسل محمد (ص) كتبه إلى ملوك العصر المجاورين للجزيرة : هرقل عظيم الروم في الشام ، والمقوقس في مصر ، وكسرى في فارس ، والنجاشي في الحبشة ، يدعوهم إلى التوحيد ، فإذا وحّدوا توحد العالم .

يقول في هذه الكتب التي أرسلها للنصارى منهم : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

ففي العقيدة الأولى الدعوة إلى الوحدانية ، وفي الثانية الأخوة وهدم الطبقات . ثم في كل الكتب يحمّل الملوك تبعة الرعية ، ففي استطاعتهم قبول الدعوة ، وإذا رفضت فالإثم عليهم لأنهم يعوقون حظ أنفسهم ؛ ففي كتابه إلى هرقل : « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين(١) » ، وفي كتابه إلى المقوقس : « فإن توليت فعليك إثم القبط » ، وفي كتابه إلى كسرى : « فإن أبيت فإنما إثم المجوس عليك » .

ولكن أنى يلبّي هؤلاء الملوك الدعوة ومقياس الأشياء عندهم المظهر لا المخبر ؛ فكيف يجرؤ عربي بدوي في الصحراء ملتف بإزاره أن يدعو من يغرق في الترف ، وينعم في الحضارة ، ويرفل في الدمقس وفي الحرير ، ويسير في الجنود والبنود ، ورث الروم في مدنيتهم ، أو الفرس في عظمتهم وفخفختهم ؟! بل كيف يلبون الدعوة ، وهي تدعو إلى إزالة الفوارق ومساواة السيد بالعبد ، والراعي بالرعية ، والحاكم بالمحكوم ، وتلغي الطبقات وهي عماد الدولة في نظامها وتشريعها وماليتها وكل شيء فيها ؟!

لا ! لا ! مزّقوا الدعوة احتقاراً ، أو ردوا الرسول محملا ببعض الهدايا استخفافاً .

وهكذا صدوا عن أسمى فكرة ، وهي التوحيد في العقيدة والعمل ، والصقوا بالتقاليد في التعديد في العقيدة والعمل .

فلما لقي محمد ربه ، نفذ بعضَ الخطة خلفاؤه .

* * *

أما بعد ؛ فلا يصلح آخر الدين إلا بما صلح به أوله ، كان التوحيد هو الأساس ولا يزال هو الإصلاح . كل تعاليم الإسلام باقية ، ولكن فقدت روحها ، واحتفظت بجسمها ، ولكن ضعفت حرارة قلبها — قد كانت عقيدة « لا إله إلا الله » تعني توحيد المعبود ، فأصبحت الآلهة متعددة عملا ، وإن اتفق التوحيد لفظا ؛ فالمال معبود ، والسلطان معبود ، والشهوة معبودة ، والدنيا معبودة ؛ فلا بد أن تكسر هذه الأصنام آخراً كما كسرت أولا — وكان هناك توحيد في العمل ، فالقيادة واحدة ، والنظام واحد ، والرأي — بعد الشورى — واحد ، فإذا كل رأس رأسٌ قائد ، وكل متكلم زعيم ، وكل زعيم مستبد ، وحب الشهوة يلعب ، والأنانية تلعب ، والدسائس للتفريق تلعب ؛ وكان في الإسلام أخوة تبعث الحب ، والحب يوثق الصلة ، فإذا العداوة في كل جو ترضع مع اللبن ، وتتنفس مع الهواء ؛ ولم تكن هناك طبقات فتعددت الطبقات من كل جنس ، على أساس الدم والمال والمنصب والسياسة ؛ وعلى الجملة ، فكل دعوة إلى التوحيد تقابل بألف مشكلة من أنصار التعديد ، وكل تعديد فرقة ، وكل فرقة ضعف ، وكل ضعيف عرضة لأن يلتهم ، ولا عظة بالتاريخ ، ولا عبرة من أحداث الزمان ، فيالله للمسلمين !!

أحمد أمين

(١) الأريس : الأكار والفلاح ، رومية الأصل .

العالم العربي

بين عامين

نقف اليوم بين عامنا الداثر وعامنا المقبل ، نتأمل في أمس وما اشتمل عليه من أحداث وعبر ، ونحدق أمامنا نحو المستقبل لكي نستجلي محياه من بين السحب التي تواريه وتحجبه . نفكر في ماضينا القريب وما أصابنا فيه من خير وضير ، ونعض الأصابع على فرص تركناها تمر ونحن عنها لاهون ، وأخرى انتهزناها وجنينا منها خيراً قليلا ، وكنا نستطيع أن نجني منها خيرات كثيرة ؛ وانتهاز الفرص مقياس يقظة الشعوب وحيويتها .

إن البناء الضعيف قد يظل قائماً متماسكا ، لأن الهواء راكد والريح رخاء والأحداث هادئة ، فيخاله الذي ينظر إليه كأن فيه بقية من قوة ، حتى تزعزعه النكباء ، وتمزقه العواصف شر ممزق . ونحن في زمن تعصف عواصفه بمنتهى الشدة والعنف ، ولا بقاء فيه إلا للبنيان الراسخ القواعد ، المتماسك الجدران ، المتين الأركان ، القوى الدعائم ؛ وليس يكفي البنيان أن تكون أحجاره طاهرة ، وتربته نظيفة ، بل لابد لهمن أن يكون قويا متيناً ، وما يكفي بنيان العالم العربي أن تكون شعوبه عفيفة لطيفة ، طاهرة الذيل ، صادقة الوعد ، محافظة على العهد ؛ كل هذا حسن وجميل ، ولكنه قليل الغناء إذا أريد للعالم العربي الحياة والبقاء . ولكي يبقى ذلك البنيان لابد لتلك العفة أن تدعمها القوة ، ولذلك الإخلاص أن يعززه الخلق المتين .

لست أريد — ونحن بين هذين العامين — أن أسرف في التجني أو أغلو في التشاؤم ، فأزعم أننا في عامنا الماضي كنا متخاذلين متواكلين ، بل إني — على العكس — أرى أن ما في سجل العالم العربي في العام المنصرم من مظاهر التضامن والتضافر لحقيق بأن يقوى الأمل في تعاون أقوى ، واتحاد أوثق . بل قد نذهب إلى أبعد من هذا ونقول إن ما بدا بين الشعوب العربية من الإخاء في العام الماضي قد يكون أقوى وأوضح مما كان في أي عام مضى . وإذا وقفنا اليوم نوازن بين ما خسرناه وما كسبناه ، وبين ما أدركنا وبين ما فاتنا ، وبين ما حصلنا وما أفلت من أيدينا ، لوجدنا أن الميزان من غير شك في صالح العالم العربي . ولكنا إذا رضينا من هذه النتيجة نكون كمن يرضى بالكفاف وهو في حاجة إلى الغذاء الطيب ، وكمن يقنع بالجرعة وهو يتحرق عطشاً .

إننا نشاهد اليوم مظهراً رائعاً للاتحاد تمثله لأعيننا تلك « الأمم المتحدة » التي تخوض غمار الحرب اليوم ضد عدوها المشترك . وهذه الأمم المتحدة أمرها عجب أي عجب ، ففيها الروس والشعوب المتضامنة مع الروس على اختلاف ضروبهم وأشكالهم ؛ وفيها الصقالبة الآخرون مثل البولنديين والتشيك والسلوفاك ؛ وفيها سكان ألبانيا ورومانيا ؛ وفيها أهل الصين والهند ، وسكان فرنسا وبلجيكا ، والدولة البريطانية بكل ما تحتويه من أمم وشعوب ؛ وفيها الأمريكيون من وسط القارة وجنوبها وشمالها . . . وصفوة القول إن هذه الأمم المتحدة تشتمل على شعوب وأجيال من الخلق ، من جميع الصور والأشكال ليس من السهل عدها ، تتمثل فيها جميع الأجناس البشرية ، وعدد هائل من مختلف اللغات والثقافات .

وفوق هذا كله فإن هذه الأمم المتحدة تمثل أوطانا متباعدة تفرق بينها البحار والجبال والصحارى والمحيطات الواسعة ، أوطانا موزعة مبعثرة في جميع أنحاء الأرض ، مختلفة الهواء ، متعددة الأجواء ، ولم يقم شيء من هذا كله حائلاً دون الاتفاق والاتحاد وإنشاء أكبر تعاون دولي عرفه التاريخ البشري .

فكيف يجوز أن تقوم العقبات دون إنشاء اتحاد الأمم العربية ، وهي التي تحتل أوطانا متجاورة ، وتتحدث بلسان واحد ، وتتأدب بأدب واحد ، بل وتجمع بينهم إلى حد بعيد أواصر الدم وقرابة النسب ؛ وطالما كان بينهم تعاون في الحكم السياسي وفي الصلات الاقتصادية ؟! كان من الجائز بعد هذا كله ، أن يطول الحديث ويكثر اللجاج حول الوحدة العربية : ماهي وما معناها ، وعلى أي مثال ينبغي أن تصاغ ؟

لا شك أن أحاديث الوحدة العربية ، والمشاورات التمهيدية التي سبقتها ، قد استغرقت زمنا طويلا ما كان ينبغي لها أن تستغرقه ، وكانت دائما محاطة بسياج من الحذر والاحتياط ، والتريث والتمهل — وفي التأني السلامة وفي العجلة الندامة . ولا شك أن التمهل حسن جميل ، لو أن أحداث الزمان تتريث معنا ، وتتمهل كما نتمهل ؛ ففي الدهر أوقات تمشي فيه الحوادث الهوينى وتمر على مهل ؛ وفيه أوقات تمضي فيه الحوادث عجلة مسرعة لا تعرف الريث ولا الأناة ، وهناك يمر قطار الزمان مر السحاب ، فكيف يريد أن يلحق به من يمشي مشي السلحفاة ؟!

لقد تفاءلت شعوب العالم العربي تفاؤلا واسعا ، عند ماشهدت موقف حكوماتها من حادثة لبنان ، والاعتداء على استقلال لبنان ، وملأ قلوبنا الإيمان بأن حكوماتنا قد بلغت من اليقظة مبلغاً يبعث على الأمل بأن هذا التعاون الوقتي سيتخذ صورة البقاء والدوام ، بفضل ما تنويه تلك الحكومات من إقامة نظام تعاوني دائم فيما بينها . ولكن « المشاورات التمهيدية » التي أجريت بعد ذلك استغرقت عاماً كاملاً ، ثم اجتمعت بعد ذلك « اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي » في سبتمبر الماضي في مدينة الإسكندرية ؛ ولا بد بعد ذلك من اجتماع لجان عديدة ، ثم تعود اللجنة التحضيرية إلى الانعقاد مرة أخرى ، تمهيداً لدعوة المؤتمر العربي العام ، الذي يقر الإجراءات ويوافق على الخطط التي رسمت ؛ ويبدأ نظام التعاون يتخذ صورة عملية . هذه كلها خطوات جميلة مفيدة ، وستؤدي إن شاء الله إلى نتائج طيبة . وكل ما هنالك أننا نبتهل إلى الله ألا تعجلنا الحوادث وتدهمنا الخطوب ، قبل أن نفرغ من هذه الإعدادات والتمهيدات .

***

وبعد ، فلا بد مع هذا كله من التسليم بأن اجتماعات اللجنة التحضيرية كان حادثا عظيما في تاريخ التعاون بين الشعوب العربية . وبفضل هذا الحادث امتاز العام المنصرم على الأعوام التي سبقت . وفي الجزء المتبقي من هذا المقال لا بد لنا أن نلخص القرارات الخمسة التي اتخذتها تلك اللجنة مع نقدها نقداً رفيقاً بقدر ما يتسع له المقام .

فالقرار الأول قرار بإنشاء « جامعة الدول العربية » — وهو اسم وفق إليه المؤتمرون خير توفيق — ولهذه الجامعة مجلس تمثل فيه الدول العربية على قدم المساواة ، فلا يكون لعضو فضل على عضو إلا بما يبديه من رأي سديد ، أو ما يؤديه من خدمة ممتازة للجامعة .

وهذا المجلس الذي قررت إنشاءه اللجنة التحضيرية سيكون بلا شك هو الأداة الرئيسية في التعاون بين الدول العربية ؛ فهو الذي يقضي فيما يشجر بينها من خلاف ؛ وهو الذي يستخدم نفوذه — أي نفوذ الدول العربية مجتمعة — في أي خلاف خارجي مع إحدى الدول غير العربية ؛ وهو حلقة الاتصال الدائم المنتظم بين الأقطار العربية ؛ وهو — فوق هذا كله — الوسيلة التي تمكن الدول العربية من تنسيق خططها السياسية ، تحقيقا للتعاون فيما بينها ، وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء — بالوسائل الممكنة . . .

ولا شك أن هذه الفقرة من قرارات اللجنة صريحة

جداً في تأكيدها بأن من أهم ماتعنى به جامعة الدول العربية صيانة استقلال وسيادة كل قطر عربي . ولكن لا بد لنا أيضاً أن نلاحظ بأن هنالك فقرة أقل قوة من هذه ؛ وهي التي تنص على أن قرارات المجلس ملزمة فقط للعضو أو للأعضاء الذين يقبلونها ... وهذا يجعل الباب مفتوحاً لأن تشذ دولة أو أكثر على قرار اتخذه المجلس ...

والذي نرجوه أن هذا الشذوذ — إن صح من الوجهة النظرية — فإنه لن يصح من الوجهة العملية . وربما لم يكن بد من أن يصاغ النص في المرحلة الحاضرة في شيء من المرونة . وكأن اللجنة التحضيرية قد أحست بذلك ، ولهذا نراها في قرارها الثالث تنص على تدعيم الروابط بين أعضاء الجامعة العربية في المستقبل . . .

كذلك لم تنص اللجنة التحضيرية على مكان انعقاد هذا المجلس ، ولا على مواعيد اجتماعه ، أو غير ذلك من التفاصيل ؛ بل ترك هذا كله إلى « لجنة فرعية » تؤلف « في وقت قريب » من بين أعضاء اللجنة التحضيرية أنفسهم . .

ولا بد لنا من أن نخص هذه اللجنة الفرعية بالذكر ، لكيلا يضيع ذكرها وسط اللجان الأخرى . فعلى الرغم من اللجان الكثيرة التي ستنشأ فيما بعد ، فإن هذه اللجنة تختلف عنها بأنها ستنشأ « في وقت قريب » . وهي أهم اللجان جميعاً ، لأنها هي التي ستضع نظام مجلس الجامعة ، كما أنها ستبحث « المسائل السياسية » التي يمكن أن ينظر فيها هذا المجلس ، والتي يجوز أن تعقد بشأنها اتفاقات بين الدول العربية . .

***

٢ — ذلك هو القرار الأول — وهو من غير شك أهم قرارات اللجنة التحضيرية كلها . أما القرار الثاني فينص على التعاون بين الدول العربية في شئون الاقتصاد والثقافة والاجتماع وغيرها ؛ وهي كلها عبارة عن ستة شئون ، تؤلف لها ست لجان من الخبراء في كل طائفة من المسائل ، لكي تدرس النواحي المختلفة للتعاون الوثيق في جميع هذه الشئون ، والوسائل التي تساعد على تحقيقها ؛ كما أن هنالك لجنة أخرى لتنسيق أعمال تلك الجامعة ، وتكون بمثابة حلقة اتصال بينها . . .

وعند ماتنتهي جميع هذه اللجان من أعمالها ، وتتخذ قراراتها وتصوغها صياغة معقولة مقبولة ، تدعى اللجنة التحضيرية مرة أخرى للاجتماع تمهيداً لعقد المؤتمر العربي العام . ومعنى التمهيد هنا أن اللجنة التحضيرية ستتناول قرارات اللجان كلها بالبحث والتمحيص حتى تقرها جميعاً ، قبل أن تتخذ الخطوات اللازمة لعقد المؤتمر العربي العام ، الذي يبت في وضع هذه القرارات جميعاً موضع التنفيذ .

٣ — أما القرار الثالث — من قرارات اللجنة التحضيرية — فهو — كما ذكرت من قبل — يعبر عن أمل الأعضاء في تدعيم الروابط بين البلاد العربية ، بخطوات أخرى تتخذ في المستقبل ، ولم يكن بد من أن يوجد مثل هذا النص ، لكي تطمئن قلوب الذين يطمعون في أن يكون التعاون بين الأمم العربية أقوى وأمتن .

٤ — أما القرار الرابع : فكان خاصاً بلبنان ، ذلك القطر العربي الجميل ، الذي يتمتع سكانه منذ زمن طويل بنصيب وافر من الاستقلال . وربما كان هنالك أشخاص يخشون — أو يتظاهرون بأنهم يخشون — أن التعاون بين الدول العربية قد يمس الاستقلال من قريب أو بعيد ؛ لذلك رأت اللجنة أن تطمئن الخواطر وتقضي على عبث العابثين ، بأن تعلن احترام الدول العربية جميعاً لاستقلال القطر اللبناني بحدوده الحاضرة .

[البقية على صفحة ٤٠]

محمد بن الأحمر

مؤسس مملكة غرناطة

يعرض لنا تاريخ الأندلس (أسبانيا المسلمة) منذ قيام الدولة الأموية ثلاث مراحل تمتاز كل منها بمميزات خاصة، الأولى مرحلة القوة والتفوق، أعنى تفوق الدولة الإسلامية على أسبانيا النصرانية؛ والثانية مرحلة الفوضى والكفاح خلال عصر الطوائف والمرابطين والموحدين؛ والثالثة مرحلة الضعف والانحلال أيام مملكة غرناطة وهى مرحلة الكفاح الأخير. ومن الغريب أن هذه المراحل الثلاثة تكاد تتساوى فى مداها الزمنى، إذ تمتد كل منها زهاء قرنين ونصف؛ فقد عاشت الدولة الأموية منذ سنة ١٤٠ هـ إلى أواخر القرن الرابع، وامتدت دول الطوائف وسيادة المرابطين والموحدين منذ أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن السابع، وعاشت مملكة غرناطة منذ سنة ٦٣٥هـ إلى سنة ٨٩٧هـ (١٢٣٨ — ١٤٩٢ م).

وقد كان شبح الفناء يهدد الأندلس منذ انحدرت إلى غمر التفكك والفوضى، عقب انهيار الدولة الأموية وقيام دول الطوائف الصغيرة يقاتل بعضها بعضا، والعدو المشترك أعنى أسبانيا النصرانية، يتربص بها ويؤلب إحداها على الأخرى ليسحقها تباعا؛ ولم ينقذ الأندلس فى تلك الآونة العصيبة من الفناء سوى مقدم المرابطين إلى الجزيرة استجابة لصريخ أمراء الطوائف، وانتصارهم فى موقعة الزلاقة الشهيرة على النصارى (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م). وقطعت الأندلس فى ظل المرابطين وخلفائهم الموحدين حقبة مضطربة مليئة بالكفاح والحروب الأهلية، ولكن عناصر القوة والتكافؤ كانت فيها سجالا بين المسلمين والنصارى.

ولما انهار سلطان الموحدين فى الجزيرة عاد شبح الفناء يهدد الأندلس مرة أخرى، وأخذت قواعدها العظيمة الباقية: قرطبة، وبلنسية، ومرسية، وإشبيلية، تسقط تباعا فى يد أسبانيا النصرانية. ولكن عناصر الاضطراب والفوضى أخذت تتمخض هذه المرة عن ظاهرة جديدة من التجمع والاستقرار، وأخذت عناصر القوة والتماسك تجتمع رويدا فى الركن الغربى الجنوبى من الجزيرة، لتكون مهدا لمولد مملكة إسلامية جديدة، هى مملكة غرناطة. وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة يرجع إلى عوامل تاريخية وجغرافية واضحة؛ ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير، آخر الحواجز الطبيعية بين أسبانيا النصرانية وبين الأندلس، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها. وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر، إلى عدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد القوت والعون من إخوانها فى الدين. وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها، ابن الأبّار القضاعى، حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٦ هـ؛ وكان الصريخ موجها من أميرها ابن زيان إلى أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية (تونس)، وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى الذى لبث أحقابا يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب؛ وقد كان يتمثل واضحا كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ولاح لها شبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قويا رهيبا.

— ٢ —

ويرجع الفضل فى قيام مملكة غرناطة التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلا آخر ، إلى عبقرية رجل متواضع ولكن يفيض ذكاء وعزما ، هو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، سليل بنى نصر ؛ وهم فى الأصل سادة حصن أرجونه من أعمال قرطبة ، ويُرجعون نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية ، فلما ضعف أمر الموحدين ، وخرج عليهم محمد ابن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل ، وأخذ ينتزع منهم القواعد والثغور تباعا ، رأى بنو نصر الفرصة سانحة للظهور على مسرح الحوادث ، ونهض كبيرهم محمد بن يوسف ابن نصر لمعارضة ابن هود فى جنوبى الأندلس ، ودعا للأمير زكريا صاحب إفريقية ، وأطاعته جيّان وشريش ومالقة من القواعد الجنوبية (سنة ٦٣٠هـ) . ولما لاح أن الأمر قد استتب لابن هود ، واستولى على غرناطة ، وجاءته موافقة الخليفة العباسى على دعوته ، لم ير محمد بن يوسف (ابن الأحمر) بأساً من مصانعته والانضواء تحت لوائه ، وجاهر بطاعته . ولكن ابن هود لم يلبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥هـ ، فانهارت دولته بسرعة ؛ وعندئذ بادر ابن الأحمر بالاستيلاء على المرية من يد حاكمها من قبل ابن هود . ثم استولى على غرناطة بدعوة من أهلها فى رمضان سنة ٦٣٥هـ (أبريل سنة ١٢٣٨م) وجعل بها مقر حكمه ، وقاعدة سلطانه .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة من غمر الفوضى التى سادت الأندلس عند انهيار دولة الموحدين ، ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد . وكان ابن الأحمر يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة . وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولا سيما فى الجنوب ؛ ولكن أصاغر الزعماء والحكام كانوا يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وكان فرديناند الثالث عشر ملك قشتالة يرى فى ابن الأحمر زعيم الأندلس الحقيق ، والخصم الذى يجب تحطيمه ؛ فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر ، واستولى النصارى على حصن أرجونه وعدة أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة ذاتها (٦٤٢هـ — ١٢٤٤م) ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفى العام التالى زحف النصارى على جيّان وحاصروها حتى كادت تسقط فى أيديهم ؛ فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره وقدم إليه طاعته ، واتفق على أن يحكم أراضيه باسمه وفى ظله ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، وتعهد بمعاونته فى حروبه ضد أعدائه ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وسلم إليه قلعة جيان رهينة بحسن طاعته . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وارتضى ابن الأحمر أن يضحى استقلاله مؤقتا احتفاظا بأراضيه ، وحتى تتوطد دعائم إمارته ، وعاون النصارى فى محاصرة إشبيلية والاستيلاء عليها تنفيذاً لعهده (٦٤٦هـ) . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر فى تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم فى الدين احتفاظا بالملك والسلطان .

ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم راغما إنقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس كلها تحت لوائه ، وإدماج ما بقى من تراثها وأراضيها فى مملكة موحدة تكون ملكا له ولعقبه . ولم تكن محدوده

الشيخ الخراسانى

كانت دمشق تضطرب بما فيها من مؤامرات سياسية منذ عشرات السنين . كان بيت الملك نفسه مهدا للدسيسة ، يطمع كل فرد فيه أن يصبح يوما خليفة . وأرسل إبراهيم ابن محمد العباسى إلى دعاته فى خراسان أن يوافوه فى موسم الحج بمكة ليدبروا معا كيدهم للدولة الغاشية .

وأرسل أبو مسلم إلى أصحابه المبثين فى أنحاء الدولة الفسيحة أن يجتمعوا به على موعد ليحملوا ما اجتمع عندهم من المال للإمام إبراهيم بن محمد ، لعله يستعين به على محاربة الدولة التى شردت الأحرار ثم عاد أصحابها بعضهم على بعض يتعاونون .

وسار أبو مسلم إلى موعده ، وكانت السحب تجر أذيالها على رؤوس الجبال — جبال خراسان الشاهقة — تتدافع فى عنف مع الرياح الثائرة من الجنوب ، تثب قدما فى حنق كأنها زاحفة إلى قتال عماليق تصعدها فى أطباق السماء ، وكان الثلج الأشهب يغطى القمم والسفوح والوديان ، لا تظهر من تحته صخور إلا أن تكون قطعا مدببة مثل أسنان الشياطين .

وسارت القافلة تتقلع ثقيلة ، والبغال تغوص بحوافرها فى الثلج المتراكم ، وتتحسس مواطئها فى حذر . وكان الركب يختلج فوقها متجمعا فى ثياب من الفرو ، وقد انعقدت من أنفاسه خيوط بيضاء فوق الشوارب واللحى فإذا أخرج أحدهم يده ليمسحها دسها مسرعا فى ثنايا ثوبه ، حاذرا أن يقرسها البرد فتيبس ويجمد الدم فى عروقها .

ثم ظهرت الشمس من خلال السحب المطأطئة ، فنفذت منها أشعة صفراء مترددة ، تهبط على بياض الأرض ثم ترتد عنها إلى عيون الركب تكاد تعشيها ، ولكنها أدخلت إلى القلوب شيئا من الدفء مع ذلك . فالتفت الشاب

رغبة فى توسع يحمله إلى الأبد أسيرا لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف ، بل كانت تحدوه قبل كل شىء ، رغبة فى الاستقرار والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة ؛ ومن ثم كانت مسالمته للنصارى ومهادنتهم فى البداية . وكان جريا على السياسة الأندلسية المأثورة يستمد عون ملوك العدوة ويوثق معهم أواصر المودة ؛ فلما آنس فى نفسه مقدرة على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم ، لم يحجم عن مخاصمتهم ومحاربتهم . واستجاب لنصرته حلفاؤه بنو مرين وغيرهم من ملوك المغرب وأمدوه بالجند ، وظهرت الأندلس على عدوها فى ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين ، واستطاع ابن الأحمر أن يهزم النصارى حينما غزوا أراضيه فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م) .

وكان ابن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام وشغف الجهاد والقدرة على التنظيم ، والبراعة السياسية ، وكان يلقب بالشيخ ويعرف بأمير المسلمين ، وهو الذى أنشأ حصن الحمراء الشهير لإقامته . ولما توفى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) كانت مملكة غرناطة الصغيرة قد توطدت دعائمها نوعا ، واستقر بها ملك بنى الأحمر الفتى على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم ، ولما لم تشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية جديدة . وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس زهاء مائتين وخمسين عاما أخرى .

محمد عبد الله عنان

الذى فى صدر القافلة إلى من يليه وقال له :

— إنها البشرى يا أبا شيبب .

فنظر إليه الرجل كالمستفهم . فقال أبو مسلم :

لقد جبت خراسان بعيدها وقريبها يا قحطبة . أعرف فجاجها وشعابها ، لا يغيب عنى شىء من أرضها . لقد بلغنا طرف الغور !

فقال قحطبة مسرورا :

— لعلنا نجد هناك مراحا .

فقال أبو مسلم : وسترى هناك أبا الليث يا قحطبة .

فقال قحطبة : لقد سمعتك تصفه حتى حسبته وليا من الأولياء .

فقال أبو مسلم : ستراه وتسمع منه يا أبا شيبب ، لا أقول فيه وصفا فهو فوق حد الوصف . هو أمّة وحده .

وهبطت القافلة من أعلى الجبل ، وأخذ البرد يتضاءل شيئا بعد شىء ؛ وكان الغور يتداح تحت أعين الركب ويتسع كلما قطعوا جانبا من السفح المضرس ، حتى بدت خطوط ضئيلة لامعة تتلوى فى سواد ؛ ثم كأن ساحراً خيل إلى الركب منظر بستان أشمت فى ثنية واد طلع فجأة أمام أعينهم ، وكان فى البستان قبة بيضاء تلمع فى نور الشمس ، فصاح قحطبة :

— أرأيت يا أبا مسلم ؟

فقال أبو مسلم هادئا :

— عرج بنا إلى مسجد أبى الليث . وسار منعطفا فى الوادى الذى كانا عند أوله ؛ ورفع راية فوق رمحه ، ولوح بها مشيرا إلى أصحابه أن يتبعوه . ولما بلغنا المسجد دخلا فيه ، وكان عند القبلة شيخ تحيط بوجهه المجعد هالة من لجين ، بيضاء ناصعة ، وهو يلبس ثوبا من الصوف الخشن ، وعلى رأسه قلنسوة من الفرو ؛ وكان من حوله جمع من أهل الغور وهو يتحدث إليهم فى صوت خافت . ولم يرفع الشيخ رأسه ، ولم يلتفت أحد من الجلوس إلى ورائه

وجلس أبو مسلم بعد أن صلى مع صاحبه ، ثم تتابع القوم فصلوا وجلسوا والشيخ لا ينظر إليهم . وكان بين حين وحين يهز رأسه هزة كأنه يصحو من غشية ، ثم يهلل فيردد من حوله التهليل ، ويعود فيتحدث هادئا كما كان فى صوت غير مسموع . ولم يستطع قحطبة أن يفهم قوله ، فالتفت إلى أبى مسلم كالمستفهم ، فأومأ إليه ألا يرفع صوته فى السكون . ثم اهتز الشيخ هزة أخرى ، وهلل وردد من حوله التهليل ، ورفع رأسه ونظر إلى ضيوفه القادمين . فقام إليه أبو مسلم فقبل يده ؛ فلما عرفه هش له ، وفسح له فى مجلسه . وأتى أصحاب أبى مسلم فسلموا وجلسوا قريباً منه ؛ وأقبل الشيخ يحدث ضيوفه فكان لسانه يضطرب به فى غنة أعجمية دلت القوم على أنه من نبت خراسان . فاقتحمته الآذان . وعجب قحطبة من أمر هذا الشيخ الذى يزعم أبو مسلم أنه أمة وحده . وبعد حين قام القوم فتفرقوا فى أركان المسجد يلتمسون مضاجعهم بعد السير الطويل ؛ فلم يبق مع الشيخ إلا أبو مسلم فجلسا يتحدثان فى همس .

وأقبل المساء فأسرجت القناديل ، وعاد أصحاب أبى مسلم فجلسوا حول الشيخ . وكان أبو مسلم متهللاً نشطا رآه أصحابه يبسم على غير عادة ، بل لقد كان أحيانا يخف إلى المزاح ويرفع صوته فى الحديث ، وبدا وجهه فى تلك الليلة جديداً لأصحابه حتى كأنهم لم يروه من قبل — كان الشباب يترقرق فيه ، وكانت لحيته السوداء تبرز حلاوة عينيه وجمال أنفه وامتلاء شفتيه ؛ فرأوه فتى كأنهم لم يروه من قبل ؛ كانوا لا يبصرون منه إلا رجلا صارما لا يعرف إلا الجد ولا ينبسط إلا لأحاديث الحروب . وكانت هذه أول مرة خطر لقحطبة فيها أنه حديث عهد بعرسه . وأحس قحطبة نحوه عند ذلك رقة ، إذ انكشف له ظاهره المتجهم عن رجل مثل الناس له قلب ينبض بالحياة . وانبسط الشيخ تلك الليلة فى الحديث ، وأقبل عليهم يستعيد معهم أخبار السنين التى كان فيها مع الناس قبل أن يبعد إلى تلك الشعاب ؛ فجعل يحدثهم

عن نفسه حديثاً طويلا . قال : كنت من موالي الكوفة الذين طردهم الحجاج إلى القرى ، ولكني دسست إليه بعض أصحابه فأدخلني في خدمته حرسيا ؛ وكان ذلك منذ خمسة وثلاثين عاما ، وكنت عند ذلك رجلا لم أبلغ الأربعين ، قوى الساعد قاسياً طماحا . كنت أعرف أني مولى لا أمت إلى العروبة ؛ وكنت أحس في قلبي حقداً يكاد يأكله كلما رأيت السادة العرب الذين أتوا من الصحراء ينظرون إليّ وإلى أمثالي من الموالي من أطراف الأنوف . ولذلك كنت أجد في صحبة الحجاج ما يرضي حقدي على هؤلاء . كان الحجاج يثور بهم كأن في قلبه شيطانا لا يستقر حتى يحطم ؛ كان يلقي بكبار القوم في السجن ويوكل بهم من يستصفى أموالهم بالعذاب ، وكان لا يبالي أن يسفك دمهم في كل ساعة من ليل أو من نهار . كان إذا جلس على الخوان يأكل مع ضيوفه يقتل ؛ وإذا ذهب للركوب يقتل ؛ وإذا مشى في الطريق يقتل . كان يقتل في كل ساعة من الليل وفي كل ساعة من النهار !!

وكنت أراه ينظر إلى الدم وإلى الرؤوس المتدحرجة عن أجسادها وألمح اللمعة التي تبرق في عينيه . وكنت أسمعه عند ذلك يغمغم ويزمجر ، وأرى وجهه يربد وتنتفخ أوداجه كأنه وحش من الوحوش . وكنت أرى من حوله يطأطئون رؤوسهم فزعا ، ويختلسونه النظر في خشية كأنهم يريدون أن يجدوا منه غفلة فيتسللون يطلبون النجاء ، فأشعر بالبرد يدب إلى قلبي ، وأتنفس الصعداء في راحة ، وأحس السلام يملأ صدري لأني كنت أجد راحة كلما رأيت هؤلاء السادة يتألمون ويذلون ويقتلون . كان يخيل إلى كلما رأيت الحجاج أن في جوفه ناراً تعذبه ولا يجد ما يطفئها سوى منظر الدم المسفوك ؛ أو أن أفعى تكمن في صدره فتنهشه ، وكلما سرى سمها فيه طلب ما ينفث فيه ألمه من الضحايا ، أو كأن شيطانا مريداً كان يعيث في جوفه فلا يدع له سلاما ، ولا يقصر عن تعذيبه حتى يفتك بهذا الخلق الذي انحدر من صلب آدم عدوه .

وكنت مع كل هذا أندفع مع حقدي على هؤلاء السادة المتكبرين ، فلا أكاد أحس وخزة من الألم لما يقاسون .

ورفع الشيخ يده إلى جبينه فمسحه من قطرات من العرق بللته ، وأطرق قليلا . ثم قال بعد حين :

« ثم ذهبت يوما إلى مكة حاجا ، وكان معي صاحب من أهل قريتي ، أحد هؤلاء الذين أخرجهم الحجاج من البصرة وأعادهم إلى الريف ليجبي منهم الأموال كما كانت الأموال تجبى منهم قبل أن يسلموا .

وهمس لي صاحبي أريد أن ترى سعيد بن جبير ؟ سعيد ابن جبير الذي تعرفونه فقيه العراق ؛ وكان عند ذلك مستخفياً في مكة من خوف الحجاج والناس يذهبون إليه سراً . فذهبت إليه وسمعته يتكلم ؛ سمعت كلامه فذكرت الإسلام ذلك الدين القيم الذي هدانا الله إليه ، وكأني لم أعرف الإيمان إلا عند ذلك . سمعت الرجل يصف الناس ويصف الحياة ويصف العدل والإحسان ؛ وسمعت منه معنى الأخوة بين البشر ، وعرفت معنى الروح الذي لا يجهر بصوت منه فوق الأحقاد وفوق الأجناس وفوق الألوان ، فإذا بي أعود من مجلسه بقلب جديد ، وتبين لي مبلغ ما كنت فيه من الشقاء . نعم لقد كان شقاء ذلك الذي كنت أمتع نفسي به . كنت مثل الحجاج أندفع مع الداء الكامن في جوفي ، وأطيع الشيطان الذي يعيث في خفايا صدري » .

وأطرق الشيخ مليا وانحدرت الدموع من عينيه . ثم اهتز هزة عنيفة وقال بصوت مجلجل فلم يملك القوم جميعاً أن هللوا بعده . ثم عاد إلى الحديث وعاد صوته هامساً فقال :

« وعدت إلى الكوفة منكراً ما كنت أعرف . أنظر إلى المتكبر والضعيف جميعاً أنهم أخوة ، وأن الظلم يحطمهم جميعاً : يعين المتكبر على الكبرياء ، ويدفع بالضعيف إلى

قرار الهوان! فقطعت ما بيني وبين الحجاج، وأقمت في ظاهر المصر عند الجسر، وخلوت إلى نفسي أجتر كلمات ابن جبير. وعند ذلك امتلأ قلبي بالعطف على المساكين الذين يتكبرون ويأخذهم سيف الطاغية واحداً بعد واحد، وعلى الضعفاء الذين يطمئنون في الذل حتى ذهبت كرامتهم الإنسانية وماتت قلوبهم.

وكنت أسمع ما يزعمه الحجاج فأسخر وأرثى له. إن المسكين كان لا يستطيع إلا أن يكذب نفسه ليطيع شيطانه. كان زعم أنه يحارب الفتنة ويشد دعائم الدولة، وما كنت أراه إلا يحارب الكرامة ويهدم أساس الحياة. وكانت كلمات ابن جبير تتردد في أذني كأنها البلسم إذا وضع على الجرح. إن الإسلام لا يعرف دولة ولا يعرف جنسا ولا يعرف لونا، إنه يعرف الإنسان ويسوى بين الأقوياء والضعفاء. كان ابن جبير يقول: « انتظروا قليلا فسوف يعلمون ».

فكنت أترقب اليوم الذي يخر فيه بناء الظلم فتنهار الدولة التي زعم الحجاج أنه يشد دعائمها، وتنتشر الفتنة التي يحسب أنه يقضي عليها. وفي يوم من الأيام رأيت عند الجسر جمعاً يتدافع، فسرت إليه أنظر ما يكون فرأيت هناك سعيد بن جبير رأيته مقيداً والحراس من حوله يسوقونه إلى الحجاج، فساءت ظنوني وأستغفر الله مما ثار بنفسي » . وسكت الشيخ لحظة وأطرق ثم اهتز وهلل. ثم عاد الى الحديث فقال:

— وسرت وراء الجمع فزعا حزينا حتى بلغنا دار الحجاج وكان خارجا بهم بالركوب. فوقفت بعيداً خوف أن يراني، ولكني سمعت صوته بعد قليل وهو يصيح بالحرس «اضرب عنقه»، فتهالكت على الأرض ولم أقو على أن أرفع بصري نحوه. وسمعت الطاغية يبرز كمن به مس، ويصيح قيودنا! قيودنا!

منذ ذلك اليوم خرجت من الكوفة لا ألوى على شيء، حتى بلغت هـذا المكان، فأقمت فيه آمل الله يغفر لي وعاهدت ربي على أن أزلزل الطغيان وإن كان أساسه راسيا. عزمت على أن أزلزله حجراً بعد حجر.

فقال قحطبة:

— وإنك أيها الشيخ لجدير بأن يغفر الله لك.

فقال الشيخ كأنه يحدث نفسه:

— إن حبل الأمل موصول بأولادي. ولى في الله الرجاء العظيم. مازلت في هـذه الأعوام الثلاثين أنقض أساس الظلم حجراً بعد حجر، وأنا أسأل الله — إن قبلني — أن أعيش حتى أدرك صدعه وانهياره.

وأقبلت في تلك الساعة جماعة — فرفع الشيخ رأسه حتى رأى أقربهم منه، وصاح في غنته الأعجمية:

— مرحبا بك أبا مالك!

وقاموا جميعا فسلموا ثم جلسوا حول الشيخ. وأخرج أبو مالك من جيبه طومارا ومد به يده إلى أبي مسلم.

فلما قرأه صاح قائلا:

— إنها البشرى — لقد أذن لنا الإمام، أذن لنا الإمام أن نثور.

فقال قحطبة يخاطب الشيخ:

— لقد قبلك الله وغفر لك يا أبا الليث! ستصدع الظلم وسترى انهياره.

فمد الشيخ يديه المرتعشتين نحو السماء وجعل يقرأ، ثم قال بصوت متهدج:

— ليست الثورة على الظلم خيرا إذا لم يقم بعدها العدل. أتحسبون أنكم الذين زلزلتم دعائم الطغيان؟ كلا! بل هو الطغيان نفسه الذي زلزل دعائمه. أحس أن أجلي تقترب، ولعلي لا أرى كيف ينتهي الأمر بثورتكم هذه — ولكن لي نصيحة فاسمعوها. حاذروا الطغيان فهو عدو نفسه.

اقرأوا معي الفاتحة أن تمدلوا... ورفع يديه يقرأ، ورفع الجمع أيديهم يقرأون في خشوع!!

محمد فريد أبو حديد

أدب الجهاد فى سبيل الله

لاحظت — وأنا أدرس شاعر الرسول[١] (حسان ابن ثابت) فى مثل هذه المرحلة من التاريخ الهجرى منذ سنتين — تفاوتاً هائلا فى صدق التصوير وجلاله الفنى، بين بعض سور القرآن التى تناولت حروب الرسول، والشعر الذى سجّل فيه الشعراء المعاصرون لتلك الحروب ما كان فيها من كرّ وفرّ، ونصر وهزيمة. وقلت إذ ذاك: «ومما يلفت النظر فى أمر الشعر يوم بدر أنه لم يسجل جلال اليوم كما كان يجب، ولم يستمد من النواحى الرائعة التى لابست الموقف — والتى خلدتها سورة الأنفال — وحيا وإلهاما . . .»[٢].

ثم عدت لدراسة هذه الظاهرة؛ فقرأت ما ورد من أدب الحروب فى القرآن، وضممت إليه ما أثبتته كتب الصحاح من الروايات فى هذا الشأن، ثم ما دونته كتب السيرة والتاريخ؛ فإذا الموضوع أروع وأوسع مما تصورت أولا — وإذا القرآن سجل أدبى صادق لهذه الناحية من تطور الدعوة الإسلامية وحياة صاحبها؛ وإذا أسلوبه البين فيها واضح قريب المنال لكل ذى ذوق عربى صقيل. وقد وقر فى نفسى بعد أن قرأت السور الكريمة أن هاهنا أدبا حماسيا بالغ التأثير، لم ينتفع به المسلمون بعدُ حق الانتفاع فى تثقيف الناشئة وطبع نفوسهم على الجد والإقدام، واسترخاص الأرواح فى سبيل الحق والوطن. وإخال أن أنسب المراحل لهذا اللون من الدرس فى حياة الناشئ هى مرحلة المراهقة والبلوغ، حيث الفتى يتعشق البطولة بطبعه، ويتبع سِيَر العظماء والمصلحين، ويلذّ البحث فى الحركات الدينية وما تنطوى عليه من آيات الثبات على العقيدة، وانتصار القلة القوية بإيمانها على الكثرة الفارغة من حرارة الإيمان.

ومن الميسور والمرغوب فيه أن تُجعل نصوص القرآن فى هذا الموضوع محور دراسة أدبية وتاريخية معا، وأن يضاف إليها توجيه الناشئة إلى قراءة الكتب العربية الحديثة التى تناولت سِيَر الرسول وخلفائه وأصحابه، ودرست نواحى العظمة والعبقرية فيهم.

* * *

وبعد، فإن القرآن وثيقة أدبية وافية لموقف الإسلام من سياسة القوة فى سبيل الدعوة، ولما نال الرسول والمسلمين من نصر أو هزيمة فى القتال فى سبيل الله، ثم ما كان لله معه ومعهم من رضا وتثبيت أو لوم وتأديب.

وقد جاءت الصورة التى رسمتها السُّوَر المكية فى هذه الناحية تمهيداً تاريخياً وأدبيا للملاحم التى رسمتها السور المدنية — والتى سنعرض لها فى المقال التالى.

فالرسول يبدو فى الأولى داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، مجادلا بالتى هى أحسن (النحل) آخذاً العفو، آمرا بالعرف، معرضا عن الجاهلين (الأعراف)؛ يحاول الكافرون أن يصدوه عن المضى فى دعوته، أو يحوّلوه عن شرعته، أو يصلوا وإياه إلى نوع من المصالحة[١]، فيؤمر أن يجيب: «لا أعبدُ ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ، ولا أنا عابدٌ ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولِىَ دِين» (الكافرون). وتستمر قريش فى عمايتها وكفرها، فيحزن الرسول ويرثى لقومه، فيجيئه الأمر الإلهى: «فلا تذهب نفسُك عليهم

---

(١) نشر هذا البحث من «شاعر الرسول» فى عدد الهجرة الممتاز من الثقافة (٢١١) والأعداد ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) ص ٢١ عدد ٢٢٥ «ثقافة».

(١) يروى المفسرون أن رهطا من قريش قالوا يا محمد تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فنزلت: «قل يأيها الكافرون».

حسرات إنّ الله عليم بما يصنعون ... إنّ الله يُسمع مَن يشاء وما أنت بمُسمِع مَن في القبور ، إنْ أنت إلا نذير» (فاطر) . ويجهد نفسه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا عنادا ، فيعزيه مولاه بقوله : «أفأنتَ تُسمع الصمّ أو تَهدي العُمْيَ ومن كان في ضلال مبين . فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نُرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون . فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم» (الزخرف) . ويمعن المشركون في الشك في دينه ، والإيذاء له ولأتباعه ، فيجيئه الأمر : «قل يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبدُ الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكوننّ من المشركين ، ولا تدعُ من دون الله مالا ينفعك ولا يضرُّك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ؛ وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلا هو ، وإن يُردك بخير فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتّبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» (يونس) .

فالصورة التي يبدو فيها صاحب الرسالة في هذه الرحلة صورة واضحة مطردة تقوم على الدعوة إلى الله في رفق ، والصبر على أذى المخالفين ، والاعتصام بالله من إعراضهم وإغراضهم ، وتبيين الرشد من الغيّ دون إكراه ، وإقامة الحجة بعد الحجة على وحدانية الله وعظمته وقدرته ؛ وتوجيه العقول إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، ومجاهدة الكافرين جهاداً كبيرا بالقرآن .

وتطرد هذه الصورة فيما قصّ الله على نبيه في هذه الرحلة من قصص الأنبياء السابقين ، وما حلّ بأقوامهم من عذاب الله حين كذبوا رسله . وليس في هذا القصص ما يشير إلى أن الرسل السابقين حاولوا أن يفرضوا رسالات ربهم ، أو أن يُكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين ؛ وإنما كان الواحد منهم يجيء قومه منذراً ، داعياً إلى عبادة الله وحده ، فيكذبونه فيرسل الله عليهم عذابا من عنده : مطراً جارفا ، أو ريحاً صرصراً عاتية ، أو رجفة تأخذهم فيصبحون في ديارهم جاثمين ؛ «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ، قال ياقوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسول من ربّ العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ، أوَ عجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمِين» (الأعراف) . وإلى مثل هذا المصير صارت عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مَدين ، كلٌّ كذّب الرسل فحق عليهم عذاب الله .

ولكننا نلمح في القرآن المكي إذ تسير الدعوة الإسلامية إرهاصاً بالمستقبل ، وإنذاراً بما سيحل بالكفار على يد الرسول ، وتلويحاً بأنه سيظفر بهم ، وينتقم الإسلام منهم : «انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون . وكذّب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقَر وسوف تعلمون» ... «وربك الغنيّ ذو الرحمة إن يشأ يُذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرّية قوم آخرين . إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين . قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» (الأنعام) . «فإن تولّوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريبٌ أم بعيد ما توعدون» (الأنبياء) . «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم

لهم المنصورون ، وإنّ جندنا لهم الغالبون . فتولّ عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون » (الصافات) . وهذه النذر لاتلبث أن تتكشف عن وعد صريح للرسول بهزيمة المشركين : «أ كفّاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزُّبُر . أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر »(١) (القمر) .

ثم يأتمر الملأ بالرسول ليقتلوه فيهاجر إلى المدينة وتقوى شوكة الإسلام بالأنصار ، ويأخذ النزاع بين قريش والرسول صورة أخرى تتسلح فيها الدعوة بالسيف إلى جانب القرآن ، وتنزل أول آية فى الإذن بالقتال بعد ما نُهى الرسول عنه فى نيف وسبعين آية - كما يذكر المفسرون - « أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (الحج) . ومن هنا تبتدئ الدعوة مرحلة جديدة فى تاريخها ، ويخاطب القرآن أعداء الإسلام باللغة التى تفهمها عقولهم الجاحدة ، ويعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؛ ويشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ! .

(١) عن عمر رضى الله عنه أنه لما نزلت قال : لم أعلم ماهو ، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله (ص) يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع ، فعلمته .

وإذاً فقد وصلت بنا دراسة السور المكية فى أمر الدعوة إلى أنها سارت السير الطبيعى الذى تقتضيه سنن الأشياء ، فبدأت مستضعفة رفيقة ، وتحمّل صاحبها وأتباعه الكثير من صنوف الأذى والعنت ، وتمّت كلمة ربك فى أن يقوم الدين على أساس الحجة والنظر ، لا على أساس الجبر والإكراه . ولكن الثلاث عشرة سنة التى قضاها الرسول فى مكة هيأته هو وأصحابه للمرحلة القادمة من الجهاد ، وأعدّت نفوسهم للذياد عن حمى الإسلام بالسيف ، وجعلتهم يتطلعون إلى اليوم الذى ينتصفون فيه لأنفسهم من أعدائهم ويكيلون لهم بكيلهم . وكثيراً ما كان أصحاب الرسول يأتونه بين مضروب ومشجوج فيقول لهم اصبروا فإنى لم أومر بالقتال . فلما هاجر نزل عليه الإذن ونصه عنده : ذلك بأن الذين ظُلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

فالتاريخ الدقى للدعوة - إذاً - سيكون تاريخ جماعة مسلمة لها كيانها السياسىّ والاقتصادى ؛ لابدّ لها أن تعيش ، ولا بدّ لها أن تمكّن لنفسها فى الأرض ، وأن تُعِدّ لأعدائها ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل تُرهب به عدو الله وعدوها ؛ ولا بد لها أن تتقن فنّ الحرب ، وأن تستعمل ما يستعمله المحاربون من رسم الخطط ، والتعرض لمرافق الأعداء ، ومحاولة التفريق بين صفوفهم ، والاستعانة بعقد العهود والمواثيق مع المحايدين ؛ ولابد أن تسير أمورها على مألوف السنن الكونية فتنتصر إذا آمنت بعقيدتها ، وأحكمت تدبير أمورها ، وتنهزم إذا اغترت بمجرد كثرتها العددية ، أو أغفلت تنفيذ مايرسم قائدها العام من خطط ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

للبحث بقية محمد خلف الله

مكيـات

إن للمرأة العربية المكية فى تاريخ الدعوة الإسلامية مواقف ، إن يكن المؤرخون قد صوروها فى رفق وعجلة فإن روعتها كانت تغنى عن الإفاضـة والإطالة . فما أن زفت تباشير الوحى من ملك السماء إلى الأرض حتى قامت المكية إلى العمل على تدعيمها ونشرها وتغذيتها بكل ما عرف فيها من إيمـان قوى وتضحية صامدة . وكانت تلك السنوات الثلاث عشرة التى قضاها النبى الكريم يدعو الناس إلى الإيمان فى مكة زاخرة بالحياة مفعمة بالأحداث ، فيها تأسس الإيمان وتوطد فى قلوب المسلمين ؛ وفى ضوء حوادثها وآيتها تعرف المسلمون قدر حياتهم ومراتب إخوانهم فى الدين . فى تلك الصفحة من تاريخ الإسلام التى اختتمت بالهجرة مجموعة رائعة من صور المسلمة ، يلذ للقارئ أن يقلب النظر فيها كما يقلبه فى صفحات كتاب جمع صوراً من روائع الفن . فما من خطوة هامة خطاها الإسلام فى مكة إلا كان للمسلمة فيها وقفة جميلة أو حركة رائعة .

وهذا هو النبى (ص) ما يكاد يسمع صوت الملك يردد الوحى حتى ريع من عظمة ما أحس وجلاله . ترى أين يجد لهذه الأعصاب المرتجفة الواجفة هدأة وسكنا ؟ أين هذا الفيض من العطف والحنان الذى يمكن أن يغرق فيه هذه الرجفة العنيفة من الاضطراب والخوف ؟ . لن يكون هذا إلا عند خديجة ، تلك التى كانت له السكن والرحمة . وهنا تطالعنا أول صورة من تلك المجموعة المكيات فى الدعوة . إذ يدخل الرسول (ص) بيته فيجد القلب الواجف الحنون فى انتظاره ، إنه كان قد أرسل رسله إليه ليطمئن عليه ولم يأته الرسل إلا بما يزيد القلق والخوف ، ولكن طلعة محمد (ص) تهدئ من سورة هذا القلب الذى يفيض حباً وعطفاً . ويقص الرسول (ص) على زوجه ما رأى ، وكان أقصى ما يريد منها أن تهدئ من روعه وتطمئن من قلبه . ولكن ماذا يسمع منها ؟ إنه الراحة والأمن والسكن ولا شك ؛ ولكن فوق هذا ، هو الصمود والثبات والبشرى ، « أبشر يا بن عم واثبت ! فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » . ولا تكتفى خديجة بالحس والقول ، ولكنها تذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص الخبر ، وتستطلع بروق الأمل بتحقيق هذا الذى أحسته ، فإذا التأييد وإذا ثبوت البشرى ، وإذا محمد (ص) يغرق قلقه فى راحة ملؤها التفاؤل والاستبشار والتطلع إلى نور السماء ؛ لقد أيقن الآن أن ما مسّه منه لم يكن إلا شعاعا سيتبعه فيض من اللألاء والسناء يعشى البصر له خشوعاً .

وآمنت خديجة بالوحى فكانت أول من أسلم . وآمن برسالة النبى الكريم من أسلم ، وأنكر الدعوة من أنكر ، واشتدت الحرب بين مسلمى مكة وسادتها من قريش ؛ هؤلاء يستخفون أو يعتزلون الناس ضناً بإيمانهم ؛ وهؤلاء يعذبون ويبطشون ويحتالون ليطفئوا من نور هذه الدعوة ما استطاعوا . وكذّب الرسول (ص) وحورب واحتمل سفاهة الناس وتطاولهم عليه ، ولكن الطود الصامد كان من ورائه يشد أزره ، ويفرج الله به همه ، ويهون عليه أمر الناس ورأى سادة مكة فى الإماء والعبيد ميداناً للبطش والانتقام من دعوة لو قدّر لها النجاح لطاحت بسلطانهم ومحته محواً . وكان التعذيب الذى لا يخشى حساباً ولا يمكن أن يقف فى سبيله وازع من دين أو خُلق ، وكان لابد من الصمود بهذا الإيمان صموداً تزهق فى سبيله الأرواح فيظهر بهـا جوهره . وقاد السادةُ العبيدَ المستضعفين إلى رمضاء مكة يعذبونهم بالنار والحديد . وهنا تطالعنا صورة مكية أخرى ؛ فلقد قاد السادة فيمن قادوا أسرة عمّار بن ياسر ، وثقل العذاب عليهم واحتموا بظاهر من الكفر ليتجنبوا ما لا يطيقون ؛ ولكن أم عمار تصمد وتصمد حتى لا يقوى

جسدها على احتمال ما وصلت إليه روحها من جلال ، فتموت وقد افتتحت قائمة الشهداء في سبيل الإيمان الجديد ، كما افتتحت خديجة قائمة المؤمنين من قبل .

ويستمر الرسول الكريم في نشر دعوته ، ولكن الحال تحتدم بينه وبين السادة من قريش ، ولم يكن بد لنجاح الدعوة واستمرارها من أن تنضم إليها شخصيات قوية يستمد الإسلام من نفوذهم وسيادتهم نصيراً وعضداً . ومن هؤلاء الذين طمع فيهم المسلمون حمزة عم النبي . وإذا صورة أخرى ترسم لنا من صور المكية صورة مولاة من موالى عبد الله بن جدعان وهي تطل من نافذة على الرسول (ص) ، وقد جلس يسترجع فترى إيذاء أبي جهل له . وتتربص لحمزة وهو راجع من قنصه قد ملئ زهواً ونشاطا وحياة ، فتصور له بالحق ابن أخيه من هوان . وتضرب على الوتر الحساس في الفارس الشهم المعتز بقوته وشبابه وفتوته ، فيثور القولها وتصويرها ، وإذا هو في ثورة النعمة والشرف والكرامة يتحمس لابن أخيه ، حتى يسلم ويدخل على أولئك المجتمعين في الكعبة ينتقم من أبي جهل ، ويعلن إيمانه بالإسلام متحديا ؛ فتكون هذه الخطوة من أعز خطى الإسلام في فجره وأقواها .

ويتأمل محمد (ص) هذا الأثر الذي يحدثه إسلام أمثال حمزة في الدعوة ونشرها ، ويتطلع إلى السادة ذوى العصبية والمكانة فيرفع بصره إلى السماء : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بالحكم بن هشام » . وإذا صورة أخرى تجذب إليها الأنظار ؛ هذه أخت عمر بن الخطاب فاطمة قد أسلمت هي وزوجها وأخفت إسلامها وأسرته ، فإذا اجتمع لديهما نفر من المسلمين قرأوا القرآن في خفوت وهدوء وحذر . وهذا عمر يثور على المسلمين فيمشي بأن أخته قد أسلمت ، فيدخل عليها مغيظا محنقاً ، وقد سمع همهمة القارئ لآيات القرآن في بيتها ، فيسأل عما سمع ، فلا يجاب ، ويثور حتى يضرب أخته ويشجها ، فتقول له « نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ! » وإذا التحدى الصادر من امرأة تتألم قد سال دمها يلين من غضب عمر ما لم يلينه شيء في سبيل الإسلام . ويطلب أن يرى الصحيفة التي كانوا ينصتون إلى ما بها ، ولكن أخته تأبى عليه ذلك ، إنها تخاف عليها من بطشه . ويبهت عمر ، أبلغ إعزاز هؤلاء القوم لدينهم الحد الذي يخافون فيه على صحيفة كتبت فيها آياته ؟! أبلغ بهم هذا الإعزاز حداً يتحدون فيه أمره وهو المغيظ المحنق ؟! ويحلف بآلهته أنه سيردها إليهم من غير سوء ، فتطلب إليه فاطمة أن يتطهر قبل أن يلمسها فإنه نجس مشرك . ويبلغ به العجب مبلغه ، ولكنه يقبل ما تريد . وهكذا خطوة خطوة وصلت به أخته إلى حال إعداد وشغف ؛ وإذا سورة طه تطلع عليه بسناها ونورها ، فيبهره من هذا النور والسنا ، فيقول : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! ويطلع خباب من حيث استخفى قبل مقدم عمر ، ويكمل آخر خطوة من هذا العمل العظيم الذي قامت به فاطمة وأهينت وسال دمها في سبيله . إن الرسول (ص) يدعو الله أن يعز الإسلام بك يا عمر . ويعلن عمر إسلامه فتكسب الدعوة دعامة من أقوى دعائمها إن لم تكن أقواها ، ويخدم الإسلام عمر صحابياً وخليفة كما لم يخدمه أحد .

وتتوالى صور من الجهاد في مكة تختلف شدة وقسوة ، ولكن العذاب يصل إلى أشده ، والدعوة تنذر بتفتح الثمار . وجاء أوان خطوة حاسمة تحزم الأمر وتوجه الدعوة وجهة جديدة . لقد انتهى دور الدعوة الكلامية ولابد من الجهاد والعمل في سبيل الإسلام .

ويأذن الله لنبيه في الهجرة فتكون العقبة الوحيدة في سبيل نجاح هذا العمل وإتمامه هي معرفة قريش بالأمر ، ومحاولتها منع النبي الكريم من مغادرة مكة . وتفكر قريش في قتل الرسول (ص) قبل أن يخرج على العالمين

بنو فِرَاس بن غَنْم

روى أنه لما تواترت الأخبار على الإمام على بن أبى طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بعد وقعة صفين ، قام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه من الجهاد ومخالفتهم له فى الرأى ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه العبارة : « أما والله لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس ابن غَنْم » . وهذا العدد الذى تمناه الإمام على قليل جدا بالنسبة إلى جيشه الذى بلغ فى وقعة صفين خمسين ألف مقاتل على أقل تقدير . فمَن بنو فراس هؤلاء الذين يعدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلا من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبى الحديد فى شرحه على كتاب « نهج البلاغة » . « قال القطب الراوندى : بنو فراس بن غنم هم الروم » ، ويخطّئ ابن أبى الحديد بحق هذا التفسير ويقول : الصحيح أنهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حى مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان ؛ ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم حامى الظعن حيا وميتا ، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بنى سُلَيْم ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده ، فطاعنهم ، فرماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، فنصب رمحه فى الأرض واعتمد عليه وهو ثابت فى سرجه لم يزل ولم يمل ، وأشار إلى الظعائن بالرواح ، فسرن حتى بلغن بيوت الحى ، وبنو سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه ويظنونه حيا ، حتى قال قائل منهم إنى لا أراه إلا ميتا ولو كان حيا لتحرك ؛ إنه والله لماثل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدنو منه حتى رموا فرسه بسهم فشب من تحته ، فوقع وهو ميت وفاتتهم الظعائن .

***

بدعوته فيعظم أمره ويشتد أزره عن يمكن أن يقوضوا سلطان قريش فى لمح البصر . وتدبر المؤامرة ، ولكن الله يريد بامرأة أن تبرز إلى الميدان فى هذه الخطوة لتعرض علينا صورة جديدة ؛ وهذه رقيقة بنت صيفى لا يثنيها ما رأت من تعذيب المسلمين فتفضح المؤامرة ، وتبوء تدابير قريش بالفشل ، إذ يحتاط الرسول (ص) لما أخفوه عنه ؛ وينام على مكان الرسول (ص) فى تلك الليلة الخطيرة فيفسد كل شىء على المشركين ، وينجو الإسلام من شر أريد برسوله .

ولكن الهجرة يجب أن تتم ولا بد من الاستخفاء وإعداد للسفر وتكتم فى الأمر . وتنادى الدعوة مرة أخرى على امرأة ، وإذا صورة أخرى تلوح لنا رائعة قوية . هذه صورة أسماء بنت أبى بكر تحنق الرسول (ص) وصاحبه وتستطلع لهما الأخبار حتى تطمئن على جهل قريش بمكانهما ، وتمد الزاد والرواحل والدليل ، وتقف واجفة على سفح الجبل تودع الراحلين الكريمين ، ثم تعود لتطمئن على نجاح الخطة ، وتنتظر بقلب قلق ونفس مضطربة أنباء المسافرين ، وتطمئن الشيخ الضرير من قلقه ، وتحاول جهدها ألا يظهر أحد من كان على الأمر حتى تأتيها الأنباء ، بأنهما توغلا فى الطريق ، بل بأنهما قد وصلا المدينة واستقبلا أخلص استقبال وأعزه .

وما يتم حادث الهجرة ويكمل حتى نرانا قد أتينا على آخر تلك المجموعة الرائعة من صور المكية فى الدعوة ، ونترك المجموعة وقد اختلجت فى النفس عواطف وإحساسات ، واضطربت فى الخيال صور وأحداث فى اختلاطها جميعاً ؛ بل فى عنف هذا الاختلاط راحة للنفس ، ولذة للروح لا علك أن يثيرها فينا إلا جمال الفن وروعته .

سهير القلماوى

ومما يجري مجرى الموازنة بين بني فراس ومن ليسوا بني فراس، ما روى من أن المنصور بن أبي عامر الأندلسي كان في غزاة له فوقف على نشز من الأرض فرأى جيوشه قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبه ذلك، والتفت إلى مقدم العسكر، ويعرف بابن المصحفي، وجرى بينهما هذا الحوار:

المنصور — لا يعجزنا أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة؟

ابن المصحفي — يطرق ساكتا

المنصور — وما سكوتك؟ أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل؟

ابن المصحفي — لا!

المنصور (متعجبا) — أليس فيهم خمسمائة رجل من الأبطال المعدودين؟

ابن المصحفي — لا!

المنصور (مغضبا) — أفيهم مائة رجل من الأبطال؟

ابن المصحفي — لا!

المنصور — أفيهم خمسون من الأبطال؟

ابن المصحفي — لا!

عند ذلك استشاط المنصور غضباً وأمر بمقدم العسكر فأخرج على أقبح صفة.

فلما توسطوا بلاد العدو وتصاف الجمعان، برز علج من صفوف الأعداء، شاك في سلاحه، يكر ويفر وهو ينادي: هل من مبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العلج. ففرح الأعداء وصاحوا واضطرب لها المسلمون. ثم جعل العلج يمرح بين الصفين وينادي: هل من مبارز؟ اثنين لواحد! فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج! وجعل يكر ويحمل وينادي: هل من مبارز؟ ثلاثة لواحد!! فبرز إليه رجل فقتله العلج، فصاح المشركون وذل المسلمون، وكادت تكون كسرة.

فقيل للمنصور، ما لهـا غير ابن المصحفي! فبعث إليه، فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ قال بعيني جميع ماجرى! قال فما الحيلة فيه؟ قال وما الذي تريد؟ قال أن تكفي المسلمين شره قال، نعم، الآن!

ثم قصد ابن المصحفي إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تشزنت أوراكها هزالا وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس. فقال له ابن المصحفي: ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم؟ قال: قد رأيته! فماذا ترى فيه؟ قال: أريد رأسه الآن! قال: نعم!

فحمل الرجل القربة إلى رحله ولبس لأمة حربه وبرز إليه، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هنالك، وإذا الرجل يحمل رأس العلج، فألقى الرأس بين يدي المنصور.

عند ذلك قال ابن المصحفي للمنصور عن هذا الرجل أخبرتك أنه ليس في عسكرك من مثله ألف، ولا خمسمائة، ولا خمسون، ولا عشرون، ولا عشرة. فرده المنصور إلى منزلته وأكرمه.

* * *

وبعد، فيقال إن عدة المسلمين في جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم زهاء ثلاثمائة مليون من الأنفس. ترى كم فيهم من يشبه بني فراس ويشبه هذا الفارس الأندلسي المغوار؟ لسنا نجيب عن هذا السؤال الدقيق. ولكنا، ونحن في مستهل عام هجري جديد، نبتهل إلى المولى عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم، أو أن يجعلهم جميعاً على شاكلة بني فراس، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز.

عبد الحميد العبادي

من أخلاق الرسول

كان عنده عليه السلام ، لكل مقام مقال . فهو إن كان في بيته ألين الناس عريكة ، فلقد كان في تبليغ رسالته أقوامهم شكيمة . وكان في سلوكه مع الرجل الضعيف والطفل اليتيم يكاد يذوب رقة وحنانا — يستحى من الكلمة النابية ، والإشارة العابرة ، فيحمر وجهه خجلا . وتدمع عيناه تأثراً . ثم هو في مجالدة المشركين ، ودعوتهم إلى الحق أصلب الناس عوداً ، وأقوامهم نفساً ، وأصبرهم على الأذى ، وأجرأهم على اقتحام المكاره .

روى عنه صلى الله عليه وسلم ، أن أعرابيا أدركه وهو في الطريق فأخذ رداءه فجذبه جذبة شديدة حتى بدت صفحة عنقه ، وقد أثرت فيه حاشية الرداء ، ثم قال : يا محمد ! مر لي من مال الله الذي عندك ! فالتفت نحوه النبي صلى الله عليه وسلم وضحك . وأمر له بعطاء ... فلو أن أحسن الناس اليوم جذب شرطيا من كم سترته يسأله عن الطريق لما سلم من يده ولسانه !

وجلس عليه السلام بعد غزوة من غزواته يقسم بين الناس ما صار إليه من الأسلاب والغنائم ، فصاح أنصاري في وجهه : إنها لعطايا ما يراد بها وجه الله ! فتغير لونه صلى الله عليه وسلم ، وتوقف برهة ثم لم يزد على أن قال : رحم الله أخي موسى ! لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر !

ومن رقة قلبه عليه السلام أنه بعد أن استشهد جعفر ابن أبي طالب في « يوم مؤتة » دخل على زوجته أسماء بنت عميس فقال : يا أسماء . أين بنو جعفر ؟ فجاءت بهم إليه فضمهم إليه وشمهم ثم ذرفت عيناه فبكى . فقالت : أي رسول الله ! لعله بلغك عن جعفر شيء ؟ فقال : نعم . قتل اليوم ! — فقامت تصيح ، واجتمع إليها النساء . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أسماء ! لا تقولي هجرا ، ولا تضربي صدراً ! ... ألا أبشرك ؟ قالت : بلى ! . قال : فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة ! قالت : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، فأعلم الناس ذلك . فقام وأخذ بيد عبد الله بن جعفر يمسح رأسه بيده حتى رقى المنبر ؛ وأجلس عبد الله أمامه على الدرجة السفلى ، والحزن يعرف عليه ، وتكلم في الناس عما كان ، وأعلن استشهاد جعفر ودخوله الجنة . ثم نزل ، ودخل بيته ؛ وهو يقول : واعمّاه ! على مثل جعفر فلتبك الباكية ! . ثم قال : اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم . وأرسل إلى أخي عبد الله ابن جعفر فتغديا عنده ؛ وأقاما ثلاثة أيام في بيته ، يدوران معه في بيوت نسائه .

* * *

وكان عليه السلام سمحا كريما يستميل الناس بالعفو ، ويدرأ الحدود بالشبهات ، ويخفف على الناس ما استطاع في أمور دينهم .

حدث بعد غزوة « بني المصطلق » أن اجتمع رجلان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار فوق ماء (بالمريسيع) ، فالتبس دلواهما وتنازعا عليهما . فقال : عبد الله ابن أبيّ قولا جارحا في حق المهاجرين . ومن كلامه في ذلك قوله : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، لقد نافرونا وكاثرونا في بلدنا ، وأنكروا منتنا . والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : « سمّن كلبك يأكلك » !

وكان زيد بن أرقم حاضرا — وهو غلام في سن البلوغ — فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وعنده نفر من المهاجرين والأنصار . فتغير وجهه ثم قال : ياغلام ! لعلك غضبت عليه ؟ قال : لا والله . لقد سمعت منه — قال : لعله أخطأ سمعك ؟ قال : لا يا نبي الله .

قال : فلعله شبِّه عليك ؟ قال : لا والله . لقد سمعت منه يا رسول الله ! وشاع في العسكر ما قال ابن أُبيّ حتى ما كان للنـاس حديث إلا هو . وقام رسول الله فآوى إلى ظل شجرة ؛ وأقبل عليه عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ! إيذن لي أن أضرب عنق ابن أُبيّ في مقالته . فقال : لا يتحدث الناس أن محمداً قتل أصحابه !

* * *

ومن أخباره أيضاً أن أسامة بن زيد كان يشترك في قتال جماعة من الكفار ، فمر رجل منهم يقال له ابن مرداس . فلما دنا منه ، قال الرجل : لا إلـه إلا الله ! فقتله أسامة . فلامه أصحابه وقالوا له : بئس والله ما فعلت ! وبلغ الخبر رسول الله فقال : قتلته يا أسامة وقد قال «لا إلـه إلا الله»؟! فجعل يقول : إنما قالها تعوذاً من القتل ! فقال : أفلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ !

* * *

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الطائف أنه سـار إلى الجِعِرّانة ، فبينا هو يسير — وأبو رُهم الغِـفَاري إلى جنبه على ناقة له وفي رجليه نعلان غليظتان — إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله صلى الله عليـه وسلم . فوقع حرف نعله على سـاق رسول الله فأوجعه ، فقال : أوجعتني ! أخر رجلك ! وقرع رجله بالسـوط . . . قال أبو رهم : فأخذني ما تقدم من أمري وما تأخر . وخشيت أن ينزل فيّ قرآن لعظيم ما صنعت . فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعى الظّهر — وما هو يومي — فَرَقاً أن يأتي للنبي عليه السـلام رسول يطلبني . فلما روّحت الركاب سألت ، فقالوا : طلبك النبي صلى الله عليه وسلم . فقلت : إحداهن والله ! — (يعني إحـدى الدواهي التي كان يتوقعها) — فجئته وأنا أترقب . فقال : إنك أوجعتني برجلك فقرعتك بالسـوط . فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتي — قال أبو رهم : فرضاه عني كان أحب إلي من الدنيا وما فيها !

* * *

ومن نوادر عمرو بن العاص معه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقاتل جماعة خارج المدينة في غزوة «ذات السلاسل» وكان الرسول قد عقد لواء هذه الحملة له . وكان الوقت وقت شتاء وبرد شديد . فقام عمرو ذات ليلة وأصبح على حال توجب عليه الغسل ؛ وكان هو الذي يؤم الناس في الصلاة . وأشفق على نفسه من شدة البرد ، فجمع أصحابه وقال لهم : ماترون ؟ قد والله احتلمت . وإن اغتسلت مت — ثم دعا بماء فتوضأ ، وغسل نفسه ، وتيمم ؛ ثم قام فصلى بهم . وبلغ رسول الله أن عمراً صلى وهو جنب ومعه ماء ؛ لم يزد على أن تيمم . فلما قـدم عمرو سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته ، قال : والذي بعثك بالحق لو اغتسلت لمت ؛ ولم أجد قط برداً مثله ، وقد قال الله : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً » . فضحك صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً .

* * *

ولـما أشار سلمان الفارسي على المسلمين بحفر الخندق حول المدينة قبل غزوة الأحزاب كان النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمة من يضرب الأحجار بالمعول من رجاله ، ويحمل التراب في المكاتل على ظهره . وظل على هـذه الحال ستة أيام كان يبلغ منه التعب فيهـا مبلغا يحمله يلقي جسمه فوق الأحجار يلتمس لجنبيه فوق رؤوسها شيئاً من الراحة ؛ ومع ذلك فإنه هو من تُروى عنه الأحاديث أنه كان رخص الكف لينها ، لا يمس يده إنسان إلا وجد ريحها في يده طول يومه .

وكانت عائشة رضي الله عنها على عادتهـا في مواساة النبي وتخفيف أعباء العمل عنه . ولعل صورة من أبدع

الصور التي تمثل حياته في بيته وفي عمله تلك التي وقعت أيام غزوة الخندق هذه . إذ كان عليه السلام يختلف إلى ثلمة فيه يقوم بشخصه على حراستها أثناء الليل وكان القر شديداً ، فإذا آذاه البرد دخل قبته فأدفأته عائشة رضي الله عنها في حضنها ، حتى إذا دفئ واستجم خرج إلى الثلمة يحرسها وهو يقول : ما أخشى على الناس إلا منها !

وعلى ذكر السيدة عائشة وما كان يلقاه الرسول في جوارها من أنس ومودة ورحمة ، لا يستطيع الإنسان أن يمر بهذه الصلة الزوجية المكينة دون أن يلمح في أخبارها تلك الصورة الأخرى التي نرى أن نسوقها هنا تبصرة لأزواج هذا الزمان ، فإن فيها العظة أكبر العظة لمن يلقى أحيانا من بيته ما لم يكن يرجوه ، فيضيق بهذا الأمر ، وإنه ليحدث بين الزوج وزوجه في كل زمان ومكان ، حتى ولو كان الزوج هو رسول الله ولو كانت الزوجة هي عائشة أم المؤمنين !

حدث يوما بين هذين الزوجين الكريمين كلام ، فسأل النبي زوجته : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قالت : لا ! ذلك رجل هين لين يقضي لك ... قال : أترضين بأبيك ؟ — قالت : نعم ! — فلما جاء أبو بكر قال رسول الله : اقصصي ! — قالت : بل اقصص أنت ! — فأخذ رسول الله في إعادة ما جرى بينهما من كلام . وفيما هو يروي قصته قاطعته عائشة بقولها : اقصد ! (أي الزم القصد ولا تزد في الرواية) . فرفع أبو بكر يده فلطمها وانتهرها مغضباً : تقولين يابنت أم رومان اقصد ؟! من يقصد إذ لم يقصد رسول الله ؟! وجعل الدم يسيل من أنفها . ورسول الله يحجز بينهما ويقول لصديقه : إنا لم نرد هذا ! — حتى هدأ الوالد وأذن له رسول الله أن ينصرف . فلما انصرف التفت إلى عائشة باسما وهو يقول : أرأيت كيف أنقذتك منه ؟

تلك كانت عائشة في بيت النبي ، وفي حياتهما الخاصة ، تحمله حيناً ويحملها حيناً . أما إذا جد الجد في شئون المسلمين وأرادت عائشة — كما قد تريد بعض العائشات — أن تكون لها كلمة أو يؤخذ لها برأي فإن الرسول عليه السلام لم يكن يستمع في ذلك إلا لوحي نفسه . فقد حدث لما اشتد المرض بالنبي صلى الله عليه وسلم في آخر أيامه أن دخل عليه مؤذنه بلال . فقال عليه السلام : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة : يا رسول الله ! إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر ؟ فقال عليه السلام مرة أخرى : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فعادت عائشة تقول لحفصة — ابنة عمر وزوج النبي — قولي له إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمرا ! فأعادت حفصة ما قالته عائشة — وضجر النبي من هذه المراجعة ؛ فقال : إنكن أنتن صواحب يوسف ! ثم قال للثالث مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس !

كانت عائشة رضي الله عنها تنظر في ذلك إلى نفسها وإلى أبيها ؛ وكان الرسول ينظر إلى صالح المسلمين ومستقبل الإسلام ، فوجب أن تمتد يده بهذه الشدة إلى أحب الناس إليه لينحيها عن طريقه !

وحادث آخر من هذا النوع وقع أيضاً في ذلك البيت الكريم . فقد وقع المغيرة بن معاوية أسيراً في يد المسلمين ، ولكنه تمكن من الإفلات وهرب إلى مكة . وبعد قليل ظفر به جماعة من المسلمين مرة أخرى فاستردوه وعادوا به إلى المدينة أسيراً في أيديهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : احتفظي عليك بهذا الأسير . وخرج ، فلهت عائشة مع امرأة بالحديث فتسلل المغيرة هارباً وما شعرت به . ثم عاد النبي فلم يره ، وسألها فقالت : غفلت عنه وكان هاهنا ! فقال : قطع الله يدك ! وخرج مغضباً ، فصاح

من نهج البردة

لأحمد شوقي بك

مُحمدٌ صفوةُ البارى ورحمته
وبُغيةُ الله من خَلْقٍ ومن نَسَمِ

***

آياتهُ كلما طال المدى جُدُدٌ
يزينهُنَّ جلالُ العِتْقِ والقِدَمِ
يكاد فى لفظة منه مشرَّفة
يُوصيك بالحق والتقوى وبالرَّحِمِ
يا أفصح الناطقين الضادَ قاطبةً
حديثك الشهدُ عند الذائق الفَهِمِ
حليتَ من عَطَلٍ جيد البيان به
فى كل منتثر ، فى حسن منتظم
بكل قولٍ كريم أنت قائله
تحيي القلوبَ ، وتحيي ميتَ الهمم

***

أتيتَ والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنمٍ قد هام فى صنمِ
والأرض مملوءةٌ جَوْرًا مسخرةٌ
لكل طاغية فى القول محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته
وقيصر الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِى
يعذبان عباد الله فى شُبَهٍ
ويذبحان كما ضحيتَ بالغنمِ
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبَهْمِ أو كالحوت بالبَلَمِ[١]

***

أخوك عيسى دعا مَيْتًا فقام له
وأنت أحييتَ أجيالا من الرِّمَمِ
والجهل موت فإن أوتيتَ معجزة
فابعث من الجهل أو فابعث من الرَّجَمِ[٢]

(١) البلم : صغار السمك .
(٢) الرجم : القبر .

بالناس فقاموا فى طلبه حتى أدركوه وأتوا به . فدخل النبى على عائشة وهى تقلب يدها فقال : مالك ؟ — قالت : أنظُر كيف تقطع يدى ! قد دعوتَ على بدعوتك ! — فاستقبل صلى الله عليه وسلم القبلة ورفع يديه ثم قال : اللهم إنما أنا بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر ، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة .

***

هذا طرف من أخلاق النبى لم يعتد الناس سماع مثله كثيراً ، أحببنا أن نسوقه حتى لا يفوتنا شىء من جوانب العظمة المحمدية فى كل صورها وأوضاعها . ولله در عائشة إذ سئلت يوماً عن أخلاق النبى الكريم فأجابت قائلة : خُلُقه القرآن . يخزن لسانه إلا فيما يعنيه . يتفقد أصحابه . ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه . ويجلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه . ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه . ومن جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومن سأله حاجة لم ينصرف إلا بها أو بميسور من القول . مجلسه مجلس علم وحياء وصدق وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تنتهك فيه الحرمات . وكان دائم البشر فى جلسائه ، سهل الخلق ، لين الجانب ، لا يذم أحداً ولا يطلب عوراته . وكان أبر الناس وأكرم الناس ، ضحاكاً بساماً — صلى الله عليه وسلم .

م . ع

قالوا غزوت ورسْل الله ما بُعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حسبٍ
تكفل السيف بالجهال والعَمَم (1)
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية السمحاء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغَلِم (2)
لولا حماةٌ لها هبُّوا لنصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحُم (3)
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم
والحرب أس نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات في زمن
ما طال من عَمَدٍ أو قرّ من دَعَم

***

شريعةٌ لك فجّرت العقول بها
عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
كالحَلْي للسيف أو كالوشي للعَلَم
نور السبيل يُساسُ العالمون بها
تكفلت بشباب الدهر والهَرَم
لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت
مشت ممالكه في نورها التمم (1)
وعلمتْ أمةً بالقفر نازلة
رعْيَ القياصر بعد الشاء والنَّعَم
كم شيد المصلحون العاملون بها
في الشرق والغرب مُلكاً باذخ العِظَم
للعلم والعدل والتمدين ما عزموا
من الأمور وما شدُّوا من الحُزُم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم
وأنهلوا الناس من سلسالها الشَّبِم
لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلُهم
وحائط البغي إن تلمسه ينهدم

***

يا ربِّ هبت شعوب من منيتها
واستيقظت أمم من رقدة العدم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تزدْ قومه خسفاً ولا تَسُم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

(1) العمم : العامة .
(2) الغلم : الهائج الثائر .
(3) الرحم : الرقة والمغفرة .

(1) التمم : التام .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
أحمد عبد الواحد خلوف

الاشتراك لستة أشهر:
٤٥	في مصر والسودان
٣٧,٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

وديعة ميافارقين

سيف الدولة علي بن حمدان أمير حلب والعواصم يحفظ بسيفه مملكة في ثغور الروم، ويقرّها على الزلازل، ويثبتها على الأهوال، ويمكنها في مضطرب الأمواج، ومدارج السيول.

لبث الرجل عشرين عاماً يغزو الروم ويدفع غزواتهم، ويجاهد وحده هذا العدوّ الذي جاهده العرب وجاهدهم منذ زال سلطان الروم عن الشام، لا تفتر همة علي بن حمدان ولا يكل عزمه، ولا تُفلّ شباته، وجيوش الروم وأتباعهم تطغى على البلاد العربية موجة بعد موجة، فتتكسر على هذه الصخور من الشجاعة والعزم والجهاد والصبر. ويسيل السيل بعد السيل فيصدّه هذا السدّ الذي مكنته شجاعة سيف الدولة وجنده القليل. وكم نكبت جيوش سيف الدولة فما وهن ولا استكان، ولا ساير الزمان، ولا أخلد إلى السلامة، ولا آثر العافية، ولكن الحوادث انجلت عن هذا الوجه الوضاء بسّاماً للخطوب، وهذه العزة القعساء راسية على الأهوال:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

وبنو بويه في بغداد، والأخشيديون ثم الفاطميون في مصر بمعزل عن هذه الحوادث؛ أسلموا الأمير الحمداني لهذا الجلاد الدائب والعراك المتواصل:

أنت طول الحياة للروم غازٍ   فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى أي جانبيك تميل

قعد الناس كلهم عن مساعيك
وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا
كالذي عنده تدار الشمول

(٢)

هذه سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والسيف العربي الذي قارع الروم عشرين عاماً لم يفلّ، والعزم الذي استكبر على الغِيَر حقبة طويلة لم يضعف؛ ولكن سيف الدولة مريض، عرضت علة لجسده، وكبرت عن العلل روحه، وقد حاصر الروم طرسوس واستغاث أهلها الأمير العليل، فلم يقعد به مرضه، ولا بعث للعدو قائداً غيره، بل ركب في الجيش المرزأ بالسيوف المفلّلة يجيب الصريخ ويغيث أهل الثغور:

وغرّ الدمستق قول العُداة   إن عليّاً ثقيل وصِب
وقد علمت خيله أنه   إذا همّ وهو عليل ركب

وخاف الروم لقاء الأمير الذي عرفوه، وقتال الجيش الذي خبروه، فتركوا طرسوس وقفلوا إلى ديارهم. وانفرجت الغمة عن طرسوس وما يليها:

سبقت إليهم مناياهمُ   ومنفعة الغوث قبل العطب
فخرّوا لخالقهم سجداً   ولو لم تُغث سجدوا للصلُب
كم ذدت عنهم ردى بالردى
وكشّفت من كرب بالكرب

وبقي الأمير العليل يستقل بأعباء الجهاد، ويحمي وحده الثغور:

أرى المسلمين مع المشركين   إما لعجز وإما رَهَب
وأنت مع الله في جانب   قليل الرقاد كثير التعب

علي بن حمدان مريض، يحارب عدواً شديداً، ويلقى خطوباً سوداً؛ ولكن على الأسد أن يحمي غيله، والفحل

يحمى شوله معقولا . يمضى الرجل فى جلاده على العلات وعلى رغم العدو والحادثات ، وأمراء العرب والمسلمين من خلفه كما قال أبو الطيب لهذا الأمير العظيم :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به
شرب المدامة والأوتار والنغم

(٣)

فى شهر صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة فى مدينة حلب يعرض ابن حمدان البطل مرضه الأخير ، وينظر وراءه إلى ثلاث وعشرين سنة من الجد ، والكد ، ويتمثل الخيل المغيرة والنقع الثائر ، والسيوف المتضاربة ، والرماح المتطاعنة ، والكر والفر ، والهزيمة والظفر ، ويتذكر من ثبت ومن فر ، ومن وفى ومن غدر ، كما يتمثل الشعراء أمامه يسجلون وقائعه ، ويخلدون مآثره ، والعلماء والأدباء يأتونه من كل صوب ينشرون العلم فى كنفه ، ويحتمون من الحوادث فى جانبه ؛ وتمرّ بخياله الحوادث حلوها ومرّها ، والأيام خيرها وشرّها ، فيبتسم بسمة الرجل أدّى واجبه ، ووفى بعهده ، وترك وراءه صيتاً بعيداً ، وذكراً حميداً .

وهذه الساعة الثالثة من يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، والأمير العظيم على فراش الموت يود لو جمع تاريخه فى كتاب ، وأحصيت وقائعه فى سجل يأخذه بيده فى ساعته الأخيرة ، ليلقى ربه بما قدمت يداه ، وبما جاهد فى سبيل الله ! بل يودّ لو صوّرت الخطوب ، ومُثّلت الحوادث ، وطُوى التاريخ فى صورة مجسمة ليصحبه فى قبره ، ويؤنسه فى وحشته ، ويمضى معه حجة ناطقة ، وشهادة ناصعة . وكيف تصوّر الخطوب ، وتمثل الحوادث ، ويطوى التاريخ مجسَّداً ؟

يقول سيف الدولة : هاتوا اللَّبِنة ! قد نفضت دروعى بعد الوقائع ، وجمعت ما عليها من الغبار وصنعت من هذا الغبار لبنة . على بهذه اللبنة لأراها ، فإذا مت فضعوها فى لحدى تحت خدّى[1] .

ونقلت جثة الأمير الكبير ، ولبنة الرجل المجاهد إلى ميافارقين فدفنا فى التربة التى دفن فيها سيف الدولة والدته

فيا ليت شعرى أين فى ميافارقين قبر سيف الدولة ، وأين من تربتها تلك اللبنة ؟ تلك الهمة المجسمة ، والمجد المجسّد ! أين تلك اللبنة التى يشاد عليها صرح من المجد منيف ، ويبنى بها ملك من العزة شامخ ، تلك الحجة التى لم يُدْلِ بمثلها بطل ، ولا ظفر بنظيرها مجاهد ؟

لقد صوّر سيف الدولة من غبار الوقائع لبنة ، فليصوّر كتّابنا وشعراؤنا هذه اللبنة جهاداً وعزماً وعزة ومجداً ، وليجعلوها فى المفاخر مثلا سائراً ، وفى الأدب نثراً بليغاً وشعراً رائعاً[2] . ليقرأوا فيها شعر أبى الطيب فى سيف الدولة ، أو فلينشدوا فيها شعراً أروع من شعر أبى الطيب . فما أنفد شاعرنا مجد أميرنا وإن قال :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ
كلانا رب المعانى الدقاق

عبد الوهاب عزام

---

(١) ابن خلكان
(٢) سمعت من الشاعر الأريب رشيق الخورى أبياتاً فى قصة هذه اللبنة ونحن فى مهرجان أبى العلاء .

أسلوب القاضى الفاضل

لست أقصد بحديثى هنا أن أحمل الناشئة من الأدباء فى نهضتنا هـذه على احتذاء الفاضل فى أسلوبه . فأنا أعلم جيداً أن النهضة الأدبية التى غمرتنا منذ القرن الماضى ، قد انتهت فعلا من اختيار الطريقة الأدبية فى الشعر وفى الكتابة ، وأن ظروفاً أحاطت بمصر منذ أواخر القرن الماضى أوجبت على أدبائنا أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً أدبياً معيناً يميل إلى « حرية العبارة » ، أعنى إلى إطلاقها من قيود السجع وغيره من المحسنات البديعية على اختلافها ؛ وكان من هذه الظروف التى أشير إليها ظهور الصحافة ، وظهور المطبعة ، وشيوع الثقـافة الأوروبية المتنوعة ، ونشوب الثورات الاجتماعية حيناً والعقلية حيناً والسياسة أحياناً .

ولكنى أتحدث عن أدب القاضى الفاضل دافعاً من الناحية التاريخية الخالصة ، وأرمى من وراء ذلك إلى فهمه فهما صحيحاً لا أثر فيه للنزعات العصرية الجامحة ، وهى النظرات التى فرضت على الكثيرين منا نبذه وإنكاره والحط من قيمته . إلا أن المؤرخ الأدبى ينبغى أن يكون أشبه رجل بالقاضى العدل ، لا يصح أن يتأثر بميوله أو بميول قومه فى الحكم على الآداب القديمة ، وخاصة أن أصحابها ماتوا ولم يعد فى قدرتهم الدفاع عن المثل الأدبية التى اختاروها لأنفسهم ، أو الطريقة الفنية التى آثروها باستعمالهم .

والحق أننا حين نوازن بين أدبائنا فى العصر الحاضر وبين أدباء القرون الوسطى من أمثال القاضى الفاضـل وتلامذته تتضح لنا هذه الظاهرة : وهى أن أدباءنا ، وإن امتازوا بالنشاط العقلى فإننا نعيبهم فى مقابل ذلك الكسل الفنى ؛ أما أدباء القرون الوسطى فعلى العكس منا يمتازون بالنشاط الفنى ونعيبهم الكسل العقلى . أى أن أدباء العصر الحديث هم أدباء الفكرة والمعنى ، يهتمهم اللفظ الذى يعبر عنها ، سواء حقق هذا اللفظ لذة فنية عندهم أم لم يحقق هذه اللذة .

أما أدباء القرون الوسطى فيعنون بالأسلوب والرونق ، ويحرصون على أن تحقق لهم الألفاظ التى يصطنعونها غاية جمالية ولذة فنية . ومعنى ذلك أن الكفتين فى هذا الميزان الأدبى الذى أمامنا متعادلتان أو كالمتعادلتين . بل إنه إذا كانت الآداب تقاس أحياناً بحضارة أصحابها أو بتفوقهم فى ميادين العلم أو الحرب أو الخلق أو السياسة ، فمن الحق أن يقال عن أدب الفاضل وتلاميذه إنه أدب قد اقترن بفترة من أعظم فترات التاريخ الإسلامى ، وأزخرها بالحياة العقلية والحربية والخلقية والعلمية فى نهاية الأمر . والقاضى الفاضل نفسه ثمرة من ثمرات هذه الحياة الخصبة القوية .

وبعد ، فإنى أحدث القراء فى هـذه المرة عن خاصة واحدة من خصائص الفن الفاضلى ، هى خاصة (الاقتباس) ، أقف معهم عندها وأوضح لهم طريقة الفاضل فى استعمالها ، وأقف من ذلك كله بقدر استطاعتى موقف القاضى العدل كما وعدتهم بذلك .

والاقتباس كما يقول الحموى فى كتابه خزانة الأدب : « هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة أو آية من آيات كتاب الله خاصة ؛ وهذا هو الإجماع » . ثم قال : والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ، ومردود .

فالأول — ما كان فى الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك .

والثانى — ما كان فى الغزل والرسائل والقصص .

والثالث — على ضربين : أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه ، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بنى مروان ، إنه وقع فى شكاية من عماله : إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ؛ والآخر تضمين آية كريمة فى معنى هزل .

ثم قال الحموى : والاقتباس على نوعين :

نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه كقول الحريرى : « فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، حتى أنشد فأغرب » .

ونوع يخرج به المقتبس عن معناه كقول ابن الرومي :

لقـــد أنزلت حاجاتي بواد غـير ذي زرع

انتهى كلام الحموي .

وكما يكون الاقتباس من القرآن فكذلك يكون من الحديث ومن الفقه وغيرهما ؛ ولكن الإجماع على الاقتباس من الأول وهو القرآن ، والعلماء بعد مختلفون في الاقتباس من غيره .

والإجماع أيضاً بين النقاد على أن القاضي الفاضل فارس هذه الحلبة ، ومالك أزمة هذا الفن . وإذا جاز لنا أن نستعير تعبير ابن الأثير قلنا : إنه إن كان غير الفاضل ممن تقدمه أتى بشيء ، فإن الفاضل ركب فيه جوادا وركب غيره حمارا ، ونال منه نهلة واحدة ، ونال الفاضل منه نهلا وعللا .

ولنا بعد ذلك كله أن نعرض لبعض النماذج اليسيرة من هذا الصنيع الفاضل الجليل — وهو الاقتباس من القرآن الكريم — ليرى القارئ بنفسه كيف كان الفاضل يجيد استعماله ، ويحسن اختياره كما يحسن الصراف الماهر أن يتجهبذ في نقوده ، أو كما يحسن الصائغ أن يصوغ قلائده وعقوده ؛ أو كما نرى الرسام الماهر ينظر في صندوق ألوانه فيكون إعجابه بلون منها أشد من إعجابه ببقية الألوان الأخرى ، فيأبى إلا أن يؤثر هذا اللون نفسه بالاستعمال ، ويحس باللذة حين يرى هذا اللون في لوحته الفنية غالباً على سائر الألوان .

فمن نثر هذا الكاتب مما جمعه له جمال الدين بن نباتة في أوراق أسماها « الفاضل من كلام القاضي الفاضل » قوله :

« ولقد فضح الأوائل وأتعب الأواخر ، ونبذ للناس الحصى ونظم الجواهر ، وتمسك بعصم الكلمات المؤمنات وتمسك البلغاء بعصم الكوافر الخ » .

وقوله :

« ولئن كان هذا القلم أمسى كعنترة شجاعا ، لقد أمسى كالأحنف حلما ، قد أدرّ بدواته قلما ، وفرعا سا ، ولا يخصف عليه من ورق جنة البلاغة قرطاسا . فلله أقلام في كهف الدواة كأهل الكهف تحسبهم أيقاظا وهم رقود ، وتظنهم أحياء وهم أموات في اللحود ؛ ولولا أن مولاي آدم البلاغة لما استشعرت ملائكة الأقلام له الطاعة بالسجود الخ » .

وقوله :

« أهلاً بطلعته فإنها في غربتنا مشرقة ، وبخواطره فإنها لا تدخل من باب واحد وتدخل من أبواب متفرقة الخ » .

وقوله :

« وما أشبه الكلام معها بالحديد إلا أن قلمها داود ، ولا كتبها في البديع إلا محشر سليمان وقد عرضت عليه جنوده الخ » .

وقوله :

« كتاب كريم من حيث نسبته إليه ، كليمي من حيث نسبته إلى البيضا من يديه ، مسيحي من حيث إنه أحيا موات الأنس ، محمدي من حيث كاد مما نفثه من روعي روح القدس الخ » .

وقوله :

« وأمور الدنيا قد ضربت عنها صفحا وطويت كشحا ، والخواطر قد ركدت عنها للموريات قدحا ، وأقلام قد سالت منه المغيرات صبحا الخ » .

وقوله :

« يا سيد أخيه لا تسأل عن خاطر تتناوب عليه النوب ، ولا يأوي إلى ظل إلا وجده ذا ثلاث شعب ، فدعني أودع هذا اليتيم الذي هو قلبي ، وأحيط هـذا الجرح الذي هو في ، لئلا أتكلم فيسيل دمي » .

وقوله :

« وضايقوا عكا بأبراج خشبية ضربت مع الأبراج الحجرية الصاف ، وتقدموا بمنجنيقات محاربة لله ورسـوله قطعت أيديها وأرجلها من خلاف الخ » .

وقوله :

« وكأن الصباح قد ذاب في الليل قطراً ، وكأن البرق

لما ساوى الظلام بين صدق الليل والنهار قال آتونى أفرغ عليه قطراً » إلخ .

وباختصار لا يكاد الباحث يظفر برسالة من رسائل هذا الكاتب إلا ويجد فيها ميلا شديداً ومقصوداً إلى الاقتباس من القرآن الكريم . وظاهر أن الاقتباس هنا له طريقة خاصة لا يحذقها غير من كان فى مرتبة الفاضل من الأدب والبلاغة . فالاقتباس فى حقيقته ليس إلا نثراً للقرآن الكريم على طريقة تشبه طريقة ابن العميد وغيره من الكتاب المتازين فى نثر المنظوم ؛ وليس كل الناس قادرين على سلوك هذه الطريقة الأدبية اللطيفة ، وهى حل الآيات القرآنية الكريمة ، وتحلية الرسائل بها بحيث لا تبدو هذه التحلية نابية فى مكانها ، أو سمجة فى منظرها .

وعلى هذا فأول ما يمتاز به النثر الفاضل هو هذه الخاصة الفنية التى نسميها (نثر القرآن) ، والاستفادة منه على سبيل الاقتباس . ولهذا النثر للقرآن شروط وأوضاع ذكرها ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) ، وأبان عن طريقة استعمالها ووضع يده على مواضع جمالها . وللباحثين أن يرجعوا إليها ليروا مبلغ عناية القوم بها فى ذلك العصر الذى عاش فيه الفاضل زعيما للأدب ، وزعيما للسياسة ، وزعيما للمجتمع .

وقبل أن أترك هذا المقال أعود إلى القول إنه وإن كان مثل هذا الأسلوب الرفيع خليقاً بالاحتذاء والتقليد ، فإنى لم أعرضه على الناشئة من أدبائنا ليقلدوه أو يحتذوه . فأكبر الظن أنه يصعب عليهم ذلك إلى درجة كبيرة ؛ ولكنهم إذ يجدون صعوبة فى محاكاته ، لا ينبغى أن يفوتهم الشعور بجماله . وليكونوا فى هذا أشبه شىء برجل وجد فى نفسه رغبة قوية إلى دخول متحف من متاحف النحت أو الرسم أو التصوير ، فدخله واستمتع بما فيه من صور ورسوم وتماثيل ، وإن كان لا يأنس من نفسه المقدرة على مجاراة أصحابها فى مضمارهم ، أو التشبه بهم فى مذهبهم والتعلق بهم فى الفن الذى وقفوا جهودهم عليه .

عبد اللطيف حمزة

بين المسموع والمقروء

هجرة الإنسان وهجرة الحيوان

قديماً قال الرجل العابث : لذة الهوى في التنقل .

وقديماً قال الشاعر الناصح : وسافر ففي الأسفار خمس فوائد .

والناس من قديم تألف التنقل ، وتألف السفر والنزوح — تألف الهجرة . فالترك قوم جاءوا قديماً من شرق آسيا إلى غربها . والروس جيل من الناس جاء كذلك من الشرق وانزاح وتمدد حتى بلغ القلب من أوروبا . ولا زال الأوروبيون إلى اليوم يذكرون للروس هذه النزحة القديمة كأنها كانت بالأمس القريب ، ويذكرونهم بها عند الخصومة ، فيقولون لهم إنكم أسيويون ، وإنكم شرقيون ؛ أي أنهم في أوروبا دخلاء . ولو نظر هؤلاء الخصماء إلى أنفسهم لعيّر بعضهم بعضاً بأنهم جميعاً دخلاء غرباء فيما يستوطنونه اليوم من بلاد . فهم ما حلّوا ما يحلّونه اليوم من أرض إلا من بعد هجرة . فهجرة المجر معروفة مشهورة يدل عليها لسانهم ورؤوسهم وطباعهم وعاداتهم ؛ وهم كالروس جاءوا من الشرق . ومن الشرق جاءت الأمم السلافية والتشكية . ونزوح البربر من شمال أوروبا إلى جنوبها على الدولة الرومانية مذكور . وفرنسا في اسمها دليل على من دخل فيها من قبائل الفرنكو ، وهي قبائل من الجرمان . والإنجليز لو رأوا في أمر بلادهم ما يراه بعضهم في أمر فلسطين ، إذن لنزحوا عن إنجلترا ، عن إنجلاند ، عن أرض الملائكة ، فعادوا عبر المانش إلى أرض أوروبا ، أرض الشياطين !

والهجرة كانت في القرون الماضية ، وهي لا تزال كائنة بين بني الإنسان في القرون الحديثة الحاضرة . فهجرة الأجناس الأوروبية إلى أمريكا هجرة لم يمض على ابتدائها أربعة قرون وبضعة من قرن . فكرستوفر كولومبس إنما مات عام ١٥٠٨ ؛ وهي هجرة قائمة لم تتم بعد . والهجرة إلى أستراليا ونيوزيلنده قائمة لم تنته ، ولن تنتهي مادام أن هناك الأرض الواسعة والماء الوافر والعيش الصالح . وإفريقيا لا تزال تُستَعمَر ، وهي ستصبح للأوروبيين بتقدم العلم مساكن وأوطان .

وما الدافع على هذه الهجرة الدائمة ؟ قال قوم إنها طبيعة الجنس التي أودعها الله آدمه ، تأبى عليه إلا انتشار الجنس على سطح الأرض حتى تكون له ، ويكون أنا ربّها . وقال قوم إنه جفاف العيش في منزل ، وطراوته في منازل أخرى . وقال قوم إنه الاضطهاد الديني في القرون الوسطى بأوروبا حمل كثيراً من المؤمنين على الهجرة إلى أمريكا هرباً من الظلم والحيف ، وطلبا للإيمان ينطقون به طلقا ، والعقيدة يرسلونها في فضاء الله الواسع إرسالا .

والهجرة لم تقتصر على الإنسان أبداً .

فهي في الحيوان ، عاليه ودانيه ؛ وهي في الطير ساكن الهواء ، وفي السمك ساكن الماء . والعلماء يوجسون خيفة أن تكون الهجرة بين الأحياء أشيع مما حسبوا ، وأشمل مما قدّروا . وهي في شيوعها وفي شمولها قد تفوت الناظرَ لصغر نطاقها . فالذي يلفت النظر إنما هي الهجرة الواسعة . ولقد كان العلماء اطمأنوا إلى أن الهجرة مبثوثة منشورة في كل ذات جناح ، وكل ذات زعنفة ، ومبثوثة منشورة في الحشر . وأمّا ذوات الأثداء من الحيوان فهي أكثر ثبوتاً بأرضها ولصوقاً بمَعشَتها . وذلك لحاجتها إلى الوضع ، ثم إلى الإرضاع ، لاسيما الطويل منه ، ثم العناية بالولد من بعد ذلك حتى يشبّ ويقوى على الكفاح .

قال الرسول (ص) : إن الولد مَجبنة . وقال الشاعر :

« لولا بنيّات كزُغب القطا
رُددنَ من بعض إلى بعض »

« لكان لي مضطرَبٌ واسع
في الأرض ذات الطول والعرض »

ومع هـذا فقد وجدوا من ذوات الثُّدِيّ ، ذوات الإرضاع ، من تهاجر ولو فى حدود ضيقة ؛ ومن هـذه الفيلة ، فقد وجدوا منها من يبدأ هجرته فى بطء ، لغايات تختص بالإنسال ، فلا تتم إلا بعد عشرة من السنين ، لا ترى فى أثنائها ذكر أنثى . ومن أمثلة ذلك أيضاً طوائف من القردة فى جنوب أمريكا ، وجدوها تهجر فى غاباتها مكاناً الى مكان ، ثم هى تتأرجح بين المكانين فلا تخرج عن نطاقهما أبداً .

والأَيِّلات ، وهى ضرب من ضروب الوعل والغزلان ذات قرون ، تهجر مناطقها القطبية الشمالية إلى ما دونها من المناطق المعتدلة فى الربيع ، ثم تعود أدراجها شمالاً عند سقوط ورق الشجر بحلول الخريف . وقد يختلف الجوّ فيتغير تغيراً باغتاً ، فتهرع كل أسرابها إلى الرحيل فى غير توافق ولا تقاطر ، فتسد بها الطرق وتفيض على الساحات ، فلا يرى البصر لها آخراً إلا الأفق البعيد . ومن الهجرة ذات المدى القصير هجرة «السمك» ذى القشر المعروف فى مصر بأبى جلمبو ، واسمه بالإنجليزية كراب Crab . فهذا يوجد جنس منه يسكن الأرض من جزيرة جميكا ، فى الجانب الأمريكى من المحيط الأطلسى . وفى كل عام ، تؤذن الطبيعة فى أفراده بالهجرة ، فيقومون رحلة واحدة ، ومقصدهم بعض نواحى الساحل يطلبونها عاماً بعد عام . وهم يتخذون إليها طريقاً مستقيماً لا يحيدون عنه لعائق من نجاد أو وهاد ، أو حتى من منازل ، فهم يركبونها ركوباً إلى الماء . وفى الماء تضع الأنثى ما حملت من البيض . وهى بيض ينفقس عن دود نشأته الأولى لا بد أن تكون فى الماء ؛ فى سبيل الولد تلقى هذه الخلائق ما تلقى كل عام .

وهجرة قصيرة تهجر مساكنها صنوف من الضفادع تسكن الشجر فى أوسط إفريقيا . حدّث عالم قال :

نزلنا فى وادٍ ضيق بين الغابات . ثم جاء فصل الأمطار . فلما نزلت غزيرة ، استيقظنا ذات ليلة فوجدنا الوادى قد غزاه طائفة من الضفادع ، ذوات العظم الأخضر ، تسكن أعالى الأشجار . وما هى إلا ساعة حتى احتاطت بنا هذه الضفادع من كل جانب ، ودخلت إلى الخيمة فملأتها . وخرجنا بالنور تخيّل إلينا أن لجاج الأرض جميعاً قد ملأتها هذه الضفادع . وإلى أين ؟ إلى الغدير تطلب شاطئه ! ومضى يوم أو يومان ، نزل بعدهما إلينا جنس آخر من الضفدع صغير ، فيه غبرة وفيه صفرة . ومضى يوم أو يومان نزل بعدهما نوع أكبر أغبر ينط الأرض إلينا نطّاً فى طريقه إلى الماء . وعددنا الأجناس فكانت اثنى عشر جنساً أو تزيد . ومن عجب أنها عادت جميعاً فى خلال شهرين — عادت الى مساكنها من الشجر فى الغاب تقضى بقية العام حتى يحين رحلة الأمطار ، ورحلة الصيف ، من جديد .

وإن ينس الإنسان فلن ينسى هجرة الجراد أبداً ، لأنها هجرة الخراب والدمار . وهى هجرة يشقى بها الخلق من قديم الزمان . والجراد يخيف بدماره وبكثرة أعداده . لحص العلماء أخيراً رِجْلاً من أرجاله فى منطقة من مناطق البحر الأحمر ، فوجدوه قد غطى ألفى ميل مربع من تلك الناحية ، وحسبوا وزنه فكان ٤٢٨٥٠ مليون طن من الجراد . وعلى كبر هذا الرِّجل وضخامته ، بل إراعته ، فقد مرّ بهم فى اليوم التالى رِجْلٌ أكبر منه وأعتى . ومرّ من الطريق نفسه ، وإلى الوجهة عينها .

وهجرة الجراد لا تكون كل عام ؛ فهى هجرة باغتة لا يدرى إنسان متى تكون . ويعللونها بأن الجراد له مواطن دائمة يسكنها اضطراداً . ولكن يأتى عام يتكاثر فيه تكاثراً سريعاً مريعاً ، فتضيق به مساكنه طعاماً ، فيطلبه من حيث يرحل من الأرض .

ولكن ما الذى حمل الجراد على تكاثره الباغت هذا ؟ سرّ فى جوف الزمان ، لم يشأ الله بعدُ أن يكشفه لإنسان . أم هو شاء فانكشف ؟! لعلك قائل معى ذلك بعد سماع هذه القصة التالية قصة فأر النرويج ، أو فئرانه .

فى تلك البلاد ، بلاد النرويج ، جبال عالية ، هى كل أرضها تقريبا ، وهى تنحدر فى الغرب إلى البحر انحدارا . وأنت تعلم أن الشجر ينمو فى السهل ، وينمو فى الجبل ، ولكن إلى ارتفاع معلوم لا يقوى الشجر على الحياة بعده . ثم تأتى منطقة فوق منطقة الشجر لا تنمو فيها إلا الحشائش والأعشاب قصيرة منقوصة .

فى هذه المنطقة الأخيرة من تلك البلاد يعيش جنس من أجناس الفئران يعرف باللامنج Lemming وهو يعيش عيشة هادئة مستقرة . وهو يعيش فى مستعمرات مستقل بعضها عن بعض ، فلا يختلط قليل منها بقليل ، ولا يجور بعض منها على بعض .

ولكن يحدث أن يأتى عام تتكاثر فيه الفئران تكاثرا شديداً غير مألوف ، فتزيد أجراء البطن الواحد ، وتتقاصر المدة بين البطون . وفصل الأنسال فى العام يطول . وينتج من كل هذا أن تأخذ المستعمرة يزيد أهلها من الفئران زيادة مضطردة ، إذ لا يلبث أن يلد الأبناء فى كثرة ككثرة الآباء . والمستعمرات المجاورة باقية على حالها ، فلا تزداد تكاثرا ، ولا تزداد عددا .

ثم يحدث شىء آخر غريب . فهذه الفئران يسطو عليها جوارح الطير والحيوان فيكون منها غذاؤها . فى فترة تكاثرها ، لوحظ أن هذه الجوارح الأكلة من بنات عرس ، ومن البوم والصقور ، تزداد تناسلا ، فتزداد هى الأخرى كثرة تلاحق بها كثرة الفئران .

ثم يضيق بالفئران السكان ، فتبدأ الهجرة . وهى إذا بدأت لن تقف . فتهبط ملايينها على الجبل زحفا زحفا فى انضمام وارتصاص ، كأنها الغمام وهبط على الأرض فأخذ ينسحب عليها كما تنسحب السحب فى السماء . وشهرا شهرا ، يأخذ الزحف وجهته نحو البحر . وقد يستغرق رحيله عاما ، وقد يستغرق عامين . ودبيب هذا الجيش العارم لا ينقطع ، وطوائف الطير من فوقه لا تنقطع . فيأكل منه الطير ، ويأكل منه الحى الذى تلاحقه بسبب ما لوّث من ماء شرابه . ويأكل منه الغرق عندما يحاول عبر الجداول والأنهار التى يلقاها فى طريقه اضطرارا . وأخيراً يطوى البقية الباقية منه ماء المحيط الأطلسى ، فالفئران تدخله تحسبه بعض الجداول فتغرق فيه .

وطلبوا سرّ هذا ، فشرّحوا هذه الفئران ، فوجدوا أجهزة الأنسال بها قد تغيّرت وتطوّرت . وظنوا أن شيئاً أكلوه فعل بهم هذا؛ وازداد العلماء بحثا فازدادوا بذلك استيقانا . وعلى استيقانهم لم يعرفوا ما هذا الشىء ، المأكول المجهول ، فأسموه سينا . وتجرى الأيام ، ويتطوّر العلم ويتقدم ، فيكتشف العلم أشياء شتى ؛ من مركبات فى النبات ، تدخل جسم آكله فيكون بها نماؤه ، ويكون بها انتظامه . وكشفوا أشياء فى جسم الحىّ من الحيوان ، يفرزها إفرازاً ، تنضبط بها فيه فروض الحياة جميعاً ، ومنها الأنسال . وأسموه هذه بالهرمونات ، وأسموا تلك بالفيتامينات .

عندئذ ذكر العلماء تلك المادة المجهولة فى الفئران التى أسموها سينا . وطلبوا الهرمون فى أجسام هذه الفئران فوجدوه . وطلبوا الفيتامين فى نبات الأرض وحيث تغدو هذه الفئران وتروح ، فوجدوه فى نوع صغير من النبات يلتف الأرض أشبه شىء بنبات الحزاز ، ويسمى النباتيون أجناسه بالصخرية الصفلية بالـ Lichens . وإذن فقد تفسّر الحلم الرهيب أو كاد .

فالفئران أكلت هذا الفيتامين . وأفرزت غددها النخامية ، بسبب ذلك ، الهرمون ، فدفعها إلى الإنسال دفعا . واختزنت أجسامها الفيتامين . فلما جاءت جوارح الطير فأكلت هذه الفئران أكلتها بالذى فيها من محرّكات إلى الأنسال ، فتحرّكت إليه . فكان من ذلك تكاثرها هى الأخرى .

وهكذا يدفع الله الحيوان بعضه ببعض ، حتى لا تفسد الأرض . ولله فى خلقه شئون .

أحمد زكى

الشيخ عبد الرشيد إبرهيم

قرأت في « مجلة الثقافة » المقال الذي خطه صديق الأستاذ حمزة طاهر من السياح المسلم الكبير الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، الذي توفي في اليابان منذ ثلاثة أشهر، فثارت في نفسي ذكريات هذا الشيخ المجاهد، الذي ولد في سيبريا قبل ثمان وتسعين سنة وجاهد لإصلاح المسلمين، ولاسيما مسلمو الروسيا، وتهذيبهم والدفاع عنهم. وطوّف في الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية عشرات السنين، ثم انتهى به الجهاد الدائب والعزم الماضي إلى الموت في اليابان. مات في اليابان وهو يدعو إلى الإسلام.

لا أدري متى سمعت عن الشيخ عبد الرشيد لأول مرة، ولا متى رأيته أول رؤية؛ ولكن أعرف أني رأيت في صباي جزءاً من رحلات الشيخ عبد الرشيد وسمعت من أخباره، ثم قرأت رسالة له إلى صاحب المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا وهو وزير مصر في لندره، ثم رأيت في مصر الرحل الذي سمعت به وقرأت له فأكبرته وعنيت لقاءه. رأيت هذه البنية القوية، وهذا المحيا الكريم، وأصغيت إلى حديث الشيخ الرحالة المجرّب يبين عن آماله في المسلمين وآلامه، ويحدّث عن مشاهده وتجاربه في السنين الطويلة والأقطار الكثيرة. ورأيته حين قدم إلى مصر قدمته الأخيرة وهو في طريقه إلى اليابان؛ شرفني بزيارتي في حلوان مرات؛ وقابلته مرة في دار عزت باشا.

وكان مجلسه يجمع المختلفين في المآرب والمذاهب على الإعجاب به والعجب منه؛ من مُصغٍ إلى شيخ مسلم رحالة يتحدث عن جماعات المسلمين ويصف أدواءهم وأدويتهم؛ ومن منصت إلى عجائب الأسفار وغرائب الأوطان؛ ومن مُكبِر لهذا الشيخ الوقور لا تقعد به السن من الأسفار البعيدة. بل رأيت الصبيان يتطلعون إلى مجلسه ليروا الرحالة التركي الهرم الذي جاب مشارق الأرض ومغاربها، ورأيتهم يسرعون إليه متعجبين حين طلب مرة ماء ليشرب، وكانوا ظنوا أنه لا يشرب الماء عجزاً منه بالشاي.

وحمل الشيخ الشارف للتسعين عزمة ماضية، بل حملته العزمة الماضية إلى اليابان ليدعو إلى الاسلام؛ وكانت إحدى أمانيه كما قال الأستاذ حمزة أن يرى مسجداً في طوكيو فاستجاب الله له فأراه في اليابان مسجدين.

كان من مكانة هذا الرحالة في نفوس من يعرفه من المسلمين، ومن مواصلة الأسفار للاطلاع على أمورهم، وإكثار الكتابة والحديث عنهم، أن اتخذه محمد عاكف رحمه الله، وهو الملقب في تركيا « شاعر الإسلام »، اتخذه « بطل قصة » وجعله واعظاً في جامع السلطان سليمان حينما نظم منظومته التي سماها « في كرسي السليمانية » — سليمانيه كرسيسنده — لم يجد عاكف بك أولى من الشيخ عبد الرشيد بأن يعظ في جامع سليمان القانوني ويبين أدواء المسلمين ويطب لهم، ويدعوهم إلى ما فيه رشدهم.

وسأترجم في السطور الآتية ما نظمه الشاعر الكبير عاكف في وصف الرحالة الكبير عبد الرشيد. فنذكر الصديقين معاً، ونذكر تآزرهما، ونسأل لهما المغفرة. قال عاكف: « وأسرعت الجماعة نحو الكرسي. فيا عجبا مَن على الكرسي؟ شيخ إلهيّ السيما، كأنما ينبض قلبه في جبينه، تحيط لحيته الطاهرة الناصعة وعمامته البيضاء الناصعة بجبهته الواسعة ووجهه الذي يرف عليه ضوء الصباح، كما تحيط الهالة بالبدر. أربّ ما هذه الصباحة وما هذه المهابة، وما هاتان العينان، بل الشهابان السماويان اللذان يحرقان الإدراك بشعاع واحد منهما؟! وما هذه الحزمة

النورانية الجائشة من عينيك ، ولهذه الأرواح المسكينة التي تهفو إليك !

لا تحسبوا أني ارتقيت هذا الكرسي لأعظ . لست عالماً فلا يخدعنكم هذا الزي ، حسبكم علماؤكم يفقهونكم في دينكم ، ويفتونكم فيما يشكل من أموركم . ولكني صعلوك ما شئتم عن العالم الإسلامي فما تركت به بقعة إلا زرتها وطوفت في أرجائها . جبت ما بين أقصى الشرق والمغرب الأقصى ، ولم أدع وطناً للمسلمين في آسيا وأوربا وإفريقية إلا عمته وتعرفت ماضيه وحاضره .

وقد حطمتني الأسفار المتمادية ، وفتأتني الرحلات المتوالية ، ولم أصبر على المضي في طريق لولا نداء لا ينقطع ينبجس من أعماق نفسي ألا تقف ، تقدم ، امض في سبيلك . نداء غيرتي على ديني ، الغيرة التي تضطرم كالبركان بين جوانحي ، فلا أطيق وقوفا ، ولا أثبت في مكان ، ولا يقيدني حب النفس ، والوطن والأهل والولد ، لا لا ! إنها لا تثنيني عن عزمي ، ولا تعدل بي عن مقصدي ، لا أبغي غيرَ هذا . ذلكم كل أملي لا أبغي سواه ... الخ »

صوَّر عاكف في هذه الأسطر ، وفي صفحات عدة من منظومته ، بعض ما أعربت عنه سيما عبد الرشيد وسيرته .

ولقد صدقت تصويرَ الشاعر الكبير أعمالُ الرحالة المجاهد ، فلم يقر قراره قبل موت عاكف ولا بعد موته ، ولم يثنه حب الولد والوطن عن التسيار وراء آماله ، حتى طوت أرض اليابان ثمانيةً وتسعين عاما من حياة خلقت للسير والعمل .

* * *

رحم الله عبد الرشيد في مثواه من بلاد اليابان ! ورحم عاكفاً في مستقره من مقبرة الشهداء عند أسوار إستانبول(١) .

(ع)

(١) دفن عاكف في مقبرة شهيد لك

كان(١)

كان أصبر الناس على أقذار الناس .

كان كلامه كلاماً فصلا يفهمه كل من سمعه .

كان أبغض الخُلق إليه الكذب .

كان أحب العمل إليه ما دووم عليه وإن قل .

كان إذا أراد أن يستودع الجيش قال : أستودع الله دينكم وأمانتكم .

كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضاً عنه حتى يحدث توبة .

كان إذا خرج من بيته قال : باسم الله توكلت على الله ، أعوذ بك من أن أزل أو أضل ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل عليّ .

كان إذا خلا بنسائه ألين الناس وأكرم الناس ضحاكاً بساماً .

كان إذا غضب وهو قائم جلس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب عنه الغضب .

كان إذا كره شيئاً رؤى ذلك في وجهه .

كان أرحم الناس بالصبيان والعيال .

كان لا يقبل قول أحد على أحد .

كان لا يتطير ولكن يتفاءل .

كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم .

(١) أحاديث في وصف رسول الله مبدوءة بكان .

في الميزان الجديد

تمهيد
لتاريخ الفلسفة الاسلامية

أصدرت لجنة التأليف كتابا بهذا العنوان لمعالي مصطفى عبد الرازق باشا . والمؤلف رجل طويل الأناة ولكنها أناة القراءة المتصلة والدقة في جمع العناصر وتمييزها ، ووضع كل منها حيث يجب أن يوضع من البناء العام . ومن قبل ألح على المؤلف تلاميذه أن ينشر ما تلقوه عنه من دراسات ولكنه لم يسارع إلى إجابة هذا الرجاء . وهاهو اليوم ينشر « التمهيد » فيحس القارئ عند الفراغ منه أنه كتاب من موسوعة كبيرة لابد أن المؤلف كان يضمرها ، ثم صرفته لسوء الحظ مشاغل الحياة العامة فنزل على حكمها ونشر ما فرغ منه على أنه تمهيد كامل مكتف بذاته .

فالكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة : القسم الأول يتناول مقالات الغربيين والإسلاميين في الفلسفة الإسلامية ، وفيه يستعرض المؤلف أحكام المؤرخين للفلسفة الإسلامية من مستشرقين وشرقيين . والمؤلف رجل هادئ الطبع حتى لتأتي أحكامه متأخية لا أثر فيها لانفعال . تراه ينقل ما كتبه بعض الغربيين كتنيمان ورينان وكوزان وغيرهم ممن تحاملوا على فلاسفة المسلمين وأنكروا أصالتهم ، ثم يهوله ما يحسه في أقوالهم من مجانبة للحق فيناقشهم في رفق وإن لم يخل من حزم . وكثيراً ما يترك لغيرهم من الغربيين كجوتييه مثلا أو موتك مئونة الرد وإظهار فضل العرب المجحود . وهو في استعراضه عاشق التاريخ ، وإنك لتحس بفرح حقيق يخالط نفس المؤلف عند ما يلاحظ أن المستشرقين بتقدم الزمن أخذ تعصبهم ضد العرب يخف ، وحرصهم على الحق يقوى ، وإن يكن قد عاد فابتأس إذ رأى فكرة الآرية تظهر فتوقظ التعصب القديم ساترة به وجهة أخرى . والمؤلف من الاعتدال وإصابة الرأي والحرص على الأمانة العلمية بحيث لا يكابر أحداً ، فلا يدعي أن الفلسفة الإسلامية أصيلة أصالة مطلقة ؛ بل كل ما يرى هو أنها لم تكن مستعبدة لأرسطو خاصة أو لليونان بوجه عام . ففلاسفة العربية قد أخذوا من غير أرسطو من اليونان وبخاصة أفلوطين ، كما أخذوا عن الفرس والهنود ، بل وكانت لهم منذ صدر الإسلام بل من أيام الجاهلية حكم عملية ونظرات ، إن لم تصل إلى حد النظام الفلسفي فإنها لم تعدم روح الفلسفة . ولقد استطاع المؤلف أن يستخلص من استعراضه لدراسات المستشرقين اتجاههم العام في تلك الدراسة ، ودلنا على هذا الاتجاه في مقدمته إذ قال : « والباحثون من الغربيين كأنما يقصدون إلى استخلاص عناصر أجنبية في هذه الفلسفة ليردوها إلى مصدر غير عربي ولا إسلامي ، وليكشفوا عن أثرها في توجيه الفكر الإسلامي » . وهذا حق ، فالغربيون بحكم إلمامهم بالفلسفة الغربية القديمة وبخاصة اليونانية قادرون على أن يناقشوا مصادر الفلسفة الإسلامية ، وأن يبصرونا بالكثير من حقائقها ، وذلك على شريطة أن يناقش آراءهم علماؤنا الذين أفنوا أعمارهم في دراسة تلك الفلسفة حتى يقوموا ما قد يكون فيها من مجافاة الحقيقة من الشاق الاعتصام منها . وإنها لمكرمة نفسية وعلمية للمؤلف أن لم يلاق تحاملا بتحامل ؛ وأكبر ظني أن المستشرقين أنفسهم سيقرأون كتاب هذا العالم الفاضل بتقدير واحترام . ولا يقف المؤلف في هذا القسم الاستهلالي من الكتاب عند استعراض مقالات المؤلفين الغربيين والإسلاميين في الفلسفة الإسلامية ، وقيمتها ، بل يضيف إليها فصلين هامين : أولهما في تعريف الفلسفة وتقسيمها عند الإسلاميين ، فيستعرض آراء الكندي والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا ، ثم يمهد لنظرته الخاصة إلى الفلسفة ومنهج دراستها ، فيقودنا في رفق إلى التدليل على

أن حكمة الإشراق وعلم الكلام واتجاهات التصوف وأصول الفقه من صميم الفلسفة بمبادئها ومناهجها ، وهذا من مواضع الجدة في الكتاب ؛ فقد وسع المؤلف من نظرته إلى الفلسفة الإسلامية ، وبذلك أعطاها كل قيمتها . وليس من شك في أن هذه المباحث التي عددناها هي التي ظهرت فيها أصالة المفكرين من العرب ، وهي لاريب أحق بأن يدرسها الباحثون من الاكتفاء بالرياضيات والطبيعيات والإلهيات التي هي بها فلاسفة الإسلام بالمعنى الضيق ؛ فقد كانت جهودهم فيها مهما بلغت من الدقة والتفصيل لا تعدو أن تكون إلى حد بعيد قائمة على فلسفة أرسطو ، ولا كذلك الكلام أو التصوف مثلا ، حيث تظهر أصالة المتحدثين فيها كما تتجلى روحانية الشرق . والفصل الثاني يتناول الصلة بين الدين والفلسفة مستعرضاً رأي الفلاسفة ورأي علماء الدين . ولقد اختار المؤلف في هذا الاستعراض وجهة خصبة موحية ، إذ ركز النظرة إلى الهدف النهائي من الفلسفة والدين من حيث إن كلا منهما يسعى إلى أن يسوق الفرد إلى الكمال ؛ وهو بذلك يمهد تمهيداً قوياً إلى حل الخلاف الذي احتدمت ناره بين الفلاسفة وعلماء الدين.

هذا الجزء كله بفصوله الثلاثة : آراء الشرقيين والغربيين في الفلسفة الإسلامية ؛ وتعريف الفلسفة وتقسيمها بين الإسلاميين ؛ والصلة بين الدين والفلسفة عند الإسلاميين ، هذا القسم كله لا يعدو أن يكون مقدمة عامة لموسوعة كبيرة في تاريخ الفلسفة الإسلامية . وهو وإن لم يخل من روح المؤلف وتوجيهه العام إلا أنه إلى الاستعراض أقرب.

وأما الجزآن الآخران ففيهما تظهر شخصية المؤلف سافرة ، ويتضح منهجه حتى لكأنهما فصلان كبيران من الموسوعة التي كان يترسمها . وأول هذين القسمين يبتدئ بمجمل سريع عن بداية التفكير الفلسفي الإسلامي ، ثم ينتقل إلى النظريات المختلفة في الفقه الإسلامي وتاريخه ؛ وهنا تظهر أستاذيته ، بحيث يتضح أن هذا الجزء من خير وأعمق ما كتبه باحثونا في العصر الحاضر : ففيه تجد دراسة تاريخية مفصلة لمصادر التشريع في الإسلام ، وتتبع دقيق لنشأة كل مصدر واستحصاده ، ثم موازنة بينها وتقدير لآثارها ، مع تفصيل القول في اتجاهات أصحاب المذاهب الأربعة وتحديد خصائص كل منهم على أدق وجه وأحكمه .

وأما الجزء الأخير فقد سماه المؤلف « ضميمة في علم الكلام وتاريخه » ، ولا غرابة أن نرى هذه « الضميمة » في « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » ؛ فقد بصرنا المؤلف عنحاه في فهم الفلسفة ومشتملاتها ، وقد رأى بحق أن الكلام والتصوف أجزاء منها ، وأكبر ظني أن هذا الجزء أيضا كان في تقدير المؤلف فصلا من الموسوعة . وهو ينهج فيه نفس النهج الذي انتهجه في السابقين ، فيساير خطى الزمن ويتتبع نشأة العلم منذ بدايته في عهد النبي إلى أن انتهى الأمر بتدوينه في عهد العباسيين ، وما أظن أن هناك منهجا أسلم من هذا المنهج .

منهج المؤلف في الدراسة هو المنهج التاريخي ، وهو بذلك يحل في سياق دراسته أنواعاً لا تحصى من المشاكل التي يتخبط فيها الباحثون عندما يختارون مناهج أخرى ، كالمقارنة بعد التقرير . وإنك لتتابع المؤلف فتستطيع أن تستخلص الأصيل من تفكير العرب والمستعار ، وتميز بين ما أخذ وما أضيف ، بل إنك لتماشى العقل العربي كله في حرارة عمله ومجهود خلقه ، وهذا كسب ليس بالقليل .

وإن يكن هناك مأخذ على المؤلف فقد فطن إليه هو نفسه ، عند ما اعتذر عن كثرة إيراد النصوص بأن كتابه هو مجموعة الدراسات التي ألقاها على طلبته بالجامعة ، وقد حرص على أن يتركها في صيغتها الأولى بما تحوى من نصوص يحتاجها الطلبة ليتمرسوا بفهمها والتدقيق في

كشف معناها . ولكنها شنشنة قديمة ، فقد تعقبت العلم على المؤلف وكان منهجه هو هو فى أخذنا بقراءة النصوص والتدقيق فيها ، ولكننا كنا عندئذ نجد فيه من رحابة الصدر ما يمكننا من حمله على الوقوف معنا ، فلا نغادر نصاً فى أثناء الدرس حتى نقتله فهما . وأما فى الكتابة فقد كنا نفضل أن نتناول هو الحديث مجملا الرأى ، موضحاً غامضه ، ولكننا عندئذ ربما نطالبه بما يصعب على طبعه لا على عقله ! حتى لأذكر كلمة صادقة للأستاذ أحمد الشايب عن قوله : « إن الدكتور طه حسين بك يقف أمام النصوص ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا يقف خلفها ، وأما الأستاذ أحمد أمين بك فيقف إلى جوارها » .

لقد سررت بهذا الكتاب إذ استطعت به أن أصل ما انقطع من أخذ العلم عن هـذا الأستاذ الثبت المحقق ، وإن يكن قد أحزننى أن الموسوعة لم تتم .

محمد مندور
المحامى

إذا[1]

إذا أتاك الله مالاً فليُرَ عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس .

إذا أتى علىّ يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لى فيه .

إذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه فى نفسه ، وتقاه فى قلبه .

إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم ، فقد تودع منهم .

إذا رأيت من أخيك ثلاث خصال فارجُه : الحياء، والأمانة ، والصدق .

إذا سرّتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن .

إذا كانت أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ؛ وإذا كانت أمراؤكم أشراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

إذا كانوا ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث .

إذا وجد أحدكم نصحاً لأخيه فليذكره له .

إذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا .

---

(1) أحاديث من أقوال الرسول مبدوءة بإذا .

العالم العربى

بين عامين

بقية المنشور على الصفحة الثامنة

٥ — أما القرار الخامس والأخير : فكان خاصـا بفلسطين ، ولم يكن بد من أن تصدر اللجنة التحضيرية قراراً عن فلسطين ، ينص على أن فلسطين ركن خطير من أركان البلاد العربية ، وأن حقوق العرب فيه لا يمكن المساس بهـا من غير إضرار بالسلم والاستقرار فى العالم العربى كله . وكذلك نص القرار على أن التعهدات التى ارتبطت بها الدولة البريطانية فى الكتاب الأبيض هى من حقوق العرب الثابتة التى لا يمكن الرجوع عنها .

ولم يفت اللجنة أنْ تعبر عن عطف الأمم العربية على ما أصاب اليهود من الظلم والعدوان من الدول الدكتاتورية. ولكنها صرحت بأن من الواجب ألا يخلط بين مشكلة هؤلاء وبين الصهيونية ؛ إذ ليس أشـد ظلماً وعدواناً من أن تحـل مسألة يهود أوربا بظلم آخر يقع على عرب فلسطين .

كان هذا القرار الخامس ، الخاص بفلسطين ، قراراً قوياً جريئاً ، ويمتاز على سائر القرارات بأنه قول فصل فى موضوع بعينه ؛ وبذلك أظهرت الجامعة العربية أنها تستطيع ، وهى بعد فى إبان تكوينها ، أن تتخذ قرارات جريئة حاسمة .

* * *

وبعد ، فإنى أريد أن أختم هذا المقال بنغمة من التفاؤل ، فإن هـذه هى المرة الأولى التى نقف فيها مستعرضين لحوادث العـالم العربى فى عام ، فيكون موضوع حديثنا شروع الدول العربية والحكومات العربية فى إيجاد نظام دائم للتعاون بينها ، واجتماعها فى صورة مؤتمر لتحقيق هذا الغرض . ولكن هـذا لن يمنعنا من أن نستحثها ، وأن نبلغها بأن الشعوب العربية تريد أن ترى هذا النظام يجتاز مراحله الباقية فى مدة تعد بالأشهر لا بالأعوام . . . لقد أبلغنا العام المنصرم إلى عتبة التعاون ، ونريد من عامنا هذا أن يدخل بنا المنزل ويجوب بنا الغرف والحجرات ، والغرف جميعاً .

محمد عوض محمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : [illegible] / ٥٦٢٧٩٩

العدد ٣١٤ | الثلاثاء ١٨ من المحرم سنة ١٣٦٤ — ٢ من يناير سنة ١٩٤٥ | السنة السابعة

فهرس العـــــــدد

الثقـــافة فى عامها السابع

اليوم تستقبل « الثقافة » عامها السابع كما تستقبل العام الميلادى الجديد ، وكنا ونحن نودع العام الماضى نأمل أن يكون هذا العام خيراً مما سبقه فيطلع على العالم ببشرى السلم والطمأنينة والرخاء ، ولكن خاب فيه الأمل فكان كما سبقه من أعوام أربعة دامية مدمرة ، وكان مثلها قسوة وجبروتاً ، بل كان أقسى منها ، لأن العالم كلما تقدم به البؤس ، ازداد شعوراً بالضجر والملل ، واستنفدت منه قوة الاحتمال ، فكان الألم مضاعفاً ، والنفس حسيرة وخيبة الأمل لاذعة ، ولكن كل عام يمر يحمل فى ثناياه فضل القرب من النهاية ، والأمل فى الوصول إلى الغاية . فلعل العام الذى نستقبله يكون خاتمة الفجيعة ونهاية المأساة .

ولكن ماذا عسى أن يكون حتى لو ختمت الحرب ؟ إن مشاكل ما بعد الحرب أعقد من مشاكل الحرب ، وطلائع ذلك بادية فيما نقل البونان والبلقان وإيطاليا وبلجيكا ، فما تنسمت هذه البلاد نسمة السلم — ولما يتم — حتى بدت فيها المشاكل الاجتماعية ونظام الحكم وخطط الحياة . فما بالك إذا ختمت الحرب وبرزت المشاكل كلها كاملة سافرة ؟ إن مشكلة المشاكل أن العالم تطور كل شىء فيه ، ومال إلى الوحدة فى كل نواحيه ، ولكن الشىء الوحيد الذى لم يتغير هو عقلية كبار الساسة فى طريقة حل المشاكل ، وهذه هى الصخرة التى سيصطدم بها تيار السلم . وسوف تتتابع عليها أمواج الحياة حتى تهدمها وتأتى بعقلية جديدة صالحة لأن تحل المشاكل الجديدة بالروح الجديد — روح النظر إلى العالم كوحدة لا عدة وطنيات ولا عدة طبقات ولا عدة دولات ولا عدة قارات ولا عدة عصبيات ، فإن لم يتم هذا فالحرب تلو الحرب حتى يسود هذا الإدراك — إدراك وحدة العالم الذى هو السنن الطبيعى وهو الغرض الأسمى للعالم الذى يتجه إليه لا محالة والذى لا يستطيع أحد أن يقف

أمامه لأنه القانون الطبيعي من خالفه قتل نفسه وجرى القانون الطبيعي بمجراه .

إن اختراع المخترعات من طيارات واتصال بالأسلاك وبالموجات ونحو ذلك إنما هي إرهاص من الطبيعة بقانونها الذي تريد أن يكون وهو الوحدة ، فإذا غفل عنه الساسة وأطاعوا القوانين القديمة من حزبية ووطنية وعصبية ودموية وأرادوا أن يديروا العالم على هذا الأساس كما كانوا يديرونه من قبل ، كانت الحرب وكان الخراب واستمر ذلك حتى يفهم الساسة إشارة الطبيعة أو حتى تسير الطبيعة بقانونها إلى نفوس كبيرة تستطيع أن تقضي على العقول القديمة والنفوس القديمة فتحل محلها ، إن الطبيعة التي جعلت من الشمس ضياء للجميع ، ومن الهواء تنفساً للجميع ، ومن بقعة الأرض مسكنا للجميع ، ومن قبة السماء دائرة تلف الجميع ، تأبى كل الإباء ما اصطنعه الإنسان بعقله البالي من تفريق ، بكلمة الشرق والغرب والجنس الآرى والجنس السامي والشعب السكسوني والشعب اللاتيني إلى آخر ما ابتدع من التعدد ، وقوانين العالم تريد التوحد ، فكانت الحرب وكان الخصام وكان الشقاء ، ولا يزول ذلك حتى ينسجم الناس وقوانين الطبيعة — هل بنت الطبيعة أسوارا حول كل أمة أو حول كل قارة أو حول كل جنس ، وهل جعلت لكل أمة شمسها وقمرها وبحارها وجبالها وهواءها ؟ لاشيء من ذلك ، ولم تبن الأسوار لأنها لا تريد التعدد لجاءت النزوات فأرادت أن تبني حول كل اعتبار من هذه الاعتبارات السخيفة سوراً كسور الصين ، أو سدا كسد ذى القرنين ، وكان هذا ضد الطبيعة فهدمته ، ولكن هدم الطبيعة بطيء كعادته دائم كعادته ، ولم يسايرها الإنسان في اتجاهها بل عاندها فلم تعبأ به الطبيعة وأشقى هو نفسه .

نسيت أني أتكلم في « الثقافة في عامها السابع » فتكلمت في العالم في عامه الذي لا أدري هو ماذا ، وهذا دليل على ما أريد ، فالطبيعة تكره الانحباس في حدود ، ومن أجل هذا شطح الصوفي فكان منه كلمة في الشرق وكلمة في الغرب اذ ليس عنده شرق وغرب وإنما هي وحدة الوجود — ومن أجل هذا أيضاً جعل البلاغيون الاستطراد نوعا من أنواع الفن البلاغي ولم يجعلوا عدم الاستطراد فنا أيضا — ومن أجل هذا أيضا بحث علماء النفس في تداعي المعاني ، وما تداعي المعاني إلا الشطح والاستطراد وأمثالها ، ورأوا أن النفس ملول لا تصبر على التركيز وعلى الانحباس في معنى واحد كما لا يصبر البدن على طعام واحد ومن أجل هذا أيضا ...

* * *

ولكن لابد أن أعود إلى « الثقافة في عامها السابع » ، فقد استمر ضغط الحرب علينا في الورق وفي الطبع ، في المادة وفي المعنى ، ولكن كم في هذا العالم من شر يأتي بخير ، فقد حدثت ظاهرة عجيبة في الشرق منذ عامين وكانت في العام الماضي أقوى ، وهي ميل العالم العربي إلى القراءة والإكثار منها ميلاً عجيبا في الكتب وفي المجلات ، في الجد وفي الهزل ، وسمعنا لأول مرة في تاريخ العالم العربي أن مجلة تطبع مائة ألف أو أكثر ، وأن جريدة تطبع في بعض أوقاتها ما يقرب من مائتي ألف ، ومثل هذا النشاط في الكتب العلمية والأدبية ، فقد تنبه العالم العربي ، وأخذ عقله يتطلب الغذاء كما تتطلب معدته ، وأخذ يشعر بكيانه الروحي والعقلي بعد أن أتت عليه حقبة لم يشعر فيها إلا بكيانه المادي ، وأخذ العلماء والأدباء يستطيعون أن يعيشوا بعلمهم وأدبهم بعد أن كانوا لا يعيشون إلا بوظائفهم أو على موائد الأغنياء ، وهي ظاهرة تبشر بالخير في كل ناحية ، فمتى قرأ العالم العربي تثقف ، ومتى تثقف وُجد له رأي عام يهيمن على حكومته ويوجهها إلى خيره ، ومتى تثقف تفتحت أمامه أبواب الرزق فاستغل موارده الاقتصادية خير الاستغلال وزاحم الأجنبي في هذا الباب وضغط عليه ، لأن الأجنبي إنما يغلبه بثقافته ، وبهذا يستطيع أن يعيش عيشاً أرغد ، وأن يتزود أكثر ما يكون من الثقافة ، فيفيدها كما أفادته ويتفاعل معها كما تفاعلت معه ، ويصبح معها كقصة

على باب عام جديد

بالأمس وقفنا على باب العام « القمرى » ، الذى رمز به إلى العالم العربى والإسلامى . واليوم نقف على باب العام « الشمسى » وللشمس مجال أوسع وأفق أبعد ، بحيث يشمل الشرق والغرب ، ويحتوى جميع الشعوب والملل والأجناس ، وقد أصبح واضحاً لكل إنسان أن من العبث التفريق بين شرق وغرب ، وبين الجلود البيضاء والسمراء ، فإن وحدة الكون قد أصبحت حقيقة ماثلة لكل من يستطيع أن يحس وأن يبصر . وأن المرض الفتاك إذا انتاب جزءاً من جسم هذا الكوكب ، لم يقتصر أذاه على العضو المصاب ، بل تناول جميع الأعضاء والأشلاء . . . وكأن هذا المخلوق البليد — الذى يسمونه الإنسان — لم يرد أن يعى هذا الدرس « الابتدائى » بل « الأولى » حتى يتلقاه عن أفدح الكوارث وأفظع النوائب ، ولم يرد أن يحفظه حتى يكتب له مراراً على ألواح من نار ومداد من الدم المُهراق . ومع هذا كله — وبعد كل هذا الويل والعذاب — هل تعلم الناس كيف يصلحون ذات بينهم ، وكيف يُحلّون الوفاق محل الخلاف والشقاق ؟ .

لقد انقضت خمسة أعوام وأربعة أشهر ، والعالم تُظله سحابة قاتمة سوداء ، ملؤها الصواعق والعذاب . وكانت سحابةً محدودة المدى والأذى . فلم تزل تنمو وتكبر ، وتزداد حلكة وسواداً ، حتى أصبحت تلف كوكب الأرض كله ، وتغشى كل قطر من أقطاره . وكل بحر من بحاره .

وليس من الإسراف فى شىء أن نقول إن هذه الحرب قد طال أمدها ، وكثيراً ما نسمع الأقوال تتردد بأن الشعوب جميعاً سئمت الحرب ، وليس فى هذا القول بأس كبير سوى أنه قد يفهم منه أن الحرب كانت فى يوم من الأيام شيئاً أقبلت عليه الأمم برغبة وشهوة . وأنها الآن قد سُئمت ومُلت . . .

والحقيقة أن الحرب — عند كل من له مسكة من العقل — شىء مملول مسئوم منذ زمن بعيد . ولئن كانت بعض الأمم قد سبقت إليها ، فليس معنى هذا أنها قد

مخترع الشطرنج الذى تمنى أن يضاعف كل بيت من رقعة الشطرنج عما قبله بحبات القمح ، فلم تسع خزائن الملك ما فيها من قمح وغير لتحقيق أمنيته — وسيكون قريباً جداً إن شاء الله — فى بيت كل رجل عربى مكتبة على قدر ماليته ، فيها ما يستطيع من الكتب له ولأهل بيته ، وستكون فى العالم العربى عشرات وعشرات من أمثال مجلة الثقافة والرسالة توافق أذواق القراء ، وتقدم موائد من أصناف الغذاء ، فيها القديم من التراث العربى معروضاً عرضاً جديداً ، وفيها الجديد من التراث العربى معروضاً بالروح العربى وما يتفق والذوق العربى — وستنشط الحركات العلمية والأدبية فى البلاد العربية من محاضرات ومناظرات ومجادلات فيكون فى هذا كله مدد المجلات .

ونعود إلى الثقافة فى عامها السابع فنغتبط بسيرتها إذ ظلت وفية لقرائها تبذل لهم خير ما عندها مستمسكة بالحق لا تلعب الأهواء بها ، غيورا على العالم العربى ينبض قلبها بخيره ، ويحز فى نفسها ما يصيبه من أذى ، وتعبر فى ذلك عن مشاعرها فى حدود الإمكان .

ونود أن تستقبل العام الجديد مجددة همتها ما استطاعت فى الاستزادة من نواحى قوتها ، معالجة ما استطاعت من نواحى نقصها ، موثقة صلاتها بينها وبين قرائها ، مستشعرة بأنهم وإياها أسرة واحدة تتبادل الرأى والفكر وتتعاون على خير الإنتاج ، وهداية العقول بما ينفع ، وتغذية النفوس بما يمتع .

وكل عام والقراء والثقافة بخير .

أحمد أمين

أقبلت عليها واثقة راضية ، بل قد دفعت إليها دفعاً .

فليس القول بأن الناس سئمت الحرب قولا ينطوى على الدقة والحكمة . بل الصواب أن يقال إن الشعوب التى اصطلت بهذه الحرب الضروس قد أخذت تحس أنها لن تستطيع احتمال أوارها مدة طويلة . وأنها إذا كانت قد احتملت كل هذا الويل والعذاب والحرمان ، فليس فى وسعها أن تظل محتملة إياه إلى ما شاء الله .

هذا الإحساس بأن الحرب قد طالت أكثر مما تستطيع الأمم احتماله ، إحساس موجود من غير شك . ولا سبيل إلى جحوده وإنكاره . ولعله فى ألمانيا أكثر وضوحا وظهوراً ، وأشد استفحالا منه فى أية دولة أخرى من الدول المحاربة . وحسبنا دليلا على هذا أن الشعب الألمانى الخاضع لنظام دقيق صارم ، والذى من طبعه الخضوع والامتثال لقادته وزعمائه . قد وجد فيه من يدبر المؤامرات لاغتيال الزعيم المعبود الذى أوشك أن يُتَّخذَ إلها من دون الله . وهذا الاختلال الشديد فى بنيان الأمة المنظمة المدربة ، لم يكن شره مقصوراً على المدنيين . بل تعداهم إلى رجال الجيش ، الذين ينتظر منهم أن يكونوا خاضعين لنظام أكثر صرامة وأشد إحكاما . ومع ذلك انصرفت طائفة من كبار قادة الجيش الألمانى عن الحرب وعن قتال العدو إلى تدبير المؤامرات للفتك بالقائد الأعلى والزعيم الأكبر . وقد حوكم هؤلاء الضباط العظام بعد أن جردوا من رتبهم ونياشينهم وأعدموا بالشنق كما يعدم المجرمون الأشرار ، بدلا من أن يرموا بالرصاص ، كما يموت رجال الجيش ، ولاشك أن هذا الاجراء القاسى قد كان له أثره السيء فى نفوس رجال الجيش . ولو أنه جيش غير الجيش الألمانى ، الذى يتألف من جموع خاضعة طيعة ، لما قامت له بعد تلك الحادثة قائمة ، ومع ذلك فليس بمستبعد ، عندما يكتب التاريخ تفاصيل ذلك الحادث — أن يتكشف لنا أن قد كان له من الأثر فى نفوس الأمة والجيش أكثر مما نستطيع أن ندركه الآن .

ولم يكن المستغرب أن تثور جماعة من قادة الجيش الألمانى وأن تدبر المؤامرات للفتك بالقيادة العليا ، بل الغريب أن هذه الثورة لم تكن أوسع وأشمل مما كانت . وأنها لم تنتظم الجيش كله بجميع صفوفه ورتبه . فلقد مُنيت القوات الألمانية بالانكسارات المتكررة فى العامين الماضيين ، واستهدفت المدن الألمانية إلى العقاب الصارم الذى تنزله بها قاذفات القنابل ليلا ونهاراً ، فى سيل من الغارات لا يكاد ينقطع . ولقد قيل إن الضباط المتآمرين فى ألمانيا قد بدأوا تآمرهم هذا بعد هزيمة ستالينجراد فى أوائل عام ١٩٤٣ . فان كان هذا القول صحيحاً دل على أن هؤلاء الضباط قد رزقوا من بعد النظر حظا غير قليل » ..

استقبلت ألمانيا عام ١٩٤٤ وهى محتفظة بمقدار غير قليل من الأسلاب والغنائم ، التى استولت عليها فى الأعوام السابقة . ولئن كانت قد فقدت إفريقية الشمالية ، والربع الجنوبى من إيطاليا ، واضطرت إلى التخلى عن معظم الأراضى الروسية التى غنمتها من قبل . فانها — على الرغم من هذا كله — كانت لا تزال باسطة سلطانها على دول البحر البلطى ، وعلى بولنده ، ورومانيا ، وجميع دول البلقان ، ولها على فرنسا وبلجيكا وهولنده سلطان نافذ ، وحكومة دانمارقه وتروج خاضعة لها إلى درجة بعيدة . وكان لها — إلى جانب هذا كله — « حلفاء » ساقتهم معها ، طائعين أو كارهين ، إلى ميدان الحرب : مثل فنلنده ورومانيا وبلاد المجر وبلغاريا . بل كان هنالك دول محايدة مثل دولة السويد والترك كانت تتحامى أذى ألمانيا ، وتحاول أن تتق شرها جهد الطاقة ..

ولو أن ألمانيا أرادت أن تلق السلاح فى أول العام الماضى ، وأن تقبل الهزيمة بتلك الروح القوية التى تدل على الشجاعة الحقيقية . لأمكنها أن تق نفسها وتق العالم شراً كثيراً ولكن قادة ألمانيا شاءوا غير ذلك ، ولم يكن أمامهم سوى ميدانين اثنين الميدان الروسى والميدان الايطالى ، فحشدوا فيهما صفوة الجيوش الألمانية ، ولكنهم اضطروا

للاحتفاظ بقوات غير قليلة في غرب أوربا ، خوفاً من الغزو المنتظر .

وفى الأشهر الأولى من العام المنصرم تبثت الجيوش الألمانية ثباتاً محموداً ، وعلى الأخص فى الميدان الايطالى حيث عجزت جيوش الحلفاء عن اقتحام بلدة كاسينو والمضى وراءها ، وحيث وقفت القوة المحتشدة فى جنوب روما موقفها الحرج الذى دام بضعة أشهر ، دون أن تستطيع الاتصال بالجيش الجنوبى .

ولكن لم تمض الأشهر الخمسة الأولى من العام الماضى حتى استطاعت القوات الروسية أن تجلى آخر جندى ألمانى عن الأرض الروسية . وأخذت تنذر بالتوغل فيما وراء الحدود . وسادت فترة هدوء فى أوائل الربيع . وظلت تغشى جميع الميادين مدة من الزمن ، وكلنا يعلم أن بعد هذا الهدوء عاصفة عنيفة لابد لها أن تنفجر .

وقد بدأ الانفجار العنيف فى الميدان الايطالى ، حيث بدأ هجوم الحلفاء فى شهر مايو الماضى ، فلم تلبث جيوشهم أن اكتسحت حصن « كاسينو » المنيع . واتصلت قوات أنزيو المعزولة بالجيش الزاحف من الجنوب ، ثم سقطت روما فى أيدى الحلفاء ، ومضت الجيوش الفاتحة فى طريقها حتى تم لها فتح فلورنسا وبيزا وانهارت امامها « الخطوط » مثل خط جوستاف وهتلر ، والخط القوطى ، ووصلت قوات الأمم المتحدة إلى سهل لمباردیا ، حيث تقاتل إلى يومنا هذا .

على أن تقهقر الجيش الألمانى فى إيطاليا لا يكاد يقاس إلى جانب ما أصاب القوات الألمانية فى الميدان الشرقى . فقد وجه الروس فى أوائل الصيف هجوماً عاما ، بدأ فى أقصى الشمال ثم لم يلبث أن شمل جميع الميدان الشرقى . . ولا بد لنا أن نلاحظ أن الميدان الشرقى لم يعد كما كان فيما مضى خطا يستند إلى البحر البلطى فى الشمال والبحر الأسود فى الجنوب ، ومن ورائه خطوط الامداد الممتدة إلى قلب ألمانيا ، بل اتسع الميدان ، وأصبح معظمه فى أرض غير روسية ، والجزء الجنوبى منه يرتكز على رومانيا ، حيث يتعذر إمداده بالرجال والعتاد لصعوبة المواصلات . ولاشك أن هذا الجزء من الميدان الشرقى كان نقطة الضعف فى الميدان كله .

وكانت انكسارات الجيوش الألمانية على حدود دول البحر البلطى مريعة متتالية . وكانت تمتاز بأنها لم تكن مجرد تراجع أو تقهقر ، بل كان يصحبها تسليم كثير من القواد والجيوش ، حتى كان وقوع القواد الكبار فى الأسر ظاهرة تلفت الأنظار ، وذهب الناس فى تأويلها مذاهب شتى .

ومهما يكن من شىء فقد حررت دول البحر البلطى فى استونيا ولاتفيا ولتوانيا ، وفتحت الجيوش الروسية النصف الشرقى من بولنده . ووقفت على أبواب بروسيا الشرقية ، بل تجاوزت حدودها فى بعض المواضع . ولكن هذا كله لا يكاد يقاس إلى جانب توغل الجيوش الروسية فى الجنوب ، فلقد اقتحموا بسارابيا ثم أجلوا الألمان عن رومانيا وترانسلفانيا والجزء الأعظم من يوجسلافيا واضطروهم إلى الانسحاب من بلاد اليونان وألبانيا وبلغاريا ، وأن يتراجعوا فى سهل المجر ، حيث توشك العاصمة المجرية أن تقع فى أيدى الروس . ولقد حاول الألمان — على عادتهم المألوفة — أن يتشبثوا بمواقعهم فى اليونان ؟ ولكن الجيوش البريطانية المحتشدة فى ايطاليا استطاعت أن ترسل قوة كبيرة لمساعدة الثوار فى الارض الهيلينية ، فاضطر الألمان إلى التراجع نحو الشمال .

* * *

هذه كلها أحداث ضخمة عظيمة الخطر . . ولكنها — على الرغم من هذا — ليست هى أكبر حادث امتاز به العام المنصرم . فان أعظم حوادث العام بلامراء هو الغزو الوفق لأوربا الخاضعة للنازيين ، من البحر الغربى . وعلى الرغم من أن هذا « الغزو » كان منتظراً وأنه قد أعدت له العدة منذ شهور طويلة . فان وقوعه كان أعظم حادث فى هذه الحرب ، بل لعله أعظم حادث حربى سجله التاريخ .

لسنا نجحد أن نجاح الحلفاء كان يرجع بعضه إلى الحظ، وبعضه إلى المقـدرة والبراعة . ولكن كل نجاح فى العالم لا يخلو من أن يكون للحظ فيـه نصيب وليس بمقلل من المجد الذى استحقه كل من اشترك فى هـذا العمل المجيد ، أن يقال إن الألمان كانوا يتوقعون الغزو فى مكان آخر غير نورمنديا . فمن المعلوم أن نزول قوات من البحر على سواحل قد حصنت بأضخم الحصون وأمدتها ليس من الأمور السهلة الهينة . وكان يكفى لدرء مثل هذا الخطر أن تحشد كتائب قليلة لترد الغزاة الفاتحين . فاذا كانت تلك الكتائب قد عجزت عن رد المغيرين . فما ذلك إلا لأن خطة الغزو كانت أعظم وأبرع من أى شىء توهمه الألمان . ولذلك كتب لها النجاح .

وقد ترتب على نجاح الغزو فى شمال فرنسا ، أن فرنسا كلها لم تلبث أن حررت من الاحتلال النازى . وكان من كمال التوفيق أن قد اشترك أبناؤها بنصيب غير قليل فى هـذا التحرير . وأنها حررت دون أن تصاب بكثير من التخريب والتدمير . . . وقد اضطرت الجيوش الألمانية فى تراجعها إلى التخلى عن أرض بلجيكا ولكسمبورج ، وعن شطر من هولنده ، بل لقد اضطرت أيضاً إلى الهزيمة فى ميـدان ألمانى صرف ، حيث سـقطت مدينة آخن والأرض التى حولها فى أيدى الأمريكيين .

وهكذا انتهى العام بأن أصبح الوطن الألمانى نفسه ميـدانا للحرب فى الشرق والغرب ، حتى خيل إلى كثير من المتفائلين أن الحرب ستنتهى بإنتهاء العام ، ولـكن ألمانيا النازية خصم عنيـد ، ولم تعوزه وسائل جديدة لـكى يثبت فيها إصراره وعناده . فقد أخذ الألمان ، وهم فى وسط الهزيمة يقذفون الأرض البريطانية بقذائف جديدة يرسلونها من بعيد ويزعمون أن لديهم « أسلحة » أخرى ... وكان لابد للألمان ، بعد فقد كل هذه الأقطار — من حادث يقوى نفوسهم ويجدد آمالهم ، فدبرت قيادتهم هذا الغزو الجـديد ، لأرض بلجيكا ولـكسمبرج ، حيث أمكن للجيش الألمانى أن يتقدم زهاء الخمسين ميلا ، فى جبهة عرضها عشرون ميلا . وليس هذا بالنصر العظيم أو التقدم الباهر فى ذاته ، لولا أنه حـدث فى وقت كان أكثر الناس يظنون فيه أن ألمانيا ستلتزم خطة الدفاع . ولذلك أدهش الناس نبأ هذا الهجوم . ولا يكفى للدلالة على قوة ألمانيا أن تتقدم قليلا فى جزء محدود من الميدان الغربى ، بل لابد لنا أن ننتظر لنرى كيف يتطور الحال فى هذا الميدان من جهة ، وكيف تثبت ألمانيا للغزو الروسى الذى يوشك أن يبدأ فى الميدان الشرقى من جهة أخرى .

وبعد . فان عام ١٩٤٤ كان عام انتصارات عظيمة لرجال الحرب فى الأمم المتحدة ، ولـكن هذه الانتصارات الحربية الباهرة ، لم تصحبها انتصارات سياسية تضارعها فى القوة . فلا تزال فى بولنده واليونان وغيرهما من الأقطار مشاكل تنتظر من الساسة أن يبادروا بعلاجهـا بسرعة وبحكمة . لقد أدى رجال السيف ما عليهم من واجبات خير الأداء ، فعسى أن يتمكن رجال القلم واللسان من أن يزيلوا ما بينهم من خلاف ، حتى لا يضيعوا تلك الانتصارات ، التى كسبتها الجيوش فى مختلف الميادين .

محمد عوض محمد

فشل ولسن

لستيفان تسفايج

— ٤ —

ووصل ولسن الميناء فلا ترحيب خاص ولا استقبال حار بل إنه لم يلق كما كان يلقى هتافاً يتعالى إلى عنان السماء. حتى الصحف ظلت في جمود الانتظار.

لم تتحرك لمقدمه عجيبته ولم تهلل لتعلن مقدمه. إن العالم كله كان واجماً من الشك والقلق، وتحققت حكمة شاعر الألمان «جوته» مرة أخرى إذ يقول «إن طبيعة الحماس لا تحتمل ادخاراً طويلاً.» فلقد سمح ولسن لأوروبا أن تبرد حرارتها، لقد أتاح لها الفرصة لأن يفتر حماسها المثل العليا التي آلمها؛ إنه بدل أن يقرع الحديد حاراً قابلاً للصهر والتكييف تركه حتى يثلج. إن غيابه شهراً قد بدل كل شيء وغيره. فلقد اعتزل لويد جورج، إبان تلك الفترة، المؤتمر ولازم كليمنصو أثناءها الفراش أسبوعين على أثر رصاصة أصابته في محاولة اعتداء على حياته، وبذلك خلا الجو من رقيب أو حسيب فاستطاع أصحاب المصالح الخاصة والمدافعون عنهم أن ينفذوا إلى قاعات المؤتمر. وإن أخطر هؤلاء شأناً وأشدهم حماساً لرجال الجيش. فلقد ظل القواد والضباط ملء الأسماع والأبصار أربعة أعوام طويلة حكموا فيها العالم بأمرهم فانصاع إليهم. أفيرتضون الآن بعيداً ليتركوا قياد الأمور لغيرهم؟ إن ميثاقاً يحرمهم من جيوشهم، ما دام ينص على منع التجنيد وإلغائه بكافة وسائله وصوره، لتهديد مصوب إلى صلب كيانهم يجب أن يدفعوه عنهم. إن هذه المساخر التي تعمل في سبيل السلم الدائم لا بد أن تقف عند حد، إن هذا الاعتداء السخيف على مهنتهم لا بد أن يرد أو يؤجل البحث فيه إلى حين. إنهم يريدون زيادة في الجنود لا تسريحاً للجيوش ويريدون مزيداً من التسليح لا تحريماً للسلاح. إنهم يريدون حدوداً جديدة وضمانات مادية لتأمين السلم لأنهم لا يؤمنون بسحر كلمة «المثالية» ولا بما يمكن أن تنير من سبيل. إن حدود الأمم لا تؤمّن بشروط أربعة عشر تكتب في الهواء. فما يؤمنها حقاً إلا مضاعفة قوى الدفاع وتحطيم قوى الهجوم من الأعداء.

وجاء في أثر رجال الجيش ممثلو الصناعات المختلفة. هؤلاء الذين موّنوا الجيوش وسلحوها. ثم هؤلاء السماسرة الذين يريدون أن يفيدوا من تعمير هذا العالم الخرب وإصلاحه. ولم يكن ساسة الأمم أقل يقظة من هؤلاء جميعاً؛ فمن وراء كل منهم تهديد من أحزاب المعارضة يريدون درء خطره بأن يكسبوا لأممهم مساحات واسعة من الأرض تضم إلى حدودها.

ولم يكن الأمر محتاجاً لأكثر من لمسات خفيفة صريحة تلعب على قيثار الرأي العام في أوروبا بواسطة الصحافة، يؤيدها صوت قوي جاء من أمريكا منسجماً معها متجانساً وإياها ليردد نفس النغم — «إن مشاريع ولسن الخيالية عقبة في سبيل السلم إن خططه المثالية الرائعة بلا شك، والتي لا يتطرق إليها في مليانها وسموها أدنى ذم أو عيب، حجر عثرة في سبيل توحيد أوروبا. ألا فلنهب إلى العمل وكفانا ما قد ضاع من وقت في تقدير اعتبارات خلقية وتطلع إلى أحلام مثالية. فالسلم إن لم يمض في الحال محت الفوضى من جديد».

وكانت الشكوى، ويا للأسف، في موضعها. ولكن ولسن كان ينظر إلى الأجيال القادمة فكان يقيس الأمور بما يخالف مقياس أوروبا المعاصرة له. إن أربعة أشهر أو خمسة عند ولسن برهة يسيرة من الزمن في سبيل تحقيق هذا السلم الذي داعب أحلام الإنسانية آلاف السنين. ولكن شرق أوروبا في الوقت نفسه كان مسرحاً لزحف قوات منظمة من الجيش وتحركها قوى خفية، فتحتل هذه أو تلك من المساحات الواسعة من الأراضي المكشوفة. بل إن مناطق بأسرها لم تكن لتعرف من هي أو لمن ستكون. إن أربعة أشهر قد انقضت ولكن

متدوبى النمسا وألمانيا لما يصلوا إلى المؤتمر . والناس من وراء الحدود الغامضة التى لم يبت فى أمرها بعد نهب لأشد أنواع القلق والاضطراب . ولم تكن الأدلة التى تنبئ بأن الثورة ستجتاح هنغاريا غداً وألمانيا بعد غد ، بخافية على أحد . وإنها لثورة أى ثورة ، تهزأ فظاعتها ويسخر فتكها بالناس مما أحدثته ثورات البلشفية الحمراء . وصاح الساسة «هلموا إلى العمل على استتباب الأمن ولكى تمهد الطريق إلى الأمن لا بد من اكتساح العقبات مهما تكن . والعقبة الكأداء حقاً ما هى إلا هذا الميثاق اللعين» .

***

وما كاد ولسن يقضى ساعة واحدة فى باريس حتى أيقن أن جهاد الأشهر الثلاثة الطويلة بكل ما احتمل فى سبيله من نصب قد تقوض أساسه وهو ينذر بوشك الانهيار التام . لقد كاد المارشال «فوش» يفلح فى أن يسقط أمر الميثاق من معاهدة الصلح مع ألمانيا ، وبذلك تكون جهود الأشهر الثلاثة قد تلاشت تلاشياً تاماً . ولكن ولسن يستطيع أن يكون صلباً كالصخر راسخاً كالطود لا يتحرك قيد شعرة ولا يلين أبداً أمام الخطر . وهذه أمور خطيرة تتحكم نتائجها فى مصير البشر تتعرض للخطر ألا فليقف لدرئه بكل ما فيه من صلابة وقوة . وفى غد أى فى الخامس عشر من شهر مارس استطاع ولسن أن يظفر بتصريح رسمى فى الجرائد يؤكد أن اتفاق الخامس والعشرين من شهر يناير لا يزال قائماً وأن الميثاق سيكون جزءاً لا يتجزأ من معاهدة الصلح مع ألمانيا . وكان هذا التصريح أول رد عنيف على المحاولات المبذولة لجعل معاهدة الصلح مع ألمانيا تعقد على أساس المعاهدات السرية بين دول الحلفاء لا على أساس الميثاق الجديد .

وانحسرت الغمامة من عين ولسن ورأى الأمور رأى العين سافرة على حقيقتها . إن هؤلاء الساسة الذين صرحوا بأنهم مستعدون أن يحترموا حق الشعب فى تقرير مصيره كانوا فى حقيقة الأمر مصممين على مطالب تتعارض والاعتراف بمثل هذا الحق . ففرنسا ستطالب بمقاطعة الرين وإقليم السار ، وإيطاليا ستطالب بفيومى ودالماسيا ، ورومانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا كل منها تريد نصيبها من الغنيمة . فإذا لم يسلم ولسن نفسه للمقاومة العنيفة الشديدة فإن معاهدة الصلح ستعقد بأسلوب نابليون وتاليران وماترنيخ ، وبعبارة أخرى بأسلوب يخالف ما أقام ولسن من مبادئ وما دافع عنه من مثل عليا بل وما عاهد الحلفاء أنفسهم على أن يحترموه منها ويلتزموه فى سبيل تحقيقها .

وانقضى أسبوعان فى جهاد عنيف . وولسن يعارض فى قوة وحماس فكرة التنازل لفرنسا عن السار . فلقد أحس أن مثل هذا النقض لحق الشعب فى تقرير مصيره سيكون سابقة خطيرة لكثير من أمثاله . وهددت إيطاليا بالانسحاب من المؤتمر إن لم ينزل ولسن عن رأيه ويوافق رأى الجماعة . وإيطاليا واثقة بلا شك أن مطالبها محققة ضمناً بتحقيق مطالب فرنسا هذا . وبدأت الصحافة الفرنسية تثير الخواطر وتحدث الضجة ، إن هناك ثورة بلشفية فى هنغاريا وعما قريب كما يقول الحلفاء ، سينتشر الوباء غرباً .

وعارض العالم كله ولسن فى موقفه . حتى «هاوس» « ولانسنج » . وقد كانا مستشاريه الخاصين ولكنهما فى الوقت نفسه كانا صديقيه الحميمين . ولم يمنع هذا أن ينصحاه فى إخلاص أن يضحى قليلاً من مثاليته النبيلة العالية فى سبيل أن تمضى معاهدة الصلح بأسرع ما يمكن ذلك لأن الفوضى قد عمت أوروبا بالفعل كما يرى ، ووقف ولسن فرداً وحيداً أمام جبهة معادية متراصة متكاتفة . وإذا الهجمات تصوب إليه من خلفه أيضاً فهؤلاء أعداؤه فى أمريكا ومنافسوه السياسيون فيها يتحينون الفرصة . وكثيراً ما أحس ولسن أن السيل قد بلغ الزبا وأنه قد بلغ آخر ما يمكن أن يطاق من احتمال . وهذا هو يعترف لصديق له أنه لن يقوى على الصمود أمام كل هذا وأنه قد اعتزم عزماً أكيداً أن ينسحب من المؤتمر إذا لم يوفق فى أن ينفذ ما أراد .

سرور القفاص

النظرية العصرية
فى علم الاجرام

من الأقوال المأثورة عن السلف الصالح قولهم : « قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . » وربما كان أساس هذا القول عندهم أن ذمم القضاة فى الأيام الغابرة كانت من المرونة بحيث تجعلهم أثلاثا فيذهب ثلثهم إلى الجنة ، ويذهب الثلثان . . . . إلى حيث لا يحسن تكرار الكلام . وأنا لا أسأل الله اليوم إلا أن تبقى لنا هذه النسبة القديمة إذ من المحال — فى ضوء العلم الحديث — أن يذهب قاضيان اثنان فقط إلى ذلك المكان الآخر . وأبادر فأقول إن المسألة لا تقوم اليوم على طهارة الذمة أو مرونتها كما كانت فى الأيام الأولى . فإنى أستغفر الله أن يجرى هذا المعنى فى خاطر إنسان من أهل هذا العصر . وإنما الخوف كل الخوف من هذا الأسلوب الذى يجرى عليه القضاء الجنائى اليوم فى معاملة المجرمين ، ومن تلك العقوبات التى يفرضها عليهم فرضا . فإن علماء الإجرام يردّون الجريمة إلى عوامل كثيرة مختلفة : منها العوامل الجسمية كالعاهات الطبيعية . ومنها الضعف العقلى كالغباء . ومنها الأمراض النفسية . ومنها الظروف الاجتماعية التى يجعلون « المحاكم » واحدا منها — أى أن هذه « المحاكم » بالذات تعتبر عاملاً من عوامل الإجرام فى نظر هؤلاء العلماء بسبب إجراءاتها . وعلى الأخص بسبب أساس تقديرها لمسئولية المجرم . فإن كثيرا من المحاكمات كانت سبباً فى إقناع الخاطئ العادى بأنه ظلم فى محاكمته . وأن المجتمع بسلطاته المختلفة قد أساء إليه إساءة لا يستطيع أن يغتفرها له . فيظل بقية عمره حانقاً عليه متوجساً منه وهو بذلك إنما يتورط فى جرائم جديدة تجر عليه سلسلة لا تنتهى من المحاكمات والعقوبات . وهذا هو السر فى تزايد عدد من يسميهم القانون اليوم « بالمجرمين العائدين » أو « بالمجرمين المتمادين على الإجرام » .

***

يقول ساليلاس Salillas — الخبير الأسبانى فى علم الإجرام إن المجرم شخص غير معتدل وفق محيطه الاجتماعى فهو يحاول تكييف نفسه وهذا المحيط « بطريقة شاذة » هى الجريمة .

وهذا « الشذوذ » فى سلوك المجرم يقول عنه فرويد ورجال « التحليل النفسى » إنه مرض نفسانى نشأ من وجود « عقد نفسية » كامنة فى «عقله الباطن» .

أما تفسير هذه (العقد) وكيفية انعقادها فى (العقل الباطن) فيتلخص فى أن حياة الإنسان النفسية تنقسم عندهم إلى ثلاثة أقسام :

أولها — : الشعور — وهو ما يحسه الإنسان بسهولة فى حالات سروره وألمه وغير ذلك من الانفعالات الأخرى .

وثانيها — : ما قبل الشعور — وهو تلك المرتبة التى تشتمل على ذكريات الإنسان القديمة التى يستطيع أن يستردها بعد غيبة ويتذكرها بعد نسيان .

وثالثها — : اللاشعور — أو — العقل الباطن — وهو تلك المنطقة الواقعة فى قرارة كل نفس حيث تتجمع الرغبات المكظومة والغرائز الحيوانية الضارة التى لا يرتضيها المجتمع . والمخاوف الكثيرة التى يهرب منها الإنسان بإلقائها فى غيابة ذلك الجب — يظن بذلك أنه تخلص منها إلى الأبد . ولكنها هى هناك قابعة . متحفزة . حية . تتحين الفرص لتثبت وجودها . وأكثر ما يكون ذلك عند إغفاء العقل الظاهر فى ساعات النوم فتنساب تلك الرغبات والخواطر والغرائز من مكامنها . وتتمثل فى صورة أحلام تملأ نوم الإنسان حياة وصورا فتخفف بذلك من وطأة

الضغط الشديد الذى تعيش تحته . ولذلك قيل إن الأحلام هى صمام الأمان لشاغلنا النفسية .

والخلاصة أن الإنسان كان يعيش فى عصوره الأولى لا يتحرج من عمل شىء، فلم يكن يعانى تلك الأزمات النفسية التى يكابدها أهل العصر الحديث الذى كثرت تقاليده وأصبح الفرد فيه رازحا تحت ألوف القيود الاجتماعية التى تفرضها آداب المجتمع وأنظمته . وبذلك لم يعد يستطيع أن يطلق الحرية لكثير من رغباته وميوله وغرائزه . بل اضطر إلى قمعها . وكظمها فى أعماق نفسه حتى لا يظهر عظهر لا يرتضيه المجتمع . ومن هنا نشأ ذلك الصراع النفسى المستمر بين ما يتطلبه المجتمع فى العصر الحديث وبين ما يتطلبه الفرد ويشتهيه . فاذا ما انزوت تلك الرغبات المكظومة فى قرارة النفس فإنها لا تدفن هناك ولكنها تظل يقظة . قلقة . تعمل على توجيه سلوك الإنسان من حيث لا يدرى ولا يشعر إلى وجهات خاصة فيها شىء من الترفيه عنها والترضية لها . ومجموعة هذه الرغبات المكظومة تسمى « عقداً » — والعقد أنواع وأشكال . وليس المجال فى هذه الكلمة مجال التوسع فى شرحها . وربما عدنا إليها فى حديث آخر .

والمقصود بكل هذا الكلام أن الجريمة ليست عملا مستقلا بنفسه يصدر عن المجرم كما تخرج الكلمة من فم صاحبها ولكنها ثمرة لكل تلك الظروف المعقدة التى سبقت الاشارة إليها من « شذوذ » يرجع إلى « عقد » ترجع إلى « رغبات مكظومة » ثم ملابسات أخيرة تكون هى السبب المباشر القريب الذى يدفع بالشخص إلى ارتكاب الجريمة . فمن العبث أخذ الأمور بظواهرها كلما وقعت جريمة ما والاكتفاء فى قمعها بتوقيع العقوبة على من قارفها . فان هذا لن يجدى شيئا فى مقاومة الإجرام ولا فى إصلاح المجرم .

« ويتنبأ كثير من الثقات فى علم الإجرام بوقت يسود فيه (العلاج الطبى العقلى) ويحل محل الطرق القانونية التى تتبع اليوم فى معاملة المجرم . فكما أنه فى الطب قد اندثرت الآراء التى جاء أبقراط وجالينوس وأعقبتها طرق عصرية فى العلاج كذلك سيأتى يوم تزول فيه سخافات الماضى فى اصطناع القضاء والقانون لتحل محلها آراء أكثر ضبطاً وعدلا فى علم الإجرام . وستحول السجون من أماكن للتعذيب والامتهان إلى معاهد تديرها عقول العلماء — لقد نشأت حجرة العمليات الجراحية فى العصر الحديث على أنقاض حوانيت الحلاقين . كذلك يحاولون اليوم انتزاع الإجراءات الجنائية وعلم العقاب من أيدى الساسة ورجال القانون والمشرعين »(١) .

ولقد سبق الاتحاد السوفييتى غيره من الدول فى هذا المضمار بالفعل . فقد ألحقت بالسجون هناك معاهد لعلم الإجرام تقوم مقام « العيادات الطبية » فيتولى خبراؤها دراسة المسجونين من نواحيهم المختلفة . ثم يقترحون الخطط لعلاج كل حالة من الحالات التى يدرسونها .

كما أن تشريعاً حديثاً (تاريخه سنة ٩٢١) وضع فى ولاية ماساشوسيت بأمريكا وهو يقضى بتعميم « الاختبار العقلى » فى كل حالة يرتكب فيها المتهم جريمة كبرى أو يظهر فيها بمظهر « العائد » الذى يقارف جرائمه المرة تلو المرة . ولا تقوم المحاكم هناك بمحاكمة مثل هذا المتهم إلا فى ضوء التقرير الذى يقدمه الخبراء عن حالته العقلية .

***

ولقد جرى لنا منذ أيام فى ندوة « لجنة التأليف » حديث فى هذا الشأن فقال بعض إخواننا إن السبب فى انتشار الإجرام بيننا اليوم هو خفة العقوبات المصرية

(١) من كلام الدكتور احمد عزت راجح أستاذ علم النفس الجنائى فى كلية الحقوق العراقية — ص ٨٨ كتاب « علم الإجرام »

وهوانها على النفس فهى تكاد تغرى المجرم بأن يتخذ الإجرام مهنة له ما دامت تكاليفها غير باهظة بالقدر الذى يزجره عن ارتكابها . واستشهدوا على صحة رأيهم هذا بما يجرى فى الحجاز إذ كادت تختفى جريمة السرقة بسبب التشدد فى إقامة الحد الشرعى على كل من يثبت فى حقه أنه ارتكب تلك الجريمة . ونحن مع احترامنا لرأى إخواننا الأفاضل ومع اعترافنا بحسن النتيجة العملية التى وصل إليها الحجاز فى مقاومة السرقة نلاحظ أن النجاح فى هذه الحالة كان قاصراً على مقاومة الجريمة دون أن يتعرض لإصلاح حال المجرم . ونذكر بهذه المناسبة أن هناك قولا مأثورا ، عن الإمام على كرم الله وجهه — وقد رواه بعضهم على أنه حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم — وهو قوله « لا قطع فى الدغرة » والدغرة هى ما يعرفه العلم الحديث باسم جنون السرقة ـ Kleptomania ـ وهو ذلك المرض النفسانى الذى يصيب الإنسان فيدفعه بقوة لا تقهر إلى اختلاس مال الغير . فلو أن كل يد تقطع لمثل هذا المريض ينبت فى مكانها عشر أيد . ولو أن القائمين على الحدود ظلوا يقطعون هذه الأيدى واحدة بعد واحدة لما استطاعوا أن يعالجوا هذه « الدغرة » بالقطع . ولهذا كان الشرع الإسلامى قطنا فى تقرير هذه القاعدة . وفى الإقرار بأن هناك نوعا من السرقة على الأقل لا يجدى فى علاجه قطع يد السارق .

من أجل ذلك قامت المعاهد الحديثة التى تضم الخبير الاجتماعى إلى الطبيب الجثمانى ثم تزودهما بجهود الاخصائى النفسى والطبيب العقلى ليتعاون الجميع على دراسة المجرم من كل نواحيه . وليكشفوا كيف طرأ عليه هذا الشذوذ فى مسلكه مع المجتمع . فإن الجريمة كما ذكرنا نتاج تفاعل بين الفرد وما يحيط به . وكلما عجز الفرد عن التوفيق بين رغباته وغرائزه[1] وبين تكاليف الوسط الذى يعيش فيه فثمت جريمة تختمر ولا بد لها من الظهور متى حان حينها والمدرسة المصرية التى وضع أساسها فرويد النمسوى ، ووليم هيلى الأمريكى وغيرهما تجعل همها فى مقاومة الجريمة وفى علاج المجرم أن تعمل على تعديل رغبات الفرد منذ حداثته بحيث توافق البيئة التى يعيش فيها . فإن الطفل وهو يستقبل حياته يشب جاهلا بالعرف الاجتماعى ، وينشأ أنانياً يحاول أن يشبع رغباته كيفما يريد وكلما أراد . وهو يشبع غرائزه الرئيسية كلها من ثدى أمه ومن جسمها ، لا يلقى فيما يريد من ذلك حرجا ولا عنتا ولا مقاومة . ولذلك يكبر وليست له فكرة واضحة عن حقوق الآخرين . وهو لا يعرف أن رغباته تلك يجب أن تعدل وفقا لهذه الحقوق ، وأن عليه أن يوفق بين ما يسمونه « مبدأ اللذة » — Pleasure Principle — « ومبدأ الواقع » — Reality Principle . وليست أهداف التربية التى يعمل العلماء اليوم على تعميمها بين الجماهير إلا تنشئة جيل جديد ينعم بثمرات هذا التعديل والتوافق الذى يضع حداً للصراع بين هذين المبدأين . وبالتالى يضع حدا للجريمة وتنقرض به من المجتمع طائفة المجرمين .

أما المجرمون الكبار الذين فاتهم أن ينعموا بمثل هذه الطفولة المتوازنة ، فإن علاجهم يكون فى مثل هذه المعاهد التى سبق أن أشرنا إلى قيامها فى الروسيا وفى بعض الولايات الامريكية ، حيث تعالج العلل الجسمية بالعقاقير وبالجراحة والعلل النفسية بالتحليل النفسى .

وحيث يشرف الخبير الاجتماعى على بيئة المجرم ، يعمل على إيجاد ذلك التوفيق المنشود بين المجرم وبين بيئته ليعود إليها مواطنا صالحا ، سعيدا ، موفقا للخيرات .

ع . ج

(١) الغرائز الرئيسية هى : غريزة البقاء (وهدفها الطعام) ؛ والغريزة الجنسية (وهدفها معروف) ؛ وغريزة السيطرة (وهدفها الظهور واللذة وبسط الشخصية)

من قصص الأطفال الصينية :

الوردة والحوت الصغير

للأديب الصيني الكبير « بـ – شاو – كين »

فتحت الوردة أوراقها فعل المستيقظ من النوم ، ونظرت فرأت رداءها الأحمر القاني وحليتها الصفراء البراقة في صدرها قد كملت وسائل جمالها ؛ ورأت الشمس ترسل من حولها أشعتها الذهبية الدفئة فكشفت عن أفراح الكون ، ورأت فروع الصفصاف تمايل كتمايل الراقصة الحسناء ، ورأت السحاب سابحا في السماء كزورق الملك الصغير ، وغنى العندليب طربا لحلول الربيع البهيج ، وضحك البنفسج للنسيم حين يداعبه ، وصار كل شيء أمام عينيها جميلا محبوبا .

وتذكرت الوردة أحوالها قبل أن تهب من غفوتها ، فقد كانت عند فتى غرسها في أصيص أخضر اختصها به ، وجمع لها التراب فقربله ثم وضعه تحتها في الأصيص ، وسقاها الماء العذب ؛ وفي الصباح العاصف أو في ليلة الوابل ينقلها من الفناء إلى الحجرة ويحجبها بشاشة بيضاء ، وعندما يصحو ويهفو النسيم وتسطع الشمس يحملها إلى الفناء مرة ثانية لتستنشق الهواء الطلق وتغمرها أشعة الشمس الدفئة .

تذكرت الوردة كل ذلك فشكرت صنيع الفتى شكراً جزيلا ، وتغنت قائلة : « إن الفتى يحبني حبا عظيما ! إن الفتى يحبني حبا عظيما ! إذ جعلني أتمتع بجمال الربيع البهيج وأنعم بكل دواعي السرور ، إنه لم يعمل ذلك كله إلا لأنه يحبني » .

وكان في الحديقة شجرة توت هرمة سمعت أغنية الوردة فقالت لها : « يابنيتي ! إنك لا تدركين شيئاً من أمر هذه الدنيا ، لذلك لم يكن كلامك مقبولا » ؛ وتجعد وجهها تجعدا كبيراً فارتفع بعضه وانخفض البعض الآخر ، حتى صار غاية في القبح . ولم يعجب كلامها الوردة فلم تصدقه ، وإنما أطالت النظر فيها ثم عضت على شفتها السفلى وسكتت .

فأرسلت شجرة التوت صوتها الخشن تقول للوردة : « إنك طفلة صغيرة فلا عتاب عليك إذا لم تصدقي كلامي ، لأنك جاهلة بالحياة لا تدركين سرها ، لكني قد عرفت أحوالها والكثير من أسرارها ، لذلك لم يكن كلامك محموداً عندي ؛ وسأسرد عليك قصتي كي تصدقيني :

لقد كنت مغروسة في حديقة لرجل كان يسقيني المياه العذبة كل يوم ، ويطعمني المواد الطيبة خلال الطين المنتقى ، فنموت وترعرعت وطالت فروعي وكبرت أوراقي واخضرت وأينعت ، وكنت أسعد الأشجار في الحديقة وأرغدها عيشا حتى اعتقدت أني محبوبة الرجل ؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك ! لأن الرجل لم يحبني أبداً ، وإنما غرسني وجاهد في حفظي ليستفيد بأوراقي ويطعمها دود القز . ولما هرمت وشاخت أوراقي وأصبحت خفيفة لا تفيد دوده تركني ولم يتعهدني بالري كما كان يفعل ، ياطفلتي الصغيرة ! اعلمي أنه لا يوجد في الدنيا إحسان لا يرجى رده ، أو حب لا يكون إلا للحب » .

ولم تهتم الوردة بكلام شجرة التوت لأنها تعتقد أن الفتى إنما يكرمها لأنه يحبها ، لذلك ضحكت من كلام الشجرة العتيقة وقالت : « يا عمتي العجوز ! إني متأثرة لكلامك مشفقة عليك ، ولكن حسن حظي جعل فتاي غير الرجل الظالم الذي تركك ، فأجلي عزاء ، ولا تحزني » ! ورأت شجرة التوت الهرمة أن الوردة لا تصدق نصحها ، فآثرت الصمت على نصح الغر ، واهتزت هزة الواثق من نتيجة الغرور .

* * *

حين ذاب الثلج الطافي على وجه ماء الحوض شعر الحوت الصغير بسعادة كبرى تمثل سعادة إنسان سجن في ظلام زمنا طويلا ، وإذا بالضوء يغمره ، فسبح إلى وجه الماء ، ومر بالحشائش الخضراء ، فاقترن لونه ولونها ، فأبرز ذلك جماله واضحا ، واخضرت فروع الشجرة التي فوق حوضه

وأتته الربيع رخاء مدفئة ، وغردت جيرانه العصافير والبلابل كثيراً ، وصار كل شيء أمام عينيه جميلاً محبوباً .

وتذكر الحوت الصغير عندئذ حياته الماضية ، وأنه كان عند فتاة ربته وحرسته من العوادي ، وجعلت مسكنه حوضاً صنع من الأحجار الكريمة الخضراء ، وكانت تقطع له الكعك قطعاً صغيرة وتطعمه إياها ، بل أمرت خادمها أن يصيد من حشرات الماء وديدانه لتكون طعامه ! وكانت إذا اشتدت حرارة الشمس غطت حوضه بحريرة خضراء لمنع حرارتها عنه ، وعندما تهب ريح الشمال القاسية تحيط الحوض بالحشائش الجافة كي تحميه من بردها القارس ! وتعودت الفتاة السكنى بجوار الحوض حتى لا يخطفه عقاب أو يصيده قط . تذكر الحوت الصغير كل ذلك فشكر صنيع الفتاة شكراً جزيلاً ، وتغنى قائلاً : « إن الفتاة تحبني حباً عظيماً ! إن الفتاة تحبني حباً عظيماً ! لأنها مكنتني من التمتع بالمناظر الجميلة ، وتركتني أنعم بكل دواعي المرح والسرور ، إنها لم تعمل ذلك كله إلا لأنها تحبني » .

وكان بالقرب من الحوت شاة عجوز سمعت أغنيته فضحكت منه وقالت : « أيها الطفل الصغير ! إنك لا تدرك شيئاً من أمور هذا العالم ، لذلك أخذت تهذي بهذا الكلام ! » وكانت الشاة هزيلة الوجه ، ضاحكة القسمات لا تراها إلا مبتسمة ، وأما شعرها الأبيض فكاد يسود من شدة قذره ، وصار متلبداً أشعث بدون ترتيب . ولم يكن الحوت قد سمع صوت الشاة من قبل ، فلما ضحكت منه ضاق صدراً بذلك ، وجحظت عيناه ، وتحركتا بشدة كأنه يريد أن يظهر غضبه .

وتكلمت الشاة العجوز بصوت جاف متحشرج ، وحاولت أن تكسوه رقة فقالت : « إنك يا بني لا تزال صغيراً فلا عتاب عليك إذا لم تعر كلامي اهتماماً ، إنك لم تخبر العالم وأحواله ، ولكني قد عرفت من تلك الأحوال الكثير ، من أجل ذلك كنت هازئاً بحق ! وإني سأقص عليك قصتي حتى تطيعني في نصيحتي : لقد كنت مثلك عند امرأة كانت تتركني ألعب في الفضاء الواسع المفروش بالكلأ الأخضر النضير وأسكنتني في غرفة مدفئة نظيفة ، وكنت أشد الحيوان مرحاً وأسعده في المرح ، حتى اعتقدت أني محبوبة هذه المرأة ، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك ! لأن المرأة لم تحبني قط ، وإنما ربتني وجاهدت في حراستي لتأخذ لبني وتطعمه أطفالها ! والآن أصبحت عجوزاً وجف لبن ضرعي الذي كانت تطعمه الأطفال ، فتركتني وأهملتني وأغفلت حراستي ! اعلم يا بني أن هذا العالم لا يحوي إحساناً لا يرجى رده ، ولا حباً لا يكون إلا للحب » .

ولم يفهم الحوت الصغير من حديث الشاة شيئاً ، إذ أن عينيه تحركتا في وجل يشبه الشك ، ولا زال غاضباً لأنه يعتقد أن الفتاة تحبه لنفسه ، فأجاب الشاة بغير رضا : « يا خالتي الشاة ! إن أمرك ليثير الشفقة والرحمة ، ولكن أمور الدنيا ليست سواء ، حتى يقاس حظك بحظي ، ومن حسن طالعي أن فتاتي هي تلك المرأة التي ظلمتك ، فأجملي عزاء ، ولا تحزني » . ورأت الشاة أن الحوت لا يريد أن يعتبر بنصيحتها ، فآثرت الصمت وزفرت زفرة عميقة كأنها تقول إنها تعرف عاقبة اغتراره .

* * *

أحب الفتى الفتاة حباً مبرحاً واحتل كل منهما قلب صاحبه ، وصارا يتلاقيان في أصيل كل يوم بين أدواح الحديقة الباسقة ، ويجلسان على مقعد هنالك بجانب الأزهار والورود العاطرة ، ويتجاذبان حديثاً أعذب من أغاريد الطيور ، وقد كسى وجهيهما بهاء يتيه على بهاء البدر ، وإذا انقطعا عن اللقاء شعرا بالكآبة والحزن كأن روحيهما ضاعتا ، لذلك لن يوجد اليوم الذي لا ترى ظلهما في الحديقة .

وذات صباح ذهب الفتى إلى فناء بيته وحك رأسه مفكراً في فتاته ، إذ رأى أن حبها له بلغ غايته حتى جعله مغتبطاً بذلك مسروراً ، ولكنه أراد زيادة ذلك الحب

واستمراره ، وقد كادت أحاديث غرامهما تنتهي ، وأوشكا أن يملا قبلاتهما المسلية ، ولن يزيد حب الفتاة له إلا هدية قيمة عزيزة لديه ؛ وعند ما فكر وجد أن الوردة هي خير هدية يهديها إلى فتاته ، إذ أن لونها القرمزي يكاد يشبه حمرة وجهها الجميل ، وشكلها الخجول يضارع طهارتها العذرية ، واعتقد أن الفتاة لابد مقدرة ذلك بعد أن تعرف مقدار تعبه في تربية الوردة والمحافظة عليها ، وهي لابد ستسر بها وتزداد حبا له ، فأومأ برأسه محييا نفسه مبتسما ، ثم ذهب في طريقه .

ولما رأت الوردة تفكير الفتى وسروره أومأت هي الأخرى برأسها مبتسمة وولت وجهها شطر شجرة التوت المحرمة مستكبرة ، وقالت لها : « هل رأيت أن الفتى يحبني وأنه لا يريد شيئاً مني غير الحب ؟ » .

وعندئذ كانت الفتاة تخرج من حجرتها وهي ترتب شعرها بيدها ثم اعتمدت على حوض الحوت ، فتذكرت فتاها وأن حبه لها بلغ نهايته حتى صارت مغتبطة شديدة الفرح بذلك ، وأرادت أن تزيد من حبه لها ، بعد أن وجدت نجواهما العطرية كادت تفتر ، وأوشك عناقهما الحار أن يكون عادياً ، ولن تستطيع دفع الفتى إلى زيادة حبه إلا إذا أهدت إليه هدية فاخرة ، عزيزة لديها ؛ ولما فكرت وجدت أن الحوت الصغير أصلح شيء وأثمن هدية تهدى إلى الحبيب ، إذ أن خفة الحوت في حركته وحسن شكله محاكيان نشاط الفتى وجماله ، وهو لابد مقدر هديتها حين يعرف الجهد الكبير والشقة الهائلة اللذين تكبدتهما في تربيته وحمايته . ثم سيقدر ذلك ويعلم أن حبها له عظيم فيغتبط ويزداد سروره وتتضاعف محبته لها . ولما فكرت هذا التفكير ابتسمت ووضعت خنصرها بين شفتيها .

ورأى الحوت سرور الفتاة وابتسامها ففرح فرحاً شديداً ، وأسرع يسبح في الماء جيئة وذهاباً ، ثم رفع رأسه إلى الشاة العجوز متكبراً وقال لها : « هل رأيت أن الفتاة تحبني وأنها لا تطلب مني شيئاً غير الحب ؟ » .

* * *

أمسك الفتى بالمقص وقطع الوردة وأخذها إلى الحديقة حين ذهب ليقابل فتاته .

وأتت الفتاة بجام زجاجي ووضعت الحوت فيه وأخذته إلى الحديقة حين ذهبت للقاء فتاها .

وتقابلا في الحديقة ، فقدم الفتى الوردة للفتاة وابتسم قائلاً : « يا حبيبتي ! إني أهدي إليك الوردة الفاخرة الجميلة التي بذلت الجهد والشقة في تربيتها طول العام ، وإني أتمنى أن تكوني دائماً وأبداً جميلة مثلها ، فاذكريني كلما ذكرت هديتي واذكري قلبي وحبي » . وقدمت الفتاة الجام إلى الفتى وقالت بصوت رقيق : « يا حبيبي ! وإني أهدي إليك الحوت الصغير اللطيف الذي بذلت الجهد والشقة في تربيته ولم أبرح أحرسه صباح مساء ، وإني أتمنى أن تكون دائماً وأبداً نشيطاً مثله ، فاذكرني كلما ذكرت هديتي واذكر قلبي وحبي . » .

تبادل الفتى والفتاة الوردة والحوت الصغير ، وقبّل كل منهما هدية صاحبه قائلاً : « إن هذه هدية حبيبي ، وإني حين أقبلها كأني أقبل حبيبي » . وبعد ذلك زاد حبهما بعضهما لبعض زيادة كبيرة ، إذ أن حديثهما العادي الذي كانا يتحدثان من قبل يسمعانه اليوم لذيذاً عذباً ، وأصبح كل منهما يرى وجه صاحبه جميلاً بهياً كأن حبهما لا يزال جديداً ، وطغى حبهما حتى جعلهما قلباً واحداً في جسمين .

لم تكن الوردة تظن أن يد الفتى ستتناولها بالقطع فجأة ، وآلمها وجعلها تفقد شعورها في الحال ، فلما عاد إليها رشدها وجدت نفسها في يد الفتاة وكادت تبكي ، ولكن أبى لها البكاء ، وجسمها أصبح جافاً ولم تعرف متى نضبت دموعها .

ولما عادت الفتاة إلى بيتها وضعت الوردة في وعاء الزهور

قصة الرباط المقدس :

بين المد والجزر

قرأت فيما قرأت فى الصحف اقتراحاً أعجبنى وحملنى على التفكير الطويل ، فقد فطن أحد الأدباء الأذكياء إلى ضرورة وجود جائزة أدبية فى مصر تتوج باسم فاروق ملك مصر الحبيب المرجو لكل خير ، ويكون منها نصيب لتشجيع الأدب فى العالم العربى .

أقول أعجبنى هذا الاقتراح ، وأطلت التفكير فيه ، ولم أنس نصيبى منه فى الخيال فزينت لنفسى ما يكون من أثر هذه الجائزة لو تحقق الاقتراح ، وأخذت أسبح فى عالم الرؤى ، وأستجمع فى نفسى شوارد الإلهام لعلى أوفق إلى موضوع لمؤلف رائع أبذ فيه الأدباء جميعاً ، ويعترف لى به الأقران ، وينادى من أجله باسمى المحبون والنافسون ، فأفوز بعد ذلك بالجائزة فتقع منى موقع الماء من ذى الغلة الصادى.

بل لقد جمح بى الخيال فقدرت الجائزة بألف من الدنانير ، وقلت لنفسى « لا بأس بهذا القدر من المال ، وإن كان الغلاء يجعلها فى حكم المائة أو المائتين » . وألح بى التصور بعد ذلك كله حتى خُيِّل إلى أنى قد فزت فعلا بالجائزة أو أنها صارت منى قاب قوسين ، وأنها صارت مؤكدة مضمونة . ثم زين لى أن أقوم من ساعتى فألجأ إلى رجل ذى مروءة ونجدة ومال كثير لا يبخل به على الأصدقاء ، فأطلب إليه أن يقرضنى تلك الدنانير كلها أو جلها على أن يجعل ذلك ديناً ينتظر به على حتى تتحقق الأحلام بعد حين.

ولم أجد فى أصدقائى رجلا ظننت أنه يجمع كل خلال الكرم والغنى إلا صديقاً واحداً هو توفيق الحكيم . فقد كانت فراستى فيه صادقة فى كثير من الأمور ، وزعمت لنفسى أنه رجل أديب يقدر الأدباء ، وأنه رجل غنى واسع الثراء له حظ موفور من الذهب والفضة مما وهب الله له من تراث قديم وطريف مستحدث ، ثم أعرف فيه كرم الطبع ولين الجانب وطيبة القلب وحسبت أننى لن أجد صعوبة

الأحمر ، وحزنت الوردة واكتأبت وكانت لا تعرف لهم معنى ؛ وها هى قد فارقت أصيصها فألم بها الكدر وأحاطها الندم على خطئها فى محبة الفتى ، فخفضت من رأسها حزينة كئيبة ، ولم تلبث أن ماتت قبل أن يرخى الليل سدوله . فقالت الفتاة : « لقد ذبلت الوردة ، وإنى أكره بقاءها عندى بهذا الشكل ، فيجب أن أرميها ، وغداً يهدى إلىّ الفتى أجمل الزهور » . فرمت جثة الوردة فى صندوق القمامة .

ولم يكن الحوت يتوقع أن يصيبه ذلك القلق والاضطراب حين خرج من حوضه الأخضر الجميل ، ووضع مع الماء فى هذا الجام الصغير ، وشعر بضغط الهواء وضيق التنفس فأغمى عليه ؛ وعندما أفاق وجد الجام الذى وضع فيه أمام فم الفتى فأراد أن يسبح ، ولكن ذيله التصق بجدار الجام ولزم بطنه قاعه ولم يستطع أن يتحرك ، فرفع رأسه زافراً . وحينما رجع الفتى إلى منزله وضع الجام على مكتبه ، وكان الحوت دائماً متمتعاً بالحرية ، أما الآن فلم يستطع أن يتحمل ضيق سكنه الجديد ، فندم على خطئه فى حب الفتاة ، وجحظت عيناه وبرزتا من محجريهما ، وأصابه الهرم والحزن ولم يلبث أن مات قبل أن يرخى الليل ستاره ، فقال الفتى : « لقد مات الحوت ، وإنى لا أحب بقاءه عندى ميتاً فيجب أن أرميه ، وغداً بعد الظهر تهدى إلىّ الفتاة أحسن الهدايا » . فرمى جثته فى صندوق القمامة بجنب جثة الوردة .

وبعد بضعة أيام انتفخت جثتا الوردة والحوت وانتشرت رائحتهما كريهة منتنة ، وذلك عاقبة كل وردة وحوت لا يهتم بهما إنسان ، حتى هذا الفتى وتلك الفتاة ، لأن عندهما فى كل يوم هدايا جديدة يوطدان بها حبهما .

أما الشجرة الهرمة فأرسلت صوتها الخشن أمام الريح بجانب جثة الوردة وبكت بكاء شديداً ، وأما الشاة العجوز فرفعت رأسها الهزيل إلى السماء بجانب جثة الحوت وثغت ثغاء طويلا .

ترجمة

عبد القدما — يحى — كو

في إقناعه بوجاهة مطلبي .

وما فكرت حتى هممت ، وما هممت حتى انتهيت ، فإذا بي في داره ، وإذا به يستقبلني استقبال الحليم ويخلع على ما تعود أن يخلعه على من نظراته وبسماته وكلماته ، حتى أثلج صدري ، لا بل استغفر الله لقد أدفأ صدري .

ولم أطل عليه المقدمات بل اختصرت الطريق إلى مقصدي ولحت له بحجتي ، حتى رأيته ينظر إلى في عطف ثم رأيته يمد يده إلى جيبه فيخرج منه مفتاحا في مفاتيح ، ثم قام عني صامتا ودخل إلى الحجرة الأخرى .

وقعدت أنتظر عودته ، وعاد إليّ الخيال يجمح بي ويشرد ، وكان عند ذلك أفسح مجالا ، وأطلق عنانا ، تخيلت لنفسي ما أنا صانع بالمال إذا ملأ جيبي وما أنا فاعل بعد ذلك بنفسي وبغيري ، وكان أول خواطري أن أقلد الأستاذ (توفيق) في ترك الحكومة والاعتماد على قلمي . مؤثرا حياة التسكع على ضيق الحجر ، ناجياً من قيود الوظيفة وما تتطلبه من مداجاة ومداراة وغير ذلك مما يعرفه الموظفون في مصر .

وقطع الأستاذ عليّ سلسلة الخيالات بعودته ، فنظرت إلى وجهه وكانت عليه بسمة خبث تلمع في عينيه . وجلس صامتا حينا ثم مد يده إلى بكتاب .

فقرأت عنوانه فوجدته الكتاب الأخير الذي أخرجه منذ قليل وهو « الرباط المقدس » .

وقال في ضحكة رقيقة . هذا ما أملك يا صديقي ، وأعتذر إليك من خطئك أنت . وأنى يكون عندى ما تطلب من المال وأنا رجل أديب ، وحسبي أن أكون رجلا أديبا . وكان قوله قاطعاً حاسما فلم تكن المراجعة لتجديني شيئاً معه ومددت يدى فأخذت الكتاب وقلت لنفسي : « إذا لم تكن الدنانير فالكتاب خير من أن أعود خائبا » .

ووضعت الكتاب تحت إبطي واستأذنت منه في غيظ وسرت في طريق أهمس بكلمات أحمد الله على أن صديق لم يسمع منها كلمة .

وقسوت في أحكامي عليه فقلت لنفسي ماذا عسى أن يكون هذا الكتاب ؟ إنه حقا أضخم من سائر كتبه ، فقد تعود أن يطلع بالكتاب في صفحات يمطها مطا ، وينثر ألفاظه نثرا ، لكي يوسع بينها بياض الصفحات . ثم ما أدراني لعله قد جمع فيه قصاصات من مقالاته ، أو لعله قد أتى فيه بأحاديث من الشرق والغرب كما فعل في (عصفوره) أو أو . ولم يخل قلبي من الحقد عليه لعودتي من داره بغير أن أحمل الدنانير الألف .

ثم عدت إلى الدار ، وجعلت أتصفح الكتاب وأنا أبسم في كثير من التحفز للسخرية . ثم قرأت فقلت ماهذا ؟ إنه كلام رائع فضّل الله له ! ثم ما هذا ؟ إنها لصورة صافية مثل ماء المزن لا دردره ! ثم ما هذا ؟ إنه لأسلوب يشيع فيه النور ، وتنعكس عليه ألوان قوس السماء . فله هو من فنان ! حتى أتممت ستا وتسعين صفحة .

ثم قرأت الخطابات التي كتبها المحب في القصة للمحبوبة التي فارقته ولم تعد إليه ولم تترك له أثرا يدل عليها . حتى عنوانها لم تتركه عنده ولم تبعث به إليه . تلك الخطابات التي لم يبعث بها إلى الحبيبة ، بل كتبها لكي يناجي نفسه ويتخذها وسيلة للتغني بحبها .

فوقفت كأن شيئاً صدمني . ما التوفيق وهذه الخطابات ، إنها وسيلة الناشئين في فن القصة إذا أرادوا أن يملأوا الفراغ بألفاظ منمقة يخدعون بها أنفسهم : حقا كانت تلك الخطابات مثل العقبة تعترض سبيلا تحف بها الزهور وتغني من فوقها الطيور .

ولما فرغت منها تنفست الصعداء وعدت أقرأ في شغف حتى انتهيت إلى مذكرات المرأة المحبوبة . وهي مذكرات عثر عليها الزوج عفوا وقرأ فيها أسرار المرأة الدفينة . ما هذا ؟ أهذه امرأة يصورها فنان ؟ إنها لا تزيد على أن تكون قطة أو كلبة أو قردة أو حيوانا من حيوان الغاب أو الحقل ، وليست على كل حال بامرأة من البشر .

قالت المرأة « إني أحب . إني أحب . . . وما من عقل أو حزم أو منطق يحول بيني بعد الآن وبين الهدف . لابد لي من إفراغ مأربي وفي سبيل أن أفوز بـ (....) لن أحجم إذا لزم الأمر عن ارتكاب الجريمة .

ثم قالت بعد حين من الزمن : « وتنفسنا والعين فى العين . تخيل إلىّ أنى أشرب أنفاسه شربا . وأنها تهبط إلى سويداء قلبى ، فأدركت عندئذ أن جسدى كان جوعان حبا . وإن هذا الرجل يستطيع أن يصنع بى ما يشاء . . . وهنا شعرت بأصابعه اللبقة تفك أزرار ثوبى وتجردنى منه بغير لهفة ولا عجلة ، ثم جعل يعجب بى وأنا هكذا . ثم أخذ يداعبنى بيده وفمه » ...

ثم قالت بعد حين من الزمن « ما أسعدنا نحن النساء بأن نذعن لمثل هذا الرجل ، وأن نطوى إرادتنا تحت جناحيه » .

وقالت « إن المرأة يجب أن تفهم الرجل أنها مساوية له ، وأن الأمر بإرادتها هى أيضا . وأنها تعطى عندما تريد هى أن تعطى » .

ثم قالت أخيراً « لقد فكرت فى مصير تلك المرأة التى تذهب إلى رجل لتضع حياتها بين يديه دون أن يكون فى جيبها قرش . حقا كيف أستطيع وأنا المجردة من كل ثروة خاصة إذا انفصلت عن أسرتى وترفعت عن مد يد السؤال ، أن ألقى بعبئى على كاهل (..) ؟ إن كرامتى تأبى ذلك ... فهل يطيق هو أن يتحمل ذلك العبء طويلا ؟ لا . لا ينبغى أن يضلنى الحب إلى هذا الحد ، وليس من الضرورى أن ينتهى الحب دائما بالهرب مع الحبيب .... إن الذى أراده (....) أن أدبر وسيلة أو أخترع حجة للسفر معه بضعة أسابيع دون أن يفطن زوجى » .

أى شىء فعل توفيق ؟ .

إنه يبارى القصصى الانجليزى لورنس فى صراحته الشوهاء ، ماله يكشف الستر عن هذه المرأة التى صور منها صورة الملائكة فى أول الكتاب فإذا به يغيبها عاهرة ماجنة .

أما كان أولى به لو ستر واقتصد ؟ إنها تتحدث حديثاً مكشوفاً لا يرضاه السمع ، وإن كان توفيق يزعم أنها مذكرات خاصة لا تريد المرأة أن تقرع بها الأسماع ، إنها امرأة كحيوان ، أو هى حيوان كامرأة ، إنها تتحدث عن الجسم ولا تعرف الروح ، إنها تهيم فى الطين وتصفه كما لو كان عطراً ، إنها تخوض فى الظلام وتصفه كأنها تصف الفردوس فى شعر .

ماذا فعلت يا توفيق ؟ أهى عروة انفكت من إباحية ؟ أهى دعاية مكشوفة إلى المجانة ومتعة البدن ؟ .

ثم طويت الصفحات واحدة بعد أخرى حتى بلغت الصفحة الخمسين بعد المائتين . فتنفست الصعداء مرة أخرى وأخذت ألتهم القصة التهاماً حتى انتهيت إلى آخرها . ولكن الآخر من القصة كان رائعا .

حقا إنه القصصى مبدع ! هذا الأديب الذى أثارنى وأغضبنى أخذ بعد ذلك يرضينى ويملأنى إعجابا بفنه .

وقرأت له وهو يحدث المرأة قائلا :

« إنما أود أن ألفت نظرك إلى أن الزواج قبل كل شىء عقد من العقود لا قيد من القيود . عقد بين طرفين لكل منهما حقوق وعلى كل منهما واجبات . وقد أخذ رأيك فيه قبل ابرامه وقبلت أن تجرى شروطه فما من أحد يقيدك بقيد ولكنك مطالبة بتنفيذ عقد » .

ثم قال لها « المرأة المتزوجة قد أبرمت عقدا كما قلت لك وقد تعهدت فيه بالحب لزوجها والوفاء له (ولابد أن تفى بوعدها) . المرأة اليوم تكثر الكلام عن الحرية (إن الحرية الحقيقية هى فى احترام العقود لا الإخلال بها » .

وقال لها « إذا تغيرت عواطفك فغيرى العقد ، اذهبى إلى زوجك وقولى له بكل هدوء (إن عواطفى قد تجهت إلى شخص آخر ولم يعد فى استطاعتى القيام بتعهداتى فى الوفاء لك منذ اليوم ، والأمانة تقتضينى أن أطلب إليك الطلاق » .

هذا ما يجب أن تفعله المرأة إذا وثقت من صدق عواطفها ولم تكن هازلة ولا مغامرة ولا ضحية عن صدشهوة عابرة . ولكن المرأة تريد أن تأخذ من الزوج اسمه وماله وبيته لتجعل من ذلك كله إطارا براقا لحياتها . لماذا يحلو للزوجة أن تجعل من زوجها ثورا يدور ويكد ويكدح فى ساقية الحياة ليروى ظمأ ملوثا ؟ » .

ما كنت أصدق أن (توفيق) يبلغ كل هذا ، كنت

مكافحة الأمية

ورد في العدد الأخير من هذه المجلة مقال في هذا الموضوع للأستاذ محمد فريد أبو حديد كما سبق له أن ألقى محاضرة في قاعة يورت بالجامعة الأمريكية في هذا الموضوع أيضا ونحب أن نناقش هنا بعض ما أورده حضرته من آراء في هذا الصدد ، فالموضوع جد خطير ، وهو جدير بكل عناية وتمحيص لا سيما وأن الحكومة الماضية كانت قد استصدرت من البرلمان قانونا لمكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية وتدل الدلائل كلها على أن الحكومة الحالية معتزمة تنفيذ هذا القانون كما هو أو بشيء من التعديل حسبما تراه مناسبا ومحققا للأغراض التي ترمي إليها .

ويخيل إلينا أن أغلبية ذوي الرأي في البلاد مقتنعة بضرورة العمل على مكافحة الأمية بين طبقات الشعب الجاهلة ، وإذا كان هناك خلاف بينهم فهو على طريقة التنفيذ ولكننا نعترف بأننا لم نستطع بعد سماع محاضرة الأستاذ فريد أبو حديد وبعد قراءة مقاله أن نتبين بالضبط رأيه في هذا الأمر بدقة ، فلا نزاع في أن مستمعي المحاضرة خرجوا منها بأن حضرته يرى تركيز الجهود الفنية وقصر بذل النفقات المالية على التعليم الأولى ، أي تعليم الصغار الذين تقع أعمارهم بين السادسة والثانية عشرة وهو يقول في آخر المقال المشار إليه :

«وإذا وجد في القطر ملايين ممن يحتاجون إلى التعليم وكان لا بد لنا من البدء بتعليم بعضها فما هو هذا البعض ؟ أهو الذي قد فات سن التعليم ، أم هو الذي يستقبل سن التعليم ؟ الذين يستقبلون سن التعليم ممن بلغوا السابعة ، لهم حق أن يتعلموا بمقتضى التفكير السليم وبمقتضى الدستور المصري الذي جعل لتعليم الصغار نصا محترما فيه فمن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى في سبيل أي إصلاح تعليمي هي أن نعلم الأطفال الذين يستقبلون الحياة . . . .

أحسبه لم يعرف المرأة — كنت أراه رجلاً غريبا لم يعرف المرأة إلا من وراء ثيابها الحريرية ، ولم ينفذ إليه منها إلا عطرها الساحر . كنت أظن أنه يتملق ويفك القيود ويطلق الغرائز فاذا بي أجده قاسياً بالغاً في القسوة على المرأة الماجنة . لقد هتك الثياب عن المرأة الماجنة فجردها وجعلنا نراها وهي تتملق إلى جسدها في وحشية ، ثم لف أصابعه حول عنقها فصرعها ثم أهوى عليها يطعن ويقطع ويمزق بالمشرط في غير رحمة ، حتى لكأنه قد بلى من المرأة أشد ما يبلوه الرجل منها وقاسى قسوتها وتجرع غصصها ، هذه المرأة الماجنة التي تستطيع ان تكون لها أنانية الوحش وقسوة السهم المسموم وخيانة ملمس الحية الرقطاء . لقد صرخ من أعماق قلبه عند ما سمع أن الضابط المخدوع قتل نفسه فقال (مات الرجل ! لعنة الله على النساء) !

في هذه الكلمات القلائل صور الفنان توفيق كيف يثور الزوج المخدوع على نفسه لأنه ثار على الإنسانية القاسية ، ولكنه عندما لم يستطع أن يقتلها جميعاً لم يجد إلا نفسه ينتقم بقتلها . وصور كيف يبلغ الحنق من الرجل الذي يثق بامرأة ثم ينكشف له الحق ويعلم أنها كانت تسخر من ثقته سخرية قاسية سخرية مثل حز السيف على مهل .

ثم كانت نهاية القصة مناقشة بارعة ، فيها منطق الفاجرة وفيها منطق المجتمع ، فيها خداع الأسماء ، وفيها سخرية الحقيقة الثابتة ، فيها الصراع بين نفور الطبع العاتي الحيواني وبين هداية العقل السامي .

أما إنها لآية في الفن حقاً ! وما كدت أفرغ من القراءة حتى قمت وأنا ألهث من التأثر وخاطبت صديق (توفيق) في التليفون ، وقلت له بغير مقدمات :

— لقد تنازلت لك ياسيدي ، تنازلت لك عن الدنانير كلها ، تنازلت لك عن جائزة فاروق فأنت جدير بها ، أنت جدير بجائزة فاروق لهذا العام وسأنتظر أنا إلى العام المقبل .

(ف)

«قد يكون مشروع مكافحة الأمية في الكبار حسنا، وهو بغير شك لا يخلو من الفائدة، ولكن الحكمة تقضي بأن نوازن بين الشيء الحسن والشيء الأحسن. والمعقول هو أن نبدأ بالأحسن فإذا أمكن أن نقوم معه بالحسن كان بها وإلا فحسبنا أننا أحسنا التصرف بالبدء بما هو أوجب».

فروح هذا الكلام قريب من روح المحاضرة وفيه نزعة إلى تخصيص الجهود والأموال إلى تعليم الصغار ومع ذلك فنجد الأستاذ أبو حديد يقول في أول هذا المقال نفسه:

«فنحن أمامنا مشروع لا نستطيع أن نقول إنه غير ضروري ولسنا نستطيع أن ننصح بالعدول عنه لأن العدول عنه ضار بغير شك فالإصلاح واجب لا يتردد مصري واحد في المناداة بوجوبه ولكننا لا نملك إلا أن نصيح بأعلى صوتنا قائلين: يجب علينا أن نعيد البحث وأن نتريث وأن نعدل حتى لا نتورط ونعود في آخر الأمر بخيبة يكون لها أسوأ الأثر في مستقبل الإصلاح في البلاد ... لا بد من التريث والدرس، وإعداد كل التفاصيل وعرض الأمر للأنظار حتى نعرف وجوه الانتقاد فيه ثم نأخذ بعد ذلك في الانفاذ إذا نحن آنسنا أن المشروع قد صار صالح للانفاذ».

وهذا كلام صريح في أن المشروع في ذاته نافع وجدير بالعناية وأن تنفيذه واجب وإنما يوصي حضرته بالدرس والتمحيص والتريث وهي أمور واجبة المراعاة عند تنفيذ أي مشروع حيوي جديد، ومن ذلك نستخلص أن صدر المقال لا يعلق التنفيذ إلا على هذه الاحتياطات وإن كان عجزه ينادي كما نادت المحاضرة بضرورة المفاضلة أولا بين تعليم الكبار والصغار، وأقطع دليل على أن الأستاذ يرى أن الصغار أولى بالعناية هو عنوان المقال ذاته: «الصغار أولا، الصغار أولا» ولعلي قد أبنت للقارئ ما اعتراني من حيرة في تفهم رأي الأستاذ فريد أبو حديد وفي عجزي عن تبين غرضه بالضبط والآن أورد رأيي بكل صراحة وجلاء، وأطمع في كلمة من الأستاذ بنفس الصراحة والجلاء، تحدد وجهة نظره:

* * *

لا يستطيع أحد أن ينكر على هذه الأمة الكريمة أنها تبغي من أعماق قلبها أن تعلم جميع صغارها وأنها لا تضن في سبيل ذلك بأي جهد أو مال. والذي يقوم بعمل حسبة دقيقة يدرك أنها تصرف على التعليم الأولي والإلزامي كل عام حوالي ثلاثة ملايين من الجنيهات وأنها لا شك مستعدة لزيادة هذا الاعتماد إذا لزم الأمر أو إذا أبصرت بعينها وأدركت بفكرها أن التعليم الأولي جدير بهذه النفقة وأن الصغار يستفيدون منه فائدة تذكر. وبالجملة أنه يحقق الأغراض السامية التي يقصد إليها من هذا التعليم الذي هو حجر الأساس في بناء الدولة وتنشئة رجالها. ولكن كل إنسان يدرك أن هذا التعليم لم يحقق هذا الغرض وحسبنا أن وزير المعارف السابق قد دمغه في وثيقة رسمية وفي تصريحات مجلس النواب والشيوخ بأنه قد فشل فشلا ذريعا.

ونحن والأستاذ فريد، وكل مفكر وكل محب لبلاده يتمنى لو شمرت الوزارة عن ساعد الجد وبذلت جهدا قويا في الاتجاه الصحيح لإصلاح هذا التعليم، وعندما تبدو هذه الرغبة منها استطعنا نحن وغيرنا أن نبدي لها رأينا في هذا الاتجاه الصحيح كيف يجب أن يكون، وأي صورة يجب أن تتخذها محاولة الإصلاح، ونكشف لها عن العيوب الأساسية التي هبطت بهذا التعليم الأولي إلى ذلك المستوى الذي يندى له الجبين وجعلته تعليما لا ينفع غلة ولا يجدي فتيلا.

وبعد، فهل يصح مع هذا إذا قامت دعوة أو اتخذ قرار يرمي إلى بذل جهود جديدة وصرف نفقات إضافية في سبيل رفع مستوى الأميين من أبناء الشعب (ويعني أنهم يشملون نسبة عالية جدا ممن أتموا تعليمهم في المدارس الأولية ثم غلب عليهم النسيان وعادوا فانحدروا إلى الأمية كما كانوا من قبل) هل يصح أن يقال لأصحاب الدعوة وفروا جهودكم واحبسوا أموالكم واصرفوا ما لديكم من طاقة ومال في التعليم الأولي؟ أليس من حق الرجال وقد

فشلنا فى تعليمهم صغاراً أن نحاول تعليمهم وهم كبار ؟ أليس هؤلاء الذين ذاقوا مرارة الحرمان من التعليم وأحسوا الأثر السيء لذلك فى حياتهم العملية وتمنوا لو أتيحت لهم فرصة فى كبرهم بدلا من التى فاتتهم فى صغرهم ، أليسوا جديرين بها ، خليقين بأن تهيأ لهم ؟

ثم إن فى البلاد نهضة اجتماعية مباركة ترمى إلى تحسين حال أفراد الشعب من جميع النواحى الصحية والاقتصادية والاجتماعية فهلا يكون من المعقول ، ومن المفيد أن تصحب محاولات الإصلاح الاجتماعى هذه محاولة جديدة لمكافحة الأمية ومكافحة الجهالة حتى يتفاعل المجهودان ويتساندهما تصل إلى آثار بعيدة المدى مجدية إلى أقصى حد ، أظن أن واجبنا جميعاً يقضى علينا بتأييد هذه الحركة وتدعيمها لعلها تسير فى طريق ناجح ولا تصيبها الكارثة التى أصابت التعليم الأولى . ويقينى أن هذا سيصادف قبولا لدى المصلحين أمثال الأستاذ أبو حديد الذى ينادى كما قدمنا بوجوب التريث والدرس وإعداد التفاصيل كلها حتى يكون المشروع صالحاً للتنفيذ .

ونحن مع حضرته فى ضرورة التريث والدرس ولكننا لا نحب أن تكون كل دراساتنا نظرية على الورق وفى المكاتب ، فهذا لا يكفى . إذ العيوب الحقيقية لا تظهر إلا عند التنفيذ ، فالتمحيص واجب إلى حد ما قبل البدء فى العمل بالفعل ، ولكن الدراسة المفيدة والتمحيص المجدى يبدآن بعد التنفيذ ، لذلك نرى دائماً أن كل مشروع جديد يجب أن تكون على رأسه هيئة فنية تشرف عليه باستمرار وتتحسس مواضع العيب والضعف فيه وتعدله باستمرار فى ضوء التجارب ، ولهذا السبب نرى أيضاً وجوب البدء فى جميع المشروعات على نطاق محدود معقول ، إن لم نقل صغيراً ، حتى إذا حان الوقت للتوسع تم ذلك بأسلوب مجرب وخطة مضمونة النجاح وبذلك وحده يمكن تجنب الفشل » والخيبة التى يكون لها أسوأ الأثر فى مستقبل الإصلاح فى البلاد » .

* * *

والآن فلنناقش الأمور التى رأى الأستاذ فريد أبو حديد ضرورة مناقشتها مرتبة حسب تناوله لها :

فأما الأمر الأول ــ وهو معنى الأمية وهل هى مجرد الجهل بالقراءة والكتابة ــ فقد سبق لنا أن أبدينا فيه رأينا فى مقالات سابقة (راجع مثلا ما قلناه فى العدد ٢٩٢ من «الثقافة الشعبية») وأوضحنا أن العار ليس فى جهل القراءة والكتابة ، وإنما هو فى عقلية أغلبية الأميين . فمحاربة الأمية يجب أن يقصد فيها كما يقول الأستاذ أبو حديد إلى توسيع الأفق الذهنى والتوجه بالشخص إلى العادات الصحية وتذوق معنى الحياة وإدراك مكانه فى المجتمع ، وأضيف إلى ذلك ضرورة العمل على رفع المستوى الخلقى حتى يحيا فى الإنسان الضمير الذى يجعله يخشى الله ومن ثم يعين على حسن معاملته للناس وصدقه فى هذه المعاملة . وكل ذلك وغيره من أمثاله يصح أن يندمج فى العبارة التى وردت فى القانون وهى « مع قسط مناسب من الثقافة العامة » وما ينبغى لنا أن ننتظر من القانون تفصيلا وافياً وإنما ننتظر ذلك التفصيل ممن يتولون التنفيذ .

وآخر ما ورد فى هذا الأمر الأول حسبة زمنية انتهى منها الأستاذ إلى أن المشروع يعطى للشخص فرصة أربعة وخمسين يوماً دراسياً فى السنة لكى يتم فيها دراسته وذلك ما لا يراه حضرته محققاً للغرض الإصلاحى المنشود وأظن أن جمع الساعات بهذه الصورة لا يعطى فكرة صحيحة ، فكلنا نعلم أن حصة واحدة فى كل يوم من أيام الأسبوع تنتج نتيجة أفضل وأبقى من سبع ساعات تدرس للشخص فى يوم واحد ، فحساب الزمن بهذه الصورة ينطوى على شىء من التساهل ولا أقول المغالطة التى لا يمكن أن تخطر بالبال .

كذلك أتى لنا الأستاذ بحسبة أخرى حين مناقشته الأمر الثانى انتهى منها إلى ضرورة خلقنا لعدد كبير من المعلمين على التو أو بحشد الموظفين والطلبة لتدبر من الجميع الجيش اللازم لمقاومة الأمية ، وقد راجعت القانون فلم أجد فيه ما يحتم إنهاء حملة المقاومة أو المكافحة بتلك السرعة التى أشار إليها الأستاذ . نعم قد تكون الفكرة التى تملكت واضعى المشروع هى أنه موقوت بأربع سنوات ، وبذلك نادوا وخيل إلى كل الناس أنهم يرمون إلى إتمام المكافحة فى أربع سنوات ، وهذه أمنية خيالية لا يمكن تحقيقها لعدة أسباب ، أهمها :

أن المدارس الأولية الحالية لا تتسع لأكثر من ثلث من هم فى سن الإلزام ولذلك سيتسرب عدد مستمر من الأميين ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه قد ثبت أن كثيراً من الذين يتمون الدراسة الأولية يعودون لضعف هذه الدراسة إلى أميتهم بسبب نسيانهم لما تعلموه ، وهذا يفتح عدداً آخر من أميين جدد ، كانت الأمة تظن أنها فرغت من تعليمهم .

ورأينا أنه إذا نظر للمشروع على أنه وسيلة لمعاونة الشعب على تلقى ثقافة ترفع مستواه الفكرى وتنفعه فى حياته العملية كانت مهمة مستديمة لا تنتهى حتى بعد تعليم الكل القراءة والكتابة ، بل ستظل الحكومة مسئولة عن تولى أفراد الشعب بالثقافة التى تصلهم بالتطورات المستمرة فى الحياة وتزيد مستواهم العام ارتفاعاً . وفى الأمم التى زالت عنها الأمية تقوم الحكومات والهيئات الأخرى بإعداد برامج تثقيفية مستمرة وإنشاء الأندية والمكتبات وتنظيم المحاضرات العامة من آن لآخر .

***

فالمشروع إذن لا يمكن اعتباره مشروعاً موقوتاً وإنما يجب أن تكون له صفة الاستمرار ، وكل ما ننصح به لضمان نجاحه علاوة على ما أشار به الأستاذ فريد أبو حديد من التريث والدرس هو التدرج فى تنفيذه . فهذا التدرج كما قدمنا يتيح الفرصة للتعلم من الأخطاء والتعديل فى ضوء ما تسفر عنه التجربة من اتجاهات للتحسين ، ومن جهة أخرى فهو يخفف الأعباء المالية ويجعلها محتملة ومتمشية مع غيرها من الأعباء .

والتدرج ينفع أيضاً فى إراحة أصحاب الأعمال حتى لا يجدون عمالهم جميعاً مشغولين بدراسات تستنفد الكثير من وقتهم واتباههم دفعة واحدة ، وحبذا لو تدرجنا أيضاً فى ساعات العمل ، فقل من يستطيع من هؤلاء العمال أن يقوى على صرف ساعتين فى الدراسة بعد العمل اليومى أو فى أثنائه ، ولعل ساعة واحدة أجدى وأنفع .

وأخيراً أكررها ما سبق أن ذكرته فى عدة مناسبات كهذه أن الاعتماد فى مثل هذه المشروعات يجب ألا يكون على الحكومة وحدها وإنما يجب أن تتحمل جميع الهيئات الملية والصناعية والمالية والنقابات والاتحادات وغيرها قسطاً وافراً من العبء ، وأن تشترك اشتراكاً فعلياً وتساهم مساهمة قلبية فى هذا العمل الجليل فعندئذ فقط يحق لنا أن نتطلع إلى نشاط عظيم وثورة فكرية منتجة وحركة تعاونية مثمرة وتعاضد وتساند يكون له أكبر الأثر فى نجاح المشروع .

وبعد فلم يبق من مقال الأستاذ أبو حديد ما يتطلب المناقشة إلا إصراره على أن « المدرسة العامة لأطفال الشعب إذا أصلحت وعممت ستكون هى المركز الذى يشع منه الإصلاح » وهو أمر يحتاج إلى تفصيل يضع الأمور فى نصابها ولعلنا نوفق إلى ذلك فى مقال آخر .

أحمد عبد السلام الكرداني

بين المسموع والمقروء

الجنتلمان ، أو درس في الترجمة

الأمر وما فيه ، أننا اختلفنا ، أنا وبعض الأصحاب ، على ترجمة اللفظة الإنجليزية الشهيرة ، جنتـلمان Gentleman وهي لفظة لا أحسب أحداً من قرائنا فاته سماعها .

والذي يريد من أهل اللغة ، والمُعنـيّن بالترجمة ، أن يتعلّم درساً في قصور الترجمة وقصر باعها ، فليدرس هذه اللفظة ، وليدرس تاريخ حياتها ، فإن لها تاريخ حياة كحياة الرجل . وهي قد استقرّت أخيراً على معنى ، ولكنه احتوى شيئاً من كل دور من أدوار هذه الحياة الطويلة المديدة . فترجمتها لن تكون بكلمة ، ولكنها تكون بكتاب .

وقد يترجمها الكُـتّـاب بالرجل الشريف ، وقد يترجمها آخرون بالرجل الرقيق ، وآخرون بالرجل الوديع ، وآخرون بالسيد . وإذا أردت أن تعرف نصيب هذه التراجم من الصحة فاستمع لوصف أول رجل نعتته السجلات الإنجليزية القديمة بأنه جنتلمان .

ذكرت السجلات ، أول ما ذكرت ، اسم « روبرت أردسويك — جنتلمان » . ثم كشفتْ عن شيء من تاريخ حياته فقالت إن المحكمة العليا اتّهمته بالتلصص في أحد المنازل ، وبأنه قتل في أثناء ذلك رجلا ، بأن جرحه عمداً ، ثم قطّع أعضاءه بالسيف عضواً عضواً ، والرجل جاثٍ على ركبتيه يطلب الرحمة والحياة دون جدوى .

فهذا هو الجنتلمـان الأول . ثم تأتي السجلات الإنجليزية على اسم رجل ثان ، نعتته بالجنتلمان ، برّز على الجنتلمان الأول في شرفه وكرمه ووداعته .

كان هذا في القرن الخامس عشر .

ثم يأتي القرن السابع عشر . فيُحكَى عن جيمس الثاني ، ملك انجلترا ، أن امرأة كتبت له ترجوه أن يجعل من ابنها جنتلمانا . فيكتب الملك يقول : ياسيدتي ، إني أستطيع أن أجعل منه شريفا — أستطيع أن أسبغ عليه مرتبة من مراتب الشرف ، ولكني لن أستطيع ، وليس الله بمستطيع ، أن يجعله جنتلمانا .

وتفسير هـذا وذاك أن الجنتلمان في تلك القرون القديمة الماضية كان معناها الرجل الذي يخرج من بيت نابه ، كانت هذه النباهة ما كانت . أي الذي يخرج من بيت أصيل . فلفظة « جنتل gentle » ، اشتقت قديماً من اللفظة اللاتينية gens ، ومعناها الجنس أو الأصل ، ولم يكن بين هذه وبين الرقة والوداعة وما إلى ذلك صلة إلا أن تأتي هذه الصفات تبعاً . ومن أجل هذا قال الملك جيمس للسيدة ، إن الله نفسه لا يستطيع أن يجعل ولدها جنتلمانا . وقد صدق . فكيف يستطيع الله من بعد خلقه هذا الولد ، من تلك النطفة ، وهي ليست في البيوتات أصيلة ، أن يجعله جنتلمانا . إلاّ أن يُعيد خلقه .

وانتقل هذا المعنى من اللفظ إلى المجتمع ، ما بين القرن الخامس عشر إلى السابع عشر ، فصار الجنتلمان عَلَماً على طبقة من الطبقات الرفيعة تتميز بحمل شارة هي شعار البيت الذي ولد فيه .

ثم جاء على انجلترا عهد الفتح والغلبة والمجد من بعد ذلك . فتطور معنى اللفظ ، وتطوّرت معه هذه الطبقة من المجتمع . ولست أجد شيئاً أبرع في وصفها من هذا الذي كتبه البروفسور لسكي Laski في كتاب نشره في لندن منذ سنوات قليلة . قال :

إن انجلترا تفخر بأن هذا المعنى ، معنى الجنتلمان ، من المعاني التي اختص بها شعبها دون سائر الشعوب . وإني لأحسب أن لهذا الفخر دعامة قوية يستند إليها . والجنتلمان ، بحسبانه مثلا يُحتذَى ، معنى من المعاني التي امتازت بالبساطة المفرطة .

إن الجنتلمان يكون هكذا بالذي هو كائنه أكثر منه بالذي هو فاعله . فهو يستقبل الدنيا ويستقبل الحيـاة والعيش في غير اكتراث . وهو يقبل منها ما تعطى ، ولا يسأل . وهو لا يهتم بشيء اهتمام محترف . وهو قد يؤذن

له فى تعلم الهوايات وأن يخرج عن المألوف إلى كل ضرب من ضروب الشذوذ ، ولكن لا يؤذن له فى ممارسة مهنة يكون منها ارتزاق أبداً . فالرزق وضرورة تحصيله ليسا من شئون الجنتلمان فى شىء . وعليه أن يثبت فوق ذلك فى سبيل تأهله للقب ، أن أحداً من أجداده ، على الأقل إلى الجد الثانى أو الثالث ، لم يكن يعمل للرزق أو أنه احترف حرفة يوما ما .

والجنتلمان يُستحَب فيه أن يكون قد تعلم فى مدرسة من مدارس خاصة ، معروفة ، محدودة العدد ، من أخصها إيتن Eton وهَرُو Harrow. وهى مدارس ثانوية . ثم هو يكاد يشترط فيه من بعد ذلك أن يكون دخل إحدى جامعتين ، إمّا أكسفورد وإما كبردج . وعليه أن يتعلم ركوب الخيل وصيد الطير والحيوان . ويجب أن يكون له فى الجيش والأسطول أقارب ، ثم قريب واحد على الأقل فى السلك الدبلوماسى . ولا بد له أن يكون عضواً فى نادٍ من النوادى ؛ وعضواً فى حزب المحافظين ؛ ومن المرغوب فيه أن تتفق آراؤه وما تبديه جريدة المرننج بوست Morning Post من آراء . ومن مؤهلاته أن يكون فى إمكانه أن يحتمل زيارة الرفييرا فى الشتاء . فإن هو استطاع إلى جانب ذلك أن يدور على البيوتات الريفية الإنجليزية ما بين شهر أغسطس إلى نوفمبر ، زاد هذا فى تأهيله ، ولو أن هذا الدوران ليس بالشرط الذى لا بد من وفائه .

فهذا هو القدر الأقل من صفات الجنتلمان — هى الدعائم الأولى التى يرتكز عليها هيكل الجنتلمان ، وهو هيكل لعمر ربى عظيم هائل .

وهناك صفات أخرى تتصل بعقل المرء ، وبعاطفته ، لا يجب إغفالها . فالجنتلمان لابد أن يُظهر إعجابه بالكتّاب والشعراء من أمثال كبلنج Kipling وسرتيس Surtees ، ويجب أن يذكر بالسوء كل هذا القصص الحديث ، وأن يحقّر ما فيه من مرونة فى الأخلاق . ويجب أن يدرك ما فى موسيقى جلبرت وسوليڤان من رقة واتزان . أما موسيقى بتهوفن وموزارت فيجب أن لا يدخل فيها إدخالا . ويجب عليه أن يتعلم كيف يحضر إلى الأوبرا متأخراً .

وإذا هو حضر التمثيل وجب أن لا يكون له من ذلك غرض غير التسلّى . وله أن يزور باريس ، ولكن عليه أن يخرج منها بإحساس يقارب ما أمكن إحساس المرء بالخطيئة . وهو إذا تكلم الفرنسية أو الألمانية يجب أن يتكلمها غير مفهومة . وعليه أن يلعب الألعاب ، ويلعبها مقتنعاً بأنها سرّ عظمة بلاده . ولكن يجب أن لا يخرج فى إحسانه فيها عن إحسان أهل طبقته ، إلى إحسان المحترفين ، ففى الاحتراف مضيعة الألعاب ومقتلة الرياضة . والشراب لا بد أن يتعاطاه ، فلا يكفّ إلا بأمر طبيب .

وللجنتلمان صفات أخرى هامة . فيجب أن يجهل ما علمُ الاقتصاد ، ولا أن يعلم كيف تُحكَم الأمم غير أمته . ويجب أن يسوّى بين البلشفة وخطيئة الإنسان الأول . وحرية الفكر وحرية العقيدة يجب أن يتحاماها ، ولكن مع هذا يجب ألا يتعصب للدين تعصباً شديداً . ويجب أن يحس إحساساً كاملا بفضل الإمبراطورية ومزاياها . وأن يؤمن بأن اليد القويّة هى وحدها التى تستطيع أن تكتسب احترام الشرق .

وإذا هو تغدّى خارج منزله فله إما ألا يتحدّث أبداً ، أو إذا هو تحدث وقف عند أحاديث الأخبار وما يجرى عند الناس ، وإياه ثم إياه أن يخرج عن هذا فيظهر تبحراً مرذولا فى موضوع من المواضيع .

ويجب أن يؤمن بالذى عمّ أمريكا من مادية بالغة ، ولكنه إذا شاء أن يقترن بإحدى بناتها ، فعليه أن لا يقترن إلا باللاتى حباهن الله الشىء الكثير من نعمته ، ممن قد استقبلتهن بيوتات لندن ، أو من هنّ قمينات باستقبالها .

وهو قد يتعلم فن البستان ويحسنه . وهو قد يكون مدبر شركة على شرط ألا يسعى إلى الإلمام بكل أعمالها . وعليه ألا يكون طلق اللسان عند الحديث ، أما إذا هو طلب الفصاحة فى الخطاب ، أو هو حاول الخطاب ، وجب أن ينعقد لسانه فلا تخرج من فيه كلة . ويجب عليه أن يُحس بجمال الشكل إحساساً كبيراً . فيجب أن يتعلم مثلا أن رباط الرقبة الأسود ، يلبسه المرء مع المعطف ذى الذيل الطويل ، سبّةٌ تدل على ضعة فى الأصل . إلا أن يكون

صاحبُ المعطف والرباط رئيس الجرسونات فى مطعم .

وللجنتلمان صفات أخرى خطيرة ليس من الحكمة تناسيها . فهو يؤمن كل الإيمان بالعدل فى أهل طبقته . وله فى الأمر أسلوب غاية فى اللطف . وهو متسامح مع كل إنسان . إلا أن يكون متديناً ، أو اشتراكياً ، أو سارق صيد . وهو شجاع دائماً ، يختص باحترامه ومروءته النساء ، نساء طبقته . وهو يكره الظهور بدالته ، وكذلك يمقت التباهى بفضائله . وقد ينسى أن يدفع أجر طرزيّه ، ولكنه لاينسى أبداً أن يدفع دينه لقرعه اذا هو خسره على مائدة اللعب . والأسرة المالكة يحترمها كل احترام . وهم ناس كالناس ، ولهم بعض الزلات ، كما للناس ، ولكنه لايبيح لسانه أن يذكر من ذلك شيئاً . وهو يحترم الأساقفة ، ويحترم من وزراء التاج أولئك الذين ينتمون لحزبه . وهو إذا ادّعى دعوى فلا يلحّ فيها فوق ما يجب . وهو متواضع فى عقله ، فلا يحب أن ينظر إلى المستقبل البعيد . وهو قد يشكو ، ولكنه يعرف كيف يضحك . وهو يضحك من نفسه كثيراً ، وقد يخرجه الضحك على هذا النحو من مآزق قاتلة . وهو يحب السلطة . ومع أنه لا يعرف كيف يصطنع المال ، فهو قلما يُرى متلبساً برشوة أو بائعاً ضميره بمال .

والجنتلمان هو الذى حكم انجلترا إلى عهد غير بعيد . والرجل الانجليزى العادى لا يزال فى قلبه احترام الرجل الذى لا يضطره العيش إلى العمل — أى احترام الجنتلمان — حتى العامل الإنجليزى لم ينفض عن نفسه احترام هذا الرجل الذى جرت التقاليد بتقدمه . وما أسرع ما أدرك الجنتلمان بنشأة الصناعة أن قوته فى المستقبل لابد أن تعتمد على رجال الصناعة ، ثم ما أسرع ما احتضن هؤلاء الرجال ، فخالطهم وزاوجهم وعاهدهم . وهم بدورهم أقروا له بحسن القيادة ، وبالحكم الصالح ، فانضووا تحت لوائه راضين مختارين.

وعلّم الحكمُ الجنتلمانَ متى يشد اللجام ومتى يُرخيه ، وعلّمه أن الأمر الذى لا ينفذ كله لا بأس من المساومة فيه . وهو على قدر خصومته لطبقات المجتمع الإنجليزى الأخرى ، لم يأذن لخصومته إياها أن تبلغ حدّ المقامرة بمكانه الممتاز بين هذه الطبقات . ومن أجل هذا استقر حيث هو من قيادة الأمة ، والتحكّم فى مقدّراتها قرنين من الزمان .

وتعدّى تأثير الجنتلمان حدود انجلترا ، إلى أوربا ، وإلى العالم . فهو الذى حبّب الدنيا فى الفتبول ، والجولف ، والتنس ، وهو الذى اخترع « آخر الاسبوع » يقضيه الناس فى الريف بعيدين عن المدن . وهو الذى فتح أعين الأمريكان فأبصرت بها الفنون . وهو الذى سمع بالمثل الذى يقول بأن العلم القليل شرٌّ خطير ، فاخترع له الرأى القائل بأن العلم الكثير غير جميل ، وهو على كل حال يدفع صاحبه إلى الجنون .

وللجنتلمان فلسفة سيطرت على الفكر الانجليزى زماناً . ومن مقتضياتها رفضه أن يرتبط بمبادىء كائنة ما كانت ؟ فهو يأبى فى يومه أن يتقيد بشىء لغده . فاذا جاء الغد ، حلّ مسائله وفق ما تقتضيه حاجات هذا الغد . وهو يرى أن يأخذ دائماً وجهته التى يرضاها ، فارضاً أن الدنيا سوف لا تتخذ وجهة سواها . وهو دائماً يجب أن يستشعر الثقة بأن الأسلوب الذى يستنّه هو للعمل ليس أسلوبه هو وحده ، فهو الأسلوب الذى لا شك ستراه الدنيا أنه أسلوبها . وهو دائماً يجب أن يستشعر أنه بمشيئة الله سيد الشعوب . وهو فى سبيل ذلك لا يظهر رغبة شديدة فى بلوغ غرض مهما تحرّق قلبه لبلوغه ، وذلك كى لا يظهر بالخيبة فى عين الأجنبى إذا هو قصّر عن بلوغه . وهو على كل حال لا يكاد يتحرق لشىء أبداً . فهو ينظر للحياة الدنيا كلعب يُلهى ، إلى روح اللعب فيه الجدُّ الزائد . وهو لا يرضى أبداً أن يركبه غرضٌ كما يُركب الحمار . فهو لا بد أن يكون سيّد غرضه ، كما يكون سيد حماره . وفى هذا من الحكمة الإنسانية النادرة ما لا بد لكل أحد أن يُعجَب بها .

* * *

فهذا هو الجنتلمان أيها القارىء . أفبعد هذا تترجم هذا اللفظ بالشريف أو بالوديع أو بالرجل الطيب أو بالسيد ؟ أم أنت معى ترى أنه لابد لترجمته من مقال أو كتاب .

أحمد زكى

طبع ... لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة

بعـــــد الانتخابات

انتهت المعركة الانتخابية بسلام، وسكنت الضجة التي أثارتها، وعاد المشتركون فيها إلى حياتهم اليومية المألوفة ورجعت الأحزاب السياسية إلى أنفسها تحصى أرباحها وخسائرها وتراجع ما نجح من خططها وما أخطأها فيه التوفيق، وتحدد على ضوء النتائج موقفها، وتتهيأ للدور الذى ستقوم به فى الحياة النيابية المقبلة. وليس يعنينا من أمر هذه المعركة إلا مبلغ ما أفادته الأمة منها، وما ينتظر أن يكون لها من أثر فى حياة البلاد وسير نهضتها. ولهذا نرى واجباً علينا أن نسجل بعض ملاحظاتنا عليها، وما نستخلصه من نتائجها وأن ننظر لما بعد الانتخابات، ونصارح النواب الذين فازوا بثقة الأمة بما تعلقه البلاد عليهم من آمال، وما تنتظره منهم من مسلك يوطد دعائم الديمقراطية الصحيحة فى البلاد ويثبت تقاليدها ويكفل العمل المثمر القوى فى ظلالها.

وأول ما يسترعى النظر فى الانتخابات الحالية أن الذين نجحوا بالتزكية من النواب كانوا قليلين بالقياس إلى من نجح بالتزكية فى الانتخابات السابقة وأن تزاحم المرشحين على الدوائر كان شديداً على غير ما جرى عليه الحال فيما سبق من الانتخابات فكان عدد المرشحين فى كثير من الدوائر سبعاً وازداد عددهم فى إحدى الدوائر إلى تسع. ونشأ من هذا أن بلغ عدد الدوائر التى أعيد فيها الانتخاب ما يقرب من ربع عدد هذه الدوائر. ويعلل البعض ذلك بأن الأحزاب جميعاً تشترك فى هذه المعركة، ولذلك اشتد فيها التنافس والتزاحم وأنها لا تفرض على المنتمين إليها رقابة خاصة، بل تدع حريتهم فى استخدام حقهم الفردى الكامل فى ترشيح أنفسهم حيث شاءوا، ولهذا لم يجد بعضهم حرجاً فى اقتحام أسوار الدوائر المقفلة التى تفاهمت الأحزاب المؤتلفة على تركها لمرشحين معينين اتفقوا جميعاً عليهم. بل لقد أجاز البعض لأنفسهم أن ينافسوا مرشحى الحزب الذى ينتمون إليه. ولم يكن الحال كذلك فى الانتخابات السابقة حيث كان الخروج على قرار الهيئة السياسية التى ينتمى إليها الفرد والتقدم لمنافسة مرشحها الرسمى أمراً تعده تلك الهيئة شقاً لعصا الطاعة وخروجاً على قواعد الحزبية قد يعاقب عليه بالإبعاد من حظيرتها، ولهذا قل المنافسون، ونجح الكثيرون بالتزكية حين انفردت تلك الهيئة بالانتخابات وقاطعتها الأحزاب الأخرى. كذلك

يعزو البعض كثرة المرشحين إلى حالة الرخاء الاقتصادى ووفرة المال لدى الكثيرين مما يسر لهم محاولة الدخول فى تلك المعركة ، وبذل ما قد تتطلبه من نفقات ، والاعتماد على ما يستطيع المال أن يحققه من أساليب الدعاوة .

وكان من الطبيعى أن يكون لهذا التنافس الشديد والتزاحم الكثير على الدوائر أثره من حيث نشاط المتنافسين فكثرت الاجتماعات العامة وتبارى الخطباء فى إظهار مزايا المرشحين الذين يؤيدونهم ، وتعددت وسائل الاتصال بالناخبين ومحاولة كسب ثقتهم بمختلف وسائل التأثير المشروعة . وكان هذا النشاط باعثاً على زيادة الاهتمام العام بالمعركة ، ومن مظاهر هذا الاهتمام زيادة عدد من اشتركوا فى التصويت من الانتخابات السابقة زيادة غير يسيرة . على أنه من الملاحظ فى هذه الانتخابات وفى جميع الانتخابات السابقة أن الذين يستخدمون حقهم الانتخابى فى القاهرة والإسكندرية قليل بالقياس إلى العدد الذى يشترك فى دوائر الريف ، ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا بوجود نقص فى قيد أسماء من لهم حق الانتخاب وفى توزيع تذاكر الانتخاب فإن من المعقول أن يكون الوعى الاجتماعى فى العاصمتين أشد والحرص على استخدام الحقوق السياسية أكبر.

ودلت النتائج التى ظهرت على أن الأحزاب جميعاً كان لها نصيبها من الفوز وأن الزعماء البارزين فيها قد نجحوا ، وقد كان أكبر الأحزاب فوزاً أكثرها تنظيما لفروعه ونشاطاً فى مؤازرة مرشحيه كما احتفظت العصبية المحلية بقيمتها كعامل من عوامل نجاح المرشحين فى كثير من الحالات . ولم يفز حزب من الأحزاب بعدد كاف من الكراسى يسمح له بالانفراد بالحكم والاعتماد على تأييد أنصاره وحدهم . ولهذا ستظل هذه الأحزاب بحاجة إلى التآلف وتكوين حكومة مشتركة منها جميعاً . ونعتقد أن هذا من توفيق الله فى هذا الدور ففيه ضمان لاصطباغ تصرفات الحكومة بالصبغة القومية وبعدها عن الاتجاهات الحزبية الضيقة . وفيه توثيق لعرى المودة والتعاون بين الأحزاب جميعاً فى هذه الفترة التى يجتاز فيها العالم مرحلة خطيرة لا نجاح فيها لأمة تواجه الدول متخاذلة مفككة القوى متضاربة النزعات . وفيه كفالة بألا ينساق الحزب المنفرد بالحكم المتمتع بثقة الكثرة إلى الطغيان والتحكم فى القلة فتفسد الأمور وتصير الديمقراطية شكلا ورسما لا روحاً وعملا .

ومع أن بعض الأحزاب يفوق البعض فيما ظفر به من كراسى النيابة فقد يكون باستطاعة القليلين بكفايتهم وجدهم وحسن تأثيرهم فى البرلمان أن يكونوا أبعد أثراً فى الحياة النيابية من الكثرة .

وأحسب فى هذا القدر من الانتخابات ونتائجها ما يكفى القارئ فننتقل به إلى المرحلة الثانية التى لم تكن الانتخابات إلا وسيلة لها . كيف يكون الحال فى البرلمان المقبل . أى روح ستسوده . أى مشاكل سيواجه؟ ماذا نرجو منه وماذا نخشى ؟ كل أولئك مسائل أجدر بتدبرنا وأولى باهتمامنا .

كيف يسلك البرلمان المقبل . وهل يسير سيرته السابقة أو يعدل من أساليبه ويختط منهجا أدنى للجد والعمل . لا نستطيع الجزم بشئ فى ذلك ولكننا نملك أن نفضى للنواب ببعض ما يحوم بنفوسنا من رغبات صادقة لا نرجو من ورائها إلا أن تفوز الهيئة النيابية بالنجاح والتوفيق فى مهمتها .

نرجو مخلصين ألا يهتم النواب للأثر الخارجى لما يصدر عنهم فى داخل المجلس وأن يحرصوا على عرض ما يهديهم إليه تفكيرهم الحر وألا يبالوا ماقد يلاقونه فى سبيل ذلك من سخط فإنهم مطالبون بإرضاء ضمائرهم لا بإرضاء الناس مسئولون عن الجهر بما

يعتقدون لا بما يتملق عواطف الجماهير وإذا توخى النواب هذا المبدأ انقطع سيل الأسئلة والاستجوابات المسرحية التي لا يراد بها الوصول إلى نتيجة نافعة بقدر اقناع الجماهير الخارجية بأن هؤلاء النواب مهتمون بهم كلهم واقتصر الحال في ذلك على ما تدعو له المصلحة وتقتضيه الضرورة وبذلك يقتصد كثير من الوقت ويوفر على الجميع كثير من عناء لا داعي له .

وإذا توخى حضراتهم ذلك قلت الخطابات التي يتكرر إلقاؤها على منبر البرلمان كل عام واقتصدق الملاحظات الهامة التي لا يخرج منها القائل أو السامع إلى نتيجة إيجابية . وحاسب النواب أنفسهم بدقة على ما يقولون قبل أن تنطق به ألسنتهم واقتصر الأمر على ملاحظات دقيقة مدروسة ترمى إلى غاية محدودة يقولها القائل في حينها المناسب وبذلك يسود الجد ويقل اللغو ويختصر الطريق إلى القرارات النافعة ويوفر الوقت والجهد على المجلس والحكومة .

وإذا توخى حضراتهم ذلك واستشعروا أنهم غير مدينين لأحد بمراكزهم إلا للأمة بطلت تلك العادة التي جرى عليها كثير من النواب في كل العهود وهي السعي لقضاء الحاجات الخاصة للناخبين ومن يمت لهم بصلة وبذل النفوذ لتيسير مطالبهم . مما يؤثر أسوأ التأثير في سير الأمور سيرها الطبيعي .

نحن ندعوهم للتحرر من سلطان الجمهور الخارجي لأن التأثر بذلك يحول بين النائب وبين اداء وظيفته بحرية ونزاهة ، وندعوه كذلك للتحرر من قيود الحزبية متى كانت الإعتبارات القومية والمصلحة العامة للأمة تتعارض مع اتجاهات الحزب وقراراته . إن الديموقراطية الصحيحة تقوم على الحرية الفردية الشاملة فإذا كانت النظم البرلمانية التي تقوم على أسس الديمقراطية لا تكفل هذه الحرية كانت متناقضة مع أسسها .

نرجو كذلك أن يروض النواب أنفسهم على الهدوء وضبط النفس وألا تتكرر حالات الإنفعال العصبي التي كانت تحدث كثيراً في الماضي . ولا يكون ذلك إلا بالأخذ بالدقة في النظام ومنع المقاطعات والمهاترات . ويتعاون الجميع على التسامح وتبادل الإحترام وحسن الاصغاء .

ونرجو أن يتسع صدر المجلس الاقليات ويستمع بعناية عاطفة لكل ما يبدونه من آراء وأن يكون من التقاليد التي يسلم بها الجميع أن يتمتع نواب الاقلية بكل فرصة لإبداء آرائهم والتعبير عن وجهات نظرهم بغير مقاطعة بهذا يتحقق عرض كل وجهات النظر وبهذا تتحقق الحرية التي يجب أن تسود الحياة البرلمانية .

ولما كانت المجالس في الواقع تعتمد في أعمالها أكبر اعتماد على لجانها التي تفحص المسائل وتدرس تفاصيلها التي لا يتسع لها وقت المجلس أثناء اجتماعه فأنا نرجو أن يولى حضرات النواب جلسات هذه اللجان أكبر نصيب من عنايتهم ، وألا يضنوا عليها بوقت أو جهد ، وإلا يذهبوا بمسألة من المسائل للبرلمان الا بعد دراسة وافية ناضجة .

بقى أن نرجو حضرات النواب أن يتوخوا السرعة فيما يعرض عليهم من المسائل وألا يطيلوا نظر النواحي الشكلية ويصرفوا فيها الوقت الكثير ثم لا يجدوا للأمور الجوهرية الوقت الكافي فيمروا بها مراً سريعاً من غير درس . أن خير ما يصنعه المجلس أن يدع لجانه المباحث الفقهية الشكلية وأن يحصر اهتمامه بالنواحي الجوهرية العملية للموضوع المعروض عليه فيقرر المبدأ الذي يرتضيه .

هذه بعض رغبات نفضي بها آملين أن يوفق الله نواب الأمة إلى الحكمة والسداد وأن يكتب لهم النجاح في خدمة البلاد .

«...»

حول الإصلاح الاجتماعى :

تثقيف الشعب ومن يتولاه

ناقشت فى العدد ٣١٤ من هذه المجلة معظم آراء الأستاذ محمد فريد أبو حديد بشأن مشروع مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية وذكرت فى آخر المقال أن النقطة التى تبقت مما كنت أود مناقشته هى أن المدرسة العامة لأطفال الشعب ستكون هى المركز الذى يشع منه الإصلاح فى هذه الناحية . وقلت إن ذلك يحتاج إلى تفصيل يضع الأمور فى نصابها . وهاأنا أحاول فى هذا المقال إيراد هذا التفصيل .

وأود قبل كل شىء أن أعبر عن اغتباطى بما ناله هذا الموضوع الحيوى من عناية وحسبنا دليلا على ذلك الحديث الذى جرى بين مندوب جريدة الأهرام الغراء وبين معالى وزير الشؤون الاجتماعية بشأن مشروعه لتنفيذ قانون مكافحة الأمية ذلك الحديث الذى نشرته الأهرام فى يوم الثلاثاء ٢ الجارى وقد بين فيه معالى الوزير مميزات المشروع فى الصورة التى اعتزم تنفيذه عليها وقارنه من بعض النواحى بالمشروع الأصلى .

وإنا لنحمد لمعالى الوزير أن يعرض ما ينوى تنفيذه على الجمهور ليسمع رأيه فيه ، كما نحمد لمعاليه أيضاً المبادئ التى توخاها فى خطة التنفيذ كما وصفها ونرجو له التوفيق والنجاح . وكنا نود لو أن هذا الحديث قد تعرض لعلاقة مشروع تنفيذ قانون مكافحة الأمية بجهود التعليم الأولى فى وزارة المعارف ، ولكنه لم يتناوله ، ولعل ذلك لحكمة رآها المتحدثان ربما كانت ذات صلة بأن معالى الدكتور هيكل باشا يتولى شؤون الوزارتين معاً ولو أن معالى الوزير تعرض لتلك النقطة لكفانا على الراجح أن نناقش الأستاذ أبو حديد فيها .

ولقد كنت أنتظر أن يسمعنا الأستاذ فريد رأيه فيما أوردته من آراء فى مقالنا الماضى ، ولكن حضرته آثر السكوت ، ولعله ينتظر تكملة الحديث حتى يبدى رأيه فيه جملة ولهذه الأسباب أبادر بتصفية هذه النقطة الهامة وهى علاقة مشروع مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية بالتعليم الأولى سيما وإننا سمعنا بعض الناس يقول إنه ما دام المشروع تعليمياً فلم لا تتولاه وزارة المعارف التى تملك الأماكن والأدوات وتسيطر على المعلمين والرؤساء ، وهلا يكون فى قيامها عليه اقتصاد فى الجهود والنفقات والإشراف وتوحيد للأساليب التعليمية التى تتبع للكبار والصغار معاً .

ونشير أولا إلى أن مسألة الاقتصاد فى الجهود والنفقات والإشراف مسألة وهمية فإذا كان العمل منتظما ويؤدى على الوجه الكامل فنفقاته وجهود القائمين عليه لن تتأثر بتبعيتهم لهيئة دون سواها على أن هذه مسألة ثانوية إذ الواجب أن ينظر إلى الطريقة المنتجة بقطع النظر عن الاعتبارات الأخرى .

وأول ما نلاحظه هو أن تثقيف الشعب لا يمكن أن يتم على وجه مثمر إلا إذا كان عن طريق يتصل بمجهوده العملية ، ويفيده فى حياته الاجتماعية ، وفى أحواله المعيشية ، ويصل بينه وبين التقدم الفكرى من جميع النواحى . ومن ثم كانت أية محاولة من النوع المدرسى العادى كالطرق العتيقة التى ألفناها فى صغرنا لتعلم القراءة والكتابة وإعطاء تطبيقات عليها من ذلك النوع الجاف الذى ليس له معنى يشوق ، أية محاولة من هذا الصنف مقضى عليها بالفشل ولا تنتج إلا انصراف جمهور الشعب عن مثل تلك الدراسة .

ومن ثم يخطئ الذين يظنون أن

تعليم الكبار وتثقيفهم لا يخرج من كونه إستمرارا للتعليم المدرسى العادى فلا يحتاج إلى مجهودات جديدة من نوع مختلف ولا لأسلوب مغاير لما يتبع فى التعليم الاولى للصغار فتعليم الكبار يجب أن ينظر إليه على أنه وسيلة لتحسين أحوالهم الاجتماعية ، ويجب أن تكون أساليبه متأثرة بجميع الظروف الاجتماعية التى تكتنف اولئك المتعلمين، وتتفاعل مع تلك الظروف ، ومن ثم لابد أن تتصل بجميع الجهود التى تبذل من جانب مختلف الهيئات لتحسين الاحوال الصحية والماشية والاجتماعية للفلاحين والعمال .

فهناك الجهود التى تبذلها وزارة الشؤون الاجتماعية للنهوض بهؤلاء من الناحية الإجتماعية والجهود التى تبذلها وزارة الزراعة للنهوض بالفلاحين من الناحية الفنية التى تؤدى إلى تحسين أساليبهم فى الزراعة وتربية الماشية وغيرها وبالتالى إلى تحسين الانتاج ، والجهود التى تبذلها وزارة التجارة لخدمة أصحاب الأعمال التجارية الصغيرة ، والجهود التى تبذلها مصلحة العمل لتحسين حال العمال فى عملهم ومعاشهم، والجهود التى تبذل فى تعليم هؤلاء جميعاً فوائد التعاون وآثاره وتبصيرهم باستغلاله لمصلحتهم ، إلى غير ذلك من جهود حكومية لا تحصى .

وإلى جانب الجهود الحكومية تقوم جهود الهيئات الحرة كالإتحادات والنقابات وجميات التعاون وجماعات الاصلاح الاجتماعى ، وجهود أخرى يقوم بها أصحاب المصانع والمتاجر الكبرى . والتفاتيش الزراعية تقوم بها بالفعل أو يجب أن تقوم بها إذا شاءت مسايرة العصر وخدمة العمال كما ينبغى.

كل هذه الجهود يجب أن تسايرها وتتعاون معها وتتفاعل وإياها عملية التثقيف . فالهيئة التى تقوم على مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية يجب أن تكون هيئة قوية مستقلة ذات اختصاص معين وتخصص فى هذا الإتجاه ، كما يجب أن تؤسس علاقات تنسيق بها جهودها مع كل الجهود التى تبذلها الوزارات والمصالح الاخرى ومنها وزارة المعارف . وذلك على نسق ما تعمل وزارة الشؤون الآن بإزاء ما تقوم به من جهود زراعية وصناعية وصحية وخيرية الخ .

ويجب أن تعمل هذه الهيئة بصفة خاصة على كسب ثقة الهيئات غير الحكومية وتعضيدها ومعاونتها وكذلك الافراد الممتازين فى ثقافتهم والمتحمسين لخدمة بلادهم ومواطنيهم، فلعل أساس نجاح مثيلات هذه الحركة فى البلاد الاخرى التى سبقتنا إليها كان مساهمة الهيئات الحرة والمتطوعين الناهضين فهؤلاء كانوا يقومون بالمعاونة فى رسم الخطط وعمل الكتب وإلقاء الدروس كما كانت تقوم الهيئات بانشاء النوادى واعداد الساحات الشعبية والمكتبات العامرة بالكتب وتنظيم الدراسات الفنية واعداد أماكنها وبالجملة تقدم أصدق المعونة وبذل أغلى التضحيات فى سبيل تلك الخدمة العامة .

* * *

على أننا يجب أن نقول هنا كلمة حق صريحة نبتغى بها وجه الله والمصلحة العامة وحدها ألا وهى أن الذى وزارة المعارف عملا صعبا وأمامها مهمة شاقة تستنفد كل جهودها وتستأهل أن تملك عليها كل تفكيرها ألا وهى مهمة أصلاح التعليم الأولى الذى هو الدعامة الكبرى لكل أصلاح والذى يقر الجميع بأنه قد فشل للآن فشلا ذريعا ، فما ينبغى لوزارة المعارف أن تتصدى لأى مشروع جديد ضخم كالذى نحن بصدده قبل أن تنجح فى النهوض بالتعليم الأولى أولا ثم تنصرف إلى تعميمه ثانيا فهذا هو العمل الجليل الذى فى صميم اختصاصها والذى يحق لكل مفكر أن يطالبها بتأديته قبل كل شىء آخر

ثم أليس من المصلحة أن يترك المجال لهيئات أخرى ولأساليب جديدة

فى التفكير لكى تتلائم هذا المشروع الجديد غير متأثرة بالاعتبارات التقليدية التى غلبت على تفكير وزارة المعارف ، ومن يدرى فلعل هذه الوزارة نفسها تجدى فى التجارب الجديدة وفى الأسلوب المستحدث ما تستفيد منه فى ميدانها الخاص .

هذا إلى أن تعليم الكبار على الصورة التى وصفناها سيجعلهم يتذوقون حلاوة الثقافة ويجدون فى التعلم لذة ونورا ويكونون بذلك أكبر عون على تمهيد أبنائهم الذين يذهبون إلى المدارس الأولية فلا يحبسونهم عنها ويضطرون أولى الأمر إلى فرض العقوبات عليهم بل يحثونهم على الذهاب اليها ويتتبعون بشغف تقدمهم فيها ويؤسسون صلات بينهم وبين القائمين على تعليم ابنائهم يكون لها أكبر الأثر فى نجاح هؤلاء الأبناء .

ومادام تنفيذ المشروع سيقتضى استخدام مدرسى التعليم الأولى فسيكون فى ذلك فرصة ذهبية لهم لكى يتصلوا لا بأولياء الأمور كما قدمنا فحسب وإنما لكى يتصلوا ايضا بالرجال القائمين بمختلف نواحى النشاط الاجتماعى والاقتصادى والصحى الخ الذى يقصد منه خدمة الشعب ، وسيكون لهذا الاتصال من غير شك أثر جليل فى توسيع آفاق هؤلاء المعلمين انفسهم وفى تنمية ثقافتهم وتهذيب أساليبهم ، وبالجملة سيفيدهم أكبر فائدة . وهذا لا يتسنى الا إذا كان القائم على هذه الحركة هيئة خارجة عن محيط وزارة المعارف ومتصلة تلك الاتصالات الواسعة المدى التى أشرنا إليها

وبعد فانى لأرجو بعد هذا التفصيل أن يوافقنى الأستاذ فريد أبو حديد على أن المدرسة الأولية لن تكون المصباح الذى تشع منه أنوار الأصلاح — فى الوقت الحاضر على الأقل — وإنما سيتم الإصلاح إذا تحققت الصورة التى وصفتها . وإذا كان لابد من مركز يشع منه نور الاصلاح فليسمح لى صديقى بأن أقول إن هذا المركز الذى يصلح لأشعاع أنوار الاصلاح فى جميع نواحى الحياة المصرية هو الرأى العام المستنير الذى ينشأ محليا فى كل منطقة من مناطق القطر وفى كل ركن من أركان البلاد .

إذا تكون هذا الرأى العام واتخذ لتنفيذ أرادته أداة نيابية صالحة هى مجلس القرية الذى يضم طائفة من المتعلمين المتحمسين للخدمة العامة والمخلصين فى رغبتهم فى النهوض بجميع مواطنيهم من سكان القرية ، إذا قامت مثل هذه المجالس عندنا فانها تكون خير أداة لتوجيه سياسة الأصلاح فى كل ناحية والمعاونة فى رسم السياسة والتوجيه المناهج التثقيفية توجيها صالحا ملائما للظروف الحالية ، والمساهمة الفعلية فى نشر الثقافة الشعبية المناسبة والعمل على جعل برنامجها ممتعا .

فنحن نريد لهذا المنهج الثقافى دراسة ممتزجة ببرامج دينية مشوقة وببرامج بريئة مسلية ، نريد أن نجد العنصر التثقيفى منبثا فى ثنايا الاجتماعات والحفلات العامة . ونطمع فى أن تكون لهذه الدراسة أذاعات خاصة وأفلام مناسبة ، وأن نجد فيها روحا ونشاطا وتجديدا يرغب فيها ويشجع على الأقبال عليها فيكون فى ذلك حافزا يغنينا عن الالتجاء للعقوبات تنزلها بالمتخلفين عن التعلم أو عن التعليم .

فهل لنا أن نأمل أن يتحقق هذا كله ..؟

أحمد عبد السلام الكردانى

المحافظة على مواعيد العمل

ما أضبط مواعيد العمل في الشركات وفي البنوك وفي المحال التجارية . وما أخل مواعيد العمل في وزارات الحكومة على اختلاف مصالحها وتنوع فروعها وتعدد مكاتبها .

ولعل هذا يفسر لنا قول الأستاذ الكبير أنطون الجميل بك إنه لو جرت الشركات الأهلية على سياسة الحكومة في ادارة أعمالها وتصريف شؤونها لأفلست في أسابيع .

لا تجد مستخدما في شركة أو في بنك أو في محل تجارى يتأخر من ميعاد الحضور دقيقة واحدة — واحدة فقط — إلا في الندرة وإذا زاد تأخيره على دقيقة حق عليه الجزاء .

ولا تجد موظفاً واحداً — واحداً فقط — في أى مصلحة من مصالح الحكومة يحافظ على مواعيد الحضور . وإذا تصادف حضور أحدهم في الميعاد فلا يكون ذلك إلا ندرة .

في ذات يوم دخلت الساعة التاسعة صباحا في غرفة إحدى الوزارات فلم أجد أحداً . وبعد عشر دقائق حضر واحد . وبعد خمس عشرة دقيقة حضر الثاني ، وبعد نصف ساعة حضر الثالث ، ولم يكتمل عددهم إلا الساعة العاشرة . سألت من السبب فقيل لي إن رئيسهم لا يحضر عادة إلا في الساعة العاشرة . صدق المثل التركي : « بالق باشدن قوقار » أى (السمكة تعفن من رأسها) وهذا صحيح إذا صح الرأس صح الجسم وإذا فسد فسد .

وما يقع في مصالح الحكومة الإدارية يقع مثله في دوائر القضاء والنيابة . التراخى في عقد الجلسات ربع ساعة أو نصف ساعة أو ساعة هو الأصل . والاستثناء هو عقدها في الميعاد . مع أن الوقت الذى يخصص لإقامة العدل بين الناس هو أنفس وقت عند الإنسان لأنه يخصص لأشرف عمل يقوم به الإنسان فلا يلزم التفريط في لحظة منه .

بدء العمل في أوليات النهار فيه مزايا جمة ، يكون العامل مستجمعاً فيها كل نشاطه ويكون الطقس معتدلاً يدعو إلى العمل ، ما يعمله العامل في أواخر النهار لا يبلغ ربع مرباع ما يعمله في أوائله . ولله در بشار عندما قال في رائيته :

« بكرا صاحبي قبل الهجير
إن ذاك النجاح في التبكير »

إذا خصص ما يضيع على القاضى وعلى المتقاضى وعلى المحامى من الزمن بتأخير عقد الجلسات في الميعاد لنظر القضايا لأمكن الحكم في آلاف من القضايا المتأخرة المكدسة في أقلام الكتاب .

في زمن مصطفى باشا كامل كانت المجالس تشتغل في الصيف من الساعة التاسعة صباحا إلى الظهر ومن الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . وفي الشتاء من الساعة التاسعة صباحاً إلى الظهر ومن الثالثة إلى الخامسة بعد الظهر ، وياويل من يتأخر من الحضور دقيقة واحدة ، وكان الموظفون ممنوعين من شرب الدخان ومن شرب القهوة في مكاتبهم . وبهذا النظام الذى يكاد يكون نظاماً عسكريا كان تأخير مصالح الأفراد شيئاً نادراً .

ومن شجون الحديث أروى أن مسيو كليمانصو كبير وزراء فرنسا سمع أن الأعمال في وزارته معطلة متراكمة فذهب بنفسه إلى الوزارة في صباح ذات يوم ، ودخل أول غرفة فلم يجد فيها أحداً ، ودخل الثانية فوجدها خالية خاوية ، ودخل الثالثة فوجد موظفاً نائما على مكتبه . أسرع وكيل الوزارة الذى كان يرافقه نحو النائم يريد إيقاظه فمنعه كليمانصو وقال له : (دعه . دعه . إذا أيقظته انصرف) .

ضبط المواعيد فضيلة ، ألم يقولوا إن المحافظة على المواعيد من آداب الملوك ؟ .

في أمريكا يقول المربى لتلميذه (اعلم أن الساعة الخامسة ودقيقة واحدة هي غير الساعة الخامسة) .

ليلة فى ظلال الاقصر

أى شاد دعى النغم
هيج الذكرى بروحى ودمى
وحبيبى فرحة لم بنم
وأنا من نشوة فى حلم

***

قم بنا نسبق الفجر إلى
شاطئ النهر نحيا واجتلى
ما سلا النهر ولا الشط سلا
موكب المجد وأطياف العلا

***

يا حبيبى ابتسم الدهر لنا
وانثنى الزورق للشط بنا
ما ترى المعبد وضاح السنا
هذه الأطلال دنيا مجدنا

***

ما ترى المعبد كالحلم الرهيب
شامخاً يسخر من موج الخطوب
رائعاً يزرى بأطياف الغروب
يبعث النشوة فى الصخر الجديب

***

أيها الشاعر أشجاك الحنين؟
أم ترى أنصت للحن الكمين؟
غنى نحن بمجد الأولين
هذه الأطلال محراب السنين

***

ها هنا رمسيس فى عزم الأسود
عاد من قادش خفاق البنود
جنده فى الحرب أبطال الجنود
زلزلوا الدنيا على كل عنيد

***

أشرق الوادى على الدنيا زمانا
وعلى حصبائه آنا فآنا
خطرت إزيس عطفاً وحنانا
فشجانا شعراً وسحراً وبيانا

***

عن تحتمس وعن توتنخمينا
والملوك الصيد من ذروة مينا
عن أزوريس وفيا وأمينا
أجدونا حبه؟ أم كان دينا؟

***

وابعث الالحان مرحى ساحره
مثل أحلام العذارى الطاهره
أدِّ للأولى تحايا الآخره
هذه الأطلال مصر القاهره

***

يا ابنة النهر ويا أخت الخلود
ماسة أنت على هام الوجود
فيك يا مصر غنائى ونشيدى
وحنين الروح للماضى البعيد

الاسكندرية — عبد العليم محمد القبانى

يذكرنى كل هذا بتالين فى تاريخ العرب : —

— كتب عمر بن الخطاب لعمال دواوينه وكتابه (إن القوة على العمل أن لا تؤخر عمل اليوم لغد، فانكم إذا فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدأون وأيها تؤخرون).

— ودخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو نائم نومة الضحى وقال له (أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك)؟.

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

عزيز خانكى

موقعة شعرية

من عهد النبي (ص) والاحتكاك بين المسلمين والامبراطورية الرومانية الشرقيـة ، بدأ ذلك بكتاب الرسول لهرقل ، ثم بالفتوح التي فتحها عمر بن الخطاب ومن بعده ، وقد ظلت بلاد آسيا الصغرى مسرحاً للحروب والقتال بين المسلمين والرومانيين في العصر العباسي ، فالمؤرخون يذكرون مادار من محاربة نثرية بين هارون الرشيد ونيقفور إذ كتب الثاني للأول « من نيقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها ، لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ماحصل لك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك » فأجابه الرشيد : « من هارون أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم وقد قرأت كتابك والجواب ماترى لا ما تسمع » .

والذي أوخذ على قوله كلب الروم فقد كان يعتمد على قوته وثقته بالنصر — وعلى كل فقد سار الرشيد إلى هرقلة (1) ففتح وغنم حتى سأله نيقفور الصلح وتبين أن الرشيد كان أصدق نظراً .

ثم ماكان في عهد المعتصم من خروج ملك الرومان تيوفيل (تيوفيلوس) إلى زبطرة (2) وقتله وسبيه من المسلمين فخرج اليه المعتصم وكانت وقعة عمورية المشهورة التي خلفت لنا قصيدة أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب

ثم كانت الحروب بين سيف الدولة الحمداني والروم وقد تركت لنا ثروة كبيرة من شعر المتنبي وأبي فراس .

(1) مدينة قديمة في آسيا الصغرى تسمى الآن اركلي

(2) مدينة في تركية آسيا بين ملطية وسميساط

ولكن هذا كله كان شعراً من جانب واحد ، أما القصة التي أرويها اليوم فشعر من جانبين بعد أن ضعف المسلمون بعض الشيء ، واستأسد الحمر .

كانت الحادثة في عهد نيقفور الثاني فوكاس Nicophorus II Phocas ملك الروم (٩٦٣ — ٩٦٩م) (٣٥٢ — ٣٥٩ هـ) وكان قد تولى عرش الروم بالقسطنطينية وكان معروفاً بالإقدام متصفاً بالصفات العسكرية يتولى بنفسه قيادة الجيوش وقد غزا بلاد المسلمين لما أحس منهم الضعف بسبب ما ألم بهم من الانقسام والحروب الداخلية ففتح المصيصة ودخل طرسوس فجعل جامعها اصطبلا لدوابه واستولى على بعض بلاد الشام وعلى قبرص — وليس يهمنا هنا الحروب الآلية والمادية إنما يهمنا الحروب الشعرية .

فقد كان من أطرف ماحدث أن نيقفور الثاني هـذا بعث الى الخليفة العباسي قصيدة عربية فظيعة اهتز لها المسلمون أكثر مما اهتزوا لهزيمة حربيـة وحزنوا لها أكثر مما حزنوا لفقد بعض مدنهم ، أما من أنشأ هذه القصيدة لنيقفور فلم نعرف عنه شيئاً والغالب أن يكون عربياً متنصراً . وقد روى لنا التاريخ بعض عرب تنصروا والتحقوا بالقسطنطينية (1) وقد كان في بلاطه كثير ممن يتقنون العربية ويقومون بالترجمة وبالمكاتبات الرسمية .

وهي قصيدة طويلة تنيف على الخمسين بيتاً أرسلها نيقفور الى الخليفة العباسي المطيع لله وأولها :

من الملك الطهر المسيحي رسالة
الى قائم بالملك من آل هاشم
أما سمعت أذناك ما أنا صانع
بلى ، فعداك العجز عن فعل حازم

(1) من هذا ما يرويه ابن حوقل أن بني حبيب وهم أبناء عم بني حمدان كانوا ينزلون بنصيبين فأكب عليهم بنو حمدان بصنوف الجور حتى خرجوا بذراريهم في اثنى عشر ألف فارس الى الروم وتنصروا .

ثغوركمُ لم يبق فيها لوهنكمْ وضعفكمُ الا رسوم المعالم
فتحنا ثغور الأرمنيــة كلها
بفتيان صـدق كالليوث الضراغم
ونحن جلبنا الخيل تعلك لجمها ويلعب فيها بعضها بالشكائم
الى كل ثغر بالجزيرة آهل الى جند قنسرينكم والعواصم

واسترسل فى ذكر كثير من البلاد وما فعلوا فيها على هذا النمط وذكر ما كانوا يفعلون بالأسارى والسبايا

وكم ذات خـدر حرة علوية منعمة الاطراف غرثى المعاصم
سبينا ، وسقنا ، خاشعات حواسرا
بغير مهور ، لا ولا حكم حاكم
وكم من قتيل قد تركنا مجنــدلا
يصب دماً بين اللها واللهـازم
وكم وقعة فى الحرب ذاقت كماتكم
فسقناكمُ سوقاً كسوق البهائم

ويرسم فى القصيدة خطة سير، فيقول انه سيستولى على دمشق مسكن آبائه وغيرها من المدن

ومسكن آبائى دمشق وانه
سيرجع فيها ملكها تحت خاتمى
ومصر سأفتحها بسيفى عنوة وأحرز أموالا بها فى غنائمى

***

الا شمروا يا أهل بغداد ويلكم
فكلكمُ مستضعف غير دائم
رضيتم بأن الديلمى خليفــة
فصرتم عبيداً للعبيد الديالم (١)
سأقى بجيشى نحو بغــداد سالما
الى باب طاق ثم كرخ القماقم (٢)
فأحرقُ أعلاها وأهدم سُورَها
وأسبي ذراريهـا على رغم راغم

---

(١) يريد بالديالمة بنى بويه .
(٢) الطاق والكرخ محلتان ببغداد .

ومنها إلى شيراز والرىّ فاعلموا
خراسان قصدى بالجيوش الصوارم
فأسرع منها نحو مكة سـائراً
أجر جيوشاً كالليالى السواجم

***

وأسرى إلى القُدْس التى شرُفت لنا
عزيزاً مكيناً ثابتــاً للدعائم

***

ولمـا أتم إعلان خطته قرّع المسلمين تقريعاً فظيعاً بأنهم ساء حكمهم فلم يعودوا صالحين لأدارة البلاد فقد ملؤوها جوراً وظلما وأفسدوا القضاء بالرشا وشهادة الزور فكيف بعد يصلحون ؟

ملكتنا عليكم حين جار قويكم وعاملتم بالمنكرات العظائم
قضاتكم باعوا جهارا قضاءهمْ
كبيع ابن يعقوب ببخس الدراهم
شيوخكم بالزور طراً تشاهَدوا
وبالبز والبرطيــل فى كل عالم
سأفتح أرض الشرق طرا ومغربا
وأنشر دين الصّلب نشر العمائم

ولم يكتف بإرسال هذه القصيدة للخليفة المطيع بل نشرها بين المسلمين وفى الجند المحاربين إضعافا لقوتهم كما توزع اليوم المنشورات بالطيارات فنالت القصيدة من المسلمين مبلغا يهد الأعصاب ويثير كوامن الشجون .

وكان فى جند المسلمين الذين يحاربون فى الثغور عالم من أكبر علماء الشافعية اسمه القفال الشاشى الخراسانى ناشر فقه الشافعية فى بلاد ما وراء النهر ، لم يمنعه علمه وفضله أن يلتحق بالجيش جنديا يوم كان علماء الدين يعرفون حمل السلاح وركوب الخيول ويجيدون القتال — فكما كان القفال هذا يجيب عن سهم بسهم وضربة سيف بضربة سيف حملتـه الغيرة الدينية أن يجيب عن هذه

القصيدة بقصيدة من نفس البحر والقافية بدأها بقوله

أتاني مقال لامرئ غير عالم
يطير في مجاري القول عند التخاصم

* * *

وقال مسيحي وليس كذاكم
أخو قسوة لايجتدي فعل راحم

وما الملك الطهر المسيحي غادرا
ولا فاجرا ركانة للمظالم

تثبت هداك الله إن كنت طالبا
لحق ، فليس الخبط فعل القائم

ولا تتكبر بالذي أنت لم تنل
كلابس ثوب الزور وسط القادم

وما العجز في ركضي على أهل غزة
وهل ذاك إلا من مخافة هازم

وهل نلت إلا صقع طرسوس بعد أن
تسلمتها من أهلها كالمسالم

وفخر بفعل المسلمين من قبل فقال :

ترى نحن لم نوقع بكم وبلادكم
وقائع يتلى ذكرها في المواسم؟

مئين ثلاثا من سنين تتابعت
ندوس القرى من هامكم بالمناسم

أتذكر هذا أم فؤادك هائم
فليس بناس كل ذا غير هائم

* * *

طردناكم قهرا إلى أرض رومكم
فطرتم من الشامات طرد النعائم

ورد عليه في أسره وسبيه وبين الفرق بين معاملة المسلمين للأسارى والسبايا ومعاملة الروم لهم فقال :

وعظمت من أمر النساء وعندنا
لكم ألف ألف من إماء وخادم

ولكن كرمنا إذ ظفرنا وأنتم
ظفرتم فكنتم قدوة للألائم

ورد عليه في أمانيه في الفتوح فقال :

وعددت بلدانا تريد افتتاحها وتلك أمان ساقها حلم حالم

ومن رام فتح الشرق والغرب ناشرا
لدين صليب فهو أخبث رائم

لئن كان بعض العرب طارت قلوبهم
أو ارتد منهم حشوة كالبهائم

فللحق أنصار ولله صفوة
يذودون عنه بالسيوف الصوارم

أتتك خراسان تجر خيولها
مسومة مثل الجراد السوائم

كهول وشبان حماة أحامس
ميامن في الهيجاء غير مشائم

غزاة شروا أرواحهم من إلههم
بجنانه والله أوفى مساوم

ورد عليه أمله في فتح بلاد المسلمين بأمل المسلمين بفتح القسطنطينية :

ونرجو بفضل الله فتحا معجلا
ننال بقسطنطين ذات المحارم

هناك ترى نقفور والله قادر
ينادى عليه قائما في المقاسم

ويجري لنا في الروم طرا وأهلها
وأموالها جمعا سهام المقاسم

فيضحك منا سن جذلان باسم
ويقرع منه سن خزيان نادم

وإن تسلموا فالسلم فيه سلامة وأهنأ عيش للفتى عيش سالم

ومن العجيب أنه لما رد عليه في سوء الحكام وفساد القضاة سلم بهذا ولم ينكره وقال :

وقلتم ملكنا كم بجور قضاتكم
وبيعهمُ أحكامهم بالدراهم
وفى ذلك اقرار بصحة ديننا
وأمّا ظلمنا فابتُليتا بظالمِ

وسافرت قصيدة نيقفور براً وبحراً حتى وصلت الأندلس فعز عليها ألا تساهم فى الرد عليها كما ساهم الشرق فأنشأ ابن حزم الإمام العالم الأديب المعروف قصيدة أخرى على الروى والقافية أولها :

من المحتمى بالله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم

ورثى لحال الخليفة العباسى وأن ليس فى يده شىء حتى يدعوه نيقفور :

دعوتَ إماماً ليس من أمر آله
بكفيه إلا كالرسوم الطواسم
دهته الدواهى فى خلافته كما
دهت قبله الأملاك دهم الدواهم
ولا عجبٌ من نكبة أو ملمة
تصيب الكريم الحر وابن الأكارم
ولو أنه فى حال ماضى جدوده
لجرّعتمو منه سموم الأراقم

ويقول إنكم انما ظفرتم بالمسلمين لتخاذلهم .

ولما تنازعنا الأمور تخاذلاً
ودالت لأهل الجهل دولة ظالم
وقد شغلت فينا الخلائف فتنة
لعبدانهم من تركهم والديالم
وثبتم على أطرافنا عند ذلكم
وثوب لصوص عند غفلة نائم

وفخر بأعمال المسلمين ومجدهم القديم

ألم ننتزع منكم بأيد وقوة
جميع بلاد الشام ضربة لازم
ومصراً وأرض القيروان بأسرها
وأندلسا قسرا بضرب الجماجم

ثم أنذرهم بالمجد الحديث :

رويداً يعُد نحو الخلافة نورها
ويكشف مغبر الوجوه السواهم
وحينئذ تدرون كيف فراركم
اذا صدمتكم خيل جيش مصادم
على سلف العادات منا و منكم
ليالى أنتم فى عداد الغنائم

وأطال فى ذكر فعال السابقين وأمله فى الحاضرين والقادمين والأسلام والمسلمين وبشر بفتح القسطنطينية والهند والصين .

إلى أن نُرى الأسلامُ قد عم حكمُه
جميع البلاد بالجيوش الصوارم

وهكذا إلى أن أتمها ١٣٧ بيتا وختمها بالموازنة بين قصيدته التى كالعقد الفريد وبين قصيدة الخصم الباردة .

أتيتم بشعر بارد متخاذل
ضعيفِ معانى النظم جمّ البلاعم
فدونكها كالعقد فيه زمرد
ودر وياقوت بإحكام حاكم

ثم أسدل الستار على هذه المعركة المنيفة ولم يكن الحكم فيها — للأسف — لرجال البلاغة ولا جهابذة النقد وإنما كان الحكم فيها للسيف وظل بيت أبى تمام صادقا على مدى الدهور .

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

أحمد أمين

أدب الجهاد في سبيل الله

— ٢ —

كانت السنة الأولى من حياة الرسول بالمدينة سنة بناء للوحدة ، ودعم للحياة السياسية بين المهاجرين والأنصار واليهود ، وهم الطوائف الثلاث التي أصبح الاجتماع المدني يقوم عليها إلى حين . وقد فصّل الرسول حقوق كل من هذه الطوائف وواجباتها في وثيقة من أدق الوثائق السياسية التي خلفها تاريخ ذلك العصر والتي عُني العلماء المحدثون — ولا سيما المستشرقون — بدراستها وتحليلها ، وفيها يقول « نيكلسون » (صاحب كتاب التاريخ الأدبي للعرب) : « إن فلهوزين قد حلل هذه الوثيقة تحليلا دقيقا ، ولاحظ أنها لم تكن موثقا يقبله ويمضيه ممثلو الأحزاب الذين يهمهم الأمر ، ولكنها كانت إملاء من جانب النبي مبنيا على ظروف موجودة من قبل ، وقد تطورت منذ وصوله إلى المدينة . وفي الوقت نفسه ما من أحد يدرس هذه الوثيقة إلا تملكه الإعجاب بالعبقرية السياسية لمؤلفها ، فهي في ظاهرها إصلاح حذر لبق ، ولكنه في الحقيقة ثورة وانقلاب ! فإن محمداً لم يجرؤ أن يوجه طعناته صريحة إلى استقلال القبائل ، ولكنه قضى عليه في طريقة عملية بأن حوّل مركز القوة من القبيلة إلى الجماعة . ومع أن الجماعة انتظمت يهودا ووثنيين بجانب المسلمين فإن محمداً أدرك — وذلك شيء لم يستطع خصومه أن يدركوه — أن المسلمين هم في ذلك الوقت الشركاء النشيطون العاملون ، وأنهم سيصبحون بعد لا محالة الشركاء الغالبين في الدولة الجديدة » .

وقد كانت هذه المعاهدة خطوة ضرورية في سبيل استقرار الأمور ، وتنظيم شئون البيت — كما يقولون — قبل أن يضطلع المسلمون بالمهمة الجديدة التي أذن لهم فيها — مهمة القتال في سبيل الله . وتم الاتفاق على أن يكون لليهود نصيب في الغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شُرط عليهم النفقة مع المسلمين في الحروب .

وصل الرسول المدينة في ربيع الأول — على أشهر الروايات — وبدأت سراياه وغزواته لأعدائه في صفر التالي . وكانت أول مناوشة ذات خطر بينه وبينهم أن أرسل سرية — فيها ابن عمته « عبد الله بن جحش » ومعه ثمانية رهط من المهاجرين — إلى « نخلة » ليرصدوا بها قريشا حتى يأتوا منهم بخبر . فما نزلت السرية هذا المكان حتى مرت بهم عير لقريش — فيها « عمرو بن الحضرمي » — تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش . فقتلت السرية ابن الحضرمي ، وأسروا اثنين من رفاقه — (وهما عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان) . واستاقوا العير . وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة (أو نهاية رجب وهم يظنونه غرة شعبان — على رواية أخرى) فقالت قريش : استحل محمد الشهر الحرام — شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معايشهم ! وشق ذلك على أصحاب السرية ، وقالوا : ما نبرح حتى تنزل توبتنا . فلم يلبث الوحي أن نزل بالآيات التالية ، من سورة البقرة : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ؛ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؛ قل قتال فيه كبير ؛ وصدّ عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، أكبر عند الله ؛ والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ؛ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

هذه الآيات ذات شأن في موضوع الجهاد ، من

حيث إنها – على ما يظهر – أول آيات صريحة نزلت فى شأن القتال ، بعد أن أذن فيه . وطابعها فى التحريض على القتال – وتبريره حتى فى الأشهر الحرم – قوىّ ؛ وأسلوبها بليغ مقنع ، وردّها على السؤال صريح جازم لاغموض فيه . فالقتال فى الأشهر الحرم حقا كبير ، وتحريمه كان حكما معمولا به من عهد ابراهيم واسماعيل ، وقد جعله الله مصلحة لأهل مكة ، ولكن قريشا فعلت ماهو أكبر منه عند الله : فقد كفرت بالله ، وصدت عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، وأخرجت أهله منه ، وابتلتهم بضروب من الفتنة – والفتنة أكبر من القتل ، وستستمر تقاتل المسلمين حتى تردهم عن دينهم إن استطاعت ، وفى الارتداد بلاء وخسران مبين .

ومن السهل أن يتبين القارىء فى هذه الآيات جلال الأسلوب وروعة النظم : فجملة « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » أدل فى موضوعها ، وأكبر أثرا فى الذهن من يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام ؛ والمناسبة فى التنكير بين « قتال فيه » وما تلاه من المبتدآت جعل لأجزاء الآية الطويلة طابعا منسجما معينا ، والأسباب التى تبرر القتال فى الأشهر الحرم منظومة نظما خطابيا متلاحقا ينتزع ماهناك فى صدور أصحاب السرية من تحرج ومشقة ، ويهيئهم لتوطين العزم على مواصلة القتال ، ويحذرهم مغبة التراخى والتهاون ، ثم يطمئنهم أن لهم رحمة الله وغفرانه .

هذا – إذاً – مثل من التحريض القرآنى ؛ أحكم مايكون التحريض نظما ، وأنفذ أثرا ، وأبلغ إقناعا ، وأحسم للشك ، وأدل على المراد من أوضح طريق . وإنك لتبحث عما قد يكون هناك من أدب آخر يصور تلك الحادثة التى ابتدأت سلسلة الحروب بين الأسلام وقريش ، فلا تجد إلا أبياتا ينسبها القصص إلى « أبى بكر » ويرجح « ابن هشام » أنها لعبد الله بن جحش ، وهى :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة
وأعظم منه – لو يرى الرشد راشدُ
صدودكم عما يقول « محمد »
وكفر به – والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد البيت أهله
لئلا يُرى لله فى البيت ساجد
فإنا – وإن عيرتمونا بقتله
وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من « ابن الحضرمى » رماحنا
– بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما ، وابن عبد الله عثمان بيننا
ينازعه غل من القد عاند

وسواء أصحت نسبة هذه الأبيات إلى أحد الصحابيين ، أم كانت من وضع القصاص ، فظاهر أنها محاولة من نوع عادى لتصوير النهج القرآنى فى قالب شعرى : فمنطقها من منطق الآيات ، والعناصر هى العناصر وربما كان من الراجح أنها نظمت بعد أن سمع صاحبها ما نزل من القرآن فى الموضوع . ومن الملاحظ أن القرآن فى هذه الحادثة وغيرها من الحوادث ينكب عن ذكر الأسماء جانبا (إلا فى النادر القليل) ويصور الموضوع من جهاته الإنسانية العامة .

هذه المعركة الصغيرة لم تكن إلا مقدمة المعركة التى تلتها بعد شهرين ، والتى شهدها الرسول نفسه فى جمهرة أصحابه ، وأقبلت إليها قريش – كما قال الرسول – بخيلائها وفخرها تحادّ الله وتكذب رسوله . تلك كانت موقعة بدر التى بدأت كسابقتها ، فقد سمع الرسول « بأبى سفيان بن حرب » مقبلا من الشام ، فى عير عظيمة ، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ، فندب المسلمين إليها ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها . فانتدب الناس فخف بعضهم ، وثقل بعضهم . وظاهر أن الرسول هنا خطا الخطوة الثانية فى سياسته العامة وهى ضرب نوع من الحصار الاقتصادى

على المسكين ، وقطع الصلة بينهم وبين العالم الخارجي .

هذه خطة إذا أفلحت آتت ثمرة أخرى هي تكثير موارد المسلمين بما يفئ الله عليهم من خير . وقد وعد الله رسوله في بدر إحدى الطائفتين — قريش والعير ، ولكن فريقا من المسلمين كانوا أحرص على الثانية منهم على الأولى ؛ وكانوا يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم ، فلما خرج الرسول إلى القتال خرجوا معه وهم كارهون يجادلونه في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ؛ هم يريدون العير والغنائم ويريد الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ويقطع دابر الكافرين . وقد جهد الرسول نفسه في الدعاء والاستغاثة فاستجاب له الله وأمده بالملائكة ، وجعل هذا الإمداد بشرى للمسلمين واطمئنانا لقلوبهم ، ثم غشّى الناس أمنة منه ، وأنزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ويذهب عنهم رجز الشيطان وليربط على قلوبهم ويثبّت أقدامهم ، وأوحى إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . وعلّم المؤمنين شئون القتال فقال : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . وإذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم ، وإني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب .

وقد علم الله رسوله والمؤمنين كيف يقسمون الغنائم بعد انتهاء المعركة ؛ وذكرهم بما كان لله يوم التقى الجمعان من تدبير ظهرت أسراره في سير الموقعة ونتائجها فقال : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله في منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، انه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور » .

هذا هو هيكل الصورة التي ترسمها سورة الأنفال لوقعة بدر ؛ وهي صورة واضحة المعالم ، صادقة التعبير ، أنيقة الأسلوب ، في تلخيصها قليل من روعتها ، فلكل عنصر من عناصرها مكانة من الشكل العام ، ولكل آية من آياتها نصيب في جمال الصورة الفني . ومن أظهر ما يستلفت النظر في هذا التصوير شيئان : الأول أن لله جنوداً ، منها ما أنزله على رسوله والمؤمنين من السكينة والطمأنينة والأمنة وثبات الأقدام ، ورؤية الكفار قليلا في أعينهم ؛ ومنها ما أودعه قلوبهم من وحدة الغرض ، وحسن الصبر ، وجلال الطاعة ، وحرارة الإيمان ؛ والأمر الثاني أن سياسة الإسلام منذ بدأ حروبه قامت على اعتبار الفتح والغنائم وعرض الدنيا أمراً ثانويا بجانب القصد الأسمى ، وهو إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وإعلاء كلمة الله .

هذه هي الصورة القرآنية لأول ملحمة كبيرة في الإسلام انتصر فيها المسلمون وهم قليل ، ورجعوا إلى المدينة بالأسرى والغنائم ، وفقدت فيها مكة فلذات أكبادها ، وخلفتهم وراءها في جوف القليب . وإن جلال هذه الصورة وروعتها ليزدادان وضوحا إذا وضعت بجانبها الصورتان الأخريان : النثر القصصي في كتب السيرة ، والشعر الذي ردد صدى القرآن وصدى الحوادث التاريخية ترديداً ليس بذي خطر فني كبير . (البحث بقية)

محمد خلف الله

الطريد

[هذه القصة لمكسيم جوركي ، الكاتب الروسي الشهير ، الذي عاصر البهدين ، وشايع الثورة على أحدهما ، فلما حكمت لم يجنح لها ، ولم يرض كل الرضا من أساليبها ، فاعتزل لخدمة الأدب ، وظل أميناً على مثله العليا من مات . وهو كاتب صادق الحس ، صادق التعبير والتصوير . وقصته هذه ذات مغزى ورمز لايخفيان على بصير] .

طلع البدر أحمر كالدم ، فكأنه يخرج من بطن هذا السهل الذي ازدرد من قديم لحوم البشر ، وتشرب الغزير من دم الانسان ، حتى بات لأرضه هذا الدَّسَم ، وغدا هذا السهبُ الريان .

كانت الأوراق تلقي علينا ظلالا كالشباك ، ترقص فوقنا أنا والعجوز ، وكانت السحب ترى ظلالها الزاحفة على الأرض ، يتخللها ضوء القمر ، فتنقشع عتمتها ، ويتولاها الشفوف ؟ وكانت الأصوات لاتبلغ مسمعنا من ناحية البحر الا وهنا : فتارة نلحظ بكاء كإن ، وأخرى يتراءى ضحك الحسان أ ، وآنا يغني غناء رخيا ، والموج في هذا يتلاطم على الساحل ويتناهى الينا ايقاعه المنتظم .

« أنظر هنا لارْزا يسير هناك ! »

فنظرت الى حيث أشارت العجوز بيدها المرتعشة المعقوفة ، فاذا ظلال تمر أبابيل ، واذا ظل منها أشد ظلمة من سائرها يخطف أسرع من إخوته ، لأن السحابة التي ألقته كانت أقرب من أخواتها الى الأرض .

قلت : « ما من أحد هناك »

قالت : « انك لأشد عمًى مني أنا العجوز . ألا ترى هـذا الظلام الذي ينطلق في السهل ؟ » فعاودت النظر ، فلم أبصر شيئا ، اللهم الا ماسبق لي أن لحظته من ظلال .

قلت : ما أرى غير الظل فلم تسمينه لارْزا ؟ »

قالت : « لأنه كذلك . وقد بات اليوم أشبه بالخيال ... لقد عاش الى الآن آلاف السنين ، فقد دت الشمس في خلالها لحمه ، وجففت دمه ، وسحت عظمه ، وذهب مع الريح بددا . انظر كيف يفعل الله بالمرء المَخْرور .. »

فرجوت العجوز أن تقص عليّ قصته ، فلقد حزرت من تلميحها أن ههنا أسطورة من تلك الأساطير الرائعة ، التي نسجها الخيال في هذا السهل ، فانشأت تقول :

« كان هذا منذ آلاف مضت من السنين . فهناك وراء هذا البحر إلى بعد سحيق ، أرض ونهر عظيم . وفي تلك الأرض من ورق الأشجار ، وأعواد العشب ما يقي من الظل ما يقي الإنسان حرارة الشمس القاسية الحامية ؛ وفيها كذلك تربة صالحة .

سكنتها قبيلة منيعة الجانب عزيزة السلطان ، كثيرة القطعان ، ولوعة بالصيد ، طارد أبناؤها الوحش بقوة وكانوا في مطاردته من الشجعان . فاذا ماعادوا من الصيد أداروا الأقداح ، وقارعوا اللاح كؤوس الراح ، وراحوا يقبسون من الحسن كما تقبس من النار .

وذات يوم والقوم في ولجة « انقض نسر من السماء ، وخطف من بناتهم حسناء فاحمة الشعر ، ساجية كالليل . فانطلقت في إثره سهام الرجال ، لكنها عادت من دونه مرتدة إلى الأرض . وطفقوا يبحثون فلم يجدوا الفتاة ، ولم يلبثوا أن نسوها كما ينسى كل شيء في هذه الدار » .

وتنهدت العجوز ، وأمسكت عن الكلام . ثم خرج من صدرها مايشبه الهرير ، فكأنما غمغمة القرون حركت الذكرى منسيّها الدفين . وجعل البحر يصاحب الأسطورة بصوت خافت ، فلعلها من تلك الأساطير التي نشأت وعمت وترامت على شطئانه .

« وتقضت عشرون من السنين فاذا المخطوفة تعود واهنة ، خائرة ، وإلى جانبها فتى جميل القسمات ، قوي العضلات . كما كانت أمه من قبل . ولما سئلت أين كانت هذه السنين قصت عليهم كيف حملها النسر إلى الجبال ، وكيف اتخذها امرأة له . وهذا ولدها ، قد مات أبوه بعد

إذ شاخ ووهن ، وبعد إذ ارتفع إلى حالق ثم ضم جناحيه ، ووقع فوق الصخور فهشم

فرعى الجميع فرخ النسر بعين الأعجاب . ورأوا فيه شبيها لولا أن له عينين جامدتين مزهو تين شأن ملوك الطير . وأقبلوا عليه يكلمونه فيجيب إذا شاء أو يلزم الصمت . فلما جاء شيوخ القبيلة استهان بهم ، وجعل يخاطبهم كما يخاطب الأنداد . فأحسوا الأهانة فى سلوك الفتى ، ورموه بقلة الأدب . فألوف من لداته يوقرونهم ، وألوف يكبرونه يطيعونهم . فرد وعينه تطفح بالجرأة : إن الزمان لن يجود بأمثالى . وليوقركم الجميع ما شاءوا فلن أوقركم . فثاروا وصاحوا به : لن يكون لمثلك مكان بيننا فلتذهب حيث شئت !

فضحك ؛ وذهب حيث شاء — إلى فتاة جميلة كانت تنظر إليه مرتاعة ، فضمها إلى صدره ، فدفعته رغم ما كان من جماله ، وصدفت عنه خشية أبيها وكان من أولئك الشيوخ الذين فاضوه وأصدروا حكمهم عليه . فضربها الفتى حين صدت عنه ، وطرحها على الأرض ؛ ووطىء بقدمه صدرها ، فنفر الدم من فيها صوب السماء . وضاقت أنفاسها ، وجعلت تتلوى كالحية ، ثم لفظت الروح .

تجمد الدم فى عروق النظارة ؛ فلم يكن لهم عهد بمثل هذا المنظر عهد . ولبثوا رهة صامتين يحملقون فى الطريحة الدامية الثغر ، الجاحظة العينين ، التى تطلب الثأر بأفصح من الكلام ؛ ويتفرسون باهتين فى الواقف إلى جنب جثتها فردا حيالهم أجمعين ، جامداً متعالياً ؛ لا يطأطىء رأساً ؛ يتحداهم أن ينزلوا به العقاب .

وما إن أفاقوا من غشيتهم حتى أنقضوا عليه ، وشدوا وثاقه ، وتركوه هكذا . إذ كان البطش به لايشفى غليلهم ، ولا يسقيه كأس الهوان » .

وساد الليل ، وتباعد نوره ، وازداد رونقه بما كان يتخلله من روعة الأصوات الخافتة الغريبة : فهناك السنجاب يصفر فى السهل حزيناً . وهناك الجُدجُد يصر بين الكروم ، والأوراق تحفّ ، والبدر الكامل الذى كان قبل ذلك دامياً قانياً ، قدشحب ، وهو يرتفع إلى علاه ، وجعل يسكب على السهل ضوءا مشوباً بضباب يزداد انتشاراً .

« والتأم عقد الجمع وجعلوا يتشاورون فيما ينبغى أن يكون عقابه الذى يناسب جرمه . فارتأى أحدهم أن يشد المجرم إلى خيول عديدة ، ويوكل إليها تمزيقه ؛ لكنهم استضألوا هذا الجزاء على هوله . وارتأى آخر أن يرموه جيماً بسهامهم ، فلم يعجبهم هذا الرأى أيضاً . إذن فليحرق ! لكن الدخان يتصاعد من الحطب خليق أن يستر منهم أوجاعه . وتقدم هذا برأى وذاك بآخر . لكن شيئا من هذه الآراء لم يرقهم ولم يلق ارتياحهم . والأم خلال ذلك جاثية على ركبتيها أمامهم ؛ صامتة ؛ لا تجد مسعفاً فى التوسل إلى القوم من دمع أو كلام . وظلوا على هذه الحال طويلا يفكرون ، فقال حكيم منهم بعد طول التأمل : لنسأله لماذا فعل فعلته ؟

فسألوه فأجاب : حلوا وثاقى أولا ، فلن أتكلم مشدود الوثاق . فحلوا وثاقه ، فسألهم : ماذا يطلبون ؟ وكأنهم عنده بعض العبيد .

فقال الحكيم : لقد سمعت ما نطلب

قال : ولم تطلبون أن أفسر أعمالى ؟

قالوا : لكى نفهمها . ثم قالوا : أيها المتكبر أنصت ؛ إنك ميت لا محالة ، فدعنا نفهم لماذا فعلت فعلتك . أنت زائل عما قريب ، ونحن الباقون ، فمن الخير لنا أن نزداد علما .

قال : إذن فلا قل لكم إنى قتلتها لأنها صدت عنى ... وقد كنت أريدها لنفسى .

قالوا : ولكنها لم تكن لك ولا ملك يمينك .

قال : أفتحتاجون الى ما تملكون فحسب ؟ إنى أرى

لكم ألسنا ، وأيديا ، وأرجلا ... وأراكم تملكون مع هذا حيوانا ، ونساء ، وأرضا ... وكثيراً غير ذلك .

قالوا : ان ما يأخذ المرء يدفع ثمنه من نفسه : في عقله وقوته وحريته ، وحياته .

قال : لكني لن أبذل في شيء نفسي

وطال كلامهم وكثرت ردوده ، وانتهوا آخر الأمر الى انه في رأيه لامثيل له على هذه الأرض . وليس خلافه شيء في هذه الدنيا وروّع القوم ما وجدوه من وحدته ؛ فلا أهل ، ولا أم ، ولا ماشية ، ولا امرأة ، ولا هو يطلب من هذا شيئاً »

ورنت من الساحل ضحكة مرحة ضحكتها فتاة ، وغنى فتى غناء جهيراً صاحبه فيه آخرون الحين بعد الحين . وانساب الهواء بسرب من الأنغام يسبح في الجو ، ثم لم يلبث أن اختفى فجأة ، وكأنه لقى من يقتنصه .. واستطردت العجوز :

« وعاد القوم الى التشاور في نوع الجزاء الذي ينزلونه بالفتى ، فأنشأ حكيمهم يقول : ان عندي جزاء ما أراكم تهتدون اليه في ألف من السنين . فليكن جزاؤه من نفسه ، فأطلقوه . دعوه وشأنه فعقابه رهن حريته . وحدث عندئذ حدث عظيم : فقد قصف الرعد في السماء . وكانت خلواً من الغيوم . فكأن سلطان الطبيعة يوكد أقوال الحكيم . فأمن الجميع على كلامه ، وتفرقوا كل في سبيله ، الا الفتى الذي بات في ذلك الحين يدعى لارّا أو الطريد ، فانه قهقه في إثر القوم ، وبقى في مكانه حراً طليقاً ، كما كان أبوه . لكن أباه لم يكن بشراً ، وهو من البشر . بات حراً كالطير مباحا دمه ، يسطو على القبيلة يسرق غنمها ، ويختطف بناتها فتطلق عليه السهام ، فلا تنفذ الى جسمه ، لأن عقوبته الكبرى تخفيه من الأنظار ، وقد كان يقظا ، نهابا ، جسورا ، قاسياً ، لكنه لايلقى إنسانا وجهاً لوجه . وكان لا يرى إلا من بعيد ؛ فمن رآه أطلق عليه سهمه ، وما أكثر ما أطلق عليه من سهام ، وقد لبث يتحاشى الناس في وحدته حقبة من الزمان . لكنه أبى للإنسان أن يأتي في حياته شيئاً واحداً لا يأتي غيره . انه لا يطلب المتعة وحدها ، فالمتعة تفقد مع الزمن قيمتها . انه يطلب الألم .

ومن ثم اقترب من الناس ، وما كاد يفعل ، فقد انقضوا عليه . فلم يحرك ساكنا ، ولم يزايل موضعه ، ولم يدفع أذاهم عن نفسه . فحزر أحدهم غرضه ، وصاح بالبقية : كفوا أيديكم ، انه يطلب الموت . فكفوا أيديهم عنه ، فما كان قصدهم أن يخففوا عنه عبء الحياة وقد آذاهم ، أو أن يعجلوا منيته . وضحكوا منه ، فانتفض حين رن في أذنه هذا الضحك ؛ وفتش عن شيء في صدره ، ثم انتبه إلى حجر على الأرض فرفعه ، وحمل به بغتة عليهم ، فتفادوا من ضرباته ولم يضربوه . وكلّ الفتى ، وخارت قواه ، فسقط على الأرض . ثم نهض والتقط سكينا كانت قد ضلت في مداهمته ، وطعن بها صدره ؛ فتكسرت السكين كأنما صدمت حجراً صلداً ، فسقط ثانية على الأرض وطفق ينطحها برأسه ، فساخت الأرض تحت ضرباته ، وانخسفت .

فصاح القوم مبتهجين . انه لا يستطيع الموت .

وانصرفوا عنه وخلفوه وحده ؛ فانطرح على الأرض ووجهه إلى أعلى ، فلمح في السماء نسوراً قاهرة ، كأنها فيها نقط سوداء . وبقى طريحاً وفي عينيه من الغم ما لو قسم على البشر لعمهم أجمعين . ولبث من ذلك الحين يبحث عن حتفه ولا يلقاه ، ويهيم على وجهه في كل مكان . . . ها هوذا قد بات خيالا ، وسيبقى كذلك إلى آخر الزمان . انه لا يفقه للناس قولا ولا فعلا . انه يبحث عن حتفه أبداً ويهيم أبدا . . . انه لا حياة له ولا يبسم له ممات . انه لا مكان له بين الناس . . وهكذا يلقى المتكبر الجزاء » .

وتنهدت العجوز ، وأمسكت عن الكلام ، وتدلى رأسها على صدرها ، وجعل يمايل تمايلاً غريباً ، ثم غلبها النعاس .

محمود الدسوقي

النجـــــاح

(بعض محاولات لتحديد معناه)

« إن الفشل الذي لا فشل سواه ، والذي يجب على المرء أن يخشاه ، هو فشله في شق طريقه إلى هدفه الأسمى »

« جورج اليوت »

كان من عادة سقراط إذا سمع الأثينيين يتشكون من العدالة والفضيلة أن يسألهم ماذا يعنون بهذه الكلمات وقلما كان يظفر بالجواب المقنع .

وكان يستنزل الفلسفة من السماء بوسيلة لا عسر فيها ولا تعقيد ، وهي ان يطلب إلى محاوره أن يأتي بتعريف للفلسفة من التعريفات التي تجئ عرضاً أثناء المحاورة .

وبينما كان سقراط يستنزل الفلسفة من السماء بتلك الوسيلة كان يستنزل على نفسه سخط الجماهير التي تكره بطبيعتها تلك الأسئلة التي تبعث الضيق والضجر .

وفي الحق أن موت سقراط راجع إلى تلك الجرعة اللاصقة به وهي سؤاله دائما — ماذا تعني بهذا ؟ وما تعريف هذا ؟ . وإن كانت تلك الجرعة — فيما يبدو لنا — ليست سبباً كافياً لتجرعه كأساً من السم . ولكن الذي لا شك فيه أن سقراط كان رجلا يضيق به محاوره .

ومع هذا فإن علينا أن نضع لكل ما يعرض لنا من المسائل تعريفاً ، إذ أن المطلب الأول لكل تفاهم تفاق أن يكون للكلمات — وبقدر الامكان — معنى واحد مقبول لدى جميع الناطقين بتلك الكلمات وإلا تبلبلت الأفكار وضل المتكلمون سواء السبيل .

وإليك كلمة « النجاح » وهي كلمة يشرحها القاموس بقوله : —

« الخاتمة المرغوبة والنتيجة المحبوبة لكل ما يحاول المرء عمله . وهذا تعريف بسيط شامل كما ترى لأنه ينطبق على كل عمل ، مبتدئاً من تلميع الحذاء ، ومنتهياً بإنشاء مصرف مالي رأس ماله يقدر بمئات الألوف » .

ولكن ليس هذا هو ما يعنيه الناس إذا تكلموا عن النجاح . وهم بصفة عامة يعنون النجاح في مسائل المال . فمثلا أول النابغين من خريجي كمبردج لا ينظر إليه كأنه رجل ناجح . فمن الجائز أن يسمى رجلا ذكياً ممتازاً ، ولكنه فيما يتعلق بالنجاح لا يمكن أن يصل إلى مرتبة تاجر البيض والزبد الذي جمع مالا فعدده ، فابتنى الدور والقصور ثم آوى إلى كهف أمين من الراحة والدعة .

نعم . . . والنجاح إن دل على شيء فإنما يدل على شيء محسوس ملموس حسبما تدل عليه المعاني السائرة ، أو بعبارة أخرى شيء واقعي .

فإذا أخذنا بقول القائلين ان النجاح هو النهاية الحسنة لكل محاولة يحاولها المرء فإن لزاماً علينا أن نسلك في عداد الناجحين صقال الأخشاب ، وأن نقفي السقاء متى قام هذا وذاك بالواجب المفروض ، وان كنا لا نستطيع أن نسمي أمثالهما أشخاصا ممتازين .

ومهما تباينت العناصر المكونة للنجاح في العصر الحديث فإن العنصر التجاري هو أبعدها دوياً وأكثرها طنيناً .

ولنفرض أننا أمام رجلين . — صيدلاني صنع دواء جديداً ، وشاعر صنع شعراً مقصداً . أيهما أنفع للجماعة الإنسانية ؟ مسألة بالطبع فيها نظر . ان كلا من الدواء والشعر نافع في محيطه . هذا نافع للعقل وذاك نافع للجسم . ولكن لننزل بهما إلى السوق ولنعلن عن كليهما بسخاء . ولنصحب الدواء بالشهادات الناطقة بفضله ونفعه ، ولنصحب الشعر بمقتطفات من أحسن المجلات وأكثرها ذيوعاً .

إذا فعلنا هذا نال الشاعر قسطا عادلا من الذيوع والشهرة ، ونال من الجزاء الذي ما لا يكاد يذكر

أما الصيدلانيّ فسوف يجزيه الدواء أكواماً من النقد يجمعها في سرعة ثم سواء عنده بعد ذلك أكان من النابهين أم كان نكرة في عداد المغمورين .

ومن عجب ان طبائع الجماهير تأبى إلا أن تقنع ببضع آلاف من ديوان الشاعر ، بينما لا تكف عن شراء الدواء مادام صاحبه يحسن الإعلان عنه .

ومن جهة أخرى فان الجماهير لا تعبأ بالصيدلانيّ كرجل إلا بقدر مايوحي به الفضول العابر .

والشاعر يبقى اسمه في المكان الأسمى من التجلة والاحترام ، وإذا مات فانه واجد من يشتري ممسحة القلم الذي كان يكتب به بأكثر مما كان يشتري به نسخة من ديوانه .

(وبعد) فان كلا الرجلين قد نجح ، هذا في محيط المُثُل العليا ، وذاك في محيط الأمر الواقع . والفرق بينهما ان نصيب أصحاب المثل العليا من ثروة الدنيا قلما يقفز إلى نصيب أصحاب الصناعات المادية .

إن ما أفاده ملتون من كتابه « النعيم المفقود » ثمن بخس دراهم معدودة ، ولكن مقام ملتون ظل في الصدارة من موكب الشعراء .

واليك مثلا آخر . — طبيب في احدى القرى ، ورجل من رجال المال في احدى المدن .

الطبيب مغرم بأربعة أشياء ، الطبيعة والأدب والإنسانية والطب . فالغابات والجبال والمروج الخضر هي نزهة خاطره ومراح خياله

وهو مأخوذ بسحر الكتب يمسها برفق كأنما يمسك بكف صديق حميم .

وهو محبوب عند الناس لتضحيته براحته في سبيل راحتهم ولعطفه وحنانه .

وهو لايدخر جهداً أو مالا ليجعل من نفسه إماما في المعارف الطبية ، ولكي يظفر مرضاه بخير علاج اخرج للناس حتى اذا حم القضاء ، ووافته منيته ترك ثروة محدودة وانما لايتخطى محيط القرية التي عاش فيها .

ثم انظر الى رجل المال تجد أن شغله الشاغل هو المال ، فهو لايجهل شيئاً من خصائصه ، وهو باحث من الطراز الأول في مسائل السندات والأسهم ، وفي أسعار هذا العام وأسعار العام الماضي ، والاسعار لعشرة أعوام مضت ، وهو يعرف كل هذا كما يعرف كل منا جدول الضرب ....

ولكن حب المال هذا له عيوبه . فهو يحيل كل شيء ذهباً في نظر صاحبنا . وهل مصير أسوأ من هذا المصير .

وليس لجمال الفكرة عند صاحبنا هذا وزن ولاقيمة ، إلا فكرة واحدة لها بريقها ولمعانها ، فهو لذلك يختصها بحبه . وتلك الفكرة الجلية هي الحسبة المالية ...

فاذا جاء أجله لم يعقب غير أكوام من الذهب ....؟

قال مرة رجل من رجال المال : —

لقد كونت ثروتي بمجهودي . واني بعملي هذا إنما عملت على خراب آلاف من خلق الله ....

وفي هذه الكلمة من معاني الندم ماتنطق به حروفها ..

ونحن اذا قارنا بين طبيب القرية ورجل المال امكننا ان نقرر — في غير تردد — ان الأول كان انسانا وان الآخر كان آلة من آلات النقود الحاسبة . وأمكننا أن نقرر ان رجل الطب حقق وجوده الانساني ، وان رجل المال حقق ثروة ...

واني لأسارع فأقرر ان جميع أطباء القرى ليسوا ملائكة وقديسين ، كما أن رجال المال ليسوا كلهم قساة خاطئين .

وان كان في جمع المال جريمة فهي في نظر الباحث سواء كان الجمع من طريق توظيف المال في الشئون المالية

مقـــــابلات

بين الشعر البدوى والشعر الفصيح

توارد الخواطر فى الشعر فى حد ذاته ظاهرة تستلفت النظر ، ولاسيما إن كان الشعر منبعثاً من بيئات متباينة وفى أزمان مختلفة .

وأجمل وقعاً من ذلك فى النفس ، ما يحسه المطلع على الأدب العربى من توائم ومقابلة بين أبيات من الشعر رددها أمراء الشعر الفصيح ، وأبيات أخرى جرت على ألسنة البدو ورددتها البادية ، ولا تزال .

يقول الشاعر :

وإذا الهموم تكاثرت وحشدن علينا تنجلى

ويقول البدوى :

ما دامْ قهوة وتتن كل الأمور أتْهُون

وهل غير البدوى من يتذوق التتن والقهوة تذوقاً يخرج ، فى بعض الأحايين عن حد الاعتدال؟ أليس البدوى هو القائل :

والله لولا التتن لولاه لولاه

والله لولا التتن وين أنا أروحى

أعبى الشبيل[1] من التتن وأملاه

وأكويه أنا بالنار يكوى جروحى

ويقول أمير الشعراء المرحوم شوقى بك على لسان قيس بن الملوح فى رواية مجنون ليلى يصف ذهول المجنون من أثر الحمى الغزلية ، إن صح هذا التعبير :

إذا الناس شطر البيت ولوا وجوههم

تلمست ركنى بيتها فى صلاتيا

ويضمن بيت المجنون الأصلى :

أصلى فما أدرى إذا ما ذكرتها

أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

ويقول المرحوم نمر العدوان ، وهو أن لم يكن أمير الشعر البدوى فهو أمير العدوان ، ويقول عن نفسه يصف ذهوله على فقد (وضحه) زوجته ، مخاطباً قريبه حمود :

فرشت أنا يحمود على الشرق صليت

مدرى على القبلة ولا شمالى

مدرى أنا تيممت ولا توضيت

ولا قريت الحمد ولا بدالى

ويتهيأ لى أن الذى لا يميز بين الوضوء والتيمم أعرق ذهولا ممن « يخربط » فى القراءة وعدد الركعات . كان الله بالعون . . . .

ويقول المرحوم شوقى بك على لسان قيس مجنون ليلى :

ولقد أقول لمن يشرفنى بالخلد ما أنا داخل وحدى

(١) غليون (Pipe) .

أم كان عن طريق شفاء المرضى أو جبر عظام المصابين .

ويمكن القول بأن حياة الاول كانت وسيلة لاحياء النفوس وجبر الخواطر ، وان حياة الثانى كانت وسيلة لاهلاك النفوس وكسر الخواطر . وقصة ذلك المالى الذى أسلفنا الكلام عنه لاتخلو من عناصر طيبة ، وهى عناصر الجرأة والجلد . ولكن نهايتها الى فشل ذريع .

(وبعد) فأى الرجلين كان نصيبه من النجاح أرجح؟ أما بلغة التجارة والتجار فرجل المال ... وأما بلغة المثل العليا فالطبيب ...

ومن المسلم به أن هناك رجالا ينجحون فى حياتهم بالطرق التجارية كما ينجحون بالطرق الأخرى . كما أن هناك رجالا ينجحون فى أعمالهم بكل الطرق ماعدا الطريقة التجارية ، كما أن هناك أيضاً رجالا لا ينجحون مطلقاً مهما كانت الوسيلة وكانت الطريقة

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم

لو أن ليلى بالنعيم معي
أو في الجحيم تساويا عندي

وبنفس تعبير أمير العدوان وباختصاراته البدوية المألوفة التي تنم عن قناعة وحسرة في وقت واحد :

ما ريد بالجنة اقصورٌ وبساتين
إلا أنا وظنحه بظل السواقي

وأبو فراس الحمداني يُذِلُّ دمعه عندما يضويه الليل خوفاً من شماتة الحساد وحرصاً على كبرياء رجولته مذ يقول في قصيدته التي مطلعها « أراك عصى الدمع » :

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

وبقدر ما يخشى عر العدوان شماتة الأعداء والحساد ، يمانى من كبت دمعه ونواحه على وظنحاه ، فيقول مخاطباً ابنه عقاب :

أنا لو دنوا الحساد يا عقاب مني
لاخنق دنيني في دنين الذباب
(وهل يسمع دنين الذباب ؟ . . . .)

وإن غابت الحساد يا عقاب عني
لحِنّ نالي الليل حَنّ الربابِ

يحن في آخر الليل حيث يطمئن بأن كل الناس نيام

وشيخ الشعراء وأميرهم المتنبي يقول بيته المشهور الذي يجري مجرى الأمثال :

إن السلاح جميع الناس تحمله
وليس كل ذوات المخلب السبع

فتخال في شعر ابن هذال البدوي روعة تهز النفس وتكاد تكون أقوى حين يقول :

يا حيف تنقل السيف مع بعض الأولاد
ألنن يكون أمضى من السيف راعيه

بير — فلسطين عيسى مصطفى

بين المسموع والمقروء

طفل يسأل ، وأب بالسؤال يضيق

سرت والصديق في الطريق ، وبيننا هذا الطفل الثرثار الذي ما فتئ يقذف أباه بالسؤال من بعد السؤال حتى ضاق الوالد بالأسئلة صبراً . وكان كلما ضاق ألقم الطفل قطعة من الحلوى ليشغل فمه بها فيعجز عن الكلام . وكان الطفل قد أدرك أن السؤال هو السبيل إلى الحلوى ، فأخذ يتفنن في السؤال حتى صار الدواء داء .

ونظرتُ في أسئلة الطفل ، فكان منها الواضح المفهوم ، وكان منها غير الواضح غير المفهوم ، وكان منها السهل ، وكان منها المعجز ؛ وكانت يد الوالد أسرع إلى جيبه بالحلوى كلما رماه الطفل بالمعجز ، أو بالذي قد جهل .

ومررنا بطلاء ، عند سور بيت ، يطلي حديده بطلاء أحمر .

قال الطفل : ماذا يصنع هذا الرجل يا بابا ؟

الوالد : يطلي السور

الولد : بأي شيء يطليه ؟

الوالد : بالبويه .

الولد : ولم كانت حمراء ؟

الوالد : لأن فيها لون أحمر

الولد : ولم لم تكن خضراء ؟

الوالد : يصح أن تكون خضراء أو صفراء أو زرقاء أو أي شيء تريد .

وعندها غمزت الوالد ، فما كاد يلتفت إليّ حتى كان الطفل قد لاحقه بالحلقة التالية من السلسلة .

الولد : ولم يطليه بالبويه ؟

الوالد : لكي يحفظ الحديد فيعيش طويلا .

الولد : أنت تحب أن تعيش طويلا يا بابا ؟

الوالد : أظن هذا

الولد : إذن لِمَ لا تطلي نفسك ببوية حمراء ؟ .

الوالد : خذ قطعة شوكولاته .

وهنا نظر إليّ الوالد وهو يقول : يا أخي شيء يجنن .

ولكني نظرت من بعد ذلك في سؤال هذا الطفل فلم أجد فيه جنونا كثيراً . فالواقع أن هذا الطلاء الأحمر ، لم يكن في استطاعة الطلاء أن يجعله أخضر أو أصفر . فاللون هنا لم يكن مقصوداً ، وإنما المقصود هو تغطية الحديد بتلك المادة الحمراء — وهي إكسيد الحديد أو إكسيد الرصاص — لتقي الحديد من أكسدة الهواء ، أي تقيه من الصدأ فالفساد . وما كانت الحمرة هنا إلا عرضاً . وما كان الطلاء إلا بطانة ، يضع الطلاء فوقها اللون الذي يريد من أخضر أو أصفر . وعندئذ تكون البطانة للحفظ ، ويكون ما يعلوها للزينة .

وهكذا جرى الإنسان في استخدامه الأطلية — البويات — لهذين الغرضين : الحفظ ، والزينة .

والإنسان يطلب الأطلية للزينة أكثر كثيراً مما يطلبها للحفظ ، دلَّ على ذلك الألوان الكثيرة التي ابتدعتها الصناعة منذ مهّدت لها الكيمياء بالكشف عما قد يكون في أكاسيد العناصر وأملاحها من ألوان .

ودلَّ عليها تلك الملايين التي تنفق سنويا في شراء تلك الألوان ، والإنسان لو طلب الحفظ وحده لكفاه لونان أو ثلاثة هما أثبت ما في تلك الألوان وأطولها عمراً . ولكنه يطلب الرونق . والرونق يصحبه قصر العمر ، حتى في الأطلية . ولكن لا بأس عليه أن يُعيد الكرة كل عام أو عامين ، فيعيد الطلاء ، ويعيد النفقة من جديد . وهو بهذه النفقة يشتري متعة العين ، متعة الجمال . ولقد بلغ من تأليف الألوان عند هؤلاء الناس ، في الحديقة ، وفي الدار ، ظاهرها وباطنها ، مبلغاً لو رآه راء ممن يؤمنون بالنفعة الصرفة ، وبالحفظ وحده ، إذن لتزلزل منطقه ، وأغراه هذا الجمال فقال : على النفع ، وعلى الحفظ ، العفاء

وإن هو قال هذا ، فقديماً قال الناس مثل هـذا فى أطلية المرأة . فأسموا من تتطلى بأنها مصنوعة مصبوغة . ودعوا إلى الطبيعـة . ثم رأينا على السنين ، هـذه العرائك الشديدة تلين ، وإذا بالشفاه تُصبغ ، والعيون تكحل ، والوجوه تُبدَّر وتُمسحق، ويُقبَل كل هذا على منافاته للطبيعة كما يُقبل قصّ الشعر وتقليم الأظفار . ويقبله الفتيان فى أزواجهم ، والشيوخ فى بناتهم ، ويقبله أهل الدنيا وأهل الدين .

ذلك أن الأحساس بالجمال ، ولو مصنوعا ، شديد فى بنى الإنسان . ولهذا حيث كانت هذه الشدة ، وليس على الإنسان مستنكَر أن يعدّ الطبيعة بالذى أعوزها من حسن . وإن قال ناسٌ إنه الخداع ، قلنا وهل أكثر الدنيا وأكثر العيش غير ذلك . وما ضر هذا إن كانت الخديعة حلوة والحقيقة مرّة . وما ضرّ هذا إن كان المصنوع مما تنفتح له القلوب ، وكان المطبوع مما تنقفل من قذاه الجفون كما تنقفل من التراب السافى .

على هذه السجية الأولية جرى الإنسان فى اختيار أطليته ، فطلبها للزينة أصلا ، فجاءت للنفع تبعاً .

وليس الحديد ، هذا الذى رآه طفل صديق ، بالشىء الوحيد الذى يحفظه الطلاء . فالمعادن كلها تصدأ فى الهواء فلا بد لها من الطلاء .

وكذلك غير ذلك من الجوامد يحتاج إلى الطلاء . فالخشب لابد من طليه لحفظه . فالخشب لا يكون على حال واحدة شتاء وصيفاً . تعلم هذا من فتح الأدراج وإقفالها . فهى أسهل فتحاً صيفاً ، وهى أعسر شتاء . ذلك أن الرطوبة تدخل الخشب شتاء فتمدّده ، وهى تخرج منه صيفاً فتكمّشه . من أجل هذا كان الطلاء ليدفع عن الخشب هـذا وذاك ما استطاع . وهو كذلك يحميه أن يلتف بحرارة الصيف .

والمنازل تكلّس وتُطلى لتذهب عنها غائلة الأجواء .

وهنا نعود إلى سؤال الطفل : لم لا نطلى نفسك يا بابا بالبوية الحمراء ؟ .

وصدق الطفل . فإذا كان الجماد لابد له من طلاء — من غطاء ، فكيف بالحىّ ؟ وما عزّ الحىَّ الغطاء أبداً ، من نبات أو حيوان .

أما الشجر فطلاؤه اللحاء . وهو غطاؤه وطلاؤه معاً . إنه وقاؤه كما أن هذا الغشاء الرقيق من البوية الحمراء التى رآها الطفل كانت وقاء الحديد .

أما الحيوان والإنسان فغطاؤهما وطلاؤهما ووقاؤهما الجلد لا محالة .

والجلد يبلى كما يبلى الطلاء . ولكنه يتجدد كما يتجدد الطلاء . إنما تجديد الطلاء من الخارج ، بتحضير طلاء جديد ، أما طلاء الأجسام — الجلد ، فتجديده من الداخل ، كلما زالت عن الجلد طبقة قامت مكانها أخرى تحل محلها ، وتقى وقاءها .

والطلاء غشاء إذا تبقّر وانخرق ، لم يُبالِ له الانسان بالا . أما غشاء الجسم إذا انخرق فقد يكون الويل كل الويل فى انخراقه ، وقد يكون فيه الموت . فمن خرقه تدخل الجراثيم وتبدأ الأدواء .

والجلد غشاء ، أو هو غطاء ، أحكم إلباسه للجسم إحكاما . وإن شئت فقارنه بما يلبس الناس . وإنك لتجد الترهّل فى الملابس ، ولا تجدها فى الجلد الصبىّ أبداً . ذلك لأن الجلد مطّاط . ثم لأنه كثير الحشو كثير البطانة حيث يحتاج الأمر إلى حشو وبطانة . وما بطانته إلا من الدهن . وهو طبقات ترق وتثخن حيث تطلب الرقة أو تطلب الثخونة . وهو يذوب كلما ذابت الدهون ، فيفرغ منه الجلد ، فيتسع . وإذا اتسع الجلد على لابسه انطوى وتجعّد . وهكذا هو عند الشيوخ والشيخات .

والدهن ليحشو الجلد ، وهو كذلك لدفع البرد . لهذا كان المجازُ أحسّ بالبرد من الصبية والصبايا .

وطبقة الجلد على الأجسام ليست سمكا واحداً كغشاء الطلاء على النوافذ والأبواب .

فالفُرشة التى فرشت هذا الطلاء الانسانى — هذا الغشاء الجلدى ، عرفت كيف تُخففه حيث يُطلب الإخفاف ، وكيف تثقله حيث يُطلب الاثقال . ومن أرق مناطق الجلد جفن العين ، فهو يبلغ المليمتر أو دونه سمكا . وهو أغلظ ما يكون فى كعب القدم ، فهو فيه قد يزيد على الاثنى عشر مليمتراً . وكذلك الأحذية ، هى أغلظ ما تكون كعباً .

والسيدات أرق من الرجال جلداً ، وهذا أقل نصيبهن من الرقة . والسودان ، على غير ما يتبادر إلى الذهن ، أرقّ جلوداً من البيضان .

والجلد عضو حىّ كسائر الاعضاء ، وله وظائف خطيرة كوظائفها .

ومن وظائفه أنه الحارس على حرارة الجسم ، فهو يبخل بها فى الشتاء ، وهو يجود بها فى الصيف . وذلك بأن به أعصابا إذا أحست البرد كمّشت الجلد ، فضيّقت من أوعية الدم فيـه ، فقل جريان الدم بها ، فقلت الحرارة الضائعة منـه بالاشعاع . أما إذا أحست هذه الأعصاب احتراراً ، بسطت الجلد ، ووسّعت من أوعية الدم فيه ، فزاد جريانه فيها ، فزادت الحرارة الضائعة منه بالإشعاع وبغير الاشعاع ، ومن أجل هذا تحمرّ الوجوه البيض صيفاً فتكون كالورد .

ومما يستعين به الجلد على ضبط حرارة الجسم نحوُ المليونين من الثقوب فيـه ، يتصل كل ثقب منها بغدّة داخل الجلد تفرز المـاء عند الحاجة ، ونسمى هذا المـاء عرقا . وهو يَنضب شتاء ، ويتصبّب صيفاً . وبانصبابه يتبخر فيبترد الجسم أيمـا ابتراد .

وجلد نعلك تهمله زمانا دون دهان فيجف ويتصلب .

وجلد جسمك يقوم عليه مليونان من الثقوب يجودان بالدهن الذى يحفظ عليه ملاسته وطراوته . ومن أجل هذا كان الغسل بالصابون كل يوم وكل ساعة شيئا لا ترضاه الطبيعة أبداً .

والجلد هو الذى يصنع لك الشعر ويصنع الظفر ، وقد كان الشعر للرجل وقاء ، وكان الظفر سلاحا ، فصار الشعر للمرأة زينة ، وبقى الظفر سلاحا وزينة .

ولـا كانت الأمور تؤخذ بظواهرها ، وكان أكثر الجمال المنظور ، وكان الجـلد ظاهر الانسان ومنظوره ، اتجهت إليه عناية المرأة تحفظ نعومته ، وتزيد طراوته ، وتحسنه بالمساحيق والالوان .

ولا عجب ، فجلد المرأة مَفرش تعرض عليه صنوف الفتنة ، وبدائع الجمال . فان لم يكن جمال يُعرض أو فتنة تُذاع ، فلا أقل من مفرش طرى ناعم ، تقوم نعومتـه وطراوته وملاسته وحسن انسجامه ، وتسلسله كتسلسل المـاء فى الغدران ، تقوم جميعاً مقام الفتنة المفقودة والجمال الضائع . وكم عجوز ضيّع العمر منها كل شئ ، إلا جمال الجلد ، فبقى يكاد يقطر من صفاء ، فزاد وقار الشيخوخة عظمة وبهاء .

وقد تعجب أن تسمع أن بعض أمم الغرب ينفق فى سبيل طلب جمال الجلد ، على الادهنة والمساحيق ، أكثر من مائة مليون جنيه .

فهذا حديث الاطلية ، حديث الجلود . والاحاديث شجون وشجون .

أحمد زكى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى — القاهرة
تليفون — ٥٦٧٦٩

الثلاثاء ١٦ يناير سنة ١٩٤٥ — ٢ صفر سنة ١٣٦٤

صحيفة النقد :

شجرة البؤس

قصة ... للدكتور طه حسين بك

... مانكاد نقطع صفحات من هذا الكتاب الجديد ، حتى نحس أنك تعيش فى جو «الأيام» وتستنشق فى هذا الجو ريح «الأيام» . وأعتقد أنه بحسب كتاب ما أن يقال عنه : إنه يعيش فى جو «الأيام» كما تشعر له نفسك بالود والكرامة والارتياح .

كثير من الوجوه التى التقيت بها هناك نلتقى بها هنا – مع فارق واحد – أنها ربما كانت هنالك تعيش على هامش القصة . وهى هنا تعيش فى الصميم . و « شجرة البؤس » قد سبقت «الأيام» فى الزمن حينا وعاصرتها حينا آخر . فذلك الاختلاف وهذا الازدواج هما اللذان يجعلان بعض الوجوه ترد فى الهامش مرة وفى الصميم مرة . . . ثم تزيد فى « شجرة البؤس » وجوه أخرى جديدة بسبب هذه الملابسات أيضا .

« هذه صور للحياة فى إقليم من أقاليم مصر آخر القرن الماضى وأول هذا القرن نقلتها من صدرى إلى القرطاس »

والحق أن هذا النقل كان أمينا ، وكان بارعا . . . فأنا أعيش الآن فى هدوء وعلى مهل صورة هذه الحياة . وألتقى بوجوه كأنى أعرفها وكأنى لقيتها فعلا . وإن لكن عاشت فى الحياة قبل مولدى بأعوام .

أعرف الآن هذه الشخصيات التى تعيش وسطا بين حياة الريف وحياة المدينة . هذه الشخصيات الطيبة المؤمنة ؛ ترد أمر حياتها كله لله ، وللقدر الحق الذى يعرف أقدار الناس . ثم لهذا «الشيخ» – شيخ الطريق – الذى يصلهم بالله والسماء . والذى ينطق بلسان القدر الحق . والذى يتلقون ماينطق به بالرضى والتسليم فى الغالب . وبالسخط مع الاستسلام فى النهاية ! أليس القدر من عند الله ؟ وماذا يملك العبد – إزاء الرب الواحد القهار ! ؟

ويضطرب هؤلاء الناس الطيبون مايضطربون فى الأرض : يكسبون رزقهم بوسائلهم التقليدية الهينة ، ويلبون داعى الغرائز والبطون ، وداعى المجتمع والتقاليد ، وداعى القلب والروح ، وينجحون أو يخفقون ، ويسعدون أو يتألمون ويرضون أو يسخطون ، ثم يفيئون من هذا كله إلى ذلك الإيمان التقليدى العميق . وإلى ذلك « الشيخ » الذى يصلهم بالله والسماء . والذى ينطق بلسان القدر الحق . والذى يستسلمون لله والقدر حين يستسلمون لأوامره ونواهيه ، ويطيعون إشاراته وتلميحاته ؛ ويجتهدون فى تأويل ماخفى عليهم منها كما يجتهدون فى تأويل الغيب العميق !

تلك صورة من حياة طواها الزمن – فلا رجعة لها فى أغلب الظن – وهى صورة تستحق التسجيل وقد تولى تسجيلها أنسب الأقلام لتسجيلها بين المعاصرين .

وبيان ذلك فيما ذكرته قبل عام من « مدرسة الدكتور طه حسين » ... لقد قلت يومذاك : « نستطيع أن نطلق على مدرسة الدكتور طه حسين اسم « مدرسة الأسلوب التصويرى » . فالدكتور فى خير حالاته يرسم لوحات متتابعة ، أدواته فيها الكلمات والجمل . لوحات المناظر ، وللحوادث ، وللمعانى ، وللخطرات النفسية ، والالتفاتات الذهنية على السواء وتلك مزيته الكبرى كصاحب شخصية أدبية .

« بقى أن نعرف شيئا عن نوع هذا التصوير فى مدرسة طه حسين . فهو التصوير الحسى الذى يرد المعانى والخواطر صوراً حسية أو كالحسية – بله المناظر والحوادث فهذه يعيدها كما بدأت أول مرة ، توشك أن تكون مجسمة .

« وهو يخلع على هذه الصورة الحسية لونا من ألوان الحياة والحركة . ولكنها الحياة اللطيفة والحركة الوئيدة التى تدب على هينة ، وتخطر فى رفق . فالسرعة النابضة والحيوية الدافقة ليستا من مطالب هذه الصور فى يوم من الأيام . »

الحياة اللطيفة ، والحركة الوئيدة ، التى تدب على هينة وتخطر فى رفق . . . هذه مميزات أسلوب الدكتور طه حسين ، وهى نفسها مشخصات هذه الفترة من الحياة التى يتولى تسجيلها فى «شجرة البؤس» فهو توافق عجيب بين لمسات الريشة وطبيعة المنظر ، وبين الصورة كذلك والمصور . وتلك الشخصيات التى يتولى تصويرها إنما تسبح فى رقعة فسيحة من الزمن وآماد طويلة من الأجل فى محيط الحياة كما تسبح المعانى المبسوطة والخلجات الوئيدة فى رقعة فسيحة من الألفاظ وآماد طويلة من الصحائف فى أسلوب المؤلف سواء بسواء .

وفى غير هذا المجال ربما استبطأ القارىء حركة الأسلوب ، وربما عنّ له فى بعض المواقف أن يطلب من المؤلف الإسراع ! ولكنه هنا لا يستبطىء ، ولا يطلب السرعة فرقعة الحياة هنا فسيحة والخلجات فيها وئيدة ، وكل المطامع والمطامح وكل الأعمال والشواغل هينة لينة قليلة محدودة . فلا داعى للسرعة ، ولا ضرورة للعجلة . « فالله قد خلق الدنيا فى ستة أيام كما يقولون » !

ذلك اتفاق .. وإنه لتوفيق !

قلت : إنك لا تلبث أن تحس بعد أن تقطع صفحات من هذا الكتاب الجديد ، أنك تعيش فى جو «الأيام» . وهذا صحيح فى عمومه . ولكن هناك فارقا بين هذا وذاك إن الأسلوب فى «الأيام» يمضى سهلا هينا ساذجا ـ تلك السذاجة الحلوة فى بعض الأحيان ـ أما الأسلوب هنا فقد كان المؤلف الكبير أكثر عناية به ؛ وأكثر تجويدا له ، فاقترب به كثيرا من تلك الأساليب الفخمة الضخمة التى نقرؤها له فى كتابه القيم «على هامش السيرة» .

وقد يعجب هذا التجويد البارع عشاق الأساليب . أما أنا فلا أتردد فى تفضيل الأسلوب الهين اللين الساذج — تلك السذاجة الحلوة أحيانا — كما كان فى «الأيام» . فهذه الحياة التى يصورها إنما هى حياة هادئة وادعة ، وهذه الشخصيات التى يرسمها إنما هى شخصيات بسيطة ساذجة وقد كان جو الأسلوب فى «الأيام» موافقا لها منسجما معها . أما الأسلوب هنا فهو عال عنها مفترق منها . وليس من السهل أن يدور حوار بين هذه الشخصيات فيشبه فى مستواه حوارا يدور بين شخصيات «هامش السيرة» فى غابر الأيام .

وطبيعى أننا لا ننتظر من أديب كالدكتور طه حسين أن يثبت الحوار بلغته الطبيعية بين هؤلاء الناس السذّج القرويين . ولكن من حقنا أن ننتظر منه أن ينقل حوارهم من لغتهم إلى لغة عربية تناسبهم ، وبذلك يكتمل الجو الذى تعيش فيه القصة ويتم الانسجام .

وقد أفلتت من الدكتور بعض التعبيرات الساذجة فى مواضعها المناسبة فكانت جميلة . كما كانت مليئة بالحياة . استمع إليه يتحدث عن « سليم » أحد شخصيات القصة الظرفاء . هو رجل يحب الحياة الطبيعية التى كان يحياها آباؤه وأجداده ، ثم هو يرى أخاه «خالدا» — الذى كان مثله بالأمس — يجدّ فى الحياة المدنية الجديدة ويتكلف لها ما يتكلفه المدنيون ، فلا يعجبه هذا ولا يرضيه ، فهو يسخر من أخيه هذا ومن زوجته وأولاده ؛ ولا ينفك يذكرهم بعيشتهم كلما زارهم فى المدينة ورآهم يتكلفون ما يتكلفون :

« وكان سليم أسرعهم إلى الضحك وأبطأهم فى الرجوع إلى الجد ، لا يسخر من الأسرة وحدها . وإنما يسخر من أى إنسان آخر ، وكان أشد الأشياء إثارة للغيظ فى نفسه أن يرى الأسرة تعاف الماء الكدر ، وتحرص على أن تروقه فى الزير ؛ وتقطره فى هذه الآنية تضعها تحت الأزيار وتضع فوقها المصفاة . كان يرى ذلك فيغتاظ ويهتاج ، ويلتفت إلى أخيه وإلى أبناء أخيه وهو يصيح فى صوته المرتفع المضحك : آه يا أولاد الكلب من أين جاءكم هذا العز ؟ إنكم لتحرمون أنفسكم خيرا كثيرا .

إنكم حين تشربون هذا الماء المسق أشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد أن استخرج منه الزبدة . ثم يسرع إلى الكوز فيغمسه في الزير . ويعب فيه عباً شديداً ويقول : هكذا رأينا آباءنا يشربون ، لأنهم لم يكونوا من الترك ولا من الأرنؤوط »

. . . وهكذا ارتسمت للقارىء لمحة من هذه الشخصية بألوانها الطبيعية وبلغتها كذلك مترجمة إلى لغة مكافئة . فتم الانسجام .

فإلى القارىء الآن نموذجاً آخر لحوار لم يتم فيه التكافؤ ليرى الفرق بين هنا وهناك : «سليم» هذا نفسه زوجة في مثل ثقافته بل أقل ؛ وهي ترى أن أخاه « خالد » يهم بالزواج بامرأة أخرى بعد أن أصيبت زوجته الأولى بالجنون . تلك التي كان « الشيخ » قد زوجه منها وهي دميمة قبيحة شوهاء فرضي واستسلم لأمر الشيخ على الرغم من إرادة أمه التي كانت تعارض في هذا الزواج وتراه غرساً لشجرة البؤس في الدار ، ثم سخط وتألم . ثم استحالت حياته جحيماً . وهو على ذلك مستسلم مسلم . ثم هم أن يتزوج بأخرى هي أم أولاده الذين ورد ذكرهم في الفقرة السابقة . ومن هنا دار الحوار بين سليم وزوجته حول هذا العزم الأخير :

« قال سليم : فإنك تعلمين أن نفيسة لاتصلح له زوجاً ولا تقدر على عشرة الرجال ، فما ذنب خالد إن اعترف بالحق الواقع ! وهل ترين له أن يعيش مع مجنونة أو أن يفرض على نفسه حياة الرهبان ؟ قالت لا أدري ! ولكن جنون نفيسة لم يأتها من قبل نفسها ؛ وإنما جاءها من هذا الزواج الذي لم ترده ، ومن هذه الظروف التي لم تخلقها ورحم الله أم خالد إذ قالت لزوجها : إنه إن أتم هذا الزواج فلن يزيد على أن يغرس في داره شجرة البؤس . لقد غرست شجرة البؤس ، فنمت وآتت ثمرها بشعاً خبيثاً . امرأة ترزأ في زوجها وابنتها معاً ، ثم ترى ابنتها وقد اصطلح عليها المرض وهجر الزوج والحرمان . فأنت تعلم أن نفيسة ليست ميسّراً عليها في الرزق ولست ألوم أحداً . ولكنها فقدت ثروة أبيها ، وتفرقت ثروة علي في أسرته الضخمة ، وخالد لايرزقها إلا كما يستطيع . ثم لم يكفها هذا كله فقد رزقها هذا الزواج السعيد صبيتين كان من حقهما أن تنشآ في النعمة فهما تنشآن في البؤس بين أم مريضة وجدة محزونة ، ومولاة سوداء تقوم من أمرهما بما تستطيع القيام به ، وأب ينفق الأيام ، وقد ينفق الأسبوع دون أن يراهما ... كل هذا لايكفي . فلا بد من أن يتزوج خالد ، ومن أن يتخذ لأمهما ضرة ، ومن أن يكون له من هذه الضرة بنون وبنات يشاركونهما في حب أبيهما وبره ... »

فهذه الفخامة كلها في أسلوب امرأة عامية ، وهذا الاقتباس من الأساليب العربية القديمة ، أمر قد تختلف في شأنه مع الدكتور ! .

ثم تبقى ملاحظة أخيرة لإبرازها شأن كبير :

إن الفوارق بين ملامح هذه الشخصيات البسيطة الساذجة فوارق قليلة ودقيقة . فكلهم طيب ، وكلهم مؤمن بالله ، مستسلم للقدر . مستسلم للشيخ الذي يصلهم بالله وينطق بلسان القدر . وكلهم آفاقهم قريبة وكلهم مطامحهم محدودة ... من شأن هذا كله أن يزيد في عبء المؤلف الذي يريد أن يرسم ملامحهم المتشابهة ، ويبرز شخصياتهم المتباينة .

فماذا صنع الدكتور ؟

لقد استطاع أن يرسم هذه الصور المتشابهة في دقة غريبة . فظهروا على المسرح شخوصاً آدمية متميزة لانسخاً مكرورة معادة ، ظهروا وكل منهم يحمل طابعه ، ويلبس ثوبه ، ويلتقي مع الآخرين في الصفات العامة ، ثم يفترق عنهم في الملامح المميزة ... وكانت لمسات الريشة البارعة الدقيقة كفيلة بهذا كله في يسر وسهولة حتى لكأنه جهد يسير .

تلك في الحقيقة هي سمة الأديب « الكبير » التي ترفع العمل الفني على الرغم مما قد يكون فيه من مآخذ المرض ومن مواضع التقصير .

سيد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — مصر

الثقافة

الثلاثاء ٩ صفر سنة ١٣٦٤ — ٢٣ يناير سنة ١٩٤٥

بعد الهجوم الألمـــانى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الهجوم الألمانى الأخير فى الميدان الغربى مفاجأة شديدة للجيوش المتحالفة ، وقد كان الرأى السائد دائما حتى بعد أن بدأ الحلفاء هجومهم على ألمانيا واستطاعوا أن يقتحموا حدودها الغربية فى عدة مواضع وأن يستولوا على آخن أولى المدن الألمانية الكبرى ، أن ألمانيا ماتزال على جانب عظيم من القوة والأهبة ، وانه يجب أن يحسب لقدرتها الدفاعية أعظم حساب ، وأنها لن تهزم فى ميدان الحرب إلا بعد معارك طاحنة ؛ وكانت صلابة المقاومة الألمانية فى كل موقعة وفى كل خطوة تؤيد هـذا الرأى . ولكن كان من الشكوك فيه مع ذلك أن يستطيع الريخسفر (الجيش الألمانى) بعد ما أصابه من الهزائم المتوالية فى الشرق والغرب ، أن يضطلع بمثل هذا الهجوم القوى وعلى هذا النطاق الواسع ، وأن يعود فيندفع بمثل هذا العنف الكاسح إلى الأمام مرة أخرى .

واذاً فقد كان هجوم المارشال فون رونشتت فى القطاع الأوسط فى شرق البلجيك مفاجأة خطيرة للقيادة المتحالفة خصوصا وقد بلغ التقدم الألمانى فى أيام قلائل مدى مزعجا ، ولم يكد يفيق الحلفاء من الصدمة الأولى حتى كان الألمان قد بلغوا قلب البلجيك على مقربة من لياج ونامور ولم يبق بينهم وبين نهر الموز أحد أهدافهم الرئيسية سوى أميال قليلة . وهنا فقط استطاع الحلفاء وقف الهجوم بعد أن احتل الألمان داخل خطوطهم شقة واسعة طولها نحو أربعين ميلا وعرضها نحو ثلاثين ، واقتربت خطوطهم الجنوبية الشرقية من مدينة ستراسبورج ، والجنوبية الغربية من ثغرة سيدان ، وفصلوا بهذا النتوء العميق بين جيوش الحلفاء الشمالية والجنوبية .

وقد خبت شدة الهجوم الألمانى بعد شهر من بدئه ، وانقلب الألمان من الهجوم إلى الدفاع فى معظم النقط ، وأخـذت الشقة التى استولوا عليها تنكمش شيئاً فشيئاً تحت ضربات المارشال مونجمرى . ومن المرجح أنه لن يمضى أسبوعان أو ثلاثة حتى يستطيع الحلفاء إزالة النتوء الألمانى بأكمله ، ورد الألمان إلى خطوطهم الأولى ، إلا إذا حدثت مفـاجأة جـديدة واستطاع الألمان استئناف هجومهم فى اتجاه جديد

على أن وقف الهجوم الألمانى والقضاء على آثاره المادية على هـذا النحـو لايعنى أنه لم يحقق شيئا من النتائج التى علقتها القيادة الألمانية عليه أو أنه فقد جميع الآثار التى ترتبت على حدوثه : والأمر بالعكس ، فقد كان لهذا الهجوم آثار بعيدة المدى سواء من الناحيتين العسكرية أو السياسية ، وسواء من الناحية الألمـانية أو من ناحية الحلفاء . ذلك أن هذا الهجوم قد وقع فى الوقت الذى بلغت فيه ثقة الأمم المتحدة بالنصر وقرب نهـاية

الحرب أقصاها ، وكان المفهوم أن قيادة الحلفاء تمد المدة للهجوم النهائي على ألمانيا من الغرب في الوقت الذي يقوم فيه الروس بهجومهم النهائي من الشرق ، فجاء الهجوم الألماني معدلا لهذه الخطة ، وبدأ الروس هجومهم من الشرق ، بينما شغل الحلفاء في الغرب برد الهجوم الألماني والقضاء على آثاره . وهذا التأخير عند الألمان مهلة جديدة من الوقت يستطيعون فيها أن يضاعفوا أهباتهم الدفاعية ، وقد يترتب على ذلك أن تطول المقاومة الألمانية ، ويطول أمد الحرب عما قدر له في الربيع القادم أو الصيف .

والواقع أن إطالة أمد الحرب من الأهداف التي ترمي اليها القيادة الألمانية ، وقد رأينا هتلر يظهر في فاتحة العام الجديد عقب اتساع نطاق الهجوم الألماني لأول مرة بعد صمت دام عدة أشهر ، ليؤكد للعالم من جديد أن ألمانيا لن تجثو على ركبتيها كما حدث في الحرب الكبرى ، وأنها سوف تقاتل حتى النصر أو حتى تحصل على تسوية عادلة ، وأن أعداء ألمانيا يخطئون في الاعتقاد بقرب نهاية الحرب ، وفيما يضمرونه منذ الآن لتصفية ألمانيا من الشروط . وكان من الواضح حينما ألقى هتلر خطابه ، وحينما بلغ الهجوم الألماني أقصى مداه ، أن الهدف الأول من أهداف هذا الهجوم هو العمل على تقوية الروح المعنوي في ألمانيا بعد أن تطرق اليه الوهن واليأس ، وذلك باندفاع الزحف إلى ميدان الهجوم مرة أخرى . ومن المعقول أن يتحقق الأثر المنشود وتنهض روح الشعب الألماني المعنوية إلى حين .

ومن جهة أخرى فان إطالة أمد الحرب على هذه الصورة قد تحدث في الأمم المتحدة بعض الآثار المعنوية التي تستطيع ألمانيا استغلالها ؛ فأمريكا قد تشعر بالملل والسأم من استمرار الحرب الأوربية على هذا النحو ، بينما عدوها الأصلي وهو اليابان مازال رابضا في معاقله محتفظا بجميع قواه ، وقد يتطرق مثل هذا السأم كذلك إلى الشعب البريطاني ؛ ويؤدي هذا وذاك إلى تعديل موقف الأمم المتحدة بإزاء ألمانيا ، فتضطر بغية تقصير أمد الحرب إلى أن تعرض على ألمانيا شروطاً أكثر سخاء واعتدالا .

ولكن كل ما هنالك بالعكس يشير إلى انهيار هذا الأمل الخلب ، فقد أعلن الرئيس روزفلت أنه لابد لإحراز النصر من القضاء على آخر جندي ألماني ، وأن القضاء على ألمانيا النازية هو أول شروط النصر على اليابان لأن ألمانيا هي العدو الأساسي ، وإن أمريكا سوف تضاعف جهودها في سبيل تقصير أمد الحرب في أوربا . ومثل هذه النغمة تتردد اليوم في إنجلترا ، بعد أن انقشع خطر الهجوم الألماني ولم يسفر عنه تعديل خطير في الموقف الحربي . وقد عاد مستر تشرشل فأكد بالأمس في مجلس العموم مرة أخرى أنه لا يوجد أي تفكير في عقد الصلح مع ألمانيا ، وأنه لابد من استسلامها بلا قيد ولا شرط ، وسوف يستمر القتال حتى يتحقق هذا الاستسلام . وهكذا يبدو ان الأثر المعنوي الذي أحدثه الهجوم الألماني في إنجلترا وأمريكا جاء عكس ما يرجوه الألمان ، وأنه إذا كانت القيادة الألمانية قد حققت من ورائه بعض المزايا المادية والأدبية المؤقتة ، فقد أفاد منه الحلفاء أيضاً مثل هذه المزايا ، إذ تنبهت الدوائر الانجليزية والأمريكية مرة أخرى إلى خطر الإغراق في التفاؤل والركون إلى فكرة النصر العاجل . وكان الهجوم الألماني نذيراً جديداً بمضاعفة الجهود وشحذ الهمم لتحقيق النصر المنشود بأسرع ما يستطاع .

* * *

والآن وقد بدأ الهجوم الروسي العظيم في الشرق بعد استعداد طال أمده فإنه يحق لنا أن نتوقع تطورات خطيرة في الموقف الحربي . وتدل أنباء الهجوم الأول على شدته وعنفه واتساع نطاقه . ونحن نكتب هذه السطور وأمامنا أنباء سقوط وارسو وكراكوف وكلاهما من أعظم معاقل الألمان في الجبهة الشرقية . وسقوط العاصمة البولندية يمهد الطريق لزحف الجيش

الأحمر إلى برلين . وسقوط كراكوف التي لا تبعد عن سيليزيا الألمانية سوى مسافة قصيرة يفتح الطريق إلى سيليزيا وعاصمتها برزلاو ، وهي من أهم مراكز الصناعات الحربية الألمانية . والواقع أن كل ما هنالك يؤيد أن الهجوم الروسي الحالي هو الهجوم الحاسم الذي أشار إليه المارشال ستالين في خطابه السنوي في نوفمبر الماضي حينما أشار إلى أن الجيش الأحمر سوف يحتل برلين وسوف يخفق عليها العلم السوفيتي وهذا كلام يردده اليوم كاتب روسيا الكبير إيليا إهرنبورج في جريدة البرافدا لمناسبة بدء الهجوم . وإذا استطاع الجيش الأحمر أن يستمر في زحفه الكاسح على هذا النحو فإننا سوف نشهد في القريب العاجل أعظم المعارك الفاصلة التي يستطيع الجيش الألماني خوضها قبل انهياره الأخير .

ومن المتوقع في نفس الوقت أن ينشط الحلفاء في الغرب لتنسيق هجومهم المنتظر بعد القضاء على نتوء الأردين ليسير مع الهجوم الروسي في الشرق معاً حتى لا تستطيع القيادة الألمانية أن تنتفع بنقل قواتها الاحتياطية من جهة إلى أخرى ؛ وبذلك تواجه ألمانيا النازية أخطر الأزمات العسكرية التي واجهتها بالاشتباك الطاحن في ثلاثة ميادين رئيسية كل منها يقع على مشارف الوطن الألماني ؛ هذا عدا القتال في ميدان رابع هو الميدان الإيطالي .

ولا مراء في أن ألمانيا النازية ستبدي أعظم مقاومة ولا سيما في الميدانين الشرقي والغربي ، ولنا أن نتوقع اشتداد المقاومة بالأخص متى وصل الروس إلى حدود ألمانيا الشرقية . ولكن يجب أن نذكر أن أمد هذه المقاومة ليس رهيناً فقط بقوة الجيش الألماني ، ولكنه رهين بالأخص بسلامة الجبهة الداخلية الألمانية . وقد أراد فون رونشتت أن يبث بهجومه في الغرب شيئاً من الأمل والانتعاش في نفوس الشعب الألماني ، ولكن هذا الأمل الخلب يغيض اليوم سراعا أمام ضربات الجيش الأحمر ، والمرجح أنه آخر هجوم يستطيع الريخسفر أن يشنه في أي ميدان من ميادين الحرب . ومن المحقق أن ألمانيا لا تقاتل اليوم في سبيل النصر ، وليس من المعقول أن يؤمن الشعب الألماني بالنصر بعد الهزائم الفادحة التي منى بها الريخسفر ، ولكن زعماء النازية يقاتلون في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ولا سبيل للشعب الألماني أن يسلك أي سبيل آخر ، ولا بد له أن يمضي مرغماً في نضال لا أمل فيه ولا مخرج منه ، ذلك أنه يخضع لسلطان أشد هولا من سلطان المحن والشدائد التي يجوزها ، هو سلطان «الجستابو» ، فهو الذي يصفد أعناقه بأصفاد من حديد ، وهو الذي يحشده وراء الخطوط ويسحقه سحقاً . وقد أدرك النازيون منذ لاحت بوادر الهزيمة على جيوش الريخ أهمية المحافظة على سلامة الجبهة الداخلية المعنوي في النضال فلم يدخروا وسعاً في سحق العناصر الناوئة ، ولكن هل تثبت الجبهة الداخلية أمام الكوارث العسكرية الجديدة ؟ هذا ما يشك فيه كل الشك . وأغلب الظن أن الجبهة الداخلية سوف تنهار متى وصل الروس إلى أرض الوطن الألماني ، وعندئذ تنهار جيوش الريخ على نحو ما حدث في سنة ١٩١٨ . وإذا استطاع النازيون بنوع من المعجزة أن يسيطروا مع ذلك على الجبهة الداخلية واستطاعت جيوش الريخ أن تصمد حيناً أمام تيار الغزو الكاسح ، فإن هذه المرحلة الفاصلة من الحرب لا يمكن أن تدوم طويلا ، وقد لا تعدو الربيع القادم أو الصيف .

محمد عبد الله عنان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

روبابكيا!

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لست أدرى ما الذى حمل إلى ذهنى صورة (الروبابكيا) عند خروجى من ذلك الحفل الرائع الذى اجتمع فيه من كبار الرجال عقد فريد. كان الحفل يضم طائفة ممن تفخر بهم مصر من العلماء والأدباء، وسمعت فيه طائفة من المعانى ملأت قلبى سمواً، وملأت عقلى حكمة. ولكن فلتة من الفلتات وقعت فيه جعلتنى أخرج منه وصورة الروبابكيا تملأ خيالى. كانت صورة عجيبة، ولكنها مع ذلك كانت واضحة ملحّة، فحاولت بكل جهدى أن أتخلص منها، ولكنى كنت كلما جاهدت فى التخلص منها عادت إلىّ أقوى وأوضح، وكلما بالغت فى إبعادها تفلتت من إرادتى وهاجتنى هجوماً أعنف وأكثر إلحاحاً.

والروبابكيا، كما هو معروف، لفظ يستعمله هؤلاء المساكين الذين يجولون فى الطرق ينادون به يطلبون شراء الأشياء القديمة البالية، وأصله على ما أظن لفظ إيطالى معناه الثوب الخلق، ثم صير له الاستعمال معنى شاملاً، فأصبح المقصود به كل شىء قديم، سواء كان ثياباً أو غير الثياب؛ فقد تكون الروبابكيا قطعة من المعدن، أصلها زهرية؛ ثم تحطمت وتفرقت حتى صارت نكرة لا صورة لها، وقد تكون قطعة من الزجاج، أصلها مصباح، ثم تهشمت وانتقصت من أطرافها حتى صارت أبعد الأشياء عن هيئة المصابيح؛ وقد تكون قطعة من النسيج، أصلها طنفسة إيرانية ثمينة، ثم تمزقت وتقطعت وحال لونها وانطمس رسمها حتى أصبحت خيوطاً مفلجة مثل فم الأهتم.

وهذه الأشياء القديمة تباع فى العادة بثمن زهيد لأن أصحابها يؤثرون التخلص منها حتى لا تزحم بيوتهم بما لا خير فيه، بعد أن ضاعت قيمتها التى كانت لها قبل أن يجنى عليها الدهر ويفنيها مر الأيام الذى يفنى الأشياء جميعاً.

ولقد كانت تلك الحطام من قبل جديدة بغير شك فى وقت من الأوقات، وكانت ذات رواء وبهجة، وكانت ذات فضل عظيم فى خدمة الناس. فكم من طنفسة بالية كانت من قبل موطئاً للملوك! وكم من مصباح محطم كان فى زمن من الأزمان يرسل النور على صفحات كتاب يبدعه عالم عبقرى! وكم من زهرية شوهاء كانت فى أول عهدها ذات رونق وبهاء، يأتلق فى ثغرها الزهر الباسم، ويفوح من فيها العطر الذى ينعش الأفئدة! ولكن لا حيلة فى تصاريف الزمان، فمن طبعه أن يزيل رونق المحاسن، وأن يعفى على آثار كل رواء. فهو لا يزال دائباً فى أعقاب الكائنات حتى يحيلها بعد حين إلى حطام لا تصلح لما كانت من قبل بارعة فى أدائه.

وللناس العذر فى أنهم لا يبقون على ما ذهب خيره وضاع نفعه، لأنهم يعانون الحياة وما فيها من مشقة، فليس من العدل أن نلزمهم بتحمل عبء الأشياء بعد أن تبلى، بحجة أن الوفاء يقضى عليهم بتحمل عبئها لما سبق من خدمتها. فالوفاء والعرفان وإن كانا فضيلتين، فإن الحياة قاسية تجشم الناس من أحمالها ما يذهلهم عن كثير من الوفاء والعرفان.

وقد تكون الأشياء القديمة، فى بعض الأحيان، مناط كثير من عزيز الذكريات، ولكن الناس إذا خيروا بين الحياة وبين الذكريات، لم يجدوا بداً من التعلق بالحياة، وإغفال الذكريات.

وقد حاول بعض المتحمسين للفضائل أن يقاوموا هذا الطبع الإنسانى، لأنهم رأوا فيه نقصاً لا يليق بكرامة القلب البشرى، فلجأوا إلى تأليف الأمثال والمواعظ التى تحض الناس على الاحتفاظ بالحطام القديمة، على ما يبدو عليها من تهشيم، فقالوا

مثلا : « لا جديد لمن لا خلق له » ، وقالوا : « من فات قديمه تاه » وقالوا : « الدهن في العتاق » ، إلى غير ذلك مما يكثر ترديده على الألسنة . ولجأوا إلى التشبيه والاستعارة ، فقالوا : إن خير الخمور ما كان عتيقاً وإن الدن إذا ختم ووضع في الكهف ومر عليه القرن بعد القرن لم يزد القدم خمره إلا لذة ونشوة . وهذا كما يقولون صحيح ، فقد سمعنا أن بعض البلاد تخزن الخمور حقاً في الكهوف ، فإذا استخرجها الناس منها بعد قرون عادت عليهم بالثمن المضاعف . ولكن الخمر المعتقة صنف شاذ لا يقاس عليه ؛ فليست الأشياء القديمة كلها مما يزيده الزمن صلاحاً .

وقد لجأ بعضهم إلى تأليف القصص التي تثير الخيال وتخدع الناس عن الحقائق ، فزعموا أن الأشياء القديمة البالية قد تكون في ظاهرها مهشمة ، ولكنها تنطوي على أسرار خفية كامنة تحت هيئتها الزرية ، ففي قصص ألف ليلة وليلة مثلا حاول المؤلف الماكر أن يوهم الناس أن « خاتم الملك » لا يبدو للأعين إلا في هيئة حلقة قديمة حقيرة من الحديد ، وأن السعيد المحظوظ هو الشخص الذي يوفقه حظه السعيد إلى العناية به مع حقارة مظهره . وكذلك أوهمهم أن مصباح علاء الدين لم يكن سوى آلة صدئة تزدريها العين ، حتى إن العجوز باعته لبعض شراة (الروبابكيا) بدريهمات مع أنه كان ينطوي على أسرار عظيمة ، ويستطيع حامله أن يهتدي به إلى كل خيرات الأرض .

فبمثل هذه الوسائل حاول المتحمسون للعواطف النبيلة أن يثيروا خيال الناس حتى يحملوهم على احترام الأشياء القديمة التي لا يحسون نحوها احتراماً عند النظرة الأولى .

ولم تخل هذه الدعاية من أثرها في الناس ، فإن الكثيرين يزعمون أن الأشياء البالية القديمة قد تكون أكثر قيمة من الجديدة التي لا تزال بشوكتها ، فمثلا يعتقد هواة السجاجيد الإيرانية أن القطع القديمة أثمن من الجديدة ، مع أن هذا شيء يأباه المنطق . فإن الطنفسة القديمة كانت في يوم من الأيام جديدة ، وكانت أحلى لوناً وأروع منظراً وأمتن قواماً . ولا يمكن أن تقبل المعقول أن الطنافس القديمة تصير أغلى قيمة ، بعد أن يمضي عليها الزمن الطويل ، وبعد أن تدوسها آلاف الأرجل ، ويفعل فيها الحر والبرد ، ويحول لونها من أثر الشمس ، ويوهي نسيجها من الخبط بالعصي عند التنظيف . ولكن هكذا يعتقد الهواة . ولا شك في أن لهم في ذلك الاعتقاد حجة . وأما أنا فلو عرضت على طنفستان إحداهما جديدة والأخرى بالية ، لما اشتريت إلا الجديدة التي تستطيع أن تخدمني مدة طويلة من السنين ؛ فمهما يكن من أمرها فمن المؤكد أنها ستصير بعد خدمتها الطويلة بالية قديمة ؛ ولن أعدم أحد هؤلاء الهواة أبيعها له بعد قدمها بثمن عظيم .

ولكن الصعوبة التي تعترض الإنسان عندما يفكر في الأشياء القديمة لا تبلغ من التعقيد حد الإعجاز ، لأن الناس في حياتهم المادية لا يبالون الأمثال ولا الخرافات ، ولا ينظرون إلى الأشياء القديمة نظرة المخدوعين عن حقيقتها ؛ بل يقذفونها في جانب الطريق أو يبيعونها لمن يريد شراءها بثمن بخس دراهم معدودة .

والصعوبة الحقيقية إنما هي في الإنسان نفسه إذا صار قديماً . ولست أدري لماذا يميز الإنسان نفسه على سائر المخلوقات والمصنوعات ، فيزعم أنه يزداد قيمة كلما زادت عليه السنوات مروراً .

والحقيقة القريبة من المعقول هي أن الإنسان خاضع للقانون العام الذي تخضع له جميع الأحياء ، فهو ينشأ صغيراً ثم يكبر حتى يتم نضجه ، ثم يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئاً . فهو يبلى ويصير خلقاً ، ويتحطم كما جرت سنة الكون في الخلق جميعاً .

ولكن الإنسانية لن تسمح في يوم من الأيام بأن يباع الناس لشراة (الروبابكيا) إذا بلغوا أرذل العمر وشارفوا حد البلى وأصبحوا خلقاً . فإن الأخلاق الفاضلة تحتم عليهم أن

يستشمروا الرحمة والعرفان والوفاء ، وتوجب عليهم أن يذكروا فضل الإنسان القديم عليهم عندما كان جديداً ، وأن يكافئوه بعد قدمه بما قدم لهم في أوان جدته .

والإنسان الحديث في هذه العصور يختلف في هذا عن الإنسان الأول في العصور السالفة أيام وحشيته . فقد قيل إن قبائل المتوحشين في القرون الخالية كانت إذا وجدت الشيوخ قد بلغوا حد البلى وأحسوا أنهم قد أصبحوا لا يصلحون للحياة في الحرب ولا في السلم ، اجتمعوا في يوم عيد ، وأوقدوا النيران ، ورقصوا حولها ، ثم أتوا بالشيوخ الذين أصبحوا لا يصلحون للحياة فقذفوا بهم في النار ، وأقاموا ولمية على لحومهم المشوية .

هذا ، على ما يقال ، كان دأب البشر في أيام الوحشية الأولى ، ولكن الإنسانية قد ارتقت وأصبحت اليوم أكثر رحمة ووفاء وعقلاً ، فهي تكتفي بأن تجعل للشيوخ مكاناً محترماً في مجتمعاتها ، أو تجود عليهم بتقبيل الأيدي وإحناء الرءوس احتراماً ، حتى لا تشعرهم بأنهم قد فقدوا قيمتهم الأولى . والشيوخ ، في أغلب الأحوال ، يحسون بهذا الوفاء ، ويقابلونه من جهتهم بأن يتنحوا عن الميدان الذي يحتاج إلى السعي والجري والوثب ويقنعوا بالصورة الباقية من ماضيهم المجيد ، ويبعدوا عن الأنظار ، إلا إذا طلب منهم أن يؤدوا شهادة عما حدث في أيامهم أو يبدوا رأياً في أمر من الأمور مستأنسين بتجربتهم الطويلة ، فيقوموا عند ذلك بالإدلاء برأيهم ، ثم يعودون إلى عزلتهم الأولى حتى يمضوا عن هذه الأرض كراما .

ولكن العجيب في بعض بني الإنسان أنهم لا يقنعون بمثل هذه العزلة أحياناً بعد أن تصبح ضرورية ، ويصرون على الضرب في زحمة الميادين ، ويخاطبون الجيل الجديد بلغة عصر منقرض ؛ ثم قد يزيد بهم الحرص فيريدون أن يخوضوا معارك ذلك الجيل الجديد بسلاحهم القديم ، مع الإصرار على أن يحتفظ الشباب بالوفاء والإجلال لهم ، فلا يرفع يداً في وجوههم ، ويسلم الأمر للقضاء منتظراً ما تسفر عنه المعارك التي يخوضونها بأسلحتهم القديمة .

وإنه لما يؤسف له أن هذه المعارك تنجلي دائماً عن هزيمة السلاح القديم والساعد المرتعش ، لأن نضال الحياة لا يعرف وفاءً ولا مجاملة .

هذه المعاني وأمثالها ثارت في ذهني وأنا خارج من الحفل الرائع الذي اجتمع فيه صفوة من الرجال ، مع أنني سمعت في هذا الحفل ما ملأ القلب حكمة وروعة ، ولكنها صورة ملحة ما زالت تمثل أمام خيالي تنادي منذ خرجت من ذلك الحفل قائلة : « روبابيكيا » .

محمد فريد أبو حديد

أدب الجهاد فى سبيل الله

للأستاذ محمد خلف الله

— ٣ —

كان « عبد الله بن عباس » (رضى الله عنه) يسمى سورة الأنفال « سورة بدر »(١) ، ذلك لأنها — كما رأينا — نص فى موضوع تلك الوقعة التى كانت مفتاح الحروب بين المسلمين وخصومهم ، والتى أفاد المسلمون من انتصارهم فيها ثقة واطمئنانا كان لها كبير الأثر فى المعارك التالية .

وسورة « آل عمران » — ولعلها السورة التى نزلت بعد الأنفال — تعالج موضوعين رئيسيين : أحدهما محاجة أهل الكتاب ، والثانى غزوة أحد(٢) . وقد يبدو أن الموضوعين منفصلان . والقرآن من هذه الناحية أنماط : فمنه ما يعالج موضوعا واحداً لا يستطرد منه إلا يسيرا كسورة « الأنفال » و« براءة » ، ومنه ما يعالج أكثر من شأن كسورة « البقرة » . غير أنه يبدو لى أن هناك جهة اتصال بين الموضوعين اللذين تعالجهما « آل عمران » ؛ فقد كان أهل الكتاب — ولا سيما اليهود — الجبهة الثانية التى لم يكن للرسول مناص من أن يوليها عناية وحذراً . والمفسرون وكُتّاب السيرة يذكرون أن فريقاً من اليهود قد بدأوا يلعبون ألاعيبهم بعد وقعة بدر ، وينقضون الحلف الذى عقده الرسول معهم ، وأن الرسول قد جمعهم فى سوق بنى قينقاع وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا : لا يغرنك أنك أصبت أغمارا لا علم لهم بالحروب(١) ، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس ، فأنزل الله فى الرد عليهم والتهوين من شأنهم : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا (يوم بدر) فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ؛ ثم أكد الله للمؤمنين قلة خطر أهل الكتاب فى القتال ، وحذرهم مغبة الركون إليهم ، فقال : « لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر . . . . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . . . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » .

ولعل هذه السيئة التى فرح بها الشامتون المتشمّون إنما كانت هزيمة المسلمين يوم أحد ، وهى الموضوع الذى تنتقل إليه السورة بعد ما سبق مباشرة . والآيات هنا تعرض من فن القرآن ما يروع بتصويره ، ويروق بجماله ؛ وتثبت ما قصدنا إلى إبرازه فى هذه السلسلة من المقالات ، وهو جلال القرآن فى تسجيل أحداث الدعوة الإسلامية ، وبلوغ أسلوبه فى الروعة والتأثير حداً يقصر دونه التطاول . والواقع أن نظم القرآن يسير وهذه الأحداث سيراً فنياً بارعاً مطرداً ، يصور دقائق شئونها ، واختلاف خطوطها ، ويستخرج من

(١) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس سورة الأنفال ، قال : تلك سورة بدر [الإتقان للسيوطى ج ١ ص ٥٤ طبعة ١٩٣٥] .

(٢) سورة آل عمران مائتا آية منها حوالى ثمانين فى محاجة أهل الكتاب ، وستين فى وصف ما كان فى « أحد » .

(١) يظهر أن لهذه التهمة جانبا من الصحة ، فابن سلاّم يقول [فى طبقات الشعراء] : « والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا . . » .

كل هزيمة فيها أو انتصار فرصة لتثقيف المسلمين وتوجيههم إلى معالى الأمور. فهـذا « محمد » يوم أحد — وقد غدا من أهله يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال، وهذه رحى المعركة تدور، وتهم طائفتان من المؤمنين أن تفشلا — والله وليهما ! ولو توكل الجميع على الله لكفاهم ، أليس قد نصرهم ببدر وهم أذلة ، وأمدهم بالملائكة مسومين ، ليكون ذلك بشرى للمسلمين ولتطمئن به قلوبهم ! .

ثم يشج الرسول وتكسر رباعيته، فيمسح الدم عن وجهه ، ويهم بالدعاء على أعدائه ، فيخاطبه الله أن ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، فإن له ما فى السموات وما فى الأرض . ويحزن المسلمون لما أصابهم، وتنخلع قلوبهم لما أرجف به المرجفون من موت الرسول . ويكاد فريق منهم ينقلب على عقبيه فيتنزل عليهم عزاء الله وتثبيته، وتتكشف لهم بعض حكمه فيما يصيب به عباده من محن وتمحيص، ويتحول الموقف من هزيمة مادية عارضة إلى نصر معنوى خالد .

اقرأ آيات القرآن فى هذا الموضوع تر كيف تتفنن فى تصوير ما حل بالمسلمين ، مترفقة فى تصويرها ، مبينة أسباب الهزيمة ، مداوية جراحاتها ببلسم العفو والأمنة ؛ معاتبة حينا ، وملتمسة المعذرة للمسلمين حينا آخر ؛ كاشفة القناع عن خداع المنافقين ؛ مبرزة رفق الرسول ولطف قلبه ولينه مع صحبه ، ناصحة له أن يعفو عنهم ، ويستغفر لهم ويشاورهم فى الأمر؛ مبينة جلال الصبر والاحتمال عند المسلمين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، فخرجوا فى طلب المشركين ، ولم يبالوا بما جمع لهم الناس ، بل زادهم ذلك إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

أرأيت كيف تجىء العبارة أسلوبا ولفظا وموسيقى وجرسا على قدر الموقف ووفق مقتضياته ؟ أرأيت إلى العزاء المطمئن للنفوس المثير لروح العزة فى « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ؟ ثم إلى تقرير ناموس الحياة فى « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » ؛ وإلى النقد الساخر فى « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » ؛ وإلى تعليم المسلمين كيف ينظرون إلى الرسالة وصاحبها فى نظام الوجود الأكبر فى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ؟.

استمع إلى العزة والجلال يتكلمان فى « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة». « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ... « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم » .. « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » ... « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » ... « قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

تأمل فى غضب اللطيف ورحمة الجبار وتأديب الكريم فى قوله « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . » الآيات إلى آخر السورة .

هذا التصوير الأدبى — كما يرى القارىء — تصوير شامل يتناول خفايا النفوس كما يتناول ظواهر الأمور. ويصف المسلمين ثابتين ومنهزمين ، كما يصف المنافقين قاعدين ومعوقين ؛ يؤنب ويصفح ؛ ويعتب ويؤدب ؛ كل كل ذلك فى صياغة فريدة ، لا نهاية لنواحى الروعة والجمال فيها ، تمتع العقل والحس معا ، وتشبع الذوق أيما إشباع . ومن المفيد والطريف معا أن نضع بجانب هذا التصوير قصص السيرة وشعرها فى مثل هذه الموضوعات، لنرى مقدار ما أشرت إليه فى أول

هذه السلسلة من التفاوت البين بين القرآن وغيره من فنون الأدب ، ثم لنرى كيف تؤلف ثلاثة الفنون مجتمعة مصادر وحى وإلهام لأدب عربى تمثيلى من الطراز الأول . وإن كتابا يقوم على هذه النواحى ، ويحاول مع ذلك أن يتناول بالتحقيق والنقد ما أوردت كتب السيرة من شعر[1] ، لخليق أن يضيف ناحية طريفة إلى دراسات السيرة ؛ وبابا جديداً من أبواب البحث القرآنى ، تتصل فيه سلسلة الدراسات التى قام بها العلماء فى مختلف الأعصار الإسلامية على أمثال القرآن ، وأقسامه ، وجدله ، ومبهماته ، وقصصه ، وما إلى ذلك من جهاته التى لا ينضب معينها .

ولقد كان مما يسهل تحقيق هذه الفكرة أن توجد لدينا مراجع تعين على ترتيب القرآن حسب نزوله[2] ، أو حسب موضوعاته . فأما وذلك غير موفور ، فالطريق — إذاً — دراسة القرآن نفسه دراسة فاحصة ، ثم التنقيب فى كتب السيرة وفى التفاسير والصحاح ، والاستعانة بكل ذلك على

(١) حاول الكاتب شيئاً من هذا فى دراسة [شاعر الرسول] .

(٢) يذكر « السيوطى » نقلا عن ابن فارس أن مصاحف السلف اختلفت فى ترتيب السور . « فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف « على » كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكى والمدنى . وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم =

جمع النصوص القرآنية فى هذا الموضوع متتابعة متسلسلة ، حتى تتحقق الفائدة الأدبية والتربيبية التى ننشدها . ولعل من أوائل الصعوبات فى هذا أن أغراض القرآن كثيراً ما تكون متداخلة مترابطة ، وليس من الميسور فى كل حالة تحديد النصوص الخاصة بهذه أو تلك من الغزوات . ثم هناك من السور ما يتناول مسألة القتال تناولاً عاماً[1]

= آل عمران على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبى وغيره . على أن من العلماء — كأبى بكر بن الأنبارى والكرمانى — من رأى أن اتساق سور القرآن كاتساق الآيات والحروف كله من النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد النظم . ويذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها فى حياة الرسول كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده [الإتقان . ج ١ ص ٦٢] .

(١) من هذه السور سورة « محمد عليه السلام » وتسمى « سورة القتال » وهى مدنية ، وقيل مكية . وفيها حث المؤمنين على ضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم فإما مناً بعد وإما فداء ، وفيها نعى على المنافقين الذين كانوا يستمعون إلى الرسول حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ وفيها كذلك تبكيت لبعض المؤمنين الذين كانوا يقولون لولا نزلت سورة فى أمر الجهاد « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » ، وفيها آية يرجح بعض المفسرين أنها نزلت فى أصحاب القليب « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم » . ولكن طابع السورة عام ومن الصعب تعيين زمان نزولها أو مناسبته ..

فلا يشير إلى حوادث بذاتها يمكن من طريقها ربط السورة بفترة محددة أو موضوع معين من مواضيع الجهاد .

(للبحث بقية) **محمد خلف الله**

تصويب :

شجرة البؤس

وقع سهو مطبعى فى فقرة من الفقرات المقتبسة من كتاب « شجرة البؤس » فى صحيفة النقد بالعدد الماضى وصوابها كالآتى بزيادة الكلمات التى تحتها خط :

« وكان سليم أسرعهم إلى الضحك وأبطأهم فى الرجوع إلى الجد ، لا يسخر من الأسرة وحدها وإنما يسخر من نفسه قبل أن يسخر من أى إنسان آخر . »

وكذلك وقع فى النص نفسه تحريف آخر صوابه :

« إنكم حين تشربون هذا الماء المسق أشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد أن استخرج منه الزبد » (لا الزبدة كما وردت خطأ) .

ساطع الحصري

وتوثيق الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية

للأستاذ فؤاد

— ١ —

الأستاذ الحصري علم من أعلام الإصلاح والتجديد ، في المجتمع العربي . ودعامة من دعائم النهضة الحديثة ، في سورية والعراق . ومرشد محنك إلى سبل البحث القوي والتربية الاستقلالية . ومحارب لين الطعن شديد الوطأة ، رهيف السلاح . له سولات وجولات في محاربة الاحتكار الثقافي الأجنبي في بعض البلاد العربية . أوتي الاطلاع الواسع على أمور الثقافة والتربية والاجتماع ، ووفق إلى تفكير صحيح في مشكلاتها وتحليل دقيق لصعوباتها . يبدو لك ذلك كله ، في دراساته الجياد عن ابن خلدون ، وفي آرائه عن التربية والتعليم ، وفي أحاديثه عن الوطنية القومية .

وقد أقصر ، حين أحاول أن أعرف الناس بالحصري ؛ هذا الرجل الكبير ، القوي بإيمانه ، المتمسك بعقيدته ، الرابط الجأش أبداً ، العامل بصمت وبراعة وإقدام . ولعل آثاره وأعماله وحدها ، تنبيء عنه وتدل عليه .

وما أريد أن أغرق في التحدث عنه ، وإن كنت أحب ذلك . إن هذه الشخصيات النادرات ، تأسر الناس بأعمالها ، وتدفعهم إلى الحومان حولها ، والتحدث عنها وإظهار محاسنها ، وتبيان آيات نبوغها . ولكني أريد أن أذكر أن سورية الفتية ، كانت ذات حظ عظيم يوم قبل الحصري أن يستشار في أمور التعليم فيها ، وأنها كانت ذات حظ عظيم أيضاً يوم عين الداء وكشف العلة ووصف بعض ألوان الدواء . وأن رجال سورية ، دل على نباهته وقوته ، يوم أقر اقتراحات الحصري ، لإصلاح المعارف ، بحماسة نادرة ، ورغبة شديدة .

والحق أن هذه الاقتراحات ، كانت مثل (عملية) نقل الدم إلى الجسم الهزيل . فقد جعلت براجنا مكتظة بالدروس ، تؤدي إلى التخمة القاتلة . وكانت ملأى بما يهزل القومية ، ويضعف الدين . ويبعد عن العربية . وكانت احتكاراً يوصل إلى طرق يضل الطالب فيها ، ولا يهدى ، وإن هدى صبغ صبغة لا شرقية ولا غربية ، وظل حائراً ... وقد يعنى بالقشور ، وقد تفتنه الظاهر ، ثم لا ينفذ إلى اللباب إلا قليلاً . أما سير الأمجاد ، وأحاديث الأجداد ، وغرائب البطولة ، ونوادر العزة ، وكنوز العربية ، وتربية النفس ، وإنماء الشخصية .. فقد تسمع بها ، ولكنك قل أن تجدها .

* * *

في هذه الاقتراحات ، تقرر عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية . وهو تقرير مجمل حسن . فقد بين بادئ ذي بدء المظاهر التي تظهر فيها هذه الصلات الثقافية بين قطرين كالآراء ، والمنتجات الأدبية والفنية والعلمية . وكتعارف المفكرين من أدباء وعلماء وساسة ، في المحافل ، والنوادي ، والمؤتمرات . وكتوافد الطلاب والأساتذة على المعاهد العلمية والفنية والجامعات ، وكغير ذلك .

وهناك أشار وتوسع نطاق هذه الصلات ، وتوثق أواصرها . كالكتب والجرائد ، والمجلات ، والأفلام ، والأناشيد ، والمعارض ، والمؤتمرات .

على أن هذه الصلات ، إما أن تكون ثنائية الطرف أو وحيدة الطرف . ففي الحالة الأولى ، يكون القطران باتصال تام . يأخذ كل من

الآخر ويعطيه . وقد تكون هذه الصلات متعادلة . يأخذ كل قطر من الآخر بقدر ما يُعطيه . أو متفاوتة ، يأخذ أحدهما أكثر مما يعطى . أو يعطى أكثر مما يأخذ .

وفى الحالة الثانية ، يأخذ القطر الأول من الثانى كثيراً ولا يُعطى شيئاً . ويعطى القطرُ الثانى ولا يأخذ شيئاً .

على أن هذه الصلات ، مهما كان شكلُها ، فإن اللغة هى السبب الأول فى خلقها . فإذا كان للقطرين لغتان مختلفتان ، فالعلاقات الثقافية تبقى فى كل قطر ، محصورةً فيمن يعرف لغة القطر الآخر من المثقفين . وقد تخرج من هذا النطاق ، إذا تُرجمت المؤلفات ونُقلت من لغةٍ إلى لغة . وظاهر أن هذه الصلات الثقافية لا تقوى إلا إذا انتشرت لغة القطر الثانى وتُرجمت مؤلفاته .

أما إذا كان للقطرين لغة واحدة مشتركة ، فعندئذ تتسع الصلات وتكثر ، وتشمل الناس جميعاً . وإذا تمتنت هذه الصلات أدت إلى تمازج الثقافتين ، وإلى تكوين ثقافة موحدة للقطرين .

***

وينتقل الأستاذ الحصرى بعد ذلك ، فيذكر أن الصلات الثقافية قائمة بين سورية والبلاد العربيّة ، فى علاقات متينة الأساس ، طبيعيّةُ المنشأ . يقول : « لأنها تنشأ من لغة واحدة ، وتتغذى بوحدة التاريخ ، وتنمو بوحدة المنافع ، وتقوى بوحدة الآلام والآمال . فهى عميقة الجذور ، شديدة الحيويّة » .

ولهذا نجد أن كثيراً من التيّارات الفكرية والأدبية والفنية ، تربط سورية ، من حيث الثقافة ، بسائر البلاد العربية .

فنحن نرى أن كثيراً من أبناء سورية ، يعيشون فى بلاد عربيّة مختلفة . يعملون فى الحركات الأدبية والفنيّة والعلمية ، القائمة فيها . وأنّ كثيراً من طلاّب سورية يتلقون العلم فى معاهد البلاد العربيّة ، وأن الصحف المصرية والكتب المصرية ، تنتشر فى سورية انتشاراً كبيراً (يفوق انتشارها فى مصر نفسها) ، وأن عدداً غير قليل من أدباء سورية ومفكريها ، ينشرون آراءهم ومقالاتهم فى البلاد العربية الأخرى ، وأن كثيراً من السوريين يزورون البلاد العربية ويجتمعون برجال الفكر والآداب ، فيتعارفون ويتباحثون .

إذاً فهناك روابط كثيرة ، تربط سورية بغيرها من البلاد العربية ، وهناك تيارات شتى تنساق سورية معها . غير أن هذه الروابط طبيعية وليست رسمية ، أى لم تمسها يد التنظيم الرسمى إلا قليلاً . « لقد أوفدت الحكومة السورية بضع عشرات من الطلاّب إلى الجامعة المصرية . وأوفدت الحكومة المصرية بضعة أساتذة إلى بعض المعاهد الأهلية السورية . وانتخب المجمع العلمى العربى بدمشق أعضاء من أدباء البلاد العربية الأخرى . وعين مجمع فؤاد الأول بالقاهرة اثنين من مجمع دمشق أعضاءً ، واشتركت سورية ، بصورة رسمية ، فى مؤتمرات الطب العربى . . . »

ثم ماذا بعد هذا ؟

يقول الأستاذ : « ولا نغالى إن ما خلا ذلك ، إنما حدث بحكم الطبيعة ، ولم تساعد الحكومة عليه .

إذاً فقد آن الأوان لتبديل هذا الوضع العام ، وتنظيم هذه الصلات الثقافية وتوثيقها ، بغية إيصالها ، بأعظم ما يمكن من السرعة ، إلى أقصى درجة يمكن بلوغها . . . »

وفى سبيل ذلك ، فقد أثبت الأستاذ الحصرى فى القانون الذى قدّم إلى البرلمان السورى ، ليكون قانوناً لأعمال المعارف « أن من واجبات وزارة المعارف السورية ، تقوية الصلات الثقافية بين سورية وشقيقاتها ، بغية تكوين ثقافة موحدة بين جميع البلاد العربية . »

وقد أقر البرلمان السورى هذا المبدأ .

ولكن كيف يتم هذا التعاون الثقافى ، وكيف تقوى هذه الصلات ؟

(البقية فى العدد القادم)

دمشق «فراز»

اقصوصة موسيقى

للكاتب التشكوسلفاكي الكبير ڤارل چيك

تعريف : مؤلف هذه القصة أشهر كتاب تشكوسلفاكيا المعاصر ، بلغ ذروة الشهرة منذ عشرين عاماً ، ثم عرفته انكلترا في السنين الأخيرة من حياته بأقاصيصه وروايته ومسرحياته التي أخرجت إحداها على مسارح لندن ، وله في سجايا الإنكليز كتاب يهزل فيه بأسلوب رشيق دعاه (رسائل من انكلترا) . . وقد توفي عام ١٩٣٨ في العقد الخامس من عمره .

صديقي « كاليبا » ضابط الإيقاع والموسيقى ، قال :

— إنه لشيء مؤلم ، أن تجد في نفسك الرغبة على أن تعين أحداً ، ثم لا تستطيع ذلك ، وهذا ما حدث لي ذات مرة حينما دعيت إلى لفربول لأقود حفلا موسيقياً يقام هناك .

إنك لتعلم بعجزي من النطق بالانجليزية ، ولكننا معشر الموسيقيين يمكن أن يفهم بعضنا بعضاً وخاصة كلما قبضت أيدينا على العصا القصيرة نلوح بها ، فما عليك إلا أن تقرع بها ، وتتفوه بشيء وتلوح بيديك وتعيد ذلك مراراً . . . حتى أشد الشاعر إرهاقاً يمكن أن يعبر عنها كذلك ، فمثلا إذا ما لوحت بيدي هكذا ، فإن كل امرىء يمكنه أن يرى في ذلك معنى تحرير النفس من إسار الهموم وأثقال الحياة وانطلاقها في عالم روحي غامض .

حسناً . . حينما وصلت إلى لفربول كان أصدقائي الإنكليز ينتظرونني على المحطة ، ولقد ذهبوا بي فور وصولي إلى نزل لكيما أرتاح فيه وأستجم ما أفقدنيه السفر من نشاط ، ولكنني ما إن أخذت حماماً حتى ألفيت في نفسي رغبة في التجوال . . فكان ذلك ، على أنني ضللت سبيلي بعد ذلك .

إن أول ما أعنى به كلما حللت في بلد ، أن أبحث عن النهر الذي يمر به أو يقطعه ، إن النهر ليعطيك فكرة عما أسميه (إيقاع المكان) . إنك لترى في جانب كل ضجيج الشوارع من الطبول والأبواق النحاسية الضخمة بينما تجد في الجانب الآخر وهو النهر ، رنين الأوتار وعزف القيثار ونغم المكان ، هنالك تستطيع أن تصغي إلى اللحن بأجمعها في آن واحد . . . ولكن النهر الذي يمر بلفربول والذي لا أعرف اسمه قد أمس ، على أنه ينساب هادئاً ويهدر ويتقصف ماؤه ويصطخب كلما ارتطمت أمواجه بالبواخر والرافعات والسفن والمخازن والأرصفة والرافعات . . ولقد قلت لنفسي : حسناً ، دع ذلك كله ، لا بد أن يكون النهر محيطاً بهذا الركن فلأذهب إليه هناك حيث ينساب ، فسرت وسرت ساعتين ، ولا شيء يمر بي أو أمر به غير المخازن والظلال والأرصفة . . وهنا وهناك قد ترى بواخر شاهقة كقبة الكاتدرائية . . لقد بعث ذلك إلى نفسي كثيراً من البهجة والمرح ، ولكن الليل كان قد هبط آنذاك ، وكنت قد بلغت في سيري مرتفعاً رملياً ، وكان هناك ضوء خافت يشع من منزل يقابلني وأنوار ضئيلة النور قلقة تخفق على بعد . . ربما كانت تصدر من البحر .

ثم جلست على كوم من الدوح ، وأحسست بفيض من البهجة يغمرني لعزلتي هذه ولضلالي . . ولقد أصغيت بكل جوارحي إلى هدير الأمواج والتماعها حتى أحسست بالصداع ، ثم جاء شخصان . رجل وامرأة . لكنهما لم يرياني ، ولقد جلسا فوليانى ظهريهما وراحا يتحدثان بخفوت ، ولو أنني كنت أفهم الإنكليزية لكنت قد سعلت لأشعرهما بأنني سامع لحديثهما . ولكنني لما كنت لا أستطيع أن أنطق منها بغير كلمتي الفندق والشلن فقد عدلت عن ذلك . . . واضطجعت .

لقد كان حديثهما أول الأمر خافتاً رقيقاً ، وكان الرجل يتحدث إليها بأناة وروية لكأنه يخشى أن تفوت أذنيها كلمة مما يقول ، ثم راح بعد ذلك بغتة يهدر بصوته متهيجاً مختنقاً

ولقد صرخت المرأة فزعة مرتاعة ، وفاهت ببضع كلمات تردّ بها عليه بعنف ، ولكنه أخذ بعد ذلك يكلمها من بين أسنانه حنقاً ، لم يكن هذا حديث هوى مما يجرى بين حبيبين . كلا ، وليس هو في شيء من إغراء حبيب لحبيبه على فعل شيء أو إقناعه به . إن لكل ذلك أنغاماً أخر ليست من هذه الألفاظ المتوترة الجافة التى كانا يتراشقان بها في شيء . إن لنجوى المحبين لهمساً حبيباً هادئاً عميقاً ، ولكن حديث هذين كان ذا نغم هادر وإيقاع موحد ، كأنما كان الرجل قد لبث يعيد ويكرر جملة واحدة . . لقد أحسست آنذاك بذعر وفزع مما أصغى إليه . . لقد كان الرجل يطالب المرأة في أقواله . . ولقد شرعت تبكى بعد ذلك وتعول ، وبين حين وآخر كانت تصرخ فزعة كما لو كانت تأبى شيئاً أو ترفضه ، ولكنه كان يحاول إقناعها ، وكان في صوتها شيء من حنان صوت المزمار وعذوبة نغمه ، ولم يكن في نبراتها ما ينبيء عن سنها ، ولكن صوت الرجل اخشوشن وغلظ ، كأن في نبراته مايدل على أنه يأمرها بشيء أو يتهددها بما هو أبعث على الفزع منه ، فكان أن شرعت المرأة تتوسل وتتضرع بيأس وتلهث فزعة مرتاعة ، وبعد ذلك أخذ صوت الرجل يهمر في خفوت ، في نغمة صافية والهة ، ثم استحال نحيب المرأة إلى تنهدات عميقة متقطعة ، فكان معنى ذلك أنها لم تعد تقوى على أن تقاوم بعد . أو أنها خضعت لوعيده . ولكن صوت (البوق) عاد بعد ذلك يرتفع مدوياً ، مضيفاً جملة إلى جملة في مقاطع مبتورة في حزم ولجاجة ، وقد رافق هذا صوت المرأة تنوح أو تنهد مستسلمة يائسة .. إذ لم تعد ثمة مقاومة تبين في صوتها ، خلا نبرات تدل على الخوف والفزع ، ليس من الرجل نفسه ، ولكنه فزع غامض من أمر سيقع . ثم سكنت حدة الرجل وآضت ثورته إلى حديث عميق ووعيد خافت كما آض نواح المرأة ونحيبها إلى تنهدات يائسة هادئة . وبصوت خافت سألها الرجل بضعة أسئلة ، يظهر أنها أومأت إليه مجيبة عنها . إذ لم يعد ذلك يلحف أو يتوعد .

ثم نهضا بعد ذلك وافترقا . .

إنك لتعلم أنني لا أعتقد بالأوهام ولكنني أعتقد بالموسيقى فحينما كنت أصغى إلى حديثهما ذلك المساء ، أيقنت كل اليقين أن ذلك (البوق) الصخاب إنما يحاول أن يقنع ذلك (الزمار) العذب النغمة الحنون على أن يكون شريكا في جرم ، وأيقنت ، أيضاً ، أن هذا (الزمار) سيخضع لما يراد منه .

لقد أصغيت إلى ذلك كله . . ولقد كان لي إصغائي ذلك ، أكثر من فهمي لما قالاه .. لقد أدركت أن ثمة جريمة على وشك أن ترتكب . وعرفت ماذا ستكون .

لقد عرفت ذلك كله من الفزع الذى كان يشوب صوتيهما ، من صخبهما ، من نغم حديثهما ، من سكوتهما وتوقفهما من الحديث .. أرأيت ؟ ! أن الموسيقى أدق وأبلغ من الكلام ، إن (الزمار) العذب النغمة الحنون كان بسيطاً لم يقو على شيء ، ولكن ذلك (البوق) الهادر الصاخب كان يستطيع فعل كل شيء .. بينما كان ذلك (الزمار) يرتجف ويضطرب .

لقد اندفعت إلى المدينة معتقداً بأن شيئاً على وشك أن يقع ، وأن على أن أحول دون وقوعه . ولكن .. إنه لشيء مخيف أن تجد نفسك وقد تأخرت كثيراً . . .

لقد وجدت آخر الأمر شرطياً في ركن من الشارع ، فاندفعت إليه وأنا ألهث فزعاً :

(انظر . . . هنالك جريمة تدبر في هذه المدينة) . ولكنه هز كتفيه وفاه بشيء لم أفهمه . ولقد قلت لنفسي : (رحماك يارب . . إنه لا يفهم كلمة مما أقول) وبرغم ذلك رحت أصرخ في أذنيه كما لو كان أصم : (إنها جريمة .. ألا تفهم ؟ إنهم سيقتلون امرأة تعيش وحيدة ، وشريكهم في ذلك الخادم أو البواب ، آه يارب افعل شيئاً بحق السماء) . ولكن الشرطي هز رأسه وفاه بشيء لم أفهمه ، ومع ذلك حاولت أن أشرح له الأمر ، وكنت مهتاجا يغلى في السخط والفزع : « الآن

أسمع إلىّ . ستفتح تلك المرأة المسكينة الباب لحبيبها ، تستطيع أن تراهن بحياتك على ذلك ، كل ما عليك .. أن تمنع هذا . ابحث عنها » . . . ولقد تذكرت آنذاك أني لا أعرف شكل المرأة ، وحتى لو كنت أعرف ذلك فلا أستطيع أن أصفها له .. آه يارب ، إنه لعدوان أن يحدث ذلك .

ولقد اقترب مني الشرطي الانجليزي وراح يحاول أن يهدئني ، ولكني قبضت على رأسي بيدي وصرخت : أنت مجنون . ثم قلت لنفسي .. حسناً سأتولى الأمر بنفسي .

لقد كان ذلك محض جنون ، ولكن كما ترى ، حينما تهدد حياة إنسان فلا بد من جهد يصونها . . ولما فلقد اندفعت في شوارع ليفربول طول الليل علني أرى أحداً يحاول أن يتسلل إلى دار .. إنها المدينة عجيبة .. ساكنة في الليل كالأموات .

ولما انبلج الصبح ، ألفيتني جالساً على حجر أتنهد متعباً ، ولقد وجدني الشرطي هناك ثم قادني إلى المنزل .

لا أعرف كيف قدت الجوق في تجربة الحفلة ذلك الصباح ، ولكني حينما قذفت بالعصا أخيراً إلى الأرض واندفعت إلى الشارع ، كان بائع الصحف ينادي بصحف المساء .

ولقد ابتعت واحدة كان فيها عنوان بارز (حادث قتل) وفي أسفله صورة امرأة ذات شعر أبيض .

(بغداد) فيصل عبد الله الحمامي

إسماعيل بك غاصبرينسكي

للأستاذ حمزة طاهر

— ١ —

بمناسبة ما كتب الأستاذ احمد أمين بك من تحليل أعمال ومؤلفات السيد عبد الرحمن الكواكبي وفكرة عقد المؤتمر الإسلامي الذي تخيله الكاتب وانتهى إلى أن يجعل المؤتمرين يقترحون إنشاء جمعية دائمة تعنى بإصلاح المسلمين ، وأن يكون مركز الجمعية المؤقت هو مصر لتقدمها في العلم والحرية ، ولأنها أسبق الأمم في ذلك — أريد أن أذكر نبذة عن حياة وأعمال مصلح تركي مخلص ، حاول أن يطبق ما تخيله الكواكبي تطبيقاً عملياً على جميع الأمم الإسلامية ، بعد أن نجح في تطبيقه على مسلمي روسيا إلى حد كبير ، واختار مصر مركزاً لمؤتمر إسلامي عام ، وهو المرحوم إسماعيل بك غاصبرينسكي صاحب جريدة الترجمان .

ولد إسماعيل بك عام ١٨٥١ في شبه جزيرة القرم ، وتلقى العلوم الابتدائية في مدينة باغجه سراي عاصمة القرم ومركز الحضارة التركية والحضارة الإسلامية ، ثم التحق بمدرسة الحربية الروسية بموسكو وظل بها حتى سنتها السادسة ، ولكنه لم يتمها وتركها ليلتحق متطوعاً بالجيش اليوناني الذي أرسل لإخماد ثورة جزيرة كريت التي نشبت سنة ١٨٦٧ ، ولم ينل مراده ، ولكنه لم يرجع إلى مدرسته ثانياً .

وأخذ إسماعيل بك يشتغل مدرساً للغة الروسية في « مدرسة زنجيرلي » وهي أرقى المدارس الدينية بالقرم ، ويبث آراءه الإصلاحية في الطلبة ، وفي الوقت نفسه يواظب على الاستفادة من مكتبة غنية لعالم روسي يدعى « شوشتُف » مدير البوليس بمدينة باغجه سراي ، فاطلع على الأدب الروسي ، والأفكار الروسية ، ووسع معلوماته الاجتماعية والاقتصادية بمطالعة مؤلفات كتّاب الروس أمثال بلساروُف وجيرنيشفسكي .

وفي عام ١٨٧٢ سافر إلى باريس وأقام بها سنتين يدرس الفرنسية والعلوم الاجتماعية . ولما عاد إلى إستانبول سنة ١٨٧٤ نشر كتابه المسمى « نظرة موازنة إلى مدنية أوربا » . وفي عام ١٨٧٨ انتخب رئيساً لبلدية باغجه سراي ، وقد قصّ حياته التي عاشها في هذا العهد على لسان دنيال بك الذي جعله بطلا لقصته المسماة « أشرقت الشمس » . ودنيال بك هذا هو إسماعيل

بك نفسه ، يقول : « لما أدرك دبال بك عدم إمكان خدمة الأمة خدمة حقة بدون الاطلاع على أحوالها ، عزم على توسيع علمه ومعارفه ، فحضر أفراح القرويين ، ومجالس العلماء والدراويش ، وحفلات الأعيان والأمراء ، وحجرات المدارس الدينية ، وغيرها من المجتمعات ، وقضى نحو سنتين يسمع كثيراً ولا يتكلم إلا قليلا ، ورأى الجهات الحسنة لكل طبقة من الناس ، وشاهد أحوالها السيئة ، وفهم نقطة الضعف وما تحتاج إليه الأمة » .

وفي هذا العهد نشر بإمضاء « كنج ملا » المستعار في جريدة « تاوريدا » الروسية التي كانت تصدر في باغچه سراى ، أهم مؤلفاته وهو كتابه « مسلمو روسيا » ، وأصدر رسائل أخرى بعناوين مختلفة تضم آراءه التي طبقها طول حياته المستقبلة .

وفي عام ١٨٨٢ اقترن بزهرة هانم ابنة أسفنديار بك اقچورا صاحب مصانع النسيج بقازان ، وقد أعجبت به بمطالعة رسائله . ولم تكن زهرة هانم مثالا لزوجة صالحة فحسب ، بل كانت زميلة لزوجها في العمل وشريكة في الأمل ؛ لقد عاونته على إنشاء جريدة « الترجمان » التي استطاع الحصول على الرخصة بإصدارها بعد زواجه منها بنحو سنة . عاونته ببيع ما تملك من المجوهرات ، كما عاونته في تحضير الجريدة للطبع وكتابة عناوين المشتركين وإرسالها إلى أصحابها . كانت تربي أبناءها بنفسها وتعنى بشئون زوجها وراحته ، ومع ذلك لا تفارق (الترجمان) ، وفي الوقت نفسه تهتم بجميع معارفها تشاركهم في مسراتهم وتشاطرهم آلامهم مجتهدة في إدخال السرور في قلوب زوارها بكل ما أوتيت من قوة . وكان زواج إسماعيل بك من زهرة هانم من أسعد حوادث حياته ، ومقدمة حسنة لنجاحه في المستقبل .

***

وظلت (الترجمان) ، بفضل حيطة إسماعيل بك واعتداله في تلك الظروف القاسية ، تصدر بانتظام تام حتى سنة ١٩١٤ ، وهي السنة التي توفي فيها إسماعيل بك ، وكانت جريدة وحيدة لمسلمي روسيا كلها من سنة ١٩٠٥ ، ويقرؤها مسلمو القوقاز وقازان وسيبريا وتركستان وتركستان الصيني وبعض مسلمي الصين ، وتباع في إيران ومصر ، وبيعت مدة في تركيا بترخيص خاص . وكان إسماعيل بك يعطي في جريدته مكاناً ممتازاً للعالم الإسلامي ، وقد استخدمها من المقالة الأولى حتى صفحة الإعلانات فيما يظنه مفيداً للمسلمين والأتراك . وما كان يبلغه نبأ من أبعد بلاد المسلمين وأصغرها حتى ينشره في جريدته بكل عناية واهتمام .

عُني إسماعيل بك قبل كل شيء بتوحيد اللغة وتكوين الرأي العام ، واستعمل لذلك لغة أدبية سهلة يفهمها كل قارئ بدون مشقة ؛ وقد رأى نتيجة عمله هذا سنة ١٩٠٥ حين نال مسلمو روسيا قسطا من الحرية ، إذ ظهر أكثر من ٣٥ جريدة ومجلة ، وكثير من الروايات والقصص إما بلغة (الترجمان) وإما بلغة قريبة منها . وقد ألف إسماعيل بك كتب المطالعة وأصول التدريس ، وطبع المصحف الشريف ، وكانت لمصحفه ، في أحجامه الثلاثة شهرة في العالم الإسلامي ، ولا يزال مصحفه الصغير يبحث عنه إلى اليوم .

وكان من أهم المسائل عنده إصلاح المدارس الأولية ، وكان دستوره في ذلك : « إن انهزام أمة حاكمة واضمحلال أمة محكومة إنما ينشأ من عدم المدارس » . وأدرك هذا بالمقارنة بين المدارس الإسلامية والمدارس الروسية ، وآمن بوجوب إصلاح المدارس في عالم الترك والعالم الإسلامي جميعاً ، وأنشأ للوصول إلى غايته هذه مدرسة أولية نموذجية في باغچه سراى سنة ١٨٨٤ ، وكان الكتاب الذي يدرس فيها هو « خواجه صبيان » من تأليف إسماعيل بك ، وكان المدرس من تلاميذه ، ثم أنشأ مدرسة أخرى ليلية في أحد مقاهي سوق باغچه سراى ، وجمع عشرين صبياً من صبيان الحمالين والبقالين ودرس لهم بنفسه أربعين ليلة علمهم فيها القراءة والكتابة

بسهولة .

إن الإصلاح والتجديد اللذين بدأ بهما اسماعيل بك غاسبرينسكى فى باغجه سراى سنة ١٨٨٤ قد بلغ سنة ١٩٠٥ بلاد كبشغر فى تركستان الصينى ؛ فأنشىء وأصلح نحو خمسة آلاف مدرسة بالأموال التى جاد بها الأتراك المتعطشون للثقافة والحياة الدنية .

لقد وجد أغنياء كرماء يديرون عشر مدارس أو خمس عشرة مدرسة ، أمثال بنى اقچورا وبنى إبامى وبنى عبد المنان من القازانيين ، كما وجد من يدير مائة ومائتين من المدارس على نفقاتهم الخاصة أمثال زين العابدين تاغييف من مدينة باكو ، وحسينف من أورنبرج ، والحاج عصمة الله من سيبريا .

***

لما بلغ نجاح أعمال إسماعيل بك غاسبرينسكى فى مسلمى روسيا درجة تدعو إلى الرضى فكر فى توسيع ساحة نشاطه حتى تشمل الأقطار الإسلامية الأخرى ، ولم يجد فى العالم الإسلامى مدينة يجعلها مركزاً لنشاطه أفضل من القاهرة التى كانت ملجأ للقاصدين وموئلا للمفكرين الأحرار منذ العصور القديمة .

حضر إلى القاهرة سنة ١٩٠٧ ولم يكن نكرة فى مصر ، إذ كان المثقفون من المصريين يتتبعون جريدة (الترجمان) ويفهمون ما يرمى إليه صاحبها من صالح المسلمين ؛ فلما حل بالقاهرة استقبله الكتاب والأدباء وأرباب النفوذ فى ذلك العهد بالترحيب والإجلال ، ووجد فيهم أصدقاء مشاركين له فى آرائه وأعماله الإصلاحية . وكان إسماعيل بك يرى أن أمضى وسيلة للوصول إلى الغاية المنشودة من إصلاح حال المسلمين هو عقد مؤتمر عام للمسلمين يجتمع فيه المسلمون من جميع الأقطار الإسلامية ليبسطوا للمؤتمر أحوال بلادهم فتبحث فيه أدواؤهم المسببة لتأخرهم وانحطاطهم والأدوية الشافية من هذه الأدواء ، وكان يعتقد أن داء المسلمين المشترك هو الجهل والتمسك به تمسكا شبيها بالتعصب له .

تعرف فى القاهرة بعلماء الأزهر ، والكتاب ، وأعضاء الحزب الوطنى ، وقابل الخديوى عباس حلمى باشا والغازى أحمد مختار باشا المندوب السامى للدولة العثمانية ؛ واجتمع بسفراء روسيا وفرنسا والمعتمد البريطانى . ودار بينه وبين المعتمد البريطانى فى شأن المؤتمر الإسلامى هذا الحديث : قال المعتمد البريطانى : « إنى واثق بوعدكم بأن المؤتمر الذى تعتزمون عقده لا يدخل فى المسائل السياسية ، ولكن ألا يجوز أن يتحول فيما بعد إلى مؤتمر سياسى ؟ » .

قال إسماعيل بك : « بلى ياسيدى ، من الممكن أن تخرج المؤتمرات الإسلامية التى سوف تعقد فيما بعد عن الطريق التى تقرر السير عليها اليوم ، وقد لا تخرج عنها ، فليس لخادمكم علم بذلك ؛ فلست بضامن للأزمنة المستقبلة وليس ذلك فى طاقتى ، والذى أتحدث عنه خاص بالمؤتمر الأول فقط ؛ وبما أنه لا يمكن الدعوة إلى عقد مؤتمر فى المستقبل بدون علم الحكومة ، كما هو اليوم ، فإنى لا أخشى حدوث أمر ضار » فوافق المعتمد البريطانى على ما قاله إسماعيل بك وصرح بأن الحكومة البريطانية لا تمنع من انعقاد المؤتمر .

وعلى هذا دعا الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، نحو ستة آلاف من عظماء المصريين ونزلاء مصر من الأجانب للاجتماع فى فندق كونتننتال مساء يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ١٣٢٥ (أول نوفمبر سنة ١٩٠٧) فألقى فيه إسماعيل بك خطبة يدعو فيها المسلمين إلى عقد مؤتمر إسلامى عام .

(يتبع)   حمزة طاهر

الطابور الخامس
فى الدولة الطولونية

للمؤرخ ابراهيم أحمد العدوى

لعبت الأيدى الخفيـة دوراً هاماً فى جعل عمر الدولة الطولونية قصيراً كأنفاس الصيف ، وكانت عاملا إيجابياً ساعد عجلة الزمان على أن تطويها بسرعة . إذ يعجب الإنسان حقاً حين دراسة الدولة الطولونية أن يجدها تلمع فى سماء تاريخ مصر كلمح البصر بالنسبة إلى غيرها من الدول التى عمرت قروناً فى حكم البلاد .

لقـد علمنا التاريخ أن مؤسس الدولة يحتاج إلى سلسلة من الخلفاء ذوى المواهب الذين يعدون بمثابة بنائين ومعماريين حتى يتم وضع أساس الدولة وقيام صرحها . حينئذ لا تؤثر فيها أحداث الزمان وتكون لها القدرة على صبغ عصرها بصبغتها الخاصة .

فإذا أردنا أن نطبق تلك القاعدة على الدولة الطولونية نجد أن مؤسسها الأول قد نكب فى ولى عهده نكبة شائنة لم يكن له عليها من سلطان ؛ إنما كانت عاملا إيجابياً ساعد على القضاء على دولته وهى فى دور الرضاع . ولهذا يعد موضوع العباس بن أحمد بن طولون وخروجه على أبيه حادثاً فذاً فى ثنايا التاريخ ، يحتاج إلى تدقيق عميق حتى يكشف عن غامضه ويظهر سبب التقاطع بين أمير فى عز السلطان وابن مترف ينعم بما عند أبيه من جاه واسع وملك عريض ... وهذا هو موضوع المقال .

•••

استقـل أحمد بن طولون بتدبير أمور مصر بعد أن تغلب على صعاب جمة . غير أنه واجه أخيراً ثعلباً ماكراً أخـذ يتهدده ويراوغه حتى نجح فى بذر بذور الشقاق بين الأسرة الحاكمة . فلقد كان أبو أحمد الموفق طلحة — الحاكم الفعلى فى الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتمد — عدواً لدوداً لأحمد بن طولون ، يتحرق غيظاً كلما رآه متقلداً زمام الديار المصرية ، فأخذ يعمل جاهداً على إبعاده عن تلك الثمرة الدانية ، بأن أفرغ ما فى جعبته من حيل . غير أن الفشل لازمه ليقظة ابن طولون . حينئذ عمد الموفق إلى استخدام سلاح خطير هو السم الزعاف والسوسة القاتلة التى إن تمكنت من الجسم لم تدعه إلا بالفناء ، تلك الأداة الفتاكة هى ما يسمى فى الأسلوب الحربى الحديث « الطابور الخامس » .

أطلق الموفق جحافل جواسيسه على الديار المصرية تلتقط أخبارها وتبث روح العصيان بين عظماء البلاد وقادة أمورها ، هذا إلى أن تعجم عودها لتهاجم مواطن الضعف فيها . غير أن الفرص ساعدت أحمد بن طولون على اكتشاف ذلك السـلاح السرى ، ولكن هيهات أن يقف على أمره كله ! ! ويظهر لنا من القصص الآتية أن الموفق قد نجح فى حركته وانتشرت فى البلاد حتى أينعت ، بأن وجد وكلاء الموفق من العباس بن أحمد بن طولون مرعى خصيباً نمت فيه جهودهم . . .

أرسل الموفق أحد الخدم ويدعى (نحريرا) إلى أحمد بن طولون يطلب منه أموالا يستعين بهـا فى أزمة من الأزمات . غير أن الخليفة العباسى المعتمد كتب سراً إلى ابن طولون يخبره أن الموفق هو الذى حرك (نحريراً) على الحضور إلى مصر ليكون عيناً ، وأنه يحمل كتباً إلى سائر قواده يحضهم على الخروج عن طاعته . تريث ابن طولون حتى يقف على رد من أرسل إليهم الكتب ، ثم تحايل بعد ذلك على (نحرير) حتى أخـذ منه الكتب والردود . حينئذ رأى أن بعض أتباعه قد أجاب دعوة الموفق ومنهم أحمد بن عيسى الصعيدى — وكان والى برقة — وآخر يدعى بدراً الحقيق ، فعاقب ابن طولون (بدراً) بأن قتله وضرب أحمد الصعيدى ثلاثمائة سوط . وإلى

جانب هذه القصة نرى قصصاً كثيرة تعج بها المراجع تدلنا على ذكاء أحمد ابن طولون في اكتشاف أعداد هائلة من الجواسيس . غير أنه يفهم من تلك القصص أن كثرة الأرصاد تدل على تبعثر آخرين في أنحاء البلاد من الصعب الاهتداء إليهم : من ذلك تلك القصة التى رواها لنا البلوى ، وهى أن أحمد ابن طولون رأى يوماً في أثناء سيره في أحد المواكب شيخاً يحملق في شخصه فاستدعاه وسأله عن أمره فتلعثم الرجل وأجاب أنه موفد من قبل الموفق ليلتقط أخباره ، وأضاف إلى ذلك قوله : « ولست وحدى المكلف بتلك المهمة بل معى آخرون قد انتشروا بدورهم في أرجاء البلاد .

وذلك النفر الحق من الجواسيس هم الأشد خطراً وهم وحدهم الذين نجحوا في اجتذاب العباس إلى جانبهم . وإن تحليلنا لشخصية جعفر بن حضار الكاتب الذى لعب الدور الأول والأهم في ثورة العباس يثبت لنا جلياً انضمام جعفر إلى ذلك النوع من الجواسيس . فلقد كان ذلك الرجل من خواص ابن طولون المقربين ، هذا الى أنه كان أديباً بليغاً وشاعراً يفيض شعره جمالا وروعة في مواطن الحماسة . غير أنه استغل تلك المواهب فأخذ ينظم القصائد لحث العباس على الخروج على أبيه من غير إثم قدمه له أحمد بن طولون . من هذا نرى أن جعفراً [1] كان ولا بد أحد أفراد الطابور الخامس .

وإذا أردنا زيادة في الإيضاح على وجود تيارات خفية كان لها دور خطير في ثورة العباس ، ينبغى أن نلقى نظرة على الكتب التى أرسلها أحمد بن طولون إلى ابنه أثناء خروجه إلى برقة . إن تحليلنا لتلك المراسلات تأتى لنا بالأمر جلياً ، فيقول أحمد بن طولون في أحد كتبه : « وليت شعرى من من تهول بالجنود . . . ومن هؤلاء المسخرون لك والباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك . . . فإن كان يدعوهم إلى نصرتك وهيبتك ، المداراة لك والخوف من سلطانك ، فإنهم ليجتنيهم أضعاف ذلك منا ، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ، ما لا يجدونه عندك » .

وإنه لجدير حقاً أن يتعجب أحمد ابن طولون من تلك الفئة التى تذود من حياض العباس من غير أمل يرجونه منه أو مال يحصلون عليه .

يتضح لنا مما سبق أن الموفق نجح في نشر سمومه بين كبار ولاة الأمور في مصر الذين أخذوا على عاتقهم مهمة القضاء على أحمد بن طولون .

***

إلى جانب ذلك العامل الموجب كان يوجد عامل سلبي ، ألا وهو شخصية العباس الذى اتخذه وكلاء الموفق محوراً تدور عليه أعمالهم ضد أحمد بن طولون . فإن نظرة إلى أخلاق العباس تعطينا صورة صادقة عن نقص في شخصيته ؛ فلقد كان شاباً مستهتراً لاهياً بتقاليد ولا يقيم للمصالح وزناً . هذا الى أنه يهتم بتوافه الأشياء . فلقد روى لنا البلوى قصة عن تأديب أحمد بن طولون لابنه (العباس) إذ استدعاه يوماً إلى حضرته ليتناول معه طعام الغداء ، وسرعان ما حضرت المائدة وعليها « سماني زيرباجا »[1] فانهمك عليها العباس لفرطه في الجوع ، على حين انتظر والده حتى تيقن من أنه قد شبع ، فأمر بنقل الطعام وإحضار لون آخر كان يحتوى على طعام فاخر من دجاج . الخ . وأقبل أحمد بن طولون على الطعام ووضع أمام ابنه ، لكن الأخير لا يستطيع أن يقذف إلى جوفه بأية لقمة حيث الشبع كان قد أخذ منه مأخذه . حينئذ التفت إليه والده وقال له : « إنى أردت تأديبك في يومك هذا بما امتحنتك به ، لا تلقى مهمتك على صغار الأمور بأن تسهل على نفسك تناول يسيرها فيمتنعك ذلك من كبارها .

(١) سنأتى على تفصيل الدور الذى قام به جعفر في العدد التالى .

(١) الزيرباج — كلمة فارسية معناها طبق كون أو نوع من الطعام مؤلف من سكر ولوز .

تدلنا تلك القصة على قصر نظر العباس . ولقد تجلى ذلك الخلق فى إعطائه أذنا صاغية إلى الوشاة الذين زينوا له الخروج على والده وضربوا له على الوتر الحساس عنده ؛ فقد كان شاباً طائشاً مغروراً كثير الاعتداد بنفسه يعتقد أنه عظيم فوق المعتاد ، وكان مجنوناً بعظمته الشخصية بدليل قوله :

لله درّى إذ أغـــدو على فرسى
إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفى يدى صارم أفرى الرءوس به
فى حده الموت لا يبقى ولا يذر
إن كنت سائلة عنى وعن خبرى
فها أنا الليث والصمصامة الذكر
يدعون لا أين والعباس يقدمهم
كأنهم حمرٌ والليث مُفترس

إلى جانب هـــذا توجد قاعدة تاريخية أثبتها لنا التاريخ بأمثلة عديدة . ألا وهى : حديثو النعمة يتعطشون دائماً للوصول إلى أهدافهم وآمالهم باستباق الحوادث . وذلك أنهم لا يطيقون رؤية آبائهم مؤسسى الدول فى ظل العروش طويلاً ، بل يعملون على التخلص منهم سريعاً لتتمتع بذلك الحلم الذى يتراقص أمام أعينهم . ومن ثم يكونون صرعى سهلا أمام الأعداء . ولقد برهن العباس بخروجه على أنه من ذلك النوع الذى يستسلم لأحلامه الجوفاء . وليس أدل على هذا من أنه ركب رأسه وأخذ يسبح فى عالم الخيال بتأسيس أمبراطورية شاسعة الأرجاء فى أفريقيا ثم يهاجم مصر ليخلصها من براثن والده ويضمها إلى ممتلكاته .

أما السبب المباشر الذى دعا العباس إلى ترك الديار المصرية فهو الوشايات التى لعبت دورها بينه وبين محمد الواسطى ، فلقد كان الأخير وزير أحمد بن طولون ومستشار العباس فى مصر أثناء قيام ابن طولون بفتح بلاد الشام . غير أن العلاقات سرعان ما ساءت بين العباس ومستشاره ، حينما أحاط بالعباس ثلة من المفسدين والمستهترين الذين أغروه على التمادى فى الضلال وطرد كبار الموظفين وتعيينهم فى تلك المناصب العالية . ولقد حاول الواسطى عبثاً أن يصلح شأن العباس . وأخيراً رأى الأمفر من عرض تلك الحالة على أحمد بن طولون . ولقد رد أحمد بن طولون على مراسلات الواسطى بأمره باستعمال اللين مع العباس وأن يتريث حتى يعود إلى البلاد ويفحص الأمور بنفسه . ولكن الأمور لم تسر سيرها الطبيعى . فلقد كان فى حاشية أحمد بن طولون شخص يدعى محبوب ابن رجاء وكان معادياً للواسطى ، ولذا أقدم على عمل كان له أبعد الأثر فى ثورة العباس وهو إرسال الكتب التى كان يبعث بها محمد الواسطى إلى ابن طولون والكتب التى كان يرد بهـا الأخير على مستشار العباس بن احمد بن طولون . فلما اطلع العباس على تلك الرسائل ووقف على رأى والده أوجس خيفة من مغبة الانتظار ، فهو يعرف جيداً أخلاق والده وإنزاله أشد العقوبات على من يجترىء على إحداث شىء يعرقل تسيير دفة الحكومة ، لا يفرق فى ذلك بين الأقرباء والأعوان .

لذا استعد العباس لمغادرة البلاد والذهاب إلى برقة قبل أن يدهمه خطر والده .

ابراهيم احمد العدوى

المُصَلَّى

بقلم ميخائيل عواد

تمهيد

يصيب المطالع في الكتب القديمة طائفة كبيرة من الألفاظ العربية والدخيلة مما لا أثر له في الأسفار اللغوية ، ولولا أن كتب البلدان والتاريخ والأدب تناقلتها في مطاويها لكان أمرها نسياً منسياً .

ومن بين هذه المستدركات لفظة « المُصَلَّى » وهي ههنا قطعة صغيرة الحجم لا تزيد طولها عادة عن مترين ولا عرضها عن متر واحد ، تتخذ من قماش أو فرش أو حصير ، يصلى عليها ، ويطلق عليها أحياناً اسم « سجادة » وهي الخمرة المسجود عليها . ويمكن للمصلي أن يحمل معه مصلاه أينما شاء . وجاء المصلى أيضاً بمعنى موضع الصلاة ، وأمره معروف مشتهر لا غرض لنا منه هنا .

وكنت أثناء مطالعاتي ، وقفت على غير خبر في ذكر المصلى بمعنى السجادة ونحوها ، وها أنذا أذكرها بحسب قدم رواتها :

فقد قال الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة) في عرض كلامه على رأس الخليفة الأمين حين قتل في سنة ١٩٨ هـ : « ... وأقبل طاهر (بن الحسين) يقول : رأس المخلوع محمد ، ... قال : وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البردة والقضيب والمصلى ، وهو من سعف مبطن ... »

وجاء ذكر المصلى في قصة طريفة أوردها ابراهيم بن محمد البيهقي (الذي نبغ في خلافة المقتدر بالله) في عرض كلامه على محاسن النظر في المظالم ، قال : « ... ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يحيى (بن أكثم) : ماتقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين ، فنادى المنادي ، فاذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبيه في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له : اجلس ، فطرح المصلى ليقعد عليه ، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح له مصلى آخر فجلس عليه ، وقال له يحيى : ماتقول .. »

وروى محمد بن عبدوس الجهشياري (المتوفى سنة ٣٣١ هـ) قصة جرت بين جعفر البرمكي وبين الأصمعي ، وفيها ذكر للمصلى قال : « ... فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلتنا هذا بخمسمائة ألف درهم ، ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة ، ورأيت حُبّه مكسوراً وعليه بُرْنكان منجرد وتحته مُصَلَّى وسخ ... »

وقال في موطن آخر بذكر المصلى : « ... نقل الفضل بن يحيى (البرمكي) من محبسه إلى محبس ، فأصاب في ثني مصلاه رقعة فيها ... »

ومن طريف ما ذكره المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) بشأن المصلى ما جاء في أخبار المنتصر بالله الخليفة العباسي . قال : « كان الموضع الذي قتل فيه المتوكل هو الموضع الذي قتل فيه شيرويه أباه كسرى ابرويز ، وكان الموضع يعرف بالماحوزة ، وكان مقام المنتصر بعد أبيه في الماحوزة سبعة أيام ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع . وحكى عن أبي العباس محمد بن سهل قال : كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية في خلافة المنتصر ، فدخلت إلى بعض الأروقة فإذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة ، وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية ، وكنت أحسن القراءة بالفارسية ، وإذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق ، فقرأت الكتابة فاذا هي صورة شيرويه القاتل لأبيه ابرويز الملك ، ملك ستة أشهر ، ثم رأيت صور ملوك شتى ، ثم انتهى بي النظر إلى

صورة من يسار المصلى عليها مكتوب (صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر) ، فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله . . . »

وورد ذكر المصليات فى أخبار القضاة . فمن غريب ما حكى فى هذا الشأن أن ابراهيم بن الجراح ولى قضاء مصر فى سنة ٢٠٥ للهجرة ، فكانت حاله فى أول الأمر حسنة ، ولم يكن بالقاضى المذموم ؛ حتى قدم عليه ابنه من العراق فتغيرت حاله وفسدت أحكامه وأخذ الرشا من الناس . قال أبو عمر الكندى (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) « حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنى ابن قديد ، قال : حدثنا يحيى بن عثمان قال : ولى السرى (بن الحكم) ابراهيم ابن الجراح ، فأمر بمصلاه فوضع فى المسجد الجامع ، واجتمع المصريون فألقوه فى الطريق . فما تكلم فيه السرى بشىء ، وجلس ابراهيم بن الجراح للحكم فى منزله ، فلم يعد إلى المسجد الجامع حتى صرف »

أما البلدانيون فقد أكثروا من ذكرهم للمصليات فى معرض كلامهم على ارتفاع المدن الإسلامية . فهذا البشارى (الذى نبغ فى سنة ٣٧٥ هـ) ذكر لنا ما يرتفع من غير بلد إسلامى قال :

« ... ويرتفع من قوهستان (فى إقليم جانب خراسان) : ثياب تشابه النيسابورية بيض ، وبسط ومصليات حسنة ... »

« .. ويرتفع من بخارا : الثياب الرخوة والمصليات والبسط وثياب الفرش »

« ... ومن رَبِنْجَن : أزر الشتاء من اللبود الحمر ومصليات ... »

« ... ومن الشاش سروج الكيمخت الرفيعة والجعاب والأخبية وجلود تجلب من الترك وتدبغ ، والأزر والمصليات والبنيقات .. »

وهذه الأخبار وأمثالها يصيبها المرء عند ابن حوقل وابن الفقيه الهمدانى واليعقوبى والاصطخرى وياقوت الحموى وغيرهم ممن عنى بأمور البلدان .

وذكر القاضى المحسّن التنوخى (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) رواية جاء فيها : « ... ثم رفع (عمر بن فرج الرُّخَّجى) مصلاه ، وأخرج الكتب بولاية فلسطين وأمرنى بكتمان أمرى . »

وحكى فى رواية أخرى قال فيها : « ... وصرت إلى المأمون يوم الموكب فأدخلت فسلمت ، فأوقفت مع القضاة ، وأخرج إلى عهداً من تحت مصلاه وسلمه إلى وقال ... »

ومن شعراء المائة الثالثة للهجرة أبو الهيثم خالد بن يزيد الكاتب ، اشتهر برقة الشعر وعذوبته ، ذكر له الشابشتى (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) قصة طريفة فيها ذكر المصلى قال : « قال جحظة : حدثنى خالد الكاتب ، قال : لم أشعر إلا ورسول إبراهيم بن المهدى قد وافانى . فدخلت إليه ، فإذا رجل أسود مشغرانى قد غاص فى الفرش فاستجلسنى فجلست . فقال : أنشدنى شيئاً من شعرك . فأنشدته :

رأت منه عينى منظرين كما رأت
من البدر والشمس المضيئة بالأرض
عشية حيّانى بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
وناولنى كأساً كأن رضابها
دموعى لما صُد عن مقلتى غمضى
وولى ، وفعل السكر فى حركاته
من الراح فعل الريح بالغصن الغض

فزحف حتى صار فى ثلثى المصلى ، ثم قال : يا بنى ، شبه الناس الخدود بالورد ، وشبهت أنت الورد بالخدود ، زدنى ، فأنشدته :

عاتبت نفسى فى هوا
ك فلم أجدها تقبل
وأجبت داعيها إليـ
ـك ولم أطع من يعذل
لا والذى جعل الوجو
ه لحسن وجهك تمثُل
لا قلت إن الصبر عنـ
ـك من التصابى أجمل

فزحف حتى صار خارج المصلى ، ثم قال : زدنى ، فأنشدته :

عش فحبيك سريعاً قاتلى
والضنا إن لم تصلنى واصلى

طفـــر الحُبُّ بقلب دنف
بك والسُّـــقم بجسم ناحل
وبكى العاذل لى من رحمتى
فبــكائى لبــكاء العاذل

فصاح ، وقال : يا بليق ، كم لى معك من العين ؟ قال سمائة وخمسون ديناراً . قال : اقسمها بينى وبينه ، واجعل الكسر كاملا للغلام .

وذكر الشابشتى المصلى فى رواية أخرى ، قال : « . . . واتصل الخبر بطاهر فكتب إلى عبدالله يعذله ويؤنبه ويقول : لو ورد الخبر بوفاتك كان أسهل على من وروده بفضيحتك ، وأن يبلغ بك النبيذ مبلغاً لا تحس معه باحتراق موضع أنت فيه ، ويأمره بالتجهز والخروج إليه . فأقلق عبدالله ذلك وكتمه جميع الناس ، وختم الكتاب وجعله تحت مصلاه وتبين الغم عليه ، فسأله المأمون عن خبره ... » .

وفى موطن آخر من « الديارات » روى قصة طويلة جرت بين ابن أبى الأصبغ وبين يحيى بن زياد ، ذكر فيها المصلى بقوله : « ... فلما فرغ أعطاه أربعين ديناراً كانت تحت مصلاه فأخذها ... » .

● ● ●

وحكى مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١هـ) فى جملة أحداث سنة ٢٩٧هـ أن « فيها أدخل طاهر ويعقوب ابنا محمد بن عمرو بن الليث بغداد أسيرين ، وهما بين يدى أبى الفضل عبد الرحمن ابن جعفر الشيرازى كاتب مونس المتقلد فارس ... وركب عبد الرحمن فى الخِلَع وأنزل فى دار مربعة الخُرْسى ... » .

ومربعة الحرسى هذه تنسب إلى « صالح الحرسى وهو من أولاد ملوك خراسان من أهل بلخ ، وكان يسمى (صاحب المصلى) ، لأن المنصور كان وهبه حصيراً للصلاة أخذ من خزائن عبدالله بن على ، بشرط أن يحمله فى الأعياد حتى يصلى عليه » .

● ● ●

وقد تلقب غير واحد بلقب (صاحب المصلى) ، منهم محمد بن جعفر ، ترجمه ابن الجوزى فى وفيات سنة ٣٧٤هـ ، بقوله : « محمد بن جعفر بن الحسن بن سليمان بن على بن صالح صاحب المصلى ، يكنى أبا الفرج ، حدث عن الهيثم بن خلف الدورى والباغندى وخلق كثير ... » .

ومما ذكره ابن الساعى (المتوفى سنة ٦٧٤هـ) فى أخبار سنة ٦٠٢هـ ، قوله : « ... فدخلوا على شهاب الدين ، وهو فى الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة ، فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلاً وهو ساجد » .

(بغداد) ميخائيل عواد

الأدب وبرج العاج

أما أن الأدب صورة الحياة فذلك حق لا ريب فيه . وأما أن أول رسالة الأدب إدمان النظر فى ملامح الحياة وأساريرها ثم نقل صورتها دون تحريف ما فذلك أيضاً حق لا يعتريها فيه ريب ، ولكن الريب — عندى — فى غير هذا كله :

أنا أرتاب فى أن الأدب يجب أن يمشى فى ركاب الرعاع ؛ أو من فى مستواهم فكراً وذوقاً ؛ والرعاع — بحق — هم أقرب الناس إلى قلوب الأدباء ، وهم أحق برعايتهم والتعبير عن أحاسيسهم والتفكير فى شؤون حياتهم ؛ ولكن ذلك لا يعنى ابتذال الأدب حتى يتذوقه الرعاع بذوقهم ، وأنا أعلو فأقول : لو انتهى الأدب إلى هذا المستوى لمجه الرعاع أنفسهم ؛ ولما نال من مشاعرهم هزة أو ارتياحاً ، ففى قرارة الحس الانسانى بذرة خفية هى بذرة الحاسة الفنية ، بها يتذوق الناس جمال الفنون . وحظ كل واحد من هذا التذوق على قدر حظه من الادراك والمعرفة ، والثقافة الفنية ؛ فإذا خلا الأدب — وهو فن — من جمال فى الفكرة والعبارة ، واللفظة ، والنغمة ، أنكرته الحاسة الفنية ، وكان — بعد ذلك — كلاماً من الكلام لا فناً من الفن ، وخسر الرعاع أنفسهم أثره المنشود .

(بغداد) ع . م

بين المسموع والمقروء

الشعوب مجامع اللغات

للدكتور أحمد زكي بك

المجمع اللغوي المصري مجمع ابتنوه ابتناء لضبط اللغة العربية . وقد علم الناس كيف جرى المجمع ويجرى في ضبطها .

واللغة العربية لغة قديمة تحاول العيش في دهر حديث . والمجمع اللغوي المصري يريد لها مع هذا أن تظل تستمد الحياة من جذور لها ضربت في ماض بعيد عتيق — ماض كريم عظيم — وأن تستمد من هذه الجذور وحدها الحياة .

ولقد قرأت بالأمس لكاتب انجليزي كبير يصف كيف تجرى اللغة الانجليزية ، وهي أكثر لغات الحاضر ألسنة ناطقة ، في سبيل تطورها من جيل إلى جيل . والانجليز يرسلون لغتهم من غير مجمع ضابط ، كما يرسلون قوانينهم من غير تشريع زائد . فهم في التشريع يعتمدون في الأكثر على منطق القضاة ، وهم في اللغة يعتمدون على حكمة الشعب وعلى سليقته ، فالشعب هو مجمع لغتهم ، وضابط كلامهم .

قال الكاتب الكبير : إن اللغة الانجليزية في حاجة قائمة دائمة إلى التجديد — في حاجة إلى كلمات جديدة لأشياء جديدة ومعان جديدة . وأهل اللغة المتقعرون (من الانجليز طبعا) يرجون دائما أن يحملوا على تقعرهم ، فيشتقون من اللاتينية والإغريقية ، ليثأروا منا كما ثأرت هذه اللغات منهم ، ولكن الشعب يأبى لهم انصياعا ، ويأبى لهذه الرغبة الجامحة فيهم إشباعا .

إن الشعب يصر على البساطة ، فهو يرفض كل معقد مركب يقف في الحلوق كما تقف الأحجار ، وإن هم فرضوا عليه شيئاً من ذلك قام هو على تهذيبه وتشذيبه ، وقطع النابي منه حتى يخرج مصقولا سائغا .

ومن أمثلة ذلك أن العربة كانت تقودها الجياد . فلما اخترعت العربة التي يقودها محرك يتحرك بالزيت ، أرادنا المتقعرون على تسميتها بالأوتوموبيل automobile ، فرفض الشعب هذا الاسم الطويل ، فلا تسمعه اليوم ينطق في انجلترا ، إلا إذا ذكر اسم النادي الذي يجمع أصحاب هذه العربات ، فهم يسمونه نادي الأوتوموبيلات automobile Club . أما العربة ذاتها فقد أسموها عربة الموتور motor car ، ثم وجدوا هذا الاسم على قصره طويلا ، فأسموها عربة فحسب car

وهذا يذكرنا نحن المصريين بما أصابت هذه الكلمة بيننا من نجاح أو إخفاق . وهو إخفاق محقق ، فأنت لا تكاد تراها على الورق ، وأنت لا تكاد تسمعها على الألسن . أما لسان الفلاحين ، لسان الشعب ، فقد حور منها ودوّر حتى تتفق مع منطقه ، فقال الأطرمبيل ! وقال الطرمبيل ، وقال الطمبيل ، وقال الطنبيل . فاللسان المصري ، كاللسان الانجليزي ، يكره التعقيد ويميل إلى البساطة . ورحم الله من رحم منطقنا من أول الأمر ، فاخترع لفظة سيارة ، فكانت على قصور معناها ، أسبق إلى ألسنتنا لسهولة مبناها . وفي هذا عظة لأهل اللغة عظيمة .

واخترع المخترعون آلة تلقي بالصور على ستار أبيض ، فأسماها مخترعها تسطيرالهاو تمحيا كينهاتوجراف Kinematograph . فوقفت هذه الكلمة في حلوق الشعب ، فما أسرع ما اختصرها اختصاراً ، ثم قلب الكاف سيناً تخفيفاً وتليينا ، فقال سينما Cinema

وكذلك فعل المصري فقال سينما . وزاد المصري الفلاح ، وهو أصدق طبيعة ، فقال سيما . والمتعالمون المتحرفون إذا سمعوا « السيما » ابتسموا من عل بسمة رحمة بجهل قائلها ، وما هي إلا

الطبيعة تنطق ، والجبلة الصادقة تقول

واخترعوا الزبد بديلا ، من شحوم وزيوت ، وأسموه مرجرين Margarine وهي لفظة إغريقية معناها اللؤلؤ ، ذلك أن هذا الزبد الصناعي ، في دور من أدوار صناعته ، يخرج قطعاً صغيرة مستديرة بيضاء كاللؤلؤ . فبدأ الشعب الانجليزي باستثقال الجيم المصرية فيها ، فعطشها فصارت مرجرين . ثم هو من بعد ذلك استطالها ، فقصرها ، فصارت مرجا .

وأسمى أنصار الأغريقية كتاباً ترسله بالكهرباء على الأسلاك تلغرافا ، بل تلجراما . فاستثقلها الشعب البريطاني ، فإذا به يستعيض عنها كلمة سلك wire ، فيقول أرسل له سلكا ، أي كتابا على السلك بالكهرباء .

والتلفون Telephone أيضا قد استثقله اللسان الانجليزي العام فاختزله فصار فونا phone . واشتقوا منه فعلا phone لو أنك ترجمته إلى العربية لكان فان يفون فونا . فتقول فانى وفنته وسأفونك وتفونني . وهي كلمة سهلة حتى على اللسان العربي . وقد كنت اقترحتها قديماً على أحد أولئك المزمتين فامتدت شفتاه ، وعلا وانحط ذقنه ، إيذانا بالرفض . فذكرت له أن أصحاب هذه الكلمة من الانجليز هكذا يسمون هذه الآلة ، وهكذا يشتقون ، فأخذت شفتاه تتقاصران ، وذقنه يثبت في المستوى الذي أراده الله ، وكاد الرفض أن يكون قبولا ، لولا خشية أن يكون التقلب سريعــا . فصدني هذا ، أن هذا الرجل المزمت في طينته ، وقد طال ما استعبده القديم الفاخر ، لا زال فيه بقية يستعبدها الحديث الباهر .

والسيارة بعد شيوعها صارت إلى الإيجار ، يستأجرها في الشارع من يشاء . فأسماها الانجليز ، أول ما أسموا ، Taximeter motor-cab ، أعني عربة مـــوتورية تكسيمترية . والتكسيمتر معناها مقياس الأجْر أو مقياس الجُعل . فما أسرع ما اختصرها اللسان الانجليزي ، لسان العامة الذي يجري طبعا ، فصارت Taxicab ، أي عربة الأجر ، فذهب عنها أخص ما فيها ، وهو القياس . ثم زادها لسان العامة اختصاراً فصارت تكسي Taxi ، أي الجعل ، فذهب عنها كل خصيص أصيل فيها إلا هذا الذي تدفعه لركوبك فيها — ذهب عنها معنى العربة ! ! وهنا يقوم ويقعد المتمنطقون المتفيهقون من أحبابنا لو أن لهم في هذا رأيا ، أو كان لهم في هذا سلطان : كيف تُجرَّد الشجرة هكذا من أوراقها وأغصانها ، وحتى من جذعها وجذورها ، ثم لا يبقى فيها إلا قطعة من لحائها تطلق على مفهوم الشجرة كلها ؟ وكيف يُكتفى « بالتكسي » للدلالة على مفهوم هذه العربة بما فيهـا من عجلات ومقاعد ومحرك ، ثم من أجر تقيسه آلة ؟! والجواب : أنه هكذا شاء منطق الألسنة ، منطق مجامع اللغات ، مجامع الشعوب .

وجـرى اللسان المصري مجرى اللسان الانجليزي ، فأسمى هذه العربة « تكسي » ، ينادي بها أعضاء المجمع اللغوي أنفسهم وهم خارج حيطانه . فما ضرهم لو أنهم أخذوا هذه الكلمة الشاردة في شوارع القاهرة أخذ الشريد الطريد ، فاستضافوها يوما أو يومين في حجرة من حجرات المجمع الدائمة ، فكسوها وحلوها ، حتى تخرج إلى الشارع من جديد في طراز من الأطرزة التي ترضاها الأمة ، وتلوكها في يسر ألسن الأحياء . كأن تكون تكسية مثلا .

إن الأمثلة في الانجليزية كثيرة عديدة . وهي كلها تؤكد سلطان الشعوب الحية على لغاتها الحية ، تباشره في غير خصومة أو جلبة ، كما تباشر سلطانها السياسي في مجالسها النيابية في غير خصام أو مشاكسة .

بل قل معي إن هـذا التحرر اللغوي ، كان نتيجة لهـذا التحرر السياسي .

ففي القرن الثامن عشر كانت الدولة الانجليزية دولة ارستقراطية . وكذلك كانت لغتها . وكان الشعب الانجليزي تغلب فيه الأمية . فكان الكاتب إذا كتب ، كتب للنفر القليل من الرجال . وكان التعلم أكثر مدده من الإغريقية واللاتينية . فكان إذا كتب الكاتب أو خطب الخاطب ،

لزمٌ عليه أن يقتبس من هذه ومن تلك اقتباسة تَزين خطابه أو كتابه، وترفع من قدره إلى أقدار العلماء والفقهاء.

حتى علماء الطبيعيات والمخترعون كان عليهم أن يصطنعوا ما يصطنعون من كلمات، من الإغريقية أو اللاتينية حتى لا يدمغهم بالجهل دامغ، ولا يرميهم أحدٌ بأنهم لم يحظوا من التعليم الارستقراطى، تعليم المدارس الراقية والجامعة، بالحظ الوافر.

وتغير كل هذا بتغير الأوضاع السياسية، وبانتشار الديمقراطية، وبتقلّص اللاتينية والإغريقية. ومالت اللغة الانجليزية من بعد ذلك إلى القصير من الألفاظ، والبسيط من التعابير. ومن أجل هذا صارت أشيع اللغات.

والفرق شاسع بين التبسط والتبذل، وبين التقصير والبتر، وبين القطع الذى ينعش ويعطى الحياة، والقطع الذى يقطع حبل الحياة. وهو هكذا فى اللغة أيضاً. فمع جنوح الزمن إلى البساطة فى تفهيم، قام المزاج الانجليزى المَرِن فى السياسة وفى الوطنية، قام يَزِن الأمور فى أمر اللغة حتى لا يجيل وعاؤها فيندلق ما فيه.

ونحن هنا فى الشرق نحب أن نكسب اللغة العربية من البساطة ما كسبه الانجليز للغتهم الانجليزية. فمع تمسكنا بالكلمات العربية الحلوة، والأساليب العربية الجميلة، نحب أن نترك منها كل لفظ إعريق فى ثقله، لا نبَىّ فى مجمته، لا يتفق مع ألسنة عرب القرن العشرين. وإذا نحن أولدنا الكلمات فى علم، أو فى أدب، أو فى اقتصاد، أو فى قانون، وجب علينا إيلادها سائغة فى حلوق قوم أحياء، فنتجافى من كلمات لا تجوز الحلوق إلا بكوب من ماء.

أحمد زكى

الحياة، إنما هو عندهم شىء آخر يصح أن يسمى كل شىء، ولا يصح أن يسمى فناً.

النفس الإنسانية بحاجة إلى صوت يعصف بالمجاهل الخفية من شعابها ليثير فيها كوامن حية، مكبوتة مقهورة. والنفس الإنسانية بحاجة إلى تشوق نشوة علوية عاصفة، حرمها العقل منذ أجيال لذاتها السحرية. والفن الجميل المطلق هو باعث هذه النشوة الخالدة. فلا تحرموا النفس الإنسانية المكبوتة صوت هذا الرائد الجميل، ولا تحرموا النفس الإنسانية الطامحة لذتها الكبرى، ونشوتها الخالدة. وأطلقوا لها هذه الرغبة المحبوسة على الأقل أيها العقلاء القساة!

(بغداد) حسين مروة

الفن للفن

أحسب أن الهجوم على الآخذين بفكرة «الفن للفن» لم يكن من التنظيم والتسديد بحيث يدك هذه الفكرة دكاً من الأساس، وإن بدا فى لغة المهاجمين أنهم بلغوا قمة الظفر، وأنهم ركزوا الراية فوق القمة، وانتهى كل شىء.

هاتوا لنا حجة هؤلاء المزهوين بالظفر، أريد حجتهم على أن يقولوا: إن الفن من الحياة وإلى الحياة؟.

نعم: الفن من الحياة وإلى الحياة، لا نجادل فى ذلك البتة؛ ولكن هل يقول أهل «الفن للفن» غير هذا؟ لا. بل يقولون إن الحياة نفسها بحاجة إلى هذا الذى ندعوه «الفن لذات الفن». بل هم يقولون أكثر من ذلك حين يعترفون بأن العمل الفنى الذى لم ينبثق من الحياة ولا تنبثق عنه

الكتب الجديدة

(١) العرب في أسبانيا

هو كتاب قيم ألفه الأستاذ «ستانلي لين بول» المستشرق المعروف وترجمه الأستاذ علي بك الجارم الأديب المشهور.

والمؤلف معروف بتدقيقه التاريخي وحبه للعرب وتعاطفه معهم. وهو يمتاز من الكتب المؤلفة في هذا الباب باطلاع المؤلف على المصادر الاسبانية والمصادر العربية واختياره منهما الآراء المقبولة الصحيحة، وعرض ذلك كله عرضاً قصصياً جذابا والاشادة بمحاسن العرب والعتاب على أخطائهم واللوم في موضع غلطهم. والمترجم أديب حسن الأسلوب قوي التعبير، رجع إلى الأصول العربية في القصائد ونحوها فيثبتها بنصها. وقد جرى في الترجمة على الحرص على المعنى، وصياغته في النمط الذي يتفق والروح العربي، من غير تقيد دقيق بالنص الحرفي الأصلي.

(٢) قالت لي سمراء

ديوان شعر لطيف الحجم للأديب السوري نزار قباني؛ لم يعن فيه بالأسلوب وسبك الصيغ بقدر ماعني بتصوير عواطفه. والديوان بدء حسن لن يصح أن يكون منه بعدُ شاعر كبير، إذا سار على النهج وبذل الجهد ودرس الشعر القديم والحديث، وأمعن — كما يمضي الآن — إلى ضميره الحي، وعواطفه الشبوبة.

(٣) تاريخ ماقبل التاريخ

للأستاذ عبد الله حسين

وكما قال في صدر كتابه «إن موضوعه يتناول تلك العصور البعيدة التي سبقت الحضارات التاريخية القديمة المعروفة مبتدئاً بالكون وظهور الحياة على الكرة الأرضية، عارضاً لتقلبات الطبيعية، ونشوء الإنسان وغرائزه وإنتاجه المادي والعقلي».

وقد عرض فيه لتاريخ الأرض قبل أن تدب الحياة فيها، ونشأة الحياة وتطورها إلى الإنسان، ونظريات الفلاسفة في التطور والدين واللغة والفلسفة والصناعة الخ.

وفي الكتاب معلومات قيمة بذل في جمعها المؤلف جهداً كبيراً، وإن أخذ عليه شيء فحاجته إلى الترتيب المنطقي. والكتاب الذي يبحث في التطور يجب أن تكون عنايته الأولى بتطور الفكر وتسلسله المنطقي.

(٤) وحي الرافدين

للأستاذ محمد علي الحوماني

«مجموعة أفكار بعثها في قلبي جمال الرافدين وعبقرية الطبيعة فيهما ودماثة الخلق العربي المطبوع على صفاقهما.

«هذه المجموعة من الأفكار المستوحاة من جمال العراق وجلاله في المجالس التي ضمتني ونفراً من أعيانه وأعلامه، أبرزتها للذكرى واعترافا بجميل إخوان كنت فيهم أسير لطف وعطف، ثم بعثها للأجيال في كتاب أسميته وحي الرافدين».

وقد عرض في أثناء رسالته لأفكاره في مسائل اجتماعية شتى، كالمروءة والأدب والموسيقى والخيال والحقيقة والله والروح والإصلاح الأدبي والاصلاح الديني والحجاب والسفور الخ. كما في الكتاب تعريف بنخبة من أعيان الأدب والعلم في العراق.

(٥) صور وأحاديث اجتماعية

للأستاذ عبد الرزاق محمد الهلالي

أخرجته مطبعة الرشيد ببغداد وهو مقالات اجتماعية وخطرات وأحاديث، في مثل: أدب الحرب، وفي مجلس أبي العلاء، ولماذا نكتب، وحديث العيد.

وفيه نظرات صادقة كمقالته في النقد الأدبي.

(٦) الانكليز كما عرفتهم

مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني

للأستاذ أمين المميز من أعضاء السلك الدبلوماسي العراقي. وقد عاش الأستاذ بضع سنين في إنجلترا مدرس

أحوالهم ، فهذا الكتاب نظرة عراقي إلى المجتمع الإنجليزي ، كنظرة حافظ باشا عفيفي المصري إليه ، وقد بنى كتابه على خبرته بالعشرة ومطالعاته الكثيرة فيما ألف عن المجتمع الإنجليزي . وهذا جزؤه الأول يبحث في الرجل الانجليزي من نواحيه المختلفة ، والمرأة الإنجليزية ، وحياة الإنجليز السياسية والاجتماعية . والكتاب مفيد قيم ، ونرجو أن يتم قريباً الجزء الثاني ، وقد وعد أن يتناول فيه القضاء الإنجليزي والرأي العام والتربية والدين .

ونحن أحوج ما نكون في نهضتنا الحاضرة أن يكتب لنا عن الأمم المختلفة حتى نستفيد من كل ما هو أليق بنا وأنفع لنهضتنا .

(٧) محمود تيمور

رائد القصـــة العربية

للأستاذ نزيه الحكيم

عرض فيه عرضاً تحليلياً لرسالة الأديب والفن والقصة والمسرح ، وأسلوب محمود تيمور وتحليل إنتاجه الأدبي والتطورات التي سار فيها ، في أسلوب تحليلي جيد .

(٨) وامعتصماه

ومسرحيات أخرى

أخرجت دار اليقظة العربية سلسلة من الكتب الأدبية المفيدة أشرنا إليها من قبل . وهاهي تخرج اليوم مسرحيات بدأت أولاها بهذا الكتاب للأستاذ عبد الوهاب أبي السعود ، وهي قصة جذابة حصلت حوادثها في عهد المعتصم بين سامرا وعمورية .

(٩) تقارير عن حالة المعارف

السورية ، واقتراحات لإصلاحها

الأستاذ ساطع الحصري من أخبر رجالات الشرق بالتعليم والتربية . كان له الأثر الصادق العميم النفع في توجيه التعليم في العراق ووضع دعائمه والسهر على تنفيذه ، رغم ما كان يجد في سبيله من عقبات .

واليوم يوضع في يده التعليم في سورية فيدرسه درساً عميقاً ويضع هذا التقرير لإصلاحه ، فيبحث في تشكيلات وزارة المعارف والتعليم الابتدائي والثانوي والمعلمين ومعاهدهم والمباني المدرسية والمتاحف — والتعليم الجامعي وأنظمة الامتحان وتنويع المدارس والمناهج . ويعالج كل ذلك مبيناً العيوب والاغراض الصحيحة ، وفي ضوئها يذكر ضروب ما يقترح من علاج .

وفي آخر ذلك كله تقرير قيم عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية وسائر الأقطار العربية .

والكتاب يتجلى فيه العمق في التفكير ، والأمانة في إبداء الرأي ، فلا يبديه إلا بعد درس وتمحيص ، ووقوف تام على ظواهر الأمور وبواطنها ، وهو هام لكل من يشتغل بالتربية في الشرق ، موح لمن يقرؤه بالتفكير وإن خالفه في وجهة النظر .

(١٠) المعري ذلك المجهول

للأستاذ عبد الله العلايلي

هذا كتاب أخرجته مجلة الأديب اللبنانية الغراء . والأستاذ العلايلي أديب مفكر مبتكر ، أخرج كتباً قيمة كمقدمة لدرس اللغة العربية ، وتاريخ الحسين نقد وتحليل ، ودستور العرب القومي الخ . وقد حاول في هذا الكتاب أن يدرس أبا العلاء ، على أنه أديب رمزي ، ويهتم بدرس منهجه في عرض آرائه أكثر مما يهتم بآرائه نفسها .

وعنده أن أبا العلاء تأثر تأثراً كبيراً برسائل إخوان الصفا . وهي رسائل وضعت على مذهب الباطنية ، فحذا حذوهم في إشاراتهم وإيهاماتهم وإعناتهم . وذهب يشرح فلسفة المعري على هذا الأساس ، فمثلا قول المعري :

تواصل حبل النسل ما بين آدم
وبيني ولم توصل بلامي باء

قال : « إن هذا البيت أعجز الشارحين وفسروه تفسيرات مختلفة . أما أنا فأجد فيه دليلا على تعلق أبي العلاء بعلم الحرف الروحاني ، فحرف الباء هوائي وحرف اللام ترابي ، وعليه فالمعنى يشير إلى أن فنائي لم توصل به نسمة ... أضف إليه أن حرف الحاء ترابي أيضاً ، وهو يشير إلى أن النسل هواء بين ترابين ونسمة بين فناءين » الخ .

وفي الكتاب فروض كثيرة تحتاج إلى الدليل كما أن فيه بعض توجيهات جديدة . (***)

رقصة النيل

رقص النيل على لحن الشعاع
وحنا الموج على ظل الشراع

ومضى الزورق يختال الهوينا
ينشد الشاطىء والشاطىء أينا ؟

سابحاً كالشاعر في سماء الخاطر
يا له من ساحر في خضم زاخر
كالندى النشوان
راقص الألحان

خمرة من ذوب تغريد الطيور
بهجة من لحن تقبيل الزهور

تاه لحنى في سكون الشارد
مال قلبي في خشوع العابد

رقب الآمال في النور البعيد
من سنا الأحلام في الفجر الوليد

نغمة من ساهر لفتة من ساحر
فتنة من زاهر نغمة من زامر
رقص الألحان
من نعى الفنان

بينما النيل حنون قد جرى
طاب فيه السبح بل طاب السرى

هامت الأمواج تشدو بالغناء
وتبدى الفجر بسام الضياء

فشجا اللحن حنوناً زورق
فتهادى في دلال شيق

يا لنا ي حائر يا لطيف عابر
أين منى ساحرى؟ أين دنيا عابرى
ثورة الأشجان
تشعل النيران

وتذيب الطهر في قلب الوجود
وتبث الشوق في القلب الشريد

عزت محمد منصور

إلى فتاة أحلامى

أسدل الليل حجبه فتعالى نترع الكأس لذة وهياما
قبلة منك تبعث الميت حياً
تملأ الكون بهجة وابتساما
فادفعينا للهو في غفلة الدهر
فقد تصبح الغداة رماماً
اقطفى زهرة الأمانى بلطف
قبل أن يوقظ الصباح الندامى
كانسياب الأمواه بين عناق
الدوح حلماً فلنقتل الأياما
ابسمى لى لا توحشى القلب صداً
هاهو الوجد بالدموع تهامى
فارحمى يا حنون لوعة صب
لم يجد في الحياة إلا ظلاما
نعم الناس بالسعادة نوبا
وحلت الشقا لصدرى وساماً
أنا إن أذبل الغرام شبابى
وسقانى كأس الصدود السقاما
فلكم ناح في مذابحه قبل
ضحايا الهوى وماتوا كراما
يا سمير الفؤاد إن أوحش الليل
وهاجت هواجسى الأحلاما
بدمى قد صبغت (سترتك) الحمراء
حتى فنيت فيها الأناما
وادماء أطلها الحب واعتاض
بها قلبي الكئيب غراما

(بغداد)

ضياء الدخيلي

الثقافة

الثلاثاء ١٦ صفر سنة ١٣٦٤ – ٣٠ يناير سنة ١٩٤٥

التمثيل الدبلوماسي :

المبعوثون الدبلوماسيون

إن لكل دولة مصالح مشتركة بينها وبين الدول الأخرى أو بعضها . وتأمين هذه المصالح يتطلب اتصال الدول بعضها ببعض . وهذا الاتصال يكون بواسطة أشخاص تنتدبهم الدولة لتمثيلها لدى الدول الأخرى ، بالمبعوثين الدبلوماسيين .

والتمثيل الدبلوماسي بين الدول قديم قدم التاريخ . ومما يلفت النظر أنه كانت للمبعوثين الدبلوماسيين في التاريخ القديم والمتوسط ، مكانة ممتازة ، وإن هذه المكانة كانت مصبوغة بالصبغة الدينية في العصور القديمة ، ومشمولة بالحماية البابوية والفروسية في العصور المتوسطة . أما في العصور الحديثة فقد أخذت الدول تمنح المبعوثين الدبلوماسيين حماية خاصة ، وحصانة منيعة ، حتى أصبحت تلك الحماية وهذه الحصانة حقا معترفا به في الحقوق الدولية . وصار ضمير الدولة يثور عندما تهمل دولة أخرى هذا الحق ، أو تقوم بالاعتداء ، بشكل من الأشكال ، على المبعوثين الدبلوماسيين . وقد نشأ من جراء ذلك حروب عديدة سجلها لنا التاريخ

وأحدث مثال عليها حرب عام ١٨٧٠ التي نشأت بين فرنسا وروسيا . وكان سببها المباشر اعتقاد الفرنسيين أن ملك روسيا قد أهان سفيرهم في برلين .

وجدير بالذكر أن التمثيل الدبلوماسي كان في بادىء أمره مؤقتا ولمواضيع معينة . ولم يبدأ ظهوره بصورة دائمة إلا في القرن الثالث عشر . غير أنه لم يصبح نظاما عاما إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وذلك حينما سارت الدول الأوروبية على النهج الذي نهجته فرنسا زمن لويس الرابع عشر ووزيره ريشيليو ، في تعيين مبعوثين دبلوماسيين دائمين في عواصم الدول الأخرى .

والتمثيل الدبلوماسي وليد الحاجة ، وإنه كنظام دائم ضروري لاغنى عنه لأنه العصب الحي الذي يصل الدول بعضها ببعض ، ولأنه الطريق القويم لحل المشاكل بين الدول ، والوسيلة الناجعة للوصول إلى تفاهم وعقد اتفاقات .

فنشوء نظام المفوضيات الدائمة قد أدى إلى نشوء نوع جديد من موظفي الدولة يطلق عليهم اسم « الدبلوماسيين » . ولهذا النوع من الموظفين مؤهلات خاصة ، وثقافة معينة . . .

***

تطور نظام المبعوثين الدبلوماسيين ، فبعد أن كان ، كما رأينا ، مؤقتاً ، أصبح دائماً . وبالرغم من ذلك فإن ارسال مبعوثين مؤقتين لا يزال معمولا به فى حالات خاصة ؛ وعليه يمكن تقسيم المبعوثين الدبلوماسيين إلى نوعين : المبعوثين الدبلوماسيين المؤقتين ، والمبعوثين الدبلوماسيين الدائمين .

والمبعوثون الدبلوماسيون المؤقتون يرسلون لمهمات خاصة ، بعضها تمثيلى ، مثل حضور حفلات التتويج ، والزواج الملكى ، واليوبيلات ، والجنائز الرسمية ، وما ماثلها . وبعضها سياسى مثل حضور مؤتمر معين أو المفاوضة فى أمر خاص . وهذا النوع من المبعوثين الدبلوماسيين يكثر عددا ويعظم أهمية فى أيام الأزمات السياسية أو الحروب . وما تنقلات المستر تشرشل والمستر ايدن ، وما أعضاء مؤتمر الاسكندرية المتعلق بالوحدة العربية ، إلا من هذا النوع ، نوع المبعوثين الدبلوماسيين المؤقتين . غير أن المبعوثين الدبلوماسيين الدائمين أكثر عددا وانتشارا

والمبعوثون الدبلوماسيون ليسوا جميعا من رتبة واحدة ، بل هم اليوم على أربع درجات ، لم تكن معروفة منذ الابتداء . وكثيراً ما كان ينشب الخلاف بين مبعوثى الدول لدى دولة ما على من له حق التقدم على الآخرين . وكثيرا ما كان هذا الخلاف سبب توتر للعلاقات الدولية بين دولتين أو أكثر .

ولإزالة أسباب هذا الخلاف ، رأت الدول الخمس المجتمعة فى مؤتمر فينا ، أنه ينبغى الوصول إلى تفاهم دولى فى الموضوع ، فاتفقت بتاريخ ١٩ مارس ١٨١٥ على أن يكون المبعوثون الدبلوماسيون على ثلاث درجات : وهى السفراء ، والوزراء المفوضون المبعوثون فوق العادة ، والقائمون بأعمال .

وفى عام ١٨١٨ اتفقت الدول الخمس المجتمعة فى مؤتمر « أكس لاشابل » على إيجاد درجة جديدة وهى درجة الوزراء المقيمين ، على أن تكون بين الدرجة الثانية والثالثة . وقد وافقت بقية الدول على هذا التصنيف .

وبناء على ذلك أصبح المبعوثون الدبلوماسيون يصنفون فى أربع درجات أو طبقات ، وهى : (١) السفراء (٢) الوزراء المفوضون المبعوثون فوق العادة ، (٣) الوزراء المقيمون ، (٤) القائمون بأعمال . غير أن امتيازاتهم واحدة ، ولا فرق بينهم إلا فى الدرجة والتعظيم . والفائدة العملية لنظام تصنيفهم الذى وضع فى مؤتمر فينا تظهر فى الحفلات الرسمية ؛ إذ يصبح من السهل نسبيا معرفة أى المبعوثين الدبلوماسيين له أن يتقدم ، وعلى من من زملائه يحق له التقدم . كما تظهر فى تبادل المبعوثين بين الدول . فالدولة ترسل عادة إلى الدولة الأخرى مبعوثا دبلوماسيا من درجة المبعوث الذى أرسلته هذه إليها . ومع ذلك فمن المستحسن أن نقول كلمة عن كل من هذه الدرجات .

* * *

السفراء هم الدرجة الأولى من المبعوثين الدبلوماسيين ترسلهم الدول الكبرى عادة لتمثيلها من الدول فقط . ويعتبر السفراء ممثلين لرؤساء دولهم من ملوك أو رؤساء جمهوريات ، لدى رؤساء الدول الأخرى ، وليس لدى حكوماتها . وهم لا يفاوضون إلا رئيس الدولة . غير أن هذه الميزة الرئيسية التى لهم قد قلت أهميتها فى السنين الأخيرة ، إذ أصبح لمعظم الدول حكومات دستورية . وهذا يتطلب أن تكون المفاوضات مع وزير الخارجية . على أنه لا يزال لهم وحدهم ، وفى جميع الأوقات ، حق المطالبة بتعيين مقابلة مع رئيس الدولة . والسفراء بالإضافة إلى هذه الميزة الرئيسية ، موضع تعظيم وتبجيل خاصين ، ولهم وحدهم الحق بلقب « صاحب الفخامة أو السعادة »

أما الوزراء المفوضون المبعوثون فوق العادة ، فيأتون فى الدرجة الثانية ، ولا يعتبرون ممثلين لرؤساء

دولهم ، ولذا فليس لهم الحق في التعظيم الخاص الذي للسفراء ، ولا في التعامل مباشرة مع رؤساء الدول ، ولا في المطالبة ، في جميع الأوقات ، بتعيين مقابلة معهم . ويطلق عليهم لقب « صاحب الفخامة أو السعادة » من قبيل المجاملة فقط ، دون أن يكون لهم حق فيه . وفيما عدا ذلك ليس من فرق بينهم وبين السفراء . .

والدرجة الثالثة قوامها « الوزراء المقيمون » وهؤلاء يأتون في التشريفات بعد الوزراء المفوضين ، وعدا ذلك فلا فرق بينهم إلا أن الوزراء المقيمين لا يطلق عليهم لقب « صاحب الفخامة أو السعادة » أبداً .

أما الدرجة الرابعة فقوامها « القائمون بأعمال » . وهناك فرق رئيسي بين هؤلاء المبعوثين وزملائهم من الدرجات الثلاث السابقة ، وهو أن أولئك يعينهم رؤساء الدول لدى رؤساء الدول . أما هؤلاء ، أي القائمون بأعمال ، فيعينهم وزراء الخارجية لدى وزراء الخارجية . ولهذا السبب لا يتمتعون بالتعظيم والتبجيل اللذين يتمتع بهما المبعوثون الديبلوماسيون الآخرون .

ويشكل جميع المبعوثين الديبلوماسيين لدى دولة واحدة على مختلف درجاتهم ، هيئة تدعى « الهيئة الديبلوماسية » . ويلقب رئيس الهيئة بلقب « العميد » . وهو عادة الرسول البابوي ، وفي حالة عدم وجود رسول بابوي ، يترأس الهيئة أقدم سفير لدى تلك الدولة ، وإن لم يكن لديها سفير فأقدم وزير مفوض وإن لم يكن لديها وزير مفوض فأقدم وزير مقيم ، ثم أقدم قائم بأعمال

* * *

ولتعيين المبعوثين الديبلوماسيين أصول ومراسيم . غير أن الحقوق الدولية لا تتدخل في تعيين مؤهلات المبعوثين الديبلوماسيين وثقافتهم ، ولكن الدول وضعت قوانين خاصة بهذه الأمور ، ولا ينتخب المرء إلى وظيفة ديبلوماسية إلا إذا توفرت فيه تلك الشروط . وعليه نتساءل : هل يجوز تعيين امرأة في وظيفة ديبلوماسية ؟ لا جواب على هذا السؤال في الحقوق الدولية . وإذا فتشنا على الجواب في التاريخ الديبلوماسي وجدنا سيدتين شغلتا مركزاً ديبلوماسياً ؛ ذلك أن لويس الرابع عشر عين عام ١٦٤٩ مدام دي كبريان سفيرة له لدى بلاط بولندا ، وأن الحكومة السوفيتية عينت منذ بضع سنوات سيدة وزيرة لها في السويد . وعلى كل فإن الحقوق الدولية لا تحول دون تعيين النساء في المراكز الديبلوماسية ، ويقول البرفسور « أوبنهايم » : « إن كثيراً من الدول ترفض استقبالهن على هذه الصورة » وهذا قول مبالغ فيه ، ولا أجد ما يبرره أو يؤيده .

أما طرق التعيين ومراسيمها فمعينة معروفة . وهي أن رئيس الدولة عندما يرسل سفيراً أو وزيراً إلى دولة أخرى ، يسلمه كتابا مختوما موجهاً إلى رئيس تلك الدولة ، ينبئه فيه بتعيين ذلك السفير أو الوزير لديه . وهذا الكتاب يعرف باسم « كتاب الاعتماد » Lettre de Créance

ويحمل المبعوث الديبلوماسي نسخة مفتوحة منه ، يرسلها حال وصوله إلى البلاد المرسل اليها إلى وزير خارجيتها ، ليعلمه بوصوله . أما الكتاب المختوم فيقدمه المبعوث الديبلوماسي إلى رئيس الدولة بذاته عند استقباله له . و « القائم بأعمال » يتسلم أيضاً « كتاب اعتماد » ولكنه لا يكون موقعاً من رئيس دولته بل من وزير الخارجية الذي يعينه ، وموجهاً إلى وزير خارجية الدولة المبعوث إليها . وزيادة على ما تقدم ، فإن كل مبعوث ديبلوماسي يتسلم جوازات سفر خاصة له ولحاشيته ، تصدرها وزارة الخارجية ، لا إدارة جوازات السفر ، ويضع المبعوث الديبلوماسي جوازات السفر هذه ، حال وصوله إلى مركز عمله ، في وزارة الخارجية وتبقى هناك إلى أن يطلبها منها لدى تركه الوظيفة أو عزله منها .

والدولة ترسل عادة مبعوثاً دبلوماسياً دائماً واحداً إلى الدولة التي تريد أن تمثل لديها . ولكنه يحدث أحياناً أن ترسل أكثر من مبعوث دبلوماسي دائم لدى دولة واحدة . وهذا ما نراه في مصر مثلا ، فإن لبريطانيا فيها سفيراً ووزيراً مفوضاً ووزيراً مقيما . وقد ترسل الدولة في كثير من الأحيان ، أكثر من مبعوث دبلوماسي واحد ، إلى المؤتمرات ؛ وفي هذه الحالة يكون أحد هؤلاء المبعوثين رئيسا والآخرون تابعين له . وهذا ما حدث في مؤتمر الاسكندرية المتعلق بالوحدة العربية .

* * *

وكما أنه يمكن الدولة أن ترسل أكثر من مبعوث واحد إلى دولة أخرى ، فيمكنها أن ترسل مبعوثاً دبلوماسياً واحداً إلى دولتين أو أكثر ؛ ومثال ذلك وزير مصر المفوض في بغداد ، فهو وزير مفوض لدى الدولتين العراقية والعربية السعودية ، وكذلك « الوزير المفوض » في بيروت ، فهو مبعوث دبلوماسي لدى الدولتين اللبنانية والسورية .

ثم إنه يمكن لمبعوث دبلوماسي واحد لدى دولة ما ، أن يمثل دولتين أو أكثر ، وهذا سبيل نأمل أن تسلكه الدول العربية كخطوة من خطوات الوحدة المنشودة .

* * *

يسافر المبعوث الدبلوماسي إلى مقر عمله ، ويجرى استقباله ويقدم كتاب اعتماده ، فتبدأ حينئذ ، أعماله بصورة رسمية . أما مكانته الرسمية فتبدأ منذ تسلمه كتاب اعتماده . وابتداء هذه المكانة هو ابتداء التمتع بجميع الامتيازات التي للمبعوثين الدبلوماسيين .

فما هي هذه الامتيازات ؟ هذا ما نعرضه في المقال المقبل .

يوسف هيكل

تحت سماء المعادى

سألنى الأستاذ الجليل أحمد أمين بك وأنا فى لجنة التأليف والترجمة والنشر : « ما الذى أوحته اليك مصر من شعر أو نثر ؟ » فخجلت الخجل كله لما قلت : لم توح إلى بعد شيئاً ، وذلك لأنى لما هبطتها لقيت فيها من الضوضاء ومن جيئة الناس وذهوبهم فى الشوارع ومن زحمة السيارات ما جهد أعصابى ، فبقيت أياماً لم أقرأ جريدة ولم أفتح كتاباً . أما اليوم فقد خطر ببالى أن أذهب فى الصباح إلى « المعادى » هذه الضاحية التى ملكت علىّ مشاعرى فأحببتها من سنين بعيدة وجعلت لها من قلبى نصيبا وافراً . ذهبت إلى « المعادى » فى الصباح وأسرعت إلى « الكازينو » الذى ألفت التردد اليه من قبل ، وما كدت أوقد « غليونى » وأشرب الشاى وأرى بطرفى إلى السماء الصافية وإلى النيل الرتق ، وإلى النخيل المنبسط من حوله حتى ازدحمت الأفكار فى صدرى ، فوقف القلم لتحيره على تعبير ابن المقفع ، ثم فتشت عن كلام أفصح به من هذه الأفكار المزدحمة فلم تحضرنى عبارة أرضى بها لأفصح عن هواجس الصدر ، فأطلقت حينئذ القلم إطلاقاً ورضيت بكل ماحضرنى من الكلام دون شىء من التزويق أو الانتخاب :

يستطيع الأستاذ أحمد أمين بك أن يسألنى الآن : « ما الذى أوحته إليك القاهرة ؟ » ، وأستطيع أن أجيبه عن سؤاله دون شىء من الكلفة :

اليوم شعرت بأنى فى مصر ، اليوم تمتعت بنيل مصر وريفها ونخيلها وسمائها . جمعت لى مصر فى كلمتين وهما : الريف والنيل ، كلتان مضت عليهما أحقاب طويلة وهما لاتزالان قويتين ، خالدتين . وإذا كان المتنبى يجد من ندى سيف الدولة ريفاً ونيلا فانى لا أجد من ندى أحد على وجه الأرض مثل هذا الريف ومثل هذا النيل ، لم يتبين لى وجه القاهرة فى شوارعها ولا فى مبانيها ولا فى سياراتها ولا فى زحمتها ، فهذا كله غير خالد فى تاريخ البلدان . إن زلزالاً واحداً يذهب بكثير مما تبنيه الأمم فلا يبقى له أثر . ولكن طبيعة البلدان التى تعيش فيها هذه الأمم خالدة على وجه الدهر . فالنيل خالد ، والريف خالد ، والهرم خالد ، فاذا احببت أن أفتش عن خلود مصر فنى هذه الألفاظ الثلاثة ، فبها عرفت وجه مصر ، ومنها أحببت مصر . أما القاهرة فلم توح إلى شيئا فأنا لم أعرف وجه مصر فيها . ولولا أدباء فضلاء ، ولولا أساتيذ أجلاء زرتهم وملأت نفسى من لذة أحاديثهم وسمعت لغتهم الحلوة ، لكنت فى مصر غريب الوجه واللسان ، ولحسبت أنى فى مدينة من مدن أوروبة . فى باريس أو فى لندن ، وأنا لم أزر القاهرة لأرى فيها صورة باريس أو صورة لندن أو صورة غيرهما من الأمصار . وإنما زرت القاهرة لأرى وجه مصر وطبيعة مصر وريفها ونيلها وهرمها ولأسمع لغتها وماشابه ذلك . ولست أدرى لماذا أفرط أدب مصر فى الانقباض عن هذه المظاهر الساحرة الخالدة ، والانبساط إلى مظاهر ثانية غلبت عليها المادة ! لست أدرى لماذا لا أجد فى أدب مصر إلا الشىء اليسير من التغنى بعنوان عظمتها ، بريفها ونيلها وطبيعتها ! لا بأس بالانتقال إلى سماء مادية ، ولكن البأس كل البأس بالفناء فى هذه السماء المادية ، فالأمم تعيش بالمادة وبالروح معاً ، والأمم التى اقتصرت على العيشة فى المادة وحدها والذوبان فيها صار التعب اليها ولا شك فى ذلك . إنها ستجهدها فى آن قريب عبادة هذه المادة وستشعر بشىء غير قليل من الحاجة إلى التعلق بالروح . قد تكون المادة بنت العقل ولكن المرء إذا كان يعيش بعقله فهو لايستغنىُ عن العيشة بقلبه أيضا . وكم كنت فى دهشة لما كنت أطالع فى أدب هجم علينا من وراء البحار مباحث فلسفية لايتقدم أصحابها من أن يقولوا فى أثناء كلامهم : ولقد جرب فلان صاحب معمل كذا هذه الطريقة الفلسفية فى معمله فربح ربحا

في الأدب العربي :

أدب الفيـــل

[ما أحوج الأدب العربي أن يعنى فيه بدراسة نواح غير الناحية الرتيبة المألوفة التي تكررت حتى ملها الناس ......] .

المعروف أن الأدب العربي عنى أكثر ما عنى بالإبل لأنها كانت عماد العرب في حياتها فلم يتركوا شيئاً فيها حتى عالجوه جملة وتفصيلا . ومع هذا فلما اتصلوا بغيرهم من الفرس والهنود ورأوهم يعتمدون — فيما يعتمدون — على الفيل عالجوه في أدبهم كما استخدموه في حروبهم امتثالاً لقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولو عاشوا اليوم ورأوا الدبابات والطائرات لاستخدموها في حروبهم وأدبهم .

لقد رأى العرب الفيل في غزو الحبشة لهم لما أتوا من اليمن يريدون هدم الكعبة ففشلوا وجاءت في شأنهم سورة الفيل .

ثم شاهد العرب الفيلة في حروبهم مع الفرس في غزوة القادسية وجلولا ونهاوند ، فلم يخافوا ولم يهنوا فغلبوها بجمالهم ، لأنه كان مع الجمال قلوبهم — وقلوبهم قلوب أسود — وكان مع الفيلة قلوب أعدائهم وقلوبهم هواء .

وظهر في آخر العصر الأموي شاعر اسمه هارون بن موسى الأزدي بالولاء ، كان شاعراً وكان يحارب مع المسلمين بالمولتان من أرض الهند ، مارس الفيلة في الحروب فعالجها في الشعر ، وقال في صفات الفيل أشعاراً كثيرة ، وقد حكوا عن هارون هذا أنه اكتشف سراً خطيراً وهو أن الفيل يخاف من الهر ، فجاء الموقعة ومعه هر خبأه في ملابسه فلما دنا من الفيل رمى الهر في وجهه ففزع الفيل وولى هارباً وهربت الفيلة على أثره ، وتساقط الأعداء من

عطلها ؛ فالفلسفة غايتها الربح والعلم غايته الربح والأدب غايته الربح ، أفلا نجد في هذه النزعة نصب الأمم وجهدها ؟ فالفلسفة فيها شيء أجل من الربح والعلم فيه شيء أسمى من الربح والأدب فيه شيء أرفع من الربح ، ولو صبغنا هذه الآفاق الانسانية بصباغ مادي محض لضاع على عقولنا وقلوبنا كثير من اللذة .

أراني قد خرجت من موضوعي ، ولكن ما هو موضوعي ؟ فأنا لم أنشر أفكاري على هذه الورقة على صورة منطقية تتصل فيها النتائج بالمبادىء . وإنما بعثرت فيها شعوري على صورة بسيطة غير مهتم بالمنطق فيها ، فهأنذا أترك المنطق وأترك المادة وأترك زحمة القاهرة ، وأصوب النظر وأصعده في سماء المعادي وفي نيلها وفي نخيلها وفي هذه الأهرام المترامية من وراء النيل ومن وراء النخيل . هأنذا أملأ قلبي من فتنة هذه المناظر كلها قبل الانحدار إلى القاهرة ، ولكن المؤلم أني لم أسمع وأنا في الكازينو كلمة عربية ولا لهجة مصرية ، فما سمعت إلا العجمة ، فلا يحب المصري أن يتمتع بشيء من محاسن طبيعته ، فقد انسحب من هذا الميدان فسرح فيه غيره ، فلم يملك عليه حب طبيعة بلاده شيئاً من قلبه . فأين الأدب ؟ أين هذا الأدب الذي يحمل المصري على الفناء في محبة أرضه وسمائه ؟ أين هذا الأدب الذي يحمله على الذوبان في محبة ريفه ونيله ؟

أطرح الآن القلم من يدي لأن الشمس قد اشتدت وطأتها علي ، وأودع المعادي ، أودع هدوء الحياة لأعود إلى ضوضائها ، أودع روح الحياة لأعود إلى مادتها ، هذه المادة التي كانت سبباً في شقاوة البشرية في حرب ما عرف التاريخ نظيرها ؛ ففي اليوم الذي يستطيع فيه الأدب المصري أن يحمل لي ولأمثالي نصيباً من الروح ومن المادة معاً في صفحاته ، في اليوم الذي يحملني ويحمل أبناء دياره على التغني بخلود مصر وبمحاسن مصر وبفتنة كل بقعة من بقاعها ، أشعر إذ ذاك بأني في القاهرة . أما الآن فلا أزال أحسبني في باريس أو في لندن !

شفيق جبري

فوقها فكان ذلك سبب الهزيمة ، وأترك تحقيق ذلك لعلماء الحيوان .

ولما رأى المسلمون أن خصومهم يعتمدون على الفيلة في حروبهم لم يجمدوا وألفوا في جيوشهم فرقة الفيلة ، فكان في جيش أبي جعفر المنصور فرقة الفيلة والفيالين وكذلك من بعده من خلفاء العباسيين ، وصرنوا عليها ومهروا فيها مهارة خصومهم .

وعالج المعتزلة موضوع الفيلة كما عالجوا الحيوانات كلها من ناحية دلالتها على عظمة خالقها ومن ناحية « أعاجيب ما ركبت عليه من الدفع عن أنفسها والعمل على ما يحييها وإدراكها ذلك بالطبع من غير روية ، ويحس النفس من غير فكرة ، ليعتبر معتبر ، ويفكر مفكر ، وليتق عن نفسه العُجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قوته ومبلغ نفاذ بصره ، وأن الأعجم من أجناس الحيوان يبلغ في تدبير معيشته ومصلحة شأنه ما لا يبلغه ذو الروية التامة والمنطق البليغ ، وأن منها ما يكون ألطف مدخلا وأرق مسلكا وأصنع كفاً وأجود حنجرة »[1] وعلى ذلك ألف المعتزلة القصائد الطوال في بديع صنع الله في الحيوان ، كما ألف الجاحظ كتابه الممتع في الحيوان . وأعجب ذوو المشاعر والذوق بالفيل لما رأوا فيه من صفات جميلة جليلة ؛ فله من القوة ما يقلع الشجرة الكبيرة ويهدم الحائط الضخم ، وهو إلى ذلك وديع لما أنسه وداعة الحمل ، وهو ثقيل الوزن خفيف الوطء ، حتى قد يمر بجانب إنسان فلا يشعر به لحسن خطوه ، وهو بديع المنظر عظيم الصورة ، جمع إلى الجلال الجمال ، يعجبك بطول خرطومه وجمال أنيابه وسعة أذنيه ، قابل للتأديب فيعلم السجود للملوك وممارسة القتال في الحروب ، من أذكى أنواع الحيوان وأقربها إلى الإنسان . وقد علمه الإنسان القاسي القسوة فكان ملوك الفرس يمرنونه على قتل من شاءوا بخبطه ودوسه ، فكانت الأكاسرة تلقى لها بالرجل فتنقض عليه وتضربه وتدوسه حتى يفارق الحياة ، وليس الذنب ذنبها ، وإنما ذنب الإنسان الذى علمها ، وجرى ذلك إلى الشعر العربى فقال الشاعر :

— وأخبط خبط الفيل هامة رأسه —

ثم كان الفيل مصدر وحى للأفكار والمعانى عند الفرس والهنود ، وانتقل ذلك إلى اللغة العربية من طريق كتاب كليلة ودمنة ، فهو مملوء بالأمثال المشتقة من الفيلة مثل : « وقالت العلماء إن الرجل الفاضل لا ينبغى أن يرى إلا فى مكانين ولا يليق به إلا أحدهما : إما مع الملوك مكرما وإما مع النساك متبتلا ، كالفيل إنما بهاؤه وجماله فى مكانين : إما فى برية وحشياً وإما مركباً للملوك » وفيه « إن مثلك فى هذا كما قال التاجر إن أرضاً يأكل جرذانها مائة منٍّ من حديد غير مستنكر أن تخطف بزاتها الفيلة » وفيه « إن الكريم إذا عثر لم يستعن إلا بالكريم كالفيل إذا وحل لم يستخرجه إلا الفيلة » الخ الخ .

ولحظت العرب فى الفيل كثرة أكله وشدته وعظم خلقه فضربت بذلك كله الأمثال فقالت : آكل من فيل ، وأشد من فيل ، وأعجب من خلق فيل .

ورووا أنه حضر فيل فى المدينة وكان مالك بن أنس يدرس فى المسجد فقال قائل : قد حضر الفيل . فقام تلاميذ مالك ينظرون إلى الفيل وتركوه ، إلا يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى ، فقال له مالك : لمَ لمْ تخرج لترى هذا الخلق العجيب وليس فى بلادك ؟ قال : إنما أتيت لآخذ علمك ولم آت لأنظر الفيل .

وحدث فى سنة ٣٧١ هـ أن وقع خلاف فى أسرة بنى بويه ، وقاتل عضد الدولة البويهى فخر الدولة البويهى أيضاً ، فانهزم فخر الدولة والتجأ إلى قابوس بن وشمكير بجرجان ، فطلبه عضد الدولة فأبى قابوس أن يسلمه ، فتحاربا وانهزم قابوس وكان فى الجيش المنتصر السياسى الأديب الصاحب بن عباد وكان فيما غنموا فيل عظيم كثر الحديث عنه ، فلما سكت السيف تكلم اللسان ، فاقترح الصاحب بن

(١) الجاحظ فى الحيوان .

المشكلة الكبرى

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

هي مشكلة بغير شك، وليس من الهين أن نبلغ في حلها الغاية التي نرجوها بغير أن نعد لها كل ما استطعنا من عدة ، هي مشكلة تتطلب منا أن ندبر المال الكثير من وجه من وجوه تحصيل المال ولو أدى ذلك إلى الاستدانة ، وتحتاج إلى أن نجرد لها كل ما عندنا من قدرة على التنظيم، وتتطلب فوق ذلك كله أن نسلح أنفسنا بكل ما لدينا من ذخيرة الحماسة والإخلاص .

نقصد بهذه المشكلة تلك الوثبة الشاملة التي لابد لنا من أن نقدم عليها في شجاعة وعزيمة ، وثبة الإصلاح الجوهري الذي نحس الحاجة إليه في كل خطوة نخطوها وعند كل نظرة ننظرها . إننا لا نرى ضرورة تدعو إلى بيان الحاجة إلى تلك الوثبة نحو الاصلاح الشامل، لأن كل مصري له عينان أصبح اليوم يؤمن الإيمان الكامل بضرورتها ، من الوزير الأول إلى رجل القرية الذي يسير إلى حقله هادئا مستسلما للقضاء ؛ ولكنا مع ذلك نجد واجباً علينا ألا ندع فرصة تمر بنا بغير أن ننادي مطالبين بحل تلك المشكلة بصوت عال ممتلئ بالإخلاص لمستقبل هذه البلاد العزيزة .

نحن نؤمن بأن الجميع يعرفون ضرورة هذه الوثبة الإصلاحية الكبرى ، ونؤمن بأن الجميع مخلصون في رغبة الخير لهذا الوطن الذي عدنا بالحياة ، ونؤمن بأن القائمين بالأمر هم من أعمق المصريين شعوراً بالحاجة إلى الإصلاح وأصدقهم نية في الاتجاه إليه ؛ ولكنا مع ذلك نعلم أن تيارات الحياة كثيرة ، وأن هذه التيارات تتدافع من جهات مختلفة، وأن تدبير أمورها يشغل قسطا كبيراً من اهتمام الحكومة والشعب على السواء ، فلا يدع القلوب خالية لتأمل الإصلاح المنشود والتفرغ لرسم الخطط المؤدية لتحقيقه .

سمعنا رئيس الوزراء يهتف منذ حين بأن البلاد في أشد الحاجة إلى الإصلاح وأن الخطط التي تؤدي إليه لم ترسم بعد ، ولم تلق من التفكير الجدي ما هي جديرة به ، وأنه ينوي أن يجعل ذلك الإصلاح نصب عينيه وأنه لن يترك أمره فوضى ، بل سيعمد إلى البحث الدقيق والتدبير الحكيم حتى يضع له الخطة التي تكفل إنفاذه . سمعنا هذا الهتاف الكريم فأثلج صدورنا وصدور المخلصين من بني مصر وأضمرنا أملا فسيحاً بأن الغد سوف يطلع علينا بتحقيق آمال كانت دائمة عزيزة علينا ، نتطلع إليها على مر الدهر ولا نهتدي إلى الوجه الذي نتجه فيه إليها . ونحن نعرف لرئيس الوزراء ماضياً يجعلنا نطمئن إلى أنه إذا هتف فإنما ينطق من عزيمة جادة لا يبتغي من ورائها دعاية الألفاظ ، ولهذا نار في نفوسنا من الأماني ما يحملنا بين حين وآخر على إعادة الكرة في المناداة بهذا الواجب الحيوي الخطير .

إن الذي يقيم في القاهرة أو الاسكندرية أو في بعض عواصم الأقاليم جدير بأن تغيب عنه الحقائق التي تحيط بسائر الإخوان الذين يعيشون في القرى والكفور . إن هذه الطرق التي نسير فيها في العواصم ، وهذه العمارات التي تحف بالشوارع الكبرى ، وهذه الفيلات البديعة التي تملأ الأرباض ، وهذه البساتين أو الحدائق الباسمة التي تطلع على الأنظار من ثنايا المساكن الرائعة ، كل هذه لا تستطيع أن تمثل وطننا المصري بحال من الأحوال . فالذي يمثله في الحقيقة إنما هو هذا الريف بحقوله وطرقه ومساكنه الموزعة في العزب والكفور والقرى . ومن شاء أن يبرز لمصر صورة صادقة كان عليه أن يتجه نحو الريف وحده، فهناك روح مصر وهناك الحياة المصرية الصميمة . والشعب المصري الحقيقي ليس هو هذا الحضري النظيف الذي يزدحم في دور السينما أو التمثيل أو المتنزهات العامة ، وليس هو هذا الملأ النشيط في المتاجر والمصانع . ليس الشعب المصري هو هذا وإن كان سكان الحضر جزءاً من شعب مصر . فالجزء الأكبر من الشعب إنما هو المتمثل في هذه الملايين المنتشرة الموزعة على حقول الوجهين القبلي والبحري ، تعمل في الشتاء القارس والصيف المحرق في الري والعزيق والحرث وإنتاج جل ثروة البلاد من محاصيل نباتية وحيوانية .

هـذه كلها بديهيات ، ولكنها مع ذلك لا تبرز فى الأذهان بروزاً كافياً ، بل تطغى عليها مسائل أخرى تشغل الجانب الأكبر من اهتمام أولى الشأن من رجال الحكم ورجال الفكر .

لقد كانت المسائل السياسية ولا تزال إلى اليوم صاحبة المكان الأول من اهتمام المشتغلين بالأمور العامة ؛ فالأحزاب السياسية والجماعات المثقفة التى تمثل المهن الحرة والمنتديات الأدبية والاجتماعية ودوائر المفكرين الخلاق الشارب — هذه كلهـا تجعل المكان الأول من تفكيرها للمسائل السياسية ، سواء منها مسائل السياسة الداخلية ومسائل السياسة الخارجية . ولسنا نزعم أن هذه المسائل غير جديرة بالاهتمام ، بل هى جديرة بالاهتمام الكبير . ولكن الشىء الذى نريد أن نوجه إليه النظر هو أن هذه المسائل السياسية على خطورتها لا تزيد على أن تكون فى المحل الثانى من الأهمية بالنسبة للحياة نفسها . إننا نحس أن حياتنا نفسها مهددة بأخطار جسيمة لا تحمينا منها كل السياسة الداخلية والخارجية .

نحن كشعب يتطلع إلى حياة نامية فى المستقبل القريب ؛ نجد أخطاراً تحيط بنا وتهدد هذه الحياة المستقبلة . فلو فرضنا أننا حققنا فى مصر كل نظم الحكم الصالحة وحققنا كل الاستقلال فى الداخل والخارج ، فإن تلك الأخطار التى تهدد حياتنا تنذر بأن تضيع كل جهودنا عبثاً .

هناك مشاكل ثلاث يعرفها الجميع ويتحدث فيها الجميع ، ولكن لا يعنى بها أحد عناية عملية كافية : هناك مشكلة الفقر ، ومشكلة المرض ، ومشكلة الجهل . وهنـاك مشكلات صغيرة تتفرع منها تكاد تنتظم كل مرافق الحياة اليومية للكتلة الكبرى من الشعب . فهل من المعقول أن يستفيد شعب من أى نظام صالح فى الحكم أو أى استقلال فى حكم نفسه أو أى مشاركة دولية مع بلاد العالم المتمدن ، ما دامت هذه الأدواء تنخر عظامه وتهبط به كلما حاول الارتفاع ؟

إن الحكم الصالح قد يتوفر تدريجياً . بل إنا نعتقد أنه سائر دائماً إلى الأمام رغم ما يبدو عليه من اضطراب يعتريه بين حين وحين . وأن الاستقلال السياسى فى الداخل والخارج قد يتوفر كذلك شيئاً بعد شىء ، بل لقد تقدمت مصر فى سبيله خطوات محمودة مع كل ما يبدو من التعثر فى سيرها نحوه .

ولكن الشىء الذى لم يحدث تدريجيـا ولم نخط فى سبيله خطوات ولو ضئيلة هو الحياة نفسها . والشعب إذا لم تلتمس له الحياة لم يكن أمامه سوى الهبوط نحو الفناء . وبضعة أعوام من سنوات المحن كانت كافية فى بعض عهود تاريخ مصر لأن تهبط بالدولة المصرية من ذروة المجد إلى حافة الهاوية . فإذا نحن تركنا الأخطار المحيطة بنا أن تستمر على تهديد حياتنا لم يكن لنا أى أمل حقيق فى المستقبل .

فليس لنا من طريقة أخرى إذا شئنا الحيـاة سوى أن نجعل لأنفسنا شعاراً وطنيـاً جديداً وهو « الإصلاح الشامل » .

لابد لنا من أن ندرس علة هذا الفقر الذى يسلب جمهور الشعب كرامته الانسانية ، وأن نعمل على القضاء عليه مهما كلفنا ذلك من تفكير ومال وسعى . لقد طالما بحثنا من أسباب ذلك الفقر وأعتقد أننا قد وضعنا أصبعنا السبابة عليها منذ طويل . فلم يبق أمامنا إلا أن نعمل على القضاء على تلك الأسباب كائنة ما كانت ونتجرد لها بما لدينـا من الشجاعة حتى تخلص حياتنا منها . فالأمر ليس موضعاً للمجاملة ولا للتريث ، بل هو أمر يتوقف عليه كل مستقبلنا . لابد لنا أن نلتمس موارد جديدة للثروة ، وأن نعمل على توفير هذه الموارد للشعب المصرى وأن نزيد بكل طريقـة ممكنة فى دخل الأفراد لكى تمكنهم من الحياة عند المستوى الذى يليق بالبشر أن يعيشوا فيه . وقد تعترض سبيلنا فى هذا اعتبارات شتى لها قوتها ، ولكن الواجب علينـا أن نجعل المسألة مسألة جهاد وأن ننظر إليها على حقيقتها بأنها مسألة حياة أو موت لنا .

وتوزيع الثروة طريق غير مباشر لتحسين مستوى حياة الكثرة من الشعب . وهو في مصر محتاج إلى كثير من التعديل والتحوير ؛ فالضرائب على الدخل وسيلة من وسائل إصلاح توزيع الثروة إذا كانت تصاعدية إلى الحد الذي يكفل التقليل من القيم المرتفعة من أصحاب الثروات الذين تزيد دخلهم على القدر المعقول . ليس من المعقول أن توجد فئة من أفراد يبلغ دخلها مئات الألوف من الجنيهات مثلاً في كل عام مع أن الفرد لا يحتاج في أعلى صنوف الحياة إلى مئات الألوف من الجنيهات . لقد لجأت انجلترا وأمريكا إلى المغالاة في الضرائب التصاعدية لمقابلة أزمة الحرب الحالية ، ونحن نواجه خطراً على حياتنا القومية لا يقل عن الخطر الذي يواجه انجلترا وأمريكا من الدول المعتدية . فواجبنا ألا نتردد ولا نخشى الخطوة الجريئة نحو الاصلاح إذا شئنا أن نحقق الاصلاح الجدي . وهناك ضريبة التركات ، وقد نظر فيها في الدورة البرلمانية الماضية ، ولكن أصحاب المصالح المادية لم يسمحوا للمبدأ السليم أن يسيطر على الأمور ، ولهذا خرج المبدأ ممسوخاً لا يكاد يغني فتيلا . وضرائب التركات في البلاد الأوربية قد تبلغ أكثر من نصف ثروة الشخص إذا بلغت مقداراً معيناً . وتجبى ميزانيات الدول من هذه الضريبة مئات الملايين سنوياً تستعين بها على الاصلاح الاجتماعي الذي يرتفع بالطبقات الفقيرة من شعوبها .

فاذا قلل ارتفاع القمم في الثروات وعمل على الارتفاع بالعامة من الفقراء كان هذا بمثابة تقريب بين مستوى الحياة في طبقات الأمة ، وهو من أول ما تقضي به المبادىء الديمقراطية الصحيحة . والصناعات المصرية سواء منها الصناعات الريفية والصناعات العامة من أكبر ما يساعد على فتح موارد الرزق للشعب . فواجبنا كذلك أن نستزيد منها وأن نفكر في الوسائل التي تخلقها ونتقدم بها نحو الكمال .

علينا أن نفكر في هذه الوسائل وأمثالها وأن نضع الخطط لتنفيذ ما نراه موصلاً إلى غايتنا ، وأن نقدم على التنفيذ بعد ذلك في جرأة وإخلاص . وليست مشكلة الفقر قائمة بذاتها منفصلة عن سواها ، بل هي أساس المشكلات الأخرى . فالأفراد إذا ارتفع مستوى حياتهم المادية أمكنهم أن يسموا بأنفسهم صحياً وعقلياً واجتماعياً . والدولة إذا توفرت لديها الأموال من وسائلها الطبيعية أمكنها أن تعمل على مداواة المشاكل الاخرى مثل الجهل والمرض وما يتفرع من تلك المشاكل الكبرى من شعب صغيرة

ولكن حل هذه المشاكل كلها لا يتأتى بمجرد التفكير السطحي ؛ فازالة الجهل مثلاً لا تتأتى بمجرد التحدث عن التعليم والبرامج وانشاء المدارس ، بل لابد لنا من أن نعد له عدة الجهاد الكامل ، وأن نقدر ما يجب له من الوسائل ثم نمضي نحو الاصلاح قدماً حتى نقضي عليه في مدة محدودة . فلا غنى لنا عن أن نبدأ منذ الآن في إعداد الخطط المفصلة للاصلاح وأن نعزم عزماً صحيحاً على إنفاذه وتدبير ما يلزم له . وليس هذا بالمستحيل علينا إذا توفرت لنا الشجاعة والعزيمة .

إنه ليحز في نفوس المخلصين من أبناء مصر أن يسيروا في قرية من قرى الريف فيروا طرقاً عفنة ومساكن كالقبور وأكواماً تنوء في ظلالها الأوبئة ومساكن خاوية من الطعام والأثاث بل من أشعة الشمس التي تغمر الفضاء كله ، فاذا رأوا في الطرق أناساً رأوا أسمالاً بالية فوق أجسام نحيلة ووجوه شاحبة ما كان أجملها لو اكتست لحماً ودماً .

إن القرية في حاجة إلى الطريق النظيف وإلى البناء الملائم ، وإلى القوت وإلى العمل المنتج الذي يعود بالرزق الكافي وإلى الدواء للمرضى من مرمودين ومحمومين ومبطونين ومصدورين وغيرهم ممن تفتك بهم الأمراض ، وهي محتاجة إلى العلم الصحيح الذي يرتفع بالعقول إلى الادراك الانساني وبالنفوس إلى الكرامة البشرية

القرية محتاجة إلى كل هذا ، وإلى أن يتم لها كل ذلك فكل رقي سياسي لا يجد من تحته أساساً يسمو فوقه . ولا يمكن أن يقام بناء إلا إذا قام أولاً من تحته الأساس المتين .

محمد فريد أبو حديد

تكييف الهواء

نحن الآن في مصر يصح أن يسمى عصر التطبيق العلمي . فقد أحس الناس أن تقدم العلوم إنما يستغل في الصناعات الكبرى لمصلحة الرأسماليين دون الأفراد العاديين ، فبدأ رجال العلم يفكرون في استغلال كل فكرة حديثة في اختراع جديد يكون فيه لبني الإنسان عون على قضاء حوائجهم أو تسهيل لعمليات صعبة أو مصدر بهجة واستمتاع .

ولعل الدور الذي لعبته الكهرباء في هذا الصدد أهم من أي دور آخر فإلى جانب تطبيقاتها القديمة التي ينعم بها الناس الآن كتسيير عربات الترام وتسهيل الإضاءة بالأنوار الكهربائية والتلغرافات والتليفونات واللاسلكي إلى غير ذلك مما يعرفه الجميع — بدأت الآن اختراعات جديدة تتغلغل في صميم الحياة الخاصة في المنازل والمجتمعات . فهناك أولا أجهزة الكنس والطبخ وثلاجات الحفظ وما إليها من أساليب علمية تسهل على ربة المنزل عملها وتحافظ على أطعمتها وما تخزن من مواد ، وتوفر لها وقتاً طويلا وتكفل لها الراحة والنظافة .

كل ذلك بدأت تظهر آثاره قبل الحرب الحاضرة وسيكون له شأن عظيم بعدها . وقد يكون من أهم الصناعات التي ستنشط بعد الحرب وتدخل في دور عملي عميق الأثر في الحياة العملية وفي الشئون الاجتماعية ، صناعة أجهزة تكييف الهواء ؛ تلك الصناعة التي لم تكمل الأربعين من عمرها وعاجلتها الحرب الحالية وهي على أبواب الظهور ، كبيرة الأمل في أن تذيع بين الناس وتدر على المشتغلين بها أرباحا تعوض عليهم ما صرفوه من جهود وما بذلوه من أموال في البحث والتجريب حتى جعلوا من تلك الفكرة الخيالية حقيقة تطبيقية . وقد عثرنا على مقال ممتع في هذا الموضوع بإحدى المجلات الأمريكية فآثرنا أن نقتطف منه للقراء بعض معلومات لعلها تلذ القارئ .

واصل رجال تلك الصناعة البحث والتجريب واستطاعوا أن يطبقوا نتائج بحوثهم على نطاق محدود في الجهود الحربية كاستخدامها في الأقبية والمخابئ الكبيرة التي تحت الأرض وفي المستشفيات وكذلك في الميادين المدنية كاستخدامها على نطاق ضيق في المعامل والمصانع والمكاتب وفي المستشفيات المدنية لعلاج بعض الأمراض ، وها هم الآن وقد لاحت في الأفق الأمارات التي تدل على قرب انتهاء هذه الحرب الضروس ، أخذوا يضاعفون جهودهم ويعدون العدة ليجهزوا لكل إنسان ما يكفل له الراحة والمتعة ويهيء له الدفء في الشتاء ، والبرودة التي تلطف له الجو في الصيف في كل مكان إلا العراء .

وبذلك صار للانسان أن يؤمل أن يظفر بنوم هادىء في حجرته الخاصة نتيجة لتهيؤ الجو اللازم وتحقيقه في كل وقت وعلى الرغم من التقلبات الجوية الطبيعية ، كما صار له أن يؤمل بعد سنوات قليلة أن يركب في طريقه إلى محل عمله في وسائل نقل قد أمدت بأجهزة لتكييف الهواء ، فإذا ما وصل إلى مكتبه أو مصنعه أو محل عمله أياً كان ألفى الجو فيه مستحباً منعشاً عما تهيأ له من أسباب التكييف الصناعي . فكأنما الجو قد أصبح تحت سلطان الإنسان يهيئه كيف يشاء ، مثله في ذلك كالثوب أو قطعة القماش يصنعه الحائك اللباس الذي يروق لصاحبه .

وإليك طائفة من الأسباب التي تحمل رجال صناعة الجو هذه على التفاؤل والتطلع إلى مستقبل زاهر :

أن وحدات التكييف للغرفة الواحدة المفردة في أي مكان ستكون بعد أن تضع الحرب أوزارها خفيفة الوزن سهلة التركيب تحوي من المواد وتتطلب من العمليات ما أمكن استنباطه وتنميته في خلال فترة الحرب .

وهذه الوحدات عبارة عن جهاز فى حجم معقول يمكن نقله من غرفة لأخرى فاذا ما اتصل بالبريزة الكهربائية أخذ يؤدى وظيفته فهو فى حجمه وفى تنقله يشبه جهاز الراديو العادى .

وقطـارات الركاب الجديدة التى ستبنى بعـد الحرب ستكون كلها كما يتحدثون مكيفة الهواء كما أن سيارات نقل الركاب عبر القارات وبين الممالك ستعول على تكييف الهواء لتجذب من السياح المتعطشين للسياحة بعد الحرب عدداً كبيراً مربحاً ويتنبأ الخبراء بأنه قد اقترب الوقت الذى ستكون فيه السيارات العادية وقطارات الركاب التى تسير تحت الأرض ومساربها مجهزة كلها بأجهزة تكييف الهواء .

ويلاحظ كذلك أن المحلات التجارية الكبيرة والفنادق وصالات السينما والمسارح وجميع المؤسسات التجارية التى لم تكن مجهزة بجهازات تكييف الهواء ، ورأت بعينيها كيف يفر منها القاصـدون إلى نظائرها ذات الهواء المكيف وأحست بتناقص فى إيراداتها عاماً بعد عام — كل هذه المؤسسات ، وما أكثر عددها ، تنتظر نهاية الحرب بفارغ الصبر وتتهيأ لتعويض مافاتها وتركيب الأجهزة التى تجعل من صالاتها وغرفها نعيما يجذب الناس ويعينها على منافسة جيرانها واستعادة العدد الكبير من روادها .

بل ان الأسر الصغيرة نفسها ذوات اليسار وطلاب المتعة وعشاق النعيم يتطلعون لأن تتاح لهم الفرص لتركيب تلك الأجهزة الحديثة فى بيوتهم ، ولم يقتصر الأمر على المنازل بل إن أصحاب السيارات الخاصة بدءوا يفكرون فى الاستفادة من هذا الأثر الجديد للمدنية .

كل هـذه الاعتبارات حفزت رجال صناعة تكييف الهواء إلى مضاعفة جهودهم لا للتحسين فحسب وانما لمواجهة تلك الطلبات التى ستنهال عليهم بكثرة لم يعرف لها مثيل . كما أن رجال البحث أخذوا يدرسون كيفية تركيب تلك الأجهزة فى السيارات بحيث تدار بواسطة محركاتها وتتغلغل فى أجزائها بصورة لا تضايق الراكبين ولا تؤثر فى جمال السيارة بل تزيدها حسنا كما يبحثون فى طرق تقليل نفقات الصنع بحيث تصبح محتملة . ويقال إن إحدى الشركات قد توصلت بالفعل إلى جهاز لتكييف الهواء فى السيارة تبلغ نفقاته نحو ٢٠٠ دولار أو أقل

وهناك ناحية ثانية من النواحى التى تستهوى رجال الصناعة وتدفعهم إلى استخدام تلك الأجهزة ، ألا وهى أن التحكم فى الهواء ، وامتلاك ناصيته وتكييفه حسبما يشتهى الانسان ، عامل أساسى فى المعامل والورش الميكانيكية والمصانع الكبيرة لعمل الآلات الدقيقة . ولذا يلعب تكييف الهواء فيها جميعا دوراً لا يقل فى أهميته وضرورته عن الأيدى العاملة وكفاءتها والآلات الخاصة التى تبتكر للاستخدام فيها . ولنضرب لذلك أمثلة توضحه :

لكى نضمن تعشيق التروس الكبيرة الهائلة بكيفية تامة دقيقة فى مجاميعها المستخدمة فى تسيير بواخر نقل البضائع وأمثالها ، لا بد من أن تقطع تلك المجاميع من التروس عند صنعها فى درجة حرارة ينبغى أن تظل ثابتة طول مدة إجراء تلك العملية الميكانيكية من أولها إلى آخرها وهى تستغرق نحو أسبوعين كاملين . كذلك النشآت التى تقام لصنع أنواع معينة من المطاط بالطريقة التركيبية ، هذه النشآت تحتاج لأن تكون درجة الحرارة فيها نحو المائة الفرنهيتية تحت الصفر طول مدة اجراء العملية .

ثم إن التسلط على درجة الحرارة عامل مهم فى اختبار أجهزة الراديو ، ذلك لأن صناعها يتحتم عليهم أن يعرفوا إلى أى حد سيقوى الجهاز على احتمال التغيرات الشديدة الفاجئة فى درجات الحرارة كالتى تحدث عندما تتوغل الطائرة مصعدة فى طبقات الجو العليا ثم تهوى فجأة منحدرة إلى الطبقات السفلى . تلك التغيرات يجب أن يعلم بالضبط أثرها فى

الأجهزة وهذا لا يتسنى إلا إذا توفرت لصناع الهيمنة الكبرى على تقليب جو المصنع حسبما يشتهون وبالسرعة التي يريدونها .

والآن فلنبحث إذا كان في مقدور صاحب البيت المتوسط الحال أن يتحمل نفقات تكييف هوائه :

يقول رجال هذه الصناعة إن ذلك ممكن لا سيما إذا قنع رب الدار بوحدة من وحدات الغرفة المفردة قصد تلطيف الجو في الصيف فقط وتشير الدلائل كلها في الوقت الحاضر إلى أن تلك المستحدثات من الأجهزة التي تلطف الجو وتقلل رطوبته وتنقي الهواء وتصفيه وتجدده ستباع بمبالغ تتراوح بين ١٧٥ ، ٤٠٠ دولار .

ووحدة الحجم من الجهاز اللازمة لتبريد غرفة ما في الصيف ، بحيث تكون درجة الحرارة فيها ممتعة تشع البهجة في نفوس الجالسين فيها ، تتوقف على عوامل ، كموقع الغرفة في البيت وكمدد ، مابها من نوافذ وعدد الأشخاص الذين يستخدمونها . وعند رجال الصناعة قاعدة سهلة يقدرون بها أن الوحدة التي تتكلف ٢٠٠ دولار تناسب كل ١٥٠ قدماً مربعة من المساحة الأرضية .

أما تكاليف إدارة هـذه الوحدة للغرفة المفردة فتبلغ ما بين أربعة دولارات وسبعة في الشهر ، وهذا بالطبع يستمر لمدة أشهر الصيف وحدها ، وقد يقل إذا استغنى عن استخدامها في بعض أيام الأسبوع .

وأما تكييف الهواء في المنزل طول العام كله فمسألة أخرى ، لأن الأمر لا يقتصر هنا على تلطيف الجو في فصل الصيف كما قدمنا ، وإنما يتناول أيضاً التحكم في الجو بحيث يمكن بث الحرارة والرطوبة في الهواء خلال الشتاء. والشعور العام السائد عند رجال هذه الصناعة هو أن ما سيبنى من بيوت جديدة بعد الحرب سيقيم أصحابها فيها مثل هذه الأجهزة . وقد كانت إحدى الشركات قد أعدت مثل هذه الأجهزة بالفعل قبيل الحرب ، ويعتقد موظفوها أن تكييف الهواء في البيت طول العام كما تقدم سيتكلف أقل من ١٥٠٠ دولار ، وهم يقدرون استخدام مثل هذه الأجهزة في معظم المنازل التي ستبنى بعد الحرب وتبلغ تكاليف إنشائها ما يربو على ٨٥٠٠ دولار .

كما يروى أن تكييف الهواء في المحل التجاري الصغير يتكلف من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ دولار بينما تتكلف صالة السينما الكبيرة من خمسين إلى مائة ألف من الدولارات تبعاً لعدد المقاعد فيها والحيز الذي يشغله كل واحد من هذه المقاعد .

بقي علينا أن نشير إلى ماهية تكييف الهواء هذا وكيف يحدث ؟

التكييف هو التسلط على حيز محدود مقفل من الهواء بحيث يتمكن الإنسان من التحكم في درجة حرارته وفي مقدار الرطوبة التي فيه وفي نقاوة هوائه وتوزيعه . فالتخلص من الحرارة مثلا يتم بواسطة إدخال تيار من الهواء إلى تلك المساحة له من البرودة ما يكفي لامتصاص الحرارة التي في الجدران والحرارة التي تبثها الأنوار وما يصبه الحاضرون في الغرفة من حرارة تنبعث من زفيرهم وتشع من أجسامهم . ويتم تبريد الهواء الداخل عن طريقين : إما بإمراره على نافورة من الماء البارد أو على سطح معدني بارد أيضاً يكون في العادة على هيئة أنابيب . وكلتا الطريقتين مستخدمة في الوقت الحاضر ، وإن كانت الثانية أفضل . وفي كلتا الحالتين يجب التخلص من الحرارة التي يمتصها الماء في الأولى والمعدن في الثانية باستمرار حتى يطرد امتصاصها للحرارة .

وأما تسخين الهواء وتنقيته وتجديد درجة الرطوبة فيه فتحتاج كلها لإجراءات خاصة بعضها معقد . ولعلنا نستطيع أن نوافي القراء في فرصة أخرى ببيانات عنها ، وبتفصيل فني أوفى للعملية كلها ونتناول ما ينتظر أن يكون لهذا التكييف من مستقبل وأثر في مصر بصفة خاصة .

أحمد عبد السلام الكرداني

إسماعيل بك غاصبرينسكي

— ٢ —

في الساعة التاسعة من مساء يوم الجمعة ٢٥ من رمضان سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) تم عقد الاجتماع من عظماء المصريين وأمرائهم وعلمائهم وكتابهم وأعيان النزلاء فيهم؛ وقد بلغ عددهم نحو ستمائة نفس، فوقف الشيخ علي يوسف وافتتح الحفلة قائلا:

« أيها السادة المحترمون:

« سيقوم خطيباً بينكم الآن رجل من أعيان مسلمي روسيا وكبار رجال النهضة الاسلامية في تلك البلاد، يناجيكم الحديث في موضوع يهم كل مسلم بل كل شرقي يعنيه ارتقاء الشرق وتقدمه، وهو عقد مؤتمر إسلامي عام يبحث في أحوال المسلمين الاجتماعية وفي أسباب تأخرهم تجاه هذا الارتقاء العصري الذي شمل أكثر الأمم شرقا وغربا » ثم سرد أعمال اسماعيل بك المهمة التي قام بها في روسيا، وختم خطبته قائلا:

« فترون من هذا أن ضيفنا الكريم الذي أقدمه لحضراتكم بهذا التعريف قد أفاد قومه في النهضة العصرية أكثر من عدة رجال يقفون حياتهم على خدمة أمتهم خدمة عالية خالية من مظاهر الرياء والخيلاء، أكثر الله من أمثاله بين المسلمين »

ثم قام اسماعيل بك فألقى خطبته باللغة التركية (وتليت ترجمتها بعد ذلك). تحدث أولاً عن حياة المسلمين في روسيا ثم انتقل إلى موضوع التعليم العام الذي جاهد في سبيله عمره فقال:

« نرى المسلمين اليوم تنبهوا بعض التنبه في الأقطار الإسلامية كافة، وهب فضلاؤهم لإنشاء الصحف والجرائد التي لها أثر عظيم في تنبيه الأفكار والإرشاد إلى الخير والصلاح، ونسمع أن مسلمي بعض البلاد ينشئون جمعيات خيرية وطنية؛ هذه علائم خير تقر بها عين كل إنسان ناصح للانسانية، ولكن لا يجوز لنا البتة أن نجتزىء بهذه العلائم الحسنة ثم نخلد إلى أرض الدعة والكسل، فالمستقبل الحسن لمن يدأب ويعمل. لا جرم أن المرء إذا جال بطرفه في الأقطار الإسلامية من مدينة قازان الشمالية إلى مصر الجنوبية، ومن مراكش الغربية إلى جاوا الشرقية يرى علائم الانحطاط أكثر من علائم الارتقاء.

« فقد عادت معظم المدارس (يقصد المدارس الدينية) مثابة للعاجزين والعاطلين واندثرت الصناعات الوطنية أو أشرفت على الدثور. أصبح حظنا قليلا من تجارة العالم، وبدا مثبلة في الصرف والشؤون المالية، ونصيبنا عدماً في التجارة البحرية. وليس لهذه الأمة التي ينيف عددها على ثلاثمائة مليون، شركة مؤلفة من ثلاثين سفينة، كما أنها لا تملك مصرفاً رأس ماله خمسة ملايين جنيه مثلا »

ثم قال: « ولا نكاد نجد تاجرا مسلما في جميع البلدان الأميركية والأوربية إلا في النادر، وإذا رأيت هناك تاجرا شرقيا فهو إما أرمني أو بوذي هندي أو صيني »

ثم قال بعد كلام مؤثر:

« إذا فقدت أمة من الأمم استقلالها تحت حكم الأجنبي فإنها تخسر خسرانا مبينا. بيد أن هذا الخسران لا يقام له وزن — في مذهبي — في جانب الخسارة التي تخسرها الأمة التي تقاعدت وتواكلت ثم سقطت من مكانتها في ميدان العمل والاقتصاد »

وتساءل بعد ذلك عن أسباب هذه الحال من الضعف والانحطاط الشامل لجميع المسلمين وأبان أنه عاجز عن الإجابة. ثم قال:

« إن استعداد الأمة العربية المدنية قد ثبت عندنا بتاريخها المتلألىء اللامع.

« ويرشدنا إلى استعداد الأمة التركية المدنية ما تركه لنا علماؤهم من المؤلفات النافعة. وأطلال مرصد سمرقند

تشهد بشغف هذه الأمة بالعلم والعرفان . ثم ألا ترى الفنلنديين والمجريين يبارون الأقوام المتمدنة ويجارونهم فى كل شؤونهم ، ونحن نعرف أن هذين الشعبين والترك يتفرعون من أصل واحد .

« القصد من سرد هذه الأدلة التاريخية ، إثبات أنه ليس سبب انحطاط العرب والترك والفرس والهند اليوم هو نقص فى فطرتهم وضعف فى استعدادهم . وأما الدين الإسلامى الذى ندين به فهو دين يخاطب العقل ويحث على العمل والدأب ويتوط نجاح الانسان بعمله ، ولكن سيرتنا تخالف هذه الأصول الكريمة مخالفة ظاهرة . ما السبب فى هذه المخالفة » ؟

وتحدث بعد ذلك عن أن كشف النقاب عن أسباب انحطاط الأمة الإسلامية ليس فى طاقة فرد أو فردين، بل لابد من عقد مؤتمر عام يجتمع فيه علماء الأمة وعظاؤها للتشاور فى الأمر ؛ وأن هذا المؤتمر غير الجامعة الإسلامية التى يخشاها الأوربيون ، ثم اقترح عقد مؤتمر إسلامى عام لايتطرف إلى البحث فى الأمور السياسية ، ويكون بابه مفتوحا لكل من يحب استماع المذاكرات ، وتنشر خلاصة المناقشات فى الصحف ، ورأى أن يكون موعد أول مؤتمر فى عيد الفطر القادم . واستحسن أن يكون عقد المؤتمر فى الاستانة أو فى مصر ، المركز الثانى ، ولا يرى عقده فى جنيف مثلا .

ثم قام الشيخ على يوسف واختتم الحفلة قائلا :

« أيها السادة : إن أرجى دعوة بين الناس للقبول دعوة قابلت استعدادا تاما من النفوس ، ومكانا واعيا من القلوب .

« وكثيرون من فضلاء المسلمين فكروا فى مشروع هذا المؤتمر ، حتى إن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكواكبى أوجده خيالا وحشد له فى دائرة ذهنه مندوبين من كل الممالك الإسلامية ، ألقوا خطبا سامية ومفيدة نرى مجموعة الآن فى كتاب خاص مشهور فى مصر وغيرها ، وسيكون كتابه هذا دليلاً للناظرين فى أحوال المسلمين الفلسفية والاجتماعية . ولسماحة السيد البكرى كلام مفيد بشأن هذا المؤتمر فى كتاب سماه « المستقبل للاسلام » . ففكرة المؤتمر الإسلامى العام ثمرة ناضجة لغراس عقول كثيرين من عقلاء المسلمين المفكرين ، ولكنهم لم يوفقوا حتى اليوم إلى رجل نافذ العزمة يقطع سفرا طويلا ليسمع المسلمين أجمع صوته العالى من مكان جدير بأن يسمع منه صوت الحقيقة فى كل مكان وزمان .

أما الآن وقد وفق الله خطيبنا الفضال إلى هذه الدعوة المباركة فى بلد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مصر كنانة الله فى أرضه» . هذا البلد الذى أصبح كعبة الإسلام العلمية منذ ألف سنة وأكثر . فقد أجيبت دعوته»

ثم أعلن الشيخ على يوسف أسماء الأعيان والعلماء والأساتذة الذين قبلوا أن يكونوا اللجنة التحضيرية الأولى التى تنظر فى اقتراح اسماعيل بك غاصبرينسكى ؛ ولم يبق منهم الآن على قيد الحياة إلا حضرة صاحب السعادة عبد العزيز فهمى باشا وحافظ عوض بك .

ولما بلغت حركة عقد المؤتمر الإسلامى إلى هذا الحد أصدر إسماعيل بك جريدة باسم « النهضة » تبحث فى المسائل السياسية والإصلاحات الاجتماعية ، تصدر يوم الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع . وقد صدر منها أول عدد فى يوم الجمعة ٢٦ محرم سنة ١٣٢٦ (٢٨ فبراير سنة ١٩٠٨) .

هذه نبذة من أعمال المصلح التركى الخاص إسماعيل بك غاصبرينسكى منذ خمسة وثلاثين عاما . لقد كان رحمه الله جاداً فى حركاته فى سبيل إصلاح حال المسلمين الاجتماعية والعقلية ، ولأسباب كثيرة لم يستطع الوصول إلى غايته المنشودة ، ولكن عمله هذا يصح أن يتخذ مثالا لنشاط المرء فى الخدمة العامة والتفانى فيها .

حمزة طاهر

من القاهرة إلى المعرة

يا أبا العلاء :

رمتني إرادة الحياة إلى دنيا كدنياك ، فتكشف ضبابها لبصيرتي من واقع أخمد في قلبي مشاعر الحياة وأطفأ من ضميري مشاعل الإيمان ، ثم سايرت موكب الزمن : جبت جلدته الأرض وروح قد وسع الأرض والسماء ، وأطعمت نفسي من ثمار الخطيئة حتى ورمت وأحرقتها في لهب الصلاة حتى تلاشت ، فلك وما أغنتني خطيئتي وصلاتي أكثر من أني حي وسوف أموت .

شيخ المعـــرة يا من ذاق آلامي
أيامك السُّود كانت مثـــل أيامي
شكوتُ ما كنت تشكوه وفزّعني
ما أثقـل الأرض من رجس وآثام
وعشتُ في سجنك المشئوم واختنقت
في ظلمة السجن أحلامي وأحلامي
ومزّقتني ظنونٌ طالما اصطرعت
في قلبك السمح أوهاماً بأوهام
كفرت ما كنت أرجـوه فلا صنمٌ
إلا ودنسه وحـــي وإلهـــامي
وأيقظتني خطوبٌ ، لم أجد أملاً
إلا رأيت جناه تحت أقـــدامي
طويتُ أعوامهـا قبل الأوان فلم
أسكنْ لظـل ولم أطربْ لأنغام
مواردي كدرٌ والنفس ظامئةٌ
تطوف بالمـــاء في شوق وإحجام
نفضتُ كفي من يأس ومن أمل
وارتدَّ قلبي لا راوٍ ولا ظـــامي
هول التجارب ألقى الرعب في جسدي
فبتُّ أفزع من فأر وضرغام

شيخ المعرة ولّى سحر أهوائي
وطـال عن سوأة الأيام إغضائي
بنو الأوان مُسوخٌ لا كِيَانَ لهم
مرضى القـلوب خطيئاتٌ لآباء
موتى الشاعر إلا يوم نافهـــةٍ
تُمنَى البصائر إلا نحو أقـــذاء
هـــدَّت كيانيَ بلوامم وحيَّرني
داء التفاهـة في موتى وأحيـــاء
كأن زوزة الأفـــواه في أذني
رشاش سم على قلبي وأحشـــائي
نقيءُ سمٍّ أشـــهى ما يفوه به
خيـــارهم يوم سراء وضراء
هم كالذباب ، فلا خيرٌ بأنفسهم
لأصـــدقاء ، ولا شرٌّ لأعـــداء
كلٌّ سواءٌ ، فـلا برٌّ يفيء له
قلبي . ولا فاجرٌ أصليـــه بغضائي
أقتُ فيهم سجين الروح منفرداً
أزجي الحديث لهم ضناً بإصغائي
وأين أذهب ؟ لا ساق بناهضةٍ
يوم الرحيل ولا خطْى بعداء !
شيخ المعرة يومٌ هـــزّ أوتاري
وفجرت كأســـه قلبي وأشعاري
أثار عيـــدك في نفسي مواجعها
ورجّ طالعـــه المحزون مضماري
وجئت ذكراك محموم النهى ثملاً
جمّ البـلابل ، آمالي كأسحاري
خواطري تلتوى بين موصـــدة
وقودها من أعاجيبي وأسراري
في مهجتي عصفة من كل تجربة
تغلي بواطنهـا بالهـــل والنار

وفي الجوانح أهوالٌ وفي كبدي
رواسب الدهر من سيل وإعصار
وفي الأضالع خفّاقٌ أخو محن
لا يطمئن إلى أهل ولا دار
أبث روحك همًّا أنت تعرفه
وأنثر النفس آهات بقيثاري
وأسكب الدمع في مغناك مختنقاً
وأنزح الشجو من داء بأغواري
وألفظ القول محدوراً تبلبله
مرارةٌ في فمي من خبء أعماري
شيخ المعرة هاج البعد أوصابي
وذكرني تباريح الشجى ما بي
وطال عتبي على الأيام أسألها
وعداً كريماً فما جادت بإعتاب
أكابد الناس والأرزاء في زمن
كأنني منه بين الظفر والناب
قلبتُ دهري في نور وفي ظُلَم
وذقت كأسيه من شهد ومن صاب
الصاب قطّع أحشائي وأسقمني
والشهد لطخ بالأدران أثوابي
وقادحٌ أن أقيم الفجر مبتهلاً
فألمحُ الكفر في أستار محرابي
وأن أمدُّ إلى تغريدة أذني
فأسمع اليوم نعى خير أحبابي
هي الليالي أداريها فتنفحني
بكل خطب كريه الهمّ جذّاب
شرُّ البلاء خطوبٌ هلّ وافدها
فقمت أفتح من كره لها بابي
طوبى لدنياي . ما قدمتُ من عمل
إلا وجُنّ لدى الميزان أربابي

شيخ المعرة أدمى السُّهد أجفاني
وأسقمت وخزات الشك إيماني
أين المقام . فريح الليل عاصفةٌ
وخطفة البرق أعشتْ نور وجداني
وفي المضاجع أشواكٌ وفي ورمٌ
من انطوائي على جرحي وكتماني
خلف الضباب أعاجيبٌ تربصُ لي
يوم الصفاء سألقاها وتلقاني
من ظامئات وراء الأفق لاهثة
وجائعات من الأغوال والجان
يا ربها أنا وحدي في مواطنها
والرعب أزهق أنفاسي وأشجاني
لم يَبق في مهجتي زادٌ لجائعة
ولم يَعُدْ في دمي ريٌّ لظمآن
مال الزمان على نفسي وغيرني
شعث التصبر وستري وجُنّة خذلاني
وأسكر البينُ آلامي ودوّخني
عطف الأقاصي على يأسي وأحزاني
أيام ربحي — لا كانت ولا رجعت —
أدهى وأفجع من أيام خسراني
شيخ المعرة أبلى الدهر أجوائي
وأطفأ الشمس من آفاق صحرائي
طويتها دائر العينين منتفضاً
أبدي الأنين وأخفي موطن الداء
وأبسط النفس للمجهول منتظراً
شدائد الغيب في صبحي وإمسائي
وأشتهي زلة المكروه إن ومضت
بروقه ، وتهادى فوق أرجائي
وأستحي أن ترى الأقدار بي ظمأ
لجودها ، أو تراني خلف أهوائي

تذوب إن مسّ ضوء الشمس خلقتنا
وترتوى بالصدى كبراً على الماء

نجنى ثمار الدواهى قبل موسمها
ونبرىء النفس من داء بأدواء

نقيل فى غير ظل يوم عثرتنا
ونهضم السُّوء فى ضُر وظلماء

وكم جفنّا وكم هامت مشاعرنا
بعانس من بنات الدهر شوهاء

وكم عفونا وكم سدت مناقصنا
ضراء تخطر فى أثواب سرّاء

شيخ المعرة هل مستك أهوالى
وهل طويت زماناً تحت أثقالى

هجرت دنياك لم تشهد مباذلها
ولم تعرج على صحب ولا آل

ولم تساير مودات على ريب
ولم تصانع أذى عم ولا خال

ولا الوجوه إذا اهتزت ملامحها
بغمزة السوء من بال إلى بال

ولا العيون إذا رقت بخائنة
ولا تميُّع مسئول ومختال

ولا حبائل مطموس على جدث
به رميم الخطايا منذ أجيال

ولم تصعّد أمانيًّا إلى شجر
مدّ الظلال على طين وأوحال

ولم تضاحك غراب البين تحسبه
غريدة سانحة من يوم إقبال

ولم تذق خسة الدنيا إذا مزجت
كأس القلى بأشواق وآمال

ولم تكابد رزاياها إذا جلبت
شؤم المشار على ضيم وإقلال

شيخ المعرة عيد مثل أعيادى
وساعة ذكرتنى يوم ميلادى

يوم كيومك لم تصدق بشائره
ولم يدر كوكب فيه بإسعاد

نزلت دنياك ضيفاً يرتجى كرماً
فعشت فيها سجيناً بين أصفاد

تمجد الحبر فى قوم أولى سفه
صفر المشاعر من غل وأحقاد

وتحسب الحقّ فى رأى فتشرعه
بفارع من غصون القول ميّاد

وروحك الطلق رفاف بطالعه
وجه الزمان بأشباه وأضداد

وقلبك العف مأخوذ بحكمته
بنى الحياة لأبناء وأحفاد

الشمس فى الأفق شىء لست تعرفه
إلا ظنوناً وإلا قول أشهاد

وعتمة الأرقم المسموم نورها
لينقل الشر من واد إلى واد

خطب جليل يصب الغيظ فى كبدى
وشرعة مالها فى الأرض من هاد

(كلية الآداب) محمد العمرى

العالم الإسلامي :

إندونسيا المسلمة

الإندونسيون الذين زاروا بلاد هارون الرشيد خلال القرن الثاني عشر رجعوا إلى بلادهم حاملين لواء الإسلام وقاموا في إندونسيا بدعوة واسعة النطاق للإسلام ، حتى انتشر الإسلام بسرعة . وقال الرحالة العربي ابن بطوطة في ١٣٥٠ « إن الملك في شمال سومطرة الذي عبر اسمه بالملك الصالح بعد أن دخل الإسلام قد ضحى بأمواله وبحياته في سبيل نشر الإسلام ، لا إلى رعيته فحسب بل إلى الجزائر كلها » .

وزيادة على جهود الإندونسيين في نشر الإسلام في بلادهم ، كان التجار المسلمون من العرب والفرس والهند قد وصلوا إلى إندونسيا واتجروا فيها منذ القرن الثالث عشر وساهموا مع المسلمين الإندونسيين في نشر الإسلام ، حتى أصبحت للعرب بوجه خاص السيادة الاجتماعية والأدبية في إندونسيا بسبب انتشار الإسلام فيها كما قال الأمير شكيب أرسلان في كتابه « حاضر العالم الإسلامي » : « إن المؤرخين الأوربيين قالوا : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت لتكفي في نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه ، فياضة الخيرات ، زاخرة العمران ، بل كانت معهم قوة أعظم من هذه ، وهي قوة العقيدة المحمدية التي هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام » .

وكان هؤلاء المبشرون في بادىء الأمر يقومون بالدعوة السلمية ، ولكن بعد أن قوى ساعدهم وبعد أن صار لهم شوكة وصولة قاموا بالقوة وهاجموا الممالك القائمة في طريقهم وحاربوا البوذيين والبراهمة حتى دخل الإندونسيون في الإسلام أفواجاً وجماعات ، وأسلم كبارهم قبل صغارهم ، حتى تحولت تلك الممالك الكثيرة إلى ممالك إندونسية إسلامية كانت تضاهي المملكة الإسلامية في الأندلس قوة وعظمة ، وبالأخص في القوة الروحية وقوة التمسك بالدين.



فبعض هذه الممالك الأندونسية الإسلامية لا تزال موجودة إلى أوائل هذا القرن ، وكانت آخرها التي تخضع لسلطة الحكومة الهولندية هي مملكة آتشة في شمال سومطرة ، إذ أن الحكومة الهولندية لم تستطع إخضاع هذه المملكة القوية إلا في ١٩٠٤ ، وذلك بعد أن خاضت الحكومة الهولندية غمار الحرب ضدها منذ ١٨٧٣ . وقد كلفتها تكاليف باهظة ، بلغت حتى سنة ١٨٨٤ إلى ١٥٠ مليون روبية ، وكلفتها بعد ذلك الوقت بمعدل سبعة ملايين روبية كل سنة ، حتى تم إخضاعها في سنة ١٩٠٤ . وجاء في كتاب الأمير شكيب أرسلان السابق ذكره ما يأتي : «وكان هؤلاء المسلمون هناك (أندونسيا) سلاطين وأمراء مستقلين ، فما زالت هولندة تتغلب على واحد بعد واحد حتى أخضعتهم لسلطتها تماماً . وكان استصفاء بقية استقلالهم في إخضاع « تواتح كو محمد داؤوت » سلطان آتشة الذي دخل تحت حماية هولندة في سنة ١٩٠٤ .

وكانت استطاعة هولندة إخضاع هذه المملكة القوية ترجع إلى الجهود الجبارة التي بذلها المستشرق الهولندي الدكتور سنوك ، هورجرونيه Dr. C. Snouch Thurgrgonje الذي تنكر ودرس تلك المملكة من جميع النواحي من طبيعة أهاليها وتضاريس بلادها وحصونها المانعة وما إلى

ذلك . كان يدرسها دراسة دقيقة استغرقت سبع عشرة سنة ، وعاش طول هذه المدة متنكراً فى زى المسلمين وسط هؤلاء الأهالى المحافظين بدينهم . ثم رجع إلى هولندة وكتب منها عدة كتب ونشر مقالات كثيرة ، وأصبح بعد ذلك مستشاراً للحكومة الهولندية ، يساعدها فى تسيير تلك الحرب كما أنه هو الذى يدبر الأمور الحكومية التى تمس الإسلام واللغة العربية فى إندونسيا لأنه ملم بالدين الإسلامى وباللغة العربية إلماماً تاماً وأقام فى الحجاز للدراسة على ما أذكر مدة أربع سنوات .

حالة مسلمى اندونسيا فى عهد الاستعمار الهولندى :

ومهما حاول المستعمرون أن يمحوا كل ما بقى فى نفوس الأهالى من الروح المعنوية التى تركها مجدهم الماضى وأن يقطعوا كل ما يمكن أن يصل بين ماضيهم وحاضرهم ، وأن يقتلوا بشتى الوسائل كل بذرة تنمو وتضىء مستقبلهم ، فهذه الروح المعنوية ، روح الحياة والحرية ، لا تزال متغلغلة فى نفوس المسلمين الإندونسيين ، حتى انفجرت واشتعلت حينما سنحت لها الفرصة .

فبدأت حركة الإصلاح الإسلامى فى إندونسيا معاصرة لحركتها الاستقلالية التى تسربت روح هذه الأخيرة من اليابان عقب انتصارها على روسيا فى سنة ١٩٠٥ ؛ ولكن روح حركة الإصلاح الدينى فى إندونسيا كانت تأتى من وادى النيل ، حيث ظهرت فى مصر حركة الإصلاح فى آخر القرن التاسع عشر على يد المصلحين الكبيرين وهما السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ الإمام محمد عبده .

منذ قرون عدة إلى أوائل هذا القرن كانت التعاليم الإسلامية فى إندونسيا مشوبة مشوهة بالتعاليم البوذية والهندوكية ، لأن هـذه التعاليم البوذية والهندوكية قد وصلت إلى إندونسيا قبل وصول الإسلام إليها بمدة طويلة جداً ، وفى بعض الروايات أن البوذية قد وصلت إليها قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

فبفضل روح حركة الإصلاح التى هبت من وادى النيل الفياض إلى إندونسيا الخصبة عن طريق الطلبة والكتب نبه المسلمون الأندونسيون فوقفوا على حقائق الدين الإسلامى وعرفوا أن الإسلام ليس ديانة خيال وخرافات ، ولا هو بالدين الذى يأمر الناس بالعبادة فقط ، ولكنه دين الحق والعمل ، دين الكفاح والجهاد ، دين يحمل فى ثناياه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة .

فأصبحت الحركة الاستقلالية تقترن بهذه الحركة الدينية التى أشعلت الروح الوطنية فى نفوس الإندونسيين حتى تكونت عدة أحزاب سياسية بمختلف ألوانها ، أو أن هذه الحركة الاجتماعية والثقافية والتعليمية الإسلامية هى التى تقترن بالحركة الاستقلالية ، إذ أنها انتشرت وترعرعت بحماسة ملتهبة من الحركة الوطنية ، وبالأخص بعد أن شددت الحكومة الهولندية الرقابة على هذه الحركة الوطنية وأوجدت عقبات كثيرة فى طريقها حيث كثرت الاعتقالات وامتلأت السجون وازدحمت غينة الجديدة بالمنفيين السياسيين ، فاستخبأ الإندونسيون بين أحضان الجمعيات الإسلامية ، واستظلوا تحت ظل الحرية الدينية ، وبهذا تضاعف عدد الجمعيات الإسلامية التى قدمت ولا تزال تقدم الخدمات الجليلة للبلاد .

من أكبر تلك الجمعيات الإسلامية وأكثرها نفوذاً الجمعية المحمدية التى قد أصبحت بوجود فرع من فروعها فى كل قرية من قرى إندونسيا ، وبكثرة أعمالها كالقيام بنشر الوعظ والدعوة الإسلام وإنشاء ملاجىء الأيتام والمحاجر والمستشفيات والصيدليات ، وبناء الجوامع والمدارس وغيرها من الأعمال الجليلة ، وبدقة نظامها وإدارتها ، أصبحت هذه الجمعية بكل هذا حكومة فى داخل الحكومة الهولندية ، وهى تعتمد فى سلطتها التنفيذية على القوة الروحية ، أى قوة تمسك الإندونسيين بدينهم .

وتتلو هذه الجمعية المحمدية الجمعية العائشية نسبة إلى

صور من بعود الشام :

ساطع الحصرى

وتوثيق الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية

(٢)

أما الواجبات ، التى يجب القيام بها ، لتوثيق الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية ، وتنظيمها ، فتنقسم ، كما رأى الأستاذ الحصرى ، إلى ثلاثة أقسام أساسية :

١ : رفع الحواجز التى تعرقل قيام الصلات الثقافية ، وتحول دون توثقها .

٢ : العمل على تقريب مناهج الدراسة فى البلاد العربية ، بعضها من بعض وتوحيد الاتجاهات المرسومة لها .

٣ : تعاون وزارات المعارف فى البلاد العربية معاً ، فى جميع الأعمال الإنشائية التى تساعد على تكوين ثقافة عربية موحّدة .

ثم يعمد الأستاذ إلى التفصيل .

أما أمر رفع الحواجز ، فهو ذو شأن كبير . ويشير الأستاذ عند التكلم عليه إلى أن سورية كانت فى طليعة البلاد التى آمنت بالفكرة العربية . وأن الشعب السورى ، كان ولا يزال ، أبعد الشعوب العربية عن النعرات الاقليمية ، التى تضعف قوة الفكرة العربية .

ويلاحظ الأستاذ أن الأنظمة والقوانين التى كانت تطبق فى معارف سورية ، كانت تستهدف ، بين أهدافها ، إضعاف هذا الإيمان ، والقضاء عليه .

بل إن واضعى هذه الأنظمة ، ذهبوا إلى أبعد من هذا

السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهى خاصة المسلمات ؛ وقد بلغ عدد أعضائها فى الاحصاء الأخير ثلاثة ملايين من المسلمات . وإن شاء الله سأكتب لكل منهما مقالة خاصة .

وبجانب هاتين الجمعيتين جمعيات إسلامية كثيرة ، وقد خطت هذه الجمعيات خطوة أخرى واسعة موفقة ، حيث إنها قد اتحدت جميعاً فى اتحاد واحد ، وعقدت فى سنة ١٩٣٩ مؤتمراً عاماً فى مدينة جوكيا كارتا بجاوة ، وتقرر فيه تأليف اتحاد عام لهذه الجمعيات الكثيرة سمى « مجلس الإسلام الأعلى » ، وقد عقد هذا المجلس عدة جلسات اتخذ فيها قرارات هامة كثيرة ، من أهمها مشروعان عظيمان وهما : إنشاء « جامعة إسلامية فى إندونسيا » ، وثانياً إنشاء شركة الملاحة لنقل الحجاج الإندونسيين لأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة .

فلعل المسلمين الإندونسيين قد قاموا بتنفيذ هذين المشروعين العظيمين فى خلال هذه السنوات الخمس التى انقطعت فيها عنا أخبارهم ، وسيبشر العالم الإسلامى — إن شاء الله — عن قريب بنبأ ما قام به المسلمون الإندونسيون من المشاريع العمرانية والدينية الإسلامية خلال هذه السنوات المضطربة .

هذه لمحة سريعة عن حالة إندونسيا المسلمة التى استولى عليها المستعمرون منذ ثلاثة قرون ، بعد أن كان لها تاريخ المجد والعظمة ، مما لا يقل عما لغيرها من البلدان الأخرى . اليوم استولت عليها اليابان ، فكأنها تنتقل من استعمار إلى استعمار ، أى أنها تنتقل من نار إلى نار ؛ ولكن بعد أن كان المحيط الهادى قد اضطرب منذ سنتين والمحيط الهندى لا يزال فى اضطراب ننتظر أن تنطفىء نار المحيطين ، ويصبح الاستعمار تعميراً وتصبح النار نوراً .

فهد الدين برنس

فى حقبة ماضية ، إذ لم يقفوا بمحاربة فكرة الوحدة العربية، بل تعدوها إلى التفريق والتجزئة فى سورية نفسها . ولكن هذه الأعمال كلها أدت إلى تقوية فكرة الوحدة السورية ، ثم الوحدة العربية . وبذلك نمت هذه الفكرة ولم يقض عليها .

ويسوق الأستاذ أمثلة من التدابير التى جعلت حواجز تضعف الصلات الثقافية . فيقول : إن منها حصرهم التدريس فى الجامعة السورية ، بالأساتيذ الذين درسوا فى معاهد سورية أو افرنسية فقط . ومنع الذين درسوا فى سائر الجامعات الأوروبية الأخرى ، أو الأميركية ، أو المصرية من التدريس فيها .

مع أن منفعة العلم والتعليم ، تقضى بانتقاء أساتذة الجامعة من أرقى أرباب العلم والاختصاص ، من غير نظر فى منشأ شهادة الدكتوراه التى يحملونها .

ثم إن إبعاد حاملى الشهادات الأجنبية (الانجليزية ، والأمريكية ، والمصرية) وحصر التدريس بمن كان ذا شهادة فرنسية ، يعد ّ(احتكاراً معنوياً) ينافى روح العلم الصحيح ، والتربية القويمة ، ويكون حاجزاً يعرقل الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية .

ويستنتج الأستاذ أن إلغاء هذه التدابير يضمن (استقلال سورية الثقافى) ، لأنها موانع معنوية تحول دون توثق الصلات .

* * *

وتأتى القضية الثانية ، وهى تكوين ثقافة موحدة تشمل البلاد العربية .

ولكن ما المقصود من « الثقافة الموحدة » أو « الوحدة الثقافية » ؟ .

إن كثيراً من الناس ، يفهمون المعنى على غير وجهه الصحيح . فيقولون : « إن الأقطار العربية يختلف بعضها عن بعض ، اختلافاً ظاهراً . من حيث الطبيعة والمناخ ، والأخلاق ، والعادات — من جهة . ومن حيث المستوى العلمى والاجتماعى — من جهة ثانية ، ولذلك فلا يمكن توحيد ثقافتها ... لأن فى توحيد هذه الثقافة ، قضاء على مميزات كل قطر .. بل إنها تؤدى إلى ارتداد ثقافة الأقطار الراقية ، إلى مستوى الأقطار المتأخرة ... » .

ويهزأ الأستاذ بهذه الأقوال . « إنى أشبه أقوال هؤلاء ، بمزاعم من يقول : « إن العظام تختلف عن الأعصاب كثيراً ، واللحم لا يشبه الدم أبداً . . . فإذا طلبنا توحيد هذه الأشياء المتخالفة ، نكون قد طلبنا إزالة الفوارق القائمة بينها ، وحاولنا إرجاع الدماغ إلى دركة الأمعاء ، والدم الى دركة الشحم ... » .

« ان هذه الأقوال ، لا يمكن أن تقابل بغير الاستهزاء لأن بدن الانسان ، دليل على وهنها . والوحدة التالية التى تتجلى فى هذا البدن ، تدل دلالة قاطعة على امكان تكوين وحدة من أشياء متنوعة » .

فالوحدة الثقافية التى نتوق الى تكوينها فى الأقطار العربية لا تختلف كثيراً عن الوحدة الحيوية التى نشاهدها بين أعضاء البدن .

إن اختلاف الأعضاء وتنوعها ، لا يحول دون وحدة الحياة فى البدن ؛ بل إن الأبحاث العلمية ، تثبت لنا ، أن تنوع الأعضاء والأنسجة ، يزيد الروابط بينها .

ولقد لاحظ علماء الاجتماع أن تنوع الأعمال فى المجتمعات يزيد فى تضامنها ، ويقوى الوحدة فيها .

فإذا فكرنا فى الوحدة الثقافية ، فنحن نقصد وحدة كالتى نشاهدها فى المجتمعات وفى الأبدان ، أو كالتى نشاهدها فى الأغانى والألحان .

وهنا لا يدع الأستاذ الحصرى الفرصة تمر . بل يضرب مثلاً آخر أكثر وضوحاً . يقول :

«ولو قال قائل : إن الطبل يختلف عن البوق . والزمار

لايشبه الكمان والعود يختلف من البيان ، فكيف يمكن تكوين وحدة من هذه الآلات ؟ . . »

والجواب : أننا نرى فى الموسيقى الغربية التى تمتاز من الشرقية بتنوع آلاتها . وكثرة نغماتها . التى تترافق وتمازج خلال عزفها ، أن كثرة الآلات واختلافهـا لاتحول دون تكوين الوحدة الموسيقية المنشودة . بل تساعد على تكوين وحدة مركبة تكسب الموسيقى السمو والجلال .

فالوحدة الثقافية التى يدعو اليها الأستاذ . ممكن تحقيقها لأنها كهذا النوع من الوحدة التى تتولد من ترافق أشياء مختلفة ، وليست وحدة بسيطة عادية . تكون فقيرة العناصر ، قليلة التنوع ، ضئيلة الشأن .

إنها كوحدة الحياة فى البدن ، ووحدة الأنغام فى الأوركسترا .

* * *

وأمر آخر جدير بالشرح . إذا كانت وحدة الثقافة ممكنة . فكيف تكون وحدة التعليم ؟

يقول الأستاذ : « إن وحدة التعليم لا تعنى « عينية التعليم » فلا يطالب بإفراغ جميع المواد . فى جميع المدارس وفى جميع الأقطار ، فى قالب واحد ، وبشكل واحد .

فالتدريس فى بيروت ، لايجوز أن يكون كالتدريس فى مكة أو القاهرة ، أو دمشق أو بغداد . بل يجب أن يختلف فى كل بلدة عما هو عليه فى البلدة الثانية . ولكن ينبغى أن تكون هناك وحدة عامة فى الأسس والاتجاهات تشمل جميع هذه المدن والاقطار .

فهذه الوحدة ، تتنـاول الأسس فقط ، وتقرر الاتجاهات ولاتتدخل فى التفرعات والتنوعات التى تكون موافقة للمحيط والبيئة . . فى حين أن الأسس الكبرى توافق أسس البلاد العربية الأخرى .

* * *

وأردف الأستاذ بما سبق أموراً أخرى تقوى الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية

١ : العمل على تسهيل تبادل الكتب والمجلات ، وتعارف الأدباء والمفكرين ، وتوافد الطلاب والمدرسين .

٢ : مكافحة العامية ونشر الفصحى . لأن الواسطة الأساسية فى بناء الصلات الثقافية هى اللغة . ولا سيما اللغة الكتابية . ولما كانت اللهجات العامية مختلفـة فى الأقطار العربية ، فاللغة الفصحى وحدها هى التى تقوى العلاقات الثقافية وتشد أزرها .

٣ : ولكن هذه اللغة الفصحى بحاجة إلى تنظيم وتوسيع . لأنه إلى جانب القسم الموروث من هذه اللغة المدوّن فى الكتب القديمة والمعاجم ، يوجد قسم آخر يولد وينشأ . وهذا يُرى فى المصطلحات الحديثة واضحاً . فالتفكير فى هذه المصطلحات وتوحيدها سبب فى تقوية الصلات .

٤ : ثم إن طرق تدوين اللغة الفصحى ، تحتاج إلى الإصلاح والتجديد . ولا بدّ من اشتراك جميع الأدباء والمفكرين فى طرق هذا الاصلاح .

٥ : ونظم التعليم فى الأقطار العربية مختلفة ،لأسباب شتى فينبغى أن تلاحظ كل وزارة المعارف فى كل قطر ، أثناء الاصلاحات التى تقوم بها ، أحوال الأقطار الأخرى . للاستفادة من تجاربها،ثم للسعى فى التقارب ، قدر الإمكان

٦ : ولابد من تنظيم حركة التأليف والترجمة والنشر فى الأقطار العربية.لضمان اطلاع كل قطر منها على ماينشر فى غيره .

* * *

ذلك عرض سريع لما ورد فى التقرير . نجد المفكر فيه أموراً جديرة بالعناية ، خليقة بالتدبر . لأنها نتيجة علم ، وخبرة ، وتجربة .

(دمشق) « ق . ن »

بين المسموع والمقروء

على غنائك ، ترقص معدتك

أما أن معـدتك ترقص ، فأمر لاشك فيـه . فهي لا تهضم إلا راقصة . وهي بذلك تمخض الطعام مخضاً . وهي في مخضها تتحرك حركة متتابعة متوازنة متناسقة ، لو رأيتها لذكرت بها نوعا من الرقص البلدي الذي يتلوى فيه البطن الخميص اللين كما يتلوى الثعبان .

والمعدة لا ترقص رقصتها الطبيعية ، رقصتها الصحية ، إلا وأنت ضاحك السن خلي البال . فإن اعتكر جوك ، واضطرب بالك ، جاوبتك المعـدة اعتكاراً واضـطرابا ، وأخذت ترقص ، لاتلك الرقصة الإيقاعية الجميلة ، ولكن رقصة مختلة لا تناغم فيها ولا اتساق .

وليس هذا بالشعر ، ولكنه العلم اليقين .

حدث أن صياداً أصابته رصاصة اخترقت معدته ، فلما أسعفه الجراح بقيت في بطنه فتحة يرى فيها الرائي ما يجري في معدته من أحداث . فسجل الجراح مما يجري فيها الشيء الكثير . وكان مما سجله أن حركة المعـدة في امتخاضها تضطرب اضطرابا كبيراً والرجل غاضب ثائر ، فإذا سكن الغضب لم يعد إلى حركة المعدة انتظامها وشيكا . وسجل كذلك أن المعـدة تقل إفرازاتها الهضمية ، وقد تقف وقوفا ، في الغضب ، وعنـد الخوف ، وفي كثير من الاضطرابات العصبية الوقتية كائنة أسبابهـا ما كانت . وبطانة المعدة يتغير لونها ويسوء مظهرها .

وحدث كذلك أن رجلا شرب شيئاً كاويا ، فاحترق به حلقه واحترق مريئه احتراقاً منعه من الطعام ، وأدى إلى فتح فتحة في معدته يدخل منها إليه الطعام ، وكانت فتحة كالنافذة ينظر المرء منها ما يجري في داخل الحجرة .

وتبرع الرجل المرزوء بنفسـه أن تكون للتجربة على ما يهوى الأطباء . فكان مما كشفت عنه التجربة أن المعدة تأخذ في إفراز سوائلهـا الهضمية بمجرد أن يشم صاحب المعدة الطعام ، أو يتذوقه ، ودون أن يلتقمه التقاما أو يبلعه . ولـكن الذي يعنينا من هـذه التجربة أن معدة الرجل توقفت عن العمل عند المحاولة الأولى ، والأطباء حضور ينظرون . فقد كان الرجل في شبه استحياء من هذا الجمع ، أو في شبه تأثر منه واضطراب ، فرفضت معدته أن تعمل . ولـكن بإعادة التجربة واطمئنان الرجل لانت عريكة المعدة فأخذت تستجيب ، وذهب استحياؤها بذهاب استحياء صاحبهـا .

وليس المرء بحاجة إلى تلك الأمعـدة المثقوبة ليعلم أن المعدة لا تعمل عملها في انتظام إلا إذا انتظم حال من كانت هي معدته .

أتذكر يوما فقدت فيه عزيزاً عليك ، أمّا أو أبا ، أو ابناً أو أخا ، أو صديقاً كريما ؟ ثم أتذكر تلك الغصة التي أحسـتها في حلقك أو دون ترائبك ؟ إنه التشنج أصاب عضلة مريئك ، أصابك الحزن فأحلتها كما أحلتك . وما المريء إلا بعض جهاز هضمك .

وكذلك تتأثر المعدة عند ذوي الحس الرقيق ، فهي قد تتأثر من الخشية من لقـاء رجل ذي سلطان ، وتتأثر وصاحبها يستعد على المائدة في وليمة لإلقاء خطاب فيها ، وتتأثر معدة صاحب الوليمة إذا هو خشي أن لا تصيب وليمته نجاحها المأمول .

والهم يؤثر في الأمعاء ، فقد يقف بعض حركاتها ، وقد تزيد بعضها . والممتحنون لا ينسون عند الامتحان كيف يخرج بعض الطلاب من خيمة الامتحان يطلبون الخلاء . وقد يظن المدرس أنها تعلة كاذبة . وقد ظن آخرون أنها الدوسنتاريا ، وما هي إلا أعصاب تأثرت بالذي بالجسم من خوف فهزت لها الأمعاء كما تهز الكلاب .

والكلاب كالناس تعتورها الهموم على قدّ حالها فتؤثر في هضمها . فالكلب تفرز معدته سوائلها الهاضمة على مرأى اللحم والعظام . ولكنك إذا عرضت لعين الكلب قطّة ، فأثارته ، ثم عرضت عليه من بعد ذلك لحماً وعظاماً ، لم تفرز معدته شيئاً .. كذلك إذا أنت عرضت له بالعظم واللحم ، فسالت معدته ، ثم عرضت له القطة أثناء ذلك ، إذاً تقف المعدة بغتة إفرازها . ولا يحدث شيء من كل هذا الكلب إذا أنت عرضت له قطة صديقة ، كأن تكون قطة ألفها في البيت منذ صباها ، أو تعوّد ألفتها على كبر بحكم العشرة ولو مكرهاً أخوك لا بطلا .

وقد يكون في اضطراب الفكر زيادة في حركة المعدة حتى تُحسّ منها ألما . ولكن أكثر أثر الهم يكون في إبطاء حركة المعدة ، فنقصان سرعة الهضم . ثبت ذلك في تجربة أجروها في طلبة للطب يمتحنون فكشفوا عن أن الامتحان يزيد في بقاء الطعام في المعدة ساعة أو أكثر من ساعة .

والرجل يحس حاجته إلى الطعام ، بألم ، أو شبه ألم يغشى المعدة ، إذا طال فراغها . فهي عندئذ تتقبض تقبضاً هو مصدر ذلك الألم . ولكنها لا تتقبض والهم قائم ، فلا يتنبه المرء إلى فراغ معدته ، ولا يتنبه إلى حاجته إلى الطعام ، فلا تكون له رغبة فيه ، فلا هو يطلبه ولا هو يشتهيه . وكما تكون هذه الحال في الرجال تكون في الأطفال . فمن الأطفال أطفال حساسون يظلّون على خوف دائم من آبائهم ، أو على همّ مما يلقون في دروسهم ، فلا يحسون الرغبة للطعام ، فيحسب الناس أن بهم مرضاً جثمانيا ، وما بهم إلا المرض النفسي ، وهو ينحل ويقتل كما تقتل أمراض الأجسام

وإذا أزمن الهم ، أزمن سوء الهضم معه ، فاعترى المعدة ، واعترى الجهاز الهضمي ، أسواء دائمة . فقد تعترى المعدة قرحة ، وقد يعترى الأمعاء القلاظ التهاب دائم . وقد أحصوا أن الأزمة العالمية الماضية ، أزمة عام ١٩٢٩ ، زادت في قُرَح الأمعدة في البلاد التي هزّتها الأزمة خمسة وعشرين في المائة .

والمقصود من كل هذا أن تحذّر من الهم ، لاسيما عند الطعام . فلا تأكل وأنت مهموم أو ثائر . أخّر الطعام حتى تهدأ . فلا ضرر من جوع مؤقت ، ولكن الضرر كل الضرر في طعام لايهضم . وأحطْ نفسك وأهلك عند الطعام بكل مفرح مبهج . وزنْ مائدتك بالورد وعطّرها بالريحان . وغنّ إن استطعت الغناء ، واصرخْ وانطلق بالنكات ، واجعل الجوّ حولك أبيض زاهيا . وما أحلى الغداء والعشاء على أنغام الوسيق الهادئة في مطاعم هؤلاء الأعاجم لما كنا في بلادهم نستمتع بالعيش الفاخر بأرخص الأثمان .

وليس الهم كله هم المصائب والكوارث . فقد يهم المرء لعمله اليومي همّا يوتّر أعصابه . والخير كل الخير في إرخائها . ولن يكون إرخاء إلا إذا تعود المرء أن ينسى ، كما تعود أن يذكر . فمن أعز الأشياء في الوجود أن يقدر المرء على حمل أثقاله والعمل اليومىّ قائم ، وأن يقدر على حطّها إلى الأرض إذا فرغ زمان العمل وآن آن الراحة

ومن هذا كانت الحكمة في البطالة ، بطالة الأسبوع ، وبطالة العام ، وتلك البطالة الجديدة التي اخترعها الأحدثون — عطلة آخر الأسبوع . وفيها يخرجون من مُدنهم ، ومقر أعمالهم ، إلى الريف البعيد ، مخلفين وراءهم أسباب الهم جميعا ، فيأكلون في هدوء الريف كما تأكل الناس ، وتهضم أمعدتهم كما يجب أن تهضم أمعدة الخلائق . وفي الأمثال الأفرنجية يقولون « اضحك واسمن » أو كما أردت أنا أن أقول : غنّ ، ترقص معدتك .

أحمد زكي

من فواجع الاستبداد :

على هامش الحديث

عن السيد عبد الرحمن الكواكبي

بمناسبة الأحاديث التي يحررها الأستاذ صاحب الثقافة عن السيد الكواكبي رأيت أن أطرف القراء بهذه اللمعة الصغيرة من مأساة فاجعة ذات علاقة وثيقة بآثار هذا المصلح العظيم .

فقد حدثني موظف متقاعد من أبناء مدينة صيداء حديث الثقة العارف عن تلك الكارثة التي مر عليها ما يربو على الثلاثين من السنين ولكنها لا تزال حية ماثلة في أذهان الكثرة من شيوخ الصيداويين ، وخلاصتها أن رجلاً من الموظفين ، وكان في ذلك العهد ناظراً لأوقاف المسجد المعروف بجامع البحر ، في تلك المدينة ، قد اتخذ من إحدى غرف الجامع مقراً لعمله ، وكان يتردد عليه هناك جماعة من أصدقائه يقضون بعض السمر في الأحاديث العادية أو في مطالعة بعض الكتب من الفقه والقصص ...

وذات يوم وصل إلى أسماع المسؤولين هناك وشاية ترمي هؤلاء الساكنين بتهمة العمل السياسي ، فإذا بثلة من جنود الدولة تطبق على ناديهم في إحدى الأماسي وإذ لم يسفر تفتيشهم عن شيء ذهبوا بالجميع إلى السجن ثم عمدوا إلى بيوتهم يبحثون وينقبون . وكان من سوء الحظ أن عثروا في دار خادمهم ، وهو ابن أحد الحلاقين في صيداء ، على نسخة من كتاب « أم القرى » قد طمره الغبار على رف قديم فكان ذلك كافياً لأن يقضي هؤلاء الأبرياء ، وعددهم حوالي العشرة ، أكثر من عامين في غيابة السجن ، ثم لم يغادروه إلا حين أنقذهم الموت واحداً تلو الآخر ، اللهم إلا رجلا واحداً من آل العزري قدر له أن يكون الوحيد الذي خرج حياً إلى الدنيا من بين رفاقه جميعاً ! .

على أن أروع ما عرفته من تلك المأساة أن أحد الضحايا ، وهو تركي من موظفي المالية ، وكان يعرف باسم محمود افندي ابن حاجي آغا ، قد اعتوره الجنون وهو في السجن ثم لم يطل به الأمد حتى أسلم روحه ، ولم يكن في بيته سوى زوجته وقد صعقتها الكارثة فإذا هي تجن أيضاً ثم ما لبثت أن لحقت بحليلها إلى الدار الآخرة ! .

وهكذا كان كتاب « أم القرى » في يوم من الأيام ذريعة القدر إلى نكبة دامية هي صورة ناطقة من آثار الاستبداد الذي طالما أقض مضجع السيد الكواكبي رحمه الله .

طرطوس — سوريا

محمد مجذوب

الطبيعة والإنسان

La natur et l' homme

فيكتور هيجو VICTOR HUGO

غربت بالمساء شمس النهار   في غمام أديمه جمرُ نار
وغداً يقبلُ المساء ويأتي   بعده الليلُ في سواد الإزار
ثم يبدو الصباح محتجب الضو
ء صموداً تخاله من بخار
قصة الليل والنهار قديماً   ما للوقت في نظمها من قرار

* * *

كل هذي تمر مجتمعات
تتهادى على جبين البحار
وعلى الراسياتِ يذهبن في الأفـ
ـق وفوق الغابات أو بالصحارى
مشبهات النشيد مرتبك اللحـ
ـن لموتى نحبهم بادّكار[1]
لم تفارق شبابها فهي منه
صورةُ الخلد في حفاظ الإطار
ليس فيها من مظهر الشيب إلا
روعة الصمت في جلال الوقار
لجباه الجبال مارعها الدهـ
ـر فأحرزن راية الإنتصار
كلما مزقت من الدهر شلواً
شيدته على الدموع الغزار[2]
وركاب الأمواج في النهر تمضي
رحلة ركبها لغير قرار
وأرى الغابة الفتيـة ترمى
بثياب من فتنـة واخضرار

كلما ودعت شباب ربيع
فهي — منه لوافد — في انتظار

* * *

وأراني أصير حالا لحال
رب ساع في حلبة لعثار
كل يوم بعينه أخفض الرأ
س رويداً ، في رعشة وانكسار
أطلب الدفء في الضحى ولعمرى
كان دفء الشباب خير دثار
سوف أمضي في زحمة العيد يغني
في رنين السرور نزع احتضاري
دون أن ينقص النسيج من الكو
ن فهل للمقيم فضل اعتبار ؟

علي شرف الدين

---

(١) Comme un hymne confur der, morts que nous aimons .

(٢) الأمطار والجبال على غرابته لا يمنع شيء بولعه .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٦٩٩٦/٥٦٢٦٩

العدد ٣١٩ — الثلاثاء ٢٣ من صفر سنة ١٣٦٤ — ٦ من فبراير سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العــــــــدد

على هامش الحوادث

الزيارة الملكية :

كانت زيارة جلالة الملك فاروق لجلالة الملك ابن السعود في أرض الحجاز مفاجأة سارة للعالم العربي ، ودليلا على أن مشروع الجامعة العربية قد جاوز مرحلة الكلام والأماني ، ودخل في دور التنفيذ العملي ، ومع أن هذه الزيارة كانت زيارة شخصية ، لا ترمي لغير تبادل المودة والاخاء ، وتوثيق روابط المحبة والوئام بين العاهلين الكبيرين ، فإنها جاءت متوجة للجهود السياسية التي نجحت في كسب موافقة عاهل الجزيرة على بروتوكول الاسكندرية ، وقبوله الاشتراك في مؤتمر الجامعة العربية الذي ينتظر عقده بعد حين .

وقد تجلت في مقابلة الملكين العظيمين السجايا العربية الكريمة ، والروابط الروحية الوثيقة التي تجمع بين أبناء العروبة ، ووحدة الأهداف السامية للشعوب العربية على تباعد أقطارهم .

ولنا أن نتوقع لهذا الحادث السعيد نتائج كبيرة ، وأن نعده فاتحة عهد جديد يقرب بين الأمم العربية ، ويحقق تعاونها الصادق على مواجهة الأحداث العالمية المرتقبة جبهة واحدة متضامنة القوى ، موحدة الصفوف .

اللجنة الثقافية للوحدة العربية :

وقد يكون من حسن الاتفاق أن فرغت اللجنة الثقافية للوحدة العربية من مهمتها ، بعد أن أتمت إعداد برنامج كامل يحقق التعاون الثقافي بين الأمم العربية ، ويكفل زيادة الاتصال العقلي بينها . ولعل البدء بهذه الناحية الروحية من أقوى الدلالات على إدراك قادة هذه الشعوب

الأسس الصحيحة التي يقوم عليها التفاهم بين الأمم ، وإنا لنرجو أن توفق لبنان جهود هذه اللجنة وقراراتها في عدد قريب من أعداد الثقافة .

الاضطراب في سوريا ولبنان :

ويشاء القدر أن يفتح عيون الشعوب العربية في نفس الوقت على ما يستهدفون له من أخطار توجب ازدياد تضامنهم وتكاتفهم ، فقد بدا من تصرف فرنسا حيال سوريا ولبنان ما يدل على تلكئها في تنفيذ عهودها ، وتشبثها بسلطانها على أمور الجيش فيهما ، وهو تشبث يتنافى مع استقلالهما الذي اعترفت به كبريات الدول . وإذا كان هذا شأن فرنسا مع ما هي فيه من موقف دولي جدير بأن يشغلها بأمر نفسها ، ويصرفها عن المطامع الخارجية ، فكيف يكون الحال مع غيرها ؟

وفلسطين أيضاً :

كيف يكون الحال في مواجهة هذه المشكلة الكبرى التي تتعقد على الأيام ، والتي يواجه فيها العرب عوامل قوية تناهض حقوقهم وخصومة حارة تطالعهم من كثير من النواحي

إن اجتماع كلمة الشعوب العربية ، وتوحيد جهودها هو السلاح الوحيد الذي تستطيع أن تدافع به عن كيانها وتذود عن حياتها

اجتماع الأقطاب الثلاثة

جاءت الأنباء بقرب اجتماع الأقطاب الثلاثة : ستالين وتشرشل وروزفلت ؟ بل الراجح أن هذا الاجتماع قد حدث بالفعل في مكان يكتمون ذكره . واجتماع هؤلاء الأقطاب عقب الانتصارات الأخيرة التي أحرزها الروس ، وبعد توغلهم في ألمانيا ، وقرب تهديدهم لعاصمتها يدل على أنهم سيتناولون تحديد موقفهم من ألمانيا التي توشك أن تهزم ، وتقرير ما سيملونه عليها من شروط .

ولابد أن يتصارحوا في هذا الاجتماع على المبادئ التي سيضعونها لبناء العالم الجديد ، والسياسة التي سيطالبون بها أمم الأرض .

في هذا الاجتماع الخطير سيتقرر مصير العالم في فترة من الزمان تطول أو تقصر ، بقدر ما في قراراته من عدل أو حيف ، وما يسودها من بعد النظر ، أو تأثر بالانفعالات الوقتية

فياليت شعري ماذا خبأه القدر لأمم الأرض ، وهل ستشهد عالماً جديداً يسوده السلام والطمأنينة أو تتكرر المأساة ، وتتغلب الشهوات والمطامع ، وتشهد بعد زمن قصير حرباً ثالثة لاتبقي ولاتذر ؟ إن آمال الملايين التي تعيش على ظهر هذا الكوكب تتطلع لهؤلاء الأقطاب وتسأل الله أن يجعلهم أبطال الإنسانية المنقذين ، وبناة السلام الدائم ، ورواد النظام العالمي السعيد .

اجتماع البرلمان :

بدأ البرلمان جلساته ، وشغل فيما عقده من الاجتماعات بتشكيل لجانه وتكوين مكتبيه . وتدل الظواهر على أن المعارضة القوية ستكون في مجلس الشيوخ ، وإن كنا نرجو أن تكون معارضة هادئة رزينة نافعة . ويبدو أن المعركة الحامية ستكون حول دستورية بعض القوانين التي أصدرتها الحكومة الحاضرة ، وأخصها ما يتصل منها بالانتخابات .

وبمناسبة الحديث عن البرلمان ، يتساءل البعض : لماذا لاتعمل الحكومة على إشاعة الحياة النيابية في البلاد بتقوية المجالس البلدية ، والمجالس القروية ، ومجالس المديريات ، وتوسيع اختصاصاتها ، والتنازل عن جزء من السلطة المركزية لهذه الهيئات المحلية ؟ إن مثل هذا التغيير كفيل بتربية الشعب على الحياة النيابية ، وتعويده الاضطلاع بالشئون العامة والمساهمة في احتمال تكاليفها .

ومن شأن هذا النظام أن يدرب الناخبين على حسن استخدام أصواتهم ومراقبة ممثليهم المحليين من كثب ، كما أنه سيكفل إبراز الكفايات النيابية فيمن ينتخبون فيكون ذلك تمهيدا حسنا للتقدم لعضوية البرلمان . وفيه عدا ذلك زيادة في الاهتمام بالشئون الخاصة لكل اقليم ، وتقليل من الأعباء التي تتحملها الحكومة والمسائل الصغيرة التي تشغل وقت البرلمان .

إن الفكرة ، فيما يبدو ، جديرة بعناية الحكومة ، خليقة أن تضعها في طليعة المسائل التي تشتغل بها

زيادة أعباء الحكومة :

ويسوقنا الحديث عن الحكومة إلى ثقل الأعباء الملقاة على كاهل الحكومة ، وعظم المسئوليات التي تضطلع بها

وأعباء الحكومة في الظروف العادية كبيرة تتطلب كفاية عالية وعملا متواصلا ، وحكمة فائقة . فكيف والظروف التي تواجهها الحكومة ظروف غير عادية ، والمشاكل القائمة التي يطلب إليها معالجتها مشاكل معقدة شائكة ؟

فمشاكل التموين وعدالة توزيعه على أفراد الشعب ، ومحاربة السوق السوداء ، والغلاء المصطنع ، وتدبير المواد الضرورية للبلاد واستيرادها من الخارج .

ومشاكل الطوائف المختلفة ، ومطالبها المتعددة ، والتوفيق بين ما اتخذ من قرارات الانصاف ومقتضيات العدالة بالنسبة لمن لم ينصفوا .

ومشكلة الميزانية وتضخمها . ومصروفاتها الكثيرة التي ربطت على إيرادات غير ثابتة ، والاستعداد لآثار ذلك في المستقبل .

ومشاكل المرض والجهل والفقر ، التي تنخر في عظام سواد الشعب ، ووضع الخطط القوية البعيدة المدى لمكافحتها ، وتنظيم الحياة الاقتصادية في البلاد ، وإنعاش الانتاج ، ومشاكلنا السياسية الكبرى ، وتحديد مركزنا الدولي على أساس يحقق أمانينا ويحفظ عزتنا القومية .

كل هذه ، وآلاف غيرها ، من المشاكل الحاضرة ، والمشاكل التي ستطلع علينا بمد انتهاء الحرب خليقة أن تشغل رجال الحكومة وتقض مضاجعهم ، وتستغرق كل تفكيرهم

فاذا قدرنا عظم هذه المهمة الملقاة على عواتقهم ، كان واجبا علينا أن نعاونهم أجل معاونة ، وألا نزيد أعباءهم بما نثقل به كاهلهم من المسائل الصغيرة ، ونشغل به أوقاتهم من الأمور التافهة

ليس من العدل ، ولا من المصلحة ، أن يغشى أبواب الوزراء كل من له مطلب صغير أو مسألة خاصة ، يمكن أن تحل بالطرق العادية ، ليشغل الوزير ويضيع جزءا من وقته الثمين بالاهتمام بهذه الجزئيات ، مهما كانت صلته بهذا الوزير ودالته عليه .

وليس من الوطنية ألا تفكر الجماعات إلا في مطالبها المادية الصغيرة ، وتخلق من أجلها المتاعب وتشغل بها الحكومة بأساليب الالحاح والرجاء المتكرر .

وقد يكون من واجب الحكومة أن تأخذ هذه الأمور كلها بالحزم ، وتقضي على كل هذه المشاغل الصغيرة بترك سياسة استرضاء الجماعات ، وبذل الوعود . وخير ما تصنعه أن تخصص لهذه الشكايات مكتبا خاصا يدرسها عاجلا ويضع الاقتراحات العملية لانصاف كل ذي ظلامة .

منطق العقل ومنطق الدنيا

من الأقاصيص الشعبية المصرية أن رجلا تزوج اثنتين ؛ فأما «أم السعد» فشابة لعوب على حظ قليل من الجمال وعلى حظ كبير من المرح والفتنة وخلب العقول والدهاء والمكر. وأما «أم حسن» فشابة على حظ كبير من الجمال وقليل من الحيلة، طيبة القلب، عفيفة النفس، طاهرة الذيل.

أراد زوجهما السفر فاتخذ كل احتياط لصيانتهما، على طريقة العهد القديم، فسمر الشبابيك حتى لا تفتح في غيابه، وتفنن ما شاء في القيود والأغلال، ووضع الأرصاد على البيت حتى لا يقربه من يخونه؛ ثم سافر مطمئنا.

فأما «أم السعد» ففكت القيود، وسخرت بالأغلال، واحتالت على الأرصاد، وخرجت وفجرت؛ وأما «أم حسن» فحفظت عهد زوجها، وصانت سمعته، وحافظت على شرفها وشرفه، فلم تخرج من بيتها، ولم تحتل في فك أغلالها، وكانت أمينة في كل شؤونها.

فلما كانت ليلة حضور الزوج تزينت «أم السعد» وتبرجت، وفعلت كل صنوف الإغراء والفتنة، وأما «أم حسن» فاعتمدت على استقامتها وطهارتها، فلم تبالغ في زينة، ولم تفرط في تجمل.

وحضر الزوج، فهشت «أم السعد» لحضوره، وتصنعت كل ضروب الفرح للقائه، وفعلت الأفاعيل لإغرائه، وقابلته «أم حسن» في هدوء واتزان، وحشمة وثبات.

ثم أخذا في الحديث، فهرجت «أم السعد» وأخذت تصف كيف حافظت على عهده ووفت بأمانته، وكيف كانت لا تنام الليل شوقا إليه، وحنينا للقائه — ومن حين إلى آخر تتكلم «أم حسن» كلمة أو كلمتين تعليقا على حديث أو ردا على سؤال.

وأخيراً نظر الزوج إلى أم السعد طويلا، ثم أدار نظره إلى أم حسن طويلا، ثم أعلن أن لأم السعد كل ما أتى به من هدايا، ولأم حسن الطلاق.

هكذا منطق العقل ومنطق الدنيا، فمنطق العقل يقضي بالمكافأة للطاهرة العفيفة الجميلة، ومنطق الدنيا قضى بها للمهرجة اللعوب غير الجميلة.

منطق العقل يقضي بأن الإنسان يقوّم بمواهبه وكفاياته، ككل شيء في العالم، فنحن نقوم الفرس بسرعته لا بسرجه، وكل شيء بالغرض منه لا بشكله؛ وعلى هذا فالإنسان يجب أن يقوم بكفايته فيما أريد منه، فإن أردته صانعاً فقومه بصناعته، أو عالماً فقومه بعلمه، أو لمنصب من المناصب فاختر من يحقق الغرض من المنصب. هذا في منطق العقل، وأما في منطق الدنيا فإنه يقدر بمنظره قبل مخبره، وبقرابته قبل كفايته، وبصلاته قبل حقيقته. منطق العقل مبني على التجريد من الاعتبارات، ومنطق الدنيا مبني على تقدير الملابسات. منطق العقل أساسه تقدير الشيء بما فيه من نفع وضر، فإن رجح نفعه عمل وإلا ترك. ومنطق الدنيا أساسه رضا فلان وغضب فلان، ووجاهة فلان وانتفاع فلان، وإغاظة فلان، وهكذا من اعتبارات لا حدّ لها.

منطق العقل مقدمة صغرى ومقدمة كبرى، إن صحتا فالنتيجة حتماً. ومنطق الدنيا قد تصدق فيه المقدمات وتكذب النتيجة، وقد تكذب فيه المقدمات وتصدق النتيجة.

منطق العقل كباحث في معمل يجرب ويرصد التجارب، فإذا أسفرت التجربة عن لون أحمر قال إنه أحمر، أو أصفر قال إنه أصفر، ولا شيء غير ذلك. وأما منطق الدنيا فكالممثل على المسرح يوماً ملكاً ويوما صعلوكا، ويوماً غنياً ويوما فقيراً، على حسب الظروف.

المحسوبية منطق الدنيا، والعدل منطق العقل، وتقدير

الأشكال منطق الدنيا ، وتقدير القيمة الذاتية منطق العقل .

* * *

بالأمس حضرت مجلساً دار الحديث فيه حول رسم المصحف ، فقال قوم : إن من الواجب أن نرسم المصحف حسب قواعد الإملاء المعروفة ، حتى يستطيع الناشيء أن يقرأه ، والرجل المثقف العادي أن يقرأه ، كما يقرأ كل كتاب . أما الرسم الحالي فلا يمكن القارىء من أن يقرأ إلا اذا كان حافظا أو متخصصا ، فكيف يستطيع الناشيء أن يقرأ الصلاة اذا رسمت هكذا «الصلوة» ، والخير أن تنتشر قراءة القرآن على الناس عامة من أن تحصر قراءته في دائرة قليلة . أما رسم المصحف الحالي فيكون للخاصة ومن يريدون أن يدرسوا تاريخ الإملاء . وإننا نفسد تعليم الناشيء اذا نحن علمناه الإملاء على طريقتنا ثم وضعنا في يده المصحف فرأى طريقة لم يألفها . وقال قوم لابد من المحافظة على رسم عثمان حفظا لآثار السلف الصالح وعملا بالمأثور ، وربطاً بين قديمنا وحديثنا ، فقمت وفي نفسي التفكير بين منطق العقل ومنطق الدنيا

وشاء القدر أن أحضر مجلسا آخر جرت فيه المناظرة حول معلمي اللغة العربية . فقال قائلون : أمن الحق أن يتوزع تعليم اللغة العربية — دون سائر المواد — ثلاثة معاهد : كلية اللغة العربية في الأزهر ، ودار العلوم ، وقسم اللغة العربية في كلية الآداب ، وكل يسلك منهجا يخالف الآخر حتى اذا أتموا دراساتهم كانت بينهم حرب شعواء على الوظائف ! أليس من الخير ألا يكون في البلد إلا معهد واحد يختار له خير المناهج وخير الأساليب ، كما هو الشأن في كل المواد ؟ وقالوا أيضا : إننا نفهم أن يكون في البلد مائة معهد للثقافة ، أما للصناعة ، ولصناعة التعليم ، فلا بد ألا يزيد إنتاج المصنع عن حاجة البلد . وقال آخرون : إنها التقاليد ، وإنها السلطات ، وإنها العصبيات

فخرجت من المجلس مفكراً في منطق العقل ومنطق الدنيا .

وركبت «الترام» ، وجلست بين جماعة ينقدون بألسنة حداد حالة الوظائف والموظفين ، وكل يشكو ويضرب الأمثلة في وزارته مما حدث من ترقيات ، هذا للقرابة ، وهذا للمصاهرة ، وهذا للملق ، وهذا للهتاف ، وهذا لتقبيل اليد ، وهذا للمصالح الشخصية

فقلت إن هذا يوم غريب تتابع كل حوادثه للتمثيل لمنطق العقل ومنطق الدنيا

ورجعت بذاكرتي الى أقاصيص جحا ، وما في كتب الأدب من أقوال عقلاء المجانين ، فوجدت كثيراً منها يعجب الناس لأنها تصور الفرق بين منطق العقل ومنطق الدنيا .

والناس يضجون بالشكوى ، لأنهم لم يفهموا الفرق بين منطق العقل ومنطق الدنيا ، وأرادوا أن يخضعوا الدنيا لمنطق العقل ففشلوا

والشعراء والأدباء رأوا أنهم لكفايتهم أحق بخيرات الدنيا من كل من عداهم من الحمقى والمغفلين ، وهذا منطق العقل . ثم رأوا أن الدنيا في يد أقل الناس كفاية ، وأنهم محرومون حتى من ضرورات الحياة ، على حين أن المغفلين يغرقون في النعيم ، وهذا منطق الدنيا . ولطول ألسنتهم أقاموا حربا شعواء على الناس ، وقالوا آلاف الأبيات في شكوى الزمان وأنه مغفل يحابي المغفلين ، ويضطهد العقلاء والأدباء ، وأنه لاعقل له ولامنطق له ، وجردوا منه شخصا وجهوا اليه أقطع السب وأقذع الهجاء ، وما دروا أن للدنيا منطقا تخضع له غير منطقهم ، وأسلوبا تتبعه غير أسلوبهم

وأكثر مايظهر منطق الدنيا في السياسة ؛ فقد أراد الفلاسفة من عهد أفلاطون وأرسطو أن يخضعوا منطق السياسة لمنطق العقل ، فوضع افلاطون جمهوريته ، وأرسطو كتابه في السياسة ، والفارابي مدينته الفاضلة ، وهكذا تتابع الفلاسفة يرسمون المثل الأعلى للحكومة وللسياسة ، يريدون أن يخضعوا كل شيء في الدولة لمنطق العقل ، والسياسة دائما تتمرد عليهم ، وتأبى إلا أن تخضع لمنطق

الدنيا ، وكان هذا هو الشأن إلى أيام واسن ، فقد وضع نظام العالم على أساس منطق العقل ، وما زال منطق الدنيا يحاربه بأسلحته حتى هزمه شر هزيمة .

وربما كان « مكيافلي » هو الشخص الذي فهم منطق الدنيا بعد أن جرب الحياة الواقعية وسفر لأمته عند الملوك والأمراء ، فنادى بأن السياسة لا تتبع العقل والعدل والخلق ، وإنما هي تراعي طبائع الناس وظروف الزمان والمكان ، وقال إن السياسة يجب أن تعرف الخير والشر ، ولكن لا بأس من أن تنحرف عن الخير تبعاً لضرورة الظروف القاهرة — وقرر بعض مبادئ منطق الدنيا ، فقال : « إن الناس أسرع إلى الإساءة إلى من وضع نفسه من قلوبهم موضع الحب ، منهم إلى من جعل نفسه مخوفاً مهيباً » وقال : « إن الأمير يجب أن يكون أسداً ، ولكن ينبغي له أن يتعلم كيف يلعب دور الثعلب » ، وهكذا أراد أن يشرح منطق الدنيا كما شرح أفلاطون وأرسطو منطق العقل ، ولكن — مع الأسف — لم يستطع أن يدون كل منطق الدنيا كما دون من قبله كل منطق العقل . إن الذي وضعه جزء بسيط من منطق السياسة ، وما السياسة بجانب الدنيا كلها ؟ . لو كنت مكانه لوضعت قواعد منطق الدنيا في سلوك الإنسان وفي كيف يعدو الإنسان الإنسان ، وكيف يصل الإنسان إلى أغراضه مع انتهاك لمنطق العقل ، وكيف يعمل رجال الحكم تمشياً مع منطق الدنيا ، وكيف تقف التقاليد والأوضاع أمام منطق العقل لتفسح الطريق أمام منطق الدنيا وهكذا ، ولجعلته مائة فصل وجعلت ما كتبه مكيافلي من السياسة فصلا واحداً من فصوله .

في كل شيء يصطدم منطق العقل مع منطق الدنيا ، في الأسرة ، في الشارع ، في المتجر ، في المصنع ، في الوظيفة ، في الحياة الخاصة والعامة ، فترى العقل في ناحية والدنيا في ناحية ، وكلما كان الإنسان أرهف حساً وأكبر نفساً ، وأرقى عقلا ، كانت صدمة الدنيا له أقوى وأعنف

ومع هذا فأظن أن العالم سائر إلى التقدم في الاستزادة من منطق العقل ، والتقليل من منطق الدنيا ، ومقياس ذلك الأمم المنحطة والأمم الراقية ، ففي الأمم المنحطة منطق العقل يسبح في دائرة قطرها « سنتي » ، ومنطق الدنيا يسبح في دائرة قطرها ألف متر ، وفي الأمم الراقية تكاد تتعادل الدائرتان ، أو تكون دائرة منطق العقل أوسع ، وليس عمل المصلحين في الدنيا دائماً إلا أن يحاولوا توسيع دائرة منطق العقل بتضييق دائرة منطق الدنيا

أحمد أمين

في مغن سيئ الصوت سقيم الفن

« للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين »

« وكان قد دعي إلى سماعه في إحدى الليالي فتبرم بغنائه تبرماً شديداً ، وقال فيه » :

حمارٌ لا يملُّ من النهيقِ
يضيق به التجلد أيّ ضيقِ
مغنٍّ يجلب السلوى ويُقصي
بقايا الشوق في قلب الشوقِ
تُمسُّ الأوتار لو أمست سياطاً
يُصبُّ بها على الجلد الصفيقِ
بطانته — حماكَ الله — رهطٌ
كأنَّ صياحهم جرَسُ الحريقِ
دعاني للسماع رفيقُ سوءٍ
فقلت عرفتُ غدركَ يا رفيقِ
وكانت ليلة يا ليت أني
دُفعتُ بها لقُطّاع الطريقِ
وأوسعنا مغنّيها غناءً
يُزيلُ السكر من كأس الرحيقِ
جزى الله المغني كلَّ خيرٍ
عرفتُ به عدوّي من صديقي

ما هنا وما هنالك

ما هنالك

إذا أردت أن تعرف ما تعمله قوة العلم وقوة المال وقوة الارادة . فاسمع واحكم :

فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ضمت مملكة بلجيكا الصغيرة إلى أملاكها بلاد الكونجو الكبيرة . ومساحة بلاد الكونجو المستعمرة أكبر من مساحة بلجيكا المستعمرة ثمانين مرة . إن بلاد الكونجو على اتساعها كان يسكنها أقوام همج . وبلجيكا على صغرها يسكنها أقوام لهم حضارة من الطراز الأول سمت بهم إلى مصاف أعظم دول العالم مدنية . ازدهرت فيها العلوم والفنون ، وراجت فيها الزراعة والصناعة والتجارة . وبها أشتات بلاد كثيرة . أعرق منها مدنية وأعزر مالا . وأنفذ كلمة . وأعلى سلطانا . وأوسع أرضا وسماء .

عند ما فكر ملك بلجيكا ليوبولد الثانى — جد الملك الحالى — فى استعمار بلاد الكونجو ، كانت هذه البلاد غير معروفة وكان العلماء يسمونها « مجاهل افريقيا » لأنها واقعة فى قلب أفريقيا . وكان الرحالة الأمرع يسمعون بها ولا يعرفونها . فلما ملكها ليوبولد الثانى ملك بلجيكا لنفسه خاصة وأنفق عليها كل ثروته — من مخصصات ومجوهرات ومدخرات — أهداها فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٨ إلى بنى وطنه . وكانت تقدر وقتئذ بثمانين مليونا من الجنيهات ذهبا وهاجا .

ولاستعمار واستثمار بلاد الكونجو أنفقت الحكومة البلجيكية والشركات البلجيكية ٢٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه ذهبا فأصبحت الآن جوهرة فى تاج الملك . وخطت خطوات واسعة فى طريق العمران .

وإذا أردت الدليل بلغة الأرقام فهاكه :

فى البداية لم يكن فى بلاد الكونجو مدرسة واحدة فأصبح فيها الآن ١٣٬١٥٦ كتابا . تعلم وتهذب وتثقف ٤٦١٬٦٠٧ من الأطفال . وفيها ٤٬٧٠٠ مدرسة متوسطة تعلم وتهذب وتثقف ٢٨٠٬٠٠٠ تلميذ . وفيها مدارس تجهيزية تعلم وتهذب وتثقف ٣٠٢١ تلميذا . وفيها مدارس كلية ، تعلم ٤٬٤٧٧ تلميذا . ومدارس صناعية ، تعلم وتدرب ٥٠٨٧ تلميذا . هذه هى المدارس الأميرية يضاف اليها مدارس أخرى كثيرة تديرها معاهد علمية وجمعيات خيرية . أنشأت واحدة منها ٩٠٠ كتاب ، تعلم ٢٤٠٬٠٠٠ طفل و٣٠٠ مدرسة ابتدائية تعلم ٤٠٬٠٠٠ تلميذ و٣٠ مدرسة للفنون والصنائع و٤٠ مدرسة ثانوية ومدارس أخرى كثيرة تخرج ممرضين وممرضات تضم ١٬٤٠٠ طالب .. فما رأيك فى هذه الجهود الجبارة وفى هذا الإصلاح العظيم ؟ بعد أن كان الواحد منهم لا يميز بين التمرة والجمرة أصبح منهم المهندس والطبيب والميكانيكى والشرطى والصيدلى وما إلى هذه المهن .

فى بداية الاحتلال ما كان فى بلاد الكونجو فدان واحد يزرع قطنا . ففى سنة ١٩٢٨ بلغت مساحة الأطيان التى زرعت قطنا ٢٨٤٬٠٠٠ فدان فقفزت إلى ٨١٠٬٠٠٠ فدان فى سنة ١٩٤٣ وزراعة الأرز وثبت من لا شىء إلى ٢٣٠٬٠٠٠ فدان . والنخل من صفر إلى ٢٥٠٬٠٠٠ فدان . والبن من العدم فى سنة ١٩١٣ إلى ١٥٠٬٠٠٠ فدان . والكاكاو من ١٠٬٠٠٠ إلى ٣٠٬٠٠٠ وبعد أن كانت بلاد الكونجو لا تصدر فى سنة ١٩١٣ شيئا من القطن صدرت فى سنة ١٩٤٣ نحو ٣٢٤٬٠٠٠ قنطار وبعد أن كانت تصدر طنا واحدا من البن فى سنة ١٩١٣ صدرت ٣٠٬٠٠٠ طن فى سنة ١٩٤٣ والسكر زاد تصديره من ٩ أطنان فى سنة ١٩١٨ إلى ١٢٬٠٠٠ . والجوز قفز من ٧٬٢٠٠٠ فى سنة ١٩١٣ إلى ٦٣٬٠٠٠ والزيت من ٢٬٠٠٠ إلى ٩٦٬٠٠٠ والذرة من لا شىء إلى ١٢٬٠٠٠ طن . والشمع اللازم للعمليات الجراحية من لا شىء إلى ١٬٥٠٠٬٠٠٠ قطعة . وهكذا .

أما المعادن فحدث عنها ولا حرج . فالذهب وصل

المستخرج منه ٢٠ر٠٠٠ كيلو جرام بعد أن كان سواء والعدم . والماس الصناعي صعد بعد عشر سنوات من لاشيء في سنة ١٩١٣ إلى ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ قيراط ، ثم قفز إلى ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ ، ثم وثب إلى ٧ر٥٠٠ر٠٠٠ ، إلى أن بلغ في سنة ١٩٤٣ ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ . والنحاس من لاشيء في سنة ١٩١١ صعد بعد عشر سنوات إلى ٥٠ر٠٠٠ طن ثم إلى ١٠٠ر٠٠٠ طن ووصل ١٥٠ر٠٠٠ في سنة ١٩٤٣ . والقصدير لم يستخرج منه شيء في سنة ١٩١٤ فاستخرج منه ٥ر٠٠٠ طن في سنة ١٩٢٥ ثم زاد تدريجيا إلى أن بلغ ١٠ر٠٠٠ في سنة ١٩٣٠ و ١٥ر٠٠٠ في سنة ١٩٣٥ وهو الآن ٢٠ر٠٠٠ طن . فماذا تقول في هذا التقدم السريع الرائع ؟

هذا عدا ما استخرج من المعادن الأخرى والمواد الأولية مثل السكر والراديوم والصمغ والكينا والكاوتش والقلال والأخشاب والكاكاو ، وعدا تربية المواشي وغيرها . وعدا المصانع التي تشتغل بالغزل والنسيج . وكل هذا لم يكن شيئا مذكوراً .

ولتسهيل المواصلات مدت الحكومة البلجيكية سككا حديدية طولها ٥ر٠٠٠ كيلو متر بلغت نفقاتها ٥٠ مليونا من الجنيهات ، فكانت في جسم بلاد الكونجو كالشرايين في جسم الإنسان . وبنت قناطر وجسورا وطرقا . وحفرت وطهرت ونظمت الترع على مدى ١ر١٠٠ كيلو متر . والطرق الزراعية كانت في أول عهد الاستعمار لاتذكر فبلغ طولها ٢ر١٥٠ كيلو مترا في سنة ١٩١٨ ، وهي الآن ٨٣ر٠٠٠ كيلو متر .

والطيارات تقطع سنويا ملايين الكيلو مترات ، فطائرات شركة سابينا وحدها قطعت في خلال هذه الحرب ٢ر٦٠٠ر٠٠٠ كيلو متر منها ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ كيلو متر في الأعمال الحربية ، وبلغ مجموع ما قطعته طائرات الكونجو كلها ٤ر٥٠٠ر٠٠٠ كيلو متر .

وأصبح للكونجو أسطول جوي وأسطول نهري لخدمة الأغراض السياسية والحربية والتجارية والصناعية وعنيت حكومة الكونجو بالصحة العامة ، فشيدت مستشفيات ومصحات وصيدليات ومدارس للممرضين والممرضات . كما أنشأت معامل كيماوية لصنع جميع أنواع المصل الواقي من الأمراض . وتدل الإحصاءات الرسمية على أن ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ من الأهالي عولجوا في عيادات خارجية ومستشفيات الحكومة وحدها تعالج مليون شخص كل سنة . وقد بلغ عدد الذين دخلوا مستشفياتها في السنة الماضية ١٠٠ر٠٠٠ ، وبهذه العناية الفائقة تلاشت بعض الأمراض ، وقلت الوفيات ، وزاد عدد السكان بتحسن الأحوال الصحية .

وساهمت الملكة بنصيب كبير في تكاليف هذه المنشئات . كما ساهمت المعاهد العلمية والجمعيات الخيرية وبعض جامعات بلجيكا في الإعانات التي لزمت .

ولنشر لواء الأمن والعدالة ، أنشأوا دورا للمحاكم ودوراً للسجون ، ومراكز للبوليس ومكاتب للبريد والتليفون والتلغراف السلكي واللاسلكي . وما كان شيء من هذا معروفا من قبل .

وضمنوا للناس حرية الأديان والحرية الشخصية وحرية المعاملات وحرمة المساكن وحرمة الملكية . وبهذا انقطع دابر النخاسين وقطاع الطرق . وقل المجرمون والمتشردون والعاطلون .

وكان من نتائج هذا العمران الباهر أن أقبل السياح على زيارة هذه البلاد — على بعد الشقة وعناء الشقة — ينفقون فيها عن سعة . وكان التجوال فيها من قبل دونه شيب الغراب .

هذا قليل من كثير . والقليل دليل على الكثير .

هذا ما عملته بلجيكا الصغيرة . أنفقت ٣٠٠ مليون جنيه لتمدين أمم وشعوب وقبائل خيم عليها الجهل آلاف السنين . ولتعمير بلاد تزيد ٨٠ مرة على مساحتها . فالله أكبر .

ما هنا

قارن بين ما عملته بلجيكا الصغيرة (هنالك) وما عملته مصر الكبيرة (هنا) تدرك الفرق بين (نشاطهم وجهودهم) و (نشاطنا وجهودنا) .

عزيز خانكي

أحاديث عن مراكش :

الحركة الدستورية

احتفلت مراكش فى ١١ يناير بمرور السنة الأولى على مطالبة الشعب بالاستقلال وتنظيم الحياة العامة على أساس النظام الدستورى الملكى ؛ ولا يعنينا هنا التعرض لما قابل به الفرنسيون هذه الحركة ، وإنما الذى يعنينا هو أن نتحدث إلى القراء الكرام عن مبدأ الحركة الدستورية فى هذه البلاد ، حتى يستطيعوا — وهم بعداء عن حركة الإصلاح فى شمال أفريقيا — أن يلموا بأصول النهضة الشعبية فى هذا الجزء من العالم العربى .

فى سنة ١٨٩٤ توفى السلطان مولاى الحسن ، آخر سلاطين مراكش الأقوياء ، الذين عرفوا كيف يسيّرون بمهارة دفة الاستقلال بين عواصف السياسة الدولية . وخلفه على العرش ابنه الفتى عبد العزيز ، فانتشرت الفوضى فى البلاد نتيجة لضعف السلطان الجديد ، ومطامع الوزراء وتدخل الأجانب ، ولولا الظروف الدولية لسقطت مراكش فى ذلك الحين .

وفى سنة ١٩٠٤ بدأت السياسة الدولية تتميز بعد إعلان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، وهكذا بدأ ينهار الأساس الذى يقوم عليه استقلال مراكش وهو العامل الدولى . فلم تكد تمر ثلاث سنوات حتى زحفت الجيوش الفرنسية على مدينة (وجدة) فى الشرق واحتلتها فى ٢٩ مارس سنة ١٩٠٧ ثم نزلت جيوش فرنسية أخرى فى مدينة (الدار البيضاء) فى يوليو من السنة نفسها ، وظهر بوضوح المصير المحتوم الذى ينتظر البلاد .

وقد شهدت البلاد بين هذين التاريخين ؛ والسنوات القليلة التالية ، حركة إصلاحية حاولت أن تنقذها من هذا المصير المروع الذى ينتظرها ومما ساعد هذه الحركة وشجعها أنها كانت معاصرة للحركة الإسلامية التى قامت فى امبراطورية آل عثمان ، فقد كان زعماؤها يرون أن مراكش المستقلة أصلح ميدان لبث الدعوة الإصلاحية ، ويروى أن الشيخ محمد عبده نفسه كان على أهبة السفر إليها لولا أن صحته حالت دون ذلك .

وقد كان عقد البيعة التى بويع على أساسها السلطان الجديد ، يعد برنامجاً واسعاً للإصلاح . والذى يعنينا من ذلك هنا هو الحركة الدستورية التى كادت تؤتى ثمارها فى ذلك العهد .

كانت البلاد تشكو من ضعف السلطان ، واستبداد الوزراء ، فلامناص فى الإصلاح إذاً من أن لا تبقى مقادير البلاد معلقة بسلطان أو وزير ، وإنما تنتقل إلى إرادة الشعب بواسطة النظم التمثيلية .

ظهر هذا الاتجاه بشكل واضح ، وكتبت عنه الصحف تشرحه وتدعو اليه ، ومما كتبته جريدة «لسان المغرب» التى كانت تصدر فى مدينة طنجة بعد سقوط السلطان عبد العزيز : « وبما أن يداً واحدة لاتقدر على إنهاض شعب من وهدة سقوطه ولا على إصلاح إدارة كإدارة حكومتنا ، فيجب أن تكون الأيدى المتصرفة والعقول المفكرة كثيرة ، متكاتفة على العمل ؟ وعليه ، فلامناص ولا محيد لجلالته من أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب وإعطائها حرية العمل والفكر ، لتقوم بإصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة ، المسلمة والمسيحية »

وقد جاء فى عقد البيعة نفسه أن السلطان يلتزم بأن لايبرم أى اتفاق مع الأجانب إلا بعد أخذ رأى الأمة فيه . يقول : « وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب فى أمور سلمية أو تجارية ، فلا يبرم أمراً منها إلا بعد الصدع به للأمة حتى يقع الرضى منها بما لا يقدح فى دينها ولا عوائدها ولا استقلال سلطانها »

وإذاً فالميول الدستورية واضحة وصريحة سواء فى الرأى العام وما تكتبه الصحف ؛ وكانت واضحة حتى فى

الجهات الرسمية ، فالتزم السلطان بأن لا تسير السياسة مرة أخرى بدافع فردى وإنما بدافع جديد ، هو رأى الأمة .

والواقع أن كل شيء يدل على أن السلطان عبد الحفيظ كان مخلصا لهذا الاتجاه الجديد وليس ذلك منه غريبا ، فقد كان ملما إلماما واسعا بالسياسة الدولية ، وأحوال العصر الحضارية ، كما كان متثقفا ثقافة عالية ، مكنته من أن يشاطر زعماء الإصلاح رأيهم في الحياة النيابية .

ولم يكد يطول الأمر حتى شكل لجانا كلفها بدراسة النظام التمثيلي في مختلف البلاد ، واقتباس الصالح من هذه النظم لتطبيقه في مراكش ، وقد والت هذه اللجان أعمالها مدة طويلة، ثم استقر الرأى أولاً على إلغاء الفوضى في الأحكام ولذلك وضعت قانونا للعقوبات أسمته « قانون الجزاء » لأن الحياة النيابية متوقفة قبل كل شيء على تحقيق المساواة والعدل بين أفراد الشعب .

وفي أواخر سنة ١٩٠٨ كانت هذه اللجان قد فرغت من إعداد مشروعها ، وهو يقضى بإنشاء برلمان يطلق عليه اسم منتدى الشورى تمثل فيه الأمة على أساس انتخابى . كما يقضى بأن يتألف هذا البرلمان من مجلسين ، أحدهما مجلس للنواب يسمى مجلس الأمة ويمثل الأمة فيه نواب من طبقات الشعب المختلفة ، والثاني مجلس للشيوخ ، ويطلق عليه اسم مجلس الأشراف ، يتألف أعضاؤه من طبقات الأعيان والنبلاء ، كما صدر إلى جانب ذلك مشروع للدستور باسم القانون الأساسي ؛ وقانون آخر يتعلق بالنظام الداخلي للبرلمان (اللائحة الداخلية) ، وآخر يتعلق بنظام الانتخاب .

وليس من شأننا في هذه العجالة أن نتحدث بالتفصيل عن هذا المشروع ، وإنما يهمنا أن نشير إلى أن الحركة الدستورية في مراكش ليست حديثة العهد وإنما ترجع أصولها إلى نحو نصف قرن من الزمان . وليس من الجديد في شيء ، أن نسمع بأن هذه البلاد ماتزال تطالب إلى الآن بالحياة النيابية ، وإذا كانت قد مرت عليها خمسون سنة وهي تطالب بها دون نجاح ، فإنما يرجع ذلك إلى الظروف السياسية الشاذة التي أحيطت بها هذه البلاد .

فقد أخفق السلطان المرحوم مولاى عبد الحفيظ في تنفيذ برنامج الإصلاح بسبب التدخل الأجنبي ، ووجد نفسه عاجزا عن المضى في سبيل إنقاذ بلاده ومرغما على توقيع معاهدة الحماية مع فرنسا بعد أن احتلت جيوشها مملكته فجأة ؛ وربما كان في الأخير يرجو أن يستعين بهذه المعاهدة على تنفيذ مشروعاته الداخلية إذا استطاعت الجمهورية الفرنسية أن تتحمل عنه أعباء السياسة الخارجية والمالية ؛ ولكن سرعان ما تبين له أن ما كان يرجوه إنما هو أضغاث أحلام ، وأن الحقيقة السافرة هي أن بلاده لا تزال في حاجة إلى مجهودات جبارة لإصلاحها بعد أن اتخذت طريقا جديدا في الحياة . وقد بذل كل مجهود ليتفق مع الفرنسيين على هذا الأساس ولكنه أخفق ، فآثر أن يتنازل عن العرش ، لعل غيره يستطيع . واستقال .

ففي الساعة الخامسة من مساء يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩١٢ صعد العاهل العظيم إلى ظهر طراد فرنسي ، في ميناء مدينة الرباط ، وخرج أهل المدينة زرافات زرافات ليودعوا سلطانهم المستقيل ، وأنصتوا بقلوب واجفة — في ذلك الموقف التاريخي الرهيب — إلى الطراد الظافر ، يطلق إحدى وعشرين طلقة ، مؤذنة ببداية الرحيل . ثم أسلم رسالة استقالته إلى رئيس الوزارة . فإذا فيها : إنه يستقيل لعجزه عن القيام بواجباته نحو الشعب

هكذا بارح مراكش آخر سلاطينها المستقلين ، ليقضى بقية حياته في المنفى ، وهكذا خلف وراءه بين أيدى القدر مشاريعه الإصلاحية ، ومن بينها مشروع الدستور . على أن هذه البلاد ، يوم تصل إلى حقوقها في الحياة ، لن تنسى أن مجهوداتها اليوم في سبيل الدستور ، إنما ترتكز على مجهودات السلطان عبد الحفيظ ورجاله الوطنيين .

عبد المجيد بن جلون

تطور الـــكائنات الحية واتجاهه

[يتطور العالم الانسانى اليوم ، ولا شك ، نحو الاشتراكية ، وقد زادت الحرب الحاضرة من سرعة تطوره فى هذا الاتجاه ؛ فهل من لزوم لهذا التطور ؟ وما هى أسبابه ؟ وهل يتفق اتجاهه الحالى مع الاتجاهات التى سلكتها الكائنات الحية فى تطورها قبل اليوم ؟ تلك أسئلة لا مفر من الاجابة عليها إذا أردنا تكوين فكرة علمية صحيحة عن قيمة هذه التطورات الجديدة ، فلنطلب إذاً من العلم أن يلقى الضوء على هذا كل السياسة ....]

الحياة عنوانها الحركة والتطور ؛ أما السكون فمن شيم الجماد ، تلك سنة السكون من يوم أن ظهرت الحياة فى المادة ، وقد كان داروين أول من أقنع الناس بذلك ، فدلل على وجود التطور ، وبين اتجاهاته ، ووضح أساليبه . فالكائنات الحية كلها ، من حيوان ونبات ، فى تطور مستمر ، بدأ وقت أن بدأت الحياة ، ولن ينتهى قبل انتهائها ؛ لكن التفاوت واضح فيما بينها فى درجة التطور ومبلغ الرقى ؛ فأحقرها هى الأميبا ذات الخلية الواحدة التى لم تتطور قط أو تطورت تطوراً يمكن إغفاله — وأرقاها هو الإنسان ذو العقل الجبار الذى وصل فى تطوره إلى أعلى رتبة بلغها كائن ما إلى يومنا هذا .

أما الغرض من هـذا التطور ، فهو تقوية الكائن الحى فى كفاحه المستمر ضد البيئة ؛ فهو يسعى للحصول منها على ما يلزمه لحياته وحياة نسله من بعده ، وهى تسعى من جانبها للحد من حياته ومنعه من التناسل ؛ ولا سبيل إلى توفيقه فى سعيه هذا إلا إذا تطور وارتقى ، فازداد تبعاً لذلك قدرة على مجابهة بيئته . أما إذا بقى على حاله ، أو تطور تطوراً لا يكفى ، فالبيئة التى لا ترحم لابد متغلبة عليه فتوصله إلى المصير المحتوم ، فيموت الفرد وينقرض النوع . الهدف إذاً أمام الكائنات الحيـة مزدوج : المحافظة على حياة الفرد والمحافظـة على نوعه ، وتقاس درجة رقى كائن ما بمـا يصيبه من نجاح فى هـذا الذى يستهدفه .

وقد سلكت الكائنات الحية كلها فى تطورها طريقاً واضح المعالم ، فارتقت من خلية بسيطة كالأميبا تقوم بمفردها بكل مهمات الحياة الضرورية ، مستقلة عن غيرها استقلالا تاماً ، إلى كائنات معقدة كل التعقيد تتكون من عدد من الخلايا لا يحصى ، ترتبط كل واحدة منها بباقى الجسم ارتباطاً وثيقاً لا يفصم سوى الموت عراه ؛ ولكل واحدة منها وظيفتها الخاصة لا تتعداها : فبعضها للتغذية ، وبعضها للتنفس ، وبعضها للتناسل ، إلى غير ذلك ؛ كما تتسلط عليها جميعاً مجموعة خاصة من الخلايا ، هى المجموعة العصبية مهمتها التوفيق والتنسيق بين خلايا الجسم المختلفة .

فالارتقاء فى عالم الحيـوان والنبات يتحقق إذاً بأن يتعقـد تكوين الفرد ، وتتعدد وحداته ، ثم تتعاون هذه الوحدات فيما بينها وتتخصص ، ثم تسند قيادتها إلى إدارة مركزية تتولى تصريف الأمور التى تتعلق بسياسة الفرد العليـا فى بيئته ، فتعمل على حفظ حياته وعلى الإكثار من نوعه .

لقد كان تطور الأجسام هذا هو المظهر الوحيد لتطور وارتقاء الكائنات الحية ولنجاحها فى علاقاتها مع بيئتها دهوراً طويلة ، ثم سلكت الطبيعة طريقاً إضافيا ، فظهرت فى بعض الكائنات غريزة جديدة ، هى الغريزة الاجتماعية ، وأخذت الكائنات التى من نوع واحد تتعاون فيما بينها لفائدة الجماعة بعد أن كان الفرد يعمل لمصلحته الذاتية فقط مستقلاً عن غيره استقلالاً يكاد يكون تاماً .

وقد بلغ من ارتقاء هذه الغريزة عند بعض الأنواع أن نظمت حياة الجماعـة تنظيما عجيباً ، فتخصص بعض الأفراد لأداء مهمات خاصة — كما تخصصت خلايا الجسم

الواحد قبل ذلك – وأسندت القيادة إلى فرد — كما أسندت خلايا الجسم قيادتها إلى المجموعة العصبية — وأصبح الملك في النحل ، مثلا ، الكلمة النهائية في المجتمع ، كما أصبحت حاجيات الأفراد في مثل هذه الجماعات يُقضى بعضها بسعيه الخاص وبعضها بسعي الجماعة .

لكن الغريزة الاجتماعية لا تتطور في النوع الواحد ، فلا تقوى الصلة بين الأفراد ، ولا تتعقد نظم الجماعة ، فأسس التعاون ثابتة ، والنظم المتبعة في المجتمع جامدة فقد قامت على غريزة ، والغريزة لا تتغير . فالنحل والنمل مثلا — وفيهما الغريزة الاجتماعية على أقواها وأرقاها — لا تتغير كثيراً أو قليلا في نظم التعاون ، أو درجة التخصص أو مقدار تعقد الإدارة — لكنها تسير دائماً على وتيرة واحدة .

أما بين الأنواع وبعضها ، فقد تطورت الغريزة الاجتماعية قوة وضعفاً ، فظهرت بعض الأنواع وفيها الغريزة ضعيفة جداً كالماشية والذئاب مثلا ؛ فتظهر الغريزة الوحيدة فيها هو اجتماعها في قطعان تشترك في البحث عن مرعى أو في الهجوم على الفريسة . أما في النحل والنمل ، فالغريزة فيهما ، كما أسلفت ، راقية قوية تشمل مرافق الحياة كلها .

لقد ارتقت الكائنات إذاً وازدادت نجاحاً في كفاحها ضد البيئة بطريقتين : ارتقاء الفرد أولاً ، وارتقاء العلاقات بين الأفراد ثانياً . فأما عن الطريقة الأولى فهي متبعة في كل نوع وفي كل فرد . وأما الطريقة الثانية ، فهي مقصورة على بعض الأنواع دون غيرها ، فمن الكائنات ما لا غريزة اجتماعية له البتة ، ولا يشترط أن يبلغ الفرد في تطوره الاجتماعي نفس الرتبة التي بلغها في تطوره الجسمي ، فقد يكون أرقى في اتجاه عن اتجاه ، فالنحل مثلا أقل رقياً في تكوينه الجسمي من الماشية ، لكنه أرقى منها بما لا يقاس في تنظيمه الاجتماعي .

خطت الطبيعة بعد ذلك في تطورها خطوة جديدة ، فظهر في العالم كائن جديد هو الإنسان ، يمتاز من غيره من الكائنات بأنه يفكر . ولا يهمنا في هذا المقام أن ندخل في جدل نظري حول ماهية الفكر وطريقة ظهوره وهل يختلف ، أو لم يختلف ، عقل الإنسان عن إحساس الحيوان ؟ إلى غير ذلك من المناقشات التي لا طائل وراءها والتي لا تغير من واقع الأمر شيئا . إنما الواقع هو أن الانسان ، بما له من عقل مفكر ، قد نجح إلى حد كبير في كفاحه ضد بيئته ، فأصبح له الآن عليها سلطان عجيب وأصبح في مقدوره هو أن يغير فيها ويبدل بعد أن كانت هي التي تتحكم في الكائنات كلها ، فتجبرها على التطور مجاراة لها وخوفاً لما قد يجره الجمود من موت وانقراض . فتسلط الإنسان على البحر والجو واليابسة ، وأخضع الحيوان والنبات لجبروته ، وسخر الجماد لخدمته . ولا يرجع الفضل في نجاحه هذا الى سعي الفرد ، ولا الى سعي جماعة مدفوعة بغريزة اجتماعية جامدة ، بل الى فكره الذي جعل من تلك الغريزة قوة نامية تعمل دائماً على ازدياد التعاون بين الأفراد وعلى تعقد نظم الإدارة عند الجماعة ، بعد أن كانت الغريزة عند باقي الكائنات الحية جامدة لا تتغير . وانتظم أفراد الجنس البشري في جماعات صغيرة . كما انتظم غيرهم من الكائنات في مملكة النمل والنحل قبل ذلك ـ وأصبح الأفراد يعملون لصالح الجماعة لا لصالحهم الذاتية فقط ، كما أصبحت الجماعة تعمل لصالح كل فرد مكون لها ، وبدأ التخصص في الأعمال ؛ فقد كان الفرد قبل ذلك يقوم بمفرده بكل الأعمال التي تتطلبها حياته ؛ أما بعد انتظامه في جماعة فتخصص كل في عمل لا يأتي سواه ، فوجه بعضهم الى الحصول على الطعام وبعضهم إلى إعداده وكلف غيرهم بالبحث عن مأوى ، وغيرهم بالدفاع عن الجماعة الى غير ذلك .

كانت تلك الجماعات أول الأمر صغيرة ثم أخذت تكبر شيئاً فشيئاً ، فتطورت الجماعة من عائلة الى قبيلة ،

كتابان في الأحكام السلطانية

فأيهما الأصل ؟

بين يدينا كتابان في موضوع الأحكام السلطانية ، أحدهما لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي ، والآخر لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، وقد طبع الأول طبعته الأولى سنة ١٨٥٣ (١) والثاني سنة ١٩٣٨ (٢) ومن يمعن في هذين الكتابين يرى تقاربا عظيما وعلاقة قوية بينهما في نواح تدعو إلى الشك ، لأنهما يبحثان في موضوع واحد هو (السياسة الشرعية) ويتناولان أبحاثا متشابهة ويعالجان مشاكل واحدة ، ويتقاربان في زمن ظهورهما ، لأن المؤلفين معاصران لبعضهما — القرن الخامس الهجري — ومما يدعو إلى الدهشة ويوقف القارئ موقف الحيرة والتردد تقارب عبارات الكتابين واتفاقهما نصاً ، إلا النزر اليسير فيما يختص بمذهب المؤلفين ، فيضيف الماوردي على الأحكام التي يذكرها ما يتعلق بمذهب الشافعي ، وأبو يعلى ما يتعلق بمذهب الحنبلي . أما الأصول التي يقوم عليها البحث في كلا الكتابين ، وكذلك الأبواب وتقسيم الأبحاث فهي متجانسة في الاثنين .

وأول ما يتبادر إلى ذهن المتتبع في مثل هذا الموقف التساؤل : أركن أحد المؤلفين على الآخر في تصنيفه أم اعتمد كلاهما على مصدر آخر مجهول لدينا ؟ . ومن الطبيعي أن هذا يؤدي بنا إلى البحث عن السابق في التأليف ومدى اعتماد صاحبه عليه . ولا غرو فإن سؤالاً كهذا يتطلب درساً عميقاً لكل من المؤلفين . ولا سيما ما يتعلق بحياتهما ومنزلتهما العلمية وأثرهما الفكري ، ومن ثم النظر في مؤلفاتهما الأخرى، إن وجدت ، ومقارنتها بهذين الكتابين من حيث الأسلوب والآراء . وحينئذ يمكن الوصول إلى شيء من الحكم التقريبي بشأنهما .

أما الماوردي فنكاد نجد ما يشفي الغلة عن تاريخ حياته ومركزه العلمي ، في معظم كتب التاريخ والتراجم التي ألفت بعده ، مثل : وفيات الأعيان ، والوافي بالوفيات ،

(١) طبعة أنجر — R. Anger — في مدينة بون — Bonn — ألمانيا .

(٢) وقد طبع في مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، بعناية وتصحيح محمد حامد الفقي .

الى قرية او مدينة ، الى دولة تقوم في مدينة واحدة كدول الاغريق مثلا ، الى دولة تشمل مدناً كثيرة كدول اوربا الحالية ، الى الأمبراطورية الواسعة التي لا تغرب الشمس عنها ، وقد أسندت الإدارة المركزية في كل مجتمع الى حكومة لها الكلمة الأخيرة في مسائله ، فهي التي تدبر دفة شئونه وتوجه سياسته ، وهي التي تعمل على حفظ النظام داخل المجتمع . وقد تعقدت نظم هذه الحكومات بمضي الأيام ، وازداد التعاون بين الأفراد ونوعا ، كما ازدادت درجة التخصص في الأعمال ، وأصبحت الحكومات تهيمن على نواح متزايدة من نواحي نشاط الفرد ، وأصبحت في العالم نظريتان ، تقول احداهما بزيادة التعاون بين الأفراد ، والتخصص في الأعمال ، وتعمل على توسيع سلطة الحكومات وتوصي بأن يضحي الفرد بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة المجتمع كله ؛ أما الثانية فتقول ببقاء الفرد حراً لا يخضع للجماعة إلا في القليل ؛ فتوصي بالاقلال من سلطة الحكومات وتغلب حرية الفرد على مصلحة الجماعة . وقد انقسم الناس في كل بلد إلى حزبين يشتد التنافر والتناحر بينهما : يسمى الاولون بأهل الشمال ، ويسمى الآخرون بأهل اليمين . ولنترك الكلام عن هذا النزاع بين أهل الشمال وأهل اليمين وتأثير الحرب فيه ، الى فرصة أخرى

دكتور حليم حبيب دوس

ومعجم الأدباء، والكامل في التاريخ، والمنتظم، وطبقات الشافعية، وغيرها . . . والذي يدرس ما جاء عنه في هذه الكتب يراها تتفق في أنه توفي سنة ٤٥٠ للهجرة وله من العمر ست وثمانون سنة، وهذا معناه أنه عاش منذ منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس للهجرة. وقد كان هذا العصر عصر انحلال سياسي في الدولة الإسلامية، إذ تجزأت المملكة إلى دول صغيرة، ولم يبق بيد الخليفة غير بغداد وأعمالها. وكان منصب الخلافة نفسه ألعوبة بيد القواد من الترك والديلم الذين أصبحوا ينصبون ويخلعون الخلفاء، تطمينا لرغباتهم وتنفيذا لرغباتهم الخاصة ليس غير. على أن شبحاً لسيادة الخليفة ببغداد – كما يقول متز – لا يزال ماثلا في أذهان الناس، فكان الملوك والأمراء المنفصلون عنه يعترفون له بالسيادة ويخطبون باسمه ويرسلون إليه الهدايا، محاولين بذلك الحصول على ألقابهم منه.

ومما يدعو إلى الاستغراب حقاً أن تكون عصور هذه الفوضى السياسية من أخصب العصور الإسلامية في الانتاج الفكري من علوم وآداب وفنون. ولكن هذا الاستغراب قد يزول إذا ما نظرنا إلى الأسس التي وضعها الخلفاء العباسيون الأولون أمثال المنصور والرشيد والمأمون، فوصلوا الدولة إلى أوج عزها السياسي واستقرارها الداخلي. ثم يجب ألا ننسى أن الملوك والأمراء الذين انفصلوا عن مركز الخلافة كانوا يتنافسون في تعضيد العلوم والآداب وتقريب العلماء، وتشجيعهم، ولعل في هذا ما يفسر لنا ظهور الفلاسفة والأدباء والفقهاء والمحدثين الذين نبغوا في هذا العصر. وكان الماوردي ممن حظي بنصيب وافر من هذا التشجيع، فقد كان مقرباً من الخلفاء العباسيين، بدلالة ما يذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٠ من كتابه « الكامل » قائلا : « وأرسل القائم بأمر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماوردي إلى الملك أبي كاليجار ليأخذ عليه البيعة ويخطب له في بلاده فأجاب وبايع وخطب له في بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأموالا كثيرة[1] » . وما يذكره صاحب معجم الأدباء من أنه « كان ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوئهم ويرتضون بوساطته ويقفون بتقريراته[2] » . والذي لا شك فيه أن هذا مما يدل على سمو منزلته واتصاله بالناحية السياسية لعصره اتصالا مباشراً ، وقد صنّف الماوردي كتباً عديدة في الفقه والتفسير والسياسة الشرعية ، منها كتابه « الأحكام السلطانية » الذي نحن بصدد البحث فيه . وقد ألفه امتثالاً لأمر من تجب طاعته عليه ، كما يقول في مقدمته[3] . وله كتاب آخر في نفس الموضوع هو « قوانين الوزارة[4] » . والذي يمعن الدراسة في الكتابين يجزم بسعة اطلاع الماوردي وغزارة علمه ، ولا يعجب بعد ذلك من مركزه العلمي الممتاز الذي تبوأه في عصره ، حتى إنه ولي القضاء ببغداد ، ولقب بأقضى القضاة سنة ٤٢٩[5] هـ . وإن الكتب التي تترجم له وتعدد مؤلفاته تذكر كتاب « الأحكام السلطانية » بينها ، كما أن كتبا قديمة نقلت من هذا الكتاب ، فقد طبعت لجنة تذكار « كب » الإنكليزية في سنة ١٩٣٧ كتابا

---

(١) راجع – ابن الأثير : تاريخ الكامل (طبع مصر) ج : ٩ ، ص : ١٤٥ .

(٢) راجع – ياقوت الرومي : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (طبعة د . س : مرجليوث . مطبعة هندية بمصر – الطبعة الثانية ١٩٢٨) ج : ٥ ، ص : ٤٠٧ – راجع أيضاً : ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٩هـ) ج : ٨ ، ص : ١١٣ و ١١٦ و ٢٣٣ .

(٣) راجع – مقدمة الكتاب المذكور (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٩) ص : ٢ .

(٤) وقد طبع لأول مرة على نفقة مكتبة الخانجي بمطبعة دار العصور سنة ١٩٢٩ باسم « أدب الوزير » – الحلقة الخامسة من سلسلة الرسائل النادرة .

(٥) راجع : ياقوت : المصدر السابق ، ص : ٤٠٧ .

فى الحسبة اسمه « معالم القربة » لابن الأخوة القرشى بعناية الأستاذ « روبن ليفى » أحد أساتذة جامعة كمبردج ، وقد أشار الأستاذ ليفى فى المقدمة التى وضعها للكتاب إلى أنه وجد تشابهاً كبيراً فى فصول كثيرة بين كتاب ابن الأخوة المذكور — المتوفى سنة ٧٢٩ هـ — وكتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » لابن البسام ، وكتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » للشيزرى — المتوفى سنة ٥٨٩ هـ — ولذلك فهو يتساءل : هل اعتمدت هذه الكتب الثلاثة على مصدر واحد ، أم أن « معالم القربة » قد بنى على أحد الاثنين الآخرين ؟ وهو أمر حسب رأيه لا يمكن البت فيه إلا بعد البحث والتدقيق[1] ، ولكن الأستاذ أحمد سامح الخالدى انبرى للجواب على تساؤل الأستاذ ليفى ، إذ أثبت أن ابن الأخوة قد نقل كل ما جاء فى موضوع الحسبة من كتاب الأحكام السلطانية للماوردى حرفاً بحرف ، وأنه نسب بعض ما نقله إلى الماوردى ولم ينسب البعض الآخر ، ولذلك فهو — على رأيه — منتحل لكتاب الماوردى[2] .

أما أبو يعلى فبالرغم من البحث فإنى لم أعثر على ترجمة وافية له خلا ما جاء فى كتاب ابنه « طبقات الحنابلة » . ومن يقرأ تاريخ حياته كما جاءت فى هذا الكتاب ير أنه كان معاصراً للماوردى . فقد ولد سنة ٣٨٠ هـ وتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، وقد قضى شطراً كبيراً من حياته ببغداد حيث كان الماوردى . وولى القضاء فى حريم دار الخلافة فى عهد الخليفة القائم بأمر الله . وأنه كان إمام الحنابلة فى عهده ، عارفاً بالقرآن وعلومه وبالحديث والفتاوى ، وقد

(١) راجع — المقدمة التى وضعها بالانكليزية الأستاذ روبن ليفى للكتاب المذكور (طبع دار الفنون بكمبردج سنة ١٩٣٧) .

(٢) راجع — مجلة الثقافة [العدد السابع] ١٤ فبراير سنة ١٩٣٩ .

صنف ما يربو على السبعين كتاباً أكثرها فى علوم القرآن وتفسيره ، وفى الفقه والأحكام السلطانية ، وهذه الترجمة التى وضعها عنه ابنه تدلنا على سمو منزلته فى عصره ، وأنه كان من أئمة العلم وقادة مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وذا مكانة عالية عند الخلفاء ، وله تأثير عظيم فى نفوس الناس ، وقد درس وتخرج عليه علماء كثيرون[1] .

ولكننا إلى جانب هذا لا نجد عنه شيئاً فى كتب التاريخ والتراجم الأخرى إلا النزر اليسير فى بعضها . فالخطيب البغدادى وهو من معاصريه — توفى الخطيب سنة ٤٦٣ هـ — لا يذكر عنه غير شىء يسير نستدل منه على أنه « كان أحد الفقهاء الحنابلة وله تصانيف على مذهب أحمد بن حنبل وأنه درس وأفتى سنين كثيرة . . . وولى النظر فى الحكم بحريم دار الخلافة[2] » ، كما أن صاحب كتاب « الكامل فى التاريخ » عند بحثه فى حوادث سنة ٤٥٨ يشير إلى أنه « قد توفى فى شهر رمضان من هذه السنة القاضى أبو يعلى وعنه انتشر مذهب أحمد رضى الله عنه ، وكان إليه قضاء الحريم ببغداد بدار الخلافة وهو مصنف كتاب الصفات[3] » . وابن الجوزى يشير إليه فى كتابيه « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » و« مناقب الإمام أحمد بن حنبل » بما لا يخرج عن ذلك[4] ، أما بقية كتب التراجم فإنها لا تشير إليه بشىء أبداً . ومن الغريب

(١) راجع — أبو الحسين محمد بن القاضى أبى يعلى الحنبلى : طبقات الحنابلة (مطبعة الاعتدال — دمشق ١٣٥٠ هـ) ص : ٣٢٧ — ٣٨٨ .

(٢) راجع — أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣١) ج : ٢ ، ص : ٢٥٦ .

(٣) راجع — ابن الأثير : المصدر السابق ، ج : ١٠ ، ص : ١٨ .

(٤) راجع — ابن الجوزى : (١) المصدر السابق ، ج : ٨ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . (٢) مناقب الامام أحمد بن حنبل (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٠) ص : ٥٢٠ — ٥٢١ .

أن ياقوتا يذكر في كتابه « إرشاد الأريب » حادثا نستدل منه ، إذا صح ، أن أبا يعلى لم يكن كما يدعي ابنه منزلة ، بل أقل شأنا بكثير . إذ يقول : « تقدم القادر بالله إلى أربعة من أئمة المسلمين في أيامه في المذاهب الأربعة أن يصنف كل واحد منهم مختصراً على مذهبه ، فصنف له الماوردي — الإقناع — وصنف له أبو الحسن القدوري مختصره المعروف على مذهب أبي حنيفة ، وصنف له القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن نصر المالكي مختصراً آخر ولا أدري من صنف له على مذهب أحمد[1] ... » فلو كان أبو يعلى إمام الحنابلة ، كما كان هؤلاء أئمة مذاهبهم ، لوضع كتاباً مختصراً في مذهبه مثلهم[2] . وليس من الممكن أن يكون هو واضع الكتاب الذي أشار إليه ياقوت ولم يعرف واضعه ، إذ أن شهرته التي يروي لنا ابنه عنها ومنزلته في مذهب الإمام أحمد التي يذكرها الآخرون ، تكفي لأن يعرفه ياقوت وغيره .

وأغرب من ذلك أن دائرة المعارف الإسلامية التي تصدت للبحث في مختلف مواضيع التاريخ الإسلامي وشخصياته ، واجتهدت ألا تترك شيئاً مهماً دون أن تشير إليه ، نراها خالية من الإشارة إلى أبي يعلى . فإن المستشرق (Goldziher) الذي حرر الفصل الخاص فيها عن الإمام أحمد بن حنبل ومذهبه يذكر في آخر بحثه خلاصة عن كل الأئمة الذين جاءوا بعد الإمام أحمد وكانوا زعماء هذا المذهب . فيذكر أبا القاسم عمر الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، وعبد العزيز بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وأبا الوفاء علي بن عقيل المتوفى سنة ٥١٥ هـ وتقي الدين أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ[3] ، ولا يذكر أبا يعلى كإمام المذهب المذكور ، بل إنه لم يشر إليه بقليل أو كثير . ولعل مما يدعو إلى الاستغراب أيضاً أن أحد هؤلاء الأئمة ، وهو أبو الوفاء بن عقيل كان أحد تلامذة أبي يعلى كما يذكر ابنه في طبقاته ، وكما يشير ابن الجوزي في حوادث سنة ٥١٣ هـ في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم[1] » .

لا شك أن هذا مما يدعو إلى الاستغراب ، وإن الأمر لا يخلو من وجهين ، فهو إما أنه كان يكثر حساده ومنافسوه من المصنفين فلم يكتبوا عنه شيئاً ينال الخلف بعدهم ، وإما أنه لم يكن بهذه الدرجة من المنزلة العلمية التي يشير إليها ابنه في طبقاته . على أنه مما يضعف الرأي الأول أن ابنه يدعي أن أباه كان مسالما محبوباً عند أقرانه ، وهذا ما يؤيده فيه غيره ممن كتب عنه من الذين ذكرناهم ، وخاصة ابن الجوزي . فهم يكادون يتفقون على أنه كان مسالماً زاهداً عفيفاً وله الأصحاب المتوافرون .

والذي نلاحظه فيما كتب عنه على قلته أن ليس هنالك إشارة إلى كتابه « الأحكام السلطانية » ما عدا ما جاء في كتاب ابنه المذكور . وهنا نرجع إلى موضوعنا الأول فنتساءل : من هو يا ترى المؤلف الأصلي للكتاب الذي نحن بصدد البحث فيه ، الماوردي ، أم أبو يعلى ، أم اعتمد الاثنان على مصدر واحد لا نعرفه ؟ ولكننا إذا وازنا بين منزلتي المؤلفين وشهرتيهما العلمية ، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار تواتر كتب التاريخ والتراجم على نسبة الكتاب الى الماوردي وعدم ذكره بين مصنفات أبي يعلى ، ثم إذا أضفنا الى ذلك اقتباس بعض الكتب من كتاب الماوردي وخاصة ما ذكرناه من اقتباس ابن الاخوة القرشي في كتابه معالم القربة ، كل هذه تجعلنا نميل إلى أن الكتاب للماوردي باعتباره مؤلفاً مشهوراً ومن أوائل من طرق البحث في موضوع السياسة الشرعية ، ثم إن أسلوب هذا الكتاب وعرضه

(١) راجع — ياقوت : المصدر السابق ، ج : ٥ ، ص : ٤٠٨ .

(٢) حينما توفى القادر سنة ٤٢٢ للهجرة كان أبو يعلى قد جاوز الاربعين سنة من عمره .

(٣) راجع — دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ٣ موضوع : أحمد بن حنبل .

(١) راجع — ابن أبي يعلى : المصدر السابق ، ص : ٣٧٨ .

لا يختلف فى شىء من بقية كتب الماوردى وخاصة كتاب « أدب الوزير » الذى أشرنا إليه .

أما إذا افترضنا أن أبا يعلى قد انتحل كتاب الماوردى وأدخل عليه بعض التعديل مما يلائم مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ، فإن هذا الرأى لا يمكن قبوله . لأنهما كانا معاصرين لبعضهما ، وكان كلٌّ منهما إمام مذهبه فى عهده ، وكلاهما من الشهرة بمنزلة عظيمة ، فلا يستطيع أبو يعلى ، والحالة هذه ، أن ينتحل كتاباً لشخصية مشهورة جداً ولها مركزها العلمى الممتاز مثل الماوردى ، ثم إن أبا يعلى يذكر فى مقدمة كتابه المذكور أنه ألف هذا الكتاب ليشرح فيه الإمامة وما يتعلق بها من الولايات ، وإليك ما يقوله : « أما بعد ، فإنى كنت قد صنفت كتاب الامامة وذكرته فى أثناء كتاب المعتمد ، وشرحت فيه مذاهب المتكلمين وحجاجهم وأدلتنا والأجوبة عما ذكروه ، وقد رأيت أن أفرد كتابا فى الإمامة أحذف فيه ما ذكرت هناك من الخلاف والدلائل ، وأزيد فيه فصولا أخر تتعلق بما يجوز الامام فعله من الولايات[1] .. » ولذلك يبدو لنا أن للأمر وجهاً آخر وهو ما نرجحه ، فقد يكون أبو يعلى قد ألقى دروساً فى موضوع الأحكام السلطانية ، ورأى أن ما ذكره فى كتابه « المعتمد » عن الامامة وما يتعلق بها من الولايات وغيرها لا يفى بالمرام ، ووجد أن كتاب الماوردى فى هذا الموضوع خير ما يعينه على ذلك ويكفيه مؤونة البحث والتأليف ، فاعتمد عليه وأخذ يمليه على طلبته بعد أن يحذف منه ويعدله أو يضيف إليه ما يتفق وأحكام المذهب الحنبلى ، إذ أن كتاب الماوردى موضوع على أساس المذهب الشافعى — وقد نقله جماعة من طلابه بهذه الصورة المعدلة وبقوا يحتفظون به على أنه كتاب إمامهم . ومن الممكن أن تكون وفاة الماوردى قبل أبى يعلى بثمانى سنوات مما ساعدت على ترويج ذلك .

هذه مقدمة وجيزة لعلها تلقى بعض الضوء على هذين الكتابين ، وتضع أمام القارىء صورة واضحة لهما ولمؤلفيهما . وسنحاول فى فصل قادم أن نقوم بدراسة مقارنة للكتابين لنتبين مدى التشابه الموجود بينهما ودرجة اعتماد أحدهما على الآخر ، مما يساعدنا على معرفة الأصل منهما .

[بغداد] أحمد عبد الباقى

(١) راجع — مقدمة الكتاب المذكور : ص ٣ .

منديل .. بائع الكتب

قصة لستيفان زفايج

بقلم حسن فتحي خليل

عدت إلى فينا بعد رحلة في الضواحي ، وكان المطر يتساقط غزيراً فدلفت إلى أحد المقاهي ولم أهتم بقراءة اسمه حين دخولي . وما إن جلست وشربت القهوة وأدرت بصري في جوانب المقهى حتى خيل إلى أني طرقت ذلك المكان من قبل ... منذ مدة خيل إليّ أنها بعيدة.. وأن هناك في ذلك المكان تختفي حلقة من حلقات حياتي كما يختفي المسمار داخل الخشب . واستعملت قوة إرادتي وتخيلي وإذا بي فجأة أدرك دقائق ملامح رجل معين ، بفمه وذلك الفراغ بين أسنانه وإيقاع ضحكته المتكسر ، واهتزازات شاربه ، وذلك الوجه الجديد الذي يطالعك به كلما ضحك . رأيت كل هذا بوضوح تام ، بل تذكرت كل كلمة قالها لي ذلك الرجل، ولكني — مع هذا — كنت مازلت في احتياج إلى دافع قوي حتى أشعر بذلك الماضي ماديا . فحاولت ذلك بأن أغمضت عيني حتى تتضح تلك الخطوط العقلية الغامضة ، ولكني لم أستطع شيئا . فنهضت ووجدتني أقف وقد عزمت على الخروج، ولكني ما كدت أخطو حتى رأيت تلك الصورة الفوتوغرافية تعود ثانية إلى الالتماع في مخيلتي ، وأدرت البصر حولي فوجدت تلك المائدة الصغيرة المستطيلة القريبة من مكان (التليفون) وفي ومضة البرق اتضح لي كل شيء ... فقد أدركت على التو وقد اعتراني شعور من السعادة والدفء، أن هذا هو مكان يعقوب منديل عقبى « الحظ » .. يا إلهي بعد عشرين عاما أعود إلى محله المختار ، لا أدري كيف نسيت هذه الشخصية التي هي أقرب إلى شخصيات الأساطير ، هذه الأعجوبة الدنيوية ، ذلك الرجل الذي ذاع صيته في الجامعة وبين فئة مخصوصة من البيئة المثقفة، ذلك الساحر بائع الكتب ، الذي كان يجلس هنا يوميًا ساكنا ، من الصباح حتى الغروب، دليلا واضحا للمعرفة التامة . يجلس على المائدة الرخامية وقد تكدست عليها أكوام الكتب والنشرات الدورية والمجلات ، يهمهم حين يقرأ ، ويميل بجسمه نحو الأمام وإلى الخلف وهو يهز رأسه الأصلع ولا يشعر بما حوله ابدا .. فهو يقرأ كما يتعبد المتصوفون ، ومثلما يلعب المقامرون .

قدمني اليه زميل لي بالجامعة وكنت أدرس أعمال « مسمر » وأعياني البحث عن المراجع الخاصة به ، وقال صديقي : « إن منديل يعرف كل شيء عن الكتب القديمة والحديثة وسيساعدك .. إنه أعجوبة » وذهبنا اليه في ذلك المقهى ، ولم يشعر بنا .. كان يقرأ ويتمايل كأنه ورقة في مهب الريح ؛ ولكن زميلي قرع المائدة قرعا شديدا فاذا منديل يرفع عويناته عن عينيه ورمقنا ودعانا للجلوس وشرحت له بغيتي .. فمسح عينه اليسرى وكأنه يجمع أفكاره ، ولم يدم ذلك لحظة واحدة ، وإذا به على التو وكأنه يقرأ في فهرست مفتوح بعدد حوالي ثلاثين كتابا ويذكر مكان وتاريخ نشر كل منها وثمنه المحدد ..فتولاني العجب نحو ذاكرته الفريدة الخارقة للعادة . إنه يعرف كل شيء عن كل كتاب ظهر ، وعنوانه وثمنه ومكان طبعه ، وهو يعرف الكتب التي ظهرت في كل علم أكثر مما يعرف عنها الإخصائيون فيه . وذلك كله بفضل ذاكرته الجبارة الساحرة .

ولا تعرف تلك الشخصية العجيبة شيئا في العالم كله سوى الكتب ، فكل ظواهر الوجود لا تغدو حقائق بالنسبة اليه الا حين تتحول الى حروف مطبوعة .. وهو يحب مهنته هذه ويحتال بها ، حتى أكبر فيه بعض علماء فينا ملكته النادرة ، وحاولت الجامعة أن تضمه الى مكتبتها ولكنه رفض ، فهو لا تغريه النقود ، وهو لا يدخن

ولا يقامر . . وكل مايتناوله من طعام هو بعض اللبن والفطائر . وكم تعجب اذا لاحظته وهو يمسك كتابا بين يديه ! إنه يقلب الصفحات فى عناية وريث فائقين ، ولا يحب أن يشغله كائن سوى كتابه ، ويبدو بذلك كالمتعبد الناسك ، لحصوله على كتاب قيم يعادل الحصول على امرأة جميلة عند غيره ، وهذه اللحظات التى يقضيها فى تصفح الكتاب هى ليالى حبه الإفلاطونية ، ومقهى « الحظ » هو مكانه الدائم منذ ثلاثين عاما حين جاء إلى فينا من الشرق ليدرس حتى يشغل وظيفة فى مكتب الحاخام ، ولكنه سرعان ماهجر تلك الدراسة وجذبته الكتب فاتخذ ذلك المقهى محله المختار . يدخله يومياً من الساعة السابعة والنصف صباحا ولا يبرحه إلا بعد إطفاء الأنوار فى المساء . يجلس فى مكانه ويقرأ كتبه ولا يكلم أحدا . إن كل مايشغله هى ملايين الحروف السوداء التى تعكسها عويناته الزجاجية فليتقطها مخه .. أما ماعدا ذلك فهو لا شىء بالنسبة اليه .

لذلك اعترانى شعور من الخوف والرهبة حين لاحظت مائدته خالية ، فقد علمنى هذا الرجل كيف يخلص الفنان العالم لفكرته وكيف تكون هى المركز الذى تدور عليه حياته أكثر مما تعلمته من العلماء الحاليين . ومع ذلك فها أنذا قد نسيته ، فشعرت بالخجل وصاحبه حب استطلاع عن مكانه الآن . فسألت الساقى ورئيسه — وكانا جديدين عنه فأخبرانى بأنهما لايعرفان أحداً بهذا الاسم ، وعجبت أنا ، لماذا نعيش وهذا التيار الجارف يدفعنا أمامه فى قوة إلى النهاية . ثم إذا بنا ننسى نسياً منسيا . ولما سألت عن صاحب المقهى القديم فقيل إنه توفى بعد أن باعه وليس هناك أحد من القدماء سوى حارسة المعاطف السيدة سبورشيل . فطلبت رؤيتها وأنا أؤكد أنه ما من أحد ينسى شخصية منتدل . وجاءتنى فى خطوات بطيئة وشعرها الأبيض مشعث ، وما إن سألتها عنه حتى لمعت عيناها وهى ترمقنى بنظرة طويلة وتقول وهى تبكى : « إنه من العجيب أن أجد أحدا مازال يذكره . . لقد مات وأى عار أن يموت ذلك الرجل تلك الميتة الفظيعة » وصحبتها إلى مائدة منتدل وجلسنا ، وهناك حدثتنى — كما توفرت لى بعض المعلومات بعدئذ من جهات أخرى ـ عن قصة سقوطه .

قالت : نعم . كان يأتى إلى هنا حين ابتدأت الحرب[1] ويواظب على الحضور يومياً فى ميعاده كعادته ، وكان الكل يعتقد ويؤكد أنه يجهل اندلاع لهيب الحرب ولا يحس بها ، خاصة وأنت تعرف أنه لم يقرأ جريدة واحدة فى حياته بل كان يتجه بكل كيانه وروحه إلى كتبه ولا يحس بأى شىء حوله .. إلى أن هبت العاصفة يوما فدخل جنديان فى صباح أحد الأيام وقاداه إلى الخارج ، ولم يعد ثانية ، ومضى عامان على ذلك وهى لاتعرف سراً لهذا الاختفاء . ولكنى عرفته فيما بعد كما يأتى : ـ

لاحظ موظف الرقابة الحربية يوما بطاقة موجهة إلى تاجر كتب بفرنسا وموقعة بإمضاء منتدل يشكو فيها من عدم وصول الأعداد الأخيرة من نشرة الكتب الفرنسية . تعجب الموظف المختص ، فهذا شخص يكتب رسالة من النمسا إلى فرنسا ويضعها فى صندوق الخطابات كأى شىء عادى . . وكأن الحدود لم تغلق بالأسلاك الشائكة ، وكأن فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا لايقتل آلاف أبنائها بعضهم بعضا يوميا . واعتبر الأمر مهزلة ساخرة واحتفظ بالبطاقة فى درج مكتبه ، ولكن بعد أيام مرت عليه بطاقة أخرى مرسلة من نفس منتدل إلى كتبى آخر فى لندن يسأله عن أعداد مجلة « عمر الآثار القديمة » وقد ذيلها بعنوانه الكامل وبعد ساعة كان يعقوب منتدل مقبوضا عليه وهو يعجب لذلك . وعرضوا عليه البطاقتين فأقر بأنه هو الذى أرسلهما ، أليس له الحرية فى أن يطلب مايريد . وتعجب الضباط وبدأوا يستجوبونه . . وجر ذلك الاستجواب فى أذياله الشقاء لذلك الرجل المسكين ، إذ اتضح أنه من قرية تقع

(١) الحرب الكبرى الماضية سنة ١٩١٤ — ١٩١٨

بقرب الحدود الروسية البولندية وأنه ليست له به أوراق تثبت شخصيته وأنه ما زال رعية روسية ولم يتجنس بالنمساوية بعد . وكان مندل ينظر نظرات تائهة خلال عويناته وهو يعجب .. إنه لا يفقه شيئاً مما يقال . وانفجر الضابط غاضبا متعجبا .. كيف يوجد في عاصمة النمسا وفي منتصف الحرب في نهاية عام ١٩١٥ رجل روسي يسير في قلب المدينة هادئا مطمئن البال وترسل الخطابات إلى فرنسا وانجلترا ولا يعلم البوليس عنه شيئا .. وبعد ذلك يتساءلون عن حركات الجيوش التي تنقل إلى روسيا بواسطة جواسيسها .

ولما سئل مندل : لماذا لم يقدم نفسه على أنه أجنبي في أول فرصة ؟ أجاب في براءة غريبة وفي لهجة يهودية هادئة : « لماذا أشغل نفسي بذلك ؟ » وأجاب بالنفي حين سئل إن كان قد قرأ النشرات أو الجرائد . وسيق يعقوب مندل إلى السجن ثم نقل إلى أحد معسكرات الاعتقال وهو لا يعرف ما الذي سيفعل به .. ففي دنيا كتبه لا توجد حروب أو أي سوء تفاهم .. بل دنياه كلها معرفة واغتراف دائم من منهلها ، وحفظ لعنوانات الكتب وأرقامها وأثمانها فحسب . ولكنه حين جردوه من كتبه ومذكراته هاج وماج حتى سقطت عويناته فتحطم ذلك المجهر الذي كان يصله بدنيا العقل والوجدان ، ولا تدرى ما الذي عاناه في المعتقل لمدة عامين ، بعيدا عن كتبه ودنياه ، لا يدرى أحد .. ولكن لعل العالم قد شعر أخيرا أن من أفظع فظائع الحروب أن يوضع رجال مدنيون أبرياء قد تعدوا سن الجندية بمراحل خلف أسلاك شائكة وهم الذين امضوا في تلك البلاد الغريبة عن بلادهم زهرة عمرهم واعتبروها وطنا ثانيا لهم ، فلم يسهل عليهم تركها في أزمات مثل هذه هاربين فارين وقد أصبحت موطنهم الروحي .

وكان من المتوقع أن يمرض أو يصيبه الجنون لولا أن انتشل من هذه الوحدة في الوقت المناسب . إذ حولت إليه في المعتقل المراسلات التي كانت تصله على مقهى « الحظ » من كبار شخصيات فينا .. وسمح له الضابط حين عرف شخصية ذلك اليهودي القذر أن يرد عليها ويطلب معونتهم في مساعدته في الإفراج عنه وقد كان . فخرج من المعتقل بعد أن قضى عامين على أن يقدم نفسه يومياً إلى مركز البوليس . فكان عند ذلك .

وأصبح في إمكانه أن يعود إلى حريته وكتبه وإلى ركنه الحبيب في المقهى . ولكنه حينئذ كان يذكر الرائي له بالموت بمجرد رؤيته . فهو هزيل ضعيف يلبس أسمالا بالية . كلا لم يعد كما كان من قبل ، لم يعد ذلك السجل الواقي للكتب الجديدة والقديمة ، وكل من رآه في تلك الفترة كان يعتقد أن هناك حاسة قد ماتت من حواسه ، فهو يبدو كالميت وهو يقرأ بشيء قد تحطم في نفسه ولا ندري كنهه تماما . فهو متبلد الذاكرة وكأن عموداً شامخا قد أقيم في هندسة نفسه البنائية لحجب ذكرياته السعيدة وكشف ذكرياته المؤلمة ، فاهتزت نفسه وتخلخل بناؤها وامحى ذلك الجوهر السماوي الذي كان ينيرها دائما . وهو الآن ينظر إلى عملائه نظرة تائهة ولا يدري كيف يجيبهم على أسئلتهم ، بل هو ينسى ما سألوه عنه . فترتفع عيناه إليهم في تساؤل ذليل . عيناه قد انطفأ لمعانهما ، ولمعانهما رأيناه في ذلك المعتقل ذي الأسلاك الشائكة مناظر فظيعة حتى ظهرتا بهذا المظهر الحزين . لم يعد مندل كما كان من قبل ، تلك الأعجوبة التي أدهشت العالم ، بل هو الآن كتلة من عظام ودقن وملابس رثة بالية . لم يعد شيئا يفخر به مقهى « الحظ » بل هو الآن وصمة عار تلطخ جبينه ، جيفة تعاف النفوس النظر اليها .

وهكذا كان شعور صاحب المقهى الجديد الذي كان ينتهز الفرص للتخلص منه ، وسرعان ما حانت الفرصة بعد أن عانى مندل من الفقر المدقع ما عانى ، إذ تفرق عملاؤه وفقدت أوراقه المالية التي اقتصد قيمتها ، وأصبح مدينا

بثمن القهوة وقطع الفطائر ، ولاحظ رئيس الخدم أن ثمن مبيعات الفطائر لاتتفق مع الحسابات الجارية ، وحامت شكوكه حول مندل حتى ضبطه يوما وهو يسترق الخطى إلى المطبخ ويسرق قطعتين ، فصاح فيه صاحب المقهى وطرده . وكان مندل يمشى مضطربا ، ثم ترك المقهى فى ذلة ومسكنة وهدوء ، وقد غاض لونه ، حتى إنه نسى معطفه ، وكان الجو شديد البرودة ، وترك كتابه على مائدته من شدة خوفه .

ولم تلاحظ صبورشيل الكتاب إلا بعد خروجه فاحتفظت به . ولما سألتها عما حدث له بعدئذ قالت وهى مهتاجة العواطف : « مضت مدة طويلة لم أسمع عنه شيئا خلالها ، ولكن حدث فى صباح يوم من أيام فبراير فى الساعة السابعة والنصف أن فوجئت بالباب يفتح ومندل يدخل وهو يترنح فى مشيته ، وما إن رأيته حتى أيقنت أنه لا يعرف شيئا ، وأنه كان يسير فى نومه دون أن يشعر ، وأنه نسى كل شىء عن الفطائر وصاحب المقهى ولم يكن هذا الأخير ولا رئيس الخدم قد حضرا بعد ، فأسرعت إليه لأنصحه بعدم البقاء فإذا به يتذكر .. ويتراجع وهو يرتعش ، وأسرع فى خطى مضطربة نحو الباب .. ولكنه سقط مغشيا عليه . وفى المساء مات متأثرا بالتهاب رئوى مضاعف وقال الطبيب إنه جاء إلى المقهى بتأثير الحمى وهو لا يدرى . يا إلهى ! لقد كان على حق . إن الانسان إذا ما لازم مائدة لمدة ستة وثلاثين عاما أصبحت هذه المائدة بمثابة بيته وكل شىء لديه ! وبقينا نتحدث عنه نحن الذين نعرف آخر سلسلة من حياته .. فهو ذو فضل أدبى علىّ ، وهى قد جمعتها به صلة الفقر طيلة هذه المدة . وفجأة قامت فأحضرت لى الكتاب الذى تركه ، ولم أتمكن من أن أمنع الابتسامة التى ارتسمت على شفتى ، لأن المقادير التى تلعب بنا وتسخر ، تخلط الهزل بالعواطف العميقة ، فلم يكن ذلك الكتاب سوى موسوعة عن مجمل أدب الغرام والغزل . وتشاء المصادفة أن يكون ذلك هو آخر أثر لذلك الساحر الفانى يقع بين هاتين اليدين الفقيرتين التعبتين الجاهلتين اللتين لم تمسكا بأى كتاب ، اللهم إلا كتاب الصلاة . ووجدتنى أقول لها : « لا تقلقى واحتفظى بالكتاب فإن صديقنا الشيخ مندل ليغمره السرور حين يعرف أن هناك على الأقل شخصا واحدا من الآلاف الذين غمرهم بفضله مازال يذكره .

وخرجت وقد شعرت بخجل فى نفسى إزاء هذه المرأة العجوز الطيبة التى بقيت مخلصة لذكرى ذلك الرجل المتوفى على طريقتها السهلة المفعمة بالانسانية الدائمة . فمع أنها امرأة جاهلة لا تقرأ ، ولكنها ما زالت محتفظة بكتابه ليكون أس ذكراها له .

وهكذا .. لقد نسيت مندل لعدة سنوات .. أنا الذى عليه أن يعرف أننا خلقنا الكتب لتصل أرواحنا بأرواح من يتبعنا ولندافع بها عن أنفسنا ضد أعدى أعداء الحياة وهما الفناء والنسيان

حسن فتحى خليل

فجيعـــة حلب

بعالم مصري جليل

فقدت حلب الشهباء في الأيام الأخيرة سيداً من سادتها الأكارم وعالماً من علمائها البارعين هو السيد محمد شرف الدين الفاروق المصري الذي قضى ربع قرن بحلب يعلم ويؤلف ويكتب ويخرج التلاميذ أحسن تخريج.

قدم رحمه الله إلى حلب سنة ١٩١٧ زائراً فأعجبته لحسن مناخها وشدة شبهه بالقطر المصري فعزم على الإقامة فيها، وما إن ثبتت قدمه فيها حتى توافدت عليه أعيان البلدة ووجوهها وأذكياؤها يفيدون من علمه وفضله في حلقات كان يعقدها بمنزله بشارع السكة الجديدة بباب النصر. وقد صارت حلقاته هذه عكاظ حلب. كما كان كثير من أهل الفضل يدعونه إلى منازلهم فيحدثهم أروع الحديث، لما كان عليه من فصاحة اللسان وسعة الإدراك وجمال المنطق، وما زالت صلة السيد الفاروق المصري بحلب وأهلها تقوى حتى إذا عزم على الرحيل منها إلى بلده مصر وتفننوا في اختراع الحيل لبقائه بين ظهرانيهم حتى تحققت لهم هذه الأمنية. حدثني رحمه الله قال: لقد طوفت في بلاد الشام والمملكة العثمانية بلداً بلداً فأعجبت بالقدس وحلب إعجاباً عظيماً، وكنت كثيراً ما أمني النفس بقضاء بقية العمر في إحدى هاتين البلدتين ولكن أنى لي هذا؟ فإن الأيام قاسية والحياة صعبة، وما كل ما يتمنى المرء يدركه، ثم جرت المقادير بما أردت، فها أنذا أقيم في حلب العزيزة وأرجو أن أقضي العمر فيها. وإن ما لقيته من أهلها من عطف وولاء وحب ورعاية قد أنساني مسقط رأسي ودياري:

بلاد العرب أوطاني   من الشام لبغدان
ومن مصر إلى يمن   إلى نجد فبغدان

صدق قائل هذين البيتين يا صديق فإن بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها هي موطني وأرجو أن أمتع ناظري برؤيتها متحدة متفقة، ذات سيادة وعزة وكرامة ومنعة. هكذا قال لي السيد الفاروق منذ أكثر من عشرين سنة، وبهذا كان يبشر في كل حفل وفي كل بلد يحله، وليته عاش إلى أيامنا هذه حتى يرى بأم عينه بواكير هذه الوحدة الحبيبة إلى قلبه.

* * *

كان السيد الفاروق ضخم الجسم، طويلاً، عريض المنكبين، جميل الصورة، أسمر شديد السمرة، واسع العينين، براق الحدقتين كأن الذكاء يشع منهما، وكان حسن الحديث، محافظاً على لهجته المصرية، مؤدباً، ما سمعت منه كلمة نابية ولا عرفت أنه خاصم أحداً. ولا أساء إلى أحد، وكان وراء ذلك كله جيد الصوت حسن المعرفة بالموسيقى والأنغام قديمها وحديثها، وكان حسن البزة أنيق الملبس، يحسن انتقاء ثيابه ويختار أفضل الألوان وأكثرها تناسباً، وكان يفضل اللون الكحلي أو الأسود القاتم على غيرهما من الألوان، وكان ينتقي أفضل الخياطين وأتقنهم وأكثرهم صلة ببيوت الخياطة الباريسية، وكان شديد العناية بتجميل بيته، يختار له أفضل الرياش وأجودها وأكثرها قيمة، وكنت إذا دخلت بيته وجدت نفسك في متحف صغير يضم أجمل التحف وأحسن الآثار، وأخذتك رائعة الروعة والاتساق.

* * *

حدثني رحمه الله أنه ولد بمصر سنة ١٨٧٩ وأنه تلقى العلم على شيوخ الأزهر فبرع في العربية وآدابها، وحفظ القرآن وعلومه، والتاريخ، والحديث، وجوّد في ذلك. ولما أتم درسه الديني تطلعت نفسه إلى الكمال والازدياد من العلم فرحل إلى القسطنطينية وكانت، في أوائل هذا القرن، مركز الحركة العلمية في البلاد الإسلامية فرحل إليها ودخل دار الفنون وبرّز فيها واتصل هناك برجالات العرب الذين كانوا يشتغلون بالسياسة العربية كالمرحوم الشيخ

عبدالحميد الزهراوي والسيد عبد الرحمن الكواكبي وعمي السيد محمد نافع طلس وغيرهم ، ولما انتهت الحرب العالمية الماضية بما انتهت إليه قصد سورية وأقام في حلب فأحبه أهلها ، وكان كلما عزم على الرحيل إلى بلاده منعه أصدقاؤه الكثر وتلاميذه ومحبوه ، نذكر منهم ههنا المرحوم السيد فؤاد المدرس ، والمرحوم السيد نشأة المدرس ، والمرحوم والدي السيد عبد الوهاب طلس والسيد توفيق الجابري مدير المعارف العام في سورية اليوم وغيرهم ، وقد صار منزله في أواخر أيامه منتدى الجميع يجتمع فيه الرجال ويتناقشون في مسائل العلم والأدب والسياسة ، ويفد إليه الشبان فيتعلمون منه ما يجهلون من مسائل التاريخ والأدب والحضارة والسياسة ، ولما رأى الضرورة تقضي بأن يكون ميدان عمله أوسع ، أصدر جريدة « الميثاق » وناضل فيها قرابة عشر سنوات ، أو تزيد الانتداب ورجاله ، ودعا إلى مكارم الأخلاق والمذاهب الصحيحة . ثم انتدب إلى التدريس في مدارس الحكومة فأخذ يدرس العربية وآدابها وخرج جمهرة صالحة من الطلاب ، ثم انتدبته وزارة المعارف إلى إدارة مدرسة التجارة فقام بعمله خير قيام ، ولكن المرض دب في جسمه فظل يعمل على الرغم من شدة آلامه حتى لم يعد يطيق له حملا ، فترك حلب إلى بيروت حيث دخل المستشفى الأميركي ولم يلبث هناك طويلاً حتى وافته منيته فمات مبكياً على علمه وعقله وأدبه .

* * *

بكت الشهباء في الشهر الماضي فقيدها وأبنته بحفلة كبرى في قاعة مدرسة التجهيز الرسمية ، بكاه فيها أصدقاؤه وتلاميذه وعارفو فضله . وقالوا فيه الشيء الكثير . فرحم الله تلك النفس الطيبة التي ماتت شهيدة في سبيل المثل الأعلى ، ونكران الذات .

لقد فقدت حلب بموت السيد الفاروقي أديباً بارعاً وخطيباً مفوهاً عرفته منابر حلب وجمعياتها ومحافلها الحرة ومدارسها الوطنية والأجنبية . فقد كان يرتجل الخطبة البارعة الموفقة التي تضم إلى حسن التفكير وسداد الرأي أدباً جماً وفصاحة حسنة وبياناً مشرقاً ، واستشهاداً عجيباً ، وصوتاً ساحراً .

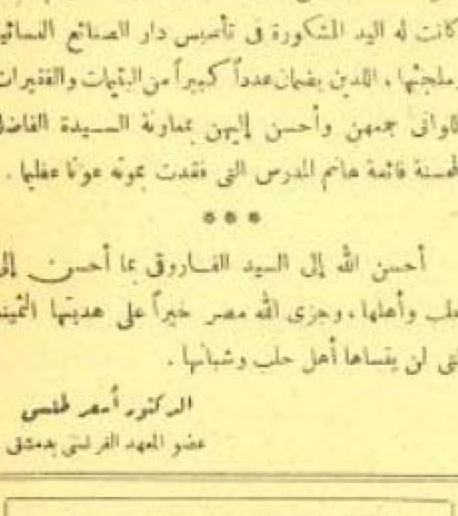
* * *

تلك هي الخطوط الرئيسية لحياة هذا السيد الجليل الذي كان أنموذج الرجل الصالح في عمله وخلقه وعلمه وسياسته . وقد كانت له مزايا أخرى يجهلها الناس إلا من كان شديد الاتصال به ، ومن ذلك أعمال الإحسان والبر التي كان يقوم بها ، فقد كان ينفق أكثر موارده على الأيتام والأرامل والفقراء من الطلبة ، وكان كثير من أغنياء حلب يعطونه الأموال الكثيرة ليقوم بتوزيعها على أهل الاستحقاق من صغار الطلبة والطالبات الأيتام ، وقد كانت له اليد المشكورة في تأسيس دار الصنائع النسائية وملجئها ، اللذين يضمان عدداً كبيراً من اليتيمات والفقيرات اللواتي جمعهن وأحسن إليهن بمعاونة السيدة الفاضلة المحسنة فاطمة هانم المدرس التي فقدت بموته عوناً عظيماً .

* * *

أحسن الله إلى السيد الفاروقي بما أحسن إلى حلب وأهلها ، وجزى الله مصر خيراً على هديتها الثمينة التي لن ينساها أهل حلب وشبابها .

الدكتور أسعد طلس
عضو المعهد الفرنسي بدمشق



بنت الشيطان وقصص أخرى

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

شرح وتحليل بقلم الأستاذ صديق شيبوب

انصرف الأستاذ محمود بك تيمور منذ عامين أو أكثر إلى تأليف القصص المسرحية حتى أربى ما كتبه منها على العشر ، ولكنه لم يهجر فن الأقصوصة الذى يعتبر من واضعى أسسه وموضحى نهجه . وقد طالعنا مغتبطين المجموعة الجديدة من الأقاصيص التي نشرها بعنوان «بنت الشيطان» وصدرها ببحث فى « أثر القصة فى تربية الشعب » تناول فيه فن القصة من حيث قدرته على توجيه الشعب إلى نواح خاصة فى الحياة .

وقد أصاب حين قال فى هذا البحث إن القصة من خير الوسائل لهداية النفوس ونصرة مكارم الأخلاق . ولكن لنا أن نتساءل : أليس من التضييق على فن القصة أن نخضعه للأغراض التهذيبية والاجتماعية ؟؟ لم يعرض الأستاذ تيمور لهذا السؤال فى شكل صريح ، ولكنه تناول مهمة القاص من ناحية التعبير الصادق عن إحساس الفنان فى سمو . . . فقال : « إن القاص الموهوب بحسه المرهف ويقظته الحادة فى الشعور بأدق الخلجات التى تسرى فى المجتمع ، قادر على أن يقتنص الحق العميق الكامن فى واعية الجمهور فلا يلبث أن يعبر عنه ، فهو يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه فيترجم هذا التأثر — قبل أن يحس به سواه — فى عمل قصصى ... »

إن هذه النظريات الصحيحة فى نفسها لا تجعل على الفن واجباً أخلاقياً يتعارض مع الحرية التى يجب أن تسوده وأن يتمتع بها الفنان ؛ لأن الصدق لا يستقيم إلا إذا دعمته الحرية .

ولعله يسود موقف القاص المصرى من الحياة الاجتماعية الراهنة عوامل قد تحول دون تمثيل هذه الحياة فى فنه . أهمها الاضطراب الذى يساور حياة القاص العقلية وسط مختلف التيارات الأدبية والاجتماعية التى تتجاذبه . وبالرغم من هذا الاضطراب فإننا نلاحظ أن بعض القصاصين — وفى طليعتهم الأستاذ محمود تيمور بك — استطاعوا أن يمثلوا بعض نواحى الحياة المصرية ، وأن ينفذوا إلى صميم الروح المصرية .

أما أقاصيص مجموعة بنت الشيطان فثمان ، وهى جميعها تحمل طابع أدب مؤلفها الفاضل : اتزان فى العرض واقتضاب فى الوصف ، وتبسط فى الأسلوب وحذق فى بناء الحبكة ... إلى غير ذلك من المزايا الأدبية التى يعرف بها أدب الأستاذ تيمور .

وأول أقصوصة تطالع القارئ فى المجموعة هى «بنت الشيطان» . وقد قيل فى وصفها إنها « أسطورة » وهى من نوع القصص الفلسفى الذى يمزج بين التفكير البدائى والفن الحديث ، والذى يراد منه الكشف عن طبيعة الإنسان وغرائزه ، وعن علاقة هذه الغرائز بتلك الطبيعة بحيث لا تنفصم عنها . . .

شاء الشيطان مرة أن يثبت أنه « أهل لغير الشر » فابتدع فكرة « خلق إنسانة لا تعرف الشر ولا الألم ، تحيا فى هناءة دائمة وطهر أصيل . . . ومن ثم يمكنه أن ينشئ على غرارها عالماً نموذجياً لم تحلم بوجوده البشرية » وللوصول إلى هذه الغاية ابتنى قصراً مسحوراً وجاء بطفلة فى ساعة ميلادها وأقام على خدمتها وتعليمها والعناية بها مهرة من الجن أوصاهم بما يحقق أغراضه ، فأنشئوا حولها جواً من الغبطة والصفاء . وكانوا يلقنونها دروس الحكمة وأدب السلوك وأصول الاجتماع وفق برنامج يبعد عنها الشر والإحساس بالألم . ولكن « زبرجد » وكان أميراً مغامراً توسل إلى دخول القصر المسحور والتسلل إلى مخدع « أزاهير » ، وهو اسم الفتاة ، وتحدثت الفتاة إلى الأمير فعلمت منه أشياء كانت تجهلها ، ثم حملها ذات ليلة إلى عالمه . . . وفى الليلة التالية أفلتت من القصر هاربة إلى العالم الإنسانى الذى لمحته مرة . وهكذا تغلبت طبيعة الإنسان بما فيها من فضول إلى المعرفة ، ومن غرائز تدفع بصاحبها إلى الحياة الصاخبة . حياة تمتزج فيها اللذة والألم

والمعرفة بالجهل والحب بالبغض . . . تغلبت هذه الطبيعة على حياة مفتعلة تحاول تطهير تلك الغرائز والسمو بها فوق طبيعة البشر وطاقتهم .

ويطالع القارىء بعد « بنت الشيطان » أقاصيص أخرى ، بينها ما يمتاز بالخيال « الرومانسي » مثل « خصام » و « الجنتلمان » و « ليلة العرس » ومنها ما يرسم صورة أخلاقية تختلف بين الواقعية والوجدانية ، مثل « الترام رقم ٢ » أو « قدح ماء ولجونة » . . . إلى غير ذلك مما يتضمنه مطالع المجموعة ، وسيقين المطالع كذلك أدباً قصصياً رفيعاً ، وأسلوباً فنياً طيباً ، وروحاً إنسانية عالية ، ونماذج بشرية صحيحة . ولا عجب فإن فن الأستاذ تيمور يجتمع فيه كل هذه المميزات الجديرة بالإعجاب والحمد والثناء .

صبري شريف

بين المسموع والمقروء

محنة أخرى

ما أعجب الأقدار !

ثلاثة رجال يهبطون وادي الموت ، حيث تنقطع بهم أسباب الحياة ، فلا يكون لأحد منهم أملٌ في عودة ، ثم يأخذون يضربون في مجاهل الفناء أحد عشر نهاراً وإحدى عشرة ليلة ، يذكّرهم النهار بالحياة وضحوتها ، ويذكّرهم الليل بالقبور وظلمتها ، ثم يُقضى لهم آخر الأمر أن لا يعبر هذا الوادي فيجوزَ إلى الحياة والأحياء مرة أخرى غير واحد منهم ، ليس بأقواهم ، وليس بأكثرهم تمرساً بنوائب الزمان ، ويجوز هذا الوادي ليحكي ما جرى ، وما يمكن أن يجري للإنسان عندما يلقى الموت صريحاً لا شبهة فيه

كان الثلاثة في طائرة في ظلام الليل . ولأمر ما فرغ وقود الطائرة على غير حسبان ، فكان لابد من الهبوط . وهوت الطائرة تطلب البحر . وحدّقت عيونهم أجمعين في سواد الماء الذي خُيّل إليهم في ضوء مصابيحهم أنه هو الذي يقترب منهم ، لا أنهم يقربونه . وطال زمان اقترابه تخيلت إليهم الدقائق أنها ساعات . وأخيراً وجدوا الطائرة تنحط على الماء ، انحطاطة بارعة غير عنيفة ، فلم تمرّق بهم إلى قاع المحيط كما حسبوا ، ولم ينجدع لها أنف ولم ينكسر لها جناح .

وكان صاحب هذا الهبوط البارع ، طيار الطائرة الأول ، واسمه ولم . وكان معه الطيار الثاني واسمه مادن . ولم يكن في الطائرة راكب غير رجل يدعى إزي ، كان في حياته قبل الحرب رجلاً من رجال الطاقم .

ولم يكد يعود إلى الثلاثة رشدهم ، بعد تلك الصدمة الهائلة ، حتى استبان أولهم أن الماء أخذ يدخل إلى الطائرة من أنفها ويصل إلى ركبتيه . وعندها صاح : هيّا نخرج من هنا يا أصحاب .

وذهب الطائران إلى قلب الطائرة يريان ما جرى لراكبهم . فقبّوا جميعاً ما قدروا عليه من أداة وطعام ، ونفخوا نائمة المطاط ، وأطافوها فوق الماء ، وربطوها بالطائرة بحبل حتى لا تبعد . وانتقلوا إلى العائمة واحداً بعد واحد ، فما كان أحسبهم بضيقها . وزادها ضيقاً ما حملوا من عدة ومتاع .

وجمعوا أمرهم على أن يتشبثوا بذيل الطائرة ما أمكنهم ذلك . ولكن الذيل أفلت من أيديهم لاضطراب البحر . ورموا بحبل إليه ، فما كاد يشبك بالذيل حتى انفلت . وأخرجوا مجدافين ، فبسطوهما من بعد انطواء ، وحاولوا بهما أن يقتربوا من الطائرة ليعتمدوا عليها ، ولكن البحر خضهم خضاً فقلوا فيه مما في أيديهم إلى ما في بطونهم . فقد نُزف الق‍يء ما في أمعدتهم نزفاً . موج هائل يتسلقونه كتسلق التلال ، ثم يهبطون من بعده هبوطهم إلى الوديان ، وحسبوا أن أمعدتهم قد بلغت حلوقهم تريد أن تخرج مع الطعام . وأبعدوا عن الطائرة ، ولكن ظلّ يهديهم إليها نور شديد ينتشر من مصابيحها . وفجأة ذهب النور ذهاب الأرواح ، فوجموا جميعاً لذهابه . ولم ينبسوا بكلمة

وقضوا تلك الليلة الأولى يغترفون الماء من عائمتهم وهم يطلبون الصباح، يطلبون النور، يطلبون رمز العيش ودليل الحياة. ويطلبون الشمس لتجفيف ملابسهم. فطلع عليهم الصباح آخر الأمر بشمس مريضة لا تدفئ جسما ولا تجفف ثوبا. وقضوا النهار يفحصون ما لديهم من مؤونة، فكانت بضعة من عُلَب بها الطعام، وبضعة من أخرى بها الماء. ولم يكن فيهم رغبة في الطعام. ثم أحسوا العطش فشربوا ما أرادوا، حسبانا أن الخلاص لابد آتيهم. والسجاير أشعلوها، فانبسطوا بعض انبساط. وأرادوا التشجيع، فبدأ أقدرهم على المزح، يسألهم لو أنهم خيروا أن تكون لهم على هذه العائمة صحبة، فأي النجوم يختارون. فاختار أولهم هيدي لامار. واختار الآخر بتي دافز. أما الثالث، رجل الطاق، فاختار قطعة من أرض صلبة يحتضنها احتضانا

وغامت نفوسهم، فتوجهوا إلى الله يدعون. ولم يكونوا احتفظوا بالأدعية، فاخترعوها

وجاءت الليلة الثانية. وكان لابد لهم من النوم، فأقاموا أحدهم حارسا، وينام الآخران. والتصقت أجسامهم وهي بليلة، فما تحرك أحدهم حتى أيقظ صاحبه. وكان نوما مهوشا متقطعا

وأيقظ آخر الحراس صاحبيه على ضوء بعيد حسبه منارة. وظل الثلاثة يصرخون ليلفتوا ساكن المنارة وحارسها، ولم يكن لندائهم من جواب. ومضى الزمن، فإذا بالضوء يرتفع، وإذا به منارة من منارات السماء لا منارات الأرض — وإذا به نجم أشرق ثم علا فانحطّ بعلوه أول أمل لهم في النجاة

وأشرقت شمس هذا اليوم، فنشروا ثيابهم لجفت. وأحسوا الجوع، فأقاموا أحدهم على تقسيم الطعام. وكان درس ذلك في مدرسة خاصة. فاقتسموا هذا اليوم نصف علبة من لحم وجبن. وظهرت لهم طائرة فصاحوا بها، ولوّحوا بكل ما وقعت عليه أيديهم دون فائدة. وفي هزل الساعة الأسود رأى لطيارهم الثاني أن يتلفع بثوب أبيض كان بقية من بَرْشوط مزقوه، ليظهر أبيض في زرقة الماء، فيلفت الطائرة، ولكن لم يقدم ذلك إلا ضحكة ضحكوها لرأي هذا العاري المتلفع بمئزره، فقد ظهر كغاندي في النحافة وعرائه. وذهبت الطائرة وذهبت معها آمالهم

وذهبت خفة الهزل، وحل محلها وقار الجدّ، فكان أشبه بوقار الساعة، فأخذوا يذكرون الأهل والأصدقاء. وتساءلوا هل بلغ نساءهم بعدُ فقدُهم؟ وقال ولِم، الطائر الأول، إنه ترك للسلطات عنوان صديق له ليخبروه الخبر، لأنه لم يشأ أن يبدأ بإزعاج زوجته. وقال إزّى رجل الطاق، إنه ودّ أن يخبروا أخته قبل أمه، لأنها تكون أكثر احتمالا؛ وإذا بلغ الخبر أمه بعد ذلك، كانت الأخت قريبة منها، فأقدر على المواساة. وذكر ماددُ ما كان قد أمّل بعد الحرب من مركز ذي مال في شركة للنقل بالجو

وبرد الجوّ بعد الظهر فأكلوا نصيبهم، وزاد الأكل عطشهم، فشربوا، ولكن تلك الحصة القليلة التي لا تروي الغلة. وطمعوا في الماء فزادوا قليلا. وكان ولِم أشكاهم للعطش، فجادوا له بفوق نصيبه

ودخلوا في الليلة الثالثة. وهاج البحر فأخذ يلطم العائمة فكأنما كانت تلطمها يد عامدة، ولم يمنع هذا اثنين منهم من النوم، وبقي الحارس يقظا. واستيقظ الاثنان وهم في ماء البحر، فقد كانت العائمة قد انقلبت بثلاثتهم من لطمات الأمواج. واستيقظا وأرجلهما وأيديهما تسبح على غير وعي منهما في الماء. وأخذوا في الظلام يعدلون العائمة، فجاءت موجة أعانتهم على عدلها، فشكروا لها. وصاح ولِم صيحة أفزعت صاحبيه فقد كاد يخنقه الماء. فقرّ أن يحملاه أولا إلى العائمة، ثم تبعاه إليها. ورقد ثلاثتهم يلهثون كما تلهث الكلاب. ولاحت منهم التفاتة إلى ما احتوت العائمة فسقطت قلوبهم في بطونهم عند ما استبانوا أنهم فقدوا أكثر أشيائهم. حتى الطعام فقدوه إلا علبة من لحم. والماء بقي أكثره، فقد كانوا ربطوه تحت المقاعد. نسوا أن العائمة تنقلب فلم يحتاطوا

لها . ولاحقهم الموج بقسوته فظلوا فى مغالبته ، ينتقلون من طرف العائمة إلى طرف حتى لا تنقلب . ولكنها انقلبت مرة أخرى . وعانوا ما عانوا فى تصحيحها وركوبها ، وارتموا على أظهرهم وقد قرسهم البرد واستنزف قواهم هذا الجهد . ولكنهم ما لبثوا أن استقاموا خشية انقلابة أخرى تكون هى الأخيرة

وطلع النهار الثالث فلم يكن فى شمسه غناء ، ولا لهم فيه لتجفيف أثوابهم من رجاء . وغلب عليهم الجوع فقسموا ما بقى من مفتوح الطعام ثلاثة أقسام بلعها الملح فبلعوها على ملحها بلعًا . وبقيت من الطعام كله بقية — علبة مقفلة . ورغب وليم عن نصيبه فأرادوه على بلعه ليقوى . ورأوا قرش البحر لأول مرة ، فكان ذا عرض وذا طول فأفزع وأخاف . وحسبوا أنه ذاهب تحت العائمة فقالبهم ، ولكنه مضى عنهم بسلام . ومرت بهم فى هذا النهار طائرة رموا لها بالصواريخ فما رأتهم . ودخلوا فى الليلة الرابعة . وكانت توقفت ساعاتهم الا واحدة ، وكانت مما يضيء ليلا . فتوالت على صاحبها الأسئلة : كم الساعة ؟ . . وكانت الساعة الثامنة مساء فحسبوها الأولى أو الثانية بعد نصف الليل . ومرت عليهم الساعات كأنها الأشهر . وتسلى إلزى بالماء يجرفه من العائمة . وحلا الحديث فذكروا الفنادق وطعامها وشرابها وأفرشتها الوثيرة الناعمة ، وذكر طفّاء الحرائق أن فى بيته فى الريف برميلاً ينزل فيه المطر فيملؤه ، فكان من أحسن لذّاته أن يغمس فيه رأسه كله . فصاح بهم نادن : غيروا الحديث بالله فهذا سائرٌ بنا الى الجنون .

ومضى اليوم الرابع ومضت ليلته على رتابة قاتلة

وجاء اليوم الخامس ، فظهرت لهم طائرة . ورموا فى أعقابها الصواريخ فما رأتهم . وشربوا فى صباح هذا اليوم ، فلم يبق من زادهم غير شربة واحدة . وفتحوا آخر علبة للطعام فأكلوا نصفها ، وأبى وليم أن يأكل منها خشية العطش . وانفجروا يتحدثون عن ذنوب الحياة ، فما أغرب ما انطلقت الألسنة وانفتحت القلوب وتواعدوا على التكفير اذا نجوا ، وما كانت إلا الخطايا تخف فى الميزان . وعاودهم العطش بالطعام أشد ما يكون ، فشربوا بقية الماء ، واحتفلوا بشرابه احتفالا . وفرغ الوعاء فتناوبوه مرة أخرى ، يلعقون ما بقى من قطراته

وجاء الليل وأعقبه النهار وهم يتصيدون القطر النزر فى الصفائح قطرات ، وزادت الأجسام اللينة على الأيام قراحًا ، وزادت نحولا . واللحى نبتت وطالت . وبقيت فيهم مع ذلك بقية من فكاهة . قال أحدهم لأخيه : يا صاحب القداسة ، ما أشبهك فى نحولك ولحيتك بالمسيح فى محنته .

وانقلبت العائمة بهم فى اليوم السادس ، ففرقتهم أى تفريق . وبالبقية الباقية من قواهم أصلحوا الحال وصعدوا الى مراقدهم من تلك الطائفة . وشرب وليم من ماء البحر هذه المرة شرابا كثيرا . وكان أكثرهم انبطاحا تحت ثقل النازلة ، وأكثرهم تأثرا بها . فلم يمض وقت طويل حتى أصابه الخرف . فأخذ يخرف بالذهاب الى التمثيل والخروج إلى موعد . وانقلب هدوؤه عنفا ، على غير المعهود فى طبعه ، وحسب مطاط العائمة لحما فأخذ يقطعه بأظفاره . وآذته قرّاحات فى أليته وظهره . فقام يطلب الخروج عن العائمة والمشى فوق الماء . وحاول صاحباه تسكينه فسكن . ويأتى العصر فتنقلب العائمة من جديد . ويُبعد وليم عنها عشرة من الأمتار . فيدفع صاحباه العائمة ناحيته ، ويحاولان انتشاله وهو يغطس تارة ويظهر تارة . ورفعاه إلى العائمة وهو مفتوح الفم ، مفتوح العينين ولكن لا يرى شيئا . وأرقداه بينهما وغطياه بثيابهما . وأراد أحدهما أن يعينه حتى بالذى ليس منه رجاء . وكان فى جيبه أقراص من السلفانيميد ، فدس منها فى فم وليم ، فما كان إلا أن صرخ . لأن وليم عض إصبعه ظنا منه أنها طعام

وأخذ صاحباه يدعوان له الدعوات . حتى إذا خيم الليل ، جسوا نبضه فما وجدوه . واصفر وجهه وبرد جلده ، ولم يبق فيه أثر لحياة . وخشى صاحباه أن لا يكون قد تعمّد فى صباه ، ولم يعرفا مراسم التعميد فابتدعاها

إجدافا ، ورشا فوق وجه الماء .

واعتزم صاحباه أن يستبقيا جثة صديقهما الراحل بينهما أطول زمن . فهيآ لها مكانا فى وسط العائمة . وصمتا زمانا ، حتى شق أحدهما السكوت فعبّر عما يجرى فى خاطرهما : ليت شعرى كم بقى من الأيام لنكون هكذا .

وأصبح الصباح ، وجاء الظهر فرأيا أن الوقت حان للدفن . وتبادلا الرأى فى ذلك ، ودعوا الله أن يوفقهما فيما اعتزماه ، وبعد أن هيآ الجثة حاولا بما بقى فيهما من قوة أن يُنزلاها إلى الماء .

وبقيت على الماء طافية دقيقة ثم مالت فغطست ، وهما يتبعانها بالدعوات . وأطاب نفسيهما أنهما نظرا فلم يجدا على سطح الماء قرشا من قروش البحر يعبث بهذه الوديعة التى أودعاها بطن المحيط

وبقى الصاحبان وحدهما . وألحّ عليهما العطش . فقال أحدهما لصاحبه إنه سمع أن الذى يخرج من الجسم من ماء يمنع من العطش إذا هما شرباه . وقال الآخر إنه لابد من غليه ليصلح شرابا . وبعد نقاش ، كان لابد من شرب البول من غير إغلاء . فشرباه . ولكنهما مالبثا أن قاآه . فملا من شرابه

وانكفأت بهما العائمة مرة من بعد مرة . وكانا قد حسبا أن ذهاب صاحبهما سيخفف عنهما حمله الى العائمة . ولكن قواهما هبطت فلم يكادا يحملان أجسامهما الى العائمة إلا بالجهد الكبير

وسمع أحدهما صفيرا ، ولم يسمعه صاحبه . وألح عليه الصفير حتى كاد يسمعه صاحبه

وزاد جسمهما تقرحا ، وزادت أرجلهما انتفاخا

والجوع فعل بهما أفاعيله ، فحاولا صيد القروش فى البحر ، وبذلا لها كل طعم ، فلم تستجب لطعمهما ، لأنه لم يكن مما تأكل الأسماك . وخطر على بالهما أن يصنعا من جلود شفاههما المتشققة طعما ، ولكنه لما بلغ الماء ، فتبلل به ، انفصل عن صنارته . وحاولا صيد السمك بدق رأسه بالمجداف ، فما أفلحا . وأخيرا فزعا الى بعض ملابسهما ، وهى من جلد ، ظنا منهما أن بها غذاء ، فصدهم عنها سوء طعمها

والعطش لوّعهما ، فحاول أحدهما شرب جرعة من البحر ، فصاح به صاحبه محذرا فأفرغ فاه بعد امتلائه

وجاءت الليلة العاشرة فكانت أسوأ الليالى . فقد انقلبت بهما العائمة فيها مرات ثلاثا . ورفع الموج أحدهما ، طفّاء الحرائق ، الى السماء رفعا ، فلما حطّ ، حطّ فى الماء . وتركهما هذه الليلة وقد حسبا أنها الخاتمة . فقد ثقلت عيونهما بالنوم ، فلم يستطيعا لها فتحا . ونزل قليل من المطر ففتحاها له ، ولكن وقع القطرات على جفونهما كان يؤذى عيونهما لشدة ما بهما من ضعف

ثم يزيد أحدهما إسماعا لصفيره . ويأخذ الآخر يسمع هذا الصفير . ويناقش بعضهما بعضا فى هذا الصفير فلا يدريان أهو حقيقة أم خيال

وتلحّ عليهما الخيالات ، وتلحّ الأحلام ، وأكثرها عن الماء ، والطعام

ويأتى اليوم الأخير فتنكفىء العائمة فيه المرة الأخيرة . ويجهد أن يصعد الطيار الثانى إليها ، بعد أن ظن أنه غير صاعد ، ويحاول أن يرفع أخاه ، طفّاء الحريق ، إليها . ولكنّ الطفاء علم أنها محاولة فاشلة . فقال لصاحبه لستُ أقوى ولستَ تقوى ، إنى ذاهب . وفى هذه الساعة طفت موجة فأعمت راكب العائمة . فلما فتح عينيه بعد توان ، نظر ، فاذا صاحبه يغطس فى الماء كأنه لوح من حجر

وعندئذ ينبطح هذا المتخلف عن صاحبيه ، ينبطح حيث هو ، أكثره على العائمة ، وأقله فى الماء . ثم تؤرجحه الأمواج حتى يدخل كله رويدا رويدا الى العائمة

ثم يستيقظ ... إنهم الناس ! وإنها الأجراس تدق . إنها سفينة ! وإنه لملفف فى الأصواف . فهؤلاء قد أنقذوه ورويدا رويدا يعود إليه وعيه . فيحكى القصة كلها والذى يحيّره منها : كيف أن الله شاء له وحده البقاء ، وشاء لصاحبيه الفناء . ولم كان هو هذا الواحد !

احمد زكى

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٩/٥٢٣٦٩

العدد ٣٢١ الثلاثاء ٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — ٢٠ من فبراير سنة ١٩٤٥ السنة السابعة

فهرس العدد

على هامش الحوادث

كثرة الاجتماعات :

تمتاز هذه المرحلة من مراحل الحياة الدولية باعتياد الساسة وقادة الأمم على الاتصال الشخصي المباشر في حل ما يعرض من المشاكل وتذليل ما يقوم من الصعاب . فلا يكاد يحدث في بلد حادث خطير يمس العلاقات الدولية أو تبدو في الأفق سحب يخشى أن تلبد الجو السياسي وتعكر الصلات بين الدول ، أو تسنح سانحة لتوثيق الروابط وتقوية الوشائج وتوحيد الخطط وتصفية وجوه الخلاف ، حتى يخف قادة الأمم وساستها ويتنقلون إلى حيث يطيب الاجتماع الهادئ ، وتبادل الآراء وجها لوجه ، ولا تقف المسافات البعيدة التي تفصل بينهم والمشاغل الجسيمة التي تقعد بكثير منهم عن ترك بلاده والتحلل من واجباته المحلية ، عقبة في سبيل تلاقيهم ! فقد ذللت وسائل الاتصال السريع كل عقبة ويسرت كل صعوبة .

وقد نجح هذا الأسلوب أكبر نجاح في قطع السبيل على الدسائس السياسية التي تعمل على التفريق بين الحليفين وخلق جو من الشك بينهم . فقد كان أكبر اعتماد سياسة الدس على تباعد الأطراف ، وقصور الاتصال البعيد غير المباشر عن إزالة أسباب الخلاف . أما اليوم فلا تبذر بذور تفرقة حتى يقتلعها لقاء سريع وتفاهم صريح يكشف مستورها ويزيل أثرها .

اجتماع الثلاثة الكبار

وقد كثر تنقل ساسة الدول العظمى المتحالفة ، بريطانيا وروسيا وأمريكا ، فرادى ومجتمعين ، إلى حيث تدعو الحاجة في كل طرف من أطراف المعمورة ، ولم يفتر لهم نشاط في هذا التنقل ، ولم يحل بعد الشقة وزحمة العمل وحاجة الأجسام إلى الراحة — وفيهم شيوخ ضعاف — دون احتمال متاعب السفر السريع وتجشم الصعاب الخطرة في

سبيل دراسة المشاكل عن قرب وتبادل الآراء مشافهة وجها لوجه . فكان لذلك من النتائج السريعة الحاسمة ما دل على أن الاتصال الشخصى يفعل ما لا يفعله التكاتب والتخاطب البعيد .

وكان اجتماع الثلاثة الكبار فى كل مرة كفيلاً بزيادة التقارب وجلاء الغامض من وجهات النظر وتوحيد الخطط وتقوية وسائل التعاون .

وقد تم اجتماعهم أخيراً فى القرم . ولهذا الاجتماع الأخير أهمية خاصة ، فقد جاء عقب انتصارات بعيدة المدى أحرزها الروس فى شرق ألمانيا ، وأحرزها الأمريكيون والبريطانيون فى غربها . وانتقلت ميزة السبق فى ميدان الحرب إلى أيدى الحلفاء ، فأصبحت ألمانيا تغزى فى عقر دارها وأصبحت عاصمتها مهددة عن قرب ، وتوالت النوازل على مدنها ومراكزها الصناعية تمطرها الطائرات بما يدك قواعدها ويهد بنيانها . وبهذا دخلت الحرب فى مرحلتها الأخيرة . وكان من الطبيعى أن يتدبر هؤلاء القادة الموقف فى هذا الدور الحاسم ، وأن ينسقوا جهودهم فى هذه المرحلة الختامية ، ولا سيما بعد أن تبينوا أن ألمانيا لا مناص لها من بذل أقصى جهدها فى الذب عن كيانها والدفاع عن كل شبر من أرضها ، وأنها مصممة على التفانى فى حربها الدفاعية والاستماتة فى هذه المعركة النهائية .

وكان من الطبيعى أيضاً — والحرب قد أشرفت على النهاية — أن يفكروا فيما ينتظرهم من المشاكل السريعة بعد الحرب ، وأن يضعوا معالم الخطة التى سينهجونها فى حلها وإن لم يدخلوا فى تفاصيلها المعقدة ، حتى لا يقوم بينهم بعد ذلك خلاف على المسائل الرئيسية التى ستواجههم .

وقد أسفر الاجتماع عن اتفاق تام على الهدف الأول من اجتماعهم . وكان أبرز ما استقر عليه رأيهم إيجاد هيئة حربية مشتركة تنسق التعاون الحربى فى الميادين المختلفة ، وتوفق بين الضربات التى ستكال لخصمهم العنيد حتى يتم إجهازهم عليه . وأبوا إلا أن يخر أمامهم على قدميه مستسلماً بلا قيد ولا شرط ، ليفرضوا عليه عقوبة قاسية تمزق أوصاله وتجرده من كل قواه .

وفى هدفهم الثانى عالجوا السياسة التى تتبع مع دول أوربا المحررة وتفاهموا على الحدود الجديدة لبولاندا والنظام الذى تحل به مشكلة يوغوسلافيا والمهمة التى ستوكل لفرنسا والنظام الذى سيوضع لكفالة الأمن والسلامة فى أوربا .

أثر الاجتماع :

وقد كانت القرارات نجاحا ظاهراً لسياسة روسيا ، وقوبلت بارتياح فى بريطانيا وأمريكا ، وإن كانت بعض الدوائر فيهما تعد القرارات قاسية بالنسبة لألمانيا .

أما ألمانيا فكانت القرارات مخيبة لآمالها وعدت الاجتماع مؤامرة إجرامية عليها ، وزادتها استمساكا بخطة المقاومة والاستماتة فى الدفاع عن كيانها .

وأما فرنسا فلا تزال تحلم بمركزها السابق الذى فقدته ومكانتها الكبرى التى كانت لها بين الدول العظمى ، وعز عليها أن تقضى الأمور فى غيبتها ولا تدعى لتقول كلمتها فى مصاير الأمم والشعوب ، فهى لهذا ساخطة متبرمة ؛ ولكنها لا تستطيع أن تفعل أكثر من السخط والتبرم ، ويدها قاصرة عن أن تمتد لأبعد من ذلك ، وقوتها أضعف من أن تعبر عن آلها بأكثر من ذلك ، فهى راضية بما ارتضوا لها مما يتفق مع ميولها ومطامعها ، متحفظة فيما عدا ذلك تترقب الفرص وتقلب الأيام

وايطاليا واجمة حزينة لأن استسلامها للحلفاء وانضمامها لمعاونتهم لم يغيرا من نظرتهم لها ولم يبدلا من معاملتها ، فقد تجاهلها القادة ولم يقولوا عنها كلمة تحيى موات آمالها وتبعث الرجاء فيها

وسكتت الأمم المحايدة فلم تعلق بخير أو شر وانتظرت

مع التطلع ما سيكون بعد ذلك ، وهل عسها التغيير أو يدعها وشأنها ، ولكن القلق يساورها جميعا حتى يفصح القادة عن النظام العالمي الجديد ، وهل سيحقق العدالة التامة أو يرعى مصلحة من اشتركوا في الحرب وحدهم

والشرق ايضا :

وكان كل حديث القادة عن أوربا وشعوبها ، كأن العالم هو أوربا وحدها ، وكأن بقية سكان هذا الكوكب لايعنيهم أمرهم ولا يستحقون التفكير في شأنهم

وقد لايكون سكوتهم من ذلك اغفالا لأمر الأمم غير الاوربية ولكن تقدما لمشاكل الملحة على الآجلة .

ولكن الأمم الشرقية كانت تود أن تسمع أن الروح التي تملي على القادة تحقيق الأمن والسلامة والحرية لشعوب أوربا هي نفس الروح التي تهديهم في معاملتهم ومعاملة كل شعوب الأرض الأخرى ، وأن الانسانية لن تنقسم إلى سادة يقطنون أوربا وأمريكا ، وطبقة أخرى من الناس يتحكم فيهم هؤلاء السادة في أسيا وافريقيا ، وأن المبادىء السامية ليست وقفا على أجناس بعينها وتحرم منها الأجناس الأخرى

نأمل ألا يكون هذا الاتجاه هو الذي غلب على قادة الأمم العظمى حين اجتمعوا وأن يكون سكوتهم عن غير أوربا سكوتا غير متعمد

اجتماع وزراء خارجية الامم العربية

وامل من محاسن الاتفاق أن يجتمع في نفس هـذا الوقت بالقاهرة وزراء خارجية الأمم العربية لوضع نظام الجامعة العربية وتحديد خطط التعاون بين الشعوب العربية .

إن الظروف الحاضرة والأحوال العالمية الرهيبة تجعل هذه الجامعة ضرورة قصوى لهذه الأمم .

ليست الجامعة العربية نظاما مفتعلا صناعيا ، فهي قائمة فعلا قبل أن تقوم شكلا ورسما . فهذه الأمم المتجاورة تربط بينها أوثق الصلات وتجمعها وحدة التاريخ واللغة والدين ، وتجمعها أكثر من ذلك استهدافها جميعا لأخطار واحدة وكل منها على انفراد لاتقوى على مواجهة أعاصير السياسة الدولية ومقاومة أخطارها ، ولكنها مجتمعة تستطيع أن تكون قوة مرهوبة الجانب . وهي تستطيع بتعاونها أن تسير خطوات أسرع في سبيل التقدم الاقتصادي والثقافي والعمراني ، وأن تكون أداة قوية في خدمة السلام . وهذه الأمم متجمعة غنية الموارد زاخرة بالقوى الكامنة التي لاينقصها الا العلم والإرادة والتنظيم . فاذا كانت جادة في الأخذ بأسباب النهضة واستكمال وسائل العزة والقوة ، فلن ينقصها الا العمل السريع المنظم الذي تتعاون فيه كل كفاياتها

وستكون الجامعة العربية وسيلة لتقوية الاستقلال الذاتي لكل شعب عربي لا سلطة عليا تحد من هذا الاستقلال . فلكل شعب الحرية التامة في ادارة شئونه الخاصة ، ولكنه سيجد من بقية الشعوب الأخرى إخوانا يعاونونه ويغارون على كيانه غيرتهم على كيانهم ، ويبادلونه خيرات أرضهم وثمرات خبرتهم وتجاربهم ويبادلهم مثل ذلك

فعلى بركة الله سيروا أيها الزعماء ، وادعموا أسس هذا البناء الذي تعلق عليه الشعوب العربية أكبر الآمال

....



حكم المنطق

فى قضية فلسطين

تتنازع الحق فى أرض فلسطين قوتان ، ولابد لكى يصدر الإنسان حكما منزها أن يتبين حجج وأسانيد كلتا القوتين .

أما القوة الأولى وهى العرب سكان البلاد الأصليون فما أحسب أن الحديث عن حقها يحتاج إلى إيضاح طويل ؟ ففلسطين أرض عربية يسكنها العرب ، وحق هؤلاء العرب فى موطنهم لا يختلف عن حق المصريين فى مصر ، ولا عن حق الانجليز فى الجزر البريطانية .

وإذاً فمنطق هذه القوة فى تقرير حقها واضح لا يحتاج إلى إسهاب .

أما القوة الثانية فهى الصهيونية ، وهى تضم اليهود بمختلف جنسياتهم ، والحديث عن حق هذه القوة فى فلسطين يحتاج إلى صبر طويل . . . .

فاليهود ليسوا جنسا وإنما هم طائفة دينية . . . .

ومنطق المجتمع الحديث أن تقوم الدول على قاعدة الجنسية لا قاعدة المذهبية . .

وترد الصهيونية على منطق المجتمع قائلة : لقد كنت منذ أكثر من ألف عام جنسا قائما بذاته يقطن هذه البقعة من الأرض ، ثم خرجت منها ، ومن حقى أن أعود . . .

وتلك هى حجة اليهود الأولى فى قضية فلسطين

وهى حجة تنقضها الثالية والواقعية على حد سواء . .

فالثالية تنكر أن يهجر الابن أحضان أمه ألف عام ثم يعود بعد ذلك . .

والواقعية تأبى أن تقر إنسانا على إهمال حقه عشرات الأعوام — دون مطالبة — فتسقط حقه ولو قام عليه ألف برهان . . .

ولقد رسمت الواقعية هذا المبدأ فى صورتيها اللتين تلق بهما الحياة : فى العرف والقانون .

فيقول العرف لا يموت حق وراءه مطالب ، وبالتالى يندثر الحق الذى يسكت عنه صاحبه ألف عام . .

ويقول القانون بسقوط الحق إذا مضى عليه عدد من الأعوام دون مطالبة جدية تؤيد حدوثها الأسانيد ، ولا تزيد عدة هذه الأعوام عن خمسة عشر عاما . . .

فالحجة إذاً منهارة وإن صدق أن هذه الأرض (أرض فلسطين) كانت يوما ما لليهود .

وإذا انهار منطق الحجة فالتاريخ بدوره حجة ومنطق ، وكلاهما فى صف العرب

فلم يكن اليهود أصحاب فلسطين فى يوم من الأيام ، وإنما عبروا بها فى خلال هجرتهم نحو الاستقرار ، والتاريخ يملك عشرات الأمثلة لهذه الهجرات ، ولو جاز لليهود حق قيام دولة بفلسطين لمثل هذه الحجة لجاز أيضا لقبائل أن تدعى ملكية كل شبر فى أوربا الشرقية لأنهم عبروا به فى خلال هجراتهم نحو الاستقرار

لكن اليهود استقروا حيث طاب لهم المقام منذ أكثر من ألف عام .

كذلك إذا جاز لليهود حق قيام دولة يهودية فى فلسطين ، فقد يجوز للمسيحية أن تقيم دولة بدورها ، ويجوز للاسلام نفس الحق . . ولن تنتهى المشكلة إلا برحلة شاقة قد يضطر فيها مسيحيو الصين وأواسط أفريقيا إلى الانتقال إلى أوربا لتقوم الدولة المسيحية . إلا إن أصرت المسيحية على أن تنادى بنفس المبدأ — الحق التاريخى — فستتنازع هى والصهيونية أرض فلسطين باسم الحق الذى علاه الصدأ . . .

وحتى بعد هذه الرحلة الشاقة لن ينتهى الإشكال . .

أما الحجة الثانية التى تستند إليها الصهيونية فهى ضرورة إيجاد وطن قومى لليهود

ووجه الضرورة أن اليهود تعرضوا للاضطهاد خلال عصور التاريخ أكثر من مرة ، وفي كل مرة منها طردوا كأنهم عنصر غريب

وقد يكون ذلك صحيحا ، وقد تقف إلى جانبه بعض الأسانيد . . .

وقد يقال إن الحرب الحاضرة وما سبقها من سلسلة اضطهادات لليهود في ألمانيا وفي غيرها من البلاد التي خضعت للنازية ، قد يقال إن كل ذلك يتطلب إيجاد وطن قومي لليهود

وقد يرضى المنطق عن هذه الحجة إلى حين ، لكنه يفرض أحكاما أخرى .

فمنطق الاقامة يستدعى روابط اللغة والعادات والتقاليد

وفلسطين بوضعها الجغرافي في رقعة عربية تقاليدها أملتها مئات الأعوام وهذبتها التطورات ، حتى لتوشك اليوم أن تتبلور فتراها في مصر كما هي في فلسطين ، وفي سوريا كما هي في العراق

أما اللغة فلا يحتاج حكمها إلى بيان ، فهي لغة واحدة تنطوي تحت لوائها تلك الرقعة من العالم

وأما العادات فلن ينقص من قدر الصهيونية أن يقال إن الفارق بينها وبين العادات الشرقية جدّ بعيد . .

فلا روابط إذاً بين أهل الدولة الجديدة المزمع إقامتها وبين جيرانها في البلاد العربية . بل ولا بينهم وبين جيرانهم الأقربين سكان وطنهم القومي الذين ينازعونهم أرضهم

ولقد يرضى منطق الإقامة بأن ينشأ الوطن القومي لليهود في أوربا أو أمريكا ، لكنه لن يرضى عن قيام هذا الوطن في غير تربته .

ومنطق واحد هو الذي يرضى عن قيام هذا الوطن ، وما أحسب أن الصهيونية تدخله في أسانيدها ، وإن كان قد يدخل في نياتها ، ذلك هو منطق الاقامة وفرض النفوذ .

فإذا كان في حساب الصهيونية أن توقع رقعة الأرض التي تضم ذوي التقاليد الواحدة واللغة الواحدة والعادات المتشابهة من سكان الشرق العربي وتحولهم إلى أطراف الدولة الصهيونية ، فإن منطق سوء النية قد ينهض حجة لاختيار هذه البقعة بالذات لاقامة الوطن القومي

وأظن أن منطق سوء النية إن نهض في خبايا النفس ذريعة ، فهو في مواجهة العالم لا ينهض مبررا وسببا

فإذا أضيف إلى ذلك أن النظام النازي لن يطول أمره ، وأن من عوامل انحلاله النظرة المذهبية التي أدت إلى اضطهاد اليهود . فإن فكرة ضرورة إيجاد وطن قومي لليهود قد تصبح دعوة يتلقاها المنطق كما تلقى دعوة النازية لاضطهاد اليهود وطردهم ، قد تصبح بمنتهى الصراحة دعوة مذهبية لا يرضى عنها عصر إزالة القيود والسدود ..

صموع ذهني

غضب السماء

العاصفة

جرى الموج في هذه الصاخب ... فولول من فزع صاخب

على مهل فزئير الرياح ... يهدد بالغضب الواثب

ألا تبصر السحب في جريها ... تساق بسوط لظى اللاهب

وقد جلجل الرعد في غيه ... وصاح أينذر بالحاصب ؟

صواعق تنزل بالمهلكات ... لتبطش بالميت والنادب

تعاليت يارب ماذا جنيت ؟ ... لقد أفسد الدير بالراهب

هي الأرض تغرق بالموبقا ... ت وتسرى إلى هلكها الغالب

أتبصر غضبة رب السماء ؟ ... سيبطش بالنهب والناهب

(بغداد — الأعظمية)

ضياء الدخيلي

بين المسموع والمقروء

الحديث فن أى فن

هل تصورت يوماً أنك أخرس ، فجزعت ، فحمدت الله على نعمة اللسان .

ولكن كم من الناس فى حكم الطب ذوى ألسنة ، ولكنهم فى حكم الواقع خرس لا يتكلمون .

إن الحيوان ذو عقل قليل . وإن أبيت تسميته بالعقل فقل إن إدراكه قليل قصير . ومن أجل هذا لم تكن به حاجة للكلام ، فكان الخرس به طبعاً . أما الإنسان العاقل فكيف يخرس لسانه وقد جعله الله مبيناً .

قد تقول إن الذى يخرس من بنى الإنسان ، إنما يكون كذلك بحكم ما به من قلة عقل وقلة إدراك ، فمن الناس من قارب البهائم فى إدراكه أو كاد .

وأنا معك ، على شرط أن تفرق بين إدراك طبيعى ، وإدراك ينال بالثقافة والتعليم . فقد واتتنى فرص كثيرة تحدثت فيها إلى الفعلة ، إلى أولئك الذين يكسرون الحجر ويحملون التراب على الأكتاف ، وهم فى العرف من أحط الطبقات تعليماً وثقافة ، ومع هذا وجدت كثيراً منهم المتحدث البارع . فإذا سألته عن شىء أجاب وأطال ، وشقق فى حديثه وفرع ، على أن يكون السؤال مما يستمد الجواب عنه من محيطه . ولكن منهم من لا يفهمك إذا سألت ، وإذا فهمك كان جوابه كلمة . وإذا أنت أمعنت النظر فى حالته ، وفى طريقة حركته ومعاشه ، وجدته صنفاً إذا أريد وضعه بين أصناف المخلوقات كان له — على الأسف الشديد ، ومع استشعار الرحمة له ولأضرابه — مرتبة لا بد واقعة بين الإنسان والحيوان . فمن مثل وجهه ، وهو يجابهك بالجواب ، يكاد يقطر الغباء لفرط كثافته .

ولقد واتتنى الفرصة أيضاً بإطالة الصلة بأصحاب هذه المراتب الدنيا ، فعلمت أن بعضهم ، ولو أنهم قليلون ، لم يكن حصرهم عن غباء ، ولكنها عقدة انعقدت فى ألسنتهم بعض حين ، فحلتها الألفة بعد حين . لقد كان حصرهم حياء ، أو إن شئت سميته استضعافاً لأنفسهم ، أو إن أردت أن تظهر علماً بالذى ابتدعه عالم النفس الشهير الدكتور فرود Froed ، سميته مركب النقص الذى سيطر عليهم وأنا أستدرجهم إلى الحديث .

وهذا الذى أصف فى الرجل الجاهل ، تستطيع أن تنقله إلى الرجل ذى المعرفة القليلة والكثيرة . فالمرء قد يزيد ثقافة ولكن لا يقل غباؤه كثيراً . والرجل قد يزيد معرفة ولكنه لا يقل حصراً ، بسبب حيائه . وليس من شأننا الحديث فى رجل يحجم عن الحديث بسبب خلل فى جثمانية لسانه .

وإنك لتجد الحياء أكثر الأسباب فى ضعف الحديث أو كراهته عند أصحابه . تجد هذا فى أكثر الأطفال فى مصر ، أو لعلك واجد ذلك فى الشرق أجمع . فمن حسن التربية عندنا أن يشجع الطفل على الحياء ، أعنى على الخرس . فإنى لم أكد ألقى طفلاً من متوسطات البيوت بيننا ، فأسأله عن شىء ، حتى ابتسم ، ثم أشاح بوجهه خجلا ، ثم تلوى على الكرسى أو على الكنبة ، وقد ينفل عن نفسه فيقع على الأرض . والسؤال باق من غير جواب . والأب قد يتظاهر بالخجل من خجل ابنه ، فيقول له : أجب ياولد ، واعتدل ياولد ، وهو فى قرارة نفسه مغتبط ، لأن ابنه حيى ، والحياء أس الفضائل . وما أحسب أن هذا كان معنى الحياء الذى قصد به أن يكون أس الفضائل . فلقد كان معناه ، أو إنى لأحسب أن معناه ، الاستحياء من كل رذيلة شائنة . وهو استحياء يستشعره المرء من نفسه حتى وهو وحده من غير رفيق أو رقيب . أما هذا الذى أراه فما هو إلا الخيبة ينشىء الآباء عليها الأبناء . وهى تستمر عادة عند ما يبلغ الطفل مبالغ الرجال فيدخل معترك الحياة بما فيه من اعتراك واصطدام . إنه « مركب

النقص » الذي ابتدعه عالم النفس الكبير أدلر ... ـد .

وما هكذا أجد إذا سألت مصريا ربي بمدرسة أجنبية ، أو سألت أجنبيا قحا . إنه على صغره يستمع لسؤالك استماع الرجال . ويجيبك بعقل الطفل ولكن بأسلوب الرجل المتمكن من نفسه وما يقول . ولا يمنعه هذا في الغالب من ابتسام ، ولا يمنعه في الأغلب من أدب جم . وهؤلاء هم أفراخ النسور الذين يشكو منهم البُغام والرخَم من بعد ذلك في مدارج الحياة .

وإنك لتجد الحياء كذلك مانعا للحديث عند المرأة . مانعا منه عندها إذا ما تحدثت إلى رجل . أما النساء فما بينهن فمن أطلق مخلوقات الله ألسنة . بل إن الحال لينقلب أحيانا عند بعضهن ، فتصبح المعضلة ردهن إلى بعض الخرس ، ليعود إلى هواء الحجرة المضطرب بعض سكونه . ولكنهن غير ذلك مع الرجال . ولكنهن غير ذلك أيضاً مع المرأة التي هي أرفع منهن ثقافة أو أرفع مقاما . إنه الحياء يفسر لنا انطواء هذه الألسن التي لو شاءت لطالت أي طول .

ولقـد بدأ في الشرق اختلاط المرأة بالرجل ، فعاني الرجل ، وعانت المرأة ، عند محاولة الحديث ، بعضهم إلى بعضهن ، أو بعضهن إلى بعضهم ، من الضيق شيئا غير قليل . ولهذا سببان : السبب الأول أن المرأة الشرقيـة ، على الرغم من تثقفها بعض التثقف ، وعلى الرغم من سفورها ، لا تزال متحجبة . إنها سفرت عن وجهها ، وسفرت عن رأسها ، ولكنها ما تزال تدور من مداور العيش في نطاق ضيق ، هو في الأغلب نطاق البيت الذي لا يمتد إلى نطاق البلد ولا نطاق الأمة ولا نطاق الدنيا . فهي لا تسمع من حوادث الحياة إلا نزرا ، والا أطرافا لا تغني في الحديث ، لا ابتداءً به ، ولا استطرادا معه إذا بدأه غيرها . والسبب الثاني أن المرأة الشرقية ، وأن الرجل الشرقي ، إذا تحادثا وهما على غير ألفة ، أحس كل منهما بجنسه فاختبل . تحس هي بأنوثتها فتختبل ، ويحس الرجل بذكورته فيختبل .

وقد يحاول الرجل الخروج من خبلته بزيادة احترامه لحدثته ، وزيادة التأنق لها في كلامه ، وهو لا يدري أن هذا إنما يزيده ويزيدها خبالا وسوء حال . والمخرَج كلُّ المخرج إنما يكون في تناسيه أن هذه امرأة ، وفي تناسيها أن هذا رجل ، وفي تناول الحديث في غير مبالاة به أو بها ، وفي إهمالٍ كالذي يكون بين الرجال أو بين النساء .

ومن غفلة بعض الرجال أن يأخذوا المرأة بالحديث عن شوبنهاور ، أو يستدرجوها الى الحديث في سقوط الدولة الرومانية أو رأي أفلاطون في الجمهورية . لاشك أن الثقافة ببعضهن قد ترتفع الى هذا ، فيكون في الحديث فيه دغدغة لكبرياء الفتاة والمرأة ، ولكن ما هكذا الكثرة من النساء ؛ بل ما هكذا الكثرة من الرجال ، فكيف بالنساء !

وسواء بين الرجال والرجال ، أو بين النساء والنساء ، أو بين هؤلاء وهؤلاء ، فالحديث فن لا يتقنه الا ذو علم وذو بيان وذو لباقة .

وليس كل راغب في الحديث يحسنه . بل إن أعيب ما يعاب في المتحدث أن يكون به حرص زائد على الحديث أو مسارعة إلى الكلام . والحديث فكرة لابد أن تستوي ، ثم هو قالب لابد له من صياغة . وكم من حديث خير منه السكوت .

وقد يجتمع الصاحب بالصاحب ، أو المضائف بالضيف ، فيحسب أنه في موقف لا بد فيه من الحديث مدافعة من غير انقطاع . والحديث أسوأ ما يكون اندفاعا ، وهو أثقل ما يكون اذا كان سيلاً متصلا ، كالكاتب الذي يكتب كتابة متصلة ليس فيها واوات ولا نقاط ولا فقرات ولا عنوانات . إن الصمت الفينةَ بعد الفينة يعطي العقل استمراء بالذي كان ، واستجماما للذي هو كائن .

وبما يذهب بجمال الحديث مفارقة تكون بين رغبة اللسان فى أن يتكلم ، ورغبة الأذن فى أن تستمع . فالحديث أخذ وعطاء . وكثير من الناس من يحسب أنه عطاء ولا أخذ . ولعل هذا هو الشيء الوحيد الذى يسخو فيه السخى إعطاء ، ويتعفف أخذاً . ولأن تكون ممن يحسبون الحديث أخذا خيرٌ من أن تكون ممن يحسبونه إعطاء ، ولو أن هذا أيضا إفساد لفن الحديث . فالحديث ملاقفة ، فيه استمتاع وإمتاع . وهو كبعض صنوف الرياضة ، قد تكون بين اثنين وقد تكون بين الثلاثة والعشرة . وهى على كل حال ليست لواحد دون واحد . ولو كنت ممن يحضرون ألعاب الكرة لعلمت أن أكره إنسان فى الميدان للناظرين هو ذلك اللاعب الذى يستحوذ على الكرة ولو ربح الجولة بعد الجولة . أذكرُ أن حكَما رفض أن يعطى لاعبا نصيبه من الجائزة لأنه ربح جولتين وثلاثا لم يُشرك فيهما غير نفسه . فقال له : إنك ربحت ولكن الرياضة خسرت . وكذلك هى فى الحديث . فلابد أن يعرف كل متحدث فى جمع أن حديثه مهما لذّ وطاب ، لا بد أن يفسح لغيره مكانا . وإذا لم تقتنع بالذى أقول فأدرْ على جمعك هذا شرابا من عسل ، وأدره مرة ثم مرة ، وانظر ماذا يصنعون . إنهم لاشك طالبون الجبن الحاذق والفسيخ المالح من بعد ذلك

إن الحلو له فى الدنيا مكان ، وكذلك المرّ . والصفاء له مكان ، ولكن كذلك للمكورة مكان . والأضداد لابأس من تبادلها وتعاقبها حتى لا يكون سأم من رتابة

ثم موضوع الحديث

ألا فاعلم أن الكلام غير الحديث . فالكلام للتفاهم بين الناس ولقضاء الحاجات . أما الحديث فحاجة اجتماعية تتطلبها النفس إشباعا لأنس الإنسان بالإنسان ، فهو للأنس أولاً ، ثم هو للنفع ثانيا . ولا أضع النفع ثانيا لأنزله مرتبة وضيعة . لهذا أسارع فأقول إن الأحاديث طريق لتحصيل العلم على أسلوب لا يتهيأ فى الكتب أبدا ، ومن صنوف لا تتحصل فى قاعة الدرس أبدا . فحديث الناس حديث الحياة الجارية ، وخبرة الأيام الماضية ، وترقبٌ واعٍ لأحداث الأيام القادمة

على أن نسبة ما بالحديث من أنس ، وما به من نفع ، تتوقف على ظرف الزمان وظرف المكان . وجزى الله خيرا من أعطى المناسبات حقوقها

فليس حديث المائدة كحديث الصالون . وليس حديث الصالون كحديث الحديقة . حتى ولا حديث الليالى كحديث الأصباح . ولا حديث المرأة كحديث الرجل . ولا حديث الصديق كحديث الرفيق

تصوّر رجلا يصبّحك بحديث الشعر والحب . أو يمسّيك بحديث الموتى فى ظلام الليل وهو أشبه شيء بظلام القبور . أو تصوّر رجلا على مائدة يفتتح موضوعا فيه شكوك وفيه خصام ، ثم هو يتشبث بوجهة نظره ويتابعها بالحجج متابعة عضو فى برلمان . إنها إذاً لمائدة منحوسة ، أيسر أذاها أنها تُشغل أصحابها عن لذة الطعام . أو تصوره يتحدث إلى سيدة فى أسعار البورصة وسوق الغلال

وأسوأ ما فى الأسوأ رجل تسلطت عليه فى حياته فكرة سوّدتها ، فهو لا يذهب إلى مكان إلا أفرغ ما فى جعبته

إن الحديث فن ، فتعلمْ كيف تتقنه بتتبع الرجال ذوى الأحاديث الشهية ، والعقول الراجحة ، والفكاهة التى تخف بها الأثقال

احمد زكى

سم لابد منه

مشتقات السلفاناميد

ويل للانسان إذا أعطى فى يده سلاحاً ذا حدين ، وويل للجاهل أو نصف المتعلم إذا أساء استعماله ضد عائلة ما، فهو حائر أو جاهل لايدرى أيهما الحد الذى يشطر به عدوه . وأيهما الذى ينقلب عليه ويحز فيه بلا تمييز أو رحمة حتى يقطر دما . والويل للجمهور الذى تجذبه مباهج الإعلان عن دواء جديد ، فيفرط فى استعماله غير عابئ بتهديد أو إنذار ، فهو فى سبيل الوصول إلى غرضه والتخفيف من آلامه لايهمه أن يجتاز حقلا بل حقولا كلها ألغام ومصايد قد يتردى فى واحدة منها .

ظهرت مشتقات السلفاناميد فى السنين الأخيرة وحولها هالة رائعة ، لم يسبق أن شاهدنا مثلها حول اكتشاف طبى . وأضفى على هذا النجم الجديد فى عالم الجاذبيات كل ما يتصوره العقل من صفات الإعجاز . وهى وإن كانت الحقيقة كاملة ، إلا أنها أعمت رجل الشارع عن الأحراش القاتلة الخطرة فى أفق هذا العالم الجديد . فظن فى سذاجة قليل العلم أن مركبات السلفانامايد كالبرونتوزيل والسلفانامايد والسلفانيلاميد والسيبازول والداجينان وبقية أخواتها ، لا تختلف عن الأسبرين وأخواته فى مفعولها وأمانها ، فأصبح وجودها فى صيدلية المنزل حادثاً عاديا . وتناقلت السيدات كعادتهن فى التعلق بكل جديد فى اقتناء مشتقاته والنطق بأسمائها فى رطانة أفرنجية طريفة ، قد تطرب أذن السامع العابر ، ولكنها تقلق بال العالم بما خفى وما بطن من ألاعيب هذا الدواء .

ترى من هم هؤلاء الرسل والملائكة الذين بعثهم الله حتى أخرجوا لأبناء آدم هذه المعجزة الرائعة التى خففت نصف آلام الإنسانية على الأقل ؟ ألا يستحقون منا سطرا أو سطرين نسجل فيهما أسماءهم من باب عرفان الجميل ، لا أكثر ولا أقل ، أم نكون كالأكول النهم الذى يلتهم لذيذ الطعام دون أن يشكر — ولو فى سره — الطاهى ومساعديه . كان فورستر أول من أعلن للملأ فى عام ١٩٣٣، استعمال البرونتوزيل فى شفاء طفل مصاب بالتهاب البريتون . وفى فبراير من عام ١٩٣٥ ، نشر دوماك بحثاً مستفيضاً عن مفعول هذا الدواء فى علاج مختلف الأمراض ، فأحدث ضجة هائلة فى الأوساط العلمية وتحولت أنوار المسرح فجأة نحو هذا المولود الجديد ، فما لبث أن كبر وتضخم حتى ملأ الأسماع والأبصار . وهناك جنود مجهولون شاء التاريخ ألا تلمع أسماؤهم ، وكان لهم الفضل فى اكتشاف السلفانامايد دون أن يدركوا أهميته العلمية . كان ذلك بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٨ ، وكانوا خليطاً من البحاثين الأمريكيين والألمانيين أجروا تجاربهم على الحيوانات وعلى الجراثيم خارج الجسم ، فلم يصلوا إلى نتائج مشجعة ، فتركوا خيرة أبحاثهم وديعة فى أيدى من جاءوا بعدهم وكان لهم الحظ فى إتمام الرسالة .

وقد استنبط الباحثون حوالى ألف مركب من هذه السلسلة ، ولكن التى أخرجت للناس علنا وشفاء حفنة قليلة لا تتعدى عدد الأصابع ، فهناك السلفانيلاميد وهو أكثر مفعولا فى الإصابات المسببة عن الميكروب السبحى (الستربتوكوك) والقولونى ، وبفضله انخفضت نسبة الوفيات من حمى النفاس إلى ٥٪ أو أقل ، وكانت قبلا لا تقل عن ٢٥٪ ، واستعمل بنجاح كبير فى علاج الحمرة والتهاب اللوزتين الحاد ومضاعفات الحصبة والحمى القرمزية كالتهاب الأذن والالتهابات الرئوية الحادة .

أما السلفابيريدين (الداجينان أو م . ب . ٦٩٣) ، فقد أحدث انقلاباً كبيراً فى علاج الالتهاب الرئوى والسيلان الحاد والحمى المخية الشوكية . والسلفاثيازول (والسيبزول أحد مستحضراته المعروفة) علاوة على ماسبق

أهمية خاصة فى التغلب على الالتهابات الناجمة عن الميكروب العنقودى (الستافيلوكوك) . وأخذت المشتقات تزداد نقاوة وتقوى فى مفعولها ، فظهر السلفاديازين والسلفاميرازين ، ووجدت الدوسنطاريا الباسيلية لها نصيباً من أسلاب المعركة لجاء السلفاجوانيدين وفتح فتحاً جديداً فى علاج هذا المرض والتخفيف من آلامه الحادة ، ولا يزال الدارسون فى دور التجربة كعلاج للسل الرئوى .

ولا يخلو تعاطى هذه الأدوية من أخطار ومضاعفات ، بعضها خطير والبعض الآخر بسيط ، لا يلبث أن يزول بإيقاف الدواء . ومن النوع الأخير أذكر القئ والغثيان والصداع والدوار وطنين الأذنين وفقد الشهية ، وكلها أعراض طارئة يتحملها المريض بصبر فى سبيل الوصول إلى بر السلامة . أما المضاعفات الشديدة ، فقد تطوى المريض طيا ، فإذا به بين عشية وضحاها يعالج السكرات بعد أن لم يكن يشكو إلا من داء خفيف ، دعاه حب الاستطلاع أن يعالجه بأحد مستحضرات السلفاناميد التى طالما سمع عنها وعن مفعولها العجيب . ومن أهم هذه المضاعفات نوع من فقر الدم الحاد تهوى بسببه كريات الدم الحمراء من مستواها العالى البالغ حوالى خمسة ملايين فى الليمتر المكعب إلى نحو مليون أو أقل فى ساعات أو أيام . فتنتاب المريض صفرة مخيفة قد تعقبها صفرة الموت ما لم يسعف بعملية نقل الدم ، وهى عملية باهظة التكاليف ولا تخلو من مخاطر . لذلك نرى — إذا تمسكنا بالسليم الصحيح من القواعد الفنية العلمية — أن تحليل دم المريض كل يومين على الأقل ضرورى أثناء تعاطى هذا الدواء . فإذا لاحظنا أن عدد الكريات الحمراء ونسبة الهيموجلوبين آخذان فى النقصان ، أو أن عدد الكريات البيضاء يهبط من مستواه الطبيعى وهو ثمانية آلاف فى الليمتر المكعب إلى أربعة آلاف أو أقل ، وجب إيقاف تعاطى الدواء فى الحال . وبذلك نستدرك الخطر قبل استفحاله . وغالباً يكفى هذا الإجراء البسيط فى تفادى حدوث فقر الدم الحاد الخفيف . أما إذا انحدرت الحالة إلى أسوأ فلا بد من إجراء عملية نقل الدم .

ويجب كذلك أن نلاحظ كمية البول ، وخاصة إذا كان المريض يتعاطى الداجينان أو السلفاثيازول أو السيازول ، لأن هذه المركبات ترسب فى الكليتين على شكل بلورات دقيقة مدببة ذات أطراف حادة ، كأنها أسنة الحراب تجرح المجارى البولية فتدميها ويتبول المريض دماً . أو تتحد وتتجمع على هيئة حصوات صغيرة تسد مسالك البول فيقف إفرازه ، ويقاسى المريض أهوالاً ، ويظل مصيره معلقاً فى ميزان القدر حتى يدركه لطف الله .

وهناك ظاهرة لا تخلو من طرافة ، إذ يحدث أحيانا أن تنتاب المريض زرقة فى الوجه والأطراف ، وخاصة فى حالات تسمم السلفانيلاميد (كالبرونتوزيل والسلفانا) ويزعج هذا الحادث المريض ومن حوله ، ولكنه ينتهى دائما بسلام . ومنشأ هذه الزرقة حدوث تحول فى صبغة الهيموجلوبين إلى السلفاهيموجلوبين أو الميثيموجلوبين . ومن هنا نشأ الاعتقاد السائد بوجوب عدم إعطاء المريض أى غذاء أو دواء يحتوى على عنصر الكبريت كالبيض أو البصل أو سلفات الصودا أو سلفات المانيزيا أثناء تعاطى أحد مستحضرات السلفاناميد . ولكن حتى هذا الاحتياط أصبح مشكوكاً فى فائدته كواق من حدوث المضاعفات .

وقد تسبب هذه المستحضرات طفحاً جلديا يشبه طفح الحصبة ، وتنتج عنه أغلاط فى التشخيص أو قد تؤدى إلى استمرار ارتفاع الحرارة حتى بعد شفاء المرض الأصلى الذى أعطى الدواء من أجله . ولا تهبط الحرارة إلى مستواها الطبيعى إلا بعد إيقاف الدواء .

ومن هذا نرى أنه لكى تتم الفائدة المرجوة من هذه

الفن فى الحيــــاة

أمامنا الآن فرصة جديدة ، ربما كانت آخر فرصة لنجد أنفسنا ، ولن تستطيع أى جماعة أن تتخذ موقفا سلبيا تجاه أحداث العصر . وفى هذا المقال يحاول الكاتب أن يذكر الفنانين بتبعات زعامتهم وينادى ببعث « القيم الصادقة » فى الحياة .

لا شك أنه لابد لنا ونحن على عتبات عالم جديد أن نراجع الأسس التى سيقوم عليها أسلوبنا فى الحياة . ولن يستطيع أى فريق من الجماعة أن يخفى رأسه فى الرمل ، وأن يدّعى أن هذا ليس مما يعنيه فى شىء . والفنانون خاصة هم آخر من يحق لهم مثل هذا الادعاء ، إذ لا مناص لهم من أن يدعوا إلى شىء ، سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ولا بد لدعوتهم من أثر سواء كان خيراً أو شراً ، فالأعمال الفنية لها أثر كبير فى توجيه الرأى العام وتكوين أساليب التقدير عنده ، سواء أكان صانعوها يعملون عن وعى لتأييد مذهبهم أو يلبون فى أنفسهم نداء داخليا مسوقين إلى تلبيته جاعلين فنهم هو الغاية فى ذاتها ومتجاهلين أى اعتبار آخر ، بل ومن المحتمل أن يكون نفوذهم فى الحالة الأخيرة أشد منه فى الأولى .

والفنان الذى يدعو إلى قضيته عن وعى يكشف عن انحيازه إلى وجهة نظر معينة ، ويثير التأييد أو المعارضة ، ولكن زميله الذى يؤمن بمذهب « الفن للفن » لا يكشف إلا عن عقيدته هو وعن مقدرته وشخصيته كفنان ، ولا يثير نحوه تياراً عنيفاً سواء كان له أو عليه ، إذ لا تكون هناك قضية ظاهرة يدافع عنها ، وإنما هو مثل جدول جار ينحت فى صخر يكون فى تكراره لمرض وجهة نظره ما يعمل على الرفع أو الانحطاط بالمستوى العام فى الثقة والمبادىء .

إن الفنانين قادة سواء أرادوا الزعامة أو تهربوا منها ، والقادة مسئولون عمن يقودون ، ليس لهم فى هذا اختيار أو مهرب .

ولقد عشنا نحن والكثيرون معنا خلال الحربين العالميتين فمرت بنا فترة يأس كنا لا نرى فيها المستقبل ينفرج عن مخرج ، ولا نكاد نحس فى الحياة شيئاً يستحق أن نتحمس له أو نكافح فى سبيله ، ولكن جحيم الحرب بشقائه وآلامه قد صهر كل ما على سطح أنفسنا من أوساخ ، فخرجنا بأمل جديد وإيمان قوى وإحساس أعمق « بالقيم الصادقة » فى الحياة والحق والجمال والسمو بالروح . وكل هذه تؤكد ثانية بأنها أكثر ما فى الحياة إشباعا للإنسانية .

فبأى قسط سيساهم الفنان ؟

لقد غمر العالم فيض من القبح فرأينا أجساداً مشوهة فظيعة لا تمثل الجنس البشرى فى شىء ، وشاهدنا النتاج

المستحضرات لا بد من بعض احتياطات لا أرى بأساً من ذكرها وهى :

أولا — يجب تجنب المواد التى تحوى عنصر الكبريت مثل البيض والبصل وشربة السلفات ، وإذا أراد المريض أن يأخذ مليناً فأحسنها زيت البرافين وزيت الخروع والسكرة وملح الفواكه .

ثانياً — يجب أن يتناول المريض السوائل بكثرة حتى يقل تأثير الدواء على الكليتين كما تجب ملاحظة كمية البول يومياً فإذا وجدناها آخذة فى النقصان أوقفنا الدواء فى الحال .

ثالثاً — يجب أن لا يستمر إعطاء الدواء أكثر من أسبوع ويوقف بعده أو يعطى تحت إشراف طبى دقيق .

هذه بعض ألاعيب ساحر القرن العشرين ، أردت بذكرها أن أحذر الكبير والصغير من لعبة سامة فى صيدلية المنزل .

دكتور مصطفى الديوانى
الاخصائى فى أمراض الأطفال بكلية الطب

الفكر الحر (١)

كل عمل من أعمالنا وكل ميل من ميولنا يجب أن نفسره بغايته الأصيلة: السعادة ، فى معنى عميق شامل لا يقف عند حدود الغبطة الظاهرة ، بل يعدوها ليجعل من هذه السعادة غاية الحياة الأخيرة ، الأبدية التجدد ، وهدف نشاطنا الذى يوجهه العقل والغريزة . وعلى هذا نضطر إلى جعل السعادة — فردياً واجتماعياً — مقياساً لقيم الأعمال ، تمجد مايقود إليها وتحاول إنماءه وتوسيعه ، وتتخلص مما يبعدنا عنها لأنه يناقض الواجب الذى تفرضه علينا إرادة الحياة .

والحياة السعيدة تنفى السلبية العقيمة وتقتضى العمل ، والعمل يفترض سبق الإيمان بحرية الفكر والإرادة برغم كل المذاهب المثالية و « الميتافيزيائية » التى حاولت حتى اليوم أن تقيد الانسان بقضاء محدد مرسوم . ولهذا نرانا مسوقين إلى اطراح جدل الفلسفة الخالصة حين نتحدث عن الفكر الحر كسبيل إلى حياة أكمل .

وتاريخ العالم هو من بعض وجهاته حكاية للصراع بين طريقتين من طرائق التفكير لا مجال بينهما للسلام . فأما الأولى فهى النظرة الجامدة الحياة ، المقيدة النفس ، المفسدة القوة ، ترجع إلى الماضى تقدسه وحده وتمجده ، وتقف عنده فلا تتقدم ، تعوزها الحيوية ويسيطر عليها ظلام الموت . هذه الطريقة التى اتبعها الناس فى القرون الوسطى كانت أبدا حرباً على العقل ، لأنها جعلت منه آلة مسيرة ينحصر عملها فى خدمة اللاهوت . كان القدماء قد بدأوا من الصفر ففكروا — بكثير من الحرية — فى كل ما عرض لهم من مشكلات ؛ فلما جاءت العصور الوسطى هيمن « مبدأ السلطة » ، ونزل العقل عن عرشه ليلتوى نشاطه فى استنتاجية جدلية ، سلبية لا تقود إلى أمر جديد ، وخسر وظيفته المبدعة ، فهو « إلهى » الذى يتجه نحو تمجيد الغرائز الدنيا وتحريك وإيقاظ نزوات الفكر المريضة وعبادة الشر . وراح كل هذا يطل علينا من حوائط المعارض الفنية ، وهو لم يكشف إلا عن يأس وفراغ فى العقل والروح وفقر فى الإيمان بأى شىء له أى قيمة . ولم يكن هناك شىء يستحق الجهاد من أجله أو الحياة له . ولقد كنا سجناء مدى الحياة ولا أمل لنا فى الخلاص إلا بالموت .

أما اليوم فانا ننظر إلى الأمام يغمر نفوسنا أمل جديد ، وقد رأينا الأرض الموعودة ، وما يمكن أن نكون عليه ، واستعدنا بصيرتنا وتقديرنا لقيم الحياة . وإن لم يكن من رسالة الفنان أن يصوغ القوانين وأن يرسم خطط المستقبل ولا من الضرورى أن ينحاز إلى جانب سياسى معين وأن يلقى بنفسه فى تيار السياسة إلا اذا شاء هو ذلك ، إلا أن عليه أن يحفظ لنا بصيرتنا صافية نقية ، وأن يذكى إيماننا وأن يوقظ فينا أسمى مواهبنا وأن يقوى من إرادتنا لنهيىء دنيا من الجمال تستطيع أن تزكو فيها روح الإنسان . وعليه أن يختبر نفسه دائما وأن يدرك متى يكون فى مركز القيادة وأن يحمل تبعة مايدعو اليه .

لقد رحنا نفتش — بين القلق والسخط الذى يسود العصر الذى نعيش فيه — عن كل ماهو غريب ومستحدث مهما كلفنا ، وضحينا بالجودة ومميزات الفن الحقيق فى سبيل الطرافة ، وأهملنا أقدر الفنانين الذين لم ينشدوا إلا التعبير من أسمى مافى نفوسهم لنمجد أولئك الذين لم يقدموا لنا غير المستحدث الغريب ونزوات الفكر المريض . وإن واجبنا يحتم علينا ونحن نتابع التطور أن نعمل على أن تحتل القيم الصادقة مكانها فى الحياة ، وأن ندفع الإنسانية نحو الكفاح والتقدم .

اميول حافظ

[من مجلة الاستديو]

(١) فصل من مقدمة الترجمة العربية لرواية « الباب الضيق » للكاتب الفرنسى « أندريه جيد » وهى قيد الطبع .

ما دام طيعاً في الخدمة ، « شيطاني » بغيض إذا ما ثارت كبرياؤه على ذل القيد .

وأما طريقة التفكير الأخرى فهي نظرة الأمل الضاحك ، الشاعرة بقيمة الحياة ، والتي لا ترى في التراث الماضي إلا حافزاً يزيدها قوة ، وطريقاً من ألف ليست مقيدة باتباعه . هي النظرة الجريئة الحرة التي لا تخشى التفكير ولا تهرب منه ، والتي تهمل « مبدأ السلطة » في زاويته التي يغط فيها — وإن أي فكر مبدع لسوق بدائه إلى اتباع هذه الطريقة ؛ « الشيطان » الذي في عقله ملحاح يفرض عليه أن يشك أبداً فيما يقدم إليه من مبادئ « جاهزة » ، أن يبحث من جديد وأن يبني بناءه الفكري الخاص ليعيش وفقاً له حياة خاصة ! وما وثب العالم وثباته الباهرة إلا بفضل هذا « الشيطان »

وليس بالتطرف أن نقول : إن القرون الوسطى ، عند الكثيرين منا هنا ، تكاد تستطيل حتى الآن . فالجمود النفسي ، الخوف من التفكير عاهتنا الأولى ، والشيخوخة المبكرة داؤنا الذي نشكو منه . ولأنت حيثما ذهبت واجدٌ شباباً على عكاكيز ، يخشون من التفكير لأنه يحرمهم الطمأنينة المسكينة التي ينعمهم بها الجمود ، ويهربون من الفكرة الجريئة لأنها تحرمهم لذة الاستكانة إلى تقاليدهم ؛ يضعون أصابعهم في آذانهم ، ويأبون أن يستمعوا إلى الدعوة الجديدة ، لأنهم ضعاف الثقة بأنفسهم وبقيمة الماضي الفكري الذي توارثوه فشوهوا صورته ؛ فهم يخشون أن تهزهم تلك الدعوة وأن تعود بهم إلى الحياة النشيطة بعد أن راشت نفوسهم هدأة المرض .

تجاه الخطر الذي تحمله هذه الطريقة ، يقف الجيل العربي الطالع ، المتوثب الظمآن . وهو أشد ما يكون حاجة إلى التحرر الفكري وإلى الجرأة على التفكير . هو في حاجة إلى القادة ، إلى من يملء الحياة ويوقد في صدره إرادة القوة . في نفسه الشابة نزعات غامضة تضطرب ، تريد أن تسلك كل الطرق لأنها لا تعرف أيها خير ، وهو في حاجة إلى من يوضح له غموض نفسه ويمهد له السبيل الصاعد .

هذا الجيل يشعر بضرورة الابتعاد عن الطريقة القديمة ومحاربتها ، ليصبح أهلاً للحياة . إن شيطان الفكر الحر ليضطرب في عاطفته وعقله .

على أن اتخاذ أيٍّ من هؤلاء المدعين مثلاً صالحاً أو غير صالح واتباع هَدْيه في الطريق إلى السعادة أو رفض هذا الهدى ، هو آخر النتائج التي يجب أن نفكر في بلوغها . فما يعنينا أبداً ، بل ما يسمح لنا احترامُنا الفكر وتقديسُنا الحياة ، أن نتخذ تجاه هذه الحياة موقفاً مرسوماً مُوضَّح الحدود ، وَقَفَه غيرنا من قبل . إن ما نرمي إليه كل الدراسات التي نحتاج إليها اليوم يجب أن يكون حرية الفكر . الفكرُ الحرّ هو الهدفُ الأول ، لأنه السبيل الصحيح للانسانية الحقّة . وليس بين كل عيوب المذاهب السائدة شر من هذا العيب الذي يجعل منها مبادئ جاهزة للتابعين ، تحفظ وتتبع في عبودية ترفضها الحياة . وما كان لداعية أن يفخر بكون فكرته قالباً تُصبّ على غِراره عقولُ الناس . ومن هنا كان الفارق الكبير بين التلمذة والفهم ، أو على الأصح ، بين العبودية وصداقة الفكر الحر . وهؤلاء الذين يدرسون مفكري العصر الحاضر ، ويتقبلون مواقفهم من الحياة على أنها حلول نهائية ، ليسوا في شيء خيراً من الذين يتبعون المدارس البالية وينحنون أمام التقاليد مهلّلين مقدسين . إنهم مازالون في أغلالهم . تفكيرهم اجترار ونجاحهم مذلة ونظرتهم الى الحياة قبولٌ بالموت . هؤلاء هم التلامذة ، المقلّدون العبيد . وغيرُهم الأحرار ، أصدقاءُ الفكر الحر . فيرهم من يرفض الأفكار الجاهزة ، يرفضها لأنه لا يرضى السرقة ، لأنه يأبى أن يتخذ لنفسه مالاً لم تتعب في جنيه يداه ، وليس أدلّ على احترامك الماضي من وقوفك أمامه موقفَ المتأمل ، ولا على جدارتك بكل هذا التراث الذي خلفته لك الإنسانية من أن تفكر وتهدمه لترفع على أنقاضه بناءك الجديد . والمهم هو أن تؤمن بقيمتك لتجرؤ على اقتحام الحياة في تفاؤل ، وأن تفهم أنك لن تكون كامل الانسانية إلا باستكمال فرديتك .

نديم الحكيم

قصة من الأدب التركي الحديث:

أحسنت أيها الأستاذ!..

للأستاذ خالد ضيا القصصي التركي الشهير

قبل أن تتم ساعة المدرسة دقاتها الأربع بعد الظهر ، كان الأستاذ « فوماناجيه » يقف أمام باب المدرسة وفي يده ساعته القديمة كل يوم جمعة وثلاثاء من كل أسبوع ، وكان الخادم الشيخ الجالس أمام الباب قد ألف هذا المنظر المتكرر . كما ألف أن يسمع في كل مرة تلك الجمل التي لم تتغير على مر الأيام : « الرابعة تماما ! . . . لم تفرق دقيقة واحدة منذ عشرين عاما . في مدى عشرين عاما لم تفرق دقيقة واحدة .. » وكان لابد في كل مرة أن يضع الأستاذ « فوماناجيه » ساعته أمام عيني الخادم ليثبت صدق مدعاه ، فضاق ذلك البواب بهذه الجمل التي تكرر على سمعه مرتين كل أسبوع ، ولم يعد يستطيع الصبر عليها ، فأراد أن يرد عليها بعد أن طال صبره وسماعه لها من غير أن ينبس ببنت شفة فقال :

« ولكن ليس في هذا ما يدعو إلى العجب ياسيدي الأستاذ . لأن دقة سير الساعة من قبيل جلوس البواب أمام الباب الذي يحرسه ، ومجيء المدرس إلى درسه في الموعد المحدد له ، لأن البواب والمدرس اللذين لا يقومان بعملهما يستغنى عنهما — يطردان — والساعة التي لا تضبط الوقت تباع ويستغنى عنها أيضا » .

بهت الأستاذ فوماناجيه لهذه الإجابة المنطقية التي لم يكن يتوقعها من هذا الخادم ، ولم يجب بشيء ، بل ظل في حيرة واضطراب ، فإن جملة واحدة من كلام هذا الخادم علقت بذهنه ، ولم يستطع التخلص من ترديدها والتفكير في معناها : إذاً إنهم يطردون المدرس الذي لا يقوى على القيام بعمله !..

لعبت الوساوس في صدر الأستاذ الشيخ الهم : لا بد أن عند هذا البواب شيئاً جديداً . وإلا فما باله اليوم يجابهه بتلك الإجابة القاسية الجافة بعد أن ظل سنوات كثيرة يتلقاه بابتسامة ساحرة لا تفارق شفتيه من غير أن يسمع منه طوال تلك المدة المديدة كلمة واحدة ؟

كانت هذه الوساوس تخيفه ، وترجف لها روحه ، يجر ساقيه جراً . وهو يشعر بأن عشر سنوات جديدة قد أضيفت على السبعين سنة التي كان ينوء تحت ثقلها ، وسار تواً إلى حجرة تدريس الموسيقى ، ولم يسمع في هذه المرة تلك التحيات الساذجة التي كان يتلقاها من تلاميذه الواقفين على جانبي الطريق ، ويمر لها ، فإنهم - شأنهم في كل مرة - هتفوا له : « عم مساء أيها الأستاذ ، كيف حالك أيها الأستاذ ؟ » ولكن صاحبنا كان في شغل عن كل ما يحيط به ، فلم يسمع ولم ير شيئاً ، بل واصل سيره حتى دخل حجرة التدريس وهو أشبه بشبح ، وألقى بجسمه على مقعده أمام البيان في انتظار تلاميذه الذين كانوا يقضون الدقائق العشر الفاصلة بين درس ودرس ، واستغرق في تفكير عميق :

نعم . هذه هي النهاية هنا أيضاً . الطرد ! إنه كان مؤمناً بينه وبين نفسه بأن الاستغناء عنه آت لا ريب فيه يوماً ما ، فقد كان يعتقد أن مدير المدرسة سيقابله في ذات يوم ، ويصافحه بحرارة ، ثم يبدأ الحديث معه بقوله : « إننا مسرورون منك جداً ، ولكن ماذا نعمل لأولياء أمور التلاميذ .. » ثم يشير بلطف إلى كبر سنه ، وحاجته إلى الراحة فيقول : « إنكم أيضاً في حاجة إلى قسط من الراحة والعناية بصحتكم » الراحة ! نعم كان محتاجا إلى الراحة لا من الآن فقط . بل من يوم أن فقد والده ، وبقي وحيداً في أحد الأزقة . يوم كان طفلا في السنة العاشرة . إنه من ستين سنة محتاج .. ولكن هذا الشيخ الموسيقي كان في حاجة ملحة قاهرة قاسية إلى أمر آخر فوق حاجته

إلى الراحة . إنه كان في حاجة إلى الخبز . . كان هذا الموسيقي الشيخ قد سمع هذه النغمة ـ نغمة الشيخوخة والحاجة إلى الراحة ـ في أماكن كثيرة ، ومن أناس كثيرين ، وفارق كل تلك الأماكن ، وجميع أولئك الناس ، وكانت هذه المدرسة الملجأ الأخير الذي لجأ إليه ووجد فيه خبزه ، ولم يكن هنا أيضاً مطمئناً تمام الاطمئنان ، ولكنه كان يمني نفسه الأماني ويمطلها . وكلما خطر له خاطر استغناء هذه المدرسة عنه حاول جهده أن يبعد هذا الخاطر عن ذهنه وهو يقول لنفسه : « من يدري كم من السنين تمضي قبل ذلك ، وهل من القدر لي أن أعيش كل تلك السنوات ؟ »

إذاً يطردون المعلم الذي لا يستطيع القيام بعمله ! .

لا شك أن البواب لم يفاجئه بذلك من عند نفسه ، ولعله سمع ذلك من المدير أو أحد المتصلين به ، ويظهر أن مفاجأة البواب اليوم مقدمة لما سيصارحه به المدير غداً .

ولكن هل كان عاجزاً عن القيام بمهام عمله حقاً ؟ إنه على الرغم من شيخوخته وتهدم جسمه تحت عبء السبعين التي أثقلت كاهله كان خير من يقوم بعمله ، ولا يمكن لكائن من كان أن يعيب عليه من هذه الناحية ، ثم أغمض عينيه ، وفي لحظة واحدة استعرض حياته الماضية .

تذكر يوم كان صبياً في الثانية عشرة . وضاء المحيا ، وشعره الذهبي يكاد يلامس منكبيه . يوم نال الجائزة الأولى في عزف الكمان من مدرسة الموسيقى . إنه كان في الثانية عشرة تماما . وإن أمه بكت في ذلك اليوم فرحاً به لما قال لها مدرس الموسيقى : « إن ابنك هذا سيكون موسيقياً عظيما » موسيقيًّا عظيماً ! . ما معنى هذا يا ترى ؟ ها هو ذا قد أصبح موسيقياً مشاراً إليه بالبنان . ثم ماذا ؟

ماذا أفاد من هذا اللقب العظيم غير التصفيق الذي يصم الآذان في الحفلات الموسيقية ، وغير تلك الدروس التي كان يعطيها لتلاميذه وتلميذاته في كل أنحاء المدينة من الصباح إلى المساء ؟ . إن أكبر الحفلات الموسيقية الساهرة كانت لا تتم من غير أن يكون من شهودها الأستاذ الموسيقار « فوماناچه » كما كانت كبريات الأسر العريقة تتمنى أن تتلقى بناتها دروس الموسيقى عليه . إنه كانت له فترة وضاءة في حياته الموسيقية ، ظفر فيها بالشهرة ، وتقدير الرأي العام . ولكن ماذا بعد ذلك التصفيق الحاد وتلك الرغبات التي كانت تنهال عليه من كل جانب ؟ إنه لم يبق له من كل ذلك الجاه وتلك الشهرة إلا ذلك الشبح الهم المهدم . عيناه لا تبصران ويداه مضطربتان ، وعندما يبدأ بشرح قاعدة من قواعد الموسيقى تختلط عليه المعاني ، ولا يعرف كيف يواصل الدرس . إنه الآن جسم مهدم لا حركة به ، ولا فائدة منه ولا خير فيه ، ويجب أن يلقى في زاوية مهملة . نعم لم يكن فيه إلا فم محتاج إلى الخبز . إلى الخبز فقط . كان لابد من إشباعه . وهنا تنفس الصعداء وزفر زفرة حرّى .

كان هذا الموسيقي الشيخ الذي بلغ السبعين من عمره يكاد يبكي حزناً وألماً وخوفاً من الموت جوعاً . في هذه الأثناء فتح باب غرفة الدراسة ، ودخل التلاميذ يتدافعون بالمناكب يضحكون ويقهقهون وحيوا أستاذهم : عم مساء أيها الأستاذ . كيف الحال أيها الأستاذ ؟

فوقف الأستاذ « فوماناچه » على قدميه الواهنتين ومسح بقايا الدمع من عينيه ، ورد تحيات تلاميذه وهو يحاول الابتسام ، ثم التفت إليهم قائلاً : « ستعيد قطعة الأمس . أليس كذلك ؟ » فأخذ كل واحد منهم يستعد للقيام بدوره في عزف القطعة التي أشار إليها الأستاذ ، وأصلح آلته الموسيقية ، وبعد أن تفقد الأستاذ حال تلاميذه جلس إلى منصته أمام البيان ، وبدأ التلاميذ في عزف القطعة الموسيقية ، فاستغرق ذلك الموسيقي في ذلك الجو الساحر الذي غمرته الموسيقى ، وشعر بعظمة الفن ، ورأى مجده الفني الذي أنفق حياته الطويلة في

سبيله ، ونسى فى تلك الساعة السحرية قولة ذلك البواب الجاهل ! وقام صاحبنا من مجلسه ، وتقدم بضع خطوات إلى الأمام ، وأخذ يصلح بعض الأخطاء فى توقيع التلاميذ وضع الآلات الموسيقية ، ثم رجع إلى مكانه وقال : « قطعتى الرابعة !.. »

كان لهذا الموسيقى الشيخ ناحية ضعف واضحة . هى شدة إعجابه بقطعه الموسيقية ، وتيهه الزائد عن الحد ، حتى إنه كان يتهم كل من لا يعجب بها ويطرب لها بأنه عديم الذوق الفنى ، وأنه لا يفهمه حق الفهم !.. وأدرك أولئك الشياطين من تلاميذه ذلك فيه ، واتخذوه مادة لهوهم وسخريتهم كلما أرادوا لهواً أو سخرية ، وفى ذات يوم كانوا يوقعون إحدى قطع أستاذهم ، فلما فرغوا منها وقف أحدهم ونادى بأعلى صوته : « أحسنت أيها الأستاذ ! » ورفع الأستاذ رأسه وهو لا يصدق أذنيه من الدهشة والحيرة ، وظن التلاميذ أنه سيغضب من ذلك التلميذ الوقح ، ولكنه لم يغضب ولم يثر ، بل إنه قام من مقعده ، وسار نحو ذلك التلميذ ، ودنا منه وأمسك بيده وهزها بحرارة ، وقال له : أشكرك يابنى ! إن فيك عرقاً موسيقياً » إنه — بعد طول انتظار — قد وجد من فهمه فى شخص ذلك التلميذ .

ومن ذلك اليوم صار تقليداً مرعياً : أن يهتفوا بصوت واحد : « أحسنت أيها الأستاذ ! » كلما فرغوا من عزف قطعة موسيقية من وضع الأستاذ « فوماغاجه » ولم يكن ذلك الشيخ الموسيقى يدرك — ولعله كان لا يريد أن يدرك أيضاً — ما فى ذلك العمل من السخرية والاستهزاء به ، فكان فى كل مرة يخلع قبعته ، ويشكر تلاميذه بإحناء رأسه الأشيب أمامهم .

وفى ذات يوم بذل الأستاذ جهداً كبيراً فى شرح إحدى المقطوعات الموسيقية ؛ فلما فرغ ورفع رأسه إلى تلاميذه وجدهم شاخصى الأبصار ، وعلى ثغورهم ابتسامة ممزوجة من السخرية به والرثاء له ! فجلس على كرسيه منهوك القوى ، ومد رأسه نحو تلاميذه الساخرين ، وقال وهو يشير بأصبعه إلى رأسه : « آه ، لو استطعت أن أفهمكم كل ما هنا » وعند ذلك تذكر من جديد كلمة بواب المدرسة ، وأكمل حديثه مع تلاميذه بصوت مبحوح يشبه حشرجة الموت « نعم لو استطعت الإفهام لم أطرد هكذا من كل مكان »

إذاً فقد جاء الدور الى هنا أيضاً ، فسيحرمونه آخر تلاميذه ، وآخر لقمة من الخبز . نعم إنه سيسلب آخر تعلاته فى هذه الحياة ، ولا يستطيع أن يشرح تلك الأنغام الموسيقية التى تتصارع فى رأسه لأحد بعد الآن . وأخيراً سوف لا يسمع بعد الآن تلك التحية التى اعتاد سماعها كلما فرغ من توقيع قطعة من قطعه الموسيقية : أحسنت أيها الأستاذ ! صادرة من أعماق صدور العشرين شاباً من تلاميذه المحببين اليه . وبعد هذه الحال السيئة التى وصل اليها ألم يكن كافياً ما صار اليه ؟ ألم يحن الحين الذى يجب عليه فيه أن يمسح من صفحة الوجود تلك الحياة التى استمرت سبعين عاما بلا جدوى ، ويفر من بنى الانسان إلى الأبد ؟ وفجأة خطر له خاطر جديد ، فوقف وقال لتلاميذه : « سأطلعكم على القطعة الجديدة التى وعدتكم بها . القطعة التى سميتها (سير الجنازة) فعند ما تخرجون من دروسكم اليوم اتركوا لى دفاتركم الموسيقية » وظل الموسيقى الشيخ طول ذلك اليوم يسجل فى دفاتر تلاميذه قطعته الموسيقية الجديدة « سير الجنازة » . فلما فرغ من ذلك وأراد الخروج من باب المدرسة كان متعباً جداً ، محطم الجسم والأعصاب معاً . حتى إنه لما قام البواب وهو يبتسم تلك الابتسامة التقليدية — كما كان يقوم له ويبتسم كل مرة — لم ينظر اليه ، ولعله لم يره أيضاً . ومع أن هذه الحال الغريبة من ذلك الأستاذ استرعت نظر البواب ، وشغلت ذهنه طويلا

إلا أنه لم يحاول تفسير ذلك التغير الجديد فى أستاذ الموسيقى تفسيراً غير عادى .

وبينما كان الأستاذ «فوماقاجه» يصعد فى درجات السلم الموصل إلى غرفته الحقيرة فى بيت الأرملة العجوز فى مساء ذلك اليوم قال لصاحبة المنزل : «إنى لا أستطيع أن أتناول طعام العشاء فى هذه الليلة» ، فلم يتناول طعاماً فى تلك الليلة ، ولم يستطع النوم أيضاً ، فإن سكان الدور الأسفل من ذلك المنزل كانوا يحسون وقع قدميه فى حجرته طول الليل جيئة وذهاباً ، كان ينتقل من مكان إلى مكان بخطى بطيئة ثقيلة ، وكأنما كانت الأخشاب العتيقة تحت قدميه تحس بمتاعبه وأحزانه التى تثقل كاهله ، فكانت تئن أنيناً خافتاً حزيناً كلما سار عليها فى تلك الليلة الليلاء . ولما دخل عليه الخادم فى صباح اليوم التالى يحمل إليه القهوة واللبن وجده لا يزال فى فراشه ، وقال : «آه . لاشىء ، إنما هو توعك بسيط !» ، ثم خشى أن يظن الخادم به الضعف أو المرض ، فوثب من فراشه بخفة ورشاقة تشبه خفة الشبان ورشاقتهم ولكنه لم يغادر حجرته فى ذلك اليوم واليوم الذى بعده الأربعاء والخميس ولم يزل لتناول الطعام أيضاً بل اكتفى بأن طلب قليلاً من اللبن . وكان إذا قال له الخدم : «إن صحتكم ليست على ما يرام» يجيبهم وهو يبتسم : «إنى فى صلابة النحاس» . ولما جاء موعد درسه فى يوم الجمعة رآه سكان المنزل يهبط درجات السلم على مهل ، ويقول لصاحبة المنزل . وهو يتكلف الابتسام : «إلى العمل أيضاً بعد كل يومين !» وفى ذلك اليوم لم يخرج ساعته أمام البواب الذى كان واقفاً أمام باب المدرسة تحية للأستاذ واحتراماً له وعلى وجهه ابتسامته التقليدية ، بل لم يره أيضاً . وبينما كان البواب يهم بالتحدث إليه قائلا : «سيدى الأستاذ . . . .» مر صاحبنا بسرعة وحركة عنيفة من غير أن يلتفت ، وقال لتلاميذه — وكأن عليه عملا هاماً لابد من إتمامه — «هل أجريتم التجارب ؟ إنى سأعزف القطعة على البيان وحدى ، فاستمعوا جيداً حتى تتمكنوا من مجاراتى عندما نعزفها معاً . إنكم إن بذلتم بعض الجهد تستطيعوا إتقانها فى هذا اليوم» .

ثم جلس أمام البيان ، ورفع الغطاء عنه ، ثم لزم السكون فترة استجمع فيها كل قوته . كان مغمض العينين وكان تلاميذه ينظرون إليه بدهشة ، وينتظرونه بصبر نافد ، وبعد لحظة مرت فى بطء ، وثقل تحرك الأستاذ فى مقعده ، ومد ذراعيه المرتجفتين ، وبدأ يعزف على البيان بأصابعه التى كادت تتصلب وتيبس من كثرة العمل وطول العزف . ثم بدأ يعزف قطعته المفضلة التى كان يعلق عليها كل الآمال ، ويعتبرها غاية الغايات فى الفن الموسيقى . كان يعزف مستغرقاً فى جو القطعة الحزينة (سير الجنازة) وكأنه كان يصور حياته الفنية الطويلة ، ونهايتها المحتومة . فلما انتهى من عزف القطعة لم يدرك التلاميذ أنه انتهى منها ، فقد كانوا فى هذه المرة سكوتاً كأن على رءوسهم الطير قد شملهم الحزن من كل جانب وأحاط بهم ، فالتفت إليهم الأستاذ وقال لهم : «والآن معاً ! . . .» .

وبدأوا يعزفون معاً ، فكان الأستاذ يشاركهم ببيانه بادى النشاط والحركة ، فقد كان يهز رأسه طرباً ، وربما رفع صوته ببعض عبارات الاستحسان ، وفى الفترة بعد الفترة كان يأمرهم بالكف عن العزف ، والاستئناف من جديد ، وكان يحدث أن ينبه بعض تلاميذه إلى أخطائهم من غير أن يلتفت إليهم ، ويذكر موضع الخطأ الذى ارتكبه كل واحد منهم . كان يريد أن يلقن تلاميذه هذه القطعة ، ويبلغ بهم حد الاجادة والاتقان ، ولذلك أطال درسه هذه المرة ساعة كاملة ، وأجهد نفسه جداً ، وأرهقها فوق طاقتها . وبعد الفراغ من هذا الدرس المرهق الطويل لم يجد الوقت للتحدث مع تلاميذه ، فخرج من حجرة الدراسة يجر رجليه جراً وهما لا تكادان تحملانه ، وتحامل على نفسه وهو يخرج من باب المدرسة ومر سريعاً حتى لا يسمع كلام ذلك البواب الذى وقف لتحيته ، وأراد أن يلقى عليه محاضرة أعدها فى ذهنه وبدأها «بسيدى الأستاذ . . .»

جرائم الحرب

ومصير المسئولين عنها

٢ — من فرساى إلى يومنا

لبث مثل نابوليون بونابارت فريداً فى تاريخ الحروب الحديثة حتى كانت الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) وعندئذ أثيرت مسألة مجرمى الحرب مرة أخرى .

انتهت الحرب الكبرى أو الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء على ألمانيا الأمبراطورية بعد صراع عنيف دام أكثر من أربعة أعوام ، ولم تدخر ألمانيا خلالها — شأنها فى الحرب الحاضرة — أية وسيلة من وسائل السفك المروع أو التدمير الشامل إلا استعملتها ضد أعدائها ؛ فمن حرب الغواصات إلى استعمال الغازات الخانقة لأول مرة إلى قتل الرهائن والأسرى والفتك بالمدنيين بمختلف الصور ، أو غير ذلك من الوسائل التى اعتبرها الحلفاء منافية لقوانين الحرب . ومن ثم فقد فكرت الدول المتحالفة حتى قبل انتهاء الحرب فى أن تحمل زعماء ألمانيا الامبراطورية تبعة هذه الجرائم ، وأن تسعى إلى معاقبتهم باعتبارهم « مجرمى حرب » يسئلون عما اقترفت بأوامرهم القوات الألمانية المحاربة .

وكانت مسألة مجرمى الحرب يومئذ كما هى اليوم مثار جدل شديد ، وكان المرغوب أن تعتبر جزءاً من شروط الصلح التى تفرض على ألمانيا ، وكانت فرنسا أكثر دول الحلفاء تشدداً فى شأنها ، وكانت أمريكا بالعكس أكثر دول الحلفاء ترفقاً بألمانيا المهزومة ، وكانت انجلترا تحاول كعادتها أن توفق بين مختلف وجهات النظر ، وأخيراً غلب رأى المتشددين واتفق الحلفاء على وجوب معاقبة « مجرمى الحرب » الألمان .

وكانت شخصية ولهلم (جيوم) الثانى أمبراطور ألمانيا ورأس « الريخ » الثانية كما هى اليوم شخصية أدولف

ولكن صاحبنا جذب نفسه جذباً ، ومرق من بين يدى البواب وسار وهو يبذل من ذات نفسه آخر ما يستطيع من جهد وجلد . . . . . .

ولما جاء نعى الأستاذ « فوماغاجه » إلى المدرسة فى اليوم التالى أدرك الجميع السبب الذى من أجله حرص الأستاذ فى ذلك اليوم على أن يلقن تلاميذه تلك القطعة الموسيقية ، وحاول أن يصل بهم إلى حد الإجادة والاتقان .

وقر القرار على الاحتفال بجنازة الأستاذ احتفالاً رسمياً تشترك فيه فرقة المدرسة الموسيقية ، وتعزف فيه قطعة الأستاذ المختارة « سير الجنازة » .

وبعد أن أودع جثمان الأستاذ « فوماغاجه » جوف الأرض على ذلك البساط الأبدى . بساط الراحة الأخيرة ، وبينما كان مدير المدرسة يؤبن الفقيد بكلمات متقطعة مضطربة ، فى تلك الأثناء ، كان ذلك البواب — الذى لم يدرك إلى تلك الساعة سبب ذلك التغير الذى بدا على الأستاذ الموسيقى فى العهد الأخير — واقفاً إلى جانب القبر كئيباً حزيناً مقوس الظهر ، معتمداً على عصاه ، مرتدياً حلة سوداء بالية ، وبعد قليل أحاط بذلك القبر الحقير المغمور أعضاء الفرقة الموسيقية من تلاميذ الأستاذ ، وأعادوا عزف تلك القطعة الحزينة ، قطعة الأستاذ الحبيبة إليه « سير الجنازة » ، وبينما كانت أصداء ذلك اللحن تتلاشى ، وتذوب فى أجواز الفضاء ، وتنزل على التراب الندى فوق القبر الحقير سحائب عزاء ، وتكريم للثاوى فيه ، فى تلك اللحظة حدث شيء غريب ما كان أحد يتوقعه ، أو يخطر على بال ، فقد هتف أولئك التلاميذ فى صوت واحد وفى قوة وشدة : أحسنت أيها الأستاذ !

أيها الموسيقى البائس ! ليت شعرى : هل كنت فى هذه المرة أيضاً تحنى رأسك فى قبرك لتشكر تلاميذك الأوفياء على تحيتهم الأخيرة التى بعثوها إليك فى مرقدك الأخير ؟

برهان الدين الداغستانى

هتلر زعيم ألمانيا النازية ورأس « الريخ » الثالثة ، تحمل في نظر الحلفاء أعظم التبعات ، سواء فيما يتعلق بمسئولية الحرب ذاتها أو تنظيم الأعمال المثيرة التي اعتبرها الحلفاء جرائم منافية لقانون الدول .

ومن ثم فقد أدمجت مسألة مجرمي الحرب في شروط الصلح التي فرضت على ألمانيا ، ورأينا لأول مرة في التاريخ في وثيقة دولية نصوصاً خاصة تنص على معاقبة مجرمي الحرب وتنظم إجراءات محاكمتهم .

أحكام معاهدة فرسـاى

وقد أفردت معاهدة فرساى لمسألة مجرمي الحرب قسما خاصاً هو « القسم السابع » (المتعلق بالعقوبات) ويشتمل هذا القسم على أربع مواد من المادة ٢٢٧ إلى المادة ٢٣٠ .

وتنص المادة ٢٢٧ على حالة ولهلم الثاني أمبراطور ألمانيا فتقول إن الدول المتحالفة والمشتركة تضع موضع الاتهام العمومي ولهلم الثاني فون هو هنتسرلرن أمبراطور ألمانيا السابق بصفته مرتكباً لجريمة عليا ضد المبادىء الأخلاقية الدولية وضد حرمة المعاهدات المقدسة .

وأن تنشأ محكمة خاصة تتولى محاكمة المتهم على أن توفر له كل الضمانات اللازمة لحق الدفاع ، وتؤلف هذه المحكمة من خمسة قضاة تعين كل دولة من الدول الخمس الآتية واحداً منهم ، وهي : أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ، وتصدر المحكمة حكمها وفقاً للبواعث التي تمليها أسمى مبادىء السياسة بين الأمم بقصد ضمان احترام التعهدات الرسمية والعهود الدولية وكذلك المبـادىء الأخلاقية الدولية ، ولها أن تقرر نوع العقاب الذي ترى تطبيقه .

وستقدم الدول المتحالفة والمشتركة إلى حكومة الأراضي السفلى (هولنده) طلباً ترجو فيه تسليم الأمبراطور السابق إليها لإجراء محاكمته .

وتنص المادة ٢٢٨ على اعتراف الحكومة الألمانية للدول المتحالفة بحق إحالة الأشخاص الذين ارتكبوا أعمالا تنافي قوانين الحرب وتقاليدها إلى محاكمها العسكرية ، وأن تطبق العقوبات التي نصت عليها القوانين على من قضى بإدانته منهم وأن تقدم الحكومة الألمانية إلى الدول المتحالفة أو إلى من يطلب منهن إليها جميع الأشخاص الذين يتهمون بأنهم ارتكبوا أعمالا ضد قوانين الحرب .

وتحدد المادة ٢٢٩ جهات الاختصاص التي يحاكم أمامها المتهمون الألمان ؛ فالذين ارتكبوا منهم أعمالا ضد رعايا احدى الدول المتحالفة يحاكمون أمام المحاكم العسكرية لهذه الدولة ، والذين ارتكبوا أعمالا ضد رعايا عدة من الدول المتحالفة يحاكمون أمام محاكم عسكرية مشتركة تؤلف من ممثلي الدول ذات الشأن .

وأخيراً تنص المـادة ٢٣٠ على تعهد الحكومة الألمانية بأن تقدم كل الوثائق والمعلومات اللازمة لإثبات الجرائم المنسوبة والبحث عن المجرمين وتقدير التبعات .

تلك هي النصوص التي تضمنتها معاهدة فرساى في شأن مجرمي الحرب والتي تمثل وجهات نظر الدول المتحالفة يومئذ ، وقد كانت هذه المسألة كما هي اليوم مثار خلاف وجدل بين الدول المتحالفة . ونحن نعرف ماذا كان مصير هذه النصوص ، فقد بقيت عاطلة دون تنفيذ ، ولم يستطع الحلفـاء وضع يدهم على أمبراطور ألمانيا السابق ، لأن الحكومة الهولندية لم تقبل تسليمه تمسكا منها بحق إيواء اللاجئين السياسيين ، ولأن ألمانيا لم تسلم أحدا من أبنائها الذين أريدت محاكمتهم ومعاقبتهم على ما ارتكبوه خلال الحرب من أعمـال رأتها الدول الظافرة جرائم يجب العقاب عليها .

الموقف الحـــالي

والآن يعيد التاريخ نفسه . ففي الوقت الذي تنحدر فيه ألمـانيا النازية بسرعة إلى قضائها المحتوم وإلى هزيمتهـا المحققة تعود مسألة مجرمي الحرب فتطرح على بساط البحث مرة أخرى . ومن الواضح أنها تتخذ في هـذه المرة أهمية

عامة نظراً لفداحة الأعمال الإجرامية التي ارتكبها الحزب النازي في الحرب الحاضرة وما أنزلته القيادة الألمانية بالبلاد المفتوحة من ضروب التدمير والسفك التي لم يسمع بهما والتي لا يكاد يذكر إلى جانبهما ما حدث في الحرب الكبرى.

ولهذا نرى صيحة الانتقام في هذه الحرب أشد دوياً وأبعد أثراً، والصرخة عامة في جميع الأمم التي اكتوت بعدوان ألمانيا النازية بوجوب القصاص العادل ومعاقبة سائر الزعماء والقادة الألمان الذين يحملون تبعة هذه الفظائع مهما سمت مكانتهم. وأشد ما تكون هذه الصيحة في روسيا السوفيتية التي اجتاح الغزاة أرضها بأروع الصور والأساليب ونسفوا معظم مدنها ومرافقها وقتلوا الملايين من أهلها، وقد وضعت روسيا بنفسها أول قاعدة عامة في محاكمة مجرمي الحرب الحاضرة وهي تقضي بأن تتولى الدولة التي وقعت عليها الأعمال الاجرامية محاكمة المجرمين وفي نفس المكان الذي ارتكبت فيه، وطبقت روسيا بالفعل هذا المبدأ دون انتظار لنهاية الحرب، فنظمت محاكمات خاركوف الشهيرة لجماعة من صغار القادة الألمان الذين اتهموا بتدبير المذابح المحلية في ذلك الاقليم وقضي باعدامهم، وذلك بالرغم من وعيد ألمانيا وتهديدها بالانتقام.

ولا تقل أمريكا وانجلترا عن روسيا تصميما في هذا الشأن وإن اختلفت بعض وجهات النظر من الناحية الشكلية؛ ذلك أن الرأي العام الانجليزي أو على الأقل فريقاً منه يميل إلى الاعتدال في تقدير مسألة القصاص. ومع أنه لا يوجد خلاف في وجوب القصاص من زعماء ألمانيا النازية وعلى رأسهم ادولف هتلر، فان المسائل الفقهية ما تزال تثير بعض الجدل، وأخص ما يختلف الرأي عليه هو كما قدمنا الطريقة التي يحاكم بها أولئك الزعماء، والقانون الذي يطبق عليهم والعقاب الذي يحسن أن يوقع عليهم.

وقد تجلى هذا الإجماع على وجوب محاكمة مجرمي الحرب ومعاقبتهم في مؤتمر الأقطاب الثلاثة (تشرشل وروزفلت وستالين) الذي عقد أخيراً في القرم حيث نوه المؤتمر في بيانه الرسمي بهذه المسألة واعتبرها عنصراً أساسياً في شروط الصلح التي ستعرض على ألمانيا عقب هزيمتها.

وقد رأينا كيف حلت هذه المسألة في معاهدة فرساي وكيف نص فيها على إنشاء محاكم خاصة لمحاكمة الامبراطور ولهلم الثاني ومحاكم عسكرية لمحاكمة باقي مجرمي الحرب الالمان. ولكن يبدو أن مثل فرساي وإن استرشد به من حيث المبدأ لا يكفي لحل جميع المشاكل الفقهية التي أثيرت أمام لجنة جرائم الحرب؛ والأمر واضح بنوع خاص فيما يتعلق بموقف الحكومة الإنجليزية من أكابر مجرمي الحرب مثل هتلر وموسوليني، فهي ترى أن تكون محاكمتهم والقصاص منهم بقرارات سياسية على نحو ما اتبع في شأن نابوليون، وتأبى أن تضعهم في قائمة مجرمي الحرب العاديين خلافاً لما تراه روسيا وأمريكا.

ومن جهة أخرى فانه يبدو أن الدول المتحالفة مصممة هذه المرة على ألا يفلت الجناة من يدها كما حدث في الحرب الكبرى بالنسبة للامبراطور ولهلم الثاني. فقد أكد مستر تشرشل في تصريحاته الرسمية أمام مجلس العموم غير مرة «أن الحكومة الإنجليزية مصممة على أن تحول دون التجاء المجرمين النازيين إلى البلاد المحايدة، وعلى أن تنزل بهم العقاب العادل» وبالفعل وجهت إنجلترا — كما وجهت روسيا وأمريكا — انذارها إلى الدول المحايدة تحذرها من قبول اللاجئين إليها من الزعماء النازيين.

ولكن هل يكفي هذا التحوط لتحقيق أمنية الدول المتحالفة في وضع يدها على أولئك الذين تعتبرهم أعظم المسئولين عن إثارة الحرب الحاضرة وما ارتكب خلالها من الفظائع؟ وهل تستجيب الدول المحايدة كلها بالفعل إلى هذا الانذار؟ إن الحرب تقترب من نهايتها بسرعة، والغد ملئ بالمفاجآت. وسنرى عندما تحل الخاتمة المحتومة ماذا يصيب أولئك الطغاة المحكوم عليهم من أحاجيب القدر.

محمد عبد الله عنان

مقـــــابلات

بين الشعر البدوى والشعر الفصيح

أوردت فى مقـال سابق بعض استشهادات تشير إلى ما يلمسه المطلع على الأدب العربى من تجانس ومقابلة بين الشعر الفصيح والشعر البـدوى . وإلى القارئ شيئا من ذلك .

يقول الشاعر :

ما كل من قال القصيد بشاعر

هيهات يطعن كل من حمل القنا

هكذا يجرى هذا البيت مجرى الأمثال بليونة وسهولة يسيرتين وبنفس تلك الليونة يجرى فى الشعر البـدوى نفس المثل :

ما كُلّ إمن مسك الربابات شاعرْ

ولا كلّ من ركب الفرس خيَّـال

والبدوى بطبعه ينفر ممن يتظاهر بما ليس فيه ، وقد تصل هذه النفرة إلى حـد الاحتقار والاستخفاف ، ولذا تعددت أقواله فى هذا المعنى . فهو القائل :

ولا كلّ من لبس العمامة يزينها

وهو القائل أيضا :

ولا كل من نقل القنا يطعن العدا

ولكن البدوى يجيز لنفسه المغالاة فى الفخر متى تأكد من ميزة فيه أو فى قومه . وما أجمل قول ابن الرشيد أحد أمراء نجد فى القرن المـاضى يفخر بشجاعة قومه وقوة بأسهم :

من شافنا فى الحيل إرمى من النوم

ومن شافنا فى الميل[1] بطنه إبريله[2]

(١) اليقظة .
(٢) تخض أمعاؤه هلعاً .

ويضاهى البدوى فى هذا المضمار فصحاء الشعراء . يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة :

إذا بلغ الفطامَ لنا صبىٌّ   تخر له الجبابر ساجـدينا

ولكن الأمير خلف الإذن . أحد أمراء عشيرة (الرُّوَلة) المشهورة يفوق فى مغالاته فى الفخر حين يقول :

صغيرنا لنه على المهد[1] رضاع

سنه شطير ويقدم العظيم نابه

ويصـل شاعرنا المرقش الأكبر الذروة فى الفخـر الحماسى حين يقول :

إنا لنرخـص يوم الروع أنفسنا

ولو نسام بها فى الأمن أغلينا

فتجاريه فى القول عجوز بدوية من قبيلة (الشرارات) الأردنية تباهى بالفخر نفسه حين تقول :

الروح عند آركابنا ماذ تنباع

وأثمنتها ثمينة رخيص الجلابة[2]

وترق نفس البدوى حين تهز مشاعرها بالحب فتجارى الشـاعر الحضرى بشارة الخورى فى صوره الشعرية عندما يقول :

قتل الورد نفسه حسداً منـ   ـك وألقى دماه فى وجنتيك

وتجارى شاعراً آخر يقول وقد رأى حسناء تحاول قطف ورد :

فقلت وهل جنى ذنبا ؟ أجابت :

تعدى سارقاً ألوان خـدى

ويقول بدوينا الظريف :

سرق حمار الخـــد وردٌ وتفاح

قمت قطعته قبل ينسرق ثواليه

ومهما يفسر القارئ هذا البيت فإنه يزيد من روعته فإن شرح الفنان بأنه واقع على الورد والتفاح (اللذين سرقا

(١) المهد .
(٢) الجلابة جمع جلب وهى القطعان المرسلة للبيع .

عيد ميـــــلاد الفاروق

يوم عليه من الجلالة ميسمُ
الجد حول جبينه مُتوسِّم

يختال كالآمال أشرقَ وعـــدُها
ويكاد من فرط البشاشـــةِ يبسم

حيَّتْ سنا الميلاد فيه مواكبٌ
تجلو به ســـبحَ الحياة وتَنْسِم

كواكبُ النوَّار حيَّا روضَها
نغمٌ بأنفاسِ الربيـــع مسلِّم

وبكلِّ ريفٍ فى النهار دعـــوةٌ
جاشَ الفؤادُ بها وصوَّرها الفمُ

هى أمـــةٌ هزَّ الولاء حنينَها
جاءت تصـــوِّر ما تكنُّ وترسم

وعلى حواشى كلِّ ثغرٍ بســـمةٌ
وبكل جانحـــة فـؤادٌ مغـرم

أحصى هـلالَ العام خفق قلوبها
شوقاً كما عـــدَّ السماء منجِّم

تســـتبطئ الأيام وهى كعهدها
وأخو الجوانح حاسبٌ متـــبرم

حتى أهـــل على الكنانة مشرقاً
أمل تمثِّله القـــلوبُ مجسَّم

أفق من العليـاء أطلعَ كوكبـــاً
ظلت به الآمالُ دهراً تحـــلم

أشرق على الوادى غلائل نسجُها
نبتٌ بأطراف الربيـــع مُنمنم

والنيل من سيف الجزيرة لحنُـــه
حمدٌ على جرْس الخرير مُنغَّم

غنَّى وصفَّق فى الخمائل ماؤه
وعلى الضفاف حمائمـــه المترنم

وكأنه فيها يســـبِّح راهبٌ
أو شاعرٌ جـزلُ الصناعة ملهم

* * *

مولاى ، هــذا العيدُ موقفُ مادح
ألحانه يصـــدُرْن عنك وتعلمُ

ضمتك أحسابُ العُلا فى دوحة
شماء قصَّر من ذُراها الأعصمُ

نسب كما اطردت كعوبُ مثقف
يُبدا به الذكرُ الجميلُ ويختمُ

تمضى به صُعداً كواكبُ دولة
تسمُو على نجم السماء وترجمُ

وورثتَ تاجاً ، ماجـداً عن ماجد
ودُّت مكان الدر فيـه الأنجم

من كل وضّاح الجبين كأنه
طود بتيجان الســحاب معمم

حمار الحد) فهو رائع ! وإن شرح القطفَ بأنه واقع على الحد قبل أن يُسرق بواق احراره فهو أروع .

ويصوغ الأفوه الأودى سُنة من سنن علم الاجتماع فى نظم رائع :

لا تصلح النـاس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهـــالهم سادوا

تبق الأمـــور بأهل الرأى ما صلحت
فإن تولت فبالأشرار تنقـــاد

ولكن شاعرنا البدوى وهو واقعى التفكير لا يغمط العُقال فضلهم ، ولا يبخس الجهال حقهم ، فيصوغ سنته فى نظمه المختصر حين يقول :

قومٌ بلا جُهالٍ ضاعت أحـقوقها
ورَبْعٌ بلا عُقالٍ راحُوا فطَايِحْ

بيت جبرين — فلسطين
عيسى مصطفى

وتهدت من لج السياسة زاخراً
والجو معقود الغيامة أدهم
فصرفت سكان السفين موفقا
والعمر في فجر الشبيبة يقدم
ونهضت بالعبء الثقيل مظفراً
حزم يؤيدكم ، ورأى قيم
وصدعت مشكول الأمور بواضح
يعنو لثاقبه الخفى المبهم
وتلفت الشرق العريق وراعه
في عرش مصر مثقف لا يعجم
فذ السياسة وهو في فجر الصبا
في برده الندب الجرىء المقدم
يزن الأمور إذا رمى فيصيبها
والرث من قبل الرماية يعصم
ويرى الحوادث وهى بعد أجنة
والغيب معصوب الجبين ملثم

* * *

مولاى أحلت الكنانة منزلا
أسمى ، وقامت من يديك الأنجم
في كل خالدة بنيت منارا
يفنى الزمان ، وعهدها لا يهرم
(إسكندرية) وهى أول كعبة
للعلم حج ركنها المتعلم
كانت بأفق الشرق شمس حضارة
والغرب محجوب الثقافة مظلم
أحيت يد الفاروق مجد تليدها
ولكم له أخرى أجل وأعظم
ولها من اسمك في الخوالد حجة
ولها من اسمك في المعاهد ميسم
ورد اشابة البلاد ومنزل
يغذو العلوم ، وللفنون مخيم
وكأنما طلاب كلياتها
طير على ماء الخمائل حوم

* * *

« يوم العروبة » وهو وحى فؤادكم
يوم بتاريخ الكنانة معلم
وافى بنو عدنان فيه وضمهم
في ظل عرشك من عكاظ موسم
نظم الحنين شتيتهم في وحدة
شدت أواصرها الثقافة والدم
وهوى الأخوة في الشعوب حنينه
كهوى الحسان مشبب ومضرم
النهضة الكبرى لشعب خالد
والعروة الوثقى التى لا تفصم
والبنية الشماء أدعم أسها
والجوهر الفرد الذى لا يقسم
والعصبة الإخوان قلباً واحداً
آلوا على ضم الصفوف وأقسموا
والخطوة الأولى ليوم قادم
يقضى به أمر الشعوب ويبرم
والعهد شد على الاخاء أكفهم
والصبح ينهض في سناه التوءم
ما أحوج الشاكى اصغر شريكه
كل يبث رفيقه ما يجشم
شعب العروبة (كالعصى) مثاله
فإذا تجمع شمله لا يهزم
يرجو من « الفاروق » وهو عميدها
ما يرتجيه الآمل المتوسم

علي شرف الدين

كلارا

وجدها فى شارع فؤاد الأول ولم يكن رآها منذ نيف وسنتين فتبعها . وكانت له غاية يقصد اليهـا ، ووجهة هو موليها ، فنسى غايته ، وتحول عن وجهته ؛ واتجه معهـا إلى متجر كبير فى ذات الشـارع يموج بسكان القاهرة وروادها . وكانت فتاتنا هيفاء ، شقراء ، فى العشرين من عمرها ، لها مظهر أنيق ، وقد رشيق ، وعينان استعارتا صفاءهما من نقاء سريرة صاحبتهما ، فهما تشعان الحنان .

وصعدت فى المتجر إلى القسم الذى تبغيه ، ووقفت قبالة خوان ، تقلب فى بضاعته ، وتلتفت إلى ما تقلب أترابها يمنة ويسرة . وإنها لعلى هذه الحـال إذا بالرجل الذى تبعها فى شارع فؤاد الأول ، وصعد معها فى مصعد المتجر ، واقف بجوارها ، ولم يكن بهذا القسم ما يطلب الرجال ، فلم تعجب لذلك وواصلت التقليب .

ثم رأت أن تطلب بغيتهـا على خوان آخر فتحولت اليه . وإذ لم تكن تتوقع المفاجآت فقد راعهـا أن ترى الرجل إلى جانبها هذه المرة أيضـاً ، وحق لها أن تراع . وزاد فى روعها نظرة منه أشاعت فيها الارتباك . فلم يكن فى تلك النظرة معنى مما يداعب خيال الحسناء ، أو يغرى الرعناء ؛ ولا كان فيهـا ما يمكن أن ينال من هيبة رجل ناهز الخمسين فى لباس الضباط البريطانيين . وكان صاحبنا برتبة ميجر ، مديد القامة ، جاف العود ، عريض المنكبين ، واسع العينين ، بارز الوجنتين ، حليق الشاربين ؛ يتردد بين ما ينبغى له فى المتاجر والطرقات ، وبين دافع قوى يدفعه إلى الفتاة .

وابتعدت الفتاة فى المتجر على غير هدى ، وكانت لها غاية منه فنسيت هى الأخرى غايتها ، ثم وقفت أمام خوان تقلب فى بضاعته حيثما اتفق .

وتقدم الضابط منها بخطوات بين الهيبة والرغبة جد

وئيدات ؛ وحياها فردت تحيته بأخرى يشيع فيها الاضطراب والاستغراب .

فقال لها : أتسمح الآنسة بخمس دقائق من وقتها الثمين ؟

قالت : آسف ياسيدى . فما لى وقت يتسع لمثل هذه المفاجآت .

قال : إذن فليتسع لسكلمة ما منها بد ، وليس عليك منها ضير .

قالت : ما أعلم أن بينى وبين حضرة الضابط ما يجيز ذلك . وأنا إلى هـذا مصرية مسلمة ، ولا إخالك تجهل تقاليد البلاد .

قال : أعلم ذلك ؛ لكنه لعله يطمئنك أنى لك بمثابة الوالد .

قالت : حتى هذا لا يسوغ لمثلى أن تقف فى متجر مع مثلك .

قال : إذاً لحظة !

وأخرج من جيبه ورقاً وقلمـاً ، وانتحى بهما ناحية من الخوان ، وجعل يكتب . ثم طوى الورقة ، وأخرج من حافظة نقوده شـيئاً أرفقه بالورقة ، ثم وضع ذلك فى غلاف ، وناوله الفتـاة وهو يقول : لا عليك إذا أنت احتفظت بهذا الغلاف ستة أشهر ، وإذا أنت أعطيتنى عنوان أبيك . فاذا لم أتصل به فى خلال هـذه الأشهر ففضى الغلاف .

وشد على يدها شدة رفيقة وثيقة ، وحدجهـا بنظرة تشع حنواً ورجاء ، ثم حياها تحيته العسكرية وانصرف .

* * *

ومضت أيام ، وتواترت أنبـاء المعركة الدائرة فى الصحراء الغربية ، وانقضى شهر أكتوبر من عام ١٩٤٢ والفتاة وأهلها ينتظرون أنباء الضابط ، وهم نهب للهواجس والوساوس والفضول ، وهم بين معتقد أن ما وقع قد كان

مبعثه الشذوذ ، وهي ترجح أن في الأمر سراً من الأسرار . والفتاة في تلك الأثناء تسائل نفسها في شأنه الحين بعد الحين ، وتحاول أن تملك مسلكه فلا تهتدى فيه إلى اليقين . وهي في هذا تمثل نظرته إليها فلا تجد فيها ما يريب . فهذه اللهفة التي تهالكت منه على حوانيها قد أشبهت في تحاذلها لهفة المكروب ؛ وهذا الشعاع الذي انبعث من نظرته قد نفذ منها إلى قلب القلوب . فهي تحس نحوه عطفاً خفياً ، لا عطفاً عابراً سطحياً . وقد أضحكها مسلكه لحظة ، لكنه مسلك في نظرها ليس عليه غبار .

وهذا الغلاف الذي ائتمنها عليه وأسلمته أباها لم يمض على تسلمه إلا أسابيع هي عندها شهور . ولم تكن طامعة ولا ذات فضول ؛ لكنه اللغز يتطلب الحل ، والطوى يتطلب النشور .

وذهبت الأيام في إثر الأيام ، والأسابيع تلو الأسابيع ، وكملت الأشهر ستة ، فإذا الفتاة تفض الغلاف وتقرأ السطور :

« منذ نيف وستين فارقت ابنتي ؛ وبعد نيف وستين وجدتها . وجدتها فيك فكانا كلا خيالان أو حقيقة وخيالها . وأقسم أني جاهدت نفسي جهاداً هائلا في تقبيلك على مرأى من الناس ؛ وأقسم أني أنكرت كل شيء إلا أنك كلارا ، وأني ألقاها بعد طول الغياب .

« لكن اليقين أليم ، وقد صدمني في الصميم . وإن كنت أكبر في نفسي هذه الاستقامة وهذا الخلق العظيم .

« بهذا الغلاف ما أملك هو لك على سبيل التذكار ، لأني أكون عندئذ في الراحلين ، وأكون قد مت وقد نعمت رؤية كلارا قبل الممات ؛ وفي هذا عزاء لي أي عزاء ، لو تعلمين »

* * *

وجرت على خدي درية عبرتان هما دريان ، ونظرت إلى أبيها الذي إلى جانبها فتضاءلت حقيقته ، وبكت أباها الذي خطر على حياتها خطرة هي خيال من صنع الخيال .

محمود الدسوقي

صيد من بلاد الشام

للأستاذ فؤاد

يقظة — منشورات البابيروس — منشورات أصدقاء الكتاب — لجنة التأليف والترجمة والنشر وعيون الأدب الغربي — في المجمع العلمي العربي — في المعهد الفرنسي — الدكتور أحمد زكي : ما رأيك وماذا تحب ؟ ....

يقظة :

أصل اليوم ما انقطع ، وأعود إلى التحدث عن الشام وأدبها ، وأدبائها ، وعلمائها ، ونهضتها . وأنا موقن أن في ذلك خيراً ذا ألوان شتى ، وأن ذلك سبيل التعارف والتآلف ، والتقرب والتحبب .

وطريف أن أنقل إلى قراء البلاد العربية طرفاً من أخبارنا ، أو أمور مظاهر اليقظة والحياة في بلادنا ، وأنوه ببواعث النشاط والوعي لدى أبنائنا .

لقد كانت السنة الحالية سنة خير وبركة ، إذا قيست بالسنوات اللواتي مضين قبلها . فاليوم نرى توثباً واندفاعاً ، ونرى عملاً وجهوداً ، ونرى مجلات ومنشورات . ونلمح يقظة في السياسة ووعياً للقومية . كل أولئك يومئ إلى رغبة في العمل . وإذا وجدت الرغبة ، واقترنت بالعزيمة فأبشر بمحصول كثير .

منشورات البابيروس :

صدرت في دمشق سلسلتان من المنشورات مختلفتان : أما الأولى فسلسلة البابيروس أو اليقظة ، وكان هدفها نشر الثقافة ، تقليداً لسلسلة « اقرأ » المصرية . وقد كنا حمدنا لأصحابها عملهم هذا أول الأمر . ثم أخذنا على هذه السلسلة ضعفاً في بعض أجزائها ، وقد يسيء إلى سمعة دمشق عند من لا يعرف أدباء دمشق . وأنا على مثل اليقين أنها إذا عنيت بإخراج الكتب وطبعها . وانتقت الموضوعات الحسنة ، واختارت الكتاب المجودين . فسيكون لها رواج كبير .

وفيما صدر منها ، وهو جدير بالذكر ، كتاب الزواج للدكتور الشطي ، وفصول في النقد لروحي فيصل ، وما وراء الطبيعة لحافظ جمال ، وهاروت وماروت لخليل هنداوي .

منشورات أصدقاء الكتاب :

أما السلسلة الثانية فمنشورات أصدقاء الكتاب . وغاية هؤلاء الأصدقاء نشر تراث الشرق إلى جانب روائع الغرب . وقد شرطوا أن يكون كتاب سلسلتهم ممن نبه ذكره ، وكان ذا اختصاص بما يكتب . وهذان أمران يؤديان إلى النجاح إذا تقيد الأصدقاء بهما . وقد صدر الكتاب الأول من « النابغة الذبياني » للأستاذ سليم الجندي ، عضو المجمع العلمي . وهي دراسة واسعة جيدة ، وطبعها حسن . وعندي أن هؤلاء الأصدقاء إذا وفقوا إلى التقيد بما رسموه لأنفسهم ، فسيكون لهم — وقد أوتوا الثقافة والفهم — شأن في عالم النشر .

لجنة التأليف ، وعيون الأدب الغربي :

ولقد أعجبني من الأصدقاء العناية بروائع الغرب . وأنا مازلت منذ بعيد أدعو إلى نقل هذه الروائع . لقد أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سلسلة عيون الأدب الغربي ، وكان فيها كتب جياد لطاف . يكفي في تقريظها أنه اشترك فيها أشباه المازني ، والدكتور أحمد زكي ، والدكتور مندور وغيرهم . . . وهذه السلسلة توجب علينا أن نشكر اللجنة ونثنيها عليها . ثم وقفت . وإني لأرجو أن تواصل اللجنة عملها هذا ، لنتمتع بهذه العيون ، الساحرة ، الفاتنة . فإن هناك روائع كثيرة لم تنقل إلى العربية . . ولا عيب أن يساعد اللجنة في عملها المثقفون الذين اضطلعوا باللغتين ؛ العربية والفرنسية ، أو الإنجليزية في البلاد العربية ، فيكون لها فضل السبق في توثيق الصلات

الثقافية بين هذه البلاد، كما كان لها الفضل في نشر الثقافة فيها

في المجمع العلمي العربي

ولا جديد في المجمع بعد مهرجان المعري.

هذا المهرجان الذي يقول أعضاء المجمع أنفسهم إن ما لحقه من الفوضى قد أثر فيه. ويكفيه حسناً أنه كان لدينا سبباً للتمتع بكبار العلماء، والأدباء، والمفكرين، كالنشاشيبي وأحمد أمين، والدكتور طه، والدكتور عزام....

ثم ماذا؟

يقول رئيس المجمع: «لقد ثابر المجمع على إصدار مجلته، وألقيت محاضرات في ردهته، وقدر المؤلفين فشجعهم. واستقبل عدداً غير قليل من العلماء والوجهاء والرؤساء، وأهداهم بعض منشوراته....»[1]

والذي طربت له حقاً، أن يحو المجمع هذا المنحى، وأن يكون فيه عضو يستقبل الزائرين، والوجهاء، والرؤساء. فإن من الجميل أن يكون ذلك، وأن تقدم لهم القهوة اللذة والقطائف الطيبة والمنشورات القيمة، وأن تظهر الأرستوقراطية بأجلى مظاهرها. فهذا كله يدل على أن دمشق تكرم ضيفها وتحسن إلى القريب عنها.

وأما التقدير والتشجيع فلهما حديث آخر

أما المحاضرات الأسبوعية، فقد اختصرت هذا العام وجعلت محاضرة كل أسبوعين. وقد لوحظ أن عدد الراغبين فيها قد قل.

ومن المحاضرات التي ألقيت هذا العام. محاضرة ذات قيمة للدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير العدل، عن «الحقيقة في نظر العلم» وسنلخصها في عدد قادم.

ولابد من أن نذكر أن المجمع نشر رسالة الملائكة المعري وقد علق عليها الأستاذ سليم الجندي.

(١) انظر البيان السنوي. في مجلة المجمع. العدد الأخير من سنة ١٩٤٤.

وأنه سينشر تاريخ الحكماء للبيهقي، وديوان ابن عنين، والرسالة الجامعة المجريطي

في المعهد الفرنسي:

ويجدر بنا، ونحن نتحدث عما تنتجه دمشق، ونسمع عمن يعمل على نشر الثقافة فيها، أن ننوه بالمستشرق المطلع هنري لاوست، مدير المعهد الفرنسي. والسيد لاوست معروف بدراساته الشاملة الدقيقة. وهو الآن يضع تاريخاً للأدب العربي في مختلف عصوره، وينقل إلى الفرنسية البداية والنهاية لابن كثير.

وهو عامل على إعادة طبع تاريخ دول الإسلام للذهبي بالعربية ثم نقله إلى الفرنسية. وقد أضاف إليه تعليقات كثيرة.

وهناك دراسة من الحياة العقلية في سورية زمن الأيوبيين وأوائل المماليك، ستصدر بعد قريب.

وفي حقل الدراسات الإسلامية يتابع السيد لاوست أبحاثه عن الحنابلة، وهو يرمي من وراء ذلك إلى تهيئة دراسة عن الفقه الحنبلي، وتاريخ المذاهب السياسية والاجتماعية في الإسلام.

وقد كان السيد لاوست أصدر دراسة قيمة عن حياة أبي العلاء وفلسفته، أيام المهرجان.

والمعهد يطبع الآن كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي. وقد علق عليه وعني به الأستاذ يوسف العش.

وهو ساع في طبع سلسلة من الكتب المخطوطة التي تبحث في أخبار حكام دمشق وولاتها، منذ زمن العباسيين إلى أواخر العثمانيين.

وقد طبع المعهد المذكور كتباً مخطوطة أخرى، سأفرد كلمة خاصة لها، أبين فيها قيمتها وما اشتملت عليه.

وقد صدرت مجلة المعهد الأخيرة. وفيها دراسة جيدة من أصول رواية شهيرة في الأدب العربي الحديث (عيسى ابن هشام) للمستشرق هنري بيرس Perès من جامعة

الجزائر . وقد تطرق فى ثناياها إلى ذكر كثيرين من أدباء مصر المعاصرين .

الدكتور أحمد زكى : ما رأيك وما تحب ؟

كنت قد فرغت من قراءة طرائف الدكتور أحمد زكى فى المسموع والمقروء ، وكان فى المجلس بضعة أدباء . فخطر لى أن أسألهم السؤال الآتى :

« أية مقالة تبدأ بها فى الثقافة دائماً ؟ ولماذا ؟ »

فانقسموا فئات : أصحاب اليمين مع أحمد أمين ، وأصحاب الوسط مع أحمد زكى ، وأصحاب الشمال مع آخرين من كتاب السياسة أو المشكلات .

وعلا الضجيج . فقال أحدهم ، وهو من أصحاب الدكتور أحمد زكى : كلكم مخطئون ، وأنا خليق أن أثبت لكم ، أن أول مقالة يجب أن تقرأها مقالة صاحبي .

قلت : هات .

قال : تعلمون أن الأدباء ينفرون من العلم لدقته وصعوبة أموره . والدكتور عالم . والعلم ذو مباحث صعبة جافة ، لا يستطيع أن يفهمها كل واحد منا ، ومع ذلك فهو قد أوتى القدرة على الإفادة والتفهيم ، وبعث اللذة فى نفس القارىء ، وتبسيط الأشياء وعرضها بصورة جذابة فقدرته هذه تجعله مفضلا عندى .

قلت : إن ما ذكرت نتيجة لسر تفوقه إذا كتب فى موضوعات علمية . أما السر ، فهو عندى أنه يفهم جيداً إذا قرأ . ولذا يجيد إذا كتب ، ثم يوفق إذا انتقى . وهناك أمر آخر . فيبدو لى أنه كان أديباً قبل أن يكون عالماً .

قال : بل هو عالم ، علك ناصية العلم ، ثم يسخر الأسلوب الأدبى فى كتاباته .

قلت : لا . هو أديب فى نشأته وطبعه ، وهو قد حذق سحر الأدب . وأستطيع أن أجزم بذلك . ثم تعلق بالعلم وموضوعاته . فسخر سحر أدبه لتذليل صعوباته . ولو أنه كان عالماً قبل أن يكون أديباً ، لما رأيت فى أسلوبه هذه الحلاوة والطلاوة . هذا فلان ، وفلان ، يطرقان موضوعات العلم ، وليسوا بأدباء ، أفتجد فى أسلوبهم ما ترى هنا ؟

قال : لن أجادلك ، فقدّر ما شئت . المهم عندى أنى أقرأ لطائف علمية منتقاة ، وأقرأ طرائف اجتماعية حلوة ، فأفهم ما أقرأ بسهولة . وأفيد منه بسهولة أيضاً .

قلت : وماذا تحب من طرائفه ؟ قال : مما كان على طراز « الجنتلمان » مما يربى النفس ويبهج الحياة ، ومما كان على نمط رقص المعدة ، الذى يثقف ولا يتعب .

فانبرى صاحب الأستاذ أحمد أمين ، وألقى محاضرة فى تفضيله وبيان السبب فى ذلك[1] وقام ثالث يفضل مقالات السياسة ... ثم علا الصياح ... وانفض المجلس وكل يتعصب لصاحبه .

(دمشق) « فؤاد »

(١) سننقل هذه الأسباب فى المقالة التالية .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٢٣ — الثلاثاء ١٤ من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — ٢٧ من فبراير سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

معركة السلم

لم يختلف الرأي بين الكتاب اختلافه على معاملة ألمانيا بعد هذه الحرب . ومرد ذلك الخلاف إلى أصل جوهري لم يستقر فيه بعد أقطاب الدول المتحدة على رأي ، وهو هل توجد حقيقة ألمانيا أخرى ، ديمقراطية ، مسالمة ، لم تفسدها تعاليم النازي ، ولم تسممها دعواتهم ، أم أن ذلك وهم لا حقيقة له ، وأن الألمان سواء في ميولهم الحربية وفي روح الاستعلاء على سائر البشر .

وها هي جيوش الحلفاء تطبق اليوم على الألمان من كل جهة . فما هي السياسة التي سيقع عليها الاختيار ؟ إن البت في هذه المسألة الشكلية سيكون أساس الحل في عديد من المسائل الفرعية التي سنعرض عليك أهمها أولا ، ثم نحاول أن نتعرف مما حقيقة الأمر في « الألمانيتين » .

* * *

وأول تلك المسائل التي أثيرت في الحرب الحالية وأدناها إلى التطبيق والتنفيذ ، هي مسألة التسليم بلا قيد ولا شرط . والسياسة التي أعلنتها الأمم المتحدة في كازابلانكا — يناير سنة ١٩٤٣ — والتي عاد تشرشل يؤكدها في تصريحه يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٤ بمجلس العموم والتي اتفق عليها الأقطاب الثلاثة في اجتماع القرم — فبراير الحالي — تنحصر في ضرورة تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط

والخاطر الذي يتبادر إلى الذهن هو أنها سياسة خاطئة تؤدي إلى إطالة أمد هذه الحرب ، لأنها ستدفع بالألمان إلى القتال حتى آخر « خرطوشة » وآخر لقمة ، فلن يجديهم التسليم اليوم والحلفاء لا يعرضون له مقابلا شريفا .

ويستند أنصار هذا الرأي إلى وجود « ألمانيا أخرى » لم تسممها النازية ، وهي هي ألمانيا التي ينبغي أن يعرض عليها الحلفاء منذ اليوم شروط صلح مقبولة ، تحفزهم إلى نفض المنازية عنهم ؛ أو لم يذع تشمبرلين خطابا على الألمان غداة اعلان الحرب ، في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، يدور حول فكرة

أنها حرب ضد النازية ، لا ضد الألمان ؟

على أن ثمة معسكراً آخر يرفض البحث اليوم فى نظرية « ألمانيا الأخرى » لأنها تعطل المجهود الحربى فى الميدان وفى المصنع ، فلن يقاتل الجندى بنفس الروح المتأججة ، ولن ينتج العامل بنفس الهمة المتوثبة ، اذا ما وقر فى أذهانهم أن الشعب الألمانى طيب العنصر ، أفسدته الطبقات الحاكمة لمطامع حربية استعمارية . ويقول تأييداً لرأيه إن الإنتاج الحربى كان يزيد دائماً عقب كل غارة على انجلترا ، وإنه حدث فى جلاسجو وفى غيرها ، ان سويت منشآت كل عمال وأرباب عمل فى صبيحة غارة ليلية

على أننا لا نرى تلازماً بين « ألمانيا الأخرى » وبين أمل تقصير الحرب بعرض صلح معقول عليها ، لأن الجماهير العزلاء لن تستطيع شيئاً لقلب حكومة مسلحة ، تملك جميع وسائل الضغط والارهاب على أنه أفسد منها الجسم والارادة والأعصاب ، ولو أغراها الحلفاء بالتنازل عن فكرة التسليم المطلق

ومن المسائل التى نص عليها ميثاق الاطلنطى ، نزع سلاح الأمم المعتدية — (مادة ٨) ومن رأى الانجليز أن ينزع سلاح الأمم المعتدية وحدها لأمد طويل ، ومن رأى الأمريكان أن المادة الثامنة المذكورة تنص على إجراء موقوت انتقالى لابد وأن يعقبه بعد فترة وجيزة نزع سلاح عالمى .

لندع ذلك البحث جانباً يعالجه أولو الشأن مع باقى النصوص الغامضة التى تقوّم الميثاق ، ولنبحث فى تفسير عبارة نزع السلاح .

أول ما يتبادر إلى الذهن انها لا تفيد أكثر من التجريد الحربى . ولكن خصوم نظرية « ألمانيا الأخرى » لا يرون قصرها على ذلك ، بل يفسرونها بالتجريد الاقتصادى أيضاً . وهذا التفسير لا يتعارض فى تقدم مع ميثاق الاطلنطى بل هو إكمال له . وما فشلت معاهدة فرساى ، على رأيهم ، الا لخلوها من النص على التجريد الاقتصادى لألمانيا ، الأمر الذى مكنها من أن تعود الى التسلح فى فترة وجيزة من الزمن ، بين سنتى ١٩٣٣ و ١٩٣٩ . لقد نصت المعاهدة — حقاً — على أن تعطل فى مصانع كروب وغيرها من مصانع الذخيرة الاقسام التى كانت تنتج الأسلحة مباشرة ، ولكنها احتفظت بكل مبانيها وقواها المحركة وآلاتها (ماعدا آلات الذخيرة) فتسنى لهم أن يحولوها الى انتاج السلاح عندما قررت ألمانيا أن تتحلل من نصوص نزع السلاح فى المعاهدة .

ولعلهم أهملوا فى فرساى النص على تجريد ألمانيا اقتصادياً ، اكتفاء منهم بنصوص التعويضات ، فاعتقدوا أن إثقال كاهلها بعبئها الكبير سيستنفد موارد ميزانيتها ، وموارد التبادل الخارجى ، وسيحول بينها وبين العودة إلى التسلح .

ولقد كان هذا النظر الذى اطمأن إليه ساسة فرساى نظراً سليماً ، لولا أن العمل دل على أن عبء التعويضات انتقل من كاهل ألمانيا ليقع على كاهل الدول الدائنة ! وبيان ذلك أن ألمانيا كانت تقترض من تلك الدول المبالغ التى دفعت منها ما دفعته من تعويضات ، بل وأكثر منها ، فلم تتأثر من دفع التعويضات مقدرتها على الاستيراد ، بل وتبقى عندها فائض دعم ميزانيتها فأصبحت ألمانيا فى سنة ١٩٣٣ أقوى صناعياً منها فى سنة ١٩١٤ . حقاً أن القروض الأجنبية كانت توجه إلى انشاء مصانع للحاجيات المدنية ، ولكن تلك المصانع لم يكن من العسير تحويلها إلى مصانع للذخيرة بعد أن رفعت ألمانيا القناع ورمت بالقفاز .

سامى عائد جبران المحامى

مشاهد من السيرة

مقتبسة من القرآن الكريم

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة »

ومن يكون هذا الرسول ، لمن يتم هذا الشرف ، أى الناس حرىّ بأن ينقذ الناس من الظلمات إلى النور ؟

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، فلا يصطفى لها إلا أحسن الناس خُلقاً وأشرفهم محتداً : اصطفى لها أمين قومه وعظيم أمته ، اصطفى لها أكثر الناس تواضعاً وأصلبهم عوداً ، اصطفى لها محمد بن عبد الله القرشى الهاشمى زينة العرب أجمعين .

* * *

عبد ربه وهربه ، ووكل إليه أمره ، وإذا به يسمع وماذا يسمع ، هو صوت شديد يتردد فى أقصى أضلاعه :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »

أصابته الدهشة ، وصعق للصوت ، وأكبر الأمر ، وارتجف كأنه فى يوم صقيع وجليد ، فتدثر بثوبه . وعاد الصوت أشد وأقوى يردد : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبّر »

هام الرسول على وجهه وإذا به أمام زوجه فطفق يقص قصته عليها وهى تهدىء روعه ، حتى إذا خلا بنفسه مرة أخرى عاد الصوت يتغلغل فى أعماق نفسه ويقول : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »

* * *

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » ، فخرج إلى الناس وهو يقول : « يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو ، يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »

دوت هذه الدعوة فى مكة ، وتجاوبتها شعابها ، فهب أهلها دفعة رجل واحد واجتمعوا حول الرسول واجمين ، فأعاد عليهم القول بصوت يزداد قوة وإيماناً : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو ، يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون »

وجمت قريش وظنوا أن الأرض مادت بهم ، وإذا أكثرهم وأشجعهم على قول الباطل يصيح : لقد ضل محمد لقد غوى ، فأجابه الوحى : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى »

وأصاب الوجوم قريشاً ، وصعق قائلهم وإذا بصوت الرسول يدوى ويقول : « إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون »

شعرت قريش بأن هذا الكلام عظيم رهيب ، واقشعرت جلودهم وقلوبهم ، واضطرب أمرهم فلم يجدوا إلا أن قالوا : « ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين »

كلا لم يكن إفكا ولم يكن سحراً . ما كان إلا كلام الله تعالى الله عما يصفون .

* * *

قال الرسول : « إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد »

عاد الوجوم إلى قريش ، وما كانت قلوبهم لتصدق بما تسمع وترى ، وقد ملئت بالكفر ، ووجد أحدهم ما يدفع به الدهشة وتزيل الحيرة فصاح : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل اليه ملك ، فيكون معه نذيراً »

وتهللت وجوه قريش لهذا القول وظنوا أنهم ألجموا الرسول ، فجاء الوحى يقول : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » فلم يفهموا أنهم لا يقوون على رؤية الملك ، ولا يقوى الملك على الاختلاط بهم ! فهزءوا وسخروا ، وقال قائلهم : هذا شاعر أتانا بكلام يستعذبه من يسمعه ثم يخشاه ثم يكبره ، فقال الله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »

* * *

ونزلت السور تصدع نفوس الكافرين وشعروا بضعفهم أمامها ، فهى صوت الحق ، لا شىء يبطلهـا ، فأقبلوا على الرسول يعرضون عليه الملك والمال ، فقال :

« ما أسألكم عليه من أجر ، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » فأقبل بعض القوم مؤمنين .

* * *

تربص الكافرون بالرسول ، وأجمعوا على أذيته والهزء به والتسخيف لدعوته — وما كان محمد إلا بشراً رسولا — فآلمه فتنهم واستنجد بربه فقال له : « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون »

* * *

عاد اليهم يدعوهم إلى حقه ويدفعهم من باطلهم ، فكذبوه وكذبوه ، فحزن واستاء — وما كان محمد إلا بشراً رسولا —

قال الله تعالى : « فإن كذبوك فقد كُذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المبين »

فتعزى الرسول بهذا ، ولكن شيئاً واحداً لم يكن ليتعزى عنه وهو كفر قومه ، فقال تعالى : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئاً ، يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم »

* * *

عاد الرسول إلى قومه يقنعهم ويقول : « ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين »

* * *

ارتد المشركون إلى تعجيزهم قالوا : « لن نؤمن لك تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » فقال : « سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »

* * *

وظل يدعوهم بتلك البلاغة ويتحمل أذيتهم ، فأكرمه الله وأسرى به ، وذكر ذلك فقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا . إنه هو السميع البصير »

فلما قص قصته هذه علا ضحكهم وكثر هزؤهم ، فتألم من ذلك ، فما كان محمد إلا بشراً رسولا ، ونزل : « لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم » صبر رسول الله بما لا يصبر عليه بشر فى الأرض ، وكان

صبره وعزمه يجمعان عليه أهل الحق ، فيؤمنون به ، ويتكاتفون حوله .

نصح الرسول شيعته بترك المال والأهل والأولاد والهجرة في سبيل الله ؛ وقال جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »

أجاب المؤمنون الدعوة وساروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولحق بهم الرسول وانتشر دين الله في المدينة وما حولها .

* * *

هذا صوت الوحي يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن »

فسارع المؤمنون إلى سيوفهم وهبوا إلى نصرة دين الإسلام وأطاعوا الله ورسوله « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم » ، وكيف لا يطيعونه و « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »

* * *

ها هو ذا الإسلام ينتشر في الشعاب والوديان ، وها هي ذي مكة تسلم مفاتيحها إلى ابنها وعزيزها وها هي ذي الآية تنزل : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويُتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً »

* * *

حمد الرسول ربه وطفق يدعوه بالعشي والآصال . وعلا نجم الإسلام ، وانتشر من أقصى الجزيرة إلى أقصاها ، وكان الرسول في ذلك الأثر الأكبر والبطولة العظمى ، وإذا آيات الله تعظمه وتمجده وتقول : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » وإذا المسلمون يصيحون ولا يزالون : اللهم صل على محمد سيد المرسلين .

* * *

ها هي ذي وجوه الصحابة تكفهر ونفوسهم تضطرب ، ماذا ؟ إنها لآية من آيات الله : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين »

أما رسول الله فقد شكر ربه على تبشيره بقرب دعوته إليه ، ودنو لقائه له .

* * *

تذكر رسول الله آية من آيات القرآن ، فهب مسرعا وخرج إلى المؤمنين ، فصيح بهم : رسول الله يدعوكم إلى مسجده ، فهرولوا ليسمعوا مايقول ، تذكر عليه السلام قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » فدعا الناس ، وأعاد عليهم أصول الإسلام ، ثم سألهم : هل بلغت ؟ فدوى صوتهم : اللهم إنك بلغت ، اللهم إنك بلغت .

* * *

ما علم أمر الله أن أتى يدعوه إلى ربه ، فتهلل فرحا ، وأشرق وجهه ، ولعله تذكر مجاهدته في سبيل الله والأذية التي أصابته ، ثم تذكر قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك »

ولعل أكثر ما أشرق له وجهه ، بعد فرحه بلقاء ربه تذكره ، وروحه تفارق جسده ، قول بارئه . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

دمشق يوسف العشي

الديمقراطية الروسـية

[تكلمنا في المقال الذي نشر في العدد ٣٢٠ من الحجج التي تبرهن على أن الحرية كما نفهمها ليست من ضروريات الديمقراطية وأن وجود هدف سام مشترك بين جميع أفراد الأمة فيه ضمان لأن تكون نتيجة الانتخابات الديمقراطية فوز الأكفاء الصالحين . وفي هذا المقال نشير إلى بعض التغيرات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي في السنوات الأخيرة والتي قد تبدو للمتطرفين انقلابا على مبادئه ورجوعا إلى الوراء . وليذكر القراء الكرام أننا ننقل هنا من مقال بانتسلوند الذي نشر في مجلة العصر الحديث الانجليزية ..]

ظل التعليم من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٤٤ مشتركا للبنين والبنات في مدارس واحدة في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي . أما الآن فيفرق بين تعليم البنين وتعليم البنات الذين هم دون الثامنة عشرة من العمر وبين مدارس كل منهما . فما الحكمة في هذا التغيير ؟ كان من أهداف التعليم المشترك تحقيق المساواة التامة بين النساء والرجال . وما كان ليتسنى لروسيا التحرر من جميع القيود القديمة التي تحد من نشاط النساء في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية إلا من طريق جعل التعليم مشتركا بين الرجال والنساء لفترة طويلة من الزمن .

على أن مجرد قيام نظام عام للتعليم المشترك بين الجنسين قد مكننا لأول مرة في التاريخ أن نقدر قيمة تطبيق نظام كهذا على نطاق واسع شامل على الصورة التي حدثت في روسيا .

ولقد كنت أتحدث مع إحدى ناظرات المدارس الثانوية في كييف عام ١٩٣٦ فبدت منها ملاحظة بشأن التعليم المشترك ، وهي أن هناك مسألة عويصة لا تزال تتطلب الحل ، ألا وهي أن البنين والبنات ينموان في مختلف الأعمار بسرعة مختلفة . ونتيجة هـذا أن البنات يسبقن البنين في نموهم في خلال المرحلة المبكرة ، ثم يقف نموهن إلى حد ما ويزداد نمو البنين بسرعة كبيرة ؛ فهذه المشكلة إذاً كانت تدور حولها المناقشات فيما بين المعلمين السوفيت منذ سنة ١٩٣٦ . ولقد كانت هذه الحقيقة التي قررتها تلك السيدة أحد السببين الرئيسيين في إحداث هذا التغيير الذي تضمنه القرار الذي صدر بإلغاء التعليم المشترك .

وأما السبب الثاني لإلغاء التعليم المشترك فيرجع إلى اختلاف الوظائف الطبيعية للرجال والنساء ، ذلك الاختلاف الذي لا مناص من بقائه حتى ولو توافرت خير الظروف الاجتماعية وأنسبها للمساواة الجنسية ، ويقصد من ذلك بطبيعة الحال أن النساء هن اللائي خصصتهن الطبيعة للحمل والولادة ، ومن ثم وجب أن يشمل تعليم البنات أموراً لا أهمية لها بالنسبة للبنين . فالفروق في المناهج ، التي من شأنها أن تدرس المواد الحربية للأولاد في الفترات المخصصة للمواد المنزلية بالنسبة للبنات ، مؤسسة على الاعتراف بالفروق الفسيولوجية الكائنة بين الجنسين والتي لا يصح أن يطمح أي نظام اجتماعي إلى استئصالها » ..

أما القانون السوفيتي الجديد الخاص بالأسرة والذي يتضمن التعديل الكبير الثالث في قانون الزواج منذ سنة ١٩١٧ فهو بلا شك نتيجة لمعظم الخسائر الفادحة في الرجال التي مني بها الاتحاد السوفيتي في خلال هـذه الحرب . ولما كانت المساواة الجنسية لا تزال المبدأ الأساسي في المجتمع السوفيتي لم يكن هناك مناص من أن يتخذ لتشجيع العائلات الكبيرة صورة إيجابية هي تشجيع النساء على أن يحملن أطفالا بدلا من أن يتخذ الصورة السلبية التي تقيد بأي وجه من الوجوه حق الأم في أن تلعب إلى شاءت دورها في حياة الأمة كمنتجة وكأجيرة .

ولهـذا السبب لا يتناول هذا القانون الجديد بأي وجه من الوجوه تعديل حقوق المرأة المتصلة بحياة الأمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وإنما يرفع القانون المنزلة الاجتماعية للأم إلى الذروة . وقد منحت الأمومة سلسلة من التشجيعات لم يكن لها وجود من قبل ، وذلك من طريق زيادة المرتبات العائلية وتكريم الأمومة تكريما لم يكن ليظفر به من قبل سوى القائمين بالأعمال الجليلة أو البطولة الحربية ، وإجراء مرتبات حكومية لتربية أطفال الأمهات غير المتزوجات . ويلاحظ أن الدولة السوفيتية تؤثر الأم غير المتزوجة على العزبة . وتتمتع الأم غير المتزوجة بكامل الحقوق الاجتماعية التي للنساء السوفيت

الأخريات بما فى ذلك مرتبات العائلات الكبيرة وامتيازاتها ، وذلك علاوة على كفالة الدولة لأطفال تلك الأم ، سواء اختارت أن يكونوا فى رعايتها الشخصية أو أن يربوا فى المؤسسات المخصصة لهذا الغرض .

ومع ذلك فان القانون الجديد يشجع ويؤيد بقوة قيام الزواج الدائم من زوجة واحدة ، فهيذا يعتبر الأساس الطبيعى لوحدة الأسرة . ولا شك فى أن هذه الفكرة قد كانت فى الغالب نتيجة لدعاية واسعة ملحة قام بها رجال التربية يدعون إلى ضرورة جعل الأسرة الطبيعية أساساً للمجتمع كلما أمكن ذلك .

ولم يكن ينظر للقوانين فى أى وقت من الأوقات فى الدولة السوفيتية على أنها من صنع الانسان ، ولذلك لا يعثر هناك على من يدعى أن القانون الذى يكون مناسبا فى سنة من السنوات سيكون كذلك ملائما للظروف التى ستقوم بعد عشر سنوات .

ويمكن تلخيص المبادئ الأساسية التى يقوم عليها المجتمع السوفيتى ويتضمنها الدستور فيما يلى :

١ — ينتخب جميع من يتبوءون المراكز ذات النفوذ والسلطان انتخابا مباشراً باقتراع سرى يشترك فيه جميع المواطنين الذين فى سن الثامنة عشرة وما فوقها ، ولهؤلاء جميعا أن يرشحوا أنفسهم للانتخابات ، لكن المرشحين يجب أن تزكيهم هيئة أو أكثر من الهيئات الشعبية التى لا تقتصر على الحزب الاشتراكى وانما تشمل اتحادات العمال وجمعيات التعاون والهيئات التى تمثل التنظيمات الثقافية وجماعات الشبان وما إلى ذلك .

٢ — جميع وسائل الإنتاج فى الدولة ممتلكات عامة ، وهى الأراضى والمنابع الطبيعية ووسائل النقل والبنوك والصناعات وغيرها ، ومع ذلك فيصح للأفراد إن شاءوا أن يعملوا بأنفسهم لحسابهم فى الحرف أو فى الزراعة ما داموا لا يستخدمون عمالا من الخارج .

٣ — جميع الحياة الاقتصادية للدولة منظمة كما قدمنا طبقاً لخطة موضوعة .

٤ — حق العمل مكفول ومضمون لجميع المواطنين ، وقد كانت آخر مرة عرفت فيها البطالة فى روسيا سنة ١٩٣١ ثم تلاشت إلى غير رجعة منذ بدأت خطة الخمس السنوات الأولى فى التنفيذ وسارت مجالها وانتظم دولاب العمل فيها وصارت المشكلة مشكلة إيجاد العدد الكافى ممن يعملون بأيديهم وبعقولهم للقيام بجميع الأعمال التى انعقد الإجماع على ضرورتها لضمان مصلحة الشعب كله وسعادته .

٥ — حق الاستمتاع بالاجازات التى توفر للمواطنين فراغا معقولا مضمون للجميع أيضاً ، وقد كانت ساعات العمل فى الأيام العادية المتوسطة قد أنقصت وقت السلم إلى ما دون السبعة ، وكان كل عامل وعاملة يمنح ما لا يقل عن أسبوعين على سبيل الاجازة السنوية بأجر كامل . أما الذين يشتغلون بأعمال خطرة فإن مدة إجازتهم تزاد إلى شهر ، على أن القوانين الخاصة بساعات العمل والاجازات قد أوقفت كلها بطبيعة الحال فى خلال هذا الصراع الحالى .

٦ — أما التأمين ضد المرض والعجز فمضمون من طريق خدمة صحية منظمة مجانية لا تكلف الفرد أى شىء بتاتا ، تقوم بها العيادات والمستشفيات . وجميع المعاشات التى تجرى على كبار السن والمرتبات التى تدفع للمرضى كلها تقدر وفقاً لسكادر سخى يفضل أى كادر مشابه له فى الوقت الحاضر فى جميع أنحاء الأمبراطورية البريطانية ، مع احتمال استثناء نيوزيلاندا وحدها .

٧ — والمساواة الجنسية مضمونة بحكم القانون كما سبق أن أسلفنا . أما المساواة بين مختلف القوميات التى تؤلف الدولة السوفيتية فيكفلها القانون ويؤيدها إلى حد يجعل أى نوع من التمييز القومى أو الجنسى معتبرا مخالفة جنائية . ومن الملاحظات الممتعة أن هذا القانون وحده يحول بقوته وصرامته دون قيام أى صورة من الصور الفاشية فى الدولة السوفيتية .

وإلى هذه المساواة الدقيقة يرجع الفضل فى عدم قيام منازعات وطنية ، وهى والمساواة التامة بين الافراد وعدم وجود أية منازعات من التى تقوم عادة بين الطبقات ، إلى هذين المبدين وإلى تلك الوحدة المزدوجة بين مختلف الأفراد ومختلف القوميات ، إلى هذه كلها يرجع الفضل فيما قامت به روسيا السوفيتية فى خلال هذه الحرب من أعمال مجيدة مدهشة ، على الرغم مما كان يعتورها فى مبدأ الأمر من نقص خطير فى

بعض النواحي الاقتصادية والصناعية إذا قورنت بألمانيا .

٨ — كذلك التعليم مكفول لجميع المواطنين ، ومع ذلك فمنذ قيام الحرب قد فرضت مصروفات مدرسية اسمية (لاتتجاوز ١٠٪ من النفقات الفعلية) في التعليم الثانوي والتعليم العالي على جميع الذين لايصل مستواهم إلى حد معين مقرر ، وقد أدخل هذا التعديل في وقت كانت فيه الحاجة ماسة إلى عدد كبير من الرجال لتوسيع نطاق الصناعة ونموها بسرعة ، بينما كان التجنيد العسكري يقلل عدد العمال الذكور الذين يمكن الانتفاع بهم في هذا الغرض . لكن تلك المصاريف لم تفرض في المدارس الفنية والصناعية ، فكان ذلك بمثابة تشجيع مباشر للطلاب على أن يصلوا إلى مستويات عالية في شغلهم بالمدارس الثانوية وبالجامعة ، أو يضطروا إلى الاختيار بين دفع تلك النفقات الاضافية وبين الانتقال إلى مصانع أو مدارس صناعية

وكثيرا مايتساءل الناس فيما بينهم : إذا كانت روسيا متحدة إلى هذا الحد فما الذي سبب إذاً اضطرار الحكومة في بعض الاحيان (كما حدث في عامي ١٩٣٦ — ١٩٣٧) إلى إجراء حركات تطهير في دولاب الحكومة وفي الحياة السياسية للبلاد بوجه عام ؟ .

والجواب على ذلك أن المتبرمين بالحالة القائمة لابد من وجودهم في كل وقت وفي كل مملكة ، لاسيما بين الذين ذاقوا طعم السلطان وأدركوا أن يومهم قد ولى ولم يعد في استطاعتهم الظفر بتعضيد الجمهور . فالفاشيون في اسبانيا مثلا حين أفل نجمهم لجأوا إلى العصيان المسلح وساعدهم عليه هتلر وموسوليني ، وحدث مثل ذلك في كثير من البلدان التي احتلها النازيون ، وسلك هؤلاء المتبرمون مسلك كوزلنج

أما روسيا السوفيتية فإنه وإن لم يكن فيها ملاك أو أصحاب بنوك أو رجال أعمال فقد كان فيها عام ١٩٣٠ سياسيون يتطلعون إلى مستقبل سعيد ، ولكنهم ألفوا سلطانهم ونفوذهم يتدهور ويئسوا من أن يستعيدوا ثقة الشعب بهم ، فلم يكن من الصعب على هؤلاء اذاً أن يحذوا حذو فرنكو ويتحالفوا مع غيرهم ممن يؤملون في قلب نظام الحكم لأي سبب من الأسباب وقد أثبتت المحاكمات الروسية للعالم كله أن الدولة السوفيتية قد كشفت النقاب عن تلك الأساليب ، ولو أن أمثال تلك الحركات لاقت من الاجراءات الحاسمة مثل مالاقت شبيهاتها في روسيا لتغير مصير أوربا عما هو عليه الآن .

وفي ختام هذا المقال نشير إلى قوة الرأي العام في روسيا وإيمان القادة به وتقديرهم له واعتدادهم بقوته ، فهم لا يفتأون هناك يعقدون المؤتمرات تلو المؤتمرات ليبحثوا الآراء ويمحصوا السياسات قبل أن يرسموها بصفة نهائية . وتشجع الأفراد والهيئات على التعبير عن رأيها فيها بكل صراحة . ولم يعرف إلى يومنا هذا في العالم أن قائداً ديمقراطيا أبدى إيمانه وثقته في المواطن العادي بقوة وحرارة كما فعل ستالين . واليك حديثا له بين فيه كيف أن الفرد العادي قد يكون على حق بينما تخطىء جماعات كاملة من القواد . واتخذ لذلك مثالا سيدة من كييف تدعى نيكولنكو

« من هي نيكولنكو ؟ هي عضو عادي في الحزب (شخصية تافهة) ظلت عاما كاملا تنبه إلى موقف خاطىء في نظرها ، يتصل بتصرفات فرع الحزب بكييف ، وتندد بالأغلاط التي ارتكبها والأضرار التي نجمت عن هذه الأخطاء ، وتلك التصرفات . لكن الجميع وضعوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنها وتجنبوها كما لو كانت بلاءً محيقا . ولما ضاقوا بها ذرعا فصلوها من الحزب ليتخلصوا منها ، فحاولت أن تنتصف لنفسها فلم يسمعها فرع كييف ولا لجنة الحزب في أوكرانيا ، ولم يكشف عن حقيقة الأمر إلا تدخل اللجنة الرئيسية للحزب ، فهي التي ساعدت على حل العقدة الملتوية . فماذا كانت نتيجة فحصها لهذه القضية ؟ إنها كشفت الستار عن أن نيكولنكو كانت على حق وأن فرع كييف كان مخطئا . ويتجلى من هذا بوضوح كيف أن الفرد البسيط العادي قد يكون في بعض الأحيان أدنى بكثير إلى الصواب من بعض الهيئات الشامخة بأنفها » .

احمد عبد السلام الكرداني

من وحي التاريخ :

الصلات بين مصر وتونس

ليس أدل على إخاء الشقيقتين « مصر » و « تونس » — إخاءً وثّقه الماضي البعيد — من أن تكون « مصر » مهداً للحضارة الباقية شواهدها على الزمن تراثاً يدفع من شرق البحر الأبيض إلى الدنيا ثروة متجددة من الكمال الثالى . وأن تكون إلى جانبها « تونس » مظهراً يمثل العالم فيه صورة يشهد فيها على الجانب الغربي من هذا البحر أكمل مثل للتمدين القرطاجني العجيب

وإذا كانت مصر ومعها تونس قد أورثتا هذا العالم أحفل ما ينطوي عليه سجل الحضارات من ضروب التمدين وعوامل التوجيه النافع ، فذلك لأنهما قد أتيح لهما أن تعيشا على كتفى البحر وعلى رأس الصحراء ، وكأنهما صدرتا عن بيت واحد له المزاج الذي لا يستطيعه إلا من كان من أهل الدار .

وما أحسبني أجافي منطق التاريخ إذا أنا انتهيت إلى القول بأن الحضارة المصرية في فجرها الأول قد سجلت الحقيقة التي يعرفها كل تونسي ، وهي أن البلاد التونسية عُرِفَت أول ما عُرِفت من المصريين ، وأن هذه المعرفة لم تكن وليدة المصادفة وإنما كانت وليدة الإخاء . فإننا حين نلتمس النقوش المصرية نراها لم تخل من صور إفريقية متى وضعناها إلى جانب الأسانيد المعبرة عنها ألفينا حيالنا أول رسالة مكتوبة من « البربر » وهم الذين كان يعرفهم الفراعنة باسم « الليبو » وما البربر إلا أولئك الذين يتألف منهم أصل الأهل الأفريقيين .

ومن الظواهر التي تؤكد اتحاد الشعبين وتلاقيهما على مزاج واحد ، أن الفنيقيين حين ابتنوا مدينتهم « قرطاجنة » عمدوا في تشييدها إلى الأخذ بأسلوب المصريين في فن البناء والنقوش والرسوم . ولقد كشفت الحفريات عن هذا التقليد الذي يثبت لنا قدم الصلات بين الشعبين .

فإذا انتقلنا من عهد مصر الفرعونية إلى عهد مصر الإسلامية العربية ، رأينا القطر التونسي تنتهي إليه أضواء الإسلام وافدة عليه من طريق شقيقته مصر ، وكأنها تسري إليه بسرعة البرق . فلم يكد الفتح الإسلامي يدفع إلى العرب في الصدر الأول من كنانة الله في أرضه ثروة يعتز بها الإسلام ، حتى أخذ الفاتحون يضمون الشقيقات اللواتي يتصلن بمصر اتصال فكر ورأي وعمل . وكانت تونس في طليعة الشقيقات ، فلم يستشعر العرب الفاتحون في إلباسها ثوب الإسلام شيئاً من الوصب ، ولم يتعرضوا لمكابدة جهود شاقة . ذلك بأنهم وفدوا قواداً وجنوداً من مصر إلى تونس ، ولقد تعود التونسيون اقتفاء أثر إخوانهم القائمين على ضفاف النيل ، فأنتجت العادة — ومعها مشيئة الله — لهم هداية وتوفيقاً .

واستروحت البلاد الإفريقية مع أنفاس الإسلام أنفاس إخاء مصري جديد ؛ ففي سائر القرن الأول للهجرة كانت تونس — في غير غضاضة عليها — تابعة للفسطاط ، يقيم عليها أمير مصر الولاة والعمال ، ويزودها بالمال والجند .

ولقد عمد العرب — بعد أن طاب لهم المقام في تونس — إلى التأثر بإخوانهم الذين أنشأوا على النيل مدينة الفسطاط ، فشيدوا — هم الآخرون — مدينة « القيروان » التي أصبحت مبعث خير للإسلام ، ومنبع قوة لنشر الفصحى ، ومنبتاً لعدد جم من الأعلام الذين تفتخر بهم العروبة مدى الزمان .

وبعد أن انقضى القرن الأول للهجرة ، واستقام الأمر للعرب الفاتحين ، نحلت أذواق جديدة تتصل بالعلم الذي كان مهوى الفؤاد في ذلك العهد ، أعني به فهم القرآن

وطلب الحديث ، لأن حاجة الذين اعتنقوا الإسلام إليهما حاجة يلوح لى أن الإسهاب فى تصويرها فضول ولغو . فأى الناهل يرد التونسيون وأبناؤهم ؟ إنهم كانوا يرون فى المدينة المنورة « دار الحديث » ويشهدون فى العراق « دار القياس » ويعرفون فى مصر مقر المحدثين والفقهاء . فلا غرو أن يرتحلوا أفواجاً أفواجاً إلى تلك المواطن ، ليعودوا إلى ديارهم هداة مرشدين . ولقد ارتحل منهم كفاة أعلام « كأسد بن الفرات » و « سحنون » ؛ فكان الفسطاط هو المقر الذى انتهت إليه كثرتهم . لأن مصر كانت محشودة بالعلماء المجتهدين ، مثل الراوية الجليل « الليث بن سعد » ، وكبير تلاميذ « مالك بن أنس » ، أعنى « عبد الرحمن بن القاسم » و « محمد بن عبد الحكم » و « عبد الله بن وهب » .

وقد كان « الليث بن سعد » أستاذاً لمواطننا « ابراهيم بن الأغلب التميمى » الذى صدر من تونس إلى مصر قاصداً الدرس ، ثم عاد إلى بلاده وتحت جناحه جارية جميلة اسمها « جلاجل » أهداها إليه أستاذه الليث حين توديعه ، فكانت أمًّا لأبناء ابراهيم بن الأغلب جميعا ، ولم يكن واحداً من العامة ، فقد انتهت إليه مقاليد الحكم أميراً على إفريقية فى عهد الرشيد ، يحكمها ولا يحد استقلاله بها إلا تلك التقاليد التى كانت تمنح مقر الخلافة ظلا من السيادة . فكان إبراهيم أول مؤسس لدولة تونسية عربية هى دولة الأغالبة ، سنة ١٨٤ . ولما فكر أمراء بنى الأغلب آخر عهدهم بالحكم فى أن ينشئوا « دار حكمة » فى القيروان ، كان أول ما عنوا به أنهم زودوها بكفاة من البغداديين والمصريين فى علوم الطب وفنون الحساب والتنجيم .

وما يقال فى روعة الإخاء المصرى التونسى فى عهد بنى الأغلب ، يقال أكثر منه على التحقيق فى العهد الفاطمى . فإن « عبيد الله المهدى » مؤسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ شيد فى إفريقية مدينة « المهدية » ليجعل من الدولة والمدينة تراثا لحفدته الذين استطاع واحد منهم أن يسجل لنا جديداً من الخطوات القريبة بين تونس وضفاف النيل . فمن مدينة المهدية تحرك الأسطول الإفريقى ومعه الجيش الإفريقى ، وعقد لواؤهما لجوهر الصقلى ، فاتجه بهما إلى مصر ففتحها للفاطميين ، وأحكم بهذا الفتح وشائج المقايضة والتبادل . وإذا كان المعز لدين الله — بفضل قناطير الذهب التى حملها معه من تونس — قد جعل القاهرة شيئاً جديداً على ضفاف النيل ، فإن تونس قد ظفرت من ذلك بكسب عظيم ؛ إذ نقل المعز إلى عاصمة المصريين كثيراً من معالم أختها المهدية التونسية ، « فباب زويلة » هو اسم للمهدية القديم ، وهو الآن علم على حىّ من أحيائها ، و « باب الفتوح » هو الباب الوحيد لمدخل المهدية ، و « باب كتامة » حفظ الفاطميون به لقب القبيلة البربرية التى آزرتهم فى الفتح . وكذلك « الروضة » و « الجزيرة » فإنهما من أعلام المهدية الباقيات . وإذا جاز لى أن أذكر الأموال التونسية التى شيد بها المعزّ جامع « الأزهر » فى رابع رمضان سنة ٣٦١ ، فإنه لا يجوز لى أن أغفل ما زود به التونسيون — وما زالوا يزودون به — فى الأزهر من معارف تهون إلى جانبها ثروة الدنيا جمعاء . ولقد شاء بعد ذلك ملوك تونس من « بنى حفص » و « بنى مراد » و « حسينيين » أن يعبروا عن إجلالهم للأزهر تعبيراً ماديا ، فحبسوا عليه الأوقاف الكبيرة ، وزودوا مكتبته بنوادر الكتب ونفائس المخطوطات . على أن ذلك كله لم يذهب عبثاً ، فقد خلّد غيرُ قليل من علماء مصر أسماء أمراء تونس تخليداً ، فقد حفظ العلامة « الزركشى » فى كتابه « أخبار الدولتين : الموحدية والحفصية » صحائف من تاريخ تلك الرحلة ، وأثبت خلالها القصائد والمقالات التى دبجتها يراعات « بدر الدين

السماميني » و « عبد الرحمن السخاوى » و « مرتضى الزبيدى » و « إبراهيم اللقانى » ، وغيرهم كثير .

وليس أدل على ترابط الوشائج بين مصر وتونس من هذه السفارات التى كانت صلات تعارف بين جلّة من وجوه القطرين . ولقد بقى لنا من أنباء هذه السفارات حشد كبير يباعد بينى وبين قصه ضيق المقام . وحسبى ما أذكره من أمر شاعرنا القديم « إبرهيم الرقيق القيروانى » فقد اختلف إلى مصر ، وأثارت مشاهدها فى نفسه عواطف الحب والإخاء ، فنظم الشعر الطلىّ يصور فيه مصر تصوير من ملأ الحنين قلبه . ومنه قوله :

هل الريح إن سارت مشرقة تسرى
تؤدّى تحياتى إلى ســـاكنى مصر
فما خطرت إلا بكيت صبـــابة
وحملتها ماضاق عن حمـــله صدرى
ترانى إذا هبت قبـــولا بنشرهم
شممت نسيم المسك فى ذلك النشر
ليالى أنســـناها على غرة الصبا
فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر
لعمرى لئن كانت قصـــاراً أعدها
فلست بمعتد ســـواها من العمر

ولقد حفظ لنا التاريخ من أنباء هذا الشاعر ما يدل على مكانته من البلاط القيروانى والبلاط المصرىّ معاً ، فقد حمل معه إلى « الحاكم بأمر الله » سنة ٤٠٥ هـ هدايا الأمير باديس الصنهاجى أمير إفريقية ، ومعها هدايا أخرى زودته بها « أم ملال » والدة الأمير ليقدمها إلى أخت الحاكم « ست الملك » وكانت تلك الهدايا من النفاسة بمكان . فلما عاد الشاعر إلى وطنه حمل معه فيما حمل من مصر كتاباً رقيقاً من « ست الملك » إلى « أم باديس » فيه توكيد للأواصر التى تربط السيدتين ، وتشمل الشعبين .

وهل ننسى نزوح مؤرخ الإسلام الأكبر « عبد الرحمن ابن خلدون » من تونس إلى مصر ، وما لاقاه من الإكبار والحفاوة ، حتى أسندت إليه وظيفة من أخطر الوظائف وأعلاها ، وكذلك لقى قبله فى مصر التكريم والحفاوة عالم تونس « محمد بن عزم » . ولقى مثل ذلك فى العصر القريب العلامة الشيخ « محمد بيرم الخامس » رحمه الله . وما يقال فى التونسيين النازحين إلى مصر يقال فى المصريين الوافدين على تونس ، وما خبر الشيخ « حمزة فتح الله » — أول مصحح للمطبعة التونسية الرسمية — ببعيد ، وسواه كثير ..

والحق أن التاريخ الدقىّ والأدبىّ والعلمىّ محشود بما يوضح الإخاء بين القطرين ، ويؤكد التعاون بين الشعبين . والله المسئول أن يديم عليهما بركات المحبة الخالصة والود السرمدىّ فى ظل العروبة المقدسة .

حسن حسنى عبد الوهاب الصمادحى

نزهـــــة ثقافية

قد تكون ذكرى النزهة الثقافية التي أشرت إليها في عنوان هذا المقال أبلغ ذكرى رسخت في خاطري وأنا في القاهرة، فقد تفضل صاحب المعالي السنهوري بك وزير المعارف بدعوة رجال اللجنة الثقافية وطائفة من أفاضل مصر وفلسطين والشام إلى القناطر الخيرية في خلال هذا الشهر. لست أحاول في هذا المقال وصف نزهة كلها شعر، فالنيل في عظمته والسهول المنبسطة من حوله في محاسنها، وهندسة العقل البشري في توزيع الماء على ريف مصر شعر من أبلغ الشعر، إلا أني أتخطى الكلام على الشعر في هذه السطور، وأنسى هذا النشاط الذي ملأ جوانب نفسي وأنا على النيل، وهذه الموسيقى التي أدخلت السرور على قلبي، وهذه النوادر التي خرجت من أفواه الجماعة، وأحبس خاطري على أمر واحد وهو تقارب أذواق الحضور وشعورهم على تباعد أوطانهم وتباين طبائع هذه الأوطان.

لم يخطر ببالي من أدبنا العربي وأنا على ظهر الباخرة إلا عبارة واحدة صدرت عن إمام من أئمة هذا الأدب، فقد قال أبو منصور الثعالبي في كلامه على الصاحب بن عباد: ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب، فكأن الثعالبي في قوله هذا يشكو ضيق اللغة ويضجر من عجزها عن تصوير بعض ما في نفسه، وهو المحيط بخصائص اللغة والواقف على مجاريها ومصارفها والمتبحر في جلائلها ودقائقها. أصحيح أن اللغة ضاقت عن تصوير أمر بسيط في نفس الثعالبي؟ قد يكون في هذه الشكوى شيء من المجاز، فالثعالبي لا يعجز عن الإفصاح عن علو محل الصاحب في العلم والأدب، وقد تمكن من الإفصاح عن علو محل شعراء أمثال المتنبي وأبي فراس. على أن المرء قد يعجز في بعض الأحوال عن تصوير شعوره وعاطفته، واللغة قد تخون في بعض الأوقات مذاهبها في القدرة على هذا التصوير، ولكن موضوعي لا صلة له بضيق اللغة وسعتها، وإنما وقفت في خلدي عبارة الثعالبي من باب المقارنة لا غير.

لست أدري كيف تضيق اللغة عن وصف أدب أديب مهما تبلغ طبقته وقد استطاعت أن تجمع بين أذواق وعواطف، أصحابها من أوطان متباعدة ذات طبائع متباينة، أتضيق اللغة عن الإحاطة ببعض دقائق أدبية وقد استطاعت أن تؤلف بين جماعات نشأوا في السهول والجبال والصحارى والأودية وعلى البحار؟ كلا ثم كلا، لم تضق اللغة عن هذا كله، فقد كنا على الباخرة من مصر وفلسطين ولبنان والشام والعراق، وطبيعة مصر غير طبيعة العراق، وطبيعة العراق غير طبيعة مصر، وعلى الرغم من هذه الطبائع المتفاوتة كانت الجماعة على الباخرة كأنهم من بلد واحد، فقد تآلفت أذواقهم وعواطفهم وشعورهم، فكان رجل فلسطين يقذف بالفكاهة فيضحك لها رجال العراق والشام ولبنان ومصر، وكان رجل مصر يدفع بالنادرة فيهتز لها أبناء هذه البلاد كلهم. واللغة هي التي تؤلف بين سكان صحارى وجبال وأودية وبحار مقسمة الأقطار متبسطة الآفاق. ولكن مالي والسعة اللغة أو ضيقها في هذا المقام، فكل ما قيد ذهني في نزهتنا الثقافية أن اللغة هي التي تجمع بين الطبائع المتفاوتة، وأن للألفاظ في هذا الجمع سحراً أراني صادقاً إذا قلت ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عنه، وليست اللغة هي التي تعجز عن التقريب بيننا وإنما نحن العاجزون.

لقد تعودت وأنا في القاهرة أن أتردد إلى مقهى على ميدان الأوبرا، وكان يتردد إلى هذا المقهى فريق من طلاب العراق وجماعة من فلسطين، وقوم من مصر فكان العراقيون في حلقة لا يخالطون غيرهم، كنت أسم

في الوحدة

تعجّب هذا الناس أنْ لست أنعمُ
على وَحْدتي فيهم ، وأنْ لستُ أسأمُ

ولا وَحْدةٌ ، إني أعيش وزوجتي
وإنْ نالها أمرٌ من الموت مجرم

أعيش وزوجي خاليَيْن ، ألم يكن
هواها بأن نخلو معاً نتكلم

أما همستْ في النزع : « كنتُ سعيدةً
وكان المنى أني بقربك أهرَم »

أعيش وذكراها — وياطيب ذكرها —
أفكر فيها كلَّ حين وأنظم

أواجه آلامي ، فإما قتلنني
فإنْ أبطأتْ أبقى وعيني التألم

إذا انتظم الدمع بيت أعدّه
تجاوبه دمعٌ ونارٌ تضرَّم

لنفسيَ أرثي حين أسمع موتتي
وألقى بلائي هولَهُ يتجشّم

يضيق فضاء الله بي وهو واسعٌ
ويسودّ في عيني السنا فهو مظلم

مواكب أفراح الحياة تمرّ بي
وتجري التي يهفو لها ويُغمغم

تضج دواعيها وتبرق بالحلى
ولكنني أعمى أصمُّ محطّم

وما متعةٌ إلا تمنّيتُ مذاقها
ولا لهوَ إلا وهو عندي محرَّم

فكلّ لذيذ في لهاتيَ علقم
وكل شهيٍّ في حشاي مسمّم

وما ذاك إلا أن حبّك غالبٌ
وقدرك في نفسي أجلُّ وأقوَم

وكيف سلوّي عنك ، أنت عظيمة
وأنت بقلبي فوق ذلك أعظم

أفي حينما أرسلتُ طرفي وخاطري
يذكرنيها خاطرٌ وتوسّم

يذكرنيها العلمُ والفنُّ والهوى
ولطفُ الحواشي والشباب المنعّم

وكلٌّ جليل أو جميل وكلُّ ما
له في صميم القلب والعقل ميسم

فقد كان لي منها الزميل المكرّم
وقد كان لي فيها الحبيب المتيّم

وأذكر في ليل أطلّتْ تعيّني
إذا هي كالتشكي ويبقى مأتم

يهدّئها الأهلون — أهلي — تفضّلاً
ولكنها مجنونة القلب تلطم

بكاءٌ كما لم يبكِ إلفٌ أليفَه
وتخنقها منه النشيج المكتّم

ولما رأتني جئتُ جنّ جنونُها
وزاد ارفضاضُ الدمع والعين تسجم

وتعتبُ في رفق ، وتمسح متشكي
وتلمس أوصالي كمن يتوسم

فما أبكِ لا أُرثيك — أنت بكيتني
وأبكاكِ لا موتٌ ولكن توهّم

فأخوف ما تخشين كان مثبتي
وما كنت في عدم ولا أنا معدِم

وكم دعوة أن تسبقيني إلى الردى
وكان دعائي أنْ رداي التقدّم

فيا نفسَ حتى أن توجّل دعوتي
وأن تتردّى في التراب وأسلم

أدافع عنك الموتَ وهو مصمم
وهاأنا في آخر الأمر أهزم

شقيقة نفسي ! إن نفسي يتيمة
وثاكلة — من بعد فقديك — أيّم

النشاط الصهيونى

فى فلسطين

— ١ —

عرضت فى مقالى السابق وجهة النظر فى قضية فلسطين ، وأبنت كيف يناقض المنطق حجج الصهيونية فينقضها . .

لكن منذا الذى قال إن المنطق وحده يسوس الحياة ؟ ومنذا الذى يقول إن العالم فى عصر المدنية يرضى بقواعد الأخلاق دستوراً ينظم كفاحه ؟

إننا وحدنا فى الشرق الذين نقول ذلك . وحدنا ما زلنا نطمع فى بعث جديد للمثل العليا ومبادىء الأخلاق .

أما غيرنا فقد أصبح يؤمن بمنطق واحد هو منطق القوة . القوة فى صورها المختلفة : قوة السيف وقوة المال وقوة الحيلة . .

وعلى سنة العصر وإيمانه نهض النشاط الصهيونى فى فلسطين . فليظل الجدل فى وجهات النظر يدار على صفحات الجرائد والمجلات والكتب ويملأ الأذهان . ولتمض الصهيونية بسلاح القرن العشرين فى سبيل آخر ! أجل . ليقل أهل الكلام بالمبادىء والمثل والأخلاق . وليرد عليهم الصهيونيون بالمبادىء والمثل والأخلاق أيضا . ولا بأس أن تضعف حجج المنطق حينا وتقوى حينا آخر .

أيمكن كل ذلك الجدال الطويل العريض ستارا عاليا من الدخان ، يحجب بارجة المال الصهيونى وهى توغل فى أرض فلسطين غزوا . . .

وهذا هو منطق المال . . !

ففى خلال بضعة أعوام ، وفى الوقت الذى كانت فيه حرب الأفكار بين دعاة الوطن القومى لليهود وبين منكرى حق اليهود فى الأرض العربية . فى ذلك الوقت استطاع المال الصهيونى أن يشترى من أرض فلسطين مساحات واسعة . ولم يكن المال وحده هو ما تحمله بارجة الاستعمار الصهيونى . كان إلى جانب المال سلاح آخر لا يقل عن المال قوة وأثرا ، سلاح يستعمله دائما من لا منطق له ، ولا حجة ، ولا دليل . . .

كيف استطاع اليهود أن يملأوا هذه البارجة التى تسير تحت ستار من الدخان ذهبا ؟ كيف أمكن لهذا الذهب أن يشترى أرض الوطن من العرب ؟ كيف اشتريت هذه الأرض ؟

هذه أسئلة ثلاثة تجيب عليها الحقائق الآتية :

أما بارجة الذهب الصهيونى فليست أموالا متفرقة ، وإنما هى رؤوس أموال ضخمة جمعت — دون عقد مؤتمر واحد — لهذا السبيل ، ولعل أهم البيوت المالية التى أرصدت مالها من أجل المشروع الصهيونى بيت روتشلد المعروف وقد وظفت هذه الأموال فى ثلاث شركات تتولى كل منها ناحية من النواحى وهى :

١ — شركة كارين كايمت . اسرائيل .

واختصاصها شراء الأراضى من العرب . وهى تؤجر ما تشتريه لليهود ولا تبيعه لهم خوفا من أن يتسرب عن طريق الأفراد للعرب مرة ثانية . وما تجبيه من إيراد تأجير أراضيها تشترى به أرضا جديدة

ويحتم قانون هذه الشركة على مستأجرى أراضيها ألا يسمحوا لعربى بالعمل فى هذه الأرض . بل تنص فى عقود

فلا تُدمى ذكراكِ تبرح خاطرى
أو ادَّعى عوفى ، فهو بعدكِ مغرم
ساحيا كئيبا لم يُثِبْ بالحد.ه
يُطَفِّىء لبلٌ من الهمّ أبهم
وأضرب فى صحراى من غير غاية
إلى أن يوافينى القضاء المحتم

عبد الرحمن صدقى

الإيجار على فسخ التعاقد إذا خالف المستأجر اليهودي هذا الشرط وسمح لعربي بأن يطأ الأرض المشتراة من العرب !

٢ — شركة تحسين الأراضي .

ولا يدخل اسم هذه الشركة في غاياتها وأغراضها ، فهي لاتقوم بإصلاح الأراضي وتمهيدها كما يبدو من الاسم، وإنما تنحصر أغراضها في تهيئة الصفقات للشركات الأخرى . وتدخل في نطاق التهيئة المساومة والاغراء والدخول في المزايدات التي تطرح فيها أراض عربية .

ولا يجوز للأفراد أن يزيدوا على الأسعار التي تعرضها هذه الشركة . .

ويرأس هذه الشركة « خانكين » الزعيم اليهودي الكبير ، وهو رجل مثالي كرس حياته لاستخلاص الأرض من العرب بأي سبيل ، في سن الثمانين ، يعيش عيشة بسيطة ، لا يأخذ مرتبا عن عمله إلا ما يكفيه لحياته البسيطة ، ويعيش في شقة متواضعة في أحد شوارع تل أبيب . . .

ومجال نشاط هذه الشركة غير محدود . . ولها مطلق الحرية في الشراء لحساب الشركتين اللتين تقومان إلى جانبها . .

٣ — شركة البكا (Pyca)

Palestine Yeddish Colinisation Association

أي الشركة اليهودية لاستعمار أراضي فلسطين . .

ومهمة هذه الشركة أن تتملك الأراضي ومن ثم تقدمها للمؤسسات اليهودية بأثمان بخسة قد تقل عن ثمن الشراء .

وقد تأسست هذه الشركة بأموال بارون روتشلد أول من ساعد على إنشاء مستعمرات يهودية مستقلة بإقطاع الأراضي للجماعات دون الأفراد . . .

هذه هي الشركات التي تباشر شراء الأراضي من العرب وتثبت أقدام الاستعمار اليهودي في فلسطين رغم أنف المنطق ورغم أنف المبادىء . .

أما كيف تشترى الأراضي ؟ أو على الأصح كيف أمكن لليهود شراء مساحات واسعة من الأراضي إذا كان العرب حريصين على وطنهم . فذلك سؤال يحتاج الجواب عليه إلى شيء من الصراحة .

فأولا — لم يكن العرب من أهل فلسطين هم الذين باعوا غالبية الأراضي لليهود ، وإنما كانت هذه الأراضي مملوكة لغير الفلسطينيين ، وعندما نشطت حملة الشراء تطوع فريق من سماسرة السوء — لغير وجه الله طبعا — في تذليل العقبات أمام ملاك هذه الأراضي الأغراب الذين لم يفطنوا إلى الخطة الصهيونية المرسومة .

وثانيا — أن الخلق التجاري الذي أشارت إليه الكتب السماوية حين نهت عن بخس الأشياء أثمانها وحين أنذرت المطففين . هذا الخلق لم يكن مع الأسف الشديد ، هو الذي يسود صفقات الأراضي . فتمكن المال الصهيوني أن يشتري بأبخس الأثمان أجود الأراضي في فلسطين ، فقد بيعت مثلا أراضي وادي الحوارث بسعر يتراوح بين ثمانية جنيهات واثنى عشر جنيها للفدان الواحد ، وهي أرض زراعية لا تحتاج لإصلاح . ولقد يحسن أن نتجنب الحديث عن صفقات الأراضي التي اشتراها اليهود في فلسطين بأسعار بخسة ، والتي بلغ من تفاهة أثمانها أحيانا أن خانكين رئيس شركة تحسين الأراضي التي أشرنا إليها قال وهو يدفع ثمن إحدى هذه الصفقات : « إنني لا أدفع ثمن أرض بني إسرائيل ، وإنما أدفع أجر حراستها لنا طوال القرون الماضية » .

ولست بسبيل مناقشة حق اليهود في فلسطين ، وإنما يكفي أن يدرك القارىء مدى تفاهة الثمن من ذلك التبرير العجيب الذي يسوقه الزعيم الصهيوني . . .

صموع زهني

سيد وسيد آخر

(كتب الكاتب «برتنا كس» مقالا فى بعض صحف أمريكا زعم فيه أن لفرنسا حقا فى مركز خاص فى سوريا ولبنان لأنها الأرض التى غزاها «جودفرى دى بويون» (هكذا!).

أما السيد الأول فهو الأمير (جودفرى دى بويون).

ولفظ السيد كما هو معروف يطلق عادة على الرجل الذى يخضع له الرجال طوعا أو كرهاً، وكانت العصور الوسطى بغير شك تمتاز بطائفة من الرجال لهم من الشجاعة وشرف النسب ووفرة المال ما يجعلهم سادة يخضع لهم الرجال.

وكان (جودفرى دى بويون) من أماثل هؤلاء السادة بغير نزاع. كان يحكم إقليم (لوثارنجيا) ويسميه الفرنجة اليوم اقليم اللورين.

وكان ذلك الاقليم عند ذلك جرمانياً يسكنه الجرمان ويخضع حاكمه لأمبراطور الجرمان، يدين له بالولاء على النظام الاقطاعى المتبع عند ذلك.

وكان ذلك الامبراطور يحكم الدولة الرومانية المقدسة كلها وتنطوى تحت علمه أكثر أقطار أوربا.

وكان السيد (جودفرى) يعيش فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، أى منذ ثمانية قرون ونصف، أو بقول آخر، كان يعيش فى منتصف المسافة الزمنية التى تفصل بين عصرنا هـذا وبين ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام. فما أقوى ذاكرة من يذكرون السيد (جودفرى) فى هذا العصر البعيد!.

وأما السيد الآخر فهو (برتنا كس) وهو رجل من آحاد الناس مثلى ومثل القارىء، وقد كتب مقالا منذ حين فى بعض صحف أمريكا يطالب فيه أن تكون فرنسا صاحبة مكانة ممتازة فى سوريا ولبنان، بحجة أن السيد (جودفرى) كان فرنسياً وكان له الفضل فى فتح بيت المقدس منذ قرون.

ولسنا نظن أن السيد برتنا كس من سادة القرون الوسطى، أو أنه يتحمس لإخوانه سادة تلك العصور لمجرد التعصب. ومهما يكن من الأمر فأمريكا لا تعترف بالعصور الوسطى ولا بسادتها، لأنها دولة حديثة فيها أمة شابة لم تعاشر فى يوم من الأيام سادة عهد الإقطاع. فالسيد برتنا كس إذ يكتب فى صحف أمريكا إنما يتغنى بأغنية (ناشزة) لا تنسجم مع نفسية الأمريكيين، ولعله رجل فرنسى من نسل السادة القدماء، فهذا يفسر حماسته لأمراء القرون الوسطى، لأن فرنسا من أعرق أمم الأرض نسباً، ولا عجب إذا كان من أبنائها من لا يزال يقدس أيام (جودفرى دى بويون).

ولكن العجيب أن يجاب ذلك السيد بالأمير الاقطاعى القديم يحمله اليوم على المطالبة لفرنسا بمكانة ممتازة فى بلاد سوريا ولبنان إكراما له كرامة! ويزيد الأمر عجباً أن السيد برتنا كس بنى مطالبته على أساس وهم وقع فيه فى فهم حقائق التاريخ؛ فقد زعم أن (جودفرى) فرنسى وأنه قاد الصليبيين إلى الشام وأنه فتح تلك البلاد وملكها لفرنسا، مع أن الحقيقة تخالف كل هذا. ونحن نتطوع بأن نرده إلى الصواب. هداه الله وإيانا إلى الصواب.

فالسيد (جودفرى) لم يكن فى يوم من الأيام فرنسياً، بل كان جرمانياً قحا خالص الدم. ولو سمع وهو فى جدثه بأن رجلاً من أهل القرن العشرين يدعوه فرنسياً لما رضى بذلك، بل لغضب له غضبة شديدة لا ندرى ماذا يكون أثرها.

وكان (جودفرى) أميراً متحمسا للدين، مثله فى ذلك مثل سائر أمراء أوربا فى تلك العصور. فلما سمع الدعوة إلى حرب الدين لانتزاع بيت المقدس من أيديهم سارع بجيشه الجرمانى إلى الانضواء تحت علم الصليب وسار مع جموع أمم أوربا نحو الشرق يضرب فى سهول أوربا والمجر حتى بلغوا القسطنطينية أخيرا عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وكان امبراطورها رجلا صاحب حيلة واسعة وهو

الكسيس . وكان هذا الامبراطور سبب الدعوة إلى الحرب الصليبية وقد أثارها الغرض في نفسه لأنه كان داهية في السياسة ، فلما رأى المسلمين يهددون ملكه ويوشكون أن ينزعوا منه القسطنطينية العظمى لبس مسوح الرهبان وأعلن أن المسيحية في خطر وأن واجب المسيحيين يدعوهم إلى حرب المسلمين ، فلبى دعوته أمراء أوربا المتحمسون وسارعوا بجيوشهم نحو الشرق . ولما نزل السيد (جودفرى) وجنوده بالقسطنطينية ونزل بها سائر الأمراء والجنود من مختلف الشعوب ، وجد الكسيس أن المسلمين مع عنفهم في حربه وشدة خطرهم على دولته أهون عليه من أمرائه المتحمسين . وما كان أشد سروره عندما رآهم أخيرا يغادرون بلاده ذاهبين نحو الشرق لحرب المسلمين .

وسارت الجيوش الصليبية بأمرائها وجنودها إلى آسيا الصغرى ثم إلى الشام وفتحوا بلادها مدينة مدينة حتى دخلوا بيت المقدس . وكان قائدهم الأعلى سيداً جرمانياً آخر اسمه (بوهمند) ولم يكن السيد (جودفرى) سوى واحد من مئات الأمراء .

وأراد الحظ أن يكون السيد (جودفرى) في طليعة الموكب الذى دخل إلى بيت المقدس يوم الفتح . فانسدل هناك الستار على القرن الحادى عشر .

ثم مر الزمان ومضى عام بعد عام حتى تم قرن كامل ثم عاد المسلمون فطردوا الصليبيين من بيت المقدس ، وكان قائد المسلمين عند ذلك صلاح الدين الأيوبى العظيم . ولا ينسى التاريخ يوم وقف يواسى المساكين من حفدة جنود السيد (جودفرى) ويحقن دماءهم ويبذل المال الكثير ليفتدى منهم الضعفاء الذين كانوا لا يملكون المال المطلوب منهم للفداء . فالتاريخ ذاكرة تعى الحوادث وتقرن أخراها بأولاها .

ومهما يكن من الأمر فقد آلت بلاد الشام ولبنان بعد حين لحكم أهلها وعادت الحقيقة الخالدة إلى نصابها . تلك الحقيقة التى يكررها التاريخ ولا يمل ترديدها ، وهى أن أهل كل بلاد يجب أن يكونوا أصحاب المكانة الممتازة فيها .

ولو صح أن يكون لدولة من الدول حق فى مكانة ممتازة من بلد آخر غير بلادها إكراما لذكرى حوادث التاريخ الماضية لصح لنا معاشر ابناء الدول الإسلامية أن نطالب بمكانات ممتازة فى كثير من أقطار الأرض . فقد غزا المسلمون فسيح الأقطار حتى بلغوا فرنسا وأقاموا بها مدة من الزمان .

ومهما يكن من الأمر فإن السيد رِنَتاكس قد أخطأ فى أمور كثيرة دفعته إليها حماسته ، فإن (جودفرى) لم يكن فرنسيا ولم يكن قائدا عاما ولم يكن فى يوم من الأيام ملكا على بيت المقدس ، بل لم يقض فى جوار المسجد الأقصى أكثر من عام واحد ثم مضى إلى رحمة الله .

على أننا لا نضن على السيد الكاتب بالتماس المعاذير . فإن اسم (جودفرى) من الأسماء التى نسجت حولها الأساطير العجيبة منذ القرون الوسطى . وطالما تغنى باسمه الشعراء ، وكثيراً ما ألف فيه القصصيون غرائب القصص . فاسمه فى الأساطير شبيه باسم هرون الرشيد فى قصص ألف ليلة وليلة ، وله فى الخيال صور جعلته لا يزال قريباً إلى الألسنة والقلوب .

ومن الأغانى الزمانة التى نسجت حول اسمه (أغنية انطاكيه) ومنها (أغنية أورشليم) . بل لقد خلع اسمه نوراً سحريا على آبائه الأولين ، فهناك قصة (البجعات السبع) وفيها ذكر جده الأعلى (هلياس) الذى كان لا يرضى أن يسأل من أبيه .

فالسيد رِنَتاكس معذور فى أنه يتغنى اليوم باسم (جودفرى) ويخطىء فى حقائق تاريخه ، ويتحمس له تحمساً يحمله على المطالبة لفرنسا بالمكانة الممتازة فى الدول الأخرى حفظا لذكراه لأن الأساطير كانت منذ القدم ذات أثر عظيم فى نفوس أصحاب الخيال .

ولكننا مع ذلك واثقون من أن فرنسا وهى البلاد

من الأستاذ توفيق الحكيم

إلى الاستاذ عبد الرحمن صدقي

عزيزي الأستاذ عبد الرحمن صدقي

لقد أحزنني وأبكيتني بقصيدتك المنشورة في « مجلة الثقافة » . ولا أكتب إليك هذا معزيا . فإن فجيعتك ولا شك فوق كل عزاء . لأن الشعر الذي قرأت ينزف من جرح لا يدرك كل الناس أغواره . إني لأتساءل : هل أنت نظمت هذا الشعر أو أنه انسكب وحده مع نفسك كما تنسكب الدموع .. دون أن تمسك حتى بالقلم ! إنه شيء طبيعي . إنه من صنع الطبيعة نفسها مثل عبراتنا . هذا شعر لا يصنع ولا يكتب . ولا يظهر في كل حين ولا يجود به كل شاعر . وليس لجمال القصيدة وحدها أبعث إليك بهذه الكلمة . فليس الظرف ظرف إطراء فنك الرائع هذا .. وكل مجد في نظرك الآن ولا ريب هباء . ولكني أكتب إليك لأني أبكي حالي أنا أيضاً المماثل لحالك .

فقولك :

كان لي في أخريات العمر بيتٌ ، فقيدمتُنُه
سنواتٌ أربع ؟ أم كان ذا حلماً حلمته
رهبةً ، وانتبه الدهر فشقَّى ما رحمتـه
أتُرى الرضوان ذنباً أنجَنَيْتُه وأغمته
أحرامٌ أن سعدنا أم خيالٌ ما زعمته ؟

كل ما أعرف أني كان لي بيت عدمته

هو أمر كان يصح أن يحدث لي لو أني وُفِّقت إلى مثل ما وفقت أنت اليه من زواج سعيد . فالقدر ما كان يتركني أنا أيضاً أنعم بالعش الهنيء أكثر من عام أو عامين ، كأن السعادة لأمثالنا إثم — كما تقول — لا بد لها من عقاب . لقد رأيت أخشاها لأني أعرف الثمن المحتوم . ولقد جردت نفسي من كل شيء ووقفت أمام القدر وجهاً لوجه . وهو ينظر إلى يدي الفارغة من كل نفيس وعزيز فلا يجد ما يخطفه مني ولا ما يفجعني فيه . وها أنذا أتحامل على نفسي لأطيق هذه الحياة — إذا صح لي أن أسمي هذا العدم حياة — ولقد تجلدت حتى تبلدت . فما أحسست للعذاب قيمة ولا للدمع طعما إلا وأنا أبكي معك تلك التي قلت فيها :

فغاضت كما غاض الربيع ، وإنما
ربيعي بعد اليوم هيهات يورقُ
شريكةَ درسي ! تلك أسفار مكتبي
خُرسٌ وكانت في جوارك تنطق
فما لي إلى الأسفار بعدك نهضةٌ
ولا متعـة فيها يشوق ويونق
وكنت جمالَ الفقر حولي جنةً
وقام من الفوضى نظامٌ منسَّق
تخلَّفتِ في بيتي سراباً بقيعةٍ
صواتك بالأرآد والخلُّ يبرق

لماذا فعل القضاء بك ذلك ؟ إن القدر يعلم أنه سلبك شيئاً أنفقت أكثر حياتك بحثاً عنه . ولقد ظفرت به في النهاية ليكون لك ذخراً في آخر العمر وسنداً .. أإلى الوحدة الباردة مرة أخرى وقد ذقت دفء الحنان ؟ أإلى فوضى الحياة من جديد وقد ولى الشباب ؟! اللهم الصبر لك ! اللهم الصبر لك ! .. إني أشعر بما أنت فيه . وأحس ما تحس . وأرثي لك ولنفسي إذا كنت في موقفك . وأسأل السماء الرفق بك وبي ؟

توفيق الحكيم

التي كانت مهداً للحرية والديمقراطية والتي عرفت مرارة الطغيان وقسوته ، لن يكون تفكيرها مثل تفكير السيد (برتناكس) . ونحن واثقون كذلك من أن فرنسا التي كانت في طليعة موكب المدنية والتقدم لن ترضى لنفسها أن تسير في موكب متقهقر الى الوراء ، وتسعى الى أيام القرون الوسطى كما يريد لها الكاتب المتحمس إكراما لذكرى السيد (جودفري دي بويون) .

محمد فريد أبو حديد

ذات الغشاء الأبيض

الدفتريا

لابد أن يكون مرض الدفتريا قد عاصر البشرية منذ أجيالها الأولى . ولو أن الوصف الفصل الأول لمرض يرجع إلى القرن الثانى الميلادى ، حين وصف (ارتياس) داء يتميز بوجود قرحات على اللوزتين يغطيها غشاء ابيض أو باهت أو مائل إلى السواد فى بعض الأحيان ، ويتسبب عنه الموت بالاختناق إذا امتد إلى الحنجرة ، ووصف أيضا تغير الصوت ورجوع الأغذية السائلة من الأنف عند ابتلاعها . وتمر الأعوام بعد ذلك سراعا فيظهر المرض على شكل وباء فى أسبانيا فى عام ١٥٨٣ ميلادية فتلتفت إليه الأنظار . ونجد فى أوراق تاريخ الطب المتناثرة وصفا دقيقا لهذا الداء الذى اطلقوا عليه إذ ذاك (الخُنّاق) لأنه يسد حنجرة الطفل ، فيختنق ، فيموت . والغريب أن (فيلا ريل) الأسبانى يصف الغشاء كأدق مايمكن أن نجده فى كتب الطب الحديثة ، فيقول لأول مرة علاوة على ماسبق : إنه ملتصق التصاقاً تاماً باللوزتين بحيث أن أى محاولة لإزالته تنتهى بالفشل . وأثناء الوباء الذى حدث بإيطاليا عام ١٦٣٠ لاحظ (كورتيسيوس) لأول مرة أن المرض مُعْدٍ ، وكان ذلك لأنه طلب من زميل له أن يشم رائحة فم أحد المرضى ليرى إذا كان كريها ، فلت الزميل المسكين فى اليوم الرابع مختنقا ! ويقول فى مذكراته : « منذ ذلك اليوم أدركت أن هذا المرض ينتقل من شخص إلى آخر بواسطة الرذاذ » .

وفى عام ١٨٠٧ مات ابن شقيقة الأمبراطور نابليون بونابرت نتيجة (مرض الخناق) ، وكان عمره اربع سنوات ، فلما سمع الأمبراطور بموته حتى تأثر تأثراً شديداً وقرر منح جائزة ١٢٠٠٠ فرنك لصاحب أحسن بحث فى هذا المرض عسى أن يصل إلى وسيلة يحمى بها أطفال الجيل من فتك هذا الداء . ولكن المحاولة كانت غير موفقة ، بل لقد زادت الموقف تعقيداً

ويرجع إلى بريتونو الفرنسى الذى عاش بين عامى ١٧٧٨ ، ١٨٦٢ كل الفضل فى إطلاق اسم (الدفتريا) على هذا المرض الفتاك ، وقد وضع مؤلفا يقع فى ٥٤٠ صفحة ونشره فى عام ١٨٢٦ ضمنه تفصيلات دقيقة من أعراض المرض ، وفرق بينه وبين بقية إصابات الزور والحنجرة الحادة . وقد اشتق اسم الدفتريا من لفظة لاتينية معناها « غشاء » وكأن الغشاء قد بدأ ينقشع تدريجيا من الظلمات التى أحاطت بهذا المرض من قبل ، فما يرخ عام ١٨٨٣ إلا وكان العلامة (كلبز) قد كشف جرثومة المرض ، وفى العام التالى دعم (لوفلر) ما أثبته زميله من قبله ، فحق لهما أن يقتسما ثمرة النصر فى مرحلة هامة من مراحل الكشف والاستقصاء ، وسميت الجرثومة باسمهما معاً ، وتعرف حتى الآن (باشلس كلبز لوفلر) . وفى عام ١٨٩٠ زاد النور ضياء باكتشاف فون بهرنج المصل المضاد للدفتريا ، ولكن أبحاثه كانت معظمها على الحيوانات التجريبية ، حتى إذا أتى عام ١٨٩٤ طبق روكس ومارتن هذه النتائج على الأطفال الآدميين ونجحا نجاحاً باهراً . وفى عام ١٩٢٣ دق ناقوس النصر النهائى مؤذنا بانتهاء المعركة وانتصار المخ البشرى ؛ وذلك أن (رامون) اكتشف الطعم الواقى وسماه (الاناتوكسين) وبواسطته أمكن وقاية الأطفال ضد الاصابة بالمرض . والدفتريا من الأمراض التى يباهى علم الجراثيم (البكتريولوجيا) أن انتصاره عليها كان كاملا أى مائة فى المائة .

وأكثر ماتحدث الدفتريا بين السنة الثانية والخامسة من عمر الطفل ، ولو أنها قد تصيب الأطفال فى مختلف الأعمار . والغالب أن الطفل يرث بعض المناعة عن طريق أمه ، ولذلك تقل الاصابات فى الستة الأشهر الأولى من العمر حتى إذا بلغنا نهاية السنة الأولى كانت قابلية الطفل للعدوى بالمرض حوالى التسعين فى المائة . ولذا يجب أن يحقن الطفل

بالطعم الواقى قبل أن يتم السنة الأولى من عمره . والغريب فى مرض الدفتريا أن الاصابة به لا تكسب الطفل مناعة لمدة أطول من الشهرين يصير بعدها عرضة للعدوى مثنى وثلاث ورباع كلما جدّت الظروف

وتأتى عدوى الدفتريا بطريق الرذاذ أثناء السعال أو الضحك أو العطس أو التقبيل . وقد يكون مصدرها المريض نفسه أو حامل الجرثومة (وهو الذى توجد الجرثومة فى إفرازات فمه وأنفه دون أن تظهر عليه علامات المرض) ، وهذا الأخير هو المسؤول الأول من الأوبئة التى تظهر بين حين وآخر فى المدارس والمعامل وغيرها . ويلعب اللبن والحيوانات المستأنسة كالقطط والكلاب دوراً هاماً فى نقل الدفتريا من بيئة إلى بيئة أو من شخص إلى آخر .

ومرض الدفتريا خداع مراوغ ؛ فقد لا يصحبه سوى ارتفاع بسيط فى الحرارة ؛ وقد يبدو الطفل وكأنه سليم ليس به شىء سوى وعكة خفيفة وفقدان فى الشهية واصفرار بسيط فى الوجه وميل من اللعب مع أخوانه ورفاقه . فإذا فحصه الطبيب وجد العلامات الموضعية فى الحلق أو الأنف أو الحنجرة . ولعل أكثر أنواع الدفتريا خداعاً هى دفتريا الأنف ، لأنها غير مصحوبة بأى أعراض سوى رشح مزمن يظهر الدم فى افرازه بين آن وآخر . فعلينا أن نأخذ عينة من الأنف للفحص البكتريولوجى فى حالات الزكام المصحوبة بدم من احدى فتحتى الأنف أو كلتيهما ، لأنه فضلاً من خطرها على الطفل نفسه ، فإن دفتريا الأنف — بالنسبة لكونها مزمنة وأمينة فى مظهرها — مسؤولة عن عدد كبير من حاملى جرثومة المرض ، وهم الذين ينشر المرض بوساطتهم بين أفراد المجتمع .

وهناك اعتقاد خاطىء شائع ، وهو أن مرض الدفتريا لا يصحبه سوى ارتفاع بسيط فى الحرارة . والواقع أن هناك حالات ترتفع فيها حرارة الطفل إلى ٤٠ درجة ، فيجب ألا نتخذ من ارتفاع الحرارة دليلاً على أن الاصابة الموجودة ليست بالدفتريا .

والحكمة فى التشخيص الدقيق ، وبالتالى العلاج السريع المبكر ، هى أن سموم الدفتريا تؤثر على القلب والدورة الدموية والجهاز العصبى . وكلما حقن المصل المضاد للدفتريا مبكراً وبكميات كافية ، كان الأمل كبيراً فى إنقاذ حياة الطفل . ومن مميزات سموم الدفتريا أنها تمتزج امتزاجاً وثيقاً بخلايا الجسم ، وبدرجة لا تمكن المصل المضاد من انتزاعها ، وهنا تظهر أهمية التشخيص المبكر لأنه يساعد على اعطاء المصل فى الوقت المناسب ، فتتحد جزيئاته بالسموم وهى سابحة فى الدورة الدموية قبل أن يستقر بها المطاف فى القلب والأعصاب والكبد وبقية أجزاء الجسم ، لأنها متى ثبتت أقدامها فى خلية ما فمن المستحيل انتزاعها .

ولهذا السبب أيضاً نخشى دائماً من إصابة القلب بالهبوط أثناء المرض وفى دور النقاهة ؛ لذا يجب أن يلازم الطفل الفراش مدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع فى الحالات البسيطة ، وستة أسابيع فى الحالات الشديدة التى يتأثر منها القلب ، ولا يسمح له فيها ببذل أى مجهود كالجلوس فى السرير أو حتى التقلب فيه دون مساعدة والدته أو ممرضته ، لأن مجهوداً بسيطاً كهذا قد يودى بحياته فجأة . وبعد انقضاء فترة الراحة يسمح له بالتحرك تدريجياً ، ولكنه لا يترك الغرفة قبل مرور ثلاثة أسابيع أخرى .

أما مدة عزل الطفل عن المدرسة فتتفاوت بين أربعة وستة أسابيع ، ولكن يجب ألا يختلط الطفل بغيره أو يذهب إلى المدرسة قبل أن يثبت الفحص البكتريولوجى ثلاث مرات متوالية عدم وجود جرثومة الدفتريا فى افرازات الأنف والحلق .

ودور النقاهة لا يخلو هو الآخر من خطورة ، إذ قد يصاب القلب فى أثنائه بهبوط فجائى أو تدريجى إذا قام الطفل بأى مجهود ، وهذا هو السر فى جعل مدة الراحة فى السرير طويلة بالرغم من تحسن الحالة العامة وزوال الحرارة . وقد تظهر أعراض شلل بالأعصاب فإذا تأثرت أعصاب

من قصص الأطفال الصينية :

الانسان المتفائل

للأديب الصينى الكبير « بـ — شاو — كين »

هل يوجد فى هذا العالم إنسان متفائل ؟ ومن هــو ذلك المتفائل ؟

كل إنسان يسر بهذا العالم هــو الإنسان المتفائل . وسأقص عليكم قصته :

إنه رجل عجيب غريب — أخشى أن لاتصدقونى إذا أبنت لكم صفته — وإنى أؤكد لكم أنه رجــل عجيب غريب ، لأن جسمه محاط بحجاب خفيف رقيق ، ليس من صنعه ، ولا من صنع غيره ، ولكنه طبيعى ، كان معه حين خرج من بطن أمه ، ولا أستطيع أن أصف هذا الحجاب بدقة ، فلو قلت إنه كالزجاج شفاف رقيق لم أكن محقاً ، لأن الزجاج أكثف منه ، ولو قلت إنه كقشر البيض يحيط بالجسم كل الإحاطة لم أصب أيضاً لأن القشر ليس شفافاً ، أما هو فشفاف ، وصفوة القول أن هــذا الحجاب خفيف لايوزن ، رقيق لايلمس ، متين لايخرق ، شفاف لايحَجُب ، يحيط بالإنسان المتفائل ، ولكنه لايعلم أنه يحيطه بل ولا يشعر به .

وعاش الإنسان المتفائل فى داخل الحجاب متفائلا بكل شيء ، ومتفائلا فى كل وقت ، ونظر خارج حجابه إلى كل مكان فسر منه وإلى كل منظر فتفاءل به .

وذات يوم جلس الإنسان المتفائل فى بيته فإذا بضيفين قد جاءا اليه ، وكان هذان الضيفان من الخدّاعين يريدان أن يشربا الخمر ويلعبا القمار ، ولكنهما لايملكان نقوداً ، وعلما أن الإنسان المتفائل غنى لايستطيع أن يعرف حقيقة غيره ، إذ أن الحجاب يحجب جسمه ، فعزما على أن يخدعاه ليحصلا منه على النقود فجاءا الى بيته وقالا له بصوت حزين رقيق : « إن كوارث القحط والغرق والحــرب أصابت البلدان المجاورة ، فمات بعض سكانها بسببها وهرب البعض

الحلق مثلاً ، أرجع الطفل من أنفه السوائل التى يتناولها من فمه ، ويبتلع الأغذية بصعوبة ، ويخفت صوته (أى يصير أخنف) ، وإذا تأثرت أعصاب العينين شكا الطفل من زغللة وعدم قدرة على القراءة . أما أعصاب الرجلين فإن تأثرها ينشأ عنه ضعف فى قوة الساقين وعدم قدرة على المشى ، وتظهر هذه الأعراض عادة بين الأسبوعين الثانى والرابع بعد الشفاء من الدور الحاد ، وتنتهى دائما بسلام ما دام الشلل لا يصيب عضلات التنفس كالحجاب الحاجز وغيره .

أما المخالطون — أى الذين يعيشون مع الطفل المريض أو يختلطون به — فيجب حقنهم بالمصل الواقى بمقدار (١٠٠٠ وحدة) ليكتسبوا مناعة سريعــــة ولكن قصيرة الأجل (فهى لا تدوم أكثر من أربعة أسابيع) ، ويحقنون فى الوقت نفسه بالطعم الواقى (أنا توكسين) وهو وإن كان يكسبهم مناعة طويلة إلا أن أثرها لا يظهر قبل خمسة أو ستة أسابيع ، لهذا يتحتم حقن المصل فى الوقت نفسه ليقى المخالطين أثناء دور المرض الحـــاد .

وقد أصبح حقن الأطفال بالطعم الواقى ضد الدفتريا إجباريا فى مصر ، ويجب أن يتم هــذا قبل نهاية السنة الأولى من العمر ، ويعتبر التقصير مخالفة يعاقب عليهـا القانون .

ويعطى الطفل لهذا الغرض ثلاث حقن بين الواحدة والأخرى أسبوعان ، ويبدأ بنصف سنتيمتر مكعب ثم سنتيمتر وأخيراً سنتيمتر ونصف .

ولعلى أكون قد أفصحت فى هذه اللمحة السريعة من مرض من أخطر أمراض الأطفال فى تنبيه الوالدين عما يجب عليهما اتباعه لوقاية طفلهما من شرور هــذا الداء الوبيل .

دكتور مصطفى الديرانى

الآخر إلى بلدنا ، ورأينا جياع القحط قد عريت أجسامهم إلا من العظام والجلد ، والمرضى الناجين من الغرق قد تورمت أبدانهم واصفرت وتَرَل منها الماء قطرة قطرة ، وجرحى الحرب مكسوري الأيدي يبكون من شدة الألم ، وبعضهم يحملون أولادهم الذين قاربوا الموت في حجورهم يصيحون صياحاً مؤلماً ، فأثارت أحوال هؤلاء المساكين المشردين عواطفنا ، وكان واجبنا الإنساني أن نعطف عليهم وننقذ حياتهم ونمد لهم يد المساعدة ، فتبرعنا وتبرع أغنياء البلد بمبالغ كبيرة ، وعرفنا أنك غني ، فنرجو أن تتبرع لهؤلاء المساكين ، جزاك الله خير الجزاء » .

ولما سمع الإنسان المتفائل كلام الضيفين تأثر به تأثراً شديداً ، ورأى أن هؤلاء الصابرين المساكين يستحقون العطف والشفقة ، وأن إخلاص الضيفين للإنسانية وأداء واجبهما يجب أن يحترم ، فأخرج من جيبه قطعة كبيرة من الذهب وأعطاهما إياها وقال لهما : « إني أرجو منكما أن تعطيا هذه القطعة إلى هؤلاء المساكين نيابة عني وأشكركما شكراً جزيلا » . فأخذا القطعة الذهبية وخرجا من بيت الإنسان المتفائل يضحكان منه ، ثم ذهبا إلى أماكن اللهو يشربان الخمر ويلعبان القمار .

ولما خرج الضيفان بالذهب قال الإنسان المتفائل في نفسه : « أخذ هذان الضيفان الذهب وسارا إلى إخواننا الصابرين يوزعونه عليهم ، فيجد الجياع الهزال المأكولات في الحال وسيصيرون سماناً أقوياء ، وتجد الأجسام المتورمة الصفرة العالجة تواً وستغدو نشيطة قوية ، ويجبر مكسورو الأيدي أيديهم ، وتنقذ حياة الأولاد الذين قاربوا الموت ، ما أعظم هذا التبرع ! وما ألذ هذا السرور الذي وجدته عقبى معاونة الضيفين الكريمين ! وما أعظم شرفي وسروري ! » واشتد سروره فأخرجه عن طوره ، ووقف أمام مرآة معلقة على الحائط وأخذ يضحك بلا انقطاع .

وعلمت زوجة المتفائل أنه انخدع بكلام الضيفين الماكرين ، وكانت دائماً تغضب من فعله مثل ذلك ، وتريد أن تمنعه ، ولكنها كانت حين ترى وجهه الذي يملؤه السرور والتفاؤل لا تستطيع ذلك ، فتهيجه بالكلام الجارح وتعرّض به ، ولكنه كان لا يفهم ، إذ أن حجاب السرور كان يحيط بكل جسمه .

وفي هذه المرة غضبت الزوجة من المتفائل غضباً شديداً لأن الخادعين أخذا قطعة ذهب كبيرة بدون سبب ولا نسب ، فأرادت أن تؤدبه بكلمات شديدة وتمنعه أن لا يفعل مثل هذا الفعل مرة ثانية ، فقصدت إليه مسرعة ، وقد ملأ وجهها الغضب ، ولكنها لما رأت وجهه الذي يملؤه السرور والتفاؤل ذهب غضبها واختفت من فمها الكلمات التي كانت تريد أن تتكلم بها معه ، ورجعت إلى باطنها ولم يمكنها إلا أن تعرّض بالكلام لتفهمه خطأه ضاحكة منه ، فقالت : « إنك لرجل عظيم ! لأنك فعلت فعلاً عظيماً وأعطيت بدون تفكير قطعة كبيرة من الذهب إلى شخصين لا تعرفهما ولا تشك فيهما ! إنك الرجل الخالص الوحيد في هذه الدنيا ! وإني لأرجو منك أن تفعل مثل هذا الفعل مرات كثيرة ، لأنك كلما أكثرت من مثل هذا الفعل زاد إخلاصك وظهرت عظمتك . »

ولما رأى الإنسان المتفائل وجه زوجته البسام الخالص وسمع كلامها اللذيذ العاطف سر إلى حد الجنون وضحك ضحكاً شديداً ، وبعد وقت طويل كف عن الضحك وقال : « إن كل إنسان عرفته طيب القلب خالص الضمير ، وأنت منهم بالطبع ، بل أنت أحسنهم ، لأن قلبك الخالص جعلني لا أقدر على أن أمدحك بكلمة تناسبك ، وإن قلبك مثل قلبي يرضى عن أفعالي كلها ، وما أنت وأنا إلا روح واحدة في جسمين ، وقد زاد سروري بمدحك هذا التبرع الهائل ، فيجب عليّ أن أسمع كلامك وأقبل إخلاصك في النصح وأفعل مثل هذا الفعل مرات كثيرة إن شاء الله ! » ثم أخذ قطعاً كبيرة من الذهب وخرج من البيت .

وذهب المتفائل إلى قرية ، فوجد فيها حقولا كبيرة واسعة شاسعة ، قد زرعت فيها أشجار التوت القصيرة ذات الأوراق الخضراء ، ورأى رجالا ونساء يقطفون أوراق التوت ليربوا عليها دود القز . ولم تكن أشجار التوت ملكا لهؤلاء العمال ، لأنهم فقراء ، بل كانوا يشترون أوراقها من أصحابها الأغنياء ، ولم تكن لديهم نقود تزيد عن نفقات معائشهم اليومية ، فلما جاء موسم تربية الدود باعوا ملابسهم الشتوية وارتهنوا أثاثهم القديم البالي وأخذوا النقود وأعطوها أصحاب أشجار التوت وقطفوا أوراقها وأخذوها إلى بيوتهم ، ولذلك كانت روائح نقودهم خبيثة لأنها كانت نقود الأغنياء الذين اشتروا ملابسهم الشتوية بثمن بخس وباعوها بربح كبير ، وارتهنوا منهم أثاثهم القديم البالي وأكلوا الربا ، وقد انتشرت هذه الروائح الخبيثة في الحقول الواسعة حتى نفت روائح الزهور الطيبة وعرف تراب أرضها الذكي ، ولعجلة الدود في أكل أوراق التوت أجهد هؤلاء الناس أنفسهم في قطف الأوراق ولم يناموا منذ أيام وتعبوا تعبا شديداً ، واصفرت وجوههم لقلة الدم ، وأصبحت عيونهم حمراء ، ولصقت القذارة والغبار بأطراف عيونهم ، وهم يشرفون على الإغماء لشدة ما تكلفوا العمل في قطف الأوراق بدون راحة وبدون توان ، وقد عكر منظر هؤلاء الناس التعبين صفو إشراق شمس الربيع وأحال من خضرة الأشجار الجميلة .

ودخل المتفائل حقلا من هذه الحقول ، فلم يدرك تعب هؤلاء الناس ولم يشعر بتلك الروائح الخبيثة ، إذ أن الحجاب يحيط بكل جسمه ، وإن كان شفافا رقيقا ، بل سر بذلك المنظر غاية السرور وقال في نفسه : « ما أجمل هذا المنظر ! وما أسعد هؤلاء الناس ! إنهم يقطفون أوراق التوت ويربون بها دود القز ويعيشون بهذا العمل البسيط عيشة رغيدة طيبة كعيشة آبائنا القدماء ، فما أسعدهم ! » ووقف في وسط الحقل ، وبينما هو يرى الرجال والنساء يقطفون الأوراق ويضعونها في السلال إذ تدفقت عواطفه الشعرية من قلبه كتدفق الينبوع ، فغنى قائلا :

يا لها من سحب خضراء تملأ الحقول ،
يمشي الناس فيها جيئة وذهابا ،
ويقطفونها ويربون بها دود القز ،
فيصنع الدود الحرير جميلا بهيا ،
النساء يرسلن شعورهن على الأكتاف ،
أليسن ملائكة في السحب الخضراء ؟
الرجال ذوو الأجسام القوية والأعضاء الغليظة ،
أليسوا كآبائنا القدماء السعداء ؟

سر الإنسان المتفائل كل السرور وكرر غناء شعره الجديد حتى خيل إليه أن الطيور والأنهار تغني معه ، ولو سأله سائل : « أين عالم التفاؤل ؟ » لأجابه سريعا : « إن عالمنا هذا هو عالم التفاؤل ، إذ ليس هنا أحد من الناس ولا شيء من الحصى والحشائش والأوراق لا يتفاءل بهذا العالم » .

وغادر المتفائل الحقول ، وذهب إلى مدينة ، وكان في هذه المدينة مصنع النسج والغزل ، وهو بناء كبير ذو خمس طبقات ، جميل يجتذب الأنظار ، وحوائطه وجدرانه المبنية بالحجارة البيضاء ملساء لامعة ، ونوافذها المصنوعة من الخشب والزجاج كلها مفتوحة وعلى حافتها أصص الزهور الجميلة ، وأصوات الآلات تخرج من هذه النوافذ مدوية رائعة ، وكان كل عمال هذا المصنع نساء ، قد التحقن بالمصنع ليحصلن على النقود ويساعدن بها أزواجهن الذين لا يكفي رزقهم لأن يعول أهلهم . أو يساعدن بها آباءهم المتعطلين الذين لا يجدون العمل ، وكان هؤلاء النساء يأتين إلى المصنع صباحا في الساعة السادسة والنصف ويرجعن إلى بيوتهن بعد المغرب ، ويقضين الوقت كله في كد متواصل ، وعند الغداء يأكلن الطعام التافه الذي يجئن به من بيوتهن ، حتى إنهن لا يجدن وقتا يمشطن شعورهن فيه ، أو يغسلن ملابسهن ، أو يتثاءبن ويتمطين ، بل لقد كن لا يستطعن أن يرضعن أولادهن ؛ ولهذا كن اذا اجتمعن في المصنع

خرجت من أجسامهن رائحة خبيثة كثيفة ، وعلت وجوههن الكآبة ، حتى أصبحن في منظر حزين مؤلم ، وقد انتشرت هذه الرائحة وذلك النظر داخل المصنع وتسربت من نوافذه وأحاطت به من الخارج ، حتى صار البناء الجميل كأنه مدفون في الرمل والطين أو كأنه غائص في ترعة موحلة .

ودخل الإنسان المتفائل المصنع ، فلم يشعر بالرائحة الخبيثة ولم يحس بالنظر المؤلم ، إذ أن الحجاب كان يحوط بكل جسمه ، وإن كان شفافا رقيقا ، بل تفاءل بكل ما هو أمام عينيه وقال في نفسه : « إن اختراع هذه الآلات لمن سعادة الناس ! انظر إليها ! ما أبدع صنعها ! وما أسرع حركاتها ! وإن هؤلاء النساء لمن السعداء ، لأنهن لا يعملن عملا ثقيلا ، بل يرشدن الآلات فقط . » ولما رأى الآلات تدور ، والنساء يعملن ، والقطن يخرج منها غزلا ، تدفقت عواطفه الشعرية كتدفق الينبوع ، فتغنى قائلا :

إذا أردت أن تعرف فطنة الإنسان فاسمع أصوات الآلات .

إذا أردت أن تعرف فطنة الإنسان فانظر دوران الآلات .

هذه الآلات تعطينا الأشياء — الأشياء النافعة .

نحن نقبل هديتها — الهدية الفاخرة .

أمدح هؤلاء النساء العاملات .

يحيط الغزل الأبيض النقي بأجسامهن .

مهما كن يعملن عملا خفيفاً .

فإن الناس يتمتعون بإنتاجهن .

سر الإنسان المتفائل كل السرور وكرر غناء شعره الجديد حتى خيل إليه أن عجلات الآلات تغني معه ، ورأى النساء يحركن رؤوسهن كأنهن معجبات بشعره وكأنهن يمدحنه ، ولو سأله سائل : « أين عالم التفاؤل ؟ » لأجابه سريعاً : « إن هذا المكان هو عالم التفاؤل أيضاً ، إذ ليس هنا أحد من الناس ولا شيء من الغزل والحديد والنسيج لا يتفاءل بهذا العالم » .

ولما خرج المتفائل من المصنع أقبل عليه جماعة من الناس واكتنفوه وحيوه وهتفوا باسمه هتافاً شديداً بصوت مدو كالرعد ، وكان هؤلاء الناس يظنون أن عند المتفائل قطعاً كثيرة من الذهب ، وأرادوا أن يستخرجوها منه كي يشربوا بها الخمر ويدخنوا المخدرات . فأتوه ، ولكن المتفائل كان لا يعرف حقيقتهم إذ أن الحجاب يحجب جسمه !

فقال له واحد من هؤلاء مبتسما : « إن حضرتك تعتقد أن كل هذا العالم خير وسعادة وأن كل الناس يتفاءلون به ، ونحن نعتقد كذلك ، إذاً فلا بد لنا من أن نبني برجاً لذكرى التفاؤل ، فهل توافقنا ؟ » .

فقال الإنسان المتفائل مكرراً : « أوافق ! أوافق ! » أخرج الذهب كله من جيبه وأعطاهم إياه ، فأخذوه وهتفوا باسمه ، ثم انصرفوا وقسموا الذهب على أنفسهم واشتروا به الخمر والمخدرات يشربون ويدخنون . وأما المتفائل فقد سر إلى حد الجنون بعمله هذا ورجع إلى بيته وظن أن هؤلاء الناس أخذوا الذهب وبنوا به البرج الجميل المرتفع ، حتى إذا تم البناء عملوا حفلة كبيرة لإزاحة الستار عنه ، ودعوه إليها ليعترفوا بفضله ! وفي تلك الليلة سمعته زوجته يصيح في المنام صياحا عالياً ويضحك ضحكا شديداً .

هذه قصة الإنسان المتفائل في يوم واحد ، وقد عاش في كل حياته على هذا النسق .

وذات يوم روى الناس أنه مات . أما بأي مرض مات فلا يعرفونه ، ثم قيل : « إنه لم يصبه مرض ، وإنما قتله إله من آلهة الشر ، وكان هذا الإله لا يريد أن يبقى إنسان متفائل في هذا العالم ، فطاف في الأرض وبحث عنه ، ولما وجد هذا المتفائل طعنه بسلاح من سحره أصاب حجابه الشفاف الرقيق ، فمات في الحال » .

ترجمة : عبد الله ما — جي — كر

بين المسموع والمقروء

جنون

تناولت صحيفة المساء أطلب مكاناً للتلهي أروح فيه عن النفس من عناء النهار . فنصح لي أحد الحاضرين أن أذهب إلى دار للصور قال إن بها فلما ممتعاً .

قلت : ما موضوعه ؟ .

قال : الجنون .

قلت : وهل نحن يا أخي في حاجة إلى استزادة ؟

قال : إن الجنون فنون ، يشق بعضها من بعض . فهي ككؤوس أبي نواس — وداوني بالتي كانت هي الداء .

وأخذ يحكي صاحبي ما كان بهذا الفلم الممتع ، فكشف عن أمر فيه راحة للفكر المجهد حقاً . وقد أقنعني في ترويحه عن ذهني بهذه الحكاية ، أن الفكر أيضاً راحته قد تكون زيادة التفكير ، ولكن في نوع غير ذلك الذي أجهده ، فتاعب الفكر فنون ، كفنون الجنون ، وككاسات أبي نواس ، يدفع بعضها بعضا ، ويشق بعضها من بعض .

ولن أحكي كل ما حكى لي الصديق عن فلم رآه ، ولكني أذكر أنه احتوى امرأتين عانستين ، كانتا من أطيب المخلوقات نفسا ، وأرق بنات حواء شعوراً . وكانتا وحيدتين ، فهمتهما الوحدة هما كبيراً ، وارتأتا فيها شراً من شرور الحياة الكبرى ، فكانتا كلما رأتا رجلا مسناً في حياته وحيداً ، شقيا بوحدته ، تفطر له قلباهما ، وهيأتا له سبيل الخروج من هذه الوحدة . من هذه الشقوة . وتسألني عماذا ؟ فأقول بالزرنيخ ... نعم بالزرنيخ . هذا كان دواء الوحدة الشقية عندهما ، تستدرجان صاحبها إلى منزلهما ، ثم تدسان له السم في الطعام . ثم في قاع الدار تحفران له الحفرة ، ثم تقومان على دفنه في خشوع ورهبة ، بين الصلاة والدعوات .

وتزورهما زائرة ، ويزورهما زائر ، فقد يعثر الزائر والزائرة في صندوق به جثة لم تدفن بعد ، فيسأل أو تسأل عما رأى أو رأت ، فيكون الجواب : إنه المسكين الشقي بوحدته التواب الأواب المرحوم فلان .

ويتدخل البوليس أخيراً ، فتسرع المرأتان إليه تحدثانه في ابتهاج وازدهاء بالذي صنعتاه ، وتتحدثان عن نصيبهما القليل ومجهودهما الصغير في تخفيف آلام هذا الوجود عن بعض بني الانسان .

إلى هنا أيها القارئ ، أرجو أن تكون قد فهمت أن هاتين المرأتين مخبولتان .

وقد رجوت هذا لأن بعضا ممن حضر هذا الحديث فاته جنون المرأتين ، وأخذ يتحدث عن فلسفتهما البالغة .

وأخذ آخر يتحدث عن متعة الجنون . أليس من أكبر متع القلب الإنساني في أن يحس بأنه يعمل الخير الأكبر ، وأن في مكنته إسداء السعادة للأشقياء . فأي متعة أكبر من متعة هاتين الأختين العانسين وهما تفكان ربقة الشقاء عن هؤلاء الأشقياء ممن حذف الدهر وراءه بلا خدين أو معين .

وانطلق ثالث يتحدث عن متعة الجنون أيضا . ما السعادة وما الشقاء في هذه الدنيا إلا أحاسيس . فالمرء يسعد لأنه يحس السعادة ولو لم تكن سعادة حقا ، وهو يشقى لأنه يحس الشقاوة ولو لم يكن شقاؤه حقا . وكم يخشى الرجل العاقل من غده ، فيظل يتقلب الليل في فراشه ، فلا يسكن له رأس على وسادة ، ولا تستقر له قدم تحت غطاء ، ثم يصبح الصباح فيتكشف له أن ما خافه إنما كان وهما ، فباللوم شقي طول ليله ، وبالوهم قد يسعد ليله ونهاره . إنه يسعد ويشقى بالأحاسيس ، كاذبة أو غير كاذبة .

وانطلق آخر من الحاضرين يعزّز رأى سابقه : نعم ، نعم . والرجل النائم ماذا يجد ؟ يجد نفسه يجرى ، وتعدو الذئاب والسباع وراءه . ويهرب منها فيكاد يخلص ثم يضيع أمله فى الخلاص . وتقترب الذئاب والسباع منه عاوية أو زائرة ؛ وهو يجرى ويجرى حتى تكاد تتقطع نياط قلبه . ثم يجد نفسه على حافة هاوية . فلا يجد المخلص إلاَّ فى إسلام نفسه اليها . وفى هُويّه يستيقظ فيحمد الله أنه كان نوما . لقد شقِىَ قبل استيقاظ . شقى بالأحلام والأوهام . ولم يُغنه من شقائه أنه أحلام وأوهام . وليس يغنيه منه أنها أحلام وأوهام . كذلك هو قد يحلم بأنه بين الخضرة والزهر ، على الماء الجارى ، وفى الريح الرخاء المائبة بشعر فتاته وقد أسندت رأسها إلى صدره . وقد يغزل بها وهو يستمتع بالغزل أشد استمتاع . وقد يتراءى له فى حلمه أنها ملكة سبأ أو بعض حور الجنان . وهو فى كل هذا يستمتع بها استمتاع الحقيقة تماما . وهو فى كل هذا ينفعل جسمه وتنفعل غدده كانفعالها عند اليقظان . ولا يضره فى متعته أنه غير يقظان . إنه سعيد لأنه يحس السعادة وكفى . وكذلك أحسب الفتاتين العانسين فيما أسْدَتاه من خير لأضيافهما

وعاد المتحدث الأول يحكى عن القم . قال : وكان لهاتين الأختين أخ يحسب أنه روزفلت رئيس الولايات ، فيخطب الخطب ويحيي الجماهير

قال المتحدث الثانى : هذا مثل آخر ممن أعى . فهذا الرجل الأخ كهؤلاء الآخرين الذين حسبوا أنفسهم نابليونات وقياصرة . إنهم يبلغون من متع الحياة مالا يبلغه إنسان . مالم أبلغه أنا وما لم تبلغه أنت . تصوَّرْ أن لك تلك الجيوش تحركها ، وتلك الجماهير تصطف لك اصطفافا ، وتلك الأيدى الملايين ترتفع لك بالتحية أو تصطك بالتصفيق . وتصور تلك الأبسطة الفارسية السميكة تصعد فوقها على الدرج ، أو تدرُج عليها فى الردهات ، فتحس أنك إنما تطأ أفرشة لا أرضا . وتصورْ تلك الفرش والوسائد ، والصالونات الفاخرة والأبهاء العامرة بدخان التبغ وأنفاس النساء العطرة . وتلك الموسيقى التى تهتز أوتارها بعيدا قريبا فى ردهات الدار الواسعة . وتصور تلك الانحناءات المتوالية التى تشق بينها سبيلك حينما ذهبت فى هذا الجمع الحاشد .

وتصورْ تلك الخزائن الكبيرة الكثيرة التى تحت يدك ، وعند استجابة أمرك ، وبها كنوز قارون . أو تلك البنوك العامرة ترسل إليه الشيك الواحد والعشرة الشيكات يحوى أقلها الألوف وأكثرها الملايين . فان لم تكن هذه السعادة فكيف تكون ؟

قال المتحدث الثالث : إنهم يقولون إن من المجانين من لا يُشفَى أبدا . وإنى لأعجب أيها الاخوان من مجنون يُشفَى من كل هذه السعادة . وإنى لأحسب أنه لا يشفى لأنه لا يود أن يُشفَى . إنه منسجم كل انسجام مع ماهو فيه فكيف يخرج عنه طوعا ؟ إن هذه الملاءمة بينه وبين ماهو واجد من غبطة تُعيي الأطباء ، فيستعصى عليهم رده إلى عالم الشقاء الذى نحن فيه . إنه يحس ، والأطباء تطرق بابه ، كما تحسون أنتم ، عندما يأتى بعض أهل الدار يهزكم لتستيقظوا من نوم وأنتم فى حلم جميل . إنكم عندئذ ترفضون اليقظة . وقد تغمضون أعينكم من بعد فتحها ، مداومة لهذا الوهم الجميل . وهل يفسد عليكم لذتكم بهذا الحلم الخادع أنه وهم كاذب ؟ إن السعادة أحاسيس يا أصدقائى ، فاطلبوها على الوهم وعلى الحقيقة ، وبالجنون .

وعاد المتحدث الثانى إلى حديثه : والحشاشون كذلك سعداء فى وهمهم .

وعندئذ لم يطق أحد الحاضرين صبرا ، وكان قد سكت دهرا طويلا ، وخشى على نفسه أن يأتيه مس من سعادة ! فصرخ فى القوم صرخة حسبوا أنها بوادر انفعال . فضحكوا وزأطوا وأكفتوا من عينهم بالذى كان .

احمد زكى

سر الحياة

* من وحي البيت المعروف لأبي العلاء:
هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد
والقصيدة مهداة إلى صديقي المنتظر في عالم الغيب الأمين ... ! *

يا وليدي! إن سرّ الجاني على الجاني أباه
فالذي أشقى وأشجى آدماً من قد رآه
ليس من جانٍ على الإنسان في الدنيا سواه
هو مخلوقٌ وفي كفّيه عقلٌ وضمير
شيّد الدنيا ودكّ منهما حيناً قصور
فإذا لم تبهج الخير وأغشاك الغرور
وتجرّعت من الأيام أكواب الكمد
لا تقل إني تجنيت، فلم أظلم أحد
إنّ ذا سرّ الحياة

يا وليدي! إن يؤلمك وما زلت صغير
عجزك الفطري من إظهار مكنون الضمير
وتحسّ الوجد إن لم تستطع بعد المسير
أو جفا ثغرك في مهدك ثدي المرضعة
وتشهّت نفسك حيناً بالأماني والدعة
فتحسّ الجوع يغزوك بآلام ممضّة
حينئذٍ بك متى زدت وأشقاك الكمد
لا تقل إني تجنيت، فلم أظلم أحد
إنّ ذا سرّ الحياة

يا وليدي! عندما تغزوك آلامٌ فتبكي
وسألت اليسر عمّا منه بالأدمع تشكي
وأردت القول لكن من قصور لست تحكي
أو إذا ما صرت طفلاً، يا صغيري، حابيا
تلمس الأشياء لكن لست تدري ما هيا
إن أردت اللهو ظنوا فيك غرّاً لاهيا
كلّ هذا ربما يشجي، فإن نزّ الكمد
لا تقل إني تجنيت، فلم أظلم أحد
إنّ ذا سرّ الحياة

يا وليدي! في صباك الطلق إن صادفت هما
أو سُقيت الذلّ إذ تنشد عن دنياك علما
وقضيت العمر أسوان، وما خطبٌ ألمّا
أو أنا متّ ولمّا تغدُ يا طفل بعد
وتجرّعت سموم اليتم أو أشقاك وجد
واستحلّ المرّ ما عفت أو أفناك جهد
حينئذٍ بك، متى زدت وأشقاك الكمد
لا تقل إني تجنيت، فلم أظلم أحد
إنّ ذا سرّ الحياة

يا وليدي! عندما يكسوك سربال الشباب
ويريك الحبّ ما لم تدر من صرف العذاب
حيث ترمي بك حسواء إلى قاع العباب
أو إذا ما صرت إنساناً من النبل سويّا
رجعاً مثل أبيك الحرّ روحيّاً وفيّا
وترى كونك بالآثام والشرّ مليّا
كلّ هذا ربما يشجي، فإن نزّ الكمد
لا تقل إني تجنيت، فلم أظلم أحد
إنّ ذا سرّ الحياة

يا وليدي! إن نشدت النشوة الكبرى بكأسك
فتجرّد من قيود حاكها شيطان نفسك
واحيَ للحقّ، ففي الحق ترى إشباع حسّك
فإذا ما دبّت الأدواء في أنحاء جسمك
بمشيب غيّرت الحواء من وضّاء رسمك
وطواك الموت، فولاً ماشياً في نهش عظمك
لا تقل إني تجنيت، وأورثت الكمد
واذر أني عادلاً عشت، ولم أظلم أحد
إنّ ذا سرّ الحياة

أحمد شفيق كامل

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٢٣ — الثلاثاء ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — ٦ من مارس سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

مصرع الدكتور أحمد ماهر باشا

يوم كيوم عمر

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما ولي من أمور المسلمين أفضل الناس بعد صاحبيه سيرة وأنقاهم صحيفة وأعدلهم حكماً وأحزمهم في رعاية حقوق الأمة رأياً وأبرهم بالناس وأشدهم شغلاً بأمورهم واغفالا لأمور نفسه وذويه. وأشدهم ورعاً وتعففاً عن الدنيا ومفاتنها. سوى بين الناس وأيقظ في سياستهم رأيه وأنام هواه، فأمن الناس في ظل حكمه واطمأن الضعيف إلى حمايته وكبح المسرفون جماح أنفسهم خشية عدله الذي لا يفرق في الحق بين قوى وضعيف؛ فكان عهده عهد أمن وعدل وخير وبركة، وامتد بفضل هذا الروح النبيل الذي أشاعته سياسته العادلة في أمته ظل سلطانها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وقويت شوكة دولته ونهج ولاته نهجه وساروا في الناس سيرته.

فلو حق لأحد أن يكافأ في حياته وفق عمله ويلقى من الناس جزاء نفعه لهم لكان هو أحق الناس بذلك. ولكن ذلك كله لم يغن عنه شيئاً، ولم يحل دون امتداد يد أثيمة إليه اعتدت على حياته وعجلت ختام تلك السيرة الصالحة.

كذلك كان الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء السابق رجلا من المجاهدين السابقين عرف بصدق الوطنية وشدة الاخلاص لبلاده واشترك في النهضة الحديثة من فجرها، وكان فيها علماً بارزاً وركناً قوياً من الأركان التي قامت عليها دعائمها وولي الوزارة ورأس البرلمان، فكان فيهما من أكفأ العاملين وأغزرهم انتاجاً وأظهرهم استقامة ونزاهة وأشجعهم تصرفاً وأحكمهم رأياً. وكان في الفترة القصيرة التي رأس فيها الحكومة ظاهر الحرص على

تغليب الروح القوى على النزعات الحزبية الضيقة شديد الاحترام للحرية ، لا يتعصب لرأى ولا يتبرم بنقد ، يفسح صدره لخصومه وأنصاره على السواء ، ويحتكم فيما يقوم بينه وبين معارضيه من خلاف إلى المنطق السليم والحجج القوية . وكان شجاعا صريحا ، يجهر بما يعتقد ولا يستتر وراء المداراة والإبهام . وكان عف اليد واللسان ، كريم الخلق ، صادق الوعد ، خالص الطوية ، لا يحمل الحقد ولا ينساق وراء العواطف الجامحة ، وكان عالى النفس لا يتنزل إلى الصغائر ولا يحتمل الهوان زاهدا فيما يتهافت عليه طلاب الدنيا من أعراضها الزائلة وجاهها الكاذب .

فلو كان أحد يستحق — ولا اعتراض على قضاء الله — أن يمد فى عمره جزاء عمله وفضله لكان هو أولى الناس بالبقاء فى هذه الأوقات التى عزت فيها مثل تلك الرجولة وقلت فيها مثل تلك الشمائل الكريمة . ولكن ارادة الله نافذة وقضاء الله غالب . وهكذا شاء الحظ العاثر أن يقوم غر مفتون بالاعتداء على تلك الحياة الغالية وأن تطوى سريعا تلك الصفحة الكريمة وتحرم البلاد من هذه المواهب السامية والأخلاق العالية .

ولو ذهبنا نحلل الدوافع التى قامت برأس ذلك المجرم المفتون لم نجد ما يبرر قيامه بهذه الجريمة الشنعاء . إن كان قتله ليحول بينه وبين اعلان الحرب فما أقصره نظراً وأسقمه تفكيرا ! فهل يظن أن قتل فرد يحول بين الأمة وبين تنفيذ فكرة إذا اقتنعت بصوابها ؟ ولم يقتل هذا الرجل وهو لم ينفرد فى هذا الأمر برأيه ولم يدع أحدا من ذوى الرأى والمكانة إلا استشاره ، ثم احتكم أخيرا إلى شيوخ الأمة ونوابها ولهم وحدهم الكلمة العليا فى توجيه سياسة الأمة ؟ هل غابت كل هذه الاعتبارات عن القاتل الآثم يوم بيت هذه النية ؟ فان كان يجهل الظروف كلها فكيف استحل أن يقطع فى الأمر برأيه قبل أن يتبين الحقيقة ويعرف الظروف ؟ .

إن أحسنا الظن لم نستطع أن نجد تعليلا لهذا التصرف الظالم الا أنه هوس غلب على أعصاب مختلة وعقل مضطرب تخيل ثم خال ، وانساق وراء أضاليل ونزعات ملأت رأسه وأعمته عن الصواب ، أو هو انتحار حياة فاشلة أعجزها أن تدرك الشهرة والظهور من طريق العمل النافع فاتجهت إلى هذا الطريق الخاطئ ، من غير هدى ولا روية ابتغاء الشهرة المسرحية الممقوتة

هى إذاً على أحسن الافتراضات جريمة تدل على خبل فى الرأى واختلال فى الحكم وسوء فهم للأمور ومقادير الرجال .

وهى جريمة تدل على موت وانعدام روح الانصاف ؟ فالمجرم ينصب من نفسه متهما وقاضياً وجلاداً ، لا معقب لحكمه ، ولا يزجره عن جريمته وازع من دين أو رحمة ولا شعور بأى اعتبار انسانى .

وهى جريمة تدل على الخسة والجبن يفاجئ فيها المجرم المسلح المتربص رجلا أعزل لم يستعد لنازلة ولم يتوقع مهاجمة .

وهى جريمة تهدد الحرية وتهدد كرامة الرأى . فبدلا من أن تقرع الحجة بالحجة ويرد على الرأى بالرأى ، يعتمد كل مجرم تذل الى لازاحة من يعارضه من طريقه ويفرض على الناس جميعا رأيه . وفى سبيل ماذا هذا كله ؟ فى سبيل نزوة قامت برأسه سولت له أنه وحده على الحق وطوعت له الاعتداء والإجرام من أجل ذلك

كلا إنها فتنة يجب أن تقمع وحماقة يجب أن تستأصل جذورها حتى لاتنتقل فى الناس عدواها

وأيا كانت الدوافع العميقة التى نبت منها تلك الجريمة الخسيسة فلن نستطيع أن نخلى جو الخصومة الحادة القائمة بين الاحزاب فى مصر من مسئولية غير مباشرة عن قيام مثل تلك النزعات الطائشة فى رؤوس مختل الأعصاب من

حيـــــاتى

ما حياتى ياربيع العمر ، قل لى ، ما حياتى ؟
شتت الحرمان أفكارى كأنسام الفلاة ،
فتبدت الحاضر الجافى بها نبذ النواة ،
وتعلقت بيومين ، هما ماض وآتى :
أرشف اللذات طورا من رحيق الذكريات ،
وأناجى الغيب أطواراً وراء الظلمات .
ضاع يومى ، فتعزيت بأمسى وغداتى .
هكذا أمضى حياتى ! ليت شعرى ما حياتى ؟

• • •

ياربيع العمر إنى قد سئمت الترهات ،
وسئمت العيش يسرى مثل أطياف السبات ،
وسئمت الحظ مخموراً كثير العثرات .
أى خير أرتجيه من زمان لايواتى :
سوف لا أدعوك يادهرى فقد جفت لهاتى ،
ذاب صوتى فى فيافيك كألحان الحداة .
إنما أدعو شبابا مستجيب العزمات
هكذا أمضى حياتى ! ليت شعرى ما حياتى ؟

• • •

ياربيع العمر ، أين الحب أفنى فيه ذاتى ؟
أذوت الأيام وجدانى وعقلى وسماتى ،
فاروني من خمرة الروح بعذب الرشفات ،
وأذقنى من رياض السعد حلو الثمرات ،
واسر بى فوق جناحيك كسرى النسمات .
هكذا قلبى يحيا ناقضا برد الممات ،
راوى الآمال ، صوفى الهوى ، جم الصلاة
تلك والله حيـــاتى فمتى ألقى حيـــاتى ؟

أحمد قدرى

الشباب . ولعل هذه الحالة تدعو رجال الأحزاب لإعادة النظر فى الأسلوب الذى يستعملونه فى مجادلاتهم واللغة التى يعبرون بها عن آرائهم ويناقشون بها خصومهم . إن كل خلاف بين الأحزاب لا يعدو أن يكون خلافا فى الرأى والطريقة . ولن يشك عاقل فى حسن نية رجال مصر وقادتها على اختلاف زعامتهم . ولا يمكن أن يطعن طاعن فى صدق وطنيتهم وإخلاصهم جميعا للبلاد . ولكن الشباب عرضة لأن يضل فى فهم هذا الخلاف إلى أقصى الحدود ، وأن يفسر العبارات الشديدة التى يتبادلها المتخاصمون على أنها غمز فى الوطنية وتشكيك فى الإخلاص . ولا يعلم إلا الله إلى أين ينتهى مثل هذا الفهم فى بعض الرؤوس ولدى بعض الأعصاب . فهلا نتقى الله فى شبابنا ونجنبهم هذه الاتجاهات الهدامة الفاسدة ؟

لن يكون الدم الزكى الذى سفك دما مهدرا ولا الاستشهاد الكريم الذى حدث تضحية ضائعة إذا أفدنا منه تعديلا فى أساليبنا فى الخصومة ورعاية للإنصاف فى تقدير أعمال خصومنا . ولعل الشدائد تذهب بالأحقاد والأحزان تغسل ما فى الصدور من غل . ولعلنا نستيقظ بعد تلك الصدمة ونضيق من هول هذه الكارثة ليتقارب المتباعدون ويتعاون المتنافرون وخير ما نحيى به ذكرى الراحل الكريم ونرضى به روحه الطاهر فى أعلى عليين ، أن نواصل نهجه الحكيم ونتم بناءه الذى وضع قواعده ونسير فى معالجة الأمور بمثل روحه القوى وتسامحه الكبير وسعة صدره واحترامه لحرية الرأى وتقديره للحق أينما كان . رحمه الله رحمة واسعة وأفسح له فى جناته .

(. . . .)

عند الذكرى الخمسينية

لاسماعيل الكبير

نقف اليوم عند آخر الأعوام الخمسين التي تفصل بيننا وبين يوم وفاة اسماعيل الكبير . فاليوم نستطيع أن ننظر إلى الوراء ونتأمل . نستطيع اليوم أن نجمع في نظرة واحدة صور الماضي القريب والبعيد ، ونقرن بين بعضها وبعض ، ونتبين مواضعها ونسبها وملامحها واضحة كما ينظر الطير من أعلى الجو إلى سطح الأرض ، فالأفق يلوح لنا عند ذلك أوسع وأشمل ، على حين تكون ضجة الأرض أبعد وأهدأ .

ولعل اسماعيل كان من بين ملوك مصر أكثرهم ضربا في زحمة الحياة . ولعل عصره كان من بين عصور تاريخنا أكثرها ضجة وحركة . وقد يمر العصر على سلامة وهدوء ، فلا يكاد الناظر إليه من بعيد يجد فيه متسعاً للتأمل ، وقد يمر على حركة شاملة فيكون مثاراً للآراء ومعرضا لوجهاتها المختلفة . ولكن التاريخ المنصف لا يملك إلا أن يؤدي واجب الحق اذا تحدث من الذين بنوه وكانت لهم اليد الكبرى في توجيه حوادثه .

فتاريخ مصر في القرن التاسع عشر يكاد يخلو إلا من أشخاص ثلاثة يتناولون أطرافه : محمد علي الكبير وابنه ابرهيم يقبضان على ناصيته من مطلعه ، واسماعيل يملك زمامه من أواخره . وما عدا ذلك يملؤه أحياناً الفراغ والركود ، وأحياناً العنف والتدمير ؛ فاسماعيل ثالث ثلاثة خلقوا مصر الحديثة بغير نزاع ، ولكنه في نظر التاريخ صاحب الفضل في إقامة أساس البناء الذي تقوم عليه نهضة مصر الكبرى في الوقت الحاضر .

مضى محمد علي الكبير إلى جوار ربه بعد أن سبقه ابنه المظفر ابرهيم الفاتح ، ولكن الحوادث التي تألبت على مصر منذ عام ١٨٤٠ كادت تهدم كل ما بناه ملكاها العظيمان في مدى نصف قرن من الزمان . كان جهد الإصلاح والتقدم في عصر محمد علي بغير شك جهداً جبارا لم يتأت مثله لكثير من البلاد ، فقد نهضت مصر بفضله إلى مصاف الدول الكبرى أو كادت ، ووضعت أقدامها عند أول درجات التقدم المادي والفكري قبل أن تظهر في الوجود أمم كثيرة من الأمم الكبرى ، ولكن الحوادث الجليلة التي توالت بمصر في أواخر حكم منشيء مصر الحديثة كانت بمثابة ضربة ثقيلة هدمت كثيراً من دعائم البناء، حتى كادت تأتي عليه ، وزلزلت الأرض تحت أقدام مصر فلم تستطع مضياً في سبيلها على درج التقدم . وهكذا حتم عليها أن تبقى مزعزعة مترنحة من أثر الضربة الكبرى نحو ثلاثين عاما حتى ارتقى عرش مصر الخديو اسماعيل الكبير .

وسنة الحياة لا تعرف الوقوف ، والحركة من أول قوانين التاريخ . على أن الحركة اذا لم تكن نحو الأمام كانت نحو الوراء ، أو كانت حركة تحلل وفناء في أيام الركود ؛ ولهذا لم يبدأ عهد اسماعيل من النقطة التي انتهى إليها عهد جده العظيم ، بل بدأ من حيث انتهى عهد السنوات الثلاثين الراكدة التي تفصل بين حكميهما . فلما بدأ اسماعيل عمله كان عليه أن يزيل الركام ثم يبدأ بعد ذلك في البناء الجديد .

ولسنا نطمع في مثل هذه الكلمة أن نحيط بأعمال اسماعيل ، فإنها تفيض ، وتضيق عن حديثها موسوعات الكتب .

وقد تخلف لنا فيها من الأحاديث المختلفة صنوف متباينة ، فيها من كل وجهة نظر ومن كل تفصيل ، لا يحتاج أحد معها إلى الحديث المعاد ، ولكن شيئاً واحدا لا نملك إلا أن نذكره ونحن نقف في يوم ذكراه على بعد خمسين عاما منذ يوم لحق بربه في أوائل مارس من عام ١٨٩٥ ؛ وذلك هو أن عهده كان عهد حركة شاملة وحياة قوية

انبعثت إلى كل أطراف مصر .

كان عهد حركة فى الحياة الفكرية وفى الحياة الاقتصادية وفى الحياة الاجتماعية والسياسية ، فأنى اتجهنا بنظرنا اليوم إلى أمر من أمور الحياة القائمة وجدنا تحته الأساس الذى وضعه اسماعيل . ولا يستطيع هذا الجيل الذى يعيش فى أواسط القرن العشرين أن يعرف مقدار عظمة اسماعيل إلا اذا تصور مصر التى وجدها عند أول اعتلائه العرش ، ومصر التى تركها عند ما غادر البلاد على أثر الحوادث النكراء التى أدت إلى جحود فضله حيناً من الزمان .

ليس من طبيعة الأشياء أن يجنى الزارع ثمار مابذره إلا بعد أن تتفتح النواة وتضرب فى الأرض جذورها ، وتمضى فى نموها على سنن الخليقة . وليس له أن يجنى الثمار إلا اذا حل أوان اقتطافها . فإذا كان اسماعيل قد خبأت له الأقدار طائفة من الحوادث تزعجه من أرضه قبل أن يرى ثمار عمله ويقطفها بيديه ، فإن هذا لايغير من الحقيقة شيئاً ، لأن البذور قد تفتحت ومدت جذورها وأرسلت فروعها . وهاهى ذى مصر الحاضرة تجنى من ثمارها بعد أن أضاف إليها الخلف العظيم وتعهدها بعنايته وبعث إليها من روحه . وكانت الحوادث التى إنتهى إليها عهد اسماعيل بمثابة ضريبة العظمة التى طالما امتحن بها المصلحون فى مختلف عصور التاريخ .

كان اسماعيل من أفذاذ المصلحين الذين لايحصرون جهدهم فى ناحية واحدة من نواحى الإصلاح . كان جبار العقل واسع الذكاء مستنيرا إلى أقصى حدود الاستنارة . فأدرك أن الاصلاح الحقيق لايكون إلا بانشاء جيل جديد من الشعب وتمهيد السبيل المادية له للاتجاه نحو حياة مستقبلة جديدة . أدرك أن الأمل القوى ماثل أمامه وليس من خلفه ، فجعل لنفسه شعاراً أن يجعل مصر قطعة حقيقية من العالم المتمدن ، وأقبل على غرضه يحققه فى حماسة وقوة ؛ فلم يغفل جانبا من جوانب الإصلاح ، ولم يغب عنه عنصر جوهرى من عناصر النهضة ، سواء أكان ماديا أومعنويا ؛ فليس فى كل ماحولنا فى عصرنا الحاضر من مظاهر النهضة سبب من أسباب الحياة إلا كان اسم اسماعيل متصلا به وكان هو واضع أساسه ؛ فالتعليم الشعبى كان من أثره سواء أكان ذلك فى دور العلم أم فى المؤسسات الثقافية كدار الكتب ومتاحف الآثار ومسارح التمثيل والصحافة . والنهضة الاقتصادية كانت من أثره سواء أكانت فى الزراعة أم فى الصناعة والتجارة أم فى المواصلات . والنهضة التنظيمية كانت من أثره ، سواء أكانت فى تنظيم الادارة والوزارات أم فى تنظيم الجيش أم تنظيم الحياة السياسية .

والنهضة الاجتماعية كانت من أثره ، فإنه كان على الحق عندما فاخر بأن مصر قد أصبحت بفضله قطعة من أوربا .

وكان اسماعيل فوق ذلك كله ينطوى على نفس مهذبة لاتقنع بدون الكمال . فلم تكن الحياة عنده تقنع بما يمس المادة والعقل ، بل كان يطمح إلى أن يذيق مصر طعوم اللذات النفسية التى تتذوقها المشاعر بصنوف من الأحاسيس السامية . ويكفى أن نذكر فضله فى مخلفات الفن والبناء ، وفى حرصه على نفائس الآثار ، بل لانستطيع أن ننسى فضله فى تنسيق تلك الحدائق الغناء التى لاتزال مسارح للترفيه ، كحدائق القصر الذى أصبح اليوم مثوى غرائب الحيوان ، وحدائق الأزبكية وكوبرى قصر النيل وما وراءه من بساتين ، وحدائق القناطر الخيرية ، أو ذلك الطريق الممتع الذى يؤدى إلى الاهرام ، أوحدائق الاسكندرية الغناء على ضفاف المحمودية أو طريق ضاحية الرمل . ولسنا نجد هنا مجالا لتفصيل ماندين به لذلك الملك الفنان من ألوان التجميل الذى يكاد يكون ملجأ المصريين عموما إلى اليوم ، اذا أرادوا التماس المتع النفسية . كان اسماعيل يحب مصر ويريد أن يبرز حبها فى أعماله ، فكان يتخذ من رقعتها لوحة يبرز عليها بلمساته البارعة ما فى نفسه من محبة لها وطموح إلى تجليتها فى أبدع صورها .

الشرق والغرب

الدنيا اليوم كلها بركان ثائر لسنا ندرى متى يهـدأ وكيف يهدأ : نظريات تتعارض ، ومصالح تتشـابك ، ومبادىء تتخاصم ؛ ولم يبق شىء من الأسس القديمة فى السياسـة والاجتماع والاقتصـاد والأخلاق إلا تزلزل واضطرب ، وثار ولما يهدأ .

ابتدأ البركان يثور فى نقطة ، ثم عم الغرب ، ثم امتد من الغرب إلى الشرق ، فهـذا هو الشرق يتزلزل أيضا ويضطرب أيضا ، لأن العالم كله أصبح الآن شبكة كهربائية تتفاعل فى سرعة البرق .

من قديم وقف الشرق والغرب معسـكرين ، فى الحروب وفى السياسـة وفى الاقتصاد وفى المدنية وفى أساليب الحياة والتفكير ، وغلب الشرق حيناً ، وغُلب حينا ، وثار الجدل بين الأوربيين : هل من المصلحة أن يمدّن الشرق بمدنيـة الغرب أو يترك وشأنه ، يستغله الغرب فى موارد الاستغلال ، ثم يخليه ونفسـه فيما عدا ذلك ؟ وثار الجدل بين الشرقيين أنفسهم : ما موقفهم من المدنية الحديثة ؟ أيأخذونها بحذافيرها أم يتخيرون منها .

ولـكن قوانين الطبيعة الجازمة الحازمة لم تعبأ بهـذا الجدل ، وسارت سيرها الحثيث نحو توحيد العالم وتوحيد المدنيـة فى جوهر الأمور ، وان اختلفت الأشـكال والأعراض . ولم تكترث للحدود الجغرافية المصطنعة بين الشرق والغرب ؛ فالعـلوم والفنون والآداب والأوضاع السياسية ونظم الحياة الخاصة والعـامة تسربت من الغرب إلى الشرق كما تسربت قبل ذلك من الشرق إلى الغرب ، لأن القانون الطبيعي أن البقاء للأصلح والغلبـة للأرقى والأقوى ، والتفاعل الدائم بين المتجاورين .

والزمن يعمل عمله فى هـذا التوحيد بين الشرق والغرب بالرحلات والبعثات والتزاوج والصحافة والثقافة والاذاعة والتجارة فى المخترعات الحديثة ورجال السياسة وأساليبهم وغير ذلك ، كلها تنقل العـادات والعدوات من أقصى الأرض إلى أقصاها فتقرب الفكر والمدنية ونمط الحياة .

وإذا كنا نجمل فى الاشارة إلى كل هذا الاصلاح الشامل فلا يفوتنا إلا أن نقف لحظة عند مأثرتين أخريين للخديو العظيم لا تزالان إلى اليوم من أعز الحقائق القومية عندنا : فأما الأولى فهو السعى لتحقيق الاستقلال ، وقد كان له الفضل فى أن يخطو بمصر خطوة جريئة نحو استعادة الاستقلال الذى انتزعه جده الكبير بسيفه .

فبذل الجهد المتصل فى سبيل استمالة السلطان حتى حصل منه على امتيازات كبرى جعلت مركز مصر السياسى مركز الدولة المستقلة فعلا فى حدود صلة ضيقة بالدولة العثمانية لا تكاد تزيد على دفع الجزية السنوية .

والأثر الثانى أن عصره شهد أول مجلس نيابى يمكن أن نعده الأساس للنهضة السياسية التى نهضتها مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى اليوم .

وإن كانت مصر قد تعثرت فى سيرها بعد عهد اسماعيل فان البذور التى بذرها قد مكنت فى الأرض وكانت أصل النهضة الحديثة بلا ريب . وإنا إذ نقف اليوم نتأمل مدة الأعوام الخمسين التى تفصل بيننا وبين يوم وفاته ، نشعر بأعمق التقدير لتراثه الكبير ، ولا ننسى أن ذلك التراث كان وما زال يزداد على الأيام نماء وبركة ؛ فقد رفع علمه فى هذا القرن العشرين ابنه الخالد الذكر فؤاد الأول ، ولا يزال يمضى به قدما حفيده المأمول للأجيال المجيدة الملك « الفاروق »

محمد فريد ابو حديد

قد يعوق هذا الامتزاج واتحاد المدنية عصبية من هنا أو هناك، كعصبية دينية أو عصبية للجنس أو الدم أو القارة أو اللون أو نحو ذلك، وكلها قد تؤخر السير ولكن لا تغير اتجاهه، فقد يقف الزمن أمام هذه العوائق ولكنه لا يلبث حتى يقوى ويكتسحها ويكمل سيره إلى غرضه غير عابئ بما يبدو من بعض القادة السياسيين من وضع العقبات؛ فكل هذه تنهار أمام القانون الطبيعي في أن سكان الأرض وحدة تتفاعل ويأخذ متخلفها في نفس الطريق الذي سار فيه متقدمها.

قبل ثلاثة قرون ونصف لم تكن هناك هذه الفروق بين الشرق والغرب، فإن كان ولا بد فالشرق كان يسبق الغرب في مدنيته وحضارته ووسائل حياته. ثم حدث في أوائل القرن السابع عشر أن اكتشف الغرب وسائل للعلم التجريبي جديدة بنى عليها ثروته الصناعية والاقتصادية، ومن هنا بدأت نقطة التحول والتفوق. ومن نحو قرنين تضاعفت قوة الغرب باكتشافه بعض قوانين الطبيعة ومعرفته كيف يتغلب عليها، وافتتح عصراً جديداً عماده البخار والكهرباء. والشرق في هذه القرون الثلاثة كان يعتمد على وسائله القديمة الخالية من البخار والكهرباء فتخلف، وكان هذا هو الفرق الكبير الذي نراه الآن. وليس هذا فرقاً طبيعياً في عقلية الأمم، فالتاريخ علمنا أن التفوق والنبوغ يتحول وينتقل بين الشعوب لأسباب نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها، كنبوغ الأفراد يظهر من حيث لا نعلم، فقد ينبغ من بيت حقير ومن بيت عظيم ومن أسرة وضيعة ومن أسرة نبيلة ومن قرية ومن مدينة ومن أكثر الناس علماً ومن أقلهم علماً. وهكذا نبوغ الأمم، حملت رايته الصين حيناً والهند حيناً واليونان حيناً وبغداد حيناً والقاهرة حيناً، وجاء دور الغرب فحملها، وهو دور كسائر الأدوار، فلا معنى للتبجح بدعوى التفوق الطبيعي والاستمرار الزمني والمكاني، فما على الشرق إلا أن يأخذ بالوسائل التي اعتمد عليها الغرب من العلم التجريبي واستخدام البخار والكهرباء، حتى تتغير مدنيته وحياته وأخلاقه ويتبوأ مكانه.

وليس كل الذنب في تقصير الشرق راجعاً إليه وحده. نعم إنه تكاسل وتوانى وأخلد إلى الراحة حيناً طويلاً، لكن جزءاً كبيراً من المسئولية يرجع إلى الغرب، فهو لم يأخذ بيده إلى الآن كهاد ومرشد؛ بل هو إذا رأى الشرق ينتبه ويحرك سر التقدم الغربي ويبدأ في أن يسير سيرته ويحذو حذوه صده ووقف في سبيله لمنفعة له وقتية أو نظر آني قصير أو استغلال مادي حقير؛ إن أراد استخراج الحديد من أرضه لم يشجعه، وإن أراد أن يغزل قطنه لم يؤيده، وإن أراد أن يقوي جيشه لم يفسح الطريق له، وإن أراد أن يصلح سياسته كما يرى وكما ينبغي لم يمكنه من ذلك، ثم عيب عليه تقصيره، وتخلفه واتهم بأن عجزه طبيعة فيه.

إن المدنية الغربية قامت على أكتاف أشخاص يعدون على الأصابع أمثال جاليليو وكبلر وهارفي ونيوتن وغيرهم، لو منح مثلهم الشرق لتحول تحولاً خطيراً وسار إلى الأمام سريعاً. ولكن لم منح الغرب هؤلاء، ولم يمنح الشرق مثلهم؟ إن البيئة الشرقية الحاضرة لا تسمح بخروجهم لا لطبيعة الشرق ففي القديم أخرج الشرق من العظماء ما لم يخرجه الغرب، ولكن لأن الظروف الاجتماعية والسياسية في العصور الحاضرة لا تسمح بخروج هؤلاء النوابغ في الشرق، والمسئول عن ذلك الشرق بجموده والغرب بضغط قوته وسلطانه. وفي حدود التخلص من هذه القيود استطاع الشرق أن يرقى بعض الرقي، وينهض بعض النهوض.

لقد بنيت المدنية الغربية — كما يقولون — على أركان

أربعة مادية وأربعة معنوية (١) تمكين كل فرد أن يعمل لترقية نفسه حسب ملكاته وقواه (٢) استغلال الأراضي أحسن استغلال حسب خصوبتها (٣) استخدام الأمة الطبيعية التي حولها لصالحها (٤) تصريف سلعها ومنتجاتها في أوسع دائرة من الأسواق (٥) العناية بتأسيس الأخلاق القومية لا الأخلاق الفردية وحدها (٦) غرس المبادىء التي توحي بشدة المحافظة على الحقوق — والمطالبة بها إذا أهملت — وأداء الواجب (٧) حب الحرية وعشق النظام (٨) حب المغامرة والميل إلى الإقدام والرغبة في التجديد . وماعدا ذلك فأمور سطحية كالعادات والتقاليد في الأفراح والجنائز والزواج والطلاق والملابس ونحو ذلك .

ولست أرى ما يمنع الشرق من السير على هذه الأسس إذا أخلص قادته من جهة وأفسح له الغرب طريقه من جهة أخرى .

لو أعطنا الشرق بكل بيئة الغربي السياسية والاجتماعية وثقفناه بالعلم وربيناه على النهج الغربي لكان كالغربي في تفكيره وميوله وأخلاقه ، والعكس ، بدليل مانرى من أن الفروق تتضاءل جداً بين المثقفين الشرقيين والمثقفين الغربيين في العقلية ، وتتضاءل بين من عاشوا في انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا في الأخلاق . فكيف إذا اتحدوا في أشكال الحكومات والنظم السياسية وما إلى ذلك ؟

قد يظهر بعض الفوارق في مزاج الشرق والغرب ، فالشرق أميل إلى التأمل والغرب أميل إلى العمل ، والشرق أميل إلى النظر الماضي في تاريخه والمستقبل في جنته أو ناره ، والغرب أميل إلى النظر الحاضر في دنياه ، والشرق أميل إلى النظريات وإلى التجريد ، والغرب أميل إلى التطبيقات وإلى الواقع ، والشرق يميل إلى ماوراء المادة ، والغرب يميل إلى التغلب على الطبيعة وضبطها بالعلم

ولكن هل هذه الفروق وأمثالها توجب التعدد والانقسام والنظر الدالي إلى الأسفل والنظر الأسفل إلى العالي ؟ أو هي فروق كالفروق التي بين أفراد الأسرة يكون فيها الذكر والمؤنث وقوي العاطفة وجامدها والأديب والعالم ، وهذه الفروق لم تمنع أن تتكون منها أسرة متوحدة متعاونة متحابة .

الحق أن ليست هناك حضارة غربية وحضارة شرقية ، فما نسميه اليوم حضارة غربية بعض نتائج الصين في اكتشافها صناعة الورق والطباعة والبارود ، وبعض نتائج الهند والعرب في العلوم الرياضية والفلسفة ، كما أنه بعض نتائج فلسفة اليونان وعلمهم وفلسفة المحدثين وعلمهم أمثال كانت وجاليليو ونيوتن ؛ فالعلم والفلسفة والاختراع والمدنية مدينة للنوابغ من جميع أنحاء العالم من هند وصين وعرب ويونان وانجليز وفرنسيين وألمانيين ، فتسميتها بالحضارة الغربية تسمية عن احتل أعلى طبقة في البناء الذي شيده العالم منذ نشأته واشترك في تشييده النوابغ من كل صقع ومن كل جنس . وتسمية البناء باسم سكان الطبقة العليا تسمية تعسفية أو اصطلاحية أو هي كالبطاقة توضع على السلعة للتعريف بها

وكذلك لا أفهم معنى للشرق والغرب بالتفسير الذي يقصدونه ، وهو أن هناك فروقاً خلقية وطبيعية بين سكان في بقعة وسكان في بقعة أخرى ، وأن هذه الفروق قدر محتم كالقدر الذي جعل هذا حجراً وهذا نباتاً وهذا حيواناً وهذا براً وهذا بحراً ، وأنه من المستحيل أن يتحول هؤلاء إلى أولئك ولا أولئك إلى هؤلاء . وعبروا عن هذا المعنى بقولهم : « الشرق شرق والغرب غرب » أي كما نقول الأرض أرض والسماء سماء .

فهذه نظرية خلقها التعصب وخلقتها السياسة . والحق أن القوانين الطبيعية لاتعرف هذه الحدود الفاصلة ، وإنما

تعرف موجات يتموج بها العالم كله ، وتعرف أن الرقى العقلى وحضارة العالم وعلمه وخلقه سُلّم واحد تقف منه الأمم على درجات وتقف كل أمة منه على قدر استعدادها وجدها ، وأن ليست الدرجة العليا وقفا على قوم دون قوم ولا على جنس اسمه الغرب دون جنس اسمه الشرق ، بل الدرجات تتبادل والدرجة العليا تحتلها الأمم بالتناوب ، وكل أمة بلغت أعلى درجة فى شىء أفسحت الطريق أمام الآخرين ليبلغوها وقد يزيدون عليها . وليست الأمم تماثيل واقفة على سلمها لا تتعداه ، فالعالم لا يعرف السكون وإنما الحركة ، والسُّلّم عليه دائما حركات بهلوانية يرتفع عليه قوم وينخفض آخرون

لقد وسع الهوة بين ما يسمى بالشرق وما يسمى بالغرب طائفتان : رجال الدين ورجال السياسة . فأما رجال الدين فقد شاء القدر أن يكون ما يسمى بالغرب مسيحيا وما يسمى بالشرق مسلما أو بوذيا أو غير ذلك ، فنشط رجال الدين يبشرون ، وكان من وسائل ذلك الرمى بالانحطاط والضعف وتصوير الشرق فى صورة وضيعة ، واستتبع ذلك رد فعل من الشرق بالكراهية والنفور والتحفظ وسوء الظن وما إلى ذلك . وأما رجال السياسة فقد لعبت برؤوسهم الوطنية ، ولعبت الوطنية دورها فى العداء بين الأمم الأوربية نفسها ، ولكنها وجدت مجالها الفسيح فيما يسمى بالشرق فتسابق الساسة الأوربيون أن يقدموا لأممهم الهدايا من الشرق بالاستعمار والانتداب والتدخل وبسط النفوذ . وكلما كان المكسب أكثر كانت الأوسمة والألقاب التى يكافأ بها على الوطنية أكثر . وكما حصل رد الفعل من رجال الدين حصل كذلك من رجال السياسة ، فقوبلت وطنية الغرب بوطنية الشرق ، وحصل النزاع المستمر بالقلم دائما وبغير القلم أحيانا

ولا شفاء من هذا إلا بتعديل الأساس وهو إلغاء الشرق والغرب بالمعنى الذى تعورف عليه إلى اليوم ، والنظر إلى العالم كوحدة وتبادل الصالح عن طريق التعاون لا طريق الاستغلال ، وإحلال الانسانية محل الوطنية .

لو فكر الساسة تفكيرا عميقا وحسبوا ما يكسبون حقا وما يخسرون حقا من نظرتهم القديمة لوجدوا الخسارة أكثر من الكسب ، وأن الصالح المشترك يمكن التفاهم عليها عن طريق التعاون والأخذ والعطاء ، لا من طريق الأخذ قسراً من غير عطاء ، ولا من طريق الوطنية الضيقة بالنظر إلى الكسب فقط

وقد آن الأوان لتعديل هذا الأساس ، فما يسمى الشرق لم يعد طفلا غرا يضحك عليه بالملعب ، وما يسمى الغرب قد ذاق مرارة الوطنية الحادة ، ودعاة الإصلاح منهم يكثرون ويُكثرون من الدعوة إلى الإنسانية بدل الوطنية حتى فى معاملة الأمم المهزومة

وتعديل الأساس على هذا المنوال هو ما تنادى به الطبيعة نفسها وما ينادى به تقدم العلم وتقدم الاختراع الذى جعل من العالم وحدة . والقوانين الطبيعية لا ترحم فان سمع اليها القادة فبشرهم بنعيم مقيم وإلا فبعذاب أليم

احمد أمين

النشاط الصهيونى

فى فلسطين

– ٢ –

عرضت فى مقالى السابق للشركات التى تقوم باستعمار الأراضى فى فلسطين ومهمة كل منها .

وأمام هذه المؤسسات المنظمة المدعمة بسلاح المال وسلاح من لا منطق له ولا سند ، وقف عرب فلسطين عزلا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان بحقهم يقاومون فى جلد ، ويدافعون عن كل شبر من أرضهم وعن التراث المقدس للعرب جميعاً ....

ولسنا نرسل القول على عواهنه إن قلنا إن دفاع عرب فلسطين كان مجيداً ولم يكن دفاع اليائس فى يوم من الأيام ، فقد مضوا وفق ما تقتضيه الظروف ، وكان وعيهم من القوة بحيث أدركوا مواطن ضعفهم ومصادر قوة خصمهم فأخذوا بسبيل تقوية أنفسهم واستفادوا مما ألقته الظروف من دروس .

لكن الاستعمار الصهيونى ليس كله قصة الأرض ، فهناك قصة الصناعات والانتاج الصهيونى الذى يبالغ بعضهم فيتخيله انتقالا لميدان الصناعة من الغرب إلى الشرق . فقد نشطت فعلا صناعات كثيرة فى فلسطين ، واستطاع اليهود أن يجعلوا من تل أبيب مركزاً صناعياً هاماً فى الشرق خلال سنوات الحرب . ويرى أنصار الوطن القومى لليهود أن تنظيم الانتاج الزراعى والنشاط الصناعى فى فلسطين ، يدل على أن إنشاء الوطن القومى لليهود ضرورة لازمة لنهوضه . وتتردد على ألسنتهم دائماً أمثال هذه الجمل : ألا ترى كيف تقدمت الزراعة ؟ أكان يمكن أن تنتج فلسطين مثل هذه المصنوعات لولا الاستعمار الصهيونى ؟ لقد حملنا معنا حضارة أوربا إلى الشرق ! ....

وللرد على هذه الآراء لابد من الصراحة أيضاً . فقد كان من الطبيعى أن يحدث هذا التحسين فى وسائل الزراعة بطبيعة التطور دون حاجة إلى هجرة صهيونية .

فقد تحسنت وسائل الزراعة فى مصر مثلا دون أن يغزوها الاستعمار الصهيونى لحسن الحظ . كما أنه قد قامت بها (بمصر) صناعات لا تقل عن الصناعات اليهودية ، لا لشىء إلا لأن ذلك سنة التطور الطبيعى ، مادام الشرق قد اتصل بالغرب ، ومادامت مصر قد حذت حذو الغرب ، وإن كان تأريخ الحضارة لهذا النهوض قد يتأخر فى فلسطين عنه فى مصر ، فإنه فى مصر يتأخر عنه فى البلدان الأوربية ؛ تلك سنة تأخر وصول الحضارة أو الأخذ بأسبابها . فاذا كان اليهود قد نهضوا بالصناعة فى فلسطين فإنها كانت ستنهض حتما بيد العرب .

ويجب ألا يغيب عن البال أن الهجرة الصهيونية الملحة التى أنهضت الصناعات إنما هى هجرة العلماء ، وهذه الهجرة ليست من صنع اليهود ، فهؤلاء العلماء الذين غادروا ألمانيا وبلدان أوربا إنما غادروها تحت ضغط الاضطهاد النازى ، ولا أحسب أنهم جاءوا تلبية لدعوة الوطن القومى . بل إنهم ليتحرقون شوقا لزوال ظروف هذه الحرب وفناء النازية لكى يعودوا إلى بلادهم[1]

وقد كانت فلسطين العربية حرية أن تحذو حذو غيرها من الأمم التى تقدمت فى الصناعة والزراعة . كان من الممكن

(١) يقول فرجينيا س . بايتون فى تقريره عن فلسطين والمنشورة ترجمته بمجلة المختار عدد يوليه ١٩٤٤ : « إن رجال الوكالة اليهودية يخشون بعد الحرب أن يعود اللاجئون من العالم الخائفين — وهم الذين يصنعون هذه المنتجات — إلى أوطانهم . فقد كان اليهود الثلاث يندمجون فى الأمة التشيكية إلى أن نشبت الحرب ، ولم يكن يقع عليهم اضطهاد ، ولا كانت تعترض حياتهم عوائق . وهم يعدون أنفسهم من التشيك كما أخبرونى ، لأنهم يهود . ومن الغريب أن عشرات من اليهود الألمان ينوون العودة إلى ألمانيا . وهذا الفشل فى غرس جذور اللاجئين وتعميقها فى ثرى فلسطين ينطبق على الأمريكيين أيضا . فما تزال من جوازات السفر الأمريكية إلا أقل من مائة من اليهود الأمريكيين الذين تبلغ عدتهم ٥٣٠٠ » .

أن تستقدم العلماء والخبراء فى الصناعات ، فتخطو إلى الأمام دون حاجة إلى الاستعمار الصهيونى ، ودون حاجة إلى دفع هذا الثمن الباهظ مقابل نقل بضع عينات من النشاط الصناعى .

ومن الواضح الجلى أن ماحملته الصهيونية إلى فلسطين من ألوان التقدم الصناعى لايمكن بحال من الأحوال أن ينسب إليها . فليس هناك علم صهيونى ولا فن صهيونى يطبع طابع هذا التقدم ، وإنما هى ألوان من التقدم الأوربى حملها المهاجرون من شتى الدول الأوربية .

وثمة حقيقة أخرى يجب أن نذكر بصدد هذا التقدم الصناعى . فالصهيونية لم تكن فى فلسطين رسول تقدم كما يظن لأول وهلة . لم تكن من السخاء والطيبة بحيث تدق قطاف العلم الأوربى من العرب . ولم تكن حاملة المشعل ينير الطريق . أبدا . لم تكن شيئا من ذلك . فإنها لتخفى بيديها نور المصباح حتى لايهتدى به ضال . وإنها لتحرص على علمها حرصا يتقاصر دونه حرص الشحيح على ماله ، ولم تألفه الإنسانية عند الهداة والرشدين وعند رواد التقدم وطلائع المدنية . ولقد قدمت للقارىء كيف تحرص الشركات الصهيونية على أن تبعد العرب عن الأرض التى تشتريها منهم ، والحال كذلك فى النشاط الصناعى ، فما يسمح اليهود للعرب بالعمل فى مصانعهم ولا فى متاجرهم ، ودوائر الصناعة عبارة عن مستعمرات مقفلة لحمتها وسداها من اليهود ، وكل مايسمح للعرب به هو أن يشتروا مايشاءون من الإنتاج الصهيونى

وإذاً فلا تقدم ولا نشر المدنية ، ولا أثر بالمرة للصورة البراقة التى يظنها الكثيرون ، صورة النجمة الصهيونية يشع منها نور العلم والتقدم فى أرض فلسطين . ولقد زرت عاصمة المجد الصهيونى تل أفيف ، وراعنى نشاطها فى النهار وفى الليل . وأخذ بمشاعرى التكاتف بين أبناء هذا الشعب . لمست فى الإنتاج الصهيونى روح الصناعة الأوربية على صورة مصغرة لاتخلو من جودة وإتقان ، ولكننى مع ذلك كله لم أملك أن أسأل نفسى هذا السؤال : هل ما أراه تحول فى فلسطين من حال إلى حال ؟

ولقد جاءنى الجواب سريعاً . جاءنى إذ خطرت لى أيام الحرب الأولى فى مصر . حين اضطرت بعض الدور الصناعية أن تبتعد عن خطر الغارات فأنشأت فى الجهات النائية نماذج مصغرة لمصانعها لمواجهة ظروف الحرب ، وقد كانت هذه النماذج تنتج كما تنتج المصانع الأصلية ، نفس المنتجات ... وبنفس الأيدى . ولو قد طال الأمر لتكاثر عددها ، حتى ليوشك أن ينخدع من رآها فيظنها مدينة صناعية عريقة التقاليد ، وهى لا تعدو أن تكون مدينة مهاجرين ...

وتلك هى تل أفيف حين تتبلور مشاعرك وتتركز أحاسيسك . إنها مدينة مهاجرين ، فيها نشاطهم وفيها مزاياهم ، وفيها القلق الذى تشمه من الهواء ، وتستشعره خلف موجة الإعجاب والانبهار ..

وأخيرا كان من الممكن أن يبدو رأى أنصار الصهيونية الذى سقناه وجيها لو أنه ثبت أن العرب لم ينهضوا من ناحيتهم ولم يتجهوا نحو التطور ولم يأخذوا بأسباب المدنية . وكان من الممكن أيضا أن يبدو وجيها لو أن عرب فلسطين أبدوا ما أبدته بعض قبائل أفريقيا أو الهنود الحمر مثلا من انطواء وانزواء وإيثار للحياة فى ظلال الظلام .. عندئذ كانت نظرية البقاء للأصلح — مع بعض التجاوز — تبيح أخذ مابيد العرب لكى يعطى لهؤلاء الصالحين للحياة ..

لكن ذلك لم يحدث ، فإن فلسطين العربية كانت — قبل التمدين الصهيونى . قد بدأت تسير فى سبيل النهوض بخطوات صحيحة .. خطوات كانت ستصل بها مع اجتناب الضرر إلى ماوصلت إليه الصهيونية من مجد صناعى ، ولسوف أتحدث من هذه الخطوات فى عدد قادم .

صموع زهنى

دعايـــة .....

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

— أيها الحكيم الأريب ! حدثني حديثاً عجباً عن « الدعاية » ومبلغ تأثيرها في عقول الأفراد وضرب لي مثل الرجل الذي يذهب إلى السوق عامداً متعمداً ليشترى سلعة معينة على الرغم من أنه كان لا يرغب فيها ، وليقتنيها وهو يعلم أنه لا حاجة له بها ، ومع ذلك فهو يذهب في طلبها كما لو كان تحت تأثير سحري بفعل هذه « الدعاية » التي يقوم بها التجار لسلعهم ، فيطالعونه بإعلاناتها في صحف الصباح والمساء ، ويواجهونه بلوحاتهم المزركشة منها على جانبي طريقه في غدوه ورواحه ، وقد يلاحقونه بها في الراديو وفي دور السينما وفي كل مكان يرتاده ، حتى يغشى على بصيرته ويفقد ملكة الحكم الحر على حقائق الأمور ، وقد ينتهي إلى أن يرى حسنا ما ليس بالحسن . فهل أنت محدثي عن أثر هذه « الدعاية » في عقلية الأمم؟ وهل هي تبلغ من تلك العقلية العامة مثل ما تبلغ من عقلية الفرد الخاصة ؟ .

قال بيدبا :

— اعلم أيها الملك العظيم — خلد الله ملكك ، وأدامك للعلم نصيراً وللفن ظهيرا — أن ضمن الأمثال العامة قولهم : « الدوى في الآذان أفعل من السحر ! » وأنه ليس يدوى في الآذان شيء أكثر من « الدعاية المنظمة » . وأنه لذلك كان أثر الدعاية أفعل من السحر ، وأن الأمم تنقاد بفعل الدعاية كما ينقاد الفرد ، وأن الداعية الماهر يستطيع أن يلقى بأمته في أتون الحرب وهي أشد أهل الأرض تعلقا بالسلام . وقد نقل الأقدمون عمن سبقهم أن فريق من يسمونهم « الحلفاء » في الحرب العالميـة الأولى أوشكوا أن يلقوا سلاحهم تحت ضغط أداة الحرب الجرمانية في أواخر أيام تلك الحرب . ويقول الرواة إنه « لم ينقذهم من هـذا المصير إلا إنشاء إدارة للدعاية أخذت تطبع ملايين المنشورات وتلقيها على الجيوش الجرمانية فحطمت روحها المعنوية واضطرتها بعد شهور قلائل إلى أن تجثو على ركبتيها خاضعة كسيرة » .

وإن من حكومات البلاد المجاورة لملكك السعيد يا مولاي من فطنت إلى هذه الأمور فتحكمت فيما يصل إلى أسماع شعوبها وإلى أبصارهم حتى لا يتسرب شيء إليهم إلا ويكون لهم فيه منفعة ، ولا يسرى إلى نفوسهم توجيه خاطيء يصرفهم عن السير بقافلتهم في سبيل التقدم والفلاح . وإن ولاة الأمور الذين يغفلون عن صنع ذلك يوشكون أن ينتهوا بأممهم إلى مصير مثل مصير بني زُليط حين تحكمت فيهم الدعاية السيئة فأوشكت أن تقضي عليهم .

قال دبشليم الملك : وكيف كان ذلك ؟ .

قال : زعموا أنه كان بأرض قفطبند قوم ينتمون من بعيد إلى قبيلة بني زُليط . وكان هؤلاء القوم يقيمون في رغد من العيش متحابين متآلفين متضامنين ، جادين في العمل على تحسين حالهم ورفع مستوى عيشهم ، وكان أصحاب الفكر منهم يدأبون على تزويدهم بكل ما ينفعهم في شئون دينهم ودنياهم. فبعد الأمية المطلقة انتشر التعليم في أروقتهم وأقيمت المدارس في كل مكان : بدأت بتعليم القراءة والكتابة ثم أخذت ترقى شيئاً فشيئاً حتى انتهت إلى جامعات للدراسات العليا . . والتفلسف في حقائق العلوم والتعمق في دراسة الآداب .

وبعد العجز المطبق في ميدان الصناعة صارت لهم المحالج والمغازل والمناسج والمصايد والمصارف ، ومصانع الزجاج والورق والجلود ، وغير ذلك شيء كثير .

وبعد الإقفار والبوار زرعت أراضيهم وشقت فيها

الترع والمصارف ، وجاد محصولها وتوفرت خيراتها . . .

وبعد الإملاق والإفلاس انتعشت ماليتهم وعظمت ثقة الناس فيها . وهكذا كان شأنهم في كل مرافقهم الأخرى . وقد هيأ الله لهم ولاة يرجون لهم الخير ويقدرون على عمله ، فكانوا يتنافسون في أن يقرن كل واحد منهم عهده بتحقيق أكبر قسط من أمانيهم التي لم يوفق إليها سلفه . وبذلك أخذت هذه الأمة تصعد في سلم المجد بخطوات ثابتة حثيثة حتى قيض الله لها آخر الزمان طائفة من أبنائها أخذوا ينقضون كل هذا الغزل من بعد قوته أنكاثا . وكانوا جماعة من الشعراء والزجالين ينظمون المقطوعات الخفيفة ويحسنون سبكها . فيذيعها جماعة من المطربين ألحانا جميلة جذابة يتناقلها الصبية في الطرقات ، والعمال في المصانع ، والتلاميذ في المدارس ، والسيدات في بيوتهن .

وليس في الشعر عيب ولا على الغناء مأخذ . بل إنك أيها الملك العظيم — خلد الله ملكك . . . . الخ ! — لتعلم أن الشعر والغناء ضرورتان من ضرورات الحياة لا تستقيم إلا بهما . ففيهما الترفيه عن النفس والتخفف من أثقال العيش . ولكن المحنة أوشكت أن تقع من سبيل المعاني التي يضمنها هؤلاء الشعراء شعرهم . فقد كان معظمها ينطوي على روح خبيثة تعصف بالنفوس الرزينة الصالحة فتغريها بالفساد والاستهتار والأثرة ، والإغراق في اللهو والشراب . ولم تمض سنوات على انتشار هذه الأناشيد المدمرة حتى تغيرت نفسية القوم ، ففترت عزائمهم . وقويت فيهم ملكة التواكل وعدم الاكتراث . وتخاذلت قوائم المتوبة . ومالوا إلى اللهو الرخيص . واستهتروا فلم يعد يجذبهم الجد في أمر من الأمور ، وتنافسوا في انتهاب الفرص الشخصية . وجر النظام الفردية عملا بحكمة جيلهم الجديد :

(زهرة وتذبل على أغصانها — وتروح في الحال — يالله اقطفها قبل أوانها — دا العمر خيال)

وكان العامل يذهب إلى محل عمله في الصباح وهو يتغنى في الطريق بقوله :

(أوعى تؤمل ثانية — حظك بالدنيا . . .)

وصار الشاب الذي اكتظ ذهنه بما حفظه في مدرسته من الأناشيد الوطنية لا يجد ملهاة له إلا في ترديد قوله :

(اشرب كاس الهنا في وارقص على الأغاني ده بكره كله فاني . . .)

وكان الرجل الرصين منهم إذا حزبه أمر فخلا إلى نفسه ، شغله من التفكير في شئونه هاتف يهتف في داخل نفسه :

(انس الدنيا وريح بالك — واوع تفكر في اللي جرالك)

وهكذا غير الله حال هؤلاء القوم ، وفعلت فيهم هذه النغمة الجديدة أفاعيلها فخدرت أعصابهم وتركتهم في حالة نشوة بحاضرهم ، أنستهم ماضيهم وأذهلتهم عن مستقبلهم ، وشب نشؤهم الجديد على حب اللهو والعبث . وذهبت منهم حية آبائهم وأجدادهم ، وأصبحت الميوعة طابع جيلهم . وبعد أن كان الرجل منهم يتحاشى التدخين في حضرة أخيه الأكبر ، أصبحت فتياتهم يشربن الخمر في حضرة آبائهن وأمهاتهن . وحقت بذلك عليهم كلمة الحق جل جلاله : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

فهذا هو أيها الملك العظيم مثل الدعاية السيئة وما تستطيع أن تفعله بالأمم والشعوب . وقديما قالوا :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

* * *

عصمك الله أيها الملك من الزلل ، وجنب رأيك الخطل ، وأضاء بنور عقلك طريق أمتك . وجعل هدايتها موصولة بحكمتك وواسع خبرتك

ع . ع

من الأدب الألباني:

وادي الدموع

شاعت الفوضى في أنحاء القرية، وساد الهرج والمرج، وانقلبت الأوضاع، وانعكست مجارى الأمور فأصبح الصغير لا يحترم الكبير، وأضحى المرءوس لا يعترف بسلطان الرئيس؛ ذلك لأن الخوف والهلع والجزع والفزع قد استولى كل أولئك على النفوس، وملأ القلوب، فأصبح كل إنسان لا يفكر إلا في مآل أمره ونهاية مصيره، فقد تسلسل إلى القرية الوادعة فرق من اللصوص والجيش الصربي فضوا فيها على الطمأنينة، ونشروا الذعر بين أرجائها، فاعتصم الناس بمنازلهم، إبقاء على نفوسهم، وضناً بحياتهم. ولو أنك جُست خلال القرية وفتشت في جنباتها لما صادفك إلا نافذة مفتوحة وقد أوصدت جميع الأبواب والنوافذ.

أطلت من تلك النافذة فتاة، وضيئة الطلعة، لطيفة التكوين، نادرة الحسن — على الشارع الذي يمر عرضها في سهوم ووجوم. ولا إخالها إلا كانت تفكر في مصير منطقتي «دِبْرا وتُوسُوفا» وغيرهما من المدن الآمنة التي سلبها الغير هدوءها واطمئنانها، وقضت أوربا عليها أن تضع نير الاستعباد على رقابها وتسلم قيادها لصربيا، ولا إخال إلا أن تفكيرها في عاقبة أمر تلك المدن قد طال، إذ طالت وقفتها، ولم تباشر أي عمل في ذلك اليوم حتى إنها لم تتناول طعاماً.

نحن قبيل الغروب، والشمس آخذة في جمع ما انتشر من ضوئها، وما تفرق من نورها، لتختفي وراء الجبال. وإذا الناس جميعاً يسمعون طلقات نارية تدوي في الفضاء، وتملأ الأرجاء، وإذا أصوات تشق عنان السماء في فرح: «تحيا الحرية» وإذا وقع حوافر الخيل عند مدخل الشارع الذي تطل عليه الفتاة! فقد وصلت فرقة من الجيش الألباني الباسل لتحرير القرية، وكانت الفرسان في المقدمة، تليها المشاة، وتتبعها المدفعية. وكان قائد الفرسان فتى لما يتخط العقد الثاني من حياته، امتطى صهوة جواد أبيض، يتناثر من فمه ما يشبه رغوة الصابون، دليلا على ما أصابه من تعب نتيجة جري طويل. وكان منظر هذا القائد على هذا الجواد يبعث في نفس من يراه الإجلال والإكبار، بما عليه مظهره من قوة، وما يشيمه من عزم وحزم.

كانت الفتاة تنظر فخوراً إلى أبناء ألبانيا والهم يجري في عروقهم، وأسلحتهم تلمع على أكتافهم، ولسان حالهم ينطق: الحرية أو الموت!... فالتقت عيناها بعيني ضابط الفرسان الشاب، فأحست كأن سهما رائشا نفذ إلى قلبها من شدة خفقانه، ورأت نفسها دون شعور تبتسم وتسرع إلى أصيص الزهر الذي بجوارها فتقطف منه زهرة جميلة وتلقي بها إليه، فيتقبلها شاكراً ويطبع عليها قبلة أودعها كل ما جاش به صدره من حنان وتقدير وعطف، وينظر إلى الفتاة باسماً ويسمع هتافها مصغيا وهي تقول: «تحيا الجنود البواسل. تحيا قائد الفرسان».

* * *

أوربا العريقة في المدنية، التي ما زال صوتها يرن في الآذان، داعية إلى القضاء على الطغيان، تلعب بالأراضي الألبانية كما تشاء، وكما يشاء لها هواها، فتمنحها من تشاء، وتمنعها من تشاء، ناسية أن التاريخ سيدون تلك المعاملة والتناقض الظاهر بين أقوالها وأفعالها. وسيذكر التاريخ أن الألبان الشجعان أبوا أن يخضعوا لقرار مؤتمر «برلين» الجائر الذي قضى أن تسلم «دبرا وتوسوفا» طعمة سائغة «لصربيا» وأبوا أن يستكينوا للظلم، فصح عزمهم على أن يحاربوا الطغيان، إلى آخر رمق من حياتهم، فاتخذوا من حزمهم دروعا واقية، ومن شجاعتهم حصونا مانعة. وتأهبوا في سرعة البرق، والتقوا بالعدو في ميدان القتال غير هيابين ولا وجلين، ولا مبالين بما امتلأ به الميدان من أشلاء متناثرة، وجثث مبعثرة، وأجسام مشوهة،

طاحت منها الرؤوس وزايلتها الأعضاء ، وسالت منها أنهار من الدماء . غير أنه بعد أسبوعين مرا على هذه الحال طلب الفريقان عقد هدنة لدفن القتلى وإرسال الجرحى إلى المستشفيات . . ولقد أطلق الألبان على المكان الذى ضم رفات الشهداء « مقبرة الشهداء » ووضعوا فوقه العلم الألبانى ذا اللون الأحمر مع سواد ، وفى وسطه صقر ذو رأسين رمزاً لمأتم شهداء الوطن .

أما الجرحى فامتلأ بهم المستشفى الكبير على سعته ، وتجاوب فى أنحائه صدى أنينهم ، وإن الزائر له فى هذه الأثناء — مهما قسا قلبه — ليذرف الدمع سخينا حزنا وأسى على نزلاء هذا المكان ؛ فمن مبتور الساق إلى مقطوع اليد أو الرجل إلى الجريح جرحا بالغا ، إلى غير هؤلاء وهؤلاء ، من ضحايا الاستبداد . وبين هؤلاء الجرحى جريح حمله إلى المستشفى جنديان فى محفة ، وجرحه بالغ فى الخطورة ؛ فقد استقرت رصاصة فى ثديه الأيمن ، والطبيب من ورائه ، وزائرة المستشفى تتبعه فى اهتمام ، وتنظر إلى المريض فى عطف . . خلعوا ملابسه ، وأناموه فى رفق وعناية على فراش وثير . الطبيب يلقى إلى الزائرة أوامره ، فيقول : يا فاطمة وفرى الجهد للعناية بهذا الشاب . سأوالى الكشف عليه . فاطمة تسأل الطبيب بلهفة : وهل هو فى خطر ياسيدى ؟ فيجيبها الطبيب : إن كانت الكبد سليمة فلا بأس عليه . ولكن . . . . ثم يخرج قبل أن يتم كلامه .

أقامت فاطمة بجوار المريض أياما ثلاثة ، لايهدأ لها بال ، ولا يرقأ لها دمع ، ولا يهنأ لها طعام ولا شراب ، يعوده الطبيب كل يوم ولكنه لايقطع فى شأنه برأى . وهى لاتجرؤ أن تسأله خوفا من أن يكون فى الجواب مايضاعف ألمها ، إلا أن المريض فى الهزيع الأخير من الليلة الثالثة تحرك فى سريره وفتح عينيه اللتين ظلتا مطبقتين طوال الأيام الثلاثة ، فأسرعت إليه فاطمة وجثت بجانب سريره ، فأشار إليها أن تعطيه جرعة ماء ، وبعد أن شرب تمالك نفسه ورفع رأسه وقال فى صوت خافت : « فى جيب معطفى منديل أرجو أن تسرعى به إلى » فلما جاءت به أمرها أن تفتحه ، فرأت بداخله زهرة ذابلة ، فتناولها وقبلها ثم قال : قد كانت سببا فى نجاتى . فقالت فاطمة : لعلها مهداة من حبيبة ! قال : من خطيبتى . .

— لست أرى مايدل على خطبتك .

— ليس من اللازم أن تقوم للناس أدلة على ذلك مادامت القلوب مرتبطة .

— الصدق ماقلت ، ولكن ! قد ينخدع الإنسان فى بعض الأوقات .

— على أى حال فأنا أحبها ، وسأداوم على حبها ماحييت

— لاأظن أن شابا له مثل قلبك ، لايكون محبوبا .

— أشكرك أيتها الآنسة الكريمة ، وأسأل الله أن يكتب لى الشفاء ، لأصحبك إلى بيتها ، فإنه يسرنى أن تتحابا . ؟ أما إذا قدر لجرحى ألا يلتئم ، فكل ما أرجوه أن تردى لها هذه الزهرة وتبلغيها أنها كانت آخر من أفكر فيه .

ارتبكت الفتاة قليلا ، وتأملت الزهرة مليا ، وتمتمت : ألا يكون هذا الضابط هو قائد الفرسان وتكون هذه الزهرة التى قذفت بها إليه من النافذة ؟ على كل ! الأيام كفيلة بإظهار الحقيقة . ولكنها تمنت من كل قلبها أن يكون هو . .

فى الصباح جاء الطبيب كعادته للكشف على المريض ، ثم جاء على أثره عامل البريد يحمل خطابا باسم « سيد صدقى ، قائد الفرسان » أذن الطبيب للمريض أن يتسلم خطابه ، فلما فض غلافه ، وطالع سطوره الأولى ، ارتسمت عليه آيات الغضب ، فاحمر وجهه ، وتقلصت شفتاه واعترته رعشة خفيفة ، وشرع يتحرك بشدة يلقى الغطاء من نفسه ويهم بالقيام . ولكن الطبيب بادره بقوله : فى حركاتك القضاء على حياتك ، خير لك أن تظل كما أنت . فرمى إليه بالخطاب ،

فنظر الطبيب فيما حوله فإذا به هذه الكلمات: «العدو عند مدخل قريتكم، أشعلوا فيها النار.. أهلك هاجروا إلى حيث لايعرف أحد».. فالتفت الطبيب إلى «صدق» وعزاه بكلمات مناسبة، وكذلك فعل الحاضرون، ونصحوا له أن يبق على نفسه، فاستسلم على كره منه.

انقضى شهر كامل وصدق نزيل المستشفى وفي نهايته قيل له: ليس عليك بأس إن أنت غادرت المستشفى، فخرج وليس له إلا أمل واحد. وهو أن يرى تلك التي وهبت له الحياة يوم أن رمته بالزهرة من النافذة، فأسرع إلى منزلها ولكنه عاد وبه من الهم ما الله به عليم، فقد تردد ثلاث مرات في أوقات مختلفة وكان يجد الباب مغلقا، ثم قابلته فاطمة عند باب المستشفى مقطبة الجبين شأن من يسبح في بحر من التأملات. فلما وقع نظرها عليه تطلق وجهها، وابتسم ثغرها وانطلقت إليه ومدت يدها مسلمة، وطلبت منه في إلحاح أن يرافقها إلى منزلها. فرجع معها شاكرا، وسلكا معا الطريق الذي سلكه آنفا إلى بيت حبيبته. وكانت دهشته عظيمة عندما طرقت باب البيت الحبيب إلى نفسه العزيز على قلبه، ودخلت أمامه وقادته إلى غرفة الأضياف التي كان بها والدها ساعتئذ، وقامت هي بتعريف كل منهما إلى الآخر ثم تركتهما وانصرفت، ففهم صدق كل شيء.. استقبله والد الفتاة أحسن استقبال، وطرق أبوابا شتى من الحديث، وبعد زمن غير قليل دخلت عليهما الفتاة بعد أن أخذت زخرفها وازينت، متعمدة أن تكون في هيئتها حينما ألقت الزهرة من النافذة، وجلست بجوار صدق واعتمدت بيدها على النافذة فاستأذن والدها وتركهما، لكنها تطلعت إلى النافذة وبكت، فسألها صدق في دهشة: لماذا تبكين ياعزيزتي؟ لقد أهديت لي الحياة مرتين: الأولى يوم أن أهديت لي الزهرة. والثانية عنايتك بي وأنا نزيل المستشفى.. ثم عانقها وطبع قبلة بين عينيها، وغرقا معا في البكاء، ولما أفاقا أخذا يتذاكران معا ما فعلته يد الحدثان بأولئك الشبان الذين خرجوا للذود عن الحمى.

في يوم من الأيام كانا يطلان من نفس النافذة، فإذا بهما يقع بصرهما على فرقة من الفرسان في طريقها إلى الميدان. فاشتعلت نار الحماسة في قلب صدق، فأسرع إلى سوق المدينة، ورجع متأخرا إلى منزل فاطمة، ودخل على أهلها في حجرة الاستقبال ليودعهم! فقد استقر رأيه على الذهاب إلى القتال، ولم يبد عليه شيء من التردد حين تعجبوا من أن يتركهم سريعا هكذا. بل سأل عن فاطمة ليودعها هي الأخرى، وأسرع إليها حين علم أنها في غرفتها، فلما أحست به أجفلت إليه وقالت: إني أنتظرك بكثير من الشوق، وقليل من الصبر فأين كنت؟ فأجابها: كنت في مهمة! وسأذهب الآن!. فقلديني السيف.

— إلى أين يا حبيبي؟.

— إلى حيث يغالب الرجال الموت.

— لا!.... لن أتركك تذهب. نريد أن نحيا حياة سعيدة.

— الخطر يهدد البلاد، فكيف أستطيع الصبر؟.. وهل في الاستطاعة أن أراك على صدر صربي؟ أعلقك معك؟....

— لقد نسيت!!!... الموت عذب وسهل في سبيل الدفاع عن الوطن، فلا بد أن تأخذني معك. لا تتركني هنا!... ثم غلبها ضعف النساء، فبكت، ووقعت على الأرض مغمى عليها، فانحنى عليها وقبلها قبلة حارة، ثم حملها إلى سريرها وأسرع في الخروج.

الجيش الصربي، واللصوص، احتلوا «دبرا، وقوصوفا» منحة أوربا لهم، بعد معارك حامية الوطيس على نهر درين، ذاق فيها المحاربون العذاب ألوانا، وجرت فيها الدماء أنهارا حتى خضبت جميع البقاع، وكانت الميادين أشبه شيء بالبراكين، يتصاعد منها الدخان واللهب، وكم من قرى تهدمت، وتشتت شمل سكانها

وخرجوا يهيمون على وجوههم فى حيرة وارتباك ، لا يدرون أين يذهبون ؟ فالنهر أمامهم وقد قطعت جميع الجسور التى عليه ، والعدو من خلفهم ، وعن شمائلهم ، فلا معدى من أن يقذفوا بأنفسهم فى مياه النهر وليكن ما يكون . . .

لو أن واقفاً على شاطىء نهر درين فى منتصف الليل ، أصغى بسمعه ، لوضح له صوت قارب يشق الماء فى حذر ، كأنه هارب من وحش كاسر إلى الشاطىء المقابل ، كانت بهذا القارب فاطمة ، فرت احتفاظاً بشرفها وحريتها ، وهبطت أول قرية صادفتها ، وأوت إلى كوخ — فى ظاهر القرية — خلو من كل شىء ، وقضت فيه أيامها الأولى لا تجد ما يسد الرمق ، واضطرت أن تسأل الناس ما يرد جوعها ، وهكذا كتب عليها أن تعيش عيشة الكفاف فى كوخ حقير وهى التى تمرغت فى أعطاف النعيم فى مسقط رأسها « دربا » . إلا أنها استسلمت لقضاء الله وصبرت على بلائه ، وزادها استسلاما أنها اهتدت فى مكانها الجديد إلى من يحمل إليها رسائل « صدق » من ميدان القتال ، فكانت تقضى ليلها الطويل ، فى قراءة ما تخطه يمينه ، على ضوء شمعة ، ومن طول قراءتها حفظت عن ظهر قلب تلك العبارات : « ملاكى الطاهر ، إن همك أن تعلمى كيف أنام ، فوسادتى الحجر وفراشى الأرض ، وإنى ألتحف بالسماء .. قصف المدافع ، وصفير الرصاص ، وأنين الجرحى ، أغنيات نسمعها بلا انقطاع . . . . فى كل مكان وجهك رائدى ، وفى كل لحظة يهددنى الخطر ، ولكن طيفك دائما يحميني . . . . الشوق لرؤيتك ملأ جوانحى ، ولكنى لا أستطيع أن أطفىء حرارته . . . . من ميدان القتال أبعث إليك قلبي . . . بفارغ الصبر أنتظر ما يسطره بنانك ، هو الذى يستطيع أن يهدى إلى كل شىء ويسلبنى كل شىء حتى الحياة . . . . . إنى أتحدث مع الريح ، ومع الحقول ، ومع الجبال ، ومع الطيور ، أسألها عنك ، ولكنها لا تجيب . . حينئذ تدمع العين ، وينفطر القلب . . . . بالله الذى خلقنا وربط قلبينا بهذا الرباط المقدس أن تكتبى إلىّ حتى أظل حياً إلى أن أتمتع برؤيتك مرة أخرى . . . »

مسكينة فاطمة ! كانت هذه الرسائل كل عزائها ، وكانت لديها كأغلى كنز فى الوجود ، تبللها كل يوم بدموعها التى تسكبها غزيرة عندما تأوى إلى كوخها بعد عمل مضن طول النهار لكسب قوتها ، فلقد أضحت حياتها سلسلة من المتاعب الجسمانية والنفسانية ، ولكن الأمل هو الينبوع الوحيد للبائسين . . . .

فقد كانت تتحمل آلام الحياة أملا فى أن تلتقى يوما « بصدق » حبيبها الأول والأخير . وتحيا معه حياة السعداء ، تكفر بها عن تلك الحياة البائسة . . . ولما طال بها المقام ، وأعياها الصبر ، هاجرت إلى مدينة صغيرة ، والتحقت بخدمة أحد أغنيائها ، حاية امرضها ، وصداً لعوزها . ولقد كانت فى تلك المدينة فتنة الناظرين ، مع ما هى عليه من رقة الحال ؛ فملابسها البالية ، وثيابها الخلقة ، لم تحجب شيئاً من جمالها ، فكان الشبان يغازلونها ذاهبة إلى الينبوع لملأ سقائها أو آنية ، وهى فى شغل عن كل هذا بنفسها أو بحبيبها .

وإنها لراجعة ذات يوم من الينبوع ، وإذا بضابط شاب ملأت نياشين الجدارة صدره ، يعترض طريقها ويطلب إليها أن تروى ظمأه ، ولكنها لا تلتفت إليه ككل شاب يلقاها ، وتتجه — بعيداً عنه — إلى منزل مخدومها ؟ ولكن الضابط الشاب يتبعها ملحا ، إلى أن اضطرت أن تقول له : لماذا تقطع علىّ الطريق ياسيدى ؟ دعنى أذهب . فيجيبها الشاب : حتى جرعة الماء تبخلين بها علىّ . . . ولكن فاطمة قد لان قلبها له ، فناولته الجرة ، فاستقى منها ، ولما استعادتها أرادت أن تواصل سيرها ، فأمسك بيدها وقال : أهكذا تسيئين بسرعة يا فتاتى

القصـــــة

بين الفن والمجتمع

خرجنا من دار الصور وابتدأ صديق الحديث فأخذ يطرى (الفيلم) الذى رأيناه ، ولم أشأ أنا أن أقطع عليه إعجابه فوافقته ، ولكنه تمادى فى المدح فسكت . . . ولكنه لا يريد أن يسكت ، فقد دخل فى موضوع لو أتمه لكافنى سماعه ثلاث ساعات أخرى وهذا مالا يحتمله رأسى . لقد جعل يصف مشاهد (الفيلم) الواحد بعد الآخر ، وكنت أتحاشى أن أنهى ليلتنا بمناقشة ، وصديق هذا هادئ ، وادع الطبع ، ولكنه إذا دخل فى مناقشة أتعبنى فهو متحيز لرأيه ولكن فى منطق منظم وحجج قوية

لم أشأ إذاً أن أنهى الليلة بمناقشة أخاف أن أهزم فيها ، فالتفت إليه وقلت متضاحكا : أراك تقص علىّ مشاهد (الفيلم) ترى أنسيت أنى رأيته معك ؟ فضحك وقال : لم أنس هذا ، ولكنى معجب به الإعجاب كله ، وإن لم تشاركنى هذا الإعجاب فأنت إذاً قليل الذوق . فلما هكذا قولة جامعة لم أستطع عليها السكوت ، لم يكن بد من أن أناقش لأثبت على الأقل أنى لست قليل الذوق . قلت :

— إن (الفيلم) لا شك جميل كقصة ولكن ماذا سيفيد المجتمع منه ؟ وإنى أعتقد أن المؤلف يجب أن يراعى ناحية المجتمع أيضا بجانب رعايته لحبكة القصة حتى نخرج من (الفلم) وقد عرفنا درسا جديداً دون أن نشعر ونحن تلقاء أننا نتلقى دروسا واجب علينا حفظها .

ما إن بلغت هذه الكلمة حتى انفجرت بجانبى قهقهة عالية فيها من معانى السخرية والاستهزاء مالم أتوقعه . قال صديقى :

— إذاً أنت تحب تلك الأفلام التى يعرضها علينا بعض ممثلينا مليئة بالمقالات الرنانة التى يبعثها الممثل لتقتصب له التصفيق من أيدى الشاهدين . لا تؤاخذنى يا أخى لقد ضعفت ثقتى بآرائك إلى حد بعيد

العزيزة ؟ . . . . إلى أين تذهبين ؟ فجمدت الفتاة فى مكانها ، ونظرت بانتباه إليه ، فعرفت فيه حبيبها الذى طالت غيبته فصبغت وجهها مسحة من الخجل ، إذ كانت تود ألا يراها فى حالتها تلك بهذه الملابس القذرة ، ولكنه فهم سر خجلها فضمها إلى صدره بعد أن وضع الجرة على الأرض وأمطرها وابلا من قبلاته . ثم انتحى بها ناحية من الينبوع ، وجلسا يسردان تاريخ تلك الفترة من حياتهما . . . ولقد تاقت نفس الفتى أن يزور ذلك الكوخ الذى قضت فيه فاطمة أيام بؤسها ، فذهبا إليه ، وقضيا فيه يوما كاملا ، وأطلقا عليه اسم « وادى الدموع » ، ثم عادا إلى مدينة فى القسم الذى لم يستعبد من ألبانيا الحرة واستوطناها ، وعاشا فيها عيشة راضية فى كنف زوجية سعيدة لا ينغصها إلا التفكير فى الماضى القريب . . وقد رزقا أولاداً كثيرين ، نشأتهم على حب الوطن ، وبذل النفس رخيصة فى الذود عنه . . . . وقد حدثنا كاتب هذه القصة أن من أولادهما من انخرط فى سلك الجيش الوطنى لتحرير ألبانيا الآن والدفاع عن استقلالها ، وهم على أتم الاستعداد لإهراق آخر قطرة من دمائهم إن عنّ للحلفاء أن يقسموا بلادهم بعد هذه الحرب أو يعبثوا باستقلالها . . . .

وطلب منا صاحب القصة أن نهيب بزعماء الدول الإسلامية أن يذكروا عندما يحين اجتماعهم على مائدة الصلح أن ألبانيا هى أول من رفع السلاح فى وجه العدوان الغاشم فى أوربا ، وأن من حقها أن تتمتع بنصيبها من الحرية التى وهبتها لها الطبيعة ، وألا تعيش مقصوصة الجناح من أجل الأصدقاء .

ابرهيم خير الله — وهبى اسماعيل حقى

فرددت عليه وفى نفسى بعض الألم من ضحكه وأسلوبه . قلت :

— ما إلى هذا قصدت . فمثل هذه المقالات تجعلنا نرغب عما تقصد إليه ، وأنا من أشد الناس إيماناً بأن أثقل الطيبات على النفوس هى النصائح . ولكن لا بأس على المؤلف إذا اكتنف قصته شيئاً من العظة يستطيع المشاهد أن يستنتجه دون تبيان المثل ومقالاته ، فإن هذا يكون أروح للنفس وأنفع للمجتمع

فعدل صديقى من لهجته الساخرة وقال :

— كلامك هذا جميل ، ولكنى عرفتك فناناً تدرك ما يعانيه الفنان من تعب وكد ليخرج لنا قصة أو مقالة ، واضعاً نصب عينيه أن يكون إخراجه فنياً فحسب ، فإذا أخرج لنا هذه القطعة التى أتعب نفسه فيها تقول له « إنها حقيقة جميلة وفنية ولكن المجتمع لم يستفد منها شيئاً ، ما للفنان وللمجتمع ؟ » .

وهنا بدأ دورى فى السخرية فضحكت ضحكاً أخرجت ما علق بنفسى من سخرية الصديق . قلت له :

— وأنت أيضاً تقول هذا ؟ ! إذاً أنت تقر أن الفنان يجب أن يعيش فى أجواء الملائكة حيث ينقطع عن هذا العالم ، وأنت إذاً تقر أن الفنان لابد أن يرتمى فى أحضان الفن ويهب نفسه له ولا ينظر إلى ما عداه ... إنى يا صديقى لأعجب من هذا الفنان حينما يتهادى من علياء سمائه لينزل إلى منحط دنيانا فيأكل معنا ويشترك فى كل لهونا الدنيوى ، ولكنه متكبر .. إذا مشى لمحت فى خطواته نوعاً من الزهو والخروج على المألوف . ولعلك إذا سألته إذ ذاك (لم هذا .. ؟) أجابك بكل تبجح (هكذا يمشون فى السماء) وهو هكذا فى كل أحواله ، فإذا جلست إليه مثلا تركك فى كلامك المادى ليسرح هو . فإذا سألته (فيم ؟) أجابك بكل شموخ (فى الفن . فى الفن) ولكن ما آخرة هذا الفن ؟ . هو القلم لا شك . فالقلم يكتب والكتابة تطبع فتجمع فتوزع فى السوق فتأتى بالأموال فيقبضها الفنان . فإذا سألته (فيم ستصرف ؟) أجابك (على ملائكة الفن والوحى) . ليس هكذا الفنان ياسيدى . والذى يفعل هذا يكون عنده من مركب النقص ما جعله يشعر بتفاهة حقيقته فيحاول أن ينثر حولها هذا الضباب الفضى الذى يبرق فى عين أمثاله ممن عندهم شعور بعدم التكامل ، يصدقونه ليقول عنهم (فنانون) وليسوا فى الواقع كذلك . إنما الفنان الكامل يا سيدى هو الذى يعرف أنه من المجتمع وإلى المجتمع ... فالشاعر ينظم بوحى المجتمع ، والكاتب يدبج ويحدوه المجتمع ، والقصصى يقص من صميم المجتمع ، فلا أقل من أن يفيد المجتمع كما استفاد منه .

قال صديقى وعلى وجهه ابتسامة الفائز :

— ولكن المشاهدين إنما يهربون إلى دور التمثيل ليستريحوا قليلاً من المجتمع ، وليرسلوا أذهانهم مسترخية تتبع حوادث القصة التى يشاهدونها ، فإذا صدموا بالمجتمع فى هذا المكان أيضاً فأين يفرون إذاً ؟

قلت :

— إن القصة التى يشاهدونها هى فى ذاتها صور من المجتمع مختلفة مع العصور والطبقات . وكل الفرق الذى أريده أن تتناول القصة فى مضمون حوادثها درساً لا يبين عنه حوارها . أما الفر من المجتمع فلا مفر . فإن الحدائق التى يقولون إن الطبيعة تتجلى فيها هى الأخرى لم يتركها المجتمع إلا بعد أن لعب فيها حتى أصارها إلى ما هى عليه من الجمال والرونق . ولكن عساهم يجدون فى الصحراء البعيدة عن المدينة ما ينشدونه من الفرار .

اختفت الابتسامة عن وجه الصديق وحلت محلها ابتسامة المقتنع . فهو كما قلت هادىء وادع الطبع .

ثروت أباظة

المرحوم محمد رمزى بك

قرأتُ منعاة صديق الكبير محمد رمزى بك متولاً فى هم فوق هم النائبة الطامة التى نزلت بالبلاد لمصرع الصديق الأكبر لمصر والمصريين جميعاً، بيد زعمت أنها مصرية، وفى دار البرلمان . وما ظننت القلب يتسع لفجيعتين فى يومين اثنين متلاحقين، لولا أن شدّة الفجيعة القومية الأولى هى التى جعلتنى أطيق الثانية أيضاً؛ وإنا لله وإنا إليه راجعون .

عرفتُ محمد رمزى بك وهو مشرف على الستين، وعرفت أنه من كبار موظفى الدولة، يروح ويغدو إلى عمله المسؤول بوزارة المالية فى دأب وهدوء، فإذا انتهى يومه الحكومى أوى إلى بيته ليقوم على عمل من نوع أجلّ وأبقى، وهو تحقيق تاريخ البلاد المصرية وأسمائها ومواضعها . ومن هنا نشأت صلتى به وتوثقت حتى أضحى هو ومكتبته والآلاف المؤلفة من جذاذاته ومذكراته مرجعاً وموئلاً لى ولغيرى من المشتغلين بالتاريخ المصرى فى مختلف العصور .

ثم بلغ محمد رمزى بك سن الستين، وأحيل إلى المعاش والتقاعد، فإذا به يبدأ حياة جديدة، ملء أيامها ولياليها نشاط على منقطع النظير، فى غير كلالة أو تعب . إذ عكف على تحقيقاته وتأليفها ليخرجها كتباً للناس؛ وعرفه الأمير عمر طوسن، وغيره من الشخصيات النبيلة وغير النبيلة؛ وعرفته دار الكتب المصرية ومصلحة المساحة، ولجنة حفظ الآثار العربية، ومصلحة التنظيم والمجلس الحسبى العالى، ولجنة التقسيم الإدارى الجديد، وغيرها من مختلف الهيئات الرسمية . فأرسلت إليه تستمدّ أنواع المعلومات فيما يتعلق أو يهمها، واستجاب هو إليها كلها مرحباً فى غير منّة، وأمدّها بما عنده من ثمرات البحث والاستقصاء والاطلاع الواسع فى كرم لا يعرفه إلا من خبره؛ ولم يدر أن ذلك الكرم قد صرفه عن كتبه التى لا تزال إلى الآن فى طىّ المخطوطات، وأرجو ألا تظل هناك طويلاً .

وكثيراً ما قصدتُ إليه فى طلبة علمية فى ساعات يقضيها معظم أمثاله فى لا شىء، أو أقلّ من لاشىء، فإذا هو جالس إلى مكتبه مكبّ على نسخة من مخطوطة نادرة نسخها بيده، أو خريطة من خرائط القاهرة القديمة والحديثة يصحح بعض خطوطها وأسمائها بقلمه، أو جذاذة من جذاذاته القديمة يضيف إليها من كل جديد . . وذلك من غير أن يكون بحاجة إلى عمل أو ما يشبه العمل، ومن غير أن يطلب إلى أحدٍ شيئاً سوى أن يأخذوا مما يجدونه عنده من مجانى الكُتب . على أن ما عند محمد رمزى بك لم يكن من مجانى الكتب فحسب، بل كان كل ماعنده خلاصة من القراءة والرؤية معا، ولا يكاد يخلو سطر مما كتبه من إشارة إلى زيارته ومشاهدته لهذا أو ذاك من المدن والقرى والعزب والكفور والأمكنة والشوارع والجوامع والدور والمدارس القديمة، بمصر والقاهرة وسائر البلاد المصرية . مما اقتضاه عمله الطويل فى خدمة الحكومة، وعنى هو بتدوين أوصافه وتواريخه وجغرافيته لنفسه منذ صباه .

وكان مولده — رحمه الله — فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧١ م، بقرية القاطعة بمركز السنبلاوين . وأبوه عثمان رمزى بك من رجال الجيش زمن الخديو سعيد وأوائل عهد الخديو إسماعيل، وجدّه مصطفى أغا آق كسكه من رجال الدفعية الذين انتقاهم الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) من بين الضباط الأتراك لتعليم المصريين فنون الحرب، عندما قرّر محمد على الكبير إنشاء الجيش المصرى .

وقد تعلم محمد رمزى بك بمدرسة القبة الابتدائية التى أنشأها الخديو توفيق لتعليم أنجاله وأترابهم من أبناء الذوات، فكان من زملائه بتلك المدرسة الخديو عباس

تمهيد لا بد منه

كثيراً ما اتهمنا المصريين بأنهم يهملون الأدب السوري، أو أدب جيرانهم قصداً، بينما جيرانهم يثابرون على قراءة الأدب المصري ودراسته تباعاً. ولعل هذه الشكوى هي على حق، ولكن نصيبنا منها لا يقل عن نصيب إخواننا المصريين! فالأدباء السوريون الذين يكتبون في الصحف المصرية ومجلاتها كثيرون، وهذه الصحف تفتح لهم الأعمدة الطوال لنقل أفكارهم ونشر أدبهم اذا جمع الجودة وحسن الأداء. ولعل كثيرين من الأدباء السوريين يعرفهم القراء كأدباء مصريين، وما ذلك إلا لكثرة ما أنتجوه وأخرجوه إلى الناس. ولكن هذا كله لا يكف اللوم عن إخواننا المصريين الذين يضنون علينا — بالفراغ القصير من أوقاتهم — ليتناولوا آثارنا الأدبية كما نتناول آثارهم الأدبية، والعين الثانية أصدق تشخيصاً من العين الثانية، وليس أدبنا السوري بضعيف القيمة ولاغث النتاج، بل يجده أديب كبير كالدكتور محمد مندور أدباً حياً يحق اتباعه، ورأيناه يخصص لدراسته في مجلة الثقافة ثم في كتابه (الميزان الجديد) صفحات مشكورات، وإن كان ما قصده منها الأدب المهجري، وما كان أدباء المهجر إلا سوريين بمواطنهم وأفكارهم، وما وجدنا أديباً مصرياً سبق له من قبل أن عالج موضوع الأدب السوري الذي لا ينكر أحد خطره وأثره في أدبنا المعاصر.

إني عزمت أن أحمل الأدب السوري إلى مصر — كما وعدت أستاذنا الكبير أحمد أمين — وشاء هو لي أن أكون واسطة هذا الأمر. ولكنا على رغم ذلك سيبق احتجاجنا ولن نخفف منه، لأننا نطالب إلى الأدباء المصريين أن يحفلوا بأدبنا حفلهم بأدبهم، ولا أظن أنهم يخسرون شيئاً.

المعري ذلك المجهول

بقلم الأستاذ عبد الله العلايلي

من منشورات مجلة الأديب

الأستاذ العلايلي صديق لي، وصديق قديم. وقد يظن القارىء أن كتابة صديق عن صديق يسيرة جداً،

الثاني والأمير محمد علي؛ ودخل المدرسة الخديوية الثانوية، ودرس القانون بمدرسة الحقوق. ثم التحق بوظائف الحكومة بالمنصورة، فلم يقم بها طويلاً؛ واتصل بالشيخ محمد عبده، فعينه بوظيفة في الإدارة بنظارة الداخلية، وظل يترقى في ذلك السلك حتى صار كبير مفتشي المالية بمصلحة الأموال المقررة. وأكاد أراه الآن، وهو يتقلب فيما تقلب من وظائف صامتة — كما كان يحلو له أن يسمي عمله بالحكومة —، وأكاد أراه الآن وهو يحمل حقيبته وبداخلها خطط المقريزي وابن دقماق وعلي مبارك — كما أخبرني عن نفسه — ليسترشد بها في تنقلاته الدائمة بين البلاد المصرية صغيرها وكبيرها. غير أنه ما لبث أن امتدت به القراءة إلى ما وراء ذلك، فأوغل في مؤلفات كاترمير وأمليونو وماسبيرو وفييت، كما أوغل في القرى والنواحي منقباً محققاً لما قرأ في تلك الكتب حتى عرف أصولها جميعاً، وصار الحجة الكبرى بين الإخصائيين، ممن رأيتُ في جنازته الكبرى خاشعين مترحمين، مفكرين فيمن يكون خلفاً صالحاً يقوم مقامه في التثقيف والتعريف في غير أناة أو صناعة أو ادعاء أو تقتير.

وبعد فهذه كلمة وداع عابرة من صديق يحزنه أن محمد رمزي بك لم يعد بين الأحياء على وجه الأرض في هذا البلد المقل في أفذاذ الرجال.

٢٦ من فبراير سنة ١٩٤٥

محمد مصطفى زيادة
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة فؤاد الأول

لأن هذه المعرفة تساعد على تحليل الكتاب وتفسير مراميه ، وهـذا صحيح ، إلا أن الكتابة هي أعسر مما يظن ، لأن الناقد الحقيقي يتوخى الصدق والصراحة في نقده ، ويخشى أن تضعف جوانب الصدق من هذه الصراحة بمقدار ما .

ولكني مقدم هذا الكتاب الذي قدمته في طليعة منشوراتها مجلة الأديب التي وصفها الأستاذ احمد أمين «بأن دم الشباب يجرى في عروقها» ، ولا أجد وصفاً خيراً منه فيها . وليس هذا الكتاب أول بوادر الأستاذ الملايلي الذي سبق عمره بفكره الناضج . وقد عرف مصر ونشأ فيها واستقى من عقلها وقلبها . ونشر فيها كتابه القيم «مقدمة لدرس لغة العرب» . وقد شاء الآن أن يساهم في دراسة المعري . . . المعري المجهول . فأقدم عليه من ناحية مجهولة غريبة ، أراد أن يكون سابقاً فيها « فلم يجيء كتابه ترجمة حياة في حدودها من السعة أو الضيق ، وإنما هو ترجمة فكر فقط » ترجمة يريد صاحبها أن يخضعها لطريقته برغم اعترافه أن العبقرية تتمرد على الطريقة . « وربما كانت الطريقة أهم نواحي العبقرية فيما نهدت إليه » . وعندي أن العبقرية لاتكون طريقة حين تكون ، لأنها كالسيل المنهمر ، لايعرف الرائي إلى أين تتراى حدوده ، وإلى أين تتقاذف . حتى إذا أعطى ما عنده قامت حدوده . وعند حدوده تقف طريقته الثابتة . نحن نبحث من الطريقة في العبقري . والعبقري نفسه لايبحث إلا عن عبقريته .

وهو على ضوء الطريقة يريد أن يقدم المعري باكتشاف طريقته .

يجد صاحب المعري ذلك المجهول « أن المعري في بداءته يحيا في عالم لغوي من كل أقطاره ، مثل الرياضي الذي يسبح في عالم لانهائي من الأعداد . يحيا في العدد ، ويحيا فيه العدد . والمعري ليس يشهد سوى صور الألفاظ كما يفترضها ، وهي تحيا فيه ويحيا فيها . فيطمئن ويغتبط ، وتشوقه كثيراً ، فيستلذها ويتذوقها » . وفي الحق أن المعري وله فيه إحساس غريب باللغة ، وشغلته اللغة كثيراً في كل ما ألف ، كأن الألفاظ صواحب عنده ، قد جاورته في التفكير والإحساس والجرس . وعلم النفس لاينكر ما تولده اللفظة الواحدة — عند موقعها — من فكرة أو فكرات . بل ربما أراد المؤرخ أن يدرس أمة من خلال ألفاظها المغنية . » ولذلك يرى أن إيمان المعري بالقيمة اللغوية رده رداً عنيفاً إلى طلب حل اللغز في اللغة » . وهنا يضع المؤلف الشكل اللغوي في المعري مقابل الشكل العددي في الرياضي ، ليوازن بينهما في تحليل أسرار الكون ، وبعد الموازنة تصبح نظرية المعرفة عنده : التأمل الخالص على منهج لغوي ، ومنطق التوحيد الفلسفي : الاحسان في استخدام الاشتقاق ، وإدراك تماشق الألفاظ . ولا أدرى كلمة لها مثل هذا الوقع في إدراك الجمال الباقي من هذا التماشق ! ولكن هل يصح أمر هذا الاكتشاف عند المعري ؟.

وعند ذلك يصبح مدلول اللغة أوسع مما نريده ، لأنه لايغدو كساء ظاهراً لرحيق الأدب كما يتوهمه بعضهم . « بل تغدو اللغة في حقيقتها استحالات لرجفات الذات وخلجات الحس ، وألفاظهـا تحمل نبضات حية مؤثرة ، وإرادة فاعلة » . ويمضي المؤلف على ضوء هـذه الطريقة مستكملاً دراسة آثار المعري في لمحات جديدة بعيدة ، حتى يصل إلى اقتناعه بأن المعري فكرة جديدة ، وفلسفة جديدة ، ومنطق جديد .

هذا هو بناء الكتاب . ولعل المأخذ الوحيد الذي يمسك به المؤلف هو « تكثيفه الأفكار » إلى درجة تبلغ الغموض أحياناً ، ولعل وضوحها عنده إلى درجة التكشف حمله على هـذا الغموض الذي لا يحسه إلا القارىء .

عقل قوي ، وبيان يشده أسلوب حي .

خليل هنداوي

مصـــــــادفة

منذ ثلاثين سنة كانت س هانم حرم ع باشا حاملا فى الشهر التاسع ، وكانت لها خادم مخلصة هى الأخرى حامل فى الشهر التاسع ، لكن أحداً لم يكن ينتبه حمل الخادم ، والكلام والاهتمام يدوران على حمل الهانم . بل إن الخادم نفسها لم تكن تهتم بحملها أو تتحدث به قدر اهتمامها وتحدثها بحمل سيدتها

واقترب يوم الحادث السعيد — للهانم — ولم يكن أحد يذكر أن يوم الخادم يقترب أيضا ، وتكاد هى تنسى يومها من فرط تحمسها ليوم سيدتها

وأحست السيدة بالآلام فلزمت الفراش ، وجىء على عجل بالطبيبة المولدة ، وهى أوربية ، وبلغ حماس الخادم ذروته ، ولازمت حجرة سيدتها ، وأخذت فى فرحة تعد المعدات

وطال الوقت بالسيدة وهى تضع ، ولقيت آلاما كبيرة . وبينما الجميع حول فراشها فى ترقب وألم وأمل إذا بالخادم تصرخ فجأة وتخلى مكانها وتلد فى بضع ثوان مولودا ذكراً

وكانت مفاجأة مربكة للحاضرات ، والخادم كانت أشدهن ارتباكا ، فقد بلغت بالسكينة النشوة لولادة سيدتها أن لم تنتبه إلى آلامها الأولى . وعندما أحست بالألم الأخير الكبير وأدركت ما سيحدث أرادت أن تجرى إلى خارج الحجرة فلم تستطع أن تخطو . . . والآن وقد وقع منها هذا الحادث — غير السعيد — فى أقل الأزمنة والأمكنة ملاءمة لوقوعه فقد همت بأن تجمع نفسها وما ولدت وتجرى ، لكن ذلك لم يكن هينا . . . واضطرت الحاضرات ، والطبيبة أيضا ، إلى ترك الهانم برهة والانصراف إلى مساعدة الخادم وتلقى وليدها

ولم يلبث بعض الحاضرات أن رأين فى هذا الطارىء المفحم ناحية مضحكة ، لاسيما وأن الهانم ، رغم آلامها ، كانت البادئة بالضحك ، فأشاعته فى الحاضرات ، ثم انهالت على الخادم مختلف النكات والشتائم الدعابية .

ويظهر أن ضحك الهانم ساعد فى تحريك جنينها ، فلم تلبث أن صرخت هى الأخرى وتمت ولادتها فى بضع دقائق .... والمولود ذكر .

ولم يكن القدر اللاعب قد فرغ بعد ، ففى هرج الفرح بمولود الهانم لحظ الحاضرات أن الخادم تتحرك فى ألم كظيم ، وإذا بها تلد مولوداً ثانياً ذكراً أيضا .

وضج الحاضرات بالضحكات ، وتصايحن بالنكات والدعابات ، ولو أن الطبيبة كانت ترى أن أمر هذه الخادم جاوز حد الفكاهة .

وتحول القدر اللاعب إلى الهانم ، فقد كانت لاتزال تتأوه ، ولم تلبث أن وضعت هى الأخرى مولوداً ثانيا ذكراً أيضا فى إثر مولودها الأول .

وكأنما تحولت الحال إلى مباراة بين الخادم وسيدتها ؛ والخادم فى هذا المجال أبرع ، فقد أرسلت صيحة واختتمت المباراة بمولود ثالث ذكر كذلك .

وبلغ المرح ذروته بين بكاء خمسة مواليد ، وكان للحاضرات شغل أى شغل فى إلباس هذه المخلوقات وتهيئتهم للدنيا ، كل وما يليق به ، وبالماء الذى منه خلق والبطن الذى منه انحدر ، ثم نقلت الخادم وبنوها من هذا المكان الذى ليس لهم إلى المكان الجدير بهم على وجه هذه الأرض .

وكرت الأيام ، وباعدت بين من ولدوا تحت سقف واحد ، ونبت كل فى تربته وبيئته ... فى النبات تختلف البذور ويسقى بماء واحد ، وفى الإنسان نوع البذرة واحد ويسقى بماء غير واحد ، هناك تختلف الثمار لاختلاف البذور ، وهنا تختلف الثمار لاختلاف الماء .

وتخرج التوأمان فى الجامعات ، وأحدهما طبيب ، وله شغف بالدرس والبحث والتجريب . أما التوائم الثلاثة

لجروا لكسب العيش منذ الطفولة ، وصغار الحيوان تمشي يوم تولد .

ثم حدث أن مرض الباشا والابن الطبيب يقوم على علاجه ، ويفحص ويرسم خطة العلاج ويستدعي من يرى استدعاءه ، واستدعى الأمر فحص دم الباشا ، وهو مبحث تخصص فيه الابن ، وطالما حلل وجرب في دم نفسه ودم غيره لتعرف خصائص الدماء .

وبينا الابن عاكف على دم الباشا يفحص ويحلل اذا به يلاحظ عرضا ومن غير قصد ظاهرة وقف حيالها مبهوتا ، . . . . . إن دم أبيه الباشا ودمه من فصيلتين مختلفتين !! . . .

. . . عجباً !! . . كيف يكون هذا ؟! . . . ذهل الشاب عما كان يتقصاه ، وراح يحقق هذا الأمر الغريب . اختبر نوع الدم وأعاد الاختبار وأعاده والنتيجة هي لاريب ، إلا أن يكذب عينيه ، ووده لو أنهما تكذبان . . . إما أن تكون نظرية فصائل الدم خطأ ، أو أن يكون . . . . ؟ ! سوأتاه !! . . .

وذكر الشاب أن له أخا توأما . . لن يأكل ولن ينام حتى يختبر دم أخيه أيضا . لكن الأمر يجب أن يبقى سراً ، وهو سر جد خطير ، عليه في أخذ دم أخيه أن يتلطف ولا يشعرن بحقيقة مقصده أحداً .

— أخي ! لقد حللت دم أبيك الباشا كما طلب الإخصائيون ، واستحسنت أن أشفع بتحليل لدمي ودمك لتتوفر جميع العناصر لقرار سديد ، وقد حللت دمي فهل لي من دمك . ؟ .

— من غير شك أيها الأخ ! دمي كله فداء أبي ، وهو الذي أعطانيه .

وفي مختبره ألقى الشاب جسمه على مقعد في دوار من الحيرة . إن دم أخيه من دم الباشا بينا دمه هو دم غريب ! لو أن دم أخيه كان مثل دمه لوجد للغز تفسيراً على كل حال ولو أنه تفسير شنيع بغيض . أما والأمر ليس كذلك فما التفسير ؟ !!

وفي مارج الحيرة مرت بخاطر الشاب فكرة كما تمرق السهام في معتمة . ذكر ما سمعهم كثيرا يتندرون به ويتفكهون عن يوم مولده والأربعة الآخرين . . . رحماك ربي !! . . . أفي الممكن أن يكون حدث في ذلك اليوم خطأ فظيع ؟!

لابد من البحث عن الثلاثة أبناء الخادم واختبار دم كل ، مع إبقاء السر في خباء كثيف . مهمة ليست هينة ، لكن ليس منها محيص

وعثر الشاب على واحد من الثلاثة ، وألبس اللقاء وجها مصطنعا محكما من المصادفة المحضة . وكان سؤال عن الحال وحال الأخوين ، وعن صحة الجميع ، وكان كلام عن الصحة لايسر ، فالفقر والمرض توأمان هما الآخران ، وكان واجبا أن يدعوهم إلى عيادته للعلاج ، وجاءوا ، وأخذ من دمائهم ، وإن فحص الدم لتبرره جميع الأدواء

. . . برح الخفاء . . . دم واحد من الثلاثة من دم الباشا ، واحد يشتغل خائطا للملابس العربية في دكان صغير في أحد الأحياء . ودم الآخرين من دم الشاب الطبيب

. . . آه !! . . . هذا الخائط الفقير الجاهل المهزول هو ابن الباشا ، وهذا الشاب الفارع المثقف الأنيق ابن من ؟! . . . عندما ولدا أدخل الأول في ثوب ابن الخادم وأخذ سمته في الحياة على مقتضى ذلك الثوب ، وأدخل الثاني في ثوب ابن الباشا وأخذ سمته . . غلط مرعب !!

قال الشاب : « . . . لكن أي غلط هو ؟! ولو كنت نشأت خائطا فقيرا جاهلا مهزولا فماذا كان ذنبي أنا ؟! أي فرق كبير بين مصادفة الدخول في ثوب ومصادفة الانحدار من صلب ؟! »

هل هذا منطق ؟! . . . أم أنانية ؟! . . .

عبد المغني علي حسين

الاستحضار عملية عقلية

كثيراً ما يتناول الباحثون فى المسائل الروحية والاتصال بالعالم غير المنظور كلة الاستحضار ويحددون شروطها الضرورية وأوجهها المنطقية ومايجب أن يتوافر فى الوسيط الذى تتم عملية الاستحضار على يديه من شروط نفسية خاصة. والواقع أن الاستحضار الذى يتكلم عنه المشتغلون بالمسائل الروحية ليس إلا صورة مكبرة من عمليات عقلية هى بعض ظواهر الحياة النفسية الإنسانية. ويجب أن نقدر أن استحضار الموجودات الروحية إنما يتم بتضافر القوى الروحية لبعض الأفراد فى داخل مجالهم التخيلى الخاص بالمرئيات غير المنظورة. وإذا كان الاستحضار يترتب عليه فعلا ظهور أشياء خارجية فإن المظهر الخارجى الخاص بالكائنات المستحضرة ليس إلا انعكاسا للصور التى تتولد فى النفس كنتيجة لعملية الاستحضار ذاتها شأن ذلك شأن سائر المرئيات.

ويهمنا فى هذا المقال أن نقارن استحضار الأرواح الذى هو مجرد عملية عقلية من النوع الكبير بعمليات الاستحضار الصغرى التى تتم فى كل وقت، ونوضح أوجه الاتصال والتدرج من هذه إلى تلك؛ فمن المعلوم أن كل انسان يستحضر صور الموجودات والمرئيات فى فكره كل وقت وكل ساعة، بل إن العملية الذهنية نفسها ليست إلا مجرد سلسلة من الاستحضارات، لا يكاد الانسان يذكر أمامه اسم بعض معارفه حتى يقوم العقل الباطن باستحضار صورته وشخصيته، ليصوره للعقل الواعى فيعرفه ويتبينه. وتختلف القدرة على الاستحضار الذهنى المادى تبعا لاختلاف جلاء الذهن وحدة التصور، فالبعض يستطيع أن يرى بوضوح صورة شخص يعرفه اذا ذكر أمامه وأن يتفرس ملامحه ويتذكر شمائله الخاصة. والاستحضار الروحى نفسه ليس الا هذا النوع من العمليات العقلية مع بعض المغالاة والإمعان اللذين يجعلان الصورة المستحضرة تبدو فى شكل ظاهرى خارجى بسبب شدة جلائها لأذهان الحاضرين المرتبطة ارتباطا خاصا سببه وحدة التصور ووحدة الواسطة المخيلة.

ولما كانت الموجودات الروحية البحتة أو ما يسمونه الجان أو غيرها من الأشياء غير المنظورة ليست الا مجرد قوى العقل البحت فإن تسخيرها أمر سهل التحقيق بمساعدة القدرة على استحضار صورها فى النفس والقدرة الارادية التى تتحكم فيها وتوجهها وكلها مما لا يعجز عنه أى إنسان.

والظواهر العقلية كافة ليست ظاهرة علمية غريبة، بل انها فى طاقة البشر لأنها بعض القوى الكامنة التى تخضع للوعى والارادة. وتحتاج ممارسة الاستحضار والتسخير لبعض المزايا القوية فى العقل والارادة، لا نظن أن النفس الانسانية تقف دونها

على حافظ

بين المسموع والمقروء

مدام ميكادو

فرغتُ من الطعام . والنوم أثقل ما يكون عندي بعد الطعام . فطلبت من صاحبتي — بل زوجتي دفعاً للظنون الشاردة — طلبت منها شيئاً أقرؤه ، فدفعت إليّ بكتاب ، ففتحته ، فعلمت أنه مما يجهد به عقل المستيقظ صباحاً ، فكيف بالنعسان مساء ؟ فلما استرددتها ، دفعت إليّ بما زعمت أنه شيء في القراءة خفيف . أنه مما ينام المرء عليه ، فكان هذه القصة ؛ أقصها بمقدار ما بقي منها في رأسي :

كان اسمها « دولور » ، وكانت قليلة صغيرة ، ولكن كان بين أعضائها تناسب قلّ أن تجده في الطوال الجسام . كانت دُمية جميلة ، كأنما صغّرها الصانع ليحسن صنعها ، فلما صنعها أدقّها وأجلّها ، فجاءت كالتي قال فيها الشاعر :

« ما كان أكثرها لنا وأقلها »

وكانت تسكن مرسيليا .

وذلك عام ١٩١٥ ، والحرب الماضية قائمة .

ولم يدر أحد مَن هي ، ولا ما هي . وكانت تتردّد على حانة قرب الميناء القديم حيث يتردّد القادمون من البحارة والراحلون . وظهرت يوماً في هذه الحانة مع ضابط ياباني ، كان مثلها قليلاً وسيماً . وما أسرع ما انضم إليهما اثنان من ضباط اليابان أيضاً ، نظر إليهم البحارة الفرنسيون فعرفوا هويتهم من كثرة ترددها على بحار الشرق الأقصى . قال أحدهما لأخيه : إنهم من رجال « أينومارو » ، وهي سفينة تجارية موطنها يوكوهاما . فسأله صاحبه : ومن تكون هذه المرأة الفرنسية التي معهم ؟ فقال : إنها ليست فرنسية ، ففي لهجتها دليل على عجمتها ، وهي تقول إنها أسبانية ، لا من أسبان أوربا ، ولكن أسبان أمريكا .

إنها من شيلي .

ويغيب اليابانيون من مرسيليا الأسابيع . فإذا حضروا ، حضروا إلى تلك الحانة دائماً أبداً ، وحضر ذلك الياباني الوسيم يلقى صاحبته في اليوم مرّتين .

ورحل الياباني عن صاحبته مرة ، فمرّ بها صبي فرنسي عابث فقال لها : ماذا تصنع مدام ميكادو بعد صاحبها الراحل ؟ فلصق بها هذا الاسم من يومذاك حتى ناداها به كل أحد .

وكانت قليلة الكلام مع رُوّاد الدار ، ولكنها كانت كثيرة مع ربتها وأجرائها . ويحاول الرجال الفرنسيون أن يحلوا عندها مكان صاحبها الراحل ، فيلقون منها صمتاً تلزمه ، وصدّاً تُشيحه ، دون أن يتكدر وجهها . لقد أخلصت للياباني حتى حسب الكثيرون أن هذا الذي أسموها إياه هو اسمها حقاً ، وأن صاحبها ليس بصاحب بل زوج .

وكانت تخرج أحياناً عن جيرة الميناء ، فتذهب إلى دار من دور صحف مرسيليا مرة ، وإلى دار صحيفة كبرى أخرى مرة أخرى . وكانت تلقى إلى صاحب الإعلانات بإعلان تريد نشره في الصحيفة في عمود الشخصيات ، وكانت أكثر ما تنشر : « فكتوريا تقوم لقضاء إجازتها يوم الخميس . انتظروها على المحطة » ، أو « انتظروا إسكندر صباح السبت » أو « ارجع حالا » وكانت تمضي دائماً باسم ربتا . وكثيراً ما تحدث إليها صاحب الإعلانات ، فكانت تقول له إن أكثر أهلها يسكنون أسبانيا ، وأنهم تجار رُحّل ، وأنها لم تجد طريقة سريعة تصلها بهم غير هذه إذا بَغَتها أمر بائت .

قالت : « إن صحف مرسيليا تذهب إلى كل بلد في أسبانيا تقريباً ؛ فمن طريق هذه الصحف يصل إلى أهلي ما أريد ، ويصل أسرع من خطاب أرسله ، لا يبلغ البلد الذي أريد حتى يكونوا هم قد غادروه » .

كلام معقول . ولقد زاد فى معقوليته عند سامعيه أنهم لم يدروا أن هذه المرأة الشابة الجميلة لم يأتها كتاب واحد جوابا عن كل هذه الرسالات التى تبعث بها . وزاد فى معقوليته عن سامعيه أنهم لم يدروا أن هذه المرأة الشابة الجميلة ، التى تعنى باسم «ريتا» ، كان لها اسم آخر فى بيئتها التى تعيش فيها عند الميناء ، — «دولور» . واطمأن إليها البحارة فى الحانة ، فكان كلما ذهب عن مرسيليا منهم ذاهب قال لها مودعاً : لن ترين أحداً منّا غداً ، فنحن راحلون .

دولور : أترحل بعيداً ؟ . . . .

البحار : نعم . إلى الأرجنتين ، نأتى بلحوم كثيرة .

ويُسِرّ إليها آخر : إلى سالونيكا ، نحمل إليها المؤن والذخيرة . . . .

فتردّ عليهم مبتسمة : « بون فوا ياج ! » لا تنسوا مدام ميكادوا .

فيجيبونها ضاحكين : لا خوف من هذا أبداً . . . .

فتقول لهم : وافتحوا أعينكم للغواصات . إنى سأدعو القديسة مارية أن تقيكم شر البحار . . .

ويخرجون إلى البحر فلا يكاد يرجع منهم راجع .

وذات يوم أعلنت هذه الفتاة فى أصدقائها أنها ذاهبة عن مرسيليا لبضعة أسابيع .

قالت : « إن إحدى بنات عماتى مريضة ببلنسية . وهى التى ربتنى ونشأتنى . وإنى لأكره أن تموت ولا أراها » . . . .

فانعقد رأى أصحابها على أن دولور لها قلب عطوف حقاً . ولم يودعها أحد عند المحطة ؛ لهذا غاب عنهم أن دولور ، لكى تذهب جنوبا إلى بلنسية ، إنما أخذت تذكرة سفر تؤدى بها شمالا بقرب إلى « بوردو » ، لتذهب من بعدها جنوبا إلى «بايون» قرب الحدود الأسبانية .

وفى « بوردو » دخلت قطار « بايون » فى الدرجة الأولى . ولم يكن بالصالون غير رجل واحد . وكانت تحمل متاعا كثيرا ، فأعانها على رفعه إلى الرف ؛ حتى إذا همّ بحمل آخر شىء فى المتاع ، قالت له باسمة : لا . وشكرا ، فهذا سأبقيه إلى جانبى .

وكان هذا الشىء الأخير علبة ، تراءت كأنها علبة مصوغات وجواهر .

وخلعت قبعتها ، فعرف الرجل من شعرها الأسود الفاحم أنها أسبانية حقا . وعرف من مشطين فى شعرها رُصِّعا بالماس أنها قطلانية

وجرى القطار فى سبيله . وانتحت دولور ركنا ، وسكنت حتى كادت تنام . ثم انتبهت وأخرجت من علبتها كراسة صغيرة أخذت تقرأ فيها . ولمح الرجل الكراسة غير عامد فوجد بها أعمدة من أرقام . وكان بالمصادفة رجلا من رجال البوليس السرىّ ، فتنبّه . وأخذت دولور تقرأ صحيفة اليوم وتقرأ كراستها معها . ونظر صاحبنا إلى ماتقرأ فوجد أنها صفحة الأخبار . فلم يدر ما علاقة كراسة امرأة بصفحة أخبار

ولم تتكلم ، فلم يشأ الرجل أن يفاتحها بالكلام . ولولا حرّ المكان لبلغ كلاهما غايته دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، ولكن ضاقت صاحبتنا بالحر الشديد ، فرجت من صاحبها أن يفتح النافذة ، ففتحها زاعما أنه هو أيضا ضاق بالحر الشديد . وبدأ الحديث الذى ودّه الرجل ولم يجد إليه من سبيل .

قال الرجل : أنى ذاهب إلى قريب يسكن فى جبال البرنيه ، لأقضى عنده أياما

وتحدث الرجل فى شىء من إسهاب . والثقة تغرى بالثقة . ففاضت الفتاة أيضا

دولور : وأنا أيضا بقيت على الساحل الجنوبى الفرنسى زمانا طويلا ، إلى جانب ابنة عم لى مريضة . ولكن طال مرضها فلم أطق صبرا . وأنا ذاهبة إلى والدىّ ببلنسية ، فهما فى حاجة إلىّ

وأسهبت بعض الشىء

سمع الرجل القصة ، فوجدها قصة بريئة ، لولا هنائين

صغيرتين ترامى لعقله البوليسي أنهما لا تلتئمان تماما مع سائر القصة . وساقته عادته الشريرة إلى أن يعلم فوق ما علم ، وحاول أن يعلم فلم يجز بطائل . ومضت ساعة ، فقامت الفتاة إلى حيث الماء والزينة من القطار . والتقطت كيس زينتها النقاط عادة ، فنقلت عن علبتها

وما خرجت من الصالون ، حتى انقض الرجل على العلبة ، ففتحها ليرى ما بها . فلم يجد بادى الأمر شيئا ذا بال — أعداداً من صحف قد طويت وصففت فى عناية زائدة . وفتح إحداها فلم يجد بها من الأخبار إلا كل عادى . فلما أراد طيها وقع نظره على عمود الشخصيات ، فوجد على سطر منه علامة زرقاء . وقرأ السطر فاذا به : « أنا فى انتظار اسكندر فى صبيحة السبت — ريتا »

ولم يستطع الرجل أن يرى فوق الذى رأى ، فقد خشى عودة الفتاة . فأعاد كل شىء إلى مكانه .

وعادت الفتاة فاحتلت مكانها الأول . فسألها الرجل فى التدخين ، فأذنت له باسمة . فعرض عليها سيجارة ، فترددت فى قبولها برهة ، ثم عادت فقبلتها . وأشعل لها السيجارة فأخذت منها بضعة أنفاس . وسقطت حيث هى من المقعد ، وأخذت تتنفس عميقاً تنفس النائم . لقد فعل المخدر فعلته ، وفعلها سريعاً

ففتح الرجل العلبة وأخذ ينظر كل ما بها ، فلم يجد إلا أنها احتوت صحفا احتوت جميعها إعلانا شخصيا وضعت الفتاة أمامه علامة . وحاول أن يفهم لهذه الاعلانات معنى فلم يفلح . فلابد أن مفتاح حلها بتلك الكراسة الصغيرة

والمخدر لايبقى أثره أكثر من نصف ساعة ، والقطار لعله بالغ غايته قريبا . فأنزل على النافذة ستارها

ومن الكراسة عرف بعد شىء من الجهد معنى اسكندر ، ومعنى فكتوريا ، ومعنى كثير غيرها من أسماء إنما قصد بها إلى أسماء سفن كانت تبحر من مرسيليا اتضح له الأمر اتضاحاً غريبا . إن الرقيب جرى بقلمه الأحمر على كل شىء فى الجريدة ، إلا خانة الشخصيات . فاستفاد من ذلك الألمان ، فأقاموا وكلاءهم فى الوانى الاسبانية يتلقون الجرائد بالذى بها من حركة السفن ، وعندئذ يرسلون بها إلى غواصاتهم

ونظر الرجل إلى ساعته . فوجد أن القطار بالغ بايون بعد خمس دقائق . فخرج إلى سلم العربة ، واستعد للنط إلى الرصيف عندما يبدأ القطار الوقوف . وكانت صاحبته بدأت تخرج من غيبوبتها ، ولكنه علم أنها لن تستيقظ تماما إلا بعد حين

واستيقظت « دولور » من سباتها ، وأخذت تفرك جفونها ، وتفتحها على مرأى مزعج أى ازعاج . قال البوليس : هيا يا سيدتى أرينا مالديك من متاع

وقعت دولور الجميلة فى الفخ أخيرا — مدام ميكادو . ولم تبح باسم أحد من أعوانها

وحسبوا الحسبة فوجدوا أنها تسببت فى إغراق ثمانين سفينة برجالها

أما اليابانى فلم يكن يعلم أن صاحبته تحيا حياتين

وأما الحلفاء ، فقد أفادوا من جراء هذا الحادث ، حادث الحرب الماضية ، فى هذه الحرب الحاضرة . فالتفتوا إلى خانة الشخصيات التفاتاً خاصاً . وزادوا ، فضيقوا تداول الصحف بين بلد وبلد حتى لا تتداول بينها الاخبار ، مما يحمل حركات السفن أو حركات الجيوش فى خطر

• • •

قرأت هذه القصة فنمت حقا . وما هى بالشىء المقروء الذى أطلبه تعمداً والنهار فى إبانه ، أو والوقت ذو قيمة . ولكنها شىء أدى غايته التى طلبت منه — النوم . ومن القراءة مايطلب للتثقف . ومنها ما يطلب للأخبار . ومنها ما يطلب للتسلى وقتل الزمان . ومنها مايطلب للنوم . وليس بعض منها أحقر من بعض ، ما أدى فى حياة الناس غرضاً

احمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٢٤ — الثلاثاء ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — ١٣ من مارس سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

التمثيل الدبلوماسي :

الحصانة الدبلوماسية

المراد بالحصانة الدبلوماسية « Immunités des agents diplomatiques » هو الامتيازات والحمايات الخاصة الممنوحة للمبعوثين الدبلوماسيين ، التي تجعل منهم رجالا مميزين تميز رؤساء الدول الذين يمثلونهم .

والحصانة الدبلوماسية أسباب مزدوجة : نظرية وعملية ، فمن الناحية النظرية يعتبر المبعوثون الدبلوماسيون ممثلين لدولهم ، بمعنى أن دولهم تتمثل في أشخاصهم ، وعليه يعطى لهم ما لدولهم من احترام وتبجيل .

ومن الناحية العملية ، يحتاج المبعوثون الدبلوماسيون إلى حرية تامة للقيام بالمسئوليات العظيمة الملقاة على عاتقهم . وليتمكنوا من ذلك ينبغي أن يكونوا بمأمن من القوانين المحلية على أنفسهم وأموالهم وحاشيتهم .

وتبدأ الحصانة الدبلوماسية للمبعوث التي تمنحها منذ أن تطأ قدمه أرضاً أجنبية ، وتستمر طيلة المدة التي ... بحكم وظيفته

ومن المتبع تقسيم الحصانة الدبلوماسية إلى قسمين ، يطلق على الأول المناعة (Inviolabilité) وعلى الثاني « الوجود خارج الحدود » (Exterritorialité) .

والمراد بالمناعة هو أن المبعوث الدبلوماسي ينبغي أن يكون في حمى من كل اعتداء مادي أو معنوي ، سواء أكان من موظفي الحكومة أم من أفراد الشعب ، ولهذه الغاية تنص قوانين الجزاء في مختلف البلدان على عقوبات صارمة توقع بكل من يحاول النيل من كرامة المبعوثين الدبلوماسيين أو الاعتداء عليهم .

والمناعة لا تكون للمبعوثين أنفسهم فحسب ، بل تمتد إلى أفراد عائلتهم وحاشيتهم ، وإلى أموالهم وسياراتهم ، وإلى مخابراتهم مع دولهم سواء أكان ذلك بالبريد أم البرق أم التليفون .

وقد جرت العادة على أن تحمل المراسلات الدبلوماسية

ويجتاز الحقيبة جميع الحدود ، دون أن تفتح أو يراقب ما فيها . ويحمل الحقيبة سعاة خصوصيون تشملهم المناعة الديبلوماسية .

والمناعة تحمي المبعوثين الديبلوماسيين من المقاضاة الجزائية ، والقانون الدولي يؤيد ذلك ، والتعامل بين الدول يثبته . فالدولة التي يقيم فيها المبعوث الديبلوماسي لا يحق لها في أي حالة كانت ، أن تقيم عليه دعاوى جزائية أو أن تحاكمه بموجبها . ومحاكم تلك الدولة لا صلاحية لها أصلا بمحاكمة المبعوث ، وعليها أن ترفض النظر في أي قضية جزائية تقدم إليها ، من غير أن يطلب المبعوث منها ذلك ، ولكن هذا لا يعني أن للمبعوثين الديبلوماسيين الحق بأن يفعلوا ما يشاءون . لقد منحوا امتيازات المناعة على اعتبار أنهم يتصرفون تصرفا يتمشى مع قوانين البلاد وأنظمتها . وفي حالة تصرف أحدهم تصرفا مخالفا لتلك القوانين والأنظمة ، وتعكيره صفو النظام ، تطلب الحكومة التي هو في بلادها من حكومته استدعاءه ، أو تقوم بإعادته حالا إلى بلاده .

ويسجل التاريخ أمثلة عديدة من أعمال المبعوثين الديبلوماسيين الذين تآمروا على الدولة التي هم فيها ، ومع ذلك فلم تحاكمهم تلك الدولة . ومن هذه الأمثلة أن سفيراً أسبانياً في لندن تآمر عام ١٥٨٤ على خلع الملكة اليزابث عن عرشها ، فلم تحاكمه الحكومة البريطانية ، ولكنها طلبت منه أن يغادر البلاد . كما أن الولايات المتحدة طلبت عام ١٩١٦ ، وكانت لا تزال على الحياد ، من سفيري ألمانيا والنمسا مغادرة بلادهما لما كانا يقومان به من أعمال تجسسية وإخلال بالنظام .

والنوع الثاني من الحصانة الديبلوماسية هو «الوجود خارج الحدود Exterritorialité» والمراد بذلك صورة تخيلها الفقيه كروثيوس Grotius في القرن السابع عشر ، يبدو فيها المبعوث الديبلوماسي وكأنه لم يترك أرض بلاده ، وكأن بناء السفارة أو المفوضية قائم على أرض وطنه ، لا على أرض البلاد التي تقوم عليها في واقع الأمر . وبعبارة أخرى ، يعتبر بناء السفارة أو المفوضية جزءاً من أراضي بلاد المبعوث الديبلوماسي ، وأن ذلك المبعوث لا يزال يقيم في بلاده . فالسفارة البريطانية في القاهرة مثلاً ، تعتبر جزءاً من بريطانيا العظمى ، والسفير البريطاني في القاهرة يعتبر كأنه يسكن وطنه . وليس هذا الاعتبار سوى تخيل كما قلنا ، ولا يجوز أن يستنتج منه جميع النتائج التي يقضي بها المنطق ، ولكنه يفيد كثيراً في تفسير جانب كبير من الحصانة الديبلوماسية .

فمن الناحية الحقوقية يعتبر المبعوث الديبلوماسي مقيما في بلاده . ولذا لا تنطبق عليه القوانين الجزائية والمدنية للبلاد التي هو مبعوث لديها ، ولا تجوز محاكمته حقوقياً أمام محاكم تلك البلاد ، كما أنه لا تجوز محاكمته جزائياً ، كما رأينا في بحثنا موضوع « المناعة » .

وفي حالة وفاة المبعوث الديبلوماسي ، تطبق قوانين بلاده على تركته ، وإن كانت قوانين تلك البلاد تشير إلى تطبيق قوانين البلاد المتوفى فيها . وذلك لأن المبعوث الديبلوماسي مفروض فيه عرفا أنه لم يغادر بلاده . فالمبعوث الديبلوماسي البريطاني في مصر ، يتوفى في عرف الحقوق الدولية في بلاد الإنكليز ، عندما تكون وفاته الحقيقية قد حصلت في بلاد وادي النيل .

كما أنه لا يجوز لأي كان أن يتخذ أي إجراءات قضائية ضد مبعوث ديبلوماسي فيما يتعلق بما عليه من ديون ؛ فالمبعوثون الديبلوماسيون لا يوقفون لديون عليهم ولا تحجز أموالهم ، المنقولة ولا غير المنقولة ، ولا يمكن منعهم من مغادرة البلاد لأنهم لم يدفعوا ما عليهم من ديون .

وكما أنه لا يجوز إقامة الدعاوى الحقوقية على المبعوثين الديبلوماسيين ، فإنه لا يجوز إجبارهم على تقديم الشهادات

أو رجاء ذلك منهم ، سواء أكانت الشهادات أمام المحاكم الجزائية أم الحقوقية ، أم الإدارية ، أم أمام مندوب خاص لسماع الشهادة فى دورهم .

ومن هذا القبيل ما جرى عام ١٨٥٦ لمسيو ديبوى Dubois مبعوث هولندا الديبلوماسى فى واشنطون . لقد انتحر شخص أمام المسيو ديبوى . وكانت شهادته ضرورية لإجراء المحاكمة . فطلب منه وزير خارجية الولايات المتحدة الإدلاء بالشهادة أمام المحكمة ، مع اعترافه بأنه ليس من واجب المسيو ديبوى القيام بذلك . رفض مسيو ديبوى طلب وزير الخارجية بناء على نصيحة المبعوثين الديبلوماسيين للدول الأخرى . فرفع وزير الخارجية المسألة إلى الحكومة الهولندية ، غير أنها وافقت على موقف مسيو ديبوى ، وسمحت له أن يعطى الشهادة أمام وزير الخارجية فقط . ولما كانت هذه الشهادة وأمثالها لا قيمة لها بالنسبة لقوانين الولايات المتحدة ، فإن حكومة واشنطون تأثرت من موقف المسيو ديبوى ، وطلبت من الحكومة الهولندية استدعاءه .

ولكن ما قلناه لا يمنع المبعوث الديبلوماسى من الظهور أمام المحاكم لإعطاء الشهادة ، إذا هو أراد ذلك . وعندئذ تسمع المحاكم شهادته وتتخذها بينة .

والمبعوث الديبلوماسى غير خاضع للضرائب الشخصية والمباشرة ؛ فهو لا يدفع ضريبة دخل . أما الضرائب الجمركية فلا يدفعها أيضاً من قبيل المجاملة لا بحكم الحقوق الدولية .

والآن نأتى إلى أهم نتائج « الوجود خارج الحدود » « Exterritorialité » وهى حصانة مقر المبعوث الديبلوماسى ، الذى يطلق عليه عادة « فندق السفارة » « L'hôtel de l'Ambassade » .

وحصانة فندق السفارة نتيجة لاعتباره وهمياً من ضمن أراضى دولة المبعوث وواقعاً خارج حدود الدولة التى هو فيها .

وبناء على ذلك لا يجوز اتخاذ اجراءات قضائية ، بحق فندق السفارة ، من حجز وخلافه ، ولا يجوز إيقافها على ما فيه من أدوات . والحصانة تمتد الى أكثر من ذلك ، إذ أنها تمنع السلطات المحلية من دخول فندق السفارة بأى وجه من الوجوه ، الا اذا سمح المبعوث بذلك . فالمبعوث سيد فى مقره ، ولكن من غير أن يكون فى وضعية تمكنه من التحكم فى أبناء قومه فيه . وبعبارة أخرى ليس للمبعوث حق القبض على أحد من أبناء قومه المقيمين ضمن حدود الدولة التى يقوم فيها المبعوث ، أو حبسه فى مقره ، لترحيله وتسليمه إلى حكومته .

ومن قبيل ذلك ما حدث عام ١٨٩٦ فى بريطانيا لشخص صينى اسمه « سان يات سين » كان هذا لاجئاً سياسياً مطلوباً للحكومة الصينية ، فدبر المبعوث الصينى فى لندن حينذاك ، طريقة أدخل بواسطتها سان يات سين القوصلية الصينية ، ومن ثم ألقى القبض عليه وأخذ بعد الترتيبات لترحيله ، وتسليمه إلى حكومته ، وكانت حجة المبعوث الصينى ، أنه ليس للحكومة البريطانية حق التدخل ، لأن بناء القوصلية هو جزء من الأراضى الصينية ، ولكن الحكومة البريطانية تدخلت فى الموضوع ، وأدى تدخلها إلى إطلاق سراح سان يات سين بعد بضعة أيام .

ولحصانة « فندق السفارة » نتائج متعددة هامة فيما يتعلق بقانون الجزاء ، فإن وقعت جريمة فى داخله ، لا يجوز للنيابة التدخل إلا بطلب من المبعوث ، ولكن لا يعتبر أن الجناية وقعت فى بلاد أجنبية . وليس هناك مجال لإبعاد الجانى (Extradition) ولا إلى تسليمه إلى البلاد التابعة لها السفارة أو القوصلية . وبعبارة موجزة ، تكون الجناية التى تحدث فى فندق السفارة واقعة ضمن صلاحية القضاء المحلى ، ولكن توقيف الجانى وإجراء التحقيق داخل ذلك الفندق يتطلب فى بادىء الأمر ، موافقة المبعوث .

وكثيراً ما يحدث أن يلتجىء المجرمون المطلوبون

للحكومة المحلية إلى المفوضية ، طالبين الحماية . وقد أدت نظرية اعتبار فندق السفارة واقعاً فى أراضى دولة المبعوث إلى مطالبة المبعوثين الدبلوماسيين بحق منح الالتجاء إلى الملتجئين فى مقرهم ، ويعرف هذا الحق « بحق الالتجاء » ، وقد غولى به حتى كان يشمل جميع الحى الذى يقع فيه « فندق السفارة » ، ولكن الدول رفضت فى القرن الثامن عشر قبول نظرية « حق الالتجاء للحى » ، وقبلت « حق الالتجاء » إلى « فندق السفارة » وحده .

أما اليوم فلا وجود لحق الالتجاء من ناحية الحقوق الدولية ، لأن المبعوثين لا يرغبون فى جعل المفوضيات ملجأ للمجرمين . ومن المتبع أنه حينما يدخل أحد المجرمين الاعتياديين مفوضية ما ، يرسل المبعوث الدبلوماسى وراء البوليس المحلى ليتخلص من المجرم .

أما فيما يتعلق باللاجئين السياسيين ، إلى إحدى المفوضيات ، فلا حماية لهم فى نظر الحقوق الدولية ؛ فالمبعوث الدبلوماسى غير مجبر على قبولهم فى مقره ، ويستطيع إن هم دخلوا فندق السفارة واحتموا به ، أن يسلمهم إلى السلطة المحلية ، ولكن العادة خلاف ذلك ؛ فالمجرمون السياسيون والمضطهدون من الشعب أثناء القلاقل والثورات ، ينالون حماية الحصانة الدبلوماسية حين يلجأون إلى دور السفارات أو المفوضيات .

وقد وقعت حوادث كثيرة من هذا القبيل ، لا سيما فى البلاد الشرقية وبلاد أمريكا الجنوبية ؛ فقد كان المبعوثون الدبلوماسيون يحمون اللاجئين ، ويفاوضون الدول التى هم فيها لإخراجهم من البلاد بسلام . وإن رفضت الحكومات المحلية ذلك ، فليس لها حق دخول المفوضيات ، وكل ما تستطيع عمله هو أن تحيط المفوضية بحرس للتمكن من القبض على اللاجئ حين خروجه .

ومما يروى أن أميرة زنجية كان يسندها مبعوث دبلوماسى ألمانى ، ثارت على أخيها أمير البلاد ، الذى كانت تسنده الحكومة البريطانية ، وبعد قتال بين أتباع الأميرة ، ورجال الأمير ، قضى على الثورة ، فالتجأت الأميرة إلى المفوضية الألمانية ، فمنحها حمايتها . طالب الأمير ، ومن ورائه الانجليز ، المبعوث الألمانى بتسليم الأميرة ، فرفض المبعوث الطلب ، فوضعت الحكومة المحلية الحرس حول المفوضية ، للقبض على الأميرة حين خروجها . ولكن الأميرة لم تخرج ، وفى النهاية تضايق المبعوث الألمانى من الوضعية ، فعمد إلى حيلة قانونية .

طلب من حكومته إرسال بارجة ألمانية إلى الميناء ، الذى يقيم فيه . وعندما وصلت البارجة إلى الميناء رست فى أقرب مكان منه إلى المفوضية الألمانية . فربط المبعوث حبلا متينا وصل المفوضية الألمانية بصارى البارجة . وعلق على الحبل بكرة ، ووضع الأميرة فى سلة كبيرة ، وربط السلة بالبكرة ، وأخذت البكرة تدور على الحبل إلى أن وصلت بالسلة ومن فيها إلى البارجة . وهكذا انتقلت الأميرة من المفوضية إلى البارجة والحرس ينظر دون أن يستطيع أن يأتى بعمل . ذلك لأن المفوضية تعتبر أرضا ألمانية ، والبارجة تعتبر أرضا ألمانية أيضا ، والحبل فى الهواء موصل بين أرضين ألمانيتين ، تشمله الحصانة الدبلوماسية . وبهذه الحيلة أفلتت الأميرة الزنجية من يد طالبيها ، ووصلت برلين . وكان مصيرها فيها أن أصبحت بائعة الفستق فى دكان صغير .

نرى مما تقدم أن المبعوثين الدبلوماسيين يتمتعون بمزايا عديدة ، تعرف بالحصانة الدبلوماسية ، تجعلهم فى وضعية تختلف كل الاختلاف عن وضعية المواطنين المحليين والأجانب الاعتياديين . وهذه الحصانة ، على نوعيها ، جد ضرورية لتمكين المبعوثين الدبلوماسيين من القيام بما يلقى على عاتقهم من أعمال جسام ، بكل حرية فكرية ، واطمئنان بال .

فما هى أعمال المبعوثين الدبلوماسيين التى تتطلب هذه الحصانة الواسعة ؟ هذا ما نتناوله فى المقال المقبل .

يوسف هيكل

من عصر اسماعيل :

محمود الفلكي

[ساهمت كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول في أسبوع اسماعيل بمحاضرتين قيمتين عن عالمين مصريين عظيمين محمود الفلكي وعثمان غالب . ألقى الأولى منهما الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن وألقى الثانية الدكتور محمد ولي . وقد آثرنا أن ننقل لقراء الثقافة في هذا العدد شيئاً من المحاضرة الأولى مما أثارته في النفس . وقد حضرها صاحب المعالي الدكتور السنهوري بك وزير المعارف وعقب عليها الأستاذ شفيق غربال بك المستشار الفني للمعارف]

ثلاثة من الرجال الأفذاذ شاءت حكمة المولى جل شأنه أن يجمعهم وتؤالف بينهم وتجعل منهم عاهل مصر العظيم اسماعيل باشا ، ووزير مصر الشهير على باشا مبارك ، والعالم الفلكي النابه محمود أحمد الفلكي باشا وهو أكبرهم سناً ، إذ ولد عام ١٨١٥ فهو يكبر على باشا مبارك بتسع سنوات وإسماعيل باشا بخمسة عشر عاما

ولد محمود احمد ببلدة الحصة من مديرية الغربية ونزح إلى الاسكندرية وهو في العاشرة من عمره ثم عاد إلى القاهرة فدخل المهندسخانة وكانت بالقلعة ، ولم يلبث أن تخرج فيها وعين مدرسا بها ولما يبلغ العشرين من عمره . ومكث بها مدرسا من سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٥٠ وقد نقلت إلى بولاق وأنشىء فيها مرصد تحت ادارته ، وقد دخل اليها علي مبارك عام ١٨٣٩ وتتلمذ فيها لمحمود احمد خمسة أعوام سافر بعدها إلى باريس مع اسماعيل باشا في بعثة الأنجال وعاد معه إلى مصر بعد خمس سنوات أخرى

نال علي مبارك حظوة عند عباس الأول ، فاتجه فكره إلى أستاذه محمود احمد فرد اليه الجميل بأن أشار على الوالي بإرساله إلى فرنسا ليتم تعليمه . وهكذا سافر محمود أحمد في بعثته العلمية وهو في سن الخامسة والثلاثين بعد أن كملت رجولته ونضجت آراؤه واكتسب خبرة في مختلف نواحي الحياة ، فأقبل على العلم متعطشا وتتلمذ لخيرة رجال العلم في أوربا ، وسرعان ماتجلى نشاطه لا في الدراسة النظرية وحدها ، ولكن في الدراسة العملية كذلك وفي ميدان البحث والابتكار والتجديد

وتنقل محمود احمد بين أنحاء أوربا يستخلص زبدة ماتمتاز به كل أمة ويتصل اتصالا شخصيا بأكابر العلماء المشتغلين بالفلك وبالمباحث الطبيعية الأرضية (الجيوفيزيقا) فيستوعب ماعندهم من طرق خاصة وما يمتاز به كل منهم من فضائل علمية وأخذ ينشر آراءه وبحوثه : فمن بحث من التقويمين الاسرائيلي والاسلامي إلى بحث عن شدة المجال المغنطيسي للأرض في بلجيكا وألمانيا وفرنسا يقارن نتائجه بمن سبقه من العلماء الأوربيين ويستنتج استنتاجات قيمة ، إلى بحث آخر مغنطيسي قياسي ، رسم فيه الخطوط المتساوية الشدة والمتساوية في الانحراف ، وقارنها كذلك بنظيراتها لمن سبقه . وكل هذه البحوث نشرت في المجلات العلمية الرفيعة في بلجيكا وانجلترا وفرنسا باسم محمود الفلكي المصري مدير مرصد القاهرة وعضو الجمعيات العلمية وارسالية علمية بأمر والي مصر .

وأعظم ما يلفت النظر ويتم عن متانة في الخلق واستمساك بالدين واعتزاز بالقومية أنه اتجه في بحوثه إلى ناحية دينية ممتعة درسها دراسة وافية جيدة ، فكتب في سنة ١٨٥٨ رسالة في تحقيق تاريخ ميلاد النبي (ص) وتاريخ الهجرة بالاستناد إلى بعض الظواهر الفلكية ، وقد نشر البحث في فرنسا وترجمت الرسالة إلى العربية ونشرت تحت عنوان « نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام » وهذه الرسالة جزءان قدم المؤلف في أولها أدلة ثلاثة من النصوص الاسلامية المتفقة وهي :

(١) كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم ابن النبي (ص) من مارية القبطية ، عن المغيرة بن شعبة « رضي الله عنه » قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله (ص) يوم مات إبراهيم فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ....

فقال رسول الله (ص) : «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» . والمتواتر أن وفاة إبراهيم حدثت في السنة العاشرة من الهجرة . وقد حسب الفلكي بالرجوع إلى الجداول الخاصة بحركات الشمس والقمر التاريخ الذي حدث فيه هذا الكسوف في المدينة فوجد بالحساب أن هناك كسوفاً للشمس في منتصف التاسعة من صباح ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ ميلادية ، وهذا يقابل ٢٩ من شوال سنة ١٠ هجرية .

(٢) تعيين تاريخ الهجرة استناداً إلى ما جاء في السيرة الحلبية وفي كلام الحافظ بن ناصر من ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله (ص) قدم المدينة يوم عاشوراء فإذا اليهود صيام فقال رسول الله (ص) : « ما هذا » قالوا : هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ونجى فيه موسى . فقال رسول الله (ص) : « أنا أولى بموسى » فأمر رسول الله (ص) بصومه . واعتماداً على أن عاشوراء هو العاشر من محرم بينما الهجرة كانت في ربيع الأول ، فإذا رجعنا القهقرى بالتاريخ متخذين التقويم العربي القمري والتقويم الإسرائيلي الشمسي حتى يتحدا ، وبعد مراجعة أقوال علماء الهيئة الحديثة انتهى إلى أن النبي (ص) دخل المدينة يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ الموافق ١٠ تشرى وهو عيد كيبور عند اليهود .

(٣) جاء في الخبر المتواتر أن ميلاد النبي (ص) كان بعيد اقتران بين زحل والمشترى في برج العقرب ، وأنه كان في نيسان ، وبالحساب وجد هذا الاقتران قد حدث في ٢٩ أو ٣٠ مارس سنة ٥٧١ ميلادية وبمراجعة مختلف الأسانيد توصل إلى تقدير ميلاد النبي (ص) يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول الموافق ٢٠ من إبريل سنة ٥٧١م .

وأما الجزء الثاني من هذه الرسالة القيمة فيبحث في أمر التقويم عند العرب الجاهلية معتمداً على التواريخ الثلاثة السالفة ورواية عن خسوف للقمر في السنة الرابعة هجرية وأدلة متفرقة أخرى ثم جمعا على أن التقويم الجاهلي كان قمريا بحتا ، وقد حقق أيضا عمر النبي (ص) .

هذه هي أبحاث الفلكي في مدة التحاقه بالبعثة في أوربا من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٥٩ وهي تدل على مقدرة عظيمة وكفاءة في فرعين مختلفين كل الاختلاف من الدراسة . الأول : علم التقاويم والأزياج واستعمال الجداول الفلكية ، والثاني دراسة المغنطيسية الأرضية .

وقد عاد عام ١٨٥٩ وعمره إذ ذاك ٤٤ سنة ومنح لقب بك وصار معروفا باسم محمود حمدي الفلكي وكان يوقع باسم محمود بك وصار عضواً بالمعهد العلمي المصري وانتخب وكيلا له . وما كاد يصل إلى مصر حتى أخذ بعد خريطة لمصر مبتدئا بالوجه البحري وأرسل في طلب أجهزة الرصد ليكمل عدة المرصد .

وفي سنة ١٨٦٠ أوقف عمله في الخريطة مؤقتا استعدادا لمشاهدة كسوف الشمس الذي حدث في ١٨ يوليه من تلك السنة واهتمت له الدوائر العلمية في أوربا أكبر اهتمام ، وجرت له عدة بعثات من المراصد الكبرى لمشاهدته في أسبانيا ، واشترك في احداها الماجيل لاغ الفلكي الذي كان وقتذاك مقيما في باريس .

وكانت منطقة الكسوف الكلي تبدأ من كاليفورنيا وتمتد عبر المحيط الأطلسي إلى أسبانيا ثم جنوباً إلى افريقيا مارة بالصحراء الغربية ومنتهية عند الحبشة . فاختار محمود بك مديرية دنقلة بالسودان مكاناً للرصد فسافر إليها من طريق النيل وظهور الجمال تحت شمس يونيه المحرقة ، ووصل قبل الموعد بخمسة عشر يوماً فقط . وطفق يوالي الأرصاد تحقيقاً للساعة وتعييناً لخط عرض المكان . وكان التيودوليت الذي أخذه معه قد اختل في أثناء النقل فاضطر إلى استعمال آلة ذات السدس وإلى إعادة التجربة عدة مرات للاستيثاق من دقة نتائجه .

وقد شاهد محمود بك كسوف الشمس وعين أوقات مراحله بالضبط (لأقرب عشر ثانية زمنية) كاختفاء ٩ نقط كلفية على قرص الشمس وظهور ثلاث منها . وكانت

هذه الأرصاد من أتم الأعمال الفلكية التي قام بها ، وكانت محل فحص دقيق في أوربا ونالت الإعجاب ، وطلب فاحصوها أن تقدم الأكاديمية العلمية بفرنسا له الشكر على هذا الرصد الهائل الدقيق ، فأقرتهم الأكاديمية على قرارهم .

هـذا وقد انتهز فرصة وجوده بالسودان فأخذ قراءات مغنطيسية وجغرافية في أكثر من ٤٠ مكاناً في طريقه من قنا إلى دنقلة . وبعد أن أتم هذا العمل الجليل عاد إلى مصر واستأنف عمله العظيم الذي كان قد نحاه جانباً ريثما يتم هذه المهمة المستعجلة الموقوتة .

وفي سنة ١٨٧٥ أسست الجمعية الجغرافية وانتخب محمود الفلكي وكيلا لها ، وقد زاد اهتمام الفلكي باشا في هذه المرحلة من حياته بالشئون المتيورولوجية والجغرافية ومناسيب النيل وجغرافية الأرض وتاريخ المعالم المصرية . وطبع في كوبنهاجن سنة ١٨٧٢ رسالة عن مدينة الإسكندرية القديمة وكفورها وضواحيها إلحاقاً بالخريطة التي رسمها لهذه المدينة عام ١٨٦٥ وسبقت الإشارة إليها والتي طبعت سنة ١٨٧١ في بولاق . ومثل الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافي في باريس سنة ١٨٧٥ وفي البندقية سنة ١٨٨١ وجمع بيانات عن فيضان النيل وتحاريقه عن المدة من سنة ١٨٢٥ حتى سنة ١٨٨٤ كانت أساساً لتقديرات الري ولا زالت مرجعاً هاماً لمهندسي النيل . واقترح إنشاء محطات متيورولوجية في أنحاء القطر المصري ، ونشر ملخص الأرصاد الجوية التي عملت بالرصدخانة الخديوية المصرية من سنة ١٨٦٨ عندما تم نقلها إلى العباسية حتى سنة ١٨٧٧ . وليس معنى اشتغاله بهذا كله أنه ترك اهتمامه بالفلك . فقد رسم عدة مزاول شمسية على مستويات وعلى مجسمات زائدة ، ورصد مرور كوكب الزهرة على قرص الشمس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ وكان قد قارب الستين ، وكتب وصفاً لهذه الظاهرة في روضة المدارس بتاريخ ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ ووضع مدفع الظهر في خط الزوال عند القلعة ، وكان يطلق بتركيز أشعة الشمس على الفتيل عندما تكون على خط الزوال ، ثم ضبط إطلاقه بإشارة من المرصد . وله بحث طريف في الظواهر الفلكية المتصلة ببناء الهرم قادته إلى أنه قد بني منذ حوالي ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد .

هذا موجز من تاريخ هذه الشخصية الفذة وأحد أولئك العلماء الذين فهموا مهمة الباحث على حقيقتها وانصرفوا بقلبهم إلى الدراسة الجدية ورفعوا رأس مصر عالياً بين الأمم . ولو أنه كان هو وأمثاله قد خلفوا وراءهم مدرسة من التلاميذ والتابعين لكان لمصر شأن آخر .

والذي يلفت النظر حقا هو تعدد نواحي الاهتمام وانتهاز الفرص للبحث واختيار الموضوعات التي لها صبغة قومية أو دينية وتوخي الفائدة العملية . ولعل هذا الاتجاه كان نتيجة لتوجيه طائفة العلماء الفرنسيين الذين وجدوا بمصر وانصرفوا إلى التطبيقات العملية بدلا من البحوث النظرية البحتة كما أشار الأستاذ غربال بك في تعقيبه .

وإننا نختتم هذه الكلمة بالإشارة إلى الاقتراح الذي تقدم به غربال بك إلى رجال العلوم بمصر . فقد قال بأن الفرنسيين كتبوا وصفا دقيقا لمعظم نواحي الحياة العملية ، فرسموا الخرائط وأحصوا النباتات والحيوانات الخ كتب ذلك علماؤهم الذين أتى بهم السلطون . فهلا يكون جديراً برجال العلوم من المصريين بعد مرور قرن ونصف على جهود الفرنسيين القيمة في هذا السبيل أن يتولوا هم إخراج طائفة جديدة من الأوصاف التي يكتبونها وهم أبناء البلد والخبيرون بشئونها؟ حقاً أن انصراف المصريين من العلماء لكتابة هذا الوصف الشامل لجميع نواحي الحياة العلمية في مصر يعتبر محاولة صادقة لتجديد عهد النهضة العلمية في عصر الفاروق يماشي تلك النهضة التي تمت على يد جده العظيم .

وأخيراً أرى لزاما على أن أنوه بهذا الجهد المشكور الذي بذله الدكتور الحاضر والذي تم عن تمكن في العلم وفي الاطلاع

أحمد عبد السلام الكرداني

النشاط العربي

في فلسطين

— ١ —

لعلك أدركت أيها القارئ، من المقالات السابقة أن هناك كفاحاً يرمي إلى تضييق الخناق على العرب في فلسطين ، وأن هؤلاء العرب يواجهون في هذا الكفاح قوة إن تخل عنها الحق فقد تدرعت بالعلم والحيلة ، تدرعت بنظم اقتصادية وتشكيلات تجعل من العسير على العرب أن يصمدوا في هذا الكفاح الا إذا تدرعوا بنفس السلاح .

وقد رأيت أن أشد أدلة الصهيونية بريقاً ولمعانا وتشابها مع الحقيقة هو التقدم والازدهار في الناحيتين الصناعية والزراعية وما تبدو عليه المستعمرات اليهودية من تنظيم خلاّب للانتاج وإكثار منه ، يكشف عن الفرق بين طرق الانتاج البدائية القديمة وطرق الإنتاج الحديثة

والذي أحب أن أعرضه للقارئ، في هذا المقال ليس النشاط العربي على صورة مفصلة تبين كل ألوانه . إن ذلك يحتاج إلى وقت طويل ، وإلى دراسة تفصيلية لنواحي هذا النشاط . إن كل ما أرمي إليه ، أن أبطل الحجة الصهيونية في أن فلسطين لم تكن لتزدهر لو لم يقيض لها رسول المدنية في ثوب الهجرة الصهيونية .

فاذا كان العرب قد استكانوا للنوم أو الانطواء على أنفسهم وربطوا أقدامهم بالماضي متعمدين التخلف عن ركاب الإنسانية حين أخذ السير فقد حقت حجة الصهيونية ونهض الدليل الذي يكاد يشبه الحق .

ولكن العرب لم يقفوا ويتخلفوا عن الركاب . لقد أخذوا يهبّون أنفسهم ويخطون في سبيل التقدم بأقدام لاتعوزها القوة والثبات ، وإنما تعوقها — فقط — كثرة العراقيل والعقبات .

هم يؤمنون بالعلم كما آمن به كل العالم المتمدن ويسعون في سبيله سعيا جديراً بالإعجاب .

ومسألة التعليم هي شغل العرب الشاغل ، يتعاونون عليها ولا يدخرون في سبيل الإكثار من المدارس أي جهد ولا مال .

والحقائق الناطقة التي سأسردها لك لاتحتاج إلى أسلوب بياني يجملها لكي تثبت ما أقول

ففي قرية صغيرة تدعى القنطورة لايزيد سكانها عن ألف نسمة جمع الأهالي من بينهم ثلاثة آلاف من الجنيهات لبناء مدرسة بها .

وجمعت قرية أخرى مبلغ خمسة آلاف جنيه لبناء مدرسة أيضا . .

وجمعت مدينة نابلس ٢٥ ألفا من الجنيهات لنفس الغرض . .

وفي كافة القرى الفلسطينية تجد أحد أمرين ، إما مدرسة قائمة ، وإما حركة لبناء مدرسة . . .

ويتزايد عدد طلبة الكلية العربية بالقدس بصورة تدعو إلى توسيع نطاقها .

وفي الجامعة الأمريكية ببيروت يتدفق الطلبة الفلسطينيون لينهلوا من التعليم العالي كل عام ، وقد بلغت نسبتهم في العام الماضي ¼ طلبة الجامعة كلها . وكذلك الأمر في إقبالهم على الجامعات المصرية والجامعة الأمريكية بالقاهرة

وفي أسرة واحدة بالقدس خمسة شبان نالوا درجاتهم العلمية من جامعات انجلترا

وذلك كله إن كشف عن شيء، فانما يكشف عن أن هناك شعبا يتحرق للعلم وينهض به بمحض إرادته ويجعله من أغراض حياته الأولى . فيأخذ من طعامه للعلم ، بل ويتكلف أحيانا الشطط ، والقدقص على أحد كبار الموظفين

هناك أن فلاحا جاء ليقسم أمامه اليمين القانونية ليقدر سن ابنه (وهو ما يعرف عندنا بشهادة التسنين)، وبعد أن تمت الاجراءات وحصل الرجل على بغيته صارح الموظف بأنه أقسم يمينا كاذبة لأن سن ابنه أقل من هذا التقدير وأنه فعل ذلك حتى يستطيع أن يلحق ابنه بالمدرسة لأن سنه الحقيقية أقل مما تشترطه المدارس!.

ولا تقف رغبة العرب عندهذا الحد بل إنهم ليقبلون على القراءة بكل أنواعها إقبالا تكشف عنه كمية الكتب التي تصدرها مصر إلى فلسطين

ولست بسبيل سرد الأدلة، وإنما أنا — كما قلت من قبل — أرمى إلى عرض مجرد لبعض نواحي النشاط.

وإلى جانب العلم يأخذ العرب أنفسهم بالتجديد الذي يلائم روح العصر في النشاط الاجتماعي، فهم يشاركون السلطات فيها مشاركة فعالة ولا يبخلون بمال في سبيل الاصلاح الاجتماعي

ولقد أتيح لي أن أزور مؤسسة دير عمرو التي تشرف عليها لجنة اليتيم العربي بالقدس فراعني أني أرى مؤسسة يلازمها التوفيق من الفكرة التي رمت إليها إلى النتائج التي حصلت عليها. فالمؤسسة وليدة الظروف السيئة التي أحاطت بفلسطين فخلفت عددا من أبناء العرب بلا عائل مما دفع لجنة اليتيم العربي إلى إنشاء دار تأوي هؤلاء الصبيان، لا تحمل طابع اليتم ولا مايدمغ به صاحبه من ذلة وانكسار، فكانت هذه المؤسسة، على مقربة من القدس وعلى ارتفاع ٧٥٠ مترا من سطح البحر، وعلى مساحة ٧٥٠ فدانا، شرع في تأسيسها بأموال عربية جمعتها اللجنة من عرب فلسطين مسيحيين ومسلمين، ومنها خمسة آلاف جنيه دفعتها مصر عام ١٩٤٠ في عهد رفعة علي ماهر باشا[1]

(١) كان هذا المبلغ هو الذي خص اللجنة من ٣٠ ألفا من الجنيهات دفعتها الحكومة المصرية لمعاونة فلسطين سنة ١٩٤٠.

وتتبع هذه المؤسسة نظاما رائعا يحكم تنفيذه دستور حازم قوامه ثلاث مواد هي:

١ — ليست المؤسسة دار أيتام وإنما مشروع تعاوني

٢ — مايستطيع أن يقوم به عضو المؤسسة يقوم به، ومالا يستطيعه يستأجر له العمال

٣ — إذا أردت أن تأكل فيجب أن تنتج

وبهذه المواد تسير المؤسسة، فأعضاؤها يزرعون خضرهم وحبوبهم وفواكههم، ويربون دواجنهم وأغنامهم بل والنحل اللازم لكي يأكلوا العسل. وهم الذين ينظمون شئونهم ويديرون مخازنهم، ويقومون بالتناوب بأعمال التنظيف. وما كان أظرف الصبي الذي سار معنا يوم زيارتنا المؤسسة حين سألته، وقد رأيته يتبعنا إلى كل مكان، عن عمله فأجابني في اعتزاز:

— أنا رئيس التنظيفات اليوم!..

وإلى جانب الحياة العملية يتعلم الأطفال تعليما نظريا وفقاً لمناهج التعليم الحديثة، وتقوم لجنة اليتيم العربي الآن بجمع الأموال لإنشاء مؤسسة مشابهة للبنات، ومؤسسة أخرى للأطفال من سن ٥ — ١٠، كما أن لها فرعا من ميناء فلسطين العظيم حيفا. ويساهم الأهلون في هذا النشاط الاجتماعي مساهمة تبعث على الإعجاب، فقد طلبت اللجنة من أهل القرى أن يجمعوا بقيمة مايصرفونه ثمناً لنحر الذبائح لتكريم أعضاء اللجنة عند زيارتهم للقرى، فبلغ ماجمع من هذا السبيل وحده ١١٫٥٠٠ من الجنيهات صرفتها اللجنة في إنشاء مستوصف وملحق مؤسسة دير عمرو...

كذلك أتيح لي أن أزور مستشفى أنشأه رجل واحد في يافا هو المرحوم الدكتور فؤاد الدجاني، وهو منسق على أحدث نظم المستشفيات ومجهز بأحدث الآلات، ويحتوي على ٧٠ سريرا منها ٤٥ سريرا للفقراء، وقد قال عنه المرحوم

شهران في القاهرة

أعود إلى دمشق في هذا المساء بعد أن فرغت من الاشتراك في أعمال اللجنة الثقافية . ولقد خلوت إلى نفسي في هذا الصباح فقلت : ماهي الآثار التي بقيت فيّ من الإقامة بالقاهرة شهرين ؟ قد يكون الهرب من برد دمشق إلى دفء القاهرة أتمّ نعمة نعمت بها في هذا الشتاء ، وقد يكون التمتع بمحاسن الطبيعة في ريف مصر أكبر سرور دخل على قلبي ، وقد تكون المجالس الأدبية في ليالي الجمع في لجنة التأليف والترجمة والنشر أروع مجالس حضرتها ، فقد أعادت إلى ذهني ذكرى مجالس أبي حيّان التوحيدي . ولست أدري لمَ لا يدوّن الأساتذة أصحاب هذه المجلة خلاصة أحاديثهم في مجلسهم ، فإنها لا تخلو من فلسفة وأدب واجتماع وفكاهة . وقد تكون جنازة المرحوم أحمد ماهر باشا أعظم جنازة شهدتها في حياتي . وجملة القول إذا أردت أن أحصي الآثار التي خلّفتها في خاطري الإقامة بالقاهرة فإني أجد منها طائفة غير قليلة . غير أني أخطاها كلها ، ولا أذكر منها إلا أثراً واحداً ليس فيه شيء من سرور القلب وإنما فيه كثير من ألم النفس :

اشتغلنا في هذين الشهرين بتهيئة الوحدة الثقافية في بلاد العرب ، وقد نختلف في توضيح مرامي هذا النوع من الوحدة ، ولكن الشيء الوحيد الذي لا نختلف فيه أن الوحدة الثقافية تشتمل على أمور كثيرة من أعظمها وحدة الشعور . فما الفائدة من الوحدة الثقافية إذا كنا لا نتقارب في وحدة الشعور ؟ فمن التقارب في الشعور أن يألم بلد من بلاد العرب لما يألم له بلد آخر ، فإذا شكا بلد من حالة اجتماعية ولم يشاركه بلد آخر في هذه الشكوى أو في الذي تتضمنه من ألم فلا تكون الوحدة الثقافية شيئاً . ولقد ألمت وأنا في القاهرة لشيء ألم له كثير من إخواني . قد يجمع مصر سبعة عشر مليوناً من الناس على ما أظن ، ولكن التباعد بين حالتهم الاجتماعية لا يكاد يقدر القلم على وصفه . ولست أعرف بلداً من بلاد العرب بلغ فيه التباعد بين طبقاته ما بلغه في مصر ؛ فلسنا نجد فيها نسبة بين الطبقات : فريق يعيشون في أبعد مذاهب النعيم من العيش وهم قليلون جداً ، وفريق يعيشون في أبعد مذاهب الخشونة وهم معظم أهل مصر . ولقد شهدت هذا النوع من العيشتين في القاهرة نفسها وفي ضواحيها وفي الأرياف . ولست أنسى مشهداً كدّر عليّ صفو نزهة في القناطر الخيرية ؛ فقد ركبنا في هذه القناطر عجلة يدفعها رجلان من أهل الأرياف ، كنا نغرق في محاسن الطبيعة ، وكان الرجلان يغرقان في شقاوتهما ؛ رجلان حافيان ، يدرجان بالعجلة ، يتدفق العرق من جبين كل واحد منهما ، لا يكادان يشعران بشيء مما حولهما كأنهما آلتان متحركتان ، فكأن الشعور

الدكتور عبد الواحد الوكيل بك إنه المؤسسة الوحيدة من نوعها في الشرق العربي .

فإذا أردت أن تمس ناحية أخرى من نواحي النشاط الاجتماعي في فلسطين ، فيمم بوجهك شطر المشاريع الخيرية المختلفة ، إنك ستجد نساء يتبرعن بعشرات الألوف من الجنيهات لإنشاء مستشفيات وينفقن عشرات الأفدنة عليها ثم حوّل وجهك شطر أندية الشباب الكثيرة في مدن فلسطين حيث يأخذ الشبان أنفسهم بألوان كثيرة من النشاط . ستجد عندئذ أن في مدينة يافا وحدها ثلاثة أندية للشبان يزاولون فيها رياضتي الجسم والروح . وستجد أيضاً صحافة نشطة واعية لا تخلو أي صحيفة منها من دعوة إلى مشروع اقتصادي أو تذكير بمشكلة فلسطين . وإذا كانت الصحافة أصدق مقياس على نضج الرأي العام ووعيه ، فإنك تجد دليلاً ساطعاً على نشاط فلسطين لو فتحت أية صحيفة فلسطينية

صبحي ذهني

ات فيهما من كثرة الشقاوة حتى أصبحا مثل الجماد . ووالله ما ذكرتهما إلا ذكرت العمال الذين كانوا يبنون الأهرام على يام الفراعنة ، ورجال التاريخ يعرفون كيف كانت حالة ولئك العمال !

لقد قلت فى نفسى بعد هذه المناظر : اذا جازت أشباه هذه الحالة الاجتماعية فى مصر فى الماضى فهل تجوز فى لآن ؟ لاشك فى أنها ستجلب لمصر متاعب شتى ، إنها ستجلب لمصر حالات فيها كثير من أنواع الاضطراب ، وقد تتعب فيها الحكومات التى تتعاقب ، إلا أنى لا أجيز نفسى فى هذا المقام الخوض فى مثل هذه الموضوعات ، ولكنى إذا كنت لا أسمح لها بالتعرض لأمور يكون الرأى فى معالجتها رأى الحكومات ، فانى أسمح لها بالتصدى لأمور عتقد أن نصيب الأديب من معالجتها غير قليل .

أرى أن الأدب فى مصر مقصر جداً فى واجبه لمقدس . واذا كان فئة من الأساتيذ الأجلاء يكتبون فى موضوعات من أرفع الموضوعات مثل إحياء رجال العرب والإسلام أو مثل إحياء تاريخ العرب والإسلام ، فلست أدرى لماذا لا يكتبون فى موضوعات حالة مصر الاجتماعية ، لماذا لا يهبطون إلى طبقات الشعب ولا يخالطون هذه الطبقات ، ولا يرافقون الفلاح فى ريفه ولا يشهدون خشونته وشقاوته ولا ينظرون إلى موت حسه وشعوره ؟ لماذا يبعد الأديب من هذا الحاضر الذى نعيش فيه وينظر إلى الماضى وحده ؟ وهل جاءت عظمة « تولستوى » إلا من صلته بالفلاح الروسى ومن شفقته على هذا الفلاح ؟ وهل جاء بعض عظمة « روسو » إلا من انصرافه إلى الطبيعة ومن تغنيه بها وجر الناس إلى حبها حتى كانوا يسمون أبناءهم بالأسماء التى وردت فى كتبه المشتملة على وصف الطبيعة والتغنى بها !

لست أحاول الاستقصاء فى الإشارة إلى الأدباء الذين كان لأدبهم سلطان عظيم وأثر راسخ فى تعديل الحالات الاجتماعية ؛ فالأدب إنما هو كل شىء فى مثل هذا التعديل ، فيه تستفيض مذاهب الفلسفة والاجتماع والأخلاق وغيرها فى طبقات الناس ، فتنبه من شعورهم إذا غفل وتستيقظ من فكرهم اذا رقد وتشفى من حسهم اذا مرض . لقد غلب على أدبنا شىء من النزعة المادية ، قد يكون من بعض أسبابها هذا العصر المادى الذى نعيش فيه ، فلا نكتب إلا لنربح ونقتنى . لاشك فى أنه ليس من الضرورى أن يعيش الأديب فى ضنك وحوله أناس لا يعدلونه فى الفكر والحس والشعور يتقلبون فى أعطاف النعيم ، ولكن الأدب شىء والتجارة شىء آخر ، إنه أرفع مظهر من مظاهر الحياة ، إنه أرفع من كل تجارة ومن كل ثروة ومن كل عظمة ، فهذه الرفعة التى يحتوى عليها ، فيها كثير من العزاء وفيها كثير من الفخر . فكم كنت أعجب وأنا أطالع المجلات المصرية التى تطبع ستين ألف نسخة أو سبعين ألف نسخة فلا أرى فيها أقل إشارة إلى علة مصر الاجتماعية . لا بأس بأن يجبر الأدب بعض المغنم ، ولكن لا بأس أيضاً بأن ينظر هذا الأدب إلى علل مصر وإلى معالجة هذه العلل ، على وجوه شتى وبأساليب متنوعة . لمثل هذه الأمور الجليلة خلق الأدب ؛ فاذا انصرف أدب مصر إلى التقريب بين طبقات مصر ، اذا انصرف إلى التقريب بين طبقات تتعب من فرط النعيم وبين طبقات تموت من فرط الشقاوة ، فانه يعمل فى مصر أعمالاً ما عملت فى تاريخها !

شكرى جبرى

ان فى الســـــفر لعلما

مهداة الى ذكرى الرحالة ابن بطوطة

[ابنة بطوطة كاتبة مصرية بارعة ، ممن تفخر مصر بهن فى سمو نفسها وغزارة ثقافتها . ولها بحوث رائعة فى التاريخ والفلسفة ، وهى من أجدر المصريات بأن تتقدم الصفوف فى طليعة الأديبات . ويسر الثقافة أن تقدمها إلى القراء كعضو من أسرتها وقد اختارت هذا الاسم المستعار لشدة حبها للأسفار]

منذ خلق البارى سبحانه هذه الأرض وأعطاها للبشر سكنا والناس يخلقون بغرائز وميول بعضها رفيع وبعضها وضيع . ومنها مايشترك فيه جميع الناس ، ومنها مايختص به فريق دون فريق . وهناك من هم واقعون تحت تأثير خلق لطبع خاص — وإن شئت فقل — لحاسة سادسة ولدتها فيهم حاجة خاصة لاقبل لهم بمقاومتها ، فهى توجههم نحو آفاق جديدة كأن تدفع بهم إلى جوب أقطـار الأرض باحثين

هذا الطبع الخاص هو « الميل إلى السفر » والغريزة التى تدفع بهم إلى الســفر « هى رغبة التعلم وحب الاستطلاع » . ولـكنهم يتعلمون على طريقتهم هم لا على طريقة سائر الناس ومن هنا تنشأ نزعة خاصة عند الذين يكونون أرهف من غيرهم حسا وأشد تأثرا — نزعة تخليد الخواطر التى يحسونها فيعمدون إلى تصويرها أو إلى تدوينها لـكى يخلفوا لأعقابهم ثمار ملاحظاتهم

وأولئك هم الرحالة النوابغ

وهم نوابغ لسبب ظاهر ، وهو أن كثيراً من الناس ينتقلون من بلاد إلى بلاد دون أن يستوقف أنظارهم شىء أو يدركوا ماتقع عليه أبصارهم . وما داموا لم يدركوا ما رأوه قل أو كثر فانهم بطبيعة الحـال لا يتركون بعدهم أثراً لخواطر أو بيانات أو خواطر ؛ ومثل هؤلاء يمكن التعبير عنهم دون أن يعدو تعبيرنا الحقيقة بأنهم تائهون فاقدو الشعور

ولـكن النوابغ اذا سافروا لايكتفون بمشاهدة العا الذى يجوبونه واستيعاب ماحواه بل يعلمون المتقاعسين من أبناء جلدتهم مايجب أن يعرفوا عن بلاد وشـعوب كانت غريبة عنهم ومجهولة منهم ؛ فهم جوالون نافعون ومن أمثالهم هيرودوت الخالد وابن بطوطه ومس كوبولو وأبو الفداء وشهـاب الدين أبو العباس أحمد وهروت ورووبكيه وغيرهم من الرحالة الممتازين الذين جلو التاريخ بتقويم البلدان وكانوا فى ذلك فلاسفة أو علما اجتماعيين أو فنانين

ومن الأشخاص من تحدو بهم غرابة تفكيرهم إلى انـكار الشأن العظيم والفائدة التى للتاريخ الوصفى والمعلومات والملاحظات التاريخية أو الجغرافية التى تركها هيرودوت واسترابون وليون الأفريقى وابن بطوطة وهروت ، ولـكن مهما يكن من هذا الانـكار فالانسانية ستظل وفى عنقها دين كبير لهؤلاء الجوالين البارعين

إذ كيف كان يتاح لنا معرفة العالم القديم مثلا وفيه مصر وبلاد الـكلدان وفينيقية وبلاد الفرس واليونان وجغرافيتهـا وحضارتها وشرائعهـا المستقاة من تلك الحضارات لو لم يكن هيرودوت الأسيوى قد جابها ودرسها ووصفها وصفا جليا لايزال يستثير دهشتنا ؟

وكيف كنا نلم بما فى العالم المعروف فى القرون الوسطى لو لم يخطر لابن بطوطة هذا الخاطر المدهش أن يرتاده من أقصاه إلى أقصاه ؟

فقد طافه من الأطلنطى إلى الصين ومن وادى النيل إلى وادى الدانوب ومن الدانوب إلى الفولجا (ماراً بمدينة ستالنغراد الحالية نفسها) ، ومن هناك إلى نهر الجانج ثم سافر من شواطىء الباسـفيكى عائدا إلى بيزنطه ومن بيزنطه إلى أسبانيا ومن هذه إلى السنغال

وقضى فى هذه الرحلات ٣٠ سنة لايكل ولا يمل
سجلا فى ذاكرته العجيبة تواريخ وحوادث وتفاصيل
طيبة الوقع فى النفوس ، وهو فى كل ذلك يبدى عدالة
دهشة فى تعليقه أو وصفه أو نقد مارآه من بلدان
أجناس وشعوب وما اتصل به من أخلاق الناس وماشهده
من أحوال جوية وخواص طبيعية وأدبية خلالا العقائد
الثقافات والأخلاق والعلوم والفنون .

ألم يكن لهؤلاء الرحالة أمثال هيرودوت وابن بطوطة
ومركوبولو ورووبركيه وهربرت فضل السبق فى تمهيد
طريق لعلماء اليوم الذين نعجب بهم ؟ أليسوا هم الذين
خلفوا تراثا عظيما لغيرهم من محبى الاطلاع وفى جملتهم
صحافيون المتربصون لاختراع كل نافع وكل علم تعود
ئدته على حضـارة لحضارتنا أو حياة كيـاننا متطامنة
متحفزة لشكل جديد ؟

ومهما يكن من أمر أولئك الرحالة فقد كان الشرق
مقصدهم جميعا اليه . فمنذ أقدم العصور أى منذ قدوم
فيثاغورس ليدرس الرياضيات فى الشرق (فى منف وطيبة
بابل) ويطلع على علوم الشرقيين ، منذ تلك العصور
بعدها بقرون ، سافر كثيرون إلى الشرق وعيونهم جميعا
شاخصة إلى أنواره ولا سيما إلى مصر .

والواقع أن الغرب مع استثناء اليونان — وليست
اليونان فى الحقيقة من الغرب بل هى جزء من الشرق
القديم — ومع استثناء روما من بعدها ، لم يكن فيه
فى تلك العصور شىء عظيم يستحق أن يتعلمه المرء أو
يبحث عنه أو يراه . فلم يكن فيه سوى الأدغال المتوحشة
وما فيها من أنواع التبذل الذى لانفع منه لأحد . فصارت
مصر غاية يقصد إليها الرحالة بل غاية مقدسة عندهم بسبب
يا كلها وعلومها ، وبعدئذ أصبحت بلاداً مطموعا فيها
بسبب خصب تربتها وغناها ، وأكثر من ذلك بسبب
موقعها الجغرافى .

ولما أغلقت طيبة أبوابها الثانة كانت الإسكندرية قد
بدأت تنشأ بفضل رغبة جاش بها صدر الإسكندر ، ذلك
الفاتح الطموح ، ولكن إلى أى مدى اصطبغت الإسكندرية
ومدرستها بالصبغة اليونانية ؟ والجواب على ذلك أنه قد
بعثت فيها حياة (طيبة) القديمة من جديد مع أن مؤسسيها
كانوا مقدونيين ، وظلت مصر هى مصر ، بل عادت إلى مصر
علومها أوسع نطاقا وأشد تألقا على يد خير تلاميذها
وأعظمهم وهم اليونان ، وفى هذا يمكن أن يقال على نوع ما :
« تلك بضاعتنا ردت إلينا » .

ومن وقت أن أسست الإسكندرية ومدرستها أخذ
نفوذ الأجانب فى مصر يزداد على توالى الأجيال . وفى عهد
ملوك اليونان كان الناس يفدون على الإسكندرية أعنى على
مصر ، كما يذهبون فى أيامنا هذه إلى لندن وباريس ونيويورك
تدفعهم الرغبة فى مشاهدة أشياء جديدة ، وهى رغبة لم تخيب
قط آمال أصحابها ، ولكن قليلا من الرحالة تركوا لنا تاريخ
رحلاتهم مدعما بالأسانيد كالذى تركه هيرودوت أو ذلك
الرحالة المدهش سترابون الذى أتى بعد هيرودوت بثلاثة
قرون ونصف قرن .

وكان يفد من أثينا ومن رودس علماء يبحثون فى
الإسكندرية عما لا يجدونه فى مكان آخر . وهل كان هناك
هذا المكان الآخر ؟ كلا .

ثم أوفدت روما طلابا إلى سيرابيوم الإسكندرية .
وفى عهد يوليوس قيصر احترقت مكتبة الاسكندرية
الكبرى ، وكانت تسمى « أم المكتبات » ، وتحولت إلى
شعلة من النار ، وكان ذلك نتيجة إهمال أو فعل فاعل .

وظلت الإسكندرية زاهرة فى أول عهد الرومانيين .
ولكنها فى عهد ملوك بيزنطة أخذت تذبل شيئا فشيئا
ثم أشرفت على الموت ، ولما اشتعلت النيران فى البقية
الباقية من المكتبة الصغرى بأمر الرهبان فى عهد

ثيودوسيوس قضت مدرسة الإسكندرية نحبها ومات بموت (هيباشيا) آخر فلاسفة العالم القديم.

ثم جاء العرب الأول وأنشئت الفسطاط وجاء الفاطميون فأسسوا القاهرة وأنشأوا مكتبة جمعوا فيها ٧٠٠٠٠٠ مجلد، نهضت بها العلوم والفنون والآداب نهضة جديدة كان الفضل في استكمالها لرجاحة صدر الفاطميين، فاسترجعت مصر جانباً من مجدها التالد وعاد الأجانب يفدون عليها.

فني القرون الوسطى كانت شهرة مصر تجتذب إليها سيلاً لا يكاد ينقطع من محبي الاطلاع من كل صنف من الناس بين علماء وتجار، بل كان منهم أناس هربوا من بلادهم ولجأوا إلى مصر ليعيشوا فيها حياة جديدة في عالم جديد.

وكان الأيوبيون معروفين بالتسامح، وجاراهم المماليك أو سبقوهم في ذلك، فتفتحت مصر في عهد هؤلاء وأولئك أبوابها على مصاريعها حتى جاوزهذا التسامح حد الاعتدال، وهكذا أصبح جميع الوافدين سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء مأخوذين بتجاذب شديد إلى هذه الأرض القديمة التي عمرت عشرات من القرون ولا تزال أحجارها المحوطة بالأساطير قائمة تحدث الخلف عن تاريخها العجيب.

وقد جلب إلينا القرن الرابع عشر عدداً وافراً من الرحالة الأجانب ولكن الذي كتبوه عن مصر كان يسيراً، ولم يكن بينهم من يمكن مقارنته بابن بطوطة، لا من حيث الابتكار في الأفكار أو الدقة في الرواية، ولا من حيث صحة البيانات التاريخية أو الجغرافية.

وإن قلة ما كتبه الزائرون الأوربيون عن مصر والشرق الأوسط تحملنا على تقدير التاريخ الذي كتبه رحالة فلورنتيني يدعى (ليوناردو فرسكو بالدي) حق قدره وقد زار مصر وفلسطين في سنة ١٣٨٤ أي بعد زيارة ابن بطوطة لها بنحو ٥٠ سنة.

ولم يكن (ليوناردو فرسكو) بالدي هذا عالماً ولا جغرافياً ولا مؤرخاً حتى ولا صاحب أسفار من المخاطرين، بل كان بعكس ذلك ينتمي إلى أسرة من نبلاء فلورنسا الجديرين بكل احترام.

وفي سنة ١٣٨٦ عين محافظاً لمدينة كستلو ثم تقلد في سنة ١٣٩٠ منصب سفير فلورنسا لدى البلاط البابوي في روما، ولكنه لم يكن في وقت رحلته لا محافظاً ولا سفيراً بل مجرد شاب من أسرة عريقة أراد أن يروح عن نفسه بارتياد الأقطار، فسافر ويصحبه صديقان وعدد كبير من الخدم والحشم.

وكان فرسكو بالدي ذكياً وقد أوتي من دقة الملاحظة الشيء الكثير، ولكنه كان شرس الطباع كما تشهد بذلك فقرات من التاريخ الذي كتبه، غير أن تلك الشراسة كانت عارضاً قد يقع فيه غيره كثيرون.

ويؤخذ عليه بضعة أخطاء جغرافية في بيان المسافات والأمكنة؛ مثال ذلك قوله إن موقع قيصرية فيلبس (بانياس) لا يبعد إلا خمسة أميال من جبل طابور. وقد أخطأ كذلك في وصف أحوال الشرقيين وعاداتهم، وفي كلامه عن الدين الإسلامي حين أكد أن المسلمين في الشرق يحتفلون بيوم الاثنين (بدلاً من يوم الجمعة) ويقولون إنه يومهم المقدس.

وأخطأ أيضاً في توكيده «أن المسلمين لا يستطيعون استرجاع نسائهم المطلقات ثلاثاً إلا بشرط أن يتصلن قبل ذلك برجل أعمى». وزاد على ذلك قوله: «إن هناك أناساً يفقأون عيونهم طوعاً واختياراً ليؤدوا تلك الوظيفة» وهو خطأ أقل ما يقال فيه أنه يستثير الضحك.

ولكن فرسكو بالدي يلتمس له بعض العذر لأنه لم يكن ملماً بالشريعة الإسلامية. ونحن إذا استبعدنا من تاريخ رحلته تلك السخافات وجدناه جديراً بالاهتمام الصحيح.

الشرر الأزرق

لمكسيم جوركى

قالت العجوز ازرجيل تقص على قصة الشرر الأزرق الذى يتراءى قبل العاصفة فى هذا السهب[1] :

« كان فى سالف الزمان أناس يعيشون فوق هــذه الأرض . أين — لا أعلم . إنما أعلم أن غابات عظيمة كثيفة كانت تحيط بمنازل هؤلاء الناس من ثلاث جهات ، وأن الجهة الرابعة كانت مفتوحة على السهب . وقد كانوا قوما مرحين — أقوياء جريئين ، يقنعون بالقليل . . . . وأغلب الظن أنهم كانوا من التّتَر . لكنه ألم بهم يوما وقت عصيب ؛ فقد ظهر عليهم من مكان ما قبائل أخرى وطردوهم إلى قلب الغابات . وكان هناك مستنقعات ، وكان ظلام ؛ فالغابة قائمة من قديم الزمان ، وفروعها متضافرة لا ترى منها قبة السماء ، ولا تكاد أشعة الشمس أن تنفذ إلى مستنقعاتها من عروشها الكثيف ؛ فاذا وقعت مع ذلك تلك الأشعة على ماء المستنقعات تصاعد منها بخار كريه ، وتردى فى هــذا البخار هؤلاء الناس واحداً بعد الآخر . فبكى نساء القبيلة والأطفال ، وفكر الرجال ، وتولاهم الغم من سوء الحال .

لم يكن بد إذاً من الرحيل عن هذه الغابات ، ولذلك طريقان : الأول يؤدى إلى الوراء ، وهناك الأعداء الأقوياء ، الأرداء . والثانى إلى الأمام حيث الأشجار الباسقة المتوشجة الأغصان ، الممتدة الأصول والجذور المعقدة فى وحل المستنقعات ، وكأنما هذه الأشجار قدت من صخر ، فلا همس ولا حراك . وهى بالنهار غارقة فى غبش أغبر ، فاذا جن الليل وأوقدت النيران ، أطبقت على القوم أيما اطباق ، فسواء بالليل أم بالنهار ، فمن حول هؤلاء الناس طوق يضيق الخناق على من ألف سكنى العراء . وأهول من ذلك على هؤلاء ، حين تهب الريح على أعالى الأشجار ، ويهم الغابة بأسرها هرير وتهديد ، وتغنى الغابة لاجئيها اللائذين بها من بطش الأعداء أغنية الهلاك .

لقد كانوا مع ذلك قوما أقوياء . وكانوا خلقاء أن يقاتلوا هازميهم قتالا ضروساً ، لكنه كانت لهم ذرية ضعاف ، فلو فنوا فى حربهم لضاع بفنائهم الصغار ، فكانوا يسهرون الليالى يفكرون ، والغابة من حولهم تلغط لغطها الأجش ، والمستنقعات المتبخرة ترميهم بأنفاسها السامة ، والظلال ترقص من حولهم رقصها الصامت ، وكأن ما حولهم ليس ظلالا راقصة بل أطيافا شامتة من عفاريت الغابة والمستنقعات . وطال بهم الجلوس والتفكير ؛ ولا شىء يوهن الجسم والروح كالأشجان التى تمتص الدماء من القلوب ؛ فوهن القوم من الفكر ، ونهض بينهم الخوف فقيدهم بذراعين قويتين ، ودب الذعر من ولولة النساء على جثث القانين بأنفاس المستنقع ، وعلى مصير الباقين ممن ألجمهم الخوف — وتعالت فى الغابة أصوات الجبن ، خافتة هيابة فى أول الأمر ، مرتفعة أبداً رويداً رويداً . . . حتى قام بأنفسهم أن يسلموا أنفسهم للعدو ، ويسلموا حريتهم ، وما خوف العبودية بعد أن أفزعهم الموت . . . لكنه ظهر من بينهم « دانكو » فأنقذهم أجمعين .

كان دانكو واحداً منهم ، وكان شابا وسيما . والوسماء دائما شجعان ، فقال لرفاقه :

الأفكار لا تخلى الطريق من الأحجار ، فمن لم يعمد إلى الأعمال لم تتغير له حال . فلم تبديد القوى بالفكر والهلع ؟ فانهضوا جميعاً ، ولنضرب فى الغابة ونجتزها فلابد لها من آخر . وكل شىء فى هــذه الأرض إلى انتهاء . والآن هلموا !

(١) الأرض الواسعة .

فنظروا إليه ، فألفوه خيراً منهم جميعاً ، في عينيه قوة وعزم وبريق .

قالوا : لتكن قائدنا ! فكان قائدهم .

قادهم دانكو ، وتبعوه على بكرة أبيهم ، وآمنوا به . وكان طريقهم وعراً ، والظلام حالكاً ، وعفن المستنقع فاغراً فاه يلتهمهم واحداً واحداً ، والأشجار تسد سبيلهم فكأنها جدار من أحجار ، والأغصان ملتوية متشابكة كأنها أفاع ؛ وفي كل مكان تمتد الأصول والجذور ؛ وفي كل خطوة يتصبب العرق وتسيل الدماء ... ومضوا على هذه الحال تزداد الغابة كثافة كلما أوغلوا فيها ، وتتناقص قواهم ، فبدأوا يتذمرون من دانكو ويتساءلون إلى أين يسوقهم هـذا الفتى العديم الخبرة ؟ لكنه ظل يتقدمهم ، شجاعاً مرح النفس . وفيما هم سائرون هزم الرعد فوق الغابة ، وجعلت الأشجار تهامس تهامسها الأجش المنذر بالشر . وحلك الظلام أحلوكة ، فكأن كل ما انصرم من ليال من بدء الدنيا إلى ذلك الحين قد تجمع فجأة في تلك الليلة .

وسار الأقزام بين الأشجار المردة ؛ وسار القوم بين دوي البروق وتدويها الخاطف ، وتمايلت الأشجار تطقطق وتطن بأغاني الغضب ، وأضاءت البروق المتلاحقة فوق الأعالي ظلام الغابة لحظة بنور أزرق بارد ، واختفى ذلك الضوء خطفاً كما جاء خطفاً ، فأفزع القوم وهزأ بهم . وبدت الأشجار التي أضاءها البرق بنوره القارس وكأنها أذرع حية طويلة معروقة ممتدة إلى أولئك الفارين من أسر الظلام لتحتبلهم ، وتردهم إلى الأسر . رعب وظلام وبرد تطل جميعاً من حلوكة الأغصان على السائرين ، فياله من مسير ! وقد فقد أولئك الذين أضناهم ، شجاعتهم . لكنهم خجلوا من أن يعترفوا بضعفهم ، فانقضوا على الإنسان الذي يتقدمهم وقد وغرت صدورهم ، وجاشت بالشر ، وانهالوا عليه لوماً وتقريعاً لأنه في رأيهم لم يحسن قيادهم .

وكفوا عن السير ، وجعلوا يقاضون دانكو وقد بلغ منهم التعب والغيظ ، ولغطت بينهم الغابة لغط الشامت ، وتملاهم الظلام بقشعريرته .

قالوا له : « إنك إنسان لا نفع فيك ، وفيك كل الأذى لنا . لقد أضللتنا ، وأنهكت قوانا ، فلا بد من موتك جزاء لك » .

وبرق البرق ، وقصف الرعد ، فصدق كلاهما على حكم الموت .

لكن دانكو صاح بهم : « لقد طلبتم مني أن أقودكم وقد قدتكم » . وتقدم إليهم متحدياً إياهم : « لقد أوتيت الشجاعة لقيادكم . وأنتم ؟ ماذا فعلتم لتعينوا أنفسكم . لقد سرتم . وهذا كل ما فعلتموه . لكنكم لم تقووا على المضي في السير . لقد سرتم فحسب ، سرتم كما يسير قطيع الغنم ! » فزادهم هذا الكلام حنقاً وصرخوا في وجهه : « لا بد من موتك ! لا بد أن تموت ! » .

وأزت الريح وصفرت لهذه الصرخة ، وهتك البرق حجب الظلمة . فنظر دانكو إلى أولئك الذين تحمل المشاق من أجلهم فرآهم قد انقلبوا وحوشاً ضارية . وكان من حوله الكثير منهم فلم يتبين في وجوههم ترفقاً أو شفقة ، فاشتعلت في صدره نار الغضب ، لكنها لم تلبث أن انطفأت عطفاً عليهم . فقد كان يحب هؤلاء الناس ، ويرى أنهم لولاه لهلكوا على مصيرهم . واندلع قلبه وضاء بالرغبة في خلاصهم ، وفي السير بهم في طريق سهلة ، وأطلقت عيناه شرر هذه النار الهائلة . لكنهم حين رأوا ذلك منه حسبوه حنقاً ، وحسبوا عينيه تضيء بنار البغضاء ، فتربصوا له كالذئاب ، ذلك أنهم ظنوا أنه مقاتلهم ، ومدافعهم عن نفسه ، وازدادت حلقتهم من حوله ضيقاً ، وخناقهم تضييقاً بغية امتلاكه كي يستطيعوا البطش به . فحذر دانكو غرضهم ، وازداد قلبه اشتعالاً ، ولهيبه اندلاعاً ، لأنه آلمه هذا الغدر منهم .

واسترسلت الغابة فى أغنيتها الجهمة ، وقصف الرعد ، وجاء الغيث . ودوى صوت دانكو أقوى من قصف الرعد .

وبغتة مزق صدره بيديه ، وانتزع قلبه منه ، ورفعه فوق رأسه .

فأضاء لهيبه كالشمس وأسطع من الشمس . وخرست الغابة بأسرها ، وقد أضاءتها هذه الشعلة من حب الانسانية ؛ وتبددت الظلمة من وضاءتها ، وتراجعت بعيدا فى الغابة حيث غرقت ترتعش فى فوهة العفن من المستنقع . ووقف القوم المذهولون وكأنهم بعض مسوخ الحجارة .

وصاح دانكو بهم : « هلموا ! » وانطلق إلى مكانه فى المقدمة رافعا قلبه المضطرم ، ومضيئا لقومه الطريق .

فانطلقوا وراءه مجذوبين مسحورين ، فمادت الغابة هنا إلى لغطها ، تهز أعالى الأشجار من عجبها ، لكن ضوضاءها لم تلبث أن أغرقها وقع خطى الماضين ، وكانوا جميعا يغذون السير مندفعين ؛ تجذبهم حركة القلب المشتعل ، وانفعاله العجيب . وقد قضى فى هذه المرة الكثير ، لكنه لم ترتفع شكاة ولم تذرف دموع . وكان دانكو دائما فى المقدمة مشتعل القلب على الدوام .

وبغتة انفرجت الغابة ، وتخلفت وراءهم كثيفة خرساء . وغاص دانكو وقومه فى بحر زاخر من نور الشمس والهواء النقى البليل ، وتركوا العاصفة وراءهم تطغى على الغابة ، ليشهدوا الشمس هنا تشع ، والسهب يتنفس ، والكلأ يتلألأ بقطرات المطر ، والنهر يلتمع كالنضار .... وأقبل المساء ، واكتسى النهر من الشمس الغاربة حمرة كالدم الذى يسيل شعاعه الحار من صدر دانكو الممزق .

وألقى دانكو الفخور الشجاع المحتضر نظرة على السهب الواسع — ألقى نظرة راضية على الأرض المنبسطة أمامه ، وضحك راضيا . ثم سقط صريعا .

فتهامست الأشجار المتخلفة عجبا ، واشترك معها الكلأ المبلل بدم دانكو فى الهمس .

لكن قومه المغتبطين المؤملين لم يفطنوا إلى موته ، ولم يروا أنه كان إلى جانب جثمانه قلب جرىء يحترق . لم يفطن إلى ذلك سوى رجل حذر منهم ، فلما تولاه الذعر وطىء من ذعره هذا القلب الجسور ... فانطفأ وجعل وهو يضمحل يتطاير منه الشرر ... ».

ولما فرغت العجوز من أقصوصتها ساد السهب سكون رهيب ، كأنما هزه صنيع دانكو الذى أحرق قلبه افتداء للناس ثم مات لايطمع منهم فى جزاء ولا شكور . وغلب العجوز النعاس وهى مستندة إلى سلة عنبها . وهبت ريح أطارت أسمالها عن صدرها الهزيل ، فسترت جسمها الفانى واستلقيت إلى جانبها على الأرض . وكان السحاب يسير فى السماء وئيدا ، والبحر يهدر هديرا مكتوما حزينا ، والعجوز ازرجيل تنام نوما عميقا ... لم تستيقظ منه بعد ذلك .

محمود الدسوقى

مرثيـــة

المغفور له إسماعيل باشا خديوى مصر

[هذه المرثية من آثار المرحوم مصطفى بك نجيب ، مدير قسم الإدارة بوزارة الداخلية فى عهد الخديويين الأسبقين ، وقد قضى حياته فى خدمة البيت المالك ، وكان رحمه الله من أعلام الوطنية ، ومن شعراء ذلك العصر وكتابه المعدودين ؛ ويذكر من مؤلفاته « حماة الإسلام » و« أحلام الأحلام » وديوان شعر لم ينشر .

وقد عثر ابنه الأستاذ سليمان بك نجيب ، مدير دار الأوبرا الملكية على هذه القصيدة بين مخلفاته ...] .

أحزناً ومن عادات طلعتك البشر
وقبراً وكانت تحت أخمصك الزهرُ

وموتاً وقد أحيى بك الدهر ذكره
بكل جميل ليس يخلقه الذكرُ

طلعتَ علينا طلعة إثر غيبة
وزرتَ ولكن بعد ما قُضى الأمرُ

فلا النفس نالتْ حظها من حبيبها
ولا شفيتْ نفسٌ خليلتها مصرُ

فبؤساً لأيام أساءتْ صنيعها
أكان لها فى طمس عين العلا نذرُ

وأودتْ بإسماعيل من كان فى الورى
يُغاث به عانٍ وينعش مضطرُ

بمنتخب من ذروة الملك كلما
دعا الخطب لم يكذب لعزمته نجرُ

وكنا زجرنا طائر النعى والأسى
وحم القضا فيه فلم ينفع الزجرُ

قضى ذاكر الأوطان فى دار غربة
ولا غرو أن يشتاق للوطن الحرُ

ودلّ فى فلك حوى المجد والندى
وأودع نفساً حشو أرادها الفخرُ

فسار بنى الفلك لما نوى به
وصك عبابه بأمواجه البحرُ

ومن عجب أن قد غدا سائراً به
ومن فوقه بحر ومن تحته بحرُ

وأعجب من ذا أنه كلما طفى
وتعرض ذكراه يفيض ويزورُّ

وفى بر مصر كان أعظم مشهد
لمن مدّه بالبر وهو به برُّ

علا فوق أعناق غدت من جلاله
يطن بها لولا خشوع الردى كبرُ

عجبتُ لها أنى استقلت بحمله
وأثقلها من قبل نائله الغمرُ

أرى عارضاً للمجد أقلع مُزْنُه
ومنهلُ جود غاض وانقطع الخيرُ

فلم أدر مذ أبصرتُ مشهد رزئه
أيوم لقاء أم فراق هو الدهرُ

رمته عيون الناس حتى حسبته
سترمقه الأفلاك والشمس والبدرُ

وما انساب من تلك المحاجر دمعها
ولكنّ فى منعاه قد بذل الدرُّ

وقد أسمع الناعون فيك صراخهم
ولكن سمع المجد قد عاقه أمرُ

طواه الردى طى الرداء ولم تزل
فواضله العليا يضوع لها نشرُ

فيا نفس كفى ما استطعت من الأسى
فمَنْ بذل المجهود حق له العذرُ

دعينى أسجّل بعض ما أنا حافظ
وإن كانت الأفعال من دونها الحصرُ

وإن كنتُ لا أحصي الرثاء أبا الفدا
فبالفضل والإحسان قد شهد القطرُ

سعيت لأمر قد خُلقتَ لمثله
ومنْ جندك الأيام والفوز والنصر

بنفس لها في كل مجد لبانة
وعزم له في كل محمدة سيرُ

وسعد قد احتاط البلاد وأهلها
وللدهر فيه من نوائبه ظفرُ

فأبدعت في تنظيمها فبعثتها
بخلق جديد ، حبذا البعث والنشرُ

أفتَ على الخضراء حُسن نباتها
وكانت على الغبراء منظرها نكرُ

طمت صدور النيل فيها بأسره
منَ الغار فابيضتْ جوانبه السمرُ

وأنشأتَ فيها لجنة الماء فارتوتْ
وكل امرىء أضحى وفي داره بحرُ

وشيدت فيها كل قصر بطوله
يجوز لمفروض الصلاة به قصرُ

وأشبهتها بالغرب شكلا ومنظراً
فشككتَ مَنْ أمسى له فيهما خبرُ

فمكنت الذي عرفتها طرق العلا
ومنْ يمنك المحمود مدّ لها جسرُ

وألبستها النعمى التي جلّ قدرُها
بحيث طريق الفضل مسلكه وعرُ

فتحت لها الأقطار شرقا ومغربا
وذلّ لها في عزك السودُ والحمرُ

وأزلت من بأس الحديد بأرضها
طرائق قدّت فيه للسفر السفرُ

فقرّبت في الآن اليسير مسافة
لإصباحها شهر وإمسائها شهرُ

فمكنتَ سلمان الزمان حكيمه
وإن كان لا يلتام بينكما الأمرُ

ونفّستَ عن أرواح قوم تدرّعوا
من الليل أقطاع السرى وهم كثرُ

على أحرف مثل الهلال ضوامر
ضوائل أضنتها الهواجر والقفرُ

يجوبون شُعثاً كل بيداء سملق
معالمها من طول مادرَست غبرُ

وأتبعتها كيما يتم صلاحها بكهربة يغتال ناظرها البهرُ

جرت في سلوك ركبت في قوائم
صلاب على الأيام طال لها عمرُ

تسابق لمح الفكر وحياً كأنما
لأنباء علم الغيب في سيرها سرُ

فما الدر في الأسلاك أحسن قيمة
من اللفظ بالأسلاك بالبشر يفتر

تواصل فيها عالم الروح واستوى
لديها محيط الأرض والميل والشبرُ

وهذّبتَ من علم الفلاحة ما قسا
فأصبح من أدنى مراتبه اليسرُ

فدرّتْ أمر النيل حتى إذا وفا
يكون به من يُمنْ طلعتك الجبرُ

مددت إليه في البلاد جداولا
ومنْ فضل لطف قد الله ذهب العسرُ

ومجموعة الأسفار والفضل ظاهر
بأرجائها والعلم فيها مُختَصَرْ

تناقلتْ الركبان حسن حديثها
ولما رأتها صدّق الخبر الخبرُ

جمعت لها ما كان يغلى بيعه
وقد نجح السعي وقد ربح التجرُ

نظـــرتَ إلى الآثار نظرة عارف
يقل على أمثالها الحمـــد والشكرُ
فأوجدتَ منهـا فائتـــاً أى فائت
وأنشرت مُلْكاً ضم أشلاءه القبرُ
وشيدْتَ لهـا باب المعارف فارتقت
إلى حيث يرقى فى معارجه النَّسرُ
وأمَّ بنوها الغـــرب للعلم فاقتفوا
سبيل العلا فيه وكان لك الأجرُ
وعادوا بدوراً الزمان وأنجمـــاً
وكان لهم فى مُلكها النهى والأمرُ
غرَستَ لنا غرساً جنينا ثمـاره
ولولاك ما كان الغراس ولا البـذرُ
جلبتَ إلينا العز من مستقره
وأصبحتَ لاينتهيك بحر ولا برُّ
شديدٌ على الأيام أعقـاب وطئه
وليثٌ عرين بعض أوصافه القهرُ
تُرَجِّيه إحسـاناً وتخشـــاه صولة
فتلقـاه جبـاراً ومنه لنـــا جبرُ
تكشف به الأيام عن غـــلوائها
إذا رابنا منهـــا التعسف والنكرُ
خـــلائق لايوجدنَ فى كل مالك
ولكنها فيمن له فى العُلا وَفرُ
ومن أنكرتْ عيناه ما فيه أصبحتْ
ففى لبــه ضعف وفى سمعـــه وقرُ
وهل يجحد الشمس المنيرة ضوءها
جحود يظن النور يستره الكفرُ
وقد مضت الأيام لم يفن خـــبرها
مواهب لاقُـــل رجاهـــا ولا نَزْرُ
فلو نطقت دار بمـــدح أميرهـا
على خـــيره قامت بمدحكُ مصرُ

إذا خانكَ المقـدور فيما أتيتـــه
فما خانكَ الرأى المسدد والفكرُ
أتتك حروب الدهر من حيث تتقى
وبعض وجوه النفـع يتبعهـا الضرُّ
أمولاى غاضتْ فكرتى وتبلدتْ
طبـــاعى ، فلا نثر يطيع ولا شعرُ
لبستُ ثيـاب الصبر فيكَ خليقة
فبعد ابنكَ المحبوب قد هلك الصبرُ
لك الله من عان أناختْ بقلبـــه
همـومٌ لهـا فى كل جانحـة جمرُ
إذا اغتالهـا صبرٌ تعـود كأنهـا
هـلال تبدّى كلما اغتاله الشهرُ
أسـائلُ عن أيامكم أين أصبحتْ
فيصرع إنْ فكرتُ فى أمرها الفكر
أرى كل حى مزمعاً فى حيـاته
بسيف الردى يوما وإن بسط العمر
جزاك الذى أسمى مقامك رحمة
وتُحيى حياها كلما أخلف القطر
ومَدّ من النـادى كل مُفاضـة
تـدافع فى أعطافها اللجج الخضر
وأسكنك الجنات بيتاً مخلَّداً
يجاورك فيها المحجَّلة الغرُّ

من لندن

صور للحياة والفكر المعاصر في انجلترا

عزيزتي .

أخيراً أنت في مصر .. لقد كتبت لك على عنوانك بهامستد وعلى السكلية وعلى ناديك بلا نتيجة ، واتفق أن مررت على النادي يوما أثناء وجودي بلندن فوجدته مغلقا ، وعلمت أنه نقل إلى مكان لم أستطع معرفته ، إلى أن قابلت جوسلين جاكوبي عفواً قبل أن يصلني خطابك بأيام فأخبرتني بسفرك إلى مصر

أنا الآن في ديفنشير حيث جئت لأقضي عطلة قصيرة لدى صديقاي أحاول أن أعالج فيها أعصابي المضطربة وأن أستعيد شيئا من صحتي ، وإن كان الريف هنا مغطى بالثلج والبرد قارساً وكل شيء فيه غارقاً في قتام . لا أدري أهو الواقع أم هو مجرد صدى لحياتي الخاوية الجافة في هذا المنزل القاحل المقفر .

وأنت الآن بعيدة .. بعيدة عن هذه البيئة المرهقة تنعمين طبعا بشمس مصر الدافئة في ظل النخيل والسلام والهدوء ورضا أهل الشرق واطمئنانهم للحياة ، كيف وجدت أهلك وأصدقاءك بعد غيبة طويلة كهذه ؟ وأي أثر لحياتك الجديدة في نفسك ؟ هل يطيب لك الآن أن تتمددي مسترخية بين الوسائد على فراش وثير تسرحين ببصرك في الفضاء ناعمة البال لاتحفلين بالحاضر ولا تأبهين للغد ، ولا تذكرين الماضي الا كحلم بعيد مبهم ؟ أم لا زال في نفسك بقايا حنين إلى النشاط المكد والطموح القاتل والفرار من السكون إلى مكان واحد أو حالة واحدة وهذا القلق الذي يسود حياتنا هنا والذي اصبح يجري في دمائنا ويطبع حضارتنا ؟

ماذا تعملين ؟ هل يتسع لديك المجال لتواصلي انتاجك الفني ؟ أنا الآن لا أرسم فقد اضطررت في سبيل كسب العيش إلى أن أودع الفن جانبا إلى حين ، إن مشكلتي لازالت قائمة كما تركتني ، وأحاول أحيانا أن أعزي نفسي فأتصور أني لست الضحية الوحيدة وأنها مشكلة الفن عامة في عصر لايؤمن الا بالمادة .

أنت تعلمين كيف احترقت أعصابي سنتين طويلتين في مصنع الذخيرة الذي كنت أعمل فيه طوال تلك المدة ، ولم أجد مناصا في النهاية من تغيير هذه المعيشة . لقد كانت التجربة مرة قاسية ، ولكنها استطاعت أن تريني الوجه الآخر من الحياة ، ذلك الوجه الذي كانت تحجبه عنا أسوار الجامعة والاستديو ودنيا الخيال التي عشنا فيها داخل صوامعنا الفنية .

وظللت بلا عمل لمدة لم يكن ممكنا أن تستمر طويلا ، فحصلت أخيراً على وظيفة نصف أسبوعية في المعهد البريطاني لدراسة الرأي العام ، وهي هيئة تقوم كما تعلمين بتنظيم المعارض في أنحاء انجلترا ومناقشة الرأي العام في المسائل السياسية والحيوية الهامة ، وبالإضافة إلى هذا العمل اتفقت مع ناشر المؤلفات للأطفال على القيام بوضع رسوم لكتبه ولغلافها . وتستطيعين أن تتصوري وطأة هذا العمل على نفسي مع رجل كهذا لا يحمل في نفسه ذرة من الحساسية الفنية ، ولا يحفل في قليل أو كثير بالفن ما دام يضمن رواج الكتاب في السوق ، ولا يحجم عن نشر أرخص ألوان الفن لأن كل مايعنيه هو المال .

إني أجد الفن التجاري يقيد روحي بالأغلال . ولكن هذه التجربة قد اطلعتني على نواح في هذا الفن لم نكن نحب أن نعترف بها كفنانين ففيه تراعى أصول الفن من إنشاء وانسجام وتصميم وتناسق تقنعني أحيانا بقيمته .

وهكذا ترين أني أستفيد دائما حتى من تجاربي المريرة .

واصلي الكتابة لي ولا تنسيني وقصي علي كل أنبائك وما تصادفينه . أنت لاتعلمين أي فراغ تركته في نفسي وفي حياتنا جميعا هنا . لقد مررت باكسفورد في زيارة عابرة من بضعة أيام ، فلم أقابل أحدا من الوجوه المألوفة لدي سوى نيجل الذي صادفته عفواً في الطريق ، وحاول كعادته أن يدعوني للشاي ولكن .. مسكين نيجل .

طبق الأصل

اميول حافظ

فى ذكرى عالم

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

قيلت بمناسبة ذكرى المرحوم تيمور باشا . ويلاحظ أن الأستاذ الزين فى مراثيه للأدباء والشعراء يعنى كثيراً بالحديث عن المفاضلة بين الأدب العربى والأدب الغربى ، وينعى كثيراً على من يفضل الأدب الغربى على العربى . وهذا هو ما نوخاه فى هذه القصيدة وفى مرثيته لحافظ إبراهيم قبلها . ويقول إنه يؤثر فى شعر المناسبات الحديث عن مبدأ عام يبقى الشعر ببقائه على تصوير عاطفة خاصة بزول الشعر بزوالها :

ذِكْرَى على صِـــدقِ الوفاء دليلُ
تَمضى بها جيـــلٌ ويُقبلُ جيلُ
تتوارث الأيامُ طيب حـــديثها
الدهرُ يَسْمَع والفَعـالُ يقـولُ
ولذى المواهب وارثان فمصرُه
بَرٌّ الثناء وللبنين فُضـــولُ
وله حياتان الأخـــيرةُ منهما
فى الذِّكر والأولى إليه سبيلُ
لا تَبكِ من قد عاش عُمراً واحداً
إنّ التراب على التراب مَهيـــلُ
هل عاش أو هل مات لا تسألْ به
فممـاتُـه بحيـــاته موصـــولُ
فاملأْ موازينَ الزَّمانِ فلن ترى
فى الناس ميزان الزَّمان يميـــلُ
تقضى المُصورُ على الرجال بحكمها
والبـاقياتُ الصالحاتُ عُـــدولُ
تيمورُ إن تَفقِـد حديثَكَ بيننا
فصداه فى أُفُـقِ الزَّمان يَجُولُ
عرَفَتْ نفاســته العصورُ فبالغَتْ
حِرصاً عليـــه وللعصور عقولُ
فجِعتْ بك الفصحَى فجيعةَ أهلِها
بكيانهمْ حين العزاء قليـــلُ
قد كنتَ مُعجمهـا الذى ما فاته
لا فى القديم ولا الجـــديد فتيلُ
لم تَزْوِ عن جيل خَلا إلا سما
مِن حُسن نقلكَ ذلك المنقـــولُ
لا يَدْعِى الأدبَ الصميمَ عصابةٌ
جهلتْ قـديم العربِ وهو أصيلُ
شـــنّوا على أدب العُروبة غارةً
شعواء قائدُ جيشهـا مخـــذولُ
أمضَى ســلاحهم الشَّبابُ وإنه
سيفٌ على مَن سلَّه مسلولُ
مُتعصّبٌ يؤلّفهـا المفوقُ بجيشهم
فى غير مَيْدان الجهـاد يصولُ
من كلّ ألكن نابغ فى عِيِّه
لهج بدعوى العـلم وهو جَهولُ
ويكاد يرشح عقـــله أمّيّة
حتّى عليه يُشــكل التشكيلُ
إنْ رامَ شعراً لم يُقم مــيزانه
ورويه قيدٌ عليـــه ثقيـــلُ
أو رامَ نثراً عِىَّ دون مُرادِه
فاللفظ يطولُ وما به معقــولُ
وإذا يُترجم كان فى تعقيـــده
قــبرٌ به المعنى البرىء قتيـــلُ
كم كاتب فى الغرب شوّه فنّه
عِىُّ اللّسان على البيان دخيـلُ
لا تجحد الغربىَّ ســحرَ بيانِه
لـكنّ سوء النقل عنــه يُحيلُ

شعراء سوء أفقدت ما بيننا
ولربما جلب الشقاق رسول

من لم يقوّم بالقديم لسانه
فبيانه مهما يجدّه هزيل

كنز من الأدب الرفيع مضيّع
يعشى النواظر دره المجهول

يا خسر بائعه بزخرف غيره
خزف من الدر اليتيم بديل

كم عبقري لو نشرنا فضله
في الغرب مس الغرب منه ذهول

ولو انهم نقلوا بسحر بيانه
عكفوا عليه كأنه الإنجيل

هذا (المعرّي) وهو فرد واحد
ماذا سمعت الغرب عنه يقول ؟

سل مشكلات العرب في آدابهم
من عالم الفصحى من المسئول

سل مشكلات الشرق في تاريخه
من عهد (تيمور) بهن كفيل

علم وزينته الحياء ولن ترى
ذا العلم عن سنن الحياء يميل

آلامنا في مصر لو حققتها
رجعت إلى أن الحياء قليل

وإذا الجدال احتد لم يجمح به
نزق فلا شتم ولا تجهيل

يغضي على سفه السفيه تكرما
إن الكريم عن الأذى مشغول

وإذا جزيت أولى السفاهة بالذى
قالوا فأنت لمن جزيت مثيل

دين إلى دنيا وعلم زانه
خلق نمته إلى الفروع أصول

نعم تزيد على الثناء وإن غلا
ويقل عنها الشكر وهو جزيل

أحمد الزين

الكتب الجديدة :

١ – الفاروق عمر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ظهر الجزء الأول منه وفيه مقدمة عن الامبراطورية الإسلامية وكيف نظمها عمر ، وقد ذكر فيها أن التاريخ السياسي لنشأة الامبراطورية هو الغرض الأساسي من هذا الكتاب .

وقد ترجم لعمر في جاهليته وإسلامه — وفي عهد النبي (ص) وأبي بكر وفي عهده هو وفي فتوحاته وموقفه مع خالد وموقفه في معالجة المجاعة والوباء .

وقد أرجأ إلى الجزء الثاني بقية الفتوح في فارس وفتح مصر والحياة الاجتماعية في عهد عمر واجتهاده ومقتله .

والكتاب حلقة في السلسلة التاريخية الأدبية التي بدأها بحياة محمد ثم أبي بكر الصديق ، وعلى غرار ما قبلها في جودة العرض والتحليل . وسنعود إلى الكتابة عنه بالتفصيل .

٢ – مع الزمان

للأستاذ محمد فريد أبي حديد

قصة رائعة ورحلة مع الزمان في حياة مصر من عهد الفراعنة : يعرض في « فنان طيبة » كيف كانت مصر تبعث المدنية والفن إلى الدنيا ، وفي « حبيب آمون » كيف كان أول إصلاح ديني مؤسس على العقل والفكر ، وفي « شاؤول بن شمويل اللاوى » يصف خروج بني إسرائيل من مصر هرباً من ظلم فرعون ، وفي « المعجزة » يصور الصراع بين رمسيس الثالث والشعوب الهمجية التي تريد القضاء على المدنية ، وفي مينا الأربي يصور حكم الرومان لمصر وإذلالها وانتقام القبط منهم بعدم معاونتهم حين غزو العرب لها . وفي « آكل المرار وهند » يصور حاجة العرب في الجاهلية إلى الإسلام ليهذب عاطفتهم . وفي « أمير البحر الأول » يعرض لأثر الإسلام في نفوس معتنقيه وفي تربيتهم على الفتوة والقوة والشهامة مع العقيدة . وفي « عبيدالله بن الحر » يصف كيف أساء المسلمون إلى أنفسهم بتفرقهم أحزابا يضرب بعضهم بعضاً .

وفي « فارسة قصر الباهلي » يصور المرأة المسلمة الأولى وكيف أحيا الإسلام نفسها كما أحيا نفس الرجل .

وفي « سلامش » يصف عظمة مصر وأنها أصبحت سيدة الشرق والغرب في عهد المماليك ، وخاصة في عهد الظاهر بيبرس . وفي الأمير بدر الدين بيلبك يبين أسباب الفساد والميل إلى الانحدار . ويختم ذلك كله بآخر السلاطين طومان باي ، يصف فيه سقوط هذه الدولة العظيمة وأسباب هذا السقوط .

فهو قد عرض لمراحل هامة من مراحل التاريخ عرضا قصصيا رائعا جذابا جمع فيه بين التاريخ والفن .

٣ و ٤ – الشجرة وفرنسيس بيكون

للأستاذ عباس محمود العقاد

وهذان كتابان للأستاذ أخرجتهما المطبعة في وقت واحد : أحدهما وهو بيكون يغذي العقل ، فيصف فيه هذا الفيلسوف العظيم الذي كان له أثر كبير في تحويل التفكير في العالم . وقد قسمه — كما قال — إلى قسمين : قسم يشمل النظر في عصره ونشأته وأخلاقه ورسالته الفكرية ومكانته الأدبية ، وقسم يشمل المختارات من كتبه وعرضا لنماذج من مقالاته وحكمه .

والثاني وهو الشجرة موضوعه المرأة وغوايتها وجمالها وما بين الرجل والمرأة من التفاوت وتناقض المرأة وحبها وأخلاقها وحقوقها وجنسها ومعاملتها . والكتاب يثير التفكير فيما يعرض من آراء . وسواء وافق القارىء المؤلف أو خالفه فهو مقر بأن ما عرض من الآراء محل تقدير .

٥ — فصول فى الأدب والنقد

للدكتور طه حسين بك

مجموع مقالات كانت نشرت مفرقة فى آراء الدكتور فى بعض المعاصرين ونقدهم ، وفى نقد بعض الكتب ، ومقالات فى موضوعات أخرى أدبية معروضة عرضا لطيفا فى أسلوب حلو فضفاض . وقد أحسن الدكتور فى جمعها لسهولة الرجوع إليها ودوام الاستفادة منها .

٦ — ابن الفارض والحب الالهى

للدكتور محمد مصطفى حلمى

وهى رسالة نال بها الأستاذ الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة فؤاد . وقد بحث فيها بحثا مستفيضا ممتعا فى التصوف ونظرية الحب عند المتصوفة . هذا إلى ترجمة ابن الفارض وحياته بالتفصيل وديوانه ومذهبه . والكتاب أوسع مرجع لابن الفارض ومرجع قيم للتصوف والحب الإلهى والآراء فيه ، مع النقد والتحليل الجيد

٧ — ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد

للاستاذ ا . جمال الدرس

دراسة اجتماعية للفقر والجهل والمرض ، وهى عوائق تقدم الشعوب ورقيها ، وعند تكلمه فى الفقر ، عرض لموارد الثروة فى مصر ، وهى الزراعة والصناعة والتجارة ثم الأسباب الاجتماعية لمشكلة الفقر

وعند الكلام فى الجهل عرض للأمية والفوضى العلمية والمدرسة المصرية وسياسة وزارة المعارف والنظام العام للتعليم والتعليم الدينى وطرق التربية الحديثة .

وفى المرض ذكر مظاهر الضعف والأمراض المتوطنة والأسباب الموجبة للمرض وسوء التغذية ومياه الشرب ورداءة المساكن والأطباء والمستشفيات ، وبرهن على قوله بالإحصائيات ، وعرض للحلول الممكنة لكل مشكلة .

والمؤلف يرى أن الاصلاح الاجتماعى لا يتم إذا ألقى على عاتق الحكومة ، بل يجب أن يشعر الرأى العام بمرضه وفقره وجهله ، وأن تتضافر كل القوى فى سبيل إزالة هذه العقبات — وقد بذل المؤلف مجهودا موفقا فى التفكير فى هذه العقبات الثلاث

٨ — مشكلة الفلاح

للأستاذ عباده سعد

وهذا كتاب آخر يدل هو وسابقه على نشاط الشباب المصرى فى التفكير النشيط فى أمراض المجتمع المصرى . يقول فيه : «والمشكلة الفلاحية فى مصر أهمية كبرى ، فمصر بلد زراعى الى الآن وقد أثرت هذه الصفة على سير حوادث تاريخنا كله ، كما أن حالة الفلاحين المصريين تؤثر إلى الآن تأثيرا عميقا على أفكار معظم المثقفين التقدميين والمفكرين الإصلاحيين . والبحث الآن محاولة جدية لدرس المشكلة الفلاحية على الأسس الاقتصادية ولوضع الخطوط العامة للاصلاحات التى يجب أن تقوم بها الحكومة لإنقاذ ثلاثة أرباع من مواطنينا »

وقد وصف فيه حالة الفلاح المصرى وبؤسه والإصلاح الذى لا يجدى ، ثم عرض لأسس المشكلة والاصلاح الحقيق وصراحة

ولا شك أن كل بحث جدى فى المشاكل الاجتماعية — وخاصة مشكلة الفلاح — جدير بكل تشجيع

٩ — سارق النار

للأستاذ خليل هنداوى

أخرجت مجلة الأديب البيروتية هذا الكتاب وهو قصة مسرحية من فصل واحد بناها على أسطورة يونانية لصور الانسانية وكفاحها فى الحياة

والقصة جيدة من ناحيتها الفنية وناحية موضوعها . والأستاذ خليل هنداوى أديب سورى معروف بفنه الجيد وتفكيره العميق .

١٠ — النابغة الذبيانى

للأستاذ سليم الجندى

وتألفت جماعة من الأدباء فى دمشق أطلقوا على

بين المسموع والمقروء

كم تعرف من نفسك ؟

لاتستعجل فى الاجابة . ولا تقل ما يقوله كل أحد : أعرف كل شىء ، وأعرفه أحسن من كل أحد ، وكيف يعرف غيرى من نفسى أكثر مما أعرفه منها !

فجواب كهذا ، لمجرد عجلته ، قد يحتوى الخطأ الكثير

فأول شىء جسمك ، كم تعرف منه ؟ إنك لاتعرف إلا القليل مما يعرفه غيرك ولا أقصد جسمك العارى ولكن جسمك الكاسى ، فللعارى قصة أخرى

لقد خلق الله لك عينين ، ولكنه ركبهما من خريطة جسمك ، فى طرف من أطرافها . وركبهما معا ، فلم يفصل بينهما ، كأن يجعل عينا فى الصدر ، وعينا فى الظهر ، لترى صاحبهما أمام ، وخلف ، وماكان على الله بكثير أن يفعل هذا . ولكنه لأمر ما شاء أن يجعل جانبا واحدا من الفلقة الانسانية .

والعينان عينان اثنتان ، ولكنهما لاتتحركان إلا معا ، فان اتجهت عين عينا صحبتها الأخرى غصبا ، وان اتجهت يسارا دارت الأخرى يسارا . أو فوق ففوق ؛ أو تحت فتحت . فالظهر عينان ، والخبر عين واحدة . وما كان على الله بمستكثر أن يطلقهما من هذا القيد ، فتكون كل عين حرة تتحرك وحدها ، فترى العينان فى آن نصف الكرة التى يلف جسم المرء من هذا الوجود ، وتراه كله . ولكنه سبحانه لم يشأ أن يفعل حتى هذا

ثم انظر إلى العينين ، أين وجهتهما ؟ إنهما كالمصابيح رُكبتا فى الجسم لتشع نورها على غير هذا الجسم . إن العيون الانسانية رُكبت فى الأجسام ، أصلا ، لا لترى هذه الأجسام ، بل لترى ما حولها من أشياء ، ومن أجسام . فالعين لا ترى من جسم صاحبها شيئاً إلا إذا دار الرأس والتوى على نفسه . وهى مع كل هذا لا ترى ما تستطيع أن تراه من جسم صاحبها إلا جزءا جزءا ، بينما هى ترى

أنفسهم « أصدقاء الكتاب » . والغرض منها — كما دل عليها اسمها — خدمة الكتاب بالتأليف والنشر على ألا ينشروا الا السائغ الجيد الصادر من متخصص . وكانت باكورة أعمالهم هذا الكتاب لمؤلفه الفاضل عضو المجمع العلمى بدمشق

وقد بحث فيه بحثا مفيدا فى النابغة وقسمه إلى مقدمة فى عصر الشاعر وهو العصر الجاهلى فى حياته السياسية والدينية والاجتماعية والشعر فيه ومنزلته ثم ثلاث مقالات

الأولى فى النابغة وحياته وأحداثه وأخلاقه . والثانية فى شاعريته ومنزلته والفن فى شعره ومزاياه وعيوبه . والثالثة فى دراسة شعره وأغراضه وموضوعاته

والكتاب دراسة وافية للنابغة

ونرجو أن يكون هذا الكتاب باكورة لجمعية أصدقاء الكتاب تتلوها الثمرات المتلاحقة

١١ — حكم قراقوش

الدكتور عبد اللطيف حمزة

كتاب لطيف قسمه إلى قسمين : قسم فى قراقوش من هو وما أعماله الجيدة وما السبب فى أنه مع قوته وإتيانه بكثير من الأعمال النافعة رمى بالظلم والخرق والحمق ؟ وما مقدار هذه التهمة من الصحة والخطأ ؟ ثم خلاصة لكتاب « الفاشوش فى حكم قراقوش » لابن مماتى وفيه تحليل لطيف وتحقيق جيد لهذه التهمة .

والقسم الثانى بحث ظريف عن السخرية فى الأدب العربى عامة والأدب المصرى خاصة . وفيه أيضا وصف لرسائل الوهرانى وهو أديب مغربى قدم مصر فى عهد صلاح الدين ، فلما لم يجد له مجالا فى سوق الجد عمد إلى الهزل .

والكتاب بقسميه خفيف الروح لطيف الموضوع جيد التحليل والعرض . (...)

جسم النير كلاً لا يتجزأ .

ونصف الجسم لا تراه عينه أبداً ، وأعني بالنصف الخلف ، قفاً وظهراً وما دونهما

ومن أجل هذا اخترع الناس المرايا ، يستكملون بها هذا النقص الظاهر المقصود في جهاز الرؤية بهذه الماكينة الانسانية . والمرآة تريك مالا ترى من نفسك ، هي تريك مالا تراه عيناك منك إلا اذا هي خرجت من رأسك ، وابتعدت عنك متراً ، ثم استدارت نصف دورة ، ثم أخذت تحدّق فيك

والمرآة تريك مالا تراه من نفسك ، وتراه مع ذلك منك غيرك ؛ ومن أجل هذا قالوا صديقك مرآتك

والمرآة على كل حال تعجز عن إراءتك ظهرك . ولهذا تستعين بمرآتين ، تظل توافق بينهما وبين جسمك حتى تكسب منهما بعد جهد لمحة من جانب من جوانب هذا النصف الخلفيّ الخافي من كينونتك ، يكشف لك عنه على هذا النحو حلاقك أو طرزيك ، ليسوءك أو يسرك

أي والله ، فما إلى النكتة قصدت . فكثيراً ما كشفت المرآة الواحدة ، والمرآتان ، عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم . وإن سرّت المرايا عشرات فقد أساءت إلى ألوف . وأكثر السرور غرور . والحمد لله أن الانسان يرى نفسه صغيراً فيشبّ آلفاً ما رأى . والألفة التي تذهب بحلاوة الحسن ، جديرة بأن تذهب بمرارة القبح . وهكذا أراد الله رحمة بالأكثرية الكبرى من عباده .

يتبين من هذا أن المرء ، حتى بمرآته ، لا يرى إلا بعض ما يراه الرجل الآخر منه . ويراه ناقصاً

وشيء آخر تعجز المرآة عن إراءته — ذلك السير .

فالناس تسير وقلما تتصور كيف تسير ، إلا رجلاً صادف في الطريق عربة بهـا أثاث ، وبالأثاث مرآة قامت في آخر العربة ، فتبعها لترى كيف يسير . أو رجلاً تعمّد أن يسير إلى مرآة كبيرة قائمة . وهذه مصادفات لا تتفق لأصحاء العقول كثيراً .

فالرجل منا إذاً ، والمرآة طبعاً ، كل يسكن بيتاً يعرف الناس منه أكثر مما يعرف هو من بيته .

وإن أردت زيادة في التحقق فاعرض على أصدقائك صورهم ، وخبّيء وجوههم ، إذاً لاستحال عليهم تحقيق هـذه الأجسام — استحال على كلٍّ تحقيق جسمه ، بينما هو قد يحقق أجسام الآخرين .

على أن المسألة ليست بسيطة كل هذه البساطة .

أتدري أي شيء يراه الانسان من نفسه أكثر من غيره ؟ إنهما يداه . فهما اللتان تبرزان من جسمه إلى عينيه أكثر بروز . وهما اللتان تطعمانه وتغسلانه وتُلبسانه ، وتكتبان له ، وتحملان له الأشياء . فهما دائماً متعرضتان لبصره . ولكن تجربة أجراها الباحثون أدّت إلى أن المرء لا يستطيع أن يستبين صور يديه من بين الأيدي إذا عرضت عليه صورها مجتمعة .

وأغرب من ذلك صوت الإنسان . فأي صوت يسمعه الإنسان من الأصوات أكثر من صوت نفسه . ومع هذا فالإنسان لا يأبه في صوت نفسه إذا حكاه له الحاكي ، فُنغرافاً كانت الواسطة أو سينما وهنا أحسب بعض الذهنيين سيقول إنه يعرف صوت نفسه . وهـذا حق ، ولكنه لم يعرفه ساعة سمعه لأول مرة . وإنما هو عرفه بالأسلوب الذي عرف به صوت الناس ، فقد قيل له أولاً إن هـذا صوتك ، فاستمع له ، ثم استمع ، حتى عرفه وألفه كما يألف ويعرف الغريب .

فيدا الانسان ، وهما تحت بصره ، وصوت الانسان ، وهو ملء سمعه ، يعجز المرء عن استبانتهما .

أفليس في هذا إمعان في مشيئة الطبيعة ، ومشيئتها من مشيئة الله ، أن يظل المرء لا يعلم من نفسه إلا بمقدار .

وشيء آخر يزيد التفحص عجباً — ذلك مشية الإنسان .

فقد سبق أن قلت أن الانسان لا يعرف كيف يسير ، أي على أي صورة يسير ، لأنه لا يرى نفسه يسير ، ومع هـذا فقد دلت التجربة التي أجراها الباحثون أن المشية هي أيسر ما يتبين الرجل من نفسه .

فقد صوّروا عدة رجال وهم يمشون في أحذية سواء ،

وسراويل سواء ، قماشاً ولوناً ، وبسرعة سواء ، ثم عرضوا هـذه الصور السينمائية على أصحابها مجتمعة ، وعرضوا الأرجل وحدها ، فما كان أكثر العجب عند ما استبان الرجال أرجلهم وهى على الشريط تسير .

يعجز المرء أن يستبين على الشاشة ما قد يرى فى الحياة ، ثم هو يقدر على استبانة ما لا يرى فى الحياة — المشية .

فما تفسير هذا ؟!

تفسيره أن المشية موسيقى . أن المشية إيقاع . إنها حركة إيقاعية موسيقية ، فى قلب الرجل صاحبها تتألف موسيقاها ، ومن أوتار أعصابه تنطلق أنغامها .

والمشية ليست حركة بسيطة ، تتأدى برفع رجل وخفض أخرى كما تمشى الرجال من الخشب ، بل هى حركة مركبة . هى ما يعبر عنه الميكانيكيون بأنها حاصل حركات ذات مقادير مختلفة ، واتجاهات مختلفة ، لا يختلف بعضها من بعض فحسب ، بل هى تختلف كذلك بين الإنسان والإنسان تبعاً لاختلاف أثقال هذه الأجسام ، وتبعاً لاختلاف توزع هذه الأثقال فى الأبدان .

فالمشية حركة معقدة مؤتلفة أجزاؤها ، تصدر عنها موسيقى معقدة مؤتلفة أيضاً . موسيقى مركبة متناسقة مما يسميه الإفرنج بالهرمونى . وهى ذات خفاء إلا على القلب الذى ألفها . والعصب الذى وقعها ، ومن أجل هذا لم يدرك المشية على الشاشة إلا صاحبها ، وهو لم يدركها لأنه كان رآها فى واقع الحياة وهو يمشى ، ولكن لأن الشاشة رجعت إلى قلبه وعصبه نفس تلك الأحاسيس التوقيعية التى يتقمصها عصبه وقلبه إذا مشت رجلاه . فى تلك الأحاسيس الخفية عرف مشيته كأنما رآها .

فهذا شأن الجسم ظاهراً ، فكيف به باطناً .

لا تقل لى أيها القارئ ، إنك تعرف تركيب جسمك باطناً . ولا تحدثنى عن الرئة والقلب والمرئ والمعدة والأمعاء والكبد والطحال ، إلى آخر تلك الأحشاء . إنك تعلمها ، وقد تعلمها جميعاً ، ولكنك لا تعرفها لأنك لم ترها أبداً . بل إنك لم تر مثلها فى إنسان . إنك تعلمها كما تعلم من طوكيو أو من جنة اليمامة . أى تعلمها سماعاً واستنتاجاً . بل إنك لتعرف من ظاهر ظهرك أكثر مما تعرف من باطن بطنك . هذا إن كنت عالماً . أما الرجل العامىّ فلا يكاد يعرف أين كبده .

ومع علمنا بالذى فى بواطننا سماعاً واستنتاجاً ، لا سلطة لنا على شىء مما فينا . بل إن سلطانى على معدتى وقلبى وطحالى تكاد تساوى سلطانى أنا على معدتك أنت وعلى قلبك وطحالك . إن المعدة تهضم ما وصلها الطعام ، وليس لنا من بعد ذلك نهى عليها ولا أمر . وهى تهضم على هواها ، إسراعاً وإبطاء ، ولا نستطيع لديها سرعة من إبطاء ولا إبطاء من سرعة . وهى قد تفسد هضماً ولا ندرى لِمَ فسدت ، ولا يدرى حتى الأطباء إلا تظنياً ، وهم من بعد درايتهم لا يستطيعون للمعدة نهياً أو أمراً ، وإنما مراودة وملاينة من بعيد

ومثل المعدة القلب ، ومثل القلب الكبد . ومثل هذه سائر الأحشاء

إن الرجل منا يحتل من جسمه ما يحتل قائد السيارة من سيارته . إنه يمس ذراعاً فيعطى بنزيناً ، ويمس ذراعاً آخر فيعطى الحركة ، ويمس حلقة فيذهب بالسيارة يميناً أو شمالاً . وهو فى كل هذا لا يرى مما يجرى فى أحشاء السيارة شيئاً وقد لا يعلم من طريقة جريانها شيئاً

وإذا فسدت أحضر لها الطبيب من الجراج

الا أن هناك فوارق عظمى بين الحالتين : فطبيب الجراج يفتح بطن السيارة ، ويفك أحشاءها فكاً ، والسيارة فاقدة الحركة ، فاقدة الحياة . أما طبيب السيادة فقد يفتح بطن الإنسان على حذر . وهو لا يفك أحشاءه فكاً ، لأنه بذلك يوقف الحركة ويوقف الحياة . وهو عندئذ لا يستطيع إعادتها سيرتها الأولى

وفرق آخر : أن طبيب الجراج يستبدل قطعة بليت بأخرى جديدة . أما طبيب الجسم فلا يستعيض عن بال بجديد . ليس عنده قِطَع غيار

احمد زكى

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٢٥ — الثلاثاء ٦ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٤ — ٢٠ من مارس سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

نهضة فرنســـا الجديدة

شاهدت بالأمس صورتين ملأتا قلبى أسى وغماً : الأولى تمثل مدينة الهافر قبل الحرب . والثانية تصورها بعد أن جلا عنها الألمان . ولم أكن فى حاجة إلى صورة (الهافر) قبل الحرب لكى أعرفها . وعهدى بها مدينة باسمة رزينة ، هادئة الجنان على الرغم من كثرة الحركة والنشاط التجارى ، أهلها النرمنديون من أقوى العناصر الفرنسية وأشدها مراساً ، وأكثرها نجاحاً فى ميادين التجارة والمال . كانت المدينة تمتاز فوق ذلك بشوارعها القديمة ، وعماراتها التى تجمع بين جلال القدم والمتانة والجمال . لقد كنت أتوقع أن تكون الهافر قد أصيبت فى هذه الحرب إصابات فادحة ، وأنها قد نال منها التخريب والتدمير . وكان الخيال يصور لى بعض شوارعها ، وقد امتلأت بالأنقاض وبعض عماراتها وقد تهدمت منها أجزاء وبقيت أجزاء . ولكن الخيال كان مقصراً عن الحقيقة غاية التقصير ، فإن الشطر الأكبر من مدينة الهافر ، قد استحال إلى أطلال وخرائب ، وأكداس مختلطة من الحجارة والأخشاب . ويوشك ألا يكون هناك جدار قائم أو تمثال أخطأه الدمار إلا فى النادر .

لقد كانت كارثة فرنسا فى هذه الحرب من الكوارث الكبرى ، لأنها ذاقت ويلات الحرب ، وفتكات الغزو مرتين : فى صيف ١٩٤٠ وصيف ١٩٤٤ ، وفيما بين ذلك كانت مدنها تتعرض لعدوان الأصدقاء والأعداء على السواء . فكان البريطانيون يقذفون المؤسسات الهامة بالقنابل . والألمانى المحتل يتحكم فى السكان ويذيقهم ألواناً من العذاب والحرمان . لا شك أننا كلنا نعطف أشد العطف على فرنسا فى أيام محنتها تلك . ولئن كانت الويلات التى نزلت بها يرجع بعضها إلى تقصير حكوماتها قبل الحرب ، وإلى ضلال — ولا نريد أن نقول خيانة — بعض

أبنائها الذين تعاونوا مع الألمان ، فإن هذا كله لا يقلل من عطفنا على هذه الأمة المجيدة ، التي طالما أسدت إلى الإنسانية أجل الخدمات .

إن كثيراً من النـاس في مصر وفي غير مصر من الأقطار قد هالهم أن رأوا فرنسـا تنكبو تلك الكبوة الهائلة في أول هـذه الحرب ، وطالعوا ما كشف عنه الكتاب والباحثون من الفساد الشائع في أداة الحكم وقيادة الدولة المدنية والعسكرية . وراعهم أن رأوا فرنسا تخرج من الحرب وتسلم للعدو اللدود . وكان في وسع حكومتها أن تنتقل إلى شمال إفريقية وتشن الحرب من هناك على العدو المشترك . ولكنها فضلت أن تتخلى عن حليفتها وأن تتعاون مع الألمان . حتى بلغ بها الأمر أن أرسلت قوة — لا شك أنها كانت صغيرة — للاشتراك معهم في حرب الروسيا !

إن الذين شاهدوا هذا كله ، وهالهم ما رأوه ، تعجلوا فحكموا بأن فرنسا أمة منحلة ، ونادى أحد أقطاب السياسة بأن فرنسا قد أصبحت دولة من الدرجة الثانية . ولكن هـذا القول قد كذبته الحوادث ، وقد نهض الفرنسيون أنفسهم لتكذيبه . وعقلاء الباحثين يعلمون أن الأمة الحية تستمد من الهزيمة قوة ، ومن الضربات القاتلة بعثاً جديداً .

وقد بدأت فرنسا تنهض من كبوتها منذ اللحظة التي سلمت فيها حكومة فيشي . ففي تلك اللحظة هاجر جماعة من الفرنسيين إلى الأرض البريطانية ، لكي يشنوا الحرب من هناك على الألمان . وقد كان على رأس هذه الجماعة فارس بطل يدعى شارل ديجول ، لم تمض على ترقيته إلى رتبة قائد لواء إلا برهة وجيزة . ولكنه على الرغم من ذلك من أبرع الفرسان في حرب الدبابات الحديثة ، حتى ليزعم بعض أنصاره أن الألمان قد أخذوا عنه قواعد حرب الدبابات من كتاب له لم تعبأ به القيادة الفرنسية ، أما القيادة الألمانية فقد حفظته عن ظهر قلب .

ومهما يكن من شيء ، فإن الجنرال ديجول رئيس الفرنسيين الأحرار ، الذين أبوا أن يخضعوا للنير النازي ، رجل قوى الشكيمة صعب المراس ، يمتاز خلقه بالصلابة والعناد ، والوطنية الهائلة التي تشرف على التعصب ، والجرأة الهائلة التي لا تعرف التردد . أي أنه حائز لجميع الصفات اللازمة للواجب الشاق الوعر الذي كتب له أن يضطلع به ، وهو إنهاض فرنسا من كبوتها . كانت العصبة الملتفة من حوله جماعة صغيرة العدد أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن أخذت تكبر وتنمو بسرعة عظيمة ؛ وكان تضخمها هذا مستمدا من ثلاثة مصادر : أولها الفرنسيون الهاربون من فرنسا ، وقد كان سيلهم هذا لا ينقطع الى آخر لحظة من الاحتلال الألماني . وقد انتفع الحلفاء في غزوهم بهذا الاتصال المستمر بين فرنسا وبريطانيا .

المصدر الثاني : الفرنسيون في بعض البلاد (المحايدة) مثل مصر ، فقد أخذ الكثير من الفرنسيين وأنصارهم في سوريا ولبنان يتدفقون إلى وادي النيل ، حيث تألف منهم على مضى الزمن جيش صغير العدد كبير الخطر ، ساهم مساهمة جدية في فتح سوريا ولبنان سنة ١٩٤١ ، وفي شن الحرب على الألمان والطليان في شمال إفريقية في العام التالي .

والمصدر الثالث الذي ساعد حركة الفرنسيين الأحرار هو رجال بعض المستعمرات الفرنسية . ولقد رأينا رجالا مثل الجنرال دي لارمينا والجنرال كاترو — على الرغم من أقدميتهم — ينضوون عن طيب خاطر تحت لواء الجنرال ديجول ، ولا شك في أن عملهم هذا من الأعمال الوطنية الجليلة التي لا يفيها الثناء حقها . ولكن المستعمرات التي انضمت كلها إلى الجنرال ديجول كانت قليلة جداً . وهذا هو الأمر الذي يبعث على الدهشة ، فإذا استثنينا بلاد الكنجو الفرنسية ، وبعض جهات غرب إفريقية

والسودان الفرنسى ، نرى أن الكثرة العظمى من المتلكات والحمايات الفرنسية ظلت خاضعة لحكومة فيشى ، موالية للمحور ، تتقبل البعثات المحورية عسكرية كانت أو تجارية ، وتقدم موانيها ومطاراتها لسفن المحور وطائراته . وقد احتلت اليابان بلاد الهند الصينية الفرنسية ، فلم تحرك فيشى ساكناً ، ولم تعلن الحرب على اليابان أو تقطع علاقاتها بها .

وعبثاً حاول ديجول نفسه أن يستميل الجنرال ويجان — وهو الحاكم الأعلى فى شمال إفريقية — إلى الحركة الفرنسية الحرة ، وعبثاً أعلن ديجول أنه مستعد لأن يضع نفسه كجندى مطيع تحت لواء ويجان إذا أراد هذا أن يتولى قيادة تلك الحركة . لم يجد هذا كله نفعاً . فإن ويجان — على الرغم من وطنيته التى لا يشك فيها أحد — لم يستطع أن يخرج على حكومة فيشى . إن حكام المستعمرات الفرنسية والضباط المقيمين بها قد سلكوا مسلكا عجيباً نحو حركة الفرنسيين الأحرار . فهل كان هذا السلوك راجعاً إلى شدة الولاء لفيشى ، أو لشدة نفورهم من الانضواء تحت قائد صغير مثل ديجول ، أو لنفورهم من شخص ديجول نفسه ؟ إن الروح الوطنية القوية أمر مغروس فى نفس كل فرنسى ، ولذلك لا بد أن لدى هؤلاء القوم أسباباً حملتهم على الامتناع عن المساهمة فى هذا المجهود الوطنى الخطير ، والتاريخ وحده كفيل بأن يكشف عن هذه الأسباب .

وهكذا ظل ديجول فترة طويلة هو القائد الوحيد فى ميدان المقاومة للعدو الغاصب ، ولهذا السبب وحده اكتسب أنصاراً كثيرين ، وعلى الأخص فى فرنسا نفسها . فلما ظهر بعد ذلك قادة آخرون مثل دارلان — الذى انقلب فجأة من التعاون مع الألمان إلى معاداتهم — أو مثل جيرو الذى هرب من الاعتقال فى ألمانيا ، ثم انتقل إلى إفريقية الشمالية ، كلاهما لم يلبث أن خرج من الميدان ، الأول بالقتل ، والثانى بالإقالة أو الاستقالة ، وبقى الميدان خالياً ، ليس فيه لفرنسا قائد آخر سوى الجنرال ديجول ، الذى ظل هو الزعيم الوحيد لفرنسا المحاربة فى وقت الغزو ، وبقى هو الزعيم الوحيد لفرنسا المحررة .

وهناك من يهمس بأن أكثر الفرنسيين ليس حريصا على الاحتفاظ بزعامة الجنرال ديجول . وآخرون يزعمون أن له نزعات دكتاتورية ، وأنه أقرب شبهاً بزعماء ألمانيا النازية ، ولذلك لا يصلح لزعامة فرنسا ، ولئن كانت صفاته تؤهله لقيادة حركة ثورية ، فإن تلك الصفات بالذات لا تؤهله للتمهيد للسلم ولحياة السلم . ولئن صح هذا القول أو ذاك فإن الأحداث وحدها ستريننا إن كان الشعب الفرنسى سيتمسك بزعامة ديجول أو يتخلى عنه . ولقد رأينا ديجول فى فترات مختلفة يبدى شيئا من المرونة السياسية فى مناسبات عديدة ، ولكننا كذلك قد رأيناه يرتكب أخطاء دفعته إليها الغطرسة والغرور ، وهى تتنافى تماما مع مصلحة فرنسا الحقيقية ، وآخر هذه الأمور امتناعه عن مقابلة الرئيس روزفلت فى الجزائر . وروزفلت شيخ وقور قد ألح عليه السقم وهو يمثل فى شخصه الولايات المتحدة كلها ، التى بذلت ما لها ودماء بنيها فى تحرير فرنسا . لقد كان هذا المسلك خطأ كبيرا ، وأمراً لم تمله على ديجول مصلحة فرنسا ولاحب فرنسا ، ولا بعد نظر الرجل السياسى . ولكن هذه الغلطات لا يمكن أن تعلى على الخدمات الهائلة التى أسداها ديجول إلى فرنسا ، ولا يمكن أن تنسينا موقفه القوى الجرىء فى عام ١٩٤٠ حين كانت دعاية الهزيمة أقوى الدعايات ، واليأس قد تسرب إلى كثير من النفوس .

* * *

إن فرنسا لم تسترد بعد مركزها تماما كدولة من الدرجة الأولى . ولكن أحداً لا يشك فى أنها ستبلغ هذا المركز بعد زمن غير بعيد . وستبلغه بفضل جهود أبنائها ،

ومساعدة حلفائها . فإن استرداد فرنسا مركزها الأول أمر لا يفرضه حبنا لفرنسا فقط ، بل هو أمر مطلوب لسببين : الأول إزالة آثار الطغيان حتى يرتد كيد الطغاة إلى نحورهم ، وتعود فرنسا إلى سابق مجدها ، على رغم الكابوس الذي أناخه الطغيان عليها . الثاني : أن الحالة الدولية نفسها تتطلب أن تكون فرنسا دولة من الطراز الأول ، حتى تتكافأ الموازين ، ولا يستبد بشئون العالم فريق محدود من الدول الكبرى . . .

ولكننا نريد من فرنسا الجديدة القوية العظيمة أن تجري على سنن العدل ، وأن ترفع بيدها علم الحرية . لقد كانت فرنسا دائماً وطن الحرية وحاملة لوائها . وليس يليق بفرنسا أن تحمل علما آخر . فتفقد مكانتها وقيمتها بين الأمم . إن المرء يستطيع أن يدرك أن فرنسا التي تكافح اليوم لاسترداد مكانتها الأولى قد تتوهم أن الحرية التي تطلبها سوريا ولبنان أمر يؤذي عظمة فرنسا أو ينقص من جلالها ، ولكن مثل هذا الوهم لا يمكن أن يتسرب إلا إلى عدد قليل من ذوي النفوس الصغيرة والأفق الضيق ، الذين يظنون أن إرهاق الشعوب واضطهادهم من مظاهر العظمة والسلطان . وينسون أن المرء لا يستطيع أن ينقم على الظلم في أوربا ويرتضيه في آسيا ، أو أن يطالب بالحرية لوطنه ، وينقم على الطالبين بها في بلاد تربطها به رابطة الصداقة والمعاونة .

ولسنا نريد هنا أن نكرر ما وعدت به فرنسا مراراً من الاعتراف بحرية سوريا ولبنان ، أو المعاهدة التي أبرمت في عام ١٩٣٦ بين فرنسا وسوريا ، ولم يوافق عليها مع الأسف البرلمان الفرنسي ، أو الوعود الصريحة التي صدرت من ديجول نفسه ، في صيف ١٩٤١ ، قبيل غزو سوريا ولبنان ، عندما أعلن ممثلو الحكومة البريطانية والفرنسية معاً اعترافهم بأن سوريا ولبنان كلاهما بلد حر مستقل . ولكننا إذا لم نرد ترديد هذه الوعود اليوم على أنها تمثل حقوقاً مكتسبة لسوريا ولبنان ، فإننا مع ذلك لا بد لنا أن نرددها ، لكي ننبه إلى أن الحنث بها عمل لن يقتصر أذاه على علاقة فرنسا بسوريا ولبنان ، بل سيتجاوزهما إلى العالم أجمع ، لأن إخلاف الوعد يصم المخلفين بالحنث في كل مكان وزمان ، ويفسد الخلق الدولي كله ، ويملؤه بالسموم . فليس يعقل أن يكون المرء صادقاً في أوربا وكاذباً في آسيا ، حافظاً للعهود مع زيد من الناس ، وخائناً للعهد مع عمرو . إن الدرس الأول الذي علمتنا إياه هذه الحرب ، في جميع ظروفها وملابساتها ، هو أن أكبر ما يشكوه العالم من العلل والأمراض ، هو مرض الأخلاق الدولية ، وقيامها على الأثرة والأنانية الخاطئة .

وأقول الأنانية الخاطئة عن عمد ، لأن الأنانية الحكيمة ، أي المنفعة الذاتية الحقيقية لكل دولة من الدول هي أن يسود جميع العلاقات الدولية روح العدل والإنصاف ، كما أن رخاء العالم لن يتم إلا إذا عم الرخاء جميع دوله وشعوبه ، فإذا طالبنا فرنسا اليوم أن تسلك مع الدول العربية في الشرق الأوسط وفي بلاد المغرب مسلكا كريماً قويماً ، فإننا لا يدفعنا لهذا الطلب حبنا للدول العربية فحسب ، بل حبنا لأن نرى فرنسا كما عهدناها نصيرة الحرية والعدل في كل قطر ووطن .

محمد عوض محمد

المنطق العملي

كثير من الناس يخطئون فيظنون أن مجال المنطق هو الدراسة النظرية والبحوث الجامعية والبيئات العلمية ، ولكن الواقع غير ذلك فأعمال الحياة كلها خاضعة للمنطق — الفلاح في زراعته والتاجر في بيعه وشرائه والانسان في أسرته وفي وظيفته وفي جمعياته كل أولئك خاضعون في كل تصرفاتهم للمنطق العملي

غاية الفرق أن ما يدرس في معاهد العلم هو علم المنطق وما يستخدم في الحياة اليومية هو فن المنطق ، وذلك كعلم الموسيقى الذي يدرس النظريات وفن الموسيقى الذي يعلم التوقيع على الآلات ، وعلم الهندسة وفن الهندسة ، وعلم البلاغة وفن البلاغة وهكذا . العلم يقرر القواعد النظرية والفن يمارس الناحية العملية

وأعتقد أن من أهم الفروق بين تاجر راق وتاجر منحط وفلاح راق وفلاح منحط وأسرة راقية وأسرة منحطة وأمة راقية وأمة منحطة هو استخدام الطائفة الأولى لفن المنطق وإهمال الثانية له ، وأن من أهم وجوه الإصلاح في الافراد والجماعات نشر فن المنطق بينهم

الخصام بين الناس ، والمنازعات بين الأحزاب ، وسوء المعاملة بين الملاك والزراع وبين الباعة والمشترين وبين الرؤساء والمرءوسين وبين أصحاب الحاجات والموظفين يرجع في الأمر الأغلب إلى سوء التفكير وانعدام فن المنطق أو ضعفه . فرق التفكير في أية طائفة من الطوائف واجعلهم يؤسسون تفكيرهم على المنطق ويصدرون في أعمالهم حسب فن المنطق ترتق المعاملة وترتق الطائفة

استعرض ما شئت من التصرفات تجد أن صواب التصرف راجع إلى انطباقه على فن المنطق ، وخطأ ، وما ينتج عنه من أضرار راجع إلى الانحراف عن فن المنطق . هب أن الأسرة قررت شراء سيارة ، ففن المنطق يقضي بحساب ميزانية البيت ودرس ثمن السيارة وما تتكلفه كل شهر ومنافعها ومضارها ودرس ما تحتاجه الأسرة من ضروريات وكماليات ومنزلة السيارة من هذه الأشياء الضرورية والكمالية ومنزلة ثمن السيارة من ميزانية الأسرة ، فان درس ذلك كله درسا صحيحا وروؤى من المستحسن شراء السيارة فهذا فن المنطق . ولكن إن اشتريت السيارة من غير درس وموازنة ومقارنة فقد أهمل فن المنطق وتعرض رب الأسرة لأضرار كثيرة . وعلى هذا القياس كل ما يحصل من المتاعب في الأسرة من جهة الميزانية سببه إهمال فن المنطق

خذ — مثلا آخر في الأسرة ، أم مرض طفلها فارتفعت حرارته واستمرت مرتفعة ، فسألت الجيران ماذا تفعل ! فكل أشار عليها بعمل ، فعملت بالاشارة الأولى فلم تنجح ، فعملت بالاشارة الثانية ثم بالثالثة فمات الطفل . إن الطفل إنما مات من إهمال المنطق ، فالمنطق الصحيح عرض الطفل على الطبيب ليعرف نوع المرض وما يناسبه من علاج

هذه أمثلة صغيرة جدا واضحة جدا ، ولكن استعرض على ضوئها كل ما يشقى الأسرة تجد أنه راجع إلى إهمال المنطق من رب الأسرة أو من ربة الأسرة أو من أولاد الأسرة ، وأن الأخطاء راجعة إلى أن أعمالا تعمل قبل أن تدرس ويفكر فيها تفكيرا صحيحا ، أو أنها درست ولكن اتخذ لتحقيقها وسائل غير صحيحة أو قومت فيها اعتبارات سخيفة لأسباب سخيفة غمرت الاعتبارات الصحيحة وهكذا . كذلك الشأن إن نحن وسعنا نظرنا من الأسرة إلى علاقاتنا الاجتماعية والسياسية فهي تحسن بالمنطق وتسوء بعدم المنطق

إن التاجر الناجح في الحياة هو التاجر الذي طبق فن المنطق من عرضه لسلعه وضبطه خرجه ودخله ورأس ماله وربحه ومعرفته لنفسية الجمهور وطريقة ارضائهم وهكذا . فإن هو سار على البركة لم ينجح إلا إذا وقع مصادفة على فن المنطق ، وضحايا التجار وأرباب الأعمال هم في الواقع ضحايا المنطق الفاسد .

انتقل بعد هذا إلى الجو السياسي ، تر أن البرلمان الصالح هو السائر فى بحوثه وكلام أعضائه ومناقشاتهم وجدلهم وضبط عواطفهم على فن المنطق ، فإن هم انحرفوا عنه فبرلمان فاسد . والبلد الناضج فى السياسة هو الذى يسيطر عليه رأى عام يعرف فن المنطق فيحكم على الأشياء والحوادث والأشخاص حكماً صحيحاً ، يقدر الكلام عما فيه من حقائق لا بما فيه من تهويش ، ويقدر المسائل بجواهرها لا بأشكالها . والبلد البدائى فى السياسة هو الذى لا يدرك فن المنطق ؛ فيقدر السياسى بتملقه له ، ويقدر الشيء بمنفعته الحاضرة القريبة وإن استتبعت أضراراً بعيدة ، ويخدعه التهويش وهكذا .

كل الناس صالحون لأن يتقدموا فى فن المنطق على اختلاف استعدادهم ، ومن الناس من منحوا استعداداً فطريا جيداً فساروا فى الحياة على فن المنطق وإن لم يعلموا أنه منطق ولم يسموا باسم المنطق ، ولكن مهما كان الاستعداد فالتربية المنطقية تصقله وتزيده قوة وصفاء .

إن العمل الصحيح هو وليد التفكير الصحيح ، والتفكير الصحيح وليد شيئين : تثقيف واسع بقدر الامكان وبيئة صالحة بقدر الامكان ، فإذا أردنا أن نرقى الشعب من ناحية تفكيره وعمله فى الحياة حسب فن المنطق وجب أن نثقفه ما وسعنا تثقيفه ، فالجهل عدو التفكير الصحيح ، ثم يجب أن نصلح ما حوله بالأمثلة والنماذج الصالحة للتفكير الصحيح ثم تفتح عينه للتجارب ؛ فهذا العمل جرب فحسنت نتائجه فيجب أن يكرر ، وهذا العمل جرب فساءت نتائجه فيجب أن يجتنب أو أن تعاد تجربته على نمط آخر .

بل ان فن المنطق لا يستفاد من التعلم النظرى بقدر ما يستفاد مما نسميه التربية الاجتماعية ، ونعنى بذلك أن الجمعية التى يعيش فيها الفرد هى معهد تربية ، فإذا كان هذا المعهد يفكر تفكيراً منطقياً ويعمل وفق تفكيره ، كان هذا أكبر مرب للفرد ؛ وكل محل تجارى منظم يجرى حتى فى المنطق هو أكبر معلم لأفراده فن المنطق ، وكذلك الأسرة والمصنع والحزب ؛ فالبيئة التى يعيش فيها كل فرد هى مدرسته التى تعلمه حسن المنطق أو سوء المنطق ؛ وهذه البيئة قابلة للتغير المستمر من سيء إلى حسن أو من حسن إلى سيء ، فالفلاح يسوء تفكيره لأن بيئته سيئة التفكير خاضعة للاعتقادات الخرافية والتقاليد البعيدة عن فن المنطق ، والمصنع الفوضى والمتجر الفوضى أسوأ مدرسة لفن المنطق . فأصلح هذا كله يصلح التفكير فيصلح العمل .

والمدرسة النظامية تقوم بنوعين من التربية : التربية عن طريق العلوم النظرية وهى قليلة الأهمية هنا ، والتربية الاجتماعية وهى تربية السلوك والناحية العملية فى الحياة . ومما يؤسف له أن هذه التربية الثانية إلى الآن ضعيفة وهى التى عليها عماد التفكير الصحيح والعمل على وفق هذا التفكير .

كذلك من أهم معاهد التفكير الصحيح السينما والتمثيل والصحافة . فهى دائما تعرض نماذج من التفكير ومن الحوار ومن العمل وفق التفكير ، فإذا أصلحت خدمت فن المنطق فى الأمة ورقته وإلا أفسدته ووضعته .

إن عهود الظلام السابقة خلفت لنا ديوناً ثقيلة من تقاليد وأوضاع لا تتفق وفن المنطق ؛ فعاداتنا فى الزواج والطلاق والأفراح والمآتم واعتقاداتنا فى الأضرحة والمشايخ وطب الركة والرقى والتعاويذ ونحو ذلك كلها ضربات سامة فى صميم فن المنطق ، تميت الفكر الصحيح وتخدره ، وتجعل الأعمال الصادرة عنه أشبه بأعمال المخبولين والمتوهمين ، فإذا رقى الفكر بالوسائل التى ذكرنا حل محلها تدريجا تقاليد مبنية على المنطق .

وعلى الجملة فالحياة ليست إلا سلسلة تفكير تتبعها سلسلة أعمال فإن ساء التفكير ساء العمل فساءت الحياة ، وإن حسن التفكير حسن العمل فحسنت الحياة .

فإن نحن قلنا إن شقاء الناس من سوء المنطق لم نبعد .

أحمد أمين

سؤال ....

يسأل كل منا نفسه هامساً إذا خلا إليها عن أشياء كثيرة لايقوى على أن يسأل عنها جهرا فى ملأ الناس . ولست أدرى هل يجرؤ كل من يقرأ هذه الكلمات على أن يقر بهذه الحقيقة أو لايجرؤ . ولكنى أزعم أن الإنسان إذا كان صريحا مع نفسه لم يستطع إلا أن يعترف بهذه الحقيقة . وهذه الأسئلة المهموسة تختلف بغير شك أعظم الاختلاف ، فمنها ما يمكن أن يجهر به المرء بعض الجهر ، ومنها ما يمكن أن يشير المرء إليها إشارة خفيفة ، ومنها ما يمكن أن يفضى به إلى الاخصاء من الأصدقاء ، ومنها مالا يمكن أن يكاشف به أحدا أياكان خوفا من سوء الظن فيقذف به إلى أعماق صدره ويغطيه ويبالغ فى تغطيته حتى يكاد يغالط نفسه فيه . وكثيراً ما يبلغ الخوف بالإنسان مبلغا يجعله يخادع نفسه عن حقيقة أفكاره ، حتى يكاد يعتقد أنه يؤمن بعكس ما يؤمن به فى الحقيقة .

هذه مقدمة أريد أن أعتذر بها للقارىء العزيز من جرأتى فى أن أجهر بسؤال طالما همست به إلى نفسى وهو : « هل نحن معاشر المصريين قوم مثل سائر الأقوام المتمدنة ؟ أو بقول آخر : هل نحن أمة بالمعنى المفهوم من لفظ الأمة ؟ » لا شك فى أن هذا سؤال .... وليصفه من شاء بما شاء من الأوصاف . ولا شك فى أن كثيرا من القراء الأعزاء قد رفعوا أيديهم إنكارا وأجابوا حانقين : « نعم نحن قوم . نعم نحن أمة كأحسن ما تكون الأمم »

ولكى أبالغ فى الجرأة أعود فأسأل : « هل يكفى أن يعيش سبعة عشر مليونا من الناس فى أرض اسمها مصر معروفة الحدود والصفات والطبائع الجغرافية والناحية إلى غير ذلك — هل يكفى أن يعيش هؤلاء فى تلك الأرض لكى يكونوا قوما أو يكونوا أمة ؟» . لايؤاخذنى أحد ممن يقرأ هذه الأسئلة على جرأتى ، فإنى لا أريد بها أكثر من أن أردد فى الجهر سؤالا طالما سألته لنفسى سرا .

وقفت أحيانا على ساحل البحر الأبيض فى فصل الصيف . وهذا البحر كما هو معروف يحد وطننا العزيز من الشمال . وكانت الأمواج جميلة ، لا بل كانت رائعة . كانت تتهادى زرقاء متلألئة ثم تتدافع فى رفق أو فى عنف حتى تتقاذف على الرمال الصفراء اللامعة فتجر عليها ذيلا من الرغوة والرشاش الأبيض الذى يشبه الفضة .

وكان الشاطىء دائما مزدحماً بطلاب متعة الصيف ، من جلوس تحت المظلات الزاهية ورقود على الشط المنبسط ، ومن مشاة يتهادون أو يسمون أو يلتمسون الرزق من بيع سلعة أو عرض خدمة . كلهم قد اجتمعوا فى صعيد واحد تحت السماء الزرقاء والشمس اللامعة ويهب عليهم النسيم رُخاء من الشمال .

وكنت دائما أسأل نفسى : هل هؤلاء جميعا يتشابهون فى شىء ؟ فكنت أسير حائرا ألتمس الجواب بأن أجوس خلال الصفوف المتراصة وأندس بين الجموع أستمع إلى الأحاديث وأتعرف الآراء وأحاول أن أكشف ما وراء الظاهر من مخبآت النفوس . فوالله ماخرجت من ذلك الشاطىء إلا وأنا على أتم اليقين من أن هذه الجموع لاتكاد تضم ثلاثة يجتمعون على وصف واحد أو رأى واحد فى الحياة أو نظرة واحدة إلى أمر من الأمور . فيهم فتيات يتهادين ويكركرن مثل الطير وهن يشرن بالأنامل المصبوغة إلى كوكبة من الهات السمينات يجلسن تحت مظلة يمضغن اللبان ويتهامسن فى حديثهن وهن ينظرن نحو الفتيات فى شىء من الخبث يشوبه لون من اللوم .

ورأيت فى الجموع شبانا يمرحون بين الأمواج وهم خليط من الجنسين يختلسون لحظات الصيف ، وشبانا آخرين ينظرون شزرا إلى ناحيتهم ويتحدثون وهم يشيرون فى حنق نحو إخوانهم المرحين الغائصين بين الأمواج .

ورأيت شيوخا يدخنون على مقاعدهم فى (البوفيه) وحولهم جموع من الأبناء والحفدة ، وقد رصت على المائدة

زجاجات ملونة يصيبون منها جرعات مرة ، وشيوخاً آخرين قد انتحوا جانباً يتلفتون فى يأس ويهزون رؤوسهم اشمئزازاً مما تقع عليه أبصارهم . ورأيت طوائف من المنعمين يصيحون فى كبرياء ويلقون أوامرهم فى عنف إلى طائفة أخرى من المساكين الذين يسرعون إلى الطاعة وهم يكتمون ألفاظ الحقد الذى تنطق به أعينهم . ولو شئت أن أذكر كل ما كان يقع عليه بصرى فوق ذلك الشاطىء الجميل أو أن أعيد كل ما قرع سمعى وأنا أتدسس بين تلك الجموع الزاخرة لجمعت النقائض جميعاً وقرنت الأضداد كلها . مع أن ذلك الشاطىء إنما كان يجمع فريقاً من أهل مصر يوشكون أن يكونوا جميعاً من طبقة واحدة .

وقد سرت كثيراً فى أحياء القاهرة ، هذه العاصمة المجيدة ، وطوفت فى أطرافها وتعمدت أن أدقق النظر فيمن يمرون بى أو أمر بهم . وأذكر أنى أحصيت فى طواف ذلك مئات من الأزياء تختلف فيما بينها اختلافاً متفاوتاً ؛ فعلى الرؤوس أنواع وأنواع من الأغطية ، ودون ذلك أنواع وأنواع من الملابس ، حتى إذا بلغت الأقدام رأيت أنواعاً أخرى وأنواعاً من الأحذية أو ألواناً وألواناً من الأقدام العارية . وما بين هذه وتلك تآليف كثيرة وتراكيب مختلفة وصنوف من النقص والزيادة ومن الابدال والتغيير حتى لا أكاد أحسب أن فرداً واحداً يشبه الآخر فى جملة ملبسه إلا فى الشىء اليسير .

فإذا ما تقربت إلى هؤلاء ، وحاولت أن أقرأ ما تنطوى عليه القلوب وجدت من صنوف العقول والأفكار ما لا يمكن أن يقع تحت حصر ، حتى لقد بدا لى أن مصر تستطيع أن تباهى الأمم فى تعدد شخصياتها ، فإن لكل فرد زيه وفكره وعقله ، ولكل فرد إيمانه وعقيدته ، ولكل فرد نظرته الخاصة به إلى الحياة .

وقد ظهرت صورة هذه الحال منعكسة على الجماعات ، فقد حاولت أن أحصى الجماعات ذات المبادىء المحدودة فعددت منها عشرات ، وغاب عنى منها بغير شك عشرات أخرى . وقد عنيت بتعرف مذاهبها فإذا بى أعرف أن كلا منها يرى أنه على الحق وأن الآخرين جميعاً على الباطل . وقد تبينت أن مذاهب هذه الجماعات تختلف اختلافاً عظيماً فيما بينها ، فبعضها يرى الاصلاح فى الاتجاه نحو الغرب ، وبعضها يرى الاصلاح فى الاتجاه نحو الشرق ، ومنها جماعات ترى الاصلاح بين الشرق والغرب ، فلو مثلنا الاصلاح بدائرة مستديرة لكانت مذاهب الجماعات المصرية متعددة تماثل عدد ما يمكن أن يرسم فى تلك الدائرة من أنصاف الأقطار . ولقد رأيت فيما رأيت جماعات ذات عبقرية لا يمكن أن يسمو الخيال إلى مثل مذاهبها ؛ فمنها ما يرى الإصلاح فى إطالة اللحى مقدار شبر ، ومنها ما يراه فى إطالة اللحى بمقدار نصف شبر ، وهكذا قل ما شئت ارتفاعاً وانخفاضاً . بل لقد رأيت من الجماعات من ترى الاصلاح فى أن تغطى الرأس بعمامة ذات عذبة طولها شبران على أن تلقى على الكتف عن يمين ، وأخرى ترى ذلك فى العمامة اذا وضعت عذبتها عن يسار ، وثالثة ورابعة إلى آخر عددها تختلف كل منها عن الأخرى فى أطوال العذبات ومواضعها من إحدى الكتفين .

ولا أريد أن أتحدث عن الطرق الصوفية ، فقد سبق أن أشرت إليها من قبل ، وهى على ما قيل لى تبلغ المئات عداً ، لكل منها شيخ ولكل منها طريقة ، ولكل منها ملبس وزى ، ولكل منها رسوم فى الإيمان والعبادة ؛ فقد قرنت كل منها عندما يقرأ من الدعوات وطريقة الالتفاتة والاعادة والنطق بالاسم الأعظم عن طريق الحلق أو عن طريق اللسان .

وأما الحياة نفسها فلا حاجة بى إلى وصفها ، فالجميع يعرفونها ؛ ففى مصر كوخ الفقير الذى يشبه جحر الفأر المرح الذى لا يدخر شيئاً ، وفى مصر قصر الغنى الذى يشبه دكان بائع التحف القديمة فى ازدحامه بثمين الرياش .

رحلة ليوناردو فرسكو بالدى

إلى مصر وفلسطين فى القرن الرابع عشر

[الكتابة البارعة بنت بطوطة مغرمة بالرحلات وهى لذلك تهتم بكل ما يتعلق بالرحلة . وها هى ذى طرفة من طرائفها فى وصف رحلة إلى مصر فى القرون الوسطى]

فى ١٠ أغسطس سنة ١٣٨٤ غادر فرسكو بالدى مدينة فلورنسا يصحبه صديقان كان مع كل منهما غلام لخدمته ، ويصحبهم جميعا وكيل لهم كمدبر لشؤونهم ، فاجتازوا مدينتى بولونيا Bolagne وفرارى Ferrare ووصلوا إلى البندقية فى ٢٨ أغسطس .

وفى ٤ سبتمبر أقلعوا إلى الشرق فى سفينة حربية شراعية حديثة الصنع من سفن البندقية حمولها ٧٠٠ طن ودفع كل منهم ٢٠ « دوكار »(١) أجرة لسفره .

وكانت السفينة تقل عدا من ذكرنا جنودا مرسلين إلى حامية « مودون » وهى إذ ذاك مستعمرة تابعة للبندقية وتحمل كذلك تجارا معهم بضائع من أسواق لومبارديا ، ومن النحاس وسبائك الفضة والزيت والزعفران .

وبعد أسبوع قضى فى سير وئيد وصلت السفينة إلى جزيرة « زنت » وأقامت فى مرفئها خمسة أيام أو ستة إلى أن سكنت الرياح العاكسة ثم استأنفت سفرها وبلغت « مودون » فى ٢١ سبتمبر .

وفى « مودون » تموّنت السفينة بالزاد والماء العذب ثم أبحرت إلى « كورون » وهى مستعمرة أخرى مملوكة للبندقية ومن هناك ولت وجهها شطر مصر .

ولما قربوا من جزيرة كريت كان البحر لا يزال هادئا فظلت السفينة أياما ثلاثة معذبة من الموج يرفعها بقوة ثم يهبط بها بشدة حتى ذاق الركاب الأمرين وفى جملتهم فرسكو بالدى نفسه ، بل ربما كان هو أشدهم عناء ، حتى كره نفسه البحر . وذلك لأن صاحبنا الفلورنسى هذا لم يخبط متن البحار من قبل ولو أنه ولد محبا للأسفار .

ومهما يكن من أمر فإن سفينة البندقية هذه ما فتئت تضطرب إلى أن وصلت أخيرا إلى حيث ترى الشواطئ المصرية فى ليلة ٢٦ — ٢٧ سبتمبر فتنفس فرسكو بالدى الصعداء وكتب يقول :

« وصلنا إلى ميناء الاسكندرية فى ليلة ٢٦ — ٢٧ من شهر سبتمبر وألقينا المرساة بعيدا عن البر خوفا من المسلمين وقضينا الليل فى السفينة . ولما أشرق النهار وافانا زورق فيه عشرون موظفا من المسلمين بعضهم بيض الوجوه وبعضهم الآخر سودها ، وفحصوا البضائع والركاب بكل تدقيق دون أن يدونوا شيئا ثم حملوا الشراع والسارية معهم طبقا لما جرت به عادتهم .

ثم جاء خبراء موفدون من قبل السلطان وقنصل الافرنج والحمالون وأنزلونا إلى البر واقتادونا إلى داخل باب الاسكندرية وقدمونا إلى جماعة من الموظفين قيدوا أسماءنا وعدونا كما تعد الحيوانات .

وبعد ما فتشوا ملابسنا حتى الداخلية منها وكانوا

(١) الدوكار عملة ذهبية تساوى من ١٠ فرنكات إلى ١٢ فرنكا .

وفيما بين هذا وذاك مئات أو ألوف من صنوف المنازل يختلف بعضها عن بعض فى نظامها وأسلوبها وطريق العيش فيها . هذا وكثير سواه هو الذى دعانى فى كثير من الأحيان إلى أن أسأل نفسى هامسا : « هل نحن معاشر المصريين أمة ؟ وهل يكفى أن تسمى المجموعة أمة لأنها تعيش فى رقعة واحدة من الأرض فى ظروف طبيعية واحدة ؟ »

لست أريد بهذا السؤال أن أنفى أو أن أثبت ، ولكنى وجدت السؤال يتردد كثيرا فيما بينى وبين نفسى كلما وقعت عينى على ما حولى ، فتجرأت على أن أجهر بذلك السؤال لأنى لم أستطع أن استمر على بقائه مكتوما فى صدرى ، فلعل الجهر به يخفف من حيرتى أو لعلى أجد بين القراء من يهدينى إلى الجواب وله الثواب

محمد فريد أبو حديد

حراستنا إلى القنصل المشار اليه . أما أمتعتنا فنقلت إلى الجمرك . ثم استردوها من الجمرك وفتشوها تفتيشا دقيقا ، وطلبوا منا أن ندفع ٢٪ على جميع ما معنا من الفضة والذهب والأمتعة علاوة على « دوكا » واحدة عن كل واحد منا بصفة جزية .

« ثم ذهبنا بصحبة قنصل الأفرنج إلى داره وهى دار فخمة جدا وفى موقع بديع » .

ولم يقل فرسكو بالدى أين كانت تقع هـذه الدار من أحياء المدينة . والراجح أنه لقى من القنصل ما أغضبه بدليل أنه كان يشير إليه بعبارات تدل على الاستياء ، فقد قال :

« إنه — أى القنصل — كان فرنسويا وله زوجة مسيحية مولودة فى بلد اسلامى والاثنان كلاهما لا دين له .

فعين لنا القنصل أربع غرف تطل على فناء ، وكانت الغرف فارغة من الأثاث فوضعنا فيها فراشنا للنوم وكان يقدم الينا الطعام ويتقاضى ثمنه وجبة بوجبة .

ثم رافقنا فى ذهابنا إلى قناصل البندقية وجنوى وقطالونيه حيث قدمنا إليهم ما معنا من كتب التوصية فاحتفوا بنا وأحسنوا لقيانا ومعاملتنا .

ويقال إن فى الاسكندرية ٦٠ ألفا من السكان المسلمين واليهود والمسيحيين ، وفيها أميرال وكثير من الجنود . ولو وقعت أبصارهم علينا ونحن نتأمل فى حصونهم الجميلة جدا لأساءوا إلينا ، لأنهم يرتابون من الافرنج ويخافونهم ولا يضمرون لهم أقل حب . وفى الإسكندرية فرقة جند مؤلفة من التتر والعرب والسوريين تعمل بقيادة الأميرال .

وفى الاسكندرية وال من قبل السلطان يسمونه (لاملك) (لا شك فى أنه « نائب الملك ») وهو أمير ذو مقام عظيم وقد ذهبنا إلى قصره ، ولما بلغنا أعلى درجات السلم الجميلة طلبوا منا أن نخلع أحذيتنا ثم اقتادونا إلى قاعة كبيرة فانحنينا مراراً كثيرة أمام الوالى ، فخاطبنا بواسطة ترجمان ببعض عبارات الترحيب ووجه إلينا عدة أسئلة عن بلادنا .

ومدينة الاسكندرية واقعة على شاطىء البحر وهى تقرب من فلورنسا فى سعتها وتروج فيها تجارات كثيرة أخصها أصناف العطارة ، والسكر والأقمشة الحريرية .

ومن عادات المسلمين أنهم يهتمون اهتماما كبيراً بتشييع جنازات الموتى إلى المقابر ، وهى خارج المدينة فى واد قريب من الاسكندرية القديمة ، فإذا كان المتوفى مثريا أرسلت أسرته خلف جنازته خرافا كثيرة يحملها الحانوتى لذبحها وإطعام الفقراء والفقهاء بلحمها .

وحينما يصلى المسلمون فى يوم الاثنين (كذا !) — وهو فى اعتبارهم يومهم المقـدس — يحبس جميع المسيحيين من الأفرنج فى محل يدعى (السكان) ، ويسمى الرجل المكلف بحبسهم (السكاتيار) وهـذا معناه انا كلاب . أما المسيحيون الوطنيون فلا يحبسون غير أنهم يقبعون فى بيوتهم إلى أن يخرج المسلمون من معابدهم » .

ترى أتلك سذاجة أم سوء نية أم كلاهما معا ؟ فان فراسكو بالدى يسمى المحل الذى يحبس فيه الأفرنج « السكان » وهى كلمة تشبه كلمة « كان » الإيطالية ومعناها « كلب » وما هو إلا « الخان » أو بعبارة أخرى « محل الضيافة » وكذلك كلمة « السكاتيارى » ومعناها فى الإيطالية حارس الكلاب ، أطلقها فراسكو بالدى على جماعة الذين يكلفون البحث عن المسيحيين الأفرنج بين الستين ألفا الساكنين فى المدينة لحبسهم ، أما ما دعاه يوم الاثنين المقدس فى كل أسبوع وقوله إن الله أمر بتقديسه فتلك عادة لم يمارسها قط مسلمو الشرق الأوسط وما هى إلا خرافة صبيانية تخيلها وحاكها الفلورنسى الظريف .

ويحسن بنا هنا أن نعقد مقارنة بين فراسكو بالدى وابن بطوطة فيما عند كل منهما من قوة الملاحظة والقدرة على الوصف ، ثم إنهما يختلفان بعضهما عن بعض اختلافاً بيناً ، ولكن البلاد والأشياء التى شاهدها أحدهما شاهدها الآخر بذاتها وفى وقت واحد تقريباً .

فمثلا لم يتجه التفات فراسكو بالدى فى زيارته للأسكندرية إلا إلى موظفى الجمرك ومنزل قنصل الأفرنج

النشاط العربى

فى فلسطين

— ٢ —

كان لابد لعرب فلسطين أن ينهضوا نهضة اقتصادية ليواجهوا خطر المال الصهيونى الذى يهدد التجارة وموارد الرزق العربية . وكان لابد نتيجة للظروف التى أوجدها فيها الاستعمار الصهيونى أن يتجه نشاطهم إلى ناحيتين

الأولى هى لتشجيع التجارة والصناعة العربية ، والثانية توفير المال اللازم لصد طغيان حركة شراء الأراضى التى نهض بها الاستعمار الصهيونى .

والسبيل الطبيعى إلى ذلك هو ضم الجهود الخاصة والأموال الفردية وتجميدها لتواجه زحف الذهب الصهيونى .

ويجب أن يعرف القارىء أن العرب وجهوا نشاطهم إلى هاتين الناحيتين بإخلاص وتكاتف .

وليس أدل على ذلك من أن المؤسستين الكبيرتين اللتين نهضتا لحمل رسالة النشاط الاقتصادى وهما البنك العربى ، وصندوق الأمة العربية ، قد اتجهتا إلى هاتين الناحيتين بالذات .

فالبنك العربى ، وهو أقدم مؤسسة عربية اقتصادية ، تأسس منذ خمسة عشر عاما لينهض بالمشاريع الاقتصادية وتموين الصناعة والتجارة الفلسطينية على نطاق كان محدودا أول الأمر واتسع فى السنوات الأخيرة اتساعا ارتفع برأس ماله من ١٥٠٫٠٠٠ من الجنيهات إلى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ عام ٤٣ ثم إلى ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات هذا العام ، كما أعلن أخيرا ، منها مليون لرأس المال ومليون للاحتياطى .

أما صندوق الأمة العربية فهو المؤسسة التى تقوم بمهمة استنقاذ الأراضى وإدراك ما يوشك أن يقع منها فى أيدى الصهيونية . وهو بهذا يقوم بمهمة المقرض لمن يوشك أن

وقصر الوالى وجنازات الموتى . أما مناظر المدينة وعماراتها فلم تثر اهتمامه ، ولم يشر أقل اشارة إلى منارتها (فنارها) الشهير ، وهو وإن يكن متخربا ومهجوراً لم يقل شيئا عن كونه مفخرة من مفاخرها .

أما ابن بطوطة فإنه على نقيض ذلك ، فقد أتحفنا بوصف أخاذ لهذا الأثر ، نعم إن ابن بطوطه زار الاسكندرية أول مرة سنة ١٣٢٦ ولم يكن قد لحق المنارة من الخراب ما شاهده هذا الرحالة المغربى فى سنة ١٣٤٩ لما عرج على مصر للمرة الثالثة . وسواء أكان لا يزال قائما أم كان قد زال فى سنة ١٣٨٤ أى بعد زيارة ابن بطوطة له بخمس وثلاثين سنة فإن فرسكو بالدى حال فى الاسكندرية ولم يخامره شك فى أن وجود المنارة حديث خرافة .

ولنعد إلى صاحبنا الفلورنسى ونقتف أثره فى سفره إلى القاهرة قال :

« سافرنا من الاسكندرية فى ١٢ أكتوبر ودفعنا رسما قدره ٤ دوكات عن كل نفس وسلمونا إلى ترجمان وابنه فذهبا بنا إلى شيخ تراجمة السلطان فى بابلون (القاهرة) وهو مسيحى جاحد من البندقية .

وكنا أقلعنا فى مركب لرجل مسلم سار بنا فى قناة نيلية تبعد ميلا عن الاسكندرية ثم خرجنا من القناة إلى النهر نفسه متجهين إلى جزيرة رشيد (ورشيد هى الاسم الذى أطلقه فرسكو بالدى على الدلتا كلها ؟) .

وأول قلعة بلا أسوار صادفناها هى قلعة سوجا (هى بلا شك دسوق فى مديرية الغربية) ، وهذه الجزيرة كائنة بين فرعى النيل وفيها مدينة دمياط وهى تبلغ ضعف الاسكندرية فى المساحة . وفيما نحن سائرون وجدنا مدينة خربة تقريبا ولكنها كانت مدينة عظيمة وغنية فى أيام المسيحيين (يقصد الصليبيين) وكانت تدعى حينئذ كما تدعى اليوم « بتورجيا » .

وقد أخطأ فرسكو بالدى إذ جعل موضع « تروجه » قريبا من دمياط ، والصواب أن كوم تروجه قريب من دسوق لا من دمياط .

(له بقية)

يبيع الأرض ، والذى ينزل فى الصفقات العقارية لكى يحول بين شراء اليهود لها . . .

ولست بسبيل الحديث المستفيض عن نظم هاتين المؤسستين، وإنما أكتفى بأن أقول إنهما تشقان طريقهما بنجاح ، وتلقيان من العرب كل مساعدة وتشجيع ، وأكتفى أيضا بأن أسجل أن العرب لم يكونوا الشعب المستنيم الجاهل المتواكل ، الذى تقبل عليه الصهيونية فتأخذ بيده وتقيل عثاره وتنير له السبيل ، وإنما كانوا الشعب القوى الذى يفهم الكفاح على وجهه الصحيح والذى يسلك له سبله التى تلائم التطور ، يسلك سبيل العلم وسبيل الاقتصاد ولا يقصر فى جهد أو يبخل بمال . .

ولكن ؟

أتكفى جهود عرب فلسطين لتحرير فلسطين ؟

أتكفى مئات الألوف من الجنيهات لمقاومة ملايين الجنيهات التى ترصدها البيوت المالية الصهيونية لتوطيد أقدام الاستعمار الصهيونى ؟

ذلك هو السؤال الذى أسأله أنا ، وإن كنت لم أسمعه من عربى واحد ممن قابلت فى فلسطين .

إنهم جميعا أقوياء العزيمة شديدو الثقة بأنفسهم حريصون على حقهم مؤمنون به أشد الإيمان . وهم مطمئنون إلى أنهم سيصلون يوما إلى نصرة قضيتهم . لكنهم مع ذلك وحدهم قد لا يستطيعون صد تيار الوطن القومى اليهودى ومقاومة وسائل أنصاره . .

تلك هى الحقيقة التى يجب أن ندركها ، والتى يجب أن تتضافر من أجلها جهود العرب جميعا . .

إن الاستعمار الصهيونى لم يجهر بدعواه إلا وهو يرصد لها عدة ملايين من الجنيهات هى كل حجته وسنده وسلاحه . فجاءت دعوته ومؤتمراته ، وجاءت سلسلة الاجتماعات التى تطالعنا بها الصحف فى أمريكا حينا وإنجلترا حينا آخر . والخطوة التى لم تشر إليها الجرائد أبدا هى أنه ما من مؤتمر عقد لنصرة الدعوة الصهيونية إلا وكان قراره الأول مئات الألوف من الجنيهات ينزل عنها اليهود فى سكون وتكتم ويبذلونها خالصة لتأييد حق الصهيونية فى فلسطين .

لا يوجد عربيان فى الشرق يختلفان فى حق عرب فلسطين فى أرضهم ، وما من عربى لا يحس صلة الروح القوية بينه وبين هذه الأرض التى تجتمع عندها ذكريات العرب جميعاً ، والتى تضم أقدس مكان بعد الكعبة للمسلمين ، وأقدس مكان لمسيحيى العالم أجمع ، فمن حق كل عربى بل من واجبه أن يذود عن هذا التراث . وما الذياد عنه إلا استنقاذ أراضيه ومعاونة هذا الشعب الباسل الذى يكافح بدراهمه القليلة ضد أكداس الذهب .

ولحسن الحظ أن تتفق فى ذلك كلمة العرب أجمعين ، وأن نسمع فى هذه الأيام أن مسألة فلسطين أهم المسألة التى لا يلتقى عربيان إلا ويتحدثان فيها ، وأن نرى عاهلى الشرق الكبيرين يتزعمان نهضة العرب فى سبيل تحرير فلسطين . فما هى الخطوة التالية ؟

إنها خطوة الشعوب بعد خطوة الساسة والقادة ، خطوة المال العربى فى مصر وفى الأقطار العربية جميعاً ، خطوة المال العربى هى الخطوة التالية ، أن تخطو الشعوب نحو تحرير فلسطين الخطوة التى خطاها اليهود نحو استعمارها .

تلك دعوة أسوقها إلى من يهمهم الأمر من العرب ، ولست اقتصاديا أعرف كيف ترسم السبل وتختط الوسائل ، وإنما أعرف فقط أن العواطف المجردة تخف فى ميزان قيم القرن العشرين عن قطعة من الأصفر الرنان .

وحبذا لو فكر القراء فى هذا الأمر ، وحبذا لو فتح هذا الباب على مصراعيه ، وحبذا لو أدلى المشتغلون بشئون الاقتصاد من قراء الثقافة القراء بآرائهم ، ولكن القضية التى يتناولها البحث هى : ماهى الوسائل الاقتصادية التى يمكن بها للعرب جميعاً معاونة فلسطين العربية معاونة فعالة ؟ .

ممدوح ذهنى

سر الخلود
في شعر أبي العلاء[1]

مضى على النـاس زهاء ألف عام وهم يتناقلون شعر أبي العلاء ويتدارسونه ، ويحرصون على اقتنائه . وهم في ذلك فريقان : فريق يرفعه إلى أسمى مراتب التعظيم والتكريم ، مؤمن بما يدعو إليه ، مكبر لكل ما يقف عليه . وفريق آخر يعتقد أن هذا الشعر خليط من حق وباطل وشك ويقين ، وأن الكثير منه يدعو إلى الانحراف عن الصراط السوى ، صراط الله العزيز الحميد . وكلا الفريقين مجمع على أن هذا الشعر وليد العبقرية الفذة ونتاج العقلية الجبارة ، وكلاهما حريص على اقتنائه واستظهاره ، وجعله موضوعاً للنقاش والاستشهاد في مجالس المسامرة والمذاكرة ، وفي المساجلات والمطارحات . فما هو السّر يا ترى في كل هـذه العناية والرعاية مع تباين الأنظار فيه وتضـارب الأفكار حوله ؟ . . .

يمكن الجواب على هذا السؤال بكلمة واحدة ، فيقال : إن السّر في ذلك «جودته» تمشياً مع قانون بقاء الأصلح . ولله أخو خزاعة حيث يقول :

يموت رديء الشعر من قبل أهله
وجيده يبقى وإن مات قائله

ولكن هذا الجواب لا يقنع السائل وله ان يسأل : ما سر الجودة في الشعر ؟ أفي ألفاظه ؟ أم في معانيه ؟ أم في أغراضه ؟ أم في أوزانه وقوافيه ؟ . . .

والجواب على هذا أن شعر أبي العلاء يتحلى بكل هذه المزايا ، فهو جيد في ألفاظه ، جيد في معانيه ، جيد في أغراضه . فإن سعة اطلاع أبي العلاء على أسرار العربية مكنته من ترصيع شعره بالبارع من الألفاظ الناصع منها . وأنا زعيم بأنه لو جمع جامع ما جاء في شعر أبي العلاء من فرائد الألفاظ ونوابغ الكلم لاجتمع له معجم طريف في بابه يغني الناظر فيه من الكثير من معاجم اللغة . أما المعاني التي طرقها أبو العلاء فهي غاية في الدقة والطرافة والابداع والاختراع مع الكثرة في التنوع والتفرع والتوليد والتجديد . وأما الأغراض فقد نهج فيها منهجاً اختطه لنفسه وابتدعه ابتداعاً خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده . وهنا يمكن أن نقسم شعر شاعرنا إلى قسمين : القسم الأول شعره في الشطر الأول من حياته ، والثاني شعره في الشطر الثاني منها .

أما القسم الأول فهو فيه متبع أكثر منه مبتدعاً ، فقد رمى فيه إلى الأغراض التي كان يرمي إليها شعراء زمانه ومن سبقهم . على أنه تنكب بعض الأغراض التي تصم الشعر ، وتحط من كرامة الشاعر ، مثل المجون والهجاء وغزل المذكر ، والأحاديث التي كان يتعاطاها الخلعاء من الشعراء . على أن الناقد البصير ليجد في شعره الأول نفحة نم من اتجاهه الفلسفي . فإنا نجده عندما يطلق لنفسه السير على سجيتها تندفع به في مسالك عميقة من الفلسفة قل أن حومنا عليها من شعراء زمانه . خذ مثلاً على ذلك ما جاء في صدر مرثيته لأبيه وصدر مرثيته لصديقه الفقيه وهما من أوائل شعره ، ففي الأول يقول :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا والعلم لله ذي المن

إذا غيب المرء استسر حديثه
ولم تخبر الأفكار عنه بما يغني

طلبت يقيناً من جهينة عنهم
ولن تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن تعهديني لا أزال مسائلاً
فإني لم أعط الصحيح فأستغني

وإن لم يكن للفضل ثم مزية
على النقص فالويل الطويل من الغبن

وفي الثانية يقول :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ
ب فأين القبور من عهد عاد

(١) المحاضرة القيمة التي ألقاها الأستاذ في مهرجان أبي العلاء .

خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

خلق النـــاس للبقاء فضلت
أمـــة يحسبونهم للنفـــاد

إنما ينقلون من دار أعما
ل إلى دار شقوة أو رشاد

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ
جسم فيها والعيش مثل السهاد

وهذا يترجم من نفس أقلقها الشك في أمور واطمأنت إلى اليقين في أمور. فهي في الحالة الأولى تلح في التسآل وفي الحالة الثانية تطمئن إلى برد اليقين.

أما القسم الثاني من شعر شاعرنا فقد سلك فيه مسلكاً خاصاً، ابتدعه لنفسه ابتداعاً تنكب فيه جميع الأغراض التي كان ينظم فيها المتقدمون من الشعراء والمتأخرون، واتجه إلى درس أمور لا عهد للشعراء بدراساتها، واتخذ في ذلك من عقله إماماً مرشداً ومناراً هادياً، يعرض عليه جميع ما يعن له من شؤون الملكوت في السماوات والأرض، فيقر ما يقره وينفي ما ينفيه، ويقف موقف الشك فيما يعجز العقل عن البت فيه:

يرتجي النـــاس أن يقوم إمام
ناطق في الكتيبة الخرســـاء

كذب الظن لا إمام سوى العقـ
ـل مشيراً في صبحه والمســـاء

فإذا ما أطعته جلب الرحـ
ـمة عند المسير والارساء

نهاني عقلي عن أمور كثيرة
وطبعي إليها بالغريزة جاذب

والعقل يسعى لنفس في مصالحها
فما الطبع إلى الآفات جـــذاب

ترك مصباح عقل ما اهتديت به
والله أعطاك من نور الحجا قبسا

فشاور العقل واترك غيره هدراً
فالعقل خير مشير ضمه النادي

وصرف جل جهوده في دراسة أحوال الإنسان فحلل غرائزه وطباعه، كما حلل أخلاقه وعاداته، وأنعم النظر طويلاً في أديانه ومعتقداته، كما أنعم النظر في حياته ومماته وأولية أمره وآخرته. وإذا كان لابد لنا من ضرب الأمثلة في هذا الباب فهاك طرفاً منها:

انتهت به دراساته للغرائز البشرية إلى أن هذا المخلوق المسمى بالإنسان مطبوع على الشر مجبول على العدوان، وإذا صدر منه الخير فانما يكون ذلك لعلة:

شر أشجار علمت بها
شجرات أثمرت ناســا

حمــلت بيضاً وأغربة
وأتت بالقـــوم أجناسا

كلهم ضمت جوانحـــه
مارداً في الصدر خناسا

أنعيم السـابح في لجـة
ورعتم في الجو ذات الجنـــاح

هــذا وأنتم غرض للردى
فكيف لو خـــلدتم يا قباح

وما أنتم بالنبات الحميـد
ولا بالنخيـل ولا بالعشر

ولكن قتاد عديم الجناة
كثير الأذاة أبى غير شر

مافيهم بر ولا ناســك
إلا إلى نفع له يجـذب

أفضل من أفضلهم صخرة
لا تظلم الناس ولا تكذب

أما المعتقدات فقد طاف بها طواف خبير بصير، فانتهى به المطاف إلى الاعتقاد بوجود خالق حكيم متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص:

أثبت لي خالقاً حكيماً
ولست من معشر نفاة

عجبي للطبيب يلحد في الخـا
لق من بعد درسه التشريحا

إذا كنت من فرط السفاه معطلا
فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد

أخاف من الله العقوبة آجلا
وأزعم أن الأمر في يد واحد

الله حق وابن آدم جاهـــل
من شأنه التفريط والتكذيب

والله حاول أن يهـــذب أهله
فإذا البرية ما لها تهـــذيب

(له بقية)

طه الراوي

عقيـــدة الجنس!..

يدين الله الإنسان أن يشعر في أعماق نفسه شعور الاحساس بالجنس البشرى وبوحدته معه وفنائه فيه وخدمة أفراده ومجموعه وأهدافه العليا.

وفي ضمائر بعض الناس أغوار عميقة رحبة في حبها الانسانية وشعورها بها وبوحدتهـا معها . . . . كأنها قلوب الأمهات في شعورها بأبنائها . .

لاشك أن هذه القلوب تستمد من فيوض رب الرحمة والعون والحب ! ولا شك أن ضمائرها تأخذ من ضميره تعالى وتنظر إليه دائما . . .

وإن أستطيع أن أفسر التضحية الكاملة والغيرية والإيثار العجيب ، تلك الصفات التي نجدها في قلوب خدام الانسانية وآبائها وروادها ، إلا اذا قلت إن يد الله تعمل في هـذه القلوب وتتصل من طريقها بخدمة الحياة وحفظ نبلها ، وتعمل أعمالها العظيمة للاصلاح عن سبيلها .

وإلا فما هـذا الشعور العميق عند هؤلاء بالفناء في خدمة الجنس ؟ ! إنه من عالم غير أرضي . . . وإلا فما هي العدالة ، التي رضي البشر جميعهم الدعوة إليها منطلقة من تلك القلوب ، ولهجوا باسمها وطالبوا باقامة الدول والمجموعات البشرية والعلاقات الدولية على أسسها ؟ إنها إن لم تكن مستمدة من عدالة السموات فما هي إلا لفظ كلمية فارغة يملؤها كل حاكم قوى بما يهوى . . . .

إن هذه القلوب ذات العمق والاتساع تشعر شعورا أكيدا أن كل ظلم أو فساد يقع على انسان أو مرفق من المرافق الصالحة لحياة الانسان إنما هو واقع عليها بالذات . وتحس بلسـعة الأذى كلما أصاب الأفراد أو المجموع ظلم أو فساد . . .

لا شك أن الله تعالى خلق هـذا النوع من القلوب لحفظ المجتمع القاصر وإرشاده كما خلق غرائز الأمومة والأبوة لحفظ الطفولة وإرشادها .

حدود الجنس :

ودائماً يشعر هذا الصنف من الناس أن حدوده مع الله تعالى تكون حيث حدود الآخرين . . . . وأن منطقة متاخمة ذاته لذواتهم يقف عليها حارس يقظ هو ذلك الذى يسمونه الضمير ، ومعه جرس التنبيه تدفعه يد الله من داخل النفس فلا يسمع رنينه إلا حامله . . . وهو حارس حريص على أن يرفع صوته دائما سواء استجيب له أم لم يستجب .

وحيث تتنادى أكثر ضمائر الانسانية وتتقابل أصواتها على شيء ما فثم حدود الجنس كما أقامها الله !

منطقة خاصة بالجماعة :

والانسان الاجتماعى ينبغى أن تكون له عقلية وشعور وآمال تغاير ما يكون للفرد الأبد المتفرد مغايرة تامة . وليس الأمر في الانتساب إلى جماعة والعيش معها أمر عنوان أو رابطة ظاهرية ، وإنما هو أمر عميق في النفس لا أمر خوف من الانتقادات أو قوانين العقوبات . . . . هو أمر إحساس بالذات في مجتمعها أو بالأحرى أمر احساس بالمجتمع في الذات ! وكل مصائب الاجتماع ناشئة من ترك أدواء النمو في الفرد بدون رقابة وتعهد رشـيد يسهر على إنبات النفوس نباتا اجتماعياً مسالما ، لا نموا شيطانيا طاغياً ، وإن حياة الجماعة يجب أن تحصد الأشواك في أعواد الأفراد ، وتجمع تلك الأعواد كما تجمع طاقة الزهر في تنسيق وتصنيف ، لا تختلط معه أشواكها الحادة الشرعة بأوراقها الرقيقة الحريرية فتمزقها تمزيقا وتنكس القلوب من جمـال منظرها مجتمعة إلى قبح منظرها مجتمعة ممزقة .

أجل ، إن براثن الناس وأنيابهم في الأمم المنحطة التي لا تزال الفردية والانانية متغلغلة فيها تمزق وجوههم وتقطع روابطهم فتبدو حياة اجتماعهم قبيحـة الظواهر قبيحة البواطن ، ويشعر الانسان الحر العامر القلب بالمعاني السامية أن حياة التفرد والعزلة أجمل وأكمل وأدعى إلى راحة الفكر وصيانة أمانات الحياة في النفس .

في الدورة الصغرى :

والناس لا يزالون في دورتهم الصغرى حول نفوسهم وذواتهم وقومياتهم . . . لا يزالون محكومين بأنانيتهم ورغباتهم الخاصة كما يحكم الأطفال بمرائهم الدنيا وحدها . أما دورتهم الكبرى كجنس عظيم يعمر الأرض ويثيرها ويسخرها مسددا إلى هدف واحد فتلك لما يشعروا بها بعد . . . مع أنها من الغايات العظمى لخلقهم . . .

الدورة الكبرى :

انى أشعر أنه يجب أن نسقط اللغة والوطنية والقومية الآن من حسابنا حين نتحدث في شأن الإيمان بالجنس . . . وأن ننظر إلى الإنسانية الواحدة من أزلها إلى حاضرها ونتخيل مستقبلها لنراه وحدة جامعة تسير في دورة كبرى بخطى مطردة في طريق تعلو وتسمو .

وقد أخذت كل أمة تقريبا دورها التاريخي في حمل الشعلة على طريقتها الخاصة حتى ضعفت يدها عن حملها فتسلمتها أخرى حتى وصلت الحال الآن إلى أن الأمم جميعها توشك أن ترفع بأيديها مجتمعة شعلة الحضارة .

جوهر واحد :

وإننا حين نجرد الأشخاص الانسانية من جلودها الملونة وألسنتها المختلفة نجد جوهرا واحدا في قلوبها وعقولها؛ فالعواطف الشريفة والنوازع الخسيسة واحدة في الجميع ، والاستجابة لحجج الحق والعدل واحدة في عقول الجميع .

وفي كل مكان وجدنا زرعا إنسانيا متشابها في طباعه واجتماعه على المعاني المشكلية التي تنظم حياته وفي تلبيته لدواعي العلم والجد واللعب والحياة والجد . وما وجد في مقادير ذلك من تفاوت فهو لا يضير وحدته ولا يمنع الاعتقاد بأنه من بذرة واحدة

ثم إن الله بذر بذور النوع الإنساني في بقاع الأرض المختلفة الطبيعة وجعلها تنبت متباعدة في عهد طويل حتى تكونت الإنسانية الحالية متنوعة الظواهر بفعل الأمكنة والتربية واختلاف اللغات وتنوعت أفكارها تبعاً لذلك .

فمن أراد بعد ذلك أن يمحو آثار ذلك كله فهو جاهل خائب . ولكنه يستطيع أن يجمعها على صفاتها المشكلية المشتركة وجوهرها الواحد ، ويقيم حياتها السياسية والاقتصادية على العدالة التي تدركها عقولها وضمائرها جميعاً . . ثم يترك أمر تفرقها في الفرعيات بدون محاولات

فالناس لا يمكن جعلهم أمة واحدة في غير العدالة والمجال السياسي والاقتصادي ، لأن غير ذلك مناقض لقوانين الفطرة في اختلاف الناس اختلافا كبيرا في الأمزجة واللغات والألوان وسائر الفرعيات ؛ إذ أن خالقهم أراد تمايزهم وتنوعهم هكذا ليتعارفوا وتكثر معاني المعرفة بينهم تبعا لكثرة التفرع والتغاير والتميز والاختلاف ، ولأنه نوّعهم كما ينوع البستاني الحاذق الثمار والأزهار ، فذلك أجمل وأوقع وأدعى للتنشيط وكثرة المعلومات والأذواق . . أما التوحيد السياسي والاقتصادي في نطاق واسع مشترك ملحوظ فيه حق كل وواجباته سواء أكانت « الوحدة » في ذلك النطاق الفرد أم الأمة . . فذلك ممكن ما دام مدعما بوسائل القوة والسرعة والإخضاع للتنظيم واحترام السلامة الاجماعية واشتراك الجميع في إخضاع الثائر على نظام الجميع . .

ومهما فعلت « العامية » في نفوس الساسة المتخلفين عن إدراك هذه الحقائق السامية في حياة الجنس والقاعدين عن الوصول إلى قيمة الفكر والخلق ، الذين يأبون أن يعترفوا بما توحي به حقائق العلم والإيمان وتسير الزمان ، ويقيمون الحدود المصطنعة بين القلوب والأفكار التي وحدها الله ، ويجعلون الفروق السطحية موانع وعقبات كأداء لا يمكن اجتيازها — مهما كان من ذلك ، فإن السيل الجارف والتيار الدافق النابع من عالم الفكر الإنساني والضمير الواحد ، سوف يجتاح ما أقاموا من سدود ويدمر ما صنعوا ويأكل ما كانوا يعملون !

وقد انبثقت البثوق في تلك السدود والصمت الثغرات بما قدمته الكهرباء الساحرة والأثير الخادع والعلم ذو

الطبيعة الواحدة الوضوعية ، وعا قدمته الحروب القديمة والحديثة من مزج الدماء ، حتى يخرج منها لون جديد تراه بصائر الأبناء بعد هلاك الآباء !

وإن أحداث القوة والدم وفتوحات الروح والعلم هي التي تستطيع دائماً أن تجعل دائرة الجوهر الإنساني الواحد أساساً مشتركاً لتلاقي الضمير الواحد للأمم والأفراد ، على استنكار جرائم القوة والدم والاستكثار من فتوحات الروح والعلم .

عبد المنعم خلاف

مصر والتربية العالمية بعد الحرب

من الواضح أن الحرب الحاضرة صراع بين نوعين من التربية : التربية الديمقراطية والتربية الدكتاتورية . وتدل قرائن الأحوال وسير الأمور على أن أولاهما ستخرج ظافرة . وهناك خطط ترسم من الآن لطبع الجيل الجديد في معظم بلاد العالم على الأساس الديمقراطي . ومن الراجح أن هذه الخطط ستصادف رواجاً ونجاحاً ؛ فالإنسانية كلها من غير شك متجهة في تقدمها إلى الحياة الديمقراطية التي تقوم على التعاون الحر . وقد أبرزت الحربان العالميتان — الماضية والحاضرة — إلى الصف الأول من الأهمية فكرة أخرى متممة للديمقراطية ، بل نتيجة لازمة لها - هي فكرة المواطنة العالمية (World Citizenship) ؛ وأخذ دعاة الإصلاح وعلماء التربية والاجتماع يناقشون هذه الفكرة في نواحيها التطبيقية ، ويكشفون عن نوع الوفاق — أو التعارض — بينها وبين مبدأ القومية .

هذان هدفان بدأت تتكشف عنهما اتجاهات التربية العالمية بعد الحرب ، فما هو موقف مصر منهما ؟ وإلى أي حد ينبغي أن تعدل خطط الدراسة وروح المناهج عندنا لتوصل إليهما ؟ ثم ما صلتهما بمشروع الوحدة العربية الذي سار في طريق النجاح خطوات موفقة ؟

إن مصر — بحكم مستواها الثقافي ، ومركزها الجغرافي ، والدور الذي لعبته في الحرب الحاضرة ، والدور الذي ستلعبه في بناء السلام بعد الحرب ، لا تستطيع — ولا ينبغي لها — أن تتخلف عن قافلة الأمم الراقية في سيرها ؛ ومنطق الحوادث الحاضرة يحتم عليها أن تخرج بتفكيرها من دائرة القومية الضيقة .

صحيح أن الدعوة إلى السلام العام قد لا تنطبق والسياسة العملية لبعض الدول الحاضرة وأن الأمم الصغيرة يجب أن تحتاط ضد ما قد تخبئه الأيام من نيات الدول الكبيرة . وصحيح أن بناء الاستقلال المصري لا يزال في حاجة إلى الدعم والتثبيت ، وأننا لا نزال بعد في مستهل المرحلة القومية من تطورنا السياسي . ولكن الوضع الدولي لمصر قد تحدد بما لا سبيل إلى النكوص فيه : فهي دولة مستقلة ذات سيادة ، وقد بدأت حياتها المستقلة على نظام الشورى .

وإذاً فمصر — من حيث الهدف الأول من أهداف التربية الجديدة ، وهو الديمقراطية — مستعدة لأن تحتفظ بمكانتها بين الأمم وتساير التفكير الجديد . غير أنه لا يزال عليها أن تتعهد الحياة الديمقراطية فيها بما يكمل بناءها ؛ فلكي يصبح الشعب ديمقراطياً حقاً يجب أن يتعلم كله ، وأن يتحرر من رق الفاقة والذلة ، ويجب أن تقوم الحياة عندنا على أسس ثابتة من الحرية والكرامة والتعاون الصحيح ، وأن نزول من كثير من الأذهان فكرة تحكم الكبير في الصغير ، وفكرة ثورة الصغير ضد الكبير ، وأن تفهم كل هيئة من الهيئات المعنى الحق للديمقراطية ، فتقوم على رعاية الحقوق ، والاضطلاع بالمسؤوليات ، والتزام جادة النقد المثمر ، وإدراك الصلة على حقيقتها بين الفرد والدولة ، وبين الحاكم والمحكوم ، وبين المواطن والمواطن .

كل هذه نواح يجب أن يكون لها اعتبارها في خطط التعليم ، وفي عوامل التربية المختلفة من صحافة وأدب وخيالة وإذاعة وغيرها . وتعهد هذه النواحي يحقق الغرضين معاً : يخلق للوطن أفراداً شاعرين بكرامتهم مستعدين للتضحية

فى سبيل بلادهم ، ويجعل من المواطنين المصريين أفرادا ديمقراطيين حقا ، يستطيعون أن يتعاونوا وغيرهم من أبناء الأوطان الأخرى ، ويقوموا بنصيبهم فى جهود العالمية المشتركة . وإذاً فبناء الاستقلال القوى ، وتمكين الديمقراطية الوطنية هما طريق مصر الأول إلى المساهمة فى المواطنة العالمية . وليس هناك من شك فى أننا قد خطونا خطوة واسعة فى هذه السبيل بجهودنا فى بناء ميثاق الجامعة العربية التى يصح اعتبارها المرحلة الوسطى لأمم العرب بين القومية والعالمية ؛ فهى فى الواقع قومية واسعة أو عالمية ضيقة ؛ لابد أن تؤتى ثمارها المرجوة قريبا .

إن عالم ما بعد الحرب سيقوم — كما يبدو — على مجموعات من الأمم بدأت تتميز معالمها منذ الآن : فهناك مجموعة الولايات الأمريكية ، واتحاد الجمهوريات السوفيتية ، وشعوب الإمبراطورية البريطانية ؛ وربما تمخضت الحرب عن نوع مشابه لهذه من كثير من دول أوربا بعد تحريرها ؛ فقيام الجامعة العربية — إذاً — خطوة مسايرة للاتجاه العالمى الجديد ، ومرحلة لابد منها فى طريق مساهمة الشرق فى فكرة العالمية . ولا ريب فى أن الشرق العربى مستعد الآن لهذه المرحلة لتوافر عوامل فيه ، لعل أهمها ثلاثة : الأول النهضة الحديثة فى كل قطر عربى ، وحرصه على استقلاله ، وأخذه بنصيب من الحياة الديمقراطية . والثانى اشتراك الجميع فى لغة واحدة فصيحة غنية بماضيها وبثروتها الأدبية والفكرية . والثالث الثقافة الإسلامية العامة التى طبعت جمهرة هذه الأمم منذ القدم بطابع الإخاء ، ونشأتهم على اعتبار كل الأقاليم الإسلامية وطنا للمسلم .

هذه العوامل الثلاثة أخص مقومات النهضة العربية المشتركة ؛ وهى لهذا تتطلب عناية خاصة ، وتستلزم أن تحاط بضروب من الضمانات حتى لا تتعرض للتصدع أو الانهيار ؛ فكما يجب أن يقوم بناء الأمة الواحدة على مواطنين أقوياء مستقلين متساوين ، كذلك يجب أن يقوم بناء الجامعة العربية على وحدات قوية مستقلة متساوية ، وكل ثغرة تترك للحد من حرية أى وحدة من هذه الوحدات ، أو للاعتداء على كيانها واستقلالها ، تضعف من بناء الجامعة وتعرضه لشتى الأخطار . وما دامت اللغة العربية الفصحى دعامة من أهم دعائم هذا البناء، فمن حسن السياسة لمستقبل الأمم العربية أن يحرص عليها ، وأن يراعى — فى كل ما يقترح من تبسيط نحوها وتيسير كتابتها — ذلك الإرث المشترك بين الناطقين بالضاد .

إن علماء التربية والنفس ينبهوننا إلى أن هناك بعض نواح سيكلوجية لا بد من العناية بها فى تربية المواطن الصالح تربية واسعة الأفق غير مقصورة على الدائرة القومية الضيقة ؛ ذلك أن تحرص المدرسة على تنمية روح التعاطف فى الناشئين حتى يحسوا بما يحس به رفاقهم فى البيئة الواسعة ، وأن تخلق عندهم نوعا من المران فى التعاون الحر بما تهيء لهم من الفرص ، وأن تعمل على أن يكون التعاطف والتعاون عادتين محبوبتين عندهم بما تحوطهما به من بواعث تقوى الرغبة فيهما والحماسة لهما . ونحن إذا نظرنا إلى المجتمع العربى من حيث هذه النواحى النفسانية أيقنا أن مهمة المربى فى إعداد المواطن العربى ستكون سهلة ميسرة ، فلن يكدّ المدرس فى المدرسة العراقية أو المصرية — مثلا — فى خلق عاطفة الحب عند التلميذ للوطن العربى الأكبر ، ولن يحتاج إلى بذل كثير من الجهد فى تنمية التعاون والمشاركة الوجدانية فى أبناء هذه الأقطار الشقيقة .

وإذا اتفقنا على أن تكون الديمقراطية هى الروح الذى يوجه جهودنا فى التربية الجديدة ، وعلى أن يكون هدفنا الأخير تربية المواطن الاجتماعى الصالح الذى يعمل لمصر وللعالم العربى ، ثم للانسانية جميعاً ، وجب أن تنظر بهذا الروح من جديد الى موضوعات الدراسة ومناهجها فى مدارسنا ومعاهدنا : فالتربية الوطنية — مثلا — كانت حتى الآن تجعل همها إعداد المواطن القوى الصالح . ولكن ظروف الحياة الجديدة تحتم علينا أن نوسع فى

آفاقها حتى تتجاوز بناشئتنا حـدود القومية المصرية إلى ميـدان الوطن العربى الأكبر ، يدرسون أهله ونظمه وحياته السياسية كما درسوا مصر ، ويتسع المجال أمامهم افهم أشـكال الحـكم من ملـكية وجمهورية وغيرهما ، ويوازنون بين نواحى التشريع والتنظيم فى هذه الأفكار ، واضعين كل نظام فى مكانه من تاريخ الأمـة وتقاليدها وخصائصها النفسانية ، وطرائق حياتها ، وصلاتها بالعالم الخارجى ، مدركين عناصر الاشتراك فى حياة تلك الأمم ، مقدرين ما تفيده من تعاونها وتبادل المصالح بينها . حتى إذا ما أتموا تلك المرحلة كانوا على استعداد لأن يدرسوا الأنظمة الدولية من سياسية وثقافية واقتصادية وغيرها ، ويدركوا تشابك المصالح بين أمم العالم ، وتوقف سعادة كل منها على سعادة الأخرى ، وما جرته وتجره الحروب التى تثيرها شهوة التوسع والتملك من دمار وشـقاء ، وما يمكن أن تنعم به كل أمم الأرض من رخاء إذا حرصت على السـلام ووجهت همها إلى الإصلاح والبناء .

كذلك الأدب إذا أحسن اختياره ودرسه أمكن — بجانب تربيته للذوق الفنى ، وزيادته فى ثقافة الفرد ومعارفه من الأشخاص والأشياء — أن عدّ الناشىء بأمثلة من البطولة والتضحية والإيثار تحببها إليه ، وأن يعرض عليه من أوصاف الحروب ونتائجها وشرورها ما ينفره منها ، ومن ثمرات السـلام والتعاون والإخاء الإنسانى ما يجذبه للتعلق بأهدابها .

إن أغراض الأدب كثيرة ، ومظاهره متعددة ، ولـكل منها مكانه الذى يحسن استعماله فيـه . ولـكن همنـا الأول هنا أن ننشىء مواطننا على حب الوطن وحب الإنسانية وحب السلام ؛ فطبيعى إذاً أن يكون من بين نماذج الأدب التى تعرض عليها نماذج تعين على تحقيق هذه الأهداف ، وعلى الأخص ممـا يعرض صوراً حقيقية من الحروب وفظائعها ، ومن حل المشكلات بالطرق السلمية ، ومما يصور نتائج التعصب وضيق الأفق ، وممـا يجلو صورة مشرقة بالعطف من حياة الشعوب الأخرى وعاداتها وفلسفاتها ومعضلاتها ، وأدبنا فى قديمه وحديثه خصب غنى فى هذه النواحى . فالقرآن حافل بروائع الآيات فى الشـورى والجهاد ، ولين الجانب مع الناس ، وحسن الأدب فى الاجتماع . وسنن الرسول وعهوده ، وخطب الخلفاء الراشدين وسيرهم مثل عالية فى ديمقراطية الراعى مع رعيته ، وعدله بين قويهـا وضعيفها ، وتقريره أصول العدالة والإنصاف بين أفرادها . والشعر العربى أروع مايكون فى أبواب الحماسة والإباء ، ونصرة الضعيف وحماية الذمار وتضامن المجموع ؛ وفيـه قصائد نص فيما ربده من تصوير أهوال الحروب ومشـكلاتها ، وجلال السلم ونعمته ؛ وحتى الشعر الذى يمجد الحروب ويخلد أيامها ، يعطى المدرس فرصة تغتنم فى الموازنة بين حروب العصور المـاضية وفروسيتها ، وحروب العصر الحديث ووحشيتها ووقوع آثارها على غير المحاربين .

ومن شعرائنا الحديثين من صوروا عواطف العروبة وتغنوا ببطولتها وجمال حواضرها ، وألحان آلامها ؛ ومن كتابنا من تناولوا عبقريات العروبة والإسلام ، وجلوا تاريخ زعماء الإصلاح الحديث ، ونقلوا كثيراً من منتجات الفكر الأجنبى إلى اللسان العربى .

هذه كلهـا نماذج فى متناول المدرس الحديث ، وفيها وفيما شابهها عون على تحقيق ما تتجه إليه الإنسانية اليوم من التمـكين للديمقراطية ومن نشر روح الإخاء العـام .

محمد خلف الله

بالشهيد !

أخي عطيـــة

« . . ولكن عجلة الدنيا لابد أن تسير » كما قال لورد كليرن في تعزيته الموجهة لدولة النقراشي باشا عن مقتل صديقه ورئيسه المغفور له الدكتور أحمد باشا ماهر « ولا يجوز أن يلهينا المصاب الفادح عن أداء واجباتنا » كما قال النقراشي باشا نفسه في تأبين الحكومة للفقيد في مجلس النواب

صدقني انى لم استطيع أن أكتب اليك طيلة هذه الأيام الماضية لأنى كان يجب أن أواجه هذه الحقيقة المرة فأرثى لك احمد ماهر ، وأنا لا أريد أن اعترف بهذه الحقيقة أوأواجهها وأسجل اعترافى بهــا على الورق بحظى فلا أستطيع بعد ذلك المماراة فيها ! . .

ما أضعفنا نحن البشر وأحقر قدرتنا بل وأحقر تفكيرنا ! . إننا لانخاف المحسوسات وحدها ، بل نخاف الحقائق ، بل نخاف التسليم بالحقائق التى بلغت غاية التحقق ولم تعد تحتمل أقل شك . . حقيقة الموت نفسها . . فنسير في الجناز ونقرأ المراثى ونتبادل التعازى ومع ذلك نفر من مواجهة الواقع ونتحاشى أن نكتب سطوراً نذكر فيها أن الموت قد وقع ، كأنما نحن نخشى الموت لا نقرره ونحدث العدم لانذكره ! . . أطفال نحن ماعشنا تلاحقنا الطفولة بل نطالعنا لأنها مستقرة فينا ، وهكذا رأيت نفسى . رأيت هذا الكهل الذى أوشك أن يبلغ السابعة والثلاثين في حالة الطفل الذى لم يودع السابعة يوم مات عمى محمد وحضرت مقدمات موته وسمعت حشرجته القاسية وأنا أسأل عنها « ملكلا » فلا تجيب ، ولا افهم الا أن أمى قد تركتنى وأخى ابراهيم في رعايتها وهبطت إلى الدور الآخر ، ثم أسمع الصراخ وأعرف أن عمى قد مات وأشهد في الصبح الشموع التى أقرتها الجدة الثاكل حين رفضت أن تجيز عزف الموسيقى في الجناز ، فان الشموع لا بأس بها ، أما الموسيقى والصراخ الذى يعلو فوق رتبة البكاء فإنهم يعذب به الميت في قبره . وأشاهد في العصر صفوف الشيمين تتبع النعش وأرى تلامذة مدرستى الصغار فتياناً وفتيات يحملون هذه الشموع ، ولكنى مع ذلك لا أنفض يدى من الأمل بل أضم عليه صدرى فيدفئه ظن يكاد يكون يقيناً بأن عمى سيعود قريباً إلى المنزل فأجتلى طلعته وأسمع عنه دعاباته ويؤنس أذنى وروحى مناجاته الدينية الشعرية العذبة التى لم أكن افهم منها شيئاً ولكن روحى كانت تفهمها وتلتذها جميعاً ! . .

هكذا كان شأنى في مصاب أحمد ماهر بعد ثلاثين عاماً . وهكذا كان الطفل أبا الرجل وأبا الكهل بل أبا الشيخ أيضاً ، لأنهم جميعاً ينتظمهم شيء واحد هو الضعف الانسانى المكين ! ! . . .

الضعف الإنسانى الذى ما فتئت الحوادث تكشف عنه والذى يكشفه هــذا الحادث الدموى بأجلى بيان ، يكشفه في القتيل كما يكشفه في القاتل ! فهذا احمد ماهر العظيم يخطو الى المجد خطواته الوثيقة ويكاد يشارف الذروة ويدَّرع الإعجاب والمدح حتى من مخالفيه بل من خصومه ومناوئيه ، وتزداد أخلاقه العليا المتينة ظهوراً يوما بعــد يوم ، ويتجرد للمعانى السامية حتى يكاد ينسى الصغائر ويكاد النــاس ينسون معــه الصغائر وتنعكس فضائل نفسه على بدنه فيقول من رأوه يوم مصرعه إنه لم يكن قط أبهى منظراً ولا أحلى ابتسامة ولا أكثر احرارا ولا أشد امتلاءً برأيه واطمئناناً إلى عمله ! نعم ويبلغ هذا الذى ليشرف على غايته ويبلغ الكتاب أجله ، فاذا تقدم إليه القاتل بغدره ظنــه يتقدم إليه ليصافحه ، فيبسط إليه يده بالسلام ليبسط إليه الغادر مسدسه بالموت وليضرب منه الرأس والقلب ، وقد كان الرجل رأسه وقلبه ، رأسه القوى وقلبه الأبيض السمح الرق ، كأنما حنق عليه أقوى مزاياه وصوب إليهما غدره كله لينتقم منهما وليستوثق من الموت ، فان يد الاسعاف قد عجزت أن تصنع شيئاً بعد أن أصيب الرأس وأصيب القلب فترة

زيـــارة ...

أيا زهرتي في الترب بين المقابرِ
إليك حملتُ الزهرَ — شاهتْ أزاهري
حملتُ إليـك الزهرَ ترويه أدمعي
وتذويه أنفـاسي وحرُّ زوافري
قدِمتُ عليك اليوم أسوأ مَقْدَمٍ
سوادٌ بأثوابي ، سـوادٌ بخاطري
وخاتم عرسي لا يزيّن إصبعي
ولحيـةُ وجهي غبرُها في الغرائر
على قبرك المرموق أبـكي وأرتمي
وأجأر بالشكوى تشـقّ مرائري
أناديك في لحنٍ من الحبّ ضارعٍ
وأدعوكِ في صوت من الوجد آسر
دموعٌ بلا جدوى ، نداء بلا صدى
كذلك حُكم الموتِ حكم الجبابر
لكم فاض من دمعي — وأنت مريضة —
وأرخصتُ من نفسي وُهنتُ بناظري
لعلّيَ أسترضي القضـاء بأنني
أطاطىء إشراقي وأقمـع نازري
فأين مضى دمعي ، وذُلّي ، وصالحي
وأين مضت دعَواتُ تلك الحناجر !
أيا زهرتي ، كنتِ النضارة والشذا
وكُنْتِيهما من غير شوكٍ مخاصر
أأطلب عند القبـر فيك رعايةً
وأخدع نفسي عن بلاء المصاير
فأسأل عن سحرِ العيون السواحر
وفتنةِ هـاتيك الخـدود النواضر
وأكبرُ ظني ما به من بقيـةٍ
ولـكنه رمزٌ لتلك المناظر
أؤدّي له ما عشـتُ زورةَ زائر
وأحيي لديه عهدَ راعٍ وذاكر
مكانُك يا زوجي وخِدْنَ دراستي
حليفُ حياتي — لا رهينُ حفائر
مكانُك مني في فؤادٍ متيّمٍ ،
وتفكيرِ ذي فكرٍ ، وتخييلِ شاعر
عفـاءً على شعري وقلبي وخاطري
فقد كنتُ في حالٍ فصرتُ بآخر

عبد الرحمن صدقي

بالنجيع الأحمر لتسجل بقع الدم سطورا كثيرة ، لتسجل على البشرية ضعفها ان كان هذا الضعف يحتاج إلى تسجيل جديد ، ولتسجل للرجل الكبير حقه في أجر الشهادة ، ولتسجل للمصريين أو عليهم أن فيهم من يخرب بيوتهم وينقض غزلهم من بعد قوة ، ويساعد الزمن ضدهم ويمهد للاستبداد الأثم فيهم يوم يقول القائل : هكذا كانت نتائج الحرية وكان الموت جزاء الرجل الذي باء بالسخط أو الانتقاد من كثيرين بين أنصاره لأنه اصطنع الهوادة والتسامح وأطلق الحرية من عقالها وآمن بنى وطنه وبسط لقاتليه يده بالسلام !..

لست أريد أن أكون كالمجاثر قعيدات الأركان أندب وأقول : لقد طالما قلت وخشيت ، لقد طالما حذرت من الغرور في الشباب ومن فوضى المعايير في وزن أقدار النفس وأقدار الغير . لقد طالما أوجست من الإسراف في دعايات الإصلاح بطريقة زرعت التذمر في النفوس وشلت حكمة العقول ! . . . ولكني أخجل حقاً من أن أستغل الحادث لخدمة آرائي التي أومن بها ولا تزيدني الحوادث غير إيمان بها . إن أحمد ماهر أكبر من هذا . وإن مصاب الوطن فيه أعظم !

ولكني أستعير منك رثاءك لزميلك الجراحي ، وأهتف بصوت حبيس باسم كتابك الموءود «ياشهيد» !.

« عبده »

بين المجيز والقراء :

أشباه ونظائر

قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد عبد الباقي بعدد الثقافة ٣١٩ عن كتابين في الأحكام السلطانية أحدهما للماوردي والآخر لأبي يعلى الحنبلي ، فذكرني ذلك بما كنت اطلعت عليه بخزانة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة في كتاب (مختصر الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للعلامة شمس الدين بن عمر السفيري) :

قال السخاوي (مؤلف الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) وقرأت بخطه (أي خط الحافظ ابن حجر العسقلاني) ما نصه :

فصل فيمن أخذ تصنيف غيره فادعاه لنفسه وزاد فيه قليلا ونقص منه ولكن أكثره مذكور بلفظ الأصل : البحر للروياني أخذه من الحاوي للماوردي . الأحكام السلطانية لأبي يعلى أخذها من كتاب الماوردي لكن بناها على مذهب أحمد . شرح السنة للبغوي مستمد من شرحي الخطابي على البخاري وأبي داود . الكلام على تراجم البخاري للبدر بن جماعة أخذه من تراجم البخاري لابن المنير باختصار . علوم الحديث لابن أبي الدم أخذه من علوم الحديث لابن الصلاح بحروفه وزاد فيه كثيرا . محاسن الاصطلاح وتضمين كتاب ابن الصلاح لشيخنا البلقيني ، كل ما زاده على ابن الصلاح مستمد من إصلاح ابن الصلاح لمغلطاي . شرح البخاري لشيخنا ابن الملقن ، جميع النصف الاول من عدة شروح ، وأما النصف الثاني فلم يتجاوز فيه النقل من شرحي ابن بطال وابن التين ، يعني حتى في الفروع الفقهية .

قال وقرأت بخطه أيضاً : أن طبقات الشافعية لابن الملقن جمع فيها بين الاسنوي والتاج السبكي بحيث لم يزد عليه سوى ترجمة واحدة ، وكذا قرأت بخطه على الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي ما نصه : أصل هذا التصنيف للأستاذ الجليل أبي منصور عبد المحسن ابن محمد بن علي بن طاهر البغدادي الفقيه المحدث المشهور ، رأيته في مجلدة لطيفة ، وجملة ما فيه من الأحاديث خمسة وعشرون حديثاً ، إلى أن قال : تم لمصنف الاجابة حسن الترتيب والزيادات البينة والعزو إلى التصانيف الكبار ، والأول على عادة من تقدم يقتصر على سوق الأحاديث إلى شيوخه .

وقرأت بخطه أيضا على نسخة من شرح العمدة للبرماوي ما نصه : إن هذا الكتاب مشى فيه الشيخ شمس الدين عفا الله عنه على شرح شيخنا الشيخ سراج الدين ابن الملقن من أوله إلى آخره ، ينتخب فوائده ويحصل مقاصده ، وربما لم يزد فيه إلا الشيء اليسير بحيث لو تصدى حاذق إلى انتزاع ما زاده لم يزد على كراس أو كراسين ، ولو تصدى لتتبع ما حذفه من شرح شيخنا من الفوائد التي تضاهي ما انتخبه لكان قدر ما كتبه ، ولو كان تجرد لعمل نكت على كتاب شيخنا تحريراً واستدراكاً ونحو ذلك لكان أظهر لبيان فضيلته وقوة نفسه مع السلامة من الإغارة على كلام شيخه من غير أن ينسبه إليه ، فليس ذلك من شكر العلم ، والله المستعان .

محمد غسان

سيد وسيد آخر

تحت هذا العنوان كتب حضرة الأستاذ الفاضل محمد بك فريد أبو حديد في عدد الثقافة الصادر في ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٥ يقول إن (جودفري دي بويون لم يكن في يوم

من الأيام فرنسيا . بل كان جرمانيا قحا خالص الدم .) . إلا أن من يراجع كتب التاريخ وكتب الجغرافيا يجد أن جودفري دي بويون هذا :

١ — ولد في بلدة بيزي Baisy . وبيزي هذه من قرى بلجيكا (مقاطعة البرابان Brabant) ولا تزال آثار قصر جودفري دي بويون قائمة فيها حتى اليوم .

٢ — وفي أواخر القرن التاسع ضمت مقاطعة البرابان إلى الأمبراطورية الجرمانية ثم تداولتها النمسا وفرنسا وهولندا وبلجيكا .

٣ — فالقول بأن جودفري دي بويون كان (جرمانيا قحا خالص الدم) قول فيه نظر

عزيز خانكي

نقل المصطلحات الاجنبية

الى اللغة العربية

سيدي الأستاذ الموقر محمد عبد الواحد خلاف رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء المحترم .

تحية واحتراماً . وبعد فإني أسأل سيدي لماذا يستعمل كتاب أدبنا العربي وعلماؤنا الأجلاء أسماء معظم الآراء الأدبية والفلسفية والعلمية باللغة الأجنبية ؟ أليس القصد من تأليفهم ومباحثهم مهما سمت المواضيع التي يطرقونها هو إفهام الخاصة والمثقفين على السواء ؟ وليس كل مثقف ملما بلغة أخرى غير العربية ، فكيف يتسنى له إذاً معرفة معاني تلك المصطلحات الاجنبية التي يدل بعضها على نزعات في الأدب مثل : الكلاسيكي والرومانتيكي و . . . الخ . وكثير غيرها في المعارف والعلوم الأخرى لا يحضرني منها شيئاً الآن ؟ وما الفائدة من استمرار القراء في القراءة ما داموا لا يفقهون معاني تلك الرموز التي كثيراً ما تكون هي محور الموضوع وخلاصة البحث ؟ وجدير بالملاحظة أننا نطالب الكاتب بذكر المراجع لما يكتب ، وكذلك أن يشرح بعض الكلمات العربية القديمة أو المشتقة ، وهذا تافه بالقياس إلى ما وراء تلك المصطلحات الأجنبية من آراء ونزعات في شتى العلوم والفنون لها خطرها وعليها يتوقف فهم القارىء لما يقرأ .

والكاتب الذي يضطلع بلغة ما من اللغات الأجنبية حين تعرض له آراء أهل تلك اللغة ومصطلحاتهم التي تعارفوا عليها وحدهم أو مع غيرهم فيسجلها كما هي دون أن يضع لها مدلولات عربية ولو كانت مكونة من كلمتين أو أكثر فقد اقتصر نتاجه على نقل ما سمع وهذا جهد تافهة ، ومن المؤسف أن نلتفت إلى لغتنا العزيزة فنراها مجموعة مصطلحات أجنبية أصبحت بفعل النقل والتكرار من المتعارف عليه الذي يصعب آنذاك تبديله أو تعديله

هذا ما أود الإشارة إليه على صفحات مجلتكم الغراء وتقبلوا عظيم إعجابي ودمتم .

بغداد
فريد الدوري

شاعرة

.... كانت الإذاعة فى ذلك المساء رقيقة وادعة تشبه حنان الأماسى ووداعتها ، وكان الصوت الذى يتردد فى الجهاز المرسل من تلك الأصوات التى تلقى على الأرواح ظلالا من الهدوء المقدس المتصل بالتأملات . وكانت الأنشودة التى تمد الصوت بالروح الحية من تلك الأناشيد السحرية الرائعة ، وهكذا . . . . تلاقت وداعة المساء وحنان الصوت وروعة الأنشودة فى لحظة واحدة ، لتؤلف من هذا الثالوث أقنوما حيًّا يمد الروح بالعواطف النبيلة ، والفكر بالتأملات البعيدة . ووضع السامعون — وكانوا كلهم من ذوى الشعور الدقيق — أيديهم على قلوبهم خوفا من أن تتصاعد دقاتها أكثر من المعتاد ، فيكون هذا التصاعد مؤثراً على جوهر الصوت وروحه فلا يصل رنينه العذب إلى الآذان كما ينبغى أن يصل ، ومرت لحظات من لحظات الحياة أو من لحظات السعادة الخالدة ، والسامعون تائهون فى هذه الأجواء الرفيعة ، سابحون فى عوالم واسعة من الفن ويودهم لو تنقلب اللحظات إلى ساعات وساعات ، وهى أمان ما سمعت مثلها إذاعة بغداد فى حياتها إلا فى ذلك المساء . . . . ! ولكن لحظات الأمانى أقصر شىء فى الحياة حتى لو كانت لحظات عادية ، فكيف إذا كانت من اللحظات السعيدة ؟ ! ويظهر أن مدير الاذاعة قد كان مأخوذا بذلك الصوت الكريم ، وبالأنشودة التى تمده ، كما أخذ هؤلاء السامعون من كرام الأدباء ، فما إن وقف الصوت عن البث حتى قال : سمعتم هتفات الورقاء الطروب الآنسة نازك الملائكة » . وما كاد ينتهى من كلمته حتى تلفتت العيون ، وفى تلفتها شىء من التساؤل ! إن السامعين كلهم أو جلهم يعرفون السيدة أم نزار الملائكة ويعرفون الاستاذ صادق الملائكة ، ولكن هذه « الورقاء الطروب ؟ ! .... » من تكون ؟! أتكون من عائلة البلابل المغردة أم من مجمع الورقاوات الصادحة ؟ ! وكاد يغطى سيل التساؤل على « الأسف » الذى أحدثه انقطاع الصوت عن مواصلة الإذاعة ، وأخيرا عرفنا أن الآنسة « نازك » كريمة الاستاذ صادق الملائكة ، وعرفنا أنها تلميذة فى دار المعلمين العليا ، فخفت الدهشة وقال السامعون : « ليس بغريب أن يخرج من بين جناحين شاعرين ، قلب شاعر وروح شاعرة ! » . ولو كنا نعيش فى دنيا من تقدير الفن لكانت كلمة الإذاعة وكلمة الاصدقاء والادباء كافيتين لأن تنقلا الشاعرة إلى ذروة الشهرة كما نقلت « عيون المها بين الرصافة والجسر » « ابن الجهم » وكما نقلت قصيدة « جسر التنهدات » Bridge of sighs « توماس هود Thomas hood » إلى أغنيات طائفة على الشفاه . ولكن أين نحن من هذه الدنيا فى هذا العصر المتكالب ؟ ! وأين هذا العصر الجاثم تحت كابوس الجشع من تلك العصور الأدبية الجميلة التى كانت ترى فى الشاعر ضوءاً يمزق ظلمات الحياة ، وترى فى الشاعرة روضة متمنعة يتعانق فيها البنفسج والياسمين وتستلقى الأرواح فى ظلالها ، ثم تحلق فى جو من الوحى والإلهام ؟ ! . ونحن إذ نلوم هذا « العصر » على اهماله أمر النوابغ والنابغات فلأن ذلك أدى وسيؤدى حتما إلى خسارة فنية من المضيعة ضياعها ما دام فى ذلك إضاعة للغذاء الروحى ، وإضاعة لكنوز ثمينة تلقى على الأذواق لطفاً ورقة وتهذيباً ، وهى خسارة لانقدر أن نسكت عليها لا سيما ونحن نرى بجانب هذا الإهمال — عناية بأناس لا توجد بينهم وبين الإنسانية صلة الاعتقاد مابين « الأوثان » والأحياء من صلات ، وقد نرى قسما من هؤلاء يترأسون حتى المؤتمرات الثقافية ، وليس لهم من الثقافة سوى « المراكز » التى ساقتهم إليها « الوظيفة الحكومية » ! ! فقط ! ! . ونحن إذ نتحدث عن شاعرة نابهة مبدعة كالآنسة نازك لا نكون متمردين على عصر بينه وبين هذه الشؤون الأدبية ستار ! ! ! بل لأن هناك صلات فنية بين الأثر الأدبى والأذواق تسمو على « التمرد » وترتفع فوقه ،

وهي أرق وأعمق وأشد شعاعا من أن يحجبها ذلك الستار .

وهكذا كانت تلك القصيدة وحدها التي عطرت الإذاعة في ذلك المساء ، قبساً من تلك الأقباس التي وصلت شعاع الفن بشعاع الفكر الباحث ، وإذا بهذه الصلة تدفعنا إلى متابعة البحث عن شاعرتنا الكريمة ، وإذا بنا نسمع أنها تخرجت في دار المعلمين العليا وأنها كانت أولى ، وأنها ألقت قصيدة في حفلة التخرج لفتت إليها الأنظار ، وأنها انتقلت بعد ذلك إلى « معهد التدريس » في دار المعلمات الأولية لتؤدي رسالتها في الحياة . هذا كل ما استطعنا أن نصل إليه من معرفة من شؤون شاعرتنا الكريمة ، وعلم النفس الذي يحاول أن يبني الأبحاث الأدبية على معرفة أدق الشؤون العامة والخاصة في حياة الأدباء والأديبات لا يقنع بهذه المعرفة الضئيلة ولا يرى فيها زاداً كافياً لإنشاء بحث أدبي عن شاعرة ناشئة سيكون لها شأن في المستقبل القريب إذا بقيت واقفة على دوحة الشعر تذيع أنغامها الساحرة . ونحن وإن كنا نتابع علم النفس في رأيه بهذا الموضوع ، بيد أنا نرى في متابعته على طول الخط شيئاً من الغلو ، ولا نرى من الضروري أن تقوم الأبحاث الأدبية على معرفة أدق الشؤون الخاصة والعامة بل تكفي معرفة بعضها ، ويضاف إلى ذلك اجتهاد الباحث لاسيما وهذه الشؤون لا تخلو من الأسرار العاطفية ، وقد تكون أسراراً مقدسة . وعلى الرغم من هذا الزاد القليل سنتقدم إلى المائدة الشعرية الخالدة ، وسنجد في هذا الزاد على قلته — ونرجو أن يجد معنا القراء ما نجده — غذاء روحياً عاطفياً كافياً ، فليست العبرة بالكثرة ما دامت المادة محتوية على أهم عناصر الغذاء الذي تنشده الروح والعاطفة .

نحن الآن في السماء ! ! في السماء أيضاً ؟ يالله من الأماني ؟ ! وكان ذلك المساء قاتماً — كما تقول الشاعرة وقد (ص بين الموج والرمل والقمر والسكون) والتعبير للشاعرة أيضاً — وبين الأمواج والرمال ، تحت الأشعة الفضية الهادئة الوديعة ، وقفت شاعرتنا الملهمة تنادي إله الشعر كما نادته قبلها "Irene"[1] وهي جالسة أمام النافذة تتطلع إلى النجوم ، بالمصادفة العجيبة ! كلتا الشاعرتين في السماء ، وكلتاهما تنادي إله الشعر وتقول له : «خذني» فهذه تقول : «خذني ! ! خذني معك إلى السماء .» وشاعرتنا تقول :

«خذني إلى العالم البعيد   يازورق السحر والخلود»

وكما استجاب إله الشعر إلى نداء Irene وهي جالسة أمام النافذة تتطلع إلى النجوم ، فقد استجاب إلى نداء شاعرتنا وأخذها إلى « جزيرة الوحي » ، ولا فرق بين جزيرة الوحي التي تذهب إليها آنستنا الشاعرة وبين السماء التي تذهب إليها Irene مع إله الشعر ، فكلتاهما مأوى الاختلاجات الروحية ، وكلتاهما مهد القلب الظامئ إلى دنيا بعيدة عن هذه الدنيا !! دنيا فيها من الفن والجمال بمقدار ما في القلب من آمال وأمان وانتفاضات . وسمع الزورق السحري أمر الشاعرة ، ورأى في نفسه شرف الخضوع لهذا الأمر المستحب ، فشق الماء بصدره حتى دنا من الضفاف وفتح قلبه للشاعرة ، وما كادت تقترب منه حتى احتضنها فيه كما تحتضن المقلة أشفارها ، وسار الزورق بين الأمواج ! ! إلى أين ؟ ! إلى أين يازورق السحر ؟ ! إلى حيث تأمر الشاعرة ، إلى جزيرة الوحي ، ولاحت « جزيرة الوحي من بعيد » كأنها الأمل البعيد ! ! ثم ماذا بعد ؟ ! وكيف تكون هذه الجزيرة ؟ !

الرمل في شطها ندى   يشتاق من دجلة البرود
والقمر الحلو في حماها   أمنية الشاعر الوحيد

هكذا تكون « جزيرة الوحي » رمل ندى على الشاطئ ، تعب حباته الرملية قطرات المياه من النهر الأبدي ، والقمر الحلو فوقها أمنية غالية من أماني الشاعر الوحيد .

وماذا بعد :

(١) فتاة ترمز إلى روح شعرية في قصة « اللهب الأزلي » The Eternal Fires للسيدة فكتوريا كروس Victoria Cross

بين المسموع والمقروء

قصة

هذه قصة قصيرة من قصص الدهر الخالدة ، كتبها التاريخ بمداد من سواد وحمرة : أما السواد فدخان أسود خرج من بطن الأرض فنشر الليل والنهار طالع ، وأما الحمرة فألسنة من نيران اندلعت تطلب السماء فنشرت النور فى ظلمة ذلك الليل فأطلعت فيه صباحا كاذبا . ثم انكشف كل هذا عن مدن : غمرها بأهلها الرماد كما يغمر البحر البلاد . واتصلت بهذه القصة حياة رجلين كبيرين ، تجمع بينهما العمومة ، فقضى على أحدهما فضول العالم ومروءة الرجل فذهب به الموت مع الألوف الذاهبة ، وشاء القدر أن يُبقى على حياة الثانى ليحكى للأجيال ماجرى حكاية السامع الرائى .

أما زمان القصة فالقرن الأول بعد الميلاد

وأما المكان فمل تلك الأرض الجميلة التى تحتضن ذلك الخليج الرائع الذى أسموه خليج نابلى بإيطاليا .

أما بطل الرواية فجبل يطل على هذا الخليج ، صمت دهرا فاطمأن إليه الناس ، وازدهرت حوله الأرض وكثر السكان . وكيف يوجسون من هذا الجبل خيفة ، أو يتوقعون منه الموت ، وهو إنما يعطى لهم فى ترابه كل عنصر من عناصر الحياة ؟ واشتهرت الأرض التى حوله بخصبها حتى أمّها كل طالب آمال ، لأنها لم تكن تعطى المحصول الواحد ، ولا المحصولين الاثنين فى العام ، بل المحاصيل الثلاثة . والحنطة والأذرة والشعير نمت جميعها فيها طويلة شديدة ثقيلة بالذى حمله السيقان من حب . والزيتون نما طولا وامتد عرضا وجاد بالزيت الكثير . والعنب كبرت عناقيده وتوقدت فكأنما النار فى أحقاق البلور ، ومنها اعتصروا الخمور الشهيرة التى دارت تلهب القلوب على موائد الترف فى تلك الأيام . والورود جادت به

فلتسر بالزورق بروحى ... قد آن أن يستفيق عودى
وآن للشعر أن يغنى ... بالحلم الضاحك الشرود
حلمى وقد صغته نشيداً ... يهش من سحره وجودى
شاعرتى حدقى فهذى ... جزيرة الشعر والنشيد
إن لمت المقلتان عنها ... صاحت بها الأمنيات عودى
تبسمى يا ابنة الأغانى ... للشاطئ الساحر السديد
واوقفى الزورق المغنى ... تحت شعاع السنا البديد

سار الزورق ، واستفاق العود ، وتحرك العاطفة ، وصيغت الأحلام نشيداً يهش من سحرها وجود الشاعرة ، وعندئذ أوقف الزورق السحرى المتعب . ثم ماذا ؟!

قد ضحك العمر واستنامت عواصف اليأس والكنود .

وانقلب اليأس بشريات ... وأمنيات فأى عيد ؟!

وهكذا كانت جزيرة الوحى صدراً خافقاً يستاق عليه الوتر المرنم وتتبسم فيها الأغانى وتقف الحياة على جوانبها ضاحكة مرحة وتتلاشى عواصف اليأس أو تنقلب إلى نسمة من نسمات الفجر الحنون ، ويتحول اليأس إلى بشريات وأمنيات أحلى من أماني العيد . . . . هذه هى « جزيرة الوحى » وهذه هديتها التى تقدمها للشاعرة ، جمال يهدهد العاطفة ، وسحر يستثير الخيال ، وفتنة تقلب اليأس أملاً . أهو المكان وجماله يحول « الحياة » هذا التحويل ، أم هو « الشباب » ينسج من خياله جنة فواحة بالأزاهير ، ومن تأملاته « عالماً » يعج بالأفراح ، ومن رفرفة أجنحته دنيا تخفق بالأمانى والآمال ؟ ! الشباب ! هو تلك القوة التى تحاول أن تمزق الغيوم السود وتخترق الحجب وتصعد مع النسور إلى أعلى طبقات الجو ، وهو ذلك الوميض الدمعى الذى يخطف بريق العيون فى ظلمات الحياة . . . وقد اجتمع الشباب الحالم الجنح ، بالجمال الطبيعى الساحر الذى يفيض على جوانب « جزيرة الوحى » ويفيض من حواشيها فازدادت قوادم الأجنحة قوة ، وازدادت الخوافق تماسكاً وصمدت . ! ! ولكن هل تدع الأرض بنات السماء ذاهبات فى الصعود ؟ ! ذلك ما سنراه فى وقت آخر وإلى اللقاء . . .

(بغداد) محمد شرارة

الأرض وطابت ، فاقتطفوا منه الألوف المؤلفة سلالا حملوها إلى مصانع « كيوا » يستخرجون منه العطر والطيب

وتذكر « فزوفيس » للناس ، فلا يحمل لهم اسمه إلا كل معنى من معانى الخير العميم

والقاطنة حوله ، مقاطعة « كامبانيا » ، تسأل عنها الناس فيقولون : ما أطيبها أرضا ! وتسأل عن أهلها فيقولون : ما أسعدهم أهلا !

حتى جاء اليوم الثالث والعشرون من أغسطس عام ٧٩ من الميلاد

حدث بليني الصغير Pliny وهو المؤلف الروماني الشهير ، قال :

« فى حول الساعة الواحدة من ذلك اليوم قالت لى والدتى إنها رأت غمامة غريبة كبيرة تملأ السماء . وكان عمى قد فرغ من غداء خفيف وأخذ يقرأ . فما سمع بالذى قالته والدتى حتى لبس نعله وخرج يطلب مرقبا عاليا . فرأى سحابة تخرج من جبل ، تفرعت كالشجرة وامتدت ظلالها »

كان « بليني » الصغير فى ذلك الوقت ببلدة ميسينم Misenum ، وهى تقع فى الشمال من خليج نابلى . وكان يسكن مع والدته . وكان معهما عمه « بليني » الكبير ، المؤرخ الطبيعى الرومانى الشهير ، وكان إذ ذاك قائد أسطول الرومان . فشاقه حبه الاستطلاع ، فوق ما استطلع ، إلى أن يهيء مركبا تذهب به إلى الجنوب ليعلم سر ما رأى . وطلب إلى « بليني » الصغير أن يصطحبه ، فرفض . وسار بسفينته نحو تلك السحابة التى أخذت تمد أذرعها إلى الأفق . ولكنه فى الطريق لقى قوما لاجئين هلعين ، علم منهم أن الأمر أجل مما ظن ، وأخطر مما قدر ، وأن الناس فى خطر الموت . فتوجه إلى « ريثينا » لينجد أهلها . ولكنه لما اقترب منها وجد الرماد الساخن يهبط من السماء ؛ وزاد حجمه حتى كان حجرا من نار . ووجد البحر يضطرب ، وينحسر عن الأرض انحسارا ، ويندر من يقترب منها بالدمار . عندئذ جعل وجهته بلدة استابى Stabie فى الجنوب من الخليج . وفيها وجد من الفزع شرا مما خلف . ووجد الناس لا يدرون أين الملجأ . فالذين على الأرض يظنون المفزع عند الماء . والذين عند الماء يظنون المفزع إلى الأرض

وجنح بليني بسفينته . وذهب إلى بيت صديق له ، وكان الوقت ليلا . وكأنما أراد أن يضرب للناس مثلا لطمأنينته ، فأكل عند صديقه ونام . ولكن تراب النار زاد نزوله حتى خيف منه أن يسد الحجرة التى بها الضيف الكبير فلا يجد لنفسه مخرجا . فأيقظوه وخرج . وخرج أهل البيت معه لما خيف على البيت أن يتهدم من اهتزاز الأرض . ولكن عند الباب وجدوا أمطاراً من نار ، فأحجموا ، ثم تراءى لهم أنه لابد من التقدم ، فغطوا رؤوسهم بالوسائد ، وجروا يطلبون البحر فوجدوا بحراً غاضباً .

وطلع النهار ، ولكن لا عليهم ، فقد كان ليلهم ونهارهم ظلاما .

وعند الصباح ارتمى « بليني » الكبير على الأرض خائرة قواه ، واحتواه دخان الكبريت حتى كاد يختنق ، وظل يطلب شربة باردة من ماء . وهم على رجليه يطلب الحياة لآخر مرة ، وأعانه تابعاه . ولكنه خر بعد ذلك صريعاً . مات مختنقاً .

فهذه قصة العم « بليني » الكبير — قصة الموت .

أما قصة بليني الصغير ، فقصته قصة الحياة من بعد الموت .

ظل بليني الصغير مع والدته فى « ميسينم » Misenum فى شمال الخليج . فى ليلة ٢٣ — ٢٤ أغسطس ، أخذت الأرض تهتز وزاد اهتزاز الأرض بدخول الليل حتى خيف على البيت أن ينقض . فدخلت عليه أمه فى حجرة نومه لتوقظه ، وكان قدم هو لإيقاظها . وظلا على قلق

طول الليل . وفي الساعة السادسة صباحاً قررا أنه لابد لهما من الخروج . وخرجا فإذا الناس جميعاً يخرجون .

وزاد الخطر ، فطلبت الأم إلى ابنها أن يتركها وينجو بشبابه . قال بليني الصغير : « كان بي قوة الصبي ، وكان على أكتافها ثقل السنين ، فودت الموت حتى لا تكون سبباً في موتي ، فقلت لها إني لا أخلص إلا معها ، ثم أخذتُ بيدها وأكرهتها على السير إلى جانبي » .

وكان الزحام شديداً ، والناس يكاد يمشي بعضهم فوق بعض . فانتحى « بليني » طريقاً غير الطريق العام خوفاً على أمه . وأعولت النساء ، وصرخت الأطفال ، وزأط الرجال ، وتصايح الزوج وزوجه ، والأم وأبناؤها ، والأخت وأخوها ، خشية أن يفقد بعضهم بعضاً في هذا النهار الحالك ، فقد كان نهاراً كالليل ، وكالليل من غير ضياء ، حتى ضياء النجوم في السماء .

قال بليني الصغير : « ومن الناس من خاف من الموت حتى أخذ يدعو يطلب الموت . ومنهم من رفع يده إلى آلهة السماء ، ومنهم من صاح أن لا آلهة ، وأنه ليل سرمدي ليس له آخر ، وأن هذه آخرة الدنيا » .

وسطعت في ذلك الليل الأنوار ، ولكنها لم تكن أنوار الشمس ، ولكن نور تلك الحمم المترامية إلى السماء .

وكان « بليني » يحاول التماسك مع أمه ، ولكن خار عزمه ساعة ، فقد حسب أنه وأن الناس جميعاً هالكون .

ولكن أقلعت تلك الحمم ، وتقاصرت ألسنة النيران من ذلك الجبل القريب البعيد .

ثم أخذ الظلام يخيم على الناس من جديد ، فاطمأن الناس ، هلعوا من النور ، واطمأنوا للظلمة .

ثم رويداً رويداً ، يعود النور من جديد ، ولكنه النور الحق الذي يبعث الأرواح في أجسامها .

وتراءت الشمس من خلل التراب حمراء كشمس الغروب .

وفتح الناجون أعينهم ، فماذا رأوا ؟ .

رأوا دنياهم قد تبدلت . رأوا قراهم قد غطاها الرماد فأخفاها فلم تبن لها حدود كما تنزل الثلوج على الأرض فتغطي الزرع ، فلا تدري من أين بدأ ولا إلى أين انتهى .

وما بين بلدة « ميسيتم » شمال الخليج ، وبين بلدة إستابي Stabie في جنوب الخليج ، غرقت تحت الرماد الكثيف ، على سفح الجبل الثائر ، بلدة أخرى أشهر من هاتين كثيراً ، وأكبر خطراً ، تلك بلدة بمبياى . فقد علاها الرماد علواً كبيراً بلغ العشرات الكثيرة من الأقدام ؛ وبلدة أخرى لا تقل في الخطر كثيراً عن هذه ، هي بلدة هركولانيوم .

ولا بد أن المطر هبط من بعد ذلك على تلك البلاد فجعل من رمادها أرضاً متماسكة ، زادت ما تحتها إخفاء . فقد نسي الناس تلك البلاد على مر السنين ، ونسوا حتى مواقعها ، وما جرى لها لولا ما حفظته الأوراق في بطون الكتب .

ثم يمضي سبعة عشر من القرون ، فيريد الإيطاليون أن يشقوا في تلك البقاع مصادر الماء ، فتتكشف لهم بطن الأرض عن آثار حياة ، فيوالون الشق والحفر ، ولا يمضي زمن حتى يدركوا أنهم إنما يكشفون عن مدينة . ثم تمضي حقب بين الحفر والإهمال ، وأخيراً تتهيأ الظروف ويتهيأ المال فيتم الكشف أو يكاد عن مدينة بمبياى كلها .

وإذا بها مدينة كاملة الشوارع ، كاملة الأبنية ، كاملة في كل معنى من معاني الحياة المدنية ، فالبيوت وجدوها كما كانت ، والمحاكم والمسارح بقيت على حالها ، والمعابد والأسواق هي ما كانت .

حتى لوجدوا في بيت جراح عُدداً للجراحة كاملة . وحتى بيوت العاهرات وجدوها ، ووجدوا عليها رسوماً تغري بالذي فيها من شهوات .

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٩٧٩٩

العدد ٣٢٧ — الثلاثاء ٢٠ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ — ٣ من إبريل سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العــــــدد

هيئة الأمم المتحـــــدة

وتنظيم السلم المستقبل

تشهد مصر كدولة محاربة، لأول مرة في هذه الحرب مؤتمر الأمم المتحدة الذي سيعقد في مدينة سان فرنسيسكو بأمريكا في الخامس والعشرين من شهر إبريل الجاري للنظر في إعداد دستور الهيئة الدولية المستقبلة التي ستعنى بالسهر على سلام العالم وأمنه، وبذا يتاح لمصر أن تشترك مع باقي الدول المتحدة في العمل على تنظيم السلم المستقبل.

وسيكون أساس البحث في مؤتمر سان فرنسيسكو المشروع الذي وضعته الدول الديمقراطية الكبرى — بريطانيا وأمريكا وروسيا والصين — في مؤتمر «دمبرتون أوكس» بواشنطون بين ٢١ أغسطس و ٧ أكتوبر الماضيين. ومن المعروف أن هذا المشروع يقوم على إنشاء هيئة دولية جديدة تحل مكان عصبة الأمم القديمة وترمي إلى نفس الغايات التي أريد أن تعمل لها عصبة الأمم، وتتلخص في السهر على إقامة العدالة الدولية ومنع الحرب كأداة للسياسة القومية. ولكن الفشل المؤلم الذي لقيته عصبة جنيف في تحقيق مهمتها يحمل الأمم المتحدة على أن تلتمس لتحقيق هذه الأمنية العظيمة وسائل أنجع وأشد أثراً.

وتسمى الهيئة الدولية الجديدة في دستورها «بالأمم المتحدة» وقد حددت أغراضها تحديداً واضحاً على النحو الآتي:

١ — أن تسهر على صون السلام الدولي والأمن الدولي، وأن تتخذ لتحقيق هذه الغاية الإجراءات المشتركة الفعالة لمنع ما يهدد السلم، والقضاء على أعمال العدوان أو غيرها مما يكدر السلم، وأن تعمل بالوسائل السلمية على تسوية المنازعات الدولية التي يمكن أن تؤدي إلى تعكير السلم.

٢ — أن تعمل على تقوية أواصر الودة بين الأمم وأن تتخذ الوسائل المناسبة الأخرى لتقوية دعائم السلم العالمي .

٣ — أن تعمل على تحقيق التعاون الدولي في حل المسائل الدولية الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المسائل الإنسانية .

٤ — أن تغدو مركزاً لتنسيق أعمال الأمم في سبيل تحقيق هذه الغاية المشتركة .

وهذه الأغراض التي يراد أن تعمل لها الهيئة الدولية المستقبلة لا تخرج في مجموعها عما نص عليه في دستور عصبة الأمم القديمة ، وهو أنها تعمل لمنع الحروب في المستقبل ، وذلك بإقامة العلائق بين الأمم على أساس العدالة والشرف وتنمية التعاون المادي والعقلي بين الأمم .

ولا ريب أن اتحاد الأغراض التي ترمي إليها الهيئتان القديمة والجديدة يرجع إلى اتحاد البواعث والظروف ؛ فقد كانت عصبة الأمم القديمة ثمرة الحرب العالمية الأولى ، نبتت فكرتها في غمر الخطر الداهم الذي شعرت جماعة الأمم أنه يهدد كيانها واستقلالها . واليوم يعيد التاريخ نفسه فتشعر جماعة الأمم الديمقراطية خلال الحرب العالمية الثانية بنفس الخطر على حياتها وحرياتها أشد وأروع مما كان في الحرب الماضية ، وهو يصدر عن نفس المصدر ، أعني نزعة الاعتداء الألماني . وترى الأمم المتحدة وهي اليوم على وشك إحراز النصر ، أن هذا النصر لا يكفي لتحقيق السلم الدائم الذي تطمح إليه ، ما لم تتخذ لحمايته ضمانات ووسائل فعالة مشتركة تحول دون تكرار الاعتداء في المستقبل . وهيئة « الأمم المتحدة » التي اقترح انشاؤها في « دمبرتون أوكس » هي إحدى هذه الضمانات ، بل ربما كانت أهمها جميعاً ، ولهذا عنيت الأمم المتحدة أن تكون الأداة الدولية الجديدة التي ستقوم على حماية السلم في المستقبل أكثر مقدرة وكفاية على تأدية مهمتها الخطيرة مما كانت عليه عصبة الأمم القديمة ، وأن تزود بالقوى المادية التي تمكنها من تنفيذ قراراتها رغم كل معارضة أو مقاومة .

وهذا التباين في الروح والاتجاه بين عصبة الأمم القديمة وبين عصبة الأمم الجديدة يبدو على الأخص في أمرين : الأول أن العصبة الجديدة ليست مثل العصبة القديمة عامة أو عالمية في اتجاهاتها ، والثاني أنها تصطبغ بصبغة عملية واضحة .

فأما من حيث الاتجاه ، فإن اسم الهيئة الجديدة وهو « الأمم المتحدة » ينم عن نزعتها الدولية الخاصة ، فهي ليست كالعصبة القديمة تمنح حق الانضمام إلى سائر الدول المستقلة ، ولكنها بالعكس تحدد نوع الدول التي تسمح بقبولها بأنها الدول « المحبة للسلم » . وكانت روسيا وهي من خصوم العصبة القديمة ترى أن ينص على حرمان كل دولة تعتنق أو تبث مبادىء التفرقة الجنسية أو الدينية أو القومية أو تعتنق المبادىء الفاشستية ، من دخول الهيئة الجديدة . ولكن روعي في النهاية أن صفة الأمم « المحبة للسلم » تجب كل صفة أخرى غير مرغوب فيها . والأمر في قبول أعضاء العصبة الجديدة الذين ينطبق عليهم هذا الوصف موكول إلى مجلس العصبة والجمعية العمومية ؛ وفي وسع الجمعية أن تقبل الأعضاء الجدد أو أن تقصيهم ، ولكن باقتراح المجلس وإشارته . ويلاحظ في هذا الصدد أن دستور الهيئة الجديدة مستقل بذاته ، وأن يلحق بمعاهدات الصلح كما حدث لدستور عصبة الأمم .

وسيقوم هيكل العصبة الجديدة على خمس هيئات : أولها وأهمها « مجلس الأمن » ، ويتألف من ممثلي إحدى عشرة دولة من أعضاء العصبة ، منها خمس دول يحتل ممثلوها كراسيهم بصفة دائمة ، وهي بريطانيا العظمى وأمريكا واتحاد جمهوريات السوفييت والصين وفرنسا في الوقت المناسب . والدول الست الأخرى تختارها الجمعية العمومية لمدة عامين ولا يجوز اعادة انتخابها بطريق التوالي ، ويجرى التصويت في مجلس الأمن على الصورة التي أقرها مؤتمر القرم ، وهي

أن قراراته فى مسائل الاجراءات تصدر بموافقة أغلبية سبعة أصوات . وفى المسائل الأخرى تصدر أيضاً بموافقة سبعة أصوات بما فيها أصوات الأعضاء الدائمين . ويضطلع « مجلس الأمن » بمهمة الاشراف على صون السلام الدولى والأمن الدولى ؛ وذلك بالنيابة عن العصبة ، وطبقاً للدستور . ويتعهد أعضاء العصبة جميعاً بقبول قرارات هذا المجلس وتنفيذها . وللمجلس أن يفحص أى نزاع دولى يخشى منه على السلم . ويحق لأى دولة أن تعرض عليه مثل هذا النزاع سواء أكانت من أعضاء العصبة أم لا . ويطلب إلى الدول المتنازعة أن تسوى نزاعها بالوسائل السلمية ، فإذا أخفقت هذه الوسائل تولى المجلس الأمر بنفسه . وله عند الضرورة أن يلجأ إلى وسائل الارغام اذا لم تنجح الوسائل الدبلوماسية ، وله فى هذه الحال أن يلجأ إلى الأعمال الحربية ، سواء بالبر أو البحر أو الجو ، أو أن يقوم بتنظيم المظاهرات الحربية والحصار وغيرها . ويلحق بالمجلس تحقيقاً لهذا الغرض « لجنة عسكرية » تؤلف من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين ؛ وتقدم كل دولة من الدول المنضمة إلى العصبة طبقاً لاتفاق معين ، القوات المسلحة والتسهيلات العسكرية اللازمة ؛ وهكذا يغدو مجلس الأمن أداة قديرة ، تستطيع عند الضرورة أن تتخذ لصون السلم وسائل ناجعة سريعة الأثر .

والهيئة الثانية هى « الجمعية العمومية » وهى تتألف من ممثل جميع أعضاء العصبة ، وتجتمع مرة فى العام . ولها أن تبحث فى المبادىء العامة وأن تتقدم برغباتها إلى المجلس ، ولكن ليس لها أن تتدخل فى المسائل التى يتناولها المجلس (مجلس الأمن) بالبحث . والمفروض أنها فيما يتعلق بمسائل الأمن ، تفوض النظر فى شأنها إلى المجلس بالنيابة عن سائر الأعضاء . ومن الواضح أن واضعى دستور الهيئة الدولية الجديدة أرادوا الحد من اختصاصات الجمعية العمومية حتى لا تعرقل بتدخلها ومناقشاتها الطويلة أعمال المجلس ، كما كان يحدث فى عصبة الأمم . ويلاحظ أنه بينما يتاح للجمعية العمومية أن تجتمع مرة واحدة فى العام ، فإن المجلس يعتبر دائم الانعقاد فى أى مكان على يد سفراء الدول الممثلة فيه .

والهيئة الثالثة هى « محكمة العدل الدولية » وهى الهيئة القضائية لعصبة الامم الجديدة ، ويكون إنشاؤها بمقتضى لائحة تلحق بدستور العصبة . ولا مانع أن تكون هذه اللائحة هى لائحة محكمة العدل الدولية القائمة معدلة ، أو أن توضع لائحة جديدة . ويعتبر أعضاء العصبة بنص القانون من الموقعين على لائحة المحكمة الدولية .

وأما الهيئة الرابعة فهى « السكرتارية » وعلى رأسها « سكرتير عام » يناط به الإشراف على الأعمال الادارية الخاصة بالعصبة ، ويختاره مجلس الأمن ، ويحضر فى جميع الجلسات العامة لمجلس الأمن والمجلس الاقتصادى والمجلس الاجتماعى ، ومن حقه أن يلفت نظر مجلس الأمن إلى أى عمل أو أية حالة يخشى منها على السلام العام .

ويلحق بالعصبة الجديدة أيضاً مجلس الشئون الاقتصادية ومجلس الشئون الاجتماعية ، تفوض إليهما الجمعية العمومية النظر فى هذه الشئون ، ويختص كل منهما فى دائرته بالنظر فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية التى من شأنها أن تقوى أواصر التعاون والتضامن بين الأمم ، وأن تعاون فى تقدم الانسانية ورفاهيتها .

تلك هى عناصر الصرح الدولى الجديد الذى تفاهمت الأمم المتحدة على إنشائه ليشرف على السلام العالمى فى المستقبل ، والذى سيتخذ صورته النهائية فى المؤتمر القادم .

وإنه لمن سبق القول أن نحاول التحدث عما يرجى لمثل هذا المشروع الضخم من نجاح أو ما قد يصادفه من فشل . بيد أننا نستطيع منذ الآن أن نلمس فى المشروع الجديد محاولة واضحة لتلافى أوجه النقص التى أظهرتها التجارب فى دستور عصبة الأمم القديمة ، ولاسيما ما يتعلق منها بناحية السرعة فى العمل والقدرة على التنفيذ أو الالتجاء

إلى وسائل الارغام الفعالة .

وقد كانت عصبة الأمم القديمة من الناحية النظرية على الأقل تأخذ بأبعد مبادىء المساواة والديمقراطية ، سواء في طرق الانضمام أو تشكيل المجلس أو الجمعية العمومية . ولكن هيئة « الأمم المتحدة » تمتاز بتركيز قوىّ في السلطة والتصرف ، فهى منذ الآن تحتفظ للأمم المتحدة الكبرى الأربع أو الخمس بالكراسى الدائمة ؛ ومعنى ذلك أن الأمم المتحدة أو الدول الكبرى ستغدو صاحبة الكلمة الأولى في تسيير الأداة الدولية الجديدة . وإذا ذكرنا أن فرنسا لن تستعيد مركزها الدولى القديم قبل فترة طويلة ، وأن الصين لا تزال أمة ممزقة ، فإن الدول الثلاث الكبرى — بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا — هى التى ستأخذ في الواقع في هذا التوجيه بأعظم قسط . وقد كان هـذا الوضع مثار الاعتراض من بعض الدول المتحالفة الصغرى ، مثل بولونيا وهولنـدة والبلجيك . وقد قيل في ذلك بأن هذا الامتياز طبيعى للدول الثلاث الكبرى ، فهى التى ساهمت في كسب الحرب بأعظم نصيب ، واحتملت أعظم التضحيات ؛ وهى التى ستحتفظ في عالم الغد بأعظم قسط من القوى العسكرية ، ومن حقها وهى تضطلع بأعظم المسئوليات أن تحتفظ بأعظم قسط من السلطان والتوجيه . على أن ذلك لن يتخذ بأى حال صورة دكتاتورية يخشى من عواقبها .

وهـذا ما بسطته « التيمس » بوضوح غداة مؤتمر موسكو ، إذ قالت في تعليقها على قرار إنشاء عصبة الأمم الجديدة :

« إن عصبة الأمم المستقبلة لا يمكن أن يكون لهـا سوى أساس واحـد ؛ فهى لا يمكن أن تتجاهل حقائق القوة ، ولا يسعها أن تطبق نظرية المساواة في السيادة بين الدول إلى حـد الاعتراف لكل عضو بمفرده بحق التصويت الحر . ولا نستطيع أن نتصور أية هيئة عالمية بعد الحرب تستطيع أن تؤدى مهمتهـا إذا لم تتمتع بالتأييد المطلق من الدول الثلاث التى اجتمعت في موسكو . كما أننا لا نستطيع أن نتوقع لهـا الفشل إذا تمتعت بمثل هذا التأييد » .

والحقيقة أن كل شىء في تنفيذ مشروع عصبة الأمم الجديدة واستقرار السلم المستقبل يتوقف ، أولاً على اتحاد الدول الثلاث الكبرى ، أعنى بريطانيا وأمريكا وروسيا . وثانياً على ما يرجى من أن تقوم العصبة الجديدة بتنفيذ مبادىء العدالة الدولية بروح الإنصاف والحق ، واحترام إرادة الأمم في تقرير مصايرها وتحقيق أمانيها المشروعة . وهذا الاتحاد في التوجيه والعمل بين الدول الثلاث هو أكبر ضمانة للسلم المستقبل .

ومن الصعب أن تغدو عصبة الأمم الجديدة هيئة قديرة مسموعة الرأى والكلمة إذا وهنت دعائم هذا الاتحاد ، كما أنه ليس من المعقول أن تفكر أمريكا هذه المرة في ترك حلفائهـا والتخلى عن القيام بدورها في السياسة العالمية والارتداد إلى عزلتها القديمة كما فعلت في الحرب الكبرى ؛ فهى تخوض اليوم إلى جانب حلفائها الصراع المشترك لرد الخطر المشترك ، وقد امتزجت المخاطر والآلام والآمال هذه المرة بصورة لم يسبق لها مثيل . ولا بد لأمريكا على أى حال أن تبقى إلى جانب حلفائها حتى تصفى جميع المشاكل العالمية المترتبة على الحرب ، وحتى يستقر سلام العالم على أسس وطيدة الدعائم .

ومن جهة أخرى فإنه لا بد للعصبة الجديدة أن تحظى بتأييد سائر الأمم وثقتها لكى تستطيع أن تؤدى مهمتها الكبرى بنجاح ، ولا بد لهـا لاكتساب هـذا التأييد وهـذه الثقة أن تسير في أعمالها بروح جديد وأن تقيم الأدلة العملية على تمسكها بمبادىء الحق والعدالة الدولية . وقد كان من أهم أسـباب فشل عصبة الأمم القديمة أنها لم تحظ بمثل هذه الثقة لمـا كان يطبع تصرفاتها من اتجاهات خاصة تجانب روح العدالة المنشودة .

محمد عبد الله عنان

زعماء الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث :

خير الدين باشا التونسى

حوالى سنة ١٢٢٥ إلى سنة ١٣٠٧هـ
نحو ١٨١٠ — ١٨٨٩م

تَعَقَّلَ فرأى نفسه فى الآستانة فى أسرة غير أسرته ، فى بيت تحسين بك نقيب الأشراف . ليست سيدة البيت له أُمًّا ولا تحسين بك أبًا ولا أبناء البيت اخوة ، وانما يسمع همسًا أنه عبد مملوك على معنى غامض لم يفهمه أولاً — اين ولد ؟ وأين أسرته ؟ وكيف أتى إلى هذا البيت ؟ سؤال محيِّر كسؤال ابن الشبل البغدادى :

فـإذا الامتنان على وجـــود
لغير الموجَدِين به الخيار ؟
وكانت أنعماً لو أن كونا
نخـــير قبـــله أو نستشار

وقول أبى العلاء :

ما باختيـارى ميلادى ولا هرمى
ولا حياتى فهل لى بعد تخيير ؟

ونظر فرأى تحسين بك يوما يعرضه على رجل يفحصه كاتفحص السلعة ، ويصعِّد فيه نظره ويصوِّب ، ويختبره من قَرنه إلى قدمه ، ثم يدفع مالا فى يد تحسين ، وينتقل هو إلى يده ، وهنا يركبه مركبا يبحر به إلى تونس ، واذا به فى بيت جديد هو بيت أحمد باى ، باى تونس .

ماهذا الغموض كله ؟ .

تكشف له البحث بعد ذلك عن مأساة ؛ فهو شركسى الأصل ، من أسرة أباظه ، خطف وهو طفل على أثر غارة أو فتنة أو هجرة ، وبيع رقيقا فى سوق الآستانة ، فاشتراه تحسين بك ، وهـذا باعه إلى أحد وكلاء باى تونس الذى أنفذه لشراء السرارى والعبيد .

مأساة تبعث الأسى والحزن العميق ، قد حرمته أن يتذوق عطف أبيه وأمه ، ويتمم بحرمته ومى لا يعوضها شىء فى الوجود ، حتى لو نُعِّم فى قصر تحسين بك أو قصر باى تونس فما هذا النعيم ؟

وبيت تخفــق الأرواح فيــه
أحب إلى من قصر منيــف

وكل أكل فاخر وملبس باهر ونعيم باذخ لايساوى شيئاً بجانب نظرة ينظرها تحسين وأهله وباى تونس وبلاطه إلى هـذا الفتى على أنه عبد رقيق اشترى بدنانير معـدودة .

كان هـذا كل ما وصل إلى علمه من طريق اليقين ، ورجح عنده فيما بعد أن له أخاً فى مصر يشغل منصباً كبيراً فى الدولة المصرية ، ويملك ثروة طائلة ، فأبت على خير الدين كرامته وإباؤه وطنوته — وما قد يعقب ذلك من تفسيرات تؤله — أن يكاتبه ويخبره ، وفضل أن يحتفظ بذلك السر لنفسه وأقرب الناس إليه .

* * *

ومن قديم عرف الشراكسة فى العالم الاسلامى ، وهم قبائل بدوية تسكن البقعة الشمالية الغربية من بحر قزوين وجزءاً من ساحل البحر الأسود ، وكان عددهم كبيراً ، فلما احتلت روسيا أخيراً بلادهم تفرق كثير منهم فى تركيا وآسيا الصغرى ، وقد انتشر الاسلام بينهم وكاد يعمهم من نحو ثلاثة قرون .

وفى الشراكسة فضائل البداوة من الشجاعة والكرم ويمتازون بالنظافة والجمال ، عرف عنهم ذلك فكان الصغار والشبان والفتيات يختطفون أو يباعون ويصدرون إلى الممالك الإسلامية من عهد العصر العباسى الأول .

ولاتنسى مصر أنها حكمت بدولة المماليك الشراكسة من سنة ٧٢٤ — سنة ٩٢٣هـ فاتخذ منهم سلاطين مصر

عدداً وافراً واستخدموهم في أعلى مناصب الدولة وعهدوا إليهم بالشؤون الحربية ، فأمسكوا زمام الحصون والقلاع وعرفوا بالإخاء ومعاونة بعضهم بعضاً ، فلما أتيحت لهم الفرصة تغلبوا على الدولة وملكوا على البلاد أولهم السلطان برقوق ؛ وظل الحكم فيهم إلى أن انهزم طومان باى أمام السلطان سليم ، وكان مع طومان باى هذا أربعون ألف شركسي ذابوا كلهم وذووهم ومن أتى بعدهم في الأمة المصرية ، فكانوا عنصراً من عناصر دمها . كما لا ننسى أن من أهم أسباب الثورة العرابية أول أمرها اعتقاد الضباط المصريين أنهم مغبونون اذا قيسوا بالضباط الشراكسة لترقيتهم دونهم .

* * *

كانت تونس حين حل إليها خير الدين كسائر بلاد الشرق مقراً لحضارة قد هرمت ، ذهبت روحها ولم يبق إلا رسمها .

الحياة العلمية فيها أشبه بما كان في مصر قبيل عهد محمد علي ، كتاتيب بدائية منتشرة في القرى والمدن غايتها تحفيظ القرآن ، وقلما يبلغون هذه الغاية ، ويستطيع التلميذ بفضل مناهج الدراسة فيها أن يقضي عشر سنين وأكثر من غير أن يحسن القراءة والكتابة ، وكل ما يبلغه النجيب منهم أن يحفظ القرآن أو بعضه .

وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة وهو صورة مصغرة من الأزهر في ذلك العهد ، تقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وعقائد ، وعلوم اللغة من نحو وصرف ومعان وبيان ، في كتب مقررة هامتون وشروح وحواش ويقضي الوقت في تفهم تعبيراتها وإيراد الاعتراضات عليها والاجابة عنها ؛ فالعلم شكلي علم لا علم ، والنتاج جدل لا حقائق ، والناجح في الامتحان الذي يستحق أن يسمى « عالما » أقدرهم على الجدل وحفظ المصطلحات الشكلية . أما الجميع فسواء في عدم التحصيل ؛ إذا مسوا الحياة الخارجية فالمناقشة العنيفة في أن شرب الدخان حلال أو حرام ، والنية أشد حرمة أم سماع الآلات الموسيقية ، و « خيال الظل » تجوز رؤيته أو لا تجوز ؛ وجزء كبير من السكان بدو لا يعرفون من الاسلام إلا الشهادتين ، ولا يصل إليهم شيء من علم الا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئاً من الدين ، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وانجليزية مدارس تعلم أبناءها وقليلا من أبناء البلاد اللغات والجغرافيا والتاريخ والحساب والجبر والهندسة ، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة ، فاذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم .

عماد أهلها الفلاحة ، وآلاتها وأساليبها هي بعينها ما كانت عليه في القرون الأولى قبل الاسلام وقبل الرومان ، وساهم بعض الأوربيين في الزراعة ، فطعموا الأشجار ويخروها واقحوها ، فدرت عليهم من الأرباح مالم ينله سكان البلاد . ثم قبض هؤلاء الأجانب على الأسواق الخارجية ، وخاصة في أكبر غلة للبلاد ، وهي زيت الزيتون ، فمن ناحية أنشئوا المعاصر تدار بالبخار ، ومن ناحية وضعوا أيديهم على ما ينتجونه وما ينتجه الاهالي واحتكروا التجارة إلى الخارج إلا القليل النادر من أهل البلاد . وكان التونسيون يصنعون نوعا من النسيج اسمه « الشاشية » ، وكانت مصانعها كثيرة ، وكانت مصدر رزق لكثير منهم ، ولكنها كانت تصنع بالآلات القديمة ، فلما تقدمت الصناعة في أوربا ، وكانت الآلات تدار بالبخار وتنتج نتاجا كثيرا حتى من الشاش هذا رخص سعره ، وأصيبت الصناعة في تونس بضربة قاضية حتى لم يبق من مصانعها التي تبلغ الألف غير ثلاثين ؛ وناهيك عما يجره ذلك من الفقر والخراب ، كما زاحمت « الجَرْمَة » « البُلْغة » وقضت عليها ، واختل الميزان التجاري فكثر الوارد وقل الصادر ، وتغلب الفرنساويون والايطاليون على السوق وأمسكوا بزمامه .

وكان مما أضعف التجارة سوء أدوات النقل وفساد

الطرق ، فهم ينقلون غلاتهم على الابل والخيل والبغال ونوع من العربات البدائية ، وتنقل القبائل البدوية غلاتها في قوافل ، فاذا كان الشتاء ، وأمطرت السماء ، تشعثت الطرق فتعطلت الحركة .

وأما إدارة البلاد ففوضى أيّ فوضى ؛ الحاكم حاكم بأمره ، وأحب الناس إليه من يجمع له المال من حله وحرامه ، ولا ضبط في دخل ولا خرج ، والعدل والظلم متروكان للمصادفات ، فان تولى بعض الأمور عادل عدل ، وكان العدل موقوتا بحياته — وقلما يكون — ونظام القضاء والجيش والادارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالي ، وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية ، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها .

وكانت تونس إذ ذاك تحت حكم البايات ، والباي في تونس أشبه كالخديو في مصر ، وكان الباي يتبع الدولة العثمانية تبعية ضعيفة ، فيساعدها في حروبها ويحمل إليها مقدارا من المال وكثيراً من الهدايا ، وإذا حدث مشكل دولي في تونس تدخلت الدولة العثمانية لفض النزاع ، وأرسلت مندوبا من قبلها ليشرف على الحل ونحو ذلك . أما فيما عدا هذا فولاية تونس شبه مستقلة والباي حر التصرف .

ولكن فرنسا كانت قد استولت على جارتها « الجزائر » ووضعت نصب عينيها إضعاف علاقة تونس بالدولة العثمانية شيئاً فشيئاً وتوثيق علاقتها هي بها شيئاً فشيئاً وانتهاز الفرص للتغلب عليها نهائيا .

وكان باي تونس الذي ملك خير الدين هو الباي أحمد باشا الذي كان واليا من (١٢٥٣ — ١٢٧١) وقد أنعم عليه السلطان محمود بالحلة السنية ورتبة المشيرية . ونحن نعلم أنه في عهد السلطان محمود هذا ألجأته الظروف القاسية ، وضغط أوربا ومطالبها وضعف حال دولته الداخلية ، إلى أن يجتهد في تنظيم الدولة على أسس جديدة يقتبس فيها من نظم أوربا وقوانينها وإدارتها .

وكان مما عمل أن أرسل إلى الباي أحمد هذا يطلب إليه أن يدخل الأنظمة الحديثة في تونس وخاصة في الجيش ، فطلب الباي الإمهال قليلا والتدرج في التغيير بسبب عادات البلاد وتقاليدها وعقليتها ، ثم أخذ فعلا في تنظيم الجيش .

* * *

في هذه البيئة كلها التي وصفناها وصفاً موجزاً جدا وضع الشاب خير الدين قدمه في تونس .

(يتبع) أحمد أمين

أنشديني ..!!

إدفعي أيتها الدمعةُ أبوابَ شُئوني
واخرجي من عالم الذكر إلى دُنيا الفنون
واذكري ليل آلامي وبثّي وشجوني
أنتِ قيثاري وأنغامي وشعري ولحوني
أنتِ آمالي وشَجوي وهُيامي وحنيني
أنتِ معنىً حال في قلبي وَما غنّته جفوني
لفظه وجدي وتفكيري وهمسي وأنيني

أنشديني إنني شعرٌ شَجيٌّ .. أنشديني
واطربي الليلَ بلحنٍ عبقري واطربيني
واسكبي ما شئتِ في آذاننا سحرَ العيونِ
أنتِ هذا النغمُ الباقي على مرّ السّنينِ
أنتِ سلوايَ إذا زادت على الدنيا شجوني
أنتِ ريٌّ لفؤاد بالغ الوجدِ حزينِ
راسف في القيد من حُكم القادير سجينِ
خافق لا يَعرف الراحة أو معنى السُّكون
ثائر يبكي ويستبكي هواهُ كُلَّ حينِ
أنشديني أنشديني

حسن أحمد

أدب....

كنت في مكتبي ذات مساء حين صاحت بي ابنتي من غرفة درسها المجاورة :

— بابا !

فرفعت رأسي قائلا : نعم ياحضرة . . . ؟

قالت : ماذا يعني القَسِمُّ ؟

قلت : من هو ؟ !

قالت : القَسِم ! القَسِم !

قلت : وما القسم ؟

قالت : هذا ما أسأل عنه .

قلت : إذاً هو شيء لا نعرفه نحن ولا أنتم !

قالت : فما القَسَنع ؟

قلت : ولا ذلك أيضا .

قالت : فما القَدَع ؟

قلت : ويحك ؟ أين أنت ؟ وعلى أي شيء سقطت الليلة ؟ !

قالت : هذه نصوص اللغة (المختارة) أحفظها !

قلت : و « مختارة » أيضا ؟

قالت : أجل ! هل تحب أن أسمعك شيئاً في وصف الخيل ؟

قلت : هات !

قالت : فركبناها على مجهولها

بصلاب الأرض فيهن شجع

كالمغالي عارفات للسرى مسنفات لم توَشَّم بالنِّسع

فتراها عُصُفًا منعلة بنعال القَين يكفيها الوقع

يدَّرعن الليل يهوين بها كهوى الكدر صبَّحن الشرع

فتناولن غشاشا منهلاً ثم وجهن لأرض تنتجع

قلت : كفى ! كفى ! أين الخيل في هذا كله ؟

قالت : أتسألني من الخيل . وهذه كوكبة كاملة تسير أمامك كالعاصفة في اندفاعها ، فكيف لاتراها أوتسمع وقع حوافرها التي « تكفيها الوقع »

قلت : سبحان الله ! أريني يابنيتي أنظر ماذا تقرئين ؟

أقبلت علي من جانب غرفتها تسعى وفي يدها كتاب . فإذا به قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري . فمضيت أقرأها . وكلما أوغلت فيها ازددت شكا في أمر نفسي ، وتحسست رأسي بيدي لأتأكد أنه في مكانه . فقد اجتمع المتصران ولكن لم يحصل بينهما التفاعل المعتاد . . . هذا كلام أغلب الظن أنه عربي . وهذا رأسي الذي اعتقدت أن أفهم به الأشياء — بعضها على الأقل ، — فأين الفهم ؟ ! وما الذي عطله إلا أن يكون خلل طرأ على صفة أحد المتصرين حال دون تفاعلهما !

وأعدت القراءة ثم أعدتها ، واستعنت بالقواميس التي بجواري حتى أتممت « ترجمة » القطعة كلها كلمة كلمة ، فإذا الشاعر « القلق » يريد أن يقول إن فرسه فيها سرعة . ثم شبهها بالسهم ، وبالعاصفة ، وبالقطا حين تهوى إلى الماء لتأخذ حاجتها منه ثم تطير . . .

قلت : « الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرنين » — صدق من قال :

« زرق العيون عليها أوجه سود ! »

قالت الفتاة : الله . الله ! هل جاء دورك أنت بعد اليشكري ؟ أم أن في الناس من لايزالون يستغيثون من الرمضاء فلا يجدون إلا النار ؟ !

قلت : على رسلك يافتاة ! إنما أردت أن أقول إن « سويداً » وضع معانيه الجميلة في جوف ألفاظ خشنة . ثم جعلت أشرح لها الكلام كما فهمته ، فلوت شفتها . واستردت كتابها . وعادت أدراجها . وأنا أفهم كل ماتريد أن تقول . فإن أزمة المساكن الحالية علمت هؤلاء التلاميذ كيف يدركون قيمة الأبراج الخالية في عقولهم ، فهم لايريدون أن يسكنها « اليشكري » وكل من هب مثله

أو دب ما دامت الدنيا تزخر بالكنوز الأخرى التي هي أجدر بأن تأوي إلى هذه العقول !

* * *

لقد أسمعنا الأستاذ أحمد الزين منذ ليالٍ في دار لجنة التأليف أبياتاً قالها شوقي في بطل الحديد المصري الأستاذ سيد نصير عند حصوله على لقب البطولة العالمي . فروى لنا كلاما أرق من النسيم وأسمعنا معاني أسمى من ماء المزن . وإلى أستاذنه في نشرها لتكون مثالا لما يصح أن يحفظه التلاميذ . أما اليشكري فحسبه أن يقرأ أو يبقى مدوناً في بطون الكتب . فلا كلامه بكلام العصر ولا معانيه من معانيه . فقيم حفظه وتحفيظه وبين أيدينا هذه الروائع التي تقوي الملكات وتلين اللسان ؟

قال شوقي لا حرمنا الله منه :

قل لنصير وأنت بَرٌّ صادق   أحملت إنساناً عليك ثقيلا ؟
أحملت دنيا في حياتك مرة
أحملت يوما في الضلوع غليلا ؟
أحملت طغيان اللئيم إذ اغتنى
أو نال من جاه الأمور قليلا
أحملت ظلما من قريب غادر
أو كاشح قد كان أمس خليلا
أحملت مَنًّا في نهارك مرة
والليل من مُسْدٍ إليك جميلا
أحملت في النادي الغبي إذا التقى
من سامعيه الحمد والتبجيلا
تلك الحياة وهذه أثقالها
وُزِن الحديد بها فكان ضئيلا

فانظر كيف يكون الكلام في الحديد . ثم اعرف كيف ينبغي أن يكون الكلام في غيره من الموضوعات . . ونحن لا نريد باليشكري ولا بغيره شراً . فليبق كلامه وليتذوقه المتذوقون . ولكن اعتراضنا على أن نحشو أذهان الصغار بمثل كلامه ، فنكون كمن رص المدر في صوانه رصًّا واللؤلؤ منثور بين يديه لو شاء ازَّيَّن به واقتناه .

* * *

ولقد أذكرني أبيات شوقي بأبيات رقيقة أخرى قرأتها حديثا من نبات القطن . وهو موضوع مصري يجب أن لا تخلو حافظة تلميذ من تلاميذنا من كلمة منه أو كلمتين . وها أنا أضع هذه الأبيات تحت أنظار من يشاء من أساتذتنا لتكون مثالا آخر لما يصح أن يحفظه التلاميذ — قال الشاعر الرقيق :

تكوَّن القطن من يأس ومن أمل
فأسود باطنه وابيض ظاهره
بأحسن منظره بأقبح مخبره   بيض أساريره سود سرائره
جمال كل نبات في شبيبته   وحسنه هو إن شابت غدائره
يفي ويغدر أحياناً . ويا عجبا
وافيه في مصر مرجُوٌّ وغادره

فتأمل في حسن سبك العبارة ، وفيما تنطوي عليه من ضروب البيان والبديع وفي إيجازها البليغ ، وفي تلك الملاحظة الدقيقة الصادقة التي تضمنها البيت الأخير ، وهي تلخيص بديع لجميع الروابط الاقتصادية التي تربط مصر بمحصولها الرئيسي .

* * *

على أن في أمر هذه النصوص التي تعطي للتلاميذ لحفظها كلاما نود اليوم أن نقول بعضه ، ونرجو أن يتقبله منا من يعنيه هذا الكلام قبولا حسنا . فقد وقعت في يدي مجموعة أخرى من النصوص أراد فيها جامعها أن يستعرض للتلاميذ أنواع الكلام ليعرفهم بغثه وسمينه . وليدربهم على تقديره ووزنه . ويفقههم في أمور نقده . فأورد كلاما على أنه ركيك وكان الكلام ركيكا حقا ووفق صاحب المجموعة في اختياره أحسن توفيق . ولكنه مع الأسف لم يصب مثل هذا الحظ عندما أراد أنه يختار ما يمثل به

الكلام الجيد . فقد كانت القطعة الآتية من بين مختاراته :

قال المنفلوطي من رسالة طويلة في الرحمة :

أحسن إلى الفقراء والبائسين وأنا أعدك وعداً صادقاً أنك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك أنك أكرم مخلوق وأشرف إنسان ! ... لو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عار ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع واطمأنت الجنوب في المضاجع . . . .

(وإلى هنا والكلام هين سائغ يجري في مجراه . ولكن استمع إليه بعد ذلك إذ يقول) : ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام ا هـ

وعلق صاحب الكتاب على هذا الكلام فقال : أي قارىء لهذه العبارة وفي قلبه ذرة من الشفقة لا يشرك الفقراء في ماله ويخلطهم بعياله ! ؟

أما أنا فقد قرأت هذه القطعة فما إن جئت على الصورة المرسومة في كلماتها الأخيرة حتى قهقهت ضاحكاً . فلقد أذكرتني بالأيام الخالية . أيام « سيدنا » الذي كان يضع محبرته النحاسية الطويلة في حزامه . فيمسك باللوح الصفيح بيسراه ويعتمد به على صدره ثم يستل من هذه المحبرة قلماً من القصب يمسح بسنانه على طرف ليقته ثم يغمسه في المداد . ويأخذ في الكتابة ثم لا يلبث المسكين أن يخطىء فيهوي بلسانه على الحرف الذي لا يعجبه ولا يزال يلعقه حتى يمحوه من صحيفته . . . تلك أمة قد خلت . فإن كانت صورها قد أوحت إلى كتابها بتشبيهاتهم التي قد تكون سائغة في جيلهم فما لصغارنا نحن وهذه التحف الأثرية نزودهم بمتاعها البائد . ونمدهم بأدواتها الممسوخة ؟

إن في الأدب أبواباً كثيرة . ونحن نقترح اليوم أن يضاف إليها باب جديد هو باب « الأدب المضحك » نحفظ فيه هذا الكلام وأمثاله وإن أمثاله لكثير .

أذكر أني كنت أقرأ منذ أيام في كتاب « صهاريج اللؤلؤ » للسيد توفيق البكري . وهو من الكتاب الراسخين : فظللت أستمتع بقوة كلامه فترة ثم رأيته يقع هو الآخر في شيء يصلح لهذا الباب الجديد الذي نفتتح فاتحة ! كتابته في هذا المقال .

قال رحمه الله يصف القسطنطينية حين رحل إليها فذكر كيف نزل من السفينة وركب قطاراً سرى به في الليل « كأنه ثعبان . له عينان تقدان . ينساب في القيعان . ويلتوي على الرعان (وهذا كلام لا بأس بما فيه من محاسن ، ولكنه ما لبث أن قال مسترسلا في وصف هذا القطار) : أو أنه مبتدأ متعدد الأخبار . أو كلم مجرور بحرف جار . أو أنه بيت ذو تقطيع . من البحر السريع (وهي كما نرى كلها نكت في قافية علم النحو والعروض . ولذلك رشحناها لهذا الباب الجديد الذي يليق بها . على أن الأمر ما يزال يقع إلى هذا الحد في دائرة الاحتمال والقبول . ولكن النقلة الثالثة هي التي صدمت ذوقي . ولم أجد لها ما أستطيع أن أبررها به . فإن الكاتب انتقل إلى وصف حسان القسطنطينية فقال) : حسان غيد . كالأماليد . عليهن مطارف كألوان الحرباء ! وأزهار الروض من حمراء وصفراء ! (ما عليها !) خد تحت النقاب ، كالجمر في كأس الشراب (جميل جداً .) في وجوه كالدنانير وأوساط . . . . . . كأوساط الزنابير . اسمع . اسمع . إنه يقول أوساط كأوساط الزنابير ! فلا حول ولا قوة إلا بالله ! أم ترى ماذا كان ينبغي أن أقول ؟ ! إذ كيف تخطر هذه الزنابير ببال كاتب يفكر في الحسان الغيد التي كالأماليد . . . وفي دقة أوساطهن . . فبدلا من أن يقول إنها أوهى من جناح الحب كما يقول بعض الشعراء ، يقول عنها إنها كأوساط الزنابير ! ؟ لقد أراد أحد الشعراء تقبيح الورد فشبهه من حيث هو جسم أحمر في وسطه غبش أصفر بمقعد في البغل وهو باق روثه ! فهل فعل السيد أقل من هذا وهو يصف وسط الهيفاء بأنه كوسط الزنبور ؟ !

* * *

وللسيد مقال آخر وصف فيه غاب بولونيا فى باريس فقال: بطاح فى بطاح. وشجر دواح. وطرق بين الأدغال كهدى فى ضلال. كأن أغصانها وهى تميل وتعتدل شارب ثمل (وهذا جميل حقا). وفى جوانب هذه الحرجة صخور وشعاب. وأحجار وهضاب. تجرى بينها خليج كأنها أراقم جدت فى الهرب «ليس هذا ولا بد!» وكأن كل خليج حسام والظل صداء. أو أن ذلك الظل عذار فى خد أسيل. أو طرة على جبين صقيل «وكل هذا حسن وكلام خفيف الظل، ولكن صاحبه مالبث أن عاد إلى ما اعتاد أن يقع فيه من التشبيهات المصطنعة المتكلفة فقال: «وكأن الحصباء فى الماء. ثنايا عذاب فى رضاب!» فلم أملك أن أتصور ذات هذه الثنايا وقد سال لعابها على صدرها كالأطفال لأن التشبيه يوحى بهذه الصورة»

وأذكرنى السيد بقوله هذا كلاما للقاضى الفاضل — ولعله أستاذ السيد الذى تلقى عنه هذه الصناعة — وهو يصف محاصرة جيش صلاح الدين لبيت المقدس فقال: زاول المدينة من جانب فاذا هو أودية عميقة: ولجج وعرة غريقة. وسور قد انعطف عطف السوار. وبروج قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار «كلام!» وقدم المجنيقات... «وهنا بيت القصيد.» فصافحت السور فاذا سهامها فى ثنايا شرفاتها سواك!» لا فض فوك أيها الفاضل المتعمل...! ترى كم سماء من سماوات الخيال حلقت فيها قبل أن تقع على هذا التشبيه العلوى الغريب!؟»

على أن مصيبة الذوق فى أمثال هذه التشبيهات كلها أخف مما وقع لى يوما وأنا أقرأ لشاعر يريد أن يصف منجنيقاته على طريقته الخاصة. فقد شاء غفر الله له أن يرى بقاذفة من قذائف تشبيهاته لن تدرك غايتها منجنيقات القاضى الفاضل....! أراد أن يقول إنه يرمى أعداءه بأحجار صلبة مستديرة قوية. فلم يفتح الله عليه إلا بقوله:

جلاميد علاّن الأكف كأنها
رءوس رجال حلقت بالمواسم!

فانظر أية صورة رسمها هذا الفنان الفذ ليوم العيد فى بلده! إنى منذ قرأت هذا البيت لا أذكره مرة إلا وتسبح فى ذهنى أشباح رجال هذا الشاعر وهم يسرحون ويمرحون ورءوسهم المستديرة الخضراء من أثر الموسى فى يوم عيدهم ليوحوا بمنظر هذه الرءوس الكريمة إلى خاطر شاعرهم المبدع بهذا المعنى الخطير الذى وقع عليه!

***

ونخشى أن نستطرد فى هذا الحديث فنفعل فعل الصديق الجاهل من حيث لا نشعر. ونفسد ذوق القارىء بكثرة ما نعرض عليه من هذه الأمثلة الفاسدة. ولعلنا نعوضه خيرا من تشبيه السيد البكرى لحصباء الماء التى كأنها ثنايا فى رضاب، بكلام الشاعرة الأندلسية الرقيقة التى نزلت بواد جميل قالت فى وصف أشجاره وحصبائه:

وقانا لفحة الرمضاء واد   سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا   حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا   ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا   فيحجبها ويسمح للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى   فتلمس جانب العقد النظيم

***

ولنجعل هذا الكلام الحسن الجميل مسك الختام.

ع. ح

لا تغضب يا سيدى!

هذه كلمة أوجهها إلى حضرات الغاضبين من قرائى الأعزاء ، الذين بعثهم الغضب على تكلف المشقة فى الكتابة إلى رداً على سؤالى الذى أرسلته على صفحات الثقافة منذ حين . ولست أنكر أن غضبهم لم يخلف فى نفسى إلا الشكر والسرور ، لأنه دليل على قوة التجاوب الذى ينبغى أن يكون بين الكاتب والقارئ ، فيما يمس شئون الحياة . ومهما يكن من الأمر فإن ذلك الغضب لم يكن قاسياً بل لم يكن خالياً من حسن الظن . فليس من الضرورى على ذلك أن أبين مقاصدى أو أن ألتمس لنفسى المعاذير فيما كتبت ، فقد كفانى قرائى الأماثل مئونة هذا الاعتذار لأنهم حاولوا فى غضبهم الاعتذار عنى وتوكيد حسن قصدى . فشكراً ثم شكراً .

على أنى لا أزال أكرر سؤالى وأنتظر الجواب صريحاً بغير لوم ولا غضب ، وإنه لمن حق كل فرد أن يبدى ما فى نفسه من حيرة وأن يجهر عما يجيش فى صدره من أسئلة . وليس أضر علينا من كتمان ما يدور فى صدورنا ، ومداراة ما نحسه من العيوب فى نفوسنا ؛ فإن أول مراتب الاصلاح أن نعرف العيوب التى فينا ثم نحاول أن نجد لها العلاج بمبادلة الآراء وتقليبها على وجوهها المختلفة فى صراحة تامة وإن كانت الصراحة أحياناً تتهم بالعنف .

وقد يكون العنف فى إظهار العيوب أحب من الترفق ، فهو يهز النفوس ويحملها على الالتفات إلى خطورة التساهل والتغاضى أو الرضى والجمود .

ولست أدرى ! لعلى لم أوفق فى سؤالى السابق إلى تصوير المعنى الذى قصدته ، أو لعل سؤالى لم يتخذ الصورة التى تؤدى إلى تبيين المقصود منه ، ولهذا فأنا أعيده هنا وأحاول أن أشارك فى الإجابة عليه .

أما السؤال فهو : « هل نحن أمة بالمعنى المفهوم من لفظ الأمة ؟ ! » . . .

وينبغى لنا أن نتغلغل قليلا وراء الألفاظ إلى الحقائق التى دونها ليكون تفكيرنا واضحاً خالياً من الغموض . فينبغى أول كل شىء أن نذكر أن الأمم جماعات من الناس تقيم فى قطع من أرض الله الفسيحة كل منها يختص بإقليم يعيش فيه ويسعى فى التماس الرزق من ثمراته . فالأمة المقيمة فى إقليم محدود يجب أن تتذكر أنها تمتلك قطعة من أرض الله ، وأن عليها أن تشكر الله على أنه قد وهب لها إقليمها لتبتغى منه الرزق وتسعى نحو العلا فيه ، وتشارك الأمم الإنسانية الأخرى فى الوصول إلى هدف الانسانية الأسمى من الرقى .

والأمة المقيمة فى قطعة من أرض الله ينبغى أن تعد نفسها محظوظة سعيدة ، مثلها فى ذلك مثل الرجل الفرد إذا أنعم الله عليه بمزرعة مثلاً يصرف إليها عمله ويعيش من ثمارها بكده وذكائه .

ولكن الرجل الفرد إذا أفسد مزرعته وأهملها لم يجد من يؤاخذه على ذلك ولا يصيبه من إهماله إلا جزاء واحد وهو الفقر . وأما الأمة فإنها إذا أفسدت وأهملت وقصرت عما يجب عليها أسرعت إليها المؤاخذة والعقوبة بصورة عملية معروفة .

فإن الأمم يقف بعضها من بعض موقف الترصد والتحفز ، فإذا رأت أن أمة منها تفسد فى أرضها وتنصرف إلى التافه السخيف وتقعد عن الانتفاع بخيرات الأرض التى وهبها الله لها ، ولا تشارك فى التسامى نحو هدف الانسانية الأعلى من التقدم — إذا وجدت الأمم أن إحداها تقصر مثل هذا التقصير أجمعت كلها على أن تلك الأمة المقصرة ليست أهلاً للتمتع بإقليمها ولا بالسيادة فيه والاستقلال به ، فلا تلبث إلا قليلا حتى تنبعث من بينها أمة قوية تستولى على ذلك الاقليم عنوة وتطرد عنه سادته ، وتتولى هى الانتفاع بخيراته ، وتكون هى السيدة ، وتصبح الامة المقصرة المسكينة

ولا خيار لها إلا بين أن تخرج من أرضها وبين أن تقيم فيها على الذل والعبودية .

هذا تصوير بسيط لما يحدث في الحياة في صور متعددة .

والحقيقة التي نريد أن نخلص إليها هي أن الأمة إذا لم تكن صالحة للحياة لا تلبث أن تفقد كيانها ، لأن حياة العالم قائمة على تنازع البقاء ، ولا تبقى أمة فيها حرة مستقلة إلا إذا كانت جديرة بالحياة الحرة المستقلة .

وأفراد الأمة جميعاً متضامنون في واجب المحافظة على الأرض التي وهبها الله لهم ، ومتضامنون في واجب القيام على حراستها ودفع الأذى عنها وحفظها ممن يبغي الاعتداء عليها ، كما أنهم متضامنون في استثمارها على أحسن وجه والسمو بالحياة فيها إلى أعلى مستوى بلغه الانسان ، هذا مسلم به . أليس كذلك ؟ .

والأفراد جميعاً في كل أمة عليهم واجب أول لا مفر لأحدهم منه ، فإذا تهاونوا فيه تعرضوا جميعاً للهلاك ، وهو أن يكونوا كتلة اجتماعية واحدة تسعى إلى غاية اجتماعية واحدة ، وأن يكون لكل منهم وظيفة يؤديها في نظام اجتماعي عادل يكفل لكل منهم حقوقه ويعطيه قسطه من الخير ، فالتضامن الاجتماعي والعدل الاجتماعي أول شروط المجتمع الصالح الذي يريد البقاء كأمة حرة في الحياة الانسانية .

فالأمة المفككة لا تصلح للحياة ، والأمة التي ليس لها غايات واحدة لا تصلح للحياة ، والأمة التي تفقد العدل الاجتماعي ويظلم بعضها بعضاً وتتنافر قلوبها إلى طبقات متباعدة أو طوائف متشاحنة متطاحنة يحقد بعضها على بعض لا تصلح للحياة ، والامة التي لا تجتمع على مثل عليا ولا على أسس ثقافية متجانسة بل تكون لها أسس ثقافية متنافرة متباعدة بعد ما بين المشرق والمغرب ، والتي لا يكون لها مثل عليا أو تكون لها مثل متنافرة ، هذه الامة لا تصلح للحياة . والأمة التي اختلفت ثقافتها وتفاوتت عقلياتها ونشأ من ذلك تفاوت واضح في سلوكها وأذواقها وسبل حياتها ، لا تكون أمة صالحة للحياة ، أليس هذا مسلماً به ؟ .

فلنعمد الآن إلى نوع من التمثيل ، ولنتصور أسرة مكونة من عدد كبير من الأفراد بعضهم رجال وبعضهم شبان وفيهم النساء والفتيات والأطفال ، ولنتصور أنها أسرة فذة في نوعها ، قد عزم كل من أفرادها ألا يهتم بغيره ولا يعبأ بأن تربطه بسائر الأسرة أواصر القربى واتحاد الفكر .

فأصر كل فرد من أفرادها على أن يكون أمة وحده في كل شيء ، في ملبسه وفي مسلكه وفي عقيدته وفي أفكاره ، لنتصور أسرة كهذه قد سار كل فرد فيها على رأيه وهواه في كل شيء ؛ فرجل منها أعجبه أن يلبس طرطوراً أحمر مثلا وقميصاً وبنطلوناً لونهما أصفر ، ورجل آخر أعجبه أن يلبس عمامة زرقاء وعباءة خضراء ، ثم أبى أن يضع قدمه في حذاء ، وهكذا سائر الرجال تفنن كل منهم في ابتكار نوع من أنواع الثياب وأعجبته هيئته في ذلك النوع فأصر على التزين به ، وإذا كلمه أحد في ذلك أبى أن يسمع له كلمة وقال له : « هذا ذوقي وهذا رأيي فانصرف عني » . وكذلك النساء كل منهن اختارت لنفسها حلة مبتكرة وزيا يعجبها وحدها ولا ترضى به بديلا . ثم الشبان والشابات كذلك كل منهم مضى مع هواه في اختيار ثيابه ولم يرض أن يلبس إلا ما يعجبه هو دون سائر الناس .

تصور أسرة مثل هذه إذا جلست على مائدة الغداء كيف يكون حالها ؟ . أيمكن أن يجد أحد من أفرادها شهوة للطعام أو وقتاً لأخذ نصيبه من الألوان التي على المائدة ؟ لا شك في أن القارىء العزيز يسلم معي بأن أغلب الظن أن يقبل بعضهم على بعض ضاحكا ساخراً منتقداً ، وقد يثور بينهم النزاع أو الشجار على شيء مما يكون بينهم من الحديث حتى ينتهي بهم الأمر جميعاً إلى أن يقوموا عن المائدة جياعاً ، أليس كذلك ؟ .

والآن فلنجمع إلى ذلك الوصف وصفاً آخر . فهذه الأسرة السكينة تختلف في عقولها مثل اختلافها في اختيار ثيابها . لا بل إن اختلاف افرادها في ذوق اختيار الثوب ليس إلا نتيجة لتباعد ما بين طرق تفكيرهم .

فلو فرضنا أن هذه الأسرة عزمت يوما على أن تذهب إلى مكان الصيف مثلا لتقضى أياما للاستجمام ، أيكون من اليسير عليهم أن يختاروا مكانا يذهبون اليه ؟ أظنني لا أبالغ إذا قلت إنهم سيجمعون إجماعا لا شذوذ فيه على رأى واحد ، وهو أن يسير كل منهم إلى مصيفه الخاص الذى يختاره لنفسه ، فاذا انصرفوا تخير كل منهم أن يختار الآخرون جهات غير التى عزم هو على الذهاب اليها . ولو أردنا أن نرخى العنان للخيال ليتصور أحوال هذه الأسرة السكينة في إصباحها وإمسائها لصورنا لأنفسنا قصة ممتعة ممتلئة بأنواع المفارقات وعجائب الأقوال والأفعال . ولست أظن مثل هذا الموضوع الطريف على أحد نوابغ شباننا من مؤلفى القصص ، فهو جدير أن يبدع في تأليف قصة بارعة إذا استطاع أن يصف حياة هذه الأسرة السكينة .

وهذه الأسرة إذا أرادت يوما أن تفكر في شأن من شئونها كانت مذاهب أفكارها مختلفة متعددة بعدد أفرادها فلكل فرد منها له شخصيته التى لا يتنازل عنها ، ولكل فرد منها وجهته التى لا يرضى بديلا بها . هى أسرة بالمصادفة لأنها انحدرت من أب واحد وأم واحدة ، وأقامت بالمصادفة في بيت ورثته عن الآباء والأجداد . ولكنها أسرة مفككة لا تجمع بين أفرادها صلة من وحدة في الذوق ولا من وحدة في الإدراك ولا من وحدة في المثل العليا .

وليست صورة هذه الأسرة السكينة سوى صورة مصغرة للأمة إذا فقدت التجانس بين أفرادها . مثل هذه الأمة تكون أمة مسكينة كذلك ، لا يمكن أن تحيا لأنها فقدت التجاوب الذى ينبغى أن يكون بين أفراد كل جماعة منظمة ، والتجاوب معناه اتحاد النظرة العقلية وتشابه الهزة العاطفية والتقارب في الأذواق الحسية والمعنوية . فالأمة التى تفقد هذا التجاوب لا تزيد على أن تكون ملايين من الأفراد يعيشون في صعيد واحد ، ولكنهم يعيشون فيه أفرادا أشتاتا لا تربط بينهم روابط معنوية .

ونظرة واحدة إلى الأمم المجيدة بأسمها كافية لأن تبين لنا كيف تكون الأمم . فالأمم المتمدنة تحارب اليوم وتقبل على التضحية بأنفسها وأموالها في سبيل مثلها العليا . هذه الأمم تجتمع كلها بالقلوب والعقول حول تلك المثل العليا الواحدة ، وترى أن حياتها لا تساوى شيئا إذا هى فقدت تلك المثل العليا . وقد يختلف الأفراد فيها بعض الاختلاف في الرأى والذوق والميل لأن هذا طبيعى . ولكن المعانى الكبرى التى هى أساس الاجتماع لا يمكن أن يختلف الناس فيها ، لأنها لب الحياة الاجتماعية . وإذا نحن نظرنا إلى الوراء عبر القرون تبين لنا أن الأمم المنقرضة لم يحكم عليها بالزوال الا لأنها فقدت مثلها العليا ، وفقدت بذلك تلك الرابطة القوية التى تستطيع أن تجمع كتلتها .

فلننظر الآن إلى مصر نظرة الفحص ثم نحاول الإجابة على السؤال الذى سألته في مقالى السابق وهو : « هل نحن أمة ؟ » وقبل الاجابة على هذا السؤال أرجو أن نسأل سؤالا آخر مثل هذا : « ما هى الصورة التى نحب أن نكون عليها في مستقبلنا ؟ » ولنصور لأنفسنا إذا طرحنا مثل هذا السؤال ماذا يكون الجواب الذى ننتظره من الطبقات والطوائف المختلفة في مصر ؟

لا شك أن المنصف لا يخدع نفسه عن الحقائق ، ولا شك في أنه يسلم بأن الاجابة عن ذلك السؤال سوف تختلف اختلافا بعيدا بعد ما بين المشرق والمغرب . فأصحاب العذبات الطويلة الذين أشرنا اليهم في المقال السابق : يحسبون بغير شك أن المستقبل الزاهر لا يتحقق الا بأن تحفو الشوارب وتعفى اللحى وترخى العذبات الطويلة .

رحلة ليوناردو فرسكو بالدى

الى مصر وفلسطين فى القرن الرابع عشر

ثم قال فرسكو بالدى :

« وفى المساء نزلنا فى خان قريب جداً من جارزا (غزة) القائمة بين مصر والأرض المقدسة .

« وفى هذه الجهة « لاملك » (أمير) تحت سلطته أربعة آخرون أحدهم أمير القدس . ولما وصلنا إلى المدينة أنزلونا فى فندق فى مدخلها وأغلقوا فيه عدة أيام لقينا فيها غير قليل من الإهانات . وأخيراً دعانا اللاملك (الأمير) إلى لقائه ، ولما أقبلنا عليه انحنينا مراراً إلى الأرض علامة الاحترام ، قبل أن نتكلم مع هذا العظيم بوساطة الترجمان ، ثم بعث بنا إلى القاضى . فلما ذهبنا اليه أهدى إلينا فاكهة وخضرا وحلوى متنوّعة الأصناف .

« وفى ٣٠ نوفمبر غادرنا جارزا (غزّة) متجهين إلى أرض الوعد بطريق وادى أبور (حبرون) حيث توجد الآن مدينة إبراهيم الخليل تاركين إلى يسارنا مدينة رامة (رام الله)

« والأولى وهى حبرون مدينة جميلة والقاطعة نفسها جميلة كذلك ويحترم المسيحيون والمسلمون واليهود على السواء هذا الوضع ، وفيه كثير من أنواع التجارة وتصنع فيه مصنوعات زجاجية جميلة .

« وفى مدينة حبرون مسجد كان فى سالف الزمان كنيسة ، وفى الحائط الذى كان فيه الهيكل الكبير ضريح ، يرى جانب منه من خارج المسجد ويرى الجزء البارز من داخله »

وهنا كشف لنا فرسكو بالدى عن أمر غريب يجهله كافة المسلمين فى جميع عصور التاريخ بقوله :

« إن المسيحيين لا يجوز لهم دخول هذا المسجد ولا أى مسجد آخر لأن الذى يدخله منهم يجبر على إنكار دينه وإلا عوقب بشقّه نصفين من وسطه » .

ولا يخفى أن المسلمين لم يطلبوا قط لا من المسيحيين ولا من اليهود أن يكفروا بدينهم قوّة واقتداراً ، لأن الاسلام يحرم الاكراه فى الدين . ومعنى هذا « أنه لم يجبر غير مسلم على إنكار دينه اذا دخل مسجداً » وبالتالى لم يحدث « أن أحداً شق نصفين من وسطه » . فى هذه الفقرة الغريبة التى جاءنا بها فرسكو بالدى من السخف ما يغنى من التعليق عليها فلنمر بها مر الكرام .

هذا إذا هم لم يختلفوا فيما بينهم على أطوال اللحى والعذبات .

وأما أصحاب اللهو الذين يهرهم بريق الظاهر فهم لا يرون المستقبل الزاهر إلا فى إباحية لا قصد فيها ، ومتعة لاحد معها . وأما المتزمتون فإنهم بغير شك يتنفسون أنفاسا عميقة حزينة ويبدون الحسرة على القرون الخوالى وما كان فيها ويتمنون عودتها ، أو بقول آخر يتمنون المستحيل . وسوف نجد فى تلك الأجوبة ألوانا متعددة متدرجة الظلال منها الخافت ومنها الصائح ، ومنها ما هو بين بين . وليس من العدل أن نقول إن اختلاف الآراء أمر منكر ، فإنا نعتقد كما تقدم أنه طبيعى وواجب ، ولا يكون للحياة طعم إلا إذا كان للفرد أن يخالف غيره إذا شاء . ولكن الغايات الكبرى التى يجتمع الناس من أجلها ويعيشون عليها معاً فى أمة واحدة يجب أن تتنزه عن الخلاف والتصادم .

أعود بعد هذا كله إلى سؤال فأكرره بأعلى صوتى : « هل نحن أمة ؟ » . فإذا كنا أمة فالحمد لله على ذلك ، وإلا فلنحاول أن نلتمس الوسائل لكى نصير أمة صالحة للحياة .

وليجب كل فرد لنفسه حتى يكون صريحا . وحسبى أن يحتشم هادئا ويطلق على السؤال عما شاء بغير غضب .

محمد فريد ابو حديد

وعاد بعد ذلك فقال :

« وفي هذا الضريح رفات آدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب . وإلى جانب الضريح ضريح آخر دفنت فيه أزواج هؤلاء الأربعة .

« وفي ضريح الآباء المشار إليهم قناديل تضاء بالزيت ، يأخذ منها الناس زيتا يتبرك به المسيحيون واليهود والمسلمون ، وله عندهم اعتبار عظيم وقد أعطونا قليلا منه » .

والآن قد بلغ سائحنا الفلورنسي أرض الموعد سالما هو وجميع الذين معه لم ينقص منهم أحد ولم يصادفهم عائق ما .

وهنا قال :

« وسافرنا في ٢١ نوفمبر إلى بيت لحم ورأينا بالقرب منها مسجدا كان من قبل كنيسة ، والمدينة خربة تقريبا .

« وفي ٢٢ نوفمبر واصلنا السير إلى القدس فبلغناها في اليوم نفسه وفي ساعة متأخرة من الليل ، ونزلنا في فندق ينزل فيه عادة الحجاج الأفرنج ، وهذا الفندق قريب من القبر المقدس .

« وفي اليوم التالي (٢٣ نوفمبر) زرنا الأماكن المقدسة ومكثنا في القدس إلى ٢٥ منه . وفي نصف ليل ٢٦ نوفمبر سنة ١٣٨٤ غادرنا القدس ذاهبين إلى نهر الأردن ومررنا في طريقنا ببيت عنيا وبيت فاجي . وفي الليلة التالية (٢٧ منه) أنخنا ركابنا بين أريحا وبيت عنيا وذهبنا جميعا لنستحم في نهر الأردن . وبين هذا النهر ومصبه في البحر الميت أربعة أميال . وترى ماء الأردن يسيل مسافة طويلة في البحر الميت قبل أن يختلط به . ويشبه هذا البحر مستنقعا كبيرا لا يرى في جوفه نوع من أنواع السمك ولا يسبح على سطحه سابح من السفن .

« وعدنا إلى أريحا لأن ربعها غاية في جمال المنظر وهو زاخر بمزارع قصب السكر والنخيل وسواه من شجر الفاكهة . غير أن الأهلين أردياء جدا وذوو طبائع شريرة ؟

« وبعد ذلك رجعنا إلى القدس بطريق جبل الأربعين مارين ببيت عنيا وبيت فاجي ووادي يهوشافاط . وفي يوم ٢٨ من هذا الشهر ذهبنا إلى بيت لحم مرة أخرى وفي اليوم التالي زرنا بيت القديس زكريا أبي القديس يوحنا المعمدان .

« ثم جلنا جولة ثانية في القدس وغادرناها في اليوم التالي (٢ ديسمبر) ميممين شطر دمشق فبلغنا نابلس في ثاني يوم رحيلنا وهي قلعة عظيمة في السامرة .

« وفي صباح اليوم التالي وصلنا إلى السامرة ومن هناك ذهبنا إلى الناصرة . وكانت الناصرة قديما مدينة عظيمة جدا ، أما اليوم فإنها بلدة حقيرة وليس لها من الأسوار ما لمعظم المدن الوثنية » .

(وكلمة « الوثنية » أطلقها فرسكو بالدي بصفة عامة على الإسلام) . ثم قال :

« أما قيصرية فيلبس (بانياس) فإنها قلعة ذات برج ولكن لا أسوار لها ، ويعاني الناس فيها قلة وجود الماء فالمقام فيها كريه .

« وهناك زافات (صفد) وهي قلعة أخرى كبيرة ومنيعة ولها أسوار متينة . وهذه الأسوار بناها المسيحيون (يقصد الصليبيون) لما امتلكوا البلاد . وتشرف هذه القلعة على جميع ولاية طبرية أي على الجليل وعلى جانب من سوريا حتى دمشق وعكاء .

« وفي مساء ٨ ديسمبر سنة ١٣٨٤ وصلنا إلى دمشق ، وهذه المدينة تحيط بها الأسوار . غير أن خنادق الاستحكامات لا توجد إلا في بضعة مواضع منها .

« وأرباض دمشق زاهرة وفيها من السكان أكثر مما في المدينة نفسها » .

وحدث في أثناء إقامة فرسكو بالدي في دمشق أن قافلة الحجاج سافرت إلى مكة فلم يدع سائحنا الفلورنسي هذه الفرصة تفوته وردد الأسطورة الغريبة التي كانت شائعة

فى القرون الوسطى أن قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المدينة لا فى مكة كما ظن فرسكو بالدى وكتب يقول :

« سافر نحو ٣٠ ألف نفس من دمشق إلى مكة حيث مثوى رفات محمد فى صندوق من الحديد ، وكانت شوارع المدينة غاصة بالخلائق يوم سفرها حتى خيل إلىّ أنه لم يبق فيها أحد لم يسافر .

« وفى مدينة دمشق مياه عذبة غزيرة تأتيها من عدة مواضع ولا سيما من جوانب الجبل الذى يقال إن قابيل قتل فيه أخاه هابيل .

« ولبثنا فى دمشق قرابة شهر كنا فيه موضع الحفاوة من جانب جماعة مقيمين فيها من أهل البندقية وقطالونية ومن جانب قناصلهم .

« وهنا أصيب رفيقنا الثالث أوريافرنسكو دى بنوتشينى بحمى من الحيات (قد تكون حمى تيفوئيد وربما كانت انفلونزا بسيطة لأنه يقول إنها مصحوبة بزكام) وتوفى . وأصيب بهذه الحمى عينها أحد الخدم .

« وعلى أثر ذلك برحنا دمشق فى صباح يوم ٢٩ يناير سنة ١٣٨٥ ووجهتنا جبل لبنان

« وفى شمال لبنان مدينة طرابلس ، والمدن الواقعة على الساحل موانىء حسنة جداً .

وسافرنا من وادى نوح إلى بيروت وصعدنا فى جبال وعرة المسالك تشبه تقريبا جبال الألب عندنا ، ويكسو الثلج قنتها السنة بطولها ، وفيها أشجار من نوع البلوط (يقصد فرسكو بالدى بها أرز لبنان) .

« وفى سفح الجبل فى طريق بيروت غابة كبيرة جدا من أشجار الصنوبر كغابات رافين Ravenne وكياسى Chiassi وتزرع الأراضى هناك على النحو الذى تزرع به أرض بلادنا

« ووصلنا إلى بيروت فى أول الصوم الكبير ، وفيها صرح جميل وقلعة تحيط بها أسوار عالية وتقيم فيها حامية قوية وماء البحر يصل إلى أسوار القلعة . والمدينة ميناء حسن والبلاد خصبة وغنية وتنتج مقادير وافرة من القطن .

« ونزلنا فى بيروت فى كنيسة دعانا إلى الاقامة فيها قنصل البندقية وهى باسم الخلاص .

« والتقينا فى هذه المدينة بالمسيو اوليفييه دى سنتى ، وعقدنا معه آصرة المرفقة ، وكان قادما من مملكة فرنسا ليحج إلى الأرض المقدسة . ويصحب هذا الشريف الدوق دنجو Duc d'Anjou من مملكة بوى .

« وأبحرنا من بيروت بسفينة شراعية من سفن البندقية فى شهر مايو وكانت الريح موافقة ، غير أننا لما وصلنا إلى خليج ستاليا هبت علينا زوابع وأعاصير ألحقت بسفينتنا عطبا كثيرا ، فتركناها وانتقلنا إلى سفينة شراعية أخرى فى رودس وكنا غير بعيدين عن البر ، وبعد ما قطعنا أكثر من ٨٠٠ ميل فى رياح هوجاء عاصفة اعتدل الجو وعدنا إلى الطريق القويم شيئاً فشيئاً ، وكنا قد قضينا أربعة عشر يوما ونحن بين السماء والماء ثم اهتدينا إلى طريقنا ، وصارت جزيرة قبرص إلى يميننا فعرجنا عليها لنتزود بالماء والمؤونة ، ثم واصلنا السفر وسرنا تاركين كنديا (كريت) إلى اليمين وبفضل الرياح الرخية وصلنا بحمد الله إلى البندقية فاستقبلونا فيها أعظم استقبال . وأدبت لنا مأدبة عشاء حافلة حضرها الدوج رئيس الجمهورية وبالغ فى إكرامنا .

« وبعد ما قضينا فى البندقية ثمانية أيام نشهد الولائم والحفلات التى أقاموها لنا كراماً عدنا إلى فلورنسا بطريق بولونيا واكتحلت عيوننا برؤية عائلاتنا بعد غيبة دامت أحد عشر شهرا ونصف شهر . »

هذه رحلة السائح الفلورنسى العجيب ، وهى تطلعنا على ناحية من عقلية أهل أوربا فى تلك العصور البعيدة ، إذ كانوا ينظرون إلى الشرق نظرة أقل ما توصف به أنها كانت نظرة ساذجة بعيدة عن ادراك الحقائق . فأقل مقارنة بين هذا السائح وبين الرحالة المسلم ابن بطوطة تظهر لنا الفرق الشاسع بين العقليتين .

٢ – من لنـــــدن

صور للحياة والفكر المعاصر فى انجلترا

قفزت إلى ذاكرتى حين وصلنى خطابك عبارة بلوتارك من أهالى روما ، التى كان الأغريق من قبله رددوها من أثينا ، وكنت أنا أحسها وربما كنا جميعها نحسها عن اكسفورد ، وهذه هى « إنا اكسفورد وماوراءها ظلمات . »

إحساس يخيل لى أننا كنا جميعا نحسه ، إن حدود الزمان والمكان قد انتهت هناك فى اكسفورد ، لأننا كلنا — المدينة بما فيها ومن فيها — وحدة لن تتفرق أو تتبدل . المصير والشكل الذى قد تتخذه حياتى أو حياتك أو حياة من حولنا لم يكن من المسائل التى نستطيع أن نحسها بالتفكير أو الرؤيا فى ذلك الحين

استنشقت عبير ذلك الماضى فى خطابك وأحسست قوة الرابطة الحقيقية التى كانت تجمعنا كلنا فيما مضى والتى لم نكن نفكر فيها لأننا كنا نحياها . أنا وأنا هنا فى لندن ، وأنت فى القاهرة ، وسنورن وهى فى الهند ، والبقية ومن سبقونا والذين سيأتون بعدنا ، تربطنا جميعا تلك الروح الكامنة خلف اكسفورد ، لأن كلاً منا قبل أن يستقل القطار إلى بلده أو إلى طريق المستقبل يكون قد خلف وراءه فى اكسفورد جزءا منه ويكون قد أخذ معه أيضا جزءا من اكسفورد .

وهكذا نحرك فى ذلك الحنين الذى لابد أن تكونى تتذوقين مثله . وفى يوم أحد استقلت من لندن قطار الثالثة ، ولدى وصولى إلى اكسفورد فى الخامسة قصدت الحانوت اللاصق للمحطة واستأجرت دراجة لكى أستكمل إحساسى بالجو القديم ، وعمدت توا إلى زيارة الكوخ .

كان الكوخ لا يزال فى مكانه النائى فى نهاية الطريق الطويل المحفوف بأشجار التفاح والكمثرى ، وكان الشارول لا يزال ينساب هادئا رزينا كعادته من أجيال قبل أن تخرج اكسفورد إلى الحياة . كل شىء كان هادئا ساكنا جميلا كعهدنا به ، ولكن شيئا كان ناقصا ، شيئا كان الكل فى الكل . . ميرا . . ميرا لم تعد تقيم هناك ! هل تستطيعين أن تتصورى جو الكوخ الممتع من غير ميرا ؟ وهل تستطيعين أن تتصورى صديقتنا فى غير جو الكوخ تسكن مثلا حجرة عادية فى بورديج هاوس بطابعها الخانق الممل ، أو نزيلة أسرة متحفظة تجارى تقاليدها المرهقة فى الأكل والشرب والنوم والحياة عامة ؟

وصلت أول هلول استرت وكانت ساعة كنيسة كلدج تدق السادسة وذكرت توا أيام كنت أقضى ساعات النهار فى عمل متواصل بالاستديو ثم أسعى إلى شىء من التغيير والراحة بزيارة صديقتنا على غير موعد سابق . وكان تفرج الدراجة من تحتى على الطريق الوعر ورائحة الأعشاب المبللة تفوح حولى ممزوجة برائحة الأرض الباردة ، وهتافات لاعبى الهوكى البعيدة تبعث فى ذاكرتى . . مرثا . . . عيدى . . . رابان . . . دافيد . . . هيو . . . سورن . . . دوروثى . . . نعم ساجدهم كلهم هناك يتناولون الشاى على عادتهم فى أيام الآحاد . ورأيت أنطونيو جالسا بينهم بوجهه الشاحب وجسمه الهزيل ، وسمعت صوته المتقطع يردد آراءه ونظرياته المتطرفة عن الفن والفلسفة والحياة عامة ، وذكرت ما كنا نقابله به من مزيج الإعجاب والاستخفاف . ورحت أستعيد ما كان بروفسور شواب يقوله عنه من أن لا شىء ينقصه سوى المران . . المران لكى يصل إلى القمة . لو كانت الحرب أبقت عليه ، من يدرى ؟

لقد دخل الحرب لمجرد التجربة مدفوعا بعقيدته فى أن يجرب كل شىء ، ليفقد بنفسه إلى المعرفة . وفى آخر رسالة له — وقد ظللنا نتراسل بانتظام أثناء تدريبه فى اسكتلندا وأيضا بعد أن غادرها إلى الهند — قال لى : « لا تمكننى أن أصف

لك بأمويا شعور الثقة والثورة الذى أحسه وأنا أقود طائرتى فى الفضاء الفسيح تأهبا لنزال وشيك . من العبث أن أعتقد انى كنت أستطيع القتال كواحد من آلاف فى الجيش أو الأسطول . إن طائرتى القاتلة تمنحنى استقلال شخصيتى وتطلعنى على حقيقتى نفسى . أحس فيها بأنى وحدى المسئول عن فشلى أو نجاحى » .

لم يكن حزنى عليه إلا بقدر ارتياحى إلى أنه قتل مرة واحدة ولم يعش مصابا بتشويه ما ، الخاطر الوحيد الذى كان يزعجه من الحرب ولا يطيق التفكير فيه .

على أى . . قطعت الطريق المؤدى إلى الكوخ وهذه الخواطر تملأ نفسى ، ثم نزلت من الدراجة وأسندتها على الخضرة فى المكان المعهود . . وتلبثت للحال إلى قباب « منسكا » . لم تندفع نحوى فجأة تمسح وتتلوى بين أرجلى تستجدى كلمة تدليل أو ربتة على فروتها السوداء ، ثم صدمت بصرى خضرة قصيرة منتظمة استنبتت فى مكان الأعشاب البرية الطويلة حول الكوخ وعلى ضفة النهر . . وأين الثمر المتساقط تحت الأشجار هنا وهناك ؟ ؟

ليست هذه آثار فيرا . . أدركت لساعتى ، وأكدت لى الجيراسة مجهولة رأيتها هناك : « فيرا لم تعد تقيم هنا » وكان هذا كل ما قالت لى .

لا أدرى هل وصل إلى علمك أنى أشتغل الآن بالتدريس بعد ستة أشهر عاطلة فى مكتب العمل بين الفلاحة أو التدريس أو طبعا . . السجن . ولقد اكتشفت لدهشتى أن التدريس ليس كريها كما كنت تصورته ، فالاستجابة الفنية الصادقة التى أجدها من الصغار بخيالهم الواسع وصدق تعبيرهم عن نفوسهم التى لم ترحها بعد العقد والركبات النفسية تمنحنى لذة وحماسة نحو العمل .

كان يجب أن أقص عليك كيف حصلت على هذا العمل ، واليوم المشهود الذى ذهبت فيه لأقابل ناظرة المدرسة . كان أول ماتبادر إليه أن مدرستها شىء والبليد شىء آخر ، لأن الأطفال عندها لن يرسموا الموديلات العارية والعياذ بالله . . ورمقتنى بنظرة فاحصة ، فطمأنتها ستركى لها كنة المحتشمة وكنت أعددتها خاصة لذلك اللقاء ، فقالت لى : « لا أكتمك أنى كنت أخشى أن أراك فى حلة زرقاء أو حتى بنطلون ، وأن أرى شعرك منسابا على كتفيك أليس هذا زيكم فى البليد ؟ »

ولعلها لو كانت أطلت من النافذة لرأت فى انتظارى جيرالد بشعره الأشعث ولحيته الكثة يرتدى بنطلونه الأخضر وصديريته الصفراء الفاقعة ، وكنت قد اصطحبته معى ليواسينى طوال الطريق ولكى يشد من أزرى . . لجيرالد رجل هذه المناسبات كما تعلمين . . وأعتقد أنه سيظل هكذا دائما ، يسدى النصح ويسع صدره آلام الجميع ، ويحتفظ بآلامه ومشاكله لنفسه . رسالته عن الآلات الموسيقية فى القرن السابع عشر لازالت فى درج مكتبه ، وهو ينتظر مطمئنا اليوم الذى سيرغم اساتذة اكسفورد على الاعتراف بقيمتها وضمه إلى صفوفهم .

أى سعادة أجدها فى الكتابة لك واستعادة حياة اكسفورد التى ستظل دائما بالنسبة لنا دنيا من . . . النبوغ ، والفطنة ، الايمان ، الشك ، الثورة والتهكم . . .

طبق الأصل جميل حافظ

تولستوى والزواج

كان تولستوى حذراً فى مسألة الزواج ، وكان يعتقد دائماً أنه شىء رهيب يخافه ويخشاه ، وكانت علاقاته الأولى مع نساء كثيرات لا تتعدى الحب ، ولو حبا عقيقاً أو حبا جنسيا فى بعض الحالات ، لكنه لامرأة ريفية تدعى آكسينيا أثرت عليه تأثيراً عميقاً دام مدة طويلة ، ولعل قصته معها هى أصل قصة « الشيطان » التى كتبها حينئذ . ولقد دامت علاقته بها مدة ما ، ولكنه تخلص أخيراً من عبوديتها ، أو عبودية جسده حتى أصبح يوجد نفسه فى أشد الحاجة إلى الزواج . وجعل يفكر فى زوجته المستقبلة ، وقد اشترط فيها شروطاً خاصة ، إلى أن وقع فى حب سونيا بير ، وهى الابنة الثانية لعائلة يعرفها . فكتب عنها فى يومياته ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٦٢ : « إنى خائف مما لو دلت تلك التجربة على رغبة خاطفة فى الحب ، وليست حباً دائماً حقيقياً » . ولكنه عاد فكتب فيها يوم ٣ سبتمبر : « لا أعتقد أن مستقبل حياتى مع أية زوجة يضارع ما يبدو لى الآن مع سونيا ... المستقبل السعيد الهادىء الخالى من المخاوف ، أو أى بادرة من بوادر الأسف » .

وفى ١٣ سبتمبر كتب : « أنا أحب حباً لم أحبه فى حياتى من قبل ... أنا مجنون ... وسأطلق الرصاص على نفسى إذا سارت الأمور على ما هى عليه ... لا يمكن وقف عواطفى نحوها » وفى اليوم التالى كتب : « كل يوم يمر أعتقد فيه أنى لن أحتمل المزيد من شعورى بالسعادة ... سأذهب فى الغد إليهم وسأصرح لهم بكل شىء ، وإلا فإنى أنتحر » ..

ومع ذلك لم يتقدم إليهم إلا بعد ثلاثة أيام ، فطلب يد ابنتهم ، فقبلوه زوجا لها فى الحال ، وطلب منهم زفافا سريعاً .

لم ينم فى الليلة التى سبقت عقد قرانه ، فقد كان مثقلا بالشكوك والمخاوف والريب ... كان يشعر رغبة فى الفرار هاربا ، وكان الزواج قد حددت له الساعة الثامنة مساء ، وكان من غير اللائق أن يطرق الخطيب منزل خطيبته يوم عقد قرانهما ، إلا أنه ضرب بالتقاليد عرض الحائط وذهب إليها وجعل يسألها : أتشعر أنها تحبه حقا ، أم هل من الأوفق أن ينفصلا قبل فوات الوقت .. وبكت سونيا وهى تؤكد له حبها ، وأنه ما من شىء يستدعى قلقه هذا . وشعر بحماقة فعلته هذه ، فقرر الزواج منها . ولم يهرب بعد الزواج كما كان يتوهم ، فقد كتب فى يومياته بعد ثلاثة شهور من زواجهما : « لا أعتقد أن أحداً يشعر بمثل سعادتنا » .

وجرفته عواطفه حتى أصبح يؤدى كل أموره فى سرعة وبدون تفكير أو ترو كسابق عهده ، وهدأت فورة شهور الزواج الأولى ، فتكشف له الوهم ، وابتدأ يأخذ النصب مكانه فى مجرى حياتهما ، لم يظهر منه أى اعتراف بفشل ذلك الزواج إلا بعد ستة عشر عاما أو ثمانية عشر ، وما من أحد خلال هذه الأعوام الطويلة شك فى توفيقه فى زواجه . ولكن الحقيقة أن تولستوى ، بعد ستة أشهر من زواجه لا أكثر ، قد كشفت الهوة الروحية التى تفرق بينه وبين زوجته ، فكتب إلى شقيقتها الصغرى ذلك الخطاب الرمزى الذى جاء فيه :

« لقد حدث شىء عجيب يا عزيزتى تانيا .... إنك تعرفين أن شقيقتك آدمية من لحم ودم مثلنا ، وتعلمين أنها تتنفس أنفاسا كأنفاس الناس عادة ، وتحرك أطرافها فى كل الجهات كما يحرك الناس ، وبالاختصار هى من مادة البشر ... ولكن انظرى ماذا حدث :

فجأة فى ٢١ مارس سنة ١٨٦٣ فى الساعة العاشرة مساء ، حدث ذلك الحدث الفادح الذى أزعجنا معا ... تانيا ! ... أنا أعرف أنك أحببتها دائما ، ولا أدرى

ما هو الشعور الذي سببته هذه الحادث في كيانك الآن .

لقد استيقظت مبكراً في ذلك اليوم ، وقت بزهتي المتادة ، وتناولنا معا طعام الغداء ، ثم العشاء . وكانت هي تقرأ (كانت مازالت تقوى على القراءة) وكنت أشعر بالهدوء والسعادة .. وفي الساعة العاشرة مساء قت إلى فراشي ، وأخبرتني سونيا أنها ستجيء إلى الفراش .. وأثناء نومي سمعتها تفتح الباب ، وطرقت أذني زفراتها ، وكانت تخلع ملابسها . ثم أحسست بها تتقدم إلى الفراش ففتحت عيني و ... ورأيت !!! لم تكن سونيا التي نعرفها جميعا هي التي رأيتها .. . بل سونيا أخرى مصنوعة من الخرق !! . وإنك تعرفين الدمى الخرقيـة ذات الأذرع العارية ، تلك الدمى تشبه الأجسام البشرية تماما ، فهاهو الشعر المطلي بالسواد يعلو رأسها ، وهاهما العينان الواسعتان بحدقتيهما المرسومتين ، وهاهي ثنايا القميص على الجسد العاري تبدو كالطبيعة تماما .. هكذا كانت سونيا . فلمست ذراعها ولكني وجدتها ناعمة باردة ، وخيل إلىّ أني مازلت نائما ، فتيقظت ... ولكنها كانت مازالت واقفة أمامي جامدة لا تتحرك . فسألتها : « هل أنت مصنوعة من الخرق ؟ ؟ » وإذا بها تجيبني دون أن تفتح فمها ذا الشفتين المدهونتين باللون الأحمر : « نعم ... أنا من الخرق ! ! » فشعرت برعشة تسري في جسدي ... ونظرت إلى ساقيها فوجدتهما من نفس المادة ، وكانتا مستندتين إلى حامل خرق أيضا . . . وعليك يا عزيزتي أن تتصوري ما اعتراني من الرهبة والخوف . حينئذ لم أصدق شعوري وبدأت ألمسها ، ثم تحسستها ثانية ، فكانت ناعمة اللمس باردة ، كانت جامدة ذات مظهر خارجي فحسب ، كانت أجزاء وجهها وجسدها هي هي التي أعرفها جيداً ، حتى قميصها ، فقد دققت النظر إليه ، فإذا به نفس القميص الذي كانت تلبسه من قبل . ولكنها كانت تمثالا من الخرق ! ! .

ووجدتني في حالة مؤلمة لا أدري ماذا أفعل أو أقول . ولعلها كانت ترجو أن تميتني على ما أنا فيه . . . ولكن كيف تقوى على المساعدة مثل هذه المخلوقة الخرقية ؟ ! كانت لا تنظر إلي . . كانت تنظر إلى الفراش ، وفقدت سلطاني على نفسي فأمسكت بها ، فلم أشعر بأي تأثير لأصابعي في جسدها الخرقي البارد . ومما زاد في عجبي أنها أصبحت خفيفة كوعاء فارغ ، ثم إذا بها فجأة تنكمش ويصغر حجمها حتى أصبحت في حجم إبهام يدي . . . فوضعتها على الفراش ، وإذا بي أسمعها تقول : « لماذا أصبحت من هذه المادة ؟ » فلم أدر كيف أجيبها ! . وإذا بها تقول ثانية : « هل تشعر بفارق بيني أولاً وبين الآن ؟ » فلم أرض أن أبث الألم إلى نفسها فقلت : « إن هذا شيء لا أهمية له بالنسبة إلي »

وعنا تلك الليلة . وفي الصباح تركت الحجرة دون أن أنظر إليها . ولما عدت في الظهيرة وجدتها كما كانت أولاً وداعما ، من مادة البشر ، فلم أرغب في أن أخبرها عما حدث بالأمس حتى لا تتألم . . . إنها مخلوقة آدمية أمام الناس دائما ، ولكن حين نفرد في حجرتنا أعود فأراها على هيئة ذلك التمثال الخرقي الصغير »

ويبدو لنا من هذا الخطاب — كما أسلفت — بعد الشقة بين روحيهما ، ويظهر الشعور الذي أحس به تولستوي إزاء زوجه .

وتجد أيها القارىء رأيه في الزواج في رواية « الحرب والسلم » وهي أولى رواياته التي كتبها بعد زواجه . قال على لسان الأمير اندرو وهو يخاطب بيير : « لا تتزوج أبدا ياصديقي العزيز ، هذه هي نصيحتي لك ، لا تتزوج إلى أن تقنع نفسك بأنك قد قمت بكل ما تقوى عليه وحتى تكون قد هدأت ثورة حبك للمرأة التي اخترتها ، فيمكنك رؤيتها على حقيقتها . إنك ترتكب بغير هذا خطأ شنيعا . . تزوج حين تتقدم بك السن وتشعر أنك لا تصلح لأي شيء ،

سوى الزواج ، وإلا فقدت كل ماهو عظيم ونبيل فى شخصك . . نعم . . نعم . . لاتنظر إلى فى دهشة . . فإذا زوجت ، وكنت ترجو لنفسك أن تكون ذا خطر فى المستقبل ، فإنك ستجيب ، وستشعر فى كل خطوة أن كل شئ ، بالنسبة إليك قد انتهى . . وأن الأبواب كلها قد أغلقت فى وجهك . . إلا باب حجرة الجلوس حيث تجتمع بامرأة غبية جاهلة ! »

وقبل نهاية الرواية المذكورة يحدثنا تولستوى عن بير الذى تقمص شخصيته كما تقمص شخصية الأمير أندرو فيقول : « وأصبح بير رهن إشارة زوجته ، فمنذ أيام زواجهما الأول أعلنت ناتاشا رغباتها وأصدرت أوامرها . وتولت بير الدهشة من نظرته الجديدة التى أحسها نحو زوجته ، وأحس أن كل لحظة من لحظات حياته أصبحت ملكا لها وللعائلة »

وكتب تولستوى بعد ثلاثين سنة من ذلك ، فى مايو سنة ١٨٩٣ ، يقول : « إنى أذكر ماذا فعل ذلك الزواج بى . إنه شئ فظيع ! »

وهكذا تطورت أفكار تولستوى عن الزواج بعد هذه التجربة القاسية . وإذا به — فى قصة أنشودة كروتزر — يعلن رأيه ونظريته التى أصبح يؤمن بها والتى تقول : « إن الحياة الزوجية تتسمم إذا ماقامت على علاقات متبادلة أساسها الرغبة الجنسية فقط . . إن الاستسلام إلى هذه الرغبة نتيجته الدمار دائما »

حسن فتحى خليل

على هامش الكتب الحديثة :

١ – حدائق السحر
فى دقائق الشعر
لرشيد الدين الوطواط

كتاب بالفارسية يعالج ألوان البديع فى الشعر على نحو ما انتهت إليه عند العرب والفرس جميعا فى القرن السادس الهجرى ، إذ كان مؤلفه رشيد الدين الوطواط من كبار الأدباء فى عصره ، وكان يتولى ديوان الرسائل لملوك خوارزم ، وله فى العربية رسائل مشهورة طبعت منذ أمد طويل ، فقد كان أديبا ممتازا فى العربية والفارسية . يقول ياقوت عنه : كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضلُ زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشىء فى حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ، ويمليهما معا . وله من التصانيف « حدائق السحر فى دقائق الشعر » باللغة الفارسية ، ألفه لأبى المظفر خوارزم شاه ، وعارض به كتاب ترجمان البلاغة لفرخى الشاعر الفارسى . وواضح من هذا النص أن كتاب حدائق السحر من أقدم كتب البلاغة عند الفرس ، بل ربما كان أقدم كتاب إذا أهملنا كتاب الفرخى الذى ذكره ياقوت لأنه مفقود حتى الآن .

وقد ترجم الدكتور الفاضل إبراهيم أمين هذا الكتاب الطريف إلى اللغة العربية ، ولم يكتف بترجمته ، بل أضاف إليه طرفة أخرى هى دراسة مفصلة للكتاب وصاحبه ، قام بها الأستاذ عباس إقبال أستاذ الأدب الفارسى بجامعة طهران ، وهى دراسة دقيقة تدل على مهارة فى البحث والتحقيق ، وإنها لترفع من شأن هذا الكتاب إذ تنير الطريق أمام من يقرؤه أو يدرسه . وليس من شك فى أن الدكتور إبراهيم أمين كان موفقا فى ترجمته ، كما كان موفقا فى اختيار هذا الكتاب الذى يعتبر فى الواقع وثيقة مهمة لمن يعنون بدراسة مقارنة للبلاغتين العربية والفارسية ؛ فمن خلال قراءة هذا الكتاب نستطيع أن نعرف إلى أى حد تأثر الفرس بمصطلحات البديع العربى كما تأثروا بأصل هذا البديع فى أدبهم ، ونعنى الأدب العربى نفسه ، فإن من شدا شيئا من الفارسية يعرف أن الأدب الفارسى الحديث نشأ على طراز الأدب العربى بضربيه من شعر ونثر ، إذ استعار الفرس من العرب أوزان شعرهم وموضوعاته ومعانيه ، كما استعاروا موضوعات نثرهم وطرائقهم فيه . ومعنى ذلك أن صورة الشعر العربى انتقلت بجميع شاراتها وسماتها إلى اللغة الفارسية ، وقد انتقل معها ما يسم الشعر العربى من ألوان البديع وأصباغه ، بحيث لا تقرأ فى كتاب الوطواط وتتبعه حتى تقول مقالة الصاحب قديما عن العقد الفريد لابن عبد ربه : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . فالكتاب نسخة مطابقة تمام المطابقة للبديع العربى ومصطلحاته ، وليس فيه من جديد بالقياس إلى ألوان البديع العربى . ولعل ذلك ما أتاح للوطواط إذا مثل للون من ألوان البديع أن يجىء له بأمثلة من الشعر العربى والفارسى جميعا ، فقد قرأ دواوين أشهر الشعراء من العرب والفرس واستخرج منها الشواهد التى تتصل بكتابه ؛ ولذلك كانت تتردد فى كتابه أسماء البحترى وأبى فراس وبديع الزمان وابن عباد والثعالبى والمتنبى وغيرهم من شعراء العرب المتازين ، كما تتردد أسماء الرودكى والدقيقى والفرخى والعنصرى ومنجيك وغيرهم من شعراء الفرس المشهورين . وقد كان يعجب بالبحترى وأبى فراس ، إذ كان يرى أنهما مبرزان فى صناعة الشعر السهل الممتنع . أما المتنبى فقد استشهد به فى نحو عشرين موضعا ، واعتبره أشعر شعراء العرب ، ووضعه فى مكان مناظر للعنصرى أشهر شعراء الفرس فى رأيه .

ولعل الوطواط لم يُعْنَ بشاعر بعد المتنبى عند العرب

مثل عنايته بالحريري ، فقد تتبعه في مقاماته واستخرج منها ضروب التعقيد التي كان يشغف بها في شعره من مثل الشعر الذي يتكون من حروف معجمة أو حروف مهملة أو من خليط من الضربين .

والواقع أن هذا الكتاب طريف من حيث اتصاله بالبديع العربي ووصف صناعة الشعر العربي والفارسي على نحو ما كانت تفهم في القرن السادس الهجري . وليس من شك في أن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية تعتبر جهداً مشكوراً يستحق صاحبه عليه الثناء .

٢ — حكم قره قوش

وهذا كتاب آخر يمتاز بجودة العرض ، عنى فيه الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزة أن يجلو شخصية قره قوش في صورة تاريخية صحيحة ، وقد كان قره قوش خادماً لأسد الدين شيركوه الذي ولي الوزارة لآخر خلفاء الدولة الفاطمية . فلما توفي أسد الدين عمل قره قوش على أن يخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، ولما استقل صلاح الدين بحكم مصر قربه منه ، وكان ينيبه عنه في مصر أثناء أسفاره إلى الشام فيحكم الرعية ، ويرفع إليه الناس قضاياهم ومظالمهم . يقول ابن خلكان : « كان صلاح الدين يفوض أمور مصر إلى قره قوش ويعتمد في تدبيرها عليه ، وكان صاحب همة عالية ، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام . . وله وقف كثير . . وكان حسن المقاصد جميل النية » ثم يقول ابن خلكان : « والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته حتى إن الأسعد بن مماتي له جزء لطيف سماه « الفاشوش في أحكام قره قوش » ، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ، فإن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه »

ونرى من ذلك أن قره قوش كان شخصية كبيرة في دولة صلاح الدين ، ونرى ابن خلكان أن ابن مماتي شوه هذه الشخصية بما كتب عليها من أقاصيص مضحكة ، إذ صوره يحكم بين المظلومين ومن يرفعون إليه شكاواهم أحكاماً تدل على غفلته ، وقد كبر ابن مماتي الأديب هذه الغفلة فيما روى عنه من حكايات وأقاصيص على عادة الأدباء حين يلجأون إلى السخرية من بعض الأفراد ، فتراهم يصنعون بهم صنيع أصحاب الصور الكاريكاتورية .

وليس من شك في أن من رجع إلى كتاب الفاشوش الآنف الذكر يرى ابن مماتي صاحب قدرة ممتازة في تكبير أغلاط قره قوش وإظهاره في صورة الحاكم الظالم المتعسف الذي يبطش برعيته في قسوة دون تدبر أو رحمة ، وقد تعلق فيه بهنات من غفلته فهولها وضخمها حتى يعطي لصورة قره قوش الكاريكاتورية جميع ملامحها وسماتها الهالة

وقد قرأ الدكتور عبد اللطيف كتاب الفاشوش كما قرأ تاريخ قره قوش ، وانتهى هذا التاريخ إلى ما في كتاب ابن مماتي من ظلم لصاحبه . ونستطيع أن نلخص موقفه في أنه اتخذ موقف ابن خلكان فرأيناه يقف المناضل من صاحبه والمدافع عنه ، وقد قدم لذلك بوصف قره قوش وحياته واشتراكه مع صلاح الدين في بعض حروبه ثم وفاته له ولأبنائه من بعده . وخرج من ذلك إلى بحث كتاب الفاشوش . ولما كان بعض المستشرقين وهو الأستاذ كازانوفا سبقه إلى بحث هذا الكتاب وأبدى بعض الآراء بصدده رأيناه يراجع صنيع هذا المستشرق ، وقد رد عليه رأيه الخاص بأن هذا الكتاب « يعتبر أثراً لحادث خطير هو سقوط الفاطميين ، وأنه يعتبر المظهر الأخير لبغض مصر وأهلها لـكل فاتح لبلادهم وهو بغض أيقظه في نفوسهم انهيار الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التي أعادت الأمر فيها إلى بني العباس » . وليس من شك في أن هذا رأي طريف إذ يجعل لمصر شخصيتها أمام الفاتحين لها ، ولو كان هؤلاء الفاتحون من أمثال صلاح الدين . والباحث في الأدب المصري لا يتعمق في قراءة تاريخ ابن مماتي

وتاريخ آبائه وما كانوا عليه من ثروة وسلطان فى العهد الفاطمى ثم ما آل إليه أمرهم فى العهد الأيوبى حتى يحس بأن رأى كازانوفا له جلاله وخطره . والواقع أن أسرة أسعد ابن مماتى كانت موفورة الجاه والثروة فى عصر الفاطميين حتى رأينا أحد شعراء الخريدة وهو ابن مكنسة يختص مماتى نفسه بما أثار حقد بدر الجمالى عليه ؛ فهذه الأسرة التى كان لها مكانتها وشعراؤها فى عصر الفاطميين اضطرت فى عصر أسد الدين شيركوه أن تسلم لأنها كانت مسيحية ، وقد اضطهدها أسد الدين من أجل ذلك فأسلم أبو الأسعد الملقب بالخطير ، وأسلم الأسعد نفسه ، ودخلت هذه الأسرة كارهة فى الاسلام حتى تحتفظ بشأنها ومجدها القديم . ثم يحدث بعد ذلك أن تستمر هذه الأسرة فى وظائفها فى الدولة ، ولكن أهميتها تضعف . بل نحن نلاحظ أنها تضطهد ، فقد اضطهد ابن مماتى نفسه واضطر أن يخرج هاربا من وطنه لما يلقاه فيه من بلاء وعذاب شديد . أفلا يحملنا ذلك كله نفكر فى شأن هذا الكتاب الذى ألفه ابن مماتى وقد دخلت أسرته فى الاسلام على كره منها ، فنظن إزاءه بعض الظنون ، نخرجه من حيز الفردية إلى حيز النظرة العامة ، فنجعله رمزا — كما جعله هذا المستشرق — لسخط المصريين على هذا الحكم الجديد ، وخاصة أن هذا الحكم شفع — إلى حد ما — باضطهاد المسيحيين ، على عكس ما نعرف عن الفاطميين ؟

ومهما يكن من رأى فى هذا الموضوع ، يمكن لباحث أن يثيره ، فإن هذا لا يغض من قيمة كتاب الدكتور عبد اللطيف فقد فتح علينا به أبحاثا طريفة لا فى قراقوش وحده ، بل وفيما ألحقه بحكمه التاريخى عليه من دراسة عامة للسخرية فى الأدب العربى وما علق به على كتاب آخر يشبه ابن مماتى وكان معاصراً له وهو الوهرانى ، وقد تعلق هو الآخر فى منامات له ومقامات بنقد الدولة الأيوبية ورجالها . ونحن نرجو أن يوفق الدكتور الفاضل لنشر آثار الوهرانى ، فإنها على ما يظهر من حديثه عنها — وثيقة اجتماعية قيمة .

شوقى ضيف

بين المسموع والمقروء

صفة دكتاتور

لا أدرى لماذا تشوق السياسة دائما، وهى إن كانت تشوق بأحداثها العامة، مما يجرى فى حجرات الدواوين وقيعان البرلمانات، فهى أشوق بأحداثها الخاصة، مما يجرى بين الفرد والفرد فى صالون البيت، وقاعات الطعام، فقد ما تتعرّى القلوب، وتتكشف العواطف والنزعات، وتتصارح النفوس وتتصارع، كتصارحها وتصارعها عند أحقر الخلق فى أتفه أمور الحياة.

ولكل سياسى يوم هو يومه، بل عام وأعوام هو عامه وأعوامه. وعجلة الزمان الهائلة التى ترتفع بالناس، وترتفع ارتفاعا هائلا، لابد مكملة دورتها، وعندها تنخفض أيهم إلى الأرض حيث سائر الخلق. وعندئذ تنطلق فيهم ألسنة كان يعقدها الخوف، أو القانون، أو حتى اللياقة، أو حتى الصالح العام؛ كان يعقدها فلا تبوح بما تعلم، فإذا هى انطلقت، كشفت من صور غير تلك الصور، وعن عقائد غير تلك العقائد؛ وعن بغض صار اليوم حباً، أو عن حب صار اليوم بغضاً، وعن إعجاب قد ينقلب إلى تحقير، أو تحقير قد انقلب إلى إعجاب. أو حتى عن تصور للأحداث والناس كان خاطئا فتبدّل دون أن تصيب أقدارَ الناس فيه رفعة أو انحطاط.

وأكثر ما يحدث هذا، وأمتع ما يحدث هذا، وأكبر ما يكون هذا مفارقة بين الماضى الباسم والحاضر العابس، أو بين الأمس الصارخ المستعر واليوم الخافت الخامد، يكون فى الدكتاتوريات عندما تسقط، وفى الدكتاتوريين عندما تغرب شمسهم أو يسقط نجمهم.

ومَنْ أكبر من موسوليني دكتاتوراً؟ ومن أكثر منه على عجلة الزمان علواً، ومن أفدح منه على عجلة الزمان خفضاً؟!

لقد سقط الدكتاتور العظيم، وعند السقوط تنكشف العورات.

وقد انكشفت عورة موسوليني. كشفها الكونت جراندى، وزيره فى الحكم، وزميله فى الحزب وخصيمه أيضاً، كشفها فاذا بها عورة كعورات الناس، وإذا هذا الرجل الضخم ينفقع ويذهب انتفاخه، ويعود إلى حجوم الرجال، وإلى طبائعهم، ونوازعهم، من طيب وخبيث، وما لا لون له من الأقوال والأعمال.

سئل جراندى عن موسوليني بعد أن التقى به لأول مرة عام ١٩٢١، ولم يكن اغتصب الحكم فى ايطاليا: ماذا ترى فيه؟ فقال: إنه عبقرى، وإنه ساحر، وإنه مجنون، فإذا نحن استغللنا عبقريته، وحمدنا لسحره، وكففنا جنونه، فقد يتهيأ لنا فيه زعيم من خير الزعماء.

كان فى موسوليني غرور الزعماء، يعتد برأيه دون سائر الآراء. كان يقول: أنا دائما موفق ما استمعت لغرائز الحيوان الذى فى، وأنا على الأكثر مخفق ما استمعت لآراء الرجال.

كان موسوليني لا يحتمل المعارضة من أحد، ولا يركن بالثقة إلى أحد، إلا أولئك الذين داهنوه، وملقوه، وضحوا بشخصيتهم على مذبح شخصيته.

وكان يرى الرأى فيثبت عليه، ولا يتحول منه ولو كان خاطئاً، إلا أن يكون التحول بحيث لا يراه أحد، ولا يحس به إنسان.

وكان لا يعترف بخطأ أبداً، وكان يسبق الأمور فيتنبأ بها، ويرجم بالغيب فى خطبه الكثيرة. أما الذى يصدق من نبوءاته، فيعيده ثم يعيده. أما الذى يكذب منها فله منه تحت القبور.

وكانت قاعدة حياته أن يطلع على الناس كل يوم بالذى يذهلهم ويعشى أبصارهم . كان كمن يود أن يفوز بنجاح فى انتخاب كل يوم ! وكان غيورا ، حقودا ، متقلب الأهواء .

وكان أكثر عبقريته فى لمة الجماهير حوله ، ثم اقتيادهم من بعد ذلك . وكان يقودهم بفرقعة اللسان لا بالمنطق . فهو لم يكن ممن يحسنون النقاش ، ودفع الحجة بالحجة . لهذا كان يستمين على المجالس واللجان التى يحضرها بمقعده ينحيه عن سائر المقاعد ، أو يرفعه عنها . وإذا افتتح المجلس أعماله ، تكلم الزعيم ، فاذا المجلس قاعة من قاعات الخطابات لاحجرة من حجر المداولات . وإذا فى الحجرة من الألسنة الناطقة لسان ، وسائر الحاضرين آذان

وبدأ موسولينى حياته السياسية بشخصية قوية ، عادت بالخير الكثير على إيطاليا فربطت أجزاءها ، وجمعت المتشقين من رجالها . ولكنها عادت بالوبال على إيطاليا لما أصيبت تلك الشخصية القوية بداء العظمة . والعظمة داء أعيا الأطباء دواؤه .

ولم تكن الفاشية فى أول أمرها نظاما إجماعيا كالذى صارت إليه من بعد ذلك . لقد كانت حركة يراد بها اتحاد الأمة ، يجتمع عليها ذو اليمين وذو اليسار ، وكان لكل فيها متنفس ولكن موسولينى لم يلبث أن تصورها ، وتصور إيطاليا ، هرما يقعد هو عند رأسه . والملك أراد من أول الأمر خلعه ، والملكية أراد لها الزوال

واجتمع المؤتمر الفاشى فى نابلى فى ١ كتوبر عام ١٩٢١ ، وأراد موسولينى أن يزحف برجاله على روما . فقيل له : وما نفع هذا والناس كلهم معنا ، وفى الانتخابات نصر أى نصر ؟ فأبى إلا الزحف ، لأنه لم يكن مقصده الحكم بركبه ، ولكن كان مقصده الدستور يمزقه . وأراد نفسه مجدا ، ولاسمه دويا وتألقا .

وجاء الخامس والعشرون من أكتوبر عام ١٩٢٢ ، فحزم الفاشيون أمرهم للوثبة الأخيرة . وعينوا الكونت جراندى أحد الأربعة الذين يتولون القيادة . ولكن جراندى فضل أن يذهب إلى روما ليلاقى الملك ، ويقترح عليه إقامة حكومة جديدة على رأسها سياسى حر قديم ، يكون من أغراضها إجراء انتخابات تؤدى بالفاشية إلى الحكم . فقبل الملك الرأى . ولكن موسولينى أبى ، لأن الزحف إلى روما لم يكن منه بد . ولأن الانتخاب ليس فيه إبراق وإرعاد تتحقق فى ثناياه مشيئة الله .

ولما دخل روما ، ولقى الملك ، رجاه أن يبقى على الدستور فيذهب إلى مجلس النواب القائم يطلب منه الحكم . وكان بالمجلس ٦٠٠ عضو ، ليس بينهم من الفاشيين إلا ثمانية عشر ، ومع هذا فاز موسولينى برضاء المجلس ، وتولى الحكم دستوريا ، على الأقل مظهرا .

ولم يأت عام ١٩٢٥ حتى بدأ موسولينى حكمه الدكتاتورى . فانتزع من وزرائه وزارة من بعد وزارة ، حتى أخضعها لحكمه جميعا . وأخذ فى إصلاح ملأ به عيون الناس حتى بهرها . فمن ذلك كانت حملة القمح التى حفز بها الأمة إلى بذل أكبر مجهود لإخراج أكبر محصول لأكبر ثمرة عرفها الإنسان قواما لحياته على ظهر هذه الأرض . ومن ذلك تمجيد الامة للعمل الجثمانى بحسبانه ضرورة الحياة التى لم تفسد ، وصفة الرجولة التى لم تتخنث . وتقدمهم بحمل الفأس أول حامل ، ويضرب الأرض والصخر أول ضارب . ومن ذلك التركز على تصريف ماء المستنقعات ومنه ضبط الادارة حتى جرت القطارات لأول مرة فى مواعيدها ، ووصلت فى مواعيدها . وقارنت الأمم بين حاضر إيطاليا وماضيها ، فأعجبت أيما إعجاب كان هو الجزاء ، كل الجزاء ، للدكتاتور عما أتى من أعمال . أليس هو يطلب المجد ؟ وأى مجد كتصفيق الأمم ؟

وانقلب موسولينى من زعيم شعبى إلى زعيم عالمى ، أو هكذا سولت له نفسه .

وكره عصبة الأمم كراهة لا حد لها . لأن العصبة ، وهو غير الخطيب وغير الناقش ، لم تكن مجاله . ولأن العصبة ، مهما قيل فيها ، كانت أداة دمقراطية ، وما للدمقراطيات تعمل الدكتاتوريات التي مزقت وسائل الدمقراطية في بلادها . وطلبوا إليه أن يذهب إلى جنيف فأبى .

ومع هذا فقد كان له مندوب في العصبة : الكونت جراندي . وحدث أن بعث رئيس الولايات المتحدة ، المستر هوفر ، إلى العصبة بنظام يقترحه للأمن والسلام بين الأمم . وعلم جراندي بالاقتراح قبل أن يعلم موسوليني ، وعلم أنه لو طلب إلى رئيسه موافقته على هذا الاقتراح لقال لا . وعندئذ قرر جراندي على مسئوليته أن يقول نعم . وقال نعم قبل أن تقولها انجلترا ، وقبل أن تقولها فرنسا . وحمل البرق إلى جنبات العالم الخبر الطيب عن إيطاليا . ووصفها العالم عندئذ أنها سابقة الأمم إلى السلام . فماذا صنع موسوليني ؟ رأى في الطرف ربحاً ومجداً ، فأرسل إلى جراندي يأمره أن يعلن للعالم أن الرأي رأيه ، وأنه هكذا تكون حكمة الحكماء .

قال جراندي : كان موسوليني كالحصان البري . لابد من ملاطفته ومعاسنته قبل ركوبه .

وتعين جراندي من بعد ذلك وزيراً للخارجية . وهذا المنصب هو الصلة ما بين موسوليني والعالم . فهو منصب شائك . ولكن جراندي عرف أن اللق خير آخذ بيد صاحب هذا المنصب إلى غايته من بين الأشواك . وعرف ذلك أيضاً وزراء الأمم الفوضون . فكان كلما أراد أحدهم لقاء موسوليني لإنهاء أمر ، دعا مراسلا من مراسل الصحف ندفع ضريبة النجاح ثناء وإطراء لدكتاتور الدولة .

وكان موسوليني إعان بالكلمة المطبوعة كإعان الفلاحين ، وعرف ذلك منه جراندي ، فكان كلما أراد أمراً ، بعث إلى صحفي وأوحى إليه بهذا الأمر . فيكتبه الصحفي النابه كأنه منه . ولا ينسى ضريبة الملق للذي يريد إتماعه . وتظهر الصحيفة في اليوم التالي على مكتب موسوليني . فيخرج القلم الأزرق ، ويحيط الفكرة المكتوبة بدائرة ، ويكتب على هامشها : « جراندي ، أنصح لك بالأخذ بهذا » . وتستكمل الفكرة بهذا دورتها وتعود إلى منشئها .

وكان من أعدى أعداء جراندي مُدّاحه . فقد كان يكفي أن تكتب صحيفة تنوه بحنكته وبراعته ، حتى تبدأ بينه وبين موسوليني فترة من الفتور يرفض له فيها كل ما يعرض عليه من أمور .

وجاءت النازية . فإذا موسوليني ، الذي كان يقول إن الفاشية صناعة إيطالية ليست للتصدير ، إذا به ينادي بأعلى صوته : « إن الفاشية عقيدة عالمية ، خرجت بالأمس عن إيطاليا إلى ألمانيا ، وستخرج في الغد حتى تعم جهات الدنيا الأربع » .

ورأى موسوليني هتلر يؤدي التحية على الأسلوب الفاشي ، فجن جنونه .

وكان هتلر أخبث الرجلين . وأراد إيطاليا إلى جانبه فظل يدغدغ موسوليني آناً بعد آن . وأوقع هتلر في نفس موسوليني أنه نبي الفاشية الأوحد ، حتى قال موسوليني يوماً : إن هذا الدين الجديد سيغزو أوربا كلها ، ولن يلقى القوم أنبى رب هذا الدين .

وذهبت به آماله بعيداً ، حتى حسب أنه سيضم إليه ألمانيا دولة فاشية . حتى تخال يوما أن ألمانيا لابد داخلة تحت جناحه . وكره هتلر ، وعجب الأمة الألمانية العظيمة كيف تتبع أحمق مثله .

ثم يدور الزمن فإذا الأمة الإيطالية العظيمة يحتويها هتلر ، هي وملكها المتخاذل ، ودكتاتورها الجبار ، تحت جناحه . ثم يدور الزمن مرة أخرى فإذا الدكتاتور الجبار طريد بلاده ، يأكل على مائدة هتلر طعام الحياة ، ويشرب عليها خيبة الأمل وذلة العيش مريرة كالحنظل .

والزمن لم يُتم بعد دورته . . . . أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٢٨ الثلاثاء ٢٧ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٤ — ١٠ من ابريل سنة ١٩٤٥ السنة السابعة

فهرس العـــــدد

مسألة فلسطين

عادت الحوادث فأبرزت مسألة فلسطين مرة أخرى ووضعتها فى الصف الأول فى مسرح الأحداث الدولية ، وجعلتها فى مقدمة المسائل التى يتحدث عنها العالم العربى . ولو أنصفت دول العالم العربى لما كفت عن ذكر فلسطين ، ولا سكتت عن قضيتها لحظة واحدة . فإننا لو هدأنا فالصهيونية لا تهدأ ، ولا يدركها خلل ولا ملل . ونحن على حق ، وهم على باطل . فما أجدرنا — مع حقنا — ألا نقل نشاطاً عنهم مع باطلهم .

إن مسألة فلسطين قد أصبحت أمراً يمتحن به العالم العربى والوحدة العربية ، وتمتحن به بريطانيا العظمى وسياستها المنطوية على الشرف والنبل والوفاء ، ويمتحن به ذلك النظام العالمى الجديد الذى يراد إنشاؤه على مبادىء العدل والإنصاف .

فأما العالم العربى الذى وقع بالأمس ميثاقاً عظيم الخطر للتعاون والتآزر ، فإن أول أمر يجب أن يعنى به هو أمر فلسطين ، فإنه هنا أمام مشكلة ، الحق فيها واضح المعالم ، ليس فيه خفاء ولا إبهام ، وقوة العدل تنصره وتشد أزره ، والرأى العام فى جميع الأقطار العربية يلتهب غيرة وتحمسا لنصرة فلسطين القطر العربى الصميم . وليس من شك فى أن قادة الأمم العربية يقبضون على أسلحة قوية الأثر . وإذا لم ينجحوا فى إنصاف فلسطين ، فإن من الصعب أن نتصور أن سيكون لهذه الوحدة العربية وليثاقها أى أثر فعال أو أى تقدير فى النفوس . فمسألة فلسطين إذاً هى الامتحان الأول للوحدة العربية . والانتصار فى قضيتها يفتح أمام الأمة العربية باب النصر الدائم .

أما أن مسألة فلسطين امتحان لبريطانيا العظمى وسياستها ، فإن من الأمور المفروغ منها أن بريطانيا قد قطعت على نفسها فى أمر فلسطين عهداً لا سبيل إلى الرجوع

عنه أو التلكؤ في تنفيذه ، فإن تأسيس دولة يهودية في فلسطين أمر قد رفضته الحكومة البريطانية مراراً . وأعلنت ذلك الرفض في غير لبس ولا إبهام . رفضته في وقت تصريح المستر بلفور نفسه ، فلقد أراد اليهود في سنة ١٩١٧ أن يشتمل التصريح على وعد بإنشاء دولة يهودية ، فرفضت الحكومة البريطانية ذلك واكتفت بأن وعدت بإنشاء وطن قومي في فلسطين على شرط ألا يمس هذا بحقوق العرب أصحاب البلاد وسكانها .

وعادت الحكومة البريطانية فأكدت هذا الأمر على يد وزير المستعمرات المستر تشرشل ، وهو رئيس حكومتها الآن . فأعلنت في عام ١٩٢٢ أنه ليس في نيتها — ولم يكن في نيتها في أي وقت من الأوقات — أن تجعل من فلسطين دولة يهودية . وكل ما أرادته الحكومة أن يكون هنالك جالية يهودية متنفعة بالثقافة العبرية لها مدارسها وثقافتها ، وتتولى إدارة شئونها الاجتماعية بنفسها ، أي أنها لن تكون أكثر ولا أقل من أية جالية من الجاليات الموجودة في مصر مثلا .

ثم عادت الحكومة البريطانية فرسمت سياستها الفلسطينية بوضوح وجلاء في الكتاب الأبيض الذي أصدرته في عام ١٩٣٩ . وقد صيغت نصوص هذا الكتاب في صيغة حلول نهائية لا تقبل النقض ولا الإبرام ؛ وعلى الأخص لأنها بنيت على تجارب عشرين عاماً . فليس الكتاب الأبيض وثيقة — مثل تصريح بلفور — أملتها مقتضيات الحرب العالمية . وأصدرتها الحكومة البريطانية تحت ضغط من يهود أمريكا أو بريطانيا . بل وثيقة أصدرتها الحكومة البريطانية على ، حربتها ، وراعت فيها أن تنصف اليهود والعرب على السواء ، فحددت من مهاجرة اليهود إلى فلسطين ، بحيث لا يتجاوز عددهم ثلث سكان البلاد . وأن تمنح البلاد استقلالها التام بعد فترة انتقال لا تتجاوز عشرة أعوام .

ولم تكتف الحكومة البريطانية في كتابها الأبيض بهذا ، بل أعلنت — تأكيداً لحسن نيتها وصدق عزمها — أنها لن تعدل عن سياسة استقلال فلسطين أو تؤجل تنفيذها إلى ما بعد الأعوام العشرة المذكورة . فإذا اضطرت إلى شيء من ذلك فإنها لن تقدم على عمل قبل أن تشاور الهيئات الآتية :

(١) ممثلين للشعب الفلسطيني .

(٢) مجلس عصبة الأمم .

(٣) حكومات الأقطار العربية المجاورة .

ذلك ما جاء في الكتاب الأبيض ، وهو لا يكتفي بتقرير حق العرب من سكان فلسطين وحدهم ، بل وسكان الأقطار العربية المجاورة أيضاً . وهذا إشارة صريحة لمصر والعراق وشرق الأردن والحجاز ولبنان وسوريا .

ولقد جعلت الحكومة البريطانية من حق الحكومات العربية المجاورة أن تشترك في شئون فلسطين ، لأنها رأت اليهود يستميلون بعض الدول . ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن بريطانيا قد سلمت بحق الحكومات العربية في الاشتراك في تقرير أي أمر خاص بفلسطين مما جاء ذكره في الكتاب الأبيض .

وهكذا نرى أن الحكومة البريطانية لا تملك الحق في أن تعدل أي بند من بنود تلك الوثيقة الخطيرة ، قبل الرجوع إلى الحكومات العربية المجاورة ، وعلى الأخص تلك التي اشتركت في الداولات التي عقدت في لندن في مارس ١٩٣٩ ، وكان من نتائجها هذا الكتاب الأبيض بالذات . . . .

من الواضح إذاً أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن ترجع عن بند واحد من بنود هذا الكتاب الأبيض ، الذي أصدرته من روية وتدبر . ولذلك كانت مسألة فلسطين امتحاناً لها ولسياستها الدولية ، نرجو أن تجتازه بنجاح .

والمسألة الفلسطينيـة فوق ذلك هي امتحان للنظام العالمي كله الذي يراد إقامته على أساس من العدل والانصاف ، نظام لا تتقرر فيـه الأمور بالقوة والعنف ، بل بالحجـة والاقناع . ولقد كان من المتناقضـات العجيبة أن أمريكا أبت أن تعترف بضم منشوريا إلى اليابان ، أو باستيلاء إيطاليا على الحبشة ، أو بضم النمسا وتشيكوسلوفا كيا إلى ألمانيا . لأن هذه التغيرات السياسية بنيت على القوة وتمت باستخدام القوة . وحكومة الولايات المتحدة لا توافق على أي إجراء يكون نتيجة لاستخدام القوة . مبدأ سليم قويم ينال من العالم كل تحبيذ وتصفيق . وبمقدار إعجابنا بموقف أمريكا هذا تـكون دهشتنا حين نرى رؤسـاءها وكبراءها يتحدثون عن تحويل فلسطين إلى دولة يهودية ، وحين نرى مجالسهم النيابية تنظر في مقترحات من هذا القبيل . وبديهي أن تحويل فلسطين إلى دولة يهودية أمر لن يتم إلا باستخدام العنف والقهر . فإذا كان هذا من باكورات أعمال النظام العالمي الجديد ، المبني على العدل والانصاف ، فعفاء على العدل وسلام على الانصاف . ولئن كانت دول المحور ارتـكبت الجرائم الفظيعة في الدول التي تسلطت عليها ، فإنها — على الأقل — لم تزعم أنها تنشيء نظاماً قوامه العدل والانصاف ، وهي — على الأقل — لم تحاول أن تفرض على بلد من البلاد التي تحكمها شعباً غريباً ، تحله محل أصحاب البـلاد الأصليين . ونحن كأصدقاء مخلصين للحلفاء يجب ألا يمنعنا شيء من أن نصارحهم القول بأن فرض دولة يهودية على فلسطين عمل يفوق في ظلمه وعـدوانه أكبر إثم ارتـكبته دول المحور في أي قطر من الأقطار .

ولهذا كانت مسـألة فلسطين امتحاناً للنظام الجديد الذي يريد رجال الأمم المتحدة إنشاءه ، على أسس من البر والعدل والإنصاف ، وإني مع إقراري بأن أمر فلسطين سيكون امتحاناً هاماً ، لـكني واثق من أنه لن يكون امتحاناً عويصاً ، فعلى الرغم من الضجـة التي يثيرهـا الصهيونيون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإن الراغبين من اليهود في سكنى فلسطين قليل ؛ وهم إنمـا يريدون فلسطين وطناً روحياً لا وطناً ماديا ، فإن الأغلبية الساحقة من يهود فلسطين اليوم هم من أصل بولندي أو ألمـاني ، أو من أواسط أوربا بوجه عام ، وهمهم جميعا أن يعودوا إلى أوطانهم في أوربا في أول فرصة ممكنة . فلو خلي بين هؤلاء الناس وبين أنفسهم لبادروا بالرجوع إلى وطنهم في هنغاريا أو النمسا أو ألمـانيا أو بولنده أو رومانيا ، حيث يرجون أن ينشئوا وطنهم من جـديد بعد أن زال عنه طغيان الطغاة .

والصورة التي يرسمها دعاة الصهيونية بأن يهود العالم متلهفون متشوقون للعودة إلى فلسطين « بلد الموعد » ، هي صورة خرافية لا تستند إلى أساس من الواقع . والدليل على ذلك أن يهود أمريكا المتمتعين بنعيم الحرية في بلادهم لم يهاجر منهم سوى بضعة آلاف ، وكلهم لا يزال محتفظا بالجنسية الأمريكية ، وبجواز السفر الأمريكي ، لأنه لا يعد إقامته في فلسطين سوى زيارة مؤقتة . أما المهاجرون من بلاد يسودها الظلم النـازي ، والطغيان الهتلري ، فإنهم يتمنون الالتجاء إلى أي بلد — فلسطين أو غير فلسطين — ريثما يزول شبح الطغيان عن بلادهم وديارهم ، التي ألفوها والتي لا يعدلون بها بلداً سواها .

فالصهيونية كما هو واضح حركة مفتعلة مصطنعة ، على الرغم من كل ما تثيره من الضوضاء ، وليس قوامها سوى طائفة من المتطرفين ، الذين ذهب بهم تطرفهم مع الأسف الشديد مذهب الاجرام ، وهم يشتغلون بجد ونشاط لأن وراءهم أموالاً طائلة ينفقون منها ، ولم يتورعوا عن أن يتجهوا بنشاطهم وجهة الشر والجريمة . فلقد أظهر التحقيق في مقتل لورد موين كيف التجأت الحركة الصهيونية إلى التغرير بالشباب البريء ، فإن أحد المجرمين كان فتى

لايتجاوز العشرين ربيعاً ، وقد مضى عليه ستة أعوام وهو منخرط فى سلك جماعة إرهابية أخذت تعده ، منذ نعومة أظفاره لارتكاب الجرائم ، فقد التحق بتلك الجمعية وهو فتى فى الرابعة عشرة من عمره ، أى قبل أن تنشب الحرب الحالية ، وقبل أن تنشأ مشكلة تحديد المهاجرة إلى فلسطين ؛ فالجماعات الصهيونية إذاً قد قضت كلها — أو بعضها — زمنا طويلا وهى تعد هـذا البرنامج المنطوى على العنف والإجرام .

أما الميدان الثانى الذى يشتغل فيه الصهيونيون فهو الميدان الدولى ، وعلى الأخص فى بريطانيا وأمريكا ، ففى بريطانيا استطاع الصهيونيون منذ زمن طويل أن يكتسبوا عطف وتأييد جزء كبير من حزب العمال ، الذى يشتمل على عدد غير قليل من دعاة الاشتراكية من اليهود .

وقد أمكن لهؤلاء أن يزجوا فى برنامج المؤتمرات العمالية بالكثرة اقتراحات تؤيد الصهيونية من غير تحفظ ، وكثير منها ينم عن جهل عميق بشئون الشرق الأوسط عامة ، وشئون فلسطين بوجه خاص .

أما الميدان الثالث الذى يعمل فيه دعاة الصهيونية فهو بالطبع الولايات المتحدة الأمريكية . وفى تلك الولايات ما يقرب من خمسة ملايين من اليهود . ليس فيهم واحد يريد أن يتخذ فلسطين وطنا بدلا من أمريكا . ولكنهم مع ذلك لا يهدأون ولا يكفون عن إثارة المقترحات والطلبات فى الجهات الرسمية وغير الرسمية . ولم يتورع بعض البرلمانات والرؤساء من ترديد أقوال عن تحويل فلسطين إلى بلد يهودى أو دولة يهودية . كأنهم يتصرفون فى أرض لهم بها صلة أو لهم عليها سلطان .

وهنا من غير شك مجال لأن تقف الأمم العربية وقفة حزم وعزم ، فكل تصريح من رئيس حكومة هناك ، يجب أن يقابله تصريحات لرؤساء حكوماتنا ، وكل اقتراح يعرض على برلمان هناك يجب أن يرد عليه باقتراحات وقرارات تتخذها برلماناتنا ، يجب أن يحس أولئك القوم أننا لا ننظر إلى مسألة فلسطين نظرة غير المكترث أو الذى لا يعنيه من الأمر شىء .

ولقد جد فى الميدان الفلسطينى حادث يجدر بالحكومات الاسلامية عامة والعربية بوجه خاص أن توليه نصيبا من عنايتها . فلقد قرر حاكم فلسطين الجديد أن يكون مجلس بلديتها مؤلفاً من أربعة من المسلمين وأربعة من اليهود واثنين من النصارى . وأن يتناوب الرئاسة أحد أبناء الطوائف الثلاث . إن هذا القرار مناقض كل المناقضة لروح صك الانتداب ، الذى ينص فى البند الثالث عشر على ما يلى : « ليس فى صك الانتداب هذا ما يصح تأويله بأنه يخول الدولة صاحبة الانتداب حق التدخل فى كيان أو ادارة الأماكن الاسلامية المقدسة ، فإن سلامتها مضمونة دائما » .

فهل يجوز فى عقل عاقل أن من ضمان المحافظة على كيان الأماكن المقدسة أن يكون رئيس بلديتها من اليهود . وأن يكون المجلس المشرف عليها مكونا من أقلية إسلامية ؟ وإذا قيل إن المهاجرين إلى القدس قد كثروا حتى أصبح عدد اليهود قريبا من عدد المسلمين . فإن هؤلاء يسكنون فى ضواح ، يمكن أن يكون لها مجلس محلى منفصل عن البلدية لإدارة الشئون اليهودية . أما تسليم زمام الأماكن الاسلامية المقدسة إلى شخص من اليهود فأمر عجيب . لا يمكن أن نفسره إلا بأن حاكم فلسطين الجديد حديث عهد بها ، ولم يتم بعد دراسته صك الانتداب لفظا وروحاً . والذى أخشاه أن يتهمه بعض المشاغبين بأنه فى قراره هذا قد خضع لأساليب العنف التى اتبعها الصهيونيون . ومع علمنا بأنه برىء من مثل هذه التهمة فإن من الصعب علينا أن نجد تفسيرا مبنيا على العقل أو المنطق أو الحق لهذا الإجراء الشاذ الذى أقدمت عليه حكومة فلسطين .

محمد عوض محمد

الجماهير

تفضل زعيم الشباب الجامعي ، الأستاذ حسين دياب ، فأهدى إلينا كتابه « الوعي الجديد » الذي أصدرته حديثاً لجنة النشر للجامعيين ، فوجدناه كتاباً جميلا بارع الأسلوب ، شائق العرض ، جديراً حقاً بأن يقرأ بإمعان ، وأن يعلق عليه الكتاب والمفكرون ، والمشتغلون بالشئون الاجتماعية وبالمسائل القومية العامة .

ولست أقصد في هذا المقال إلى ايراد نقد شامل لهذا الكتاب ، وبيان ما به من حسنات ، وإظهار ما قد يكون فيه من مآخذ ، وإنما أتعرض لناحية واحدة من النواحي التي استرعت نظري حين قراءته ، وهي فكرة الكاتب عن الجماهير ، وأثرها في توجيه الحكومة ، وحقوق هذه الجماهير على الدولة ؛ فهو يرى أننا نعيش في زمن يصح أن يسمى زمن الجموع ، فقد بز تأثيرها السحري كل تأثير عداه .

تحدث الكاتب عن الجماهير فصورها في العصر الحديث صاحبة السلطان والنفوذ الذي لا يعدله سلطان ولا نفوذ ؛ فالحكومات والصحف في زماننا صارت تتحسس رغبات الجماهير لترضيها ، بعد أن كانت بالأمس تتجاهلها ؛ وهي تأتمر الآن بأوامرها ، بعد أن كانت فيما مضى تعتبر نفسها قيمة عليها ، وهي تسير في الوقت الحاضر تبعاً لرغباتها ، وتنقاد لتوجيهاتها ، بدلا من أن تقوم بدور المرشد لتلك الجماهير والموجه لها .

وهو يرى في هذا الاتجاه عين الصواب ، ويدافع عنه ويؤيده ، ويقرر أن الحكومات قد أصبحت في العصر الحديث ، لاتجد الحافز على أن تعمل من تلقاء نفسها ما فيه خير الشعب ، وإنما تفعل ذلك إذا ساقتها الجماهير ودفعتها إليه دفعاً ، والنتيجة الطبيعية لذلك أنه يضع الحكومات تحت رحمة الجماهير ، ويجعل منها آلات تتحرك تبعاً لرغبات الذين يقودون تلك الجماهير . انظر إلى قوله :

« لابد أن ينهض الرأي العام ... فيطالب كل فرد من أفراد الشعب بحقه في الحياة . عندئذ تجد الحكومات نفسها مندفعة إلى الأمام تأتي أعمالا تلهب الأكف بالتصفيق ، وتطلق الحناجر بالهتاف ، فيزداد جهادها في سبيل الخير العام » .. « لا نريد حكومة تمن على الأمة بأنها عملت .. نريد حكومة تشعر بأنها عملت لأنها كلفت بأن تعمل » .

فالحكومات على هذا الوضع تكون حكومات مسلوبة الإرادة ، معطلة التفكير ، لايحركها للعمل إلا مطالبة الشعب به ، ولا يحملها على متابعة الجهود الاصلاحية إلا التصفيق والهتاف ؛ إن غفل عنها الشعب نامت ، وإن لم يصفق لها ويهلل كفت عن العمل ، منتظرة الأوامر التي تصدر لها من الجماهير وقوادها ، « فكم من حكام يودون لو يعملون ولكنهم لا يستطيعون لنوم جمهورهم ومسالمة شعبهم » .

أظن أن هذا الوضع ، وهذا التصور للأمور غير مستقيم ، وأن الواجب في نظرنا هو أن تعتبر الحكومة نفسها مكلفة بالسهر على مصالح الشعب ، والعمل ليل نهار على ما فيه خيره وإسعاده ، وبتوجيه عامة الشعب الوجهة التي فيها صلاح حاله ، وبتهيئة الأسباب التي تيسر له سبيل العيش ، وتحميه من غوائل المرض ، وتبصره بعناصر الحياة الحديثة ، وعوامل النجاح في جميع نواحي النشاط التي يمارسها الأفراد ، على اختلاف نزعاتهم وأهدافهم ، وما يمارسه كل منهم من عمل خاص أو عام .

فالحكومات ، لاسيما في بلد كمصر ، لاتزال الجماهير فيها إلى حد كبير متخلفة عن غيرها من جماهير البلاد الأخرى ، (بعد استئذان الأستاذ الأديب) في نواحي النشاط الاقتصادي والعمراني ، والاجتماعي ؛ هذه الحكومات يجب أن تكون قائدة للشعب لامقودة ، دافعة له لامدفوعة به ، مفكرة ناشطة من تلقاء نفسها لاعالة عليه تابعة له .

وليس معنى هذا الكلام أنها لا تتحسس رغبات الشعب، ولا تستمع لأنّاته أو لندااته، ولا تسترشد بالرأى العام واتجاهاته، فذلك واجب عليها بغير أدنى شك. فالحرية يجب أن تكون مكفولة لكل فرد وجماعة لتبدى آراءها كما تشاء، وتدعو لتلك الآراء بكل قوتها، وتدلل بحججها، وتدافع عن وجهات نظرها، وتنتقد كل مالا تقره من تصرفات حكومتها، وتطالب بكل ما تراه حقاً من حقوقها، وبتنفيذ ما يعن لها من أوجه الإصلاح. كل ذلك بالوسائل المشروعة وبمختلف أساليب الدعاية الحديثة. في الحدود الدستورية، وطبقاً للقوانين. وبغير ضغط أو إرهاب.

وأما أن تلجأ كل طائفة لوسائل التصفيق والهتاف والتظاهر، بحمل الحكومة على الائتمار بأوامرها، والنزول على رغباتها، وتنفيذ مقترحاتها أو مآربها، واعتبار الحكومة مكلفة بأن تنفذ تلك الأوامر وتنزل صاغرة على ما تريده تلك الجماعات المختلفة، سواء أكانت نقابات أو اتحادات أو ما شا كلها من مختلف الهيئات. فهذا كله مالا نستطيع أن نتصور إنساناً منصفاً يقول به، ولا حكومة تحترم نفسها تقره وتقبله وتذعن له.

نعم إننا نعترف أنه أتى علينا حين من الدهر لم يكن لنا فيه بد من أن نلجأ إلى مثل تلك الهتافات، أو المظاهرات التى تقوم بها الجماهير، لحمل الحكومات على سلوك طريق معين أو انتهاج سياسة بالذات. ولكن ذلك قد حدث في ظروف خاصة كانت فيها الحكومات القائمة تحت تأثيرات أجنبية أو ما شا كل ذلك، تسير في طريق غير مستقيم، لا يتفق مع مصلحة الوطن، ولا مع اتجاه الرأى العام للبلاد كلها، ولا مع رغبات طبقات الأمة أو سوادها الأعظم.

ولا نقطع بأنه لن يأتى علينا حين آخر يضطر فيه الجمهور المصرى كله لأن يحمل الحكومة القائمة قسراً على أن تسلك سبيل الرشاد؛ ولكن لا شك في أن مثل هذه الظروف الماضية أو المستقبلة لا تخرج أبداً عن أنها حالات شاذة استثنائية اقتضتها، أو قد تقتضيها في المستقبل، ظروف خاصة غير عادية، ولا يمكن أن يقاس عليها.

وإذا كانت الحكومة وليدة انتخابات حرة، وكانت تعمل مخلصة لما ترى فيه مصلحة الأمة، وتطلق الحرية لجميع الأفراد والجماعات لتقول وتنشر ما يعبر عن آرائها بصراحة وقوة، وتحسب للرأى العام المستنير حسابه، وترعى لمختلف الطبقات حقوقها، في حدود تفكيرها الحر هى الأخرى، فلا معنى لأن نطالبها بعد ذلك بأن تقوم بأى عمل مرغمة، ولا أن تنزل على إرادة جمهور من أفراد الشعب صاغرة؛ فطريقة إسقاط الحكومة في النظام الديمقراطى معروفة، يمكن أن تلجأ إلى اتخاذها كل هيئة مصرية ترى ضرورة تغيير الحكومة لعدم موافقتها على سياستها.

نحن لا نفهم أن تكون الحكومة تحت رحمة الجماهير، ولا أن تكلف بتملق مختلف الهيئات والطبقات والطوائف، ولا أن تحاول إخضاع طريقتها في الحكم للجماهير من عامة الشعب، حتى على فرض أن السادة الأغنياء المثقفين هم المسيطرون الآن، فعلاج ذلك لا يكون بأن تسلط عليهم الإخوان الفقراء الجهلاء، فذلك مجرد استبدال ظالم بآخر قد يكون شرا منه وإحلال طاغية محل طاغية غيره؛ وإنما يكون الاصلاح بنفس الطرق الدستورية لمعالجة الداء، وتصحيح الأخطاء، بحيث لا تتحكم طبقة في أخرى، ولا تطغى طائفة على غيرها. وعلى الحكومة أن تتلمس ما فيه الخير للجميع وأن تقسم جهودها وأموالها وعنايتها بالقسطاس بين المواطنين كلهم بغير أدنى تمييز أو محاباة.

وبعد فهل ليس للجماهير التى أطراها الكاتب الأديب أيما إطراء، وأثنى عليها كل الثناء، وأشاد بها كل الإشادة، أليس لهذه الجماهير أى عيب ولا عليها أى مأخذ؟ إننا لم نعثر للكاتب على تحفظ من ناحيتها، ولا على نقد جدى يوجهه لسلوكها ولا لأساليبها، ولا

على تصانيع يسديها ، أو مخاوف يبديها ؛ فهو قد اطمأن تمام الاطمئنان إلى أن هذه الجموع وتلك الجماهير ، إنما يقودها من لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم ، فهى فى عصمة من الخطأ بفضل تلك القيادة الحكيمة .

ولكننا نعرف أن تلك الجماهير كثيراً ما تخطىء ، وأنها إذا اندفعت فى سبيل الخطأ فعند ذلك قد يعز على قوادها أن يكبحوا جماحها ، أو يحولوا دون ما تسببه أخطاؤها من شرور قد يكون لها أسوأ العواقب . وما كان ينبغى أن يغيب هذا عن الكاتب الأديب ، حتى ولو كان قد استطاع بمهارته ولباقته ، فى حادث أو أكثر ، أن يكتنق شر أخطاء الجماهير وأن يقيها نتائج السوء لتلك الأخطاء ، أو يجنبها الشطط والطغيان .

والناحية الثانية التى استرعت نظرى ، خاصة بالجماهير ورأى الأستاذ فيها ، ودعايته الحارة لها ، هى أنه جرّد المسائل إلى حد كبير من الناحية العاطفية ، وضرب بالاعتبارات الروحية عرض الحائط ، وصور حركات الجماهير واتجاهاتها كلها مصوبة نحو الخبز أو الرغيف ، وصادرة كلها عن دوافع مادية فحسب . هو لا يقيم وزناً لغير القيم الذاتية ، والمنافع الشخصية . أما القيم الروحية ، والسمو النفسى ، والاعتبارات الانسانية ، فقد أحلها الأستاذ الأديب مقاما ثانويا أو دون ذلك ، فكادت تتلاشى أهميتها عنده . انظر إلى قوله :

« إن جمهورنا لم يؤت نصيباً ذا بال من العلم والثقافة ، وإن إيقاظه لا يكون بغير الوسائل البدائية . . . فالقائد الماهر هو من يطلع على الناس بطبل جديد ومزمار شجى ، ليجتمعوا حوله ، لأنفسهم ، لا له . . . القائد الماهر هو من استطاع أن يحرك فى الجماهير أولاً حب الذات ، فيطمئنوا اليه ثم يدفعهم ، إن ملكهم ، إلى حب الوطن . القائد الماهر من يجعل من الوطنية ذاتية . . . إن حب الذات غريزة ، وإنك إن تناد بالوطنية وجب أن تحرك تلك النعرة الفردية كى تصل أخيرا إلى النعرة القومية . . . إنهم أغبياء هؤلاء الذين يتشدقون كل يوم بمثل عليا ، إنهم ينادون بكلمات جوفاء ، لا أصل لها ولا أثر ، لا يعرفها الأفراد ولن يعرفوها ، ما دامت لا تبشرهم فى كل حرف من حروفها بالخبز المادى الملموس ، ثم الخبز المعنوى المحسوس ، ثم الخبز السريع الذى يتناولونه فى الطريق » .

ونحن نخالف الكاتب فى هذه النزعة المادية التى تهوى بالقيم الروحية إلى الحضيض ؛ ونرى فى هذه الدعوة بذور شر نرجو الله أن يقينا منها ؛ فانك إن تحقق غرس هذه المبادىء فى النفوس جعلت كل فرد ينظر إلى مصلحته الذاتية ؛ فسرعان ما تتعارض تلك المصالح وتتصادم؛ وإذا بالأفراد يتخاصمون ويتطاحنون ؛ كل وراء مصلحته الخاصة ؛ وإذا بالأمة التى كان يجب أن ترتبط برباط من العاطفة ومن المحبة ، ومن التضامن والتضحية ، إذا بها تتفرق أحزابا وشيعاً ، كل يبغى امتلاء بطنه ، وينشد كسبا ماديا له ولطائفته ، لا بأس عندهم من أن يكون على حساب غيرهم من المواطنين .

وأما أن الشرائع كما يقول الكاتب لا تكفى وحدها لإصلاح شعب ما ، وأن المعتقد الاشتراكى يقوم الآن مقام المعتقد الدينى المحرم ، فهذا قول أعتقد أنه لا يصدق على الاسلام ، فإن فيه من المبادىء الاشتراكية ما يكفى لإسعاد الخلق بغير حاجة إلى تلمس معتقدات جديدة واردة إلينا من الغرب . وعلى كل فلم يعد فى هذا المقال متسع لمناقشة أمر هام أساسى كهذا ، ولا لمناقشة الكاتب فيما يقرره من أن (أخلاقنا أرقع أخلاق الدنيا) ، فالكلام فى هذا يطول ولو كان يسهل .

وبعد فانا على كل حال نحمد للكاتب الأديب غيرته وصراحته وشجاعته ، ونرجو أن ينال كتابه عناية خاصة من المفكرين والنقاد ، حتى تناقش ما فيه من آراء قد يبدو بعضها غريبا وخطيرا . ولعل هذا المقال يكون عتابة فتح باب لمثل تلك المناقشات .

أحمد عبد السلام الكرداني

توفيق الحكيم وحماره [1]

من وحي (الثقافة)

لك جحش مثقف معروف وأديب وعالم فيلسوف
قط لم يأكل الحشيشَ ولكنْ
يحتسي من فكركم (معلوفُ)
ويعافُ البرسيم يلقى إليه
وأخو الروح عنده — الخرشوفُ
وظريفُ الحديث . ينثرُ زهراً
كل زهر من (غيطكم) مقطوفُ
روح سقراط قد (تقمص) فيه
وكذاك الأرواح فينا ضيوفُ
فهو لا يرسلُ النهيق . ولكنْ
فلسفات قد صوَّرتها حروفُ
لم يعوِّد حمل السماد . ولكنْ
قصصات . بيانها موصوفُ
وطليقُ الحوار من غير (قيد)
روعتْ منهُ سوقة وأنوفُ
وعن المال والمناصب يلوي
وعن الجاه والفخار عيوفُ
وعلى الغاشم المسلط حربٌ
وعلى البائس المقل عطوف

كان في الزمر أشبهن خطاً
والمعاني خلالهن طيوفُ
رب نقد ملم ، هو خبيرٌ
من جهير . قناعهُ مكشوفُ
رب نقد في (ذيل) كل مقال
بعضُ تلوعيه قنا وسيوفُ
فهو في أمة الحوافر صنف
إنما أمة الحمير صنوفُ
لم في معشر تساوى لديه
آدمي مفكر وخروفُ
ومن الخلق ناطق كان أولى
لو كسا جلده — من الثوب — صوف
ومن الخلق ناطق كان يمسي
في عداد الحمير — لولا الأنوف
كل هذا عرفته غير شيء
كل فرد بعلمه مشغوف
ماله يوسع الزميلة سخطا
ويغالي في ظلمها ، ويحيفُ ؟
ولكم شاغلته ذاتُ قوام
(فبرمى) . وخصرها مخطوفُ
أتراها تكون (رقصة) كره
أم هو اليأس حيث حالت ظروفُ ؟

علي شرف الدين

(١) بمناسبة ظهور كتاب (حماري قال لي)



زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

خير الدين باشا التونسي

— ٢ —

رُبي في قصر الباي أحمد — وكان من حسنات الباي أن اهتم بتعليمه ليعده رجلاً من رجاله ، والتعليم كله في تونس كان مصبوغاً بالصبغة الدينية ، فكان البرنامج الذي أعدّ له أن يتعلم القراءة والكتابة ، ويحفظ ما استطاع من القرآن ويجوّده ، وشيئاً من الفقه والتوحيد ، فتقدم في كل ما تعلمه ، وأخذ هو بعد ذلك يتوسع في العلوم الشرعية بمخالطة العلماء ، والاستفادة منهم ، وعلماء اللغة والمران على الكتابة ومطالعة كتب التاريخ .

وعرف في أوساطه بالتدين ومحافظته على أداء الشعائر وتوقير الشريعة ورجالها ، وإلى ذلك نزع إلى تعلم الفرنسية فأحسن تعلمها ، فكان يجيد العربية والفرنسية والتركية .

وحدث أن الدولة العثمانية كانت قد اتجهت إلى تنظيم شؤونها وخاصة جيوشها — كما أشرنا قبل — وكتبت إلى ولاياتها بذلك ، ومنها تونس ، فأخذ الباي أحمد ينظم جيشه ، وكتب إلى فرنسا يسألها المعونة في ذلك ، فأرسلت إليه بعثة من الضباط الفرنسيين وعلى رأسها القومندان كامبنون الذي صار فيما بعد وزيراً للحربية الفرنسية في حكومة جامبتا .

فالتحق خير الدين بالجيش التونسي يتعلم من هذه البعثة ، ومن ذلك الحين دخل في السلك العسكري ، وكان هذا يوافق مزاجه الشركسي ، فكان رئيساً لفرقة من الفرسان ، وما زال يرقى حتى كان أميراً للواء الخيالة سنة ١٢٦٦ .

أفادته التربية الأولى أن يكون متدينا متقنا مطلعا على أحداث الماضي قريبا من نفوس العلماء ، وخاصة الشعب ، وأفادته التربية الثانية حب النظام وقوة الحزم وسرعة البت والصلابة في الرأي .

ثم اضطرته الظروف بعدُ إلى مزاولة الأمور السياسية والانغماس فيها .

قد كان في أيامه هذه ثلاث شخصيات مشهورة ، هي التي تدير دفة الحكم وتظهر على المسرح : الباي أحمد باشا ، ومصطفى خزنه دار ، ومحمود بن عياد .

فالباي أحمد — مولى خير الدين — وال طموح يحب رقي بلاده ، فيأخذ في تنظيم الجيش ويشجع نشر العلم ، ويخصص المرتبات للعلماء ، ويؤسس مكتبة قيمة في جامع الزيتونة ، ويعيد تنظيم الإدارة الحكومية على أسس حديثة بتحديد الاختصاص ، ولكن فيه إسراف وإفراط في الترف وقلة نظر للعواقب وخضوع لبعض الظالمين المالين من رجال دولته ، لحاجته إليهم فيما يسرف من مال ، ونقطة الضعف هذه جعلته يتغاضى عما يأتون من مفاسد خطيرة .

ومصطفى خزنه دار وزير المالية « المالية والداخلية » رجل مغربي الأصل جاء تونس وسنه دون العشر ، فرباه أحمد باشا كما ربى خير الدين ، وارتقى في الوظائف حتى صار وزيرا ، وهو شخصية غريبة ، لين بشوش ، لا يقول لا لمن طلب منه شيئاً ولو مستحيلا ، يرضى بالوعد ظاهرا ويضمر عدم الوفاء باطنا ، عف اللسان ، « مُتَدَرْوِش » يحافظ على الصلوات ويقرأ الأوراد ويقوم الثلث الأخير من الليل ، وهو مع ذلك شره في جمع المال ، لا يتورع عن السرقة والنهب ومشاركة السارقين والناهبين . تولى الوزارة نحو خمسة وثلاثين عاما أثقل فيها كاهل الشعب بالضرائب والمغارم والمظالم ، يفعل ذلك كله نهاراً ويتهجد ليلا ، يختلس المال ويعمر المساجد ، بدأ حياته سمحا كريما وختمها بخيلا شحيحا ، زوّج بنته من خير الدين لما تبأ له

بمستقبل باهر ، وبسط سلطانه على الباى أحمد بحيله وأساليبه ، وغشّى بصره فلم يعد يرى ظلمه وفساده ، وحارب بكل قوته من تقرب إلى الباى أو من مال إليه الباى ، حتى يضمن دوام نفوذه ؛ يحبذ للوالى كثرة الانفاق فى الاصلاح وغير الاصلاح ، ويشجعه على الامعان فى الترف ، والافاضة فى البذل ، حتى يأسره بحاجته اليه وحتى يتخذ من كل ذلك وسائل لاستنزاف مال الشعب بعضه له وبعضه للوالى .

ومحمود بن عياد يد مصطفى خزنه دار التى يقبض بها ويسرق بها ويستقل بها ، وشريكه فى المغانم والمظالم ، وظيفته جمع الضرائب على اختلاف أنواعها ، وشراء جميع ما تحتاجه الحكومة وما يحتاجه الوالى ، وظل على هذا عشرين عاماً ؛ ذكى خبيث ماهر ، يغالى فى الضرائب ويتخذ كل الحيل حتى لا تصل مظالمه إلى سمع الوالى ، فإذا وصلت احتال حتى ترفض ؛ استطاع أن يجمع من الثروة من هذه الأبواب ثمانين مليوناً .

رأى من بعيد أن الشعب بدأ يعلو أنينه وأنه يوشك أن يفتضح هو وشريكه ، فهرّبا أموالهما إلى فرنسا ، وادعى ابن عياد المرض وزعم أنه مسافر إلى باريس للتداوى ، فلما وصل اليها أعلن عدم العودة ، وطلب أن يتجنس بالجنسية الفرنسية فأجيب إلى طلبه .

ومع هذا كله فقد بلغ من « تجبره » أن ادعى على الحكومة التونسية أن له مبالغ طائلة قبلها (٦٠ مليون قرش تونسى = ٤٠ مليون فرنك) نظير مشتريات اشتراها لها لم تدفع ثمنها ، وأخذت المسألة دوراً خطيراً ، إذ أصبح المدعى فرنسى الجنسية تحميه حكومة فرنسا وتطالب بحقوقه .

هنا اتجه الباى أحمد إلى خير الدين ليذهب إلى باريس ويخاصم ابن عياد ويبين فساد زعمه ، ويثبت أن عليه — لا له — ديوناً يطالبه بها ، وكانت قضية هامة لو حكم فيها لابن عياد لوقعت تونس فى الافلاس ، وزاد من خطرها ما كان تحت يده من مكاتيب ومستندات رسمية دبرها هذا الماكر تدبيراً محكماً .

وظلت هذه القضية فى باريس أكثر من ثلاث سنوات من سنة ١٢٦٩ — ١٢٧٣ ، وخير الدين فيها يرافع ويدافع ، وابن عياد يملأ فرنسا دوياً ، ويساعده على ذلك ماينفقه عن سعة ، ويشترى القصور والأملاك فى فرنسا ، وعلى خير الدين أن يقاوم كل هذا .

وأخيراً كُلفت لجنة القضايا بوزارة الخارجية الفرنسية دراسة هذا الخلاف ورفع تقرير عنه ، وشكلت لجنة تحكيم يرأسها الامبراطور نابليون الثالث ، وأصدرت حكمها وهو يقضى بتخفيض مطالب بن عياد من ستين مليون قرش إلى خمسة ملايين ، كما ألزمته بأن يدفع للحكومة التونسية ١٤ مليون قرش فى ذمته لها ، ودفع مبالغ أخرى ، فكان مكسب تونس من هذه القضية نحو ٢٤ مليون فرنك . وفوق ذلك قام خير الدين فى هذه السفرة بأعمال أخرى ، أهمها أنه لما حدثت حرب القرم ١٢٧٠ — ١٨٥٣ أرسل الباى أحمد لمساعدة الدولة العثمانية ١٤ ألف جندى بأدواتهم الحربية وأسطولا من سبع قطع ، وهذا أثقل كاهل تونس ، فأرسل الباى إلى خير الدين بباريس مجوهرات ليبيعها وفوضه فى أمر ثمنها ، فلم يقبل خير الدين هذا التفويض وظل يراجع الباى فيما يعرض من ثمن حتى أنكر عليه كثرة الاستشارة وأمره بالبيع فوراً فباع .

ولم يكف ثمن هذه المجوهرات فكلفه الباى أن يعقد قرضاً من فرنسا ، وكانت هذه مسألة خطيرة لم يستطع ضمير خير الدين أن يحتملها ، لاسيما وأن الباى قد أصيب بالشلل وقربت منيته ، فماطل وماطل وأخذ يبعث بالاستفهام تلو الاستفهام حتى مات الباى ولم يتم عقد القرض ، فكانت محمدة من محامده حمدها له أهل تونس والباى الجديد المشير محمد باشا ، وأنعم عليه برتبة فريق سنة ١٢٧٢ .

أفاده بقاؤه في باريس هـذه المدة اطلاعا على الدنيا الجديدة ومعرفة بنظمها واحتكاكا برجال السياسة وفهما لأغراضهم، ووضع عينه على أسباب رقي الأمم وقارن بينها وبين تونس ، لم تأخرت وكيف ترتقى ، مما كان له أثر كبير في حياته المستقبلة ، كما أفادته علو شأنه في أمته وثقتها به وأملها فيه .

ومما يؤسف له أنه بعد هذه الفضائح كلها بقي مصطفى خزندار المنصب الكبير وصهر خير الدين في منصبه في الوزارة .

عاد خير الدين إلى تونس فعينه الباي محمد باشا وزيراً للحربية سنة ١٢٧٣ ، وظل في هذا المنصب إلى سنة ١٢٧٩ ؛ وفي هذه الفترة قام بإصلاحات كثيرة ، فأصلح ميناء « حلق الوادي » وهو أعظم ميناء لتونس وأمر بأن يقيد كل شيء في وزارته ، وكان هذا النظام أول ما أدخل في تونس .

وأنشأ مصنعاً بحاريا لبناء السفن وإصلاحها ووسع الطرق ونظمها . ولكن أهم من ذلك كله أن الدولة العثمانية وولاياتها التابعة لها والمرتبطة بها – ومنها تونس – مالت إلى اقتباس النظام النيابي تحت تأثير الضغط الأوربي وظهور فساد الحكم الاستبدادي ، وميل خواص الشعوب الشرقية إلى إصلاح الحال وإدخال النظم الحديثة — فكان خير الدين العقل المنظم لهـذه الحركة ومن له النصيب الأكبر في وضع القوانين لمجلس شورى منتخب .

وصدر الأمر به سنة ١٢٧٧ وانتخب أعضاء المجلس وكان خير الدين الرئيس الفعلي له بجانب وزارته للحربية .

ولكن هـذا المجلس اصطدم بطائفتين لها خطرها : فرجال الدين لم يرضوا عنه ، لأن بعض أحكام القانون سياسية لا شرعية ، ولأن القانون يقضي بالحكم بالأغلبية وقد ترى الأغلبية ما لا يرتضي الدين . وأصحاب السلطان من الوالي ومصطفى خزنه دار لم يرضيا عنه في باطن نفوسهما ، لأنه يسلبهما سلطانهما ، فأراد خير الدين أن يكون السلطان الحق للمجلس ، وأرادا أن يكون المجلس ستاراً شرعياً لتصرفهما وأداة طيعة لتنفيذ أغراضهما . أراده حقيقة ، وأراداه لعبة . أراد من كل عضو أن يقول ما يعتقد في صدق وإخلاص وجرأة ، وأرادا من كل عضو أن يتحسس رأيهما فيعبر عنه ، فكان النزاع وكان الخصام .

عرض على المجلس رغبة شركة فرنسية بأن تقوم بمد ماء زغوان إلى قرطاجنة ثم يوصل إلى المرسى والحاضرة ، وفي هذا المشروع فوائد عظيمة . وتجادل الأعضاء فيه منهم من يحبـذه لفوائده ، وبعضهم يرفضه خوفاً من تغلغل النفوذ الفرنسي ورغبة منهم أن يدبر لأمر لتقوم بالمشروع الحكومة التونسية نفسها ، واشتد الجدل ومالت الأغلبية إلى الرفض ، وهنا قال الوالي : لقد وعدت قنصل فرنسا وعدا قاطعاً بالموافقة على المشروع . فكان خير الدين جريئاً إذ قال : فلم جمعتنا إذاً لنأخذ رأينا ، وكان يكفي سماع هذا الخبر من سيادتكم ؟ .

وأرادوا أن يصرف فاضل الأوقاف على الإصلاحات العسكرية ، واستندوا إلى فتوى من أحد العلماء المالكية ، فعارض خير الدين في هذا وأوضح وجهة نظره بأن الشؤون العسكرية لها مخصصات في مالية الدولة ، ولا يصح أن تمتد الأيدي إلى فاضل الأوقاف إلا إذا عجزت مالية الدولة واستنفدت في وجوهها العادلة ، أما إذا كانت تبعثر هنا وهناك ويصرف منها على الترف والشهوات فلا يصح أن تمتد الأيدي إلى فاضل الأوقاف .

وناحية ثالثة لم يكن يرضيها النظام الشورى وإقامة العدل ، وهي الحكومة الفرنسية إذ ذاك ، لأن شمول العدل والنظام الشورى واستقرار الأمور يضيع على فرنسا مطمحها في الاستيلاء على البلاد ، فكان ممثلو فرنسا يحرضون الباي على التلاعب بالمجلس الشورى . ولما حضر نابوليون الثالث إلى الجزائر وتوجه إليه باي تونس وقدم له نسخة

من قانون الشورى الذي وضعه ، قبلها منه بالشكر ظاهراً ، ونقدها أمام رجاله سراً وقال : إن العرب إذا استأنسوا بالعدالة والحرية لم نسترح معهم في الجزائر . وهكذا اتجهت سياسة فرنسا في هذه البلاد إلى التظاهر بتشجيع حركات الاصلاح والعمل سراً على إحباطها .

وهكذا كل يوم مشكلة وكل يوم نزاع ، والإصلاح مستحيل مع هؤلاء ، فاستقال وقال : « لقد حاولت أن أسير بالأمور في طريق العدالة والنزاهة والاخلاص فذهب كل مساعيّ سدى ، ولم أشأ أن أخدع وطني الذي تنافى بتمسكي بالمناصب ، ورأيت أن الباي وعلى الأخص وزيره الرهيب المظلم الجباه مصطفى خزنه دار لايلجآن إلى التشريعات الاصلاحية الا لتبرير سيئاتهما تبريراً قانونيا ، فقدمت استقالتي سنة ١٢٧٩ من رياسة المجلس ومن وزارة الحربية ، وعدت إلى حياتي الخاصة » .

لم يشأ أن يثور بعد اعتزاله ولا أن يكوّن حزبا يناضل في سبيل تحقيق العدالة ، فذلك مالم يتفق ومزاجه ولم تهيأ له البلاد ثم هو تربطه بركني الاستبداد روابط تقيد حريته ؛ فالباي مولاه ومصطفى خزنه دار صهره ، وموقف البلاد إزاء المطامع الأجنبية دقيق ؛ لهذا كله اعتزل وسالم ، ونفض يده من العمل الرسمي مع الالحاح عليه في العودة ، ولكنه لم يقطع علاقاته الشخصية بالباي والوزير ، واستمر على هذه الحال تسع سنوات امتلأت بأمرين جديرين بالذكر : الأول سفره سفيراً من الباي إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدانيمارك وبلجيكا في مهمة خاصة ، فمكنته هذه ورحلته السابقة — كما يقول — من دراسة الأسس التي قامت عليها المدنية الغربية وبنت عليها الأمم الكبرى قوتها ونفوذها . والثاني تأليفه كتاب « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » وهو موضوع الحديث الآتي إن شاء الله .

أحمد أمين

السياسة الحكيمة

فرغت فى هذا الأسبوع من مطالعة كتاب صغير اسمه « سلوك المالك فى تدبير الممالك » لصاحبه « شهاب الدين أحمد بن أبى ربيع » وقد ألفه للخليفة المعتصم .

بنى المؤلف كتابه على أربعة فصول : فصل فى المقدمة ، وثلاثة فصول فى أحكام الأخلاق وأقسامها وفى أصناف السيرة العقلية وانتظامها وفى أقسام السياسات وأحكامها .

عنوان الكتاب يدل على موضوعه ، فلا أرى بى حاجة إلى وصفه ، فهو جملة قواعد وضعت للذين يسوسون أمور الناس .

من هذه القواعد ما يلى : سأل الإسكندر حكيماً : من يصلح الملك ؟ فقال له : إمّا ملك حكيم أو ملك ملتمس للحكمة ، والحكمة فى هذا المقام معناها الفلسفة .

ومنها : وعلى الملك أن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات .

* * *

إذا كانت دساتير الأمم فى عصرنا هذا قد اختلفت عن دساتير المتقدمين ، فأصبحت للأمم مجالس نيابية ومجالس شيوخ وغير ذلك ، فإن شيئاً واحداً لم يتغير ، وهو بناء السياسة على علم النفس ، وقد أدرك المتقدمون هذا الأمر فقرنوا الفلسفة ومعرفة الأخلاق بسياسة الرعية .

ولكن المؤرخين الذين دوّنوا تاريخ العرب والإسلام أهملوا هذا العنصر الفلسفى فى أحكامهم ، فلو بُعثوا فى يومنا ونظروا فى الذى كتبوه لكان لهم رأى غير رأيهم الأول ، لا شك فى أنهم كانوا لا يهملون فى هذا العصر العوامل النفسية فى سياسة الأمم والأفراد ؛ كانوا إذا تكلموا على رجل من رجال العرب والإسلام تولّى مقاليد الأمر والنهى فى زمن من الأزمان جعلوا للعنصر النفسى فى كلامهم مقاماً ، فإذا نجح هذا الرجل أو أخفق فى سياسة الناس فإنهم كانوا يبحثون من العوامل التى أدّت إلى هذا النجاح أو إلى هذا الإخفاق ؛ وقد تكون هذه العوامل مرةً اجتماعية ومرة اقتصادية أو غير ذلك ، وفى كل حال فإن للعوامل النفسية فى النجاح والإخفاق شأناً غير قليل .

قد تؤثّر فى مصير الأمم أمور شتّى ، ولكن أعظم هذه الأمور سلطاناً إنما هى العوامل النفسية . ولو تذكرنا التعبير الذى ولدته هذه الحرب وهو حرب الأعصاب لعرفنا حق المعرفة أن لعلم النفس منزلة عظيمة فى الحرب ، وقد كان له مثل هذه المنزلة فى الحرب التى قبلها ؛ وعلى الرغم من هذا كله لا يزال علم النفس ضعيفاً ، فلا تزال الأمم يجهل بعضها أخلاق بعض ، كما جهل الأمريكان أخلاق اليابانيين فى بدء الحرب ، فبينما كان الأمريكان واليابانيون يتفاوضون قبل تحاربهم على وجه سلمى كانت أساطيل اليابانيين تحتل جزر الأمريكان ، ولما اطلع الأمريكان على هذا الأمر قالوا : لم يخطر ببالنا غدر اليابانيين . ولو كانوا عالمين بأخلاق جيرانهم لما قالوا هذا القول ولما غلطوا هذه الغلطة !

فالسياسة مبنية على معرفة أخلاق الجماعات والأفراد وعلى معرفة الأحوال التى تتبدل فيها هذه الأخلاق ؛ وهذه المعرفة النفسية إنما هى أقوى أساس فى بنيان السياسة . على أنه قد استطاع بعض الرجال فى خلال التاريخ أن يعرفوا ما تسميه نفسية الجماعات والأفراد ، وكانت هذه المعرفة سبب نجاح سياستهم . وقد طبق علم النفس فى الحروب فكان له شأن غير يسير ؛ وإذا كان المجال لا يتسع للإفاضة فى هذا المعنى فلا أقلّ من الإشارة إلى مثل واحد من أمثال تطبيق علم النفس فى الحرب .

يقال فى بعض القلاع والحصون إن قسماً من جهاتها لا يمكن الاستيلاء عليه ، ولهذا الاعتبار يبقى هذا القسم ضعيف التحصين ، وقد استفاد بعض القواد من هذه الغلطات فرأوا أن يهجموا على القلاع والحصون التى هى

من هذا النوع من الجهة التي قيل فيها لا يمكن الاستيلاء عليها ، فاستولوا عليها ، وقد طبقت هذه الطريقة في الحرب الماضية من قبل الألمان ومن قبل الفرنسيين فنجحت ، وهي طريقة نفسية .

هذا عمل من أعمال علم النفس في الحروب . أما في السياسة العامة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذي نقود به الجماعات والأفراد ونحول به عواطفهم . ومن طالع إحدى روايات « شكسبير » استطاع أن يجد فيها دليلاً واضحاً على ذلك في الخطاب الذي وضعه « شكسبير » على لسان « أنطونيوس » لما استثار الجماهير امام جثة قيصر .

لا شيء أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجل عادة مركب من شخصيات شتى ، لا تظهر إلا في أحوال معينة ، وما هذا الثبات الذي نراه في شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل ، فالهادىء قد يصبح ثائراً ، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتنأر فضائله ، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية فإن جهلهم يؤدي إلى إخفاق سياستهم أو إلى الذهاب بحياتهم أو إلى القضاء على بلادهم في بعض الأحيان .

لا يتسع المقام للتبسط في هذا الباب ، وإنما حسبي من كل ما ذكرت أن أشير إلى أن السياسة المجردة من علم النفس إنما هي سياسة مُفشفشة .

بقي علي أن أختم هذا المقال بضرب مثل في هذا المعنى .

لما ضعف أمر بني أمية في الشام وافق آخر خلفائهم مروان بن محمد بن مروان على الهزيمة إلى حران ، فاستشار في ذلك اسمعيل بن عبدالله القشيري وهو رجل من قحطان موتور ، في نفسه ضغائن على قوم مروان ، فلنسمع حديث هذه الاستشارة على الوجه الذي رواه المسعودي .

ذكر إسمعيل بن عبد الله القشيري قال : دعاني مروان وقد وافق على الهزيمة إلى حران ، فقال : يا أبا هاشم ، وما كان يكنيني قبلها ، قد ترى ما جاء من الأمر ، وأنت الموثوق به ، ولا مخبأ بعد بؤس ، فما الرأي ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين علامَ أجمعت ؟ قال : على أن أرتحل بموالي ومن تبعني من الناس حتى أقطع الدروب وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب صاحبها ، وأستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عاراً بالملوك ، فلا يزال يأتيني الخائف والهارب والطامع ، فيكثر من معي ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري وينصرني على عدوي . فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأي ، ورأيت آثاره في قومي من قحطان وبلاءه عندهم ، فقلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ، تحكم أهل الشرك في بناتك وحرمك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ، ولا تدري ما تأتي به الأيام ، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية ، ولا يحدث عليك إلا خير ، ضاع من بعدك ، ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر الشام جنداً ، فإنك في كنف وعزة ، ولك في كل جند صنائع ، يسيرون معك حتى تأتي مصر ، فإنها أكثر أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً ، ثم الشام أمامك وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى افريقية . قال : صدقت ، وأستخير الله . فقطع الفرات ، والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان ، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً بل غدروا به وخذلوه . . . .

ويعلم القارىء كيف كانت عاقبة مروان بعد هذه الاستشارة وكيف كان مقتله في مصر . .

فهذا مثل من أمثال الغلطات النفسية في السياسة ، وقد أدرك مروان أن القشيري قد غشه في الرأي ولم يمحضه النصيحة ، وأنه فرط في مشورته إياه ، إذ شاور رجلاً موتوراً ، ولكنه كان ينبغي له أن يدرك هذا كله قبل الاستشارة ؛ فهذه غلطة نفسية ذهبت بحياة صاحبها وبقومه وملكه . فالسياسة أخت علم النفس ، فإذا انفصل علم النفس عنها كانت السياسة ضالة مضللة ، وإذا اتصل بها كانت حكيمة رشيدة !

نقولا حداد

من قصص الأطفال الصينية :

الزورق الأبيض

للكاتب الصيني الكبير « يه شاو — كين »

في هذه الترعة الصغيرة وعلى جانبيها تسكن الحيوانات الجميلة وتنبت النباتات النضرة ؛ فالزهور الحمراء الصغيرة منتصبة على الشاطئ ضاحكة بهجة ترقص مع النسيم رقصاً جميلاً ، والحشائش الخضراء على جانبي الترعة ، قد تلألأ الندى فوقها ، فصارت كأردية اللآلئ تخطف النظر ، وطفت على وجه الماء أوراق النباتات العائمة ، وزهورها الصفراء كزهرات اللوتس بنت المناطق الحارة وبلاد الأقزام ، والأسماك الصغيرة الدقيقة كالإبر ، قد برزت عيونها كبيرة لامعة ، تعوم في الترعة جيئة وذهاباً ، وقد فتحت الضفادع عيونها كأنها ترقب الناس أو كأنها تنتظر صديقاتها .

علت أصوات صغيرة ضئيلة على وجه الماء — كانت أصوات تكسر الفقاقيع التي خرجت من أفواه الأسماك الصغيرة « بق ... ... بق » فكانت هذه الأصوات من صغار السمك جميلة رائعة .

ونادت الأسماك الزهور الحمراء الصغيرة لترقص معها ، ومالت الحشائش الخضراء لتعرض أرديتها الجميلة ، وتحركت زهرات اللوتس بنت بلاد الأقزام وتحركت حركة خفيفة ، فتحيرت الضفادع أمام هذا الرقص الجميل فغنت أناشيدها من غير ما دعوة .

وزاد هذا الرقص الجميل وذلك الغناء الرائع منظر الترعة روعة وجمالا .

وكان يرسو على جانب الترعة الأيمن زورق أبيض جميل ، لم يشذ جزء منه في اللون حتى السكان والمجاديف والشراع كانت كلها بيضاء ، وكان ضيقاً طويلا كالمغزل ، لم يعد لركوب شخص سمين ، لأنه إذا ركبه مال إلى جانبه فوقع في الماء ، وكان لا يصح أن يركبه شيخ كبير ، فلو اتفق أن ركبه كان جلده الأدكن بتجعداته التي تشبه الشبكة بقعة سوداء فاضحة القبح وسط لون الزورق الجميل ، بل لو اتفق أن ركبه الشيخ الكبير لمات خجلا من قبحه وسط الزورق . وبالجملة فقد أعد ذلك الزورق لركوب ذوي الحسن والظرف من الصبية .

وسعى صبيان إلى شاطئ الترعة : أما أحدهما فصبي كان يلبس ثياباً بيضاء ، ذو خد أحمر براق كخد التفاح ، وأما الآخر فصبية ارتدت ثياباً زرقاء ، نبيلة ذات محيا متورد جميل يأخذ بمشاعر القلوب .

وسار الصبي والصبية وقد تأبط كل منهما يد الآخر ، ومرا في طريقهما بغابة صغيرة ، ثم قصدا إلى شاطئ الترعة ، وركبا الزورق الأبيض ، فاضطرب قليلا شمالا ويميناً كأنه يهتز طرباً لمقدم الصبيين الجميلين .

وشق الصبي الصمت قائلا : « لنسترح هنا قليلا » .

فقالت الفتاة : « نعم ، ولنلعب مع الأسماك الصغيرة » وأجابته الصبية بهذه الكلمات وهي تتكئ على جانب الزورق .

واستمرت الأسماك الصغيرة في الطرب والضفادع لا زالت تغني ، وقطف الصبي زهرة من زهور النبات العائم فوضعها في ضفيرة من ضفائر الصبية ونظر إليها قائلا : « أنت كالعروس تماما » .

وكأن الصبية لم تسمع كلامه ، فجذبت رداءه قائلة : « ولنغن معاً أناشيد السمك ، هيا بنا ! ... » .

فانطلق صوتهما يرتل :

تعال أيها السمك ! تعال أيها السمك ! لا تخف فليست عندنا شباك ، ولا تهرب فليس عندنا شص ، لنغني لك الأناشيد الرائعة ، ونلعب معك .

تعال أيها السمك ! تعال أيها السمك ! لا تخف فليست عندنا شباك ، ولا تهرب فليس عندنا شص ، لنقطف لك الزهور الجميلة ، ونلعب معك .

تعال أيها السمك ! تعال أيها السمك ! لا تخف

فليست عندنا شبابيك ، ولا نهرب فليس عندنا شيء ، فعندنا كل الأفراح ، ولنلعب معك .

ولم يتم الصبيان أناشيدهما حتى هبت الرياح الشديدة ، فرقصت الزهور والحشائش بسرعة ، وتقضن وجه الترعة الأملس ، فنشر الصبي الشراع يستعد للنزهة مع الريح ، ووضعت الصبية السكان في الماء ، وأمسكته بيدها كأنها نوتي ماهر ، فرجعت الترعة إلى الوراء مسرعة واندفع الزورق كالسمكة الطائرة جاريا على وجه الماء .

واشتدت الرياح فلم يستطع الصبيان أن يريا ماعلى جانبي الترعة بدقة ، بل كانا يريانه كأشباح سوداء تجرى أمامهما إلى خلف الزورق سريعة ، وقد طغى صوت احتكاك الماء بقعر الزورق على الأصوات الأخرى ، وملأت الريح الشراع الأبيض فصار كبطن الرجل السمين ، فتحير الصبي والصبية وقالا معاً : « إذا استمرت هذه الريح الشديدة فلا يمكن للزورق أن يقف ! » وجرى الزورق على وجه الترعة زمناً طويلا حتى ضل الصبيان وعجزا عن تحديد مكانهما ، فحاولا إيقاف الزورق ولكنهما لم يستطيعا ذلك ، وهو يجرى بكل قوة الريح .

فبكت الصبية وتذكرت أمها في البيت وسريرها الوثير وقطتها الصفراء ، وظنت أنها قد لاتراهن بعد ذلك ، وهي لاتطيق فراقهن إلى الأبد ، مهما جاورها حبيبها وصديقها .

فنظم الصبي بيده شعر رأسها الذي بعثرته الريح حول وجهها وتلقى دموعها بكفه وقال لها : « لا تبكي يا أختي الحبيبة ! فإن كل دمعة من دمعك كقطرة الندى تنزل من السماء ، فإذا أضعتها خسرت خسارة كبيرة ، وإن الريح لابد ستحد من غلوائها بعد حين ، فهي كأمواج البحر تارة تثور وتارة تهدأ » .

واستمرت الصبية تبكي بلا انقطاع وهي معتمدة على كتف الصبي كأنها إلهة الحزن .

وحاول الصبي أن يوقف الزورق ، فأمر الصبية بأن تعتمد على جانبه ، وقام وأخذ عقدة حبل الشراع بيده اليسرى وأمسك بيده اليمنى بالمجداف ، ثم شد العقدة ودفع الزورق بالمجداف إلى الشاطىء ، فنزل الشراع شيئاً فشيئاً ووقف الزورق ، فظهر أمامهما واد كبير واسع ليس فيه ديار ولا نافخ نار .

وصعدا إلى الشاطىء والريح لا تزال تضرب بسياطها الأشجار حتى أصبحت أكبر الأشجار في تعب شديد ، وأخذت الصبية تجفف دموعها ، ثم رأت خلو الوادي من الناس والبيوت فبكت مرة ثانية ، وواساها الصبي قائلا : « إذا انعدمت البيوت من هنا فإن عندنا زورقنا الأبيض يكفينا ، وإذا كان وجود الناس معدوما فلنلعب فرحين مرحين بلا رقيب ، أريد أن نعيش في الزورق طول عمرنا ونتمتع بمنظره الجميل ، وأحب أن تكوني معي في ذلك ، فلنذهب إلى الوادي ونلعب فيه ، هيا بنا ! » .

وتبعت الصبية الصبي ذاهبين إلى الوادي ، وهبت الريح باردة على جسميهما ، فجعلتهما يقتربان ويحيط كل منهما يده بخصر صاحبه ، ومشيا مئات الخطوات فوجدا شجرة السكاكا ذات ثمر كسكرات العقيق يتدلى من فروعها ، وبعضه نضج وسقط على الأرض ، فالتقطت الصبية واحدة منه فأكلتها ، فإذا هي لذيذة حلوة ، فطلبت من الصبي أن يأكل معها ، فافترشا الأرض يأكلان السكاكا ، وقد نسيا كل شيء في قلبيهما .

وفجأة جاءت أرنب تسعى من غابة صغيرة تبعد عنهما قليلاً ووقفت أمامهما وجثت على بطنها لاتتحرك ، فمسحت الصبية شعرها الناعم بيدها وأخذتها إلى حجرها ، فضحك الصبي وقال : « الآن وجدنا صديقاً يؤانسنا ! » ونزع قشر ثمرة من ثمر السكاكا وأطعمها إياها ، فقربت الأرنب فمها من الثمرة وأكلتها بنهم .

وجاء من بعيد رجل طويل القامة ، قبيح الوجه ، مخيف القسمات وقصد إليهما ، فلما رأى الأرنب بجوارهما غضب واتهمهما بسرقة أرنبه ، فأجابه الصبي قائلا : « إنها جاءتنا بنفسها ، وقد أحببناها لأننا نحب كل الأشياء الجميلة »

فقال الرجل : « إذا كان الأمر كذلك فإنى لا أعاتبكما وأرجو منكما أن تردّاها إلىّ »

ولكن الصبية لم ترد أن تفارق الأرنب ، فأمسكتها بين يديها بشدة وقربت خدها من شعرها الأبيض وأرادت أن تبكي ، ولكن الرجل لم يشفق عليها واختطف الأرنب من يدها بقوة .

وهدأت الريح شيئاً فشيئاً ، فقال الصبي في نفسه . « لقد ضللنا الطريق ، ولا نعرف كم بعد ما بين هذا الوادى وبين بلدنا ؟ ومن أى ترعة من هذه الترع الكثيرة نرجع إلى البلد ؟ فلأسأل هذا الرجل فربما عرف » .

وسأل الرجل ، فقال له : « إن المسافة بين هذا الوادى وبين بلدكما عشرون ميلا ! وأظن أنكما لا تعرفان الرجوع إليه ، لأن شواطئ الترع منحنية لا يستطيع إنسان غريب أن يعرفها بدقة ، ولكنى أستطيع أن أوصلكما إلى بلدكما »

فسر الصبيان غاية السرور وقالا في نفسيهما : « إن شكل هذا الرجل قبيح مخيف ، ولكنه رحيم القلب طيب الضمير » فتوسلت الصبية إليه قائلة : « إذاً فلنسرع إلى الزورق الأبيض ، لأن أمنا وقطتنا الصغيرة تنتظراننا في البيت » .

فقال الرجل : « كلا ، إذا أوصلتكما إلى البلد بدون مكافأة ، فإنى أخسر خسارة كبيرة » .

فقال الصبي : « أهدى إليك صورة جميلة » وفتح يديه بمثل حجم الصورة .

وقالت الصبية : « أهدى إليك حزمة من الأقحوان الفارسي الجميل مختلفة الألوان » .

ومدت يديها كأنها تقدم الزهور .

فحرك الرجل رأسه شمالا ويميناً وقال : « لا أريد شيئاً من ذلك ، ولكن عندى ثلاثة أسئلة ، فإذا استطعتما أن تجيبانى عنها فإنى أوصلكما إلى بلدكما ، وإلا فإنى أتركما وآخذ أرنبي وأرجع إلى بيتى . فهل تستطيعان أن تجيبانى عنها ؟ » .

فقال الصبي صائحاً : « نعم نستطيع ! » .

فقال الرجل : « أما السؤال الأول فلماذا تغنى الطيور ؟ » .

فأجابته الصبية في الحال : « تغنى ليسمع الذين يحبونها » .

فقال الرجل : « أصبت ، وأما السؤال الثانى فلماذا كانت الزهور طيبة ؟ » .

فأجابه الصبي بدون انتظار : « إن الطيب خير . وإن الزهور علامات الخير » .

فقال الرجل : « نعم الجواب ! وأما السؤال الثالث فلماذا يصلح الزورق الأبيض لركوبكما ؟ » .

فرفعت الصبية يدها — كأنها في المدرسة تجيب على أسئلة معلمها — قائلة : « لأن قلوبنا طاهرة خالية من الخبث كالزورق الأبيض نظيف خال من الألوان » .

فقال الرجل : « الآن أوصلكما إلى بلدكما ! » .

ففرح الصبي والصبية فرحاً شديداً وتعانقا وقبل أحدهما الآخر ، وساراً مع الرجل إلى الزورق وركبوه ، وأمسكت الصبية بالسكان وجدف الصبي والرجل بالمجاديف ، فجرى الزورق سريعاً ، ونظرت الصبية إلى شاطئ الترعة ، فهالها جمال الأشجار الحمراء والأكواخ الصغيرة ، وراعها انبساط الأرض ، وشبه لها المنظر كشاهد الجنة فزاد فرحها ، وكانت الأرنب جاثية بين قدميها ، فقطفت زهرة من زهور النبات العائم وقدمتها لها تداعبها بها .

وقال الصبي : « لولا الريح الشديدة لما نعمنا الآن بهذا الفرح » .

فقالت الصبية : « لو لم نتمكن من الإجابة على أسئلة هذا السيد فهل كنا نتوقع أن نفرح الآن ؟ »

ونظر إليهما الرجل ولم يتكلم واستمر يدفع مجدافه مبتسما .

ولما وصل الزورق الأبيض إلى الترعة التي كان يرسو فيها توقفت الزهور الحمراء عن الرقص ، وسكنت الحشائش الخضراء ، ونامت الأسماك الصغيرة تحت أوراق النبات العائم ، وأما الضفادع فما زالت تغني هناك .

(ترجمة) عبد الله ما — بي — كر

كتاب فى النحو العربى

وضع الأستاذ الدكتور ا . س . زتن ، خليفة الأستاذ هـ . ا . ر . جب فى تدريس اللغة العربية فى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية فى لندن ، كتاباً طريفاً فى نحو اللغة العربية ، عنوانه « علم نفسك العربية » — Teach Yourself Arabic — وهو حلقة فى سلسلة اسمها — The Eup Teach Yourself Books — وهى سلسلة تتناول تعليم عدد كبير من اللغات والعلوم بأسلوب يسير .

والكتاب مؤلف للطلاب الإنجليز ، بيد أنه مفيد من جملة نواح لمعلمى العربية والمشتغلين بالدراسات العربية من العرب الذين يعرفون الإنجليزية ؛ ذلك أن الدعوة إلى تيسير اللغة العربية ما فتئت تتردد منذ زمن بعيد ، ولكن لم يجرؤ أحد على الإقدام على هذا التيسير لوعورة المسلك واختلاف الرأى وفقدان التعاون بين مدرسى اللغة العربية فى مختلف البلدان العربية . وهذا الكتاب يصلح أن يكون مثالا أو ، على الأقل ، مرشداً لمن يأنس فى نفسه الكفاية لاقتحام العقبة أو العقبات .

إن مؤلفات الأوربيين عموما فى تدريس العربية فيها سر لا أدرى آهتديت إليه أم لا يزال مغلقاً علىّ . فالذى يبدو لى أن ابن اللغة يأخذ اللغة من الأفواه أو الكتب بلا شعور . وما زال القوالب الكلامية تتوارد عليه يوماً بعد يوم فتتسع ثقافته اللغوية وترسخ ملكته . وإن وجه إلى النظر فى أسرار لغته ودقائقها استيقظ شعوره ، وأضحى ينظر إليها شيئاً منفصلاً عن ذاته ، وداخلته وساوس كثيرة ، وهذا مسلك مناقض للمسلك الطبيعى فى تلقف اللغة ، فاللغة قوالب كلامية تدخل العقل فى أمواج كلية لا جزئية ، ودون شعور .

ولعل هذا علة صعوبة العربية على أبنائها فى الوقت الحاضر ، فنحن نتجه اتجاهاً خاطئاً فى تعليمها بطريق إيقاظ الشعور ، وأولى لنا أن نسلك الطريق الآخر ، وهو تدريسها قوالب كلية فى ظروفها الطبيعية ، والشعور راكد أو متحرك حركته المألوفة .

أذكر أن نتيجة بعض الفحوص فى اللغات عندنا دلت على أن الطلاب الذين يدرسون فى مدارس عربية يتفوقون فى معرفة قواعد اللغة الانجليزية على الطلاب الذين يدرسونها فى مدارس إنجليزية بحيث تؤخذ اللغة مشافهة ، ولكن معرفة القواعد شىء ومعرفة اللغة نفسها شىء آخر .

ومسألة أخرى : ترى أكان كبار الشعراء والأدباء متيقظى الشعور بقواعد اللغة ؟ وهل خرج من بين علماء اللغة — قواعدها — المتبحرين فيها أدباء من الطراز الأول ؟ هذان سؤالان يلوح لى أن الجواب عليهما سلبى ، اللهم إلا إن كبت المنشىء فى ساعة الإنشاء شعوره اللغوى — النحوى — وعبر عن أفكاره بانطلاق ، وليس معنى هذا بالضرورة أن جهل القواعد هو سر الجودة فى الإنشاء ، ولكن معناه أن السبيل إلى معرفة القواعد هو القياس الحق على التأويل المتحصلة فى العقل من المحفوظ والمقروء ، وهو السبيل إلى تحصيل اللغة ذاتها ؛ ولذلك ما فتىء العلماء قديما وحديثاً يقررون أن جودة الانشاء تعتمد على جودة المقروء ، ومن البديهى أن قواعد اللغة داخلة ضمن التراكيب لا أشياء خارجة عنها .

ومهما يكن من شىء فان الغريب عن اللغة يأخذ قواعدها جزءاً جزءاً ، ويتنبه — ربما من طريق الموازنة أيضاً — إلى مسائل لا تخطر ببال ابنها ، وإن ألف فيها أبرز خصائصها واضحة المعالم .

وهذا فى الحق ينطبق على ما قرأت فى اللغات الأوربية عن نحو لغتنا ، وينطبق أيضاً على كتاب الدكتور زتن الذى ساقنا إلى هذا الاستطراد من غير قصد .

***

ويبدو لى أن هذا الكتاب بزَّ الكتب التى سبقته .

فهو محيط بأصوات العربيـة إحاطة علمية دقيقة ، وكتب القواعد عموما تهمل قسم الأصوات ، وتقتصر على ذكر الحروف . وهذا الكتاب يعطينا الأصوات فى جداول تبين مخارجها وصفاتها ، ثم يشرح طبيعة كل صوت شرحاً وافياً مقابلا إياه بالأصوات الانجليزية .

وهو لأول مرة — على ما أعلم — يستعمل الحروف اللاتينية الدولية فى كتابة النصوص العربية ، وهـذه الحروف — أو الرموز — وضعت فى الأصل لتدوين أية لغة شرقية أو أوربية أو إفريقية على أسس فنية غاية فى الدقة . وهذه نقطة أسترعى إليها انتباه سعادة الأستاذ عبد العزيز فهمى باشا وأنصار الحروف اللاتينية .

وهو سائر فى عرض قواعد اللغة سيراً لطيفاً لايشعر القارىء بفجوات سحيقة كالذى رآه فى أكثر كتبنا ، فينتقل من الأصوات إلى الحركات إلى الضغط Accent إلى الاسم وإلى التعريف إلى الضمائر البارزة . . . الخ ، بتسلسل معقول .

وينحو فى عرض القواعد نحواً واقعياً ، أعنى مجرداً من العبارات الفلسفية والتفصيلات التى نجدها حتى فى كتب الأطفال ؛ مثال ذلك يذكر حركات المنادى دون إشارة إلى بناء أو إعراب ، ويدمج المفاعيل فى باب واحد ، مشيراً إلى الفروق المعنوية بينها فحسب ، ويجمل قواعد الهمزة بعبارة موجزة ، وهى أن تنطق الفظة بلاهمز ثم تثبت الهمزة فوق الحرف .

وعنى بالصرف عناية خاصة ، فوقف عليه جل الكتاب ، ولكنه لم يفصله عن النحو إلا فى مواطن .

وأعطى الأدوات حقها من الشرح ، وحدد معانيها ، ولم يجمعها فى باب واحد حسب عملها كما هو الحال فى كتبنا ، وذكر بعض العلل اللطيفة لطائفة من المسائل ، كتعليله زيادة الألف فى حالة نصب الاسم بأن أهل مكة كانوا ينطقون (التنوين = أن) بالمدّ .

واقتصر فى أمثلته ونصوصه على النثر ، ولم يورد فى جميع الكتاب بيتاً واحداً من الشعر ، وهذا اتجاه جديد له مسوِّغات يطول شرحها .

وأردف الكتاب بنصوص من العربية والانجليزية للترجمة علاوة على التمارين التى وردت فى نهاية كل درس ، وهكذا حقق الصلة الطبيعية بين القواعد والقراءة .

وهناك ناحية طريفة فى الكتاب ، فالمؤلف مشهور بدعابته وظرفه حين ينقد الكتب فى المجلات ، ونرى شيئاً من ذلك فى ثنايا هذا الموضوع الجاف ؛ مثال ذلك يبدأ فصل (العدد) بقوله : إن العدد كابوس الصبى فى الفلس . . . ويعلل فقر اللغة فى بعض المفردات بقوله : إن العربى — ويقصد البدوى — يجلس على الأرض ويأكل بيديه ، وحين يأكل أو ينام يجلب إليه طعامه وفراشه ، ونتج عن ذلك أن كثيراً من الكلمات التى لاغنى عنها فى الانجليزية يندر ورودها فى العربية .

***

ولا أدرى أيجوز لى بعد هذا أن أشير إلى أمور طفيفة يمكن استدراكها فى الطبعة التالية .

ذكر فى ص ٢٢٣ مجلة الصـور مكتوبة بالحروف اللاتينية بكسر الواو والصواب الفتح .

وورد فى ص ١٩٤ باساعداً فى الجبل بدل صاعداً . وكلاهما تطبيع .

وذكر جميع الأصوات التى تدغم بها أل المعرّفة كما هو فى كتبنا ، وعلم الأصوات يرد الإدغام إلى علة صوتية يسيرة ، وهى أن الصوت ذا المخرج القريب من مخرج اللام يدغم بها . وشذت الجيم المعطشة (الشامية) إذ حقها الإدغام ولكن النحاة لم يفطنوا إلى نطقها الأصلى الذى جعلها قرينة .

وربما تحسن الإشارة إلى الحروف المتشابهة كتابة

أحاديث عن مراكش :

الصـــــحافة

لا يحق لنا أن نعتبر فى نشأة الصحافة المراكشية تلك الصحيفة التى أصدرتهـا الحملة الأسبانية حين احتلت مدينة تطوان سنة ١٨٦٠ فى الحرب المراكشية الأسبانية باسم El Eco de Tetuan (صدى تطوان) ، فهى شبيهة بالصحف التى أصدرها الجنرال بونابارت فى حملته المصرية، أنشئت لنشر أنباء الحرب وتغذية الجيش بالأخبار ثم وقفت عن الصدور بعد الجلاء .

وإننا يجب أن نوجه أنظارنا إلى مدينة طنجة المواجهة لجبل طارق حيث كثر الأوربيون فى القرن التاسع عشر وانتشرت أساليبهم واستقرت بمثابهم التجارية وهيئاتهم السياسية ، وقصدها الصحفيون للاستعلام عن أمر هذه الدولة التى أحدثت كل هـذا الضجيج بين دول أوربا ؛ وكانت مهمة الحصول على أخبارها الصحيحة مهمة شاقة ، نظراً لخلوها من الصحف فكانت أخبارهـا تضيع فى أمواج الزمن — كما قال مراسل اسكتلندى سنة ١٨٧٣ — وصارت شؤونها محفوفـة بالغموض فى صحف أوربا ،

وكانت هذه المدينة تتمخض من حركة إصلاحية واسعة تستدعى أن يكون لهـا لسان تمد به الشعب لفهم نواحى الإصلاح .

على أن المستر أبرانيز Abrines — وأصله من جبل طارق — أخذ على نفسه أن يضع نهاية لهذه الحال ، فأسس فى المدينة مطبعة سنة ١٨٨٠ وأصدر صحيفة أسبوعية باللغة الأسبانية باسم (المغرب الأقصى) Al-maghreb Al aksa ثم أصدرت المطبعة صحيفة أخرى فرنسية باسم Le Reveil du marse وصاحبها ومحررها من أبناء مراكش الاسرائيليين يدعى (ليفى كوهن) وفى ٥ يوليه سنة ١٨٨٤ صدرت أخرى بالإنجليزية باسم The times of moracco ثم أخرى بالأســبانية باسم El eco mauritans وقد صدرت إلى جانب ذلك صحف أخرى غير هذه ولكن هذه أهمهـا .

هكذا عرفت مراكش الصحافة ، وسرعان ما تأثرت اللغة العربية بهـذه النهضة الصحفية ، فصدرت أول صحيفة باللغة العربية فيها باسم (المغرب) سنة ١٨٨٩ كما صدرت صحيفة عربيـة أخرى سنة ١٨٩١ ذات ميول إسرائيلية(١) .

كانت مدينة طنجة فى ذلك الوقت ملتقى لحركتين كبيرتين : الأولى الحركة الوطنية التى كانت تحـاول أن تنقذ البلاد من التردى فى الهاوية التى توشك أن تبتلعها . والثانية الحركة الاستعمارية التى كانت تعمل على تقويض دعائم الاستقلال ، وكانت الحركتان قويتين نشيطتين ، فحاولتا أن تستفيدا من هذا السلاح الجديد الذى وجد فى البلاد .

وصدرت صحف وطنيـة كثيرة نذكر منها جريدة (لسان المغـرب) تدعو إلى الإصلاح وتنشر الأخبار

(١) انظر الفصل الخاص بالصحافة فى مراكش فى كتاب The Moorish empire by Budgett Meakin

---

كالباء والتاء والثاء ؛ والجيم والحـاء والخاء الخ ، من حيث تشابه صورها فى أول الكلمة ووسطها وآخرها تسهيلا على التصفيف .

***

ومن يعلم أن المؤلف عالم فى اللغات الساميـة ، وفى الفقه الإسـلامى (أنظر كتابى : علمـاء المشرقيات فى إنجلترا ص ١٤) وملم بكثير من اللغات الأوربية ، وأنه شيخ جليل ، يتضاعف إعجابه بكتابه هـذا الذى نسخ ما سبقه فى موضوعه .

(القدس) أسمى موسى الحسينى

التي تهم البلاد معرفتها ، وتبشر بالدستور والتعليم والإصلاح الحكومى والقضائى والمالى والعسكرى وكل الإصلاحات التى تحتاج إليها الدولة والأمة . وكان السلطان عبد الحفيظ يقدر هذه الصحافة كل التقدير ويحبوها رعايته ويفهم أهميتها وضرورتها ، بل إنه أنشأ إلى جانبه مصلحة للصحافة توافيه كل يوم بالمقالات والبرقيات التى تنشرها الصحف الأوربية فيما يتعلق بمملكته(١) .

وكانت الصحيفة التى تقاوم هذه الحركة هى صحيفة (السعادة) أنشئت سنة ١٩٠٤ للتبشير بحسن نية الفرنسيين وسمو أغراضهم وعظمتهم فى عالم الحضارة وخطورة شأنهم فى عالم الحرب والسياسة . وقد كتب لهذا كله أن يزحف ويتملك ويستعمر ، فظلت هذه الصحيفة تصدر وحدها بعد أن عصفت الحماية بالاستقلال وحركة الإصلاح .

وقد تمتعت تلك الصحف الأولى بكامل حريتها ، فنشرت ما تشاء دون رقيب ولا إنذار ولا تعطيل ، ولا يحفظ التاريخ لنا إلا حادثة بسيطة ، لا تكاد تذكر ، وهى أن صحف طنجة هذه لما أسرفت فى حملتها على الحكومة الوطنية وأصحاب السعادة ممثلى الدول الأوربية سنة ١٨٨٥ أنذرها وزير الخارجية السيد محمد الطريس بالاغلاق إذا هى لم تقلع عن ذلك وأرسل الإنذار إلى الصحف جميعاً(٢) .

كان العائق الرئيسى فى سبيل صدور الصحف باللغة العربية هو ندرة المطابع ، فلما جاءت الحماية أصبح العائق شيئاً آخر ، فهناك دعوة معينة يجب أن تبشر بها الصحيفة اذا هى أرادت الصدور ؛ ولكن لحسن الحظ أو لسوء الحظ لم تصدر بعد ذلك صحيفة عربية فى مراكش إلا بعد زمن طويل ؛ مع استثناء الصحيفة الرسمية التى صدرت فى أول إبريل سنة ١٩١٣ مفتتحة حياتها بنص الرسالة التى تنازل بها آخر سلاطين مراكش المستقلين عن العرش(١) .

بينما ظلت تصدر صحيفة الحماية العربية وحدها صدرت إلى جانبها عشرات من الصحف الفرنسية ، وازداد عددها حتى أصبح لكل مدينة صحيفة محلية على الأقل باللغة الفرنسية .

ومن بين القضايا العديدة التى واجهت البلاد بعد الحماية قضية حرية الصحافة ، وهى قضية ما تزال قائمة إلى اليوم ؛ وتساءل عنها الشعب فقيل له إن ظروف الحرب (١٩١٤) قد أحاطت كل صحف العالم بالقيود ؛ فلما انجلت الحرب طالبت جموع الشعب المتظاهرة بحرية الصحافة التى سلبها النظام الجديد(٢) .

لم تطق البلاد صبراً على هذا الحرمان فبدأت تصدر صحف سرية تنشر مقالات شديدة عنيفة ضاقت بها السلطة دون أن تستطيع العثور على ناشريها ، وظل الأمر على ذلك زمنا طويلاً إلى أن بدأ الصدام الحقيقى بين المحميين والحامين ، فانطلقت الثورة من عقالها سنة ١٩٣٠ وانتشر الصحفيون المراكشيون فى فرنسا يروون فى صحفها ما يشبه الأساطير المخيفة عن حوادث هذه البلاد ، ثم أصدروا صحيفة فرنسية باسم Maghreb فى باريس ليلقوا النور على ما يحيط بأمر بلادهم من خفاء .

على أن الحماية الأسبانية المفروضة على جزء صغير من مراكش كانت أرحب صدراً فسمحت باصدار صحف

---

(١) كتاب Lyautey بقلم André Maurois صفحة ١٤٦

(٢) The Moorish empire

(١) كتاب الدرر الفاخرة للمؤرخ المراكشى عبد الرحمن بن زيدان صفحة ١١٨

(٢) من تقرير سرى رفعه الماريشال ليوطى إلى حكومته سنة ١٩٢٠ .

بين المجـــــلة والقراء :

سؤال علمى

أستاذنا أحمد بك أمين ،

هـذه مناقشة علمية قامت بينى وبين الدكتور جميل سلطان أستاذ الأدب العربى بتجهيز دمشق حول نص لابن خلكان قد نقله بعد التقديم والتأخير فى كتابه فن القصة والمقامة ، واستند إليه فى أن لابن فارس أثره فى نشأة فن المقامة ، وأنكرت أنا عليه ذلك لأن النص لا يدل عليه ، كما أنكرت عليه أن يبيح لنفسه التقديم والتأخير فى نص علمى والحذف أحيانا ، قائلا إنه لا يحق لعالم هذا وإنما الذى من حقه أن ينقل النص كما هو ثم يعلق عليه بما يشاء . ولما كان موضوع المقامة من المقررات الدراسية على الطلاب ، ولما كان الدكتور سلطان لم يقتنع برأيى ، ولما كان الطلاب فى حاجة إلى من يوضح لهم الطريق وينير لهم السبيل ويجعلهم يطمئنون إلى وجه الحق فى هذه المسألة ، لجأت إليك وآمل أن توضح لنا الحقيقة بعد إذ أخذت المسألة هنا دوراً كبيراً .

أستاذى . هأنذا أضع المسألة بين يديك مرتبا لها حسب خطواتها فى نفسى ، من أين تولد الشك وإلى أين انتهى فى المطاف .

كنت أقرأ فى كتاب الدكتور سلطان فوقعت على نص ابن خلكان فى ترجمة ابن فارس موضوعا على هـذه الصورة « كانت له رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة تعالى بها الفقهاء ، ومنه اقتبس الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات وإنه وضع المسائل الفقهية فى المقامات الطيبية وهى مائة مسألة » ص ١٧ فن القصة والمقامة .

وعلق على ذلك الدكتور سلطان بقوله : « وفى هذا بيان لتأثير ابن فارس فى نشأة المقامات إذ اقتبس الحريرى منه (٤٤٦ — ٥١٦) ، (١٠٥٤ — ١١٢٢) وكان بديع الزمان الذى سبق الحريرى بنحو قرن تلميذ ابن فارس الخاص لازمه حتى استنفد ما عنده كما يقول الثعالبى فى

وطنية حرة بعد ثورة سنة ١٩٣٠ ، ولكن حرمان هذه الصحف من الانتشار فى مراكش كلها ، كان مشكلة فى وجه هذه الصحافة .

لسنا نرمى فى هذه الكلمة إلى أن نحدث القراء الكرام عن الصحافة اليوم فى مراكش فقد صدرت منذ سنة ١٩٣٠ عشرات من الصحف العربية ولكن لتعيش كل صحيفة منها عاما أو بعض عام ، وإنما الذى نرمى إليه هو إعطاء صورة عن الظروف التى تحيط بالصحافة فى هذا الجزء من العالم العربى ، لنضمها إلى تاريخ الصحافة العربية فى الأقطار الشقيقة الأخرى .

وما من شك فى أن التاريخ الذى عرضناه بسرعة ليس بحافل ، ولكنه مع ذلك شريف ، فلم تشايع السلطة إلا صحيفة واحدة من هذه الصحف التى ذكرناها . وقد رفعت الصحافة المراكشية صوتها أول ما نشأت بالإصلاح ، فصمدت للحياة إلى أن أخذت القوة أنفاسها ، ثم غالبت القوة فصدرت سراً وتعرض ناشروها للأخطار ، ومع ذلك أبوا إلا أن يؤدوا واجبهم داخل البلاد ، كما أدوه خارج البلاد يوم أنشأوا الصحيفة فى باريس !

ولما تسامحت معهم السلطة قليلا أبوا أن يأخذوا حرية الصحافة إلا كاملة فعرضوا جميع صحفهم للتعطيل ، وهكذا تعيش مراكش اليوم بدون صحافة تذكر ، وبدون تاريخ صحافة إلا هذا التاريخ اليسير .

ولكن هل يضيره أن يكون يسيراً إذا كان شريفاً !؟ .

عبد المجيد بن جلون

بتيمة الدهر ، على أن مقامة ابن فارس مفقودة ، فلا يمكن أن نقارن بينها وبين مقامات البديع أو الحريرى » .

قرأت كل هذا فالتفت ذهنى إلى قول ابن خلكان ومنه اقتبس الحريرى ، وقلت مادام البديع الهمذانى كان تلميذا لابن فارس فلماذا لم يقل ابن خلكان ومنه اقتبس البديع ؟ وقلت لابد فى المسألة من سر ، ولابد من أن يكون المقتبس شيئاً غير المقامة ، شيئاً يخص الحريرى ولا يخص البديع ، ومن هنا كان لا بدلى من الرجوع إلى ابن خلكان .

رجعت إلى ابن خلكان فرأيت ما توقعت وتيقنت من أن صاحبينا قد أخطأ خطأين : أخطأ أولاً فى فهم النص وأخطأ ثانياً فى التقديم والتأخير والحذف والتقصير ، ثم علمت أن الخطأ تسرب إليه وتسرب إلى من ذهب مذهبهم من أصحاب دائرة المعارف الاسلامية وجورجى زيدان والأستاذ الزيات وخليل بك مردم ، وفسرت هذا بأن الخطأ لحق كتاب الدائرة أولاً ثم تسرب منهم إلى غيرهم ، وتسرب إليهم الخطأ من وجود اسم المقامة الطيبية فى ترجمة ابن فارس ، ومن عدم فطنتهم للفاعل من وضع ولمرجع ذلك الضمير الفاعل وهاهو نص ابن خلكان وتعليق عليه .

« وله رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة تعايى بها الفقهاء ، ومنه اقتبس الحريرى صاحب المقامات الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطيبية وهى مائة مسألة وعليه اشتغل بديع الزمان صاحب المقامات » .

رأيت أنا من هذا النص مايخالف تمام المخالفة ماذهب إليه الدكتور سلطان ومن ذهب مذهبهم . فالضمير الفاعل من وضع يعود حسب قواعد الإعراب إلى الحريرى . ثم نظرت فى مقامات الحريرى فوجدت المقامة الطيبية ووجدت مائة المسألة المنصوص عليها ووجدت أن الحريرى نفسه قد أشار إلى ذلك فى المقامة الطيبية — فقد أشار إلى العدد بقوله مائة فتيا فى أوائل المقامة ، وأشار فى آخرها إلى أنها من الفقه الشافعى ، ثم تابعت البحث فوجدت أن هـذا النوع من الألغاز اللغوية الفقهية لا يوجد عند البديع وإنمـا يوجد عند الحريرى ، فتيقنت من أن ابن خلـكان حين قال ومنه اقتبس الحريرى إنما قصد إلى هذا النوع ولم يقصد مطلقاً فن المقامة ، وإلا كان الواجب أن يقول ومنه اقتبس البديع لأن البديع تلميذه ولأن الحريرى قد قلد البديع وقد ذكر ذلك فى مقدمة مقاماته كما ذكر ذلك ابن خلكان .

على أنى فكرت تفكيراً آخر ، وهو : لماذا يذكر ابن خلكان هـذا هنا ولا يذكره عند حديثه عن الحريرى ؟ ودفعنى هذا التفكير إلى شيء آخر هو : هل من عادة ابن خلكان إذ أراد أن يذكر أثر أستاذ فى تلميذه أن يذكره عند حديثه عن الأستاذ .

تتبعت هذه المسألة فى بعض المواطن فوجدتها صحيحة خاصة عند حديثه عن البديع والحريرى ، إذ ذكر مايقوله الحريرى عن تأثره بأبى الفضل فى ترجمته له . والغريب الذى لم يقتنع به الدكتور سلطان أن ابن خلكان فى ترجمته للبديع يذكر أن الحريرى قلده فى فن المقامات وأنه سار على منهجه ، وهذا يؤيد ما إليه ذهبت من أن ابن خلكان لايقصد مطلقاً أن يقول إن لابن فارس أثراً فى نشأة فن المقامة .

محمد خلف الله

(أحمد أمين) أوافق الأستاذ محمد خلف الله فى وجهة نظره .

استدراك

وقع خطأ مطبعى فى البيت الثانى من قصيدة « أنشديني » بالعدد الأخير من الثقافة وتصحيحه .

« واخرجى من عالم الذكرى إلى دنيا الفنون »

محمود تيمور

في « عطر ودخان »

أريد من هذه الكلمة أن تكون ملحقاً لكتابي الذي أصدرته عن الأستاذ محمود تيمور في « ديسمبر » الماضي ، ملحقاً يكمله ويوضح ناحية منه لم تلق عليها دراستي الضوء الكافي .

فلقد كانت السمة الغالبة على تيمور ، كما صورته إذ ذاك ، سمة النفس الهادئة اللينة ، المنطوية على ذاتها تجتنب الشر وتخشى العاصفة ، وكانت هذه الملاحظة — وهي ملاحظة فحسب — لا مدح فيها ولا ذم — تستند على لمحات في أقاصيصه ، أو فكرة عابرة في مقالة له . أما كتابه الأخير(١) فهو زاخر بالمادة لمن يريد إذ يحلل تيمور أن يؤكد هذه الناحية من نفسه . ولكنه ، من وجهة أخرى ، خصب بما يسهل معه أن تثبت العكس ، وأن تبرهن أن لدى تيمور استعداد الرجل العملي المغامر ، الثائر بالأوضاع القائمة ، والذي يرى في الرياضة ، في الحركة ، أقوى مظاهر الشخصية وأدناها إلى الحياة الحقة . وليس هذا بعبث أطفال ولا هو ألفاظ نلهو بتقليبها كما نريد . فالواقع أن في تيمور هذين الشخصين في آن واحد . إنه فنان : يعيش في حياته المادية الحلم اللين ، ويعيش في أحلامه الراقية الحياة الصاخبة . ولقد وجد تيمور ، تيمور وحده ، وجد أخيراً « الصيغة » التي يجمع فيها نفسه ويرمز بها إلى طبيعته : فهو ، كما يسمى كتابه عطر ودخان . هو « عطر » فيه من الفن رائحة المرأة ، الأنثى التي يمثل الرجل لديها القدر ، فهي طيعة ترتضي حكمه . ولكنه ، من حين إلى حين ، يثور بهذا القدر الذي يضطره إلى اللين ويحبسه على سلبية الفن ، فإذا هو « دخان » تبعثه النار وتخلقه ثورات المحارب . فأنت لا تكاد ترى لتيمور مقالة يمجد فيها « الرجعية الجيدة » ، أو يدعو فيها إلى أن نتقبل دنيانا « كما هي بخيرها وشرها » نحيا فيها كما شاءت لنا « مسوقين بتيارها الجارف » ، حتى تقرأ له إلى جانبها رسالة ينادي فيها بالعصيان على التقاليد ، واجداً في هذا العصيان « سر الحياة كله » . وتراه لا يكاد يعجب بدنيا المرأة المعزلة ، ويمجد « النوافذ المقفلة » التي تحجبها وراءها ، حتى ينتقل بك إلى الشاطئ ، فيتغزل بالمرأة المتنزهة هناك في لبوس البحر ، تحرقه بعريها من « ذلك المارد الضخم الذي سجنته في قمقم من تلافيف عقلها الباطن » .

وإذا كانت هذه « التناقضات » كثيرة فيما أنتج تيمور ، وبخاصة في كتابه الأخير ، لأنه مجموعة من المقالات كتبت في أوقات مختلفة ، فإنما هي ضرب من الازدواج الظاهري يخفي وراءه الانسجام الكامل . ولقد أصبح مبتذلاً أن نردد أن « حياة الحلم » تكملة ضرورية لحياة الواقع ، مناقضة لها بالضرورة ، وأن الانسان فطر على ضرب من الحسد الجيد يجعله ساخطاً في الغالب على عيشه ، تواقاً في الغالب إلى حياة الآخرين . . .

* * *

هذا الازدواج الطبيعي يصوره « عطر ودخان » خير تصوير . فأدب المقالة هنا يهيئ لتيمور الهزة التي كانت تعوزه في مجال القصة ، وإذا كانت المقالة أقل الفنون الأدبية شأناً في آداب الناس ، لأنها عمل فكري وفني لا يقتضي الجهد المطول والعمل المرهق ، فان النجاح فيها ليس دائماً بالأمر السهل ، وليس كل أديب يستطيع أن يقدم للناس المادة الدسمة في المدى الضيق . ولهذا نحمد لتيمور كثيراً من المقالات التي يضمها كتابه الجديد . وأنا أنصحك أن تمضي بقراءة رسائل « عزوز » والصور

(١) ١٧٦ ص من القطع المتوسط ، أصدرته « لجنة النشر للجامعيين » .

بين المسموع والمقروء

الحيوان الذى فينا

للدكتور أحمد زكى بك

كان عندما الفيشُه قد عاد تواً من جبهة القتال ، ليستقر فى القاهرة بعض حين ، وكان الحفل الذى اجتمعنا فيه يجمع بين الأشتات من الناس ، رجالاً ونساءً ، أكثرهم لم يعرف الحرب إلا سماعا ، قد غلبت عليهم وعليهن دعة المدنية وهدوء السلام ، وغلب عليهم أدب المدنية أيضاً ، فالكلام همس ، والنظرات ابتسام . اذا طلب أحدهم شيئا قدم له بصنوف الاستئذان ، وبإعطاء الفضل مقدما ، فإذا أجيب إلى ماطلب ، أردف ذلك بالشكر فى جمال ورقة . وإذا داس أحدهم على طرف عفواً ، أو غمز بكوعه كوعا ، أو مس بذراعه صدراً أو ظهراً ، اندفع يعتذر عن فعلته الشنيعة بالكلم الغليظ المؤكد ، يؤكد به أن الفعلة الجارحة إنما صدرت عن وعى غافل .

فإلى هذا الحفل عاد صاحبى من جبهة القتال ، فمس من بعد حين غير قصير ذلك الجانب الألين من جوانب الناس ، وباشر من بعد عهد طويل لطف النساء ، حديثاً ووجها وحسن معاملة . وكان الرجلَ الذى تعوَّد لقاء الناس فى غير أزمة نفس ، وطرْقَ أبواب النوادى طرقَ غشْاء لها من غير استئذان ، ولكنه أحس فى هذا الحفل بالحرج يساوره ، وأحس بنفسه لا تجرى على سجيتها ، حتى أن يكون قد حمل معه إلى هــذا الجمع المؤنث السالم مشومة ذلك الميدان من طبع ذكر وقلب غليظ . وحسبت أن به بعض انزعاج ، فسألته فى ذلك ، وكان الصديق القديم ، فأفضى إلىّ بسريرته . وانتحى بى ناحية وأخذ يحدثنى عما رأى فى أمسه القريب فى ميدان القتال ، وعما أتى هو أيضاً فيه . قال : كان الرجل منا يقتل الرجل ، فلا والله ماتبقى فى نفسه بقية من أسف كالتى تبقى فيها إذا هو ذبح فرخا فى أكناف أيام السلام . وقال فى ختام حديث طويل : إن النفس الانسانية لابد أنها كانت نفس حيوان ثم تطورت . أو لعلها نفس حيوان تقمصت نفس انسان ؛ فأنك لاتكاد تشق هذا القميص حتى تظهر من تحته القروة والخلب والناب . وهذا القميص ممشق حتما على قصف المدافع من حولك ، وانفجار الأرض من تحتك ، ورؤيتك الأشلاء تتناثر على بصرك وقد كانت منذ رهة جسما صحيحاً يتحدث ، له لسان وله قلب وله آمال . وفى تلك المواقف تكون الحياة إما لك أو لهذا الذى أمامك . فتجرح كما يجرح الطير . وتعض كما يعض الوحش . وتبقر كما تبقر السباع . وسيل الدم تألفه فيكون صبيبه

الوصفية الأربع التى ينتهى بها الكتاب . فلن تلبث أن ترى فى بساطة هذا الفن التيمورى مدرسةً لايصح إهمالها .

ومن الطريف أن هؤلاء الفنانين ، الثائرين أبداً على القانون ، هم أبداً أول من يفرض قانونه على الناس . فأنت ستخرج من قراءة «عطر ودخان» وفى نفسك شعور خفىٌ بأن تيمور يريد أن يجعل من المرأة مشكلة الحياة الكبرى ، والمحورَ الذى يدور عليه السكون ، فكل ما على الأرض فروعٌ من هذه الشجرة ، تحمل صفاتها مصغَّرة أومشوَّهة . وهذا « القانون » المصنوع ، القائم فى أثواب زعم الثبات ، يهيىء لتيمور مقارناتٍ ومشابهات طريفة تسمو بأسلوبه ، لفظية فى أكثرها ولكنها عميقة الدلالة على القصد . وستنتهى منها جميعاً ، مع تيمور ، إلى هذه النتيجة المحتومة المرضيَّة : وهى أنْ تجمعَ الحياة كلها فى معطف قانون وحيد ، ثابت كالمستور فى بناء الأمة ، وهو قانون الازدواج وتلاقى العطر والدخان فى حنايا القمقم الواحد .

نجيب الحكيم

كصبيب الماء .

ثم نظر إليّ صاحبي وسألني : أ كنت في حرب أبداً ؟

قلت : لا .

قال : فإنك لاتفهمني كل الفهم . إن أساس التفاهم التجارب المشتركة .

قلت : بل أفعل . انما أراك كما أرى الخيال في الماء .

قال : والماء مضطرب .

ثم استطرد يقول : وعندئذ تتبدل النوازع غير النوازع ، والدوافع غير الدوافع . ويسود قانون هو قانون الغابة . تنقلب فيه الأوضاع . وتختلط الأمور . فإذا أنت خرجت عن الحرب ، وميدان الحرب ، ولو بعض حين ، وعدت إلى حياة الناس ، وحياة السلام والوئام ، عدت إليها والشك يملأ قلبك . والتذبذب بين الحالين ينهك قواك ، فلا تدرى أين السواد وأين البياض . ولا أين الثقل وأين الخفة ؛ ولا أين تكون الحلاوة وتكون المرارة . وتعود تسترد على الجهد مقاييس غير تلك المقاييس التي حلا بها المر ، وخف الثقيل ، واختفى من الأسود سواده في حلوكة الساعة .

وفرغ صاحبي من اعترافه الطويل ، فكأنما حط عن ظهره ثقل السنين ، وقت وقام إلى الناس ، فكان خطوه بينهم من بعد ذلك أثبت ، وحركته ألين ، ولسانه بالكلام أرطب . والتقى فتاة فتلطف لها تلطفاً مديداً شديداً ، عرفت عنده أن صاحبي قد برىء ، ولو إلى حين ، من أعراض جاء بها من ميادين القتال .

وخرجت أفكر فيما ذكر صاحبي من النفس الانسانية التي انطوت على نفس حيوانية في تلك الظروف التي قال إنها تحلي المر وتخف بالثقيل وتسيغ غير السائغ . وذكرت بهذا شيئاً قرأته عن قبيل من الناس بقيت فيه آثار تلك الحيوانية ظاهرة ، عارية ، فهو ينصاع لها انصياعه للطعام والشراب وسائر مطالب العيش ، فالقتل عنده شيء مألوف ، بل هو مطلوب أيضا ، يأتيه بين أعمال النهار كبعض عمل النهار .

كان الرحالة الذي أحكي عنه يصف قبيلا من الأقزام يسكن ناحية من الجزيرة الكبيرة الواقعة على طرف المحيط الهادي بين أستراليا والهند الصينية . وتسمى غنيا الجديدة .

بلغ الرحالة تلك الناحية يوما ، وقصد إلى مركز الحاكم ، فوجد صفا من الأقزام قد جيء به لجريمة أتاها . وكانت الجريمة جريمة القتل . ولما تليت عليهم الجريمة لم يفقهوا ما الذي فيها ، ودهشوا أن يكون كل هذا الصخب والعجب من أجل قتلة .

ونظر السائح فوجدهم قوما عراة ، إلا من ورق التين يسترون به ما لابد من ستره . ووجدهم قد تمنطقوا فضيقوا المناطق حتى برزت لحومهم من خلف . وكان منهم من يحمل الصليب في عنقه ، فعلم من ذلك أن المبشرين بلغوهم ، ومع هذا لم يستطيعوا أن يبلغوهم أن القتل حرام .

وسأل أحدهم عن حاله ، بواسطة ترجمان طبعا ، فكان جواب الرجل : ما الذي يراد بنا ؟ إننا لم نفعل شيئا .

وحقا هو لم يفعل شيئا . إنه قتل حقا ، وهو يعترف بذلك ، ولكنه لا يجد في ذلك شيئا . إنه شيء يجيزه العرف في القبيل . إنه يقطع الشجر ويصيد الطير ويقتل الحيوان . ومن الحيوان إلى الإنسان قيد خطوة .

إن نظرة هذا الرجل البدائي إلى الحياة والموت تختلف اختلافا كبيراً عن نظرة الرجل المدني ، وقد تسأله : ما دعاك لقتل هذا أو ذاك ؟ فيجيبك بصراحة الطفل : لأنه لا نفع فيه . وحدث مرة أن قتل رجل رجلا ، فلما سئل في ذلك قال : إنه كثير الكلام نقال للأقوال .

وقد عرف من رجال هذا القبيل من الناس أنهم يقتلون أحيانا من أجل الأدب ، كان نفر منهم يسير في الطريق يسوقون أحمالا ، ولم تكن الدواب تحتمل أكثر مما حملت ، فمروا برجل شيخ فسألهم أن يحملوه

معهم . فنظروا . فلما تعذر حله، وجدوا أنهم لابد رافضون والرفض سوء أدب . فلم يجدوا سبيلا للخلاص من ورطتهم إلا بقتله .

وحققت الحكومة فى أمرهم ، وأتت برجال القبيل والخبراء ، فكان قرارهم أنه لاملامة فيما حدث ، ولا تثريب على أحد . إن الملامة فى أنهم قتلوا الرجل فى الطريق العام وهو طريق الحكومة ، والحكومة لاتحب القتل . فهذا فساد فى الذوق ما كان يجب أن يكون ، فالذوق يقضى فى هذه الحالة أن يجروا الشيخ إلى أحد الأدغال ، وهناك يقتلونه .

والعجيب أن هذه الحكومة المتدينة لم تجد بداً من قبول هذا الرأى . وهى لا تؤاخذ أحدا بالقتل ، على أنه جريمة . ولكن فقط على أنه « فساد ذوق » .

والحكومة تستخدم معنى « فساد الذوق » هذا فى تخذيل هؤلاء الناس عن إتيان الجرائم . وهى تنجح بهذا أكثر من نجاحها بالعقوبات الرادعة . حتى أكل اللحوم البشرية حدثت عنه هؤلاء الأقوام بالاشاعة فيهم أن هذا « قلة ذوق » . فأصبح اليوم لا يجد الرائى هذا الشواء الإنسانى على مائدة كبير فيهم أبدا .

ومع هذا لاتعفيهم الحكومة من عقوبة إذاهم قتلوا . وعقوبة ذلك فيهم اليوم الحبس ، فقد وجدوا أن الحبس يؤلمهم إيلاما شديدا . وفى الحبس يقصون شعورهم ، وهذه كبرى الكبائر . إنها سبة يفضلون عليها الموت . وتدرك هذا ، إذا أنت عرفت أن شعورهم يرسلونها على رؤوسهم قائمة تطلب السماء ، فتظهر فوقها كأنها التيجان .

سمع صاحبنا الرحالة كل هذا أمام بيت الحاكم فى تلك الناحية من الجزيرة ، وقد اصطف أمامه هذا الصف من الرجال . وما لبث أن لاحظ أن هؤلاء الرجال جميعا يحملون فى أعناقهم منقار طير . فسأل الحاكم فى ذلك ، فتقدم الحاكم إلى أحد الرجال وانتزع من عنقه منقاره ، فاضطرب الرجل غضبا ، واهتز جسمه ارتعادا ، ولكنه خشى العاقبة فظل فى مكانه لا يفعل شيئاً . وشرح الحاكم أمر هذا المنقار ، فقال : إنه لا يطوّق به إلا كل شجاع فى الحىّ مقدام ، وإن دليل الشجاعة عندهم القتل .

واتخذ الرحالة من هذه المناقير موضوعاً لدرسه ، فعلم أنهـا قلائد لا يجرؤ أن يتقلدها أحد فى هذا القبيل زورا أبدا . وزاد درساً فعلم أن هؤلاء الناس ، فى عهد غير بعيد كانوا يعيشون فى حرب دائمة . كانوا يعيشون فى القرى ، وكانت القرية تسطو على القرية ، فكان لابد من دفاع ، وكان لابد من دفاع دائم . من أجل هذا كان القتال ، ومن أجل هذا كان رخص الحياة فى سبيل الحياة .

وكان المنقار شارة البطولة فى القرية ، تُعطَى للحاصدين بمقدار ما يحصدون من الجماجم . والمرأة إذا تزوجت طلبت من عروسها إذا لم يكن من أصحاب المناقير أن يأتى برأس عدوّ فيضعه عند قدميها . فالرأى عندهم أنه لا زواج لرجل لا يستطيع أن يدفع عن حرمه ، فعلى الرجل الدفاع ، وعلى المرأة إقامة البيت وتموينه .

وتجد المرأة تمشى مع الرجل ، فتحمل هى الأحمال ، وهو يمشى فارغ اليدين والظهر والمناكب . وليس هذا من تحقير المرأة ، ولكنه الدفاع منها قضى على الرجل أن يكون فارغ اليد على أهبة دائمًا للنضال .

وتغير الزمن ، وذهب عهد النضال الأول ، ولكن بقيت المناقير يطلبها الطالبون ، طلبا للبطولة حيث لابطولة ، فطلبوها بالرؤوس يقتطفونها من قوم مساكين ضعفاء ، كما يقتطف الرجل الأزهار والثمار . وعما قريب هى لابد صائرة إلى ماصارت إليه السيوف فيما يتقلدها قوم لايعرفون كيف تُسَلّ السيوف ولا كيف تجرح .

أحمد زكى

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٦٩ / ٥٦٢٧٦٩

العدد ٣٢٩ — الثلاثاء ٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ — ١٧ من إبريل سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

التمثيل الدبلوماسى :

أعمـــال الدبلوماسيين

إن المبعوثين الدبلوماسيين نوعان : الأول المؤقتون ، الذين يرسلون فى مهمة خاصة كحضور الاحتفالات ، أو المؤتمرات ، أو لعقد اتفاق خاص ، فأعمالهم معينة فى كتب اعتمادهم . والثانى المبعوثون الدائمون . وقد بحثت أعمالهم فى مؤلفات خاصة ضخمة نتناول فى حديثنا اليوم ، وبصورة عاجلة ، نقاطها الهامة . وهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين : أعمال سياسية ، من مفاوضة وملاحظة ، وأعمال إدارية من حماية وغيرها .

إن أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق المبعوث الدبلوماسى هى سياسية أو دبلوماسية ، تمس تأمين العلاقات الدولية بصورة حسنة مرضية . ويعتبر المبعوث الدبلوماسى فى العلاقات الدولية ، لسان دولته ، وأذنها ، أو حلقة الوصل بين دولته ، والدولة التى أرسل إليها . فكل شىء تريد دولته قوله للدولة الأخرى تقوله لها على لسان مبعوثها أو بواسطته ، وكل شىء تريد الدولة المرسل إليها قوله إلى دولة المبعوث تسمعه إياه ، أو ترسله بواسطته .

ولتأمين سير العلاقات الدولية بكيفية حسنة تجرى المفاوضات بين الدول . والمفاوضة هى البحث والجدل اللذان يجريهما الدبلوماسيون باسم حكوماتهم ، للوصول إلى نتيجة مرضية بشأن المصالح ، التى هى موضوع البحث ، وهذه تكون متناقضة فى أكثر الأحيان ، والمفاوضة هذه يطلق عليها كلمة « الدبلوماسية » Diplomatie

وتتطلب الدبلوماسية صفات شخصية عالية ، ولباقة ودقة شعور ، ومعرفة قوية للعلوم السياسية . والدبلوماسية ينبغى أن تكون شريفة صادقة . وأما المناورات وغيرها من الأمور التى يدعونها مهارة دبلوماسية ، فما هى إلا

غش وخداع يؤديان إلى فشل مروع فى أغلب الأحيان .
والمفاوضات الديبلوماسية يمكن أن تكون فى بعض الأحيان ، عبارة عن تبادل للآراء ووجهات النظر ، وقد تعالج مشكلة وتحاول حلها ، وقد تكون تمهيداً لعقد اتفاق أو معاهدة .

وأكثر المفاوضات شيوعا مفاوضات النوع السياسى التى يجريها المبعوث مع وزير الخارجية أو مع أحد موظفى تلك الوزارة وقلما يفاوض المبعوث رئيس الدولة ، إذ أن معظم دساتير الدول لا تجيز لرئيس الدولة أن يقر شيئاً دون حضور الوزير المختص .

وتكون المفاوضات الديبلوماسية عادة شفهية ، غير أن الحوار يدون دائما ، لحفظ نصه ، والرجوع اليه عند الحاجة . ومع ذلك فالنقاط الهامة فى المفاوضات تتبادل بين المتفاوضين كتابيا ، للتأكد من مدلولها .

ويتكلم المبعوثون بلسان حكوماتهم ، وتكون مهمتهم فى المفاوضات فى كثير من الأحيان محددة بتعليمات معينة من رؤسائهم ، ومع ذلك فان شخصية المبعوثين تلعب دورا هاما فى المفاوضات ؛ فهناك مبعوثون ذوو مهارة فى التوفيق بين وجهات النظر ، وتسهيل الصعوبات ، وهناك آخرون يميلون دائما إلى تعقيد الأمور وتصعيبها .

وبجانب ما تقدم من القول يجب على المبعوثين أن يرفعوا إلى أقصى حد ممكن اسم دولهم ومكانتها ونفوذها . وأن يعرضوا أعمالها السياسية بأجمل صورة ، وأن يجدوا أسواق تجارية لمنتوجات بلادهم .

ثم إن على هؤلاء المبعوثين أن يحافظوا على مكانتهم فى الاحتفالات الديبلوماسية "Le Cérémonial diplomatique" أو البروتوكول "Protocole" . والمراد به تنظيم وترتيب الاحتفالات التى يشترك فيها المبعوثون الديبلوماسيون ؛ والتساهل فى وضعية المبعوث فى الحفلات والدعوات ، يقلل من كرامة دولته ، ومن مكانته الشخصية ؛ وهذا أمر لا يتساهل به قط . وكثيرا ما حدثت خلافات حادة بين الدول من جراء ذلك أدت إلى سحب مبعوثيها والتهديد بالحرب .

* * *

وبجانب المفاوضة ، على المبعوث أن يلاحظ ويتتبع ويراقب عن كثب كل ما يجرى ويحدث فى البلاد المرسل اليها ، وأن يرسل تقارير بذلك إلى دولته . وعن طريق هذه التقارير تقف الدولة على أحوال الجيش ، والبحرية ، والمالية ، والتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والتطور السياسى ، والأحزاب ، والرأى العام فى الدول الأخرى ، وما يجرى فيها من حوادث وأمور .

ومهمة الملاحظة ، بطبيعة الحال ، مهمة شاقة لا يستطيع المبعوث وحده القيام بها والوقوف على جميع أحوال الدولة ، وتكوين رأى صائب عنها . ولهذا يكون للمبعوث الديبلوماسى مساعدون اختصاصيون يدعون بالملحقين الفنيين ، Attachés Techniques ، منهم الملحق الحربى والبحرى ، والمالى ، والتجارى ، والصناعى ، والزراعى ، كل حسب اختصاصه .

وبحث الأحوال التى ذكرناها واستقصاؤها واجب على المبعوث والملحقين ، ولا يحق للدولة التى هم فيها أن تمنعهم عن القيام بها ؛ غير أنه لا يجوز للمبعوث أصلاً أن يغرى موظفى الدولة ليعطوه المعلومات التى يريدها ، ولا أن يقوم بأعمال التجسس ، مباشرة أو غير مباشرة ، وإن هو قام بها حق للدولة المرسل إليها أن تطلب من حكومته استرداده ، أو أن تطلب هى منه مغادرة البلاد .

والمبعوث الديبلوماسى يقوم بحكم عمله باجتماعات ومحادثات مع رجال السياسة فى الدولة التى هو فيها ، وعليه أن يكون حريصا على أن لا يتدخل فى المسائل الداخلية ، ولا أن يبدى رأيا فيها ، بصورة رسمية أو شخصية .

ومتى دعت الحكومة المحلية المبعوث لتقديم بيانات

أو تأويلات من أعمال دولته ، فعليه أن يكون جد متكتم ، ولا يحق له بأى حال من الأحوال أن يفشى سراً لدولته ، إلا إذا هى طلبت منه ذلك ، بتعليمات خاصة ، وفى هذه الحالة عليه أن لا يتعدى نص تلك التعليمات .

***

أما أعمال المبعوثين الدبلوماسيين الإدارية فمتنوعة ومتعددة ، وأولها الإشراف على القناصل المقيمين فى الدولة المرسل إليها المبعوث ، وإدارة أعمالهم ، ثم حماية بنى قومهم المقيمين فى تلك البلاد ، وحماية أملاكهم ومصالحهم ، وتقديم المساعدات اللازمة لهم ، وكذلك حماية رعايا الدولة أو الدول الأخرى التى عهدت إلى دولة المبعوث بتمثيلها تمثيلا دبلوماسيا ، وليتمكن المبعوث من تقديم تلك الحماية ، على جميع الرعايا التابعين لدولته ، والدول الأخرى التى يمثلها ، المقيمين فى بلاد الدولة المرسل إليها أن يسجلوا أسماءهم فى السفارة أو المفوضية .

ومن الأعمال الادارية الأخرى إصدار وثائق رسمية إلى رعايا دولة المبعوث مثل جوازات السفر ، والتصديق على إمضاءاتهم ، وعلى الوثائق الصادرة من الدولة المحلية واللازم استعمالها فى دولة المبعوث ؛ ومن هذه الأعمال أيضا ، تسجيل المواليد والوفيات ، وإجراء عقود الزواج بين رعايا دولته . غير أنه لا يجوز للمبعوث أن يقوم ببعض هذه الأعمال إن كانت تتضارب مع القوانين المحلية ؛ ومن قبيل ذلك إذا كانت القوانين المحلية توجب عقد الزواج أمام مسجلين مدنيين رسميين ، فلا يجوز أن يقوم المبعوث بعقد الزواج أمامه قبل عقده أمام المسجلين الرسميين فى تلك البلاد .

***

والبعثات الدبلوماسية نهاية ، وتكون فى إحدى عشرة حالة وهى :

(١) اتمام الموضوع الذى من أجله أرسلت البعثة الدبلوماسية . (٢) انتهاء مدة كتاب الاعتماد الذى أعطى إلى المبعوث لمدة معينة . (٣) استدعاء المبعوث من قبل دولته . (٤) ترقية المبعوث إلى وظيفة أعلى . (٥) تسليم الدولة المرسل إليها جواز السفر إلى المبعوث . (٦) طلب المبعوث جواز سفره . (٧) نشوب الحرب بين الدولة المرسلة والدولة المرسل إليها المبعوث . (٨) حدوث تغير دستورى فى رئاسة الدولة المرسلة أو المرسل إليها . (٩) تغيير الحكم بعد ثورة فى الدولة المرسلة أو المرسل إليها . (١٠) زوال الدولة المرسلة أو المرسل إليها . (١١) وأخيراً وفاة المبعوث .

ومن الطريف بحث هذه الحالات وتحليلها ، ولكن لا يتسع المجال لذلك .

***

تكلمت فى أحاديثى الثلاثة ، عن أنواع المبعوثين الدبلوماسيين ودرجاتهم ، وعن الحصانة الدبلوماسية فى مختلف أنواعها ، ومن أعمال المبعوثين الدبلوماسيين من سياسية وإدارية ، وذكرت الحالات التى تنتهى فيها البعثات الدبلوماسية .

والتمثيل الدبلوماسى موضوع حيوى هام ، يحسن بكل مثقف أن يقف عليه ليكون على علم بالأمور العملية الهامة التى يشملها . والأمم تعنى عناية خاصة بتمثيلها الدبلوماسى وتختار له رجالا ممتازين أكفاء ، وقد سارت الدول العربية على هذا النهج القويم . وعلى كل حال فانى آمل أن يأتى اليوم الذى نرى فيه البلاد العربية موحدة تؤلف دولة كبرى ، وتتبادل السفراء مع الدول العظمى ، تبادل الند للند ، وأن نرى علم الدولة العربية الكبرى الموحد يرفرف فى أجواء عواصم العالم الهامة ، فنعتز حينئذ ، وتصبح لنا كرامة ومكانة فى الهيئة الدولية ؛ فنتمكن وقتئذ ، من أن نقوم بما علينا من واجبات نحو بلادنا ، ونحو المدنية ونحو العالم ، كما قمنا خير قيام ، أيام كنا مستقلين أعزاء ، أقوياء .

يوسف هيكل

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

خير الدين باشا التونسي

— ٣ —

عكف خير الدين أثناء اعتزاله الوزارة على وضع كتاب سماه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » وسميت ترجمته الفرنسية « الإصلاحات الضرورية للدول الاسلامية » . وكان في ذهنه عند تأليفه أن يحذو حذو تاريخ ابن خلدون ، يؤلفه بروح العصر ، ومطالب العصر ، فاشتمل أيضاً على مقدمة وتاريخ . فأما المقدمة — فقد أراد منها البحث في حالة البلاد الاسلامية وأسباب انحطاطها بعد ازدهارها وكيفية اصلاحها .

وأما التاريخ فقد استعرض فيه حال الممالك الأوربية لا من ناحية تعاقب ملوكها وتسلسل حروبها ولكن من ناحية وصف كل دولة في ادارتها وجيوشها ، ونظام الحكم فيها ، وماليتها وكيفية ضبطها ، وقوتها البرية والبحرية — وقد وصف على هذا المنوال — الدولة العثمانية وفرنسا وانجلترا وروسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والبورتغال وهولندا والدانيمرك وبلجيكا وسويسره واليونان ، ثم وصف جغرافية أوربا الطبيعية الخ ، وكان أهم ما يقصد من ذلك أن يضع أمام القارىء العربي صورة لنهضة أوربا وأسباب نهضتها وطريقة الحكم فيها حتى يقتبس المسلمون منها ما يصلح لهم وحتى يثير عندهم الرغبة في الاقتداء بهم والعمل على منوالهم ، وقد أودع فيه خلاصة ما رأى في سياحاته وما قرأ وما فكر .

وأهم ما يعنينا الآن مقدمته التي تشرح حال المسلمين وحاجتهم إلى الاصلاح وطريقته ؛ وعمودها ينعى على المسلمين كراهيتهم الأخذ بأساليب المدنية الغربية في الاصلاح واعتقادهم أن كل ما صدر عن أوربا حرام ، ويعللون ذلك بعلل مختلفة كأن يقولوا انها مخالفة للشريعة الاسلامية ، أو يقولوا إنها إذا ناسبت الأمم الغربية فلا تناسب الأمم الشرقية ، لأن كل أمة لها موقفها الاجتماعي وعقليتها وتاريخها ، أو أن يقولوا إن المدنية الغربية بطيئة الاجراءات وخاصة في طريقة القضاء ، أو أن يقولوا إن النظم الغربية تستلزم التوسع في الادارة وتقسيم الأعمال وهذا يستلزم كثرة الوظائف والموظفين ، وليس هناك مال يكفي لكل هذا ، فلابد إذاً من فرض ضرائب جديدة والبلاد فقيرة وأهلها لا يحتملون زيادة الضرائب .

وقد وقف نفسه للرد على هذا الزاعم .

فأما الزعم الأول فالتمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية ، فليس بالناس يعرف الحق ، ولكن بالحق يعرف الناس ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها ، وسلمان الفارسي لما اقترح على النبي (ص) حفر خندق في غزوة الأحزاب أخذ رأيه ولم يكن ذلك معروفاً عند العرب ، والمسلمون الأولون أخذوا علوم اليونان ومنها المنطق واستفادوا منها ، وقال الغزالي : من لا معرفة له بالمنطق لم يوثق بعلمه ، وأبو بكر الصديق قال لخالد عند إرساله لقتال أهل الردة في اليمامة : إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به ، السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف ، ولو أدرك هذا الزمان لقال المدفع للمدفع والبارجة المدرعة للبارجة المدرعة . ولا يمكن الاستعداد لمنازلتهم بمثل سلاحهم إلا بالعلم وأسباب العمران . ثم نقول لهؤلاء الذين لا يستحسنون ما تأتي به المدنية الغربية : لماذا تنكرونها فقط في التنظيم ونتائجه والادارة وضبطها والعدل وإقامته ، ولا تنكرونها فيما تتنافسون فيه من الملابس والأثاث والمخترعات وأسباب الترف ؟ فالذين صنعوا أدوات الزينة والنعيم هم الذين صنعوا

الأسلحة واخترعوا العلوم والمعارف . أنفتح الباب للأخذ منهم فيما لا ينفع ونغلقه أمام ما ينفع ؟ أنصد عن الأخذ عنهم ونتركهم يستغلون زراعتنا ومواردنا وينعمون بها ثم نكتفي منها بفتات موائدهم ؟ انهم ماوصلوا إلى استغلالنا إلا بمعارفهم ، ولم ترتق معارفهم إلا بالعدل والحرية ، فكيف يسوغ لعاقل أن يصد عن ذلك ويغمض عينه ولا يسمح به ، استنادا على خرافات وأوهام ؟ وقد قال بعض المؤلفين في السياسة الحربية : « إن الأمة التي لا تجاري جاراتها في معداتها الحربية ونظمها العسكرية ، توشك أن تقع غنيمة في أيديهم » وإنما خص النظم الحربية بالذكر لأنها موضوع كتابه ، وإلا فالحكم عام في كل مرافق الحياة .

(ومن دواعي الأسف أن هذه النظرة إلى المدنية الغربية لا تزال تؤثر في بعض الأوساط في الأمم الاسلامية وإن اختلفت درجاتها في الاصغاء إلى هذه الدعوة ، كالتخويف من تعليم المرأة ومن الاستمداد من التشريع الحديث ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت النصارى والمسلمين إذا اجتمعوا في قطر واحد كان النصارى أسبق إلى تشرب المدنيـة الغربية والاستفادة منها ، ثم يأتي بعض الناس فينسبون ذلك إلى طبيعة الاسلام ، والاسلام لا يمنع أن يقتبس الصالح من الأمر حيث كان وممن كان) .

أما هؤلاء الذين يقولون إن المدنية الغربية لا تناسب الأمم الاسلامية لموقفها الاجتماعي فنقول لهم إن أوربا عندما بدأت نهضتها كانت أسوأ حالا منا ، والأمة الاسلامية ــ كما يشهد المنصفون ــ لها من عقليتها واستعدادها وسابق مدنيتها ما يمكنها من السير في هذا المجال إذا ذكيت حريتها الكامنة ، فالحرية والطموح غريزتان في المسلمين تأصلتا فيهم بتعاليم دينهم ، غاية الأمر أنه من الواجب على القادة الذين يضعون لهم أسس حريتهم ونظم ادارتهم أن يراعوا ظروفهم وأن يقدموا لهم من ذلك ما يستطيعون هضمه ثم يوسع هذا شيئا فشيئا بنمو أسباب التمدن .

أما القول ببطء الاجراءات ، فان كان سببه اعطاء الحوادث حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحق ، بالافساح للمتخاصمين أن يدلوا بحججهم ، فلا يصح أن يشكو منه جاهل أو متجاهل ، وهذا خير ألف مرة مما يجري الآن من الاسراع في الحكم من غير تمحيص ومن غير إبداء أسباب . وان كان سببه تقصير الموظفين أوقصورهم ، فما على الحكومة إلا أن تختار الأكفاء وتدربهم ، وكذلك الشأن في الأمور السياسية الكلية لا بأس من البطء فيها إذا كان البطء لتحري الصواب ومعرفة وجه الحق . ومع هذا فقد يحدث البطء والتحفظ أول الأمر ، فاذا مرنت الأمة عليه أسرعت السير في شؤونها .

وأما الخوف من زيادة الضرائب فالأمر بالعكس ، لأن الحكم الشوري يجعل الضرائب لا تفرض إلا حيث المصلحة ورضا أهل الحل والعقد . على حين أن الحكم الاستبدادي يجعل فرض الضرائب شهوة من شهوات الحاكم المستبد . ثم إن تنظيم الدولة وشؤونها بضبط دخلها وخرجها يزيد في مصادرها فتنعم الأمة بماليتها ، وإذا فرضت ضريبة فلأنها تفيد أكثر مما تضر ، لا كما هو حاصل الآن من وضع إيراد الدولة تحت تصرف الحكام يصرفون منه على شهواتهم من غير حساب ، فإذا أسرفوا وأتلفوا لم يجدوا إلا باب فرض ضرائب جديدة .

الحق أن الأمم الإسلامية لا تصلح إلا بالنظام الشوري الذي يقيد الحاكم ، وبأن تستمد من النظم الغربية والمدنية الحديثة ما يصلحها . والحق — أيضاً — أن الذين يقفون أمام هذه الدعوة إلى الإصلاح إما جهلة لا يعرفون كيف تقدم العالم وكيف أصلح عيوبه وأسس نظمه ، ثم يدعوهم الجهل إلى الاستنامة لنظمهم المعيبة وطرقهم المعوجة ، ويرون أن الإصلاح بدعة من بدع آخر الزمان ، وإما قوم يعلمون وجوه الاصلاح ومزاياه ، ولكنهم يرون أنها تسلبهم منافعهم الشخصية التي تتوافر لهم بالاستبداد والفوضى ولا تتوافر

بالنظام ، فيحاربونها تحت ستار ما يزعمون من أضرار وما يختلقون من أسباب ، وهم في باطن أنفسهم يعرفون أنهم كاذبون .

إن العدل والحرية هما ركنا الدولة وهما اللذان كانا في المملكة الاسلامية فأزهرت ثم فقدا فذبلت ، ولم يكونا في الدول الأوروبية فانتابها الضعف والفساد ، ثم كانا فصلح حالها ، وليس جو أوربا أحسن الأجواء ، ولا أرضها أصلح الأراضي ، وإنما بلغ أهلها ما بلغوا بالتقدم في العلوم والصناعات واستخراج كنوز الأرض بعلوم الزراعة ، وكسب المال بعلوم التجارة ، وهذا كله لم يكن إلا وليدا للعدل والحرية ، وهذه قوانين طبيعية لا تتخلف . عدل وحرية يتبعهما عمران ، وظلم واستبداد يتبعهما خراب .

ثم إن العدل والحرية يجب أن يوضع لهما من النظم مايضمن وجودهما ودوامهما . وليس هناك ضمان إلا بالمجالس النيابية ، فقد يكون في الملوك من يحسن تصرفه بدون مشورة ، ولكن يكون ذلك موقوتا بوقته ، يزول بزواله ، فوجب أن يحاط بأهل الحل والعقد ، يشاركونه في كليات السياسة ويكون الوزراء مسئولين أمامهم . وكل ما أصاب الأمم الاسلامية إنما أصابها من ترك الأمر فيها إلى مشيئة حاكمها وخضوع الوزراء لإشارته . وقد قال ابن العربي في الضرائب التي تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال إنها يجب أن تؤخذ جهراً لا سراً ، وتنفق بالعدل لا بالاستئثار وبرأي الجماعة لا بالاستبداد . وقد كنت أتحدث مع كبير من أعيان أوربا فأسهب في مدح ملكه وتضلعه من أصول السياسة وصواب منهجه ، فقلت : فلم إذاً تخاصمونه في الحرية السياسية ؟ فقال : من يضمن لنا بقاء استقامته واستقامة ذريته من بعده ؟ .

وقد اقتبس بعد ذلك من أحد مؤرخي نابليون قوله: كيف أخطأ — مع عظمته — لاستبداده وما يجب على الأمة الفرنسية أن تتعلم من غلطاته . وقال : وإن ما ينبغي أن يستخلص من كل تاريخه أنه لا يليق بأي فرنسي أن يبذل حريته لأي أحد كما لا ينبغي له الإفراط في حريته حتى تنتهك حرمتها .

وقد أيد خير الدين نظرته هذه بالرجوع إلى التاريخ ، فاستشهد بالمملكة الإسلامية ، بم تقدمت وبم تراجعت ، وبأوربا بم تأخرت وبم نهضت وبم تمت .

وحمّل المسلمين تبعة تأخرهم ولكنه لم يهمل نقد أوربا إزاء الدول الاسلامية في تصرفاتها وخاصة في مسألة « الامتيازات الأجنبية » استناداً إلى عهود قديمة مضى وقتها ، ولم تكتف بالعهود بل توسعت في تفسيرها ماشاءت لها قوتها . وهذا كله مخالف للقانون الأساسي البديهي ، وهو أن من دخل مملكة فلابد أن يخضع لأحكامها . فإذا ادعى أن المملكة الاسلامية متأخرة في نظمها فهناك من هم أكثر تأخرا منها وأوربا لا تطلب امتيازات فيها . وإذا ادعى كراهية بعض عوام المسلمين للنصارى وحيفهم عليهم أمكننا الادعاء بحق كراهية بعض النصارى المسلمين وحيفهم عليهم ، فلا مبرر إذاً لهذه الامتيازات .

يضاف إلى ذلك ما تقوم به بعض ممالك أوربا من وضع العراقيل في سبيل تنظيم الممالك الاسلامية لشؤونها وإدخال وسائل الاصلاح التي تراها وإيقاع الدول الاسلامية في حيرة بين مطالبة بالإصلاح وإعاقة للاصلاح .

ثم من أهم العوائق في تقدم المسلمين وجود طائفتين متنابذتين : رجال الدين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين بحذافيرها بقطع النظر عما جد واستحدث ، ورجال سياسة يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين ويريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع إلى الدين ، فنقول للأولين اعرفوا الدنيا ونقول للآخرين اعرفوا الدين . فاعتزال العلماء شؤون الدنيا ثم تحكمهم ضرر أي ضرر . وجهل رجال السياسة بأصول الدين ضرر مثله . والواجب امتزاج الطائفتين وتعاونهما .

الى من يلزم من المراجع العليا :

ضاقت «الجاكتة»

كانوا فيما مضى يقولون : « شب عمرو عن الطوق » إذا أرادوا أن يقولوا إن الأحوال قد تبدلت وأصبح الإنسان أكبر مما كان . ولكن هذا الكلام أصبح اليوم لا يحمل إلى أكثر الناس معنى ، لأنهم لا يعبأون في هذه العصور بأن يعرفوا من هو السيد عمرو ، ولا يهتمون أى اهتمام لذلك الطوق الذهبي الذى كان فى عنقه وهو صغير ، ثم أصبح وقد صار شابا لا يرضى لنفسه بأن يلبس طوقه الذهبي القديم ، فنحن اليوم فى عصر ساذج لا يحب أن يفهم إلا ما يقع تحت عينيه من الأشياء المبتذلة .

ولهذا اخترت أن أستعمل هذا العنوان المبتذل ، لأن ألفاظه واضحة تحمل المعنى لمن يقرؤها بغير تكلف . فالجاكتة معروفة للجميع ، وهى أحيانا تلبس فى مصر فوق (البنطلون) ، وأحيانا فوق الجلباب ، وأحيانا فوق سروال (البيجاما) ، لأننا كما يعرف الجميع لا نقيد أنفسنا بعرف فى أمور الملبس . والجاكتة قد تكون واسعة فضفاضة ، وهذا يحمل الناس أحيانا على الظن بأن لابسها قد استعارها أو استوهبها ، ولكنها مع ذلك تكون لا بأس بها ولا ضرر منها ، لأن الثوب الفضفاض لا يؤدى حركة الدم فى الجسم ، وإن كان منظره لا يعجب . وقد تكون الجاكتة ضيقة ، وعند ذلك تكون المصيبة كبرى ، فإن حركة الدم تتأثر بضيقها ، ويكاد لابسها يختنق إذا اشتد ضيقها عند الصدر . وأما الذراعان فلا تستطيعان معها الحركة إلى أعلى ولا إلى أسفل . وأدهى من هذا أن منظر لابس الجاكتة الضيقة يكون فى أكثر الأحوال باعثاً على الضحك ، ولا سيما إذا كان رجلا بدينا ، فإنه عند ذلك يبدو كأنه محكم يتعسف فى حركته كلما أراد أن يلتفت إلى يمين أو إلى يسار ؛ أو كلما أراد أن يسلم على أحد . فكم الجاكتة يكون دائما عند المرفق ، كأن صاحبه يشمر عن ساعديه استعداداً للملاكمة .

والذى أقصده من هذه الصورة هو أن أقول إن نظمنا الاجتماعية والإدارية والحكومية قد صارت اليوم مثل الجاكتة الضيقة إذا لبسها شخص بدين . فنحن اليوم مثل السيد عمرو عندما شب عن الطوق مع فارق بسيط ، وهو أن نظمنا التى ضاقت علينا ليست من معدن الذهب ، بل هى من

فهناك أصول الدين يجب أن تراعى ، وهناك أمور لم ينص عليها تقتضيها مصالح الأمة يجب أن تقاس بمقياس النفعة والضرة ويعمل فيها العقل .

ثم أبان الأسس التى بنيت عليها المدنية الحديثة التى يمكن اقتباسها ونشرها فى المملكة الاسلامية ، كالحرية بنوعيها وهما الحرية الشخصية وهى « اطلاق التصرف للانسان فى نفسه وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لأبناء جنسه فى الحقوق والواجبات » ، والحرية السياسية وهى المشاركة فى نظام الحكم والمداخلة فى اختيار الأصلح — ثم تأسيس القوانين بنوعيها وهى قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية وقوانين حقوق الأهالى فيما بينهم — ثم مسئولية الوزراء أمام الأمة فى مجلسها الشورى الخ .

وختم ذلك بإبداء رأيه فى أن إيجاد هذه النظم من لوازم وقتنا وكل من وقف فى سبيلها عديم الأمانة والنصيحة لدولته ووطنه .

هذه زبدة ما فى المقدمة التى تبلغ نحو مائة صفحة ومنها نعرف وجهته فى الاصلاح .

ونعود بعد ذلك إلى متابعة حياته وهى موضوع المقال الآتى إن شاء الله .

أحمد أمين

النسيج الذي كان يباع في الأسواق بالثمن المعتاد ، فلما تقادم عليها الزمن ضاقت وذهب لونها، وتمزق منها السدى واللحمة وتقززت من أعلاها وأسفلها ووسطها . والعجيب في هذا أننا لم ندرك إلى اليوم ما أدركه السيد محروق المصور الخالية ، وهو أننا نقعد كبرنا على الجاكتة المهلهلة ، وأصبح الأمر يدعو إلى تجديدها والبحث عن جاكتة سواها .

فلنا مثلا نظم حكومية مالية وإدارية كانت في يوم من الأيام جديدة ، وكانت مناسبة لأحوالنا في القرن التاسع عشر مثلا أو في أول القرن العشرين . وقد كنا عند ذلك أمة ميزانيتها عشرة ملايين من الجنيهات مثلا ، ثم أصبحت تلك الميزانية بحمد الله تقرب من المائة ، وكان عددنا عشرة ملايين كذلك أو اثنى عشر مليونا ، ثم أصبح اليوم يزحف نحو الرقم السابع عشر من أرقام الملايين . وكانت مرافقنا ومصالحنا محدودة ، ثم اتسعت بحمد الله ، فلا نكاد نجد جانباً من حياتنا ينقصه التطور والنمو ، ولو شئنا أن نضرب الأمثال على هذا النمو لطال بنا القول ولا نرى داعياً لذلك ، فإننا نعيش في مصر ونرى ما حولنا من ضجة وزحمة ، وكثرة في الوظائف والأعمال العامة ، ونستطيع أن نعد من الوزارات الجديدة ما يزيد على عدد ما كان لنا من وزارات في أول هذا القرن ؛ فوزارة الزراعة مثلا جديدة نسبياً ، وكذلك وزارة الأوقاف ، والمواصلات ، والتجارة ، والصناعة ، والشئون الاجتماعية ، والتموين .

ولكننا مع كل ذلك لا نزال إلى اليوم نتعامل في وزاراتنا ومصالحنا المختلفة على القواعد المالية والإدارية التي كنا نتعامل عليها في القرن التاسع عشر . ومن المدهش أن اللورد كرومر ، رحمه الله ، كان أحياناً يتندر في تقاريره بطرف من الأمثلة التي كانت تحدث في عصره من جراء سخف القواعد الإدارية والمالية ، ويبدي أشد النقد لها وينعتها بالجمود مع أنه كان في مصر في أول القرن العشرين قبل سنة ١٩٠٧ ، ولست أدري ماذا كان يقول اللورد كرومر لو عاد إلى الحياة اليوم وجاء إلى مصر في نزهة شتوية ، لا أدري ماذا كان يقول فينا لو وجد أننا لا نزال إلى عام ١٩٤٥ نتعامل بنفس القواعد المالية والإدارية التي كان يتندر بها في تقاريره . والظاهر أن هذه النظم الحكومية عندما وضعت كان المقصود منها أن تجمع الأمور كلها في يد مركزية واحدة تمتاز من دون كل الأيدي الأخرى بالطهارة والحكمة والعفة ، فمن الواضح لكل من يتأمل تلك القواعد الإدارية والمالية أنها تفترض أن كل عامل من عمال الدولة لص ، سيء النية ، سيء التصرف ، غير مخلص للمصلحة العامة ، وأغلب الظن أن الغرض من وضعها في القرن التاسع عشر أن يكتف عمال الدولة ويمنعوا من كل تصرف حتى يؤذن لهم بعد الرجوع إلى اليد المركزية المعصومة . ومن أعجب العجب أن هذا الاحتياط كله لم يمنع موظفاً لصاً من أن يسرق ، فقد طالما سمعنا بحوادث اختلاس ، وحوادث سوء تصرف ، وحوادث تعطيل المصالح العامة ، لم تستطع كل القواعد المالية والإدارية الدقيقة أن تمنعها . بل إن تلك القواعد لم تساعد على كشف السرقات بعد وقوعها ، فكان الموظف الخائن يستطيع أن يستمر على خيانته سنة بعد سنة حتى ينكشف أمره مصادفة بعد أن يمضي وقت طويل جداً على حدوثها . وكان الموظف اللص الماهر يستخدم تلك القواعد الدقيقة نفسها لكي يداري بها جريمته .

حقاً أن (الجاكتة) قد ضاقت ضيقاً شديداً ، وأصبحت قبيحة المنظر مؤذية معطلة للحركة ، ولا دواء لها إلا أن تخلع ويفصل للإدارة (جاكتة) غيرها ، تكون أمتن نسيجاً ، وأظرف شكلا ، وأكثر ملاءمة لنمونا .

فنحن نعرف مثلا أن لكل وزارة ميزانية توضع لها بعد فحص وبحث وتدقيق . ثم تناقش ويحذف منها ما لا ضرورة له بغير رفق . ثم يقرها البرلمان بعد مناقشة لا تترك مجالا للإسراف ، ثم توزع ميزانية كل وزارة على أقسامها ومصالحها ، ولكل مصلحة أو قسم رئيس كبير ممن قضوا دهراً في العمل ، وممن جربتهم الحوادث . وهؤلاء ينبغي أن يكونوا أمناء على واجباتهم ، حريصين على مصلحة

الأمة المودعة بين أيديهم . فاذا لم يكونوا كذلك كان العيب على الدولة وحدها ، إذ تتركهم فى مواضعهم وتلق عليهم عبء الأمانة العامة مع انعدام الثقة بهم .

فالمعقول أن يؤتمن هؤلاء الرؤساء على صرف الأموال المخصصة فى الميزانية لمصالحهم ، مادام صرفهم مقيداً بالنظم التى تحقق العدالة والدقة والنزاهة . ولكن الذى يحدث فعلا هو أن هؤلاء الرؤساء المساكين لا يستطيعون أن يتصرفوا فى أمور مصالحهم إلا إلى حد محدود ، فاذا زاد التصرف على ذلك كان واجباً عليهم أن يعودوا إلى السكرتير المالى ، ثم إلى وزارة المالية ، لكى تبقى الأوراق بضعة أشهر فى أدراج المكاتب ، ثم تعود بالموافقة بعد أن يكون الأوان قد فات وضاعت الفرصة التى كانت تستلزم التصرف .

فاذا أرادت وزارة المعارف مثلا شراء كتب للتلاميذ لكى تصرف لهم فى شهر اكتوبر على الأكثر سارت (الاجراءات) فى سبيلها حتى تنتهى إلى نهايتها ، ثم يعود الاذن بشراء الكتب بعد أن تكون السنة الدراسية قد مضت وأتى العام الجديد الذى بعدها ، بل قد يحدث أن يجىء الاذن بالشراء بعد انقضاء سنة دراسية أخرى .

ولست أضرب المثل بوزارة المعارف لأنها مقصودة فى ذاتها ، بل لعلها من الوزارات الموفقة فى تصرفاتها إذا قسناها بغيرها . فالذى أقصده هو أن النظام كله قد صار اليوم مقصرا عن الوفاء بحاجة الحياة الحديثة التى نحياها . ولا مفر لنا إذا أردنا الخير لبلادنا من أن نلق بتلك النظم فى نهر النيل السعيد ثم نرسم لنا نظما سواها .

لست أدرى ما الذى يمنع من أن تقوم المصالح المختلفة على تحقيق المصلحة العامة الموكولة إليها بما استطاعت من اجتهاد وتحر فى أداء الواجب ! فهى بغير شك مقيدة بالحدود التى رسمتها الميزانية ، وهى بغير شك مقيدة بالقواعد المعقولة التى يمكن أن تضعها الدولة لتصرفات أعيان المصلحة العامة ، ثم هى بغير شك أعلم بظروفها وأجدر باختيار أحسن الوسائل لتحقيق أغراضها .

ومن الأمور المضحكة التى يقع عليها النظر فى كثير من الأحوال أن الخطاب الواحد يخرج من الديوان وعليه طائفة من الامضاءات أولها امضاء أصغر الكتاب ، وأصغر الكتاب هذا هو الذى يكتب الصيغة المرسلة ويعد الحقائق المراد بيانها . ثم لا تزال الامضاءات تتوالى بعد إمضائه حتى تصل إلى الرئيس فيمضيها كذلك . فكأن أمور الدولة تجرى كلها كما يريد لها الكاتب الأصغر ، لا كما يريد لها الرأس الكبير .

والوضع الصحيح هو أن يكون التصرف موكولا إلى رئيس القسم أو المصلحة التى يهمها الأمر ، وعند ذلك يكون المعقول أن يتصرف الرئيس الكبير تصرفا مباشراً ، لأنه لا يكون مضطرا إلى الاجراءات الكثيرة المعقدة التى لا (يحفظها) إلا أصغر الكتاب . فاذا نحن استطعنا أن نعيد الثقة بعمال الدولة ، ونحسن الظن بهم ونقعد لهم بالمرصاد ، لنرى المحسن منهم والمسيء ، ونكافيء كلا بإحسانه أو إساءته ، إذا استطعنا ذلك أمكن أن نختصر كثيراً من القوائف الطويلة ، وأمكن أن نقتصد فى الجهود الكثيرة ، وأمكن بعد هذا كله أو قبل هذا كله أن نعيد الحياة إلى نظام الادارة الحكومية . هذه أقوال يقولها الجميع ويعرفها الجميع ، ولا يجد الانسان مجلسا يتحدث فى شئون الادارة الحكومية إلا سمع فيه أصداء مثل هذه الأقوال تتردد . ومع كل ذلك لا نزال نجد القديم سائراً على عهده الذى كان عليه منذ عشرات السنين بغير أية محاولة جدية فى إصلاح . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن وزراء مصر أنفسهم يعانون أشد الضيق من سخافة هذه القواعد البالية ويؤمنون بأنها قد أصبحت لا تناسب الحال التى صارت البلاد إليها بعد أن نمت مرافقها وتعقدت مصالحها . فاذا ننتظر بعد هذا كله ؟ وماذا نريد بأنفسنا إذا مضينا فى

سـحر مصر

لروبرت هتشنز

مشاهد ومشاعر جدتها لا تبلى . إن سحر بلادنا قد نألفه فلا نراه ، وتريناه إياه عين الغريب ....

٣ — أبو الهـــول :

ذات يوم ، عند الغروب ، رأيت طائراً يحاول أن يلعب مع أبي الهول ، كان الطائر شبيهاً بالخطاف Swallow صدره وردي اللون داكن مع لمعة من زرقة في مكان ما من جناحه . وعند ما جئت إلى حافة الحوض الرملي حيث يجثم أبو الهول ، وأشرفت عليه من حيث خوفونفسه قد يكون أشرف منذ قرابة أربعة آلاف عام قبل مولد المسيح ، كان أبو الهول والطائر وحدهما لا ثالث معهما ، طار الطائر إلى أبي الهول وطفق ينحرف لاعباً عنة ثم يسرة ، ويعلو حيناً ويهبط حيناً ، ويعود دائماً إلى ذلك المغنطيس الذي اجتذبه والذي يمسكه يحاول أن يستخلص منه أمارة من علم ، وراح يقف في الهواء الذهبي وينظر بعينيه اللامعتين في تينك العينين الحجريتين الشاخصتين إلى ما بعده ، إلى ما بعد أرض مصر ، إلى ما بعد دنيا الناس ، إلى ما بعد الشمس ، إلى آخر آفاق الأبدية ، وأخيراً هبط الطائر على رأس أبي الهول ، ثم على أذنه ، ثم على صدره ، وعلى الصدر راح يمشي في قفز رشيق ، ناظراً إلى أعلى ، ينتفض كل جسمه على ما يظهر رغبة ملحّة في أن يفهم . وفجأة بسط جناحيه وطار كالسهم عبر الرمال والمياه إلى حقول الذرة وإلى القاهرة .

وذوى ضياء الشمس الغاربة ، واشتعل الشفق ثم خبا ، وأرخى الليل الإفريقي الصافي سدوله ، وعاد إلى القاهرة حجاج أبي الهول كما فعل الطائر ، جاءوا كما جاء الطائر ، وكما جاء غزاة مصر ، كما جاء الاسكندر المقدوني والبطالة ، وكما جاء الرومان والمماليك والترك والفرنسيون والانجليز .

هم جاءوا ... وهم ذهبوا .

وأخذ ذلك الوجه الهائل يقتم كلما أطبق الظلام ، وصار داكناً كوجه فلاح ، كوجه ذلك الفلاح الذي أفضى إليه بأسراره ولم يتلق منه سرا في مقابلها ، ثم صار أسود كوجه نوبي ، وزاد الليل من هول صمته المخيف وعدم اكتراثه المطلق ، وفي الظلام خلتني أسمع مشية الموتى ، مشية الحاربين من الذاهبين ووقع حوافر خيولهم ، وهم يتقاطرون على الرمال امام ذلك الشيء الذي لا يقهر ويحسبون أن قهروه . ثم أطبق السكون ، ثم سمعت طقطقة خفيفة هي لا شك وقع حوافر حمار جاء هابطا من عند الهرم ، واستمرت حتى بلغ أبا الهول ثم سكتت ، وأطبق السكون . وذكرت الأسطورة القائلة : إن مريم ويوسف والطفل الطاهر حطوا رحالهم يوما هنا في سفرهم الطويل ، وإن مريم أرقدت المسيح التعب بين مخلبي أبي الهول لينام ، لكن أبا الهول لم يكن ليحفل حتى بالمسيح .

من عجب في تاريخ البشر أن خطرت فكرة أبي الهول لإنسان ، ولقد كان إبرازها في الحجر عملا عجيباً ، لكن مجرد تخيلها كان أعجب ، إن البعض قد يعيب أبا الهول ،

سيرنا على القديم بغير الاصلاح الذي تقتضيه طبائع الحياة الجديدة ؟ .

لقد ضاقت الحياة كثة حقا ، وعلينا أن نلتمس جاكتة سواها ، وأملنا كبير في أن الوقت قد حان لكي نتجرأ على تلك الخطوة ، فقد تنبهنا إلى النقص ، ولم يبق إلا أن نقدم على الاصلاح . وليس في ذلك الأمر مشقة ولا عسر ، فيكفي أن تجعل للادارة قاعدة واحدة تكفل المصلحة العامة ، ولا تدع مجالا للفساد ، وهي إلقاء المسئولية على عمال الدولة والثقة بهم ، مع التحري في الاختيار حتى يكون هؤلاء العمال أهلا للثقة محمد فريد ابو حديد

قد يقول إن رأسه من الخلف يبدو من بعيد مثل « عش غراب[1] » ضخم نما فى الصحراء ، وإن خديه منتفخان أكثر مما يحسن ، وفمه غليظ الشفتين ، وإنه من بعض المواضع يشبه « البلدج » . لكن ماذا يهم ؟ إن فى خلق أبى الهول آية من خيال بارع ، والذى أبدعه نظر أبعد من مصر ، وأبعد من الحياة ، تصور الأبدية وانعدام الزمن وجلاهما فى تمثال .

كأن بالملحد ينظر إلى أبى الهول فلا يؤمن قلبه فحسب ، بل يجد دليلا حسياً على خلود الروح وإنك لتعود إليه مراراً فتزداد فى كل مرة هياما بسكينته المترفعة وانغماساً فى الطمأنينة تفيض منه كما يفيض من الشمس الضياء ، وأنت إذ تنظر إليه توشك أن تدرك ماهى اللانهاية ، وأن ترى الغاية التى يجرى إليها عالم الحدود كما يجرى إلى البحر النيل المعظم .

وكما ينمو إعجابك بأبى الهول تراك تستشعر تدريجيا عظمة أهرام الجيزة . هى على عكس هرم سقارة المدرج الذى يبدو حتى من قريب كأنه جبل صغير ، كجزء من الأرض القائم عليها . أما أهرام الجيزة فتبدو ماهى ، زوائد مغشآت اخترعها واصطنعها الانسان وتحدث من عظمته . وهى على روعتها كمنتصر من المنظر الذهبى الناعس وقت الغروب ، أجدها أروع ماتكون بالليل وهى سوداء تحت النجوم . كم ليلة جلست فيها على الرمال من بعد ورحت أنظر اليها تحركت خيالى دائماً وفى ازدياد . فعميق سكونها ورفيع بساطتها تبلغان الأوج عندما تمحق التفاصيل فلا ترى غير أشباح سود سامقة تبلغ النجوم . هنا يبلغ هيامك حد الوله كالذى صلى فقال : « ليس الله بحاجة إلى صلاة منى وأنا الذى بحاجة إلى الصلاة » . تلك البساطة توحى بحشد من المشاعر والأفكار . يقول جاى دى موباسان : « ربما كان فن العمارة أغنى الفنون فى الذوق والروعة المبهمة والأفكار » كم هو صادق هذا القول وأنت تنظر بالليل إلى الهرم الكبير . إنه إذاك يتنفس سحراً . ثم هذه قاعدته المائية تذكرك بالتيه الذى فى داخله ، بالمزلق الطويل بعد الثقب الذى منه ولجت ، بخطوك الحذر فى ليله الحار السرمدى ، بعثراتك على أحجاره الملساء . بالثقل الساحق الذى خلته يجثم على قلبك وأنت تتسلل فى جوفه حذراً ، بشعورك أنك حبست إلى الأبد وأن زمنيتنا اختطفتك وخبأتك من أنوار مصر البهيجة ، بوقفتك فى الحجرة التى فى وسطه وتصورك بحره الحجرى وأنت الغائص الجرىء ألقى نفسه فى قراره باختياره . . . ثم هاهما عيناك تصعدان قليلاً قليلا مع حوائطه التى تتقارب رويداً رويدا ، ثم هاهما تبلغان النقطة السوداء التى هى القمة ، هنالك كنت وقفت مع « أبو » الذى يقضى نصف عمره على الحجر الأخير ، وكنتما حقنتما ضيفين على الشمس ، وجلستما تستحمان فى الأنوار والنسيم . وكنت نظرت فرأيت الابل والناس كأنهم ذباب ، ورأيت القاهرة لطخة رمادية اللون ، ورأيت جبال المقطم كثيبا أعلى قليلا من الصحراء ، ورأيت مسجد محمد على كفنجانة مقلوبة ، وفى الحضيض من دونك ينام الموتى فى مقبرة أبى الهول بأحجارها الشاحبة ورمالها ونخيلها وجميزها ، ذلك الجميز الذى كان يعبد لأنه الجسم الحى من هاتور ، ورأيت إلى ناحية مياهاً ناعمة فيها جزر صغيرة كأكف حسان مصر اللطاف ، وإلى ناحية الصحراء تمتد كما يقول الأعراب إلى مسيرة ألف يوم .

تلك القاعدة وتلك القمة أى وحى فى اختلافهما وأى سر ؟ أى جمال خالد وقور فى الخط الأسود الواصل ما بينهما ، ذلك الخط الذى صار الآن محدداً رقيقاً فى زرقة ليل كلون القميص المفرد على جسد فلاح .

ذلك الخط خليق أن يعلو بك من الثرى إلى النجوم .

عبد المغنى على حسين

(١) النبات المعروف . . .

الإعراب

فى لغتنا معاشر العرب

الإعراب فى اللغة المضرية يميزها من جميع اللغات المعروفة اليوم ، وإذا شاركتها فيه بعض اللغات فإنما تشبهها من وجه بعيد ، لأن إعراب العربية شيء ، وإعراب تلك شيء آخر ، ولا شك فى أن هذه المزية حلية من حلى هذه اللغة ، بل هى أنفس أعلاقها ، وأجلى مميزاتها ، وأجل مفاخرها .

ويظهر أن العربية تحلت بهذه الميزة منذ قديم عصورها ، لأننا إذا اعتبرنا اللغة البابلية الأولى التى عثر على بقيتها فى آثار الدولة الحورابية — هى الأصل السامى الذى انشقت منه اللغات ، يترجح عندئذ أن العربية حافظت على كثير من المزايا التى كان يتحلى بها ذلك الأصل ومنها الإعراب ، لأنهم وجدوا أن اللغة البابلية كانت تتحلى به ، ومن هنا يظهر أن الإعراب عريق فى اللغة العربية عرفها وعرفته قبل أن يعرفهما التاريخ . ولما انبلج فجر الإسلام ، كان العرب فى جزيرتهم ولاسيما المدنانيون منهم يتفاهمون فى تخاطبهم ومكاتباتهم وفى نظمهم ونثرهم باللغة المعربة التى جاء فيها القرآن الكريم . وزعم بعض المعاصرين أن لغة التخاطب عند العرب فى الجاهلية لم تكن معربة مطلقا ، ولادليل على هذا الزعم ، بل الدليل على عكسه . وزعم بعضهم أن لغة التخاطب كانت معربة عند الخاصة دون العامة ، وهذا الزعم والذى قبله من واد واحد . وزعم آخرون أن المعربة خاصة بالشعر والخطابة والكتابة دون المحادثة . ولا ندرى كيف صار هؤلاء إلى هذا الرأى مع علمهم أن الأمية كانت متفشية فى العرب وأن تفريقاً كهذا بين لغة التخاطب ولغة الخطابة يحتاج إلى ممارسة وتلقين كما هو الشأن فى عهدنا هذا ؟ فإن لغة التخاطب اليوم تختلف عن لغة الكتابة والشعر ، ولكننا لانحذق هذه إلا بالتلقين والمدارسة . والذى حدا بهؤلاء إلى هذا القول عثور بعض النقابين فى أطراف الجزيرة العربية على مكتوبات أثرية بلغة عربية خالية من الإعراب . وهذا لاينهض دليلاً على ماذهبوا اليه ، إذ من المحتمل أن تكون تلك المكتوبات من مخلفات قوم ليسوا من المدنانيين فى الصميم ، وكلامنا نحن إنما هو فى اللغة المدنانية الممثلة بلغة مُضر الممثلة بلغة قريش التى جاء بها القرآن الكريم ، ووردت بها أمّ الأمثال ، ونظم فيها جل المنقول الينا من الشعر . وعلى الجملة فإن الدليل قام على خلاف ما ذهب اليه هؤلاء المتخرصون الذين لا علم لهم بالتطورات التى تقلبت فيها هذه اللغة قبيل الاسلام وبعده . ولسنا هنا فى موقف إقامة الدليل على دحض هذه الفنون لأنها أوهى من أن تقوى على محك النقد . وانما نريد فى مقالنا هذا أن نلم بما طرأ على الإعراب من تقلص فى الحواضر ثم فى البوادى ، وما جرى له على كر القرون المتعاقبة .

أشرنا آنفاً إلى أن الإعراب كان يسود اللغة العربية المدنانية عند ظهور الإسلام . فلما امتدت الدعوة إلى أطراف الجزيرة وإلى ما يلى تلك الأطراف من الممالك المجاورة ، أجاب الدعوة ناس لم تكن العربية المضرية لغتهم الأصلية ، فكانوا ينطقون بها من طريق التلقن والاحتذاء ، وطريقة كهذه لا يؤمن فيها الخطأ . فلذلك ذرّ قرن اللحن بين هؤلاء الطارئين على اللغة ، فقد روى أن النبي (ص) سمع رجلاً يلحن فى كلامه فقال : « أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل » . وروى أيضاً أن كاتباً من الموالى لأبى موسى الأشعرى لحن فى إحدى الرسائل التى كان يبعث بها أبو موسى إلى الفاروق (رض) ، فلما وقف الفاروق عليها كتب إلى أبى موسى يأمره « أن قنّع كاتبك سوطاً » . وهذا اللحن انما أُثر عن أولئك الموالى الذين لم تطل صحبتهم للعرب ، أو لم يتمكنوا من الانسلاخ عن لُكنتهم التى

يرتضخونها مثل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ؛ فقد قيل إن الأول كان يرتضخ لُكنة فارسية والثاني يرتضخ لُكنة رومية والثالث يرتضخ لُكنة حبشية ، ومع ذلك فإن اللحن الذي كان يصدر عن أمثال هؤلاء كان نزراً يسيراً . فلما فتح الله على العرب ممالك الأعاجم ومازجوا حمراء الأمم وصفراءها واتصلوا بهم اتصال المجاورة والمصاهرة والمتاجرة وغيرها دبّ دبيب اللحن بينهم ولاسيما في الحواضر الكبرى ، ثم راح يسري إلى حواشي الجزيرة العربية التي كانت على صلة وثيقة بتلك الحواضر . فما كاد ينطوي بساط القرن الأول الهجري حتى انقضى عمر الاعتماد على كلام المتحضرة من العرب ولا سيما العامة منهم . أما الخاصة فإنهم كانوا يتشددون في المحافظة على سلائقهم ويترفعون عن الهبوط إلى الدركات التي صار إليها العامة الذين مازجوا الأعاجم ممازجة أخرجتهم عن عمود اللغة ، ولذلك كان الخاصة يتحامون التزوج بالأعجميات ويبالغون في تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية . فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليروضوهم على الفصاحة وينشأوا نشأة الأعراب الفصحاء ، أو يحضرون لهم المعلمين من الفصحاء ليخرجوهم في الإعراب والفصاحة . ولكن هذا لم يطل أمده فوقع الخاصة فيما وقع فيه العامة في الحواضر من اضطراب الألسن واختلال السلائق . أما العرب المتبدية فامتد أجل الثقة بكلامهم إلى ما بعد القرن الثالث بقليل ، ثم سرى إليهم الداء الذي أصاب لغة الحضريين فأخذت لغتهم تفقد مزيتها وتفارق حليتها .

وإني أورد هنا بعض النصوص التي تشير إلى أن اللغة المعربة حافظت على حليتها حيناً من الدهر في كثير من أنحاء الجزيرة العربية وما يجاورها وإن داخلها بعض الاختلال ، مرتباً ذلك على الزمن :

١ — قال الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) في « البيان والتبيين »[1] : « رأيت عبداً أسود لبني أسيد قدم عليهم

(١) ج ٢ ، ص ٣٤ ، مطبعة الجمالية

من شق اليمامة ، فبعثوه ناطوراً وكان وحشياً محرماً لطول تغربه كان في الإبل وكان لا يلقى إلا الأكرة ، فكان لا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم . فلما رآني سكن إليّ وسمعته يقول :

« لعن الله بلاداً ليس فيها عرب ، قاتل الله الشاعر حيث يقول :

حر الثرى مستعرب التراب[1]

أبا عثمان ! إن هذه العرب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جلد الفرس ، فلولا أن الله رق عليهم فجعلهم في حاشية لطمست هذه العجمان آثارهم ، أترى الأعيار إذا رأت العتاق لا ترى لها فضلا ، والله ما أمر نبيه بقتلهم إلا لضنه بهم ، ولا ترك قبول الجزية منهم إلا تنزيهاً لهم » اهـ .

وهذا النص واضح في أن اللغة المعربة كانت تعيش في الجزيرة العربية إلى ما بعد أواسط القرن الثالث ، وأنها كانت تعيش على ألسنة العامة كما تعيش على ألسنة الخاصة ، لأن صاحب الجاحظ هذا لم يكن إلا راعياً من رعاة الإبل ، بل ما كان إلا عبداً من عبيد بني أسيد . فإذا كانت العربية المعربة تجري على لسان هذا الراعي الأسود فما بالك بأحرار القبيلة وساداتها .

٢ — ذكر أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (المتوفى سنة ٣٤٠ هـ) في كتاب « المكافأة » : أنه أثناء مقامه بمصر احتاج إلى الانتقال من بعض بلاد الصعيد إلى الفسطاط ، وكان الأمن إذ ذاك مضطرباً والطرق مخيفة ، فتخفر بأربعة نفر من القيسية ، فأحسنوا عشرته كما أحسنوا خفارته ، حتى إذا وصلوا قصر الجيزة ، طلع عليهم رعيل من الأعراب يريدون نهبه ، فتمكن خفراؤه الأربعة من صدهم بالحسنى .

قال : « وجددنا في السير حتى انتهينا إلى عمى الحفرين

(١) يروى الزمخشري في الأساس في مادة ع ، ر ، ب هذا الشطر على الوجه التالي : « جعد الثرى مستعرب التراب » .

لنـا ، فقال الخفرون : « قد بلغت إلى من تأمنه ، فحط رحلك » . فعملت في الخفرين هذه الأبيات :

جزى الله خــيراً معشراً حفظوا دمى
وقد شرعت نحوى المثقفــة السمر
دراهمهم مبــذولة لضــيفهم
وأعراضهم من دونها القفر والستر
إذا ما أغاروا واســتباحوا غنيمة
أغار عليهــم في رحالهم الشــكر
وإن نزلوا قطرا من الأرض شاسعاً
فما ضره ألا يكون بهــا قطر

فلحظنى واحد منهم وأنا أكتبها فظن أنى أكتب إلى السلطان ، فأشتكى ما كان من الفرسان الذين لقونا بقصر الجزة ، فقال : « قد سـلمك الله من أولئك القوم ، وقد أحسنوا إلينا في حسن الإجابة لنا ، فلا تكتب فيهم بشيء » . فقلت : « والله ما كتبت فيهم ولا في غيرهم إلى السلطان بشيء » فقال لى شيخ من الخفرين — وقد قرب منى : « فما تكتب ؟ » ... قلت : « أكتب أبياتاً مدحتكم فيها » . فقال : « وإنك لتقرض الشعر ؟ .. » قلت : « نعم ! » قال : « أنشدنى على اسم الله » فأنشدته إياها. فقال : « بارك الله ووصلك ! » ثم صاح بالثلاثة ، فلما اجتمعوا أنشدهم إياها . فما خرم — شهد الله — حرفاً واحداً ، فعجبت من حفظه لها ، ولم أعد عليه حرفاً منها ، وتبينت الفرح في سائرهم ، وحفظوها بأجمعهم ، ثم صاح بهم الشيخ : « ما تنتظرون ؟ أرضوا السوءة عنكم » . فأدخلوا أيديهم في جيوبهم وجمعوا شيئاً أخذه الشيخ منهم ثم قال لى : « قد شكرنا صنيعتك ، والله لا نجمع بين شعرك ووفرك » . ووضع العشرين الدينار بين يدى . فما كبرت ذلك وأعظمته ، وركبت فسرت مع جمع كثير منهم وهم ينشدون تلك الأبيات ، فالتمست أن يقبلوا منى براً فلم أصل إلى ذلك ورأوا أن الشعر أحسن موقعاً مما ملكته » اهـ .

وهذه الحكاية بمجموعها تدل على أن قبائل قيس التى كانت تضرب في بر مصر كانت إلى عهد ابن الهداية تتذوق الفصيح من القول وبهزها المدح وتتأثر نفوسها بالبارع من الشعر المنظوم بلسان عربى مبين ، وهذا يدل بوضوح على أن العربية المعربة كانت لا تزال تعيش بينهم عيشة الكريم العزيز ، وإلا لما تمكن الشيخ أن يحفظ الأبيات لمجرد سماعها مرة واحدة ، فإن الذى نعرفه عن الأميين من أعاريب هذا الزمان أنهم يعجزون عن أداء البيت الواحد من الشعر المعرب أداء صحيحاً مهما كررت قراءته عليهم ، أما حفظه والتغنى به فأمر فوق طاقتهم .

٣ — قال عبد العزيز الجرجانى (المتوفى سنة ٣٦٦) في كتاب الوساطة[١] : « قد كان قدم مكة في أيام مقامى بها شيخ بدوى من بنى عامر بن ربيعة يدعى مطرف بن سفيان فأنشدنا قصيدة مدح بها جعفر بن محمد الحسنى ، وجدتها متنافرة الأبيات ، مختلفة الأطراف ، بين عين نادر ، ومتوسط متقارب ، وضعيف ساقط ؛ فكنت كالمتعجب لما أراه من اضطرابها ، وظهور تفاوتها ، وامتحنت الشيخ فوجدت شعره إلى الضعف ما هو . فنحن كذلك إذ أتانا بعض من كان يقربه من أصحابنا ، فسألناه عن العامرى فأبدته معرفة ، وذكر أنه حضر الحى وقت تأهبه للوفادة فرآه في نادى القوم وقد جمع فتيان الحلة وأحداث القبيلة ، فقال : إن شيخكم يريد امتداح هذا الشريف بمكة فزودوه ، فزوده كل رجل منهم البيتين والثلاثة ، ثم نظمها قصيدة ، وإذا سبب ذلك التباين تفاضل القرائح ، واختلاف الأفكار والهواجس ... » اهـ

يرشدنا هذا النص إلى أن قبائل تهامة والحجاز كانت لا تزال على أثارة من اللغة المعربة في أواسط العصر الرابع ، وأن فتيانها وأحداثها كانوا لا يزالون يقرضون الشعر باللغة المعربة ، على أنه ما من شك في أن الاضطراب كان

(١) ص ١٣٢ .

سارياً في لغات أولئك الأعراب ، ولكنه كان إلى ذلك الوقت لا يقوى على محو الإعراب جملة وإزالته كلية . يدلك على ذلك قول الجرجاني نفسه في سياق هذه الحكاية ما نصه : « فإذا كان هذا الشعر عندهم اليوم وهذه عدة من يقرض منهم وينظم واللغة فاسدة واللسان مدخول والأمر مدبر وأكثر العرب مستعجم ، فما ظنك بهم والعرب عرب والدار خالصة لهم ... » . ولا شك عندنا أن الجرجاني عليه الرحمة يعني بقوله « اللغة فاسدة واللسان مدخول » أن الاضطراب في الإعراب كان بادياً على لغة أولئك الأعراب ، ولكنه لم يكن ذلك الاضطراب بحيث قد قضى على الإعراب جملة ؛ وإلا لما تمكن أولئك الفتيان والأحداث الذين لم تهذبهم المدارس على قرض الشعر إجابة لاستجداء شيخهم الماضي .

٤ — ذكر أبو الفتح ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢) في مواضع كثيرة من الخصائص أن في القبائل التي كانت ضاربة في الجزيرة العربية لعهده بقايا باقية من اللغة العربية المعربة ، وأن في أولئك الأعراب شعراء فصحاء لا يقع الناقد البصير على لحن في كلامهم إلا قليلا . من أولئك الشعراء أبو عبد الله الشجري العقيلي ، فكان ابن جني ينقل عنه الكثير من الفصيح وله معه مساجلات واختبارات غاية في الطرافة . والشجري هذا أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ومن أمثلة حكاياته عنه قوله[1] : « سمعت الشجري أبا عبد الله غير دفعة يفتح الحرف الحلقي في نحو (يعدو وهو محموم) ولم أسمعها من غيره من عقيل ، فقد كان يرد علينا منهم من يؤنس به ولا يبعد عن الأخذ بلغته ، وما أظن الشجري إلا استهواه كثرة ما جاء عنهم من تحريك حرف الحلق بالفتح إذا انفتح ما قبله في الاسم على مذهب البغداديين ، نحو قول كثير :

له نَعل لا تطّبي الكلب ريحها
وإن جعلت وسط المجالس شمت

وقال أبو النجم :

وجبلا طال صعداً فاشمخر
أشم لا يسطيعه الناس الدهَر

وهذا قد قاسه الكوفيون وإن كنا نحن لا نراه قياساً ... » اهـ

فأنت ترى كيف اهتم أبو الفتح لفظة جاءت في كلام هذا العقيلي الذي كان يعاصره وذكر أنه وافق فيها أقيسة الكوفيين والبغداديين ولم يوافق أقيسة البصريين . وهذا يدل بوضوح على قلة ما يرد في كلام هذا العقيلي وأضرابه من معاصري أبي الفتح من الانحراف عن عمود الإعراب .

٥ — وقال عمارة اليمني (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) في تاريخ اليمن[1] ما نصه : « وجبلا عكاد فوق مدينة الزرايب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحتهم ولا مساكنهم وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه . ولقد أذكر أني دخلت زبيد في سنة ٥٣٠ أطلب الفقه دون العشرين فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن في شيء من الكلام . فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله تعالى لقد قرأ هذا الصبي النحو قراءة كثيرة ، فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه ، صار إذا لقيته يقول : مرحباً بمن حنثت في يميني لأجله . ولما زارني والدي وسبعة من إخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم ، فلا والله ما لحن أحد منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه » اهـ

وهذا كلام واضح لا يحتاج إلى تعليق .

٦ — وقال ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) في معجم البلدان[2] : « جبلا عكاد فوق مدينة الزرايب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم

(١) الخصائص ج ١ . ص ٤٠٩ .

(١) ص ٢١ طبع لندن (٢) ج ٦ . ص ٢٠٥

بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناكحة ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه » اه

يظهر أن ياقوتاً نقل كلامه هذا من كتاب عمارة ، والذى يهمنا منه قوله « إلى اليوم » الذى يفيد صراحة بأن أهل ذلك الجبل كانوا لايزالون محتفظين بالعربية المعربة إلى أوائل العصر السابع .

٧ — قال الفيروزابادى (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) فى مادة ع . ك . د من قاموسه بعد أن ذكر جبل عكاد : « أهله باقون على اللغة الفصيحة[1] » .

٨ — قال السيد محمد مرتضى الزبيدى (المتوفى سنة ١٢٠٥) فى شرحه على القاموس فى المادة المذكورة آنفاً : « وعكاد (كسحاب جبل) باليمن (قرب) مدينة (زبيد) حرسها الله وسائر بلاد الاسلام (أهلها باقية على اللغة الفصيحة) إلى الآن ، ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم . . » اه

وإذا علمنا أن الفيروزابادى أقام فى زبيد زهاء عشرين عاماً وتولى قضاء اليمن كله أمداً طويلاً يتبين لنا أن عبارته

(١) عبارة القاموس « أهلها باقية . . » وهى غير مستقيمة كما نرى

تلك لم تكن إلا عن خبرة ودراية ، وأنها مبنية على اطلاع خاص .

أما السيد محمد مرتضى فهو عاقى الطينة زبيدى المدينة ، فشهادته فى هذا الباب تعتبر عيانية . ومن هنا يفهم أن اللغة العربية المعربة فى ذلك الموضع من اليمن عاشت إلى اوائل القرن الثالث عشر الهجرى . ولا يبعد أن تكون باقية إلى عهدنا هذا . فلو عنى بعض أهل الفضل بقصد هذا الموضع من بلاد اليمن ليقف على جلية الأمر هناك لأسدى إلى التاريخ والأدب خدمة تذكر فتشكر .

هذا وإنما ذكرنا كل هذه الأمثلة متسلسلة فى الزمن ليقف القارىء الكريم على ما تطورت اليه هذه اللغة الكريمة فى بقاع الجزيرة العربية والجزيرة العراقية والديار المصرية . وما آلت إليه حالها اليوم من انحصار المعربة فى نطاق الكتابة والشعر وتدوين العلوم ، واحتلال اللغة العامية سائر المواطن الأخرى . والآمال معقودة على أن نشر التعليم بين عامة الأمة وخاصتها كفيل بأن ينهض باللغة المعربة إلى رفيع مكانها وسابق عزتها .

طه الراوى

قوانين الحياة (١)

الحياة هي ذلك السر الذي أحتوي عليه ، وهو خاص بي ، ومع ذلك يستعصي علي ويهرب مني كلما حاولت اكتناهه ، لأني لا أملك زمامه ، ولست مصدره ، ولا صاحب الكلمة فيه . والحياة مادة لا تنقطع لأفكاري ورغائبي وجهودي . وإني لأحكم عليها بأحكام متناقضة متضاربة ، فأراها أحياناً طيبة راضية وأحياناً عابسة نابية . وبينما تكون محل إكباري ورضاي ، إذا هي موضع احتقاري وسخطي ، وأحافظ عليها كشيء ثمين عزيز القدر وأنفق منها دون تقدير كأنها شيء مهين ، وقد أسأمها وأضيق بها ، وقد أتعلق بها وأسر منها ، وفيها تختصر كل آمالي وأطماعي ومسراتي ، وفيها كذلك كل أحزاني وآلامي . وبديهي أن الحياة معقدة النواحي متشعبة الأطراف . ولنبحث الآن في قوانين كل نوع منها ، وسنتبين بذلك أنها شيء ثمين إذ عرفنا قيمتها وما يجب علينا عمله فيها .

التغذية والتوالد هما أهم مظاهر الحياة النباتية ، وهما كذلك في الحيوان ، ولكن على نهج أسمى ونمط أرقى . فكل حي يتسلم من الخارج غذاءه ثم يهضمه ويمثله ، وبهذا يحافظ على وجوده وينمو ، ويدوم بقاؤه ويكتمل .

وهذه عملية الهضم والتمثيل التي بها يتسلم الحي غذاءه ، فيحوله إلى جنس مادته . لكننا نلحظ أن بقاء الحياة على هذا النحو يستلزم الانفاق منها . فالحياة تبحث عما يمسكها ويصونها ، ولكنها في سبيل ذلك تنفق من ذات نفسها . تدفع الحاجة إلى البحث عن القوات ، ثم الحصول عليه فالاقتيات به ، وكل هذه عمليات معقدة في حاجة إلى قوى ومجهود ، وهناك فترات يستريح فيها الحي من هذا الجهد ، ولكن الراحة الدائمة هي الموت . فالحي يجهد ويستخدم قواه ، وكلما كانت حياته أكمل وأسمى من سواها ، كان واجبه للاحتفاظ بها أشد وأثقل عبئاً . فالحياة الحيوانية هي امتداد دائم للنشاط ينشره الحي على ما حوله . فالتغذية التي تتحقق بالحركة والعمل تسبب كذلك في الحركة والعمل ! فنحن نجد في كل مكان وفي جميع درجات الحياة وأشكالها ، أن الحركة دليل وأثر لعمل الحياة ونشاطها ، ثم نجد بعد ذلك حركة الامتداد ، وهي الحركة التي بها يتسع وجود الحي ويمتد فيذهب إلى مكان جديد ، ويعمل حيث لم يكن ويبسط حوله معالم وجوده بعمله ومجهوده .

فالحي يقتني لحياته ، لكنه ينفق مما يقتني ، ويأخذ لنفسه ، ولكن ينشر على ما يحيط به ، ولا يمكنه بغريزته أن يقتصر على الاكتساب والجمع والادخار ، فلم يخلق بغريزته بخيلاً . فالمتمتع الذي لا ينتج ، والملذات المجدبة التي لا تتعدى دائرته ليست بغيته بغريزته ، ولا مما يطلبه ويبحث عنه .

وفوق هذا فإن الحي إذا ما اكتمل ووصل إلى درجة النضج في حياته يتناسل ، وما التناسل إلا نتيجة وتكملة للتغذية ، والتغذية والتناسل متلازمان من الوجهة المادية الفزيولوجية ، فالتناسل يستلزم التغذية وينتج عنها . فلنتأمل بعناية وإكبار هذا القانون العظيم للحياة . وهو أن الحي يتسلم ليعطي ، ويأخذ ليرد ، فالخصب والإنتاج خلق جوهري للحياة . فالحياة تنجب الحياة وتصبح سبباً في إحياء غيرها . فقانون الحياة إذاً ينحصر في التغذية والامتداد ، والنشاط في كل مكان ، فلا جمود ولا سكون ولا قدرة للحي على أن يستأثر بنفسه وينطوي على نفسه .

والحياة العقلية غير الحياة المادية ، فلنبحثها لنرى كيف تنشأ ! إنها لابد لها من الكسب والادخار . إن هناك نظريات عتيقة تفترض العقل قوة تكاد تكون لا عمل لها غير الخلق والإبداع . ولكن الحقائق ترينا أنه لا غناء له عن تسلم ما يتاح له ويعطاه من المعلومات التي

(١) تلخيص للفصلين الأول والخامس من كتاب «قيمة الحياة» Leon Ollé-Laprune تأليف (Le Prix De La vie)

قد يعتريها النسيان والتشويه ، ولكن بدونها لا يستطيع العقل عمل شيء ما ، بل لا يستطيع التفكير .

ومن هذه المعلومات ما يتعلق بالأشياء والموجودات التي يقصد العقل إلى إدراكها لا إلى اختراعها ، ومنها ما هو مبادىء أساسية لمعرفة الأشياء التي يريد اكتناهها واكتشافها لا عملها وخلقها ؛ فالعقل — كما هو ظاهر — أداة تسلم من الخارج ، ولكن بعمل ومجهود . هل يمكن حصر العقل في نطاق الذاكرة المختزنة للمدركات العقلية ؟ هذا مالا يمكن التسليم به . ومن جهة أخرى فإن الإدراك نفسه عمل ومجهود .

إن مجرد الانفعال لا يمكن أن يكون معرفة ولا ما يرادف المعرفة . ولننظر الآن في العقل الغني بمدركاته ومجهوداته ، أيمكن أن يقتصر على الاستمتاع بما حصل وما اقتنى ؟ هذا مستحيل . بل لابد له من التجدد المستمر الذي لا ينقطع ولا يعرف حدودا يكتفي بها أو يستريح عندها . لابد له من الخروج من نطاق ذاته ، ومن الإدراكات التي حصلها ومن مجاوزة ما اكتسب لأنه قد قدُم . فالسكون والجمود معناهما الموت العقلي ، ومستحيل على المرء أن يسجن عقله في نطاق ما كان ولا في نطاق ما فعل . بل يظل مشعل العقل حيًّا وهاجا ، ليكون قوة إحياء وتجديد ، فالعمل والمجهود لازمان من لوازمه . ومن الحتم عليه أن يتجاوز نطاق نفسه إلى ما سواها . فكل فكرة قوية واضحة تمتد إلى منطقة البيان والظهور . ولا معنى لذلك إلا بروزها في عالم الحس وانتشارها . فالفكرة التي تلبس الكلمات تتصل بمادتها وتسرى فيها ، فتحييها وتحيا بها ؛ وهذا مظهر من مظاهر حاجات العقل في الاتصال بالعقول الأخرى . فذو الأفكار وإن لم تكن بالغة القوة يتطلع إلى بثها ونشرها ، وكل عقيدة لا ترضى بالانطواء على نفسها ، بل تتطلب وتعمل جاهدة لتكون قسمة بين العقول ، ولكنها قسمة جيدة لا تنقصها ولا تذهب بها ، وإنما تكملها وتزيدها . هذا هو الإشعاع ، فكلما كان الموقد بعيد الإشعاع ساطع الضوء ، كان ذلك أمارة قوته وشدة حرارته ؛ فالمطلب الطبيعي للعقل وغايته أن يكون للعقول الأخرى نوراً وقوة ومنبعا للمعرفة والفهم .

والعلم — هو ثمرة العقل المشرق القوى — خاضع لقوانين الحياة المتقدمة ، فهو لا يقف عند حد ، بل هو في تجدد مستمر ، وإذا وقف فقد آذن نجمه بالأفول .

ومع ما فيه من قوة الإنتاج والامتداد ، فإن من يعلم يتطلع لأن ينجب فيكون أبًا لمن يعلمون .

ونجد في الفن الحق نفس هذه القوانين ، على أنه يجب تمييز الفنانين من مجرد الهواة الكلفين بمشاهدة الآثار الفنية والتمتع بها ، فهؤلاء مجدبون عقماء . فما أشبههم بالمعابد القديمة حيث تتجمع آثار الفن ويسيطر عليها جمود الموت ، بعيدة من وسط الأحياء ، ولكن الفنان شيء آخر ، لأن الإعجاب الحق ببدائع الأشياء من شأنه أن يكون منتجا خصبا .

حقا ليس كل من يتأمل الأشياء الجميلة يستطيع أن يبدع أشياء جميلة . ولكن التأمل والإعجاب الفنيين يبعثان في النفس رغبة في العمل الفني أو طموحا في أن يخلق المرء في نفسه أو ينشر حوله أفكارا نبيلة ؛ فالفن في حقيقته قوة ونفوذ ، وهو يعمد قبل كل شيء إلى التكوين والخلق ، فهو منتج خصب ، واسمه باللاتينية Ars وهي مرادفة للنشاط ، واسمه بالألمانية آت من القدرة(1) . فالفنان كريم خصب ، إنه لا يستغرق في نفسه كل ما يتاح له من الطبيعة والناس ، ومن الماضي والحاضر ، إلا ليرد ذلك مصوغا بعبقريته ، فهو لا يأخذ إلا ليعطي ، وفيه تظهر طبيعة الحياة من الجود والخصب على أسمى درجة وأرفع نمط .

والآن — بعد أن بحثنا في حقيقة الحياة وما يعوزها لتبقى وتكون صحيحة . وفيما تتوقف عليه غريزتها —

(١) اسمه بالألمانية Konen مأخوذ من Kunst

يحق لنا أن نقول . إن قانون الحياة الإنسانية الأول ، بل الأساس ، أنها لا تستطيع أن تبقى على الضعف والسكون ، ولا على الوحدة والأثرة . وإذا نظرنا إلى الحياة في مجرد الرجل الخبير الذي ينطوي على علمه ، أو الولوع برؤية الأشياء الجميلة بدون إنتاج ، رأينا أن الحياة فيهما تنحدر إلى الأثرة والجمود ، لأننا إذا اقتصرنا على المشاهدة والاستمتاع فقد حرمنا أنفسنا نعمة العمل ، وهذا يؤدي إلى نقص وجودنا ، وحرماننا الحياة الكاملة ، ثم الحياة كلها . لأن ذا الأثرة الذي لا يحيا إلا لنفسه وفي سبيل سرورها يتحدر إلى معنى ضيق من الحياة لا يلبث أن يتلاشى .

فغريزة الاجتماع والتمدين أقوى مما يظهر لأول وهلة ، فنحن لا نحتاج فقط إلى مساعدة الآخرين لنستطيع الحياة ، ولا نطلب منهم الوسائل التي تعوزنا فحسب ، بل إن الغريزة التي تجعل الإنسان ضروريا للإنسان أعمق وأقوى حيوية من هذا . فكل شخص يحتاج أن يعمل شيئا ما لغيره ، وأن يكون سبب الخير والرقي له ؛ وبدون هذا الجود الذي يحملنا على أن نخرج من نطاق أنفسنا وأن نعطي من حياتنا لغيرنا لا نكون أحياء حق الحياة ، فإن الحياة التي تنطوي على نفسها تذبل وتهلك ، لأن صاحبها أراد أن يطمر فيه ممتاها كما يدفن البخيل كنزه ، بينا هي كالمنبع الذي يأسن إذا ركد ، ويتجدد كلما ازداد حركة وانتشارا .

وليس في هذا العالم من ليس لديه ما يعمل وما يعطى

وإذا جعلنا مثلنا الأعلى أن نكون كالتاجر الذي انسحب من السوق مكتفيا بما ربح غير مفكر إلا في الاستمتاع به ، فإننا نقضي على الإنسانية بالضعف والانحدار درجة فدرجة إلى هوة الفناء .

نحن لا نقصد من كلامنا هذا أن نمنع الراحة وأوقات الفراغ ، ولا أن نجحد فضل المزاح واللهو ، فإن كل ذلك نافع في وقته؛ ولكنا نريد أن نقول : إن إدراك الحياة على النحو الذي يحصرها في دائرة التأمل والمتعة ، يعرضها للخطر ويذهب بها ، إذ الحياة تبقى بالعمل وتقوى به . وكلما كانت قوية شديدة كانت أكثر امتدادا وخصبا وأوسع انتشارا . فالأخذ والإعطاء هما قانون الحياة المزدوج . وكلما كان المخلوق أسمى حياة وأشد أسرا كان أكثر عطاء وبذلا ، حتى إن الحي الأكمل ، وهو واجب الوجود مكتف بنفسه لا يأخذ شيئا ، بل يمد غيره من المخلوقات الناقصة بما يزيدها ويكملها .

ينتج مما تقدم لنا من دراسة أننا لا نستطيع أن نسيغ الزعم بأن الحياة باطل وعبث .

وكل من يفكر كما فكر « نارسيس[1] » في أنه لا يحيا إلا في حدود ذاته ، ويظل يستطلع نفسه في مياه الأشياء الشفيفة ، يصيبه ما أصاب نارسيس من هلاك . لأنه وقد حرم نفسه العمل لا يلبث أن يحرم الحياة ، فإن كل من يتنكر لقوانينها لا يفلت بدون عقاب .

محمد غنيمي هلال

---

(١) في الميثولوجية اليونانية ، أن نارسيس هذا كان معجبا بنفسه ، ويظل ينظر إلى صورته في الماء ، فأدى به ذلك إلى أن غرق وتحول إلى زهرة جميلة تحمل اسمه .

مهداة الى الأستاذ محمد فريد أبو حديد :

يا مصر . . . . . .

[كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد مقالين تساءل فيهما عن عوامل الضعف في كياننا القومي والاجتماعي . وقد شاءت شاعرية الأستاذ بدر احمد أن تجيب على تساؤل الأستاذ أبي حديد بهذه النغمة المليئة بالأمل في مستقبل مصر العزيزة ... ...] .

بين صفق الهوى وخفـــق جنانه
ذاب في عشقـــه على أوزانـــه
يستمد الألحان من هدأة الفجـ
ــــر فتصـــحو الربى على ألحانه
كل ورد يود لو يســعد الحـظ
فيحـــظى بـــه على أفنـــانه
رسل النغمـــة الشـــجية في الرو
ض فتجـــرى الأنغام في غدرانه
في فؤاد النســـيم تسرى أغانيـــ
ــه فيشـــدو بهن في خفقانه
ملكت مصر قلبـــه لجرى الحب
قريضـــاً على رقيـــق لسـانه
أنت يا مصر جنـــة الله في الأر
ض بحـــق .... كم جئت في قرآنه
أرضـــك التبر حول نهر تهادى
فتراءى اليـاقوت في أحضـــانه
عزم الخـــير أن يخص مكاناً
من ثراك فكنت كل مـــكانه
حكمة الله قـد قضت أن تكوني
في المـــكان الخصيب من بلدانه
وســـقاك من منهل الحب عذباً
وغـــذاك بـــبره وحنـــانه
ما عهـــدناك تبخـــلين بما آ
تاك من فضله ومن إحســـانه
فيمـــز الانسان منك نصيب
عز في طعمـــه وفي ألوانـــه
إنما زاغت البصـــائر حـــتى
عمي المرء عن كؤوس دنانه
هائم في غياهب العمر يحـــدوه
عمى جهـــله وعجـز لسـانه
ليس كالجهـــل معول يهدم المرء
ويـــأتي على قـــوى بنيـــانه
هو سم إذا جـــرى في عروق
فـــزؤام المنون في جـــريانه
وإذا ما اســـتوى على عرش عقل
كانت النائبات طـــوع بنـــانه
ويح قوم يؤمـــلون حيـــاة
لم يعـــوذوا بالله من شـــيطانه
لم يثيروا عليـــه نوراً من العلـــ
ـــم ويلقـــوه في لظى نيرانه
إهـــدئي مصر خاطراً قـــد نزلنا
نهزم الجهـل في حمى ميـــدانه
قـد حملنا عليـه بالعلم والفن
نحـــد الجهـاد من ســـلطانه
نحن لم نأل في ســـبيلك جهـداً
كل فـرد بجـــده وافتتـــانه
أرى المـــرء يرقب الخـــير إلا
بعـــد نفض النعاس عن أجفانه

* * *

إيه يا مصر أسمعي الشرق لحنـــا
عبقـــريا فأنت قـــوس كمانه

تتمشى الألحان فيك من الهـ
ـد فتهتزه من ذرا سوداته
وابعث فيه نشوة الفن حتى
تتعالى الأنغام في لبناته

***

أبدع الفن في ربى مصر وافتر
بنادى الضحى على أغصانه
ليس بدعا قصر أبدعت الفن
قديما بتيه في ريعانه
كان لغزاً فترجته إلى الدنيـ
ـا وها يهتدي إلى ترجمانه
يتهادى على الخمائل نشوان
فيسبق الورود من تحنانه
يقطر الحب من مآقيه شهد
ويفيض الهيام من وجدانه
لق الأم أجبته فأبدى
مسكن الحنين فى اتيانه
طوق مصر جيده ثم قص
مجده وانكيه فى آذانه
وأفيض عليه من مائك العذ
ب فتزهو الرياض من أقحوانه

***

يأمل الشرق فيك نهضته الكبـ
ـرى فناديك ملتقى أوطانه
فتلقيه بالصناعة حتى
يتندى غرامها بجنانه
ويرى دمية الخلود تناجيـ
ـه فيسرى الحماس فى عنفوانه
أودع الله بغية المرء فيها
وجه آماله وقد أمانه
يشمخ الشعب فى حماها على الدهـ
ـر ويقوى بها على حدثانه

***

كم تعهدت فى الحياة فتونا
عقدت مجده على صولجانه
لم يزل سرها خفياً كأنْ لو
كنت عاهدتها على كتمانه
ليس يرضى الجدود أن تذكر المجـ
ـد وتثنى عليه فى أكفانه
إنما ترتقى إليه بمجد
فدب الحياة فى جثمانه
لا نطيق النهوض وقفاً على القر
ب وأسلافنا بناة كيانه
إن يكن ساءنا الزمان طويلا
فلكم ساءه طويل زمانه
قد أخذنا نستأنف السير لما
صاح فينا بلالنا بأذانه
مرحبا بالحياة تدعو إلى المجـ
ـد وترقى بنا رفيع مكانه
فى ظلال الفنون نرفل فى العز
ونختال فى سنا ألوانه
لم تسد أمة إذا لم يردد
قلبها ذكرهن فى خفقانه

بدر أحمد

من قصص الأطفال الصينية :

في خارج الحديقة

للكاتب الصيني الكبير « يه شاو كين »

جاء الربيع ، فلاح على فروع أشجار الصفصاف الدقيقة لون أصفر خفيف ، ولكننا إذا دققنا النظر وجدنا شيئاً من الاخضرار مع هذا اللون الأصفر ، وما أشد لين خصور هذه الفروع ! إذ أن الريح الخفيفة حين هبت ، حلت أطرافها ورفعتها رفعاً منظماً جميلاً ، ثم لم تلبث أن تهدلت معاً شيئاً فشيئاً كأنها شعر رأس فتاة حسناء ممشوط منظم .

وكان بين سوق أشجار الصفصاف ترعة ، لا نعرف من ملأها بالماء الأخضر النقي ، حتى كاد يفيض من جانبيها ، وما أجمل أمواجه الدقيقة الرقيقة التي كأنها طبعت على وجهه فلا نكاد نحس أن موجة تدفع الأخرى إلى الأمام ، فظهرت صورة الصفصاف في الماء واضحة جلية ، وعلى جانبي الترعة نبتت الحشائش الخضراء الكثيفة ، فاتخذتها الأسماك الصغيرة بيوتاً لها ، وانتشرت روائح التراب والماء فإذا شممتها عرفت أنها من روائح الربيع ، وأرسلت الشمس أشعتها فوق الترعة وشاطئيها ، فأوحت إلى كل موجة وكل حصاة المرح والسرور .

وبجانب شاطئ الترعة وتحت فروع الصفصاف طريق مرصوفة ، تسير عليها عربات جميلة فاخرة : فمنها عربات تجرها الخيول ، عجلاتها تدور على الأرض خفيفة لا نسمع لها صوتاً ، وأسلاك عجلاتها النحاسية تومض ببريق يخطف النظر ، وقد طلي ظاهرها بالقار الأسود اللامع كأنه المرآة ، وزجاج نوافذها نظيف شفاف ؛ ومنها عربات يجرها الناس ، تسير في الأرض سريعة كعربات الخيول ، ذات وسائد بيضاء ، وبسط مزركشة وبوق صغير ، جمعت كلها بين الجمال والظرف . ومنها عربات تحركها الآلات البخارية ، ذات أجسام كبيرة كالسباع الهائلة ، قد فتحت عيونها المستديرة ، وهي تأتيك كالطيور سريعة عجلة ، وتمر أمامك كالبرق ، ثم تطير وتبتعد حتى تتضاءل وتختفي عن نظرك ، ولكن صياحها المزعج لا يزال يصل إلى سمعك من بعيد .

وفي تلك العربات يجلس الناس الذين امتلأت قلوبهم بالفرح والسرور ، فمنهم رجال سمان ، ونساء عجائز ، وفتيات حسان ، وأطفال ظرفاء ، وبعد هؤلاء الناس وجوههم الباسمة إلى خارج العربات ، ويرسلون أشعة السرور من عيونهم إلى خضرة الصفصاف أو إلى مياه الترعة الرقراقة ، وأحياناً يرفعون أنوفهم ليتنفسوا هواء الربيع الطلق ، ويشموا عرف الأزاهير الذكي ، وعند ذلك تظهر آثار الارتياح على وجوههم ، فيتحرك اللحم في خدود الرجال السمان ويسترسل ، وتطبق العجائز أجفانهن المتجعدة ويفتحن أفواههن الجافة الخالية من الأسنان فتحاً كبيراً ، وتحرك الفتيات الحسان مناديلهن بنظام ويغنين غناء رائعاً ، ورقص الأطفال الظرفاء طرباً ويبسطون أيديهم يريدون أن ينزلوا من العربات ؛ ويضحكون ضحكاً شديداً . وقد سال العرق من أجسام الخيول كالينابيع ، وتنفس الناس الذين يجرون العربات تنفساً مؤلماً ، وتعبت الآلات البخارية في العربات تعباً كثيراً ، وخرجت منها أصوات خشنة ، ولكن الجالسين في العربات لا يهتمون لشيء من ذلك ، وإنما شغلتهم المناظر الجميلة ، وأعماهم عن كل ذلك الضحك الشديد .

وإلى أين يذهب هؤلاء المترفون ؟ إن في جانب منحنى الترعة حديقة ، تستيقظ من سباتها حين يقبل الربيع ، ويظهر شكلها الجميل البديع رائعاً من جديد ، وتنتشر روائحها الحادثة الطيبة في كل أرجائها ، وتبعث الطيور

مغردة على أشجارها بأعذب الألحان المطربة ، وتصبح الحديقة كمصرف للفرح والسرور فتجذبهم إليها ، مع أن الفرح والسرور علآن قلوبهم ، لكنهم يذهبون إليها كما يسيل ماء النهر إلى ماء البحر العريض .

* * *

منذ ثلاثة أيام وقف الصبي « تشان » في خارج الحديقة ، وكان قد سمع حديث جيرانه عن هذه الحديقة ، وإطرائهم لجمالها الذي ضاهى جمال الفردوس ، وأحب أن يجول فيها ، وأراد أن يخبر أباه بذلك ، ولكنه لم يستطع أن يقابل أباه ، لأنه حين استيقظ صباحاً من النوم وجد أباه لم يزل نائماً ، فخرج ولعب مع أولاد الجيران زمناً ، ثم رجع فوجد أباه قد خرج من البيت . وانتظره حتى منتصف الليل فلم يرجع فنام ، فأخبر أمه بذلك ، وكانت تغسل الثياب للناس بالكراء لتتمكن من العيش ، فتظل طول اليوم مع الماء ، وجسمها مبتل ، وأما يداها فتورمتا لعملها المستمر . ولما سمعت كلام ولدها غضبت قائلة : « أنت تجول في الحديقة ! وهل يليق مثلك لأن يجول في الحديقة ؟ ! » ثم استمرت في غسل الملابس ، ورشاش الماء يطير حول جسمها .

فلم يجرؤ « تشان » على أن يتكلم في هذا الموضوع أمام أمه مرة ثانية ، ولكنه لم يفهم كلامها ، وقال في نفسه : « لماذا لا أليق لأن أجول في الحديقة ؟ ومن يليق لأن يتجول فيها إذاً ؟ » وما زال شاكا في كلام أمه .

وكانت الحديقة الجميلة تجذب قلب « تشان » الصغير بسحرها ، فذهب إليها ، وهو لا يكاد يشعر ، ووقف خارج بابها الكبير ، وكان مفتوحاً على مصراعيه ، فرأى داخلها أشجاراً خضراء كثيفة كثيرة ، فحدثته نفسه قائلة : « ليس بينك وبين هذه الأشجار حواجز ، وليس بجوارها إنسان ولا غير إنسان ، فلم لا تدخل الحديقة وتجول فيها ؟ » فكان جوابه أن اندفع داخلاً .

ولكنه لم يكد يجتاز الباب حتى شعر بأن شيئاً ثقيلاً شديداً أمسك بساعده الأيمن ، وأراد أن يتخلص منه فلم يتمكن من ذلك ، ودار رأسه حين سمع صوتاً يقول : « مع من ؟ » فرأى رجلاً طويل القامة ذا صورة مروعة ، وجلد وجهه غليظ كقشر البوسق ، وأنفه كشمعة حمراء ، وعينه واسعة مخيفة ترسل أشعتها إلى جسمه الصغير ، ويده كبيرة قد أمسكت بساعده الأيمن بشدة ، كما لو ربط بحبل غليظ مما تركه يشعر بألم شديد .

فتحير من شدة الخوف حتى إنه لم يستطع أن يتكلم كلمة واحدة ، وقد جحظت عيناه ، وهز الرجل كتفه قائلا : « إني أسألك : مع من ؟ » فأجاب « تشان » بعد جهد قائلا : « مع أنا ... » فضحك الرجل لهذه الكلمة ضحكاً زاد وجهه المخيف قبحاً وقال لـ « تشان » : « إذا جئت وحدك هنا يجب عليك أن تبتاع تذكرة لتدخل ! » .

فقال « تشان » : « لا أريد أن أبتاع تذكرة ، وإنما أريد أن أجول في الحديقة » . وأراد أن يهرب من يد الرجل ، فغضب الرجل وزادت أشعة عينيه التهاباً والتمعت حمرة أنفه وصاح قائلا : « أيها الأحمق ! تريد أن تجول في الحديقة مجاناً ! اخرج من هنا ولا تكذب ! » ودفع تشان إلى الأمام دفعة شديدة ، فتقهقر على عقبيه خطوات ، وترنح جسمه يمنة ويسرة ثم هوى على الأرض باسطاً يديه ، فضحك سائقو العربات الواقفون بجوار باب الحديقة ضحك السكارى .

ولما سمع تشان الضحكات وشعر بالناس وبالعربات الكثيرة أمام الباب خجل وقام من سقطته ببطء ، وتكلف الابتسام كأن لم يحدث شيء ، ولكنه تألم من عيونهم التي ترسل أشعتها إليه ساخرة ، ثم لم يلبث اهتمامهم أن تحول عنه ، فتسلل من مكانه هارباً إلى منزله . ولما وصل إلى المنزل وجد أمه ما زالت تغسل الثياب ، فلم تسأله من شيء ، ولم يخبرها بكلمة واحدة .

وكانت الحديقة الجميلة التي ضارعت الفردوس تجذب قلب « تشان » الصغير لجماله لا يستطيع أن يبق في المنزل زمناً طويلا ، فخرج وذهب إليها ، وهو لا يكاد يشعر ، كأنها سحر بسحره ، ولكنه لم يدخلها سريعاً في هذه المرة ، لأنه رأى الرجل الطويل يجلس في حجرة بجانب باب الحديقة ، وإنما أخذ يذرع الطريق أمام الباب جيئة وذهابا مخفياً نفسه عن أنظار الناس ، فهو أحيانا يختبيء وراء سيارة ، وأحيانا يجلس على كرسي صغير في مؤخرة عربات الخيل ، وأحيانا يشجع نفسه ويمشي بجوار الباب ، وهكذا قضى نهاره جائلا خارج الحديقة . ولما ذهبت العربات كلها وأرخى الليل ستاره فحجب الحديقة ، وظهر من حجرة الرجل الطويل نور ضعيف ، رجع إلى منزله . ولما أصبح صباح الغد ذهب إلى الحديقة وأخذ يذرع الطريق جيئة وذهابا أمام الباب كما فعل بالأمس .

***

وبينما هو يمشي أمام الحديقة جاءت إليها عربة من ذوات الخيل ، ووقفت أمام بابها ، ثم نزل سائق وفتح باب العربة فنزل منها سيد وسيدة ومعهما طفلان ، ونظر تشان إلى الطفلين ولم يهتم بغيرهما ، وحينئذ حدثته نفسه قائلة : « انظر إلى هذين الطفلين ، إنهما يلبسان الأردية الجميلة اللامعة ، والجوارب الطويلة ، والأحذية التي كلما وقعت على الأرض أحدثت صوتا ، ما أشد حمرة وجهيهما والتماع شعور رأسيهما ! انظر ! إنهما دخلا الحديقة في فرح ومرح ولا أحد يعترضهما ! فأين الرجل الطويل إذاً ؟ لماذا لم يخرج من حجرته ويمسك بساعديهما ويرميهما إلى خارج الحديقة ؟ وانظر . إنهما سارا بجوار الأشجار الخضراء الكثيفة الكثيرة وذهبا إلى داخل الحديقة ! ... » عجباً ! كأن تشان تبع الطفلين ودخل معهما الحديقة ، ما أشد فرحه ! لقد كان يتمنى أن يجول في الحديقة منذ زمن بعيد ، والآن قد دخلها وجال فيها وسار بجوار أشجارها .

إن أشجار الحديقة كثيرة بعيدة ، كأنها لا نهاية لها ، كبيرة طويلة كأنها أعمدة لتحمل السماء ، وسكن عليها السنجاب يلعب ويرقص بين فروعها ، والقردة ذات الوجوه الحمراء تجلس عليها أو تتعلق بها . ولما رأى تشان فواكهها الجميلة المختلفة الألوان قال في نفسه : « عجباً لي ! كيف توجد هنا الفواكه الحمراء والصفراء والبنفسجية التي كانت في الدكاكين ؟ » وفكر قليلا ثم قال : « ربما كان أصحاب الدكاكين يأتون هنا ويقطفونها فيبيعونها في السوق ، ولماذا لا أقطف منها وآكل ؟ » ولما رفع يده وهم أن يقطف الفواكه جاءت عربة يجرها آدمي ومرت بجواره وصدمته ، فانتبه لنفسه ورأى أنه لم يزل واقفاً خارج الحديقة ولم يدخلها .

وظل تشان واجماً خارج الحديقة ، ينظر حوله فلا يرى شيئا مما تخيله . ومرت أمامه عربة أخرى وصدمته ، فمال إلى اليمين وزحزح جسمه عن مكانه قليلا ، وفجأة أخرج من الحديقة شيء جميل يخطف بصره ، ومر به فرآه بدقة وإذا به حزمة من الزهور الحمراء النضيرة ، تهتز وربقاتها على ذراع حاملها ، واخترقت خياشيمه رائحتها الطيبة التي يعجز عن تصوير ذكائها الوصف . ولما بعدت عنه واختفت عن نظره قال في نفسه : « إن هذه الزهور خير الأشياء في الحديقة ، آه لو أخذت منها قليلا ، يا للخسارة ! لقد مرت أمامي ولم آخذ منها شيئاً ، لا بأس علي ، لأن الزهور في الحديقة كثيرة جداً ، فسأقطف حزمة منها وأضعها بجانب سرير أمي ، وحزمة أضعها على قلنسوتي حينما ألبسها وأمثل بطلا صغيراً في مسرح الأولاد ، وحزمة أخرى أزرعها أمام منزلي وأتركها تتفتح إلى الأبد ... » عجيب ! كأنه الآن في الحديقة بجوار غابة من الزهور .

وتكومت الزهور الحمراء أكواماً كبيرة مرتفعة كالجبال ، وصار لا يرى إلا لونها الأحمر ، ووجدها تبتسم

له ابتساما خفيفاً ، والماء يتساقط من وجوهها الباسمة طيباً حلواً يسيل على الأرض ، فلا يلبث أن يتجمد ويصير قطعاً من الحلوى ، فأحس تشان بحلاوة ولذة في فمه ، وأراد أن يلتقطها ليأكلها ، ولكنه لما تناولها بيده وجد أنها فواكه حمراء وليست حلوى ، فملأ بها جيبه ، ثم أراد أن يقطف الزهور ، فرأى زهرة تفتح نصفها تليق أن توضع بجانب سرير أمه ، وزهرة صغيرة تليق أن توضع على قلنسوته ، وزهرة كبيرة تليق أن تزرعها أمام منزله . ولما رفع يده ليقطف الزهور أيقظه صياح سيارة ، فرأى أنه لم يزل واقفاً خارج الحديقة ولم يدخلها .

واحسرتاه ! أين قطع الحلوى ؟ وأين الفواكه الحمراء ؟ لم يبق إلا طعمها اللذيذ في فمه ، ونظر إلى داخل الحديقة فلم ير شيئاً إلا الأشجار الخضراء الكثيفة الكثيرة ، ولكنه سمع أصوات الموسيقى تخرج من بينها ، فقال : « هذا صوت الطبل ضخم رائع ، وهذا صوت البوق قد استطال كصوت الجاموس ، وذاك صوت الزمار الطويل كبير رفيع كأنه يقود الأصوات الأخرى ، وصوت ضرب الفولاذ والحديد أجمل من صوت الحديد الذي يضربه الحداد ، وربما تكون هذه الأصوات من عزف فرقة موسيقية لجوالين في داخل الحديقة ، أظن أن وجه عازف البوق ينتفخ جداً كقربة الماء ، وعازف الزمار . . . » عجيب ذلك ! كأنه بجانب كشك الموسيقى في الحديقة معتمداً على الحاجز الحديدي يسمع أنغامها الجميلة في طرب وفرح .

فهؤلاء عازفو الموسيقى يرتدون ملابس زرقاء قد وشيت بخيوط ذهبية ملونة في صدورهم وأكتافهم ، والتمعت آلات الموسيقى وعكس بريقها على وجوههم وأجسامهم ، يعزفون ألحاناً مختلفة جميلة للدبقة ، بل إن تشان قد عرف بعضها ، فغنى مع الفرقة ، وكأن الموسيقى تتبع غناءه ، وها هو يقود الفرقة الموسيقية ، وكأنهم يسيرون بين أرجاء الحديقة ، وهو يوجه إليهم نداءه : « سيروا إلى الأمام ! سيروا إلى الأمام ! » . وهم أن يرفع يده ليقود الفرقة إلى جهة ، فصادف خروج طفلين من الحديقة ، فدفعاه دفعة جعلته يدور على نفسه ، فأفاق من غفوته ، ورأى أنه لم يزل واقفاً خارج الحديقة ولم يدخلها

ولما رأى الطفلين عرف أنهما اللذان دخلا الحديقة من قبل ، وقد جالا فيها وأخذا في أيديهما كثيراً من الحلوى والفواكه ، وصدما تشان ولم يهتما له ، وسارا يتبعان أبويهما ، وركبا معهما عربة الخيل يفتخران بسعادتهما وسرورهما ، وانصرفت العربة بعيدة عن الحديقة .

وتبع تشان العربة بنظره حزيناً ، وهي تبتعد ، ثم تخيل داخل الحديقة كأنه قد جال فيها ، وإن كان لم يعلم ما فيها ، ما دام بينه وبينها جدار ، مع أن بابها الكبير مفتوح على مصراعيه !

ترجمة
عبد الله ما — يي — كو

عصبية بعض المؤرخين

اطلعت فى العدد ٣١٩ من مجلة الثقافة على ما حققه الأستاذ أحمد عبد الباقى عن كتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى والأحكام السلطانية لأبى يعلى الحنبلى . ورأيته يعجب من إطراء بعض المؤرخين إياه ، واقتصاد بعضهم فى مدحه .

ولعل السبب فى ذلك أن بعض المؤرخين تغلبه العصبية فيسرف فى مدح المترجم من أصحابه فى المذهب ؛ فهذا مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى على جلالته فى التاريخ ترى الهوى المذهبى يحمله على العصبية المفرطة فى تراجم الحشوية فيطريهم ، ويغض من مخالفيهم إذا ترجم لهم . قال العلامة الشيخ محمد زاهد فى (ذيول تذكرة الحفاظ) وقد انتقده على خطته فى تراجم الناس ، الحافظ بن المرابط الغرناطى والتاج السبكى ، وذلك لبعده عن المعقول والعلوم النظرية واكتفائه بالرواية والسماع قبل النظر فى مبادىء العلوم ، وكان شافعى الفروع حنبلى المعتقد (على مصطلحهم) لأن كثيراً من الحنابلة هم من المجسمة والمشبهة . وهذا الحافظ ابن حجر العسقلانى أمير المؤمنين فى الحديث فى عصره يقول عنه قاضى القضاة ابن الشحنه : وكان كثير التبكيت فى تاريخه على مشايخه وأحبابه وأصحابه لاسيما الحنفية ، فانه يظهر من زلاتهم ونقائصهم التى لا يعرى منها غالب الناس ما يقدر عليه ، ويغفل ذكر محاسنهم وفضائلهم إلا ما ألجأته الضرورة اليه ، فهو سالك فى حقهم ما سلكه الذهبى فى حقهم وحق الشافعية ، حتى قال السبكى : إنه لا ينبغى أن يؤخذ من كلامه ترجمة شافعى ولا حنفى ، وكذا لا ينبغى أن يؤخذ من كلام ابن حجر ترجمة حنفى متقدم ولا متأخر .

وأبو يعلى الحنبلى المذكور لم يكن راسخاً فى علم أصول الدين كرسوخه فى الفقه ، فقد صنف (كتاب الأصول) فأورد فيه طامات شانت المذهب الحنبلى الذى ينتمى اليه ، على تضارب فى أقواله بين تشبيه وتنزيه . قال أبو محمد التميمى : لقد شان أبو يعلى المذهب الحنبلى شيئاً قبيحاً لا يغسله ماء البحار إلى يوم القيامة ، على ما فى الكامل لابن الأثير وتاريخ ابى الفداء . وقال الحافظ ابن الجوزى الحنبلى فى كتابه (دفع شبه التشبيه) : ورأيت من أصحابنا من تكلم فى الأصول بما لا يصلح ، وانتدب للتصانيف منهم ثلاثة : أبو عبد الله بن حامد وصاحبه القاضى أبو يعلى وابن الزاغونى ، فصنفوا كتبا شانوا بها المذهب ، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس الخ

فمن كان يذهب هذا المذهب فى المعتقد لضعفه فى علم العقائد تراه يمجد أبا يعلى ويزكيه ويعدد له مآثر ومحامد كالذهبى حيث يقول : أبو يعلى . . . صاحب التصانيف وفقيه العصر ، كان إماما لا يدرك قراره ولا يشق غباره ، وجميع الطائفة معترفون بفضله ومغترفون من بحره . . . قاله فى العبر ، على ماجاء فى « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » لابن العماد .

احمد صفوان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكردامى
القاهرة

تليفون — ٥٦٢٦٩

بين المسموع والمقروء

وفـــاء

إلى الطبيب الذى عالج كلبي ، فما أبرأ علته . إلى الطبيب الذى لقى كلبي فى غير بشاشة ، وعامله فى غير حضرتى بقسوة ، ذكرها الكلب فرفض أن يعود إليه رغم رجائى وإلحاحى ولسان حاله يقول : لا أذهب إلى هذا ال ... ولو كان عنده طب جالينوس . إلى هذا الطبيب أسوق ما قرأته عن طبيب من أهل مهنته ، اختلف عنه فى نظرته ، فوقته شر خيبته !

لابد لطبيب الكلاب من أن يحب الكلاب ، ولابد لحبه إياهم من أن يتفهمهم . نعم يتفهمهم ولا أقول يتفهمها . وسيجد أن تفهمه الكلاب أيسر من تفهم الإنسان ، وأن حب ذلك أقرب إليه من حب هذا .

إن عقلية الكلاب تختلف فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، والذكاء فيهم أنواع وأقسام . ويتراءى أكثر ذلك فى عيونهم ، فكأنها هى عيون الناس ، حتى فى صغرهم وهم جراء ! وتتراءى الفطنة بريقاً فى هذه الأعين ، وقد يصحبها الخبث ، وقد تصحبها الطيبة ، وقد يصحبها السكون والوقار كما فى الأشياخ تماماً من بنى الإنسان . وفيهم الغباء أيضاً ، ولكن بنسبة أقل مما فينا .

ومن اليسور للرجل منا ، وللمرأة طبعاً ، أن يفهم من أغلب الكلاب ما الذى تعنيه الكلاب ، ومن اليسور أن يتعلم قراءة أفكارهم ؛ فالكلب لا يعرف التصنع ، ولا يعرف الغش ، ثم هو لا يعرف الكذب لأنه لا يعرف الكلام . وقد جُبِل على الصراحة ، وهو بطبعه أمين .

وقد تبقى فى الكلب بقية ورثها من جدوده الأقدمين ، فتظهر منه أحياناً مظاهر المكر والحيلة مما كان لابد منه لآبائه المتوحشين ، حين كان المكر والخديعة بعض حيلة الصائد فيما يصيد ، وبعض سبيله إلى الرزق لمداومة العيش ، ولكن حتى هذه البقية تختفى عندما يطمئن الكلب إلى العدالة منا وحسن المعاملة .

والكلب يقر لسيده بالسيادة ، ويقبل قضاءه فيما يقضى فيه ، ولا يطلب له استئنافاً . وهو مع هذا ليس بالعبد ، وهو لا يقبل العبودية أبداً . إنه يخضع لنا من طواعية ، ويلذ له هذا الخضوع ، ولكنه مع ذلك ينتظر لحقوقه أن تُحترَم . إنه ينظر إلى سيده نظرة الناس إلى ملوكهم ، وحتى نظرة العبد إلى ربه ، ولا يسيئه من مليكه أو ربه أن يكون قاسياً إذا دعا الداعى ، ولكنه دائماً ينتظر منه العدل .

ويعلم أن ربه مطلع على ما يدور برأسه ، فهو لا يحاول أن يخفى ذلك أبداً .

وإذا قرأ الرب فكر الكلب ، فكذلك فى استطاعة الكلب أن يقرأ فكر الرب — فكر صاحبه وسيده . وهو لا يقرأ فكر صاحبه فحسب ، بل هو يحس بمزاجه الحاضر أيضاً .

وهو يعلم متى يريد صاحبه أن يشتغل به ، ومتى يودّ أن يشتغل عنه . فأنت تجلس إلى مكتبك فتنهمك فى عملك ، كتابة أو قراءة ، فيعلم كلبك ذلك منك ، فيقبع إلى جانبك ، فلا يصوِّت ، ولا يتحرك ، حتى الذنَب لا يبصبص به مبالغة فى تسكين المكان وتهدئته . وقد ينالك الهم ، ويثقل بك الفكر ، فتجلس مغموماً حزيناً ، فيعلم ذلك منك ، فيسترق الخطو إليك حتى ما تحسه ، وإذا هو يحط رأسه على فخذك معزياً مواسياً ، ولسان حاله يقول لك : لا تغتم ولا تهتم ! إن تركك الأصدقاء فأنى باقٍ أحتل مكانهم جميعاً ، وإن قصدك الأعداء فأنى باقٍ أدفع عنك الأعداء جميعاً . فرّج من نفسك ، وهيا بنا إلى الخروج ففى الخروج التفريج .

وهل رأيت قط كيف يفعل الكلب إذا مرض

صاحبه ؟ إن الكلب بطبعه يخاف المرض ، ويفزع من الموت . وقد يعتاد الكلب أن ينام عند موضع الأقدام من فراش سيده ، فإذا مرض سيده، ترك مكانه الذي اعتاد من هذا الفراش ، وقد يتردد ، ثم يقضي بالبقاء فيه ، ولكنه لا شك تاركه إذا اقترب الموت . وأقول إذا اقترب الموت لا إذا وقع . وعندئذ تتساءل : وكيف يعرف الكلب اقترابه . ولست أدري كيف يعرف . وليس يدري أحد كيف يعرف ذلك إلا الله .

حكى الطبيب قال : إنه عرف امرأة فقيرة حلّت غريبة في قرية . وبعد حين أصابها السل ، وجرى في جثمانها بطيئا ، فرقدت طويلا حتى ملّها الزوّار ، ولم يبق لها غير كلبها ، فلم يترك قط مكانه عند قدميها . وهو لو أراد تركه ما وجد لنفسه في الحجرة مرقدا . فقد كانت من العُري بحيث لم يكن لأرضها التربة الرطبة من غطاء .

وذات يوم زارها الطبيب ، فوجد عندها أحد قساوسة القرية ، وهو القسيس الوحيد من بين القساوسة العشرة الذي أعطى شيئاً من ماله للفقراء . فسأل القس الطبيب : أما آن الأوان فيتقدم لها بالقربان . ففحصها الطبيب فلم يجد أن حالها زادت سوءا ، بل وجد أن نبضها قد تحسن قليلا . وسألاها فقالت : إنها شعرت في الأيام الثلاثة الأخيرة براحة أكثر مما شعرت فيما سبق من أيام . فقال الطبيب : إنه يقدّر لها أن تعيش أسبوعا أو أسبوعين . فرضي القس بتأجيل قربانه .

وهمّ الاثنان بالخروج من حجرة المرأة التعسة . ولكن فجأة قفز الكلب من فراش المرأة صارخا معْولا ، وهرول إلى ركن الحجرة في بكاء كبكاء الثكالى ، وقبع في الركن في فزع شديد .

فرجع الطبيب يبحث عما جرى . ونظر إلى المرأة فلم يجد شيئاً تغير في مظهرها . ولكنه عندما أحس نبضها، لم يجده إلا بعد جهد كبير . لقد خفت حتى ما يكاد يُحَسّ . وأرادت المرأة أن تفوه بشيء ، فعجزت ، ولم يدر الطبيب ماذا نوت أن تقول . فنظرت إليه ، وفتحت عينيها ووسّعهما ؛ ويدها الكليلة رفعتها على ضعف زائد تشير إلى الكلب في ركن البيت . ففهم الطبيب أنها توصي به ، فمال إلى أذنها فقال لها : إنه لن ينال الكلب سوء ، وإنه آخذه إياه إلى داره . وعندئذ قرّت المرأة وبان عليها الرضى . ثم تنفست نفساً طويلا خرجت على أثره من بين شفتيها قطرات من الدم . ثم أسبلت عينيها وشاع في وجهها سلام الموت .

أما السبب القريب لموتها فنزيف في صدرها . فكيف عرف الكلب ذلك منها قبل أن يعرفه الطبيب ؟ !

وجاء القوم في المساء يحملونها إلى قبرها ، فمشى الكلب وراء نعشها حتى واروها التراب . وكان الشيّع الأوحد .

وبقي الكلب عند القبر ، ولم يستطع أحد أن يزحزحه عنه . وأمطرت السماء ، وأبرد الجو ، والكلب جاثم مكانه يوما وليلة . وأرسل الطبيب له حارس المقبرة بسلسلة يقوده بها ، بعد ملاطفته ومداراته ، ولكن الكلب نبح فيه نباحاً قاسياً خشى أعقابه . فلم يكن بدّ للطبيب في اليوم الثالث من أن يذهب إليه بنفسه ، ويغريه بمغادرة القبر . وكان يعرف الطبيب ، فنجح بعد لأي بإغرائه ، فاصطحبه إلى بيته .

وكان عند الطبيب كلاب أخرى فدخل في أسرتها ، وعاش فيها هنيئا سنتين . ثم جاء الكلبَ قضاء الله ، فدفنه الطبيب في ظل شجرة دفن في ظلها من كان سبقه إلى الموت من كلابه .

كنا نقرأ صغارا قول الأعرابي :

أنت كالكلب في حفاظك للودّ
وكالتيس في قراع الخطوب

وعندها نضحك ، ولا نفهم ، لأننا لم نكن تعوّدنا عشرة الكلاب . أما وقد تعوّدناها ، ولو على كبر ، فإنا نجد أقصى المدح أن يقول الصديق لصديقه : أنت كالكلب ...

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٣٠ — الثلاثاء ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ — ٢٤ من أبريل سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

روزفلت

مات روزفلت ، فاختفت بموته شخصية عالمية عظيمة كان لها أكبر الأثر في تغيير وجه التاريخ الحديث ، وذهب بذهابه عامل من أكبر العوامل التي حولت مجرى الحوادث في الحرب القائمة إلى ما صارت إليه . ولا يمكن إدراك حقيقة عظمة هذا الرجل ومبلغ ما كان له من فضل في النتيجة التي وصل إليها الحلفاء اليوم ، والنصر الذي أصبحوا على أبوابه ، إلا إذا تصورنا ما كانت تنتهي إليه الأمور لو لم يكن هذا الرجل رئيساً للولايات الأمريكية المتحدة وقت قيام الحرب .

فلو أن رئيس الولايات الأمريكية المتحدة كان رجلا سواء ممن لا يتملكهم ما تملكه من روح إنسانية عامة ، ولا يغلب على تفكيرهم ما غلب على تفكيره من نزعة عالمية ، ولا تضطرب جوانحهم بما اضطربت به جوانحه من كره للطغيان والعدوان وحب للحرية وإيمان بحق الجميع في أن يتمتعوا بها ، لكان الراجح أن تقنع أمريكا من هذه الأحداث التي تجري بعيداً عن ديارها بالسلامة ، وتجنح إلى عزلتها المأثورة وتغلب النزعة النفعية ، فتستغل الفريقين المتحاربين ، وتجني من التعامل معهما الربح الوفير ، ولكانت النتيجة المحققة لذلك أن ترجح كفة الباغي ، وأن تعجز بريطانيا وروسيا عن التغلب عليه .

ولكن الرجل كان أكبر إيماناً بالمثل الإنسانية العليا من أن يخذل قضية الحرية والعدل هذا الخذلان ، وأبعد نظراً من أن يعين البغاة اليوم ليقع فريسة لهم في الغد . ولهذا لم يتردد في المسلك الذي يختاره .

ولقد كان الرجل يعلم أن بلاده تموج بالتيارات المختلفة وأنها خليط من سلالات متعددة : منها ما يمت بصلة لفريق ، ومنها ما يرتبط بالفريق الآخر . وفيها رجال أعمال ليس من اليسير أن يضحوا بمصالحهم ، ولكن الرجل بما أوتيه من

مهارة وقوة تأثير شخصي استطاع أن يجمع كلمتهم، ويوحد وجهتهم، ويكسب بالإقناع أخذهم لسياسته، ويظفر بتأييدهم لخطته.

واستطاع قبل أن يدخل الحرب أن يجد له منفذاً لمعاونة الحلفاء وإمدادهم بالمعدات بما سنه من قانون الإعارة والتأجير ثم استطاع حين دخل الحرب أن يجند كل قوى دولته الفتية الزاخرة بالمواد والمصانع، وأن ينظم إنتاجها تنظيماً كفل أن تنتج من العدد والآلات ما لم يسبق لأمة مثله. وتدفقت المعدات الحربية من طائرات ودبابات ومدافع وسفن على ميادين القتال حتى تغيرت كفتا الميزان.

واشتد ساعد المحاربين الذين صمدوا للعدو تفوق عليهم في المعدات حتى جاءهم المدد فأخذوا يردون هجوم العدو عليهم، ثم انقلبوا مهاجمين حتى غزوه في عقر داره وأوقعوا به أكبر هزيمة عرفها التاريخ. ولم تقف معونته عند الامداد بالمعدات بل حشد ملايين الرجال وقدم خيرة رجاله، فكان لهم أكبر نصيب في رسم خطط الغزو وفي القيام بأخطر المغامرات، وشهدت لهم المعارك ببطولة يخلد ذكرها.

ومع أن الرجل كان يعاني آثار مرض مزمن ومع أنه كان في سن الشيخوخة فإنه قد اضطلع بهذه الأعباء الجسام بهمة لم تعرف الكلل. ولم تقف جهوده عند التفكير في كسب الحرب والعمل لإبلاغه هذا الهدف. بل لقد كان يعمل من اللحظة الأولى لتحقيق مثله العليا التي خاض غمار الحرب من أجلها، ويعد العدة لكسب معركة السلام وبناء العالم الجديد على أسس سليمة ودعائم قوية. ولقد كان في سبيل الغايتين - كسب الحرب وكسب السلام - يجتمع بغيره من قادة الأمم ويتبادل معهم الرأي ويتداول مع مساعديه وخبرائه شتى المسائل بالدرس والبحث. وكان لا يقعد به عجزه ومرضه وشيخوخته عن السفر من بلاده لأطراف الأرض ليتصل بأقطاب العالم من كثب ويتبادل معهم الرأي. ولقد رأته مصر من عهد قريب يجتمع بعاهلي مصر والجزيرة ويتداول معهما أمور الشرق الأقصى، ولمست مما تواتر على الألسنة عنه روح العدل والانصاف التي كان يتحلى بها والتي كانت تعلق عليها أكبر الآمال في نصرة قضية الحرية في هذا الجانب من العالم.

وإذا كان الرجل قد عاجلته المنية قبل أن يشهد نهاية المعركة ويدرك ثمرات النصر فلقد مات قرير العين بأن طريق النصر قد وضح ومعالمه قد لاحت في الأفق.

وكم كان أنصار الحرية يتمنون لو مد في عمره ليكون ماله من تأثير شخصي قوي وروح عالية سامية أثر في توجيه مباحثات الأمم لوضع أسس الحياة الدولية القادمة. وإذا دلت حياة هذا الرجل على أمر فإنما تدل على أن أثر القيادة حتى في أعرق الأمم ديمقراطية أقوى أثر وأن الزعيم الشجاع المؤمن يستطيع أن يواجه أحلك الظروف بروحه القوية، وأن يصمد لما يقف في وجهه من مختلف التيارات حتى يكسر شوكتها، وأنه يستطيع حتى في أشد الشعوب تعلقاً بالحرية ونفوراً من القيود إقناعها بالنظام وحملها على التضحية وأخذها بأشد القيود صرامة متى وثقت من إخلاصه وبعد نظره.

والآن وقد اختفى من مسرح الحياة العالمية شخصية فذة من الشخصيات التي قادت الأمم في معركة النصر القائمة تتطلع الأنظار إلى من صار على كرسي الرياسة في أمريكا مكانه أن يسير على نهجه، ويتخذ من حياته أسلوباً للعمل. وتتطلع إلى قادة الأمم المتحالفة الكبيرة أن يذكروا الضحايا التي قدمت على مذبح هذه الحرب الطاغية، وأن يذكروا شهداءها ويذكروا روزفلت العظيم الذي كان أكبر أولئك الشهداء تضحية. وأن يذكروا أيام المحن السوداء التي مرت بهم، فلا يلهيهم الظفر الحاضر عما قدموه من عهود، وأن يستقبلوا الحياة الجديدة بغير ما استدبروا به الحياة القديمة، وألا تغشيهم القوة فيمتهنوا

أدب الفتوة

فى أغانينا الشعبية

« وللناس فيما يعشقون مذاهب » . . . .

هكذا يجرى المثل السائر ، وليفسره القارئ الكريم كما يشاء ، فهو يجرى معه بسهولة وليونة يسيرتين ، إن شاء قال : « وللناس فيما يأكلون مذاهب » وإن شاء « وللناس فيما يشربون مذاهب » ، ويجوز له القول « وللناس فيما يلعبون مذاهب » . ويحلو القول أيضا « وللناس فيما يسمعون مذاهب » .

وعلى أساس ترديد هذه البديهيات أقول بأنى من عشاق الغناء الشعبي ، بل أذهب إلى أبعد من هذا وأصارح القارئ بأنى كثيرا ما أصغى إلى السيمفونى والروميا . . . والموسيقى الكلاسيك وغيرها من مختلف التراكيب الموسيقية ، فأطرب لبعضها بعض الطرب ، وتمر بعض ألحانها على أذنى مرا ، وأعجب أحيانا من بعض الروائع ، وأحيانا أهز رأسى استحسانا ، وعلى غير فهم ، لئلا أرمى بقلة الذوق وتبلد الشعور . ولكن مهما يكن الأمر فإنى أستطيع الجزم بأن ما أسمعه ليس من انعكاس البيئة ، ولا هو الضرب على الوتر المطلوب . فيكون تذوق هذا اللون من الغناء والموسيقى بقدر التأثر بالبيئة التى أنجبته وابتدعته .

أيها القارئ الكريم . .

يلذ قول « آخ » عند ما يجرح الإنسان ، ويحلو الأنين عند الشعور بصداع أو بألم ، ويلذ « التمتق » عند جفاف الريق . فالتنفيس الطبيعى من أثر الدوافع الطبيعية هو الأدب الصادق ، وما عداه فهو هراء . . وهذا الأدب الصادق هو من أهم مميزات الأغانى الشعبية بصورة عامة .

ومما يميز أغانينا الشعبية تلك النزعة القوية التى تجمع بين الحب والنخوة ، وهما أهم عناصر الفتوة . زينة العمر شبابه ، وزينة الشباب فتوته . . اسمع الراعى يقول وقد اعتلى ظهر الجبل معتزا بفتوته :

يما مويل الهـــوى يمـا مويليـــا
ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيـا

مويل تصغير موال للتحبب . والهوى أنعمنا الله بلفحة منه وهو مقصور الألف (يعنى لفحة هوى لاهواء) فكأن الراعى يقول : أماه « أنشودة الحب أنشودتى » ولكن حبه لا يوحى له بالوعتى وبا شقاى وبا ضنا حالى . بل هوى يوحى بعزة النفس حين يقول :

ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيا .

وما أروع عزة النفس من وحى الهوى . واسمع راعينا مرة أخرى يقول :

لأطلع عراس الجبل وأشرف على الوادى
وأقـــول يا مرحبـــا نسم هـــوى بلادى

حنين صادق يدل على الوفاء والأريحية ، هكذا تعكس الأغانى ألوانا من المشاعر النبيلة .

اسمع الطفل يهزج :

يارب تكبر مهرتى تكبر وأنا خيالها .

أمنية عزيزة جميلة ، تصور نفس طفل تصبو للفروسية ، والفروسية خلق ورياضة ، وهى أسمى مراتب الفتوة . مأوا سمعت :

زحلة عروس مزينة ومزينـــة برجالها . .

وأية زينة أجمل وأجل من الرجولة ؟ فالعروس جمال والرجولة جلال ، والاثنان معا جمال وجلال . .

بير — فلسطين حسن مصطفى

الضعاف ، وأن يعلموا أن الأيام تتمخض عن العجائب ، وأن ضعيف اليوم قد يصير قوى الغد . فإذا كانوا قد تعلموا من هذه الحرب مالم يتعلموه من الحرب الماضية ، طمع العالم فى عهد طويل من الاستقرار والطمأنينة ، وإلا كان الأوان الذى تتطلع إليه الإنسانية لكى يسود السلام فيه هذا الكوكب لم يحن بعد . والله بالغ أمره (...)

حول النقد والمغالاة فيه :

العمل أجدى

النقد سبيل إلى الإحسان والإجادة ، ما فى ذلك شك . ومعظم الناقدين قوم يبغون الاصلاح ، ويهدفون إلى الرقى ، ويسعون وراء الكمال ، ما فى ذلك شك أيضاً . أما أن النقد يؤدى فعلا إلى الاحسان والاجادة ، وأن الناقدين يحققون الاصلاح والرقى ، ويصلون بأنفسهم وبمن ينقدونهم إلى الكمال ، فذلك موضع تساؤل وشكوك ، فقد يتحقق الأمل المرجو ، وقد يذهب النقد مع الريح ، بل إنه قد يؤدى فى بعض الأحيان إلى عكس ما قصد منه .

هناك فريق من النقاد لاينفكون يشكون سوء الحال وانتشار العيوب ، وتزايدها يوما بعد يوم ، ويصورون كل ناحية من نواحى الحياة وقد تطرق اليها الوهن والفساد ، وكل طائفة من الطوائف وقد عمت فيها الفوضى وسادت المآخذ ، وجميع الأفراد وقد صارت أخلاقهم منحلة ، وضمائرهم ميتة ، وعوائدهم قبيحة ، ومعاملاتهم سيئة .

ينظرون إلى السياسة والسياسيين فلا يجدون منهم صالحا للبقاء ، أو جديرا بالتقدير ؛ وإلى العلم والعلماء فاذا هم جميعا سطحيون ، أو مدعون ، علمهم ضئيل ، أو قديم عقيم ، وأخلاقهم ضعيفة أو منحلة ، يسودهم حب التظاهر والنفاق ، ويملأ صدورهم الحقد والحسد ، ولا تنطوى نفوسهم إلا على المكر السيء . واذا حدثوك عن العامل والفلاح نعتت منهم أدنأ الأوصاف وأحط الاتجاهات وأسفل النزعات .

وبالجملة لا ينتهى حديثك مع هؤلاء إلا وقد علكك اليأس ، ولبست منظارا أسود لا ترى من خلاله أدنى قبس ، ولا يلوح لك فيه أقل أمل . فتقول عوضنا الله خيراً فى هذه الأمة التعسة ، التى لا يرجى لها اصلاح ولا يؤمل فى أبنائها خير ولا ينجع فيها علاج ، ولا يجدى فيها نصح ، ولا تنفع معها أية وسيلة من وسائل التقويم والاصلاح .

وإذا سألتهم عن سبب ذلك كله أرجعوه إلى أن هذه الأمة كانت بخير حتى بدأت تنقل عن الغرب ، فاذا هى تقتبس أسوأ ما عنده ، وتتخلى عن خير ما خلفه لها السلف الصالح ، من عوائد وتقاليد وأساليب ، وإذا بحسناتها الماضية تتلاشى واحدة بعد أخرى ، وسيئاتها الجديدة تزايد وتتراكم الواحدة تلو الأخرى ، وإذا بهذا التيار يسير بسرعة جارفة ، لا سبيل إلى وقفه ولا يملك هذا النوع من الناقدين الا قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وهناك فريق آخر من النقاد ينذر بسوء الحال ولكنه يقول : إن الأمة بخير ، وان عناصر الفلاح كلها متوافرة فيها . وانها لا تحتاج ، لكى تصل إلى أرفع المستويات ، وتضارع أرقى الأمم ، إلا إلى شيء واحد ، ألا وهو اطراح القديم من عوائد ومعتقدات وتقاليد ، وأساليب فى التفكير ومقاييس للخلق ، وهكذا . ينادون باطراح كل هذا لأنه سبب تدهورها ، وأساس عللها ، واليه يرجع كل ما يساورها من ضعف وانحلال ظاهرى أو مؤقت .

فأساليب التربية والتعليم القديمة فى نظرهم خاطئة ، ومفسدة ورجعية ، وأساليب التجارة والصناعة والزراعة بدائية وضعيفة ، وغير قابلة للتطور والتقدم . والمعتقدات والتقاليد جامدة متأخرة ، لا تتفق مع تطورات المدنية ، ولا تساير العصر الحديث ، وتبعث فى النفس كثيرا من الرضى والتسليم الذى يقتل التطلع والطموح والنزوع إلى السمو والرفعة والرقى المطرد .

ومن أجل ذلك ينادى هؤلاء النقاد بأعلى صوتهم أن لا سبيل لفلاح هذه الأمة إلا عن طريق التحرر من كل قديم والتوجه شطر الحضارة الغربية ، وتقليد الأمم المتحضرة والنقل عنها فى جميع مرافق الحياة وأساليب المعيشة وطرق المعاملة . هم يدعون إلى ضرورة اقتفاء أثر أوربا وأمريكا فى كل شىء ، فى الأكل والشرب والملبس ، فى الأخلاق الشخصية ، وفى أسلوب الحياة الاجتماعية ، وفى طرق التجارة والصناعة والزراعة ، وفى المعاملات بوجه عام . وبالجملة لتكن مصر قطعة من تلك البلاد الغربية إذا كانت تبغى فلاحا ورقيا . وتريد أن تتبوأ المركز اللائق بها بين الأمم المتحضرة .

فإذا قيل لهؤلاء إن لكل أمة خصائصها وطبائعها ومميزاتها ، وإن ما يلائم بعضها قد لا يلائم البعض ، وإن الأساليب الناجحة هى التى تتفق مع طبائع هذه الأمة ، ومع اتجاهاتها النفسية وأساليبها الفكرية ، وبالجملة مع ما خصها الله به من مواهب واستعدادات . إذا قلت لهم ذلك سخروا منك وضحكوا ، وأنكروا هذا كله ، وقالوا بأن طبيعة البشر واحدة فى كل مكان وزمان ، وأن المسألة مسألة اجتهاد وسعى ورغبة ، لا مسألة استعداد أو خصائص أو تفاوت طبيعى فى القدرات .

وهكذا ترى مغالاة الفريقين ، الدعاة للقديم والدعاة للجديد ، كلاهما ينحى باللائمة ، ويدعو بقوة إلى التطرف فى ناحيته الخاصة التى ينحاز إليها ويدافع عنها بعنف وشدة ، وهذا الأسلوب يكاد يكون طابعا قوميا ، وأعنى به المغالاة فى تصوير العيوب والإغراق فى الانحياز إلى جانب ، والشدة والعنف فى العتب وفى الدعوة إلى الرأى الذى يرتئيه الكاتب أو الناقد ، وهذا الأسلوب كثيرا ما يثير الحفيظة والعناد ويأتى بعكس المراد .

ثم إن هذا الكلام كله يكون فى معظم الأحيان — إن لم يكن كلها — كلاما عاما عائما ، لا تصحبه آراء أو مقترحات إنشائية وإن أجدى منها شىء كان نجحا غير مدروس ، لا يستند إلى دعائم إحصائية ولا نظريات علمية . وإنما هو من قبيل الكلام الارتجالى فقط كالذى يكتبه الصبية بمدارسهم فى كراسات الإنشاء .

وهناك ناحية أخرى يشتد فيها الخلاف ، ويعنف الجدل ، وهى ناحية المسئولية عن الفساد والتدهور والانحلال فى نظر الناقدين جميعا ؛ فمنهم من يلقيها على الحكومات المتعاقبة ، لأنها لا تقوم بما يجب عليها ، ولا تتوخى المصلحة وحدها ، وذلك لأنها تراعى التيارات الحزبية والاعتبارات السياسية ، فيصرفها هذا وذاك إلى تنفيذ أوامر الحزب والجرى وراء مصلحته ، أو إلى تملق الجماهير ، أو إلى العمل على كسب رضى مختلف مناطق النفوذ التى كثيرا ما تتعارض ، فيستنفد ذلك كل جهدها أو معظمه ، ولا يدع لها فرصة الانصراف بكلياتها إلى الإصلاح . بل لعلها تضحى بهذا الإصلاح أحيانا فى سبيل تلك الاعتبارات السالفة الذكر .

وفريق آخر يلقى المسئولية على الشعب نفسه ، ويعتبره العقبة الأساسية والعائق الهم لجميع حركات الإصلاح ؛ فهو لجهله فى نظرهم لا يقدر النظام ولا يفهم التضحية وهما العاملان الأساسيان فى كل إصلاح ، وإنما يهم أفراد هذا الشعب عندهم كل مصلحته الشخصية وحدها ، وينظر دائما إلى كل حركة يراد بها الإصلاح من ناحية منفعته الذاتية ؛ فإذا رآها قد تأثرت أو خيل إليه ذلك ، ثار وهاج وألحى على الوزارة باللائمة واتهم نياتها ، وجرح خططها ، وسرعان ما يحبط ذلك الشعب بهذه الحركات الغاشمة كل مساعى الحكومة فى سبيل الإصلاح الحقيقى .

* * *

والواقع أننا لا نرى فى مثل هذا الجدل ولا فى كل تلك المناقشات وأشباهها أدنى فائدة ، بل قد يكون فيها ضرر ومعظم هذا الضرر وأظهره يعود على سمعتنا كأمة ، أمام من

يقرءون هذه الانتقادات ويستمعون لتلك المناقشات .

ولعل من الخير لنا جميعاً ، ولهذا الوطن الذي نحبه ، أن يكف الكتاب عن النقد اللاذع ، وعن تعمد إظهار العيوب وإشاعتها وتجسيمها ، فإن ذلك قد يزيدها تأصلا إن كانت موجودة ، أو يخلقها في نفوس المواطنين ، عن طريق الإيحاء ، إن كانت غير موجودة ، كما أنه قد يولد عند الشباب شعوراً بالضعف والعجز ، ويحول دون إشعار الشبان بشيء من الاعتزاز بقوميتهم ، متى كانوا يقرءون ليل نهار ، ويستمعون في كل اجتماع وناد أوصافاً شنيعة لا آخر لها لمعايبهم ومعايب مواطنيهم ، فيشيع فيهم ذلك نوعاً من اليأس من صلاح حالهم والاشفاق على سوء مستقبل وطنهم .

وليكن سبيل المصلحين ، أو الداعين إلى الإصلاح ، أن يطلعوا علينا باقتراحاتهم العملية ، لما يصح أن يقوم به المواطنون من مشاريع ، أو ما يجب أن ينتهجه المتمدنون من خطط ، يكون من نتائجها المباشرة أو غير المباشرة ارتفاع في المستوى الفكري ، وتهذيب لأساليب المعاملة ، وتحسين للأخلاق ، وتسام بها ، وبالجملة تحقيق لكل ما يبتغيه دعاة الإصلاح ، دون جرح لإحساس المواطنين ودون إشعارهم بالضعة والنقص .

وحبذا لو شاعت هذه الروح أيضاً في المجتمع ، فلا يستمع الناس إلى أولئك النقاد المبالغين المتشائمين ، ولا يشجعونهم على هذا النحو البغيض من النقد اللاذع المستمر ، ويحلون مكانه نوعاً آخر من الدعاية الرقيقة التي تفيض عطفاً ، والتي تحمل المواطنين على تنفيذ بعض الاقتراحات العملية التي دعوا الكتاب إلى أن يتحدثوا عنها في كتاباتهم ويستهدفوها في نصائحهم .

وخير نصيحة تسدى لدعاة الإصلاح ، بعد أن يكفوا عن ذكر العيوب والتحدث عنها ، أن يكونوا جماعات صغيرة ، على نسق « كتائب الخير » التي دعا إليها من قبل الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، تعمل كل جماعة في الوسط الذي تعيش فيه ، وفي محيطها وبيئتها ، على تنظيم جهود عملية في سبيل إحداث إصلاحات محلية بالتدرج ، وعلى دفعات صغيرة بالعمل لا بالكلام . وإذا دعت الحال في بعض الأحيان إلى بذل النصح فليكن عن طريق إظهار العطف والغض من العيوب ، وكسب من يراد نصحه بالأسلوب الرقيق الذي ينفذ إلى القلب .

بهذه الأساليب العملية ، وبإحلال العمل محل الكلام ، وبمحاولة الإصلاح الفعلي التدريجي ، في جميع الأوساط ، حكومية وأهلية ، وبين جميع الطبقات ، متعلمة وجاهلة ، وبهذه الجهود التي تغزو جميع نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية ، وتعالج طرق معاملات الأفراد ، وتوسيع أفقهم ، وبالمحاولات الجدية في إحياء كل تقليد قديم مثمر ، واقتباس كل جديد نافع .

بتلك الأعمال كلها وبها وحدها ، مع الكف عن النقد الكلامي ، يحق لنا أن نؤمل في إحداث إصلاحات تدريجية شاملة ، يكون لها أعمق الأثر ، وأحسن النتائج ، ويندمج فيها جميع الأفراد على اختلاف طبقاتهم دون أن يشعروا ، ويتكاتف كلهم في تنفيذها دون أن يتحاوروا أو يتجادلوا ، فإذا بالعيوب تتلاشى بالتدرج ، وتظهر مكانها المحامد والمحاسن ، وإذا بالألسنة تنطلق بالاستحسان ، والوجوه تفيض بالبشر ، والقلوب ترضى وتطمئن ، والله الموفق الهادي .

أحمد عبد السلام الكرداني

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث:

خير الدين باشا التونسي

— ٤ —

بعد أن ترك خير الدين الوزارة وتخلى من الكفاح وانصرف إلى التأليف خلا الجو لمصطفى خزنه دار ، يثقل كاهل الشعب بمظالمه ومغارمه . والباي محمد الصادق باشا الذي تولى سنة ١٢٧٦ ، رجل لين سهل ناعم لا يحب أن يواجه صعوبة ولا يسمع بمشكلة ، يسلم الأمور لوزيره ولا يسأله عما يفعل ، ولا يهمه منه إلا أن يواليه بالمال الكثير الذي يصرفه في ترفه . والمجلس النيابي الذي أنشىء وجد فيه مصطفى خزنه دار عائقاً لتصرفاته واستبداده ، فألغاه وألغى كل ما تبعه من نظم ، وعادت الأمور إلى مجراها الأول ، واسترد الوزير حريته في فرض الضرائب وطرق تحصيلها .

ومازال مصطفى خزنه دار يستنزف موارد البلاد حتى نضب معينها فاتجه إلى أوربا يستدين منها . وفي أقل من سبع سنوات بلغ الدين (١٥٠ مليون فرنك) .

ووقعت البلاد في شر محنة ؛ فمن ناحية نال الشعب من ضرائب تضاعفت ، بل بلغت في بعض الأحيان ثلاثة أمثالها ، إلى جور وفساد في التحصيل والتوزيع أسلم إلى الافلاس ، حتى بلغ الحال آخر الأمر أن لم يكن في خزانة الدولة مرتبات أسرة الباي ولا مرتبات الموظفين ورجال الجيش ولا فوائد الديون ، وحتى اضطر أوساط الناس إلى اخراج نسائهم لجمع العشب وعروق الأشجار للاقتيات بها . ومن كان عنده قليل من المال أخفاه حتى لا يصادر وتظاهر بالفقر وكان يغلي القمح في الماء لئلا من غير طحن حتى لايتهم بالرخاء ، وفشا المرض والموت إلى أفظع حد . ومن ناحية أخرى تدخلت الدول الأوربية تريد المحافظة على ديونها . واقترحت فرنسا تشكيل لجنة مالية وافقتها انجلترا وإيطاليا ، وصدر مرسوم من الباي سنة ١٢٨٦ بتشكيلها من فرنسيين وانجليز وإيطاليين رأسها موظف تونسي ، وجعلت مهمتها توحيد الدين وتحديد الفوائد وإدارة المرافق التي خصصت لهذا الدين .

وهكذا كانت رواية واحدة مثلت مرة في مصر ومرة في تونس لم يختلف فيها إلا أشخاص الممثلين .

عند ذلك اتجه الباي إلى خير الدين يطلب منه أن يرأس هذه اللجنة فاعتذر، فألح عليه حتى قبل ، وحمل مهمة شاقة في الداخل والخارج ، ومنح لقب وزير . ومن الغريب أن الباي احتفظ بمنصب الوزير الأول لمصطفى خزنه دار ، الذي أسلم البلاد للدمار ! وليس لهذا سبب إلا ضعف الباي وشلله أمامه كا يشل العصفور أمام الثعبان .

واجه خير الدين مشاكل من أعسر الأمور ؛ فاللجنة المالية المختلطة تريد أن تضع يدها على كل شيء في الدولة ، لأن كل شيء متصل بالمال ، حتى المعلم في المدرسة والحكم في المحكمة ، ولو فعلت لأضاعت استقلال البلاد بتاتاً .

ومشكلة ثانية هي كيف ينقذ هذا الشعب بعد ما احترق بالجوع والفقر والمرض وفقدان الثقة بالحكومة .

ومشكلة ثالثة وهي بقاء مصطفى خزنه دار رئيساً للوزارة ، وهو الشره في المال كشرهه في حب السلطة والجاه - ومن ذاق لذة ذلك لم يتنح عنها اختياراً ، وهو بطبيعته وتاريخه عدو كل إصلاح ، غيور ممن يشاركه جاهه .

فأما المشكلة الأولى فاستطاع خير الدين — بالمفاوضات الطويلة مع اللجنة ، ومع الدول — أن يحصر دائرة نفوذها في موارد محدودة وأن ينظم ميزانية الدولة ويضمن للدائنين دفع الفوائد في حينها ، إلى غير ذلك من وسائل تعهد بها ونفذها في ضبط وأمانة .

وأما المشكلة الثانية فقد رأى كثرة الضرائب قد أضاعت الزراعة وجعلت البلاد خراباً . ولم يزرع الناس إذا كان نتاج زرعهم ليس لهم وكان زارعهم وغير زارعهم يستويان في الفقر ؟ فخفف من الضرائب ، ونظم طرق

تحصيلها ، وأخذ بالشدة من تلاعب فيها ، وشجع غرس الزيتون والنخيل ، فأعفى كل من غرس منهما جديداً من الضرائب عليها مدة عشرين عاماً ، وأرجع من فر من الأهالي لكثرة مطالب الحكومة ، وأسقط ما عليهم ، وأمر بالنظر في شكايات من نكب من الناس على يد الحكومة السابقة ورد ظلاماتهم ، ووضع صندوقاً كبيراً في ميدان تونس يضع فيه كل متظلم ظلامته وأعفاه من التصريح باسمه ، وجعل مفتاح الصندوق معه ، هو الذي يفتحه بنفسه ، وهو الذي يقرأ الظلامات ويوقع عليها بما يراه من تحقيق العدل .

وأما المشكلة الثالثة فقد ظل في نزال مع مصطفى خزندار حتى زادت مظالمه وانكشفت وألح الناس بوجوب عزله وسقط سقطة ضبطتها اللجنة المالية فعزل من منصبه سنة ١٢٩٠ ، وأقام الناس لذلك من الزينات والأفراح في جميع بلدان القطر مالم يسمع بمثله ، وأصدر خير الدين قراراً عجا كتبه على ما أخذ به تحت حكمه . والتزم بدفع خمسة وعشرين مليون فرنك .

وبذلك ختمت حياة مصطفى خزنه دار السياسية ، وهي حياة تعد مأساة الأمة ، من ناحية موت الضمير لرجل وكلت إليه شئون البلاد في أوقات حرجة مليئة بالمطامع الدولية ، ومن ناحية خنوع الشعب لهذا الرجل ومظالمه مدة تزيد على ثلاثين عاما ، من غير أن يكون هناك رأى عام يزلزله وينحيه ، وقوة الاحتمال في مثل هذه الأحوال رذيلة من أكبر ما تمنى به الشعوب .

من ذلك الحين كان خير الدين هو الوزير الأول ، أطلقت يده فيما يرى من إصلاح ولا يغل يده إلا مطامع الدول .

تولى إصلاح القطر من جميع نواحيه ، السياسية والزراعية والتعليمية والاقتصادية والمالية والادارية والقضائية .

فسلك مع قناصل الدول مسلكا حازما صريحا ، يصغى إلى طلباتهم المعقولة ويرفض غير المعقولة ، مع ذكر الأسباب المفصلة للرفض ، فلا يداهن ولا يرائى ، ولذلك احترموه ولو خالفوه ، وقد يضمون العقبات في سبيله باطنا ولكنهم يجاملونه ظاهراً .

وقسم الأراضي الزراعية إلى مناطق ، وتحرى اختيار الأمناء لجلب الضرائب . ومن سهل عليه دفع الضريبة نقدا فعل ، أو محصولا فعل ، ونكل بمن ثبتت عليه الخيانة من الجباة ، ونظم العلاقات بين الملاك والزارعين وبين الملاك والحكومة . وألغى الضرائب غير المعقولة وغير المستطاعة ، وأبطل الحملات العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة ، لأنها كثيراً ما كانت تؤول إلى أعمال السلب والنهب ، فعادت للناس طمأنينتهم ، وعاد للحكومة هيبتها واحترامها ، وانصرف الناس إلى الزراعة بعد أن كانوا ينصرفون عنها . ولما ترك الحكم كانت مساحة الأرض المستغلة مليون هكتار ، وكانت حين تسلم زمام الحكم ستين ألفا .

وفي التعليم أنشأ مدرسة عصرية تعلم فيها العلوم العربية والشرعية ، وبجانبها الثقافة العصرية مع تعلم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية ، وأصلح التعليم بجامع الزيتونة ، وجمع الكتب المبعثرة في المساجد ، وكون بها مكتبة كبيرة ، ووهب لها من عنده ألفا ومائة كتاب مخطوط ، ونظمها نظاما حديثا ، وحسن مطبعة الدولة ووكل إليها نشر الكتب العلمية والأدبية ، وأصلح إدارة « الرائد التونسي » وهي الصحيفة الرسمية للحكومة ، وشجع على نشر المقالات فيها ، وكان ينشر فيها أفكاره السياسية ، وألزم الموظفين بقراءتها ، والتفت إلى الناحية الاقتصادية ، فنظم الجمرك ورفع ضريبة الاستيراد ٥ ٪ وخفض ضريبة الإصدار ، وأنشأ المخافر الجمركية لمنع التهريب . ونظم الوظائف الحكومية وعين مرتباتها كما حدد مرتبات القصر ، ووضع ميزانية الدولة على أساس صحيح ، وضبط المكاتبات في الدواوين ، وأنشأ السجلات للصادر والوارد ورتبها حتى يسهل الرجوع إليها .

وجد في إحياء الصناعات القومية كالنقش على الجبس والقباب . وكان يأتي بمهرة الصناع من البلاد ، ويعهد إليهم بتعليم طائفة من الشبان .

ونظم الأوقاف وكانت فوضى فى البيع والشراء، وصرف الريع وآلت أعيانها إلى الخراب ، فجمعها فى إدارة واحدة ، وجعل عليها السيد محمد بيرم ومعه مجلس يعينه فى تنظيمها .

ونظر فرأى الناحية التشريعية والقضائية فى البلاد مضطربة ، والأجانب لا يخضعون لقانون البلاد ، وليس من السهل إقناعهم بالخضوع ، إذ ليس فى البلاد قانون ، فكان لكل من المذهب الحنفى والملكى قاض مطلق الحكم فى الحوادث ، وقد يحدث أن الحادثين المتشابهين يقضى فيهما قضاءان مختلفان . ومن المبادئ التى يدين بها الأجانب أن تكون القوانين معروفة قبل الأحداث ، ليست مجالا للاجتهاد ولا التلاعب ، فعهد خير الدين إلى إخصائيين بدراسة القوانين المعمول بها فى الدولة العثمانية وفى مصر وفى أوربا ، وأن يستخرجوا منها قانوناً يناسب القطر التونسى ، واستمرت اللجنة فى عملها ولكن خرج الوزير من الوزارة قبل أن يتم .

وهكذا نقل البلاد من حالة كرب وضيق وظلم وفوضى إلى حالة أمن ورخاء وضبط ونظام ورقى فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وكأنه بذلك كان يستملى نهضة مصر فيدخلها معدلة فى بلاده .

أما المشاكل الدولية التى كانت أمامه فمعقدة متشابكة ملتوية : فرنسا تنظر إلى تونس نظرة الصائد نشر شبكته ، تحاول أن تجد من كل حادثة منفذا لتدخلها ، فإذا لم تجد الحادثة خلقتها خلقا ، وتدعى أن لها الحق فيما لها فيه حق وما ليس لها فيه حق ، وتصطنع الرجال وتعدهم المناصب الكبيرة حتى منصب الباى ، إذا هم أعانوها وأفسحوا الطريق أمامها لبسط حمايتها .

وإيطاليا ليست أقل من فرنسا مطمعا . ولما حدثت الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٧١ م ، وخرجت منها فرنسا مهزومة اشتدت مطامع إيطاليا ، وجدت فى سعيها لتوسيع نفوذها ، فكانت تونس مسرحا لتسابق الدولتين ، كل تدبر دسائسها ، وكل تشترى ذمم أنصارها ، وكل توعز إلى جرائدها بما يتفق ومصلحتها .

وسط هذه المطامع والنذر بالخطر رأى خير الدين أن يضرب الدولتين بعضهما ببعض ، وأن يقوى الصلة بين تونس والدولة العثمانية ، لأن تونس لا تستطيع القيام بنفسها ، فرسم خطة توثيق الصلات وتحديد العلاقات بينهما ، وكانت علاقات غامضة غير محدودة ، فسعى سعيا متواصلا ، وخاطب الباب العالى فى هذا الشأن وشرح له وجهة نظره ، فأجيب إلى طلبه . وطلب الباب العالى إرسال مندوب إلى استانبول للمفاوضة فى هذا الأمر ، فوقع الاختيار على خير الدين نفسه ، فسافر وفاوض ونجح فى استصدار فرمان يحدد هذه العلاقة ، ويقرر أن تونس إيالة عثمانية ولواليها الحق فى تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية لمن يكون أهلا لها ، وفى العزل عنها بمقتضى قوانين العدل وفى إجراء المعاملات المعتادة مع الدول الأجنبية ، ما عدا الأمور السياسية التى تمس حقوق الدولة العثمانية ، كأصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ، كما تتضمن إقرار الوراثة فى العائلة الحاكمة ، مع المحافظة على الخطبة للسلطان وضرب السكة باسمه ، وإجراء الأمور الداخلية فى البلاد على قوانين الشرع ومراعاة قواعد العدل التى يقتضيها الوقت والحال ، والتى تؤمن الناس فى النفس والعرض والمال . وقد صدر هذا الفرمان سنة ١٢٨٨ ، واستقبله الأهالى بالسرور .

وأخذ الباب العالى على عاتقه السعى فى موافقة الدول عليه ، ولكن مشاكله واضطراب أموره الداخلية والخارجية حالا دون إتمامه ، وأبت فرنسا الموافقة عليه لأنه يعوقها عما تنويه لتونس .

هذه خطة خير الدين . إصلاح فى الداخل فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، وإصلاح فى الخارج بربط البلاد بالدولة العثمانية ربطاً وثيقا يناهض به أطماع فرنسا وإيطاليا . ولكن عودنا التاريخ ألا يأتى مصلح بمثل ما أتى به خير الدين إلا أوذى . (يتبع)

أحمد أمين

إلى من بلزم من المراجع العليا:

الرحمة!!

كنت في شبابي أشعر بالأنفة الشديدة من أن أكون موضعاً لرحمة أحد من عباد الله. ولكني اليوم لا أشعر بالأنفة إذا وجدت رحمة أضعف الخلق تتجه إلى. أليس هذا نوعا من الضعف دب إلى في الكبر؟ لا أدري.

والرحمة بغير شك صفة الإنسان في أسمى مظاهر الإنسانية. وهي مثل قطر السماء إذ يهبط على الأرض فيحيي مواتها. وهي سر من أعمق أسرار الحياة وألطفها؛ فلولا الرحمة لم يعش الطفل الصغير الضعيف الذي لا يقوى على السعي في طلب القوت ولا يملك لنفسه نفعا ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه عادية العوادي. لولا الرحمة لم يبق ضعيف على الأرض ولم يبق من بعد ذلك بشر في الحياة. وليس يميز الأمم بعضها من بعض في مراقي الإنسانية سوى الرحمة. فالأمم الصالحة المتمدنة هي التي تعرف في معاملاتها الرحمة وتجعلها كما قيل فوق القانون. فالقانون حرف قد يساعد الظالم وقد يعين القوي على طغيانه، ولكن الرحمة من صفات الإله العادل. فالرحمة الرحمة يا أيها المراجع العليا! الرحمة الرحمة يا من في أيديكم مصادر الأمور ومواردها!

قد اتجه الفكر الحديث اتجاها جديدا في وظيفة الدولة يكاد يكون مخالفا للاتجاه القديم الذي اتجهت الدول نحوه من قبل. فالدول كانت إلى عهد قريب لا ترى من واجبها أن تجعل الفرد سعيدا؛ لم تكن ترى أن واجبها يحتم عليها أن يكون كل فرد من ملايين شعبها سعيدا، وكانت تؤمن بأن أسلم سياسة لها هي ترك الأمور تجرى في مجراها. وكان علماء الاقتصاد يساعدون الدول على ذلك الاتجاه، لأنهم كانوا يزعمون لها أن أمور الناس تعتدل من تلقاء نفسها إذا هي تركت أمورهم حرة من كل قيد، وإذا هي لم تتدخل في شئون الأفراد ولا في معاملاتهم. ولهذا كانت سياسة الدول تجرى على مذهب كان مسلما به في القرون الخالية،

لا يكاد أحد يجادل فيه، وهو أن تترك الأفراد أحرارا يسعى كل منهم إلى تحقيق مصلحته كما شاء وكما استطاع. وكان الاقتصاديون يزعمون أن سعي الأفراد إلى مصالحهم سوف يؤدي حتما إلى تحقيق مصالح المجتمع كله وسوف يوفر السعادة للناس جميعا بعد حين من الزمان.

ولكن ماذا أدى إليه هذا الانطلاق؟ لست أجيب على هذا، لأن أحوال العالم نفسها تستطيع أن تجيب. هذه هي الأمم، وهؤلاء هم أفراد الأمم. فلننظر هل تحققت السعادة للأمم أو الأفراد.

إن ترك الأفراد أحرارا في معاملاتهم بغير تدخل قد أطلق العنان للمنافسة العنيفة التي لا تعرف الحدود، مع أن المجتمع لا يقوم إلا على التضامن. والمجتمع لا يلبث أن ينفرط عقده وتتقوض أركانه وتتمزق أوصاله إذا انعدم فيه التضامن وحل محله التنافس. والتنافس المطلق لا يليق إلا أن يكون قانونا للغابة. فهناك تتنافس الوحوش فيما بينها، فما استطاع منها أن يفترس افترس، وما استطاع منها أن يهرب هرب، وما لم يستطع افتراسا ولا هربا كان ضحية فريسة، هذا قانون الغابة. ولكن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يحيا على قوانين الغابات.

إذاً فالمجتمع في حاجة إلى التضامن والتضامن يقتضي العدل ويقتضي الرحمة. بل إن العدل لا يمكن أن يسمى عدلا إلا إذا كان أساسه الرحمة. وهذا كلام عام شبيه بموضوعات الإنشاء بغير شك. وإني شديد الأسف لأني اضطررت إلى كتابته لكي أطلب الرحمة من المراجع العليا. فقد أصبح المجتمع اليوم عرضة لعنف من نوع عجيب، وهو عنف الأوراق المالية. والعنف قد يقع بالسيف وقد يقع بالنبوت وقد يقع بقبضة اليد، وقد يقع كذلك بالأوراق المالية. تكاثرت الأوراق المالية من فئة الجنيه والخمسة جنيهات والعشرة جنيهات وما فوق ذلك من الأوراق التي لا أعرفها. وأصبحت هذه الأوراق في أيدي كل من استطاع أن يختطف خطفة من هنا أو يخبط خبطة هناك. فمثلا إذا استطاع رجل جاهل غير مثقف غليظ القلب لا يعرف قلبه الرحمة

ولا سواها من المعالى السامية ، إذا استطاع رجل مثل هذا أن يفوز بتعهد حمل القمامة من أحد معسكرات الجنود المتحالفة الموجودة بمصر ، إذا استطاع ذلك الرجل أن يظفر بمثل هذا التعهد بطريقة من الطرق ، تمكن بعد وقت قصير من أن يعثر في تلك القمامة على كنز ذهبي عظيم . ولست أدرى كيف يعثر هؤلاء المحظوظون على الكنوز الذهبية في أكوام قمامة المعسكرات . ولكن هذا هو مايحدث فعلا ، فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يصبح متعهد القمامة عظيما من العظماء وعينا من الأعيان الوجهاء . ولست أريد بهذا أن أبحث في الطرق التي يتمكن بها الناس من أخذ تعهد حمل القمامة من المعسكرات ، فأنا أجهل الناس بها وأقلهم صلاحا لها . ولكن قصدى الأوحد أن أبين أن الكثيرين من غلاظ الأكباد قد فازوا بتعهد حمل قمامة المعسكرات وأمثال ذلك من الأعمال ، وصاروا اليوم سادة أثرياء يلعبون بأوراق البنوك ويشترون على الأرض الشيكات والصكوك ؛ فبعضهم كان يبيع الفراريج ، وبعضهم كان يبيع السمك وبعضهم كان حدادا أو نجارا ، وبعضهم كان لا شيء من ذلك ولا أدرى ماذا كان ؛ ولكنهم عثروا جميعا على الكنوز الذهبية بفضل سر لا أعرفه ولا أقدر على أن أصفه ، فإذا بهم جميعا اليوم قد صاروا سادة السادات في كل البلاد . ولست أقصد بهذا أن أقلل من قيمة باعة الفراريج فإن فضلهم عظيم على الجميع ، ولا أن أسيء إلى كرامة باعة الأسماك فإنهم كانوا من قبل إخوانى في الحقوق والواجبات . فلست أقصد إلا أن أقول إنهم قد صاروا اليوم سادة جبارين في الأرض ، يملكون في أيديهم سلاحا عظيما لم نكن من قبل نحس وخزا مثل وخزه ولا وقع حد مثل حده ، لأن الناس كانوا من قبل إذا ملكوا الأموال تكلفوا التجمل ، وإذا أصابوا الغنى جاهدوا أنفسهم بالتواضع . وكان الأغنياء من قبل يحرصون على أن يكونوا أصحاب ثقافة وفضل ، ولهذا كانوا يحسون الرحمة في قلوبهم ، ويظهرون التلطف في معاملاتهم . وأما اليوم فهؤلاء السادة الحديثون قد أحبوا أن يشعروا الناس مقدار سطوتهم وسلطانهم ، فنزلوا بأموالهم إلى الأسواق يجردونها وانهالوا على العقارات فبذلوا فيها الألوف من الأوراق حتى حازوها ، وقصدوا إلى المنازل القديمة فلم يصعب عليهم أن يملكوها . ومن عجيب أمرهم أنهم أرادوا أن يغيروا مظاهر حياتهم الأولى سريعا لكى يظهروا بما يليق بأموالهم من الأبهة ، فرأوا أسهل الطرق إلى استئجار المنازل المناسبة لهم أن يشتروا ما يعجبهم منها ثم يعمدوا إلى الحاكم العسكرى فيطلبوا منه صكاً بإخلائها لكي يسكنوا فيها . وقد أعطاهم القانون العسكرى حق السكنى في المنازل التى يملكونها ، وأباح لهم أن يشردوا سكانها ويقذفوا بمن فيها وما فيها إلى عرض الطريق ، لكي تخلو لهم فيحلوا فيها على الرحب والسعة ويتمتعوا ببيوتها وشمسها وحدائقها ورونقها ، لأنهم أصبحوا تجار فراريج ولا باعة أسماك ، بل صاروا أعيانا من الوجهاء الذين يحل لهم انتهاب كل مباح .

فأنا أطلب الرحمة من أولى الأمر لى ولأمثالى من المساكين الذين يستحقون الرحمة ، فقد غلت الأسعار حتى صارت تبلغ ٤٠٠ ٪ أو أكثر ، ومع ذلك فرزقنا باق على حاله كما كان . والجنيه قد صار مثل الريال ، والمائة من الجنيهات قد أصبحت لا تزيد في قيمتها على خمسة وعشرين ، على حين تكاثرت الواجبات وثقلت الأعباء ، ولم نوفق إلى باب من أبواب الرزق الحلال من تجارة في قمامة أو تعهد بتوريد خضر أو فاكهة .

وقد بعت وباع أمثالى ما استطعنا بيعه مما كنا نملك ، وعرضنا ما بقى للبيع لعل بعض السادة من أصحاب البنكنوت يبذل فيه من أوراقه ما يعيننا على مقابلة الحياة . فهل لى أن أجد أنا وأمثالى الرحمة من باب من الأبواب ؟ هناك طريقان للرحمة أعرضهما على المراجع العليا : فإما أن تحمينا من أغنياء الحرب ، وهذا ممكن بطريقة سهلة ، وهى أن تجردهم من السلاح ، ذلك السلاح الورق الفتاك . فإذا هى لم تستطع ذلك فلا أقل من أن تطبع بضعة ملايين أخرى من تلك الأوراق وتوزعها على وعلى أمثالى من المساكين بالمجان ، لتكون في أيدينا سلاحا ندفع به عن أنفسنا شر العدوان .

محمد فريد أبو حديد

السعال الديكى

أسموه إلى عالم الفراخ والديكة لأن الشهقة التى تعقب نوبة السعال تذكر سامعها بديك واقف على ربوة غير عالية يرسل الصيحة تلو الأخرى ، وكأنه ينادى من حوله قائلا هل من منازل هل من مبارز . والفرق بين الديك والطفل أن الأول يرسل الصيحة وهو فى قمة الغرور والشعور بالتفوق ، بينما يرسلها الطفل وهو منهك ذليل لا يكاد يقوى حتى على الوقوف من فرط ما سعل . والديك قد يستدعى الإعجاب برأسه الصغير الذى يرفعه إلى أعلى متحديا السماء ، وعرفه الأحمر القانى الذى يكاد ينفجر . أما الطفل فإنه يبعث فيمن حوله شعور ألم وإشفاق وهو يطأطىء رأسه محدقا بعينيه فى الأرض الطينية التى يقف عليها ، والتى تبعث فيه وهو يدب عليها بقدميه الصغيرتين شعور الأمان بأن روحه لم تزهق بعد ، فيسرع متعثرا إلى أقرب إنسان أو جماد ليمسك به فى استغاثة مؤلمة عساه أن يأخذ بيده إلى بر السلامة ويعينه على بلواه .

والسعال الديكى لا يرحم كبيراً ولا صغيراً ، ولكنه قاهر جبار فى ميدان الطفولة حيث الفريسة سهلة تستسلم دون مقاومة ، وهو أكثر ما يحدث بين السنة الأولى والخامسة من العمر ، ولو أنه قد يصيب الطفل الوليد ، وكثيراً ما شاهدنا أطفالا لا تتجاوز أعمارهم أسبوعين يسعلون ويشهقون حتى تكاد تزهق أرواحهم .

وتنتقل العدوى فى هذا المرض بوساطة الرذاذ الذى يتطاير من الفم والأنف أثناء السعال ، وتكون العدوى على أشدها بين أفراد المنزل الواحد لأنه وجد أن جرثومة المرض تعلق بالفريسة الجديدة — أى المخالط السليم — بنسبة ٨٠ إلى ٩٠٪ إذا كانت المسافة بين المريض والسليم أثناء السعال أقل من مترين . أما فى المدارس والملاجىء فنسبة العدوى حوالى ٣٠٪ . وكلما كان المريض فى الهواء الطلق قلت قابلية الأطفال الذين يلعبون حوله للعدوى . ويحدث فى حالات نادرة أن تنتقل الجرثومة بوساطة الهواء مثلا من شقة إلى أخرى فى العمارة الواحدة أو من منزل إلى آخر فى نفس المنطقة .

وتبدأ العدوى بالمرض من أيامه الأولى ، بل هى على أشدها فى دور الرشح الذى يسبق ظهور الشهيق . ويمكن تشخيص المرض فى هذا الدور بأخذ مزرعة من الرذاذ المتطاير أثناء السعال ، وذلك بوضع المزرعة أمام فم الطفل وهو يسعل ، ثم تفحص بكتريولوجيا . وقد أثبت البحث أن الجراثيم أكثر ما تكون فى الأسبوعين الأولين من المرض ثم تقل تدريجياً وتختفى تماما فى العادة فى نهاية الأسبوع الرابع ، إلا أنها قد تبقى حتى الأسبوع السابع أو الثامن . وقد يستمر السعال والشهيق مدة أطول من هذا بكثير ، ولكن ليس هذا دليلا على أن الطفل لا زال مصدر عدوى لمن حوله ؛ فإذا أدركنا هذه النقطة فهمنا كيف يرسل الطفل إلى المدرسة دون قصد فى أيام الرشح الأولى فينتشر العدوى بين أقرانه ويكون أشد خطراً على من حوله منه فى الأسابيع الأخيرة من المرض ، حين يعلو الشهيق ويخيل للجميع أن هذا الصخب والضجيج دليل شدة احتمال العدوى .

ويحدث أن يتم الشفاء ، ثم يصيب الطفل برد بسيط خلال بضعة الأسابيع التالية فيرجع السعال الديكى كعادة لا كمرض ، وكأن أعصاب الطفل قد طغت عليها « عادة » الشهيق عند السعال ، فيجب أن يمضى وقت طويل قبل أن ينساها الطفل . وأذكر هنا لأطمئن الوالدين حتى لا يظنا أن ما بطفلهما نكسة ، وهو فى الواقع عود إلى عادة قديمة . والواقع أن الإصابة بالمرض تعطى مناعة دائمة طول الحياة ، ويندر جداً أن يصاب الطفل به مرة ثانية .

وتظهر أعراض المرض عادة بين اليوم الخامس والعاشر من تعرض الطفل للعدوى ، وقد تطول مدة الحضانة إلى ستة عشر يوما ، وقد تقصر في بعض الحالات إلى ثلاثة أيام ، وتكون الأعراض في أول الأمر على شكل برد بسيط لا يلفت النظر ولا يثير بالشك في طبيعته ، حتى إذا ما جاء اليوم الخامس أو السادس يزداد السعال ، شدة ويكثر حدوثه أثناء الليل لدرجة تقلق نوم الطفل ، ويأتي على شكل نوبات يزرق في أثنائها وجه الطفل وتنتهي عادة بالقيء ، ثم يظهر الشهيق بعد أيام قلائل ، ولو أن هذا ليس دائم الحدوث ، وخاصة في السنة الأولى من العمر .

وإن منظر الطفل عند ما ينتابه السعال لمؤلم حقاً ، فهو يجرى نحو والدته أو مربيته ويتعلق بها طالبا الغوث ، أو قد يمسك بكرسي قريب ويستند إليه ثم يسعل في سلسلة متصلة قد تصل إلى خمس عشرة عداً ، وفي سرعة عجيبة لا تمكنه من أن يتنفس ، فيزرق وجهه وتنتفخ منه أوردة الرقبة وتدمع عيناه وهما تكادان تخرجان من مآقيهما ، ثم يعقب كل هذا شهيق عال يشبهه العامة بصياح الديك ، وقد يشهق الطفل في النوبة الواحدة ما يزيد على ست مرات ، ثم تنتهي الرواية القصيرة المؤلمة بأن يتقايأ الطفل مخاطاً لزجاً ويرتمي على أول مقعد وهو منهك لا يكاد يقوى على الوقوف .

ويتفاوت عدد النوبات من خمس إلى خمسين في اليوم الواحد ، وأكثر ما يهيج السعال جرعة باردة أو تيار هواء بارد أو القيام بأي مجهود كالجري مثلا ، أو الانفعالات النفسية كالبكاء والضحك ، أو دخان السجائر . وكثيراً ما يكون التقليد باعثاً على إثارة السعال كأن يسمع طفل مريض بالسعال الديكي طفلا آخر يسعل أمامه أو على مسمع منه . وتكون النوبات في الليل أكثر منها في النهار وفي غرفة مقفلة أكثر منها في الهواء الطلق .

وهناك حالات متوسطة الشدة لا يسمع فيها الشهيق الذي يتميز به مرض السعال الديكي ، ولكن يمكن تشخيصها عما نلاحظه من شدة السعال واستمراره حتى يخرج الإفراز المخاطي اللزج ، والقيء في معظم الحالات ، وتورم الجفون وانهمار الدمع من العينين . وكثيراً ما نرى أطفالا يسعلون لدرجة الاختناق ومع هذا لا يسمع لهم شهيق . ويحدث أحياناً أن يصاب المريض بالتهاب رئوي حاد فتقل النوبات مؤقتاً حتى يشفى الطفل من الالتهاب وعندها تعود أشد مما كانت .

ومما لاشك فيه أن هناك حالات خفيفة تكاد لا تفرق من النزلة الشعبية العادية ، ومما يسهل على الطبيب تشخيصها حدوثها في حالات انتشار السعال على هيئة وباء ، فبينما هناك طفل يسعل ويشهق حتى يوقظ الأهل والجيران ، إذا بآخر لا تظهر عليه أكثر من علامات البرد العادي .

وينتج من شدة السعال نزيف من الأنف أو العين أو الشعب فيتلون البصاق بالدم ، ويظهر نزيف تحت ملتحمة العين ، مما يسبب انزعاجا لأهل المريض ، وقد يتسرب الدم من الأذنين ، وقد يكون النزيف من أوعية المخ ، وهذا الأخير خطير جداً بطبيعة الحال ، وهو — لحسن الحظ — نادر الحدوث .

ومن مضاعفات السعال الديكي التهابات الأذن والالتهاب الرئوي ، وقد يتأثر الجهاز العصبي كذلك فتنتاب الطفل تشنجات قد تعقبها الوفاة إذا كانت ناجمة عن نزيف في المخ ، أما ما عدا ذلك فإنها تنتهي بسلام .

ويستمر السعال من ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر ، يخف بعدها تدريجيا في حوالي ثلاثة أسابيع . ولا يسمح للطفل بالعودة إلى مدرسته قبل مضي ستة أسابيع من ابتداء المرض .

أما علاج السعال الديكي فمن أهم عناصره تعريض الطفل للشمس والهواء النقي وإعطاؤه المسكنات التي قد تفلح في الإقلال من عدد النوبات ، وقد يستفيد الطفل

فلسفة المجتمع :

الصراصير ... !

— ١ —

قال لى صاحبي ليعلم ماتى . مالك كأن أمراً ذا بال استقل بك عن دنيا الناس ؟ قلت : صدقت فراستك ياصاحبي على ندرة ما تصدق ، فقد انفجرت الهوة بينى وبين دنيا الناس وأصبحت مشغولا بتوافه المخلوقات فى دنيا الصراصير .. وهذه الطائفة من هوام الأرض هينة ضئيلة الخطر ؛ لأنها تألف بإملاءطيمها عليها ، ودفع تكوينها لها (الجدار) المتداعى من (بيتك) الذى يريد أن ينقض وتريد أنت أن تقيمه فلا تريدك هذه (الصراصير) بقاء أو سلامة ، هى جادة فى عبثها وأنت جاد فى حذرك منها والهزيمة على اليائس منكما .

ومن فلسفة الحياة أحيانا أن تقذف (السوس) فى لفائف العود الباكر فاما أن ينقصف أو يستطيل على الريح

ومن فلسفتها كذلك أن تحزم عزمة الضارى الكاسر وتشد وثاقه وتطلق عليه (الفيران) تلتطم بجبهته وتتساقط حوالها . ولن تظفر بعد ذلك منه بغير تثاؤب طويل ؛

أعود بك ياصاحبي لقصة الصراصير . . . فهى فى فلسفتها ليست بأقل شأناً من فلسفة (السوس) مع العود الباكر أو جماعة (الفيران) مع الضارى الكاسر . وما إخالك تستريح للاسترسال فى اكتناه اسرار هذا الفريق الآخر من فلاسفة المجتمع .

أعود فأقول لك إنك إن يئست من اتقاء شر هذه (الحشرات) فأنت مقدم بذلك كافة جدران بيتك هدية لفتكها وعملها الخبيث .

هى مولعة أن تأكل اللبنات الطينية ، فان لم تجد جدارا تقوى عليه انقلبت بعدو بعضها على بعض فتأكل وتفنى ، والموقف منها ذو حيلتين : إما أن تقيم معها على الضيم الرخيص وفى ذلك اعتراف بها وتقويم لوجودها ، وفيه أخيرا تشجيع لها لتمضى على سنتها التى درجت عليها من الاختلاف إلى كل جدار تتكاثر فى قاعدته ثم تتسرب جماعاتها فى تجاليدها المظلمة تسكد وتجهد ، حتى يتطامن الجدار ويصبح كله قاعدة . . . فاذا البيت لا يصلح إلا لهذه الصراصير . وحيلتك الثانية معها أن تنزح وتتركها فى الزوايا المظلمة تعبث وتلهو ، وتجنب نفسك بذلك فضل إحساسها بشعورك بها . فانتفض صاحبي قائلا : أو ترضى يا أخى أن تهزم وتنتصر الصراصير ؟ ! — قلت . . هى على كلتا الحالتين منتصرة طالما تعوز رب البيت وسائل التطهير

ثم أنسيت أنت قول الرجل العربى : خير لنا أن تغلبنا قضاعة من أن تغلب قضاعة ؟ قال : وما قصة قضاعة هذه ؟ قلت : هى قصة تلخص فلسفة مجتمع مضى كان صريحا واضحا ... تربى فى كنف فلاسفة الرجال ، ولم يتلق تعاليمه ونظمه الاجتماعية من فلاسفة الصراصير ، تلك الطائفة الحائرة الحيرة . . . فاطمأن صاحبي فى جلسته وأخذ يفرك جبهته بأنامله قائلا : بدأت أفهمها أخى — فقلت : وأنا بدأت أفكر فى ادخارك لحديث آخر يكون كله مفهوما . أعرض لك فيه صوراً ناصعة لطراز آخر من فلاسفة المجتمع الحديث .

احمد عبد الحميد الغزالى

كثيراً من تغيير الهواء . أما الطعم « أى الفاكسين » فقد يفيد علاجيا إذا أعطى مبكراً ، ولو أن هناك من يشكك فى مفعوله ، وخاصة المدرسة الأمريكية . أما المدرستان الانجليزية والأوربية فتعتقدان أن الطعم فوائد لاشك فيها من حيث الوقاية والعلاج ، وخاصة إذا حقن فى بداية المرض قبل ظهور الشهيق . وإذا أصيب الطفل المخالط رغم حقن « الفاكسين » فإن الأعراض تكون غير شديدة والنوبات قليلة .

دكتور مصطفى الديرى

الخرافات

ماضيها وحاضرها

المعروف أن العادات الخرافية تستعصى على الدثور ، وأن من الحقائق التى لاتقبل الشك أن حياة الأمم المتمدنة ما زالت تتعثر فى عادات واعتقادات يرجع أصلها إلى ما كان يمارسه أسلافهم الأولون من سحر وخرافة .

وهذا ما يبعث اليأس والقنوط لدى الذين يترقبون اليوم الذى تزول فيه أصفاد تلك العادات وأغلالها .

والتطور — على أية حال — بطئ وئيدا . وهذا سر بقاء الكثرة العظمى من تلك العادات فى صورها المهذبة المصقولة .

وللحد من يأس اليائسين وتشاؤم المتشائمين يذكرنا العالم السير جيمس فريزر[1] بما اندثر من الخرافات .

ومع هذا فان مما يثير العجب إصرارنا على التمسك ببقايا عادات السلف . ونحن وإن كنا قد تركنا عادة قراءة البخت بوساطة أمعاء دجاجة كما يفعل أهل جزائر الهند الشرقية ، فان من الناس من لا يزال يعتقد أن المستقبل يمكن أن يقرأ بإدمان النظر فى كرة من البلور . ومنهم من لا يزال يعتقد أن مصيرنا تقرره خطوط راحة الكف .

ونحن إن كنا لا ندفن اليوم أناسا أحياء تحت أسس بناية من البنايات كما كانت العادة متبعة إلى زمن قريب بين أهالى بلاد غرب الباسفيكى ، فقد اصبحنا ندفن بدلا من الرجال الأحياء قطعا من النقود . . .

وقد انقضى العهد الغابر السعيد يوم كان العريس يضع قدمه فوق رأس عروسه ليؤكد ماله عليها من سلطان .

والبوم يربط العرائس الخيبتات حذاء فوق العربة التى يستقلها العروسان لتذكر العروس بما كسبت ولتذكر العريس بما خسر . . .

وكم من الآلاف الذين يشاهدون حفلة تعويم احدى السفن الكبرى من يعرف دلالة النبيذ الذى يسكب فوق مقدم السفينة وهى تنزل إلى الماء ؟

فالى زمن قريب نسبيا كان سكان جزر غرب الباسفيكى يسحبون قواربهم الحربية وهى تنزل إلى الماء فوق أجساد ضحاياهم حتى ينبجس الدم فوق جوانب السفينة .

وكان جرانت[1] من أوائل من لفتوا النظر إلى العلاقة المباشرة بين النبيذ الأحمر الذى يسكب اليوم عند تدشين السفن وبين الدم . . . .

وبعد فليس يصيب الضرّ أحداً من الناس إذا اعتقد أن حدوة حصان تبعد الشر وان سكب الملح مجلبة للشر .

ولكن مثل هذه الصبيانيات تحمل فى ثناياها الدلالة على أن العقلية الهمجية التى كانت مهدا لمثل هذه العادات لم تستأصل جذورها بعد .

فى جزيرة سومطره لخمسين سنة خلت أو أقل كانوا ينتخبون الملاك الحارس للقبيلة بطريقة فى منتهى الوحشية : فهم يختارون صبيا طيب السيرة ثم يأخذون عليه عهدا بأن يحمى القبيلة من الأخطار بعد موته . ثم يرمى به فى حفرة ويصب الرصاص الذائب فى حلقه . وبعد هذه الميتة الشنيعة يؤكل لحم هذا الشهيد الصغير المسكين باحتفال ثم تحرق عظامه ثم يؤخذ الرماد وتؤخذ بضع شعرات من شعره وتوضع فى جرة فتصبح هذه المخلفات ملاك القبيلة الحارس . . .

وهذه بالطبع عادة من أشنع العادات ، ولكنها هل

(١) هو السير جيمس جورج فريزر (١٨٥٤ — ١٩٤١) أحد العالمين بالاجناس وأستاذ علم الاجناس بجامعة لفربول ومؤلف كتب كثيرة منها كتاب الغصن الذهبى . وهو مجموعة دراسات فى العادات والأساطير والطقوس .

(١) جرانت الن : مؤلف بريطانى (١٨٤٨ — ١٨٩٩) كان استاذ الفلسفة العقلية وفلسفة الأخلاق فى الكلية الخاصة بالزنوج فى جامايكا وهو مؤلف رواية المرأة التى فعلت .
"THE WOMAN WHO DID"

من عيون الشعر الإنجليزي :

الســـحابة The Cloud

لشلي Percy Bysshe Shelly

إلى زُهُورِ الرَّوابي وهي ناعِمَـــةٌ
في رَقْدَةٍ من هَجِيرِ الشمسِ لَفّاحِ
نَهفو بأكْمامِها من كلِّ ساحِيَة
أنسامُ حُلْمٍ تَهادَى بين أشباحِ
إلى رواعيها الوسنَى على غُصُنٍ
تحنو وترقص في شَـــدْوٍ وأفراحِ
إلى ذَوائبها من جَـــدْوَلٍ سَرِجٍ
أُقَطِّرُ الـــطَّلَّ من فِضِّيِّ أقـــداحِ
وفوقها تحتَ مَرْجٍ من خمائلها
أمُـــدُّ نَسْجاً رقيقَ النُّورِ والظِّلِّ

وأنثُرُ النّاصِـــعَ القِيضيَّ من بَرَدٍ
تُلْقيهِ كفٌّ عَـــذَارَى على السَّهْلِ
تخالُهُ بعـــدَ أن غطّاه أبيضُـــه
دُرّاً من اللؤلؤِ المنثُـــورِ والـــطَّلِّ
فأنثني ساخِراً كالرَّعدِ مصطخباً
لَمّـــا أحوّله قطراً من الوبـــلِ

وزمجـــراتٌ على الآفاقِ أرسلها
دَوحُ الصنوبرِ لمـــا هزّهُ الهلعُ
قد راعَهُ من دقيقِ الثلجِ منهمِلٌ
على الجبالِ إذا ما راحَ يجتمعُ
وعند ما تقبلُ الظلماءُ داجيـــةً
ولي على الريحِ من عطفيه متّجع
أسمو بأجنحـــةٍ بيضاءَ تحسبُها
وسادةً في سماءِ الليـــلِ ترتفعُ

تختلف في جوهرها من عادة حمل بضع شعرات من شعر الفيل أو عن عادة لبس الخشب . وهي عند المؤمنين بها تذود الشر وتمنع وقوع المصائب . . . !

ومن العادات البشعة التي كانت منتشرة في نيوزلندا في الزمن القديم أن لا تصبح الفتاة زوجة إلا إذا جيء بها وبعريسها ليلة الزفاف وشد وثاق كليهما وأجلسا ظهراً إلى ظهر وحرّم عليهما النوم أربع ليال سويا ، وإذا بدا عليهما أي ميل إلى الإغفاء تولى الحراس الأشداء عملية الإيقاظ . وفي صباح اليوم الخامس يسمح لهما أن يريا وجوه بعضهما ويصبحا من تلك الساعة زوجين . . .

ومن العادات الشنيعة التي كانت سائدة في الأزمان الغابرة ما يمت إلى عادة من العادات المستحبة في زماننا الحاضر .

فاليوم يعلق السيدات في نحورهن حلية صغيرة من ذهب أو فضة وفي هذه الحلية صورة مصغرة لطفل أو خصلة من شعر حبيب ، ويرجع أصل هذه العادة إلى ما كان يتبعه بعض الأقوام .

فقد كانت تذهب الأم إلى قبر وليدها بعد أن يمر عليه في القبر بعض الزمن وتخرج الجثة ثم تنظف الجمجمة وتعلقها في رقبتها ثم تصنع من عظام طفلها عقوداً تهدى إلى الأقربين من أهله . . . .

وفي أوستراليا الوسطى يضطجع الأب على جثة ابنه ثم يتولى نساء القرية ضرب الوالد بلا هوادة ولا رحمة .

وفي بعض جزر المحيط الهادي كانت الزوجة إذا مات زوجها نامت إلى جانبه مائة يوم . . .

وفي بعض الجزر الأخرى إذا كان الميت زعيم قومه أدخل قربانه عليه وهو مسجّى ويبقين إلى جانبه يؤتى إليهن بالطعام حيث هن ولا يبرحن مكانهن حتى تبلى جثة ذلك السيد .

عن الإنجليزية مبارك إبراهيم

تضيء لي من سناها مسالكا رقصتْ
فيه الشياطين في أعماق لجاج
أمواجه ضرجت من حمرة مزجتْ
بزرقة لم تعد تهفو بإبهاج
وزورق في عباب اليم منسرحٌ
آناً وحيناً على أرض وأبراج
لبى نداءً لروح الحب منطلقاً
من البحار على قدمي معراج

وحيثُ تخفق هذى الروحُ سابحة
في جدول مدّ عبر السهل أعطافا
وحيثُ تعلو هضاباً أينما وجدتْ
أوْ حيثما رقشتْ الزهر أفوافا
وحيث نبع بحيرات وساقيةٌ
من الجبال تُقبل السحبُ أطرافا
وحيث يحلم ملاّحي بمدرجة
رفّت بها الروح أشباحا وأطيافا

هناك في بهمه ماء تفوحُ به
ريحٌ جرتْ بين أزمان وآباد
شدتْ به الرعد صرخى في سلاسلها
تضجّ صاخبة من قيد أصفاد
يقودني نحو دنياها ، وعالمها
ربان قافلة يحدو بإنشاد
فأرتمي ناعما في بسمة غمرتْ
وجه السماء بإشراق وإسعاد

وحينما نجمةٌ للصبح يُسحبها
لحٌ من الشفق الشمسي وضّاء
تبدو أشعتها حمراء قانية
كالعين قرّحها بالدمع إدماء
وحينما ريشها في الأفق ينشره
كالجمر ملتهبا ليل وإدجاء
ترنو كواكبه من كلّ ثاقبة
بزورق سابحا والجوّ دأماء

كأنّ أشلاءها في الجوّ طائرةٌ
مصارعٌ من جبال إثر زلزال
مدّتْ على جنبات الأفق مؤتلقا
من لحمها ذهبا في غمر سيّال
تطفو ، وترسب في جوّ عوالمهُ
ما مرّ شعشاعه يوما على بال
لو طار في ضوئها نسرٌ لخضّبه
محضُ النضار بألوان وأشكال

وناشر من بحار تحت مرقده
هذا الغروبُ أفاويقا وأنفاسا
أرخى على الراحة الكبرى جوانبَهُ
في نشوة الحبّ أحلاماً وإحساساً
وحينما تُسدلُ الظلماءُ سترتها
من شاهق تحاوب الآفاق إرجاسا
أطوى جناحيّ في عشة قبعتُ به
حمامة وتسدت في عشها راسا

وأتركك في بعيد الأفق سابحةً
يكاد يبيضّ منه الجمرُ والشُهبُ
تطايرتْ شهبه ناراً ولو خمدتْ
تدعو لها قمراً بالنور ينسكبُ
لوْ تصعد الليلُ أنفاساً بها انتشرتْ
ضوءاً تراقصه في ليلها السحبُ
حتىّ إذا رقشتْ بُردى غلالتها
راحتْ على ظهره تثوى وتحتجبُ

وحيثُ تنقلُ في همسٍ وفي حذرٍ
أقدامَها بين أنغامٍ وألحانِ
وحيثُ تدرُجُ عبْرَ الأفقِ سارِبةً
في مسبَحٍ علويٍّ الرّوحِ نورانى
تكادُ وقعُ خطاها لا تصيخُ له
إلاّ ملائكةٌ في العالمِ الثانى
لو مسّ أجنحتى من وهجها قبسٌ
لمزّق النسجَ منها كفُّ شيطانِ

حتى إذا ما أطلّت من منافذها
كواكبٌ مزّقت سِتراً من الحُجُبِ
أرنو وأضحكُ منها وهى هاربةٌ
تجرى كأسرابِ نحلٍ في سنى ذهبِ
كأنما خيمتى والنورُ يمطرها
من سيله وهجاً من كلّ منسكبِ
سالتْ أشعتها من أنهرٍ عكستْ
أضواءها فضةٌ بيضاءُ لم تذُبِ

أنا السحابُ ، وعرشُ الشمسِ أصبغهُ
بهالةٍ من سديمِ الأفقِ محترقِ
أنا السحابُ أحيطُ الضوءَ من قمرٍ
بلؤلؤٍ كعقودِ النورِ مؤتلقِ
أنا السحابُ إذا ما الريحُ أنشرُها
فوق البحار كأعلامٍ من الشفقِ
تبدو البراكينُ كالأصدافِ قاتمةً
وأنجمُ الليلِ تطوى لجةَ الغسقِ

ومسبحى مسبحٌ يقتابُ رونقهُ
فوق السماواتِ ضوءاً كالمرآتِ
ألقى على شاطئ الآفاقِ سلمهُ
كمعبرٍ بين خلجانٍ وضفّاتِ
ولى من الشمسِ درعٌ قد رفعتُ له
سقفاً عمدٌ ظلالاً فوق قنّاتِ
وحيناً طاغيات الجوِّ أقهرها
بسطوةٍ من قوى روحى وراحاتى

وحيناً هذه الأعلامُ أنشرُها
قوساً توشّيه أصباغٌ وألوانُ
وفوقه كرةٌ من تبرك سبحتْ
لهيبُها قبسٌ في الليل نشوانُ
أمرُّ تحت عقودِ النصرِ في أثرى
ريحٌ ، وثلجٌ ، وأضواءٌ ، ونيرانُ
والأرضُ تضحكُ تحتى حيث باكرها
ضوءُ الحياةِ سرى يحدوه ألحانُ

أنا ابنةُ الماءِ والآفاقُ مرضعتى
أنا التى من بحارِ الأرضِ أنسربُ
أنا السحابُ ولى روحٌ مجنحةٌ
جياشةٌ في فضاءِ الأفقِ تضطربُ
أنا الخلودُ فلا دهرٌ يغيّرنى
يوماً ولا موكبى في الجوِّ يحتجبُ
وهذه قبّتى والريحُ خيمتها
زرقاءُ صافيةٌ بالنورِ تختضبُ

رقيقةٌ تغمرُ الأكوانَ بسمتُها
في إثرِ منهملِ الأنداءِ منسجمِ
حتى إذا ما الجُلاجُ الأرضُ تدفعنى
في مسبحٍ صاخبِ اللججاتِ مضطرمِ
كأننى بعثُ شيطانٍ تقاذفه
قبرٌ له أو وليدٌ شُدَّ من رحمِ
أسرى وأرسلُ أصداءً مقهقهةً
لما أرانى كتمثالٍ من العدمِ

محمد البرعى

الجمـــــاهير

تعقيب على تعقيب

طالعتنا «الثقافة» القراء بمقال قيم ممتع عنوانه «الجماهير» لصاحب العزة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك، عارضا فيه لناحية واحدة من النواحي التي رآها قد استرعت نظره حين قرأ كتاب «الوعي الجديد»، وهي نظرة كاتبه إلى الجماهير، وأثرها في توجيه الحكومة وحقوق هذه الجماهير على الدولة.

ولقد شاء الأستاذ الكبير قبل أن يبدأ نقده للفكرة التي اختار نقدها، والجانب الذي انتخبه للتعقيب عليه، شاء أن يدلي بنقد مجمل عن الكتاب فقال عنه إنه وجده «كتابا جميلا بارع الأسلوب، شائق العرض، جديرا حقا بأن يقرأ بإمعان، وبأن يعلق عليه الكتاب والمفكرون، والمشتغلون بالشئون الاجتماعية، وبالمسائل القومية العامة»، فكان تقديرا سخيا أعتز به، لأنه صادر عن صاحب حجة وكاتب نابغة.

وأستطيع أن أخرج من مقال الكاتب الكبير بأنه ينتقد فكرة حث الجماهير على المطالبة بحقوقها في الحياة الكريمة، بأساليب معينة، يراها شبه ضغط على أولياء الأمر وإجبار لهم، معتمداً في ذلك على فقرة استشهد بها جاءت في الكتاب، وهذا نصها «لابد أن ينهض الرأي العام، فيطالب كل فرد من أفراد الشعب بحقه في الحياة، عندئذ تجد الحكومات نفسها مندفعة نحو الأمام، تأتي أعمالا تلهب الأكف بالتصفيق، وتطلق الحناجر بالهتاف فيزداد جهادها في سبيل الخير العام»، قائلا: «إن النتيجة الطبيعية لذلك أن يضع، أي مؤلف الكتاب، الحكومات تحت رحمة الجماهير»، و«الحكومات على هذا الوضع تكون حكومات مسلوبة الإدارة معطلة التفكير لا يحركها للعمل إلا مطالبة الشعب به»، وهو يأخذ على الكاتب قوله «فكم من حكام يودون لو يعملون ولكنهم لا يستطيعون، لنوم جمهورهم ومسالمة شعبهم»، ويقول أيضا «إن الواجب في نظرنا هو أن تعتبر الحكومات نفسها مكلفة بالسهر على مصالح الشعب» أي بغير حاجة إلى ضغط الشعب وإرهابه لها، على حد تعبيره، إلى أن يقول «نعم إننا نعترف أنه أتى علينا حين من الدهر لم يكن لنا فيه بد من أن نلجأ إلى مثل تلك الهتافات أو المظاهرات التي تقوم بها الجماهير لحمل الحكومات على سلوك طريق معين أو انتهاج سياسة بالذات. لكن ذلك قد حدث في ظروف خاصة كانت فيها الحكومات القائمة تحت تأثيرات أجنبية أو ما شا كل ذلك، تسير في طريق غير مستقيم، لا يتفق مع مصلحة الوطن، ولا مع اتجاه الرأي العام للبلاد كلها، ولا مع رغبات طبقات الأمة أو سوادها الأعظم.. ولا نقطع بأنه لن يأتي علينا حين آخر يضطر فيه الجمهور المصري كله، لأن يحمل الحكومة القائمة قسرا على أن تسلك سبيل الرشاد..». ثم يبرر ذلك بأن هذا لا يكون إلا في حالات شاذة استثنائية، تقتضيها ظروف غير عادية.

وإني أوجز رأيي الذي خرج به «الوعي الجديد»، في هذا الصدد، وألخص تعقيبي على نقد الأستاذ الكاتب الكبير فيما يلي:

عندي، أن الحكومات التي تعمل من تلقاء نفسها من غير دفع الشعب لها، لا توجد إلا نادرا، بل لا توجد واحدة منها إلا كل فترة طويلة من الزمن، وخاصة في الشرق، شأنها شأن قادة العالم والمصلحين؛ وهذا محك خلافي مع الدكتور الكريم في النصف الأول من نقده، فهو يرى نهضة الشعوب بضغطها على الحكومات استثناء وشذوذا، وأنا أراها قاعدة، وما عداها هو الشاذ. ودليلي على ما أقول مستمد من الواقع الملموس؛ فأنا لا أتكلم

عن أعمال الحكومات « الروتين » ، إنما أتكلم من أعمالها في الاصلاح ؛ وإن تاريخ التقدم والاصلاح والتطور في العالم ، هو سلسلة من المواقع والاشتباكات بين الشعوب والحكومات ، فالشعوب أكثر حساسية بكيانها ومصالحها ، وهي حقول خصبة تدب فيها سريعاً الأفكار الحرة الجديدة ، بعكس الحكومات التي تمثل دائماً ، أو غالباً ، دور المحافظ على العرف والتقاليد ، وتأخذ دائماً بيد النظرات المحافظة .

ينكر أستاذنا الفاضل على الجماهير ، أن تظل الحكومات تحت دفعها وضغطها ، ويرى أن حكومة تحترم نفسها لا تقبل هذا الوضع . وأنا لا أجد غضاضة في أن تشعر الحكومة بأنها عملت لأنها كلفت بأن تعمل ، تلبيةً لصوت الرأي العام ، سواء كان هذا الصوت كتابة في الصحف ، أو خطابة على المنابر ، أو هتافاً وتصفيقاً . وإن كان حق البرلمان في مراقبة الحكومات ودفعها لها ، ليس موضعاً لخلاف ، إذ البرلمان وكيل عن الشعب ، فإن حق الوكيل لا يمكن أن ينسخ حق الأصيل في الرقابة والدفع ، والأصيل هنا هو الأمة ، والأمة مصدر السلطات . بل إنه كم من رقابة برلمانية تكاد تكون معدومة ، في ظروف معينة ، على بعض من الحكومات معين . وهنا يكون الضمان الوحيد لمراقبة الحكومات مستمداً من يقظة الرأي العام نفسه ، ودفعه البرلمان والحكومة معاً ، وتبقيهما من هذه اليقظة ليرهبا الانحراف عن جادة الصواب .

وإني مازلت أقرر أن الحكومات ، إن فكرت يوماً في الإصلاح من تلقاء نفسها ، وكانت جماهيرها نائمة ، فإن ذلك الإصلاح لن يخرج على يديها من حيز التفكير إلى حيز العمل ، فكلنا لا ينكر أن هناك مصاعب تلقى في طريق الحكومات جميعاً ، مصاعب داخلية من نفوذ بعض الطبقات المتحكمة ، ومصاعب خارجية من بعض الدول المتدخلة ؛ وإن هذه المصاعب بنوعيها لا بد أن تقهر الحكومة ، فتطأطئ هذه لها رأسها ، إن لم تجد دائماً وراءها شعباً يقظاً ، بل يقظاً دائماً مُرهِباً .

إن الأستاذ الأديب الكبير يعترف ، كما سبق ، بأن هناك ظروفاً تستلزم ، بل توجب ضغط الجماهير على الحكومات وحملها قسراً على سلوك السبيل المستقيم . لكنه يقول إن مثل هذه الظروف شاذة لا يقاس عليها . فإن سلمنا لأستاذنا الفاضل بوجهة النظر هذه ، فانه سيكون هناك احتمال اختلاف ، فيما يتعلق بالحكم على ظرف معين بأنه شاذ أو عادي . وعندي أن مصر تسير في ظروف شاذة منذ مئات السنين . ويكفي لتأييد قولي أن « السواد الأعظم » ، الذي يتكلم أستاذنا الكبير عن حقه في توجيه الحكومات ، لا يجد ما يطعمه من جوع ، ولا ما يشفيه من مرض ، ولا ما يعلمه من جهل ، ولا ما يكسوه من عري ، ولا يجد دائماً أسباب البؤس عن عاتقه إلا كما تدفع النملة ، على مدى الزمن ، من الحمل الذي يحمله الجمل .

ولقد لفت نظري اعتراض أستاذنا الكريم على حق الجماهير المصرية في توجيه الحكومات ، بحجة تخلفها الكبير عن غيرها من جماهير البلاد الأخرى . وإني قد أرى في هذا تبايناً مع القول ، السابق ، بأن البلاد في حاجة إلى هذا التدخل في الوقت الذي تحيد فيه الحكومات عن الطريق المستقيم . وبودي أن أقول إن مطالب الجمهور المصري ، لا يختلف في أمر تقديرها جمهورٌ عالم أوربي أو جمهور جاهل شرقي ؛ وإن أمراضه غير محتاجة لتشخيص دقيق ، فجهود كبير في التحقيق . إن مطالب جمهورنا يمكن إرجاعها جميعاً إلى الخبز ، وإن أمراضه يمكن إرجاعها جميعاً إلى الجوع . ثم إن الدكتور الكبير يقول بأن الحكومة يجب أن تشعر من تلقاء نفسها ، بأنها مكلفة بالإصلاح . ويصح لي أن أتساءل عن الجهة التي تعتبر الحكومة نفسها مكلفة منها وأمامها بالإصلاح ، ومَنْ تكون غير الجماهير ؟

وقد أثار أستاذنا الكريم مسألة هامة ، فهو يرى «حتى على فرض أن السادة الأغنياء المثقفين ، هم المسيطرون الآن ، فعلاج ذلك لا يكون بأن نسلط عليهم الإخوان الفقراء الجهلاء ، فذلك مجرد استبدال ظالم بآخر ، قد يكون شرا منه ، وإحلال طاغية محل طاغية غيره » وأنا أخشى ألا يكون الغنى دائما مثقفا ، وألا يكون الفقير دائما جاهلا . ثم أرى كذلك أنه لو كان لنا أن نختار ، مضطرين ، بين ظالم وظالم ، وطاغية وطاغية ، فعندى أن ظلم الأغلبية وطغيانها أسلم ألف مرة من ظلم الأقلية وطغيانها . بل إن ما يسمى أحيانا طغيان الأغلبية ، إن هو إلا الدمقراطية ، فليست الدمقراطية حكم الأمة بالأمة ، إنما هى حكم الأمة بالأغلبية أو ممثليها (ممثلى الأغلبية) فى المجالس النيابية ، إن كانت هذه المجالس منتخبة انتخابا حرا

ويرى الكاتب الكبير أنى أطريت الجماهير وأشدت بها من غير أى نقد لها أو تحفظ من ناحيتها ، أو من ناحية سلوكها وأساليبها . وإنى أستأذن أستاذى الفاضل فى نقل هذه الفقرة الواردة فى ص ١٥١ من الكتاب : «سبحانك اللهم ، هى الجماهير ! مجنونة برغبتها بلهاء حمقاء . إنها لا تستحى أن تسخط اليوم على من لم تنته بعد من الزمر له والطبل ! لها نصف عقل ولها لسانان ، متطرفة فى القول لا تدرى الاتزان ، لا تدرك أن الفضيلة وسط ، فإحساسها نهايتان ، إما نهاية السخط وإما نهاية الاستحسان !! » .

وأخيراً فإنى رأيت الاصلاح تجاوبا بين قوة الشعب ، وقدرته على دفع الحكومة نحو العمل ، وبين رغبة الحكومة نفسها وميولها ؛ وهذا التحفظ من ناحيتى بكتاب « الوعى الجديد » قد يرضى الأستاذ الكبير ، ويرضى أيضا كل منصف ؛ فلقد جاء فى ص ٢٣٩ « لا ضير أن يفكر الشعب فى عيشه الكريم ، ولا ضير أن يطالب الحكومة بإصدار القوانين . . ولكن الضير كل الضير أن تتوانى الحكومات ، فلا تقابل الأفكار الجديدة فى منتصف الطريق . . وإن مطالبة الشعوب ، بالطرق المشروعة ، بنصيبها فى الحياة المتكافئة الفرص ، لدليل يقظتها وقرب رفعة مقامها . ألا ترى إلى (الحرية ، والإخاء ، والمساواة) أنها كانت النتيجة الطبيعية لنداء الفرنسيين : نريد خبزا . . هذه المبادىء الثلاثة التى صارت فيما بعد أنجيل الحضارة العالمية ، كان الفضل فيها للهتاف بالرغيف . والمستبشر بهذه المطالبة ، ولا يأخذنا الذعر منها ، بل لتسع الحكومات اليها لتتقابل معها ، ولتحدد هى ، فى حكمة ، موعد المقابلة » .

بقى من نقد أستاذنا الدكتور الكبير ، الجانب الذى يرى فيه أنى أنزع نزعة مادية ، وأنه لا ينبغى أن تستهوينا المبادىء الاشتراكية ، ففى الإسلام ما يكفى لإسعاد الخلق « بغير حاجة إلى تلمس معتقدات جديدة واردة إلينا من الغرب » ولى على هذا الجانب من النقد تعقيب آخر لا يتسع له نطاق اليوم ، وموعدنا عدد مقبل من الثقافة الغراء .

ولا يفوتنى أن أسجل الشكر مرة أخرى لأستاذى الزكى الكبير ، أن دعا إلى فتح باب المناقشات فيما يضمه كتاب « الوعى الجديد » من آراء ، نعتها بأنها « قد تبدو غريبة وخطيرة . . » ، والله أرجو أن يوفقنى إلى الاقتناع بما فيه الخير .

صبحى رباب

تصحيحات لما وقع فى كتاب

الامتاع والمؤانسة

فى الجزء الثالث

١ — النقانق :

قرأت فى ص ١٨ فى الحاشية ٤ هذا الكلام شرحاً لنقانق : « لم نجد هــذا النوع من الطعام فيما راجعناه من الكتب » .

قلنا : وردت النقانق بهذه الصورة فى الأغانى طبع بولاق (١٠ : ٦١) .

قال : نقانق مُطَرّف « بالجردل » وفى رواية : لقانق ولقالق .

والكلمة لاتينية مما لاشك فيه . قال دوزى : النقانق باللاتينية Lucanica . قلنا : وهو إذا اتخذ هذا التعبير ، فإنه يريد أن الكلمة لاتينية . وهو يفعل ذلك فى كتابه كله ، ولا يخرج عنه . والمفرد يكون بضم الأول وفتح النون ، أو بضم الأول وكسر النون والجمع نقانق بفتح الأول والثانى وكسر النون الثانية ، كما يقال جَوالق فى جمع جُوالق .

والأشهر فى النقانق : اللقانق ، أى بلام فى الأول لا بنون ، وهو المعروف عند مولّدى العرب . أما النقانق بالنون فلا يعرفها إلا العوام أو من جاراهم فى أوضاعهم .

أما الذى ورد فى الأغانى بالنون فمن النساخ ، لا من الأصل . أو من باب الإبدال ، وهو جائز . قال فى (شفاء الغليل) : « اللقانق اسم لأحد الأمعاء ، وبه سمى مِن اللحم المحشو اللقلق . » اهـ . والكلمة اللاتينية معروفة منذ أقدم الزمن . فقد ذكرها كيكرون المتوفى سنة ٤٣ للميلاد ، وكان قد وُلد قبل التاريخ المسيحى ، وعلى رأى بعضهم : فى سنة ١٠٦ ق . م . ، بصورة Lucanicis مجموعة فى حالة المفعول له . وذكرها بعده مرتياليس Martialis المتوفى عام ١٠٣ ، وذكرها بعده بابنيوس ستا كيوس أوستاتيوس Papinius Statius .

وقد ذكرنا فى مجلة مجمع اللغة العربية الملكى . ج ٣ : ٣٠٢ إلى ٣١١ ما يكفينا المؤونة من إعادة النظر فى هذا الحرف الدخيل فى العربية ، فليراجع إن أحب الباحث .

٢ — الفُوقُ لا الموق ولا الموق والأحسن الفُوق :

وورد فى الجزء الأول ص ١٧٦ س ٣ : فى البحر حوت يقال له : موق (كذا . ولم يضبط) ، ضعيف الجسد ، قليل القوة ، إذا جاع خرج إلى الشاطىء ، فاستلق على الرمل ، فأقام شوكة فى رأسه ... » إلى آخر الكلام .

وليس فى لغة من لُغَى العالم حيوان أو حوت هذه صفته بهذا الاسم . والكلمة من اليونانية Phôkê . وبالفرنسية Phopue ، ونقلها العرب بصورة فوق ، لكنهم صحفوها بجعل الفاء الأولى قافاً فقالوا قوق ، وكان أول وضعها لقَيْبُون أو حيوان ذى ثدى ، سمى بعد ذلك زمن طويل : البقرة البحرية . وهو الذى سماه الفرنسيون باسم آخر هو : الدابة الطويلة الناب ، ولم يقولوا : الطويلة النابين ، مع أن لها نابين ؟ وبالفرنسية La Bête à La Crande Dent ، لأنه يخرج من فكها الأعلى نابان كبيران متجهان إلى الأسفل . وقد يبلغ طول الواحدة منهما سبعين سنتيمتراً ، ويبلغ طول الدابة نفسها خمسة أمتار ، وهو يشبه فى عاداته سائر الحيوانات التى يطلق عليها اسم الفوَاقية[1] Phopues . ولكن العرب أطلقوها بعد ذلك على كل حيوان ترى فيه سن أو ناب[2] طويلة . والمراد به هنا المسمى بالفرنسية Morse وبالإنجليزية Walrus وبلسان العلماء Trichecus Rosmarus . وهذه الدابة

(١) لم نستعمل الكلمة Phopue فقمة ولا غيرها ، لأن العلماء قالوا : إن الكلمة فوق مأخوذة من الفواق ، لأنه يسمع منه إذا سار فى البحر ما يشبه صوت الفواق . فاخترنا العودة إلى الأصل من استعمال كلة أو كلمات لا تفى بالموضوع .

(٢) له نابان لكن يصفه علماء الحيوانات بقولهم : له ناب طويلة لا نابان .

لا تؤذى أحداً . أما إذا تعرض لها الإنسان ليقتلها ، أو يؤذيها ، فإنها تهجم عليه هجوماً فظيعاً دفاعاً عن نفسها ، وتنشب فيه نابها (أو كما يقول بعضهم : شوكتها أو سنّها) لتقتله .

وقد وصف الدميري هذا الحوت كما وصفه التوحيدى ، قال :

« قوق ، بضم القاف الأولى وكسر الثانية : صنف من السمك عجيب جداً . على رأسه شوكة قوية يضرب بها . حكى الملاحون أن هذه السمكة إذا جاعت رمت نفسها إلى شيء من الحيوان ، فيطلبها ؛ ثم إنها تضرب بشوكتها أحشاءه حتى تهلكه ، وربما تخرج من شق بطنه تتغذى منه هى وغيرها . وإذا قصدها قاصد في الماء تضربه بالشوكة فيهلك . ولعلها تضرب السفينة بالشوكة فتخرقها ، وتُغرق أهلها ، وتأكل منهم . والملاحون يعرفون ذلك ، فيجعلون على السفينة جلد تلك السمكة ، فإن شوكتها لا تعمل فيه . كذا قال القزوينى [(١)] » .

اﻫ بحروفه .

وأما من ادعى أنها المسماة بالإنجليزية Narwnal فلا يمكن ، لأنها لا تلقى نفسها على الشاطئ ، ولا يمكن أن تدخل بطن حيوان بحرى ، لأن سنها طولها ثلاثة أمتار ، فأى حيوان يستطيع أن يحوى في بطنه ناباً بهذا الطول . ثم إن هذه الرواية بهذه الصورة ملفقة ، إذ لا يوجد سمك بهذا الوصف . أما الحقيقة فهى أن الحوت المذكور هنا هو المسمى Morse ثم أطلق على كل حيوان مائى ذى سن بارزة أو ناب طويلة ، وهى كثيرة ، وذلك جهلا أو من باب التعميم . فتأمل .

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

(١) راجع حياة الحيوان الكبرى . طبع القاهرة . وقد طبع مراراً كثيرة .

الكوكب «أوزوريس»

تمهيد :

طلعت علينا صحف نيويورك أخيراً بنبأ عظيم نقلته عنها بعض الصحف العربية واهتزت له دوائر الأرصاد الفلكية ، ويتلخص هذا النبأ في أن الدكتور « ستراند » مدير مرصد سبرول في جامعة « وارثمور » بعد أن ظل يرتاد أرجاء السماء بمناظيره الفلكية سنوات متتابعات ، قد وفق إلى كشف أول « نجم » يتبع مجموعة شمسية غير التي تتبعها أرضنا ، واختار له من بين الأسماء اسم « أوزوريس » أعظم الآلهة المصرية القديمة شأناً وأوسعها عبادة .

ومن أراد أن يتوخى الدقة العلميــة فليقل إن « أوزوريس » هو أول كوكب لا أول نجم ثبت أنه يتبع مجموعة غير التي تتبعها أرضنا ؛ ذلك لأن علماء الفلك اليوم لا يتسامحون مع من يخلط بين النجم والكوكب ، وعندهم أن النجوم ثوابت في حين أن الكواكب سيارة ؛ فإذا ما عرض الفلكي الألواح الفوتوغرافية الملتقطة في السماء تحوي كواكب ونجوماً ظهرت النجوم في الألواح نقطاً لامعة واضحة ومحدودة ؛ ذلك لأنها ثابتة نسبياً . أما معظم الكواكب فترسم في الألواح خيالاً منطمساً لتحركها ، كما إذا تحرك شخص أمام الآلة الفوتوغرافية أثناء أخذ صورته ، وتتحقق حركة الكوكب للرجل العادي إذا رصدها بالنسبة لنجم ما ، إذ أنه يراها تتغير وضعها بالنسبة لهذا النجم ليلة بعد ليلة .

هذا إلى أن الكواكب تظهر من خلال النظار على هيئة أقراص مستديرة ذات ضوء « هادئ » . أما النجوم فهي ذات الضوء المتلألئ ، فلا تظهر إلا نقطاً حتى بأقوى المناظر المستنبطة . وليس بخاف أن النجم هو مصدر الضوء ومبعث الحرارة للكوكب . وعلى هذا القياس تعتبر أرضنا كوكباً وشمسنا نجماً .

والمجموعة الشمسية الوارد ذكرها في الخبر — أسرة تتألف من الشمس وبناتها الكواكب وحفيداتها الأقمار . والكواكب التي تتبع الشمس عددها الآن تسعة ، تبدأ بعطارد وتنتهي ببـلوتو الذي أعلن كشفه في مارس سنة ١٩٣٠ . والمجموعة كلها منعزلة في الفضاء انعزالاً تاماً عن بقية مجموعات النجوم ، وأفراد هذه الأسرة من كواكب وأقمار أقرب جداً من أقرب النجوم الثوابت إلينا . ولو دنا نجم منا حتى صار بعده عنا كبعد الشمس من الأرض لظهر كرة نارية وهاجة تبهر عيوننا ، وقد تزري بكرة الشمس في عظمتها ورونقها .

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
والذنب للعين لا للنجم في الصغر

أهمية هذا الكشف :

لا ريبة في أن كشف هذا الكوكب يعد فتحاً جديداً في علم الأرصاد ، وعجيبة من العجائب العلمية التي تأيدت بها حقائق علم الفلك . ولا مراء في أنه سوف يفتح الباب على مصراعيه لأبحاث جديدة يقوم بها رجال الرصد وهم ينقبون في السماء بمناظيرهم باحثين عن رب هذه الأسرة الجديدة وعن بقية كواكبها وأقمارها ، ويكشفون لنا عن طبائعها وحجومها ويضبطون حركاتها ويحسبونها حساباً دقيقاً .

وإنا لنرجو أن يساهم مرصد حلوان الفلكي في هذه المجهود كما ساهم في كشف « بلوتو » حتى يكون قسيماً في الفخار الذي تتنازعه مراصد أوربا وأمريكا .

طريقة العلماء في التسمية :

ولقد جرت عادة المحدثين من العلماء أن يلجئوا إلى الأساطير اليونانية والرومانية الغنية بخيالها الخصب يستخرجون من بطونها وآدابها أسماء لآلهة يطلقونها

على ما يكشفون من أجرام سماوية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ فالنجيمة « سريس » Ceres التى تدور فى فلك واقع بين فلك المريخ والمشترى إن هى إلا إلاهة الحصاد والحب عند الرومان ، أطلق عليها هذا الاسم مستكشفها الإيطالى جوسبى بيازى سنة ١٨٠١ ، وأختها « بلاس » Pallas الأوسع منها أفقا ما هى إلا إلاهة الحكمة عند اليونان ، وأختهما الثالثة « جونو Juno » هى زوجة جوبتر Juqiter كبير الآلهة عند الرومان ، ونبتون Nepton الكوكب الثامن فى المجموعة الشمسية المستكشف سنة ١٨٤٥ هو فى الأساطير الرومانية إله البحر ، ورسم على شكل رجل مفتول العضل فى يده حربة ذات ثلاث شعب ، وأحيانا رسم وهو يسوق عربة تجرها خيول ذات معرفات ذهبية فوق أمواج البحر

بهذا وأمثاله قد خلد الأوربيون أساطير اليونان والرومان تخليدا لم تتمتع به أساطير المصريين الأقدمين ، وهم أعرق منهم فى الحضارة منزلة وأعلى فى المدنية كعبا .

فاذا جاءنا اليوم الدكتور « ستراند » متفضلا بإطلاق اسم الإله أوزوريس على هذا الكوكب الجديد أخذاً من الميثولوجية الفرعونية وإنصافا لها وتخليدا — فإنه لا يسعنا إزاء ذلك إلا أن نغتبط وأن نشكر وأن نعتبر ذلك دليلا على مكانة مصر وتراثها القديم فى نفوس علماء الأمريكان .

وليس ثمة شك فى أن الدكتور ستراند كان موفقا غاية التوفيق فى اختيار هذا الاسم الذى هو أقرب إلى طبائع الأمور ؛ ذلك أن الأسطورة الفرعونية القديمة تزعم أن أوزوريس كان يسكن السماء ، فنزل منها على هيئة إنسان ثم رجع اليها بعد حوادث طريفة ترويها هذه الأسطورة التى نقرأ فى إحدى فقراتها هذه العبارة : « إن المجرة نيل السماء ، حيث يسكن الأبرار فى نعيم دائم تحت سلطة أوزوريس » . ولرجال الرصد بعد ذلك أن يبحثوا من الأساطير المصرية ما يروق لهم وما ينطبق على ما يكشفونه من كواكب ونجوم فإنها معين لا ينضب وينبوع صاف منه ينهلون ويعلون .

خاتمة

وإن مصر الشاعرة بمجد ماضيها ، الأمينة على عبقريتها المأثورة ، المتيقظة لما يحتمه عليها مركزها من أداء رسالة التعاون ، لتؤدى فى هذه الناحية قسطها الحق من الإجلال لجهود البلاد الأخرى ، مترسمة خطاها ناسجة على منوالهم .

ومصر التى لها زعامة الثقافة الحديثة فى الشرق تلك الثقافة التى تنبعث من جامعتيها الملكيتين ، لتعبر أصدق تعبير عما يخالج قلوب أبنائها المثقفين من الإعجاب والعرفان بالجميل .

وإذا كان لى بعد ذلك ما أقوله فإنى أتقدم باقتراح ، وهو أن تقوم جامعتا فؤاد وفاروق بشكر جامعة وارنجور ، توكيدا للصلات الجامعية وتوثيقاً للعلاقات العلمية ، على هذه التسمية التى تحمل فى طياتها معنى من معانى تكريم مصر وماضيها المجيد وتراثها العظيم .

عبد الفتاح الزيادى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

بين المسموع والمقروء

روزفلت فى مرضه وموته

لن أتحدث عن عظمة روزفلت ، ولا عن زعامته فى أمته ، وفى غير أمته ، ولا عن الخسارة الكبرى التى أصيبت بها آمال الكثير من الناس بفقده ، فهذا حديث معاد قال فيه الأقوام الكثير ، ولو أن المجال فيه لا يزال ذا سعة .

ولكنى أتحدث عما خطر لى عنـد نعيه من ذكريات

لقد ذكرتُ بنعيه تلك الصورة التى أُخذتْ له وهو فى السفينة الحربية على ظهر القنال ، وقد تقدم إليه مليكنا يحيّيه . وقف مليكنا علؤه القوة ، وتشيع فيه الوسامة ، ويشعّ منه الصبى ، وجلس صاحبنا الشيخ ، وقد أقعده الشلل ، وتوجته الشيخوخة ببياضها ، وقد زاد فى نصوعها سوادُ تلك « الحرملة » الطويلة التى غطّت منكبيه ، وانسدلت على جانبيه ، تطاول قامته ، وهى طويلة حتى على القعود ، ونظر إلى على يُحيي مليكنا الشاب السامق بابتسامة فيها ، عدا السرور ، من الطيبة والبساطة والثقة الشيء الكثير . ونظرت إلى هذا الوجه الجليل يحمله هذان المنكبان العظيمان فلأنى هـذا المنظر جلالا . ونظرت إلى هاتين العينين المتخاذلتين ، وإلى ذاك الوجه المخطط الذابل ، فلأنى هذا المنظر رحمة .

وقالت جارتى : إن هذا الرجل ينظر إلينا من وراء الغيب .

وأحسست أن الرجل ينظر إلينا حقا من وراء حجاب ، فكأنما غاص بجسمه فى أعماق الأبد حتى لم يبق منه إلا الرأس . ولكن لم يكن بى نعى الأحياء ، فتظاهرت بالتكذيب ، وقلبى يقول ما أصدق الإحساس . وظاهرنى على التكذيب ثقة أن الرجل لا يموت ، ويجب أن لا يموت ، وأمور الدنيا هى ما هى . وعزّ علىّ فى تلك الساعة أن أجد الدنيا خالية منه ، لا لنفسى ، ولكن للدنيا ، وقد بلغت به ما بلغت من كسب الحرب ، ثم من كسب السلم ، وهو أكثر مشقة وأقل ارتجاء .

وكان الذى رأيناه من تلك الصورة رآه غيرنا وحققه . وأى تحقيق كتحقيق زعيم العالم الآخر ، تشرشل . لقد قام هذا الشيخ الآخر الذى يناهض السنين مناهضة الكلب الإنجليزى التقليدى الذى لا يعرف الحياة إلا مصارعة ، ولا العيش إلا مصابرة ، ولا ملاقاة الخطوب إلا عناداً ، ولا الموت إلا اسقوطا . قام هذا الشيخ الآخر ينبئنا عما رأى من صاحبه الشيخ لما اجتمعا فى القرم معا . قال : ونظرت فى عينيه فتراءت لى فيهما النهاية

وتلك النهاية التى تراءت للزعيم الإنجليزى مشاهدةً ، هى عينها تلك النهاية التى تراءت لنا ولغيرنا من تلك الصورة . وأخذتُ أفكر ماذا يلها ، فلم أوفّق ، لأنها من تلك الأشياء التى هى أبسط ما تكون نتيجة ، وأعقد ما تكون أسبابا وتحليلا ، وكان لا بد أن أعتمد على شيء فى تحليل ما أحسسنا ، فقلت لعله الألم المكظوم لم تستطع تلك الابتسامة الشاملة أن تحجبه .

لم يحدث أبدا للولايات المتحدة ، فى تاريخها القصير ، أن كان لها رئيس شغلتْها صحته كما شغلت الولاياتِ صحةُ روزفلت ، وذلك بسببين : عاهته القديمة ، وما حملته إياه ثلاث رآسات ، ورابعة ، من أعباء ، وهى أعباء حرب لا أعباء سلام .

كان للرئيس طبيب لا يكاد يفارقه يوما . وبراه صبحا وظهرا وعصراً ، ذلك طبيب البحرية الأكبر ماكنتاير . يصبح الصباح ، فلا تلبث أن ترى سيارة تجرى إلى جانب القصر الأبيض ، ومقصدها باب فى جانب من جوانبه ، وتقف السيارة فيخرج منها رجل قارب الستين ، يمشى فى خطى خفيفة فى تمشاة إلى وسط البيت . ولا يلبث أن

يصعد السلم، ثم يذهب قُدُماً إلى غرفة النوم، ويكاد يدخلها بدون استئذان.

— صباح الخير.

— صباح الخير.

وقد يكون الرئيس يتحدث مع من حوله حديث الفكاهة والتندر. فيدخل الطبيب في الحديث كبعض أهله فيستمع للنكات، وقد يقول هو النكتة، وهو في كل هذا لايسأل الرئيس عن صحته أبداً. وقد يسأله الرئيس عما يجرى في البحرية، وقد يناقشه أمورها، وقد لايذكر الطب والأطباء، فتخال أن هذا الزائر، لارجل طب، ولا موظف دولة، ولكنه صديق حميم يغشى الرئيس كل يوم، في منتصف الساعة التاسعة.

ويمر نصف الساعة التى زمع قضاءها إلى جانب الرئيس، فينزل إلى مكتبه في القصر. وفيه تعرض عليه تقارير الصحة عن مائتين من سكان الدار، قام بتجهيزها له مساعدون آخرون. ثم يذهب أمير البحر الطبيب من بعد ذلك إلى مكتبه من دار الطب البحرية. حتى إذا حل الظهر عاد إلى بيته، ولكنه كثيراً ما يمر ظهراً على البيت الأبيض يتشمم أخباره. ويعود إلى عمله من البحرية من جديد، فيظل به إلى منتصف الخامسة. ثم هو يذهب من جديد إلى البيت الأبيض فيبقى فيه إلى السابعة وعندها ينتهى اليوم.

ولا يكاد يذهب الرئيس إلى مكان ما، شرقاً أو غرباً، شمالاً أو جنوباً، بحراً أو براً، إلا ذهب معه أمير البحر ما كنطار.

وقد تقول ما أثقلها صحبة.

ولكنك تخطئ عند ذاك التقدير. فأطباء الملوك ورؤساء الدول لا يختارون لطبهم وحده. فالأطباء القادرون في تلك الأمم كثيرون. وإنما يُفاضل بينهم بمواهب أخرى: منها مواهب تتصل بحسن الصحبة وخفة المجلس. ومن ذلك أن ما كنطار محدثٌ قادر، حكّاء للأقاصيص، كثير التندر. يُعنى بالنكتة، ويستمتع بها، وهو فوق هذا ذو صوت في الغناء جميل. وهو فوق هذا وهذا ذو خبرة في صيد السمك في الماء العميق. وتلك هوية كانت من هويات الرئيس الراحل. ومن أجل هذه الصفات كانت تختلط على الحاضرين إذا لم يعرفوه حقيقة أمره، يختلط عليهم أنه بممارسة هذه الأشياء كلها لم يغفل ساعة عن أنه الحارس الأمين لتلك الصحة التى هى عند الأمة ذات قدر كبير.

ولم يغفل روزفلت أبداً عن واجبات الطاعة لطبيبه المتخفى. فكثيراً ما كان الطبيب الصديق فى عرض الحديث يقترح هذا الدواء، أو هذا الإجراء، فتحسب أنت أنه اقتراح يجوز الأخذ به، ويجوز رفضه، ويعلم روزفلت أنه الأمر الذى ليس من طاعته مفر.

كان يقول المقربون: ليس فى الأمة من يأمر الرئيس فيطاع كأمير البحر ما كنطار.

ويمتاز ما كنطار ببرود نفس شديد، هو أكبر العون له فى الأزمات. يسمع بأن صحة الرئيس اليوم على غير مايرام، فلا يهتز، ولا يضطرب، ويعلم الله إنها لمسئولية تهتز لها الجبال وتضطرب. ولكنه لا يبين عليه شىء من ذلك. فالوجه الساكن، واليد الثابتة، والخطو السريع العادى. وإنما يطرح بعض مايحمل من ملاطفة ومجاملة، وينطق بصوت أقرب إلى الأمر منه إلى الاقتراح. وقد يقضى بتقصير ساعات العمل، أو تقليل من تدخين، أو منع الاشتغال فى فترات الطعام. فإن لم تكف هذه فقد يلجأ إلى علاجات أقسى وأصرم، وعندئذ لا معقّب لسكلماته.

وعندئذ كذلك تترامى إلى البيت الأبيض صنوف الخطابات بالذى تجود به قرائح الناس من وصفات. فمن مرسل ورقات من شجر جمعها فى الجبل، وحسب أن

مُمثليها سيذهب عن الرئيس بدائه . ومن مرسل دعانا يقول إن تركيبه سر قديم في الأسرة ، لو دهن الرئيس به صدره أو ظهره لزالت العلة . ومن مرسل ....

قال ما كنطار : لو أننا استمعنا لكل هذه الوصفات لجربناها ، لم يكن بعدها للدولة رئيس .

ولما آن أوان اختيار الرئيس للدورة الرابعة ، لم يكن عند أكثر الناس شك فيمن يكون الرئيس . لم يكن عندهم شك فيمن يجب أن يكون الرئيس . ولم تقض في هذا مواهب الرئيس الراحل وحدها ، بل قضى فيه التاريخ وقضت به الحرب ، وما اكتنف الدنيا من ظروف . فلم يكن من المعقول والسفينة في البحر ، والبحر هائج مائج ، أن يتغير ربانها .

ولكن كان مع هذا الإعلان ببقاء الرئيس عند سكان السفينة شيء واحد مشكوك فيه ، ذلك قدرة الرئيس على النهوض بدورة للرآسة رابعة .

ووجب على الرئيس نفسه أن يرى الرأى في هذا ، وأن يقوله ، ولم يكن في استطاعة وزرائه وأعوانه ، وأصحابه الكثيرين، أن يعينوه فيما يرتئيه ، وعندئذ وقع حمل المسئولية كلها مرة أخرى على طبيبه ، أمير البحر ما كنطار .

وفحص الطبيب الرئيس ، وبعد لأى قال : إن صحة الرئيس في هذه الآونة الحاضرة على خير ما يرام .

وتجنب الطبيب عمداً أن يذكر شيئاً عما يُقدَّر على الرئيس في السنوات الأربع القادمة من احتمال ، شغل نفسه بالحاضر ، وعاف ضرب الرمل ومكاشفة النجوم .

وقُضِيَ الأمر : وقضِيَ للرئيس بأن يأتيه الموت وفي يديه أزمَّة الأمور .

وتسأل : هل تاق الرئيس الراحل حقاً إلى دورة في الرآسة رابعة ؟

فاسمع هذه القصة ، ولست أذكر ممن سمعتها ، ولا أين قرأتها .

جلس صديق إلى الرئيس الراحل ـ وقد نجح في الرآسة المرة الرابعة ، جلس إليه ، ثم سأله : كم تجد من الغبطة في اختياره للرآسة من جديد ؟

فنظر إليه روزفلت ، وكان بيد الصديق كوب من شراب ، فسأله :

— كم كوباً شربت قبل هذا ؟ !

— كوباً واحداً !!

— إذاً فاشرب ثم اشرب . فإذا بلغت إلى الكوب الرابع قل لي كم لذتك به وكم متعتك ؟ . أحمد زكي

من أزهار الشر :

الميت المبتهج

للشاعر الفرنسي شارل بودلير

أريد أن أحتفر لنفسي في أرض قوية مليئة بالحلزون ، كهفاً عميقاً بعيد الغور ، أستطيع فيه أن أبسط — على هينة — عظامي المحطمة المنهوكة ، فأرقد في لجة النسيان ، كما يرقد كلب البحر في أعماق الماء .

إني أبغض وصايا الموتى ، وأجتوى القبور ، ولأنْ أدعوَ الغربان لكي تُدمي أطراف هيكلي الدنس ، أحب إليّ بكثير من أن أبتهل إلى الأحياء أن يبكوا دمعة واحدة عليّ .

إيه أيتها الديدان ! أيتها الرفاق السود التي لا تسمع ولا تبصر . . لقد أقبل إليك مَيت مبتهج تحرَّر من الأسر ! فيا أيتها الفلاسفة التي تنشد اللذة ، يا أبناء البلى : امضى بلا ندم في التهام حُطام جسدي ، ثم خبريني بعد ذلك : هل يمكن أن يكون ثمة عذاب آخر لهذا الجسد الذي جَفته الروح فبات هامداً ، وصار ميتاً بين الأموات !

ترجمة زكريا إبراهيم

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٣١ — الثلاثاء ١٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ — ١ من مايو سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

نهاية ألمانيا النازية

والمعضلة الألمانية الحقيقية

لم تبق اليوم ذرة من الريب أن ألمانيا النازية قد خسرت الحرب العالمية الثانية كما خسرت ألمانيا الامبراطورية الحرب العالمية الأولى ، وأن صروح النازية قد انهارت وسحقت بالرغم من استمرار المقاومة الألمانية في بعض الساحات المتفرقة فيما كان حتى الأمس القريب يسمى « بالريخ الثالثة » . وقد لا تمضي أيام قلائل حتى يعمد الحلفاء الظافرون عقب إتمام استيلائهم على العاصمة الألمانية التي احتل الروس معظمها حين كتابة هذه السطور ، إلى اعلان النصر الحاسم وانتهاء الحرب الأوروبية بظفر الأمم المتحدة . وقد تستمر المقاومة الألمانية بعد ذلك أسابيع أو أشهرا في بافاريا ، وهي المنطقة الأخيرة التي يلوح أن فلول القوى النازية تجتمع بها الآن لخوض المعارك الأخيرة ، ولكن هذه المقاومة اليائسة التي طال أمدها أكثر مما قدر في البداية لن تغني بالطبع شيئا ، ولن تنجي ألمانيا النازية من قدرها المحتوم ؛ وكل ما هنالك أنها تزيد في تدمير الوطن الألماني وفي جراحه الدامية ، وتزيد في محن الشعب الألماني وآلامه .

والحقيقة أن ألمانيا النازية خسرت الحرب منذ ارتدت جيوشها النازية مدحورة من مواطن نصرها الخلب في الشرق والغرب إلى حدود الوطن الألماني . ولكنها لم تستطع من جراء تفرقها في مختلف الميادين ، وحرصها على البقاء في بعض المراكز الإستراتيجية ، أن تجتمع في الوقت المناسب في كتلة ضخمة متماسكة حول الوطن الألماني لتكرس جهودها للدفاع عنه . وقد كانت خطة القيادة الألمانية ترمي دائما على غرار ما حدث في الحرب الكبرى إلى خوض المعارك مع العدو خارج ألمانيا لتنجو أراضي

الوطن من الدمار والويل. وقد نجحت هذه الخطة فى البداية نجاحا باهراً، فلبثت رحى الحرب تدور خارج ألمانيا إلى ما قبل أشهر قلائل، وخربت معظم ساحات أوربا الشرقية والوسطى وغربى أوربا قبل أن ترتد الجيوش الألمانية إلى حدودها. ولكن هذه الخطة انتهت بعزل عدة جيوش ألمانية كبيرة فى ساحات لم تبق لها اليوم أية صلة بالدفاع عن ألمانيا. وهكذا مزقت قوى « الريخسفر » من جراء زحف الحلفاء السريع فى الشرق والغرب، وألفت ألمانيا النازية فى الساعة الحاسمة نفسها محرومة من عون مئات الألوف من أبنائها الذين أعدتهم لمثل هذا اليوم العصيب.

وقد كان زحف الجيوش المتحالفة فى الأشهر الثلاثة الأخيرة إلى قلب ألمانيا سريعا مدهشا، فانتثر عقد المقاومة الألمانية فى كل مكان، وسقطت معظم مدن الريخ الشهيرة ومناطقها الصناعية فى أيدى الحلفاء والظافرين، ودكت صروح الوطن الألمانى ومعالمه، ومزقت أشلاؤه بصورة لم تشهدها ألمانيا فى تاريخها الحربى الطويل، ولم تخطر على بال أشد المتشائمين من زعمائها الذين زجوا بها فى هذا الصراع المروع.

ومن الغريب المحير أن تستمر فلول « الريخسفر » بعد ذلك كله على المقاومة فى كل مكان كأنه يوجد ثمة ما تؤمله ألمانيا النازية من وراء هذه المقاومة العقيمة. وقد فسر ذلك أحيانا بأنه مادامت الأمم المتحدة قد فرضت على ألمانيا المغلوبة مذلة التسليم بلا قيد ولا شرط، ولم تفسح لها أى مجال للمفاوضة، فإن ألمانيا لن تلق السلاح مختارة، ولن تجثو على ركبتيها كما قال هتلر فى يناير الماضى، وسوف تقاوم حتى النفس الأخير، وحتى تسقط صرعى بأيدى أعدائها فى ميدان الشرف.

ولكن هذا التفسير لا يكفى لتصور حقيقة العقلية الألمانية فى هذه الساعة العصيبة. بل يرى كثير من الباحثين أن هذه ظاهرة خطيرة تدعو إلى كثير من التأمل، وأنها ترتبط أشد الارتباط بما يسمونه المعضلة الألمانية النفسية.

فليس يكفى أن تهزم ألمانيا عسكريا وسياسيا فى هذه الحرب لكى يظفر العالم بسلام مستقر موطد الدعائم؛ فقد سبق أن هزمت ألمانيا فى الحرب الكبرى. ولكنها استطاعت فى أقل من عشرين عاما أن تنهض من كبوتها وأن تهدد سلامة الأمم المتحدة وسلام العالم بصورة أشد وأروع. وقد اتخذ الحلفاء الظافرون فى معاهدة فرساى أشد وأقسى الضمانات المادية الممكنة لتجريد ألمانيا من قوتها، ولكنهم غفلوا عن معالجة المعضلة الحقيقية، وهى المعضلة الأدبية، أو معضلة العقلية الألمانية التى صيرتها عبادة القوة وتمجيد الحرب والشغف بالغلبة والسيادة مصدر الشر والعدوان الدائم. وتلك العقلية هى التى أبت أن تعترف بنتائج الهزيمة الألمانية فى الحرب الكبرى، وهى التى بعثت النازية من أعماق المحنة واليأس، وأيدتها لتسترد قوى ألمانيا المحطمة، ولتحقق سياسة الانتقام والغلبة مرة أخرى.

وقد اعتبرت الأمم المتحدة فى هذه الحرب بعبر الحرب الكبرى، فأبت أن تسمح لألمانيا بوقف القتال أو عقد الهدنة حتى تسحق قواها سحقاً تاما وتحتل الجيوش المتحالفة سائر أراضى الوطن الألمانى، وتخفق أعلام النصر فوق عاصمة الريخ وجميع مدنها، وحتى يؤمن الشعب الألمانى بأسره بالهزيمة ويشعر شعوراً تاما بأنه خسر الحرب وحلت به الكارثة التى لا نهوض بعدها. ولم يبق اليوم أمام الجيوش المتحالفة على إتمام هذه المهمة الفادحة بعد أن بدأت أعلام النصر تخفق فوق العاصمة الألمانية، سوى القليل، وذلك مهما طال أمد المقاومة الألمانية المبعثرة فيما يسمونه بجيوب المقاومة فى بعض أنحاء بافاريا والتيرول وغيرها.

على أنه إذا كان العملاق الألمانى قد أثخن اليوم جراحا

وأصبح مصرع الريخ الثالثة حقيقة واقعة ، فإن المعضلة الألمانية الأدبية سوف تغدو مع ذلك أعظم المشكلات التي يواجهها الحلفاء عقب النصر .

ومن المحقق أن الحلفاء سوف يتخذون في هذه المرة لنزع سلاح ألمانيا وتدمير قواها العسكرية ومواردها الاقتصادية أشد وأقسى الاجراءات التي يمكن تصورها ، فسوف يقضى على « الريخستر » قضاء مبرما ، ويسحق أركان الحرب الألماني ، ويقضى على الصناعات الحربية الألمانية وتنسف مواقعها وتصادر آلاتها ، وسوف يحتل الحلفاء ألمانيا احتلالا طويل الأمد ، ويسيطرون على سائر مواردها وتصرفاتها . هذا فضلا عما يصيبها من الناحية الجغرافية من التمزيق والبتر . ولكن هل يكفي ذلك كله لتغيير العقلية الألمانية وإقناعها بأنها خسرت معركة السيادة العالمية بصورة نهائية ، وبأنها يجب أن تترك فلسفة القوة والانتقام نهائياً ، وأنه خير لألمانيا أن تندمج في جماعة الأمم المسالمة وأن تعمل معها لخير الإنسانية والمدنية ؟

إن الفكرة الأمبراطورية الألمانية عريقة مؤثلة ، وهي لا ترجع فقط إلى عصر بسمارك ، ولكنها ترجع إلى أكثر من مائتي عام . فمنذ عصر فردريك الأكبر ، وبروسيا تتطلع إلى تحقيق حلمها الأمبراطوري الضخم ، وقد تحقق هذا الحلم على يد بسمارك . وكان مما يحفز الفكرة الأمبراطورية الألمانية ويذكيها دائما أن تجد ألمانيا نفسها متأخرة عن بقية الدول العظمى في ميادين الاستعمار والسيادة . ولم تكن الحرب الكبرى سوى محاولة ألمانيا الأمبراطورية أن تشق طريقها إلى مغانم الاستعمار والتفوق الاقتصادي . ولم تكن ألمانيا الهتلرية سوى الأمبراطورية الألمانية الثالثة (الريخ الثالثة) تحدوها نفس المثل والغايات ، وتطبعها روح ومثل أشد عنفا وتوثبا . ولم تكن هذه الحرب العالمية الثانية سوى محاولة ألمانية جديدة لتحقيق أغراض السيادة العالمية واجتناء المغانم الاستعمارية والاقتصادية ، أضفت عليها التعاليم النازية أخطر ما في فلسفة القوة الألمانية من مثل العنف والاعتداء .

وقد أثبتت التجربة أن الهزيمة العسكرية وحدها لا تكفي لا نتزاع فلسفة القوة من عقلية الشعب الألماني ، بل قد تغدو الهزيمة ذاتها عاملا في إذكاء هذه الروح العنيفة ، كما حدث عقب الحرب الكبرى ، حيث أصبحت الهزيمة مبعثا لفوارة جديدة من القوة وشهوة الانتقام والسيادة . وأثبتت التجربة في نفس الوقت أن الشعب الألماني ليس مشغوفا بالنظم الحرة ولا حريصا على استبقائها ، فقد منح الحرية الشاملة سنة ١٩١٩ في ظل جمهورية فيمار لأول مرة في تاريخه ، ولكنه لم يتذوقها ولم يهش لها ، ولم يطربه اسم الجمهورية ، كما كان يطربه اسم الامبراطورية . ولذلك لم يأسف على فقد هذه الحرية حينما انضوى مختارا متحمسا تحت لواء الطغيان الهتلري .

والآن تجود الريخ الثالثة بأنفاسها الأخيرة . وقد انتهى بانهيار ألمانيا النازية أعظم خطر ظهر في الوجود على حريات العالم وأمنه وسلامه . ولكن يبقى على الأمم المتحدة غداة النصر أن تواجه المعضلة الألمانية الحقيقية في أدق صورها ، ويبقى عليها أن تعمل لعلاج هذه المعضلة النفسية بكل ما أوتيت من ضروب الحكمة ، لكي يتاح لها أن تظفر بأن تحقق للعالم سلما مستقرا وطيد الدعائم .

محمد عبد الله عنان

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

خير الدين باشا التونسي

— ٥ —

بعد أن سار شوطاً بعيداً في طرق الإصلاح كانت تتجمع عناصر مختلفة تعاديه وتضع العراقيل في سبيله وتشيع الأخبار عن خيانته وسوء قصده ، وتفسر بالشر بعض ما يأتي من الخير ، وتجسم بعض ما يرتكب من أخطاء ، ولا بد لكل مصلح من أخطاء .

فالباي (محمد الصادق) كان مصطفى خزنه دار الناهب السارق الخائن أحب إليه من خير الدين النزيه العادل الحازم ؛ فهذا لم يكن يعطيه من المال إلا ما تقرر له في الميزانية ، وذاك يعطيه ما يشتهي ليأخذ لنفسه ما يشتهي ؛ وهذا حازم لا يجيز من الأمر إلا ما وافق العدالة ومصلحة الشعب ، وذاك يقبل الشفاعة والرجاء ولو على حساب العدالة ومصلحة الشعب ؛ وهذا جاد خشن الملمس ، وذاك ناعم هين لين ؛ والأمراء المترفون يرضيهم الطهر ومن يجيب رغباتهم ، أكثر مما يرضيهم الخير ومن يقدر التبعات .

لذلك كرهه الباي وعاداه ، ولكنه رأى تملق الناس به فجاراه وداراه ، وخالفه سراً ووافقه جهراً .

ثم هناك أعوان مصطفى خزنه دار الذين كانوا يأكلون من فتات مائدته ، ويسرقون درهماً إذا سرق ألفاً ، ويكسبون بالوساطة والشفاعة ، وينهبون من الضرائب غير المضبوطة ، قد رأوا خير الدين يسد في وجوههم الباب ويحصنه بالعدالة ويضع من النظام ما يفقرهم ليغني الشعب — هؤلاء الذين لا يعجبهم النور وإنما يعجبهم الظلام قد كرهوه أيضاً وأخذوا يدسون له الدسائس وينصبون له الشباك .

وهؤلاء أيضاً فئة اشترت ذممهم إيطاليا أو فرنسا ومنتهم الأماني بالمناصب والمغانم إذا هم أعانوها في خطتها ودبروا لها الاضطراب الذي يمكن من سلطانها ، وخلقوا الأحداث التي ترتكن عليها في تدخلها .

وهذه فرنسا كرهت أشد الكره من خير الدين ما يقوم به من حركات لربط تونس بالدولة العلية ربطاً محكماً ، فهي تربد غزالتها كما يرقب الذئب انفراد الشاة من القطيع ليفترسها ، حتى إنه في إحدى سفرات خير الدين إلى استانبول ركب السفينة من ميناء تونس وقبل أن تقلع أعلن أن قادماً أتى لزيارته ، وإذا هذا القادم هو القومندان الساعد لبارجة فرنسية كانت راسية في الميناء ، فسأله رهل يعتزم السفر ؟

أجاب : نعم ، فقال : إن قائده يرجو منه أن يؤخر سفره يومين أو ثلاثة حتى يتلقى القنصل التعليمات من باريس .

خير الدين : أنت رجل عسكري مثلي تعلم أني لا أستطيع مخالفة أمر حكومتي إلا إذا خالفت واجبي ، ولست أملك حرية الاختيار بين طاعتي الواجب ، ومجاملتي قائدك ، وإذاً فأنا راحل في الساعة التي حددتها .

الضابط : في هذه الحالة أحذرك وأنذرك بأن قائدي — مع الأسف — سيمنعك بالقوة .

خير الدين : كان الأولى أن تبدأ مهمتك بهذا الكلام ، ولست في منزلة تجعلني أتلقى الأوامر من قائدك ، ولست مغيراً قراري ، والحكومة التونسية مطلقة الحرية في تصرفها ، وسأمنحك الوقت الكافي للعودة إلى بارجتك وتبليغ قائدك ما قلت ، وستقوم الباخرة في موعدها ، وإذا كان قائدك سينفذ تهديده فإني أعرف كيف أقابله بالمثل وبالوسائل التي أملكها وأحمله تبعة ما يحدث .

وتحركت السفينة في المساء ، وطاردتها البارجة الفرنسية ترسل الإشارات بالوعيد وتأمر بالوقوف من غير جدوى حتى الصباح ، واستمر في طريقه ، وعادت البارجة الفرنسية

كل هذه القوى تجمعت لما كسته في وزارته ، وانتهزت الفرصة لاتهامه بما يسقط منزلته . وربما كان أهم ما وجه إليه من تهم أمران :

(١) اتهمه خصومه السياسيون بأنه منح امتيازاً لشركة فرنسية بمد خط حديدى بين تونس والجزائر ، وهو يعلم مطامع فرنسا ويعلم امتلاكها للجزائر ، فمد هذا الخط يمكنها عند ارادتها احتلال تونس أن تغزوها من الجزائر . وفى ذلك خطر أى خطر ، وقد أطنبوا فى هـذه التهمة ، وأحكموا خطتهم وأرادوا أن يضربوا عصفورين بحجر ، فمن ناحية يسيئون سمعته عند المواطنين الوطنيين ، ومن ناحية يشوهون منزلته عند الدولة العثمانية التى تعتقد أنه رجلها يعمل لصالحها وصالح تونس بربط العلاقة الوثيقة بينهما .

وكان دفاع خير الدين وحزبه عن هذه التهمة أن لهذه المسألة تاريخا ، وهو أنه فى عهد وزارة مصطفى خزنه دار طلبت شركة انجليزية مد خط حديدى بين تونس وميناتها « حلق الوادى » فأجيبت إلى طلبها ، وأنشأته فعلا ثم باعته إلى شركة إيطالية ، وبعد مدة وجيزة طلبت شركة انجليزية أخرى مد خط يسير من تونس إلى داخل البلاد حتى سوق العرب ، ثم يمتد إلى « كيف » مركز الصناعة الزراعية فى البـلاد ، وينتهى فى منتصف الطريق بين ولاية تونس وحدود الجزائر ، فمنحت الشركة الامتياز لأن الباى ومجلسه كانا متفقين على أن من مصلحة البلاد الاكثار من مد الخطوط لتسهيل المواصلات . ولكن هذه الشركة لم تنجح فى جمع رأس المال لهذا الخط فطلبت مساهمة الحكومة بنسبة الربع فى النفقات فلم تجب إلى ذلك وطلبت مهلة بعد مهلة دون أن تبدأ فى العمل فسقط الامتياز من نفسه .

وفى وزارة خير الدين طلبت شركة فرنسية الاذن لها بمد خط بين تونس والجزائر فرفض خير الدين بحجة أن المسألة تتصل بالحدود والباب العالى وحده هو صاحب الحق — بمقتضى الفرمان — فى التصرف فى هذا الشأن ، فلا يمكنه أن يتفق مع الشركة بدون استشارته ، ورأت الشركة أن هذا يورطها ، وأقل ما فيه أن طلبها من الباب العالى ذلك اعتراف منها بسيادته على تونس ، فعدلت مطالبها وطلبت أن تحل محل الشركة الإنجليزية فى مشروعها بنفس الشروط ، وهذا يجعل الأمر فى يد الحكومة التونسية لأنه لا يصل إلى الحدود ، وعرض خير الدين الأمر على مجلس الوزراء ، فأجاب طلب الشركة .

وبعد ثمانية أشهر من اعتزاله الحكم عرضت الشركة تكملة الخط إلى حدود الجزائر فأجيبت إلى طلبها .

قال خير الدين إنه لم يسمح بمد الخط إلى الحدود ، وبأنه لو لم يسمح لفرنسا بما سمح به لانجلترا لنشأ عن ذلك مشكلة دولية لم يكن فيها موقفه قويا ، ثم إن مد الخطوط الحديدية من مصالح الدول ، ومن الخير أن تنشئها الدولة أو الأهالى وليس ذلك فى الإمكان ، فالحكومة فقيرة تبتلع أكثر ميزانيتها فوائد الديون ، والأهالى فقراء جهلاء أو أغنياء لاعلم لهم بالشركات ولا قدرة لهم على إدارتها ، فلم يبق إلا منحها للشركات الأجنبية أو عدم إنشائها بتاتا .

والحق أن مركز خير الدين فيه بعض الضعف . فتعديل الشركة مطلبها واقتصارها على جزء من الطريق يفهم منه بالبداهة أنها تريد وضع رجلها فى مركز تثب منه إلى الحدود كما حدث فعلا . فالحزم كان يقتضى المنع بتاتا ، إذ من الواضح أنها جزأت مطلبها على دفعتين بعد أن طلبته دفعة واحدة والنتيجة واحدة .

وكأنه أحس بضعف حجته هذه فحاول أن يريح ضميره بعد سقوط تونس إذ قال : « على أن الفرنسيين عند غزوهم تونس أنزلوا قواتهم فى طبرق وبنزرت واجتازوا منهما الحدود إلى تونس دون أن يعتمدوا على السكة الحديدية المذكورة التى كانت فى بداية إنشائها » .

كما قال إن إنشاء هـذا الخط ليس هو الذى أضاع تونس ، ولا عدم إنشائه كان يحميها ، لأن مركز تونس لم يكن يحميه إلا الضمير الأوربى الذى كان يوجب المحافظة على وحدة الدولة العثمانية . وما دامت أوربا سمحت لفرنسـا

بالانقضاض على فريسة هينة كتونس تخط الحديد لا يقدم ولا يؤخر .

وهذا ضرب من اليأس لا يصح أن يتسرب إلى نفس المصلح .

وقد نقده بعضهم بأنه أيام وزارته الثانية جاء فرأى قوانين الشورى ملغاة ، فلم يعمل على إعادتها وإصلاح ما كان قد ظهر من عيوبها ، بل حكم البلاد حكماً استبدادياً وإن كان عادلا ، وهو هو الذى طالما مجد الشورى فى كتاباته وفى مقدمة كتابه ، وطالما قال إن الحاكم الذى يحكم بأمره وإن كان عادلا ليس لعدله ضمان ، إذ هو موقوت بوقته ، فكان واجبا عليه وقد ملك زمام الأمر أن يعيد الحكم النيابى ويقويه فى البلاد حتى يذيق الناس لذته ويفهموا فائدته .

وكانت حجته فى الرد عليهم أن الحكم النيابى فى المملكة الإسلامية لا يتيسر إلا بأحد أمرين رغبة الملك أو الأمير فى ذلك ، أو قوة الرأى العام وثورته المطالبة بهذا الحق رغم رغبة الملك أو الأمير ، والأمران مفقودان فى تونس ؛ فالباى يكره الحكم النيابى ولا يطيقه ، والرأى العام جاهل خاضع ، وليس يفهم مزايا الحكم النيابى إلا أفراد معدودون ليس لرأيهم قوة التنفيذ . وهب أن الباى قبل النظام النيابى أليس فى إمكانه إلغاؤه كما حدث عند سنوح الفرصة ، مادامت الأمة ليس فيها من يحميه ويحرص عليه ، والعالمون بالأمور يرون أن حجته فى ذلك واهية ، فعند ما أسندت إليه الوزارة كان قوياً وكان الباى والناس يرون فيه المنقذ الوحيد لما آلت إليه الحال ، فلو تشدد فى عدم قبوله الحكم إلا بالنظام النيابى لاضطر الباى أن يجيبه إلى مطلبه ، وفى مدته كان فى إمكانه تدعيمه حتى يألفه الناس ويطمئنوا إليه ويشعروا أنه حاجة ضرورية من حاجاتهم .

وعلى الجملة فهذا خير الدين بما له وما عليه ، حكم البلاد حكما استبداديا ولكنه عادل ، وتولى أمر البلاد وهى فوضى فى كل ناحية من نواحيها فعالجها بحزم وضبط وقوة ، وقبض بيد من حديد على المفسدين والمتلاعبين ، ودفع البلاد إلى الأمام بأقصى ما يستطيع من قوة ، وعالج فى كياسة التيارات السياسية فى أحرج أوقاتها ، ولكن كان شأنه فى ذلك شأن كل مستبد عادل يزول فيزول بزواله كل إصلاح وترجع الأمور إلى ما كانت عليه من اضطراب وفساد .

لقد سمع الباى إلى الوشاة فصد عنه وأوسع الطريق أمام الدساسين يدسون له ويشيعون الأراجيف حوله حتى بالمتناقضات ؛ ففريق يقول إنه يريد تسليم البلاد لفرنسا بدليل مسألة السكة الحديد ، وآخرون يقولون إنه يريد تسليم البلاد للدولة العلية وسلبها استقلالها بدليل مساعيه المختلفة فى هذا الطريق . وقد نصحه بعضهم فى هذا الموقف بأن يشرك معه الوزراء فى تصرفاته ويحمل المسئوليات معه ، وأن يقسم الإدارة إلى أقسام ويجعل على كل قسم رئيسا بلقب وزير يتحمل المسئولية فى اختصاصه ولا يرجع إليه هو إلا فى الأمور الهامة ، وبذلك توزع الأعباء والمسئوليات ، ولكنه كان من الأشخاص الذين ضعفت ثقتهم بكل من حولهم وشك فى كل الرجال الذين ناصروا العهد الماضى ، ولم يؤمن إلا بالله وبنفسه ، فخشى إن هو فعل ذلك أن يتلاعب من يسند إليهم العمل فيما يتولونه ويسببوا له من المشاكل أكثر مما يحلون ، فرفض هذا وظل قابضا على زمام كل الأمور .

نجحت دسائس الدساسين فباعدوا بينه وبين الوالى ، وزاد الأمر سوءاً أن الدولة العثمانية كانت قد دخلت فى حرب مع الروسيا وطلب الباب العالى المعونة من الولايات ومنها تونس ، فتراخى الباى عن إجابة هذا الطلب وتحمس خير الدين ودعا الأهالى إلى التطوع فتطوعوا ، وأرسل ما تطوعوا به إلى الباب العالى ، فازداد الباى نفوراً لأنه لم يكن يسره الارتباط الوثيق بين تونس والدولة العثمانية .

وكان أخشى ما يخشاه الباى هياج الأهالى لعزله

مراحل التعليم

ومراحل النمو في نظر علم النفس

تتجه الأذهان الآن إلى وجوب التوفيق قدر الإمكان بين نتائج البحوث النفسية وبين ما يجب أن يعمل في ميدان التعليم

وقد يتساءل أحد المشتغلين بعلم النفس يسائلني الكثيرون من إخوانى عن مدى ما وصل إليه علم النفس من المراحل المختلفة التي يمر فيها الفرد أثناء حياته، ومدى اتفاقها مع مراحل التعليم

أما المراحل القائمة الآن فهي قائمة في الظاهر على مراحل نمو طبيعية، ولكنها في الواقع غير ذلك. فمراحل التعليم العام الحالية بعد انتهاء سن الروضة — وهي سن الثامنة — تنتهي أولاها بالتقريب في سن الثانية عشرة، وهي سن بدء المراهقة، وتنتهي ثانيتها في سن الثامنة عشرة، فكأن دور المراهقة هو الدور الفاصل بين مرحلتي التعليم، الابتدائي والثانوي. ولكنه من المعلوم أن التلميذ لا يدخل المدرسة الابتدائية عادة إلا إذا وصل إلى مستوى معين في القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، مما حول الرياض إلى مرحلة إعدادية للتعليم الابتدائي فحسب. ولا يدخل التلميذ المدرسة الثانوية إلا إذا وصل إلى مستوى معين في التعليم الابتدائي. وقد يصل إلى هذا المستوى في سن العاشرة أو قبل ذلك، وقد يصل إليه أيضاً في سن السادسة عشرة أو بعد ذلك. وليس هناك في مصر ما يمنع من الجمع في فرقة السنة الأولى الثانوية بين تلميذين أحدهما في العاشرة وثانيهما في السادسة عشرة. بل إننا نجد بحسب الواقع أن تلاميذ المدرسة الابتدائية تتراوح أعمارهم أحياناً بين السادسة والثامنة عشرة. وأما المدارس الثانوية فإن الأعمار فيها تتراوح أحياناً بين العاشرة والثانية والعشرين.

وبذلك نجد في كل من المدرستين الابتدائية والثانوية أن الطفل الصغير قد يلعب في نفس الفناء الذي يلعب فيه آخر اجتاز مرحلة المراهقة، بل ووصل إلى مرحلة الشباب، وهذا مما يقطع على الصغار الأذكياء طريق النمو الاجتماعي والخلقي الذي يتطلب جوا متجانسا حراً ملائماً لهذا النوع من النمو، فيكبون على دروسهم حتى يتفوقوا على زملائهم الكبار. وبذلك يشغلون في الغالب نظاماً ضيقاً ضئيل الفائدة في الحياة العامة.

وبعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوي يتدافعون جميعا إلى التعليم العالي. ولا فرق بين شخص وآخر إلا بمجموع درجات وقدرة على دفع المصروفات. فالنابغة في سن السادسة عشرة قد يحصل بحكم عدم نضجه على درجات أقل من زميله في سن العشرين. وهذا الزميل يمكنه عادة دفع المصروفات، فيجد بحكم درجاته ومقدرته المالية فرصة أكبر من زميله الصغير السن. وبهذا نجد أن الأمة تفقد

لتملقهم به وإظهار شعورهم نحوه في المناسبات المختلفة اعترافاً منهم بجميله. فلما كثرت الإشاعات حوله اشمأز الباي الفرصة وأشعره بعدم رضاه عنه، فقدم خير الدين استقالته فقبلها الباي، وكان ذلك سنة ١٢٩٤ وأمر الباي الوطنيين بتجنبه حتى خاصة أصدقائه، وقد استأذن الوزراء الباي في زيارة خير الدين عقب استقالته فلم يأذن لهم، وأرصدت حول داره العيون، فكان في حقيقة الأمر معتقلا. ولما سئم هذا العيش استأذن في السفر إلى أوربا لمداواة أعصابه فامتنع الباي أولاً ورضي أخيراً، ثم طلب العودة على أن يؤمن على حريته الشخصية من غير أن يتدخل في الأمور السياسية، فلم يُرَدّ على طلبه بقبول ولا منع، فحضر بنفسه من غير أمان وضيق عليه أكثر مما كان.

(يتبع) أحمد أمين

عددا كبيرا من قادتها في طريق التعليم .

يتبين مما ذكرت — ومن كثير مما لم أذكره — أن النظام الحالي مليء بالعيوب ، وأنه لا يعطي فرصا عادلة لجميع المتعلمين على السواء . فلننظر في نظام آخر لنبحث فيه لا من حيث عدالة ما قد يعطي من الفرص للمتعلمين ، ولا من حيث معالجته لمختلف مشاكل التعليم القائمة ، ولكن من حيث تلاؤمه أو عدم تلاؤمه مع ما وصل إليه علم النفس من مراحل نمو الفرد .

أهم ما وصل إليه علم النفس هو التداخل الشديد بين ما يسمونه مراحل النمو المختلفة ، فمن العسير جداً أن نعرف متى تنتهي مرحلة ومتى تبدأ مرحلة أخرى . فعملية النمو عملية تدريجية لا نستطيع أن نميز فيها حدودا فاصلة . وصعوبة تمييز الحدود الفاصلة بين مرحلة وأخرى ليس أمراً خاصاً بالنمو العقلي للإنسان فقط ، وإنما نجده في كل ميادين الحياة النباتية والحيوانية ، فليس من السهل على أي إنسان كائنا من كان أن يضع خطا فاصلا يميز به بين انتهاء نمو الزهرة مثلا وابتداء نمو الثمرة منها . ولكن يمكن للشخص أن يختار فترتين متباعدتين يحكم فيهما في الفترة الأولى على أن هذه زهرة قطعاً ، ويحكم في الفترة الثانية على أن هذه ثمرة قطعا . وحتى إذا أخذنا الحشرات التي يمكن تقسيم حياتها إلى مراحل أربع : وهي البيضة ، ثم اليرقة ، ثم الشرنقة (العذراء) ، ثم الفراشة ، فإنا نجد أنه لا يمكن وضع حد فاصل بين اليرقة والشرنقة ولا بين الشرنقة والفراشة . وقد سبق لي أن فتحت شرانق لدود الحرير لأرى ما بداخلها إن كان أقرب إلى اليرقة أم أقرب إلى الفراشة ، فوجدتها تجمع بين صفات الاثنين . ولكن هذا لا يمنع من أنه يمكننا أن نأخذ فترتين متباعدتين في أدوار حياة دودة الحرير ونميز في هاتين الفترتين ، فنرى يرقة كاملة ثم فراشة كاملة تختلف عنها كل الاختلاف .

وإن كان القياس جائزا في ميدان الكائنات الحية فإنه غير جائز في ميدان العالم المادي . ومع ذلك يمكننا أن نأخذ على سبيل المثال تتابع فصول السنة . فقد علمنا المدرسون أن الشتاء يبدأ في ٢١ ديسمبر ، والربيع يبدأ في ٢١ مارس ، والصيف في ٢١ يونيه والخريف في ٢١ اكتوبر ... وهكذا ، ثم علمنا أن هذه التواريخ ليست تواريخ مبادئ الفصول ، وإنما هي تواريخ أنصاف الفصول ومبادئ الفصول أقل شدة من نهاياتها . فالشتاء قبل ٢١ ديسمبر أقل شدة منه بعد ٢١ ديسمبر . فعلمنا بذلك أن فصول السنة متداخل بعضها في بعض ، ولا يسهل وضع حد فاصل ينتهي عنده فصل ويبدأ عنده فصل آخر . وإذا تمكن الفلكيون من وضع هذه الحدود فهي حدود اعتبارية تفقد قيمتها بالنسبة لنظرة الإنسان العملية إليها . وأعتقد أنه رغم أن شهر ابريل على وشك الانتهاء فإن الناس يترددون كثيرا في اعتبار الشتاء منتهيا لتخفيف ملابسهم أو إبقائها كما هي .

هذه الظاهرة — ظاهرة التداخل واستحالة وضع حدود فاصلة بين مرحلة وأخرى — إذا هي وجدت في الظواهر المادية ، وإذا هي وجدت في ظواهر النمو عند الحيوان والنبات ، فهي موجودة بصورة أكثر توكيدا في مراحل نمو الحياة العقلية عند الإنسان .

وإذا أخذنا فترتين متقاربتين في حياة الناشيء فإننا لا نكاد ندرك الفرق ، فالطفل في التاسعة كالطفل في العاشرة ، والناشيء في الخامسة عشرة كالناشيء في السادسة عشرة . ولكن هناك فروقا واضحة بين اثنين أحدهما في العاشرة وثانيهما في السادسة عشرة .

فإذا كانت المراحل التعليمية تعطينا فرصة للتجانس في المدارس بحيث يتغلب هذا التجانس على الفوارق الكبيرة البعيدة الموجودة الآن في المدرسة الواحدة ، فإنها تتفق اتفاقا كاملا مع نتائج البحوث النفسية . وإذا رأى بعض

رشيد الدين
وكتابه جامع التواريخ

— ١ —

غزى التتار البلاد الإسلامية بغاراتهم المدمرة فى العقد الثانى من القرن السابع الهجرى فاجتاحوا بلاد ما وراء النهر ، لم يقف لهم جيش ولا حصن ولا مدينة . ثم اكتسحوا فى إيران .

وما زال الغزو ينتشر شرقاً وغرباً وجنوباً حتى وجه منكوقا آن ملك التتار وحفيد جنكيزخان أخاه هولاكو للقضاء على الاسماعيلية فى حصونهم ، وعلى الخليفة العباسى فى بغداد ، فظفر بالبلاد التى قصد اليها واستولى على بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

ثم توجه صوب الغرب يريد الشام ومصر حتى صدمته جيوش مصر والشام فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ . فعرف المسلمون أن فى استطاعة البشر أن يهزموا التتار إذا اعتصموا بالإيمان والشجاعة والصبر ، فارتد سيل التتار عن الشام ومصر .

وقام هولاكو ملكاً فيما فتحه من إيران والعراق وما يتصل بهما . وتوارث الملك أولاده حتى سنة ٧٤٤ هـ . وعرفت هذه الدولة باسم الدولة الايلخانية . وكان ملوكها يعترفون أول أمرهم بسلطان الخاقان الأعظم وارث عرش جنكيزخان .

— ٢ —

وقد استجاب التتار سريعاً للاسلام وحضارته . واستعانوا بالمسلمين فى تدبير دولتهم ، ثم أسلموا واندرجوا فى الجماعة الإسلامية .

وقد نبه فى عهدهم وزراء ، رعوا السياسة والعلم ، وتركوا فى التاريخ آثاراً محمودة منهم أسرة الجوينى : شمس الدين محمد صاحب الديوان ، وأخوه علاء الدين عطا ملك ، وابنه بهاء الدين . تولى شمس الدين الوزارة لهولاكو ولابنه أباقا . وولى علاء الدين أمر بغداد أربعاً وعشرين سنة منذ عام ٦٥٧ هـ . وكان بهاء الدين والياً على العراق العجمى وفارس .

وكان لهذه الأسرة فضل فى تدبير الملك ورعاية العلم والأدب ، وكان فيها الأدباء والعلماء . وقد ألف عطا ملك كتاباً ضخماً فى تاريخ التتار سماه جهانكشا أى فاتح العالم يعنى جنكيزخان . أكمله سنة ٦٥٨ بعد فتح بغداد بسنتين ، وانتهى فيه إلى حوادث سنة ٦٥٥ هـ .

ومن كبار الوزراء والعلماء والمصلحين فى دولة الايلخانيين رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير ابن موفق الدولة على . كان جده موفق الدولة هو ونصير الدين الطوسى فى أسر الإسماعيلية فى قلعة الموت حينما استولى عليها هولاكو سنة ٦٤٦ ، السنة التى ولد فيها رشيد الدين . فدخل موفق الدولة فى خدمة هولاكو .

وصار رشيد الدين طبيباً لأباقا بن هولاكو ، ونبه

الناس أن دور المراهقة يمكن اعتباره دوراً فاصلاً فان النظام المعقول يعتبر دور المراهقة ومبدأ البلوغ مرحلة كاملة أولها فى العاشرة وآخرها فى الرابعة عشرة . ومعلوم أن الدلالات الجسمية والعقلية المراهقة تبدأ فى مصر تقريباً فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة . وفى ضوء انعدام تميز الفواصل التى أشرنا اليه يمكن جعل مرحلة من مراحل التعليم أولها فى العاشرة وآخرها فى الرابعة عشرة .

نرى مما تقدم أنه من السليم أن يكون هناك للتعليم العام ثلاث مراحل : اثنتان بينهما مرحلة متوسطة . أما المرحلتان فإحداهما قبل العاشرة والأخرى بعد الرابعة عشرة . والمرحلة المتوسطة واقعة بينهما .

عبد العزيز القوصى

شأنه ، وعلت مكانته . فلما ولي محمود غازان ٦٩٤ زادت مكانة رشيد الدين وعُرِف فضله وتمكنه في علوم أخرى إلى الطب الذي عُرِفت خبرته فيه من قبل . فلما عزل الوزير صدر الدين الزنجاني المعروف بصدر جهان وقتل ولي رشيد الدين الوزارة وأشرك معه سعد الدين . سنة ٦٩٧ هـ . وذلك بعد ثلاث سنين من ولاية غازان . وصحب غازان في غزواته في الشام . وكان كاتبه باللغة العربية ، واستمر رشيد الدين وزيرا بعد موت غازان ، فوزر لألجايتو (خدا بنده) وأغدق عليه خدا بنده الهبات وقرّبه إليه ، وركن إليه في تدبير الملك ، فبلغ رشيد الدين أوج سلطانه ، وتصرف كما يشاء خلقه وعلمه وحكمته .

بنى رشيد الدين بجوار السلطانية دار الملك الجديدة ضاحية سماها الرشيدية ، وبنى فيها مسجدا كبيرا ومدرسة ومارستانا ومستشفى ، ودورا أخرى للخيرات وزهاء ألف منزل .

وبعد قليل بنى ضاحية أخرى قرب الغازانية شرق تبريز وأنفق أموالا كثيرة حتى ساق إليها الماء من نهر سراو (سراورُود) في قنوات منحوتة في الصخر ، ومكنه من هذه الأعمال ما أفاض عليه السلطان من الأعطية .

وفي عهد أبي سعيد بن أولجايتو (٧١٦ — ٧٣٦) أشرك معه في الوزارة علي شاه وبلغت الدسائس الماهوية من رشيد الدين فعُزل . ورغب في أن يعيش في دعة بعيدا عن الدسائس . وكان من الأمراء من يود رجوعه إلى الوزارة ، فاتهم منافسه علي شاه فاتهمه أنه هو وابنه الصبي إبراهيم وضعا السم لأولجايتو في دواء صنع له . وصدق أبو سعيد التهمة ، وكان صبيا في الخامسة عشرة من عمره ، فقتل الرجل العالم الخير الحكيم الحازم بعد أن لبث يدبر ملك المغول عشرين عاما ، قتل سنة ٧١٨ وقد نيف على السبعين . وقتل معه ابنه إبراهيم وهو صبي في السادسة عشرة من عمره . وتلك كانت غاية وزراء المغول الايلخانيين لم ينج منها إلا قليل .

وأعقب قتله مصادرة أمواله وتعذيب أقاربه ونفيهم وإبطال أوقافه . وأبيحت المحلة التي بناها وسميت الربع الرشيدي

دفن رشيد الدين في القبر الذي أعده لنفسه ، ولكن هذا الرجل الكبير لم يترك له حتى قبره ، فقد أمر ميرانشاه ابن تيمورلنك بعد مائة عام أن ينبش القبر وتنقل عظام المقبور إلى مقبرة اليهود . وكان حساد الرجل يزعمون أنه يهودي الأصل ، ومنهم من زعم أنه لم يزل على اليهودية .

كتبه

كان رشيد الدين — على كثرة شواغله — معنياً بتأليف الكتب في موضوعات شتى ، فألف :

١ — جامع التواريخ . وسنعود إلى الكلام فيه .

٢ — كتاب الأحياء والآثار . وهو ٢٤ فصلا تتناول موضوعات مختلفة في الطبيعة والزراعة والغرس وتربية الحيوان وقتل الحشرات الضارة ، وفي العمارة والتحصين وبناء السفن واستخراج المعادن الخ ، وهذا الكتاب مفقود .

٣ — التوضيحات وهو في العقائد والتصوف . كتبه بأمر أولجايتو ومنه نسخة في مكتبة باريس .

٤ — مفتاح التفاسير . في بلاغة القرآن وفي المفسرين وطرائقهم وموضوعات دينية أخرى .

٥ — الرسالة السلطانية في العقائد ، ألفها على أثر مجادلة وقعت في مجلس أولجايتو .

٦ — لطائف الحقائق في العقائد أيضا . وهي ثلاثون رسالة صدرها بمقدمة حدّث فيها برؤيا رأى فيها الرسول صلوات الله عليه ليلة السادس والعشرين من رمضان سنة ٧٠٥ هـ . وهذه الأربعة الأخيرة مكتوبة بالعربية ، وقد جمعت وسميت المجموعة الرشيدية ونسخها موجودة

وكتب أخرى .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

حتى ولا المليمين!

حمل إلى البريد خطابا مسجلا حول إلىّ من منزل إلى منزل إلى منزل حتى وجدنى أخيرا فى منزلى الأخير. ولهذا الانتقال قصة لا تخلو من الطرافة. فقد كنت أسكن منذ بضع سنوات منزلا فى جهة ما، وكان منزلا ظريفا رخيصا، استأجرته فى أيام الرخاء بأجرة كنت أقدر عليها. ثم أتت الحرب وكثرت الأموال فى أيدى أصحاب المحظوظ وبقيت أنا على عهدى أتدارى وراء جدران منزلى وأحمد الله على أن لى جدرانا أتدارى وراءها. وكانت الأموال كلما كثرت فى أيدى أصحاب المحظوظ وجدتها تتفلت من بين أصابعى كما يتفلت الماء الزلال. فالشىء الذى كنت أشتريه بقرش صار ثمنه عشرة قروش، والشىء الذى كنت أبذل فى ثمنه جنيها صار يأبى إلا أن يخطف من يدى عشرة جنيهات وهكذا. لجملة القول أن ذلك المنزل الظريف كان لى ملجأ أحتمى فيه بمروءتى من شماتة العدو.

ولكن رجلا محظوظا من أثرياء الحرب رأى ذلك المنزل الظريف فأعجبه، وأراد أن يستأجره ليقيم فيه لأن منزله الذى كان يقيم فيه من قبل قد أصبح لا يليق بما صار إليه من وجاهة وثراء. وقد علم ذلك السيد الوجيه أن القانون العسكرى لا يبيح له أن يخرج أحدا من مسكنه إلا إذا اشتراه بماله وطلب أن يقيم فيه بحكم عسكرى: فما هى إلا لحظات حتى ذهب إلى صاحب المنزل وبذل له الثمن الذى يرضيه فى منزله وعد له ألوف الأوراق نقدا وعدا بغير أن تختلج عضلة واحدة من عضلات وجهه، ثم بكر فى الصباح التالى وأعلن لى أنه قد صار صاحب الدار ثم أمرنى بالخروج منها وإلا . . . . . .

ثم أنفذ وعيده بالفعل فما هى إلا شهور حتى كنت أحمل متاع بيتى وأولادى إلى دار أخرى التمستها فى بعض أركان القاهرة، وحمدت الله على السلامة منذ وجدت ملجأ جديدا. ولم يكلفنى هذا من المشقة سوى أنى صرت أدفع فى الدار الجديدة ضعف أجرة منزلى الظريف القديم.

وقضيت حينا من الدهر وادعا فى الدار الجديدة حتى أنست إليها، وحمدت الله على أنى قد صرت بمأمن من أنظار أثرياء الحرب فى ركنى البعيد، وجعلت أدبر الأجرة الجديدة باقتطاع جنيه من هنا وجنيه آخر من هناك من أثمان القوت والملبس، حتى اطمأننت أخيرا إلى ما كان وكفى الله المؤمنين القتال. ولكن ما هى إلا شهور حتى اتفق أن وقع نظر أحد المحظوظين من أثرياء الحرب على الدار الجديدة، وكان مثل أخيه السابق يريد منزلا جديدا يناسب وجاهته الجديدة. وبالاختصار رأيت نفسى بعد قليل أحمل متاع بيتى وأولادى إلى دار أخرى فى ركن آخر من أركان القاهرة تمنيت أن يكون أخفى على الأنظار وأبعد عن طلاب الشراء. ولكن ما هى إلا أشهر أخرى قليلة حتى حمل البريد إلىّ إعلانا بأن صاحب الدار قد باعها إلى مالك جديد وأن ذلك السيد المحظوظ يريد أن يرانى لكى يتفاهم معى على الخروج من الدار فى سلام بغير خصام. فهذا هو المنزل الثالث الذى حول الخطاب المسجل إلىّ فيه، وكنت عند تسلمى للخطاب غارقا فى لجة الأفكار يحملنى الخيال على أجنحته فى أنحاء القاهرة طولا وعرضا من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، لعلى أعثر على مظنة منزل رابع أنتقل إليه إذا أخرجنى السيد الجديد من المنزل الذى اشتراه. وكنت عند ذلك شديد الحنق على الجنيهات الورقية التى لا يجد أصحابها المحظوظون شيئا يشترونه بها سوى تلك المنازل التى ألجأ إليها وأتدارى وراء جدرانها. وزاد حنقى حتى جعلت أفكر فى طريقة من الطرق للتخلص من عنف هذه الجنيهات الورقية فلم أجد طريقة أهتدى إليها سوى أن أصرخ إلى أولى الأمر فينا من رجال حكومتنا الرشيدة راجيا أن تستولى على أوراق أثرياء الحرب بما لها من سلطان، ونصحتها بذلك لعلى بأنها تستطيع أن تصرف

تلك الأموال فى وجوه كثيرة من الأعمال خير مما يفعل بها هؤلاء الأثرياء . فهى تقدر أن تحدث بها فى البلاد كثيراً من التعمير والاصلاح والإنشاء والاعانة . فالحكومة بغير شك تستطيع بهذه الأموال الورقية أن تبنى للمرضى المستشفيات وتفتح للجهلاء المدارس وتعطى الموظفين والعمال الاعانات ، وهى تستطيع بها أن تكهرب خزان أسوان وأن تؤسس خزان وادى الريان وتحفر قناة منخفض القطارة ، وتمد سكك الحديد فى كل مكان ، وتنشىء الحدائق العامة للترفيه عن المكدودين وتنقذ الطفولة الشريدة من فتك التشريد وتعيد الانسانية إلى كثير ممن أفقدهم الفقر كرامة الإنسان . هى تستطيع ذلك بكل تأكيد إذا جمعت الأموال الورقية من أيدى المحظوظين من أثرياء الحرب ، وسوف لا يضرهم ذلك ضررا يذكر ، لأن الحكومة سوف تبقى لهم بغير شك ما يكفى للحياة المستورة الكريمة كسائر عباد الله .

وفيما كنت أفكر حائقا فى ذلك كله جاءنى الخطاب المسجل الذى كنت أتحدث عنه فى أول هذا الكلام ، ففتحته خائفا لست أدرى ما فيه . فلست أذكر يوما أن البريد حمل إلى خطابا مسجلا يحتوى على نبأ بعلاوة أو ربح يانصيب ، بل كان لا يحمل إلا ما يبعث المخاوف والآلام .

وجملة القول أنى فتحت الخطاب فإذا فيه تذكرتان من جماعة خيرية لانقاذ المساكين كل منهما بمائتين وخمسين قرشا ، ومعهما خطاب ظريف بأن أرسل خمسة جنيهات على جناح البريد . رجل مثلى يعمل فى الصباح والمساء ، ويحاول أن يتدارى وراء جدران بيته فيأبى أثرياء الحرب إلا أن يشردوه ومع ذلك فهو يطالب بجنيهات خمسة لانقاذ المساكين . مساكين هم حقا !

وعند ذلك تحقق عندى ما ذهبت إليه فى تفكيرى الحائق . فلو جمعت الحكومة أوراق هؤلاء الأثرياء ، لأمكنها أن تدبر المال لهؤلاء الأشقياء حتى لا يبقى عمل للجماعة الكريمة التى تدبر لهم المال ، ولأمكنها فى الوقت نفسه أن تحمى أبنائى وأبناء أمثالى من التشرد بين البيوت . على أنى عدت بعد ذلك إلى نفسى أسائلها : أأدفع خمسة جنيهات وأنا أجاهد لكى أمنع صبيتى من التشريد ولا أكاد ؟ وإذا كنت أبذل هذه الجنيهات الخمسة فماذا يجب عدلا أن يبذله الأغنياء القدامى : عبود وكوتسكا وإسلام ؟ وماذا يجب أن يبذل هؤلاء الأثرياء المحدثون الذين عثروا على الكنوز فى أيام الحرب الشعواء ؟

وجعلت أحسب ثم أحسب حتى وجدت ما يجب على أن أدفعه إذا روعى العدل فى تقسيم الأنصباء . فعددت ما أملك فى جيبى وهو كل ما أملك ، وعددت ما يملك غيرى فى جيبه وفى بنكه ، وفى أرضه ، وفى عقاره ، ثم وجدت أنى لا يصح لى أن أبذل لجماعة الطفولة أكثر من مليمين .

وما تبين لى ذلك حتى أخذت التذكرتين وكتبت خطابا أعتذر فيه عن قبولها ، وأظهرت استعدادى لأن أدفع نصيبى العادل إذا شاءت الجماعة الكريمة أن تلزم العدل ، فعرضت أن أدفع المليمين . ثم وضعت الخطاب فى صندوق البريد .

على أنى عدت إلى نفسى بعد أن أرسلت الخطاب فلمتها على هذا الإسراف . فإن المال الذى تجمعه الجماعة الكريمة لن يصل إلى الطفولة ، إلا بعد أن يناله القص والحذف والتقطيع . فلأم كلثوم منه جزء حلال ، وللنمر الراقصة منه جزء كذلك حلال ، ولسائر الملهيات والملهين أجزاء أخرى كذلك حلال ، ولن يبقى بعد ذلك للطفولة الشريدة إلا مثل ما يبقى لى فى اليوم الثانى من الشهر فى هذه الأيام . فوقع الألم فى نفسى ، ولو وجدت عند ذلك سبيلا إلى صندوق البريد لفتحته عنوة ، واستعدت منه خطابى ، فأنا أولى من كل الراقصات والراقصين بالمليمين .

نعم أنا أولى بالمليمين من كل هؤلاء ، فأنا أعلن هنا أنى آسف لأنى لن أبذل للجماعة النبيلة شيئا من مالى حتى ولا المليمين .

(....)

لا . لا ! يا بيضاوى !

الأدب من الفنون التي لا تعرف إلا الصراحة ، وإذا فقد الأدب الصراحة أصبح شيئاً لا روح له . هذا من البديهيات . ولذلك كان واجبا على النقد الأدبي أن يكون صريحا لأنه متصل بالأدب ولأنه في ذاته قد يكون أدبا . ولقد كتب الأستاذ الجليل طه حسين مقدمة لكتابه «فصول في الأدب والنقد» يصح أن نعدها حجة قوية في جانب النقد الأدبي وأنه من صميم الأدب .

ولذلك كان من الضروري أن يكون الناقد أديبا من صميم الأدباء . وكان من الضروري كذلك أن يكون من الثقافة والعلم بالفن الذي ينقده بحيث يكون لنقده معنى . هذا أيضا من البديهيات .

أكتب هذا كله بمناسبة كلمة نشرت في مجلة «أخبار اليوم» القراء في نقد كتاب «مع الزمان» للعبد الفقير كاتب هذه السطور . ومجلة «أخبار اليوم» حبيبة إليّ عزيزة عليّ ، وصاحبها وجل محرريها من أفاضل الأصدقاء الأدباء بغير شك . ولكني مع ذلك آخذ على «البيضاوى» ناقد الكتب في المجلة العزيزة بعض أمور صغيرة بمناسبة تلك الكلمة القصيرة التي كتبها عن كتاب «مع الزمان» .

وأول هذه المآخذ هو أن الناقد المبجل يأبى أن يظهر وجهه ويتخذ لنفسه اسم «البيضاوى» ، ولعله يريد أن يعطي قراءه صورة صاحب العمامة الكبرى ، وصاحب التفسير الشهير ، لكي تكون لكلماته صبغة من القدسية . ولكننا نظن أن العصر قد تقادم على «البيضاوى» وأصبح اليوم لا يذكره أحد في باب الأدب ، وكان خيراً لو سمى نفسه «الجاحظ» مثلا فهذا الاسم أقرب إلى النقد الأدبي ، ومع ذلك فقد كان خيرا من هذا أن يكتب اسمه الصريح ، فقد يكون في هذا ما يلقي الضوء على آرائه حتى لا يظلم اسم «البيضاوى» بنسبتها إليه .

والمأخذ الصغير الثاني هو أن هذه الكلمة ذكرتني بصديق قديم عليه رحمة الله كان لا يعجبه كتاب لأحد من خلق الله ، وقد حدث مرة أن رأى كتابا على مكتبي فسألني عنه فقلت إنه مؤلف بديع لصديق من الأصدقاء ، فتناول الكتاب بيده ثم «فر» صفحاته سريعا بين إصبعين وطقطق بلسانه قائلا : «لا . مش حاجة !» .

فالسيد «البيضاوى» لم يتناول بالنقد شيئاً واحداً من القصص ، ومع ذلك فقد رأى فيها رأيه — وهو أعلم بحكمته في ذلك فلا أحب أن أجادله في رأيه .

والمأخذ الثالث أن السيد «البيضاوى» على ما يظهر قد قرأ مقدمة الكتاب ، وأحب أن يأخذ من أقوالها ما يقيم به الحجة عليّ . وهذا من عجيب الأمر ! فإني لم أكتب للناس مقدمة فحسب بل كتبت لهم قصصا متعددة ، فلست أدري الحكمة في أنه لا يكتب إلا عن المقدمة ! ولعل للسيد البيضاوى حكمة يعرفها ، وأغلب ظني أن القصص التي كتبتها تتعلق ببعض عصور التاريخ ، وليست في التفسير مثلا ، ولا في دائرة أخرى من اختصاصه .

والمأخذ الرابع أنه عند ما نقد رأيي في المقدمة رأى أن يلومني على أني أتهيب قارئي وأني لا أحب أن أقدم له فيما أكتب لغواً من الحديث .

ثم إنني أعرف قرائي وأجلهم ، ولا أريد أن أعامل من يريد قراءة قصصي إلا معاملتي لقرائي الأعزاء .

ثم لا أريد أن أعبث بهم ، أو أسخر منهم ، لأني لا أعرف العبث ولا السخرية . أنا أحدثهم بقلبي ووجداني وروحي ، وليس في هذا شيء من العبث أو السخرية . لست أحب أن أتملق القراء ، فهذا ليس من طبعي ، ولا أحب استدرار رغبة القراء حرصاً على النفع . وحسبي أن يقرأني الأقلون ، لأني لن ألبث حتى يقرأني الأكثرون إذا ما نقلتهم إلى جانبي . لا أذهب أنا إلى القراء بل أدعوهم إليّ ، وأسير معهم نحو الأفق

المتلألئ الطاهر . هذا ما لا يعجب السيد « البيضاوى » ، لأنه على ما يظهر قد ترك ما فى اسمه الكريم ، وأصابته عدوى الهستيريا الحديثة ، فهو لا يحب إلا أن يطلق الغرائز ، ويستدر رغبة العبث . وهو يريد أن أسخر من قرائى ، وأن أحملهم على إفساد أرواحهم . فإذا كان هذا ما يريد حقا فلست معه ، وليغضب على كما يشاء له هواه . ولكنى أطمئنه بأن قرائى يرتاحون إلىّ مثل ارتياحى إليهم ، وإذا كنت لا أعجبه فهذا من سوء حظى ، أما قرائى فإنى قد أعجبتهم والحمد لله ، وقد دل الواقع على أنى قد أعجبتهم فيما كتبت .

والمأخذ الخامس والأخير ، أنه أراد أن يحط من شأن الكتاب ، فوصفه بأنه يليق أن يكون مطالعة المدارس . مرحى يا سيد بيضاوى ! إن هذا والله فى نظرى بديع وجدير باغتباطى . فلست أحب شيئا أكثر من أن يكون كتابى فى يد الأبناء يقرأونه ويتمثلون بما فيه ، فهم جيل الغد الذين أعلق عليهم كبار الآمال .

وقد أراد الأستاذ الجليل طه حسين مرة أن يمدح قصة زنوبيا التى ألفتها منذ حين ، فنصح لأولى الأمر أن يجعلوها فى يد الشبان من الطلبة ليقرأوها ، وكانت تلك تحية نبيلة شكرتها للأستاذ الجليل .

فلست أدرى حكمة السيد البيضاوى فى قوله تلك ، وأغلب ظنى أنه لا يعرف المدارس ولا يؤمن برسالتها ولا يعرف لها قدراً ، وقد يكون له فى ذلك عذر ، وأنا أحب أن ألتمس له المعاذير . وأما الحقيقة فهى أنى أكون أعظم كتاب مصر اغتباطا إذا سمع تلاميذ المدارس نصيحته وأقبلوا على كتاب « مع الزمان » فجعلوه مطالعة لهم .

أسأل الله أن يستجيب له ببركة اسمه الكريم .

لالا ! يا بيضاوى . ليس هذا بالكلام .

محمد فريد أبو حديد

نعم نحن أمة !

« نعم نحن أمة » هو الجواب الصحيح على سؤال الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد (أبو حديد) وقد عاد إلى سؤاله من جديد فى العدد الأخير من « الثقافة » الغراء . ومن حق كل إنسان أن يسأل نفسه ويسأل الناس ماشاء متى شاء ، وليس من حقه أن يرتاب فى وجود أمته ، فيكون كالمنكر وجود أمة وهو بين أحضانها تغذيه بلبانها وتحنو عليه بعطفها وحنانها . ومحال أن يكون الأستاذ أبو حديد من أهل العقوق !

نعم ياسيدى نحن أمة لها كيانها ومقوماتها وتقاليدها ، ولها صبغتها التى فطرت عليها ، والتى قهرت بها الغاصبين والمستبدين من أعدائها وأبنائها على السواء ! ومهما كانت فى مصر مسافات واسعة بين الطبقات المختلفة من الناحية الاجتماعية ومن الناحية الثقافية ، فنحن أمة شرقية زراعية مسلمة ، ميزتها بساطة النفس المستمدة من انبساط الإقليم ، واعتدال المزاج المستمد من اعتدال الجو ، وكرم الطبع الذى ينبع من ماء النيل ، وصفاء القلب المستضىء بنور اليقين والإيمان .

وما زال راسخاً فى الأذهان قول المتنبى فى مصر : « يا أمةً ضحكت من جهلها الأممُ ! » فلئن صدق هذا الخبيث « المتنبى » فى تصوير جهلنا المبكى بهذه الصورة المضحكة — لقد صدق هذا الرجل الطيب « أبو الطيب » فى اعترافه بأننا أمة منذ أكثر من ألف عام !

فاطمئن ياسيدى الأستاذ (أبو حديد) اطمئنان الواثق المقتنع بالواقع المشهود ، أو — على الأقل — اطمئنان المتفائل المستبشر لأمته بالخير الموعود ، وإن لم تكن متفائلا فكن حجة المتفائلين كما قال العقاد وإن لم أفهم ما يعنيه على الوجه الصحيح . . .

تفاءلْ بما تهوى يكنْ فلقلّما
يُقالُ لشىء كان إلا تحقّقا !

(كوم النور) احمد احمد العجمى

أنا . . .

أظن أن ثلاثة أرباع مصائب الدنيا ناشئة عن هذا الضمير . . . أنا . . . ضمير المتكلم ، يكذب ويدعى الصدق ، ويبخل ويدعى الكرم ، ويجبن ويدعى الشجاعة ، ثم لا تراه يدخل فى أمر من أمور الدنيا إلا أظهر أنه يستولى عليه وينفرد به ، فاذا دخل الوطنية أظهر أنه أول المضحين ، وإذا دخل الأدب أظهر أنه أول المبرزين ، وإذا دخل الحب أظهر أنه أرق العاشقين ، ثم لا تراه يسمح لأخيه ضمير المخاطب (أنت) يتنفس بتنفس منه ؛ فاذا شاء هذا الضمير أن يتكلم قطع عليه الكلام ، وإذا شاء أن يشكو ، سدّ عليه سبيل الشكوى . أما أخوه الآخر ، ضمير الغائب (هو) ، فانه لا يغفل عنه طرفة عين ، فتراه يأكل من لحمه ، ويحط من قدره ، ويصغر من شأنه ، والخلاصة أن هذا الضمير (أنا) رأس المصائب . فلو كنت عضواً فى مجمع فؤاد الأول لشغلت المجمع طول الشتاء الماضى بالسعى فى حذفه ، فاذا حُذف فانى أعتقد أن البشرية تسلم من كثير من شره ، وخاصّةً إذا اندمج فى أخويه (أنت وهو) ، لأنّ هذا الاندماج يؤدى إلى التجرد والانسلاخ ، والبشرية فى أشد حاجة إلى هذا التجرد وإلى هذا الانسلاخ ، فقد تعبت من هذا الضمير (أنا) وتعبت من مشتقه (الأنانية) إذا جاز الاشتقاق من الضمائر . ولو بحثنا عن أصل هذه الحرب التى نعانى جحيمها من خمس سنين ومن الحروب التى قبلها لوجدنا أن أكثرها سببه هذا الضمير (أنا) ، فكل أمة تقول : أنا ، أنا . . . أنا أفضل الأجناس فأريد أن أخضع الدنيا لسلطانى ، وأنا أرحم الأمم فأريد أن أدخل الدنيا فى رحمتى ، وأنا أكثر الشعوب إنتاجاً فأريد أن أصرّف بضاعتى ، وأنا . . وأنا .

* * *

أولع بهذا الضمير كثير من رجال العبقرية ، وفى مقدمتهم المتنبى ، فلا تكاد هذه (الأنا) تفارق شعره : أنا صخرة الوادى . . . أنا الذى نظر الأعمى . . . أنا السابق الهادى . . . ما أنا إلا سمهرى . . . لا أشك فى أن أبا الطيب أقلق أهل عصره بهذه (الأنا) . فلو حدثنا محدث وأخذ فى كل فرصة يحدثنا عن نفسه ويردد : أنا ، أنا . . . لما فرغ من أحاديثه دون أن يتادرق قلوبنا شيئاً من الملل . إننا نحب أن يذوق الناس محاسننا من تلقاء أنفسهم ، من غير أن نذيقهم إياها ، إننا نحب أن يشعروا بهذه المحاسن من غير أن نشعرهم بها ، فاذا توخينا إظهارها والتنبيه عليها فقد يذهب شىء من آثار حسنها .

وأدرك كثير من رجال العبقرية خطر هذا الضمير (أنا) وما يجره عليهم من الويل ، فانصرفوا عنه إلى أخيه ضمير الغائب ، واندمجوا فيه ؛ فالجاحظ نسب كتبه إلى ضمير الغائب (هو) ، لأنه رأى أن هذه الكتب لما كانت منسوبة إلى ضمير المتكلم (أنا) كان يتواطأ على الطعن فيها جماعة بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعتها وفصاحتها ، فلما انصرف إلى ضمير الغائب (هو) ونسب كتبه إلى من تقدم عصرهم كان يأتيه أولئك الطاعنون بأعيانهم ، فيكتبون كتبه المنسوبة إلى غيره بخطوطهم ويتدارسونها بينهم ويتأدبون بها ويستعملون ألفاظها ومعانيها .

وكذلك ابن المقفع ، فقد زهد فى هذا الضمير (أنا) وعدل إلى ضمير الغائب ، فحدثنا فى آخر كتابه « الأدب الكبير » عن صاحب له كان من أعظم الناس فى عينه ، وكان رأس ما أعظمه فى عين ابن المقفع صغر الدنيا فى عينه ، إلى آخر هذا الحديث الممتع الذى يشيع فيه كثير من النضج والحكمة . وما أشك فى أن هذا الصاحب الذى حدثنا عنه إنما هو ابن المقفع نفسه ، ففى هذا الحديث عقل ابن المقفع وأخلاقه وحكمته .

وأدرك « أناتول فرانس » ما فى هذا الضمير (أنا) من الإضجار والإقلاق ، ولكنه اعتذر إلى القارئ ، من

اضطراره إلى الاستعانة به في بعض المواضع من كتبه ، اعتذاراً هوّن على القارئ خطبه ؛ فقد روى في طائفة من فصوله الأدبية روايات عن نفسه ثم اعتذر فقال : أروى هذه الروايات وأنا مكره لا بطل ، فقد تعودت أن يجرى على لساني ما يتصوره فكرى ، ولا يكون المرء أميناً كل الأمن من غير أن يضجر غيره بعض الإضجار ، أو يقلقه بعض الإقلاق ، ولكني إذا تكلمت على نفسي فأرجو أن لا يفكر الذين يصيخون لي إلاّ في أنفسهم ، وعلى هذه الصورة أسرّهم وأسر قلبي .

وإذا نجح هذا الضمير (أنا) في بعض الأحيان فقد نجح على ألسنة الذين صدقوا فيه ؛ فان الحجاج على قسوته وعلى إفراطه في هذه القسوة لم يضجر محدثه لما صدق في ضميره (أنا) قال له عبد الملك بن مروان : ليس من أحد الاّ وهو يعرف عيب نفسه ، فصف لى عيوبك ، فاستعفاه الحجاج فلم يعفه ، فقال له : أنا لجوج حسود حقود . إني أعتقد أن هذا اللجاج وهذا الحسد وهذا الحقد قد خفّ وقعه على قلب عبد الملك ، لأن الوصف كان صادقاً على الرغم من قول عبد الملك للحجاج بعد سماع مثل هذا الوصف : ما في إبليس شر من هذا . . .

وقد حاول بعض رجال العبقرية أن يكونوا صادقين في قولهم (أنا) فما نجحوا ، قال لنا « روسو » إنه ألف (اعترافاته) ليعرض على البشر مشهداً فريداً في نوعه ، مفيداً في ذاته ، مشهد نفس تقص علينا تاريخها وهي أمينة في قصصها . أما الحقيقة على نحو ما أشار اليه رجال النقد الفرنسي فان الذي توخاه (روسو) في اعترافاته قبل كل شيء إنما هو مدحه وتنصله من التهم التي وجهت إليه وإثبات فضله على كثير من الناس ، على الرغم من عيوبه ؛ ففي مثل هذه الحال أصبحت (أنا) في اعترافاته مضجرة مقلقة ، لأنها تكذب حيناً وتفخر حيناً .

* * *

حدثني صديق من دمشق خفيف الروح قال : حضرت ذات يوم مجلساً ، فأخذ أهل المجلس يتحدثون عن أنفسهم ، ووالله كان فيهم البخيل والأناني والخائن ؛ فالبخيل كان يتحدث عن كرمه ، والأناني عن تجرده والخائن عن إخلاصه ، فغاظتني هذه الأحاديث ، فقلت لجماعة المجلس : أما أنا فأريد أن أحدثكم عن عيوبي ، والله إني أبخل البخلاء ، فلو كان جيراني يسهرون في ظلمة من الليل ولا سراج عندهم ورأيت في جدار بيتي ثقباً يدخل منه ضياء سراجي اليهم لسددت هذا الثقب حتى لا ينتفعوا به . ووالله أنا أشد الناس أنانية ، ووالله أنا أخوَنُ الناس . . . فلما سمع أهل المجلس هذه الصفات أدركوا أنه يعرّض بهم فخجلوا وسكتوا .

لقد كان وعظ هذا الصديق بليغاً ، فاذا لم ننجح في حذف ضمير المتكلم (أنا) من لغة الضمائر ، فلا أقل من أن نجعل هذا الضمير صادقاً في أحاديثه . فلعل كثيراً من مصائب الدنيا تخف على أهلها من هذا الصدق !

شفيق جبري

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

جنة الأوهام

ما كنت أقدر أن سؤالا تقليديا عابرا ، يفضى إلى قصة لعلها تكون شائقة : فلقد أنشأ صاحبي يحدثني مستغرقا في شبه غيبوبة ، وكأنه يستلهم وحيا :

تسألنى لماذا لم أتزوج ؟ ولعلك لم تنس بعد أنى كنت أسكن — وأنا بالسنة النهائية لكلية الطب — شقة صغيرة ، ولكنها أنيقة رشيقة ، وكانت فى الطبقة الثانية تطل على حديقة كبيرة لقصر مجاور ، وكنت أعدها ملكا لى ، فما كان أحد يتمتع بجمالها مثلى ، وما كنت ألمح فيها غير الجنان منهمكا فى تشذيب أشجارها ، ولكن فى بعض الأيام التى تشرق فيها الشمس ، فتبعث الدفء — ونسيت أن أذكر لك أن ذلك كان فى هجمة الشتاء — كنت أشاهد رب القصر يجلس فى سرة الحديقة ، على كرسى من الطراز العربى ، وقد لبس عباءته الفخمة وفى يده مسبحته الثمينة ، وعفى رونق الضحى بكركر فى « نارجيلته » ، وكان أظهر ما يتميز به ذلك الشارب الأصفر الذهبى الذى أطلقه فأضفى عليه الهيبة والوقار ، فحدست — لهذا ولروح المحافظة التى كانت تسود ذلك القصر — أن هذا الرجل من أصل تركى .

ومع أنى كنت أحضر « البكالوريوس » فما كان ذلك ليمنعنى أن أخلو ساعات إلى صديقتى الوفية ، فأحتضنها وأبثها آلامى وأحلامى ، تلك هى « قيثارتى » المحبوبة . ولعلك تعلم أنى ما كنت راغبا فى دراسة الطب لولا أن هذه رغبة والدى . ولقد كنت أود أن أغذى خيالى المشبوب ، وأشبع نهمى الفنى ؛ لذلك قلما كان كتاب من كتبى يخلو من « نوتة » موسيقية أو أكثر .

ولقد نشأت بينى وبين ذلك البستانى الطيب صلة أملتها الظروف ، فلقد كنت أراه مرات كل يوم ويرانى ، حتى لقد كان يحييني ويلقبنى « بالبك » ثم « بالدكتور » . ولا أدرى من لقنه هذا اللقب الأخير ، وكنت أخاطبه باسم « عمى عواد » كما كنت أسمع رب القصر يناديه به .

* * *

. . . وكان مساء ، وأويت إلى مضجعى بعد أن استرق[1] الليل . وسمعت طرقا على باب شقتى ، فقمت قلقا وفتحت الباب بحذر بعد أن تبينت أن الطارق هو « عمى عواد » واستنبأته الخبر ، فقال بلهجة متلهفة :

سيدى البك مريض جدا !! ولقد أخبرتهم أن الدكتور « ممدوح » صاحبى جداً !! وأنك سوف لا تخيب رجائى .

وكنت أضحك من تعبيره لولا رهبة الموقف ، فلبست معطفى فوق المنامة[2] ، وأخذت سماعتى وحقيبتى .

. . . واستراح « البك » . . . وكان فى استقبالى وتوديعى ربة القصر . وهى سيدة وقور رزان تداعب الخمسين ، ولكنها تبدو أقل من الأربعين ، جميلة ، ولكن قسمات وجهها تبعث فى القلوب من الهيبة والاحترام أكثر مما تبعث من الحب والإعجاب . وحينما صافحتنى مودعة دعتنى إلى زيارة القصر فى الغد للاطمئنان على صحة « البك » .

ووفيت فى الغد بوعدى ، وذهبت إلى القصر ، وقوبلت بحفاوة وترحيب ، وسلم على « البك » هاشا باشا ، وقد استرد صحته ، وأخذا — هو وزوجه — يلاطفانى ويشكراننى ، وأنا مأخوذ بسحر المقابلة والملاطفة ، وبروعة القصر وأثاثه ، و . . . وشربنا الشاى ، وتجاذبنا أطراف الحديث الذى تفرع وتشعب ، وتطرق إلى الصحة والطب . ولقد كان من حديثى « للبك » أن خير ما يحفظ صحته ، ويبقى على قوته الترويح عن نفسه دائما . . . وأبنت له سحر الموسيقى فى ذلك وأفضت بإفاضة الخبير . . وكم كان عجبى إذ سمعت من ربة القصر تنهيدة تفيض أسى ، ورأيتها تهز رأسها

(١) ذهب أكثره (٢) « البيجامة »

كن يريد أن يطرد من خياله بعض أشباح الذكريات . .

وتكررت الزيارات ، وكنت ألقى من « البك » كل حدب ورعاية . أما السيدة فقد كان قلبها يفيض بالحب الأموى الصادق . وعيناها تنطقان بالحنان العميق ، وكانت ترنو إلىّ رنوات الأم إلى وحيدها الدلل .

ولقد قالت لى مرة : أراك تتحدث كثيرا من الوسيقى وأخبرنى « فؤاد » أنك تعرف كثيرا على القيثارة . فهل أنت مغرم بها إلى هذا الحد ؟ فقلت لها : إنى أرى أنى خلقت لها . وكنت أود أن أهب نفسى إياها ، ولكنى أرغمت — تحقيقا لرغبة والدى — أن أسلك طريق الطب ، ومع ذلك أحمد الله على أن ذلك لم يخلنى من إشباع رغبتى . . .

ثم سألت : ألم تتزوج ؟ فأجبت : كلا !!

فتنهدت طويلا ، وهزت رأسها وقالت : لقد تحقق حلمك يا عصمت !! قلت لها : ومن عصمت ؟؟ قالت : وحيدتى !! لقد وهبت نفسها الموسيقى ، فامتزجت روحها ودمها ، وكانت كل أمنيتها أن تجد ذلك الشاب الذى يقدر الفن قدره ، فيوحد بينهما رباط طاهر مقدس متين .

ولطالما سفهت رأيها ، وحاولت عبثاً إقصاء هذه الخواطر من نفسها ، وكانت أمنيتى أن يكون زوجها طبيبا ، وكثيرا ما احتدم بيننا الخلاف ، وأخيرا كنا نبتهل إلى الله أن يحقق أمانينا معا . وها أنت ذا !! فنان وطبيب !!

آه لو رأيتها !! جميلة .. حلوة . فتانة .. ساحرة .. بماذا أصفها ؟؟ ودعنا من هذا !! تعال معى !! وجذبتنى وقادتنى إلى حجرة فاقت كل ما يتصوره الإنسان من الفخامة والبهاء ، والجمال والرواء ... إنها غرفة « عصمت » الخاصة ، فيها سريرها ... ومكتبها .. وبيانها وصوان ملابسها ، وإن شئت فقل إنه متحفها ، ففيه كل شىء يخصها حتى الزهرية فيها الأزهار التى تحبها منسقة نضيدة ، غضة ناضرة .

وعلى « البيان » صورتها فى وضع طبيعى فاتن ، فى إطار ذهبى أنيق .

يا لله !! إنها لرائعة ساحرة !! وعلكتنى الحيرة والدهش ، ووقفت مأخوذا مبهوتاً ، لا يستقر طرفى على شىء فى هذا المتحف العجيب ، فكل ما فيه فاتن ساحر . ولم تكتف السيدة بذلك ، بل فتحت أحد أدراج المكتب ، وأخرجت منه محفظة أنيقة ثمينة وأخرجت ما فيها ، كلها صور لعصمت ، وكانت السيدة تنثرها أمامى واحدة فواحدة وكانت تردد كثيرا : أليست جميلة ... أليست رائعة !!

ثم فتحت درجا آخر ، وأخرجت منه كثيرا من « النوت » الموسيقية ، وتنثرها أمامى أيضا ، وتشرح : هذه لعبد الوهاب ، وتلك للقصبجى ، وهذه لبتهوفن ، وتلك لوزار . أما هذه فمن وضعها هى ، وعنوانها « أحلام » وتلك أيضا وعنوانها « دلال » ثم قالت : أتجيد العزف على « البيان » ؟ فقلت : بعض الإجادة فسألتنى أن أعزف بعض القطع التى وضعتها « عصمت » . وما إن عزفت قطعة بعنوان « فراق » حتى بلغ التأثر منها كل مبلغ ولم تستطع مغالبة الدموع ، وأرادت تبرير ذلك فقالت : إنك لرائع !! فقلت : بل إن « عصمت » هى الرائعة !!

ولقد وجدت من نفسى جرأة على سؤالها : وأين عصمت ؟؟ فقامت إلى نفسها ، وقالت : تسألنى عن عصمت آه !! لقد دعاها عمها (رياض بك) إلى قضاء شهرين فى ضيعته بالريف .

* * *

ثم أشعل لفافة ، واستأنف حديثه . وكانت حياتى أهدأ من مياه الغدير الرقراق ، وجد هذا الطارىء فكان كالحجر يلقى فى الغدير فيرجه رجا عنيفا . وكان قلبى خافيا ولكنه صحا متمردا ، ظامئا .

وكنت أقضى الليل ساهراً ، وأمامى صورة لعصمت

اختلستها من بين سطورها ، فأتأمل عينيها الحالمتين ، وشفتيها الظامئتين ، وأعلى جمالها الباهر ، وحسنها الساحر

وكنت أحتضن قيثارتى ، فأنطقها بما أعجز من التعبير عنه ، وأضمها إلى صدرى لتترجم همسات القلب وخطراته .

وكم حمدت الله أن حقق ذلك الحلم الجميل الذى كان يراودنى فى يقظتى ومنامى :

وأنت تعرف أنى ربيب الريف بعاداته وتقاليده ، ولكنى تأثرت بالمدن بحضارتها ومدنيتها . ولقد كنت مبلبل الفكر لا تروقنى الريفيات لجهلهن وتأخرهن . . وأمقت المدنيات لخلاعتهن وتبذلهن . . وأخيرا اعتقدت أن الله قد حقق ما كنت أصبو إليه وأحلم به .

ولبثت منتشيا بخمرة هذه الأحلام أكثر من شهرين . — ولم أدر تحديد هذه المدة إلا بعد أن صحوت — كنت فى أثنائهما أحج إلى متحف « عصمت » فأتزود منه بزاد من الوحى والإلهام ، والمنى والأحلام .

. . واستبد بى الهوى ، وأرقتنى الأوهام والأحلام ، وعيل الصبر .

وكنت جالسا مع « عمى عواد » فى الحديقة ، نتجاذب أطراف الحديث ، وكنت — إلى تلك اللحظة — أنزه اسم معبودتى أن يذكر ، أو أن يكون موضع حديثى مع أى شخص ، لا سيما عمى عواد الذى تطورت علاقتى معه ، فانقلبت من الحب إلى الاحترام بعد أن رأى منزلتى فى القصر ، حتى لقد أضحى يلقبنى « بسيده » .

ولكنى مع هذا لم أجد حرجا ، بل وجدت نفسى مندفعا إلى سؤاله عن عصمت . وما إن نطقت اسمها حتى انتفض الرجل ، ورفع كفيه وناظريه وقال فى شبه تضرع وابتهال : الله يرحمها !! الله يرحمها !! لقد ماتت منذ عامين !! وذرفت عيناه الدموع .

ومن الغريب أنى تملكنى الذهول ، وانعقد لسانى ، ونظرت نظرة خرساء ، وبسمت بسمة ساخرة بلهاء . وفى لحظة خاطفة وجدتنى مطرودا من جنة الأحلام إلى أرض الحقيقة والآلام .

وأغرب من هذا أنى كنت أخدع نفسى ، فأطوف حول أسوار هذه الجنة النعيمة ، وأوهمها أنها لم تمت ، وأبقيت صلتى بالقصر ، وكنت أحج إلى معبدها ، فأقضى لحظات أنتشى فيها بسحر هذه الجنة ونعيمها . . ولكن مارد الحقيقة الجبار ، لا يلبث أن يكتشف مقرى ، فيطبق على بيديه الفولاذيتين ، ويقذف بى مهشم الأضلاع مضعضع الحواس .

ثم تأوه صاحبى أنة عميقة واغرورقت عيناه ، وشرد قليلا ثم أفاق قائلا : وتسألنى بعد هذا : لماذا لم تتزوج ؟ .

فقلت له : ولا زلت أسأل ! ! فقال : لقد كان قلبى وردة ناضرة ، ولكنها لم تتفتح ، وما إن أطلت عليها « عصمت » بسحرها حتى تفتحت ، ولم تلبث إلا قليلا حتى انطبقت . فقلت : ومتى تتفتح مرة أخرى ؟ فتنهد ثم أخرج من محفظته صورتها وقال : لن يفتحها إلا عصمت أخرى ، ولكن هيهات ! !

(سوهاج) عبد المنعم شلبى

مهنة التدريس

مَن مُجيري مِن مهنة التدريس
أو عَذيري في سوق الحبوسِ
مهنةٌ كلها شقاءٌ .. وبؤسٌ
وهوانٌ على جميع النفوسِ
وضياع الشبابِ في غير مجدٍ
أو متاعٍ يُرضي فؤادَ اليئوس
وتَردٍّ من حاضرٍ كالح الوجهِ
لمستقبلٍ .. شحيح .. خسيسِ
واحتباسٌ في (كادرٍ) صارم الذلّ
عـــديم الترفيهِ والتنفيسِ
(كادر البأسِ) لا رَجيّةَ منهُ
غير قتل الشبابِ والتفليسِ

يُقبِل الصبح بالمراييدِ خَفّوا
في مراحٍ .. كخفة المهووس
يشعلون الفصولَ بالعبث الصا
رخ ، كالنار في الهشيم اليبيس
والمربّي أرجوحة بين حفظ
لنظامٍ ، وبين شرح دروس
وحرامٌ عليه يَزْجر طفـــلا
عاث في الفصل كالحصان الشموس
أو ينال العقابُ منه عصيًّا
فاق في خبثه على إبليسِ
وإذا أخطأتْ يداه ، فقدْ با
ءَ ، بسخط الرئيس والمرءوس
هـكذا ينقضي الصباحُ صِراعاً
وكفاحاً يُعيد حرب البسوسِ

المغاربُ في الظهيرة تَرتا
حُ وهـــذا شقاؤه في الجلوس
فهو في فصله يُعاني التّبارِحَ
ويصلَى بحالهِ المنكوسِ
هَمَد الثائرونَ بعد مَراحٍ
عاصفٍ بالجسومِ بعد الرءوسِ
وارتموا في الكرَى العميق كركبٍ
مُدلِجٍ قد أوَى إلى التّعريس
وهو فيهم مُؤذّنٌ يُرسل الصوْ
تَ جَهيراً كصَيحة الناقوسِ
يُوقظ النائمين بالشرح والإرْ
شادِ والخوفِ من عقاب الرئيسِ
ويحهُ كيف يستجيب له النوْ
مُ ، ويُصغي إليه أهل الرُّموس

والكراريس مالها من دواء
جاثمات عليهِ .. كالكابوس
كم ألحّتْ عليه كالعاصف الجا
رف من (سبتهِ) ليوم (الخميس)
قتلتْ روحه الفتيّ وأجرتْ
دمهُ في المدادِ فوق الطروسِ
ومحتْ نورَ عينهِ وأصابتْ
ظهره في الشبابِ بالتقويسِ

وهو إنْ جادت النتائجُ يُنسى
فضلهُ رغم جهـــده الملموسِ
وإذا لم تجدْ على الرغم منـــهُ
بات نَهبَ الملام والتّجريس
حَسْبه اللهُ من شهيدِ جهاد
ينفقُ العمرَ في عذاب بَئيسِ

فريد عين شوكة

حظ الأعداد

٧ — نزل القرآن على « سبعة » أحرف .

٧ — ولقد آتيناك « سبعا » من المثانى والقرآن العظيم (آية) — قيل إن المثانى السبعة هى سورة الفاتحة لأنها سبع آيات .

٧ — ويقولون « سبعة » وثامنهم كلبهم (آية) .

٧ — « سبع » بقرات سمان

٧ — يأكلهن « سبع » عجاف .

٧ — و « سبع » سنبلات خضر .

٧ — قال تزرعون « سبع » سنين دأبا . . الخ الآية

٧ — ثم يأتى من بعد ذلك « سبع » شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا . . . الخ الآية .

٧ — وبنينا فوقكم « سبعا شداداً » (آية) .

٧ — مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت « سبع » سنابل . . . الخ الآية .

٧ — الذى خلق سبع سموات طباقا (آية) .

٧ — وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم « سبع » ليال وثمانية أيام حسوما . . . الخ آية .

٧ — وفى القرآن سور الحواميم « سبع » وهى : غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف .

٧ — الأرضون « سبع » .

٧ — والله خلق الدنيا فى ستة أيام واستوى على العرش فى « السابع » (الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) الآية .

٧ — وكيف أخاف الناس والله قابض على الناس « والسبعين » فى راحة اليد — أى سبع سموات وسبع أرضين — (الفرزدق) .

٧ — النطقاء بالشريعة « سبعة » وهم : آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ومحمد المهدى سابع النطقاء

٧ — وبين كل اثنين من النطقاء « سبعة » أئمة يقتدى بهم .

٧ — أولاد النبى « سبعة » وهم عبد الله وابراهيم والقاسم . وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم .

٧ — الحجاج يلفون حول الكعبة « سبع » لفات يعبر عنها فى لغة الدين بالطواف سبعة أشواط .

٧ — والحمل يدور « سبع » مرات .

٧ — وصّى سيدنا موسى بنى اسرائيل بأن يقدسوا يوم السبت Sabbat (سابع يوم الأسبوع Souvenez-vous de sanctifier le jour de Sabbat (le septième jour)

٧ — وأسرار الكنيسة السبعة وهى : العماد والتثبيت والمناولة والاعتراف ومسحة المرضى والكهنوت والزيجة .

٧ — ومزامير التوبة « السبع » .

٧ — ووصايا الكنيسة « سبع » .

٧ — وفى تاريخ السيدة مريم العذراء الآلام « السبعة » . والأفراح « السبعة » . والأمجاد « السبعة »

٧ — الخطايا الرئيسية « سبع » Les sept péchés capitaux وهى : الحسد . والبخل . والغضب . والكسل والكبرياء . والشراهة . والدعارة .

٧ — وسفر الرؤيا (آخر أسفار العهد الجديد) مكون من « سبع » رؤى .

٧ — حكماء اليونان « سبعة » Les sept Sages de la Grèce

٧ — كانوا « سبعة » الأعيان الفرس الذين خلعوا سمرديس الذى ادعى أنه أخو قمبيز (وكان يشبهه) وبعد خلعه تولى دارا ملكا على الفرس .

٧ — خديويو مصر « سبعة » (محمد على وابراهيم وعباس الأول وسعيد واسماعيل وتوفيق وعباس الثانى) .

٧ — جامعة الدول العربية « السبع » (مصر وسوريا ولبنان والعراق والمملكة السعودية واليمن وشرق الأردن).

٧ — وقديما كانت مصر الوسطى (Heptanomide) مكونة من « سبعة » أقاليم.

٧ — والممالك السكسونية « السبع » (التي تتكون منها انجلترا).

٧ — مدينة روما بنيت على « سبع » روابٍ (كل رابية منها أصبحت الآن قسما من أقسام روما).

٧ — همدان مدينة (من بلاد العجم) شهيرة بأسوارها « السبعة » التي بنيت لتحميها من غزوات الأعداء.

٧ — والأخوات « السبع » و (هي صخرة مشهورة في انجلترا على مقربة من ميناء دوفر، وهي أشهر الصخور البيضاء في انجلترا).

٧ — حرب السنوات « السبع » (وهي حرب دامت « سبع » سنوات من سنة ١٧٥٦ إلى سنة ١٧٦٣).

٧ — ومدة رياسة رئيس جمهورية فرنسا « سبع » سنوات.

٧ — وعجائب الدنيا « سبع » Les sept merveilles du monde

٧ — والكواكب السيارة « السبعة » وهي: الشمس والقمر والمريخ وزحل وعطارد والسنبلة والزهرة.

٧ — والمعادن الرئيسية « السبعة » وهي الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص والحديد والزئبق.

٧ — أيام الأسبوع « سبعة ».

٧ — أيام العجوز « سبعة » (تأتي في عجز الشتاء ويشتد فيها البرد).

٧ — وألوان القوس القزح « سبعة ».

٧ — حمى « السبع » عند الأطباء هي التي تنوب كل سبعة أيام لقلة الخلط الفاعل لها.

٧ — مرض « السبعة » أيام (وهو مرض يصيب الأطفال حديثي الولادة في اليوم السابع من ولادتهم).

٧ — أسبعت المرأة أي ولدت « لسبعة » أشهر.

٧ — في الثدي « سبع » ثغرات.

٧ — رجل « سباعي » البدن أي تامه.

٧ — والمعلقات « سبع » وهي: « سبع » قصائد من نظم الجاهلية علقت في الكعبة فقيل لها ذلك.

٧ — « سبّع » الله لك أي أعطاك أجرك « سبع » مرات أو « سبعة » أضعاف.

٧ — وفي اللسان « سبع » الله لك أي رزقك « سبعة » أولاد.

٧ — وفي الحديث: من لها يوم « السبع » أي من لها يوم القيامة.

٧ — وفي الأمثال السائرة عند الفرنساويين (أدر لسانك « سبع » مرات قبل أن تتكلم Il faut tourner sept fois sa langue avant de parler.

٧ — يقول الفرنساويون: ما أجمل « السبعة ». يقولونها على سبيل المزاح عندما يفد شخص على جماعة على غير موعد Voilà le plus beau des sept.

٧ — وكان المارشال مولتكي (زميل وصديق بسمارك) قليل الكلام يضن به ضنانة كبيرة، فوصفه أحد مؤرخيه بكلمة بليغة قال: إنه sait se taire en sept langues. ومعناها قادر على السكوت « بسبع » لغات.

٧ — شارع « السبع » ساقيات.

٧ — شارع « السبع » بنات (في الاسكندرية).

٧ — والسبوع هو اليوم « السابع » لولادة الطفل.

٧ — وكثيرا ما ترد « السبعة » في السنة العامة مثل قولهم: « الثعلب فات فات وفي ديله » سبع « لفات » و (« السبعة » ودمتها) و (القط « بسبعة » أرواح) و(« السبع » صنايع والبخت ضايع » والأرذال « السبعة »

وهم : (توتى وحاوتى وحابى وعرقسوسى وحار واسكاف وشيخهم فى الرذالة الحلاق) .

"L'Aocalypse de Saint Jean, se compose d'une courte introduction sous forme de lettres aux *sept* Eglises d'Asie, de *sept* visions et d'une conclusion. Les *sept* visions peuvent prendre les titres suivants: 1°) les sept étoiles et les sept chandeliers; 2°) les sept sceaux du livre avec les sept trompettes: 3°) la femme, le dragon et la bête; 4°) les sept coupes de la colère et la grande Babylone; 5°) le grand banquet de Dieu; 6°) Satan lié pour mille ans et la terre nouvelle; 7°) la sainte Jérusalem.

عزيز خانكى

دفاع عن الاسلام

تعقد جمعية آسيا الوسطى الملكية فى لندره اجتماعات دورية يقدم فيها الأعضاء أبحاثا فى شئون آسيا والشرق ، وتعقب هـذه الأبحاث مناقشات يشترك فيها الأعضاء وتنشر الأبحاث والمناقشات دائما فى المجلة الأسيوية الملكية

ومنذ شهور ألقى السير فيروزخان المندوب السامى للهند فى وزارة الحرب البريطانية الآن خطابا عن الإسلام فى الهند أعقبته مناقشة بين الأعضاء ، وقد نشرت الخطبة والمناقشات فى عدد يوليه — أكتوبر من العام الماضى من المجلة الأسيوية ، وكان من بين المناقشات سؤال لعضو لم يشأ أن يذكر اسمه قال فيه على سبيل التساؤل والترجيح : إنه غير متأكد من أن التأخر ليس رذيلة متأصلة فى المسلمين ، لأن هذا التأخر يبدو فى الهند كما يبدو فى فلسطين ؟ ! . .

وقد تطوع للرد على هذا السؤال ردا مفحما الأستاذ أحمد سامح الخالدى وكيل معارف فلسطين ومدير الكلية العربية بالقدس ، ونشرت المجلة المذكورة رده فى عددها الأخير . ولعل قراء الثقافة واجدون فى هـذا الرد الذى ننشر ترجمته فيما يلى متعة تعوض عليهم ما يثيره سؤال هذا السائل من ضيق فى النفوس لاسيما ونحن نزعم أننا فى عصر يجب أن تمحى فيه هذه النزعات الخبيثة :

« . . قرأت باهتمام البيان الجلى الذى أدلى به دفاعا عن الإسلام فى الهند السير فيروز خان مؤمن والمنشور فى عدد يوليه — أكتوبر من مجلتكم ، وإنى أتفق مع الذين يقولون بأن الإسلام لا يختلف اختلافا أساسيا عن الديانة المسيحية . وقد كنت دائما ، ولا أزال ، أنظر إلى هاتين الديانتين بهذه النظرة ، وإنى أعتقد أن الاقتراح الذى ذكره الكولونيل نيوكومب من ضرورة تعريف الدين الإسلامى إلى عامة الشعوب فى الغرب كديانة لا تختلف اختلافا أساسيا عن مذهب الموحدين Unitereanistes (الذين لا يعتقدون بألوهية المسيح فى أوربا وأمريكا) إنما هو اقتراح موفق وقد يفيد كثيرا فى محو الفكرة التقليدية الشائعة بين عامة الناس فى الغرب (وهى من بقايا الحروب الصليبية) التى تقول بأن الديانتين الكبيرتين متخاصمتين . ولست فى خطابى هذا أريد أن أنازع أولئك الذين يدعون باحتكار المبادىء الخلقية والمثل العليا والمقاييس الأدبية فى الحياة ، فإن جوابنا لأولئك . . دعهم فى ضلالهم يعمهون . . على أنى أرغب أن أنتهز هذه الفرصة لأسجل احتجاجى على عبارة قالها أحد الأعضاء ، الذى اختار لأسباب يعرفها هو أكثر منا أن يظل اسمه مكتوما .

أما العبارة فهى . . « إنى غير متأكد تماما من أن التأخر البادى فى المسلمين فى الهند ليس رذيلة متأصلة فى المسلمين لأننا نرى البادرة ذاتها فى فلسطين »

أما لماذا اختار هذا السائل فلسطين من جميع بلاد الاسلام فليس من الصعب التكهن به ، وأحب أن أؤكد أن قوله هذا لا يعدو أن يكون اتهاما ، واتهاما جريئا لم

يتقدم للأسف حضرة العضو علنا لإثباته ، اتهام لا أساس له ، بل هو مخالف للحقيقة والتاريخ . ومن حق الإسلام والمليون عربي في فلسطين أن يستمع العضو السائل لجوابنا ، فهو الذي دق الباب . أما إذا كان غير مستعد أن يبحث معنا في أعمدة مجلتكم قوله هذا فيظل كلامه مجرد اتهام طائش . . .

وأحب بعد ذلك أن أحيل السائل إلى التوراة والمصادر التاريخية العربية ومذكرات الصليبيين وأن أسأله بعد ذلك أن يقارن — لنفسه — بين فتح يشوع بن نون لفلسطين (الفتح العبرى) ودخول عمر بن الخطاب بيت المقدس واحتلال الصليبيين المدينة المقدسة . .

وإذا كان السائل قد زار فلسطين أو عاش فيها فلا بد أنه رأى أن أنبل وأفخم وأجمل البنايات في البلاد المقدسة هي التي بنيت تحت حكم الإسلام ، ففي بيت المقدس وحدها يستطيع المرء أن يحصى مالا يقل عن مائة وعشرين معهدا ، كالمدارس والبيمارستانات والزوايا والأربطة من التي كانت عامرة تحت الحكم الإسلامي في القرون الوسطى . وعلى المهندسين المعماريين أن يتعلموا لوقت طويل من هذه الأبنية الخالدة .

أما ما قدمه الإسلام للعلوم والرياضيات والتصوف والفلسفة والطب . الخ . فليرجع السائل إلى كتاب تراث الإسلام Legacy of Islam ، وليرجع إلى المؤلفين الكبار من أمثال جب ونيكولسون وحتى وكرسويل ولين بول وغيرهم فسنجد الجواب .

ولقد أسعدني الحظ أن أدرس وأعيش بين ألوف من الطلاب العرب وغيرهم من أبناء الشعوب والديانات التي تقطن الآن الشرق الأدنى ، وذلك طيلة ربع قرن . ويمكنني القول هنا بأني لم أعثر بعد على تلك النظرية الغريبة التي تقول بأن خارق الذكاء بين الطلاب يختلف بالنسبة للديانات ، كما أنني لم ألاحظ أية رذيلة متأصلة أو فضيلة متأصلة محصورة في أصحاب دين خاص أو مذهب أو شعب خاص .

على أن اختبارى الطويل بين الشبان قد دلني بالعكس على الاعتقاد بأن الجنس البشرى متشابه في خصاله الطبيعية والسيكولوجية ، ونحن المسلمين — مهما قيل فينا — من بني البشر العاديين .

فالقدس ومؤسساتها العظيمة ، والقاهرة ومساجدها وجامعاتها ، ودمشق بما فيها من مساجد وأسواق ، وبغداد بجامعاتها وقصورها ، وعمان تلك العاصمة الحديثة التي تحتوى على ٥٠ ألف نسمة ، إنما بناها المسلمون في عصور التاريخ المختلفة . كما أن الألف قرية الإسلامية العامرة في فلسطين يحيط خمسمائة ألف دنم (الدنم ربع فدان) من شجر الزيتون ، ومائة وثلاثين ألف دنم من الحمضيات ، وما يزيد على خمسمائة ألف دنم من أشجار الأعناب والتين واللوز وغيرها من الأشجار المثمرة ، كذلك المدارس التي يبلغ عددها نحو سبعمائة في المدن والقرى والمستشفيات والمساجد والزوايا والأربطة الموزعة في جميع أنحاء المدن والقرى ، كل أولئك جميعا لا يمكن أن يكون قد أنشىء ، ونما وترعرع قبل شعب عريق في التأخر .

أما أن الإسلام في فلسطين وسوريا والشرق الأدنى قد أصابته ضربة قاصمة من جراء سقوط بغداد في القرن السابع للهجرة فلم يستطع أن يجارى في بعض المظاهر تيار المدنية الحديثة ، فأمر لا شك فيه ولا يرجع سببه إلى الدين ، بل هو ناشىء من أسباب قاهرة أهمها سياسي وعسكرى . وقد يلذ للعضو السائل أن يعلم أن المسلمين الآن وقد أتيح لهم أن يتعاونوا مع أصدقائهم التقليديين وهم الإنجليز — قد بدأوا يثبتون وجودهم . وقد يسره أن يعرف أن المسلمين في فلسطين لهم حوالى ٨٠ ألف طالب يداومون على المدارس العمومية والخصوصية ، كما أن لهم نحوا من ٤٠٠ طالب يدرسون في جامعة بيروت ولهم ما يقرب من هذا العدد في جامعات

بين المسموع والمقروء

هل يعقل الحيوان ؟

بالأمس القريب جلسنا نَسمُر نحن الثلاثة . وطلبنا بعد مجهود النهار الخفيفَ من الأحاديث . فضربنا في شجونها حتى وصلنا إلى الحديث عن الخدم . وأخذ كل منا يحكي نوادره معهم . وانعقد الاجماع على تقسيم الخدم على العموم قسمين : الأمين الغبيّ والسارق الذكيّ . فالأمانة فيهم والغباء متلازمان . والسرقة والذكاء فيهم متلازمان . إلا فيمن رحم ربك . واستطردنا من ذلك إلى التفكه بنوادر الغباء فيهم ، وكل منا زعم أنه أكثر حظا من غباء الخدم . وأخيرا فاز خادمي بكأس السبق في الغباء بحكاياتٍ ثلاث قصصتها عنه :

كان خادمنا طبّاخا موكَّلا بالطعام . فجاءنا يوما على المائدة بصينية من البطاطس ، مما يسوَّى مع اللحم في الفرن ، وكان وجه البطاطس فيها أبيض ، وكان المأمول أن يكون أحمر قديدا من حرارة الفرن ، فسألناه في ذلك ، فكان جوابه : نحن في الشتاء يا سيدي واليوم على الأخص برد قارس .

أما الحكاية الثانية فإنه رأى زميلا له آخر يمسح بلاط دهليز بالماء والصابون . فوقف يتأمله ساعة ، ثم قال له : ما هذا التعب والبلاط لا يلبثُ أن يتسخَ كل يوم ؟ فنظر إليه الخادم الفَطِن يتأمله ، وإذا بي أسمعه يقول له : كذلك يتسخ وجهك كل يوم ، وأنت مع هذا تغسله بالماء والصابون . فبهت الرجل الساذج وابتسم ، كأنما اطلع على شيء غريب . وقال كأنه يحدث نفسه : أي والله ، هذا صحيح .

أما الحكاية الثالثة ، فقد أرسلته السيدة يشتري أقة من الكمثرى . فجاء بالأقة فيها موزتان . وقال للسيدة

القاهرة والاسكندرية . وهناك عدد لا بأس به ممن يستطيعون تحمل نفقات التعليم في الخارج يداومون على الجامعات الإنجليزية والأمريكية والأوربية ، وإن عشرات وعشرات من الشبان المسلمين ممن رافقهم الحظ قد أتموا تعليمهم في جامعات أكسفورد وكمبردج ولندن وأكستر ونوتنجهام ، وقد عادوا وهم يحملون درجات الشرف وكان سلوكهم ممتازا . كما أن أحد طلابي القدماء وهو مسلم من قرية عربية في فلسطين قد نال جائزة لاوك للرياضيات العالية في انجلترا سنة ١٩٤٢ .

إننا نحن المسلمين يأمرنا ديننا بأن نحترم غيرنا كما نحترم معتقداتهم . ومن سوء الحظ أننا لا نرى غيرنا من الذين ينتمون إلى ديانات أخرى يبادلوننا هذا الشعور . بل إننا نجد أن رجالا مشهورين من أمثال الرحالة بالجريف يفقد صوابه عند كتابته عن الرسول الكريم في مقدمته للقرآن التي طبعتها جامعة أكسفورد .

على أن بالجريف ليس من أبناء هذا الجيل . وأمثال بالجريف وحضرة السائل ينسون بأن ديننا يأمرنا بأن نحترم أنبياء النصرانية واليهودية وهذا في نظرنا هو السبب في أن الشتائم والتهم التي توجه إلى الاسلام وصاحب الرسالة لا يجاب عليها ، فالمقابلة بالمثل مستحيلة حقا . وفي الحق أن اتجاه أمثال بالجريف والمضو أمر لا يمت بشيء إلى مبادىء المسيحية . ونحن بعد هذا غير متأكدين بأن الميل إلى ناحية واحدة ، والتحيز وضيق التفكير والتعصب الذميم ، ليست من الرذائل المتأصلة في بعض الذين ينتمون إلى غير ديننا ، لأننا دائما وأبدا نسمع ذات النغم يملأ الأسماع كلما كان موضوع البحث الإسلام أو نبي الاسلام

وكلما أسرع العالم ونعلم بأن الديانات الكبرى لها ما تأخذه من الغير بقدر ما تعطيه لهم ، كان ذلك نافعا له ولسكانه . هل يا ترى نعيش لنرى ذلك العصر ؟ ! .

عن الانجليزية   القدس   أحمد سامح الخالدي

مبتهجا : انظري ماذا صنع تاجر الفاكهة الطيب . لم تزن هذه الكمثرى أقة كاملة فاستكملها بموزتين . وكان ثمن أقة الكمثرى عشرة قروش ، وكان ثمن الموز ثلاثة فقط . ومع هذا فتاجر الفاكهة رجل طيب أمين ! وكانت الكمثرى سيئة ! فردتها السيدة ! وقالت للخادم : ارجع بكل هذا ، وعد لنا بأقة من الموز واحدة . فعاد بأقة الموز . ووزنتها السيدة فوجدتها تنقص موزتين . فسألته السيدة في ذلك ؟ فقال لها : إن هاتين الموزتين الناقصتين هما الموزتان اللتان كان أضافهما تاجر الفاكهة على الكمثرى . وعندئذ لم تستطع السيدة إلا الضحك ! وعدّت هذا الخادم الفكِه يساوي أقة موز برمّتها .

وانتهى الحديث وانفضت الجماعة ، وبقيت أفكر في هذا الخادم وفي عقليته .

كان رحمه الله غبيا أشد الغباء ، ومع هذا كان يجيد الطبخ ، والطبخ لا يجاد إلا بشيء من الفطنة ، ولكنها ليست فطنة البهائم التي قصدها صاحبي عندما قال لي في هذا الصدد : إن التكرار يعلم الحمار .

وطلبتُ ما يقول العلماء في الفطنة والذكاء ، في الحشرة وفي السمك والطير ، وفي ذوات الأثداء ، وفي الإنسان ، فخرجت على أن كل شيء من هؤلاء له حظ من الذكاء يتدرج من فصيل إلى فصيل حتى يبلغ الذروة في الإنسان . والعلماء تسمي الذكاء الأدنى الذي في الحشرة كالنمل والنحل غرائز ، وتسمي الذكاء الأعلى الذي في الإنسان عقلا ، وتسمي الذكاء الأوسط الذي بين هذا الأعلى وذاك الأدنى فطنة . وهذه الفطنة قد تتدنى حتى تكون غريزة ، وقد تتسامى كما في الخيل والفيلة والكلاب والقردة فتكاد تحسبها عقلا .

ووصلوا إلى علمهم هذا بملاحظة الحيوان في مواطنه ، ومراقبة أحواله وأعماله ، في البستان وفي الغابة ، وفي السهل والجبل ، وفي الهواء ، وفي الماء ؛ أو هم وصلوا إلى علمهم بالتجارب المقصودة يؤلفونها في الحقول والمعامل . والنضرب في بعض ما وجدوا الأمثال .

فأول مثل العنكبوت . لا يكاد يخرج من بيضته حتى يأخذ في نسج نسيجه المعروف . وهو نسيج تعجز يد الإنسان الصناع عن محاكاته في خفته ودقته . وهو ينسجه دون أن يعلمه أحد نسجه . فهذا عمل غريزي لا عقلي . ونزيد في وصفه بالغريزي أنه يظل يصنعه على مثال واحد لا تشكيل فيه ولا تبديل . إنه تكرار رتيب .

ومثل ثان مثل الزنبور الذي يسمونه بالصياد ، تقوم أنثاه ببناء عشها ؛ ثم تأتي لهذا العش بالفريسة من ديدان ومن عناكب تلدغها فتشلها فتفقدها الحركة والوعي والإحساس . ثم هي تضع في العش بيضها ، ثم تسد العش عليه بعد ذلك سدا ، وتذهب عنه وهي لا تكاد تدري ما صنعت ، ولا لأي مقصد صنعت ما صنعت . أو هكذا يحسب العلماء . فهم يسمون هذا غريزة أيضا .

ومثل ثالث من الزنابير أيضا ، مثل الزنبور الذي يعرفونه بالبنّاء . دخلت أنثاه منزل قس في رانجون عاصمة برما في شرق الهند . واختارت حجرة الجلوس تبني بها عشها ، وهو من طين . وما فرغت من بنائه حتى أخذت تحدث ظاهره لتجري فيه الشقوق والتعاريج حتى يظهر كلحاء الشجر . ثم أخذت تخرج من بيت القس وتعود بطين أصفر ، وآخر أخضر ، تنقط به عشها ، لتستكمل تشبيهه بلحاء الشجر في الغابة ، ذلك الذي تعلوه صنوف الطحالب الخضراء . وزادت فأحضرت بضعة أنصال من أعشاب ، فرشقتها في ظاهر العش ، تحاكي بها الأغصان . وبعد أسبوعين كانت قد أتمت بيتا رائعا من بيوت الفن ، علمتها الغريزة أن تبنيه في الغابة ، فتضع فيه بيضها ، وهو خاف أكبر الخفاء عن أبصار الأعداء .

وعلمتها الغريزة ذلك لا العقل . فلو كان عقلا ما بلته فى حجرة الجلوس ، ببيت القس ، على هذه الصورة التى إنما تزيده ظهورا وتبرزه لأعين الرقباء الطامعين .

ومثل رابع لنمل يعرف بالنمل الهندى ، من عادته أنه إذا ما اتخذ لنفسه بيتا فى الأرض ، أقام على بعد ثمانى بوصات منه كومة يحمل إليها نفاية ما يأكل من الطعام . فإن هو أكل فى البيت حَبًّا ، خرج إلى هذه الكومة يحمل إليها ما تبقى فى البيت من قشر الحب . وحدث أن صادف أحد العلماء بيتا لهذا النمل ، لا فى موضعه المعتاد من الأرض ، ولكن على وجه حائط . وحسب أن النمل سيلقى بقشر حَبّه من عند باب بيته فيسقط إلى الأرض . ولكن النمل فعل غير ذلك : كان يخرج من بيته فيحمل القشر على الحائط ثمانى بوصات ، قبل أن يلقيه إلى الأرض . ومضى النملُ يفعل هذا شهراً . فتلك غريزة . إذ لو كانت عقلا لفعل النمل ما توقعه عقل عالمنا ، فرمى بالقشر من عند بابه .

ومثل خامس نقتبسه من نوع من الخنافس التى تعيش على روث البهائم . فهذه تعمل فى سبيل الرزق كل اثنتين معا . فتأتيان إلى الروث فتقطعان منه قطعة تشكلانها كرة ، ثم تدحرجان معا هذه الكرة إلى حيث تختفيان هما والكرة فى شق من شقوق الأرض . فحدث أن جاء عالم إلى خنفستين على وشك أن تقتربا من الروث لتحملا منه رزقهما . فأهدى لهما العالم كرة كان سبقهما إلى صنعها من الروث . فما كان من الخنفستين إلا أن رفضتا الهدية فى شمم وإباء وعمدتا إلى الروث تقطعانه وتكورانه . فصبر العالم حتى كورتا كرتهما ، وأخذتا تدحرجانها . فأخذ منهما الكرة وأعطاهما الكرة التى رفضتاها أولاً ، فقبلتاها الآن عن طيبة خاطر . إنها الغريزة . انه الروتين . انها الأعمالُ الواحدةُ الثابتة متلاحقة فى نظام واحد . قطعٌ فى الروث ، ثم تكويرٌ ، ثم دحرجةٌ ، ثم خفاء مع الكرة فى الأرض . احذفْ حلقة من هذه الحلقات يختل حال الخنافس . وقد حدث مرة أن هذا العالم أخذ من خنفستين كرتهما اغتصابا ، فظلتا تدوران فى الأرض تبحثان عنها طويلا ، ولم يخطر لهما ببال أن تعودا إلى الروث فتقطعا منه كرة أخرى . عجزتا عن هذا لأن الدورة انقطعت دون تمام ، ولا بد فى الغريزة من إتمامها .

ولكن استمعْ إلى هذه : حدث أن جاء العالم إلى نوع آخر من خنافس الروث ، واصطبر حتى كورت الخنفستان كرتهما وأخذتا تدحرجانها . عندئذ جاء بدبوس ورشق به الكرة عموديا إلى الأرض . فما الذى صنعته الخنفستان ؟ رفعتا الكرة رفعا ، فخلصتاها من الدبوس ، ثم أخذتا فى دحرجتها . عندئذ عمد العالم إلى عود طويل فرشق به الكرة إلى الأرض . فماذا تصنع الخنفستان ؟ صعدتا على ظهر الكرة وأخذتا تحفران فى الكرة حول العود حتى شقتاها نصفين ، وانفصل النصفان عن العود . وعندئذ عادت الخنفستان تكوران النصفين من جديد .

لقد خرجت الخنفستان فى هذا الأمر عن معنى الغريزة لا محالة . لقد صادفتا شيئا غير عادى لم يسبق أن وقع لهما فى حياتهما . موقفا جديدا غريبا ، فتصرفتا فيه تصرفا مبتدعا . فذلك ما يسميه العلماء بالفطنة ، قد أخذ يطلعُ فجرها على هذا النوع من الخنافس .

ومثل آخر تزداد به الفطنة وضوحا : جماعة من النمل قدم أحد العلماء الباحثين لنملة منها عوداً أخضر مما ينفع لطعامها . فلما لم تقدر على حمله ذهبت وعادت بعدد من النمل حملته معها . وعاد العالم فقدم إلى النملة عوداً طوله ضعف طول العود الأول . فذهبت النملة ثم حضرت بعدد من النمل ضعف العدد الأول تقريبا ، فحملن العود . فعاد العالم مرة ثالثة فقدم لنملة عودا طوله ثلاثة أمثال العود الأول . فذهبت النملة ثم عادت بثلاثة أمثال من عدد النمل الأول تقريبا . فأى شىء هذا غير الفطنة قد سبقت الغرائز الأولى بمراحل واسعة .

وتأخذ هذه الفطنة تزداد اشراقاً من حيوان إلى حيوان ، ما أخذنا نصعد في المملكة الحيوانية حتى نصل إلى الكلاب والقردة . والأمثلة الدالة على هذه الفطنة كثيرة شتى .

خذ مثلاً الأرانب البرية : وجدوا أن أنثاها تلد في جحرها من الأرض ، ولكنها إذا خرجت قفزت على غير عادتها قفزة طويلة بعيدة حتى لا تترك من جسمها على الأرض أثرا من رائحة يتشممها طلاب الصيد من الحيوانات الأخرى فتهتدى به إلى جحرها وإلى أولادها . وهي تقفز إلى الجحر مثل هذه القفزة الطويلة إذا عادت اليه .

ثم مثل الثعلب : تطارده فيتلوى ويتعرج في طريق هربه ليضلك ، وقد يسير مواجهة لك إذا أمن أن تراه إمعانا في التضليل . وهو كثيرا ما يصعد الجدران حتى يقطع الأثر ، أثر أقدامه عن طلابه .

ثم مثل الدب : حكوا أن دبا في بستان للحيوان قبع على الأرض عند حافة الماء في بركته . فرموا له بكعكة منتفشة . وكان المفروض أن يغوص في الماء وراءها . ولكنه أحس الكسل ، فأخذ يجرف الماء بكفه الغليظ إلى ناحيته ، حتى أحدث في الماء تيارا حمل الكعكة اليه وهو جاثم لم يتحرك .

ثم مثل الفيل : حكى الحاكى أن صبيين وقفا عند حظيرة في حديقة للحيوانات . فقدما له كعكة ، فأخرج الفيل خرطومه ليأخذها . فتراجع الصبيان حتى لا ينالها . وفعلا ذلك مرارا وتكرارا حتى عيل صبر الفيل . فذهب عنهما إلى حنفية كانت تقطر ماء . وفي صبر أيوب جعل يجمع هذا الماء في خرطومه ، ثم رجع إلى الصبيين ، فقدما له الكعكة من جديد ، فأخرج لهما خرطومه كأنه يطلب الكعكة ، فلم يشعرا إلا وقد انبعث الماء في وجوههم وآذانهم وسال على أعناقهم وأقفيتهم . والفيل يتراجع عنهم يضرب بخرطومه ذات اليمين وذات الشمال .

وأخيرا مثل الكلب : وضعوا لكلب كيس بيضا في سبت صغير . فحمله في فمه ، وأرادوه على الذهاب به إلى جهة ما . وكان في الطريق سور من خشب ، بينه وبين الأرض فرجة قليلة . فلما اعترضه السور تأمله قليلا . ثم ما لبث أن حط بالسبت على الأرض عند أسفل السور ، وتراجع فقفز داخل الحقل من فوق ذلك الحاجز . ثم جاء إلى السبت فجره من تحت اليه . ثم حمله ومضى إلى سبيله .

فهذا ذكاء قد لا يدانيه ذكاء بعض بني الإنسان . لقد تصورت خادمي ، رحمه الله ، وقد أعطوه هذا القفص ببيضه وأرادوه على ركوب هذا الطريق ، فتصورته قد تسلق هذا السور والسبت في عباءه أو يسراه ، أو حتى في فمه ، ثم قفز به إلى الأرض فانفقع من البيض أكثره .

إن الغريزة ، وإن الفطنة ، وإن العقل ، ليست جميعا إلا درجات متفاوتات من شيء واحد نال الإنسان منه نصيبا كبيرا . ولعل في بعض الأجرام السماوية الأخرى ممن لا نعلم أقواما إذا اطلعوا على عقولنا أسموها غرائز ، حقارة لها إذا هم نسبوها إلى عقولهم .

تعالى الله ، يعطي الحكمة ما يشاء ويمنع ، ولله في خلقه شئون .

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٣٢ — الثلاثاء ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ — ٨ من مايو سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــــدد

ختـــــام المأساة

تجرى الأمور في هذه الحرب لغايتها سريعا ، ويطالعنا منها في كل يوم نبأ جديد . فالألمان يفاوضون الانجليز والأمريكان في أمر استسلامهم لهما وهما يأبيان إلا أن يستسلموا للروس معهم . وموسوليني طاغية إيطاليا يحاول الفرار فيدركه الثوار ويقتلونه ثم يمثلون بجثته أقبح تمثيل ، والجيوش الألمانية في شمال إيطاليا تستسلم للحلفاء . والروس يستولون على برلين عاصمة الألمان . وهتلر وخاصة المتصلين به ينتحرون ويتولى زعامة ألمانيا الاميرال دوانتز فيعلن مواصلة الدفاع . والحلفاء يواصلون احتلال المدن الألمانية والقضاء على جيوشها المتناثرة هنا وهناك . ولن يطول بهم الأمد حتى يقضوا على كل مقاومة ويتموا السيطرة على ألمانيا كلها .

وهكذا تنتهى فصول تلك المأساة المروعة التي ملأت العالم فزعا ورعباً ، وغمرته بالآلام والأحزان ، وابتلته بألوان الشقاء والكروب ، وكبدته أعز الضحايا ، وحملته أبهظ التكاليف وتركته ينوء بأعباء جسام في إصلاح ما حل به من الدمار والخراب والبؤس .

وهكذا يذهب الرجلان المسئولان عن تلك البلايا والارزاء اللذان يحملان وزر ما حل بالعالم في هذه الحرب من الكوارث والمحن بعد أن ذاقا مرارة الخيبة والفشل ، وشهدا البناء الذي أقاماه على القسوة والطغيان يتداعى وينهار . وهكذا يخضع للقوة وينزل على حكمها القاهر من كان يمجد القوة ويتعبد بها الضعاف ، ويخرج من الدنيا مضطراً من كان يرى أن الدنيا كلها ملك له يؤوى فيها من شاء ويبعد منها من شاء . ويذل للقدر من كان يسخر بالقدر ويحسب نفسه وأمته عنجاة من كل سوء ، تجير ولا يجار عليها وتجور ولا يجار عليها . وكذلك كان ختام صاحبه ختاما مسرحيا كما كانت حياته كلها تمثيلا . ألم يك مفتونا باستهواء الجماهير مشغوفا بتصفيقهم . فهو يخطبهم من فوق

مدفع . وهو يعرضهم في الميادين ويعيد لهم أيام امبراطوريتهم الذاهبة ، وهو يصطنع لهم الأزياء ومراسم التحيات ، وهو ينفخ أوداجه ويقطب أساريره ويتصنع في حركاته ويدفع في كيانه ريح العظمة ليمثل دور القيصر العظيم ، أوليس من حقه حين يموت أن ينال من التشهير مثل ما كان يحرص عليه في حياته من الشهرة ، وأن يمثل به من كان بالأمس يعبده ويمجده !

على أن ذهاب الرجلين في ذاته ليس بأمر ذي بال ، وإنما يعنينا من ذلك ما قد يكون له من نتائج في تقصير أمد الحرب وسرعة ذلك ، ويعنينا من فوق ذلك أن يذهب بذهابهما النظام الدكتاتوري البغيض الذي أقاماه ونشرا تعاليمه وفتنابه طائفة كبيرة من الناس ، لقد قام النظام الدكتاتوري في إيطاليا وألمانيا نتيجة ظروف خاصة فيهما . ولقد كان الناس يحسبونه حالة وقتية عارضة لا تلبث أن تزول وتعود الأمور لوضعها الطبيعي ، وتحيا هاتان الأمتان الحياة الديمقراطية التي آمنت بها الأمم . ولكن الطاغيتين أبيا إلا أن يمعنا في تدعيم أسسه ، ووجدا من رجال الفكر والأدب من استمالاه به على تبرير النظام وتمدحه والقول بأنه هو النظام الدائم الذي لإصلاح الأمم ولا نهضة لها بغيره .

وكما حشد النظامان الدكتاتوريان قواهما المادية لمحاربة الديمقراطية ، حشدا كذلك قواهما الفكرية والأدبية لغزو الديمقراطية في أساسها .

ولقد كانت الحملات الفكرية التي شنها النظام الدكتاتوري على الديمقراطية من العنف والقوة بحيث بدأت الشكوك تساور بعض النفوس في قيمة النظام الديمقراطي وصلاحه للبقاء . وتزعزع إيمان بعض المفكرين الديمقراطية وبدءوا يدعون إلى نظام عالمي جديد مصبوغ بصبغة تشبه الدكتاتورية . وقد كانت الحملة على الديمقراطية ترميها بالعجز والضعف والتردد والبطء ، وغلبة الأنانية الفردية عليها . وكانت تنعى عليها إفراطها في إطلاق العنان للحرية الفردية مما يمهد لحياة الاستهتار والعبث والفوضى ، وانحلال الأخلاق الاجتماعية . ووجدت الحملة في الحياة الواقعية الماثلة على كثير من الأمم الديمقراطية مادة تؤيد دعواها وتشكك أنصار الديمقراطية في إيمانهم بها .

وجاء نجاح الغزو الفاجىء ، الذي قامت به ألمانيا في مهاجمتها للأمم الديمقراطية ، وسرعة انهيارها أمامها ، وقصور تلك الأمم في الاستعداد والمقاومة ، مؤيداً لتلك الحملة .

فالآن تسقط حجة الدكتاتورية ويقوم الواقع بنصرة الديمقراطية . ويدل ثباتها ومرونة تكييف نظامها في مدة الحرب ونجاحها في كسب عطف الرأي العام العالمي عليها ، وحشدها قواها بالرضى والاختيار ، وبقاء روحها المعنوي قوياً في أحلك الأوقات ، على أنها النظام الدائم الصالح للحرب والسلام .

وأخيراً كان النجاح في الأمم الديمقراطية مبعث النجاح ، في حين كان النجاح في الأمم الديكتاتورية مبعث التهور والبطر والطغيان .

فإذا كان في مصرع الطاغيتين ما يشفي نفوساً شفيت بمياسيهما وذاقت المر من مغامراتهما الجريئة ، وما يزيح كابوساً ثقيلاً عن صدور العالمين ، فإن أكبر ما يجنيه الإنسانية من ذلك القضاء على النظام الدكتاتوري وإعادة ثقة الناس وإيمانهم بالنظام الديمقراطي .

والحق أن كل نظام لا يحترم حرية الفرد وكرامته نظام لا يدوم . وإذا كان ثمة مآخذ على الديمقراطية فإن لها من مرونتها وقابليتها للتعديل ضماناً للتغلب على هذا الضعف فيها . إن العيب الرئيسي في الديمقراطية أنها في وقت السلام تجنح إلى شيء من الركود والفتور الاجتماعي . ولكن الأيام أثبتت أنها إذا جد الجد ودعا واجب الذود عن كيان المجتمع تصحو سريعاً من غفوتها وتمضي قدماً في العمل والإنتاج . ولعل شيئاً من التعديل في التربية العامة كفيل بأن يجعل النظام الديمقراطي نظاماً حياً نشطاً فعالاً في السلم والحرب على السواء .

(. . .)

ابنى صفوان

هذا أول كتاب دونته باسمك ، وأودعته بعض ما أوحيته الىّ من رأى وعاطفة .

ولدى ! إن الدنيا تبتسم لى بثغر لا أعرفه لها ؛ ويشبه لى أنى أعيش حياة جديدة ، وما أرى إلا أنها دنياك يا صفوان حلت إلى جانب دنياى ، فصرت أحيا مرتين بآن واحد ، وتضاعف كل شئ لدى حتى كأن نفسى أصبحت تحل فى جسمين ، وروحى تسكن فى نفسين .

عزيزى صفوان ! أمعن النظر فى مهدك الذى ترقد فيه ، فأشعر بأن قطعة من نفسى عزيزة حلت فى هذا السرير ، فأنحنى اليها ، وأعتز بها فرحاً ، وأرقبها خائفاً طامعاً ؛ حتى إذا عرض لى عمل يقصينى عنها ، شاهدت نفسى تتجزأ ، فغبت وأنا حاضر ، وبعدت وأنا قريب . إنّ ذلك لتعدد الحياة وتضاعف الروح .

قلت لأمك : إنك فى هذا أريتنى العجب العجاب .

فقالت : لا عجب . أفليس الولد ريحانة النفس وفلذة الكبد؟

ألا فاعلم يا بنى أن النساء يؤمنّ بالمعجزات قبل الرجال ، ويرين فيها جمالاً وإيحاءً ، لا عجباً وإعجازاً . ذلك أهون لهن ما يعجز المرء عن الإتيان بمثله ، لا بل عن محاكاة بعض أجزائه .

إنّ كل طفل إلاّ آية مما أبدع الله ؛ أما أنت فإنك عندى آية سرور ومعجزة سعادة .

إنى آمنت بالله قبل هذا ، وإنى الآن أؤمن به أكثر . ومالىَ لا أزداد إيماناً ، وأنت بجانبى تدل على الخالق ببديع تكوينك ، وتشير إلى الجنان بسعادة من حولك ، وتشعر بالنار من خشيتهم عليك . أى حبيبى صفوان ! إنك لى آية كاملة : فيها الإبداع والسعادة والخشية .

أولا أحبك بعد هذا حب المؤمن ؟ ثم ألا أنظر اليك نظرى إلى المعجزة حبوراً شفوقاً راغباً .

على أن أمرى يتعدى الإيمان إلى أقصى الفخر والعزة ، فإنك إن أشبهت غيرك بتكوينك وصوتك ونظرك ، لأنت عندى تفوق الشبيه ، وتعلو عن التكافؤ . وإنى غير مذنب فيما أعتقد ، أفليست عاطفتى جامحة عندك ، وأملى ممتزجاً بكيانك ، وحياتى وديعة بطرفك ؟

ألا إنى أب جديد يقدم قسطه فى صرح العروبة والإنسانية ، وهو معتز فخور ، حتى إذا صلح زرعه ، وكثر نفعه ، كان مصيباً وبفخره حريا .

ألا يارب مُدّ فى عمرى حتى أرى صفوان شاباً كما أرغب ، وأدمه حتى يصبح شيخاً كما يتمنى ، وقونى على تربيته حتى أكون جديراً بالفخر يوماً بعد يوم ، وحرياً بالسعادة آناً بعد آن .

ألا يارب أدم حياة كل طفل حتى يشيخ ، ومُدّ فى عمر كل أب حتى يرى طفله يافعاً . إنك أنت الخالق ، وأنت على كل شئ قدير .

(دمشق) يوسف العشى

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

خير الدين باشا التونسي

— ٦ —

قضى خير الدين — بعد اعتزاله الوزارة — أعواما سوداً ، فقد كان أشبه بسجين لا يَزُور ولا يُزار ، ولم يتجه إلى التأليف يتسلى به كما فعل في العهد الماضي ، إذ كان في المرة الماضية شابا آملا ، فأمسى في هذه المرة شيخا يائسا يرى كل ما بناه من إصلاح وما وضعه من خطط يتهدم على يد الباي وأعوانه حجرا لحجرا ، ويرى تتقدم القضاء على استقلال البلاد خطوة لخطوة . ثم إذا هو ضاق صدره مجارى وتهدمت أعصابه مما يفكر سافر إلى أوربا يظن أن فيها سعة من ضيق ، فإذا هي ضيق من سعة ، لا يلبث حتى يشعر بالحنين إلى بلاده ، فعل هذا مرتين فكان يستشفى من داء بداء .

وأخيرا وصل اليه تلغراف من كبير الأمناء يأمره فيه بالحضور إلى الأستانة فأطلع عليه الباي فتردد في الإذن له ، وشاور قناصل الدول فأشاروا عليه بأن يسمح له ، فسافر في رمضان سنة ١٢٩٥ ، وكان سفراً حزينا تعطف عليه قلوب الناس ولا يتيسر لهم وداعه ، لأن الباي أمر أن لا وداع ، وترك أسرته وماله في حماية من لا يوثق بهم في الحماية ، وقد كان له أملاك كثيرة ، ثلاثة قصور أهداها اليه البايات المتعاقبة جزاء له على خدمته أيام رضاهم عنه ، وغابة من شجر الزيتون أهداها اليه الباي أحمد ، ومنزل كبير به مياه معدنية أهداه اليه الباي محمد ، وضيعة كبيرة منحها له الباي محمد الصادق ، وقد أراد أن يبيع كل هذه الأملاك لعزمه على الاستقرار في الأستانة فعرضها على الحكومة التونسية فأبت شراءها ، فأمر وكيله أن يعلن الأهالي التونسيين بخصم ١٠ ٪ من ثمنها ، فلم يتقدم أحد خوفا من الباي ورجال حكومته ، فلما اضطر إلى بيعها للفرنسيين بعد سنة من إعلانه نقدوه نقداً مراً ، وفي هذا يخطر لي قول أبي العلاء :

عنب وخمر في الإناء وشارب
فمن الملوم : أعاصر أم حاسي ؟

* * *

وصل إلى الأستانة ، فوجد في انتظاره سليمان باشا مندوب السلطان عبد الحميد وحمدي باشا كبير الأمناء وعلى فؤاد بك السكرتير الأول للسلطان ، وتوجه إلى قصر يلدز وقيد اسمه ، فدعى للمقابلة في نفس المساء ، وتحدث معه السلطان طويلا ، واستبقاه للعشاء معه ليكتنه كنهه ويزنه بموازينه .

وأمر السلطان فأعد له جناح في قصر من قصوره الكبيرة ، وأرسل سليمان باشا إلى تونس ليعود بأسرة خير الدين .

ومرعان ما عين وزير دولة ، فكان يدعى لحضور مجلس الوزراء عندما يجتمع لبحث المسائل الخطيرة ، ولم يمض شهر حتى سمع من كبير الوزراء أن السلطان يرشحه لوزارة العدل ، فرجا منه ورجا من كل من توسم فيه الجاه أن يسعى لعدم اتمام ذلك فلم يجد شيئا ، فذهب لمقابلة السلطان نفسه وتوسل اليه أن يعفيه من ذلك فقبل رجاءه وأعفاه .

وكانت أكبر حجة له في الاعتذار أنه لا يستطيع خدمة البلاد — وخاصة من طريق الوزارة — إلا إذا عاش فيها زمنا طويلا عرف أهلها ودرس شؤونها وتعرف كنه أمورها ووجوه الاصلاح فيها .

هذا ما كان يقوله . وأما باطنه فهو أنه يرى أيضا أن الدولة العثمانية أصبحت من المرض بحيث لا يرجى لها علاج في وضعها الحاضر ، ثم هو دائم الحنين لتونس ، إذ صارت وطنه يأنس بها ويستوحش من فراقها ، ويفضل أن يكون فردا آمنا فيها على وزير في غيرها .

هذا الذي كان يعتذر في إلحاح عن الوزارة يدعى إلى يلدز في الصباح الباكر يوم ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م = ١٢٩٥ هـ ويقابل السلطان فيخبره أنه عين رئيسا للوزارة ، ولما أراد أن يعتذر أبلغه أنه أمضى المرسوم ولم يعد في الامكان إلغاؤه بحال .

***

هذا خير الدين صدراً أعظم في أيام تواجه فيها الدولة العثمانية شدائد من أخطر الأمور وأشدها تعقيداً وارتباكاً .

فتركيا في حرب مع الروس ومنهزمة أمامهم ، وجيوش الروس تتقدم وتهدد العاصمة نفسها . والأسطول البريطاني في مياه البسفور . وحالة البلاد الداخلية من مالية واقتصادية ونفسية من أسوأ الحالات ، حتى كان أصحاب المخابز يفضلون إغلاق مخابزهم على التعامل بنقود متدهورة تكاد تكون عديمة القيمة ، و ٣٨٠٠٠٠ مهاجر لا مورد لهم ولا معين يزحفون على العاصمة . ومعاهدة سان ستيفانو التي عقدت في برلين سنة ١٨٧٨ كانت طويلة الذيول تتطلب عقد معاهدة بين تركيا وروسيا في الأمور الخاصة بهما . وأبى الروس الجلاء عن أراضي الدولة العثمانية حتى تتم المعاهدة . وأبى الانجليز سحب أسطولهم حتى تجلو الجيوش الروسية . ومشكلة قبرص معلقة ، والحالة مرتبكة مع النمسا لاحتلالها البوسنة ، ومشكلة الأرمن قائمة .

في هذا الأتون المستعر وضع خير الدين ليطفئ النار . وأي قدرة تستطيع إطفاءها من غير حرائق ؟ . لقد كانت سياسته « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » .

فبذل كل ما يستطيع من رأي وجهد حتى كان الاتفاق مع روسيا ، ووضعت ضمانات تكفل مصالح المسلمين في بلغاريا وروملي الشرق ، وخفضت التعويضات الحربية تخفيضا كبيرا وانسحبت الجيوش الروسية إلى بلغاريا وروملي ، كما انسحب الأسطول البريطاني من بحر مرمرة ، وسوى الخلاف بين تركيا والنمسا بما حفظ لتركيا كثيراً من حقوقها . وحلت مشكلة الأرمن التي استعصت على الحل نحو عشر سنوات الخ الخ ، وبسياسته حقا أنقذ ما يمكن إنقاذه .

وفي أيام وزارته هذه كانت مشكلة مصر الكبرى في آخر عهد الخديو اسماعيل ، فانه لما اضطربت الحالة المالية والسياسية في مصر عزمت انجلترا وفرنسا على التدخل في شؤونها تدخلا آخر جديدا ، فأرسلتا الى قنصليهما في مصر ليطلبا من الخديو اسماعيل تنازله عن العرش لأكبر أبنائه « توفيق » فأبى اسماعيل محتجا بأن ذلك من حق الباب العالي وحده ، مؤملا أن يرفض هذا الباب العالي مطلب الدول . وزاد الأمر سوءا أن قنصلي ألمانيا والنمسا انضما في الرأي إلى قنصلي انجلترا وفرنسا ، فكانت هذه مشكلة جديدة أمام خير الدين في الاستانة ؛ إن هو أجاب فقد سمح للدول الأوربية بالتدخل فيما ليس من حقها ، وإن هو رفض خشي أن تتجمع هذه الدول وتصمم ، وتفعل بالقوة أكثر مما تصل اليه بالمفاوضة ، وتقطع العلاقة الباقية بين مصر والدولة العثمانية ، وتنتهز الفرصة السانحة فتلتهم إحداها مصر والأخرى تونس الخ .

حار خير الدين طويلا بين الرأيين هو ووزراؤه وسلطانه ، وأخيرا كان من رأيه أن يطأطئ الرأس قليلا أمام العاصفة ، ويشير على السلطان بخلع اسماعيل ، ولكن يجب أن يعمل شيئا آخر مع هذا وهو أن يتلافى الأسباب التي جرّت إلى هذا التدخل الأجنبي ، فيسلب بعض الحقوق التي أعطيت لخديوي مصر ، كالاستدانة وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية فينتهز فرصة عزل اسماعيل لتعديل فرمان مصر . ولكن أبت انجلترا وفرنسا ذلك لأن هذا يزيد في تبعية مصر للدولة العثمانية ، ومن مصلحتهما أن تكون حقوق مصر أوسع وسلطتها أكبر للأيلولة المنتظرة .

وصدر الأمر بعزل اسماعيل وكثر الأخذ والرد في مسألة تعديل الفرمان حتى خرج خير الدين من الوزارة ،

فأجابت الوزارة التي وليتها مطالب الدول في إصدار الفرمان المعتاد مع بعض التعديلات .

● ● ●

ثمانية أشهر قضاها رئيس وزارة كانت أعباؤها تساوى ثمانين عاما . ولولا ما مهد إليه من حل المشاكل ما بقى هذه الأشهر الثمانية ، ففيه من الصفات ما لا يتفق ومزاج السلطان عبد الحميد : حر الفكر ، واسع النظر ، متحمس في تحقيق الإصلاح ، مرهف الحس في العدالة وما يتعلق بها ، يرى أنه وقد عين رئيسا للوزراء يجب أن يتحمل المسئولية ، فيصرف الأمور كما يرى هو وزملاؤه ليتحمل نتائج رأيه ! فأما أن يأمره السلطان ويتحمل هو المسئولية فليس حقا ولا عدلا ، السلطان يريده عبدا مأمورا ، وهو يريد نفسه حرا مسئولا ؛ لهذا نفر منه السلطان كما نفر منه الباى من قبل .

وتألب عليه أيضا رجال الدين إذ كره منهم ضيق عقلهم وتعرضهم لما ليس من شأنهم وتدخلهم في أمور من السياسة لا يحسنونها ، وكرهوا هم منه الوقوف أمامهم وضغطه عليهم .

لكل هذا عزل خير الدين بعد ثمانية أشهر في قسوة ، وما كان أقرب المأتم من العرس ، وأدرك عبد الحميد أن قد خابت فراسته فيه ، وظل بعد ذلك نحو عشر سنين في مقاعد النظارة ولا يمثل على المسرح شيئا . وكل ما يرى مآس لا ملهاة فيها .

ومات وهو في الآستانة في سنة ١٨٨٩ — ١٣٠٧ من نحو سبعين عاما ودفن في جامع أيوب ، وخلف تاريخا في الإصلاح حافلا ، وكفاحا للفساد طويلا ، وذنبه أنه لم يجد مواتيا من الشعب ولا مؤازرا من السلطان .

لقد كان مصلحا اجتماعيا وسياسيا من جنس مدحت باشا ، غير أن الفرق بينهما كالفرق بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ؛ فمدحت يصلح فإن عجز عن الإصلاح ثار ودبر الانقلاب ، وخير الدين يصلح فإن عجز عن الإصلاح رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنى قد بلغت » .

وكانت فضائله التي تكون شخصيته الجرأة في قول الحق وعمله من غير خوف ، وصلابته فيما يعتقده من غير انحناء ، وحريته في تفكيره من غير جمود ، وقوة كواهله على حمل الأعباء من غير تبرم . فرحمه الله .

(تم البحث) أحمد أمين



(١) خير الدين قائماً
وهو في مهمة بباريس سنة ١٨٥٧



(٢) خير الدين قاعدا
في تاريخ متأخر عن الصورة رقم ١



(٣) خير الدين رئيس وزراء
في الآستانة سنة ١٨٧٩

سياست نامه

نظام الملك والبرامكة

كان نظام الملك معتزا بنفسه مؤمنا برسالته مقدرا خطورة اضطلاعه بالأعباء الجسيمة التي أثقل بها كاهله [ثلاثين] عاما ، وقد نجح في أن يجعل من أسرته ، أبنائه وأصهاره ، حلقة وثيقة العرى لحكم الإمبراطورية السلجوقية ، وعمل على أن يظل الحكم فيهم من بعده ، شأنه في ذلك شأن مهرنرسي الذي وزر للملكين الساسانيين يزدجرد الأول وبهرام الخامس ، وشأن البرامكة الذين وزروا لبعض بني العباس . وكان ينظر إلى البرامكة على أنهم المثل الأعلى للوزراء في الإسلام ، ولا عجب في ذلك فهم فرس مثله وقد ولوا الوزارة حين انتقل السلطان من العرب إلى الفرس ، ووليها حين أصبح الترك سادة عليهما جميعا . وهو يرى أن البرامكة كانوا يرجعون في سياستهم إلى نفس الأصول الساسانية التي رجع إليها وأنهم من نسل وزراء آل ساسان وأن كتب «أصول الحكم» متوارثة فيهم . وعنده أن خير مشير على الملك مدبر لسياسته هو الوزير الذي ورث الوزارة من آبائه ، فإن الوزارة — عنده — كالملك يتوارثها الأبناء عن الآباء . وكما نجح يحيى بن خالد البرمكي في صرف الهادي عن تولية ابنه جعفر بدل أخيه هارون ، كذلك نجح نظام الملك في جعل السلطنة لألب أرسلان دون أخيه ، كاذب عن العرش الطامعين فيه [من] آل سلجوق . ونظام الملك مع تطلعه للبرامكة ونهجه [نهج]هم الفارسية كان أوسع منهم سلطانا وأقوى نفوذاً ، [فهو] المدبر بغير منازع للسلاجقة الذين كانوا [يعتمدون] على قوتهم في الفتح والغزو ، ولكنهم كانوا يجهلون أصول الحكم ، فلم يكن في مقدورهم إدارة دولة واسعة فتحوها بقوتهم ، ولم يكن بد من الاستعانة بالوزراء الأكفاء ، فاستعانوا بالكندري ومن بعده بنظام الملك ، وقد روى هذا عن نفسه أنه قصد الحج ذات مرة فأتاه طيف في المنام وأخبره أن النبي (ص) أوفده إليه ليمنعه من السفر إلى مكة ليبقى بجوار التركي — أي السلطان السلجوقي — الذي لا يعرف الشريعة المعرفة الواجبة للحاكم ! هكذا نظر نظام الملك إلى نفسه ، وبهذا عبر رسل ملكشاه حين أبلغوه غضب السلطان من ازدياد نفوذه ونفوذ أسرته وأنه قد يعزله . قال : قولوا له إن الذي وضع التاج فوق رأسه رفع العمامة فوق رأسي !

قال نظام الملك :

والوزير الموفق الذي يستطيع السلطان أن يعتمد عليه مطمئنا لحسن سياسته وقوة خلقه هو الذي يبذل كل جهده في سبيل الدولة والذي لا يتصرف عن هوى أو ميل لأسرته أو عشيرته بل يجعل الصالح العام هدفا لكل جهوده ، وهو الذي — بكفايته وجدارته — يسبغ على الملك هالة من النور ، ويجعل حكمه زاهرا ويخلد اسمه في التاريخ . والوزير يد الملك فما دامت هذه اليد خيرة رشيدة اتصف صاحبها بما لها من فضل . وقد استعان الأنبياء أنفسهم بالوزراء ليشدوا بهم أزرهم ، كهرون من موسى وسمعون من عيسى وأبي بكر من محمد (ص) . وأشهر ملوك الأرض وأبقاهم ذكرا هم الذين وفقوا إلى خير الوزراء ، مثل جاماسب من كشتاسب وبزرجمهر من أنوشروان ، والكندري من طغرل بك ، ومثل البرامكة من بني العباس .

قال السلطان : حدثنا عن البرامكة يا نظام وكيف وزروا للعرب .

فقال :

كان ذلك أيام سليمان بن عبد الملك يا مولاي ، وقد اجتمع له من الملك ما لم يكن لأحد من آبائه ، فجلس يوما ومن حوله حاشيته ووزراؤه وكان بنفسه أن يقول إن الله وهبه من الملك ما وهب سليمان الحكيم ، إلا أنه لا تدعن

له الطير ولا تطيعه الجن ! وبينا هو يفكر في هذا إذ بادره أحد خاصته فقال : إن الخليفة مع ما أتيح له من عظمة الملك وأبهة السلطان ينقصه شيء واحد هو زينة البلاط عند الملوك السابقين . قال سليمان : أفصح . قال الرجل : ينقصك يا مولاي وزير من أبناء الوزراء الأقدمين تزدان به مملكتك وتستعين به في إدارتها . قال الخليفة : ولكن أين أجد هذا الوزير ؟ فقال المتحدث : إنه ببلخ واسمه جعفر بن برمك (الجد) وهو من نسل البرامكة الذين وزروا للساسانيين منذ أيام أردشير بن بابك وقد زالت عنهم الوزارة حين ذهب ملك آل ساسان ، وهم يتوارثون — منذ الفتح العربي لبلادهم — القوامة على بيت نار النوبهار ، كما يتوارثون كتبا في أصول الحكم وواجبات الوزير ، وضعها الآباء وزاد فيها الأبناء ما جد من تجاربهم ، ولست أرى من هو أجدر من جعفر هذا بوزارتك ، والرأي لمولاي .

وراقت الفكرة لسليمان فأمر والي بلخ أن ينادي جعفر بن برمك وأن يعطيه مائة ألف دينار ثم يوجهه إلى دمشق . . وقوبل البرمكي في رحلته الطويلة بأروع مظاهر الاستقبال ، فقد شاع أنه ذاهب ليتقلد الوزارة ، وأمر الخليفة باستقباله استقبالا رسميا في البلاط ، فاجتمع الأمراء ورؤساء القبائل وذوو الرأي ، فلما بلغ جعفر القصر فتحت له الأبواب ، ولم يكد يدخل حتى وقف الحضور تحية وإجلالا ، ولكن الخليفة تجهم ، وأمر بطرده شر طردة وقد استشاط غيظا وقال : خذوه فغلوه . وساقه الحرس خارج القاعة . أما الخليفة فظل عابسا ، وأما الحضور فكأن على رءوسهم الطير . . إلى أن حان وقت الشراب ، ولعبت الكؤوس بالرءوس وتفتحت أسارير سليمان وأمن الحاضرون غضبه . وقال أحدهم : بعثت يا مولاي في طلب جعفر وأحطته في رحلته بعطفك ورعايتك وجلست تنتظر حضوره ، وهو شرف لم تمنحه أحدا من قبل ، ثم طردته من مجلسك وأنت غاضب عليه فهلا شرحت لنا الحكمة في ذلك ؟

قال الخليفة : إنه دخل بلاطنا وفي يده السم ، ولولا أنه من أبناء الوزراء السابقين وقد استحضرناه من بلد قصي لأمرنا بقتله صبرا(١) .

قال صاحبنا : إذا أذن مولاي ذهبت عنده لأستبين الأمر فإني أرى فيه سرا ، فأذن له الخليفة . . وأجاب جعفر سائله بأنه يحمل السم في خاتمه ولكنه سم لا يضر حشرة حقيرة في الأرض وهو لا يفكر في إيذاء مخلوق به ، وقال إنه ورث الخاتم وما يحتويه عن آبائه الوزراء الذين حملوه لاستعمال ما فيه من السم إذا اقتضى الحال ، فكثيرا ما كان الملوك يغضبون فيصادرون أموالهم ويعرضون للبوار أرواحهم ، قال وحين ناداني الخليفة خشيت أن يطلب إلي مالا قبل لي به ، وخشيت أن يأمر بتعذيبي عذابا لا قدرة لي على احتماله ، فلبست الخاتم لأسرع إلى الموت قبل العذاب الأليم . . فلما علم الخليفة السبب الذي من أجله حمل جعفر السم في خاتمه راقت له الفكرة ورضي عنه ، وأمر بأن يرسل إليه حصان من خيوله المطهمة وبأن يحضر راكبا إلى البلاط . . واستقبله أجل استقبال ثم أمر بإعداد غرفة الشراب فزينت بالذهب والفضة وفرشت بالبسط المنسوجة من الذهب الخالص ، وبدت الغرفة في أبهى حلة ظهرت بها

---

(١) لم يرد اسم البرامكة أيام الساسانيين فيما نعلم من مصادر تاريخهم ، والمعروف أن جعفراً البرمكي (الجد) وفد على عبد الملك كطبيب للأمير مسلمة (٨٦٢/٧٠٥) . وقد جاء في « فرهنگ انجمن آراى ناصرى » — فارسي — أن برمك وزن ترمك اب جعفر البرمكي وأن نسب البرامكة يتصل بملوك الساسانيين ، وقد عرف جعفر بالنجابة وكان سادن بيت نار نوبهار بلخ . وأنه ذهب إلى دمشق بعد أن دخل في الإسلام ثم اتصل بسليمان بن عبد [illegible] فغضب عليه لأنه كان يحمل صدفة على ذراعه تتحرك إذا د[illegible] عليه ومعه سم فتحركت حين دخل جعفر ، فلما سأله [illegible] منه قال إني أحمل قدرا من السم في فص خاتمي [illegible] (برمكم) إذا تعثرت على الحياة فأموت . فرق له قلب [illegible] وقد تدرج البرامكة في خدمة الأمويين والعباسيين وبلغوا أسمى الدرجات . وهكذا ترجع كلمة البرمكي إلى المصدر مكيدن أو برمكيدن بمعنى المص (مص السم) .

ثم انتقل الخليفة ووزيره الجديد والحاشية إليها وأخذوا يشربون .

ولما اطمأن جعفر إلى الخليفة سأله : كيف عرف أنه يحمل السم مع أن أحدا لم يفطن لذلك من قبل ؟ فقال له الخليفة : إن معي سوارا هو أثمن كنوزي جميعا ، لا أنا أنفصل عنه ولا هو ينفك عني ، وهو عشر صدفات تشبه الجزع (نوع من الصدف) وليست منه ، وجدته في خزانة أحد الملوك ، فإذا دخل في غرفتي طعام أو شراب مسموم أو دخل من يحمل سما اضطربت الصدفات وفقدت هدوءها ، وبفضل هذا السوار عرفت أنك تحمل السم ، وقد كان يزداد اضطراب صدفاته كلما تقدمت مني ، ثم نزع الخليفة صدفتين من السوار وأراهما لجعفر وسأله إذا كان قد رأى في حياته شيئا أعجب مما يرى ، فقال : نعم يا مولاي ما رأيت مع حاكم طبرستان . قال الخليفة : ماذا رأيت معه ؟

فقال جعفر البرمكي :

عرجت على آمد وأنا في الطريق إلى دمشق عملا بأمر مولاي فاستقبلني حاكمها وأنزلني ضيفا عليه وأحاطني بالرعاية والعناية ، وقد سألني إذا كنت أرغب في رحلة بحرية ترويحا عن النفس من مشقة الطريق فوافقت . وركبنا السفن ومعنا أهل الموسيقى والغناء ومن حولنا السقاة يديرون كؤوس الشراب والجو صحو جميل ، وكنا في سفينة واحدة وهو قريب مني ، فرأيت في إصبعه خاتما لم أر أجمل من الفص الذي يزدان به ، فحدقت فيه طويلا فلما لاحظ ذلك انتزعه من إصبعه وقدمه هدية لي ، وخشيت أن تكون إطالة نظري فيه قد أحرجته فرددته شاكرا معتذرا فألح ...ت في الاعتذار عن القبول فقال إن ما يخرج من يدي ...د إليها ، فما كدت اعتذاري فأخذ الخاتم من يدي ...فصحت آسفا وقلت : لو عرفت أنك ملقيه في ... حدبه . قال : إنك حين أطلت النظر فيه علمت أنه راق في نظرك أكثر مما يروق لي . وها أنت تحزن لقراره في قاع البحر ، ولكني واجد الوسيلة لإخراجه ورده إليك . ثم أمر خادما بأن يعود إلى البر وأن يذهب إلى القصر ويطلب من الخازن أن يعطيه الصندوق الفضي الذي في الخزانة ، وأمر ربان السفينة التي كنا بها بالتمهل . . وجاء الخادم يحمل صندوقا صغيرا من الفضة فتناوله الحاكم وأخرج من منطقته مفتاحا ففتح به الصندوق وأخرج منه سمكة من الذهب الخالص وألقاها في الماء ، وبعد لحظة عادت السمكة وفي فيها الخاتم المفقود . . ثم نزع جعفر الخاتم من إصبعه وأراه للخليفة فأعجب هذا به ورده إليه وقال إن ذكرى كرم هذا الوالي لا يجوز أن تضيع .

* * *

ولبث شأن البرامكة في ارتفاع حتى قلب لهم الدهر ظهر المجن فزالت دولتهم . وما قصدت بهذا أن أعرض على مولاي من شهير قصصهم ما يعرف . إنما قصدت ذكر القواعد اللازمة لاختيار الوزير الكفء الذي يعلم واجباته نحو الدولة . وما القصص إلا لتسهل على مولاي القراءة . وفقك الله وأرشدك إلى ما فيه صلاح الدولة والدين ؟

يحيى الخشاب

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

رشـــــيد الدين
وكتابه جامع التواريخ

عناية رشيد الدين بكتبه :

توسل رشيد الدين بوسائل عدة لتخليد كتبه ، كان يأمر أن تنسخ من كل كتاب نسخ كثيرة ويعيرها للعلماء مرخصاً لهم فى نسخها .

وأمر بأن يترجم كل كتاب له عربى إلى الفارسية ، وكل كتاب له فارسى إلى العربية ، وأن ينسخ من هـذه وهذه نسخ كثيرة لتحفظ فى خزانة الجامع فى المحلة المنسوبة إليه : الربع الرشيدى .

وأمر أن تجمع رسائله مع ما يتصـل بها من صور وخرائط فى مجموع واحد سمى جامع التصانيف الرشـيدى وتوضع فى خزانة هذا الجامع .

وأمر أن تكتب أربعة من كتبه فى الطب وتدبير المغول للحكومات باللغات الثلاث العربية والفارسـية والصينية .

وأباح نسخ كتبه كلها لمن يشاء ، وخصص مالا من وقف الجامع لنساخين يكتبون فى كل سنة نسختين من كل كتبه إحداهما بالعربية والأخرى بالفارسية ترسلان إلى إحدى المدن الإسلامية الكبرى .

وأمر أن تنسخ هـذه الكتب على أحسن الورق البغدادى بأحسن الخطوط وأوضحها ، وأن تقابل بالأصول مقابلة دقيقة .

وأمر أن يختار النساخون من مهرة الكتاب الذين يجيدون الكتابة ويسرعون فيها ، وأن يعملوا فى المساجد . وكلما كملت نسخة وضعت على كرسى بين المنبر والمحراب ، وتلى عليها دعاء المؤلف كتبه لنفسه . ويكتب هذا الدعاء آخر كل نسخة ويتلوه تحميد أنشأه رشيد الدين وخاتمة لقيم الوقف يبين فيها تاريخ النسخة ، والمدينة التى كتبت لها ، ويذكر اسمه ونسبه ليدعو له المسلمون .

ثم تحمل النسخة إلى قضاة تبريز ليشهدوا أن وصايا الواقف قد أنفذت فى كتابتها ، وترسل إلى المدينة التى كتبت لها ، فتوضع فى خزانة عامة وييسر للناس الاطلاع عليها واستعارتها برهن يقدره قيم الخزانة .

وأمر أن تكتب نسخة من المجموعة الرشيدية وبيان الحقائق وكتاب الأحياء والآثار وتعطى لأحد المدرسين فى الجامع يقرأ منها كل يوم ويفسرها للطلاب . وعلى كل مدرس أن ينسخ من أحد هذه الكتب نسخة عربية وأخرى فارسية فى مدة محدودة ، فإن لم يفعل عزل . والنسخة التى يكتبها تكون له يتصرف بها كما يشاء . وتيسر مطالعة هذه الكتب لمن يشاء ولكن لا تنقل من خزانتها .

وعلى قوام الوقف أن ينفذوا شروط الواقف فى غير تبديل ولا تحريف ولا ونى ، ومن لم يفعل فعليه لعنة الله .

جامع التواريخ :

هو بالعربية والفارسية .

أشار السلطان غازان أحد الملوك من بنى هولاكو على وزيره رشيد الدين فضل الله بأن يكتب تاريخ المغول ، وقبائلهم وأنسابهم باللغة الفارسية . وجمع إليه كل خبير بتاريخ المغول ، ويسر له الاستفادة من سجلات الدولة فلم تمنعه شواغله الكثيرة أن يجمع هذا التاريخ الجامع . ويقول دولتشاه إن المؤلف لم يجد وقتاً للكتابة إلا ما بين صـلاة الفجر وشروق الشمس من كل يوم . و[illegible] غازان قبل أن يتم الكتاب فأمر خليفته أو[illegible] وتصديره باسم غازان الذى أشار بتأليفه .

فى كشف الظنون «لما شرع فى التبييض مات [illegible] غازان فى شوال سنة ٧٠٤ ، وجلس مكانه ولده خدابنده

محمد فأمره بأتمامه وادخال اسمه فى العنوان . وأمره أيضا بالحاق أحوال الأقاليم وأهلها وطبقات الأصناف وبأن يجعل جامعا لتفاصيل ما فى كتب التاريخ .

« وأمر من تحت حكمه من أصحاب تواريخ الأديان والفرق بالأمداد اليه من كتبهم . وأمره أيضا بأن يجعله مذيلا بكتاب صور الأقاليم ومسالك الممالك . فأجاب وكتب أحوال الدولة الجنكيزخانية وأمة الترك مفصلا فى مجلد، وذكر خلاصة الوفيات فى مجلد آخر، وذكر صور الأقاليم فى مجلد آخر على أن يكون ذيلا له . ونقل أخبار كل فرقة على ماوجد فى كتبهم بغير تغيير » الخ . . .

وأمر أولجايتو كذلك بكتابة جزء آخر، فى تاريخ البشر وبخاصة الأمم الإسلامية وجزء ثالث فى تقويم البلدان . والذى فى أيدينا اليوم الجزء الأول الذى يتضمن تاريخ المغول، ويسمى أحيانا التاريخ الغازانى، والثانى المتضمن للتاريخ العام .

وتم الكتاب كله سنة ٩١٠ هـ .

والجزء الأول فيه بابان : الأول فى قبائل المغول والترك وفروعها وأنسابها وأساطيرها . والثانى تاريخ جنكيزخان وآبائه وخلفائه إلى غازان خان .

والجزء الثانى مقدمة : تاريخ آدم والأنبياء، وبابان : الأول فى ملوك الفرس قبل الإسلام، والثانى فى سيرة الرسول صلوات الله عليه والخلفاء إلى زوال الخلافة العباسية بأيدى المغول، وملوك الفرس بعد الإسلام : الغزنويين والسلاجقة وملوك خوارزم وأتابكة فارس وتاريخ الاسماعيلية .

فى الترك، وأهل الصين، واليهود والفرنج وملوكهم الهند وبوذا ودينه .

كتاب له قيمته وخطره فى التاريخ عما جمع أمم كثيرة فى عصور متطاولة، وعما استقصى المؤلف فى جمع الأخبار من مصادرها المكتوبة وغير المكتوبة، وهو نسيج وحده فى طريقته وأسلوبه .

وقد يسر للمؤلف من المصادر وأتيح له من الرواة مالم يجتمع مثله لمؤرخ .

زاد على هذا النقاء تواريخ الأمم، وحوادث العصور فيه . فهذا مؤلف مسلم يكتب لسلاطين تجاذبهم الأديان حينا ثم سكنوا إلى الإسلام، وهو يكتب فى حدود عصور مختلفة، ماقبل غارات التتار ومابعدها . وحسبنا أنه يؤرخ لبنى جنكيز وهم فى مراكز الحضارة الإسلامية، ولكنهم متصلون بأممهم وبسننهم إلى قلب الصين .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

الربيع

أفديه مبتكراً يزف ... إلى دُنى الوادى ابتكاره
ردَّ المجرد من خما ... ئلها مزيداً يوم زاره
يا طيره أنت السفيـ ... ـر، ودوحه دارُ السفاره
لك كلما عبق العبيـ ... ـر على جوانبه عباره
مهلا فلحنك لم يدع ... لى كامناً إلا أثاره
يا وردهُ هبة من الشفق احمرارك أم إعاره؟
أرى سواك اليوم حسناً ماؤه قد زان ناره
الشوك والأوراق منك بذارةٌ ضمت بشاره
يا زهره يا ملتقى ... ذوب النضار مع النضاره
شرب النسيم شذاك خمـ ... ـراً غير سالبةٍ وقاره
ابسم فكلٌّ تبسم ... يشكو لبسمتك افتقاره
يا غصنه أنت الذى ... أنطقت فى الوادى هزاره
لما أشرت له شدا ... والطير تكفيه الإشارة
لا خصر إلا واشتهى ... لما تثنيت اختصاره
اهتف « لفلاح البرا ... رى » يا ربيع على جداره
ودع القصور القائما ... ت على القصور وحى داره

شاعر البرارى

نهر الحيـــــاة

قصة مصرية

جمعت كل عاطفتها فى عينيها وهى تنظر إليه ثم مالت عليه تقبله وسمعته يقول :

— يا لسعادتى بقربك ! أنت الشمس التى تشرق على حياتى فتحيلنى إنساناً آخر . . أنت دنياى بمفردك ، لقد اعتزلت العالم كله فى هذه الضاحية النائية ، وفى هذه (الفيلا) الصغيرة الرابضة على صدر الصحراء ، وإنى لسعيد ما دمت هنا بعيداً عن الناس وهذرهم وسخافاتهم ، بعيداً عن ضجة الحياة وضوضاء المدنية الزائفة .. وسأحب هذه الحياة دائماً ما دمت أنت التاج الذى يزينها ، والنور الذى يملأ جوانبها .. ويكفينى ألا يشغلنى سواك وفنى ..

وصمتت هنيهة ثم قام وهو يقول :

— أنت لم تسمعى قطعتى الجديدة ، لقد أتممتها بعد أن تركتنى فى المرة الأخيرة ، كنت أنغمها وخيالك أمامى ، وقلبى مفعم بحبك ، وعيناك تغمرانى بالسعادة والحنان .

وأسرع إلى (الكمان) ، ورفعه إلى يديه وأمسك بالقوس وبدأ يعزف ..

كانت قطعة موسيقية هادئة ، تتحدث عن الطبيعة ، عن القمر ، عن الصحراء ، عن الضاحية البعيدة ، عن قصة حبهما السامية ، وعاطفتهما القوية ، وخفقات قلبيهما الفتيين .

وكانت هى مسبلة عينيها تحلم بتلك الأيام والأمسيات اللطيفة التى قضياها معا .. بحبهما السامى الطاهر الذى يصل روحيهما ، بعالمه العلوى الذى يعيش فيه ويرفعها إليه دائماً . إنه يكره ذلك العالم المادى ، ويتغلب عليه بموسيقاه ، وكلما همت نفسه بأن تنزل إلى الدرك الذى كتب على البشرية جمعاء، قام إلى كمانه فأوسعه همساً ولمساً ، وأجرى قوسه على أوتاره ، فانبعثت تلك الألحان السماوية ، وارتفعت روحه إلى دنيا أخرى ، دنيا ملائكية ، فيها نعيم وفيها سعادة وفيها سخرية واحتقار لكل ما هو مادى ، كان يعيش بروحه ولروحه فقط .

واهتدى إليها فى يوم من الأيام ، قابلها فى منزل أقاربه بعد أن اضطر إلى زيارتهم اضطراراً ، وكان الموعد وكان اللقاء، وكان الحب ، وتلا عليها آراءه فى الحياة ، كانت فى سن تسمح لها أن تتأثر بتلك الآراء فى سرعة فائقة ، فأحبته واقتنعت بكل ماقال ، وقادها إليه فى محرابه البعيد ، وكانت أصعب لحظات حياتها حين تفارقه عائدة إلى منزلها فى قلب المدينة ، تحس كأنها فى دنيا أخرى ، وكأنها تفيق من حلم بديع ، وسرعان ماتشتاق للعودة إليه لتنعم بالحب ، ذلك الحب الذى يوافق سنها الصغيرة ، ويؤكد تلك النظريات الأفلاطونية التى تملأ رأسها ، ولتهنأ بجانب بطل قصص الخيال والأوهام التى كانت تغذى خيالها ، قصص الحب الطاهر الذى طعامه السعادة وشرابه النعيم ، حب القلوب الفتية التى لم تكابد مرارة الحياة وقسوتها بعد .

وكان هو فناناً بطبيعته ، أذنه شديدة الحساسية ، وسرعان ماالتقطت أنغام الموسيقى فى تفهم ووعى ، وهواها وبرع فيها فألف وكتب وعزف ونال حظاً وافراً من الشهرة فى سن مبكرة . ولكنه كان فناناً . . والفنان يبحث عن الحب الذى يرفعه . ولما كان منغمرا فى المدنية والضوضاء لم يجد ضالته ، بل وجد الرذيلة والغدر والخيانة ، فربأ بنفسه وشمر بها فوق تلك الإحساسات القذرة وخاف أن يتبلد ذهنه فاعتزل يناجى الطبيعة ويصفها ، ويشكو إليها ويهواها حتى ساقته ال[illegible] الفتاة (الخام) فالتقطها فى سرعة فائقة ، روحه ومن فنه فاذا بها تصبح مهبط وحيه ر[illegible] الدائمين .

كان يقول إنه يكفيه أن يصل روحه بروحها عن طريق ألحانه وأنغامه . . أما كل ما تبقى فهو مادة زائلة . إنها روحه التى تسمى نحوها وليس جسده . إنه فنه الذى يستوحيها وليس مادته الحيوية الفانية . إنها روحها التى تلهمه وليس جسدها الفتان الذى سيذوى يوما ما . . أما روحها فستبقى وستلهم دائما . وانتهى من مقطوعته ومس ذراعها فى رفق فأفاقت وكانت الدموع تلمع فى عينيها ، وجذبها نحوه ، ثم قاما إلى النافذة . كانت الشمس تغرب فى موكب حافل من لهب المجد الذى أضاء جوانب السماء بنور أحمر بديع . ولما اختفت . . ظهر القمر ليتربع على عرشه فى السماء التى تحلت بالنجوم وكأن الليل رصعها بتلك الجواهر اللامعة لينافس بها عظمة النهار المنتهى . . وكان النسيم يهب رقيقا ناعما فيلامس وجهيهما فى رفق وكأنه أطياف تقبلهما . . ولم يشعرا إلا وهما يتركان المنزل ويضربان فى الصحراء . . ثم جلسا على الرمال يمتعان النظر بتلك الفتنة التى تحوطهما . كانت النجوم كبيرة لامعة حتى كان يخيل إليه أنها قريبة من الأرض يكاد يمد يده ليأخذها ويقدمها هدية فريدة إلى محبوبته ، والنخيل على مرمى البصر تسبح فى ضوء القمر الفضى . . مزيج متناسق من الفضة والسواد جعل الدم يسرى حارا فى عروقهما مسحورين بهذا الغموض الجذاب . .

وبقيا على حالهما تلك مدة من الزمان لم يشعرا بعداها ، لأن الطبيعة الساحرة قد أنستهما كل شىء حتى الزمن نفسه . . ولكنها وهى ترفع يدها إلى رأسها لتعيد خصلة من شعرها قد تدلت على عينيها إذا بها تلحظ الساعة فى معصمها ، وإذا بها تعود فجأة إلى وعيها فتقول فى رنة أسف ، لقد حان وقت عودتى . .

وقاما فى هدوء . . وعادا ادراجهما وأوصلها هو حتى نقطة ابتداء مواصلات عودتها . وعاد وحيدا إلى منزله . كان يشعر وكأنه طائر خفيف ، ورفع بصره وأداره فى كل ما حوله . . ثم ابتسم ابتسامة الرضاء التام وأرسل زفرة حارة اخرج معها من صدره كل ذكرياته عن عالمه الذى خلفه وراءه . . واستقبل فى شهيق نسيم دنياه الجديدة ، السعيدة الهانئة .

. . . وهكذا أمضيا تلك الفترة من حياة حبهما . وفى هذا الجو ظهرت مؤلفاته الموسيقية المتتابعة المفعمة بالعاطفة القوية ، حتى أعجب بها الجميع ، لأنها كانت خارجة من قلبه ، متحدثة عن حبه ، معبرة عن كل ما يعتمل فى كيانه وروحه من إحساسات وشعور . لم يكن مقلدا . . ولم يكن دجالا ، ولم يكن باحثا عن قوت أو رزق ، بل كان فنانا مطبوعا ، يهوى الطبيعة ، ويهوى الجمال وربط روحه بروح نقية صافية ، فإذا بموسيقاه طبيعية ، جميلة ، نقية ، صافية مثلها ، وكان سعيداً بحبه ، سعيداً بفنه ، راضيا ، قانعا ، مغتبطا . .

إلى أن . . .

. . . لعله كان هائما بالطبيعة ، سابحا فى خيالاته الملونة ، حتى إنه لم يلاحظ بعض التغير عليها ، وبعض الفتور الذى طرأ على عاطفتها نحوه ، وكان إذا تساءل عن تغيبها بين كل زيارة وأخرى ادعت الأعذار العائلية القاهرة . ولكن جاء اليوم ، الذى لم تحضر إليه فيه وكان ينتظرها . وقف فى النافذة ينظر إلى الطريق الذى تسلكه فى حضورها إليه . وظل واقفا ، ومرت فترة طويلة وهو مازال واقفا . زائغ البصر ، واجف القلب ، مشتت الفكر ، مبلبل الخاطر ، حتى هبطت ستارة الظلام ، فاستدار . . وإذا به يبكى . .

وجعل ينتظرها ، وينتظرها فى الأيام التالية ، ولكنها لم تحضر ، وكلما حاول اليأس أن يدب فى قلبه ، أبعده فى شجاعة ، ولكن خانته تلك الشجاعة أخيراً ، وقبض اليأس على قلبه بيد حديدية ، وأصبح دائما حزينا شاكيا ،

ولم تسحره الطبيعة كما كانت تسحره من قبل ، فلا الرمال ولا النخيل ، ولا النجوم ولا القمر عوضته بديلا عنها ، وضاق بوحدته وعزلته ! !

ويوماً : عقد العزم على أن ينزل إلى المدينة ليبحث عنها ويعيدها إليه ، وفي ذلك اليوم ذاته وصله خطابها ، فضه بأصابع مرتعشة ، وبدأ يقرأ في لهفة ، وكانت تقول فيه :

« يا عزيزي الفنان » :

لا أدرى كيف أبدأ خطابي لك . لعلك الآن واقف في نافذتك تشهد غروب الشمس وتنتظر ظهور القمر والنسيم يداعبك ، ورمال الصحراء المترامية الأطراف هي كل ما يقابل نظرك . وأنت سعيد بذلك ، وكنت أنا أيضا أسعد بمثل هذه الأشياء ، إنك أنت الذي غرست في روحي تلك العاطفة نحوها ، وارتفعت روحي معك إلى دنياك العلوية الخالدة . . وكنت أحب ذلك ، وكان في امكانى أن أبقى على حالى تلك مثلك لو كنت أعيش معك منعزلة ، بعيدة عن المدنية وضجيجها ، بعيدة عن الواقع الملموس وحقيقته .. ولكن . . كنت أختلف عنك . . وهذا هو خطأنا معا . كنت أتركك في جوك ونعيمك الذى تنام عليه وتستيقظ عليه ، لا يشغل دنياك غيره ، وأعود أنا فأجد دنيا أخرى مختلفة ، على أن أعيش فيها ، وعلى أن أتلون بلونها ، وعلى أن أحياها كأى واحدة من زميلاتى وصديقاتى اللائى حولى . . الناصحات لى بأن انزل من عالم الوهم إلى عالم الحقيقة . . ولكنى كنت مسوقة نحوك كما اسلفت . .

والآن ماذا أقول ياصديق ؟ . لقد انتصر الواقع . إنى أتألم لذلك ، لقد انتصرت المدنية . لقد انتصر الضجيج والصخب ونزلت إلى عالمنا نحن جميعا ، وتركت عالمك أنت بمفردك . لا أدرى كيف كان ذلك ، ولكنه كان شيئا مفاجئا ولم أكن أحسب له حسابا . إنه ابن الجيران هنا . كنت أقابله في لطف ، لأن عاطفتى كانت نسخة من عاطفة فنان طيب القلب كلها عطف وحب للانسانية جمعاء ، واستغل هو ذلك اللطف وتلك العاطفة ، فجعل يطاردني دون أن أشعر ، وحاك الشباك ورماها في طريقي ، وأفلت منه مرارا . . ولكني وقعت أسيرته أخيرا . . ولا أدرى كيف كان ذلك . . إنها عاطفة جديدة التي أحسها وأشعر بها . . عاطفة قوية تهزني وتزلزل كياني . تختلف عن العاطفة الأولى التي كنت تنفثها في روحي وفي فؤادي ، عاطفتك الرقيقة الهادئة . ولكن هذه عاطفة جامحة نارية مدمرة تأكل كل شيء وتأتى على كل شيء وتحتاج إلى وقود دائم . ما أغرب اقتراب تلك العاطفة من الانسان ! إنها تتقدم في سكون حتى لا نشعر بها إلا وهي مطبقة علينا ، فهي أشبه بوحش ضخم يخطو في هدوء على مخالب من مخمل وسرعان ما يفتك بفريسته .

أرجو أن تعذرنى إذا انقطعت عنك . أنا لا أملك إرادة حيال تلك العاطفة . لقد تكشفت دنيا أخرى جديدة أمام ناظرى ، دنيا لم أكن أعرفها معك ، ولا أدرى أيهما أفضل . ولكنى أشعر أن روحى قد ملت دنياك الباهتة وأنها تميل إلى الانغمار في ذلك النهر الذى ينساب في قوة وينطوى على تيارات خفية ، نهر الحياة ، التي يحياها البشر . إن الهدوء والطبيعة لا يوافقان ما تجيش به عاطفتى الحالية ولا ينسجمان مع دمى الذى يندفع الآن في عروقى حارا قويا . لا يمكننى الآن وعلى تلك الحال أن أقتات من الطبيعة والسكون . بل غذاء روحى الجائعة هي المدنية المادية التي تحتقرها أنت .

أترى . لقد اختلفت آراؤنا ، فلا لوم على إذا أنا انقطعت عن زياراتك .

مع أعز تمنياتى إليك . ولعل الطبيعة تعوضك عنى خير بديل .

قرأ تلك الكلمات ، ورمى الوريقات جانبا ثم قام إلى النافذة ، وكان المساء ، وكان القمر مطلا عليه . « ذلك

أدب الفيل «ايضا»

نشرت الثقافة الغراء بعددها ٣١٨ مقالاً للأستاذ الجليل أحمد أمين بك بالعنوان المتقدم . ولما كان هذا المقال قد قُدِّم له بالعبارات التالية « ما أحوج الأدب العربى أن يعنى فيه بدراسة نواح غير الناحية الرتيبة المألوفة التى تكررت حتى ملها الناس » فقد وجدت مايشجعنى ويأخذ بيدى لألقى بدلوى بين الدلاء وإن كنت أدرك تمام الادراك أن معالجتى للموضوع بجانب معالجة الأستاذ لن تكون — حتى إن أجدت — إلاّ كالقطرة من البحر أوكالذرة من الجبل ، وحسبى من هذا أن نفسى قد رضيت به ، فهى على كل حال — فى نظرى — محاولة . ولن أجد إلاّ جهدى :

يقول الأستاذ : ظهر فى آخر العصر الأموى شاعر اسمه هارون بن موسى الأزدى بالولاء ، كان شاعراً وكان يحارب مع المسلمين بالملتان من أرض الهند مارس الفيلة فى الحروب فعالجها فى الشعر وقال فى صفات الفيل أشعاراً كثيرة . وقد حكوا عن هارون هذا أنه اكتشف سراً خطيراً وهو أن الفيل يخاف من الهر ، فجاء الموقعة ومعه هر خبأه فى ملابسه ، فلما دنا من الفيل رمى الهر فى وجهه ففزع الفيل وولى هاربا ، وهربت الفيلة على أثره وتساقط الأعداء من فوقها فكان ذلك سبب الهزيمة . واترك تحقيق ذلك لعلماء الحيوان .

وهذا هو ماحدا بى إلى تسطير هذا المقال ، فقد كنت فى منطقة أعالى النيل بالجزء المعروف لرجال الرى المصرى باسم بحر الجبل الجنوبى ، وهى منطقة تكثر فيها الأفيال الضخمة وتسكن هناك بصفة — اقول — مستديمة ، وتتوالد لاسيما فى منطقة « جنقلى » المشهورة بالفيلة العظيمة الأسنان ، وقد تمتعت بمشاهدة هذه المخلوقات العجيبة زرافات ووحدانا آمنة فى أسرابها مطمئنة فى أوطانها يتبعها صغارها وهى ترعى فى فلواتها أو تسبح فى نهر النيل العظيم أو تستحم أو تلعب وذلك مرات ومرات ، كما قد سمعت عنها من سكان المنطقة الشىء الكثير بل والكثير جداً . فقد علمت فيما علمت أسراراً كالسر الذى اكتشفه الشاعر هارون ابن موسى ؛ فمنها أن الفيل يخشى الدجاج نعم الدجاج الدجاج — الفراخ . . . . ! . . . . . نعم خشية كخشية قط هارون أو أشد خشية . . . . فقد تكون الأفيال أسراباً وقطعانا وفى القطيع ثلاثون فيلاً إلى مائة ، فيمر بالطريق السكان وهم يحملون دجاجاً من مكان إلى مكان فيصيح بعض ذلك الدجاج عفوا . . . فما يكون من الأفيال إلاّ أن تولى من ذعرها الأدبار . . . . ثم لا تنظر . . . وكذلك فان الفيلة تكره الصفير ، فلوأن مسافراً كان أعزل من السلاح ولم يكن له إلا أن يسلك طريقاً واحداً ورأى ذلك الطريق وقد أوصد بالافيال فليس عليه إلاّ أن يصفر تصفيرة واحدة بقوة بفمه المجرد أو بصفارة إن كانت معه صفارة ، فانه

الاله الصامت المتربع على عرشه » وآله أن يذكر تلك الجملة بالذات لأنها كانت جملتها التى تهمس بها اليه دائما . فأدار ظهره وانكفأ يبكى فى مرارة .

لم تظهر له مؤلفات موسيقية خلال تلك الفترة التى قضاها مشتت الفكر ، شارد الخاطر ، ينتظر عودة صديقته اليه .

ولكن مرت الأيام . فاذا بقطعته الجديدة تملأ أنغامها كل مكان ، كانت قطعة أخرى تنبض بالحياة . تختلف عن سابقاتها ، صورة أخرى مرسومة بألوان غير الألوان السابقة . ولكن يبدو لأول وهلة أنها ألوان واقعية قريبة من الاحساس والشعور الماديين ، تنفذ فى سرعة فائقة إلى فؤادك . ولا غرو . فقد أسماها (نهر الحياة) . وقد ألفها بعد أن ترك محرابه فى الصحراء . وعاد ليلقى بنفسه فى ذلك النهر البعيد الغور ، ويجاهد ليتغلب على تياره الجارف !

حسن فتحى خليل

سرعان ما يجد الطريق أمامه خالياً من كل عظيم . ومثل الصفير عند الفيلة أيضا الصراخ ، فان صرخ صارخ بعنف ومباغتة فان الفيلة تجلو تواً ، والويل كل الويل لمن يستمع إلى صراخ الفيل حين ذعره فانه يصم الآذان ، ويحتاج الرجل لجلد ليستمع اليه وهو هادىء الأعصاب عديم الاضطراب .

* * *

وجماعة الفيلة فى أسرابها أقل شراً وخطراً من الفيل الواحد المنفرد . ولأن الفيل إذا انفرد فإنما ينفرد لعوامل « نفسية » شديدة وتوتر فى الأعصاب فيكون أدنى إلى الشر مسارعاً اليه ، أوقل إن انفراده علامة لطلب (المبارزة) . ولا ينفرد وحده إلا الفيل الذكر الفحل ، ويكون ذلك فى الأغلب الأعم بتألب ذكور القطيع عليه « حسدا » فيكون « اجماعهم » على اخراجه « عنوة » فيخضع مكرها « وفى النفس أشياء » ، وكذلك الجاموس البرى حتى تيس غزال « التيتل » فهذا حالها أجمع .

على أن للفيلة غرائب وعجائب وإن ما أورده الأستاذ الكبير اقتباساً عن الجاحظ لفيه الكفاية وفوق الكفاية . ومن ذلك القبيل هاته المسألة الطريفة التى سأرويها لكم . ذلك أن الأفيال كثيراً ماترد النيل وفيه من التماسيح مافيه ، والتمساح لا يتهيب شيئاً حماقة حتى إن كان فيلاً . ولذا فانه (أى التمساح) كثيراً مايعرض نفسه للتهلكة ، فيحاول اختطاف عظام الأفيال ، على أنه فى أحوال قليلة جداً ونادرة قد يفوز بصغارها ، وكثيراً ما يلاقى درساً ، بل ودرساً بليغاً ، وبليغا جداً . فالتمساح فى محاولته الفاشلة قد يمسك بخرطوم الفيل فى محاولة يائسة غير مجدية فما يكون من ذلك الفيل أو من فيل سواه مما معه إلا أن يختطف ذلك التمساح فينتشله من النهر ويمم به شطر أكبر شجرة فيتناولها من أكبر فروعها فينفلق جذع تلك الشجرة شطرين ويلقى بذلك التمساح المخطىء بين شدقى الجذع المجتمع بقوة وقسوة على ذلك التمساح الأحمق المتهالك ، فيكون جزاءً وفاقا لمن لم يكن ليرجو حساباً .

* * *

وقد يقوم فيل برعاية قطيع من الفيلة ويكون فى القطيع فيل يهوى التخلف عن مسايرة الركب لحاجة فى نفس يعقوب ، فما يكون من الفيل الراعى إلا أن يسوق المتخلف قسراً ، حتى إن اضطره الحال إلى استعمال العصا فسيتناول شجرة متوسطة أو فرعا يضرب به الراعى المتخلف ضربا مبرحاً حتى يساير الجماعة .

وأمثال هذا كثير يضيق المقام عن الاسترسال فيه . وقد نعود لهذا أو لما يشبهه مستقبلاً .

* *

والحكاية التالية تبرهن على أن الفيل يمقت الكلاب ويهاجمها بقسوة . فقد خرج أحد أصدقائنا من هواة الصيد يطلب فيلاً ، وذلك بناحية (أبوعج) على نهر السوباط واتفق أن كانت شخصية عظيمة فكهة تعمل فى تلك الناحية فالتقيا فى منطقة الصيد ، وللعظيم الفكه علم قديم بهذا الفن ، فكان الأول يسترشد بآراء الأخير ، وكاد الصائد يوفق لولا أن ألمّ بالركب جماعة من السكان ومعهم كلابهم ولم يفطن الخبير البصير إلى الهفوة . . . . وأظنها مما لم يكن يعلمه قبلا . على أن الوطنيين اعتادوا فى حال اصطيادانهم الفيلة أن يخرجوا فى جلبة وضوضاء وفى جماعة ، وطريقتهم مع الفيلة هى طريقة الكر والفر والمطاولة ، وهى لاتكون إلا بالحراب — بخلاف هذه المسألة ، فإن الصائد صائد عصرى ، ومن أهم مايجب له الا بتعاد عن الضوضاء والجماعة والكلاب !!!!

وسرعان ما أدركت الفيلة وجود كلاب فى الغابة وصارت الكلاب تنبح الأفيال ، فهبت الأفيال من أطراف الغابة فى جماعات تهاجم الجماعة والكلاب وقد كادت كارثة لولا بسالة نادرة وصبر وجلد ولولا لطف الله العظيم .

النهود — سودان   احمد احمد شداد

٣ ـ من لندن

صور من الحياة والفكر المعاصر فى انجلترا

عزيزتى . . . .

لم تمر ليلة على استلامى خطابك إلا وجلست إلى جانب النار ومعى أدوات الكتابة للرد عليك ، ولكن حملات ح ٧٠ اشتدت أخيرا ، وهذه لا تقرئنا السلام من بعيد كما فعلت كل القنابل الطائرة مع مقاطعتنا بغير استثناء . ولكن فى ليلة واحدة سقطت واحدة منها على المثلث الأخضر فى آخر شارعنا ، فكانت أول مرة تهزنى فيها الغارات منذ أول الحرب . سلبتنى هذه الحوادث وقت فراغى الوحيد فى المساء وصرت الآن لا أكاد أفرغ من رفع مائدة العشاء وشحن آخر ضيف إلى حجرة الجلوس حتى يدق النفير ، فأجدهم حولى فى البدرون من جديد ، وأجدنى فى المطبخ مرة ثانية أعد أكواب الشاى التقليدية بعد الغارة ، وهكذا تنتهى الليلة دون أن أكتب لك .

وها أنا أقرأ خطابك مرة ثانية فألمس فيه سعادتك بالرجوع إلى وطنك بعد غيبة طويلة ، وأحس رضاك عن كل ما حولك وما يجرى لك فأودع بشئ من الخيبة أملنا فى عودتك للاقامة الدائمة بيننا كما صور لى الوهم ، لما كنت أحسه من صدق سعادتك فى بلادنا ، ولكن يبدو أن الصلة التى تربط الإنسان بوطنه أقوى بكثير مما نحب أن نعترف أحيانا .

ولكن يجب أن تعلمى أنى أفتقدك كثيرا ، أفتقد عبثك معى فى المطبخ محاولين أصناف الطعام المصرى ، لعبين بعض الأسطوانات المصرية ، محاولين أن نخلق ـة من وطنك حولك ، ولكم تذوقت واستمعت إلى الصينيين والهنود والشرقيين الذين نزلوا لدى ، وأنصت إليهم وهم يعددون لى أحيانا نقائص وطنهم وعيهم نواحى ضعف بلادهم . ولكن كلا منهم كان يحس فى أعماق نفسه « أن لا شئ كأرض الوطن » .

ناولت خطابك كرغبتك لكل واحد من أصحابنا بالتوالى ، وكلهم قبلوا اعتباره خطابا خاصا لكل منهم . قرأه دافيد ومس لزلى وبرادفيلد وجون وسلفيا ، لا زالوا جميعهم عندى . دافيد ومس لزلى يتبادلان النظرات على المائدة ، وهذه على عادتها القديمة بن حضور العشاء فى السواريه كما لو كانت نزيلة الجروفنر أوهايد بارك ، ولم تنقطع عن نقدها اللاذع لجون كلما حضر العشاء بغير صدريته أو رباط رقبته ، وجون الذى يصر على أن يظل كما هو لم يستطع زواجه أن يغير شيئا من نظرة دافيد له ، بل إن الخلاف بينهما على أشده الآن والحملة على الزوجة ضمنا ولكن خلف ظهرها ، فلا بد أن يكون بهما مس حتى ترضى الزواج من جون المفلس وتنتقل إلى بورديج هاوس كمنزل الزوجية ؟ وفوق كل فهى لم تتخذ موقفا حاسما من ناحيته العقلية ، كل هذه الخزعبلات التى يطالعها فى كتب الشعر والفلسفة والفن التى هى أصل الداء مع طبقة المثقفين وأبناء الجامعات . .

وبرادفيلد كالعادة يتخذ موقفه المحايد من كل هذه المشاحنات ، ولم يفلح دافيد — بقوة انحيازه فى الحكم على كل من يعرف ومن لا يعرف من الناس — فى أن يستصدر موافقته مرة على ما يعتقده هو ويراه فى الناس على طول عهد صداقته لدافيد ، لأن برادفيلد كما تعرفين لا يهتم إلا بمن له دراية بسباق الخيل والكلاب ونتائج الفوت بول كل يوم سبت بعد نشرة الأخبار المسائية .

وهكذا يا عزيزتى ترين أن الحياة تسير فى مملكتى الصغيرة كما تركتها ، وستظل تسير كما كانت لسنوات لا أحصيها إلا فى صلتها بوجوه وأمزجة بشرية مختلفة . إن كل حجرة فى منزلى تروى لى قصة وتاريخا ، وفى هذا الأثاث الجامد الصامت أقرأ مرحلة من حياة عديدين .

ست جلسات فلسفية

فى الأزهر

عهد إلى حضرة صاحب السعادة ، أستاذنا الجليل ، أحمد لطفى السيد باشا فى رياسة لجنة امتحان الفلسفة لطلاب تخصص المادة فى الأزهر هذا العام .

وتخصص المادة هـذا فرع من فروع التخصص فى الأزهر ، وينتسب إليه من أتم دراسة كلية من كلياته — وهى كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربيـة — ومنح منها شهادة تسمى الشهادة العـالية . وبعد دراسة تدوم أربع سنوات ، يتقدم طالب هذا التخصص لامتحان يكون من مواده محاضرة تعين موضوعها له اللجنة التى تتولى مناقشته فيها بعد أسبوع من تسلمه الموضوع . وإذا نجح فى هذا الامتحان انتقل لعمل رسالة فى موضوع يختاره هو ويقدمها بعد فترة لاتقل عن سنة من نجاحه فى امتحان المحـاضرة ، وإذا قبلت رسالته نوقش فيها أمام لجنة كلجنة المحاضرة هذه ، ثم يمنح شهادة تسمى عالمية مع لقب أستاذ .

وكانت الموضوعات التى عينتها اللجنة للطلاب هى :

١ — أصول المعتزلة وأثرها فى تطور علم الـكلام .

٢ — فلاسفة الأسكندرية وأثرهم فى توجيه التفكير الاسلامى .

٣ — الغزالى بين الفلسفة والتصوف .

٤ — القياس بين المناطقة والفقهاء .

٥ — وحدة الوجود بين الفلسفة والتصوف .

٦ — الإله عند أرسطو وتأثر فلاسفة الاسلام بذلك

عقدت هذه الجلسات فى دار كلية الشريعة ، وكانت دروساً مفيدة ممتعة ، عولجت فيها هـذه الموضوعات الفلسفية بارشاد اللجنة علاجا قيما ، استفاد منه الطالب والمستمع فائدة طيبة ، تنفعهم فى أبحاثهم العلمية وحياتهم العقلية .

ولقد كان اهتمام الأزهر بهذه الجلسات اهتماما ظاهراً ، فلقد حضر فضيلة الأستاذ الإمام الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر بنفسه فى الجلسة الأولى من هـذه الجلسات . وحيا صديقه سعادة لطفى السيد باشا بكلمة لقبه فيها بمربى الجيلين ، الجيل القديم والجيل الحديث .

كما حياه الطلبة بكلمات لقبوه فيها بالمعلم الثالث ، وفسروا هذا الترتيب بأنه لم يكن إلا لأن الزمن قد أتى بسعادته

على ذلك المقعد فى « اللونج » جلس روبرت بوجهـه الصـارم الطافح بالعزيمة والمطامح ، وهو فى آخر مراحل دراسته الجامعية ، وترك منزلى ليشغل منصبه الأكاديمى كقاض فى يوغندا . وجلس بعده جيفتر الذى كانت له حياة العمل التجارى وما أصاب فيه من نجاح وثراء . وكم جلست نانسى الجميـلة الفاتنة — أنت تعرفينها زارتنا مرة مع زوجها — على نفس المقعد تحرك النار فى تراخ والسعادة ترقص فى عينيها تحدثنى عن منزلها المقبل مع ماك الذى كان يبادلها نفس الحب . . وتجلس مس لزلى الآن وكثيرات غيرها مثلها ضاعت عليهن أحلى متع الدهر — الزوجية والأمومة — ولم يبق لهن غير الـكتاب أو شغل الابرة يقطعن فيه ساعات المساء الطويلة المملة فى اللونج إلى جانب النار . . وغيرهم . . وغيرهم .

أنا أستعيد حياتهم وأحس بأنى أحببتهم جميعاً ، أحبهم لأنى أرى فيهم جانبا من الإنسانيـة التى تكون ثروة حياتى الروحية التى أعيش عليها .

اكتبى كثيرا ولا تنسينا ما ؟

طبق الأصل — امهول حافظ

بعد المعلم الأول أرسطوطاليس ، والمعلم الثاني ، الفارابي .
وكان الضغط على هذه الجلسات شديداً جعل الطلاب يطلبون من امامهم الأستاذ المراغي إيجاد قاعة كبرى للمحاضرات

وكان جو هذه الجلسات يرتفع فوق ما عرف عن الروح الأزهرى من خصائص ، متجها إلى البحث الفلسفي كما ينبغي أن يكون .

سمعت بعض المحاضرين يجهر في حرارة قائلا : « لن أغتفر للغزالي تكفيره للفلاسفة » وهذه كلمة رجل حر جرىء ، ما كنا نسمع بمثلها في الأزهر من غير أن يرتفع الضجيج والعجيج .

ومعنى هذا أن الأزهر أخذ التفكير فيه يتجه نحو حريته واستقلاله ، وأن الأزهر قد أخذ يكسر هذه القيود التي غله بها رجال من قبل ، وأن الأزهر الذى يعمر قلبه بالإيمان بالله سبحانه وتعالى أخذ يرضى عقله ويخضع كل شيء لبحث العقل حتى العقل نفسه ، وأخذ يتسع صدره لكل شيء حتى للكلام عن الإله عند أرسطو .

وهذا مما جمل مربى الجيلين ، أو مما جعل المعلم الثالث حضرة صاحب السعادة أحمد لطفى السيد باشا ، يهنىء الأزهر بهذا التقدم الباهر الذى لمسه في هذه الجلسات الست حيث يقول :

« أنا أحمد هذه الفرصة التي هيأها لى صديقي الأستاذ الامام الشيخ المراغي لأغتبط بلقياكم ، وأرى عن كثب تقدم الأزهر هذا التقدم الباهر الذى لمسته في هذه الجلسات الست . وأسارع إلى تهنئتكم وأساتذتكم ، وتهنئة الأستاذ الامام بهذا التقدم الكبير . لست غريباً عن الأزهر بهذا المقدار الذى تظنون ، فان اتصالى به لم ينقطع منذ أكثر من خمسين عاما ، حين كنت طالباً في مدرسة الحقوق ، وحين كان الأزهر لا يزال — حتى بعد السيد جمال الدين وتلاميذه — تغشاه غاشية من سلطان هذه القاعدة :

ومن يقل بالطبع أو بالعله فذاك كفر عند أهل الله

وحين بعثت من مرقدها تلك الفكرة السياسية القديمة « من تمنطق فقد تزندق » وحين كانت علوم الجغرافيا والتاريخ والحساب وما إليها تسمى بالعلوم الحديثة ، وحين كان أستاذى الامام محمد عبده يحتال لارضاء الأزهريين بأن يسمى علم الطبيعة « علم خواص الأشياء التي أودعها الله في الأجسام ! ! » كذلك كان ، وكذلك صدر قانون مدرسة القضاء الشرعى ، إلى أن قال : لا أريد أن أطيل عليكم فشيوخكم الكبار يحدثونكم بهذا الجمود الذى كان .
أما اليوم فاننا نتكلم عن إله « أرسطو » وهو كما كان يرى فكرة لم يخلق شيئا ولا يعلم شيئاً أصلا إلا ذاته . فهو يجهل هذا العالم ومافيه حتى دوران الكواكب ، وهو على هذا المحرك الأول الثابت ، الذى لا يتحرك ، والذى يتحرك إليه العالم بشوق كما عبر ابن سينا ، أو بالحاجة كما عبر أرسطو . وهو واحد أحد لا أكثر من هذا . بل لقد صرح فيما بعد الطبيعة بأنه ليس واحداً ولا متعدداً وبأنه فوق العدد تنزيها له .

فما معنى هذا ؟ معناه أن الأزهر انتقل من حال إلى حال كبقية كائنات العالم ، ولكم أن تسموا هذا استحالة أو نمواً كما تريدون ، ولكنه ليس فسادا طبعاً

* * *

وإذا كان لى أن أتقدم برجاء من على منبر « الثقافة » الغراء إلى فضيلة مولانا الأستاذ الامام المراغي شيخ الجامع الأزهر فهو أن يعمل على ترجمة الصادر للفلسفة وما يتصل بها . والله ولى السداد والرشاد .

منصور رجب
المدرس بكلية اصول الدين

أول الواجبات

رفع مستوى المعيشة بهذه البلاد

الحال الراهنة :

أصبح معروفاً لدى كل المفكرين فى حالة بلادنا أن الغالبيــة العظمى من المصريين لا يجدون الـكفاية من مقومات أجسادهم . وأن مستوى العيش منحط من كل النواحى . وأن شعبا هذه حال أهله لا يستطيع النهوض ما لم تتبدل هذه الحال بخير منها . وقد فرغ الباحثون من التدليل على أن اعتمادنا لليوم على الزراعة وجدها كان السبب الأول فيما وصلنا إليه من هبوط خطير فى مستوى المعيشة . نعم لم يكن العيش خفيضا رغدا من قبل . غير أن مستوى العيش يزداد انخفاضا من عام إلى عام .

ولـكى نصور للقارئ عمق الهاوية التى تنحدر إليها البلاد نذكر الحقائق الآتية :

١ — ما يصيب الفرد من الأرض الصـالحة للزراعة وصل الآن إلى نصف فدان ، وهو مستمر فى الانخفاض لأن عدد السكان يزيد بأسرع مما تزيد الأرض الصالحة للزرع . وإذا تعقبنا الزيادة فى الحالتين وجدنا أنه فى نحو خمسين عاما زاد عدد السكان بنحو ١٠٠ ٪ والأراضى الزراعية بنحو ٢٥ ٪ فقط .

٢ — ولو أمكنتنا الظروف من إصلاح كل الأرض القابلة للزراعة ، ووجدت المياه الـكافية لريها ، لما تحسنت الحـال ، فلسوف يقل نصيب الفرد من مساحة الأرض الصالحة عما هو عليه الآن .

٣ — إن متوسط غلة الفدان آخذ فى التناقص من مستهل القرن الحالى لليوم . وإذا كان متوسط غلة الفدان من القطن زاد فى السنين الأخيرة فإنه كان لـكثرة التسميد وكثرة النفقة . والزيادة مع ذلك طفيفة . وحساب متوسط غلة الفدان فى الفترة المذكورة يدل على أن الغلة فى هبوط مستمر ، فى القطن وفى غيره .

٤ — للدلالة على زيادة النفقة يكفى أن يعلم القارىء أن ما استوردناه من الأسمدة زاد من نحو ألفى طن فى سنة ١٩٠٢ إلى نحو سبعمائة ألف طن فى سنة ١٩٣٨ . وتزيد نفقات الزراعة الأخرى غير التسميد بنسب متفاوتة ، وإن كانت لا تبلغ ما بلغته نفقات التسميد .

ضرورة تعديل أساس سياستنا الاقتصادية :

هذا التدهور الباعث على أشد القلق كان برغم ما أنفقنا من أموال طائلة من مستهل هذا القرن لما قبل قيام الحرب الحاليــة . ويمكن تصور جسامة ما أنفقنا إذا علمنا أن اعتمادات نفقات مشروعات الرى ووزارة الزراعة ومصلحة الأملاك — وكلها فى خدمة الزراعة — بلغت فى السنين العشر التى سبقت قيام هذه الحرب نحواً من سبعة وخمسين مليون جنيه ، ولا يدخلها ما أنفق على الإدارة العادية للرى . وها نحن أسوأ حالا منا قبل إنفاق هذا المال الـكثير .

ومما لا ريب فيه أننا لو كنا نحسن الحساب والتفكير وقسمنا هذا المبلغ قسمين فى الفترة المذكورة نصفه لخدمة الزراعة ونصفه البـاقى لتحسين الصناعة القائمة ودعمها وإدخال صناعات أخرى ، لـكان من المحقق زيادة الثروة العامة بمصر ووقف هبوط مستوى المعيشة . ولا أقصـد بالصناعة غير ما يستهلك محليا ويغنينا عن كثير مما نستورده ويمكن صنعه فى مصر ، ولـكيلا يظن أنا نبالغ نذكر القارىء بأنه قدر لمشروع توليد القوة الـكهربائية من خزان أسوان سبعة ملايين من الجنيهات ، وأن مشروع منخفض القطارة قدر لإنجازه نحو ثلاثة عشر مليون جنيه ، وأن الصناعات التى تقوم بمساعدة هذين الموردين من الـ[illegible] تغل إيراداً كبيرا وتشغل عددا وفيرا من الناس يتناو[illegible] أجورا حسنة بالقياس إلى أجر العامل الزراعى قبـل هذه الحرب .

وإذا قدرنا أنه فى السنين العشر السابقة لقيام الحرب الحالية أنفق ربع ما أنفق من مستهل هذا القرن لقيام الحرب الحالية فى شئون الرى والزراعة فإنه يتجلى لنا هول ما انسقنا إليه . ففى نحو نصف قرن من الزمان أهملت تربية الشعب وصحته لتخصص هذه الأموال الكثيرة نسبيا للزراعة والتوسع فيها ، فكانت النتيجة ماقدمنا ، وهى الانحدار إلى هاوية الهلاك باستمرار هبوط مستوى العيش .

والبديل الوحيد من التردى فى الهاوية هو العمل فورا على ترقية الصناعة القائمة وإنشاء صناعات جديدة للاستهلاك المحلى ، والحيلولة ، بكل وسيلة ، بين هذا البلد وبين صرفه من سلوك الطريق الوحيد للنجاة ، وهو العمل على ترقية ونشر الصناعة والتجارة وإنشاء صناعات جديدة .

هل يمكن قيام صناعات رابحة بمصر :

يقول بعض الناس إنه لا أمل فى قيام صناعات فى مصر تقوى على منافسة الصناعة الأجنبية . وخير لها أن تقصر جهدها على ترقية الزراعة بإصلاح كل فدان قابل للإصلاح وبترقية وسائل الانتاج وتخفيض النفقة لتزيد الغلة إلى أقصى حد بأيسر نفقة .

ولست أشك فى أنه يمكن الحصول على غلة أوفر كما يمكن خفض النفقات ، ولكنى كذلك لا أشك فى أن الزراعة وحدها لا يمكن أن تفى بحاجات مصر ليعيش أهلها عيشة الإنسان الكريمة . والحساب البسيط يؤيد صدق ما أقول . فقيمة ثمن الأراضى الصالحة للزراعة بمصر تبلغ حوالى ثمانمائة مليون جنيه . ومع التفاؤل يمكن تقدير الربح الصافى بعشرة فى المائة فيكون صافى الإيراد مبلغ ثمانين مليونا من الجنيهات . وإذا قدرنا مثل هذا الإيراد أجور عمل وربح التجارة والوساطة الداخلية وغيرها كان مجموع الإيراد مائة وستين مليونا ، فمتوسط إيراد الفرد فى هذه الحالة نحو عشرة جنيهات سنويا وهذه قيمة لا توفر كفاف العيش . فإذا علمنا مع هذا أن الدين العام يبلغ نحو مائة مليون جنيه وأن ديون الأفراد تقدر بنحو نصف هذا فإن فوائد هذا المال يجب طرحها من جملة ماقدرناه إيرادا فيقل متوسط الدخل عن ذلك المبلغ القليل وهو عشرة جنيهات سنويا لكل فرد ، حتى مع اعتبار أن شطرا من الفوائد يبقى فى أيدى المصريين .

الصناعة إذاً لابد منها . وإذا لم تكن عواملها متوفرة لوجب أن نعمل على توافرها لأننا نهلك إذا لم ننتج إنتاجا صناعيا يذكر . ومن حسن حظ البلاد أن عوامل نجاح كثير من الصناعات الرابحة موجودة بمصر . وأن العمل الجدى السريع على أسس علمية ، وبعد دراسة شاملة ، كفيل بالنجاح . وما اعتقاد البعض أن الصناعة التى تعد للاستهلاك المحلى لايمكن قيامها بمصر إلا أثر من آثار ماقالوه وكرروه زمنا طويلا فى الكتب المدرسية وما روج له من يودون أن تظل هذه البلاد مزرعة ويبقى أهلها مسخرين لخدمة الصناعة والتجارة الأجنبية .

ماهى الصناعات الممكنة :

نحن لانطمع الآن فى إنتاج صناعى تنافس به البلاد العالية الكعب فى الصناعة خارج بلادنا . وكل ما نبغيه الآن إنما هى الصناعة التى يستهلكها المصريون فى بلادهم والتى لا يتوقف نجاحها على كثرة استخدام الفحم وقودا لأن نفقات نقل هذا الوقود من البلاد التى تنتجه إلى مصر يرفع من ثمنه ، وبالتالى يرفع من ثمن الإنتاج الصناعى المتوقف على استخدام هذه المادة وقودا . وأول ما نفكر فيه هى صناعة تحويل المواد الخام الناتجة من الزراعة مثل الغزل والنسج والورق والحبال واستخراج الزيوت النباتية والصابون والفاكهة والخضر المجففة والمحفوظة والنشا والعطور ، ومن الحيوانات كالجلود ومستخرجات الألبان . فالمادة الخام موجودة تخرجها أرضنا وتربى الماشية مما تنبت الأرض .

والقوة المحركة ميسورة من الزيت المعدنى الموجود بمصر

وما جاورها ومن قوة الكهرباء المستمدة من المصدرين السابق ذكرهما ومن مساقط المياه المتعددة بهذه البلاد ، فمسألة الوقود لما عدا بعض الصناعات ، ليست عائقا .

والقوة البشرية وأعني بها اليد العاملة متوفرة بطبيعة الحال وإن كانت المهارة تحتاج لشيء من الوقت . ومع هذا فقد خرجت مدارسنا الفنية عددا لا بأس به تعمل كثرته الساحقة في غير الصناعة لندرة المنشآت الصناعية ، وتدل كثرة من تخرجوا في السنين القلائل الماضية على وفرة من يمكن إعدادهم إذا ما كثرت الأعمال . وما دمنا لن نطفر لأن الطفرة متعذرة فلا خوف مطلقا من نقص اليد العاملة الماهرة . ولسنا نخشى من تفشي الأمية الآن ، إذ برهنت الحرب الحالية على مهارة المصريين في حالتين تدفعان كل خشية من أن تؤثر الأمية على الاتقان تأثيرا محبيا للأمل . فأما الحالة الأولى فهي ما أظهره العمال المصريون في مصانع الجيوش الانجليزية والأمريكية بمصر . وأما الحالة الثانية فهي ما أظهره الجنود المصريون من دقة ومهارة في استخدام أدوات الحرب الحديثة كالمدافع المضادة للطائرات وغيرها وغالبية الجنود أميون .

ولكي يدرك القارئ أهمية نشر وترقية ما ضربت به مثلا من الصناعات الموجودة خاماتها أذكر أن قيمة ما استوردناه من طائفة منها في سنة ١٩٣٦ بلغ ٥٣٧٦٩١٢ جنيه ، ولو أنتجنا مقدارها بمصر فإنها تجتذب من الصناع وغير الصناع عددا كبيرا وتفتح لهم أبوابا من الرزق هي الآن مغلقة . وترفع مستوى المعيشة بلا نزاع . وإذا كان أغلب مواطنينا جياعا حفاة شبه عراة فكم تجتذب من الصناع وغير الصناع عندما تنتج ما يكفيهم ؟ سيتساءل القارئ : ومن أين يجد هؤلاء الجياع الحفاة شبه العراة ما يدفعونه ثمنا لما يسد حاجتهم ؟ . والجواب على هذا أن الصناعات التي نجد خاماتها من الانتاج الزراعي والمعدني ينشط بنشاطها هذا الانتاج وتدفع وبدفع عمالها أثمانا طيبة لما تستهلك ويستهلكون من الانتاج الزراعي وغيره . وإذا ما ازداد رخاء المنتجين ازدادت مقدرتهم الشرائية وازداد طلبهم للسلع المصنوعة فتنمو وتنشط ويكثر استهلاكها واستهلاك عمالها وهكذا . وليس هذا مجرد نظر فقد حققته بلاد أخرى عندما حرمت الاعتمادات وحرمت التبادل التجاري ومنافع البلاد الخارجية ، ونحن مستطيعوه بأيسر مما استطاعته روسيا مثلا ، لأننا لن نحرم التبادل التجاري ولن نحرم الاعتمادات كالسيجي . . بقيت مسألتان : الإدارة والمال .

فأما المال فأمره سهل إذا ما علمنا أن مجموع الأموال الاحتياطية في شركات مساهمة محدودة سهل علينا الحصول على أرقامها بلغت ٣٦١٣١٠٦٧ جنيها سنة ١٩٣٩ و ٣٠٢٢١٥٨٧ في سنة ١٩٤٢ . وأن ما في صناديق توفير البنوك والبريد يزيد عن هذا . وأن كثيرا من الأفراد يودعون أموالهم في المصارف وفي صناديق توفير البريد لقاء فائدة زهيدة . وأن بعض الأفراد ممن يتمسكون بعدم تقاضي أرباح من أموالهم ، يودعونها المصارف بغير فائدة . وأن أثمان الأراضي الزراعية الجارية تزيد كثيراً عن قيمتها الحقيقية لأن غالبية المصريين لا يعرفون كيف يستثمرون الأموال في غير شراء الأراضي الزراعية .

وأما الإدارة الفنية المستنيرة فهي أصعب المسألتين ، بيد أنها ليست مما يتعذر التغلب عليه .

ومن الممكن الاستعانة بخبراء ، غير موظفين ، لدراسة طائفة من المشروعات الصناعية دراسة علمية وافية من كل نواحيها ووضع تفصيلات تنفيذها . وإذا ما استوفى المشروع دراسة قامت المؤسسة على أسس فنية دقيقة وسهلت إدارتها . وما دام المال موجودا والخامات ميسرة والسلعة مطلوبة فإنها تنجح إذا أمنت شر كيد المضاربين ، وليس عسيرا تأمينها . ومتى توطدت أقدام مؤسسات صناعية من هذا النوع المدروس حق الدرس اطمأن الناس إلى استثمار أموالهم في المشروعات الصناعية وحينئذ تجد الصناعة المال بلا انقطاع .

للبحث بقية — محمد عبد البارئ

حول مراحل التعليم :

تعقيب

فى العدد الماضى من مجلة الثقافة مقـال عن مراحل التعليم ومراحل النمو فى نظر علم النفس ، للأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى استرعى نظرنا فيه ماذكره من أن « أهم ما وصل إليه علم النفس هو التداخل الشديد بين ما يسمونه مراحل النمو المختلفة ، فمن العسير جداً أن نعرف متى تنتهى مرحلة ومتى تبدأ مرحلة أخرى . فعملية النمو عملية تدريجية لانستطيع أن نميز فيها حدوداً فاصلة . » ونحن معه فى هذا الرأى الذى أيده بملاحظات طريفة عديدة فى مختلف ميادين الحياة سواء منها ما كان خاصا بالنمو العقلى أو بالنمو فى الحياة النباتية والحيوانية .

لكننا مع الأسف لانتفق معـه فى الاستنتاج الذى وصل إليه ، وكان على مايظهر غرضه الأول من المقال ، ألا وهو أن « من السليم أن يكون هناك للتعليم العام ثلاث مراحل : اثنتان بينهما مرحلة متوسطة . أما المرحلتان فاحداهما قبل العاشرة وأخرى بعد الرابعة عشرة . والمرحلة المتوسطة واقعة بينهما » .

وهذا الرأى ليس بجديد، فقد نادى به من قبل الأستاذ اسماعيل القبانى العميد السابق لمعهد التربية والمستشار الفنى المساعد لوزارة المعارف حاليا ، وكانت لنا عليه اعتراضات أثبتناها عقب أن ألقى الأستاذ القبانى محاضرته التى نادى فيها بهذا الرأى ، وما كنا لنعيد الكلام فى هذا الموضوع لولا أننا علمنا أن الوزارة على وشك الأخذ به ، ولعل المقال الذى نحن بصدده كتب بهذه المناسبة . ولما كانت لهذه المسألة خطورة كبرى فى نظرنا فقد رأينا أن نفصل وجهة نظرنا فيها .

ونرجو كل من يهمه أمر التعليم فى هذا البلد ومستقبل النشء فيه أن يدلى برأيه أيضا ، حتى تناقش كل هذه الآراء مناقشة دقيقة قبل أن تبت وزارة المعارف فيها بصورة نهائية ، وتحدث هذا الانقلاب الكبير المرتقب .

وأول ما نلاحظه أننا إذا استطعنا أن نضمن ، عن طريق هذا الاقتراح الجديد ، شيئاً من التجانس فى الفرق الدراسية التى تضم من هم دون العاشرة ، وكذلك فى الفرق الدراسية التى تضم من يتجاوزون سن الرابعة عشرة ، فاننا سنضع مجموعة من التلاميذ ، أبعد ماتكون عن التجانس فى هذه المرحلة المتوسطة التى ستضم بغير شك أفراداً من المرحلة الأولى وكذلك آخرين مقطوع بنسبتهم إلى المرحلة الثانية

ولئن صح أن هناك معايب وأخطاراً متصلة بالمرحلتين التعليميتين الحاليتين (الابتدائية والثانوية) فان المعايب والأخطار التى ينتظر أن تنشأ فى هـذه المرحلة المتوسطة الجديدة أشد وأضر ، وأعمق فى الأثر السيء من تلك المعايب والأخطار ، وستكون مشكلاتهـا أشد تعقيداً وأصعب فى الحل بسبب أن فرصة التجانس فيها ستكون قليلة جـداً .

فالدكتور القوصى والأستاذ القبانى يصوران هـذه المرحلة محدودة بالنسبة للسن فيما بين العاشرة والرابعة عشرة . ونحن نرى أن لا مناص ، عند التطبيق العملى ، من أن يكون الحد الأدنى لمن يوجدون فيها هو التاسعة على الأقل والحد الأقصى هو السادسة عشرة على الأقل ؛ فهذه المرحلة إذاً ستحتوى بغير شك على نسبة كبيرة ممن هم دون سن البلوغ ، ونسبة كبيرة أيضا ممن تجاوزوا هذه السن بزمن طويل . بينما نرى فى الوقت الحاضر أن الذين يتجاوزون سن البلوغ فى المدارس الابتدائية الأميرية هم نسبة ضئيلة وبينما نجد من هم دون هذه السن فى المدارس الثانوية الأميرية نسبة ضئيلة أيضا .

* * *

والآن فلننظر إلى ما سيكون لهـذا التقسيم الجديد المقترح من آثار ونتائج أخرى خطيرة :

فأول ما سيحدث هو أن رياض الأطفال ستتحول

كلها كابنقولون إلى مدارس المرحلة الأولى أى الابتدائية ، بمعنى أن يوقف القبول بالسنة الأولى منها فى العام القادم ويعتبر المنقولون من هذه الفرقة فى السنة الأولى الجديدة ، وينتقل تلاميذ السنة الثالثة الحالية فى الروضة إلى فرقة أعلى تكون السنة الثالثة على النظام الجديد . وفى العام التالى للقادم تؤخذ دفعة جديدة فى السنة الأولى وتستبق الدفعة الأخيرة بالمدرسة الجديدة لتكون السنة الرابعة بها . أى أن المدرسة الابتدائية ستكون أربع فرق ، وتحوى تلاميذ من سن السادسة إلى سن العاشرة ، نظريا ، أما عمليا فمن سن الخامسة (بالنسبة لمن دخلوا الروضة فى سن الرابعة) إلى الثانية عشرة (بالنسبة لمن دخلوها متأخرين أو أعادوا دروس بعض الفرق) .

وإذا كانت هذه المدارس الجديدة ستحتفظ بجميع معلماتها الحاليات فهل سيكمل العدد اللازم بمعلمات أيضا أو بمعلمين ، فإذا كانت الثانية فمن أين سنأتى بهؤلاء المعلمين ، وهل سيعمم مبدأ اختلاط المعلمين والمعلمات (كالتلاميذ والتلميذات) فى هذه المرحلة الدراسية ؟ وإذا كانت الأولى فلنا أن ننتظر أن تستنفد هذه المدارس كل ما عندنا من معلمات أعددن خير إعداد لتعليم الصغار من البنين والبنات .

ومعنى هذا الأمر الأخير أننا لن نجد منهن العدد الكافى لإنشاء مدارس عديدة للحضانة ، إذ المعقول أن لابد للدولة من أن تهيء للناس مدارس يعدون فيها أطفالهم قبل سن السادسة (ابتداء من الثالثة) . وهذه المدارس هى التى ستضع البذور الأولى والحجارة الأساسية فى تربية الأمة . وقد اتجهت سائر البلاد إلى الاهتمام بها والإكثار منها وإعطائها أكبر قسط من العناية بعد أن ثبت قطعا أثرها البالغ فى تربية النشء . فإذا قيل بأننا فى مصر لن ننشىء مثل هذه المدارس اعتمادا على المدارس الأولية كان ذلك فى نظرنا رجوعا بالتعليم إلى الوراء .

هذا من جهة ومن جهة أخرى مدارس رياض الأطفال الحالية لا تكفى لجميع التلاميذ الذين هم فى أول المرحلة الابتدائية . فلابد إذاً من إنشاء مدارس على غرار رياض الأطفال أو تحويل بعض المدارس الأولية إلى مدارس ابتدائية وتكون النتيجة الحتمية لذلك من غير شك انتخاب جميع المدرسين الأجواد بالمدارس الأولية وحشدهم فى تلك المدارس المتحولة إلى مدارس ابتدائية . فكأننا فى سبيل خدمة الطبقة التى تنتفع بالتعليم الابتدائى سنزيد الظلم الواقع على الطبقة التى لا تستطيع أن ترسل أولادها لغير المدرسة الأولية ، وذلك بحرمان هذه المدارس من نوابغ المدرسين والمدرسات فيها ، وأثر ذلك فى التعليم الأولى لا يخفى ، وهو تعليم فى نظرنا يحتاج إلى أكبر العناية وأعظم الإصلاح .

وقد سبق لنا أن نادينا وها نحن نكرر الدعوة ، ونستطيع أن نستصرخ أولياء الأمور فى المستقبل ونقول لهم إن الإصلاح الحقيق للتعليم فى مصر يجب أن يكون أساسه الاهتمام بالمدرسة الأولية دون غيرها ، على أن تكون هى المدرسة الواحدة الصالحة المعدة لتعليم جميع أفراد الشعب وأبناء كل الطبقات تعليما جيدا . ونحن واثقون أن كل محاولة لإجراء تعديل أو تحويل فى النظام الحالى على أساس غير توحيد المدرسة الأولية لابد وأن تكون نتيجته إضعاف هذه المدرسة الأولية وإجحاف بحقوق الطبقات التى لا معدى لها عن إرسال أبنائها وبناتها إليها .

نحن نعلم أن هناك عدداً كبيراً من رجال التعليم قد أصبحوا يائسين من التعليم الأولى وداعين إلى توفير الجهود التى تصرف فى إصلاحه وتوجيهها اتجاها منتجا آخر كهذا الاتجاه الذى نتحدث عنه فى هذا المقال ، ولكننا نعلم أيضا أن هناك عدداً كبيراً ممن يتعصبون للتعليم الأولى ويدعون إلى تقديم وسائل إصلاحه على

غيره لأنه التعليم الشعبي الذى هو عماد النهضة القومية وعنوان رقى الأمة .

***

والآن لا بد وأن يكون فى القراء من يتساءل عن رأيى فى مراحل التعليم . ولذلك أجمل هذا الرأى فيما يلى :

يجب فى نظرى أن توحد المدرسة الأولية وبتوحد التعليم بها إلى سن الثانية عشرة . ولست أقصد بالتوحيد نوع التعليم ، وإنما توحيده بين الطبقات وإن كان التعليم يصح أن يختلف فى المدن عنه فى الريف . كما يصح بل يجب أن يتنوع فى السنتين الأخيرتين من الدراسة تبعا لاستعدادات الأطفال حتى يكون من المستطاع فى آخر المرحلة أن توسل كل ذوى المواهب العالية النظرية إلى التعليم الثانوى فالجامعى وأن تهيأ لذوى الاستعداد العملى مدارس تكميلية ملائمة لهم ، كل ذلك تبعا لظروف الأمكنة والبيئات بحيث يهيأ لكل مجموعة التعليم اللازم لها ، الذى ينمى ما وهبها الله من مميزات ويبرز ما أودع بها من مواهب واستعدادات ، حتى تستغلها الأمة فى المستقبل خير استغلال يؤدى إلى أعظم الانتاج وإلى إسعاد جميع الأفراد .

فالعناية بهذا التعليم الأولى تسبق كل ما عداه فى نظرنا .

وأما التعليم الثانوى والجامعى بصفة خاصة فلا نزال على رأينا فيه ، وهو أنه يجب ألا يسمح بالدخول فيه (على نفقة الدولة بنوع خاص) إلا للذين يستطيعون المضى فيه والاستفادة منه والوصول إلى أرفع درجاته وذروة السلم فيه . فهؤلاء هم الذين يتحتم على الدولة أن تهيىء لهم جميعا فرصا متكافئة سواء فى ذلك غنيهم وفقيرهم ساكن المدن منهم وساكن الريف . فإذا ما أتمت الحكومة تهيئة ذلك كله (التعليم الأول الجيد للجميع) والثانوى والعالى لذوى المواهب والاستعدادات الحسنة فلتنظر فى كفاءتها المالية والعلمية ولتقدم لأبناء هذه الأمة من الترف العقلى ما تراه ملائما وما تراها قادرة عليه .

ومن عجيب المصادفات أنى قرأت ، عقب كتابة ما تقدم ، فى كتاب لكسويل جارنت صدر فى سنة ١٩٤٣ وعنوانه « العالم الذى نرمى إلى تكوينه » ما يأتى : —

« يجب أن نواجه الحقيقة التى تقرر أن المواطنين الصالحين لم يكونوا فى وقت من الأوقات ولن يكونوا فى المستقبل أيضا متشابهين تماما . وكما يختلفون فى صفاتهم المودعة فيهم كذلك يجب أن تختلف أعمالهم فى الحياة ، ومن ثم يحتاجون إلى أنواع متباينة من التعليم تهيئهم لوظائفهم المختلفة فى العالم الذى يعيشون فيه .

« فبعد أن نتأكد من أن هناك مدارس حضانة أو فصول منها تكفى لجميع الأطفال الصغار ، الذين بين الثانية والخامسة أو السادسة من العمر ، والذين لا يجدون فى بيوتهم نظيرا لمرحلة الحضانة يعادل فى جودة التعليم فى مدارسها ، وبعد أن نهيىء مدارس ابتدائية جيدة (أو نشجع الهيئات الأخرى الحرة على تهيئتها) كافية للعدد العظيم من الأطفال الطبيعيين أو الموهوبين الذين تقع أعمارهم بين الخامسة أو السادسة وبين الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، والذين لا يتلقون تعليما ابتدائيا فى مدارس خاصة أو على يد مربين أو مربيات فى بيوتهم — بعد أن تقوم الدولة بكل ذلك فواجبها الثانى هو أن تأخذ فى غربلة تلاميذ المدارس الابتدائية والاختيار من بينهم ، فتضع فى إحدى النهايات أولئك الذين لهم من صفاتهم الموهوبة واستعداداتهم الطبيعية وطموحهم المكتسب وغير ذلك من المميزات ما يؤهلهم فى النهاية إلى متابعة التعليم طول الوقت ، ويبرر اضطلاع الدولة بالأعباء المالية اللازمة لهذا التعليم بدلا عنهم ، إن اقتضى الحال ، لتمكنهم من متابعته إلى أن يصلوا إلى الجامعة ويجتازوا التعليم الجامعى بل ربما يصلون إلى ما بعده ، وتضع فى الطرف الآخر أولئك الذين تجعلهم طبيعتهم ونشأتهم أسعد حظاً فى الحياة وأعظم نفعاً فيها إذا تركوا التعليم المدرسى ، وانصرفوا إلى العمل اليدوى بمجرد أن يصلوا إلى السن القانونية التى تسمح بذلك . »

أحمد عبد المعوم الكردانى

على هامش الكتب العربية :

ظهر الاسلام

للأستاذ الجليل أحمد أمين بك

هذا الكتاب هو الحلقة الخامسة من هذا المجهود الضخم الذي ينهض به أستاذنا الكبير «أحمد بك أمين» يحاول أن يبدد الظلمات التي تحيط بحياة العرب العقلية وما ينطوي فيها من حياة اجتماعية وأدبية . وقد بدأ هذه السلسلة — على نحو ما يعرف القراء — بفجره وضحاه ، فتكشفت جوانب الحياة العربية تكشفا رفع كل ما كان يقف بين الباحثين وبينها من أستار صفيقة تمنعهم أن يجوسوا خلالها أو يتحققوا أمرا من أمورها . أما هو فما لبث أن امتدت يداه إلى هذا التراث الضخم من حياة العرب وحياة عقلهم وأدبهم حتى ألقى له هذا التراث كل ما به من كنوز . ويروع ذلك أستاذنا أحمد بك أمين فيجدّ في الكشف والبحث والتنقيب ، فما يكشف كنوزا ويدخلها إلى متاحف البحث الحديث — أو قل بعبارة أدق ما يكشف عصرا من عصور العقل العربي — حتى تجده يسعى إلى كشف العصر الذي يليه . باذلا كل ما يستطيعه من جهد ، مصطنعا كل ما يملكه من دقة ، شأنه في ذلك شأن العلماء النابهين الذين يوفرون أنفسهم على البحث والتنقيب ثم يهدون الباحثين من حولهم ثمرة بحثهم وتنقيبهم لا يفكرون في أجر ولا منفعة ولا جاه أو وظيفة ، لأنهم لا يعنون بأنفسهم ، إنما يعنون بالعلم من حيث هو علم ، وهم يجدون في ذلك للنهم التي لا تقدر والتي تفوق كل كسب نفعي أو مادي ، فقد وهبوا أنفسهم للعلم من حيث هو ، واستثمروا في ذلك كل ما يعنون من لذة روحية أو مادية . وأكبر الظن أن هذا هو ما دفع أستاذنا الدكتور طه حسين بك قديما إلى أن يقول في مقدمته لفجر الإسلام منذ سبعة عشر عاما : « إن « أحمد أمين » استطاع أن يكشف لنا ببحثه عن رجل لم نكن نقدر أن نراه ، فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم أديب جدّ حتى تثقف بالثقافة الأوربية ، ولم نكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق حظ وأقربه إلى الاتقان والكمال ، فأحسن العلم بمناهجها والاستعمال لهذه المناهج كما أحسن العلم بمناهج القدماء في الفقه وعلوم الدين والاستعمال لهذه المناهج . ولست أخفي أني لم أكن أعرف حدا لهذا الدهش الذي كنت أجده حين أرى « أحمد أمين » يتصرف في المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة ويد صناع وعقل يعرف كيف يفكر وكيف ينتقل من قضية إلى قضية ومن مقدمة إلى نتيجة وكيف يضع الأشياء بعد ذلك كله في نصابها معتدلا أحسن اعتدال لا يعرف التقصير ولا يعرف الإسراف » .

وما لبثت أضواء فجر الإسلام أن تنتشر في آفاق البحث في الشرق والغرب ويعجب بها العلماء والباحثون من عرب ومستشرقين إعجابا شديدا . ويتقدم أستاذنا «أحمد بك أمين» إلى القرن الأول من العصر العباسي ، وهو هذه الحقبة التي تقع من صحيفة تاريخ العرب موقع الضحى من صحيفة النهار ، فيرفع النقاب عن هذا العهد كله بما فيه من ثقافات يونانية وفارسية وهندية وعربية وإسلامية ، لا يستثني عنصرا من عناصر هذه الثقافات دون أن يشفعه بالبحث والاستقصاء والتحليل الدقيق تحليلا راع طوائف الباحثين روعة عبر عنها أستاذنا الدكتور طه حسين بك أجمل تعبير وأصدقه إذ يقول في مقدمته الطريفة لهذا الضحى : «أشهد لقد فكرت وقدرت وجهدت نفسي في أن أجد شيئا من العيب ذي الخطر أصف به هذا الكتاب (ضحى الإسلام) الذي أقدمه إلى القراء ، فلم أجد ولم أوفق من ذلك إلى قليل ولا كثير . وليس ذنبي أن « أحمد أمين » قد قصد إلى عمله

فى جدو أمانة وصدق وقدرة غريبة على احتمال المشقة والعناء والتجرد من العواطف الخاصة والأهواء التى تعبث بالنفوس فوفق من ذلك إلى أعظم حظ يستطيع العالم أن يظفر به فى هذه الحياة . ليس من ذنبى أن « أحمد أمين » بعد هذا كله وبفضل هذا كله قد فتح فى درس الأدب العربى بابا وقف العلماء والأدباء أمامه — طوال هذا العصر الحديث — يدنون منه ثم يرتدون عنه أو يطرقونه فلا يفتح لهم ، ووفق هو إلى أن يفتحه على مصراعيه ، ويظهر الناس على ماوراءه من حقائق ناصعة يبتهج لها عقل الباحث والعالم والأديب . ليس شيئا من هذا ذنبى أنا ، وإذا لم يكن بد من أن يلام أحد لأن عالما مصريا وفق إلى هذا الفوز المبين وأهدى إلى اللغة العربية كتابا لم يسبق إلى مثله ، فليلم هذا العالم المصرى نفسه ، وليعاقب « أحمد أمين » لأنه قد ظفر بهذا الفوز .

وحقا مايقوله أستاذنا الدكتور طه بك فإن مصر قد ظفرت فى أستاذنا الجليل « أحمد بك أمين » بعالم من الطراز الأول ، لا يتخلف فى أساليبه العلمية ومايتخذه من تحليل واستقراء عن كبار العلماء فى الدراسات المختلفة التى تعنى بالعلم الخالص . ومن كان يظن أن مصر تستطيع أن تظفر بمثل هذا العالم ، وهى لم تفتح جامعتها إلا منذ أمد قصير ؟ ومع ذلك فهى لم تمض فى حياتها الجامعية الجديدة خطوات حتى أخذت تبرهن أنها تستطيع أن تثبت للجامعات الأجنبية القديمة وأن تفخر بأبناء لها يحلونها مكانا رفيعا بين زميلاتها من الجامعات الأجنبية . وكان لقسم اللغة العربية بكلية الآداب وما أحرز فيه الأستاذ الجليل أحمد بك أمين والأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك من ظفر محقق فى معارك البحث والعلم ومواقفهما أثر بين فى هذا النصر المؤزر الذى حظيت به جامعتنا الحديثة . وإذا بها — على قرب نشأتها — تلفت الأنظار ، وإذا بنا نرى بعض المستشرقين الذين يفدون علينا يدخلون معنا مستمعين إلى هذين العالمين الكبيرين ، يكبرون من أبحاثهما ويعلون من دراستهما ويثنون عليهما ثناء عاطرا لما يجدونه فيها من كد وكدح فى سبيل العلم والأدب . فقد أخذا أنفسهما بأحدث الأساليب فى الدراسات الأدبية والعلمية ، وذهبا يحاولان أن يكشفا حياة العرب العقلية والأدبية كشفا واضحا لا يأتيه غموض ولا إبهام من بين يديه ولا من خلفه . ومن أين يأتيه الغموض والإبهام وهما يحللان الحياة العربية تحليلا ليس أقل دقة ولا استقصاء من تحليل صاحب الكيمياء فى معمله ؟ وسرعان ما انتشر النور من قبل الأستاذين الكريمين على جميع أطراف هذه الحياة ، فإذا هى متجلية تحت أعين الباحثين أروع ما تكون جلاء وأجمل ما تكون ضياء وبهاء .

وها هو أستاذنا أحمد بك أمين بعد أن غمرنا بأضواء فجره وضحاه يخرج على الباحثين اليوم بظهر الإسلام فتنغمس أبصارنا فى أنوار هذا الظهر وما يشعه فى النفوس والعقول من بهجة وضياء ، فقد عنى أن يكشف كشفا واضحا عن حقبة فى العصر العباسى تمتد من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى ، فتقدم على طريقته العلمية فى بحوثه يحاول أن يرد الحياة العقلية عند العرب إلى عناصرها التى تكونها ، ومدى كل عنصر وعمله فى هذه الحياة ؛ ولذلك رأيناه يفصل الحديث عن الترك والفرس والعرب والروم والزنج ، محاولا أن يتعرف تعرفا دقيقا على كل عنصر من هذه العناصر ومدى تشابكه أو تنافره مع العناصر الأخرى ، حتى يطلع على مزاج الأمة العربية فى هذا العهد اطلاعا دقيقا ، فإذا تم له ما أراد من ذلك انتقل يصف المذاهب الدينية المختلفة التى كان يعتنقها الناس فى العالم العربى من تهود وتنصر وإسلام ، ثم اعتزال وتشيع وتسنن ، وهو يحقق الحديث فى أصحاب هذه الديانات والمذاهب لتلك العصور أدق تحقيق ممكن يستطيع أن يضطلع به عالم يأخذ نفسه بأحدث الأساليب العلمية

فى درس الحياة الاجتماعية وما يقترن بها من ظواهر عقلية وأدبية ثم يخرج من ذلك إلى الحديث المفصل عن مراكز الحياة العقلية لهذا العهد فيفتتح بابًا لمصر والشام ، وآخر للعراق وجنوبى فارس ، وثالثًا لخراسان وماوراء النهر ، ورابعًا للسند وأفغانستان ، وخامسًا لبلاد المغرب . وهو أثناء درسه لهذه المراكز المختلفة للحياة العقلية يعرض عليك كل مافيها من كنوز دينية أو فلسفية ، ولغوية أو أدبية عرضًا مستقيًا مدعمًا بالوثائق والمستندات ، مشتقًا من المراجع والنصوص ، بحيث يخيل إليك أنك قد عرفت — إلى أقصى حدود المعرفة — دقائق الحياة العقلية فى هذه المراكز والأقاليم . وما من شك فى أنه لم يصل إلى تمثيل ذلك كله وتصويره إلا بعد جهود شاقة عنيفة ، وقد عبر هو نفسه فى مقدمة كتابه عما لقى فى بحثه ودرسه من عناء إذ يقول : « وفى سبيل الله مالقيت من عناء ، وخاصة فى القسم الأخير (يقصد مراكز الحياة العقلية) فقد تجاهل مؤلفو تاريخ العلوم ومؤلفو كتب التراجم — غالبًا — الناحية الإقليمية والزمنية فأرخوا الحركة العلمية على أنها وحدة وترجموا المؤلفين من غير مراعاة لأزمنتهم ولا أمكنتهم ، وكل ماراعوا هو ترتيب أسمائهم على حروف الهجاء ، فأحمد فى القرن الثانى فى العراق بجانب أحمد فى القرن السادس أو السابع فى مصر ، وهكذا . فمن أراد أن يفرز علماء كل عصر وحدهم ، وفى كل قطر على حدة تحمل من العناء ما لا يقدر » .

والحق أن الباحث لا يتابع أستاذنا الكبير فى القسم الخاص بوصف مراكز الحياة العقلية فى القرنين الثالث والرابع حتى يشفق عليه من طول ما عانى وكابد فى بحثه وتنقيبه . فكم من عقبات قابلته ، وكم من مشاكل صادفته ، ولكنه كان يعرف كيف ينتصر عليها نصرًا مؤزرًا ، فإذا الطريق تتسع ، وإذا الأعلام والصوى ترتفع ، وإن يكن هناك شيء يمكن أن يلاحظ على هذا الجهد القيم الذى يرتفع بصاحبه إلى الأفق الأعلى بين كبار العلماء والباحثين ، فإنما هو ضرب من التركيز ، لعله اضطر إليه اضطرارًا لاتساع الموضوع وتشعبه ؛ فقد أدمج بين أقاليم ومراكز لو أنه أقام أسوارًا وفواصل بينها لتراءت شخصيتها أتم جلاء ، وأكثر وضوحًا . وبعد فنحن نهنيء الباحثين الذين يعنون بدراسات الأدب العربى بهذا السفر الممتاز الذى استطاع به أستاذنا الجليل أحمد بك أمين أن يخرج القرنين الثالث والرابع فى تاريخ الأمة العربية وما يطوى فيهما من عقل وفلسفة ودين وأدب ، من مساقط الظلام والغموض إلى مساقط الضياء والنور .

شوقى ضيف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٣٣٣ الثلاثاء ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ١٥ من مايو سنة ١٩٤٥ السنة السابعة

فهرس العـــــدد

بعد تسليم ألمـــانيا

فى اليوم الثامن من مايو شهدت الإنسانية أعظم مواقف الفصل فى تاريخها ومصايرها ، ففيه تم تسليم ألمانيا النازية لخصومها تسليما مطلقا شاملا ، وعقد بذلك لواء النصر عاليا خفاقا للأمم المتحدة ، ووقفت المجازر البشرية التى خضبت بالدماء بسائط أوربا زهاء ستة أعوام ، وبدأت الأنوار الساطعة التى أطفأها الطغاة منذ سبتمبر سنة ١٩٣٩ تشرق من جديد فى جنبات القارة الحائرة المحطمة .

وهذا النصر الذى لم يشهد مثله التاريخ ليس نصر الأمم المتحدة فحسب ، كما أن هذه الهزيمة الساحقة التى منيت بها الريخ الثالثة ليست هزيمة لألمانيا النازية وحدها ؛ ولكنه فى الواقع نصر لأسمى المبادئ التى جاهدت من أجلها الإنسانية على كر العصور ، وهى مبادئ الحق والحرية والعدالة ، كما أنه هزيمة لمبادئ الطغيان والظلم والقوة الغاشمة .

لبثت ألمانيا تدين عصورا بفلسفة القوة المادية وهى التى صاغها نيتشه فى أواخر القرن الماضى إلى عقيدة قومية سياسية ، فليس فى العالم سوى القوى والضعيف ، والسيد والعبد ، والصفوة والدهماء ؛ والأمة العظيمة هى أمة الأقوياء ، وهى أمة السادة والصفوة ، حتى جاء هتلر وأعوانه النازيون فأسبغوا على هذه العقيدة لونا ملتهبا ، ونادوا بسمو الجنس الآرى أو الألمانى على غيره من سائر البشر وحق ألمانيا القوية أو حق الشعب الألمانى ، وهو الشعب السيد الممتاز ، فى الحكم والسيادة ، وفى الفضاء الحيوى اللازم لحياته ورخائه ورفاهته .

وعملت ألمانيا النازية على إضرام نار هذه الحرب بعد

أن اكتملت لها أسباب التفوق الهائل فى القوى العسكرية وأحكمت وسائل الاعتداء النظم ، وانقضت على الأمم الآمنة الوادعة فاجتاحتها ودمرتها بأساليب وحشية لم يسمع بها ، ولم تراع فى عدوانها عهدا ولا ذماما ، ولم تحفل بقوانين الحرب أو السلم ، ولم تقدر وقع اعتدائها وهمجية أساليبها فى الرأى العالمى المتمدن ، ولم تقدر بالأخص أن القوة المادية وحدها لا تكفى لتأييد السيادة وحكم الأمم إلى الأبد ؛ وهكذا خربت أوربا ودكت معالم الحضارة الأوربية وزهقت الألوف والملايين ضحية العدوان النازى وأطماع الريخ الثالثة ، وأثارت ألمانيا بذلك ظفرها المؤقت على وكان من البغضاء المتأججة فى صدور شعوب العالم المتمدن بأسره .

وكان من الظواهر العجيبة التى تعذر فهمها أن تسلم ألمانيا مصايرها فى هذه الفترة العصيبة من تاريخها إلى أيدى عصابة من الزعماء المتعصبين كهتلر وأضرابه ، فتتلهم فلسفة القوة والعنف وحدها ، وأن تقبل على تأييدهم فى عنفهم وعدوانهم تأييداً لاحد له وألا تشعر بما فى وسائلهم وسياستهم المدمرة القصيرة النظر من الأخطار والتبعات الفادحة ، وألا تحاول فى الوقت المناسب أن تثوب إلى رشدها ، وأن تقصى أولئك الزعماء البغاة عن قيادتها . ولو تذرع الشعب الألمانى فى الوقت المناسب بشىء من الفطنة والشجاعة ، منذ ظهرت بوادر الهزيمة على جيوش «الريخ» واستطاع أن يحطم هتلر وعصابته ، لاجتنب كثير من الضحايا والآلام الفادحة من الجانبين ، ولنجت ألمانيا ذاتها من الدمار المطبق الذى حل بها ، وقرنت مصيرها غير مصيرها الحالى ، وكانت هزيمتها أرفق وأهون شأنا .

ولكن ألمانيا ربطت مصيرها بمصير النظام العنيف الذى اعتنقته ، وآثرت أن تنحدر معه إلى الهاوية التى حفرها بغيه وعدوانه ، ولم تذعن لقوة أعدائها إلا بعد أن مزق الوطن الألمانى شر ممزق ، وسحقت جيوشه فى كل ساحة ودمرت موارده ، واحتل العدو سائر أرضه . وهكذا غدت الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) التى لاح مدى حين أنها مبعث القوة والعظمة للريخ الثالثة ، مقبرة لعظمة ألمانيا وقوتها ، ومورد التهلكة والدمار للأمة الألمانية بأسرها .

— ٢ —

على أن انهيار ألمانيا النازية وتسليم ألمانيا ليس إلا بداية النهاية فيما تبغيه الأمم المتحدة لاستقرار السلم وتوطيد حكم القانون ، وحماية قدس المعاهدات الدولية . ولقد كانت معاهدة فرساى التى فرضها الحلفاء على ألمانيا الامبراطورية عقب هزيمتها فى الحرب الكبرى ترمى إلى نفس المقاصد ، وكانت تمثل يومئذ أقصى ما يمكن أن يذهب إليه الظافرون فى تأمين السلم والقضاء على نزعة العدوان . وكانت ألمانيا المهزومة تلقى يومئذ شيئا من العطف فى بعض الدوائر ، ويلقى القول بوجوب التفرقة بين الشعب الألمانى وبين حكامه وقادته شيئا من التأييد . وكانت تهمة الحرب وما تخللها من آثام وجرائم تلقى بالأخص على كاهل السياسة الامبراطورية ، وليس على الأمة الألمانية بأسرها . وقد كان لهذه التفرقة أثرها فى تلطيف الشروط المفروضة على ألمانيا وفى المحافظة على وحدتها وصون حريتها واستقلالها .

ولكن معاهدة فرساى كانت فشلا ذريعا ، ولم تكن سوى أداة لبعث النازية ، ومقدمة للحرب العالمية الثانية التى شهرتها الريخ الثالثة . وما وقع فى الحرب الكبرى لا يعد شيئا مذكورا بالقياس إلى ما ارتكبته ألمانيا النازية خلال هذه الحرب من ضروب التدمير والسفك التى لم يسمع بها . وقد مضى الشعب الألمانى فى تأييده للعصبة الهتلرية فى كل ما اقترفت ، وآزرها فى نضالها اليائس حتى آخر لحظة . وعلى ذلك فإن هذه النظرية القديمة فى التفرقة بين الشعب الألمانى والدولة الألمانية فى تقدير التبعات لم تجد حظا من القبول .

ومهما اختلفت أشكال الحكم في ألمانيا ، فإن نزعة العدوان عاطفة متأصلة في نفوس الشعب الألماني ، ولم يكن قيام العسكرية بكل ما تعتنقه من المبادئ المنيفة إلا رمزا لميول الشعب الألماني وأمانيه .

وهكذا يعامل الحلفاء الظافرون ألمانيا النازية باعتبارها وحدة متضامنة في التكفير عما ارتكبت . وألمانيا تشعر في محنتها الغامرة بروعة الكارثة التي نزلت بها ، وروعة مايخبئه لها المستقبل القريب . ولقد صرح القواد الألمان الذين وقعوا صك التسليم بأنهم يضعون ألمانيا ومستقبل الشعب الألماني تحت رحمة الظافرين . ومع أن الشروط التي وضعتها الأمم المتحدة لمعاملة ألمانيا المهزومة لم تعرف بعد ، وقد يمضي بعض الوقت قبل أن تبرم بصورة نهائية ، فإنه لا ريب أنها ستكون أفدح وأبعد مدى مما فرضته معاهدة فرساي التي أثبتت التجارب المؤلمة أنها لم تحقق شيئا مما علق عليها .

والآن تحتل الجيوش المتحالفة سائر أراضي الوطن الألماني ، وتبدأ مهمتها الشاقة في حكم ألمانيا المغلوبة المحطمة . وليس من المعروف بعد ما إذا كانت الأمم المتحدة ستبقي على الأميرال دونتز خلف هتلر ؛ وقد أبدى الأميرال نفسه ريبه في مستقبل حكومته ، وصارح الشعب الألماني ، بأن بقاءها مرهون بمشيئة الحلفاء . ولكن الحوادث قد تتمخض في المستقبل القريب عن ظهور قوى سياسية جديدة في ألمانيا المحتلة يمكن أن يركن إليها الحلفاء ، في تأليف حكومة محلية تعمل لضبط الأمن والنظام تحت إشراف سلطات الاحتلال .

ومن الواضح أن سلطات الاحتلال ستعنى قبل كل شيء ، بالعمل على تتبع آثار النظام النازي ومحوها في سائر مناحي الحياة الألمانية العامة والخاصة . وقد أعلن الأميرال دونتز إلغاء الحزب النازي واختفاءه كهيئة من هيئات الدولة الألمانية ، ولكن حل الحزب النازي لا يكفي في القضاء على آثار نظام تغلغل في صميم الحياة الألمانية ، ولا بد من مضي وقت حتى يتم القضاء على آثاره الظاهرة على الأقل . وسوف تشرف سلطات الاحتلال في نفس الوقت على تنفيذ عهد التسليم ، وحل الجيش الألماني ، ونزع سلاح ألمانيا ، وهذه مهمة تستغرق جهدا فادحا .

لقد انتهت الحرب في أوربا ، ولن نسمع بعد شيئا عن تطور المعارك العسكرية ، ولكن بقي علينا أن نرقب سير التطورات السياسية والاجتماعية في ألمانيا والدول المحررة . وسوف تحتل هذه التطورات منذ الآن فصاعدا المقام الأول في الحوادث الأوربية .

محمد عبد الله عنان

أول الواجبات

رفع مستوى المعيشة بهذه البلاد

— ٢ —

وقبل الانتهاء من الصناعات الممكن قيامها وتوسيع إنتاجها بمصر نقرر أنه يمكن إضافة صناعات أخرى بالاستعانة بموارد الطبيعة وبالثروة المعدنية لا تقل قيمتها من خمسة ملايين وثلث المليون تقريبا . من أهمها صناعة السماد وقيمته سنة ١٩٣٦ نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات .

ويلى السماد آلات خفيفة وقطع غيار ومستحضرات طبية وأصباغ وعطور وزجاج وفخار وغيرها ، خصوصا بعد أن أصبحت صناعة تحضير حمض الكبريتيك وغيره من الأحماض ميسرة . ويمكن بالتوسع فيها إغناؤنا من نفقات جلب هذا الحامض الثمين محضراً من الخارج وهي باهظة . وهنا مجال العمل فسيح لمن تخصصوا من شباننا في الكيمياء والهندسة بفروعها . وإذا وجدنا وسيلة لاستخراج الحديد وصناعة الصلب بغير زيادة كبيرة في كميات الفحم التي نستوردها في الظروف العادية ، فإن هذا ييسر استحداث صناعات عديدة أخرى تجتذب عددا كبيراً من الصناع والمهندسين وغيرهم ، وتنقص نحو خمسة ملايين من الجنيهات في قيمة واردات أخرى .

ولن أحاول بطبيعة الحال الحديث عن هذه الوسيلة ، فالحديث عنها للاخصائيين . ولكنى أستطيع القول بأن قوى الكهرباء الحالية بالقاهرة والاسكندرية وغيرهما تتيح الفرصة لادارة كثير من الآلات التي تدار الآن باستخدام الفحم في أعمال السكك الحديدية والمصانع ، فتوفر جزءا منه . وكذلك يمكن استخدام المازوت وغيره من الوقود السائل مايستخرج منه في مصر الآن وفي المستقبل وما يستخرج في البلاد القريبة منا . وبهذا نوفر كمية أخرى من واردات الفحم يمكن استخدامها في الصناعات التي لا يغنى فيها غير الفحم من أنواع الوقود .

التعريفة الجمركية :

لانستطيع في هذا المقام إلا أن نشير بكلمة إلى أهمية تنظيم التعريفة الجمركية ، وقد كثر الكلام عنها في هذه الأيام في مجلسي البرلمان . ففريق يقول بأنه لابد منها لحماية الصناعة القائمة على أسس سليمة من المنافسة الأجنبية حتى لاتقضى عليها واردات الجماعات عالية الكعب في الصناعة . وهـذا الفريق نفسه يستند إلى نفس الأساس للاستعانة بالتعريفة الجمركية في حماية ما تستحدث هنا من صناعات لها في البلاد مايضمن نجاحها وتوطيد أسسها إذا ما أحيطت بالحماية المعقولة وهي في المهد . ويقول فريق آخر إن هذه السياسة تؤدى إلى رفع نفقات المعيشة وتحمل حتما على زيادة أعباء جمهور الأمة فتزداد الحال سوءا .

وعرض المسألة بهذا الوضع لا يعين القارىء على إدراك وجه الصواب في غير عناء . فالقدرة الكلامية والكتابية قد تسعف صاحبها ، ولكنها كثيراً ما تحول دون إيصال الحقيقة إلى المستمعين والقراء . ولهذا فاني سألجأ كعادتي إلى الأرقام .

ومن المعلوم أننا لم نتحرر من قيود التعريفة الجمركية إلا آخر يناير سنة ١٩٣٠ . فماذا أفادت صناعتنا وما مقدار الأعباء التي احتملها الفرد .

في سنة ١٩٢٩ كانت قيمة مااستوردنا من المنسوجات القطنية وحدها ستة ملايين وسبعمائة ألف وأحد عشر ألفا من الجنيهات . وفي سنة ١٩٣٩ بلغت قيمة وارداتنا منها مليونا وسبعمائة ألف وأربعة وتسعين ألفا من الجنيهات . وكانت قيمة الواردات من الزيوت النباتية أربعمائة وأربعة وثمانين ألف جنيه في السنة الأولى ومائة وسبعة وثمانين ألفا في

السنة الأخيرة . ولا ريب في أن الصناعة المحلية نشطت في هذين ، وكان لكثرة الانتاج المحلي أثر في خفض مقدار ما كان يستورد من الخارج . أما مقدار ما احتمله الفرد من سكان مصر في المتوسط من الرسوم الجمركية فكان بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٩ كما يأتي مقدرا بالمليم :

٧٤٢ — ٩٩١ — ٦٨٣ — ٧١٣ — ٨٢١ —
٨٠٤ — ٨٥٤ — ٨٣٩ — ٧٩٠

من هنا يتبين أن أثر الحماية المقررة لا يمكن أن يكون مرهقا للمستهلك . فإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة التي تدعمها الأرقام ، النتيجة الحتمية لانتشار الصناعة ، وهي ارتفاع أجر الصانع ، نسبيا ، وبالتالي ارتفاع مستوى معيشة الصناع وغيرهم من المتصلين بالصناعة وزيادة مقدرتهم الشرائية وأثر هذا في زيادة استهلاك ما ينتجه غيرهم ورواجه وأثر هذا في المنتجين وعمال الانتاج — إذا أضفنا هذا — ثبت أن المخاوف من الحماية المعتدلة مبالغ فيها .

ومع هذا فتنظيم التعريفة الجمركية لا يعني زيادتها على الوارد وخفضها أو إلغاءها من الصادر فقط ، بل قد يكون العكس لازما لتنشيط بعض الصناعات المحلية .

فالصوف الخام ومخلفات الحيوان من جلود وعظام وقرون ودم وشحم تصدر إلى الخارج بكميات وافرة وتعود إلينا واردات مصنوعة . فهذه في رأيي يجب أن تحول التعريفة الجمركية بين خروجها من البلاد بعد أن تمد وسائل تحويلها إلى سلع مصنوعة . ومن أمثلة ما نصدره ونحن في حاجة إليه بذر القطن ، فالمصدرون يجدون من مصلحتهم تصديره ويجدون من يشتريه بأسعار تزيد على ما يعرضه أصحاب معاصر زيت هذا البذر ، فتكون النتيجة أن هؤلاء لا يجدون كفايتهم منه لمعاصرهم طول السنة فيضطرون إلى الاشتغال بعض العام لا كله . ولهذا نضطر إلى استيراد مقادير من الزيت اللازم لصناعة الصابون ولغيرها من الصناعات . فاستخدام التعريفة الجمركية في تنظيم ما يصدر منها يمكن أن يساعد الصناعة المحلية .

هذا الإجراء يثير بطبيعة الحال بعض الناس . لكنه يحقق مصلحة عامة بزيادة عدد الصناع ورفع مستوى عيش عدد من المصريين ، ويؤدي ، مع الزمن ، إلى تقوية أسس صناعات تمتد حتى تستهلك كل الناتج من بذر القطن ، فلا تكون هناك شكوى جدية من منتج بذر القطن أو ممن يتجر به . ومما يحسن خفض رسم استيراده ، القطن الرخيص ، مع أننا ننتج القطن بكميات لا نستهلك منها إلا أقلها . فقد تعرضت صناعة النسيج في مصر لمنافسة حادة بسبب رخص واردات بعض المنسوجات القطنية . ومع أن هذه المنافسة نجد بعضا من الدول المنافسة يمنح إعانات بقصد القضاء على صناعة بلاد أخرى ، فإن رخص القطن الذي تستخدمه من أقوى أسلحتها . وتمكين صناعة نسج القطن بمصر من استيراد القطن الرخيص ، في حدود ترسم بدقة ، يقويها لصمود على الصمود المنافسة . ومنها أيضا خفض رسم استيراد بعض الزيوت اللازمة لصناعة الصابون . فزيت بذر القطن وحده لا يكفي لصناعة الصابون الجيد . وإلى أن نستطيع زيادة ما نزرع من شجر الزيتون ، نرى أن من صالح الصناعة المحلية تشجيع استيراد مثل هذه الزيوت .

وجملة القول في تنظيم التعريفة الجمركية أنه عامل هام في تنشيط الانتاج المحلي ، وأن الحماية المعتدلة لا تضايق المستهلكين بل تساعد على زيادة القدرة الشرائية بوجه عام ، وهي قد تستلزم تشجيع الاستيراد في حالات كما قد تستلزم تقليل الصادرات في حالات أخرى . ولا بد من مراعاة منتهى الدقة والحذر في وضع التعريفة . ولهذا الأمر رجاله . وكل ما يمكن ذكره هنا هو أن الصناعة الجديرة بالحماية هي التي تتوافر لها شروط ثلاثة : الأول أن تكون كل أو جل خاماتها متوفرة في مصر . الثاني أن يكون تصريفها

عمليا مكفولا . الثالث أن يكون العامل القادر ميسورا . وقد رأينا مما تقدم صناعات كثيرة تتوافر لها هذه الشروط ، وقد يكون هناك ما هو أهم منها يمكن أن يدركه رجال الأعمال

التنافس المرتقب :

فى سنة ١٩٣٨ كانت قيم أهم الواردات لنا على الترتيب الآتى منسوبة للألف من قيمة مجموع وارداتنا : بريطانيا ٢٣٠ فألمانيا ١٠٢ فإيطاليا ٨١ فالولايات المتحدة ٦٦ فبلجيكا ولوكسمبرج ٥٦ ثم فرنسا ٥٣ وسيمضى وقت طويل قبل أن يستردما عدا بريطانيا والولايات المتحدة قدرته على الاصدار . فتبقى هاتان الدولتان من أهم عملائنا وسيكون التنافس بينهما بلا ريب ، شديدا لتدعم كل منهما تجارتها مع بلاد الشرق الأوسط عامة ومصر خاصة ، وإن يحول ما بينهما من روابط الصداقة دون هذه المنافسة . فواجب كل منهما أن تسعى لمصلحتها بالطرق المشروعة . ومن واجبنا نحن أن نرعى مصلحتنا أولا وقبل كل شيء غير مقيدين بأى اعتبار . ومن المحقق أنهما أمتان رسخت أقدامهما فى الصناعة . ويجب ألا يكون فى حرصنا على دوام صداقتهما ما يسوقنا إلى مجاملة من أى نوع تكون نتيجتها تضحية مصالحنا فى سبيل مصلحة غيرنا . وخير ما نصنعه أن نتوخى الصراحة فى المؤتمرات الدولية وفى الاتفاقات الخاصة على السواء . ومن حسن الحظ وأمارات التوفيق أن يكون أولو الأمر فينا متنبهين إلى هذا كل التنبه . وما تشكيل وفد مصر إلى مؤتمر سانفرانسسكو إلا دليل من عدة أدلة على اليقظة والاستعداد .

ولست أجد عبارة تبرز مقصدى واضحا جليا خيرا من اقتباس ما نشرته جريدة الأهرام فى يوم ٧ مارس الحالى لخبير أمريكى ولآخر بريطانى ، فيهما إشارة إلى علاقتهما التجارية بنا فى المستقبل .

قال مستر جيمس لاندس : « إن بريطانيـا العظمى والولايات المتحدة قد عملتا على سد النقص الذى حدث فى تجارة منطقة الشرق الأدنى بسبب اختفاء مصادر الواردات سالفة الذكر (يعنى ألمانيا وإيطاليا واليابان وفرنسا) . ونحن فى الوقت الحاضر نمد تلك المنطقة بكميات من البضائع مساوية لما تمدها به بريطانيا العظمى إن لم تكن أكثر منها فى بعض الأحيان . ولكن صادراتنا الآن إلى الشرق الأوسط لا يمكن أن تعد مقياسا لما يمكن أن نصدره إليه « على شريطة أن لا تقام الحواجز أمام صادراتنا » .

إلى أن قال :

ويسعى الشرق الأوسط إلى الأخذ بأسباب الصناعة بعد الحرب . فالأقطاب المصريون مثلا ، يدركون أنه لن يتسنى لمصر أن ترفع مستوى معيشتها إذا ظلت معتمدة على الزراعة وحدها . فمن واجبها أن تتحول إلى اقتصاد نصف صناعى . فإذا نجحوا فى تحقيق هذه الغاية . فإنهم يزيدون « بذلك القدرة الشرائية للرجل المتوسط ويضاعفون بذلك طاقة السوق المصرية » وفيما عدا الاشراف النقدى لا شيء يمنع التجارة الأمريكية من الوصول إلى سوق الشرق الأوسط . وإذا أردنا أن ننتهز الفرص المتاحة لنا فمن الواجب أن نصطنع سياسة اقتصادية حازمة .

على أن مثل هذه السياسة لا تزال تحتاج إلى مزيد من روح التعاون بين رجال الأعمال والحكومة فى أمريكا . فرجال الأعمال فى البلاد الأخرى « يتمتعون بتأييد حكوماتهم » .

وأما الخبير الانجليزى فهو مستر شوماكر ، ويصفونه بأنه خبير عالمى معروف . وما نقلته الأهرام عنه هو بصدد الكلام عن أرصدة الاسترلينى .

ومما قالوا عنه « ويؤكد المستر شوماكر أن استيعاب مصر لهذا الفائض ليس فى ذاته كافيا لتصفية مركز بريطانيا

المعلم ! المعلم !

وضعت الحرب أوزارها فى أوربا . فحمداً لله !

حقاً أن اليابان لا تزال هناك عند الأفق الشرق البعيد ولا تزال المعركة دامية لم تنته بعد إلى نهايتها ، ولكن الإنسانية جديرة بأن تستبشر ، وأن تحمد الله على أن السلام قد عاد إلى جانب من جوانب الأرض ، والحريق إذا أطفئ جانب منه كان الأمل أعظم فى إطفاء الجانب الآخر الذى لا يزال مشتعلا .

لا تزال أمام الإنسانية فواجع أخرى ، ولا تزال دونها كوارث أخرى قبل أن تصل إلى بر السلام . ولا يزال عليها أن تضحى بكثير من الدماء ، ولا يزال عليها أن تبذل كثيراً من الأموال قبل أن يعود إليها الأمن وقبل أن تستطيع أن تستقر لتلعق جراحها . ولكن الحمد لله ! لقد عاد السلام إلى أوربا !

وإن الغد القريب هو اليوم أولى بالتأمل من الأمس الدامى . والأمل اليوم عظيم فى أن الإنسانية سوف تفكر تفكيراً أكثر عدلا ، وأنها سوف تقيم حياتها على نظم أكثر استقراراً بعد أن عانت ما عانته من الشدائد والكوارث فى هذه السنوات الست القاسية . إن المصائب تصهر النفوس وتطهرها ، وليست الأمم إلا مثل الأفراد تنصهر فى كوارثها وتتطهر إذا كانت تلتمس الهداية معتبرة بما كان .

لقد تكلم تشرشل ، وتكلم ترومان عند ما أعلنا للعالم بشرى النصر والسلام . وحسب المرء أن يفتح قلبه إلى أقوالهما لكى يزيد إيماناً بالمستقبل . فإن العداوة الماضية لم تؤثر فى عتافهما عند السلام ، وكانت بهجة النصر فى حديثهما لا يشوبها شىء من شماتة أو تشف أو عزة على إيقاع النكال . إن الإنسانية المسكينة فى حاجة إلى التوجيه . والأمل عظيم فى أن يكون الغد خيراً من الأمس القريب والبعيد .

لقد كان العالم يسير قدما فى سبيله ثم اعتراه رجلان أذاعا فيه روح النضال والعداء . وكانت نتيجة ذلك الروح حرباً شعواء ذهبت بحياة ملايين من الأنفس وملايين الملايين من الأموال . ولا شفاء للعالم بعد هذا النصر العزيز إلا إذا شاع فيه روح آخر غير روح النضال والعداء ، روح المحبة والعدل والحرية والإيثار . إن الدعاية التى بثها موسولينى وهتلر لم تكن سوى اتجاه اندفعا فيه مع فلسفة قاسية تقوم على الأنانية والنضال والعنف . وهى فلسفة طالما ضللت الأفكار وأزاغتها وخدعتها بمظهرها الكاذب . وواجب الإنسانية اليوم أن تنظر إلى فلسفتها فتختار ما تحقق نفعه فى الماضى وما يبشر فى الغد بالسلام . واجبها أن تختار المبادىء الخالدة التى نادت بها المسيحية ونادى بها الإسلام ونادت بها الثورة الفرنسية ونادت بها الثورة المعاصرة ، مبادىء الرحمة والعدل والحرية وأخوة الإنسان .

بوصفها دولة مدينة ، وإن كان بعد وسيلة من وسائل توفية الدين . وإن استيعاب الفائض من وارداتنا قد يقترن أو لا يقترن بحركة إصدار من مصر إلينا .

« ولكن من المحقق أن أى نهضة عامة فى مصر للتقدم الصناعى أو نحوه قد تزيد فى إخلال التوازن أكثر مما يخفف منه ، وهو الاختلال الذى أحدثته ديون بريطانيا غير المألوفة ، إلا إذا تدبرنا هذه المشكلة وحاولنا علاجها » .

هــذا ما أردت اقتباسه من قول خبيرين للدولتين صديقتين وهو فى غنى عن كل تعليق . ولكنه جدير بأن نتدبره وننعم فيه النظر ونستحضره دائماً فى تفكيرنا وأقوالنا وأفعالنا .

(للبحث بقية) محمد عبد البارى

وإذا كنا نقدم هذه الكلمات العامة فإنما نقصد من بعد ذلك أن نتجه إلى قادة الفكر في مصر راجين أن ينتبهوا إلى خطورة المستقبل القريب وأن يجردوا له الهمة، فإن حياة الأجيال المقبلة تتوقف على الخطوات التي يوشك الجيل الحاضر أن يخطوها في مستهل عهد السلام.

فنحن ملزمون بأن نساير العالم وأن نحقق معه الأغراض الإنسانية التي يتجه اليها. يقبل العالم اليوم على عهد تتطلع فيه نفوس البشر جميعا إلى نوع جديد من الحياة، نوع جديد من الحياة التي تقوم في داخل الأمم على العدالة الاجتماعية حتى يكفل لكل الأفراد حظ مناسب من العيش والحرية والأمان، وتقوم الحياة فيه بين الأمم في علاقاتها بعضها ببعض على أساس التعامل الشريف، وترتبط بعضها ببعض ويستند بعضها على بعض ويتعاون بعضها مع بعض. وهذا النوع الجديد من الحياة يتطلب عقلية جديدة غير تلك العقلية القديمة التي أدت إلى النظم الاجتماعية والسياسية والدولية الحالية، وهي النظم التي ظهر أنها لا تؤدي إلا إلى الكوارث والآلام والاضطراب.

فلسنا نغالي إذا نحن قلنا إن مستقبل العالم يتوقف على نجاحه في تكوين العقلية الجديدة للأجيال الناشئة. ومن هنا يتضح لنا أن أملنا الأكبر يجب أن يتعلق بسلامة عقلية الأجيال الناشئة أو بقول آخر أن المستقبل كله يتوقف على هذه المدارس التي ينظر إليها المصريون من خارجها ولا يطيلون التفكير فيها.

لست أريد بهذه المقدمة أن أقول إننا لم ندرك أهمية المدارس من قبل، فإن مصر كانت منذ زمن طويل تعتقد أن حياتها متوقفة على مقدار نجاحها في تربية الأجيال الناشئة. ولكني أقصد معنى آخر وهو أن اتجاهنا إلى إعداد الأجيال الناشئة كان إلى الآن متأثرا بفكرة غير الفكرة التي ينادي بها دعاة الأمل في العهد الجديد.

كانت الفكرة دائما هي أن تربية الأجيال الناشئة أمر لا يحتاج إلى أكثر من دروس تلقى ومدة سنوات قاسية يمضيها التلميذ داخل جدران مدرسة هي أقرب إلى أن تكون حكما محتوما عليه.

وكان المقصود بذلك في نظر الناس هو إعداد الأبناء للحياة بشيء من التضحية، فكانت المدارس في نظرهم إلى الآن ضرورة قاسية يلجأ إليها الآباء لكي يعدوا أبناءهم لمصاعب الحياة وواجباتها.

ولكن الفكرة الجديدة التي ينادي بها دعاة العهد الجديد هي أن الحياة الحالية تحتاج إلى كثير من التعديل والاصلاح، وتحتاج فوق ذلك إلى عقلية مرنة حرة، لا تأخذ الحياة كما تجدها، بل تتفاعل معها وتحولها إلى ما هو خير منها. فالتربية التي نريدها لأجيال المستقبل هي التي تهيئ للابناء، فرصة النمو والحرية والخلق، فرصة التأثير في الحياة وتوجيهها إلى هدف معنوي جديد.

التربية التي نريدها الاجيال المقبلة هي التي تهيئ للابناء فرصة الحياة الحقيقية الحرة، وتسير بهم على طريق التقدم نحو الغايات الانسانية المنشودة: العدالة والحرية والعمل مع الآخرين للخير العام.

وإني أستبيح لنفسي أن أقول إن المدرسة القائمة — لا في مصر وحدها بل في العالم كله — لا تستطيع أن تؤدي إلى هذا القصد الجديد. ولذلك أخذ دعاة الاصلاح في كل مكان ينادون بوجوب الاهتمام بالمدرسة وجعلها في الصف الأول من الاعتبار. وما أجدرنا نحن في مصر أن ننادي بمثل هذا النداء، ففي المدرسة، وفي المدرسة قبل أي ميدان آخر يجب علينا أن نبني المستقبل المنشود.

وهذا يستلزم منا أشياء كثيرة، وليس من الممكن في مثل هذه الكلمة القصيرة أن نحيط بها، فلابد لنا من أن نشير إلى أمر جوهري واحد وهو موقف الدولة من التعليم.

لسنا ننكر أن الدولة تحس حاجة الشعب المصري إلى التعليم، ولسنا ننكر أنها تخصص له من أموالها مقدارا عظيما

كما أننا لا نستطيع أن ننكر التضحيات المالية التى قدمتها راضية لكى تبلغ هذا المقصد . لسنا ننكر هذا كله ، ولكننا مع ذلك نحس إحساساً شديداً بأن شيئاً ما ينقص التعليم .

وقد حاول الكثيرون أن يضعوا أصبعهم على هذا الشيء الذى ينقصه ، ولكننا نعتقد أننا إلى الآن لا نزال حيارى لا ندرك حقيقة الشيء الذى ينقص . فقد جاء وزراء معارف بعضهم بعد بعض وكل منهم يبذل جهده فى اصلاح التعليم على طريقته ويقدم ما يصل اليه اجتهاده واجتهاد معاونيه . وكانوا فى كل مرة يحسبون أنهم قد وضعوا أصبعهم على موضع النقص ، ويجردوا له بكل قوتهم . فاذا بهم بعد حين لا ينتجون إلا عقدة جديدة يضيع إلى جانبها كل جوهر الاصلاح الذى أرادوه . فهل هذا الشيء الذى ينقص التعليم عندنا أخفى من أن تدركه العقول مهما بلغت من الذكاء والتجربة ؟

لا . لا . ليس هذا هو السبب ، فإن الشيء الذى ينقصنا واضح لكل ذى عينين ، وكثيراً ما يتذاكره الناس فيما بينهم عفواً بغير تكلف ، ولكنهم مع ذلك لا يعبأون بأن يجعلوه موضع التفكير الجدى والتنفيذ الجدى .

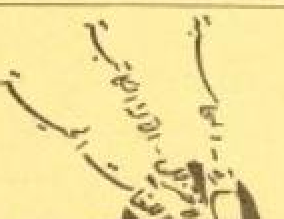
الشيء الذى ينقصنا هو أن نجعل كل اهتمامنا بالمعلم أو على الأقل أن نجعل أكبر اهتمامنا بالمعلم .

نعلم جميعاً أن المعلم هو الحجر الأول فى التعليم . ولسنا نجد أحداً ينكر هذه الحقيقة أو يحاول المجادلة فيها . ومع ذلك فقد كان المعلم هو آخر من تفكر فيه الدولة وآخر من كانت وزارة المعارف نفسها تهتم به . كانت وزارة المعارف مثلا إذا أرادت الاصلاح تقبل على البرامج فتفحصها ، وكانت بين حين وحين تعود اليها فتنقحها وتزيد فيها أو تنقص منها ، وتحسب أن هذا هو الذى يؤدى إلى إصلاح التعليم . هذا ما فعله دولة على ماهر باشا إلى حد كبير عندما كان وزيراً للمعارف ، وهذا هو ما فعله معالى نجيب الهلالى باشا فى وزارته إلى حد كبير أيضاً ، وهذا ما فعله كل وزير تقريباً فى حدود مختلفة . ولسنا نلوم وزراء المعارف على ذلك فانه دليل على نية الاصلاح ، ولكننا مع ذلك لا نتردد فى أن نقول إن هذه المناهج كلها ليست سوى أمور ثانوية جداً إذا قيست بالمعلم نفسه . وقد حاول وزراء آخرون إصلاح نظم الإدارة ، وهذا بغير شك أمر مفيد ، ولكن هذه الإصلاحات جميعاً لا يكون لها قيمة إلا إذا كان الاهتمام يتجه أولا إلى المعلم نفسه . فالمعلم هو الروح الحى فى التعليم فإذا لم يكن روحاً حياً لم يبق للتعليم حياة .

فنحن نطالب وزارة المعارف إذا شاءت أن تؤدى المستقبل خدمة لا تنسى ، وإذا شاءت أن تعد البلاد المستقبل الذى تنشده أمم العالم جميعاً — نطالبها بأن تتجه اتجاهاً جدياً إلى المعلم ، ونطالب الدولة كلها بأن تعين وزارة المعارف على ذلك بأن تحلها من كل قيد ، وتطلقها من هيمنة أية وزارة أخرى ، وإن كانت وزارة المالية ، وتبذل لها من عنايتها ما يمكنها من أن تجعل المعلم روحاً حياً يبعث الحركة فى ناشئة البلاد .

فإذا لم ترد الدولة ذلك ، وإذا لم ترد وزارة المعارف ذلك أو عجزت عنه ، فعليها إذاً أن توفر ما تصرفه على التعليم لكى تصرفه فى باب آخر ، لأن كل صرف على التعليم يكون ضائعاً إذا لم تتجه إلى المعلم أولا .

محمد فريد أبو حديد



رد على تعليق :

الأدب فى السودان ...

تفضلت الثقافة — تشجيعا منهـا — ونشرت لنا كلمة أردنا منها أن نعطى قراء العربية إلمامة يسيرة عن الحياة الأدبية فى بلد نعزه ونكبره ونتمنى أن يشارك فى التراث الإنسانى بنصيب ، وتحدثنا عن التطور التاريخى لمصر الجنوبية معلنين أن الماضى يحمل محله فى سير الأمم والجماعات ، وأن الأمس يحركنا نحو غاياتنا ومثلنا العليا من غير أن نكون شاعرين بهذا إلى حد كبير .

كانت تلك الكلمة المتواضعة مثار تعليق من الأديب محمد عبد الماجد ، الذى تفضلت الثقافة أيضا ونشرت له كلمته فى العدد ٢٩٤ ، والتى جاء فيها . أن الأساتذة عبد الله عبد الرحمن ، وعبد الله البنا ، وعبد الله حسن كردى ، لا يفوتهم يوم تعليم لا يقولون فيـه ، أو مهرجان أدبى لا يقفون على منبره ، أو مسابقة شعرية لايشتركون فيها . وكأنه أراد بهذا أن يثبت أنهم شعراء يجددون بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ولكننا حينما تعرضنا لذكر أسمائهم إنما أردنا أن ندل بادىء ذى بدء على أنهم شعراء ، واعترفنا بأنهم مثقفون وأخذوا من الحيـاة بنصيب وإن كانوا لم يجددوا فى موضوعاتهم الشعرية بما يجارى هذه الحياة . . .

والموازنة لا تصح إلا بين أفراد تعاصروا سوياً فى الزمان ومرت عليهم أحداث من الثقافة والتجربة متماثلة . وقد كانت هذه الموازنة تصدق على وجهها الصحيح إذا ما جئنا بذكر شاعر عاش مع هؤلاء ، فكان علينا أن نعرف الأستاذ صالح عبد القادر الذى عاصرهم فى العهد القديم ثم ما زال معهم فى ركب الحياة وإن كان يسبقهم بتجديده كما ذكرنا فى تلك الكلمة ، ومبلغ التجديد عند الأستاذ صالح أنه قال قبل عشرين عاماً :

اسكب الراح وناول من طلب

وادر كاســك فالدنيـــا طرب

ما علينا إن شربناها وقـد كتب الله علينا ما كتب

وأنت إذا استقصيت ما قاله الأساتذة الآخرون فانك لن تجد بساطة فى التعبير ، وخفة فى أداء المعانى ، وجمالاً فى نقـل الصور النفسية إلى دنيـا الواقع الملموس مثل ما تجدها فى هذين البيتين ، وفى غيرهما من قصائده ، وفى قصيدته « نجوى » التى يقول فيها :

املأ القلب غراماً وهوى وهياماً واشتياقاً وجنون

إنه القلب الذى فيك هوى وتردى فى غيابات الشجون

لم يضق ذرعاً ولم يشـــك الجوى

ماجن يعتقد الحب مجـــون

كلمـــا أمعنت فيــــه كلما

سؤته فيك اعتقـاداً لا يمس

يا خفيف الروح يا حلو اللمـــا

يئست نفسى ولـــا أيأس

وأومن مع الناقد أن شعر كردى كثير الأبيات ، سلس العبارة ، ولكنك لن تجد فيه الإيمان بقيمة الشعر يرسلها الشاعر إرسالاً ، بل تحس وأنت أمامه كأنه يريد أن يملأ الدنيا كلاما ، وحسب الناقد نفسه أن يقف عند قصيدته التى يصف فيها بديع صنع الله ، وأن يقرأ بالتالى قصيدة المرحوم التيجانى يوسف بشير الصوفى العذب . . ليهوله الفارق العظيم حقاً بين قوة التصوير وبراعة الأداء والإيمان بعظمة الله ، وتمثله فى الذرة والنملة ، وليذكر مع التيجانى أن كل ما فى الكون يسرى فى حناياه الإله ، حتى يستطيع أن يدرك من بعدُ أنه قد مضى العهد الذى كانت تقاس فيه العبقرية بما يقدم صاحبها من كم ، وأنه قد انقضى الوقت الذى أصبحت تطرب فيه الإنسانية إلى ما يقدم لها من عبارات وألفاظ ، وأصبحت أوضاع الحياة

كلها تنادى بالتجديد والسموق . . .

نحن الآن — أيها الأخ — ننظر إلى الحيـاة وإلى المثل العليـا من زوايا تختلف جدا عما كان عليه آباؤنا الأقدمون ؛ ذلك لأن روح التجديد وتطورات الحيـاة تغمرنا من كل جانب وجانب . أفليس الأجدر بنا إذاً أن نملى مفتحى النفس لإدراك الشعر وقيمته ، أو لم يكن فينا إذاً أن نملى وأعيننا ناظرة لهذا الجمال الشائع فى أرجاء الـكون ، وأن كل ما فينا يبسم للحياة دائما أبدا ، حتى نستطيع بهذا أن نصل إلى ما نريد ، ثم ألم يأن لنا أن نرى حقيقة الشعر والشاعر كما عبر عنها الأستاذ العقـاد حين قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس
والشاعر الحق بين النـاس رحمن

ونحن إذاً — وبعد هذا — سنكون قادرين أن نملى وفق ماق عمر الإنسان مؤمنين بقيمة تلك المثل ، وهل الحياة — أيها الأخ — إلا تلك اللحظات الروحية التى نحياها ، فنحس فيها بنوع من السعـادة والطمأنينة ونفر من عالم المادة إلى أجواء المثال ، فنخلق لأنفسنا عوالم نهدأ فيها من هجير الواقع الكالح العبوس . وهذه الأجواء التى يجب أن نملى فيها هى إذاً أجواء الفلسفة والفن والشعر . وهل الفنون وأنماط المعرفة إلا هـذا التعبير الصحيح عن خير ما فى الإنسان من رقة ونبل وإحساس ؟ وهل حياة رجال الفكر والفن إلا نوع من التضحية والقلق يدفع بأصحابها للسعى وراء المجهول ، ذلك هو المثال الذى يتصوره أمامه فى كل حين وحين ، ويضحى فى سبيله ويصوره فى لوحة أو قصيدة أو قصة ...

أؤكد لك أنى قرأت كثيراً من شعر مصر الجنوبية قبل أن أكتب كلمتى تلك ، وأؤكد لك أنى لم أجد بين شعراء الشباب غير المرحوم التيجانى وبين شعراء الشيوخ غير الأستاذ صالح ، وأنا إذاً أكثر منك رغبة فى حب الشعر الحقيق الذى نريده ليكون مصورا حقيقيا لتلك الروح التى بدأت تلتمس طريقها لتجده ، فلتمست إذاً مما قرأت أصدق وأعمق ما يدل على تلك الروح ولم تغرنى القصائد الطوال ، ولم أطرب مثلك للمناسبات الكثيرة التى قال فيها شعراء الشباب والشيوخ على السواء ، بل أعد بدورى أن الشاعر الذى يقول لمناسبة تفرض عليـه هو — وايم الحق — شاعر قد أفسدت عليه الحياة الاجتماعية فنه وروحه ومثله الأعلى ، بل يقينى أن الشاعر الحق هو من يقول إرضاء لنفسه ولفنه ولمثله الأعلى الكريم . وهل عيبنا نحن — معشر الشرقيين — إلا أنه يراد منا أن نقول فنلبى النداء !!

ألست يا صاح تجد بعد هذا أن العرب الأقدمين كانوا إذاً أدرك لقيمة الفن حينما كان الشاعر فيهم ينظر فى قصيدته حولا كاملاً من ناحية الصياغة والفن والتعبير . وأن كثيرا منهم كان لا يحنى نفسه وفنه وذوقه إذا مدح الأمير أو صاحب الكلمة عنده ، ومن هنا فقد نعلم أنهم كانوا يعملون للفن ويدركون جلاله الرفيع ...

وإخالك بعـد هـذا تدرك أن للمناسبات أضراراً جمـة ، وأنت إذاً قدر لك الآن أن تنظر فى حياة شابين من شباب مصر الجنوبية لاستطعت أن تلمح البون الشاسع بينهما فى التعبير وإدراك القيم الفنية الرفيعة ، إذا قدر لك أن تنظر فيما أنتجه المرحومان التيجانى يوسف بشير ومحمد عبد الوهاب القاضى لبـان لك الفن على جلاله وصـدقه وعظمته فيما أنتجه التيجانى ، ولأدركت أن الكثرة فى الشعر وفى غيره من المعانى الروحية التى تحتاج إلى روية وصبر وجلد جانية على هذه القيم السامية إلى حد كبير ، ولعرفت عدم الاستواء فى شعر عبد الوهاب رغم نزوحه إلى مصر وتلقيه العلم وأبواب المعرفة المختلفة ، ولـكن التيجانى عبقرى بطبعه . والمى ما حوت نفسه المتوثبة وذوقه المرهف الفنان . بيد أنه استطاع أيضا أن يغترف هذه الألمعية بوثبات من قراءاته الفلسفية المتعددة . .

فكرة الطفـــل
عن العالم الطبيعي

ليس من شك في أن العالم الطبيعي قد استرعى نظر الطفل منذ القدم ، فشغف بحب استطلاع كنهه . ونعني بالعالم الطبيعي تلك الظواهر الطبيعية التي لم تصنعها يد الانسان ، والتي ليس في مقدوره أن يسيطر عليها تحكما ، كالسماء وما وضع فيها من أجرام ، وعلى الأخص الشمس والقمر ، اللذان يتناوبان الليل والنهار ، كأنهما يشرفان على أعمالنا ، وكالرياح الهائجة ، التي يخيل إلى الطفل أن قوتها لا تخضع لقانون ، والجبال الشاهقة التي تبعث في نفسه الروعة والخوف ، والبحار ذات الأمواج المتلاطمة ، التي تتكسر على الشاطئ محدثة ذلك الهدير المتكرر الأبدي ، والأنهار التي لا يقف فيضانها ، والأزهار والأشجار بألوانها المتنوعة الجميلة . تلك كلها عوامل هامة في بيئته ، تقرع سمعه وبصره وكل حواسه وجنانه ، وهو لا بد ملاحظ لها ومهتم باستطلاعها .

ويختلف اهتمام الأطفال باختلاف الفرص التي تسنح لهم لملاحظة تلك الظواهر ، والاندماج فيها . فالطفل الذي يعيش في الريف لديه فرصة أكبر من الذي يعيش في المدن ليخبر الأشجار والأزهار ، ويراقب الأجرام السماوية والأنهار . كما أن الطفل الذي يعيش على ساحل البحر خبرته بالبحار أوسع وأوضح من كل من طفل المدن وطفل الريف ، ولديه فرصة أحسن ليعرف ما إذا كانت الأمواج تحدثها « السفن والمستحمون » أم الرياح . ولقد وجد الأستاذ بياجيه السويسري أن عدداً كبيراً من الأطفال في جنيف يعزون الأمواج في البحيرات السويسرية إلى القوارب والمستحمين .

فهؤلاء الأطفال ، مع كثرة خبرتهم ببحيرة جنيف التي يعيشون على شاطئها ، لم تكن لديهم فكرة واضحة عن سبب ظاهرة الأمواج ، فما بال الذين يعيشون بعيدا عن البحيرات أو البحر ؟ وإن الطفل الذي يعيش في الريف لابد وأنه يعرف ، أحسن من طفل المدن والمواني ، إن كان النهر يستطيع أن يجري من المكان المنخفض إلى المكان العالي أم لا . ولقد أجرينا بحثا على عدد وفير من أطفال المدن ، فأكد لنا كثيرون منهم أن النهر يستطيع أن يفيض من الأمكنة الواطئة إلى العالية . كما أن الطفل الذي يعيش في بلاد جوها جاف ، وسماؤها صافية ، لا بد وأن تؤثر فيه ، فكراً وخيالا ، شمسها الساطعة ، وقمرها الزاهي ، أكثر من الطفل الذي يعيش في بلد ممطر ، سماؤه ملبدة بالغيوم أغلب العام . وليس بعجيب إزاء هذا أن عبد قدماء المصريين الشمس والقمر ؛ ففي بلد كمصر ، سماؤه صافية أغلب العام ، لا يكاد يفوت الإنسان ما للشمس من روعة وجلال ، في شروقها أو غروبها ، وما للقمر من سناء ، حين يبدو زاهياً وسط السماء الصافية ، تحفه النجوم والكواكب .

وإن السجلات التي وردت إلى علماء النفس ، من الأفراد الذين عنوا بتدوين ملاحظاتهم عن الأطفال ،

وأظنك — أخيراً — تدرك معي أن شعر الطبيعة وشعر الغزل ، وكل ما يجيء فيهما من معان توحي للفنان وتلهم العبقري ، هي خير ما يقول فيه الشاعر ، وأن هذه بالتالي لا توحيها مطالب الناس إنما يوحيها مزاج الفنان وإخلاصه لذوقه ، وإعلانه رسالته في الحياة المتجددة نحوه أبدا . . .

فلنكن أيها الزميل حريين بفهم الحضارة ، ولنعمل على إذكاء خير ما فينا من قوى روحية سامية ؛ ذلك لأن الحياة الروحية هي الزاد الذي يقدمه المخلصون من الأبناء إلى من سيخلفونهم من الأجيال . ولتدرك أخيراً قيمة الملهمين من عباقرة الفلسفة والفن والأدب ، فهم خير ما نملك في هذا الوجود . . .

(كلية الآداب) عثمان عيسى شاهين

وما قالوا به من ألفاظ ، التفيض بالأمثلة العديدة ، الدالة على شــدة اهتمام الطفل بالظواهر الطبيعية . وهناك بعض الأمثلة التي سجلتها الآنســة مورس نيس Morse Nice عن طفلة كانت مهتمة بملاحظتها . وهي تقول عنها : إن من أقاربها كثيرين ممن أغرموا بالطبيعة وبالحيــوانات الأليفة ، بينما كان أبوها إخصائياً في التشريح ، وأمها في علم الحياة . ومع ذلك لم يبد على أحد من أهل تلك الطفلة ، ما بدا عليها من شغف بالطبيعة وحب لها . ولقد زادت البيئة التي كانت تعيش فيها في ذلك الحب . وقد دونت ملاحظتين من ملاحظاتها ، ولم تكن قد بلغت الثــالثة بعد ، فقد حدث مساء يوم من الأيام أن تأخرت في الذهاب إلى النوم على غــير عادتها ، ورأت لأول مرة أنوار المدينة في الوادي الذي تطل عليه ، فقالت : « أوه . أنظرى إلى تلك الأنوار الجميلة ! أظنها قطعاً من الشمس » . وعندما كانت في سن الرابعة قالت : « ما الهواء ؟ كيف يصنع الناس الهواء ؟ ما سبب الهواء ؟ » . وعندما كانت في سن السابعة سألت : « كيف تستطيع الملائكة والسبح أن يتنفسوا في السماء على ذلك العلو » . وكانت تظن السماء في كوكب المشترى .

وعندنا مستر أيزا كس يعين لا ينضب من الأمثلة ، وهي التي وقفت ردحاً طويلاً من حياتها لملاحظة الأطفال وتدوين عباراتهم تدويناً دقيقاً في مدرســة مولت هوس وغيرها ، ودونتها في كتابها (النمو العقلي للأطفال الصغار) ، ثم بعثتها في كتبها الأخرى ، مثل (سنوات الطفولة الأولى) و (النمو الاجتماعي للأطفال الصغار) ، ومنهــا نرى غرام الأطفال الصغار وشغفهم بالطبيعة كالأشجار والأزهار التي يسرون بها ويحبون زراعتها وتعهدها وملاحظة نموها .

ولقد زودنا الأستاذ سلى (Sully) بأمثلة قيمة من « مذكرات والد » كان يقيد ملاحظاته عن ولده يوما بيوم ، فيقول : إن الابن والأب كانا يمشيان سويا ذات يوم قافلين إلا المنزل وقت الأصيل ، وقد مالت الشمس إلى الغروب ، فأرسلت حولها أشعة وردية اللون . فأثر ذلك المنظر في الابن (ولم يتعد السادسة) ، وأخــذ يسأل أباه عن بعد الشمس . ولما علم أن السحب ليست جسما صلبا ، بل يمكن اختراقها ، رغب في أن يعرف ماذا في النــاحية الأخرى منها ، وقال : « أهو عالم آخر يأتى مثل عالمنا هذا ؟ » وفي فرصة أخرى ، بعد ذلك اليوم بقليل ، جعل يتحدث عن حجم الشمس ، وقال : « أظن الشمس من الكبر بحيث يمكن وضعها في الناحية الأخرى ، وموازنتها مع الأرض ، لعمل أرجوحة » .

وإنا لنستطيع أن نستمر وقتا طويلا في إيراد أمثلة شائقة لما ذكره الأطفال ، وسجله عليهم الباحثون وعلماء النفس ، ويستطيع القارىء أن يجد منها الشيء الوفير في بعض الكتب التي تعالج سيكولوجية الأطفال .

وما أوردنا تلك الأمثلة إلا لنبين شدة اهتمام الأطفال بالطبيعة ، وضرورة اهتمامنا بتعرف فكرتهم عنها لما عساه يكون من اختلاف بيننا معاشر الكبار وبينهم .

إلا أن تلك الكنوز المضمنة بطون السجلات ، لم تبحث بكل أسف البحث الكافي ، ولم ينتفع بها الانتفاع المطلوب ، سواء في علم النفس أم في علم التربية . ولذا فهي باقية كمجرد تحف فنية ، يعجب الناظر جمالها ، ولا يستطيع أن يستفيد منها أكثر من ذلك . مثلهــا مثل مخلفات المصريين القــدماء ، قبل أن يكتشف سر لغتهم ، وحل طلاسمها التي على مبانيهم وأوراقهم . نقصد بذلك أن تلك السجلات التي أثرت من الأطفال يجب أن تبحث ونستخرج من بطونها قواعد ونظريات تفيدنا معاشر المربين والآباء والأمهات في معاملتنا لهؤلاء الأطفال وتربيتهم وعلاج أخلاقهم ونفوسهم . لقد تقدمت في القرن الحالي نواحٍ عديدة من سيكولوجية الطفولة ، كدراســة اللغة والتفكير والاختبارات العقلية ، وهي مع كونها لم

تصل من التقدم إلى الدرجة التي وصلت اليها العلوم الأخرى كالطبيعة والكيمياء والطب مثلا ، إلا أن كثرة الابحاث التي تظهر كل يوم تبشر بأمل في أنها ، بعد وقت قصير ، سوف تصل إلى درجة محمودة من الرقى .

أما فكرة الطفل عن العالم فقد بقيت إلى الآن أرضا لم يطرقها الرواد . اللهم إلا محاولات فردية ضعيفة غير متواصلة ، بذلت لفهم طبيعة العالم الكائن في عقل الطفل ، أي الصورة الموجودة في عقله عن تلك الظواهر الطبيعية ، والأفكار التي تستثيرها في عقله الصغير . فما هي ، يا ترى ، تلك الصورة التي يحفظها عن القبة السماوية الحائلة التي لا يصل بصره إلى مداها ؟ وما رأيه في الرياح التي تدوى في الليل كالوحش الهائج وتهز الأغصان فتثنيها ثنيا ؟ بل ما رأيه في الرعد ، وكيف يفسره ؟ أفكرته عنه مثل فكرتنا ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يقوله ، ما دام ذلك الموضوع لم يبحث بعد بحثا كافيا . أما إذا اعتبرنا القليل الذي كتب فيه صحيحا ، وهو ما لا نميل إليه كثيرا . فإن طفلنا العزيز لا بد وأنه يعيش في عالم عجيب يختلف كل الاختلاف عن عالمنا الذي نعيش فيه ، عالم لم يتيسر لنا حتى الآن أن ندرك كنهه ، ولم نحاول أن نفعل ذلك أيضا . إن ما ذكرناه ليس إلا طرفا عن ذلك القليل الذي كتب في موضوع فكرة الطفل عن العالم ، ككتابات بياجيه مثلا ، التي لو صحت لاضطررنا حتما لأن نقلب نظرياتنا في التربية ، وكل ما يتعلق بالأطفال ، رأسا على عقب . ولكننا الآن نختم ذلك المقال ببضعة أمثلة أخرى ، تجيب بها عن بعض الأسئلة التي ذكرنا .

لقد أوردنا مثال الطفل الذي يظن السحب كتلة صلبة . وكاتب تلك الأسطر نفسه ، وهو في سن الخامسة ، كان يظن السحب هي الله تعالى ، الذي سمع عنه حينئذ أشياء كثيرة . وفي سن السابعة قيل له في المدرسة إنه كلما ارتفع الانسان اشتدت البرودة ، حتى يتجمد الماء على قمم الجبال . فاستنتج هو أنه السحب لم تكن إلا ثلجا متجمدا . وربما كانت تلك الفكرة الخاطئة راجعة إلى شكل السحب ولونها الأبيض الناصع ، وإلى أنها تشبه كتلا تطفو في الجو ، تتخللها ثغرات من سماء مصر الزرقاء . أما الرعد فلم تكن هناك صعوبة في تفسيره ، لأنه ليس إلا صوت تصادم تلك الكتل الثلجية التي تذوب وتسقط مطرا ، ولم ينتبه قبل الثامنة إلى أن تلك الفكرة مستحيلة ، حين اتضحت له بجلاء استحالة طفو الجليد فوق الهواء ، فسأل معلمه الذي أخبره أنها بخار ماء . أما الرعد فقد بقي لغزا غير مفهوم ، إذ كيف ينشأ من تصادم بخار الماء ، وبقي ذلك اللغز سنتين أخريين قبل أن يفهم .

لا يجب أن نندهش من وجود مثل تلك الفكرة ، فقد أورد سلى أيضا مثالا عن طفل آخر ، كان يفسر الرعد بصوت وقع أقدام الله على أرض السماء . ولقد تبين لنا من البحث الذي أجريناه على الأطفال الإنكليز أن الكثيرين منهم يتصورون السماء ككتلة صلبة ، والشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى مثبتة فيها ، كأنها مرصعة . وهاك بعض إجاباتهم من اختباراتنا التي أعطيت لهم مطبوعة تحريريا :

فلقد قالت طفلة في التاسعة من عمرها إن الشمس تتحرك وتدور مع الدنيا ، وإن « الدنيا تأخذ القمر معها في دورانها » وهي طبعا تقصد « بالدنيا » السماء .

وقال طفل في الثامنة من عمره إن القمر يتحرك مع السماء ، لأنه لا يستطيع الحركة من تلقاء نفسه .

وقال طفل أكثر صراحة وفي العاشرة والنصف من عمره إن الشمس « تسير مع السحب حول العالم » وإن القمر كذلك « يسير مع السحب أربعة عشر يوما حول الأرض » .

فمن تلك الأمثلة يمكن أن ندرك شدة اختلاف فكرة الطفل عن العالم ، بالقياس إلى فكرتنا نحن معاشر الراشدين . وواضح ما لذلك من أثر بين في كيفية فهمه لما نلقيه عليه من دروس أو أحاديث .

رياض محمد عسكر

المـــــوت

« إلى نبيلة . . . »

حين يتقدم الليل ، تتصنعين الرقاد ، هادئة كالعصفور ، يأوى متعبا إلى عشه ، يضم رأسه إلى جناحيه ، ويغمض عينيه ، مستسلما لمشيئة الرحمن ، توهمين أهلك وأعزاءك أنك قد أغفيت — وإن كان رقادك على مضض — لينامو هم بسلام . أهب من سباتي مذعورا ، في بهمة الليل ، والسكون شامل ، وكل ما في الغرفة أشباح غامضة ، فأتبين جسمك الرشيق كالطيف الشفاف ؛ وأجدك قاعدة ، قد انحنى رأسك يكاد يلمس الفراش ، كأنك تسجدين لله ، عسى أن يرحمك ويخفف عنك العذاب ، تمدين في حذر إلى كوب الماء يداً يكاد خاتم العرس القريب يسقط من إصبعها النحيلة . . فإذا ما تلاقت نظرتنا ، تبسمت وعدت إلى رقادك ، تظنين أنى لم أسمع أناتك المكتومة . .

* * *

كنت — لأنك في ميعة الصبا ، ورفاهية من العيش تتوجعين من لسع بعوضة ، فتحملت مبضع الجراح يمزق لحمك بغير مخدر ، وكنت تتأذين من أهون الدواء ، فجرعت أشكالا وألوانا من سموم تهد الجبال ، وأنت صابرة . وكنت تجفلين من منظر (الحقنة) وتحسبين لها حسابا ، فعشت شهورا طويلة وهذه الإبرة الكريهة تلاحقك وتنغرز في عضلك كل ثلاث ساعات مرة ، ليلا ونهارا . . بل لقد رأيتها ذات يوم تغوص في مقلتك ، وأنت لم تقنطي من رحمة الله . وجاء اليوم الذى اضطرب فيه صدرك ، واختنق حلقك ، وتلاحق زفيرك ، وتلجلج لسانك ، فأخذت تسأليني بيدك عن الطبيب متى يأتى ؟ فلما همدت اليد أيضا تشبثت بى عينك تقول : هذه نهاية حياتى ! وكان آخر ما انبعث من حلقك بعد ذلك من أصوات هو أول كلامك وأنت في عالم الأرواح .

* * *

دب إليك الداء ، لا كالحية الرقطاء تغرز أنيابها في حى لتسلها عن ميت ، بل كأفعوان هائل قد انعقد في حلقات متشابكة ، بعضها فوق بعض ، لمسك أول الأمر بذيله فأشلتك اللمسة ونحن لا ندرى ، فلما اطمأن لعجز فريسته أخذ يتلوى ويتماوج ليخلص رأسه متمهلا يسيل لعابه ، متذوقا من قبل اللذة . إذا رأى منك بادرة هروب لمسك من جديد بذيله لمسة رقيقة ، ونحن لا ندرى . وانقضت أيام وأسابيع وشهور طويلة لينفلت رأسه فيقيمه ويصوب إليك عينين كالجمرتين . ما كان أطول عذابك ! أتلوميننا إذا صرخت أنانيتنا اليوم وقلنا : ليتها بقيت مريضة مقعدة ، وظلت بيننا أبدا . .

* * *

وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد إلا طفلتها الرضيعة فها هو ضحكها ينقلب نحيبا لا ينقطع أربعة أيام . من القادم ؟ أيها الإدراك المكنون في جسم رضيع : انطق ولو أهلكك البوح ! ماذا رأيت ؟ والطارق صابر بالباب ، فلما جاءه الإذن دخل علينا ، فانبعثت منها رائحة صلصال مبتل ، لم تره عيوننا ، ولكن أرواحنا شعرت بقدوم ضيف غريب : عليه بشاعة العدم ، وجمال الخلقة الكاملة ، فيه إشراق الحكمة في ذاتها ، وإظلام عبث جدواها ، نحن أيها القادم لا نعرفك إلا باسم واحد ! هو الرعب ! أحنينا أمامه الرءوس ، ووقفنا بين يديه جهلة حائرين . . ودار بينهما كلام أشرق له وجهها ، وطاب حديثها ، ورضيت نفسها . . .

* * *

وخرجنا من حيرة الموت إلى حيرة أشد قسوة : حيرة الحياة . كانت قد ارخت لنا قبضتها قليلا ، فسارعت وشدتها بقوة وجبروت على أولاد لها ضعاف حائرين . . أكلنا . . . وغنا . . وبعد أيام تسربت أول الابتسامات إلى بعض الشفاه الحزينة ! .

يحيى حقى

قصة مراكشية :

عائشة

تطاير الخبر الرهيب فى كل الأرجاء ، ولم تعد هناك قرية بعيدة إلا وقد وصلها أن الجيوش النازية قد اكتسحت مدن مراكش كلها ، وأن القتال قد حمى وطيسه فى شوارعها بين شعب أعزل برىء وجيش مسلح غاشم ؛ فدبت الحمية بين رجال البوادى الذين لم يعرفوا غير الحرية منذ فجر التاريخ وتنافروا للقتال ، وأجمعوا أمرهم على أن يدافعوا عن بلادهم إلى النفس الأخير ؛ فسالت بهم أودية جبال الأطلس ، وسلاحهم من الإيمان أضعاف سلاحهم من الحديد .

كانت القرية التى حدثت فيها قصتنا تقع فى واد مطمئن آمن ، عاشت فى رغد العيش منذ مئات السنين ، وكان الأمر شورى بين رجالها ، لا ينفذ حاكم السلطان إلا ما يبرمون ، وكانت أراضيها خصبة ذات ظلال ومراع وحقول . وكان كل شىء فى هذا الوادى يعبر عن البشر والرضى والاطمئنان ؛ فلم يكن أحد يلتفت إلى هذا الحصن القديم القائم خلفها فوق إحدى الروابى ، لأن القرية لم تهاجم منذ عشرات السنين ، وكان الجنود الشبان الذين يقومون بالحراسة فى هذا الحصن يعتبرون أنفسهم قائمين بوظيفة شرفية أكثر منها عسكرية .

أما شيخ القبيلة أو حاكمها فرجل قد شارف الخمسين ، تسكن وراء أسارير وجهه الشوش روح العدالة والغضب للحق ، وقد كرس حياته كلها فى سبيل مصالح قريته ، فآتت جهوده ثماراً دانية القطوف . كان الشيخ يعيش وحده ، إذ لم يتزوج بعد وفاة قرينته الأولى . وكانت ابنته أقرب الناس إليه فى القرية ، وهى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها . اسمها عائشة ، فى عينيها بريق ، وفى لفتاتها دلال ، وفى محياها سحر يخلب الأبصار . ولما تمت الخطبة بين عائشة وأحد شبان القرية المغاوير ، لم يعد هناك شىء يشغل الحاكم عن رعيته حتى فى أوقات الفراغ .

وفجأة سقط الخبر الرهيب على القرية كما يسقط الحجر الثقيل على صفحة الماء الصافى فإذا هو متطاير مضطرب . وجلست عائشة فى المنزل مساء تنتظر عودة أبيها من مجلس القرية الذى طال اجتماعه ، وهى تفكر : وأخيراً الحرب ! لابد أن يدفعونا إلى الحرب فتحل بنا الكارثة ، وتسقى أراضينا بالدماء ، فيقتل رجالنا ، ونؤسر نحن النساء ، ونساق راسفات فى قيود المهانة والذل إلى معسكرات العدو ؛ وبدأت ترى أحلامها المتفتحة البراقة تضمحل واحدة تلو الأخرى ، كأنها الفقاقيع . ولما تقدم الليل قليلا أقبل أبوها وخطيبها وعلى وجهيهما مسحة من الصرامة والجد .

ماذا ؟ لقد تلقى المجلس الأمر بالدفاع إلى النهاية ، ووافق على ذلك ، فعلى النساء أن يعتصمن بالحصن ، وعلى الرجال أن يمنعوا العدو من الوصول إلى القرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولن يمر يوم أو يومان حتى يصل العدو إلى القرية .

لم يكن الوقت وقت تحسر أو مناقشة أو استفهام ، وإنما كان وقت تنفيذ ، وقد قضت القرية ليلة مضطربة كلها استعداد . فلما انبثق الصباح اعتصم النساء بالحصن ، وانطلق الرجال ليستقبلوا الغزاة .

* * *

ساد القرية صمت عميق فى أول النهار ، ثم بعد ذلك بدأ النساء يتحدثن فى شىء من الاضطراب . وأصواتهن تعبر عن مزيج من الغضب والتحسر ، ثم ساد بينهن الصمت . ماذا ؟ طلقة نارية ثقيلة ، كأنها الرعد البعيد . واستمر الصمت . ثم طلقة أخرى . ثم طلقات البنادق . لقد بدأ القتال . ولكن أليس صوت هذه الحرب غريبا ؟ طلقة واحدة مدوية تغرق فى لججها جلجلة البنادق الضعيفة !

ثم لم يزل الرعد يشتد ويقترب حتى بدأ النساء يبصرن الرجال ينسحبون إلى القرية من جديد ، وبدأ اللهيب والرعد يأخذان القرية من كل مكان .

رجع من بقى من الرجال ؛ وعلى رأسهم الشيخ إلى القرية ، ولكنهم أبوا أن يعتصموا بالحصن لئلا يصاب النساء ، واشتد الصراع بين الفريقين ، وبدأ قتال البنادق ، وسادت الفوضى بين النساء ، فشرعن ينزلن من الحصن ليلحقن بوالد صريع أو زوج يتخبط فى دمائه . وظل القتال سجالا عند مدخل القرية بقية النهار ، فلما أسدل الليل ستاره لجأ الفريقان الى الاستراحة ودفن القتلى والاستعداد للغد . .

ولم تكد شمس الغد تبزغ حتى اشتد القتال من جديد . وكان قاسيا مريراً ، وظل طول النهار قاسيا مريراً ، فلم يستطع أحد الفريقين زحزحة الفريق الثانى عن مكانه . ولكن مع ذلك كان القتلى يكثرون ، وكان كل قتيل من العدو يحل فى مكانه خلف له . أما قتيل القرية فيبقى مكانه شاغرا ، وهكذا بدأ رجالها يقلون ، ثم يزدادون قلة ، إلى أن بدأت القرية الأبية تحتضر ، وتراكت جثث النساء على جثث الرجال ، وأخيراً خمدت أنفاسها ، فاستأنف الجيش الغازى زحفه ، تاركا ثلة صغيرة لاحتلال القرية الهامدة ، قوامها خمسة وعشرون من الجنود .

● ● ●

اصطف هؤلاء الجنود فى صباح اليوم التالى وسار قائدهم فى مقدمتهم ... وقد رفع العلم الفرنسى ليدخل القرية المنهوبة دخول الظافرين ... وبدأت الموسيقى تعزف ... وبدأ الفتح ... وساروا سيرة عسكرية حماسية وهم ينشدون أغنية الظفر إلى أن وصلوا مدخل القرية . . . وبدأوا يدخلون . . .

ولكن كان لا يزال هناك فى القرية شخص حى بين هذه الأنقاض البشرية ! وهو يشرف على هذا المنظر من الحصن . وما كاد القائد الحامل للعلم يقترب من المدخل ، حتى لاحت فوهة بندقية من إحدى الكوات مصوبة إليه . وفجأة قطعت النشيد الحماسى طلقةٌ حادة ، أصابت قلب حامل العلم أعقبتها ثلاث طلقات ، لكل طلقة فريسة . وكانت هذه الطلقات الأربع حادة ، وصارمة وقاتلة ، كما لو كان قد صوبها إليهم قدر محتوم .

إن عائشة فى الحصن ! ولقد رأت بعينيها المرعوبتين أباها يمزقه الرصاص ، وحبيبها يعصف به الموت ، وأقرباءها ذوى القربة يتساقطون رجالا ونساءً دون الحرية والاستقلال ، فمزق الألم أحشاءها حتى قتل فيها الخوف والعطف والتردد ، وتنبهت فيها غرائز الفتك والانتقام والافتراس ، تنبهت فيها وهى تعوى كأنها الذئاب الجائعة .

ورد الجنود على هذه الطلقات بوابل من الرصاص ، بعد أن ظنوا أنهم قد وقعوا فى فخ من مكائد الحرب ! ولكنهم كانوا قد أمروا باحتلال القرية الخاوية فلا محيد لهم من احتلالها . وبدأوا يزحفون من جديد ، ولكن دون علم ولا نشيد . بدأوا يزحفون فى حذر وبطء كما لو كانوا يطأون أراضى ملغومة .

كانت نظرات عائشة متركزة من الكوة فى مدخل القرية ، حتى إن أهدابها الطويلة لم تكن تطرف ، وخصلات شعرها الوكف المتموج فوق خدها الأيمن لم يكن يتحرك ، ولم تكن هى نفسها تشعر مطلقا عما يحيط بها من دماء وأشلاء وأطلال ، وإنما كان كل وجودها متركزاً ومنحصراً فى مدخل القرية .

ولاح الجنود من جديد ، وكادت تطلق النار عليهم ولكنها تريثت إلى أن توسطوا الساحة ولم يصدق استطاعتهم أن يهربوا أو أن يحتموا بشىء ، وكادوا يؤمنون بأن احتلال القرية أصبح مسألة خطوات ، وإذا بالفوهة تصوب إليهم من جديد ، وإذا هم يتساقطون تحت الرصاص كأنهم ذباب ، فقتلت منهم حينما أقبلوا ، وحينما ذعروا ، وحينما فروا ،

وفي جوفها قلب يتجرع النقمة ويلتذ بمرارتها .

ثم بعد ساعة أبصرت اثنين منهم يدلفان نحو الحصن عن شمالها ، ثم التفتت فإذا بها ترى اثنين آخرين يدلفان عن يمينها ، ففهمت أن أحد الجانبين كان يريد أن يشغلها عن الآخر ، ليتمكن أحدهما في النهاية من اقتحام الحصن عليها . ولكنها في لمحة البصر أردت الأربعة مرة واحدة . ولم تكن لتخطئ من تطلق عليه الرصاص منهم ، لا لأنها كانت تحكم إطلاق النار ، ولكن لأن نفسها كانت متركزة في عينيها وعينيها متركزتان في قلوبهم ... وهكذا لم يبق منهم في النهاية إلا واحد .

وقد قضيا بقية اليوم ، وطول اليوم التالي ، يتبادلان الرصاص دون أن ينال أحدهما من الآخر ، إلى أن نفد صبر الجندي وخارت قواه ، فقرر الانسحاب لكي يدبر مكيدة مروعة لمن في الحصن . وافتقدته عائشة ، وخيل إليها أنها رأته ينسحب ، فصعدت إلى سطح الحصن ، وأبصرته فعلا يكاد يختفي عن نظرها وهو يتحامل على نفسه من شدة التعب . فلم تتردد لحظة ، وإنما أسرعت نازلة إلى ساحة القرية متأبطة بندقيتها ومشت بين جثث القتلى وهي لا تستطيع أن تخفض بصرها من شدة الانفعال ، ووجدت خارج القرية جواداً من مخلفات العدو فقفزت على ظهره وانطلقت في أثر الجندي المنسحب من المعركة بأقوى ما تستطيع ، صائحة مدوية كأنها عاصفة من عواصف الحرية .

***

لم تعد عائشة إلى القرية أبداً ، وإنما انطلقت في الجبال والغابات . واختفت عن الأنظار ، فلم يرها بعد ذلك أحد ، ولكن الناس كانوا يعرفون أنها ما تزال حية لأنهم كانوا يسمعون من آن لآخر طلقات بندقيتها ، ويعثرون على صرعاها ، من ذوي القبعات ، في منعطفات الطرق ومكامن الغابات .

واستفاض الحديث عنها في كل مكان إلى أن استحالت إلى فكرة في ضمير الشعب . وكان الرعاة والمسافرون يزعمون أنهم يبصرونها تمرق بين أشجار الغابة فوق ظهر جوادها ، حتى إنه لما وصل الناس خبر مقتلها لم يصدق ذلك منهم أحد ، وما زال رواد غابات مراكش يزعمون أنهم يبصرونها ممتطية صهوة الجواد ، كما كانت يوم فارقت قريتها الخربة . وبدأ ينتشر عنها خبر غريب ، إذ بدأ الناس يفهمون أنها أخذت بثأر أبيها وخطيبها وقريتها ، ولكن عائشة لن تموت إلى أن تأخذ ثأر حريتها ، وللحرية راية ضخمة سوف ترفعها عائشة فوق قمة كل جبل من جبال الأطلس الخالدة .

لقد ألقت اليوم عائشة بندقيتها جانبا ، ولم تعد تسكن الغابة كما كانت من قبل ، وإنما أصبحت تسكن الضمائر . وعندما يهدأ الليل وتلمع النجوم ويسبح العالم في صمت حالم ، يسمع همساتها ملايين من المراكشيين ، وهي تنشد نشيد الحرية في ضمائرهم .

عبد الحميد بن جلون

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

حول مراحل التعليم :

رد على تعقيب

كتبت في العدد ٣٣١ من مجلة الثقافة مقالا عن « مراحل التعليم ومراحل النمو في نظر علم النفس » ، فتشرفني أستاذنا الدكتور الكرداني بك بقراءته والتعقيب عليه ، وكان له على ما كتبت ثلاثة مآخذ ألخصها فيما يأتي :

(١) أنه لا يوافق على الاستنتاج الذي وصلت إليه ويعتقد أن هذا الاستنتاج كان الفرض الأول من المقال . وهذا الاستنتاج هو « أنه من السليم أن يكون هناك للتعليم العام ثلاث مراحل : اثنتان بينهما مرحلة متوسطة . أما المرحلتان فاحداهما قبل العاشرة ، والأخرى بعد الرابعة عشرة ، والمرحلة المتوسطة واقعة بينهما » .

(٢) أن هذا الرأي ليس بجديد فقد نادى به من قبل الأستاذ القباني في محاضراته ، وقد عقب عليه الدكتور الكرداني بك ، ثم رد عليه الأستاذ القباني في حينه .

(٣) أن هذا الرأي ستعترضه في تطبيقه صعوبات عملية جسيمة .

ولم يكن بودي أن أبادر بالرد على هذه المآخذ لولا أن بعضها يتناولني في الصميم ، بل كنت أفضل أن أتابع الكتابة في الموضوع الذي بدأته فأستوفيه ، إذ أنني لم أتناول فيه إلى الآن غير نقطة واحدة .

وأبدأ بالمأخذ الثاني ، وهو أن هذا الرأي ليس بجديد وهذا صحيح، وقد كتبت هذا في مقالي صريحا واضحا وأرجعت فيه الرأي إلى صاحبه . ولكن قلم الرقيب لسبب لا يجهل على تخمينه شاء أن يشطب هذا الجزء من مقالي رغم أنه تركه كما هو في مقال الكرداني بك ومقالي محفوظ في سجلات الثقافة يمكن للأستاذ الكبير أن يطلع عليه ليطمئن على هذه الناحية . وإني أعتقد أن الأستاذ الرقيب سيتركني هذه المرة لأنصف نفسي أمام محكمة القراء .

أما المأخذ الأول وهو أن هذا الاستنتاج هو الفرض الأول من المقال فانني لا أعارض الدكتور الكرداني بك في هذا ، ولا أوافقه عليه . فالغرض الأول من المقال أن هناك قضية معينة (بالمعنى الاصطلاحي في علم المنطق) إراد البرهنة على صحتها أو على عكس ذلك . وعلى هذا سقت بعض الأدلة للبرهان على أنه من السليم أن يكون هناك ثلاث مراحل . وبعبارة أخرى أن هناك من الاعتبارات ما يبرر الأخذ بفكرة هذه المراحل الثلاث . ولا عيب على في هذا ، إذ من الأمور الشائعة في العلوم الرياضية وفي غيرها أن يبدأ الإنسان أحيانا بقضية ليبرهن على صحتها . وقد اعترف الدكتور الكرداني بك في مقاله بأنه يوافق على هذه الأدلة ، ولكنه لا يوافق على النتيجة ، وله في ذلك حجته وهي أن الرأي ستعترضه صعوبات عند التطبيق . وكان كل غرضي من المقال أن أبين سلامة القضية في ضوء ما يقوله علم النفس ، ولم أذكر كما قلت سوى نقطة واحدة وهي تداخل المراحل بعضها في بعض .

فكأن الخلاف ناشيء من صعوبة التطبيق لا من علاقة الرأي بالمقدمات التي سقتها في مقالي لتدعيمه . وهذا كثيرا مايحدث ، فالنتائج التي نصل إليها كثيرا ماتكون سليمة من الناحية « النظرية » فاذا حاولنا تطبيقها اصطدمنا بصعوبات عملية . ولكن لا أعتقد أن أحداً يوافق على أن نتخلص من المبادىء « النظرية » لمجرد صعوبة تطبيقها . وإنما يجب أن نحاول التوفيق بين نظرياتنا وبين ظروفنا . ومحاولة التوفيق هذه يحسن أن تكون على أساس التجريب العلمي المنظم .

على أن الصعوبات التي ذكرها الكرداني بك لا يمكنني أن أتناولها كلها الآن ، فأذكر بعضها على سبيل المثال . فمنها

تكوين الشعب المصرى الجديد

بعد الفتح العربى

— ١ —

كان الجيش العربى الذى قام بفتح مصر يتكون من نحو اثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر فى أفواج كثيرة متتابعة ، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس فى سنة ١٠٩ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولاية الوليد بن رفاعة ، ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام فى الدولة كلها ، إذ كان هشام يرمى إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية . يقول الكندى فى كتابه الولاة والقضاة : إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولى خراج مصر من قبل الخليفة هشام كتب إليه يقول : « إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرّف هذا الحى من قيس ، ونعشهم ، ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنزلها هذا الحى من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام : أنت وذلك » .

وذكر الكندى بعد ذلك أن هشاما أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمائة أهل بيت من بطون قيس المختلفة ، وأوفدها إلى مصر ، فنزلت بالحوف الشرقى حول بلبيس « وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير ، وأكثر وأقل . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشترى المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة فى أعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت ، فمات هشام وببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس » .

واستمر توافد قيس على مصر ، ونزولهم بأرضها طول الفترة الباقية من عصر بنى أمية ، وانتهى عهد الدولة بموت

نظام الاعادة ، ونظام الإعادة هذا نظام فاسد ، ولا يصح أن نتخذه حجة بحال من الأحوال . ولو أن كل تلميذ يتابع نوع التعليم الذى يلائمه ، لما وجدت حاجة إلى الإعادة . أما معرفة استعداد التلميذ لنوع معين دون غيره من أنواع التعليم ، فهذا أمر آخر . وما على أولى الأمر إلا أن يجندوا له الاخصائيين ، وييسروا لهم سبيل تنفيذه على نطاق ضيق حتى يراه الناس مطبقا فيؤمنوا به ، وبذلك يتخذون الخطوات لتنفيذه بالتدرج مع العلم بأن صعوبات عديدة جدا ستواجه مرحلتى التجريب والتعميم .

وصعوبة أخرى تقوم على استحالة التجانس بالدرسة المتوسطة ، وهذه الصعوبة تنشأ من الاحتفاظ بنظام الاعادة ، وفى المراحل الأولى من تطبيق النظام . ونظام كهذا إذا أريد الأخذ به لا يمكن تطبيقه كاملا شاملا فى يوم وليلة . وأغلب المشاكل التى يشير إليها سعادة الكردانى بك ، قد ينشأ بعضها إذا قصد إلى السرعة فى التطبيق وفى المراحل الأولى من التنفيذ .

أما الاعتراض القائم على أنه قد يترتب على هذا النظام خفض مستوى التعليم الأولى فهذا غير صحيح ، إذ المقصود آخر الأمر أن يترتب عليه رفع مستوى التعليم الأولى كله وبالتدرج .

وأرجو أن أتمكن فى الأعداد القادمة من مواصلة مابدأته فى العدد ٣٣١ من هذه المجلة .

عبد العزيز القوصى

مروان بن محمد وعصر « ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم » .

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجراتهم متتابعة متلاحقة ، وخاصة فى عهد الدولة الفاطمية ، فى خلافة المستنصر الفاطمى عظم شأن القبائل العربية النازلة فى جنوب الشام حول غزة ، وكثرت ثوراتهم ، واشتدت وطأتهم على الولاة « فبعث الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن على اليازورى إليهم فى سنة ٤٤٢ هـ يستدعيهم وأقطعهم البحيرة . . . فاتسعت أحوالهم ، وكثر أمرهم ، وعظم شأنهم فى أيام الخلفاء الفاطميين » .

ووفدت فى نفس العهد قبائل أخرى ، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات ، فنقلت الدولة بعضها وخاصة قبيلتى بنى سليم وبنى هلال إلى الوجه القبلى ، وبعد قليل عمل الوزير اليازورى على نقل بنى هلال إلى شمال أفريقية لتأديبهم على إثارة الشغب ، ورغبته فى الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين فى أفريقية .

وقدمت فرق أخرى فى خلافة الفائز الفاطمى ووزارة الصالح طلائع بن رزيك ، ونزلت فى منطقة دمياط والبرلس ، كما نزلت بطون من قبيلة جذام فى منطقة زفتى وميت غمر .

من هذا الإيجاز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى) ، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة بلاد الصعيد ، وانتشرت فى جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها وفى منفلوط وأسيوط والأشمونين وأخميم ، وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وخاصة فى صحراء عيذاب .

وكان العرب فى أول أمرهم جنودا يقومون بالفتوح المجاورة ، أو بالدفاع عن مصر ، وكانت منازلهم فى العاصمة — الفسطاط — أو فى الثغور كدمياط ورشيد والاسكندرية ، أو على الحدود فى الصحراء ؛ فلما كثر عددهم ، وتوالت هجراتهم اشتغلوا أيضا بالرعى على حافتى الوادى ، ثم لم تلبث أن اجتذبتهم الحياة فى وادى النيل نفسه ، فأقبلوا عليه ، واشتغلوا بالزراعة ، واختلطوا بالأهلين .

وظلت للعرب هذه الصفة — صفة الجندية أو الرعى — حتى كان عهد الخليفة العباسى المعتصم ، وكانت أمه تركية ، فاستكثر من الجند الأتراك فى عاصمة الدولة ، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كيدر نصر بن عبد الله ، أمير مصر (٢١٧ — ٢١٩ هـ) وأمره « بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب ، وقطع أعطياتهم ، ففعل ذلك » . ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالى ؛ ولما ولى أحمد بن طولون مصر استكثر من العبيد فى جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام ترك ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق .

وبإسقاط العرب من ديوان الجند ، ومنع عطائهم انتشروا فى أنحاء مصر ، وتم اختلاطهم بالأهالى .

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح . يقول المقريزى فى الخطط : « اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم : أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومى . والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال لهم القبط ، وأنسابهم مختلطة ، لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل من غيره ، وكلهم يعاقبة ؛ فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكية من أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم

حظوظ الأعداد

عند قدماء المصريين

ذكر لنا الأستاذ العلامة أحمد زكي بك في مقاله « حظوظ وحظوظ » بالعدد ٣٠٨ من مجلة الثقافة شيئا عن حظ السبعة والخمسة بين الأعداد . وقد طاب لي — بعد قراءة هذا المقال الممتع — طائف من نصيب هذين العددين عند قدماء المصريين في عهدهم السالف .

فالسبعة كما يقول الأستاذ هي عدد المرات التي يطوفها الطائف بالشيء إذا أراد له تكريما ، وقد ورد في خطاب أمير سوري رفعه إلى الملك امنحتب الثالث ما ترجمته : « سيدي ومليكي ومعبودي وشمسي . أنا خادمك أبي ملكي Abi-milki (أتشرف بأن) أسجد بين قدمي سيدي سبع مرات وسبع مرات أخر ، فأنا الأديم تحت خف سيدي الملك » .

وقد ذكر في المقال السابق أن سنوات يوسف العجاف كانت سبعا . كذلك ورد على الآثار أن فيضان النيـل قد انخفض سبعة أعوام في حكم الملك زوسر ، وقد توسل الملك بالإله خنم وهو إله المنطقة التي ينبع منها النيل لوقف قحط السنين السبع ، فتعطف الإله وأجرى المياه دافقة عالية ، فأمر الملك بوقف كل اقليم الشلال الواقع على ضفتي النيل على هذا الإله اعترافا بفضله ، ويعتبر هذا أول نذر في التاريخ .

وللسبعة غرام صادف قبولا عند قدماء المصريين ، فقد قيل إنهم هم أول من قسم الوقت إلى أسابيع ، وقيل بل البابليون ، وقد استوحوا ذلك من الأجرام السماوية السبعة ، فقد راقبوا الشمس والقمر ينتقلان في منطقة البروج ، ورأوا في أحد البروج جرما لامعا ينتقل من برج إلى برج بحيث لا يتعدى منطقة البروج ، متبعا في سيره سير الشمس والقمر ، وعدوها فوجدوها خمسة اجرام ثم أضافوا إليها الشمس والقمر ، فأصبحت سبعة أجرام سماوية ، اعتبروها عروشا لآلهة سبعة يختص كل إله منها بالإشراف على شئون الأرض في وقت معين ، فكرسوا يوم الجمعة للزهرة ويوم السبت لزحل ويوم الأحد للشمس ويوم الاثنين للقمر ويوم الثلاثاء للمريخ ويوم الأربعاء

ويوجب قتل بعضهم بعضا » .

وقد دارت الحروب بين العرب والروم وقت الفتح ، أما القبط فكانوا عونا للعرب . وبعد الفتح كتب عمرو أمانا لبنيامين بطريرك الأقباط ، فخرج من مخبئه في الصحراء ، وعاد إلى كرسي بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاث عشرة سنة . واعتبر الأقباط أهل ذمة ، وفرض على كل من بلغ الحلم ديناران — عدا النساء والصبية والشيوخ — (وهذا المبلغ يساوي بالعملة الحالية جنيها واحداً وثلاثة وعشرين مليما تبعاً لتقدير لين بول الذي يقول بأن الدينار يساوي ٥١١½ مليما ، أو ١٢٠ قرشاً حسب تقدير الأمير عمر طوسون الذي يرى أن الدينار يساوي ٦٠ قرشا) .

وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أي شكوى نحو قرن من الزمان . فلما فكر بعض ولاة مصر في زيادة مقدار الضريبة ، ولو زيادة طفيفة ، كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة ، وكان الولاة يضطرون إلى إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف . وسنتحدث في مقالنا التالي عن أهم هذه الثورات وأثرها وأثر العوامل المختلفة الأخرى في إدماج الشعبين العربي والقبطي أحدهما في الآخر ، وتكوين الشعب الجديد .

جمال الدين الشيال

المشترى ويوم الخميس لجوبتر . .

ووضعت الشهور القبطية فى أيام حكم الملك امنحتب فرعون مصر ، وخصص أحدها — وهو السابع — لتخليد اسمه وسمى بشهر أمنحتب ، ولا يزال معروفاً باسمه المحرف — برمهات — بين أهالى مصر ، وقد بقى هذا التقويم ثابتاً حتى عام ٣٨٨ بعد الميلاد ، فلحق أسماء الشهور تغيير بعد مذابح دقلديانوس وسمى بعد ذلك بالتقويم القبطى أو تقويم الشهداء .

وقد أكد لنا هيرودوت أبو التاريخ أن المصريين نسبوا كل شهر لإله خاص وتنبأوا بمصير كل فرد من يوم ميلاده ، وقد عثر العلماء منذ سنوات على ورقة بردى يقال لها ورقة ساليه Sallier وتوجد الآن بالمتحف البريطانى بلندن ، يظن أنها كتبت فى عهد الملك رمسيس الثانى ، وفيها أن بعض الأيام والساعات يمن ، وبعضها الآخر شؤم ، فيوم ٧ طوبه «شؤم شؤم شؤم فلا تجتمع فيه بامرأة وقت ظهور القمر ، واحترس فيه من وقوعك فى النار التى توقد فى دارك ، ومن يولد فى ٥ بابه يموت بالحمى أو بالعشق أو بالسكر » .

وذكر على بعض الآثار أن المحكمة فى عهد قدماء المصريين كانت مكونة من سبعة عشر عضواً بينهم سبعة حجاب ! .

وتعتبر الأهرام كما ذكر الدكتور أحمد زكى هى البقية الباقية من عجائب الدنيا السبع .

وقد ورد على بعض الآثار أن الجسم يترك بعد إعداده للتحنيط سبعين يوماً فى مادة النترون قبل أن يلف باللفائف .

وقد ظهرت فى الدولة الحديثة طائفة من المهندسين النوابغ كان على رأسهم المهندس امنحتب الذى ضربت الأمثال به بعد وفاته بألف ومائتى سنة عندما أدمجت حكمه ضمن أمثال « السبعة الرجال العظام » فى العهد اليونانى .

وقد مررت بمعبد الوادى فى منطقة الهرم يوماً فشاهدت البئر التى عثر فيها الأستاذ ماريت على سبعة تماثيل للملك خفرع ، فقلت فى نفسى كما قال الدكتور أحمد زكى بك : ولم سبعة ؟ لم لا تكون هذه التماثيل أكثر أو أقل من ذلك ؟ .

والخمسة هى الأخرى كرامات عند قدماء المصريين لا تقل عن كرامات السبعة ، فقد عثرنا فى بعض المقابر على تمائم كثيرة تمثل أصابع اليد الخمسة .. ولعل هذه التمائم هى الأصل فى (الخمسه وخميسه) التى يلبسها بعض الأطفال عندنا منعاً من الحسد !

ولما كان المصريون هم أول من قسم السنة إلى أشهر متساوية فقد أضافوا إلى نهايتها خمسة أيام تسمى أيام النسىء الخمسة ، قدسوها ، وأقاموها أعياداً متوالية .

وتحدثنا الأخبار بأنه لما عاد الملك تحتمس الثالث إلى طيبة ، منتصراً فى حروبه الطويلة أقام ثلاثة أنواع من « أفراح النصر » مدة كل منها خمسة أيام ، ووافق وقت أحدها ميعاد العيد الخامس لآمون إله البلاد فى ذلك الوقت .

وبعد الأسرة الخامسة أصبح كل فرعون يحمل خمسة ألقاب مختلفة ، وكان لمعبد كل منهم خمس غرف كانت تحفظ بها خمسة تماثيل لعلها كانت تمثل إذ ذاك هذه الألقاب الخمسة .

وحبست على المعابد أوقاف كثيرة ، ولما كثر كهنتها وخدمها قسموهم إلى خمس درجات يشرف عليهم رئيس عام .

وتعتبر (نصوص الأهرام) أقدم مرجع لبحث ديانة قدماء المصريين ومعتقداتهم فى العصور الأولى ، وهى منقوشة على هرم الملك أوناس — وعدد حروف اسمه خمسة ، وهو آخر ملوك الأسرة الخامسة .

ويتلخص اعتقاد قدماء المصريين فى نشأة الكون فى أن هذا الكون كان فى أول الأمر محيطاً واسعاً ظهرت

بين المسموع والمقروء

هـــــــدنة

من أعسر العسر أن يخرج المرء بفكره ، أو يهرب الكاتب بقلمه ، مما حوله من صراخ هذا السلام ، وأنباء هذا الاستسلام .

لقد قضيت السنوات مع من حولى ، أعنى احتفالا بهذا العيد ، وأتصور الأسلوب الذى أقضيه عليه ، وأتخيل كيف أرسل النفس فيه على سجيتها ، وهى من سجيَّة الحيوان ، وآذن لها ان تفور بالذى فيها فوران القردة أطلقت من أقفاصها ، ثم إذا بى أجدنى يوم اعلان هذه الهدنة الرتيبة فى الاسكندرية ، وإذا بى عند صديق . وجاء منتصف الساعة الثامنة ، فأراد الصديق على غير عزم كبير أن تسمع ما قد يقول المذيع ، فأدار مقبض المذياع ، وإذا بنا فى دهشة مما نسمع . فى كلمات قصيرة ، وفى ثوان أقصر ، أنزل الرجل الطيِّب الستار على ستة أعوام من شرّ ما امتُحنت به الدنيا فى عمرها الطويل . وطلبتُ من النفس أن تَرأط ، فوجدتها متخاذلة . وطلبت من القلب أن يفور ، فوجدته فاترا خامدا . وطلبت العهد الذى قطعته بالخروج عن الوعى ساعة ، وطىّ العرف واللياقة حينا ، فوجدتنى أكثر ما أكون بالوعى استمساكا ، وبالعرف واللياقة احتفاظا . أو قلْ لم تكن بى رغبة فى حفظهما أو تضييعهما . لم تكن بى للوعى رغبة فى الخروج عنه أو الدخول فيه . لقد استسلم فكرى عوضا عن ذلك للدهشة المقرونة بانحطاط فى النفس شديد .

هذه هى النهاية التى تشوّقناها وتمنيناها ، فلما حطّت بيننا تقبّلتها النفس بالرضاء الخامد .

وفى الصباح التالى ، صباح الثلاثاء ، نزلت من الفندق أطلب أقرب جريدة أجدها ، فوجدت العربى والأفرنجى ، فجمعت ما وجدت . وعلمتُ من نهمى هذا أن النفس ظاهرة الجمود ، ولكنها جياشة الباطن . وإلا فما معنى شراء أربع جرائد كلها لا شك تحمل معنى واحدا .

وعدتُ إلى الفندق بيضاعتى ، وفى المصعد صحبنى ضابطان انجليزيان . فلما أبصرا ما أحمل ، وعرفا من ذلك فرط اهتمامى على الرغم من برود وجهى وبطء خطوى ، حيَّيانى ، وتسكَّا من الحرب كلمة قصيرة ، أردفها أحدهما بقوله ، فى جد الواجم : نعم كسبنا الحرب ، والآن علينا أن نحارب لنكسب السلم أيضا . فقلت فى نفسى ليت ألفا وألفا من أمثالكما يقولون هذا .

فوقه زهرة .. أو بيضة فى اعتقاد البعض ، ومنها خرجت الشمس التى ولدت أربعة آلهة ، هى شو ، وتفنوت ، وكب ، ونوت ، وعاش هؤلاء الآلهة الخمسة نائمين فوق المحيط مدة حتى توسط كل من شو وتفنوت (اللذين يمثلان الجو) بين كب ونوت . ففصلاهما عن بعضهما ، ووطئا بقدميهما كب .. وهو الأرض ، ورفعا بذراعيهما نوت .. وهى السماء !

ولما اختلت إدارة البلاد نتيجة مباشرة لرد الفعل الذى أحدثته ثورة اخناتون الدينية ، حاول الملك حور محب علاج هذا الاختلال الذى تفشى حتى فى رجال الشرط المعهود إليهم فى حفظ السلام بين الشعب ، حينما اغتصبوا جلود أغنام الملك من الرعاة الذين وكل إليهم أمر الاحتفاظ بهذه الجلود ، فسن حور محب قانونا كانت إحدى فقراته تقول إن « كل شرطى علم عنه أنه دخل المساكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة ، ويجرحه فى خمسة مواضع ... ثم تسترجع منه الجلود المسروقة » .

خالد عيسى درويش

وجاء وقت الغداء . وعلى الغداء سمعنا المذيع الأجنبي يذيع نبأ بأن المستر تشرشل سيقول كلمة فى الساعة الرابعة . وذهبنا للقيلولة . وما كادت تقترب الرابعة حتى هرعنا إلى المذياع .

دخلتُ الحجرة فوجدت جماعة سبقونا إليه : ضابط بحرى عظيم مع زوجه وهى شابة . وفتاة مجنَّدة فى قماشها الكاكى وستة ضباط أو سبعة من ضباط انجلترا ، بعضهم من ضباط الأرض ، وبعضهم من ضباط السماء . وكان فى الجمع الصغير امرأتان أوربيتان من غير الانجليز . وكانت الموسيقى تعزف من لندن عزفاً متواصلا . وعند الساعة الرابعة تماما صاح المذيع اللندنى يقول : هذا رئيس الوزراء !

واستمعنا لكلمة الوزير الانجليزى الذى احتمل من عناء الحرب مالم يحتمله رجل سواه . هذا الرجل الذى ادخرته الأقدار لانجلترا فى يوم محنتها ، يوم لم يكن بين ركبتيها والأرض غير شبر واحد ، فيقوم فى تلك المحنة يبعث الأمل فى قلوب كاد يميتها اليأس ، وليس بين يديه من أسباب الأمل الحاضر غير مدافع عتيقة أخرجها من المتاحف فنشرها على الساحل يخيف بها العدو المتوثب . كل هذا ريثما تستعد المصانع للاخراج ، وتتهيأ المصانع للانتاج . ثم ظل عاما وحده يغالب عدوا قهر الدنيا أو أخافها فلم يبق فى وجهه من عائق .

قام الوزير البريطانى الذى هذه كانت محنته ، وهذا كان اكتواؤه ، قام آخر الأمس يذيع للعالم ، لا « بدء النهاية » ، ولا « نهاية البدء » ، ولكن نهاية النهاية التى ظل يترقبها ، ويترقبها معه العالم ست سنوات .

وكنا نحسب أنها ستكون كلمة طويلة ، فيها الفرح الكثير ، وفيها الغبطة الفياضة ، بل فيها الاشتفاء من العدو على أكل صوره . والاشتفاء ضرورة إنسانية لإحياء الأنفس المريضة عند الغلبة . ولكننا استمعنا بدل كل هذا إلى كلمة قصيرة هادئة خلت حتى مما اعتدنا سماعه من الخطيب فى سنوات الحرب ، من تهكم لاذع ، أو رفع الصوت فى توكيد أمل أو استحثاث همة ، وكان كل ما قاله عن الفرح : إنه يحق لنا فى هذه الساعة أن نفرح قليلا . يحق له ! ! وطلبنا كلمة قاسية مرذولة عن الأعداء فلم نجد شيئا .

فقلت فى نفسى : لو كان هذا الذى يتحدث فلانا أو فلانا لاحترق المذياع مما ينفذ فيه .

وفى ختام هذا الحديث عزفوا نشيد الملك — الملك البريطانى — فوقف الجمع الذى أنا فيه كله . وتحمس بعض الحاضرين فأخذ يتغنى بالنشيد البريطانى على أنغام الموسيقى ، فلم يجد من القوم من يصاحبه ، فوقف غناءَه مبهوتاً . ونظرت إليه فوجدته غير انجليزى . والإنجليز جميعا وقوف صموت لا يلتفتون يمنة أو يسرة ، ولا يهمسون همسة . وعلى وجوههم رجالا ونساء كآبة الموت . فكأنما كانت الساعة للتعزية لا للتهنئة .

وفلتت منى نظرة إلى الفتاة المجنَّدة ، فوجدت بيدها منديلا ، وقد كان ذهب إلى شىء من وجهها الكئيب ثم عاد . وسألت نفسى مسألةَ ذى الفضول : على أى شىء جرت من عينها تلك الدمعات ؟ وحسبت أنها جرت على رجل لن يعود فى العائدين — أب أو أخ أو زوج كان أو يكون ، أو لعلها أم أو أخت ذهبت قديما تحت الأنقاض . أو لعله لا هذا ولا هذا ، وإنما هو تصورها أسرتها التى فرقتها الحوادث فى كل بقعة من بقاع الأرض ، وعبْر البحار وفوق الجبال وفى الأدغال ، وقد اجتمعت كلها إلى مثل منيامها تستمع مع الدنيا إلى الكلمة التى تلم الشمل ، وترأب الصدع ، وتجمع من الأناء المتهشم ما تستطيع جمعه من بقاياه . ولعلها تصورت

صورة الإناء وقت انجباره ، فأخذت تبكى جزءه الذى طاح . والقِدرُ قد تطيح عروتها ، وقد تطيح عند رأسها بعض حافتها ، ثم هى تستطيع مع هذا أن تحمل الماء . ولكنها لا يكون فيها نفع إذا كان الذى طاح من قاعها . وعندئذ تود الأجزاء الباقية كلها لو عادت صلصالا لتكون من جديد شيئا جديدا فيه نفع وله حياة . وخطر لى أن هذه الفتاة ربما بكت لأن هذه الحرب صدعت قدرها ، فخرجت هى منها شقافة لا نفع بها ، ولا جدوى لها ، ولا معنى لوجودها ، إلا أن يرتد الخزف إلى قوامه الرخص القديم ليتشكل شكلا جديدا ، يؤدى فى حياة ما بعد الحرب غرضا فى العيش جديدا . ولكن بقى للفتاة المجندة أن تتساءل على الدمع الجارى : وهل رخص الخزف ويلين من بعد احتراقه واصطباغه ؟؟

وعدت إلى المذيع أستمع للذى يقول .

إنه يقول إنه سيحملنا إلى العاصمة الإنجليزية ، فالعاصمة الاسكتلندية ، ثم إلى عاصمة إرلندة الشمالية ليصف لنا واصف بكل منها ما يجرى فيها .

وحملنا أول ما حمل إلى قصر الملك ، ووصف الواصف الجماهير الغفيرة التى تجمعت حول القصر ، مركز الامبراطورية التى كادت تذهب مع الريح ، ثم أمنتها الأقدار ولم تكد . إنهم عدد الرمال فى الصحراء . وإن فيهم على السرور البادى رزانة لا تخف بهم إلى طرب . وهم توجهوا فى تلك الساعة التى هى أخطر ساعات البلاد إلى الرمز الذى اختاروه ملوما علما على البلاد ، ذلك الملك . وكان الملك قد خرج إلى بعض شرفات القصر هو والملكة والأميرات يحيون الجماهير . ثم قال المذيع : « ودخل رب هذه الأسرة المالكة إلى القصر » . فأعجبنى هذا التعبير أيما إعجاب ، لأنه الصدق الذى لا مرية فيه . فقد صار ملك الإنجليز فى العصور الحاضرة مرادفا للرجل الطيب الذى يقود شعبه إلى الكنيسة فى المآسى ، ويقود شعبه إلى الكنيسة فى الأفراح . ويخرج بهم إلى الملاعب حيث ترقى الأخلاق من جَلَد وتسامح . وهو السبّاق بأسرته عند التضحية ، والضارب المثل بالصبر عند الجزع .

وحملنا المذيع إلى غير لندن من العواصم فكانت كلها مثلا واحدا .

وانقضى النهار ، ودخل الليل . وعدنا إلى المذيع البريطانى نطلب خبرا . فإذا بإنجلترا قد تحولت إلى معبد بعيد الأرجاء واسع الجنبات . فحيثما توجهتَ وجدت صوت قس يذكر الله ، ويشكر الله على ما حباهم من نعمة . وانتصفت العاشرة فأتى كبير قساوستهم يختم الصلوات بموعظة شاملة . وشاقنى من موعظته أنه نسب كل الذى كان فى الحرب إلى الله لا الإنسان . فالله هو الذى امتحنهم ، والله هو الذى صبّرهم ؛ وهم إذ ضربوا العدوّ فأصحروه لم تضربه أيديهم وإنما ضربته يد الله .

لقد تصورت بعض المصريين المستحدثين إلى جانبى يستمع لهذا ، ثم يقول لى : إن هؤلاء القوم أهل خرافة ، وحسبتنى أرد عليه فأقول : وهم على الخرافة التى تذكر أهل مجد أيضا .

وبعد ، فقد ذهبت الحرب فى أوربا ، وجاءت السلم ، وانكشف لنا من الحرب غامضها ، وسينكشف لنا من السلم أغمضها . وتلك الأيام كالكتاب ينطوى صفحةً من بعد صفحة ، فى سرعة لا يزيد فيها بالتلهف إنسان ، ولا يبطئ فيها بقلة المبالاة إنسان . وقد تشوقك الصفحة المطوية حتى يعيل معها صبرك ، ولكنها إذا انكشفت فقدت صفة الإلغاز والإمتاع . وذهب معها التحرق الذى كان لها ، كالميمونة المصورة لا يطلبها طالب بعد عصر . والحياة محتملة على الخير والشر ما بقى فى كتابها صفحات مطوية ستنكشف .

جعل الله شر صفحاتنا الذى فات .

أحمد زكى

المطبوعات الحديثة :

١ – فيلسوف العرب والمعلم الثانى

لمعالى مصطفى عبد الرازق باشا

يبحث فى الكندى والفارابى وابن الهيثم وابن تيمية . نشرته دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى وشركاه .

٢ – أدب الخوارج

للسيدة سهير القلماوى

يبحث فى أدب الخوارج وتاريخهم فى العصر الأموى . طبع بمطبعة لجنة التأليف .

٣ – حدائق السحر فى دقائق الشعر

لرشيد الدين الوطواط

نقله إلى العربية الدكتور ابراهيم أمين الشواربى عن أصله الفارسى مع تعريب مقدماته وتوضيح حواشيه . طبع بمطبعة لجنة التأليف .

٤ – النوم والأرق

للأستاذ أبو مدين الشافعى

يبحث فى عملية النوم وعلله وأسباب الأرق وعلاجه . نشرته مكتبة النهضة المصرية

٥ – الأسرة والمجتمع

للدكتور على عبد الواحد

نشرته الجمعية الفلسفية المصرية وطبعته مكتبة عيسى البابى الحلبى .

٦ – لهب

للأستاذ نذير الحسامى

ديوان شعر طبع بالمطبعة العصرية بدمشق .

٧ – محمد رسول الله

تأليف محمد على الهندى

وترجمة الأستاذ مصطفى فهمى

نشرته لجنة النشر للجامعيين ، والتزمته مكتبة مصر بالفجالة .

٨ – دروس الفلسفة

الجزء الثانى (المنطق)

للأستاذ جميل صليبا

طبع بمطبعة الترقى بدمشق .

٩ – هذا حدث لى

للأستاذ عبد الله حسين

قصص واقعية تتصل بالحياة الاجتماعية والقضائية والسياسية . طبع بمطبعة الشباب الحديثة بمصر .

١٠ – البلاغة العصرية واللغة العربية

للأستاذ سلامه موسى

بحث جديد فى اللغة العربية وأدبها . طبع بالمطبعة العصرية .

١١ – الأطياف الأربعة

للأستاذ سيد قطب وإخوته

نشرته لجنة النشر للجامعيين . ويطلب من مكتبة مصر .

١٢ – اخوان الصفا

للأستاذ عمر فروخ

دراسة تحليلية نقدية لرسائل اخوان الصفا . طبعته مكتبة ميمنة ببيروت .

١٣ – الوعي الجديد

للأستاذ حسين دياب

يبحث في الوظيفة والجاهير والوعي في أسلوب قصصي . طبعته مكتبة مصر .

١٤ – تاريخ الشعر السياسي

إلى منتصف القرن الثاني

للأستاذ أحمد الشايب

طبعته مكتبة النهضة

١٥ – الولايات المتحدة

أرضا وشعبا ودولة

للدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي

طبعته مكتبة النهضة بمصر .

١٦ – الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

تأليف الدكتور زكي حسن

يبحث في مشهوري من قاموا برحلة من المسلمين وجغرافييهم في القرنين الثالث والرابع الهجري . طبع بمطبعة المعارف .

١٧ – الذاكرة والنسيان

تأليف الأستاذ أحمد عطية الله

بحث فيهما من الناحية النظرية والتطبيقية ، وفي الحياة العادية والمرضية . نشرته مكتبة النهضة .

١٨ – ظهر الاسلام

للأستاذ أحمد أمين بك

هو الحلقة الخامسة لفجر الإسلام وضحاه يبحث في الحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري . نشرته لجنة التأليف والترجمة مكتبة النهضة .

١٩ – الجزء الثاني من قصة الأدب في العالم

تأليف الأستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود

يبحث في أدب العالم من بدء النهضة إلى أول القرن التاسع عشر . نشرته لجنة التأليف والترجمة مكتبة النهضة .

٢٠ – سلسلة الفكر الحديث

سلسلة شهرية تصدرها لجنة التأليف . الغرض منها ترجمة عيون الفكر الغربي إلى اللغة العربية ، وقد أخرجت العدد الأول وهو دعائم السلام تأليف الأستاذ « كار » وترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد — التزمتها مكتبة عيسى البابي الحلبي .

(...)

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٣٤ الثلاثاء ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ٢٢ من مايو سنة ١٩٤٥ السنة السابعة

فهرس العـــــدد

معركة السلم

احتلال ألمانيا — حكمته النفسية — أغراضه — مدته —

فترة الانتقال وأساسها — الخطوات العملية

انتهت الحرب الأوروبية فجر يوم الأربعاء ٩ مايو سنة ١٩٤٥ ، يوم أن وقعت ألمانيا وثيقة الاستسلام المطلق ، على أن هزيمة ألمانيا أدت إلى ظهور مشكلات كثيرة تتطلب الحل السريع ، وسيتوقف مصير العالم لأمد طويل ، على حسن تدبير الأقطاب لتلك المشكلات .

***

وأول تلك المشكلات ، التي يضطرم حولها البحث اليوم ، هي مشكلة احتلال ألمانيا ، ذلك الاحتلال الذي نظم أمره أقطاب القرم في مؤتمر يالتا (فبراير سنة ١٩٤٥) بصورة إجمالية ، وقرروا بشأنه ما يأتي :

« وطبقاً للخطة التي اتفق عليها ستحتل قوات كل دولة من الدول الثلاث منطقة منفصلة من ألمانيا ، وهذه الخطة تقضي بإيجاد إدارة ومراقبة متناسقتين بواسطة لجنة مراقبة مركزية قوامها القائد الأعلى لكل دولة من الدول الثلاث ، ومقرها في برلين ، وقد اتفق على أن تدعو الدول الثلاث فرنسا ، إذا كانت ترغب في ذلك ، لأن تأخذ منطقة تحتلها ، وأن تشترك في لجنة المراقبة كعضو رابع . أما حدود المنطقة الفرنسية ، فسيتم الاتفاق عليها بين الحكومات الأربع ذات الشأن بواسطة ممثليها في اللجنة الاستشارية الأوروبية » .

ولقد أراد أقطاب القرم من وراء الاحتلال عاملا نفسانياً فات الحلفاء في الحرب الماضية أن يعالجوه :

ذلك أنه في سنة ١٩١٨ لم يعن الحلفاء باحتلال ألمانيا ، ولا وطئت جيوشهم أراضيها ، ولهذا لم يستطع الشعب الألماني أن يدرك أنه هزم عسكرياً ، وكيف كنت تريد أن يفهم ذلك وهو يرى جيوشه تدق أبواب باريس ؟ وبينما

التاريخ أن قواد الحلفاء كانوا قد أعدوا — فعلا — وثيقة استسلامهم لألمانيا ، ولقد استغل هتلر وعصابته ذلك في إفهام الشعب الألماني أنه لم يهزم ، فلن يهزم ، وأنه إنما طعنه اليهود من الخلف ، فعالج الحلفاء هذا العامل النفساني المختل ، بالإصرار على الاحتلال العسكري حتى ينزع الشعب الألماني من عقله أسطورة أنه « لن يهزم » .

ولكن أقطاب القرم لم يعنوا بتفصيل المسائل التي يقوم عليها الاحتلال والتي تدور حوله ، ولسنا ندري أكان ذلك منهم سهواً ، أم أنهم تركوها — على خطورتها — عامدين ، حتى لا يرتبطوا مقدماً بسياسة قد يجدّ ما يدعو إلى إبدالها

ونرجو ألا يسبق إلى الذهن أن الاحتلال مسألة عسكرية فحسب ، ولكنه إلى ذلك ، بل وقبل ذلك ، مسألة اجتماعية هي في أساسها عمل بناني خطير الشأن ، بعيد الأثر .

وهو إذا كان يقتضي أولاً إبادة القوة الاقتصادية للطبقة العسكرية في ألمانيا بالقضاء على الملكيات الكبيرة للارستقراطية البروسية ، وإذا كان يقتضي إبادة القوة الاقتصادية للممولين ، بالسيطرة على الصناعات الكبرى والمصارف الكبيرة ، وإضافة ملكيتها إلى الدولة ، وإذا كان يقتضي تغييراً شاملا للعلاقات القائمة بين الطبقات المختلفة في ألمانيا ، فإننا ينبغي أن نذكر أنه يقتضي إلى جانب هذه الثورة الاجتماعية إقامة ألمانيا جديدة تحكمها عامة الشعب لصالح الشعب ، ذلك الشعب الذي مقت الحرب ويخشاها ، شأنه في ذلك شأن سائر الشعوب ، على خلاف ما يقرره بعض المتطرفين من الكتاب .

وعلى هذا الأساس ينبغي أن يلقي الحلفاء في أفهام الألمان أنهم لا يقصدون من الاحتلال إجراء تأديبيا ، وإنما هم يتوسلون به إلى تأييد الثورة الاجتماعية الديمقراطية ، وأنه إجراء موقوت بفترة انتقال ، لا أكثر منها ولا أقل .

ولكن إلى أي فترة ينبغي أن يطول الاحتلال بحيث لا يجوز له أن يتجاوزها ؟ إنه لا ينبغي أن يطول إلى أكثر مما يحتاجه لتحقيق أهدافه . وأهدافه ينبغي أن تتركز أساسا في الأخذ بيد ألمانيا في فترة الانتقال . ثم لا مناص لها بعد ذلك من أن تمتد إلى تفصيلات لا تقل عن ذلك أهمية ، كالعمل على توفير الهدوء والنظام مع تكوين إدارة محلية مؤقتة تملك أن تحافظ على الأمن ، والقضاء على النازية أو التحقق من أن الألمان قد قضوا عليها ، وإخلاء سبيل المسجونين السياسيين ، والعمل على توفير الغذاء للسكان ، ومراقبة تسريح القوات وتجريدها ، وتنظيم عودة الأسرى وتبادلهم ، والتعجيل بعودة النظام العادي للعمل ولاقتصاديات السلم ، ومباشرة عمليات نقل السكان ، وتسليم مجرمي الحرب ، إلى غير ذلك .

ولا نستطيع أن نتكهن بالزمن الذي يستغرقه إنجاز هذه المهام ، ولكن ذلك سيتوقف إلى حد كبير على لباقة السلطات العسكرية ، وعلى مبلغ استجابة الألمان للثورة الديمقراطية . ولو سارت الأمور على ما نشتهي ونروم ، فلن تحتاج الأمم المتحدة إلى احتلال أطول من سنتين ، ولو أريدت إطالته إلى أكثر من هذا ، فلا يلزم أن يزيد عن الاحتفاظ ببعض المواقع العسكرية .

على أن المحقق الذي نقطع به من الآن ، أن الاحتلال الطويل يعطل الثورة الديمقراطية المرتقبة ، والتي قلنا إن معاونتها لزام على الدول الظافرة المحتلة . ذلك بأن بقاء جيوش الاحتلال — طويلا — سيمنع أية حكومة ألمانية من اكتساب محبة الشعب واحترامه ، ومن الفوز باحترام الدول الأجنبية ، وسيكون من يحكم تحت مثل هذا الظرف كأنه دارلان ولافال عند الفرنسويين . وسينجم عن ذلك — أردنا أم لم نرد — يقظة الشعور الوطني المتعصب ، وسيعيد التاريخ نفسه في أقل من ربع قرن

وليعتبر الحلفاء في هذا المقام بمصير جمهورية فايمر .

فلقد عاشت تلك الوليدة أربعة عشر عاما ، مريضة ، لقيت خلالها من الحلفاء كل إدلال ، فلم يطقها الشعب الألمانى ، وأصبح قيامها فى نظره مسبة ينبغى أن تزال : لم يزرها وزير بريطانى واحد ، حتى إذا ما ارتقى هتلر الحكم ، مزمجراً ، رأينا إيدن وجون سيمون وتشمبرلين مراتين — فى برختسجادن وميونيخ — وبلاديه يزورون ألمانيا — ثم إيطاليا مجاملة لألمانيا — وكأنهم لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار .

لا تقل إنها أمور تافهة ، ولا تقبل أن يقال لك إن الألمان وحدهم — من دون سائر الشعوب — هم الذين يتأثرون منها .

وينبغى أن تقوم فترة الانتقال على أساس إعطاء فرصة سانحة للديمقراطية ؛ ذلك بأنه حتى ولو قُدِّر للحلفاء أن يوفقوا إلى الرجال الصالحين للحكم من بين الألمان — وتلك مهمة شاقة — فإن هؤلاء الرجال سيعجزون عن كسب ثقة مواطنيهم وولائهم لهم . لقد تعوزهم الوطنية والأمانة ، ولكنهم سيظلون فى أعين الشعب كويسلنجات يعتمدون فى سلطانهم على الحراب الأجنبية .

ولا يصح أن يتوقع الحلفاء إمكان التفاهم مع الصنف الممتاز من الرجال ليحكموا تحت إمرتهم ؛ فذلك مما ترفضه النفوس الأبية . وإنما أغلب الظن — بل قل اليقين — أنهم سيكونون من ذلك النوع الوصولى من الأمعات الذين يتهافتون على كل راغب فى الشراء ما دام يعرض شيئا من المال أو النفوذ الرخيص .

وإذاً فمن الخير أن يحكم الوطن من يختارهم أبناء الوطن ، فهم أدرى من غيرهم بمن يصلح لمهمة الحكم والسلطان .

والخطوات العملية التى ينبغى اتخاذها لتحقيق ذلك الهدف الكبير ، أن يبدأ الحلفاء بتطبيق النظام الدستورى والقانونى لجمهورية فايمر ، مع إجراء التعديلات اللازمة ، حتى تستطيع ألمانيا المحررة الحرة وضع دستور جديد لها .

ولقد أشار فقهاء القانون الدولى العام — تمهيداً لذلك العهد الدستورى الجديد — بأن تستفيد ألمانيـــا من اللامركزية المتأصلة فيها — من قبل الحكم النازى — فتعيد النشاط إلى المجالس البلدية — وهى بالذات عاملة لمدة شهرين أو ثلاثة ، ثم تتشكل مجالس مقاطعات ، تنتخب أعضاءها المجالس البلدية ، ويعقب ذلك مجلس وطنى يتألف من أعضاء انتخبتهم مجالس المقاطعـات . وستكون مهمة ذلك المجلس الوطنى إقامة حكومة وطنيـة موقتة تشرف على انتخابات الجمعية التشريعية ، التى ينبغى أن تعطى لها فرصة مناقشة شروط الصلح ، قبل صياغتها النهائية ، حتى لا تتكرر مأساة فرساى .

وهكذا تنتقل السـلطة — تدرجا — من سلطة الاحتلال إلى الحكومة المحلية ، انتقالا بعيدا عن الطفرة التى تؤذى « الرجل المريض » .

تلك هى النظرة التى ينبغى أن ينظر الحلفاء احتلال ألمانيا على أساسها . فإن فعلوا — وسيفعلون — فالأمل كبير فى مستقبل مزدهر لعالم جديد تحرر من الخوف ، « والخوف هو جماع الاستعبادات » .

سامى عازر جبرائيل

العلم والفلم

ينتهز العلماء كل فرصة تسنح لهم لدراسة جديدة يكسبون بها للعلم خطوات إلى الأمام، ويفتحون بها آفاقاً جديدة للبحث والدرس والتجريب. ومن أظرف ما عثرنا عليه في هذا الصدد ما ورد في مجلة "Endeavour" الإنجليزية بمناسبة فلم حديث طريف أخذ في أحد مستشفيات لندن، فسجل فتحاً جديداً في استخدام الفن السينماتغرافي لتحقيق بعض الأهداف العلمية، والاستجابة لمطالب العلم واحتياجاته. فهو يسجل لأول مرة في التاريخ حركات اللسان عند الإنسان في أثناء الكلام بواسطة الكمرا، ومن ثم كان الفلم على جانب عظيم من الأهمية لا لمجرد ما فيه من ناحية علمية شائقة، بل كذلك لما فيه من معاونة مباشرة في أمور علاج النطق، وقد لقي ترحيباً بنوع خاص من دوائر أسلحة الطيران كوسيلة لعلاج الطيارين الذين تلحقهم إصابات في الوجه، وتقتضي محاولة إعادتهم لحالتهم الطبيعية تعليمهم النطق من جديد تقريباً.

وضع هذا الفلم على أثر عملية جراحية أجريت لمصاب في وجهه واستلزمت قطع جزء من خده كشف من اللسان للعيان، وأظهر حركاته داخل الفم، فسرعان ما اتجهت أفكار الباحثين إلى انتهاز هذه الفرصة النادرة، وأخذ فلم أو شريط سينمائي لحركات لسان هذا الرجل، وهو ينطق بجميع المقاطع والحروف على اختلاف أنواعها، وقد أعدت لهذا الغرض مجموعة وافية من الكلمات والجمل والعبارات التي تستوعب معظم ما في اللغة الإنجليزية من أصوات ومخارج، قام على إعدادها نفر من الإخصائيين النابهين، فجاءت آية في الإحكام وحسن الاختيار.

ولم يكتف العلماء والفنانون الذين قاموا على إخراج الفلم بتسجيل الحركات وحدها، وإنما سجلوا الأصوات أيضاً، أي أنهم أخذوا فلماً ناطقاً حتى يتيسر جعل تحليل حركات اللسان مصحوباً بتحليل الأصوات ذاتها. ومعلوم أن في الاستطاعة عرض الفلم بطريقة بطيئة يكون فيها إبراز وإظهار لتحصيل الحركات، ومثل هذا يشاهد على الشاشة أحياناً في تحليل حركات الملاكمين والسباحين، والحصان وراكبه إذا تعثر الحصان وسقط الراكب، وغير ذلك من المناظر الطريفة الممتعة.

ولما كان اللسان هو العامل الأساسي في إحداث الفروق الصوتية التي تميز الأصوات الدقيقة بعضها عن بعض، فإن دراسة حركاته أثناء الكلام لا غنى عنها لمن يريد أن يفهم الأداة الحركية للكلام فهماً تاماً، ولقد كان للحقائق التي كشف عنها هذا الفلم صدى كبير، وأثارت اهتماماً عظيماً عند كافة العلماء، إذ غيرت من المعتقدات القديمة التقليدية عن مواضع اللسان عند النطق بمختلف الحركات. وقد بين الفلم أن الشكل العام الذي يتشكل به اللسان وحركاته جملة واحدة بالنسبة لتجويف الفم، هي التي تتحكم في نوع الصوت الذي يخرج. وقد كانت هناك سلسلة من الأصوات المتشابهة حسب العلماء أنها تنشأ من خفض طرف مقدمة اللسان، ولكنه تبين من الفلم أن إخراج مختلف أصوات هذه السلسلة يتم عن طريق رفع اللسان عند وسطه (أي جعله على صورة سنام بارز). وكم من مقاطع متشابهة كان يظن أنها تنتج عن حركات للسان متشابهة أيضاً، قد تبين أن بعضها يقتضي إحداث حركة ضئيلة لطرف اللسان، بينما تحتاج شبيهاتها إلى حركات كبيرة للسان كله.

●●●

ولا يزال كثير من المثقفين ينظرون إلى الفلم باعتبار أنه وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية، ولذلك ينتظرون أن تكون الأفلام المتعمدة مما لا يحتاج في تتبعه إلى مجهود عقلي محسوس، ومن ثم لا يترك أثراً يذكر عند مشاهده،

ولا شك في أن نزعة كهذه إن صحت تعتبر عيبا من عيوب الثقافة الحديثة ، من واجب العلم أن يعمل على تلافيه ومعالجة الحال بمجهود إيجابي . على أنه من المشكوك فيه أن هذه النزعة تمثل الواقع الغالب على الناس ، فان نسبة وإن لم تكن كبيرة من رواد السينما ترحب الآن على ما يبدو بالأفلام التي تمد مشاهديها بالمعلومات النافعة ، كما أن المستثمرين من أصحاب السينمات أنفسهم قد أصبحوا يدركون أن هناك حاجة تدعو إلى تضمين برامج العرض عندهم نسبة ما من الأفلام التي يستجيب لها الفهم والذكاء بدلا من الأفلام التي تغزو العواطف وتستجيب لها المشاعر . وإن النجاح الذي صادفه كثير من الأفلام التي تمثل الحقائق والوقائع الصحيحة ، والحوادث التاريخية ، لدليل لا شك فيه على أن الأفلام التعليمية التي تمد مشاهديها بالمعلومات النافعة يصح بل يجب أن يكون لها وجود ، وأن تحتل مكانا هاما في جميع البرامج ، حتى التي يقصد فيها إلى الترفيه عن الجمهور وتسليته .

على أن الذي يؤسف له أنه لم تبذل جهود صادقة ولم تظهر محاولات جدية لاخراج أفلام علمية بالكثرة الوافية تكون على جانب من البساطة ومن التشويق الذي لا بد منهما لجعل الفلم مفهوما بغير كبير عناء ، ومصدرا للمتعة العقلية واللذة الذهنية من جميع أفراد الشعب ومن عشاق السينما وروادها . وذلك لأن إدراك الناس لأهمية الفلم كعامل فعال في بسط العلوم ونشرها لم ينمو وينتشر بسرعة إلا في السنوات القليلة الأخيرة . وقد لقي أثناء الحرب دافعاً وحافزاً قويا لما كانت تدعو اليه الضرورة من آن لآخر من تحذير المحاربين وتعليمهم أو تحذير الجمهور وتعليمه في الشئون المتعلقة بالحركات الحربية ، أو بحماية النفس ، أو بتحسين أمور الحياة ووسائل العيش وتهذيب النفوس وتعليمها وتوفير أسباب سعادتها . ومن أبرز العلامات الدالة على التقدم في هذه الناحية تكاثر الهيئات التي تخرج الأفلام العلمية ، فقد ظهر منها في بريطانيا في إبان الحرب نحو المائة ، وقد تكون منها حديثا اتحاد أهلي واحد كبير .

وإذا أردنا أن نعرف الفلم العلمي قلنا إنه هو الذي يحقق ما يأتي : (١) عرض الظواهر أو الحوادث عرضا واقعيا يسمح بالملاحظة والدراسة (٢) فحص الظواهر أو الحوادث وتفسيرها بكيفية تبرزها وتصورها كأنها جزء من كل متماسك معقول (٣) إظهار أن كل درس وعرض وتفسير كهذا على اعتبار أنه وسيلة لدرس الحقائق وتدبرها أمر يتيسر لكل إنسان استخدامه والاستفادة منه في أن يحيا حياة أرقى وأجدى .

ولقد أبدى أحد المحاضرين القديرين مرة الملاحظة الآتية : إن سر النجاح في المحاضرة يرجع إلى افتراض المحاضر أن مستمعيه ليس لهم أدنى معرفة سالفة بالموضوع الذي يحاضر فيه . وافتراض من هذا النوع لا معدى عنه إذا أريد النجاح للأفلام العلمية التي توضع وتبتكر لرواد السينما من عامة الشعب . فكمية المعلومات التي يتضمنها الفلم يجب أن تختار بقدر وحذر وفطنة ، فيكتفي برسالة قيمة واحدة يضمها الفلم الواحد ، فاذا إذا ضمنّا أن يتفهمها ويهضمها ويتذوقها نسبة كبيرة معقولة من مشاهدي الفلم جاز لنا أن نعتبره ناجحا وأن نهنيء واضعه . وتنشأ إحدى الصعوبات في هذا الصدد من أن رجال العلوم الذين يهتمون باخراج الأفلام قد يعجزون عن إدراك الحقيقة الهامة ، وهي أن المصطلحات والصور والتخيلات العلمية غريبة كل الغرابة وبعيدة إلى حد كبير عن عقل المواطن العادي

***

ويجب أن نؤكد هنا أنه لا يكفي أن يكون غرضنا من الأفلام العلمية حمل الرجل العادي على تقدير ما تستطيع العلوم أن تقدمه من أجله ، فهناك فوق هذا ، الهدف الأسمى الذي هو تبصير العامة بالطريقة العلمية وتقريبها لهم ،

وتعويدهم عليها ، وبث الروح العلمية في نفوسهم ، وهذا الهدف يتحقق بالفلم أسرع وآكد من تحققه بأية وسيلة أخرى . وأثر الفلم عميق بصفة خاصة بالنسبة للصغار والشبان ، فهو يفتح أمامهم أبواب عالم جديد ملىء بالآمال ، ومع ذلك فالأمر حتى بالنسبة لهؤلاء ، لا يخلو من صعوبات ومشكلات . على أننا نزداد علما بالتدريج بما يجب اتباعه وما لا يجب بالنسبة للأفلام البداجوجية .

وتشير كل الدلائل إلى أن الهيئات التعليمية متوثبة لاستغلال الفلم في الأغراض التعليمية إلى أقصى حد بعد الحرب ، ورأينا أن الحماس لهذه الأفلام يجب أن يصحبه الحذر والقدرة على النقد . وسيجد مدرسو العلوم أنفسهم أمام صعوبة ومسئولية كبيرة في الحكم على مختلف أنواع الأفلام العلمية وأيها أنفع وأجدر بالرؤية والتشجيع . وليس هذا بالأمر الهين ، فهو يحتاج إلى اخراج طائفة من الأفلام التمهيدية التجريبية يقوم على وضعها وإخراجها مدرسو العلوم أنفسهم بالاشتراك مع رجال الفن السينمائي . ويجب أن يعقب إخراج هذه الأفلام بحوث تربوية تختبر في خلالها هذه الأفلام في طائفة من المدارس المختلفة وبشتى الطرق لإصدار حكم صحيح لها أو عليها ، ولتوجيه الاخراج في الاتجاه الصحيح المقطوع بفائدته كنتيجة لتلك البحوث .

وما أجدرنا نحن هنا في مصر بأن نعير هذه المسألة شيئا كبيرا من عنايتنا ، ونوجه إليها طائفة ممتازة من رجال التعليم عندنا ، ونعهد لهم سبيل اتقان هذا الفن وندربهم عليه من الناحية السيكلوجية ومن الناحية العملية ، سواء أكان ذلك في اختيار الأفلام أو اخراجها أو اختبار أثرها في النفوس أو طريقة عرضها ، إلى غير ذلك من النقط التي يجب دراستها وبحثها من وجهة نظر الشعب المصري وما يصلح له بصفة خاصة .

* * *

أما في الكليات والجامعات فسيكون للفلم قيمته وأثره المظيم في البحث العلمي وفي التعليم معا . فالأفلام التي تسجل العمليات الطبيعية (كفلم حركة اللسان التي أشرنا إليه في أول المقال) وتسجل كذلك التوضيحات التجريبية إن هي إلا طريقة من الطرق التي تقرب الطلاب إلى أقصى حد من الحقائق المتصلة بموضوعاتهم وتجعلهم متتبعين باستمرار لأحدث التطورات فيها . كما أن الفلم يمكن أن يستخدم في إيضاح التجارب العملية التي تحدث في معامل المصانع على نطاق واسع ، فتثير في نفوس الطلاب اهتماما خاصا حين تبين لهم أن كثيرا مما كان يتراءى لهم في الدراسة العادية ذا صبغة أكاديمية محضة فيه جفاف وثقل ، له تطبيقات عملية محددة في عالم الإنتاج .

وفي مجال البحث العلمي قد ظهرت قيمة الفلم بالفعل ولا سيما فيما يتصل بالدراسة الديناميكية للمادة الحية ؛ فالفلم باعتبار أنه وسيلة للتسجيل الدائم يعيننا على دراسة وتحليل الظواهر التي تحدث في أزمان قصيرة جدا وتتغير أو تتلاشى بسرعة كما قدمنا . فبواسطة الاسراع أو الابطاء في عرض التسجيل نستطيع أن نضمن إدراكا أوفى للعمليات المتصلة التي لا تستطيع العين إدراكها في الطبيعة على حقيقتها نظرا لتغيرها السريع .

ومن المسائل التي درست بنجاح عن طريق السينما الدورة الدموية في الجنين الحي بعد تكوينه وهو في بطن أمه ، وغير ذلك من الظواهر الهامة . وليس من الغريب أن يكون الفلم خادما أمينا مخلصا لعلم الحياة ، فإن نشأته الأولى جاءت عن طريق حب الاستطلاع البيولوجي حين تحكمت الرغبة الملحة سنة ١٨٧٢ في معرفة ما إذا كان الحصان وهو يركض يرفع أرجله الأربع معا في لحظة واحدة من الأرض . وعندئذ صور حصان وهو يركض مسرعا بواسطة ٢٤ آلة فتغرافية على التتابع . وقد تضمنت هذه العملية العنصرين الأساسيين في الفلم : ألا وهما التحليل عن طريق إعداد صور فتغرافية متلاحقة بسرعة منتظمة ، والتركيب المناسب لهذه الصور حتى تعرض على الشاشة كما نراها اليوم .

أحمد عبد المنعم البكري

معرض الفن الشعبي

هو معرض فذ في نوعه ، وأظن أنه أول معرض فني له مثل هذا الطابع الشعبي . وقد أقامه الأستاذ حبيب جورجي المفتش الأول للرسم بوزارة المعارف ، تحت رعاية الأميرة الكريمة شيوه كار ، نصيرة الفن ، هناك في السراي الصغرى بأرض الجمعية الزراعية بالجزيرة .

ولهذا المعرض قصة طريفة لا تخلو من الدلالة . فقد قابلت الأستاذ حبيب جورجي منذ أيام ، وجرى الحديث بيننا في أمور الفن ومكانه من التعليم . وكان الأستاذ يتحدث في حماسة تشبه حماسة الصوفي ، وكانت لغته في الحديث كذلك تشبه لغة الصوفي في أنها لا تفهم بالعقول ، ولذلك كنت أستمع إليه عاطفاً على حماسته ، ولكن عقلي كان لا يفهم كثيراً مما يقول . كان يتحدث مثلاً عن الفن بأنه كامن في النفوس ، وأنه بمثابة « جنين » كامن في « الروح » وأنه (ميراث) منحدر من القرون البعيدة لا يدرك الأفراد وجوده ، وإن كان من السهل نموه وظهوره بغير تعليم وبغير تدخل من الخارج ، وأنه ليس علينا إلا أن نجعل الأفراد ينطلقون في التعبير عما في نفوسهم تعبيراً طبيعياً ، فيبدأون من البداية كما بدأ الفنان الأول في أول محاولاته منذ عهود بعيدة . فإذا ترك الأفراد أحراراً في نموهم فإنهم لا يلبثون أن يصلوا إلى مرتبة الإبداع من تلقاء طبيعتهم .

فكنت أستمع إلى الأستاذ عاطفاً على حماسته ، ولكني لا أكتم أني كنت أخفي في ضميري بسمات تشبه أن تكون بسمات شك وسخرية ، فإني لم أفهم ألفاظه الغامضة : فما هذا الجنين الفني ؟ وما ذلك الميراث المنحدر من القرون ؟ وما ذلك السر الكامن في الروح ؟ كل هذه ألفاظ لم أستطع أن أخرج منها بمعنى محدود ، فأولتها على أنها مجرد دلالة على الحماسة ، ولم أعلق عليها بعد ذلك أهمية . ولكني مع ذلك تلطفت في المناقشة تجملا وتأدبا ، وجاهدت نفسي على أن تمتنع من إظهار الشك والسخرية . ولست من أهل الفن ، فليس من شأني أن أجادل ، وكثيراً ما كان أمثال الأستاذ حبيب من المتحمسين رسل أفكار جديدة لا يحسنون التعبير عنها ويطلعون على العالم أخيراً بكل جديد .

وهكذا تركت الأمر جانباً كما يقولون .

ثم دعاني الأستاذ بعد أيام أخرى إلى زيارة المعرض الذي سماه معرض الفن الشعبي . فذهبت لأرى بعيني ، ولم يخل قلبي من نية التحدي والمجادلة ، وكان أكبر ظني أني لن أرى سوى بعض محاولات تحيطها دعاية عريضة يقصد بها التأثير والطنطنة و « زغللة » العقول . ولكني وقفت أخيراً أمام معروضات (الفن الشعبي) .

هو معرض عجيب فذ في نوعه بغير شك ؛ فالقطع المعروضة فيه من عمل ثلاث فتيات وصبي وهم جميعاً من أهل الريف الذين لم يتلقوا تعليماً في مدارس فنية ، بل إنهم جميعا من الذين لم ينالوا حظاً من التعليم إلا اليسير الذي يتلقونه من معاشرة الأستاذ حبيب .

والفتيات صغيرات السن ، فكبراهن لا تزيد على السادسة عشرة واسمها (سيدة) ، والوسطى لا تزيد على الثالثة عشرة واسمها (سميرة) ، والثالثة لا تزيد على العاشرة واسمها (بدور) . وأما الصبي فإني آسف إذ لم أذكر اسمه .

ولست أدعي أني أعرف كثيراً في شئون الفن . ولست أذكر يوما أني استطعت أن أصنع بيدي شيئاً يقرب من صناعة الفن ، ولكني مع ذلك أحس أني أتحدث هنا عن موضوع هو أقرب إلى أن يكون كشفاً علمياً في التربية . فليس هذا الفن من صنع السادة الذين ذهبوا في البعوث إلى أوربا وكلفوا الدولة ألوف الجنيهات ، بل هم من عامة الشعب وممن لا يعرفون الكبرياء ، بل هم ممن لا يعرفون أنهم من تلك الطائفة التي يسميها الناس طائفة الفنانين . هم من الفلاحين

من أبناء قرية امبابة ، وقد اختارهم الأستاذ حبيب ممن لا يعرفون قراءة ولا كتابة ، ثم تركهم ينطلقون كما قال ، فقطعت كبرى البنات فى طريقها ست سنوات ، وقطعت الوسطى ثلاث سنوات ، وأما الصغرى فقد بدأت منذ عام أو أكثر من العام بقليل .

فهناك فى العرض نموذج من محاولات الفتاة الصغرى فى أول عهدها ، وهى لا تزيد كثيراً على الصور التى يصنعها أبناء الفلاحين بالطين فى أثناء لعبهم بجوار الحقول .

ثم هناك محاولات أخرى تظهر فيها « روح الفن » وهى تتجلى شيئاً بعد شىء ، حتى تصير بعد حين إلى شىء آخر لا يملك الإنسان إلا أن يقف أمامه مشدوهاً . فلو قيل لى إن بعض تلك التماثيل المعروضة فى بهو السراى الصغرى بالجزيرة من صنع المثال مختار أو من صنع غيره من نوابغ أهل الفن لوقفت عدة دقائق مترجحاً عليه خاشعاً أمام آثار نبوغه .

كانت التماثيل الأخيرة آيات فى البراعة والتعبير ، وكان لكل منها فكرة ، ولكل منها طريقة ، وفى كل منها روح . كانت طريقة « سيدة » غير طريقة « صبيرة » ، وكانت طريقة « بدور » تختلف عن طريقتى زميلتيها ، حتى لقد بلغ الأمر إلى أنى كنت لا أجد صعوبة فى تمييز فن الواحدة عن فن الأخرى .

وإنى أعرض هنا صورة واحدة ، لتمثال أبدعته صبيرة ، وهى تكفى للدلالة على المستوى الذى بلغه من الفن هؤلاء الصغار من أبناء فلاحى الريف . هو تمثال امرأة فلاحة تجلس القرفصاء ، وإلى جوارها زميلة من الفلاحات قد وضعت طفلتها فى حجرها . وليس من شك فى أن الناظر إلى ذلك التمثال يذكر الشبه العظيم الذى بينه وبين تماثيل قدماء الفنانين فى أيام الأسرة الثامنة عشرة المصرية .

أليس الأستاذ حبيب على حق فى قوله إن الفن جينيا متحدراً من القرون البعيدة ؟

وهذه صورة أخرى وهى من صنع سيدة ، وتكفى للدلالة على مقدار استعداد تلك الفتاة الفلاحة للإبداع .



نموذج من فن صبيرة



« صورة تمثال من صنع سيدة »

لست أستطيع أن أبلغ فى هذه الكلمة ما أرضاه من التعبير من الإعجاب الذى أحسسته .

ولست أستطيع أن أبين ما داخلنى من الأمل العظيم فى استعداد هؤلاء الفلاحين ، إذا هم وجدوا فرصة الانطلاق.

فتعليم هؤلاء لا يحتاج إلى أكثر من أن ندعهم ينطلقون . وإذا كان الأستاذ حبيب قد برهن على أن الانطلاق يكشف من الجنين الفنى ، فإنى قد أصبحت أقرب إلى اليقين بأن هؤلاء الفلاحين إذا وجدوا فرصة الانطلاق أمكن أن يبلغوا مرتبة النبوغ فى الفكر والذكاء والانتاج .

إن هؤلاء الفلاحين يضمرون أجنة عدة فى أرواحهم ، وليس الجنين الفنى إلاَّ واحداً منها .

لقد برهن الأستاذ حبيب فى هذا المعرض الفذ على حقيقة لم يستطع أن يعبر عنها بألفاظه الغامضة . برهن على أن النبوغ فى الفن لا يحتاج إلى التعليم ، بل يحتاج إلى مجرد الانطلاق تحت إشراف العين الرشدة العاطفة . وما أحرانا فى التعليم كله أن نتنبه إلى هذا المعنى ، فنجعل شعارنا فيه ترك المجال للانطلاق .

ولست أتردد فى أن أرجو كل من تقع عينه على هذه الكلمات أن يكلف نفسه الذهاب إلى معرض الفن الشمسى ، فهناك يستطيع أن يرى إلى أى حد يستطيع أبناء الفلاحين أن يصلوا ، وإلى أى مستوى من النبوغ يمكنهم أن يرتفعوا .

إن فن هؤلاء الفتيات الصغار كشف جديد لا يقل من كشف منجم فنى من أثمن المناجم .

فهناك روح مصر تبدو لمن يحاول الانكار . هناك يمكن أن نفهم كيف استطاع الفنان المصرى القديم أن يبهر العالم عند ما انطلق فى فنه ، وهناك يمكن أن نلمح صورة من ذكاء الفلاحين ، إذا أتيحت له فرصة الانطلاق فى سائر ميادين الذكاء .

ولست أملك فى آخر هذه الكلمة إلاَّ أن أرسل تحية مخلصة إلى الرجل الذى كنت فى أول الأمر أضمر له فى حديثى بسمة العطف الساخرة . أرسل تحيتى إلى حبيب جورجى الفنان الموهوب ، الذى عرف الطريق إلى سر الفن الكمين . إنى أحييك يا حبيب جورجى ، وأحيى تلميذاتك النابغات الفلاحات . ولعل هذه التحية المخلصة تستغفر لى عن البسمات التى كنت أخفيها عنك تأدبا وتجملا ، عند ما كنت لا أقدر على فهم فلسفتك الفنية .

محمد فريد أبو حديد

لهف نفسى . . .

أىُّ معنًى من معانى الحبِّ ذابتْ فيه نفسى
نارُ فى قلبى فأذكى نارَ وجدانى وحسّى
وقمَّصْتُه الرُّوحُ آمالاً على أوكار يأسى
أتراها تبعث الألحانَ من علْوىِّ قدسٍ .. ؟!
أم تراها سكِرتْ من خمرة المعنى بكأسٍ .. ؟!
نغماتٌ كعذارى يتسامرْنَ بهمسٍ
شرَّدَ الإيقاعُ لُبّى فحسبتُ اليوم أمسِ
أنا فى صحوة أحلامى تملّتُ بنفسٍ
يتراءى الحبُّ لى تاجاً على مَفرق رأسى
همْتُ فى دنياه حتى لم أردِّدْ فيه بؤسى
قد كَبَتَ الشجْوُ فى نفسى فلم أعمِدْ ليطرسِ
أرأيتَ الطائرَ المغرِّدَ فى روضٍ وحسٍ .. ؟!
أرأيتَ العازفَ المحزونَ فى ليلة عُرسٍ .. ؟!
آهِ ما أشقى فؤادى بين وجدٍ وتأسٍّ
ويحَه يصبح فى دنيا من الوهم ويُمسى
لهف نفسى لهف نفسى

سيد أحمد

تكوين الشعب المصرى الجديد
بعد الفتح العربى
— ٢ —

ظل الأقباط طول القرن الأول الهجرى يدفعون الضريبة التى فرضت عليهم — كأهل ذمة — دون تذمر أو شكوى، ولكنهم — منذ بدء القرن الثانى — قاموا بثورات مختلفة كان الدافع إليها عوامل مختلفة منها محاولة بعض الولاة زيادة هذه الضريبة :

١ — فى سنة ١٠٥ هـ كان الوالى على مصر الحر ابن يوسف من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، وكان عامل الخراج عبيدالله بن الحبحاب، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطا، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو وتمى وقربيط وطرابية) وعامة الحوف الشرقى، فبعث الحر بن يوسف بأهل الديوان (أى الجند من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين، وكان هذا الانتقاض فى سنة ١٠٧ هـ، وهو أول انتقاض للقبط بعد الفتح العربى

وواضح مما ذكر أن الزيادة كانت فى ضريبة الأرض لاضريبة الرؤوس، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطا على كل دينار، وقد تكون حاجة البلاد دعت إليها، كما أن عامل الخراج ذكر للخليفة أن الأرض تتحمل هذه الزيادة، ولكن مع هذا ثار القبط فى بعض الكور وفى الحوف الشرقى، لأن المسائل المالية كانت دائما فى كل العصور وفى كل البلاد مسائل حساسة تثير شعور الشعوب.

٢ — وكانت فتنة القبط الثانية جزئية أيضا فى بعض بلاد الصعيد، وذلك فى سنة ١٢١ هـ، فى ولاية حنظلة ابن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك يقول الكندى : « ثم انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم فى سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا، وظفر بهم » ولكن الكندى لم يذكر سبب هذه الفتنة، وإن كان المقريزى قد ذكر أن حنظلة عندما أتى مصر واليا المرة الثانية تشدد على النصارى، وزاد فى الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصرانى وسما — صورة أسد — وتتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده ؛ فقد تكون هذه السياسة هى السبب فى قيام هذه الفتنة.

٣ — وفى سنة ١٣٢ هـ هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أمام جيوش العباسيين وفر إلى مصر، وفى مدة وجوده بها ثار بعض القبط برشيد فبعث إليهم مروان عثمان بن أبى نسعة فهزمهم. ولسنا نعرف أيضا سبب هذه الفتنة، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التى صاحبت زوال دولة بنى أمية وبدء الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة.

٤ — وفى سنة ١٣٥ هـ — فى ولاية أبى عون من قبل العباسيين — « خرج أبو مينا القبطى بسمنود، فبعث اليه (أبوعون) بعبد الرحمن بن عتبة فقتل أبومينا». وليس فى المراجع تعريف بشخصية أبى مينا هذا، ولا ذكر لأسباب خروجه.

٥ — وفى سنة ١٥٠ هـ، فى ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤ — ١٥٢) من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، خرج القبط بمدينة سخا، وانضم اليهم أهالى البلاد المجاورة، فأرسل اليهم يزيد فرقة من أهل الديوان، ولكن يبدو أن هذه الفتنة كانت قوية فقد قتل فى المعركة بعض قواد العرب، وجرح البعض الآخر « وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين »

٦ — وفى سنة ١٥٦ هـ، وفى ولاية موسى بن على على مصر من قبل أبى جعفر المنصور خرجت القبط ببلهيب، فأرسل اليهم الوالى جندا هزموهم.

٧ — وفى سنة ٢١٦ هـ، فى ولاية عيسى بن منصور

على مصر من قبل الخليفة المأمون ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحرى) جميعا — عربا وقبطا — ، وكان سبب هذه الثورة كما يذكره الكندى (سوء سيرة العمال فيهم) وبذل الوالى عيسى بن منصور والقائد العباسى الأفشين جهدهما لإخضاع هذه الثورة التى ظلت قائمة نحو ثمانية شهور — من جمادى الأولى إلى ذى الحجة — حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتى إلى مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة فأخضعها ، وعاقب كلا من الحاكم والمحكومين بما يستحق . أما الوالى عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون ، وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد » . أما ابن عبيدس الفهرى قائد الثورة من العرب فقد فر إلى الصعيد فظفر به وقتل . وأما الثائرون من الأقباط (فنزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم بقتل الرجال ، وبيع النساء والأطفال فبيعوا ، وسبى أكثرهم ..) ، يقول المقريزى : « ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامة القرى ، فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين ، وعملوا كتاب الخراج ، فكانت لهم والمسلمين أخبار كثيرة .. »

هذا موجز لأهم الثورات التى قام بها الأقباط فى القرن الثانى للهجرة ، وقد أخضعت كلها القوة . وكان من أهم نتائجها جميعا أن اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة — رغبة أو رهبة .

وكان من الطبيعى — وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما فى الآخر — أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم . وظل انتشار اللغة العربية بطيئا طول القرن الهجرى الأول ، وقبيل نهاية هذا القرن أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) — وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين « فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية[(١)] » .

ففى القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية ، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ، ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها باللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م) كما يرجع تاريخ ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) . أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربيـة فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) .

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية فى الدواوين ، والتحدث بالقبطية بين عامة الناس ، إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية ، ظل هذا التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ، ولا يفهمون القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماما ، بل لقد ظلت موجودة ، بدليل ما يذكره المقريزى من أن الخليفة المأمون كان يتنقل فى ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه ، وما يذكره المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحيى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية .

ولا يفوتنـا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية فى هـــذا العهد الأول — عهد الاختلاط . يذكر الكندى أن القــاضى خير بن نعيم (ولى القضاء من ١٢٠ — ١٢٧) كان « يسمع كلام القبط بلغتهم ، ويخاطبهم بها » ؛ وذكر البلوى فى كتابه « سيرة أحمد

(١) الكندى ، ص ٥٨ ، ٥٩ . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية ، مادتى (ديوان) و (قبط) أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية ، وهو الأصح .

ابن طولون» أن ابن طولون تغير على أحد رجاله ففر منه، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته فى طلبه، وأوصاه أن لا يبحث عنه فى داره بالفسطاط، ولا فى ضيعته، بل أمره أن يبحث عنه فى « الحيارات وعند النصارى . . . لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها » .

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التى انتهت بتكوين الشعب المصرى الجديد فى العصور الوسطى فى النقط الآتية :

١ — تميز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة، وكانت أكبرها هجرة القبائل القيسية من ١٠٩ إلى ١٣٢ هـ (أى من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد)، وقبيل نهاية هذا القرن أيضاً (٨٧ هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية إلى العربية .

٢ — ويتميز القرن الثانى بثورات الأقباط المختلفة (من ١٠٥ — ٢١٦ هـ) وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط فى الإسلام .

٣ — وفى القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند، ومنعت أعطياتهم، فانتشروا فى القرى المصرية واشتغلوا بالزراعة، وتزوجوا من المصريات ؛ ففى هذا هذا القرن تم امتزاج الشعبين .

٤ — ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان فى مصر شعب جديد — هو خليط من الشعبين العربى والقبطى، يدين معظمه بالدين الاسلامى، ويتكلم السواد الأعظم منه مسلمين وأقباطاً — اللغة العربية .

ونستطيع أخيراً أن نفسر اندماج الأقباط فى العرب واعتناقهم للإسلام بالأسباب الآتية :

١ — يقول ابن خلدون « المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب»، وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها فى تاريخ الشعوب المختلفة، فليس من البعيد إذاً أن يفكر بعض الأقباط فى اعتناق الدين الإسلامى — دين الدولة الحاكمة — رغبة فى أن ترتفع مكانتهم، ويسهل اتصالهم برجال الدولة، ويتمتعوا بما يتمتع به المسلمون من مركز ممتاز ؛ ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام، بل تغالوا فادعوا النسب العربى، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب. ذكر الكندى أن جماعة من القبط يسمون بأهل الحرس سعوا لدى قاضى مصر عبد الرحمن بن عبد الله العمرى (١٨٥ — ١٩٤) ليسجل لهم سجلا بإثبات أنسابهم، ودفعوا له ستة آلاف دينار، فرفع العمرى الأمر إلى الخليفة الرشيد، وسافر رجلان من أهل الحرس إلى بغداد وأنفقا هناك مالا كثيراً، وادعيا هناك أنهم ينتسبون إلى حوتكة بن الحاف بن قضاعة . وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد، وولى الخلافة ابنه الأمين، فرفعوا إليه قضيتهم، وأيدهم فى دعواهم جماعة من أهل الحوف الشرقى وبادية الشام، ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمرى بالتسجيل لهم ففعل .

وقد ثار المجتمع العربى فى الفسطاط لهذه القضية، وأعلن عن غضبه على القاضى العمرى فى شعر كثير ينتقد فيه حكم هذا القاضى، ويطعن فى قضاياه . ولم تهدأ ثائرتهم حتى عزل العمرى عن قضاء مصر، ووليه هاشم بن أبى بكر البكرى (١٩٤ — ١٩٦) من قبل الأمين أيضاً، وسافر وفد من العرب إلى بغداد للطعن فى حكم العمرى، ونسبة أهل الحرس للعرب، « فكتب محمد الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنع أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم » فدعا البكرى أهل الحرس، وطلب منهم سجل قضيتهم الذى أثبت فيه العمرى أنسابهم، ثم أخرج مقراضاً من تحت مصلاه، فقطع السجل به، وقال لهم : « العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض، إن كنتم عرباً فليس بنازعكم أحد . . »

٢ — كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغيرة

حول ترجمة

خير الدين باشا التونسى

من المعروف عند الباحثين مبلغ استبسال القوقاسيين فى الدفاع عن وطنهم العزيز فى القرن السابق الهجرى حينما اندلعت نيران مدافع الروس وقنابلها وبنادقها ، تلتهمهم من كل جانب وتحصدهم حصداً ، بدون أدنى شفقة ولا مرحمة — بعد تخلى العثمانيين عنهم متخمين بعهد — واستمرارهم على الاستماتة فى الذب عن كيانهم بكل بطولة مدة نصف قرن من سنة (١٢٣٠ هـ) إلى سنة (١٢٨٠ هـ) . وإبداؤهم خوارق فى الاستبسال فى ذلك الكفاح الذى قرر مصيرهم مما سجل التاريخ لهذه الأمة الباسلة من مفاخر خالدة فى ساحات البطولة والكفاح .

وفى أوائل هذه الحرب الطاحنة ولد خير الدين هذا سنة (١٢٣٥هـ) من صلب ذلك البطل الخالد الذكر عند الجراكسة حسن لاش بك (حسن بك الأعرج) وقد استشهد هذا البطل تحت نيران الروس وهو يكافح عن وطنه ، وسن ابنه المذكور دون عشر سنوات ، فأخذ فيمن أخذ باسم الاستنقاذ إلى أقرب ميناء فى البحر الأسود ونقل من هناك إلى استانبول وهو لا يدرى إلى أى مصير يساق ، فإذا هو يبيع — باسم الاستنقاذ الانسانى — للشيخ تحسين بك[1] ابن محمد القبرى صدر الأناضول (وهو من خلفاء محمد جان النقشبندى زميل مولانا خالد عند عبد الله الدهلوى ، وقد تولى وظائف علمية كبيرة فى الدولة مثل قضاء عسكر الأناضول ثم ولى نقابة الأشراف سنة ١٢٦٤ وتوفى سنة ١٢٧٨ هـ وهو رئيس العلماء ، وترجمته فى (ج ٢ ص ٤٩ من السجل العثمانى) . فعنى تحسين بك المذكور بتعليمه وتثقيفه مدة ثلاث سنوات فبدأت مواهبه تثمر ، وكان احمد باشا باى تونس يستكثر إذ ذاك من مماليك القوقاس لأسباب سياسية بعد استيلاء فرنسا على الجزائر ، استعدادا

(١) مما يلقب به ابناء الذوات ايضا وان كانوا من الشارع

والكبيرة ، وقد أسلم كثيرون منهم رغبة فى المحافظة على وظائفهم ، أو رغبة فى الوصول إلى وظائف الدولة الكبرى التى كانت وقفا على المسلمين ، وخير مثال لذلك إسلام أسرة ابن مماتى[1] فى بدء الدولة الأيوبية محافظة على مراكزهم الكبرى ، فقد كانوا يتولون النظر على ديوان الجيش ، والمثل كثيرة أيضا ، وخاصة فى عصر المماليك .

٣ — ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط فى الإسلام — طوعا أو كرها — وخاصة بعد الثورة التى حدثت فى عهد المأمون

٤ — اعتنق كثيرون من الأقباط الإسلام فرارا من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم . وخير دليل على هذا أن أول انتقاض للقبط فى العهد الإسلامى (سنة ١٠٥ هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطا .

ولم يكد ينتهى القرن الأول للهجرة حتى أحس والى مصر ما لكثرة دخول الأقباط فى الإسلام من أثر فى نقص قيمة الخراج ؛ فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١) كتب إليه عامله على مصر أيوب بن شرحبيل يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام ، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر فى نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه فى فرض الجزية على من أسلم ، فرد عليه عمر رده المشهور : « قبح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، فضع الجزية عمن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه . . . » .

جمال الدين الشيال

(١) نشر الدكتور عزيز سوريال عطية فى العام الماضى كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى ، وقد ذكر فى مقدمته وفى أماكن كثيرة منه أن الأسعد بن مماتى كان وزيراً لصلاح الدين ، وهذا خطأ واضح ، والصحيح أن ابن مماتى كان يتولى النظر على ديوان الجيش . أما الوزير الوحيد لصلاح الدين فهو القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى .

للدفاع يوم عن القطر التونسي إذا حدث مايخاف منه على تونس ، فاتصل وكيله بالآستانة بتحسين بك واتفق معه بشأن خير الدين حتى أخذه فيمن أخذ إلى تونس ، فعنى باي تونس بتثقيفه وتنشئته إلى أن تم له ماذكره محمد بيرم التونسي في الجزء الثاني من «صفوة الاعتبار» — وهو من أدرى الناس به — ثم طلبه السلطان عبد الحميد الثاني إلى الآستانة سنة ١٢٩٤ هـ فعينه عضواً في مجلس الشيوخ — مجلس الأعيان — ثم ولاه الصدارة العظمى سنة ١٢٩٥ هـ ، وبعد ثمانية أشهر استقال من الصدارة لخلاف وقع بينه وبين ولي الأمر . وكان في أيام صدارته حل كثيراً من المشاكل السياسية مثل تحديد الحدود اليونانية ، ومشاكل لواء بني بازار ، ومشكلة مصر في أواخر أيام الخديو إسماعيل ، ومشكلة الأوراق النقدية ، وتنظيم أحوال الموظفين وترفيه المتقاعدين وغير ذلك . وكان خير الدين باشا كتب إلى الشيخ صديق خان بالهند ، يحثه على مساعدة دولة الخلافة لكوارث انتابتها بسبب حرب روسيا . فألف صديق خان « العبرة مما ورد في الغزوة والشهادة والهجرة » ونشر خطاب خير الدين باشا له باللغة الفارسية مع هذا الكتاب ، وشكل لجانا تقوم بجمع النقود مساعدة للدولة ، وعرف هذا الداعية كيف يستغل هذه الفرصة السانحة ، فالتمس من الدولة السماح له بطبع كتب في مطبعة الجوائب في استانبول وفي مطبعة بولاق بمصر فسمحوا له بذلك مجاملة له ، وكان مابين استانبول ومصر طيبا غير متوتر إذ ذاك ، فأخذ يطبع فيهما كتبا على مراحل حتى بدأت اللامذهبية تنتشر في الأقطار المصرية والاستانبولية . ولا أظن أن خير الدين باشا كان يقصد هذا ، وعلى كل حال هذا مغمور في بحر أعماله النافعة . وبعد أن استقال من الصدارة خوطب مرات ليتولى الصدارة ، لكنه أبى أن يتولاها إلا بشرط المضي على أسس الدستور ، وعاش هناك محافظا على وقاره وسمته ، حتى إن من المشهور أن السلطان صارحه يوما بأنه قدم اليه بلاغات عنه فقال الباشا مجيبا : إذا قبل مولاي البلاغات يكثر من يقدمها إلى سدته السنية . وقد استمر مقيما بالآستانة بعد استقالته إحدى عشرة سنة ثم توفي سنة ١٣٠٧ هـ في تاسع جمادى الأولى منها وهو ابن ٧٢ سنة ودفن في مدفن بناه لنفسه في جوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه . وقد أنجب رحمه الله ثلاثة أنجال مثقفين تثقيفا عاليا ، وهم صالح خير الدين باشا الداماد ، ومحمد خير الدين بك ، وطاهر خير الدين بك ، وكان الثلاثة اشتركوا في جريدة (شهراه) — المحجة — بالآستانة لمعارضة الاتحاديين سنة ١٣٢٨ هـ ، فكانت خطة الجريدة خطة معارضة نزيهة جذابة تستطب ألباب المثقفين ، حتى حاز طاهر خير الدين بك النيابة عن استانبول رغم مساعي الاتحاديين ضده ، ثم استفحل الشر بينهم وبين هذه الأسرة حتى شنق صالح خير الدين باشا الداماد ظلماً وعدواناً في فتنة محمود شوكت باشا . وكان فريد باشا الداماد استصدر في عهد صدارته بعيد الحرب العالمية الأولى إرادة سنية بتعيين طاهر خير الدين بك وزيراً لإحدى الوزارات ، لكن لم يطب له العمل تحت راية الداماد فاستقال في مدة يسيرة وانتقل إلى تونس ، ولا أدرى ماذا تم له هناك . وترجمة خير الدين باشا منشورة في مجلة (نوازه) الجركسية (في العدد ٣ في الصفحة ٢ في خمسة أعمدة كبيرة) الصادرة في الآستانة سنة ١٣٢٩ هـ .

م . ز

أنه في يوم الاثنين ١٨ يونيو سنة ١٩٤٥ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا وما بعدها بناحية الشيخ شبيكة مركز ملوي مديرية أسيوط والأيام التالية إذا دعا الحال .

سيباع بالمزاد العمومي زراعة أذرة صيفي وقمح وفول وبرسيم وترمس كلها مبينة بمحضري الحجز ملك عبد العزيز حسين وعبد الكافي مبارك . المقيمين بناحية الشيخ شبيكة مركز ملوي مديرية أسيوط السابق توقيع الحجز عليها تنفيذا بتاريخ ٣١/٨ سنة ١٩٤٤ و ١٩/٤/١٩٤٥ بطلب حضرة صاحب العزة عبد المنعم بك بهجت بصفته وكيلا عن حضرة صاحب السعادة محمد أحمد جلال بك بصفته ناظر أوقاف المرحوم أحمد الشكلي باشا وحرمه تنفيذا للحكم الصادر من محكمة مصر الأهلية بتاريخ ٥ يونيو سنة ١٩٤٤ في القضية المدنية رقم ٢٦٧٣ كلي سنة ١٩٤٤ وفاء لمبلغ ١٢٢ جنيه و ٣٠٢ مليم وما يستجد فعلى من يرغب الشراء الحضور .

أول الواجبات

رفع مستوى المعيشة بهذه البلاد

— ٣ —

أهم ما نحتاج إليه في مستهل النهضة الصناعية :

إن الخبير الأمريكي يعبر في وضوح عن النظرية السليمة عند ما يقول إن زيادة القدرة الشرائية للرجل المتوسط في مصر يضاعف طاقة السوق المصرية . وقوله هذا معارضة للنظرية الأخرى السقيمة المتبقة ، وهي الحيلولة بين العميل الضعيف وبين النهوض ليظل دواما معتمدا على عميله القوي . فما هي أول حاجات مصر لتكون نصف صناعية ولتضاعف طاقة سوقها ؟

لا شك في أن أول ما نحتاج إليه الآلات لتزيد في قدرة إنتاج مصانعها الحالية ولتنشىء صناعات أخرى مما تتوافر خاماتها أو جل خاماتها بهذه البلاد مما يستهلك محليا ، ولصنع قطع غيار لهذه الآلات ، فقد كنا نستورد قبيل الحرب من العدد والآلات ما بلغت قيمته في السنة الواحدة مليونين وتسعة وثلاثين ألفا من الجنيهات ، عدا ما استوردنا من الحديد ومصنوعاته بمبلغ مليونين وستمائة ألف وستة وعشرين ألفا من الجنيهات ، وهذا وذاك عدا قطع غيار السيارات .

ولدينا الآن مصانع موطدة الأركان للغزل والنساجة ويمكن مضاعفة قدرتها على الانتاج بزيادة الآلات . وتنتشر هذه الصناعة بجميع أنحاء البلاد بقوة الإنسان ، وهي بطيئة عظيمة النفقة ، ومن الضروري إحلال قوة الآلات محل القوة البشرية واستخدام الأيدي العاملة التي نقتصدها بهذه الوسيلة لخدمة الآلات فيزيد عمال الغزل والنساجة ولا ينقص .

ولدينا مصانع للبلاط وللفخار والطوب الرملي والاسمنت والجبس والزجاج والورق ، وكلها قابلة للتوسع وتحتاج إلى مزيد من الآلات .

وتستطيع البلاد إنتاج كثير من الفواكه والخضر فوق ما تنتجه الآن ويمكن قيام صناعة رابحة من الخضر والفاكهة المحفوظة والمجففة . وهذا وغيره يتطلب عددا وآلات إلى أن نتمكن من إنتاج هذه العدد والآلات بإنشاء صناعات استخراج وصنع الحديد والصلب باستخدام ما لدينا من معادن . وهذا كله قد يكون قليلا إلى جانب ما سوف تستورده مصر من الآلات اللازمة لانتشار استخدام الكهرباء كقوة محركة بدلا من البخار وما ينتظر أن يتطلبه مركزها الملائم كل الملاءمة لمحطات الطيران . ولابد من قيام صناعة بها لمد البلاد بقطع الغيار اللازمة وللاصلاح .

وهكذا نرى أن قيام الصناعة بمصر يزيد في قدرتها على امتصاص واردات عملائها فتزيد قيمة ما تستورد ، وإذا وفقنا إلى تحويل مصر إلى بلاد نصف صناعية فسوف يعم الرخاء كل الطبقات وتزيد القدرة الشرائية وتزيد معها طلب ما لا تستطيع صنعه ، وهو كثير ، من هؤلاء العملاء .

ولا بد أن أذكر هنا نوعا من الواردات أغفلناه للآن مع شدة حاجتنا إليه ، وأعني به سفن النقل . ويمكن إدراك أهمية سفن النقل إذا علمنا أن مجموع ما أفرغته السفن في الموانىء المصرية كان في سنة ١٩٣٨ ستة ملايين وثلاثمائة ألف ومائتين وخمسة وعشرين ألف طن ، وبلغ ما شحنته من هذه الموانى ثلاثة ملايين ومائة ألف و٥٤ ألف طن . وكان عدد القادمين سبعة وتسعين ألفا وثمانمائة وتسعة وسبعين شخصا ، والراحلين مائة ألف وستمائة وتسعة وعشرين شخصا . ولا تملك مصر من هذه السفن إلا نسبة قليلة جدا ومن السهل إدراك ما تجنيه البلاد من أرباح إذا ما استوردت سفن النقل ، فالربح عاجل مكفول لأن حركة النقل قائمة بالفعل ، وامتلاك مصر لسفن النقل يجتذب عددا

من المصريين عمالا وتجارة ، ويرتفع تبعا لذلك مستوى العيش لعدد لا بأس به من أهل هذه البلاد .

ولا نعرف الآن على وجه التحقيق هل نقصت أم زادت حمولة السفن في العالم بسبب ما أغرق أو تلف في هذه الحرب القائمة . ولكني أظن أن حركة نقل الجنود والعتاد الحربي الهائل اقتضت الدول التجارية بذل مجهود عظيم في توفير سفن النقل ، وأن النشاط التجاري الذي يعقب انتهاء الحرب قد يترك لأمثالنا ما يشتريه من سفن النقل بعد انتهاء الحرب مباشرة .

وسواء صح هذا أو ذاك فلا بد لنا من شراء كفايتنا من سفن النقل على كل حال . فمركز بلادنا وحركة الصادر والوارد يحتمان هذا .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنا نستطيع ، بتنظيم حركة الشحن ، أن نستورد الفحم مثلا بأجور مخفضة أو عائدة إلينا ، فننشىء الصناعات التي لا غنى عن استخدام الفحم في صنعها .

وهذا النوع من الواردات ينشط حركة التبادل بيننا وبين عملائنا من الإنجليز والأمريكان .

ولكن كيف ندبر المال اللازم لاستيراد كل هذا ؟

مسألة رصيد الاسترليني :

قلنا إن مجموع الأموال الاحتياطية لبعض ، لا كل ، الشركات المساهمة في مصر زاد على ثلاثين مليونا من الجنيهات في سنة ١٩٤٣ ، وهذا عدا ما رحلته من أرباحها وعدا ما في صناديق الادخار بالبريد وبالمصارف ، وهي أكثر من مجموع ما تقدم ، وعدا ودائع أربائنا وبعضها تجاوز المليون في هذه الأيام . لكن ارتباط نقدنا بالاسترليني يحملنا على حصر التبادل لحد كبير جدا مع بلاد كتلة الاسترليني إذا لم يطرأ تبدل على نظام النقد الحالي أو لم نصل إلى حل يلائم مصلحتنا في مسألة أرصدة الاسترليني .

ولا ريب في أن حصر التعامل مع جهة معينة يحد من حرية الاختيار اللازم لحالتنا فيما يتعلق بنوع السلع أو جودتها أو رخص ثمنها أو شروط الدفع أو غير ذلك . فلا بد من حل مسألة الأرصدة التي وصلت من قبل إلى ثلاثمائة مليون من الجنيهات والتي قد تصل إلى خمسمائة مليون عندما تنتهي الحرب كما قيل .

وقد لوحظ أن هذه المسألة تثار بتحفظ هنا ، ولم ينشر عنها بيان شاف من عهد أن أثارها بهي الدين بركات باشا لأول مرة في مجلس الشيوخ ، وقيل عنها ما قيل عندما أثار مندوبو مصر مسألة تحويل بعض هذه الأرصدة في مؤتمر مالي عقد بأمريكا .

ويمكن أن يكون فيما أذاعته الأهرام في ٦ و ٧ مارس عن مستر شوماكر الخبير الاقتصادي الشهير كما وصفوه ، ما يدل على اتجاه أصدقائنا الإنجليز في هذه المسألة الخطيرة . وقد أشرنا من قبل إلى رأيه فيما اقتبسناه من أهرام ٧ مارس . ونشير الآن إلى ما نشر عنه في اليوم السابق .

يرى الخبير الاقتصادي المالي أن الثلاثمائة مليون جنيه استرليني التي لمصر تعادل قيمة وارداتها من جميع البلاد في ست سنين ، وثمن واردات بريطانيا إليها في خمس وعشرين سنة ، على اعتبار أن أثمان هذه الواردات قد ارتفعت بنسبة خمسين في المائة . ولو استغل ثلثا هذا المبلغ في بريطانيا على أن يستهلك في خمسة وعشرين سنة — وترك الثلث الباقي رصيدا عاديا — لحصلت مصر على اثني عشر مليون جنيه ، بحساب الفائدة ثلاثا في المائة .

وبإضافة هذا إلى الاقتباس السابق ، وإلى ما نشر من قبل رأيا لأحد كبار الاقتصاديين ، وهو موظف بريطاني في خدمة الحكومة المصرية ، يمكن استنتاج ما يأتي :

أن مبلغ الثلاثمائة مليون جنيه وما يزيد عليها إلى أن تنتهي الحرب الحالية لا تستطيع بريطانيا توفيته بضائع في مدة تتفق مع صالح مصر ، هذا إذا استطاعت تلك البلاد توريد شيء يذكر . فهي مضطرة إلى التوريد للبلاد التي

أستطيع أن تحصل منها على الثمن نقداً لتتمكن من شراء ما تحتاج إليه . وقد قيل إن ما قد تستورده من مصر زعا يضاف ثمنه إلى الأرصدة المذكورة . وبعبارة وجيزة لن تستورد منها إلا ما تقتضى ما تصدر بريطانيا لغير ذاتيها أمثالنا ، ولن تستوفى ثمن كل ما تستورده من بلادنا ، وذلك بسبب ما عليها من ديون غير مألوفة .

فإذا صح هذا فإن علينا أن نفكر ، من جانبنا ، فى معالجة الحالة لاجتناب العراقيل التى تقوم فى سبيل نهوضنا الاقتصادى . ومن رأيى عدم التورط فى اتفاق خاص لأن وجهة النظر البريطانية قد ظهرت فى مناسبات سابقة غير ما أشرنا إليه . والمسألة تتعلق بحرية التبادل المالى بلا عائق ، وهو مما يجب أن تبحثه المؤتمرات الدولية .

فنحن لا نستطيع العيش بغير قيام صناعات عدة فى مصر تتوافر لها الشروط التى ذكرناها . ولن تقوم نهضتنا الصناعية التى لابد لنا منها إذا اقتصر تعاملنا مع بريطانيا فى الحدود التى ألمعنا إليها ، ولا يتيسر لنا حرية التجارة مع البلاد الأخرى وأموالنا محبوسة فى صورة ديون لنا على بريطانيا لا تستطيع هى سدادها بالسرعة التى لابد منها ولا غنى عنها للنهوض الصناعى المنشود .

وإذا قيل إن ما لوّح به مستر شوماكر وغيره لا يعبر عن اتجاه الحكومة الإنجليزية ، وهو فرض بعيد الاحتمال ، فإن ما قيل رسمياً من الجانب البريطانى بمناسبة اتفاق تسهيل الاستيراد يدل على هذا الاتجاه . نعم إن وزير المالية المصرية سجل فى مذكرته المؤرخة فى ٣ يناير الماضى إلى السفارة البريطانية أن مدة سريان هذا الاتفاق مقصورة على سنة ١٩٤٥ وأنه لا يؤثر فى حرية الحكومة المصرية فى العمل فى المستقبل ، كما أن هذا الاتفاق لا يؤثر فى حق الحكومة المصرية فى الانضمام إلى الاتفاقات الدولية . لكن الجانب البريطانى قال إنه يرجو ويتوقع أن تعاون مصر باتخاذ جميع الإجراءات الممكنة للقصد فى الاتفاق خارج الكتلة الاسترلينية .

وقد أشارت اللجنة الفرعية المشكلة من الطرفين ، ضمنا ، إلى تفضيل الاستيراد من البلاد ذات العملة السهلة ، وهى هنا كتلة الاسترلينى ، مادامت لا تزيد عن أسعار البلاد ذات العملة الصعبة بأكثر من عشرة فى المائة . ولما ذكرت المنسوجات ضمن ما يشترى من البلاد ذات العملة الصعبة استثنيت المنسوجات القطنية .

نعم هذا كله حصل لمناسبة عقد اتفاق قاصر على سنة ١٩٤٥ . بيد أنه يدل على الاتجاه العام إلى حد كبير .

العلم والتنظيم :

بعد هذا الاستعراض ، نظن أن حاجاتنا ومركزنا وواجبنا قد وضحت . ولكن لا بد من القول بأن النجاح يتوقف على الدراسة العلمية وتنظيم الجهود .

المال عصب الصناعة كما يقولون . بيد أن المال يذهب ضياعاً إذا لم يكن العلم أساس العمل . فالطريق القويم لا يستبين بغير هدى العلم . ونحن لا نحسن استغلال ما فى بلادنا من ثروة ، ولا نوفق إلى تحويل اقتصادنا إلى نصف صناعى إذا توافر المال ولم يسعفنا العلم . فالاتجاه إلى العمل المثمر يقتضى علماً . والمضى فيه كما ينبغى يقتضى علماً . وإدارة الأعمال وربطها بعضها ببعض لحصول التناسق ومنع التصادم يقتضى علماً . وقد كان الارتجال فى الماضى الطابع الغالب لتصرفاتنا ، ولهذا تعرضنا لألم الخيبة مرات . فلا بد من الدرس ومن الاسترشاد بالعلم فى دراستنا .

ومكتب البحوث لا بد منه للتوجيه والإرشاد وتقديم العون الفنى لمن يطلبه . ولا حاجة بى إلى القول بأن « الروتين » الحكومى الذى مرنا عليه الآن لا يغنى ، فأعضاء المكتب ينبغى أن يكونوا من العلماء ، نتوخى فى اختيارهم صفاتهم الذاتية غير متأثرين بأى اعتبار آخر ، يجب أن يكون الكيميائيون والمهندسون المتخصصون فى شتى الفروع ، وعلماء النبات والحيوان ، وعلماء الاقتصاد وغيرهم المكونون لمكتب البحوث نخبة ممتازة بغير نظر إلى جنسيتهم وأن تعد لهم وسائل البحث والتجربة بعيدين عن شتى المؤثرات مزودين بما يكفيهم من كل الوجوه .

(للبحث بقية) محمد عبد البارى

يوم الحصاد

أخذت القرية تتثاءب وتستيقظ من نومها فقد تزايد صياح الديكة ، وانبعثت نداءات متفرقة هادئة . وهذا رجل ينادي زوجته ، وتلك أم توقظ ابنها برفق . وبدأت الأبواب تدق وتفتح ، وعلا في سماء القرية صوت المؤذن « الله أكبر الله أكبر » . وما هي إلا بضع دقائق حتى دبت الحياة ، بكاملها فكنت ترى شيوخا وكهولا وشبانا يهرولون نحو المسجد مسرعين يلبون نداء الله . وتسمع في الأحواش أصوات الصبية ، وقد تعالت نداءاتهم ، وانطلقت الدواب وانتشرت في الطرقات . وشغلت النساء في حمل ما تحتاجه العائلة من زاد نهار طويل ، فكنت ترى هذي تضع اللبن في « الحلبة » وتلك تضع الخبز في « الجراب » وأخرى تضع الطفل في « الجندل » وكأن القرية تهيء نفسها لرحيل موقت ... كيف لا وهذا موسم الحصاد ... موسم الأمل ومعقد الرجاء ؟

انطلقت هذه الأفواج وانتشرت زرافات ووحدانا متجهة نحو الحقول ، ولم يتخلف في القرية إلا من أقعدته الظروف لعجز أو لشغل هام ..

قلت لنفسي وقد توارى الناس عن القرية واختفوا : « ولم لا ألحق بهم ؟ واليوم يوم راحتي .. فلأقض بعضا منه بالاستئناس معهم » تناولت قطوري على عجل وتدرجت خارج القرية على مهل . وما هي إلا أن أخذت الشمس ترتفع في السماء . وواصلت السير حتى وصلت الحقول ، وإذا بها قد غمرتها أفواج من الناس والدواب . وقد انتشر الرجال والنسوة مكبين على زرعهم والمناجل تلوح بأيديهم .

منظر يثير في النفس الغبطة والإعجاب . إكباب متواصل وأيد متحركة ، هكذا يعملون تحت وهج الشمس ، فلا يضجرون ، ويلفح الهجير وجوههم فلا يتأففون ، بل تحس شعور المرح والنشاط يتجلى في تلك الأغاني والأهازيج التي يرددونها . هذا غلام يردد بأعلى صوته ، وقد أخذت الحماسة منه كل مأخذ وطفح على وجهه البشر والعرق معا :

أنا خَيّالْ المِنْجِلْ والمِنْجِلْ خَيّالْ الزرع

فيتبعه إخوانه حصدا وإنشادا ..

مِنْجلي يا بوالخَراخِشْ منجلي في الزرع طَافِشْ

ما أحلى النشيد مع العمل ... اسمع ما يردده فوج آخر من الشباب :

سَبَل الحصايدْ ذَهَبْ ومَلَمّم الزِّيْنَـــات

إن في ترداده رمزا حيا للحصاد ، فهو في نظرهم موسم زراعي يجنون فيه ما بذروه (سبل الحصايد ذهب) وموسم عاطفي فيه الفرصة للتنفيس بتلميح غزل محتشم (وملمّ الزينات) ، وهل غير الإنشاد على مسمع من العذارى من سبيل :

يا حِلوتي في زينتكْ ما طلعتْ البرّ

ولا حصدتِ الحصايدْ في نهار الحرّ

رد عليه زميله :

يا زينتي خيمة وأرُدْ الشمس عنكو

ولا مطر صيف وأرُدْ الربيع الـكُو

صليل المناجل يستمر ، وفصل الزرع يتواصل ، والإنشاد ينبعث من هنا وهناك ، بلا انقطاع ...

يا حلوْ دَرْبَكْ تَعَبْ والرِّجل تتقلاّنه

واقعُدْ تسلّيك يا بو عيون نعسانه

رد الآخر :

ماشي على حالـكـو والرِّجل تقلاّنه

والقلب يطلب وفَيّ والعين خجلانه

اسمع لهذا الفوج من الرجال وقد بدا في طليعتهم رجل بين الشباب والكهولة ينشد :

وادي الحصي رقّ سيفكْ والظّمُون تقطعْ

بلادْ غيرنا حقتنا وأخضل الزرع

فيرد عليه مَن خلفه هازجين :

هــذى بلادُنا أو بنفلّح في أراضيها
إن أمحلَتْ أو أخصبتْ بالروح نفديها

وهكذا يتحول الحقل الهادئ إلى نشاط وحركة بعد أن دبت فيه الحياة . أخذت طريقي بين الأفواج وتوجهت نحو شيخ جلس ناحية يستظل تحت عريشة أقامها من البوص . اقتربت من الشيخ لتحيته : « صح بدنك ياعم »

— « بدنك يسلمك ، تفضل » .

وافسح في مجلسه فجلست بجانبه ودار الحديث :

— كيف الزرع هذا العام ياعم ؟ .

— فاضت الخيرات والحمد لله . ولا تخلو بعض الأماكن من محل، ولكنها سنة خير ، والخير فيما اختاره الله . . .

قال هذا وقد لمع في عينيه بريق وطفا على وجهه بشر خلت معه التجاعيد الصارمة في وجهه من أثر السنين ، ثم تناول طرف ردائه ومسح به التراب والعرق من على وجهه قائلا : غبار وحر هذا النهار .

— غبار الفخر هذا ياعم . .

فالتفت الشيخ إلى بسرعة وبدا على وجهه الحزم ، وقال بلهجة هادئة رزينة : فهو تراب الفخر وعرق العافية . ألا ترى الحصادين ؟ وأشار بيده نحو الأسراب مكبين على زرعهم يقضون طيلة النهار تحت وهج الشمس فلا يتأففون وتنير وجوههم فلا يبالون ، ثم هم بعد هذا لا يهمهم إن تمتع بثمرة تعبهم جاحد أو شاكر . فهم أدرى الناس بأن عيش هذه الأمة من أيديهم ، ودعاؤهم دائما — « يارب أطعمنا وأطعم منا » . .

يالها من حكمة قالها الشيخ مسترسلا بلا عناء ولا تكلف . هكذا تجود الفطرة بالقول الصائب والرأى السليم . .

واستمر الشيخ يقول وقد لحظ استئناسى وإعجابى بحديثه :

— هذا العمل يا أخ لا يعرف الوارية ، ازرع تحصد ، فلا واسطة ولا تزلف ولا نفاق . والطبيعة لا ترحم يا أخ ، فالأرض تطلب حرثا لا رجاء ، وشقوق الحاريث تطلب بذارا ، لا حيلة وخداعا ، والبذور تطلب ماء لا سرابا ، والحصاد يتطلب كل هذا المجهود الماثل أمام عينيك ، فكأن قوى الطبيعة وقوى القرية النازحة بأجمعها تقوم بهذا العمل متعاونة على أساس شريف نزيه لتحصل على هذه الثمرة بعونه تعالى . وأية ثمرة . ؟ هى الثمرة المقدسة التى يشاركنا الناس على اختلاف طبقاتهم بالنعيم بها . وكأن الله أراد لأبينا آدم أن يقدر خير لذة ممزوجة بالتعب ، فرماه بهذه المهنة . لقد تقادم العهد على مهنتنا يا أخ ، فاعطاها طعما ألفته الأجيال أبا عن جد ، وتقادم العهد على النصائح لنا فأرخصها وأنقص من قدرها . .

عندها قاطعت الشيخ مستغربا — « وأى النصائح تقصد ياعم ؟ » .

— لو تدرى يابنى ، أأسميها نصائح أم تهكمات أم مغريات أم تضليلات ! . تارة يصبح الفلاح معيارا وأخرى لغزا ؛ يتافقه الناس حينا فيضعونه سيدا ، وطورا يهملونه فيعدونه خادما ، والفلاح أدرى بنفسه . هو كما يقول عن نفسه — « أنا خادم الأرض وسيد الحقل ، وخادم الناس ، وسيد نفسى » .

صوروا مهنتنا بمختلف الشقاء ، وتمسح بنا كثير من المتظاهرين بالشفقة ، هل ترى فى هذه الظاهرة الماثلة أمامك فى الحقول ما يدعو للشفقة . قل لى بربك اصدقنى

— لا أرى ياعم إلا النخوة والنشاط والعمل المتواصل ينسجم مع الإنشاد والمرح والغبطة بما تجنيه الأيدى . وما تنتظره من نتائج مجهودها .

قلت هذا وقد هممت بالانصراف فوقف الشيخ مودعا بعد أن ألح على بالبقاء للغداء ، فاعتذرت له وودعته وبنفسى أن يطول الحديث معه .

عدت طريقى بين الأفواج وحديث الشيخ يجول فى

في السـينما

قاربت الأربعين وأنا مستمتع في روما بأيام حلوة في كنف صديق نبيل زكي النفس طاهرها، لقيت في داره، وعلى مائدته، وفي رفقة أهـله ومعارفه، وبين كلابه وعصافيره، جواً من الطيبة والكرم تنتعش له النفس ويهدأ الخاطر. تعيش في ظله خادمة إيطالية بدينة، اسمها «أستير»، هي التي تفتح الباب، وترد على التلفون. رأيتها لطول ترددي على الدار تتودد إلي، وتسألني عن صحتي قبل أن تنادي سيدها إلى التلفون، وتلقاني على الباب بابتسامة وإن أنا انقطعت أفهمتني أنها لاحظت غيابي. لم تستطع أن تنطق اسمي إلا بلهجة أعجمية قد تضحك، وإن دلت عيناها على أن قلبها لا يشعر كلسانها. وأكبر الظن أنها حسبت أن بي شيئاً من شرود الذهن أو نوعاً من التلعثم، فما من مرة لقيتها إلا حاولت جهدي أن أحييها باسمها فلا أفلح. جاهدت كثيراً فلم أوفق. أذكره أحياناً وأظل أكرره لنفسي وأدقه بمسامير من العزم والإرادة في ذهني، وقد ينطلق به لساني وأنا في الصعد، فإذا فتحت الباب طار من عقلي كأنه لم يمر به قط من قبل. وقد تشاء بعض الألفاظ إلا أن تتأبى أحياناً على اللسان، ونحن نحس على رغم هربها أنها كامنة في أذهاننا، مختبئة أو تائهة. أما اسمها فكان إذا طار ترك في ذاكرتي فراغاً كأنه ضرس مخلوع. والغريب أنني كنت أخطئ أحياناً كثيرة فأناديها باسم آخر، وقد لاحظت في شيء من الدهشة أنني إذا أخطأت لا أقع إلا على اسم واحد لا يتغير، فأقول لها: «كيف حالك يا سارة!» ولم أجد لهذا التلازم تعليلا إلا تشابه الاسمين.

وأرقت ذات ليلة، وعادت إلى ذاكرتي أيام طفولتي وصباي في جو من القيم تزحف كشفه رفق من يمين ومن شمال. وأخذ ذهني يقلب لي ما فيه من أحداث وقبور.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى دار صديق وفتحت لي الباب فإذا بي أقول لها: «كيف حالك يا أستير».

ومنذ ذلك اليوم واسمها لا يغيب عن لساني..

نشأت في أسرة تتعشق السينما، رجالا وصبيانا، لا يخرج

خاطري ولم يقطعه إلا انبعاث الأناشيد من بين الزرع.

والشيخ في جده والشباب في عملهم ومرحهم.

اسمع هذا يقول:

يابنت رُدّي عنمــك من أشكارتنا

تـدري رمـانك الهــوى ولاّ محبتنا

إرحـلو يابو الدوايب لك زمان غايب

حرمت طرد الهوى من بعدكو تايب

اسمع هذا الكهل يسير بين الزرع متثاقلا يلتفت نحو فوج من الشباب يطارحهم الإنشاد عن قرب، والظاهر أنهم تحدوه:

ياما طردنا الهــوى واحنا اصـباوية

واليـوم مثقال ماقينــا فلاتيه

فتصدى له شاب يرد عليه:

ياناس طــرد الهوى بدّه شطـاوة بال

واتو طـــردتو الهوى كالفارغ البطال

وابتعدت قليلا وما زالت الآفاق تبعث متفرقة بخفت صوتها كلما ازددت بعدا حتى لم أعد أسمعها، مذ توارت الحقول.

سرت في الطريق راجعا وحدي، والشيخ وحديثه وصورة الحقل ماثلة في ذهني، ولكن هناك صوتاً خلته لم ينقطع ورافقني طول الطريق وأنا إخاله يتردد بنبرة عاطفية قوية: اللهم أطعمنا واطعم منا. وصوت الشباب يرن: «سبل الحصايد ذهب وملو الربيات».

بيع — فلسطين عيسى مصطفى

حديث مائدة العشاء عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة ، وعن ترديد أسماء الممثلين في إيطاليا وألمانيا وأمريكا والمقارنة بينهم . لا أشترك في الحديث — لصغر سنى — بل تلتقط أذناى منهم كل كلمة تقال ، وأعتنق آراءهم ، وأضحك لضحكهم ، وقد أروى بعض ماسمعت إلى زملائى فى المدرسة كأنه مما رأته عيناى .

وانتبهت فإذا بى انتظر يوم الخميس بفارغ الصبر ، فهو اليوم الوحيد الذى يسمح لى فيه بالذهاب إلى السينما . أرقبه منذ صباح الجمعة وأعد الأيام والساعات ، أريد أن ينفد العمر فيها كغمض العين .

فإذا جاء الخميس — مرحبا بغرة الأيام — تناولت غدائى مسرعا ، وأنا قلق متلهف ، وأخذت ألح على أخى الأكبر لنخرج ولما تدق الساعة الرابعة . وأسير بجانبه وأنا ألهث : أى ساحر سحرنى ؟ ليست هى دار السينما وحدها ، ولا الرواية ولا الممثل . بل جو خليط من هذا وذاك : واجهة الدار بإعلاناتها وصورها الضخمة تكاد تنطق ، وأنوارها المتحركة والتزاحم على بابها ، وتلك الضجة العظيمة التى أسمعها ولما ندخل .

« تقدم . تقدم » أقولها لأخى وأدفعه دفعا إلى شباك التذاكر . يخنقنى الزحام وقصر قامتى أن أتبين من يكون فيه ، ولكنى أعرأنه وحده القادر على إدخالى . هنا وجهى يحتك بثياب الأجير الواقف على الباب ، وتسمع أذناى بلذة طاغية صوت تمزيق التذكرة . لقد زالت العوائق كلها والحمد لله .. ندخل إلى الصالة ، فإذا بها سوق قائم ، أصوات متعالية ، وهتاف ، وصفير ، ونداءات باعة اللب والفول والكازوزة ، والكراسى من حديد لها مقاعد خشبية متحركة تنطوى بقوة إذا قام الجالس عليها ، فهى لا تنفك تقعقع كصوت الحراسة تسير على الحصى والحجارة . ثم تقف الصالة كلها وتلتفت هائجة نحو الألواج ، لأن رجلا دخلها ومعه امرأة .. لا بأس . ها نحن فى أول مقعد للقاء

وقد لا يرضينى فأنتقل إلى غيره ، وأقدر مكانى من الشاشة ، وأحسب حساب من سيجلس أمامى ، وأدعو الله أن لا يكون رجلا عملاقاً طويل القفا .

ولقد شاهدت أفلاما كثيرة وأنا واقف على قدمى ..

ويمر وقت يضيق به صدرى ، وأنا ألتفت إلى النوافذ أرقب أقل حركة تدل على أن إغلاقها قد اقترب ، وأسأل أخى : ألم يحن الوقت بعد ؟ وأنصت بأذن مرهفة إلى غرفة العرض ، فقد أصبحت عليما بتلك الأصوات المبهمة التى تنبعث منها فتدل على أن العامل قد (شرف) وأنه آخذ فى تركيب الفيلم . ثم أنصت إلينا منهما أذنى . و (ترسو) يصيح ويدق على الأرض بأرجل تسحق قشر اللب والسودانى ، فأعجب بهم وأقول سرا : يالهم من أبطال ! ثم ينتقل التصفيق ودق الأرض — بالعدوى — إلى (سكوندو) و (بريمو) فترتفع فى نظرى قيمة جيرانى . آه ! هذا النور سخيف ، ثقيل الدم ، أريد الظلام . ظلام يبدو جماله إذا شقه عمود من الضوء ، كأنه الروح فى الجسد ، آه يافرحتى ! هذه هى النوافذ بدأت تتحرك ، وهذا هو الجمهور كالبحر المائج إذا خفت الريح قليلا ، وهذا هو الجرس يرن رنته المحبوبة . أطبق الظلام وضاعت منى الصالة والعالم كله ، ولم يبق فى إلا عينان مسمرتان على الشاشة . أحب أفلام الشجاعة والفروسية ، والمبارزة بالسيوف ، وركوب الخيل تسابق القطار ، وقفز البطل من هذا إلى ذاك . وأحب كذلك الأفلام البوليسية ، وكلها دهاء ، ومكر ، ونصب تقاخ (وقلبى يشارك اللص ، ويستخف بالشرطى) ووجوه تملأ الشاشة وهى تضحك وتبكى . وأين نرى وجوهنا وعواطفنا بالمكرسكوب إلا فى صالة السينما ؟ ثم تظهر كلمات على الشاشة العربية تقرأها الصالة كلها بصوت عال كأنه هدير الأمواج ، وبذلك ينتقل المعنى إلى ذهنى عنيفا متضخما .. امتزجت حياتنا بالرواية ، فكأننا نعيش مع أبطالها ، فها نحن نصرخ للص أن ينتبه الشرطى يدب

وراءه .. ويغيظنا منه أنه لا يسمع تحذيرنا .. ماهذا ! هل انتهى كل شيء ؟ كيف مرت الساعتان ؟ إن قلبي لم يشبع . أحقاً يقوم ؟ أضاع كل أمل في أن أرى أصحاب السينما يرق قلبهم كرما فيضيفون على البرنامج فصلا مضحكا . الجمهور متشبث بالقاعد يهتف : « السه فصل ! السه فصل ! » أسبوع بعد أسبوع وهم لا ينالون وطرهم ، ومع ذلك فريحب رجائي في يوم من الأيام أن أرى المعجزة تتحقق .. أشد يد أخي والأمل كله يتجسم في تلك الشدة ، فأجده يشدني ، وأفهم أن اليأس حتم لا مفر منه . أراضي نفسي وأقول لها : أمامك الأسبوع القادم . ثم نخرج ونسير تحت بواكي شارع محمد علي ، مصعدين إلى الحلمية . أسمع صوت (الماشات) في القهاوي البلدية و (وش) موقد كواء الطرابيش ، وتشيش الشواء على عربات اليد في باب الخلق ، وتصل إلى أنفي رائحة دكان بائع الفسيخ — وهي مقفلة — وأنا كالنوم ، كالحالم ، تبحث عيناي وأذناي عن شيء يأسرها فلا تجد ..

مرضت زمنا ، وخلت أن الحياة قد انقطعت عني لانقطاعي عن السينما ، ثم قيل لي قد دخلت دور الثقاهة ، فقمت لساقي ، عاصيا أبوي ، مقسما لهم أني شفيت . لم أجهل كم مر على أعدها واحدا واحدا ، وأتحرق على الأجزاء التي فاتتني من (السلسلة) مع أني اشترعتها منظرا منظرا وحادثة حادثة أكثر من مرة من فم أخي الأكبر . ولكن أين السمع من المشاهدة ؟ إن قلبي غير راض ولا مطمئن .

خرجت وحدي ، وكان العمر قد تقدم بي ، وفي جيبي ثمن التذكرة ونصف قرش لشراء اللب والفول ، ومشيت أكاد أجري ، وبلغت السينما ، ورفعتُ عيني إلى اللوحة فصعقت وجمد الدم في عروقي ، وركبتني برودة الموت ! يا للخيبة ! ما هذا الحظ السيء ؟ أبعد الصيام الطويل أفطر على بصلة ؟ كنتُ أصبحت خبيراً بالسينما ، أكاد أميز الأفلام جيدها ورديئها من رؤية الصور الملصقة في مدخل الدار

وقد تنحصر نزهتي بعض أيام الجمع في المرور على جميع دور السينما واستعراض صورها ، والظفر بما استطعت من رامجها ، فإذا لم يتيسر لي دخولها فلا أقل من أن ألم بها ، وأطوف حولها ، وأتحسس أنباءها ، وأحلم بأسرارها .. ووقعت مرة في مأزق (قرصتُ) منه . دخلت السينما عجلا في يوم وأنا لا أعلم أنه يوم عيد عند المسيحيين أو اليهود ، لا أدري — وإذا بالفيلم قصة دينية ، مستقاة من التوراة ، كلها لت وعجن ، وحركات ثقيلة ، وسحن حزينة ، ورعاة بينة سحاجتهم ، طويلة عصيهم وقفاطينهم ولحاهم ، وأغنام ونعاج ، وامرأة عجوز تتطلع إلى السماء طويلا ، وشيخ يبارك قوما قد جلسوا القرفصاء .. ليس فيها لص واحد ، ولا مبارزة ، ولا مطاردة ، ولا قطار ، ولا جياد ، فشرنها وخرجت ساخطا . بالله لماذا نسوا ما شيست وشارلي شابلن ؟ إن هذا عذر لا مسوغ له .. وظلم وقلة ذوق وسماجة .. وكان اسم الفيلم (سارة ..) تذكرت سارة وأنا واقف أتذوق مرارة الغم ، ورأيتُ السينما تعلن أنها لمناسبة عيد الفصح قد قررت وقف (السلسلة) لتعرض بدلها في تلك الليلة وحدها الرواية الدينية الكبرى (استير) . استُ أنا الذي يلدغ من جحر مرتين .. لا لعصافتي بل لخفة جيبي ... استير ! ما أسمج هذا الاسم وما أرده ! فليقل الفيلم إنها تدخل الجنة ، أما أنا فأراها جديرة بالجحيم . وانصرفت يائسا غاضبا وأنا أجر رجلي جرا ، كنت وحدي ولا أجرؤ على دخول دار غير تلك التي اعتدت أن أدخلها ، وأخذت أعود القهقرى في شارع محمد علي ، تحت البواكي ، لا أسمع (الماشات) بل استير ! أعوذ بالله ! ولا (وش) موقد كواء الطرابيش . بل استير ! من أين طلعت لي هذه المرأة ؟ ولا تشيش الشواء بل استير ! تبا لها وسحقا ؛ دكان بائع الفسيخ مفتوح ، ومع ذلك لا أشم رائحته ... ولقد انقت إلى قلبي قطرة قطرة حتى ملأه ، كرهتُ استير واسمها كرها شديدا ، وعت وقلبي يلوك هذا الكره .

يحيى حقي

بين المسموع والمقروء

تاجر يتحدث

دق التليفون فى مكتبي يخبر أن زائرا يودّ لقائى. قلت فليتفضل. ودخل يحمل التقرير الطويل الذى تكرّم بكتابته. وكان لابد من قراءة التقرير قبل مناقشته فيه. فقلت موجها الحديث فى غير وجهته:

— كيف الحال بعد الحرب؟

وكان صاحبنا تاجرا عظيما ورب أشغال واسعة. فقال:

– الحرب التى انقضت أم الحرب التى ابتدأت؟

فضحكتُ وضحك. ومع هذا قلت:

— إن الحرب التى بدأت حرب قديمة، وإنما هى تزداد شدة من اليوم فصاعدا، واليابانيون مغلوبون مغلوبون فى آخر الأمر على كل حال. قال:

— إنما حربَ أوربا عنيت. قلت مبتسما:

— وماذا فى أوربا؟. قال:

— أمة تحتل نصف أوربا، ولا سبيل إلى فك قبضتها إلا بالقوة. قلت:

— ولكن هذا احتلال بالتراضى. تراضى عليه الأمم المتحدة. ثم ألست ترى أن روسيا، مع أنها أمة شيوعيّة، فإنها تقيم فى هذه الأمم المحتلة حكومات ديمقراطية؟

فهز التاجر العظيم كتفيه فى غير اقتناع. قلت:

— ومع هذا أرى الروسيا تستطيع أن تشغل نفسها بخصومات وهى فى أشد حاجة إلى التركيز على تعمير ماخرّبت الحرب من أرضها. وهى فى ذلك لابد محتاجة أشد احتياج إلى ما تنتج أمريكا من آلات وما تخرج بريطانيا من بضائع. ثم ألم تسمع أن روسيا طلبت من أمريكا بضعة بلايين من الدولارات قرضا. فكيف نجمع بين هذا وما تخشى أن يكون؟ قال:

— فما هذا السبق منها إلى أمور قبل أن يكون عليها اتفاق بين زملاء محاربين؟ قلت:

— لعله الخوف القديم من ذلك النطاق الذى كان مضروبا على روسيا منذ تشيّعت، وسمته الأمم «بالكردون الصحى». أتدرى ما الكردون الصحى ياسيد فلان؟ إنه الكورنتينة. وهل تكون الكورنتينة إلا من وباء؟ قال:

— وبولونيا؟ قلت:

— إنها الحلقة الأقوى من تلك السلسلة التى حلّقت بها أوربا على روسيا عام ١٩٢٠ أو نحوه. والماضى لاينسى، والجرح العميق إذا التأم ترك لذكرى ندبا. قال:

— فهل ترى أن روسيا ليس لها نيات فى تلك الأمم؟ قلت:

— لا أحسب أن لها غير نية واحدة: أن تؤمّن صداقة من حولها من الأمم، فلا تكون حوائط تقوم بينها وبين الدنيا فتعزلها عزلا. وقد تأتى فى سبيل تأمين هذه الصداقة ما قد ينافى ظاهره والاتفاقات. ولكنه الخوف يحمل المرء على ركوب ما لا يود ركوبه، إذا هو رأى فى الركوب والنزول فرقَ ما بين الحياة والموت. فالخوف وضياع الثقة هما اللذان حملا روسيا على أن تفعل فى بولندة والنمسا ما فعلت من إقامة حكومة ترضاها. والخوف وضياع الثقة هما اللذان حملا انجلترا أن تفعل فى اليونان ما فعلت من إقامة حكومة ترضاها. قال زائرى:

— فهل يعقل أن روسيا بعد احتلال تلك الأمم لا تبلشفها، وقد كنا نخشى البلشفة حتى من جيرة دون احتلال؟ قلت:

— انظر إلى فرنسا وما يجرى فيها من انتخاب جنحت كثرته الكبرى إلى اليسار، تدرك أن البلشفة وغير البلشفة تأتى على الجيرة وغير الجيرة على السواء. والبلشفة إن جاءت أمة بالانتخاب الحر، فستجرّبها تلك الأمة، فإما أن تستبقيها بعد ذلك وإما أن تطرحها. والمهم فى كل هذا أن يبقى الرأى حرًّا، تأرجح ذات يسار أو ذات يمين. قال:

— إن البلشفة لا تصلح للأمم. قلت:

— وحسبي معك ، فهل يكفى رأيى ورأيك أمةً من تلك الأمم لتمنعها ذلك من سلوك طريق تراه . إنما يجب أن يكون الأمر كله للناس . فإن أرادوا النار فتحت لهم أبواب النار . وإن أرادوا الجنة فتحت لهم أبواب الجنة . حرية الرأى فى هذا هى ملاك الأمر كله . وهى أساس الديمقراطية أيضاً . ولقد أرادت روسيا أن يكون حالها تلك الحال التى علمنا . فهل منعها هذا على التجربة أن تتزحزح قليلا قليلا نحو اليمين ؟ إن روسيا اليوم غير روسيا الأمس . فالزواج المباح تقيَّد ، والطلاق تقيد . وجواز الملكية حضر من بعد غياب . والكنائس اعتُرف بها . حتى حق التوريث فيه اليوم حديث . وإنى لأحسب لو استمر هذا التحول فى اطراده لبلغت البلشفة فى نظام الأمم أقصى اليمين . إنها تصبح محافظة جامدة . قال صاحبى :

— إنى أقرأ أن روسيا اليوم فيها الغنى والثروة يتمتع بها أصحابها كما يتمتعون بها فى الأمم الديمقراطية . ولكنهم لا يورثونها . وإنما لهم حق المتعة بها ما بقوا على قيد الحياة . وهذا شىء تأباه الطبيعة . إنى أعمل ، وأكبر الحافز لى على عملى أنى أعمل لأولادى . قلت :

— هذا حق وأنت تحس به أكبر الاحساس لأن عندك ما تورِّث . أما الذى لا ناقة له ولا جمل فأكبر الظن أنه لا يعترض على أن تتبنَّى الدولة ما يخلِّف من أولاد . ولكن ، على كل حال ، على البلاشفة أن يدركوا ما فى نظامهم من أخطاء . وعندئذ يهذبونها ثم يهذبونها حتى يخرجوا للعالم من هذه التجربة العظيمة نظاما يستمتع به الناس جميعا ، ويكون فيه فرصٌ للناس جميعا . وقد يتغير هذا النظام حتى لا يعود فيه من البلشفة الأولى غير اسمها . قال :

— وما بال الأمم الديمقراطية ؟ قلت :

— إنها أيضا قائمة من طرفها بنفس التجربة . وهى تجربة عظيمة جديرة باحترام الأمم وترقبها . فانجلترا تسير يوما بعد يوم إلى اليسار . فالمطلع على أحوالها يدرك تمام الادراك أن انجلترا سائرة إلى إزالة الفروق الكبيرة بين طوائف الرجال . وقد زادتها هذه الحرب زيادة مساواة بين صنوف الناس . فانجلترا تجرِّب نفس التجربة التى تجربها روسيا . غير أن روسيا بدأت من اليسار واتجهت يمينا . وانجلترا وأمريكا بدأتا من اليمين وتسيران يسارا . وهم جميعا ملتقون ما بقيت حرية الرأى قائمة إلى نظام وسط فيه حرية الفرد بمقدار ، وسيطرة المجموع بمقدار ، وفيه أكبر حظ من السعادة الانسانية — أكبر حظ ممكن ، لأن هذه الأرض ما خلقت ليكون بها حظ الانسان من السعادة غير محدود . قال الخبيث :

— ومصر ؟ فقلت أردُّ خبثا بخبث :

— وماذا فى مصر ؟ قال :

— ذلك الرأى بتقسيم الثروة بين الناس جميعا . إنهم بذلك يصبحون فقراء جميعا . قلت :

— ياسيدى لا يقول بهذا إلا الأدعياء . قال :

— كيف ؟ .

قلت : لأنهم أهل عواطف لا أهل أرقام . فالتفريق للانفاق على هذا الاسلوب البدائى مضيع للطريف والتالد من الأموال . إنما الذى نريد أن نفرقه القدرةُ على الانتاج وكسب الأرزاق . إن الفقير لا يطلب صدقة يعيش عليها ويتام إليها . إنما هو يطلب القدرة على الكسب ، وأن تتاح له فرصة النهوض لينهض على رجليه هو ، لا على أكتاف غيره من الناس . وهذا يتطلب التعليم ، فمن حقه أن يتعلم وأن يتعلم بالمجان . وهذا يتطلب العمل ، ومن حقه أن يعمل ، وأن تفتح فى وجهه أبواب الأعمال . ومن حقه فوق هذا وهذا أن يكسب من عمله ما يكفيه لعيش الانسان ، فللإنسانية كرامة أحرص عليها وتحرص أنت أن لا تنزل إلى مستوى البهم . وهى تنزل حتى دون هذا المستوى . فالبهم صاحب يُعنَى بأمره ، ويهمه صحته ، ويهمه قوته ، لأنه وسيلة إلى الإنتاج أو متعة ، وبعض الناس انحط عن أن يهتم به أحد فى صحة أو قوة . قال :

— إن أكثر الصناعات لا تكاد تفي بنفقاتها ، وبعض الصناعات إنما نهض في مصر لرخص الأيدي العاملة فيها . قلت :

— إن رخص اليد العاملة بمثابة رخص الكرامة الإنسانية . وإن شر الأمم تلك التي يقال عنها إنها رخيصة أيدي عمالها . فهل أنت واجد رخصاً كهذا في إنجلترا أو أمريكا أو فرنسا أو ألمانيا أو روسيا ، أو أمة لها في المدنية مكان . إنما تجد هذا في مصر وفي الهند وفي الصين ، وحيث يوجد التدهور الإنساني في أبشع صوره . قال :

— إن العمل سلعة تغلو وترخص . قلت :

— وكذلك مالك يا صاحب المال الوفير سلعة ، تغلو وترخص ، والسلع تحميها الحكومات أن تهبط عن نفقة الإنتاج . فلذلك وجب عليها أن تحمي العمل من أن يهبط ثمنه من نفقة الإنتاج . وفي نفقة الإنتاج هذه يدخل غذاء العامل غذاء طيباً ، وسكنه مسكنا طيبا ، وكساؤه كسوة طيبة . وتمريضه وتعليمه هو وأبناؤه ، حتى يحسبان هؤلاء سلع المستقبل العاملة . قال :

— وماذا يبقى لرأس المال في مصر من بعد ذلك ؟ قلت :

— يبقى له الكثير إذا ما أديرت الصناعة والزراعة إدارةً علمية فنية حصيفة . إنها عندئذ تدر أضعاف ما تفتقده بالذي بذلت للعمال والزراع من حقوق . وستدر بعض الذي تدر بسبب هذا البذل أيضاً . وفضلا عن هذا فرأس مال العامل في عضله وفي رأسه ، وهو يطلب لرأس ماله كذلك ربحا معقولا . قال :

— إن نجاح الأعمال الاقتصادية أكثره بسبب ما يحدو مديريها ومدبّريها من آمال . قلت :

— من أطماع . إن الطمع ياسيدي أمل بولغ فيه . قال :

— إن الأعمال تديرها عقول جبارة ، فكيف يُحدّ من نشاط هذه العقول ؟ قلت :

— من ذا الذي يريد حداً من نشاطها ؟! إنما الذي نريده حدا من كسْبها . ونريد أن نشفيها من تقدير كاذب لقيمة المال الكثير . إن لكل رجل وامرأة حدا في النفقة بغية الحياة الطيبة ، وما بعد ذلك أمراض نفسية ، يهيجها إلى التائد وهمية وقوع البصر على أكوام من الذهب ليس من عادتها الركود . ونحن إنما نريد للأغنياء متعة إنسانية كاملة ، ورفها معقولا ، ونريد أن نحميهم بعد ذلك من غلواء الأوهام الكاذبة . ونريد أن نُبحّل فيهم من بعد ذلك لذة إنسانية أخرى يستثمرونها من خلقهم النعيم حيث كان البؤس ، والصحة حيث كان المرض ، والتعلم والتفهم والتبصر حيث كانت الجهالة والغباوة والعمى . قال :

— وهل تقف الأمور ، إذا هي اندفعت ، عند هذه الحدود ؟ قلت :

— هذه ياسيدي الحجة القديمة ضد كل إصلاح ، قلنا اعتدالاً في إيمان ، قالوا يؤدي اندفاعاً إلى الكفر . وقلنا سفوراً من بعد حجاب ، قالوا يؤدي إلى الفجور وضياع الأعراض . فإن كان هذا كل اعتراضك ، فهو أضعف الإيمان ، فأنت منا .

فابتسم . وقام وقمت ، وخرج من الحجرة ، ولا تزال تلبس وجهه ابتسامةٌ حرتُ في معناها

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

من صور الطبيعة المصرية :

الراعى

(شاعر السهول)

فى ظلال السكون فى هدأة الفجـ
ـر وقطر الندى يشع الفديرِ
جن وجداً فذاب من لهفة الشو
ق دموعاً على ثغور الزهور
لم يزل دمعه يفيض مع الأحـ
ـزن ريب الصدى ريب الشعير
باكيا فرحة رعاها مع الظلـ
ـمة فى ظل صمته المسحور
أو شك الفجر أن يسوق لها النور
ر فتطوى فى ثورة من نور
باعثا للشعور بعد سبات موقظا فى الضمير سر الضمير
فى ظلال السكون فى جنة الر
ف وقد أقبل السنا كالغدير : —
هاجنى والسكون ينطق فى الغا
ب صداه ويستثير شعورى
صادح زاهد رتل فى الفجـ
ـر نشيداً يذيب قلب الصخور
يأسر الروح لحنه فيهيم الـ
ـقلب فى فيضه كطفل غرير
وصحت نفسه فكانت صفاء لم يدنس أديمها بالشرور
بين كفيه نايه وحواليـ
ـه قطيع ثغاؤه كالهدير
زاهد ينشر الهدوء على الكو
ن ويلقى به صفاء الشعور
درجت روحه مع الزهر فى السهـ
ـل فكانت لزهره كالعبير
يحفظ الود والأمانة والعهـ
ـد ويبقى مخلداً للزهور
جعل السهل مسرحاً يتهادى فيه لحن الهدى بأفق منير
مرسل لحنه يشق الدياجى باعث روحه وراء الدهور
ومع السهل والقطيع بقلب حالم طاهر وطرف قرير
تلمح العزمة الفتية قد أطـ
ـلت على وجهه مضاء النسور
ليس يدرى متاعب العيش إلا
ما أصاب القطيع من محذور
ألهمته السماء أن البرايا ت تساوت فى العالم المستور
فرأى اليقظة المجيدة كالأ
مس سواء فى كفة المقدور
فمضى كالنبى يلهمه الوحـ
ـى سبيل النجاة فى الديجور
يا له شاعراً قصائده القر (*) تسامت مجنحات البحور
خلصت من قيود كل قديم أو جديد مشوه التزوير
سال فيها فؤاده فتهادت خالدات من نايه المحرور
نغمات كأنهن الأمانى الـ
ـفؤاد مسعذب مفطور
رب معنى كأنه الروح أضحى زمناً مبهماً وراء الشعور
أعجزته طلاقة الفكر لما
جن من سجنه وراء الصدور
ثم جاشت به الظنون كسيل عاصف دافق عنيف مصور
عبقرى الأداء والتصوير
نغمات تكاد تنطق بالإعـ
ـلان فى كل رنة أو صفير
صورتها الأنغام يا روعة النا
ى !! فكانت صريحة التصوير
يتغنى بها إذا جنه اللـ
ـيل وحيداً مشرد التفكير
فى مجاريب وحدة وشجون وانطلاقات فرحة وحبور
يبعث الشدو للطبيعة حبا لم يزل خالداً بقلب نضير
يتملى بها جمال الزهور ويحيى بها غناء الطيور
كلما طالعته ومضة حسن أو سرت عينه بواد نضير
علمته حقائق الكون وحياً
يبعث الهدى فى الفؤاد الضرير
عبد الله فى الطبيعة ترو
يه وتروى قطيعه بالخرير
ورأى سره تألق فى السهـ
ـل مخضوضراً وبين البذور
كل ما حوله تصاوير إلهـ
ـن مكين مستغلغل فى الضمير
السماوات لم تزل تتوالى فوق جفنيه دفعة من سرور
والنهايات لم تزل تتلاشى عند عينيه كالهباء النثير

الجمعية الفلسفية المصرية

الأسرة والمجتمع

للدكتور علي عبد الواحد وافي

بدأت الجمعية الفلسفية نشيطة فتية ، واخذت تغذي قراءها تباعا ، فلم نكد نفرغ من قراءة بحثها الأول عن « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » لمعالي مصطفى باشا عبد الرازق ، حتى وافتنا ببحث ثان عن « الأسرة والمجتمع » للدكتور علي عبد الواحد ، وكم نود أن يطرد هذا النشاط ويستمر هذا الغذاء في تنوعه وحسن اختياره .

ومكتبتنا العربية في مسيس الحاجة إلى شتى الدراسات الاجتماعية ، لأنا لم نتابع في شيء خطوات علم الاجتماع ، وما أكثرها في السبعين سنة الأخيرة . فقد تضافرت على إنهاضه وبسط آفاقه مدارس كبرى ، إن في فرنسا وانجلترا أو أمريكا وألمانيا ، فرسم منهجه وحدد موضوعه وكشف الكثير من قوانينه ونظرياته ، وأضحت الظاهرة الاجتماعية مثار درس وبحث لا يقل عما نالته الظاهرة الطبيعية .

ولقد شاء الدكتور علي عبد الواحد أن يبدأ دراساته في سلسلة الجمعية الفلسفية ببحث عن الأسرة ، فتخير موضوعا من أخصب موضوعات علم الاجتماع ، وأغزرها مادة ، وأكثرها تباين آراء ، وتعدد مذاهب .

ومع هذا وفق كل التوفيق في عرضه للقارئ العادي فبسطه ، أو بلفظة أدق بسطه في غير إسهاب ، وحصر نقطه ومسائله في غير إخلال ، وناقش وجادل في غير ما تعقيد ولا غموض .

ويشتمل مؤلفه الواضح على مقدمة وثلاثة فصول ، أو إن شئت على مقدمة وفصلين وخاتمة : فأما المقدمة فتضع مشكلة الأسرة ، وتبين طائفة من الفروض العلمية التي تتصل بها ، وتشير إلى الأهداف الرئيسية التي يرمي إليها

كل شيء لديه أطياف وهم كل شيء لديه أصداء زور

هو فوق القيود لا يعرف اليأ

س وفي عزمه انطلاق الصقور

يصحب الليل آمنا ويغني بين صحو الضحى وصفو البكور

فيلسوف الضمير لا يرهب الليـ

ـل إذا جنه رهيب الستور

لا يهاب الظلام فالليل سر لم يزل يستحثه للمسير

بيد أن الفتى يهاب من الشر (م)

طواف الدءاب حول الغدير

باحثات عن القنائص بالليـ

ـل ، فكم قادر ، وكم مغدور

كم جراحات خافق ليس يهدا

من لهيب الشجون بين الصدور

كم هتافات مفرد مهجور كم تهاويل خائف مذعور

أيقظتها بكل قلب وروح صرخات الردى لقلب خطير

صرخات جبارة في سكون الليل (م)

يا هولها ! كصوت النذير

هي الموت كالصدى يتمشى في كبير القطيع أو في الصغير

يا له راعيا رعته السماوا

ت وصاغت ضميره من نور

من له والسكون يطلق في الغا

ب صداه بكل هول مثير

والدجى كالح كوجه كشير والدجى كافر كقلب غدور

والدجى عابث كعبث القفير

والدجى ساكن كصمت القبور

والدجى آه ! كم يمتحيه من هو

ل ومن جائر ومن مستجير

من له ؟ من له ؟ سوى الرحمة العا

يا من الخالق العلي القدير

يا له راعيا رعته السماوات (م) وصاغت ضميره من نور

فيلسوف الضمير لا يرهب الليـ

ـل إذا جنه رهيب الستور

يبعث الشدو للطبيعة حبا لم يزل خالدا خلود الدهور

حسين محمود البشبيشي

البحث جميعه وتمهد لها ؛ وهى بهذا ترتبط ارتباطا وثيقا بالخاتمة .

وأما الفصلان الأولان فهما صلب المؤلف ودعامته ، يلخص أولهما تطور الأسرة من حيث نطاقها ووظائفها ومحور القرابة فيهـا ، ويبسط الثـانى الزواج فى قيوده وطبقاته ، ومراسمه ووسائله ، وتعدد الأزواج والزوجات ، والحقوق والواجبات المترتبة على علاقة الزوجية . ففيهما مادة مستوفاة واستيعاب كاف . وقد عوّل الباحث فيهما على المنهج التاريخى تعويله على المنهج المقارن ، وأفاد من ملاحظات الرحالة وعلماء خصائص الشعوب .

وإذا كان هذان الفصلان قد اشتملا على دراسة وصفية استعراضية ، فإن الفصل الأخير يقوم على دراسة تحليلية استنتاجية مستمدة من الدراسة الوصفية السابقة ؛ لهذا كان أشبه بالخاتمة منه بأى شىء آخر ، وفى هذه الخاتمة يرفض المؤلف بعض الفروض التى سبق أن ذكرها فى مقدمته ، وينتهى إلى ثلاث حقائق رئيسية يراها ثمرة لبحثه : أولاها أن الأسرة نظام اجتماعى يقوم على عرف وقواعد ترضاها المجتمعات دون أن يتأثر بالغرائز والطباع على اختلافها ، والثـانية أن هذا النظـام ليس من صنع الأفراد ولا يخضع لما يريده القادة والمشرعون ، وإنما يتطور وفق نواميس عمرانية ثابتة ، والأخيرة أن نظام الأسرة يرتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات الأمة وتقاليدها وعرفهـا الخلقى وشئونها السياسية والاقتصادية ؛ فمن العبث أن يفصل عن ذلك وينظر إليه على أنه مستقل بذاته لا يؤثر ولا يتأثر بشىء .

* * *

ولا نود أن نعرض هنا لمناقشة نظريات طال فيهـا الأخذ والرد ، وأضحت فيما نعتقد لا تحتمل أن نعود إليها . ونكتفى بملاحظتين اثنتين قد يكون فيهما ما يقضى على كثير من أسباب الخلاف . فنلاحظ أولاً أن الجدل العلمى — كالجدل السياسى — يؤدى أحيانا إلى شىء من الغلو والتطرف ، فينتهى بالمرء إلى أن يرفض كل ما خالف رأيه وإن لم يتعارض معه ؛ وإلا فهل القول بالعرف والتقاليد والاعتداد بالمجتمع وسلطانه يتنافى مع إثبات الغرائز والطبائع وتأثيرها فى المجتمعات كما تؤثر فى الأفراد ؟ وهل التسليم بما للمجتمع من وجود ومشخصات يستلزم إنكار الأفراد ؟ وعندى أن الخطأ كل الخطأ فى أن نلتزم أحد هذين الطرفين ، ونحاول تفسير الظواهر الاجتماعية المعقدة بعامل منفرد وسبب وحيد .

ومهما يكن من أمر هذا التوفيق الذى قد لا يروق لدى تلاميذ دركايم وأتباعه من رجال المدرسة الفرنسية الاجتماعية ، فإن هناك نقطة أخرى يجب ألا ندع أى مجال للبس أو غموض . وأعنى بها أن « القول بأن نظم الأسرة تلقائية تخضع لنواميس عمرانية ثابتة » لا يشل مطلقا يد القادة والمشرعين ، ولا يقف بحال حجر عثرة فى سبيل التجديد والاصلاح . بل على العكس كل نظام اجتماعى بين الجمود والحركة ، فهو جامد لتعلق العامة به وتشبثهم بأهدابه ومتحرك لأن ذوى الرأى يحرصون دائما على تهذيبه وتنقيحه ، وجامد أيضا تحت تأثير الإلف والعادة ، ولكنه متحرك كذلك بحكم سير الزمن وتقلباته .

ومن أخص خصائص المصلح بعد النظر وإعداد العدة للمستقبل وسبق الحوادث قبل أن تواجه عالم يتدرع له . فلننهض إذاً بأسرتنا ما استطعنا ما دام النهوض يقوم على دعائم سليمة ، ولنغير من نظمها ما شئنا ما دام التغيير يجارى العصر ويتمشى معه .

* * *

وبعد فأخشى ما أخشاه أن يكون فى هاتين الملاحظتين العابرتين ما يعكر على القارىء صفو بحوث أريد بها أن تكون هينة لينة . ولكن أليس من الطريف أن نجر أمثال هذه البحوث إلى مناقشات علمية بعيدة الآفاق . فلتسر الجمعية الفلسفية إذاً على طريقتها ، وليأخذ منها كل قارىء ما يشاء ؟

إبراهيم مدكور

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٣٥ — الثلاثاء ١٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ٢٩ من مايو سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العــــــدد

غيــــوم

مشكلة سوريا ولبنان — ضرورة اتحاد كلمة الدول الكبرى

كان الأمل أن يخرج الناس من هذه الحرب بنفوس أصفى وأطهر ، ويستقبلوا العهد الجديد بروح إنسانية سامية تؤمن بحق الجميع فى الحرية والعدالة ، ولهذا رحبوا بانتهاء الحرب فى أوربا ، وزوال حكم الطغيان فى إيطاليا وألمانيا . ولهذا تصبو نفوسهم لأن تكلل بالنجاح جهود الأمم المتحالفة فى التغلب على المعقل الباقى من معاقل الطغيان فى اليابان ، فيخلو وجه الأرض من كل مظهر من مظاهر حكم البغى والعدوان ، وينعم الناس بالأمن والسلام ، ويسود العلاقات بين الأمم روح الإنصاف والتعاون والإخاء.

ولكن فى الأفق غيوماً تتجمع هنا وهناك ، وكلها لا تبعث على الطمأنينة ، ويخشى الناس أن تكون نذراً بتعكر صفو العلاقات بين الأمم . ويرى البعض فيما تقوم به بعض الدول من حركات خفية وظاهرة دليلا على أن الحرب ومصائبها وويلاتها لم تغير كثيراً من أساليب السياسة العتيقة ولم تبدل من عقلية الدول الكبيرة التى لا تزال تصدر فى تصرفاتها عن نزعة التملك وحب السيطرة التى كانت تغلب عليها قبل الحرب ، وكأنما ذهبت مع الريح تلك الصيحات الإنسانية الكريمة التى كانت تبشر الأمم الصغيرة بالخلاص والحرية ؛ وكأنما كانت المحن التى قاستها أمم الأرض جميعا ، والأخطار التى استهدفت لها والدماء المشتركة التى بذلتها عن رضى والتضحيات التى احتملتها صابرة وسيلة لتمكين الدول الكبيرة من بسط سلطانها

على الأرض والتحكم في مصاير الأمم الصغيرة . وكأنما كانت المطامع كامنة متحفزة تترقب فرصة الخلاص من الدول المعادية القوية لتفتك بالفريسة السهلة من الأمم الضعيفة الصديقة ! فالناس هم الناس ، لم تقدمهم العظات ، ولم تثقفهم العبر ، يصطنعون الرقة والرحمة إذا عجزوا ، وتغلب عليهم شهوة البغي والقسوة إذا قدروا ، ويدعون دعوة الخير في ساعة الشدة ، ويتملكهم الغرور والكبر حين الخلاص والفرج ؛ ويجتذبون الأعوان والأنصار بالوعود الطيبة في وقت المحنة . ثم يتنكرون لهم وينسون وعودهم إذا ذهبت عنهم النقمة . فهل كتب على الإنسانية أن تظل مقيدة بأغلال الطبيعة البشرية الخبيثة ، ولا تخطو خطوة حقيقية للتقدم وتحقيق تعاون كريم وحرية شاملة وأمن سابغ بين كل من يعيشون على ظهرها ؟

خذ مثلا ما تناقلته الأنباء من الحدث الأخير الذي قام بين فرنسا من جهة وبين سوريا ولبنان من جهة أخرى . لقد اعترفت الدول جميعاً ومن بينها فرنسا باستقلال هاتين الدولتين ، وقد يكون لفرنسا من الصلات الخاصة بهاتين الدولتين ما يدعو لأن تباحثهما في تنظيم تلك الصلات ، والسبيل الطبيعي لذلك التفاهم الهادئ ، بالأساليب السياسية الحكيمة على أساس الثقة وتبادل الاحترام ، ومفاوضة الند للند والصديق الكريم للصديق الكريم . ولكن هذا الأسلوب الحكيم لا يتفق مع العقلية السياسية البالية ولا يرضي كبرياء الروح العسكري الذي لا تزال آثاره عالقة ببعض أذهان رجال الحكم في فرنسا . فكيف تنزل فرنسا لمفاوضة أمتين كانتا إلى ما قبل الحرب خاضعتين لنفوذها ؟ وكيف تكون مطالبها محل أخذ ورد ، وهي تملك من القوة ما لا تملكه الدولتان ؟ إذاً لا بد من أن تعزز المطالب بغير حجج الإقناع والبرهان ، وتستند بقوة حربية تنذر عما لا يقوله اللسان . لهذا عمدت إلى إرسال إحدى سفنها الحربية بعدد من جنود مستعمراتها ، دون أن تستأذن الدولتين في إنزالها . وخطت هذه الخطوة ومندوبوها في سان فرنسيسكو يتباحثون في كيفية إقرار السلام على الأرض ، ومنع أمة من العدوان على أخرى ، وإقامة العلاقات السياسية بين الأمم على التفاهم والمحبة !

وأية دولة تقوم بهذه الخطوة ؟ هي فرنسا ، مهد الحرية والعدالة والمساواة ، وهي فرنسا الجريحة التي عرفت معنى الألم من الاعتداء ، وأدركت مبلغ أثر إذلال النفوس الكريمة بالقوة الغاشمة . وقاست من ألوان البلاء في جهادها ما كان حقيقا أن تحمل معه لواء الدفاع عن الأمم الضعيفة التي يعتدى عليها ، لا أن تكون هي الباغية المعتدية !

ولو أن هناك مبرراً لهذه الخطوة من الناحية العملية لأغضينا عن شذوذها من الناحية الشكلية ، ولكن المبررات التي ذكرتها بيانات فرنسا والمدافعين عنها مبررات واهية ، لا تستند إلى أسس قوية .

قيل إن فرنسا تزمع إرسال قوات للشرق الأقصى ، وهي تتخذ هذه البلاد مركز اتصال بينها وبين الميدان ، وإن صح هذا فما ذا كان يمنعها أن تبلغه للحكومتين من قبل ، وهما مشتركتان مع الحلفاء في الحرب ، وما كانتا لتأبيا عليها ذلك إذا اقتنعتا بضرورته لتحقيق الغاية الحربية المشتركة .

وقيل إن فرنسا تخشى إذا لم تكن لها هناك قوات كافية أن تتجه للدولتين مطامع دول كبرى أخرى . ولهذه الدعوى دلالة ، فهي تبين أن ثقة فرنسا بنيات حلفائها ضعيفة . وإن صح أن لدى بعض الدول الكبرى تلك النية فهل تظن فرنسا أنها قادرة على مقاومتها بمن أرسلتهم من الجنود السنغاليين القلائل ؟ وهل تظن أنها قادرة على مقاومة تلك المطامع المزعومة بكل قواتها وهي تعلم أنها في ظرفها الحاضر لم تستكمل من الاستعداد ما يجعلها قوة يحسب حسابها ويخشى بأسها ؟ وإذا كانت جادة في درء

أخطار الدول الأجنبية من سوريا ولبنان فلماذا لم تصارحهما بذلك وهما أشد غيرة على استقلالها وكرامتهما من أن ترضيا سيداً بدلا من سيد، فتتجه جهودها مع جهودهما في مفاوضة تلك الدول في سحب مالها من قوات بدلا من إضافة قوات جديدة إليها ؟ !

وما قول فرنسا الآن وقد أعلنت انجلترا نياتها واستعدادها لسحب كل قواتها إذا سحبت فرنسا جنودها؟

بقيت حجة أخيرة، وهي دعوى فرنسا أنها منوطة بحماية المصالح في هاتين الدولتين وإقرار الأمن والنظام فيهما، وهو تبرع لم يطلب إليها تقديمه ولم تقم ضرورة تدعو إليه، فالدولتان بحمد الله في أمن واستقرار، ولا يعكر صفوهما إلا هذا التدخل الأجنبي البغيض.

الحق أننا لا نجد لفرنسا عذرا في استفزاز الشعور القوي لدى السوريين واللبنانيين والعرب كافة بهذا التصرف من غير اقتضاء. والحق أن قيام فرنسا بهذا التصرف الشاذ من غير رجوع إلى أصحاب الشأن ومن غير تفاهم مع الدول جميعا يعتبر انكاراً للوضع الجديد وتجاهلا للروح العامة الجديدة ورجوعا إلى السياسات الفردية التي لاتبالي الاعتبارات الدولية.

وإننا لنصارح فرنسا أن منزلتها في الشرق لاتقوم على القوة ولا على النفوذ السياسي، وإنما تقوم على صلات ثقافية تقربها إلى نفوس الشرقيين وأنها تفقد كثيرا إذا انساقت وراء نزعات السيطرة والتحكم واعتاضت بها من الصلات الأدبية والروحية.

ونصارحها أن العرب جميعا قد اجتمعت كلمتهم على مقاومة كل من يمس استقلالهم من الأمم، وأنهم يترقبون خطوات جديدة لاستكمال استقلالهم لا رجوعا للوراء.

على أن مثل هذه التصرفات الفردية التي تقوم بها فرنسا وتقوم بمثلها يوغسلافيا، وقد تقوم بها بعض أمم الأرض الأخرى، إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن تلك الدول الثلاث الكبرى غير متفاهمة التفاهم التام على المبادئ التي تسير بها العالم والأسس التي تضع بها قواعد النظام الجديد. وإلى أن يتم اتفاق هذه الدول واتحاد كلمتها سيظل العالم عرضة لمثل هذه التصرفات الفردية الشاذة التي تستغل قيام الخلاف بين الدول الكبرى واشتغالها بالمسائل المعلقة بينها لتقدم على خطوات جريئة تضعها أمام الأمر الواقع. فالحل الصحيح لانقطاع كل أسباب الشكوى واطمئنان النفوس هو أن يسود التفاهم التام بين روسيا وأمريكا وبريطانيا. ولن يتحقق التفاهم إلا إذا تجردت ثلاثتها من المطامع الخاصة، واتفقت كلمتها على أن تعمل متحدة على تحقيق الحرية والعدالة للناس جميعا، وإلزام كل دولة حدها، وإشعار كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على غيره أن قوى العدالة الدولية واقفة له بالمرصاد.

. . . . .

جلسة . . .

في سكون الليل ياحسناء، والأنسام تسرى
قرب تلك الدوحة الورقاء، والأضواء تجرى
جلسة كانت لنا مابين أزهار وخمر
وغصون داعبتها الريح فاهتزت بسحر
أنعش الأرواح ذاك الجو مذ فاض بعطر
ولقد غبنا عن الدنيا وما كنا لندرى
نحن في واد من الأحلام أم منبع شعر
وتصفحنا قيود الدهر من صد وهجر
فمحوناها وسطرنا سويعات خلسناها بسر
ثم عدنا وشربناها جزافا دون حصر

* * *

ولقد حلت ذاك الليل اشجانى .. ووزرى
وسألت البارى، الخلاق اسعادا لعمرى

(حيفا) سليمان أحمد

أدب النصر

استراحت الدنيا من جهنم الحرب ، فأخذ كل واحد من الناس ينظر إلى عواقبها من زاويته ، وأوحت هذه العواقب إلى كل واحد منهم وحياً خاصاً ، فما شغل خاطرى شيء من هذه العواقب مقدار ماشغلته خطب أعاظم الحلفاء يوم النصر . لسنا معاشر الأدباء من رجال الحرب حتى ننظر في الأسباب التي أفضت بفريق إلى النصر وبفريق إلى الانكسار . ولسنا من رجال السياسة حتى نبحث عن الأسباب النفسية التي من أجلها أخفقت ألمانيا ونجحت انجلترة وحلفاؤها ، ولكن أعمالنا تتعلق بالألفاظ ، وإذا توسعنا في التعبير ، بالأجسام التي تنطوى عليها هذه الألفاظ ؛ فمن مهمتنا أن ننظر في هذه الخطب التي خطبها أعاظم الحلفاء يوم النصر ، وأن نستنبط منها أشياء غير الأشياء التي يستنبطها رجال الحرب والسياسة ، إن من وراء هذه الخطب أفقاً جديداً من الأخلاق .

مارست البشرية حرباً لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في عصوره ، فقتل فيها من الخلق مالم يقتل مثله في حروب شتى ، وظهر فيها من الآلات مالم يتصوره عقل الناس في الماضي ؛ فالأمة التي كتب لها النصر في هذه الحرب لاتشبه الأمم التي كتب لها النصر في القديم ، فقد صبرت كثيراً ، وألمت كثيراً ، وبلغ منها الجهد كل مبلغ ، فما عرفت الراحة في ضياء النهار ولا في ظلمة الليل ، ولا خلت دار من دورها ولا قرية من قراها ولا مدينة من مدنها من جريح أو قتيل أو ضحية أو تدمير ؛ فاذا افتخرت هذه الأمة بعد هذا كله بالنصر فمن حقها هذا الافتخار ، وإذا غضّت من عدوها فمن حقها هذا الغض ، وإذا تنطع رجالها في خطبهم فمن حقهم هذا التنطع . ولكن العجب كل العجب أننا لم نر أثراً لهذا الفخر ولهذا الغض ولهذا التنطع في خطب طائفة من رجال الحلفاء ؛ فقد خطب ملك الانجليز ورئيس الولايات المتحدة ورئيس وزارة الانجليز ، فما وردت في خطبة واحد منهم لفظة تدل على شيء من الزهو أو العنجهية ، وما شاعت في خطبة واحد منهم لفظة تدل على شيء من الجبروت ، فلم ينس ملك الانجليز أن يشكر الله تعالى الذى أراح الأمم من هذه الحرب ، ولم ينس رئيس الولايات المتحدة أن يخصص يوماً للصلاة والشكر ؛ فليس في كلامهما ما يشير إلى سحق عدو ماعرف التاريخ له نظيراً في القوة . أرجو أن يملأ كل أديب ذهنه من هذه الخطب ، إنها لا تحتوى على محاسن الأدب ، فليس فيها براعة في تشبيه أو مجاز أو استعارة ، وليس فيها مهارة في انتخاب الألفاظ ، ولكن فيها البساطة والعظمة ، فيها البلاغة المجرّدة من المحسنات اللفظية الفارغة ، فيها صورة أصحابها وصورة أخلاق الأمم التي ينتسبون اليها ، فيها بلاغة القوة !

غداً سيتفرغ رجال السياسة لتدوين تاريخ الحرب من النواحي السياسية ، وسيهتم رجال الحرب بتدوين هذا التاريخ من النواحي الحربية ، وسيعنى رجال الاقتصاد بتدوينه من نواحيه الاقتصادية ، والخلاصة غداً ستكثر الكتب التي تتعلق بهذه الحرب ؛ فتكشف الغطاء عن أسبابها وعواملها ، وعن أسباب النصر والانكسار فيها ؛ ولكن شيئاً واحداً يهمنا معاشر الأدباء في هذا الوقت ، وهو الأفق الخلقى في خطب رؤساء الحلفاء .

لقد كانت هذه الخطب عبرة لنا في بلادنا الشرقية ، علمتنا كيف ينبغى لنا أن نضع الألفاظ في مواضعها ، وأن نقيسها على مقادير معانيها ، فلا نعطى المعنى أكثر مما يستحق من الألفاظ ، فقد تحتاج خطبنا السياسية إلى هذا النمط من البلاغة ، تحتاج خطبنا السياسية إلى بساطة التعبير ، ووزن الكلام ، إلى البساطة الدالة على العظمة والأدب والأخلاق ، المجردة من الزهو والباطل ، المصفاة من ألفاظ العنجهية كالسحق والتحطيم والتهشيم . إن أدب النصر الذى أشرت اليه إنما هو أدب أمم بحذافيرها ،

مطابق لأخلاق هذه الأمم ، ولئن كان للآلات فضل فى هذه الحرب فإن للأخلاق فيها فضلاً أعظم . لقد بدأت الحرب وبعض الخلفاء لا نسبة بين عددهم وعدة عدوهم ، فصبروا ولم يتضعضعوا ، فقاسوا ما قاسوا ، ونسوا نضارة عيشهم ، واحتملوا خشونة الحياة ، وقلقت خواطرهم ، وخربت دورهم ومدنهم ، فلم يدخل اليأس على قلوبهم ولا ضاقت أخلاقهم ، حتى أدركوا ما أدركوا ، ونعموا بما نعموا ، فكان انتصارهم بأخلاقهم أكثر من انتصارهم بآلاتهم ، فإذا وجدنا عظمة فى خطب رؤساء حكوماتهم فلا نعجب من هذه العظمة لأنها صورة عظمة شعوبهم ، وعظمة أخلاق هذه الشعوب .

أعتقد أن أدبنا فى عصر من العصور لم يخلُ من هذه العظمة التى نشاهدها فى خطب رؤساء الحلفاء ، لأن ذلك الأدب كان صورة أخلاق رفيعة ، كان بسيطاً لأن البساطة والعظمة متلازمتان ، وإذا استشهدت بخطبة من هذا النمط فلا أستشهد بغير خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم على عثمان بن عفان بفتح أفريقية ، وقصّ عليه كيف كانت الوقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه وطلب إليه أن يقوم بمثل هذا الكلام الذى سمعه على الناس ، فقام عبد الله خطيباً ، وخطب خطبته المشهورة التى قال فى بعضها :

« أيها الناس ، رحمكم الله ! إنّا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنّا مع والٍ حافظ ، حفظ وصيّة أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأبردين ويخفض بنا فى الظهائر ، ويتخذ الليل جملاً ، يعجل الرحلة من المنزل الجدب ويطيل اللبث فى المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حال نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى أفريقية فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياماً نجم كراعنا ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأناهم وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالاً من المسلمين ، فبتنا وباتوا وللمسلمين دوىٌّ بالقرآن كدوىّ النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا الذى كنا عليه بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره وأنزل علينا نصره ، ففتحناها فى آخر النهار فأصبنا غنائم كثيرة وفيئاً واسعاً » .

هذه خطبة إذا دلّت على شىء فإنها تدلّ على أخلاق عظيمة . لم يكن فتح إفريقية بالأمر اليسير ، فقد كان هذا الفتح باباً لفتح الأندلس ، وتاريخ الأندلس مفخرة من مفاخر العرب والإسلام ، فلم يرد فى خطبة ابن الزبير ما يشتمل على شىء من الزهو والباطل ، فيها صورة القائد الرءوف بجنده ، الحريص على راحتهم وطمأنينتهم ، وفيها صورة أمة كانت تقاتل فى سبيل مذهب من المذاهب ، فى سبيل الإسلام ، وفيها صورة رجال جعلوا باب السياسة قبل باب الحرب ، فلم يقاتل المسلمون أهل تلك البلاد إلاّ بعد أن يئسوا منهم ، وفيها صورة القواد الصادقين الذين لا يخفون على الرعية شيئاً من أحوال الشدة ، فقد كان فى فتح إفريقية قتلى كثيرون من المسلمين ، وفيها صورة الأمة التى تهم بمثل أعلى فى الحياة ، وما دوىّ المسلمين بالقرآن إلاّ مظهر من مظاهر هذا المثل الأعلى . والخلاصة انطوت خطبة عبد الله ابن الزبير على البساطة والعظمة ، فلم يفتح المسلمون إفريقية ، وإنما الله عزّ وجلّ هو الذى أنزل عليهم نصره !

فما أشبه الروح التى تشيع فى خطب رؤساء الحلفاء يوم النصر بالروح التى تشيع فى خطبة ابن الزبير يوم فتح إفريقية . لم تكن أشباه هذه الخطب مجرّد ألفاظ يفتش الأدباء عن محاسنها أو مساوئها . وإنما هى صور أجسام ناطقة فيها لحم ودم وروح ، فإذا بحث الأدباء فيها فإنهم يبحثون عن الأخلاق التى تشتمل عليها ، ثم يخرجون من

مباحثهم بنتائج في علم الأخلاق تكاد تكون ثابتة على وجه الدهر، وهي أن الأمة لا تعلو في عظمتها إلا علت في أخلاقها؛ فكأنما العظمة والأخلاق متلازمتان في الأمم. ولقد أجمع كثير من علماء الاجتماع على أن أعلى الحيوان أخلاقاً أقواه وأشده، وطبقوا هذه القاعدة على الأفراد والجماعات والأمم فقالوا: أرفع الأمم أخلاقاً أقواها وأشدها وأسفلها أخلاقاً أضعفها، وإذا صدق هذا القول في أمة فإنه يصدق في العرب في صدر أمرهم. وما خطب رؤساء الخلفاء التي أشرت إليها، وما خطبة ابن الزبير إلا عناوين عظمة أمم أصحابها، ولقد ظهرت هذه العظمة في أدب العصر فمتى يعرف رجال سياستنا من ثمر هذا الأدب!

شفيق جبري

خطرة ريفية:

حارس أمين ومنبه يقظ

تتضاءل قيمة بعض الحيوانات في النهار وترتفع تلك القيمة في الليل لاعتبارات تفرضها يقظة القرية ورقادها.

فقد يصيح الديك صيحاته المتقطعة المتعددة في وضح النهار، ولكنها تذوب في صوت اليقظة فلا يلتفت إليها ولا يؤبه بها، وينبح الكلب في القرية نباحه المتواصل أو المتقطع، فيمتزج صوته بالأصوات الأخرى، وتتلاشى جميعها في تلك اليقظة..

ولكن عندما يقترب المساء، وتعود القرية تحتضن ما انتشر منها عند الصباح من إنسان ودواب، ويتكاثف سواد الليل شيئاً فشيئاً، وتتدرج القرية في هدوئها حتى تخالها تغط في إغفاءة من النوم — عند ذلك والليل ساج والقرية هادئة نائمة تصور نفسك وأنت تسمع نباح الكلب يقطع سكون الليل في أوله. لعله يوحي للمسافر ليلاً بأنسة تزيل بعض الوحشة من رهبة سكون الليل، بل لعله يرشد ضالاً نحو حي آهل بالسكان. أو قد يثير اليقظة والانتباه في أهل الحي نفسه عند قدومه لذلك المكان. ولكن كل هذه الانطباعات تتضاءل بجانب ذلك الانطباع القوي عندما يعلو نباح الكلب بصوت متصل يقترب من الزئير فيكون في حالة الدفاع لاقتراب خطر يتوقعه.. عندئذ تشاركه كلاب القرية في النباح والعزم نفسه حسب قربها من مصدر النباح الرئيسي فتخال كلب النهار تحول إلى سبع الليل، بل وتخال القرية وقد نام أهلها تحولت إلى مسبعة..

أيها الكلب.. عفواً! أيها السبع.. نعمت المسئولية التي سمت بك فحولتك سبعاً، تؤنس والليل موحش، وتحرس والناس نيام..

ويسير الليل حتى منتصفه فيعلو في القرية صوت آخر، تعلو قيمته في الليل بقدر ما تتضاءل في النهار، ألا وهو صوت الديك.. ومن منا لم يسمع صيحة الديك الأولى تقطع سكون الليل في النصف الأخير منه.

ينفض الديك جناحيه ويصفق بهما رافعاً عنقه، مطلقاً في الفضاء صيحات متوالية، مشاركاً زملاءه الديكة في صيحاتها التي تنبعث في القرية فترة قصيرة، ثم يعود الديك والديكة إلى الغفوة.

وتتكرر تلك الصيحات في فترات منتظمة يكاد يضبط الإنسان الوقت حسبها، وكأن هذه الفترات من يقظة الديكة وصياحها، تتخللها الغفاءات منتظمة كأنها فترات تمهيدية إلى اليقظة الأخيرة التي تتمثل في صياح الديكة عند مطلع الفجر، فتكون هذه هي النداء الأخير لاستيقاظ القرية.

أيها الديك الموقظ.. نعمت تلك الصيحات الممهدة لصيحتك الأخيرة تبعث حياة القرية عند الفجر من جديد.

أيتها القرية... هنيئاً لك — كلبك الحارس الأمين، وديكك المنبه اليقظ...

جنين — فلسطين حسن مصطفى

أول الواجبات

رفع مستوى المعيشة بهذه البلاد

– ٤ –

ولا يكفي هذا أول الأمر . بل لا بد أن نراعي في اتفاقنا مع البيوت الصناعية في الخارج أن يصحب الآلات مهندسون وصناع ماهرون يقيمون ببلادنا مددا معقولة يمنحون خلالها أجورا حسنة ، يدربون أثناءها مهندسينا وصناعنا على مزاولة كل ما يتعلق بتلك الآلات ويقطع غيارها .

وينبغي أن تتجه بحوثنا العلمية إلى الناحية الصناعية ولا تقتصر على من ترسلهم الحكومة بل تقوم المؤسسات المالية والصناعية بإرسال بعوثها .

بهذه الوسائل وأمثالها يمكن أن ينشأ بمصر جيل مزود بسلاح العلم والعمل ، القائم على أسس سليمة فيكون نجاحنا مكفولا .

ولا ينبغي أن يقتصر الأمر على مكتب البحوث الذي تنشئه الدولة . فقد يكون قيامه بطيئا وعمله عرضة للتعطيل لسبب من الأسباب العديدة اللازمة لما تقوم به الدولة من أعمال . ونحن نتطلع إلى قيام مؤسسات علمية للبحوث الصناعية والمالية تستقبل بمكاتبها الاستشارية كل قاصد ، وتتقاضى عما تشير به أجورا مناسبة ، ويرجع إليها كما يرجع إلى الأطباء والمحامين . نتطلع إلى هذا ونضع كثيرا من الأمل في جماعة المهندسين وأعضاء الجماعات العلمية الأخرى واتحاد خريجي الجامعة . ويمكن أن تكون اللجان التي شكلها مؤتمر المهندسين المجتمع بالإسكندرية منذ عهد قريب نواة لمكاتب البحوث التي أشير بقيامها .

ولست أستطيع ترك هذه النقطة قبل أن أتوجه بدعوة حارة إلى طلبة الجامعة وأساتذتها ليضعوا نصب أعينهم ضرورة تحول بلادهم إلى بلاد نصف صناعية وإلى أن يكون أكبر همهم في حياتهم تحقيق هذه الغاية . فعلى تحقيقها يتوقف كياننا كأمة تستطيع السير في موكب الأمم الحية . فإذا توجهوا إلى هذه الناحية بمشاعرهم وعقولهم فلن يعجزوا عن إشاعة روح البحث العلمي في مصر . ولن نلبث أن نتوجه بكليتنا إلى العمل على تحقيق هذه الغاية التي لا بد من بلوغها حتى لا نتردى في الهاوية السحيقة في نهاية المنحدر الذي يؤدي إليه توالي هبوط مستوى المعيشة في هذه البلاد .

وإني لأشعر بشيء من الاطمئنان لمجرد تصور تكوين جماعات من خريجي أقسام الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والجيولوجيا والمال والاقتصاد وغيرها ، تضع كل منها لنفسها برنامجا محددا تنفذه على مراحل متصلة . فيبحث كل فريق من أعضائها مسألة معينة ويعرض نتائج بحثه على إخوانه ليقروها أو لا يقروها . وإذا ما استوفى الموضوع بحثا وتمحيصا ومراجعة قام بتنفيذه الخريجون أنفسهم لصالحهم أو عرضوه على رجال الأعمال للقيام على تنفيذه . وقبول هؤلاء ، أو رفضهم القيام بتنفيذ ما حضر المتخصصون دليل على دقة البحث وسلامة الاتجاه ، أو برهان على عدم الدقة وخطأ الاتجاه .

وإذا ما اتجهت الدولة إلى إنشاء مكتب للأبحاث واعتبرته ضرورة كما تعتبر إنشاء البنك الصناعي ضرورة . وإذا استثمر العالم فيما يتصل بالصناعة علمه باعتباره شيئا ذا قيمة مادية ، يطالب كما يطلب ما عند الطبيب وما عند المحامي ويؤجره من يحصل عليه ، وإذا اتجه خريجو أقسام الجامعة بمشاعرهم وعقولهم إلى التحول الاقتصادي الذي لا بد منه — إذا تم هذا — فإن نجاحنا في هذا التحول لا بد أن يكون تاما لتوافر جميع أركان النجاح .

الإنتاج الزراعي :

طبيعي ، وبلادنا زراعية ، ألا نتراخى في العمل على الإكثار من الإنتاج الزراعي بنفس العناية التي نبذلها في سبيل الصناعة ؛ فالغرض الأول من النهوض بالصناعة

رفع مستوى العيش . وقد قلنا إننا لا نطمع فى أكثر من إنتاج مصنوعات يستهلكها سكان مصر . ولن تجد المشترى إلا إذا كانت موارد المشتغلين بالزراعة تكفى لشراء ما تنتج الصناعة .

ومما لا ريب فيه أن ماعدا الصحراء من مساحة مصر رقعة ضيقة بالنسبة لعدد السكان . ولكن مما لا ريب فيه كذلك أننا الآن لم نحسن الانتفاع بهذه الرقعة الضيقة طبقا للطرق الفنية وعلى أساس اقتصادى . ولن أعرض هنا المشروعات التى ترددت كثيراً حول الانتفاع بمياه النيل التى تذهب فى البحر ضياعا ، ومنها مشروع وادى الريان وغيره . فقد أفاض القوم فى هذا وإن كان العمل لا يصحب القول . وأكتفى هنا بتوجيه النظر إلى نقطتين :

فأما الأولى فهى أننا نجد مزارع تأتى بريع وفير إلى جانب أرض ، من نفس التربة ، تكاد تكون جرداء . والفرق بين الحالتين عناية ومقدرة مالية من جهة ، وجهل وعجز مالى من الناحية الأخرى ، وبعض الزراع يطبقون طرق الزراعة الحديثة ويراعون قوانين الاقتصاد فى الاستثمار . وإن المرء ليدهش إذ يرى مزارع جنا كليس اليانعة المثمرة بأبى الطامير وإلى جانبها أراض لغيره تظهر كأنها موات ، والمعدن واحد . ومثل هذا غير قليل .

وإذا كانت الغالبية العظمى من الزراع المصريين من طبقة الفقراء والجهال ، فإن هناك فريقاً كبيراً من كبار الملاك يستطيعون أن يحذوا حذو جنا كليس وأمثاله القليلين . أما صغار الملاك فيمكن ، من طريق إنشاء جمعيات التعاون وإنشاء اتحادات بها الفنيون الأكفاء ، بهذا وذاك — يمكن الجميع استثمار أرضهم باتباع الطرق الفنية . ولا تزال حركة التعاون بطيئة محدودة النشاط . والطريق إلى بعث الحياة فيها ، بعد أن عدل قانون التعاون وأصبح ملائما ، أن تتخذ إجراءات إدارية لتوسيع نطاقه . ومن الطرق الفعالة أن يتقرر عدم قيام بنك التسليف الزراعى بصرف شىء من الأسمدة أو البذور أو القروض الزراعية لأى مشتغل بالزراعة إلا إذا كان عضوا فى جمعية تعاون زراعية وعن طريقها . لقد قامت الصناعة إلى جانب الزراعة فى أراضى جنا كليس . ويمكن أن تقوم فى غيرها بالأراضى الرملية المترامية الأطراف فى مركز أبى الطامير وغيره .

وأما النقطة الثانية فهى الانتفاع بأراضى الصحراء الشاسعة فى زرع أنواع من النبات لها قيمة اقتصادية كبيرة ولا تحتاج إلى الماء . ومن أمثلة هذا نبات السيسل ، وخير ما أقدمه للقارىء اقتطاف بعض ما جاء بالتقرير القيم الذى وضعته لجنة التجارة والصناعة سنة ١٩١٧ برياسة صدقى باشا ، جاء فى أحد ملاحق التقرير عن السيسل .

١ — « أنه ينمو فى البلاد الحارة بلا حاجة إلى معونة الإنسان ومن غير سق ولا سماد ، مكتفيا باستمداد الرطوبة اللازمة من أنداء الصباح ومن غيث السماء فى خلال الفصول الممطرة ، وهو يزرع على هذه الصفة فى جميع أنحاء المكسيك ، حيث ينمو فى أرض قاحلة مجدبة ولكنها تخرج ٧٥٪ من مجموع محصول العالم » .

وبلغ مجموع ما أنتجته المكسيك حينذاك مائة وثمانين ألف طن .

٢ — « يمكن استخدام أليافه فى صناعة خيوط تفضل سائر أنواع الخيوط لعمل أنواع الفارش الخشنة وأمراس المراكب والحبال والدوبارة الخ » .

٣ — « أحرز المشتغلون بزراعته بالمكسيك أرباحا طائلة وكانت تلك الزراعة السبب فى الرخاء المستفيض الذى نالته بعض ولايات المكسيك التى كانت لا تنتظر غير الشقاء المر والفقر المدقع » .

٤ — « ومع أن زراعته فى حد ذاتها تدر أرباحا عظيمة فإنها تتضاعف على وفرتها ، باستغلال فضلاته فى استخراج كحول نقى بدرجة ٩٠ . وعملت تجارب كيمياوية تبعث على

الارتياح وتحقق الرجاء بإمكان الانتفاع بفضلات التكرير ، أى فضلات الفضلات ، لعمل نوع جيد للغاية من ورق ...

هذا مثل لما يمكن زراعته فى الأراضى الجافة الصحراوية بمصر . ويمكن تصور مدى ما ننتجه من زراعة هذا النبات سهل الزرع ، قليل النفقة ، مضمون التصريف ، بغض النظر عن مسألة الانتفاع اقتصاديا بالفضلات وفضلات الفضلات . ومن الغريب حقا ألا نتوسع فى زراعته وعندنا الأرض ولدينا العمال والجو حار يلائمه . لكن هكذا نحن : أرضنا غنية بمواردها ونحن عن استثمارها قاعدون ننظر جزعين إلى الهوة التى نراها فى نهاية المنحدر الذى نسير فيه بهبوط مستوى العيش المستمر .

ولم أقصد بالإطالة هنا إلا ضرب مثل للتوسع فى الزراعة بلا حاجة إلى مشروعات رى أو صرف . وهى زراعة تعود بالفائدة المحققة على الزراع والصناع وتفتح بابا للرزق فى مصر كما فتحته بالمكسيك .

التجارة :

إن مركز مصر يحتم على أهلها أن يكونوا تجارا . فمن التناقض أن يكون أهلها أبعد من جيرانهم عن الاتجار وجنى أرباحه . ولا سبب يمنع أهلها من العمل فى التجارة إلا حبس الأموال فى العقار وضعف الهمة وضعف الثقة وشيوع الجهل وسبق الأجانب إلى هذا الميدان ، وهم من نعرف من نشاط وتجربة وثروة عقلية . والآن وقد أدركنا الخطر ورأيناه فقد آن لنا أن نعمل . قد تثقف عدد لا بأس به من أبنائنا وأصبحوا ملمين بعلوم التجارة والمال ولا ينقصهم إلا الممارسة . وقد نزل بعض أبنائنا إلى الميدان فنجحوا نجاحا يجب أن يكون دافعا للمترددين الخائفين . لم يعد المال عزيزا ولا العلم . فلدينا من هذين ما يكفى للبدء . والذى ينقصنا إنما هو الأقدام ثم الصبر والمثابرة . فإذا بدأنا وصبرنا وثابرنا فلن نلبث حتى نكتسح الميدان ! إن أرباح تجارة الصادر والوارد والوساطة والمبادلات الداخلية جلها فى أيدى الأجانب ، احتكروها بتفوقهم ويتغلب النفوذ الأجنبى فيما مضى من أيام . أقول هذا لا حقدا عليهم ولا حسدا لهم ، ولكنى أقوله لأتساءل : إلى متى نرضى بفتات العيش وهذا الرضا يهوى بنا إلى الحضيض ؟ لا محل للرضا به وقد أصبح أمرنا بيدنا . إن من علامات الحيوية الطموح . والرضا بهذه الحال جمود نهايته الهلاك ، فإذا لم تكن رغبة الإرواء والتمتع بحياة أكرم وعيش أرغد تكفى لدفعنا إلى العمل ، فلنذكر جميعا أن الأمر جد وأن الدفاع عن كياننا كافة يوجب علينا المبادرة إلى خوض غمار معركة هى لنا معركة حياة أو موت . ولا حياة إلا للعاملين .

فلنعمل فى الزراعة والصناعة والتجارة ولتكن صيحة الميدان : الانتاج . ثم الانتاج . ثم الانتاج ! ! .

المستقبل المشرق

لا أتردد فى إعلان ما أحسه وهو أن المستقبل لنا ، وهو مشرق . فالذى أوحى إلى بكتابة هذه الكلمة هو الذى أوحى بعقد مؤتمر للمهندسين بالاسكندرية وأوحى بمناظرة فى الجامعة عن المال والعلم والصناعة اشترك فيها رجال المال والصناعة والعلم . فهذا كله فى وقت واحد باعث على التفاؤل . وها إن كثيرا من شركات الاحتكار سيتعاقب قريبا ، انتهاء آجال عقود احتكارها فتؤول إلى الدولة ، وفى هذا ثروة محققة تنتظرنا إذا ما أحسنا الاستعداد لها . وها قد بدأنا نطبق مبادئ توزيع الثروة عن طريق الضرائب ، وبدأنا نفكر فى التأمين الاجتماعى . ولا ينقصنا إلا الخطو خطوة أوسع ، لا ريب أنها ستكون ، مع ازدياد الثروة العامة ، عاملا له خطره فى رفع مستوى العيش ، وهو الغرض الذى نهدف إليه .

فلنعمل لهذا كله حتى تكون أمة جديرة بمركز مصر وتاريخها ، وحتى لا نتخلف فى موكب الحياة . والتطور العالمى المرتقب يوجب العمل السريع على من يريد البقاء والعيش الكريم .

(تم البحث) محمد عبد البارى

ساحر القرن العشرين

البنسلين

اهتزت أسلاك البرق يوما ما ناقلة إلى العالم خبر إصابة رئيس الوزارة البريطانية السير ونستون تشرشل بالالتهاب الرئوى ، فقلق الناس على مصير هذا الشيخ غير المحطم ، وعجبوا لجرثومة الالتهاب الرئوى كيف تطاولت إلى أنسجة هذه الآلة البشرية التى مضى عليها سبعون عاما طوالا وهى فى نشاط مستمر غير منقطع حتى أصبحت عنوانا لطول البقاء اليانع المنتج . ثم تساءلوا : هل من سبيل إلى إنقاذ هذه الروح التى قدر لها أن تقبض بإحدى يديها على مستقبل امبراطورية وتوجه باليد الأخرى مصير الديمقراطية . وأعلن أخيرا أن الرئيس نجا بفضل معجزة جديدة ، وخرج إلى النور اسم البنسلين الخلاب ، فكأنما البشائر دُقّت وزفّت للملأ أجمع بأنْ قد أصبح فى يد الانسان سلاح جديد فعال يقيه من أمراض كثيرة طالما سببت له عذابا مريراً ، وعكرت صفو حياته بآلامها وأضرارها .

وقصة اكتشاف البنسلين عجيبة حقا . فقد كان الأستاذ الانجليزى (فلمنج) يقوم فى سبتمبر ١٩٢٨ بدراسة خاصة بانبات الميكروبات المنقودية (ستافلكوك) فى أطباق زجاجية شفافة . وكان هذا العمل يستدعى رفع أغطية الأطباق من وقت إلى آخر ، وبذلك تتعرض للكائنات السابحة فى الهواء وهى على أهبة دائمة للرسو على أول حقل غذائى تصادفه . لاحظ فلمنج بعد بضعة أيام أن بأحد هذه الأطباق فطرا كالعفن الذى يكسو الخبز القديم أو الجبن الفاسدين ، ووجد أن مستعمرات المكورات المنقودية قد تحللت وتلاشت حول العفن ، فى حين أن الموجودة على بعد منه نمت وتكاثرت وانتشرت . هذه الظاهرة التى يصادفها آلاف البكتريولوجيين يوميا دون أن تلهمهم شيئا اجتذبت الكسندر فلمنج لأنه كان حاصراً ذهنه إذ ذاك فى أبحاث خاصة بالمواد المضادة الميكروبات ، فكان عثوره على هذا الفطر حافزاً له على التعمق فى البحث عن سر هذه الظاهرة . فأخذ يزرع الفطر فى سائل غذائى فنما وكوّن طبقة على سطح السائل بعد اسبوع ، ووجد أن هذا السائل يمنع نمو الجراثيم المنقودية (ستافلكوك) حتى بعد تخفيفه من ٥٠٠ إلى ٨٠٠ مرة ، أى أن قوته على وقف نمو الجراثيم تفوق قوة حامض الفنيك مرتين أو ثلاثاً . وسميت هذه المادة السحرية بالبنسلين ، لأن الفطر من فصيلة البنسليوم . ومضى فلمنج فى أبحاثه ليلمس تأثيره على مختلف الميكروبات ، فوجد أن لهذا الفطر تأثيراً مضاداً على بعض الميكروبات مثل السبحى (ستربتوكوك) والمنقودى (ستافلكوك) وميكروب السيلان والالتهاب السحائى والرئوى . فى حين أنه لا يؤثر مطلقا على جراثيم أخرى مثل جرثومة الانفلونزا وباسلس القولون والتيفود والكوليرا . واقترح الانتفاع به كعلاج موضعى فى حالات التقيح . وفى عام ١٩٣١ نُشر لفلمنج بحث آخر تنبأ فيه للبنسلين بمستقبل زاهر فى عالم الطب والعلاج . ولكن القصة طويت عاما بعد عام حتى سنة ١٩٤٠ عندما قام الاستاذ فلورى يصل ما انقطع ويلفت النظر إلى هذه المادة من جديد ، ونوّه بالدور الكبير الذى يمكنها أن تلعبه فى إنقاذ الآلاف بل الملايين من جرحى ميادين الحرب ، فأوفدته جامعة اكسفورد هو وزميله الدكتور هيتلى إلى الولايات المتحدة ليتفرغا للبحث والاستقصاء بعيدا عن ضجيج طائرات جورنج وأزيزها . وهناك أمكن استخراج مادة البنسلين بكميات كبيرة وارسالها إلى مستشفيات الميادين .

وهكذا ظهر البنسلين ليؤدى رسالته ، فأثبت أنه هبة إلهية سخر الله لاكتشافه ذهنا بشريا وفطراً طالما احتقره الباحثون لتفاهته . وبدأ بظهوره عهد جديد فى ميادين الطب فالأمراض التى كانت تشق فى أيام أصبحت تكفيها

ساعات ، والتى طالت إلى الأسابيع والشهور صارت تنحى أمام عظمة الدواء الجديد فى أيام . وبزّ فى مفعوله مستحضرات السلفاناميد ، فقد ثبت أنه يفوقها على الأقل بثلاثمائة مرة ، ووجد تجريبيا أن السيبازول مثلا يوقف نمو المكورات العنقودية (ستافلكوك) إذا خفف بنسبة واحد إلى ثمانية آلاف ، فى حين أن البنسلين يأتى بنفس النتيجة إذا خفف بنسبة واحد إلى عشرين مليونا .

ويحضر البنسلين على هيئة مسحوق أصفر يذوب بسرعة فى الماء أو محلول الملح أو محلول الجلوكوز ، ويحقن عند الاستعمال فى الوريد أو العضل أو بين أغشية الرئة وغطاء القلب وداخل المفاصل . ويحضر منه مرهم للاستعمال الموضعى ، أما وضع المسحوق نفسه على الجروح فغير مستحسن لأنه يسبب تهيجا موضعيا شديداً ، وقد ثبت أن حموضة العصير المعدى تؤثر على البنسلين تأثيراً سيئا ، ولذا يحسن عدم إعطائه عن طريق الفم .

وتفرز الكليتان البنسلين بسرعة عجيبة وخاصة إذا حقن فى الوريد ، ولذا ترتفع نسبته فى الدم لمدة قصيرة فقط تنخفض بعدها مالم يسعف الجسم بحقنة أخرى ، ولهذا السبب يجب أن يحقن الدواء فى الوريد أو العضل كل ثلاث ساعات ليلا ونهاراً حتى نصل إلى النتيجة المطلوبة . وقد وجد بالبحث أن هذا الدواء لا يُفرز فى الدموع أو البصاق أو السائل النخاعى . ولسبب الأخير يجب حقنه فى النخاع نفسه فى حالات الالتهاب السحائى ، إذ لا فائدة من حقنه فى الوريد أو العضل فى هذه الحالة بالذات .

ويختلف البنسلين عن مركبات السلفاناميد بأنه ليس سمًا ودواء فى الوقت نفسه ، لأن الأعراض التى قد تسبب منه قليلة لاتكاد تذكر لعدم أهميتها وقلة خطورتها . ولا بأس من سردها حتى تتنبه الأذهان إليها :

(أولا) الارتكاريا : وهى طفح جلدى يصحبه هرش قد يكون شديداً ، وأحيانا ألم فى البطن وارتفاع بسيط فى الحرارة . وتخف حدة الحالة بعد حقن المريض بالادرنالين . وليس معنى ظهور الارتكاريا إيقاف تعاطى الدواء ، بل يجب الاستمرار فى حقنه بلا هوادة . وقد يظهر الطفح متأخرا أى بعد انتهاء العلاج بأيام .

(ثانيا) ارتفاع الحرارة : وهو أكثر وضوحا فى الأمراض غير المصحوبة بارتفاع فى الحرارة قبل تعاطى الدواء ، ويحدث هذا فى الأيام الخمسة الأولى من بدء العلاج .

(ثالثا) أعراض مؤقتة وسريعة الزوال مثل الرعشة والصداع وحدوث ألم شديد فى موضع الحقن وهبوط عام واحمرار فى الوجه وألم فى الخصيتين وتقلص فى العضلات : وكلها أعراض لاخطورة فيها وقد قل حدوثها منذ زادت نقاوة مستحضرات البنسلين .

أما عن المقدار الذى يحقن فى اليوم الواحد فإنه يقدر بالوحدات . ووحدة البنسلين تقابل $\frac{١}{١٦٠٠}$ من المليجرام من البنسلين النقى ، وهى التى إذا أضيفت إلى خمسين سنتيمتراً مكعبا من مرق اللحم أمكنها أن توقف تكاثر ميكروب المكورات العنقودية (ستافلوكوك) . ويبلغ عدد الوحدات فى الحقنة الواحدة من عشرة آلاف إلى عشرين ألفا أو أكثر كل ثلاث ساعات ، حتى ليبلغ المجموع فى اليوم الواحد مائتى ألف وحدة أو يزيد ، وقد يصل أحيانا إلى ستمائة ألف فى الحالات الشديدة . ويحقن الدواء فى العضل أو الوريد .

وتختلف حساسية الجراثيم فى مقدار تأثرها بالبنسلين . فقد ثبت مثلا أن ميكروب السيلان أشدها تأثراً ، حتى إن نموه وتكاثره يقفان إذا خفف البنسلين إلى درجة واحد فى المائة مليون ! ويليه فى ذلك الميكروب العنقودى (ستافلوكوك) والسبحى (ستربتوكوك) وميكروب الالتهاب السحائى والجمرة الخبيثة والتتانوس . أما ميكروب الالتهاب الرئوى فإنه نسبيا أقل تأثرا وكذلك الدفتريا .

صورة لرجل مزدوج :

هو خـــوفو
وسيأخذ الهرم

ذهبت يوماً أزور الهرم وسيدى أبا الهول . وسدى طبعاً ، وعلى غير أمل فى صحبة مبهجة .

بدأت أطوف بالهرم الأكبر وأنا أتأمله فى غباء يعادله ضخامة وكبراً . . . لا أفهم من أمره إلا أنه القبر الجليل الذى بناه أبونا خوفو كى يحفظ فيه جثمانه الطاهر حتى تعود روحه إليه من رحلتها فى السماء .

أما كيف بنى هذا الطود ، وكيف نقلت حجارته ، ولماذا اختير له شكله هذا دون سواه من الأشكال فلم أكن أدرى من أمره غير ما قدمت .

على أى حال لم يكن غبائى ولا جهلى ليمنعانى من السير الوئيد الرزين وهز الرأس بين الحين والحين ، كمن أحاط بكل شىء علما وكمن كان هو العليم الذى فوق كل ذى علم .

وبعد قليل أبصرت رجلا يتحسس أحد حجارة الهرم ويضرب عليه بكفه كمن يتحسس بطيخة ويضرب عليها ليختبر يبوستها ويقدر نضجها وحلاوتها .

وانتقل من هذه الحجرة إلى غيرها ، ومن تلك إلى غيرها . ثم ابتعد عن الهرم بضع خطوات وأخذ يشير بأصبعه إلى حجارة الهرم كأنه يعدها . ثم طفق يحسب عدداً على أصابعه .

ترى بأى شىء شغل هذا الرجل نفسه ؟ لابد أن يكون فى الأمر شىء .

ليس من عاداتى أن أكلم من لا أعرف من الناس ولا أن أتدخل فى شئونهم . ولكن الهرم لكل مصرى فيه نصيب بحكم بنوته لصاحب الجلالة الراسخة الملك خوفو .

فأنا إن كلمت هذا الرجل لم أكن متطفلا ولا صاحب فضول ، فإنما سأكلمه فى أمر أبى وأبيه .

قلت له — السلام عليكم أولاً . .

فقال لى — بكل تأكيد . . لا بد أن يكون السلام أولاً . ثم الكلام ثانيا . ولقد أديت أنت السلام فهل تسمح لى أن أحمل عنك عبء الكلام ؟

فقلت — والله هذا ما أبغى . فلقد لفت نظرى وقصدتك لأسألك .

فقال — وأنا أعرف ما تريد أن تسأل عنه ؟ لاريب

وقد ثبت أن ميكروب الحمى التيفودية والدوسنطاريا والكوليرا والسل الرئوى والانفلونزا والحمى الساطية لا تتأثر مطلقا بهذا الدواء . ويقومون فى الوقت الحاضر بأبحاث واسعة النطاق للحكم على صلاحيته كعلاج للزهرى ، ويدعى البعض أنهم توصلوا إلى نتائج حاسمة .

والبنسلين لا يقتل الجراثيم كما قد يظن لأول وهلة ، ولكنه يحد من تكاثرها وحيويتها لدرجة تقلل من مقاومتها أمام وسائل الدفاع الطبيعية فى الجسم البشرى ، حكمه حكم من يطمئن من الخلف عدوا مهاجما فيمكن المتعدى عليه من قهر خصمه رغم تفاوت القوى . والسر فى استمرار الحقن ليلا ونهارا لأيام معدودات هو ألا تترك للعدو المهاجم فرصة يفيق فيها فيعاود الكرة . ومتى اطمأن الطبيب إلى نتيجة المعركة كما يلمس من تحسن الحالة العامة وزوال الحرارة ، يبدأ فى سحب جحافله رويداً رويداً بالاقلال من عدد الحقن فى اليوم الواحد ، فاذا تم انسحاب العدو وقهره أوقف العلاج وأخذ بيد مريضه فى طريق النقاهة حتى يصلا سويا إلى بر السلامة والعافية .

دكتور مصطفى الديوانى

أنك تريد أن تعرف لماذا أتحسس حجارة الهرم كأني أختبرها ولماذا أحصيها وأعدها .

فقلت — هو هذا .

فقال — وأنا مستعد لأن أقول لك كل شيء ، ولكن بعد أن تجيب عن سؤال واحد أوجهه إليك . فما رأيك ؟

فقلت — اسأل ما شئت .

فقال — أنت . . . أعاقل أنت أم مجنون ؟

فقلت — وهل يهمك كثيرا هذا الأمر ؟ الحق أني أنا نفسي غير واثق من نفسي في هذا الشأن .

فقال — يكفيني هذا منك لاحترامك ، ولأصارحك الحق ، ولأقول لك إني أنا خوفو الذي أقام هذا الهرم ، وإني الآن أحصيه لأني قد اعتزمت أن أنقله من هنا .

فقلت — وقد ارتحت جدا لهذا الحديث — وهل تسمح لي حضرتك أو جلالتك أن أسألك مثلما سألتني . أعاقل أنت .. أم أنت ، ولا تؤاخذني ، غير عاقل ؟

فقال — على أي حال ليس عجيبا أن تجرؤ على التفكير في توجيه مثل هذا السؤال إليّ بعد ما علمت أني أنا خوفو ، خوفو الذي إذا أراد فبكلمة منه يحولك إلى شيء من العدم الخالد الذي يعرف خوفو كيف يحبسه على صدر الزمن . . ولكن لا بأس ، فإن جرأتك هذه وأمثالها من سخافات الرعايا هي من الأسباب التي تحملني على التفكير في نقل الهرم . .

فقلت — إذا كان هذا السؤال يغضبك يا مولاي فإني أسحبه . . .

فقال — إنك لاتستطيع أن تسحبه لأنه امتطى انفاسك وزج بها إلى أغوار الماضي ، فلن تلحقه ، وإنما كل ما تستطيعه هو أن تنزل عن رغبتك في إجابتي عنه . وهذا لايمنعني من أن أجيبك أنا عنه فإن لي لذة في ذلك . . أنا يا أيها الرعية مجنون .. ولو لم أكن مجنونا لما كلفت نفسي إنشاء هــذا البلاء القيم الذي حسبته سيصون جســدي وروحي وسائر أشيائي حتى تعود إليه روحي فما صان هذا الطود شيئا ، بل لقد كان أشد ما سخر به القضاء مني هو أن كنت أنا أول من نقبه من اللصوص وأول من نبش قبري ، وأول من سرق متاعي . . .

فقلت — وكيف كان ذلك ؟ أظن جلالتك تسمح لي أن أسأل هذا السؤال .

فقال — بكل تأكيد أسمح . اسمع . كان يجب أن أنقش على حجارة هذا الهرم ، في أي مكان منه ظاهر . . أسماء العمال الذين أقاموه ، كلهم جميعا . من مهندسهم الأكبر إلى فاعلهم الأصغر الذي لايتقن إلا حمل التراب . فهؤلاء هم الذين أقاموه حقا . وهم أصحاب الفضل فيه ، إن كان فيه فضل . أما أنا فلم يكن لي إلا أن قلت إني أريد قبرا جبلا هرما ، فكان لي ما قلت بلا تعب ولا جهد . فكان أن خلدت اسمي وأغفلت الآخرين . أتعرف ماذا كان عقابي على هذا ؟ كان أني بعثت أول مرة عاملا عملا في هرم خفرع . فكنت أرفع الأثقال ، وكانت الشمس تلفحني وتلسعني وكنت أذوق الوبال ، وكان جلالة الملك خفرع يزورنا أحيانا ويطل على عملنا وشقائنا من وراء أرنبة أنفه ثم يتكرم ويقول : « عال عال » ثم يمضي .

وكان العمال حين يرونه يجدون في عملهم ويزيدون ، فكنت أنا وحدي أضحك ، لأني كنت وحدي أرى في الغيب صورة الملك خفرع وهو يحمل على كتفه حجراً ليقيم به جانبا من هرم منقرع . . .

ولقد حدث هذا ، فقد بعث أنا في المرة الثانية ملاحظاً في هرم منقرع ، وكان خفرع تحت يدي ولقد والله أحسنت معاملته . وتركته لنفسه يحاسبها على إهمالها ذكر العاملين فقد وقع هو أيضا فيما وقعت فيه من الخطأ .

فقلت — شيء جميل !

فقال — وليس هذا وحده ما حدث .

فقلت — وماذا حدث غيره ؟

قال — بعد أن أتممنا العمل في هرم خفرع مات خفرع ودفناه في هرمه . ثم مت أنا بعد ذلك بقليل . . ثم حدث لي بعد ذلك أني بعثت مرة ثالثة فتى عربيدا مسرة أحصل على رزقي من السلب والنهب . ولقد ألفت عصابة كبيرة من الأشقياء ، ولما كنت أذكر أسرار الهرم ومداخله ومحتوياته فقد سطوت عليه أنا وعصابتي وجردناه من كل ما فيه من حلي وتحف وبعناها وسكرت بثمنها .

فقلت — ما شاء الله ! ما شاء الله ! .

فقال — لك أن تصدق ولك أن تكذب . أنت حر . أما أنا فسأمضي في قصتي .

فقلت — هي قصة رائعة من غير شك ! .

فقال — وأروع ما فيها هو هذا الفصل الآتي . فقد مات ذلك اللص العربيد الذي هزأ من خوفو الملك الجبار والذي سلب متاعه وزينته في مماته لأنه كان الأجدر به أن ينفقها في خير في حياته . مات ذلك اللص ثم بعث بعد ذلك فلاحا شابا مغازلا له مع الفتيات حوادث وله فيهن أشعار وأغان . . وما رأيك يا حضرة الفاضل في أني التقيت إذ ذاك بجلالة الملكة زوجة خوفو . كانت في هذه المرة أيضا فلاحة صبوحة مغازلة شيطانة تعبث بعقول الفتيان ولا يفوزون منها إلا بتلك الابتسامة ذات المزيج من التشجيع والسخرية . لقد عرفتها . وعرفتني . ولكنها تدللت وأنكرتني . . وطلبت يدها فتمنعت وسألتني أأقدر أنا على مهرها ؟ . فلم يكن مني إلا أن عمدت إلى الهرم وحملت جثتي وجثتها إلى دارها في ذكية من الخيش ، وقدمتهما لها . .

لقد ضحكنا يومها كثيرا من هذين الملكين الجامدين اللذين علما أن الروح لا بد أن تعود إلى الجسم فخبا جسميهما بينما كان عليهما أن يعلما أن للجسم دورة في الأرض كما أن للروح دورة في السماء . فحبس الجسم بالتحنيط جريمة نحمد الله على أننا لم نهتد إلى ما يوازيها من جناية حبس الروح .

فقلت — وهل هذا ممكن ؟ .

فقال — لا ريب أنه ممكن والعياذ بالله .

فقلت — وهل انتهت قصتك ؟ .

فقال — أوشكت أن تنتهي . فقد تزوجت الملكة تلك المرة فلاحة وأنا فلاح وعشنا سعيدين ثم متنا . ثم .

فقلت — ثم بعثنا بعد ذلك . ولكنك لم تقل لي ما ذا فعلت بجثة الملك والملكة .

فقال — دفنا الجثتين يا صديقي قبل الزواج وأرحناهما من شر التحنيط وحرمانهما الأرض أمهما . أما زوجتي فقد غابت بعد وفاتها في هذه المرة فلم ألتق بها . وأما أنا فلم أبعث بعد ذلك إلا مرتين اثنتين . أولاهما جنديا في جيش نابليون ، وقد أصدر إلى رحمه الله أوامره ، فأطلقت من مدفعي بعض طلقات على الهرم الأكبر وأبي الهول فلم تفعل فيهما القنابل شيئا . وصدقني أنه قد سرني ذلك ، وأما المرة الثانية فهي هذه المرة التي تراني فيها أدور حول هذا الجبل الذي أقيم في الحق فوق صدري والذي أراه جاثما على أنفاسي . وأنا الآن أفكر في أقرب الوسائل لهدمه وتوزيع أحجاره لعلي أنتهي من متابعته فأنطلق من هذه الأرض إلى كوكب آخر ربما أكون فيه أسعد حظا .

فقلت — وهل أنت تستطيع ذلك ؟ .

فقال — أستطيعه . فالجن الذين سخرتهم في بنايته مع من سخرتهم من الإنس لا تزال منهم بقية باقية تعيش حوله مرصودة لحفظه تبعا لأمري ، فلو أني أمرتهم بنقله لنقلوه .

فقلت — إذاً وما يمنعك ؟ .

فقال — لا يمنعني من ذلك شيء إلا أني أخشى على عقول الناس أن تطير لو أنهم أصبحوا يوما فلم يجدوا الهرم في مكانه .

فقلت — لو أني مكانك لعملتها ولم أسأل .

فقال — على العموم إني لا أزال أفكر .

فقلت — ربنا يستر .

عزيز أحمد فهمي

نماذج عجيبة

للحياة اليومية فى مصر منذ أربعة آلاف سنة

[نقلا عن كتاب « الخرافة والأسطورة المصرية » لدونالد ما كنزى]

إن الرسوم الخشبية الصغيرة التى وجدت فى مقابر قدماء المصريين كانت لفئة يسمى أصحابها « الملبو النداء » وأطلق عليهم ذلك الاسم لأنه كان مفروضا عليهم أن يلبوا نداء روح الميت سواء أكان سيدا أم سيدة كلما دعا داعى الخدمة .

ولم يكن يغيب عن علم قدماء المصريين أن هذه الرسوم الخشبية لا تستطيع نفعا ولا ضرا . وكانوا يعلمون علم اليقين أن تلك الرسوم سوف تبقى جثثها ضاجعة بأرض القبور فى الأوضاع التى رسمها لها صناعها .

وكان فى اعتقاد المصريين القدماء أن لكل رسم من تلك الرسوم روحا وأن هذه الروح سوف تلتقى فى العالم الآخر بروح مخدومها فتقوم له بواجب الخدمة .

وكانوا يحنطون جثث موتاهم معتقدين أن روح الميت سوف تبقى فى جنات النعيم ما دامت مومياء جثته باقية فى قبره . وكانوا يفترضون أن كل شىء يوضع فى القبر سوف يضاعف فى السموات العلى . ومن هنا نشأ اهتمامهم بأن يجعلوا قبور موتاهم متينة البناء قوية الدعائم وأن يملأوها بالأطعمة والملابس والأثاث والقوارب وبصور الخدم .

وكانوا — لفرط هيامهم بمصر — يتخيلون الجنة فى صورة مصر فى أبهى حلل العظمة والمجد . يجرى فيها نيل أجمل من نيل مصر وترصعها قصور أفخم من قصور مصر ، ويملأ جوها هواء أرق من النسيم .

وفى هذه الجنة التى تخيلوها كانوا يظنون أنهم سوف يعيشون كما كانوا يعيشون فوق ظهر هذه الدنيا . وأنهم سوف يزرعون ويحصدون وأنهم سوف يصنعون الخبز ويخبزون . . . .

والفرق عندهم بين عيشهم فى الحياة الدنيا وعيشهم فى الحياة الأخرى أن العيش هنا لا نصَبَ فيه ولا لغوب ، وأنهم قد أمنوا غوائل الفيضان الجارف كما أمنوا مصائب شح النيل . . .

وقد ظل المصريون القدماء أجيالاً عديدة تتملكهم الفكرة القائلة إن كل من دخل الجنة وجب عليه أن يؤدى هناك عملا من الأعمال .

ولكن الدارسين للعقائد التى سادت مصر أيام حكم الدولة الوسطى (حوالى ٢٥٠٠ قبل الميلاد) يجدون الدليل على أن من كان من المصريين فى الحياة لا يعمل عملا ولا يحترف حرفة فإنه يود أن يعيش فى الجنة — أو فى « مصر السماوية » كما كانت تسمى — عيشة الرغد والراحة .

ويقرر الدارسون أن عظماء مصر كانوا يرغبون فى أن يكونوا عظماء فى الجنة كما كانوا عظماء فى الدنيا ، يحف بهم الخدم يلبون نداءهم ويؤدون عنهم كل عمل . وإذا رغبت روح السيد العظيم أن تسافر فى النيل السماوى لقيت قاربها وملاحيها . وإذا اشتهت طعاماً وجدت خادمها وطاهيها .

ومن هنا نشأت العادة التى بقيت فى زمن الدولة الوسطى عند ما بدأت حياة المصريين أن تنتقل من حالة البداوة الفطرية إلى حالة الحضارة . وهذه العادة هى أن توضع فى القبور تماثيل صغيرة الحجم ، دقيقة الصنع ، لطيفة الشكل لصناع من مختلفى الحرف ، وللحيوانات الأليفة ، ولنماذج من القوارب والبيوت .

والصور الأولى للاتباع والخدم كانت تعمل على مثال صورة المومياء وكانت تنقش على صدورها تعاويذ كان يبيعها الكهنة ، وبقوة هذه التعاويذ تطيع روح الخادم أمر روح مخدومها فى الجنة . .

وهذا نص تعويذة من تلك التعاويذ : —

«أيها التمثال الصغير المحسوب علىَّ ! أنا را — حوتب (اسم السيد العظيم) إذا كُلِّفت أنا بعملٍ من الأعمال أو أُمرت بالقيام بأية مهمة من تلك الأعمال والمهمات التى كانت تعمل فى الدنيا فعليك أنت أن تكون منى بديلا فى كل وقت فتزرع الأرض وتجرّ الماء وتتولى تطهير القنوات ، وإذا نادانى مناد فعليك أن تلبى النداء بأن تقول ها أنذا»

وقد ذاعت تلك العادة ذيوعاً جاوز الحدّ ، ثم أخذ العمل بها يقل تدريجا حتى اندثرت وأصبح العظماء لا يأنفون من العمل ، ثم أصبح همهم الأول أن يضمنوا لأنفسهم عيشاً هنيئاً فى الحياة الأخرى كعيشهم فى الحياة الدنيا ، ومنهم من وضع فى قبره تمثالا صغيرا لخادم يقوم على خدمته فى كل يوم من أيام السنة حتى يضمن لنفسه دوام الخدمة .

ثم زادت مصر عزاً وغنى فزاد عظماؤها ثروةً وجاهاً ، فازدادت تبعا لذلك رغبتهم فى عيش أرغد وحياة أهنأ ، فلم يكتفوا بتماثيل الخدم توضع فى قبورهم كما كان يفعل أسلافهم ، بل زادوا بأن نقشوا على جدران قبورهم صوراً لمختلف مناظر الحياة التى كانوا يحيونها ، يحدوهم الأمل بأن يروا هذه الحياة التى يشتهونها تعود مرة أخرى فى الجنة .

ثم زادت النقوش فى قبورهم ، ومن تلك النقوش أوامر للخدم ، ومنها ما يؤدى إلى تفقيه الراغبين فى كيفية الوصول إلى السموات العلى .

وإن تعجب فعجب لعناية المصريين بمحاولة حل مشكلة الخدم فى الجنة . . . وبحبهم لموتاهم كما نكشف عن ذلك عادات الدفن عندهم .

فأحياؤهم لا يبخلون بالمال مهما عظم فى سبيل إسعاد من بأتوا فى العراء النائى . والدليل الباقى على الزمن هو هذه القبور العظيمة (التى خلّدها شوقى طيب الله ثراه فقال :

وبنينا فلم نخلّ لبانٍ ... وعلونا فلم يجزنا علاء
قل لبانٍ بنى فشاد فغالى ... لم يجز مصر فى الزمان بناء
وقبور تحط فيها الليالى ... ويوارى الإصباح والإمساء)

(وبعد) فان هذه المجموعات من التماثيل الصغيرة التى وجدت فى قبور المصريين تكشف لنا بصورة واضحة عن أخلاق وعوائد شعبٍ عظيم نبيل قد تقدم به الزمن عنا نيفاً وأربعة آلاف عام .

وهذه التماثيل الصغيرة تكشف لنا عن صور الخدم فى البيوت وفى خارج البيوت وعن صور العمال من كل صنعة وحرفة . وتكشف لنا عن صور ملابس القوم فى ذلك الزمن النائى القديم ، ثم تكشف لنا عن صورهم إذا استخفهم الطرب ، وعن مدى نشاطهم فى تأدية أعمالهم وعن مدى شعورهم بالعناية فى أداء الواجب .

ومن هـذه التماثيل الصغيرة نماذج آية فى الابداع للمراكب والقوارب ، إذ أن النيل كان هو الطريق السلطانى العظيم للمواصلات . وكان لابد من عبوره يوميا ؛ ذلك لأن كثيرا من المدن والقرى كانت تقع على كلتا الضفتين ، فإذا أراد صاحب ضيعة أن يعبر النيل إلى منزله الريفىّ فى الضفة الأخرى أو أن يذهب إلى المدينة فإنه يأمر باعداد قاربه ، كما يأمر اليوم صاحب السيارة سائق سيارته باعداد سيارته .

والمصريون هم أول من عرف الملاحة وكانوا أول الملاحين وهم أيضا الصناع لأبدع نماذج من المراكب والقوارب .

وهم الذين وضعوا أسس علم الملاحة وكانوا فى هذا العلم من النابغين .

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم

من الفول السودانى
غذاء وكساء

ينتمى الفول السودانى إلى البقوليات وهذه تدخل تحت العائلة الفراشية ، ويشترك فى ذلك مع الفول العادى والفاصوليا والبازلاء والحمص والعدس والترمس . ويتكون نبات الفول السودانى كأى نبات آخر من الجذور والسيقان والأوراق . إلا أن جذوره تمتاز على غيرها من جذور النباتات الأخرى بوجود انتفاخات مستديرة الشكل ، وفى هذه الانتفاخات أو العقد تمتلىء الخلايا بنوع خاص من البكتريا يسمى البكتريا العقدية . وهذه تمتص الأزوت الجوى ، فتحوله إلى أزوتات لا يلبث النبات أن يمتصها مقابل بعض مواد كربوايدراتيـة ، تمتصها البكتريا من أنسجة النبات التى تعيش فى خلاياه . وعلى هذا يستفيد كل من النبات والبكتريا ، وهذا تبادل نفعى أو تكافل على حد وصف علماء الحياة . وإذا ما حُرث المحصول ترك فى التربة الكثير من العقد البكتيرية فتعمل على خصوبة التربة .



نبات الفول السودانى وعليه الأوراق والأزهار

أما ساق النبات فهى عشبية (شكل ١) تحمل أوراقا تتركب الواحدة من أربع وريقات بيضوية ، وتستخدم السيقان والأوراق علفا للماشية بعد الحرث ، إذ لا تقل فى قيمتها الغذائية عن البرسيم . ويحمل النبات أزهارا فراشية مجنحة ، صفراء برتقالية ، وهى تشبه البازلاء إلى حد كبير . وبعد أن يتم التلقيح والاحضان فى الزهرة ، تطول أعناقها ثم لا تلبث أن تنثنى نحو التربة وتنغرس فيهـا ، ثم تكبر الثمرة بين حبيبات التربة . والثمرة هنا تسميها عليا بالقرطة ، تحوى بذرتين ، وتنمو الثمرة وهى مدفونة فى التربة حتى يتم نضجها . وإذا بقيت الثمرة فى الهواء ولم تنغرس فى التربة فإنها لا تنمو ، بل سرعان ما تضمر ويقف نموها . وفى نهاية الموسم ، ويكون ذلك عادة فى أوائل الخريف ، تجمع النباتات مع ما تحمله من أزهار . وهذه الأخيرة إن تُركت بعد ذلك ، كونت بذورا صغيرة لا قيمة لها .

وعنـد الحصاد ، تعمل حفر حول النبات ثم كتلة الجذور والسيقان وما يتعلق بها من ثمار (شكل ٢) وتجفف ثم يجمع الفول السودانى باليد أو بوساطة آلات خاصة .



جذور الفول بالثمار

وللفول السودانى قيمة غذائية كبيرة ، إذ تحوى البذرة نسبة كبيرة من البروتين والزيت . ويستخرج الزيت من السودانى ويستخدم بدلا من زيت الزيتون لرخصه . كما

يستخدم كوقود وأيضاً لتزييت الآلات الدقيقة .

وقد اتجه البحث الحديث نحو عمل خيوط من الفول السوداني ، وكان ذلك عقب تجارب أجريت على غيره من المواد البروتينية . ونحن نعرف أن الحرير الطبيعي والصوف ، ألياف بروتينية . بخلاف القطن فإن أليافه سليلوزية أي كربوايدراتية . ولما كان الفول السوداني غنيًّا بالمواد البروتينية . فقد حضرت منه ألياف تسمى Ardil

وأول ألياف صناعية بروتينية هي (Lanital) وهذه تشبه الصوف إلى حد كبير . ويحضر اللانيتال من كازين اللبن ، إذ يذاب الكازين في الصودا الكاوية ثم يمرر المحلول في حمض . ويمكن زيادة قوة الألياف بتمريرها على الفورمالدهيد . وقد كان لهذه الألياف أهمية كبيرة في الحملة الأيطالية على الحبشة ١٩٣٥ ، إذ تطلبت الحملة مقادير كبيرة من الأقمشة الصوفية ، وفي نفس الوقت قل تصدير الجبن من ايطاليا ، فأدى ذلك إلى وجود مقادير كبيرة من الألبان تزيد عن الحاجة وكان ذلك دافعاً إلى تحضير ألياف اللانيتال من اللبن .

وكان في نمو هذه الصناعة في إيطاليا حافز للدول الأخرى على تحضير الألياف من بروتينات نباتية . وكان الأستاذ الدكتور أوستبرى من جامعة ليدز أول من خطا الخطوة الأولى لتحضير ألياف الأرديل . وقد بحث في تركيب جزيئات البروتينات في الفول السوداني ، فاقترح امكان تحويل البروتينات الحبيبية الموجودة في البذور إلى ألياف وأيده في ذلك الأستاذ شنبال بجامعة كمبردج . وقد جرب هذا الأخير في بذور القنب . وتبين أن بروتينه يذوب في محلول اليوريا بنسبة ٣٥٪ ومن هذا المحلول تستخرج الألياف ، وقد اتضح أنها تشبه الصوف إلى حد كبير .

وقد اتفق الكيميائيون أثر هذين العالمين فجربوا كثيراً من البذور ، وقد انتخب الفول السوداني لإجراء هذه التجارب ، إذ وجد أنه من البذور التي يمكن الاستغناء منها كغذاء ضروري .

وفي صناعة الألياف من بذور الفول السوداني ، يستخلص الزيت منها بعد تقشيرها ، وتتم هذه العملية في درجات الحرارة المنخفضة ، إذ أن ارتفاع الحرارة يفسد البروتينات . بعد ذلك تعالج المادة الباقية بقلوى مخفف (محلول الصودا الكاوية) وتصنع الألياف من هذا المحلول بإمراره في ثقوب ضيقة في حمام يحتوى على ملح الطعام وحمض الكلوروردريك وفورمالدهيد .

ويكون البروتين ٢٨٪ من وزن بذور الفول ، والزيت يتراوح بين ٤٨٪ ، ٥٠٪ . وتحتوى البذور على كربوايدراتات بنسبة ١١٪ . وبعد استخلاص الزيت والبروتين تبقى مادة تستخدم كعلف الماشية . ومن طن من بذور الفول يصنع ٥٠٠ رطل من ألياف الأرديل ولونها لبني ، وتمتص الرطوبة وتكون نسيجاً متماسكاً (متلبداً) كالصوف . وتمتاز ألياف الأرديل بأنها تقاوم العثة ، وقد وجد أن النسيج المصنوع بنسبة ٥٠٪ من الأرديل و٥٠٪ من الصوف لا يمكن تمييزه من الصوف الطبيعي . كما أن الأرديل أرخص من الصوف .

ومن البروتينات التي تحول إلى ألياف (وقد أجرى عليها كثير من البحث في الولايات المتحدة) بروتين Lein الذي يستخلص من الأذرة . كما اتجه البحث نحو البروتينات التي تعتبر كفضلات في بعض الصناعات كبقايا الصوف والحرير وجلود الحيوانات وريش صغار الدجاج . وقد صنعت ألمانيا قبل الحرب أليافاً من الصوف الصناعي بكميات كبيرة ، حضرت من زلال الأسماك . وحصلوا على نتائج باهرة باستخدام محلول من الزلال والسليلوز .

ويغلب على الظن أن الفول السوداني سيكون في مقدمة المواد التي تستخدم لصنع الصوف الصناعي ، إذ أن الأسماك والألبان مواد لها قيمتها الغذائية ، ولا يمكن التضحية بها لاستخدامها في تحضير الصوف الصناعي . محمد أحمد برانق

فجر السلام

أدرك بفجرك عالماً مكروبا
موّدت فجرك أن يكون كذوبا

يأيها السلم المطل على الورى
طوبى لمهدك – إن تحقق – طوبى

ما بال وجهك بعد طول حجابه
يحكي وجوه العاشقين شحوبا ؟

رحماك طال الليل واتصل السرى
حتى تساقطت النفوس لغوبا

لفحت لظى الحرب الوجوه فطف بها
كالزهر نفحا والنسيم هبوبا

لم يبق في مجرى الدماء بقية
شكت العروق من الدماء نضوبا

طحنت فريقيها الحروب بضرسها
لا غالباً رحمت ولا مغلوبا

* * *

لما شدا بالنصر شاديهم بدا
لحن السرور على الشفاه غريبا

جادوا بيوم النصر يمخر فلكه
سيلا من الدم والدموع صبيبا

ملئوا الكؤوس فكلما هموا بها
ذكروا بخمرتها الدم المسكوبا

فتشت بين المحتفين فلم أجد
إلا طعينا في الصميم أصيبا

كم في غمار المحتفين خطيبة
باتت تناجي في التراب خطيبا

كم ثاكل لم تدر أين ثرى ابنها
فتميره من دمعها شؤبوبا

ومشوه تروى الملاح وجوهها
عنه وكان إلى الملاح حبيبا

من فارقته يداه في ساح الوغى
أنى يصفق للسلام طروبا ؟

قم سائل النيران ماذا أنضجت ؟
أصبائكا أم أكبدا وقلوبا ؟

وسل المحيط الغمر كم نفسا به
قرت وكم كنزا حواه رغيبا ؟

غول تقول الطفل في يد أمه
بسمارها والكاعب الرعبوبا

هوجاء تذرو الموج عند هبوبها
وتخلف البرج الأشم كثيبا

لا يرتدى الأكفان في ساحاتها
ميت لنا برد الشباب قشيبا

* * *

أعراس يوم النصر أين نقيمها
المدن صرن خرائبا ولهيبا

هيهات أن تنسى البلاد حدادها
أو تسترد جمالها المسلوبا

تعدو الحضارة وهي داء فاتك
وتسير في خطو الكسيح طبيبا

وهي الجراح إذا اندملن فإنما
يتركن في جسد الجريح ندوبا

أم بنت ركن الحضارة عاليا
ما بالها لم تأله تخريبا ؟

الأوصياء القيمون على الورى
تركوا الورى بدمائهم مخضوبا

فرض القوى على الضعيف رقابة
من ذا يكون على الرقيب رقيبا ؟

من للرعيل ومن لقادته ؟ لقد
ضل الجميع مسالكا ودروبا
خلوا مقاليد الشعوب لأمة
عزلاء تقنع بالكفاف نصيبا
القوت عنوان الحياة فما له
أمسى يبيد ممالكا وشعوبا !

* * *

دول يحول نحوسها وسعودها
مثل الكواكب مشرقا وغروبا
يارُبَّ جبار يصول بجنده
أمسى بأيدي جنده مصلوبا
وطىء النساء رفاته ولربما
كان اسمه عند الرجال مهيبا
ملأت محاسنُه العيون مفاخرا
حتى إذا سقط استحلن عيوبا
يارب نبيل بعد صيحة أسده
قد بات يعلوه الغراب نعيبا
ومؤمَّل ملك الثرى ولى فما
أجرى دموعا أو أثار نحيبا
لم يلق قبرا فوق أرض طالما
فتحت له أحضانها ترحيبا

* * *

حتام نعبث بالبطولة فاتكا
يحكى الوحوش ضراوة ووثوبا ؟
ينقضّ من أعلى عقابا كاسرا
ويدبّ مثل الأفعوان دبيبا ؟
لاتجعلوا سفك الدماء مناقبا
للفاتحين بل اجعلوه ذنوبا
المجد ليس لفاتك ولوانه
بزّ النسور مخالبا ونيوبا

والغار يبرأ من رؤوس أهلها
ساموا الأنام القتل والتعذيبا
ما الباسل المغوار إلا مصلح
ملأ الحياة على البرية طيبا
يضفى على هذا الوجود وجودُه
ظلا ويكشف عن بنيه خطوبا
جادت به الدنيا الضنينة عالما
متضلعا أو شاعرا موهوبا
أقسمت ماقاد الجيوش كقائد
حشد الجهود وكافح « الميكروبا »

* * *

نزل السلاح عن المنابر وانبرى
صوت الضمائر والعقول خطيبا
قل للكماة الظافرين تأهبوا
كم للسلام مواقعا وحروبا ؟
والله ماكسب المعاركَ معشرٌ
ليس السلام لديهمو مكسوبا
قد علّقت آمالها بوعودكم
أممٌ ترى يوم الخلاص قريبا
إنا نريد من السلام لبابه
لا لفظه أو صكه المكتوبا
عذرا إذا ما الشك خامر معشرا
عهدوا السياسة بالكلام لعوبا
كم للسلام مواثقا عبثت بها
ريح السياسة شمالا وجنوبا
سيمت بها الأممُ الهيضُ جناحها
رقاً على أعناقها مضروبا
لم تطفىء الحربَ الضروسَ نصوصُها
بل زادت الحربَ الضروسَ شبوبا
إن تكتبوا للسلم عهدا فاجعلوا
دمعَ الثكالى بالمداد مشوبا

ذكريات الخالدين :

بتهوفن

في أحد منازل مدينة « بون » الواقعة على نهر الرين بألمانيا ولد « لدفيج فان بتهوفن » في السادس عشر من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٠ . وكان والده موسيقيا عربيدا ، وكانت أمه ابنة طباخ عملت كخادمة ثم تزوجت من رجل قبل والد « بتهوفن » مات وتركها فقيرة معدمة ، فاضطرت إلى الزواج من والد « بتهوفن » الذي أذاقها أنواع المشقة لادمانه الشراب وقلة ذات يده ، حتى ماتت وتركت وراءها « بتهوفن » وهو في السابعة عشرة من عمره يبكيها بدمع لا يرقأ وحزن لا ينقطع .

كان والد « بتهوفن » موسيقيا بارعا ومغنيا رقيق الصوت ، فأخذ على عاتقه تعليم ابنه . وأرهقه بالعمل إذ كان عليه أن يقضي وقتاً محدوداً كل يوم في العزف على « البيان » أو « الكمان » ، لا يمكن أن يتخلف عنه مهما يكن عذره ، وإذا تأخر عن موعده أخذ والده يصيح : « أين لدفيج . ؟ . لماذا لا يعزف . ؟ . . » فيبحثون عنه ، وسرعان ما يجلس إلى عمله ويبدأ درسه اليومي .

والأمَرُّ من ذلك أن والده كثيراً ما كان يمتد به السهر إلى وقت متأخر من الليل مع أحد أصدقائه ، يشربان الخمر فيغيب عن ذهنه درس « لدفيج » ثم ما يلبث أن يتذكره بعد أن يكون قد مضى من الليل وقت طويل فيذهب إلى حجرة نوم « لدفيج » وينزعه من فراشه الدافئ ويأخذه بعنف وهو يرتعد من البرد وفي عينيه أثر النوم ويجلسه أمام « البيان » ويبدأ في تلقينه درسه اليومي .

ولقد يذهب بنا الظن أن مثل هذه المعاملة تقتل في بتهوفن الصغير حبه الموسيقي . ولكنه كان أحد الموسيقيين الأفذاذ الذين خلد ذكرهم في صفحات المجد الذهبية . فحبه الموسيقي لا يمكن أن تأتي عليه قسوة المعلم . فقد خلقه الله لهذا الفن الجميل فأحبه . وتفانى في سبيله ولم يغفل عنه لحظة حتى في أشد أوقات الحياة قسوة عليه .

كان « بتهوفن » موسيقيا بالوراثة . فقد غادر جده مدينة « انتورب » وهبط « بون » والتحق بفرقة البرنس ارشيبشب سنة ١٧٣٢ . وكان موسيقيا نابها . وكذلك كان أبوه مغنيا في هذه الفرقة بعد موت جده ، ولكنه كان متلافا ينفق كسبه في الشراب ، كما قدمنا ، حتى طرد من الفرقة واشتدت به الفاقة فاطلق ابنه يجوب الشوارع ، عازفا على « الكمان » يجمع الدراهم ليقوم بأود أسرته الفقيرة . غير أن والده المتلاف كثيراً ما كان يأخذ كد ولده لينفقه في الشراب .

أو فانقشوا بدم الضحايا خطه
وتذكروا يوما قضوه عصيبا
صوغوه عدلا للبرية شاملا
لا مرتعا للأقوياء خصيبا
واستشهدوا الرحمن فيه عليكمو
وكفى بربك شاهداً وحسيبا
واستودعوه مساجدا وكنائسا
وضعوا هلالاً فوقه وصليبا
الله قد خلق الشعوب سواسياً
لا ربٌّ بينهمو ولا مربوبا
لن يستقيم لكم سلام ما شكا
شعبٌ ضعيفٌ حقه المغصوبا
لن تبلغ الشط الأمين سفينةٌ
تركت بها أيدي البناة ثقوبا
هذا هو الماضي وتلك عظاته
لكمو . وقد تجدى العظات لبيبا

محمود غنيم

لم يجد « بتهوفن » متسعا من الوقت يصرفه فى ناحية أخرى من نواحى التعليم ، فغادر المدرسة ليتوافر على عمله الموسيقى، وليكفى حاجة عائلته ، فلم يصب من العلم إلا القليلا ، وظل إلى آخر حياته وهو خجل من رداءة خطه وعدم حفظه لجدول الضرب .

ولما بلغ الثالثة عشرة اشترك فى فرقة أمير « بون » ، ومن ذلك الوقت بدأ نجمه يرتفع ويحلق فى سماء المجد والشهرة ، وأخذ نوره يسطع فيعم الآفاق . وأصبح كبير أسرته وقام بأعباء الرجال وهو لم يزل فى دور الطفولة .

ولما شارف السابعة عشرة رحل الى « ڤينا » حيث قابل « موزار » أحد الموسيقيين الأفذاذ الذين طار صيتهم وعمت شهرتهم الآفاق . فأعجب « بيتهوفن » إعجابا جعله يقول لمن حوله : « اصغوا إلى من سيجعل العالم يتحدث عنه يوما من الأيام » عند ما سمعه يعزف إحدى مقطوعاته الخالدة .

أكسبت « بتهوفن » إقامته فى « ڤينا » صيتا بعيداً ، فالتف حوله محبو الموسيقى من الرجال والنساء ، وأغدقوا عليه النعم ، وعرف مقداره الخاص والعام ، وأخذ الكل يرددون اسمه ويشيدون بذكره ويثنون على فنه ثناء جميلا ، وفتح له الأغنياء والأمراء أبوابهم : يحل فيها ويرحل عنها كيفما شاء ، مستقبلا بالحفاوة ومودعا بالتجلة .

وكان الأمراء يلحون عليه فى الاقامة بقصورهم ويحتفون به ويكرمون وفادته ، حتى إن أحدهم آواه فى قصره وأجرى عليه راتبا ضخما يتقاضاه سنويا . كما لقى من الأميرة «ليشنوسكى» — وقد نزل عليها ضيفا ردحا من الزمن — كل ما يمكن أن يتصوره العقل من ضروب الكرم ، مما جعله يقول : « لو كان فى وسعها أن تضعنى فى زجاج لوضعتنى خوفا من أن يحجنى العامة بلمسهم » .

وقد كان من عادة الأميرة أن تقيم حفلة كل أسبوع بمنزلها يحضرها الكثيرون من علية القوم ووجهائهم ، وحدث أن حضر إحدى هذه الحفلات الموسيقى الكبير « هايدن » فتطلع الكل إلى ما سيقوله شيخ الموسيقيين فى « بتهوفن » الناشئ الذى اعترف له « موزار » من قبل بطول الباع . ولم يلبث « هايدن » أن اعترف هو ايضا « لبتهوفن » بالنبوغ والعبقرية فهلل له القوم وكبروا ، وأخذوا يتسابقون فى دعوته إلى الاقامة فى قصورهم ، وتتلمذ له الكثيرون من الأشراف والأعيان ، ولكنه كان خجولا يحب العزلة والابتعاد عن الناس ، حساسا إلى أقصى درجات الحساسية ، يشعر بنقصه العلمى وحقارة نسبه ، فكان يؤثر الوحدة والانفراد .

وظل كذلك حتى شارف القرن الثامن عشر الأفول ، وبزغ نجم « نابليون » يتلألأ فى سماء أوربا ، فتسير جنوده يحدوها النصر وأخذ الكثيرون يشايعونه وينظرون إليه على أنه رسول الحرية والسلام والإخاء والمساواة . وكان « بتهوفن » أحد المشايعين له والمؤمنين برسالته فوضع لحن « البطل » الذى يمجد فيه وأشاد بذكره ، وهذا اللحن معدود من ألحان « بتهوفن » التسعة الخالدة . ولكنه لم يبق عليه بل مزقه وهو يحتدم غيظا وسخطا على « نابليون » عند ما علم أنه توج نفسه امبراطورا . إلا أنه تحت تأثير أصدقائه عاد ووضع لحنا آخر أطلق عليه اسم « إحياء ذكرى عظيم » .

أخذت أعمال « بتهوفن » بعد ذلك تزدهر ويفوح أريجها فيعطر الآفاق ، وأصبح محسوداً من الجميع ، فاطمأن إلى نفسه بعد أن وثق من مقدرته وفنه ، فهش للحياة وظن أن الدنيا مؤاتية والأيام مقبلة . ولم يدر المسكين أن الدهر يخدعه وأنه ما ابتسم له لحظة إلا ليعبس له بقية حياته . وأن هذا الصيت البعيد وتلك الشهرة غلاف ذهبى لتلك النكبة التى حلت به . فبدأ الداء يتسرب إلى أذنيه وأخذ يتلف أعز حاسة لديه ، وبدأ سمعه يقل حتى انتهى بالصمم .

تغيرت الحياة فى نظره ، فضاق بها ، ولكنه كتم همه

وظل يمارس عمله بنشاط رغم صممه ، غير أنه كثيراً ما كانت تمر عليه ساعات مريرة فيقوم إلى البيان يشكو اليه ما فعلت به الأيام وما يكنه قلبه من الأحزان والآلام ، فيهوى عليه بكل قوته ظنا منه أن النغمات ستصل إلى سمعه ، ولكن سرعان ما يترك البيان وهو يقول : « آه . لو كان في مقدوري أن أتخلص من تلك المحنة لجعلت العالم يرقص طربا » .

أي عزاء لبتهوفن يتعزى به في مصابه . وأي قلب يشاركه أوصابه ؟ وإلى من يشكو تباريح الأسى والشجون ؟ ليس هناك من طريق إلى ذلك سوى الحب ، ولكنه كان عاطلا مما يجذب قلوب النساء ، فقد كان دميم الخلقة غير أن نفسه كانت رقيقة تهفو إلى الجمال وتتطلبه في جميع صوره . فأحب المرأة وأخلص في حبه (للادلين ويلمان) وهي أول فتاة أحبها ، ولكنه ما لبث أن تحول عنها إلى (جوليتا كو شياردى) فكانت فتاة لعوباً من اسرة نبيلة لم يجذبها اليه إلا شهرته وبعد صيته ، ولم تلبث أن تحولت عنه إلى غيره وتزوجت منه بعد أن جرعت بتهوفن كأس الشقاء ، وتركته يبحث عن بلسم شاف حتى وجده في حب (تريز برونسويك) التي أثرت في حياته وفنه فظهرت فيهما روح جديدة وهدأت ثورته وقل سخطه على الحياة ، وترنم بأناشيد الحب والهيام ولحن الريف شاهد على ذلك ، وقد انتهى به حبه (لتريز) أن عقد له عليها ، ولكنه لم يدخل بها بل انفصل عنها وظلا على عهدهما حتى لحقهما الموت .

كان (بتهوفن) قليل العناية بملبسه ومأكله ومسكنه لاتستهويه الحياة بزخرفها وزينتها فكأنه حاضر فيها بجسمه غائب عنها بروحه وعقله . لايستمرئ لذة الطعام ولايتشوق لونا من ألوانه ، وكثيرا ما كان يجلس إلى المائدة ثم يغادرها دون أن يتناول طعاما أو شرابا ، ثم يظن أنه أكل وشرب وربما نقد الخادم أجر طعام لم يتناوله .

كذلك كان كثير التنقل من مسكنه فكان لايمضى عليه أسبوع حتى يحزم أمتعته إلى مسكن جديد ، وربما استأجر منزلين أو ثلاثة يتنقل بينهما ، وكان يميل إلى الاقامة بالطبقات العليا من المنازل التي يأوى اليها ، ليشرف منها على جمال الطبيعة وليكون بعيداً عن فضول الناس .

وكان مسكنه مثال الفوضى ، إذ أنه لم يكن يعنى بترتيب أثاثه ولا بتهذيب فراشه . ففضلات الطعام ملقاة على النوافذ والأوراق مبعثرة في أرجاء الحجر ، والغبار يعلو المقاعد والبيان القديم الذي كان يستعمله في تلحين قطعه الموسيقية . وهكذا كانت معالم الاهمال بادية حيثما سرحت الطرف في جنبات مسكنه .

كانت حياته شذوذا في جميع مظاهرها حتى في طريقة وضعه لألحانه ، فكان إذا رغب في التأليف لايأوى إلى منزله ويجلس إلى مكتبه كما يفعل غيره من الكتاب والشعراء والموسيقيين . بل يخرج هائما على وجهه بين الأحراج والأدغال وسفوح الجبال حاملا قلما وورقا يدون فيه خواطره كلما عن له شيء . ثم يستأنف السير أو يجلس يستوحى آلهة الفن فتوحى اليه بيدائعه .

لم يتلق بتهوفن فنه في مدرسة ، ولم يعتمد فيه على كتاب ولم يصب من العلم إلا قليلا . ولكنه تلقى فنه على يد أم الفنون وأخذه من مصدره الحقيقي واطلع على صوره كما أبدعتها يد الفنان الأعظم وصورتها قدرة فوق مقدور البشر ؛ فأحب الطبيعة وهام بجمالها فجاب وديانها وصعد إلى قمم جبالها وأنصت إلى شدو أطيارها وخرير مياهها . حتى تشبعت روحه بهذا الجمال وارتوت من ينبوعه الأبدى فانطلق ينشد على قيثارته أناشيد الحب والجمال .

هكذا عاش « بتهوفن » ابن الطبيعة البكر وعابدها المواظب على التعبد في محرابها ، وإليها كان يدين بفنه وعبقريته ونبوغه ، بل إليها يرجع خلود موسيقاه . ولقد بلغ من حزنها عليه أن شاركت الناس في حزنهم على فقده ، فهبت العواصف تعلن موته وبكت السماء لفقده تشارك ثلاثين ألفا من النفوس اجتمعت لتشييع جنازته إلى مقرها الأخير في مقبرة « وارنج » حيث ووري التراب

محمد عبد الفتاح شريف

نفسية المراهق

أهدى إلىّ صديق الدكتور رياض عسكر نسخة من كتابه فى « نفسية المراهق » ، وهذا هو باكورة أعماله. ولعله يسد بعض الحاجة الشديدة التى أشار إليها الأستاذ الكبير أحمد أمين بك عند ما قدم فى مجلة الثقافة كتاب علم النفس الجنائى لمحمد بك فتحى ، والتى وجه معها بعض اللوم الحق للمشتغلين بعلمى النفس والتربية لقلة ما أنتجوه ونشروه إلى الآن لسد هذه الحاجة الملحة.

وأعتقد بحق أن الكتاب الذى نحن بصدده يسد حاجة ماسة قائمة فى نفوس المعلمين والآباء ، وكل من له علاقة بتربية النشء . والكتاب عرض على دقيق لخصائص المراهقين ومشاكلهم ومشاكل تربيتهم . على أن الدقة العلمية التى توخاها الدكتور عسكر لم تجعل كتابه فى جملته يشق على القارىء غير المتخصص . فالكتاب سهل لين . وسهولته مع ذلك لم تفقده شيئاً من حيث الدقة العلمية .

بدأ الدكتور عسكر كتابه بعرض عام سريع موجز لمراحل نمو الفرد من طفولته إلى كهولته ، وبين أهمية العناية بمرحلة الانتقال الواقعة بين الطفولة والنضج ، وهى مرحلة المراهقة ، ثم عرض بعد ذلك للتغيرات التى تطرأ عند هذا الانتقال ، فقسمها إلى جسمية وعقلية ووجدانية ، وفصل الجسمية منها إلى تغيرات فى الطول والوزن وفى بعض أجزاء الجسم بنسبة أكبر فى بعضها منها فى البعض الآخر . ثم وضح بعض النتائج النفسية لهذه التغيرات كحساسية المراهقين لما يطرأ على أصواتهم من تغير ، والنتائج التى تترتب على هذه الحساسية ، وعنى بنوع خاص بالتغيرات الفردية وآثارها .

وقد عرض كما قلنا للتغيرات العقلية والوجدانية ، وبين فى كثير من الأحوال أصول هذه التغيرات ، وما يترتب عليها ، وأفرد فصلا خاصا بأهم الفروق بين البنين والبنات فى هذه التغيرات . واستشهد فى كل ما كتب بمشاهداته الخاصة ، وبالحالات التى درسها بنفسه ، والتى درسها غيره . واستشهد كذلك بأقوال أئمة العلماء الذين بحثوا موضوع المراهقة .

وأعتقد أنه على أهمية الموضوعات المتعددة التى كتب فيها يجب ألا يخفى من أهم الأمور التى لفت النظر إليها أن أساس تربية المراهق يوضع عادة أثناء الطفولة (ص ٩٩) ، وهذا مبدأ غاية فى الأهمية ، إذ أنه لو روعى على وجهه الصحيح لتلاشى أغلب صعوبات المراهقين ، ولامّحت صعوبات الآباء فى تربيتهم . والذى نلاحظه أن الآباء يجدون أنفسهم مع أولادهم فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة فى مشاكل حادة من عناد وثورة وشذوذ جنسى ، وما إلى ذلك . ويصطدم الآباء بهذه المشاكل ويحاولون مواجهتها بأساليب التحايل تارة ، والمواجهة العنيفة تارة أخرى . ويسير الناشىء عادة من سىء إلى أسوأ دون أن تحل مشاكله . ولو علم الآباء أن بذور هذا كله إنما يبذرونها بأيديهم فى الطفل منذ نعومة أظفاره لاتخذوا طريقاً آخر . ولقد أوضح الدكتور عسكر هذه الناحية بمختلف الأدلة والاستشهادات .

ولا يمكننى أن أوقف القارىء على ملخص لمختلف النواحى التى عالجها المؤلف ، فهى كثيرة متشعبة ، وكل جزء منها — سواء فى ذلك النظرى والتطبيق — له أهمية بالغة . غير أن هناك مسألة تنفرد بأهمية خاصة ، وهى مشكلة الغريزة الجنسية وما حولها من تربية جنسية . عالج المؤلف هذه الناحية بجرأة يحمد عليها ، وعرض لمختلف الآراء فى الغريزة الجنسية ، وبين ما رأى فى رأيه من قيمة ، ثم عرض لفكرة الجمع بين البنين والبنات فى المدارس ، وعرض رأى المضادين للجمع بينهما ، ورأى المعارضين لذلك عرضاً صريحاً عادلا ، ثم قال فى صفحة ١٨٨ :

« ومهما تكن نتيجة الموازنة بين حجج الفريقين نجد أنفسنا أمام نتيجة لا جدل فيها ، ولا يعارض فيها أنصار الرأيين ؛ ألا وهى أن الجمع بين الجنسين فى المدارس

الابتدائية والأولية أمر مرغوب فيه ، حيث لم يبلغ الطفل المراهقة بعد ، فلا خوف من اجتماع الجنسين حينئذ ، إذ أن نظرة كل منهما الآخر تكون بريئة خالية من كل فكرة جنسية أو ميل شديد ؛ ويتخذ الطفل عندئذ أصدقاء من الجنسين على حد سواء من غير تفرقة أو تمييز ، ومع خلو ذلك النظام من الضرر نجد أن له الفوائد التي يذكرها أنصار الجمع ، والتي أوردناها سالفاً ، والتي من أهمها عدم جعل الجنسين غريبين عن بعضهما ، والتي تمحو ذلك الغموض القائم في ذهن كل منهما » .

فالكتاب هو أول مؤلف من نوعه في العربية ، وجدير بكل والد ومعلم أن يقرأه ، وأن يقرأ بعض فصوله بنوع خاص مثنى وثلاث ورباع .

غير أني أرى أن أذكر هنا نقطة جديرة بالذكر ، فإن الأستاذ المؤلف رغم طول مدة خبرته في العيادات السيكولوجية في مصر وفي الخارج لم يشر في كتابه إشارة صريحة واضحة إلى حالات مصرية سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة في صفحات ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ؛ وهذه هي الحالات التي جاء عرضها وتحليلها والتعليق عليها واضحا مشوقا . ولكن لعله أراد بالاستشهاد بحالات مأخوذة من المراجع الأجنبية أن يقدم إلى جانب الحالات المصرية حالات أخرى تمثل مختلف الظروف والبيئات .

ونقطة أخرى وهي أن شدة حرصه على أن يكون الكتاب وافيا بدأ بعرض أكبر ما يمكنه عرضه من الحقائق العلمية ونتائج البحوث المختلفة في مجال الكتاب وهو مجال محدود على أي حال . وكان لهذا الحرص أثره إذ جاءت بعض العبارات شديدة الحاجة إلى التفسير والتعليق والتمهيد والتمثيل وما إلى ذلك . ففي صفحة ١٥ يقول : أما المخ فلا (يشاهد) فيه نمو جانبي ، سواء في الطول أم في العرض أم في الوزن . هذه عبارة تستثير التعجب من غير شك . فلابد أن يتساءل القارئ ، إن كان المقصود مخ الإنسان حيا أم ميتا ، وإن كان الإنسان حيا فلا يمكن عادة (مشاهدة) مخه بطريقة مباشرة . وحتى إذا أمكن مشاهدته في ظروف استثنائية جدا فكيف يشاهد وزن المخ دون القضاء على صاحبه . فالعبارة على أي حال مازالت تحتاج لشرح ، وكذلك في صفحة ٢١ دون أي تمهيد يتكلم عن نسبة الذكاء ، وهي اصطلاح على له معناه المحدد ، فيقول : « والمفروض بوجه عام أن نسبة ذكاء المرء تبقى دائما على ماهي عليه . غير أن الأبحاث الحديثة تدل على حدوث تغيرات طفيفة إما بمرور الزمن وإما بتغير الاختبار . والأفضل عندئذ اعتبار النتائج التي يحصل عليها الباحثون من تطبيق نفس الاختبار عدة مرات في فترات منتظمة متعاقبة .

وهذا الذي يقوله الدكتور عسكر في أسطر قلائل دون أن يمهد له أو يعلق عليه يحتاج في الشرح إلى محاضرتين كاملتين للطلاب المتخصصين بعد أن يمهد له تمهيداً كافيا .

وهناك أمر ثالث ، وهو أن المؤلف لم يعن العناية الكافية بتصحيح هفوات المطبعة وهي غير قليلة ؛ ففي الصفحات الخمس الأولى اثنتان على الأقل . وعتب رابع ربما لا يتفق معي فيه الكثيرون وهو يتعلق باللغة ، فلغة الكتاب ولو أنها سليمة مستقيمة إلا أنها جاءت في بعض الأماكن كلغة بعض أنواع الخطابة الحماسية مما لا يتفق في نظري كثيرا مع لغة الكتابة العلمية .

ففي صفحة ٢٠٤ يقول : « أما عن احتفاء المدارس الأمريكية بالجديد والآراء المبتكرة فحدث عنها ولا حرج »

على أن هذه كلها مآخذ بسيطة لا تقلل من قيمة الكتاب ، فهو مؤلف يفيد المتخصصين وغير المتخصصين ، وسيكون له على ما أرجو أثر بالغ في تربية النشء .

عبد العزيز القوصي

بين المسموع والمقروء

محجوب ثابت :

أقرأ الصحيفة فى بكور كل يوم — فى بكوره الباكر . فأبدأ بأخبار الحياة وأخبار الأحياء ، ثم أندرج حتى أصل إلى ذلك الركن الأخير من الصحيفة الذى خصصه أصحابها عن حصافة مقصودة لأخبار الراحلين الذين لن يكون لهم بالصحف خبر غير هذا . وهو ركن يتألف من عمد تطول وتقصر على مقدار ما جنى حاصد الأنفس فى ذلك الأمس الغابر . وهم قد خطّوا الخط الأسود العريض بين هذه العمد ، وفيها النشاط الذى خمد ، وبين تلك العمد السابقة الأخرى ، وهى فوارة بالحياة ، توكيدا لاختلاف ما بين النوعين ، وإمعانا فى إبانة الفرق بين المعنيين ، إقبال وإدبار .

وأنا إذ أخطو على هذا الخط الأسود العريض أحس دائما كأنى أدخل بابا مجلّلا بالسواد ، هو باب ما بين الدنيا والآخرة . أحس كأنى أدخل مقبرة تتألف من مدافن ، وأدور عليها مدفنا مدفنا . فأنكر بعض أصحابها فأمضى ، وأعرف بعضها فأستمهل . وبعضها أستمهل عنده فى غير طول ، وبعضها أستمهل عنده فى طول كثير . وقد أخرج من هذه الجبانة التى تتذبر كل يوم ، فيعلق بالرأس والقلب منها علائق تبقى أياما .

ومن هذه العلائق ما علق بقلبى وفكرى من قراءة اسم « محجوب ثابت » على باب أحد هذه المدافن بجبانة اليوم الثانى والعشرين من مايو الحاضر .

وفتشت قلبى عن سبب هذا اللصوق والإلحاح لتلك الذكرى ، فعلمت أنهما سببان .

أما أولها فلأن « محجوب ثابت » كان فى حياة مصر بهذا العقد ، ولا سيما بالعقد الذى سبق ، فالذى سبق هذا ، كان من بعض معالم هذه الحياة . ومعالم الحياة فى معانيها ، كمعالم المدن التى نألفها فى مبانيها . وليس ضروريا أن يكون معلم المدن دائما عاليا سامقا . فسقوط « الدكتور محجوب » كان كسقوط معلم عرفناه زمانا ، وألفناه حينا ، ودخل به السرور إلى قلوبنا دهرا . ومن قبله سقط البشرى وأشباهه ، وكانوا جميعا من معالم هذا العيش . ولعله من الأسى لهذه المعالم ، أسًى لفراق النفس المنتظر ، حين تتداعى كل تلك المعالم ، لا معلما معلما ، ولكن دفعة واحدة بانغماض العين التى تبصرها .

أما السبب الآخر فالتأثر من ذكرى جزع أظهره الدكتور فى السنوات الأخيرة من حياته بسبب ما ناله من جور الزمان . لقد كان للدكتور الفقيد نفس لا شك أمالة ، طمعت فى الكثير ، ولكن خيبتها قصر الوسائل وقلتها إلى هذا الكثير . ورأى أيامه تنطوى فبدأ يصرخ على صفحات الصحف صراخا أحزن الأصدقاء ، فقد كان صراخا للخيبة ليس له من غياث .

ألا ما أجمل ، إذا فرغت حياة المرء أو هى آذنت ، أن يقنع المرء بالذى كان ، وأن يرضى عن الأيام بالذى تعطى ، وأن يستقبل الليل الذى ليس له من صباح باطمئنان الرجل الذى يتهيأ للهجوع ، ويود لها رقدة رخية هادئة هانئة إلى أن يشاء الله .

فى أذيال الموسيقى :

تلك حكاية قديمة قرأتها من بين الأساطير الألمانية العتيقة الكثيرة :

فى قرية من قراهم ظهر يوما رجل طويل القامة منسرح القوام ، على رأسه قبعة مُريشة ، وعلى جسمه قميص قصير ضم مائة رقعة بمائة لون . ومن فوق القميص وعلى أكتافه انخلعت عباءة سوداء لها ذيل مجرور . ومشى ، فخطا على حارات القرية ، وهى من حجر ، بأقدامه العارية .

فلما نظره القرويون أدركوا أنه « جمّاع فئران » . ونذر له عمدة القرية أنه لو جمع فئران القرية جميعها ،

فأهلكها ، فله كذا وكذا من الدنانير .

وأخرج هذا الرجل الغريب صفارة من جيبه ، وأخذ يصفر ، فما لبث أن خرجت الفئران من كل دار ، ومن كل جدار ، وتبعته على أنغام الموسيقى . وتكاثر جمع الفئران حوله كلما زاد بالقرية تجوالا ، وأخيرا سار بهذا الجمع الحاشد من الفئران إلى نهر الوزر ، وكان إلى جوار القرية ، وعنده خلع ملابسه ودخل إلى الماء ، ودخلت الفئران تتبعه ، فغرقت جميعها .

ورجع الرجل الصفّار إلى العمدة يستنجز وعده ، فما كان من العمدة إلا أن أنكره .

فذهب الرجل غاضبا

وبعد أسابيع ظهر هذا الرجل عينه مرة أخرى في القرية ، ولكن على غير هيئته الأولى ، وأخرج من جيبه زمارة ، وأخذ يزمر بها نغماً غير نغمته الأولى ، فخرجت هذه المرة أطفال القرية جميعا في أذيال الموسيقى تتبعه كما تبعته الفئران ، وكان من بين هؤلاء ابن صغير لعمدة القرية ، وسار بهم الرجل لا إلى النهر ، ولكن إلى جبل بعيد ، ونزل بهم إلى حفرة فيه يشق منها على الصاعد الصعود .

ثم اختفى وتركهم في حفرتهم يعمهون .

وتفقد أهل القرية أبناءهم فجزعوا . وعثروا أخيرا على ولدين كانا قد تخلفا من الجمع . وكان أحدهم أعمى والآخر أبكم أصم . أما الأعمى فسمع ولم ير . وأما الأصم الأبكم فرأى ولكنه لم يسمع . ولم يكن أيهما قد بلغ مع الإشار الغاية ؛ ومن هذا وهذا استطاع القوم أن يعرفوا شيئا مما حدث . وبعد البحث أياما طلعوا في النهاية على الحفرة فوجدوا الأطفال الثلاثمائة جميعا قد هلكوا .

هذه أسطورة لاشك . أما مغزاها الخلقي فظاهر ، وأما اللون الآخر الذي يظهر زاهيا من ألوان معانيها ، فأثر الموسيقى ، أثرها في الحيوان والإنسان على السواء . وقد لا يعجب المرء لموسيقى تأخذ بأذن إنسان أو أذن حيوان . ولكني ذكرت هذه الأسطورة عندما قرأت بالأمس القادم أن الأصوات الموسيقية من بعض لغات الحشر ، وأنه بالكشف عن هذه الأصوات — عن هذه الموسيقى ، يستطيع الإنسان أن يقود الحشر إلى التهلكة كما قاد صاحبنا الزمار فئران القرية وأطفالها .

أما الخبر الطازج فمن نيويورك . وهو يقول إن الدكتور فان جامعة كُرْنَل ، استطاع أن يتعرّف النغمة التي تدعو بها إناث البعوض ذكوره لطارحهن الهوى والغرام . واستطاع أن يسجلها ، ثم أن يعيدها صوتا مسموعا ، كما تُسجّل أصوات الناس وتعاد في الحاكي وفي المذياع . وجمع عدّة من ذكور البعوض في قفص كبير . وفي ركن من أركان القفص أطلق الصوت من مسجِّله . فما سمعه الذكور حتى هَبُّوا إليه هُبوبا ، أو على ما وصف الدكتور : حتى انقضوا إليه كما تنقض عشرات الطائرات بقنابلها على الهدف الواحد .

وقدّر الدكتور أنه بذلك قد يستطيع العلماء جمع ذكور البعوض بالنغم ، فإهلاكهم ، وبإهلاكهم يتشلّ الحب . وبانشلال الحب ينقطع الوجود .

قنبلة من ذرة :

وخبر آخر نرويه مما روى الرواة في أعقاب هذه الحرب التي انتهت في أوروبا . ذلك صراع دام ما دامت الحرب بين الطرفين المتنازعين ، من حلفاء وألمان ، على أيهما يصل إلى ما أسموه « القنبلة الذريّة » أسبق من منازعه . ولو أن أحدهما وصل إلى كشف ذلك قبل منافسه لضمن النصر نصراً مبينا ، ورخيصا قصيراً في آن .

ولقد علمنا وعلم الناس ما كان لعلماء الألمان من عبقرية في اكتشاف أسباب التهلكة في هذه الحرب . ولكن هذا الذي قصدوا إليه هذه المرة ، وقصد الحلفاء ، لو أتيح لهؤلاء ، وأولئك لكانت النكبة بهذا الاختراع شرا من أي نكبة عرفها الناس في حرب من الحروب .

والتفسير « القنبلة الذرية » التي عمدوا إلى إبداعها

تقول إن ذرة كل جسم مما نرى من الأجسام تتألف من مجموعة من الكهارب ضمّ بعضها إلى بعض ، فتماسك ، قوة عظيمة ، لو أنها تفككت ، وانفصمت عراها ، لانبثت من محبسها القليل الصغير في الذرة هائلةً مفزعة وانفجرت بأكثر مما تنفجر به عظيات المفرقعات .

وقد وجدوا من سائل تفكيك تلك القوى ، وفصم تلك العُرى ، من ذرات عنصر اليورانيوم ، أن يسلّطوا عليها قوة الماء تحت ضغط كبير . ولكن الماء الذي يُسلّطونه ليس الماء العادي الخفيف ، ولكن ما تضمنه من نسبة قليلة من ماء كثيف . ولن نقف لتفسير ما بين الماءين من اختلاف . ويحسبنا أن نقول إن تحضير الماء الثقيل بمقادير وافرة ليس من الأعمال السهلة الميسورة . لكن أهل نرويج ، بمدينة ريجوكان Rjukan نجحوا في إقامة معمل لهم يقوم بتحضير هذا الماء بكميات ذات بال .

ونزل الألمان في حربهم تلك المنصرمة بلاد النرويج ، فاتجه علماؤهم أول ما اتجهوا إلى تلك البلدة يسألون علماءها ما عندهم مما ابتغوا . وكان على رأسهم الأستاذ النرويجي ترونشتاد Lief Tronstad . فما أحس مجيئهم حتى أحرق أوراقه ، إلا بقية تستر عليه سوء القصد . ولم يكن في هذه البقية جديد ذو خطر . واستجوبوه واستجوبوا أعوانه فما خرجوا منهم بطائل .

وأقام الألمان بالمصنع يستتمون أبحاثهم في سبيل إبداع تلك القنبلة الصغيرة المبنى ، الهائلة المعنى .

وهرب الأستاذ ترونشتاد وأعوانه إلى انجلترا ، وأخبروهم الخبر ، وفي انجلترا بدأوا بحوثهم من جديد . فكان بحث هؤلاء في انجلترا ، وكان بحث الألمان في النرويج . وكانت الغلبة في الحرب لابد كائنة للسابق منهما .

إلا أن قلق الانجليز أنهضهم إلى عمل حربي غير البحوث . فمن يدري ؟ .

وفي ذات ليلة من ديسمبر خرجت طائرتان ، تجر كل واحدة وراءها طائرة منزلقة . وفي إحدى المنزلقتين كان عتاد الهدم ، وفي المنزلقة الأخرى كان خمسة وعشرون إخصائيا في فن التخريب . وكان بينهم بعض النرويجيين . وشاء الحظ السيء أن يبلغوا البلدة التي قصدوا في زوبعة ثلجية هوجاء لم ير الناس مثلها أبدا . فتحطمت الطائرة الأولى وتحطم ما سحبت وراءها من عُدة . وأطلق طيار الطائرة الثانية منزلقته للريح فهبطت بالذي فيها من رجال على أرض لا يعرفونها . وانكشف أمر هؤلاء بعد ضلال أيام ثلاثة ، وهرب منهم في مغاور الجبال النرويجية من هرب ، وجاءتهم إشارة من اسكتلندة باللاسلكي ، أن يصمدوا ، فالعود أحمد ، وهو غير بعيد .

وكان لابد من عودة لشيء له كل هذا الخطر .

وفي منتصف فبراير أبرق الأثير إليهم بأن يرقبوا السماء . ونزل من السماء في الموعد المضروب ستة رجال معهم كل عتاد لازم . وأجمع الرجال جميعا أمرهم ، ورسموا الخطة ، لأن المعمل كان مخفورا خفرا شديدا . وفي الساعة المعلومة بالليل ، أشرف بعضهم على الخفر يتنادفهم الرشاشة ودخل الآخرون المعمل ، وبعضهم من كان عاش فيه . ولقيهم في داخل المعمل عامل نرويجي . فما رآهم حتى أخرج منديلا يمسح ما تصبب على جبينه من عرق . وكان لهم من هذا العامل عون ، ولم تمض عشرون دقيقة حتى لم يبق للألمان معمل ، ولا ماء ثقيل ، ولا خفيف ، ولا يورانيوم ، ولا راديوم . تمزق كل شيء في السماء ، فلم يبق لشيء قيام .

ولكن هل انقضى بذلك هذا الحلم المزعج للإنسانية ؟ بالطبع لا . ومن أجل هذا قيل إن الحرب القادمة حرب لن تكون للإفناء ، ولكن للتفاني . ولعل من تلك المعاني معنى القيامة التي يصفون

أحمد زكي

على ضفاف دجلة والفرات

وضع زميلنا الأستاذ طاهر الطناحي كتابا مستفيضا جديدا بهذا العنوان . وهو يتضمن ست عشرة قصة بأسلوب عصري . وتقوم بطبعه دار المعارف . وقد وضع رسومه الأستاذ الكبير بيكار . وسيظهر قريباً .

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٣٩٩٣ / ٥٦٦٦٩

العدد ٣٣٦ الثلاثاء ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ٥ من يونيه سنة ١٩٤٥ السنة السابعة

فهرس العـــــدد

اتجاهات السياسة الأوربية الجديدة

وصلتها بأسباب القلق الحاضر

لم تمض أسابيع قلائل على مصرع ألمانيا النازية ، وتحقيق النصر الذي جاهدت الأمم المتحدة في سبيله ستة أعوام مثقلة بالشدائد ، حتى أخذت السحب تغشى الأفق الدولي ، وأخذت المسائل الشائكة تبدو متعاقبة ، وتنذر بتكدير صفو السلم الذي يتطلع إليه العالم الظمئ إلى الاستقرار والسكينة ، وأخذ شعور من القلق والتشاؤم يغشى بهجة النصر التي لم يفق العالم بعد من نشوتها .

ولقد كان تحقيق السلم المبني على احترام الحقوق القومية والمبادىء الإنسانية شعار الأمم المتحدة طيلة هذا الصراع العالمي المروع ؛ وما فتئت الأمم المتحدة تردده وتؤكده في كل عهد تصدره أو مؤتمر تعقده . ولكن ما بدا منذ لاحت تباشير النصر من ضروب الخلاف بين وجهات نظر الدول الكبرى ، وما ظهر بعد النصر من تفاقم هذه الخلافات ، ومساسها ببعض المبادىء الأساسية التي قطعتها الأمم المتحدة في ميثاق الأطلنطيق وغيره ، مما يتصل أوثق الصلة بأسباب هذا القلق الذي يغشى الآن الأفق الدولي ، ويثير جزع كثير من الأمم التي علقت على انهيار صروح الطغيان الفاشستي والنازي أعظم الآمال .

بيد أنه قد يكون من التعجل أن نغلب منذ الآن روح التشاؤم فيما نشهد من ظهور بعض المشاكل الإقليمية والسياسية المترتبة على انتهاء الحرب في أوربا ، وتحرير الأمم المغلوبة ، فظهور مثل هذه المشاكل أمر طبيعي في مثل هذا الوقت الذي تضطرم فيه الشهوات القومية والسياسية لدى بعض الأمم الطامعة إلى تحقيق المغانم باسم

الكفاح المشترك ؛ وكل شيء يتوقف في كبح جماح هذه الشهوات الخطرة على مسلك الدول الكبرى ، فإذا تناولت الأمور بروح الحزم ، والتجرد عن الأهواء ، ومراعاة مصلحة السلم دون سواه ، كان لنا أن ننتظر حلولاً حاسمة موفقة لمشاكل أوربا الإقليمية والسياسية في مؤتمر الصلح القادم . وأما إذا اتخذت هذه المشاكل ستاراً لصراع الدول الكبرى حول مناطق النفوذ ، ودفعت الأمم الصغرى إلى أن تلعب دورها الخطر ، فإنه يخشى أن تنحدر أوربا إلى غمرة طاحنة من الفوضى على غرار ما حدث عقب الحرب الكبرى .

وإذا لم يكن من الخير أن نستبق القول في الحكم على مصاير أوربا ومصاير السلم في تلك الآونة التي يسودها الغموض والتناقض ، فقد يكون من المفيد أن نحاول فهم العوامل التي توجه سير السياسة الأوربية الحاضرة ، وتوجه مسلك الدول الكبرى إزاءها .

ويجب أن نذكر أولاً أن العوامل التاريخية والسياسية القديمة تلعب دورها بالرغم من كل شيء ، وكل ما هنالك أنها تحاول أن تفيد من التغييرات الجديدة التي طرأت على أوضاع القارة الأوربية ، والتي ترتبت بالأخص على اختفاء ألمانيا وإيطاليا من ثبت الدول العظمى .

فروسيا السوفيتية التي تغدو بعد انهيار ألمانيا أعظم قوة عسكرية في القارة ، تتجه اليوم في سياستها الدولية إلى تحقيق أغراض السياسة القومية ، وهي لا تختلف في جوهرها عن أغراض السياسة القيصرية القديمة ، وتنحصر هذه الأغراض فيما يأتي :

أولا — تدعيم سيادة الجنس السلافي وتفوقه في شرق أوربا وأواسطها . وقد لبثت معركة الجنس السلافي والجامعة الجرمانية عصوراً من أهم ظواهر التاريخ الأوربي ؛ وقد بلغت هذه المعركة السياسية والاجتماعية ذروة الخطورة منذ قيام النازية ، وشعارها تفوق الجنس الآري وسيادته ، وكان غزو الجيوش الألمانية لروسيا خلال هذه الحرب أعظم مجهود قامت به الجامعة الجرمانية لإخضاع الجنس السلافي وإبادته ؛ ولكن هذه المعركة الهائلة انتهت بهزيمة الجامعة الجرمانية وظفر الجنس السلافي أعظم ظفر حققه في تاريخه ؛ وسيترتب على ذلك أن تبقى ألمانيا زعيمة الجامعة الجرمانية عصراً في حالة ضعف وانحطاط شديدين ، وتستقبل روسيا زعيمة الجنس السلافي أعظم عصر من القوة والنهوض .

ثانيا — أن تستأثر روسيا بالنفوذ السياسي والأدبي فيما تعتبره مناطق سلامتها ، ويشمل ذلك شرق أوربا وأواسطها وبلاد البلقان على منطقة البواغيز التركية التي تعتبرها روسيا منذ عصور ذات صلة وثيقة بسلامتها . وترى روسيا بوجه خاص أن كل ما يتصل بحدودها الغربية والجنوبية من المسائل الإقليمية مما يتصل مباشرة بسلامتها ، ولذلك تعتبره من مسائلها الخاصة التي لا تقبل فيها تدخلا أو مناقشة من أي نوع ؛ ومن ثم كان موقفها الصارم ، من المسألة البولونية ، وتبلغ هذه المسألة إلى حد الخطورة .

وهذه الأغراض السياسية البعيدة المدى التي يلوح لنا أن السياسة الروسية تتخذها شعارا لها تقترن باتجاهات اجتماعية لها خطورتها ؛ ومع أننا لا نعتقد أن موسكو سوف تحاول فرض نظمها الاشتراكية على الأمم الأوربية ولا نعتقد أن نظم أوربا الديمقراطية سوف تتحول إلى بلشفية أو شيوعية كما يتوهم البعض ، فإنه من المعروف أن موسكو لا تغضي عن قيام ما تسميه بالنظم المشبعة بالروح الفاشستية كما هو الشأن في تركيا وأسبانيا ، كما أنها تعطف على الاتجاهات الاشتراكية والشيوعية ، كما هو الشأن في موقفها من اليونان ويوجوسلافيا .

يقابل هذه الاتجاهات موقف السياسة البريطانية من

شئون القارة الأوربية . وقد كانت السياسة البريطانية تقوم قبل الحرب الحاضرة على مبدأ التوازن ، بين الدول العظمى ولا سيما بين فرنسا وألمانيا من جهة وبين فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى . ولم يكن يحسب لروسيا البلشفية فى هذا التوازن كبير حساب لعزلتها السياسية والاعتقاد السائد فى تفككها وضعفها ، ولكن اختفاء ألمانيا وإيطاليا من ثبت الدول العظمى ، وانهيار فرنسا إلى أمد طويل ، يضع السياسة البريطانية ومن ورائها حليفتها القريبة الكبرى أمريكا إزاء السياسة الروسية وجها لوجه . ومع أنه لم يبق اليوم مجال لسياسة التوازن الأوربى القديمة ، فإن السياسة البريطانية ما زالت عند غاياتها التقليدية فى الاحتفاظ بنفوذها السياسى فى غربى أوربا وفى حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن الواضح أن سيطرة بريطانيا على البحر الأبيض المتوسط تغدو اليوم أقوى وأتم ، بعد أن فقدت إيطاليا شواطىء برقة وطرابلس وأرغمت على تسليم أسطولها ، وبعد أن فقدت فرنسا معظم وحداتها البحرية .

* * *

تلك هى الاتجاهات السياسية التى تتقلب اليوم على القارة الأوربية من الجانبين الشرقى والغربى . ومن المعروف أن الدول الثلاث الكبرى قد تفاهمت فى مؤتمر القرم إلى جانب الشئون العسكرية ، ومناطق الاحتلال ، على مدى هذه الاتجاهات السياسية وحدودها بصفة عامة . ولكن الخلاف ينشأ الآن على كثير من التفاصيل . فالمسألة البولونية ، ومناطق الاحتلال فى ألمانيا ، وإدارة المناطق المحتلة ، تغدو اليوم مشاكل شائكة تتطلب الحل العاجل ، كما أن مسألة تريستا تدل من الناحية العملية على زحف العناصر السلافية والشيوعية التى تؤيدها روسيا . ويدل موقف انجلترا الحازم منها على أنها لا يمكن أن تغضى عن حركة تتصل بسيادتها فى البحر الأبيض المتوسط .

والخلاصة أن عناصر الخلاف والقلق التى تسود الآن جو أوربا ترجع إلى أن أهداف السياستين الروسية والبريطانية والأمريكية لم يكتمل تنسيقها بعد . وإذا كانت هذه العناصر تثير اليوم نذيرا ما بمخاوفها بتعلق بتنظيم السلم المستقبل ، فمن المعقول أنها لن تترك على هذا الغموض إلى أجل غير مسمى . والمعتقد أن اجتماع الأقطاب الثلاثة فى المستقبل القريب فى مؤتمر جديد ، كفيل بتنسيق أهداف الدول الكبرى ، وإزالة أسباب الخلاف فى كثير من المسائل التى تثير اليوم سحبا فى الأفق .

وإنه ليصعب علينا أن نعتقد فى هذه الآونة أن الدول الكبرى التى صهرت فى أتون الحرب ، واحتملت كل هذه المحن والتضحيات الهائلة فى سبيل الوصول إلى النصر ، تأتى فى نهاية الشوط فتنسى أهدافها العظيمة من أجل منازعات محلية لا يصعب تذليلها .

* * *

على أنه يبقى بعد كل شىء أن نعرف ما إذا كانت الدول الكبرى سوف توفق إلى جانب تنسيق أهدافها القومية الخاصة إلى تنظيم السلم المستقبل على أسس نزيهة عادلة ، وما إذا كانت ستحترم العهود المقطوعة .

وذلك أن ما نراه من مسلك فرنسا المثير فى سوريا ولبنان أو بعبارة أخرى ما نراه من اعتداء إحدى الدول بهذه الصورة المؤلمة على حقوق شعب اعترفت سائر الدول باستقلاله مما يثير فى نفوسنا أعظم المخاوف من هذه الناحية ! ولن يزيل هذه المخاوف من نفوسنا إلا أن تبادر الدول الكبرى إلى كبح جماح هذه النزعة الاستعمارية التى تتورط فيها فرنسا دون تبصر ولا روية ، وإلا أن تقدم الأدلة المادية على أنها تنوى الوفاء حقا بما قطعته على نفسها من عهود مقدسة فى ميثاق الأطلنطيق وغيره باحترام حقوق الدول الصغرى .

محمد عبد الله عنان

حول الإسلام والعلوم

نظرة إلى الماضى
وأمل فى المستقبل

كتب الكثيرون عن الأثر العميق الذى كان لعلماء المسلمين فى تقدم العلم . وقد قرأنا للمسلمين ولغيرهم كتابات عديدة فى هذا الموضوع ، غير أننا عثرنا على شهادة حديثة نشرت افتتاحية لأحد أعداد هذا العام لمجلة (Endeavour) شهادة مشرقة قوية رأينا أن نشرها مفيد فى هذا الأوان الذى ينفض العرب فيه عن أنفسهم غبار الكسل والقعود ، ويتطلعون لمستقبل باهر ويتوقعون نشاطا منتجا فى جميع نواحى الحياة وفى جميع البقاع التى يقطنها المسلمون ، وكذلك فى هذا الوقت الذى تتحرش فيه بأمتين إسلاميتين صغيرتين دولة غربية ذاقت بالأمس القريب جداً كأس الذل وأحست مرارة الظلم والاستعباد فتناسته كما تناست ماضى المسلمين وحضارتهم وما كان لهم من فضل على أوربا وعلى العلم بوجه عام .

كتب المقال الذى ننقل عنه بمناسبة زيارة ملك الانجليز إلى مركز الثقافة الإسلامية فى لندن واطلاعه على مشروع إنشاء جامع جديد بها ينتظر أن يشرع فى بنائه عقب انتهاء الحرب على قطعة أرض قدمتها الحكومة الانجليزية ، وذكر الكاتب أن هذه الزيارة قوبلت بترحيب عظيم لاسيما فى الأوساط العلمية التى تذكر أنه منذ ألف سنة كانت شعلة العلوم متقدة ونورها ساطعا فى البلاد الإسلامية وعلى أيدى المسلمين وحدهم ، والتى يحدوها أمل مشجع أنه بحلول السلم ستهب العبقرية الإسلامية من سباتها العميق وتستعيد نشاطها العلمى القديم فى قوة وعزم وبصيرة نفاذة .

والذى يبعث على هذا الأمل هو الاعتقاد بأن على أمم العالم أجمع أن تساهم كل بقدر استطاعتها فى بناء العلم وفى تقدم المعرفة ، ولو كانت المصادفة قد شاءت أن يكون العامل الأساسى فى هذا التقدم فى خلال الثلاثة أو الأربعة القرون الأخيرة هو الفكر الغربى ، فإننا لا ننسى أن أساس التقدم العلمى يقوم على خصب الخيال البشرى وازدهار إنتاجه . وقد صدق العالم الذى قال : « دعونا أيها السادة نتعلم كيف نحلم ونستغرق فى الأحلام » فإن هذه هى الطريق التى نشأت بها النظريات كبيرها وصغيرها ، ما نرتاح إليه وما لا نرتاح . وعلى الرغم من أن هذه الخيالات والتصورات تزداد كما تزداد الوسائل الصارمة التى أعددناها لاختبارها فلا يجرؤ أحد أن يقرر أن الفكر الجديد والآراء المبتكرة تفيض فى الوقت الحاضر بالقدر الذى نرجو وبالكثرة الواجبة ؛ ومن هذه الناحية يصح أن يكون للنهضة العلمية الإسلامية المرتقبة نتائج غاية فى العظم وآثار محسوسة فى زيادة ذلك الفيض المرجو من الآراء والفكر الجديدة .

والتنبؤ باحتمالات المستقبل يجب أن يقوم على ضوء ما تم فى الماضى ، ومن ثم قد يكون من المناسب أن نستعرض بعض الأعمال العظيمة البالغة الأهمية التى نهض بها العلماء المسلمون فى أيام عز الإسلام وسطوته . وعلى الرغم من أنه لم يكن ينتظر أن يكون فى السنوات التالية لحروب دينية عظيمة المدى مجال للتشجيع على استيعاب المعلومات والتهام المعارف ، وهضمها وكذلك بثها ونشرها على نطاق واسع ، فإن هذه الظاهرة التى لا يتوقعها أحد كانت من الخصائص المميزة لصدر الإسلام ، فقد رأينا كثيرا من الخلفاء كهرون الرشيد وغيره يظهرون فى مثل تلك الظروف العصيبة تسامحا وعطفا يستوجب الثناء نحو العلماء والدارسين من المسيحيين واليهود وغيرهم ، ويغدقون العطايا على الجامعات والمراصد والمستشفيات ، وينقبون من المخطوطات عن الكتب اليونانية القيمة لكى تترجم وتدرس ، ويبذلون كل ما فى وسعهم من جهد ، ويسعون بكل وسيلة ممكنة لنشر العلم والعرفان وتأييده والعمل على نموه وازدهاره .

وسرعان ما أثمرت تلك السياسة المستنيرة الرشيدة وآتت أكلها . وليس هذا مكان التفصيل والاحاطة ، فلا نملك هنا إلا إشارة عابرة لفضل الإسلام والمسلمين على الاختراعات في علم الجبر والاضافات والتوسعات في علم حساب المثلثات وإدخال العدية الهندية (بعد أن أضافوا إليها علامة جديدة بالغة الأهمية وهي الصفر) . ثم إن هذا التقدم الرياضي البارع قد صحبه وسايره تقدم يناظره في علوم الفلك والكيمياء والطبيعة والاقرباذين ؛ فالبتاني مثلا الذي توفي عام ٩٢٩ بعد الميلاد قد عين بالدقة مقدار زاوية مدار الشمس (أو دائرة البروج) وطول السنة الاستوائية ومتوسط حركة الشمس ، كما أثبت إمكان حدوث كسوف أو خسوف سنوي ، وأعاد حساب قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقد اعتمد على أرصاده عن كسوف الشمس وخسوف القمر الفلكي الانجليزي دثورن واستخدمها في حساباته .

أما في علم الطبيعة فقد حمل لواء علماء المسلمين الحسن بن الهيثم (٩٦٥—١٠٣٨ أو ٣٩) وهو رجل عبقري قد عارض الفكرة التي تشبث بها معظم الفلاسفة الأقدمين والتي تقول بانبعاث أشعة ضوئية من العين إلى الجسم المرئي ، وقال على عكس ذلك بأن الرؤيا ترجع إلى انبعاث صادر من الجسم المرئي نفسه . وقد اكتشف أحد قوانين انعكاس الضوء ، وهو أن زاوية السقوط وزاوية الانعكاس تقعان في مستو واحد ، ودرس المرايا على اختلاف أنواع سطوحها ، ولا تزال إحدى المسائل المتصلة بها والتي حاول حلها معروفة باسمه وهي : « إذا علم موقع نقطة تبعث الضوء وموقع العين فكيف تحدد النقطة التي يحدث عندها الانعكاس على سطح المرآة كرية كانت أو أسطوانية أو مخروطية »

وقد بحث ابن الهيثم قوس قزح والهالة والارتفاع الذي يصل إليه الهواء الجوي ، وكان أول من وصف العين بالتفصيل والدقة . وتدل دراساته على تصور عميق دقيق لكيفية تجميع الأشعة وتحديد موضع الصورة وتكبيرها وقلبها ، ولطبيعة تكون الحلقات والألوان ، وقد استخدم الخزانة المظلمة (أول أنواع الكمرا) لأول مرة ، ولاحظ أثناءه الشكل الذي تكون عليه صورة الشمس أثناء الكسوف ، إلى غير ذلك من الأعمال العلمية الباهرة التي تكون منها قاعة إذا توافرت لأي شخص كان جديرا بأن يتبوأ مكانا عليًّا بين علماء أي عصر من العصور .

والبيروني (من ٩٧٣ إلى ١٠٤٨) مذكور ببراعته التجريبية في تعيين الكثافات النوعية بطريقة يرجع أساسها العلمي إلى أرخميدس ، فالأرقام التي وصل إليها بلغت من الدقة حداً يثير الاعجاب . وإليك بعض أرقامه من الكثافات النوعية : الذهب (١٩ر٠٥) الزئبق (١٣ر٧٤) النحاس (٨ر٨٣) الحديد (٧ر٧٤) القصدير (٧ر١٥) الرصاص (١١ر٣٩) وهي قريبة من قيمتها الحديثة قربا مدهشا . وقد تلت هذه الخطوة من الدقة خطوة أخرى على يد الخازني الذي جاء بعد البيروني بقرن فدرس كثافة الماء بعناية عند مختلف درجات الحرارة ووصل إلى تغيراتها الصحيحة . ثم لاحظ أيضا أن الهواء يدفع الجسم الذي فيه إلى أعلى مما لابد وأن يؤثر في مقدار وزنه كما يبدو لنا . وهذه حقائق تدل على صحة ما ادعاه من أنه أنشأ ميزاناً دقيقا يصدق إلى ٦ . ر . من الجرام بالنسبة لثقل يبلغ ٢ر٢ من الكيلو جرام ، وهي دعوى تؤيدها كل الشواهد التي تدل على أن حساسية الميزان العلمي بلغت في ذلك العصر حدا مدهشا .

وأما أن الكيمياء مدينة للإسلام فهذا أمر معلوم ، اعترف الجميع به ؛ وأول كيميائي عظيم ظهر في التاريخ كان جابر بن حيان الذي لا يزال كثير من كتاباته باقياً وإن كانت تفاصيل حياته غير معروفة بالتأكيد ، بل إن القرن الذي طار فيه صيته لا يزال موضع جدل . لكن الحقيقة التي تهمنا هي أنه أدرك بوضوح وقرر في تأكيد أن الكيمياء لا يمكن أن تستغني عن « التجربة » ، وتحوي كتبه أوصافاً واضحة لبعض تجارب يتبين منها أنه كان مفكرا خصبا وملاحظا دقيقا .

ويأتي بعد جابر في الكيميائيين الرازي الذي وصف بأنه أنبه أتباع الفلاسفة اليونانيين الذين عاشوا بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد ، وأجدر هؤلاء الأتباع الذين ظهروا في التسعة عشر قرناً التي تلت وفاة أرسطو بالذكر ، وقد تجلى في كتاباته الكيمياوية ميل إلى الحقائق الخارجية المتصلة بالأشياء ، وإعراض عن وسائل السحر والتنجيم ، واعتماد قوى على ذلك النوع من الحقائق الذي يمكن البرهنة عليه عن طريق التجربة والاختبار ، ومن خدماته للكيمياء التصنيف المنظم للمواد الكيمياوية الذي أضاف إليه شرحاً جليًّا لخواصها البارزة ، التي كانت معروفة في ذلك الوقت .

وفي ميدان الكيمياء التطبيقية ، وأعني بها العمليات التي تهم الكيميائي في التعدين والصباغة والاقراباذين وما شاكل ذلك ، في هذا الميدان أيضا تدل المعلومات الكثيرة المتراكمة التي خلفها لنا المسلمون على أنهم وصلوا إلى اكتشافات عديدة عظيمة جدا . ومن المحتمل أن تحضير حامضي الكبريتيك والازوتيك لأول مرة كان على يد الكيميائيين المسلمين . وفي القرن الثالث عشر كانت عمليات حرق ركاز الذهب والفضة واستخلاصهما وفصلهما واستخراج الفضة عن طريق مزجها بالزئبق والتحليل الكمي للسبائك — كل هذه وما شاكلها كانت عمليات عادية (روتين) تجرى في دار سك النقود بالقاهرة .

كذلك علوم الجغرافيا والحياة والحيوان والتعدين والجو قد خدمها من هؤلاء الأتباع المسلمين فريق نابه موهوب ، ومن أعظم علماء الحياة في الإسلام ، ابن البيطار المتوفى سنة ١٢٤٨ ، فكتبه في علم النبات وإن ارتكزت على معارف الأقدمين تمثل في مجموعها تقدما ملحوظاً .

وهكذا يصح أن تستمر القصة ، فعلماء تلك القرون النائية كانوا يضعون المعرفة العلمية في المكانة الأولى من الأهمية ، وقد أدى اهتمامهم بها إلى نشوء طريقتهم الخاصة التي تتلخص في أنها « عادة عقلية تتلمس الأسباب ومزاج تجريبي يميل إلى التحقيق » .

إن ارتفاع مستوى النشاط الفكري والإنتاج وانخفاض هذا المستوى في الأمم لا يزال ظاهرة تفتقر إلى التعليل . لكن يصح لنا أن نؤمن بأن ما قدر عليه الإنسان مرة يقدر عليه أخرى . وأن جزءاً كبيراً من البلاد الإسلامية لا يزال يفتقر إلى فرص تعليمية ، من الطراز الأول الذي يتهيأ في أوربا وأمريكا فإذا توافرت ضمنّا لحاق الأمم الاسلامية بالقافلة العلمية الحديثة واستعادتها لمجدها العلمي التليد . ونحن موقنون بأن الاسلام في الوقت الحاضر عبارة عن خزان ملئ بالقدرة العلمية وزاخر بقدر متناسب معها من العبقرية لا يسع العالم أن يغفله لأنه في أشد الحاجة إليه .

هذا ما تقوله عن الإسلام وآثاره العلمية مجلة إنجليزية . فهلا نجد فيه حافزا على العمل الجدي المنتج السريع في هذا الاتجاه ؟

أحمد عبد السلام الكرداني

لون من ألوان الفكاهة
المصرية

امتاز المصريون بالفكاهة الحلوة يتفننون في صنعها ويتذوقونها ويحتفلون بها . لماذا ؟ لا أدرى .

كما لا أدرى لماذا كانت أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب أحسن الناس غناء دون ملايين المصريين .

ولماذا كانت القاهرة أقدر على هذا الفن من غيرها من مدن الشرق كله ؟ لا أدرى أيضا . . وليست المسألة مسألة تقدم في المدنية والحضارة ، فهناك في المدن الغربية ما يفوق مدينة القاهرة مدنية ، ولكن لا يجاريها في النكتة . وفي العالم مدن صغيرة فاقت في ذلك المدن الكبيرة كما فاقت مدينة رشيد الصغيرة في ذلك مدينة طنطا الكبيرة .

والفكاهة أشكال وألوان . فهناك السخرية بالفكرة ، والسخرية بالأشخاص ، والتنكيت عن طريق التورية بالألفاظ ، الخ الخ .

ولوننا الذي نعرضه اليوم لون طريف له تاريخ لطيف .

فقد حدث في القرن الماضي من سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٦٣ أن كان في القاهرة شابان موسران من أسرتين كبيرتين يعيشان عيشة بوهيمية ، وهما — إلى استهتارهما ومرحهما وإفراطهما في الشراب — أديبان ظريفان ، يقرآن الكثير من كتب الأدب ، ويعرفان الشعراء معرفة دقيقة ، ويتخيران الشعر الجيد يحفظانه ويرويانه ، ولهما مجلس طريف فيه الشراب وفيه الشعر وفيه الفكاهة ، هما ابراهيم افندي طاهر ، وعبد الحميد بك نافع . فكان مما خطر لهما أن يستعرضا الأدباء والعلماء في عصرهما ، ويخلعا على كل واحد منهما لقبا من ألقاب الأدباء القدماء يناسبه ويلبسه وينسجم معه .

وهى مهمة ليست باليسيرة ، فلكل اسم وحيه ودلالته ، ولابد أن يتفق وحى اللقب مع الملقب به اتفاقا بارعا يقابله الجمهور بالضحك والاستحسان . فبعض الأسماء لو سمى به كناس كان مناسبا ، ولكن لو سمى به أديب أو شاعر أو وزير لم يكن منسجما ، وهكذا . . وبعض الأسماء يوحى بالظرف . وبعضها يوحى بالثقل ، وبعضها يوحى بالذكاء ، وبعضها يوحى بالغباء ، وهكذا .

وأثار عملهما هذا ضجة في الأوساط الأدبية فأشاع فيها الضحك والمرح حيناً ، والتعصب والخصومة حيناً ، فكانت معركة حامية لطيفة . ونحن نذكر بعض ألقابهما .

كان في القاهرة « على أغا الترجمان » ، وكان عينا من الأعيان ، فيه جلال ووقار ، بعمامة نظيفة وشيبة ظريفة فسمياه « القاضي الفاضل » .

وكان « عبد الله باشا فكرى » أديباً ظريفاً ، رقيق اللفظ ، عذب العبارة ، سهلا في طباعه يرسل الحديث على سجيته ، والنكتة على فطرته ، فسمياه « ابن سهل » .

وكان له صديق اسمه « عبد الغنى بك فكرى » ضخم كبير الرأس ، فسمياه « الأخطل » . وعُرض عليهما « محمود صفوت الساعاتي » الشاعر المشهور ، وكان نحيفاً قصيراً كثير الالتفات والحركات فسمياه « ديك الجن » . وقد غاظه هذا اللقب لما شاع في الناس ، وعمل قصائد هجاء في ابراهيم افندى طاهر .

وكان الشيخ ابراهيم الدسوقي ، الأديب المصحح في مطبعة بولاق ، طويل القامة ، قوى البنية ، كبير العمامة ، كثير الفكاهة ، حلو السمر ، يجلس عند الباب الأخضر لسيدنا الحسين ويسمر مع أصحابه ، وله ضحكة عالية تسمع من آخر الشارع ، فسمياه « مهيار الديلمي » . والشيخ محمد قطة العدوى ، أحد علماء الأزهر ، وكبير مصححي المطبعة الأميرية ، كان إذا درس تمايل يميناً وشمالا ، فإذا قال بيت شعر مال يميناً عند المصراع الأول ويساراً عند المصراع الثاني ، فسمياه « أبو شادوف » .

والسيد على أبو النصر ، والشيخ على الليثي كانا نديمى الخديو اسماعيل ، وكانا معروفين بالظرف والتنادر . وكان

أبو النصر طويلا جداً ، فسمياه « ابن العماد » ، وسميا الشيخ على الليثى « أبو دلامة » إذ كان فكهاً مضحكا ، كما كان أبو دلامة للرشيد . وكان ابراهيم بك مرزوق أبي النفس شجاعاً جريئاً فى قول الحق حتى نفى إلى الخرطوم ومات بها ، وكان شاعراً قوياً ، فسمياه « أبا فراس » .

ومحمود سامى البارودى ، كان أيام هذه التسمية جميل المنظر ، لطيف القد فسمياه « ابن رشيق » .

ومحمد عثمان جلال الزجال كان أديباً ماجناً يملأ القاهرة فكاهة ، فسمياه « الخليع البغدادى » .

والسيد صالح بك مجدى كان شاعراً ، وكان لونه يميل إلى السواد ، وفى عينه بعض حول فسمياه « الأحوص » .

واسماعيل افندى الخربتاوى كان نحيف الجسم جداً من أكل الأفيون ، وانحنت قامته ، وتقرفص فسمياه « ابن قرناص » .

والشيخ عثمان مُدُوخ صاحب التوشيحات والأزجال كان يمشى كأنه يتدحرج فسمياه « دِعْبِل » .

والشيخ حسين المرصفى ، كان كفيفاً نحيفاً يتهم بالزندقة ، فلقباه « أبا العلاء المعرى » ، ونسيبه الشيخ زين المرصفى كان قليل الكلام فسمياه « ابن السِّكِّيت » .

ومصطفى كامل افندى معلم اللغات الشرقية بخان الخليلى ، كان قصير القامة ، قصير الرجلين ، بهما اعوجاج فسمياه « الكَوْكَ » .

والشيخ عبد الهادى الابيارى ، كان يداخل الأغنياء ويحب الظهور ويتكلم دائما بنون التعظيم فيقول قلنا وفعلنا ويضخم الميم فى نطقه ، وأخيرا ولى القضاء فى بلدة « برمة » وما حولها ، وقد اشتهرت برمة بتفريخ الدجاج فسمياه « قاضى الدجاج » .

ومحمد شراره أفندى كان ينطق بالصاد فيها صفير فقالا عليه إنه أفصح من نطق بالصاد وسمياه « أبا الشيص » .

وكان للشيخ محمد بخاتى لحية صفراء كبيرة قليلة العرض من بدايتها آخذة فى العرض شيئا فشيئا إلى نهايتها فسمياه « ابن مكانس » .

وكان السيد أحمد الرشيدى إمام المعية أبيض اللون له هيبة ووقار غزير شعر الشارب كثيف اللحية يلبس فرجية واسعة فسمياه « هرقل » الخ الخ .

ولما فرغا من منح الألقاب طلب كل منهما من صاحبه أن يلقبه فلقب إبراهيم أفندى طاهر « بالشاب الظريف » وعبدالحميدبك نافع « بالصاحب بن عباد » وهكذا ملآ مصر بعملهما هذا مرحاً وضحكا أيام كان الضحك رخيصا[1] .

أحمد أمين

---

(١) كان متصلا بهذه الحلبة الشيخ أحمد القطاوى وكان عالما ظريفا وخطاطا ماهرا أمد المكتبة العربية بكثير من الكتب القديمة التى خطها بقلمه البديع وطبعت بمطابع الحجر تحمل اسمه . وقد ألف رسالة فيما كان يجرى فى هذا المجلس والألقاب التى وضعها هذان الأديبان الظريفان وسماها « بنات أفكار وعرائس أبكار » وهى مخطوطة فى مكتبة المرحوم أحمد باشا تيمور وقد لخصناها فى هذا المقال .

المسكين القاسى

لم أستطع إلا أن أحزن عليه . ذلك المسكين الذى خرج إلى الحياة وحاول أن يكافح فيها ، ولكنه ضعف وتخاذل ، وخارت قواه ، وترك نفسه يخر صريعاً بفعل يده . هو طالب فى الجامعة ، نشأ فقيراً ، أو لعله من أسرة أصابتها نكبة مالية اضطرته إلى أن يحمل على ظهره حملين ، حمل نفسه وحمل غيره . كان يحمل عبء الدراسة الجامعية لكى يستقبل الحياة مسلحاً بما يجب أن يتسلح به المرء فى هذا المجتمع الطامح الذى لا يرضى إلا عمن يحملون الأسماء . فكان همه الأول أن تكون فى يده الشهادة الجامعية التى تخلع عليه الاسم الجامعى الذى يعترف به الجميع ، ولم يرض لنفسه أن تقنع بما هو دون ذلك الاسم الرنان . فقد كان يستطيع مثلاً أن يكون كاتبا فى الحكومة بأجر مناسب يساعده على الحياة ، وكان يستطيع مثلا أن يعمل فى شركة من الشركات ، أو أن يصيب أجراً من عمل آخر كائناً ما كان لكى يجد الكفاف لنفسه ولمن معه من أهله حتى يستعد لوثبة أخرى إذا كانت نفسه تأبى عليه أن يقنع بمثل هذا الحظ اليسير من الحياة . كان يستطيع أن يحتال لنفسه بشىء من مثل هذه الحيل ، ولكنه كان لا يرضى لنفسه إلا أن يحمل الاسم الرنان الكريم « خريج الجامعة » وكان لا يرى الحياة جديرة بأن يحياها إلا إذا حمل ذلك الاسم الرنان .

ولكنه كان فى الوقت نفسه يحس أن عليه واجبا آخر نحو أهله الذين يحتاجون إلى مساعدته ، فكان يكلف نفسه مشقة السعى لهم إلى جانب ما يتجشمه من عناء الدراسة .

وكان فى أثناء ذلك كله موزع القلب ينظر حوله فيرى مباهج الحياة ويرى لداته وأصحابه يتمتعون بها فيذوب قلبه حسرة لأنه محروم لايقدر على أن يصيب منها ما يصيبون ولم يقدر على أن يكون لنفسه فلسفته الخاصة ولا خطته الخاصة ، وحسب أن الحياة إذا خلت من تلك المباهج الخلابة لم يبق فيها ما يستحق أن يحيا من أجله .

هذه هى المأساة ملخصة فى سطور قليلة ، فلم يجد وسيلة للتخلص من الآلام إلا بأن يصوب المسدس الصغير إلى رأسه ويذهب إلى عالم النسيان فى ثوان معدودات . لقد حزنت عليه ولم أملك إلا أن أحزن عليه لأن المسكين كان ضحية لعصر موزع القلب أصابه بدائه فصار هو كذلك موزع القلب غير مستقر على أساس .

فهناك من الناس من كان يستطيع أن يتخلص من الأوهام ويقنع بغير الأسماء الخلابة ، ويعلم أن الحياة أفسح وأعقل من أن تتقيد بالأسماء . هناك من كان يستطيع أن يقبل على العمل المنتج الذى يعينه على الحياة الشريفة بغير أن يسمح للأوهام أن تضلله ، متكلا على قوة جنانه ، واثقا بأنه يستطيع مع مواصلة السعى أن يبلغ إلى القمة بغير أن تقف فى سبيله الأوهام والأسماء .

وهناك من الناس من كان يستطيع أن يتحمل العبء الثقيل ويواصل الدرس مع مواصلة السعى فى سبيل القوت حتى يصل أخيراً إلى بر السلامة ، بغير أن يسمح للزخارف المحيطة به أن تزيغه عن قصده ، ولكن المسكين لم يفعل هذا ولم يفعل ذلك ، وبقى موزع القلب بين مطامحه وبين نزوات الاشتهاء ، فبلغت منه الحيرة مبلغها ولم يقدر إلا على شىء واحد ، هو أن يلتمس أقرب الطرق إلى الخلاص من المتاعب بالاسراع إلى الفناء فى عالم النسيان والظلام .

لقد كان المسكين ضعيفا غير جدير بالحمل الذى ألقته عليه المقادير ، فان الأحمال الثقيلة لا تجدر إلا بالقلوب الراسية الكبيرة . وما كان أجدره بأن يكون واحدا من تلك الطبقة المدللة التى تولد لكى تجد الألوف تحت تصرفها ثم تقضى الحياة فى الراحة والنعيم ! ما كان أجدره بأن يكون واحدا من هؤلاء الذين يعتمدون على غيرهم ويتمتعون

يكد غيرهم ويتطفلون على موائد الحياة بغير تفكير إلا في أنفسهم ، فإن تحمل الأعباء الثقيلة لا ينبغي إلا أن يكون من نصيب الأقوياء ...

لم أملك إلا أن أحزن من أجل المسكين ، وكان حزني يشيع حولي جواً من الظلام فلم يخف أمري على صحبي ولا على من حولي من أهلي حتى لقد رابهم أمري ، وأقبلوا على يسألونني عن علة حزني ، ولم أستطع أن أخفي عنهم الأمر طويلا فقصصت قصة ذلك المسكين ولم أعلق عليها بحرف لأن حزني لم يفتح لي سبيلا إلى اللوم ولا إلى التعنيف .

واستمع صحبي إلى القصة في صمت ووجوم ، حتى إذا انتهيت إلى نهايتها ساد سكون يشبه السكون في ذيل الإعصار ثم تحرك أحدهم وأطرق قليلا وتنفس نفسا عميقا ، وقال لي بعد لحظات :

إنك تزعم أنك حزين من أجل ذلك الطالب المسكين ، ولكنك تقسو عليه أشد القسوة ، أما أنا فلقد مرت بي في الحياة دقائق كنت فيها أرجح في كف القدر ولم يكن بيني وبين مثل هذا المصير إلا لمحة من لمحات اللطف الخفي . ولهذا أجد أني أقل منك لوما وأقل منك قسوة .

كنت طالبا في الدراسة العليا منذ ثلاثين عاما ، وكان ذلك في أعقاب أزمة ضاقت حلقاتها حول أسرتي ، فكنت مضطرا لأن أجاهد في سبيل الحياة مع جهادي في سبيل الدرس ، كنت أواصل الدرس صدر النهار ، ثم أواصل السعي آخره ، وأقبل على الكتاب في الليل بعد ساعات مضنية من العمل في سبيل كسب القوت . فكنت لا أذهب إلى مضجعي حتى يكاد الليل ينتصف ثم أنهض بكرة لكي أستأنف يوما آخر ثقيلا مزدحما بالأعمال .

وكنت عند ذلك في فورة الشباب أحاول أن أداري ما أعانيه عن لداتي خوف أن يكون ذلك داعيا إلى هبوط مكاني في أعينهم . ويعلم الله ما كنت أقاسي في سبيل هذا من آلام نفسية كانت تذهب بي أحيانا إلى حد اليأس والثورة ، فكنت كلما أحسست نفسي تضيق ذهبت إلى صديق واحد أبثه شكواي ، وكنت دائما أجد عنده ما يزيل عني الهموم ، ذلك هو النيل القديم الأغبر الذي كان يسير تحت عيني دائما في جلال . فكنت أحيانا أراه يضطرب مزمجرا في فصل الخريف إذا احمرت مياهه في وقت الفيضان ، وكنت أحيانا أراه ينساب رزينا صافيا باسما في وقت الربيع إذا اضمحلت فورته ، وكان في كل حالاته يعيد إليّ الهدوء وأكاد أسمعه يناديني « إني عاشرت القرون الماضية كما أعاشر جيل هذا العصر ، وليس في الحياة ما يستحق أن يكون مبعثا للشقاء ، إن في الحياة كثيرا من المباهج التي يستطيع الجميع أن يشاركوا فيها بغير أن تكلفهم مالا » فكنت أنصرف عنه متجدد الأمل قويا على مقابلة الجهاد .

ثم كان يوم شديد الحر لم أقو فيه على الخروج إلى النيل صديقي القديم ، وعكفت على الدرس إلى أن كاد الليل ينتصف . وتلفت حولي فلم أر إلا ما يملأ النفس ظلاماً وسخرية من الحياة . وتزاحمت عليّ الهموم ووسوس إليّ الشيطان وسواسه ، فجعلت أسائل نفسي : « أية عدالة هذه التي تجمع على كاهلي كل هذه الأحمال في حين ينعم غيري بكل مباهج الحياة ؟ » ، وألح عليّ ذلك الوسواس حتى وجدت نفسي أقوم بغير وعي إلى درج دولاب كنت أحتفظ فيه بمسدس قديم كان لأبي عليه رحمة الله .

وأخيراً أمسكت المسدس بيدي ورفعته إلى جبيني وقلت لنفسي : « ما هي إلا حركة من إصبعي ثم تزول كل هذه الآلام ! » .

وتبسمت عند ذلك ابتسامة مرة أودعت فيها كل يأسي . نعم ، فما هي إلا هنيهة حتى أكون قد خلصت من كل ما يثقلني من الأحمال .

ولكن لمحة من النور لمعت عند ذلك أمام عيني . كانت تلك صورة أمي وصور إخوتي وصور كل من أحببت في الحياة . وما هي إلا أن بدت لي تلك الصور المحبوبة

قدم فى الجحيم

« هذا التعفن فى حياتكم أيها الشبان ما هو إلا وليد الحرية الزائدة .

— كلا يا أبت ! . إنما هو نتيجة الحرية الضيقة ، إن هو إلا وليد الغرائز المكبوتة التى أرادتها الطبيعة أن تعيش فى الشباب فائرة حائرة تسعى لأن تتسرب آمنة فى مخارجها السليمة . لكن الشعائر والتقاليد — تلك التى فرضتها عقول السنين الغابرة على مجتمع يختلف عن مجتمعنا فى ظروف المعيشة ومؤثرات البيئة — ألقت حولها قيوداً من حديد ونار ؛ فمنها ما انطلق فارا على غير هدى ؛ ومنها ما بقى حيث هو ليذبل ويموت . وكان فى كلتا النتيجتين أن اصطبغت حياتنا بالتعفن والشذوذ ! » .

وصل عند هذا الشطر من القراءة فى إحدى قصص د . ه . لورنس فألقى الكتاب جانبا وراح فى تفكير ذاهل .

ترى ما مبلغ الصحة فى هذا الزعم بالنسبة لهذا الحول ، هذا التعفن الذى بدأ يعيث فى زوايا نفسه فكاد يشل أكثر نواحى نشاطه ؛ هذا الشذوذ الخلق الذى أخذ يبدو فى مسلكه فلحظه أهله وأنكره هو على نفسه ؟ . وهو يعيش فى هذه الأشهر الأخيرة كالذاهل تترادف الأيام فلا يكاد يحس حلاوتها وقد توفرت لديه أكثر أسباب المسرة من شباب ونباهة ومال . وإن أشد ما يؤذيه هذا الفراغ الذى أخذ يحس به ، فراغ ممل قاتل يتسرب إلى قرارة النفس على شكل لم يعهده إبان دراسته فى الجامعة .

ترى ما الباعث ؟ ما السر ؟ ما السبب فى هذا العارض المؤذى ؟ .

ألعلها العواطف الخامدة والنزعات والغرائز المكبوتة كما زعم صاحب هذا الكتاب الذى لم يفرغ من قراءته بعد ؟ ألعلها المرأة ؟ ألعلها حاجته إلى النساء بالأحرى ؟

لكنه لا يذكر أنه شعر بحاجته إلى النساء ، طيلة سنى الدراسة وقد كن ملء بصره وسمعه . كانت سلوى تشاطره مقعد الدراسة ، وكانت جورجيت رفيقته فى المختبر ؛ وهناك ذلك الرهط من الأوانس اللواتى كان يتبادل وإياهن كتب المطالعة ويشتركن معه فى برامج نادى المناظرة : عليا ، الفتاة الدرزية ذات الفم الدقيق وتلك العراقية الحسناء الطالبة فى قسم الأدب الانجليزى ومارى (مارى الجديدة) كما كان يدعوها ، فقد كانت شرقية نشأت فى الدنيا الجديدة كم لامس خده خدها وضم خصرها مراقصا فى حفلات نهاية الأسبوع . كان يراقصهن جميعا ويمازحهن ويرافقهن إلى دور السينما وحفلات الموسيقى وإلى المقاهى الجميلة فى

حتى تخاذلت ذراعى وفترت همتى وضعفت عن تحريك إصبعى وملت على الكرسى وأغلقت عينى خائراً أستعيد الصور العزيزة التى كنت أستعرضها فى الخيال .

ثم تمتمت قائلا : « حتى هذا الموت لا أستطيعه ! إن حياتى ليست لى فأتصرف فيها لكى أتخلص من الآلام ! .

وقمت إلى الفراش بعد حين وأستغرق النعاس أخيراً حتى طلع الصباح .

وجاءت أمى تحيينى تحيتها المعتادة فنظرت إليها وتبسمت وسألتنى عن صحتى فقلت لها إنها بخير .

ثم قفزت من فراشى وأنا أبتسم وحمدت الله على أنى لم أكن سبباً فى طعن هذا القلب العزيز تلك الطعنة القاسية التى أوشكت أن أسددها إليه فى ليلة الأمس » .

وصمت الصديق لحظة ثم قال : « إنى حزين مثلك من أجل هذا الشاب الذى لم تسنح له صورة أمه وصور من يحب فى مثل تلك اللحظة الفاصلة . إنه مسكين لأن القضاء لم يرسل إليه النجدة فى اللحظة الفاصلة ، ولو سنح له نور المحبة عند ذلك لما وجد اليأس إلى قلبه من سبيل » .

محمد فريد أبو حديد

ضواحي المدينة ، ولكنه لا يذكر أنه شعر نحوهن بأشد من رغبته في أن يتأبط أذرعتهن وأن يطبع قبلة خاطفة على شعورهن . وكان سعيداً بهذا الاتصال العفيف الذي يرضى عنه العقل والقلب والضمير . ولعل هذا الاتصال كان دون سواه الحافز لذلك النشاط الذي عرف عنه في الجامعة . كان يدرس كثيراً ويلهو كثيراً . كان عضواً في نادي المناظرة وكان يشترك في تحرير النشرة الشهرية، وكان لاعباً بالكرة وسباحاً وعداء . وكان حريصاً على أن يتذوق الفن الرفيع في الحفلات الموسيقية التي كان ينفر منها أول الأمر ولا يؤمها إلا رغبة في أن يتنسم عبير جوها المشحون بالفتيات الجميلات . حتى إذا كشفت له الموسيقى الكلاسيكية عن نواح عملية في إرهاف الحس وتنمية الشعور أصبحت جزءاً متمماً لثقافته . ولشد ما كان يبعث هذا النشاط في نفسه من غبطة صامتة .

وكأن تحولا كليا قد طرأ عليه فأصبح لا يسره شيء ولا يؤلمه شيء كما لو أن الحياة فقدت قيمتها لديه . أصبح لا يدرك حقيقة موقفه من نفسه ، وغدا كالطبل الفارغ يميل مع كل ريح وأخف ريح ! . . . وأكبر الظن أن هذا التحول ما هو إلا وليد هذه البيئة المحافظة التي نشأ فيها والتي لم يشعر بوطأتها عليه إلا بعد أن تفتحت آفاق إدراكه على نواح في الحياة كان يجهلها فكان لا يؤمن بها . كان والده — مثلا — كثيراً ما يردد قول الإمام علي : « النساء شر كلهن وشر ما فيهن الحاجة إليهن » ولكن اختباره في الجامعة أقنعه أن الواقع غير ذلك ! . وأن النساء الرشيقات النبيهات سحر حلال كلهن وأطرف ما فيهن الاتصال العفيف بهن .

ولقد تغيرت فعلاً نظرته إلى النساء والحياة بأجلها .

كان مثلا ، قبل أن تتصل حياته بهذا الرهط من فتيات الجامعة ، يشتهي من النساء أموراً أصبح لا يستسيغها ذوقه ويكاد يمجها وينفر من اشتهائها . كان حين يلمح عن بعد نساء المنازل المجاورة بملابس النوم على الشرفات في ساعات الصباح الباكر تسري في جسمه موجات متلاحقة من الحرارة والبرودة . . . حتى مرأى خادمتهن الزنجية وهي تنظف جوانب غرفته كان يكفي لأن يثير في نفسه نزوات خبيثة . فحت الجامعة كل أثر لمثل هذه الصغائر . وها هو يشعر كأن هذه الرغبات تعود فتنتابه الآن حين استقر في هذه البيئة التي استقر فيها الآن والتي كادت تنفصم عرى الألفة بينه وبينها .

* * *

وحاول أن يرفه عن نفسه فاستسلم للهو ، ولكنه ما جنى إلا متعة زائفة لم تملأ ولو قليلا من ذلك الفراغ الذي كاد يعمر أكثر جوارحه . حتى السباحة رياضته المحببة فقدت قيمتها لديه . كان من قبل يلازم الماء أكثر الوقت ، يقفز من عيل ليصارع الأمواج المتزلقة على الرمال الفضية ، فأصبح ينفق الساعات متسلقاً على الرمال الحامية مسلماً جسده — على غرار النساء — إلى أشعة الشمس المحرقة ، وكان يجد في ذلك عزاءً طفيفاً . وكانت تتملكه رغبة قوية تلح عليه أن يلتهم بناظريه أجسام النساء بشكل لم يعهده في نفسه منذ أمد بعيد . ما أكثر ما كان يستحم في حمامات الجامعة مع رتل من اللواتي عرفهن أكثر من هؤلاء الأجنبيات رشاقة ووسامة . ولكنه لا يذكر أن عينيه اعتادتا التطلع إلى أجسامهن في أكثر من نظرة بريئة عابرة .

وخير في غير إسراف هذه الملاهي التي تفنن في إعدادها هؤلاء اللاجئون من أواسط أوربا والتي هي أقرب الملاهي ، للذين خلت قلوبهم من سامي العواطف فاحتلتها صغائر الشهوات . والحياة في هذا الوسط من المجتمع نضال قوي حتى بين دلال النساء وشهوات الرجال ! وهذا النفر من فوائن هنغاريا ورومانيا نوع من الجنس البشري له ميزات وخصائص فريدة . راقصات ، وضاربات وتر ، وبائعات لذة . . . اجتمعت لديهن الفتنة وقسط وافر من

الذكاء والثقافة فتولد فيهن اعتـداد فى النفس أصيل ، وكادت تنعدم لديهن مقاييس الأخلاق فعرفن كثيراً من مواطن الضعف فى الرجال . وهو لم يأنس فى نفسه ضعفا لمناضلتهن ، وله من وسـامته ونباهته وكرمه خير سلاح ، لكنه ترفع عن أن يدخل فى حرب مع النساء . وهو الذى خبر فى ظلهن أياماً مليئة بالطمأنينة الروحية وبالرضا والغبطة .

* * *

أم ترى الباعث على هـذا التطور هو هذه الفترة من عمره التى يمر فيها الآن والتى لا غنى للرجل فيها عن امرأة وقد فكر فعلا فى الزواج . ولـكن رأيا تـكون فى صميم تفكيره ما فتئ يردده لوالديه حين يسران اليه رغبتهما فى أن يرياه أبا لأطفال جيلين ، وهو أن الزواج ليس هو المتعة الجنسية كنتيجة فى ذاتها ، إنما الزواج هو الألفة الوطيدة والاعجاب المشترك والصداقة المتينة ، هو اشتراك فى الآراء والنظرة إلى الحياة وتجانس فى أكثر الأذواق والنزعات .

ولشد ما يرغب فى أن يتصل بهؤلاء الفتيات اللواتى يزاورن وشقيقاته فلعل احداهن تصادف مدخلا إلى عقله وقلبه . ولـكن أين منـه ذلك وقد نشأن محافظات شد ما يفتقرن إلى ما يجتذب رجـلا مثله ، يبدون فى حجبهن كالوطاويط أو كممثلى أدوار الشياطين فى الأرات الأيطالية وينفرن من الرجال كما تنفر العصافير من مرأى القطط .

وتاق لأن يتصل بالنساء ، لا ليشبع شهوات خسيسة فى نفسه ، ولـكن حنينا لذلك العبير النسوى اللطيف ، وإن الحنين والذكرى لأفضل ما يخفف من وطأة الحاضر المر .

وتهد قليلا ثم نهض متثاقلاً ليصلح من هندامه ، فقد أذن ميعاده مع صديقه فى النـادى . وسمع صوت سيارة تقف ، وتعالت أصوات شقيقاته من ردهة المنزل مرحبات بحرارة ظاهرة . واقترب من النافذة بدفعه الفضول لأن يسترق النظر : هيه . . بدرية . ابنة خالته ، الطالبة فى دار المعلمات . وتذكر ما قالته أمه منذ أيام من أنها ستقضى عطلة الصيف عندهم .

إذاً فسيتمتع فى المنزل جو لطيف وستتجـاوب فى أنحائه نغمات عزفها على البيانو . . . شوبان ، موزارت ، ليسزت . وستحدثه من الـكتب التى قرأت . وسيحدثها عن لورنس . وبكن وشلى . وعن مارسل بروست .

واتكأ على النافذة يسرح النظر فى الأشياء التى كانت لاتكاد تلفت نظره والتى بدت الآن كأنها تعج بالحركة والحياة . وغمره إحساس بهيج وسرى فى جسمه شىء كان قد فارقه منذ شهور . . هو مزيج من الغبطة الصامتة والراحة والدفء الذى أخذ يشع فى قلبه رويداً رويداً .

وأحس كأنه أصبح فى وفاق مع نفسه .

وشعر كأنه انتشل قدمه من الجحيم .

(حيفا) عمر حليق

التعليم الجـــــامعى

— ١ —

منذ بضعة شهور نظمت محطة الاذاعة البريطانية سلسلة من الأحاديث فى نواح مختلفة من مشكلة التعليم الجامعى ، دعت إلى إلقائها نخبة مختارة من أساتذة الجامعات الانجليزية ومديريها . وقد اطلعتُ على هذه الأحاديث ، وجمعتُ خلاصتها فى هذا المقال :

١ - ماهى الجامعة ؟

من المعاهد العلمية ما يطلق على نفسه اسم « الجامعة » فماذا يزعم هذا المعهد بهذا الاسم ، وأى مستوى علمى يتطلبه ؟ لاشك أن الجامعة تختلف فى معناها عن المدرسة أو الكلية ، رغم أنها تشتمل فى أكثر الأحيان على عدد من الكليات .

كان معنى الجامعة فى أول الأمر اتحادا أو جمعية منظمة لها سلطات معينة . وما زال هذا المعنى عالقاً بأذهاننا حينما نقول إن السمة التى تميز الجامعة هى قدرتها على منح الدرجات العلمية . فى انجلترا تستطيع أن تقول إن برمنجهام ومانشستر ولندن بها جامعات ، أما نتنجهام وهَل فيها كليات جامعة ، وذلك لأن هاتين الأخيرتين لا تستطيعان أن تمنحا درجات علمية ، وإنما يحصل عليها الطلبة من جامعة لندن . هذه نقطة قانونية ولكنها تنطوى على مسألة هامة . الجامعة جماعة من المعلمين والعلماء اعترف لهم بسلطة مستقلة . لهم أن يضعوا برامج التعليم ، والمستوى المطلوب — وهو أهم من البرنامج . هم الذين يضعون الامتحانات ويظهرون نتيجتها . وهم الذين يحددون ما يطلب من الطلبة الذين يرونهم — بعد نجاحهم — ملائمين لتعليم موادهم كأساتذة أو دكاترة .

هذه إذاً هى سمة الجامعة : كرامتها وسلطتها . لها فى ميدانها سيادة لا تُنازع . ولكن من أين تستمد الجامعة هذه السلطة ؟ وأى مستوى يجب أن يبلغه المعلمون والعلماء كى يظفروا بهذه السلطة ؟ الجواب على ذلك أنه ينبغى لهم أن يكونوا من المعلمين والعلماء الذين يوسّعون آفاق المعرفة . لا يكفى أن يكونوا معلمين تنحدر إلى الطلبة عن طريقهم المعارف يستمدونها من غيرهم ، ومن مؤلفات وبحوث الآخرين . يجب أن تتسع المعارف على أيديهم هم أنفسهم ، وأن يكتشفوا عن أشياء لم تكن معروفة من قبل وأن يلقوا ضوءا جديدا على مجاهل ظلت مظلمة أحقاباً طويلة . يجب أن يكون لكل أستاذ بالجامعة علم أو فرع من فروع العلم يستطيع — وهو واثق — أن يقول فيه « لا يهمنى ما جاء عنه فى الكتب ، ولا يهمنى ما يقول فيه الثقات ، فقد تبين لى — ولا أقول فإنى أظن — أنهم مخطئون فى هذا الباب » ويستطيع أن يقول لطلبته — وهو على يقين — « هذه العبارة فى ذلك الكتاب سليمة لا غبار عليها — فقد خبرتها بنفسى » . الأستاذ الجامعى كذلك يعترف بما يجهل . الأستاذ الجامعى مكتشف وليس موصلاً ، ولذا فهو يحمل بين يديه ميزان علمه ، يعرف الزائف من الصحيح ، كما يميز بين المبتكر والمنقول .

وأعود فأقول : الجامعة عبارة عن جماعة من المعلمين والعلماء ذوى نفوذ علمى ، لأنهم هم أنفسهم يضيفون الجديد إلى كنوز المعرفة . ويتبع ذلك أن يكون المعلمون الجامعيون أحراراً فى تحديد ما يراد معرفته ، وفى تعليم ما يعتقدون أنه الحق وما يبدو لهم أنه الحق . وليس لأية سلطة أخرى — مهما يكن نفوذها فى الميادين الأخرى — أن تعين لهم ما يعلمون ، وأن تحدد لهم ما يبدون وما يخفون .

مثل هذه الجماعة جديرة بأن تصبح عضواً فى مجموعة الجامعات العالمية الكبرى . فهذه المجموعة على اختلاف الأمم والأجناس واللغات — تكوّن جماعة واحدة يتبادل أعضاؤها نتائج بحوثهم ومكتشفاتهم وكلهم مشتغل بالبحث وزيادة معارف الانسان .

وعلى الجامعة في الوقت عينه واجب آخر نحو الأمة التي تنشأ فيها ، وذلك أن تكشف عن المعارف المختلفة التي تحتاج اليها هذه الأمة دون غيرها من الأمم . ومن الخطأ أن يظن أن الجامعات جيما عليها أن تلم أو تبحث في نفس الموضوعات . أجل إن هناك من الموضوعات والدراسات ما يصح اعتباره اساسا للعلم الحديث ، ولازما لفهم الحياة وأغراضها . وهذه الموضوعات وهذه الدراسات يجب أن تكوّن جزءاً من برنامج أية جامعة من الجامعات . ولكن هذا الأساس أشبه ما يكون بالهيكل الذي يجب أن يملىء فراغه بالمعارف والبحوث التي تهم أمة معينة دون غيرها من الأمم . ولذا فالجامعات تكوّن من مجموعها جماعة دولية أولا . غير أن كلا منها على حدة يجب أن يخدم المجتمع الذي ينشأ فيه ويعنى بحاجاته الخاصة من طريق البحث المبتكر .

ولكنا يجب ألا ننسى أن الجامعة ليست مجرد جماعة من العلماء الباحثين إنما هي كذلك جماعة من المعلمين ، فالعلم ليس كنوزاً تدخر . إنما هو كنوز تنشر . ولا تنشر إلا بالتعليم . ومن واجب المعلم أن يسلم طلبته شيئا أكثر مما يتصل بمهنته . على الجامعة أولاً أن تؤهل الطلبة تأهيلا فنيا ، وعليها بعد ذلك أن تمدهم بفلسفة أو نظرة خاصة إلى الحياة ، وأن تدربهم على فن الاجتماع . أما الغرض الأول فقد تحدثنا عنه من قبل وقلنا إن الطلبة يتلقون العلم على علماء باحثين . أما الغرض الثاني — فلسفة الحياة — فيحصلون عليه عن طريقين ، الأول أن يتعلموا إلى جانب — أو قبل — علومهم المهنية موضوعات عامة كالأدب أو التاريخ أو الفلسفة ، والثاني عما كنتهم غيرهم ممن يدرسون مواد غير موادهم . حتى يكون بالجامعة تبادل في الآراء بين الطلاب يوسع آفاقهم الفكرية في الفروع المختلفة ، بين عالم الطبيعة مثلا والفيلسوف أو طالب الأدب ، بين الاخصائي وطالب الفلسفة أو الأدب ، وبين طالب العلوم النظرية والعلوم التطبيقية ، وغير ذلك .

أما الغرض الثالث فيظفر به الطلبة بسكناهم معا في منازل خاصة بإقامتهم (الداخلية) ، وعساهمتهم في جمعيات الطلبة ، وهي من أهم المميزات الجامعة الحديثة : لجمعية المناظرات وجمعية التمثيل ، والجمعيات السياسية والدينية والفنية والعلمية والتاريخية ، أو بمساهمتهم في اتحاد الطلبة الذي يمكن الطلبة من حكم أنفسهم بأنفسهم ، وهو الاتحاد الذي يمثل أمام إدارة الجامعة وجهة نظر الطلبة . وإذا كان من واجب العلم الجامعي أن يعلو حتى يكون من الباحثين ، فكذلك الطالب الجامعي ينبغي أن تبلغ سنه حداً يمكنه من أن يحكم نفسه بنفسه .

من كل ما تقدم نستخلص أن الجامعة منبع العلم الجديد والآراء الجديدة ، ويجب أن تكون على صلة وثيقة بالحاجات الخاصة المجتمع الذي تقوم فيه زميلة للجامعات في البلدان الأخرى ، وعن طريق هذه الزمالة تقوم كالقنطرة التي تنحدر فوقها إلى المجتمع الآراء المستحدثة والعلم الجديد ، ولا يجد الشباب مكانا خيراً من الجامعة — على هذه الصورة — يتعلمون فيه كيف يخدمون المجتمع . يجب أن تصطبغ الجامعة بالصبغة القومية . فتكون الجامعة الانجليزية انجليزية والأمريكية أمريكية وهكذا .

وللجامعة مهمة أخرى إزاء المجتمع الذي تقوم فيه . ويعاونها على أداء هذه المهمة أن تبعث بخريجيها المشبعين بروحها إلى المدارس الثانوية والابتدائية المجاورة ، يعملون فيها ويبثون أحدث النظم والآراء . ويجب كذلك أن يعتقد الشعب أن بالجامعة رجالاً لا ينتمون إلى حزب معين ، ولا ينزلون إلى معمعان السياسة . رجالاً لهم في الحياة نظرات واسعة موضوعية إنسانية . وتستطيع الجامعة أن تكون مصدر نور وعرفان لا إلى طلبتها فحسب ، بل كذلك إلى أبناء المنطقة المجاورة . وسنفصل الكلام في هذه النقطة فيما بعد .

وعلى أساتذة الجامعة — فوق ذلك — أن يؤلفوا الكتب الخالدة التى تبقى على وجه الزمان، وتؤثر فى مجرى التاريخ، وألا يكون رائدهم فى ذلك كسب المال، أو التظاهر بالثقافة، أو النفوذ الاجتماعى، وإنما متابعة الحق وإظهاره.

٢ — الحياة الاجتماعية فى الجامعة:

أول ما يُشعر الطالب أنه عضو فى أسرة الجامعة أن يرتدى زيّها الخاص. ثم يقوّى عنده هذا الشعور بعد ذلك إقامته فى الجامعة، يأكل وينام ويعمل ويلعب مع زملائه. ثم تلك الدعوات التى يوجهها إليه الأساتذة لتناول الشاى أو للاحتفال بمناسبة ما فى دورهم الخاصة، وتلك الاجتماعات المسائية مع اخوانه، التى يحتك فيها عقله بعقول الآخرين فتزداد حدة وضياء. ويجب أن تكون لكل طالب جامعى حجرته الخاصة يستذكر فيها دروسه ويدعو فيها إخوانه لتناول الشاى أو السمر. كما يجب أن تخصص حجرات خاصة للصحف والمجلات، وللموسيقى، والمكتبة، والألعاب؛ وأن تُلحق بها أمكنة للعبادة، وأن تحاط بالحدائق، وتُمدّ بعدد كاف من ميادين الألعاب. ومن واجب الأساتذة أن يشتركوا مع الطلبة فى المساء فى وجبة العشاء، وأن يجلسوا معهم فترة بعد العشاء يتسامرون؛ يجب أن تحمى الجامعة فن الحديث الذى طغت عليه الآلة فأضعفته عما بثت فى الناس من روح العجلة.

وليست بنا حاجة أن نذكر فائدة التمثيل والمحاضرات والمناظرات، وحفلات الرقص، وجميعات الرحلات وغير ذلك. وفى اختلاط الجنسين فى مرحلة التعليم الجامعى ما يحفظ المرأة مكانتها فى المجتمع. ولما كانت الجامعة ترمى إلى تكوين الشخصية من جميع نواحيها وجب أن يكون بها عدد من المربين يكفى للاشراف على الطلبة. وقد يكون هؤلاء المربون من المختصين فى المواد أو غير المختصين. لأن العلاقة الشخصية بين المربى والمربَّى من أهم مكونات الشخصية.

وأرى ألا تكتفى فرق الألعاب الرياضية بالمباريات المحلية، بل أن تقوم كذلك بمباريات دولية مع جامعات الأمم الأخرى. وليس هذا مجال التحدث عن فوائد الألعاب والمباريات.

وقد يكون من اللازم أن نتحدث بالتفصيل عن اتحاد الطلبة. ولنأخذ مثالا لذلك ما يجرى فى جامعة ردنج بانجلترا. ينتمى طلبة الجامعة جميعا إلى اتحاد الطلبة، ولكنهم لا يعقدون اجتماعاً عاما أكثر من مرتين أو ثلاث فى العام، وذلك حينما تعرض للطلبة مشكلة عويصة. ويُنتخب ثلاثون طالبا ليكوّنوا أعضاء «مجلس الطلبة التمثيلى». ويمثل هذا المجلس آراء الطلبة تمثيلا حقا. ويجتمع أعضاء هذا المجلس باطراد مرة كل ثلاثة أسابيع، ويناقش كل مشكلة تجد، ويراقب أعمال الجميات الفرعية المختلفة، وكما أن برلمان الأمة لا بد له من وزراء ومصالح مختصة يعالجون شئون الحياة العامة، فكذلك مجلس الطلبة — على نطاق ضيق بطبيعة الحال — له ثلاث جميعات دائمة تختص كل منها بناحية معينة من حياة الطلبة، مثل المساكن، والألعاب، والملاهى، والصحف، والمجلات، والخدمة الاجتماعية، والجميات العلمية، وما إليها.

والاتحاد يشمل — كما ذكرت — طلبة الجامعة جميعا، وعلى رأسهم ضباط الاتحاد، عليهم رئيس، يعاونه وكيل، وله أمين للصندوق، وسكرتير أو اثنان، وكلهم من كبار الطلبة. وهم يصدرون قراراتهم المالية والتنفيذية كلما اقتضت الضرورة، ويمثلون طلبة الجامعة جميعا، أمام الجامعة فى مسألة التأديب والنظام، وأمام الحكومة المحلية فى كل ما يختص بحركات الشباب السياسية والدولية. هى حكومة الطلبة للطلبة من أجل الطلبة. ويجد الطلبة فى عضوية الجميات الجامعية مجالا للتدريب على التنظيم والابتكار واحترام أولى الأمر والنفوذ.

(يتبع) محمود محمود

عند الشاطئ الآخر

وقف الملاح على سلم الوردة بضفة نهر النيل ، وزورقه راس عند أسفل الدرج تؤرجحه الأمواج فى يوم ريح . ونزل الراغبون فى عبور النهر وأخذوا مقاعدهم فى الزورق . ولما كادت المقاعد أن تمتلئ بهم صاحوا بالملاح لينزع الرساة ويقلع . فنزل الملاح متباطئا وعينه إلى أعلى يود المزيد من الراكبين ، وقضى فى التأهب للإقلاع أطول وقت ، ثم أقلع .

وخفق الشراع مرتين أو ثلاثا فى الريح الناشطة ، ثم شدت أطرافه وانبعج وجذب الزورق وانطلق به كجناح طائر . وجلس الملاح عند السكان[١] وجلس ابنه عند المجداف .

قالت الريح فى صوتها المدوى : « ها هو الزورق نادر الشاطئ ، ومن للزورق سواى ؟! من يمضى به إلى غايته إلا أنا ؟! ... إلىّ ! .. إلىّ ! .. أيها الزورق اللطيف . إن وجهتك هى وجهتى ، أليس كذلك ؟! .. نعم نعم ! وهل تخطر لك وجهة سواها ! وهل كان مستقيم القصد والإدراك يتجه إلا وجهتى ! ها هو ملاحك والذين معه ينظرون إلى الشراع فى رجاء وثقة . اعتمدوا علىّ اعتمادا مطلقا فسأمضى بكم فى الاتجاه السديد .. » .

وقال التيار بصوته الهادئ فى قوة : « ها هو الزورق نادر الشاطئ ، ومن يمضى به إلى غايته إلا أنا ؟! .. تعال !.. تعال !.. يازورق العزيز . إن وجهتك لاشك هى وجهتى ، فلا تخطرن لك وجهة أخرى ببال . إن كل وجهة أخرى ضلال . ها هو ملاحك والذين معه ينظرون إلى الماء فى رجاء وثقة ، اعتمدوا علىّ اعتمادا مطلقا فسأمضى بكم فى الاتجاه السديد .. » .

وعصفت الريح دافعة بالزورق فى اتجاهها ، وهدر التيار دافعا إياه فى اتجاه آخر ، فاضطرب الزورق وارتبك فى حيرة وخوف .

وسمع من مؤخر الزورق صرير ضعيف هو صوت السكان ، وتكلم فى غير حماس قال : « أيها الزورق ! إن اتجاهك لاشك أمر يعنينى . وليس من عادتى أن أتكلم فى هذا الشأن لولا رجفتك التى أحسستها . لاموجب للحيرة ولا تلق كبير بال لما تقوله الريح أو يقوله التيار . إن حركة صغيرة منى كافية لأن تدور بك إلى هذه الجهة أو تلك . لكنى وايم الحق لا أعرف إلى أى جهة نحن ذاهبون . لاشك أنك ستزدرينى لاعترافى بجهلى ، ولن تراك أهلا لثقتك الغالية تثق بنفسى ، لكن إرادة لا أعلم كنهها تحركنى فأطيعها ، فإن درت بك يمينا فاليمين هو الاتجاه السديد ، وإن درت بك شمالا فنى الشمال السداد ، لأنى أثق بتلك الارادة ثقة مطلقة ، وأستوحيها بإخلاص ، وأتبع وحيها فى طاعة ، وأشعر بأنى أؤدى واجبى وهذا حسبى »

وكان المجداف فى ذلك الوقت مستلقيا على ظهر الزورق فأرسل قهقهة وقال : « لا شك أن كلمتى فى هذا الموضوع يجب أن تسمع ، فلست على هذا الزورق نكرة يعجبنى من الريح وضوح قصدها وحماسها ، ويعجبنى مثل ذلك من التيار ، لكن وجهتيهما مختلفتان ، ولست أعرف أيهما الصواب . ويعجبنى من السكان تواضعه رغم أنه على هذا الزورق عامل خطير ، لكن غموضه ينفرنى وأضيق ذرعا بأسلوبه فى التفكير . أما أنا فديدنى لا غموض فيه ، وخطتى واضحة جلية إن طغت الريح وتغلبت فسأضرب فى الماء لحد من طغيانها ، وإن تغلب التيار فسأضرب مكافحا إياه . لن أدع الريح تذهب بالزورق إلى وجهتها رأسا ، أو التيار يحمله فى اتجاهه تماما . ستكون نتيجة جهودى أن يسير الزورق صوب الغرب على ما يظهر ، لكن اتجاه الزورق فى الواقع لا يشغل بالى كثيرا ، وهو أمر يعييني التفكير فيه ، والمهم أن أقاوم الطغيان أيا كان ، وفى هذا لذتى الكبرى وكفى » .

وبعد الزورق عن الشاطئ ، وصار فى سواء اللجة ودوت الريح فى ولولة حول الشراع ، وجرش التيار فى

(١) الدفة ـ

زوّلة تحت الزورق ، وصرّ السكان متذبذباً يميناً وشمالاً ، واستوى المجداف على وتده وراح يضرب في الماء ضاحكاً مرسلاً الرشاش عالياً . .

وصرخت الريح في حنق قائلة : « . . . ماذا ! ! . . . أرغم كل جهودي لا يكاد الزورق ينبعث في اتجاهي ؟ ! . أيها التيار ! كفف ! ألا تعقل ! ! وأنت أيها السكان كفّ عبثاً في الخفاء تحت الماء . ويا مجداف إن الأمر جد لا هزل . دعوا الزورق لي وحدي فأنا أهدى كم سبيلا . إن قوضا كم تدفع به في اتجاه لا معنى له على الإطلاق ، وهاهو الملاح والذين معه ينظرون زائغة أبصارهم من الأسى والإشفاق »

وأرغى التيار وأزبد غضباً من أن الزورق لا يكاد ينبعث في اتجاهه متعجباً من سفه الريح وخبث السكان وطيش المجداف . وتبودلت عبارات يوصف بها ، فقيل عن الريح « السليطة الرعناء » وعن التيار « الطاغية المشؤوم » وعن السكان « الذنب المذبذب » وعن المجداف « اللوح الأبله » بل إن الريح صارت تهوى فتلطم تيار الماء ، والتيار يقذف بالموج إلى أعلى فيلطم الريح ، مما لا يليق بمكانتهما العظيمة بين قوى الكون .

وخلال ذلك كان الزورق يجرى صوب الغرب كأن قوة واحدة تسير به في ذلك الاتجاه ، ولا يكاد راكبه يظن أن قوى شتى تحترب عليه ، إلى أن بلغ الشاطىء الآخر فخفت سرعته شيئاً فشيئاً ، وتهادى في اتزان ، ورسا في أمان ، ورمى ابن الملاح المرساة إلى البر ، ومد القنطرة .

وعجبت الريح أن رأت راكبي الزورق ينهضون في انشراح ، ويخرج كل قرشه للملاح ، وعليه وعليهم علائم الارتياح ، ثم يخطون إلى البر وهم يتبادلون التحيات والنكات وطيب التمنيات .

ولم يكن التيار أقل تعجباً من الريح .

أما السكان فسكن في اغتباط من أدى واجبه ، وأما المجداف فاستلقى على ظهر الزورق بجنب المأمن عليه وهو يلهث ويقهقه في وقت معاً قائلا : « لقد كانت جولة شائقة وشوطاً ممتعاً حقاً ، وقد فزت ولا جدال . . . »

وأرادت الريح ، وكذا التيار ، أن يعربا للملاح عما يخالجهما من الدهشة والندم ، لكن الملاح كان مشتغلا عنهما بعد نقوده .

وأشفق السكان عليهما ، وكان على قلة كلامه لا يستطيع السكوت إذا وجد أحداً بحاجة إلى عزاء .

قال لهما : « لا تستغرقا في الندم ، فقد كان لكل منكما فضله في مسير الزورق إلى غايته ، وأدى كل ما عليه » .

قالا : « كان لنا فضل وأدى كل ما عليه ؟ ! ! . . . لقد كنا حرباً على الزورق ومن فيه . . . »

قال : « صحيح أنكما أضعتما كثيراً من الجهد في الخصام ، لكن الريح هبت في اتجاهها على سجيتها ، والتيار جرى في اتجاهه كطبيعته ، ولم يكن يراد منكما أكثر من هذا »

وفي الوقت نفسه كانت زوارق أخرى تغادر الموردة الواحد بعد الآخر ، ولا يلبث في كل منها أن ينشب الخصام بين العوامل المختلفة التي يسير بمجموع قواها ، ولا تتضح الحقيقة لتلك العوامل إلا عند الشاطىء الآخر .

عبد المغني علي حسن

سورية وفرانسة

أرى دموع مصر تنفر في العيون حزناً على سورية ، وأرى أهل مصر يستقبلون أخبارها بنفوس متلهفة حزينة ، تثور ثائرة بعضهم فيندّدون بفرانسة وببربرية جنودها في سورية ، ويكتب آخرون شعور نفوس متأججة يهدّدون ثورة ويريدون أن يجيشوا جنوداً حتى يدعو الداعي فتشمل ، وإذا مصر أكثر الناس حماسة لسورية ، وإذا هي تسعفها بأكثر مما تريد .

لك الله يامصر ! إن في سورية اليوم أناساً لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا ولد ولا مال عن الذود عن حياض الوطن ، وإن في سورية أناساً لا ينامون ، وإن فيها لمن نقضت دورهم فلا يهجعون . ألم يكونوا آمنين مطمئنين ، والقلوب بالحق مؤمنين بالعدل . ألم يعطوا الاستقلال من غير قيد ، ألم يكونوا من الشر غافلين ، حتى أتاهم الشر يسعى إليهم ويقول : اسكتوا من جيوش تحل بلادكم عنوة ، وافتحوا أرضكم لطيران يحتلها وصدوركم لثقافة تغزوها وأسواقكم لأيد تسيّرها . قالوا : تالله يكبر علينا الاحتلال القاهر ، وتأنف نفوسنا الثقافة الغازية ، ولا نرضى الشركة الغاصبة . أتريدوننا على أن نتعاهد وأنتم تنقضون . أتبتغون منا المحبة وأنتم تهددون ؟ أتطلبون منا المنافع وأنتم لإفقارنا عاملون . قال الشر : اسكتوا فالجيوش القادمة إلا شرذمة تحل مكان شرذمة . قالوا : قد نصدق ، ولكن ما بالها تتدفق دون استئذان ؟ أتعتقد أن الأرض لها تجوسها أنى شاءت . ألا . لا . إنها أرض حرة عفيفة ، تضيف عن كرم ، ولكنها تأبى العنف . اذكروا يوم محنتكم لو كنتم تذكرون . هل قال لكم قائل من سورية قولاً مشيناً ؟ ألم يعزكم المعزون ، ويهدئكم المهدئون ؟ لقد شهدتم من العطف ما أنسى بعضكم آلامهم . وعلام كنا نعطف ، ألأنّ سلطانكم كان يملأ الأرض رهبة ؟ أم لأن جيوشكم كانت تخيف ؟ لا ! كنا نعطف على ضيوف أووا عندنا وأناس أصيبوا في بلادهم وحضارة أسفنا على خرابها .

ثم تريدون منا اليوم ما لم تطلبوه في الأمس ، حيث كنتم إلى العطف مفتقرين ! أقبح عندكم حسن نفوسنا أم شجعكم ضعفنا ؟ .

لا تمتهنوا الضعف ، فالعزة تشد أزره ، ولا تحتقروا القلة فبالشجاعة تكثر ، ولا تزدروا العزلة من السلاح ، فالقلب أكبر سلاح .

لقد عرفتمونا منذ ربع قرن ، أهذا بالكم منا يقوتكم ، أم استكنا لكم بضعفنا ، لقد بلوتمونا بكل شيء ، أفأتيتم على إبائنا أولان لكم قيادنا ؟ أما عرفتم أن سورية تضطرب عليكم لأقل إهانة وتثور لأصغر ضغط .

أما آن لكم أن تدركوا أن العربي صديق في ساعة المحنة ، عدو في ساعة الجور ، لين عند طيب القول ، أبي عند الضيم .

لقد علمتمونا غير ما تفعلون ، قرأنا في كتبكم ومدارسكم وجامعاتكم أن الأمر ليس للقوة بل للحق ، وأن الإنسان للإنسان ، هو مثيله وأخوه ، فما بالكم تظلمون علينا بما يخالف تعاليمكم ؟ أنسيتموها أم كانت أسطراً ثم محيت إلى يوم يبعثون .

أليس فيكم العاقلون الرشيدون فيذكرون قومهم — وقد كانوا لذلك شهوداً — أن أناساً من أواسط أوربة ملكوها كلها عنوة منذ حين ، وظنوا أن لا دافع لهم ، فطغوا وبغوا ، وذاقت فرانسة شديد حكمهم . ثم إذا هم يمزقون ويشتتون ، فرقهم عزم النفوس الأبية ، وشتتهم صبر النفوس التي لا تستكين . أكان عنفهم لهم مجدياً ، وتخريبهم المدن لهم نافعاً .

ألا اتعظوا يا قوم ، إذا كان لكم أن تبلغوا أمراً من سورية فليس بالعنف ولا بالتخريب .

لئن رفضت التعاهد معكم ، فذلك لأن لكم معها عهوداً نقضتموها . ألم ترجو منكم العهد قبل الحرب ، فأعطيتموها إياه بعد حبس طويل ثم إذا أنتم تنقضون ، أو لم تمنحوها الاستقلال خلال الحرب ثم ها أنتم أولاء تقولون إنه غير مشروع ؟ كيف تأمن لكم وهى لم تنل من عهودكم شيئا ، وكيف تقدم على العهد معكم ، وأنتم ابتغيانها بالقنابل تهدمون .

إن فى سورية رجالا عاهدوا الوطن على ألا يستكينوا للظلم ، بل فى بلاد العرب أمم وحكومات لا تنقصها الشجاعة ولا تعوزها القوة ، إنها لا تنسى عهد الشام عليها وإنها لتهدأ كثيراً ثم تغضب ، حتى إذا غضبت كانت غضبة مضرية لا يردها شىء .

فيا أنت يا مصر والعراق والحجاز وبلاد العرب أجمعين ، إن لكم فى الشام إخوانا يهلكون .

يوسف العش

تصحيح

فى القسم المنشور فى العدد ٣٢٧ من مجلة « الثقافة » الغراء من وصف الأديبة الفاضلة بنت بطوطة لرحلة السائح الفلورنسى فرسكو بالدى إلى مصر وفلسطين فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، ورد اسم مدينة (كذا) رامة فى قضاء الخليل ، فظنت الكاتبة البارعة أن رامة هنا محرفة عن رام الله ووضعت هذا الاسم الأخير بين قوسين تفسيرا للاسم الأول ، وكل من له إلمام بجغرافية هذه البلاد يعرف جيدا أن رام الله تقع إلى الشمال من بيت المقدس ، بينما كان السائح الإيطالى يتحدث فى كتابه عن مواضع إلى الجنوب منها . والواقع أن فرسكو بالدى لم يخطئ فى نقل اسم الرامة ، إذ أن بالقرب من بيت خليل الرحمن موضع يعرف برامة الخليل ، وهو يعتبر من أقدم الأماكن المقدسة فى فلسطين ، وقد قام المعهد الألمانى الكاثوليكى للأبحاث الشرقية بالتنقيب هناك عام ١٩٣٢ وعثر فيه على بقايا آثار قيمة . أما رام الله التى ذكرتها الكاتبة الفاضلة فإنها تقع على بعد ستة عشر كيلومترا إلى الشمال من بيت المقدس على طريق المسافر من القدس إلى نابلس ، وهى الآن من أكبر قرى فلسطين إن لم تكن أكبرها على الاطلاق ، وكان اسمها فى العصر الذى عاش فيه صاحبنا السائح الفلورنسى Remelie .

فهل يتكرم الأستاذ الفاضل ويسمح بنشر هذا التصحيح فى أحد أعداد مجلتنا التالية خدمة للتاريخ .

نجيب ع . نصار

نجوى:

إبسمى

إبسمى كالصباح المستهام　أطفئى غلة الفؤاد الظامى
ياسمير الفؤاد إن أظلم الليل　وهاجت صبابتى أحلامى
دع نفسى كم حملت من هموم
فى سبيل الهوى ومن آلام
نعم الناس باللقاء وبالنجـ　ـوى ولم أجن غير لذع ضرام
أنا حيران فى صحارى حياة　ماج فيها الشقا كبحر طامى
فاطلعى كالضحى علىّ ولما　تغرقى من (عباءة) فى ظلام
ان ليل الحجاب غطى محيا　ك اعتداء بقطعة من قتام
حرم البدر مجتليه وفيه　كسفت شمس بهجة باتئام
إيه سلمى وفى الفؤاد اعتلاجا
ت هموم قد سببت إيلامى
هل لنا أن نعيش فى ظل حب
طاهر كالطيور فى الآجام
هل لنا أن نمتع النفس من طيب
حياة ستنتهى بانهدام
إن عينيك تسكبان ذهولا　فىّ إن تنظرى بهيج هيامى
وب وهى يصب فى الروح كالغيث
إذا جدت فى اللقا بابتسام
وأرى فى حديثك العذب معنى
ليس يحويه أعذب الأنغام
اذكرينى عند الظلام إذا خيـّ　ـم فوق السهول كالأعلام
فأنا فى كآبتى رهن ليل　مدلهم نجومه أحلامى
وإذا غردت على الغصن العا　لى طيور بألفة ووئام
فارقبى ساعة سيجمعنا الدهر
رغم العذال واللوّام
سأناجيك دون خوف من الر　صّاد أو رهبة من الأيام
أو فإنا نقضى شهيدين نبكى　نا الليالى بدمعها المتهامى

العراق — بغداد　　ضياء الدخيلى

من الشعر المنثور:

وراء القطيع

دع الفتى يهزج أهازيجه ، وسر وراء القطيع ، متأملاً جمال الصباح وروعته ، سر وراء القطيع ، واعزف بشبابتك أغاريد السمن والشحرور . . . وإذا ما بلل نعلك ندى العشب ، وغير وجهك غبار الماشية ، فسر وراء القطيع ، ولا يساورك أدنى شك ، إذ أنك رسول اليقظة ، يقظة الخراف والماعز . .

سر وراء القطيع ، واسمع قراءة موسيقى أنغام مشبته ، وهو يتململ وعلى جبينه غفوات النعاس .

اسمع قرع أجراس ذلك الفحل الكبير ، وانظر امرعته وهو رافع الرأس ، كالقائد السائر فى طليعة جيشه .

اسمع أصواته المختلفة وهى تلمع فى الفضاء الثائب ، حيث الشمس لا تزال طفلة تمرغ بين أحضان الفجر المختضر .

وإذا ما وصلت البركة ، فاطرح عباءتك على صخورها ، وتأمل صفاء موجها ، وتناول فطورك مستريح البال ، مطمئن الخاطر ، إذ أن قطيعك قد شرب واستراح . . .

فتى الجبل

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع السكرداى
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

على هامش الكتب الحديثة :

الفاروق عمر (٢)

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

من الأعمال التي ينبغي أن نلقاها بالتقدير والإعجاب في عصرنا الحديث تلك الأعمال الممتازة التي يضطلع بها الدكتور محمد حسين هيكل باشا في بحث الحياة الإسلامية لأقدم عصورها ودرسها درسا علميا منظما يستند فيه إلى الاستقصاء والتحليل واستقراء ماحكاه الرواة وقصه المؤرخون استقراء ينفذ منه إلى رسم الصحف الأولى لتلك الحياة رسما دقيقا يستوعب ماتضمه من شعب وتفاصيل دينية ، وما تطويه من وقائع وأحداث سياسية واجتماعية

وقد بدأ الدكتور هيكل باشا هذا المجهود القيم بتصوير حياة محمد صلوات الله عليه ، فجلى هذه الحياة في صورة رائعة تثبت فيها جميع الخطوط والألوان التي تفسر السيرة النبوية وتكشفها كشفاً دقيقاً ، يهديه في ذلك قلب عامر بالإيمان وعقل عامر بالمنطق والعلم والبيان ، حتى إذا تم له ذلك خرج إلى درس الصديق أبي بكر في الجاهلية والإسلام ، وفي الخلافة وقبل الخلافة يستلهم في ذلك كله التاريخ وماقدمته الروايات القديمة والنصوص العربية الصحيحة . وماتنطوي صحف هذا الدرس حتى يبدأ درسا جديدا وبحثاً جديداً هي من أروع الصحف التي تصور تأليف الإمبراطورية الإسلامية ، وإنها لصحف عمر الفاروق الذي مد أطناب الدولة الإسلامية من الصين شرقا إلى طرابلس غربا ، ومن النوبة جنوبا إلى بحر قزوين شمالا . ونحن لانقرأ في هذه الأعمال والمؤلفات حتى نذكر أدب الدكتور هيكل وقصصه في رواية زينب التي بدأ بها حياته الأدبية ، ولكن أين زينب الأمس من محمد أو الصديق أو عمر اليوم ؟ إنه لشتان بين العملين ، فهناك كان الدكتور هيكل يحاول أن يصور حياة الريف المصري . أما هنا وفي محمد والصديق وعمر فإنه يصور عظمة الإسلام ومجده وتاريخه . فهناك أديب قاص وهنا أديب مؤرخ ، غير أن بذور القصص مستجنة في نفسه ، فهو يطبع التاريخ العظيم تاريخ محمد وصاحبيه بطابع القصص ، وماذا ينقصه كقصاص ماهر؟ إنه يعرف جميع أدوات الفن القصصي ، وهو يستعين بهذه المرونة على أن يسوي تحت أعيننا قصصا طريفة للنبي صلوات الله عليه ولصاحبيه أبي بكر وعمر ، ومن قصص لايستمدها من خياله ، وإنما يستمدها من خيال التاريخ وذاكرته ، فيسلسل حوادثها ، ويسرد وقائعها سردا قصصيا بديعا يستهوي قارئه وسامعه أيما استهواء . وارجع إلى السيرة النبوية وسيرة أبي بكر الصديق فستراهما ألفتا على نحو قصصي طريف ، وهو قصص يستمده المؤلف من ثقة التاريخ ونصوصه . واترك هاتين السيرتين إلى سيرة عمر الفاروق فستراها كتبت بأسلوب قصصي شائق ، وإنها لسيرة مليئة بالوقائع والأحداث ، ففيها صيغت الإمبراطورية الإسلامية صياغة وألفت تأليفا هو أجل تأليف يستطيع أن ينسقه رجل حر واسع الأفق والفكر ؛ فهو يتناول أمور إمبراطوريته بعقل خصب . وإن الإنسان لايتابع سيرة الفاروق حتى يخيل إليه أنه لم يكن يغفل عن صغيرة ولا كبيرة في دولته العظيمة ، وفي هذه الجيوش التي كانت تنساح في مشارق الأرض ومغاربها ، تريد أن تحطم إطار الأمة الفارسية وأطرافا من إطار الأمة الرومية في مصر والشام ، لتضع مكان ذلك إطاراً لدين جديد يقوم على أن تكفل للناس حرياتهم في أموالهم وعقائدهم ، فالله قد خلق الناس أحرارا وما كان لأحد أن يستعبدهم من دون الله

وإننا لنعجب الآن كيف استطاع عمر أن يؤلف هذه الدولة العظيمة ، ولكن لانعجب فإن أسباب العجب كلها يزيلها من نفسك الدكتور هيكل باشا بما يعرضه عليك من درس وبحث يفسران لك أروع تفسير هذه الحقبة في

تاريخ الإنسانية ، وإنه ليستهدف أثناء درسه وبحثه إلى جمع كل ما يستطيعه من حقائق تاريخية حتى ليهولك الموقف فتظن أنه قد حشد لك كل الوثائق والمستندات ، فليس هناك من سبب ممكن لتحطيم الدولة الفارسية فى مواطنها إلا وقد سجله ، وليس هناك من سبب فى تحطيم الدولة الرومية فى بعض جوانبها بمصر والشام إلا وقد صوره . وإن البحث ليتسع عليه ، فيخرج فى الفاروق مؤلفا أول ما قرأناه منذ حين ، ثم هو اليوم يتبعه بمؤلف ثان يستتم تصوير هذه القصة الطريفة ، قصة حياة الفاروق ، وإنها لقصة دين وأمة ، وهى قصة امتدت فصولها فى الجزء الأول من كتاب الفاروق إلى بيان هذه الدورة التى أزال فيها عمر ملك الأكاسرة من العراق وملك القياصرة من الشام ومدّ وحدة العرب من خليج عدن جنوبا إلى أقصى الشمال من بادية السماوة .

أما الجزء الثانى من كتاب الفاروق الذى نقدمه اليوم فإنه يسجل الفصل الأخير من قضاء عمر على دولة الأكاسرة كما يسجل تلك الفصول المهمة التى تفسر فتح العرب لمصر وما كان من تردد عمر فى فتحها وإقدام عمرو بن العاص على ذلك ونجاحه فى إقدامه ؛ وبذلك يتم للدكتور هيكل باشا الحديث عن هذه الصفحة الحربية فى تاريخ عمر، فيتركها إلى حديثه عن صفحة أخرى من حكومته وما كان من إقامته لنظام شورى أخذ به حتى فى تعيين الخليفة من بعده . فإذا رسم هذه الصفحة رسما طريفا وأبناء رسم لعمر صفحة أخرى ، هى صفحة فقهه وتشريعه ، وأثناء ذلك تراه يعرض لصفحة مهمة هى صفحة الحياة الاجتماعية فى عهد عمر ، فيطيل فى وصفها وبيانها مقارنا لها بالحياة الاجتماعية للعرب فى الجاهلية . وأخيرا يعرض لمقتل عمر ثم يختم كتابه بحديثه عن الأمم التى كونت الإمبراطورية الإسلامية وما كان بينها وبين العرب من تفاعل فى الصفات والخصائص .

وليس من شك فى أن هذه الموضوعات كلهـا التى يحتويها بين دفتيه الجزء الثانى من حياة الفاروق عمر تعبر عن أهمية هذا الجزء لمـا يضم من وقائع وأحداث ، وهى أحداث ووقائع قد كتبت كتابة تاريخية محققة فى أسلوب قصصى بديع يمتـاز به الدكتور هيكل باشا . فهو يتمثل الحوادث وما يقوله المؤرخون بصددها ، ثم يكتب محاولا جهد طاقته أن لا يحمل قارئه أى ضرب من ضروب العناء والشقة . ولعل وجهته تلك فى إراحة قارئه هى التى جعلته لا يعنى بذكر مراجعه فى هوامش هذا الكتاب فى حياة عمر إلا فى القليل الأقل . ولعلها هى نفسها التى حملته على أن يتشبث برواية بعض الأساطير فى كتابه كأسطورة تعرف عمرو بن العاص على شماس رومى من أهل الإسكندرية قدم بيت المقدس حاجا فنام إلى جانب حفرة ، وأثناء نومه خرجت حية عظيمة من تلك الحفرة تريد إيذاءه ، وهنا يظهر بطل الأسطورة عمرو بن العاص فيقتل الحية ، ثم يستيقظ الشماس ويقص عليه عمرو نبأ الحية فيسر الشماس منه سرورا عظيما ويريد أن يكافئه على إنقاذه لحياته ، فيصطحبه معه إلى الإسكندرية فى قصة طويلة لا داعى لسردها لأنها أسطورة ، ونفس الدكتور هيكل باشا قال إنها أدنى إلى الأساطير ، وكان يحسن ألا يرويها مادامت هنـاك رواية أخرى تقول إن عمراً دخل مصر تاجرا فى الجاهلية بالأدم والقطن ! . . ويذهب مذهب هـذه الأسطورة ما يقصه الكتاب فى هامش ص ١٦٢ من أن البربر كانوا ينزلون فلسطين وكان ملكهم جالوت . فلما قتله داود خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية فتفرقوا هنالك . ونحن نقطع بأن الدكتور هيكل باشا لا يؤمن بمثل هذه القصص والأساطير ، وكأن محبته للأسلوب القصصى هى التى جرته إليهـا حتى يطرف قارئه وسامعه .

وربما كان مما ينتظم فى هذا الجانب مسألة تردد عمر ابن الخطـاب فى فتح مصر وما كان من إقدام عمرو بن العاص على ذلك لسبق معرفته لها فى الجاهلية ، فما لبث أن

أذن له عمر في هذا الفتح حتى رأيناه يسير في نحو أربعة آلاف أو لعلهم ينقصون — يقدمهم إلى مصر يريد أن يفتحها! ويرى عمر بعد إذنه لعمرو أنه قد أسرع في هذا الإذن إذ أرسله في فرقة صغيرة افتتح بلد كبير، ويلومه بعض الصحابة على هذا الصنيع، فيرسل إلى ابن العاص رسول على البريد يأمره بالرجوع إن لم يكن قد دخل في حدود مصر. ثم تمضي القصة فتزعم أن الرسول لحق ابن العاص قبل دخوله مصر فأسرع في سيره حتى بلغ رفح، وهناك فض رسالة عمر، وحينئذ يقول عمرو إنه لا سبيل إلى الرجوع فقد دخل الجيش في حدود مصر، ويمضي عمرو بهذا الجيش الصغير فينتصر على مايقابله من جيوش الروم، وتفتح له طائفة من الفتوح، وما يزال في انتصاراته وفتوحاته حتى يصل إلى منف وحصن بابليون. وأخيرا يأتيه المدد، إذ يقبل عليه ثمانية آلاف عليهم الزبير بن العوام ومعه عبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد فيتمون معه فتح ما بقي من حصون مصر ومعاقلها. وما من شك في أن قصة فتح مصر على هذا النحو تدخل في باب الأساطير. وإلا فكيف يعقل أن يقتحم ابن العاص أبواب مصر ومعاقلها الشرقية بهذا النفر القليل؟ ويعجب بتلر (في كتابه فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ فريد أبو حديد ص ١٨٩) مما في هذه القصة من مبالغة، فيعتمد على إحدى الروايات في المقريزي ويقول إنه انضم إلى جيش ابن العاص بعد فتح الفرما طوائف من البدو المقيمين على تخوم مصر الشرقية، ويشايعه الدكتور هيكل باشا ص ٩٨ في هذا الرأي. والحق أن قصة فتح العرب لمصر على هذا النحو تعتبر إحدى الأساطير. وما لنا نعتمد على هذه الرواية التي تجعل فتح مصر أسطورة مادامت عندنا روايات أخرى أشار إليها المؤلف في هامش ص ٩٠؟ وانظر إلى صاحب المغرب روى قصة هذا الفتح على نمط آخر فيقول: «قال أصحاب الأخبار: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد بعث عمرو بن العاص إلى فلسطين بعد افتتاح دمشق، فلما أفضت الخلافة إلى عمر رضي الله عنه كتب إلى عمرو يأمره أن يمضي إلى مصر غازيا، فكتب إليه عمرو يخبره بقلة من معه من المسلمين فأمده عمر بالزبير بن العوام وجماعة من المهاجرين والأنصار فتقوى بهم وتوجه مسرعا. فبعد أن أنفذ عمر من أنفذ من المسلمين مددا لعمرو اجتمع أعلام الصحابة فدخلوا عليه، وقالوا إنك غررت بالمسلمين! إن أهل مصر عدد لا يحصى، وبها ملوك كثيرة أموالهم ورجالهم. فلما سمع ذلك عمر دعا عليا رضي الله عنه واستشاره، فأشار عليه أن يوجه إلى عمرو رسولا على بريد فإن ألفاه قد دخل حيز مصر فلا يرجع، فإن ذلك وهن على المسلمين، وإن أدركه قبل أن يدخل حيزها فليرجع» وإذا كانت هذه الرواية بين أيدينا ألا يحسن أن نأخذ بها حتى نصحح كثيرا من الوقائع ولا نجعل فتح مصر أسطورة! وما من ريب في أن رواية صاحب المغرب تصور عمر وعمراً في نصابهما الحقيقي؛ فعمر الخليفة هو الذي يأمر وعمرو القائد للجيش هو الذي يتردد، ثم يأتيه المدد وعلى رأسه الزبير بن العوام وهو لا يزال في فلسطين، ثم يتقدم إلى فتح مصر فيفزع أعلام الصحابة ممن يكوّنون مجلس المدينة الاستشاري نبأ هذا الجيش فيحتجون لأنه لا يزال في رأيهم — بالرغم من مدد الزبير — جيشا قليلا، ويرسل عمر رسولا — كما أشار هؤلاء الصحابة — إلى عمرو، فلا يلحقه إلا وهو بحيز مصر، فيعود إلى عمر حاملا إليه هذا النبأ، فيرسل إلى عمرو بإمدادات أخرى على هذا النحو الذي كان يرسل به الإمدادات إلى من يحاربون في فارس. وأكبر الظن أننا إن أخذنا بمثل رواية صاحب المغرب صححنا الموقف في فتح العرب لمصر ولم نجعله أسطورة من الأساطير.

وأخرى نلاحظها في هذا الجزء الثاني من الفاروق عمر، وهي مسألة تدوين عمر للدواوين، فإن الدكتور

هيكل باشا لم يرجع فيها — على ما يظهر — إلى كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشيارى ، وهو أوثق مرجع فى هذا الموضوع ، ولو أنه رجع إليه لأشار إلى الرواية التى تزعم بأن الهرمزان الفارسى هو الذى نصح لعمر باتخاذ ديوان العطاء ، وأيضا فإنه كان يرفض الرواية التى تزعم بأن أول ديوان فى الإسلام هو ديوان الإنشاء ، فديوان الإنشاء متأخر فى نشأته عن عصر عمر وعصر الخلفاء الراشدين جميعاً .

وأخرى وأخيرة ، وهى أن الدكتور هيكل باشا عرض فى خاتمة كتابه لما أدخله الفرس والروم فى الفن العربى والأدب العربى ، وجعل مظهر ذلك ما كان من اختلاف مذاهب البصريين والكوفيين فى اللغة ، فإن هذا الخلاف إنما نشأ لأن البصرة والكوفة كانتا تجاوران فارس ، وكانت إحداهما أكثر محافظة على عربيتها ، وكانت الثانية أكثر حرية فى امتثال الثقافة الفارسية ! ولعل المؤلف يقصد باللغة النحو ، فاللغة فى البصرة والكوفة جميعا كانت العربية ، ولا خلاف فى العربية من حيث هى ، إنما الخلاف فى النحو وقبول الشواذ أو طردها وما يتصل بذلك من وضع القواعد والمقاييس . على أننا لا ندرى هل تأثر العلماء فى وضع قواعد النحو العربى ومقاييسه بما اطلعوا عليه من النحو اليونانى أو النحو السريانى أو الثقافة اليونانية ، أو الثقافة الهندية أو الثقافة الفارسية ، فهذه كلها فروض تحتاج إلى ترجيح .

ومهما يكن فتلك كلها تعليقات جزئية نعلق بها على الجزء الثانى من كتاب الفاروق ونحن نقدر ما فيه من جهد ودأب فى درس التاريخ الإسلامى ، وما من ريب فى أن هذا الجزء الثانى وما سبقه من الجزء الأول فى سيرة الفاروق سيظلان جميعا مرجعا من مراجع تاريخ العرب فى هذه الحقبة التى أظلهم فيها حكم عمر ، وإنه لمرجع جليل الخطر ، عظيم الأثر .

شوقى ضيف

الباب الذهبى وساعات الصمت

أصدر الأستاذ محمد أمين حسونة ، فى الفترة الأخيرة كتابين يتفقان فى أن كلاً منهما مجموعة متفرقات .

فأما الأول — « الباب الذهبى » — فهو مجموعة أعمال قصصية غربية ملخصة ، لعل فضيلتها الأولى أن الأستاذ حسونة أجاد انتقاءها . فالرواية أو المسرحية الملخصة ، فى العادة ، تفقد قيمتها وتصبح سرداً صحفياً لحوادث متتابعة ؛ ولا ينقذها من هذا إلا أن تكون قائمة على أسس نفسية عميقة ، بحيث يكون إيجازها لا عرضاً لحوادث ، بل تصويراً لحقائق فردية واجتماعية ، من وجهة نظر المؤلف . وذلك ما حدث فى هذه المجموعة ، التى تضم ألواناً من الأدب الغربى متنوعة ، فيها الفرنسى والألمانى والإيطالى . وفيها الأسوان والمازل والقلسق .

وأما الكتاب الثانى — «ساعات الصمت» — فمجموعة مقالات وفصول كان الأستاذ حسونة نشرها فى بعض المجلات ، ولعل أفضلها بعض الدراسات النقدية ، وبعض التأملات حول نظريات الأدب المعاصرة . ويهيمن على هذه الفصول تشوف إلى مثل أعلى فكرى ، يحاول التخلص من قيود الزمان والمكان ، ويتطلع إلى ثقافة وأدب وفن ، إنسانية شاملة ، تتناسى فيها القوميات والعصبيات . ولئن كان هذا فى مبدئه جميلا سامياً فأحسب أن الأستاذ حسونة ، فى تطبيقه الصارم على وضعنا العربى ، قد استخدم بعض المصطلحات فى غير الوضع الذى هى له . ويعجبك فى هذه المجموعة تلوّنها ، وتحقيقها ذلك المثل الإنسانى فى ذاتها بالأخذ بأنماط عديدة من أساليب التفكير ، ولكنها تفتقر فى هذا إلى بعض العمق وبعض القوة ؛ وعذر الأستاذ المؤلف فى هذا أنها مقالات موجزة كتبت للنشر فى المجلات .

أما أسلوب هذين الكتابين فبسيط غاية البساطة ، خال من التمحل ومن هذه الصناعة التى قد ترفع مستوى الأثر الأدبى ، ولكنها فى مجال البحث الفكرى ، وسيلة كثيراً ما تنقلب غاية ، فتضيع شأن الفكرة التى تخدمها .

بين المسموع والمقروء

دمشق

لا أريد أن أصف ما حدث في دمشق الدامية ، وفي غير دمشق ، من أحداث ، فهذا شيء عرف الناس تفاصيله . ولكني أريد أن أعلق تعليقا سريعا هادئا على بعض عناصر الموقف .

فأول شيء يقع في خاطري أن اعتداء الفرنسيين هذا ليس الأول من نوعه . فقد وقع مثيله بعد الحرب الماضية . وكان فيه ما في مثل هذا من غدر وقسوة وسوء تدبير . ودلالة هذا أن العقلية الفرنسية هي هي ، ما زالت تحركها اليوم نفس العوامل التي حركتها بالأمس . وأشد هذه العوامل تأصلا امتهان العرب . فقد شاء القدر المر أن يقع العرب في ربقة الفرنسيين في شمال أفريقيا أجيالا طوالا مرنوا فيها على تذليل الماضي ، وفصم الشرف العاتي .

ومع بغضهم للعرب ، لا يفتأون يجندونهم في السلم والحرب على السواء . وفي السلم تجد دائما فرسانا مرا كش في عمائمهم ، وفي أثوابهم البيضاء الضافية ، وهم يعرضون هذه الأفراس ، بالذين عليها من ناس ، وهم يعرضونها ، ويعرضونهم ، ليثبتوا للعالم أنهم امبراطورية ، يأتون من أدناها وأقصاها بالسود والبيض ، وبالعبيد .

وهي مع كل هذا أمة الحرية والمساواة والإخاء .

وقد أوغل الفرنسيون بثقافتهم في الشرق الأوسط أي إيغال . وحرصوا على أن يرسلوا إليه خير الرجال ، يعلمونهم أدب هوجو وموسيه ، فيتجرون به على كثير من عقول الشباب والكهول ، وهي ساذجة بريئة ، عاض كريم لا يتفق مع حاضر غير كريم . ويدرسون لهم تلك الحقبة الناصعة من تاريخ فرنسا ، تاريخ الثورة الفرنسية ، التي كانت بمثابة الفجر الذي طلع على أوربا بأكثر من معنى شريف من معاني الانسانية ، يدرسونهم إياها ليستغلوا عقول هؤلاء البلهاء ، وأقلامهم في مناصرة حال لهم اليوم لا يتفق مع ماضيهم ذلك البعيد ، إلا بمقدار ما يتفق الليل والنهار .

فهذا هو السبب الأول في تلك النقمة التي صبتها باريس على رأس دمشق ، ورءوس ما حولها من مدن وبقاع : كراهة للعرب أصيلة .

ثم إني أتصور فرنسا الضعيفة الكسيحة ، تقوم على أحد عكازيها لتضرب بالعكاز الآخر . وتلوح بالمكاز كأنه سيف ذي يزن . فيمضع دبابات لا يدري أحد أين صنعتها ، ولا من أين اقترضتها ، ويمضع طائرات لا يدري أحد لمن كانت ، تغير على أمة تشاركها الضعف ولكن بحظ أوفر ، وتقاسمها الذلة إلا ذلة النفس ، فتريد أن تظهر عليها بالجبروت الكاذب في وقت قال الناس فيه بغير الجبروت وسيلة . وتقوم بهذا الذي تقوم به على الرغم من نصيحة أمة أعتى .

أتصور فرنسا هكذا ، فتظهر في خاطري صورة من ذلك الشخص الذي كان يدور قديما في بعض حارات القاهرة بتلك العصى الغليظة التي يسمونها بالنبوت ، ويسمونه بالفتوة ، فيطيح في الناس العزل ، فيصمي ويدمي لا لشيء سوى إحداث الشغب . حتى إذا حضر البوليس فر . فهذا هو الذي فعلته وتفعله فرنسا الآن تماما . فقد أقدمت ، وهي لا بد محجمة بعد أن كشر البوليس عن نابه .

وهذا التشبيه أكل مما كنت أحسب ، (فالفتوة) قوته في عضله وليست في رأسه . وإن لم يكن هذا حال فرنسا ، فكيف نفسر إذاً ذلك العمل الطائش الذي كسبت به سخط الشرق وسخط الدنيا معه ، وهي تعلم أنها لا تستطيع

أن تغالب الشرق فى ضعفه إلى الأبد ، ولن تغالب الدنيا فى قوتها ؛ وهى تعلم كذلك أن الذريعة القديمة التى كانت تتذرع بها لتأجيج عواطف الغرب ضد الشرق بما تزعمه من حماية الأقلية المسيحية قد أبلتها الأيام ، وعصفت بها التجارب ، وأطارها رجوع أهل الأديان إلى أصول الأديان يستقون منها المحبة والود لبنى الانسان .

لو كانت لفرنسا فى رأسها تلك القسوة التى خالتها حتى فى ذراعها وهى قصيرة ، لما تطوعت إلى جانب قتل المستقبين وهدم دورهم واحتلال برلمانهم ، لما تطوعت بامتهان الانجليز ، حتى بلغ من ذلك أن يقفوا سيارة امرأة ، هى زوجة عميدهم بتلك العاصمة المرزوءة ، ليصفروا لها ، ثم يوجهوا الرصاص إلى دار هذا العميد فينال الزجاج من تلك السيدة عينيها .

لم يكن بد بعد ذلك من ردّ السفه . فكان فى صبيحة الجمعة ما كان : طلب الانجليز إلى الفرنسيين أن يلزموا ثكناتهم . ثم بعد استكمال الأمن واستقراره ، يأتون لمفاوضة — لاثنائية ، ولكن ثلاثية ، بعد الذى جرى . وأين تكون المفاوضة هذه المرّة ؟ لا فى باريس ، أم الدنيا ، ولكن فى لندن ، تلك التى سفر الصافرون الصبية الأغرار لمقصدها .

ألا ما أقبح الصغير التعالى ، بغير الحق . وألا ما أخوى القليل المتضخم ، وليس فى أثوابه غير ما يتقعقع فيها من أهوية تخرج من فساد ما تضمنته من نزعات بهيمية لاتمت إلى الطهارة الإنسانية بشىء .

إن فرنسا خاصمت الأمم المتحدة فى أمرين : السار والجزء الغربى من نهر الرين ، ثم السيادة على دولتى سوريا ولبنان . وتعلم فرنسا أن علاقة ما بين الدول فى هذه الأيام ليست على أحسن مايرام . فوجدت الفرصة مؤاتية فى مهاجة الأمم ، واستباق مائدة السلام . وكان عليها أن تختار أحد الميدانين ، لتجرب قوتها ، وكان أحدهما شرقيا والآخر غربيا ، فاختارت بحسبته أسهل الميدانين ، وأبعدهما من ملتقى الأنظار . وهى مخيَّبة فى هذا ، لا شك أبدا . وهى بهذه الخيبة قد ورّطت حظوظها فى ذلك الميدان الآخر ، بل لقد ورّطت حظوظها فى سائر العالم عندما تدرس بحاره الواسعة وأراضيه الشاسعة .

واختارت لتجربة قوتها أبعد الأوقات عن التوفيق . فقد اختارته والأمم مجتمعة فى أمريكا ترسم السبيل إلى سلام دائم بين الأمم جميعا لا يكون فيه اعتداء ، وهى باختيارها هذا الوقت قد تحدّت تلك الأمم جميعها بتعريضهم جميعا للسخرية العارية التى تقول للناس خذوق ، وهى اعتدت على أمتين ، بل على أمم العرب جميعها ، فى الوقت الذى فيه مندوبو تلك الأمم ، بسان فرنسسكو ، فى سوق كسوق عكاظ ، جمعت رءوس الامم والنابهين فيهم ، ونسيت أن الأمم إذا قُرصت ، صرخت ، وفى هذه الحالة تصرخ فيُسمَع دويها فى الآفاق .

فتلك سياسة قوم فى السياسة بادئين ، إنها سياسة عسكريين .

ومن السياسة الفجّة أنهم أشعلوها عند ما انفرط الحكم الائتلافى فى إنجلترا ، وحسبوا أن بانفراطه ستعجز الحكومة الإنجليزية القائمة من الحسم ، خوفا منها أن يكون فيه المخاطرة بحظها عند الناخبين . فكان ردّ انجلترا على هذا هو ما توقعه الخبيرون : أدلى رئيس الوزراء برسالته إلى ديجول فى مجلس النواب ، فقام رئيس المعارضة توّا يعززها ويقوّيها ، وهو خصيمه عند الأمة من بعد أسابيع . وتلت الحكومة نفس الرسالة فى مجلس اللوردات فقامت المعارضة لتوّها تزكّيها . إن الانجليز يعرفون كيف ينقسمون فى الداخل ، ولكنهم لا ينقسمون فى

الخارج ، لاسيا فى الأزمات ، أبداً ، فكيف فات الفرنسيين ، حتى العسكريين ، ذلك ؟!

وكلمة أخيرة لا بد منها فى هذا الظرف إلى أصدقائنا الإنجليز .

إن أسهم الانجليز لم ترتفع فى الشرق كما ارتفعت فى هذه الأيام ؛ فهى فى لبنان وسوريا قد ناصرت الحق ، ونرجو أن تتم نصرتها له على الذى يفهمه الشرقيون من المناصرة ، اعنى المناصرة التامة الصريحة التى لا تردد فيها ولا ميوعة ، والتى لا يقال فيها حقوق ثقافية وحقوق دفاعية ، أعنى تلك المناصرة التى لا يكون فيها الحق مشروطا بتلك الشرائط التى تجعل منه باطلا . وهى لذلك كانت أول الملبين إلى الرغبة فى الخروج بعسكرها عن إيران لما طلبت إيران من الدول المتحالفة ذلك فى أمس هذا الذاهب . وهى بموقفها فى فلسطين ظهرت بمظهر الذى لا يود للعرب بها إفناء ، فرجاؤنا إليها ، إلى القائمين بإدارة السياسة فى الشرق الأوسط منهم ، أن يتبعوا هذه السياسة الحصيفة الكريمة فى سائر أممه ، فيبادروا إلى تقليص آخر ظل لهم من حماية ووصاية وحضانة من أمم الشرق جميعها ، ليكون لهم من أمم الشرق جميعها من بعد ذلك كله عضد قوى ، فى السلم والحرب ، يستمد قوته من محبة القلوب أكثر مما يستمدها فى مداد الأوراق . إن أهل الشرق أهل عواطف ، يؤسرون بالعمل الطيب ، ويجازون بالحسنة على قدرهم حسنات . وهم لا يعمون من الحقائق من فقر وضعف ، ولكن الحرية فى أصلابهم ودمائهم ، وفى آدابهم . فهم إلى الحرية أعطش . وهم من بعد هذا يحمدون اليد الإنسانية التى تبذلهم على الحرية من فقر غنى ، ومن ضعف قوة .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٣٣٧ — الثلاثاء ٣ من رجب سنة ١٣٦٤ — ١٢ من يونيه سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

النتائج الطبيعية

لحوادث سوريا

لا نريد أن نعيد القول فى حوادث سوريا ومبلغ ما أصابها به العدوان الفرنسى من الخسارة فى الأنفس والأموال . ولا أن نناقش ما أورده الجنرال ديجول تبريراً لمسلكه الغريب فى تلك الحوادث وما ألقاه من الاتهام لعمال إنجلترا فى الشرق وما رد به المستر تشرشل على دعواه ، ولكنا إنما نحاول أن نستعرض ما كان لتلك الحوادث من صدى فى العالم ، وما قد يكون لها من أثر فى الاتجاهات السياسية الدولية فى المستقبل ، وما ينبغى أن يكون لها من نتائج فى تحديد السياسة الإيجابية لكتلة الأمم العربية .

فأول ما يسترعى الأنظار أن الرأى العام العالمى قد اضطرب لتلك الحوادث الأثيمة ، وأن سوريا ولبنان قد كسبتا عطف أمم الأرض جميعاً فى هذه النازلة التى نزلت بهما وأن مسلك فرنسا كان محل استنكار عام . وأنها على الرغم من كل ما ادعته فى بياناتها لم تستطع أن تقدم لنفسها عذراً مقبولا فى الاعتداء على شعب أعزل مجرد من كل وسائل المقاومة واستعمال المدافع الثقيلة والمدافع الرشاشة وقنابل الطائرات وأسلحة الدبابات فى الفتك بالمدنيين الآمنين وتخريب الفنادق والمساجد والمستشفيات والاعتداء على المنازل ونهب ما فيها من مقتنيات وتحريق مخازن التموين وتقتيل الأسرى وترك جثث الموتى ملقاة فى الطرق . فمثل هذه الإجراءات لن تجد رجلا به ذرة من الشعور الإنسانى يبررها فى مثل تلك الظروف مهما كانت الأسباب . وهى أشبه بالنزعات الانتقامية التى كان يلجأ اليها المتبربرون فى العصور القديمة ، وكنا نحسبها قد انقضى عهدها بانقضاء الحرب مع الطغاة وأنها لم يعد لها وجود فى عالمنا الحديث .

وقيام فرنسا بهذه الحملة الطائشة فى الوقت الذى ينعقد فيه المؤتمر الدولى بسان فرنسيسكو لضمان الأمن، ومنع الاعتداء، وإقامة علاقات الأمم على العدل والمحبة وفى الوقت الذى يجلس فيه مندوبو فرنسا مع مندوبى سوريا ولبنان فى ذلك المؤتمر على قدم المساواة لابد أن يكون قد أثر فى نفوس مندوبى الأمم جميعاً شكا عميقاً فى جدوى مثل ذلك المؤتمر، فها هى دولة مشتركة فيه توليه ظهرها ولا تبالى ما يبحثه وما يسعى إليه وتقوم بعمل انفرادى من جانبها دون الرجوع إلى أحد وتضع تحت أنفه مثلا من أمثلة العدوان تتحدى به مهمته وأهـدافه وما قد يتخذه من قرارات . وهـذه الدولة إحدى الدول الخمس التى سيكون لها مركز دائم فى مجلس الأمن والتى ستكون لها كلمة عليا فى تسيير دفة السياسة العالمية وسيوكل إليها مع بقية الدول العظمى أمر حماية أمم الأرض من العدوان .

لقد كان عمل فرنسا منبها للأمم الصغيرة بما ينتظرها من أخطار ومتاعب باعتمادها على تلك الأمم الكبيرة وترك أمر حمايتها من العدوان وكفالة استقلالها لها . وأكبر الظن أن فكرة الوصاية التى ستكون لبعض الأمم الكبيرة على الأمم الصغيرة قد أصيبت فى الصميم . فها هى إحدى الدول التى قد ترشح للوصاية على أمم صغيرة قد قدمت الدليل على عدم أهليتها لتلك الوصاية وأثبتت أنها لا تؤتمن على كفالة غيرها من الشعوب وتهيئتها للنهوض والارتقاء، فهى لا تصدر فى تصرفاتها إلا عن أنانية سافرة، تتكلم عن مصالحها الخاصة ونفوذها الخاص، وهى أحرص على إظهار سلطانها وسيادتها على الشعوب التى يوكل لها أمرها منها على رعاية أمورهم والأخذ بيدهم . وهى لا تتورع عن الفتك بهم وتخريب ديارهم وتعطيل أسباب الحياة عندهم إذا مست مصالحها ومكانتها من قريب أو بعيد .

هذا هو الأثر العالمى لمسلك فرنسا . وإذا كان هناك شىء قد أعاد الثقة للناس وأزال ما ساور النفوس من شك فى السياسة العالمية الجديدة فهو الموقف الحازم الذى وقفته انجلترا وأمريكا وأيدته روسيا . هذا الموقف الحازم الذى ألزم فرنسا الكف عن العدوان ورد جنودها إلى ثكناتهم وأعلن بلسان رجال انجلترا الرسميين استنكار عملهم وحملهم تبعة هذه الحوادث التى تنافى روح السياسة العالمية الجديدة .

أما أثر تلك الحوادث فى الأمم العربية فقد فتح أعينها على ما تستهدف له من أخطار بقائها مجردة من أسباب القوة معتمدة على المعونة الخارجية ، وأقنعها بضرورة العمل السريع المتحد على تهيئة أسباب دفع العدوان عن كيانها والاعتماد على جهودها الذاتية قبل الالتجاء للعون الخارجى .

ولقد زادت تلك المحنة جامعة الأمم العربية قوة وأقنعت المترددين بضرورتها وزادتهم يقينا بأن كل أمة من الأمم العربية منفردة تكون فريسة سهلة لكل باغ معتد وأنه لا نجاة لها إلا بتضامنها واجتماع كلمتها على أن تكون صفا واحدا فى الذب عن كيان كل أمة منها . ولقد حفرت فرنسا بيدها هوة سحيقة بينها وبين الأمم العربية بما اتخذته من خطة عداء صريح وما ارتضته من مسلك انتقامى شنيع ، لخسرت نفوذها الأدبى وفقدت ما كان البعض يشعر به من عطف عليها لما أصابها فى الحرب الأخيرة من ذل وهوان ، وصرفت قلوب الناس عنها وعن كل ما يمت لها بصلة ، ولن تلتئم الجراح التى أسالتها وتعود العلاقات الأدبية التى كانت بينها وبين الشرق العربى إلى سابق عهدها حتى تخلع عنها تلك الرجعية العسكرية الذميمة وتتجرد من روح الأثرة الغالبة على سياستها وتكفر عن الأخطاء التى ارتكبتها .

ونعود فنكرر أن الوضع العالمى الحاضر لا يطمئن النفوس ، وأن الناس لا يزالون ينتظرون تطوراً أبلغ أثراً فى العلاقات الدولية وأنهم لن تهدأ نفوسهم حتى يزول الرق فى الأمم كما زال الرق فى الأفراد وتتحقق العدالة والمساواة بين شعوب الأمم كبيرها وصغيرها . (٠٠٠)

اتصال العلماء المصريين

بعلماء الحملة الفرنسية وأثر هذا الاتصال

(١)

كان الأمر في مصر قد انتهى — في أواخر القرن الثامن عشر — بقوتين من ثلاث : وهما قوة الباشا ، وقوة الديوان ، إلى الضعف العام ، والانحلال الشامل ؛ كما انتهى بالقوة الثالثة ، وهي قوة المماليك ، إلى نوع من الانتعاش والصحو ؛ لهذا نجد أن هذه القوة هي التي تتولى أمر الدفاع عن مصر أمام خطر الغزو الفرنسي ؛ ولكن المماليك اصطدموا هذه المرة بغرب غير ذلك الغرب الذي عرفوه في الحروب الصليبية ، وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه « من أنه إذا جاءت جميع الأفرنج لا يقفون في مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم » ، فكان هذا الجيش الجديد الآتي من الغرب الجديد يتبع نظما جديدة ، ويستعمل أسلحة جديدة ، ويقوده شاب ممتلئ شجاعة وإقداماً وأملا ، فلم يكن من الممكن ، أو من المحتمل أن تقف أمامه فلول المماليك — رغم شجاعتهم الشخصية — بنظامهم الفروسي القديم ، وخططهم العتيقة — خطط الكر والفر — ، وسلاحهم البالي من سيوف ورماح ونبال . . . . الخ

هزمت جيوش المماليك ، وتفرقت جنودهم شيعاً تلوذ بأذيال الفرار شرقاً نحو الشام ، وجنوباً نحو أقاصي الصعيد وبلاد النوبة والسودان ؛ وهنا نستطيع أن نقرر أن الحملة نجحت من الناحية الحربية ، ولكنه كان نجاحاً وقتياً لم يلبث أن انكشف عن صعوبات جديدة ، ومعارك جديدة ، يقوم بها عصبة من الأعداء ، إذ لم يكن من اليسير أن تتنازل فلول المماليك عن غنيمتهم بهذه السرعة ، ولم يكن من السهل أن يترك السلطان مصر — درة تاجه — للفرنسيين دون أن يناضل في سبيلها — ولو بجهد المقل — ولم يكن من الجائز عقلا في شريعة إنجلترا أن تلقى فرنسا الحبل على الغارب تستولي على هذا الشريان الذي يصل بين قلبها وبين أطراف الأمبراطورية في الشرق ، ولم يكن من المقبول أخيراً لدى سكان مصر أن يضع هؤلاء الفرنج أيديهم على بلادهم ، وهم هؤلاء الكفرة الذين يشربون الخمر ، ويراقصون النساء ، ويرتكبون المنكر عياناً ، وهم الذين يقيدون من حرياتهم يوماً بعد يوم فيمنعونهم الدفن في منازلهم ، ويأمرونهم بكنس الشوارع ورشها وإنارتها ليلا ، ويهدمون أبواب حاراتهم ، ويزيلون أسقف أسواقهم ، ويسجلون مواليدهم وموتاهم ، ويفرضون عليهم الضرائب . . . الخ

وثارت هذه القوى جميعاً ضد الفرنسيين ، ولكل منها بغيتها وأمنيتها ، وظلت الحملة الفرنسية سنوات ثلاثاً تناضل نضالا عنيفاً حتى عجزت فخضعت ثم خرجت .

غير أن فريقاً آخر من رجال الحملة نجح نجاحاً مشكوراً في مهمته التي ألقيت على عاتقه ، ذلك هو فريق العلماء المرافقين للحملة ، فقد كان الجنود يحاربون ويناضلون في الصحراء ، وفي المدن ، وفي القرى ، وهؤلاء العلماء عاكفون على أبحاثهم وآلاتهم وكتبهم يدرسون تربة مصر ، ونباتاتها ، وحيواناتها وطيرها ، ونيلها ، ومعادنها ، وطرقها ، وأسواقها ، وصناعاتها ، ومجتمعاتها ، وآثارها الخ . ثم يسجلون في دفاترهم نتائج أبحاثهم هذه كلها لتكون الرصيد الخازن للمؤلف المعظم الذي يضعونه عن مصر بعد خروج الحملة ، وهو كتاب وصف مصر «Description de l'Egypte».

وكان الناس في مصر يشاهدون هؤلاء الفرنسيين يتنقلون في القرى والمدن يقلبون أنظارهم في كل شيء ، ويختصمون كل ما يرون ويشاهدون ابحثهم وآلاتهم ويسألون

ويقيدون ، فلفت أنظارهم هذا الفضول ، ولكنهم لم يلبثوا أن انصرفوا عن هؤلاء الفضوليين ، وجذبتهم شئون حياتهم الخاصة .

هذا كان موقف عامة مصر من علماء الحملة . أما موقف علماء مصر فكان مغايراً لهذا ، فقد اتصلت الأسباب بينهم وبين رجال الحملة بعد أن هدأت المعارك الأولى ، وأسفرت عن فرار هؤلاء المماليك الذين كانوا سوط عذاب مشهراً على المصريين منذ أمد طويل ؛ فهم من جانبهم رأوا أن حماتهم قد تخلوا عنهم وفروا هاربين ، ونابليون من جانبه كان يرى — كما قال في مذكراته — أنه لكي يسوس « هؤلاء الناس — أي المصريين — لا بد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وكان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلت العلماء وفقهاء الشريعة لأنهم : أولا — كانوا كذلك — أي رؤساء بطبيعتهم . وثانيا — لأنهم كانوا مفسري القرآن ، ومعروف أن أكبر العقبات تنشأ من أفكار دينية . وثالثا — لأن العلماء خلقا لينا ولأنهم — دون نزاع — أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حصانا ، ولا قبل لهم بأي عمل حربي ، وقد أفدت منهم كثيراً واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب ، وألفت منهم الديوان . . . » .

وتكون الديوان من أظهر مشايخ المصريين ورأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي ، وكان له شأنه الخاص — من الناحية السياسية — في حكم مصر تحت نفوذ الفرنسيين وكوّن علماء الحملة مجمعهم وأقاموا عددهم وآلاتهم وأعدوا مكتبتهم ، وتوفروا على أبحاثهم ؛ وجذب هذا كله بعض المستنيرين من علماء مصر كمؤرخ مصر وقتذاك الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . بل إنهم « كانوا إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية ، أو معرفة ، أو تطلعا للنظر في المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم والحيوانات ، والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم ، وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم ، وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار » .

وطاف الجبرتي بحجرات المجمع وأروقته ، ووقف عند كل مشهد جديد ، ولدى كل كتاب طريف مشدوها مفتوح الفم من الدهشة والعجب ، ولم يسعه — وهو المؤرخ الثقة — إلا أن يثبت وصف ما رأى في تاريخه معلنا دهشته وإعجابه وعجزه — وهو كبير من علماء مصر وقتذاك — عن فهم هذه الآلات والعدد ؛ فهو قد نشأ بالأزهر ، وتلقى فيه العلم ، والنمط الذي كان يتبعه طلاب العلم في مصر وقتذاك ساذج بسيط وإن كان متعبا في نفس الوقت ؛ فالطالب يجلس في المسجد ، أو في داره ، ويتحلق على كتاب مخطوط كلما أراد أن يقرأ ؛ فإذا دخل الجبرتي بعد ذلك مكتبة المعهد ، وشاهد نظام المطالعة الجديد الدقيق أعجب به ، ووصفه بقوله : « وفيه جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ، ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها ، فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ، ويراجعون ، ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . . » .

ثم طاف الجبرتي بعد هذا بأقسام المجمع المختلفة الخاصة بعلماء الفلك والكيمياء والطب ، ووصف ما بها من عدد وآلات وصور ، وما أجرى أمامه من تجارب وصفاً رائعاً

ختمه بقوله : « ولهم فيه أمور وأحوال ، وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا »(١) .

ومضى الوقت فوثقت الصلة بين الجبرتى ورجال الحملة الفرنسية فى مصر ، وكان الديوان قد عطل إبان المفاوضات بين الفرنسيين والأتراك لعقد معاهدة العريش ، فقد كان الفرنسيون معتزمين الرحيل إذا نفذت المعاهدة ، لكن المعاهدة نقضت ، ومع هذا ظل الديوان معطلا ، ولم يفكر « كليبر » فى إعادته ؛ فلما قتل ، وانتقلت القيادة إلى « مينو » أعاد الديوان فى صورة غير صورته أيام « نابليون » وليس فيه كما يقول الجبرتى : « خصوصى وعمومى . . . بل هو ديوان واحد » ، وكونه من « تسعة أنفار متعممين لا غير ، وليس فيهم قبطى ، ولا وجاقلى ، ولا شامى » ،

(١) انظر وصف الجبرتى كاملا لأقسام المجمع فى تاريخه ج ٣ ص ٣٥ — ٣٧ .

واختير مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عضوا فى هذا الديوان ، وأشار إلى نفسه عند ذكر أسماء الأعضاء بقوله : « وكاتبه » بعد ذكر اسم الشيخ الصاوى ، مما جعل البعض ينكر اختياره عضوا فى الديوان ، ويظن أنه يقصد بلفظ « كاتبه » كاتب الشيخ الصاوى . غير أنه مما يؤيد اختياره عضوا فى الديوان أن جريدة « الكوريه دليجيبت Courier pe l'Egydte » التى كانت تصدر فى مصر وقت وجود الحملة بها نشرت فى العدد ٩١ الصادر فى ٥ افريمير من السنة التاسعة (ديسمبر ١٨٠٠) رسالة ودية أرسلها أعضاء الديوان وقتذاك إلى نابليون القنصل الأول فى فرنسا ، وفى أسفل الرسالة توقيعات أعضاء الديوان جميعا ومن بينها توقيع الجبرتى .

(لبحث بقية) جمال الدين الشيال

جحود . . .

فى أىّ أيامى تمر حياتى ؟
وبأى دنيا اليوم تعبر ذاتى ؟

ذهبت سنيّى فى الظلام شريدة
وعدون بى عمْرِن فى عثراتى .

مازلت أعدو بالصبا ليلا إلى
أن جئت صبح الشيب فى خطواتى .

حتى إذا وعت ملت بأنى
ما كنت أحمل فيه غير رفاتى .

ووقفت فى طرق الحياة محيراً
كالريح أعياها مدى الفلوات .

أرنو لتاريخى كآثار عفت
وزهت بأخبار ومجد بناة .

فإذا رأتنى كالغريب أزورها
فى الذكريات سألن من ذا الآتى ؟

فأجيبها أنا من خلقتك من دمى
وسفحت فيك العمر من عبراتى .

وأمت فيك الأمس مجداً صيغ من
جلدى لكى تحيى بمجد مماتى .

أفنى ويأكلنى التراب وينطوى
بى الجيل بعد الجيل فى السنوات

ويظل وجهك خالداً كالنجم به
تهدى به ويعيش فى الظلمات .

لا تنكرينى مثل قومى أنكروا
دمى الشهيد وأنكروا آياتى .

كفروا بعزمارى وهم عبّاده
وشدوا بآلامى وهم نغماتى .

حشدوا علىّ مع الزمان كتائباً
من قذف جهّال ومفتريات .

وتجاذبوا ذهب الحديث على أسى
يؤسى بسرد نوادر ونكات .

فأخذت أنظر للمصائب ذاهلا
وأقابل الأحداث بالبسمات .

وضحكت سخرية فأنكر صاحبى
ضحكى فقلت ضحكت من نكباتى

لم ألق أضحك للملا من جاهل
حكمت علىّ به صروف حياتى .

يختال فى وهج الصفات مزيّفاً
ويدوس مجترئا كريم صفاتى .

نثر النظلات علىّ وهى مواهبى
وروى الحياة إلىّ وهى فتاتى .

جمّعتها كالدهر من صفحاته
وطويتها كالكتب فى صفحاتى .

وشربتها فى كل كأس جرعة
من كلّ صهباء . . . وكلّ سفاة

الآنَ أيامى طوتنى صامتا . . .
والسال أنطقه ، انطوت كماتى .؟

أضحكتنى يا دهر محزوناً ولو
ضحكا بكيت به من الحسرات .

أصبحت لا أبكى على ماض ولا
أهفو كما تهفو القلوب لآت .

ذهبت بأحلامى السنون وصوّحت
بشبى أماسيرُ الزمان العاتى .

لا تنكرينى آسيا لم يجزنى
دمع ولا أصغى لصوت شكاتى .

ذهبت بمعنى الحادثات فلم تدع
لخلافها شيئاً من العبرات .

وأمات قلبى الحزن حتى أصبحت
سخريتى بالحزن من عاداتى .

من يلزم الأحداث يألفها على
ويشقّ أوعر طرقها بثبات .

كامل أمين محمد

إلى من يلزمهم من السادة الأطباء :

فى مستشفى . . . !

هو شاب فنان وديع ، يقطر وجهه حياءً إذا تحدث إليك . وهو طالب فى معهد من المعاهد المصرية العليا ، فليس هو من هؤلاء الذين يخلطون بين الفن والبوهيمية . وقد مرض يوما فاضطر إلى أن يلجأ إلى ما تسمى نفسها « الوحدة العلاجية » وهى البدعة التى فرضتها وزارة المعارف على طلبة معاهدها وألزمتهم من أجلها أن يدفعوا ضريبة سنوية تحت اسم ظريف وهو « رسم التأمين الصحى » . وكان الشاب مطمئنا إلى أنه سوف يذهب إلى مستشفى كريم مملوء بالعطف الملائكى من قلوب إنسانية فياضة بالمحبة ، فالتأمين الصحى اسم ظريف والوحدة العلاجية اسم آخر ظريف ، وإدارة الصحة المدرسية بوزارة المعارف اسم ثالث ظريف . وليس أجدر بالشاب الفنان إذا مرض من أن يشعر بأعظم الاطمئنان إلى أنه سوف يجد العلاج ويفوز بالصحة ويأمن على حياته وقوته فى آخر الأمر . وأرسلته إدارة الصحة المدرسية إلى الوحدة ثم بعثت به الوحدة إلى مستشفى نظيف فى ركن من أركان القاهرة الجميلة لكى يجد فيه الطب والدواء . وذهب الشاب الفنان إلى المستشفى باسم الثغر فارغ القلب واثقاً من أنه سوف يجد هناك ما كان يرسمه له خياله من عطف الملائكة والمحبة الانسانية العذبة .

وصاحب المستشفى رجل من نوابغ رجال الطب وقد مهد له نبوغه سبيل المجد — لا فى ميدان العلم الطبى وحده ولا فى ميدان البراعة الطبية وحدها ، بل فى ميدان المال والجاه والنعمة كذلك . وليس فى هذا عجب ، بل هو جزاء الحياة العادلة للنابغين من الرجال .

وقد تعهد الدكتور النابه صاحب ذلك المستشفى بأن يجعل فى مستشفاه أربعة أسرة للمرضى من الطلبة الذين تبعث بهم إدارة الصحة المدرسية ، وذلك لقاء مبلغ متفق عليه من المال رضى به الجانبان كل الرضى ولم يكن فيه تبرع ولا تكرم ولم يكن فيه نقص ولا غبن .

فالطالب إذا ذهب إلى ذلك المستشفى الظريف ليجد فيه العلاج لا يكون مستجديا ولا مسترحما ، بل هو صاحب حق ترتب له من نظام التأمين الصحى ، وليس عليه فضل لأحد إلا أن تكون كلمة طيبة من ممرضة أو عطف كريم من الدكتور صاحب المستشفى . على أن الكلمة الطيبة من الممرضة لا تكون فى عرف الكرام فضلا بل واجبا . والعطف الكريم من الدكتور النابه صاحب المستشفى لا يكون فضلا كذلك ، بل هو واجب أكيد ، فإن مهنة الطب كما هو معروف مهنة الإنسانية العليا ، وهى لذلك تحتم على أصحابها من المكارم ما لا تحتمه المهن الأخرى على أصحابها . بل إن الطبيب كان منذ أقدم العصور يقسم الأيمان الوثيقة قبل أن يباح له الحق فى التطبيب على أن يرعى مرضاه ويحفظ إنسانيتهم ويكتم أسرارهم ويغمرهم بعطفه وإخلاصه . ولا يؤذى أحدا منهم بفعل أو قول ، لأن واجبه الأول هو أن يكون من خلاصة البشرية العليا .

وجلس الطالب الفنان فى يوم من الأيام على سريره يرسم صوراً على صفحة بيضاء . وكان يريد بذلك طبعاً أن يتسلى بفنه ويقطع من نفسه السآمة من الوحدة . وهو شاب خلى القلب لم تدخل بعد الهموم الكبرى إلى قلبه فتثقله فكان يرسم صوراً للأشخاص الذين يقع نظره عليهم ، صدراً من النهار أو صدراً من الليل ، ويدخل على تلك الصور من عنده ملامح قد تثير الضحك وقد تبعث إلى قلبه الدفء . وهذا عمل برىء ليس لأحد فيه عليه سلطان . فمن شاء أن يرى تلك الصور فليرها ،

ومن شاء أن يضحك معه منها فليفعل ، ومن لم يرض عنها فليذهب عن السرير عابساً أو صامتاً وليس عليه من بأس .

ولكن الدكتور النابه رأى بعض تلك الصور فلم تعجبه . ولعله رأى فيها بعض وجوه ممرضاته أو لعله رأى فيها صورة نفسه ، ولم تكن مما اعتاد أن يراه من تلك الصور الفوتوغرافية التي يبالغ صانعها في التجميل والابداع فأحنقه ذلك ، وتذكر فوراً أنه صاحب المستشفى ، وأنه الدكتور النابغة الذي تنحني له الرؤوس إجلالا ، وأنه صاحب الثروة والجاه الذي تخشع له القلوب إكباراً ، وجعل يعنف الطالب الفنان على ما اقترفت يداه . ولكن الشاب كان خفيف القلب مع ما هو فيه من ضعف ومرض فضحك وزادت متعته من غضب الدكتور العظيم . فاسمع أيها القارىء واعجب ! فهذا هو ما كان ! لقد رفع الطبيب الكريم يده . تلك اليد التي ما كان لها إلا أن تخفف الآلام وتمسح بالبلسم على الجراح — رفع تلك اليد الظريفة الرقيقة وأهوى بها على وجه الفتى فصفعه صفعة ألقته على جانب السرير .

وغضب الفتى للصفعة مع ضعفه فهم من سريره لكي ينتقم لنفسه ، فهاج الدكتور العظيم ونادى ملائكة الرحمة الذين حوله من ممرضين وممرضات ، من بيضاء وأبيض وسوداء وأسود ، وأمرهم بصوت مخيف مرهب أن يسرعوا لكي يقبضوا على المجرم ، ودعا بالعصا ليوقع على الفتى العقوبة التي يستحقها . أليس طالباً في بعض معاهد الدراسة ؟ أليست العصا آلة معروفة في معاهد التعليم ؟

وأغمي على الفتى فلم يحس شيئاً ثم أفاق بعد حين وحمله الغضب على أن يرتدي ملابسه ويخرج من بيت الرحمة والصحة والشفاء ، وكانت الساعة عند ذلك العاشرة من ليل الصيف الجميل .

وسار في الطريق يترنح والغضب يدفعه والضعف يقعد به حتى عجز أخيراً وخر على الأرض من الإعياء .

وأراد القضاء الرحيم أن يمر به رجل من رجال الجيوش المتحالفة . رجل هندي كان يخوض المعارك طوال تلك السنوات الست الدامية . وكان مع كل ما شهده من قسوة الحروب أرحم من ملائكة السماء . فعرج على الفتى وذاب قلبه رحمة عليه ، ثم مال إليه وحمله وساعده على السير وعرف منه القصة المؤلمة ، فأبى عليه أن يسير وحده في الطريق ، وألح عليه أن يعود ليقضي الليلة في المستشفى حتى يدركه الصباح . فعاد الطالب مستنداً على ذراع الجندي الهندي حتى نام في سريره . ثم بكر فخرج في الصباح لكي يقص على الناس قصة مأساة العلاج .

لقد كنت أرى الناس على أبواب المستشفيات يضربون ويدفعون ثم يعودون وفي أيديهم قارورات الدواء فأعزي النفس عما يلقون من العنت في سبيل الشفاء ، فإن اليد التي كانت تدفعهم وتقسو عليهم باليمين كانت تقدم إليهم الدواء بالشمال . وكنت أسمع عن قصص ما يجده المرضى في مستشفيات الحكومة من الشدة فأعزي النفس بأن الضغط الشديد على تلك المستشفيات يجعل من الواجب علينا أن نلتمس لأطبائها المعاذير . ولكن السيل بلغ الزبى كما يقولون وجاوز الحزام الطبيين .

ليست هذه القصة هي أولى القصص المخزية عن الأطباء ، فهناك إذا شئت الإطالة قصص أخرى لا تقل عن هذه القصة بعثاً على الخجل والألم . وإنه ليحزنني أن أتحدث بها عن طائفة أعرف أن فيها من القلوب الكبيرة مئات وألوفاً ، وإنه ليحزنني كذلك أن أصيح هذه الصيحة ، ولي من كرام الأطباء صحابة عزيزة ألجأ إليهم في محنة المرض وأتطلع إليهم رجاء الشفاء . ولكني أربأ بأصحاب المهنة الإنسانية أن يوجد فيهم من تُغَلّ قلوبهم بالكبرياء .

إن الطبيب إذا أحس أنه قد بلغ من الثروة والجاه ما يدخل إلى نفسه الكبرياء ، كان عليه أن يبادر بأن يرمي مبضعه ويهجر سماعته ، ويذهب إلى طائفة أخرى

التعليم الجامعي

— ٢ —

٣ — علاقة الجامعة بالجمهور :

الجامعة الانجليزية قليلة الصلة بالجمهور ، وتختلف عنها في ذلك الجامعة الأمريكية ، حتى إن رؤساءها يعدون من الشخصيات القومية البارزة ، وإذا تحدث الأمريكي في بوسطن مثلا عن « الرئيس » فهو يقصد رئيس جامعة هارفارد ولا يقصد رئيس الجمهورية . ولعل أكثر الجامعات الانجليزية صلة بالجمهور اكسفورد وكامبردج ، وأهم ما يشغل الجمهور منهما سباق الزوارق الذي يجرى بينهما كل عام على متن التيمز . الأساتذة الانجليز يحسبون الاتصال بالجمهور ضربا من ضروب الإعلان عن النفس ، وهم لا يحبون ذلك . ثم إن عملهم — فوق ذلك — ليس مما يثير اهتمام الجمهور . واجبهم أن يعلموا الطلبة وأن يبحثوا . ولا يتطلب منهم ذلك المجلة أو الصلة بالجمهور . فهم يعملون في حجرات الدرس ، والمكتبات ، والمعامل ، والمستشفيات ، وحقول التجارب .

وسبب آخر يعمل على التباعد بين الجامعة والجمهور في انجلترا ، أن الجامعة لا تخضع للحكومة ، رغم أنها تتقاضى منها منحة سنوية . ولذا فالجامعة الانجليزية بعيدة عن أعين الجمهور . وليس معنى ذلك أنها عديمة الصلة به ، بل إن مجالس الادارة بها تضم إلى جانب المعلمين رجالاً ونساء ممن لهم خبرة بالنواحي المختلفة من نواحي الشعب . ثم إن المعلمين والطلبة أنفسهم من طبقات مختلفة من الأمة ، ويستعد الطلبة لخدمات متنوعة ولمهن مختلفة . وكل مهنة في انجلترا لها نقابة أو جمعية على صلة بالجامعات تقدم لها الاقتراحات ، وكثير من الجامعات يدعو أعضاء هذه النقابات لحضور مؤتمراتها كي تفيد من آرائهم وتقدمهم . كما أن النقابات تستفيد من هذه المؤتمرات لأنها تدرس مشاكلها في ضوء التجارب التعليمية والعلمية .

هذه الصلة الوثيقة بين أرباب المهن والجامعات بدت واضحة خلال الحرب : فالحرب تتطلب حلاً سريعاً لعدد من المشاكل . وبالجامعات أكفأ الرجال لحلها ، وبها عدد كبير من زعماء العلم والطب والفنون المختلفة ، وكثيراً ما لجأت المصالح الحكومية والمصانع إلى رجال الجامعات يحلون لها مشاكلها . فعمل الأساتذة — إذاً — من هذه الناحية ، عمل له قيمة كبرى للجمهور .

وتتصل الجامعة الانجليزية — من ناحية أخرى — بالجمهور عن طريق تعليم الكبار ، ممن يعملون نهارهم في كسب قوتهم ، ويتصلون مساءهم بالجامعة يستمعون إلى أساتذتها يحاضرون ، ويناقشونهم في نواحي العلم المختلفة . وهذه الفئة من الناس لا تفكر في التحضير إلى شهادة معينة وإنما جل رغبتهما أن تنهض بمستواها العقلي والعلمي .

والجامعة مدينة لكل من أعانها بالمال ، وعليها أن تحتفظ باسمه وأن تتابع الدراسة التي من أجلها تبرع المتبرع بماله أو علمه .

وعلى الجامعة بعد ذلك دين للسلطة المحلية — أي المدينة أو المقاطعة التي تقوم فيها ، فيكون لأبنائها الأسبقية في القبول .

يمكن أن يتقاضى الناس فيها عن الكبرياء ، لمن شاء من أغنياء الأطباء أن يكونوا في طائفة الأغنياء . ولكن عليهم قبل ذلك أن يعتزلوا مهنة التطبيب التي لا يجمل بها إلا التواضع والرحمة والإيثار .

وإننا على يقين من أن الأطباء أنفسهم سوف يكونون أكثر الناس حنقاً على هؤلاء الذين لا يجمل بهم أن يحملوا لقب الأطباء .

محمد فريد أبو حديد

واجب أن تكون الجـامعة يقظى لجميع المشاكل القومية ، ترى فيها رأيها ، ويتطلع اليها الجمهور عندما يتفرق الرأي ويحزب الأمر .

وعلى الجامعة أن تمد دراسات قصيرة في موضوعات مختلفة لخريجيها ولمعلمي المدارس التي تستمد منها طلبتها والعمال الذين على صلة بها . إن هذه الدراسات تجدد القوى العقلية ونواحي التفكير . وتستطيع الجامعة كذلك أن تصرح للجمهور أن يرتاد مكتبتها للقراءة واستعارة الكتب . وأرى أن تكون للجامعة صحيفة أو مجلة يقرأها الجمهور ، وأن يصدر أساتذتها كتبا شعبية بثمن معتدل يمكن أن يتناولها الجمهور ويفيد منها . إن الجامعة بذلك تقاوم الأدب الرخيص الذي أخذت سوقه تنفق في هذه الأيام ، ويستطيع الأساتذة كذلك أن يذيعوا أحاديثهم في الراديو ، وأن يزوروا المدارس المجـاورة ، لا كممتحنين ولـكن كأصـدقاء . ولست أدري لماذا يتوارى الأستاذ عن أعين الجمهور في حين أن رجل الدين والمحـامي ورجل السـياسة يملأون العيون . إن استاذ المستقبل سيبرز إلى الشعب كما برز من قبله هؤلاء .

٤ — الجامعة معاهد البحث العلمي المجرد :

إن الجامعة الناجحة تخطو بحيـاة الأمة ورقاءيها خطوات إلى الأمام ؛ ففيها يتخرج المواطنون الأكفاء وبمجهودها يرتفع مستوى المدنية ، وعلى أساتذتها يتخرج العلماء ورجال المهن الفنية . ولـكن الجامعة لا تزدهر إلا إذا أصبحت موطنا للبحث العميق . ولست بحاجة إلى الاشادة بفائدة البحث المباشرة في المكتشفات الطبية والزراعية التي تعود على الأمة كلها بالنفع العميم . غير أن من البحوث العلمية والأدبية مالا يؤدي مباشرة إلى فائدة محسوسة . ولـكنها كثيراً ما تؤدي عرضاً إلى مكتشفات عظيمة تفيد منها الانسانية بأسرها . ومن هذه البحوث ماقام به (فرادي) في المغناطيسية والكهربية وما قام به (مندل) في مشكلة الوراثة . وكذلك الآراء الجديدة في الفلسفة والرياضيات البحتة والتاريخ ، والدراسات القديمة كثيراً ما تنتهي بفائدة كبرى لأنهـا تغير طرق تفكيرنا ونظرتنا إلى المسائل الحيوية الهامة . ومن واجب الجامعة أن تدرس المشاكل القومية الخاصة ، من مناخ ومعادن وتاريخ وأدب وزراعة وغير ذلك ، وألا تتركها للاجانب يدرسونها . ولا ينبغي أن تقف الجامعة عند حد المشاكل المحلية ، بل على الأساتذة أن يدرسوا المشاكل الانسانية العامة . ولا يهم كثيراً أن ينجح الأساتذة في نتائج بحوثهم لأن النجاح الحق يقتضي عبقرية كعبقرية داروين أونيوتن وهو نادر بين الناس . إنما المهم أن الأستاذ إذا عمل وحده بعيداً عن الجامعة لم يبلغ أقصى إنتاجه كما يعمل إلى جوار غيره من العلماء في الفروع المختلفة . ثم إن الطلبة الذين يتخرجون على أمثال هؤلاء الأساتذة يتعلمون ألا يصدقوا كل ما يكتب ، وأن الحق عسير يحتاج في تحقيقه إلى التجارب .

ويقول بعض المعارضين إن اشتغال الأساتذة بالبحث يقتضي ألا يقوموا بالقاء محاضرات كافية للطلبة ، ويترتب على ذلك مضاعفة عدد الأساتذة ، والإكثار من المكتبات والمعامل . وهذا يكلف الإدارة أموالاً طائلة . ولـكن هذه الأموال تنفق في الواقع في خير الوجوه وتأتي بأطيب الثمار .

٥ — تعليم البنات :

إن ارتقاء الأمة مرتبط بتعليم البنات فيها ، فلا شك أن تأخر الهند يرجع إلى تأخر نسائها ، وقوة الروسيا ترجع إلى عزم لينين على رفع مستوى النساء إلى مستوى الرجال من جميع الوجوه . إن مدنية الأمة تقاس بتقدم المرأة فيها . لأن أثر الأم في تربية الأبناء أثر قوي لا ينكره أحد . وقد بلغت المرأة شأواً بعيداً في التعليم الجامعي في انجلترا ، ما خلا جامعة كمبردج التي لا تسمح للبنات أن يصبحن أعضاءً في الجامعة ، وإن كانت تسمح لهن أن يحضرن المحاضرات ويؤدين الامتحانات . وفي أكسفورد

ما زال أستاذ جامد لا يقبل أن تستمع البنات إلى محاضراته . ونستطيع بوجه عام أن نقول إن البنات فى انجلترا يجدن نفس الفرصة التى يجدها البنون فى التعليم ، ولا أقول إنهن يستفدن من الفرص المتاحة كما يستفيد البنون ، وذلك لأن كثيراً من أولياء الأمور لا يرون أن ينفقوا أموالهم على تعليم البنات . وليست الجامعة مسئولة عن ذلك . وإذا كان النساء لم يبلغن بعد ما بلغ الرجال من التضلع فى العلم فذلك لحداثة عهدهن بالتعليم الجامعى . وقد أخذ التعصب ضد النساء يتلاشى تدريجاً ، وقبل الرجال فى كثير من الأعمال أن يأتمروا بأمر امرأة تترأس عليهم .

٦ — مالية الجامعة :

الجامعة بأغراضها التى ذكرناها باهظة التكاليف ، فمن أين لها المال ؟ يقول مدير جامعة برمنجهام إن بجامعته ١٧٠٠ طالب . وإن إيراد الجامعة ربع مليون جنيه فى العام ، وإن الجامعة لكى تستكمل حاجاتها بحاجة إلى نصف هذا المبلغ بالإضافة إلى نفقاتها . وإنها بحاجة فوق ذلك إلى مليون جنيه تقيم به مبنى جديداً . من أين للجامعة المال ؟ هناك ثلاثة مصادر هامة : مصروفات الطلبة والهبات وإعانة الحكومة ، وطالب الجامعة فى إنجلترا يدفع نحو ثلث أو ربع تكاليفه فقط ، ومنهم من يتعلم بالمجان . والمصروفات الجامعية فى إنجلترا تتراوح بين ٣٠ و ٦٠ جنيها فى العام ، ونسبة المجانية آخذة فى ازدياد . ويقرب استراليا جامعة تعلم جميع طلبتها بالمجان . وبأمريكا كذلك جامعات كثيرة لا تتقاضى مصروفات البتة من أبناء المنطقة على الأقل .

وإنما ينبغى أن يكون المورد الأساسى للجامعة إعانة الحكومة ، ومعنى ذلك زيادة الضرائب . ويبلغ نسبة ما يدفعه الفرد فى انجلترا ضريبة على التعليم الجامعى شلنا فى العام . ويجب أن يزاد هذا المقدار للنهوض بالمستوى الجامعى . لأن الجامعة ينبغى أن تقوم على أساس صحيح ، وإلا فالأولى للأمة ألا تقيمها البتة .

٧ — خاتمة :

قبل أن تعترف الأمة بالجامعة ينبغى أن توجه الأسئلة الآتية :

ا — هل يقوم الأساتذة ببحث جديد ، وهل يزيدون الثروة العلمية ؟ فالأساتذة ومؤهلاتهم إذاً هم أبرز مميزاتها .

ب — ما ذا تعمل الجامعة بالطلبة الذين يلتحقون بها ؟ أى أثر تتركه فيهم ؟ هل ستعلمهم فقط ما يتعلق بالمهنة التى يستعدون لها أم هل تمدهم بالمبادئ العليا الرفيعة فوق ذلك ، وبالأسس التى يقوم عليها العلم ؟ إن الرجل إذا عرف تركيب الجسم ودواء الأمراض وما يضر الصحة وما يفيدها فهو طبيب . ولكن الطبيب الجامعى ينبغى فوق ذلك أن يعرف « لماذا » يفيد هذا اللون من الطعام و « لماذا » يضر ذلك ، ينبغى أن تنظر الجامعة إلى الكيف لا إلى الكم . إلى نوع الطلاب المتخرجين لا إلى عددهم .

حـ — هل الجامعة من حيث مبناها وإعدادها تكفى حاجات الطلاب ؟ وهل لديها من المال ما يكفى للاحتفاظ بهذا المستوى ومتابعة النهوض . ولا أقصد أن المبنى أهم من الأساتذة . فلا شك أن هيئة التدريس فى المحل الأول ، والإعداد فى المحل الثانى . فالجامعة الفخمة بغير الأساتذة الأكفاء جسم بلا روح ، ولكن الروح لا تؤدى عملها بغير الجسم السليم .

د — كيف تدار الجامعة ؟ هل هى سيدة نفسها أم تخضع لسلطة أخرى ؟ هل أساتذتها أحرار مستقلون فى تفكيرهم ، أم هل يتقيدون بقيود سياسية ودينية وعنصرية ؟ فالجامعة الألمانية اليوم — مثلا — تخضع لقيود معينة تقيدها بها الدولة ، ولذا فهى تخرج الطلاب فى قالب معين تفرضه عليها الحكومة . وليست كذلك الجامعة الإنجليزية التى تتحرر من كل قيد ، فالحرية أكبر مميزات الجامعة .

محمود محمود

نعم .. أنا

نشرت الثقافة (العدد ٣٣١) للكاتب الكبير الأستاذ شفيق جبرى مقالا عنوانه (أنا ...) صور فيه الأستاذ مشكلة (الأنانية) فتضاربت آراؤه فى تصورها وعلاجها والتمثيل لها ، وهمى هنا أن أناقشه فيما قال :

١ — بدأ مقاله بقوله : « أظن أن ثلاثة أرباع مصائب الدنيا ناشئة عن هذا الضمير .. أنا .. ضمير التكلم » ثم عقب بعدة صور ينافق فيها (أنا) فيبطن الرذيلة ويتظاهر بالفضيلة ، ثم قال : « والخلاصة أن هذا الضمير (أنا) رأس المصائب ، فلو كنت عضوا فى مجمع فؤاد الأول لشغلت المجمع طول الشتاء الماضى بالسعى فى حذفه ، فإذا حُذف فإنى أعتقد أن البشرية تسلم من كثير من شره ، وخاصة إذا اندمج فى أخويه (أنت وهو) لأن هذا الاندماج يؤدى إلى التجرد والانسلاخ ، والبشرية فى حاجة إلى هذا التجرد والانسلاخ ، فقد تعبت من هذا الضمير (أنا) ومن مشتقه (الأنانية) » .

وبدهى أن الأستاذ لا يعنى اللفظ (أنا) بل ما يدل عليه من حب الإنسان نفسه ، وتمسكه بأنانيته ، وماله من قوى وخصائص . وما أكثر من يشاركون الأستاذ فى رأيه ! بل ندر من لا يشاركونه فيه ، فأكثر الناس ينظر إلى (أنا) بعين السخط والريبة ، ويرى أن كل المصائب — لا ثلاثة أرباعها كما ذكر الأستاذ تساهلا ورحمة — سببه (أنا) . فهو الصخرة التى تتحطم عليها كل أعمال الخير فى الحياة ، وأن علاج هذه الحال يقتضى حذف (أنا) من قاموس الحياة ، وأدع هنا بيان الأسباب التى تدفع الناس إلى ارتياء هذا الرأى ووصف هذا العلاج ، وبيان الأضرار التى تحيق بالإنسانية لو حذف (أنا) فضلا عن الفناء الذى تصير إليه لو حذف . وحسبى أن أقول إن (أنا) معناه الشخصية بما لها من قوى ، والقوى هى الشهوات والخصائص ، فكلما قويت الشخصية قويت شهواتها وخصائصها كانت أقدر على العمل سواء أكان العمل نافعا أم ضارا ، وكلما ضعفت كانت أعجز عن العمل النافع والضار معا ، وإذا حذفت — كما يريد الأستاذ — لم تقدر على نفع ولا ضر ، بل لم تكن شيئا . فقدرة الإنسان على الخير والشر متوقفة على قوة شخصيته ، فمن يحارب (أنا) يحارب الشخصية ، بل يحارب الحياة ، فالأنانية هى أشرف ما فى الحياة وأعلاه ، بل هى الحياة بكل معناها .

ولا يستطيع مجمع فؤاد الأول أن يحذف هذا الضمير (أنا) إلا إذا انقلب مصنعا أسطوريا من مصانع الدمار ، واخترع من وسائل التدمير الأسطورية ما يكفى لتحطيم العالم جميعا فى لحظة واحدة فيتحطم هو معه ، لأنه لا معنى لحذف (أنا) إلا هذا الفناء العام ، وهذا ما لا يسمح به (أنا) بحال من الأحوال .

ولست أدرى أولاً كيف يمكن حذف (أنا) لتسلم البشرية من شره ، ولو حذف أنا لحذف خيره وشره معا . ولا أدرى ثانيا كيف يمكن حذف أنا ثم إدماجه فى أخويه (أنت وهو) ، لأن هذا الاندماج يؤدى إلى التجرد والانسلاخ ، والبشرية فى أشد الحاجة إلى هذا التجرد والانسلاخ ، أسأل وأعجز عن الجواب : مم التجرد والانسلاخ وكيف يمكن أن ندمج شيئا فى شىء بعد أن نحذفه ونمحوه ؟ ولم هذا الحذف ؟ إن تكن الإنسانية قد تعبت من (أنا) فليس حذفه هو العلاج ، بل العلاج هو التربية والتوجيه السديد ، فظفر الإنسان مثلا لا بد أن ينمو ما دام حيا ، فهو حافظ للأنملة وعون لها على عملها ، ولكنه حين ينمو فيطول أكثر من القدر المناسب يكون مأوى للجراثيم والقذر ، ويصير معرضا للتشقق ، وبذلك يكون مبعثا للآلام والأوجاع ، ومعطِّلا للأنملة عن أداء عملها ، ومعطلا هو عن أداء عمله . فإذا استأصلناه فقدت الأنملة ما يحفظها وصارت عرضة للصدمات ، وعجزت عن أداء عملها كما يجب وعرضت الإنسان لكثير من الآلام ، وهذا هو الشر ، ولكننا إذا قلمنا الظفر ونظفناه بقى حيا ناميا يؤدى عمله ،

وهذا هو العلاج الرشيد، لأن فيه إبقاءً على خيره ومنعاً لشره.

وهكذا (أنا) فإذا كانت الإنسانية قد تعبت منه فلا يجوز أن نلجأ في علاجه إلى استئصاله، ولكن علينا أن نربيه ونهذبه، ونطلق له الحرية المستطاعة له لينفع نفسه وغيره، وأن نعوده المحافظة على حقوقه وواجباته، وحقوق غيره وواجباته، فلا يطغى على غيره، ولا يطغى غيره عليه.

إنه لا خير في الإنسان لنفسه ولا لغيره إلا بأن يحتفظ لشخصيته بكل قواها، أي أن يتمسك بكل شهوات (أنا) وخصائصه. وما كان النوابغ في كل زمان ومكان إلا أفراداً تمسكوا بأنانيتهم أكثر من غيرهم، واحتفظوا بما لهم من شهوات حية وخصائص راسخة. ومن الظلم والخراب أن نطالب بإضعاف (أنا) فضلاً عن أن نحذفه، ويكفي أن نحول بين (أنا) والطغيان على غيره، ولن يضير (أنا) شيئاً أن نمنعه الطغيان، بل إن ذلك أحرى أن يسهل الحياة والنضج، ويصرفه عما ليس منه إلى ما هو منه، ويحترم نفسه ويحترم غيره، ويتعاون معه على الخير العام بلا إجحاف بحقوق نفسه وحقوق غيره.

٢ — ويقول الأستاذ: «أولع بهذا الضمير كثير من رجال العبقرية، وفي مقدمتهم المتنبي»، ثم يقول: «إننا نحب أن يذوق الناس محاسننا من تلقاء أنفسهم من غير أن نذيقهم إياها، إننا نحب أن يشعروا بهذه المحاسن من غير أن نشعرهم بها، فإذا توخينا إظهارها، والتنبيه عليها فقد يذهب شيء من آثار حسنها».

ويكاد الإنسان يحس هنا أن الأستاذ قد شغله هذا اللفظ المسكين (أنا) عن الاتصال بما وراءه من المعاني، وإلا فما الذي ينكر الأستاذ من تكرار المتنبي (أنا)؟ أينكر عليه عظمته؟ لا أظنه يريد، ولا أراه يستطيع لو أراد. وما عظمة الفتى؟ إنها شهواته وخصائصه التي احتفظ بها رغم عصره، فتفوق هو وخل غيره من ضعاف الأنانية أي ضعاف الشهوات والخصائص. أو ينكر الأستاذ إذاً هذا اللفظ من حيث هو لفظ؟ أعيذه من ذلك! فما أظن أن هذا اللفظ المسكين قد جنى عليه جناية يستحق من أجلها أن يحقد عليه ويتمنى من أجلها أن يكون عضواً في مجمع فؤاد الأول ليقتله هناك.

وأي فارق بين كلام المتنبي جاء فيه (أنا) وكلام له لم يجيء فيه (أنا)؟ وشخصية المتنبي واضحة هنا وضوحها هنالك على رغم كل الناس.

٣ — ويقول الأستاذ: «أدرك كثير من رجال العبقرية خطر هذا الضمير (أنا) وما يجره عليهم من الويل، فانصرفوا عنه إلى أخذ ضمير الغائب وادعوا فيه»

ومثل الأستاذ لذلك بالجاحظ الذي كان يؤلف بعض كتبه وينسبها لنفسه فيتواطأ على الطعن فيها وفيه حساده، فإذا نسبها إلى المتقدمين أقبلوا عليها يكتبونها ويتأدبون بها ويذيعونها. كما مثل الأستاذ بابن المقفع إذ أورد في آخر كتابه (الأدب الكبير) حديثاً لنفسه نسبه إلى صديق له. والحق أن الجاحظ لم يتخل عن (أنا) والدليل على ذلك أنه لم ينصرف عن التأليف، سواء أنسب ما ألف إلى نفسه أم إلى غيره، وكل ما كان أن عصره كان يقوّم المؤلفات بمقدار قدمها لا بما فيها، فكلما كانت أقدم كان نصيبها من الاحترام أكثر مهما تبلغ من السخف، وهذا مقياس خاطئ دون ريب. والذنب ذنب العصر الذي يأبى إلا أن تزيف له علامة الصنع الذي أنتج السلعة وإلا أعرض عنها مهما تبلغ من الفائدة والنفاسة. ولو أصاب عصره أقبل ما يقدم إليه ناظراً إلى قيمته من حيث هو لا من حيث القدم والحدوث، ولكنه أبى أن يعطي (أنا) حقه، وأصر على أن ينقصه حقه، فالذنب إذاً ذنب العصر الجاحد الظالم حين أبى أن يحترم (أنا) ويعرف له فضله وحقه.

وما فعل ابن المقفع قريب مما فعل الجاحظ، وإن كانت علامة الصنع هنا لم تنزع كما نزعت هناك. والمشكلة ليست مشكلة عناوين على كل حال.

٤ — وإذا كان «أناتول فرانس» قد تخلى عن

اللفظ (أنا) فما كتب إلا قليلا فى موضوعات نسبها فى الرواية إلى نفسه واعتذر من هذا القليل — فما أظن هذا الاعتذار يهون خطب (أنا) كما يقول الأستاذ ، فليس لأنا خطب هناك ، بل الخطب خطبنا نحن حين نتصدى لعباقرتنا ومن دونهم فنضع فى طرقهم من العراقيل ما يحد من نشاطهم ، ونضطرهم إلى اتخاذ قوالب خاصة ، ونحول بينهم وبين التمتع بحرية لا خطر علينا منها ، ولا طغيان فيها على حق من حقوقنا ، ونضطرهم إلى أن يزيفوا لنا علامة التصنع أو يحذفوا بعض العناوين التى لا ضرر علينا من ذكرها .

ولماذا نأبى على (أنا) أن يطغى ولا نأبى على أنفسنا الطغيان عليه ؟ ولم لا نكون عادلين فنترك له أن يعمل بقدر استطاعته داخل حدوده وبكل حريته ، ونحد من طغياننا عليه ؟ إننا حريون أن نضع أمامنا ما نقله الأستاذ عن أناتول فرانس وهو بصدد اعتذاره عن ذكر (أنا) مكررها فى بعض رواياته عن نفسه ، فقال : « أروى هذه الروايات وأنا مكره لا بطل ، فقد تعودت أن يجرى لسانى ما يتصوره فكرى ، ولا يكون المرء أمينا كل الأمن من غير أن يضجر غيره بعض الإضجار ، أو يقلقه بعض الإقلاق . ولكنى إذا تكلمت عن نفسى فأرجو ألا يفكر الذين يصيخون لى إلا فى أنفسهم ، وعلى هذه الصورة أسرهم وأسر قلبى » إن (أنا) لا يجوز أن تطالَب بغير الأمانة ، فإذا فعلت ذلك فقد أدت واجبها . وإذا كان ذلك يضجرنا أو يقلقنا فنحن الملومون ، وعلينا أن نفكر فى أنفسنا ، ونحن نصيخ إلى (أنا) الغير (أنا) فى أنفسنا ، لأننا جنس واحد خاضع لقوانين واحدة وأفراده يفكرون ويحسون على طريقة واحدة .

٥ — ويرى الأستاذ أن (أنا) تجمح على لسان الحجاج حين وصف لعبد الملك بن مروان عيوب نفسه لما طلب منه ذلك ، فلماذا يعد الصدق فى إفشاء العيوب جماحا ، ولا يعد الصدق فى إبداء الحسنات جماحا ؟ بل لم يعد الكذب فى إفشاء (أنا) عيوبه وتزيده عليها جماحا ، بينما يعد ذكر لفظ (أنا) فى إبداء أهون الحسنات عيبا كبيرا ، وخطراً عظيما على غير (أنا) وطغيانا وافتئاتا من (أنا) على حقوق غيره . . .

ليس ذلك من العقل ولا من العدل فى شىء ، ولو عقلنا وعدلنا لتركنا لأنا أن يحدث عن نفسه بما أراد كما أراد دون أن نطالبه بشىء إلا الأمانة وعدم الطغيان على غيره . فإذا خان أو طغى قومناه وأرشدناه دون أن نقتله أو نضيق عليه .

٦ — وإذا كان بعض رجال العبقرية قد حاولوا أن يكونوا صادقين فى قولهم (أنا) فما نجحوا كما أخفق « روسو » فى كتابة اعترافاته — فإن كثيرا من رجال العبقرية حاولوا أن يكونوا صادقين فنجحوا ، فاحتفظوا لشخصياتهم بكل فضائلها دون أن يطغوا على حقوق أحد .

وإذا كان « روسو » قد كذب فى اعترافاته ، ولم يتوخ فيها إلا مدح نفسه وتنصله من التهم التى وجهت إليه وإثبات فضله على كثير من الناس رغم عيوبه فلا يجوز أن يقلقنا أو يضجرنا (أنا) فيها ، لأنها تكذب حينا وتفخر حينا كما يقول الأستاذ ، بل يجب أن نترك لأنفسنا تمحيصها وبيان الصدق والكذب فيها ، فنقابل الصدق بالابتهاج ونقابل الكذب بالعطف والرحمة ، إذا لم نستطع أن نقابله بالتصفية فإن النقص يعتور الإنسان وكل ما يعمل هذا الإنسان .

إن الإنسان بشهواته وخصائصه ، فهى التى تدفعه إلى العمل وتمكنه منه سواء أكان العمل رفيعا أم وضيعا ، وقتلها انتحار بطىء . إنما الحكيم من يعرف كيف ينميها ويروضها ويوجهها توجيها ساميا نحو الخير . فما كان عظماء الرجال فى كل زمان ومكان إلا أفراداً ذوى شهوات قوية وخصائص راسخة ربوها هذه التربية وتساموا بها إلى آفاق رفيعة فخلقوا التاريخ الإنسانى وأنتجوا أسمى وأروع ما جادت به القرائح الإنسانية من فنون وصناعات وآداب وفلسفات ، وشرائع ، ونظم ، ومخترعات .

(صالوط) محمد خليفة التونسى

تيسير اللغة العربية وترقيتهـــا

حاولتُ في عدد سابق من « الثقافة »[1] أن أبحث نظام تعلّم اللغة ، وأن أوازن بين نوعين منه ، بين تعلم الصغير لغته القومية في مرحلة طفولته ، وتعلّم الكبير لغة أجنبية يضيف بها آفاقاً جديدة إلى معارفه . وبنيتُ على ما وصلت إليه من نواحي الموازنة بضعة مقترحات بدا لي أنها قد تعين في حل معضلاتنا اللغوية في مصر .

وبالرغم من أن السنين الأخيرة قد شهدت عندنا اتساعاً في التعليم ، ونهضة في التأليف ، وجنوحاً إلى التيسير والتبسيط في اللغة ، فإن هناك — فيما يخيل إليّ — عناصر أساسية في هذا الموضوع لا تزال تتطلب انتباه الهيئات الثقافية وجهودها . وأول تلك العناصر عدم وجود صورة علمية صحيحة عندنا عن مراحل الطفولة المصرية وحاجاتها ، في حين قد حفلت المكتبة الأجنبية بالدراسات والتقارير والبحوث عن « خصائص الطفولة قبل سن الروضة » ، وعن « تلميذ المدرسة الابتدائية » ، وعن « الفتى والفتاة في مرحلة البلوغ » ، وعن « منطق الأطفال وتفكيرهم » ، وخيال الطفولة وفلسفتها ، وعن تصور الطفل لمختلف مظاهر الحياة من حوله ؛ وهكذا مما يضيق عن الحصر والتعداد .

والعنصر الثاني في مشكلتنا الحاضرة أننا لم نفطن بعدُ إلى دراسة الظاهر اللغوية عند الأطفال ، وطرائق النمو في قاموسهم ، وإلى تسجيل التطورات اللغوية البارزة في مراحل طفولتهم ، ونوع الموضوعات والأساليب التي تناسب أخيلتهم وتصوراتهم في كل مرحلة .

إن سدّ هاتين الناحيتين من النقص يجب أن يكون الخطوة الأولى في طريق الإصلاح اللغوي . وهو لا يقتضينا أكثر من شيء من الإيمان بالبحث الحديث والدراسة التجريبية ، وشيء من التوجيه الصالح لجهود الأفراد والجماعات . وظاهر أن هذا عمل يتطلب الاخصائيين من المربين والمدرسين ، ويمكن أن تشرف على توجيهه لجنة مختارة تمثل معاهد التربية والجامعة ووزارة المعارف ؛ ونتائجه يجب أن تكون أمام اللجان الفنية التي تبحث في إصلاح اللغة وتيسير النحو والكتابة وما إليها .

وهناك ناحية ثالثة يحس بنقصها الكثيرون ، وأعني بها مكتبة الأطفال ؛ فقد حاول بعض المؤلفين المصريين كتابة سلاسل من القصص المبتكر ، أو ترجمة شيء من القصص الأجنبي ، أو تجديد القصص العربي القديم وتبسيطه ، وأصدر بعضهم مجلات للأطفال ، ونظم آخرون تمثيليات شعرية لهم . وهكذا مما ظهر له بعض الأثر في إقبال الناشئة على القراءة . ولكن هذه الجهود لا تزال موزعة مبعثرة ، والكثير منها يموت في مهده ، وبعض نتاجها لا يناسب عقلية الأطفال ولا طرائق تفكيرهم ومستوى تطورهم اللغوي . وصلاح هذه الحال يتطلب شيئين : الأول ما سبقت الإشارة إليه من ضرورة الاعتماد على البحث العلمي في فهم الأطفال . والثاني إشراف جماعة قادرة منظمة على رسم خطة تامة الدعائم لهذه النواحي ، يعهد بتنفيذها إلى جماعة كبيرة متعددة تضم قصصيين وشعراء ومترجمين وغيرهم .

ولعل من أنفع ما يمكن أن توجه إليه مثل هذه الجماعة ، وضع دائرة معارف عربية واسعة للأطفال ، تضم خلاصة ما أنتج الفكر البشري عامة — والعربي والمصري خاصة — من أساطير وقصص ، وشعر وغناء ، وعلم وفن ، ودين وتاريخ ، وتراجم وسير . ومتى رسمت الخطة لمثل هذا المشروع ، واختير رجاله ، وحسبت نفقاته ،

---

(١) « الطفل واللغة القومية » في العدد السادس من الثقافة ٧ فبراير سنة ١٩٣٩ .

أمكن تنفيذه في صورة مجلة تصدر في مواعيد منظمة ، تتصل فيها سلاسل هذه النواحي ، ويجتمع منها في نهاية الأمر مرجع للطفولة تعمر به مكتبة البيت ومكتبة المدرسة . وصدور المجلة على هذا الوضع يهيء السبيل للباحث التجريبي في عقلية الأطفال وما يناسب استعداداتهم ، ويفتح أمام المدرسين والمفتشين أبواباً للدرس المثمر ، إذ يستطيعون أن يعرضوا نواحي منها على أعداد كبيرة من الأطفال في أعمار مختلفة ، ثم يلاحظوا مدى صلاحية كل منها لهذا العمر أو ذاك ، وتنشر الوزارة نتائج ملاحظاتهم بعد تحليلها واستخلاص مغزاها ليسترشد بها المؤلفون بدورهم .

هذه النواحي التي ذكرتها تقوم على أساسين جوهريين ينبغي أن يفطن لهما دعاة الإصلاح : أولهما أن العصر الذي نعيش فيه عصر دراسة وعلم وتجريب ، وكل إصلاح فيه لا يبنى على دعامة البحث والتجربة يجيء أخطل مرتجلا ناقص الثمرة ؛ وثانيهما أن النظام الصالح في تعلم اللغة هو ما كان موافقاً للفطرة في نظامها الذي رسمته ، حيث يتعلم الطفل من طريق الحياة ، وحيث يُغمر في جو لغوي مباشر تُعين فيه العوامل المختلفة على تذوق أساليب اللغة ، وتثبيت عادات التعبير الصحيح .

ولكن أنَّى لنا أن ننتفع بهذا النظام الطبيعي ونحن لا نزال نضطرب بين لغتين : إحداهما لغة الحياة اليومية في البيت والملعب والشارع والسوق واللهو والسمر ، لغة الآمال والأحلام والرضا والسخط والفرح والحزن لجمهرة الشعب ، اللغة التي تعلمها - كما يقول « دانتي » - عجائز أطفالنا وصبياننا من غير حاجة إلى ضابط أو قاعدة ؛ وثانيتهما لغة الإنشاء والمحفوظات والقواعد والامتحان ، لغة اللحظات القليلة في حياة الفئة المحدودة من الأدباء ومدرسي اللغة ؛ وهي مع ذلك لغة الأدب العربي في عصوره الزاهرة ، ولغة الإسلام في كتابه وسنته وتشريعه ، ولغة الآمال والآلام المشتركة بين الأمم العربية !

إن هذا الدور الذي نمر به الآن في تطورنا اللغوي قد مرت بمثله معظم الأمم الراقية ، وقد اتخذت لمواجهته خططاً اختلفت حسب روحها وثقافاتها . ولكن هناك عنصراً مهما اشترك فيه الكثير منها : ذلك هو الاعتراف بلغة الحياة الشعبية ، والانتفاع بكل ما فيها من عناصر القوة والنشاط في تنمية الفصحى وإغنائها وإزالتها من مظاهر العقم والشكلية والجمود . حدث هذا في إيطاليا على يد « دانتي » ؛ وفي اسكتلندة على يد « بيرنز » و « سكوت » ؛ وفي انجلترة على يد « تشوسر » وأخذت مصر بشيء منه في نهضتها الحديثة على يد « رفاعة » ورجال مدرسته ؛ فالذي يقرأ الأناشيد والقصائد الوطنية التي نظمها « رفاعة » يجد في لغتها العربية المصرية — من حيث البساطة والإلف — شبها كبيرا باللغة الانجلوسكسونية التي استعملها « تشوسر » الانجليزي في « قصص كانتربري » في المراحل الأولى من نهضة اللغة الانجليزية .

هذا النزع موجود في طائفة من علمائنا وكتابنا المعاصرين ، وهو منزع ينبغي تشجيعه ، فإن فيه وسيلة من أحسن الوسائل العملية للتقريب بين اللغتين الفصيحة والشعبية . وليس هناك من شك في أننا سائرون كما سارت الأمم من قبلنا إلى لغة موحدة ؛ وسيكون من أهم العوامل في هذا التوحيد انتشار التعليم وازدياد أثر العوامل الثقافية — من صحافة وسينما وراديو — في تربية الشعب . وإلى أن يتم هذا التوحيد يجب أن تأخذ أساليب اللغة الشعبية طريقها إلى قصصنا وملاحمنا ومختلف فنوننا الأدبية . ويجب أن نستعين بهذا على إشعار أبنائنا أن التعبير والحياة صنوان ، وأن اللغة ليست عبئاً ثقيلا يفرض على الحياة فرضا . بهذه الطريقة تخدم اللغة الفصحى بما تدخل عليها من عوامل الحياة والخصب والنماء ، وتخدم اللغة الشعبية بما ترفع من مستواها في صحة الأداء وسلامة البناء .

على أن للمسألة جانبها الآخر ، فما دام هدفنا في إصلاحنا اللغوي هو الوصول إلى لغة واحدة حية فصيحة ، فمن واجبنا أن ننظر نظرة فاحصة في موقفنا الآن من الفصحى ، وأن نخلع عنا ثوب التهاون نحوها ، وأن نأخذ أنفسنا بالجد في ممارستها ونشرها ، وأن نعتبرها مظهرا أصيلا من مظاهر كياننا القوى والعرقى .

ولكن هذا ليس كل المشكلة : فلا تزال أمامنا معضلة لا تقل خطرا عن سابقتها وهى معضلة الكتابة التى لا ريب فى أن نظامها الحالى غير مُرْضٍ وغير مناسب لمقتضيات النهضة الحاضرة ، وأسوأ ما فى هذا النظام عيبان : الأول أن حركاته (أو حروفه المتحركة القصيرة) توضع مستقلة فوق الكلمة أو تحتها — أولا توضع بتاتا ، على حين يقضى النظام الطبيعى — كما هو الشأن فى اللغات الأخرى — أن تأخذ هذه الحروف مكانها فى جسم الكلمة ، وأن تصبح الألفاظ فى كتابتها صورة مطابقة لنطقها . والعيب الثانى كثرة مجموعات الحروف المتشابهة عندنا فى رسمها ، واضطرارنا إلى الإفراط فى استعمال النقط ليتميز بعضها من بعض ؛ وفى ذلك ما فيه من بطء الحركة واختلاط الحروف فى كثير من الأحيان .

وقد يتجه بعض الباحثين فى التغلب على العيب الأول إلى اقتراح الكتابة بالحروف اللاتينية . وهو اتجاه له بعض المزايا والحسنات ، ولكن له كذلك كثيرا من السيئات ؛ أو إلى اقتراح التزام الشكل فى الكلمة كلها أو فى مظان الخطأ واللحن فيها ، بعد القيام بدراسة دقيقة لتقرير هذه المظان . وفى هذا الاقتراح من المزايا أنه يُبقى القديم على قدمه ، ويجنبنا من تغيير قد يكون فيه قطع لاستمرار تاريخنا وتراثنا ؛ ولكنّ فيه على وجاهته كثيراً من الحرج والمشقة ، بل الاستحالة المادية أحيانا ، فهو غير مستساغ مطلقا فى كتابة اليد العادية ، وهو ثقيل الأعباء فى الطباعة ، وغير مناسب لمطالب الحياة الحاضرة من سرعة وتبسيط .

هناك اقتراح ثالث يبدو لنا طبيعيا ، ويمكن به الاستعاضة عن الاقتراحين السابقين ؛ ذلك أن تدخل الحركات حروفا فى رسم الألفاظ بصورتها العربية ، ولن يكلفنا ذلك من الوجهة العملية أكثر من إضافة ثلاثة أشكال جديدة للألف والواو والياء القصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) إلى حروف الهجاء الموجودة عندنا ؛ واقتراح كهذا يحلُّ المشكلة حلاًّ ملائما لروح العصر ، ويحفظ علينا مع ذلك طابعنا العربى التقليدى ، ويبقى صلتنا بتراثنا القديم ، ويمكن بسهولة تعميمه فى البلاد العربية متى أظهرت التجربة صلاحه . وأصحاب هذا الاقتراح مدركون ما قد ينشأ فى طريق تنفيذه من صعوبات يرجع بعضها إلى الاعتبارات الاشتقاقية ، وبعضها إلى الاعتبارات التقليدية فى الرسم والكتابة ، ولكنهم يزعمون أن حسناته أرجح من سيئاته . أما العيب الثانى (عيب تشابه الحروف وكثرة النقط) فيمكن التغلب عليه بإجراء شئ من التحوير البسيط فى صور بعض الحروف الهجائية المتشابهة يستغنى به عن النقط وضروراته .

هذه بعض المشكلات التى تواجهنا الآن ، وبعض الحلول التى يمكن اقتراحها لعلاجها ؛ وليس يهمنا أن يؤخذ بهذا الاقتراح أو ذاك قدر ما يهمنا أن توضع بعض هذه المقترحات — أو غيرها — موضع التجربة العملية ، وأن يكون الحكم عليها وليد تلك التجارب ، لا أسير البحث النظرى وحده .

وهناك الكثير من الوسائل العملية التفصيلية لترقية اللغة وتيسيرها ، يمكن — متى صحّ العزم وصدقت النية — أن يُنتفع به . وعلى الله التيسير والتوفيق .

محمد خلف الله

البحيرة

للكاتب الإنجليزى السير هيو والبول

أى شعور من الارتياح كان يملأ نفس فنويك حين خطر له فجأة أن يطبق يديه على رقبة ضيفه فوستر لما أدار له ظهره ليستعرض ما فى الخزانة من كتب .

ولكنه أسرع فحجب عينيه حتى لا يرى ذلك الشخص الغريب الذى مقته من أغوار قلبه . ما الذى أتى به إليه ؟ إنه يقول إنه ما جاء من لندن إلا ليضع الأمور فى نصابها ، وليعيد السلام إلى قلبيهما بعد أن شاع الضباب وتكاثف فى جو صداقتهما الأولى .

اتصل بينهما حبل الصداقة منذ عشرين عاماً ، واتخذ كل منهما طريقاً مختلفاً يشقها نحو النجاح . كان فوستر يحاول دائماً تقديم الترضية التامة لكل شخص : فهو يكره أن يمقته أحد ويود دائماً أن يشعر بصداقة الجميع له ، وبذلك أمكنه أن يمهد لنفسه طريق النجاح بسهولة . أما فنويك فتجنب أصدقاءه وازدرى الناس واحتقرهم من أعماقه وبذلك فشل فى مسعاه وخاب رجاؤه فى الشهرة دائماً .

عاد يرمق ضيفه بنظرة كريهة وهو يتوقع سماع صوته الذى يشبه الصفير متحدثاً عن كتبه . طالما كره ذلك الصوت الذى يلاحقه ويكاد يخرق أذنيه حتى فى أوقات نومه . وطالما خيل إليه أن يصرخ فيه قائلا : « إنى أمقتك . أمقتك لأنك سبب فشلى ، فمهما تدعى وتكذب وتتظاهر بصداقتك لى ، إلا أنى أدرك شعورك الباطن الحقيق نحوى كشخص بائس فاشل مغمور » .

منذ عشرين عاماً وفوستر يقف دائماً حجر عثرة فى سبيله . لقد نال عمله الذى كان يصبو إليه فى إدارة إحدى الصحف وواتته الشهرة التى كان يحلم بها هو . ثم نشر كتاباً له بعد ظهور كتاب فنويك بأيام قلائل ، فأقبل عليه جمهور القراء الجاهل المغرور وتناسى الكل كتابه ، وكانت النتيجة أن ازدرى الرجل فى تلك البقعة الهادئة مستعرضاً فشله الذريع . لقد فشل ، ولكن أكان ذلك بمحض إرادته ، وهو الخارق الذكاء اللامع الفكر ؟ كلا . . إنه لا يعتقد فى ذلك ، فهو يؤكد بأن هذا إنما يعود إلى الحياة العصرية الخالية من الثقافة الحقة ، إلى مشكلة المادة التى تطغى على العالم ، ثم إلى فوستر زميله .

فانعزل بعيداً راغباً عن رؤية أى أحد من أصدقائه وبالأخص فوستر البغيض . ولكنه عجب حقاً حين جاءته برقيته يعلنه فيها بقدومه لقضاء يومين فى ضيافته . وها هو صوته الكريه يخدش أذنيه وهو يقول :

— ما الذى حدث بيننا يا صديق ؟ وهل حقاً ما سمعته من حقدك على وكراهيتك لى ؟

— كلا . ليس هناك شىء :

— إن السعادة لتغمرنى وأنا أسمع منك ذلك ، فطالما أكدت للجميع أن صداقتنا القديمة لا يمكن أن يعلق بها أى غبار .

يا لله ! ما ذلك الشعور الغريب الذى يحسه نحوه ؟ ؟

ثم جلس الرجل بقربه ، وحدق فنويك فيه النظر ونفسه تحدثه بأن يدفع أصابعه فى عينيه ، وعاد فوستر يقول : إن سبب فشلك يا صديق هو اعتزالك هنا عن الناس ، إذ أنه من مستلزمات النجاح الاختلاط بالمجتمع والسياحة فى طول البلاد وعرضها والرحلة إلى ممالك أخرى بعيدة ، أن تجعل حياتك سلسلة من النشاط الدائم .

فرمقه فنويك طويلا ثم نهض قائلا :

— ما رأيك فى نزهة على الأقدام ؟

وما إن فاه بتلك الكلمات الأخيرة حتى شعر وكأن شخصاً آخر هو الذى قالها مما اضطره لأن ينظر خلفه ليراه . فأخذته الدهشة لأن مثل تلك الحالة لا تنتابه منذ وصول فوستر . وعاد يحدث نفسه : « لماذا عرض عليه تلك الفكرة ؟ أيريه تلك البقعة الجميلة اللطيفة حقاً ، فيطلع على محاسنها وهدوئها ومباهجها ؟ ولكن رن فى أذنه نفس

الصوت القريب قائلا « إن لك غرضاً بعيداً فى ذلك » .

ســارا معاً ، وكان فوستر يتحدث من الخواطر التى تلاحقها زميله بفكرمليا « إلى أين هما سائران ؟ وأية إرادة تقودهما ؟ ولـكن . . هل هناك حقاً إرادة حرة ؟ كلا . . إنه القدر . . » .

وفجأة ضحك فنويك عالياً فتوقف صديقه وقال :

— ما الذى يضحكك ؟

— أشياء تذكرتها .

وتأبط فوستر ذراعه وهو يقول :

— يا لسعادتى وذراعانا متلاصقتان ! إن الحياة قصيرة يا صديق فيجب علينا أن نتبادل الحب والوئام دائماً .

أما هو فقد سرت الرجفة فى جسده حين لمسته ذراع صديقه واستولى عليه إحساس جديد .

ماذا لو تناول تلك الذراع وهشمها . . يا لسحر جرس نغمتها !

ولـكنه سرعان ما ابتعد عنه وهو يقول : ها هو الفندق الصغير . وسأريك الآن البحيرة حيث أجلس الساعات الطويلة مبتهجاً .

فأجابه فوستر : بودى لو أراها . إن وصفك البديع لها يشعل رغبتى فى رؤيتها .

— ولـكنها على مسافة بعيدة وفى طريق وعرة .

— فلنذهب ، فلن يشق على ذلك .

فتمهل فنويك قليلا ثم قال : أتعرف يا فوستر أنه بالرغم من عمق غورها فإن مياهها شفافة كالبلور ! فأجابه الآخر وهو يبتسم : لعلك تدرى بأنى أجهل السباحة ، وأكره البحر بعد أن حفرت فى مخيلتى ذكرى محاولة أصدقاء صباى إغراقى عن طريق الداعبة .

وفجأة ارتسمت تلك الصورة فى مخيلة فنويك . صورة زميله وهو يغرق . ثم زفر زفرة حارة .

وأخيراً وصلا بعد أن قطعا مسافة طويلة فى طريق ضيقة كلها أحجار نابئة

وقال فنويك : ها هى البحيرة .

ثم أجال الطرف حوله وتابع قوله : الشمس تغرب ، والظلام سرعان ما يلفنا بردائه . لم أكن أتوقع ذلك .

فأمسك زميله بذراعه وهو يقول : لم أعد أرى الطريق جيداً .

وكان فنويك يتابع حديثه قائلا : آه يا صديق . . . إنى أشعر وكأنى قطعة منها ، وكأنا لن نفترق أبدا ، وكأنها ستضمنى فى مياهها يوما ما . إنها عميقة . . حتى لا يعرف أحد لها قرارا . فقال فوستر : كل ذلك لطيف . ولـكن دعنا نعود .

وعاد فنويك يقول : أرأيت ذلك السد هناك . . لقد أقاموه حديثاً .

ثم أخذ ذراع فوستر الذى كان يقول :

— دعنا نعود . . لقد نال منى البرد . . وأخاف أن نضل الطريق .

وفجأة . دفعه فنويك بقوة إلى الماء فصدرت منه صرخة داوية وتطلعت إليه عيناه الزائغتان فى فزع ووجل ثم طفا جسده مرتين واستقر أخيرا .

تلفت فنويك حوله . كانت جيوش الظلام الدامس قد هاجمت الطبيعة وأرهف سمعه فلم يطرقه سوى الهدوء التام . وسمر فى مكانه ، وتوقف تفكيره . كل ما كان يشعر به أنه قد أزاح عبئا ثقيلا عنه طالما ناء به كاهله . لقد اختفى فوستر ذلك المغرور المخادع الأحمق ولن يعود ثانية . وهاهى البحيرة أمامه وهو يسمعها تحدثه وصوتها يرن فى أذنه قائلا : « لقد أحسنت صنعا . نحن مشتركان . وإنى لفخورة بك . »

شعر من نفسه بفخر حقيق . لقد قام بعمل حاسم بعد أن ظل غارقا فى أحلامه طيلة تلك الأعوام .

سرح الطرف حوله فلم يقابله سوى الجبال الشاهقة ، وفجأة شعر بالبرد القارس يسرى فى جسده ، فأوصاله ترتعش وأسنانه تصطك والضعف ينال منه حتى لم تعد تقوى ساقاه على حمله .

وحاول العودة . ولكن كان هناك شيء حتى يغريه بالبقاء بجانب البحيرة صديقته المزرقة الوحيدة . ومع ذلك لم يشعر إلا وهو يتحرك ميمماً شطر منزله والوحدة القاسية ترعبه والظلام المنتشر حوله يحول بينه وبين رؤية مسالك طريقه جيداً .

وفجأة . . جعل يعدو وهو لا يدرى ما الذى يدفعه إلى ذلك . اللهم إلا شعوره بالوحشة بعد أن ترك البحيرة خلفه . كان يرجو لو ظل هناك حتى الصباح . غير أن برودة الجو حالت بينه وبين الراحة التى كان ينشدها . وها هو يعدو نحو منزله ليأنس بالنور والأثاث وليزيل عنه تلك الأوهام التى تساوره .

ولكنه يشعر وكأن شخصاً يتبعه . فتوقف . كان العرق يتصبب من جبينه وقلبه تتعالى دقاته فى عنف . ونظر خلفه ولكنه لم يجد سوى سراب ، عاود الجرى حتى إذا ما وصل إلى الفندق المتلألئة أنواره سار بخطوات عادية ، وما زال شعوره أن أحداً يتبعه يطغى عليه حتى إنه توقف مرتين وجعل يصيح : « من هناك ؟ » فلم يجاوبه سوى حفيف أوراق الأشجار ! وداعب مخيلته خاطر غريب ، إنها البحيرة تتبعه . فهى تترسم خطاه طيلة الطريق لتصحبه حتى لا يشعر بالوحدة ، وها هى همساتها تسرى إليه مع النسيم قائلة : « لقد أنهينا الأمس معاً ولا أود أن ألقى عليك عبء تفردك . وها أنا معك لأزيل عنك شعور العزلة » .

وصل إلى منزله أخيراً فألقى بنفسه على مقعد واسع وراح فى غفوة قصيرة سرعان ما استيقظ منها مذعوراً ، ولما كان يتوقع دخول فوستر عليه الحجرة بين كل آونة وأخرى لم يحول عينيه عن الباب لحظة واحدة ، وكان الظلام الفاحم يزيد فى رهبة أوهامه وخيالاته المفزعة .

قام إلى حجرة الطعام ليتناول عشاءه ، ولكن وجود ذلك المقعد الخالى الذى كان يجلس عليه فوستر بالأمس أدخل الرهبة إلى نفسه فقام منفعلا وترك كل شىء ، ثم استدار نحو النافذة وفتحها فسمع صوت اندفاع الماء ، وحفيف الشجر ، ونعيق البوم ، وهمهمة شخص خلفه فأسرع بإغلاقها ثم حول عينيه إلى الحجرة المظلمة وحاول رؤية من فيها وأسرع إلى فراشه .

هو لا يدرى إن كان قد استغرق فى النوم أو أخذته سنة وها هو قد استيقظ الآن وأول ما وقع عليه ناظراه نافذة الغرفة التى اعتاد أن يتركها مفتوحة ، وتلك الأشعة من نور القمر قد تجمعت فى دائرة منيرة وسط الغرفة بينما ظلت جوانبها مظلمة على غير العادة . كان الضوء قاتماً كظلال الجبال قبيل الغروب . لم يحول عينيه عنها ، وخيل إليه أنه يرى شيئاً يتحرك ، له لون الفضة وصوت الماء المنسكب . فرفع جسده قليلا ليتأكد من رؤيته وليستمع إلى صوت تقاطره من خارج النافذة إلى داخل الحجرة ، ثم لاحظ فجأة أنه قد قارب حافتها ، فحاول النهوض ليغلقها ، ولكنه أخفق وصرخ فى ذعر حين لامست قدماه أرض الغرفة المبتلة . ورأى الماء يعلو رويداً رويداً حتى قارب منتصف قوائم السرير فانكمش فى فراشه وهو يحجب عينيه . كان الماء يتجمع فى سكون رهيب وحدثته نفسه بأن يفعل شيئاً . يجب أن يوقف اندفاع الماء القوى ، ولكنه مع ذلك لم يتحرك قيد أنملة . وحينئذ ساوى سطح الماء المقاعد ، ولما حاول مرة ثانية أن يقوم حتى الباب وأدلى بقدميه العارية نحو أرضية الغرفة ردهما وهو يصرخ صرخة مدوية إذ كان الماء فى برودة الثلج . جعل يتأمل بريقه اللامع بوجل هائل ولم يشعر إلا وشىء يجذبه فجأة فسقط واختنق تحت الماء البارد اللزج الذى تسرى فى جوفه حرارة الشمع المنصهر وحاول الاندفاع نحو الباب يريد الخلاص ، ولكنه شعر بجسم يتعلق به ويسحبه إلى القرار فصرخ : دعنى أذهب . إنى أكرهك . . أمقتك . . لن أتبعك . . لن . .

طرقت الخادم العجوز باب الحجرة صباحاً ، ولما لم تتلق جواباً دخلت كعادتها ، ولكنها ارتدت مسرعة صارخة مولولة . . .

كانت عيناه زائغتين ولسانه بارزاً وقد عض عليه بنواجذه . ولوحظت قطرات من الماء على بساط الحجرة وبجانبها إناء مهشم . .

عيسى فتحى خليل

معرض

الأستاذ حبيب جورجي

إلى الأستاذ فريد أبو حديد .

قرأت مقال « معرض الفن الشعبي » بالعدد ٣٣٤ من مجلة الثقافة الغراء بعد أن زرت السراي الصغرى بأرض الجمعية الزراعية حيث أقيم معرض الأستاذ حبيب جورجي .

قرأت ما كتب الأستاذ فريد في الأدب ورأيت فنه في التمثيل فأعجبت بالفنين ورأيت آثار الأستاذ حبيب وأعجبت بها

قرأت ورأيت ولكني أحب أن أقول شيئاً .

اسمع لحبيب وهو يحدثك عن رأس الفتاة ذات الجدائل من الشعر يرتكز عليها الرأس في إخراج فذ ليس له مثيل . اسمع له وهو يقول إنه من صنع زوجة طباخه ، تلك المرأة الجاهلة التي لا تقرأ ولا تكتب ، ثم تأمل هذا الرأس وكأنه يشاغلك بالحديث وكأن قسمات وجهه من لحم ودم رغم شحوب اللون الذي فرضه حبيب عليه . لا بد يا صديقي الكبير أنك لاحظت ذلك فلم لم تطلب إلى أولي الأمر إخراج هذه المرأة الفنانة الموهوبة من ركنها الفقير الذي تعيش فيه إلى المكان اللائق بها كتابعة لها هذا المقام السامي ما دام هذا الرأس وهو باكورة إنتاجها على هذه الدرجة من الإتقان ؟ دون أن يعلمها الأستاذ حبيب جورجي شيئاً اللهم إلا وضع الصلصال بين يديها كما يقول ؟ ثم استمع إليه أيضاً وهو يقدم لنا رأس الفتاة الأخرى من صنع تلميذته الثانية التي اكتشفها من بين الفلاحات في الحقول ، وما هي إلا سنة وأخرى حتى أخرجت بعد مقدمات بسيطة لا تقل روعة عن هذه القطعة ، هذا الرأس الذي أقل ما يقال في وصفه أنه عرض قوى لعضلات الوجه على غرار فن ما يكل انجلو المثال والمصور الإيطالي الشهير

دعه يا صديقي الكبير يحدث إليك حديثه الشوق كما وصفه مقالك ، ثم راقب معي صحن معروضاته قطيع الغنم وهو يموج ويتزاحم ويتدافع ويضغط بعضه البعض الآخر ثم يكاد يستدير ليولي وجهه ناحية أخرى ، ثم راقب معي أولئك النسوة وهن يتحدثن وتتناقش كل منهن مع الأخرى كعادتهن في حديث القرية ، فكلهن متكلمات غير منصتات ، ونحن نكاد نسمع « وغيهن » ، راقب معي تلك القروية وقد ملأت بلاصها وحملته مائلا فوق رأسها وهي تهم بالوقوف مرتكزة بكفيها على ركبتيها ، وتأمل في تينك البطتين المتجاورتين في قطعة منفردة وكل عضلة في تشريح جسميهما تتجسم جملة وتفصيلا كأدق ما تكون دراسة وفهماً .

تأمل كل ذلك يا صديقي الكبير وأخبرني لم لا تنادي أولي الأمر بنقل هؤلاء الفتيات الثلاث من بين مجاهل أزوائهن لتضعهن في المكان اللائق الذي يستحققنه بفضل هذه القمة التي وصلن إليها في سماء التمثيل .

إن حبيب جورجي مكتشف قدير منحه الله أكبر نصيب من موهبة الكشف ، ولا بد أن نشهر به ليعرف الناس قدره كمكتشف عظيم اختص بالتقاط العبقريات ، ومصر خليقة بأن يعاد إليها مجدها القديم في الحفر والتمثيل على يدي حبيب . جاهد بالله يا صديقي الكبير في الإشادة بذكره بصوتكم المسموع .

ولنعد معاً مرة أخرى لذلك المعرض لنتأمل من جديد تلك الصحن المتكررة وهذه الوجوه البارزة من بين تلك الأجسام الخالية من التفاصيل الشديدة التعبير عن التكوين والحركة ، لنحكم على ما أسر » إلى « ذلك الخبيث الذي تحدث إلى قبيل زيارتي المعرض من أن قسمات الوجوه كلها واحدة وكأنها وجه واحد تكرر هنا وهناك ، في هذه القطعة وفي تلك وكأنها صبت جميعها من قالب واحد . سمعت هذا الحديث من أكثر من خبيث واحد وأنا أخشى على نفسي أن أصير خبيثاً مثلهم فأسوق نفس الملاحظة ،

هى . . .

شعر الأستاذ عبد الرحمن الخميسى

[ثبت هنا ما وعته الذاكرة من قصيدة مفقودة]

هى عندى الحياةُ والأحياء   والسموات والمنى والهواءُ
والأغاريدُ والأمانى اللواتى   يَتَخطَّرن والشذى والماءُ
وهى روحى وإنْ تراءتْ كيانًا
تَسْقُتْه الفاتنُ المَمْرَاءُ
قد تعالتْ على الجمال وجَلَّتْ
من خيالى صفاتُها الحسناءُ
مَشَّقَ السحرَ فى محاجرها اللّهُ
وهَدَّاهُ بالجلال الحياءُ
والتَوَتْ فوق خدِّها خصلةُ الشَّعْـ
ـر تحاكى سوادَها الظلماءُ
حسدَى للهواء يلثمها إنْ
مرَّ وهنًا فيستخفّه انتشاءُ
قد تهادتْ تموجُ من حولها الدُّنْـ
ـيا وتجثو لحسنها الأحياءُ
يا شحوبَ الغرام فى وجهها الدا
هل ، تزْعاكَ فى رحابى السماءُ
شدّ ما أعشقُ الشحوبَ إذا ما
مَثَّلَتْ لى عيونُها الهدباءُ
إننى ألمح انطفاء حياتى   فى هواها فيحتوينى ازدهاءُ
إنّ أحزانىَ العديدة كالليـــل بقلبى عميقةٌ سوداءُ
غير أنى أحبُّ حزنى إذا ما   فارقتنى لأنّه لى عزاءُ
شجنٌ ساحرٌ كأنّ رؤاه   بين جنبىّ ليلةٌ قمراءُ
إنّ أنغامَها تداعبُ حِسّى
أينما سرتُ أو سرَى فى الفضاءُ
إنّ أصداء صوتها فى ضميرى   ومضاتٌ رفّافةٌ بيضاءُ
إنّ من خلف عينها طالمَسْنى   نفحة الله ، كأنها إيحاءُ
أشرقتْ فى ظلام عمرى فهبتْ
فى حياتى الطيورُ والأضواءُ
وتهالكتُ فوق صفحتها الخضـ
ـراء فانجابَ عن حياتى الفناءُ
بعد ما قادنى حنينى إليها
بعد ما أحرقتْ دمى الصحراءُ

ولكنى أصرح فأقول بأن الدقة فى إخراج تلك الوجوه والإلهام الموفق فى التعبير عنها قد كيفها بتلك الظاهرة التى دعت الخبثاء إلى هذا القول .

ومهما يكن من شىء ، فلا بد لى من الاعتراف بأنى فشلت وأنا أجول بنظرى من قطعة إلى أخرى فى ذلك المعرض أحاول الوصول إلى سر ذلك النجاح . فهل هو التوفيق الذى صادفه حبيب فى الكشف عن هذه الحفنة القليلة من الفنانات المجهولات الجاهلات النابغات بالفطرة دون تعلم أو تلقين ؟ أو هى شخصية حبيب ذلك المتحدث اللبق فى الحديث يتسلط بحديثه على خيال فتاتاته فينقل إليهن روحه وفنه ومشاعره وطريقته وأسلوبه فيتطبع كل ذلك فى منتجاتهن . وربما كان هذا هو السبب الذى حدا بالخبثاء المذكورين إلى ما ساقوه إلىّ مما ذكرته . ألا من يدلنى على أى من هذين السببين هو السر فى هذا النجاح ؟ إذ ستظل نفسى حيرى يا صديقى الكبير لا تقتنع بأيهما سببا ، ولا بد أن يكون هناك « لغز » يستطيع غيرى أن يحله فيدلنا إلى سواء السبيل .

وخلاصة القول — مهما كان السبب — أن تسمية هذا المعرض « بالفن الشعبى » بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، ويقينى أن الاسم المطابق للواقع هو « الفن المجهول » إن لم يوافق صديق الكبير على تسميته كعنوان مقالى هذا وهو « فن الأستاذ حبيب جورجى » .

محمد يوسف همام

هي حسناءُ كالطبيعة يَعْشُو
قُ إليها الفؤادُ المَشُوقُ
لم تَدَعْ في القلوب قلباً خَلِيًّا
من هواها إلا وفيه حريقُ
كلّنا قد شَبَّتْهُ منها مَعانٍ
يتهادى بها الدُّجى والشروقُ
يتهادى بها الدجى وهو في السّحـ
ـرِ وفي روعة الأسى لا يُفيقُ
ينطوي تحت سرّها الليلُ والأسـ
ـجُمُ في قلبه الجريح حروقُ
ينطوي تحت سرّها الفجرُ والأطـ
ـيارُ والشدوُ والندى والبُروقُ
وهي في دورة السماء وفي القلـ
ـبِ تَفَتَّتْ بها وفيها العروقُ
وهي كالبرء رمته لفؤادي   وفؤادي على يدي ممزَّقُ
وهي كالبحر في ارتطام معانيـ
ـها وكالشطّ يرتجيه الغريقُ
وهي كالموت في امتلاك البرايا   وهي كالبعث للدفين يروقُ
وهي كالحب في التغلغل يطوى
سرّها في الضمير بُعدٌ سحيقُ
وهي كالنجم في التسامي عن النا
سِ يُروّي العيونَ منها بريقُ
وهي كالنار في السموّ وفي الطهـ
ـرِ . . . وكالماء رقّةً ورحيقُ
وهي مثل الشتاء يجمُدُ من دو
نِ حماها الهزارُ والتحليقُ
وهي مثل الربيع يمرح في أعـ
ـطافها الفنُّ والجمالُ الطليقُ
وهي كالصيف تلفحُ القلبَ منها
لفحاتٌ يزيد فيها الخفوقُ

وهي مثل الخريف تجعلها لو
نٌ من الحزن شاحبٌ وعميقُ
وهي مثل الفصول يكمن في دو
رانها البأس والشبابُ العريقُ
جمع اللهُ حولها مُهَجَ النا
سِ فذاقت بها الذي لا تطيقُ
واكتوى في غرامها كلُّ قلبٍ
يتمنى لو أنه المشوقُ

قد تمنيتُ لو تمنيتُ أني   في هواها أكون غير سجين
صوتها يملأ الحياةَ حياةً   في شعوري ومسمعي وعيوني
هو إن تاق في ضلوعي مقيمٌ   أبدَ الدهر بين التلحين
فتنةٌ تأخذُ الحشاشةَ أخذاً
وانسيابٌ تبيدُ فيه شجوني
وانطلاقٌ من التكلّف حُرٌّ
كانطلاق الطير بين الغصون
ورنينٌ يُغلّفُ اللفظَ منها
يُسكرُ الروحَ مثلهُ من رنين
وحنانٌ يَسيلُ من ثغرها تحـ
ـسبُ فيه شقاوةَ المحزون
وخفوتٌ ورقّةٌ وانطلاقٌ   في أغنٍّ تحتق وراء الظنون
واتساعٌ مهذّبٌ وعميقٌ   هو للحب كالملاذ الأمين
وارتطامٌ مقطّعٌ ضمّنته   شفتاها معنى العذاب الكمين
نبراتٌ معبّراتٌ أحاطت   في ثناياها بالشعور الدفين
بوركت حيرتي وضجة روحي   في صداها وفرحة تعتريني
صوتها يغمر الضمير بروح الـ
ـسحر والخير والهوى والفتون
كلما رنّ في فؤادي خفيضاً   ثار بي ثائرٌ عنيفُ الجنون
ثم أطبقتُ مقلتيّ كأني
ألمح الصوتَ في دمي يستبيني

حول الكتب الحديثة :

كتاب الفن ومذاهبه

فى الشعر العربى

هذا كتاب سبق لى أن حظيت بتقديمه إلى الجمهور ولم تمنعنى الصداقة التى تربطنى بمؤلفه النشيط من أن أشفع هذا التقديم ببعض ما رأيته يومئذ من وجوه النقد البرىء .

واليوم أحظى مرة أخرى بتقديم هذا الكتاب لأن مؤلفه أعاد طبعه المرة الثانية وزاد فيه فصلين جديدين أولهما عن الأدب فى الأندلس . وثانيهما عن الأدب فى مصر . لاشك أنهما فصلان ممتعان قيمان يستحقان منا كما استحق الكتاب كله من قبل تقديراً كبيراً . غير أنى سأكتفى هنا بالكلام عن الفصل الذى كتبه المؤلف فى الأدب المصرى .

— ولعل أول ما يلفت النظر من ذلك ويدعو فى الوقت نفسه إلى الإعجاب والتقدير هو رجوع المؤلف الفاضل فى هذه الطبعة الجديدة من كتابه عن رأى له فى الاقليمية وعدوله عن فكرة كان يصدر عنها فى الطبعة الأولى من كتابه ، وهى أن التأثير الاقليمى فى الأدب العربى كان ضعيفاً وغير خليق بعناية ما ، وأن الباحث فى الأدب العربى جملة مضطر إلى إغفال الحواجز الكثيرة بين الأمم التى يمثلها هذا الأدب .

— أما الآن فقد رجع المؤلف الفاضل فى الطبعة الثانية من الكتاب إلى الحق ، وآية ذلك أنه خصّ الأندلس بفصل وخص البلاد المصرية بفصل ، وفى ذلك مايدل على إعلان المؤلف (بالاقليمية فى الشعر) وفى ذلك ما يدعو كما قلت إلى الإعجاب به والثناء على خلقه العلمى .

يقول المؤلف فى صفحة ٣٥٣ : « وقد كنا نظن أن مصر ليست ذات خطر فى تاريخ الشعر العربى ... ولولا مايميزهم (ويريد المصريين) من تصوف وفكاهات ودعابات لأحسسنا باتساع حركة التقليد على نحو ما أحسسنا بها فى الأندلس .

وآخر من دواعى الإعجاب بمؤلف هذا الكتاب أنه استوعب فى سبيل الفصل الذى كتبه عن مصر ثلاثة كتب ، هى من أهم مصادر الأدب المصرى فى القرون الوسطى ، وهى كتاب «اليتيمة» للثعالبي و«الخريدة» للعماد الأصفهانى و«المُغرب» لابن سعيد . ثم نظر المؤلف الفاضل إلى الأدب المصرى منذ نشأته فاسترعى نظره ازدهار هذا

واستبدتْ بى نشوةٌ تحتوينى
كم سمتْ نحوها حثيثاً سنينى
وشوشاتٌ يذوبُ قلبى فيها
ثم يحيا على صداها حنينى
سرقتْها مِنْ بعدِ أعماقها فنّاً
عَصِيّاً على ذوات الفنونِ
صوَّرَتْ لى فى منطق السلكِ الطا
هرِ دنيا من الصفاءِ المبينِ
واحتوتنى على مقاطعها المُثْـ
ـلى إلى عالم نقىِّ الجبينِ

أينَ منّى عيونها والذى فى
شجوها من شكاةِ قلبٍ عميدِ
رجعتْ لى الذى تحسُّ جليّـا
دونَ عمد إلى لغاتِ الوجودِ
فتنةٌ تبعثُ الأمانى وتُغرى
مهجتى بالهوى الشديدِ الشديدِ
وصفاء تغار منـه السمـوا
تُ ويناسبُ طاهراً فى نشيدى

عبد الرحمن الخميسى

الأدب فى عصور ثلاثة بنوع خاص : أولها العصر الفاطمى ثم العصر الأيوبى ثم عصر المماليك . فكأنه أراد بذلك أن يقول لنا إن الشخصية الأدبية لمصر لم يبدأ ظهورها بالفعل إلا منذ بداية العصر الفاطمى، وهو رأى له احترامه ووجاهته، ولا يطلب من رجل يكتب فصلا عن مصر الإسلامية فى كتاب عام أكثر من أن يقف وقفة خاصة أمام المعالم العامة للأدب الذى ظهر بهذه البلاد .

غير أن المؤلف الفاضل خصّ العصر الفاطمى بعناية عظيمة تتضاءل أمامها عنايته بالعصور الأخرى . ومرجع ذلك فى رأينا إلى شىء واحد فقط هو أنه قرأ الخريدة باهتمام واستغرقت الخريدة كل جهوده . وكتاب الخريدة يعتبر مكملا لكتاب اليتيمة ويوشك أن يكون كله مكتوباً فى شعراء القرون التى عاشت فى أثنائها الخلافة الفاطمية .

فلو قد ظفر المؤلف بكتب أخرى إلى جانب الخريدة لاستطاع أن يقسم عنايته بالعصور الأدبية تقسيما فيه شىء من العدل والانصاف . وقد اتبع المؤلف الفاضل طريقة حسنة فى هـذا الفصل الذى كتبه عن مصر، وهى منذ بداية الأمر بأن يرسم خطوطاً واضحة فى بيان الشخصية المصرية التى عبر عنها الأدب الذى خلفه لنا ذلك العصر، فراعه من هذه الشخصيـة أنها ظهرت بوضوح فى أمور ثلاثة : أولها قدرة المصريين على وصف الأحداث السياسية التى تمر بهم . وثانيها براعتهم فى الفكاهة والدعابة بحكم ترفهم ولهوهم وانصرافهم عن الاشتغال بالفلسفة . وثالثها التصوف الذى كان له الأثر الواضح فى حيـاة المصريين الأدبية والاجتماعية .

ولقد نجح المؤلف نجاحا عظيما فى شرح هذه الخصائص التى امتازت بها شخصية المصريين فى الأدب ، ولـكنه كما قلنا تشيع لعصر دون عصر . ولنوضح رأينـا فى هذه المسألة بإيجاز فنقول : أما الشعر السياسى فلا شك أن العصر الأيوبى تفوق فيه على العصر الفاطمى . وأما التصوف فقد كان العصر الأيوبى بتهافته على الجد وانصرافه إلى الحرب أدعى لظهور التصوف وأشد ملاءمة له من العصر الفاطمى ، فكثر المتصوفون فى عصر بنى أيوب وزادوا على المتصوفين فى العصور السابقة، والموازنة بين ابن الكيزانى أحـد متصوفى العصر الفاطمى وابن الفـارض أحد متصوفى العصر الأيوبى تؤدى إلى هذه النتيجة التى أشير اليها ، لا إلى النتائج التى وصل اليها المؤلف عند كلامه عن التصوف بنوع خاص.

وأما الفكاهة فلا شك أنها أينعت فى العصر الفاطمى واختفت قليلا فى العصر الأيوبى ، ثم عادت للظهور فى عصر المماليك ، ولـكن المؤلف الفاضل نسى أن هذه الفكاهة ما كانت لتفيض جمة فى عصر بنى أيوب ، ولـكنها ظهرت باهتة فى الشعر واضحة وضوحا لا سبيل إلى انكاره فى النثر . وقد كتب صديق المؤلف فى نقد كتابى « حكم قراقوش » وعرف أن السخرية كانت لونا من ألوان الأدب كان لها وجود فى العصر الأيوبى برغم ميله إلى الجد وانصرافه إلى شئون الحرب .

(وبعد) فنحن نعلم أن الدرس الأدبى فى مصر إلى وقت قريب جدا كان جاهليا أمويا وعباسيا ، ولم يكن قط مصريا أو شـاميا أو أندلسيا ، وبقى الحال على ذلك حتى أنشأت الحكومة المصرية كرسيا لدراسة الأدب المصرى فى جامعة فؤاد الأول . ومنذ ذلك الوقت اتجهت العناية إلى دراسـة هذا الأدب ولقى المشتغلون به شيئا غير قليل من الشقة والعنت . ومن أجل ذلك أرانى شديد الاشفاق على كل من يشتغل فى هذه المناطق المجهولة فى الأدب العربى والتى لم تفتتح بعد . وأنا فى الوقت نفسه شديد التقدير لـكل من يجد فى نفسه شجاعة يقتحم بها هذا الميدان الجديد .

ذلك ما يشعر به الدكتور شوقى ضيف حين اقتنع بنظرية الاقليمية فى الشعر، وحين رأى من الواجب عليه أن يخصص فصلا فى كتابه للأدب المصرى وآخر للأدب الأندلسى . فسرّنا منه ذلك ، وربحنا به جنـديا ماهرا فى صفوف المشتغلين بالأدب الاقليمى .

عبد اللطيف حمزة

بين المسموع والمقروء

لغة السياسة :

يظهر أن لغة السياسة ، كسائر اللغات ، وكاللغة العربية خاصة ، جامدة الأسلوب ، بطيئة التحوّل . ومن أجل هذا نسمع فى لغات الساسة هذه الأيام ، بعد مضى ٤٥ فى المائة من القرن العشرين حتى كاد هذا القرن أن ينتصف ، وبعد الحرب العالمية الثانية التى أقنعت الأمم بأن الحروب الحديثة سائرة إلى التدمير الكامل الشامل لكل مظهر من مظاهر المدنية ، وكل نتاج من أنتجة الفكر الذى به تميز الإنسان وبه إلى غايته المجيدة المنشودة يسير ، من بعد هذا وهذا لا نزال نسمع فى لغات السياسة أساليب تقع فى الأذن الحديثة موقع أساليب الجاهلية الأولى قدما وعتاقة ، أو موقع أساليب القرون الوسطى التى أسموها قرون الظلام ، قلةَ منطق وإمعانا فى تحدّى الأفهام .

والأمثلة فى ذلك كثيرة . ولكن بحسبى أن أقتبس مثلا واحدا من هذه الأساليب ، وأختار له تلك الجملة التى أدار الأنجليز عليها حججهم فى تبرير ذلك الصنيع الجميل الذى اصطنعوه فى سوريا ولبنان لما دخلوا كلا البلدين بدباباتهم وسفنهم لحموها من غضب تلك الفئة الضالة من أخانف باريس . قالوا إنهم دخلوها : ليحموا خط مواصلاتهم مع الشرق الأقصى إنجازاً لحرب اليابان .

فهذه جملة لا شك تعاقد القوم عليها قبل إطلاقها . أو لعله قال بها إمامهم أولا ، ثم ردّدها المؤتمون من ورائه ، فهى جملة قالها رئيس وزرائهم ، ثم وزير خارجيتهم ، ثم حامل لواء المعارضة فى برلمانهم . ثم قالتها أمريكا . ثم قالتها الدنيا .

وأنت إذا فتشت هذه الجملة بفكر الطالب الصغير البرىء ، الذى يتعلم جمع الأعداد وطرحها ، لم تجد بها منطق هذه الأعداد . ولكن الساسة واجدون فيها المنطق كله ، منطق الساسة لا منطق الناس . إن الساسة يضعون السياسة أولا ، ثم هم من بعد ذلك يبحثون عن منطقها . فهكذا فعلوا . وهكذا يفعلون إلى أن تتبدل الحال .

إنى لا أقول إن هذه الجملة تخلو من حجة . فالانجليز حقا فى حرب مع اليابان . ومواصلاتهم تخترق الشرق الأوسط حقا ، فهى فى حاجة إلى التأمين .

ولكن مفهوم هذا أيضا أنه إن لم تكن هذه الحرب اليابانية ، ما كانت نجدة ، ولتُرِك الفرنسيون وشأنهم يقتّلون ويهدّمون .

ومفهوم هذا أيضا أنه إذا فرغت الحرب اليابانية غدا فللفرنسيين جبال لبنان وبقاع الشام يسودون فيها ويسوّدون .

ومفهوم هذا أيضا أن سفك الدماء البريئة وتخريب البيوت الآمنة ليس من شأن أمة ثالثة مادام أنه لا يمس صوالحها من قريب . ألم يقل الفرنسيون عندما سمعوا بتدخل مولانا الفاروق فى الأمر : وما شأن مصر فى هذا الأمر ! ؟

ومفهوم هذا أيضاً أن الأمم العظمى لم يدخل فى قاموس لغتها إلى اليوم أنها تتدخل للإبقاء على الدماء أن تسيل ، لأنها دماء إنسانية عزيزة ، وكفى ، وللإبقاء على الدور أن تُهدّم لأنها مشاتل الحياة الإنسانية وملجأ الأطفال وحصن العجائز ، وحسب .

أنا لا أحسب أن انجلترا فعلت ما فعلت من جيل لهذه الغاية الوحيدة التى أعلنتها : « حماية المواصلات » ، ولكنها لم تستطع أن تنطق بعلة غير هذه العلة ، لأنها العلة الوحيدة التى تفهمها فرنسا ويفهمها ساسة الدنيا إلى هذا اليوم .

إن القطة الفرنسية أمسكت فأرا . فما للأنجليز أن يتدخلوا بينها وبين فأرها . منطق فى الطبيعة معقول . ولكن من المعقول أيضا أن الكلب يجرى وراء القط ، محفوزا بالقط لا بالذى أمسك . فإذا جرى الكلب أتى القط بالذى أمسك . فليس لدى فرنسا ما تشكوه . إنه قانون الغابة الذى استنته بتمامه .

وقالوا ستغيّر جامعة الأمم المرتجاة كل هذا — ستستبدل

قانون الغابة بقانون المدينة ، قانون الإنسان . فإن حدث هذا ، فعندئذ فقط تتغير لغة الساسة ، ويتغير منطقهم ، وتسمى الأشياء بأسمائها ، فيفهم معانيها دارس الأرقام ودارس السياسة على السواء .

فى تعدد الزوجات سعادة :

يتحدثون فى هذه الأيام عن الضرر الناجم من إطلاق الطلاق فى مصر ، ومن تعدد الزوجات للزوج الواحد . ويرى المصلحون ضرورة الحد من هذا وهذا ، ويرى الآخرون أن تبقى الحال على ما هى عليه لأنها خير حال .

أما الطلاق فأمره حيّر الأمم ، وحيّر القوانين ، وحيّر العقول . وفى جميع الأديان منه حيرة كذلك . فليس تحريمه بالخير كله ، وليس إطلاقه بالخير أبداً . ونقل أمره إلى قيمان الحاكم فيه اعتراف بأنه نزاع ككل النزاعات ، له أكثر من طرف . فالزوج طرف والزوجة طرف . ثم الأولاد وهم أطراف أخرى . وكل هؤلاء لهم صوالح . والنزاع لابد له من حَكَم . ولا يصح الجمع بين الحكومة والخصومة أبداً ، إذاً لكان الأمر استبداداً .

على أنى لا أقصد إلى العرض للطلاق ، ولكن قصدى أن أعرض لتعدد الزوجات بمناسبة ما اطلعت عليه من صور حديثة لأسر نسلت جميعها من أزواج آمنوا جميعاً بتعديد الزوجات .

وليست هذه الأسر بأسر شرقية ، ولكنها أسر غربية . وليست أسراً تعتنق الإسلام ، مجيز التعديد ، ولكنها تعتنق النصرانية ، محتّمة التوحيد ، فى الزوجة .

وهى صور جميلة وايم الله . تضمنت أولاها وكبراها خمسة عشر رجلا زوجاً ، وخمساً وخمسين امرأة زوجة ، وثلاثة وثمانين ومائتين من أطفالهم . اجتمعوا جميعاً فى بقعة جميلة رائعة ، يظلها الشجر الباسق ، ويكسو أرضها العشب السوى الناعم .

ونظرت إلى أجسامهم ، جسما جسما ، فوجدت فيها القوة . ونظرت فى وجوههم ، وجهاً وجهاً ، فوجدت فيها البشر بادياً والمرح فيّاضاً . ونظرت فى أثوابهم ، فوجدت الثروة والاناقة .

« إنى أقدم هذه الصورة هدية لمن يقول بالتوحيد ، وأقدمها لنفسى أولاً » .

وليس تعديد هؤلاء أزواجاتهم خروجاً على النصرانية . فهم يرون أن الأصل فى النصرانية التعديد ، وأن الذى حدث من بعد ذلك بدعة . وقرأوا فى الكتاب المقدس قول الله لإسرائيل :

« أنا الله القوى . كنْ مثمراً وتعدّدْ . فسيخرج من صلبك أمة وأمم ، وسيخرج الملوك » . قرأوا هذا فأطاعوه بالاثمار والتعديد .

وصحبتْ هذه الصورة الكبيرة الأولى صورٌ أخرى لأسرة من هذه الأسر . فصورة تريك رب الأسرة على رأس المائدة الطويلة ، وحوله زوجاته الثلاث ، وأولاده الواحد والعشرون وكلهم مطرقون يصلون ، ويحمدون الله على ما آتاهم . وصورة أخرى تريك المطبخ الأبيض البهيج وفيه الزوجات الثلاث تتعاون على غسل الآنية التى تخلفت عن المائدة ، فواحدة تغسل والأخريان تجففان . ثم صورة ثالثة تريك الأطفال فى الحمام الواحد ، يأخذون دورهم فى الاستحمام لما آذن الغروب ، والنسوة قوّامات عليهم وعليهن يتضيدون ويدعكون . ثم الصورة الرابعة وبها الأطفال اصطفوا صفاً واحداً عند أبيهم ، يقبلهم قبلة المساء ، قبلة النوم ، واحداً من بعد واحدة . ثم الخامسة ، وهى تريك الفراغ الكامل بحلول الليل . تريك غرفة الجلوس ، وفيها الزوج وزوجاته ، ما بين قارىء أو عازف ، أو مستَرخ استرخاء !

ثم الصورة الأخيرة : وفيها الزوج أمام قاضى مدينة سُلتليك Salt Lake City ، بالولايات المتحدة ، وقد حكم عليه بالسجن أربع سنوات ، لتعديده زوجاته ، وهو يحتج بقوله : لن يغير القضاء مشيئة الله فى عباده .

ولا يفوتني أن أقول إن حظ هؤلاء الناس من الإيمان عظيم .

وأريت زوجتي تلك الصور ، وقلت لها مداعباً : يظهر أنهم سعداء ! فقالت : نعم ، ولكن يظهر أيضاً أنهم كانوا في حاجة شديدة إلى الدين ، فتلك حال لا يقوى عليها إلا الأشداء المؤمنون .

لا ياسيدي :

كتبت في العدد الأسبق من الثقافة أقول « إن انجلترا تجرب نفس التجربة التي تجربها روسيا . غير أن روسيا بدأت من اليسار واتجهت يمينا ، وانجلترا وأمريكا بدأتا من اليمين وتسيران يسارا . وهما جميعا ملتقون مابقيت حرية الرأي قائمة عند نظام وسط فيه حرية الفرد بمقدار ، وسيطرة المجموع بمقدار »

كتبت هذا . فكتب إلى كاتب فاضل ينكر هذا ، ويقول إن سير انجلترا إلى اليسار انما كان بسبب الحرب ، وتحت ضغط الحرب ، وفي ظل حكومة ائتلافية فيها العمال أقوياء ، وإن الاشتراكية في كل حكومة محافظة — وهي الحكومة الغالبة في العصور الذاهبة الحديثة — لم تترعرع في انجلترا قط .

وأنا أقول بدوري : لاسيدي . وليست المحافظة في انجلترا بالتي نفهمها . فالمتتبع لسير الحوادث فيما بعد الحرب العالمية الأولى الماضية ، يدرك حتما أن مبادىء اليسار انتشرت في انجلترا أكبر انتشار في تلك العصور الحديثة المحافظة التي تحكي . ولقد تذكر ، إن كنت حضرت ذلك العصر ، أنه كان المحافظين رئيس وزراء حار الناس في أمره ، أكانت دوافع اليمين هي التي تحرّكه أم دوافع اليسار . حتى أسموه المحافظ الاشتراكي . ذلك هو المستر بلدوين . فالمحافظة في انجلترا ليس لها اليوم ذلك المعنى القديم الذي ينعتونه بالرجعية . وليس لها ذلك المعنى القديم من الأنانية العمياء . إنها محافظة خيّرة ، أخذت تدرك حقوق الفقر وواجبات الغنى ، وتكبر حق الفرد بأن يتسنّم الذرى بمجهوده ، وتقلل من حق الفرد فيما يرث من متاع ، أو حتى فيما يكسب من عرق جبينه إذا فات هذا المألوف مما تكسبه جهود الأفراد .

انظرْ مقدار الضريبة عن دخل الفرد عندهم في هذه الحرب . لم يعفوا منها أحداً . فالذي دخله في العام ٢٥٠ جنيها يدفع للحكومة ضريبة قدرها سبعة جنيهات في العام . والذي دخله خمسمائة يدفع ضريبة قدرها ٧٣ جنيهاً . والذي دخله ١٠٠٠ جنيه يدفع منها ٢٨٠ جنيها . والذي دخله ألفان يدفع ٧٧٤ جنيها . والذي دخله ما بين الألفين إلى العشرة آلاف يدفع نحو نصف دخله ضريبة . والذي دخله ما بين العشرة آلاف والعشرين ألفاً يدفع نحو ثلاثة أرباع دخله ضريبة . أما إذا زاد الدخل عن عشرين ألفاً فلا يبق له منه غير ١٥ ٪ من هذا الدخل .

وستقول ياسيدي إنها الحرب . وإن هذا أثر العمال في الحكومة الائتلافية .

فانظر ما كان من ضريبة قبل الحرب ، والحكومة محافظة محْضة :

الدخل	الضريبة
٢٥٠ جنيها	٥ جنيهات
٥٠٠	١٤٫٥
١٠٠٠	١١١
٢٠٠٠	٣٤٠
١٠٠٠٠	٢٨٩٠
٢٠٠٠٠	٨٧٤٠
أكثر	٥٧ ٪

والذي يهمني من هذا ليس مقدار الضريبة ، ولكن تدرّجها من ضريبة خفيفة ، وصاحب الضريبة فقير ، ينتمي لفقره إلى أحزاب اليسار ، إلى ضريبة ثقيلة ، وصاحب الضريبة غني ، ينتمي لغناه إلى أحزاب اليمين . وأصحاب اليمين هم حزب المحافظين صنّاع هذه الضريبة .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردامي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٣٩ — الثلاثاء ١٦ من رجب سنة ١٣٦٤ — ٢٦ من يونيه سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

العودة للأحوال الطبيعية

لم تكد الحرب تنتهي في أوربا وتنحصر الجهود الحربية الباقية في ميدان بعيد منعزل في جانب قصي من أطراف الدنيا حتى تحركت في النفوس رغبة شديدة في التخلص من آثار الحرب وقيودها والرجوع إلى الأحوال الطبيعية التي كان عليها الناس قبل الحرب .

وتتراءى للأذهان صور مختلفة لتلك الأحوال السعيدة التي كانت تسود الحياة قبل الحرب والتي طال افتقادهم لها واشتد حنينهم للرجوع إليها . وجمهور الناس لا يشغلهم إلا جانبها الاقتصادي الخاص ، فهم يتصورون العودة للأحوال الطبيعية عودة الوفرة والرخاء ورخص الأسعار وحرية التداول ، وزوال الضيق والغلاء والسوق السوداء وتحكم تجارها في رقاب الناس . وزعماء الاقتصاد يتصورونها عودة النشاط الاقتصادي العام وزوال القيود التي كانت تحول دون إنفاذ المشروعات الاقتصادية وسهولة الاستيراد والتصدير وعودة الأحوال التجارية إلى الاستقرار ، وقيامها على الأسس الاقتصادية السليمة الخالية من الاضطراب والمناورات . والمفكرون في إصلاح الشئون الاجتماعية يرونها استئنافاً للنشاط الاجتماعي الذي حصرته الظروف الحربية في أضيق الدوائر ، ويرون العودة للأحوال الطبيعية وسيلة للنهوض السريع في إصلاح أحوال الشعب في شئون التعليم والصحة وتنظيم حياته العامة على أسس التعاون . ورجال السياسة يرون العودة للأحوال الطبيعية ، عودة للحرية في العمل والقول واستئنافاً للنشاط السياسي الداخلي والخارجي . وتمكيناً للنظام الديمقراطي الذي حدته الاعتبارات الحربية بكثير من القيود .

ويبدو أن العودة للأحوال الطبيعية التي يصبو إليها

الجميع ليست من الأمور السهلة التحقيق بالسرعة التى يرجونها .

فالجزء الباقى من الحرب على بعد ميدانه لا يزال يشغل جانبا كبيراً من اهتمام أمريكا وبريطانيا وهما الدولتان اللتان يعتمد عليهما العالم فى إعادة الأحوال الاقتصادية العالمية إلى مجراها الطبيعى وإمداد أسواق العالم بالمواد والآلات الضرورية لتجديد نشاطها . ووسائل النقل لديهما تستخدم فى أغراض تلك الحرب القائمة ولا تسمح إلا بالقليل لما عدا ذلك من الأغراض . ولا تزال جيوش الحلفاء معبأة حتى يتم انتصارها على العدو الباقى ، وبعد ذلك تسرح وتعود إلى أوطانها ، وهى عملية تقتضى زمنا وجهدا ، والجنود المسرحون بحاجة إلى كثير من الوقت والتدريب حتى يعودوا إلى أعمالهم ومصانعهم ويقوموا بالانتاج كما كانوا يقومون به قبل الحرب ، والمصانع الحربية تتطلب جهدا وزمنا لاعادة بنائها وتعديلها على أحدث الأساليب ، والمصانع القائمة بإعداد معدات الحرب تطلب هى الأخرى وقتا وجهدا للتحول إلى اعداد مطالب السلم .

ويأتى بعد ذلك فى المقام الأول من جهود الأمم المتحالفة تعمير البلاد المجتاحة وتدبير وسائل الحياة الضرورية للأمم التى أصابتها الحرب بأكبر الأضرار . وهذا التعمير والبناء يستغرق جهود أمم الأرض زمنا طويلا .

فالذين يحلمون بعودة الأمور الاقتصادية سريعا إلى ما كانت عليه يخدعون أنفسهم . وخير لهم أن يوطدوا أنفسهم على احتمال شىء من الضيق والغلاء زمنا آخر غير قصير . وبالضرورة سيكون النشاط الاقتصادى العام كذلك محدوداً . وقد يزيد فى الحد منه مشاكل النقد العالى وديون الحرب واضطراب المعايير التى يقوم عليها التعامل الدولى ، وهى مشاكل تبدو عسيرة الحل . وإلى أن تتفق الدول على حل لها تبقى الجهود الخاصة لكل أمة محدودة .

والنشاط السياسى الخارجى سيظل كذلك رهنا بمبلغ نجاح النظام الدولى الجديد ، ونجاح هذا النظام متوقف على التفاهم الصريح بين الدول الثلاث العظمى بريطانيا وأمريكا وروسيا والروح التى يقوم عليها هذا التفاهم . فان جنحت تلك الدول للنزعة السياسية القديمة ، سياسة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ ، وغلبت عليها الروح الاستعمارية فكل جهود الأمم الصغيرة فى تلك الحالة يجب أن تتحول للاعتماد على أنفسها وتدبير وسائل تعاون فعال يجعل منها قوة فعالة ، ويجعل من مجموعها جبهة مقاومة قوية تنبه تلك الدول العظمى إلى عقم تلك السياسة التى تصطنعها . أما إذا غلبت عليها النزعة العالمية الانسانية وتجردت من الأثرة والأنانية ومدت أيديها إلى أيدى الدول الصغيرة لبناء عالم جديد يقوم على احترام حريات الأمم واستقلالها وتعاونها جميعاً على ما فيه خير الإنسانية ، فان مجال النشاط السياسى الخارجى سيكون مجالا واسعا فسيحا لكل أمم الأرض .

بقى النشاط السياسى الداخلى ، وقد رأينا بوادره حين خطت الحكومة خطوة محمودة فأطلقت الحريات العامة فى غير شئون التموين والشئون التى تمس الأعمال الحربية . لقد ظهر هذا النشاط بصورة تنازع محق حاد بين صحف المعارضة وصحف الحكومة . وخرجت كثير من الصحف الرزينة عما عرفت به من ضبط النفس وتناول أمور الخلاف بالعرض الهادئ ، والجدل المنطقى الرصين . وهى ظاهرة يأسف لها كل غيور على الحرية حريص على مصلحة هذا البلد ، وهى إن دلت على شىء فعلى أننا لا نزال بعيدين عن النشاط السياسى المنتج الذى توجهه المصلحة العامة لا خدمة الأشخاص أو الأحزاب .

قد تكون هذه الظاهرة تنفيسا مؤقتا لعواطف مكبوتة ، وقد يكون اقتناع الفريقين بعدم جدوى مثل تلك المناقشات الحادة وأنها تسىء إليهما معاً وتصور الأمة بصورة لا يرضاها وطنى لأمته ، حافزاً لها على إعادة النظر فى موقفهما ودافعا لها إلى الرجوع إلى الأسلوب الهادئ ، وإلى تغليب المسائل العامة على المسائل الحزبية الخاصة .

هذا ما نرجوه ونتمنى أن يوفقوا جميعاً إليه . والله الهادى لأقوم سبيل . (...)

على هامش الديمقراطية والتعليم :

وزات الحكيم جحا

ترددتُ طويلا قبل كتابة هذا المقال ، لأنى كنتُ موزعا بين شعورى بواجبي نحو « جحا الحكيم » والأمانة التى تحتم على إظهار حكمته وتبيين فضله للناس ، وبين شعورى بواجب آخر ، وهو واجب المجاملة للأحياء من الأصدقاء ، ومن أصحاب الآراء ، ومن أتباع الأحزاب السياسية الذين يرجى منهم الخير ويخشى منهم الضر . ولكنى آثرت أن أكتب هذا المقال ، ولعلى أكتب بعده مقالا ومقالا ناطقا بالحق وحده ، لأنى والحمد لله لست أقصد إلا قصداً واحداً وهو تبيين فضل « جحا » وإيضاح حكمته للناس .

أعيد هنا أنى متجرد من كل لون سياسى إلا إذا كان « جحا » رجلا سياسيا ، له حزب سياسى ، فإذا كان هذا فأنا حقا جدير بالتهمة بأنى من حزب « جحا » .

وأما سائر هذه الأحزاب السياسية التى فى مصر وغير مصر ، فليس لى منها لون خاص ، وليس لى نحو أحدها ميل خاص أو عداء خاص ، فإن لى بحمد الله أصدقاء أعزاء منها جميعاً ، أحرص على مودتهم جميعاً وأعتز بصداقتهم جميعاً ، ولهم جميعاً عندى كرامة تدعونى إلى مناقشة آرائهم على هدى الحق وحده ، لا أميل فى ذلك إلى يمين أو إلى شمال .

والذى يدعونى اليوم إلى الكتابة أن بعض أكابر الكتاب فى مصر يتحدثون عن الديمقراطية والتعليم فى الصحف السيارة المختلفة ، وكانت أحاديثهم طريفة لطيفة ، فيها كثير من الذكاء والفطنة ، وفيها إلى جانب ذلك كثير من الخبث والمكر ، وقد اتخذوا الديمقراطية مطية ذلولا لدعايتهم السياسية ، وإن كلفهم ذلك شططا فى الرأى

فالدعاية السياسية فى كثير من الأحيان تكون أولى عند الساسة من الحق ، وأحب من المصلحة العامة ، ولعل لهم فى ذلك حكمة ، لأن الدعاية السياسية قد تنتهى بالفوز فى ميدان النضال السياسى ، وتؤدى إلى الوصول إلى الحكم ، والحكم هو مطية الإصلاح ، وفيه الفرص السانحة لخدمة الأوطان ، فكل ما يرتكب فى سبيل الوصول إليه مباح حلال ، وكل مجانبة للحق فى الدعاية من أجله جديرة بالتسامح ، لأن الغاية كما يقول البعض تبرر الوسيلة .

ومهما يكن من الأمر فقد ذكرتنى هذه الأحاديث من الديمقراطية بحادث وقع من « الحكيم جحا » فأحببت أن أعيد ذكره هنا على صفحات الثقافة لعل القارىء يترحم على ذلك الحكيم القديم السليم الطوية الخالص النية الذى كان يحب الحق دائماً .

كان « جحا » يعيش فى عصر مثل عصرنا هذا — عصر يحب التحدث عن الديمقراطية ويقحمها فى كل ما ينطق به — فالديمقراطية من معناها الحق والعدل ومن معناها الرحمة والإنسانية ، ومن معناها المساواة الاقتصادية والاجتماعية . هذه المعانى كلها تنطوى تحت اسم الديمقراطية المحبب ، وليس فى الوجود من يجرؤ على إنكار الديمقراطية ولا المكابرة فى أنها النظام الطبيعى العادل الذى ينبغى للأمم جميعاً أن تجعله نظامها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ولكن عصر « جحا » كان لا يحب من الديمقراطية إلا اسمها . وأما حقيقتها فقد كان لها شأن آخر . فكان سلطان الزمان فى عهد « جحا » يحب أن يسمع الخطباء يتحدثون عن الديمقراطية وكان يلذ له أن يسمع الواعظ ويقرأ الصحف الكثيرة من صباحية ومسائية إذا كتبت اسم الديمقراطية فى أعلى صفحاتها بالخط العريض (الثلث) أو (الفارسى) ، وكان أحب الأقوال إلى ذلك السلطان ما كان يتحدث به الدعاة عن عدله وعن إحسانه ، وعن ديمقراطية

حكومته في أساليب حكمها ، سواء أكان ذلك في التعليم أو في غير التعليم .

ولكن نظام الدولة في أيام « جحا » لم يكن يحب الديمقراطية في الأفعال كما كان يحبها في الأقوال ، فكانت الحكومات إذا أرادت أن تحمل الناس يتحاملون عملا من أعمالها دهنته بدهان الديمقراطية وأطلقت عليه اسم الديمقراطية الخلاب ، فكانت دائما تفوز برضى الناس عنها لأن الناس كانوا سليمي الطوية تلهيهم الألفاظ عن الحقائق . فإذا أراد أحد من الناس أن يناقش تلك الألفاظ قامت عليه قائمة أتباع الأحزاب التي تعودت تداول الحكم فيما بينها . واتهموه علناً على صفحات الجرائد السيارة بأنه رجل رجعي يحاول أن يناقش في الديمقراطية ويريد أن يشكك الناس في عقيدتهم الديمقراطية .

*

وكان « جحا » رجلا صريحا مع نفسه ، فكان يسمع أحاديث الديمقراطية من الخطباء والكتاب ثم يرى عمل الحكومات في أعمالها اليومية فيرى الفرق واضحا بين القول والفعل ويتألم لذلك ويفكر فيه طويلا ويهم أن ينطق بالحق ثم يخشى إذا هو تكلم أن يصيبه الأذى في نفسه أو في سمعته . فقد كان يخشى أن تنطلق فيه الألسنة ويتهم بأنه عدو للديمقراطية أو بأنه يريد أن يشكك الناس في الديمقراطية .

وكان « جحا » يحب العافية لأنه ذاق في حياته المر الكثير ولأنه قاسى الأهوال من المصائب وعنفها ومن عداوة الأقوياء وقسوتها . وكان لا يحب أن يقطع الحياة كلها في معاناة المصائب، ومصادمة الأقوياء ، ولهذا آثر أن يلزم الصمت ويؤثر العافية .

ولكن أحاديث الديمقراطية زادت على قدر الاحتمال ، ولم يستطع « جحا » أن يلزم الصمت بعد ذلك طويلا ولا أن يعتزل الحياة لأنه كان رجلا حكيما سليم الطوية يحسب أن واجب الحكيم يحتم عليه أن يشارك في توجيه الحياة ، فابتكر طريقته المعروفة التي ظل الناس يتحدثون بها جيلا بعد جيل ، ويكتبونها في كتب القصص طبعة بعد طبعة ، وهي الطريقة المذكورة في قصة « الوزات التسع عشرة » .

أتى « جحا » بتسع عشرة وزة وذهب إلى قاضي المدينة (مدينة جانبولاد الشهيرة) وقال له : إني قد جئت إليك في أمر عجب .

قال القاضي باسما — لأنه كان يحب « جحا » مع أنه كان يعلم أن جحا من الحكماء الصرحاء :

— وما ذلك الأمر العجب يا سيدي الحكيم جحا ؟

قال جحا — إن عندي تسع عشرة وزة أستطيع أن أجعلها تكفي لعشرين رجلا على أن يأخذ كل واحد وزة كاملة .

قال القاضي متعجباً ساخرا — ألا تزال تمزح يا جحا ؟ ألا تريد ترك المزاح ؟

فقال جحا جادا — لست أمزح يا فضيلة القاضي . إنها حقيقة عجيبة ، كشفت أمرها بفضل سر وهبه الله لي وحدي في هذا العالم .

وكان القاضي يعرف أن لجحا كرامة الأولياء ، فأطرق قليلا ثم رفع رأسه في حذر وقال خاشعا : لئن صح ذلك لكان فيه حل لأزمة الديمقراطية ، لو صح ذلك لحللنا أزمة الأرزاق ، فما يكفي مائة يصبح كافيا لألف ، ولو صح ذلك لحللنا أزمة التعليم ، فما يكفي ألفا يصبح كافيا لمائة ألف ، وهكذا .

وكان يتحدث بهذا كأنه يخاطب نفسه معللا إياها بالآمال الكبار . ثم أقبل على جحا وقال له في مودة : أسرع يا سيدي ببيان أمرك وكشف الغطاء عن السر الذي أكرمك الله بكشفه .

فقال جحا جادا : هات عشرين رجلا وهـذه تسع عشرة وزة . وسأدخل الوزات إلى هذه الحجرة وسأدخل وراءها الرجال ، وسيخرج كل واحد منهم بوزة كاملة يحملها تحت إبطه .

فلم يبطئ القاضي في فتح الغرفة وأدخل إليها الوزات التسع عشرة ، وأمر عشرين من أتباعه أن يدخلوا مع السيد جحا إلى الحجرة لكي يخرج كل منهم بوزة كاملة تحت إبطه .

ودخلت الوزات ودخل الرجال ودخل جحا وقال للرجال : هلم إلى الوز على بركة الله .

وتزاحم الرجال على الوز وتدافعوا وتضاربوا حتى ورمت منهم الأصداغ والعيون وحتى كسرت منهم الأنوف والأسنان ، وكان كل من يفوز بوزة يخرج ظافرا صائحا داعيا للسيد جحا الحكيم المبارك بالتوفيق والعمر الطويل ، ثم يأخذ في مسح عرقه أو تنظيف الدماء التي نزفت منه أو تضميد الجراحات التي أصابته وينصرف إلى بيته سعيدا . وما زال الواحد منهم يخرج في أثر الآخر بوزة تحت إبطه حتى خرج تسعة عشر رجلا منهم يدعون للسيد جحا ويمسحون العرق والدماء .

وأخيراً خرج الرجل الأخير ، ولكنه كان يحرك يديه واحدة إلى الأمام ، وأخرى إلى الخلف ولم يكن تحت إبطه وزة .

وكان القاضي واقفا خارج الغرفة ينتظر في لهفة ، فلما رأى الرجل الأخير خارجا بيديه فارغتين فتح عينيه من الدهشة ، وامتلأ قلبه بخيبة الأمل ، ولما خرج جحا الحكيم آخر الأمر صاح به القاضي : إنك رجل كاذب ! إنك رجل ساحر !

فقال جحا — ولم الغضب يا سيدي ؟

فقال القاضي — إن الرجل الأخير لم يفز بوزة .

فوقف جحا خطيبا وجعل يقلد دعاة الديمقراطية ويهز يديه متحمسا وقال :

— إن الديمقراطية هي العدل وهي المساواة ، وهي تسوية الفرص بين الناس جميعا حتى لا يحرم أحدهم من فرصة الحياة ، وأخذ يطنب في مدح الديمقراطية وفي عدالتها وفي محاسنها وإنصافها .

فصاح القاضي محنقا : ولكن الرجل التمم للعشرين لم يفز بوزة . إن هذا الكلام كله في مدح الديمقراطية لم يجعل الرجل يخرج من الغرفة بوزة تحت إبطه .

فقال جحا جادا — ولكنه يا سيدي هو المقصر . لقد أتحنا له الفرصة وسوينا بينه وبين غيره فيها ، وكانت له القدرة على أن يصيب فرصته التي لم نمنعه منها ولم نضيق عليه فيها . فإذا كان قد خرج خائبا فهذا ذنبه وحده وليس ذنب الديمقراطية .

ولم يملك جحا عند ذلك أن ضحك ضحكة عالية . فإن الموقف كان مضحكا حقا . وتنبه القاضي إلى السيد جحا الحكيم وعرف أنه لم يكن جادا ولم يجيء لكي يكشف سرا جديداً وهبه الله له ، بل جاء ساخرا من أقوال الخطباء الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

وذهب عنه مغضبا على حين كان الناس يضحكون ويصيحون إعجابا بحكمة جحا الحكيم .

تذكرت هذه القصة الصغيرة ، في هذه الأيام التي لا يخلو فيها يوم من ذكر الديمقراطية والتعليم ، وتسوية الفرص فيه للناس جميعا وإباحته لكل طلابه من رجال ونساء ، وأغنياء ، وفقراء . تذكرت هذه القصة عندما تذكرت أن دور التعليم المرغوب فيه تتسع لخمسين ألفا على الأكثر على حين يبلغ طلاب ذلك التعليم ثلاثة ملايين . ومع ذلك يقول أصحاب الأحاديث إن التعليم حر مطلق للجميع لا فرق فيه بين غني وفقير ولا بين مدلل ورقيق . تذكرت هذه القصة عند ما ذكرت الناس وهم يتزاحمون على دور

ستالين يشرح مذهبه

(في مقالين هذا ثانيهما)

إذا كانت الطبيعة ، أو الوجود ، أو العالم المادي ، أمراً ابتدائيا ؛ والعقل ، أو الفكرة ، أمراً ثانويا ، ومشتقا من غيره . وإذا كان العالم المادي يمثل الحقيقة الموضوعية ، مستقلة عن الذهن البشري ، في حين أن العقل إن هو إلا انعكاس لهذه الحقيقة الموضوعية ، فانه يترتب على ذلك أن حياة الجماعة المادية ، وكيانها ، هي كذلك أمر ابتدائي ، في حين أن حياتها الروحية أمر ثانوي ، ومشتق من غيره ، وأن حياة الجماعة المادية حقيقة موضوعية مستقلة عن إرادة الإنسان ، في حين أن حياة الجماعة الروحية ان هي إلا انعكاس لهذه الحقيقة الموضوعية ، أو انعكاس للوجود .

ومن ثم فعلينا أن نلتمس مصدر تكوين الحياة الروحية للجماعة ، ومنشأ النظريات الاجتماعية ، والآراء والنظم السياسية ، في ظروف الحياة المادية للجماعة .

ولقد فشل أكثر أصحاب « المدن الفاضلة » لأسباب عديدة ، منها أنهم لم يدركوا الدور الابتدائي الهام الذي تلعبه ظروف الحياة المادية للجماعة في تطور المجتمع . أنهم اتخذوا المذهب المثالي ، ولم يؤسسوا حركاتهم العملية على حاجات تطور حياة الجماعة المادية . إنما أسسوها على قواعد مستقلة عن هذه الحاجات ، بل ومناقضة لها . أسسوها على « خطط مثالية » و « مشروعات عامة » لا صلة بينها وبين حياة الجماعة الواقعية .

إن قوة حركة لينين الماركسية وحيويتها تنحصر في أنها تقيم نشاطها العمل على حاجات تطور حياة الجماعة المادية ، ولا تفصل نفسها البتة من حياة الجماعة الواقعية

وعلينا الآن أن نوضح هذا السؤال : ما معنى (ظروف الحياة المادية للجماعة) عند أصحاب مذهب المادية التاريخية ؟ تلك الظروف التي تتشكل بها صورة المجتمع ، وأفكاره وآراؤه ونظمه السياسية ، وما إلى ذلك . ما هذه الظروف المادية وما أهم خصائصها ومميزاتها ؟

ليس من شك في أن فكرة (ظروف الحياة المادية للجماعة) تشمل أولاً وقبل كل شيء الطبيعة التي تحيط بالجماعة ، أي البيئة الجغرافية ، وهي من ظروف الحياة المادية التي لا غنى عنها والتي لا تتغير ، والتي — بطبيعة الحال — تؤثر في تطور المجتمع . ما هو الدور الذي تلعبه البيئة الجغرافية في تطور المجتمع ؟ هل البيئة الجغرافية هي القوة الرئيسية التي تعيّن صورة المجتمع ، ولون النظام الاجتماعي ، والتحول من نظام إلى آخر .

التعليم ، حتى اكتظت بهم المقاعد وسدت بهم الأبواب وضاقت عليهم الأنفاس من شدة الزحام ، ومع ذلك عاد الكثيرون بالخيبة ، ولم يستطع دخول المدارس إلا بضعة ألوف ، ثم ماذا ؟ ثم لم ينعم الجميع شيئا ، لأنهم كانوا في شغل من الزحام . ومع ذلك يقول المتحدثون في الأحاديث أقوالاً منمقة في مدح الديمقراطية والعدالة ، مع أن الجميع يؤمنون بذلك ولا ينكرونه . فإذا سألهم السائل عن الأرقام والإحصاء ، وعن قواعد التعليم وطبائع النفس قالوا في فكاهة عذبة : نحن لا نعترف بالأرقام والإحصاء ، ولا بالتعليم وقواعده ولا بطبائع النفوس ووساوسها .

ثم قالوا في جد وصرامة :

« لقد فتحنا الأبواب ، وسوينا في الفرص ، وليس العيب إلا فيمن عجز عن الدخول ، وإن المجرم من يحاول التنظيم أو الاحصاء أو يعترف بقواعد يسميها قواعد التعليم . إنها الفكاهة تذكرنا بفكاهة جحا الحكيم . وليس لنا أن نأخذ الفكاهة بالجد الصارم كما فعل القاضي الحنق ، بل يجدر بنا أن نضحك وأن نشارك في تقدير المزاح . وأن نجعل الابتسامة تتنفس في الجو الحار فتذهب بحرارته . إنها لفكاهة جديرة بالسيد جحا الحكيم .

محمد فريد أبو حديد

إن المادية التاريخية تجيب عن هــذا السؤال بالنفى . لا جدال فى أن البيئة الجغرافية ظرف دائم لا غنى عنه من ظروف تطور المجتمع ؟ ولا جدال فى أنهــا تؤثر فى تطور المجتمع ، وتنهض بمستواه أو تهبط به . ولكن تأثيرها ليس بالحاسم القاطع ، لأن تغير المجتمع وتطوره يسير بسرعة تزيد نسبتها كثيراً على سرعة تغير البيئة الجغرافية وتطورها؛ فنى مدة ثلاثة آلاف عام سادت أوربا ثلاثة نظم اجتماعيــة مختلفة : أولها النظام الاشتراكى البدائى ، ثم نظام الرق ، ثم نظام الإقطاع بل لقد ساد فى شرق أوربا ، فى اتحاد روسيا السوفيتية نظام رابع . مع أن الظروف الجغرافية فى هذه الفترة فى أوربا لم تتغير البتة أو تغيرت تغيراً طفيفاً لا تأبه به الجغرافيا . وهذا أمر طبيعى ، لأن أى تغير له خطره فى البيئة الجغرافية يحتاج إلى ملايين الأعوام ، فى حين أن بضع مئات من السنين أو ألفى عام تكفى لإحداث تعديل هام فى نظام الجماعة الإنسانية .

ويترتب على ذلك أن البيئة الجغرافية لا يمكن أن تكون السبب الرئيسى ، أو السبب الذى يعين التطور الاجتماعى . لأن ما يبقى ثابتاً لا يتبــدل خلال عشرات الآلاف من السنين لا يمكن أن يكون أهم الأسباب فى تطور ما يتبدل تبدلا محسوساً خلال بضع مئات من السنين .

ولا مراء فى أن «الظروف المادية لحياة الجماعة» تشمل كذلك نمو السكان وكثافتهم ، لأن السكان عنصر هام من عناصر ظروف حياة الجماعة المادية . ولا يمكن أن تتوفر الحياة المادية للمجتمع بغير عدد معين من الناس . فهل نمو السكان هو القوة الكبرى التى تحدد صفة النظام الاجتماعى

تجيب المادية التاريخية عن هــذا السؤال بالنفى . لا جدال فى أن نمو السكان له أثره فى تطور الجماعة ، ولا جدال فى أنه يسهل أو يعرقل التطور . ولكنه ليس القوة الرئيسية فى تطور الجماعة ، وليس أثره فى التقدم هو الأثر الأكبر . لأن نمو السكان وحده لا يفسر لنا لماذا يحل نظام اجتماعى معين — دون غيره — محل النظام السائد ، ولماذا أعقب نظام الرق — دون غيره من النظم — النظام الاشتراكى البدائى ، ولماذا أعقب نظام الاقطاع نظام الرق ، وأعقبت الرأسمالية الاقطاع .

إذا كان نمو السكان هو القوة التى تحدد التطور الاجتماعى لتبع ذلك أن غزارة السكان تؤدى إلى رقى النظام الاجتماعى . ولم يكن الأمر كذلك فيما انقضى من التاريخ ، فإن غزارة السكان فى الصين أربعة أمثال ما هى عليه فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك فلا شك فى أن الولايات المتحدة أرقى من الصين من الناحية الاجتماعية ، لأن الصين ما زالت تخضع لنظام شبيه بنظام الاقطاع ، فى حين أن الولايات المتحدة بلغت أرقى نظام رأسمالى من زمان بعيد . وكثافة السكان فى بلجيكا تسعة عشر مثلا منها فى الولايات المتحدة ، وستة وعشرين مثلا منها فى روسيا السوفيتيــة ، ومع ذلك فالولايات المتحدة أرقى اجتماعيا من بلجيكا ، واتحاد روسيا السوفيتية يتقدم جيلا تاريخيا بأسره على بلجيكا ، لأن بلجيكا يسود فيها النظام الرأسمالى ، فى حين أن النظام السوفيتى قد تخلص من هــذا النظام وأقام فوقه نظاما اشتراكياً .

ويترتب على ذلك أن نمو السكان لم يكن ، ولن يكون ، القوة الرئيسية فى تطور الجماعة ، القوة التى تحدد لون النظام الاجتماعى وصورة المجتمع .

وللقارىء أن يسأل : ماذا عسى إذاً أن تكون القوة الكبرى فى ظروف الحياة المادية المعقدة ، القوة التى يتشكل بها المجتمع ، والتى يتلون بها النظام الاجتماعى ، والتى تحدد تطور الجماعة من نظام إلى نظام .

هذه القوة — عند أصحاب مذهب المادية التاريخية — هى « طريقة الحصول على وسائل العيش » الضرورية لبقاء الإنسانية ، أو هى « طريقة انتاج الأشياء المادية » — المأكل والملبس ، والوقود ، وأدوات الانتاج ، الخ —

وهي الأشياء التي لا غنى عنها لحياة الجماعة وتطورها .

لابد للناس لكي يعيشوا من طعام ولباس ومأوى ووقود ، وغير ذلك . ولكي تتوفر هذه الأشياء ذات القيمة المادية ، لابد للناس من إنتاجها . ولا بد لهم لكي ينتجوها من أدوات الانتاج التي يخرجون بها الغذاء والكساء والمأوى والوقود ، الخ . . . أي لابد لهم من القدرة على إنتاج هذه الآلات وعلى استخدامها .

إن « آلات الإنتاج » التي تصنع بها الأشياء ذات القيم المادية ، و « الناس » الذين يديرون هذه الآلات وينتجون الأشياء المادية ، بفضل خبرتهم في الانتاج ومهارتهم في العمل — هي العناصر التي تتألف باتحادها قوى الانتاج في المجتمع .

غير أن قوى الإنتاج ليست سوى وجه واحد من أوجه الانتاج ، وهي الوجه الذي يمثل العلاقة بين الأفراد من ناحية والأشياء وقوى الطبيعة من ناحية أخرى ، الأشياء والقوى التي يستغلونها في انتاج الماديات . وثمة وجه آخر من أوجه الانتاج ، وهو علاقة الفرد بالفرد في عملية الانتاج ، ولنطلق عليها اسم « علاقات الانتاج » للأفراد . إن الناس يكافحون الطبيعة ويستغلونها في إنتاج الأشياء المادية ، لا وهم فرادى ، ولكن جماعات . وإذاً فالانتاج هو في جميع الأوقات وتحت كل الظروف إنتاج « اجتماعي » . والأفراد — وهم ينتجون أشياء لها قيمة مادية — يتبادلون العلاقات ، وقد تكون هذه العلاقات تعاوناً بين الأفراد المتحررين من الاستغلال ، وقد تكون سيادة وإخضاعاً ، وقد تكون غير ذلك .

ولكن مهما تكن صفة علاقات الانتاج ، فهي دائماً وفي كل نظام عنصر من عناصر الإنتاج لا يقل أهمية من قوى الانتاج في المجتمع . يقول ماركس : « يتوقف الانتاج على الطبيعة كما يتوقف على علاقة الأفراد بعضهم ببعض . فالناس ينتجون بالتعاون بطريقة معينة ويتبادل النشاط . ولكي يستطيعوا الانتاج تقوم بينهم علاقات وروابط معينة ، ولا يتم استغلال الطبيعة — أو الانتاج — إلا في حدود هذه الروابط والعلاقات الاجتماعية » .

ومن خصائص الانتاج أنه لا يقف عند نقطة معينة فترة طويلة من الزمن ، إنما هو دائماً في حالة تغير وتطور . ومن خصائصه كذلك أن تغير طريقته يستدعي حتماً تغيراً في النظام الاجتماعي بأسره ، وفي الآراء الاجتماعية ، والأفكار والنظم السياسية . إنه يستدعي إعادة بناء النظام الاجتماعي والسياسي بأسره . وفي مراحل التطور المختلفة يستغل الناس طرائق الانتاج المختلفة ، أو قل إنهم يسلكون في الحياة مسالك مختلفة ؛ ففي الجماعة البدائية طريقة ما للانتاج ، وفي ظل نظام الرق طريقة أخرى ، وتحت النظام الاقطاعي طريقة ثالثة وهكذا . ويقابل ذلك اختلاف في النظام الاجتماعي ، وفي حياة الأفراد الروحية ، وفي آرائهم ونظمهم السياسية .

ومهما تكن طريقة الانتاج في المجتمع ، فإن المجتمع يصاغ على صورتها ، وكذلك تصاغ أفكاره ونظرياته وآراؤه ونظمه السياسية . ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى إن طريقة تفكير المرء صورة من طريقة حياته . ومعنى ذلك أن تاريخ تطور الجماعة هو قبل كل شيء تاريخ تطور الانتاج أو تاريخ طرائق الإنتاج التي يتلو بعضها بعضاً خلال القرون ، أو تاريخ تطور القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج بين الأفراد .

ومن ثم فإن تاريخ التطور الاجتماعي هو في نفس الوقت تاريخ منتجي المواد المادية ، أو تاريخ الطبقات العاملة ، التي هي القوى الرئيسية في عملية الانتاج ، والتي تقوم بانتاج المواد القيمة اللازمة لبقاء المجتمع .

ومن ثم ، فاذا كان علم التاريخ سيصبح علماً حقيقياً ، فلا بد له ألا يخضع تاريخ التطور الاجتماعي لأعمال الملوك والقواد ، وإنما ينبغي له قبل كل شيء أن يكرس نفسه

لدراسة تاريخ منتجي الأشياء المادية ، أو تاريخ الطبقات العاملة ، أو تاريخ الشعوب .

ومن ثم فان مفتاح دراسة قوانين تاريخ الجماعة ، لا يوجد في عقول الرجال ، أو في آراء وأفكار الجماعة ، وإنما يوجد في طريقة الانتاج التي يمارسها المجتمع في أية فترة تاريخية ، أي في الحياة الاقتصادية للمجتمع .

ومن ثم فان الواجب الأول على علم التاريخ أن يدرس قوانين الانتاج وأن يكشف عنها ، وهي قوانين تطور القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج ، أو قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع .

ومن ثم فاذا كان حزب العمال يريد أن يصبح حزبا حقيقيا ، يجب عليه قبل كل شيء أن يعرف قوانين تطور الانتاج ، أو قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع .

ومن ثم فلكي لا يخطىء حزب العمال في السياسة ، ينبغي له عند ما يرسم خطته ويعين نشاطه العملي أن يبدأ السير أولاً من قوانين تطور الإنتاج ، أو قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع .

وخصيصة أخرى من خصائص الانتاج هي أن تطوره والتغيرات التي تطرأ عليه تبدأ دائما بتغير وتطور القوى الإنتاجية وآلات الانتاج . ولهذا فان قوى الانتاج هي أكثر عناصر الانتاج حركة وثورة . تتغير القوى الانتاجية للجماعة وتتطور أولاً ، ثم يتبع هـذا التطور وذلك التغير تغير العلاقات الانتاجية والعلاقات الاقتصادية بين الأفراد ؛ ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن علاقات الانتاج لا تؤثر في تطور القوى الانتاجية ، أو أن هذه القوى لا تعتمد على تلك العلاقات . هذه تؤثر في تلك ثم تعود فتتأثر بها ، أي أنهما تتفاعلان . ونلاحظ في هـذا الشأن أن علاقات الانتاج لا يمكن لفترة طويلة أن تتخلف وراء قوى الانتاج أو أن تناقضها ، وكذلك قوى الانتاج لا تتقدم إلى أقصى ما تستطيع إلا إذا سايرها تقدم في علاقات الانتاج .

واليك مثالاً لم تساير فيه علاقات الانتاج القوى الانتاجية : ذلك هو الأزمة الاقتصادية في الدول الرأسمالية ؛ وذلك لأن الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج لا تتفق البتة والصفة الاشتراكية لعملية الانتاج وللقوى الانتاجية . وقد انتهى ذلك بأزمة اقتصادية قد تؤدي إلى تحطيم قوى الانتاج . وهذا الخلاف — من ناحية أخرى — يتكون منه أساس الثورة الاجتماعية التي ترمي إلى تحطيم علاقات الانتاج القائمة وإلى إيجاد علاقات جديدة للانتاج تتفق ونوع القوى الانتاجية .

وعلى نقيض هذا المثال ما يحدث في الاقتصاد القومي الاشتراكي في روسيا السوفيتية ، حيث تساير علاقات الانتاج نوع القوى الانتاجية . هنا تقابل الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج عملية الانتاج الاشتراكية ، ولهذا فالروسيا لا تعرف الأزمات الاقتصادية ولا انهيار قوى الانتاج .

ولقد عرف التاريخ خمسة ضروب أساسية للعلاقات بين الأفراد في عملية الانتاج : الشيوعية البدائية ، ونظام الرق ، ونظام الاقطاع ، والرأسمالية ، والاشتراكية — وهي أحدثها وأرقاها .

محمود محمود

أحاديث عن مراكش

الجيل الجديد

كان المارشال ليوطي — عميد الحماية الفرنسية فى مراكش — يدرك تمام الإدراك الصعوبات التى تكتنف هذه الحماية بين قوم ألفوا الاستقلال ، فكان يوصى بالتؤدة فى السير ريثما ينشأ جيل جديد لا صلة له بالماضى ، ترضعه فرنسا من لبانها وتستدرجه باللين ، فيكون فى استطاعته أن يفهمها ويقدرها ويخنع لها فى نفس الوقت ، وعندئذ يتحرر الشعب المراكشى على يد حماته ، من النزوع إلى الحرية والاستقلال ..

هذا هو المبدأ الذى وضعه دكتاتور مراكش وطاغيتها ، وقد سهر على تنفيذه هو وخلفاؤه من بعده بكل دقة وبذلوا كل مجهود ليستخلصوا عقلية النشء الجديد لفرنسا وحدها .

وقد مر الآن على هذا ثلث قرن ، ونشأ الجيل الجديد الذى بشر به المارشال ، فهل حقق ما كان يرمى إليه ؟

إن كل من يزور مراكش اليوم من الأوربيين يدهش لهذا الانقلاب الرائع الذى شمل أوضاع الحياة كلها ، ذلك أن الناس فى الخارج يعتقدون — نظراً إلى أن مراكش دولة مقفلة لا تتسرب منها الأخبار — أنها ماتزال كما كانت فى الجيل الماضى حينما سقطت ، وأنه سوف يمر عليها زمن طويل قبل أن تستطيع الاستيقاظ من جديد .

ولقد بذل الفرنسيون كل مايملكون من قوة لأجل أن يبقى هذا الشعب كما كان ، فأشرعوا على كل مقاوده ووضعوا العراقيل أمامه لكى لا يهتدى إلى طريق النور ، وكانت المجهودات التى بذلوها فى هذا السبيل جبارة حقا ، ولكن مع ذلك استطاعت مراكش أن تنجب جيلا جديداً انبثق من بين أطلال الماضى القريب .

وعناصر القوة فى هذا الجيل الجديد مستمدة من روح مراكش القومية ، وهى روح الاعتزاز بالنفس ، والتوثب للعمل ، والنزوع إلى التطور ، وهى أوصاف خادة سببت للدولة اتعابا فى عهد الاستقلال ، غير أنها اليوم أصبحت تعمل لصالحها بعد أن سار الشعب هدف مشترك يرمى إليه .

فتح الجيل الجديد عينيه فى أمة يسودها الحزن والحسرة وخيبة الأمل ، وما يزال الأفق يردد بقية من أصداء الانهيار وفى عروقه دماء الرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين ، ونظر يمينا ويسارا فإذا بالوجوه مصوبة إليه وقد علاها مزيج من الخوف والتوسل والأمل ؛ وتسمّع حوله فلم يسمع غير أقاصيص المجد الذاهب تتخللها الزفرات والحسرات .

وفى نفس الوقت كان الجيل فى صباه يسمع أخبار الحروب التى اندلعت فى الشمال والتى خاضها الأمير عبد الكريم ما يزيد على خمس سنوات ، وأخبار الحروب التى شبت فى الجنوب ما يزيد على عشرين سنة . وبذلك استطاع أن يفهم منذ عمر مبكر أن هناك قاهرا ومقهورا ، وبذلك أيضا لم تضع هدراً تلك الدماء الزكية التى سفكت ، لأنها بذرت فى أقاليم مراكش بذور الحرية والاستقلال .

ولقد كان الفرنسيون بالرغم من ذلك ينتظرون أن يألفهم الجيل الجديد ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فإن الأمم خالدة على مر العصور ، وتاريخ الشعوب يتصل فى حلقات لا انفصام لها ، وما الحاضر إلا خلاصة الماضى الذى لا يمكن أن يزول أثره فى شعب من الشعوب . ومن هنا جهالة الذين وضعوا نظرية فصل الجيل الجديد وبتره عن ماضيه ، ومن هنا ضاعت تلك الجهود التى بذلها الفرنسيون هباء .

شب الجيل الجديد سليم النية ، يؤمن بالحرية دون أن يفكر فيها كما يستنشق الهواء دون أن يفكر فيه . كان على استعداد لعمل الخير والمشاركة فى كل عمل يمكن أن يؤدى

إلى الخير ، ولكن كثرة اصطدامه بالفرنسيين جعلته يتساءل : « ومن هؤلاء ؟ » ولم يكد يتم سؤاله حتى تلقى على خده صفعة قوية أيقظته من أحلامه البريئة . لقد سأل السؤال الذى بذل الفرنسيون كل ما يستطيعون لكى لا يسأله ، فلما نطق به كان ذلك بمثابة إنذار لهم . ولذلك صفعوه ، وقد آثروا أن ينالوا بالقوة ما لم ينالوه بالمراوغة ، فكان جوابهم : « نحن سادتك » .

فى تلك اللحظة بالذات ولد الجيل الجديد ، ولد على أثر صفعة . ولقد ظلت هذه الحقيقة ماثلة دائماً أمامه ، وبها يتكيف تاريخ مراكش الحديث . تغير رأى الجيل فى وضعية بلاده تغيراً تاماً ، فليست هذه الحماية الحريرية المظهر إلا كبلا رهيباً صفدت به الأمبراطورية التى أنشأها الرابطون ؛ أما العصر الجديد الذى بشرت به الحماية فقد انهار ، كما تنهار خرافات الشمودين .

وفى الوقت نفسه كان سيل من الأفكار الجديدة قد بدأ يغمر المدن ، وهو يتدفق من مصر وأوربا ، فأخذت النهضة شكلا عاطفيا وفكريا فى آن واحد ، وكان الجيل الجديد هو عمدة هذه النهضة . أما الأفكار الجديدة التى لم تعرفها مراكش من قبل فيسميها الفرنسيون كفرا وتنكرا وصلفا ، ويسميها المراكشيون إيماناً ووفاءً واعتزازاً .

وهو جيل قد ربى نفسه بنفسه ، أى أن النهضة فى جوهرها انبعثت من قلب مراكش النابض ، فالحكومة لم تنشئ له إلا مدارس تافهة لا يمكن أن تنتج نهضة ، ولم تكن هناك صحف ولا كتب تستطيع أن توقظه ، الأمر الذى جعله يتعثر فى أيامه الأولى ، ولكنه مع ذلك اهتدى بفطرته إلى الطريق التى حجبت عنه ، فأصبحت النهضة اليوم راشدة تعتمد على الأفكار النيرة والمبادئ الناضجة ؛ وقد مكنها ذلك من أن تعرف وضعيتها ومن أن تعرف ما يضرها وما ينفعها ، وبذلك انعكست الآية وأصبحت النهضة واقفة فى طريق الحماية بعد أن كانت الحماية واقفة فى طريق النهضة ، وبذلك أيضا يمكن أن نقول إن النفوذ الفرنسى المتوغل قد توقف فى زحفه وإن النهضة القاهرة قد أوشكت أن تستغرقه .

وتمثل الخدمات التى يقدمها الشباب إلى البلاد أزكى حركة فيها ، سواء من الناحية السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية ، فقد أدخل النظام الحزبى إلى مراكش منظما على أحدث طراز وأنشأ هيئات دعائية فى الخارج كما أنشأ الصحف المعارضة القوية وكذلك المجلات وأصدر الكتب العلمية والأدبية . وأنشأ العشرات من المدارس فى المدن والقرى ، وأوفد البعثات إلى مصر وإلى أوربا وأنشأ الجمعيات الخيرية وبعض المنشآت العامة ، وهو لا يعتمد فى هذه الأعمال إلا على نفسه ، ويتغلب على كل العراقيل التى تضعها سلطة الحماية فى طريقه ، ولقد امتازت هذه المشروعات كلها بالدقة والمثابرة والتنظيم . ونستطيع أن نقول إن كل تقدم فى البلاد يرجع الفضل فيه إليها .

على أنه يجب أن نلفت النظر إلى فداحة الضريبة التى يدفعها الجيل إلى سلطة الحماية فى هذه الأعمال . ولست أعنى الضريبة التى يدفعها من ماله ، ولكن التى يدفعها من دمه ومستقبله وحياته ؛ وهو يتحمل كل هذا راضيا ما دامت الضريبة الفادحة التى يدفعها عن أعمال مثمرة .

ولو أن أجنبيا درس وضعية البلاد الحاضرة ومبلغ الخطر الذى يتهددها فى صميمها لما كان من المستغرب أن يفضى به هذا الدرس إلى اليأس ، ولكن الجيل الجديد عاجز حتى من تصور هذا اليأس ، لأن النهضة اليوم يدعمها الإيمان أولاً والتفكير ثانيا ، ولا يكاد يوجد شاب فى مراكش لا يعمل على تحقيق آمال بلاده فى هذه السنة أو تلك ؛ ومن هنا مرارة الصراع بين الفريقين ، فإن مطالب كل واحد منهما بالنسبة للآخر يلفت غاية من الفداحة لا تطاق .

ومما يزيد هذه النهضة قوة أن هدفها لا يتجزأ ، فهى

اليقظة الروحية فى الشرق

[سلسلة الكتب المسماة P. E. N هى سلسلة تصدرها هيئة دولية من أرباب القلم لتوطيد صلات التعارف والتعاون الثقافى بين الكتاب فى كل دول العالم ، والعمل على تنمية الذوق الأدبى وتوفير حرية الكتابة والتعبير وحسن النية فى العلاقات الدولية .

والكتاب الذى لخصته فيما يلى أحد هذه الكتب . ألفه عضو من أعضاء الهيئة كدراسة عابرة عن الأدب الصينى]

كانت حضارة الصين القديمة تشبه نهراً رئيسياً ينساب هادئاً خلال واد بين جبال عذراء ، وكانت تتفرع من النهر جداول ثانوية ، ولكنه ظل ينساب لا يغير شيء من مجراه حتى نهاية القرن الماضى عندما نازل النهر مرغماً بحر الثقافة العالمية ، فكانت زوبعة واضطراب تمخض عما سمى بعد بالثورة الأدبية .

وفى تحليل المؤلف لعناصر هذه الثورة وبدء التحلل من القديم يذكر كيف وقفت اللغة كالسد الأول فى تيار تقدم الجمهورية الصينية .

كانت اللغة القديمة وسيلة الكتابة ، وأسلوب الحياة العلمية والعامة ، وظلت مكانتها مقدسة حتى انهيار أمبراطورية منشو فى أوائل القرن العشرين ، وكانت هذه اللغة تختلف عن اللغة الدارجة فى الجوهر (شأن اللغة العربية الفصحى والعامية) . وعلى الفرد قبل أن يتاح له أن يشغل وظيفة أو عملاً ما أن يجتاز امتحان الأمبراطورية الذى كان يستدعى التعمق فى دراسة اللغة القديمة المعقدة .

عقبة كانت تعنى أن أغلبية عظمى من الجمهور الصينى لن تدرك فى المستقبل القريب إلا قشور التعليم ، مع أن البلد فى أشد حاجة إلى تفتح أذهان أبنائه فى عصر التقدم خصوصاً وأن من يمينها جارة تعدو فى طريق التطور الحديث وتهدد سلامة الصين .

كان الشباب الصينى من حسن التبصر بحيث لم يحكم عاطفته فى حل المشكلة ، فقر الرأى على جعل العامية لغة الكتابة ، وعن هذه الخطوة يقول هسايوتشن المؤلف :

« لم يكن هذا العمل عملا معقولا ومناسبا فقط ، بل كان الأسلوب العامى أبلغ فى التعبير ولا تكلف فيه ،

— « وحق للصين أن تفخر بهذا الإصلاح الباهر وأن تطلق عليه عصر النهضة . لقد كان — كمحاولة فى تطبيق الديموقراطية على اللغة نتيجة ليقظة الفرد — عصر نهضة عن حق ، وأهم حدث فى خمسة آلاف سنة »

ولم تكن المخترعات الغربية الحديثة سبب التغيير فى

تؤثر أن تشق طريقها إلى العصر الجديد قدما ، دون أن تتوسل إلى ذلك بالمسالك الملتوية التى قد تفضى وقد لا تفضى ، ولذلك فإن الماركسيين يسيرون من كل حدب وصوب نحو الحجة الرئيسية الواضحة وعيونهم مثبتة فيها ، غير عابئين بالفخاخ التى تنصب لهم ، وهم لا يعترفون بالقوة المادية مهما كان فتكها بهم شديدا .

* * *

هكذا يكافح الفجر الجديد عناصر الظلام لكى ينبثق فى البلاد . وهكذا يكفر الأبناء عن خطايا الآباء ، وهم مغتبطون ، لأنهم بذلك يزيلون من أنهم مراكش العار الذى لحق بها . على أن هذا المستقبل الموعود قد بدأت تظهر تباشيره فعلا ؛ فالماركسيون اليوم يتطلعون بقلوب واجفة وأنفاس محبوسة ووجوه مكدودة نحو الأفق يستقبلون فجر العصر الجديد ، ولكن بريق الإيمان والأمل فى عيونهم يطغى على تقاطيع وجوههم الكالحة . أجل ، إنه الفجر ! لقد انبثق الفجر فى أرض الغروب كما قال أحد الانكليز ..

عبد الحميد بن جلون

نظرة الصين العامة للحياة ، وإنما كان للنشاط الشامل في ترجمة الأدب الغربي أكبر نفوذ إيجابي على الإصلاح ؛ فمن أدب روسو ومل وداروين وسبنسر وبرتراند رسل عرف أبناء الصين معنى الديموقراطية إلى جانب تحصيل العلم ، ورفع لهم الستار عن حقوقهم الأساسية كمخلوقات بشرية . وقد كان التخلص من النظام الأمبراطوري آخر خطوة توجت تحرر الصين السياسي .

وكان من العجيب أن تقدم الصين — بتاريخها الثقافي العتيد وعزلتها التامة حتى القرن الماضي — على تغييرات حيوية بمثل تلك السهولة ، وهي التي حتى نصف قرن مضى مازالت تفضل المعاهدات الجائرة على مواجهة حقائق الحياة القاسية !

ويفسر المؤلف السبب بأن القرن التاسع عشر كان يقف أمام الصين كالشبح المرعب ، كانت فترة سادها الهوان والمذلة في الخارج ، وانتشر في الداخل الانحلال والفساد مصحوبين بالفاقة والجهل والأمراض وكل سموم الأمبراطورية متعفنة . أمبراطورية كانت تلفظ النفس الأخير والدول الأجنبية تشهر لها مبضع التشريح . فلم يحاول شباب الصين أن يستهينوا بالخطر المحدق بهم بعد أن رأوا مصير الهند وكوريا ، ولم يعودوا يحتملون تقاليد تغل أقدام النساء وتحني ظهور الرجال . فانبعثت ثورة سياسية واجتماعية وثقافية ، وكان الأدب الحديث قائد هذه الثورة ووسيلة تدوينها والمرآة التي انعكست عليه :

فظهرت في ربع القرن الأخير مئات الروايات وآلاف القطع الشعرية والمقالات في الأسلوب الديموقراطي الجديد وكلها تؤكد كفاءة اللغة وسعتها للتعبير عن كل درجات العواطف البشرية ووصف كل ما على سطح البسيطة تدرجا من أرجل الحشرة إلى مناظر الشلالات الجبارة . كانت الوسيلة الجديدة ضرورة للتعبير عن الصين الجديدة ، وأصبحت هذه اللغة الحية الممر الطبيعي لكتاب الصين المعاصرين .

وعن فروع الكتابة يقرر المؤلف أن أروع محصول الصين الأدبي في العصر الحديث هو في ناحية التأليف الروائي ، إذ في هذا الميدان كان التباين بين القديم والحديث على أشده ، فبينما كانت الرواية إلى عهد قريب تعد نوعا من الكتابة الرخيصة المبتذلة ، أصبحت الآن من أحب أنواع التأليف للكتاب وأكبرها رواجا بين الشعب ، وتكشف عن وعي عما تقتضيه من المهارة الفنية والصنعة القصصية ، والكتاب هم في أكثر ما يكتبون دعاة الإصلاح الاجتماعي ، يعتقدون أنه من العار أن يهبطوا إلى الكتابة لمجرد تسلية الجماهير وتملقهم ، ولذا لا نجد أن القصة البوليسية أو الرواية الفكاهية تحتل مكانة ما في إنتاجهم ، وإنما كان التحليل الدقيق لنواحي الضعف في الشعب والوعي بحق الفرد وتأكيد إدراكه السياسي والاجتماعي هو ينبوع إلهامهم والقوة التي ترشدهم في التأليف وهم كذلك على وعي بقيمة التجارب الشخصية للكتابة الحية ، وعلى علم بما في حياة الفاقة والتشرد والبؤس من ثروة لمادة التأليف ، وقد كان بعض الكتاب ضحية تلك البيئة الفاسدة والتشرد ، والبعض كان يخرج متعمداً البحث عن تلك الحياة ، فمن اعترافات الكاتبة مس تساومنج .

« في أوائل السنة التاسعة من عمري فلما كانت وسادتي تجف ، كنت الثالثة والعشرين من أبناء أبي مزواج ، ولم تكن أمي سوى محظيته ، ولما بلغت العاشرة كنت نحيفة هزيلة أبدو كأني في السادسة ، وكثيراً ما كانت أمي تحتضنني مداعبة دقني البارز وضفيرة شعري وهي تقول : من قسوة الأقدار أن تكوني امرأة وأن تكوني هكذا نحيفة . »

وفي اعترافات أخرى تصور نفسها تركع أمام الإله كنفوشيوس تبكي في حرقة وتسأله في ضراعة :

«أبي . هبني فرصة للدراسة ولا تتركني للزواج المبكر» كان المقدر لها أن تزف إلى صبي مريض على سرير

الموت ولم تكن قد رأته قط فى حياتها .

واضطراب الحياة فى الصين لم يساعد على استقرار الكتاب فى بقعة ثابتة ، ولكن معظمهم ظلوا بطبيعة الحال أكثر تعلقا بالناحية التى ألفوها أكثر من غيرها . ويعترف الكاتب شن تسونج ون بتأثير النهر على كل إنتاجه الأدبى ، فيكتب :

لم أبن أعمالى فى أسسها على حزمة من الكتب ، وإنما بنيتها على المياه .

وأجل أساتذتى كان رذاذ الماء المتساقط من رفرف الأسطح .. ماء جدول جار .. أو مياه المحيط . إلى أدين بكل قدرتى على استعمال عقل الحدود لتأثير المياه . أدين لها بمادتى فى النفاذ إلى ماوراء ظاهر الأشياء .

فى طفولتى كان النهر ملجأى ، وفى الخمس السنين التى تلت بلوغى قضيت حياتى على ضفة نهر تسين . فى كل مرة أستعيد الماضى تقف أسمد ذكرياتى ممزوجة بالماء . لا أقل من عشر عمرى صرفته عند مجارى المياه الأصلية وجداول النهر الفرعية . من انسياب المياه تعلمت الكثير من دنيا البشرية . فالنهر هو الذى أعطى لخيالى أجنحة يحلق بها .

كان النهر غالباً مسرح كتاباتى ، كتبت عنه بفيض من الحب ، وشخصيات رواياتى هى تلك الوجوه المألوفة على النهر ، إذا اتسمت كتابتى بطابع الحزن ، فالجو القاتم فى ذلك الركن من الصين هو السبب ، وإذا كان فيها ما يستحق التأمل ، فلأن اللمة من رأيتهم على ذلك النهر كانت غنية مزدهرة .

تغربت خمس سنوات فى بيكنج ثم ذهبت لأقيم بجوار البحر ، البحر البراق الذى يختطف البصر ولا تحده العين ، فشاهدت الحياة من زاوية قصية . ما أشد وحدة البحر ، إنه يغذى فى إحساس الخلوة والعزلة ، ويوسع أفق روحى ويفسح لشخصيتى الطريق .

ثم مرت الصين بفترة الانتقال فى إصلاح شأن العائلة فحركت الصلة بين الجنسين إلهام الكتاب وجدلهم ، وأدرك كل شاب حقه الطبيعى فى اختيار شريكة حياته فى وقت لم تكن الصين قد تخلصت نهائياً من تقاليد الزواج القديمة واختيار العروس بواسطة الأهل . فشاعت الاعترافات الأدبية وتطرق البعض إلى إعلان تعطش الثورة ، وإحساس التلهف بعد كبح دام قروناً طويلة . وفى رواية « المأوية » يحلل الكاتب وشباب المثل فى هذه الكلمات الساذجة ولكنها بالغة التعبير .

« بالحياتى الراكدة وأنا فى العشرين ، بالحكومة الرماد الميتة التى كنتها فى العشرين التى أستحيل إلى معدن آخر ، أحس أنى لن أزدهر فى معدن هذا الجسد . المعرفة لم تعد بغيتى ، كلا ولا الصيت . لا أتوق إلى غير قلب حساس حنون ، قلب حار يتفجر منه الحنان ، والحب المتولد من نفس ذلك الحنان . ما أبغى حقاً غير الحب . أين المرأة الجميلة التى تفهم آلامى . وإن شاءت موتى العاجل وجدتنى عند مشيئتها . امرأة فقط . جميلة ، أو غير جميلة ، مادامت تحبنى بقلب صادق . سأقدم حياتى قرباناً لها . أمنيتى الوحيدة هى حب الجنس الآخر » .

وأخيراً لقد كانت الحرب بركة ونعمة خفية بالنسبة للأدب الصينى على وجه الإجمال . كان ينقص الكتاب شيئان : الخبرة الثابتة بالحياة الوطنية . وأن أسلوبهم كان فى واد والشعب فى واد . فقادتهم الحرب فى الطريق الصحيح وجعلتهم يستنشقون عبير حقول الأرز ويرون حدائق البرتقال وروعة الريف . وأصبحوا أيضا على اتصال مباشر بالشعب ، الشعب الذى لم يمسه النفوذ الأوربى . وفوق كل شىء ، لقد رأوا الحرب ، رأوا كوارثها كما رأوا ناحية البطولة فيها ، وسوف يعبرون عن كل هذا فى روايات ما بعد الحرب .

(يتبع) اميول مانظ

من قصص الأطفال الصينية :

السنونوة

للكاتب الصيني الكبير «يه - شاو - كين»

ما أجمل زهور الأقحوان تحت شجرة الصفصاف الخضراء! كانت كالنجوم ترسل أشعتها الذهبية فوق الأرض لامعة، وهبت الريح تداعبها وتدفعها وتحركها بلا انقطاع، فتحركت الزهور حركة خفيفة كأنها خجلت من تلك الدعابة، وسرت الريح بشكلها المجهول فلم ترض التوقف عن دفعها وتحريكها، وتعبت الزهور من ذلك تعباً شديداً.

وبجوار زهور الأقحوان رقد حيوان صغير، قد فتح فمه الأصفر ينتظر قبلة أمه الحارة. ولكن الأم لم تأته، فحزن وصاح. كان هذا الحيوان الصغير جميلا ظريفاً، على جسمه ريش ذهبي لامع، وفي عنقه عقد أحمر، ولكنه مسكين لأنه جريح قد سال على ظهره الدم.

ولم يكن هذا الحيوان الصغير يعرف أن في هذه الدنيا شراً وألماً، فكيف يحذرهما ويدفعهما عن نفسه؟ عندما أصبح الصباح استيقظ من النوم وغنى أناشيده الصباحية وقبل أمه وضحك قائلا لها: «إني أريد أن أرى مناظر الربيع الجميلة، وأسمع أغنية جيراننا الرائعة، فهل تسمحين لي بأن أخرج وأتنزه قليلا يا أمي العزيزة؟»

وأذنت الأم له بأن يخرج، وقبلت عنقه الأحمر قائلة:

«اخرج مع سلامة الله ياحبيبي!»

فخرج الحيوان من البيت، وسمع في طريقه نجوى الأنهار الجارية. ورأى ابتسامات الأزهار الخفيفة، ووقف على قمة التل الصغير يغني أناشيده، واستحم في جانب الترعة الجميلة الجذابة، ثم شعر بتعب وأراد أن يستريح قليلا فوقف على فرع من فروع الصفصاف الخضراء، وفجأة أصابت ذلك الحيوان حصاة من الطين وسط ظهره، وهو لا يعرف مصدرها، فشعر بألم وسقط من فرع الصفصاف إلى الأرض بجوار الأقحوان، وقلب ريشه بمنقاره الصغير فوجد شيئاً أحمر يبلل ظهره فعرف أنه دم فزاد ألمه وبكى وصاح قائلا: «أين أنت ياأمي العزيزة؟ لقد جرح حبيبك! أين أنت يا أمي العزيزة؟»

ولكن الأم في مكان بعيد لاتستطيع أن تسمع بكاءه!

ولما سمعت شجرة الصفصاف الخضراء بكاءه واسته قائلة: «يا صغيري المسكين. لقد جرحت! هل تظن أن لا يكون في هذه الدنيا ألم ولا شر! أين أمك؟ لو لم تكن يدي لينة ضعيفة كنت أساعدك.»

وسمع ماء الترعة بكاءه فواساه قائلا: «أيها الصديق الصغير. لقد جرحت! هل تظن أن لا يكون في هذه الدنيا ألم ولا شر! أين أمك؟ لو لم تكن الشواطئ تحيط بي وتحجزني كنت أغسل جرحك.»

ولما سمعت النحلة بكاءه واسته قائلة: «أيها الصديق العزيز. لقد جرحت! هل تظن أن لا يكون في هذه الدنيا ألم ولا شر! أين أمك؟ لو لم يكن جناحاي ضعيفتين رقيقتين كنت أحملك إلى منزلك.»

وأما الأقحوان الذي يرقد بجواره فقد سمع بكاءه من قريب، فأشفق عليه وواساه قائلا: «ياصغيري الجميل! لا تبك! إن أمك ستأتي هٰهنا، فاسترح عندي قليلا، إني أحفظك وأمرضك، فاهدأ ولا تبك.»

ولما سمع الحيوان الصغير هذه الكلمات الطيبة شعر بأن الألم يخف عنه، وقال في نفسه: «إن مواساتهم جميعاً خرجت من قلوبهم الخيرة، ولكن كلهم نصحني بأن لا أظن أن الدنيا تخلو من ألم أو شر، وهل يوجد في الواقع ألم وشر؟»

كان ذلك في عطلة لدى الصبية « كين — زى » ، خرجت من منزلها تريد أن تقطف الزهور كى تهديها إلى صديقتها « يو — ما » ، وكانت « كين — زى » تلبس رداء أزرق ، وقد عريت ساعديها ، وهبت الريح تداعب شعرها المهدل على كتفيها ، وكانت تمشي بخطى وئيدة ، وقد شاع السرور في جوانحها .

قطفت « كين — زى » بعض الزهور الحمراء والبيضاء ، ولما رأت زهور الأقحوان الصفراء أرادت أن تقطف بعضها ، فلما دنت منها سمعت بكاء الحيوان الصغير ، فتلفتت حولها ، فرأته وقالت : « يالها من سنونوة صغيرة جميلة ! ولكن ما هذا الدم الذى بلل ريشها الذهبي اللامع ! »

فوضعت الزهور على الأرض ، وأخذت السنونوة الصغيرة ، وأخرجت منديلها الأبيض من جيبها ، وجففت به دمها ، ومسحت ريشها مسحاً خفيفاً ، وقربت خدها الأيمن من جسمها قائلة بصوت رقيق : « ياصغيرتى المسكينة ! إنك متعبة ، من ظلمك ! من ظلمك ! إنى أظن أن أمك قد ذهب ، وسأنيمك على سرير وثير ، وأطعمك طعاماً لذيذاً ، وأكون لك صديقة مخلصة ، فاذهبي معي إلى بيتى ياصغيرتى ! »

ولما رقدت السنونوة الصغيرة في يد « كين — زى » الناعمة شعرت بدفء وراحة تخف الألم عنها ، وكفت عن البكاء ، ولكنها عادت فتذكرت أمها فهتفت قائلة : « يا أماه ! إنى الآن وجدت صبية جميلة كريمة ، وهى تحبنى وستأخذنى إلى بيتها ، وأرجو منك أن تأتى إليها لتزوريني ، وإنى الآن وجدت الراحة والسلامة ، وأرجو أن تأتينى في الحال ! »

ولما رأت شجرة الصفصاف الخضراء ، وماء الترعة والنحلة والأقحوان أن الصبية أخذت السنونوة الصغيرة استراحت قلوبها ، وودعتها بعبارة رقيقة : « اذهبي أيتها السنونوة الصغيرة مع هذه الصبية إلى بيتها ! إنها صبية كريمة تحبك كما نحبك نحن ، فإذا جاءت أمك هنا نخبرها عن مكانك ، وإلى اللقاء ياصغيرتنا السعيدة ! »

وأخذت « كين — زى » السنونوة إلى بيتها ، ثم ذهبت إلى بيت « يو — ما » وقدمت لها الزهور وأخبرتها بالقصة ، فلما سمعت « يو — ما » خبر السنونوة سرت سروراً ، وقالت لـ « كين — زى » : « يجب علينا أن نرعاها بكل اهتمام كى ترجع إليها نشاطها » .

فقدمت « كين — زى » للسنونوة طعاماً لذيذاً ، وجاءت « يو — ما » بحشائش لينة وفرشتها في صندوق وجعلته عشاً للسنونوة ، فلما شبعت السنونوة شعرت بحاجتها إلى النوم ، فوقفت « كين — زى » و « يو — ما » أمامها وغنتالها أناشيد النوم قائلتين : « نامى آمنة ياصغيرتنا ! فإذا جاء القط ضربناه ، وإذا جاء الكلب طردناه ، نامى آمنة ياصغيرتنا ! » فنامت نوماً عميقاً .

ولما استيقظت السنونوة من النوم رأت الصبيتين مبتسمتين أمامها ، وفكرت قليلا فتذكرت قصة جرحها وإنقاذ الصبية حياتها وقالت : « ياأماه ! لماذا لم تأت ههنا ؟ أظن أنك الآن تبحثين عني ولكنك لا تعرفين أنى أنتظرك هنا ، إن الصبية تكرمنى ، ولكن لماذا لم تدعك إلى هنا ؟ » وذرت دموع الشوق من عيونها بلا انقطاع .

ورأت « كين — زى » أن السنونوة تبكي فحزنت وبكت هى الأخرى وقالت لها : « اصبرى ياصغيرتى ! إننا لا نعرف مكان أمك فكيف ندعوها إلى هنا ؟ واجعلى بيتنا بيتك مؤقتاً ، واستريحى حتى يشفى جرحك ، وسنبحث عن أمك بكل جهدنا » .

وذرت الدموع من عين السنونوة ولم تتكلم .

وقالت « يو — ما » للسنونوة : « إنك تجيدين الغناء ، وتحب أن تسمعينا ، وسأغنى لك غناء كى يخفف حزنك » .

فغنت « يو — ما » :

« من أين جاءت حمرة على فروع الأشجار ؟

ومن أين جاءت خضرة على قم الجبال ؟
يا صغيرتى الجميلة ، يا ذات العنق الأحمر !
إنك جئت بتباشير الربيع !
« من أين جاءت الأمواج الخضراء ؟
ومن أين جاءت روائح التراب الطيبة ؟
يا صغيرتى الجميلة يا ذات العنق الأحمر !
إنك جئت بتباشير الربيع !
« من أين جاءت الرياح الدفئة المسكرة ؟
ومن أين جاءت المناظر الجميلة الجذابة ؟
يا صغيرتى الجميلة ، يا ذات العنق الأحمر !
إنك جئت بتباشير الربيع ! »

وطربت « كين — زى » من غناء « بو — ما » طرباً زاده روعة وجمالا ، وقربت « كين — زى » وجهها من الصندوق وقالت للسنونوة : « هل سررت بهذا الغناء ؟ وهل هو حسن مثل غنائك ؟ » .

وكانت السنونوة تحب الغناء حباً جماً ، ولما سمعت هذا الغناء لم تملك نفسها ، فغنت غناء حزيناً :

« أين أنت يا أمى العزيزة ؟
أين أنت يا أمى العزيزة ؟
إن حبيبتك هـهنا ،
من يخبرك بأنى هنا ؟
« هل تبحثين عنى فى قم الجبال ؟
هل تبحثين عنى فى جوانب الأنهار ؟
إن حبيبتك هـهنا ؟
من يخبرك بأنى هنا ؟
« إنى أنتظرك هنا !
إنى أنتظرك هنا !
أريد أن أنام فى حجرك ،
من يخبرك بأنى هنا ؟ »

فربتت « كين — زى » كتف « بو — ما » قائلة : « لنكتب لها إعلاناً وننشره فى الجرائد ، فإذا قرأته أمها أتت هنا فى الحال » .

فجاءت « بو — ما » بالقلم والورق على عجل ، وقالت : « إنى أكتب لها ، إنى أكتب لها » .

وكتبت « بو — ما » هذا الإعلان :

« أمى العزيزة : لقد أصابتنى الأقدار ، فجرحت جرحاً خفيفاً ، وأخذتنى الصبية « كين — زى » إلى بيتها ، وعالجت جرحى ، وجعلتنى أعيش عيشة سعيدة ، وأرجو منك أن تأتى إلى بيتهـا فى الحال ، وتطيرى إلىّ على قدر جهدك ، ولكن لا تتعبى كثيراً ، تعالى يا أمى العزيزة ! تعالى يا أمى العزيزة ! صغيرتك المحبوبة » .

فضحكت « كين — زى » وقالت للسنونوة : « إذا قرأت أمك هذا الإعلان أتت إلى هنا فى الحال ، فكفى عن بكائك ولا تحزنى ! »

فجففت السنونوة دموعها ، ووقفت « كين — زى » و« بو — ما » بجوارها تقصان عليها قصص الأطفال الجميلة وعند ما جاء الليل غنتا لها تحت النور الذهبى أناشيد الملائكة حتى أخذها سبات عميق . ورأت السنونوة فى النوم أنها تزور مع أمها الجبل ، وأضافهما على ثمار الصنوبر ، وقضتا عنده زمناً طويلاً .

وعند ما أصبح الصباح جاءت أم السنونوة تطير مسرعة إلى بيت « كين — زى » . ولما رأت بنتها الصغيرة فتحت لها جناحيها وحملتها فى حجرها قائلة : « لقد بحثت عنك كثيراً وتعبت حتى كدت أموت ! أين جرحك يا حبيبتى » .

ولما رأت السنونوة الصغيرة أمها فرحت فرحاً شديداً ، وذرت الدموع من عينيها بلا انقطاع ، وفتحت فمها الصغير الأصفر وقبلت أمها قبلات حارة ، وقالت : « عند ما وجدتك بجوارى شعرت براحة كبيرة وسررت غاية السرور ، وإن جرحى قد التأم وآلامى قد ذهبت ؟ » .

فقالت الأم : « هذا لحسن حظك ؟ ولا تطيرى بعد

كان ما كان

في قديم الأحقاب والأعـــوام
حيث كان الأديبُ ربَّ مقام
صدح العــندليبُ منبرى البـ
ـناسَ ، في محفل من الأعــــلام
ولحشد الطيور ، في ذلك الحفـ
ـل ، دوىٌّ في مسمع الأنسام
منشداً بينهم نشيدَ الهوى والـ
ـوجْد ، في رائع من الأنغام
فسرى الصّمتُ في الحضور وماجتْ
نغماتُ الهـــزار بين الزحام
ومشتْ فيهم انتعاشةُ أنسٍ
فكأنَّ الجميعَ حولَ مُدام
ولقد كانَ ، في الحضور حمـــارٌ
شامخُ الأنف ، ماله من زِمام
غاظه أنْ يرى الهـــزارَ يغني
فترأ ، دونه ، بكلّ احترام
فانثنى ناهقاً ، يصيحُ : أنا الشا
عرُ ، ياقومُ ، فاسمعوا إلهامى
وتعـــالى النهيقُ ، منداً فمدَّا
فتلاشى لحن الهزار السّامى
غـــير أنَّ الهزارَ لما رأى الحفـ
ـلَ طروباً لناهق التسامى !
ورأى لحنه الجميـــلَ سواءً
ونهيقَ الحمـــار عند الطغام !
عاهدَ النفسَ أن يلازمهُ الصّمـ
ـتُ ، دواماً ، بين الحمير الكرام
ومضى مؤمناً بقرقعة الطبـ
ـل ، وتأثيره على الأقوام !

الكاظمية — العراق على جليل الزيدى

الآن أن لا يكون في هذه الدنيا ألم ولا شر ! »

وقالت السنونوة الصغيرة في دلال : « لقد وجدت في رحابي هذه المواساة والعطف والقلوب الطيبة ، وأما الشر فقد أصابني من حيث لا أدرى ، فلذلك أعتقد أنه ليس أصيلاً في هذه الدنيا ، وكأنه لم يكن موجوداً ، وأظن أنه أصابني هــذه المرة — وهى المرة الأخيرة — ولن يصيبني مرة ثانية » .

فقالت الأم في عطف زائد : « لترجع إلى بيتنا » .

فنزلت الدموع من عيني « كين — زى » و « يو — ها » لأنهما لا تستطيعان أن تفارقا السنونوة الصغيرة ، ولكنهما لا ترضيان عن غنائها عندهما مع بعدها عن أمها .

وواستهما السنونوة الصغيرة قائلة : « لا تبكيا يا آنستى . إنى سآتيكما كل يوم لأزوركما ، وإذا كان عندى غناء جديد فسأغنى لكما ، وإذا كنت أملك شيئاً قيماً فسأقدمه هدية لكما جزاء إكرامكما لى » .

وذهبت السنونوة مع أمها ، وبعد ذلك أخذت تتردد على « كين — زى » و « يو — ها » لتزورهما وتغنى لهما غناء رائعاً وترقص معهما رقصاً جميلا ، وعند ما ترجع فى الربيع كل عام من الجنوب تقدم لهما الرمان الأحمر والأبيض والحجارة الجيدة .

ورأت « كين — زى » و « يو — ها » أنها تتردد عليهما كثيراً ، فأخرجتا صندوقها الذى كانت تنام فيه وقالتا لها : « مرحباً بك يا صغيرتنا العزيزة ! هذا بيتك القديم معد لراحتك فى كل وقت »

(ترجمة) عبد الله ما — يجى — كو

نباتاتنا

ماضيها وحاضرها ومستقبلها

إن الزائر لمتحف فؤاد الأول الزراعي ، يجد من بين نباتات قدماء المصريين حبوباً وبذوراً وأعشاباً محفوظة بعضها يمت بصلة إلى النباتات الحالية . وقد درج قدماء المصريين ، شأنهم في ذلك شأن أي من الأجناس البشرية ، على أن يختاروا من النباتات أحسنها وأقواها ، وما نباتات الحاضر إلا نتيجة الانتقاء والتجربة في الماضي . فالزراع من قديم الزمان ينتقون البذور من أقوى النباتات ، لتكون أساسا في الزراعة المقبلة ، وباستمرار الانتقاء ظهرت أنواع جيدة وانقرضت أخرى ضعيفة .

وفي العصور الغابرة لم يكن للأب أثر معروف ، فقد جهل الإنسان كل شيء عن التلقيح ، وبطبيعة الحال لم يعرف شيء عن الجنس النباتي ، ذكوره وإناثه ، ولا عن أثر التلقيح . وظل علم الوراثة في سبات عميق حتى جاء مندل فجرب واستنتج وخلط النباتات المختلفة في صفاتها ، ولكن عمله بقي مطموراً لم يشعر به أحد مدة طويلة إلى أن كشف ، فجنى العالم منه خير الثمرات ، وسيظل اسم مندل منقوشاً على كل نبات يذكر من يجني ثماره ببحوث مندل وتجاريبه .

وفي القرن الحالي توصل العلماء إلى معرفة أسرار الوراثة ، فعرفوا تركيب الخلية ، وتوصلوا إلى أن النواة هي سر الأسرار ، فهي التي تتحول عند الانقسام إلى أجزاء سموها الصبغيات أو الكروموسومات ، وهذه ثابتة في كل نوع نباتي ، عدداً وشكلا . وعلى هذه الصبغيات تتراص وحدات الوراثة « Genes » وهذه الوحدات هي أساس الوراثة ، فإن أمكننا الجمع بين وحدات من نباتات مختلفة أنتجنا أصنافاً جديدة . فإذا اشتبك صبغي بآخر ثم حدث عند الانفصال أن يأخذ كل صبغي جزءاً من الصبغي الآخر وتلا ذلك انفصال للصبغيات حصلنا على صفات جديدة نتيجة لهذا التركيب الجديد .

ولو أمكننا إحداث تغيير في تركيب الصبغيات وما تحمله من وحدات وراثية أمكننا أن نحصل على أصناف جديدة تخالف أصولها . وظهور هذه الأنواع الجديدة هو ما نسميه بالطفرات . وحدوثها في الطبيعة نادر ، ولكن العلماء تمكنوا من التغلب على ذلك بإحداثها صناعيا ، وذلك بتعاون علمي الوراثة وانقسام الخلية مع علم الكيمياء ، مما أدى إلى نشوء أصناف جديدة من أصول تختلف عنها ؛ ولا شك أن هذا سيصل بنا حتما إلى جيل نباتي يمتاز عن سابقه . والانتقاء عامل مهم يبقي على الصالح ويقضي على غيره . فالعلماء يجربون ، فيحاولون التهجين ، كما يحاولون اللعب بالصبغيات . فهذه العوامل مجتمعة قد أدت إلى وجود أصناف ما كان لنا أن نتمتع بثمارها لو تركت لتنشيح بطبيعتها .

فالمعروف أن لكل نبات عدداً محدوداً من الصبغيات كما ذكرنا من قبل . وعند تكوين الخلايا الجنسية يحدث نوع من الانقسام في الخلايا ، يؤدي إلى اختصار عدد الصبغيات إلى النصف ، فإذا كانت الخلية في النبات مثلا تحتوي على أربعة وعشرين صبغيا ، فإن الخلية الجنسية لهذا النبات تحتوي على اثني عشر صبغيا ، وعند حدوث الإخصاب واندماج الخليتين الجنسيتين ينتج الزيجوت الذي يكون النبات الجديد ، وتكون خلية الزيجوت وخلايا النبات الجديد تحتوي على أربعة وعشرين صبغيا وهكذا .

وقد يحدث عند تكوين الخلايا الجنسية أن عدد الصبغيات فيها لا يكون نصف العدد الأصلي ، بل مساويا له وعلى هذا يحدث أحد احتمالين :

١ — يندمج الجاميط ذو العدد المساوي للعدد الأصلي في النبات مع جاميط به نصف العدد الأصلي وينتج نبات عدد الصبغيات في خلاياه مساو لثلاثة أمثال العدد في الخلية الجنسية .

٢ — يندمج الجاميط ذو العدد المساوي للعدد الأصلي مع جاميط مشابه له وينتج نبات تحتوي خلاياه على أربعة أمثال عدد الصبغيات في الخلية الجنسية .

ومن الطبيعي أن النبات الجديد تكون جميع خلاياه

متشابهة من حيث عدد صبغياتها إلا عند تكوين الخلايا الجنسية . ولكن قد يحدث فى بعض الأحيان أن النبات يحتوى على نوعين من النسيج وكل نسيج له تركيب خاص من حيث عدد صبغياته . فقد وجدت درنات بطاطس تتكون من نوعين من الأنسجة ، الخارجية والداخلية ، فالخارجية تنتمى لصنف من البطاطس والداخلية لصنف آخر ويغلف الأول الثانى كما يغلف القفاز يد الانسان . وقد بين ذلك اسيفا Asseyeva فى روسيا سنة ١٩٢٧ إذ أخذ درنة البطاطس التى من هذا النوع وأزال عيونها أى حيث تنمو البراعم . وبعد هذه الإزالة نشطت الأنسجة الداخلية فكونت براعم تخالف البراعم الخارجية . وينطبق ذلك على نوع من البطاطس يسمى Golden Wonder يتميز بقشرة سميكة بنية تغلف نوعا آخر يسمى Langworth ذا قشرة رقيقة بيضاء . وتتكون الطبقة الخارجية من طبقة من الخلايا أو طبقتين وقد تزيد على ذلك . فعند تكوين الخلايا الجنسية التى تتكون عادة من الخلايا التى تلى الطبقة الخارجية نلاحظ حدوث أحد أمرين :

١ — إذا كانت القشرة البنية أكثر من خليتين سمكا ، فإن الخلايا الجنسية التى تتكون عادة من الطبقة التالية للطبقة السطحية تكون من نوع البنى السميك .

٢ — إذا كانت القشرة البنية سمكها خلية فإن الخلايا الجنسية تكون من النوع الرقيق الأبيض .

ويلاحظ فى الحالة الثانية أن الصنف Langworth هو الذى يظهر فقط دون الآخر .

ولاشك أن تربية النباتات تساعد على حدوث طفرات إذ تتقارب النباتات فى الزراعة بعد أن كانت متباعدة فى بيئتها الطبيعية ، كما أن الطفرة الناجمة تنتقى ويعمل على انتشارها .

على أن عامل الصبغيات وتغير عددها له أكبر الأثر فى نشوء أصناف جديدة فنبات البريمولا «Primula» له أصناف تحتوى خلاياه على ٢٤ صبغيا . والبعض الآخر ٤٨ صبغيا . وهذا الصنف الأخير يتميز بضخامته وكبر أزهاره ، وقد ظهر هذا الأخير فى بداية القرن الحالى . وفى نبات الكمثرى ظهر صنف جديد تحتوى خلاياه على ٦٨ صبغيا بدلا من ٣٤ . والصنف الجديد يمتاز بكبر ثماره وثقل وزنه وجودة طعمه . ففى هذين المثلين نلاحظ مضاعفة عدد الصبغيات ، وقد أدى هذا إلى وجود أصناف جديدة ، ويلاحظ أن مضاعفة العدد فى حالة البريمولا نشأ من اندماج خلايا جنسية تحتوى على العدد الكامل من الصبغيات بدلا من احتوائها على نصف العدد كما هو المعتاد . أما فى الكمثرى فإن خلايا النبات العادية يتضاعف فيها عدد الصبغيات ، وعلى ذلك نجد أن عدد الصبغيات فى الخلية النباتية أربعة أمثال العدد فى الخلية الجنسية العادية .

وفى بعض حالات يكون عدد الصبغيات فى النبات ثلاثة أمثال العدد فى الخلية الجنسية . وقد ذكرنا ذلك فى أول المقال . ومثال ذلك أصناف التفاح . فالتفاح صنفان أحدهما تحتوى خلاياه على ٣٤ صبغيا . والآخر على ٥١ صبغيا . وهذا الأخير كما نعرف نشأ من اندماج خلية جنسية بها ١٧ صبغيا مع خلية جنسية تحتوى على ٣٤ صبغيا . ومعظم الأنواع المشهورة من التفاح تنتمى إلى القسم ذى الثلاث كميات من الصبغيات (٥١) .

ومن الطبيعى أن النباتات التى يحصل فيها زيادة فى عدد الصبغيات تزداد فيها عدد الوحدات الوراثية وتزداد الصفات الحسنة التى تتميز بها هذه الوحدات . ففى نبات الأذرة ظهر أن صبغيا يحمل صفار اللون وهذا اللون مرتبط بمقدار الفيتامين (ا) فإذا رمزنا لهذه الصفة بالرمز (ص) فإن النباتات التى تحتوى على : ص ، ٢ ص ، ٣ ص تحتوى فى المتوسط على الفيتامين (ا) بالمقادير الآتية ٢٫٢٥ ، ٥٫٠٠٠ ، ٧٫٥ من الوحدات . وفى التفاح وجدت أكبر نسبة من الفيتامين (ح) فى الصنف الذى تحتوى خلاياه على (٥١) صبغيا .

وعلى هذا نجد أن مضاعفة عدد الصبغيات فى النبات قد ساعد على وجود أصناف جديدة تتميز على سابقتها بوفرة محصولها وجودته ، بل وزيادة الفيتامينات التى هى الأساس فى نمو الإنسان نموا طبيعيا .

(المقال بقية) محمد أحمد بدوتة

الحرية

[نقلا عن مقالة للورد مكولى Macouley عن الشاعر ملتن Milton]

إن ماهية الثورات التي تقوم من أجل الحرية هي التي لا تجعلنا نرى إلا القبيح منها . ولا ينبغي للأمم أن يستفيدوا من حريتهم إلا إذا عرفوا كيف يستخدمونها ، فإن سكان البلاد التي تنتج الخمور متلازم عادة أكثر امتناعا عن تناولها ، وفي البلاد التي يندر فيها استخراج الأنبذة يكثر إفراط أهلها في شربها .

ومثل هؤلاء الناس الذين رموا عن عاتقهم نير الاستعباد وأخذوا يستنشقون نسيم الحرية كمثل جيش من سكان الشمال يعسكر على نهر الرين أو على نهر شيرى (بأسبانيا) فيقال إن هؤلاء الجنود عند ما يجدون أنفسهم في بقاع يتيسر لهم فيها الإسراف في تناول الخمر بدون أن يقف شيء في طريقهم من الانغماس فيها تذهل عقولهم ويفقدون رويتهم ولا ترام إلا سكارى ، ولكنهم سرعان ما يأنفون هذا الإفراط ويسأمونه ، ويعودون أدراجهم إلى الاعتدال ويرجعون إلى حالتهم التي كانوا عليها في بلادهم . وعلى هذا النحو تكون الثمار النهائية المستقرة للحرية هي الحكمة والاعتدال والرحمة . على أنه كثيراً ما تكون نتيجتها المباشرة الجرائم المروعة والأخطاء المتناقضة ، والريبة في الآراء التي تكون واضحة كل الوضوح ، والجزم بصحة الادعاءات الغامضة كل الغموض . وعند هذه الحالة الحرجة يحب أعداؤها إظهارها . فيهدمون أدوات البناء الذي لم يتم تشييده بعد ، ويشيرون إلى الترى المتناثر ، والشبكات المتساقطة ، والحجرات غير المنسقة ، وعدم انتظام الشكل العام للبناء ، ويتساءلون باحتقار عن منظر البناء الفخم وعن الراحة التي كانوا ينشدونها . ولو أن هذه المغالطات انتشرت لما استطعنا إيجاد منزل مريح أو حكومة لائقة في العالم .

ويروى الكاتب الإيطالي أريستو (Ariosto) أقصوصة لطيفة عن جنية حكم عليها لأمر خفي في طبيعتها أن تظهر في بعض الأوقات على شكل أفعى خبيثة سامة . فمن أساءها وهي متنكرة على هذا النحو حرم حرماناً أبدياً من النعم التي كانت تغدقها على الإنس . ولكن أولئك الذين أشفقوا عليها وأخذوها تحت كنفهم على الرغم من بشاعة منظرها ، فإنها تظهر لهم فيما بعد بشكلها الطبيعي الجميل الفتان وتتبع خطواتهم وتمنحهم رغائبهم وتملأ منازلهم بالخيرات وتجعلهم سعداء في الحب ومنتصرين في الحروب . وإن مثل الحرية كمثل هذه الجنية ، فإنها في بعض الأحيان تتخذ شكل أفعى ممقوتة : فتدب وتفح وتلدغ ، ولكن الويل لمن يمقتها ويجرؤ على سحقها ، ويا سعد من لا يخشاها ويرحب بها على شكلها الممقوت المخيف المزعج ، فإنها تكافئه عند ما تظهر جميلة ذات بهاء ورواء .

وقد ينجم عن الحرية المكتسبة حديثاً بعض الشرور والمفاسد ، ولكن علاج هذه الشرور هو الحرية . ألا ترى أن السجون عند ما يخرج من السجن بادئ الأمر لا يمكن أن يتحمل بصره ضوء النهار ، ولا يستطيع تمييز الألوان بعضها من بعض ، أو يتعرف على وجوه الناس . فعلاجه ليس رده لحجرته المظلمة في السجن ، بل تعويده رؤية أشعة الشمس . ولعمري إن شعلة الحق ووهج الحرية وضياء الحق قد تدهش بادئ بدء الأمم التي أصاب أعينها الرمد من طول السجن في منزل الذل والعبودية وتضلها الطريق السوي . ولكن علاج هذه الأمم تعويدها استدامة النظر إلى هذه الشعلة ، فسرعان ما تتحمل ضياءها على كر الزمن ويصبح رائدها الحكمة . وتصحح النظريات المتناقضة بعضها بعضا ، وتكف عناصر الحق المبعثرة عن النضال وتأخذ في الامتزاج . وأخيراً ينجم من فوضى الآراء نظام كله عدل وانسجام .

ولقد اعتاد كثير من ساسة عصرنا أن يقولوا رأياً يعتبرونه بدهيا : وهو أنه ما من أمة تستحق الحرية إلا إذا عرفت وسيلة استخدامها . غير أن مثل هذا كمثل ذلك الأحمق الذي صمم ألا ينزل البحر إلا إذا تعلم العوم . فلو أن الناس انتظروا الحرية حتى يصبحوا عقلاء وصالحين وهم أرقاء فقد ينتظرون إلى الأبد .

م . ع . ا

نحو التفكير القومي

في هذه الآونة التي يتعاون فيها قادة الأقطار العربية، في مصر والعراق والشام، على تقريب هذه الأقطار بعضها من بعض، أصبح على الجيل العربي الجديد، بصورة خاصة واجب أولى هو أن يتجهوا اتجاها صريحا حاسما نحو التفكير القومي، في وعي مؤمن حافز، وأن يوضحوا في نفوسهم وفي نفوس الناس قيمة «القومية العربية»، كرابطة تكون الأساس الروحي — الفكري والعاطفي — للعمل السياسي الذي يقوم به أولئك القادة.

في مطلع القرن الماضي استيقظ العرب، في ظل «محمد علي»، يقظتهم الأخيرة. ولقد مرت بهم منذ ذلك الحين حركات وطنية تحررية مختلفة، لم تنجح لأنها كانت محرومة من العلم والخبرة، عاجزة عن التنظيم، غارقة في الأنانية، لا تتصف بالإخلاص ولا تستند إلى مجموع الشعب. وكانت إلى هذا تنقصها الفكرة الموجهة، يعوزها الشمل الهدف.

إن الجماعات التي ثارت في أوربا عام ١٨٤٨ وما بعده، قد استطاعت أن تنشىء فيما بعد أمماً ودولاً لأن الفكرة الموجهة في ثوراتها كانت «القومية». وهذه الفكرة الموجهة «القومية» هي التي ندعو إليها نحن. من أجل وعي كامل، تلتقي فيه قوى الشعب العربي وإمكانياته في حياة حرة عزيزة، وتعمل فاعلياته لإنشاء حضارة تقوم بقسطها من تحقيق سعادة الإنسان ورفاهه، نحن قوميون وهذه القومية — في الوقت الذي نحاول فيه أن ننتقل من النظر إلى العمل — يجب أن تفهم على حقيقتها: إنها ليست وهماً، إنها ليست حقداً، إنها ليست رجعية.

قوميتنا ليست وهما. إن لكل مخلوق حي غريزة توجه خطواته أثناء السير، فطرية حرة، هي مظهر مباشر لاندفاعة الحياة. وهي في منشأها صحيحة مستقيمة الاتجاه تقوده أبداً إلى حيث تحقق غايتها الأصيلة، من بقاء الفرد وبقاء النوع وبقاء الجماعة، فتجعله ينتقي الغذاء المفيد ويحب المرأة ويتصف بأخلاق التعاون الاجتماعي في أسلوب يلائم تركيبه الجسدي والنفسي. هذا الشيء الذي أدعوه بالغريزة هو إذاً في حقيقته نظرة الفرد إلى الحياة، النظرة اللاشعورية الكائنة في أعماق المرء. هو الحافز الحيوي الذي يدفع في عروقنا الدم، ويجعلنا نشعر في ذواتنا باستقلالنا الكياني. فإذا ما أخطأت هذه النظرة، إذا ما تضاءل هذا الحافز، وهنت غريزة الحياة وحصل ما يسمونه انحراف الغريزة، وانعدم في ذواتنا شعورنا بتوثب القوة — تلك هي قصة حياة الفرد تنطبق إلى مدى بعيد على الجماعة..

فلكل جماعة متآلفة، تربط بينها مزايا معينة في وقت معين، نظرة إلى الحياة عميقة لا شعورية، مشتركة بينها، خاصة بها إلى حد ما. لنا نحن العرب — مثلا — عبقرية موحدة وغريزة حيوية متميزة، وفي قرار كل منا نظرة إلى الكون تقارب نظرة الآخر، أنشأتها لغة واحدة وأرض مشتركة، ويجب أن يبالي بها وأن يتخذ من إمكانياتها الشمل الهادي في اليقظة الجديدة. وهذه «العبقرية» العربية ليست سراً ولا هي خرافة. هي واقع علمي لأن المساواة — في الكيف لا في الدرجة — بين كل الناس في كل الأقطار. هي تجاهل لكل الاختلافات في التاريخ والمؤهلات والأقاليم. صحيح أن الانسان متشابه إلى حد ما في كل مكان، ولكن للشعب العربي — كما لغيره من الشعوب — خصائص ومزايا تنتهي به إلى عقلية مشتركة موحدة. وصحيح أن قضيتنا ليست «كلا» في ذاتها، وأنها جزء من قضية الانسانية، ولكنها جزء يحتاج — عدا العلاج العام — إلى علاج آخر من نوع خاص. إن كل تراب الأرض، في العالم، يحتاج إلى قمح لكي ينتج قمحا، ومع ذلك فلن تنفع في زراعة جنوب الكون «حرفية» الأسلوب الذي تتبعه في شماله، وتظل أرضك برغم هذا جزءاً من الأرض. وما نقول نحن بشيء خاص بنا، في الأصل، إلا الظروف

التي نحن فيها ، هذه الظروف التي تمتاز من غيرها باختلاف السرعة في مجرى التاريخ في كل حضارة على حدة .

وقوميتنا ليست حقداً . لا تطاول عندنا ولا كبرياء يخشى شرها ، ولا احتقار لعقليات الأمم الأخرى ، ولا طموح إلى الاستعمار !! . . . فإنما قضية العرب في الوقت الحاضر قضية سياسية قبل كل شيء . وقوميتنا – سياسيا – هي توحيد لا تجزئة ، تأليف بين أجزاء لا انقطاع من وحدة كبرى . قوميتنا نحن وحدتنا ، وأننا شعب لا شعوب . ولكنها ليست أبداً انفصالاً عن بقية المجموع الانساني . هي سلاح للنضال في وجه الشهوات الاقليمية ، نحارب به لا الانسانية ، ولكن مهازل الانعزالية في كل قطر من أقطار العرب ، والعصبيات القبلية والعشائرية . يضاف إلى هذا أننا نفرق جيداً بين القومية كوضع سياسي منعزل أناني ، مرتفع بوهمه فوق العالم ، سادر في خيالات البرج العاجي ، مغلق دون حضارات الشعوب الأخرى لا يأخذ منها ولا يعطي ، وبين القومية كما نريدها نحن ، كبرنامج للعمل والتبشير ، أبداً متفتح حيّ ، أبداً قابل للتجدد . فإنما نؤمن نحن بضرورة تكتل البشر في قوميات متعاونة حرة ، قوميات تحتفظ كل منها بخصائصها وتنميها ، وتساهم جهودها الحرة في رفع بناء العالم الحر وفي إحلال السلام مكان الحرب ، ولكنها لا يبتلع بعضها بعضاً ولا تذوب واحدة منها في الأخرى . نؤمن أن هذا علي ، ونرى أن هذا واجب ، لكي تكون حضارة العالم المقبل أزهى وأخصب بالألوان .

وقوميتنا – أخيراً – ليست رجعية . لسنا رجعيين لأن الفكرة التي ندعو إليها تريد أن ترافق العالم في تقدميته ، مرتبطة بالأرض ، بعيدة عن رق السحر والشعوذة . لسنا رجعيين لأن الماضي العربي الذي نستمد منه قوة الحاضر ، إنما نرجع إليه لا لنقف عند جموده ، بل لنتمثله من جديد ولنتخذ من الروح المبدعة التي كانت تسيره حافزاً أولياً للنضال ، ولنزداد ثقة بمكانتنا في تاريخ العالم ، وإيماناً بأننا أمة لها من المجد الخالي في تأدية رسالة الحضارة ما يمهد لها المجد المقبل . إننا نرفض عبودية الماضي كما هو لأننا في إرادتنا التحرر نرفض كل العبوديات ، ومن أجل هذا لا نثور على النازية والفاشستية وحدها بل على كل الدكتاتوريات ، الماضية والمقبلة ، ووراء أي ستار حجبت . كل العبوديات ، وحتى عبودية الدم . إن قضية قوميتنا ليست قضية دم خالص ولا خرافة عنصر متفوق . إنها لتصبح حينئذ قومية حيوانات سائمة عاشت على مرعى واحد ، ويقف بها « الدم الخالص » حيث بدأت لأنه لن يستطيع أن يبدع أكثر مما فيه . – لسنا رجعيين ، أخيراً ، لأن متانة قوميتنا لا تمنعها أن تكون مرنة ، تستخدم ثقافتها وحيويتها وإخلاصها لتهيئة الوطن العربي لأوضاع ما بعد الحرب ، وملاءمة النظم العالمية مع الظروف الخاصة بهذا الوطن .

* * *

هذه قوميتنا : واحدة من قوميات متعاونة حرة ، تنفي عن نفسها الجهل والحقد والرجعية . مبدؤها يقول : في تكون نفسك اشترك تاريخ أمتك ، ولن تستطيع أن تهرب من نفسك . هي شعور أساسي تدور عواطفنا من حوله ؛ ويجب ألا تظل عندنا شعوراً مجرداً فحسب ، بل يجب أن تتغلغل في قرار نفوسنا ، وأن نستبينها في كل دوافع تفكيرنا وإرادتنا ، لتصبح مصلحتها المعيار الفرد الذي نقدر به جميع القيم التي نعتنقها ، والأهداف التي نسعى إليها ، والأعمال التي نقوم بها ، ولنفهم من خلالها كل روابطنا في الماضي الذي يحيا فينا والحاضر الذي يهيء المستقبل ، في وعي عميق يشملها ويدفع فيها الخصب .

وإذاً فالعمل على بث الوعي القومي واجب يحمله ، قبل

بين المسموع والمقروء

الرغيف والمرأة

لأى شىء نعيش ، أو لأى شىء نموت ؟

سمعت عالماً يقول : ان الجوع والشهوة يحكمان العالم . ولا أظن أن أحداً خبر الحياة ، وصفا نظرة ، وصدق لساناً ، يقول بغير هذا . فليس أشد دفعاً فى الحياة للرجل من المرأة وليس أشد دفعاً فى الحياة للمرأة من الرجل . وليس أشد دفعاً للرجل والمرأة فى الحياة من الرغيف .

وعلى إرواء الشهوة الجنسية الكريمة يستند الاحتفاظ بحياة الجنس ، الاحتفاظ بحياة المجموع . وبسد الجوع تحفظ حياة الفرد ، ومن حياة الفرد حياة المجموع .

وعندئذ يتوق العقل النهم إلى زيادة المعرفة ، فيسأل : فأى هذين الدافعين أقوى ؟ وأيهما ، على تأصلهما فى النفس ، أكثر تأصلا ؟

وتستطيع أن تأخذ سبيلك إلى الجواب عن طريق البحث النظرى ، فتأخذ توقظ فى نفسك كل قواعد الفلسفة والمنطق ، أو أنك تستعين على الحكم بأن تلتجىء إلى الذاكرة لتكشف لك من بعض اختباراتك الماضية فى هذا وذاك . ولكن هذا اليوم يأبون النظر الصرف حكما ، فلا بد عندهم فى كل حكم من التجريب .

وتقول كيف نجرب فى أمر الجوع ، وعلى الأخص فى أمر الشهوة ، شهوة الرجل للمرأة ، وشهوة المرأة للرجل ؟

الأمر هين ما نظرنا إلى أن إشباعا من جوع طعامى ، وأن إشباعا من جوع جنسى ، أمران قدسيان ، قدسهما أنهما سبيل الناس إلى الحياة والتكاثر الذى شاءه الله .

وأستطيع أن أتصور لك تصوراً تجريبيا بسيطاً يؤدى بك إلى ما تطلب من هذه المقارنة المنشودة لو أنك استطعت إجراءه .

هات رجلا بلغ أقصى درجات الجوع ، من دقيق وسوى ، وضعه فى حجرة ، على أحد جانبيها حجرة بها امرأة ، قد أظهرت زينتها ، وعلى الجانب الآخر حجرة بها أرغفة طازجة ساخنة يخرج منها البخار . واجعل للرجل إلى الحجرتين طاقة ينظر منها إلى هذه وإلى تلك . وانظر كم عددا من المرات "يطل" إلى المرأة ، وكم عددا يطل إلى الرغيف .

أو تجربة أخرى أشد إحكاماً : ضع الرجل فى حجرة ، وضع أرغفة الخبز فى حجرة أخرى ، واجعل بين الحجرتين ممراً ضيقاً ، واجعل بهذا الممر أبوابا تقل وتكثر على الحاجة ، واجعل عند كل باب عصا . ثم افتح الأبواب ، فاذا انطلق الرجل إلى حيث الأرغفة ، فانزل على أكتافه بالعصا ثقيلة عند كل باب ، وانظر كم من الضربات يحتمل لجوع الرغيف ، وعند أى ضربة يعجز فيولى الأدبار .

كل الناس ، الجيل الجديد من أبناء العرب . يحملونه كمبشرين وأصحاب رسالة ، لأن شبابهم بطبيعته ينفى عنهم الجهل والحقد والرجعية . يحملونه لكى يحموا العمل السياسى الطيب الذى يقوم به الزعماء اليوم من أن يظل جسما بلا روح ، لا يرتسم إلا فى نواح باهتة من صور الحياة المادية ، ولكى يوقظوا فى صدر هذه الأمة وعيها بكيانها ومكانتها . إن الأمة المؤمنة بقوميتها لتؤلف بناء متين الأركان ، متسقا رائع الوحدة ، فاذا هى قوية أبدا فى تحقيقها رسالتها ، لأنها تقبض على نفس الفرد قوة الملايين ، وتكسب فى نفوس الملايين قوة الأرض التى يدافعون عنها ، لأنهم دفعوا ثمنها من دمائهم ، وقوة الماضى الذى تحتفظ به هذه الأرض وتظل به جوها المعطر .

نزيه الحكيم

وافعل هـذا به مرة أخرى ، ولـكن ضع مكان الأرغفة النساء .

وقارن بين عدد العصى التي أقرعت على جلده قردته من بلوغ الخبز ، وبين عدد العصى التي أقرعت على جلده قردته من بلوغ المرأة ، فذو العدد الأكبر يكون هو الدافع الأكبر .

ولـكن ما هكذا صنع العلماء التجارب أو يصنعون ، فما على الإنسان تصنع التجارب ، لأنه على فرض نجاحها فيه ، وعلى فرض إمكانها ، فلن يخرج العالم منها برأى وثيق عن تلك الدوافع التي تحكى ، لأن الإنسان معقد أكبر التعقيد ، والدوافع فيه مختلطة أكبر اختلاط .

ومن أجل هذا عمدوا إلى الفئران . ففي الفئران أجروا تلك التجربة التي وصفت . ولم يكن في التجربة عصى ، ولـكن كان مكانها قضبان مستعرضة يخطو عليها الفأر إلى طعامه ، أو يخطو عليها إلى أنثاه . وأجروا الـكهرباء في القضبان ، حتى إذا خطا عليها الفأر أحس لذعا أليما . وعدوا كم قضيباً يخطو عليه الفأر حتى يبلغه اليأس .

وطبعا كرروا هذه التجارب على الفأر الواحد ، وعلى غيره من الفئران ، لـكي يخرجوا من تجاربهم على متوسطات تمثل قبيل الفئران تمثيلا صادقا ، وتمحو أسباب الخطأ الذي قد ينجم عن حالة طارئة خاصة في فأر خاص .

فهل تعرف على أى نتيجة خرجوا ؟

خرجوا على أن الرغيف أقوى دفعا من المرأة .

كان متوسط الخطوات التي خطاها الفأر على الألم إلى أنثاه الفأرة ١٣ خطوة ، أى قضيبا ، ثم تبددت رغبته وباخ عزمه .

ولـكن عزمه إلى الرغيف لم يبخ ، ورغبته إليه لم تتبدد ، إلا بعد أن عدّوا من القضبان الـكهربية التي خطا عليها ١٩ قضيبا .

وكانت الفئران في الحالة الأولى أفرغ ما تكون معدة .

وكانت الفئران في الحالة الثانية أملأ ما تكون غدة .

ويزيد في صحة هذه التجربة ، ويزيد في وثوقنا بنتائجها أن أكثر من باحث أجراها ، فخرجوا على اختلافهم ، واختلاف ظروفهم ، مكاناً وتجربة وزمانا ، على أرقام ثابتة في التقارب .

وبعد ما تقول التجربة كلها ، يجوز لـكل من هب ودب أن يملأ بالفكر النظرى تلك النتائج بما يشاء ، وعلى أى وجه شاء .

وأحب أن أكون بين من هب ودب ، فأقول إن جوع الطعام كان لابد أن يكون أقوى من جوع الشهوة . نعم إن كليهما ضرورى لاطراد الحياة ، ولـكن جوع الطعام أسرع في التأدية بصاحبه إلى الفناء من جوع الشهوة . بل نحن ما سمعنا قط أن جوع الشهوة أدى إلى الفناء أبدا — فناء الفرد — ولو أنه طبعا يؤدى إلى فناء الجنس أخيراً .

وتحدثنا عن الجوع ، ولم نتحدث عن العطش .

فعلى أيهما يكون الإنسان أصبر ؟

وأحسب هـذا لا يحتاج إلى التجربة ، فخبرة كل الناس في هذا الأمر غير منقوصة . فكلنا لابد قائلون إن الرجل أصبر على الطعام الصلب منه على الماء السائل .

وقد دلت التجربة التي وصفنا على أن الرجل إن خطا إلى الرغيف على الألم ١٨ خطوة ، خطا على الألم إلى الماء عشرين خطوة ، بينما هو يخطو إلى المرأة ١٣ خطوة .

ومن نتائج هـذه التجارب حقيقة أخرى نزيدك بها : تلك أن الأنثى تخطو إلى ولدها اثنتين وعشرين خطوة ، فالأمومة أقوى من دافع الشهوة — وهى تنتج الولد — وأقوى من دافع الطعام ودافع الشراب .

ومعنى هذا أن المرأة أقوى ارتباطاً بولدها منها برجلها . فليذكر الأزواج هذا ، ولتذكره المحاكم وقضاتها .

أحمد زكى

على هامش الكتب الحديثة :

تاريخ الشعر السياسى

إلى منتصف القرن الثانى

أخذ الباحثون — فى عصرنا الحديث — يعنون ببحث الشعر العربى ودرسه يحاولون أن يطبقوا عليه مناهج البحث والدرس الحديثة ، وقد توزعوا فيما بينهم صفحات هذا الشعر ، فطائفة عنيت ببحث صفحاته العقلية ، وطائفة عنيت ببحث صفحاته التاريخية . وعنيت طائفة ثالثة ببحث صفحاته الفنية الخالصة ، وهى كلها صفحات متداخلة يضرب بعضها إلى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض . وليس من شك فى أن هؤلاء الباحثين جميعاً يهدفون إلى غاية مشتركة ، هى تنظيم كتلة الشعر العربى ، وهى كتلة كبيرة امتدت أحقاباً متطاولة من العصر الجاهلى قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر . وأكبر الظن أنه من حق هؤلاء الباحثين علينا أن نستقبل أعمالهم استقبالا حسناً حتى يقتدى بهم شبابنا فيتعاونوا معهم ويأخذوا فى دراسة الشعر العربى دراسة مستفيضة ، تتناول جوانبه المختلفة فى عصوره وأقاليمه الكثيرة . ونحن نعرف أن من أصعب الأشياء أن يقصر باحث نفسه على درس جانب من جوانب هذا الشعر ، لأنه لم ينشر حتى الآن نشراً علمياً منظماً إلا فى القليل الأقل ، ولذلك كان من يعنى بدرس طرف من أطرافه يلقى عنتاً وإرهاقاً شديداً .

وقد نهض الأستاذ الجليل أحمد الشايب ببحث صفحة من أهم صفحات هذا الشعر وهى الصفحة السياسية من العصر الجاهلى إلى منتصف القرن الثانى ، وهى صفحة يبتدؤها بدءاً ويفتتحها افتتاحاً ، وإن من يتتبعه فى رسمه لهذه الصفحة يحس أنه عانى كثيراً فى تحبيرها ، وقد بدأ سطورها بحديثه عن السياسة والشعر السياسى ، حتى إذا أبان عن الطريقة التى يتناول بها الشعر السياسة أخذ يفيض فى حديثه عن الشعر الجاهلى وكيف أنه مثل حياة الجاهليين فى قبائلهم وإماراتهم ، وانتهى من ذلك إلى أن هذا الشعر الجاهلى بجميع أغراضه وفنونه ينبغى أن يفسر فى ضوء القبيلة . وحقاً أن الشاعر الجاهلى كان يعيش فى قبيلته أكثر مما كان يعيش فى نفسه ، وقد عبر عن ذلك شاعرهم أجمل تعبير فى هذا البيت الذى يسوقه المؤلف ليوضح هذا الجانب إذ يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويتُ وإنْ تَرشُد غزية أرشُد

ويحاول المؤلف أن يستوعب الشعر السياسى فى العصر الجاهلى ، فيتحدث عن القبائل وما كان بينها من صراع عنيف كما يتحدث عن الإمارات وأيام العرب ، وكل ذلك يؤيده بالوثائق الفنية للشعراء ، فإذا تم له ذلك كله أخذ يحدثنا عما أحدثه الإسلام من تحول واسع فى هذا الشعر ، فقد أخذ يرسم فى إطار أوسع ليس هو إطار القبيلة ولا إطار الإمارة ، بل هو إطار الأمة العربية والدولة الإسلامية ، واستمر يفسر هذا الإطار الجديد للشعر السياسى تفسيراً دقيقاً يؤيده بمختلف النصوص وما كان فى بدء الإسلام من حركات سياسية مختلفة لعل أهمها ما كان بين مكة والمدينة فى أول الأمر من خصومات ، ثم ما كان من حروب الردة وما قيل فيها من أشعار ، ثم ما كان من الفتوحات وما انتهى إليه الأمر من هذه الحرب الأهلية بين على ومعاوية وما نجم عن ذلك من ظهور الأحزاب السياسية .

ويخرج من ذلك كله بعد أن يوفيه حقه من البحث والدرس ، فيبسط الحديث بسطا واسعا عن الأحزاب السياسية فى العصر الأموى ، فنراه يعرض للخوارج والشيعة

والزبيريين والموالى والأمويين أنفسهم وما كان معهم من شعراء فحول أو غير فحول ، وهو يسوق ذلك كله سوقاً طريفاً . ونحن نقف قليلا عند أهم هذه الأحزاب ونقصد حزبى الشيعة والخوارج . أما الشيعة فقد تعلق بأن يدرس نشأة مذهبهم السياسى ، وأن يعرض هذا المذهب وما أصاب أصحابه طوال العصر الأموى ، وهو أثناء ذلك يؤرخ لأشهر شعرائهم من مثل الكميت الأسدى صاحب الهاشميات المشهورة ومثل كثيّر الذى يفصح من هواه وأنه ينتظر رجعة محمد بن الحنفية فى هذا الشعر الطريف :

ألا إن الأئمة من قريش
ولاة الحق أربعةٌ سـواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه
همُ الأسباط ليس بهم خفاء
فسـبطٌ سبط إيمانٍ وبرّ
وسِبْطٌ غيّبَتْهُ كَرْبلاءُ
وسبـطٌ لا يذوق الموتَ حتى
يقودَ الخيـلَ يقدمها اللّواء
تغيّبَ لا يُرى فيهم زماناً
برضـوى عنده عسلٌ وماءُ

ويمتاز شعر هذه الجماعة السياسية بأنه شعر صادق ، وهو يعبر فى كثير من جوانبه عن لوعة وحزن شديد ، وخاصة حين يذكرون قتلاهم ، فإنك تشعر حينئذ بثورة مكبوتة قد تغلغلت فى أعماق أفئدتهم ، وهى ثورة يريدون التنفيس عنها فيجدون الأمويين وقد قبضوا على الحكم بيد من حديد ، فيعودون إلى البكاء والشكوى والأنين على هذا النحو من شعر السيد الحميرى إذ يقول :

امرر على جدث الحسـين فقل لأعظمه الزكيّه
أأعظماً لازلت من وطفاء ساكبة رويّه
وإذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيّه
وابك المطهّر للمطهـر والمطهّرة النقيّه
كبكاء معْولةٍ أتت يوماً لواحدها المنيّه

وما يزال الأستاذ الجليل أحمد الشايب يصور لنا هذه الثورة المكبوتة عند الشيعيين والتى تسيل أحياناً على هذا النحو من البكاء والأنين ، وأحياناً أخرى تندلع على نحو آخر من تجسيم ظلم الأمويين والعباسيين .

وهذا الجانب الطريف من جوانب الكتاب لا يقل عنه جانب الخوارج طرافة ولا متعة وجمالا ، فإن الخوارج يؤلفون جماعة فدائية فى تاريخ العرب لم تستمع إلا لوحى ضميرها وسلطان دينها ، وقد خرجوا يريدون أن يردوا عليا ومعاوية والمسلمين من ورائهما إلى كلمة الله ، فلا يكون الحكم خاصا بقريش ، بل يكون عاما بين العرب بل وغير العرب ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . ألم يقل النبى فى خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » وإذاً فقيم هذه الارستقراطية القرشية التى تريد أن تحكم العرب ؟ إن الإسلام لا يعرف إلا ارستقراطية الدين ، فمن شهد المسلمون بأنه يستطيع أن يحمل أمانة هذه الأمة فليحملها سواء أكان قرشيا أم غير قرشى وسواء أكان عربيا أم غير عربى .

وقد نشأ تحت تأثير هذه الفكرة طائفة كبيرة أرادت أن ترد الناس من حولها إلى ما تفهمه من نصوص الإسلام ، ولم تكتف بالقول والجدل فى ذلك . والإقناع بالحجة وأن يقرع الدليل بالدليل ، بل حملت السيف وناضلت فى سبيل تأييد فكرتها ، ناضلت بالسيف وناضلت بالخطب والشعر ، ولا يقرأ الإنسان شعر هذه الطائفة عند الأستاذ الشايب حتى يحس بعطف شديد نحو هذه الفئة التى ظلمت نفسها وظلمها الناس حقها . وإن من يرجع إلى ما رواه من صحائف شعرها يشعر فيه بالحرارة والصدق وأنهم كتبوه

من أفئدتهم وبدمائهم ، فهو شعر حار يفيض بالقوة في جزالة وروعة تملك على القارىء نفسه وحسه . واستمع إلى قطرى ابن الفجاءة يصف يوم دولاب :

وشـــاربةٍ خدًّا كريمًا على فتًى
أغــــرَّ نجيبِ الأمهاتِ كريمِ
أُصيبَ بدولابٍ ولم تكُ موطنًا
له أرضُ دولابٍ ودير حميمِ
فــلو شهدتْنا يوم ذاك وخيلنا
تبيح من الكفار كل حريمِ
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم
بجـنات عدن عنده ونعيمِ

وواضح أنه يسمى الذين كفارا ، وهكذا كان يؤمن الخوارج بأن الذين كفروا وأن عليهم أن يردوهم إلى الإسلام . وما أجمل البيت الأخير الذى يصف فيه شباب الخوارج وأنهم باعوا أنفسهم فى سبيل الله . وإن من يقرأ وصف هؤلاء الشباب عند أبى حمزة الخارجى فى خطبته المشهورة يعجب بإخلاصهم لعقيدتهم إعجابا شديدا . واستمع إلى الطرماح يصف هذا الإخلاص شعراً إذ يقول :

لله درُّ الشـــراة إنهـــمُ
إذا الكرى مال بالطُّلا أرقوا
يُرجِّعون الحنينَ آونَةً
وإن علا ســـاعةً بهم شهقوا
خوفًا تبيت القـــلوب واجفَةً
تكاد عنهـــا الصدور تنفلقُ
كيف أرجِّى الحيـــاةَ بعدهمُ
وقد مضى مؤنسىَّ فانطـــلقوا
قـــومٌ شحاحٌ على اعتقادهمُ
بالفوز مما يخـــاف قد وثقوا

وعلى هذا النحو الطريف يعرض علينا الأستاذ الجليل أحمد الشايب صورة هذا الشعر السياسى عند الخوارج كما يعرض صورته عند غيرهم من الأحزاب ، وهو عرض يمتاز بالوضوح واستقامة المنهج . وإذا كان هناك شىء يمكن أن يلاحظ على هذا العمل ، فإنما هو حشد التفاصيل الكثيرة . ولكنه — فيما يظهر — اضطر إلى ذلك اضطرارا حتى يحيط بجوانب موضوعه . وأخرى يمكن أن تلاحظ على هذا المجهود القيم ، وهو أنه لم يعن بالكميت وهاشمياته عنايته بشاعر كالأخطل ، وأيضا فإنه جعل الشعر خلف التاريخ ، ولو أنه عكس الوضع لكان أكثر إطرافاً ولكان عمله أتم إبداعا .

وبعد فنحن نرحب بهذا الكتاب لما بذل فيه صاحبه من جهد وكدح مؤملين أن يفرغ لدرس النقائض على نحو ما وعد فى آخر مؤلفه ، حتى يكشف لنا عن هذه الصفحة الأخرى من تاريخ شعرنا العربى .

شوقى ضيف

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع السكردامى
القاهرة

تليفون — ٦٢٧٦٩

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٦٦٩

العدد ٣٤٠ — الثلاثاء ٢٣ من رجب سنة ١٣٦٤ — ٣ من يوليه سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

كيف نصل إلى ســـــلم دائم

يجب علينا قبل البحث فى هذا الموضوع تعريف معنى كلمة السلم ؛ فإذا رجعنا إلى قواميس اللغة وجدنا تفسير كلمة السلم هو التحرر من الحرب أو هو اتفاقية بين طرفين لفض هذا النزاع بينهما ، وقد أضافت بعض القواميس تفسيراً جديداً فسرته على أنه التحرر من كل اضطراب فكرى . وقد فسّر الرئيس روزفلت السلم بالحريات الأربع وهى : حرية التعبير عن الرأى ، وحرية العبادة ، والتحرر من الخوف ، والتحرر من العوز .

هذه هى معانى السلم المختلفة . أما لماذا لا ينعم العالم بسلم دائم فهو ما سنحاول التكلم عنه فى هذا المقال .

استراتيجية السلم

وكما أن هناك استراتيجية للحرب فهناك استراتيجية للسلم . فالدول إذا أقدمت على حرب استعدت لها ووضعت الخطط وعبأت لها من قواها المادية والمعنوية ما يهيئها لمنازلة العدو والتغلب عليه ، فكذلك السلم يجب أن نبحث وندرس جميع المسائل المتعلقة به . وإن أية منشأة سواء أكانت صناعية أو تجارية أو مالية توجد بها أقسام خاصة بدراسة مختلف الأبحاث التى تكفل ضمان تقدم العمل واطراد نجاحه . والسلم فى حاجة إلى مثل هذه المنشآت يتناول فيها اخصائيون موضوع السلم بالبحث والتحليل والدراسة القائمة على أساس علمى صحيح ، ويحاولون حل جميع المشاكل التى تصبح فيما بعد خطراً على السلم ومدعاة لإثارة الفتن والحروب .

السلم الرائع المعنى

وتقتنع بعض الدول إما لخطأ منطقى أو لضعف حربى بالركون إلى سلم خامل مساهمة منها فى تدعيم السلم العالمى وأنها ما دامت لا تنوى العدوان على أحد فإنها بذلك تحافظ على

مبادئ السلام . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإن التجاءها إلى هذا النوع من السلم يعرضها لأشد الأخطار ويشجع غيرها من الدول على محاولة فرض سيطرتها عليها إذ ترى فيها فريسة مستكينة يسهل السطو عليها واقتناصها . وتقدم لنا الدول العربية الآن مثلا قائما للتدليل على هذا المعنى فإنها بتعلقها بهذا الضرب من السلم الخامل تجعل من نفسها موضعا للتنافس والتسابق والتقاسم بين الدول الكبرى ، ومجالا لعقد المؤتمرات للنظر في أمرها والبت في مصيرها .

إذاً فالسلم بمعناه القديم عامل على إثارة الحروب لا على تجنبها ، ولهذا وجب الوصول إلى نوع جديد من السلم يحقق أماني الأمم المتعلقة به . وقد توصل بعض الباحثين والساسة إلى هذا النوع ، وقد تحقق لهم ذلك بعد أن أضافوا إلى التفسيرات السابقة عنصرا جديدا هو عنصر العمل . ويحيل هذا العنصر السلم إلى أداة قادرة على تحقيق الغايات التي تضمن للسلم الاستقرار والدوام ، وبه يمكن العمل على تلافي ما يسبب قيام المشاكل ويحل ما يجد منها حلا ، ويزيل جميع العقبات التي تقف حائلا دون تحقيق العدل الاجتماعي ودون التقدم في شتى مناحي الحياة ، ويقضي على أسباب التعسف والفوضى التي تهدد كيان المجتمع العالمي والتي تعرض مستقبل الدول للخطر وتجرها إلى النزاع والتطاحن .

وإن من يمعن النظر في نصوص معاهدة فرساي يجد أن واضعيها قد ضمنوها هذا المعنى الجديد للسلم ، فاحتوته المادة التاسعة عشرة من قانون العصبة تنص على أن للجمعية العمومية للعصبة الحق في أن تشير على مجلس العصبة من وقت لآخر بإعادة النظر في المعاهدات التي أصبحت تتنافى والأوضاع القائمة على مر السنين والتي يعتبر بقاؤها مهددا للسلم . ولكن ممثلي الدول الكبرى فسروا هذه المادة تفسيراً لا يستقيم وروحها ، وأبوا إلا أن يروا فيها مجلبة للمشاكل ومثارا للقلاقل فأهملت المادة ولم يعمل بها .

وفي سنة ١٩٢٩ وقبل أن يستفحل خطر المشكلة الصينية اليابانية من أجل منشوريا حاولت الصين جاهدة إقناع الدول الكبرى للعمل بمقتضى هذه المادة ، ولكن هذه الدول كانت راغبة عن التعرض لدولة كبرى مثل اليابان واستمرت المشاكل تتعقد وتتفاقم حتى انتهت إلى الحرب . ولو أن الدول قد أجمعت أمرها على تطبيق هذه المادة لبحثت المعاهدة وعدلتها تعديلا يضمن إلى حد ما إرجاع بعض الحق إلى نصابه ورد بعض المظالم والاقتراب إلى حل عادل يحسم النزاع . وقامت هذه الحرب وأوشكت على الانتهاء ، وانبعثت أصوات المنادين بالسلم من جديد يبشرون بنظام يضمن استتبابه وبقاءه . فميثاق الأطلنطي لو وفق أقطاب الدول الكبرى إلى تطبيقه لكان أحسن ضمان للسلم ، ولكن ليست العبرة بما يسطر على الورق بل بالإرادة الصادقة التي تحاول تطبيقه ونشر مبادئه .

وتكاد نصوص هذا الميثاق تنطبق على معنى السلم الذي ذهبنا إليه من قبل ، فإن تأمين حرية الكلام والعبادة وإبعاد شبح الخوف والعوز يستلزم عملا متواصلا ودراسة مستوفاة لحل شتى المشاكل التي تأتي بعكس النتائج التي يذهب إليها الميثاق والوصول إلى عالم يسعد فيه الفرد والمجموع .

ويتحدث استانلي بروس رئيس لجنة التنظيم المالي والاقتصادي في الولايات المتحدة عن السلم بمعناه الجديد فيقول : « علمتنا تجارب العشرين سنة الماضية مدى اعتماد الأمم في تقدمها ونهضتها على مقدار ما تصيبه من النجاح في حل ما يواجهها من المشاكل ، كما أصبحت نهضة البلاد السياسية تقاس بمقدار تغلبها على العقبات التي تقف في طريق نهضتها الاجتماعية كالبطالة وتضخم الأسعار وهبوط مستوى الفرد الاجتماعي والصحي وغير ذلك مما يكون له أثر رجعي على حياة الفرد والمجموع .

الثقافة والحرب

علّق أحد النقاد قائلا إن الحرب لم تنشب عام ١٩٣٩، ولكنها نشبت يوم بدأت النظريات الفلسفية المتطرفة تنتشر فى ألمانيا واليابان وإيطاليا، ويوم قامت نظريات أخرى معادية تسود المعسكر الآخر. ويرى إدجار هرفر أن على الأمم إن أرادت أن تتجنب الحرب فى المستقبل أن تكون على يقظة دائمة لما يسود غيرها من مختلف الاتجاهات الثقافية والتيارات الفكرية، وأن تتعاون على منع كل ما من شأنه نشر المبادئ والفلسفات الداعية للحرب حتى تصبح الثقافات وسيلة للدعاية والتبشير بعالم تسلم تتحقق فيه أسمى المبادئ الإنسانية.

فترة هدوء

يعزو الكاتب السياسى هارولد نيكلسون فشل مؤتمر فرساى لما كان يسوده من روح الحقد والاندفاع. ولذا كان من الضرورى وجوب التفرقة بين هدنة تمهيدية تفرض على المغلوبين واتفاقية نهائية تقوم على التفاهم وتبادل وجهات النظر ويبت فيها فى مستقبل الدول المشتركة فيها.

ولعل ما نلمسه الآن فى مؤتمر سان فرنسسكو من قيام بعض الاختلافات وتضارب وجهات نظر الساسة وتطور المناقشات إلى درجة من الحدة، وتعقد بعض المسائل، يفسر ما ذهبنا إليه. فلا بد إذاً من فترة هدوء تصحب انتهاء القتال، لأن بناء سلم لعالم المستقبل لا يتيسر لمؤتمرين لا يزال قصف المدافع ودوى القنابل يطن عليهم سمعهم، وآثار التدمير والتخريب ماثلة فى أذهانهم. فأسس السلام لا يمكن أن تثبت وتستقر إلا إذا كان واضعوها بعيدين عن كل تأثير نفسانى. اللهم إلا رغبتهم فى إقامة سلم عادل ثابت.

محمد شاهين الجوهرى
بكالوريوس فى الصحافة

نشوء
المجموعة الشمسية

كان هذا الكون من قديم الزمان أعجوبة العجائب ومشكلة المشاكل ، حير الألباب وأجهد العقول ، ومازال العلماء منذ القدم يحاولون فهمه واكتناه أسراره ، وكلما تقدموا في العلوم الطبيعية والرياضية وازدادوا مقدرة على إجراء الأرصاد والحسابات وتطبيق النظريات الطبيعية والميكانيكية على المشاهدات والإحصائيات ، قربهم ذلك كله من هدفهم الأسمى خطوة خطوة . نعم إنها خطى وئيدة لكنها على أى حال خطوات يحس العلماء لها نشوة وفرحة تبعث في نفوسهم الأمل وتذكى منهم الهمم ، وجمهور المثقفين من ورائهم يتهافت على ما يصل إليه الرياضيون والفلكيون من نتائج ومايكتشفون من حقائق وما يضعون من فروض وما يصوغون من نظريات وما يبدون من تفسيرات وما يذيعون من تكهنات .

وقد وصلنا إلى نتائج هامة ونظريات قيمة وعرفنا عن الأجرام السماوية حقائق كثيرة لها خطرها وأهميتها ولذتها أيضا . وكم من اكتشافات فلكية اهتزت لها الدنيا ، وكم من تنبوءات لعلماء الفلك تحققت وبهرت العالم ! وقد أصبحنا الآن نعلم من حركات المجموعة الشمسية بصفة خاصة وغيرها من الأجرام السماوية بصفة عامة قدراً كبيراً تجلت فيه دقة عظيمة يرجع الفضل في تحقيقها إلى الآلات الفلكية العجيبة التي اكتشفت واحدة بعد أخرى ، وكل منها يتقدم ويزداد دقة وحساسية على مر الأيام ، ومن تتبع تطور العدسات والمرايا وجدها وجد فيها العجب العجاب .

على أن شيئا واحدا على جانب عظيم من الأهمية لايزال العلم يتخبط فيه والعلماء يعصرون قرائحهم ولما نصل بعد إلى شيء أكيد حاسم بشأنه ، ألا وهو كيف نشأ هذا الكون وكيف تكونت تلك النجوم وكيف تطورت تلك المجاميع التي تشبه مجموعتنا الشمسية ، أو بعبارة أخرى : ماهي الظواهر التي نشأ عنها ميلاد تلك الكواكب التي تدور حول الشمس وما يدور حول بعض هذه من أقمار ؟ وبعد ذلك كله كيف نشأت الحياة على الأرض ؟ وهل هناك أجرام سماوية أخرى نشأت فيها حياة كحياتنا أو شبيهة بها أو مغايرة لها ؟ .

كل هذه المسائل العويصة لمّا يصل العلم إلى رأى نهائي بشأنها ، وإن كانت المحاولات مستمرة منذ الأزل . فإذا أخذنا المشكلة الأولى مثلا وهي تطور مجموعتنا الشمسية وجدنا أن البحث فيها والسعي وراء حلها قد بدأ من عهد الحضارة اليونانية ، فيحدثنا التاريخ أن أفلاطون أول من اتجه اليها كون لنفسه رأيا عن أبعاد أعضاء مجموعتنا الشمسية بعضها عن بعض ، وكان يعتقد أن هذه الأبعاد بينها نسب كالتي بين الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ، ٢٧ ، وقد أطلق على ما تكوّن منها اسم « نسب الأبعاد المضاعفة » .

ثم ظهرت الفكرة الثانية التي تُعزى إلى أفلاطون أيضا ، وهي أن الشمس موجودة من عهد بعيد جدا ، وأن الكواكب لما أبدعها الخالق على الصورة التي هي عليها الآن أودعها مكانا قصيا هو ما نعبر عنه في لغتنا الرياضية في الوقت الحاضر باللانهائية ، ولما حان الموعد المقرر لها هبطت كلها متجهة صوب الشمس وأخذت سرعة كل منها تتزايد في هذا الهبوط بمقادير مختلفة ، حتى إذا ما بلغ كل كوكب الفلك المقدر له في الخليقة تحولت سرعته في اتجاه المماس لفلكه وأخذ يسير فيه وظل يسلك سبيله في هذا المدار أو الفلك إلى يومنا هذا وسيظل يفعل ذلك إلى ما شاء الله .

وقد علل هذا الفرضُ بساطة الحركات السريعة للكواكب القريبة من الشمس وإن لم يحقق الانطلاقات[1]

(١) الانطلاق هو السرعة بغض النظر عن اتجاهها

الواقعية لتلك الكواكب في الفضاء ، كما أثبت نيوتن فيما بعد ، فهذا الفرض لا يؤدي بالحساب إلى المقادير الواقعية لتلك الانطلاقات إلا إذا أضيف إليه فرض آخر هو أن جاذبية الشمس للكواكب قد تضاعفت قيمتها في اللحظة التي تغير فيها اتجاه سيرها من هبوط صوب الشمس إلى سلوك السبيل السويّ في المدار المقرر كما قدمنا .

وبعد ذلك بألفي سنة جاء كبلر بفكرته المشهورة أن أبعاد الكواكب السيارة من الشمس خاضعة لاعتبارات هندسية بحتة ، وأن ما يحددها هو هندسة الأجسام المنتظمة ، فقد قال بأننا لو تصورنا كرات متتابعة متمركزة مركزها الشمس ، وأنصاف أقطارها أبعاد تلك الكواكب عنها على التتابع كانت هذه الكرات من الحجم بحيث يستقر بين كل اثنتين متتابعتين منها أحد المجسمات المنتظمة الخمسة المعروفة ، وهي ذو الأربعة الأوجه (أو الهرم الثلاثي المنتظم) والمكعب (وله ستة أوجه) وذو الثمانية الأوجه ، (ويتكون من هرمين رباعيين متساويين قاعدتاهما وجها لوجه) وذو الاثني عشر وجها (وكل زاوية مجسمة فيه يحددها ثلاثة مخمسات منتظمة) وذو العشرين وجها (وكل زاوية مجسمة فيه يحددها خمسة مثلثات متساوية الأضلاع) . ويقصد باستقراره بين الكرتين أن تمس الداخلية منهما أضلاعه وتمر الخارجية منهما برءوسه .

والمعروف أن أفلاطون عدل بعد تفكير طويل من هذه الفكرة الخلابة إلى فكرة أخرى طريفة تربط أبعاد الكواكب بنسب تتفق مع النسب التي بين عدد الذبذبات أو التردد لبعض الأنغام الموسيقية الخاصة .

هذه بعض المحاولات الخيالية التي تستند إلى القوانين الطبيعية والأسس الرياضيـة الحقة ، تلتها محاولات أخرى جدية ، تقوم على هـذه وتلك ، حين أدلى كل من نيوتن وكانت وغيرهما (دون أن يتصل بعضهم بالبعض) بآراء لها قيمتها ، ثم تبعهم الرياضي لبلاس بآراء أدق وأكثر اتفاقا مع الرياضيات والقوانين الطبيعية . وإلى القارىء خلاصة لتلك الآراء الجدية التي حاول بهـا هؤلاء العلماء والفلاسفة الأفذاذ أن يفسروا نشوء الكون بصفة عامة والمجموعة الشمسية بصفة خاصة .

* * *

أما نيوتن فقد خيل إليه أنه لو كانت المادة التي تتكون منها شمسنا وكواكبها ، وكذلك المـادة التي يتألف منها الكون كله ، لو أن هذه انتشرت في السماء بانتظام وكان لكل جسيم أو نقطة مادية منها جاذبية نحو جميع مثيلاتها ، وكان الفضاء الذي انتشرت فيه هـذه المادة كلها محدوداً لنشأ من ذلك أن تتجه جميع الجسيمات بحكم الجاذبيـة من الأطراف إلى الوسط ، وبذلك تتكون بعد زمن كرة مادية عظيمة متمركزة في وسط الفضاء . أما إذا كانت مادة الكون كلها مبعثرة في فضاء لا نهائي فإنها لن تتجمع أبدا فتكوّن كرة مادية واحدة على هذه الصورة ، بل يتجمع منها البعض فيكون كتلة كبيرة وبعض آخر كتلة أخرى وهكذا ، حتى يتكون عدد لا نهاية له من هذه الكتل المادية العظيمة مبعثرة في ذلك الفضاء اللانهائي ، ومتباعدة من بعضها بمسافات شاسعة . وعلى هذا النحو تصور نيوتن نشوء شمسنا وغيرها من النجوم .

أما كانت فقد تخيل الكون في بدايته سحابة غير منتظمة تسودها الفوضى تتألف من هباءات من التراب وجسيمات مادية صغيرة مختلفـة الأنواع بعضها ساكن وبعضها يقفز هنا وهناك بحركات عشواء . هذه هي المادة الخام التي ألفت منها قوانين الطبيعة عالمـا فيه الشمس والأرض وأمثالها من الكواكب ، والقمر وغيره من التوابع . فإن هذه المادة البدائية تأخذ في التجمع والتكتل بحكم التجاذب بين أجزائهـا حتى تكون منها كتلة مادية هائلة (كالتي تصورها نيوتن) هي الشمس .

وقد ظن كانت أن عملية التجمع والتكتل وتكوين

جسم عظيم واحد على هـذه الصورة عملية من شأنها وحدها أن تولد فى هذا الجسم العظيم حركة دورانية (وهو على خطأ فى زعمه هذا) ثم افترض أن هذه الـكتلة ستبرد بالتدريج وتتقلص فى خلال ذلك ، وكلما صغر حجمها بهذا الانكماش ازدادت سرعة دورانها شيئا فشيئاً إلى أن تصير فى النهاية حركتها الدورانيـة من السرعة بحيث لا تستطيع أن تستمر على التماسك كجسم واحد وإنما ينفصل بعض أجزاء إطارها الخارجى فيتناثر بعيدا عنها ككتل غازية عظيمة متطايرة من الدائرة الاستوائية لهذه الـكتلة الدوارة .

ثم تزداد برودة الـكتل بدورها حتى تستحيل إلى سائل ، ثم تنتقل إلى حالة الصلابة، فهذه الكتل الجامدة هى التى صارت فيما بعد (كما يرى كانت) الكواكب السيارة ومنها أرضنا التى نعيش عليها .

وأما لبلاس الرياضى العظيم فقد حال غزير علمه دون وقوعه فى الخطأ الذى وقع فيه كانت بافتراضه أن فى الإمكان تولد حركة دورانية فى كتلة سدمية عظيمة نتيجة لمجرد فعل التكاثف والتجمع ، فمن المحال تولد حركة دورانية من لا شىء ، ولذلك افترض أن تلك الـكتلة السدمية كانت لها من مبدأ الأمر حركة دورانية . وليس على هذا الفرض أى اعتراض ، فإننا نعلم الآن (وإن لم يكن لبلاس يعلم فى زمانه) أن معظم السدائم التى فى السماء لها حركة دورانية. ثم تأتى بعد ذلك الظواهر الثلاث : تتابع البرودة وتناقص الحجم وتزايد سرعة الدوران ، ويلاحظ لبلاس أن ازدياد الحركة الدورانية من شأنه أن يفرطح الـكتلة الدورانية فتبرز مناطقها الاستوائية شيئاً فشيئاً إلى أن تنفصل فى النهاية حلقة مادية من تلك المنطقة الاستوائية وتظل دائرة حول الشمس التى يتتابع انكماشها . ويستشهد لبلاس على صحة رأيه هذا بحلقات زُحَل ، ويقول إن مثل هذه الحلقة المادية المنطردة من الـكتلة الـكبيرة تتكاثف وتتجمع وتتكتل مولدة أحد الـكواكب .

وتتكرر هذه الظواهر بالنسبة للشمس (وهى الـكتلة الأصلية) التى تستمر فى برودتها وانكماشها وازدياد سرعة دورانها ، وبالتالى فرطحتها إلى أن تنفصل من منطقتها الاستوائية حلقة أخرى تكوّن كوكبا آخر وهكذا .

وليست هذه نهاية القصة ، فإن تلك الكواكب المتكونة تتعرض بدورها إلى تلك الظواهر نفسها فينشأ عنها تولد أقمار أو توابع كما قدمنا .

لكن الرياضيين الذين جاءوا بعد لبلاس قد أثبتوا أن فكرته غير صحيحة ، فإنهم حسبوا مقدار السرعة الدورانية التى لابد أن كانت فى الـكتلة السدمية الأصلية ، فإذا بها حركة ضئيلة بطيئة لا يمكن أن تؤدى إلى الفرطحة أو إلى حدوث تلك الظواهر التى بنى عليها لبلاس رأيه الذى سبق شرحه ، وانهارت بذلك نظريته .

أما الآراء التى جاءت بعـد ذلك وانتهت بالنظرية الحديثة الشائعة الآن التى وضعها السير جيمز جينز فستكون موضوع مقال آخر .

احمد عبد السلام الكردانى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الـكرداسى
القاهرة

تليفون — ٥٦٢٦٩

التأليف

يقول شوبنهور : « المؤلف إما أن يكتب من أجل الموضوع ، أو يكتب من أجل الكتابة . الأول عنده من الأفكار والتجارب ما يستحق — في رأيه — النشر والإذاعة . والثاني يكتب ليكسب من وراء الكتابة ، وتفكيره سلعة يتجر بها . ويستطيع القارئ أن يميزه بالطريقة التي ينسج بها آراءه ، فإنه يمدها إلى أطول حد ممكن . وهو يتميز كذلك بطبيعة تفكيره ، فآراؤه ليست صادقة كل الصدق ، ملتوية ، مفتعلة ، مذبذبة ، وهو لا يحب الصراحة في القول ، لئلا يبدو على غير حقيقته . ومن ثم نرى كتابته أبعد ما تكون عن الوضوح والدقة . وسرعان ما يتبين لجمهور القارئ أنه لا يرى من وراء الكتابة إلا أن يسود الصفحات . وهذا عيب لا يخلو منه أحياناً أحسن المؤلفين .... وتصيحتى للقارئ أن يلقى الكتاب جانبا في اللحظة التي يدرك فيها هذه الحقيقة ، لأن الوقت ثمين . والحق أن المؤلف حينما يشرع في الكتابة لمجرد ملء الصفحات ، إنما يخدع القارئ ، لأنه يكتب زاعماً أن لديه ما يريد التعبير عنه » .

ويرى شوبنهور كذلك أن الكتابة من أجل المال فيها قضاء على الأدب . إن المرء لا يكتب شيئاً يستحق الكتابة إلا إن كان يكتب من أجل موضوعه فحسب ، ولو أن الأمة لم تبق في كل فرع من فروع الأدب إلا على عدد يسير من الكتب ، وتلك هي الكتب الممتازة ، لكان خيراً لها وأبقى . ولكن هذا لن يكون ما دامت الكتابة تدر المال . ويبدو لي أن المؤلف ينحط كثيراً حينما يمس قرطاسه بالقلم بقصد الربح والكسب . إن خير ما أنتج كبار الكتاب هو ما دونوه حينما كانوا يكتبون بغير مقابل أو بأجر زهيد . وما أصدق المثل الأسباني الذي يقول إن الشرف والمال لا يجتمعان في كيس واحد . ولعل تدهور الأدب في العصر الحديث يرجع إلى أن الكتاب يكتبون الكتب لتكوين الثروات . يشعر الرجل بالفاقة فيجلس إلى مكتبه ويخرج للناس كتابا ، ومن العجيب أن الجمهور قد بلغ من الغباء حدا يدفعه إلى شرائه . وفي هذا انهيار للغة والأدب .

كم من كاتب مسف يعيش على شغف الجمهور بقراءة كل ما يطبع ! وأ كثر هؤلاء الكتاب من رجال الصحافة .

وهناك — من ناحية أخرى — ثلاثة ضروب من المؤلفين . هناك من يكتب بغير تفكير . وهو يكتب من محفوظه ، وقد يكون ذلك نقلا مباشراً عن كتب الآخرين . ومن هذا الصنف عدد عديد ، وهناك من يفكر في أثناء الكتابة . إنه يفكر لكي يكتب . ومن هذا الصنف عدد لا بأس به . وهناك — أخيراً — أولئك المؤلفون الذين يفكرون قبلما يكتبون . وما أقل هؤلاء .

وما أشبه المؤلف — من الضرب الثاني — الذي يؤجل تفكيره إلى وقت الكتابة ، بالصائد يخرج للصيد عفواً ، ثم يعود إلى بيته خالي الوفاض بادي الأنفاض . أما الكاتب — من الفئة الثالثة النادرة — فكالصائد يتصيد الحيوان من حظيرة . ليس عليه إلا أن يصوب السلاح أو يطلق النار ، ويكاد يستحيل أن يخطئ الرمى . أو بعبارة أخرى أنه حينما يكتب إنما يدون آراء مخزونة من قبل .

ومع أن أولئك الذين يفكرون جديا قبل أن يشرعوا في الكتابة قليل عددهم ، فقل منهم من يفكر في الموضوع ذاته . أما أكثرهم فيفكر في الكتب التي ألفت في الموضوع ، وفيما ذكره الآخرون . أمثال هؤلاء الكتاب يحتاجون — عند تفكيرهم — إلى تفكير الآخرين يحفزهم ويدفعهم إلى العمل . وهم لذلك أبعد ما يكونون عن الخلق والابتكار . أما الأولون فإن الموضوع نفسه هو الذي يحفزهم إلى التفكير . وهذه هي الفئة الوحيدة التي يخرج منها الكتاب أصحاب الشهرة الخالدة .

إنني أتكلم هنا — بطبيعة الحال — عن الكتاب الذين يعالجون موضوعات جليلة ، لا على أولئك الكتاب الذين يكتبون في فن الطهو .

إن المؤلف إذا لم يستمد مادته من رأسه ، أي من ملاحظاته الخاصة ، لا يستحق أن يقرأ . من الكتاب من يتخذ من الكتابة صناعة ، يخرج الكتاب تلو الكتاب وكأنه يعمل في مصنع ، ومن هؤلاء المصنفون الذين تتألف كتبهم من المختارات والمنتخبات ، وكثير من كتاب التاريخ ، وغيرهم ممن يستمدون مادتهم من الكتب مباشرة ، ثم تنحدر المادة إلى أطراف أصابعهم ويصبونها على القرطاس لا يؤدون منها ضريبة ، ولا يختبرونها وهي تمر برؤوسهم ، لا يزيدون عليها ولا ينقصون منها ، ولا يتناولونها بالنقد والتحليل، هؤلاء الكتاب يتحدثون حديثا مهلهلا غامضا ، يشق على القارئ أن يفهمه . كتبهم صور مشوهة من صور أخرى ، ونصيحتي للقارئ أن يقلل ما استطاع من قراءة المصنفات ، ومن العسير أن يتجنبها القارئ كلية ، لأنها تشتمل كذلك على تلك النصوص التي تحوي في حيز صغير مجموعة من معارف القرون السابقة .

وليس أبعد من الصواب من أن يحسب القارئ أن الكتاب الأخير خير الكتب وأصحها ، وأن ما كتب في عهد متأخر تهذيب لما كُتب في الزمان القديم ، وأن التغير معناه التقدم . إن المفكرين الحقيقيين ، أصحاب الحكم الصادق ، أولئك الذين لا يعبثون عما بين أيديهم من موضوعات ، شواذ في تاريخ الفكر الإنساني . ما أكثر الحشرات الإنسانية المؤذية في أنحاء العالم طراً . أمثال هؤلاء يتناولون الفكر الناضج ويحاولون الزيادة في نضجه بطريقتهم الفاسدة ، فيفسدون ما صلح !

إذا كنت أيها القارئ تحب أن تدرس موضوعاً فحذار من الاندفاع نحو أحدث الكتب ، وإياك أن تقيد اهتمامك بها وحدها ، متوهما أن العلم في تقدم مستمر ، وأن خير ما في الكتب القديمة تسرب إلى الكتب الجديدة عند تدوينها . إنني لا أنكر أن الكتب القديمة قد نبشت ، ولكن ما أكثر الكتاب الحديثين الذين لا يفهمون الكتب القديمة حق فهمها ، ومع ذلك تراهم يقتبسون منها غير متورعين ، وكثيراً ما يمسخونها ، ويعبرون بأسلوبهم الردئ عن معان أوردها الكتاب القدامى في وضوح تام وبأحسن الأساليب ، ذلك لأنهم كتبوا رسائلهم من معرفتهم الحية بالموضوع رأساً . الكاتب الحديث كثيراً ما يحذف خير ما في الكتاب القديم ، وأبرز ما فيه من صور وتوضيحات ، وأحسن ما فيه من ملاحظات ، لأنه لا يدرك قيمتها ولا يصل إلى أعماقها . وقد لا يستهويه غير التافه الضئيل .

وكثيراً ما يصدر كتاب جديد ردئ فيطرد من المكتبة كتاباً قديماً ممتازاً ، وذلك لأن الكتاب الجديد يداهن طائفة معينة من الناس . وكم من كتاب على زعم مؤلفه أنه أتى بجديد ، وهو في الواقع لم يفعل شيئاً سوى أنه هاجم نظرية قديمة صحيحة ، وذلك لكي يخلي السبيل لرأيه الخاطئ ، وقد ينجح المؤلف الجديد ، ولكن إلى حين ، ولا بد أن ينتصر الحق ، فيعود الكتاب القديم إلى ذيوعه وانتشاره . إن المجددين كثيراً ما يهملون كل شيء ولا يراعون سوى أصحابهم ومنفعتهم الخاصة . وأيسر السبل إلى ذلك إنكار الحق القديم ومحاولة تفنيده ، ومن هذه الطائفة من الكتاب أولئك المترجمون الذين لا يكتفون بترجمة الأصل ، بل يصححونه ويراجعونه ، وهو عمل — في رأيي — وقح جرئ ، وإلى هذه الفئة من الكتاب أقول : ألفوا بأنفسكم الكتب التي تستحق الترجمة واتركوا عمل غيركم كما هو بغير مساس !

يجب على القارئ أن يدرس — إن استطاع — المؤلفين الأصليين ، أولئك الرجال الذين أسسوا المذاهب

أو اكتشفوا النظريات ، أو على الأقل أولئك الذين اعترف لهم بالعلم والأستاذية فى فروع المعارف المختلفة ، خير للقارئ أن يشترى الكتاب المستعمل القديم من أن يقرأ محتوياته فى كتاب جديد ، أنا لا أنكر أن الاكتشاف القديم قد يزداد إيضاحاً ، ولكن واجب الطالب أن يدرس مبادئ علمه فى أصولها القديمة أولا ، ثم يطلع بعد ذلك على الإضافات الجديدة ؛ هذه قاعدة ذهبية على الطالب أن يذكرها دائماً : إن الجديد قلما يكون جيداً ، لأنه ان كان كذلك فسرعان ما تزول جدته .

وأنتقل بعد ذلك إلى ناحية أخرى ، وتلك هى عنوان الكتاب . العنوان للكتاب بمثابة العنوان للخطاب ، فالغرض الأول منه تقديم الكتاب إلى الجمهور الذى يهمه الموضوع . ولذا ينبغى أن يكون قوىّ التعبير ، مقتضباً ، قوياً ، محشواً بالمعنى ، يحوى محتويات الكتاب فى كلة إن أمكن ذلك . العنوان الطويل غير مستحب ، وكذلك العنوان الذى لا يدل على شئ ، أو الغامض المبهم ، أو الكاذب الذى لا يهدى إلى شئ ، فهذا العيب الأخير قد يؤدى إلى ما يؤدى إليه العنوان الخاطئ على الظرف . وأسوأ العناوين المسروقة من كتاب آخر ، فهى أولا جريمة أدبية ، ثم هى — فوق ذلك — دليل قاطع على أن المؤلف يعدم كل قدرة على الابتكار . فالرجل الذى لا يستطيع أن يبتكر عنواناً جديداً لكتابه ، لا يمكن أن يقدم لنا فى محتويات كتابه أمراً جديداً . وشبيه بالعناوين المسروقة العناوين المقلدة ، مثال ذلك ما حدث مرة عند ما صدر كتاب عنوانه « عقل الطبيعة » وذلك بعد ما أخرج شوبنهور كتابه « إرادة الطبيعة » .

والكتاب يكتسب قيمته من « مادة » المؤلف أو « صورة » الكتاب ، أى من الموضوع أو كيف يعالجه المؤلف . و « بالمادة » أعنى كل ما يدخل فى دائرة خبرة الكاتب ، وهو إما من الحقائق التاريخية أو الحقائق الطبيعية . والكتاب قد يكون هاماً مهما يكن كاتبه ما دام يعالج موضوعاً له أهميته . أما قيمة الكتاب من حيث « صورته » فتتوقف على شخصية الكاتب ، فالكتاب قد يعالج مادة مطروقة ميسورة ، ولكن فى صورة جديدة ، أو بطريقة مستحدثة ، وهذه خاصة بالمؤلف دون الموضوع . فإن كان الكتاب من هذه الناحية ممتازاً فالكاتب ممتاز . ويتبع ذلك أن الكتاب إن كان يستحق القراءة فإن قيمته ترتفع كلما قلّ اعتماده على أهمية المادة . وإذاً فكلما كانت المادة معروفة مطروقة كان الكاتب جليلا عظيما . وقد عالج أكبر كتاب الكاسى الإغريق نفس الموضوعات ، ولم ينقص ذلك من قيمتهم .

ولذا يجب أن ننتبه — عند الحكم على الكتاب — إن كانت شهرته ترجع إلى قيمة مادته أو صورته . فالكتب التى تكتسب أهميتها لقيمة مادتها قد تصدر عن أشخاص عاديين ، وذلك لأنهم — وحدهم — استطاعوا أن يصلوا إلى مادة الكتاب فالكتب — مثلا — التى تصف الرحلات فى البلاد النائية ، أو التى تتعرض لظواهر الطبيعة النادرة ، أو التجارب الفريدة ، أو الحوادث التاريخية التى شهدها الكاتب أو التى بذل الكاتب فى تحقيقها وقتاً ومشقة باحثاً فى مصادرها ومنقباً فى أصولها ووثائقها . هذه الكتب — رغم أهميتها — قد تصدر عن رجل من غير ذوى المواهب الممتازة .

ومن ناحية أخرى ، إذا كانت المادة ميسورة لكل إنسان ، أو مطروقة معروفة ، فإن كل شئ يتوقف على الصورة ، فهى التى تعطى الكتاب قيمته . ولا يستطيع — فى مثل هذه الحالة — أن ينتج شيئاً له قيمة ما إلا رجل ممتاز ، أما من دونه فهم لا يفكرون إلا فيما يفكر فيه كل إنسان ، ويقدمون لنا صورة ممسوخة للأصول التى بين أيدينا .

غير أن الجمهور يأبه بالمادة أكثر مما يأبه بالصورة ، ولذا تراه جد ضعيف في ثقافته . وهو يبدى ميله هذا حتى وهو يقرأ الشعر ، فيثير فينا الضحك والسخرية . إنه يهتم بحياة الشاعر وما كان لها من أثر في شعره أكثر مما يهتم بالشعر ذاته . ويؤثر أن يقرأ ما كُتب عن جيته على أن يقرأ ما خلّف لنا جيته . كثير من الناس يحبون أن يعرفوا قصة فاوست أكثر مما يحبون أن يقرأوها مسرحية بقلم كاتبها . ذلك لأنهم يهتمون بالمادة أكثر مما يهتمون بالصورة . مثلهم في ذلك مثل الرجل يُعطى آنية أثرية فلا يعجبه منها شكلها وتلوينها ، وإنما يريد أن يحلل الطين والطلاء المكون منهما الإناء تحليلا كيميائياً .

إن محاولة التأثير من طريق « المادة » – وهى محاولة يتملق فيها الكاتب ميول القارئ – لا تُستحب في فنون الأدب التي تعتمد في قيمتها على الصورة ، وأقصد الشعر ، وكثيراً ما يحاول الكاتب المسرحى أن يستثير حماسة الجمهور بالمادة التي يقدمها له ، فلا يتورع أن يخرج على المسرح رجلا من مشاهير الرجال مهما تكن حياته خالية من الحوادث التي تستحق التمثيل .

إن التمييز بين المادة والصورة الذى أشير إليه هنا ينطبق كذلك على الحديث . إن الصفات العامة التي تمكن الرجل من حسن الحديث هى الذكاء والفطنة والحيوية – وهذه هى « الصورة » في الحديث ، فمن يكسب حديثه هذه الصفات لا يعدم السامعين المنصتين . فإن كان الموضوع تافهاً احتاج المحدّث إلى درجة كبيرة من هذه الصفات . لأنه قد يتكلم في موضوع معروف مطروق بألفه الجميع . وعلى العكس من ذلك ، إذا كان المحدث يفتقر إلى هذه الصفات ، كان حتما عليه – كى يجد من يستمع إليه – أن يختار موضوعاً له خطره وله قيمته . فالمادة حينئذ قد تعوّض عليه بعض ما يفقده .

محمود محمود

السعادة

(نورة المغربي)

يسير المرء في سبيل الحياة ، حتى إذا قطع الشوط الأول من حياته لا يلبث أن يقف متسائلا :

وإلى أين المصير . . . ؟!

وما هي الغاية من وجودنا . . . ؟!

أما المصير فإلى الفناء . وأما الغاية من وجودنا فهي أن نسعى إلى السعادة .

ولكن كيف لنا أن نحظى بها . . . ؟

إن الأمر بسيط . فمن أراد السعادة فما عليه إلا أن يكون سببا في سعادة الآخرين ، وألا يقصر همه في الحياة على حب نفسه ، وألا يضحي بالمصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة ، وألا يكون عبدا لشهواته ، وألا يرى بنفسه في بيداء الأحزان ، وألا يستولي عليه اليأس والقنوط إذا كبا الحظ العاثر به .

والمرء يمكنه أن يخلق مما يحيط به جنة أو يقيم حوله سجنا . فأولئك الذين يستكينون للأفكار الظالمة ويتخيلون دائما أنهم فريسة الأقدار ، وأن النحس طالعهم والبؤس رائدهم ، فلا هم لهم إلا الشكوى من الأقدار والسخط على الأيام ، إنما يخضع هؤلاء لأوهام تصورها لهم أنفسهم المريضة وما هي في الحقيقة إلا خيالات لا تلبث أن تزول أمام العزيمة القوية والإرادة الحديدية ، فيتبدل الليل نهارا ويصحو الجو وتبزغ شمس السعادة .

ليست الحياة مجرد عيش فقط ، وإن أولئك الذين يعيشون ولا أمل لهم فيها ، ويمرون بها كما تمر الأوراق الناصعة على صفحة الماء هم أموات في ثياب أحياء . فالحياة لا تقاس بطول السنين التي يعيشها الفرد ، ولكن بما يقوم به من أعمال تعود عليه وعلى بني جنسه بالنفع العميم .

ولو بذلنا كل ما في وسعنا من كد وكدح دون أن نجعل الصغيرة كبيرة ونظرنا إلى الحياة من حيث ينبغي وإلى الأشياء على حقيقتها — لظهر لنا العالم مملوءا بالمسرات محفوفا بالخيرات وشعرنا بالدنيا مقبلة ، والأيام مؤاتية . ولكن ما أقل أولئك الذين يعرفون ماهية الحياة وقيمة الوجود .

ولله در « رسكن » إذ يقول : « إن كثيرا من رجال الدين في نصحهم وإرشادهم لا يجدون أمامهم من نعم الله التي أنعم بها على عباده إلا الطعام واللباس والصحة ، تلك الأشياء التي يستوي فيها العظيم والحقير ، ولا يرشدون الناس إلى ما في العالم من ضروب الحسن وآيات الجمال مما يشهد بعظمة الخالق وتفرده بالقدرة والكمال . ويحببون الزهد في الحياة إلى الناس والانزواء في البيوت بدلا من الخروج إلى الحقول والأودية والأنهار . فهم بعملهم هذا يصرفون النفس عن معاني الجمال وينكرون أقوى دليل وأسطع برهان على قدرة الواحد الأحد القهار .

وقال ماركس أورليس : « إن الله حصن الإنسان بقوى تمنعه من الوقوع في الشر ، فكيف بمن لم يخلق الإنسان شريرا أن يجعل الحياة شرا ؟ » . وقد قال ابكتاتوس : « من لم يكن سعيدا في الحياة فعليه تبعة بؤسه . وإني أرضى دائما بما يقع لي من حوادث لاعتقادي أن الله لا يريد بالإنسان شرا » .

هذه فلسفة على جانب عظيم من الصحة ، ولكننا مع ذلك لا نسلم بأن العالم خلو من المصائب والأحزان ، فلا بد لنا من تذوق آلام المرض والبكاء على موت الأهل والأحباب ، والتألم من قسوة الظلم وطغيان الاستبداد ، والتحسر على هفوات الأصدقاء . فكم من يوم قاتم قطعناه وساعة موحشة مرت بنا لكلمة قيلت في غير موضعها أو هفوة زل بها اللسان .

وليس من العقل في شيء أن نتحرى مكانا قصيا

ولا نشارك الناس أفراحهم وأتراحهم ، ونبخل إذا كنا في يسر ولا يهمنا سعد الناس أم شقوا . فإننا بعملنا هذا نقضي على سعادتنا بأيدينا . فمن لا نمرفهم في سعادتنا لا يعطفون علينا في شقوتنا . ولنعلم أن الأيام دول ، وأن دوام الحال من المحال ، وأن الشر والخير صنوان .

وإذا عجزنا عن أن نكون حياتنا سعادة دائمة فلا نعجز عن أن نرجح كفة السعادة على كفة الشقاء ، وإن الحوادث التي تظهر لنا كنحوس إذا قابلناها بعزم وثبات لا تلبث أن نراها سعودا . وفي ذلك يقول العالم سنكا : « قد تأتي المصائب بالنافع وتكال الهزيمة بفخر الانتصار » .

ونسوق على سبيل المثال ماحدث للعلامة « هلمهولتز » إذ بدأ حياته العلمية الجيدة بسبب إصابته بحمى التفويد وهو طالب وعالجته المدرسة على نفقتها الضيق ذات يده . وبعد أن أبل من مرضه اشترى مجهرا ليرى به جراثيم تلك الحمى الخبيثة ، ومن ذلك الوقت بدأ نجمه يبزغ في سماء العلم والشهرة حتى انتهى به بحثه إلى الاهتداء إلى المصل الواقي منها .

وقد شغلت مسألة الخير والشر عقول المفكرين والباحثين في مختلف العصور . وكل أمة تفسر وجود الشر بمقدار ما هي عليه من الرقي أو الانحطاط . فالأمم البربرية ترجع السبب في وجوده إلى الأرواح الشريرة التي تسكن العالم .

وكان الاغريق يعزون السبب في وجوده إلى النزاع القائم بين الآلهة . وقد توهم آخرون أن هناك قوتين إحداهما تعمل لإسعاد البشر والأخرى تعمل لشقوته . ولم يهتد أحد إلى معرفة السبب الحقيقي ، ولكن الرجح هو أن ما يحل بالانسان من خير أو شر هو من صنع يديه ، وعليه تقع تبعة عمله . سواء كانت خيرا أم شرا .

ويعزو الكثيرون السبب في تكدير صفو الحياة إلى المرض أو الموت ، ولكن هذه أشياء لا تقع كل يوم . أما السبب الحقيقي فيرجع إلى المشاحنات التي يشعلون نارها بين الأهل والأصدقاء .

وما أسعد الحياة المنزلية يسودها الوئام والحب . ولكن كثيرا ما يفسد هذا النعيم بمشاحنات تثيرها لأسباب تافهة فتنغص بها حياتنا وحياة من يعيشون معنا . ولو تغاضينا عن الصغائر وكنا أكثر تسامحا وتركنا « ضيق الخلق » — كما يقول الكثيرون — واتبعنا الحلم في معالجة الأمور لأضحى المنزل جنة صغيرة ينعم فيها المرء بألوان من السعادة والنعيم لا يمكن أن يحظى بها في مكان آخر . .

وكثيرا ما نجلب الشقاء على أنفسنا بسبب تغافلنا وعدم التروي والتبصر بالأمور وعواقبها ، فرب لذة ساعة أورثت الآلام طول الحياة .

وهناك أناس يتوقعون في كل لحظة أن تحل المصائب بهم فيطلون في انتظارها ويفرقون خوفا ويموتون جزعا من لا شيء . وكثيرا ما نسمع بأناس ماتوا من كثرة مشاغلهم ، ولكنهم في الحقيقة ماتوا لقلقهم وجزعهم وتبلبل أفكارهم .

ويجهل الكثيرون أن الغضب ضرره أعظم من الشيء المغضوب له أو عليه . وكثيرا ما ندفع الثمن غاليا ، لأن الإنسان في غضبه لا يمالك شعوره فيخرج عن حده ويأتي أفعالا يندم عليها إذا ما هدأت ثورته وسكنت حدته . فكم من عائلات تهدم صرحها واختل نظامها بسبب الغضب .

والمصائب إذا حلت بالمرء فإنه يزيدها بحزنه . وهناك ما قال « ابكتاتوس » عند ما وقعت به مصيبة ، فإنه يعلمنا كيف نتلقاها بصبر وشجاعة . إذ يقول : « سأموت ولكني لن أموت حزينا . . سأكبل بالقيود ولكني لن أجزع . سأتعرض للنفي والتشريد ولكن هل سأمنع من الذهاب إلى منفاي بثغر باسم وقلب ضاحك ؟ . . سأسجن . . أيها الناس . ماذا تقولون ؟ : . . نعم . . . لكم أن تسجنوا جسمي . ولكن عقلي ؟ ! . إن « زفس » رب الآلهة

لا يستطيع أن يسجنه أو يوقفه عن التفكير ، فليس لأحد سلطان عليه » .

فإذا لم نشعر بالسعادة فالذنب راجع إلينا ولو كنا فقراء . فقد تعرض سقراط فى حياته لأشد أنواع الألم والظلم ، وكان أبكتاتوس عبدا فقيرا ، ولكن ما أعظم وأجل أثرهما . وهاك ماقاله أبكتاتوس يصف حاله وفقره : « كيف لرجل معدم لا يملك من حطام الدنيا شيئا أن يعيش آمنا مطمئنا فى الحياة .. ؟! لقد ضرب الله لكم بى مثلا فاصغوا إلى .... أنا الفقير . أفترش الغبراء ، وألتحف السماء . لا بيت لى أطمئن إليه . ولا زوج ولا ولد . لا عقار ولا مال ولا رياش ولا أثاث .. ومع ذلك فإنى سعيد .. ماذا أطلب من الحياة .. ؟ ألست خلوا من الأحزان ؟ .. لقد أمنت الدهر ومصائبه فعدت لا أخشاه ولا أتوقع شره . إنى فى جو طلق أنعم فيه بالحرية .. فمن منكم بعد ذلك يرانى فاقدا لشىء من متع الحياة ؟ كل شىء فيها ملكى ، فالسماء والأرض والفضاء كلها لى .. هل عهدتم فى السخط على الله وعباده .. ؟ هل شكوت أحداً ؟ هل رآنى أحدكم حزينا كئيبا . ؟ .. إنكم لو رأيتمونى عند ما أقابل من تخرون لهم سجدا وتقبلون الأرض بين أقدامهم لعرفتم مقدار عظمة الحياة التى أحياها ، ولخيل لكم أنى سيدكم ، بل ملك عليكم » .

إن نعم الله علينا عديدة ، ولكن ما أقل شكرنا وما أعظم جحودنا . لقد غفلنا عن فضل ما وهبنا لوفرته لدينا . فهذه العطايا على صغر شأنها كالخبز والفاكهة واللبن التى نتمتع بها كل يوم فأصبحت مألوفة لدينا ، إذا أتى يوم وذهبت فيه عنا ، فى هذا الوقت فقط نعرف قيمتها ونقدرها حق قدرها ، فاحفظوا النعمة ، واشكروا الله كثيرا ، فبالشكر تدوم النعم .

وإذا أردنا أن نعيش سعداء حقا فما علينا إلا أن نراقب القمح فى نموه والأزهار فى تفتحها ، ونستنشق النسيم العليل المعطر بشذى الزهر ولنقرأ ونفكر ونعبد الله كثيرا ولنشارك « جرى تايلر » فى إحساسه إذ يقول : « سلبنى اللصوص ماسلبوا . ولكنهم تركوا لى الشمس المشرقة والقمر المنير والمياه الفضية الأديم ، وزوجة مخلصة تسهر على مصالحى وتربية أطفالى ، ورفقاء يشدون أزرى ويأخذون بيدى فى كربى . فماذا سلبنى اللصوص بعد ذلك ؟ لا شىء . فأنا الآن كما كنت قبلا .. فها هو ثغرى باسم وقلبى ضاحك وضميرى نقى طاهر » .

محمد عبد الفتاح شريف

اراكِ معى

أراكِ معى ، فى كلّ أرضٍ وطئتها
وفى كلّ صحراء ، وفى كلّ روضةٍ
أراكِ معى ، فى وحدتى وكآبتى
وفى بهجتى ، بين الصحاب ، وفرحتى
أراكِ معى ، فى كلّ كأسٍ شربتها
وكم شربتْ عيناكِ من كأسِ نشوتى !
أراكِ معى ، فى النورِ إذْ أنا مُبصرٌ
وإذْ أنا أعمى ، فى ضلالى وحيرتى !
أراكِ معى ، فى الدهر ، سكرانَ صاحياً
وإذ أنا ظلٌّ بين صحوى وسكرتى

* * *

أراكِ على ثغرِ الصباحِ ابتسامةً
وفى مقلةِ الظلماءِ أروعَ دمعةٍ
أراكِ بأفقِ الحبّ أزهرَ نجمةٍ
وفى جنةِ الأحلامِ أجملَ زهرةِ
فما أنا ، إلاّ حيث أنتِ ، وإنْ يكنْ
بعادُكِ لا يغرى فؤادى بزورةِ !
فسيرى معى ، فى موكبِ العمرِ ، كوكباً
يُضىء بنورِ الحبّ كلَّ دجنّةِ

الكاظمية — العراق — على جليل الوردى

سيارتى الأولى

بقلم الأميرة مارى باريا تنسكى(١)

رأيت السيارة لأول مرة فى باريس عام ١٩٠١ ، وكانت إذا سارت أحدثت ضوضاء شديدة حتى كانت تخيف الخيل ، وكثيرا ما وقعت حوادث عدة من جراء ذلك . وكان بناء السيارة أوليا بحتاً ، إذ كانت تشبه الصندوق المربع ، أما المحرك فكان موضوعاً فى المؤخرة . ولما رآها زوجى قر رأيه على شراء واحدة . فذهب إلى محل (ديوبوتو) ولكنهم أمهلوه سنة كاملة ريثما يتم بناء السيارة . وذات يوم وكنا عائدين إلى الفندق قال لى بسرور : — لقد اشتريت سيارة منذ لحظة ، اشتريتها (لقطة) فقلت : أظنك مجنوناً إذ تضيع نقودك من أجل ما كينة (خرج بيت) ، وتأكد من الآن أنها لن تسير خطوة واحدة . فصاح بحدة : — لقد جربتها فى الشانزليزيه وكانت تسير كالبلبة . وعلى كل حال لقد قضى الأمر واشتريتها . وسترسل إلينا فى روسيا بعد خمسة عشر يوما بعد أن يصلحوها ويصنعوا فيها مقعداً فى الخلف .

ودامت الخمسة عشر يوماً ثمانية شهور ، وأرسلت إلينا السيارة فى روسيا ، بعد أن زادت نفقات إصلاحها ورسوم الجمرك على ثمن سيارتين جديدتين . وقامت المشكلة الأولى ، إذ وجب أن نبحث لها عن سائق . فلم يكن يوجد إلا أناس قليلون يعرفون قيادة هذه (الماكينات) . وبعد لأى تقدم جندى وقال إنه ميكانيكى ممتاز وإنه يستطيع قيادة السيارة بمهارة . وحان اليوم المشهود ، وتجمع خلق كثيرون فى ميدان أمام الثكنة ليشاهدوا السيارة تمشى لأول مرة . وبعد ألف استعداد أو يزيد جلس زوجى والسائق فى المقدمة ، وجلس ملازم يدعى دافيدوف فى المؤخرة . وانطلقت السيارة (وأحسبنى مبالغة إذا قلت انطلقت) وعلت ضوضاء الماكينة ، وسارت مدة ثم وقفت كالجواد الحرون . فدفعها بعض الجند قيد أمتار ، وفجأة أخذت تسير مترنحة كالسكير . وبعد بضع ثوان سمعنا صوتاً ملؤه اليأس يصيح : — قف قف !! . واندفعت العربة نحو شجرة باسقة ثم وقفت جامدة ساكنة . أما دافيدوف فكان قد شوى أو كاد ، وذلك من شدة الحرارة التى تولدت عن المحرك الذى كان مقعده فوقه ، ولحسن الحظ خرج الجميع من المقاصرة سالمين . ورغم قلة النجاح فى الدورة الأولى صار طبيب القرية يلحف ويلح فى عمل دورة أخرى . وقد كان ، ووضعنا على المقعد الخلفى (فوطتين) مبللتين بالماء للوقاية من حرارة المحرك ، وأخذ الطبيب والسائق يشحنان السيارة بمزازة . ثم دارت السيارة وقد جلس زوجى مرة أخرى إلى جانب السائق . وسار الحال على ما يرام مدة من الزمن ، ثم اختفت السيارة ، وكأنهم بدءوا حقاً فى رياضة ممتعة ، فعدت إلى المنزل ، وبعد نصف ساعة ، وكنت جالسة فى الشرفة ، أبصرت زوجى قادماً وهو أسود فى لون منظف المداخن . ولما دخل سألته ماذا هناك ؟ فقال : — سار الحال على ما يرام زهاء عشر دقائق وإذا بنا نحاط على حين غفلة منا بسحاب من البخار ثم سمعنا انفجاراً مروعاً ، وإذا بالسائق وأنا نسير ، بينما كان الدكتور ملقى ومقعده على الأرض .

وقد ظل الدكتور متأثراً من الحروق مدة طويلة ، وكان دائما يقول : « الآن أدرك تمام الإدراك مدى الآلام التى يكابدها أولئك الذين يحترقون أحياء » .

محمد سعد الدين وهبه

(١) هى سيدة روسية كانت زوجة لضابط روسى فى جيش القيصر .

تصحيح قضية أدبية :

تجديد أبي نواس

أما أن أبا نواس جدد في شعره ، بمعنى أنه عبر عن شعوره وصور بيئته تعبيراً وتصويراً جيدين ، أو بمعنى أنه أتى بمعان جديدة في شعره — فهذا ما لا ريب فيه ولا كلام في خلافه . ولكننا بإزاء قضية أخرى تتعلق بما جاء كثيراً في شعر أبي نواس من تهجين التشبيب بذكر الديار والأطلال ووصف الإبل والظعائن ، وإيثار نشوة الخمر ولذات العيش على بيئة الأطلال وما فيها من شظف وبؤس كما يقول :

اترك الأطلال لا تعبأ بها
إنها من كل بؤس دانية
واشرب الخمر على تحريمها
إنما دنياك دار فانية

وكما يقول مؤثراً الخمر ولذاتها على الولع بالنساء والبكاء على منازلهن التي أقوت منهن — يقول بعد أن وصف الخمر وفتية دارت عليهم :

لذلك أبكي ولا أبكي لمنزلة
كانت تحل بها هند وأسماء

وما إلى هذا مما تفيض به خمرياته

قالوا : إن أبا نواس ينعى بهذا على الشعراء مسلكهم القديم ، ويدعو إلى مذهب جديد . والقائلون هم : الدكتور طه حسين بك ، وأستاذنا السباعي بيومي ، ومؤلفو « تاريخ الأدب العربي لتلاميذ المدارس الثانوية » ومعاصرون آخرون لا نطيل بذكرهم . وردد الدكتور طه هذا الرأي في بعض فصول « حديث الأربعاء » . ومن قوله في هذا الموضوع : « كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشبه المنهج الذي نريد نحن وأصحابنا أن ننهجه بالكتابة »

وقال أستاذنا السباعي في كتابه « تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي » محدثاً عن أبي نواس : « ... فقد رفع عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم ، ويطلب إليهم في سخرية لاذعة هجره إلى ما أصبح ملائماً من جديد » وجاء في كتاب « تاريخ الأدب العربي لتلاميذ السنة الثالثة الثانوية » في نفس الموضوع حديثاً عن أبي نواس : « وطالما نعى في مطالع قصائده على شعراء الحضر المحدثين الذين يسلكون مسلك الأعراب، واستبدل به الابتداء بخمرياته ومجونياته »

وهم يعدون هذا مذهباً جديداً في الشعر لأنه — في رأيهم — دعوة إلى تنكب طريقة القدماء التي لا تناسب ما جد من مظاهر الحضارة في عهد العباسيين ، فكأن أبا نواس — إن صح هذا الرأي — يقول للشعراء الذين يصفون الإبل ويذكرون في أشعارهم آثار الخيام في الصحراء ، يسألونها عن حبائبهم اللائي كن يحللن بها : إنكم لم تركبوا إبلاً ولم تعيشوا في بادية فتعشقوا بين مضاربها، فأنتم غير صادقين في شعركم لأنه لا يصور مشاعركم وحياتكم ، فدعوا هذا المسلك وتعالوا إلى حياتنا الحضرية وقولوا فيما تزخر به . ولنا هنا وقفتان : نقف أولاً لنسأل : هل كان أبو نواس يعيب ذكر الديار ومساءلة الأطلال على شعراء الحضر المعاصرين له ؟ أبو نواس يجيبنا فيقول :

اعدل عن الطلل المحيل وعن هوى
نعت الديار ووصف قدح الأزند
ودع العريب وخلها مع بؤسها
لمحارف إلف الشقاء مزند
واقصد إلى شط الفرات وعاطني
قبل الصباح وقبل كل مفند
صفراء تحكي التبر في حافاتها
عقد الحباب كلؤلؤ متبدد

فتراه في البيت الأول يدعو إلى العدول عن الطلل

ونعت الديار و « وصف قدح الأزند » فما هو قدح الأزند ؟ هو الذى شبه به عنترة العبسى حركة الذباب فى قوله :

وخلا الذباب بها فليس ببارح
غرداً كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه
قدح المكب على الزناد الأجذم

فأبو نواس لا يخص بحملته « الوهومة » الشعراء المحدثين، وإنما يتناول بها الجاهليين،والجاهليون يصورون بشعرهم المشتمل على الأطلال والجمال بيئتهم وحياتهم أدق تصوير — أفيقول لهم أبو نواس : لا تصوروا حياتكم فهذا مسلك قديم ويجب عليكم أن تكونوا مجددين فهبوا من قبوركم وتفروا من بؤس صحاريكم وتأتوا إلى شط الفرات لتعاطوني صفراء تحكي التبر ...؟

ثم لنترك هذا ولنسر قليلا لنقف الوقفة الثانية : أبو نواس يأمر بالعدول عن مساءلة الأطلال التى لا تجيب وعدم الاهتمام بسعدى وهند وأسماء الرواحل مع الرواحل وترك وصف البيد وما فيها من نؤى وأحجار وإبل وشاء. ثم ليترك كل هذا لنا بلابسه من عناء وشظف ، ولكن لم ؟ يقول أبو نواس :

عد عن رسم ومن كثب
واله عنه بابنة العنب

وهكذا يقول فى أكثر ما يقول ، فالتغنى بابنة العنب عنده — على ذلك الرأى — هو المذهب الجديد فى الشعر . أى أن الخمر تنوب فى استقبال الشعر الحديث عن كل مظاهر الحياة الحضرية الجديدة ! ونقفى على هذا قليلا ، ولكن يتراءى لنا أن الخمر باعتبارها موضوعا للشعر ليست جديدة ، وإنما هى جاهلية معتقة ، حتى فى الابتداء، كما تراها فى مطلع معلقة عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وأنت ترى من أبيات أبى نواس الآنفة ، ومن أبياته الرادفة :

لئن هجرتك بعد الوصل أروى
فلم تهجرك صافية عقار

دع عنك بإصاح الفكر فيمن تغير أو هجر
واشرب كميتا مزة عنست وأقصدها الكبر

ومن غير هذه وتلك أن الخمر هى كل شىء عند أبى نواس ، وأن كفتها ترجح بلاد العرب بما فيها من أطلال وإبل ، وبمن فيها وفى غيرها من هند وليلى وأسماء ، فهو بعيد عن أن نظن به ازدراء الأطلال وما إليها دعوة إلى مذهب جديد فى الشعر بعد هذا الظن عن الصواب .

ولا يفهم من هذا أننا ننفى الخصومة بين القدماء والمحدثين فى عصر أبى نواس ، فقد كانت هذه الخصومة فى ذلك العهد حقيقة واقعة ، ولكنها إلى عهد أبى نواس وبعده لم تأخذ هذا الوضع الذى نحن بصدده .

ونضرب مثلا عزوف أبى العلاء المعرى عن لذات العيش وإعراضه عن أكل كل ذى روح ، وترديد ذلك فى شعره — أيعد هذا دعوة إلى مذهب جديد فى الفن الشعرى ؟ بل نضرب مثلا آخر أبا نواس نفسه من حيث بغضه المرأة وشذوذه الجنسي — أنقول بأن هذا أيضاً دعوة إلى مذهب جديد فى فن الشعر ؟

ولعمر أبى نواس لا أدرى لم لم يعمل بمقتضى دعوته الجديدة ، وغدا يبدأ كثيراً من قصائده بذكر النساء والدمن والإبل ، فيقول فى مطلع قصيدة يمدح بها هرون الرشيد :

حى الديار إذ الزمان زمان وإذ الشباك لنا حرى ومعان
يا حبذا سفوان من متربع ولربما جمع الهوى سفوان
وإذا مررت على الديار مسلماً فلغير دار أميمة الهجران

ومدحته للخصيب : « أجارة بيتينا أبوك غيور » مشهورة

ويقول مثل ذلك في كثير من مدائحه . وسيقولون :
إنه كان يصطنع الوقار ويتشبه بالأعراب عندما يقصد ذوى الخطر بالمدح ، وقبل أن نجاوز مدائح ذوى الخطر هؤلاء، نخص بالذكر منهم الفضل بن الربيع وولديه العباس ومحمداً، لأنه لم يكن يتحرج — حين يتعرض لمدحهم — من المجون والفحش الذى لا نستطيع أن نأتي به هنا . ومع هذا فإن مدائحه لهم حفلت هي أيضاً بالدمن وأخواتها ، بل تعدّى من ذوى الخطر جميعهم ، فتراه يعرج على الطلل يحييه قبل أن يقصد إلى الراح يعاطيها ، قال :

لمن طلل عارى المحل دفين ... عفا عهده إلا خوالد جون

ويسترسل على هذا النسق في خمسة أبيات بعد هذا ، ثم يقول :

وذى حلف فى الراح قلت له اتئد ... فليس على أمثال تلك يمين

وقال :

أربع على الطلل الذى انتسفت ... منه المعالم أنجم النحس

وبعد ثلاثة أبيات في وصف هذا الطلل يقول :

وحللت عقد هواى مقتصراً ... لصبوح موفية على الشمس

فلو أن العدول عن التشبيب في المطالع ، وذكر الدمن والديار ، منهج يريد أن ينهجه بالشعر ، لالتزمه وما حاد عنه .

وبعد فإن هذا المسلك الذى سلكه أبو نواس إنما دفعته إليه الشعوبية وزهادته في المرأة ، وقد اتخذ من كلفه بالخمر مقابلا محا فضل كل ما عداه ، كما يقول :

حب المدامة مذ لهجت بهـا ... لم يبق لى فى غيرها فضلا

فأما الشعوبية فقد دان بها بعد أن نفض يده من النسب إلى قبائل العرب ، فهو بهذا المسلك يرمى إلى تنقيص البيئة العربية ومظاهر الحياة البدوية ، وكثيراً ما يكرر تصغير العرب فيقول « العريب » كما رأيت في بعض أبياته السابقة

والأبيات الآتية تظهر فيها الشعوبية واضحة :

عاج الشقى على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

فهو ينكر البكاء على طلل الماضين ، لا لأن ذلك مذهب قديم في الشعر ، ولكن لأنهم من بنى أسد ، وبنو أسد وتميم وقيس وسائر الأعاريب ليسوا عند الله من أحد . . .

وهو ينحو نحواً واحداً في التنديد بالعرب ، سواء ما قرنه بخمرياته على ما رأيت وما جعل الغرض كله منه هجو العرب وحسب ، أو مع الإشادة بالفرس . ومن هذا قصيدة في هجاء الأعراب والأعرابيات أولها :

دع الربع الذى دثرا ... يعانى الريح والمطرا

ثم يخلص إلى الإشادة بالفرس فيقول :

ألم تر ما بنى كسرى ... وسابور لمن غبرا

وقد نسلم بأن هذا دعوة إلى مذهب جديد في الشعر إذا عد ما ذكره هتلر في كتابه « كفاحى » من تفضيل الشعوب الجرمانية على سائر الشعوب — دعوة إلى مذهب جديد في التأليف . .

فالذى نراه في أبي نواس أنه كان شاعراً مجدداً سلك في التجديد مسلكا عملياً تستطيع أن تجتليه في كتب أولئك الأساتذة الأجلاء الذين لا نوافقهم على أنه أراد أن يعيب مذهباً قديماً في الأدب أو يدعو إلى مذهب جديد .

عباس حسان خضر

من قصص الأطفال الصينية :

البلبل

للكاتب الصيني الكبير «يه – شاو – كين»

سكن بلبل قفصاً من النحاس الأصفر ، كانت أسلاكه تعكس أشعة الشمس حين تطلع وميضاً يخطف البصر ، فيتألق بالبريق كما يتألق قصر الملك بين الأضواء ، وفي ركن منه فنجان من الأحجار الكريمة الخضراء لوضع الماء الذي يشرب منه ، يشف صفاء لون الماء ونقاؤه من صفاء لون الفنجان ، وآخر من العقيق لوضع الحبوب التي تشبه حبوب العقيق الصغير ، وثلاثة عيدان عاجية ، يقف عليها إذا أراد أن يستريح ، وأما خارج القفص فقد أحيط بستار من الحرير الناعم تعد روافه عليه ليلا .

وكان ذلك البلبل غزير الريش الناعم المرتب في استرساله فلم تكن فيه ريشة مفلفلة ، ولا خلا موضع ريشة لسقوطها ، إذ أنه كان يأكل أكلا لذيذاً جيداً ، ويستحم في كل يوم ، ويحيى حياة رغدة فرحاً مسروراً ، كلما ملأ حوصلته بالأكل اللذيذ ونضح جسمه بالماء النقي أخذ يمرح في أرجاء القفص ، فتارة يقف على عود العاج في جانب القفص الأيمن ، ومرة يقف على العود الآخر في وسطه ، وأحياناً يقف على الأسلاك ، وكلما وقف في مكان من هذه الأماكن صفق بجناحيه وأدار رأسه يميناً وشمالاً ونظر حوله بخفة وظرف ، ثم لا يلبث أن يعاود طيرانه ورقصه .

واستطاع البلبل بصوته الرقيق الناعم أن يغني غناء جميلاً رائعاً ، إذا سمعته شعرت بنشوة وسرور ، كما لو شربت خمراً ، فتركتك في حالة طرب وبهجة . وكان صاحبه يجلب له الماء من معين في الجبل ، ويغسل الحبوب وينتقي منها الحب السمين المستدير وينقي عنها الحصا والتراب ثم يقدمها له ، وما تعب صاحبه من أجله هذا التعب وأسكنه في هذا القفص الذي أشبه القصر إلا لأنه أحب غناءه الذي يسره ويطربه غاية السرور ونهاية الطرب كلما سمعه .

فلما أدرك البلبل أن صاحبه يحبه ويحب غناءه غنى له بدون انقطاع ، حتى تعب تعباً شديداً . وكان لا يرى في غنائه شيئاً جديراً بالإعجاب أو حب ، فعجب لحب صاحبه الجم وإعزازه إياه ، ففكر كثيراً ولكن بدون جدوى ، فلم يعرف لذلك سبباً . وكان صاحبه يدعو أصدقاءه وصديقاته أحياناً ليسمعوا تغريد بلبله قائلا لهم : « إن عندي بلبلاً جميلاً ظريفاً ، وأحب أن أدعوكم إليه لتسمعوا غناءه » . فيحضرون ويسمعون في طرب وارتياح ، ولكن البلبل يعجب ويقول في نفسه : « إني أرى أن غنائي ليس خليقاً بالإعجاب ولا جديراً بحب أبداً ، فكيف أعجبوا به كما أعجب به صاحبي ؟ » وأراد أن لا يغني بعد ذلك ، ولكن وجود أصدقاء صاحبه وصديقاته جعله يرجع عن رأيه احتراماً لهم واتقاء لغضب صاحبه من أجلهم ، فغنى لهم كثيراً .

ومر الزمن يوماً بعد يوم ، والبلبل في قفصه مرح فرح ، يعيش عيشة سعيدة ، ويغني لصاحبه ولأصدقائه بدون توان ، ولكنه لا يفهم سر إعجابهم من غنائه الذي لم ير فيه موجباً للإعجاب .

وسيطر الشك على البلبل من أجل ذلك ، وعزم على أن يحاول معرفة سبب هذا الإعجاب . وذات يوم فتح صاحبه باب القفص وقدم له الحبوب الجديدة والماء الصافي ، ثم انصرف ونسي أن يغلق الباب ، فخرج البلبل من القفص وطار إلى سطح البيت ، فلم يلبث أن دهش لما حوله من مشاهد كمشاهد الجنة : ففي السماء الزرقاء طفت السحب البيضاء كأشرعة السفن الصغيرة ، وتحركت أطراف الصفصاف الخضراء حركة خفيفة جميلة ، وابتسمت زهور الشمس الحمراء للنسيم ابتسامة جذابة ، وأحاط الضباب الخفيف الأبيض بالجبال البعيدة ، فصارت كأنها في سبات

عميق ، وتعجب البلبل من هذه المناظر الجميلة ، فطار راقصاً في الهواء زمناً طويلاً .

ونسي قفصه وعزم على أن يغادر سطح البيت ففتح جناحيه وشرع طائراً في رحلة طويلة . وبعد أن مر فوق السهول الخضراء السندسية ، ونهر بأنجتس الهائل ، والأودية الرملية الواسعة ، والنهر الأصفر ذو الماء العكر لما خالطه من الطين ، بلغ مدينة من المدن ، وكان قد أنهكه التعب ، وأراد أن يستريح فجمع جناحيه ونزل إليها ووقف على باب قلعتها ثم أطل على شوارعها ، فظهر كل شيء أمامه واضحاً جلياً .

رأى البلبل في هذه المدينة منظراً عجيباً ، فهذه شوارعها وفيها آلات[1] كثيرة جداً ، على جانبي كل منها عجلتان ، قد جلس في كل واحدة رجل وجره آخر يعدو سريعاً كالطائرة جيئة وذهاباً ، فقال في نفسه : « أليست لهؤلاء الجالسين على هذه الآلات أرجل فلا يستطيعون أن يمشوا بأنفسهم ؟ وإلا فلماذا استعان كل واحد من هؤلاء الناس بآخر يجره ؟ إذ لن يستقيم الرأي على أن خمسين في المائة من الناس مثلا يعملون ويتعبون والخمسون الباقون لا يعملون شيئاً ! » ولكنه لما دقق النظر في الجالسين وجد أن لهم أرجلا تحت معاطفهم تلبس الأحذية السوداء اللامعة ، فقال : « ما دامت لهم أرجل فلماذا جلسوا على هذه الآلات ولم يمشوا بأنفسهم وتركوا الناس الآخرين يجرون بهم ؟ » وأطال التفكير فلم يعرف لذلك سبباً .

فقال : « لعل هؤلاء الناس الذين يجرون الآلات يرضون عن ذلك العمل ويسرون منه ؟ » ولكنه لما نظر بدقة أكثر شعر بأنه مخطىء في تقديره ذلك ، إذ رأى أن هؤلاء المدائين بتلك الآلات أجهدوا أنفسهم للعدو ، حتى سال العرق من جباههم كثيراً ، فصارت كأنها أغطية قدور الطعام التي ملأها البخار ، وانتفخت وجوههم واحمرت وصارت مخيفة ، وعدوا حانين ظهورهم ، دافعين رؤوسهم إلى الأمام مرة بعد مرة ، ويرفعونها أحياناً ليتنفسوا ، ولا تكاد أطراف أصابع أرجلهم تمس الأرض حتى ترفع عنها بسرعة لشدة عدوهم ، وعند ما يشير لهم الجالسون إلى الشمال أو إلى اليمين يوقفون أرجلهم ويديرونها بخفة إلى الشمال أو اليمين ، وهكذا يعدون ويتعبون لأجل غيرهم ، عندئذ أدرك البلبل وقال : « إن هؤلاء المدائين يعدون ويتعبون لأجل غيرهم ، وأما هم أنفسهم فلا يرضون عن هذا العدو وذاك التعب ولا يسرون لهما البتة » .

وحزن حزناً شديداً وفي رثاء لهؤلاء المساكين الذين يجهدون أنفسهم من أجل غيرهم ويعملون عملاً ليس فيه فرح أو سرور .

ولم يرض البلبل عن منظر هؤلاء المساكين ، فأراد أن يذهب إلى مكان آخر ، فطار إلى بيت ووقف على شرفته التي غطيت جوانبها بطلاء أخضر ، وعندما نظر إلى داخل حجرة من حجراته وجد أصحاب البيت قد لبسوا ثياباً جميلة فاخرة ، واجتمعوا حول موائد قد فرشت عليها الأقمشة البيضاء الناصعة ، ووضعت عليها الملاقط والملاعق اللامعة ، والكؤوس الزجاجية البديعة الشكل ، وصحاف الخزف الصيني المزخرفة ، وآنية الورود الظريفة عمرت بشتى الزهور من شتى الألوان ، ورأى أن أولئك الناس جميعهم ذوو وجوه لامعة ظهر في قسماتها البشر والاغتباط . ولفت نظره حركة في إحدى الحجرات في الطابق الأسفل من البيت ، فنظر فرأى أن الحال فيها خلاف الحال في الحجرة الأولى التي أمام الشرفة ، إذ رأى فيها أجسام السمك قد قطعت أنصافاً وعلقت على الحائط ، واللحوم المفرومة وبراغيث البحر[1] المقشورة ، وأجسام الدجاج والبط المقطعة ، والقصاع والجفان والصحاف على

(١) العربات يجرها المداءون .

(١) الجمبري .

اختلاف أنواعها بجانب ، والدلاء التي امتلأت بالمياه النقية والقذرة وأواني الملح والزيت والخل بجوار الحطب والفحم ، وكل هذه الأشياء قد تبعثرت في الحجرة بدون ترتيب ، ورأى فيها رجالا يطبخون ، وقد اختلطت القذارة بالزيت على أجسامهم ، وسدت الروائح النتنة تنفسهم ، وغلى الزيت في القدور وارتفع فورانه حتى كادت أيديهم أن تدخل فيه ، وخرجت ألسنة النار من تحت القدور تلسع أعضاءهم فتحرقها ، ولما نضج الطعام وضعوه في الصحاف ، وهنا أقبل خادم يلبس ثياباً بيضاء احتمله إلى الحجرة التي يجلس فيها ذوو الوجوه اللامعة ، ووضعه على الموائد ، فتحركت الملاقط والملاعق ، وهي تقع صاعدة نازلة بين أفواههم والصحاف ، وأخذوا يأكلون بشهية ولذة .

فقال البلبل في نفسه : « لماذا أوقد أولئك الناس أجسامهم بالنار في الطابق الأسفل طول اليوم ؟ هل أصابهم مرض أم يشعرون براحة في هذا المكان ويسرون من ذلك العمل ؟ » ولكنه لما فكر كثيراً شعر بأنه مخطئ في تقديره ، لأن أولئك الناس إن كانوا يشعرون بالبرد فلماذا لم يدفئوا أجسامهم بالنار في بيوتهم ؟ وإن كانوا يشعرون براحة هنا ويسرون من ذلك العمل فلماذا لم يأخذوا الطعام الذي صنعوه ويأكلوه ؟ ولو كانوا كذلك لظهر الفرح والسرور على وجوههم ولاغتبطوا لذلك العمل ، ولكنهم لما طهوا الطعام كانوا عابسي الوجوه ، وذلك بعد أن جاءهم الأمر من الخادم ذي الثياب البيضاء ، فعرف البلبل أنهم يعملون لأمر الخادم ليتمتع غيرهم بالطعام اللذيذ وهم لا يعرفون معنى للراحة من العمل أو السرور من الحياة

وحزن حزناً شديداً وبكى رثاءً لهؤلاء المساكين الذين يعملون كأنهم آلة للطهو ويجهدون أنفسهم ليتمتع غيرهم بالطعام اللذيذ ولا يشعرون براحة ولا سرور .

ولم يرض البلبل من بقائه في هذا المكان ورؤية هؤلاء المساكين ، وأراد أن يذهب إلى مكان آخر ، فطار فوق المدينة ، ومر بزقاق منحن خال من الضوضاء ، فسمع من أحد بيوته صوت رباب وفتاة تغني ، فحط على سطح البيت ، ثم نظر من مسقط الضوء الزجاجي إلى داخل البيت ، فرأى رجلا أحمر طويل القامة يعزف بالرباب ، وفتاة تناهز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها تغني مع الرباب ، فقال في نفسه : « ما أسعد هذين الشخصين ! أحدهما يعزف والآخر يغني ، إنهما يعرفان فنون الموسيقى والغناء ويتمتعان بها ، فما أعظم ذلك ! » ودقق سمعه في الموسيقى والغناء ، فوجد أن الواقع لا يوافقه على تقديره ذلك ، فقد كانت الفتاة تغني في تحامل وتكلف ، كلما أجهدت نفسها في الغناء احمر وجهها ، وتجعد جبينها ، وانتفخت أوداجها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، واندفع الصوت من فيها شديداً كتدفق الماء حتى كاد أن ينقطع نفسها ثم حشرج ، فثار الرجل وصاح قائلا : « أعيدي هذا الصوت مرة أخرى وأحسنيه ! فإن الناس لا يعجبون لهذه الحشرجة ! » فلما انتهى من كلامه كانت الفتاة في حالة فزع ورعب ، فابتدأت تعيد الصوت ، وأجهدت نفسها في ضغطه كي لا يحشرج مرة أخرى ، فاستحالت حمرة وجهها زرقة كلون البنفسج حتى صار مظهرها كمظهر الباكية .

ففهم البلبل الحقيقة وقال : « إن هذه الفتاة تغني ليطرب غيرها ، وأما هي فلا تريد أن تتعب مثل هذا التعب المضني ، ولا تطرب لذلك الغناء المتكلف ، وكم ودت أن تستريح قليلاً ولكنها لا تملك ذلك ، إذ يجب عليها أن تحفظ الصوت حتى تجيده لتغنيه أمام الناس ، قد يكون وقت التمرين غير قصير ؟ ولكن الرجل يكرهها على التمرين كي تسمع الناس ، وأخذ يعزف على الرباب هو الآخر ، حتى يجيد ويعزف للناس أيضاً ، فهم يحبون أن يسمعوا الموسيقى والغناء ، لذلك لم يعرف الرجل والفتاة طعم الراحة أو معنى السرور » .

تأثر البلبل لذلك فبكى رثاءً لحظ هذين الشخصين

الذين يتحاملان على نفسيهما ويتكلفان الغناء والعزف ليطرب الناس ، ولا ينعمان براحة ولا يلتذان بسرور .

وتأمل البلبل فيما رأى فشعر بأن حياته وحياتهم صنوان في البؤس ، وإلفان في الشقاء ، فعزم على أن لا يرجع إلى صـاحبه ، وزهد في سكنى القفص النحاسى الذي يشبه القصر ، كان يغنى لصاحبه ولأصدقائه وصديقاته بدون راحة ، ويتعب نفسه بدون رضى عن الغناء ، وكان يظن أن حياته هي منتهى السعادة وغاية الرغد ، ولـكنه أدرك الآن أنه مثل هؤلاء المساكين ، فحزن لهم ولنفسه ، وبكى كثيراً فسالت الدموع من عينيه كأنه الطائر الباكى « دوجيان »[١] .

ورحل البلبل إلى واد بعيد عن القرى والمدن ، وسكن فوق شجرة عالية من أشجاره ذوات الأشواك ، إذا جاع اغتذى من حشائش الوادى أو ثمر شجره ، وإذا أراد الاستحمام ذهب إلى ترعة هناك واستحم في أحد جوانبها ، وعندما يأتى النهار يطير في الهواء حراً نشيطاً لا حبيساً في القفص ، وإذا تعب حط في أى مكان يريد وأخذ قسطه من الراحة ، وكلما رأى ما يحزنه صدح بالغناء ليزيل الألم من قلبه . والعجيب أنه يسر بذلك الغناء ويواسى قلبه ، بل إنه لا يملك صبراً عن ترديده ، حتى إنه ليشعر بانقباض القلب وضيق النفس إذا توانى عن الغناء قليلا ، فإذا غنى انشرح صدره وانبسطت أسارير نفسه ؛ وعرف معنى الغناء ولذته .

أفعمت الدنيا بالآلام والأحزان في المدن والقرى ، والجبال والوهاد ، والأكواخ والقصور . ولما رآها البلبل أدركه التأثر واستولى عليه الحزن ، فغنى حزيناً يرثى للمتألمين ويفرج كرب قلبه لا ليطرب الناس ويسرهم .

ولما سمع تغريده العامل المجهد ، والفلاح المكدود ، والغزالة المسكينة التي تشتغل طول يومها ، والعداء الذي يجر العربة حتى ينقطع نفسه لشدة الجرى ، والبقرة العجفاء التي تمرى جلدها من الوبر ، والحمار النحيف الذي ظهرت عظامه من تحت جلده ، والقردة التي تمثل أمام النـاس ، والحمامة الزاجلة ، و .... سروا به سروراً كبيراً وسلوا عن أنفسهم ، ونسوا حزنهم وشقاوتهم ، ورفعوا رءوسهم جميعاً ، وقد علت الابتسامة وجوههم وانشرحت للتغريد صدورهم ، وصاحوا قائلين بأصوات رقاق : « يا له من صوت جميل ! ويا له من بلبل ظريف ! » .

ترجمة : عبد الله ما — يى — كو

(١) هو طائر مشهور في جنوب الصين الغربى كثير الصياح . وصفة صياحه أنه يصيح أولا بصوت خفيض ثم يرتفع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ أقصى درجات صوته ، ويقول بعض العامة عندنا إنه عندئذ يبكى .

إندونسيا

يرى الناظر إلى خريطة الشرق الأقصى مجموعة جزائر كثيرة تقع بين قارة آسيا واستراليا بين المحيط الهادى شرقا والمحيط الهندى غربا . وهذه المجموعة من الجزر هى التى أطلق عليها منذ مائة سنة اسم « إندونسيا » قوامها سومطرة وجاوة وبورنيو وسيليبس وبالى ولومبوق وجزيرة تيمور وجزائر ملوكو وغينيا الجديدة وشبه جزيرة الملايو ، البعد بين طرفها الغربى وهو الشاطىء الغربى من جزيرة سومطرة وطرفها الشرقى وهو الشاطىء الشرقى من غينيا الجديدة كالبعد بين لندن والقاهرة ، ويبعد طرفها الجنوبى وهو جزيرة جاوة عن طرفها الشمالى وهو الشاطىء الشمالى من بورنيو كما تبعد استمبول عن القاهرة ، فيدلنا هذا على مدى اتساع تلك البلاد وعلى مساحتها العظيمة .

وقد كان الأقدمون من العرب ولا يزال الحضارمة والحجازيون وبعض المصريين يطلقون لفظ « جاوة » على جميع هذه الجزائر . والحقيقة أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على جزيرة واحدة تسمى بهذا الاسم وهى جزيرة جاوة ، تقع بين المحيط الهندى غربا وجنوبا وجزيرة بالى شرقا وبحر جاوة شمالا . ولعله مما يجرح الشعور أن يطلق كثير من العرب كلمة « جاوى » على الإندونسى وهم لا يدرون أن هذه الكلمة لها معنى آخر عند الإندونسيين ، فمعناه فى اللغة الإندونسية « البقرة » .

فاطلاق اسم جاوة على مجموعة تلك الجزائر خطأ جغرافى ، إذ أنه إطلاق اسم الجزء على الكل ، لذلك من الواجب تصحيح هذه التسمية ، وفعلا قد أطلق عليها اسم « إندونسيا » منذ سنة ١٨٥٠ واقتصرت كلمة جاوة على الجزيرة السابقة الذكر .

والذى حدا بالمحدثين إلى إطلاق اسم « اندونسيا » على مجموعة هذه الجزائر هو أنه وسيلة من الوسائل الفعالة لتوحيد تلك البلدان والربط بين مجموع هذه الجزر ، ولو نظرنا إلى لفظ « اندونسيا » لوجدناه مركبا من كلمتين : احداهما « اندو » ومعناها الهند والثانية « سيا » ومعناها الجزر أى جزائر الهند .

وقد اعترف بهذه التسمية معظم المستشرقين ، ومنهم مستر ارل Mr. G. W. Earl ومستر جمس ريشاردسون لوجان Mr. James Richardson Logan وقد جاءت هذه التسمية فى كتابهما اللغات وأصل الأجناس فى جزائر الهند الذى كتباه فى سنة ١٨٥٠ ، وقد استعمل هذه التسمية أيضا بروفسور بستيان Prof. Bastian أستاذ علم الأجناس بجامعة برلين ، وكذلك قد اعترفت بهذه التسمية معظم القواميس منها قاموس لاروس وذلك فى قسم التاريخ والجغرافيا منه تحت كلمة .Ind .

ونجد أيضا هذه التسمية فى دائرة المعارف البريطانيا تحت كلمة إندونسيا نفسها فى الصفحة ٣٦٥ من الجزء الثانى عشر .

رغم ذلك كله فالحكومة الهولندية لم تعترف بعد رسميا بهذه التسمية ، والسبب فى ذلك واضح جلى ، وهو أن استعمال هذا الاسم كما سبق آنفا يؤدى إلى اتحاد الشعب الإندونسى ، وهذا الاتحاد هو ماسعى اليه الإندونسيون فى حركتهم القومية ونجحوا فيه ، إذ قد تغلغل وتوطد فى نفوس الإندونسيين إيمان قوى بوحدتهم وبأنها طريق وحيد للحصول على استقلالهم ، فلا شك فى أن الاتحاد قوة والتفريق ضعف . وهذا بطبيعة الحال يتعارض مع مصلحة الحكومة الهولندية ، ولا يتفق مع ما وجهت اليه سياسة الهولنديين الاستعمارية .

ولا يخفى على القارىء العلاقة بين المناخ وبين نشاط الإنسان وبالأخص فى البلاد التى مناخها حار شديد أى

أن نشاط سكان البلاد الشديدة الحرارة أقل من نشاط سكان تلك التى تتمتع بمناخ معتدل أو أقل حرارة ، وهذه الحرارة الشديدة تؤثر طبعا على مدنية هؤلاء الناس وعلى حضارتهم وتقدمهم الصناعى . ويعتقد كثير من الناس خطأ أن مناخ إندونسيا شديد الحرارة لوقوعها على خط الاستواء . والحقيقة غير ذلك ، لأن العالم على حسب تقسيم الأستاذ هربرت سون Herbert Son ينقسم إلى خمس مناطق : وهى المنطقة الباردة والمنطقة المعتدلة الباردة والمنطقة المعتدلة الدافئة والمنطقة المدارية ثم المنطقة الاستوائية ، وهذه الأخيرة تشمل إقليمين وهما اقليم الأمزون واقليم الملايو أو إقليم إندونسيا بالتعبير الأصح .

فنلاحظ أن إندونسيا رغم أنها تقع فى خط الاستواء تماما كما هى الحال بالنسبة إلى البرازيل بأمريكا الجنوبية وحوض الكنغو بوسط افريقيا إلا أن إندونسيا تمتاز عن سائر البلدان التى تقع فى خط الاستواء بمميزات كثيرة

أولا . أن إندونسيا تتكون من عدة جزر صغيرة المساحة — كما يراها القارئ فى الخريطة — فهى محاطة بالمياه من جميع الجهات ، لذلك نجد أن الرياح التى تهب من تلك البحار وهى مليئة بالبخار وخصوصا الرياح السائدة أو الرياح التجارية التى تهب من جنوب المحيط الهندى وتمر جاوة تلطف حرارة خط الاستواء فيها وتضعف من لفح حرارة الشمس ؛ فنجد أن الجو فى إندونسيا بوجه عام سجسج عليل لا هو بالحار ولا بالبارد ، ودرجة الحرارة فيها تكاد تكون ثابتة طول السنة وهى قريبة من ٨٠° فهرنهيت أو ٢٦° سنتيجراد ، وذلك فى أجزائها الساحلية .

إن المناخ فى إندونسيا طول السنة يشبه المناخ فى مصر فى شهر سبتمبر تقريباً ، أى أن مناخ إندونسيا يعادل مناخ القاهرة فى الخريف ، وإنما نلاحظ كما قال علماء المناخ أن هناك فرقاً كبيراً بين المقصود بالمناخ والمقصود بالطقس ، فالذى يتغير فى إندونسيا هو حالة الجو فى المساء وحالته فى الصباح ، حيث نجد كثيراً أن طقس الصباح فيها أبرد من طقس المساء ، فليس فى إندونسيا مواسم الشتاء والصيف والخريف والربيع ، وإنما هناك موسمان : وهما موسم كثير الأمطار ويبدأ من شهر أغسطس وينتهى فى شهر يناير ، وموسم قليل المطر وهو من شهر فبراير إلى شهر يوليو .

ثانياً : التضاريس . وتضاريس البلاد يؤثر كثيراً فى المناخ وبالتالى يؤثر فى الإنتاج الزراعى والصناعى ، فكلما ارتفع السكان من سطح البحر قلت الحرارة ، وكل جزيرة من جزر إندونسيا تتخللها سلسلة من الجبال ، وهى إما أن تمتد من الشمال إلى الجنوب كما هو الحال فى جزيرة سومطرة وجزيرة سيليبس أو تمتد من الغرب إلى الشرق كما هو الحال فى جزيرة جاوة وبورنيو ، أى أنها تمتد على حسب امتداد الجزيرة نفسها ، وقد بلغ ارتفاع بعض قممها ثلاثة آلاف متر مثل جبال مراق وجبال ساجو فى سومطرة الوسطى . وهذه الجبال تؤثر على اتجاه الرياح وبالتالى تؤثر على حرارة الجو فى المناطق المجاورة لها ، والخلاصة أن أراضى إندونسيا جبلية ، وعلى ذلك نجد أن أجزاءها الداخلية مرتفعة ، فالحرارة فيها تقل كثيراً عن الحرارة فى سواحلها طبقاً للعوامل التى تكلمت عنها آنفاً ، وحتى فى بعض الأماكن الداخلية منها تعادل حرارتها حرارة بعض بلاد أوربا الغربية ، والدليل الواضح على ذلك استطاعة الأوربيين الإقامة فيها إقامة دائمة .

ثالثاً : أن أراضى إندونسيا خصبة جداً ، وهى إما مزروعة بمختلف المحاصيل والأشجار أو مغطاة بالغابات الكثيفة وبالخضرة اليانعة ، فتلك المزارع وهذه الغابات تلطف الحرارة أيضا كما أنها تمنع الرطوبة .

رابعاً : موقع إندونسيا الجغرافى ، نظراً لوقوعها بين

بين المسموع والمقروء

الحب في السوق السوداء

للدكتور أحمد زكي بك

تحدثنا في العدد الماضي عن دافعين من أهم دوافع الحياة، دافع الجوع ودافع الشهوة، أو الدافع إلى الرغيف والدافع إلى المرأة (أو إلى الرجل إن كان الخطاب إلى امرأة)

وعرّفنا بالتجربة العادية كيف أن الدافع إلى الرغيف أقوى من الدافع إلى المرأة

وقد كتب لي كاتب كريم يقول: ما هكذا كانت تجربتنا في الحياة

وقد صدق الكاتب الكريم في الذي قال، فدافع الجنس كما يتراءى للناظر في المجتمع المصري وغير المصري أشد من دافع الجوع. ولكن كذلك صدق الشاعر الذي قال: إذا جئتُ أنسى حبها ....

ولكني أحسب أن الشاعر أصدق فيما زعم، لأنه لابد قد بلغ أقصى درجات الجوع حتى نسي حب صاحبته، وهذا شرط المقارنة. فلابد أن تبلغ بالجوع المدى أقصاه، وبالجوع الجنسي أقصاه، حتى تجوز المقارنة

وصاحبنا الذي نظر في هذا المجتمع وذاك، فوجد دافع الجنس هو المسيطر، إنما وجد ذلك لأن أفراد المجتمع لا يبلغون أقصى درجات الجوع البطنيّ أبداً

وهنا ندور بالحديث إلى دوافع في النفس أصيلةٍ تُشبَع، ودوافع أخرى لا تُشبَع

ودوافع الحياة أشتات. وإذا نحن قصرنا القول على الأصيلة منها، ذكرنا فيما يذكر الذاكر، الدافع إلى الهواء، والدافع إلى الدفء إذا برد الجوّ، أو إلى التبرّد إذا اشتد الحرّ، والدافع إلى النوم، والدافع إلى تجنب الألم، وهلم جرا

وأقوى هذه الدوافع لا شك دافع الهواء. فهو أقوى من دافع الرغيف، وأقوى من دافع المرأة. وإن شئت تجربة فاختر صديقاً، أو عدواً، واختره من الثقال، ذوي الوقار، الذين لا يتحركون إلا لعظائم من الأعمال، ثم قم إليه واكتم أنفاسه ثانية أو ثانيتين، تجد أن الوقار قد طار، وأن الحركة التي كانت عزيزة قد هانت، وتجد أن الرجل الثقيل قد خفّ يدفع من نفسه كأحقر حيوان وأتفهه ليفتح مجاري هذه الأنفاس التي سُدّت

فدافع الهواء أشد دوافع الحياة، ولكن لا يظهر أثره في الحياة العادية، لأن الهواء أيسر الأمور منالا، ولأنه أرخص الأشياء

كذلك الماء، وهو يأتي بعد الهواء دفعاً، لا تجد لرتبته هذه الثانية أثراً في الحياة الجارية، لأن الماء ذو منال قريب، وهو يكاد لا يعزّ أحداً أبداً. ولكن اخرجْ إلى الصحراء مرة، تجد أنك لا تخرج إليها مرة أخرى

القارتين وبين المحيطين فهي ملتقى طرق الملاحة، وتلتقي فيها الطرق التجارية الهامة في الشرق الأقصى، وهي تتكون من مجموعة جزائر صغيرة المساحة، يتصل بعضها ببعض وبالبحار والمضايق الصالحة للملاحة؛ كل هذا يميزها من سائر البلدان التي تقع في خط الاستواء، لهذا السبب تعتبر إندونسيا إقليماً قائماً بذاته من جهة حسن موقعها واعتدال مناخها. أليس من الأصح علمياً أن يطلق عليها اسم «إقليم إندونسيا» بدل إقليم الملايو، لأن الأول يشمل جميع تلك الجزائر التي يتشابه بعضها ببعض في المناخ والجو ودرجة الحرارة وفي موقعها وفي كثير من الحالات، بينما الثاني يشمل بعض الجزر فقط ؟

(للكلام بقية) فهد الرب برنس

إلا والماء أول زادك، وصاحب النصيب الأول من عنايتك.

إن دوافع الحياة لا يظهر أثرها في الحياة على مقدار شدتها الأصلية أبداً، وإنما يظهر أثرها بمقدار ما تفتقد منها.

فإذا نحن ارتوينا منها ارتواءً بطل أثرها حتى ننساها وننسى وجودها. ولذلك من أجل ذلك، أو من بعضه، ضلّ الناس عن الهواء فلم يكتشفوه، وهو في أفواههم، قروناً طوالا

ومن الدوافع التي لا تُشبَع في الإنسان دافع الجنس. فهو على الأقل في حياتنا المدنية الحاضرة، وفي كل مجتمع ينتمي إلى شئ من الحضارة، لا يُشبَع إشباعه في الحيوان الأعجم. لأن قواعد المجتمع تَحدُّ من ذلك. وكلما زاد المجتمع توغلا في هذه المدنية التي أصف، قامت عقبات كثيرة في سبيل هذا الإشباع فزادت شدة هذا الدافع ظهوراً. ومن أول العقبات في ذلك ارتفاع سن الزواج. وسن الزواج ارتفعت لأن نظام هذا المجتمع يقضي بأن الرجل يعول المرأة، دون إشراكها في المعونة، وهو يزيد في صعوبة الرزق حتى لا يتأهل له الكاسب إلا بعد زمان طويل. فهو نظام يتصف بالتحضّر، ولكنه يجري على غير ما تودّه الطبيعة من إرواء تلك الدوافع الأولى. ولعل الأمر سائر على غير هذا في الروسيا حيث القوم يحاولون أن ينشئوا حضارة جديدة تكون أكثر التئاماً والطبيعة. ففي الروسيا يتزوج الأبناء والبنات عند ما يبلغون الحلم، أو يشتد بهم الدافع الجنسي. أو على الأقل يُجاز لهم ذلك، وهم من أجل ذلك يتزوجون وهم لا يزالون في حجرات المدارس والجامعات يدرسون.

إن في إشباع هذا الدافع الطبيعي في تلك السن الباكرة إضاعة لشدة ظهوره في الناس يقيناً. فهو لن يعود من بعد ذلك يكون مشغلة الشاب، يملأ يقظته بالأحلام نهاراً ويملأ نومه بالأحلام ليلاً. وهو بهذا ينزل من خطورته التقليدية الكبيرة، إلى الخطورة المتواضعة، خطورة الهواء وخطورة الماء، وهما بحيث لا يكاد يفطن إليهما إنسان.

ويروي منه الفتى، ويرتوي منه الفتاة، من مشارع سهلة طاهرة مشروعة، فلا يكون حوله تلك اللعنة التي يقيمها الناس حوله، بعداً عن الطبيعة، وإمعانا في الظلم والبهتان

ولا يخسر من هذا إلا الشاعر الذي يريد أن يبيع شعره لذوي القلوب الملتهبة الذين لا يجدون الراحة إلا في زيادة إلهابها

ولا يخسر من هذا إلا القصّاص الذي يطلب القرش يجمعه ألوفاً وملايين بتصوير تلك المأساة الجنسية التي يقتبسها مما يرى حوله من ناس. وفيها يرى كل أحد نفسه، في بطل القصة أو بطلتها، كأنما يراها في المرآة. لأن الحال في توزعه على الناس واحد: رجل محبٌ راغب وفتاة محبوبة غير راغبة — أو هكذا شاء لها المجتمع، لاسيما اقتصاد المجتمع، أن تكون غير راغبة

ولا يخسر من هذا إلا المغنّي الذي يرتزق من النواح على حبيب مغاضب وعلى آخر مفارق، وثالث يودّ ولكنه يصدّ. ثم المدلول الذي لم أجد له في الحياة وجوداً إلا أن يكون هذا رمزاً إلى المجتمع

ولا يخسر من هذا إلا التجّار العديدون الذين اتخذوا من يقظة الجنس الدائمة عند الناس سبباً لترويج تجارتهم. والأمثال كثيرة، ولكن يحسبي أن أذكر طائفة من التجار كنت أحسب أنهم أبعد ما يكونون عن خلق التجار، وأعني بهم تجار الأدب. لقد اتخذ أكثرهم عواطف الجنس معابر يعبرون عليها إلى الرزق الكثير. افتح صحف اليوم، وافتح مجلاتها، فماذا ترى؟ ترى موضوعاً جنسياً في كل عدد إن كان محرر الجريدة ذا استحياء. وإن لم

يكن ، تمددت الموضوعات واحترّت حتى تكاد تحترق بها الأوراق . ثم الصور . تجد صور النساء في عري أو شبه عري في هذا الركن أو ذاك ، وفي مناسبة وفي غير مناسبة، وفي مناسبة مفتعلة افتعالا . وأؤكد لك أنها صور تلعب على عواطف قوم مساكين ، لم يكفهم ظلم المجتمع حتى جاءت هذه الصحيفة أو تلك توقظ فيهم إحساساً بذلك الظلم قد يكون نوّم أو هو نائم

ولا يحسبنّ أحد أن الكتّاب وأصحاب الكتب والصحف يفعلون هذا من غير عمد . إنهم يتعمدونه كما يتعمد التاجر أن يبيعك الشيء الذي اشتراه بجنيه بعشرة جنيهات ، لأن هذا الشيء قد قل في السوق أو هو اختفى . إنه قانون السوق وكفى .

ولقد قام ناشر بتجربة على الأسلوب العلمي ليعرف منها كم تؤثر دغدغته لدافع الجنس في مقدرة الشراء عند الجماهير :

نشر كتاباً أسماه « كرة من شحم » ، فباع من الكتاب ١٥٠٠٠ نسخة ، ولكنه غير اسم الكتاب فصيره « عاهرة فرنسية تضحّي » ، فباع منه ٥٤٧٠٠ نسخة .

ونشر كتاباً أسماه « شعر ذهبي » ، فباع منه ٦٠٠٠ نسخة ، ولكنه غير اسمه فصار « يبحث عن عشيقة ذات شعر ذهبي » ، فباع منه ٥٠٠٠٠ نسخة

ونشر كتاباً أسماه « سر القناع الحديدي » ، فباع منه ١١٠٠٠ ، ولكنه أسماه بعد ذلك « سر الرجل ذي القناع الحديدي » فباع منه ٣٠٠٠٠ .

ونشر كتاباً أسماه « الملك يمتع نفسه » فباع منه ٨٠٠٠ فلما أسماه « الملك الشبق يمتع نفسه » ، باع منه ٣٨٠٠٠ .

ونشر كتاباً أسماه « ليس من بعد الملك أحد » ، فباع منه ٦٠٠٠ . فلما أسماه « ليس من بعد الملك أحد يقبّل هذه الفتاة » ، باع منه ٣٤٠٠٠ .

وهذه الكتب كلها ليست في مصر . ولكن في بعض كتاب مصر من يحسنون التقليد . وكنت أود أن آتي على بعض كتبهم ، وهي مشهورة معروفة ، لا سيما عند الفتيان والفتيات ، لو أن عندي من قوة اتّباعها أرقاماً .

ولا تحسبن أيها القارئ أني أسوق إليك موعظة لتغمض من بعدها عينيك فلا تفتحهما على هذه الصحف ، أو هذه الكتب . وذلك لأني لست بالواعظ . ولأن الوعظ في مثل هذا لا ينفع ، بل يترجح عندي أنك لا بد فاتح عينيك وسمعهما في تلك الأوراق من بعد قولي هذا أكبر الفتح . وأنا عاذرك لأن النظم الاجتماعية وضعت أمر الجنس على الرف وأمسكت بعصا تنذر الناس أن لا يقربوه ولو لماماً . والشاعر يقول :

أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا

إني إن دعوت إلى شيء ، فإلى تغيير هذا النظام المدني الغربي . مهدوا للشباب الرزق ، وفي نفس الوقت زيدوه قوة على الكسب بالتعلم ، ليجري هذا مع هذا في خطو واحد . وبذلك يمكن القران بين الجنسين قراناً حلالاً ، وتمتنع أمراض النفوس ، وتنحل عقدها . وما أكثر العقد التي يعقدها دافع الجنس في النفس الصغيرة في طراوة العمر ورواءه .

أحمد زكي

من وحي الصحراء

[لاتزال الصحراء شعر يهز الأفئدة ، فصحراء مطروح لاتزال حية توحي إلى القلوب ما كانت توحيه منازل اللواء بين الدخول لحومل .

وهذه قطعة قطفتها من قصيدة للأستاذ « كامل امين محمد » الشاعر الموهوب يناجي بها شجونه تحت سماء الصحراء] .

ولامني الصحب أن أبكي الطلول ولو
رأوا بها ما أرى كانت لهم رنمـا
ما مر في بيد (مطروح) خيالهمو
ولا دروا ماضيها الصحراء والخيما
ولا رأوا فتنة الصحراء ترقصها الـ
ـمها غـدية ترعى الأيل والنعما
ولا تمـاوج كثبان الرمال ولا
تحدر الزن في القيعان حيث همى
يندى العرار بدمع الطل في فلق
فتحسب الناس بالإستبرق التطما
ويسرب الضحل ما بين الحصى رقما
كأنهـا صفحات ضمـنت كلما
رأيت فيهـا الظباء الراتعات هلا
وقلن قيـدا ولا احرزنهن دمى
هناك لى سنوات من دمى السافحت
وبعض قلب على قلب هنا انقسما
لم ألق من بعدهـا يوماً يساجلنى
إلا أسى كغريم لى به التحما
حتى الهوى زار قلبي ثم فارقه
لـما رأى القلب بالأحزان مزدحما
تلك الرمال التي تلهو الرياح بها
صغيرها لم يزل في رملهـا نغما
من قال إن البكا دمع يراق فقد
عدا على حرم الأحزان واجترما
شر البكاء بكاء القلب إن سفحت
عين الدموع بكاها في الضلوع دما
لـما رأيت الليالي حـولي احتشدت
وجندت لى الرزايا الخطب والنقما
وضاقت الأرض حـولي والسماء فما
زحمـت إلا الأسى والضنك بينهما
شمرت عن ساعد الفولاذ مندفعا
في زخرة من خضم موجـه التطما
وثرت وحدي بوجه عابس سفعت
جبينه الشمس فامتص الهجير ظما
كأنني صخرة في السيل دفعهـا
فصادفت صخرة الأقدار فارتطما
جرفت أهوى مع التيار مندفعا
وغبت أهوى على الأعماق مصطدما
وخانني العزم أن خارت قواى به
فراح يرمى في التيار حيث رمى

أمل ...

يفوح ، يفوح أما تبصـرين
يبوح ، يبوح أما تسمعين ؟
نقي كقلبك هل تشعرين ؟
ندى كعطفك هل تلمسين ؟
يفوح ، يفوح أما تنشقين
عبيرك فيه رق الياسمين ؟
كسته السماء بألوانهـا فغنى يخالد ألحانهـا
كفى يا عيوني لا تدمعى وأنت أيا قلب لا تجزع
وغن مع البلبل الحالم

• • •

يغيم ، يغيم ترى تَسخرين
وهل تبرئين ، ولِم تبرئين ؟

تَدمى ، تَدمى فلا يستبين
أهان عليــك أما تصرخين !

دعيني ، دعيني فى العاشــقين
أولول وحدى ، وما تدعين

لقد شردت بين أوطانها   نفوس وذلت إخوانها
تحيط وجسمى على المضجع   تمرد فى النفس فى الأضلع
هموم من الأمل النائم

* * *

تأملت نفسى وأحوالها   وقد ملت النفس أثقالها
وبعثر كالرمل آمالها   هموم ، ومزق أوصالها
ومَدّ شباكا وصاد لها   خواطر تحكم أغلالها
فألقيت نفسى بأغلالها   هواك وفى ظل كنانها
تعيش ولو أنت لم تسمعى   دُعاها ولو أنت لم تنعمى
وتحيى على الأمل القائم

* * *

خُدعتُ ، خُدعت حسبت الأوان
أهلّ وجاد علينا الزمان

كلانا من الحب فى مهرجان
يدوم ويبقى ، وما يسأمان

ويسمو بما تحتوى من معان
خلى من الحب حب الحسان

تحيين روحى بألوانها
وروحك أهوى بتحنانها

ولكن خُدعت ، ولم أخدع
وأصبحت كالهمس فى الأربع
وتخنقنى عبرة الهائم

عبد الكريم بن ثابت

النيــــل

أولُ هذا النيل فى ضميرى   فى عالم مُعشوشب نضير
ينبع بل يصب فى بحور   وراء وادٍ ليس بالمنظور
أكبر من بحر له كبير

يانيلُ يا ابنَ عالم السماء   لا لا ابتداء أنت ، وانتهاء
لكنْ أراك قــدرةَ القضاء

تجرى على الوادى ، وفى الصـحراء
سكينةَ الليل ، وفيض النور

يانيلُ يادمعةَ أوزريسا   ومن رأى فى القدم النفوسا
قــد سجدتْ لمـائه تقديسا

اكشف إلينا العالم المحسـوسا
والعـالم المخبوء فى العصور

العالم المخبوء والمحسوسُ   إنهما الطلين والناقوسُ
ما راح فيها لم يرحْ بجوس   وكل حاضر له رمسيسُ
يوغل فى المجهول والمنظور

يانيل دنياك التى تجنونُ   ما كان فيها ، بل وما يكونُ
تمضى على ماجدها السنون   تعلـه وهو بها مفتونُ
ودّ لو عاش مدى الدهور

والعيش حلوٌ كان يانيـل   لو لم يكن آخره الأفول
حســبك هذى الشمس والأصيل
حسبك من أكثره القلـيل
لكى تعيش الدهر فى سرور

الشمس .. ! يالشمس من حسناء !
واهبـةَ الحيـاة والنمـاء
ينبوعها الدافق فى الفضاء   يلقى على الموج من السماء
طاق السماء من سنىً مذخور

رعْ .. رعْ ! إله النور والحيـاه
وكيف لا يخشى من رآه
كأن روحى لجة تلقـاه   فترفع الدعاء والصلاه
لحظك الساحر بالسعير

احمد مخيمر

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٤١ — الثلاثاء أول شعبان سنة ١٣٦٤ — ١٠ من يوليه سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

داء الشرق

ذكرني ما هو قائم الآن بين صحف المعارضة وصحف الحكومة من جدل عنيف جاوز كل حدود الاعتدال بمقال قرأته من زمن لكاتب غربي قدم به لكتاب عن الشرق العربي والعالم الاسلامي ، أشار فيه إلى دلائل يقظة الشعور القوى في تلك الشعوب وإلى قيام نهضة تستمد قوتها من التراث الروحي القديم للشرق ومن الأخذ بأسباب المدنية المادية الغربية الحديثة . وقد خشي كاتب المقال أن يسبق إلى أذهان قرائه الغربيين أن يكون من شأن تلك النهضة القضاء على النفوذ الأجنبي في تلك البلاد أو إضعاف شأنه ، فسارع إلى إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم من تلك الناحية بما ذكره من أن « داء الشرق المزمن » كفيل ببقاء ذلك النفوذ وتمكين سلطانه .

وداء الشرق الذي يعنيه الكاتب هو حب الرياسة وتنافس الكبراء في الشرق عليها وتنازعهم الشديد على السيادة وحرص كل منهم على أن ينفرد بالأمر ونفوره من أن يقوم إلى جانبه رأس يطاوله . فهم من ذلك في شقاق مستمر وخصومة لا تنقطع . ولا خوف على النفوذ الأجنبي في مثل هذا الجو . فهم في شغل عنه بالمعارك الداخلية التي تنشأ بينهم ، بل لعلهم إذا اشتد الجلاد وعنف وعزت الغلبة لأحد الفريقين أن يستعديه كل منهما على أخيه ويحتكما إليه في النزاع فيقوى بذلك سلطانه ويشتد تغلغله .

والرياسة في الشرق في صورتها المعروفة بقية من الرياسة في العهد الاقطاعي تحاط بكثير من مظاهر الفخامة وتتمتع بكثير من الامتيازات ويطلق يدها في كثير من التصرفات وترمق من الناس بكثير من الإكبار والتقدير . ومن هنا

كان فتنتها وتهالك الناس عليها وتفانيهم الشديد على الظفر بها .

ولم يصل إدخال النظام الديمقراطى الحديث فى الشرق بعد إلى اقتلاع جذور تلك البقية الباقية من روح النظام الاقطاعى من الرؤوس ، ولم ينجح النجاح الكامل فى إفهام المتطلعين لتولى أموره المعنى الحديث للرياسة ، وهى أنها تكليف لا تشريف وقيادة لا سيادة واضطلاع بمسئوليات جسام لا تمتع بمزايا وتحلل من تبعات .

والجمهور فى الشرق لا يزال بعيداً من أن يحسب له حساب ، بعيداً عن أن يكون عاملا حاسما فى فض المنازعات بين الرؤساء ، يقف كلا عند حده ويكبح جماح المسرف منهم ، بل هو بحكم تفشى الأمية فيه ونقص إدراكه المسائل العامة فريسة سهلة لكل دعاوة ماهرة يخضع للمؤثرات ويستجيب لعوامل الاستهواء ، فمن السهل أن يجره المتنازعون وراءهم ويسيرونه حسب أهوائهم . فينتقل النزاع الخاص بين الكبراء إلى فتنة عامة فى الشعب تتقطع فيها الأواصر وتنحل الروابط وتتحرك الإحن والأحقاد .

فالعلة الحقيقية هى أننا فى الشرق قد اصطنعنا نظام الديمقراطية الحديث ، ولكننا لم نتشرب روحه ، بل بقينا نسير الأمور بعقلية العهد الاقطاعى فى النظام الديمقراطى الحديث .

فى غير الشرق أحزاب تتداول الحكم ، وليست مهمة من يلى الحكم أن يتخذ من سلطانه أداة لقهر خصومه الباقين خارج الحكم ، ولا مهمة من لم يل الحكم أن يقيم الصعاب ويخلق المتاعب لمن هو فى الحكم ، بل القوم يتعاملون بشريعة الانصاف ويعرف كل منهم لكل ذى فضل فضله ويعد له ما استطاع من معونة . هناك تعارض الأحزاب البعيدة عن الحكم ، المعارضة المنتجة التى يراد بها تقويم العوج وتعديل الاتجاه الخاطىء ، وتمكن الحكومة المعارضة بسط حججها وتصغى لارشاداتها ولا تأبى الأخذ برأيها فيما تبدو وجاهته

وهنا يلى الحكم من يلى ولا يشغل باله ويقض مضجعه إلا خصمه الراصد له خارج الحكم وما يدبره له من مكايد وما يدسه له من دسائس ؟ فهو يفكر فى قطع السبيل عليه ورسم الخطط لإضعاف نشاطه ، ويخرج الرجل من الحكم فيكون أكبر همه تتبع عثرات من ولى مكانه وتشويه ما يقوم به من جهد نافع والمبالغة فيما يقع فيه من هفوات تافهة ، وأكبر ما يثلج صدره فى ذلك أن يقع على صيد ثمين يكون فضيحة تذاع وتشهيراً ينشر .

خصومتنا عنيفة مبالغة متجنية يباح فيها كل سلاح ، وهى خصومة لا تدع سبيلا لصلح ، ولا تفتح ثغرة لمهادنة ، فهى موت أو حياة لكلا الخصمين .

وسيظل الحال باقيا على هذا المنوال ما دام الجيل السياسى الذى يغلب على هذه البلاد بهذه العقلية المتأخرة . حكومة تروح وحكومة تجىء ، فالرائحة تمرقل القادمة والقادمة تبطش بالرائحة ، وكل منهما لا هم له إلا الظفر بخصمه . ومصالح البلاد فى ذلك معطلة تصاب بأكبر الأضرار .

كم خسرنا فى مصر بسبب هذه الحالة ؟ كم سنة تأخرت نهضتنا وتخلفنا فى التعليم والصحة والانتاج . كم مشروعاً ضاع علينا بسبب هذا التقلقل والتنازع ؟ وكم من ملايين الجنيهات حرمت منها الأمة من جراء تأخير تلك المشروعات .

وخسارتنا المعنوية أخطر وأجسم . ماذا بقى لنا من نهضتنا الحديثة الرائعة التى بدأها سعد زغلول ؟ ماذا بقى لنا من الوحدة القومية التى كنا نفاخر بها الأمم ، والتى كانت تواجه العالم بجبهة متينة كالبنيان المرصوص لا يجد فيها خصم ثغرة ينفذ منها . ماذا بقى لنا من الروح العام الذى كان يستطيب التضحية ويترفع عن الكسب والمغنم ؟

كواكب تلعب :

لعبة الـكرة الطائرة

أحيا الّتى يوم هوى مشهود ماجت به الأرداف والنهود
كواكب تلعب فوق الأرض هل عالم الأفلاك غير مرضى
حتى هوت لنا من الآفاق نجوم حسن عذبة الإشراق
قد هبطت (بالبرشوت) عصراً
فكادت الشمس تغيب غيرى
وبينها (سميراميس) تشرق
ظلت فى أنوارها أحترق
يا كرة طائرة على قلق كعاشق أرّقه لذع الحرق
قد شغلت عنك عيون الجمع بالأذرع الفضة ذات اللمع
كأنها الشهب إذا تخاطفت أو ورد أغصان وقد تعاطفت
وانقطع الحبل وهى بالحب لم يطق الحب، فوقع قلبى
هــلا رحمن ضعفه إذا اضطرب
فرعــا كان فدعاً قلب صب
كم ثمّ من رمم أشجار واصطبغت من الدما أزهار

يا كرة تقفز للبنــات عمداً كقلب فى هواء عانى
أتعبت محبوبتى الجميــلة وكم وقفت عبثا وحيله
توردت خدودها من الخجل
اراك لو تبيح ما أحــلى القبل
وكلما تقفز قلبى يثب لأنه بسحرها مكهرب
والويل لى إذا انحنت كالغصن
بجسمها الغض الطرى اللــدن
والويل لى إذ انحنت فلاح لى نحر به تحت نور الأمــل
يا ساقها الفضى أنت العمد قام عليه صرحها الممرد
جسم يشف خلفه بلورا يفيض لطفا ويشع نورا
بنى له الجمال عرشاً سامى طافت به مواكب الأحلام
واضطرب الصليب فى عناقها ياويله أصبح من عشاقها
فاصفر سقما وذوى إشفاقا أن لا ينال فى غد عناقا
أواه يا ليتنى الصليــب أشم نحراً فاح منه الطيب
أو ليتنى ثوب يضم جسمها أطيل فى جنح الليالى لثمها
رباه ما أكثر أحلام الهوى وما رأيت عاشقا قد ارتوى

(بغداد) ضياء الدخيلى

ياويلنا ! أعجز أولئك السادة الذين يزعمون أمور السياسة فى مصر ، وكلهم ذو ماض كريم أن يستلوا الإحن وينتزعوا الأحقاد ويمدوا أيديهم بعضهم لبعض ويعيدوا للبلاد وحدتها واستقرارها .

أعجزت مصر عن أن تجد فى أعمالها مكانا لكل أولئك الرؤساء — وليس منهم إلا كفء قادر — وتوفق بين جهودهم لتنتفع بها جميعا وتأمن شر الخلاف القائم بينهم .

لو أن الأمور عولجت بروح الإنصاف والتسامح لما عز إيجاد الحل الموفق لجمع الكلمة وإزالة الفرقة . ولكن المنطق والجدل الهادئ لا يفيد فى جو قد سممته الدعاية المتيفة التى لجأ إليها المتخاصمان .

فإذا لم يكن فى الإمكان ذلك فهل نطمع فى مهادنة بين الفريقين يلقى فيها الطرفان السلاح ، ويثوب كل منهما لنفسه زمنا ؟ أنا على ثقة من أن تلك الهدنة تخفف حدة الأعصاب الثائرة ، وتمهد السبيل لجو يكون أقرب للتوفيق الذى تتمناه البلاد .

(٠٠٠)

راغب باشا الوزير

من الشخصيات المحبوبة في تاريخ الترك ، شخصية الوزير الكاتب الشاعر محمد راغب باشا المعروف عند الترك راغب باشا الكبير .

ولد بالآستانة عام ١١١٠ هـ من أب مثقف تثقيفا حسنا يُدعى شوقي افندى ، وأمضى مراحل التعلم كلها في الآستانة . حتى إذا بلغ الرابعة والعشرين من عمره عُين سكرتيرا لأحمد باشا العارف ، والى أرِوان من ولايات الأناضول الشرقية . ثم عُين رئيساً لإدارة شئون الجيش الذى أرسل إلى جهات تبريز في قيادة عبد الله باشا الكوبريلي . ولما هزم الجيش العثماني ، جيش طهماسب الصفوى ملك إيران (١١٣٦ هـ) أنشد راغب بك قصيدة مخمّسة طويلة في مدح عبد الله باشا الكوبريلي أثبت بها اطلاعه على الآداب القديمة وقدرته على قرض الشعر . وأخذت شهرة محمد راغب تتلألأ في سماء الأدب التركي منذ هذا التاريخ . لقد أعجب الناس بذكائه وعلمه ورجاحة عقله . وقام محمد راغب بك مدة بوكالة إدارة الشئون المالية للجيش في رفقة الوزير على باشا بن الحكيم . ولما عاد إلى الآستانة سنة ١١٤١ هـ ، ألفاها قد انغمست في الفسق والفجور والسرور والنعيم .

قضت استانبول عهدا من الراحة والسكون في أيام السلطان أحمد الثالث ووزيره وصهره ابراهيم باشا النوشهرى ؛ ويُسمى هذا العهد في تاريخ الترك وتاريخ أدبهم بعهد الخزامى . وقد اندفع فيه أهل استانبول ، وقد سئموا من حروب لانهاية لها ، في اللهو واللعب ، والفرح والسرور ، والفسق والفجور ، وحب الحدائق والزهور ، وخاصة زهر الخزامى ، حتى سُمى هذا العهد وهو نحو ثلاث عشرة سنة (١١٣٠ — ١١٤٣ هـ) بعهد الخزامى .

كانت الخزامى في استانبول ذلك العهد كالزهور المعروفة في أيامنا بكريزنتيم . يتبارى العظماء ومتوسطو الحالة ، بله الفقراء ، في العناية بها واستنبات أنواع جديدة منها ؛ ويبالغون في أثمانها . وقد روى أن بصلة منه كانت تباع أحيانا بألف ذهباً .

كان السلطان أحمد الثالث ضعيف الجسم سوداوى المزاج قد غرق في اللذات ، وكان يجيد قرض الشعر . وأما صهره ووزيره ابراهيم باشا فكان شاعرا ومحبا للشعر والشعراء ، وله ذوق في الفن . فاتفق مشرب السلطان ووزيره على الانغماس في اللذات وحب الفن والجمال ، وسنحت لأهل الآستانة فرصة لإدخال السرور في قلب السلطان بجميع الوسائل من شعر وموسيقى ، واستنبات أنواع جديدة من الخزامى ! كانت أيام الصيف ولياليها الرطيبة تمضى في سماع الغناء والموسيقى والطرب في القصور المنيفة الطريفة التي شيدها الوزراء والأمراء والأغنياء على شفتى البسفور ، وخاصة في سعد آباد الواقع في نهاية خليج استانبول . وإذا جاء الشتاء ببرده وأمطاره وثلوجه ، انتقلت حياة اللهو والفجور إلى مسامرات الحلواء بقصور استانبول المزخرفة . كان الشاعر « نديم » ، أمين مكتبة الوزير ابراهيم باشا وأكبر شعراء القرن الثاني عشر الهجرى ، عندليب هذه المجالس الصداح ، ويحييها بقصائده وغزلياته وأشعاره المجونية ، ونكته ولطائفه .

مكث راغب سنة في الآستانة ، وقد بلغ عهد الخزامى أوجه في سنة ١١٤٢ هـ . ولكنه لم يشارك القوم في تلك الاجتماعات المجونية ، ولم يكن راضيا عنها الرضاء كله ، ولو أنه قرأ ما أنشده شعراء هذا العهد من القصائد والغزليات وحاول أن ينشد مثلهم . وقد كانت عقليته النافذة تدرك سوء مغبة هذا الفساد ، وفي السنة المذكورة عين محمد راغب وكيلا لرياسة الجيش في همذان وما إن

مضت سنة حتى قام رجال الإنكشارية والعلماء بثورة عنيفة في استانبول ، فعزلوا السلطان أحمد الثالث وقطعوا الوزير ابراهيم باشا وندماءه وتركوا جثثهم في شوارع الآستانة ، وهلك الشاعر نديم أثناء هذه الحوادث . ولم يكتف الغوغاء الثوار بهذا القدر ، بل أرغموا السلطان محموداً الأول الذي جلس على عرش السلطنة بعد تنازل السلطان أحمد الثالث على أن يوافق على هدم القصور والحدائق الغناء التي أنشئت على شاطىء البسفور وفي سعد آباد وتخريبها ، فما كاد السلطان يوافق على أن يهدمها أصحابها حتى نفذه الثوار قبل أصحابها ونهبوها . كان السلطان أحمد وصهره ابراهيم باشا وسائر وزرائه قد بنوا هـذه القصور باسم الحضارة وباسم التقرب من الحياة المدنية ، وفتحوا بابا لعمران البلاد ، وذهبت هذه الثورة بجميعها باسم الدين ، ولم يبق مما ينفع الناس غير المطبعة التي أنشئت في ذلك العصر والتي كان يطبع فيها بعض كتب . ونهضت صناعة القيشاني ، وأنشىء مصنع لصب الحديد ، وكان يصهر ويصب فيه الأدوات الضرورية لصناعة السفن .

كان راغب باشا في خلال هذه الحوادث يشغل منصب الدفتردارية في بغداد . وعين سنة ١١٤٩ سكرتيرا للصدر الأعظم ، ثم عين في سنة ١١٥٣ رئيس الكتاب (وزير الخارجية) . ولما كانت سنة ١١٥٧ هـ عين واليا لمصر مع رتبة الوزارة (الباشوية) .

ولما قدم راغب باشا الذي وصفه الجبرتي بكلمة « مسن » إلى القاهرة واستقر في قلعتها ، ألفى نفسه بين أمراء المماليك المتعودين اللعب بالولاة ، فشرع يأخذ بعضهم بالشدة ويظهر لبعضهم الودّ والعطف ، وقام ببعض أعمال مفيدة ، ولكنه وُفق قليلا جدا لإصلاح ما فسد من الأمور في المدة التي قضاها بمصر حتى نقل إلى الآستانة رئيسا لقلم التوقيع سنة ١١٦١ هـ . وتدل الأبيات الآتية ، وهي التي أنشدها حين مفارقته لمصر ، على ما لاقى الباشا في مصر من المشاق . فهو يقول : « لقد قدم الشوق ، فلنعتب على الحظ العاثر ، ولنحطّم رأس الغموم بكأس الراح ، ولنقلب نظام الحرب إلى نظام الآدب ، ولنهاجم بإخلاص صف القمر الأسود . لقد سئمنا من التصرف في أم الدنيا (مصر) وكفى قهر القاهرة ، فلنرحل إلى بلاد الروم » .

ولما عاد إلى الآستانة شغل عدة مناصب عالية ، حتى إذا كانت سنة ١١٧٠ قُلِّد الصدارة العظمى . وكان ذلك في آخر أيام السلطان عثمان الثالث . ولما جلس السلطان مصطفى الثالث على عرش السلطنة العثمانية ، اقترن راغب باشا بالأميرة صالحة أخت السلطان مصطفى ، وظل صدرا أعظم حتى توفي سنة ١١٧٦ هـ (سنة ١٧٦٢ م) ودفن في حظيرة مكتبته التي أنشأها في حي « قوسقة » بالآستانة .

●●●

تقلد راغب باشا معظم مناصب الدولة وتنقل في كثير من أطرافها . واكتسب معلومات وتجاريب واسعة من تنقلاته وذاع صيته . قال الجبرتي : « إنه كان من أفاضل العلماء وأكابر الحكماء ، جامعا للرياستين وحاويا للفضيلتين » . وقد سُمي عهد صدارته بعهد الاعتدال والحكمة » .

كان راغب باشا يقرض الشعر باللغات التركية والفارسية والعربية ، وامتاز بالشعر الحكمي والأخلاقي ، ووفق في هـذا الوادي توفيقا تاما ، وفي هذا النوع من الشعر تظهر آراؤه الأخلاقية والاجتماعية .

ويظهر أنه كان أيام ولايته لمصر ، يشغل أوقات فراغه بالأبحاث العلمية ومناقشة العلماء وقراءة الأدب العربي أكثر مما يشغلها بقرض الشعر . قال الجبرتي : « وله ثلاثة دواوين : تركي وعربي وفارسي . وكان له ذوق صحيح ، وفهم رجيح ، يكرم العلماء والوافدين ، ويباحث أهل العلم بتشكراته » . ويمكن أن يستدل من هذا أن راغب باشا

النبـــاتات

حاضرها ومستقبلها

[ذكرنا في مقالنا السابق شيئاً عن تركيب النباتات وكيف يؤدي اختلاف هذا التركيب إلى نشوء أصناف جديدة . وفي مقالنا هذا نحاول التعرض لبعض أصناف جديدة نتجت بالتهجين أو بالتهجين مع تغير في عدد الصبغيات . ثم نبين كيف يمكن أن يحدث هذا التغير بتأثير كيميائيات خاصة]

ليس من الضروري لنشوء أصناف جديدة أن تماثل الخلايا تغيراً في عدد صبغياتها ، ونبات الشليك أقرب الأمثلة إلينا . وترجع زراعته إلى القرن الرابع عشر ، وكان ذلك في أوربا وعرف منه نوعان : النوع الأول[1] كان صغير الثمار ، أما الثاني فكان ينمو برياً[2] في الغابات . وهذا الأخير زرع في الحدائق في القرن السادس عشر . بعد ذلك عرف نوع ثالث[3] وكان ينمو في البراري بشرق أمريكا الشمالية وأدخلت زراعته في القرن السابع عشر . وكانت ثمار الأنواع الثلاثة صغيرة الحجم ، وكل محاولة في سبيل تكبير هذا الحجم في تلك الأنواع لم تكلل بنجاح يذكر .

وفي أوائل القرن الثامن عشر أدخل نوع رابع[4] من أمريكا الجنوبية . وكان كبير الحجم . هذا النوع كان وحيد الجنس ، أي أن الأزهار المذكرة تكون على شجيرة والمؤنثة على أخرى . وقد حدث بالمصادفة أن جميع النباتات التي أدخلت كانت مؤنثة . زرع هذا النوع بالقرب من الأنواع الأخرى فحدث التلقيح في هذا النوع ، وأدى ذلك إلى تكوين ثمار كبيرة الحجم ، ولكن اللون والطعم لم يكونا من الجودة بحيث يشجعان على زراعة النوع الجديد . وعند بداية القرن التاسع عشر بدأ المهتمون بتربية النباتات يحاولون الوصول إلى نوع من الشليك يجتمع فيه كل ما يبغونه من مميزات محببة ، من كبر في الحجم وجمال في اللون وحسن في الرائحة ولذة في الطعم ، وكان عملهم يتلخص في زرع البذور وتهجينها . وقد نجح Thomas Laxtou في بدفورد إذ توصل سنة ١٨٩٢ إلى الصنف المسمى Royal Sovereign

وقد كشف البحث الحديث في تركيب النواة عن سر هذه التجارب ونتائجها . فعرف أن التهجين في الشليك يتوقف على عدد صبغيات الصنف . فإذا حدث التهجين بين أصناف تختلف في عدد صبغياتها نتجت أصناف عقيمة ضامرة . أما إذا كان التهجين بين أصناف تتفق في عدد صبغياتها نتجت أصناف خصبة نامية . فالشليك الذي يتحلى بكل الصفات المرغوب فيها قد نتج من تهجين نباتين عدد الصبغيات في كل (٣٤) ، وقد كانا في الأصل متباعدين كل في بيئته ، فلما قرب الزارع بينهما ، أنتجا ذلك

(١) Fragaria verca . (٢) Frgaria elatior .

(٣) Fragaria alrginiana (٤) F. chiloensis .

أفاد من حياته بمصر « سفينته » وبعض مكتبته القيمة .

أكبر مؤلفاته وأهمها كتابه « سفينة الراغب ودفينة المطالب » للمؤلف باللغة العربية . وهو موسوعة جامعة لمواضيع مختلفة من أدب ولغة وطبيعة وطب ورياضة ومنطق وأدعية وتصوف وغيرها ، وقد طبع بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٢٥٥ هـ .

وطبع ديوانه التركي مع بعض رسائله الخاصة وبعض رسائله الرسمية ، في بولاق سنة ١٢٥٥ هـ .

وله رسالة في العروض ، شرحها كما يقول الجبرتي ، الشيخ أبو محسن القاضي المغربي .

وألف كتاباً بعنوان « تحقيق وتوفيق » ، يقول محمد طاهر البروسوي إنه يحتوي على حل المسائل المختلف فيها بين السنيين والإماميين ، والسعي للتقريب بين المذهبين والدعوة إلى الوحدة . وتوجد نسخته المخطوطة بمكتبة المؤلف . وله مؤلفات أخرى .

حمزة طاهر

النبات الممتاز .

ولا شك أنه إذا اجتمع التهجين مع مضاعفة عدد الكروموسومات فإن هذا يؤدي إلى نتائج أحسن ، ومن أمثلة ذلك البرقوق ، وتحتوي خلاياه على ٤٧ صبغيا . وقد نتج من حدوث التهجين بين صنفين أحدهما تحتوي خلاياه على ١٦ صبغيا والآخر ٣٢ صبغيا ، وتبعا للقاعدة العامة يكون التهجين الناتج من هذين النباتين فيه صبغيات عددها ٢٤ (٨ + ١٦) . ولكن وجد أن هذا النوع عقيم لا يتكاثر . فاستمر البحث والتجربة حتى توصل الباحثون إلى صنف عدد صبغياته ٤٨ ، وهذا نوع خصب ويجمع فوق هذا بين المميزات المطلوبة كلها .

وهناك كثير من الأمثلة التي تنطبق عليها هذه القاعدة كالداليا والكرمث والقنبيط والقمح وغير ذلك . وكل هذه الأصناف نشأت بالتهجين ومضاعفة عدد الصبغيات وهي نباتات تفوق أصولها ، وقد أفادت الإنسان إلى أكبر حد .

ولقد عرف التهجين منذ عرف الجنس في النبات ، واستخدم للجمع بين الحسن من الصفات في نبات واحد . ولكن المجربين ووجهوا في بعض الحالات بنباتات عقيمة كما حدث في البرقوق ، مما سبب شيئا من خيبة الأمل . وكان عليهم أن ينتظروا فيضا من الطبيعة بظهور نباتات يتضاعف فيها عدد الصبغيات . ولا شك أن انتظارهم كان يطول في كثير من الحالات . أما الآن فقد أصبح الذين يربون النباتات مزودين بما يعينهم على اللعب بالصبغيات ، يضاعفون عددها إن شاءوا ويتركونها على أصلها إن أرادوا ذلك .

كان هذا عقب اكتشاف أمريكا منذ سبع سنوات لمادة تسمى كولكيسين Colchicane وهذه المادة تضاعف عدد الصبغيات في النبات على شرط أن تستخدم بحرص وبشيء كبير من الحذر والدقة . وقد ساعدت هذه المادة على تحويل النباتات العقيمة إلى نباتات خصبة . وقد تبين أخيرا في روسيا أن هناك مادة تشبه الكولكيسين في أثرها وهي اسيناذتين Acenaphtene وتؤدي إلى نفس النتيجة .

ويمكن الآن في أمريكا شراء بذور عولجت بهذه المواد فأنتجت نباتات ذات صبغيات متضاعفة . وإن اكتساب الحياة في استخدام هذه المواد سيمكننا في المستقبل القريب من تحسين النباتات من جميع الوجوه والوصول إلى أنواع جديدة تحل محل النباتات الأصلية . ومن أمثلة ذلك صنف من الأذرة زرع في أمريكا يتميز على غيره بوفرة المحصول ومقاومة الجفاف والرياح والأمراض ، وغير ذلك من العوامل التي تؤثر في نمو النبات . وقد أدى ظهور هذه الأصناف الجديدة إلى مضاعفة المحاصيل فبلغت ثلاثة أمثال المحاصيل العادية . وفي عام ١٩٣٩ زرع أكثر من عشرين مليونا من الأفدنة في أمريكا بهذا النوع الجديد من الحبوب . أي أنه بلا شك قد حل محل القديم من الأصناف .

فهل آن الأوان لنا هنا أن نضاعف عنايتنا بهذا الفن الجديد القيم من تحسين النوع ، وإحلال الجديد الذي يتميز بخير الصفات محل القديم المحدود في جودته ؟

محمد أحمد بثوته



يا كتيبة الخير تقدمي!

سبق أن كتبنا في الثقافة كلمة تحت عنوان « كتيبة الخير » بينا فيهـا ما يخالجنا من الأمل في قلوب مصرية عامرة بالإيمان لا تزال تجاهد في ميدان الإصلاح في صمت وهي موزعة أفرادا لا يعرف بعضهم بعضا ، وسمينا هؤلاء « كتيبة الخير » . وقد دعونا كل فرد من هذه الكتيبة إلى أن يعمل على التجميع والتوحيد وينادي بالتكاتف والتآزر بقصد تحقيق الغاية النبيلة التي يسعى إليها الجميع .

وإنا نعتقد اعتقادا لا يعتريه الشك من بين يديه ولا من خلفه أن علة العلل التي أصابت مصر وأصابت الشرق كله إنما هي علة تفرق الكلمة وصدع الوحدة . فالتفرق علة العلل في الحيـاة الاجتماعية كما أنه علة العلل في نضال الأمم ، فهو الذي يسبب الهزيمة في كل جماعة ، سواء أكانت تجاهد في ميادين السلام أم تجاهد في ميادين الحرب . وقد كانت خطط الحرب جميعهـا منذ أقدم العصور ترمي إلى تمزيق شمل العدو حتى يتمكن الجيش الظافر من الانتصار . وكانت الدول الاستعمارية تعمل دائما على تمزيق الشعوب التي تريد استعمارها حتى تجعلها مجموعات من أفراد متدابرين متعارضين لكل منهم رأيه ولكل منهم مصلحته الذاتية لأنها كانت بهذه الوسيلة تكفل لسياستها الاستعمارية السيادة والنجاح . وليس الأمر مقصورا على الدول المستعمرة ، فإن الحكومات الطاغية إذا أرادت أن تمضي في طغيانها عمـدت أول شيء إلى تفريق كلمة الأمة حتى لا تقف أمام طغيانهـا قوة مجتمعة تهددها بالمقاومة . ولهذا كانت حكومات الاستبداد منذ القدم تعمل جهـدها على إشاعة سوء الظن بين الناس وعلى إدخال الوساوس والشكوك في القلوب حتى لا يأمن واحد أخاه وحتى لا يجتمع رأي إلى رأي .

فالتفريق كان دائما وسيلة الاستعباد ووسيلة الاستبداد ولا تزال الكلمة القديمة ترن في الآذان تذكرنا بخطة الأقدمين في تحقيق السياسة الطامعة الجائرة سياسة الطغيان والأنانية وهي « فرق تسد » . فليس ببعيد من أذهاننا جميعا أننا إذا أردنا إصلاح أحوالنا كان علينا أن نبدأ من البداية ، وبداية الإصلاح لا تكون إلا من آخر نقطة وصل إليهـا الهدم . فالإصـلاح المنشود يقتضي أول شيء أن يتجمع الأفراد بعد التشتت ويضموا شملهم في جماعات حتى تتقابل الآراء في نقطة وتتفق المصالح عند غاية سامية كبرى هي المصلحة القومية العليا .

ولسنا نشك في أن ميدان الحيـاة في مصر خاصة والشرق عامة لم يخل في وقت من الأوقات من الأفراد المخلصين الذين كانوا دائمـا يحاولون الإصلاح وبث الدعوة إلى الخير . وكانوا في أول الأمر يجدون الآذان صماء والقلوب مغلقة لطول ما فعل بهـا التحطيم في العصور الطويلة التي مرت على مصر والشرق ، ثم تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور شيئا بعد شيء حتى صارت القلوب اليوم متفتحة لدعوة الإصلاح وحتى أدركت العقول مواضع العلة ، ولهذا نشاهد أننا كلما جلس بعضنا إلى بعض ترددت الأقوال ودارت المناقشات حول ما في مجتمعنا من العلل وما في موقفنا من الشذوذ . ولسنا نبالغ في شيء إذا نحن قلنا إن الآراء تكاد تكون جميعها متفقة على تشخيص مواطن العلة وعلى الخطط العامة في سبيل العلاج . نقول إن الآراء تكاد تكون متفقة وإن اختلف بعض المفكرين مع بعض في تفاصيل الوسائل وفي تقدير مناحي الإصلاح . فقد يرى البعض أن نبدأ في الإصلاح الاجتماعي ، وقد يرى البعض أن نبدأ بالإصلاح السياسي الداخلي ، وقد يرى البعض أن نبدأ في الإصلاح السياسي الخارجي ؛ ولكن هذا لا يمنع من أن الجميع متفقون على تشخيص أنواع العلل التي نشكو منها وعلى ضرورة الإصـلاح ونوع الوسائل التي يجب أن نلتمسها له .

وانه ليسرنى ويسر كل مصرى مخلص لوطنه وكل شرقى مخلص لعدالة قضية الشرق وكل انسان مخلص لقضية الإنسانية — يسر هؤلاء جميعاً أن مصر اليوم قد أصبحت لا تقنع بالأساليب التى كانت تسير عليهـا مناهج الإصلاح منذ أوائل هذا القرن ، لأن العصر قد تغير فأصبح لا يكتفى بتلك الأساليب المرتجلة الجوفاء التى لم تحقق إلى اليوم شيئاً من الأهداف القومية الكبرى بل لم تتجه بمصر إلى الاتجاه السليم نحو تحقيق تلك الأهداف .

فنحن اليوم لا نرضى بأن نتجه إلى غير غاية ولا نرضى بأن نتجه إلى غايتنا أحزاباً متفرقة لكل منها رغبة خاصة فى بسط سلطانه وتلوين الإصلاح بلونه الخاص بقصد الدعاية لنفسه .

نحن لا نرضى اليوم بأن تبقى أساليب القرن التاسع عشر فى الحكم ولا أن تبقى أساليب الأنانية فى السياسة القومية ، فان لمصر حقاً مقدساً فى الحياة ، وهذا الحق أسمى من كل نزاع حزبى وأخطر من كل مطمع فردى .

وقد امتلأت القلوب اليوم باعتقاد لا يمكن أن نزعزعه المجادلة فى هذا الحق الأسمى ولا سيما قلوب الشباب الذى لم تجرفه الحوادث الماضية فى تيارها ولم تلونه بحزازاتهـا ومنافساتها الباطلة . فهذا الشباب يتطلع حوله اليوم فى شىء من الحيرة وفى شىء كثير من الحنق ، وهو ينتظر الصيحة المنتظرة التى يمكن أن تمس قلبه ويجد فيه صداها وردها .

فهذه الصيحة إذا أطلقت فى جو مصر وكانت صادرة عن يقين وإيمان طاهر اهتزت لها القلوب من جميع أركان الميدان الذى لم يخل فى وقت من الأوقات من الأفراد الشتتين الذين يقاومون الشر ويحاولون الثبات ورفع أعلام الخير . إذا أطلقت هذه الصيحة كانت جديرة بأن تستجيب لها الكتيبة الشتتة ولن تلبث أن تكون جحفلا ضخما .

وقد تواترت الأنباء منذ قليل باجتماع طائفة من رجال مصر وشبابها بقصد تداول الرأى فى الدعوة إلى التجمع وتحديد أهداف مصر العليا والوسائل التى تحقق المصلحة القومية الكبرى .

وإنه لما يملؤنا سروراً أن نسمع فى الأصوات التى رددت فى ذلك الاجتماع رنين الإخلاص والصدق ، وقد قال أحد المتكلمين متفائلا : « إن كلمة الصدق الخالصة إذا صدرت عن قلوب مؤمنة بهـا فلن يستطيع شىء أن يثبت فى وجهها أو يقاومها . فإذا استمع لها قادة الأحزاب كان ذلك خيراً لهم ، وإلا فان القلوب سوف تتلقفها وإن الإيمان بها سوف ينمو ويقوى بعد حين فلا يقف فى سبيله شىء » .

نعم إن كلمة الحق إذا صدرت عن قلوب مؤمنة فلن يقف فى سبيلها شىء ، ونحن على يقين من أنها قد آن لها أن تنمو وأنه قد آن لكتيبة الخير أن تجمع شملها ، وإنا لنرجو أنها تستطيع بعد حين أن تضم إليها الجنود الشتتين من أركان الميدان وتتقدم بهم فى جمع واحد ينشد أنشودة واحدة هى أنشودة « الوطن فوق الجميع ! »

وليس يكفينا اليوم أن ندعو إلى الاجتماع لأننا فى حاجة إلى ما هو أكثر من الاجتماع ، ليست الدعوة الجديدة التى ننتظرها إلا دعوة مخلصة بعيدة عن ألوان الأحزاب ، دعوة تقوم على دراسة المثل القومية من أطرافها والاتفاق على الوسائل الفعالة التى تؤدى إلى تحقيقها والتجرد من كل رغبة إلا رغبة توجيه القلوب إلى القصد الأسمى . فهيا تقدمى يا كتيبة الخير إلى الأمام ! . .

محمد فريد أبو حديد

مدرس الأخلاق

نقلا عن خطاب ألقاه المستر بلدوين (M. Baldwin) فى جماعة من مدرسى لندن

بقلم حضرة صاحب العزة صاحب الإمضاء

يقول المستر هـ . ج . ولز (H. G. Wells) «إن التربية هى أحدث أنواع الفنون والعلوم . وإنه لمن المألوف لجميع العالم وجود فئة خاصة من الناس همها الدرس والتقدم العلمى ، ولكن فكرة إعداد عقول جميع الطبقات أو الجماهير للتعاون والعمل المشترك شىء جديد نسبيا » .

وهذا هو العمل الخطير العظيم الذى يجب عليكم وعلى الاضطلاع به . إننا نعيش فى زمن أخذت تزول فيه سريعا كل القوى والامتيازات التى كانت طبيعية فينا بسبب المولد والوراثة ، ولكم الآن نظام انتخاب عملين يشمل الملايين ، فى حين أنه كان يشمل الآلاف ، ونعيش فى عصر لا مندوحة لنا فيه من المحافظة على المدنية التى نجحنا فى الوصول إليها ، وانتشار الثقافة بين الناس والمثابرة على ذلك ، وأصبحنا أكثر حاجة لأن نشن حربا قوامها التعقل على الشهوات التى قد تسيرها عقلية الجماهير .

إن رجال العلم — وأخشى أن أعترف أنى لست منهم — متشائمون . وقد قال أخيرا أحد علماء « علم الحياة » : إنه كلما كان البرلمان أكثر تمثيلا للأمة كان أقل إدراكا للأمور فى الحال والمآل » . ولقد كتب هذا قبل الانتخابات ، ولكن آراء النظريين لن تثبط من عزيمتى ، ولقد صممت بمعاونة زملائى ومعاونتكم على تحسين الأمور . وإن أمامكم عوائق دأبتم على العمل على التغلب عليها ، وهى عوامل البيئات التى نشأ فيها الأطفال ، وعوائق الوراثة . وإنا نستطيع أن نساعدكم فى هذا العمل وسنعمل على تذليلها مجدين فى معاونتكم .

ولكن دائما أظن أن أولئك الذين يقولون عنا — نحن الذين ندير شئون الحكم — أوعنكم ، يشبهوننا تشبيها خاطئا عندما يصفوننا بأننا بناءون ومشيدون ، لأن واجبنا أقل تواضعا ، فإنه كعمل البستانى ، إذ يجب علينا أن نتكفل للطفل ما يكفله البستانى لأشجاره ، وهو التربة الصالحة والتعرض الكافى للشمس . كذلك يجب إزالة النباتات الضارة ، وتقليم الأشجار ، وتسميد الأرض ، ثم نصبر وننتظر ما ينتجه النبات من الزهور والثمار ، ويجب أن نذكر دائما أننا لا نستطيع الحصول على العنب من أشجار الشوك . ولقد قلت إنى أود أن أرى التعليم الثانوى والجامعى فى متناول جميع الأطفال الذين يرغبون فيه ولا زلت عند رأيى . . .

ولكن كل ما يمكن أن تمنحه الحكومة قليل الجدوى ، إذا لم تقدر المسألة الوحيدة المهمة دائما ، وهى التأثير الشخصى . وهو فى هذه الحالة يقع عاتق المدرسين الذين يحبون عملهم ويكونون معدين إعدادا لائقا للقيام به ، ولذلك سرنى ما قامت به الحكومة حديثا من رفع مرتباتهم . ولعمرى إن شخصية المعلم هى أهم عوامل التربية جميعا . فأنتم أيها المدرسون الذين تبعثون فى نفوس الأطفال نمو الروح الإنسانية وتقدرها ، ومعرفة تقاليدنا التى تقدس الحرية والنزاهة ، وأنتم الذين توضحون لهم مقدار تقدمنا فى العلوم ، وإدراكنا المسائل العظيمة التى تنجم عن تنوع الأجناس والأمم ، وبوساطة دروسكم تصل إلى نفوس هؤلاء الأطفال « همسات ذلك البحر الخضم وروائعه » .

وكلنا يعرف مساوىء النظام الصناعى ، ونعلم أننا لا نستطيع تقويم أود سكاننا بدون منافسة جبارة ، وأننا نجد صعوبة فى ملاءمة مطالب الصناعة مع مطالب الانسانية المستنيرة ، وأننا نستطيع أن نتخلص من عوائق الفقر وأن ندبر ما يمنع أسوأ أخطار الحياة . وعلى كر الأيام نرفع

الترجمة

خير الوسائل لتزاوج الحضارات

يقول علماء النبات إن النبات إذا طعم ولقح بنبات غيره أنتج ثمراً أحلى من النباتين ؛ فالتفاح إذا طعم بالكمثرى جاءنا كهة جديدة ، أحلى مذاقا ، وأعطر شذى ، وكان بالتالي في السوق أكثر طلبا وأغلى ثمنا ، ففيه طعم الفاكهتين ورائحتهما .

ويقول علماء الوراثة والباحثون في الذكاء : إن الأسرة أو القبيلة يتزوج أفرادها بعضهم البعض الآخر يكون مصير أجيالها الضعف والغباء جيلا بعد جيل ، وعلى العكس إذا دخل الأسرة دم جديد من أسرة أو أسر جديدة ، جاء النسل أكثر قوة ، وأذكى عقلا ، وبالتالي أصلح للبقاء ، وأقوى على النضال في الحياة .

ويقول علماء التاريخ والاجتماع والحضارة : إن الشعب أو المجتمع أو الدولة أو الحضارة التي تعيش وحدها ، وتنطوي على نفسها ، ولا يصيبها تطعيم أو تلقيح من حضارة غيرها ، يكون مصيرها الضعف والانحلال — ولا نقول الزوال — فإنها تبقى موسومة في سجل التاريخ بأنها حضارة ضعيفة ؛ وهكذا نجد أن الحضارات القديمة كانت دائما على اتصال ، فإذا ضعفت الحضارة القديمة قامت الحضارة اللاحقة لها ، وفيها جماع ما في سابقتها من خير ، تتخذه كأساس لتبني فوقه أبحاثا ، وكشوفا ، وعلوما ، وآدابا ، وفنونا جديدة هي كلها ثمرات لجهود بشرى جديد .

ولهذا لا نجد الحضارة — من قديم — وقفا على شعب واحد دون غيره ، بل هي كالوديعة يتناولها أبدا الشعب القوى فيزيد فيها وينميها ، حتى إذا انتابته عوامل الضعف والكلال ، أسلمها أمانة — أيضا — إلى الشعب

مستوى المعيشة بين الناس . ولكن بعض هذه الأشياء عديم القيمة إذا لم تعمل على رفع المستوى الأخلاقي بينهم . ولقد صور المفكر برتراند رسل Bertrand Russell عندما قال لامشاحة في أن الفقر شر عظيم ، ولكن التقدم المادي ليس في حد ذاته نعمة عظيمة ، وقيمة فائدته للجماعة الإنسانية مقصورة على أنه وسيلة لتقدم الصفات التي من خصائص العقل البشرى ، وأنا أقول تقدم حياة الروح .

وفي الختام أود أن أزيد في تأكيدي لكم ماقلته من القيمة العالية لمعلم الأخلاق ؛ فإنكم إذا رجعتم إلى عهد طفولتكم — كما أرجع إليه — ألستم تجدون أننا أقسى قضاة الأخلاق حكما على من كان له السيطرة علينا ؟ فإننا لانذكر المعلم الماهر أو المعلم الذي علمنا أكثر من غيره ، ولكن مانذكره هو الرجل الذي أثر في نفوسنا على غير علم منا ، الرجل الذي كان أمينا نزيهـا والذي نمت في عهده اليومي تلك الروح التي مع انقضاء زمن طويل عليها ، تجعلنا نشعر عندما نواجه معضلات الحياة يوما بعد يوم والتي كانت محك أخلاقنا ، أننا نسير في طريق نظن أنه ليس بالقويم ، لأننا نحس أنه لايقابل باستحسان من أولئك الذين عرفناهم كل هاته السنوات .

وسأقرأ عليكم ، وأنا ممتلىء سروراً ، كلمات من كتاب كتبه حديثا أحد المدرسين ، وهذه الكلمات تتضمن معنى ما أردت الإفصاح عنه ، فإنه يتكلم عن تأثير المعلم فيما بعد على تلميذه ، وهو يتكلم عن التلميذ وقد دخل في دور الشيخوخة ، قال :

« إن الرجال بعد أن اكتسبوا خبرة الأبوة يتذكرون تذكراً واضحا حزم المعلم عندما كان يؤاخذهم على هفواتهم الخلقية ، وصبره عند معالجة ضعفهم العقلي ، ويذكرون مدرستهم القديمة ويحمدون لهـا مدة دراستهم بها ، لأنها كانت مثابة لهم ولأساتذتهم ، وظلا ظليلا يعدهم به سيد جميع المدرسين » .

محمد عوض ابراهيم

الذى ولد جديدا وفيه عناصر القوة الجديدة ، وهكذا دواليك ؟ فلا عجب إذاً أن يجد طالب الفلسفة الحديثة — مثلا — نفسه فى حاجة لأن يدرس تاريخ الفلسفة والفلاسفة عند أمم الشرق القديم ، ثم عند اليونانيين ، ثم عند المسيحيين والمسلمين فى العصور الوسطى ، إلى أن يصل إلى العصر الحديث ؛ لأنه يجد للفلسفة قصة طويلة واحدة لا يمكن أن يقرأ فصلها الأخير ويفهمه ، إلا إذا بدأ بالفصل الأول فاستوعبه ، ثم أتبعه الفصول الأخرى ففهمها ، وهــذا مثل بسيط ينطبق على كل علم أو فن أو أدب ، بل وعلى كل فرع من علم أو فن أو أدب .

وطرائق التطعيم والتلقيح بين الحضارات بعضها والبعض الآخر كثيرة مختلفة تختلف باختلاف العصور ، فقد كان الاتصال والتأثير عن طريق الحروب أحياناً ، وعن طريق الهجرة والرحلة أحياناً أخرى ، وقد كانت وساطته التجارة آناً ، والسفارة آناً آخر ، والزواج آناً ثالثاً . . . الخ ، غير أن نقل العلوم من حضارة إلى حضارة وترجمتها من لغة إلى لغة كانت هى الوسيلة المشتركة دائماً ، والناجحة أبداً .

فهؤلاء هم العرب كانت حضارتهم قبيل ظهور الإسلام — إذا استثنينا ماقام فى اليمن من حضارات قديمة — حضارة بدائيــة إذا قورنت بغيرها من الحضارات التى كانت تجاورها كالحضارة المصرية ، أو الحضارة البيزنطية ، أو الحضارة الفارسية . وانتشر الإسلام فى سرعة جامحة عجيبة شُده لها العالم أجمع ، وورث فى سنوات قليلة أملاك الدولتين المجاورتين ، وأخــذ الدين الجديد ينتشر بين الأهلين ، وأصبحت له حكومات فى هذه البلاد الجديدة ، وتزاوج الشعب العربى مع هذه الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة . غير أن القرن الأول للدولة الإسلامية الجديدة انقضى والجهود تبذل لتوطيد الدعائم ، وتثبيت الأسس ؛ وبذلت جهود ضئيلة فى عهد بنى أمية للنقل من علوم الروم والفرس ، ولم يبدأ العصر الذهبى للحضارة الإسلامية إلا فى عنفوان الدولة العباسية — فى عصرى الرشيد والمأمون — ، حيث أقبل العلماء — يدفعهم ويشجعهم هذان العاهلان العظيمان — على الترجمة عن اللغات الأجنبية ، فترجمت كتب كثيرة فى الطب والفلك والرياضة والفلسفة والجغرافية . . الخ . . الخ ، ومنذ ذلك الحين تفتحت عقول المسلمين ، وأقبلوا يقرأون ويفهمون ، ثم أدبروا يفكرون ويبحثون ، فكان لهم بعد ذلك طب إسلامى ، وفلك إسلامى ، ورياضة إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وجغرافية إسلامية . . الخ . . ، وكوّن هذا كله حضارة جديدة وطابقا جديدا فى بناء الحضارة العلمية انبعث منه وسط دياجير العصور الوسطى المظلمة أشعة قوية نفاذة ملأت بلدان أوربا وممـالكها نورا على نور ، وكانت مبعث النهضة الأوربية الحديثة وبعض مقوماتها ، وكان السلاح القوى لنقل هذه الحضارة الإسلامية إلى أوربا وقتذاك هو الترجمة أيضا ، فقد ترجمت معظم مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم إلى بعض لغات أوربا ، وخاصة اللغة اللاتينية — لغة العلم والتعليم فى أوربا فى تلك العصور — بل وكان العرب هم الذين يدرسون فى بعض تلك الجامعات وخاصة إيطاليا .

انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طرق ثلاث :

ا — اتصال الأوربيين بالمسلمين فى الأندلس ومملكة الصقليتين .

ب — التجارة .

حـ — الحروب الصليبية .

وانقلب الأوربيون — بعد أن منوا بالفشل فى الحروب الصليبية — إلى عقر دارهم ، وقد بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية ، ومعهم مفاتيح تلك الحضارة ، فتفرغوا لهــا يقتبسون معالمها ، وينقلون آثارها ، ويدرسون تواليفها .

بين شاعر وحفيدته

[بمناسبة ظهور كتاب فضيلة ألمانيا
وضع وتصنيف إقبال العلايلي]

يحكي أن شوقي الشاعر كان جالساً في حديقته بكرمة ابن هانئ ، فأقبلت عليه حفيدته إقبال تدب على الأرض بقدميها الصغيرتين ، وكانت بالتقريب تبلغ العاشرة من عمرها . ولما صارت على بعد خطوات منه قالت له : عندي لك مفاجأة كبيرة ياجدي . فابتسم في وجهها مشجعاً ومد يده ليتناول كراسة أنيقة خطّت فيها إقبال بالفرنسية بضع قصائد شعرية ، لم يكد يقرأها الشاعر العظيم حتى عجب لشيطان الشعر كيف يتعقب نسله إلى الجيل الثاني ، ونظر إلى السماء نظرة كلها عتاب متسائلا : لماذا قدّر لهذه الصبية المسكينة أن تجرب أهوال الشعر ، تغضى الأيام والليالي تبحث عن لفظ أو قافية تخرج بها خيالها إلى عالم الحقيقة .

أخذ الجد ينصت إلى الصبية وهي تقرأ شعرها في فرنسية سليمة . ولا يمكننا أن ندّعي أنه كان شعراً رصيناً ، ولكنه كان محاولة شاء الجد أن يظهر اهتمامه بها لكي تنمو وتزدهر في هذا القلب الفتيّ المملوء أملا — فنادى سكرتيره وأمره بإرسال هذا الديوان الصبيانيّ إلى أحسن مطبعة ليطبع طبعاً أنيقاً ويوزع على الأهل والمعارف . فكان هذا بمثابة وضع الحجر الأساسي في مستقبل الفتاة في هذا الميدان .

وهكذا اكتشف الشاعر العظيم هذا الجوهر الخام بين خزائنه ، فتعهده وصقله رويداً رويداً حتى تحول إلى ماسة لامعة يخطف بريقها الأبصار ، ولو أن بريقها لم يتعد نطاقاً محدوداً ، حتى طلعت علينا عندما آن الأوان شاعرة ناضجة مكتملة تترجم من الألمانية إلى الفرنسية في لغة لا يرقى إليها إلا الفرنسيّ العالي التثقيف ، فكيف بها وهي مصرية بلغت العقد الثاني من عمرها : ظهر كتاب (فضيلة ألمانيا) في وقت اُلطخت صفحات ألمانيا بمساوئ ، وغاز أصحت الأعين من كل ما قد يكون جميلا فيها . نبشت (إقبال) خزائن الأدب الألماني التي كاد يعشش عليها العنكبوت لفرط ما انهمك هذا الشعب في التقتيل والتدمير ، وأخرجت منها كل مبدع ومطرب . ياليت الجيل الألماني الجديد يقرأ هذا الكتاب فيتذكر ماضيه ويتطلع إلى مستقبل أمجد يكون نبراسه التشبع بالعاطفة الإنسانية بجميع نواحيها من أدب وفن وموسيقى وشعر وخيال . ويلقى وراء ظهره حب السيادة والسلطان التي ليس وراءها إلا الدمار .

وفي اعتقادي أن كتاب (فضيلة ألمانيا) سوف يخلد مابقى في العالم أدب وثقافة . ويجب على كل ملم بالفرنسية أن يهيئ له مكاناً محترماً في مكتبته وسوف يتبين كل شرقي إيجاباً عواطفته المصرية تعتز وتفخر .

دكتور مصطفى الديواني

اسم الكتاب Vertu De L'allemagne

وساعدتهم عوامل جغرافية وتاريخية أخرى على أن يسيروا بالحضارة في دورها الجديد على طريقة جديدة تعتمد أكثر ماتعتمد على التفكير الحر أولاً ، وعلى الملاحظة والتجربة ثانياً ، وقد مهد لهم هذا كله السبيل إلى كشوف علمية جديدة كانت هي الطلائع الممهدة لظهور حضارة القرنين التاسع عشر والعشرين .

وعند مابدأت مصر نهضتها الحديثة في عصر محمد علي اتجهت إلى الغرب تنقل عنه علومه وتترجم كتبه وتآليفه ، وفي يقيني أننا — ونحن في طريقنا إلى استكمال هذه النهضة — في حاجة ماسة إلى استئناف هذه الحركة بجهود وتوجيهات كثيرة صالحة .

جمال الدين الشيال

العصر الجاهلى

ظهر الإسلام فى قريش ، فلم يمض وقت طويل حتى بسط سلطانه الدينى والسياسى على قبائل وشعوب الجزيرة العربية بل على ممالك أخرى فى القارات الأسيوية والأفريقية والأوربية وقد رافقت اللهجة القرشية الإسلام فى كل خطواته حتى تمكنت هى الأخرى من أن تصبح لغة الإسلام الدينية والأدبية والسياسية بعد أن كانت لهجة كغيرها من اللهجات العربية . وتمكنت بفضل مكانتها الجديدة من القضاء على اللهجات الأخرى والبقية الباقية من اللغات السامية التى كانت حية حتى ذلك الزمن . طبيعى أن يتخذ الإسلام ، بعد أن جعل المسلمين اخوة ، لغة واحدة فيتجنب بذلك ما عساه أن يحدث من انقسام فى صفوفه بسبب تعدد لغات معتنقيه ، ويضمن تبليغ رسالته على وجهها الأكمل . ولم لا تكون للجزيرة لغة واحدة وهى من جنس واحد وأخذت تدين بدين واحد وتنظر إلى الحياة نظرة واحدة ؟ هذا طبيعى معقول فى نظر الرجل الدينى أو السياسى . لكن اللغوى يخالفهما تماما لأنه يرى فى القضاء على اللهجات واللغات السامية الأخرى قضاء على ثروة أدبية ولغوية لا تعوض . اختفت هذه اللغات وتلك اللهجات من على المسرح الدنيوى وانزوت فى بعض الأديرة والكنائس وبعض المعابد الأخرى . كما أن بعضها قنع بأن يكون لغة تخاطب وكفى . ومع انكماش هذه اللهجات وتلك اللغات اختفت قواعدها ، وأصبحت اللهجة القرشية لا تجد حرجا فى أن تصبح قواعدها قواعد اللغة العربية عامة ، ولو أنصفنا لأطلقنا عليها قواعد اللغة القرشية .

وكما أن القضاء على لغات الشعوب العربية ولهجات قبائلها كان ضرورة لابد منها ، ووسيلة من وسائل تدعيم الإسلام والرابطة العربية أو الاسلامية ، كذلك القضاء على تاريخ الجزيرة قبل الاسلام لأنه أصبح فى رأى بعض المسلمين ، ليس من صالح العربى اليمنى أن يفكر فى تاريخ سبأ ومعين وغير سبأ ومعين من الدول العربية الجنوبية التى قامت فى العصور السالفة وكانت لها حضارة ومدنية ودين . كذلك الحال مع العراق والشامى حيث قامت دولة البابليين والآشوريين والأراميين والكنعانيين وغيرهم من الذين ساهموا بقسط وافر فى تطور الفكر البشرى ورقيه . ومن كان يضمن لبعض المسلمين أن تفكير اليمنى أو العراق أو الشامى أو الحجازى مثلا فى ماضيه لن يشغله عن الاسلام أو يلهيه عن الفتوحات وغيرها من الأمور التى كان يقصد بها صالح المسلمين العام ؟ لذلك أصر بعض هذا النفر المتعصب على محاربة عصر ماقبل الاسلام والحط من شأنه . لكن هذه الصورة التى صورها بعض مؤرخى المسلمين عن العصر الجاهلى لاتتفق وما جاء فى القرآن الكريم والكتب المقدسة الأخرى التى تتحدث عن ملك زاهر فى الجنوب ، وحضارة فى الشمال ومدنية فى الشرق ، وتجارة رائجة فى الغرب . وهل كان فى الامكان إنزال القرآن على النبى القرشى لو كان القرشيون جاهليين ؟ وما أنزل القرآن ليكون لغزاً بل آية فنية جميلة لن يدرك فيها إلا الذين أوتوا سعة فى العلم وغنى فى الذوق . وهل يدرك البلاغة غير البلغاء ، ويتذوق الفصاحة غير الفصحاء ؟ ومتى كان الشعب الذى يعنى بلغته هذه العناية التى حاول القرآن ، وقد أفلح ، التأثير فيه عن طريقها ، يتخبط فى حياة الجاهلية ؟ والحقيقة أن تاريخ بلاد العرب فى العصر الجاهلى حافل بالأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية التى تجعل دراسته فرضا على كل مهتم بدراسة التاريخ العربى . وإنه لمن الغبن أن تسقط من هذا التاريخ عصرا يبلغ من العمر نحو خمسة آلاف سنة قامت فيه دول وازدهرت حضارات ومدنيات كشفت لنا عنها القناع النقوش السامية واللغات السامية ، أو لو شئت فقل العربية التى عثر عليها

فى جنوب الجزيرة وشمالها ، شرقها وغربها والتى تنبئنا عن ملوك معين وسبأ وذى ريدان وحضرموت وقتبان ، كما يحدثنا الجغرافى العربى أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى المتوفى فى صنعاء عام ٩٤٥ م فى الجزء الثامن من كتابه «الاكليل» بالشىء الكثير من أعلام الحضارة العربية الجنوبية التى ترفرف فوق قصور اليمن وأبنيتها . ولنترك الجنوب ونصعد إلى الشمال الشرقى حتى نصل إلى أرض العراق ، حيث نقرأ فى آثار البابليين والأشوريين الشىء الكثير عن البلاد وسكانها ، تاريخها وملوكها ، محاكمها وإدارتها ، حرفها وفنونها ، وكل مايخطر على بالنا اليوم إذا أردنا أن نؤرخ أمة ما من الأمم الحية ، ثم نتجه غربا ووجهتنا البحر الأبيض المتوسط لنتحدث إلى الأراميين والكنعانيين ، الفينيقيين والعبريين ، وقد ترك كل شعب من هذه الشعوب آثاراً شغلت وتشغل الكثيرين من العلماء ، خاصة أولئك الذين يبحثون فى الكتاب المقدس ويعنون به . وإذا انحدرنا من هناك إلى بادية الشام وسرنا فى شمال نجد أو الحجاز وجدنا نوعا من الآثار والكتابات يتفق معظمه مع بعض ما عثر عليه فى جنوب الجزيرة ، أعنى المينية لغة وخطاً ! وتعليل ذلك أن كثيرين من سكان اليمن كانوا يحترفون التجارة وكانوا يصرفون بعض ما تنتجه بلادهم وبعض البلاد الشرقية الأخرى فى أسواق جلها فى شمال الجزيرة ، وفى الأجزاء الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وفى دمشق يتصل هذا الخط التجارى الذى يخرج من اليمن مارا بمكة والمدينة متجها شمالا إلى الشام شرقا ، أو يعبر البحر الأحمر إلى مصر غربا ، بالخط التجارى الخارج من دمشق إلى آسيا الصغرى فأوربا . كان الشعب العربى الجنوبى شعباً تجاريا تربط بلاده بالعالم الخارجى طرق مواصلات متعددة منها البحرى ومنها البرى ، فهو اذاً فى حاجة إلى تأمين مواصلاته ، فأنشأ محافر على طول الطرق التى كانت تجتاز بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال ، ولم يمض زمن طويل حتى كونت هذه المحافر أو تكونت حولها جاليات معينية لغة و كتابة ودينا ، وكانت هذه الجاليات بطبيعة الحال على اتصال تام بالنجديين والحجازيين من القبائل التى كانت تخترق قُطُرُ القوافل أراضيها ، وقد قرب هذا الاختلاط ، بين العرب الجنوبيين والشماليين ، اللهجتين الجنوبية والشمالية إلى بعضها ، وقد عُثر فى وسط الجزيرة وشمالها وفى بادية الشام وشبه جزيرة طورسيناء على كثير من الكتابات والآثار الجنوبية والشمالية التى يرجع بعضها إلى ماقبل الميلاد ، والبعض الآخر نقش أوشيد فى أزمنة مختلفة أحدثها يرجع إلى نفس العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهم المدن والأماكن التى عثر فيها على هذه الكتابات هى تلك الواقعة فى طرق القوافل مثل (العلا) و (الحجر) أو (مدائن صالح) حيث اهتدى المستشرقون إلى كثير من الكتابات الجنوبية ، وفى نفس منطقة العلا اكتشف بعض العلماء كتابات أخرى تنتمى إلى قبيلة أو شعب كان يسمى لحيان ، وتعتبر لغته لهجة عربية شمالية رغما من أنها مكتوبة بخط جنوبى ، ويرجح أن يرجع تاريخ هذه الكتابات اللحيانية إلى مابين القرنين الخامس والسادس ق . م ، وغير اللحيانية توجد فى وسط الجزيرة وشمالها الغربى كتابات كثيرة جدا اتفق على تسميتها بالكتابات الثمودية اعتقادا أنها لغة القوم الذين أطلق عليهم القرآن الكريم ثمود . أما خط هذه الكتابات العربية الشمالية فشمالى أيضاً . وقريبة من الثمودية الكتابات المعروفة بالصفوية نسبة إلى جبل الصفا الواقع جنوب شرق دمشق ، حيث وجدت تلك الكتابات الشمالية خطاولغة ، وهى من أقرب اللهجات العربية الشمالية إلى اللغة الحجازية ومن بين الكتابات التى وجدت فيها مايرجع تاريخه إلى عام ٣٢٨ م كنقش النمارا (جنوب شرق دمشق) وهو نقش

امرىء القيس بن عمرو ملك جميع العرب، ومنها ما يؤرخ بعام ٥١٢ م . كنقش زبد (جنوب شرق حلب) أو بعام ٥٦٨ م كنقش حران (جنوب دمشق).

والآن بعد هذا العرض القصير للعصر الجاهلي أحب أن أسوق النتيجة التي أريد الوصول إليها فأقول إنه سبق لي أن ذكرت في صدر هذا المقال أنه لفائدة الاسلام ولصالح المسلمين العام قضى على كثير من لهجات الجزيرة ولغاتها، كما أهمل تاريخ الجاهلية قصدا وعمدا، لكن اليوم بعد أن بذل رجال اللغات السامية مجهود الجبابرة، استطاعوا إعادة الهيكل الذي تداعى إلى أصله، وأصبح من اليسير على اللغوي — إذا استعان بهذه الكتابات التي حفظتها لنا النقوش، ما عرف منها وما سيعرف، وبكتب النحو والقراءات وما إليها من المصادر التي عنيت باللغة، وباللهجات العربية قديمها وحديثها — أن يجمع المواد اللازمة التي تصلح لوضع تاريخ شامل للنحو العربي، فنعرف مبدأ العرب في التذكير والتأنيث، وجموع القلة والكثرة، ومخالفة العدد للمعدود من ثلاثة إلى تسعة، والفصل في الخلاف القائم بين الخليل والمبرد وسيبويه بشأن أداة التعريف، والمسائل الأخرى التي يجب أن تبذل في سبيل فهمها البحوث الكثيرة والدراسات اللغوية المقارنة، وبمثل هذه المجهودات تصبح دراساتنا اللغوية مثمرة ونوفق في تكوين نشء جديد يكون منه الباحث المنقب واللغوي المدقق، وقد تحسن كلية الآداب صنعا لو ساهمت في هذه البحوث العلمية التي عمر بها الغرب جزيرة العربية فأخرجت من أعماق بحارها الرملية الكثير من الدرر الثمينة التي تركها لنا آباؤنا وأجدادنا، وخاصة إذا علمت كليتنا أن الجزيرة أدركت ما وراء البحوث العلمية الغربية من أغراض استعمارية فقبضت عنها يدها وباعدت بينها وبينها لعلمها أن فيها الشعلة المقدسة التي لن تنطفىء جذوتها . هذه الشعلة التي سيرت الجيوش إلى أطراف الجزيرة وغيرها فطهرتها من الأجناس الأجنبية التي لوثتها أو الحكومات العربية التي شاخت فورثتها، وتلك هي سنة التاريخ العربي في مختلف عصوره . وقد أدركت الدول الاستعمارية ما في قلبها من قوة لا بد وأن تنبعث يوما ما فتسير الجيوش التي انتزعت العراق من الشوميين وحررت الجزيرة أيام الخلفاء الراشدين، فضربت حوله سياجا قويا من ناحية وأرسلت بعض مستشرقيها الذين شغفوا بالاسلام حتى اعتنقوه ! ليكونوا عيون بلادهم الساهرة التي تطلعها على كل صغيرة أو كبيرة قبل أن يستفحل الخطر وتقع الكارثة من ناحية أخرى؛ لكن هذا القلب الذي مازال إلى اليوم تقريباً موصدا في وجه غير المسلمين سينفتح أمام كليتنا لو عنيت به وأرسلت إليه بعض رسلها، وأنا زعيم لها بأنها ستوفق توفيقاً لم يكتب لغيرها من قبل، وستعود ثمار هذا التوفيق لا على اللغة العربية فحسب بل على العالم العربي كله من الناحية السياسية والاجتماعية . أما المؤرخ العربي فليس له بعد اليوم عذر . فقد عبد له الإخصائيون من رجال الساميات الطرق التي يحسن السير فيها للاحاطة بتاريخ الجزيرة من أقدم عصوره إلى يومنا هذا؛ فإن فعل وإنه لفاعل فعسى الله أن يقرب اليوم الذي يقول فيه العربي (هاؤم اقرأوا كتابيه).

فؤاد حسنين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

سحر مصر

لروبرت هتشنز

- أبيدوس

فى ظهيرة ذهبية ، وأصيل خالٍ من فرط غناه فى الدفء والنور أن لن يزول ، جلست وحدى ، أو رحت أتنقل فى هوادة بمعبد سيتى الأول فى المرابة المدفونة . هنا أنا ذا مرة أخرى فى مواطن الموتى ، وما ينفك زائر مصر ينشد الموتى فى وضح الشمس ، ويطلب قتام الأقبية فى وادى الذهب . لكنى هنا فى أبيدوس رأيت بياضا لا قتاما ، فالصفة الغالبة على معبد سيتى صفة البياض تحت شمس وهاجة وزرقة سماء تعشى البصر . يقع هذا المعبد فى مكان قفر ، وراء قرية هى تيه من التراب والحيوان والأطفال والذباب ، تقابله على رابية دور بأطراف القرية صفراء الحوائط سمراء . وفيما أنا قادم لحت صبية صغيرة فى جلباب أحمر ، بأذنيها قرط ، وتعصب رأسها بمنديل برتقالى ، ملؤها دخان ونار ، تطل فى تلوى الحية من فوق سطح لتنظر إلىّ ، وعلى الجانبين حوائط المعبد ، متهدمة ، كأيد مشوهة بيضاء تمتد لتتلقانى . ووقفت برهة ، ونظرت إلى الباب الصغير المتناهى فى البساطة ، وإلى العمد الاثنى عشر ، متصدعة ، تتقدم على الجانبين ، بيضاء أو بيضاء رمادية ، عليها رسوم هى الآن حائلة وكانت يوما ذات ألوان .

هنا يرقد القدامى من أموات مصر من شيعة أزيريس ، من عبدوا قاضى الموتى ومالك العالم السفلى يبتغون فى ذاته الخلود — أزيريس زوج إيزيس ، أزيريس قابل الصلوات ، أزيريس الشمس لا يمحو الليل آيها وإلى الأبد تشرق من جديد ، وكذلك النشور . قيل إن « ست » رب الشر ، مزق جثمان أزيريس أربعة عشر جزءا وبعثرها فى البلاد ، لكن أمة من محبى أزيريس ذهبوا إلى أن مثواه بالقرب من أبيدوس ، وكما فعل من بعدهم مريدو « حافظ » وعشاق أغانيه ، أتوا لأن يدفنوا بالقرب من محبوبهم . وكذلك صار هذا المكان منام أموات ، ومثابة صلوات ، ودار توله .

وأسعدنى أن كنت وحيدا ، فقد ذهب رائدى وخلفنى فى سلام ، ونسيته ، وجلست فى ظل عمود على قاعدته البارزة العاتية ، والسماء يذهب بالبصر التماعها ، والنحل تطن فى ذلك السكون يضاعف السكينة طنينها . تلك العمد والسجف والأبواب ، كم هى هائلة عاتية ، ومع ذلك فهنا أيضا ، حيث لا يقرأ الانسان إلا كتاب الموتى ، ولا يفعل إلا أن ينحنى إلى الأرض الساخنة مصغيا ، فلربما سمع الموتى أنفسهم فى أعماق قبورهم يغمغمون فصول ذلك الكتاب ، هنا أيضا استشعرت بهجة لطيفة كالتى بمقبرة « تى » . كنت وسط صلابة بالغة ، وعمد شامخة متموجة كفا كهة هائلة انتفخت بفائر حيويتها ، وسقف عات فادح تصدع فى كثير من المواضع فصار كالجبين المتقطب ، ومع هذا كنت فى غمرة لطيفة من رقة وظرف ، إذ كنت مرة أخرى بين حوائط مخطوطة تنبض بالحياة ، فهذه الصفوف المزدوجة من عمد سامقة كأشجار غابة وما حولها من حوائط فى جسامة القلاع قد طبع عليها أنفاس الحياة الحلوة رسامون وحفارون ماتوا منذ بعيد . هنا فى ضياء الشمس ، كأنما من أجلى وحدى ، كان شعب بكامله عاكفا على مختلف الشئون ، رجال ماشون أو جاثون أو واقفون ، منهم الكاسى والعارى ، وزهرات اللوتس فى أيد تقدسها رمز لشروق الشمس من جديد ، أو ملبوسة كالتمائم رمز لهبة الشباب الدائم ، وهذا حورس ذو رأس الصقر ، وهذا كاهن يقرب قربانا لإلهه بطلت عبادته منذ بعيد ، وهذا ملك يتعبد لبتاح مبدئ الأشياء ، من وضع على الأرض ،

كما تُرِعم هذه الرسوم ، أســس العدالة الأبدية ، وهذا الملك نفسه ينكف على أمون يحرق البخور عند ركبتيه زلفى إليه . وهنا إزيس وأزريس واقفان معا تضحى الضحايا لدى زورقهما القدسي ، وهنا سيتي يتعبد لها ، وهذه سشتا إلـهة العلم تثبت اسم هذا الملك في كتاب الخلود .

ومضت النحل تطن متذبذبة في بطء خلال الهواء الذهبي حول العمد العاتية ، متنقلة بين هذا السجل لدنيا ذهبت منذ بعيد وكأنما هي قائمة لا تزال . ونظرت من العمد العاتية إلى زهرات اللوتس تحملها الأيدي الصغيرة الضحكة وحلتها مدى القرون الطوال ، فتذكرت الطائر وأبا الهول ، تذكرت الشيء المعبوب الحبيب والشيء الراسخ المتين ، الخفة الحبية والقوة المروعة . إن القاهرين من المصريين أدمجوا هذين في مركب فاتن لا تملك إلا أن تستسلم لسحره المنيم في غمرة النور تحت زرقة السماء . عرفت هذا مرة أخرى في أبيدوس ، وأحببت الحوائط المرحة البيضاء تحمل للأجيال ، كما تفعل زهرات اللوتس ، هبة الشباب الدائم ، شباب لا مستهتر أبدا ، ورغم ما به من تقوى ودين يخلع على صور الحياة البسيطة روحا طروبا يستدر العطف والإعزاز .

ومضت النحل في طنينها الوسنان ، وجلست في ضياء الشمس في أتم سكون ، ثم أدرت وجهي كأنما يحافز غريزي ، ونظرت بعيدا خلال باب المعبد الطويل الضيق ، فرأيت الصبية الصغيرة في الجلباب الأحمر ، على سقف من جذوع النخل ، فوق الجدار الأسمر ، مستقلية ، تتلوى في لين الحية ، وترقبني لا تزال بعينين من دخان ونار .

وكذلك الدخان والنــار — دخان السكون والموت والضخامة ونار ما على الحوائط والعمد من حياة مجلوة لعوب — رانا على سحر مصر .

٥ — النيل :

لم أعد أجد لمصر تلك الغرابة التي بهرتني يوما ، وكادت في أول الأمر أن تذهلني ، ذلك أن مصر — بلد العجائب — لحنها الأصيل ليس العجب ، بل هدهدة وإنامة واستهواء .

أنت في مصر تستشعر الأمان التام ، فرجال الشرطة في كل مكان يبتسمون لك ، ثيابهم ناصعة البياض ، أخذت نصاعتها من طيبتهم ، وأعراب الهرم في الغاية من اللطف والوداعة ، والفلاحون على طول طريقك أهل النيل يبتسمون في حنو كأنما يقولون « الله أقامنا هنا لنؤمن الغريب الذي استأمن إلينا » ولم يقرع أذني إلحاف في طلب نقود إلا تلميح لطيف بأنه حتى الفقير يحب أن يعيش وأنى واسع الثراء . والهدهدة الحانية يكاد أن يفوح بهـا الثرى الخصيب ، ويفيء بها الهواء الذهبي ، وتثير الرمال الكهرمانية ، وتغمز بهـا الدوامات في ماء النيل فضية وسمراء . إنها لتتخلس إليك ، وتطغى عليك ، وتلفك في موجات دفيئة عطرة فيغلبك استرخاء ، وتغرق في سعادة وتشخص وتصغى وتستمتع ولا تهم بالنقد .

و « الذهبية » — وكان اسمها « اللولية » — لهـا حفيف لطيف يستهوى وينيم ، وهي تسبح مع التيار بشرع مطوية ، أو تجرى على عكسه في ريح شمال ، وعلى الضفاف النائمة ينحنى الرجال السمر ويعتدلون ، ثم ينحنون وهم يغنون ، تبرق في الشمس جلودهم النحاسية ، والصبي الصغير وراء الثور الوسنان يدير الساقية اليوم بطوله ، والساقية تئن وتنوح في صوت شجي وتغنى للشادوف ، والشادوف يغنى للساقية ، والماء يرتفع ويسقط ويجرى إلى حقول الذرة ممتدة من كل جانب حتى الجبال الواطئة ، والشمس على الدوام ساطعة ، والجسم يشرب من دفئها ، والروح تشرب من ذهبها ، والأذن ملؤها موسيقى ناعمة رتيبة ، والعين على الدوام ترى الأجسام الداكنة ، على الضفاف الداكنة ، من فوق المياه الداكنة ، ينحنون ثم يستقيمون ،

مجتمعنا العربى

قلت : مجتمعنا ، ولم أقل مجتمعاتنا لأنى فى منطقى — وليس هذا بالمنطق المبتكر — أن كل الجماعات فى البلاد العربية التى شكلت لها حدوداً خاصة ، ماهى إلا مجتمع واحد صالح للاندماج لتوفر عناصر طبيعية واجتماعية فى كل من خلاياه سهلة الانضمام إلى بعضها لتشابه خواصها التركيبية . فى هذه المجتمعات المميزة شكلا ، روح عامة ، ووجهة تكاد تلتقى فيها النهاية : لقدم التاريخ ، ووحدة الدين واللغة ، التى صبت المنطق العام فى قالب واحد ، ووجهت الأمانى المنشقة إلى غايات متشابهة يكون فى بلوغها الكمال المنشود . ولذا فالنتائج المستخلصة من تحليل أى مجتمع من هذه المجتمعات تكوّن قواعد عامة مشتركة ، لا يمكن أن تحور أصولها التفصيلات التى اقتضتها ظروف استثنائية سياسية واجتماعية .

إن الفوضى الاجتماعية فى مجتمعنا ترجع فى أسبابها إلى مقياسين هامين ، أحدهما مختل كلاً أو يكاد يعدم وجوده ، والثانى مختل بعض الاختلال ، وهذان المقياسان هما :

١ — أن النظرات التحليلية التى ترمى إلى إصلاحات عملية باستخلاص التجارب من الموجود الواقع ، يجب أن تكون نظرات نفاذة إلى الجوهر ، ومتعمقة إلى الروح ، لتبحث عن الأصول فتجتث الفساد النامى بين غضونها . وهنا يكون الإصلاح الحقيق الفعّال . أما عندنا فأغلب هذه النظرات سطحية ، تقنع بما تشاهده العين المجردة ، وتركن إلى الصور التى تصوّرها عدسة التصوير كأنها حقائق مطلقة ، فتسوق الأحكام الافتراضية البديهية . ومن أمثلة هذه الأحكام أننا نقول : بأن الفقر رأس الشر ، فلنحاربه بترقية الحالة المعاشية ، وتنمية الزراعة والصناعة .

جميل هذا القول . ولكن أليس وراء الفقر أفراد إن تميزوا عن الحيوانات بشىء ، فهو عقل ابتدائى فطرى ؟! . إن الإصلاح هو الذى يقصد إلى الفرد مباشرة ، ويأخذ بيده ، وهذا الأخذ يجب أن يكون بالرفق لا بالقسر . ولذا كانت خير طرق الإصلاحات تلك التى تأخذ من أسباب الانحطاط سلماً لبلوغ الأهداف . فإذا ما انكببنا على دراسة الغرائز البيئية التى تخضع الأفراد لها ، والتقاليد التى تحتويهم ، أمكننا أن نعالجهم طبيعيا بطريق غرائزهم ، ونقدم لهم الدواء ليجرعوه مع تقاليدهم . عندئذ يستسيغون الإصلاح ، ويسيرون على نهجه سيراً طبيعياً لا شعورياً ، حتى يفيقوا عندما يعمل الملاح عمله ، فيجدوا أنفسهم فى حقيقة أخرى . وعندئذ يمكن الترفيه عنهم وقيادهم ، أو بالأحرى يقودون أنفسهم بعد أن يميزوا ما يضرهم وما ينفعهم .

إن مجتمعنا تتناوبه فوضى نجمت من هذا الصراع بين الأفكار القديمة التى لا تزال على قوتها ، والأفكار

وينحنون ثم يستقيمون ، فى رتابة واتساق ، و « الفولية » سابحة فى هدوء على صفحة الماء السمرة ، ولا يملك الإنسان إلا أن يسبح أيضاً فى سعادة واستنامة ناسياً كل هم . يسبح من أبيدوس إلى دندرة ، ومن دندرة إلى الكرنك إلى الأقصر ، إلى المعابد كلها على الضفة الغربية ، إلى ادفو وكوم امبو وأسوان ، إلى النوبة وأبو سنبل ووادى حلفا . إن الحياة على النيل حلم متصل ذهبي حلو . لست أعدل بهذه « الفولية » أبداً باخرة صاخبة صارخة تمخض المياه موجا غاضباً ، تعجب أناسا يصرون على أن يفرغوا من مصر سريعاً ليعودوا وما عرفوها .

إن كنت متعجلا لا تجئ مصر ، فلأن تعجل فى مصر أشد حرجا من أن تستسلم للنوم فى شوارع لندن .

عبد المغنى على حسين

الريحاني يحل فرقته

ولو أنى مبتعد عن المسرح والسينما منذ سنوات ، غير أنه قد ساءنى ما قرأت من أن الأستاذ نجيب الريحانى قد حل فرقته . .

ومع أنه يقول إنه قد بدأ يؤلف فرقة جديدة ، فإن قوله هذا لا يحد من أسفى ولا من أسف الكثيرين الذين يحبون الريحانى ويحبون فرقته .

فالحق أن الريحانى وفرقته وحدة لا تتجزأ ، ولا يصح أن تتجزأ ، فإنها إذا تجزأت فقدت الكثير من قوتها ، وروعتها ، وبهائها .

والمسئول عن هذا ، أو صاحب الفضل فى هذا ، هو الأستاذ نجيب نفسه . فهو منذ بدأ عمله من جيلين فاتا ، درج فى عمله على طريقة كانت من أقوى أسباب نجاحه ، كما كانت من أقوى أسباب المجد الفنى الذى يتمتع به أفراد فرقة الريحانى اليوم . وتلك الطريقة هى أنه يعمد أثناء كتابة الرواية مع زميله الأستاذ بديع خيرى إلى تفصيل الأدوار على الممثلين ؛ فهو يوزع أدوار الرواية قبل أن يكتبها ، ثم يكتبها بعد ذلك وهو يعلم مَنْ مِنَ الممثلين سيقوم بهذا الدور ، ومَنْ منهم سيقوم بذاك ، وكيف سيقوم هذا الممثل بهذا الدور ، وكيف سيقوم ذاك بذاك

وبهذه الطريقة ربى الريحانى ممثليه ؛ حتى إن كلاً منهم أصبح مختصاً بنوع خاص من الأدوار وإن كان يستطيع تمثيل غيره . فالأستاذ بشارة واكيم هو الشامى كلما كان فى روايات الريحانى شامى ، وإن كان يعهد إليه بأدوار غير هذا ، وإن كان يؤدى أدواره جميعا خير الأداء ، وكذلك الأستاذ محمد كمال المصرى ، فهو عسكرى الريحانى ، أو هو الموظف العتيق ، والأستاذ عبد الفتاح القصرى هو

الحديثة التى جاءت على أثر التقدم العلمى والاجتماعى ، والتى نريد أن نزلزل الماضى لتفرض نفسها فرضاً . ولن يستتب عنصر النظام فى مجتمعنا إلا إذا عرفنا كيف نمازج بين الاثنين ، فلا نقلب الأول فنتراجع ونتعزل ، ولا نغترف من الثانى فنقلد كالقرود بلا شخصية وبلا كيان .

٣ — انعدام المقاييس العلمية المضبوطة ، التى تجرد التفكير الرياضى ليجسم الأوضاع على حقائقها ، ويضعها مستوفاة النقائص والحسنات ، فيسهل حينئذ العلاج . فنحن — ويا للأسف — إلى هذا اليوم لم نتعرف إلى مواطن الداء ، بل كل ما فعلناه أننا اقتسمنا على أنفسنا فرقاً كل منها عندنا آراء مختلفة مقلدة ، ودروس ارتجالية لم تكتسب النضج ، وعادات مهلهلة خلقة مسروقة من هنا وهناك . وإننا بهذه الأساليب نزور على أنفسنا ، ونخدع عقولنا ، ونقتطع بين فترة وأخرى من حياتنا زمناً ليس باليسير ، لنطبق تجارب ومبادىء مستحدثة بدل أن نتركها سائرة على هديها صائنة شكل تكوينها السياسى والاجتماعى من معدنها الأصلى . ويقتصر دورنا فى أن نطعّمها بعناصر البقاء .

إن مصلحى الشرق اليوم هم المصلحون الاجتماعيون . وأما دعاة المبادىء الذين يتقيدون بوجهة واحدة ، ويتصلبون بالتمسك بها فليسوا إلا جماعة تتجاذبهم تيارات وهمية ، وتتلاطم بعقولهم أفكار سوداء مهلكة تسيرهم وأمتهم إلى حيث الفناء .

إن كل ما يحتاجه اليوم كل مجتمع ، هو دراسة وافية تتعمق إلى مواطن العلل . ثم تقاس وتجسم هذه العلل بمقاييس علمية بحتة مضبوطة ، ثم تطرح على طاولة التشريح ليعمل فيها مبضع الإصلاح .

(بغداد — كلية الحقوق) فؤاد قبيب طرنقة

« البلدى » والأستاذ حسن فايق هو « النصبي » ، والأستاذة مارى منيب « الرداحة » ، والاستاذة ميمى شكيب « الشقية » وهكذا .

وقد قلت إن هذه الطريقة كان من أثرها أنها رسخت أقدام الممثلين فى أدوارهم ، ومكنتهم من إجادتها تمكينا كبيراً ؛ وأكسبتهم المجد والشهرة ؛ ولذلك فانى أعتبرهم إلى حد بعيد مدينين للريحانى بتفوقهم .

وثمة شىء آخر يلاحظ على ممثلى الريحانى ؛ ذلك أن بعضهم كثيراً ما يهجر فرقة الريحانى إلى فرق أخرى ، أو كثيراً ما يعمل بعضهم فى روايات السينما وتسند إليه أدوار من النوع نفسه الذى يسند إليه عند الريحانى . ولكن يحدث دائما أن ممثل الريحانى يكون عنده أسطع وألمع مما يكون عند غيره ، وذلك يعود فى الواقع إلى البراعة التى اكتسبها بديع خيرى فى دراسة أشخاص الممثلين أنفسهم ؛ فهو يعرف أصواتهم ومقاماتها ، ودرجة خفة كل منهم فى الحركة ، والإشارة ، ومقدرة كل منهم فى فهم دوره وفى التعبير عنه بتلوين الصوت ، وغير ذلك مما يجعله يحيك العبارات التى يهديها إلى هؤلاء الممثلين حبكة نستطيع بها أن نقول إن بديع خيرى يمثل الرواية كلها تمثيلا نموذجيا أثناء ما يكتبها وبعد أدوارها .

وليس أفراد الفرقة وحدهم هم الذين دربوا هذا التدريب ، فكبيرهم الريحانى نفسه ظل زمنا طويلا وهو يمثل دورا واحداً هو دور « كشكش بك » العمدة المصرى القوى الذى يحب الحياة فى القاهرة ليتبذل فيها .

وهذا هو الدور الذى خلق نجيباً وإن كان نجيب قد هجره اليوم .

وصحيح أن نجيبا نجح نجاحا ما بعده مزيد فى رواياته الأخيرة وفى كل الأدوار التى قام بها على اختلاف ألوانها ، ولكنه صحيح أيضا أن « كشكش بك » لا يزال هو الدور الذى يصل فيه نجيب قمة القمة . والسبب فى هذا هو أن نجيب الريحانى نفسه ليس إلا عمدة يحب الحياة فى القاهرة وفى غير القاهرة ليفعل ما يفعله العمدة « البجبوح » ، فهو يتمتع بكل شىء ، وينفق كل شىء ، ويعانى من أولاد الحرام المتساقطين عليه من كل جانب كل ما يعانيه رجل طيب القلب صغير المكر وإن كان شديد الذكاء . . .

نحن نرى هذا الرأى وإن كنا نعلم أن الريحانى قد بدأ منذ سنوات يعتبر روايات « كشكش » التى كتبها هو وارتفع بها شيئا يجىء فى الدرجة الثانية بعد رواياته الجديدة . وقد يكون هذا حقا ، ولكنه لا يعيب شخصية « كشكش » نفسها . فهى شخصية ما تزال حية ، وما تزال متجددة وما تزال قوية جدا ، ولا تزال منجما من مناجم الفن التى لا تنفد . . . وما دام فى مصر عمدة فلا بد أن يكون على مسرحها « كشكش » .

ولكشكش أن يتطور كما تطور العمدة . .

كان العمدة فيما مضى يحب القاهرة ، ويحب التبذل ، وكان غنيا ، وكان مبهورا بالمدنية الجديدة ، وكان مشوقا إلى الانغماس فى أسباب الترف والعبث والفرنجة . . كان هذا بالأمس أيام اقتبس الريحانى شخصية كشكش . ولكن الحال تغير اليوم . فالعمدة اليوم غارق فى الدين ، غارق فى الحيرة والضلال ، تعلم ولكن إلى حد ، وتفرنج حتى منتصف الطريق ، واشتغل بأمور لم يكن العمدة فيما مضى ليلم عنها شيئا . . من ذلك السياسة الخارجية والسياسة الداخلية ، والشئون الاجتماعيـة ، والإصلاحات الداخلية وبرامج الأحزاب ، والانتخابات ، والديمقراطية والشيوعية ، وسائر هذه الشعاعات الفكرية التى تمتد من بعيد إلى حياة العمدة المصرى فتضيئها بأضوائها المختلفة التى يشتد بعضها ويضعف بعضها .

لذلك فإنى لا أعتبرها رجعية منى ، إذا أنا طالبت

من روائع الأدب الإيطالى :

امرأة !.

فى قرية من قرى جبال الألب ، وفى ربوع الطبيعة الباسمة . وبين شعب من الإيطاليين السذج الذين تعتمل فى صدورهم نوازع الإيمان بالله والثقة بالنعيم المقيم وعدالة السماء وفى رحبات هذا النوع من الحياة القاسية أحياناً والمنبسطة أحياناً أخرى يحتل العامل الروحى مكان الصدارة فى كل شىء ، فالقس هو ملك القرية غير المتوج يحتكم إليه الرعاة والزراع والتجار ويلجأون إليه إذا ما حزبهم جلائل الأمور . ذلك لأنه مندوب السماء وباعث الرحمة والعدالة بين الضعفاء .

فلم يكن غريباً إذاً أن تطرق « راشيل » باب القس فى يوم من الأيام وتتوسل إليه ضارعة أن ينقذها من شر يحيط بها ويكاد يعصف بحياتها الزوجية ، وهو يهدىء من روعها ويستوضحها جلية الأمر :

ألا ربك يا أبى لتنقذنى من خطب يتهدد حياتى العائلية .

أنت تعرف مقدار ما أنا عليه من الورع والتقوى وخشية الله ، وتعرف أن زوجى « رافيل » قد ارتحل عن إيطاليا فى رحلة تجارية وأنه ما تقدم لخطبتى إلا بعد حب طاهر عميق ، ويشهد الله أننا كنا مثال الزوجين العفيفين .

ثم أخذت تبكى والدموع تتساقط من عينيها الجميلتين فى دعة وارتخاء . وخصلات شعرها الفاحم المسترسل تحيط وجهها كأنه هالة نور يتوسطه ثغر قرمزى رقيق .

— لا عليك من حرج يا بنيتى ، إن أهل القرية يشيدون بسيرتك الطاهرة بعد ارتحال زوجك .

— ليتهم يستمرون على ذلك . إن هذا الفتى المدعو « روبرتو » ذلك النعامة المتأنقة الذى يمشى فى كبر وخيلاء والذى يهزأ بشريعة الكنيسة ومقتضيات التقاليد . إنه يأتى ينتظرنى عند باب المنزل كل يوم أحد ، ثم يلاحقنى فى الطريق على مرأى من الناس ويحاول أن يغازلنى ويحادثنى فأرده عنى فى جفوة وعناد ، ولكنه يصر على هذا العبث الذى يلحق العار بزوجة مثلى .

— ولكن يا بنيتى (روبرتو) شاب عاقل ما أظن أنه يعمل ذلك إنه يحفظ الانجيل ويناقش مسائل الدين ويخشى الله !

— ياله من خبيث ! إنه يسلك هكذا ليتستر على عبثه وفساده .

— إذاً سأرى . وليكن لى معه شأن آخر .

... وخرجت راشيل وهى تكفكف عبراتها وتتجه نحو منزلها فى خطى وئيدة . واستدعى القس (روبرتو) واستفسر منه جلية الأمر . فعجب الشاب من ذلك ودهش

الريحانى بأن يعاود النظر من جديد فى حياة العمدة المصرى ليستخرج منها روايات جديدة فيها الألوان المصرية الجديدة التى طرأت على حياة العمدة .

وكذلك فإنى لا أعتبره فضولا ولا تطفلا منى أن يعيد النظر فى قرار حل فرقته هذا الذى أسفنا له كثيراً . فليس من السهل أن يربى الريحانى فرقة جديدة يفهمه أفرادها ويفهمهم ، ويرتاح إليهم ويرتاحون إليه كهؤلاء .

وأنا لا أشك فى أن الخلاف الذى نشأ بين الريحانى وأفراد فرقته خلاف مادى ، فلعلهم لما يرون من نجاح الفرقة يطمعون فى مزيد من الأجر ، ولعله هو يحسب هذا الطمع افتئاتاً عليه يقترفه أولئك الممثلون على سبيل القرصنة لأن الله قد فتح عليهم بالعمل فى السينما .

افرض هذا حقاً يا أستاذنا نجيب وكن عند حسن ظنهم فى كرمك ، وليكن على حسابك أنت يا أبا الفن أن تمتع مصر بك وبفرقتك كاملة ...

عزيز أحمد فهمى

— ولكن يا أبى لم أفعل هذا . إنى لا أعرف هـذه المرأة ولم أقابلها قط . ولا أعرف حتى منزلها .

— وما الذى دفعها إلى التجنى عليك وإنها وايم الحق شريفة طاهرة ؟ فاسلك سلوكا طيبا يا روبرتو واخش الله فى روحاتك وسكناتك .

— اشد ما يدهشنى ذلك ! إن نفسى تمج هذا العبث

— إذاً فاستغفر الله وابتعد عن مسالك الشيطان .

... ومرت الأيام ثم عادت راشيل وارتمت تحت أقدام القس وهى تبكى فى حرارة وتوسل .

— أفزع إليك يا أبى . لقد عاد « روبرتو » لمضايقتى .

— ماذا فعل هذا اللعين .

— لقد ترصد لى تحت نافذتى فى الليلة الماضية ، وأخذ يرسل صفيراً متواصلا لاجتذابى إليه ، فخطر لى أن أستوضح الأمر فأطللت من النافذة ، فأخذ يزجى إلى بأحاديث الغزل والغرام . إنها فضيحة يا أبى ! إن القرية كلها ستتحدث بهذا . أستحلفك بالله أن تكف عنى هذا الشر !

— سأرى يا راشيل . ولتقع لعنة السماء على هـذا الفتى اللعين .

واستدعى القس (روبرتو) وأخذ يعنفه ويزجره وهو فى حيرة من الأمر .

— إنى لا أكاد أصدق هذا يا أبى ! لم أر هذه المرأة ولم يخطر على بالى أن أخدش شرف أحد .

— عليك باتباع ما آمرك به ...

لاتمر من الشارع الذى تقطن فيه راشيل .

— ولكنى لا أعرف هذا الشارع !

— إنه على مقربة من التل وتحيط به أشجار الصفصاف

خرج روبرتو وهو عازم على أن يمر من الشارع وأن يرى هذا البيت الذى اتهم بالتعرض لراشيل أمامه .

ومر أسبوع ثم عادت راشيل تبكى .

— يا أبى لقد طفح الكيل ! ألا تدرى ماحدث ؟ إنها فضيحة وعار ! أتعرف الشجرة الطويلة التى تلاصق نافذتى فى الدور الثانى ؟

— نعم أذكرها .

— إن هذا الوقح المدعو (روبرتو) جاء أمس حوالى التاسعة مساء وتسلق سور الحديقة ثم تسلق هذه الشجرة ، وكان الضوء يغمر النافذة التى فى الغرفة فرأيته يطل على داخلها ، فاحتبست الصرخة فى نفسى واستحلفته أن يعود وإلا شكوته ثالث مرة للقس ، ولكنه أظهر عدم اكتراث بك ورماك بالنقائص ، واستمر يغازلنى وأنا أصده عنى واستحلفته أن يرحل فرحل بعد جهد طويل .

— سأرى ذلك وسأطرد هذا اللعين من قريتنا الطاهرة

وقام القس لساعته وتوجه إلى المصنع الذى يعمل فيه (روبرتو) وابتدره بالزجر والتأنيب وطلب إليه مغـادرة القرية وإلا جر على نفسه سخط الأهالى .

— ولكنى لم أفعل شيئاً يا أبى ، ولكن صبراً هى تذكر أنى تسلقت السور والشجرة أمس الساعة التاسعة ،

— نعم واستخففت بى وبأوامرى .

— أعدك يا أبى بأن أمنع هذه الشكوى بعد ذلك .

— ولكنك ماجن عابث .

— سترى يا أبى .

وفى المساء ذهب روبرتو إلى منزل راشيل وتسلق السور فى تمام التاسعة ثم تسلق الشجرة وكانت الغرفة مضيئة ووجد راشيل تنتظره . فقفز إلى الغرفة ووجد نفسه بين ذراعيها .

— ولكن زوجك ! !

واحتبست الألفاظ تحت موجة من العناق والقبل المتيقظة . وفى الصباح كانت أجراس الكنيسة تدق وروبرتو متأبط ذراع راشيل إلى الهيكل المقدس .

اسكندرية محمد على أبو رياح

بين المسموع والمقروء

شريان الحرب الأعظم :

لقد علم الناس أن هـذه الحرب كانت حرب علم وفن وحيل ، قبل أن تكون مساجلة فى قوة العضل الجثمانية ، وقوة الاحتمال الإنسانية . والحرب بعد لم تكشف لنا إلا قليلا عما صنعته العلوم وافتنته الفنون وراء خطوط القتال

ولقد سمع الناس فيما سمعوا بهـذا الخط من الأنابيب الذى مده الحلفاء بين ساحل انجلترا وساحل أوربا ، يحمل إلى المحاربين سائل الحرب الأول ، أو إن شئت قلت دمها الذى بدونه لاينبض للحرب الحديثة قلب — ذلك البترول

وهذا الخط الذى مدوه طوله بضع عشرات من الأميال

ولكن هناك خطاً أعظم وأعق ، مدوه ، لا العشرات من الأميال ، ولكن الألوف . مدوه فعلا ألفى ميل ، فأصبح بذلك أطول خط فى العالم يحمل البترول .

وهو يحمل البترول من كلكتا فى الهند إلى الصين . ويحمله عبر الجبال ، وفى الوديان ، وعبر الأنهار . فهو يعبر نهر الروادى والسلوين والكوابج ، ويحمل هـذا السائل العزيز الغالى إلى مطارات الحرب فى الخطوط الأولى من قتال اليابان .

والخط مصنوع من أنابيب خفيفة الحمل ، قطر بعضها أربع بوصات ، وقطر بعضها ست بوصات . وهى سهلة الإخفاء عن أعين الرقباء من الأعداء حتى وهى غير مدفونة لايكون من السهل إصابتها ، إلا من قريب ، ومن قريب جداً . فالقذيفة التى تزن مائة من الأرطال لا تصيبها بالدمار إلا إذا نالت الأرض على أقل من أربع أقدام منها

وتقوم المضخات على أبعاد معلومة من هـذا الخط ، وهى تدفع البترول فى سبيله الجارى . فهى ترتفع به كلما طالبه السير بالارتفاع ، وتدعه يهبط كلما طالبه السير بالهبوط ، وتزيد فى حركته كلما أعجزه السير فى البسيط . فاذا أصيب الخط فى نقطة منه ، عرفت ذلك منه أقرب المحطات الضاخة ، وعرفت ما تضمنته من آلات موضع الإصابة على التقريب . وإليه تنتقل فرق الإصلاح تواً حتى لاينقطع شريان الحرب الأعظم ، وينقطع طويلا .

وهذا الخط ليس لحمل البنزين وحده ، فهو قد يحمل صنوفاً أخرى من البترول . فهو قد يحمل زيت الديزل ، وقد يحمل زيت التشحيم والتزليق . ولكنه لا يحمل هذه الأصناف معاً ، لأنه أنبوبة واحدة . ولكنه يحملها على التعاقب ، رأس هذا فى ذيل ذاك ، مع سائل ذى لون يفصل مابين الرأس والذنب ، لوقته حتى يدرك محصل الزيت فى الناحية الأخرى أن صنفاً قد جاء آخره ، وصنفاً قد بدأ أوله .

وبعد هذا الخط قد ارتفع عن مجهود الحرب حمل ثقيل ، ارتفع عن كاهل الطيارات وظهور السيارات ، وهو فوق هذا أرخص نقلا بهذه الأنابيب .

جلود محفوظة :

ومن غرائب ما نسمع ، مما صنعه العلم والفن فى هذه الحرب ، أن الجلود الإنسانية تنزع من موتى الحرب ، تواً من بعد خروج أرواحها ، ثم تخلل كما يخلل البصل والخيار فى الزجاج ، إلى أن تكون إليها حاجة . وهذه الجلود لاتخلل فى الخل طبعاً ، ولكنها تحفظ فى سوائل من الملح تشبه إلى حد كبير سوائل الجسم ، سوائل الحياة . وهى تحفظ مبردة حتى تطلب . وهى تطلب لفرشها على جلد ضحية من ضحايا الحرب — ضحايا نارها — لاسيما الطيارين الذين هبطوا فى طائراتهم المشتعلة وقد لفح الحر أجسامهم ،

وأنضجت النار جلودهم ، فانكشف اللحم وتعرّى . فهذه الجلود المحفوظة تكون لكساء هذا اللحم العارى .

وهذه الجلود المحفوظة يبق بها على الحفظ مقدار من الحياة يؤهلها لأن تندمج فى جسم المصاب الحى ، تدفع عنه خطر التلوث ، وتأذن للحياة أن تعود فتجرى بمجاريها حتى تقسم للرجل قسمة الحياة أو الموت . وكثيراً ما تكون قسمته بهذا الجلد المحفوظ قسمة الحياة .

خطر الأصابع :

وأعجوبة أخرى . وقبل أن أحكيها لك أسألك : إذا كان لا بد من بتر إصبع من أصابع يدك اليمنى ، فأى إصبع تختار ، إذا لم يكن لك بد من الخيار ؟ الخنصر ؟ البنصر ؟ الوسطى ؟ السبابة ؟ الإبهام ؟ ألا فاعلم أن أخطر هذه الأصابع الإبهام ، وأن الخنصر أقلها خطرا . أما خطر الإبهام فهو أنها الإصبع التى تمسك بها الأشياء من ناحية . أما من الناحية الأخرى فتتعاون كل الأصابع على إمساك هذا الشىء ، فلو ضاع إصبع من هذه الأربع لما افتقدته كافتقادك الإبهام .

وفى هذه الحرب ضاعت أرجل وأذرع ، ورءوس . وأهون ما ضاع فيها الأصابع . وأخطر ما ضاع فى الأصابع الإبهام ، فهى معجزة للجندى بقية حياته إذا خلع لباس الحرب ولبس لباس السلم يطلب الرزق كما يطلبه الناس . لهذا كان لا بد من سد هذا النقص ما استطاعوا إليه سبيلا

وقد كان سدّه بتضحية السبابة . فقد خلعوها من موضعها من الكف ، وأثبتوها فى مكان الإبهام الضائعة ، ثم لاءموها باللحم الحى حتى يتشكل ظاهر المفصل ويتم الالتئام

سألوا جنديا أجروا على يده هذه العملية : كيف تجد ؟ قال : إن سبابتى صارت إبهامى ، وأنا أستطيع اليوم بها أن أمسك بكوب الماء فأحملها وأحمل أشباهها .

والأضراس :

وأعجوبة رابعة لم ينكشف بعد عنها الحجاب ، ولكنه يوشك أن يفعل . وهى تختص بجزء آخر من أجزاء الجسم ، أعنى الأسنان . فمن أسباب ضياع الأسنان اليوم أن يتولد من تحتها ، وعند جذرها ، خراج لا يكون شفاؤه إلا بخلع الضرس وإضاعته .

والذى صنعوه فى هذه الحرب ، لا بسبب الحرب ، ولكن بسبب العقار الجديد ، البنسلين ، أنهم استطاعوا أن يخلعوا الضرس السليم ، فيقتطعوا من جذره ما فسد ، ويزيلوا الخراج وما تجمع فيه من أسباب الفساد ، ثم يعالجون سنخ الضرس بالبنسلين ، ثم يثبتون الضرس فى مكانه من سنخه بعد أن يكونوا قد ملأوا ما أطاروا من جذر الضرس حشوا مناسبا - ثم يتركون الطبيعة تعمل فعلها .

وقد وجدوا أن الضرس يأخذ على الأيام فى الثبات . وقد ثبت ضرس من هذه الضروس واشتد ، حتى أنهم استطاعوا أن يتخذوه دعامة يسندون عليها جسرا لضرس آخر مصطنع ركبوه فى جواره .

تعبير المطلوب الموت :

ويذكر الطب أذكر تجربة أجراها عامل إنجليزى على نفسه لما طلب الموت هربا من الفقر . وتطوع ، ولست أدرى عن عمد أو غير عمد ، فكتب ما أحس به وهو يهبط إلى الموت .

اختار لنفسه سبيلا جديدة إلى الفناء ، فاعتزم أن يتعاطى مادة يتعاطاها الناس عادة لدفع الأسواء — تلك الأسبيرين .

فأنت تبلع الأسبيرين قرصا أو قرصين لتذهب عن نفسك آلام الرأس ، ولكن صاحبنا بلع الأسبيرين ،

أربعمائة قرص، ليذهب من جسمه كله، ومن نفسه، آلام الحياة.

وترك مكتوباً يشرح فيه ما وجد، ووجه الخطاب إلى النائب القضائي المحقق. قال:

عزيزي الأكرم. ليس لي رغبة في الحياة. لست أود العيش في هذه الدنيا، فإنها لا تواتيني، ولست أواتيها. لقد ولدت مائة عام قبل زماني. فأرجومنك ياسيدي بعد التحقيق السريع أن تنطق بالحكم المعتاد في مثل هذه الحال — «مات في حال من العقل غير سليم». وإني أؤكد لك ياسيدي أن عقلي في هذه الساعة ليس به اختلال.

واستمر في مذكرته يقول:

بلغ ما تعاطيته من الأسبرين إلى الساعة مائة قرص، ولكني لا أجد منه أثراً. تعاطيت مائتين. لا فائدة. تعاطيت ثلاثمائة. أحس بامتلاء في جوفي. لا بد من الإقدام، فالنكوص الآن لا يغتفره لي الله.

واستمر يكتب حتى بلغ قوله:

إن الأقراص اللعينة لا تفتأ تلصق في حلقي. سأقوم وأمشي أو أجري أو أركب دراجة، فعسى الحركة تهز تلك الأقراص فتنزل من بلعومي.

ومضى يصف الذي يجد حتى أعجزته الكتابة!

ووجد الطب في الذي كتب شيئاً طريفاً ما كان يجده بسبيل آخر غير هذا. والطب لا يوصي أحداً بأن ينتحر، ولكني أحسست عند تصوري الحرص الذي لا بد حرصه الأطباء لحصول على هذا الاعتراف النادر، أنهم لا يأبون أن ينصحوا في صوت خافت كل من يود الانتحار، أن ينوع وسائله، وأن يكتب اعترافاً مفصلاً كالذي كتبه صاحبنا هذا، أو أكثر تفصيلا. والمنتحر، إن كان لا بد من إتلاف نفسه، فقد يكون من بعض التكفير عن جرمه أن يسدي إلى العلم ضريبة الفداء.

أحمد زكي

صديق العائلة

للدكتور مصطفى الديواني

في اعتقادنا أن هذا كتاب قُصدَ به أن يكون صديق العائلة بحق، فهو يبحث في المشكلات العائلية التي تحتاج لصراحة في التعبير واللفظ مع التزام حدود اللغة التي تقرأها الفتاة والفتى والوالدان دون خجل ولا حياء. وما أحوجنا في الواقع إلى الصراحة في الجنسيات بالطريقة اللبقة التي لجأ إليها المؤلف في كتابه. ولعل من أروع محتويات الكتاب باب تحديد النسل، وهو مزين بأشكال وصور تقرب الطرق المختلفة إلى الفهم دون تعب ولا إجهاد. وكذلك تلك الأحاديث الشائقة بين الأم وابنتها أو الوالد وولده في دور البلوغ.

ويحوي الكتاب بجانب هذا تفاصيل شاملة عن أغذية الأطفال في مختلف الأعمار، والمشاكل النفسية والعقلية، وبه قسم يبحث في أمراض الأطفال كثيرة الانتشار وطرق علاجها والوقاية منها. كل هذا مكتوب في لغة مبسطة تقرب الكتاب إلى ذهن كل والدة مهما بلغت درجة ثقافتها. وقد سد هذا الكتاب فراغاً في المكتبة العربية. ونرجو أن يستفيد منه كل شرقي ناطق بالضاد.

ضلال شاعر ...

بالجانب الأيسر من الصحيفة (٧) من العدد (١٥٤) من مجلة « الثقافة » الصادرة فى القاهرة فى ٢٧/١١/١٣٦٠ قصيدة للشاعر المصرى (المهدى مصطفى) عنوانها (أنت يا نفس) جاء فيها قوله :

ملتنى الأيام أن أحقر النا ... س ودنيا تعج بالأوشاب
وأصون الفؤاد من عبث الود ... وأنسى مجامع الأحباب

وقوله :

ضاق ذرعى وضقت بالأحياء ... أين منى الرؤى ودنيا السماء

وقوله :

أنت نفسى إذا سموت عن الأر
ض وعشت الغداة فوق السدود
وتخطيت حاجز الجسم والعصر
ر وعفت الحياة بين العبيد
وتغذيت بالشعاع وبالعطر
وغنيتنى نشيد الخلود

ومن ذلك فهمت أن الشاعر من الذين ينادون بالحرمان من ينابيع الحياة والانقطاع عن أطايب الوجود، وأنه يحاول الانسلاخ من قوانين التراب إلى الملكية الخالصة . ولما كنت أومن أشد الإيمان وأحمقه وأقواه بأن أحلام الانطلاق الكلى أوهام وأشباح، ليس لها عقاب تصبه على هواتها غير الحرمان من الحياة والخيبة فى الآمال، وليس لها ثمن تتقاضاه غالبا منهم غير تعب الأعصاب واضمحلال قوى الجسد والروح — لما كنت كذلك وكان الشاعر المصرى كما أسلفت نظمت هذه الأربعة والعشرين بيتا الآتية راجيا أن أنجح فى تحريم بعض الأفكار التى تنحرف إلى هذه الفلسفات الجوفاء التى تهوى بمعتقديها إلى هوى سحيقة من الخيبة والحرمان .

أيها الشاعر العيوف حياة النـ ... فس فوق الثرى وبين العبيد
ومريدا تخطىَ النفس للجسم ... ونشدانها طريق الصعود
ومريدا تغذى النفس بالنور ... وترجيعها نشيد الخلود
لم تبغى الهروب من قبضة الأر
ض وما فى حياتها من قيود؟

* * *

لم تهوى دنيا السماء وما كنت
عليما بها ولا بهواها
إنما للسماء خلق من النور
وخلق الغبراء نبت ثراها
أمك الأرض والأناسىّ إخوا
نك والله خلكم فى مداها
ومباح لك التمتع .... فيها
بلذيذ الأشياء إلا خناها

* * *

فلماذا الشرود من جنة الدنيا
وفيم احتقارك الأحياء؟
وهواك الطيوف فى عالم الوهم
وبغياك تدنيك الأصدقاء
فيم هذا وما خلقت ملاكا
يعبد الله لا يحس عناء
لا ولا كنت من ذنوبك صفرا
لا ولا بتّ مِن مناك براء

* * *

دع عنك من ذلك التشاؤم من عيشك
واضحك له بوجه الأمانى
ما عقاب ابتغائك العيش فوق الـ
نجم يا صاحبى سوى الحرمان
إنما أنت عابث ليس يدرى
ر هذا الوجود بالإنسان

يجهــل الناس سره فيعادون
قواه بالبغض والنكران

* * *

أيها الشاعر النوى سبيل الكون
مهلا فقد أثرت شــعورى
لم لا تنظر الحيـــاة بعين !!
حب للعيش حــلوه والمرير
كيفما كنت فى شعورك تلق !!
عيش فاشعر به شــعور السرور
تجــد الناس ذات وُدٍّ وأنس
وتر الكون ذا جمال ونور

* * *

(كن جميلا تر الوجود جميلا)
حينما عشت وابتسم للوجود
فهو ترٌّ بالحق والعــدل والخير
وبالحسن والهوى والغــيد
ما خلقنا لنفطم النفس عما
فيه من لذة وعيش رغيــد
ودعاة الحرمان منه ومن ينبوعه
الثر هم دعاة الجمـــود

(مكة) احمد محمد جمال

من وراء القطيع :

ربيعي

لقد فتح الربيع يده فطارت الفراشات هنا وهناك . وهبت نسماته الباردة فصافحت الأشجار ، وقبلت البراعم الناعمة . ها ربيع الشباب قد هب من غفوته ، وعقد أكاليل الورد والقرنفل ومشى حائراً فى جنازة جاره .

لقد أتى ربيع الأمل باسم الثغر بشوش المحيا ، فاستقبلته صبايا القرى مرنمات ، وشحارير الوادى مغردات .

ربيعى نفحة من ظلال الأبدية ، وسرور من خزائن الأستار . وعشتروت ربيعى صراخ هادئ ، وحوار لذيذ .

تعال يا ربيعى وحى الحب أملاً بلقاء فتاته .

تعال واطرح بذور المحبة بين الأخ وأخيه .

تعال وانفحهم بشذاك وقوّم بالسلام والوداعة .

لقد شرد بنو البشر عن إطاعة قوانينك ، فساروا مع تيار الشهوات وغرقوا فى بحر من القنوط واليأس ، فحسبوا المحبة بغضاً والبغض طمأنينة .

يا ربيعى الزاخر بالأمانى الحامل زهور السعادة . أعطف على إخوانك ولو بزهرة من أزهارك . فلعل واحدة تنبت الرجاء والأمل فى قلوبهم .

فتى الجبل

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردامي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٤٢ | الثلاثاء ٨ من شعبان سنة ١٣٦٤ — ١٧ من يوليه سنة ١٩٤٥ | السنة السابعة

فهرس العـــــــدد

الموقف الدولي

يجتمع الأقطاب الثلاثة تشرشل وستالين وترومان قريبا في برلين . ولهذا الاجتماع أهمية خاصة ، لأنه أول اجتماع لهم بعد انتهاء الحرب في أوربا وأول اجتماع لهم بعد انعقاد مؤتمر سان فرنسيسكو ، واتفاق الدول المشتركة على الأسس التي يبنى عليها السلام . وأول اجتماع يلتقي فيه الرئيس ترومان الرئيس الجديد للولايات المتحدة بزميليه .

ولما كانت المقادير قد وضعت في أيدي هؤلاء الثلاثة مصاير العالم في الوقت الحاضر ، وأسفرت التقلبات الدولية عن تركيز أهم القوى الحربية والاقتصادية في دولهم فإن العالم يتتبع بأكبر الاهتمام كل ما يصدر عنهم ويترقب ما يستقر عليه رأيهم .

ومن الناس من يظن أن هؤلاء الأقطاب سيجتمعون على أنهم رعاة الانسانية وحماة العدالة والحرية ، وواضعو أسس سلام عالمي دائم ، وهم لهذا سيتجردون في بحثهم من صفاتهم الخاصة ويتحررون من نزعاتهم القومية ، وينظرون المسائل نظرة إنسانية خالصة تحقق الحرية والاستقلال لكل الشعوب ، وتؤمن الكبير والصغير على سلامته ، وتقيم العلاقات الدولية على أسس المودة والثقة والتعاون ، وتكفل للناس جميعا الطمأنينة والعيش الرغيد .

ومنهم من يرى أنهم سيتناولون الأمور بالسياسة التقليدية ، وأن كلا منهم سيضع نصب عينه أولاً وبالذات المصالح الخاصة لدولته والأهداف البعيدة التي تتجه سياستها لتحقيقها ، وأن الاجتماع سيكون صراعا بين سياسات متعارضة وتنازعا بين الجميع ، يحاول فيه كل منهم أن يبسط

نفوذه على أوسع رقعة من الأرض ، وأنهم لهذا لن يتفقوا إلا على المسائل القليلة التي لا تتعارض فيها مصالحهم ، وإذا اتفقوا بعد ذلك على الأمور التي تشتبك فيها المصالح فسيكون الاتفاق على أساس تضحية اضطرارية من جانب أو تهادن مؤقت من جميع الجوانب ، وستبقى تلك المسائل مثار خلاف متجدد ، ونواة حرب جديدة مقبلة عاجلة أو آجلة . وبين تفاؤل المتفائلين وتشاؤم المتشائمين رأى وسط نرجح أنه هو التقدير الصحيح للروح الذي ينتظر أن يسود اجتماع هؤلاء الأقطاب . فلن تكون النزعة الإنسانية الخالصة هي الأساس الذي تقوم عليه المداولات ، ولكن تلك الاعتبارات التي أصبح الرأي العام العالمي يؤمن بها ويقدرها ، لن يستطيع هؤلاء الزعماء الفرار منها وإغفالها بعد أن التزموا أمام شعوبهم وشعوب الأرض بتحقيقها . كذلك لن تكون المصالح الخاصة لكل دولة من دولهم هي وحدها الموجه لسير المباحثات وإن يكن من الطبيعي أن تكون لتلك المصالح وللتوفيق بينها أكبر نصيب من عنايتهم .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المجتمعين يدخلون هذا المؤتمر وكل منهم في مركز خاص يختلف عن مركز زميليه ويؤثر أكبر التأثير في الموقف الذي يقفه كل منهم في المباحثات : فأمريكا تحضر الاجتماع وهي مشغولة بحرب اليابان تبذل فيها أكبر جهدها ، وترى الانتهاء منها مسألة حيوية في المقام الأول بالنسبة لها . وهي تشترك في الشئون الأوربية والآسيوية اشتراكاً ثانوياً متجرداً إلى حد كبير من الأغراض الخاصة ، وهي بهذا ستكون في مركز الحكم المحايد الذي قد يتوسط في تقريب مسافات الخلف والتوفيق بين النزعات المتعارضة .

وانجلترا تدخل الاجتماع وهي الأخرى مشتركة في حرب اليابان يشغلها منها بعض ما يشغل أمريكا . وهي مشغولة أيضاً ببعض الشئون الداخلية والمشاكل الأمبراطورية ، وهي أكثر اشتباكاً بكل الشئون الدولية لاتساع امبراطوريتها وانتشار مصالحها في كل البقاع .

وروسيا تحضر الاجتماع وقد فرغت من الحرب ومتاعبها ، ولا يشغلها في الداخل والخارج شاغل ، وهي لهذا في مركز قد يساعدها على السير في تحقيق سياستها والقصد إلى أهدافها القريبة والبعيدة بغير تحفظ أو تردد . وطبيعي أن هذا الوضع من شأنه أن يجعلها أقرب لنيل ما تريده إذا أصرت وتشددت ، ويجعل حليفتيها أميل للاينتهاء والالتجاء لوسائل الإقناع الدبلوماسي في معاملتها .

وقد تجلت سياسة روسيا التقليدية وأهدافها التي ترى تحقيقها في مسألة بولاندا التي تبحث في إقامة الحكومة التي ترتضيها بها ، وفي مطالبها التي قدمتها لتركيا بشأن المضايق وبشأن ضم بعض أراضيها لها أو لدول الصقالبة في البلقان . وفي إصرارها على الاشتراك في المؤتمر الدولي الذي يعالج مشكلة طنجة . وفيما يقال عن رغبتها في أن يكون لها شأن في الإشراف على قناة السويس .

وتجلى فيما تمهد له صحفها السبيل إليه من توطيد نفوذها في إيران : فهي بعد أن مدت نفوذها البري إلى أواسط أوربا تحاول أن تمده إلى الشرق الأوسط وقلب آسيا ، وتحاول أن تمد نفوذها البحري إلى البحر الأبيض المتوسط ومنافذه إلى سائر البحار . وهي سياسة لا بد أن تقابلها انجلترا بكثير من الحذر والشك ، ولا بد من أن تقف طويلا قبل الرضى بها .

ولا أستطيع التكهن بما ستفسر عنه مباحثات هؤلاء الأقطاب في حل هذا الخلاف ولا ما سينتهي إليه من قرارات في مشاكل الحدود بين دول أوربا ومشاكل نظم الحكم والتموين والتعمير في البلاد المحتلة . وطريقة تحقيق المجلس الدولي للأمن وجعله أداة دولية فعالة .

ولكنا نحس بأن الوسيلة الوحيدة لإزالة أسباب سوء الظن وتخليص العالم من الفوضى الدولية التي تجعل الحكم للقوة والغلبة للمعدات الحربية هي أن يتجرد الأقطاب من

في الهواء الطلق

على شاطىء البحر جلست اليوم وحدى . واتجهت هذه المرة إلى ما في البحر من الأحياء ، كم من الملايين يولد في الساعة وكم من الملايين يموت ، وكم مما تعجز عنه الأرقام حي فيه ثم فنى فيه ؟ .

وانتقل ذهنى إلى الإنسان . كان شأنه في البر شأن الحياة في البحر ، فمنذ كان قبل التاريخ وبعد التاريخ وملايين الملايين تحيى ثم تفنى .

وهذه الحرب أرخصت الحياة فكل يوم تحصد مئات الألوف حصداً في البر وفي البحر ، ومن فعل الطائرات ومن فعل الغواصات ومن فعل سائر المدمرات .

ما الأرض بالنسبة لهذا العالم ؟ وما حياة الإنسان كله بجانب هذه الحيوات كلها في البحر ؟ وما حياتى أنا بجانب حياة الناس كلهم في الماضى والحاضر والمستقبل ؟

ومع هذا لحياتى أهم شيء في الوجود في نظرى وفي أعماق شعورى ، وكذلك حياة كل إنسان أهم ما في الوجود في نظره وفي أعماق مشاعره .

على هذه النظرة بنى العالم الإنسانى . ولو تغيرت هذه النظرة لتغير الكون ، فالفضيلة والرذيلة ، والإصلاح والإفساد ، والنظم الاجتماعية والسياسية على اختلاف أنواعها ، والأديان وقضاياها والاقتصاد ومسائله ، كلها تعالج بشتى الأشكال ما ركب في غرائزى من أنى أهم ما في الوجود .

مهما حقر العلم من شأن حياة الفرد فأثبت الفلكى أن الأرض ليست إلا حبة في العالم ، وأثبت عالم الحياة أن الإنسان ليس إلا حيواناً حقيراً نشأ وارتقى ، والكيميائى أن جسم الإنسان يجرى عليه كل ما يجرى على مواد العالم ، فسيظل الفرد هو الفرد ، يرى ويشعر ويسير في جميع شؤونه على أنه أهم شيء في الوجود .

هل من مصلحة العالم أن يغير الفرد نظرته هذه ، فيرى أنه شيء كسائر الأشياء ، وإنسان كسائر الناس ، وليس مركزاً للدائرة ولكنه نقطة على محيطها ؟ سؤال سخيف ! لأنه سواء كان الجواب إيجاباً أو سلباً فسيظل الإنسان هو الإنسان يرى أنه أهم شيء في الوجود .

قد يعالج الفرد نفسه بعض الوقت ، وقد يروض نفسه حيناً على أنه يرى نفسه كسائر النفوس وليس أهم من غيره في شيء . ولكن سرعان ما ينسى الملاح وينسى ما راض نفسه عليه ويعود سيرته الأولى .

السياسة التقليدية بأجمعها ، ويطرحوا الأنانية القومية وراء ظهورهم وينظروا في المسائل الدولية وعلاجها نظرة إنسانية محضة أساسها توفير أسباب السلامة والقوة الإنتاجية لجميع أمم الأرض ، ويضعوا قواهم الخاصة في سبيل نشر العدل والطمأنينة والتعاون بين الشعوب . بهذا وبهذا وحده يأمنون الخلاف فيما بينهم وتتحقق مصالحهم الخاصة وتتفق مع مصالح الناس جميعاً ، وبهذا يبنون قواعد سلام دائم ويضعون أساس نظام عالمى مستقر برضاء الجميع .

إن العالم يسوده القلق والشك والشعور بأن المبادىء الأنانية الظالمة التى كانت تحرك دول المحور قد تسربت إلى الدول المتحالفة التى حاربت في سبيل إنقاذ العالم من شرورها . فهل يفلح الأقطاب في إعادة الثقة إلى النفوس وإزالة الشك من الأفئدة وإزاحة الهم الجاثم على الصدور وإقناع العالم بأنهم لا يزالون أوفياء لعهودهم أمناء على رسالة الحرية التى تغنوا بها في أيام محنتهم ، حريصين على تحقيق الآمال التى علقتها الشعوب عليهم ؟ إن نجحوا في ذلك كتبوا لأنفسهم في سجل التاريخ أنصع صفحة ، واعتز بهم العالم كما تعتز بهم أممهم التى حققوا لها النصر وأصبحوا بناة العالم الجديد ورسل العهد الإنسانى الجديد .

. . .

ولكل إنسان دنيا خاصة، لا تساويها دنيا الآخرين؛ فدنياه أبوه وأمه وزوجته وأولاده وأقاربه وما يعتون من ألم وسرور، وعمله الذي يقوم به وما يسبب من مشاكل، وماله وما يتصل به من دخل وخرج، وأصدقاؤه وأعداؤه ونحو ذلك؛ هذه هي دنياه الصغرى التي تهمه في المرتبة الأولى وعليها تقوم مسراته وأحزانه. فإذا ارتقى الإنسان بعض الشيء، كان له دنيا أخرى تتسع بمقدار رقيه عما يشغله من أحداث العالم وما يتصل بوطنيته وبدينه وثقافته ونحو ذلك؛ وهذه الدنيا الواسعة تتصل اتصالا وثيقا بدنياه الصغرى، فهو يرى حوادث الدنيا الكبرى من خلال دنياه الصغرى.

إذا حدثت حادثة في الصين فقلما تثير في اهتماما، لأنها لا تتصل بدنياي الصغرى، فإذا هي حدثت في شارعي كنت لها أكثر اهتماما، فإن هي حدثت لصديق أو عدوي تضاعف اهتمامي، فإن هي حدثت في بيتي كانت في الصميم من نفسي. وأقرأ أعمدة الوفيات في الجرائد والأخبار المحلية وغير المحلية فتوقع كلها على نفسي نغمات مختلفة، علواً وانخفاضاً وتأثيراً وتأثراً، فكلما كان الخبر يمس نفسي الصغرى علت النغمة وعظم الأثر، ولذلك كانت الجريدة الناجحة هي التي تثير انفعال أكبر عدد ممكن، لأنها تغذي النفوس المختلفة والدنى المختلفة، دنيا التاجر ودنيا السياسي ودنيا العالم الخ

وما يؤثر في بمقدار مائة يؤثر في الآخر بمقدار عشرة ولا يؤثر في ثالث مطلقاً. وما يؤثر في اليوم بمقدار مائة كان يؤثر في أمس بمقدار عشرة، وسوف لا يؤثر في غداً مطلقاً، لأنه كان يمس دنياي ثم سوف لا يمسها لأنه كان فيها ثم خرج من حسابها.

وقيمة أعمالي في نظري غير قيمتها في نظرك، لأنها منبعثة عن دنياي لا دنياك، ومؤثرة في دنياي أكثر مما هي مؤثرة في دنياك، وما يغضبني غير ما يغضبك وما يسرني غير ما يسرك نوعا وكيفا، لأن رأيي ومشاعري وشخصيتي ودنياي غير ذلك كله عندك، وأنا أعرف بالباعث لي على أعمالي أكثر مما تعرف.

وأنا وأنت وهو وهي نختلف في حكمنا على الأشياء ونتفق بمقدار ما بيننا من فروق وموافقات، في البواعث والرأي والمشاعر، وبعبارة أخرى بمقدار ما تتشابه دنيانا أو تتخالف، فعند أغلب الناس وجوه شبه تنتج اتحاد رأي، ووجوه خلاف تنتج اختلاف رأي، ولا يمكن أن تجد اثنين قد اتحدت دنياهما.

في دنياي وفي دنيا كل إنسان متاعب كثيرة مختلفة الألوان، بعضها حقيقي وأكثرها وهمي — نحب أن تكون دنيانا الصغرى أحسن الدنى، وليس ذلك في الإمكان. فلو كانت دنياي أحسن الدنى لكانت دنياك — بالطبيعة — أقل منها شأنا، وهذا لا يرضيك، ونظن أن الله لك وحدك ترجوه أن يمنحك أحسن الطيبات ويدفع عنك كل الشرور، مع أن الله للجميع ولأرضك ولسمائك ولكل العوالم، وما أنت وعالمك والنظرة إلى العوالم قد تستلزم محوك من الوجود. نريد أن تكون دنيانا كما نحب أن نصنعها، وهذا علة كثير من المتاعب، ولكن كيف يمكننا أن نصنع دنيانا وليس فينا قدرة الخلق، ودنيانا مرتبطة كل الارتباط بدنيا غيرنا ومتأثرة بها وفاعلة ومنفعلة معها؟

إن كثيراً من المتاعب ليس سببها المتاعب نفسها، ولكن علتها النفس التي تنظر إلى الأشياء على أنها متاعب، ولا يمكن تغييرها حتى تغير نفسك. ولكن كيف ذلك ونحن المتاعب؟ إننا في دنيانا كالعصفور في القفص ندور فيه ونحن نحن والقفص القفص.

كثير منا يظن أنه فوق القدر وهو — لا محالة — تحت القدر، وما كان ميلادنا ولا دنيانا الصغرى ولا الكبرى باختيارنا، ولكن تفتحت أعيننا فوجدنا كذلك أنفسنا وكذلك دنيانا.

ولعل العلاج الوحيد للتغلب على هذه المتاعب الوهمية

معرفة الانسان نفسه ودنياه ، فهو إن عرفها بعيوبها ومزاياها أمكنه تسييرها فى الطريق الذى يناسبها ، يواجه مواضع الضعف على أنها مواضع ضعف ومواضع القوة على أنها مواضع قوة ، وقد يستطيع أن يسلك بمواضع الضعف مسلكا يضيع سوء نتائجها .

لقد اضطرت طائرة إلى النزول فى الصحراء براكبيها الثلاثة فى قليل من الطعام وقليل من الماء ؛ فأما أحدهم فأخذ يفكر فى دنياه من زوجة وأولاد وفيما ينتظره من موت ، وكلما قل الزاد والماء تضاعف قلقه ، وأخيراً جن . والثانى فكر فى نفسه وحرمانها من لذائذها وفى قلة الطعام والشراب وشظف ما فيه من عيش ، وتزايد الأمر به حتى جن أيضا . وأما الثالث فشغل نفسه بكتابة مذكرات عن حالتهم النفسية ، وأخذ يحللها ويشرحها ويسلى نفسه بتدوين خطراته وملاحظاته ، فنجا من الجنون حتى ساق لهم القدر من أنقذهم .

أكثر الناس يعمون عن نقط ضعفهم كما يعمى الطيار عن موضع الضعف فى الطائرة ، فيطير بها ويسقط ، فإن هو عرف عيبها فإما ألا يطير وإما أن يتدارك العيب وإما أن يطير فى حدود عيبه .

فلأواجه مواطن ضعفى وأخطائى كما هى ، ولأعترف بها فى صراحة بينى وبين نفسى ، ثم لأرسم الطريق الذى يناسبها ، ولأطمئن إلى ذلك ، فلكل إنسان مواطن ضعفه . وليس من الضرورى أن تكون مواطن الضعف علامة الرجل الضعيف ، بل فى كل قوى — أيضا — مواطن ضعف ، فإن أمكنك معرفة أسبابها وإزالتها فبها ونعمت ، وإلا فارض بما كان واستعمله خير استعمال .

لقد حدثت فى حياتك أحداث فى عهد الصبا والبلوغ والشباب كان لها أثر كبير فى تكوين نفسك كما هى الآن ، فإن تعسر عليك تغييرها فأحسن استخدامها .

ولا تأس على مواطن ضعفك ، فالكهرباء قد تكون قوية فتحرق . ولو كانت أضعف لأدت الغرض ، وقد تنفع الحصاة حيث لا ينفع الحجر ، وقد ينفع الجدول مالا ينفع البحر .

وهنا رفعت رأسى فرأيت غروب الشمس فى البحر ومنظره الجليل الرائع ، فتركت ما كنت فيه وفنيت فى هذا الجلال الرائع .

أحمد أمين

فرحـــة ...

يا فرحتى . . . عادت لياليـنا
وتألقت فيهـــا أمانيـنـــا
ورجعتِ للروض الذى انطلقت
من عشِّه أولى أغانينــــا
الشوقُ . . كلُّ الشوقِ يملأُنا
والحبُّ ينشرنا ويطوينــــا
يا ليت هـــذا الحبَّ لا يفنى
بل ليته يبقى ويفنينــــا
النارُ فى الأحشاء قد بَعَثَتْ
نوراً خبتْ فيه دياجينـــا
إن الشبابَ الطَّلْقَ ينشدنا
والحبُّ بالبشرى يناديـنـــا
طافت على الأطيار نشوتُنا
عذراءَ فانطلقت تغنينـــا
وتبسَّمتْ فى الزهر بهجتُنا
فَهَفَا بنجواه يحيِّينـــا
لا شئَ غيرَ رضاكِ يسعدنا
لا شئ غيرَ الشر يشقينـــا
فلتملئى كأساتنا أملاً
يا فرحتى . . عادت ليالينـــا

أحمد الطيبى

مولد
المجموعة الشمسية

[استعرضنا في العدد ٣٤٠ بعض الآراء القديمة لنشوء المجموعة الشمسية التي قامت على أساس وجود كتلة سديمية عظيمة لها حركة دورانية ، وتتكون منها بفعل الجاذبية كرة كبيرة هي الشمس التي يعتريها على توالي الزمن زيادة في البرودة ونقصان في الحجم وتزايد في سرعة الدوران ، مما يؤدي إلى فرطحتها . وإلى أن يحدث عند منطقتها الاستوائية انفصال لبعض أجزائها يبرد وينكمش ويتجمد ويدور حول الكتلة الأصلية ، ويصير أحد الكواكب كما حدث فعلا في ذلك الفصال أو السيارات كما سنبينها في هذا . وهكذا تتكرر هذه الظاهرة على التوالي . وأشرنا إلى أن الرياضيين الذين جاءوا بعد لبلاس أثبتوا أن الحركة الدورانية التي ينتظر أن تكون في هذه الكرة المتكتلة لا يمكن أن تؤدي إلى هذا الذي توقعه العلماء الأقدمون وبذلك انهارت نظرياتهم تلك

واليوم نورد أحدث الآراء عن مولد المجموعة الشمسية ونحن في هذا ننقل عن السير جيمس جينز نفسه صاحب هذه الفكرة الحديثة . والسير جيمس فلكي شهير معروف في مصر لأنه مؤلف « النجوم في مسالكها » الذي عربه كاتب هذا المقال ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ بضع سنوات وقد ظهرت الطبعة الثانية له في هذه الأيام الأخيرة]

قد دلت البحوث الحديثة على أن اعتراض الرياضيين على فكرة لبلاس يصدق على كل « تخمينة » مثلها تعزو مولد السيارات إلى ما حدث لنجم مفرد وحده ، فقد ذاع بين العلماء وتبين لهم بكيفية واضحة أنه لابد لحدوث هذه الظاهرة من جسمين لا جسم واحد ، أي أن السيار يولد من أب وأم لا من أم بمفردها . ففي منتصف القرن الثامن عشر تصور البعض أن أسرة الشمس ربما نتجت عن تصادم ، بين الشمس ومذنب مار ، نشأ عنه تناثر قطع من الشمس في الفضاء ، وتكاثفها مكونة السيارات الحالية . وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت نظرية شبيهة بهذه حل فيها نجم محل المذنب ، وكان فيها التصادم غير مباشر أي مجرد تلامس خفيف عند الحافتين ، وإن نشأ عنه في هذه الحالة أيضاً انفصال قطع من الشمس بتأثير جاذبية النجم العابر . وفي السنوات الحديثة عاد بعض الرياضيين لنفس النغمة أو لسلسلة من التفكير مطابقة لهذه .

لكن جميع النظريات التي من هذا النوع ترتطم بصعوبة ذات بال . ذلك أن السيارين العملاقين المشترى وزحل لكل منهما مجموعة مترامية الأطراف من التوابع ، ومن ثم يكون كل منهما بتوابعه صورة طبق الأصل مصغرة المجموعة الشمسية الأصلية وسياراتها . ونظراً لهذا التشابه العظيم بين المجموعات الثلاث ، المجموعة الشمسية والمجموعة المشترية والمجموعة الزحلية ، يكون من المستغرب أن ينشأ بعضها بطريقة مغايرة لنشوء البعض الآخر . ومع ذلك فلا يجوز لنا أن نفترض نشوءها جميعا عن طريق ذلك التصادم الرقيق الذي أشرنا إليه ، فذلك يندر أن يحدث مرة ، ومن ثم فإن النظرية التي تفترض احتمال حدوثه ثلاث مرات تكلف الطبيعة فوق طاقتها .

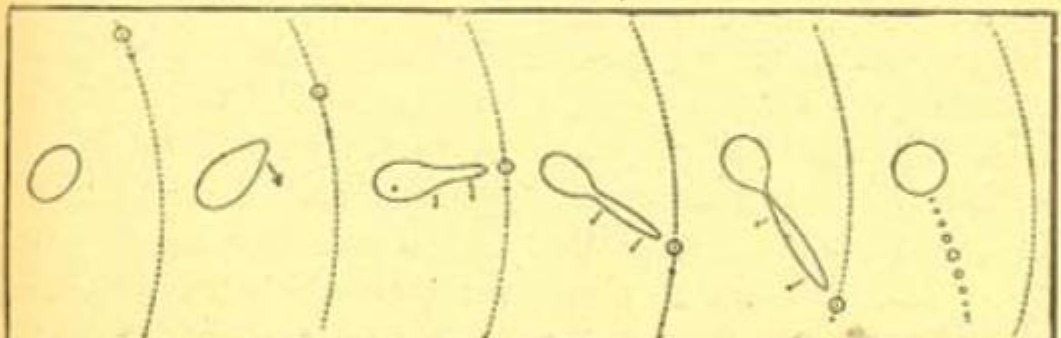
وفي آخر القرن التاسع عشر طلع أحد الرياضيين في كمبردج برأي جديد ، هو أن الجسم الثاني ربما عمل على تكوين السيارات حول الشمس دون أن يتصادم معها بالمرة ، ولكن بفعل الاضطرابات المدية التي يحدثها فيها . وفي أوائل القرن العشرين تقدم آخرون بنظريات شبيهة بهذه دون أن يعلموا شيئاً عن الاقتراح الكمبردجي الذي ذكرناه . فقد تصور عالمان أمريكيان أنه حدث في أحد العصور الماضية السحيقة أن تعرضت الشمس لهياج أحدث فيها طفحا يبدو على وجهها على صورة نتوءات كالتي تشاهد عليه في الوقت الحاضر وإن كانت أشد من هذه وأقوى . ثم تصادف أن مر بجوار الشمس وهي على هذه الحال نجم طواف اقترب منها إلى الحد الذي يجعل ما يحدثه من مد فيها قويا يضاعف ما عليها من طفح ونتوء ، وكان من أثر ذلك أن انفلت عن سطحها عدد كبير من كتل غازية مندفعة بسرعة ، سرعة من العظم بحيث مكنتها من أن

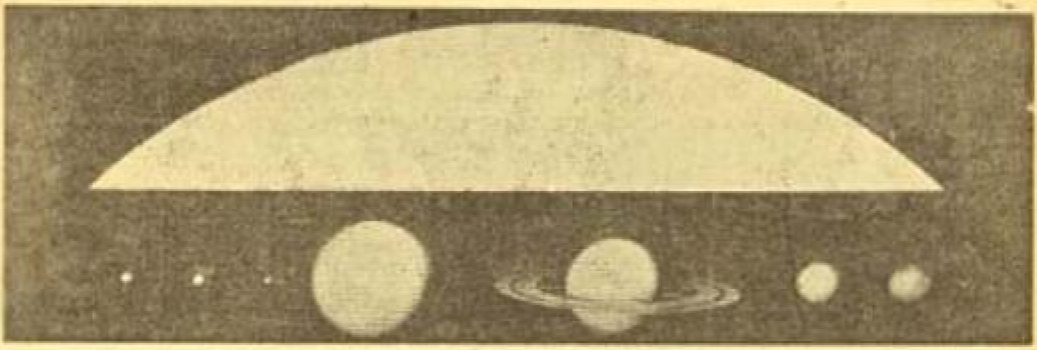
تجاوز جو الشمس وتفلت من قبضتها . وما لبثت هذه الكتل أن تكاثفت في النهاية أجساما صلبة بعيدة في الفضاء . ثم حدث على مر الزمن أن تجمع من هذه بفعل الجاذبية أعداد كبيرة تكتلت فكونت السيارات الحالية . لكن عيب هذه النظرية أن كتل الغاز التي من هذا النوع لا ينتظر أن تتكاثف إلى أجسام صلبة لأن ضغط الغاز الداخل فيها يجعلها تتمدد فتنتشر في الفضاء كما ينتشر الغاز في الغرفة من صنبور مفتوح .

وفي سنة ١٩١٦ بيّن السير جيمس جينز سلسلة الحوادث التي تنشأ عن اقتراب نجم ثان من الشمس بدرجة محسوسة ، وانتهى إلى أن أثر المد يكفي بذاته لفصل جزء من الشمس وتكوين أسرة من السيارات بغير حاجة لافتراضات كالتي سبقت الإشارة إليها . وإليك ملخص العملية كما وصفها السير جيمس :

كما أن قرب القمر من الأرض ينشأ عنه مد وجزر يبدو على المحيطات ، بل على جسم الأرض الصلب نفسه ، كذلك يؤدي اقتراب نجم ثان من الشمس إلى حدوث مد في الشمس الغازية ، مد يختلف تماما عن المد التافه الذي يحدثه القمر في الأرض . وترجع تفاهة المد الأخير من جهة إلى أن القمر صغير جدا بالنسبة للأرض ، ومن جهة إلى بعده عنها العظيم نسبيا (فهو قدر نصف قطر الأرض ستين مرة) . ومعلوم أن الآثار المدية تتناقص تبعا لمكعب المسافة . أما في حالتنا هذه فإن النجم الثاني يكون على الأقل مساويا للشمس في كتلتها ، ويقترب منها إلى نحو ضعف نصف قطرها أو ثلاثة أمثاله . ومن ثم يتجلى لنا أن آثاره المدية يجب أن تكون عظيمة جدا . وقد أثبتت الحسابات أنه بدلا من الارتفاع الطفيف الذي يبدو على سطح الأرض في حالة مدها ، يحدث في الحالة التي نحن بصددها أن جبلا ضخما من الغاز يتكون على سطح الشمس ويتراكم ويتمدد ويتحرك تبعا لاقتراب النجم الثاني ، ولا يكاد يوجد حد لتزايد سرعة نموه ، حتى ينتهي الأمر إلى أن يبرز مندفعا على صورة لسان غازي طويل ، انتزعته من الشمس قوة الجذب الناشئة عن النجم الثاني ، وتراه على الدوام متجها نحوه كما في الشكل الأول .

فإذا ما انفصل عن الشمس ذلك اللسان السجاري الشكل يحدث له أمران : الأول التكاثف والثاني التجمع أو التكتل . ذلك أنه لابد من حدوث بعض اختلافات في كثافة أجزائه وعندها تتجمع الأجزاء القريبة من جزء مركز كثيف إذ يصير هذا بمثابة نواة تجتذب إليها وتتكتل معها الأجزاء المجاورة . وهاتان الظاهرتان مجتمعتان ينشأ عنهما تكون سلسلة من الأجسام الكبيرة الناشئة عن التكاثف والتكتل وهي السيارات . وفي استطاعتنا أن نحسب كتل الأجسام المتكونة في مثل هذه الحالات تبعا للظروف الطبيعية المعينة التي تقع فيها الظاهرة ، ويدل الحساب على أن ما يتكون منها في مثل هذه الحالة





(حالة الشمس التي يصيبها فعل المد العنيف) يكون له كتل تساوي على وجه التقريب كتل السيارات الواقعية المعروفة .

وإذا رجعنا إلى الشكل الأول تبين لنا أنه من المنتظر بعد حدوث التكاثف والتكتل أن يكون أكبر الأجسام العظيمة المتكونة واقعاً قرب وسط اللسان السجاري ، حيث تكون المادة مكدسة ، وأصغرها قرب الطرفين حيث تكون المادة مخلخلة . فلو أن السيارات تكونت على هذه الصورة التي شرحناها لاحتلت الكبرى منها وسط السلسلة والصغرى منها نهايتها فتكون هذه الصغرى أقرب السيارات إلى الشمس وأبعدها عنها ، وهذا هو بالضبط ما نجده في الواقع . فالمشتري وهو أكبر زملائه وأثقلها يحتل المكان الأوسط في السلسلة . وحين نتجه نحو أحد طرفيها تتناقص السيارات في أقدارها وأوزانها حتى نصل إلى عطارد في الطرف البعيد من الشمس وبلوتو في الطرف القريب منها (انظر الشكل الثاني) .

وهذه السيارات تدور الآن في أفلاك تكاد تكون دائرية تماما ، لكننا نعلم أن هذا يرجع إلى مواصلتها السير آلاف الملايين من السنين وسط ما تخلف من غاز ورماد عن تلك الحادثة المروعة التي كانت السبب في مولدها . لكن لنا أن نفترض أنها عند ماظهرت في الوجود كتلا منعزلة متميزة كانت مساراتها على جميع الأنواع والأشكال ، لا يبدو فيها أي انتظام فيما عدا وقوعها كلها في مستوى واحد هو ذلك المستوى الذي كان يسير فيه النجم الذي بعثها إلى الوجود . وربما أتى على أحدها حين اقترب فيه من الشمس قربا يعرضه للتفتت بفعل جذبها المدي كما حدث لأمه الشمس من قبله . بل إن كتلة المشتري العظيمة قد تكفي لتفتيت سيار آخر يقترب منه في طوافه قربا عظيما . على هذا الوجه أو ما يشبهه يصح أن نتصور تكون مجموعات التوابع التي لا تفتأ تدور حول السيارات ، وكذلك النجيمات التي تشغل الفجوة الواقعة بين المريخ والمشتري .

هذه هي النظرية التي تفسر نشوء المجموعة الشمسية وتطورها وهي مبنية على أمور واقعية . فالمدود موجودة بالفعل في الكون ، ولابد أن يكون بعض المجموعات الكوكبية قد تكون بالفعل عن هذا الطريق . فإذا سئلنا عن السيارات في مجموعتنا الشمسية بالذات : هل هكذا ولدت ؟ لم نجد إلا الجواب التقليدي الذي درج العلماء عليه ، وهو أن افتراض مولدها على هذا النحو قد أعاننا على تفسير عدد كبير من الخصائص التي لاحظناها عن هذه المجموعة ، ومن الصعب أن نقول إن ذلك التوافق في هذا العدد العظيم من الحالات يرجع إلى مجرد المصادفة .

احمد عبد السلام الكرداني

إلى من يلزمهم من المفكرين :

خواطر حران

هذا الحر الشديد يوشك أن يزهق الأنفاس ولا يكاد الإنسان يستطيع فيه تحمل الحركة. فليس لي فيه من حيلة إلا أن أستلقي في جمود وأطلق العنان لهذه الخواطر الوثابة التي تتوالى علي من هنا ومن هناك في خفة الطير لا تتعمق معنى ولا تتريث في وثباتها . ولقد هممت أن أسوق إلى القراء حديثاً من الأحاديث الفكهة التي لا تكلفهم عناء ولا تحملهم من الجد ما يزعجهم في مثل هذا الجو اللافح . ولكني خشيت إذا أنا فعلت ذلك أن أتعرض اللوم من أصدقاء كرام لهم عندي مكانة عالية وأدباء أفذاذ لهم في الأدب باع طويل . خشيت إذا أنا فعلت أن يتجهم هؤلاء الأصدقاء إلي في وجوم يستنكرون علي اصطناع الخفة في مثل هـذه الظروف التي لا مجال فيها إلا للجد الصارم . فهم يأبون إلا أن يشقوا على أنفسهم وعلى غيرهم ولا يرضون بالجد بديلا . ولهذا فلست أريد اليوم أن أتحدث عن جحا ولا أن أبين طرفاً آخر من فلسفته العميقة الضاحكة ، وإن كانت تلك الأحاديث أقرب إلى الجد منها إلى الهزل الباطل ، فلست أحب أن أثير غضب أصدقائي ، فإن عواطفهم عندي أولى بالرعاية والعناية من ذكرى الفلاسفة الغابرين .

ولقد أذكرني هذا الجو اللافح بأمور شتى لا يمكنني أن أحصرها فأنا أرسلها على السجية إرسالا منثوراً في غير عقد ولا نظام . وعذري في ذلك أن هذا الحر الخانق لا يدع في الفكر عقداً ولا نظاماً . سألت نفسي وأنا مستلق على مقعدي في فتور فقلت : « ما بالنا نتعب أنفسنا ونتعب الناس معنا في هذه الخطط التي نرسمها وهـذه الآراء التي نصبها عليهم صباً كأننا قد وكل إلينا أمر هـذا العالم وطلب إلينا أن نرسم له الخطط ونبين له وجوه الآراء ؟ » .

وما زلت ألح على نفسي بهـذا السؤال حتى كدت أسخر من نفسي وأحملها قسراً على ترك التفكير ولزوم التواضع فلا تزعم أن لها حقاً في النصح ، ولا أن عليها واجباً في الإرشاد . ولكني عدت إلى نفسي فسألتها : « ماذا تكون حال هـذه الحياة إذا كان الناس جميعاً لا يفكرون ولا ينصحون ولا يرشدون ؟ » . لقد عرفت قوماً من الأصـدقاء يضطلعون بأعباء التفكير والنصح والإرشاد ، ويقبلون على ذلك ليلا ونهاراً في مثل هـذا اليوم القائظ ، لا يكادون يحسون وقدته ، ولا يكادون يعبأون فيه بطعام ولا بشراب ، وهم يفعلون ذلك إخلاصاً منهم للمصلحة العامة . أليس هؤلاء زينـة المجتمع وزهوره وموضع الأمل فيه ؟ أينبغي لهؤلاء أن يقلعوا عن التفكير والنصح والإرشاد ويلتمسوا لأنفسهم الراحة من ذلك العناء كله ؟ وماذا تكون الحياة لو خلت من أمثال هؤلاء ؟

ولكن العجيب في ذلك الأمر أن هؤلاء الذين يحملون المشقة الكبرى في سبيل التفكير والنصح والإرشاد حرصاً منهم على المصلحة العامة ، هؤلاء الذين لا يبالون حراً ولا برداً ولا يشفقون على أنفسهم من الكد المتصل ، يريدون في أكثر الأحوال أن يحملوا الناس على تفكيرهم في شيء من القسر ، ولا يحبون أن تناقش آراؤهم ، ولا أن تعدل الخطط التي يرسمونها . فإذا أحس بعض منهم أن بعضاً آخر يريد أن يناقش خطته أو أن يعارض ما رسمه من الخطط ثار ذلك البعض وغضب ونهض إلى البعض الآخر ، فلا تسل بعد ذلك عما يكون من طعن في الوجوه وخبط في الرؤوس ومن قول يسيء ، وتهم تساق وشتائم تكال كيلا ، حتى يصيروا جميعاً في نظر الناس أقرب إلى الشياطين منهم إلى الملائكة . أليس هذا عجيباً في حكم العقل الهادئ ، الذي يفكر وهو مستلق على مقعده في مثل هذا اليوم القائظ ؟ إن هؤلاء الذين يشقون على أنفسهم ويحملونها أثقل الأعباء في سبيل المصلحة العامة لا يعودون أخيراً إلا بالطعنة الشديدة والكلمة القاسية والريب السخيفة . وممن تأتي إليهم هذه الطعنات والريب ؟ من أنفسهم ومن نظائرهم الذين وقفوا حياتهم وذكاءهم

وإخلاصهم في سبيل الخدمة العامة . أليس هذا في الحق عجيباً ؟

ثم سألت نفسي : ماذا يضير الرجل المصلح الذي يريد النصح والمفكر الذي يريد أن يبين للناس سبيل الهدى ، ماذا يضير هؤلاء لو ناقش غيرهم آراءهم وأصلحوا من خططهم ؟ لقد كان أجدر بهم أن يشعروا الغبطة الكاملة إذا هم رأوا آراءهم تمحص وتناقش وإذا هم رأوا خططهم تدرس وتعدل لكي تكون أكفل بتحقيق المصلحة التي يحرصون عليها ، فان مناقشة الآراء أو تعديل الخطط ليست سوى علامة من علامات التقدير ، وهي تحية يوجهها الناس إلى من يحترمون آراءهم ويقدرون خططهم . فان الذي يبني على أساس قائم ويحاول تدعيمه وتعديله إنما يقر على نفسه بأنه يعتقد أن ذلك الأساس صالح لأن يقوم عليه البناء وصالح لأن يؤدي إلى المقصود منه بعد التعديل والتقويم .

ثم سألت نفسي : ما الذي يحمل بعض المفكرين إذا أرادوا أن ينتقدوا آراء غيرهم من المفكرين لا يقنعون بغير التجريح والهجوم على الأشخاص . فالرجل الذي يتصدى للخدمة العامة لا يطلب منه شيء أكثر من أن يبذل جهده وأن يبالغ في تحري صدق النصيحة صادراً في ذلك عن إخلاصه وعن إيمانه ، وهو غير مطالب بأن يكون مصيباً في كل ما يرسم من الخطط ، فاذا هو أصاب وحبذ الناس عمله كان له أن يغتبط لأنه وفق إلى تحقيق ما أراد من الخدمة ، وإلا فانه أجدر الناس بأن يسر ويسعد إذا نوقشت آراؤه ونقدت خططه حتى تصير أكثر تحقيقاً للمصلحة التي ينشدها .

هذا ما أتصوره وأنا هنا خال مع نفسي في هذا اليوم اللافح ، فلست أفهم السبب الذي يحمل بعض المفكرين يقسو على البعض في الطعن والتجريح إذا أراد هذا البعض أن يبين مواضع الخطأ في آراء البعض الآخر .

ثم خطر لي خاطر آخر في مسائل التعليم . ولست أزعم أنه خاطر موفق ، ولست أدعي أني قد جعلته لنفسي مذهباً في الرأي ، بل هو خاطر عابر ألقيه في هينة ، ولست أريد به تعرضاً لمذهب من المذاهب التي يحملها هذا العصر الحديث محل القداسة ، أقصد أني لا أريد أن أتعرض للديمقراطية في شيء إذا أنا أفضيت بهذا الخاطر الذي خطر لي وأنا مستلق على مقعدي في هذا الحر الشديد .

فأنا أسأل الناس : هل تتقدم الأمم حقيقة إذا تعلم جماهير أهلها تعلماً عاماً ضئيلاً ، أم هي تتقدم إذا تعلم خاصة أذكيائها تعلماً سليماً عميقاً ؟ أو بقول آخر أحب أن أسأل الناس : هل من الخير لنا أن نصرف الملايين في تعليم القراءة والكتابة الملايين في التعليم العام أم أن نصرف تلك الملايين على تعليم مئات الألوف تعليماً صحيحاً يجعلهم في مصاف المتعلمين حقاً في الأمم الأخرى ؟ .

إن الأمم الديمقراطية الحالية لم تصل إلى تعميم التعليم إلا بعد أن صارت فيها نواة صالحة من العلماء البرزين والمفكرين الممتازين وأصحاب الثقافة العالية في مختلف الفنون ، بل لقد كانت هذه النواة هي العامل الأكبر في تعميم التعليم لأنها كانت دائماً تفيض بالعلم والفكر والثقافة على غمار الناس فلم تلبث الجماهير أن أفادت من علمها وثقافتها وفكرها . ألا يكون الأصلح لنا أن نقف قليلاً عند لفظ الديمقراطية ونفكر في الحقائق قبل أن تجرفنا الألفاظ البراقة معها ؟

ولقد خطر لي خاطر آخر أحس بالخجل من نفسي إذ خطر لي ، ولكن الأمانة تقضي علي بأن أصارح القراء به ، فهذا من حقهم أن يعلموه مادمت قد عزمت على أن أحدثهم بخواطري . فقد سألت نفسي وأنا مستلق في هذا الحر الشديد : أيهما أفضل لأهل قرية من القرى ، أن تكون عندهم مدرسة تعلم الصبيان القراءة والكتابة وقليلاً من الحساب ثم تتركهم بعد ذلك يلعبون على الكيمان أو يسوقون الحمير التي تحمل السماد إلى الحقول (والمدرسة القروية كما هو معلوم قد تكلف الدولة ألفاً أو ألفين من الجنيهات كل عام) أقول هل هذا خير لأهل القرى أم أن تنشيء لهم كل عام مؤسسة من المؤسسات بألف أو ألفين من الجنيهات

يقوم بعضها بالصناعة الزراعية وبعضها بتحسين وسائل الزراعة وبعضها بالصناعة الريفية التي تقوم على المنتجات التي تخرجها بيئتهم وهكذا . حتى إذا وجدت الأيدي عملا يشغلها ويستنفد كل وقتها ويعلو بمستوى معيشتها نظرنا بعد ذلك في تعليم الصبية القراءة والكتابة والحساب لكي نجعلهم أقدر على الحياة الكاملة ؟ ألا تكون هذه المؤسسات نفسها بمثابة مدارس يتعلم فيها الناس دروس الحياة ؟ ألا يكون من الممكن أن تلحق بهذه المؤسسات فصول لدراسة ما يلزم العمال من كتابة وقراءة وتوجيه في الصناعات ؟ إن الصيحة اليوم عالية تنادي بضرورة إذاعة التعليم، وأنا أخجل من نفسي لأني معلم أعتقد اعتقاداً راسخاً في ضرورة التعليم، ومع ذلك أجهر قائلا بأن تلك المصانع الصغيرة أولى بالعناية من التعليم . ومع ذلك فقد يكون لي العذر فيما أذهب إليه في هذا الرأي، فإن الحياة عندي من أول ما يجب أن نقصد إليه . وقد أتصور شعباً حيا يعيش وينمو ويقف على رجليه كاملا إذا كانت مادة الحياة متوفرة عنده، ولكني لا أتصور شعباً يقف على رجليه إذا كانت مادة الحياة تعوزه . فإذا كان العلم الذي نريد أن نوزعه على هذا الشعب لا يزيد على القراءة والكتابة ومبادىء الحساب فإني أتردد كثيرا في أن أسمي ذلك علماً، وأولى عندي أن يجد هذا الشعب رزقا يمسك رمقه ويمكنه من الحياة المعقولة . وأكبر ظني أنه إذا استطاع أن يجد الرزق الكافي أمكنه أن يلتمس لنفسه العلم من مظانه لأنه يكون أقدر على التماسه بما عنده من فضلة في الرزق .

إن هذه الخواطر وليدة المرور، ولا ينبغي لها أن تزعج أحداً، فإذا رأى أحد فيها خطأ فأرجو أن يحمل ذلك على أني أرسلها ألفاظا حائرة لست آسف بها أن تذهب مع الريح، وليمض المفكرون في تفكيرهم العميق لكي يصرفوا الملايين الكثيرة حيث يرون المصلحة في صرفها . فليست هذه الآراء سوى خواطر حيران والسلام .

محمد فريد أبو حديد

الملينات والمسهلات

لهـا أيضاً فلسفتها

مضى على طبيب العائلة حين طويل من الدهر كان يمن خلاله فى استنزاف أنسجة مرضاه بما يصفه لهم من المسهلات فى كل مناسبة . وكان هذا المبدأ مقدساً عند العامة والخاصة ، حتى لقد اتبعه بعضهم بدقة وانتظام كل أسبوع أو أكثر من الزمان بحجة أن الملينات تطرد سموم الأمعاء فتنظف الآلة الجسمية وحركاتها لتبدأ نشاطها من جديد وهى أتم ماتكون لينا وقوة . وأسىء فهم هذا المبدأ الذى لا يخلو من فائدة فى كثير من الأحيان سواء فى الصحة أو المرض ، ونتج من هذا بعض المآ كسات التى أودت بحياة المريض فى بعض الحالات ، ففطن رجال الطب إلى تنبيه الجمهور إلى الظروف التى يسمح فيها والتى لا يسمح فيها بتعاطى الأدوية المسهلة . ولا بأس من سردها فى بدء المقال ليكون فيها إنذار وموعظة ، ويجب أن يعتبرها الطبيب وغير الطبيب أقوالا مأثورة يحفظها من ظاهر قلب ولا يحيد عنها قيد أنملة . وتتلخص هذه القواعد العامة فى الآتى :

(أولاً) ليس هناك أى داع لإعطاء مسهل فى بداية الحميات الحادة كالالتهاب الرئوى أو الحمى القرمزية أو الدفتريا .

(ثانيا) من الخطر إعطاء مسهل أو ملين أثناء الحميات الطويلة الذى كالتيفود مثلا . ولا ضرر من الامساك الذى قد يصحبها ويكتفى فى مثل هذه الحالات بعمل حقنة شرجية كل يوم أو يومين .

(ثالثاً) لم يثبت حتى الآن أن لإعطاء مسهل حاد أى تأثير سريع فى علاج التهاب اللوزتين أو أى التهاب موضعى فى أجزاء الجسم المختلفة .

(رابعاً) من الإجرام إعطاء ملين أو مسهل فى حالات ألم البطن الغامضة وخاصة إذا كانت مصحوبة بقىء . فقد يكون الألم مسبباً عن التهاب المصران الأعور مثلا فيؤدى تعاطى المسهل إلى انثقاب المصران الأعور الملتهب وانتشار الالتهاب إلى الغشاء البريتونى ، وهذا هو الخطر المحقق .

(خامساً) جرت العادة أن تغدق الملينات بسخاء على المريض المصاب بهبوط القلب الحاد أو المزمن . وحرام أن ترهق مريضاً أنهكه ضيق التنفس وألم الصدر بإرغامه على الحزق والتمشى بين آن وآخر . فلنترك الطبيعة تأخذ مجراها ، وإذا اقتضى الحال فلا بأس من تعاطى ملين خفيف أو عمل حقنة شرجية للمريض .

* * *

والفرق بين الملينات والمسهلات أن الأولى تسهل خروج البراز دون أن تؤثر على قوامه . أما الثانية فإنها تطرد من الجسم مواد برازية تحوى كمية من السائل أكثر منها فى البراز العادى ، فتصير مائعة أو سائلة إذا كان التفاعل الموضعى شديداً . والسر فى هذا أن الجسم يمتص كثيراً من محتويات البراز السائلة أثناء مروره بالمصران الغليظ ، فإذا قصرنا مدة رحلة هذه المواد البرازية فى الأمعاء — وهذا هو مفعول المسهل — تسرب البراز إلى خارج الجسم محملا بشحنة هائلة من المياه ، وذلك لأننا لانعطى المصران الفرصة الكافية لامتصاصها وردها إلى الجسم لتستفيد منها أنسجته وخلاياه . وهــذا هو السر فى أن الذى ينتابه الإسهال لسبب ما ، يميل إلى تجرع كميات من الماء تعوض عليه مافقده من برازه المتكرر من سائل . والربط الذى تقف فيه المواد البرازية بعض الوقت ليستخلص منها الجسم ماتحويه من سوائل هو الأمعاء الغلاظ ، وكلما طالت مدة وقوفها زادت صلابة ويبوسة . وهذا يفسر شكل البراز وقوامه فى حالات الإمساك الشديد حيث قد تصلان إلى درجة من الجفاف يجرح معها الشرج ويقطر دما .

وتختلف المسهلات فى شدة مفعولهـا : فمنها اللطيفة التى تؤدى واجبها فى سهولة ويسر دون ألم أو إرهاق . ومنها الشديدة التى تعمل مفعولها فى ضجيج غير مستحب مصحوب بآلام فى البطن تسبق خروج براز قد يكون مائياً . وتكثر الآلام عند تعاطى الأدواء التى يتوقف مفعولهـا على تنبيه عضلات الأمعاء تنبيها مباشراً كما هى الحال فى الكسكرة والراوند والصبر والسنامكة والحلبة ، وكلها أفراد من مجموعة الملينات النباتية وهى أبطأ فى مفعولها من زيت الخروع والأملاح المسهلة كسلفات الصودا وسلفات المغنزيا وغيرها .

وتنقسم الملينات من حيث مفعولها إلى نوعين : الأول ينشط الانقباضات العضلية للأمعاء بتنبيهها مباشرة ، والثانى يؤدى هذا الغرض بطريق غير مباشر ؛ فالمعلوم أنه كلما زاد حجم محتويات الأمعاء لدرجة تتمدد فيها عضلاتها ، تهيجت هذه العضلات وزادت تقلصاتها محاولة طرد الذى أقلقها فى فترة راحة وخمول كان بودها أن تستغرق فيهما دون إزعاج . ولنسرد الآن بضعة أمثلة من كل من المجموعتين فان فى التفاصيل علماً ومتعة .

المجموعة الأولى : وهى التى تؤدى عملها بتنبيه الغشاء المخاطى أو الطبقة العضلية فى الأمعاء . وهاك بعض أمثلة منهـا : (أولا) تحوى بعض الفواكه كالتين والأراسية نسبة من الأحماض العضوية كافية لتنشيط الأمعاء لدرجة معقولة . (ثانياً) مسحوق الكبريت ويتلخص مفعوله فى انبعاث غاز الهيدروجين المكبرت فى القولون ، ولهذا الغاز بالذات خواص ملينة . (ثالثاً) زيت الخروع وهو مسهل شائع الاستعمال ، وسر مفعوله أنه يتحلل فى الأمعاء الدقاق فيخرج منه حامض اسمه حامض الرايسينوليك ، له خواص منبهة تهيج الغشاء المخاطى للأمعاء . وحتى زيت الخروع هـذا كان موضع بحث وجدال طويلين ، فهناك مدرسة تقول إنه يؤثر فقط على الأمعاء الدقاق ، وأخرى أثبتت أن مفعوله يسرى على الأمعاء الدقاق والغلاظ سواء بسواء . وسواء هذا أو ذاك فان زيت الخروع يبدأ مفعوله بعد ساعات قلائل من تعاطيه ، وهو معدود فى المرتبة الأولى بين المسهلات لولا رداءة طعمه . ولعل الإمساك الذى قد يعقب مفعوله الملين ناتج عن أنه يؤدى الغرض وافيا لدرجة أنه لا يترك بالأمعاء فضلات ، ولذا قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتراكم مواد برازية تتطلب من الجسم طردها والتخلص منها . ويتراوح مقدار الجرعة بين خمسة جرامات وخمسة عشر جراما بحسب سن المريض ، أو بالتقريب من ملء ملعقة صغيرة إلى ملء ملعقة كبيرة . (رابعاً) مجموعة الانثراسين ومن أفرادها الصبر والراوند والسنامكى والكسكرة . وهى بطيئة فى مفعولها لأن العناصر الملينة فيها تنبعث فى بطء زائد ولا يظهر مفعولها إلا عند وصولها إلى الأمعاء الغلاظ ، وهناك فقط يبدأ تأثيرها . ولذا كانت هذه المجموعة أنسب ما تكون ليتعاطاها الشخص فى المساء فلا يظهر أثرها إلا فى الصباح . وخلاصة الكسكرة هى ألطف هـذه المجموعة كلين ، أما السنامكى فانها كثيراً ما تحدث آلاما بطنية ، وقد يمتص جزء من عناصر الصبر فى الدورة الدموية فيؤثر تأثيراً سيئاً على الكليتين ويسبب انقباضات رحمية قد تؤدى إلى الاجهاض ، ولذا يحسن الاحتياط فى استعمال أفراد هـذه المجموعة فى حالات الحمل (خامساً) الفينولفثالين وهو الموجود فى (الفيناملت) الشائع الاستعمال كلين للأطفال وغيرهم ، وفى ملينات أخرى كثيرة كالأجارول والبترولأجار . وهو يشبه فى مفعوله أفراد المجموعة السابقة . وله ضرران لا بأس من ذكرهما : الأول أنه قد يسبب طفحا جلديا ، والثانى أن جزءا منه يصل إلى الدورة الدموية ومنهـا إلى الكليتين حيث يحدث احتقانا أو التهابا ، وجزءا آخر تفرزه الصفرة وبوساطتها يصل إلى الأمعاء مرة ثانية ويبدأ مفعوله من جديد ، ولذا يلاحظ أن مفعوله قد يستمر ثلاثة أيام أو أربعة بعد تعاطيه .

أما المجموعة الثانية وهي التي يتوقف مفعولها على زيادة حجم محتويات الأمعاء، فمن أهم أفرادها المسهلات الملحية مثل سلفات الصودا وسلفات المغنزيا ولبن الشاقى أنواعها مفعولا . وهذه الأملاح تقيد إليها السوائل الموجودة بالأمعاء وتمنعها من أن تمتص إلى الدورة الدموية ، ومتى تمددت الأمعاء نتيجة لذلك ، انقبضت عضلاتها وطردت محتوياتها . ومن أفراد هذه المجموعة أيضا زيت البرافين ، ويرجع مفعوله في الغالب إلى أنه يكوّن طبقة زيتية على سطح البراز فيسهل خروجه من جهة ، ويمنع امتصاص المواد القابلة للامتصاص من جهة أخرى ، فيزيد هذا من حجم محتويات القولون وتنتبه الانقباضات العضلية نتيجة لذلك .

وهناك اعتقاد سائد وهو أن مفعول زيت الخروع الملين يعقبه إمساك قد يستمر يومين أو ثلاثة .. والواقع أن هذا يحدث عقب تعاطي أي ملين . والسر في ذلك يرجع إلى عاملين : أولهما أنه يجب أن يمضي بعض الوقت حتى يشحن القولون بالمواد البرازية مرة أخرى بعد أن أفرغ تفريغا كاملا ، وثانيهما أن الأمعاء تمر في دور من الخمول بعد نشاطها غير العادي الذي يعقب تعاطي المسهل ، وكأنها تريد أن تستجم بعد رحلة شاقة لتبدأ عملها من جديد .

ويصح أن نذكر كلمة أو كلمتين عن أكثر الملينات مناسبة في مختلف الظروف . ففي حالات الإمساك الحاد المصحوب بألم في البطن يفضل عمل حقنة شرجية إذا كان تشخيص الحالة غامضا لأنه قد يكون نذيرا بحدوث أزمة بطنية كالتهاب المصران الأعور أو الانسداد المعوي الحاد . وإذا لم يكن هناك بد من إعطاء ملين فليكن زيت البرافين فإنه أكثرها أمانا . وفي حالة الحميات عموما يحسن الاقتصار على عمل الحقن الشرجية وتجنب المسهلات ما أمكن لأنها لا تخلو من خطورة . وزيت الخروع من أحسن الملينات وأسلمها لولا طعمه . أما الملينات النباتية كالراوند والكسكرة والصبر وغيرها فتفيد في حالات الإمساك المزمن . وقد سبق أن أسهبنا من مفعولها البطيء ، ولذا يمكن تعاطيها في المساء لتبدأ عملها في وقت مناسب في الصباح . أما في حالات الحمل فإن زيت البرافين يؤدي الغرض ، أما الملينات النباتية كالكسكرة وغيرها فتعطى بحيطة وحذر لسبب سبق أن ذكرناه ، وهو أن بعض عناصرها يصل إلى الرحم عن طريق الدورة الدموية ويسبب انقباضات قد تؤدي إلى الاجهاض . وليس هناك ضرر من تعاطي المسهلات الملحية كسلفات الصودا أو المغنزيا بانتظام في الشخص السليم ، فهي علاوة على مفعولها الأساسي ، تنشط الكبد وتساعد على افراز الصفراء ، فتولد في الشخص نشاطا وحيوية يجعلانه يقبل على عمله بقية النهار بجد ونشاط .

ومما لا شك فيه أن الإمساك المزمن يسبب مضايقة موضعية وعامة ، وهذه الأخيرة ناتجة عن امتصاص السموم الخبيثة في الأمعاء ، فإذا ما طردناها بدا الشخص منتعشاً وكأن صمام الأمان من جسمه قد فتح بعد طول الأوان .

وهناك تحذير أخير من الإفراط في استعمال المسهلات دون مبرر . فإن الذي يحدث في حالات الإمساك الشديد أن محتويات الأمعاء الدقاق يتأخر وصولها إلى القولون فتبقى في مكانها مدة أطول تمتص خلالها السموم الموجودة بها . ومهمة الملين في هذه الحالة طرد المواد البرازية على طول الطريق فيقف امتصاص السموم . أما في حالة الشخص السليم الذي يسيء استعمالها بلا مبرر ، فإن المسهل يدفع محتويات الأمعاء دفعاً إلى القولون ، فيصل إليه في حالة سائلة هي أنسب ما تكون لتمتص منها السموم إلى الدورة الدموية ، حيث تحدث في الجسم تأثيرها السيء الضار . والمعلوم أنه في الشخص العادي يجب أن تبقى محتويات القولون في حالة جافة متماسكة تحول دون نمو جراثيم التعفن ، وتقلل ما أمكن من امتصاص سمومها .

ليست الملينات باللعبة السهلة في صيدلية المنزل . إن لها فلسفتها وأسرارها ، فلنحسن استعمالها نحسن عواقبها .

دكتور مصطفى الديواني

من صور الماضى

منذ أربعين عاما خلت كان نظام الإضاءة على حاله المألوف بين الطبقات الدنيا ، ولا يتجاوز المصباح المعروف وما يشبه هذا النوع ، وقد يكون من نوع آخر ممتاز نوعا فى الدور الكبيرة لذوى اليسار والمتاجر الواسعة — وكان جماعة الفراشين يستعملون النجف فى الزينات وإضاءة الأفراح ، وهذا النجف ينار بالشمع لأن أهل ذلك الزمن لا عهد لهم بشركة النور وما استحدثه العلم من الأنوار الحديثة .

أما طريقة إضاءة المساجد والمآذن فهى لا تعدو فى الغالب قناديل الزيت ونحوها عدا المساجد الكبيرة التى تمتاز على غيرها بما تمده لها نظارة الأوقاف إذ ذاك من النجف الذى يستعمل فى بعض ليالى الأسبوع .

وكانت إضاءة مئذنتى القلعة معجزة الزمن ومبعث التفكير ، فهى على ضيقها وارتفاعها يحتمل القائم بإنارتها الجهد الشاق والتعب المضنى الذى لا يتصوره العقل إلا بعد الخبرة والاختبار ، فإن الصاعد فوق درجها لا يجد متسعا يزيد على وضع أصابع القدم الواحدة ، وهى تضاء طبعا فى المواسم الرسمية والأعياد ، وكان المنوط بإضاءتها رجل أناف على الستين من عمره ، يدعى عم حمزة

ولعل هـذه الوظيفة انتقلت إليه من طريق الوراثة فهو فخور بها ، وله من الشهرة وبعد الصيت ما يجعله يترنح فى مشيته صلفا وإعجابا بعمله الذى لا يزاحمه منافس فيه ، يشار إليه فى كل طريق يسلكه وأى مكان يحل به . وكان يتقاضى راتبا لوظيفته هذه خمسين قرشا فى كل شهر ، وظل يرتفع راتبه على توالى الأعوام إلى أن بلغ جنيها ونصف جنيه .

أما العجب العاجب فنى وسائل الإضاءة التى كانت على أكبر جانب من الطرافة والظرف ، فقد كان يتجمع جمهور الأطفال فى ميدان صلاح الدين احتفاء بالليلة المضيئة لتحية عم حمزة بالتهليل والصياح لـكل مصباح ، ويصعد عم حمزة وفى يده قسط الزيت وفى اليسرى مشعل يوقد به المصابيح ، ويظل يكافح ويجالد فى صعوده بحيث إذا اشتعل هو نفسه داخل المصعد فلا سبيل لإنقاذه ، ولا يعلم إلا علام الغيوب ما يحدث له . فإذا انتهى من إعداد واحدة الفتائل وإشعالها وتغطيتها يسمع صيحات شعبه الواقف لتحيته ، وهكذا حتى ينتهى ويبدأ عمله فى الطابق العلوى وهو أضيق وأدق وأخطر من الأول ، ثم ينزل وفى يده قسط الزيت والمشعل فى الأخرى ليوقد مصابيح المئذنة الثانية ، ثم ينهض مبكراً وفى يده قناة مجوفة لإطفاء المصابيح .

وكان العم حمزة ظريفاً متحدثاً فى سذاجته وأميته ، يفكهنا بحديث العفاريت معه أثناء عمله ، ويجتهد فى نشر الألوان المختلفة والصور الغريبة عنها ، ويخلق الناسية إن لم يجدها لتصوير المجيب . ولا أدرى هل كان يعتقد ما يقول أو هو محض إرجاف ليرهب به من تحدثه نفسه بالطمع فى منافسته ، فهو على بساطته رجل معقول لا مأخذ عليه سوى نشر الخيالات والأوهام فى ناحية عمله ، وسمعنا فيما يقرره ويفرض علينا تأييده فيه أن سكان المئذنة الجنى من الشيوخ واليسرى من الشباب والمشاق ، وله صداقة معهم جميعاً يتشاءم فيداعبونه بغير أن يحدثوا به أذى لطول العشرة وتوثق المودة .

وكنا فى عهد الطفولة البريئة نتعشق حديث العم حمزة ونتحين الفرص للقائه فى جلسته الممتعة لسماع حديثه العذب السائغ وقصصه الطلية النادرة .

كان ذلك العصر الذهبى عصر التقدير والاحتفال بكل

جهد جل أو صغر تظهر فيه الأعمال التافهة بجانب الأعمال العظيمة ، ولكل عمل تقدير بنسبة مكانه وأثره فى الخدمة العامة ، وهكذا ظل عم حمزة الأعوام الطوال متمتعاً بالشهرة والحفاوة أينما ذهب ، إلى أن وصل إلى القاهرة نور الأسلاك الكهربائية ، فكان أول اقتراح إدخاله القلعة ثم توصيله المئذنتين وعلى غير علم من عم حمزة ، ولا عهد للجمهور به ! وكيف يتصور الناس أن نور المئذنتين فى الطابق الأول والثانى يبدو للرائى دفعة واحدة ؟ وبالأحرى كيف يعتقد وهو الذى يعانى من صنوف الإرهاق فى طابق منها أن تخرج كالثريا فى ضوئها ولمعانها بتحريك الزر الصغير عند بابها الأدنى .

فوجئ الناس بهذه التجربة فاحتشدوا فى ميدان صلاح الدين يتزاحمون بالمناكب لشهود الحادث الجديد ، وتكررت الإضاءة والإطفاء فى دقيقة واحدة ، وتوافد الناس على باب عم حمزة : الحق ! المواذن بتولع وتنطفى وحدها !

عم حمزة : أنا مش بقول لكم دول مسكونين ولا انتوش مصدقين .

وخرج عم حمزة يشق طريقه بين الجماهير المتراصة حتى بلغ فناء القلعة الداخلى ، وإذا عدد كبير من الموظفين والصحفيين يتوسطهم المدير لأعمال القلعة ، فاقترب منهم مشدوهاً مأخوذاً وهو يقول :

حمزة : إيه ده اللى بيعمل كده ؟

المدير : أهو اللى قدامك ده ، وأشار إلى شاب أجنبى .

حمزة : يجذبه من ثيابه ويرفع بصره فيه ويخفضه ، أنت عفريت والا بنى آدم ؟

ثم يطلب الإضاءة فيجيبه بحركة سريعة ويرى الإطفاء كذلك ، وهناك تطوع بعض الموظفين بإقناعه أن هذه الطريقة الجديدة فى الإنارة أدخلت مكان السارج ، وينتظر منح مكافأته لانتهاء عمله .

خرج الرجل يتعثر فى مشيته ومضى إلى بيته جزعاً محزوناً ، ولكن الخيرين الذين كرسوا حياتهم للباقيات وصالح الأعمال كثيرون . وكان المغفور له طلعت باشا الكبير فى طليعة هؤلاء ، فقد توسط لاستمرار صرف راتبه له كاملا ما بقى من أيام حياته ، وكان له ما أراد ، ثم أضاف له خمسين قرشاً فى كل شهر من خيرات دائرته الخاصة ، وعاد عم حمزة مكفول المعيشة . لكن للفن حبًّا لا يبلى بالتطور والتغيير ، فهو يذهب فى كل مناسبة للإضاءة ، ويقف بميدان صلاح الدين ايقابل بين الحالتين ، ويقارن بين الطريقتين ، ويقول فى استهجان وسخرية بعد المراجعة والمقابلة : برضه مش لكته : ثم يعود إلى بيته بعد تقرير النتيجة كالخبير الضليع الواثق من حصافة رأيه وبعد نظره .

حسين مظلوم رياض

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع السكردانى
القاهرة
تليفون — ٥٦٧٦٩

قصة الأفيون

الفلاح والمخدرات — رسالة الشاعر كوكتو عن الأفيون — الأفيون منبه ومخدر — متى عرفه العالم — معاهدة الصين وانجلترا منه — استخلاصه — زراعته في الدول الشرقية ومصر.

الفلاح المسكين الذي تكالبت عليه الأدواء ، وعزّ عليه الدواء يتضح من تقارير مكتب مكافحة المخدرات أنه أكثر الطبقات إدماناً للمخدرات . والأفيون والحشيش بدورهما أكثر الأنواع انتشاراً . هذا الذي يعاني الجهل والفقر والمرض ماالذي ابتلاه بالمخدرات أيضاً ! أغلب الظن عندي أنه راح يدفن آلامه وأحزانه في الجو الذي تشيعه القطعة المخدرة ، وتكاد تلمس هذا الجو حين تقرأ رسالة الشاعر كوكتو إلى صديقه الفيلسوف جاك موكايان ، فهو يقول « إن الأفيون ليس إلا مصوراً طريقته خدعة الروح . إنه زين حيطان الحجرة التي أدخن فيها بصاور تقلق لي ورع نفسي . إن الأفيون هو طارد الحيرة والقلق » . هذا الشاعر ابتلى بالأفيون لما انتابته آلام نفسانية .

على أن الواقع أن الأفيون قد يكون منبهاً كما قد يكون مخدراً ، ويتوقف ذلك على الكمية التي تؤخذ منه . فهو منبه إن كانت أقل من الحبة grain ، والحبة تزن من الجرام ٦٤ . و . فهو عثل هذه الكمية ينتج نشاطاً وحركة ، فإن زادت عن ذلك كانت فترة النشاط محدودة لزمن قصير يعقبها نوم عميق يصحبه غثيان ودوار في الرأس . ولما كان الأفيون منبهاً ثم مخدراً فإنه يورث الإدمان عند متعاطيه

هذا الأفيون الذي يعاني الناس آثاره السيئة في القرن العشرين يرجع استعماله إلى القرن الثالث قبل الميلاد . وأما من طريقة استخلاص القدماء له فهناك من الآثار التي ترجع إلى القرن الأول بعد الميلاد ما يشير إلى استخلاصهم نوعين ، أحدهما من الثمار الجافة ، وهو النوع المألوف اليوم للناس ، والآخر من جسم النبات نفسه بإضافة مواد مذيبة .

والبلد الوحيد الذي كان يحصل الناس الأفيون منه إلى القرن الثالث عشر هو آسيا الصغرى . ويقال إنه أدخل في الصين في القرن التاسع الميلادي ، وكانت تستهلك مقادير وافرة منه حتى كانت تلجأ إلى استيراده من الهند لتسد الفراغ المطلوب .

وكانوا يستعملونه في علاج الدوسنتاريا حتى إذا جاء عام ١٨٢٠ أقفلت الحكومة الصينية موانيها في وجه التجارة الانجليزية . ودعا هذا إلى قيام حرب بين الصين وانجلترا انتهت بمعاهدة نانكنج عام ١٨٤٢ . وبمقتضى هذه المعاهدة فتحت خمسة موانئ صينية للتجارة الأجنبية وسلمت جزيرة هنج كنج للحكومة الإنجليزية ، فزاد الوارد من الأفيون الهندي زيادة كبيرة إلى عام ١٨٨٠ ، حتى قامت حركة واسعة في الصين تطالب بتحريم تعاطي الأفيون كمخدر ، ومن مستلزمات ذلك طبعاً أن تقف حركة استيراده من الهند . فانتهت حكومة الصين مع الحكومة الانجليزية إلى اتفاق عام ١٩١٣ ، وهو يقضي بوقف إصدار الأفيون من الهند إلى الصين ، وكان في ذلك خسارة مالية على الهند .

والأفيون هو العصارة اللبنية لثمار الجافة من النبات المعروف في مصر « بأبي النوم » Papaver SonniFerum . ومن أجل ذلك تشق الثمار وتجمع العصارة التي تسيل على ورق من النبات ، ثم تجفف هذه العصارة . وهذه الثمار الجافة قد تكون كروية الشكل وقد تكون بيضاوية . وشكل الزهرة جميل . وأجزاء التويج فيها قد تكون بيضاوية اللون أو حمراء أو بنفسجية تزينها في أغلب الأحوال بقع أرجوانية قاتمة في أسفلها . وتحتوي البذور على زيت ثابت غير طيار بنسبة كبيرة قد تبلغ الثلث ، وأحياناً تصل إلى النصف .

وشق هذه الثمار من العمليات التي تحتاج دربة ودراية ، لأنه إذا لم يكن الشق غائراً فإن العصارة لا تسيل بأكملها وبذا يضيع جزء من المحصول . وإن كان الشق يمتد إلى

مسافة أكبر مما يلزم ، فإنه يبقى جزء من السائل داخل الثمرة وفي ذلك ضياع لجزء من المحصول .

وفي صباح اليوم التالي للشق توضع الأوراق وما يتجمع عليها من العصارة في الظل لتزداد جفافا ، حتى إذا جفت العصارة قسمت إلى كتل مختلفة الأحجام وبيعت للتجار ، بعد أن تحاط ببعض الأوراق من النبات ، وببعض الثمار من نبات الحماض Rumex لتمنع تلاصق كتل الأفيون . ويستفيد الزراع أيضا من البذور ببيعها لاستخلاص الزيت منها .

والأفيون ذو اللون الخفيف يقدر بثمن أعلى من ذي اللون القاتم ، لذلك يراعون عند شق الثمار أن يكون الوقت وقت أصيل ، وأن تجمع العصارة قبل طلوع الشمس في صباح اليوم التالي حتى لا تؤثر الشمس على اللون فتزيده قتامة : ومن ظروف البيئة التي تؤثر عليه أنه يحتاج إلى تربة رطبة ليثبت بذات مطر غزير ، كما أن الصقيع القارس أو الحر اللافح يؤثران تأثيرا سيئا على الانتاج .

وكثيرا ما يعمد التجار إلى غشه بإضافة شوائب اليه حتى يزداد وزنه . فمن المواد التي يضيفونها الرمل والطفل وعصارة العنب الممزوجة بالدقيق ، والتين المجفف ورب السوس ، والشمش الذي قارب الجفاف ، وصمغ الكثيراء Tragacanth ، وهو إفراز من شجر الاسطراغالس الموجود في آسيا الصغرى ، والرصاص والحجارة .

ولتعاطي الأفيون في إيران طريقة خاصة ، ذلك أنه بعد أن تجف العصارة ويقل حجمها بمقدار السدس تقريبا تضاف اليها شوائب بنسبة ٢٠ ٪ . وغالبا ما تكون هذه عصارة راتنجية هي الكحل الفارسي Sarcocolla . ويقلى المخلوط ببطء لمدة ثلاث ساعات مع التحريك الدائم وتشكل العجينة الناتجة على هيئة عصي ، وعندئذ تصبح صالحة للبيع في الأسواق المحلية . وما يتخلف من الأفيون المحترق يضيفون اليه ١٠ ٪ من الطازج ويعاد تدخينه .

والأفيون الهندي من أهم منتجات الهند ، ولو أن مساحة الأراضي التي كانت تنتجه قد قلت بعد وقف إصداره إلى الصين . ونظرا للندى الثقيل في الهند فإن نسبة الماء في العصارة عالية ، لذلك يتخلص من أغلب السائل المائي بالتصفية ، ثم يعرض الأفيون للجو لمدة ثلاثة أسابيع أو أربعة حتى تنخفض نسبة الماء إلى ٣٠ ٪ ، ونسبة المورفين الذي يستعمل في الحقن كمخدر ، الموجودة في الأفيون الهندي ، أقل من ثلث التي في الصنف التركي إذ تقرب في الأخير من ١٢ ٪ .

ولقد كانت زراعة الأفيون مباحة في مصر إلى وقت قريب ، ولكن لم يجد نوعه . لذلك كان لا يصدر إلا بكميات ضئيلة . وكان يزرع في مصر العليا بالقرب من اسنا وقنا وأسيوط . وكان أجود أنواعه نسبيا ما نتج في إخميم . وكان الصنف الناتج في هذا الإقليم يحوي ٢٤و٧٪ من المورفين ، في حين أن الأفيون الذي كان ينتج في أسيوط كان يحوي فقط ٦ و ٠ ٪ . وكان تعليل رداءة الصنف في مصر أن التربة رطبة أكثر مما يلزم ، وأن الناس لم يحسنوا طريقة استخلاصه .

وضرر الأفيون إذا أخذ عن طريق الاحتراق أقل من ضرره إذا ابتلع ، إذ علاوة عما سلف ذكره من الأضرار فإنه يحدث تأثيرا سيئا على الجهاز الهضمي وكلا الطريقتين إثم من الخير تجنبه لمن أراد الهدى والعافية ورضاء الله . . .

أحمد علي الشحات

إلى حضرات المشتركين

إدارة مجلة الثقافة تقبل من حضرات مشتركيها قيمة الاشتراك عن النصف الثاني من هذا العام لغاية ٣١ يوليه سنة ١٩٤٥ ؟

الإدارة

أدب القصة
فى خدمة التاريخ

أصدر الأستاذ الأديب طاهر الطناحى كتاباً عن حياة بنى العباس فى عصرهم الذهبى بعنوان « على ضفاف دجلة والفرات » . وقد نهج فيه نهجاً جديداً فى كتابة التاريخ الاسلامى ، إذ عرض الحقائق التاريخية فى ذلك العصر عرضاً قصصياً جذاباً وصاغها صياغة أدبية شائقة . ولقد لقت هذه الطريقة الأستاذ الكبير محمد العشماوى بك فبعث بهذا الخطاب إلى المؤلف :

عزيزى الأستاذ طاهر الطناحى

طالما تاقت نفسى (وعلى الأخص عند ما كنت أتولى شئون الثقافة العامة) إلى أن أرى فى متناول الشباب المثقف من فتيات وفتيان مؤلفات تعرض لهم تاريخهم الماضى الحى فى يسر وجمال أسلوب وروعة أدب وقوة بيان ، يحببهم فى القراءة ، ويحملهم على متابعتها بشوق وشغف ، حتى تتهيأ لهم الفرصة لتقليب صفحات هذا الماضى الذى يحمل فى طياته حضارة من طراز خاص وسمت كل شىء — ووجهت العالم وجهات متباينة متعارضة ، وكشفت عن كثير من أسرار الحياة ومزالقها ، تضل الخطا فيها ساعة ، ثم تسدد ساعات ، ليكون فى ذلك لهم متعة روحية وأدبية ، ولتبقى هذه الحضارة بخيرها وشرها أو بمزيجها من الخير والشر ماثلة أمام أعينهم فيها هدى ، وفيها عبرة ، وفيها مزيج من الهدى والاعتبار . وكنت أتابع كل الانتاج الأدبى والقصصى والتاريخى الذى ظفرت به البلاد فى حقبتها الأخيرة لأتبين منه مدى ما يحقق رجائى ، وأدعو القائمين على النشر وتمويل هذه الحركة المباركة إلى أن يترسموا فى الإنتاج الأدبى هذه الخطة ولو إلى حد ، حتى ظفرت بمؤلفك الأخير « على ضفاف دجلة والفرات » وقرأته متصفحاً ، ثم متمعناً ، فاطمأنت نفسى إلى الظفر بناحية رائعة مما تاقت إليه ، ورأيتك تعالج التاريخ بأسلوب قصصى يحفظ الحقائق سليمة بقدر ماتوارت بها الرواية ، أو حققتها المراجع ، وتضفى عليها جمال القصص الروائى وأدب الأديب ، فيظنها القارىء من نسج الخيال ، وما هى إلا الحقيقة سافرة لا زيف فيها ولا تزوير ، فجاء كتابك يحمل صدق القول بأن فى الحقيقة ما هو أغرب من الخيال ، ويعطينا صورة من الحياة فى الحقبة التى عالجتها من جميع نواحيها السياسية والاجتماعية والأدبية بما تحوى من خطوط هذه الصورة ودقائقها من دقة ، وما تنطوى عليه من عظة وما تحمله من عبرة ، وما يكتنفها من نور العقيدة أو ظلام الزندقة ، أو مرارة الجد ، أو حلاوة الهزل ، وما يغمرها من الكيد والدس ، وما تكشف عنه من نزوات النفس ونزعات القلب .

وقد كان لكتابك الأثر الذى يحدثه هذا النوع القوى من القصص التاريخى والأدب فى نفس القارىء وإحساسه وتفكيره ، فكنت أقف طويلا عند نهاية كل فصل يحوى حادثاً أو يحلل شخصية أو يمثل سياسة أو يرسم مؤامرة ، أو يبرز كرماً ، أو يصور لؤماً ، فترة أسبح خلالها فى ماض بدأ وضاء ناصع البراءة يدفع به إلى إعطاء المثل العليا إعان قوى وعدل شامل ، ثم أخذت النفوس يدركها الخور ، وتطغى عليها موجات الحقد وحب السلطان ، وغمرات الدنيا ، فتدنيها من البغى والعدوان وتبعدها عن جمال الاسلام فى ماضى روعته ، وصفاء جوهره . ثم أقف وقفة أخرى ساهماً أحلق فى الأفق القريب أو البعيد تهجس فى نفسى هواجس وتتحرك آمال :

« هل تستطيع أن تعيد للاسلام قوته ، وللحضارة الاسلامية طابعها ومزاجها ، وأن تجمل هذا الدين القويم فى كيانه ومبادئه السامية النبيلة دستور العالم فى طريق السلامة ؟ » .

ثم أعود إلى الكتاب لأتابع القراءة . . فهنيئاً لك التوفيق ، وشكراً لك على هذا الجهد الذى بذلته ، والذى ستبذله فى خدمة التاريخ والحقيقة والقصص والأدب .

محمد العشماوى

من الأدب الألباني :

بائع الأعلام

(مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلانى)

حاول «على فاضل» أن يعرف مبعث شعوره بالانقباض وإحساسه بالضيق كلما مر بحانوت « غسير » فلم يوفق ، بل ولم يستطع أن يقاوم الدوافع النفسية التى تحمله على السير فى الجهة المقابلة لذلك الحانوت إن ألجأته الضرورة إلى السير فى نفس الطريق ، فكان يمشى سريع الخطا لايلتفت عنة ولا يسرة خشية أن يلمحه «غسير» فيدعوه إليه . . . و . . . « على فاضل » لا يشك فى إخلاص هذا الرجل لعائلته ويوقن أنه مدين له باهتمامه بشؤونه وشؤون أسرته بعد موت والده عند سفره إلى أوربا الشمالية لإتمام دراساته فى جامعاتها ، وكان عليه بعد عودته وبعد أن تبوأ مركزه اللائق بثقافته أن يزور « غسير » ليشكره على عنايته بهم . ولكنه لايدرى ماذا كان يصرفه عن أداء هذا الواجب ، فهو يقرر كل صباح أنه سيذهب إليه بعد فراغه من عمله ثم يعدل عن هذا القرار ليعود إليه فى اليوم التالى ، وإنه لعائد من عمله ذات يوم مع صديقه « رمزى » إذ سمع طرقاً على زجاج حانوت « غسير » فحانت منه التفاتة فرأى التاجر أمام مكتبه يومئ إليه أن أقبل فاستأذن صديقه ، ودلف إلى الداخل فتلقاه الرجل مصافحاً بكلتا يديه وقال له بمجاملة : أين أنت يا على ؟ لماذا لا تأتى لزيارتنا ؟ وهو يبتسم ابتسامة باردة ليس لها معنى من معانى الود الصادق ، وكان مع صغر سنه نحيف الجسم أبيض الشعر . . . جلس « على » بجوار المكتب وهو يهمس بكلمات اعتذار لم يأبه لها بدليل أنه استرسل فى حديثه : أهنئك بإتمام دراستك . لقد أصبحت الثقافة من ضروريات الحياة . . . إن سرورى لعظيم ؛ فقد علمت أنك شغلت منصباً مربحاً . . . ثم ناوله علبة «السجاير» فأخذ «على» منها واحدة وردها له . . وبعد فترة سكون قصيرة قال التاجر : أنت ابن أعز صديق كان لى ، وهنا أخذ صوته رنين حزن وشوق لم يلبث أن انقلب إلى غير الحزن والشوق حين قال : رحم الله والدك وعفا عنه . إنه وقع فى أخطاء كثيرة قبل وفاته . . . ولكن ! لا بأس . أرجو أن تغفر لى أن أكلمك بهذه اللهجة ، فانى إنما أتكلم لمصلحتك ! أليس من حقى ؟ أو ماذا تقول ؟ لقد قمت بتنظيم أمور بيتكم عند ما كنت فى الجامعة بعيداً عن البلد ، وأسأل الله تعالى أن يعيننى على تنظيم الباقى من شأنكم ، ولكنى أرجو منك أن تنظم نفسك من الآن . هل تفهم ما أريد ؟ شكره « على » بما يناسب المقام فى حين أنه كان يحس أن الأسلوب الذى يتكلم به التاجر عن والده مناف للآداب ، ومما زاد استياء « على » سؤال « غسير » عن راتبه الشهرى وتعيينه المقدار الذى يجب إنفاقه على البيت منه ، والأعمال التى يجب إنجازها والتى لا ضرر من تأخيرها ، وتحديده المبلغ الذى عليه أن يقتصده . . . ولقد كان فى أثناء حديثه كثير التلفت ، فأحياناً كان يلتفت نحو الشارع ويتفرس فى وجوه المارة ، وأحياناً أخرى يلتفت داخل المحل يراقب عماله . ولأول مرة يلتفت «على» إلى الدكان من الداخل فيرى البضائع والحاجات مكدسة فى غير نظام ولا ترتيب ؛ فالجلد الحذاء بجوار محراث ، وأنواع الثياب بجوار المأكولات دلالة على أن الأشياء لكثرتها التى فاقت كل حد لايستطاع تنظيمها ، فقد جمع بجهوده الجبارة أموالاً يستعصى عدها ، جمعها من أراضيه الواسعة وتجارته الرابحة ، وبيوته الكثيرة ، ونقوده التى ليس لها حصر . قد وزعها على المحتاجين بربا فاحش ، ولذلك لم يكن محبوباً فى المدينة . شأن كل جشع قاس فى معاملته . على أنه كان ينفق على نفسه وزوجته بغير

حساب ، وهو لم ينجب أولاداً . وكانت كل أفكاره ترتكز في نقطة واحدة : هي أن أعقل الناس وأذكاهم أكثرهم جمعاً المال من حله أو من غير حله ، ويستطيع كل من يراه أن يقرأ في صفحات وجهه هذه الأفكار ، وإذا تحدث إلى أحد فبدء حديثه وختامه وصيته على جمع المال . لذلك لم يكن غريباً أن يختم نصائحه « لعلى » بهذه الكلمات : اقتصد ما وسعك الاقتصاد ، واسع وراء الغنى ما أمكنك السعي لأن الغنيّ هو الحر ، وليس في الدنيا حر إلا الذى لا يحتاج إلى من عداه .

كانت لهجته شديدة الوقع على « على » فقد هدمت المبادئ التي يعتنقها مع كثير من نظرائه في ثقافته ، والذين كانوا يسمون لحياة أكثر روحية من حياة الناس المادية السائدة آنذاك . وشعر كأنه أمام قاض ظالم لا يرضى إلا أن ينفذ قضاؤه كائناً ما كان . ولقد هم « على » بالانصراف والخروج من هذا المكان الذى أحس فيه بالضيق والحرج ، ولكن التاجر قذف مسمعيه بهذا السؤال : أحقاً أنك تجيد قرض الشعر ؟ فرفع « على » رأسه في استغراب استعداداً للإجابة ، وقبل أن ينطق دخل المحل زبون شغل به التاجر ، فأتيحت بذلك فرصة « لعلى » يستطيع فيها أن يفكر فيما يجيب به عن هذا السؤال ، وكان أول خاطر مر بذهنه أنه ظن أن التاجر سينصح له بأن لا يضيع وقته في كلام لاطائل تحته ، ولا تعود منه عائدة ولا فائدة ؛ فجمع شتات قوته ، وما لديه من شجاعة ليحارب التاجر في أفكاره ، ولقد رأى خيراً له أن يغادر هـذا المكان ، احتفاظاً بقداسة الناحية الروحية والركن الإلهى في قلبه . ولكن كانت لم يكن يتوقع أن يسمعها من التاجر غيرت رأيه ، وجملته يصغى إليه في انتباه ، وهو يقول : لقد أعجبت كتاباتك كثيرين وتحدثت جميع النوادى عن مدى نجاحك . . . ولا أستطيع أن أصور لك مبلغ سرورى ، فالأمة في أشد الحاجة إلى من يوقظها من سباتها ويرشدها إلى الطريق القويم ، ويغرس بذور الوطنية في قلبها المحبوب .

شك « على » في إخلاص « غبير » في هذا الكلام ، ولكنه لم يلمح أثراً يدل على ذلك في ملامح وجهه ، ولا رنين صوته ، فتركه ليأتى على بقية الحديث فقال :

كل النـاس يقومون بواجباتهـم نحو أوطانهم ويقدسون تلك الواجبات إلا نحن ؛ وذلك لأننا أحوج ما نكون إلى من يشعل نار الحماس الوطنى في قلوبنا ويتعهدها بالتأريث والتأجيج ، ولعلك الآن قد فهمت السر في ابتهاجى بتفوقك في الشعر . ولعلك أدركت عظم التبعة الملقاة على عاتقك ؛ يجب أن تكتب وتخط وتخطب ، وتملأ أفكار الصغار والكبار بضرورة الاحتفاظ بألبانيا حرة مستقلة . فأنت صرب لفتش ، وتستطيع أن تبث هذه الأفكار في النفوس .

. . بعد الحرب العظمى ظننت أن ألبانيا الحرة ستتأسس ، وإنى لا أعتقد الأشياء إلا بصعوبة ، ولكنى اعتقدت وأخاف أن أكون قد أخطأت .

قال « على » : لا ! لست مخطئاً ، فالأمم الجديدة تتقدم دائما إلى الأمام بخطى بطيئة لأن البداية دائما صعبة ، وأمتنا ولله المنة تسير نحو التقدم بخطوات فسيحة !

— حقق الله كلامك ؛ فإنى أخشى أن أكون قد وقعت في الخطأ .

نظر إليه « على » نظرة مستفهم فأجابه التاجر على هذه النظرة : نعم ! نعم ! أخشى ذلك . تعال وانظر ، ثم سار داخل الحانوت وتبعه « على » يتخطيان الصناديق المبعثرة حتى وصلا إلى باب ، ففتحه التاجر واجتازاه إلى ممر ضيق مظلم ، وفى هـذا الممر كانا مضطرين إلى السير متتابعين لشدة ضيقه ، ثم وقفا أمام حجرة في نهاية الممر وأخرج التاجر كومة من المفاتيح كانت في جيبه ، وبعد تقليب فيها لم يدم طويلا عثر على المفتاح المطلوب ، وفتح الباب فانبعثت

من داخل الحجرة رائحة كتلك الرائحة التي تكون للقماش الجديد إذا تكدس في مكان لا يتجدد هواؤه .

ألقى « علي » نظرة سريعة على محتويات الحجرة — فقد استهواه حب الاستطلاع — فاذا بها غدا كتظت بالأعلام الألبانية ذات اللون الأحمر يتوسط كلاً منها نسر ذو رأسين ، وكان بعض الأعلام ملفوفاً بورق أصفر شفاف وبعضها غير ملفوف ، وكانت العصى المعدة لتعليق الأعلام عليها مكومة في ناحية من الحجرة وقد لفت بقماش أبيض جديد متين . . . وكان بجانب شباك الحجرة المغلق علم كبير يرفرف ، وقد علق على عصا طويلة لفت بقطيفة أرجوانية .

نسي « علي » كل ما حوله ، وتخيل هذه الأعلام ترفرف في ميادين النصر أمام قوم يسيرون بخطى ثابتة تهتز من هتافهم الأرجاء ، وتخيل النسور على تلك الأعلام أبطالاً خرجت من سجن الماضي المظلم تحوم في آفاق حمراء . أشبه بملائكة العدالة ملأت البقاع وانتشرت في كل مكان .

قطع عليه صوت أحلامه وبدد تخيلاته صوت « قسبر » الأجش حين قال : ألا ترى كيف وقعت ؟ لقد قدرت أن كل بيت لابد وأن يشتري علماً ، ولذلك أوصيت بصنع عدد كبير ، ولكني أخطأت التقدير ، فلم يشتر أحد علماً واحداً مع زهادة الثمن . . . ففهم « علي » مراد الرجل وأدرك السر في اهتمامه وإلحاحه في السؤال عما إذا كان حقاً يجيد قرض الشعر . لذلك كانت تلك العبارات ثقيلة الوقع على مسمع « علي » . فنظر إلى « قسبر » نظرة احتقار وازدراء لم ينتبه لها فقد كان منحنياً ليلتقط عصا ، ويضع في طرفها علماً ليطلع علياً عليه . وبينما كان ينشر العلم بدت صورة النسر واضحة جلية رمزاً للشجاعة ، وعقب قائلاً : — حرام ألا يباع هذا القماش الجيد الصنع المتين النسيج . ثم أمسك بطرف القماش وتحول نحو الشاب ليؤكد له أنه اختار أجود نوع ووصى على أحسن صنع . . .

وإلى هنا انتهى ما بقى عند « علي » من صبر ، فجذب القماش من يد التاجر بعنف ، وقال له بصوت شاع فيه الغضب ، ولكن كان رزيناً قوياً : أيها الرجل لا تلوث هذه الشارة المقدسة بيديك القذرتين ! ارفع يدك عنها حتى لا تدنسها . فنظر إليه التاجر مستغرباً — فلم يكن يتصور أن يسمع هذا الكلام — وقال في تأثر : ماذا تقول ؟ أبك جنون ؟ ولكن علياً لم يأبه له ، بل استمر في حديثه يقول : جميل جداً . الآن فهمت قصدك . تريد أن تلهب حماس الناس ، وتؤجج نار الوطنية لا طلباً للاستقلال ، ولا نشداً للحرية ، ولكن رغبة في رواج تجارتك وبيع أعلامك . . ليهتف الجاهلون بحياة ألبانيا وباستقلالها ، وليمزقوا أكبادهم ، ويريقوا دماءهم . ليبلغ صوتك عنان السماء . مرحى ! مرحى ! ثم تحيا ألبانيا . أسرعوا . بادروا . اهتفوا واشتروا الأعلام .. تتجر بشعورنا وعواطفنا ! لعبة ظريفة ! لكنها مع شديد الأسف لن تنجح .

رمى التاجر بعصا العلم واقترب من « علي » مهدداً ، ولكن علياً لم يتحرك من مكانه ، بل ظل ينظر إلى عيني التاجر يشع منهما الغضب والحزن وهو يقول : لولا الصداقة التي كانت تربطني بوالدك وبأهلك لعرفت كيف تواجهني بهذا الكلام ، فلم يتركه « علي » ليتمم حديثه بل قال : ومن أجل تلك الصداقة تلزمني أن أؤلف الأشعار والأناشيد وأعظ الجماهير وأكتب وأخطب منادياً بالحرية ، وداعياً إلى المطالبة بالاستقلال لتستطيع أن تبيع أعلامك الثمينة القماش الجيدة الصنع الرخيصة الثمن ! إنها لخسة ! فقال التاجر : ستلقى بحماقتك أهلك في أتون الشقاء ، وستضيع وقتك في كلام لن تجني منه ورائه سوى الحسرة والندم . عش في أحلامك ؟ فسواء لدى أبيعت الأعلام أو لم تبع . استقلت ألبانيا أو ظلت ترسف في أغلال الاستعباد . عاشت أو فنيت ؟ فعندي من المال ما يزيد عن كفايتي لأعيش

حول مقال :

المسكين القاسي (١)

غالبت نفسي على أن أصمت فغلبني عهد كان يربطني بصاحبي الذي مات . والذي بلغ من دقة وصف أستاذنا أن تقاربت صورة صاحبه من صورة صاحبي الراحل لولا غبش خفيف . فلعله أن يكون هو ، ولعله أن يكون قريبا منه ، أو لعل صاحبه لا يكون صاحبي لولا دقة الوصف الذي أصاب اثنين معا .

المسكين القاسي . . . قد أزعم أنه لقب كان يأنف منه صاحبي ، وكان لا يرضاه لنفسه .

فأما صاحبي هذا المحامي أيضا لم يكن قد تشرف بالفقر ، وإنما هي عصفة من دهر أصابته فلم تبق له غير عزة نفس عنفت في تجربتها الأيام . وجعل يتلمس طريقه الذي كلما أوغل فيه تغبشت في عينه صورته وصورة الناس .

وليت ذلك الاسم الرنان الكريم « خريج الجامعة » كان غايته في غير بلد تقدس الشهادات والوساطات وتقبر الكفايات . والوساطة ضريبتها من نفس أو عرض أو مال . وكان يرث عن عائلة تنحدر من أعمق وأكرم بطون الصعيد ، قسوة وخشونة لا يستطيع أن يجاهد بها نفسه ودهره إلا أصحاب القلوب الراسية لو أنهم استطاعوا ! . ولم يكن لينا رفيق الكاهل أو جديرا بأن يكون من تلك الطبقة المدللة « الارستقراطية » . فقد طالما كان يبتغي الوسيلة لعيش كفاف فيه مروءة ، فيأبى عليه الوضع الاجتماعي المخجل حتى هذا الرزق الحلال . .

وإذا هي عصفة أخرى من دهر . وإذا هو يزور القبر بعزيز ثم أعزاء ، ثم يثوب إلى نفسه شيئا بعد شيء فيرى نفسه ضئيلا ويرى الناس . .

أهذه هي الحياة ؟

لم ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟

. . . ثم يصير إلى رأي !

وأقبل علي يوما فقال : « قد علمت ما لم يعلمه غيرك »

قلت : « أرى الصبر أولى بك »

قال : « فأني أوصيك بوصية . . . لا تحزن على شيء زائل » .

وكان هذا آخر عهدي به .

وبعد . فلو كان الوصف لواحد فذاك . وإلا فلن يضيق صدر أستاذي بذكر ضئيلي إلى مسكينه القاسي !

(كلية الآداب) بالحرث حسين

(١) مقال للاستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد بك . الثقافة (٣٣٦)

عيشة السعداء . هل فهمتني ؟ والآن يجب أن تخرج .

فقال له الشاب : لا تكلف نفسك عناء طردي فسأخرج بنفسي ، ولكني أود قبل أن أخرج أن أصحح خطأ اعتقادك . فانك تقول : عندي ما يزيد عن كفايتي لأعيش عيشة السعداء . . .

والواقع أنك لست في عداد الأحياء . . . وهذا — مشيرا إلى الدكان المملوء بالبضائع — قبرك دفنت فيه يوم أنشأته . أما ألمانيا فستعيش حرة مستقلة . مرفوعة الرأس . مسموعة الكلمة ، وستباع أعلامك كلها ، ولكن بعد أن بعت روحك للشيطان . ثم غادر المكان الموبوء بعد أن كاد يختنق في جوه الفاسد ، ويمم شطر دار البلدية « قلم الاحصاء » ليقف على أصل ومولد هذا الرجل ، وكان سروره عظيما عند ما علم أنه مجهول الأصل والمولد ، وأنه من المهاجرين الذين نزحوا إلى أرض الوطن ليكتسبوا ما يتعيشون به ؟

ابراهيم عبد الله — رهبي اسماعيل حقي

من تجارب الحياة

قليلون هم حقاً أولئك الذين يستطيعون الوصولَ إلى مراميهم من أقرب طريق! ولستُ أُرجع هذه الظاهرة — فيما يبدو لي — لنقص في التقدير أو ضعف في العقل أكثر ممـا أُرجعها لنقص في التجربة والامتحان بالحياة.

فالحياةُ المحدودة الضيقة هي التي تُولد في النفس الإنسانية هذا العجز « الصارخ » عن مباشرة وظائفها في المجتمع، أكثر مما يُولّده الضعفُ العقلي أو الشذوذ في التكوين الخُلُقي على التحقيق!

وإني لأسترجع كلّ صباح.. باسماً، صورة أبي.. ذلك الرجل الذي سلَخَ جُلَّ حياته في الريف — حين يُقبل على خادمي الشيخ الأمين، مقدماً وجبة الإفطار، وفي نفسه من الثورة على أخلاق شباب هـذا الجيل ما يُطلق لسانه بمحاضرة — لا حدَّ لطولها! — في تحذيري من الانتكاس والجنوح إلى الطريق غير المستقيم!

ولستُ أرى فارقاً البتة بين هذه الصورة، وصورة أبي — وهو جالسٌ في وقار واتزان — يُحدثني في لهجة جدية مؤثرة عن وجوب مغالبة الشهوات وانتهاج الطريق القويم!

وإني لأتساءل الساعة.. أكان أبي أقل فشلاً من خادمي هذا الشيخ الأمين، الذي يتطوع — بدافع من إخلاص فُطر عليه — بإلقاء مثل هذه المواعظ عليَّ كل صباح؟!.. إني لأكاد أقطع بأن أبي العزيز لم يكن إلا مثل هذا الخادم الشيخ الظريف..!

***

كنت في تلك الفترة من حياتي أجوز طور المراهقة. وكنت — كأي حال الصبية في هذه المرحلة من أعمارهم — شديد القلق دائماً.. كثير الحركات الطائشة.. لا أستقر على حال.. منصرفاً عن الدرس.. كثير المشاكسة لفتاة كانت تزور أختي صبيحة كل أحد، رغم أنهـا كانت تكبرني سناً.. وعقلاً فيما أحسب!

وكان أبي يتابع لسلوكي هـذا المسلك الشائن مع الفتاة، وكان يُسرُّ إلى أصدقائه المقرّبين أن هذا الطفل — يعني أنا — لا يُرجى منه فائدة، وأن من الواجب (حرصاً على مستقبله!) أن يُؤخذ بالشدة والتضييق!

وكان أصدقاؤه — سامحهم الله! — كثيراً ما يؤمّنون على هذه الأقوال!

... وهكذا كان أبي يلاحقني دائماً بمواعظ النصح والإرشاد، غير عالم أن هـذا الأسلوب ليس مما يليق في التوجيه، لاسيما في هذا الدور الخطير من حياة الإنسان!

***

.. ولو كان أبي على قسط من التعليم، أو كان على حظ قليل من الخبرة والتجريب، لكان كفَّ عن هـذا الأسلوب البغيض.. ولكان — على التحقيق! — خلّى سبيلي مع هذي الفتاة، كيما أتجاوب بهذا الائتلاف الجميل مع عناصر الطبيعة الحية المؤتلفة!!

.. ولكن أبي — غفر الله له — ظنَّ بي سوءاً، أو لعله قد ظن بي شذوذاً، إذا تجاسرتُ — أنا الطري العود، الغض الإهاب! — على مغازلة الفتيات! ولو علم أنني إنما كنت ألبي نداء فطرتي الأصيلة، وأُغشّي وَجِبلّتي الآدمية، لكانَ هلّلَ فرحاً لأنني صبيٌ « رائع التكوين »!!

وإني لعلى يقين بأن إخفاقي البالغ في الدرس والتحصيل في حياتي الجامعية بباريس، إنمـا كان مردّه إلى هـذا الكبت الفظيع الذي ظلتْ أعانيه طوال هذي السنين!

من الفرنسية بتصرف — عبد العزيز الكرداني

بين المسموع والمقروء

طنجـــة

لقد عرف القارئ في أخبار الدنيا ما كان من أمر طنجة، أو ما سيكون من أمرها، لما أزمع الحلفاء عقد اجتماع دولي يبحثون فيه أمرها بعد أن فرغت الحرب الأوربية، وأخذ ينتظم أوربا والشرق نظام السلام.

وكان المفروض أن طنجة، وقد وقعت على المحيط الأطلسي، وخارج الباب الغربي للبحر الأبيض المتوسط، لا تهم لها روسيا أي اهتمام. ولكن حدث في الساعة الأخيرة، وقد تهيأ القوم للاجتماع، أن أظهرت روسيا رغبتها في أن تكون بين المجتمعين. ورغبة من صديق يستضيف نفسه على مائدتك، وفي آخر لحظة، رغبة تحرج لا شك من نصبوا المائدة، ورتبوا مقاعدها، وهيئوا طعامها على وفق الحاضرين، وعلى مقدار الحاضرين. ولكنها مع إحراجها، لا يستسيغ عرف الضيافة رفضها. وإذاً وجب أن ينفض الضيوف الكرام، وأن ترفع المائدة، للتروى.

على أننا لا نريد أن نعرض اليوم لخطوط الميناء الحاضرة، ولكن لخطوطها الغابرة.

فالميناء كانت في القديم الأقدم مدينة رومانية. وازدهرت في عهد القيصر أغسطس، ونودى بها مدينة حرة. وتعاقب عليها الفندال والبيزنطيون، ثم العرب. وبقيت هكذا، أقدم مدينة وأجل مدينة، في المغرب، إلى أن ضعف أهل المغرب وأخذت المطامع الأوربية تنحدر جنوبا.

وظهرت هذه المطامع أول ما ظهرت في البرتغال، في القرن الخامس عشر. وكانت البرتغال أمة ذات متاع في الشرق الأقصى. وكذلك كان الاسبان. وطنجة كانت في الطريق إلى الشرق الأقصى. وفشلت البرتغال أولاً في كسب المدينة، ولكنها نجحت أخيرا وحازتها عام ١٤٧١. وانتزعها الأسبانيون من أيدي البرتغاليين عام ١٥٨٠. ولكنها عادت إلى البرتغاليين عام ١٦٥٦.

وعندئذ يشاء القدر أن تظهر بريطانيا على المسرح تلعب دورا لم يكن من غرضها أن تلعبه. وتلعبه فلا تحسن اللعب، فتنزل عن المسرح باختيارها، كارهة، مبقية على البقية الباقية من سمعتها في إحسان التمثيل.

ففي عام ١٥٨٠ خضعت البرتغال للتاج الأسباني، وبقيت خاضعة له ستين عاما. وتحررت عام ١٦٤٠ تحت تاج لها جديد، عليه بيتها المالك الجديد، بيت براجانشا.

تحررت البرتغال عام ١٦٤٠، ولكنها كانت في فقر وفي ذلة وفي ضعف. والضعيف الفقير الذليل في هذه الدنيا كالحمل تتخاطفه الذئاب. وهي على فقرها وضعفها كان لها ممتلكات وراء البحار. فكانت هذه ضغثا على إبالة. فالممتلكات للقوى المهيب مصدر غنى وقوة، ولكنها للخائر العاجز باب يدخل منه إليه طمع القوى واعتداؤه. وفكرت في أمرها فلم تجد بدا من اصطناع صديق يرد عنها طمع الطامعين.

ووجدت هذه الصداقة القوية المرجوة في انجلترا.

وكانت البرتغال صادقت الانجليز ثلاثة قرون سبقت، فلم يكن بعزيز عليها أن تحيي هذه الصداقة وتجددها وتقويها، فالزمن يبلى الصداقة كما يبلى الأشياء والناس.

والصداقة عربون وعرابين.

والصداقة بين الفرد والفرد عربونها العاطفة وعرابينها الصوالح، وهي بين الأمة والأمة عرابينها الصوالح أولاً ثم تأتي العاطفة في أذيال ذلك يجرها على الأرض خيط طويل رفيع.

وكان على عرش أنجلترا ملك شاب ، شارل الثانى ، وكان فى نحو الثلاثين من عمره . وكان لا زوج له ، وكانت تتحدث الناس بزواجه ، واقترح عليه ذلك المقربون . وبعثوا بالرسل إلى أوربا يطلبون الزوجة للملك البريطانى ، يطلبونها فى كل بلاط ملكى . وكان الملك خبيراً بالنساء ، عرفهن فى نفيه بالقارة . فلم يكن ذوقه بالذوق السهل الذى يُشبع بالقليل . وعرضوا عليه العروض فلم يأبه لشىء منها . وعرضوا عليه أميرات ألمانيات ، فقال مالى والبلادة والجو الكثيف .

ويشاء القدر الجميل المؤاتى أن تكون فى تلك السنوات ، بأرض البرتغال ، أميرة صغيرة جميلة نشأت على كثير من الفضل ، وفى كثير من اعتزال ، فلم تشب ثوبها شائبة مما شاب النساء عندذاك . وكانت تصغر الملك بسنوات ثمان .

فى هذه الفتاة الجميلة ، ذات الحسن والحسب ، وضع البرتغاليون أملهم . وكانت أمها الملكة تدبر أمور تلك الأمة . فخالت أن زيجة تُدبَّر أمرها بين ابنتها وشارل ، لابد أنها تعطى لابنتها الهناءة ، وتعطى لأمتها الحماية التى ترجوها فى المحيط الدولى .

وبعث إلى لندن سفيراً يهىء الخطبة المرجوة . وحمل السفير معه مهراً كبيراً ، خمسمائة ألف من الجنيهات تدفع نقداً ، وميناء طنجة يهديها إلى الملك هدية العرس .

ولم يكن هذا كل شىء . فقد عرض الوزير أيضاً على انجلترا تجارة حرة فى البرازيل ، وفى جزر الهند الشرقية وكذلك جزيرة بمباى (وعليها ميناء بمباى فى الهند) عرضها ملكا حراً .

لقد كان هذا عرضاً سخياً لا محالة . ولكنه فى واقع الأمر كان عرضاً من مالك يعرف أنه ليس به القدرة على الابقاء على ما ملك . فطنجة إن لم يأخذها الانجليز أخذها الأسبان . وبمباى إن لم تأخذها انجلترا أخذتها هولندة .

وكان اللورد كلارون رئيس وزراء انجلترا فى هذا العهد . فلما عرض الصفقة على الملك قال : « إنه سر لها ، وإنه قد يكون بها نفع للمملكة أيضاً » .

لأن عريكة الملك الشاب ، زير النساء ، والخبير الذى لا يجوز فى يده النقد الزائف . وكيف لا تلين وهو مثقل بالدين ، أثقله وأثقل أمته به عهد الدكتاتور الذى ذهب ، كرومول . وطنجة ؟ ما هذه ؟

وفى السر اجتمع بأمير بحره يسأله عنها ومن خطرها . فكان الجواب أنها ميناء خطيرة ، لو وقعت فى أيدى الهولنديين ، خصوم انجلترا عند ذاك ، إذاً لاستطاعوا أن يسيطروا على تجارة البحر الأبيض المتوسط ، ما دخل إليه منها وما خرج .

وعدا هذا ، فالعروس مسيحية كاثوليكية ، والملك كاثوليكى ، ولو رسماً ، وليس فيما عُرض من أميرات هذا المذهب من يقارب هذه العروس جمالاً وحكمة .

وأصدر الملك أمره بإتمام الصفقة . وفى عام ١٦٦١ أمضيت فى لندن معاهدة بين انجلترا والبرتغال ، هى أس الصداقة التى بقيت بين الأمتين ثلاثة قرون ولا تزال تحس آثارها إلى اليوم فى السياسة الدولية الحاضرة .

وذهب أمير البحر بسفينه إلى لشبونة ليحمل الملكة الجديدة إلى لندن ، فلما بلغ لشبونة رنت شوارعها بالهتاف العالى ، هو هتاف من ضمن السلامة من بعد بأس .

وبدأت انجلترا مقامها على القوة فى طنجة ، وحملت إليها من العسكر بضعة آلاف . وتداول عليها الحكام ، فلم ينجح فيها من نجح إلا نجاحا مشوبا بخيبة .

كان أول هم الانجليز أن يهيئوا الميناء لتكون مركزا للتجارة عظيما . فكان لا بد من بناء الأرصفة وكاسرات الموج . فأرسلت إليها المهندسين والفنيين . وأنشأت

الحكومة الانجليزية لجنة فى لندن لحكم الميناء . فكان أعضاء اللجنة يساومون من يتقدم من أرباب العطاءات لتموين العسكر بالغذاء والكساء بغية اقتسام أرباحهم . كانت الرشوة متفشية تفشياً ذريعا . لم تكن انجلترا ذلك الزمان هى هى التى نعرف فى هذه الأيام . وفى هذا عبرة المعتبرين ، وفيه أمل الآملين .

وأقام المغاربة على عداء دائم لطنجة ومن يحتلها . وكانت حرب لم يكد ينفضّ لها سوق يوما . وظلت طنجة يحاصرها المغاربة عقدين من الزمان . فقتل الانجليز من المغاربة ، وقتل المغاربة من الانجليز . ومل الانجليز هذا الحال فطلبوا الرحيل . وعزز مطلبهم أن مرتبات العسكر لم تكن تدفع إلا بعد أشهر من وجوبها . وعزز مطلبهم أن الخزانة الانجليزية لم تكن تقدّر لبناء الميناء كل تلك النفقات . ورفض البرلمان الانجليزى أن يوافق على زيادة فى تلك النفقة ، فلم يكن بد من شد الرحال ، شدوها بعد أن أقاموا بطنجة عشرين عاما ، كانت من أشق الأعوام.

غادر الانجليز طنجة عام ١٦٨٤ . وعلم المغاربة قبل ذلك بإعتزامهم الرحيل فكفّوا عن القتال ، وبقوا على مراقبهم ينتظرون .

وخسر الانجليز بطنجة خسارة لم يدركوا مقدارها إلا بعد ذلك بأحقاب . وعندها طلبوا بديلا منها ، فكانت جبل طارق .

وبمغادرة الانجليز طنجة ، رجعت مرة أخرى إلى المغاربة . وأعلنت فرنسا الحرب على المغرب فى القرن الذى تلا ، وضربت طنجة بالمدافع — وما أشبه الليلة بالبارحة

واختلفت فرنسا واسبانيا على طنجة ، ثم اتفقتا عام ١٩١٢ على اقتطاع طنجةمن مراكش وحكمها على صورة خاصة ، وفى عام ١٩١٣ تدخلت انجلترا فى الأمر ، وجرت المباحثات بين الدول الثلاث وطالت ، حتى لحقتها الحرب العالمية الأولى فانقطعت .

وفى عام ١٩٢٣ تم الاتفاق بين الدول الثلاث على نظام دولى ما لحكم طنجة ، تشترك فيه تلك الدول ، ويشترك المسلمون واليهود ، كلٌّ ، لا بمقدار أعدادهم ، ولكن بمقدار خطرهم فى الحكم والتجارة والإدارة . كل هذا مع الاحتفاظ لسلطان مراكش بالسلطان ولو اسميا على طنجة ، ذلك لأنه أقرّ بحماية فرنسا بعد أن كان تأبّى .

ويجىء عام ١٩٢٨ فتدخل إيطاليا شريكة فى ذلك النظام.

وتمضى الحرب الأوروبية الحاضرة ويأتى عهد السلم ، ويأتى نظام الأمن العالمى الجديد ، فتتراءى طنجة فى الأفق من جديد . فكم عدد بقاع العالم التى تفوق فى صفتها الدفاعية والهجومية بقعة طنجة .ا اعتبرنا بحرها الأبيض الحبيس أو محيطها الأطلسى الطليق !

وإذاً تدخل أمريكا فى الأمر . وإذاً يقول الروس : فما بالنا نحن أيضا ؟

وبعد اجتماع الثلاثة الأقطاب فى برلين سيعرف الناس ما يتمخض عنه القدر لطنجة من أحداث .

احمد زكى



حنين وأنين

تصوّرى يا شمسُ فى الآفاقِ أحلامَ الصّباحِ
وابسمى فى روضةِ الحبّ على ثغرِ الأقاحى
واسبحى كالطائرِ النشوانِ فى العذْبِ القراحِ
واخطِرى فى ثوبكِ الزاهى على أنضرِ ساحِ
وارمُقى البلبلَ يشدو فى حُبُورٍ وتُواحِ
تعِبَ الّليلَ فلم يعرِف غدُوًّا من رَواحِ
يبعث الأنغامَ من قلبٍ مُعَنّى بجِراحِ
يالها من كلِمٍ فى مُبهَمِ اللحنِ فِصاحِ
صاغها التّحنانُ فانسابت على مَتْنِ الرّياحِ
يتلَمّسْنَ فؤاداً من حنانٍ وسَماحِ

●●●

ويحَه من طائرٍ فى الحبِ نشوانَ وصاحِ
هزّه الوجدُ فلمْ يقْسُ على خفْقِ جناحِ
شفّه طولُ حنينٍ وأنينٍ والتياحِ
وهو فى الكون حيرىُّ بسراحٍ وصباحِ
وقفَ العمرَ على سهدٍ وشجْوٍ ونَياحِ
يا لهُ من كفاحٍ فى الهوى أىَّ كفاحِ

بدر احمد

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٤٣ | الثلاثاء ١٥ من شعبان سنة ١٣٦٤ — ٢٤ من يوليه سنة ١٩٤٥ | السنة السابعة

فهرس العـــــــدد

الزحف الروسي

نحو الشرق الأوسط

في أواخر مارس الماضي أخطرت روسيا السوفيتية تركيا ، بأنها لا ترغب في تجديد معاهدة الصداقة التي كانت معقودة بينهما منذ سنة ١٩٢٥ لمدة عشرين عاما ، وذلك لأن هذه المعاهدة لم تعد تلائم الأوضاع الدولية الحاضرة لما طرأ عليها من تغيرات كبيرة أحدثتها الحرب العالمية الثانية .

وكان من الواضح يومئذ ، ولا سيما من لهجة المذكرة الروسية ، وتعليقات الصحف السوفيتية ، أن هذه الخطوة التي تتخذها روسيا ، والحرب تدنو من نهايتها ، وقد لاحت تباشير النصر ساطعة قوية ، إنما هي تمهيد لخطوات أخرى أشد خطورة وأبعد أثراً .

ولم تمض على اختتام الحرب بضعة أسابيع حتى اتخذت روسيا بالفعل خطوتها الحاسمة في سبيل تحديد موقفها من تركيا ، وذلك بأن وجهت إليها مذكرة بالمطالب الآتية :

أولا — استرداد منطقتي قارص وأردهان .

ثانيا — وضع المضايق التركية (البوسفور والدردنيل) تحت الإشراف الروسي ، ومنح روسيا قواعد في هذه المنطقة تمكنها من الدفاع عن المضايق مع تركيا وتعديل معاهدة مونترو تبعا لذلك .

ثالثا — قبول تركيا لبعض تعديلات جغرافية في حدودها الأوروبية لصالح بعض الدول البلقانية (بلغاريا)

رابعا — أن تقوم في أنقرة حكومة صديقة لروسيا كباقي حكومات الدول المتاخمة للبحر الأسود .

وهـذه مطالب واضحة الخطورة ، لا بالنسبة لتركيا

فقط ، إذ هي أشد ما يكون مساسا باستقلالها وكيانها القومي ، ولكن بالنسبة لاتجاه السياسة الروسية في المستقبل وبالنسبة لتطورات السياسة الدولية بوجه عام .

— ١ —

على أن هذه المطالب الروسية على ما يطبعها من جرأة وخطورة — ليست في الواقع حدثا جديدا في السياسة الدولية . ومن الخطأ أن نعتقد أن روسيا السوفيتية ترسم لنفسها بانتهاج هذه الخطة سياسة جديدة .

والحقيقة أن الدبلوماسية السوفيتية ، حسبما كشفت عنها نتائج الحرب الحاضرة ، لم تكن في جوهرها إلا تطبيقا لمبادىء الدبلوماسية الروسية التقليدية ، أو بعبارة أخرى لم تكن إلا صورة جديدة للسياسة القيصرية القديمة التي وضعت أصولها منذ عصور ، وأضحت دستورا قوميا ثابتا ؛ ولم تجانب روسيا البلشفية هذه السياسة إلا مرحلة وفترة قصيرة فقط أيام اضطرابها وضعفها . أما اليوم وقد خرجت روسيا من الحرب مكللة بغار الظفر الباهر ، وغدت أعظم قوة في القارة ، ففي وسعها أن تعمل دون خوف ولا حرج على تحقيق أهداف السياسة القومية الكبرى .

وقد كان من نتائج هذا النصر ، وظفر الجنس السلافي بسحق الجنس الجرماني منافسه الخطر ، أن عاد الاندفاع الروسي القديم نحو الغرب والجنوب ، واستطاعت روسيا الأم السلافية الكبرى أن تبسط حمايتها السياسية والأدبية على الأمم السلافية في أواسط أوربا وفي البلقان ، وأن تحيط نفسها بسياج من الأمم الصديقة الخاضعة لوحيها ، وأن تعود فتعمل على تحقيق حلمها القديم الذي ارتبط مدى عصور « بالمسألة الشرقية » أعظم ارتباط ، وهو الخروج من بحرها المغلق (البحر الأسود) إلى الفضاء الواسع عبر المضايق التركية التي تخنقها عسكريا واقتصاديا منذ عصور . وهي تتجه اليوم ببصرها إلى هذه المضايق ، وقد لمست خلال الحرب الحاضرة فداحة الأخطار التي تعرض لها من جراء إغلاقها في وجهها ؛ ففي الفترة العصيبة التي سيطر فيها الغزاة الألمان على شواطىء البحر الأسود ، عانى الأسطول الروسي أعظم مشقة في القيام بدوره ، ورفضت تركيا كل تسهيل أريد له ، تمسكا منها بمبدأ « الحياد » الذي تستظل به ونصوص معاهدة مونترو .

وترى روسيا من جهة أخرى أن مطالبتها بإعادة قارص وأردهان أمر طبيعي ؛ فالمعروف أن ولاية قارص التي تضم هاتين المنطقتين هي جزء من أرمينية ؛ وقد كانت تركية قبل معاهدة برلين (١٨٧٨) ثم غدت روسية بمقتضى هذه المعاهدة . ثم تنازلت عنها روسيا البلشفية لتركيا في أواخر الحرب الكبرى . ومعظم سكان هذه الولاية ، وهم نحو نصف مليون ، من الأرمن والكرد والروس . ومنهم أقلية تركية . وللقارص أهمية استراتيجية تاريخية . فروسيا تطالب اليوم باسترداد ما كان جزءا من أراضيها ، وأرغمت على تركه في ظروف غير ملائمة .

وأما عن رغبة روسيا في قيام حكومة صديقة في أنقرة ، فقد صرح الرفيق مولوتوف ، قومسير الشئون الخارجية الروسية غير مرة ، بأن روسيا تحارب الفاشستية أينما وجدت ، وموسكو تعتبر نظام تركيا ، الديمقراطي في مظهره ، ستارا لدكتاتورية عسكرية سافرة طال قيامها ، وترى إلى استبداله بنظام ديمقراطي حقيق .

— ٢ —

ومن الطبيعي أن تجد تركيا في مطالب روسيا اعتداء واضحا على استقلالها وسيادتها ، وهي ترفضها بكل قوة ، وتأبى حتى أن تجعلها قاعدة لأية تسوية أو مفاوضة خاصة .

ووجهة النظر التركية فيما يتعلق بمسألة المضايق ، وهي فيما يبدو أخطر المسائل ، هو أن نظام المضايق تقرر باتفاق مونترو المعقود في سنة ١٩٣٦ ، وكانت روسيا بين موقعيه

إلى جانب انجلترا وفرنسا ورومانيا واليونان ، وهو ينص على حق تركيا فى تحصين المضايق وتنظيم الملاحة فيها وإغلاقها أثناء الحرب أو خطر الحرب فى وجه السفن من أى نوع وبالنسبة لسائر الدول إلا فى أحوال استثنائية نص عليها . ولما كان نظام المضايق مسألة دولية محضة فليس من حق روسيا أن تنفرد بإثارتها أو تسويتها ، ولا بد لتغييره من اتفاق دولى جديد تشترك فيه الدول ذات الشأن إلى جانب تركيا وروسيا . وتركيا تعلق أهمية خاصة على موقف إنجلترا فى هذا النزاع ، إذ هو يرتبط أشد الارتباط بمركزها وسيادتها فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وأما عن ولاية قارص فقد تخلت روسيا عنها لتركيا بمحض إرادتها ، وقد كانت تركية قبل أن تستولى عليها روسيا . وأما نظام الحكم فى تركيا فهو مسألة داخلية لاتهم سوى تركيا ، وليس لروسيا شأن بها ؛ وإذا كان ثمة نظام طغيان أو نظام فاشستى فهو النظام الروسى لا النظام التركى .

تلك هى وجهة النظر التركية وأسانيدها ؛ على أنه من الواضح أن الأسانيد الجدلية أو الفقهية لا تكفى وحدها لدحض مطالب تعتبرها روسيا فى مقدمة أهدافها القومية الكبرى .

ولا مراء فى أن روسيا تعتمد من جهة أخرى فى تعضيد مطالبها على موقف تركيا وسلوكها خلال الحرب الحاضرة ، وهو سلوك لم يكن دائماً فى صالح الأمم المتحدة : فقبل نشوب الحرب بقليل استطاعت تركيا أن تقنع فرنسا المتوجسة المضطربة بأن تقتطع لها جزءاً من سوريا ، هو سنجق الاسكندرونة وانطاكية ، وكان المفهوم أن الاستيلاء على هذه الأرض العربية ، وما تلاه من انضمام تركيا إلى ميثاق التحالف الانجليزى الفرنسى بشأن شرق البحر الأبيض المتوسط ، يكسب الحلفاء عون تركيا فى الوقت المناسب .

ولكن تركيا لبثت خلال الحرب متمسكة بأهداب « الحياد » ، وقد كان حياداً عجيباً مليئاً بالفرص الطيبة ، تقاضى فيه تركيا من كل فريق ما استطاعت ؛ ومع أنها كانت تؤثر الجانب الألمانى بعطفها ، فقد كانت تميل تارة إلى هذا الجانب أو ذاك تبعاً لطوالع القوة والنصر ، وتبعاً لأهمية البذل والوعود المقطوعة . واستمرت تركيا على هذا النحو فى انتهاز الفرص ، وهى ترفض للأمم المتحدة كل مطلب لتسهيل مشاريع الغزو أو امداد روسيا ، حتى لاح الإعياء على جيوش « الريخ » وتأكدت طوالع الهزيمة على ألمانيا ، فأعلنت عليها الحرب قبل النهاية بأشهر قلائل .

على أنه بالرغم من هذه الصورة القاتمة للحياد التركى خلال الحرب ، وما سببته للأمم المتحدة من المتاعب والآلام فإن تركيا تعتمد أشد الاعتماد على تعضيد السياسة البريطانية وعلى ما تؤمله من معارضتها القوية لهذا الاندفاع الروسى نحو الشرق الأدنى .

— ٣ —

والواقع أن هذا الاندفاع الروسى نحو الجنوب يتصل بأعظم المسائل الحيوية التى تهم بريطانيا ، وتمس سلامة مركزها فى الشرق الأدنى ، وسلامة مواصلاتها الامبراطورية ؛ وتبدو خطورة هذا الاندفاع الروسى واضحة متى ذكرنا أن روسيا تتجه فى نفس الوقت نحو إيران ، وتعمد لاستبقاء احتلالها بحجة الفوضى السائدة فيها ، وتحفز العناصر الرجعية الفاشستية إلى انتزاع مقاليد الحكم ؛ وهذه محاولة لها مغزاها وخطورتها .

وقد كانت روسيا القيصرية تحتل بعض مناطق إيران الشمالية وفقاً للمعاهدة الروسية الإنجليزية التى عقدت سنة ١٩٠٧ ، وحددت بها مناطق النفوذ الروسية والبريطانية فى إيران ، ثم تنازلت عنها روسيا البلشفية سنة ١٩٢٢ . أما اليوم فإن موسكو ترمى على ما يلوح إلى استئناف السياسة

القيصرية فى هذه المنطقة ، استكمالاً لحلقات الزحف الروسى نحو الشرق الأوسط .

وإلقاء نظرة إلى الخريطة توضح لنا أهداف الزحف الروسى الذى يمتد من الدردنيل حتى شمال إيران فى خط وهمى يتلاقى مع حدود النفوذ البريطانى فى بحر إيجه وآثار الوصل وخليج فارس وجنوبى إيران حتى أفغانستان وحدود الهند

على أنه من الخطأ أن نعتقد أن هذا الاندفاع الروسى نحو الجنوب مفاجأة للسياسة البريطانية ؛ فى الحق أن مسألة تركيا والمضايق كانت إلى جانب شئون البلقان من المسائل التى بحثت فى مؤتمر يالتا فى فبراير الماضى . ومن الرجح أن بريطانيا لم تجد بأساً من تأييد نظرية روسيا فى اعتبار تركيا داخلة فى منطقة السلامة الروسية .

والمفهوم أن مسألة المضايق وما يتصل بها من تحديد مناطق النفوذ الإقليمية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وكذلك مسألة إيران وغيرها مما يتصل بالمسائل الامبراطورية ستكون ضمن ما يبحثه مؤتمر الأقطاب الثلاثة المنعقد الآن فى بوتسدام .

وبذا لم يكن ثمة محل للتشكك فانه يلوح لنا أن السياسة البريطانية قد أعدت عدتها لملاقاة موسكو فى منتصف الطريق ، وأن موسكو لابد أن تظفر بتحقيق الكثير من مطالبها فى مسألة المضايق وولاية قارص وغيرها . والسياسة البريطانية تحرص قبل كل شىء على سلامة المواصلات الإمبراطورية وسلامة الهند ، ولن تتردد فى قبول بعض التضحيات المحلية لتحقيق هذه الغاية الكبرى .

محمد عبد الله عنان

استدراك

وقع خطأ مطبعى فى مطلع قصيدة « حنين وأنين » للشاعر بدر أحمد بالعدد الأخير من الثقافة وتصحيحه :

صوّرى يا شمس فى الآفاق أحلام الصباح

جائزة الكاتب المصرى للقصة

جاءتنا من شركة الكاتب المصرى هذه الكلمة ننشرها :

قررت إدارة الكاتب المصرى للطبع والنشر التى يشرف عليها الدكتور طه حسين بك من الناحية الثقافية إنشاء جائزة سنوية للقصة قدرها مائة جنيه .

وهى تدعو الكتاب والمؤلفين إلى الاستباق لنيل هذه الجائزة .

وستحكم بين المتسابقين لجنة مكونة قوامها خمسة من كبار الأدباء الممتازين فى مصر — وقد حددت آخر موعد لتقديم القصة يوم ٣١ يناير ١٩٤٦ .

وهذه هى أصول المسابقة :

١ — المسابقة مفتوحة للكتاب العرب جميعا على اختلاف الأقطار العربية فى الشرق والغرب .

٢ — الكاتب حر فى اختيار الموضوع الذى يكتب فيه لا يقيد زمان ولا مكان ولا بيئة ولا اتجاه .

٣ — يجب أن تمتاز القصة بالابتكار وقوة الخيال ، وجمال اللغة العربية فى الشرق والغرب .

٤ — القصة التى تظفر بالجائزة ملك لشركة الكاتب المصرى — إدارة الطبع والنشر — تطبعها وتذيعها على أن تحتفظ لصاحبها بحق المؤلف وقدره عشرون فى المائة من ثمن البيع الفعلى بعد الخصم — وهذا الحق مستمر مهما تتعدد الطبعات . وكل ذلك يجرى طبقا للنظام المعمول به فى شركة الكاتب المصرى والذى يستطيع كل كاتب أن يطلع عليه .

٥ — يجوز لشركة الكاتب المصرى أن تطبع القصة الثانية إذا أوصت بذلك لجنة التحكيم وقبله صاحب القصة فى حدود النظام الذى أشير إليه فى البند السابق .

٦ — يرسل الكاتب نسختين من قصته مكتوبة على الآلة الكاتبة بعنوان : شركة الكاتب المصرى ٣٦ شارع جلال — القاهرة — إدارة الطبع والنشر — ولا تقبل أى قصة تصل بعد تاريخ ٣١ يناير ١٩٤٦ .

فى الهواء الطلق

عدت فجلست جلستى على البحر ونفسى .

هذا هو البحر لست أرى إلا ظاهره ، أمواج يلعب بها الهواء ، وألوان تجمعت من صفرة الرمل وزرقة السماء ، أما ما فى باطنه من مملكة بل ممالك ، من أسماك ووحوش ولؤلؤ ومرجان فلست أراها ولكنى أعلمها .

وهذا هو الشأن فى الرواية التمثيلية التى شهدتها أمس . رأيت الممثلين من رجال ونساء وشبان وكهول ، وكلام يقال وأعمال تصدر ، ولكن هذا هو الظاهر فقط ، ووراء هذا كله ما لم نره وهو الأهم ، مؤلف يؤلف الرواية ومخرج يعدها وممثلون يحفظون أدوارهم ومناظر تعد وأدوار توزع على اللائقين بها وملقن يستعد أن يلقن من نسى ونحو ذلك من أمور باطنة ليس مظهر الرواية إلا انعكاسا لها .

ومنذ يومين جلست بجانب قوم يتبادلون الشكوى من إيجار المساكن فى الاسكندرية ، فقال أحدهم رزقت بيتا جميلا يدل كل شىء فيه على أنه سيكون موطن سعادة ، مطل على البحر مؤثث أحسن أثاث ، ولكن ما بتنا فيه حتى هجم علينا البق بجيوشه فحرمنا النوم وأقلقنا أياما فى التفكير والعمل لنظافته . ورد الآخر فقال إن مصيبتك أهون من مصيبتى ، فقد استأجرت بيتا نظيفا لا بق فيه ولا ذباب ولكن ما لبثت أن رأيت فيه حشرات من نوع آخر ، فقد كان المسكن الذى بجوارنا « بيت سر » وأحيانا يخطئ الزبائن فيأتون إلى بابنا ، وشكوت وقلت وفعلت ولم تحل المشكلة إلى اليوم فإن عجزت فسأهجر المصيف وأمرى إلى الله .

وهكذا كل أمور الدنيا ، ظواهر تستر البواطن .

فمد إلى نفسك تر أن كل أعمالك التى تظهر أمام الناس من خير وشر ليست إلا ظواهر كظهر البحر ومظهر التمثيل ، تنبعث من عوامل باطنة تجمعت فىّ من يوم كنت حملا فى بطن أمى .

لقد احترقت أختى الشابة من « اسبرتو » هب فيها وأنا جنين ، فغذيت بدم حزين ، فلعله أثر فى أثرا كبيرا إلى اليوم ، أميل ما أكون إلى الحزن ، تعجبنى الأدوار الحزينة فى الغناء ، والأساة دون الملهاة فى التمثيل ، وأسر للدمعة تسقط من عينى أكثر من الضحكة تظهر على فمى ، وتهتز أعصابى لعوامل الحزن أكثر مما تهتز لعوامل السرور ، وليس يبعد أن يكون كل هذا من أجل كوب من دم حزين كون جسمى فى بدء التكوين .

ها أنذا خجول أتعثر فى مشيتى إذا شعرت أن أحدا ينظر إلى ، وأكره ما أكره الاجتماعات والحفلات ، وأن أمر بين قوم جلوس فى مأتم أو حفل ، وأحسب ألف حساب لكل ما يصدر منى من عمل أو تأليف خوف أن يأتى هزيلا يستخفه الناس ، ولا أستطيع أن أنظر فى وجه من يحدثنى أو أحدثه وهكذا ، ولا شك أن هذه عادة تكونت منذ الصبا أيام كان والدى رحمه الله يكثر من صيغ النهى « لا تفعل هذا » « لا تفعل هذا » وأيام كان يعاقبنى العقاب الشديد على الغلطة اليسيرة ، أو حتى ما ليس غلطة من الصغار . كل هذا سلبنى حرية العمل وسلسلنى بقيود كانت نتيجتها هذا الخجل .

وهكذا لو تتبعت كل ما يصدر منى من عمل ، وما أتصف به من صفات لسهل علىّ الرجوع بها إلى أحداث تجمعت فى بطء وتدرج منذ الطفولة ونمتها أو أضعفتها حوادث الصبا والشباب والكهولة .

فكم فىّ من صور رسمها كتّاب سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن بجذبته وشدته وكتاب سيدنا الشيخ سيد الكورانى بلينه وفوضاه ، ومن صور رسمها أبى وأمى وإخوتى ، ومن صور رسمتها مدرسة والدة عباس باشا الأول بمدرسيها فى الرياضة الشديد القاسى ومدرسها فى اللغة العربية اللين المرح ، وتلاميذها المختلفى الأشكال والألوان — كل هذه الصور وأمثالها اختفت فى الوعى الباطن كما يختفى السمك فى هذا البحر ، ولكن لا تزال

تعمل عملها فى البواعث لى على العمل أو الترك وتنعكس صورها بأشكال شتى على أعمالى الظاهرة .

بل بعض هذه الصور غرقت فى الأعماق ، ولست أذكرها مهما أجهدت ذاكرتى فى استحضارها ، وهى — مع ذلك — تعمل عملها وتلعب دورها ، وهذا يفسر مايحدث منى ولا أدرى كيف حدث ، وما أتجنب ولا أدرى كيف تجنبته — ومالم أضع يدى على هذه الصور الغريقة فى الأعماق وأخرجها إلى نور الشمس فلا يمكن العلاج ولا الإصلاح .

وإن الصور التى اختزنتها فى حياتى لا تماثل أى صور اختزنها أى إنسان غيرى ، ولذلك كانت مشاعرى وعقليتى وبواعثى وأغراضى ونظرتى إلى الدنيا وتقويمى للأشياء وحكمى لها أو عليها لا يشاركنى فيها جميعا أى إنسان آخر فى الوجود ، وإنما يقرب منى فى تفكيرى ومشاعرى من حاز فى حياته صوراً أشبه بصورى — ومن أجل هذا اختلف الناس فى الحق والباطل وتقدير الجميل والقبيح ، ومايجب أن يعمل وما يجب أن يترك ، واختلفت نفوسهم كما اختلفت وجوههم ، وكان كل إنسان أمة وحده .

وندر أن يتمتع إنسان بصحة كاملة فى مشاعره وعقله ، كما ندر أن يتمتع بصحة كاملة فى جسمه ، بل لكل إنسان مواطن ضعف ، هذا ضعيف الذاكرة ، وهذا بليد الشعور ، وهذا حاد الشعور ، وهذا ضعيف الإرادة ، وهكذا من آلاف الأشكال والألوان . فاذا أضيف إلى ذلك اختلاف ما يختزنه الأشخاص فى حياتهم من صور بسبب مايعرض لهم من أحداث كان الاختلاف بينهم أتم وأوضح .

هذا كله يسلمنا إلى نتيجتين (١) أن كل إنسان له قانونه ، وليس هناك قانون إصلاحى أخلاقى يسرى — فى تفاصيله — على الجميع ، وأن لكل إنسان متاعبه الخاصة الناشئة من تاريخه الخاص لا يشاركه فى كمها وكيفها غيره ، وأنه إن أريد معالجتها يجب أن نسير فيها سيرنا فى طب الأجسام ، فلا يمكن لطبيب أن يصف علاجا عاما لمرضى مختلفين ، ولا يمكن أن يعالج المريض غيابيا ، بل لابد أن يضع يده على مكان المرض ويعرف أسبابه ثم يصف دواءه .

وأصعب الأمر فى علاج النفس أنها فى كثير من الأحيان تخدع نفسها وتغشها وتكذب عليها وتجتهد فى إخفاء عيوبها عن نفسها لأنها تشعر بالنقيصة فى الإقرار بعيبها حتى أمام نفسها ، فما أصعب أن نضع أيدينا عليها من وراء حجبها ، فقد يكون فى باطن نفوسنا شعور بالكره لآبائنا أو أمهاتنا أو زوجاتنا لسبب من الأسباب ، وواجب الوفاء يقضى بحبهم ، فتتعقد المشاعر ، وقد نحب أن نعمل أشياء والتقاليد الاجتماعية تأبى الإتيان بها أو نحب أن نتجنب أعمالا والواجبات الاجتماعية ترى الإتيان بها ونحو ذلك ، فتكبت فى نفوسنا مشاعر قد لاندرك كنهها وعينا الظاهر .

لذلك كان من أهم النعم أن يرزق الإنسان صديقا يفضى إليه بمكامن نفسه ثم يشجعه هذا الصديق أن يقول كل شىء فى نفسه من غير أن يظهر له شيئا من الاحتقار . وفى كثير من الأحيان يكون المانع من إظهار كوامن النفس ما اعتاده الإنسان من أنه لا يتكلم ولا يفكر إلا إذا مر الكلام والفكر على « الرقيب » يحجز منه ماشاء ، فتبقى مواضع الداء كامنة لا تعرف ، فان هو خدّر الرقيب حتى لا يحجز شيئا ولم يخضع المنطق وترك نفسه على سجيتها تتحدث بما يخطر لها من غير رقيب ولا منطق أعان ذلك على ظهور الصور المخزونة على حقيقتها وأمكنه معرفة كوامن الداء فيها .

وأيّاما كان فلا تزال كلمة سقراط « اعرف نفسك » من أصعب الأوامر وأعقدها .

والنتيجة الثانية ما تشعرنا به هذه المقدمات من تسامح وعفو ومغفرة لما يصدر من غيرنا ، فلهم فيما يأتون به عذرهم فهو ليس إلا نتيجة طبيعية لما اختزنوه من صور فى أعماق نفوسهم ولو كنا مكانهم لفعلنا فعلهم .

وهنا هبت ريح قوية أطارت الأوراق من يدى فجريت وراءها أجمعها وعاد إلىّ وعيى بما حولى وبالبحر .

أحمد أمين

خواطر مضطربة

وليس من العجيب أن تكون الخواطر مضطربة في مثل هذا العصر الذي يشيع فيه الاضطراب والتناقض. فها نحن أولاء نرى حولنا الآراء يزاحم بعضها بعضا، ويعارض بعضها بعضا، ومع ذلك نراها جميعا تعيش معاً، ويؤمن الناس بها معا. ولو سأل إنسان نفسه أبسط الأسئلة وأوضحها لما استطاع أن يهتدى إلى إجابة قاطعة محدودة، بل لكان أكبر الظن أن يذهب في الاجابة نحو وجهة ثم لا يلبث أن يعود فيذهب في إجابته نحو وجهة أخرى تعارضها أو تخالفها في كثير أو في قليل. ولست أدرى بم أستطيع أن أسمى هذا الاضطراب كما لست أدرى ما الذي بعث إليه. ولست أدرى كذلك هل مثل هذا الاضطراب في الآراء دليل على قوة في الانسانية، أو هو دليل على ضعف، وهل هو علامة تبشر بحياة مزدهرة أو حياة مبلبلة هزيلة!.

وإذا شاء القارئ أن يجرب ما جربت من نفسي فليسأل نفسه سؤالا بسيطا، وليكن هذا السؤال:

« لم يعيش الإنسان في هذه الحياة؟ »

ثم ليحاول الإجابة عليه لنفسه في صراحة ووضوح وبناقش ما يجيب به متعمقا بعض التعمق غير مقيد بقيد من القيود، ثم ليقل في صراحة هل وجد لسؤاله جوابا قاطعا محدودا يمكنه أن يؤمن به ويستقر عليه؟

هل نعيش لنأكل ونشرب ونمرح فوق الأرض حينا؟ لا شك أن أغلب من تقع أعينهم على هذه الكلمات سوف يرفعون أيديهم احتجاجا قائلين: « لا » فان هذا لا ينبغي أن يكون غرضا للانسان، وما هو إلا غرض للحيوان الأعجم. ولكن أي غرض آخر يمكن أن نؤمن بأنه غرضنا من هذه الحياة؟

قال هتلر يوما من الأيام: إن الغرض من الحياة الذي يجدر به وبقومه أن يعيشوا من أجله هو أن يسودوا العالم، وقد امتلأ هتلر بذلك المعنى وآمن به واتبعه فيه قومه حيناً من الزمان. ولكن الحوادث التي تجرى اليوم تكذب أن هذا الغرض يمكن أن يكون قصدا للحياة. فقد هزمت ألمانيا هزيمة جعلتها اليوم أبعد ما تكون عن معنى السيادة. فهل يمكن أن يقول قائل إن الحياة قد خلت من غايتها عند الألمان؟ إنهم لا يزالون يحرصون على الحياة، ولو وجد هتلر أملا في أنه يستطيع الحياة لحرص عليها وتمسك بها ولو مع الهزيمة، وبعد أن أصبحت السيادة أبعد الأشياء عن متناول يده. فلم يبق الناس أحياءً في الحياة بعد زوال الغرض الذي كانوا يزعمون أنه هو الجدير بالحياة من أجله؟ ألا يمكن أن يكون قصد الحياة هو أن نأكل ونشرب ونمرح حينا فوق هذه الأرض كما يفعل سائر الحيوان؟ إن هذا سؤال مزعج حقا.

ولكن قد يقول متحمس إنساني مثل روزفلت عليه رحمة الله: « إن القصد من الحياة أن نعيش أحرارا »، ولكن ما معنى الحرية؟ إن هذا المعنى يخلو من كل دلالته لو خلت الحياة من أول مقوماتها؟ فلو فرضنا — لا سمح الله — أن أمريكا العظيمة قد أصابها شيء من السماء فمنعت عنها الأمطار وصارت أرضها بلاقع لا تنبت حبا ولا تحمل ضرعا، ولو فرضنا بعد ذلك — لا سمح الله — أن الأرض قد مادت بها حتى لم يبق في مناجمها زيت ولا فحم، وأنها قد خلت من مصانعها العظيمة ومن ناطحات السحاب التي ترفع رؤوسها في كبرياء فوق أديمها. لو فرضنا أن أمريكا أفاقت يوما فوجدت نفسها في أرض مثل صحراء ليبيا لا تقيم حياة ولا تفيد ثروة، فماذا يكون رأي المتحمسين للحرية في معنى الحياة؟ أليس قولهم إن الحرية هي القصد من الحياة مرتبطا بغرض مسلم به، وهو أن الحياة تجد ما يقيمها من الطعام والشراب وأن الانسان واجد بغير شك فوق الأرض مراحا إلى حين؟ وأنه لا ينبغي لي أن أظلم

روزفلت عليه رحمة الله فأقحم على لسانه ما لم يقل ، فانه قد اعترف يوما من الأيام بأن أول قصد للحياة إنما هو الطعام والشراب ، لأنه عندما حدد معنى الحرية جعلها حريات أربعاً لا حرية واحدة ، وجعل فى صدرها التحرر من الخوف — خوف يوم يطلع لا يجد فيه الانسان طعاما ولا شرابا لنفسه ولا لأهله . إنه ليوم نحس ذلك الذى يطلع على الناس لا يجدون فيه طعاما ولا شرابا ، بل ذلك اليوم الذى لا يجدون فيه ما هو ضرورى من الكماليات التى أصبحت لازمة للانسان الحاضر لزوم الطعام والشراب .

وهكذا نستطيع أن نناقش إجابات الناس صنفاً بعد صنف ، وأن نردها جميعاً بعد المناقشة إلى أن الغرض الأول من الحياة هو أن يأكل الناس ويشربوا لا لأنهم لا يمكنهم أن يعيشوا فى الحياة بغير أن يأكلوا ويشربوا ، بل لأن الإنسان مثل سائر الحيوان قد خلق لكى يقضى على الأرض مدة لا بد له من أن يعيش فيها بالطعام والشراب . أليس من الواضح لنا بعد ذلك أن أول هم للناس فى هذه الحياة أن ينظروا فى طعامهم وشرابهم وأن يجعلوا النظر إلى الطعام والشراب قبل النظر إلى كل شىء آخر ؟

والطعام والشراب لا يتأتيان ولا يتوفران إلا إذا وجدت لهما الموارد الطبيعية التى يستخرجان منها بالعمل المتصل . هذه سنة الطبيعة التى لا محيد عنها ، فلا مناص لكل أمة من الأمم أن تنظر إلى تلك الموارد لتوفر لنفسها منها ما يكفيها . أليس هذا واضحاً ؟ ومن ثم يمكننا أن نقول إن النزاع الأكبر فى هذه الحياة ليس سوى نزاع على الطعام والشراب وسائر ما يقيم الأود من الضروريات ، وأن كل الحروب وكل الهموم الدولية ليست سوى مظاهر من سعى طوائف الإنسان نحو توفير الطعام والشراب لنفسها ، ولو كان ذلك على حساب غيرها . وقد كانت قبائل الصحراء تتقاتل لكى يستولى بعضها على رزق بعض ليستأثر القوى بأكبر قسط منه ، ويرد الضعيف إلى أقل قسط منه . وليست أمم اليوم بأبعد من هذا ، فانها إنما تتقاتل لكى يستولى بعضها على رزق بعض ، ليستأثر القوى بأكبر قسط منه ويرد الضعيف إلى أقل قسط منه . إنها لحقيقة قاسية مكشوفة كالحة الوجه ، ولكن يخيل إلى بعد المناقشة أنها حقيقة لا شك فيها ، ويجب ألا نخدع أنفسنا عنها .

ولكن ما الذى يدفعنى إلى هذه المناقشة المضطربة ؟ أهى الرغبة فى أن أكشف حقيقة ساذجة لا شك فى أنها لا تبعد عن الأذهان وإن كانت الأذهان الإنسانية تحاول أن تخفيها عن وعيها ؟ إن الذى يدفعنى إلى هذه المناقشة أننا نحن معاشر الشرقيين والمصريين نملأ أشداقنا بألفاظ طنانة نزعم أنها تعبر عن أمانينا وتدل على حقيقة أغراضنا من الحياة . نحن نزعم فيما نملأ به أفواهنا من الألفاظ الطنانة أننا نطلب الاستقلال والحرية وأننا لا نعدل شيئاً بالكرامة وإن كلفنا ذلك ما كلفنا . فنحن من أجل هذا نعقد المحالفات ونحضر المؤتمرات ونضحى بالشىء الكثير فى سبيل العزة القومية ، فتسخو أنفسنا عشرات الألوف ندفع لتعمير أوربا المدمرة وتسخو نفوسنا بعشرات أخرى من الألوف فى سبيل أن يكون لنا ممثلون سياسيون يرفعون العلم المصرى فى عواصم البلدان ، وتسخو نفوسنا كذلك بالملايين نضحيها فى سبيل تدعيم استقلالنا — فعلنا ذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر ولا نزال نفعله إلى اليوم . وما أحسب أننا نصدر فى ذلك عن رأى واضح وغاية مفهومة حق الفهم ، فإن الذى أفهمه أن غرضنا كأمة ينبغى أن يكون أولاً أن نجد لكل الأفراد ما يكفيهم من الطعام والشراب ، وأمثال الطعام والشراب من مقدمات الحياة ، وأن غايتنا كأمة يجب أن تكون كفالة الموارد الطبيعية التى تضمن لكل الأفراد ما يكفيهم من تلك المقومات ؛ فإذا نحن رسمنا الخطط فى السياسة كان الواجب أن يكون هذا الغرض هادينا ، وإذا رسمنا الخطط فى

التربية الحديثة

أهدافها ووسائلها

التربية القديمة والتربية الحديثة :

إذا كان الفرق بين الطب القديم والطب الحديث هو أن الطب كان يعنى بالأمس بالناحية العلاجية فحسب ، بينما يهتم الطب اليوم بالأساليب الوقائية ، فكذلك كانت التربية القديمة علاجية مجردة : تعالج الجهل بإعطاء المعلومات وحشدها ، بينما تهتم التربية الحديثة « بأسلوب » هذا التحصيل العلمى ، كما أنها تعنى — على الأكثر — بتحصين العقل ووقايته (١) من الاضطراب والانقسام ، وحمايته من ذلك الشرود والتردد ، الذى كانت تؤدى إليه أساليب التربية القديمة ، وإيجاد حالة من الاستقرار النفسى والسعادة الروحية الداخلية .

وكما أن الطبيب لا يمكنه أن يؤدى وظيفته على وجهها الأكمل إلا إذا كان أسلوب علاجه قائمة دعائمه على أسس قوية راسخة فى علم التشريح وفهم وظائف الأعضاء واستعداداتها المميزة ، فكذلك المربى — الذى هو مسئول من « عقل » الناشىء ، لا يستطيع قط أن يؤدى رسالته بتوفيق ونجاح ، إلا إذا كان ذا علم ودراية تامة بالنفس البشرية التى يعالجها ، وفهم كامل بخصائص العقل ومميزاته وقدراته واستعداداته ، حتى يستطيع أن ينظر كما قال الغزالى : « فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته » . وعلم النفس يهتم بدراسة أحوال النفس وخصائصها الإنسانية فى مختلف أطوار نموها وتكوينها . وإذا كان الغزالى وأضرابه من القدماء قد تنبهوا إلى أهمية هذه الدراسة النفسية ، وفشلوا — مع ذلك — فى الوصول إلى نتائج سليمة ، فإن هذا لم يكن راجعاً إلا إلى نقص معلوماتهم عن النفس البشرية وخطئها ، وإنما يرجع إلى عدم وجود أساليب علمية سليمة فى بحث مشاكل النفس والعقل . فأهم ما يميز التربية الحديثة هو أن أساليبها تستند على دعامات متينة من علم النفس ، الذى توصل فى خلال المائة سنة الأخيرة بفضل الأسلوب العلمى إلى حقائق علمية دقيقة

(١) وفى نظريات (الصحة العقلية) ما يغنى عن البيان .

الاقتصاد كان الواجب أن يكون هذا الغرض هدفنا ، وإذا رسمنا الخطط فى التعليم كان الواجب أن نجعل هذا المعنى نصب أعيننا ، إننا نريد أن نجد الطعام والشراب أولا لأننا إلى اليوم لا نجد من مقومات الحياة ما يكفى لكل أفراد أمتنا .

إننا لم نقدر على الحياة إلى اليوم إلا لأننا نطعم الأقلين بطعام الأكثرين الذين يتركون بغير طعام ، ونكسو الأقلين من ثياب الأكثرين الذين يتركون بغير ثياب ؛ فإذا كنا نريد أن نكون أمة متضامنة فلا أقل من أن نعمل على أن تكون الأطعمة والأشربة والأكسية حظاً مشاعاً بين الجميع يصيب كل منها ما يكفى لحفظ الحياة

وإنه لجدير بنا ألا نخدع أنفسنا عن حقائق الحياة . إننا نعيش بين أمم العالم ، ولا بد لنا من أن نعاملها لنأخذ منها ونعطيها نظير ما نأخذ .

فما الذى نستطيع أن نعطى وما الذى نحتاج إلى أن نأخذه ؟ هـذا سؤال خطير لا ينبغى أن يغيب عن ذهن أحدنا ، لأننا إذا أردنا أن نأخذ شيئاً نظير ما نعطى فينبغى أن يكون ذلك الشىء حقيقة تعيننا على الحياة . وليست ألفاظاً خلابة ولا حليًا براقة تخلب ألبابنا بغير أن تفيدنا شيئاً . ينبغى أن نحرص على أن يكون ما نأخذه معيناً لنا أول كل شىء على تيسير مقومات الحياة .

محمد فريد أبو حديد

صحيحة صادقة ، قفزت بفهمنا للطفل وعقليته إلى الأمام قفزات واسعة كبيرة .

فأهم ميزة تميز المربي الحديث إذاً هو فهم الطفل الذى يربيه ، وإدراك نوع العقلية التى يعالجها . وهذا الفهم والإدراك يجعله ينظر إلى طفله بعين واعية ، لا تخفى عليها معانى حركاته وتصرفاته ، فيعى النوازع الكامن الذى يمكن أن يدفع الطفل إلى هذه الحركة أو تلك السكنة ، والدافع الذى قد يجعله يلجأ إلى الصمت أو كثرة السؤال فيصير بذلك أكثر عطفاً على مطالبه ومشاكله وأعظم إدراكاً لوسائل تناولها بالعلاج .

أهداف التربية

ذكرت أن التربية القديمة كان أهم ما تعنى به هو علاج « الجهل » « بالعلم » . فكان « التحصيل العلمى » هو هدفها الأسمى وغايتها الكبرى . وكان المربون الأقدمون يرون — إلا القليل منهم (وفيهم الغزالى) — أن العقل وعاء يستطيع المدرس أن يصب فيه المعلومات كيفما شاء ، وواجب على التلميذ أن « يقبل » هذا العلم صامتاً ساكناً . ولما كان أكثر هذا العلم « المصبوب » لا يوائم ميول الطلاب ولا يتفق مع قدراتهم ، فقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك أن كرهوا الدرس وتفننوا فى التخلص من ربقته ؛ وأن عمل المدرسون على ابتداع وسائل « إرغام » التلاميذ وقسرهم على الاستماع للدرس والعمل بما يريدون ، ولم ينتبه المربون إلى ما كانت تنتجه أساليبهم وغاياتهم من أضرار نفسية لها أثرها الجسيم الخطير فى مستقبل حياة الدارسين النفسية . ولم يكن الاهتمام « بالأخلاق » غاية فى ذاتها ، بل كانت وسيلة من وسائل « التعليم » و « التعلم » إذ كان الأدب والاستكانة أمام المدرس هو الواجب الأول عند طلاب العلم .

أما اليوم فقد اتسعت آفاق إدراكنا لعقلية الطفل وغرائزه وقدراته وأدوار نموه المختلفة ، وأضحى الطفل أمامنا كائناً له طبائعه المميزة التى تتفاعل مع المحيط ، وأصبحنا نرى — فى جلاء — ما قد ركب فى الطفل من استعدادات تنمى وتستوعب ، أو تنكر وترفض . كما أثبتت التجارب النفسية أن الطفل إذا كبتت غرائزه وحيل بينها وبين النمو الطبيعى ، أو بين أن تعبر عن نفسها تعبيراً مباشراً ، أخذت مجارى خفية فى هذا التعبير ، وتحولت إلى عقد نفسية تؤدى إلى كثير من الأمراض العصبية وتؤثر تأثيراً سيئاً فى شخصية الطفل ، فيشب قليل الثقة بنفسه ، متردداً فى كل أعماله . وأبان لنا علم النفس أن من العبث أن نضيع أوقاتنا فى تلقين الطفل ما يكره ، وما لا يتفق مع قدراته الخاصة الطبيعية واستعداداته الفكرية التى تجعله أكثر حباً لدرسه وإجادة فى تحصيله . وإنا لنرى — كما يقول بعض المربين — أن إجادة المرء للعمل الذى يقوم بأدائه تشيع فى نفسه اطمئناناً وراحة حقيقيين . وهذا الاطمئنان يخلق فى نفوس كثير من الناس معنى من معانى القوة وإحساساً بكمال وجودهم وقيمة كيانهم ، هذا الإحساس الذى يبعث فى حياتهم قسطاً وافراً من السعادة والهناء مما يدفع المرء إلى أن يزيد من اتقانه وإجادته لعمله باستمرار والوصول إلى أسمى المراتب .

فهدف التربية اليوم إذاً هو تحقيق « الشعور بالسعادة » السعادة المعنوية بما فيها من استقرار نفسى داخلى ، والسعادة المادية والاجتماعية كذلك . وكلا النوعين من السعادة ، ضرورة لازمة فى الحياة الموفقة . وأسلوب تحقيق هذه السعادة هو رعاية الاستعدادات الفردية والطبيعية فى الطفل والعمل على استغلالها فى سبيل صالح الفرد نفسه . فإذا قلنا إن تربيتنا اليوم « وقائية » كما هى علاجية ، فذلك لأنها تعمل أولاً وقبل كل شىء على تجنيب الطفل الكبت والتعقيد النفسى وزلزلة كيان الشخصية .

والطفل الذى يعمل تبعاً لقدراته الطبيعية ليس فى حاجة

إلى عصا تسوقه أو تلجمه إذا حاول التنكب عن جادة الصواب . فهو يعمل على رغبته وبدافع من اختياره .

ومن ثمّ اختفت أساليب القسوة من المدرسة الحديثة اختفاء طبيعياً ، وخفتت صوت المدرس وعلا صوت التلميذ ، وأصبح الطفل هو المحور الذي تدور حوله كل نواحي النشاط المدرسي . صحيح أن الهدف القديم في التربية ألا وهو « التحصيل العلمي » لا يزال غاية من غايات التربية الحديثة ، ولكن الهدف « الأخلاقي » و« الشخصي » (أي تكوين شخصية الطفل تكويناً صالحاً) أضحى اليوم أشد بروزاً وأسمى مكانة . وأضحى « الخلق » غاية بعد أن كان وسيلة . فالتربية الحديثة تعنى أولا وقبل كل شيء بتكوين « شخصية » قوية متماسكة قويمة الخلق ، تفهم معنى الواجب كما تفهم معنى الحق ، وهي أول ما يلزم لتكوين « المواطن الصالح » الذي تنشده الأمم الناهضة .

أساليب التطبيق :

وقد نظر المربون إلى أدوار النمو المختلفة ، وأدركوا أن لكل دور مظاهره المميزة ، وغرائزه واستعداداته الناجمة ، فعملوا على وضع أساليب تطبيقية في التعليم والتربية ، تستقل كل دور على حدة ، وتعمل جادة على الإفادة من مظاهره المميزة . فهناك نظام رياض الأطفال واستغلال الحواس فيها في أدوار النمو الأولى ، ثم نظام طريقة المشروع في المدارس الابتدائية ، أي في مرحلة الفتوة بين سن ٨ — ١٢ ، ثم طريقة دالتون في المدارس الثانوية ، أي في دور المراهقة وفجر البلوغ .

واجب هنا أن أبين — في سرعة — الأسس التي تقوم عليها طريقة المشروع ، فهي مفتاح التربية الحديثة وسرها ، فقد وجد أن الأطفال في مرحلة الفتوة يعملون بدافع من غرائزهم أكثر مما يعملون بدافع من قدراتهم الخاصة ، وأن ذكاءهم يكون هو العامل الأول في تقرير تفوقهم في المدارس الابتدائية . ولقد وضع الفيلسوف التربوي العظيم جون ديوي أساس طريقة المشروع في كتابه « الميل والجهد في التربية » فهو يهاجم أسلوب « الإرغام والقسر » ومطالبة التلميذ ببذل أقصى ما يستطيع من « جهد » لفهم دروسه أو الأشياء إليه ، فإن الطفل يكون إذ ذاك « مشتت الأشياء . . . وتكون أفكاره منطلقة تحوم حول مسائل أخرى تميل إليها نفسه ميلا حقيقياً » وأكد ديوي أن القسر والإرغام لا ينتج إلا « شخصيات ضيقة الفكر ، قليلة التمييز ، متعنتة لا تعرف المسئولية معنى ، شخصيات غبية عديمة الكفاءة والقدرة » غير أن ديوي — من الناحية الأخرى — لم يشجع استرضاء « ميول » التلاميذ ورغباتهم الخاصة استرضاء مطلقاً ، لأن ذلك يؤدي إلى إثارة وجدان الطفل إثارة دائمة لا تنقطع ، وبالتالي إلى إتلاف شخصيته . . . وإضعافه وسلب إرادته .

ثم بين ديوي أن الأسلوب الوحيد الذي يوفق بين هذين الطرفين المتناقضين : بذل الجهد ، والعمل تبعاً للميول الشخصية ، هو أن يواجه الطفل عملا معضلا — أو كما يقول كلباترك Kilpatrick مشكلة توائم استعداداته وقدراته وميوله فيحاول من ذات نفسه ، ومن غير ما حاجة إلى قسر أو إرغام خارجي ، جاداً في حلها والوصول بها إلى غاياتها وأهدافها الطبيعية . وينتهي ديوي من ذلك كله إلى أن علينا أن نكشف عن حاجات الطفل العاجلة ، وقوامه : أن نهيء له محيطاً من الأشياء والأدوات المادية والاجتماعية والفكرية ، كي توجه تلك الرغبات العاجلة وتلك القوى الحافزة إلى خير ما يستطيع أن يقوم به من أعمال وأنسبها له . هذا هو مجمل ما تقوم عليه طريقة المشروع . ومن هذا الشرح نرى أن التربية الحديثة ليست — كما يظن البعض — تربية تدليل واسترضاء ميول ، بل هي تربية عملية ، تستهدف غاية جادة ، وتسلك أسلوباً لا ضعف فيه ولا استخذاء .

مصطفى محمد حسنين

في الأدب التركي :

الشيخ غالب
(غالب دده)

كانت الطريقة المولوية أهم الطرق تأثيراً في الأدب التركي الصوفي . وذلك لأن مولانا جلال الدين الرومي ، منشيء هذه الطريقة في مدينة قونية بالأناضول ، قد بهر الكتاب والشعراء بكتابه « المثنوى » وديوانه الكبير ، ولأن هذه الطريقة كانت أكثر حرية في القيام بالمراسم المذهبية ؛ وقد أباحت الموسيقى بل جعلتها شرطاً للذكر فنشأ من أتباعها الشعراء والكتاب والموسيقيون . وكانت في حماية سلاطين آل عثمان ورعايتهم إلى حد كبير ، فقلما تجد وزيراً أو ذا منصب رفيع ليس من محبي الطريقة المولوية . ولم يكن شعراء المولوية يترعون بمبادىء طريقتهم فحسب ، كما في معظم الطرق الصوفية ، فقد كان لهم في ميدان الأدب العام شأن عظيم . والشيخ غالب من أتباع هذه الطريقة ، ومن رجالها العظام ومن أهم الشعراء في نهاية القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الهجري .

اسمه محمد أسعد . ولد باستانبول ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) وكان أبوه مصطفى رشيد افندى كاتباً في أحد الدواوين ومحباً للمولوية ، وكان مثقفاً تثقيفاً حسناً ، وله ذوق في الشعر ، فلقن ابنه منذ البدء ، العلوم الإسلامية والتصوف خاصة . وقد تلقى محمد أسعد العلوم العربية على أساتذة مختلفين ثم أخذ الأدب الفارسي من خواجه نشأت الذى كان أحد أساتذة الأدب في ذلك العهد .

ابتدأ محمد أسعد يقرض الشعر مقلداً « فضولى » و « خيالى » من شعراء القرن العاشر ، و « نابى » و « نديم » من شعراء القرنين الحادى عشر والثانى عشر من شعراء الترك ودرس « شوكت البخارى » من شعراء الفرس دراسة جيدة وأفاد من خياله الخصب حتى لقبه معاصروه بـ « شوكت الروم » . وكان ينشر شعره في هذا العهد بلقب « أسعد » . ولكنه قرأ أشعاراً لبعض الشعراء مذاعة بهذا اللقب ولم تعجبه ، فتركه واتخذ كلمة « غالب » لقباً له وهو يرمى بذلك إلى معنى الانتصار .

وفي عام ١١٩٨ هـ سافر إلى قونية ، مركز الطريقة المولوية والتحق بها وأمضى مدة الرياضة بين قونية واستانبول والرياضة المولوية التى يعبّر عنها بالأربعين (چلّه) هي ألف يوم ويوم يقضيها المُريد في القيام بالخدمات الوضيعة من خدمات التكية ، ويعامَل في خلالها بكل خشونة وقسوة ، ليروض نفسه على تحمل ما لا تحب ؛ فإن أخطأ في أقل تقليد من تقاليد الطريقة أرغم على استئناف الرياضة من جديد .

أتم غالب هذه الرياضة الطويلة في رمضان سنة ١٢٠١ فصار « دده » ، وقد ثابر على الشعر حتى في أثناء قيامه بتلك الخدمات الوضيعة الشاقة المملّة . وبلغ مكانةً عظيمة من الشهرة حتى أمره السلطان سليم الثالث بأن ينشد أبياتاً تُنقش على كساء قبر جلال الدين الرومي وكان السلطان معجباً به .

كان السلطان سليم ملمّاً بالشعر والموسيقى ويقدرهما ، فوجد في غالب ضالته المنشودة ، وجعله من المقربين له ، المتصلين به بدون حجاب . وفي هذا الوقت ، وقد بلغ غالب أوج شهرته ، توفى شيخ تكية المولوية التى بحى « غلطه » باستانبول فعُيّن غالب مكانه ، وجعل التكية مجمعاً للكتاب والشعراء والعلماء ، ومنهم السلطان سليم الثالث نفسُه وزوجاته وأخواته . وظل الشيخ غالب ذائع الصيت حائزاً ثقة السلطان حتى توفى سنة ١٢١٣ هـ (١٨٩٨ م) في الثالثة والأربعين من عمره .

كان لثلاثة من شعراء الترك شهرة واسعة في القرن

الثانى عشر الهجرى . وهم أحمد نديم فى القصائد وشعر المجون والغزل خاصة . وقد توفى سنة ١١٤٣ هـ . والوزير راغب باشا (١١١٠ — ١١٧٦ هـ) فى الحكم والأمثال . والشيخ غالب فى الشعر الصوفى بنوع خاص . وقد برع فى إظهار قدرته على النظم وقوة خياله بقصته المسماة « حُسن وعشق » التى تفيض بخيال رائع . ولم يكن غريباً من مثل الشيخ غالب ، الذى استلهم عبقريا كجلال الدين الرومى ، وقد قرأ كتابه المثنوى أربع عشرة مرة ؛ ودرس شعر شوكت البخارى (توفى بأصفهان سنة ١١٠٧ هـ) المشهور بين شعراء الفرس المتأخرين بغزارة الخيال — أن ينشأ شاعراً حساساً ، قوى الخيال جيد اللغة ، دقيق الأسلوب ، كثير الاستعمال للاستعارات والمجازات .

فرغ الشيخ غالب من تأليف ديوانه الكبير فى الرابعة والعشرين من عمره ، وهو يضم أشعاره باللغتين التركية والفارسية وبعض أبيات باللغة العربية . وله مؤلفات قيمة فى التصوف . ولكن كتابه الذى اشتهر به وفاق على كثير من الشعراء هو قصة « حُسن وعشق » .

وهى قصة شبيهة فى ظاهرها كل الشبه بقصتى « ليلى والمجنون » و« يوسف وزليخا » المشهورتين فى الأدب الفارسى والأدب التركى ، وباطنها تصوف . وقد نظمت على نظام المثنوى وهو القافية المزدوجة . وتعد آخر منظومة قيمة من نوعها فى الأدب التركى الخاص المعروف بأدب الديوان .

وموضوع القصة قبيلة عربية اسمها « بنو محبة » . ولد فيها ذات ليلة طفل سُمى « عشق » وولدت طفلة سميت « حُسن » ، فاجتمع أعيان القبيلة وخطبوا الطفلة للطفل . ولما بلغ الطفلان سناً تؤهلهما لتلقى الدروس شرعا فى التعلم فى مدرسة اسمها « مدرسة الأدب » وأستاذهما رجل يدعى « شيخ الجنون » . أخذت « حُسن » تشعر بميل إلى « عشق » ولكنها لم تكن واثقة من ميله إليها . وكذلك شعر « عشق » باضطراب فى قلبه . وكانا يتنزهان حيناً بعد حين حول حوض يقال له « حوض الفيض » فى حديقة تدعى « متنزه المنى » يملكها شيخ ماكر ذو قلب فتى يدعى « سُخن » (الكلام) يفهم ما بهما من جوى فيتوسط بينهما . وللقبيلة حاكم يدعى « حيرة » يحول بين حُسن وعشق وبين اجتماعهما . طلب عشق إلى أعيان القبيلة تسليم خطيبته إليه وأفتى شيخ الجنون بذلك . ولكن الأعيان ردوا طلبه بكل خشونة . ولما ألح فى طلبه اشترطوا عليه أن يحضر اكسيراً من ديار القلب إن أراد وصال حسن وبينوا له ما ينتظره من المشاق والمهالك فى طريق ديار القلب .

تدور حوادث القصة حول المراحل التى يقطعها عشق وما يلاقى فيها من المشقة والبلاء حتى يصل إلى ديار القلب فيدخل سرادق الوصال وقد فتح أمامه يدخل ، ومعه « حيرة » .

أسماء أشخاص هذه القصة كلمات تدل على معان رمزية صوفية . ولعل المراد من « حُسن » هو ذات الله ومن « عشق » العارف بالله . ومن بنى محبة العارفون ، ومن مدرسة الأدب الخانقاه ، ومن شيخ الجنون المرشد . وأما أنواع المشاق والأهوال التى قاساها « عشق » فى سيره وسلوكه إلى قلعة القلب ، أو ديار القلب ، فهى رمز لما يلقاه السالكون فى مراحل الطريق الصوفى . وقد تغلب « عشق » بصبره وجلده وبإرشاد المرشد الكامل ، على المشاق والعوائق ، وثابر على سيره وسلوكه حتى بلغ غايته وهو الوصول إلى الله والفناء فيه .

حمزه طاهر

إلى حضرات المشتركين

إدارة مجلة الثقافة تقبل من حضرات مشتركيها قيمة الاشتراك عن النصف الثانى من هذا العام المنتهية ٣١ يوليه سنة ١٩٤٥

الإدارة

قبور فى جليد القطب

صفحة من مذكرات الكابتن سكوت

فى يوم ١٧ يناير عام ١٩١٢ ، وبعد مسيرة ثمانية وسبعين يوماً وصل الكابتن سكوت Scott وأربعة من رفاقه إلى القطب الجنوبى بعد أن ذاقوا الأمرين من سير شاق عبر الجليد وفى جو ردئ للغاية .

كانوا أول من وصل إلى هذا المكان من الإنجليز ، ولكنهم صدموا إذ علموا أن جماعة من المكتشفين النرويج قد سبقوهم وقد غرسوا علماً نرويجياً قبل ذلك بشهر . ولم يكن فى وسعهم إلا مجابهة رحلة العودة أى مسير ثمانمائة ميل حتى يصلوا إلى السفين التى تقلهم بدورها إلى (نيوزيلنده) .

كان الكابتن سكوت فى الثالثة والأربعين من سنى حياته . وكان ثلاثة من رفاقه فى الثلاثين وهم الدكتور ويلسن Wilson والكابتن أوتس Oates والضابط بورز Bowers ، أما الرابع وهو اللازم إيفانز Evans فكان فى الثامنة والعشرين . كان عليهم أن يجروا العربة الزاحفة التى تحوى الطعام والوقود والخيمة ، وحقائب النوم ولوازم أخرى للرحلة . وكانوا يأملون أن يتزودوا بالطعام والوقود من تلك المخازن التى تركوها فى الطريق أثناء الحضور . لم يكن فى إمكانهم التأخر حيث إن الجو كان ينذر بالشر المستطير .

وفى يوم ١٩ يناير بدءوا السير شمالا . دعنا نسير مع هؤلاء الخمسة البواسل حتى نوريهم التراب . لنقرأ قصتهم الدامية ، قصة الصعوبات الجمة ، والشجاعة التى لا تفل ، تلك القصة التى سطرها الكابتن سكوت فى وريقات وجدت مع جثته بعد وفاته بثمانية أشهر !!!

١٩ يناير : إنى لشديد الخوف والوجل ، إن رحلة العودة تبدو مرعبة خطرة ! !

٢٢ يناير : ما أعظم الفرق بين رحلة المجئ ورحلة العودة . . .

٢٣ يناير : ليس هناك أدنى شك فى أن إيفانز يتدهور بشدة . أما ولسون وبورز وأنا فنستطيع التحمل قدر الطاقة . أما أوتس فإنه أصيب ببرد شديد فى قدمه . يكاد الجو أن ينفجر . إذا استمر الحال كذلك ، فلنا الله ! !

٢٧ يناير : لقد بدأنا نشعر بالجوع رويدا رويدا ، فلقد نحلنا لا سيما إيفانز . إنى أشك فى مقدرتنا على جر العربة .

٦ فبراير : يا للسماوات ! . . . إن إيفانز ينحدر رأساً إلى أسفل .

١٧ فبراير : يوم عاصف رهيب . . . ! ! ! نام إيفانز بعض الوقت ثم استيقظ متحمساً . لقد أخذ مكانه فى القافلة ، ولكن بعد نصف ساعة ترك العربة . ولما كنا مضطرين لمواصلة السير ، فقد حذرت إيفانز من الإسراع وتركناه متخلفا عن القافلة بعض الشيء . وعندما عسكرنا للمشاء كان يبعد عنا مسافة طويلة نحو الشرق . وسرعان ماأيسنا الباقيين وهرولنا نحوه . وكنت أول من وصل إلى المسكين وصدمه منظره

. . . كان راكع على ركبتيه وملابسه غير منتظمة وجسده عار . . وفى عينيه كانت تبدو نظرة متوحشة . . . ! ! عند ما سألناه عما به أجاب بصوت خفيض : لست أدرى . أحسب أنه أغمى على . فأوقفناه على قدميه وسار خطوتين أو ثلاثاً ثم خر مغشياً عليه . فحملناه إلى الخيمة وأرقدناه فنام نوما هادئا . . . وبعد منتصف الليل . . . أسلم الروح . . . مات . . . إنه لمن المؤلم حقا أن نفقد رفيقا مثل هذه الطريقة القاسية .

١٩ فبراير : لقد جاهدنا خلال أربعة أميال ونصف ميل ، إذ كنا نسير فوق سطح كأنه سطح صحراء مغطاة بالرمال والحصى . عونك يا ألله . . . . ! !

٢٨ فبراير : هبط زئبق (الترمومتر) إلى العلامة (- ٤٠) ، ومع اشتداد البرد ، فقد أمضينا ليلة هادئة ، واقترحت أن نزيد في مقدار الطعام زيادة طفيفة . . وكانت النتيجة بالطبع حسنة . . .

٣ مارس : بعد أن قطعنا أربعة أميال ونصف ميل في مدة أربع ساعات وربع ساءت الحالة فاضطررنا إلى التوقف . إننا لا نستطيع أن نستمر على هذا العمل الشاق . . . . ! .

٤ مارس : نحن في موقف حرج جداً . . ولكن اليأس لم يتطرق إلى قلبي بعد . . . !

٦ مارس : إن حالة أوتس يرثى لها إنه يشكو ألماً مبرحاً في قدمه .

٧ مارس : لقد زادت خطورة قدم أوتس هذا الصباح ، ولكنه لم يشك . يا له من شجاع نبيل ! . !

٨ مارس : إننا نشعر أن نهاية أوتس قد أوشكت ، وقدمه اليسرى لا أمل فيها . ولقد تألم ولسن اليوم ، وذلك نتيجة إفراطه في مساعدة رفاقه . لم تتحسن صحة واحد . . . .

١٠ مارس : كل شيء يسير رأساً إلى الحضيض .

١١ مارس : إن أوتس أقرب جداً من النهاية . ولكن ماذا نعمل نحن ، أو ماذا يعمل هو ؟؟؟ ! ! . الله وحده يعلم . لقد ناقشنا في حالتنا بعد الفطور ، يا له من زميل لطيف . . إنه يفهم كل شيء على حقيقته . لا نملك إلا تشجيعه على مواصلة السير قدر طاقته .

١٦ أو ١٧ مارس : لقد تبلبلت ولم أستطع تتبع التاريخ ، وأظن اليوم السابع عشر . قال أوتس أول أمس ونحن على مائدة العشاء إنه لا يستطيع مواصلة السير واقترح علينا أن نتركه في حقيبة نومه . . . لكنا لا نستطيع فعل ذلك . ولهذا فقد شجعناه على استئناف السير ، ورغم رداءة الجو فقد جاهد وقطعنا أميالاً طفيفة ، وفي المساء تأكدنا أن النهاية قد حلت . ترى هل ستقع هذه الأوراق في أيدي البشر ؟ ؟ . . . أرجو ذلك حتى يلمس هذه الحقائق أن يتداولها الناس . جلس أوتس وتذكر والدته ، وظل يناجيها ، ثم قال بفخر : إن فرقته سوف تذكر له تلك الميتة التي جابهها . لقد تحمل كثيراً من الشاق دون أن يشكو . ولكنه لم يقطع الأمل إلى اللحظة الأخيرة . ثم نام ليلة أمس آملاً ألا يقوم . ولكنه استيقظ في صباح الأمس ، وقال : سأذهب إلى الخارج وسأظل هناك بعض الوقت . ثم ذهب . . . ولم نره بعد ذلك . . . ! ! ! . . . يا له من رجل عجيب ، إنه لا يريد أن تفارقه الحياة أمامنا حتى لا يفت من عزمنا ، وذلك شأن الرجل الإنجليزي . . . لشد ما نريد أن نقابل الموت بمثل هذه الروح . . .

١٩ مارس : لا نملك سوى طعام يومين ووقود يوم . . . .

٢٢ ، ٢٣ مارس : ليس عندنا وقود ، وطعامنا قليل جداً ، ونحن على وشك الانتهاء . يجب أن نسير إلى المخزن . . ولكننا سنموت في الطريق . . .

٢٩ مارس : منذ يوم ٢١ ونحن تلفنا زوبعة مستمرة . استطعنا أن نعمل كوبين من الشاي بفضلة من وقود . . . كنا على أتم الاستعداد للسير ، ولكن الزوبعة كانت عاتية يستحيل معها السير . إننا نضعف تدريجياً ونسير إلى النهاية حتماً . يبدو أنني لن أستطيع الكتابة بعد . . .

. . . .

. . . .

ى . سكوت

وبعد ذلك بثمانية أشهر وجد أحد المكتشفين جثمان الكابتن سكوت ، والدكتور ولسن ، والملازم بورز .

رفاعة فى السودان

فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ (١٠ نوفمبر ١٨٤٨) توفى ابراهيم باشا ، وفى ٢٧ من نفس الشهر تولى عرش مصر عباس باشا الأول ؛ وكان محمد على لا يزال حيا يعانى من مرضه الأخير ، فلم يجرؤ عباس على تغيير ما يريد تغييره من الأوضاع القديمة ؛ وفى ١٢ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ أغسطس ١٨٤٩) انتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى ، فاستقل عباس بالأمر .

ولم يكن عباس كجده وعمه ، بل لعله كان على النقيض منهما ، ولهذا يكاد يجمع مؤرخو عصره على وصفه بالجمود والرجعية ؛ فالأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك يرى أنه كان « قبل ولايته الحكم ، وبعد أن تولاه خلوا من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع بأعباء الحكم ، ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة . . . وبالجملة فلم تكن له من ميزة تلفت النظر سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكا كبيرا ، فصار إليه هذا الملك دون أن تؤول إليه مواهب مؤسسه ، فكان شأنه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره ، وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا . . »

ويرى المؤرخ الايطالى « سامار كو » : « أن أظهر ماتتسم به حكومة عباس عداؤه الوحشى للحضارة الغربية ، وكرهه العنيف لجميع الأعمال التى كونت مجد جده ، والتى بذل هو كل الجهد فى تحطيمها شيئا فشيئا . . . »

ويرى الدكتور عزت عبد الكريم أن عباسا « أظهر منذ تولى الحكم فى مصر أنه لن يكون الحاكم الذى يتابع سياسة جده ، ويحنو على مؤسساته ، ويؤيد نظمه . . » ، وأن « سيرته فى الإصلاح الداخلى كانت فشلا متصلا ، ولايشفع له فى ذلك أن حكمه كان قصيرا . . » ، والسبب الأساسى لهذا كله — فى نظره — يرجع إلى أن « سياسة عباس قامت على تسفيه الجهود التى بذلها محمد على وإبراهيم فى ميدان الإصلاح الداخلى ، والسياسة التى اعتقد أنهما كانا يتمسكان بها ، ويدعوان إليها فى تقرير علاقات مصر بالدولة العثمانية ، والدول الأوربية . . »

فإذا فهمنا سياسة عباس الأول على هذا الأساس لم يكن من العسير إذاً أن نفهم لم أغلقت معظم المدارس الخصوصية فى أول عهده ، وكانت مدرسة الألسن أول مدرسة ألغيت ، وذلك أن مؤسسها وناظرها كان من المقربين لمحمد على وإبراهيم ، الحائزين لثقتهما ؛ لهذا نشأ بين عباس ورفاعة نوع من الكراهية وسوء التفاهم .

وسرعان ما بنى بناءً حول الخيمة التى تضم جثثهم ووضع فوقه صليباً خشبيًا ... وسيظل هؤلاء الثلاثة هناك ... أبداً .... مع الجليد .... السرمدى .... ووجد مع مذكرات الكابتن سكوت بعض خطابات كان قد كتبها لزوجته ولأصدقائه ... وهناك ، وجدت رسالة أخرى وجهها إلى العالم يقول فيها :

« لقد مكثنا أربعة أيام لا نستطيع مبارحة الخيمة ، والعاصفة تشتد حولنا . . وأصابنا الضعف والهزال . . . فالكتابة صعبة . ولكنى لست آسفُ على هذه الرحلة التى تدلكم على أن الرجل الإنجليزى يستطيع أن يتغلب على الصعاب ، وأن يقابل الموت دون مبالاة ، وأن يكافح حتى النهاية ... حقا لقد جابهنا بعض المخاطر ، وكنا نعلم أنها ستقابلنا ، ولذا فليس لنا أن نشكو . ها هى مذكراتى الفجة تقص عليكم قصة رائعة . عن المخاطرات ، . . والصعوبات .... والشجاعة .... ثم عن الحياة .... والموت .... !!!! »

ى . سكوت

(مترجمة عن الإنجليزية) محمد سعد الدين وهبه

لم يوضح رفاعة نفسه ، ولم يوضح المؤرخون المعاصرون أسبابه الحقيقية مما دعا المؤرخين المحدثين إلى أن يذهبوا في تفسيره مذاهب شتى ، فالأستاذ الرافعي بك يرى أن لكتاب رفاعة « تخليص الابريز » « سببا يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى أنه طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ ، أى في أوائل عهد عباس باشا . والكتاب . . . يحوى آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد ؛ وعباس باشا الأول كان في طبعه مستبداً غشوما ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما في كتاب رفاعة بك مما لا يروق لعباس ، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له . ولا غرابة في ذلك ، فلو أن هذا الكتاب ظهر في تركيا على عهد السلطان عبد الحميد لكان من المحقق أن يكون سببا في هلاك صاحبه ، فمن الجائز أن يكون عباس باشا قد رأى نفى رفاعة ، وأمثال رفاعة إلى السودان ، ليبعدهم ، ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر ، واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة ، وهى إنشاء مدرسة بالخرطوم . . »

أما الدكتور عزت عبد الكريم فيرى أن هناك احتمالين لإبعاد رفاعة إلى السودان : أولهما سعى على مبارك « الذى عاد من أوربا مليئا بالأطماع ، والذى كان يحقد على رفاعة ما أصاب من مكانة ، وقد قرب عباس إليه على مبارك ، وأبعد رفاعة إلى السودان ، فلما خلفه سعيد قرب إليه رفاعة ، وأبعد على مبارك إلى القرم ؛ والثانى ما يحتمل أن يكون رفاعة قد لقيه من معارضة بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم في دراسة الشريعة والفقه . . »

وهذه كلها تفسيرات احتمالية أو اجتهادية تفتقر إلى سند تاريخى مادى ، وأصدق منها — في نظرى — ما ذكره رفاعة نفسه من أنه سافر إلى السودان « بسعى بعض الأمراء ، بضمير مستتر ، بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم » ، وإن كان لم يذكر أسماء هؤلاء الأمراء ، أو ماهية الوشاية التى وشوا بها ضده .

غير أنه عاد فأشار إليهم وإليها في إيضاح مستتر في قصيدة نظمها ، وهو في السودان مستغيثا مما هو فيه بحسن باشا — كتخدا مصر — ، قال فيها :

وما خلت العزيز يريد ذلى … ولا يصغى لأخصام لداد
لديه سعوا بألسنة حداد … فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعونى … وهل في حربهم يكبو جوادى
وزخرف قولهم إذ موهوه … على تزييفه نادى المنادى
فهل من صيرف المعنى بصير … صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيم … بمصر فالنتيجة في بعادى؟

الخ . . .

ويقول الأستاذ أحمد أمين بك : « وكان الشيخ ماكرا ، فقد وضع القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعت لو ناديت حيا … ولكن لا حياة لمن تنادى »

ومهما تكن الأسباب الحقيقية ، فإن عباسا قد أوعز في شهر رجب سنة ١٢٦٦ إلى المجلس المخصوص برغبته ، واقترح هذا المجلس أن تؤسس مدرسة بالأقاليم السودانية إنقاذاً لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها من جحيم الجهل ، وأن يقوم على تأسيسها ونظارتها رفاعة بك ، وأن يشترك معه في التدريس علم من أعلام النهضة العلمية التعليمية في عصر محمد على ، وهو محمد أفندى بيومى أستاذ الرياضيات في المهندسخانة ، ورئيس أحد أقلام غرفة الترجمة . وإنه من الجميل حقا أن تسجل لحكومة عباس أنها أول من فكرت في إنشاء مدرسة مصرية في ربوع السودان ، لو أنه كان خالص النية ، صادق الرغبة في خدمة السودان وأبنائه ؛ ولكنه لم يكن كذلك ، وإلا فإن إنشاء مدرسة ابتدائية في الخرطوم لم يكن يستلزم أن يشرف عليها ، ويقوم بالتدريس فيها كبيرا رجال النهضة العلمية في مصر : رفاعة وبيومى .

ومع هذا فإن قرار المجلس المخصوص أخفى الأسباب الحقيقية ، وأظهر لنا الغرض من إنشاء المدرسة فى صورة أخاذة براقة ، فقد ذكر فى هذا القرار أنه : « لما كانت الأقاليم السودانية من البلاد الجسيمة ، ولما لم يكن قد أنشئت فى تلك الديار المتسعة مدرسة يربى فيها أولاد مشايخها ، وغيرهم من أهلها ، وأولاد الأتراك الذين ذهبوا إلى تلك الديار ، وتوطنوا بها منذ أعوام خلت ، وكذلك أحفادهم ، ليتعلموا فيهـا الفنون والقراءة والكتابة ، فيزدادوا ثقافة وفطنة ، ولما كان المجلس المخصوص قد تشاور فى جلسته التى عقدها أخيرا ، فقرر أمر إنشاء مدرسة بتلك البلاد بغية إنقاذ أولادها من ظلمات الجهل ، وتنويرهم بأنوار المعارف ، بمقتضى مراحم الذات الخديوية ، والمكارم السنية التى شملت جميع الرعايا والبرايا ، قد قر الرأى على أن تفتح هذه المدرسة فى عاصمة الخرطوم ، وأن يكون نظامها موافقا لأصول المدارس المصرية ، وعلى نمط ترتيب مدرستى المبتديان والتجهيزية ، وأن يقبل ويسجل فيها نحو مائتين وخمسين غلاما من أولاد المشايخ ، والأهلين القاطنين بدنقلة ، والخرطوم ، وسنار ، وتاكة ، وملحقاتها ، وكذلك من أولاد الأتراك الذين توطنوا بتلك الديار ، وأحفادهم ؛ هذا ويولى عليها ناظر ملم بأصول المدارس ، ليتمكن من ترتيبها كما ينبغى ، وتنظيمها على أحسن وجه ، فاستحسن المجلس اختيار أميرالآلاى رفاعة بك الذى بديوان المدارس ناظراً المدرسة المذكورة ، وإرساله إلى تلك الديار ، وانتخاب المعلمين الذين تحتاج إليهم تلك المدرسة برأى البك المشار إليه . . . » الخ

قضى رفاعة فى السودان نحو ثلاث سنوات قاسى فيها الأمرين ، لا كرها فى السودان ، فهو القائل على لسان مصر والسودان :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـ
ـد جميعا فى الحب ضم النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى عزة كوكبية الانفلاق

إنما آلمه فى السودان شعوره بأنه منفى ، وتألمه لما أصاب معظم زملائه من مرض ووفاة ، وخاصة بيومى أفندى صديقه فى باريس ومصر ، ووفيه فى الجهاد العلمى ، وصاحبه فى السراء والضراء ؛ يؤيد هـذا قوله فى قصيدته السابق الإشارة إليها :

وحسبى فتكهـا بنصيف صحبى
كأن وظيفتى لبس الحداد

ومع ذلك فقد تدرع هناك بالصبر والإيمان ، وقام بواجبه فى مدرسة الخرطوم خير قيام ، وتخرج على يديه بعض أبناء مصر والسودان ؛ وقد بث شكواه فى قصائد كثيرة تعد من أجمل ما قال من شعر .

ولم ينس رفاعة أخيرا عمله الذى أحبه وأخلص له ، وهو الترجمة ، فشغل وقت فراغه بترجمة قصة « تلماك » التى طبعها أحد تلاميذه فيما بعد — فى بيروت — بعنوان : « مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك » ، وقد أشار فى مقدمتها إلى ما كان يحس — وهو فى منفاه — من ألم ممض ، وكيف استعان على تحمل هذا الألم باشتغاله بترجمة هذا الكتاب ، قال :

« وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس فيها قضاء الله مفر ، أقمت برهة خامد الهمة ، جامد القريحة فى هذه المدة ، حتى كاد يتلفنى سعير الإقليم الفائر بحره وسمومه ، ويبلعنى فيل السودان الكاسر بخرطومه . . . فما تسليت إلا بتعريب « تلماك » وتقريب الرجاء بدور الأفلاك . . . »

وفى ٢٠ شوال سنة ١٢٧٠ (يوليو ١٨٥٤) تولى سعيد باشا عرش مصر ، فأسرع رفاعة ومن بقى من رفاقه بالعودة إلى مصر . . .

جمال الدين الشيال

لحظة رهيبة

قصة لأنطون تشيكوف

حدث هذا من زمن ليس بالبعيد في دائرة محكمة موسكو ، وقد بدأت المناقشة بين المحلفين الذين ظلوا في المحكمة ليلا مجتمعين قبل أن يذهب كل إلى فراشه — عن اللحظات الرهيبة التي تصادف الإنسان في حياته ، بمناسبة ما ذكره أحدهم عن شاهد في إحدى القضايا قد تلعثم واصفر وأرتج عليه ، وهو يرجع أن ذلك كان راجعاً إلى تلك اللحظة العصيبة المخيفة . وقد رأى المحلفون أن يبحث كلٌّ في ذكرياته ويحكي لهم قصة تتضمن مواقف مشابهة لتلك، إذ أن الحياة على قصرها لا تخلو من لحظات قاسية عنيفة .

فروى أحدهم كيف كان على وشك الغرق . وقال ثانٍ كيف أنه سم ولده في مكان خالٍ من أي طبيب أو صيدلي بأن أعطى الطفل مسحوقاً من النحاس بدلا من الصودا ، ولكن الطفل لم يمت ، إلا أن والده كان على وشك الجنون . وحكى ثالث وهو رجل ليس متقدما في السن ولكنه سقيم كيف أنه حاول الانتحار مرتين ، إذ أطلق على نفسه عياراً نارياً مرة وألقى بنفسه بجانب قطار مرة أخرى . أما الرابع وهو رجل قصير ، على وجهه دلائل الصحة والقوة ، ملابسه وجيهة نظيفة فروى القصة التالية :

« كنت لا أتعدى الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين حين أفعم قلبي بحب زوجتي الحالية فطلبت يدها . وكان حبي لها حاراً من ذلك النوع الجنوني الذي يذكر في القصص والروايات ، وقد غمرني بالسرور ولم أعرف كيف أتخلص منه ، فضايقت والديّ وأصدقائي وخدمي بتكرار ذكر حبي لهم دائماً . والمسرورون — كما تعلمون — هم أكثر الناس تعباً وضيقاً ، إذ كنت دائماً حنقاً مغيظاً حتى إني أخجل من ذكر ذلك الآن .

وكان لي صديق محام ناشئ حينذاك ، وهو مشهور الآن في روسيا بأسرها ، ولكنه يومئذ كان يخطو خطواته الأولى نحو الشهرة . ولم يكن موسراً ولا مشهوراً حتى يحق له أن يغفل صديقاً له إذا ما قابله أو ألا يرفع قبعته لأحد . وكان من عادتي أن أزوره مرة أو مرتين في الأسبوع . فإذا ما ذهبت إليه اضطجعنا على أريكتين وبدأنا في الفلسفة .

وكنت يوماً مضطجعا على الأريكة كعادتي ، وكنت أتجادل معه حول أن مهنة المحامي هي مهنة كلها عقوق ونكران للمعروف ، وحاولت أن أبين له كيف أنه بعد سماع الشهود في المحكمة يمكن الاستغناء عن المحامي . فإذا كان هناك محلف يافع معافى العقل والروح وأثبت أن هذا السقف أبيض أو أن هذا مذنب فليس هناك من شخص لديه القوة الكافية ليقاوم إقناعه وإثباته . ومن ذا الذي يثبت لي أن شاربي أحمر بينما أنا أعرف أنه أسود . ولربما إذا أصغيتُ إلى خطيب أثر عليّ وانتزع دموعي ، ولكن عقائدي الثابتة المبنية على الحقائق الجلية لا يمكن تغييرها .

ولكن صديقي المحامي جاهد في إقناعي أني مازلت صغيراً غبيا ، أتكلم كالأطفال كلاماً لا معنى له ولا قيمة . وقال : إن الحقيقة الظاهرة حينما يلقى عليها الضوء إخصائي خبير عادل تزداد جلاءً ، وإن الذكاء قوة هائلة يمكنها تحويل الحجر إلى تراب ، وقال إنه لا يتكلم عن ذلك الذكاء الطفيف التافه كذكاء أصحاب الأملاك والجمال ، ومن الصعب للإرادة البشرية الضعيفة أن تقاوم رجلا ذكيا ، كمن ينظر إلى الشمس دون أن يغلق عينيه . وبقوة الكلمات أمكن لشخص واحد أن يجعل الألوف يعتنقون المسيحية ، وما التاريخ قائم إلا على لحظات وحوادث كتلك .

ولكني أصررت على أن قوة العقيدة لا يضعفها أي ذكاء . وكنت أقول ذلك مع أني لا يمكنني أن أحدد

تماماً ماهي العقيدة وماهو الذكاء . ومن المحتمل أني كنت أتكلم لمجرد الكلام ليس إلا !

ولكن صديق المحامي قال: «خذ مثلا ، شخصا مثلك ، فأنت مقتنع أن خطيبتك ملاك ، وأنه ما من قلب في البلدة مفعم بالسرور كقلبك . ولكني أؤكد لك أن بضع دقائق تكفي تماما لجلوسك على نفس هذا المكتب لتكتب إليها لتحطما علاقتكما» .

فقهقهت ساخرا ، إلا أن صديقي قال : «لا تضحك فأني أتكلم الحقائق . فإذا رغبت في ذلك فستصبح سعيدا بعد عشرين دقيقة فقط ، لأني أنقذتك من ذلك الزواج» .

فقلت : «حسنا .. جرب من فضلك» .

— «كلا .. لماذا أفعل ذلك وأنت شاب مهذب رقيق، إني أشفق عليك كي أجعل منك هدفا لتجربتي القاسية» .

وجلسنا للعشاء .. ولما غمرتني الخمر بتخيلاتي من ناتاشا حبيبتي كان سروري عظيما حتى إن عيني المحامي الخضراوين ظهرتا لي وكأنهما مكتئبتان . فاستفززته قائلا : «حاول يا صديقي .. أرجو منك أن تحاول» .

فهز المحامي رأسه وعقد حاجبيه ، وكنت قد ضايقته ، فقال : «أؤكد لك أنك ستشكرني وستدعوني بالمنقذ حينما تتم التجربة . ولكن يجب عليّ أن أذكر خطيبتك أيضا ، فهي تحبك ، وعدم مبادلتك إياها حبها سيؤلمها ويشقيها . ولكن كم هي جميلة ! . إني أحسدك» .

وزفر المحامي زفرة حارة وهو يرشف الخمر ، وبدأ يتحدث عن جمال صديقتي . وكان وصافا بارعا وهو يتحدث عن أهدابها أو إصبعها الصغيرة . وبدأت أنصت إليه وأنا فرح .

وكان يقول : «رأيت نساء كثيرات ، ولكني أصدقك القول أن ناتاشا درة لامعة ، فتاة نادرة ! وبالطبع لها عيوبها ، ولكنها مع ذلك كله مدهشة» .

وبدأ المحامي يتكلم من عيوب عشيقتي ، والذي أفهمه أنا أنه كان حديثا جامعا عن النساء .. عن النقط الضعيفة من أخلاقهن . إلا أني تخيلت حينئذ أنه يقصد ناتاشا بحديثه ذاك . وأطال صديقي وهو ذاهل فرح ، في وصف أنفها الأفطس ، وصوتها المثير ، وضحكتها المجلجلة ، وتكلفها وتظاهرها .. ومن كل ما أكرهه فيها . وكل هذا كان في رأيه محبوبا جميلا مفعما بالأنوثة !

وبدون أن أشعر انتقل من تلك الحرارة والحماسة إلى التربية الأبوية . وكان يتكلم في صوت لين كله تهكم وسخرية . ولم أجد أنا الفرصة لأفتح فمي .. فماذا أقول ؟ فصديقي لم يذكر شيئا جديدا ، وكل ما قاله كان صادقا فيه . ولم يكن موضع السم في كلامه ، ولكنه كان في تلك اللهجة الشيطانية التي كان يتكلم بها . واقتنعت أن لكل كلمة آلاف المعاني بحسب الطريقة التي تنطق بها وتغيير موضعها في الجملة .

وقمت ثائرا وأنا أقطع الحجرة جيئة وذهابا . ووجدتني أصدقه حين أخبرني والدموع تلمع في عينيه أني شاب في مقتبل العمر ، أمامي مستقبل مشرق سأقوم فيه بعمل باهر يجب عنه زواجي . وأطبق بيديه على يدي وهو يقول : «أرجوك .. بل آمرك .. أن تقف عند هذا الحد قبل أن يسبق السيف العزل . إن الله سينقذك من تلك الخطيئة القريبة ! لا تحطم شبابك يا صديقي» .

ومن الغريب أني جلست إلى المكتب وكتبت إلى خطيبتي أفصم عرى صداقتنا . وكنت فرحا إذ هناك متسع من الوقت لأصلح ذلك الخطأ الذي ترديت فيه . وألصقت الغلاف وأسرعت إلى الشارع ووضعته في صندوق البريد . وكان صديقي المحامي معي يمدحني على مافعلت

ولما اختفى خطابي في فتحة الصندوق سمعته يقول : «عمل باهر عظيم .. إني أهنئك من كل قلبي .. إني فرح من أجلك»

وبعد أن سرنا معاً ما يقرب من عشر خطوات كان صديقي يقول : «بطبيعة الحال للزواج ناحيته البهيجة أيضا ، فأنا مثلا أنتمي إلى ذلك النوع من الرجال الذين يجدون

على هامش السلم :

الفرد والجماعة

لا يقل اهتمام الرأى العام فى جميع البلاد حتى المحايدة منها بما ستكون عليه الحال بعد الحرب عن اهتمامه بأنباء الصراع الحالى .

فقد أثرت الحرب الحالية فى حياة الفرد والجماعة وفى نظرة الانسان للحياة وتفهمه لها وزعزعت من إيمانه بالنظام الاقتصادى وبعدالته وقدرته على أن يكفل المساواة التى اشتملت عليها كل الدساتير .

ولقد بلغت هذه الحالة حدا من الخطورة جعلت الأمم المحاربة منها والمحايدة تفكر باهتمام باحثة عن الوسيلة التى تجعل العدالة الاجتماعية حقيقة واقعة . وهى تعلم ألا سبيل إلى ذلك إلا من طريق الموازنة بين حقوق كل من الفرد والجماعة ، سواء كان ذلك فى دائرة الوطن أو فى دائرة الأمم

فقد أوقعتنا الثورة الاقتصادية والاجتماعية التى نشبت منذ عشرين عاما فى ذهول تام . ومع كل فليس من العسير علينا أن نتبين سبب الحيرة التى وقعنا فيها .

فنحن جميعاً بشر ونؤمن قبل كل شىء بقانون البقاء والدوام ونحن شديدو التمسك بنظام عصرنا الاقتصادى والاجتماعى على مافيه من عيوب ليس السبيل إلى إصلاحها بالمستحيل . وقد ننسى أن العالم قد مرت به أنظمة اجتماعية مختلفة ، فشاهد العالم ازدهار مدنية مصر القديمة (على أساس الرق) خلال عشرات القرون ثم شاهد من بعد ذلك المدنية الاغريقية تجمع بين الفردية والاشتراكية خلال مئات من السنين إلى اليوم الذى حلت فيه محلها الإدارة الرومانية البارعة . ثم شاهدت بعد ذلك القرون الوسطى قيام النظام الاقطاعى المؤسس على الرق على بقايا وأطلال الامبراطورية الرومانية ، ذلك النظام الذى تطور هو الآخر نحو نظام

فى الزواج والحياة العائلية كل آمالهم » . وجعل يصف حياته الزوجية فظهرت لى بشاعة حياة العزوبة وغلظتها . وكان يتكلم بحرارة وحماسة وإخلاص عن زوجته .. عن سعادة الحياة العائلية ، فهزنى بأس مميت حين وصلنا إلى باب منزله . وقلت وأنا ألهث : « ما الذى فعلته معى أيها الرجل الملعون ؟ لقد حطمتنى ! لماذا جعلتنى أكتب ذلك الخطاب المشئوم ؟ إلى أحبها ! أحبها ! »

وأقسمت إنى أحبها .. كنت أخاف نتيجة فعلتى المتهورة .

سادتى .. إنه من الصعب تصور لحظة أرهب من تلك . فلو وضع رجل رحيم مسدساً فى يدى حينئذ لأطلقت رصاصة فى رأسى بكل ارتياح .

وضحك المحامى وهو يمسك ذراعى بلطف وقال :

« لا تصرخ ! إن الخطاب لن يصل إلى صديقتك . لقد كتبت أنا العنوان — لا أنت — على الغلاف ، وقد غيرت من كتابته حتى إنهم لن يقدروا على حل رموزه فى مكتب البريد . وليكن هذا درسا لانتساء حتى لا تجادلنى مرة أخرى فى أشياء لا تفهمها »

والآن يا سادتى فليقص الخامس قصته .

ولما تأهب الحلاق الخامس للكلام دقت ساعة الكنيسة الثانية عشرة فقال أحد الحلاقين :

« ما رأيكم أيها السادة فى الحالة الرهيبة التى عليها سجيننا الآن ؟ ما الذى يحسه وما الذى يشعر به وهو فى القفص ؟ إنه يقضى ليله هنا فى زنزانة ، وربما كان جالساً أو مضطجعاً ، أو ربما بطبيعة الحال ، مصغياً إلى دقات الساعة طوال الليل . وما الذى يفكر فيه ؟ ما هى أحلامه وتخيلاته ؟ »

ونسى الحاضرون فجأة كل ما قيل من قبل من اللحظات الرهيبة ، وتبين لهم أن قصة صديقهم الذى كتب المحفلات إلى خطيبته لم تكن إلا تجربة تافهة مهجورة ، ولم يتكلم أحد ، بل ذهب كل إلى فراشه هادئاً ساكناً .

حسن قمى خليل

التقاليد المعقد . وأخيراً شاهد القرن الثامن عشر مولد الرأسمالية ونشأة النظام الآلي الذي قدر له النصر زهاء مائة وخمسين عاما .

ولقد ظن كل عصر من هذه العصور أن نظامه الاجتماعي سرمدي . غير أن العصر الذي كان يعتبر أن المناداة بتحريم الرق من الأسباب التي ستؤدي إلى اختلال التوازن الاقتصادي في العالم كله ، هذا العصر لم يدم أكثر من قرنين .

أفلا يجدر بنا إذاً أن نسلم بأننا نشاهد تطورا جديدا وأنه من المستحب أن نسعى للتوفيق بينه وبيننا بدلا من أن ننكر وجوده ؟

فالدول المستعمرة والطبقات المالكة امتيازات يصعب عليها أن تألف فكرة التخلي عن كلها أو بعضها أو أن تسلم بأن للطبقات العاملة أو للأمم التي لها الغلبة العددية الحق في الاستحواذ على السلطة والسعي في ضمان جزء متزايد لها في تقسيم الثروة حتى ولو كانت جهودها نحو نظام المساواة لا تزيد فعلا في يسار الجماعة ورفاهيتها .

هذه وقائع من الواجب التسليم بها مهما آلمنا ذلك .

والواقع أن الثورة الاجتماعية التي تسير في طريقها منذ عشرين عاما إنما تشير إلى إحدى فترات صراع يتجدد على الدوام ، أو بتعبير أدق تشير إلى السعي في سبيل إيجاد توازن ثابت بين الحرية الفردية وبين حاجات الجماعة .

وقد كان الاعتقاد إلى عهد قريب أن الثورة الفرنسية قد حلت هذه المسألة حلا نهائيا لمصلحة الفرد بمنحه كل الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وأصبح الفرد طبقاً لمبادىء الثورة الفرنسية سيد نفسه في دائرة العائلة تلك الوحدة التي تنمو فيها شخصيته . أما الدولة فلا وجود ولا سلطة لها إلا بالقدر الذي يكفل للفرد استقلاله ويضمن له حقوقه ويسهل عليه استعمال حريته في هذه الدائرة .

في مثل هذا الجو نمى نظام رأسمالية القرن التاسع عشر وازدهر . ولكننا نشاهد في فترة الازدهار هذه تطورا اقتصاديا ينتقص كل يوم من سلطان المبدأ الفردي . ونرى كل الجهود موجهة نحو تكوين الهيئات الاجتماعية وعقد الاتفاقات الاقتصادية وتقوية الدولة والزيادة من سلطانها ونفوذها على حساب الفرد .

والماركسية التي أثارت حماس الجماهير زهاء خمسين عاما ونالت تأييدهم لها في الانتخابات ، توجه نقدها لعدم المساواة وتنادي بظلم ذلك النظام الاقتصادي القائم على الحرية التامة للفرد ، ثم تدعو الماركسية الطبقات العاملة إلى الاستيلاء على السلطة ، وتناشدها تقسيم الثروات وجعل وسائل الانتاج ملكا للجماعة . ولكنها تطالبهم في الوقت ذاته بالقضاء على الدول والأمم لأنها تكوّن هيئات أنانية تحول دون أي تقدم للجماعة ، فضررها لا يقل عن ضرر الفرد متمتعا بكامل حريته واستقلاله . فالماركسية ترمي إلى أن تشيد على أنقاض هذه الهيئات أكبر جماعة انسانية عرفت في تاريخ الانسانية وهي الدولية العالمية .

ولقد شاهدنا في الفترة التي لحقت حرب سنة ١٩١٤ أهم تجربتين عرفتا في التاريخ قصد بهما القضاء على الأنانية الفردية والأنانية الوطنية بإحلال مبدأ الأخوة بين الشعوب مكانهما .

أما التجربة الأولى فهي الشيوعية . والتجربة الثانية هي عصبة الأمم . وكان الفشل نصيب كل منهما .

فكان من مبادىء الشيوعية تحرير الانسان من كل روابط المصلحة ومن العاطفة التي تؤلف بينه وبين الهيئات سواء كانت هذه الهيئة هي العائلة أو الوطن ، كل ذلك يقصد به الوصول إلى فكرة أسمى وهي اتحاد جميع العمال في مختلف الدول على أساس الأخوة الانسانية . ولكن الواقع كان أقوى من المبادىء ، فغيرت الشيوعية كثيراً من المبادىء التي اشتمل عليها برنامجها الأصلي فبعثت من جديد بوسائل العمل الخاصة بالمجتمع الرأسمالي ، كالتجارة والعملة والملكية المحدودة والميراث ، كما سلمت بقيام المميزات بين

الأفراد بأن سمحت بنظام العمل على أساس الملكية المنتجة وأباحت الادخار . كما استبعدت — وهذا مهم جدا — فكرة الإخاء الدولية تلك الفكرة التي كانت من أسس النظام الشيوعي وأحلت محلها الأنانية بمظهرها المزدوج في دائرة العائلة والوطن . فتخلت — ولو لزمن ما — عن القضاء عليهما .

وكان الأمل كبيرا في عصبة الأمم التي أوجدها الرئيس ويلسون وتعهدها من بعده بريان أن تضع حداً للأنانية الوطنية وأن تقضي على جبروت الدولة وطغيانها . كان الأمل في أن يعيش العالم بفضل هذه الهيأة مسالما وقد نزع سلاحه . وكان الأمل أن الدول وقد توطد السلام بينها ستعمل راضية مختارة — وقد زالت من نفوسها كل الهموم الحربية ورفع عن كاهلها كل التكاليف المالية التي تقابلها — على إزالة الحدود والقضاء على نظام الجمارك وجوازات السفر بحيث يكون الفاصل بين الدول فاصلا إداريا . وكان الأمل كبيرا في أن الفرد وقد استتبت له كل أسباب الطمأنينة والراحة في عالم يسوده السلام سيعمل حراً مختاراً على إعلاء شخصيته في دائرة الأخوة الإنسانية .

ولكن صرح السلامة الإنسانية لم يلبث أن انهار بسبب فساد معاهدة فرساي من ناحية ولاختفاء كل من ويلسون وبريان من ناحية أخرى . وما هي إلا لحظة أمل تلاشت كالسراب فبعث من ورائها التعصب الوطني — الذي كان الأمل كبيراً في القضاء عليه — بعث من جديد أشد قسوة ووحشية من ذي قبل . ولم تعد عصبة الأمم التي لم تعرف كيف تكون قوية أو سليمة سوى متحف شبه مقفر يبكي القائمون عليه بألم وحسرة على تلاشي حلم كبير وجميل .

والنتيجة التي يخرج بها الباحث من هاتين التجربتين الفاشلتين هي أن الإنسان لم يبلغ بعد الدرجة التي تهيئه لحياة اجتماعية تجمع بين الشعوب كلها .

لا نزاع في أن اطراد نمو الشعور الاجتماعي في كل البلاد حقيقة واقعة منذ عشرين عاما شملت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وكيفية تنظيم العمل والانتفاع بأوقات الفراغ . ولكن إذا كانت الغاية إبلاغ الكائن البشري نهاية هذا الطريق في أقل وقت ممكن ولو كان ذلك بالضغط عليه فإنه مطلب مستحيل التحقق . إذ الواقع أن الفرد لا يجود ولا يحسن إلا لأولئك الذين تربطهم وإياه رابطة قوية . ولذلك فإن الجيل الحالي بالرغم من تحبيذه لتعاليم الشيوعية عاجز كل العجز عن تطبيقها والانتفاع بها . وقد عبر عن هذه الحالة أحد المفكرين بقوله : « إن ثواراً كثوار الكرمليين يمكن أن يكونوا خطرين على الرأسماليين لا على الرأسمالية . فالرأسمالية نظام لا سبيل إلى النيل منه إلا بحركة تهذيبية كبيرة تتغلغل في نفوس الجماهير وتبرئها من العيوب والنقائص التي قد ألفتها منذ قرن . إذا قدر هذا حينئذ تصفر وجوه الرأسماليين حقيقة في قصورهم الذهبية لأن ثرواتهم تكون قد أصيبت بما يصيب الكرة إذا اخترقتها آلة حادة .

فالسبيل إذاً للسلامة التي ينشدها الجميع ليس في التجرد المطلق عن كل شيء من متاع هذه الحياة الدنيا ، ذلك التجرد الذي يسمو بصاحبه إلى مصاف القديسين ، والذي وحده يسمح بقيام الشيوعية المقبولة من الإنسان عن حرية واختيار . ولا هو بسيطرة المصلحة الشخصية المؤسسة على الأنانية . وإنما السبيل هو في قيام نظام وسط لا هو بالخير كله ولا بالشر كله . وإنما هو نظام يعترف بأن الإنسان مزيج من هذا وذاك ، فلن يكون الدافع المحرك للإنسان غريزة الأنانية فيه وحب الاستئثار بالشيء لنفسه ، وإنما الغرائز الاجتماعية تعمل يشعر الفرد دائما بأن الحياة شركة بينه وبين غيره وأن ما يتمتع به هو وغيره في دائرة الفكر والمادة هو تراث مشترك بينهما .

ففي كل عصر يتوقف تركيب المجتمع ونظامه على مبلغ

تفهم الفرد العادي للعلاقة الواجبة بين شعوره كفرد قائم بذاته وشعوره كفرد في الجماعة. فإذا كانت الغلبة في عصر للغرائز الفردية اتصف هذا العصر بنشاط أكبر في العمل واختلاف واضح بين الطبقات وازدياد مطرد في الانتاج. وأما إذا كانت الغلبة للشعور الجماعي اتصف هذا العصر بالعدالة في التوزيع بين الأفراد يقابلها تخفيض في الانتاج.

وليست الثورات الاقتصادية والسياسية نفسها هما سبب هذه الانقلابات التي تأتي من حين إلى حين بمدنيات جديدة. وإنما هما المظهر والنتيجة. وكلتاهما تخضعان لنوع من القضاء والقدر ولعوامل تطور الفكر الإنساني واطراد التقدم العلمي الذي يكفل إشباع حاجات البشر بطريقة تتفاوت في السرعة والمدى مع العصور.

فكل مرحلة من مراحل الفلسفة البشرية والتقدم العلمي تقابلها حالة سياسية أو اجتماعية خاصة قد يصل إليها المجتمع بسلام أو بعنف، بسرعة أو ببطء.

لذلك فان الطريق الذي يسير فيه العالم هو طريق واحد على الدوام وان اختلفت التسميات وتباينت الوسائل التي يأخذ بها رجال الدول على اعتقاد منهم في أنهم هم الذين يوجهون الحوادث وجهتها.

ولا شك في أن المبدأ القائل بتفضيل الفرد على الجماعة فقد كثيراً من قوته وأهميته إن لم يكن قد قضى عليه نهائيا. ولا شك في أن مبدأ الأخوة بين الشعوب والسمو بالفرد حتى يفنى في الجماعة مبدأ لم يستتب له الأمر بعد إن لم يكن قد باء بالفشل. ولكن الأمل لم يفقد بعد في إقرار نظام يكفل للفرد في دائرة الحرية والمساواة المستوى الذي يتناسب للعضو يحيى في جماعة متمدينة.

إذا كانت الدول المتحكمة في غيرها تبغي سلاما، والطبقات المالكة تنشد لنفسها الطمأنينة، والطبقات العاملة تأمل في المساواة الحقيقية في التوزيع فالسبيل الوحيد إلى ذلك هو التشبع بالتعاليم القائلة بان الغاية من كل نظام إسعاد البشر أفراداً وجماعات لا استغلالهم لمصلحة فئة قليلة.

علي الحمامصي

اللجنة الوزارية الاستشارية

لبعثات الحكومة

تعلن أن جامعة فاروق الأول ستوفد صيف هـذا العام إلى إنجلترا البعثات الثلاث المبينة فيما يلي للتخصص في طب الأسنان طبقا لشروط لائحة البعثات:

١ — علم ميكانيكا الأسنان.
١ — علم تقويم الأسنان.
١ — علم تشريح وهستولوجيا الأسنان

وذلك للحصول على إجازة كلية الجراحين الملكية بإنجلترا في مدى سنتين.

ويشترط فيمن يتقدم لإحدى هذه البعثات أن يكون حاصلا على بكالوريوس جراحة الأسنان من جامعة فؤاد الأول. وسيراعى عند الاختيار الخبرة العملية والترتيب في النجاح في البكالوريوس.

فعلى من يرغب في ترشيح نفسه للالتحاق بإحدى هذه البعثات أن يتقـدم طلبه على الاستمارة الخاصة المعدة لذلك. ويمكن الحصول عليها من إدارة التوريدات بوزارة المعارف بالقاهرة نظير دفع ستين مليما. ويرسل هـذا الطلب بعد استيفائه مسجلا بطريق البريد إلى حضرة صاحب العزة وكيل جامعة فاروق الأول بالإسكندرية مباشرة إذا كان الطالب غير موظف في الحكومة وعن طريق مصلحته إذا كان موظفا. وفي كلتا الحالتين يجب ألا يتأخر وصـول الطلب عن يوم ٣١ يوليه سـنة ١٩٤٥.

٣٨٤٥

أيها الليل ...

«إلى الهدى الذى قادنى إلى الضلول»

فى الظلام العميق ذوّبتُ حسى
وتهافتُّ فوق أشلاء نفسى
أستعيد الماضى القريب وآسى
لهوى لا يُفيد فيه التأسى
وإذا ما أردتُ طِبّاً لروحى
من أساها وصلت يومى بأمسى
وتنقلتُ بين أطلال روحى
ورسوم ، من الصِّبا الغضّ ، دُرس
وليال قضيتها مشرقات
كالغوانى يرفلنَ بين الدمقس
لذة إثر لذة إثر أخرى
فكأن الحياة أيام عرس
صورٌ من لذاذة العيش تترى
تبعث الميتَ من دفائن رمسى
وتعيد التصورات لذهنى
باسمات كأنها بنت أمس
أيها الليل ! لا عدمتُك خلاً
مستطاب الوداد ثبت المجسّ
كم قضيت الزمان ترأب صدعى
تُحسن السمع لاشتكائى وبؤسى
إن فى صمتك العميق لمعنى
تنتهى دونه بلاغةُ قُسّ
ترسل اللحن خاشعا عبقريا
يلهم النفس فى هدوء وهمس
فاذا بالحياة لحن حنون
وقّعته قيثارة ذات قدس
فى دجاك الحبيب يفنى وجودى
فاذا بى من عالم غير إنسى
فأحسُّ الصفاء ملء جَنانى
وأحس الخلودَ يملأ حسّى
وتساميتُ فوق أحقاد نفسى
وتحررت من تقاليد جنسى
وتنقّلت فى فضاء رحيب
ليس فيه سوى عوالم قدس
يقصر الوصف عن بلوغ مداها
وتعالت عن كل فكر وحدس
ملؤها الحب والصفاء ونفس
قد تسامت عن كل شك وهجس

(نزيل القاهرة) ناصر الدين الأسد

أشواق

أيها الناعم فى مهد الكرى
بين أحلام الأمانى الباسمات
من على بالك يهفو يا ترى ؟
حينما تذكر ما مرّ وفات
لا رأت عيناك يوماً ما أرى
وأقاسى من لهيب الذكريات
حينما يعرضها الماضى لعينى
صوراً تجلو الذى أفلت منى
من ليال بهوانا راقصات

* * *

حمل الصبح إلى الكون نشيدى
رائع اللحن شجى النغمات
كالمنى تخفق كالحلم السعيد
كرضانا كابتسام الزهرات

بين المسموع والمقروء

فرسان ثلاثة

قلما يأتي التاريخ لنا برجال ثلاثة ، أب ، وابن ، وحفيد ، وكلهم لهم في التاريخ ذكر ، وكلهم تسمَّوا باسم واحد حتى ما يكاد يدري سامع أيهم تعني إذا ما سَمَّيتَ .

وكلهم تسمَّوا ، فانتسبوا إلى النطفة الأنثى التي أنجبتهم ، لأن النطفة الذكر أنكرتهم ، فأولهم وُلِد في الحرام ، أعني الجد ، وكذلك وُلِد الحفيد .

وأم الجميع زنجية من أهل السواد ، فلم يمنع هذا أحدَهم أن يكسب مجدا كما يودُّ أن يحسب ذلك أهل البياض .

ولم يمنعهم حتى النغولة ، والنشأة المريبة ، من أن يكسبوا مجدا . فالطبيعة التي أبدعها الله كثيرا ما تأبى أن تسير ومنطقَ الإنسان في الأشياء والناس . فطبع الطبيعة الحياد . فهي لا أنف لها يحمد الطِّيب ويذم الفساد . وهي لا لسان لها يتذوق الحلو ويعاف الأجاج . وفي الطبيعة يجوز أن تبذر البذرة في غير طهارة ، في الحمأة الآسنة ، ولكن مع هذا تنشق عن نبات أخضر كأينع ما يكون النبات . وقد يكون في نتن هذه الطينة سرُّ هذه الفراعة والنضارة .

أما الرجال الثلاثة الذين منهم نحكي ، ولهم نقدِّم ، فهم اسكندر دوماس ، واسكندر دوماس ، واسكندر دوماس .

وإليكم قصتهم في اختصار شديد :

أما اسكندر دوماس الأول ، فيعرف بالقائد أو الجنرال . فقد كان بلغ هذه الرتبة في جيش نابليون . أما أبوه فركيز بيتري ، كان ذهب إلى جزر الهند الغربية ، وهناك جرى على عادة البيض من ذوي اليسار ، فاتصل بزنجية فأولدها ابنه هذا في غير زواج . وكان اسم هذه الزنجية مارية . وكان لقبها دوماس . فأضفتْه على ابنها ، وأضفتْه من بعد ذلك على فرنسا ، فصار رمزا عظيما على الأدب الفرنسي ، وسوء الأدب ، على السواء .

يــد أني لا أبالي بالوجود

ذاع لحني فيه أم ضاع ومات

إن يكنْ قلبُك لا يسمعُ لحني

فلمن يا فتنةَ القلبِ أغني

تاهوى لحن الليالى الخالدات

آه لو تسمعي أشكو الجوى

يا حبيبــي آه لو تسمعي

وترى القلب ونيران الهوى

ولظــاها بات يرعى بدني

لترفقت وقصرتَ النــوى

وانطوى سُهدي وولى حزني

أين أحلام شبابي ؟ أين دني !

وحياة من فتون وغنى

وعيون الدهر عنــا غافلات

يا حبيبي أيقظ الماضي شجوني

حينما طافت رؤاه في خيالي

وتلفت بعيني ليقيني ....

فإذا الحاضر كالليل حيــالي

وإذا بي قد خلت منك يميني

وانطوى ما كان من صفو الليالي

طال بي شوقي لأيام التمني

وليال هن بمضي غابَ عني

هاتها لي يا حبيبَ الروح هاتْ

القاهرة مصطفى علي عبد الرحمن

وماتت الأم عام ١٧٧٢ . وعاد المركيز إلى فرنسا عام ١٧٨٠ يحمل ابنه معه . وكان بالطبع فى لونه قتومة وفى شعره تجعد .

وبلغ المركيز الرابعة والسبعين ، ففكر عندئذ فى الزواج الشرعى ، فتزوج خازنة بيته والقائمة على أموره . وكان يُجرى عطاء على ابنه ، فقلل بهذه المناسبة عطاءه لابنه . فغضب الابن من هذا أو ذاك ، أو منهما معا ، فترك أباه وانضم إلى الجيش .

وجاءت الثورة الفرنسية وهو لا يزال جنديا « نفرا » . ولكن ما ذهبت الثورة وأخذت فرنسا تدفع عن نفسها غائلة من حولها من الدول ذات التيجان حتى أبلى دوماس فى ذلك بلاء حسنا ، فلم تمض أربع سنوات حتى بلغ رتبة القائد ، أبلغه إياها عدم مبالاته بالمخاطر ، وقوة شديدة فاقت قوة الرجال ، حتى سموه العفريت الأسود . فقد حكى عنه أنه كان يجلس على فرسه ، ويمسك بيديه عارضة فى السقف فوق رأسه فيحمل نفسه إليها ويحمل الحصان . وفى حربه النمساويين دافع وحده عن جسر على نهر لهم . فلما فرغت ذخيرته حتى استل سيفه . وما انكسر سيفه حتى هوى على جثة جندى ، وأمسك بقدميه ، واتخذ من جسمه عصا يطوّح بها ويضرب .

وحضر إلى مصر مع نابليون . وفيها اختصم مع نابليون وغادر الجيش . وهنا ، ولأول مرة ، ذكروا له سواده وسبّوه به . وعاد إلى فرنسا ، إلى زوجته التى كان تزوج — نعم تزوج زواجا شرعيا فلم يجر على غرار أبيه . وكانت زوجته ابنة لصاحب خان . وفى عام ١٨٠٢ أولدها ولده الشهير ، اسكندر دوماس . وبعد سنوات مات الأب ، وترك الأم وولدها فى حاجة إلى العون .

وكتبت إلى نابليون تطلب العون ، فحوّل كتابها إلى بعض حاشيته ، ثم انتهى رجاؤها إلى أعداء زوجها من تلك الحاشية فكان هذا به آخر المطاف .

ونشأ الولد دوماس — وهو الذى عرف فيما بعد بدوماس الكبير — فى الفقر ، فلم تتمهد له سبل التعليم ولم يتمدرس إلا لدى قس بلدته . فقضى فترة فى التعلم عنده فلم يتعلم منه كثيراً . ودخل العقد الثانى من عمره فالتحق بمكتب محام ، وفى هذه الأثناء اتصل بصديق وأخذا معاً يكتبان نماذج من التدقيل لم تر المسرح أبداً . وبلغ الحادية والعشرين فمل الجهل ، ومل الفاقة ، فذهب إلى باريس ، وأخذ يتعقب أصدقاء أبيه فى الجيش حتى وجدوا له عملا ، كاتبا بمكتب دوق أرليز .

ولم يمض له عام واحد فى باريس حتى كان اتصل بخياطة ، فأولدها ولدا ، عرف فيما بعد باسكندر دوماس — الصغير — وأولدها إياه فى غير الحلال . وبعد سبع سنوات شاء له الهوى أن يعترف بابنه ، وأن يضمه إليه ، فاضطر إلى أن يلتجىء إلى القضاء . وحكم القاضى له أخيراً ، ولكنه غفل عن ضم ابنه إليه ونسى أمره زمانا . فهكذا كان .

واسكندر دوماس — الكبير — معروف بالطبع بقصصه التاريخية ، قصص الحرب والصراع . فمن لم يسمع بقصة الفرسان الثلاثة ، وقصة كونت مونت كريستو ، وغيرها عشرات ومئات . ولكن دوماس لم يكن يعرف من التاريخ شيئا . فأخذ يتعلمه بعد الحادية والعشرين . وأخذ يقرأ بنهم لا نهم بعده . وبعد ذلك دار على التاريخ الفرنسى يكتبه قصة ، قصة . وبلغ من الجلد على الكتابة مبلغاً عظيما . كان يكتب ثمانى عشرة ساعة فى اليوم الواحد . والتقى نابليون الثالث فسأله عن تآليفه فقال إنها بلغت أكثر من ألف مجلد .

وهو لم يكتبها وحده ، فقد كان له أعوان كثيرون ، أشهرهم أوجست ماكيه . كان أوجست يأتى بالثوب التاريخى ، فيأخذه دوماس فيقصه ، ويوحد بين أجزائه فيُخرج منه القصة الجيدة كما يخرج الطرزى الماهر من قماشه اللباس الجميل . وقيل له فى ذلك ، فقال : وما فى ذلك ؟ إن هؤلاء أركان حربى ، وقد كان لنابليون أركان حرب ولكنه لما بلغ الكبر ، وأعجزه الفقر وذهب به التهتك ،

ولم يبق له غير اسمه ، كان يضعه على ما لم يكتب .

حكوا عنه أنه لقي ابنه دوماس — الصغير — في الطريق يوما . فبعد تصبيحة الخير سأل ابنه متهللا : أقرأت يا ولدي قصتي الأخيرة ؟ فردّ الابن على الفور : لا يا أبي . فهل قرأتها أنت ؟ !

أما صلات دوماس — الكبير — بالنساء فذات شروح وشروح . فلم يكن لهذه الصلات حدٌ في العدد ولا في النوع . وهو إن يكن قد عرف ما الشهوة الطارئة المتجددة ، لم يكن يعرف ما الحب المقيم الدائم .

وحدثت له حادثة العمر ، فتزوج إيدا فرييار . قيل إنه تزوجها لأنه قدمها إلى دوق أورليَنْز ، فقال الدوق له بعد ذلك : إني أحسب أن السيدة التي قدمتها إليّ زوجتك ! فما كان منه إلا أن تزوجها بعد ذلك خجلا . وقيل انه إنما تزوجها لأن القيّم عليها عرض عليه ٨٠٠٠ جنيه مهراً يذهب عنه بدين كان أثقله .

وحكوا أن دوماس حضر من سفر يوما إلى بيته قبل الأوان ، فلما دخل البيت وجد به صديقاً قديماً يخرج من حجرة النوم وهو في قميص النوم . فقال له : لا بأس عليك . إن بيتك بعيد والجو قارس . وأرقد صديقه يقضي الليلة على أريكة في حجرة الجلوس . وذهب هو ونام مع زوجته . واستيقظ ، فوجد الصديق يرتعد من البرد . فعطف عليه وسأله أن يأتي إلى سريرهما ليستدفيء معهما فيه وينام . قال له : ياروجر ، إننا أصدقاء العمر ، فهذه العشرة القديمة لا تأذن لنا بالنزاع من أجل امرأة ، حتى لو كانت هذه المرأة زوجة واحد منا .

وحتى في شيخوخته ، لم يعدم الكاتب الكبير ، فضيحة ضحكت لها باريس كلها : اتصل بممثلة لها جمال ولها دلال . ولا يدري أحد كيف وقعت في حبائله ، وهو الشيخ الذي لم تبق له بقية من مال أو جمال ، أو حتى قوة . وطلب رساما يرسم لهما صورة في وضع أقل ما يقال فيه إنه فاضح . واستهوى الرسام الربحُ ، فاحتفظ بالأصل ، ومنه طبع من الصورة النسخ العديدة وباعها . وكانت قضيةٌ طالت ، كسبها دوماس أخيراً . وأمرت المحكمة بمصادرة الصور ، ولكن بعد أن وصلت إلى كل بيت من بيوت باريس .

وصار الكاتب الكبير من بعد ذلك أضحوكة العصر وتدعه كاتب عقال ، فطلبه إلى المبارزة ، وكان لا شك سيكون كبش الفداء . ولكن تدخّلَ ولده ، دوماس — الصغير — فحمى والده من موتة غير جميلة .

وقضى أيامه الأخيرة يقرأ قصصه ويعيدها . وقد وجدوه يوما يبكي بكاء حارا ، فبحثوا عن سرّ هذا ، فعلموا أنه يبكي على موت إحدى الشخصيات البارزة في إحدى رواياته .

ومات في بيت ابنه ، وفي كنفه ، عام ١٨٧٠ .

أما الابن ، ابن الحرام ، فيضيق المقام عن تاريخه . ولكن يكفي أن نذكر بأنه هو صاحب القصة العالمية الشهيرة ، غادة الكميليا ، وصاحب قصص أخرى عديدة . وكان في قصصه معلما مؤدبا . وقد عاني في طفولته من أجل أبوته عناءً كبيرا . وأوذي من أجل ذلك إيذاء شديدا . ولكنه صبر . ولجأ إلى القلم يدفع عن نفسه الفقر وعن أمه الهوان .

قال عن أمه : إنها امرأة طيبة القلب ، اشتغلت كثيرا حتى ربّتني .

وقال عن أبيه : إن طبيعته ، بفلتة من فلتات القدر ، كانت طيبة . وما جاءه الرزق بنجاح قصته الأولى حتى اعترف بنوّتي ، ومنحني اسمه .

وظل الابن يُعنى بأبيه طول حياته ، ويسنده إذا مال ، ويرفعه إذا وقع ، ويغفر له الكثير . وكان يعامله ، لا معاملة الابن لأبيه ، ولكن معاملة الأخ لأخيه . وكان الأب لا يسيئه من ابنه إلا أنه « كثير الوعظ » .

وكسب اسكندر — الصغير — مالا كثيراً بعد ذلك . ودخل الأكدمية الفرنسية التي لم يدخلها أبوه . ومات عام ١٨٩٥ .

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٤٤ — الثلاثاء ٢٢ من شعبان سنة ١٣٦٤ — ١ من أغسطس سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العـــــدد

زيت البـــترول

من وراء الستار

كشفت الحرب الأخيرة عن ظاهرتين هامتين .

الأولى : أن الحروب الحديثة أصبحت تعتمد أكثر ما تعتمد على البترول فهو إحدى موادها الأولى كالحديد والذخيرة والرجال سواء بسواء، بل يُرجع البعض الفضل في انتصار الحلفاء إلى أنهم يملكون النصيب الأوفر من البترول في العالم .

أما الظاهرة الثانية : فهي أن الشرق الأوسط كشف بين طياته الجيولوجية عن ثروة من الزيت لم تكن بادية للعيان قبيل الحرب ولم تكن لدى شركات الزيت فكرة واضحة محدودة عن كميات مخزونة .

وعلى هذا اكتسب الشرق الأوسط أهمية جديدة علاوة على أهميته الأولية كعقدة هامة في سلسلة المواصلات بين الشرق والغرب بل تطورت تلك الأهمية بتطور وسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية ، حتى إنها بعد أن كانت تنحصر في خطوط هي بمثابة الشرايين من الجسم اتسعت تلك الخطوط واتسعت حتى شملت المنطقة بأسرها .

ولما جد عامل البترول على تلك الأهمية زاد السياسة الدولية تعقيداً واشتدت المنافسة بين الدول حدة . إذ تدل الدلائل على أن بترول الشرق الأوسط سيكون عاملاً مهماً في مشروعات ما بعد الحرب . وقد أعدت من الوجهة الفنية المشروعات لزيادة إنتاج البترول وتكرير خاماته . وقد بدأت بالفعل بعض هذه المشروعات تؤتي أكلها ، وأصبح من المقرر أن بعض بلدان الشرق العربي ستكون مراكز لصناعات عظيمة في المستقبل القريب .

هكذا أصبح الشرق الأوسط مجال المنافسة بين الدول العظمى الثلاث ، وإن اختلف الموقف السياسي لكل منها . فبريطانيا العظمى تسيطر فعلا على طريق إمبراطوريتها — وتمتلك فعلا معظم البترول في الشرق الأوسط وتصمم طبعاً على الدفاع عنهما مادامت هناك إمبراطورية بريطانية . والولايات المتحدة قد بدأت فعلا الغزو الاقتصادي لتلك المنطقة . كما ستحاول روسيا السوفيتية جهدها في بناء ذلك النفوذ في المستقبل ، وهي من جهة الواقع الجغرافي أقرب الدول العظام إلى الشرق الأوسط بل هي جارته الملاصقة .

وقد أظهرت التقديرات التمهيدية لمقادير الاحتياطية للبترول في الشرق الأوسط أرقاماً خيالية : فقد قدرت كمياته بكل تحفظ بمقدار ١٥ مليار برميل ، أي أنها تفوق كميات البترول في أوربا بما فيها الاتحاد السوفياتي — وهذه تقدر بستة مليارات — مضافاً إليها كميات أمريكا الجنوبية ، ويقدر احتياطيها بستة مليارات أخرى . بل يضع البعض الشرق الأوسط في مجموع بتروله في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة التي يقدر الاحتياطي فيها بمقدار ٣٠ ملياراً من البراميل . ويظنون بناء على هذا أن نصيب الشرق الأوسط يبلغ ثلث ثروة العالم من البترول تقريبا .

وإذا نظرنا إلى التفاصيل بعد هذا الإجمال وجدنا أن إنجلترا تمتلك نحو ٧٦ ٪ من مجموع إنتاج آبار الشرق الأوسط ، فانجلترا تتحكم من طريق شركة الزيت الإيرانية في بترول جنوب إيران الذي تقدر كمياته بخمسة مليارات من البراميل ، وقد نجحت هذه الشركة في أن تخلق لنفسها في إيران مركز دولة في داخل الدولة . كما تمتلك البريطانيون نصف بترول الكويت البالغ قدره أربعة مليارات من البراميل ، كما يسيطرون على بترول العراق البالغ أيضا أربعة مليارات أخرى — أي أن لبريطانيا نصيب الأسد من بترول الشرق الأوسط .

وقد شعر الأمريكيون بأهمية الشرق الأوسط في البترول بعد الحرب الماضية كما تيقنوا من أهميته البالغة في المواصلات العالمية في هذه الحرب .

وكان أول نجاح لهم في الحصول على جزء من البترول العربي عام ١٩٢٧ حينما تمكنوا من حمل البريطانيين على التنازل لهم عن ٢٣٫٧٥ ٪ من بترول العراق ، وبعد عشر سنوات بذلوا محاولة غير ناجحة للحصول على امتياز للزيت في إيران ، ولكنهم باءوا بالفشل تحت ضغط النفوذين الإنجليزي والروسي على حكومة إيران . ولكن أمريكا لاقت نجاحا أعظم في نواحي أخرى من الشرق العربي . فقد حصلت في عام ١٩٢٧ على امتياز البترول في جزر البحرين ، وهذه وإن كانت تخضع للحماية البريطانية إلا أن هؤلاء لم يعتقدوا يوماً ما أن في البحرين ثروة من البترول تستحق الذكر ، فنصحوا الشيخ البحرين أن يمنح الأمريكيين ذلك الامتياز ، وقد أفلح استغلال البترول فيها فلاحاً كبيرا وخصصت كمياته منذ سنة ١٩٤٠ للضرورات الحربية .

ثم حصلت شركة كاليفورنيا العربية على امتياز للزيت في المملكة العربية السعودية فاكتشفت فيها موارد للبترول تقدر بمليار من البراميل ، كما نجحت شركة أمريكية أخرى نجاحا جديدا في الكويت على رأس الخليج الفارسي ، ولكنها حصلت على نصف الناتج فقط لأن النصف الآخر تشاركها فيه شركة الزيت الإيرانية .

والواقع أن حقول الزيت البريطانية في الشرق الأوسط تفوق الأمريكية في عدة مراحل ، فالآبار الإيرانية تبعث بناتجها خلال خط من الأنابيب إلى عبادان حيث تتولى المعامل تكريره ، وهي تنتج ٢٨٠ ألف برميل من البترول في اليوم الواحد والمنتظر في نهاية هذا العام أن يرتفع إنتاج هذه المؤسسات فيصبح ٣٦٠ ألف برميل في اليوم ، ثم يتولى أسطول من ناقلات الزيت البريطانية توزيعه على أسواق الشرق الأسيوية . ثم هنالك بترول العراق الذي

بسيل في أنابيبه عبر الصحراء إلى حيفا وطرابلس والشام، ومن ثم إلى الأسواق الأوربية، وتتولى معامل التكرير المتحدة في حيفا تكرير زهاء ٦٠ ألف برميل في اليوم. وقد اتخذت الاستعدادات الكفيلة برفع إنتاج هذه المؤسسة إلى ٨٠ ألف برميل في اليوم الواحد.

أما البترول الذي تمتلكه الشركات الأمريكية في المملكة العربية أو البحرين فعليه — لكي يصل إلى الأسواق الأوربية — أن يتخذ طريقه في ناقلات الزيت من الخليج الفارسي حول شبه الجزيرة العربية ليخترق قناة السويس ومؤديا ضرائبها الفادحة — لهذا فكر في مشروع مد أنابيب من منابعه إلى مصر أو لبنان، وهو المشروع الذي لاقى مقتا عنيفا في الكونجرس الأمريكي. وهو إن تم سيهيء للبترول الأمريكي في الشرق الأوسط أن يصل إلى الأسواق الأوربية بأثمان لا تقبل منافسة البترول العراقي.

ويلاقي هذا الاتجاه من الشركات الأمريكية تشجيعاً من رجال السياسة والحرب في واشنجطن، لأنه على الرغم من أن الولايات المتحدة تمتلك أكبر احتياطي للبترول في العالم فهي أكبر مستهلك له أيضاً. بل كان عليها إبان الحرب العالمية الماضية والحرب الأخيرة أن تمد الحلفاء بمقدار ٨٠ ٪ من البترول اللازم لعملياتهم الحربية؛ ولهذا يصر الرجال العسكريون الأمريكيون على أن يكون لأمريكا موارد للبترول في الشرق الأوسط الذي هو أغنى مناطق العالم القديم في هذه المادة، وهو أيضا مفترق الطرق بين قاراته الثلاث؛ ولهذا يود الأمريكيون بل يعملون على أن يكون لهم حق استعمال المطارات والقواعد البرية والبحرية في الشرق العربي مثلهم مثل البريطانيين سواء بسواء.

وهكذا تتفق آراء رجال الحرب والاقتصاد على سياسة واحدة نحو الشرق الأوسط — قد رحب بها البريطانيون بادئ ذي بدء — ولكن رد الفعل المنتظر سيكون بلا شك مقاومتهم لأي منافس قوي قد يهدد سيطرة بريطانيا في احتكارها السياسي والاقتصادي لهذا الجزء.

أما من جهة روسيا، فقد تحققت أخيراً أن الشرق الأوسط يدخل ضمن نطاق أمنها الحربي كما يتضح ذلك من خطواتها نحو تركيا وإيران. هذا على أنها تريد أن تضمن لنفسها البقاء كقوة عالمية وعليها أن تحصل على نصيب من السيطرة على الطرق العالمية، وهي أيضا تريد أن تحتكر امتياز البترول في شمال إيران. ولا تزال الصحف الروسية تضرب على نغمة أن الولايات المتحدة تمتلك ٥٧ ٪ من بترول العالم وتسيطر بريطانيا العظمى على ٢٧ ٪ منه بينما يبقى الاتحاد السوفياتي بنصيب يبلغ ١١ ٪ فقط. قد تكون هذه الأرقام قابلة للطعن أو التغيير. ولكن الحقيقة الواقعة هي أن الاتحاد السوفياتي هو أفقرها في مادة الزيت وهو في الوقت نفسه أقرب الجميع جغرافياً لكنوز الزيت في الشرق الأوسط، ولا بد أن روسيا ستتخذ كل الوسائل للظفر بنصيب من هذه الكنوز.

وهكذا يبقى الشرق الأوسط بعد الحرب منطقة خطرة تتصادم فيها مصالح الدول العظمى الثلاث. وسنرى كيف تقوم الجامعة العربية بنصيبها في النضال في سبيل استقلال وحدتها والمحافظة على مصالحها الاقتصادية وسط هذه التيارات المتلاطمة.

علي رفاعة الأنصاري

إلى من يلزمهم من الأذكياء :

أصحاب الملاعق الفضية

يقولون في اللغة الإنجليزية إن فلانا قد ولد وفي فمه الملعقة الفضية ، ويقصدون بذلك أنه من نسل قوم من أهل النعيم نشأ مدللا لا يعرف معنى الحرمان ، فكل شيء ميسر له وكل شيء حوله باسم ضاحك ، لا يعرف معنى الحاجة إلى الطعام ، بل لا يفكر في أن الطعام شيء يحتاج إليه الناس ويتحملون المشقة في الحصول عليه ، لأنه لا يعرف في الطعام إلا أنه أصناف مختارة من طرائف المأكول يتلذذ بها الآكل ويمتع بها ذوقه وشمه وحلقومه . وأما أن ذلك الأكل من شأنه أن يشبع الجوع فأمر بعيد عن تصوره لأنه لم يحس الجوع يوما من الأيام . وهؤلاء الذين يولدون وفي فمهم الملعقة الفضية لا يعرفون الخبز الذي يعتمد عليه غيرهم من الناس ويجعلون له من نفوسهم أسمى مكان ، فهم إذا أكلوا الخبز فعلوا ذلك تقليدا وتنازلا منهم ، وهم لا يكثرون من أكله لأنهم يؤثرون عليه الحمام والأرز والدجاج وأنواع اللحوم الأخرى بين بيضاء وحمراء وغير ذلك مما لا أعرفه ولا أحسن وصفه لأني والحمد لله من عباد الله آكلي الخبز . وأكثر أكل هؤلاء من أطايب الفواكه والحلوى ، فهم إذا كانوا صغارا أكثروا من أكل الجاتو والشوكولاته واللبسات المزوقة بين الأحمر والأصفر والأخضر وأصناف أخرى لا أعرفها ولا أحسن وصفها . فإذا ما كبروا طاب لهم أن يتفننوا في أنواع المأكول والمشروب ويجمعون إلى ذلك مرفهات أخرى يحيطون بها الأكل والشرب من رقص ونزهة وسهر بالليل ونوم بالنهار وما إلى ذلك مما لا أعرفه ولا أحسن وصفه لأني بحمد الله لم أولد بملعقة فضية في فمي . وهؤلاء على الأكثر أولى العادة هم السادة بحكم مولدهم فإذا نضجت أجسامهم وتضخمت رؤوسهم وطالت شواربهم وبلغت لحاهم مبلغ الحلاقة صاروا بإذن الله حكاما وأعيانا وعظماء يشار إليهم بالبنان ، ومعنى ذلك أنهم لا يصنعون شيئاً إلا أن يجلسوا على الكراسي العالية وراء المكاتب الفخمة بجلوسهم عليها ثم يأمرون أو يشيرون إلى أتباعهم أن يأمروا بإسمهم بما شاءت لهم عواطفهم الرقيقة التي تعودت نعومة الحياة ووداعتها . وهؤلاء قد يرتكبون القسوة من غير عمد لأنهم لا يعرفون أن في هذا الوجود من يستحق الرحمة ، وقد يكونون خاملين من غير قصد لأنهم لم يعرفوا في الحياة شيئاً يدعو إلى النشاط ، وقد يفسدون في تصرفهم عن غير قصد لأنهم لم يعرفوا من الحياة شيئاً يحملهم على حسن التصرف . قد يجودون على من لا يستحق الجود وقد يصرفون قلوبهم عن مصلحة كانت تستحق منهم أن يصرفوا لها كل قلوبهم ، ولكن ذلك كله لا يكون من عمد لأنهم لا يقدرون على تعمد شيء سواء أكان خيراً أم شراً .

ولكن ليس كل من يولد يجد في فمه الملعقة الفضية ، فمن الناس من يولد وفمه كسائر الأفمام ليس فيه شيء ثم يفتح الله عليه بطريق من الطرق حتى يدخل إلى صفوف الأعيان والعظماء . وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين : فمنهم قسم يصل إلى تلك المرتبة في شيء من اليسر كما لو وجد من دونه من يدفعه إلى الأمام أو من يرفعه إلى أعلى . ومنهم من يصل إلى السيادة من طرق أخرى فيها شيء من الالتواء أو شيء من التساهل فيما يسميه المتزمتون قواعد الخلق السليم . وهؤلاء جميعا في أكثر الأحوال ينسون أنهم عندما ولدوا لم تكن في أفمامهم ملاعق فضية ، بل يكاد كثير منهم يغالط نفسه ويقنعها بأنه قد ولد وفي فمه ملعقة فضية ، فيعمدون إلى تأليف القصص الخيالية عن منشئهم وعن النعماء التي تجري في عروقهم ، وقلما يجرأ الناس بتكذيبها ، ولا سيما إذا كانوا قد بلغوا في الحياة مرتبة تجعل لهم شأناً خطيراً .

وهؤلاء جميعاً يتمدحون أن يناقضوا أصحاب اللاعق الفضية في أساليب حياتهم وفي تفكيرهم ، ولكنهم يكونون في أكثر الأحوال أشد قسوة وأكثر عنفاً في تصرفهم ، وتكون قسوتهم من عمد ويكون إفسادهم من قصد لأنهم لا يمكن أن يتهموا بجهل الحياة وما فيها من مساكين وما في أركانها من مواضع تستحق الرحمة وما في مصالحها من أمور تستحق بذل الجهد والاخلاص في الخدمة . فهم يعرفون قسوة الحياة ولكنهم مع ذلك لا يترددون في القسوة ، وهم يعرفون ما عليهم من دين للحياة ولكنهم يجحدون دينهم .

ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم قد ذاقوا الخبز الأسود وملأوا منه البطون أحياناً ومع ذلك تراهم يتظاهرون بأن أمعاءهم تتأذى من أكل الخبز الأبيض الذي كانوا من قبل يشتهونه ، فاذا ما رأيت أمثال هؤلاء في مسارح المجتمعات العليا رأيتهم ألمع الجميع صورة وأكثرهم انتفاخاً وأعلاهم صوتاً .

ومن أعجب عجائب هؤلاء أنهم نهازون للفرص ، فاذا رأوا أن التقرب إلى الوزراء ينفعهم تقربوا إلى الوزراء ، وإذا رأوا مشايعة الاحزاب تفسح لهم الطريق شايعوا الاحزاب ، وقد يشايعون اليوم حزباً من أجل مصلحتهم ثم يشايعون غداً غيره من أجل مصلحتهم ، ولا يتكلفون في هذا غير أن يقلبوا مظاهرهم كما يقلب الناس في هذه الحرب جاكتاتهم ، وهم إذ يحسون أن المرونة الخلقية تفسح لهم مجال الغنى جعلوا ضمائرهم مرنة كالمطاط الأصيل . ولكنهم مع ذلك يتصفون بشيء من الغيرة أو الحسد ، فاذا لمحوا أحداً يريد أن يشق الصفوف إلى ميادينهم وقفوا له صائحين في وجهه أو دبروا له المقالب البارعة أو أثاروا عليه العواصف الثائرة حتى يبعدوه بالخيبة والخسران ، فلا ينبغي لأحد — في نظرهم — أن يدخل إلى حظيرتهم خوف أن ينزع من يدهم الملعقة الفضية التي وضعوها كباراً في أفواههم .

حكى لي أحد المساكين أنه قد حدثته نفسه يوماً بأن يسوق إلى بعض أمثال هؤلاء السادة فكاهة ، فذهب إلى واحد منهم وقال له إنه يريد أن يستعين به على نيل وظيفة من الوظائف السمينة التي جرت عادة السادة أن يحجزوها لأنفسهم ، فسأله السيد : «وما الذي حملك على هذا الطلب ؟» فقال المسكين متصنعاً الجد : «أقول لك بالصراحة ! إني أريد هذه الوظيفة لأنها سمينة وأحب أن أذوق من دهنها» . فضحك السيد ثم نظر اليه وقال له عاطفاً : «يالك من رجل فكه» ثم صرفه خائباً بظرف ولباقة وهو مستمر في الضحك .

وهذان الصنفان اللذان قدمنا وصفهما هما جمهور العظماء في كل أمة وفي كل دولة تقريباً ، وليست مصر بالبلد الوحيد الذي تربع فيه أمثال هؤلاء على أكثر كراسي السيادة فيه .

فلسنا نعدم أن نجد من هؤلاء من يملأون القصور المشيدة ويفوزون بأكبر الأقساط من خيرات شركات التجارة والصناعة أو بأسمن الوظائف وأعلاها — أعني أقل الوظائف عملاً وأكثرها أجراً — فتجدهم في كل وزارة وفي كل مصلحة ، فاذا أردت لهم تعريفاً فهم أصحاب الرياسات الذين إذا فحصت أعمالهم لم تجد لهم أعمالاً وإذا أردت أن ترى آثارهم لم تجد آثاراً وإذا علت الأصوات في المصلحة العامة لم تسمع لهم أصواتاً ، وكل همهم أن يكونوا سادة يتصرفون ويأمرون ويظهرون السلطان ، ثم يأكلون ويشربون ويتنعمون ، ولست تستطيع أن تسمع لهم غضبة إلا إذا أرادوا أن يجذبوا إليهم الأنظار طمعاً في مغنم مقبل أو خوفاً على مغنم مدبر . وأما أداء الواجبات وتكليف النفس بعض العناء في سبيل خدمة عامة فلا يقوم عندهم مقاماً ولا يحس في قلوبهم صماماً .

ومن هؤلاء من «يرمون مقدماً على الأقطان» والرمي على الأقطان فن من الفنون لا يعرفه إلا المهرة الحاذقون ، وفيه صنوف من الحيل وألوان من الحركات الخفيفة الخلابة .

جاءت أمطار الصيف!

للدكتور مصطفى الديواني

جاءت أمطار الصيف فاحذروها! وياليتها كانت قطرات الغيث تأتي بخيراتها، ولكنها أمراض الصيف بكل متاعبها ومضاعفاتها. وليته كان الغيث السهل اليسر، ولكنه السيل الكاسح المدمّر. الكل عنده سواء. الأطفال والرجال والنساء. يختار لزحفه طرقاً ملتوية هي الأمعاء، ويمعن فيها تنكيلا حتى يَغْلب الداء الدواء، وهو يغير طريقة هجومه من حين إلى حين، مستعينا بمختلف الجراثيم فهو إما إسهال حاد يستنزف من الطفل حيويته، أو دوسنطاريا ملحة ترهق المريض من كثرة التبرز والتعنى، أو حمى معوية تطول أو تقصر وتسبب للطفل عذابا كبيرا.

ولنبدأ بإسهال الصيف فهو عدو الطفل الأكبر، إنه يقضي في مصر على ثلث الأطفال الرضع الذين لم يبلغوا السنة الأولى من عمرهم. ويوجد منه نوعان: النوع البسيط الذي يمضي بسلام بعد بضعة أيام يشكو الطفل خلالها من زيادة في عدد مرات التبرز مصحوبة بوعكة خفيفة وارتفاع يسير في الحرارة مع نوبات من المغص والقيء تسبب له ألما وصراخا. ولكن حتى هذه الحالات البسيطة قد تتطور إذا تراخى الوالدان في العلاج فتنتكس حالة الطفل فجأة فتنهار مقاومته بسرعة ويقضي في ساعات أو أيام. أما الحالات الشديدة فقد تبدو بسيطة في بدايتها ثم تتطور فجأة، أو قد تبدأ عاصفة كاسحة فتقضي على الطفل في ساعات أو أيام قلائل. وكثيرا ما سمعنا عن أطفال كانوا يلهون ويلعبون في الصباح وهم أتم ما يكونون صحة وسعادة فإذا بهم في المساء على حافة القبر يعانون السكرات نتيجة إسهال فجائي حاد.

وأول ما يلاحظ في مثل هذه الحالات قيء مستعص

وأما من عدا هؤلاء من السادة فلا يزيدون على جماعة يولدون بغير ملعقة فضية وينشأون بغير ملعقة فضية ثم يبقون بعد ذلك إلى يوم الوفاة بغير ملعقة فضية.

فهؤلاء تعودوا في الحياة أسوأ العادات، وتحلوا في أنفسهم بأرخص الصفات مثل الأمانة والإخلاص والوطنية. كانوا شبانا فقفزوا أيام الشباب حتى صاروا في الصبا كهولا. وكانوا في سن العشرين يديرون في رؤوسهم من المثل العليا ماشاء أحلامهم، فقد كانوا مثلا يقدسون الوطنية ويؤمنون بالواجب ويخلصون في الخدمة العامة ويضحون من ذات أنفسهم وأموالهم في سبيل العمل النافع، ويتحملون أشق الأعمال حبا للأمانة. وقد بلغ من امتلائهم بهذه المعاني الرخيصة أنهم قد أصبحوا اليوم في سوق السيادة لا يقام لهم إلا الثمن الرخيص. ومن عجيب أمرهم أنه قد تحدث في الأحوال فلتة من الفلتات فيدعى بعضهم إلى تحمل بعض التبعات ولكنهم مع ذلك لا يعودون من تلك التبعات إلا بالهم والتعب، فلاينالون جزاء إلا ثقل الأعمال وعناء الأعمال فهم يجهدون أنفسهم ويحملونها أعظم المشقة حيث كان غيرهم من السادة أصحاب الملاعق الفضية يكتفون بالانتفاخ والالتهام، ومع ذلك لست تجد منهم من فاز بقطعة من دهن أو قبضة من نضار. ولأنهم بعد هذا يفوزون بالسلامة والعافية فإن أصحاب الملاعق الفضية يأبون إلا أن يثيروا عليهم سحائب الغبار، ولا يعدمون أن يجدوا في مثل هذه الأيام العجيبة من يستفيد بألاعيبهم، فالحرب والحب كما يقولون لا ينبغي فيهما التدقيق في اختيار وسائل النضال.

محمد فريد أبو حديد

يعاود الطفل كلما تناول أي سائل أو غذاء ، وتكثر عدد مرات التبرز ويتغير لونه ورائحته . ولكن حذار من الاعتماد كلية على شكل البراز .

فقد يحدث في الحالات الشديدة أن يتبرز الطفل مرتين أو ثلاثاً فقط ، وقد لا تدل رائحة البراز على وجود عفونة أو تخمر فينحدر الطفل سريعاً نحو الهاوية قبل أن يشخص الداء على حقيقته . ولذا يجب ألا نتهاون في العناية بهذه الحالات من أول الأمر وإلا صعبت مهمة الأم والطبيب معاً في الأخذ بيد الطفل إلى بر السلامة . ويمكن إدراك تطور الحالة إلى الأسوأ باشتداد حالة القيء بحيث يستعصي على الطفل أن يتناول أي سائل مهما كانت طبيعته ، وينقص وزنه بدرجة لا مثيل لها في أي مرض آخر من أمراض الطفولة ، وتغور عيناه وتجف شفتاه فيفتح فمه ويدلي لسانه إلى الخارج باحثاً ومطالباً بجرعة ماء سرعان ما يتقيأها عقب تعاطيها ، وينكمش جلده وتزيد سرعة تنفسه وترتفع درجة حرارته ، وتظهر على وجهه كل معاني الألم ، وقد تنتابه تشنجات تعقبها غيبوبة تنذر بخطر مبين . ولا بد من سرد بعض طرق الوقاية التي يفيد اتباعها في تجنيب الطفل ويلات هو في غنى عنها . وأول هذه الطرق تشجيع الأم على إرضاع طفلها ، وخاصة إذا كان الجو حاراً حيث يكثر تلوث الألبان العادية بالجراثيم ؛ وإذا لم يكن هناك بد من اللجوء إلى لبن خارجي فتفضل ألبان العلب لخلوها من الجراثيم وسهولة هضمها . كما تجب العناية بغلي أدوات الرضاعة من زجاجات وحلمات . ولمكافحة الذباب أهمية خاصة ، فيجب وضع الغذاء والأدوات المستعملة في تحضيره في أماكن لا يصل إليها الذباب . ومن أهم طرق الوقاية تجنب فطام الطفل في فصل الصيف مهما كان عمره ، وكذلك العناية بعلاج الإسهال مهما كان بسيطاً ، فإن الحالات البسيطة قد تصبح شديدة إذا أهمل علاجها . ويجب علينا أن نقف منها من البداية كالمقدم على معركة ضد الموت بعينه ، ولا يخدعنا لين ملمسها فهي خادعة قد تنقض على فريستها في ساعة غفلة واستسلام . ويجب أن أحذر الأمهات مشدداً من أن معظم الأطفال الأصحاء تظهر أسنانهم دون أن يصيبهم مرض ما ، فكثيراً ما يعتمدن على أن ما يطلقنه من إسهال أو غيره ناتج من بروز سن تصادف حدوثه قبيل أو أثناء إصابة الطفل بالمرض ، فيتراخين في العلاج اعتماداً على هذه الفكرة الخاطئة ، ولا يفطن إلى الحقيقة المرة إلا عند دخول الطفل في دور النزع حين لا ينفع الدواء ، فلتذكر الأم دائماً أن التسنين لا يمكن أن يتسبب عنه إسهال حاد .

وفي علاج هذه الحالات أود أن ألفت النظر إلى نقطتين هامتين : الأولى أن تمنع الطفل من تناول أي غذاء ، بل تقتصر على إعطائه سوائل بسيطة كمنقوع الينسون أو الكراوية أو ماء الأرز حتى يراه الطبيب . والثانية تحذير الأم من الإكثار من ثياب الطفل أثناء مرضه . فكثيرا ما لاحظت أن الأم تعمد إلى الإكثار من ثياب طفلها الداخلية والخارجية ظنا منها أن في زيادة تدفئته فائدة تعود عليه . والواقع غير ذلك ، فإن الإسهال والحر والدفء ضدان لا يجتمعان . ويميل الرأي الحديث إلى تخفيف الثياب ما أمكن ووضع الطفل في أرطب غرفة بالمنزل ، بل وأكثر من ذلك إلى تسليط مروحة كهربائية على لوح من الثلج في غرفة المريض ، لأن ذوبان الثلج وتشبع جو الغرفة بالرطوبة يقلل من فقدان الماء من جسم الطفل عن طريق جلده أي عن طريق العرق والتبخر من سطح الجسم ، ويكفيه ما يفقده من ماء كثير في برازه المتكرر . أما الدوسنطاريا فحكمها كالإسهال في طرق الوقاية والعلاج ، ولكنها تختلف عنه في الأعراض بظهور دم ومخاط وصديد في البراز ، ويقاسي الطفل من آلام بطنية شديدة مصحوبة بميل إلى الحزق والتمني ، فيأرق نومه ويسوء يومه ويسام من العذاب ألواناً .

وقصة حيات التيفود والبارا تيفود طويلة ، ويكفى أن نقول هنا إن جراثيمها تظهر فى براز المريض وأحياناً فى بوله ، وإن تلوث الأطعمة بها من أهم عوامل انتشار المرض . والمعلوم أنها تنتقل بوساطة اللبن ومركباته والجيلاتى بأنواعها والخضراوات النيئة كالتى تستعمل فى تحضير السلاطة مثل الخيار والجرجير والخس والطماطم ، وقد تأتى العدوى عن طريق حامل الجراثيم ، وهو الذى توجد الجرثومة بجسمه دون أن تظهر عليه أعراض المرض . وأشد حاملى الجراثيم خطراً هم الخباز والطاهى وبائع اللبن ، ويجب أن نشك فى وجود حامل الجرثومة بين أصحاب هذه المهن فى الأوبئة التى يصاب بها أفراد عديدون فى شقة واحدة أو عمارة واحدة أو شارع واحد . وحمى التيفود شديدة العدوى ، لذا يجب عزل المريض حتى يتم شفاؤه ، وحتى يثبت الفحص البكتريولوجى للبراز والبول ثلاث مرات متوالية بينها على الأقل يومان ، عدم وجود جرثومة المرض فى إفرازات الطفل . وفى أثناء المرض يجب تطهير البول والبراز ، فيضاف إلى محتويات القصرية حامض فنيك أو ليزول ، وتترك وهى مغطاة لمدة نصف ساعة قبل تفريغ محتوياتها فى المرحاض ، وإنى أحذر دائماً من عادة تقديم المرطبات والقهوة للزائرين فى منزل به إصابة بالتيفود . ويا حبذا لو تناسينا غريزة إكرام الضيف فى هذه الظروف فى سبيل السلامة الشخصية . أما الذباب ، وهو الحليف الأكبر لحمى التيفود ، فتجب مكافحته بشتى الوسائل كاستعمال السوائل المضادة للذباب ووضع شباك على النوافذ ، لأنه من أهم عوامل انتشار المرض .

فإذا أخذنا حذرنا من الذباب وإفرازات المريض أمكننا وقاية المخالطين من انتقال العدوى إليهم ، ولكن يجب أن ندعم مناعتهم بحقنهم بالطعم الواقى ، ويمكن حقنه للأطفال ابتداء من السنة الثالثة من عمرهم بمقادير مناسبة .

ويا حبذا لو حقن الأطفال به فى بداية الصيف من كل عام بأخذهم إلى أقرب مكتب صحة حيث يطعمون مجاناً ضد مرض من أخطر أمراض الطفولة .

وفى الختام أحذركم من أشياء أربعة : الذباب ، والخضراوات النيئة ، وأصابع المريض وإفرازاته ، واعتبار التسنين كسبب لبعض أمراض الصيف .

دكتور مصطفى الزيراتى

اليقظة الروحية فى الشرق

(موضوع فى مقالين هذا أولها)

فى هذا المقال عرض مجمل لتطور الشعر والأدب المسرحى وأدب المقال ثم الترجمة .

اجتاز الشعر عدة أدوار خلال الثورة الأدبية فى الصين والانقلاب الذى أدى إلى استعمال العامية فى الإنتاج الأدبى . فقد ظهر الشاعر الصينى فى أول الأمر متمفلا لا يكاد ينتهى إلى تجربة حتى يتركها إلى أخرى . وظل شأن القافية معه موضع تناقض طويل . عند ما كان يعن للشاعر أن يغنى كانت تبدو أقوى رغبته فى التخلص من كل القيود ، ولكنه سرعان ما كان يدرك أن الشعر كاللوحة لا بد من أن تبدو فى إطار ، فلم تقل رغبته فى الإبقاء على الإطار عن درجة اندفاعه لقرض الشعر .

ولقد كان علم العروض فى الشعر الصينى من قرون مضت حملا ثقيلا لا يقوى عليه إلا العباقرة منهم ، وقد ظل كذلك حتى صارت أوزانه آلية ومعانيه على شىء من الابتذال والركاكة . فكان من مزايا حركة التجديد أن خلصت الشعر من قيوده التقليدية ، ولكن المحاولة كانت فى نفس الوقت سبباً فى تقلقل الحدود بين الشعر والنثر .

وكان من مدركات الحركة كذلك توسيع مدى الموضوعات ، إذ لم يكن للشعر الصينى من وجود سوى وصف الرياح والأزهار والقمر والثلوج ، بينما كان حصر الشعر فى وصف الطبيعة من عوامل الإثارة والاستمتاع به خارج الصين ، حتى إلى الحين الحاضر لم يكن ذلك الحصر بكاف للجمهورية الصينية التى أرادت الأدب على أن يلعب دوره فى حركة الإصلاح الاجتماعى ، فضلا عن رغبة الشعراء القوية فى اكتشاف آفاق جديدة خصبة . وقد ساعد ظهور الشعر المنثور على التخلص من ذلك التحديد التقليدى لموضوعات الشعر . وهكذا كان تحرر الشعراء كاملا . كتبوا كما أملى عليهم الوحى ، على أن انعكاس الطبيعة على العقل البشرى ما يزال من أحب الموضوعات إليهم .

ثم جاء دور لم يظهر فيه الشعراء ارتياحهم إلى هذا التحرر المطلق من أى وزن أو قافية لأنهم سرعان ما أدركوا أن الشعر كالمغنية أو الممثلة الأولى على المسرح ، لا بد لها من الثوب الأنيق . وبدأ الشعر يحس بخجله من الظهور عاريا بغير كساء . فاتجه الانتاج إلى الابقاء على شىء من الخصائص الموسيقية ، وأقدم (هسو تشى مو) من قادة الشعراء فى الصين، على محاولات جريئة فى إدخال أوزان الشعر الإنجليزى على الشعر الصينى ، مما كيا قصائد العصر الاليزابيثى وأبيات بيرون الشعرية ، ولكن ثورة جديدة تولدت من هذه الحركة الأخيرة لأن الأبيات الشعرية أثبتت من جديد صرامتها وجمودها بحيث لم يقو الذوق الصينى على هضمها ، وراح (كاو موجو) قائد الثورة الأخيرة يصرح بأن جمود البيت الشعرى يخنق تعبيراته العاطفية ، وبدلا من هذا التكلف فى وقع الكلمات المحملة بصور مرئية راح يترك عاطفته تتدفق فى سيل جارف على هذا النحو :

إيه يا ضجيج المدينة العظيمة
تتمشين بحياة ،
ضاربة ، عاصفة ، صائحة
متفجرة ، هاربة ، وثابة .
هذا الأفق المتسر فى الضباب
وقلبى الذى يقفز إلى حلقى .

وترجم (كاو) رباعيات عمر الخيام وفاوست وشلى إلى الشعر الصينى غير تأليف القصص والمسرحيات . ولكن هذا التدفق العاطفى فى أشعاره قوبل بالنقد ولا سيما من البروفوسور (ليانج تشى تشاو) الذى كان يضع اللباقة والتحفظ فوق الإلهام . وهنا ظهرت هيئة جديدة تثور على الوزن كسابقتها ، ولكنها لا تقر فى نفس الوقت تلك السهولة

الطليقة . وكان من أعضائها (لى تشونغ) مثالا درس البحث فى باريس وكان تابعا أمينا لمدرسة التأثريين ، وقد ابتدع نوعا جديداً من الشعر الملئ بالخيالات الغريبة والاستعارات العميقة وإشارات متكررة إلى أساطير الغرب . وتتجه أغلب أشعاره نحو شهوة الجسد :

اصعد هذه الجسور
تحسس حرارة جسدك
فيصل فى الغابة القلبى الصغير
ولا تبق إلا رائحة أوراق الشجر الميتة .

وتتجه بعض أشعاره نحو التأمل والتفكير الحزين ، والاعتزاز بالماضى القديم على العكس من التوريين . ومن شعره فى مجموعة « لا تعد أبدا » .

هيا ارحل أيها الصبى
إلى المدن التى بادت
وترقد الآن فى ظلام القرون .
الجداول تغنى أغنيات متشابهة
كتنهدات شاعر الشرق
قلوبها كانت قدت من الصخر
الذى تغطيه أعشاب كثيفة

وتطور أسلوب الشاعر « لى » ، وتأثر بشعراء التجديد فى الغرب أمثال بول فاليرى ، ت . س . اليوت ، حتى وصل الشعر إلى حال لا يدرك فيها القارئ المعنى الكامل ما لم يكن من سعة الاطلاع بحيث يستطيع أن ينفذ إلى المعنى من بين السطور أو من خلال كلمة تشير إلى معنى طويل أو أسطورة كاملة ، ولم يكن بمستغرب أن تضج عامة القراء من اتجاه كهذا

وعلى أى حال ، لقد كان فضل الغنائين على اللغة العامية كبيرا ، فقد منحوها عمقا وقوة مع أن أول المنادين بضرورة استعمال العامية كانوا جماعة أكثر دعيهم من الناحية الاجتماعية لا من الناحية الفنية .

ومن التأليف المسرحى يذكر الكتاب وعنوانه « اذكره لأول مرة » (لوحة من عصر معذب) أن الحركة على عكس فروع الأدب الأخرى ، بدأت بترجمة المسرحيات الغربية بعد تكييفها للمرض المحلى . وقد التقى منها بالطبيعى تلك التى تعكس مواضع حساسة فى تفكير الشعب ، مثل غادة الكاميليا بمساسها بناحية الزواج والحب ، ومثل كوخ العم توما التى تتناول الحقوق الإنسانية وموقف الصين الذى يماثل الزنوج فى الرواية . ومن ذلك المسرحى النرويجى العظيم ابسن بتطرفه فى الثورة ضد التقاليد ، عرف كتاب الصين أن أعظم رسالة يؤديها المسرح هى كشفه الغطاء عن كل خطأ وعرضه لسخافات المجتمع القائم . فكان مما جاء فى خطبة الافتتاح على مسرح الشعب عام ١٩٢١ : « لقد ولى العصر الذى ينظر فيه إلى الدراما كشئ للتسلية والترويح عن النفس . ما المسرح الحديث إلا عجلة تدفع إلى الأمام كل تقدم اجتماعى ، أو ميكروسكوب ترى من خلاله أمراض البيئة . إنه مرآة لا ترحم عليها تنعكس كل النواحى الحالكة لحياتنا القائمة » .

اميمول حافظ



من قصص الأطفال الصينية :

الناطور [١]

للكاتب الصيني الكبير « يه — شاو — كين »

وصف لنا الشعراء الحقول نهاراً وضمنوا ذلك قصائدهم الرائعة ، وافتن المصورون في رسم أشجارها وأحوالها في كل أوقات النهار ، ولكن الشعراء في الليل يعكفون على الخمور يترعون منها كؤوسهم ويكرعون منها حتى الثمالة ، والمصورون يعكفون على آلات الموسيقى المختلفة يعزفون عليها ويتابعون ألحانها بغنائهم ؛ ولكنهم لم يذهبوا إلى الحقول ليصفوا أحوالها ويصوروا مناظرها كما فعلوا في النهار . فمن الذي يعرف الليل وأحواله في الحقول ؟ ذلك هو الناطور ، وسيدفع غلتنا بالخبر اليقين .

يقول رجال الدين : إن الإنسان من خلق الله ، ونقول نحن : إن الناطور من خلق الفلاح ، فهو الذي صنع هيكله من الخيزران ، وكسا جسمه بأعشاب الأرز الجافة الصفراء ، وغطى رأسه بسلة قديمة أو بورقة من ورق اللوتس المزق ، وربط في يده مروحة قديمة مكسورة تدلت منها في اتجاه الأرض ، وغرس رجله الوحيدة الطويلة في الطين بجانب الحقل ، فوقف هناك ليلاً ونهاراً لا يتحرك .

أدى الناطور واجبه بكل جهده ، فإذا شبهناه بجاموس لحرث الأرض لم نكن محقين ، لأن الجاموس يرقد أحياناً على الأرض ويرفع رأسه إلى السماء ليتثاءب فيظهر منه الكسل ، وإذا شبهناه بكلب يحرس البيت ليلاً لم نصب أيضاً ، لأن الكلب يغيب أحياناً عن صاحبه فيضطره إلى البحث عنه في أماكن مختلفة ويتعبه ، ولكن الناطور لا يشعر بتعب أبداً ، ولا يرقد على الأرض قليلاً ليستريح ، ولا يغيب عن صاحبه برهة فيتعبه ، بل يقف في الحقل مكباً على عمله ، يحرك مروحته في يده ليطارد الطيور الصغيرة التي تأتي لتلتقط حبوب الزرع الجديدة ، ومع ذلك فإنه لا يأكل ولا ينام حتى إنه لا يجلس لحظة ولا يتخلى عن مكانه خطوة .

وقد عرف الناطور بالطبع أحوال الحقول ومناظرها في الليل حق المعرفة ، فعرف كيف ينزل الندى من السماء ، وذاق طعمه اللذيذ الحلو ، وكيف تغمز النجوم بعيونها الجميلة ، وكيف يبتسم القمر ابتسامته الفريدة ، وكيف تتزاور الحشرات ، وكيف تتحاب الفراشات ، وعرف سكون الليل في الحقول ، ونوم الحشائش والأشجار العميق . وقصارى القول أنه عرف كل أحوال الحقول في الليل . فدعوه يحدثكم عن شيء من حوادث الليل التي رآها .

في ليلة من الليالي التي امتلأت سماؤها بالنجوم المتلألئة وقف الناطور يحرس الحقول ، ويحرك مروحته في يده حركة خفيفة ، ورأى حبوب الأرز الجديدة فوق سيقانها عندما مرت بها الريح ، فاصطدم أكتاف بعضها بأكتاف بعضها الآخر ، فكان حفيف اصطدامها خفيفاً رائعاً ، وأرسلت النجوم أضواءها على أعواد الأرز ، فاكتست لوناً من الخضرة لامعاً ، جعلها أجمل مما كانت في أول عهدها ، فسر الناطور منها سروراً كبيراً ، وتيقن أن محصول الأرز في هذه السنة سيقنع صاحبته ويشرح صدرها فتبتسم ، لأن عهدها بها منذ زمن طويل لا تبتسم ، إذ كانت تلك المرأة عجوزاً فقيرة مسكينة ، قد توفي زوجها قبل تسع سنوات ، فبكت عليه بكاءً شديداً حتى احمرت عيناها ، وما زال الدمع ينزل منهما أحياناً من غير بكاء ، وحين مات زوجها لم تكن تملك نقوداً لدفنه ، فاقترضتها من بعض الناس ، وواريته التراب ، ثم أجهدت نفسها مع وحيدها في زرع حقلها الصغير ثلاث سنوات ، فكسبت النقود وردتها إلى الدائن . ولم يلبث وحيدها أن مات ، فبكت عليه أحر بكاء ، وأمره

---

(١) الخيال الذي يحرس الزرع .

حتى أعمى عليها ، مما جعل قلبها يتألم حيناً بعد حين ، فاقترضت نقوداً أخرى ودفنت ابنها ، ثم بقيت وحدها ، وأجهدت البقية الباقية من قوتها فى زرع حقلها الصغير ثلاث سنوات أخرى ، فكسبت النقود وردت الدين إلى صاحبه ، وبعد ذلك أصابت حقلها كارثة الفيضان ، فأغرقته سنتين لم تحصد منه شيئاً ، فزاد ذرف الدمع من عينيها حتى صارت قصيرة النظر ، لا تكاد ترى الأشياء إن بعدت قدر خمس خطوات منها ، ورسم الهم على وجهها خطوطاً كثيرة حتى أصبح كأنه اليوسق الجاف ، لا تمر الابتسامة فيه أبداً . وقل هطول المطر فى هذا العام ، ونما الزرع نمواً حسناً ، فظن الناطور أن صاحبته ستحصد منه محصولاً وافراً ، ولذلك فرح وقال فى نفسه : « إذا جاء موسم حصاد الزرع فستجد صاحبتى حبوب الأرز سمينة مشبعة ، وستأخذ ربحها الكبير لنفسها ، وأظنها ستبتسم لذلك ابتسامة عريضة ، أرجو أن أراها حتى أسر يوماً أنا الآخر ، لأنها أجمل عندى من ابتسامات النجوم والقمر ، إذ أنى أحب صاحبتى ! »

وبينما كان الناطور يفكر فى ذلك جاءت حشرة ذات لون أصفر خفيف إلى الحقل ، فلما رآها عرف فى الحال أنها عدو الزرع وعدو صاحبته أيضاً ، ومن الواجب طرد مثل هذا العدو اللدود من الحقل ، فحرك الروحة بيده بلا انقطاع ، ولكن حركات الروحة كانت خفيفة ضئيلة لا تستطيع أن تفزع الحشرة وتخرجها من الحقل ، فطارت قليلاً بعيدة عنه ، ونزلت إلى عود من أعواد الأرز ، فلما رأى الناطور أنها نزلت إلى عود الأرز حزن حزناً شديداً ، ولكن جسمه كان مثل شجرة غرست فى الطين ، لا يمكنه أن يتخطى مكانه بنصف خطوة ، فكيف يذهب إليها ويقتلها ؟ وحرك مروحته باستمرار ، كى يخيفها فيخرجها من الحقل ، ولكن ذلك لم يجده نفعاً .

ووقفت الحشرة على العود لا تتحرك ، وفكر الناطور فى مستقبل الزرع ودمع صاحبته ووجهها المتجعد الجاف وحظها السيء ، فشعر كأن قلبه قد طعن بسكين .

وعندما رجعت النجوم إلى بروجها ، وغابت مناظر الليل عن الأنظار طارت الحشرة من الحقل وغادرته ، ونظر الناطور إلى العود حزيناً مضطرباً ، فرأى أنه قد قطع من وسط ساقه وتدلت أوراقه وجفت ، ولما دقق النظر وجد أن الحشرة قد وضعت بويضاتها خلف الأوراق ، ففزع منها وذعر ، وقال فى نفسه : « إن الكوارث ستصيب صاحبتى المسكينة بغير شك ! ولكن عينيها ضعيفة النظر لا تستطيع أن ترى مثل هذه البويضات بسهولة ، فيجب على أن أحذرها منها لتراها قبل أن تفقس وتصير حشرات فتضر الزرع ، ولتقضى عليها قبل أن يستفحل أمرها . » فزاد تحريك الروحة فى يده ، لأنه لا يقدر على أن يحذر صاحبته إلا بهذا الطريق .

وجاءت العجوز فزارت إلى حقلها لتطمئن على سلامته ، فوجدت أن الماء يكفيه ، وأن أعواد الأرز التى غرستها بيدها فى حالة طيبة ، ومسحت حبوبها فوجدتها كلها سمينة ريانة ، ورأت الناطور واقفاً فى الحقل مستقيماً ، والقبعة على رأسه والروحة فى يده كما كانا بالأمس لم يجاوزا مكانهما ، ولما رأت كل شىء فى الحقل فى حالة طيبة خرجت تريد أن ترجع إلى بيتها لتصلح من شئونها المنزلية .

فلما رأى الناطور أن صاحبته تهم بالرجوع حزن حزناً شديداً ، وأراد أن يبقيها لتتفقد أعواد الأرز بدقة حتى تجد بويضات الحشرة عدوها اللدود فتقضى عليها ، فحرك الروحة فى يده بلا انقطاع ، كأنه يقول لها : « ياصاحبتى العزيزة ، لا تظنى أن كل شىء فى الحقل على ما يرام ، كلا ، بل اعلمى أن الكوارث ستصيبك ، لأن الحشرة تركت بويضاتها فى حقلك ! وإنى لخائف من أنها إذا كبرت وانتشرت فى الحقل فستضر أعواد الأرز ، وستبكين بسببها بكاء شديداً حتى ينضب دمعك ، وسيتألم لذلك قلبك ألماً لا يشفى منه ، تفقدى ياصاحبتى العزيزة أعواد

الأرز واقضى على هذه البويضات ذات العدو المهلك قبل أن تكبر وتضر حقلك ، وانظرى فإنها تسكن خلف أوراق هذا العود فاقضى عليها ! » وكرر تحريك مروحته ، ولكن العجوز لم تقدم هذا التحذير ، ومشت وئيدة خطوة خطوة حتى ذهبت إلى بيتها وغابت عن نظره ، عند ذلك عرف الناطور أن تحريك المروحة لا يفيده شيئاً ، فوقف فى الحقل حزيناً متحيراً .

وبعد بضعة أيام انتشرت الحشرات ذات اللون الأصفر الخفيف فى الحقل ، وعندما سكن الليل سمعها تمص عروق الأرز ، ثم رآها تطير أحياناً وترقص فوق الأعواد فى طرب ومرح ، وتدلت سنابل الأرز شيئاً فشيئاً ، وتغير لون أوراقه الخضراء إلى لون فيه مظهر الموت ، فلم يطق الناطور صبراً على رؤية هذه المناظر الفزعة وتلك اللصوص التى ستضيع مجهودات صاحبته فلا تحصد شيئاً فى هذه السنة ولا تكسب إلا الدموع والأهات ، فأطرق برأسه وبكى بكاء مراً .

وكان الجو شديد البرودة ، خصوصاً فى الحقول الواسعة ليلاً ، وهبت الريح الباردة على جسم الناطور ، فأخذ يرتعش ولكنه لم يشعر بذلك لأنه كان مشغولاً بالبكاء ، وفجأة سمع صوت امرأة تقول : « هو ذا أنت أيها الناطور ! » فانتبه وشعر بالبرد ، ولكنه رأى أن من واجبه أن يحرس حقل صاحبته ، فوقف ساكناً لا يتحرك ولم يحاول أن يهرب من البرد ، ونظر إلى المرأة فوجدها صيادة ، وكانت أمام الحقل ترعة حيث رسا زورقها ، وظهر من نافذته ذبالة من نور ضعيف ، وأما المرأة فأعدت شبكتها ورمتها فى الترعة ، وجلست على شاطئها تنتظر السمك .

وسمع الناطور صوت سعال طفل يصدر من الزورق حيناً بعد حين ، وصوت ندائه أمه ضعيفاً متعباً ، ورأى المرأة ترفع الشبكة مرة بعد مرة ولا تجد فيها سمكاً ، ولما سمعت سعال ولدها ونداءه حزنت وقالت له : « نم هادئاً ! وانتظر حتى أصيد سمكاً فأبيعه غداً وأشترى لك بثمنه قطعة من الخبز تأكلها ، لأنك إذا ناديتنى كثيراً اضطرب قلبى ولم يمكنى أن أصيد شيئاً » .

ولكن الطفل لم يطق صبراً ، فنادى أمه قائلاً : « يا أماه ! إنى ظمئت ظمأ شديداً حتى كاد حلقى أن يتشقق ، فاسقينى شاياً ! » وأخذ يسعل بلا انقطاع .

فقالت المرأة : « أين نحن من الشاى فى هذا المكان ؟ نم هادئاً يا بنى ! » .

وكرر الطفل نداءه قائلاً : « أريد أن أشرب الشاى يا أمى ! » وبكى بكاء يقطع نياط القلوب فى هذه الحقول الواسعة وهذا الليل الساكن .

وتحرك قلب المرأة عطفاً على ولدها ، فوضعت حبل الشبكة من يدها على الأرض ونزلت إلى الزورق وأخذت صحفة وغرفت بها الماء من الترعة ثم أعطته الطفل ، فشربه بشهية لأن الظمأ أصابه منذ زمن ، ولكنه لما وضع الصحفة من فيه زاد سعاله حتى لا يسمع إلا تنفساته الحقيقة .

ولكن المرأة تركته وذهبت إلى الشاطئ واستمرت فى صيد السمك ، وبعد وقت طويل خفت صوت الطفل المريض ، وأما المرأة فأخرجت الشبكة من الماء مرات كثيرة ، فلم تجد إلا سمكاً — نتيجة مجهوداتها المتعبة فى هذه الليلة ، فأخرجتها من الشبكة بكل عناية ، ووضعتها فى طست خشبى أمام الناطور ، وأعادت الشبكة إلى الترعة مرة ثانية .

فزاد الحزن على قلب الناطور ، إذ أنه رأى الطفل المريض المسكين قد ظمئ حتى كاد حلقه أن يتشقق ، فلم يجد حتى ولو قليلاً من الشاى ليشربه ، واشتد مرضه فى هذا الليل البارد فلم يجد أمه بجواره تنام معه كى يستمد الدفء منها ، ورأى المرأة الصيادة تصيد السمك فى هذا الليل الساكن القارس البرد لتكسب قطعة من النقود تشترى بها كسرة من الخبز ، ولم يمكنها أن ترحم ولدها المريض وتحفظه من البرد ، فتمنى لو استطاع أن يعد الشاى

الطفل ، ولو ذهب إليه ونام بجواره ليستمد منه الدفء ، ولو قطع أعشاب الأرز التى تسكن عليها الحشرات ، تلك اللصوص ليحرقها ويدفئ بها المرأة الصيادة ، ولكن جسمه كان كشجرة غرست فى الأرض لايستطيع أن يتخطى مكانه بخطوة واحدة ، فأخذ يبكى بكاء حزيناً مراً .

وخفتت أضواء النجوم شيئاً فشيئاً ، وملأ الظلام المخيف ما حول الناطور ، ثم رأى فجأة شبحاً يسير بجانب الحقل ، فلما دقق النظر وجده يلبس جلباباً قصيراً وقد تشعث شعر رأسه ، فعرف أنه امرأة ، ولما رأت الزورق وقفت قليلا ، ثم استأنفت سيرها إلى شاطئ الترعة حتى وصلت إليه ووقفت هناك لا تتحرك ، فتعجب الناطور منها وأخذ يهتم بشأنها .

ثم سمع أن المرأة تتكلم بصوت خافت يقطعه تنفس حزين يثير القلوب لا يسمعه إلا هو ، إذ أنه قد تعود أن يسمع أصوات الليل الخافتة ، فإذا بها تقول : « لست جاموساً ولا خنزيراً يباع ويشترى ! ولو لم أهرب من البيت لهددنى وبحثنى قدراً ثم أخذت تمتى تلعب به البشر وتشرب الخمر ، وماذا يفيدك من ذلك ؟ . . . ولا يمكننى أن أتخلص منك إلا بقتل نفسى ، فإذا مت ذهبت إلى الدار الأخرى حيث ولدى الميت فأستأنس به ! » وبكت بكاء شديداً .

ولما سمع الناطور كلامها تحير وفزع وقال فى نفسه : « هذا حادث مؤلم آخر ، فإنها تريد أن تنتحر ! » وحرك المروحة فى يده يريد أن يوقظ المرأة الصيادة لتنقذها ، ولكنها كانت قد أخذت تغط فى سبات عميق فلم تسمع حركاته أبداً ، وغضب من نفسه لكونه كشجرة غرست فى الأرض لا تستطيع أن تتخطى مكانها نصف خطوة ! وعرف أنه إذا رأى إنساناً يريد أن ينتحر ولم ينقذه كان من الآثمين ، فتألم لذلك ألماً أشد من ألم الموت ! ودعا المرأة قائلا : « أشرق أيها الفجر مبكراً ! واستيقظوا يأيها الفلاحون من نومكم ! وطيرى أيتها الطيور إليهم لتخبريهم خبر تلك المرأة ، وهبى يا ريح الصباح وبددى فكرة الانتحار من قلبها ! » ولكن الجو كان من حوله ساكناً هادئاً تغشاه الظلام المخيف ، ولم يجب أحد دعوته ، لحزن وفزع ، ونظر إلى شبح المرأة بكل اهتمام

وسكتت المرأة قليلاً ، ثم همت بأن تلقى بنفسها فى الترعة ، ولما رأى الناطور ذلك حرك مروحته بشدة فوجدها واقفة ساكنة .

وبعد وقت طويل رفعت المرأة يديها ، ثم تقهقرت إلى الخلف قليلاً ، وألقت بنفسها فى الترعة . ولما رأى الناطور ذلك أغمى عليه فلم يسمع وقوع جسمها فى الماء .

وعند ما أصبح صباح الغد مر فلاح بشاطئ الترعة فرأى جثة المرأة فيها فذهب إلى قريته يخبر الناس بذلك ، فجاءوا إلى شاطئ الترعة ، ولما مروا بالصيادة النائمة أيقظتها خطواتهم ، فنظرت إلى السمكة فى الطست فوجدتها ميتة ، فأخذت الطست ونزلت إلى الزورق فرأت وجه ولدها المريض قد زادت نحافته وما زال السعال ينتابه . وجاءت العجوز صاحبة الناطور إلى الشاطئ لترى الجثة ، فلما مرت بحقلها أرادت أن تتفقد الأرز ، فوجدت سنابله التى لم يتم نموها قد وقعت على الأرض ، وأوراقها قد جفت ، ولما رأت أن مجهوداتها قد أكلتها الحشرات وذهبت أدراج الرياح لطمت وجهها وضربت صدرها وبكت بكاء مراً ، وعند ما جاء الناس ليسألوها عن سبب بكائها وجدوا الناطور قد سقط على الأرض بجانب الحقل .

ترجمة : عبد الله ما — يى — كو

إلى حضرات المشتركين

إدارة مجلة الثقافة تقبل من حضرات مشتركيها قيمة الاشتراك عن النصف الثانى من هذا العام لغاية ٣١ يوليه سنة ١٩٤٥ م

الإدارة

خواطر حران

نشر تحت هذا العنوان فى العدد ٣٤٣ من مجلة الثقافة الغراء الصادر يوم الثلاثاء ٨ من شعبان سنة ١٣٦٤ ١٧ من يوليو سنة ١٩٤٥ خواطر لكاتب من أوسع الكتاب ثقافةً وأفقاً وأرفعهم قدراً وخُلُقاً وأحبهم إلى نفسى هو الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد . سأل فيها الناس مسائل

قال : هل تتقدّم الأمم حقيقة إذا تعلّم جماهير أهلها تعلماً عاما ضئيلاً أم هى تتقدّم إذا تعلّم خاصّة أذكيائها تعلُّماً سليما عميقاً ؟ وقال : هل من الخير لنا أن نُنفق الملايين على تعليم الملايين القراءة والكتابة أم ننفقها على تعليم مئات الألوف تعليما صحيحاً يجعلهم فى مصاف المتعلّمين حقاً فى الأمم الأخرى

ولهذين السؤالين معنى واحدٌ جامع ، ولهذا المعنى شقان : الشقّ الأول التعليم الشعبى العام الضئيل وهو التعليم الأوّلى والشق الثانى التعليم الخاص العالى وهو التعليم الجامعىّ

وقد خطر للحرّان الكريم خاطر وهو أنّ التعلم الجامعىّ أجدى على الأمّة وأولى بالتقديم من تعميم التعليم الأوّلىّ إذ قال : إنّ الأمم الديمقراطية الحديثة لم تصل إلى تعميم التعليم إلاّ بعد أن صارت فيها نواة صالحة من العلماء المبرزين والمفكرين الممتازين وأصحاب الثقافة العالية فى مختلف الفنون ، بل لقد كانت هذه النواة هى العامل الأكبر فى تعميم التعليم

وهذا الخاطر العابر السريع الذى لم يوزن بميزان العقل والمنطق كسائر الخواطر ولم يصر رأياً ممحصاً وعقيدة راسخة يدين بها ويدافع عنها كما قال حضرته صحيح كلّ الصحة موافق لسنة النشوء والارتقاء والواقع كلّ الموافقة ، لأنّ خاصّة الأذكياء ذوى القرائح الصافية والنظرات الثاقبة الذين ظهروا فى بعض الأمم منذ نضج العقل الإنسانى أخذوا منذ فُتحت عيونهم على هذا الكون يفكرون فيه وفيما فيه وفى أنفسهم ويستنبطون مسائل العلم ويضبطونها وقد وضعوا بعضها فى الأمم القديمة العريقة فى الحضارة كمصر والهند واليونان من قبل أن تنتشر الكتابة بل من قبل أن تخترع ، وكان ظهور العلم باعثاً على اختراعها لتقييده وتدوينه ولأن الاختراع من ثمرات العلم

ولا شك أنّ من أخصّ خصائص العلم الذيوع والانتشار لما له من السلطان القوىّ على العقول ومن القوة الفائقة على رفع شأن الأفراد والجماعات وأنّه لذلك أصبح تراثاً عاما ودُولةً بين الأمم تتنقل بين الأقاليم وانتشر فى الأمم القديمة والمتوسطة قبل أن تفكر فى شىء اسمه تعميم القراءة والكتابة أو تعميم التعليم الأوّلىّ . بل لقد قنيت هذه الأمم بعد أن ضربت بسهام صائبات فى العلم وبلغت شأواً عظيما فى الحضارة ولم تفكر فى تعميم التعليم الأولىّ . وقد كانت الأمم الديمقراطية الحديثة التى بلغت الذروة العليا فى العلم والحضارة إلى عهد قريب كما قال حضرته وكذلك كثير من الأمم الآخذة من العلم والحضارة بنصيب كبير كمصر تعيش بالتعليم الجامعىّ لا بتعميم التعليم الأوّلىّ ؛ فالتعليم الجامعى سابق بطبيعته وبحاجة الناس إليه التعليم الأولى وأحق بالتقديم والعناية منه . وهكذا كان شأنه فى الأمم القديمة والمتوسطة والحديثة إلى عهد قريب وإلى الآن

ولا شك أن هذا الفريق القليل المثقّف ثقافة جامعية خير ألف مرّة من جمهور الشعب المثقف ثقافة أولية ، وأنّه هو الذى يقود الشعب ويدبّر شؤونه ويعمل على جلب الخير له ودفع الشر عنه وعلى صيانته من عدوان المعتدين . والأمم القوية التى ألفت السيادة لا تخشى من الأمم الضعيفة إلاّ بأس هذا الفريق الممتاز . وإنّا لا نزال نذكر حين تكوّنت لجنة الجامعة المصرية القديمة منذ أقل من أربعين سنة أن عميد الاحتلال البريطانى حينئذ قابل هذه النهضة

بدعوة عامة قوية إلى اكتتاب عام لإنشاء كتاتيب ليعرف البلاد بهذا التعليم الأولي من التعليم الجامعي لأنه الأداة الفعالة لرقي البلاد وتحررها

لا شك في ذلك البتة أيها الحران الكريم . ولكن لا شك كذلك في أن هذه الطبقة الممتازة المثقفة ثقافة جامعية عالية وجدت في مصر منذ ألف سنة من يوم أن أنشئ الجامع الأزهر ذو الماضي المجيد وأن هذه الطبقة الممتازة قد بلغت الآن مبلغ نظرائها من الطبقات الممتازة في الأمم الراقية ثقافة وتفكيراً وأدباً ، وبلغت من الكثرة مبلغاً حمل مع أشد الأسف كثيراً من أولى الأمر في عهود ماضية أن يفكروا في الوسائل التي يحولون بها بين هذه الطبقة وبين ازديادها المطرد ، وأن في جامعتي فؤاد وفاروق والجامعة الأزهرية والمدارس العالية والخصوصية والبعثات العلمية إلى البلاد الأجنبية معيناً فياضاً لهذه الطبقة الممتازة لا يخشى نضوبه وسيزداد على الأيام من تلقاء نفسه فيضاناً وذيوعاً

لم يبق إذاً موضع للخوف البتة من أن اشتغالنا بتعميم التعليم الأولي ومكافحة الأمية والجهالة والضلالة بين المواطنين الذين تجاوزوا سن التعليم الأولي يشغلنا عن التعليم الجامعي العالي . فهذا التعليم قد وضعت أسسه وثبتت دعائمه وجنيت ثمراته وضمنت سلامته ونماؤه وبقاؤه . وما علينا الآن إلا أن نوجه ما نملك من مال وجهد ووقت لتعميم التعليم الأولي ومكافحة الأمية والجهالة والضلالة بين الكبار والصغار على سواء ، لما تقدم ولأمور كثيرة الحران الكريم من أعلم الناس بها . وفي مقدمة هذه الأمور :

١ — ما ظهر للأمم الراقية الحديثة ومن أجلها عممت التعليم ، وهو سوء آثار ارستقراطية التعليم وحسن آثار ديمقراطيته والرغبة الصادقة في إتاحة الفرص لجميع أبناء الوطن الفقراء والأغنياء لإبراز مواهبهم ولتوزيع هذه المواهب توزيعاً مجدياً نافعاً على التعليم العلمي والأدبي والفني العالي والمتوسط ، ولو لم يكن لتعميم التعليم الأولي من سبب غير هذا السبب لكفى ، على أن هناك أسباباً أخرى خطيرة منها

٢ — أن تعميم التعليم الأولي من أكبر البواعث على ازدياد الأذكياء المتطلعين الصالحين للاستمرار في التعلم حتى مرحلته الجامعية النهائية وازدياد الإقبال عليها وأن تعميم التعليم الأولى من شأنه أن يزيد القدرة على إتقان العمل وزيادة مقاديره ، وبذلك تزداد الثروة الشعبية التي لابد منها للانفاق على التعليم الجامعي

٣ — أن الحضارة الحديثة ككل الحضارات من ابتكار الطبقة الممتازة ، ولابد لهذه الطبقة من أن تستعين ببقية الشعب على بناء هذه الحضارة ، ولا سبيل للانتفاع بجهود الشعب في بناء الحضارة إلا إذا كان يعرف ولو أوليات ما بنيت عليه من العلوم والفنون . والعدالة تقضي مع ذلك بأن يتساوى الناس جميعاً في الانتفاع بهذه الحضارة التي تعاونوا على بنائها ، ولا سبيل للانتفاع بها على سواء أو على قرب من السواء بدون تعميم التعليم الأولى على الأقل

٤ — أن أفراد هذه الطبقة الممتازة في كل أمة هم الذين يتولون شئون الدولة كلها ، ومنهم من قد يستغل سلطانه لنفسه ويعبث بحقوق الناس ، فلا بد لهؤلاء الناس من أن يراقبوا هذه الطبقة ، وهذه الرقابة لا يمكن أن تتحقق على الوجه الأكمل والشعب غارق في برك الأمية والجهالة والضلالة . وحسبنا ما نقاسيه الآن من جهالة الناخبين وضلالهم وسوء تقديرهم للنيابة وللانتخاب وغير ذلك مما نشكو منه من الشكوى . وإن مما يؤلم أشد الإيلام أن نلقى نيابة بعض النواب والفروض أنهم خير من في البلاد ، لا لشيء إلا الأمية .

٥ — وأن تعميم التعليم الأولي يقرب المسافة بين الطبقة الممتازة وبين عامة الشعب ولو بعض التقريب ،

وبذلك يستقيم التوازن الذي لابد منه لضمان الحياة الناجحة السعيدة . أما إذا قصرنا عنايتنا كلها على التعليم الجامعي وأخرنا تعميم التعليم الأولي ومكافحة الأمية والجهالة والضلالة ، وبقي الشعب المصري على ماهو عليه وتمادت الطبقة الممتازة في تقدمها مجاراة لتقدم نظيراتها في الأمم الراقية ، فإن التوازن يختل وتغرق السفينة ، فإن لم تغرق عجزنا من مجاراة الأمم الراقية في الحضارة لأنها تنهض بجناحين ، الطبقة الخاصة المثقفة ثقافة عالية ، والطبقة العامة المثقفة ثقافة ملائمة تزداد هي الأخرى كلما ازدادت ثقافة الطبقة الخاصة . أما نحن فإننا نحاول أن ننهض بجناح واحد وهذا مستحيل .

لذلك كله ولغيره من الأسباب التي لم تحضرني حين كتابة هذه الكلمة أصبح التعليم ضرورة من ضرورات الحياة كالأكل والشرب ، وأوجبت الدساتير الحديثة على الدول الراقية تعليم الأفراد ، وعلى الأفراد التعلم . ولذلك أيضا أخذت الدول الديمقراطية الحديثة ، وهي في محنتها الحربية الحاضرة وقبل أن تنتصر هذا الانتصار تفكر جادة مخلصة في أن تفتح أبواب معاهد العلم شتاء وصيفا نهاراً وليلا لكل المواطنين على اختلاف أسنانهم وطبقاتهم وثقافاتهم ليستمروا في طلب العلم من المهد إلى اللحد .

وهناك أمر آخر خطير كل الخطورة يضطرنا اضطراراً إلى المسارعة في تعميم التعليم الأولي ومكافحة الأمية والضلالة والجهالة ممن تجاوزوا سن التعليم الأولي من المواطنين ، وذلك أننا أقحمنا إقحاما رغم أنوفنا في هذه الأمم الراقية القوية بصناعاتها وبعلومها الصناعية بعد إزالة الحواجز المكانية والزمانية بين الأمم بوسائل الاتصال الحديثة في هذا العصر ، فكيف نخالطهم ونمازجهم ونحتفظ مع هذا الاختلاط بمقوماتنا ومجدنا وكرامتنا ، بل وبحياتنا ، إذا لم نجارهم في أصل الحضارة وعمادها ، وهو العلم الذي جاريناهم في درجاته العليا النظرية وقصرنا عنهم فيه تقصيرا معيبا ضاراً في درجاته العملية والسفلى ، وهي تعميم التعليم الأولي ؟ لاشك عندي بعد ذلك في أننا لا يمكن أن نرقى ونتحضر ونحتفظ باستقلالنا إلا إذا عممنا التعليم الأولي وكافحنا الأمية والجهالة والضلالة .

أما السؤال الذي خطر له وخجل منه – وليس في المصارحة بالخواطر رغبة في الخير مايخجل لولا ما نعرف في الكاتب الجليل من التواضع والأدب الجم – وهو : أيهما أفضل المدارس التي تعلم القراءة والكتابة والحساب ، ويبقى بعدها الصبيان بلا عمل أم المؤسسات التي تدربهم على الصناعات الزراعية وغير الزراعية الملائمة للبيئات المختلفة وعلى تحسين الزراعة حتى إذا ارتفع بهما مستوى المعيشة نظر لا بعد ذلك في تعليم القراءة والكتابة والحساب ! فقد عقب على هذا الخاطر مباشرة بقوله : « ألا تكون هذه المؤسسات نفسها بمثابة مدارس يتعلم فيها الناس دروس الحياة ؟ ألا يكون من الممكن أن تلحق بهذه المؤسسات فصولاً للدراسة بما يلزم العمال من كتابة وقراءة وتوجيه في الصناعات ؟ » .

وبهذا التعقيب وهو خاطر سريع من خواطره التي لم تمحص ولم تصر آراء ناضجة قد حل الاشكال ورسم الطريق لتعميم التعليم الأولي ، إذ جعله عمليا علميا ، لا علميا فحسب ، وهذا هو الواجب لعدة أمور في مقدمتها :

أن الصناعة في ذاتها خير الوسائل لتربية الأمة تربية جيدة جسدية وعقلية ونفسية ، لأن التدريب الصناعي اليدوي من شأنه أن يقوي الأجسام ويقيها الأمراض ، والصناعة تقوم على العلوم والفنون . ففي التدريب عليها تعلم عملي للعلم والفن يقوي العقول ويزيدها ثقافة ، والصناعة تدرب الصناع على مكارم الأخلاق عمليا ، وهي الصبر والجلد والتعاون والدقة ، وتربي الذوق السليم وغير ذلك . فإذا اقترن التدريب على الصناعة بتعليم مايلائمها من العلوم والفنون الصناعية كان في ذلك كل الخير .

وأن في انتشار الصناعة القضاء المبرم على الجرثومة الأولى الخبيثة الفتاكة بالأجسام والنفوس والعقول ، وهي الفقر ، وأن تعميم التعليم النظرى وحده فيه قضاء على الملكات والمواهب ، وأن خير وسيلة لإيقاظ هذه الملكات والمواهب هو أن يصحب التعليم النظرى التدريب العملي .

وبهذا التعقيب يكون حضرة الأستاذ الجليل صاحب الخواطر وكاتب هذا المقال قد وافق على تعميم التعليم الأولى على أن يكون علميا وعمليا . أما كيف تكون المدرسة الأولية ، وكيف تكون ملاءمتها بمراحل التعليم الأخرى فهذا بحث آخر . وللحران الكريم الشكر والتحية .

عبد الله أمين

سحر مصر

روبرت هتشنز

٦ — دندرة :

من أبيدوس ، مقام أزوريس قاضي الموتى ، قصدت إلى دندرة حيث معبد الإلهة هاتور سيدة العالم السفلى ، أو كما عدت في أكثر الأحيان « أفروديت » مصر ، إلهة المتعة والحب والجمال . كانت بكرة صباح عندما خطوت إلى الشاطئ ، والشمس وراء التلال الشرقية ، وحياني في استحياء صبي صغير ، يتمنطق بحبل من عشب مضفور ، بتحية « نهارك سعيد » .

الشباب أنبل هبات الآلهة ، كما اعتقد لابسو عمائم زهرات اللوتس منذ آلاف السنين ، وإن دندرة لمعبد مصرى شاب . إنه في الغالب أصغر المعابد على ضفاف النيل سنا . وشبابه — وقد عاش ألفين من السنين لا غير — خليق بجمال الآلهة التي فيه . وبينا الطية تخب بي إليه في صبا الصباح الغض ذكرت الإلهة « سافخ » وشجرتها المقدسة . كانت الإلهة سافخ إذا خطت اسم ملك على ورقة من تلك الشجرة عاش إلى الأبد . أتراه كان يعيش إلى الأبد شابا ؟ إن كهولة أبدية لاتهفو إليها النفوس . قلت : « إلا أن يعيش الإنسان في مصر ، ففي مصر لا يستشعر الانسان مر الزمن ، وكل ساعة ذهبية تسكب في النفس قطرة من إكسير عجيب يذهب الملالة إلى غير مآب » .

تقف دندرة البيضاء في سهل عريض القرى على رابية قائمة في وحدة صامتة بعيدا من المعمور ، تختلف في هداءة أبيدوس البيضاء . وأخذ بصرى من بعيد مرأى واجهتها الكبيرة تطلع في عراء محض طلوع أفروديت من الأمواج . كان في المشهد لمسة حزن تمثلت معها هاتور كأنها راكن المهتين شاحب الجبين فاحم الشعر يداها الوالهتان مبسوطتان تضرعان . كان الصمت مخيما على المكان ، ومات عن أذنى كل صوت شادوف ، ولم تعد الساقية ترن كزامير صقلية في ناأكال . وأحسست أنفاس الصحراء وإنها لقريب ، الصحراء البحتة لها في روع مرتادها هيئة البحر ، فكلما ارتقى كثيبا خال أن سيسمع من بعده اصطفاق الأمواج .

وصعدت ، ومشيت حيث مشى الكهان يستقبلون أشعة رع ، وبلغت سطح المعبد وأشرفت على الصحراء ، على رمال تبرق كأن جوانب كثبانها أثواب إستبرق ، وأخرى من بعدها أكثر شحوبا عليها ضريح شيخ ذو قبة قشدية اللون ومنظر شرقي أصيل ، وخلتنى أسمع ما هنالك من تسبيح وتلاوة في غمغمة لا تنقطع : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . . ذلك هو الفوز العظيم » .

أما جلال المعبد الذى أخذني لدى مرآه ، فقد تضاعف عندما دخلته ووقفت فيه . هذه أولى قاعاته رائعة تحمل سقفها عمد عاتية تطل من عليها أوجه هاتور تستقبل الجهات الأربع . لكنى لم أجد وا أسفاه غير وجه واحد مكتمل

نحا من عصبة المتعصبين ، أنحته إلهة الصدفة ، وجه يبقى الشكل سوى الرسم ، ثم ماذا أرى ؟ ! إن فى العينين المستطيلتين والجبين والخدين تقيضاً أكثر من وقار . هذا وجه نفس فى عذاب . أهذه صورة المتعة عند القوم أيام البطالة ؟ ! إن المتعة قد تكون عابثة ، وقد تكون رزينة ، هذا صحيح ، لكن أفى المكن أن تكون شيئاً كهذا ؟ هذه الزرقة الحلوة على الجدران كأنها قطع من سماء ليل ترى فى الظلمة من نوافذ غرفة ، قد تصور المتعة على نحو ما . لكن وجه هاتور عليه سيماء الأسى والإعياء .

ومشيت ، وكلما خطوت انبعثت من ظلمة الحجرات الداخلية صيحات الخفافيش غاضبة صاخبة فيها طيرة ونفر مع رائحة ثقيلة كالموت . لم يكن إلا فى الحجرة الأولى أن أفرغ البناؤون والنقاشون لاهتهم وسع فنهم تبددا وزلفى ، على بياض ناصع وزرقة حلوة من فيروز ، أو هذا ما يبدو الآن على كل حال بعد أن سكت من هاتور غضب المسيحية . اليوم يأتى المسيحيون من كل صوب يتفقدون ما درس المسيحيون فى عهد مضى . إن روحا أكثر استنارة تسود دنيانا الآن ، لكن هاتور — وا أسفاه — ذهبت ضحية العادين ، ولا غرو أن يقوم معبدها فى صمت حزين وبأس على مجد عفا .

وازداد حزنى مع كل خطوة بين روائح غريبة وخفافيش صاخبة تطير مهتاجة حول عمد مروعة قرب سقف أشأم من غيم قاتم ساعة عاصفة ، وروحى تتعقبها عينا هاتور الحزونتان المحدقتان أبدا على ذلك العمود فى القاعة الأولى . أهكذا كانت نظرتهما على الدوام ؟ لقد أشرق هــذا الوجه يوما على خلق كانوا له عباداً وعزاً ، والخلق ذهبوا والعز ولى ، وكما يجرى القــدر على أكثر الأحياء دفنت الآلهة مع مجدها . لقد تحرك البندول ، وذهب من إلـهة الحب المحبوب ، وأتاها الشانئون ، وكما يتغير وجه آدمى عندما يذهب السعد والأمن ويأتى الخوف والحزن ، إخال أن وجه هاتور تغير على عمودها استجابة لعذاب قلبها . إن دندرة قصر تخم الأحزان ، وسأذكره على الدوام مظلما مفجعاً رائعاً فى آن .

لقد اعتقد المصريون يوما أنه إذا حضر الموت إنساناً فإن روحه — وأسموها « با » — تصعد على جناحين صوب الآلهة ، لكنها تعود إلى القبر من آن لآن تحدوها نزعة حلوة من إيثار لتؤنس السكينة مومياءها فى وحدتها ، وترام رسومها على التابوت طائراً هابطا إليه أو مستقراً عليه . وفيما أنا ماش فى الظلمة بين العمد على أحجار أرض المعبد لا أكاد أرى رسم الزوارق المقدسة على الحوائط ورسم حورس وتوت الملك بين يدى أزريس ، وددت لو أنى بدل صخب الخفافيش سمعت الرفرفة اللطيفة لجناحى « با » هاتور جاءت هابطة من الفردوس لتؤنس رسمها فى هــذا المعبد الصحراوى الموحش . إنى إخال هاتور امرأة بائسة تقاسى ما تقاسى فى الوحدة النساء .

فى متحف القاهرة توجد مومياء السيدة « أما نيت » سادنة الإلهة هاتور تنام هناك على ظهرها وجسمها النحيل يميل قليلا إلى الجانب الأيسر كأنما تهم بأن تنقلب ورأسها يميل كلية إلى ذلك الجانب ، فمها فاغر ينحسر عن الأسنان واللسان ، وشعرها الخفيف الداكن يصنع خطا فوق أذنها الصغيرة وينمدمج وراء الرأس فى غدائر صناعية ، وحول العنق حلى من عقود وتمــائم ، والذراع اليمنى ممتدة إلى جوار الجسم ، وسحنة الوجه تامة فى الغرابة والإبهام ، فهى تجمع بين الفزع ، وفيه حركة ، وبين نوم عميق فى غير متناول الأقلاق . وها أنا بمعبد دندرة أتصور السيدة «أمانيت» تقوم فى حزن وخوف على خدمة إلـهة مهجورة مستوحشة ، تتنقل وجلة فى ظلمة أبدية ، ثم تموت وقد هدها الاعياء بأعباء أثقل ممــا يحتمله جسمها الرقيق وروحها المرهف ، والآن تنام السيدة «أمانيت» كما يبدو للناظر إلى مومياثها ، نوما إن لم يكن هادئا فهو عميق ،

عام سعيد مقبل

ها هو شهر الصوم قد أقبل في قداسته المهيبة وجلالته الباهرة ولياليه الساهرة تتألق مصابيحه بأنوارها الساطعة وتحتشد الدور والمقاهي والنوادي بروادها وزوارها بين السمر والفاكهة ويتبارى القراء في مختلف المواسم والقرى في ترتيل آي الذكر الحكيم ، وهؤلاء الأطفال يمدون مصابيحهم الصغيرة وأناشيدهم الساذجة البريئة لتحية هذا الشهر الممتاز على شهور العام بطابعه الأخضر الباسم . وها هي الشعوب العربية تستفتح عاما جديدا حافلا بالآمال والأماني المحققة ان شاء الله . أعاده الله على الجميع بالخير واليمن والاقبال .

كنا في أعوام الحرب المنصرمة نخلق السرور خلقا ونتلمس الصفاء في مظانه ومواطنه بين مفاجأة الغارات ومباغتة أبواق الإنذار نتبادل السهرات في رهبة وحذر ونتخبط في الظلام الدامس الرهيب من حائط إلى جدار ، نضل طريقنا حتى يهدينا بصيص من نور عربة أو نافذة جريئة أو سالك خبير بالنهج ، ونتحين الليالي المقمرة نخرج مع الغارة لوفاء وعد أو قضاء واجب ونحرص كل الحرص على ليالي رمضان أن نذهب واحدة منها في غير ما رسمناه في جدول الشهر ؟ فمن حفلات تكريم الأبطال المجهولين في حي الحسين إلى مواعيد الأصدقاء ، وهكذا ، حتى سئمت نفوسنا الحديث المقول والسمر المألوف ، فاقترح بعضنا أن نخرج من القاهرة الحديثة إلى القاهرة العتيقة ، ومن العالم المثقف البصير إلى العالم الغرير الساذج ، وهي خير وسيلة لترويح النفس وانتعاش الخاطر ، وانطلقنا بعد الافطار مباشرة لصديق عليم بحي بولاق ومسالكه وعمنا ناحية الأكواخ والعشش وسكانها من صغار الباعة وطائفة العمال ، وجعلنا نطوف على القهوات الحافلة بالزمار والأرغول لأصحاب الفن من الموالي الحمر والخضر والبيض ، واهتدينا عند خاتمة المطاف إلى مقهى فسيح الجوانب كثير المقاعد اكتظ بالوفود والزبائن لسماع الشاعر القصاص ، فدخلنا وجلسنا بين التحيات والحفاوة لنشترك معهم في قصص الشاعر ونستمتع بعذب حديثه ، وقد اقتسموا شيعا وأحزابا لزعماء

وآلهتنا هنا على عمود في سهاد .

وعندما خلصت إلى نور النهار الضاحي طوفت حول المعبد لأرى امرأة أخرى تكاد تكون في الحسن والإغراء أسطورة كأفروديت . وهل أنسب مكانا من معبد هاتور يحفر عليه رسم كليوبترا ؟ هذي هي في حضرة الآلهة وبصحبة ابنها سيزاريون ، ليس بوجهها تقبض حزن كوجه الإلهة ، بل فيه قسوة مطمئنة وشهوة ليست من الألوهية في شيء . هذه ليست صورة صادقة لكليوبترا . لكن وجه هاتور على أي حال يوحى بمعنى أرفع وأفق أعلى .

وبينما أنا راكب في عودتي إلى النهر لقيت الغلام لايس الحزام من الشعر الضفور ، وحياني مرة أخرى « نهارك سعيد » دعوة طيبة من غير شك ، لكن إلهة دندرة كانت تمض بالي . وذكرت أسطورة الحسناء « لايس » إذ أدركها الكبر فاستخفت بخمار عن عيون الرجال ، وراحت كما أمسى النساء تأخذ سمتها إلى تمثال لها كان العبقري « براكستليز » قد أخلد فيه ذلك الجمال الذى لم تستطع المرأة أن تمسكه عليها . وذات مساء وجد التمثال على قاعدة التمثال باقة زهر علقت بها مرآة خطت على وجهها الصقيل هذه الكلمات « يا معبودتي ! لايس تدع عندك مرآتها . لم تعد ترى فيها ما كانت عليه ، وتكره أن ترى ما آلت إليه » .

وهاتور دندرة ذات العينين الحزينتين ، القائمة على العمود في القاعة الأولى ، لو أن لها مرآة لعلقتها ، كما فعلت لايس ، على قاعدة تمثال أفروديت مصر ، ولو أن لها حجارا لضربت به على ذلك الوجه المستوحش الرائع الشاكي ضراوة السبخية ، ولقالت للأبهاء المظلمة والصحراء اللامعة والنيل : « عبدت في يوم مضى ومالي اليوم من عابد »

عبد الغني علي حسين

القصة وأبطالها ، واستقل كل حزب بأحد أركان القهوة : فمن أشياع أبي زيد الهلالي — إلى أتباع دياب بن غانم — إلى أعضاء الخفاجي عامر — إلى أنصار الزناتي خليفة . وأخذ كل فريق يدلي برأيه وحجته في تأييد زعيمه من بطولته ومواقفه التاريخية في الحروب ومنازلة الأبطال . وانتحينا جانبا على مقربة من الشاعر شأن الحزب المستقل حتى لا يتعين علينا الاندماج في هيئة أو الانضمام لفريق ، فكنا أشبه بجماعة المحايدين الذين يهتفون لكل حزب يجيء في الحكم ويتسلم مقاليد الأمور . وما هي إلا برهة يسيرة حتى أقبل الشاعر يتهادى في مشيته ويلتفت يمنة ويسرة يومىء بالتحية بيده ورأسه في ابتسامة ساحرة ، فيحيونه بأحسن منها ، وهو في هندامه وسمته ووقاره مثال الأديب المحبوب لدى عشاق أدبه ورواد ناديه ، وقد اعتلى منصته الخشبية المرتفعة في صدر المكان وهم في خشوع النساك وسكون الرموس ينتظرون حديثه ويتعجلون القصة التي تشغلهم ، ويتناول الكمنجة الأربة فسمعنا بعض ضروبها ، ويبدأ القتال بحرب الأمير دياب للزناتي خليفة ، وهنا سمعنا ضجة عنيفة من بعض جوانب القهوة أتباع دياب وأتباع الزناتي ، ووزعت أكواب العرقسوس هدية من جانب وهدايا اللب والحمص من الجانب الثاني ، ويتلخص الحديث في أن دياباً أعد حربة مسممة ثم ضرب بها الزناتي فتلقاها بقدمه استخفافاً بقرنه ولم تحدث أثراً لأن قدمه كانت مصفحة بالحديد من الداخل ، وكذلك أعد هو حربة مسممة أيضا تصرع من تصيبه في نهاية يوم واحد ولم يسع دياباً إلا مقابلتها بما فعل صاحبه بقدمه ، إلا أنها أصابته ولبست القدم فأسرع أبو زيد فأخرجها وضمد جرحه ، وكان لابد له من مكافحة سمها ولا سبيل إلى إخراجه سوى (خرزة السم) الموجودة في وادي اليهود وهو على مسافة يومين ، فركب أبو زيد حتى انتهى لوادي اليهود فلما رأوه خالجهم الشك في أمره وخافوا مغبة زيارته ، فاعتقلوه شهرا كاملا حتى يقرر مجلسهم إطلاقه أو القضاء عليه ، ورجح رأي القائلين باكتساب صداقته وتسلم الخرزة على أن يعيدها بعد أسبوع ، ثم أسرع في العودة فوجد دياباً في آخر رمق فوضع الخرزة في مكان الحربة فانصرف السم ونهض دياب سليما معافى يستنفر ويعلن الحرب على الزناتي ، ونهض أتباع دياب يرقصون ويطربون لشفائه وعودته .

هذه الطبقة من المخلوقات تعيش في القرون الغابرة البعيدة ولا تفكر في معارضة ما جاء في الرواية من تناقض بإزاء العقل والتصور ، ثم لا تحفل بما استحدثه العلم من مهلكات الحروب وهي بعيدة أيضا من كل ما يتصل بالعالم ، فإن أحد هؤلاء في وقت الثارة سمع بعضهم يقول هتلر فصاح فيهم :

— هتلر إيه ؟ والله هتلر ده ماهو راجع إلا لما يوقع قتيل —

هذا النوع المنفصل عن العالم يعيش في خرافة الأساطير الساذجة . وكنا نود لو تعنى وزارة الشئون بوضع قصص في لغة سهلة من التاريخ الإسلامي والتاريخ المصري وروايات العشاق في أساليب القصاصين ورواياتهم وإحلالها محل القصص الخرافية لتجعلها بمثابة تمهيد لفهم التاريخ بحقيقته وتقريب مسافة الخلف بين هذا النوع والعالم الذي يعيش فيه ، فتكون قد أسدت يدا بيضاء من أياديها لفئة في وجودها محرومة من الوجود وفي حياتها منفصلة عن الحياة .

حسين مظلوم رياض

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

القاهرة

تليفون — ٥٦٢٦٩

مذاهب الفلسفة الرواقية

عند الرومان

١ — خصائص الرواقية الرومانية

[١ — نزعة أخلاقية ٢ — شعور دينى ٣ — هداية وإرشاد ٤ — أخلاقية فردية ٥ — مثل « ديمونا كس »]

١ — لم يكن الرومانيون مشغوفين بالعلوم النظرية ، بل كانت عقليتهم عقلية عملية تميل إلى النظام والحكومة والقانون . ولذلك رأينا فلسفة الرواق ، حين دخلت بلاد الرومان ، قد « تجردت من أحراشها » — كما قال شيشرون — تأثرت فى ذلك بالطبع الرومانى وبملابسات الحياة فى رومة . فتركت ما كان فى المنطق الرواقى القديم من لباقة ودقة ودوران[1] ، ولم تقف عند علم الطبيعة إلا وقفات قصيرة موجهة أقصى عنايتها إلى مبادىء الأخلاق وتطبيقاتها . وهكذا أصبحت النزعة السائدة فى الفلسفة عند الرومان نزعة أخلاقية : يتجلى ذلك فى مؤلفات الرواقيين فى ذلك العصر ، إذ نراها لا تذكر من المنطق ولا عن الطبيعيات إلا النزر اليسير ، خذ مثلا سنكا[2] فإذا استثنينا كتابه « المسائل الطبيعية » رأيناه يتلمس المعاذير كلما بدا له أن يعالج شيئا من هذا القبيل . أما ابكتيتوس فنراه يمر على مسائل الطبيعة مراً سريعاً ، وأما مرقس أوريليوس فلا يتحدث عنها بشىء .

٢ — ولم تقتصر فلسفة الرواق فى رومة على اتخاذ مذهب الأخلاق القديم كما هو ، بل أدخلت عليه فنا جديداً لا يخلو من مرونة وإصابة فى تحليل ما فى طبيعة الإنسان من ضعف وعظمة ، وفى بيان شتى العلل لذلك . وأدخلت أيضا طرائق جديدة لمعالجة أمراض النفوس ، ونظرت واقعية فى مختلف مراتب الكمال والسبل إلى بلوغها ، وأثارت شعورا دينيا إن لم يكن أشد قوة فهو على كل حال أوفى تعبيراً عن مطامح الإنسان وهواجس وجدانه .

٣ — على أننا نرى الرواقية فى رومة تهجر « المدارس الفلسفية » وتخطو ملتمسة إلى الضمائر والقلوب سبيلا . كان الرواقى فى أثينا معلماً أو مدرساً ، فأصبح فى رومة دليلا ومرشداً : وهذا سنكا يأبى أن يعد نفسه من « فلاسفة المنابر » الذين يخطبون الجماهير فى لجب واضطراب ، بل هو لا يقبل من التلاميذ والمريدين إلا طائفة مختارة يبوحون إليه بجميع شئونهم وخلجات نفوسهم ، فيمحضهم من بعد ذلك نصحه ويسدى إليهم إرشاده . لذلك أنت ترى فى كتب « سنكا » من وصف الطبائع وتحليل الشهوات ومن لحظات النفوس ، وخواطر العقول ، ما استفاده الفيلسوف لا من دراساته لمؤلفات « زينون » و « كريسبوس » بل من تجاربه الشخصية فى الحياة ومن صلاته بالناس فى زمانه

٤ — وكان الناس فى رومة يعرفون من فطاحل الرواقيين اسم « ابكتيتوس » واسم « مرقس أوريليوس » ولكنهم كانوا يجدون فى المدن الرومانية الأخرى رجالا آخرين من الهداة والمرشدين . والحق لقد كانت الأخلاق الرواقية فى صميمها أخلاقية فردية : فلم يكن أساتذة الأخلاق فى ذلك العهد مندوبين عن المدينة ، ولا ممثلين للحكومة ، بل كانت مهمتهم شخصية بحتة ، يتحدثون إلى الناس باسمهم الشخصى وهم أنفسهم الذين اختاروا رسالتهم الأخلاقية .

٥ — وإذا شئنا أن نقف على ما آل إليه أمر أولئك الفلاسفة الأخلاقيين فى العهد الرومانى ، فلنتأمل ما كتبه الناقد « لوقيانوس »[1] فى مديح « ديمونا كس »[2] أحد

---

(١) Epictète, *Manuel*, 49 ; *Entretiens*, I, 4, 6 sqq.

(٢) كان سنكا يزدرى علم المنطق كما يقول فى كتابه : « المسائل الطبيعية » (nat. quaest IV,6,1)

(١) « لوقيانوس » (Lucien) كاتب يونانى من كتاب القرن الثانى الميلادى ولد فى سوريا ومات على الأرجح فى مصر . ألف كتباً عدة فى شئون كثيرة منها « محاورات الموتى » و « كيف يكتب التاريخ » و « الحكيم » . واشتهر أسلوبه بالطلاوة ونقده باللباقة وتفكيره بالتشكك .

(٢) « ديمونا كس » (Démonax) فيلسوف أخلاق عاش فى عصر الأمبراطور « مرقس أوريليوس » ويروى من « ديمونا كس » حكم كثيرة منها : « من شأن الإنسان أن يخطىء ومن شأن الحكيم أن يعفو عن الخطأ » ومنها « ما أنقصت مظالمك فقد أضفته إلى فضائلك » .

بين المسموع والمقروء

عروس يُذبح في صبيحة عرسه

اليوم الخميس .

والساعة بعد العاشرة مساء .

وقد استمعت توًّا المذيع الإنجليزي يذيع على الملأ نتيجة الانتخابات البريطانية .

ولست أدري ما سبب همي لهذه الانتخابات . بل لست أدري ما همّ الناس بها ، فلستُ وحدي المهموم بها . بل لا أحسب أحداً تابع التاريخ البريطاني ، وتابع الحرب وسنيها الطوال لا يخفق قلبه عند استماعه لنتيجة قد يتبدل من جرّائها أناس عرف اسمهم في حكم انجلترا طويلاً ، وسمع أصواتهم على المذياع طويلاً ، ورأى صورهم على الشاشة عشرات المرّات وقد تقول مئاتها .

وقد يكون هذا الهم لمجرد حال مألوف بحُبول ، أو قد يكون من بعض الفضول ، كفضول المتفرج بالسباق ، يشرئبّ بعنقه نحو الجياد وقد احترّ الشوط وتقاربت الأعناق . ولكني أحسب فوق هذا أنه همّ أدخل من النفس من هذا ، فلعله مرتبط باشتياق مبهم دخيل إلى علم أي اتجاه تتخذ حوادث الدنيا من بعدهذا الانتخاب . ومن ذا الذي لايهتم بحوادث دنياه . إني لأحسب حتى الميت ، لو عاودته اليقظة من بعد اجتياز الحدود ، لاهتم لدنياه ، وحوادث دنياه ، اهتمام رجل الدنيا بأخبار بلد خلّف .

إن الدنيا تحكمها اليوم أمم ثلاث أو أربعا ، وقد تستدعي الحاجة إلى جعلها خمساً . ومستقبل العالم يتشكل في هذه الأيام التي نكتب فيها ، ويشكله ، لا أمم ثلاث ، ولكن رجال ثلاثة ، أحدهم هذا الذي انتخبته أو تنتخبه إنجلترا ليكون رئيس وزرائها . فاهتمام الناس بانتخابات إنجلترا اهتمام باختيار الرجل الذي سيقع على عاتقه ثلث هذه التبعة وإنها لتبعة تنوء من بعضها الجبال .

وهَدَرَ المذيع بنبئه ، فما الذي قال ؟

قال إنه لأول مرّة يكسب حزب العمال الانتخاب كسبا لاشبهة فيه . فقد زاد عدد نوابه ، ونقص عدد النواب المحافظين ، حتى صار أولئك ضعف هؤلاء ، وإنه لن يمضي أربع وعشرون ساعة حتى يكون الملك قد استدعى

أولئك الناصحين . قال عنه : لم يستحثه أحد على تعلم الفلسفة بل أقبل عليها منذ طفولته ، وعن رغبة صادقة وميل فطري حقر من شأن المال ، وعكف على الحياة الحرة الخالصة ، فعاش فاضلا لاعيب فيه ولا لوم عليه . ما شكا الناس منه قط شدة ولا حدة ، بل كان أبداً كريم الخلق ، رقيق العشرة يزكه جليسه والصدر منشرح والقلب مطمئن والنفس مملوءة بالرجاء في المستقبل . مارآه الناس يوما مغضبا ولا صارخا ، فاذا كان لابد من الملامة وجهها إلى الغلطة نفسها لا إلى من غلط ، محتذيا في ذلك حذو الأطباء الذين يعالجون الداء وليس في قلوبهم على المرضى حقد ولا موجدة . كان يعد الخطيئة من شأن البشر ، وليس من حق أحد أن يتصدى لتقويم أخطاء الناس وزلاتهم ، اللهم إلا أن يكون إلها أو رسولا من عند الله .

وكان يحاول إصلاح ذات البين ويدعو إلى السلام . توجه يوما إلى الشعب الثائر وحضه على أن يسلم نفسه لإرادة الوطن . وعلى هـذا النحو كان يتفلسف فكانت فلسفته وادعة وكان فيها أنس واعتدال(١) .

هذا الوصف الجميل واضح الدلالة . فقد كان لفلاسفة الرواق في ذلك الزمان من الفضائل الشخصية والسيرة الطيبة ما اتخذه الناس قدوة ومثالا ، فكان يرجع إلى الفلاسفة في مهام الأمور ، خاصها وعامها . وكان يلقي إليهم زمام الضمير يفحصونه ويوجهونه ، وكانوا حقا معلمين ومرشدين .

عثمان أمين

---

(١) E. Bréhier, *Du sage antique au citoyen moderne*. Paris 1921. p. 23-25

زعيم العمال ، المستر أتلي ، لترأس الوزارة . وترأس الوزارة في انجلترا معناه تزعم الأمة إلى حين .

إذاً لقد مضى تشرشل . إذاً لقد هوى الرجل الضخم الذي حمل التبعة في أشد أيام أمته حلوكة في التاريخ . وهوى وهو في القمة من مجده وعلى غير انتظار . وهوى بعد أيام من دخوله العاصمة الألمانية واستعراضه الجيش استعراض البطل المنتصر . وهوى وهو أحد الثلاثة الذين قلنا إنهم يصورون صورة العالم في قادم أيامه ، برضا العالم أو افتئاتا عليه . وهوى بعد أن صار الذي فمل صُورة مسطورة في كل قلب ، وصار اسمه على كل لسان ، على اختلاف الألسن واختلاف البيان .

فما الذي جرى حتى أنزلوا الزعيم الفارس من فوق فرسه ؟

ما الذي جرى حتى ذبحوا العروس المتشوق في صبيحة عرسه ؟

أكان هذا عن تغيّر قلب ؟ أكان هذا عن إبدال كراهة بحب ؟ أكان عن تقدير واحترام ثم نزل الرجل بين قومه قدرا وحرمة ، وحدث هذا بين عشية وضحاها ؟

الحق أن الرجل لا يزال يستمتع من أهله بالشكر اعترافا بالجميل الذي لا يسديه إلا الرجال القليلون ، في الأجيال القليلة ، في الساعات النادرة ، إلى أممهم . والرجل اليوم إذا طلب المال لتدفق إليه المال من خصومه ومناصريه على السواء . وهو إذا طلب الألقاب ، وكان ممن يشتاق الألقاب ، لأعطىَ قبل أن ينطق اللقبَ الأعلى إجماعاً ، وأعطِىَ من الأوسمة أشدها التماعا .

ولكن القوم هناك فرّقوا — وهم أعرق الأمم تدربا على الحكم ، وأفهم الأمم للسياسة ، وأقل الأمم اندفاعا وراء عاطفة — فرقوا بين زعيم حرب وزعيم سلم ، وعرفوا أن من يصلح للحرب قد لا يصلح للسلم ، وأن مزاجا يلبس الرجل في الحرب فيكون منه اندفاع واقتحام ، وتهييج وتهريج ، وفر من بعد كر ، وكر من بعد فر ، مزاج غير صالح إذا ما ذهبت غمة الحرب وأصبح صباح السلم يبشر بالراحة المرجوة في وئام بين الأمم ووفاق . وأمزجة الأنفس لا تخلع وتلبس في سهولة كما تلبس وتخلع ثياب الأجسام .

وعدا هذا فالرجل الفخم نحا في أقواله ، وجرى في أعماله ، من بعد السلام النسبي ، منحى ومجرى زاد شكوك الناس في أن زعيم الحرب يصلح أيضا لأن يكون زعيم السلم .

فما انفرط عقد الحكومة الائتلافية حتى ترَدّى تشرشل ثياب الحزبية . وكان له بصفته رئيس الوزراء القائم أن يسبق إلى المذياع يذيع على الأمة برنامجه . فدهشت الأمة من تلك الحملة الماكرة الجائرة التي حملها على رجال حزب العمال وهم الذين حملوا معه في الأمس القريب بعض أعباء الحرب ، ولهم فضل في الغلبة كما له فضل ! حمل عليهم حملة شعواء لم يكن ليحملها إلا غريب عن أمته . وقد أسماهم دكتاتوريين ، وسماهم أوكاد نازيين ، بل سماهم أوكاد بلاشفة ، وهو يعلم أن مقدرات إنجلترا لم تكن قد انقسمت بعد عن مقدرات البلاشفة . وزعم أن العمال لن ينجوا في الحكم إلى إذا استخدموا الجستابو أداة للحكم وإخضاعا للناس .

لقد نزل تشرشل في هذه الحملة إلى منزلة لا نعرفها الا في مصر ، وفي بلاد البحر الأبيض المتوسط . ولكنها غريبة كل الغرابة على شعب بجبلّته هادىء ، بطبعه بارد ، يحب الرياضة ويُجِلّ فيها النصَفة والعدل ، ويمقت التجني في حدود بلاده ، ويمقت المغالاة في غير صدق .

لقد نزل تشرشل الميدان الانتخابي ، بنفس المزاج الذي صاحبه في الميدان الحربي ، فقال عن قومه قولا شبيها بالذي كان يقوله عن الألمان واليابان وهو آمن . ونسي أن موقع القوارص في الأذن الانجليزية غير واحد . ونسي أنه إذ كان يقول بالأمس ، كان يقول وهو زعيم أمة وزعيم الأحزاب جميعا ، والرجل الذي ألقى إليه الناس من كل لون قيادهم ضمانا لبذل أكبر مجهود للحرب . أما وقد انفرط عقد الحكم المؤتلف فقد صار رئيس حزب . ونسي أن الناس إذا أكبروا تشرشل رجل الأمة وبطلها ولسانها

انصرفوا عن تشرشل رجل الحزب ونَبّاحه .

وحذّر العمال الأمة ، عند بدء الحملة الانتخابية ، مما دبر عليه حزب المحافظين من تدبير الحيل ، ونصب الفخاخ ، للساعة الأخيرة من الانتخاب ، إذ يطلقون على الناس أكذوبة تضرّ بالحزب المضيم ولا تعطى له الفرصة في الرد قبل وصول الناخبين إلى الصناديق .

حدث هذا في الخطاب الشهير ونحن بإنجلترا ، خطاب زينوفيف ، فقد كان المحافظون وقعوا على كتاب لروسى من زعماء الشيوعية إلى أحد نواب العمال بإنجلترا يستحثه على البذل للاشتراكية والشيوعية فاحتفظ المحافظون بهذا الخطاب الشخصى سرًّا ، حتى جاءت عشية الانتخاب الأخير ، فأطلقوا صوره إلى الجرائد ، فأراع الناس إراعة كبيرة ، فذهبوا إلى الصناديق فصوّتوا ضد العمال ، فكانت هزيمة ماحقة . ولم يكن يدرى العمال عن هذا الخطاب شيئا . وكان لابد لهم من التحرى للرد ، ولكن أين لهم الرد والمحافظون لم يمكنوهم من وقت لذلك .

حذّر العمال الأمة من تلك الأفاعيل . وصدق تحذيرهم . فقد قال الأستاذ لاسكى ، رئيس الجمعية العمومية لحزب العمال ، قولا عن مسئولية وزراء الحزب للحزب . فما أسرع ما التقط حزب المحافظين هذه السقطة اللسانية واتخذوا منها موضوعا لحملة . وفسر العمال ، وفسر لاسكى ، ما الذى كان يعنى بما كان جديرا أن يقنع الخصماء . ولكنهم لجوا . والشعب التنور يكره اللجاج . والشعب المتنور يكره من يحاول نقل الخصومة من الموضوع إلى الشكل ، ومن الخطير إلى التافه ، بغية النصرة بأى سلاح . وظن القوم أن المسألة هدأت ، فاذا تشرشل ، في اللحظة الأخيرة يعود إلى الموضوع ، ويرسل بخطاب فيه إلى زعيم العمال ، أتلى ، فيصل الخطاب إلى الجرائد قبل أن يصل إلى الزعيم وقبل أن يستطيع أن يرفق الرد بالخطاب ، فيرفق التهمة بالدفاع عنها عندما تصل في الصحف إلى أيدى الناس .

وعدا هذا ، فان تشرشل ، في حملته على العمال ، حمل على أمة صديقة عظيمة شريكة له في السلاح ، فنفى عنها صفة الديمقراطية ، وهو اللقب العزيز بين الأحبة هذه الأيام ، فناوأ هذه الأمة الحلوفة العداء . نعم إنه لم يصرح باسمها ، ولكنه لمح تلميحا كتصريح ، فكان أول من فهم تلميحته الكتب الأوروبى الحبيس . فشاعت من بعد ذلك الشائعات أنه لا بد من حرب جديدة يوقدها تشرشل هذه المرة . واتهمه بذلك خصومه ، وهو الذى أعطاهم ملك الاتهام ، فخاف الناس من حرب قادمة وهم لم يصحوا بعد من تلك الحرب القائمة .

وعدا هذا وهذا ، فقد ازداد سلطان هذا الرجل البطل زيادة خشى منه الحس الانجليزى الصميم ، وهو حس في السياسة صادق ، أن ينقلب البطل دكتاتورا بحكم الطبيعة الانسانية ، وبحكم الظروف . والمعروف عنهم أنهم دائما يقلمون أظفار النسر والباز إذا هو فرغ من الصيد، ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه

تصيّده الضرغام فيمن تصيّدا

فهذا تعليق عابر على ما كان من الانتخابات البريطانية

وتعليقة أخرى : هى أن نصرة العمال وهزيمة المحافظين صحبهما اختفاء الأحزاب الأخرى ، أو مايقارب اختفاءهم . ومغزى هذا جدير بالنظر . فمعناه أن بريطانيا تعود إلى نظامها التقليدى من قيام حزبين يتداولان الحكم ، وأنها تكره أسلوب القارة الأوروبية الذى يقضى بتعدد الأحزاب فيقضى هذا بقلقلة الحكم وضياع استقراره . ولعلنا نحن المصريين قد عرفنا الآن من التجارب المرة كيف أن ربط الابل الكثيرة المختلفة في الحبل الواحد يؤدى إلى اختلال السير واختباله ، والذهاب بالقافلة إلى غير بعيد .

وسؤال يسأله المصرى : وماموقع مصر من هذا التبديل.

والجواب الذى يجب أن يعرفه كل مصرى : لا شيء ووجب أن لا يكون شيء . وإن أمة لا تجد لنفسها أملا في الخلاص إلا التملص من بين أهواء الأمم وأهواء أحزابها أمة لم تخلق للبقاء .

أحمد زكى

التنظيم الدولى والتعمير

مشكلات مابعد الحرب متعددة ومتشعبة النواحى. تأتى فى مقدمتها مشكلة التنظيم الدولى من حيث علاقة الدول بعضها ببعض وتقرير مصيرها ، ومشكلة تعمير البلاد التى أتت عليها الحرب بالتدمير والتخريب وشلت أداتها الصناعية وتركت أهلها تسودهم الفوضى والاضطراب . وثمة مشاكل أخرى كمشكلة الإنتاج والتجارة والعمل والنقل والسكنى والصحة والتعليم والزراعة والتنظيم المالى ، مما لا يتسع المجال هنا للتعرض لها . وسنكتفى هنا ببحث المشكلتين اللتين تتصلان بأمن العالم وسلامته ، وترتبطان بهما ارتباطاً وثيقاً ، ويتوقف على نتيجة حلهما مستقبل العالم الجديد .

التنظيم الدولى :

قامت دول المحور — قبل نشوب هذه الحرب — تندد بسياسة الدول « المالكة » واستئثارها بالجانب الأكبر من المستعمرات والمواد الأولية بينما تعانى الدول الأخرى نقصاً فى هذه المواد وزيادة فى عدد السكان وتنادى بوجوب إفساح المجال أمامها والتخلى لها عن بعض المستعمرات لتجد فيها متنفساً للفائض من سكانها وموارد تمدها بما تحتاج إليه .

والآن نرى الدول الكبرى مستميتة فى الابقاء على مستعمراتها القديمة ، ودولا أخرى كانت أبعد ما تكون عن سياسة الاستعمار تغير خطتها وتسعى للحصول على مستعمرات جديدة .

وقد دلت الاحصائيات التى عملت قبل الحرب على بطلان الحجج التى تتذرع بها الدول لتبرير سياستها الاستعمارية ، إذ أثبتت أن نصيب المستعمرات من الانتاج المتداول فى التجارة العالمية لا يتجاوز ٣ ٪ من مجموعها ، وأن المستعمرات لا تكون أكثر من ١٢ ٪ من أسواق العالم ، وأنه إذا استثنينا إنتاج المطاط وزيت النخيل وكميات محدودة من الفوسفات والكاكاو والدخان ، فان الدول الكبرى تقوم بالنصيب الأوفى من الإنتاج العالمى . أما عن مسألة السكان فلا يتجاوز عدد مايعيش من الجنس الأبيض فى المستعمرات مقدار ٨ و ٥ ٪ من مجموع سكان العالم . وهذه النسب تظهر لنا ضآلة الدور الذى تلعبه هذه المستعمرات فى حل مشكلتى المواد الأولية والسكان وتدحض الأسانيد التى يبنون عليها نظرياتهم .

وننتقل من مشكلة المستعمرات إلى التحدث عن اتجاه آخر تنحوه الدول الكبرى فى سياستها تجاه الدول الصغرى ، والذى يتمثل فيما يقوم به أقطاب هذه الدول من مناورات سياسية مكشوفة أو « هجوم سلمى » كما يسميه البعض ، لبسط نفوذهم وسيادتهم إلى أقصى حد مستطاع ، وتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ وتقوية سلطان دولهم على حساب الدول الصغيرة . ويبرر ا . ه كار . فى مؤلفه الكبير « دعائم السلم » هذه السياسة بقوله : « إنه لا يمكن للدول الصغيرة أن تحتفظ باستقلالها مادامت معتمدة على الدول الكبرى سياسيا واقتصاديا وما دامت عاجزة عن الوقوف بمفردها ، إذ لا حياة لها إلا مرتبطة بهذه الدول » . ونرد على هذا الزعم فنقول إن العالم الذى يكتب له البقاء فى سلم وأمان — والذى ننشده جميعا — يقوم على المساواة بين الدول وعلى احترام حريتها واستقلالها خالصا من شوائب الطمع الذى يتجسم فى عالم الاستعمار الذى نتحدث عنه . وما الاضطرابات التى تعم أمم شمال أفريقيا ، ومسألتا سوريا ولبنان ، والأمانى الجياشة التى تملأ صدور أمم العالم العربى أجمع ونزعتها إلى التخلص من كل ما يقيد من حريتها واستقلالها ، وهو ما نلمسه جليا اليوم فيما تنادى به من مطالب قومية ، إلا دليل على سوء تقدير الرجعيين من الساسة والمفكرين ، وإن عليهم أن يقدروا مالهذه الحركات من أثر فى توجيه الشعوب وما لها من قوة فعالة فى تقرير مصيرها .

والمتتبع للحركات الوطنية يجد أنها قد بدأت فى القرن الخامس عشر تنتشر بين دول غرب أوربا واستمرت حتى

القرن الثامن عشر . وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين غمرت هــذه الحركات دول أوربا الوسطى والشرقية ، ومن ثم أخذت تمتد إلى آسيا وأفريقيا ويجمع المؤرخون على أن هــذه الحركات هى أقوى عوامل تتحكم فى مصير الدول ، وأن إفساح المجال لها وتشجيعها هو خير وسيلة لحل ما يواجه العالم من أزمات ولضمان استقرار الأمن والسلام ، كما يجمعون على أن النظام الامبراطورى نظام رجعى آيل وذهب بلا رجعة ، وستقوم على أنقاضه هذه الدول الفتية الناشئة . وهذا ماسيحققه المستقبل .

التعمير :

تأتى بعد ذلك مشكلة التعمير . وقد علمنا التاريخ أن الأمم القوية على الرغم مما ينزل بها من هزائم حربية لابد وأن تنهض من كبوتها وتسترد مكانتها ، وهذا ماسيجلوه المستقبل بصدد الدول التى منيت بالهزيمة فى هذه الحرب .

وعلى ذلك فلا بد أن يكون أمر تعمير هــذه الدول موضع دراسات عاجلة .

والمسألة إذاً هى : إلى أى حد يسمح للدول المهزومة أن تسترجع مكانتها فى شتى مناحى العمران ؟ وما القيود التى تفرض عليها حتى تبعث كقوة محبة للسلم عاملة له مساهمة فى تدعيم بنيانه ، لا كقوة تهدد العالم وتعكر صفو السلام ؟ ولعل أهم المسائل التى تحتاج إلى البحث فى هذا الموضوع هى مسألة تنظيم الإنتاج الصناعى فى هذه البلاد على نحو يكفل إنتاجا يعين الأمم على تنفيذ منهاج الاصلاح الذى ترسمه للعالم الجديد . ويذهب المشتغلون بأمر التعمير مذهبين : فينادى فريق بوجوب خمد أنفاس الدول المغلوبة وشل حركتها الصناعية حتى لاتقوم لها قائمة ، وحتى يصبح العالم بمأمن من الويلات التى ينزلها به تفوقها الحربى ، كما يرون وجوب إهمالها وإسقاطها من قائمة الدول التى ستساهم فى تنظيم العالم ، وأن توضع مقاليد أمورها فى أيدى الدول المنتصرة . ويضيفون إلى ذلك أن الدول الغالبة فى مقدورها أن تقوم بتقديم كل ما تتطلبه شؤون التعمير من مختلف ضروب الانتاج .

ويرى الفريق الآخر أن ما يقترحه أصحاب الرأى الأول من شل لحركة الانتاج الصناعى فى البلاد المغلوبة ينطوى على كارثة تهدد العالم من جديد . فالأمم المنتصرة مهما بذلت من جهد فلن تستطيع ملاحقة مايتطلبه التعمير من إنتاج سريع متواصل . وهب أنها وفقت فى ذلك فما مصير الملايين من سكان البلاد المغلوبة ، ووجود مثل هذا العدد من العاطلين يخلق مشكلة جديدة تتطلب حلا جديدا . وإذا ارتضت بعض الدول الغالبة أن تنخرم فى أعمال التعمير فيهـا ، فلن ترتضيه دول أخرى يهمها أن يبقى توازن القوى قائما ، إذ فى تشتيت أهلها على هــذه الصورة نهاية لوجودها كدولة يمكن أن تبعث كقوة يصح الاعتماد عليها فى المستقبل .

ويرى هــذا الفريق أن البعث الصناعى لهذه الدول أمر مفروغ منــه ، ولكن لضمان الوصول إلى النتيجة المنشودة يجب وضع الانتاج الصناعى تحت رقابة دقيقة ومنظمة ، ويرى جيمس كونانت مدير جامعــة هارفرد بأمريكا أن أمر هذه الرقابة يجب أن يعهد به إلى لجنة دولية يكون أعضاؤها على أعظم جانب من الدراية والأمانة تتناسب والمهمة الملقاة على عاتقهم . كما أن مثل هذه اللجنة إذا أدت عملها على الوجه الأكمل كانت أجدى للعالم من قوة دولية تحميه بقوة السلاح . ويقترح فريق أكثر حرصاً وضع مصادر القوى اللازمة لتسيير الصناعة خارج حدود هــذه البلاد ، فإذا أسىء استعمالها كان من السهل قطع هذه القوى عنها وإيقافها .

هذا عرض خاطف لمشكلتين ستواجهان العالم عقب انتهاء الحرب مباشرة ، وإنا لنرجو أن يوفق أقطاب الدول لأخذها بأوفق الحلول حرصاً على سلامة العالم ورفاهيته . أما إذا ركبوا رءوسهم واتبعوا أهواءهم وأطماعهم فسيجرون العالم إلى حرب ثالثة هو فى غنى عنها .

محمد شافعى الجوهرى

خداع...؟

أتلك حياةٌ قد تَطيبُ لإنسانِ
وذلك عمرٌ قد تناهبَ وجدانى ؟

خسرتُ شبابى وهو سرٌّ تَنَقّلتْ
به النفسُ تَختالُ فى غياهب أزمان

فضِعتُ وضاعتْ فى الحياة مشاعرٌ
تسامتْ بروحى ثم آبتْ بِشُكران !

فمالىَ أمسٌ أرتجيه ولا غدٌ
ومالىَ ذخرٌ أرتضيه بإحسان

حَمَلتْ لىَ الماضى خواءً وضلة
وأوّتُ بيومى فى شكوك وبهتان

دَفنتُ بقلبى الحبَّ والشعر والمنى
وعدتُ كقبرٍ قد تَهدّم أركانُ أحزان

وعدت كقبرٍ يخشعُ الظلُّ حوله
لأحيا به وهما كأطياف وسْنان

وعدت كقبرٍ قد تناثر بينه
رُفاتُ شباب لم يجدْ غير أكفان

يُفزّعه هولُ الفناء فما يَرَى
سوى الصبر ينجى من غوائل أشجان

له العشْقُ تُجثوَى فى مُصلّى تقدّستْ
عِبادَته واطّهّرتْ فيه ألحانى

تمرُّ به الأيام حَيْرَى كأنّها
قوافلُ ضلّت فى مخارِف وديان ؟

وتهفو له الأحلام حَسْرى كأنها
لما فيه من هُون العذاب كقربان ؟

فيصرعها منه ابتئاس وكربة
فتغدو مواتاً لم تمتع بأغصان ؟

تموت وتحيا وحشة تبعث الصدى
ينوح ويبكى كالغريب بأوطان ؟

ينوح وقد ألفته عندى نمامة
تطوّفُ حولى كى تقوض أركانى

فياويلتا للقلب قد كان جذوة
يحور رماداً بعد ثورة بركان ؟

كأنى لم أخلق ولم أكُ واهباً
حياتى أمناً للطليح وللعانى

كأنى لم أبعثْ كنور ترسلت
أشعته تهدى السلامَ لحيران

كأنى لم أبسط لنفسى نوازعاً
تناجى ملاكى لا تراود شيطانى

كأنّ انطلاق بالمشاعر لم يكنْ
تسلسلَ ينبوعاً ليخصب شطآنى ؟

كأنى لم ألق الوجود حقيقة
تجلت لفكرى فى صحائف أكوان

كأنّ شكٌّ زلزلَ الفكر عصفه
فظلّ صديعاً لم يُدعمْ بإيمان

كأنّ ملهاةٌ بكفّ مقادرٍ
تحوّرنى إفكا كدُمية أوثانٍ ؟

كأنّ حياتى لم تكن غير خدعة
ولم تكُ إلاّ كالسراب لظمآن ؟

بعثتُ بها شعرى فضلّ كأنّهُ
أساطيرُ تُتلى من تمائم رهبان ؟

وغرّرَ بى عُمْراً فأسلمتُ فكرتى
إليه فتماشتْ فى قيود وأرسانِ

وألقى كأوراق الخريف خواطرى
تحاتتْ هشيماً لا أزاهر فنان !

محمد أحمد كرام

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٤٥ | الثلاثاء ٢٩ من شعبان سنة ١٣٦٤ — ٧ من أغسطس سنة ١٩٤٥ | السنة السابعة

فهرس العـــــدد

على هامش الحوادث :

نتائج الانتخـــابات البريطانية

يعتبر نجاح العمال في تولي الحكم ببريطانيا حادثاً عظيم الأهمية ، بل يذهب البعض إلى أنه يعد بداية انقلاب خطير بعيد الأثر في بريطانيا وفي الأمم الأخرى . ولسنا بصدد دراسة الأسباب التي أدت إلى فوز العمال وفشل المحافظين وإلى دلالة ذلك ، وإنما يعنينا أن نستعرض ما ينتظر أن يكون لهذا التغيير من نتائج .

فأما ما ينتظر أن يكون لهذا التغيير من الأثر في داخل انجلترا فهو زيادة العناية بالشئون الداخلية وأهمها بناء المساكن وتعمير ما خربته الحرب من المؤسسات والمصانع ، ويرجح أن توضع بعض الآراء الاشتراكية موضع التنفيذ كاستيلاء الحكومة على المناجم والشركات الكبرى التي تتناول المرافق العامة كالمواصلات .

ومن سبق الحوادث التكهن بمدى هذه التغييرات ، ولكن مما لا شك فيه أن الديمقراطية الانجليزية ستصطبغ بصبغة اشتراكية قد تكون لها نتائج اجتماعية بعيدة الأثر . ولا نتوقع أن تخطو الحكومة في سياستها الاشتراكية خطوات شديدة التطرف ، فلا يزال في البرلمان معارضة قوية تضم طائفة ممتازة من السياسيين المحافظين الذين قد يعوضون بنشاطهم وخبرتهم عما ينقصهم من الكثرة العددية ، وسيكون لهم دور خطير في الحد من النزعات المتطرفة ، وسيساعد على ذلك المزاج الانجليزي المعتدل الذي يميل إلى التدرج الهادئ ، وينفر من الانقلابات المتطرفة .

أما نتائج هذا التغيير في خارج انجلترا فمن الجلي أن الحكومة الاشتراكية ستكون أقرب مودة للاتحاد السوفيتي ، وقد يساعد ذلك على إزالة المخاوف وتصفية الجو بين الحليفتين الكبيرتين . ومما لا شك فيه أن حسن تفاهم هاتين الدولتين وقيام العلاقات بينهما على أساس الثقة والمودة من أكبر العوامل في الاستقرار الدولي وتحقيق سلام عالمي طويل الأجل .

ويظن أن قيام حكومة اشتراكية في بريطانيا سيغلب النزعات الاشتراكية في الأمم التي كانت تتأرجح بين الاشتراكية والملكية كاليونان ويوغسلافيا وإيطاليا

وبلجيكا ، كما يعجل قيام النظام الاشتراكي في غيرها من الدول كفرنسا .

ويتوقع الكثيرون أن تكون بريطانيا في تناولها المشاكل الدولية أقل تأثراً بالنزعة الاستعمارية وأصح إدراكاً لحقوق الشعوب ، وهم لهذا يرجون أن تنال الهند قسطاً أوسع من الحرية والاستقلال وتظفر المستعمرات بتحسين في وضعها تتمتع معه بكثير من مزايا الحكم الذاتي .

ويرجى أن يكون تدخل الحكومة الإنجليزية في الشئون الخاصة للدول المتصلة بها أو الواقعة تحت نفوذها في أضيق الدوائر ، ويكون أساس سياستها قيام العلاقات بينها وبين غيرها على المودة والتفاهم والتعاون وتبادل المصالح لا على أساس الأثرة وفرض رغباتها الخاصة بالقوة والتهديد .

هذا ما يذهب إليه المتفائلون . أما المتشائمون فيقيسون الحاضر بالماضي ويقررون أن الأحزاب الانجليزية قد تختلف آراؤها ونزعاتها الاصلاحية في شئونها الداخلية ، ولكنها في الأمور الخارجية لا تكاد تختلف ، بل لعل الاشتراكيين أحرص الناس على ألا يرى مواطنوهم فيهم أي تقصير في المحافظة على أمبراطوريتهم الواسعة وسلطانها على الشعوب ، وهم لذلك ينحون في سياستهم الخارجية نحو المحافظين ويعالجون الأمور الخارجية كما كان يعالجها المحافظون بروحهم الاستعمارية المعروفة . ولا نتفاءل مع المتفائلين أو نتشاءم مع المتشائمين ، بل نرجح أن تمتع الحكومة الاشتراكية بالغلبة سيجعلها أكثر حرية في العمل وأقل تأثراً بنظريات المحافظين

بقي أن نشير إلى ما يظن أن يكون مسلك حكومة العمال في ثلاث مسائل شديدة الاتصال بنا ، وهي مسلكها في مشكلة فلسطين ومسلكها في أمر تعديل المعاهدة المصرية والمعاهدة العراقية . ومسلكها في علاقات فرنسا بسوريا ولبنان

فأما مشكلة فلسطين فقد كان ميل حزب العمال ظاهراً في العطف على اليهود والمطالبة بفتح أبواب فلسطين لمهاجريهم . ونعتقد أن الحكومة حين تعالج هذه المشكلة لن تتقيد بهذه العبارات العامة التي تردد أثناء الانتخابات كسباً للأنصار ، ولكنها ستدرس المسألة من كل نواحيها وتقدر العوامل المختلفة والظروف المتعددة المحيطة بها . ونظن أن الرأي الرسمي في مثل تلك الأحوال لن يهتم باليهود ويتجاهل العرب ويستهدف لخطر علاقات المودة القائمة بين إنجلترا والدول العربية الأخرى .

والأمر في النهاية متوقف على نشاط الجامعة العربية وتصميم أمم العرب . ولن ينجح اليهود وأنصارهم في فرض إرادتهم مادام العرب يداً واحدة في الدفاع عن قضيتهم العادلة .

أما تعديل المعاهدة المصرية والمعاهدة العراقية ، فنعتقد أن الظروف الجديدة ستكون أقرب لتحقيق الرغبات العادلة للشعبين العربيين .

فقد ربحت إنجلترا من هذه الحرب القضاء على القوات الفاشية والنازية التي كانت تهدد الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك لم تعد ثمة ضرورة لأن تحتفظ فيهما بقوة احتياطية لدرء أخطار لم يبق لها وجود في هذه الجهات . آن لها أن تستريح من حبس قوات كبيرة ترابط في تلك البلاد . فالمرجح والحالة هذه أن يكون من الميسور تعديل المعاهدتين وإزالة القيود التي تتعارض مع استقلال الشعبين ، وإقامة علاقة جديدة معهما تبنى على الثقة والمودة ، ويراعى فيها ما قدمه الشعبان من عون كريم للحلفاء أثناء الحرب . قد يثير الاستعماريون ورجال الحرب مخاوف جديدة ويخلقون أوهاماً بعيدة يرون الاحتياط لها بما يمس استقلال البلدين ، ولكنا نعتقد أن الخوف والاحتياط هما أساس فساد العلاقات بين الدول وبذر بذور الحرب . وخير للدول الكبرى أن تجرب الثقة وتبعد الخوف وسوء الظن ، ولن تخسر شيئاً بذلك ، فقد دلت الحرب وتجاربها على أن الاحتياط بالنقط الاستراتيجية وحبس القوات في البقاع المتباعدة قليل الجدوى ، وأن العبرة بالقوة الجوية والاستعدادات المركزية ، فهي وحدها الكفيل بالنصر الأخير .

بقيت مسألة سوريا ولبنان وعلاقتهما بفرنسا ، ومع أننا نتوقع أن تكون حكومة العمال أحسن علاقة بفرنسا فاننا نعتقد أن موقف سوريا ولبنان قد أصبح من القوة والوضوح بحيث لا تستطيع إنجلترا بل لا تستطيع فرنسا أن تغير مما انتهى إليه الأمر فيهما . (...)

حول مشاهد الصيف :

المتناقضات

تغيبت عن القاهرة نحو عشرة أيام فقط شاهدت في خلالها مناظر متباينة إلى حد لم أره في أي جزء آخر من أجزاء العالم ، حقا أنه لا شك في وجود فروق بين المناطق المتباعدة من قطر واحد ، لكنها في العادة فروق يسيرة ولها ما يبررها ، فمن الطبيعي أن ينتظر الإنسان أن يحس باختلاف بين طبائع أهل الصعيد وأهل الوجه البحري في عاداتهم ولغتهم وميولهم وبعض تفاصيل زيهم . لكن الاختلاف الذي أشير إليه غير هذا .

بدأت من القاهرة وهي ، كما يعرفها كل من رآها ، تحوي أحياء تبدو عليها آثار النعمة والرخاء والسطوة ، وأحياء تنم عن البؤس والفقر والضعف . هي بلد زاخر بالسكان من المصريين والأجانب منهم الغني والفقير والتاجر والصانع والأجير يعيشون كل على شاكلته ، لكن وجودهم في بلد واحد من شأنه أن يحدث شيئا من التقريب يمنع على أقل تقدير ذلك التفاوت الهائل الذي يبهت الإنسان ويصدمه .

وحين يكون الإنسان في المدينة يختار الأمكنة التي يرتادها والدائرة التي يجتمع بأهلها والوسط الذي يلائمه ويسره الاندماج فيه . فإذا ما انتقل إلى الريف تحددت في الحال دائرة اختياره . فأمكنة الاجتماع محدودة والجماعات قليلة معروفة والوسط واحد لا يتغير . قوم قد ضاقت دائرة تفكيرهم وانحصرت الموضوعات التي يتناولها حديثهم ، ثم هم لا يتحدثون في صراحة واعتقاد ، وإنما يتحاشون أحيانا ، ويتملقون أخرى وينافقون في بعض المواقف ويكذبون في البعض الآخر . وقل على أي حال أن يصدروا في أقوالهم وأفعالهم عن وحي القلب ونداء الضمير .

فإذا تأمل الإنسان فيما حوله في الريف راقته الطبيعة ومباهجها ، وإبداع الخالق الذي يتجلى في أشعة الشمس وتدفق مياه النهر ونمو الزرع وهبوب الرياح ومتاع الأمسية وما يحليها من جمال سماوي يتجلى في ضوء القمر في لياليه وزهاء النجوم في الليالي الحالكة . ومن تغريد الطيور وغناء الآدميين بتلك الأصوات العذبة الصافية التي تنبعث في الهواء الطلق بغير تكلف أو تصنع أو تدلل .

وكان المنتظر أن تكون هذه المباهج والمحاسن مبعث سرور واغتباط ومرح دائم ، لكن الواقع غير هذا مع الأسف الشديد ؛ وذلك لأن يد الإنسان حين تتدخل في الطبيعة في ريفنا المصري لا تزيده حسنا على حسنه ولا تضيف إلى مزاياه مزايا أخرى ، بل على العكس تفسد الحياة فيه بما تخلق من عيوب وبما تستحدثه من مساوئ ، وبما تسببه من متاعب وبلايا ومضايقات .

فلننظر أولاً إلى الزراعة وكد الإنسان فيها ، فهذه هي الناحية التي طالما سمعنا ثناءً عليه فيما يخصها وإشادة بصبره ومثابرته . وفي الحق أنه يعمل ويعمل كثيرا في الغيط الذي يمتلكه أو يؤجره بقيمة معتدلة مربحة . لكن عمله يتناول في الكثير الغالب الأعمال المادية الرتيبة . أما النواحي التي تحتاج لتفكير وذكاء وشيء من حسن التصرف فلا نجد له فيها أثرا خيرا يذكر ، بل يغلب عليها مع الأسف أثر الشر .

فالذباب والبعوض ومعظم الآفات الزراعية يرجع الكثير من أسباب تفشيها ونمائها إلى جهله وإهماله وكسله . فإنك لا تستطيع أن تفهمه بأن الماء الراكد مضر وأن عليه من أجل ذلك أن يبذل جهده في منع تجمع الماء في مكان ما وركوده فيه . كما أنك تفشل في حمله على جمع القاذورات في مكان بعيد عن السكن وتغطية ما لا بد من وجوده منها في السكن أو في مكان قريب منه . كذلك يحث أصوات الناصحين عبثاً في المناداة بضرورة الحرص على سلامة مياه الترع مما يلوثها ، ومع ذلك فلم يمتنع القروي عن التبرز على شاطئها ورمي الحيوانات الميتة في وسطها ، مع علمه بأنه سيشرب هو أو غيره من هذا الماء الملوث الضار بل الفتاك .

أرأيت إذاً كيف يحيل سكان القرى والريف هذا الهواء النقي إلى هواء متحمل بالميكروبات والجراثيم والروائح الكريهة ؟ وقس على ذلك سلوكهم فيما يتصل بمعابهم ، فإنهم يجرون فيه على عادتهم المألوفة ، ولا يفكرون في أي تحسين فيها ، بل ولا يقومون بكل ما يجب عليهم من عناية ورعاية ، ولا يسمعون لناصح ولا يأتمرون بأمر صاحب الملك أو موظف الحكومة المنوط به أمر المراقبة والتفتيش وضبط المخالفين .

هذا ما ينغص على الإنسان الحياة في الريف علاوة على المظاهر الأخرى للفقر والمرض والجهل . أما على من تقع المسئولية في ذلك ومن أي طريق يصح أن يخلص الريف من هذه المساوئ فنتجعله موضوع حديث آخر . والآن فلننتقل من هذا الجو الهادئ الساكن الذي يسود الريف إلى ذلك الجو الصاخب المرح الذي يعم المصايف .

سافرت من الريف إلى بورسعيد ثم إلى الاسكندرية ، فكان انتقالا مفاجئا يبهر ويثير التفكير والعجب ، أهؤلاء المصطافون إخوة أولئك الذين خلفتهم ورائي في الريف ؟ هل هذا النشاط والسرور والاستمتاع لقوم هم بنو عم الآخرين؟ حقا أن المدنية والمال والمدنية وآثارها كل هذه تقلب الإنسان وحياته من حال إلى نقيضها وتجعل منه إنسانا آخر لا يمت إلى حاله قبلها بصلة تذكر .

الطبيعة هنا لها صورة من نوع جديد . فهواء البحر وجماله وشمسه وجوه تخالف نظائرها في الريف وهي ممتعة كذلك إلى أقصى حد . ومع ذلك فانا نسائل أنفسنا : هل هؤلاء الذين نراهم على شاطئ البحر في المصايف قد عاونوا الطبيعة وسايروها واستغلوا جمالها وأدوا حقوقها واستمتعوا بها كما ينبغي ؟ الواقع أنه إن كان لنا ما نأخذه على أهل الريف فلنا أيضا ما نلوم عليه هؤلاء المصطافين ، فانا نراهم يقصدون أولاً وقبل كل شيء إلى مجرد التظاهر ، وبعد ذلك يقصدون اللذة الشخصية وإلاّ فكيف نفسر ظاهرتين متفشيتين : الأولى دأب هؤلاء على السير بلباس الحمام في شيء من الزهو والخيلاء والتدلل وعلى صورة تلفت النظر بدلا عن أن يشغلوا أنفسهم بشيء من الرياضة البدنية الحقيقية النافعة يعقبها الحمام الجدي ثم إفساح الطريق لغيرهم حتى لا تزدحم بهم الأماكن هذا الازدحام الخانق المروع الذي يسبب للرأس دواراً ويفسد على الأغلبية لذتها ويحول دون استمتاعها متاعا بريئا .

والظاهرة الثانية أن الكبار شبانا وشيبا مشغولون بملذاتهم الخاصة وأحاديثهم الغرامية وتدبيراتهم التي تتصل بهذا أو ذاك ، مشغولون بذلك كلية عن طائفة من البشر على جانب عظيم من الأهمية كان يجب أن تسخر المصايف كلها من أجلها ، ألا وهي طائفة الأطفال ؛ فهؤلاء متروكون في الأغلبية الساحقة لعناية الخادمات والحاضنات وحدهن ، وما أكثر ما تهمل أفراد هذه الطبقة واجباتهن سعيا منهن أيضا وراء ملذاتهن الخاصة ومتعهن الشخصية :

جلست أرقب جماعة من ذوي اليسار أربع ساعات كاملة رأيت فيها من أفراد الجماعة تصرفات عجيبة من هذه الناحية ، فإنهم جميعا تركوا أولادهم للخادمات إلا من أبى ذلك وأصر على مصاحبة الوالدين ظنا منه أنه سيكون أحسن حالا وأكثر استمتاعا من الفريق الأول ، ولكنه مع الأسف كان أسوأ حالا وأقل استمتاعا ، ثم إن الخادمات أعرضن عمن معهن من الأطفال ، لكن هؤلاء شرعوا يسلون أنفسهم بألعاب وإن خلت من العناية وجلبت بعض الضرر إلا أنها ولا شك أفادتهم بعض الفائدة . أما الآخرون الذين صحبوا والديهم فقد أجلسوا على كراسي أمام الناضد ولم يلتفت لهم أحد وظلوا جامدين طوال الأربع الساعات التي قضيتها أراقب هذه الجماعة ، حتى الطعام لم يقدم لهم منه شيء إلى ما بعد الساعة الثانية بعد الظهر . وقد يتبادر إلى الذهن أن الكبار كانوا أيضا جالسين لكن الواقع أنهم كانوا يجلسون تارة وينزلون إلى البحر أخرى ويتبخترون رجالا وسيدات أمام ذلك الجمع الزاخر المزدحم في القهوة أحيانا ويتفرقون جماعات ، متباعدة أحيانا أخرى ، وتستغرق كل فئة منهم في

الذوق الأدبى

لكل عصر ذوقه ، وهذا الذوق يتحكم فى أدب الأدباء ، من شعراء وكتاب إلى حد بعيد ، فذوق العرب فى الجاهلية غير ذوقهم فى العصر الأموى والعباسى ، وغير ذوقهم اليوم ، ولذلك كان أدبهم مختلفا ، جاء عصر كان الذوق العام لا يستنكر التعبير عن العلاقات الجنسية بأصرح لفظ حتى فى مجالس الخاصة والخلفاء . وذوقنا اليوم يستهجن هذا كل الاستهجان ويتطلب فى التعبير عن هذا الإشارة البعيدة والإيماءة الخفية . وكان الذوق فى العصر الأموى يستنكر من العربى أن يكون صانعاً أو يتصل بالصناع ، ولذلك كان ركن كبير من أركان هجاء جرير للفرزدق أنه قين (حداد) وابن قين ولم يكن آباء الفرزدق حدادين ، ولكن كان لآبائه أرقاء يعملون فى الحدادة . ونرى اليوم بأذواقنا أن هذا الضرب لا يصح أن يكون أساساً للهجاء ، بل نرى الوزراء من العمال يفخرون بصناعتهم فى نشأتهم وشبابهم لأن الذوق اختلف .

ونحن فى قراءتنا للآداب المختلفة لا نقدرها كما يقدرها أهلها ، فنحن لا نقدر روايات شكسبير كما يقدرها الإنجليز ولو فهمناها ، ولا نقدر روايات جوته كما يقدرها الألمان ولو فهمناها ، لأن التقدير يعتمد على الذوق ، والكاتب يراعى هذا الذوق فيما ينتج ، والذوق يختلف ، فالتقدير يختلف .

إن ما نقرأ من الآثار الأدبية لكل عصر هو ظل لذوق هذا العصر وأثر من آثاره ، ونتيجة لتقدير ذوقه للأشياء . حتى مظاهر الأسلوب من ميل إلى السجع أو الترسل والإفراط فى أنواع البديع أو التخفف منها والاستطراد وعدمه ، كل هذا متأثر — إلى حد كبير — بذوق العصر .

ويأتى عصر يغمر فيه الناس موجة دينية فيكون الذوق متأثراً بذلك فيتأثر به الفن والأدب ، ويتلوه عصر يميل فيه الذوق إلى التحرر من الدين والاستمتاع بمباهج الحياة إلى أقصى حد فيتأثر بذلك الأدب ؛ وعلى هذا يمكننا أن نفهم الأدب من روح العصر الذى نشأ فيه ونفهم روح العصر من أدبه ، وعلى هذا يكون تاريخ أدب كل أمة تاريخ ذوقها ، أو بعبارة أخرى تاريخ روح عصورها . انظر إلى أدب أى عصر وتعمق فى النظر إليه تعرف قيم الأشياء فى نظر أهله ، وإذا عرفت القيم عرفت الذوق وكذلك العكس .

وكان الذوق الذى يقوم الأدب ويغدق على أهله هو ذوق القصور ، فانطبع الأدب بهذا الطابع وغلب عليه المديح وما إليه ، ثم حلت المطابع والناشرون محل القصور ، فهى التى تعطى وتكافىء الأديب ، فتحول الأدب إلى ما يوافق ذوق الجمهور ؛ ولهذا لما كان الأدب العربى أدب « قصور » كان محلى بكل أنواع الزينة من جناس وبديع كالطرف تهدى إلى الملوك ، فلما أصبح أدب شعب تحرر من الزينة لحاجات الشعب من مأكل وملبس ومسكن ونحو ذلك .

إنما نستطيع أن نحكم على ذوق الأمة بنظرنا فى مجموعة من صحافتها وكتبها الأدبية الرائجة ، لأن جمهرة الأدباء

أحاديث ذات شجون كما يبدو . كل هذا يجرى ولم يخطر ببال واحد ولا واحدة من هؤلاء العشرة الأشخاص أن يلتفت إلى طفل من الأطفال يسأله حاجته أو يدعوه للاشتراك فى لعبه أو يأخذه إلى البحر . لم يحدث شىء من هذا ، كأنما أراد هؤلاء الكبار أن يعطوا الصغار درسا فى الملل حتى لا يصرّوا بعده على صحبة الكبار ويقنعوا بصحبة الخدم على مضض وعلى ما فيها من سوء وضعة ، لكنها على أى حال كانت تتيح لهم شيئا من الحرية فى الجرى واللعب بدلاً من السكون المفروض عليهم .

خطر لى كل ذلك وأنا أتنقل فى هذه الفترة القليلة بين الريف والمصيف ، فآثرت أن أسجله كبعض خواطر الصيف التى تستحق التسجيل لما فيها من عبرة .

أحمد عبد السلام الكرداني

يقيمون ذوق جمهورهم أكثر مما يرقى القراء إلى ذوق أدبائهم لو ارتفعوا عنهم :

إذا رأيت المهاترات الصحفية تنزل إلى الحضيض في السباب والشتائم والفضائح ورأيت إقبال الجمهور عليها كثيراً وأنها تقابل بالترحيب فاحكم على ذوق الأمة الأدبي بالضعف كما تحكم على الأسرة — التي يتساب أطفالها بكل ألفاظ الهجر على مسمع من آبائهم — بالانحطاط ، لأن الذوق الراقي لا يحب الهجاء الصريح ولا الهجاء العنيف ، إنما أقصى ما يسمح باللمحة الدالة والإشارة المفهمة . ولا أدل على ذلك من النظر إلى حالتنا من ثلاثين سنة أو نحو ذلك ، فكانت جريدة « كالصاعقة » أو « المسامير » أو « حمارة منيتي » تلقى رواجاً كبيراً بين عامة الشعب ، وكلما كانت الجريدة ممعنة في السباب المقذع كانت أكثر رواجاً . وهي لو بعثت اليوم من قبورها أو ظلت في منحاها لم تجد رواجاً لأن ذوق الجمهور ارتقى .

وكذلك لو قارنت الآن بين مجموع الصحف الشرقية والصحف الغربية لم تجد في هذه من المهاترات الشخصية والسباب المقذع ما تجده في بعض الصحف الشرقية ، لأن ذوق الجمهور أرقى ، والصحيفة التي تقع في مثل هذا تجد من اشمئزاز الذوق ما يعيبها . كما تجد أن ظروف الأمم الحاضرة يجب أن تشغلها مصلحتها العامة ومستقبلها الخطير أكثر مما يشغلها أمور شخصية ؛ فإن كانت هذه الأمور الشخصية تمس صالح الجمهور عولجت أمام القضاء في حزم وسرعة ، لا أن تكون شغل الأمة الشاغل أزماناً طويلة .

كذلك إن رأيت مجلات الجمهور إنما تعنى بالمسائل الجنسية أكثر مما تعنى بالناحية الثقافية ، وبالصور الخليعة أكثر مما تعنى بالصور الراقية ، دل هذا على انحطاط الذوق الأدبي للجمهور ، لأن هناك في الحياة أموراً أكثر من نظرة الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل . قد يصح أن يكون هذا شيئاً من الأشياء ، أما أن يكون كل شيء ، أو أهم شيء فدليل على فساد الذوق الأدبي .

تسألني : وما يرقى الذوق الأدبي في الأمة ؟ .

أما في الخاصة فمهاد ترقية الذوق الأدبي هما « الجامعة » و « البرلمان » فهما المثل الذي يحتذى ، فإن رقي ذوقهما يحسن تقويمهما للأشياء . وما يقال وما لا يقال ، وكيف يقال ، وما يفعل وما لا يفعل وكيف يفعل ، فلتنتشر سيرتهما في الجماهير ، فالجامعة نموذج الناشئين ، والبرلمان نموذج الصحفيين والسياسيين . .

إن هؤلاء الجامعيين والبرلمانيين مظنة الثقافة الواسعة والقراءة العميقة والاطلاع الواسع ، والاتصال بذوي الثقافة الراقية والذوق المهذب في العالم المتمدن ، فأحرى بهم أن يقودوا الذوق الأدبي في الأمة .

وأما في الجماهير فويل لنا من الفقر والأمية ، فهما الحجران اللذان يصطدم بهما كل إصلاح . وإن فساد الذوق أكثر ما ينشأ من الفقر والجهل . إن الطفل الذي ربي في بيت قذر ، ووسط قذر ، لا يأنف من قذارة الشوارع ، ولا من قذارة ملابسه ، ولا من قذارة وسطه . فكيف — إذا كبر — نتطلب منه أن يأنف من النكتة القبيحة ، والحكاية القذرة ، والسباب القذر ؟ وإن الأمي الذي لم يقرأ كتاباً ، وكل غذائه الأدبي من أغان وضيعة وحكايات ونوادر وضيعة لا يمكن أن يرقى ذوقه فيأنف من الهجر .

عماد الذوق الفني إدراك الجمال في كل صوره ، من جمال منظر ، وجمال أزهار ، وجمال طبيعة ، وجمال نظافة ، وجمال نظام ، فإذا شاع هذا الإدراك ورقي في البيت والمدرسة والمجتمعات ، أمكننا بخطوة يسيرة أن ندرك بذوقنا جمال المعاني ، فلا نضحك إلا من النادرة المؤدبة ، وننفر من السياسي المهرج ، ومن الصحف السبابة ، ومن كل شيء قبيح مادة أو معنى . وإذا رقي ذوق الجمهور رقيت السياسة ورقي الفن والأدب .

أحمد أمين

بطلان المجـــد

كنت أركب فى مركبة عامة وكان يركب قريبا منى جماعة من الأجانب سمعتهم يتكلمون الإيطالية وهم يضحكون ويتحدث بعضهم إلى بعض أحاديث خالية من الكلفة، وليس عليها مسحة من الحزن. فعجبت أن يكون فى الإيطاليين من يحسون ميلا إلى الضحك، أو من يجدون فى قلوبهم فراغا للسمر العذب أو للأحاديث السهلة الممتعة، وجعلت أستعيد ذكرى الحوادث الحربية والسياسية التى خاضتها إيطاليا فى هذه السنوات الست الماضية، وأصور لنفسى ما كان ينبغى أن يملأ قلب كل إيطالى من الشعور بالحنق وكراهة الحياة، وما زلت أقلب هذه الأفكار حتى كنت أقرب من نهاية رحلتى، ثم حدث بعض ما يحدث أحيانا فى مثل هذه الأحوال فيحمل الجلوس على أن يتبادلوا الأحاديث، فتمهد السبيل إلى شيء من المجاملة بينى وبين هؤلاء الإيطاليين، ثم انطلق الحديث بيننا فشعرت بشيء من الجرأة على أن أسألهم أسئلة تكشف لى عن شيء من خبايا نفوسهم. فما كان أشد عجبى إذ علمت أنهم من صميم الإيطاليين، وأنهم مع ذلك يذكرون الحوادث التى مرت ببلادهم بغير أن يحسوا يأسا أو حنقا، وأنهم يرون أن الحياة هى الحياة رغم كل الهزائم التى أصيبت بها بلادهم!

لقد كان هؤلاء يسمعون زعيمهم موسولينى وهو يخطب فى حماسة يبشر الإيطاليين بسيادة العالم ويدعوهم إلى خوض غمار الحرب فى سبيل العظمة، وكانوا أحيانا تجرفهم الحماسة، وتخلب الألفاظ ألبابهم، ولكنهم كانوا مع ذلك بشرا لا يعبأون بشيء أكثر من الحياة نفسها. فلما أصيبت بلادهم بالهزيمة، وأخلفهم موسولينى ما وعدهم من السلطان والسيادة وطاح ما بشرهم به من المجد والنصر، لم يزد شعورهم على لفتة ساخرة إلى الوراء ثم انصرفوا إلى أنفسهم لا يعبأون بشيء أكثر من الحياة نفسها. وها هم هؤلاء يسمرون ويضحكون ويتحدث بعضهم إلى بعض كأن الحرب لم تفتك بأحد، وكأن الضجة العنيفة التى أثارها موسولينى لم تنته إلى سكون موحش تحف به آثار الدمار من كل جوانبه.

ولقد حملنى هذا الحديث على أن أتأمل أحوال الشعب الألمانى الذى نسمع اليوم عنه ما نسمع من جوع وعرى والذى يصف الواصفون ما يعانى من آلام ومن اضطراب. فهذا الشعب الألمانى اليوم لا يمتنع عن مؤاخاة الشعوب التى قهرته — فقد صدرت الأوامر إلى جنود الحلفاء الغربيين مرة أن يتجنبوا مؤاخاته، ثم صدرت الأوامر أخيرا برفع الحظر وإباحة تلك المؤاخاة. ولا شك أن هذا الحظر الأول، وهذه الإباحة الأخيرة يدلان معا على وجود رغبة التآخى بين الألمان وبين غزاتهم الذين قهروهم. وكيف يكون المنع إذا لم توجد الرغبة؟ ثم كيف تكون الإباحة إذا لم يشعر قواد الجنود بالرغبة فى المؤاخاة؟ إننى لا أكاد أشك فى أن هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه الكلمات تشهد ألوفا من جنود الحلفاء يسيرون جنبا إلى جنب مع فتيات من الألمانيات يبادلونهن التحية والمجاملة أو ما هو أكثر من التحية والمجاملة. ولست أشك فى أنه لن يمضى وقت طويل حتى تعود المودة بين الشعب المقهور وسائر الشعوب التى غلبته ويتبادل الجميع الخدمات، وتعود قافلة الحياة تسير نحو غايتها تضم الجميع.

وإذاً فما الذى دعا إلى كل هذه العاصفة التى اجتاحت الأرض ست سنوات طوال ملأى بالآلام والكوارث وزعت فيها النكبات على الناس توزيعا شاملا وصرفت فيها الأموال والجهود فى سبيل التدمير وإعداد عدة الموت؟ وإذاً فما الذى أثار العداوات وملأ القلوب أحقادا، وأحال الانسانية إلى غابة تعج بالوحوش؟

إذاً هما رجلان سوف تشير إليهما الإنسانية إلى الأبد ببنان الزراية واللوم، وهما هتلر وموسولينى. وأما ملايين الإيطاليين والألمانيين فانهم لا يزيدون ولا ينقصون عن سائر هذه البشرية. لا يعبأون بشيء أكثر مما يعبأون بالحياة.

كان موسولينى يعد الإيطاليين العظمة . فهل كانت تلك العظمة السياسية تفسح لهم ميادين السعادة ؟ وكان هتلر يحرم قومه السعادة فى سبيل إعداد الدبابات والمدافع فهل كان يعوضهم شيئا من تلك السعادة المفقودة إذا هو أخضع بولونيا لحكمه أو فتح بلاد البلقان ؟

لقد دلت تجارب الماضى على أن عظمة الدولة إذا قامت على الفتوح لا تزيد فى سعادة الناس شيئا ، فإن البؤس لم يمتنع عن الروم عندما كانت دولة الرومان تشمل كل أرض العالم المعروف ، وإن الشعب العربى لم يكن خاليا من الشقاء عندما كانت دولة العرب تمتد من أكناف الهند إلى شواطئ الأطلنطيق . وما عظمة الفتوح إلا خدعة من أباطيل الغرور ، وما أحرى الانسانية أن تجعل قبلتها فى الحياة سعادة الأفراد لا تحقيق المجد الزيف القائم على الكبرياء .

كان العالم القديم أكثر حكمة وأقرب إلى الانسانية عندما كانت الدول تفتح أبوابها لتبادل المنافع والخدمات ، فقد كانت الهند تتلقى تجار العرب وتدفع إليهم بهارها ، وكانت شعوب الشمال تأتى بالفراء عند شواطئ الأنهار فتلقيها عليها وتجد الأثمان على الأرض معروضة . فإذا أعجبها تركت فراءها لكى يعود التجار فيحملوها . كان العالم القديم أكثر حكمة حتى أتى الغرب بسياسة جديدة تقصد إلى الاستعمار والإذلال وجعل السيادة مطية للتجارة والصناعة . فمنذ ذلك الحين صارت معاملات الدول قائمة على مبادىء الخداع والقهر والقرصنة ، وصارت الأنانية هى الدافع الأول الذى لا يعرف الاعتدال .

فإذا كانت هتلر وموسولينى قد أوقعا بالعالم تلك الكوارث بغير جدوى ، فإنهم تلامية سياسة الأنانية التى سادت العالم كله منذ عرف الاستعمار .

ولا نحسب هذا العالم يعود إلى الاستقرار أو يعرف السعادة إلا إذا شكلت سياسة الدول الكبرى تشكيلا جديدا أساسه فتح الأبواب وتبادل الخدمات .

لقد آن للانسانية أن تعرف أن سياسة الأحقاد التى أثارها هتلر وموسولينى إنما هى سياسة مجد باطل وكبرياء شوهاء . لقد آن لنا أن نعرف أن سعادة الأمم لا تستلزم بسط سلطان الجيوش على أطراف الأرض ، فإن الملايين قد تسعد بغير المجد الحربى وقد تشقى تلك الملايين فى ظل المجد الزيف وسلطان الدولة الخداع . وما جدوى سلطان الجيوش إذا كانت الملايين تشقى تحت جناحيه ولا يجنى منه الفائدة إلا أفراد من أصحاب الكبرياء ؟

هؤلاء هم ساسة الدول يجتمعون فى مكان بعد مكان يلتمسون الحلول ويحاولون تسوية الأمور بغية الخلاص من الكروب والويلات ، وما أجدرهم بأن يفكروا فى أمر واحد لو استطاعوه لكان فيه حل لكل المشكلات . وذلك أن يفتحوا أبواب بلادهم على مصراعيها للجميع ويجعلوا الشعوب جميعاً من سيادتهم فلا يبقى بين الأمم رباط إلا تبادل المنافع والخدمات . فمن عنده العلم أفاد به ومن عنده الزرع جعله وقفاً على الجميع ومن كانت فى أرضه الخيرات بذلها لكل من استطاع أن يجنى منها خيراً . كل يعطى نظير ما يأخذ ، ويأخذ نظير ما يعطى . ولو توخى الساسة العدالة فى تقدير قيم الأشياء ، وجعلوا تبادل المنافع هو قصد مؤتمراتهم لأغناهم ذلك عن كثير من المحاورات .

وما دامت سياسة الاستعمار والسيادة قائمة فلن يعدم العالم هتلر بعد هتلر وموسولينى بعد موسولينى وإن تطاولت على الخلف الآماد .

لقد خلق الله الأرض وجعلها مباءة للحياة . والإنسان اليوم قيم فى هذه الأرض ، والخيرات فيها مشاعة للجميع ، فلا ينبغى أن يستأثر بالخيرات جماعة لأنهم أقوياء ، بل ينبغى أن يكون فى الأرض متسع لكل من يستطيع أن يشارك فى خدمة الإنسانية جمعاء .

فلنضرب تلك الحدود التى أقيمت ، ولنفك تلك السلاسل التى قيدت بها بعض الشعوب أخواتها ، وليكن ملك الأرض مشاعا للجميع أساسه قاعدة عادلة واحدة : إن الذى يستطيع أن يفيد له الحق فى أن يستفيد ويفيد .

محمد فريد أبو حديد

حظ الألوان

وللألوان حظ مثل حظ الأعداد[1] : في المدن ، وفي البحار ، وفي الأنهر ، وفي الطباع ، وفي الأسماء ، وفي الحقيقة ، وفي المجاز :

في المدن : يقولون تونس البيضاء ، والجزيرة الخضراء ، ووادي الصفراء (في الحجاز) ، والحمراء (في بلاد نجد حيث هزم الوهابيون الأرناؤود الذين أرسلهم محمد علي باشا لمحاربتهم) ، والشقراء (في بلاد نجد وفيها سلم الوهابيون لابراهيم باشا في ٢٣ يناير سنة ١٨١٨) ، والجزيرة الخضراء (رمودا) ، وحلب الشهباء ، وصيدا الزهراء ، وصور الغراء ، والجزيرة الشقراء (في القطر المصري) ، والرأس الأخضر (غرب افريقيا) ، والغابة السوداء (في ألمانيا) ، وروسيا البيضاء ، والحمراء (اسم غرناطة بالأندلس ومنه رمى الله بالحمراء عيشا قطعته) ، العتبة الخضراء (في القاهرة) ، والباب الأخضر (في الإسكندرية) ، وشارع السكة الخضراء (في باريس) ، والحمراء (في اسبانيا) ، أبيا الحمراء (في البحيرة) ، أبو الأخضر (في الشرقية) ، الكوم الأخضر (في البحيرة) ، والكوم الأسود (في البحيرة) .

ووصف أحد المؤرخين ديار مصر فقال إنها تكون :

— ثلاثة أشهر (لؤلؤة بيضاء) .
— وثلاثة أشهر (مسكة سوداء) .
— وثلاثة أشهر (زمردة خضراء) .
— وثلاثة أشهر (سبيكة حمراء) .

استطراد : ويصفون المدن بأوصاف أخرى فيقولون : مكة المكرمة (وأم القرى) ، والمدينة المنورة (وهي يثرب وكانوا يلقبونها بالمرحومة) ، ودمشق الفيحاء ، والبصرة الرعناء ، وبيروت مدينة الحكمة ، واستانبول دار السعادة ، وباريس مدينة النور ، وروما المدينة الخالدة ، ومصر المحروسة ، ويسمون بغداد دار السلام ويسميها فيلسوف المعرة محلة الفقهاء ، وقرطبة مدينة الأمراء ، والافرنج يسمون بلاد اليمن (بلاد العرب السعيدة) Arabie heureuse

في البحار :

— البحر الأبيض (بين أوربا وأفريقيا) .
— البحر الأسود (بين روسيا وتركيا) .
— البحر الأحمر (بين مصر وبلاد العرب) .
— البحر الأصفر (في الصين) .
— البحر الأخضر .
— الخليج الأزرق[1]
— البحر الميت .
— بحر الظلمات .
— البحيرات المرة .

في الأنهر :

— النيل الأزرق (في السودان) .
— النيل الأبيض (في السودان) .
— النهر الأسود Le Fleuve Noir (في بلاد التونكان) .
— النهر الأحمر Le Fleuve Rouge (في بلاد التونكان أيضاً) .
— النهر الأحمر أيضاً (في أمريكا الشمالية) .
— النهر الأصفر (في بلاد الصين) .
— التبر الأصفر Le Tibre Jaune (نهر بإيطاليا) .

وفي الحقيقة مجازا :

— عيش أخضر .
— سنة خضراء .

(١) راجع رسالتنا في الثقافة عدد أول مايو سنة ١٩٤٥ .

(١) في رسالة لسان الدين بن الخطيب الجملة الآتية : (تجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق) .

— المودة بيننا خضراء .

— الأمر بيننا أخضر (أى جديد لم يخلق) .

— هو يحرق الأخضرين أى العشب والشجر ، وهو كلام تهويل .

— الخضراء قائمة باليمن .

— وقد تطلق الخضرة على الزرقة ، ومنه قولهم للفلك القبة الخضراء ، ويعنون بها السماء أيضاً ، فيقولون ما تحت الخضراء أكرم من فلان . وقد يطلق الأخضر على الأسود أيضاً كقوله : « لما بدا ذاك العذار الأخضر » أى الأسود.

— هم خضر المناكب (أى فى خصب عظيم ، لأن الخضرة هى من أسباب الخصب) .

— ومثله قولهم : هم خضر المرابع .

— عدوّ أزرق (أى شديد العداوة) .

— الزرقة (العمى) وفى التنزيل : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » (أى عميا) .

— الزرقاء لقب السماء يقال : ما تحت الزرقاء خير منه .

— نعمة بيضاء .

— اليد البيضاء واليد الخضراء بمعنى واحد . يقولون: لى عنده يد خضراء .

— وفى التنزيل : « وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل » (سورة البقرة) .

— قلب أبيض وقلب أسود .

— الموت الأبيض (الموت فجأة) .

— يوم أسود .

— قيل لهم بالأسود والأبيض كذا .

— القائمة السوداء .

— الكتاب الأسود .

— الموت الأحمر (الموت قتلا) .

— الجيش الأحمر (الروسى) .

— هم الذهب الأحمر والحسب الأخضر .

— العين الحمراء .

— الحمراء (السنة الشديدة) .

— الحمراء العجم ومنه (ليس فى الحمراء مثله أى فى العجم) .

— والأحمر معناه أيضاً الأبيض اللون ، ومنه الحديث : بعثت إلى الأحمر والأسود (أى إلى العجم والعرب) . والعرب تقول امرأة حمراء أى بيضاء ، ومنه الحديث : « قال على لعائشة إياك أن تكونيها يا حميراء » أى يا بيضاء . والأحمر أيضاً الذهب والزعفران واللحم والخمر تقول (نحن من أهل الأسودين لا من أهل الأحمرين) أى من أهل التمر والماء لا من أهل اللحم والخمر .

—وفى كتاب أبى عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب : « لقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها » .

— الغرفة السوداء (فى سجن الاستئناف حيث المشنقة) .

— الهواء الأصفر .

— بنو الأصفر (ملوك الروم) .

— والصفر (الدنانير والدراهم) يقال أتيته بالصفر والبيض .

— الصفرة (الجوعة) ومنه الحديث : صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم . أراد بها الجوعة وخلو البطن .

ويقول الفرنساويون :

— تارة يقول أبيض وتارة يقول أسود Dire tantôt blanc tantôt noir. أى يغيّر رأيه من وقت إلى آخر .

— أعطاه بطاقة بيضاء أى أعطاه الحرية التامة يعمل كما يشاء Donner carte blanche

— انتقل من الشيء إلى ضده Passer du blanc au noir.

— ليلة بيضاء Nuit Blanche (أى كلها أرق بلا نوم)

— ملكة بيضاء. Reine Blanche اسم يطلق فى فرنسا على الملكة التى يموت عنها زوجها .

— السلاح الأبيض. Arme Blanche (السيف) .

— الحزب الأبيض. Parti Blanc. وهو حزب ملوك البربون بفرنسا .

— الكتاب الأبيض .

— ويأتى اللون الأبيض واللون الأسود بمعنى البراءة أو الإدانة :

«Selon que vous serez puissant ou misérable.
«Les jugements de Cour vous rendent blanc ou noir.

— القمر الأشقر Lune Rousse وهو قمر شهر ابريل وينسبون إليه — فى أوربا — التأثير فى نمو النباتات الصغيرة.

— عهد الارهاب الأبيض Terreur Blanche (فى سنة ١٨١٥ بعد سقوط نابليون ثار أنصار الملكية على رجال العهد السابق وأعملوا فيهم السيف وامتدت الثورة من باريس إلى الأقاليم ، وقد سميت هذه الثورة الجامحة Terreur Blanche. ومن فظائعها : اغتيال المارشال Brune فى مدينة أفينيون Avignon : واغتيال الجنرال لاجارد Lagarde . وفى مرسيليا ذبحوا جماعة المماليك الذين استحضرهم نابليون معه من مصر . وفى تولوز اغتالوا الجنرال راميل Ramel .

— عهد الإرهاب الأحمر Terreur Rouge (وهى فترة الإرهاب الذى حدث فى زمن الثورة الفرنساوية وفيها قتل آلاف من الأبرياء) .

— مزاج أسود Humeur Noire .

— الملاك الأسود L'ange Noir .

— السوق السوداء Le Marché Noir .

— الوزارة السوداء Le Cabinet Noir. (وهى وزارة مستبدة كانت فى عهد شارل العاشر ملك فرنسا كانت تستبيح فض المراسلات الخاصة لتعرف ما فيها من أسرار ومن مؤامرات ، ولما سقطت تولت وزارة مارتنياك وأصدرت قانونا فى ١٩ يونيه سنة ١٨٢٨ أبطلت فيه ما كانت تعمله الوزارة السابقة) .

— الخطر الأصفر Le Péril Jaune. (يقصدون الخطر اليابانى) .

— ضحكة صفراء Rire Jaune. (أى ضحكة بتكلف) .

— الحمى الصفراء Fièvre Jaune.

— شيخوخة خضراء Une Verte Vieillesse. و un vert grand-père. تقال للهرم الذى يحتفظ بقوته .

— خوف أزرق Peur Bleue (أى شديد)

— بقى أزرق En rester Bleu. (أى بقى مبهوتا)

— ويقول العامة : القرش الأبيض ينفعك فى اليوم الأسود .

— عام أحمر (إذا كان جدبا شديداً لا مطر فيه) .

رق الأسماء :

— جورج (أبيض) .
— محمد (الأحمر) .
— عادل (أسود) .
— أميل (أشقر) .
— جبرائيل (أصفر) .
— والأفوكاتو صفرا .
— والأفوكاتو (شقرا) .
— والأفوكاتو خضرا (مسعود) .
— والهلال (الأحمر) .
— والصليب (الأحمر) .
— والصليب (الأصفر) — ميزة الجيش الثامن .
— والسلطان الأحمر (السلطان عبد الحميد السفاح)

أليس للألوان حظ مثل حظ الأعداد؟ .

عزيز خانكى

من الأدب الألباني :

الثأر (١)

جلس « عم عمر » على شاطئ بحيرة « شارى » ينظر إلى الدخان الذى يتصاعد من سيجارته متعرجا نحو السماء. وهو يزفر من آن لآخر زفرات حارة تحرق الكبد وتصهر الفؤاد ، ثم هو من حين لآخر يهمس فى حزن وأسى وتسيل على صفحة وجهه بهذه العبارة : « لا ينقلب الدم إلى ماء » .

يعرف الناس عن « عم عمر » أنه شيخ قليل الكلام ، طويل الصمت ، جيد التعبير ، يصل دائما إلى ما يريد بقوة حجته ، وسحر بيانه ، وعذوبة لسانه ، وليس ذلك بكثير على رجل كعم عمر ، وخط الشيب لحيته ، وجعدت التجارب جبينه ، وقوس ضعف الشيخوخة ظهره ، وأفادته حوادث الأيام وصروف الليالى وبيئته التى نشأ فيها حسن تصريف للأمور ، ثم هو فوق ذلك ينتمى إلى أعظم قبيلة ، وإقليمه من خير الأقاليم ، مناخ معتدل ، وطبيعة ساحرة ، ورخاء شامل . .

تطل على ركن « شارى » هضبة قليلة الارتفاع كستها الطبيعة ثوبا جميلا من الحشائش الخضراء ، وفى قمة هذه الهضبة قام بيت جميل طليت واجهته بطلاء ناصع البياض ، أما بقيته فقد طليت بطلاء أبيض مشوب بزرقة ، وكان منظر هذا البيت — منفردا على تلك الهضبة موصد النوافذ مغلق الأبواب — يوحى إلى كل من يراه أنه خلو من السكان أو يكاد . . ، هذا هو بيت « عم عمر » الجديد . شيده على هذه الهضبة بعد أن أحرقت بيته — فى وسط القرية — عائلة « كلة » التى شبت بين عائلته وبينها نار العداوة منذ سنين ، فاحترقت بلظاها كبد « عم عمر » فقد قتل ابنه أحد أفرادها . وبذلك لم يبق له سوى « طفيل » الذى علق عليه كل آماله فى الثأر لأخيه . وكثيرا ما كان يردد أمامه تلك العبارة : أنت وحدك الذى تستطيع أن تشيعنى إلى قبرى قرير العين ، مثلوج الصدر ، مرتاح الضمير ، فأنا هامة اليوم أو غد ، وشيخوختى تحول بينى وبين الثأر لأخيك . . وكان « طفيل » يقدر قول أبيه ويذكر آخر كلمة لفظها أخوه ، ولفظ بعدها روحه : أخى ! لا تنس الدم ! فيغلى مرجل الغضب فى قلبه ، ويصر على الانتقام . .

كان الناس يتهامسون فيما بينهم أن طفيلا لن يثأر لأخيه ، وينسبون إليه الضعف والتهاون بما جرى به العرف وما تأصل من عادات الآباء والأجداد محتجين لهذه الدعوى أنه لما يدر بعد قيمة الدم المراق ! فها هو قد مضى على عودته من خدمة الجيش عامان كاملان ، يؤثر فيهما العزلة ويطيل التفكير ، ولكن لم يبد ما يفيد أنه يعد العدة لهذا الأمر .

فى أصيل يوم من أيام الربيع الجميلة أخذت الطيور تغرد أعذب الألحان على الأشجار الوارفة التى كان النسيم يداعب أغصانها فى هدوء وانسجام . وأخذت الشمس تسرع نحو المغيب لتفسح لسلطان الليل أن يتربع على عرشه ويسيطر على الكون ، ويطبعه بطابع السكون الشامل ، وانفرجت أشجار الغابة عن شاب قد أعياه التعب ، ونال منه السفر فكسا الغبار ثيابه ، وفاض على وجهه وما بدا من جسمه . . واتجه هذا الشاب إلى الينبوع ليروى ظمأه ويغسل وجهه ويديه ويستجم نشاطه ؛ فما إن وصل إليه حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام إلهة الحسن وربة الجمال ، نزلت من عرشها لتملأ سقاءها ، فاحمر وجهه ، وجمد لسانه ، وتسمرت قدماه فلم يستطع التقدم ، لكنه لم يلبث أن عاد إليه رشده حينما لمح وجهها قد خضبه الخجل ، وتولتها حيرة وارتباك ، واستطاع أن يقول لها فى خفوت لفظ وانكسار طرف : لا تخشى بأسا أيتها الآنسة ، فأنا عائد من الجندية أعانى العطش وشدة التعب إلى الينبوع ، وإن الفرصة السعيدة جمعتنى بك ! فهل تسمحين بجرعة ماء ؟

— لك أن ترتوى كما يطيب لك فالينبوع أمامك ، خذ منه ما تريد .

— ولكنى أحب أن أتناولها من يديك لتكون أعذب مذاقا . فاحمر وجه الفتاة حياء ، وقدمت إليه الماء

(١) من مجموعة قصص تحت الطبع باسم « المهد الذهبى وقصص أخرى » .

فشرب ، ثم قال ما أحسن الماء ! وما ألطف صنيعك ! أتأتين إلى هنا كل يوم ؟

— ما شأنك وهذا السؤال ؟ إن أمرك لغريب !

— هذا الجمال الفاتن ، وهذا السحر القاتل هما اللذان حركا لسانى بهذا السؤال .

— دع عنك هذا ، جميلة كنت أم قبيحة فهو شأنى أنا وحدى لا يشركنى فيه سواى .

إن من يستمع لكلام الفتاة يتخيل أنها ذات قلب لا يلين وأنها لن تصبو إلى هذا الفتى . ولكنه استطاع أن يرى فى عينيها الجميلتين الوادعتين شعاع الحنان ، وأن يتيقن من أن ما قالته لم يكن من مكنون قلبها ، فأردف يقول :

— أريد أن أناديك باسمك فماذا أقول ؟

— وماذا تريد أن تصنع باسمى ؟

— أريد أن أقرن هذا الجمال الملائكى بالاسم الذى يدل عليه وأحتفظ بهما معا فى قلبى .

فتمنعت قليلا ثم غلبها ضعف النساء وقالت : « زينة » هو الاسم الذى ينادوننى به .

— لم يوضع هذا الاسم فى اللغة إلا ليطلق عليك .

— أرجو أن تواصل سفرك وتتركنى لأملأ جرتى فقد أمسى المساء .

— لا تغضبى ! فسأتركك كما تشائين . فوداعا يا زينة . وداعا يا فاتنة الفؤاد . . .

لقد كان لكلمات الفتى ونظراته فعل السحر فى قلب « زينة » فلم تستطع مقاومة رغبتها فى بقائه إلى جانبها بعد أن ناشدته أن يستأنف سفره . توسلت إليه أن يتمهل ريثما تستخبره عن اسمه ومقصده . فقال :

— أأجلس إلى جانبك ؟

— اجلس حيث تحب ؟ على أن تعرفنى من أنت ، فقد سلبتنى راحة القلب . واطمئنان النفس ، فقال لها :

— خير لك أن تظل على جهلك باسمى ومن أكون .

— إنى أخ . أريد أن أعرف لمن أسلمت قلبى وروحى .

— كل ما أريد أن تعرفيه أن لقاءنا لم يكن سوى حلم لذيذ نشعر بالفرح يغمرنا كلما مر بخاطرنا هذا الحلم ، ونستطيع أن نعيش — بذكراه — لحظات فيما يشبه السعادة .

— لا . لا . ربك من أنت ؟

— إذن ستشقين كما شقيت !

— ليكن ما يكون . لا بد أن أعرف من سأناجيه فى حبى .

فلم يستطع الشاب إلا أن يضم الفتاة بقوة إلى صدره ، ويطبع على شفتيها قبلات عبرت بحرارتها عما يتأجج فى صدره ويشتعل فى فؤاده ، ثم تركها حيرى من هذه المفاجأة التى لم تكن تتوقعها . وأسرع صوب النهر القريب ، وسرعان ما استفاقت وجرت وراءه متوسلة أن يحدثها عن نفسه بمقدار ما حدثته عن نفسها ، ولكنها لم تدركه . فقد وصل به القارب إلى الشاطئ الآخر ، غير أنها سمعته يناديها : وداعا يا زينة . أرجو أن تصونى قلبك « لطفيل » عدو بيتكم الأكبر . ثم عم شطر البيت الأبيض ... مسكينة « زينة » ومسكين « طفيل » فقد كان حظهما فى الحياة غير سعيد ، إذ كان لا بد لطفيل أن يذكى نار الحقد لأهلها فى نفسه حتى لا تخمد جذوتها إلى أن يثأر لأخيه . ولقد قاسى من تبلبل الأفكار وذبذبة الخواطر بعد لقاء الينبوع كثيرا ، غير أن عبارة واحدة جعلته يصر على أن ينتقم لأخيه ، فقد سمع من يهتف به : يا للعار ! بعت دم أخيك . وجلبت لعنة أبيك بقبلة من فم « زينة » يا له من ثمن بخس فى عرف التقاليد !

هذه العبارة وحدها دفعت الشاب بقوة إلى الإسراع فى تنفيذ خطته ، فلم يمض سوى ليال ثلاث وفى الليلة الرابعة وكانت معتكرة الظلام — سمع مقذوفان ناريان فى ظاهر القرية قريبا من الغابة ، وبعدها بلحظات عاد طفيل إلى البيت ممتقع اللون يسمع لقلبه خفقان شديد . وأسرع إلى سرير والده المريض وقال : لقد قضى الأمر يا أبت وانتقمت لأخى .

فلم يكد المريض يستمع لهذا القول حتى قفز من سريره وعانق ابنه وقبله فى جبهته . ولقد كانت حركته هذه سببا

فى أن الموت أسرع إليه فارتمى على سريره ثانية وأسلم روحه بعد أن قال لابنه : أراح الله فؤادك . فقد كدت أموت مكلوم القلب ، ولكنى بفضل همتك أموت مرتاح الضمير .

ولم يمض غير قليل حتى كان طفيل مكبلا بالحديد فى طريقه إلى السجن فقد آثر أن يناله ما تفرضه العدالة ، ويقضى به القانون فى مثل هـذا الحادث ، وعليه فلم يشأ أن يفر من خمسة عشر عاما يقضيها جزاء ما اقترف بين جدران السجون .

***

دارت دورات الفلك وانتهت المدة التى وجب على « طفيل » ألا يتنسم فيها نسيم الحرية . وما هى إلا أيام تعد على أصابع اليد الواحدة حتى يطلق سراحه ، ومع ذلك ما زال قلبه يخفق بحب « زينة » ، فهى شغله الشاغل فى أيامه القليلة الباقية يفكر فى حالها ومآل أمرها .

لم يعلم أنه بعد أن قتل أباها واقتيد إلى السجن قررت أن تلبس السواد حدادا على أبيها وأن ترفض الزواج انتظارا لعودة حبيبها . . وقد حاول أخوها أن يقنعها بالعدول عن هذا القرار . وكثيرا ما فتنها بفوارس الكلم ، ولكن كل محاولاته قد فشلت طوال تسع سنوات استطاع بعدها أن يغير من رأيها فترضى بمن اختاره لها زوجا بعد أن أوهمها أن حبها لابد أن يذبل فى قلب طفيل ، وأن الأولى لها أن تبعده من فكرها لا سيما بعد ما كان منه . . وها هى الآن قد مضى على زواجها من شاب كريم المحتد ، عريق النسب ست سنوات ، ولم تستطع يد الزمن أن تمحو من قلبها ما سطر لطفيل من حب وإخلاص .

وفى ليلة من ليالى الشتاء الباردة التى تترا كم فيها الثلوج لا على رءوس الجبال فحسب بل تكتسى بها الأرض أيضا ، رأى أهل القرية رجلا غريبا عنهم ، فقد كان طويل الشعر ، أصفر اللون غائر العينين ، ثيابه خلقة ، وحذاؤه ممزق . ومنظره فى الجملة مخيف ، كان كل من يراه يظنه سائلا يتكفف الناس .

أقام هـذا الرجل مدة فى القرية كان يتردد فيها كل يوم على الينبوع مرات عديدة يتفرس فى وجوه الفتيات والنساء ، ذاهبات آيبات . . وإنه لفى يوم من الأيام وقد نال منه التعب والبرد عائدا من الينبوع . عطف إلى بيت فى ظاهر القرية ينشد الدفء والراحة تحت سقيفة أمام البيت ، فرأى بنظرة عابرة فى فناء البيت طفلا وطفلة كأنهما ملكان من ملائكة السماء جمالا ونضارة . وكانا يلعبان بكرات من الثلج ، فانزوى فى ركن من الأركان حتى لا يزعجهما منظره ، ولكنهما مع ذلك — أبصراه فخافاه أول الأمر ، ثم لم يلبثا أن اقتربا منه ونداء الطفل :

— لماذا تجلس هنا يا خال ! أتريد خبزا ؟

— لا يا أولادى الأعزاء . أشكركما .

— أراك ترتجف . لعل البرد قارس عليك ، فادخل لتدفىء نفسك :

— لا ! . أشكرك .

ثم تفرس « السائل » كما كان يسميه أهل القرية فى وجهى الطفلين فرأى فيهما مشابه من « زينة » تلك التى تربعت على عرش فؤاده ، فأراد أن يقف على حقيقتهما فقال : هل لكما والدة ؟

— نعم وهى الآن تعد لنا طعام العشاء ، وكان الأنس بالرجل بلغ منهما مبلغا عظيما فقد وقفا بجواره يجيبان على أسئلته ، قال لهما : ماذا تسمونها ؟ فنطقا بصوت واحد تشيع فيه براءة الأطفال : نسميها « زينة » .

سمع الرجل هـذا الاسم فكأنما نفذ إلى قلبه سهم رائش ، ولم يتمالك نفسه ، فضم الطفلين إلى صدره بقوة ، وغمرهما بفيض من القبلات واستمر باكيا .

تعجب الطفلان من عطف الغريب عليهما وبكائه وسألاه : لماذا تبكى يا خالنا ؟

وقبل أن يجيبهما أطلت والدتهما من الشباك ودعتهما للدخول ، فتخلصا من بين ذراعى المسكين وأسرعا إلى الداخل .

على هامش حوادث دمشق :

الحب بين الخير والشر

[إلى الأديب الكبير الدكتور أحمد زكي بك
تحية احترام وإعجاب] .

الحب نور ونار .

الحب خيوط من نور ، منها تنسج البرود الانسانية موشحة بشعار الرحمة وتذوق الجمال .

الحب قطعة من النار المتأججة ، تأكل وعاءها إن لم يقاومها ، فإن كان قلباً تركته ركاماً لاخير فيه .

الحب شعلة تنير القلب وتهديه سواء السبيل ، قد تخبو فيغدو القلب صلداً مظلماً ، وإن اضطرمت يوماً وازداد لهيبها أحرقته وخلفته رماداً تعبث به الرياح .

الحب شعار الإنسانية ، وهو منبع ويلاتها : شعارها إن كان سامياً لا يستهدف شراً بالآخرين ، وهو منبع ويلاتها إن كان أنانياً تمليه الشهوات الدنيئة وتغذوه الفكر الباطلة .

لقد قرأ ألماني «صديق» قبل انتهاء الحرب ، مايكتب في البلاد التي يحتمي فيها من طغيان كان يسود أمته ، قرأ كل ما يكتب في بلاد « الأمم المتحدة » عما يجب أن تعامل به ألمانيا إذا ما انتهت الحرب ، وسمع كل ما يقال من خطط « الحلفاء » في احتلال بلاده احتلالا عسكريا وثقافيا ، احتلالاً يقلع الميل إلى الحرب من نفوس أبناء جلدته ، ويبدد الفكرة النازية من قلوبهم ، وينزع ما علق في جماجمهم من « حب » السيطرة والاستعلاء . ثم قرأ « الألماني الصديق » وسمع كل ذلك ، فأخذ يكتب : « . . . إن هتلر انتزع من قلوب الشباب الألماني « الحب » وانتزع من رؤوسهم الفكر ، انتزع ذلك الميل الغريزي في عقل الإنسان إذا سمع أمراً أن ينظر وينقد ، لا أن يصغي ليطيع » .

انتزع من قلوب الشباب الألماني « الحب . . . » هكذا قال ذلك الألماني ، فأي حب هذا الذي يرثيه ويندبه ؟ ! أحب السيطرة والغلبة ؟ أحب السيادة والاستعمار ؟ أم حب ألمانيا وهي فوق الجميع ؟ إنه لا شك يريد « بالحب » الحب السامي ، حب الآخرين ، حب الضعفاء والمساكين ، الحب الذي يعلم الرحمة وفعل الخير ، الحب الذي يدرك الجمال أنى كان ، الحب الذي لايفرق في الحقوق بين البشر ، الحب الذي كان شعار الإنسانية ، وأصبح اليوم أملها المنشود .

ثم تابع الألماني كتابته ناصحاً رجال الأمم المتحدة قائلا لهم : « . . . عليكم في السلم القادمة أن تعيدوا إلى أولئك المساكين ما أخذ من رجولتهم ، وانتزع من إنسانيتهم ، أعني الفكر حراً طليقاً يمارسه المرء اختياراً كما يمارس الشراب والطعام ، والغدو والرواح ، والنوم واليقظة ، لا يقف شيء منها عند مقدار ، ولا يحد شيء منها بميعاد » .

لقد كتب الألماني هذه الجمل والتفت إلى من يقترح على الأمم المتحدة أن تضع بنفسها الكتب التي ستفرض على النشء الألماني ليتعلم « الحق » منها ، وخاطبهم بقوله : « . . . دعوا ما تزمعون وضعه من كتب للنشء الألماني . ثم علموهم « الحب » كيف يكون ، أوقدوا فيهم جذوته ، تحرق ما في قلوبهم من خبائث . علموهم حب

ولما سكنت ثائرة الرجل تلفت يمنة ويسرة فرأى من الشباك الطفلين يقصان على أمهما كيف عطف عليهما وأنه قبلهما بشوق وسألها عنها . ولكنه قبل أن يمتع نفسه بهذا المنظر أحس أن دمه تجمد في عروقه وأن سراج حياته عصفت به الرياح فانطفأ — وبذلك انتهت حياته وهو ينظر إلى حبيبته ، ويلعن الظروف التي دفعته إلى الثأر لأخيه ، فانفصل من تلك التي أسرت لبه وملكت قلبه .

وهبي اسماعيل حقي   ابراهيم خير الله

الآباء والأمهات . عنوم حب الطبيعة ، وحب الموسيقى ، وحب الكتاب الممتع ، وحب تلك الأشياء الكثيرة الصغيرة الجميلة ، التي يأتيها الناس صباح مساء ، فتبهج القلب الإنساني وتضيء الحياة » .

هـذا ما رواه لنا الأديب البحاثة الدكتور أحمد زكي من لسان ذلك الألماني قبل بضعة أشهر ، قرأته يومئذ فأعجبت بالبيان الرائع يترجم لنا الوطنية الصادقة ، والفلسفة الإنسانية العميقة ، فلسفة الحب السامي كيف يوقد في القلب فيأكل ما فيه من حب شرير ، من حب يفرق بين الانسان وأخيه ، من حب يبيح التعدي على الضعفاء ويحد من حرياتهم ، من حب أناني لا تحترم معه حقوق الآخرين . . .

ثم كنت قرأت ما نشره الدكتور أحمد زكي بك في « الثقافة » ، وقد عدت إليه اليوم بعد أن قرأت تعليقه على حوادث « دمشق » . عدت إليه وقد علقت بخيالي صورة « الدولة الكسيحة تقوم على أحد عكازيها لتضرب بالعكاز الآخر » ، صورة فرنسا التي كانت إلى أمد قريب جاثية على ركبتيها تقبّل أقدام المحتل الجبار ، تمثل اليوم دور الذليل إذا انتصر .

لقد انتهت الحرب بسيادة الحرية على الطغيان ، فأبت فرنسا إلا أن تحشر نفسها مع المنتصرين وتلبس لباسهم ، وأبى رجالها إلا كشف البراقع عن وجوههم ، فعرف العالم منها صورة فرنسا الحقيقية ، ليلة صوبوا بقية مدافعها إلى مدينة دمشق النائمة على ضفاف بَرَدَى ، وأرسلوا طائراتها المستعارة تمطر السكان الآمنين وابلاً من قنابلها المحرقة ، وبعثوا جنودها الذين جبنوا يوم باريس يروعون نساء الشام ويعيثون بأرضها نهبا وإتلافا وإحراقا وفساداً .

أجل إن الحرب انتهت في أوربة ، فظن العالم أن (النازية) قد قضي عليها ، ولكنه فوجئ بحوادث سورية فعرف أن الفكرة النازية لم تمت في بعض الدول التي ما زال حب الاستعمار بأساليبه (البالية) يسيطر على عقول رجال الحكم فيها .

إن الواجب الديمقراطي الذي ألقاه المنتصرون على أنفسهم في هذه الحرب ، وبدأوا تنفيذه بالإشراف على توجيه الثقافة في البلاد المحتلة الوجهة الصحيحة ، يقضي عليهم بألا يغضوا الطرف عن دولة مثل فرنسا أتقنت دور المهادن المخذول ، ولم تستطع أن تظهر معهم بدور المنتصر الكريم بعد أن أعاروها أرجلا تمشي عليها وأيديا تبطش بها .

إن دولة فيها رجال استهانوا بالحريات التي مشى العالم وراء الحلفاء من أجلها ، وبالمبادىء التي سفكت دماء الملايين من أجل تحقيقها للشعوب على اختلافها ، وبالأمم يجتمع مندوبوها لإقرار السلام في العالم ، لهي خطر على الحياة الديمقراطية ، وخطر على مبادئ الانسانية السامية ، وخطر على الأخلاق الدولية المثالية ، يجب الحذر منه والقضاء عليه .

إن واجبا إنسانيا ودوليا ينادي الحلفاء بضرورة فتح العقول الفرنسية لمبادىء التسامح واحترام حريات الناس ، ويقضي عليهم بالعمل على نزع الفكر والأساليب النازية من جماجم رجال الحكم الفرنسيين ، وغرس بذور الحب السامي في قلوبهم ، لا ، بل إنهم يخدمون فرنسا أجل خدمة إذا أرسلوا إليها مبشرين يعلمونها أبسط قواعد الإنصاف والعدل ، القواعد التي تكفي واحدة منها للقضاء على الأثرة وحب التعدي ، واحدة كالتي في قول السيد المسيح (وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا) .

إن فعل الحلفاء هذا فسيخدمون الانسانية خدمة تخفف من الآلام والمصائب التي صبت على رأسها بفعل أبناء اشتعل في قلوبهم الحب الشرير ، الحب الأناني الأعمى ، ولا يحبون أن يطفئوه إلا بالافتئات على حقوق غيرهم من المستضعفين .

حمص ع . غ .

كتاب الجامعة

– ١ –

هو أحد أسفار التوراة التى تنسب لسليمان بن داود ، كما أنه من هذا النوع من الشعر الذى يطلق عليه شعر الحكمة وآياته تشبه تلك التى نجدها فى سفر الأمثال مثلا . فهنا يحدثنا حكيم له كثير من الخبرة والمعرفة وهو وإن كان يبدو متشائماً فاقد الأمل من العدالة الاجتماعية حيناً إلا أنه كان إيجابيا من الداعين إلى وجوب الأخذ بالحياة وأسبابها أحيانا . ولعل سر هذا التشاؤم الذى يفتتح به المؤلف سفره ويختتمه ويلخصه فى قوله (باطل الأباطيل الكل باطل) هذه الحالات المختلفة التى يستوى فيها الذين يعلمون والذين لا يعلمون . فموت الحكيم كموت الجاهل ، ولا فضل للإنسان على البهائم لأننا لا ندرى أتذهب روح الإنسان إلى السماء ، وتهبط روح البهيمة إلى الأرض ؟ ! وفلسفة التشاؤم هذه التى نجدها ممثلة فى هذا السفر أحسن تمثيل فلسفة شرقية قديمة نجدها عند البابليين الأشوريين وقدماء المصريين . كما نجد فى فلسفة هذين الشعبين وآدابهم أصول الفكرة القائلة : إن لكل شىء زمنه ، أو تلك التى تحذر من الجرى وراء اللذات والملاهى خاصة فى ملحمة جلجمش البابلية وقصة عازف القيثارة المصرية . فالسفر فى مجموعه يعرض لنا فلسفة شرقية قديمة نرى صداها عند فلاسفة اليونان المتقدمين أمثال الرواقيين – لا جديد تحت الشمس – والابيقوريين – لا فرق بين الإنسان والحيوان .

لكن هذا التشاؤم فى الفلسفة الشرقية لم ينته إلى ما انتهت إليه فى الغرب أعنى إلى الوقوف من الحياة هذا الموقف السلبى الذى ينتهى إلى الالتجاء إلى الأديرة والرهبنة بل إلى فلسفة أخرى كلها مرح وسرور تدعو إلى وجوب التمتع بكل ما تراه العين وتشتهيه النفس ويصبو إليه الجسد : اذهب كل خبزك بفرح واشرب وتمتع بخمرك فالله راض منذ القدم عن عملك . لتكن ثيابك بيضاء ولا يفارق الطيب رأسك تمتع حياتك بالمرأة التى أحببتها فالحياة فانية . وقد أدت فلسفة هذا السفر التى تحمل بين طياتها كثيراً من عبارات الكفر والإلحاد إلى قيام عدة مشاكل حول قدسيته ، ولولا نسبته لسليمان ما احتل هذا المكان بين أسفار الكتاب المقدس . ويرجح أنه وضع حوالى أواخر القرن الثالث ق . م . وقد حاز إعجاب الكثيرين من شعراء الغرب وفلاسفته أمثال (شوبنهور) و (هينريش هينه) الذى أطلق عليه « نشيد أناشيد المتشككين » وقال فيه (رنان) : « هذا ما نحبه لأنه ليس حقيقة آلامنا . » . وتفنن الأجانب فى ترجمته والتعليق عليه فأحببت أن أنقله من العبرية بتصرف لأضع أمام القارىء العربى صورة من صور التفكير السامى القديم . وأن أضع بين يدى قراء الثقافة نموذجا من ترجمتى هذه :

* * *

كلام الجامعة بن داود ملك أورشليم .

خلود

باطل الأباطيل قال الجامعة باطل الأباطيل الكل باطل ما فائدة الإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟

جيل يقبل وآخر يدبر والأرض باقية إلى الأبد .

الشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وإلى مكانها تسرع تشرق ثانية .

الريح تهب جنوباً ، وتدور شمالا . تدور وتدور ، تهب وتهب ، وإلى مكان هبوبها تعود الريح .

جميع الأنهار تتجه نحو البحر والبحر لم يمتلىء ، وهناك هناك حيث جرت الأنهار تجرى دائماً .

كل إنسان يجهد نفسه ويعجز عن الكلام . العين ترى ولا تشبع . والأذن تسمع ولا تمتلىء .

الذى كان سيكون وما حدث سيحدث ولا جديد تحت الشمس .

وقد يوجد ما قد يقال عنه إنه جديد لكنه كان من قبل في الأزمنة الخالية إلا أنه لم يبق له ذكر عند السلف كذلك الذي سيكون عند الخلف .

كل ما يرجع إلى المعرفة باطل

أنا الجامعة كنت ملكاً على إسرائيل بأورشليم .

حاولت أن أعرف حكمة ما يصنع تحت السماء، وإذ به باطل وقبض ريح ، فقد أعطى الله العمل للإنسان ليشق به .

المعوج لا يقوم والناقص لا يكمل

تأملت في نفسي وإذا بي قد عظمت وفقت بمعرفتي حكمة الذين كانوا قبلي بأورشليم ، وحاولت أن أفرق بين الحكمة والجهالة والجنون ، وإذ بالكل باطل . فكثرة المعرفة كثرة في الهم وزيادة الحكمة زيادة في الغم .

المرح ما فائدته ؟

قلت لنفسي هلمي جربي الفرح وتمتعي بما يجلب السرور والحبور وإذ بهذا باطل أيضاً . الضحك جنون ، والسرور ماذا يفعل !

أنعشت جسدي بالخمر وعقلي بالحكمة وأخذت بسبيل الحماقة لأرى خير ما يستطيع الإنسان عمله تحت السماء .

أكثرت من أعمالي ، بنيت بيوتاً ، غرست كروماً جنات وفراديس بها أشجار تحمل مختلف الثمرات كما أجريت برك المياه لسقي البساتين وري النابات .

اقتنيت العبيد والجواري كما أكثرت من الموالي وفاقت مقتنياتي من البقر والضأن ما كان لغيري بأورشليم .

جمعت فضة وذهباً وكنوز الملوك وثروات البلاد كما اتخذت لي مغنين ومغنيات وتمتعت بغانية وغانيات وفقت من كانوا قبلي بأورشليم .

متعت عيني بما اشتهت وقلبي بما أراد وتأملت فيما صنعته يدي وفي التعب الذي تعبته وإذ بالكل باطل وقبض ريح وذلك لأن

حظ العالم والجاهل سواء

قد يقال إن الحكمة تمتاز على الجهل امتياز النور على الظلام .

وقد يقال إن الحكيم عينه برأسه والجاهل يتخبط في دياجير الظلام . لكن ما يقع للفرد يقع للجميع وما يحدث للجاهل يحدث لي فما فائدة حكمتي ؟ وهذا أيضاً باطل .

وكما ينسى الجاهل ينسى الحكيم ، هكذا كان وسيكون وكما يموت الذكي يموت الغبي . لذلك كرهت الحياة ، وكرهت العمل ، وكرهت أن أترك شيئاً لمن يأتي بعدي .

فمن يعلم أحكيم هو أم جاهل ؟

إنسان يسخر الحكمة والمعرفة والنشاط في سبيل عمله ويرثه آخر جاهل كسول ! هذا باطل وشر عظيم .

لذلك ليس أفضل للإنسان في هذه الحياة من الأكل والشرب والفرح . لكن أدركت أن هذا أيضاً بيد الله فمن يأكل ومن يلتذ بلا إرادته ؟

الله يمنح الحكمة والسرور لمن يرد له الخير ويضع في قلب الخاطئ الرغبة في الجمع والتحصيل ثم يترك ما اقتناه لآخر يرضى الله عنه . وهذا أيضاً باطل وقبض ريح .

لكل شيء زمن

ولكل أمر تحت السماء وقت

وقت للولادة ، ووقت للموت . وقت للقتل ، ووقت للشفاء . وقت للهدم ، ووقت للبناء . وقت للبكاء ، ووقت للضحك . وقت للندب ، ووقت للرقص . وقت لرمي الأحجار ، ووقت لجمعها . وقت للعناق ، ووقت للبعد عنه . وقت للطلب ، ووقت للترك . وقت للحفظ ، ووقت للرمي . وقت للتمزيق ، ووقت للرفو . وقت للسكوت ووقت للكلام . وقت للحب ، ووقت للكره . وقت للقتال ، ووقت للسلام .

فما فائدة الإنسان من تعبه ؟ لقد أيقنت أن كل ما يصنعه الله خالد لا يزاد عليه ولا ينتقص منه ، وقد صنعه ليخشى

والذي حدث يحـدث وسيحدث والذي سيحدث قد حدث والله يدين على ما مضى .

الإنسان والحيوان سواء

ورأيت تحت الشمس مقـام الخير الشر ، ومقام الصدق الـكذب .

ورأيت أن العادل كالظالم يحاكمهما الله ، وذلك لأنه جعل لـكل شيء وقته ولـكل حدث زمنه . وما يحدث الإنسان يحدث البهيمة فـكما يموت ذاك تموت تلك . وللجنسين روح واحدة ، ولا ميزة للإنسان على البهيمة . الـكل باطل .

الـكل ذاهب إلى مكان واحد ، والـكل جاء من التراب وإلى التراب يعود .

ومن يعلم أتعلو روح الانسان إلى السماء وتهبط روح البهيمة إلى الأرض ؟ .

لذلك تمتع أيها الانسان وافرح . فهذه وصيتي وهي خير ما أوصيك به .

تعب الإنسان هباء

شاهدت كل المظالم الواقعة تحت الشمس ورأيت دموع المظلومين ولا معزى ، وقسوة الظالمين ولا راحم .

لذلك غبطت الأموات لأنهم أسعد من الأحياء . وأسعد من الأموات ، والأحياء أولئك الذين لم يولدوا لأنهم لم يروا هذا الشقاء الذي يحدث تحت الشمس .

وأليس مصدر تعب الفرد واجتهاده حسده للآخرين ؟ وهذا باطل وقبض ريح .

وغبي ذلك الذي يكتف يديه ويفترس نفسه . إذ كف مملوءة راحة خير من حفنتين تعباً وقبض ريح .

باطلا آخر رأيته تحت الشمس . يوجد فرد واحد ولا ثاني له . فلا ابن ولا أخ له ولا نهاية لاجهاد نفسه . عينه لا تشبع غنى . فلماذا يتعب نفسه ويحرمها من الطيبات ؟ هذا أمر ردىء .

الاثنان خير من الواحد لأن أجر عملهما أحسن ، وإذا سقط أحدهما أقامه الثاني ، وإذا اضطجع كلاهما دفئا والواحد لن يدفأ .

إذا هوجم واحد قاوم الاثنان والخيط الثلاثي لا يسهل قطعه .

ولد مسكين وحكيم خير من ملك كسلان مسن لم يقبل النصح ولم يثنه التحذير . هذا خرج من السجن إلى الملك ، وولد الطفل فقيراً في مملكته ، ومن ثم رأيت جميع الأحياء يسيرون إلى جانب الطفل الذي حل محل الملك . أما الذين جاءوا بعدهم فلم يحفلوا به ، وهذا أيضاً باطل وقبض ريح

تمتع

إحترس عندما تتوجه إلى بيت الله . فالطاعة خير من قربان الأغبياء الذين يجهلون أنهم يأتون شراً .

لا تعجل وتفتح فمك أمام الله ولتكن كلماتك قليلة لأنه في السماء وأنت في الأرض .

سبب الأحلام كثرة التعب ، وجهالة الجهلاء في كثرة الـكلام .

إذا نذرت لله نذراً فلا تتوان من الوفاء به . خير لك ألا تنذر من أن تنذر ولا تفي ، والله يكره الملحدين .

إن رأيت في بلد اضطهاد الفقراء ، وتجاهل العـدل والعدالة ، فلا تعجب ففوق العالي أعلى وفوق الاثنين الأعلى .

وخير للجميع أن يقوم في البلاد ملك يخدمه الجميع .

حيث الطيبات كثيرة يكثر آكلوها وليس لصاحبها إلا رؤيتها .

نوم العامل حلو إن أكل قليلا أو كثيراً ، أما تخمة الغني فتقض مضجعه .

مصيبة أخرى رأيتها تحت الشمس ثروة جمعها صاحبها لضرره فإن بادت أصبح ابنه صفر اليدين ، ومثله كمثل من خرج من رحم أمه عاريا وعاد عاريا وليس بيده شيء مما

مولد
المجموعة الشمسية

سيدى الفاضل رئيس التحرير :

تحية واحتراما — وبعد فقد طالعت بمزيد الإعجاب المقالين المتتاليين عن الآراء والنظريات العلمية فى تعليل مولد المجموعة الشمسية وهما المقالان اللذان نشرهما أستاذنا الجليل الكرداني بك فى مجلتكم الغراء . ولقد يتبادر إلى الذهن بعد قراءتهما أن أحدث النظريات التى لا تزال قائمة لتفسير هذه الظاهرة هى النظرية المعروفة بنظرية المد لصاحبها السير جيمس جينز مؤلف كتاب النجوم فى مسالكها وغيره .

وكان الأمل كبيرا فى أن نرى أستاذنا الجليل يتم البحث بذكر ما استجد بعد النظرية المدية من آراء ونظريات ، أو على الأقل كنا نود منه ألا يقطع برأى حاسم فى صلاحية هذه النظرية بعد ما قام بعض العلماء بدحض ما جاء فيها من أساسها . كما قضوا من قبل على نظرية لابلاس المعروفة وكما سنبينه بعد . وها نحن نذكر النظريات الأخرى الأكثر حداثة من النظرية المدية تلك التى مضى على نشرها ثلاثون عاما ، سنسرد هذه النظريات والآراء التى استجدت مع الإيجاز التام الملائم لمجلة أدبية تمس النواحى العلمية مسا رفيقا للتثقيف لا للتنقيب .

فأولا : نظرية الدكتور لتلتون ونشرت فى إبريل عام ١٩٣٦ فى مجلة انجليزية اسمها Monthly Notices of the Royal Astro. Soc. وخلاصتها أنه لم تكن هناك شمس واحدة مفردة بل شمس (أو نجم) مزدوج ، تهشم منه رفيقه أو توأمه باقتراب نجم عابر وتكون من ذلك الهشيم السيارات وتوابعها . فالنجم العابر الذى افترضه جينز لم يخلق ألسنة سيجارية غازية ، بل أخرج — فى رأى لتلتون — التوأم أو الرفيق الشمسى ليفسر ما على شمسنا اليوم من خدوش واضحة لا يمكن أن يخلقها لسان غازى قال به جينز .

ثانيا نظرية الأستاذ جملر ونشرت فى عدد يوليه سنة ١٩٤٢ من مجلة الاتحاد الفلكى البريطانى The Journal

---

صنعته يداه ، ومن البلية أن يعود الإنسان كما جاء . فماذا جنى ؟ لقد عمل للريح .

لقد كانت أيامه شقاء وهما ، حزنا وغما ، لذلك ليس للإنسان أحسن من الأكل والشرب والتمتع بعمله الذى يعمله تحت الشمس إبان حياته التى وهبها الله له .

وحتى تمتع الفرد بثروته وجاهه هبة من عند الله ، وذلك لأنه ينسى بفرحه وسروره مرارة العيش وآلام الحياة .

أما الشر كل الشر فذلك الذى أشاهده تحت الشمس هناك إنسان منحه الله الثروة والمال والوقار وكل ما تشتهيه نفسه . وحرمه لذة التمتع بما بين يديه بينما منح الله تلك الأشياء أجنبيا . فهذا باطل ومصيبة كبرى .

وإن ولد لإنسان مائة طفل وعاش أعواما كثيرة لم يتمتع ولم يحزن قلت له : السقط خير منه لأنه جاء وعاد إلى الظلام وكأنه لم يكن شيئا .

كل تعب الإنسان لقمة والنفس لا تشبع ، ولا فضل للحكيم على الجاهل ولا ميزة للمتواضع على المتشامخ . وما تراه العين خير مما تشتهيه النفس . وهذا أيضا باطل وقبض ريح .

الذى كان كان وقدر أن يكون ، والإنسان يعلم أنه لن يستطيع أن يخاصم من هو أقوى منه ، وكلما تكثر الكلمات يكثر الباطل . وما فائدة الإنسان ؟

ومن يعلم ما هو خير الإنسان فى حياته الزائلة التى يحياها كالظل ؟

ومن يخبره عما سيحدث بعده تحت الشمس ؟

(للمقال بقية) دكتور فؤاد حسنين

of the British Astronomical. Assoc . وخلاصتها أن كوكبة أو حزمة نجمية قربت منها الشمس ولم تقترب من الشمس ، أى أن الشمس هى المعتدية البادئة ، فكان نصيبها من هذا التدخل أن تمزقت بعض أجزائها وأصبحت فيما بعد تمثل السيارات وتوابعها ؛ وهى تختلف عن نظرية جينز فى شيئين : أن الاعتداء من الشمس ، وأن الطرف الآخر ليس نجما بل مجموعة نجمية ، إذ أن اقتراب نجم من نجم نادر الحدوث جدا .

ثالثا : نظرية الأستاذ بيك ونشرت فى عدد ديسمبر سنة ١٩٤٢ من المجلة السالفة الذكر . وخلاصتها أن السديم الكبير الذى ظنه لابلاس قديما يشمل المجموعة الشمسية كلها لم يكن فى رأى «بيك» متمتعا كله بالحركة المحورانية كما ظن لابلاس ، بل إن الجزء الذى يدور هو جزء السديم الهامشى أو حافته — أما الشمس فهى مستقلة عنه . ثم تصور « بيك » أن الأجزاء الهامشية من السديم كانت واقعة تحت تأثير حركات عشواء ، ثم أخذت هذه الأجزاء تتجمع وتتكتل ، وانتظمت الحركات العشواء لوجود الكتلة الشمسية الكبيرة ، ونشأت من هذه السدم الهامشية السيارات والتوابع . وهذه النظرية تعديل كبير لنظرية لابلاس القديمة وذلك تحاشياً لتفسير قلة سرعة دوران الشمس بالنسبة لسرعة دوران سياراتها ، الأمر الذى قضى قضاء مبرما على نظرية لابلاس .

رابعا : نظرية الكولونل أوجووت ونشرت فى عدد يوليه سنة ١٩٤٣ من المجلة الفلكية السالفة الذكر . وخلاصتها أن الشمس قبل مولد المجموعة الشمسية كانت كما هى الآن ، وكان حولها مادة مبعثرة تمتد حتى إلى ما بعد مدار السيار بلوتو آخر المجموعة الشمسية ، وكانت هذه المادة على شكل يشبه القرص السميك أخذ ينكمش بالبرودة ويقل سمكه ويدق حتى تألفت هذه السيارات وتوابعها ودارت حول الكتلة الكبيرة وهى الشمس ، وذلك بفعل الجاذبية .

والخلاصة : أن هذه النظريات الأربع التى سردناها بإيجاز هى أحدث من نظرية جيمس جينز التى وجهت اليها اعتراضات شتى نسرد منها ما يأتى :

أولا : اعترف جيمس جينز بأن اقتراب النجم العابر من الشمس أخرج منها ألسنة غازية على شكل ألسنة ممددة . ويتساءلون كيف تسنى لهذه الألسنة الغازية أن تتكاثف وتتكتل ولِمَ لَمْ تتطاير فى الهواء !

ثانياً : إذا فرضنا أن ألسنة صلبة تطايرت فما الذى حفظ غاز الإيدروجين مثلا إلى الآن من غير تكاثف حول معظم السيارات .

ثالثاً : لقد دلت الاكتشافات الحديثة على وجود سيارن Planets فى مجموعات شمسية أخرى ، أولها سيار قدر حجم المشترى ١٦ مرة ومقترن مع كوكبة Bygni ٦١ وسيار آخر أكبر من السابق ومقترن مع كوكبة Cphiuuein ٧٠ — فدل هذا الاكتشاف على أن هناك مجموعات شمسية أخرى لسياراتها ، فهل — على رأى جينز — اعترضتها نجوم عابرة ؟

إن مسألة مرور نجوم عابرة ليست نظاما بل هى مصادفات إن أردنا تسامحا . فهل هذه المصادفات تخول لنا حق تفسير مولد المجموعتين الجديدتين التى كشفنا عنهما أو المجموعات التى يمكن أن يكشف عنها الغد ؟

أحمد على ابراهيم

***

نشكر الأستاذ الفاضل على اهتمامه وتعليقه ونحب أن نذكره أن ما كتبناه نقلا عن السير جيمس جينز لم يكن هو ما نشره منذ ثلاثين سنة كما تصور حضرته أو صور هنا ، وإنما نقلنا عن كتابة حديثة له بمجلة Endeavour فى عام

١٩٤٣ وإن كنا لا نذكر الشهر الآن . وأظن أن مثل هذا العالم الفاضل (السير جيمس جينز) ما كان ليستمر في التمسك بنظريته لو أن العلماء دحضوها أو قضوا عليها بالدليل والبرهان كما تزر الأستاذ الكاتب . ذلك لأن كبار العلماء يرضخون دائما للحجج القوية ، فهم إنما يسعون وراء الحقيقة

ولا نزاع في أن لكل نظرية أو فرض جديد ما يؤيده كما أن له بعض نقط ضعف . ولو أردنا أن نجرّح الأربعة الفروض التي ذكرها الأستاذ هنا لفعلنا ولكن المجال في هذه المجلة كما قال حضرته لا يتسع لتلك الدقائق ولا لإعادة الكلام لبيان أن بعض الاعتراضات التي ذكرها هنا لا ينطبق على ما ورد في مقالينا . على أننا لا نشك في أن الكلمة الأخيرة عن مولد النجوم لم يصل إليها العلم بعد . وإنما يرى جينز لغاية سنة ١٩٤٣ (ونحن أقرب إلى الأخذ بقوله إلى حد ما) أن المشاهدات والحسابات تؤيد رأيه أكثر من تأييدها آراء غيره ، تلك التي سردها الأستاذ واطلع عليها بغير شك السير جينز عند ما كتب ما كتب مما نقلناه عنه . ودليلنا على ذلك أنه يقول في آخر المقال الذي نقلنا عنه ردا على آخر اعتراض ورد في مقال الأستاذ ما يأتي : —

« عند ما كان المظنون أن السيارات تكونت بفعل كتل تبلغ من الحجم أحجام النجوم الحالية كان من الواضح أن الالتقاء المدّيّ الفعال كان حادثا على جانب عظيم جدا من الندرة وأن المجموعات التي تحتوى على سيارات لا بد وأن تكون نادرة الوجود في السماء . لكن يظهر لنا الآن أن عددا كبيرا من الالتقاءات المدية الفعالة قد حدث عند ما كانت النجوم في أحجام أكبر من أحجامها الحالية بكثير ، ومن ثم يكون عدد المجموعات التي تحوى سيارات أكبر مما كان يظن العلماء من قبل ، فما حدث لشمسنا ليس بالأمر العادى أو المصير الطبيعى ، ولكنه أقرب إلى أن يكون عاديا وطبيعيا مما كنا نظن من قبل . وأنه مصير لا بد وأن يكون قد أصاب من النجوم عددا كبيرا نسبيا ، يبلغ الملايين . هذه الملايين من المجموعات تشبه مجموعتنا الشمسية وقد تحوى سيارات كأرضنا تماما . فإذا تساءلنا عما إذا كان قد نشأت على تلك الزميلات لأرضنا حياة كالتى نشأت عليها ، وعن السبيل التي سلكته تلك الحياة ومقدار شبهها بالحياة التي نشأت على الأرض ، وقف العلم جامدا لا يحير جوابا ، فليس عنده من المعلومات ما يرد به على السائلين » .

أرجو أن يكون هذا التعليق على التعليق قد أقنع الأستاذ الفاضل بأننا لم ننقل رأيا قديما ولم نغفل الآراء الحديثة ولم نقطع بأن الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع الخطير قد قيلت . والله الموفق .

أحمد عبد السلام الكرداني

فيتـــــامين د

منذ زمن ليس بالبعيد أعلن أن بعض المواد الغذائية كزيت كبد الحوت وصفار البيض واللبن وبعض الدهون الحيوانية تحوى على الراجح فيتامينات تسبب تكلس العظام وصلابتها . ولم يثق بذلك بعض رجال الطب وعللوا الكساح بنقص في التدابير الصحية كالتهوية والرياضة ، ووصفوا لعلاجه الكهرباء ، فلم يؤد إلى تحسن يذكر في حالة المرضى . أما مراعاة الشروط الصحية كالتهوية والرياضة ، فقد أدت إلى نتائج لا بأس بها . وقد كان هذا سبباً في اكتشاف Huldschinsky أن مرض الكساح عند الأطفال يشفى بتعريض المريض للأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من مصباح زئبق .

بعد ذلك عرف أن أثر الأشعة المنبعثة من المصباح الزئبق أو من الشمس تحول المادة الخاملة (Sterol) إلى مادة نشطة هي الفيتامين (د) وهذا ما يفسر زيادة نسبة المصابين بهذا المرض بين الأطفال في المناطق المعتدلة عنها في المناطق الحارة ، على الرغم من قلة الأغذية عند سكان هذه المناطق الحارة ، وقلة الفيتامينات تبعاً لقلة الأغذية . ويعلل ذلك بأن تعرض الأجسام لضوء الشمس يحول المواد الأولية الساكنة كما قدمنا إلى فيتامينات نشطة . أما قبائل الأسكيمو فيلاحظ بالعكس أن في عظامهم صلابة واستقامة وفي أسنانهم قوة ولمعانا ، هذا مع ضعف الأشعة التي يتعرضون لها . والسبب في ذلك أن غذاءهم الدهني به من الفيتامينات ما يغنيهم عن أشعة الشمس .

وقد بحث العلماء تحول المواد غير العاملة إلى فيتامينات فعالة ، وأمكنهم معرفة خطوات هذه العملية ، كما توصلوا إلى أكثر من مادة واحدة تتحول في النهاية إلى الفيتامين (د) وجميع هذه المواد الناتجة لها أثر كبير في تكلس العظام وصلابتها . وأول مادة عرفت هي الإرجوستيرول ، وينتج عنها الفيتامين (د) بتعرضها لأشعة الشمس فوق البنفسجية ، وبهذا التعرض يتكون هذا الفيتامين في النبات والحيوان على السواء . وإذا حرم الكائن الحي من هذا الفيتامين في غذائه ولم يتعرض للشمس ، أصيب بأعراض نقص الفيتامين (د) ، وهي المادة التي لابد للهيكل العظمى لكل حيوان من أن ينال قسطاً منها عن أحد هذين الطريقين ، الغذاء أو الأشعة فوق البنفسجية .

فالأسماك التي تعيش في الأعماق والتي لا يصلها أشعة ما تتغذى على أسماك تعيش بالقرب من سطح الماء ، فتنال شيئاً من الأشعة . كما أنها تتغذى على أحياء سطحية مثل الطحالب والأحياء العائمة Planktond ، (أحياء دقيقة نباتية وحيوانية ، تطفو على الماء ، تتقاذفها التيارات ، فتنتقل من مكان لآخر) . وهذه الأحياء بطبيعة الحال معيشتها السطحية تنال من أشعة الشمس ما يساعدها على تكوين مقدار كبير من الفيتامين (د) . والأغنام والمواشي تستمد فيتاميناتها من الحشائش . وأما الطيور فقد لوحظ أن تكلس عظامها لا يتم إلا إذا أعطيت غذاء يحتوى على الفيتامين (د) إذ أن أشعة الشمس لا تؤثر فيها كثيراً .

وللفيتامين (د) فائدتان : الأولى تسهيل امتصاص الكلسيوم والفسفور في القناة الهضمية بوساطة الدم ، والثانية ترسيب هاتين المادتين بقدر يكفي لتكوين العظام والأسنان . فإذا تغذى إنسان على مواد خالية من الفيتامين فإن المخزن منه في الجسم لا يلبث أن يتضاءل ، فيقل امتصاص الكلسيوم والفسفور تبعاً لذلك . وإذا كان في غذاء الإنسان مقدار كبير من هاتين المادتين ، خرج من الفضلات دون أن يستفيد منه الجسم ، وإذا ما نفد كل الفيتامين المخزون في الجسم فإن كلا من الفسفور والكلسيوم يطرد إلى الخارج ، وهذا معناه أن الفيتامين (د) ضروري لامتصاص الكلسيوم والفسفور من القناة الهضمية .

ومما يبين أثر الفيتامين في ترسيب هذه المواد وتكوين العظام ، أن حقن هاتين المادتين في الدم ، مع غياب الفيتامين (د)

لا يؤدى إلى ترسيب الفسفور والـكالسيوم . أما إذا توفر الفيتامين فإن العظـام والأسنان تتكون تكونا سليما رغم قلة العنصرين ، إذ يستفيد الجسم عندئذ بكل الفسفور والـكالسيوم الذى يصل إليه .

ومن الغريب أن مقدار الفيتامين د اللازم للجسم صغير جداً ، فالطفل إذا أعطى يوميا من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ وحدة منه ، وذلك من بدء حياته حتى يصل إلى سن البلوغ ، كون عظاما وأسنانا سليمة ، فإذا عرفنا أن الملليجرام أى $\frac{1}{1000}$ من الجرام يحتوى على ٠٠٠ر٤٠ وحدة من الفيتامين يكون الغذاء اللازم يوميا يتراوح بين [illegible] ، [illegible] من الجرام ، أى حوالى ٧ مليجرام فى السنة لمدة خمسة عشر عاما ، ويقدر ما يحتاجه الإنسان مدى الحياة بمقدار نصف جرام .

ويظهر أثر الفيتامين بشكل واضح مدة الطفولة ، أى وقت البناء والنمو ، فقلته تؤدى بالطفل إلى ارتخاء عضلاته ولين عظامه التى يسهل التواؤها ، فينتج من ذلك مرض الـكساح . أما الأسنان فيكون تكلسها ناقصاً ولا تلبث أن تسوس ، وقد وجد أن إمداد الطفل بالفيتامين (د) يؤدى إلى التغلب على هذه الأمراض ، وقد فحص فى انجلترا ، فى إحدى مدارسهـا ، ١٣٠٠ طفل فى السادسة من عمرهم (عام ١٩٢٩) ، فلم تقابل حالة واحدة ، يكون فيها الطفل كامل الأسنان ، وكانت نسبة الخلو من التسوس حوالى ٧ر٤ ٪

ولنقص هذا الفيتامين أثر خطير على السيدات ، إذ يؤدى ذلك إلى نقص فى تكوين عظـام الحوض ، بل وضمورها وانكماشها ؛ مما قد يودى بحياة الحامل والجنين . وقد وجد أن هذا الخطر يزداد حيث ينتشر مرض الـكساح ، كما أنه زاد أيضاً وقت الحروب بتحديد مقادير الأغـذية ، وقد كانت الحرب الحالية سبباً فى توجيه عنـاية خاصة نحو التغذية ، فعملت أبحاث كثيرة سيكون لها أكبر الأثر فى تغذية الجسم على أساس علمى ، ومع كل ذلك فإن الفيتامين (د) سيبقى عنصراً هاما فى بناء هيكل الجسم وقوامه . وتعانى انجلترا وكثير من الممالك الأوربية نقصاً فى هـذا الفيتامين ، نتيجة لهـذه الحرب . وقد تبين أن مرض الـكساح تزيد نسبته أثناء الحرب ، بينما قلت فى الفترة بين الحرب الماضية والحرب الحالية ، وقد أخذت انجلترا خطوات عملية لمعالجة هذا النقص على النحو الآتى :

١ — إعطاء وجبات مجانية من اللبن للأطفال دون السادسة .

٢ — إضافة كربونات الـكلسيوم إلى الدقيق[1]

٣ — إضافة الفيتامين (د) إلى زبدة جوز الهند المقلدة الزبد الطبيعى .

٤ — تيسير الحصول على زيت كبد الحوت وغيره من المواد الغنية بالفيتامين (د) ولاشك أن ماوصل إليه العلم بعد دراسته من الأغذية لا بد أن يؤدى إلى تكوين جيل سليم التكوين . على أن فى شمسنا وجونا ما يعين الـكثير من فقرائنا على تعويض ما نقص من غذائهم .

محمد أحمد بدوى

(١) تضاف كربونات الـكلسيوم لمعادلة مادة تسمى حمض الفيتيك Phytic acid التى يكثر فى الحبوب والتى يعمل على ترسيب مركبات الـكلسيوم فى القناة الهضمية ويجعلها غير صالحة للامتصاص والترسيب .

صاحب المجلة ومديرها
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الـكرداسى
القاهرة
تليفون — ٥٦٧٦٩

اليقظة الروحية فى الشرق

(الجزء الثانى والأخير من المقال)

رأى العقد الأول من القرن العشرين نشأة جمعيات تمثيلية عديدة كانت لها محاولات فى تكييف المسرحيات القديمة ، وكلها عبارة عن أوبرات غنائية ، وجعلها تتمشى مع روح العصر الجديد ومقتضياته ، ولكنها كانت محاولة فاشلة لأن الغناء فى الأوبرا هو كل شىء ، واستبداله بالكلمات العادية حرم المسرحية من كل معنى . وبلغ الحال أحياناً إلى الاستغناء عن تدوين المسرحية بالكلية وترك الممثل يتصرف كيف يشاء بعد اطلاعه على ملخص الدور الذى عليه أن يلعبه ، فأدى ذلك إلى فصل المسرحية عن الأدب .

وهنا ظهر الكتاب فى حالة تردد عند مفترق الطرق ، وانقسم الرأى بينهم : رأى البعض التمسك بالمسرح التقليدى قائلين إن الغناء ومناظر المسرح الرمزية فى الأوبرا الصينية تنفرد بالطرافة فى العالم كله ، والثانى يحتم التجديد التام مدعيا أن الغناء لا يمكن أن يعبر عن الشعور المعقد الذى يحسه الرجل العصرى . وإن نظام الطبقات يتكرر ذكره فى الأوبرا القديمة . لم يكن فشل الفكرة على أى حال من غير منفعة . فقد تعلمت الصين أنها لكى تشيد الدراما على أساس متين لا بد لها من كتاب مسرحيين . وقد كان التعليم المسرحى فى تلك الفترة فى طريق التقدم بالفعل ، وألحق قسم المسرح بكلية الفنون فى بيكنج عام ١٩٢٥ ، وانتشر ظهور النساء على المسرح بدلا من قيام الرجال بدور النساء .

لكن فات المسرح فى تلك المرحلة نقطة هامة ، فكل الهيئات المسرحية الجديدة ، لم يكن أفرادها يتخذون المسرح كحرفة يرتزقون منها ولكن كفن وهواية ، وبهذا حرم المسرح من قدرته على الترويج والتسلية ، ومن ثم أعرض عنه الجمهور . وحدث فى عام ١٩٢١ أن قدم المخرج والكاتب المسرحى الشهير وانج تشونج هسيه مسرحية غربية قدم لها بدعاية واسعة ولكنها فشلت مع هذا ، فراح المخرج فى اليوم التالى يحلل المتفرجين هكذا :

قصر بعضهم من فهم ما كان يدور على المسرح ، بينما أدرك البعض الآخر ، ولكنهم وجدوا القصة تنقصها الحوادث المثيرة . وقد كان بين المتفرجين من رفضوا أن يقبلوا شخصية البطلة المتطرفة ، وامتعض آخرون لسماعهم عبارات جديدة مثل المساواة بين الجنسين تتردد أكثر من مرة . أما لهؤلاء الذين شاهدوا الرواية من قبل تمثل على مسارح أوروبا فقد كان التمثيل مخيبا للظن من غير شك !

ثم وقع اكتساح اليابان لمنشوريا فى عام ١٩٣١ فأحدث انتعاشا ملحوظا فى حركة التمثيل . إذ لما اشتدت رقابة الحكومة على كل دعاية ضد اليابان عبر الصينيون عن وطنيتهم تحت ثوب من التخفى ، وأخرج مسرح الهواة بشنغهاى فى تلك الفترة عددا من الروايات الناجحة مثل المفتش لجوجول والزوبعة لأستروفسكى وروميو وجولييت ، والتحق بذلك المسرح عدد ممن درسوا فن الإخراج والمناظر المسرحية فى معاهد أوروبا وكان لهم مجهود موفق . ولكن التقدم الجوهرى الحقيقى حدث فى تأليف المسرحية نفسها ، وكان تساو يو أستاذ الأدب إلى جانب هوايته التمثيل ممن وصلوا إلى الذروة فى هذا المضمار ، فكانت تخصص لرواياته التى تجمع بين حرفة المسرح والفن الأدبى مئات الحفلات ، وقد أثبت تساو فى رواياته كيف أن الكاتب يستطيع أن يستفيد من الحضارة الأوروبية دون أن يصبح أوروبيا هو نفسه

ولما أعلنت الحرب اليابانية عام ١٩٣٧ جاء المسرح ليؤدى دوره كذراع للدعاية وصارت الفرق الملحقة بوزارة الاستعلامات تتنقل على مسارح القتال وأحيانا خلف خطوط العدو لكى تبعث فى الشعب اليقظة والنشاط . ولقد جمد التأليف والتجارب المتعلقة بالمسرح إلى حين .

أما فى أدب القتال فإن الكاتب الصينى يحس ارتياحا كبيراً ، ويضع المؤلف كتاب القتال فى فئتين : المتعبد الذى يكون له القتال كالأزميل فى يد المثال ، هو قوى العاطفة ، لا يبغيأ يعبر عما يخالج نفسه ، تسيل عاطفته لذكرى كوخ من

القلب كان يسكنه فى قديم الزمان ، أو يندب موت عصفور كان يدخل السرور إلى نفسه . الموضوع بسيط ، ذكريات شخصية غالبا ، ولكن الكتابة تتسم بنغم وموسيقى ، وفيها التعبير عن خلاصة الحنين الطبيعى فى الإنسان وغير التعبد نجد الفارس المتجول الذى يكون القال فى يده كالسيف يصيب به عدوه على القرب ، والرمح إذا ما كان العدو على البعد . وكما لا بد أن تتوفر الجودة للأزميل ، فلا بد للسيف من أن يكون حادا ، هو سلاح لا بد أن يصيب شيئا ، نقد اجتماعى أو سياسى أو أدبى .

ويقف لوهزدين ككاتب الصين الأول فى أدب القال ، وقد خلف بعد موته أربعة عشر مجلدا منها ، ولم يكن الكاتب ليرمى إلى تخليد تلك الأعمال التى تتناول فى أكثرها أحداث الساعة ، بل كان يرى ضرورة مهاجمة كل الأشخاص والأشياء التى يعتقد سقمها وسخافتها فى أول عهد الجمهورية ، وينقد الكتاب الذين يصورون صورا جميلة فى وسط الظلام ، هؤلاء الذين « لا يملكون قوة يواجهون بها المجتمع القائم » ، ويطلب منهم الشجاعة ليضحكوا ويبكوا ، وأن يلعنوا وأن يضربوا » ويحتقر التنميق والزخرفة قائلا : « فى هذه الساعة والزوابع تعصف فى الخارج والذئاب والنمور تزأر فى طلب حياتنا ، من يستطيع أن يكون فى حالة تمكنه من تقدير قرط من المرجان أو سوار من الزمرد . حتى ولو كان الشعب فى حاجة إلى أن يغذى روحه من الأشياء الجميلة فإنه يرغب أولا أن يرى بيته مقاماً على أساس متين ليواجه الزوبعة » .

يشيع أدب القال فى الوقت الحاضر أكثر من أى وقت مضى ، فالحرب لا تمكن الكاتب من الانعكاف على رواية تحتاج إلى هدوء وخيال ، ولا القارئ الذى لا يجد الوقت الكافى ، وكلهم يعودون من خطوط القتال الأمامية أكثر جرأة على مواجهة الحقيقة . إن الحرب تزيد فى صلابة أرواحهم وفى توثيق علاقتهم بالأرض وبالشعب .

كان جليا أن الشيء الذى أيقظ التفكير فى الصين هو احتكاكها بمفكرى القرن التاسع عشر من الغربيين ، كما أيقظت وطنيتها المعاهدات الجائرة التى فرضت عليها ، وقد كانت الترجمة من الأعمال الجوهرية فى نواحى الأدب لجهل عامة الشعب باللغات الأجنبية ، والأدب الروسى كان بنوع خاص منبعا رئيسيا فى إلهام كتاب الصين ، مثل روايات تولستوى ، بوجهة النظر الاخلاقية فيها ومآسى الحياة العائلية التى تتناولها .

ولكن الترجمة حتى سنة ١٩٣٢ كانت تتم عرضا دون خطة منظمة ، وكانت معلومات الصين عن التاريخ الأدبى فى العالم ناقصة ، فوضعت أخيرا خطتان أخذت إحداهما فى ترجمة روايات توماس هاردى مثل تيس سليلة دربرفيل وعودة الوطنى وروايات جوزيف كونراد وأعمال شكسبير . والخطة الأخرى ترمى إلى ترجمة منتخبات من الأدب العالمى مثل أنا كارنينا وروايات نيتشه وجوجول ودوستوفسكى وشارلوت برونتيه .

وفى النهاية يختتم المؤلف بقوله :

لم تحقق الحرب لليابان تلك المنافع العظمى التى كانت ترمى إليها ، ولكنها كانت ضربة قاصمة للنشاط الأدبى فى الصين عامة ، فقاذفات القنابل من بلاد « الشمس المشرقة » أحرقت آخر نسخة من شكسبير فى مكتبة إحدى الكليات ، وصعوبة الحصول على الورق أوقف النشر عند حد ، والغارات المستمرة على المدن التى لا تملك الدفاع عن نفسها لا يكاد يعين على ترجمة الفصول الهادئة من الروايات .

لقد سخرت الحرب من كل شيء ، ولكنها جعلتنا ندرك فى نفس الوقت حاجة الأمم إلى التفاهم . لم يعد فى استطاعة الصين أن تفهم الانجليز من خلال روبنسن كروزو أو الملك لير ، كما لم يعد للانجليز أن يأملوا فى فهم الصين التى تتحرك بقوة من طريق الانكباب على دراسة شعرائها الذين ماتوا من زمن طويل . إنى أختتم هذا المختصر بصوت احتجاج خافت وبأمل حار .

اميول حافظ

بين المسموع والمقروء

ذكر أم أنثى

سألني سائل : كيف أن عدد الذكور يزيد في مصر على عدد الاناث ، في حين أنه في أوربا يزيد عدد الاناث على عدد الذكور ؟

والجواب عن ذلك أنه لابد أولاً من النظر في الفرضين اللذين تضمنهما سؤال السائل

أما أن ذكور مصر زادوا على إناثها ، فهذا حسب تعداد مصلحة التعداد صحيح . وأما أن إناث أوربا تزيد على ذكورها فأمر لا أرى أن أوافق عليه قبل الرجوع إلى الإحصاءات ، في كل بلد من تلك البلاد

ولكن عندي الجواب عن سؤال هو أقرب إلى أسس القضية المعروضة من هذا . فالقضية المعروضة تختص بعدد النساء والرجال القائمين مثلا في أمة أو قارة أو قبيل ، وأنا أريد أن أتحدث عن عدد من ولدوا أو يولدون من الرجال والنساء في هذه الأمة أو هذه القارة أو ذاك القبيل ، أي أريد أن أتحدث عن النُّطَف عند إخصابها ونضجها وخروجها إلى الكون صائحة تصيت

والفرق بين الحالين بيِّن . فالفرق بيِّنٌ بين عدد من يولدون من هؤلاء وهؤلاء ، وبين عدد من يقدر لهم العيش من بعد ولادة . فالعيش من بعد الولادة يخضع لعوامل كثيرة . فالحرب ، مثلا ، تقع في أمة فتذهب ببعض رجالها دون نسائها فيقل رجالها الأحياء عن نسائها الأحياء ، وقد أراد الله عند الولادة لهم المساواة ، بينا أن الحروب لا تقع في أمة أخرى فلا تؤثر في رجالها ، إلا أن تتدخل عوامل أخرى كالأمراض والعادات فتقلب الميزان

لقد قلت لسائلي فقلت إن الله أراد لهم عند الولادة المساواة . فهل هذا صحيح ؟

أظن أن أكثر الأفهام يميل إلى القول بأنه صحيح . فإن لم يكن صحيحاً وجب أن يكون صحيحاً ، إذ كيف يخلق الله الرجال ولا يخلق ما يكفيهم من نساء ، وفي هذه الكفاية صلاح الناس واستمرار الحياة ؟ أو كيف يخلق الله النساء ، ولا يرسل إليهن ما يكفيهن من رجال ، فيترك أرضاً خصبة دون بذرة تعمرها وترسل فيها النبات

والأصل في الخليقة هي المساواة بين الجنسين حقاً ، ولكن الواقع هو أن الله شاء أن يزيد في أعداد رجال الدنيا عن أعداد نسائها شيئاً طفيفاً ، لا يزال على الأيام ثابتاً

أما أن الأصل المساواة ، فناتج من قانون يسميه العلماء «قانون الاحتمالات» وهو قانون لا يعمل عند العلماء فحسب ، ولكنه يعمل عندي وعندك ، في البيت وفي الشارع ، وفي اليقظة والنام ، وفي الحياة جميعاً ما استقلق منها وما وضح

هب أنك ألقيت نرداً (زهراً) على طاولة ، فأي أوجهه الستة يكون الأعلى ؟ ذو النقطة أو النقطتين ، أو الثلاث ، أو الأربع ، أو الخمس ، أو الست ؟ لا شك أن احتمالات هذا متساوية . ولكنك إذا ألقيت النرد عشر مرات فلن تكون النتيجة متساوية ، فقد تعلو النقطة الواحدة أربع مرات وقد تعلو النقط الثلاث مرة ، وتعلو النقط الخمس مرتين ، وتعلو النقط الست ثلاث مرات ، فيكون المجموع عشراً ولكنها تكون قسمة ضيزى ليس بها من المساواة شيء

ولكن زد عدد الإلقاء من عشر إلى مائة ، ومن مائة إلى ألف ، ومن ألف إلى مليون ، وهلم جرا ، فعندئذ تجد أن القسمة استقامت ، وأن الأوجه الست أخذت نصيباً واحداً من العلو والسمو

ومعنى هذا أن القانون يعمل ، ولكن في الحالات الكثيرة العدد وحدها

ومثل آخر : مثل الريال تلقيه إلى علٍ ، ثم تلتقطه بين كفيك ، وهو نازل في الفضاء هابط . فكم مرة يعطيك وجهه ، وكم مرة يعطيك ظهره ؟ يعطيك هذا وهذا مرات متساوية ، إذا أنت قذفت به ألوف المرات .

وحولا آخر لتفهم الزيد من ظروف يعمل على مقتضاها هذا القانون :

إنك تلق بالريال إلى علٍ ، ثم تلتقفه وهو طائر . فما هي العوامل التي تؤثر فيه فيبدي وجهه ، أو يبدي ظهره ،

عند استقراره على كفك من بعد إلقائه ؟ إنها عوامل كثيرة .

فأول هذه العوامل حالته التي كان عليها عند قذفه ، أكان وجهه الأعلى أم ظهره . وثانيها المستوى الذي كان فيه ، هل كان أفقياً أو رأسياً ، أو في وضع من الأوضاع الألوف المحتملة بين هذا الوضع وذلك . وثالثها ، بأي قوة قذفته ، وعند أي طرف من محيطه أدرته . ورابعها ، إلى أي علو علا . وخامسها ، إلى أي علو هبط . وسادسها ... وسابعها ... عوامل كثيرة وشتيتة .

وهي عوامل مستقلة ، أي لا يستند بعضها إلى بعض .

فهذا شرط انطباق قانون الاحتمالات ، أو قانون المصادفات إن شئت : أن تكون العوامل المؤدية إلى النتيجة في المرة الواحدة عوامل كثيرة ، وأن تكون عوامل مختلفة ، وأن تكون عوامل مستقلة بعضها عن بعض ؛ ثم أن يزيد عدد المرات زيادة كبرى ؛ وهي كلما زادت اقتربت احتمالات ظهور الأسود والأبيض من المساواة .

والآن إلى تطبيق ذلك في الإعمار عند بني الإنسان .

إن ماء الرجل يحتوي الملايين من أجسام حية لا تراها العين عارية ، ولكن تراها من خلال المجهر ، وهي إذا نظرتها من خلال العدسات وجدتها تسبح كما يسبح صغار السمك ، أو على الأصح فراخ الضفدع — إن كنت رأيتها — وهي تسبح في كل اتجاه على غير قصد ، وبغير إرادة .

ولكن هذه الأجسام الحية ، السابحة كأفراخ الضفادع ، ليست كلها سواسية . إن بعضها به شيء صغير كشكل القضيب ، وبعضها خِلْوٌ منه .

أما التي بها هذا القضيب فتنتج الأنثى ، وأما التي ليس بها هذا القضيب فتنتج الذكر ، وعدد هذه في السائل كعدد تلك .

فما الذي يحدث عند ما يلتقي ماء الرجل بماء المرأة .

يحدث أن يجتمع باجتماع السائلين شيء عجب : خمسة ملايين من صغار تلك الأحياء التي جاء بها الرجل تتزاحم لتلتقي ببيضة المرأة واحدة فتلقحها . ولا يلقح البيضة ، وهي واحدة ، إلا حيٌّ واحد من تلك الأحياء ، فإذا ما فعل مات سائر هذه الأحياء ألوفاً مؤلفة .

وهنا يأتي موضع السؤال المقصود من هذا المقال : كم يخرج من الذكور وكم من إناث .

والجواب عند قانون الاحتمالات ، إن مليونين ونصف مليون حيّ منويّ ينتج الأنثى ، ومليونين ونصف مليون حيّ منويّ ينتج الذكر ، تهيم جميعها على غير هدى في ذلك الماء ، فأيهما يقترب من تلك البيضة الواحدة أولاً ؟ تلك البيضة التي تقف على حياد مما يراد بها ؟ لا شك أن احتمال هذا كاحتمال ذلك عند المرأة الواحدة . فإذا نحن اعتبرنا ملايين النساء ، على اختلاف بيئاتهن وصور معيشتهن وتعدد أمزجتهن ، ظهر انطباق قانون الاحتمالات — قانون المصادفات ، على أوفى شروطه .

ولكنا قلنا إن المولود من الذكور يزيد قليلا عن المولود من الاناث ، فكيف يكون ذلك ؟

وهنا نعود إلى النرد من جديد .

لقد قلنا إن احتمال ظهور وجه من أوجه النرد الستة ، دون سائر أوجهه ، احتمال متساو لكل وجه من تلك الأوجه . فهل هذا بالضبط صحيح ؟

والجواب : لا . لأن الوجوه كلها منقوطة ، وهي منقوطة بالحفر ، فالوجه ذو الست النقاط أخف من الوجه ذي الخمس . وذو الخمس أخف من ذي الأربع . وأثقل الجميع الوجه ذو النقطة الواحدة ، فاحتمال استقرار النرد عليه أكثر من استقراره على أي وجه آخر .

وكذلك الحال في الأحياء التي يتضمنها سائل الرجل . فلا بد أن شيئاً في الأحياء الصغيرة التي تنتج الذكور يزيد على مثله في التي تنتج الاناث ، كأن يكون سرعة في الحركة أو سهولة في اندماج .

وإلى أن يكشف العلم هذا الشيء ، هذا السر ، هذا الفرق ، لا نستطيع أن نفسر تلك الزيادة .

وإذا انكشف هذا اللغز ، فقد يستطيع العلم ضبط ما يخرج الناس من ذكور وإناث ، فيزيدون من هذا وهذا وفق الحاجة .

وهل يكون هذا شرا أو خيراً ؟

علم ذلك عند ربي . أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٤٨ — الثلاثاء ٣٠ من رمضان سنة ١٣٦٤ — ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

وفاة عالم جليل

تنعى « الثقافة » لقرائها أستاذا جليلا ، وعالما كبيرا هو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر ، فترك بموته فراغا قل أن يملأ .

كان تلميذا للأستاذ الشيخ محمد عبده ، وكان خلفا له ، ذكى حاد الذكاء ، فصيح جزل البيان ، يؤثر في السامع ببيانه ونبرات صوته وجودة أدائه وما يشع من قوة نظراته ، لبق يعرف ما يقال ومتى يقال وكيف يقال ، فلو جالسه أدق الناس مدنية وأعرفهم بطرق اللباقة وشروطها لأنس به ، وارتاح إليه وأخذه الاعجاب به ، واسع الأفق في التفكير ، حر النظر لا يتقيد إلا بأصول الدين . جمع إلى المعرفة الدينية الواسعة معرفة بالدنيا واسعة ، يعرف في السياسة كما يعرفها ذووها ، وفي وجوه الإصلاح الاجتماعي ما يعرفه كبار المصلحين ، وفي التيارات الواضحة والخفية في العالم العربي ما يعرفه الخبيرون .

كل هذه الصفات تجلت للناس في حياته العامة والخاصة وفيما أسند إليه من أعمال .

أول ما ظهرت مواهبه أيام كان قاضي قضاة السودان فنظم القضاء فيه على أسس جديدة ، ووضع له لوائح الاصلاح . وكان موقف قاضي القضاة دقيقا لأنه كثيرا ما يمس الشؤون السياسية من قرب أو بعد ، والسياسة السودانية معقدة ملتوية ، فعرف كيف يسير سفينته في هذه الأمواج وخرج من وسطها آمنا بما استطاع من إصلاح .

وعاش في السودان عيشة من يصون عرضه بماله ، ويعتز بكرامته وكرامة منصبه ولو أنفق في سبيل ذلك كل

ما فى يده من مال ووسائل ، ومن أجل ذلك أجمع على تقديره المتخاصمون ، وصادقه المتخالفون ، وخلف السودان يوم تركه ذاكرا له بالحمد والثناء والعرفان بالجميل .

وظهرت مواهبه كذلك يوم تولى القضاء الشرعى فى مصر فعرف بنزاهته وتمسكه بالحق ، وفهمه للأمور فهما صحيحا وإصراره على مبادئه مهما سبب له ذلك من أضرار .

وولى مشيخة الأزهر ، وهو منصب شائك محفوف بالمصاعب ، فدعاة القديم أقوياء ودعاة الجديد أقوياء ، وظروف وملابسات لها حكمها واعتبارها ؛ وهو إلى ذلك منصب له أعباء دينية واعتبارات سياسية ونواح إدارية ؛ وعلى الجملة فهو منصب تتجاذب فيه الدنيا والآخرة وتتجاذبه المبادئ التى تمس الأرض والتى تمس السماء ؛ ولذلك تعب فيه كل من حل فيه ، فمن استسلم تعب ، ومن جاهد تعب ، ومن أراد الإصلاح رمى بالشطط ، ومن ترك الأمور تجرى كما تجرى رمى بالجمود ، هكذا لقى كل من تولى الأزهر .

ولما وليه الشيخ المراغى وضع نصب عينيه أستاذه الشيخ محمد عبده ، فكان يشيد به فى خطبه وأحاديثه ويترسم خطى إصلاحه ، ويفكر فى الخطط والمناهج التى تسمو بالأزهر إلى أرقى مكان ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وقد ظهرت حرية تفكيره فى القوانين التى أريد إصلاحها من إرث ووصية ووقف ، فكان فى لجنته مرنا لا يتقيد بمذهب خاص ، وإنما يتقيد بأصول الدين ، ويلقى نظرة فاحصة على حالة الأمة الاجتماعية وعلى ما تتطلبه من عدالة ، ثم يختار من آراء أئمة الفقهاء ما يتفق وهذا الموقف وهذه العدالة .

وتتجلى سعة أفقه بما كان يلقى من دروس فى التفسير تتفق وذوق العصر وعقليته وثقافته ، إلى طلاقة لسان وجودة أداء وحسن اختيار .

فرحمه الله رحمة واسعة . وجزاه على حسن صنيعه أحسن الجزاء .

أحاديث رمضان :

(٣) الحياة الروحية

قال الصوفى : « إن أساس التصوف — بل أساس الديانات كلها — أن وراء العالم المنظور عالما آخر غير منظور ، وأن العالم غير المنظور يختلف فى صفاته عن العالم المنظور ، فهو لا حجم له ولا زمان ولا مكان ؛ وأقرب مثل له آراؤنا وأفكارنا وذكرياتنا ، فنستطيع أن نفكر ما لا عدد له من الأفكار من غير أن يكون لها حيز .

وكثير من تعاليم الدين لا يمكن الوصول إليها من طريق العلم ولا الفلسفة . كالحياة بعد الموت ، فليست وسائل العلم ولا الفلسفة صالحة للوصول إلى هذه الحقيقة نفيا أو إثباتا ، لأنها ليست من جنس مادته ، ولا من جنس ما يبحث فيه أو يصل إليه .

إن إدراك هذا العالم الروحى لا بد أن ينظر إليه من زاوية غير زاوية المنظور لأن طبيعته ليست كطبيعة المنظور ، وما قيل من وصف الجنة والنار والحياة الآخرة لم يعبر تعبيرا تاما عنها ، لأن أكثر النفوس لا تستطيع فهم المجردات ، ولأن اللغة لم توضع إلا لشئون الحياة المنظورة ، فاضطر المعبرون عنها أن يلجئوا إلى ألفاظ الدنيا وتعبيرات الدنيا على طريق المجاز . والحياة الأخرى ليست كهذه الحياة فى خضوعها للزمن ، ولا شأن لها بطلوع الشمس وغروبها ، وهو أهم عامل فى الزمان فإذا جردت الحياة من الزمان كان طابعها مخالفا كل المخالفة لحياة الدنيا وشؤونها .

إذاً فالحياة الروحية لابد أن تدرك بأساليب أخرى . وأهم وسيلة إليها هى الرياضة . والغاية من هذه الرياضة تهيئة الشعور للاتصال بهذا العالم الروحى كما يمهد الشخص للتنويم المغناطيسى . وما الشعائر من صلاة وصيام إلا أنواع من هذه الرياضة ، وكذلك ما فعل رسول الله من التعبد

في غار حراء قبيل البعثة كان من هذا القبيل ، وكذلك استحضار الله في القلب ودوام ذكره ، ونحو ذلك كلها وسائل لإعداد الشعور ، وعند بعض الأفراد ذوى الاستعداد تسفر هذه الرياضات عن نتائج غريبة .

فيرى الدنيا غير ما نرى في العادة — كأن ينعدم الفرق بين ذاتي وغيري فلا ذاتية ولا غيرية ، وتنعدم الفروق بين الأشياء ، فلاشيء مستقل بنفسه كالعالم لم يجزأ العالم كله خلية متكررة ، وهو شيء غريب في الحياة المادية ، ولكنه أمر مألوف في الحياة الصوفية . وعلى الجملة فهو يرى العالم من زاوية غير الزاوية التي اعتاد الناس أن ينظروا منها . فإذا هو أمعن في هذه الرياضة استغرق في شبه غيبوبة ، وكان في شبه حلم ، ورأى كأنه انغمس في نور واتحد به ، ورأى وسمع مالم يستطع وصفه إلا عن طريق الرمز ، وإنما يفهم رمزه من ذاق مثل ذوقه ، وهذا هو ما كان من أمثال ابن العربي وابن الفارض وغيرهما من المتصوفة في كل أمة وكل دين .

والناس معذورون في إنكارهم هذا لأنه شيء لم يعتادوه في الحياة المألوفة ، والصوفية معذورون لأنهم يصفون ما يرون .

وغاية الأمر أنه في هذا الباب مهرجون ونصابون ومزيفون كما هو الشأن في عالم المعقولات في حياتنا المادية . ففي حياتنا من يهرّج في الخطابة ويبعد عن المنطق الصحيح ، ومن يوهمك أنه مخلص وليس بمخلص ، ومن يلبس باطله ثوب الحق ونحو ذلك ، فكذلك في عالم الروحانيات ، صادق وكاذب ومحق ومزيف ، بل ربما كان التزييف في هذا الباب أكثر لأن الحياة المادية قد تنضبط بالمنطق . أما هذه فمرجعها الذوق والشعور ، وهو من الصعب ضبطه . فأرى من مظاهر أرباب الطرق كالطبل والزمر واللعب بالذكر والمراسم الصوفية كلها ليست من التصوف الحق في شيء ، وإنما هي صوفية مزيفة ، والتصوف الحق قد يباشر أمور الدنيا ويتصرف في الحياة بالتجارة أو الصناعة أو نحوهما ، وليس يشعر بروحانيته إلا خاصته ، ومن هم على نمطه ، وحتى إذا ذكروا الله ذكروه بقلوبهم ، ولم يحركوا بذكره لسانهم .

والصوفي الحق رجل تيقظ شعوره فاتسعت آفاقه وتكسرت حدوده — يرتفع الصوفي فوق تفاصيل الحياة الدنيا كما يرتفع الطائر في طائرته ، فيضعف شعوره بشخصيته ويذوب في العالم الذي يسبح فيه . ويسبح في هذا الأفق الشاعر والفنان والصوفي والنبي على اختلاف في منازعهم ومداركهم وإلهامهم ووحيهم وحقيقة رسالتهم . إنهم جميعا يدركون العالم وراء حدود مادته وأشكاله . إنهم بعواطفهم المرهفة يرون أن الإدراك الحسي والعقل لا قيمة له بجانب إدراك الشعور المطلق . إنهم يقرءون في النجوم والسماء والبحار والأنهار والأشجار ما لا يقرأ الناس ويدركون في الأشياء كلها وحدة تعز عن الوصف . إنهم يرون الظاهر أمواجا فوق سطح البحر ، أو أوراقا تورق وتسقط والشجرة باقية . إنهم يذيبون أنفسهم في مصدرها .

إذا كان جمهرة الناس يدركون الله حاكما مسيطراً على العالم يضرعون إليه في قضاء حوائجهم فالصوفي يراه القوة التي ينبض بها قلب الإنسان وقلب العالم ، ويتحول بها غير المنظور إلى منظور ، ولذلك يحول الصوفي عينه من الجزئيات والأشخاص والأفراد إلى المنبع الواحد الذي تفرع إلى مظاهر مختلفة » .

وهنا أفاض محدثي في ذكر ما يجده الصوفي من وحدة الوجود والحب الإلهي وما إلى ذلك ، وأنه ينتهي به الأمر إلى الهيام بالعالم غير المنظور وحقارة المنظور .

فقاطعته بقولي : إني أومن بأن الرياضة الصوفية تصل بصاحبها إلى رؤية العالم من زاوية غير الزاوية التي اعتاد الناس الرؤية منها . ولست أشك في صدق كبار الصوفية أمثال ابن العربي وابن الفارض والغزالي وغيرهم وأمثالهم من

متصوفة الأديان الأخرى ، وأنهم حقيقة يصفون مايشاهدون ولكن هل هم يرون الحقيقة ، أو أن رياضتهم النفسية وكثرة مجاهدتهم للنفس من جوع وصيام وعزلة ورهبانية تجعل نفوسهم غير طبيعية ، فيرون ما لا وجود له ، هل هم المحقون والإنسان المادى مخطئ؟ أوهم المخطئون والإنسان المادى مصيب ؟ إذا كنت أرى الأشياء بعينى المجردة ويأتى آخر فيلبس منظارا أزرق أو أصفر فيرى العالم كله من خلال منظاره أزرق أو أصفر ثم يصف ما يرى فهو صادق ، ولكن هل لون العالم الذى سببه المنظار هو الحق ؟ هل الصوفية لبسوا منظاراً فأوقعهم فى الخطأ أو أن عينى المجردة هى المخطئة وأنهم لم يلبسوا منظارا ، وإنما كان على عينى وأعينهم غشاوة فأزالوها هم من أعينهم ؟ هل الزاوية التى ينظر منها الصوفية إلى الأشياء هى الزاوية الصحيحة أو الزاوية المنحرفة ؟

تبسم من قولى وسكت برهة ثم قال : إن الصوفى لم يضع على عينيه منظاراً ملونا يرى به الأشياء ملونة بلونه . إنما هو أمسك مكروسكوبا يرى به الأشياء على دقتها . وماقيمة ثقتك بعينك المجردة ؟ إنها تريك الشمس فى حجم الرغيف وتريك النجم فى حجم الكرة وتريك الشيء أملس وهو مملوء بالتجاعيد . إن علمكم المادى يهزأ بالحواس ويؤمن بنقصها ويخترع كل يوم ما يكمل هذا النقص .

وإن بصيرتنا التى نصل إلى جلائها من طريق الرياضة خير ألف مرة من بصركم فى كشف الحق . وآية ذلك أن حواسكم وعلمكم المبنى على الحواس لم يستطع أن يفسر العالم الذى نعيش فيه تفسيرا شاملا بل عجز عن تفسير الحياة والموت وعجز عن بيان علاقة المخ بالفكر وعجز عن تفسير ظواهر لا تجرى على المألوف ، فلما تصوفنا استطعنا أن نكشف ببصيرتنا ما عجز عنه العلم وأن نؤمن بما كفر به العلم . وأمر آخر وهو أن كثيراً من خيار المتصوفة جمعوا بين العلم والتصوف ، وبين لذة العقل ولذة الكشف ، فلما وازنوا بين النتيجتين آثروا الكشف على العلم — هم لم يكفروا بالعلم ورأوا لذته وقيمته ، ولكن رأوا الكشف وجلاء البصيرة أعلى منه شأنا ؛ ومثل ذلك مثل من جرب اللذة الوضيعة واللذة الرفيعة ثم آثر الثانية على الأولى ، أليس هذا دليلا على سمو الثانية ، وعلى أن حكم مجربى الأمرين خير من حكم مجربى أمر واحد .

ودليل ثالث وهو أن المتصوفة من جميع الأديان فى جميع الأزمان وصلوا من طريق الرياضة إلى نتائج متماثلة ، ولو كانت مجرد خيالات لكان لكل إنسان خياله الخاص به .

إن الزاوية التى تذكرها وينظر الناس منها إلى العالم هى زاوية العوام وأشباههم ، ولذلك يأنف من النظر منها حتى علماء المادة أنفسهم ، ويجتهدون أن يعمقوا حتى يروا العالم كله وحدة من خلايا متشابهة كما يجتهدون أن يسموا حتى يدركوا المادة غير متأثرة بعامل الزمان والمكان ، وقد يلتقون فى آخر طريقهم بالمتصوف فى بعض الطريق .

وأخذ يهجم على فكرة أخرى ثم سكت فجأة .

فسألته : ما باله ؟

قال : تلك شقشقة هدرت ثم قرت ! .

وافترقنا على موعد .

أحمد أمين

مقطوعات من الشعر الغربي :

الأشباح المنصتة

للشاعر دى لا مار Walter De La Mare

أقبل المسافر وطرق الباب ، وكانت تنيره أشعة القمر ساطعة بيضاء

قال متلهفا : « ألا من أحد هنا ؟ »

وعبث جواده بحشائش الأرض السرخسية فسمع حفيفها في السكون السائد ؟

وطار طائر من البرج وحام حول رأسه

وعاد يطرق الباب وينادى : « ألا من أحد هنا ؟ »

لكن أحداً لم يسرع لاستقباله

أو حتى يطل برأسه من خلل الباب ، وقد طوقته أوراق الشجر ،

لينظر مليًا في عينيه الزرقاوين

لم يكن هناك من ضائف يستضيفه إلا « الأشباح المنصتة »

فلم يكن من أحد يعمر البيت حينئذ سواها

ووقفت هذه الأشباح في هدوء القمر مبهوتة من صوت هذه الآدمى

وقد قطعت أشعة النور الوادعة السارية نحو السلّم المظلم

المؤدى أخيرا إلى الردهة الخاوية !

المكان هادئ يتذبذب هواؤه ثم يستقر

وفقًا يتذبذب ويستقر نداء هذا الحيران .

وشعر في قرارة قلبه بوحشة وجود

وجواده ظل يعبث بالحشائش الساكنة

في العراء تحت سماء تلمع نجومها من خلال أوراق الشجر !!

وفجأة يقرع الباب مرة أخيرة في عنف واهتياج ، ويرفع رأسه ويقول :

« خبروهم أني أتيت ... وناديت ... ولا من يلبى النداء . خبروهم أني حفظت عهدى »

كان السكون مطلقا عميقا

حتى لقد رددت أصداءُ كل كلمة فاه بها هذا الساهد في ظلمات هذا البيت الهاجد

ثم أعطى ظهره وفارق

سمعت الأشباح المنصتة ضجته لما اعتلى صهوة جواده

وصوت الحديد على الصخور سمعته تلك الأشباح

ثم الصمت كان يخيم ناعما متهاديا كأنما يجرى إلى الوراء

ووقع الحوافر كان يضمحل رويدا رويدا . كان كأنه يجرى قدما إلى الأمام مع صاحبه

عبد الفتاح البارودى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع السكرمانى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

سبحات صائم

وأى شىء ألذ من امتلاء المعدة بعد الصيام ؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك قيمة الطعام إلا إذا ذاق الحرمان والجوع يوما طويلا من أيام رمضان فى هذا الصيف الذى يمتد يومه من بعيد منتصف الليل إلى قبيل منتصف الليل الذى يليه . فالحق أن الطعام يلوح للصائم بعد الجوع الطويل كأنه لذة اللذات ومقصد الحياة . ولقد أتعب الناس أنفسهم حينا من الزمان فى البحث عن مقصد الحياة وحاول الشبان منهم أن يوهم نفسه بأن للحياة قصدا غير الأكل ، فألف الحكمة المعروفة وهى أن الإنسان إنما يأكل ليعيش ، ومعنى هذا أن الإنسان يأكل لأن الأكل وسيلة لحفظ الحياة حتى تتهيأ له الفرصة لبلوغ غايته من الحياة . ولكن ما هذه الغاية التى يأكل ليعيش من أجلها ؟ إنه لم يستطع أن يبينها إلى الآن مع كل ما قام به الفلاسفة من فنون البحث وكل ما زعمه المفكرون من غايات الإنسانية . فليس هناك إلا حقيقة واحدة مؤكدة يعرفها الجميع ولا يستطيع أحد إنكارها وهى أن الإنسان يعيش ويأكل ويتلذذ بالأكل إذا كان جائعاً .

والجوعان من بنى الإنسان يرى أن الحياة إنما هى الطعام وأن الإنسان إنما خلق لكى يعمل فى سبيل الحصول على ما يأكل . ولو سألنا المحرومين من ملايين البشر عن قصد الحياة لما ترددوا جميعا فى أن يقولوا فى صراحة إن قصد الحياة هو أن يأكل الناس شأنهم فى ذلك شأن كل المخلوقات . وأما سائر مجهودات البشر فى هذه الحياة فإنما هى وسائل للحصول على الطعام ، وأمثال الطعام مما هو ضرورى لحفظ الحياة .

ومهما يكن من أمر هذه الفلسفة وما فيها من اختلاف الآراء بين أهل الشبع وأهل الجوع فإنى أزعم أنى بعد صيام اليوم الطويل يحلو لى أن أجلس لأتأمل هذه الحياة وما فيها .

وعند ذلك أستلقى على مقعد وأدخن سيجارة وأنظر إلى السماء لعلى أجد فيها جوابا لما يثور فى نفسى من الأسئلة . وقد بدا لى وأنا أتأمل النجوم اللامعة أن للصيام حكمة لم يهتد الناس بعد إلى إدراكها . فإن الإنسان إذا صام وعرف معنى الحرمان من الطعام أمكنه أن يدرك ما للطعام من خطورة فى هذه الحياة ، واستطاع أن يعرف أنه هو المحرك الأول لكل الأمم وكل مجهودات البشر . فالأمة التى تنسى خطورة الطعام وتذهب فى جهلها إلى أن الطعام أمر ثانوى إنما تضل ضلالا بعيدا . والأمم الإسلامية التى تعرف الحرمان فى أيام الصوم هى أجدر الأمم بأن تعرف قيمة الطعام ، وتجعل أول همها أن توفر الطعام لكل أفرادها .

ومن البديهى أن المقصود بالطعام ليس مجرد الخبز والإدام ، بل هو كل ما يلزم لحفظ الحياة والترفيه فيها بالقدر الذى يجعلها جديرة ببنى الانسان .

وأغلب ظنى أن ساسة مصر وساسة البلاد الاسلامية يصومون رمضان ، وأغلب ظنى كذلك أنهم يجلسون بعد الافطار كما أجلس ليدخنوا سيجارة وينظروا إلى السماء ، ثم يذهبون فى التأمل سامتين فى طلب الهداية إلى جليل المعانى . فإذا كان الأمر كذلك فإنى على يقين من أنهم سوف يهتدون إلى معرفة قيمة الطعام وضرورته للناس ، وسوف يجعلون أول همهم فى كفاحهم السياسى وأول غاية لهم فى برامجهم الحزبية أن يوفروا الطعام لكل من فى البلاد من الملايين ، فإن هذا سوف يبدو لهم بغير شك أجدر بعنايتهم من كل المسائل الأخرى التى يحسبونها خطأ هى المسائل الكبرى .

جلست كما قدمت أدخن سيجارة وأتأمل نجوم السماء ، وأفكر فى مصاير البشر فإذا بى أرى فى الجو خطوطا لامعة من الأشعة تتحرك رشيقة وتمتد فى ظرف ثم تتحول فى وداعة كأنها سهام من الضوء تتلاعب فى أرجاء السماء حتى إذا أتى بعضها من الشرق وبعضها من الغرب وبعضها من قبل الشمال وبعضها من قبل الجنوب تلاقت عند نقطة

واحدة كأنها تتعانق فى الملأ الأعلى . وإذا بى أرى عند نقطة اجتماعها صورة متلألئة لطائرة رشيقة كأنها الفراشة البيضاء التى ترف فوق بساتين الربيع . هذه هى مناورات الأشعة الكاشفة يتمرن بها الجنود على اصطياد الطائرات وما أجملها من مناورات !

حقا أن الحرب قد وضعت أوزارها فى الخافقين وحقا أن هذه الأشعة الكاشفة لم تغن فى الحرب فتيلا ، وحقا أن إرسالها إلى أرجاء السماء يأخذ من الجهد والمال شيئاً كثيرا يضيع هباءً منثورا ، وحقا أن هذا الجهد وهذا المال كان يستطيع أن يصرف فى سبيل توفير بعض الأكل لمن يحتاجون إليه . ولكنى فى الحق لا أحب أن تغيب عنى هذه الأشعة اللامعة فى مثل هذه الليلة بعد الإفطار .

إنه لمنظر رائق ! لو طلب إلى أن أدفع خمسة قروش أو عشرة فى سبيل التمتع به لجادت نفسى بالقروش ولدفعتها إلى من يوفر لى منظرها وأنا شاكر سعيد . وإنى أقترح على وزارة الحرب المصرية أن تطلب من الناس ضريبة على مشاهدة هذا المنظر الرائع ، وأغلب ظنى أن ذلك سيدر عليها مبلغا طائلا من المال يعوض على الخزانة ما يضيع منها فى سبيل القيام بهذا العرض البديع ، لأن أهل الشبع سوف يدفعون الضريبة فى ارتياح حتى لا تضيع عليهم فرصة مشاهدة هذه الأضواء الرشيقة التى تتلاعب فى السماء . وهذا المال يمكن أن يعود على أهل الجوع فيوفر لهم بعض الطعام .

على أنى رجعت إلى نفسى فسألتها عن مآل هذه الأضواء الكاشفة وعن قيمة هذه الطائرات التى تشبه فراشات الربيع ، ثم استطردت فسألتها عن قيمة هذه الجيوش الجرارة التى تدب على الأرض أو تسبح فى الماء أو تغوص فى أعماقه بعد كشف القنبلة الذرية . فهل تطمع دولة من الدول بعد اليوم فى أن تقف للدفاع أو الهجوم فى ميدان من ميادين القتال ؟ ولكنى مع ذلك أقنعت نفسى بعد جهد بأن هذه الجيوش سوف تبقى مع عدم الحاجة إليها ومع أنها قد أصبحت بعد اليوم لا تغنى من الأمم شيئا . فالجيوش لا تخلو من أن تكون رموزاً للماضى وهى فى أوقات السلام تؤلف المواكب الرائعة التى تسير فى الطرق وفى طليعتها الموسيقات والطبول وفى مقدمتها المشاة والخيول . وملابس الجنود لامعة براقة وملابس الضباط جميلة خلابة ، والجيوش فى بلاد مثل بلادنا تؤدى وظيفة اجتماعية هامة ، فإن وظائف الضباط تفسح المجال أمام طائفة من شبابنا الأعزاء ، فإذا ما قضوا فى الكلية الحربية عامين أو ثلاثة وعرفوا كيف يحسنون لبس الثياب الرسمية وحمل السلاح والقيام بالحركات المنظمة وجدوا أمامهم سبيل الحياة مفتوحا ودرجات الرقى متاحة لا تكلف عناء ، وأما الجنود فإنهم يداوون من الأمراض ويجدون الطعام والشراب والملبس ويتعودون طيب العادات فى الحياة .

فالجيوش وإن صارت بعد القنبلة الذرية لا فائدة لها لا تزال مفيدة لأغراض أخرى . ولست أدرى ماذا تصنع الأمم الأخرى بعد اليوم فى جيوشها هل تحتفظ بها أم تستغنى عنها ؟ وأغلب الظن أنها سوف تحتفظ بها كذلك مع علمها بأنها قد أصبحت لا تجديها نفعاً لأن الإنسان من طبعه المحافظة على مألوفه وإن تغيرت الظروف وأصبحت لا تستلزم بقاء ذلك المألوف . ولنضرب لذلك مثلا مما حدث فى الماضى فقد كان المألوف فى العصور الوسطى أن تقيم المدن حولها حصونا قوية وأسواراً منيعة لكى ترد عن نفسها عادية المتوحشين أو تحمى نفسها من هجمات الأعداء من جيرانها ، ثم اخترع البارود وأصبح فى الإمكان أن تنسف هذه الأسوار حتى تدك قواعدها وصارت القلاع والحصون لا تستطيع رد الأعداء عن مدنها ، ومع ذلك فقد بقيت الحصون والقلاع إلى أوائل القرن العشرين ، مع أنها كانت لا تستطيع الثبات أمام المدافع القوية إلا قليلا .

فأغلب الظن أن الجيوش سوف تبقى فى كل الأمم مع أن القنبلة الذرية قد أصبحت حقيقة واقعة ، وهى كما يعرف الجميع لا تقف فى سبيلها الجيوش ولا تقوى على مقاومتها

الأساطيل ، لأنها تقتلع المدن بجملتها ولا تدع فيها صريخا ابن يومين . ولا بأس على مصر أن تحتفظ بجيشها وأشعتها الكاشفة شأنها فى ذلك شأن سائر الدول . ولا حيلة فى الطبع الإنسانى الذى يحمل الناس قسراً على التمسك بالمألوف . ولقد سنح لى خاطر وأنا أنظر إلى النجوم اللامعة فسألت نفسى عن مصير الدول بعد اليوم وسألتها : هل المستقبل خير من هـذا الحاضر أم أن الليالى حبالى بالعجائب والمفاجآت ؟ فوجدت الجو يظلم حولى وشعرت كأن نور النجوم يتضاءل فى عينى . ومن ذا الذى يستطيع أن يتكهن بالغيب وعلمه لا يزال مغيباً عن البشر ؟ فان الأمم صاحبة القنابل الذرية سوف ترفع أصبعها محذرة من يحاول الخروج عن الطريق الذى تراه الطريق السوى ، فاذا وجدت من الدول من لا يطيع أمرها أرسلت تدبرها قنبلة واحدة صغيرة تعيد العقول إلى أغمادها .

ولو أراد الله بالبشر خيراً لأتاح للأمم صاحبة القنابل الذرية طائفة من الفلاسفة يحكمونها حتى يصدروا فى أعمالهم عن العدل والحكمة ، وحتى يحسنوا استعمال ما وهب الله لهم من قوة الذرة فى سبيل مصلحة الإنسانية .

ولكن مهما يكن من الأمر فان هذه الجيوش التى نراها اليوم سوف لا يكون لها قيمة فى الحروب ، ومن المصلحة أن تنظر الدول منذ الآن فى تدبير أمرها . وليس من المعقول أن تبقى الأمم على جيوشها وتنفق عليها الملايين من خزائن أموالها على أنها لا تجديها شيئاً ولا تدفع عنها يوم الفزع شراً . وأغلب الظن أنها سوف تعيد النظر فى أمرها بعد حين برغم طبع المحافظة ، فإنها إذا هى أبقت على جيوشها وجدت بعد قليل أنها نوع من الإسراف ، فالمال الذى يصرف عليها أحق بأن يصرف فى توفير القوت للمحرومين من البشر وهم يعدون بمئات الملايين فى هذا العالم المسكين . ولو أخذ الفلاسفة أزمة الأحكام فى أيديهم فى الدول الكبرى وجعلت قوة الذرة فى أيديهم وحدهم لكانوا فى العالم بمثابة البطارقة الأول أيام كان الشيوخ يأمرون فلا يخرج عن أمرهم أحد من أفراد القبيلة .

ولكن ماذا يصير إليه أمر الناس فى أنحاء الأرض ، هل يصبحون عبيدا لا يستطيعون المخالفة ؟

إن أغلب الظن أن الناس سوف يصبحون أحرارا إلى حد لم يحلموا به من قبل ، فقد كان الطغيان على حرية الأفراد لا يأتى إلا من قبل الطغاة فى الأمم وهم الذين كانوا يكبلون الحرية بالقيود لكى يبنوا لأنفسهم مجداً زائفاً ويدفعوا بالملايين من شعوبهم إلى الحروب لكى يصرفوهم من مناهضة طغيانهم . فاذا أمكن للعالم أن يتخلص من الحروب ومن هؤلاء الطغاة كان من المتيسر له أن يطمئن فى حياته وأن يعرف معنى الحرية الصحيحة . ولو صح هذا لما كان للناس هم غير السعى فى طلب الرزق وتوفير ما يلزم للانسان من ضروريات الحياة . عند ذلك تبلغ الإنسانية مرتبة السعادة لأنها تعود إلى الحقيقة الخالدة التى لا يستطيع أحد أن يجادل فيها وهى أن الانسان يعيش ليأكل . أليس كذلك ؟

لا يؤاخذنى القارىء الكريم إذا كان يخالفنى فى هذا الرأى ، فإنما هى سبحات صائم حمله الصيام على أن يبالغ فى تقدير قيمة الطعام .

محمد فريد أبو حديد

العلم وآثاره

فى كل يوم تطالع علينا من آيات العلم معجزات . ومن آن لآخر يهز العالم أنباء كشف علمى جديد، ولكل واحد من هذه الكشوف ولكل واحدة من تلك المعجزات آثار عميقة بعيدة المدى فى حياة البشر وسعادتهم ومستقبلهم ومصيرهم . وكل منها يصح أن يكون مصدراً للخير أو الشر على السواء ، مؤدياً إما لسعادة بنى آدم ورفاهيتهم ومتاعهم وإما لشقائهم وبلائهم ونكبتهم . فكم من كشوف شفت المرضى وخففت آلام الإنسانية وزادت سكان الأرض نعيا ومتعة ، وإلى جانبها كشوف صبت عليهم المصائب والأهوال وأذاقتهم العذاب أصنافا وألوانا .

كل ذلك ينهض دليلا على أن رجال العلم كانوا ولا يزالون على حق عندما طالبوا أو يطالبون بأن يكون لهم رأى مسموع لا فى المسائل العلمية البحتة وحدها ، بل كذلك فى جميع شئون الحياة وأمور السياسة وأساليب الحكم وتنظيم المجتمع وبنائه من جديد على أسس أمتن وأقوم وأبقى على الدهر وعلى تطور المدنية . كل هذه الشئون العالمية الإنسانية الاجتماعية قد أشرنا إليها من قبل فى مقالات سابقة .

فالأمم تتنافس فى التقدم العلمى ، ورجال العلم فى كل أمة يطالبون بحقوقهم ويتطلعون لتزعم الحركات الاجتماعية التجديدية ولفرض آرائهم بقوة الحجة والبرهان ، وإلى جانب هذا النشاط القوى المداوى نجد أمما عاطلة أو شبه عاطلة من الإنتاج العلمى قانعة بأن تكون عالة على غيرها من الأمم التى تساهم فى هذا الإنتاج وفى ذلك التقدم المستمر . فهذه الأمم العاطلة التى لا تعنى بتربية طائفة قديرة ممتازة من الباحثين العلميين فى شتى النواحى العلمية وفى مختلف مرافق الحياة ، ولا برعاية من يوجد من أبنائها من هذه الطائفة ، ولا تقدر أهمية عمله ، أمة هذا حالها يجب أن تخجل من نفسها ، وأن تشعر بأنها إلى الموت أقرب منها إلى الحياة مهما توافر لها من المظاهر الخارجية السطحية التى تنم عن الحياة .

نقول هذا بمناسبة ما نقرؤه من آن لآخر فى الصحف والمجلات عن الاكتشافات والمخترعات التى تغير وجه الأرض ومجرى الحياة . ونحن فى مصر لا نقدر ناحية البحث العلمى وأهميته مع أنه هو الذى يؤدى إلى هذه المخترعات وتلك الاكتشافات ، ولا نكاد نخطو خطوة عملية جريئة فى سبيل خلق رجال البحث وتوفير أسبابه لهم ورصد الأموال اللازمة لما يتطلبه هذا البحث من إعداد فنى وأجهزة دقيقة وتجربة متواصلة واسعة النطاق مع أن هذه كلها تتوافر فى البلاد الراقية فى كل مرفق من مرافق الحياة وكل ناحية من نواحى العلم ، ولا يقتصر توفيرها على الحكومات وحدها ، بل تشترك فيها كذلك الهيئات والأفراد .

فأصحاب المصانع ورجال شركات الإنتاج من أى نوع يعلمون أن البحث العلمى هو قوام نجاحهم ووسيلتهم الوحيدة التى تكفل لهم دوام التقدم والتحسين المستمر فى منتجاتهم حتى يكون سوقها على الدوام رائجا وحتى تصمد المنافسة القوية وحتى تظفر برضاء جمهور المستهلكين وإقبالهم .

هذا من ناحية الإنتاج الصناعى التجارى . أما ناحية البحث العلمى الصرف التى لا تكون له أوجه تطبيق عملى ظاهرة ، وإنما يتابعه الباحثون من أجل الرغبة البحتة فى تقدم العلم ومتابعة الكشف وفتح مغاليق الطبيعة والكشف عن قوانينها التى خفيت ، وخواصها التى لا تزال غير معلومة لبنى الإنسان — فهذه يقوم على تمويلها عادة الحكومات وكبار الأغنياء الذين رفع الله من بصيرتهم الغشاوة ونفذوا بثاقب فكرهم وبعد نظرهم إلى أهمية تلك البحوث ، فتطوعوا لرصد الأموال الطائلة عليها والتبرع لها باستمرار .

قد يعترض معترض بأن الحكومة أدت واجبها عندما بإنشاء جامعة أردفتها بأخرى ، وهى تعد العدة لإنشاء ثالثة إن واتاها الحظ وتهيأت لها الأسباب . لكن الحكومة ورجال الجامعات إلى الآن يهتمون بناحية التعليم أكثر من اهتمامهم بناحية البحث ، مع أن التعليم وحده ما كان يستدعى إنشاء الجامعات ، وقد كانت تقوم به المدارس العالية التى لا تتكلف عشر معشار ما تتكلفه الجامعات ، وكانت تؤديه على وجه مرضى ، ولكننا نعلم أن الوظيفة الأولى للجامعات هى البحث العلمى والإنتاج المبتكر الذى يضيف إلى ذخيرة العلوم إضافات قيمة تمتاز بها الأمة فيدرك غيرها من الأمم أنها تساهم فى تسيير القافلة وتساير النهضة فتتعاون مع غيرها بدلا من أن تكون عالة على هذا الغير كما قدمنا .

وكل مصرى يتطلع بالطبع إلى أن تقدم الجامعات المصرية نتائج قيمة من هذا النوع الذى رفع رأس مصر عالياً . والحق أن جميع السلطات لا تضن على الجامعات بما تطلب من مال ومعونة . ومن ثم كان على الجامعات أن تعير هذه المسألة عناية أكثر حتى تنتج إنتاجاً مشرفا سريعا . كما أن على الحكومة أن تمضى فى مشروع إنشاء هيئة خاصة للبحث العلمى ورعايته يكون نواة لتنظيم الجهود الخاصة والعامة فى هذا السبيل .

ولئن صعب علينا أن نساهم قريبا فى اختراعات عظيمة الشأن كالقنبلة الذرية فلا شك فى أنه لا يصعب علينا إن تهيأت الأسباب أن نساهم فى اختراعات تؤدى إلى مثل البنسلين وغيره من الكشوف المتصلة بالطب والكيمياء وغيرها من المواد العلمية الأخرى التى لا تتصفح مجلة علمية إلا وتجد فيها وصفا جديدا لكشف حديث فيها . وإلى القارىء نبذة صغيرة على سبيل المثال فقط قرأناها فى مجلة « الكشف » الانجليزية فى عدد مايو سنة ١٩٤٥ عن البكتريا والدور الذى تلعبه بالنسبة للفيتامينات التى تثبت أهميتها العظمى بالنسبة لحياة الانسان وتمتعه بالصحة والعافية .

* * *

ظلت دلائل البحث واتجاهاته سنوات طويلة تتراكم وكلها تشير إلى ضرورة مراجعة الرأى السائد ووجهة النظر الشائعة بشأن العلاقة بين الفيتامينات والطعام ، وذلك أننا كنا حين نستعرض حاجة الانسان إلى مختلف أنواع الفيتامينات المعروفة نفترض دائما أن الجسم يحصل عليها جميعا عن طريق المصادر الخارجية أى من الطعام أو الحقن أو المستحضرات الطبية . وعلى هذا الفرض كنا نحكم بأن تحليل الغذاء اليومى بقصد معرفة محتوياته الفيتامينية يؤدى بنا إلى تقدير كامل لكل ما يناله الجسم من الفيتامينات . لكن البحوث الحديثة قد أثبتت خطأ هذا الاعتقاد وأبانت أن لجميع الحيوانات بما فيها الانسان مصادر داخلية تمونها بمقادير من الفيتامينات لا يمكن إهمال شأنها أو التقليل منها . فإذا ما تساءلنا عن هذا المصدر ، الذى لم يكن يتوقعه أحد من قبل ، ما أساسه وما قوامه ؟ تبين لنا أن المتكفل به كائنات حية مكروسكوبية ، أهمها البكتريا ، تزخر بها الأمعاء ، وكثير منها له مقدرة على تركيب الفيتامينات .

وقد درست هذه المسألة بعناية لكن الدراسة لم تستكمل إلا فيما يتعلق بالفيتامينات التى من فصيلة ب . وتدل النتائج التى أدى إليها البحث على أن فى استطاعة البكتريا المعوية فى الظروف الملائمة أن تولد من فيتامينات ب هذه مقادير تكفى لضمان الصحة والعافية للشخص حتى ولو ظل الطعام الذى يقدم إليه أشهرا عديدة لا يحتوى من فيتامينات ب إلا على مقادير تافهة يصح إهمالها .

وأول ما اكتشف هذا الدور الهام الذى تلعبه بكتريا الأمعاء ، كان فى خلال تجارب أجريت على الحيوانات ، ولم تجر مثل هذه التجارب على الانسان إلا فى سنة ١٩٤٣ على يد عالمين أمريكيين تطوع لهما تسعة أشخاص ليجريا عليهم التجارب اللازمة ، فقصرا طعامهم على مواد مختارة روعى أن تكون كمية فيتامينات ب فيها قليلة إلى حد يمكن إهماله ، وأن تحتوى مع ذلك على مقادير كافية من جميع الفيتامينات الأخرى المعروفة . فلما قضى المتطوعون التسعة

شهرا على هذه الحال ظهرت على أربعة منهم علامات واضحة على « البرى برى » وهو المرض الذى ينشأ عن نقص فيتامينات ب فى الجسم ، كما ظهر على الشخص الخامس أعراض طفيفة لهذا المرض . أما الأربعة الباقون فقد احتفظوا بصحتهم على أتمها . وعلى الرغم من خلو طعامهم كما قدمنا من فيتامينات ب فان هذه الفيتامينات ظلت تظهر فى برازهم ، فى حين أنها لم تظهر قط فى براز الأشخاص الأربعة الذين ظهر عليهم مرض البرى برى .

وقد استدل العلماء من استمرار ظهور فيتامينات ب فى براز الأولين على الرغم من مرور أسابيع على استئصالها من طعامهم اليومى على ضرورة وجود مصدر داخلى فى أجسامهم يقوم بعملية تركيب الفيتامين وتقدمه لهم .

وهكذا استطاعت هذه الكشوف وما تلاها من اكتشافات جاءت على أثر الاستمرار فى إجراء تجارب أكثرها فى الفئران ، وقليل منها على الإنسان ، استطاعت أن تنقذنا من حيرتنا فى تفسير مفارقات كالتى أشرنا إليها ، وهى عدم ظهور أعراض البلاجرا على من خلا طعامهم من الفيتامينات أو كاد ، وظهور أثر فعال للبن فى علاج أمراض نقص بعض الفيتامينات على الرغم من أنه لا يحتوى منها إلا على قدر ضئيل جدا ، فقد فسر ذلك على أساس أن اللبن ينشط ما فى أمعاء الانسان من بكتريا لها قدرة على تركيب هذه الفيتامينات داخليا ، فتزداد فاعليتها وبالتالى إنتاجها فيشفى المريض أو تتحسن حالته .

أما فيما يتعلق بعدد ما فى الأمعاء من بكتريا تؤدى هذه الوظيفة واختلاف أنواعها ، فان ذلك يتوقف على عدة عوامل ، كنوع الغذاء وسن الانسان وعاداته الشخصية . وقد يكون من أشق الأمور حساب مقدرة أى شخص على تركيب الفيتامينات اللازمة له ، فذلك من جهة يحتاج إلى تجارب طويلة معقدة ، ومن جهة أخرى فإن حالة الانسان دائبة التغير ، فعلى فرض أننا استطعنا الفوز بهذا التقدير الآن فقد لا يظل صحيحا إلا لفترة قصيرة من الزمن تتغير الظروف بعدها فنضطر إلى إعادة التجربة وهكذا .

كل هذه قد تكون بحوثا بدائية لها نتائج محدودة ، ولكنها على أى حال على جانب عظيم من الأهمية وتفسح المجال لبحوث أدق منها وأوسع مدى فى هذا الميدان العظيم ، وهو الفيتامينات وعلاقتها بحياة الإنسان وصحته .

فأين نحن من هذا كله ؟ أرجو ألا يطول ركودنا من ناحية البحث العلمى والانتاج المبتكر فيه حتى نسير مع القافلة ونجارى الأمم الحية . والله الموفق .

أحمد عبد السلام الكرداني

الرأى العام

بقلم : الدكتور م . ليبولز
الأستاذ فى جامعة كوتنجن سابقاً

(بقية المنشور فى العدد الماضى)

وقد وجد هذا التطور تعبيره البارز فى الدول الدكتاتورية ، فالقانون هنا اعتاد السير مع « السرية » . ولكن النقطة هى أن نهاية حرية المبادىء والآراء القياسية ستتجه إلى نفس الخاتمة .

وقد اعتادت الحكومات والأحزاب فى جميع البلاد ، أن تبرر أعمالها السياسية بزج الثروة العامة والمصالح العامة زاعمة الدفاع عنهما . ولكن الحقيقة أن فكرة توجيه السياسة نحو الخير العام — ومثال على ذلك تلك السياسة المحتفظ بها فى التعاليم الكاثوليكية — لم يعد لها مقامها فى النظام السياسى للديمقراطية الحديثة . وهذا ليس بمستغرب لو تذكرنا أن الفكرة العملية للخير العام لا يمكن تحديدها بتفصيل أكثر ، إذا كانت قيمها الأساسية — كالعقل والعدل والأخلاق — هى موضوع البحث . وإذا حدث ذلك ففكرة الخير العام يجب أن تفقد وتساهم فى نتائج الانحلال والفساد . والواقع أنه لم يعد فى الإمكان التكلم عن خير عام واحد ومصلحة عامة ، ولكن التكلم فقط عن الأحزاب والجماعات التى يتخذ كل منها آراء مختلفة فيما يتطلبه الخير العام فى قضية عملية . فالمؤيد لحزب العمال مثلا ، يرى هذا الخير العام من وجهة تختلف عن تلك التى يراها المؤيد لحزب العمال والمحافظين . فلكل منهم رأيه الخاص فيما يتطلبه صالح الأمة العام ، ولهم كذلك نظرياتهم الخاصة التى يستهدفون بواسطتها خدمة هذا الصالح .

ونعترف بأن ادعاء كهذا لا يمكن أن يبنى على أساس شىء ، لأن الجماعات السياسية المختلفة فى المجتمع ، والتى تمثل جوهر الفكرة العامة للخير العام ، يمكن أن تنجز أعمالها بصورة فعالة . ولكن الحقيقة الواقعة هى أنه إذا كانت فكرة الخير العام قد اضطهدت مرة ، فلم يعد بالإمكان اليوم الوقوف بوجه الأفكار الدكتاتورية وإثارة معارضة أساسية لمثلها . وفى هذه الحالة لم يعد هناك مستوى عام حقيق للحكم على التغييرات المختلفة لفكرة الرأى العام حسب قيمته الحقيقية الأصلية . ومن هذه النقطة الضمنية تتمكن نظرية الآراء الحرة الحديثة والشيوعية والفاشية والاشتراكية والاشتراكية الوطنية ، من تغيير فكرة الخير العام والصالح العام حسب أسلوبها الخاص ، ومزجهما فى مصالح الأمة العامة .

إن هذا التطور العام يساعدنا على تقدير الآراء العميقة الواقعة وراء الدكتاتورية الحديثة بصورة أوفى . وإذا كان تحليلنا صحيحا فليس هناك مناص من القول بأن نشأة الدكتاتورية والفاشية تعود بسببها للقوى العقلية المادية للتقاليد الحرة . ولكن يمكن للواحد منا أن يستنتج أيضا أن المبادىء الحرة لا يمكنها أن تتبرأ من مسؤولية خلق الموقف الحاضر ، ولا من مساهمتها فى نشوء الدكتاتورية بشكلها العام . فبدون انحطاط الإيمان بالقوى الخالقة لتفهم الحرية لم يك فى استطاعة كل من الاشتراكية الوطنية فى ألمانية والفاشية فى إيطاليا ، إثارة حرب مدمرة ضد العالم الغربى ، أو أن توجد لمبادئها أنصارا فى نصف الكرة الغربى .

وإذا رجعنا إلى مهمة الرأى العام فى الدول الديمقراطية لوجب الاعتراف بأنه قد قاسى تغيرا فى أسسه نتيجة للتطور الأخير ، ويلاحظ ذلك عند محاولتنا تصور مجمل التركيب الكامل له . وهذا التبدل سنراه طبيعيا تماما ، لو تذكرنا أن الرأى العام لا يمكنه أن يقف وحده ، ومن الواجب عليه أن يساهم فى مصير قيمه الضمنية . وعليه فاذا ما فقد الرأى العام أسسه الروحية ، فلن يعود فى مقدوره تنفيذ

مهمته الحقيقية وتحقيق نظـام العقل والحقيقة والعدالة والآداب فى الهيئة الاجتماعية .

وفى الواقع لقد ابتعد الرأى العام فى دول الأحزاب الديمقراطية ، من أن يكون التعبير الصادق فى المجتمع الحر . ويظهر ذلك من ملاحظة أن المبادىء الحرة فى هذا البلد قد احتفظت بقوتها أكثر من أى بلد آخر ، ولكن رغم ذلك نرى كيف أخذ الرأى العـام تحت الضغط الآلى والسيطرة الجماعية ، يميل ليمسى أكثر فأكثر نوعا غير منتظم الشكل وخاضع لتيارات الأفكار الكتلية . وبهذا غدا الرأى العام الجماعى ، الذى فقد القوة المعبرة وكفاءة الرأى العام ، تحت تصرف أولئك الذين يديرون المجتمع .

ويتضح إلى أى مدى يمكن تضليل الرأى العام ، عند فحصنا الأسس العامة للدكتاتورية الحديثة . ففى الكتل الديمقراطية الحديثة غدت الميول والمسؤوليات الموروثة حقائق واقعية مادية ، ونتج من هذا فقد الرأى العام فى شكله التقليدى الحر أسسه الروحية ، فاستغلت الدكتاتورية هذه الأسس وسايرتها مع فلسفتها الخاصة فى الحيـاة . وبتطبيق الدكتاتورية أساليب جديدة علميـة فى الدعاية والتأثير الجماعى ، قد أساءت استخدام الرأى العام كأداة صالحة فى خدمة عقيدة سياسية خاصة . وقد رفض الشعب لدرجة ما تصديق ما يقدم له عن طريق الصحافة والراديو والسينما ، بعد أن غدا الرأى العام المضلل مجرد آراء منشورة . إن فشل القوة المعارضة فى الدكتاتورية ، يمكن البرهنة عنه بحقيقة كون القوة الموجدة لرأى عام حقيقى فى هـذه الحكومة ، قد قضى عليهـا بالسرية ولم يبق فى محيط العلانية سوى هيكل العمل الفنى للرأى العام والرأى المنشور .

والآن بعد كل هذا ، هل من الممكن إعادة الوضع وإصلاح المبادىء الرئيسية للآراء الحرة ، كى يتمكن الرأى العام من القيام بمهامه الجوهرية ؟ لا شك أن هذا الإصلاح يتطلب درس الحركات والميول المختلفة التى تحيد عنا أو سرا الأساليب الدكتاتورية فى الأمم الديمقراطية ، ومع هذا فليس هو بالعلاج الكافى . فإذا أردنا حقيقة أن نهيمن نهائيا على الوضع الذى أدى إلى خسارة الآراء الحرة سلطانها السابق على العقلية الغربية ، وجب أن نقف ضد تلك القوى الراغبة فى انحطاط القيم الرئيسية والشاعر الأساسية اللتين كانتا مورد الحياة الرفيعة فى الديمقراطية الغربية ضمن الآراء الحرة والنقد .

ولكن كيف يمكن ذلك ؟ وكيف يمكن إعادة رأى عام صحيح أو الوضع الذى تجد فيه الديمقراطية نفسها هنا ممكنا فقط — وقبـل كل شىء — إذا وجد فى الأفراد المعارضون والجماعات المعارضة العزم للاحتفاظ بالتقاليد الحرة . إن انتعاشنا كهذا القيم الأساسية فى الحياة الإنسانية ، يمكننا أن نبصر قبل الأوان منظرا جديدا ، ويدعنا نتفهم نهاية الحياة الحقيقية . وبإعادة إنشاء الأسس والقوى الأدبية الموجدة لهذه القيم ، تصبح الحاجة إلى قيم روحية ضرورية . وقد أظهرت اختبارات القرن الماضى هبوط كل محاولة لبناء سياسى جديد على أسس إنسانية محضة . وثبت بأن انبعاث الروح الحقيق يكون من طريق أولئك الذين يدركون أن القيم الأساسية للحياة الإنسانية تنحدر من الحرية ، ويجمعون قوتهم من موارد روحية عميقة أكثر من جمعها من مورد فلسفة مركزها الرجل أو التعاليم الدينية . وتكمن فى أعمق جذور هذه الحقيقة التجـارب المسيحية الموت والبعث الروحيين ، اللذين تعتمد عليهما القوة الروحية الجديدة ، ويُمد النظر فى القيم والطبائع الأساسية للحياة الإنسانية . وبدون هذه التجارب لا يمكن للحقيقة الروحيـة أن تتطور ، ومن ثم يستحيل تحويل كتل الرأى المخذولة إلى رأى عام صحيح يؤدى مهمته آلية فى مجتمع جديد صالح . إن حدوث هذا لا يتم بالوسائط الفنية أو بنشاط اللجان أو بوسائط أخرى . بل إن تقرير مصير الرأى العام نهائيا يكون من طريق الإرادة الروحية . وإذا ما اتجهت أهداف أولئك الذين يقودون المجتمع إلى تحقيق الشهوات الكامنـة المدفوع إليها بالقوة الآلية ،

أكثر من اتجاهها روحيا ، فحينئذ لن يعود هناك عصر رأى عام متنور مطلقا .

ويجب تحت هذه الظروف أن يبذل أولئك الذين يمارسون تأثيرا حاسما على الرأى العام كل ما فى وسعهم لتقوية مصلحة وعقيدة الشعب الكامنتين فى القوى الأدبية للرأى العام . ولأجل هذا يجب أن يستمر اطلاع الشعب التام على جميع الحقائق المتعلقة بأمور الدولة ؛ إذ بغير معلومات صحيحة لا يمكن للعدالة والآداب والعقل والحقيقة من لعب أدوارهم فى المجتمع ، وبذلك يحال بين الرأى العام وأداء مهمته ، فتكون النتيجة عدم وقوع التطور المنتظر فى الديمقراطية الجديدة . ولكن الحيرة المعقدة التى فيها الحكومة — حتى فى الديمقراطيات — نفسها فى هذا الشأن ، هى أن القوى المثيرة التى تعمل فى السياسات ترغم الحكومة أحيانا على اتخاذ خطة لا تتفق ومهمتها العلمية فى اطلاع الشعب . ففى زمن الحرب كما فى زمن السلم تنشأ أوضاع تحتمل الخطأ والصواب لا يمكن للحكومة برعيها مصالح الأمة العليا أن تنور الرأى العام ، الذى يكون حين ذاك غير قادر على إصدار حكم ثابت حول قضاياه الشخصية أو قضايا الحكومة . ومثال ذلك أنه فى أوائل سنة ١٩٣٠ عندما استنكر الشعب (البريطانى) — الذى كانت له معرفة كافية — الاشتراكية الوطنية ، نرى أن الرأى العام قد أثر عليه — خطأ كما نعلم اليوم — من قبل أولئك الذين حبذوا سياسة التسكين من أن يصدر حكما خاصا ثابتا .

ونستنتج من هذا أنه فى أفضل ديمقراطية لا يمكننا أن نمنع أولئك الذين يديرون شؤون السلطة من إهمال مهمتهم التعليمية بين آونة وأخرى . ولكن فى مثل هذه حالات تكون المسؤولية فى الديمقراطية الحرة أكبر على أولئك الذين احتفظوا بالحكمة وبرودة الدم ، ورفعوا عقيرتهم حسب حاستهم الرقيقة وشعورهم المدنى الراقى لإقناع أبناء وطنهم بما هو حقيقة صحيحا ومعقولا ، محاول

وأدبى ، حتى يجدوا لذلك التعبير فى الرأى العام .

وربما تكللت هذه المحاولات بالنجاح بأسرع مما كان عليه الوضع بعد مؤتمر ميونخ ، عندما تبدل الرأى العام بسرعة بعد اعتقال العدد الكبير من الشخصيات ، وعندما اتبعت سياسة الاعتقال الإجماعى فى بضعة الأشهر التى تلتها . إن تنور « رأى عام » مضلل يشكل عادة عملا دقيقا جدا ، وقد يؤدى البطء فى هذه العملية إلى نتائج وخيمة ، وربما ظلت الأصوات الصارخة غير مسموعة ، بل هناك خطر مجىء الرأى العام متأخرا جدا . وقد وقع هذا مرارا فكلف الإنسانية تكاليف باهظة ، ولهذا قيل إن الكفاح الحاضر كان من الممكن تلافيه لو أن الاشتراكية الوطنية منعت من قبل الرأى العام من التمادى فى غيها .

وللحيلولة دون وقوع هذا الخطر ينبغى إتاحة الفرصة لأولئك الذين يملكون حكمة وحكما أعلى ، لاستخدام جميع الوسائل الفنية الحديثة (من راديو وسينما وطباعة) لتقدم لهم أكبر معونة يستخدمونها فى مهمتهم الدقيقة عند ضرورة تحويل رأى عام مضلل بأسرع وقت ممكن . وكل حكومة ديمقراطية حرة يجب أن تؤيد بقوة معارضة تعمل على حفظ قيمها الأساسية .

وعليه فإن مصير الرأى العام لسنين قادمة يتوقف على القوى المرشدة التى تملأه بالحقيقة الروحية الضرورية ، لإبقاء قيم الحياة الإنسانية نشطة حية ، وبدون ذلك من المحال الاحتفاظ بالإرث الأوربى . ولبلوغ هذا الهدف يجب على هذه القوى قبل كل شىء ، أن تحترم هذه القيم فى نشاطها الخاص ، وتطلع الأمة على كل شىء كى ترى القوى الإيجابية الأدبية ضمن القيم الروحية للرأى العام . وعلى كل عندما تؤدى السياسة المثيرة إلى التواء الرأى العام ؛ وجب أن تتاح الفرص للمعارضة التى تملك حكمة وحكما أعلى ، من استخدام نفس الوسائل العاكسة التى تستخدمها السلطة لإصلاح الرأى العام الضال .

بغداد — كلية الحقوق — فؤاد طرزى

من أدب الأطفال :

غرفة المخزن

[مؤلف هذه القصة المستر هكتور مونرو (HECTOR MUNROE) القصصي الانجليزي المعروف الذي اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً لكتابة قصصه، هو لفظة « ساقي » الفريد، أي ساقي الخمر الواردة في رباعيات الخيام. وقد اشتغل المستر مونرو في عام ١٩٠٢ مراسلا لجريدة الورننج بوست في البلقان، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى تطوع في الجيش وقتل في فرنسا عام ١٩١٦.]

كان أطفال الأسرة قد عزموا ذات يوم على الخروج في العربة للتنزه على ساحل البحر الرملي، ولكن نيقولا لم يكن بينهم، إذ كان قد أساء التصرف في صبيحة ذلك اليوم بأن أبى تناول طعام الإفطار المؤلف من الحليب والخبز، بحجة وجود ضفدعة صغيرة فيه. وقد حاول من هم أكبر منه سناً وأرشد عقلا إقناعه ببطلان حجته، لكنه أصر على أنه رأى ضفدعة في طبق الطعام وأن أوصافها كذا وكذا، ولونها كيت وكيت ...

والغريب في الأمر أن الضفدعة كانت موجودة بالفعل في طبق الطعام، وأن جريمة نيقولا لم تعد موضع نقاش وتحقيق، إذ كان هو الذي جاء بالضفدعة من الحديقة ووضعها في الطبق، لماذا؟ لأن فكرة رامت له في أن يعمل على تكذيب من هم أكبر منه سناً وأرجح منه عقلاً، وتسفيه حججهم في أمر قالوا إنهم أشد ما يكونون ثقة منه ووثوقاً فيه، أو بعبارة أخرى ثقة قولهم في عدم وجود ضفدعة في طبق الطعام ....!

وهكذا تم قرار الأسرة على أن يذهب شقيق نيقولا وابن عمه وبنت عمه للتنزه وأن يحجز نيقولا في البيت جزاء له على سوء فعلته.

وهم الركب بمغادرة الدار، تشيعهم نظرات نيقولا الحزينة، وقد حال الدمع في عينيه، وشاركته في ذرف الدموع — ولكن لسبب آخر — بنت عمه التي أصيبت ساقها بخدش وهي تتسلق العربة.

وكأنما بدت هذه الرحلة خالية من مظاهر الفرح والابتهاج، على عكس مثيلاتها من الرحلات السابقة؛ وقد تنبه نيقولا إلى هذه الظاهرة، فأراد أن يعمل على إحباط مشروع الرحلة فقال ملاحظاً: « ابنة عمي تنتحب من ألم ساقها. »

فأجابته عمته، وهي التي فرضت عليه عقوبة البقاء في المنزل: « لا تهتم ... فسيسكن الألم بعد قليل » وأردفت تقول في كبرياء: « وسيتمتعون بنهار جميل، وبأمسية فاتنة للسباق على الرمل ... »

فأعاد نيقولا الكرة قائلا: إن جون ابن عمه يشكو من ضيق في حذائه. ولن يكون في استطاعته الركض على الرمل. ولكن عمته قلبت موضوع الحديث، وزادت بأن حذرته من دخول حديقة الدار، بسبب سلوكه الشائن. بيد أن نيقولا لم يرتح إلى هذا التعليل، وحسب أن ارتكابه التكبر، لا يمنع وجوده في الحديقة بأي حال من الأحوال. وبدت على محياه أمارات العناد والإصرار، ووضح لعمته أنه يضمر دخول الحديقة عمدا، لأنها نهته عن دخولها ...

وكان للحديقة بابان يستطيع شخص صغير كنيقولا الولوج من أي منهما، والتواري وراء أشجار التوت والأرضي شوكي وغيرها من النباتات المثمرة.

وعلى الرغم من كثرة مشاغل عمة نيقولا، عصر ذلك اليوم، فقد آثرت قضاء ساعة من الزمن في الحديقة في أعمال زهيدة القيمة كي تراقب ابن أخيها الشقي إلى الفردوس الممنوع ...

وقام نيقولا مرتين بالتلصص حول الحديقة متظاهراً بأنه يبغي اختلاس طريقه إليها، وفي الواقع لم يكن في نية نيقولا المناصبة في دخول الحديقة، إذ لم تك حركاته هذه سوى مناورة، لإيهام عمته بأنه يحاول الدخول، كي ينصرف اهتمامها إلى رصد باب الحديقة، دون الانتباه إلى

أى شىء آخر . ولما اطمأن نيقولا من هذه الناحية انسل عائداً إلى الدار لتنفيذ فكرة كانت قد نبتت فى رأسه فجأة ثم مالبثت أن اختمرت . .

دخل نيقولا المكتبة ، وتحسس بيده رفاً ، فوقعت يده على مفتاح ضخم — هو مفتاح غرفة المخزن — هذه الغرفة التى ما برحت أبوابها موصدة فى وجهه ، ولم يك يؤذن بدخولها لسوى العمات والأشخاص الممتازين .
وعالج نيقولا القفل فانفتح ، وولج الغرفة ، فإذا به يجد نفسه فى أرض يجهلها بالمرة ، وقد ألفاها تختلف عن حديقة الدار فى الروعة وتنوع الأشياء ، اختلاف الأرض والسماء .

لقد طالما صوّر نيقولا لنفسه كيف تكون غرفة المخزن ، هذه الغرفة المكنونة ، التى أقيم بينها وبينه ألف حجاب ، وكان كل سؤال عنها يقابل بالرد والإنكار .
فها هو ذا واقف فى وسطها ، يتفحصها بإمعان وشغف ، إنها بيت واسع الأرجاء ، يستمد نوره الضئيل من النافذة الوحيدة المطلة على الحديقة ؛ ها هى الكنوز النفيسة ، والرياش الفاخرة التى تبهر العين وتعجز اللسان ، تملأ كل شبر منها ؛ ورأى نيقولا البون الشاسع بين سذاجة الأثاث التى ألفها فى الدار ووجاهة هـذا الأثاث وعظم قيمته ، ولفت نظره طنفسةٌ من القماش المزركش الذى تزدان به جدرانُ البيوت ، فجلس يتم النظر فيها . فماذا رأى ؟ رأى صورةً تمثـل صياداً قد شكّ ظبياً بسهم ، وقد تراءى لنيقولا أن الصياد لم يجد كبير عناء عند رشق الظبى بالسهم ، إذ لم تكن المسافة بين الاثنين تتجاوز خطوتين ، وفى الغابة التى تمثلها الصورة ، لم يكن من العسير على الصياد أن يزحف على يديه ورجليه بين الأشجار الملتفة ، ويباغت ظبياً لاهياً يرعى . واتضح لنيقولا أن السلوقيين الأبقعين كانا قد دُربا على التربص حتى انطلاق السهم ، ثم الاندفاع وراء الفريسة بكل ما أوتيا من قوة .
ولكن هل درى الصياد ، مارآه نيقولا فى الصورة ، من قدوم أربعة ذئاب طُلس تعدو نحوه من الغابة ، وقد يكون غيرها مختبئاً بين الأفنان . ومهما يكن من كل هذا ، فهل فى استطاعة صياد وكلبيه ملاقاة أربعة ذئاب مهاجمة ؟ ثم إن جعبة الصياد ، كما بدت فى الصورة ، قد خلت إلا من سهمين اثنين ، وقد يطيش أحـدهما أو كلاهما معاً ، إذ جلّ مانعرفه عن براعة هذا الصياد أنه استطاع صرع ظبى من مدى قريب جداً ، ولا غير ...

وهكذا ظلّ نيقولا غارقاً بضع دقائق فى تأويل الصورة ، واستخراج دقائقها ، وتقليب وقائعها على كل وجه ، إلى أن بات لايخامره الشك فى أن الصياد وسلوقييه واقعون فى مأزق خطر لامحالة .

وكان فى غرفة المخزن أيضاً كثير من الأشياء التى يلذ الرائى مشاهدتها . فهناك الشموع الفارعة الملتفة كالتفاف الأفاعى . وإبريق شاى مصنوع على شكل بطة ، ومن منقارها يسيل الشاى . يالروعة منظر الإبريق الذى تصب مربية نقولا الشاى له منه . . ! . وهناك سفط من خشب الصندل تفوح من لفائفه القطنية رائحة عطر ذكية ، وقد امتلأت جنباته باللعب النحاسية والثيران والطواويس والأقداح . وامتدت يد نقولا إلى مجلد ضخم ففتحه ، فإذا رسوم لأصناف الطير جميعاً ، ولكن أى طيور ! .
لقد كان من النادر أن تقع عينا نيقولا عند تجواله فى حديقة المنزل أو فى الحقول ، على طير أكبر من عقعق أو قمرى ، ولكن ها هو الآن يرى مالك الحزين ، والحبارى ، والحدأة ، والطوقان ، والأنيس ، وديك الحبش ، واللقلق ، والخضيرى ، وغير ذلك من صنوف الطير ، وقد تقاربت شكلاً ، وتباينت لوناً وحجماً ...

وبينما كان نيقولا مكباً على صورة لفصيل من البط ، يستذكر تاريخه ونشأته ، إذ سمع صوت عمته الجلاجل يدعوه باسمه ، من ناحية الحديقة . لقد داخل الريب عمة نيقولا فى إبطائه ، وكادت تقطع فى أن يكون نيقولا قد غافلها ودخل الحديقة ، متسوراً الجدار من خلف أجمة

الزنبق المترشة ، فشرعت تبحث عنه ، منادية إياه بأعلى صوتها ومهيبة به أن « اخرج يا نعامة فقد رأيتك .. ! »

وقبع نيقولا فى غرفة المخزن يصيخ السمع إلى نداء عمته ، وقد علت على فمه ابتسامة خبيثة ، إلى أن استحالت نداءات العمة إلى صرخات مدوية غاضبة ، فأغلق نيقولا المجلد ، ووضعه فى مكانه بعناية ، وانسل من الغرفة بعد أن أحكم إغلاقها وأعاد المفتاح إلى مكانه المعين ، ثم نَفَذَ إلى قُدام الحديقة ، وباغت عمته بقوله : « من المنادى ؟!! » .

فأجابت عمته : « أنا عمتك .. ألم تسمعنى وأنا أناديك ! لقد كنتُ أبحث عنك فى الحديقة فزلت قدماى ووقعت فى صهريج ماء المطر ، وكان فارغاً لحسن الحظ ، ولكننى لم أقدر على الخروج منه بسبب ملاسة جوانبه .. فأسرع وأحضر لى السلم من تحت شجرة الفراسيا .. »

فأجاب نيقولا على الفور : « لقد أمرت بألا أدخل الحديقة ....و.... »

فقالت عمته وقد كاد ينفد صبرها : « أمرتك بألا تدخل الحديقة ، والآن آمرك بأن تدخلها ... » فقاطعها نيقولا قائلا : « يلوح لى يا هذه ، أن صوتك لا يشبه صوت عمتى ، وقد تكونين إبليس الرجيم تمثل بها ، لإغرائى على دخول الحديقة . فلطالما قالت عنى عمتى إننى مطواع لهمسات الشيطان ولمزاته . لكننى لن أذعن له هذه المرة .. ! »

فأجابت عمته وهى فى الصهريج : « كفى هذراً يانيقولا ... وأسرع إلىّ بالسلم » فسألها نيقولا بسذاجة : « هل ستحفل مائدة إفطارنا غداً بعرابى التوت ؟ » أجابته عمته : « بكل تأكيد » ولكنها كانت تضمر ألا تُفرّح نيقولا بنصيب منه . فهتف نيقولا طرباً : « الآن عرفت أنك إبليس الرجيم ، ولست عمتى ، فقد سألنا عمتنا يوم أمس عن هذا المربى ، فأجابت بأنه لم يبق لديها شىء منه ، مع أننى عالم بوجود أربع جرار منه فى عنبر المؤونة ، وأنت أيها الشيطان تعرف ذلك ولا شك ... ولكن عمتى لا تعرف بدليل قولها إن المربى قد نفد من عندها ... آه أيها الشيطان ! لقد انكشف أمرك وساء تدبيرك ! »

كانت نشوة من الجذل والمرح تغمر نيقولا إذ رأى نفسه قادراً على مخاطبة عمته كمن يخاطب الشيطان حقاً ، بيد أنه أدرك مغبة الإفاضة فى مثل هذا الحوار ، فانصلت عائداً إلى البيت وهو يهدر ويدمدم . وجاءت الخادم من المطبخ ، لتقطف من الحديقة بعض الثمار ، فرأت عمة نيقولا ، وساعدتها على الخروج من صهريج الماء .

كان سكون رهيب يخيم على أفراد العائلة ، عند ما جلسوا لتناول الشاى مساء ذلك اليوم ، وظلت العمة صامتة كامدة ، وقد تجهم وجهها ، وأحست بأن كبرياءها قد أصيبت فى الصميم ، إذ أرغمت دون مبرر ، على الانحباس نصف ساعة فى صهريج الماء ، أما نيقولا فقد كان هو الآخر صامتاً كمن يفكر فى معضلة ، وفجأة لاح له أنه قد اهتدى الى حل لها . ذلك أنه فى استطاعة الصياد الفرار مع سلوقييه ، بينما تكون الذئاب الأربعة منهمكة فى نهش الظبى الصريع .!

بسام عانه

إدارة البلديات — مبانى

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٥ عن إنشاء مطعم شعبي بمدينة السويس وتطلب للمواصفات والشروط من الإدارة على ورقة تمغة من فئة الثلاثين مليا نظير مبلغ أربعة جنيهات خلاف مصاريف البريد . ٣٩٦٩

إندونسيا

وما وراء المحيط الهندي

أعلنت الدول العربية الحرب على ألمانيا واليابان. ولهذا ينبغي أن تلفت أنظارها نحو الشرق وبالأخص نحو تلك المجموعة العظيمة من الجزائر التي تربطها بسائر الدول العربية رابطة روحية قوية ألا وهي العقيدة الإسلامية الحنيفة ، ولئن كان بعض الناس ينكرون أثر هذه الروابط الدينية فإن الساسة الأكفاء الذين لا يقيدون عيونهم الشخصية والذين ينظرون إلى الأغلبية قبل الأقلية لا يستطيعون أن يغفلوا هذه الروابط الروحية الدينية ولا بد من أن يأخذوا لآثارها في تكييف الحوادث حسابا. وإن الناظر إلى خريطة العالم يرى أهمية موقع تلك المجموعة من الجزائر من ناحية المواصلات الدولية بحرية كانت أو جوية ، إذ أنها تقع بين قارة آسيا وقارة استراليا وبين المحيط الهادي والمحيط الهندي، وقد أطلق عليها منذ ما يقرب من قرن واحد اسم «إندونسيا» وهي تتكون من جزائر كثيرة أهمها سومطرة وجاوه وبورنيو وشبه جزيرة الملايو وسيليبس وغينة الجديدة وجزائر الملوكو وجزيرة تيمور وبالي وغيرها . وتبلغ مساحتها ٢٥٠٠٠١٣ ك . م أي أربع مرات ونصف مساحة فرنسا . ويبلغ عدد سكانها ٧٥ مليون نسمة . خمسة وثمانون في المائة منهم أي حوالي ٦٤ مليونا مسلمون ، فهي تؤوي ربع مسلمي العالم تقريبا . وباقي السكان يعتنقون ديانات مختلفة ، منها المسيحية والبوذية والكونفوشيوسية .

ونظرا لاتساع مساحة إندونسيا ولكثرة المواد الأولية فيها ولخصب أراضيها ولوفرة الأيدي العاملة فيها ولكثرة سكانها ، وبالتالي اتساع الأسواق فيها للمحاصيل الصناعية فلا عجب أن كانت هي من زمن بعيد ولا تزال حتى اليوم قبلة أنظار البلاد الصناعية الاستعمارية .

وهؤلاء المستعمرون يحاولون دائما أن تبقى إندونسيا بلاداً زراعية بحتة وأن تكون دائما أسواقا خارجية واسعة رائجة لمصنوعاتهم، ويسعون بشتى الوسائل أن تنحصر جهود الأهالي في الاستغلال الزراعي وفي استخراج تلك المعادن الكامنة في باطن أراضيهم فقط ، ويخشون أن تنصرف جهود هؤلاء الأهالي إلى الصناعة والتجارة لأن الاشتغال بالتجارة والصناعة كما أثبته التاريخ ينير أذهان الناس ويظهر لهم حقوقهم الاجتماعية والسياسية .

حالة إندونسيا الاقتصادية :

في الواقع يؤلمني أن أصارح القارئ بأن حالة الأندونسيين الاقتصادية كانت سيئة جداً رغم كثرة خيرات بلادهم وغنى مواردهم الطبيعية ، وما ذلك إلا لسوء النظم الاقتصادية السائدة في تلك البلاد بعد دخولها تحت عبودية الاستعمار التي تغلغلت فيها منذ ثلاثة قرون .

على سبيل المثال أذكر الآن واحداً من تلك النظم الاقتصادية الفاسدة ، أو بالتعبير الأصح أذكر مظهراً من مظاهر تلك النظم ، وهو أن الدخل الأهلي أي دخل المجتمع طبعاً يتوزع على كل عنصر من وسائل الإنتاج وهي : رأس المال والطبيعة أو الأرض والتنظيم والعمل . ففائدة رؤوس الأموال أو الربح يذهب إلى أصحاب المنشآت الصناعية والتجارية ومعظمها شركات أجنبية .

أي أن الربح يدخل في جيوب أصحاب رؤوس الأموال وحاملي أسهم تلك الشركات الكثيرة . وريع الأراضي الزراعية الواسعة وإيجارها وكذلك إيجار المباني والعمارات يقبضه أصحابها ، وهم كبار أصحاب الأملاك الأجانب ، وهؤلاء أيضاً الذين يقبضون المرتبات والماهيات الضخمة لأن تنظيم تلك المنشآت الصناعية والتجارية والزراعية وكذلك إدارتها كانت في أيديهم .

أما الأهالي والسكان الأصليون فبعد أن كانوا أصحاب

الأملاك وسادة البلاد تغلب عليهم الأجانب والمستعمرون وأصبحوا لا يملكون إلا العمل فقط ، هم الذين يعملون ويشتغلون عمالا فى المتاجر والمصانع والمزارع ، فليس لهم من الدخل إلا الأجور فقط ، أى أن نصيب الأهالى من دخل المجتمع ليس إلا ربعه فقط مع أن عدد السكان الأصليين أضعاف أضعاف عدد الأجانب ، وزيادة على ذلك فإنهم تحت ضغط الجوع أو الفقر السابق مضطرون أن يشتغلوا بأعمال شاقة فى مدة طويلة بأجور منخفضة ، وإذا كانوا من صغار الملاك وهم كثيرون يضطرون إلى بيع محصولاتهم بأثمان زهيدة تبعاً للخطة الموضوعة من الشركات التجارية الضخمة التابعة للأجانب ، وهذه الشركات التجارية والصناعية والزراعية كثيراً ما يتحد بعضها ببعض على شكل نقابات الانتاج Cartels أو الشركات الموحدة Trusts ، وتستطيع أن تتحكم فى السوق وتحدد الأسعار والأجور على ماتشاء ، ومن هنا ينشأ فقر هؤلاء السكان الأصليين .

وكل هــذه الشركات تعتمد على الحكومة فى تنفيذ تصرفاتها وبرامجها ، كما أن الحكومة نفسها تعتمد عليهـا أيضاً فى تدعيم سلطانها وسياستها ، ومن هنا نكتشف سر استطاعة هولنــدة — وهى أمة صغيرة لا يتجاوز عــدد سكانها ثمـانية ملايين نسمة — فى أن تحكم أمة كبيرة أكبر منها بسبع مرات .

ونلاحظ أيضا أنه كلما اشتد هذا الفقر فى وسط عامة الشعب كان متفقا مع مصلحة أرباب الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال فيها ، وذلك لأن الفقر بلا شك سبب من أسباب هبوط مستوى المعيشة ، وبالتالى يؤدى إلى قلة نفقات المعيشة ، وهذا الأخير يؤدى إلى انخفاض معدل الأجور ، ومتى انخفض معــدل الأجور تقل تكاليف الإنتاج وتزيد الأرباح التى ترجع إلى خزانة تلك الشركات الـكثيرة ، لذلك رأينا أن الحكومة وتلك الشركات بذلت كل منهما جهودها فى جعل نفقة معيشة الأهالى أدنى ما يمكن لـكى تصبح نفقات الإنتاج ومصاريف الحكومة التى تنفقها على مصلحة الأهالى أقل ما يمكن .

هذه هى خلاصة حالة إندونسيا الاقتصادية قبل هــذه الحرب . وأعتقد أن حالة إندونسيا فى جميع نواحى الحياة وبالأخص حالتها الاقتصادية هذه لا يمكن أن تتحسن إلا بعد الاستقلال التام وبعــد تخلص الإندونسيين من تلك القيود الثقيلة التى تغل أيديهم ، وأتخيل أن إندونسيا بعد تخلصها من عبودية الاستعمار ستنهض نهضة سريعة نظراً لـكثرة ثروتهـا ولوفرة مواردها الطبيعية ولحسن موقعها الجغرافى ولتوافر عوامل الانتاج فيها . فالوقود والمواد الأولية متوافرة والأيدى العاملة كثيرة رخيصة .

وربما يتساءل سيدى القارىء : « كيف يتيسر للاندونسيين أن يسيروا شؤونهم الاقتصادية ؟ وكيف يستطيعون استغلال منابع ثروتهم إذا خرجت من بلادهم رؤوس الأموال الأجنبية ؟

قد يبدو لنا لأول وهلة أن هذه المسألة مشكلة كبيرة . ولـكننا إذا أمعنا النظر فى حقيقة رؤوس الأمـوال نجد أنها ماهى إلا وليدة تعاون أفراد الشعب ، أو نتيجة مساهمة الأهالى فى كل مشروع من مشروعاتهم زراعية كانت أو صناعية أو تجارية ، وبمـا أن الأندونسيين كما يظهر من معاملتهم وحياتهم أنهم متعودون على هذا التعاون فيما بينهم وعلى النظام فى أعمالهم وتصرفاتهم ، فإنه من السهل جداً تكوين رؤوس الأموال التى تحتاج إليها البلاد .

وبهذا البيان الوجيز تتضح لسيدى القارىء حكمة تمسك زعماء الإندونسيين فى سياستهم بعدم مفاوضة الحكومة إلا بعد الجلاء ، وعدم قبول أى منصب فى الحكم إلا بعد الاستقلال التام .

[للكلام بقية] فريد الدين يونس

حنين إلى منبع الإلهام

ماذا أكتب بعد أن بلغت باريس إذ أبلغها اليوم الأول في السنة الجديدة؟ أأكون ذلك النجم الذي يستطلع غيب السموات والأرض ويستقرىء النجوم والأفلاك ليكشف ما تخبؤه وراء دوراتها السريعة لأقول إن هذا فأل حسن بالنسبة لقدومنا ودخولنا هذه العاصمة الكبيرة، أم أوثر لنفسي حالة الإنسان؟ الإنسان الذي يشعر فيتألم أو يفرح، الإنسان الذي يحيا لحاضره أكثر مما يحلم بمستقبله، الإنسان الذي يرهف السمع لدقات قلبه قبل أن يفتح الأذن لدقات ساعات الزمن الآتية، فأنقل لك تلك الدقات التي كنت أسمعها فيه، والسيارة تجول بي أحياء باريس قاصدة نحو الفندق المعيّن فيقول لي سائقها: انظر.. انظر.. تلك هي السوربون.. وذلك هو الحي اللاتيني. وحينئذ لا أدري أهو الفرح سرى في نفسي على أني أصبحت على مدى خطوات من هذه الجامعة التي طالما هفا إليها فكري، أو الألم قد اعتصر مهجتي، إذ اعترتني ذكرى تلك الجامعة التي يشخص إليها صباح مساء فؤادي؟ نعم تلك هي السوربون كعبة الثقافة منذ أجيال متعاقبة لجميع أبناء الدنيا، ولكن أين هي جامعة فؤاد الأول قبلة ذلك القلب الذي انطوت أزمنة وتنطوي سواها دون أن تلامس حباً كذلك الذي بعثته فيه هذه الجامعة الناشئة؟

إنها لحيرة في أمر هذه الحياة الغادرة... كأنها نصفان... عسل مصفّى في أعلاها... وعلقم معكّر في أدناها... وإنها لكأس لا بد منها إذا أراد الحيّ ألاّ يموت ظمأ... ولقد يخطر له كثيراً أن يكسرها وأن يدوسها بقدميه، ولكن يد الحياة أخف من مواقع غضبه، إنها سرعان ما تجبر الحطام المنثور، وترد إليه الكأس من جديد... نعم إنها الحياة التي تجري رياحها على غير مايشتهي أمهر ربّان فيها، وكأنما الدفة سلّمت منذ الأزل إلى سيّد غريب حاله أوصى بألاّ يديرها إلاّ على خلاف ما يشتهي راكب السفينة أو ربّانها! وتلك كلمات تنطق بها باريس، وسواي ما إن بلغها حتى نسي الحياة وكل ما تخفي وما تظهر، وكل ماتكنّ وتعلن، لكيلا يذكر بعد ذلك إلا باريس وجمال باريس وفتنة باريس. أما أنا... أما أنا... فلست أدري لماذا شعرت من اليوم الأول أني لم يكن ليروقني أن أدخل وحدي هذه العاصمة الخلابة، وأن لا أكون وحدي في مدرجات جامعاتها، وأن لا أطوف وحدي في شوارعها، وأن لا أجول وحدي في متنزهاتها؟ وأن لا أعبث وحدي في مهرجاناتها؛ وأن لا أرى بعيني وحدهما جوها، وأن لا أتعرف وحدي إلى رجالاتها ونسائها.

لقد كرهت هذا في الساعة الأولى التي أصبحت فيها: كرهت هذه الوحدة، لأن عاصمة الشرق الحبيبة وعروس النيل البهيجة وربة الأهرام الفريدة، زاوجت بيني وبين إنسان آخر في هذه الحياة... أما عاصمة الغرب فإنها تفرّق بيني وبين هذا الإنسان... فهل ألام بعد ذلك إذا أحببت الشرق أكثر مما أحب الغرب؟ أم هل من يعذلني إذا أبغضت الغرب وعبدت الشرق؟ إيه أيها الشرق! إن لم يكن لك في حياتي من أثر إلا تلك الفتاة التي خالطت كيانها وخالطت كياني حتى لم يعد أحدهما إلاّ الآخر، لكفى بك معبوداً عندي... إيه أيها الشرق! إن لم يكن فيك إلاّ تلك العينان الساليتان أهفو إليهما من بعيد لكفى بك مصدراً للنور في حياتي... إيه أيها الشرق! إن لم يختلج فيك إلاّ تلك الروح الفتية الهفهافة التي ترف أمام ناظري، وكأنما هي جناحا ملاك هابط من السماء لنعمت مهبطاً قدسياً للروح الإنسانية... إيه أيها الشرق! إن لم يكن فيك إلاّ ذلك الإنسان يطوي الليالي ساهداً متقلباً على ذكريات مضت لحييت مهداً للهوى والحب والإلهام ما عرف البشر مثله مهداً..

كأنما أنت الليلة الشرق وكأنما الشرق أنت... ولعلك

تتصورين حالة ذلك الناسك الذي يريد أن يتجه بصلاته نحو الكعبة ، فيتجه إلى محرابه ، وكأنما قد انتقلت مكة إلى هذا المحراب ؛ ثم تتصورين حاله وتتصورين أنك أنت الآن المحراب الذي أصلي نحوه صلاة الشرق الحبيب .

من يشترى منى كل أيامى فى غرفتى الفخمة هنا ليبيعنى لحظة واحدة من لحظات البلد المحبوب ؟ وددت لو أنك لم تكونى ولم أكن ولو أنك لم تخلق ولم أخلق ، ولو أنك لم تعرفينى ولم أعرفك ، لأكون اليوم إنساناً لا ماضى له فيعيش بحاضره ويتطلع نحو مستقبله .. ولكن ... هل أنا حقاً أريد ذلك ؟ وهل يعادل الألم الذى يعودنى الآن اللذات التى انهالت على بالأمس حينما كنت معها ؟ أيتها المرأة إنك ساحرة ! أيتها القاهرية الحسناء إن فيك لسر الأهرام وأبى الهول ! إنهما رمز لماض لا يريد أن ينطوى ، وإنك لعنوان لماض لا يمكن أن ينطوى .. بل إنه من القوة بحيث يطوينى بحاضرى ومستقبلى معاً . أيتها المرأة إنك لقاسية ! إنى أعيش لك بذكرياتى ونفسى وأملى وألمى . فما الذى بقى لى ولحياتى فى مدينة باريس ؟ هل رأيت فى حياتك تلك الاسفنجة التى تغمسها يد المرأة بالماء لتمسح بها ظهر دولابها ثم ألقتها تتدحرج على الأرض بعد أن اعتصرت كل ما فيها من ماء ؟ إنه قلبى يتدحرج اليوم فى شوارع باريس كتلك الاسفنجة بعد أن صب كل ما فيه من ماء فى شوارع القاهرة ، فى ليالى القاهرة ، وفى ظل أشجار القاهرة ! ! آه أيتها القاهرة ! ... إنى كثيراً ما أتساءل أشيخ أنا قد ذوى أم شاب قد غوى ؟ نعم لأنه كثيراً ما يتراءى لى أن شبابى لم يعد شيئاً مذكوراً ، وأنه قد بات هباء تذروه الرياح بعد أن برح تلك العاصمة التى تفتحت فيها براعمه الأولى . وكأنما البراعم قد أزهرت زهراتها لجاءها الخريف بعد الربيع منبئاً إياها أنه الخريف الذى لن يكون بعده ربيع ...

إيه أيتها القاهرة ! وهل من ربيع فى الدنيا بعد ربيعك أنت وبعد ربيع الحياة فيك ؟ إنه ربيع لم يكن فيه الشباب ولم يكن فيه الصبا ولم يكن فيه الهوى ولم يكن فيه العبث ، ولم يكن فيه الجد والفتوة ، ولم يكن فيه شيء واحد من هذا فحسب ، بل كانت فيه الحياة .. الحياة زاهية ... الحياة باسمة ... الحياة فاغرة ثغرها بضحكات التفاؤل والأمل ... الحياة باسطة ذراعيها سكرى بالبراءة والصفاء ... الحياة مضطربة مواجة .. صاخبة ثائرة ... الحياة التى لا تعرف الفوضى ولا النظام .. ولا يحدها فكر ولا قلب .. ولا يحتويها عد ولا حصر .. الحياة موارة متقلبة . كل يوم لها وجهها الجديد ... وكل ساعة لها أحلامها الغريبة المفزعة ... وكل لحظة لها خطراتها دافقة مثيرة . تلك هى لوحة القاهرة كما ارتسمت أمام عينى ، وذلك هو ربيع القاهرة كما تعاقب على الأرض فصل يتلوه فصل .. وتلك هى زهرات القاهرة كما عبقت حديقة الدنيا بالعبير . إيه أيتها القاهرة ! لكأنما أنت قصر الحياة من خرج منه أغلق وراءه باب لم يعد يعلو له بعده قصر من القصور ولا أرض من أراضى المسكون والمعمور ! .

لعلى شردت بعض الشرود فى حديثى إليك . ولكن وقفتى أمام المحراب حملتنى على الاسترسال . والاسترسال فى الصلاة ... آه ما أحلاها من صلاة أنت قبلتها ! ..

« مغترب »

لويز

قصة لسومرست موم

عرفت لويز قبل زواجها ، وكانت حينئذ فتاة هزيلة ، نحيلة ، ذات عينين واسعتين حزينتين . وكان والداها يحبانها حبا هو العبادة ، فقد أصيبت بالحمى القرمزية وتركها المرض ضعيفة القلب ، وكان عليها أن تأخذ منتهى الحيطة والحذر نحو نفسها . ولما تقدم توم ميتلند لخطبتها لم يرق ذلك والديها ، فهما يعتقدان دائما أن ابنتهما لن تساعدها صحتها الضعيفة على ممارسة حياة الزوجية . إلا أن توم كان ثريا ولم تكن حالتهما على ما يرام ، وقد وعدهما أن يقوم بكل الواجبات المطلوبة منه نحو زوجته الضعيفة ، فقبلا أخيرا وقدماها له وديعة مقدسة .

وكان توم ميتلند رياضيا ، قوي البنية ، جذاب المنظر ، وقد شغف بلويز كل الشغف ، وكان يعتقد دائما أنها لن تعيش طويلا نظراً لضعف قلبها ، فعمل ما في وسعه حتى ينعم ما تبقى لها من سنوات قليلة بالهناء والسعادة . ولقد هجر هوايته الرياضية ، لا لأنها منعته عن ذلك ، إذ كان يسعدها أن تراه يلعب الجولف أو يذهب إلى الصيد ، ولكن السبب كان تلك الأزمة القلبية التي تعتريها كلما حاول أن يتركها يوما لبعض شئونه الرياضية . كما أنه إذا ما قامت بينهما مناقشة كانت تسلم برأيه مسرعة حتى لا تغضب فتعاودها أزماتها القلبية وتضطر إلى ملازمة الفراش لمدة أسبوع على الأقل ، ولم يكن هو جبانا ليتسبب في ألمها أو غضبها .

ولكني لاحظت مرة أنها سارت على قدميها مسافة ثمانية أميال في رحلة قامت بها ، فلفت نظر زوجها إلى أنها أقوى مما كنا نعتقد .. ولكنه هز رأسه قائلا :

— كلا .. كلا .. إنها في غاية من الضعف ، ولقد عرضت نفسها على أشهر الإخصائيين في أمراض القلب ، وقرروا جميعا أن حياتها معلقة بخيط .. ولكن روحها لاتقهر ..

وحدثها زوجها عن ملاحظتي التي أبديتها بشأن قوتها فاذا بها تقول لي :

— سأدفع ثمن ذلك غدا .. وسأطرق باب الموت ..

ولكني همست إليها : أنا أعتقد أحيانا أنك تقوين على عمل أي شيء يروقك ؟

فلقد لاحظت أنها إذا كانت في حفل وأعجبها فهي ترقص حتى الساعة الخامسة صباحا ، أما إذا لم يرقها فهي حزينة متألمة ، وعلى زوجها أن يعود بها في وقت مبكر . ولذلك لم ترحب بملاحظتي السابقة ، فنظرت إلي في ابتسامة حلوة ولو أن عينيها كانتا جامدتين وأجابتني قائلة :

— لعلك لا تتمني أن أخر صريعة حتى تستريح أنت !

ومع ذلك فان لويز قد عمرت أكثر من زوجها ، إذ أصابته نزلة شعبية حادة في إحدى رحلاتهما البحرية ، وكانت هي في احتياج إلى كل الغطاء الموجود لتدفئتها .. ومات هو فترك لها ثروة طيبة وابنة صغيرة .

والعجيب في الأمر أنها كانت تحاول أن تقاوم تلك الصدمة لتعيش ، بينما أصدقاؤها كانوا يعتقدون تماما أنها سرعان ما ستتبع زوجها إلى القبر ، وكانوا يبدون الأسف دائما نحو إريس ابنتها الصغيرة التي ستغدو يتيمة يوما ما . وضاعفوا من عنايتهم بلويز وأصروا على أن يؤدوا كل مطالبها لأنهم كانوا يعتقدون أن قيامها بأي عمل متعب سيعيد إليها أزماتها القلبية التي ستلحق بها إلى حافة القبر . وكانت هي تقول إنها تشعر أنها تائهة في هذا العالم بدون رجل يأخذ بيدها ويعنى بشئونها ، ولا تدري كيف ستقوم بتربية ابنتها إريس وهي على هذه الحال الضعيفة .

فسألها أصدقاؤها : لماذا لا تتزوج ثانية ؟ ولكنها كانت تزفر وهي تقول : كيف يتأتى لها ذلك وهي امرأة

ضعيفة القلب ؟ ولكنها تعتقد أن توم سيستريح فى قبره لو أقدمت على هذا الأمر ، ولعله فى صالح إريس أيضا . ولكن من من الرجال رضى لنفسه بالمتاعب ليتزوج امرأة مريضة مثلها ؟؟

ومن الغريب جدا أنه تقدم إليها أكثر من شاب وتعهد بأن يقوم بهذه المهمة ! وبعد عام واحد من وفاة توم سمحت لجورج هنيهوس أن يتزوجها . وهو شاب طيب ، وكنت ألاحظ سعادته الدائمة لهذه الميزة التى اختصته بها ليعنى بشئونها . وقالت له :

— لن أعيش طويلا حتى أتعبك ..

ومع أنه رجل عسكرى ذو طموح إلا أنه اضطر للاستقالة من الخدمة ، إذ أن صحة لوز كانت ترغمها على قضاء فصل الشتاء فى مونت كارلو وفصل الصيف فى دوفيل . ولقد تردد فى بادئ الأمر نحو تركه وظيفته . . وعارضت لوز أولا . . ولكنها استسلمت أخيراً لهذه الفكرة كما تستسلم دائما . وبدأ هو يستعد لأن يجعل السنوات الباقية من حياتها أسعد أيامها ، بينما هى تكرر قولها :

— لن يطول الأمر . ولن أكون سبب متاعب لك .

وخلال السنتين أو ثلاث السنوات التالية كانت لوز تهتم دائما بالرغم من ضعف قلبها بالذهاب إلى الحفلات والولائم فى أبهى ملابسها ، وأن تقامر بكل ما معها ، وتراقص الشبان بل وتغازلهم . ولم يوهب جورج القوة كزوجها الأول ، فكان يلجأ دائما إلى الحراليب منها حتى يستريح ، وكانت لوز تكره هذا منه لولا أن قامت الحرب لحسن حظها فالتحق بفرقته وقتل بعد ثلاثة أشهر .

وكانت صدمة كبيرة للوز ، واعتقدت بينها وبين نفسها أنها لو أطالت التفكير فى هذه الصدمة فان أزمتها ستعاودها ولن يشعر بها أحد ، ولكى تشغل نفسها عن ذلك حولت بيتها فى مونت كارلو إلى مستشفى للضباط الناقهين .

وقد نصحها أصدقاؤها لأنها لن تقوى على هذا الجهد ، فكانت تقول :

— طبعا . إن هذا سيقتلنى . أنا أعرف ذلك ، ولكن على أن أقوم بواجبى مهما كان الأمر ..

ولكن هذا لم يهلكها كما كانت تقول ، فهى تملك الوقت الكافى ، وكان بيتها أو مصحتها من أشهر البيوت فى فرنسا . وقابلتها يوما بطريق المصادفة فى باريس . كانت تتناول غداءها فى (الريتز) مع شاب فرنسى طويل ، حلو الملامح ، فأخبرتنى أنها ماجاءت إلى باريس إلا لشئون تتعلق بالمصحة وأن الضباط يلاطفونها ولا يتركون لها الفرصة لأن تقوم بأى عمل ، ويعنون بها كأنهم أزواجها جميعاً .

وأرسلت زفرة حارة وهى تقول :

— المسكين جورج .. من كان يعتقد أنه يموت وأبقى أنا المريضة ؟؟

فقلت : والمسكين توم ؟

ولا أدرى لماذا لم ترقها كلماتى تلك ، فإذا بها تبتسم وقد امتلأت عيناها الجميلتان بالدموع وقالت :

— أنت تتكلم دائما وكأنك تحسدنى على تلك السنوات القليلة التى أرجو أن أعيشها .

فقلت : إن حالة قلبك الآن متحسنة عن قبل .. أليس كذلك ؟

فقالت : لن يتحسن مطلقا .. لقد كنت فى زيارة إخصائى هذا الصباح وأخبرنى أنه على أن أستعد دائما لأسوأ الأحوال ، فقلت : لقد تأهبت لذلك حوالى العشرين عاما حتى الآن .. أليس كذلك ؟

* * *

ولما انتهت الحرب أقامت لوز فى لندن بعد أن تعدت الأربعين من عمرها وأصبحت هزيلة ذات عينين واسعتين ووجنتين باهتتين ، ولكنها مع ذلك تبدو كأنها فتاة فى الخامسة والعشرين . أما إريس ابنتها فقد التحقت بالمدرسة وحضرت إلى لندن هى الأخرى لتقيم معها . وقالت لوز :

— إنها ستهتم بي .. نعم .. إنه من العسير عليها أن تقيم مع مريضة مثلي ، ولكن هذا لن يطول .. وأعتقد أنها لن تهتم بذلك .

وكانت إريس فتاة لطيفة ، ولقد أنشئت على الاعتقاد أن صحة أمها خطرة ، وحينما كانت طفلة لم يكن يسمح لها بأن تحدث أى ضوضاء ، وكان عليها أن تعرف أن أمها ستتألم إذا ما أتت ذلك ومع هذا لم تكن تصغى إلى والدتها التي كانت تقول دائما إنها غير راضية من فتاتها التي ستضحى بأوقاتها السعيدة في سبيل أمها المريضة ، فكانت تقول إن ذلك لا يعتبر تضحية من جانبها ، فالسعادة تغمرها لأنها تقوم بكل ما يمكنها نحو أمها العزيزة المسكينة . وتوفر أمها وهى تقول :

— إن ابنتى ليسرها أن تشعر أنها ذات نفع لى .

وسألتها يوما : ألا تعتقدين أنه يجب على إريس أن تخرج للتنزه بين وقت وآخر أكثر منها الآن ؟

فقالت : طالما قلت لها ذلك .. أنا لا أرضى أن أكون سببا فى أية متاعب لها أو لأى شخص آخر .

ولما تبهت إريس لذلك قالت : يا لأمي المسكينة ! . إنها تود أن أخرج دائما مع أصدقائى وأذهب إلى الحفلات ، ولكن فى اللحظة التى أتأهب فيها للخروج تعتريها أزمة من أزمات قلبها . فأفضل البقاء بجانبها .

ولكن سرعان ما وقعت إريس فى أسر الحب ، وكان رجلها صديقا لى ، وهو شاب صغير طيب القلب . تقدم إليها وطلب زواجها فوافقت . وكنت أحب الفتاة ، فشعرت بمزيد السرور إذ سنحت لها الفرصة أخيراً لأن تحيا حياتها الخاصة التى تطمح إليها كل فتاة . ولكن جاءنى ذلك الشاب يوما عابسا وأخبرنى أن زواجهما قد أجل . إذ أن إريس تقول إنه لا يمكنها أن تهجر أمها وهى على تلك الحال . ومع أن ذلك لم يكن من شئونى إلا أنى انتهزت الفرصة وذهبت لمقابلة لويز وقلت لها :

— لقد سمعت أن إريس لن تتزوج الآن .

فقالت : أنا لا أدرى شيئاً من ذلك ، فهى لن تتزوج فى وقت قريب كما كنت أود ، ولقد جثوت على ركبتى وأنا أرجوها ألا أقف عقبة فى سبيل هنائها . ولكنها رفضت أن تتركنى .

فقلت : ألا تظنى أن ذلك من الصعوبة عليها بمكان ؟

فقالت : إنه صعب جداً .. ومع أن هذا لن يدوم سوى بضعة أشهر فقط إلا أنى أمقت أن يضحى أحد بنفسه من أجلى .

فقلت : يا عزيزتى لويز .. لقد دفنت زوجين .. وأرى أنه يمكنك أن تدفنى اثنين غيرهما .

فسألتنى وهى تبدى الغضب : أتعتقد أنك ظريف ؟

فقلت : أرجو ألا تعجبى حين أخبرك أنك من القوة لكى تقوى بأى عمل يروق لك .. أما قلبك الضعيف فهو يمنعك عن الأشياء التى تكرهينها .

فقالت : آه .. أنا أعرف رأيك عنى دائما .. أنت لن تصدقنى أبداً .. أليس كذلك ؟

فنظرت إليها طويلا وأنا أقول : أبداً لن أصدقك فأنت امرأة أنانية .. متوحشة .. لقد حطمت حياة رجلين ، والآن تودين تحطيم حياة ابنتك .

وكنت أنتظر أن تعتريها أزمة من أزماتها بعد هذه الكلمات .. ولكنها نظرت إلى فى ابتسامة حلوة وهى تقول : يا صديقى المسكين .. ستأسف يوما ما أسفاً شديداً على كل ما قلته لى الآن .

فقلت : هل عزمت عزما أكيداً على ألا تتزوج إريس من ذلك الشاب ؟

فقالت : لقد رجوتها مراراً أن تتزوجه .. أنا أعرف أن ذلك سيهلكنى ولكنى لن أهتم بالأمر . إن أحداً لن يعتنى بى ، وإنى أشعر دائما أنى حمل ثقيل على كل إنسان .

بين المسموع والمقروء

تضحك والأحزان ملء جلدها

فى ضاحية من ضواحى لندن قام عشرون بيتا معا ، كلها من الآجر الأحمر ، تؤلف شارعا منفردا أسموه « البستان » تظرفا وتمنيا . ولشدّ ما كانت هذه البيوت وتشابهت حتى ما تعرف أن تميز شيئا منها إلا باختلاف أسماء رقموها على أبوابها تؤكد للقارئ معانى الريف ، وبعض معانى الترفع أيضا . فقد أسموا بعضها « زهرة السوسن » ، وأسموا بعضها « ظلال الصفصاف » ، وبعضها الآخر « مربط الجياد » . ولم يكن بها سوسن يُزهر أو صفصاف يُظل ، ولا حتى جياد تُربط ، ولكنها الأخيلة الطامحة رأت أن تربط هذه البيوت المتواضعة بكل معنى حبيب وأمل غير قريب .

وسكن هذه البيوت قوم عاديون من سواد الناس ، فيهم سكون وفيهم احترام ، يعيشون عيشة راتبة كرتابة الليل والنهار ، خالية من كل لون إلا لون السواد والبياض . وكانوا قوما تجرى فيهم أحداث الزمان هادئة ، فلا الهم فيهم بمهدر ، ولا متاع بمسروق . حتى الحب يجرى بينهم فى طريقه المشروع المألوف . إلا حادثة واحدة عكرت من صفو هذا الحىّ — البستان . ذلك بأن رجلا من رجاله عاد ذات ليلة ثملا ، فزأط وصرخ وأيقظ النيام . فكان حادثا فريدا فى حياة « البستان » . وأصبح الرجال والنساء يمرون على هذا البيت ، مصدر هذا الحادث ، فينظرون إليه شزرا فى عجب واستنكار .

وفى أوسط هذا الصف من البيوت قام بيت هو بيت القصيد فى قصتنا .

وفى هذا البيت عاش رجل وامرأة — عاش زوج وزوجة ، ولم يكن لهما خلف .

أما الزوج فكان رجلا فات الأربعين ، يعمل عملا مما يعمله ألوف الخلق فى مدينة الأعمال والأشغال ، مدينة لندن . وأما الزوجة فكانت فى نحو الأربعين ، ليس فيها جمال ظاهر أو شىء بارز يلفت الأنظار . وكان الزوجان سعيدين فى حياتهما ، سعيدين بالرضا عما هم فيه ، وبأنه ليس لهما آمال تقيض المضاجع .

ولكن الزمن لا يسكت دائما حتى عمن عنه يسكتون ،

— هل أخبرتها بأن ذلك سيكون سببا فى موتك ؟

— لقد جعلتنى هى أقول ذلك .. ومع هذا عكنها أن تزوجه غدا إذا أرادت .. ولن أهتم إذا ما تسبب ذلك فى هلاكى .

— حسنا . فلنخاطر هذه المخاطرة ... أرجو أن توافق ...

— ألا تشعر نحوى بشىء من الشفقة ؟

— وكيف ينبغى لى أن أشفق على مثلك ؟

فتلون خدها الباهت قليلا ، ومع أنها كانت تبتسم إلا أن عينيها كانتا متحجرتين وهى تقول :

— ستتزوج إريس بعد شهر .. وإذا ما حدث لى شىء ، فأرجو أن يكون فى طوقكما أنت وهى أن تستغفرا لنفسيكما ..

وبرت لوز بوعدها ، فحدد التاريخ ، وجهزت العروس وأرسلت الدعوة ، وكانت إريس وخطيبها مبتهجين . وفى يوم الاحتفال بالزفاف .. وفى الساعة العاشرة صباحا ... أصابت لوز — تلك المرأة الشيطانة — إحدى أزماتها القلبية فخرت صريعة ، بعد أن غفرت لإريس التى كانت سببا فى موتها » .

حسن فهمى خليل

ولا يترك حتى أولئك الذين بالقناعة تركوه وارتضوه وارتضوا قسمتهم فيه .

فى صبيحة يوم أسود كشفت المرأة عن حقيقة مرة : أن بثديها طلوعا غريبا ، ذهبت به إلى الطبيب فأخبرها أنه ورم خبيث . أنه باختصار سرطان وقام الجراح عليه توا فاستأصله .

ولكن الجراح لم يستطع باستئصال هذا الورم الخبيث من جسمها أن يستأصل شبحه من خيالها ، فتركها قلقة مرتاعة ، لا تدرى متى تعود هذه الغمامة السوداء فتظلها بظلال هى بعض ظلال الموت . وكان زوجها أشد قلقا وأشد ارتياعا ، لأنه كان ذا حس أرهف . وزاد حسهما بالمصيبة التى نزلت ، وبأعقابها التى لا تفتأ تهددهما ، أنهما عاشا منطويين على نفسيهما ، فى صلتهما الواحدة تركزت لذة الحياة ، وبين حيطان بيتهما الصغير اجتمعت مفارح العيش ، فلم يكن لهما خارج هذه الحيطان صلات وثيقة ولم يكن لهما أصحاب وثاق .

وألح الهم على الزوج فأخذ يفزع مما تنذره به الأيام . ولم ينجه من الهم الملح إلا مكتبه فى المدينة الكبيرة ، فقد كان العمل ينسيه . كذلك كان ينسيه لقاء زوجته ، فقد كانت فى صحة جسم وامتلاء وجه لا يأتلف مع تلك النذر الفزعة . وكانت شر ساعاته تلك التى كان يقضيها فى القطار صباحا وهو ذاهب إلى عمله ، ومساء وهو راجع إلى بيته ، ثم تلك التى كان يقضيها فى فراشه ساهرا وظلام الليل ضارب .

ومضى الزمن وطال ، فأخذت حواشى تلك السحابة السوداء ترق ، وأخذت تمحى . وظن الكل أن العلة استؤصلت لغير رجعة ، وعاد إلى القلوب هدوءها القديم أو كاد .

ولكن لم تلبث المرأة المنكوبة أن بدأت تحس فى ثديها شيئا جديدا يتحرك ، شيئا جديدا ينمو حيث لا يطلب النمو . وترامت يوما فيوما عقد مخيفة بشعة ظلت على الأيام تزداد بشاعة . نعم نعم ، إنه ذلك الشىء المروع قد عاد . ولم تجسر على إخبار زوجها بهذا الضيف الثقيل وقد حل من جديد ، وكيف تجسر على إخباره وقد عاد إليه بشره وعاد إليه سرور الحياة . وأسرت بلواها إشفاقا عليه . وأخذ السرطان يأكل فى جذور حياتها ، وفى أصول وجودها ، وهى لا تلقى زوجها حتى تبتسم وتحت جلدها أحزان الدنيا .

واحتفظت بسرها طويلا حتى أثقل عليها الداء ، فأخذ وجهها يصفر ، وجسمها ينحل ، وقوتها تقل ، وهى تغالب كل هذا ، وأخذت تضحك وتمزح كعهدها القديم ، ولكن زوجها لم يلبث أن أدرك أن شيئا ما قد اختل . وخطر بباله أن البلوى قد عادت ، فأشار على زوجته أن ترى الطبيب . فضحكت الزوجة من تلك المشورة . قالت : وما حاجة امرأة صحيحة سليمة مثلى أن ترى الطبيب . وزادت مخاوف الزوج فأصر على أن ترى طبيبا

وذهبت إلى الجراح . فلم يكد يرى ثديها حتى عرف الذى به . فهل يقول لها ؟! إنه الموت المحتوم ، فما فائدة القول ؟ إنما يسوّد أيامها الباقية ، وأيام زوجها معها . وأخيرا نظر إليها وقال لها : يا سيدتى ، ليس بك من شىء ، فاذهبى واهدأى وانعمى بالحياة .

وذهبت عنه ، وذهب الزوج ، وعاد إليهما اطمئنانهما وأسفت الزوجة فى قليل من الشك على أنها كانت سببا فى إثارة كل تلك المخاوف الكاذبة .

وتمضى الأيام فتأخذ صحة المرأة المنكوبة فى الهبوط . ورأى زوجها منها ذلك فعجب لهذه الحال . إن الطبيب يقول ليس بها شىء ، وهى تقول ليس بها شىء . واعتزما أخيرا أن يريا جراحا آخر ، فلعل له رأيا آخر .

وتقضى المجاملة الطبية ألا يذهبا إلى هذا الآخر إلا عن

طريق جراحهما الأول . فقملا . وما رأى الجراح الجديد المطبم ندى المرأة حتى عرف الذى به . وفض كتاب الجراح الأول فعرف رأيه وعرف ما كان . ووقف ساعة واجما لا يدرى ماذا يفعل . أيقول أم لا يقول ؟ فلما رأت المرأة وجومه رجته فى حرارة أن يقول لها الحق كائنا ما كان ، قالت : إنى لا أخاف الموت ، فان كان لا بد من الموت فعلمى بذلك أنفع من جهلى ، لأن لى عندئذ أموراً لا بد من ترتيبها وإنهائها . عندئذ جمع الجراح قوته وأخبرها . قال لها : إنه السرطان . قالت : أليس له من علاج ؟ قال : لا . قالت : أعتد بى الأجل ستة أشهر ؟ قال : لا . فشكرته وانصرفت .

ولم يكن زوجها معها . فقد كان آثر وآثرت معه ، أن لا يذهب معها . وكان اليوم السبت . وصادف أنه عيد ميلاده فلم يذهب إلى عمله بدعوى أنه عيد ميلاده . والواقع أنه لم يذهب لشدة قلقه . وودّع زوجته عند القطار وهى ذاهبة إلى لندن لترى الجراح . وقضى وقته بعد ذلك يمشى فى شوارع تلك الضاحية وطرقاتها لغير غاية . وعرف موعد القطار الذى به تعود ، ولكنه ودّ أن لا يلقاها عند القطار ، فقد يكون الخبر سيئا فلا يملك نفسه . وعدا هـذا فذاك قطار المساء وكله معارف قادمون .

واعتزم على أن يلقاها عند رأس الشارع — عند رأس « البستان » ، فذاك مكان هادئ لا تراه العيون . وأخذ يشبر « البستان » ذهابا وجيئة ، ويعد القضبان على بعض السياج ، وهو يمنّى نفسه إن كان عددها زوجيا أن لا خطر على زوجه ، وإن كان فرديا فالخطر عليها كل الخطر . ويطلع العدد زوجيا فيطمئن . ثم يخرج قطعة فضية من جيبه ، ويطلقها فى الفضاء ، ثم يلقطها ، وهو يقول : إن طلع رأس الملك فهو ذلك الخير . وإن طلع الآخر فهو الشر كل الشر . فيطلع له الوجه الآخر فيترعج .

وفى إحدى جولاته فى هذا الشارع ضلّ الطريق عند الطرف الأبعد . ثم حسب أن الوقت أزف ، وأنه لن يبلغ الطرف الآخر حتى تكون زوجته قد فاتت . ويجرى لبلوغ ذلك الطرف ، فيبلغه ، ثم ينظر الساعة ، فاذا القطار لا يأتى قبل ربع ساعة .

وتمضى الدقائق كأنها الأيام . وأخيرا تظهر له زوجته من بعيد فيلمح على وجهها ابتسامة ، وتقترب منه فتقول له : الحال طيب ، ورأى هذا الجراح كرأى سابقه . فيضمها فى الشارع ويمشى أين هو فيرقص .

وتدخل الزوجة إلى بيتها فتقترح على زوجها أن تدعو الجيران والأحباب القلال إلى بعض الطعام وبعض الشراب احتفالا بعيد ميلاده ، فيقول لها بل احتفالا بنجاتنا . ويحضر الجيران ، فيكون طعام ويكون شراب ويكون ضحك وتكون نكات . ويضحك الزوج ويأط ملء قلبه ، ويقوم فيشرب النخب لصحة زوجته ، وتشرب الزوجة والأصحاب نخب زوجها

ويصبح الصباح فتخبره الخبر اليقين

لقد عزّ عليها أن تحزنه فى آخر عيد الميلاد يجمعهما .

أحمد زكى

إلى صديقى :

لو كنت تدرى...!

لو كنت تدرى أى نوع من الإ
يمان قادنى إليه الحياة
شاركت قلبي حبه عندما
أوحت له الإيمان تلك الفتاة

***

لو كنت تدرى أننى لم أكن
فى عمرى الغابر إلا عليل
أنوء بالآلام دوماً وقد
عرا أزاهيرى البلى والذبول
لم أندفع يوماً إلى غاية إلا ويثنينى عنها الخمول
لكننى من بعد أن أبصرت
عيناى نجماً فوق هذى التلول
رفعت نفسى نحوه بعد ما
أدركت أنى لست كالكائنات
وقلت فى نفسى : على من يُرد
نيل العلى أن يأسر الآسرات

***

لو كنت تدرى أننى عند ما
أغضيت من نظرتها الساحره
قرأت فيها سر قلبي وقد
أوحت له أفكاره الشاعره
وإذ أنا أحيا وفى خاطرى
أبطال قومى فى لظى الهاجره
أيام كان الفرد من بينهم
يفنى لأجل القادة الطاهره
فلا يرون العيش كئيباً ولا
يحجب هذا الحب أسمى الصفات
وإنما يدفعهم للعلى
وكم أثار الحرب صوت الفتاة

***

لو كنت تدرى أننى لم أكن
أبسم إلا بسمة واهيه
يصدمها الواقع فى شدة
فإذ بها كالموجة الفانيه
لم تستطع تهديم صخر ولا
تقوى على عودتها ثانيه
لكن نفسى لم تعد مثلما
كانت عليه ميتة خاويه
إذ وسّع الحب لها أفقها
كيلا تفوت السبل النائيات
فترتقى أصعب درب وقد
يسّره سهلاً وجود الفتاة

***

لو كنت تدرى أن حبى لها
يرفعنى فى لحظة للسّحاب
وأننى أنعم فيه كما
أنعم فى أبهى أمانى الشباب
وأننى أسمو ولا أبتغى
درباً لأنى لا أريد الإياب
فإن من يحيا بذاك الفضا
يسخر ممن لا يفوت التراب
وليس يقضى عمره تائهاً
ما دام لا يتبع غير الهداة
شاركت قلبي حبه عند ما
أوحت له الإيمان تلك الفتاة
لو كنت تدرى أى نوع من الإ
يمان قادنى إليه الحياة

دمشق — يوسف شقرا

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٣٦٩٩ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٣٦٨ — الثلاثاء ١١ من صفر سنة ١٣٦٥ — ١٥ من يناير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

رجال عرفتهم :

أســـــد الجزيرة

أسد الجزيرة العربية وحاميها هو مليكها عبد العزيز آل سعود ، وهو رجل عصامي كوّن نفسه ، وبنى ملكه على قواعد من الحزم والعدل والرحمة بعد أن فتح الجزيرة كلها بسيفه وبسط عليها سلطانه .

وقد نشأ في نجد كما ينشأ البدو ، وركب الخيل والجمال ، وينتضي السيف دفاعا عن الحق والأهل والعشيرة ، واشتهر بهيبته وقوته وتقواه ... وقد راقب حال الجزيرة عن كثب وما تفشى فيها من الفوضى والاضطراب أيام حكم الشريف ، فقرر أن يخلصها من هذا الحكم .

والحق أن الفساد في عهد تلك الدولة استشرى ، فالأمن مضطرب ... حتى إن الحاج ما كان يأمن على نفسه أو ماله ، وويل من كان يزمع زيارة المدينة ، فإن السلب والقتل كانا متربصين له في الطريق ... حتى إنه قيل (إن من يخرج رأسه من الهودج فهو لن يعود له) كما انتشرت الرشوة والمحسوبية والجرائم .

عرف عبد العزيز كل هذا ولمسه بنفسه ورآه بعينيه فآلى على نفسه أن يخلص الجزيرة من هذا الرعب والفساد ، وينشر فيها حكم الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

وأخذ يجمع قومه ويحدثهم ويحضهم على الجهاد ، ويدربهم على استعمال الأسلحة المختلفة التي مدته بها جهات عديدة . فجيّش جيشه وتحرك به من نجد متجها إلى الحجاز ، وفي طريقه إلى مكة أخضع كل القبائل وجندهم حتى وصل إلى مكة فحارب في شعابها ووديانها حربا دامية حتى استولى على أم القرى ... وعندئذ دخل المسجد هو وأصحابه

مكبرين مهللين ، بعد أن حرموا من دخوله أعواماً ، فصلى لله شكراً وطاف بالبيت العتيق ، وعاهد الله على أن ينشر العدل والأمن فى أنحاء الجزيرة .

وسارت بعد ذلك جيوشه المظفرة إلى جدة والمدينة وجميع أطراف الجزيرة فاستولت عليها جميعاً .

الحكم :

قلب عبد العزيز طرفه فى ملكه الشاسع الجديد ، ولم تداخله نشوة الظافر وغروره ، بل أحس نعمة الحاكم ... الحاكم الذى يريد أن ينشر السلام والأمن والعدل فى بلاد شاسعة كلها صحراء وجبال ... بلاد لاتنبت شيئاً ولاتصنع شيئاً ، بل تعتمد على ما يأتيها من مال وعروض فى مواسم الحج ، ولا وسيلة بها للنقل إلا الجمل .

فأمر أن يكون الحكم فيها لكتاب الله ، وطارد المجرمين وعاقبهم بلا رحمة ، وولى أبناءه وأقاربه إمارة البلاد ... وأنشأ مجلس الشورى بمكة التى جعل بها دواوين الحكومة . ومد شبكة المواصلات التلغرافية بين أنحاء البلاد وكذلك أدخل التليفون والسيارات وجعلها وسيلة المواصلات الأولى .

واتخذ له مقرين للحكم : أحدهما بالرياض عاصمة نجد ، والآخر فى مكة عاصمة الحجاز . أما فى الصيف فهو ينتقل عادة إلى الطائف ، كما اتخذ له علما يدل على إيمانه وسطوته ! فهو سيف كتب أعلاه لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وراح ينشر الدعاية للحج ويهتم بسلامة الحجاج حتى يتوفر له المورد المالى ، الذى يمكنه من إقامة دعائم الحكومة وتنفيذ الاصلاحات الضرورية ، وأنشأ العلاقات السياسية مع الدول المختلفة ، ولكنه حرم على غير المسلم أن يقترب من مكة أو المدينة حرصاً على شعائر الدين وحرمته .

البترول :

وأراد الله أن يفرج كربته فاكتشف الأمريكيون منابع البترول فى شمال الجزيرة ولم يتردد عبد العزيز فى الاتفاق على استخراج البترول .

وهكذا عمرت الخزانة وتدفق الخير وعم الرخاء .

طويل العمر :

والملك عبد العزيز رجل مسلم مؤمن بكل ما فى هاتين الكلمتين من معنى وقوة ، فهو لا يعرف إلا الحق ، ويعيش فى بساطة طبيعية محببة ، لا يلبس إلا القطن ، وينتعل نعلا ويأكل بالطريقة العربية كما تعود .

وهو لا يسمح لأحد أن يدعوه صاحب الجلالة ... بل يناديه أهله « يا عبد العزيز » . أما رعيته فنداؤها المحبب هو « يا طويل العمر » .

ولكل شخص من رعيته أن يقابله ويرفع إليه شكواه ، وهو لابد منصفه حتى من نفسه ومن أقرب المقربين إليه . لا يعرف فى الحق كبيراً ولا صغيراً .

فى ثورة غضب صفع أحد أمرائه رجلا على وجهه . فرفع الرجل شكواه إلى طويل العمر فقرر أن يصفع الرجل الأمير ثم عزله من إمارته .

وهو لا يشرب الدخان ولا الخمر إطلاقاً ، وقد حرم التدخين فى أول حكمه . أما الآن فقد أبيح . لكن من يشرب الخمر يقام عليه الحد .

الرجل السياسى :

إن هذا الملك البدوى الطويل ، الذى لم يدخل جامعة ولاتتلمذ على أساطين السياسة ، هو بلا شك داهية سياسى ، فهو يعرف ببديهته وفطرته السليمة وحنكته كيف يقود سفينته إلى بر السلام دائماً . وهو مساوم بارع صريح يكسب من مساومته أكثر ما يمكن لبلاده .

ومما لاخفاء فيه أن هناك منافسة شديدة بين إنجلترا وأمريكا فى المملكة العربية السعودية ، وهو يستفيد كل الاستفادة من هذه المنافسة ، ويعرف فى كل حالة كيف

يحفظ استقلال بلاده ، وهو يوازن بين المتنافسين ثم يربح دائما .

وإنك لتحس كيف استغل ذلك التنافس . فالحجاز هو البلد الوحيد الذى ما زالت العملة فيه هى الجنيهات الذهبية ، وهى تتدفق على أسواقه كالسيل . وكلنا يذكر كيف أصر منذ عامين على أن تكون نقود الحجاج من الذهب ، وكيف اضطرت الحكومة الإنجليزية أن تعطى مصر والبلاد الإسلامية ما يلزم لحجاجها من الذهب .

وإنك لتجد أيضا ذلك السيل المتدفق من المؤن الذى ترسله أمريكا وخاصة الدقيق الأبيض والسيارات والاطارات .

وهو يعرف كيف يتخير الكفة الراجحة فى أشد الحالات حلوكة وغموضا ؛ فعند ما اشتدت الأزمة الدولية بين الديموقراطيات والمحور الذى تسير أساطيله فى البحر الأحمر وتحتل إحدى دوله الحبشة ... أخذ يفكر ويتدبر ، وفى ذات ليلة إشتد به التفكير وسهر حتى الصباح مصليا ومرتلا للقرآن ، وبعد أن صلى الفجر جمع أعوانه وأبلغهم أنه قد قرر أن يقف بجوار الدول الديمقراطية .

وهكذا تخير الكفة الراجحة .

عبد العزيز الرجل :

رأيته لأول مرة فى حياتى فى اليوم السادس من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ واقفا على عرفات فى المكان الذى كان يقف فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرأيته رجلا طويلا نحيلا يلبس ملابس الإحرام البسيطة . أما وجهه فهو طويل نحيل ينتهى بلحية سمودية ، وتشوبه السمرة البدوية ، وتظهر فيه علامات القوة والحزم . أما نظراته فثابتة توحى بالثقة والاطمئنان ، كما توحى بعمق التفكير والفطنة الشديدة والذكاء الفطرى .

وعند الغروب وقف خاشعا رافعا يديه إلى السماء ضارعا مبتهلا ، وكانت تظهر عليه علامات المرض والضعف .

وفى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٣ تشرفت بمقابلته فى استراحته بمنى حيث ينزل أيام عيد الأضحى . فوجدته يلبس جلبابا من القطن عليه عباءة سوداء ، ويغطى رأسه بكوفية بيضاء من القطن الأبيض مزينة بنقوش حمراء ، وفوق رأسه عقال مقصب ، وكان يجلس فى بساطة وهيبة على كنبة كبيرة وثيرة . واستقبلنا هاشا باشا وأخذ يتحدث فى بساطة وتؤدة ونبرات صوته ضعيفة وكلماته بطيئة إلا أنها قوية ، وهو يسأل كل إنسان عن حاله ويزوده بنصائحه وهو يتكلم العربية الفصحى فى لهجة نجدية لطيفة .

وفى مجلسه تتجلى الديموقراطية الحقة . فالكل إخوانه وأحبابه وضيوفه ، وتقدم لك فى مجلسه القهوة العربية (جهاو) ثم الشاى ، ولا بد لك أن تشرب فى حضرته .

ويبدو لك كرمه فيما يخلعه من خلع سنية على كبار زواره ، وهو كريم غاية الكرم ، ويروى عنه أنه كان فى إحدى رحلاته من مكة إلى الرياض ، وهى رحلة يعتبرها أهل البادية موسما وعيدا ، إذ تتدفق عليهم فيها خيراته ويتمتعون بالكثير من عطفه وبره ، رأى أحد أولاده الصغار ، وكان فى صحبته ، بدويا يحمل غزالا فرغب فيه . فنادى الملك الأعرابى وأفهمه رغبة ولده فنزل له الأعرابى عن غزاله . ثم سأله الملك :

« أيش تريد » فقال الأعرابى :

« والله يا طويل العمر أريد هذه السيارة » وأشار إلى سيارة الملك .

فلم يتردد عبد العزيز ، بل نزل منها وأهداه إياها وركب سيارة أخرى .

وهكذا عرف هذا الملك كيف يرضى رعيته ويرغبهم فى حكمه .

وإذا دخل عليه أحد مجلسه وشكا إليه سوء حاله أمر

على هامش الحركة التعليمية :

خطرات

قامت بمصر في العام الماضي حركة تعليمية قوية شاملة ، لفتت الأنظار إلى الأمور المتصلة بتربية النشء ، وحولت الاهتمام إلى سياستنا التعليمية ، إلى أين تتجه ، وكيف نحتاط في رسمها ، وما أنفع الطرق التي يجب أن نسلكها لنرقى الجيل الجديد خير تربية ، وننهض بالبلاد نهضة قوية شاملة .

فهذا وزير المعارف قد توفر على دراسة حالة المدارس ، ونظر نظرة فاحصة في المناهج ، واستعرض مختلف المراحل ، واتجه في بدء العام الدراسي اتجاها جديداً يختلف عن الاتجاه الذي كان سائداً قبل توليه وزارة المعارف . وحين ناقشه النواب وأهل الرأي ذكر لهم أنه لا يزال يدرس ، وأنه لم يقطع برأي نهائي بعد ، ووعد بأن يعرض ما يستقر عليه رأيه بعد الفحص والدرس، على الأمة لتدلي برأيها فيه .

وبعد ذلك رأيناه يجمع اللجان ، ويقلب فيها مختلف الآراء ، ويستمع لمختلف الاتجاهات ، ويزن حجج كل فريق ، ويبحث ذلك كله في ضوء ملاحظاته الشخصية ، وخبرته العملية التي اكتسبها من اتصاله بالعمل في المعارف وزياراته للمدارس ، ومناقشاته مع أولياء الأمور ونواب البلاد ورجال التعليم ، وكأني به وقد رسم لنفسه خطة عول على أن يسير فيها ورسم لنفسه سياسة اطمأنت إليها نفسه .

رجحنا ذلك حين رأيناه قد استصدر مرسوماً بإنشاء المجلس الأعلى للتعليم ، ولم يمض على صدور المرسوم طويل حتى حدد موعداً لجمع المجلس لأول مرة ، وافتتحه بالعمل بكلمة تبين منها أنه سيعرض سياسة مستقرة ، وقد رأينا المجلس قد اتخذ الخطة الحكيمة التي يجب اتباعها في مثل هذا الشأن من تأليف لجان صغيرة لدرس مختلف النواحي .

وها نحن نراه يسافر إلى السودان ليفتتح أول مدرسة مصرية صميمة في هذا القطر الشقيق الحبيب ، وينوه فيها باتجاهات التربية الحديثة ويعلي من شأنها ، ويعلن اعتزامه

له بما يلزم من الدقيق والدهن وأعطاه من ماله الخاص ما يرد غائلة الدهر عنه .

ولذلك يعتبره أهل الجزيرة ملكا وأبا وزعيما .

عبد العزيز والوحدة العربية :

وهو يعطف أشد العطف على الوحدة العربية وآمال كل العرب وأمانيهم ، وطالما نادى بذلك في مجالسه في مواسم الحج ، وكثيرا ما جمع حوله رؤساء الوفود وذوي المكانة في البلاد المختلفة العربية واستفسرهم عن شئون بلادهم وحثهم على التآخي والاتحاد .

وهو يعتبر موسم الحج مؤتمراً عاما للمسلمين ويحرص على حضوره ويتذاكر معهم شئونهم وآمالهم وآلامهم .

أما موقفه من فلسطين فهو واضح غاية الوضوح ، وصريح كل الصراحة ، وهو يصر على جعلها عربية لحماً ودماً . يشهد بذلك خطابه للرئيس روزفلت الذي نشر أخيرا .

أما مصر فهي حبيبته ، وفاروق الملك هو أخوه الذي يحتل من كل قلبه أعز منزلة وأكرم مكان .

وهو لم يخرج من بلاده قط إلا إلى مصر في الشتاء الماضي ، وهو يعرف من شئونها كل شيء ، ويعرف أكثر رجالها ، ويثق كل الثقة في عبد الرحمن عزام باشا ، حتى إنه لينزله ضيفاً خاصا عليه في قصره ، ويعطيه أقرب الحجرات إليه ، ويمنحه من الود والمحبة الشيء الكثير .

وهو بجانب ذلك حريص غاية الحرص على استقلال بلاده والبلاد العربية ، لا يفرط في ذلك ولا يتزحزح عنه قيد أنملة .

محمد عبد الفتاح زكي

على أن يسير على مقتضاها فى جميع المدارس التى تحت إشرافه .

***

وهناك إلى جانب هذه الحركة المؤتمر الذى دعت إليه جمعية المعلمين ، وبحثت فيه سياسة التعليم ، وانتهت فيه إلى قرارات أبلغتها وزارة المعارف ، ورجت أن يكون لها نصيب من عناية القائمين بوضع السياسة التعليمية الجديدة .

وفى الشهور الماضية شهدت مصر حركة قوية لم يسبق لها نظير ، وهى اختيار عدد كبير من نوابغ الخريجين ومن الأساتذة النابهين للسفر فى بعثات علمية وعملية إلى مختلف أنحاء العالم ، إلى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وأمريكا ، وقد زاد عددهم على الثلثمائة ، وقد سافر معظمهم بالفعل ، وقد شرفهم مليك البلاد بتكريم منقطع النظير فى حفل ملكى عظيم ، خطب فيه وزير المعارف خطبة ضافية .

وقد طلعت علينا الأهرام فى الأسبوع الماضى بحديث قيم أدلى به حضرة صاحب السمو الأمير محمد على توفيق ، تناول فيه « العلم والتعليم والنهضة العلمية فى مصر » وأشار فيه إلى هذه البعثات واستحسنها وأثنى على فكرتها ، ولكنه لفت النظر إلى أمر آخر عظيم الأهمية ، ألا وهو أن العلم لا وطن له ، وأن سموه ينصح بضرورة استقدام عدد من فطاحل علماء الغرب ، للعمل فى معاهدنا ، كما أشار بضرورة توجيه الشبان إلى الهندسة والكهرباء والميكانيكا والكيمياء ، فإن هذه العلوم وأمثالها قد أصبحت عماد المدنية الحديثة .

***

من هذا العرض يتبين صحة ما قلناه فى صدر هذه الكلمة من أن الاهتمام بشئون التعليم كان من الظواهر البارزة فى العام الماضى ، وينتظر أن يكون كذلك فى عامنا الجديد ، ولذلك رأينا أن ندلى هنا ببعض ملاحظات وخواطر ، قد يكون لها بعض الأثر فى هذه الحركة المباركة .

وأول ملاحظتنا خاصة بتكوين المجلس الأعلى للتعليم ، فقد ضم إلى عضويته كل من تولى وزارة المعارف ، وهذا الاختيار فى نظرنا قد يكون فيه شىء من الإسراف ، وكنا نؤثر أن يختار الأعضاء على أساس تمثيل مختلف وجهات النظر ، بمعنى أن يطلب من كل حزب من الأحزاب السياسية التى تتولى الحكم أو تشترك فى مختلف الوزارات التى تقوم فى مصر أن تختار من بين من تولوا وزارة المعارف منها عدداً مناسباً يمثلها فى هذا المجلس ، كما يختار من بين من تولوا وزارة المعارف من الوزراء المستقلين بعض من كانت لهم آراء يعتد بها فى هذا المضمار .

كذلك كنا نود أن تمثل الهيئات التى تعبر عن آراء المعلمين فى مثل هذا المجلس ، فهناك جمعية المعلمين ، وإلى جانبها رابطة خريجى معهد التربية ، وكذلك رابطة التربية الحديثة ، فكان الأوفق أن يختار من هذه الهيئات أو يطلب إليها اختيار من يمثلها فى هذا المجلس .

بمثل هذا الإجراء كنا نضمن تمثيل وجهة نظر كل حزب سياسى أو طائفة من طوائف رجال التعليم ، كما أن ذلك كان يحفز هذه الطوائف وتلك الأحزاب إلى أن تجعل من برامجها دراسة الأمور التربوية دراسة وافية ، وتكون لنفسها فيها سياسة واضحة ، فقد رأينا فى العهد الأخير ، حين كانت السياسة التعليمية فى انجلترا محل دراسة وبحث أن تقدمت كل طائفة وكل حزب بآراء واضحة مدونة مؤيدة بالحجج ، وكان فى استعراض كل تلك الآراء منفعة عظيمة وفائدة كبرى لكل من اطلع عليها .

***

والأمر الثانى الذى خطر لنا ونود أن نلفت النظر إليه ، هو أنه من المستحسن ، فى مثل الظروف التى نحن فيها ، أن نبذل معظم الجهد فى إصلاح الأساليب القائمة ، وفى العمل على خلق روح جديدة قوية ملهمة ، بدلا من أن نبذل جهودا كبيرة فى إحداث تغييرات كثيرة فى النظم وفى الأوضاع . فالعبرة فى نظرنا بالأساليب المتبعة التى تمثل لب الموضوع والتى هى من صميم التربية . أما النظام نفسه فقد يكون أمرا شكليا ثانويا لا يستأهل إضاعة الوقت والجهد فى تغييره .

ثم إننا ننصح بألا يحدث أى تغيير جوهرى قبل أن يجرب على نطاق ضيق ، وتستبين محاسنه ومساوئه ، وتوجه العناية إلى استئصال ما به من عيوب ، وتحسينه بقدر الإمكان ، وعند ذلك فقط يصح أن يعمم .

ويقتضى ذلك بطبيعة الحال أن نعنى على الدوام من الآن فصاعدا بجمع الإحصاءات ودراستها والاستفادة من دلالاتها ، وكذلك يحسن فى مثل هذه المرحلة إجراء الاستفتاءات من آن لآخر لتعرف رأى رجال التعليم وأولياء الأمور وقادة الفكر فى معظم المسائل والمشاكل والتحسينات التى تجرى والمشروعات التى يراد تنفيذها ، وكذلك المشروعات التى تنفذ .

بمثل هذه الوسائل نضمن قيام كل تعديل أو تغيير على أساس علمى سليم ، ويختفى عهد الارتجال ، ويدرك الناس أن الأمر جد رهيب ، وأنه لا يجوز فيه الأخذ بفكرة عابرة أو رأى فطير ، فهو ليس باللعب الهين ، وإنما هو متعلق بمستقبل أمة بأسرها وبسعادة الجيل القادم .

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة ، وهى ضرورة مراعاة المرونة فى كل نظام ، وتجنب القواعد الصارمة والخطط الجامدة ، فإن من المصلحة أن يكون فى استطاعتنا دائما أن نحور فى خط سير التعلم تبعاً لما يظهر فيه من حسن استعداد وتقدم من جهة ، أو من ضعف فى الاستعداد وتخلف من جهة أخرى ، فلو أن كل عقل قدم له ما يناسبه على الدوام لكان الإنتاج جيداً باستمرار ، ولاطرد تقدم التعلم فى كل مرحلة من مراحل تعلمه .

* * *

وأخيراً نعود للنقطتين الهامتين اللتين أشار إليهما سمو الأمير فى حديثه ، وهما الاهتمام بالعلوم العملية التى هى دعامة المدنية الحديثة . وفى رأينا أن خير مظهر لهذا الاهتمام هو تشجيع البحث العلمى بكل الوسائل الممكنة ومنها إرسال البعثات من الذين أتموا دراساتهم بنبوغ ، وأظهروا استعداداً لمواصلة البحث ، ومنها تشجيع الأساتذة القائمين بالبحوث بالفعل ، وذلك بتسهيل مهمتهم بشتى الوسائل ، وتشجيعهم بكل الطرق وفى كل المناسبات .

كما أن من أهم المظاهر لذلك التشجيع هو الأمر الثانى الذى أشار إليه سمو الأمير ، ألا وهو العمل على استقدام طائفة من العلماء الباحثين من الطراز الأول ، وانتخاب مجموعة من المجدين البارزين من الطلاب والمدرسين للعمل تحت إرشاد هؤلاء العلماء فى البحث العلمى المنتج ليكتسبوا منهم خبرة بأساليب البحث الصحيحة ، ومراناً على طرائقه بحيث تترقى لديهم المواهب التى يلمحون بها النقط الجديرة بالبحث ، والملكات التى تمكنهم من رسم خطط البحث التى تكون أقرب إلى النجاح ، فلا يمضى زمن طويل حتى نجد من بين شباننا من يستطيعون اقتفاء أثر هؤلاء الفحول من العلماء ، فيحلون محلهم فلا نشعر بفراغ كبير إذا ما فارقنا هؤلاء العلماء الذين استقدمناهم وعادوا إلى بلادهم .

أحمد عبد السلام الكرداني

جريمة نكراء

في مسـاء السبت الأسبق وقع حادث إجرامي مروع ذهب ضحيته رجل من رجال السياسة المعروفين هو المغفور له أمين عثمان باشا . وقد أعاد هذا الحادث الذاكرة مقتل الزعيم السياسي الطيب الذكر المغفور له احمد ماهر باشا ولم يمض عليه إلا قرابة عام .

وتكرر هذه المأساة في هذا الزمن القصير خليق أن يفتح العيون على أن هناك عوامل في حياتنا العـامة تدعو لهذا الهوس الإجرامي ، وهو خليق بأن يحملنا على التفكير الجدي في اقتلاع أسباب هذه الموجة الإجرامية التي تهدد حياة كل رجل يشتغل بالسياسة بغض النظر عن حزبه ومذهبه السياسي .

ومن المقطوع به أن هذه النزعة الإجرامية محصورة في دائرة محدودة هي دائرة الشبان ذوي الأعصاب المريضة . إذ لا يمكن أن يجول بخاطر رجل متزن أن ينتهك حرمات الشعائر ويقدم على قتل رجل لأنه يخالفه في رأي أو لأنه يسوس الأمور العامة بغير مقياسه . وإنمـا يجوز هـذا على الناشئ مختل الأعصاب مضطرب التفكير ثائر الوجـدان الفاشل في حياته ، فمن السهل أن يقع مثل هذا الشاب فريسة لنزوات خاطئة ويندفع بلا روية ولا تبصر في هاوية الإجرام والخطيئة .

وأمثال هؤلاء الشبان الشاذين يعرفون في الأوساط التي يعيشون فيها بسيماهم ؛ فهم في الغالب يعتزلون الجماعات وينزوون من مشاركة رفقائهم في ألعابهم وحياتهم الاجتماعية ، وهم متمردون لا يخضعون للنظم والأوضاع ، متشائمون ينظرون إلى كل ما يقع عليه بصرهم بمنظار أسود . وهم بانطوائهم على ذوات نفوسهم ونفورهم من الاتصال برفاقهم يعيشون في أحـلام وخيـالات لا يستسيغون التفكير المنطقي المستمد من الواقع والمحسات . فهم في الواقع مرضى خليقون بأن يوضعوا في المصحات أو تنشأ لهم معاهد خاصة يعالج فيها شذوذهم وتروض فيها طباعهم المنحرفة

ولكنهم هنا يعيشون كما يعيش الناس ويتصرفون بمطلق حريتهم كغيرهم من الشبان العاديين .

ولو أن الجو المحيط بهم هادئ خال من الزعازع والأعاصير لكان الأرجح أن يقف شذوذهم عند حد العبث بحياتهم الخاصة .

ولكن الجو الذي خلقته الحرب والاضطراب الذي خلقه النزاع السياسي العنيف القائم في هذه البلاد، هذا الجو قد أتاح لشذوذهم ميداناً جديداً يعيثون فيه ، ويفضون في مشاكله بعقولهم المختلة وأذهانهم السكليلة وأعصابهم المختلة المريضة .

ومما يؤسف له أن الخصومة السياسية لدينا قد جاوزت كل حدود الاعتدال ، وأن كل فريق يصطنع في حملته على خصومه أعنف الأساليب ، وأن الخلاف السياسي قد وصل إلى تقاطع متعصب واتهام متبادل لا هوادة فيه . فلا غرابة إذا كان لهذه الحملات صداها في تلك النفوس الهوجاء المتزرة ، ولا عجب إذا أنتجت مثل هذه الثمرات المريرة التي نتجرع اليوم غصتها .

فالسبيل الصحيح لإيقاف تيار هذه النزعات الإجرامية هو أن يصفو الجو بين الزعماء ، وأن يكون الخلاف بينهم جدالاً متعقلاً هادئاً رزيناً ، وألا يحول تباين الآراء دون معرفة أقدار الرجال وإيلائهم جميعاً ما هم خليقون به من الاحترام .

ولعل من الخير العمل على إبعاد الشباب الناشئ من دائرة الحياة السياسية العملية ، وقطع اتصال الأحزاب بالطلبة ، وترك الجو الدراسي في دائرته البريئة ، وعدم الزج به في خصومات رجال السياسة .

وكم نود أن تكون هذه الحادثة الأثيمة فرصة لتقارب المتنازعين وإصلاح العلاقات بينهم ، وألا يجعل منها بعض قصار النظر فرصة جديدة للتقاطع وإيقاظ الفتن النائمة وتحريك الأحقاد الكامنة . (. . .)

١٢ - من الأدب العربى

أخلاق السادة

من الأخلاق التى لفتت أنظار العرب فأ كثروا فيها كلامهم وصاغوا منها أدبهم « خلق السيادة » وهو معنى غامض صعب التعريف والتحديد يختلف كثيراً باختلاف البيئة ، وباختلاف الحياة الاجتماعية ، وباختلاف الصبغة التى تغلب على الشخص والجماعة من حب المجد ، وزهد فيه ، ونحو ذلك .

فإذا نحن استعرضنا أركان السيادة فى الأدب الجاهلى وجدناها الكرم والشجاعة ، فيقول عامر بن الطفيل :

إنى وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سوّدتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وخلاصة رأيه فى السودد أنه يذود عن قبيلته ويحميها أن ينالها شر ويبذل نفسه فى الدفاع عنها ، فليست السيادة فى نظره مجرد الشجاعة ، ولكنها الشجاعة فى سبيل القبيلة .

وقالت ابنة حاتم الطائى تصف أباها : « إن أبى سيد قومه ، كان يفك العانى ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ولم يطلب إليه أحد حاجة فردّه » فجعلت سيادته فى الشجاعة والكرم .

ونقرأ المفاخرات بين السادة فى الجاهلية فنراها يدور أكثرها حول المباهاة بالكرم والشجاعة .

وظلت هاتان الصفتان هما دعامتى السيادة فى الإسلام وإن لوّنهما بعضهم ببعض الألوان الأخرى التكميلية ، فيروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « السيد : الجواد حين يُسأل ، الحليم حين يُستجهل ، البار بمن يباشر » . وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ فقال : « ببذل القرى ، وترك المراء ، ونصرة المولى » فأضيف إلى الكرم والشجاعة ترك المراء ، وبعبارة أخرى الترفع عن الصغائر .

وعدّ فى العصر الأموى من أسود الناس الأحنف ابن قيس وسلم بن قتيبة ومحمد بن القاسم ؛ فأما الأحنف فأساس سيادته الشجاعة والكرم والحلم ، وقد رشحه زياد ابن أبيه ليتولى ثغر الهند فلم يرض معاوية بذلك وحفظ عليه عدم انضمامه إلى جيش عائشة ومناصرته لعلى بن أبى طالب ، فقال فيه زياد : « إن الأحنف بلغ من الشرف والسودد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل » .

وعدّ من أهم أسباب سيادة سلم بن قتيبة جرأته وشجاعته ، فقال بعضهم : « كنا نعرف سودد سلم بأنه كان يركب وحده ويرجع فى خمسين » أى خمسين أسيرا .

ومحمد بن القاسم فتح السند والهند وقاد الجيوش وهو ابن سبع عشرة سنة فقال فيه الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سوددا من مولد !

وأحيانا كانوا يلحظون فى « السيد » لين الجانب وسعة صدره للناس فى أن يعيبوه وينقدوه . قال رجل من العرب : « نحن لا نسوّد إلا من يوطئنا رحله (يريد يخدمنا فى حوائجنا) ويفرّشنا عرضه (يريد أنه لا يضيق بنقدنا له وعيبنا عليه) ويملّكنا ماله » وكما قال المقنع الكندى

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
وليسوا إلى نصرى سراعا وإن هم
دعونى إلى نصر أتيتهم شدّا
إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وأحياناً يلحظون في السيادة بعد النظر وقوة الفكر وسداد الرأي ، وهذا ما لحظوه أيضاً في سيادة الأحنف ، فقد كان من أسباب محبته الرأي يصيب والنظر يصدق ، وقال الكميت :

رُفِعَتْ إليك وما تُغيِّرْ
تَ [1] عيونُ مستمعٍ وناظرْ

ورأوا عليك ومنك في المهد النهى ذات البصائر

وقد لحظوا — أيضاً — أن السادة لا يسودون جميعاً بخصلة واحدة ؛ فقد يسود أحدهم بصفة ويسود آخر بغيرها تبعاً للشخص والظروف التي حوله ، فقالوا — مثلا — « ساد الأحنف بحلمه ، وساد مالك بن مِسْمَع بحب العشيرة له ، وساد قتيبة بن مسلم بدهائه ، وساد المهلب بن أبي صفرة بهذه الخلال كلها » .

وفي بعض الأوساط عد أكبر ركن للسيادة اصطناع الرجال ، وهو ضرب من الكرم ، وهو أن يستجلب رضا الناس ببذل العطاء لهم وقضاء حوائجهم ، فيكونون أتباعه يجتمعون حوله ويصدرون من رأيه ، وفشا هذا في العصر العباسي وخاصة عند البرامكة ، فقد كانت سيادتهم في إسداء البر للناس وتكوين الأشياع والأتباع ، رووا أن يحيى ابن خالد البرمكي دعا ابنه إبراهيم يوماً — وكان يسمى دينار آل برمك لجماله وحسنه — ودعا مؤدبه ومن كان ضم إليه من كتابه وأصحابه فسألهم : ما حال ابني ؟ قالوا : قد بلغ من الأدب كذا ونظر في كذا وكذا (من العلوم) قال : ليس عن هذا سألت . قالوا : قد اتخذنا له من الضياع كذا وغلته كذا . قال : ولا عن هذا سألت إنما سألت عن (سيادته) وبعد همته ، وهل اتخذتم له في أعناق الرجال مننا وحببتموه إلى الناس ! قالوا : لا . قال : فبئس الشركاء أنتم والأصحاب ، هو والله أحوج منه إلى ما قلتم . ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه ، ففرقت على قوم لا يدري من هم .

ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم فرأى ابنه العباس يتخذ الصنائع ويبني الضياع والمعتصم يتخذ الرجال ، فقال في المعتصم :

يبني الرجال وغيره يبني القرى
شتان بين قُرى وبين رجال

قلق بكثرة ماله وضياعه
حتى يفرقه على الأبطال

فساد المعتصم وضاع العباس

ووجد في الإسلام من غلبت عليه النزعة الدينية وأمعن في فهم قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فربط هذا بالسيادة وجعل السيادة في التقوى ، قال ابن الكلبي قال لي خالد القسري : ما تعدون السودد ؟ قال : « أما في الجاهلية فالرياسة (يريد الرياسة على القبيلة) وأما في الإسلام فالولاية (يريد ولاية أمور المسلمين بالخلافة أو ولاية مدينة أو إقليم) ، وخير من ذا وذلك التقوى » .

(يتبع) أحمد أمين

إيرادات ترتفع وجماهير تلح

أمام الإيرادات الضخمة وإلحاح الجماهير اضطرت سينما رويال أن تمد عرض فيلم القصر الملعون اسبوعاً ثالثاً . لأنها لم تر إقبالا على فيلم مصري يمثل هذا الإقبال الشديد من الجماهير المتدفقة . فهاهي تحية كاريوكا تثير دهشتنا بروعة رقصاتها وتمثيلها القوي . ومحمود يرقى بفنه ويعلو بالخيال إلى الأحلام في أغانيه العذبة التي نظمها الشاعر الفنان الرقيق عبد الله خضر . وزكي رستم وزينب صدقي والليجي يرتفعون إلى قمة المجد بتمثيلهم الحي الرائع . وبشاره واكيم وشكوكو يسيلان الدموع بتمثيلهم الكوميدي الفذ . تهانينا للمخرج الجريء الأستاذ حسين فوزي ولشركة أفلام الشباب التي تعمل للشباب في القرن العشرين

---

(1) يقال تغر الغلام إذا سقطت أسنانه الرواضع

بين الصراحة والنفاق

من الشعراء الإنجليز شاعر أسكتلندى ظريف يمتاز بالشعر البلدى الاسكتلندى الخفيف الروح ، وهو روبرت برنز ، وقد أعجبنى منه بيتان أرددهما دائماً فيما بينى وبين نفسى وهما فى الترجمة البلدية المصرية :

« ليت أن الله فى الخلقة أعطانى عطية :
أن أرى نفسى كما ينظر إخوانى إليّه »

وهو يعبر فى هذين البيتين عن شعور إنسانى عام أو شعور يكاد يكون عاما . فإن الناس يتوقون إلى معرفة رأى الغير فيهم وفى تصرفاتهم . وهناك مظاهر شتى لهذا الشعور ، وإذا شاء أحد أن يكشف بنفسه قوة ميل الناس إلى معرفة رأى الغير فيهم فليذهب إلى أحد أصدقائه وليسأله مبادراً :

« هل عرفت ما قال فلان عنك ؟ » . وأغلب ظنى أن ذلك الصديق سوف ينصت إليه بكل شوق ليعرف ماذا قال ذلك الفلان عنه .

وأعتقد أن اختراع المرآة لم يكن سوى وسيلة لتحقيق رغبة الإنسان فى معرفة كيف تبدو صورته فى أعين الغير . وإلا فما هو القصد من اختراع هذه الآلة التى لا وظيفة لها إلا أن ترينا صورة أوجهنا ؟ فالرجل ينظر كل صباح فى المرآة قبل خروجه لكى يعرف الشكل الذى سيطلع به على الناس ويطمئن إلى أنه سيقع منهم موقعا حسنا . وأما المرأة فإنها تحمل المرآة معها فى حقيبتها لكى تتيقن بين حين وآخر من أن شكلها الذى اطمأنت إليه منذ ساعة لا يزال على عهدها به يسر الناظرين جميعا .

ولكن إلى جانب هذه الحقيقة توجد حقيقة أخرى تناقضها كل المناقضة . فقد كان المنتظر من الإنسان أن يهتم بمعرفة آراء الناس فيه لكى يصلح نفسه ويجعلها مقبولة عند الغير بقدر إمكانه . فإذا هو استعمل المرآة ورأى أن مظهره ليس كما ينبغى لمثله كان عليه أن يسعى فى تعديل ذلك المظهر حتى يحوز القبول عند من يراه . وليس من العسير علينا أن نجد تعليلا لهذا المنطق البسيط فالإنسان اجتماعى ولا يمكنه أن يعيش إلا مع بنى آدم ، ولا غنى له عن أن يعرف رأيهم فيه ، وأن يحاول كل جهده أن يكون منسجما معهم ، وأن يعيش بينهم على أحسن حال ممكنة من التوافق والتفاهم . هذا هو ما كان المعقول والمنتظر . ولكن الواقع يناقض هذا مناقضة عجيبة ، فكل فرد تقريبا يُعجب بنفسه ويعتقد أنه مركز العالم . فإذا هو نظر إلى المرآة مثلا لم ينظر إليها إلا بعينه هو ، وإذا لم يعجبه شىء فى مظهره عدله وأصلحه حتى يكون ذلك المظهر وفق هواه ، وليس معنى هذا أنه يكون وفق هوى الناس . فالمرآة لم تفد الإنسان كثيراً من هذه الناحية لأنها إنما تعطى الناس فرصة ليروا صور أنفسهم بأعينهم الخاصة ، وهذا هو السر فى أننا ننظر إلى المرآة فى كل صباح ثم نخرج إلى أعمالنا راضين عن أنفسنا منشرحى الصدور مما رأينا . ولم نسمع عن أحد أنه كسر المرآة قبل خروجه من منزله لأنه استقبح شكل نفسه . فنحن عند ما نريد معرفة رأى الغير فينا نضمر فى الوقت نفسه رأيا ثابتاً فى أنفسنا وهو فى الغالب الرضاء التام والإعجاب .

فإذا تعارض رأى الناس مع آرائنا لم نتردد فى أن نتهم آراء الغير وأذواقهم ، وقد يبلغ بنا الأمر إلى المخاصمة والمعاداة اعتزازاً باعتقادنا فى أنفسنا .

أليس فى هذا شىء من التناقض ؟ .

ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة الدلالة على هذا التناقض العجيب فى الضمير الانسانى . فقد وردت فى الأخبار قصص كثيرة عن بعض العظماء فى التاريخ الذين كانوا يمتازون بشدة رغبتهم فى معرفة آراء الغير فيهم . فكانوا يرسلون الرسل لكى يندسوا بين الناس ليحملوا لهم أصداء

الأحاديث عنهم . وكان هؤلاء الرسل يفتنون فى طرق التدسس بين الناس فى منازلهم ومباذلهم وفى أنديتهم ومتاجرهم فيجمعون من كل ذلك بضاعة عظيمة القدار من الأقوال ويحملونها إلى السادة الذين أرسلوهم . وكانوا يصيبون من وراء ذلك خيراً كثيراً ويفوزون بالجوائز السنية مكافأة لهم على خدماتهم .

ولكن العجيب أن العظماء كانوا إذا سمعوا هذه الأحاديث لم يهتموا بإصلاح ما يأخذه الناس عليهم ، بل كانوا يرسلون فى اليوم التالى إلى أولئك الذين تحدثوا عنهم ويوقعون بهم أشد العقاب على فضولهم والخوض فى مثل تلك الأحاديث .

وليس الأفراد العاديون بأقل من العظماء فى هذه الناحية من طباعهم . ويستطيع كل منا أن يلمس هذا بنفسه إذا شاء ، فكثيراً ما يسألنا بعض الأصدقاء عن رأينا فى بعض أعماله أو فى كتاب ألفه ، وقد ينخدع بعضنا فيحسب أنه يريد حقاً أن يعرف آراءنا فى تصرفه أو فى كتابه ، فيمضى فى إبداء رأيه فى صراحة واطمئنان ظناً منه أنه قد اؤتمن على إبداء النصح وأن عليه أن يؤدى تلك الأمانة كاملة ، وينسى فى أثناء ذلك أن صديقه الذى يسأله ما هو إلا إنسان ، وأنه إنما يطلب رأيه بشرط أن يكون رأياً موافقاً لرأيه هو . وهناك تقع الواقعة ويبدأ ميدان الخصومة . وقد يبلغ الأمر مبلغاً خطيراً لأنه قد ينتهى إلى زعزعة الصداقة وضياع المودة القديمة .

وأحكم الأصدقاء هم الذين يعرفون الطبائع البشرية حق المعرفة ، فإذا سألهم صديق عن آرائهم فى تصرفه بادروا بإظهار وجوه المحاسن وأغفلوا وجوه المساوئ . والأعمال الإنسانية لا يمكن أن تخلو من المحاسن ، فلا يمكن لأحد أن يتهمهم بالكذب الصراح وهم فى الوقت نفسه يسرون صديقهم ولم يخسروا فى ذلك شيئاً ، بل لعلهم يربحون ربحاً عظيماً من زيادة المودة والثقة . وإذا سألهم صديق آخر عن رأيهم فى كتاب ألفه بادروا بالثناء على جهده والتمسوا كل الحسنات فنشروها ، وعمدوا إلى العيوب فبالغوا فى التجاوز عنها وأغفلوها إغفالا تاما ، وهذا يرضى الصديق بغير شك ، بل هذا هو الذى كان ينتظره الصديق فى أغلب الظن عند ما سأل صديقه عن رأيه .

فلست أدرى مع هذا كله هل كان الشاعر الاسكتلندى الظريف صادق النية عند ما تمنى أن يهب الله له القدرة على رؤية نفسه كما يراه الناس أم لقد كانت تلك أمنية شاعر متسرع لم يعرف حقيقة ما يتمناه ! ولست أدرى كيف تكون أحوالنا لو استطعنا أن نعرف رأى الناس فينا على حقيقته ، أيكون ذلك مساعداً على تحقيق السعادة لنا أم يكون عاملا على زيادة بؤسنا وعذابنا !

وهناك سؤال آخر يخطر على البال فى صدد هذا الحديث . فإذا فرضنا أن رأى الناس كان سيئاً فى أعمالنا وفى آرائنا فأى الطريقين أجدر بنا ، هل نساير رأى الناس ونعدل آراءنا وتصرفاتنا حتى تحقق رضاهم أم نسير على هدى آرائنا وإن كانت مخالفة لآراء غيرنا ؟

لا شك أن القضاء كان قاسياً على هذه الإنسانية عند ما حكم على بنى آدم أن يعيشوا معاً وأن يحتاج بعضهم إلى بعض فى كل شىء ، وأن يكون كل فرد محتاجاً إلى معاونة الآخرين ورضائهم عنه . ولو كان بنو آدم مثل السباع يعيش كل منهم بمفرده ويصيد فريسته بغير حاجة إلى مساعدة أحد من السباع الأخرى لتغيرت كل أحوال الحياة ولكان الناس فى غنى عن كثير من المواقف الحرجة . وإنه لمما يزيد المشكلة تعقيداً أن بنى آدم يمتازون عن سائر أنواع الحيوان بحب الثرثرة والدردشة والميل إلى إبداء الرأى وإن لم يكن عندهم آراء .

فكثيراً ما تجد الشخص يقذف بالآراء قذفاً فى شتى مسائل الحياة والسياسة والأدب وغير ذلك وهو مشغول بالأكل أو الشرب . وكثيراً ما يحلو إبداء الرأى حول

تحيـــة العاهلين

[تحية الشعر لحضرتي صاحبي الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق الأول في زيارتهما للعاصمة ......]

ماجت مواكبُه ، ولاح لواؤُه
مَيلاً تُهلِّل في الوجوه لقاؤُه
وتسابق الوادي إليه حفاوة بقلوبه قبل العيون جلاؤُه
إن السعود ! فيا له من موكب سعد الزمان به ، وفاض هناؤُه
لم تَلْقَ مصرُ ضيوفَها يوماً كما
لقيتْهُ ، أو هزَّ الحمى نزلاؤُه
هذا الثرى الأبديُّ أصبح موطناً
لبنى الرمالُ المؤمناتُ وطاؤُه !
يا حسنها في البُشريات ! مُمَلَّكٌ
روضُ النبوَّةِ قصرُهُ وفناؤُه
المجدُ والعزُّ المنيعُ مُقامُهُ
والفضلُ والشرفُ الرفيعُ رداؤُه
يومٌ بأيام الزمانِ مضيئةٌ
أن يَغْمُرَ الوطنَ السعيدَ ضياؤُه

* * *

يا طلعةَ البُشرى ، يُمازِجُ نورَها
نورُ النبيِّ ، وعطرُهُ ، وبهاؤُه
ومُمَلَّكاً غشى الجزيرةَ ظِلُّهُ
كالنَّسرِ أوراقُ الجلالِ فضاؤُه
لما رأتْ مصرٌ هزَّ فؤادَها سِحْرٌ أقرَّ بفضله قدماؤُه
الكبرياتُ الأُلى كُبْرى ساحةً
لما هفَتْ ، وتَبَسَّمَتْ أبناؤُه
ومشت على أنسِ الوجودِ جلالةٌ
فسما من النهر العميق نداؤُه
وتخشَّع الأهرامُ وهو مشيدٌ شدَّ الطبيعةَ عمرُهُ وبناؤُه
وتألقَ الروضُ المباركُ ، وانبرت
كالطيرِ في أغصانها شعراؤُه
وتهلَّل الوادي لمقدم ضيفه حتى لقد لبس الربيعَ شتاؤُه !

* * *

موائد السهرات ، بل كثيراً ما نجد أن الآراء لا تتداعى ولا تتنادر كفراشات الربيع الزاهية إلا في مجالس السمر والفرجة . فماذا تكون الحال لو وهب الله لنا جميعاً مقدرة سحرية على معرفة آراء هذه الملايين الكثيرة المختلفة الألوان والأزياء ؟ .

إن من نعم الله على الناس أنهم كما هم ، وهذا الشاعر الاسكتلندي الظريف إنما كان يطلب للبشرية عذاباً شديداً ، ولكن الله قد لطف بالخلق فلم يلب دعوته وأبقى على الناس حواسهم الغليظة . فليس في الإمكان أبدع مما كان ، وخير للجميع أن يمضي كل فرد في حياته كما يوحى إليه طبعه بغير أن ينغص عيشته بمعرفة آراء الآخرين . ولا شك في أن بعض النفـاق محبوب ومفيد ، لأنه يسهل معاملة بعض الناس لبعض . فاذا قال شخص لآخر : « نهارك سعيد » مع أنه لا يريد حقاً أن يتمنى له نهاراً سعيدا أو إذا قال له : « أشكرك لأنك تفضلت بزيارتي » مع أنه كان في أشد الضيق من زيارته لم يضر ذلك القول أحـداً ، ولـكنه في الوقت نفسه يسر السامع الذي يتلقى التحية . وقد يؤدي مثل هذا القول إلى أن يبعث شيئاً من السرور إلى القائل نفسه لأن تـكلف الجميل يوحي إلى النفس بالمعنى الجميل .

فينبغي أن نعيد النظر في الشعور السائد ضد ما يسميه الناس عادة بالنفاق والمراءاة ، وحبـذا لو أمكن أن نجد لهذه المعاني أسمـاءً أخرى أكثر قبولا عند الناس فكثيراً ما كانت كراهتنا للمعاني والأشياء نتيجة لـكراهة ورثناها لبعض الأسماء .

محمد فريد أبو حديد

ملكان يلتقيان، كل منهما ... كرمت مناقبه، وجل إخاؤه
بل عاهلان، كلاهما سيف الحمى ... وكلاهما قرن الشموس فتاؤه
بالأمس ضمهما الحجاز فغردت ... هتافه، وتكلمت أصداؤه
وتخشع «الفاروق» في حرم الهدى ... عشي وأنوار النبي إزاؤه
ألق بمنطقة المليك وسيفه ... فكأنه قرب المصطفى وولاؤه
إن يسق المجد العريق فسيد ... بنت المكارم والعلا آباؤه
ولقد بنى «عبد العزيز» مؤثلا ... في الملك تم جلاله ورواؤه
ملك يغار على الحنيفة قلبه ... في العاملين قليلة نظراؤه
من شعلة الإيمان أضرم عزمه ... ومن الشداد تحدرت آراؤه
هو حارس الحرمين كم بهر النهى ... إقدامه، وسقى السيوف مضاؤه
كالليث لم يوح عليه عرينه ... لهابة، أو روعت صحراؤه

* * *

يوم اللقاء الجامع على الهدى ... عال محياه، مضيئة أضواؤه
الروض فيه تضاحكت أزهاره ... والقصر فيه تجاوبت أنحاؤه
والجامعة أرسلت أبناءها ... يستبشرون، كأنهم أبناؤه
مرح ستكسبه التجارب حنكة ... وصبي ستشرف في غد أنباؤه
وحقول مزهيات طلابها ... كالنبت قوم نضرة علاؤه
يبنون للشرق الجديد مجده ... فالشرق يرجى بينهم بناؤه
هذا نشيدي أمس في أشباله ... مازال من وتر الفؤاد غناؤه!

* * *

يا سيدي هذا الزمان، فلو هما ... وكلاكما فوق الشموس علاؤه
وسلهما حتى يرى شعبا كما ... أملا دراري النيرات كفاؤه
وبنيتما للشرق باذخ نهضة ... لم يشتهها في أمسه حلفاؤه
فخذا بناصره لأوج سامق ... دعماه من نسجه زعماؤه
الشرق إن لم تنصراه بقوة ... متخاذل الخطوات قل رجاؤه
والدين إن لم تأخذا بيمينه ... متثاقل الصلوات مات دعاؤه
والله لا يرضى لدين محمد ... في الأرض إلا أن يعز لواؤه!
فتعهداه بنهضة روحية ... يبقى سناها خالدا وسناؤه

عامر محمد بحيري

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

(٤) الأشعار الأندلسية

وأثرها فى الأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

ثم يمضى ريبرا فى المقارنة بين الأشعار الأندلسية الأسطورية والأشعار الفرنسية خطوة أخرى ، فيلاحظ أن إحدى الأساطير البروفانسية تزعم أن شرلمان طرد مرة من ملكه فى فرنسا ، فذهب يلتمس العيش فى بلاط أحد الأمراء المسلمين فى أسبانيا وتزوج أخته ، وأن ملك المسلمين الذى يظهر فى ملحمة رولان هو على التحديد صاحب سرقسطة الذى يظهر فى قصة إزراق ، وأن « مُمت » أو « مُنتيل » الذى نراه فى قصة إزراق ، نراه فى الملاحم الخاصة بشرلمان تحت اسم أومنت Omont وألمنت Olmont Aumont . ويلاحظ كذلك أن كثيراً من مؤرخى الأدب الفرنسى يذهبون إلى أن الأساطير الفرنسية كتبت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، أى فى عنفوان عصر انتقال عناصر الحضارة الإسلامية من إسبانيا إلى أوربا .

وكان منندذ بيدال قبل ظهور أبحاث ريبرا يقول : « عبثاً نحاول أن نجد فى أشعار الملاحم القشتالية آثارا عربية » فاكتفى ريبرا بتنبيهه إلى أن ألفاظاً متواردة فى هذه الملاحم كالغارة algara والدليل adalide والقاضى alcalde والمغفر almofar والطلائع atalaya وغيرها كثير يثبت أثر المسلمين ولغتهم فى صميم هذه الملاحم ، وأن الملك يختص نفسه بخمس الغنائم فى هذه الأساطير ، وهذه قاعدة شرعية إسلامية ، ولفت نظره كذلك إلى تحجب كثير من النساء فيها ، ولم يزل يناقش العالم الفيلولوجى الكبير حتى جعله يقول : « لا بد من الوصول إلى الأشعار القصصية الأندلسية (يسميها الموريسكية) ، والأشعار القصصية التى ظهرت فى نواحى الحدود الشمالية حتى نعثر على هذه التأثيرات الإسلامية التى يشير إليها ريبرا فى الشعر القصصى القشتالى » .

ويقول جُنثالث بالنثيا مزيداً فى إيضاح نظرية أستاذه ريبرا « لا يمكن إنكار الأثر الإسلامى بأية حال : فإذا كان الناس لا يمارون فى أنه قد وجدت — وقتاما — أشعار جرمانية استعملها القوط الغربيون ، فإن وجود أشعار أسطورية بين المسلمين الأسبان أمر أكثر احتمالا ؛ وإذا كانت أوصاف المجتمع التى ترد فى القصائد القشتالية تتفق مع أوصاف المجتمع الجرمانى كما يصفها تاسيتوس ، فإن وجود ملامح عربية فى هذه الأشعار أمر لا يقل احتمالاً عن وجود الملامح الجرمانيـة . فالكرم ، ووجود نظام « الولاء » فى الجيوش ، وروح الانتقام ، ودفع دية المقتول ، وشعور الشرف المرهف ، كل هذه صفات أصيلة فى الخلق العربى . ولنضف إلى ذلك أن « السيد » عاش مع بعض ملوك الطوائف المسلمين (حتى اسمه ، هو ترجمة لفظ العربى سيدى) ، مما جعله يعامل المسلمين المهزومين بكرم ظاهر كما يقرر بيدال نفسه ، ثم إن قصيدة السيد نشأت وتمت فى مناطق الحدود الشمالية ، كل هذا يجعلنا لا نستغرب وجود آثار إسلامية . فهل من المعقول أن الأثر الإسلامى فى الأدب الأسبانى يبدأ فقط فى القرن الخامس عشر بظهور ما بين أيدينا من الأشعار الموريسكية الشمالية مع أن المسلمين وجدوا على هذه الحدود نفسها قروناً طويلة قبل ذلك ؟ » .

ومهما يكن من الأمر — يقول جنثالث بالنثيا مستطرداً — فإن الشعر الأسطورى القشتالى لا بد أن يكون قد قلد نموذجاً جرمانيا أو نموذجاً إسلامياً أندلسياً ، فأما النموذج

الجرماني فقديم جداً ، ثم إنه وصل أسبانيا معدَّلاً بتأثيرات رومانية حدثت على مر قرون طويلة ، وأما النموذج الإسلامي الأندلسي فقريب مرتبط بالشعر الأسباني رابطي الزمان والمكان .

— ٣ —

ثم التفت ريبرا بعد ذلك إلى الأزجال الأندلسية ملتمساً فيها بعض البرهان على ما يقول ، وله في هذا الميدان آراء لطيفة لا بأس من تلخيصها ، وربما لم يجد القارئ المختص بالدراسات الأندلسية الآن في هذه الآراء كثيراً من الجديد ، ولكنه ينبغي أن يذكر أن ريبرا وصل إلى هذه الآراء سنة ١٩١٢ ، أي في زمن كانت معلوماتنا من الأدب الأندلسي الشعبي لا تعدو بضع إشارات من دوزي : قبل أن يطلع ريبرا على كلام أبي الحسن بن بسام من مُقَدَّم القبري وأصل الأزجال قال في بحث له سنة ١٩١٢ إنه لا يشك في أنه قد وجد عند الأندلسيين نوع من الشعر الشعبي ، وأن هذا الشعر الشعبي هو المفتاح الذي نصل به إلى كشف كثير من النواحي المغلقة في حياة الأندلسيين وفنونهم ؛ وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩١٥ عثر على الفقرة الهامة من « الذخيرة » التي يقول ابن بَسَّام فيها إنَّ أول من نظم الموشحات في القطر الأندلسي هو مُقَدَّم القبري الضرير ، وأنه كان ينظمها من أبيات قصار ، وأن معظم منظوماته من هذا الطراز لم يراع فيها دقة النظم ، وأنه كان يستعمل في نظمه ألفاظاً وعبارات مما يستعمله العوام : فكان يأتي بعبارة عامية ويجعلها مطلعاً لمقطوعته ؛ ثم ينسج على منوالها فقرتين صغيرتين ، من غير مراعاة كبيرة للقافية ثم يؤلف بيتين بالعامية على وزن وقافية جديدة يتبعهما بثلاث فقرات مماثلة للأولى في الوزن والقافية ، وعلى هذا المنوال مضى في صياغة موشحته العامية .

وجاء بعد مقدم سعيدُ بن عبد ربه ابن عم الشاعر المعروف فوضع أزجالا بالعامية الصرفة وتلاه الرَّمادي فجوَّدَ هذا النوع الشعري ، ونسج على منواله كثيرون ؛ ثم جاء ابو عثمان بن سعيد الحوت ، وأخذ يقلد القطعات الشرقيـة المعروفة بالخالي ، وارتفعت قيمة هذا النوع الشعري الشعبي حتى إن ابن هانئ نفسه وضع موشحات ، ولكن الظاهر أن الموشحات كانت أسعد حظاً عند الشعراء ، فلم يخل واحد منهم في القرن الخامس من نظمها والتبريز فيها ، حتى إننا نجد ابن اللبانة يمدح الرشيد بن المعتمد صاحب إشبيلية في موشحة لطيفة ، وأبا بكر شاعر المأمون صاحب طليطلة يبرع في نظم الموشحات وتذيع منظوماته على كل لسان في الأندلس ، وكذلك يغني أبو عبادة محمد بن عبادة بفضل بني صمادح أصحاب المرية في موشحات رائقة .

لم يلبث هذا النوع من الشعر الموشح ومن الزجل أن شاع بين أهل الأندلس شيوعاً عظيما ، وجد العوام في الزجل مطلبهم من الشعر ، فنبغ منهم كثيرون أخذوا يجولون البلاد جماعات يتغنون بأشعارهم ، وسماهم الناس « الأصحاب » وقد وصف المقرى لنا هؤلاء الأصحاب بأنهم جماعات من الناس يميلون إلى اللهو والغناء والطرب ، يبرعون في النكات والفكاهات ، ويطوفون على الناس بأزجال فيها كثير من الفحش والمجون .

نبغ في هذا الفن الزجلي كثيرون منهم ابن بقي الأبيض وأبو القاسم الحضري ، وأبو بقي وهو زجل اشتهر بمجونه ، ولم يقتصر الزجل على هذا الشعر الفاحش الماجن ، بل شارك فيه كثيرون من أهل الوقار بأزجال لطيفة . وليس لدينا لسوء الحظ من هذا الإنتاج الزجلي الوافر إلا فقرات صغيرة وجزء كبير من ديوان زعيم الزجالين الأندلسيين أبي بكر بن قزمان الشاب ، وسنخصه بالحديث التالي .

(للحديث بقية) حسين مؤنس

من صور الماضي :

الشيخ مرسى

أو عجيبة القرن العشرين

عملاق مكفوف البصر عريض المنكبين مفتول الذراعين قوي السواعد والبناء شرس الأخلاق ، تروع جهامته الأقوياء الأشداء رهبته وذيوع صيته في كافة أنحاء القاهرة ، فهو أشهر من الأشهر الحرام لمكانه المعروف في العنف وسرعة الغضب — تعرفه وزارة الداخلية كما تعرفه الحكمدارية والمحافظة والبوليس وهو من نزلاء السجون الدائمين .

هبط من بعض قرى الأرياف حوالي سنة ١٩١٩ إبان النهضة الوطنية يرتدي جلباباً أبيض وعمامة مفتولة كالحبل على ضخامتها ، ويلبس حذاء بلديا — بلغة — ويحمل في يده عصا غليظة — عكازة — من خشب الشوم وفي نهايتها وقاية من الحديد بداخلها ما يزيد على رطل من الرصاص المصبوب — وقد ربطها عند قبضته بحبل متين حذر أن يجتذبها من يده خصومه في مواقف الغضب والشجار .

ويحمل على كتفه زكيبة تلازمه مع العكازة ملازمة الظل للشبح والعرض للجوهر والاسم للمسمى . وإنما دعي الشيخ لأنه ضرير معمم فأدخل في زمرة الشيوخ ، وهو كما عرفناه لا يجيد حفظ الفاتحة بل كان يتلوها على لحن وسوء أداء مضافاً إليها فاتحة أخرى من تأليفه .

كان إذا غضب يوقظ عكازته بضربات أولية على الأرض بمثابة التنبيه ثم يدور بها يمنة ويسرة في سرعة فائقة ويقظة عجيبة كأنما هو يحذر النواحي المفتوحة لخصومه فيسد الفجوة التي يتوقع الباغتة منها ، ثم تقع الإصابة في الغالب على الأبرياء من المارة رجالا ونساء فإذا ألم جندي البوليس يقف ضمن شهود المعركة ينتظر الإمداد والنجدة حتى إذا وافته القوة الكافية أحاطوا به وانتزعوا عكازته من يده وتضامنوا فوضعوه فوق سيارة نقل وربطوه ، وبهذه الصورة وحدها يتيسر الظفر به للقسم ، وهي طريقة متبعة متفق عليها في عامة الأقسام والمخافر .

كان يغشى المطاعم والأوكاندات فإن جلس على أحد المقاعد استولى على ما يجاوره منها بوضع أمتعته عليها . ويتحاشاه زوار المكان فيطلب ألواناً تتخم أربعة من ذوي البطون الخاوية ، فيأتي على آخر ما يجاء له به ثم ينهض فيغسل يديه ويستولي على الصابونة والفوطة ويمضي ، فإن طولب بردهما والوفاء بثمن ما أكله استعمل عكازته ، فما هي إلا بضع دقائق حتى يدع المكان أكواماً مبعثرة ، ويتبصر الجلوس من الزبائن حيرى لا يجدون محيصاً يلوذون به ، وعند فقدان الحيلة يحملون المقاعد والمناضد كالمظلات الواقية فوق رؤوسهم إلى انتهاء المعركة ، وهكذا كان شأنه ، له في كل شارع صولة وفي كل جهة جولة في أحياء العاصمة وضواحيها ، تعرفه الجمهور وجعلوا له شبه أتاوة من ضرائب يتقاضاها في شتى الطرق والمسالك إن لم تكن من النقود فهي من تجارة المحل أياً كان نوعها يدخلها ضمن ضيوف الزكيبة ، وهي مجموعة لم تظفر بها حقيبة في العالم تلتقي فيها الأضداد وتجتمع المتناقضات ، فهو بينا يدخل بها فطيرة أخذها من حانوت يضع فوقها فسيخة من آخر ثم تسقية من السمط وضربة من الكشري وشيء من الحلوى والجبن وقطعة من الباذنجان المقلي ومثلها من الطعمية وكيس من الملح الناعم وبعض من السكر وهكذا . ثم هو لا يضن على الزكيبة بمركوب قديم أهدي إليه من أحد شيوخ الأزهر ، وهكذا حتى تمضي سحابة اليوم فتكون متخومة بالأضداد يعيش في جوانبها مخلوقات من الذباب والصراصير وما إليها من أنواع الهوام .

والشيخ مرسى أن يفرض نفسه كمشترك في جميع

خطوط الترام والسيارات بمميزاته البارزة فيمق من أعان التذاكر بلا قيد ولا شرط . ثم هو يذهب للولائم والحفلات والأفراح بدعوة من عنده ، فإن مدت الموائد نهض مع الطاعمين وجلس معهم يحييهم كبعض أصحاب الدار ، فيأخذ نصيبه أضعافاً بالنسبة لغيره . فأما إن رفضت دعوته لنفسه واندماجه مع المدعوين كان تكدير الصفاء وحدوث ما تخشى عواقبه أمراً لا سبيل مطلقاً إلى تفاديه .

ومر ذات ليلة بجهة الحنفى فسمع صوت قارئ وعلم أنه مأتم لأحد الأعيان ، فدخل وأسكت القارئ ووقف يقرأ الفاتحة بصوت جهير على روح المرحوم ثم أخذ يطالب بأجر الفاتحة فخرج بمبلغ خمسة قروش أتعابه على قراءتها .

وذهب ذات يوم إلى المحكمة لتأدية شهادته على لص اتهم بسرقة كوتش عجلات سيارة وأقسم أنه رآه حال ارتكاب جريمته ، غير أن المحكمة لم تأخذ بقوله فوقف يحتج على الاستخفاف به فيما جاء لتقريره .

وكان ينتقد النظم والقوانين ويود لو أسعده الحظ بانتخابه لمجلس النواب فيضع تشريعاً جديداً للأمة يكفل لها السعادة والأمن والرخاء .

ظل هكذا على شهرته بالمنت والتجبر يطلب رزقه عن طريق العتو والإرهاب إلى أن دب الوهن فى أوصاله فوهنت أعصابه وخارت قواه وبدأ يترنح فى مشيته كالثمل النشوان ، لكنه بقى على مظهره الأول حتى لا يشعر الجمهور بضعفه وتخاذله ، فنظمت له كلمة دعابة فى لغة شعبية وإليك بعض أبياتها :

كنت أشجع من أسد   صرت أجبن من نعامه

* * *

نعمل إيه فى كبر سنك   فى نفور الشعب منك
كل واحد راح يرنك   أزق والناس فى كمد
وانت مشهور بالتلامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

الـترمواى تركبه   واللى يمنع تضربه
يسحبك أو تسحبه   شيخ وفى شكل الوند
عمره لم يخشى اللامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

شعب زى البحر مايج   وانت زى القرد هايج
والمباكمه سوقها رايج   يبقى فوق راسك هدد
وانت أشهر من سلامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

الحياة فى الناس وديعه   وانت خالفت الشريعه
والبلاده فيك طبيعه   اقصد القرد الصمد
قبل ما تشوف القيامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

وما كادت تنشر كلمتى فى مجلة النيل حتى قرأها له بعض قراء المجلة بالحسين فاهتاجت كوامن غضبه وعدها فاتحة عهد جديد يحفز الناس للعبث به ويفقده رهبته فى النفوس فوقف ينادى بالويل والثبور لا لصاحب الكلمة فحسب بل للمجلة ومن يتصل بها واشتغل بالبحث عن مسكنى دائبا ويتفقد النواحى التى أتردد عليها أياماً متعاقبة إلى أن توسط بعض أهل الحى الحسينى فى الصلح معه على شريطة أن أكذب نفسى فيما قلت عنه فى نفس المجلة وأن أدفع له فى أول كل شهر عشرة قروش ترضية له واعترافاً بقوته وشدة بطشه فدفعتها مرة واحدة ولم أعلن اعتذارى له ، وأجهده البحث عنى فلم يوفق لمكانى إلى أن هاجمته الشيخوخة وتجهمت له الحياة ، فكنا نجمع له المونة عن طيب خاطر ، ولكن أمسى المسكين هدفاً لعبث العابثين وسخرية الناقمين ، فآثرنا التعاون على إدخاله ملجأ العجزة حيث قضى أيامه الأخيرة بعيداً عن شماتة الجمهور ومجون الشباب ، ولم نقف على شئ من أخباره بعد . هل كان التركية والمكازة ورثة وأعقاب بعده أو أضيفت مخلفاته لمتحف الآثار وصحف الأخبار .

حسين مظلوم رياض

العظمة ...

ما دامت العظمة تعلو على قدرنا ، كما يقول « مونتانى » فلننتقم منها بالحط من قدرها والتقليل من شأنها .

و « مونتانى » قد قال هذا القول وهو بالطبع يمزح . وإنى لأعرف كثيراً من الناس ومنهم من سوف يشفق على ، ومنهم من سوف يهزأ بى ، لمحاولتى خوض لجة هذا الموضوع الخطير .

وإنى لأحمد الله ، والرضا يملأ نفسى ، على أنه — سبحانه — قد خلقنى كما أنا .

وإنى لأعترف أنى أحب التواضع فى كل الأمور . فأنا أرضى بضيعة صغيرة تدر علىّ الخير القليل .

وأنا أرضى ببيت صغير يؤوينى . وأنا أرضى بأصحاب قليل عددهم . وأنا أرضى عادية غاية فى البساطة .

وإذا قدر لى أن أقع فى شرك الحب مرة أخرى فسوف أختار صاحبتى من صاحبات الملامح الحسنة والهيئة الظريفة لا من بين الساحرات الفاتنات اللاتى يسميهن هومير « بنات عبقر » ...

ومن الناس من يأبى إلا أن يمشى فى الأرض مرحاً يختال فى برديه وملء إهابه الكبر .

وإذا تكلم لوى شدقه للتفصح . وهو فى اختيار خدمه لا ينتقى إلا من لهم جثث ضخام .

وهو فى انتقاء أدوات المائدة لا يختار إلا الصحاف التى جاوزت المدى فى الاتساع .

وإذا مشى إلى جانب رجل طويل مط عضلاته وارتفع بقدميه حتى يبزه طولا ليكون — فى نظر نفسه — رجلا عالى الكعب عالى القدر ...

هذا ما وصف به سنيكا (أحد بلغاء الأدباء الرومانيين وقد توفى عام ٣٩ بعد الميلاد) هذا الصنف من الناس المولعين بالعظمة الخادعة الكاذبة .

هذا الصنف من الناس — على ضؤولة جهده وفقر وسائله — لا يرضى بما دون النجوم مقاماً ومستقراً ، وهو يقول لنفسه : — إذا أنا بلغت مكان كذا . إنى لسعيد . حتى إذا بلغ ذلك المكان طمحت به نفسه فطلب المزيد ، فإذا بلغ القمة كان عرضة للسقوط من أعلى الجبل .

ولكنه — كما تقول الأسطورة — لن يستطيع أن يظفر بالطمأنينة ومكانها فوق مكان القمر — كما تقول الأسطورة أيضاً .

وقد قيل إن الروّاد الأولين من الناس قد أرادوا — فى محاولة ملؤها الشجاعة والجرأة — أن يقيسوا السماء ، وظنوا أن الوسيلة لبلوغ ذلك أن يركبوا الجبال فوق بعضها ، فلما بلغ ما ركبوه جبالا ثلاثة قدروا أن لم يبق إلا جبلان أو ثلاثة ، ثم برق البرق وقصف الرعد فدك الجبال دكا ، وباء أصحابنا بالخيبة الكبرى .

(وبعد) فإن العظمة كائنة ما كانت ليست لها حقيقة وجودية . إنما هى من نسج الخيال ، وهى مسألة نسبية لا يمكن أن تقاس إلا بطريق المقارنة .

فأنت ترى أن ليس هناك وقت للصبح ، ووقت للظهيرة ، ووقت للغروب ، إلا بالقياس إلى بعض البلاد وليس بالقياس إلى جميع البلاد .

فكل شئ تافه وحقير ، وكل شئ عظيم وجليل ، بالقياس إلى شئ يقارن به ويقاس عليه .

فهناك قرية فى الهند أو فى الصين قد أكون فيها أنا رجلا عظيما وقد أجد من يجعلنى شبيها بقيصر .

ووجه الشبه أنى أصبحت أول رجل فى تلك القرية .

وإنجلترا — مثلا — اسمها بريطانيا العظمى . وقد سميت كذلك بالقياس إلى قسم من العالم . أقل منها مساحة ولكنه يشاركها الاسم .

فإذا قسنا بلاد بريطانيا العظمى ببلاد الصين ضؤلت

مشعل الحب الالهى ..!

هى قصة طريفةُ حقاً .. حكى فيها كاتبها الإنكليزى عن نفسه وعن أخيه .. حكى قصة حياتهما ! فراقنى أنها جمعتْ إلى جمال العَرْضِ روعة الذكرى ، وبهرنى أسلوبها الشائق الجذّاب ، ومداخلها اللطاف الدقاق ، والصدق الذى يشيع فى ثنايا سطورها فيكسبها حياة ، ويسكب فى حروفها حرارة .. !

قال الكاتب : « .. كان جميلاً حقاً ذلك البيتُ الذى نشأت فيه . كان يتوسط مزرعة كبيرة يمتلكها أبى ، فكانت شرائط الحياة الصحية متوافرة فيه . كنا نملك ثروة كبيرة من فيض الطبيعة الدفاق : الشمس الساطعة ، الهواء النقى البليل ، ألحان الطيور الشادية ، لون القراس الأخضر الجميل ، والطلاقة .. الطلاقة والانفساح اللذين يتميز بهما ريف انكلترا المعظم .. !

ولكن .. ماذا كانت تجدينا هذه الثروة العظيمة ؟ ! لقد كنا فقراء بنفوسنا .. أو بالأحرى .. كان أبواى كذلك يقولون إن النفس الرحيبة الممتلئة بالحياة هى التى تخلع على الطبيعة أكثر جمالها ؛ وهى قولةٌ بالغة الصدق ، أحسب أنى جربت صدقها من طريق عكسى .. فقد كانت نفوسنا القفرة تسلب الطبيعة جمالها وتخلع عنها نضرتها ورواءها .!

أجل .. كانت ظلال نفسى الحزينة تخيّل إلىّ أن كلّ شىء من حولى يبكى ، ! كنت أسترع إلى الكآبة وكثيراً ما كنت أنطلق فى الليل البهيم سادراً لا ألوى على شىء ، فأحس وقر الظلمة الرهيبة ، وأستشعر كوابيس أحلام اليقظة المزعجة تخنق روحى ، وكثيرٌ فى حيناً غريباً إلى الإجهاش بالبكاء المرير ! أما أخى .. فقد شاء قدرٌ رحيمٌ أن ينتزعه من أبويه إلى هذه « الجنة » التى هيّأتها له عمى ! لقد كان يرْقب مَقْدَمه .. فلما أهلّ بطلعته المشرقة ، وصافحَ أديمُ وجهه الطرىّ أولى نسمات الحياة فتّحَ له عمى أبواب جنته ، وقال له : « ادخل .. ادخل ملؤك العزم والطمأنينة .. إنها جنتك الخالدة ! » ولم تكن هذه « الجنة » سوى « قلب » عمى .. ذلك القلب الكريم الذى عرف الحياة حُبّاً خالصاً ، وتجاوب أرواح .. !

كان عمى يطلبُ الولَدَ ويُلح فى طلبه .. ولكن انسلاخ الأعوام كان يُضيّق من فسحة هذا الرجاء شيئاً فشيئاً .. حتى كان ذلك اليوم المشئوم .. يوم أن قبَضَ المعزوجته إليه فجأة .. وغدا عمى وحيداً .. !

كان يحبها .. بل كان يعبدها ، فآلى على نفسه ليمكثنّ فى جوارها بقية حياته . لم يكن يعتقد أنها ماتت ، وإن كان سلّمَ أنها ماتت بالجسد . وكثيراً ما كان يدعوا محياه بلمسة قدسية كنت أحار فى اكتناهها ، ثم لا يلبث أن يقول فى صوت متهدج النبرات : « إنى أحيا وإياها .. إنى أراها . إنّ الأرواحَ لا تفنَى أبَداً ولا تموت ! »

ولما أنجب أبى ولده الثانى — أخى — انطلق الحبيس من أشجان عمى ، وكانت له عند أبى رجاوة : أن يضم أخى إليه ؛ فأبى والدى — إزاء إصراره ولشيته — أن يفجعه فى أخريات أيامه ، وطيّبَ خاطره ، قائلا : « إنه ولدك منذ الساعة .. خذه إليك يا صاحبى ! » .

وانتقل الوليد الصغير إلى « جنته » .. كانت « قلب » عمى .

مبارك ابراهيم

ريطانيا العظمى وتوارت فى الحجاب .

وبلاد الصين قسم صغير جداً من الأرض إذا قيست بمساحة الأرض كلها .

وعالم الأرض صغير جداً إذا قيس إلى العوالم الأخرى التى لا عدد لها ولا حصر .

(من الإنجليزية)

ومنذ ذلك اليوم و تقطعت بيني وبين أخي وشائج الاتصال !.

* * *

كانت أمي عصبية المزاج .. تمثل «المرأة» في تقلبها وعنادها ولجاجتها ، وكان بها دائماً شعور الطائر الذبيح قلق دائم ، واضطراب ، وإجفال لا يُدرَك لهما نهاية ! وكانت تجمع في أخلاقها النقائض كلها ؛ فهي تارة شرسة جموح ، تهدر بالوعيد ، وتنذر بالويل ، وتقذف بالحمم ؛ وأخرى لينة عطوف ، في هدوء الحمل الوديع ، تسرف في بذل حنانها وحدبها ، وتغالي في البذل !.

وهي حيناً باكية ، وأحياناً متباكية ، وتراها ضاحكة شادية في أقل الأحايين ! أما أبي .. فقد كان رجلا مريضاً بالعقل وبالجسد وبالروح ! أحب في حداثته .. عشق في صباه .. لجج في أكثر من امرأة أكثر من مرة .. لج في اللهو وغرق فيه إلى أذنيه ! عرف الليالي الحمراء ، وزامل بنات الهوى الرخيص وأبناء الطرقات ! نالت حياته العابثة المستهترة من عقله ومن كيانه ومن روحه .. أهدرت في نفسه كل تقدير للقيم .. أفقدته اتزان الرجولة ورجحان العقل .. سلبته راحة البال .. شبت نارها في أغوار ضميره وصيرته عبداً للهواجس والأوهام والأضاليل .. جنحت به إلى نزوات الاستبداد والجور والأخذ بالثأر ، فصار لا يغضي من هفوة .. ولا يفلت فريسة ، ولا يرضى أن يسكت على ضيم . !

... ولم نكن أغنياء .. كما أننا أيضاً لم نكن بالفقراء . كنا في حال وسط بين الشدة والرخاء ، وكنا نستطيع أن نحيا وأن نتنفس سعداء ، لولا أن نفوسنا كانت مرضى شوهاء !.

وهكذا سلخت حياتي جلها ضحية هذين الوالدين .. لم أعرف قط طعم الهناءة .. لم أذق أبداً لذاذات العيش .. لم أجد فرداً يحنو علي .. لم أجد صدراً يضمني إليه .. لم أر قلباً يخفق من أجلي .. لم أجد نفساً سليمة تجاوبني أحاسيسي العالية الرفيعة ! كنت أكبت مشاعري في أغوار نفسي . كنت أطوي صدري على ثورة عاتية تضج في مسارب كياني .. كنت أحيا على مثل الجمر المتقد يفري مهجتي ويقرض أعصابي !.

* * *

وشب أخي .. فعرف الحب ... وشدا أغاريد الحياة العذبة .. غمرته أضواء الروح ، فاستشعر اضطرام النفس بفرائد الأحاسيس .. ذاق حلاوة الفيض الإلهي ، واغترف من ينابيعه الثرة ... أمده حبه بصوفية حبيبة مهدت له أسباب الاتصال بالروح الأعلى ، فاستقامت فطرته واعتدل زمامه وصار في الحياة رجلا كريماً . !

... لقيني ذات يوم .. فانفتح له قلبي ، وسالت من أجل فرحتي برؤيته عبراتي ! عرف همومي .. وغاص إلى ندوبي وجراحاتي ، فحاول — جاهدا — أن يقوم انحراف نفسي ويعالج في شذوذي واضطراب أعصابي .. ولكنه حاول عبثا !

كان حريصاً على ألا ينكأ جراحاتي القديمة الغائرة .. ولكن ... هيهات ! .. ثم غاب عني — كالطيف — بضع سنوات .. رحل إلى فرنسا .. كان يراسلني دائماً ويدأب في كل سطر يخطه لي على الكفكفة من تباريح آلامي .. ووردت منه ذات يوم رسالة ألقى إلي فيها نبأ زواجه .. ومضى عام .. فتلقيت يذكر أنه قد أنجب غلاماً جميلا .. طفلا يمثل في غرارته طهر حواري الجنة !

* * *

وهذا هو «جو» الصغير الآن إلى جانبي يداعب كلبه المزز ، ويبث أنغام الهناءة في بيتي المنعزل القصي ، بعد أن غيب القبر أبويه إثر حادثة — لا أريد أن أطيل الوقوف عند ذكراها الرهيبة ! — ذهبا ضحيتها ، وأبقيا لي «جو» رمزا للحب .. عنوانا للفيض الإلهي الذي تفجر في قلب

محمد على الكبير

وقراءاته التاريخيـــة

لعل أهم فائدة لعلم التاريخ أنه صورة ودراسة لتجارب الإنسان فى عصوره الماضية ، لهذا عرف عن كبار الملوك والأمراء والقادة شغفهم بقراءة التاريخ ، وخاصة تاريخ أمثالهم السـابقين ، والأمثلة كثيرة لا تعوز الباحث .

وسنتخير منها اليوم شخصية محمد على الكبير ، ومدى اهتمامه بقراءة التاريخ ، لنحاول إحصاء الكتب التى قرأها ونبين نوعها ، فقد يكون لهذا البحث فائدة لمن يحاول دراسة شخصية هـذا العاهل العظيم ومقوماتها الثقافية .

فلا شك فيه أن للكتب التى يقرأها أى إنسان أثراً قويا فى تكوين شخصيته ، وتوجيه حياته ، وتكييف أعماله لا يقل عن أثر البيت أو المدرسة ، أو البيئة أو الأصدقاء . . . الخ .

فمن محمد على بعلم التاريخ عناية كبيرة . فقد كان يرى نفسه — وهو منشىء دولة جديدة ، وصاحب سياسة إصلاحية جديدة — فى حاجة إلى أن يقرأ ويدرس تراجم أمثاله من القواد والملوك والمصلحين ليفيد من خبراتهم ، ويتجنب أخطاءهم . وإنا لنرى أنه أفاد من هـذه القراءة حقا ، وهذا هو الفارق الكبير بينه وبين القـائد العظيم نابليون ؛ فكلاهما من أبناء عصر واحد ، ومن غمار الشعب ، وصلا إلى العرش بجهودهما — وخاصة الجهود الحربية — ولكل منهما تاريخ مجيد فى الإصلاح الداخلى ، غير أن نابليون لم يقدر قيمة القوة التى وقفت فى سبيله ، فلم يعترف بالهزيمة ، فقضت هذه القوة عليه وعلى ملكه . أما محمد على فقد ناضل حتى أيقن أن لا فائدة من النضـال ، فخضع مكرهاً ، وقنع بولاية مصر مضطرا ، وبهذا احتفظ لنفسه ولأسرته بالملك .

يقول رفاعة بك الطهطاوى فى كتابه « مناهج الألباب » : إن محمد على (تعلم القراءة والكتابة فى أقرب وقت ، وعمره خمس وأربعون سنة إذ ذاك ، جبراً لما فاته فى زمن الصغر وتداركاً لما يزيد فى مجده فى زمن الكبر ، فرغب فى مطالعة التواريخ ، ولا سـيما تواريخ الفاتحين : كتاريخ اسكندر الأكبر المقدونى ، وتاريخ بطرس الأكبر إمبراطور الروس — أى الموسكو — ، وتاريخ نابليون الأكبر ، وغير ذلك من التواريخ المترجمة إلى التركية ، مع المواظبة على الاطلاع على ما فى الكازيطات الافرنجية التى كانت تترجم له ، وكان صاحب فراسة ، إذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر إلى حركاته وإشاراته مقصده ، يستشير العقلاء والعلماء فى حل أموره ....)

ويبدو أنه كان أكثر شغفا بتاريخ الاسكندر وقراءته يقول رفاعة بك فى نفس المرجع : (ولما كان محمد على يحس من نفسه بأن عزماته اسكندرية ، كان متولعا بقراءة تاريخ اسكندر ، ومنكبا عليه ؛ وشبيه الشىء — كما يقال —

عمى ، وتسرب إلى جوانح أمى ، ومس قلبى منه رشاش رقيق !

وإنى لأحاول الساعة أن أبذل له حنان أبويه العظيمين مجتمعين .. عم أبيه وأبيه — وأحس فى ملازمته فرحة .. افتقدتها طوال حياتى الماضية ، وأستشعر قوة ما شعرت بها يوماً قط .. ذلك أنى أعلم الساعة علم اليقين أن مشعل الحب الإلهى قد انتقل إلى يدى وجعل الرب الإله منى أميناً عليه !

ذلك المشعل الذى سلمه عمى إلى أخى ، فاستلمته من أخى بدورى ، وسأظل حفيظاً عليه .. حتى يجىء ذلك اليوم الذى يتلقاه منى فيه « بيو » الصغير ليلقن النفوس البريئة الطاهرة — على وهج شعلته المضيئة — أسمى دروس المحبة وأرق أنغام الصفاء .. !

(مصر الجديدة) عبد العزيز الكرداني

منجذب اليه ، وفى الحقيقة كان بينهما من جميل الصفات والشمائل ما شهدت به الشواهد ، ودلت عليه الدلائل) .

قال محمد على للدكتور بورنج (Bowring) فى حديث له : (لقد أخبرنى الكولونيل دوهامل (C. Duhamel) أنى أصبح رجلا عظيما إذا قرأت التاريخ ، وألممت بالألفاظ المطيفة التى يمكن أن أعثر عليها فى الكتب ، ولكننى الآن لست رجل ألفاظ ، بل رجل أعمال . . .) . ثم عاد فقال فى نفس الحديث : (لقد نصحنى الكولونيل أن أدرس التاريخ لأتعلم فن الحكم ، ولكننى وصلت سناً لا تسمح لى بدراسة التاريخ ؛ لقد كتب إلىّ وهو يطلب تعليقاتى عند ما أحاطت به الصعاب ، غير أنى رأيت أن خير تعليقات هى أن أذهب بنفسى ، وقد سافرت إلى يافا ، وأخضعت الفتنة حالا ، وهذا هو الحكم العملى) .

هذه هى خطة محمد على فى الحكم : العمل لا الكلام ، غير أن تاريخه ينبئنا بأنه لم يهمل هذه النصيحة ، بل لقد أقبل على كتب التاريخ والتراجم ونظم الحكم بوازع أول من نفسه ، ووازع ثان من هذه النصائح .

ولما كانت الكتب العربية خالية من الحديث عن تاريخ الدول الأوربية التى يحاول أن ينهج نهجها فى الإصلاح ، ومن الحديث عن قواد وملوك الغرب الذين يحاول أن يترسم خطاهم ، فقد أمر بأن تترجم له الكتب التاريخية من اللغات العربية والإيطالية والفرنسية إلى لغته الأصلية التركية — أو إلى اللغة العربية — ، فترجمت له كتب فى سيرة النبى محمد ، وفى تاريخ الاسكندر ونابليون وكاترين ملكة الروسيا ، وترجم له تاريخ إيطاليا ، وتاريخ فرنسا . . الخ . . الخ .

وفيما يلى بيان تفصيلى بما ترجم له من هذه الكتب ، وقد ترجمها جميعاً موظفون يجيدون الفرنسية — أو الايطالية والتركية ، وهم مجموعة عجيبة ، فيهم السورى ، واليونانى ، والتركى ، وبعض هذه الكتب قد طبع — إما فى مطبعة بولاق فى القاهرة ، وإما فى مطبعة سراى رأس التين باسكندرية — ، والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً ينتظر من يعنى بنشره ودراسته :

١ — ترجمة « مظهر التقديس بخروج الفرنسيس » تأليف المؤرخ المصرى الكبير ، الشيخ عبدالرحمن الجبرتى ترجمه من العربية إلى التركية السيد أحمد عاصم افندى ، وفرغ من ترجمته فى غرة ربيع الأول ١٢٢٥ (٦ ابريل ١٨١٠ ، ولا يزال هذا الكتاب (الأصل العربى والترجمة التركية) مخطوطاً فى دار الكتب الملكية بالقاهرة ، تحت رقم ٨٨٥٤ .

٢ — « الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير » ، تأليف « مكيافلى » ، ترجمه من الايطالية إلى العربية الأب رفاييل أنطون زاخور راهبة ، ولا تزال نسخته المخطوطة — بخط المترجم[1] — محفوظة فى دار الكتب الملكية ، تحت رقم ٤٣٥ تاريخ . وقد أمر محمد على كذلك أن تترجم له مقدمة ابن خلدون إلى اللغة التركية ليقارن بينها وبين كتاب الأمير ، وله رأى طريف فى تفضيل « المقدمة » على « الأمير » .

٣ — « التلخيصات المتعلقة بتدبير أمور سلطنة الدولة العثمانية » ، تأليف « الأمير قوجه مصطفى بك الكوجه لى » — قائد بغداد ومن أصحاب السلطان مراد خان الرابع — ، ألفها وقدمها له حين وقع الاختلال وظهرت القلق فى أوائل سلطنته ؛ ترجمه إلى اللغة العربية عبد الله افندى عزيز بن خليل — الكاتب والمترجم بديوان الخديو باسكندرية — وكتب له مقدمة فى صورة « عرض حال » ، ورفعها إلى محمد على باشا ؛ أتم ترجمته فى سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ ـ ١٨٢٦) ، ولا يزال هذا

(١) فصلت الكلام عن هذه الترجمة وعن المترجم وجهوده فى كتابى الذى لم يطبع بعد عن « تاريخ الترجمة فى عصر محمد على » .

الكتاب مخطوطا — ومعه الأصل التركي — في دار الكتب الملكية .

٤ — « قترينه' تاريخي » ، تأليف المؤرخ الفرنسي كاستيرا Castera وهو كتاب في تاريخ الامبراطورة « كاترين الثانية » وبه مقدمة قصيرة من تاريخ الروسيا ، ترجمه من الفرنسية إلى التركية « جاكوفاكي أرجيروبولو » الموظف والمترجم بالديوان الخديوي ، وقد طبع في بولاق في جزء واحد ، في سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) ، ثم أعيد طبعه في سنة ١٢٤٦ (١٨٣١) تحت عنوان : « ايكنجي قترينه' نام روسية ايمپرا ترجمه نك تاريخي » ، بعد أن راجعه وصححه سعد الله آمدي افندي .

٥ — « تاريخ نابليون بونابرته » ، وهو مذكراته التي كتبها بنفسه حين كان منفيا في جزيرة « سانت هيلانة » ترجم من الفرنسية إلى التركية ، وطبع في بولاق في سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) ، ولم أعثر على اسم مترجمه .

٦ — ترجمه' سير الحلبي » وهو ترجمة السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، ترجمها من العربية إلى التركية « سعيد أحمد بك افندي » ، وطبعت في بولاق في سنة ١٢٤٨ (١٨٣٨) .

٧ — « ترجمة تاريخ دولة إيطاليا » تأليف المؤرخ الإيطالي « بوتا Botta » ترجمه إلى اللغة التركية عبد الله افندي عزيز بن خليل وحسن افندي ، الكاتبان بالديوان الخديوي ، وطبع في مطبعة سراي رأس التين بإسكندرية سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٨ — « تاريخ نابليون بونابرته » ، تأليف الدوق دي روفيجو Duc de Rovigo ترجمه من الفرنسية إلى التركية المترجمان السابقان — عبد الله افندي وحسن افندي — وطبع في مطبعة سراي رأس التين بإسكندرية في سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٩ — «سفارت نامه' رفاعة بك» ، وهو رحلة رفاعة إلى باريس ، ترجمها إلى التركية — بأمر محمد علي — المولى رستم افندي باسم « المرتجالي » بالدائرة السنية الخديوية وطبع في بولاق سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) .

١٠ — « شرح قصيدة البردة » ترجمه من العربية إلى التركية احمد افندي مصطفى ، وطبع في بولاق سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤١ م) .

هذه هي الكتب التاريخية التي ترجمت في عصر محمد علي ، وبأمره ، إلى اللغة التركية ، تبين في وضوح اتجاهه نحو تثقيف نفسه ثقافة تاريخية واسعة . ونستطيع أن نضيف إليها ما ترجمه[1] خريجو الألسن إلى اللغة العربية من كتب كثيرة في تاريخ أوربا في عصورها المختلفة ، وتاريخ فرنسا ، وبطرس الأكبر .. الخ .. الخ ، فما لا شك فيه أن كثيراً من هذه الكتب قد ترجم إجابة لرغبة محمد علي ، وأنها كانت تقرأ له ، أو تعرض عليه فيقرها قبل طبعها .

جمال الدين الشيال

(١) انظر تفصيل الحديث عن هذه الكتب في كتابي « رفاعة الطهطاوي » ص ١٠٠ — ١٠٦

بين المسموع والمقروء

العلم إلى التوحيد سائر

ولست أقصد بالتوحيد توحيد الله . ولو أني قصدت إلى هذا ما كذبت ، ولا كذّب العلم ، ولكني أقصد بالتوحيد توحيد العالم . وتوحيد الشعوب ، وتقارب الأمم على أي درجة كان هذا التوحيد وهذا التقارب .

وأول ما يتجه الفكر ، إذا ذكر العلم ، وذكر تقارب الشعوب ، يتجه إلى ما صنع العلم لوصل ما بين الأمم ، أرضا وبحراً وهواء ؛ بالقاطرة ، وبالباخرة ، وبالطائرة ، وأمر هذا معروف مشهور .

ولكن التقرب قد يكون بالأجسام وقد يكون بالنفوس . وقد لا تلتق الأبدان ومع هذا تلتق الأرواح وتلتق الأفكار وتجتمع القلوب .

وقد اقتحم العلم طرقا أخرى في سبيل التقريب بين شعوب الأرض ، تقريبَ أرواح ، وتقريب أفكار وقلوب . فكان التلغراف فالتليفون السلكي فاللاسلكي .

والتلغراف من مواليد النصف الأول من القرن الماضي ، أي أنه صحب القاطرة البخارية أو كاد في دخولها إلى الدنيا

والتليفون من مواليد النصف الثاني من ذلك القرن ، وعلى الأدق قد ولد عام ١٨٧٦ ، أولدَه إياه مخترعه اسكندر جراهام بل بالولايات المتحدة . ومعنى هذا أنه لا يزال بين سكان الأرض من هو أكبر من التليفون سناً . ومما يقرأه القارىء للعبرة في تاريخ التليفون جمود الجمهور الأمريكي والإنجليزي الذي كان في صدد إنشائه . وعلى الرغم من هذا الجمود فقد أنشأ أصحاب الأموال الذين ظاهروا جراهام بل ، أنشأوا أول سنترال بمدينة نيوهافن New Haven بأمريكا عام ١٨٧٨ ، وكان المشتركون واحداً وعشرين مشتركا . والنجاح يدفع إلى النجاح . فلم يلبث التليفون أن مد شباكه في الولايات كلها ، ومدها بعد ذلك على ما هو معروف في الأمم قاطبة .

وصل العلماء الأرض بالتلغراف ووصلوها بالتلفون . والتلغراف يحتاج إلى أسلاك . والتليفون يحتاج إلى أسلاك ، والأسلاك لا تصل إلا الجامد من الأرض ، فما بال البحار وهي في وصل الأمم أشد خطراً . وبحثوا عن مادة عازلة تحفظ على الأسلاك ما يجري فيها من كهرباء وهي في بطن الماء ، ووقعوا عليها فكانت الصمغ الهندي المسمى Guta Percha . وبحثوا عن أضيق المياه ذوات الخطر فوقعوا على بوغاز دوفر . فق مياه هذا البوغاز أرسلوا أول سلك مائي يصل دوفر بانجلترا بكاليه في فرنسا ، وذلك عام ١٨٥٠ . وطيروا الإشارات التلغرافية بين البلدين فطارت . ولكن لم يلبث هذا السلك المائي ، أو هذا الحبل ، أو هذا الكبْل كما يسمونه ، لم يلبث أن انقطع . وانقطع لضعفه ، فانصرفوا إلى تقويته ونجحوا . ثم حلوا هذا النجاح إلى شمال أوربا يصل مضايق الماء بين الدانمارك وبلاد السويد . وحلوه إلى البحر الأبيض المتوسط . وفي عام ١٨٥٧ حلوه إلى المحيطات — حلوه إلى المحيط الأطلسي يصل أوربا بأمريكا . وانقطع الكبل منهم على عمق ألفي قامة ، فما استطاعوا له إصلاحا . ثم عادوا يضعون غيره فخابوا . وبالصبر والمثابرة نجحوا بعد خمسة عشر عاما . وبالعلم وبالفن كثرت الكبلات ، وكثرت الوصلات حتى زاد عدد ما وُصِلَ منها بين شمال أمريكا وأوربا على عشرين كبلا . وزاد ما استقر منها في بحار الدنيا ومحيطاتها على ثلثمائة ألف ميل طولا .

وتقدم العلم فإذا بالأسلاك لا حاجة بالناس إليها لوصل ما بينهم ، وإذا بمركوني في عام ١٩٠١ يقف على جزيرة

نيوفوندلاند Newfoundland بأمريكا فيستمع لأول إشارة تعبر الأطلنطي من Cornwall بإنجلترا أي تعبر ألفاً وثمانمائة ميل (١٨٠٠) في لج البحر وبدون أسلاك .

ومن التلغراف اللاسلكي اشتق العلماء التلفون اللاسلكي أعني أنه بعد أن كانت تنقل بالتلغراف اللاسلكي الإشارات نقلت بالتلفون اللاسلكي الكلمات ، ومن التلفون اللاسلكي اشتقت الاذاعة اللاسلكية ، وكان طلوعها على الناس أول طلوع في عام ١٩٢٠ ، وكان طلوعا على أمم الأرض بالخير والسعود ، لأن الإذاعة أطول وسيلة ، وأعرض وسيلة ، وأوسع وسيلة ، وأعم وسيلة ابتدعت إلى اليوم ، لا في وصل الشعوب فحسب ، بل للتعريف بها والتقريب بينها ، ووصل الجماهير بالجماهير على رغم الحكومات وعلى رغم السياسات . وهي على الرغم من ذلك رخيصة سهلة . فأنت في منزلك ، في الفراغ ، وعلى الراحة ، تستطيع أن تطلع على آراء الأمم جميعاً ، وعلى أخبارها ، وعلى أدبها ، وعلى علمها ، وعلى فنها ، وعلى موسيقاها ، وعلى محازنها وأفراحها . فهل من وسيلة تعمل على الرفه ، في تقريب الأمم ، ثم توحيدها ، كهذه الوسيلة .

إن الوحدة العالمية لا تتحقق بتمامها ، ما دام أن لنا ألواناً مختلفة ، وألسنة مختلفة ، وأمزجة مختلفة ، وما دام أن هذا الاختلاف مردّه إلى الأرض التي نرتبط بها ، والأجواء التي نعيش فيها ، وهي جدّ مختلفة ، جد متباينة . ولكني أفهم أن يكون بين الأمم تقارب وتشابه يقترب من الوحدة في جواهر الأمور ، لا سيما تلك الأمور التي ترتبط بسلام الأرض وبهناءة الحياة .

والعلوم والفنون ، مؤتلفين ، صنعا ويصنعان الشيء الكثير في تآلف الأمم . وأول خطوة في التآلف إنما بالطبع هو الوصل والتقارب . والتآلف لا يكون على البعاد وانقطاع الصلات أبداً .

أيها المنكح الثريا سهيلاً   عمرك الله كيف يلتقيان

ووسائل التقريب الجثماني من مواصلات أرض ، ومواصلات ماء ، ومواصلات هواء ، فعل لها العلم الكثير . والتقارب الجثماني مقدمة إلى التفاعل الفكري ، فالتقارب الفكري . ووسائل التقرب الفكري دون التقاء الأجسام فعل لها العلم الكثير أيضاً . ومما صنعه الراديو حمّالا للأخبار والأفكار .

وكالراديو صنع السينما ، فحملت إلى بقاع الأرض صور الأمم وعاداتها وأساليب معاشها ، وحملت صوراً من فنونهم وعلومهم وأحداث الزمان فيهم . وصارت السينما عادة في الأمم ليس إلى اطراحها من سبيل ، يهرع الناس كل أسبوع إلى دورها ، فيُحْمَلون فيها حملا إلى ديار بعيدة وأمم بعيدة ، ومدن بعيدة وقرى بعيدة ، يقضون في صحبة أهلها الساعتين والثلاث ، يدخلون في بيوتهم ، ويرونهم في مآكلهم ومخادعهم ، ويرونهم في عملهم وفي بطالتهم ، ويرونهم في جدهم وهزلهم ، ويطلعون على مجاري الفكر في رءوسهم ويحسون خلجات قلوبهم . ثم ينزل الستار ، ستار السينما ، فيعود الناس من تلك الرحلات الطويلة البعيدة إلى مقاعدهم من دور هذه الصور ، دور السينما ، وكأنما صحوا من حلم طويل . وبالصحو ينفتح باب النقد ، وينفتح باب التقليد . وما ذكرت النقد إلى جانب التقليد إلا حفظا للموازنة . لأن الواقع أن الذي يجري أكثره تقليد ، والتقليد هو الخطوة الأولى إلى التوحيد . ذلك أن الأمم التي تصدر عنها كل هذه الأشياء ، أمم أربع أو خمس ، هن مصدر المدنية ومصدر العلم ومصدر الفكر ، وهن متشابهات في العادات ، متجانسات في الثقافات . والأمم التي تستقبل هذه الأشياء ، أمم بادئة ناشئة . والحوض العالي يصب في الحوض الواطي فلا يستطيع لمائه رداً . وهذا الوضع عامل كبير في سبيل الوحدة إذا قدر لها أن تكون ،

وهو عامل قوى لم تستطع أمة كاليابان له دفعاً . فقد رأيناها على الرغم منها تلبس الملابس الغربية ، وتتخذ العادات الغربية . حتى أذواق البناء لم يكن لها معدى من اقتباسها فما تكاد تفرق بين مدينة يابانية وأخرى أمريكية .

ولحمل الأخبار وحمل الأفكار صنع العلم ، وصنعت الصناعة التى هى وليدة العلم ، وصنع الفن ، أداة النشر العظمى ، تلك أداة الطباعة . وصنع المطابع هائلة الجرم دقيقة الصنع ، تصنع الكتاب الواحد فى النفس الواحد ، وتصنع من الصحف مئات الألوف فى اليوم الواحد ، ويجرى الورق بين اسطواناتها بسرعة خمسين وستين ميلا فى الساعة . وفى كل هذا دقة ، وفيه سرعة ، وفيه إرخاص ، وفى الإرخاص تمكين لهذه الأوراق التى تحمل عصارة الذهن البشرى أن تصل إلى أطراف الأرض بأرخص الأثمان . وإن اختصت الكتب بالخاصة من الأمم ، وبالصفوة فيها ، يتأثرون بها ويؤثرون ، ويسلون على متونها الآراء ويستقبلون ، فقد اختصت الصحف بالجماهير يقرأونها صباح مساء . وإن شئت مثلا لوحدة عالمية واقعة فتصور * أمم الأرض على مائدة إفطارها ، أو فى الطريق صباحا إلى أعمالها ، تجدهم مكبين على جريدة الصباح يقرأون ما فيها . وقد تكون لغة الجريدة العربية ، وقد تكون الإنجليزية ، وقد تكون الطليانية أو الفرنسية أو الألمانية ، وقد تكون اليابانية أو الصينية أو حتى الحبشية ، ومع كل هذا ، فهم يقرأون من أخبار العالم شيئاً واحداً ، ومن مخترعاته شيئاً واحداً ، ومن خطب الزعماء ومن أقلام ذوى الأقلام شيئاً واحداً ، تعاون على نشره فى العالم واحداً ما هيأه العلم من أسباب .

على أن العلم فوق ما هيأ من أسباب وما ابتدع من وسائل ، كان هو نفسه ، وفى حدود ذاته ، وسيلة للتوحيد كبرى بما انبث فى نواحى الأرض ، وبما انبث فى حقل ، أو انبث فى مصنع ، أو مصحة ، أو مستشفى . ففى الحقل يدخل العلم بالتوحيد فى معالجة الأرض وتسميد الزرع ومقاتلة الحشرات والآفات . وفى الصنع يدخل بالتوحيد ، فالآلات والمكنات تبنى من نماذج هى فى العالم كله واحدة أو متشابهة . وللتطبيب يدخل العلم المستشفى بأساليب من مناهج للبحث واحدة . ومن نعم الله على العلم أنه لا يتصل بجنس أو دين أو عقيدة أو حزب أو لون . فهو أعمى لا يفرق بين الألوان ، وهو أبكم لا يعرف اللغات ، وهو أصم لا يستمع الدعايات . ومن أجل هذا كان مُرَحَّباً به فى كل بيت وكل أمة ، مأذوناً له عند البيض وعند السود ، مسموعاً له فى المسجد وفى الكنيسة ، مكرماً عند أزرق الذهب وأحمره .

ويبث العلم فى المدارس والجامعات ، فى أى خط من خطوط العرض ، وفى أى خط من خطوط الطول ، فينشئ النشء على المنطق الواحد ، ويعطيهم النظرة الواحدة إلى الأشياء ، نظرة الفطرة التى لا تتأثر بالظروف الطارئة ، ولا بالملابسات والأعراض . وإن كان العلم يدخل على الأمم بطرائقه العديدة فيوحد بالزرع الغذاء ، ويوحد بالصناعة الكساء ، ويوحد العمارة والبناء ، ويعطيها كلها أساليب المدنية هى من خلقه واحدة ، فهو يدخل على العقول فى المدارس والجامعات بما هو أخطر وآثر ، وأفعل من وجهة الوحدة العالمية ، وذلك بما يضفيه على تلك العقول من أساليب للفكر واحدة ، ومن منح تستمدها العقول واحدة بالتأمل فى نظم الكون وقوانين الحياة .

والعلم قد يعمل على الوحدة المنشودة من طريق أحق ، وأحب أن أسميه طريق الرخاء . فاختلاف الناس واختلاف الأمم أكثره على لقمة العيش . فلو أن الأمم تركت العلم يعمل ، وتركت العلماء أحراراً يدرسون ما هو أنفع وأجدى ، ومهدت لهم سبيل التطبيق لخرجوا العالم

بالكتابة من غذاء، وكساء، ومتعة ورخاء، فتزول بذلك أسباب العداء، وتزول أسباب البغضاء، وتجتمع الأمم على الغبطة والصفاء.

* * *

ومع كل هذا فلست أرى أن العلم بالغ مراده من توحيد الأمم وحده. لقد قلت إن العلم شيء على الحياد، لا يتصل بنعرة دينية، ولا نعرة جنسية، ولا نعرة مذهبية. ولكن العالم تمزقه اليوم هذه النعرات. والعلم لا حيلة له في هذه النعرات لأنها لا تدخل في اختصاصه. وإن تدخل فهو إنما يتدخل من طريق غير مباشر. فهو يتدخل بتثقيف العقول لتكون أقدر على الفهم وأقوى على استبانة الحق، وتعرف طريق الرشاد عند ما تبهم الطرق وتختلط الأمور. وفي العالم اليوم، على الرغم من مظاهر المدنية، جهل كثير، وفطنة قليلة، وضيق في الأفق الفكري لا ينتج إلا الأنانية. والأنانية إن أفادت ساعة، وكسبت ساعة فمآلها إلى الخسران. والأنانية تنتج الحروب. والعلم في الحروب يساق كالدابة الذلول، لأن من خصائصه أن لا يرد طالباً. وهو كما قلت أعمى، أبكم، أصم، يستوي عنده سيرٌ في ظلمة وسيرٌ في نور، وسيرٌ في ليل وسيرٌ في نهار، وهو إذا سيق لا يدري من يسوقه ولا يأبه لمن يسوقه ولا إلى أين يساق. والأنانية التي تسوق العلم إلى الحرب تبوء دائماً بالخيبة. فهي من أجل هذا أنانية جهالة، أنانية الرأي الفطير والنظر القصير. وقد بذل العلم مسخراً في هذه الحرب جهوداً لو أنها بذلت في السلم لذهبت بأسباب الحرب وذهبت بأسباب الخصام.

ولكن الناس كما قلت، والشعوب، حظها من الغباء كبير. وليس هذا بغباء عقول، فإنما هو غباء قلوب. وليس هو بضلال في المنطق ولكنه ضلال في العاطفة. وليس هو بنقص في الفهم ولكنه نقص في الأخلاق وفي فهم واجب الإنسان نحو أخيه الإنسان.

فالإنسان تقدم من ناحية واحدة هي ناحية العلم، ولكنه تأخر في نواحيه الأخرى لا سيما ناحية العدل والإحساس بالنصفة، ناحية الخلق الإنساني الكريم.

وقد أنطقت الحرب في شدائدها المعروفة زعماء الأمم بمقاصد من عالم جميل رخي كانت جديرة بمنطق الملائكة وأفواه القديسين. ثم ذهبت الشدائد فعاد الزعماء أشد ما يكونون بشراً، وأكثر ما يكونون على طيبات العيش كَلَباً. وما كانت أقاويل الحرب إلا ترهات أباطيل.

وجاءت القنبلة الذرية، وهي نتاج العلم الأخير، فقيل إنها ستوحد بين أمم الأرض، وقيل إن الأمم ستنصاع لصوت الحق تحت ظلها. وأنصتنا لصوت الحق فإذا هو صوت مشوب فيه الحق مزجاً ومذقاً. على أنه كيف تكون الوحدة على الخوف وعلى الإذعان؟

إن العلم يعمل لتوحيد العالم، ولكن لا نجاح لأعماله، ولا أثر لجهوده إلا إذا تفطن الناس عقولاً، وتطهروا قلوباً، وصفوا أرواحاً، ودون ذلك جهود الجبابرة والزمن الطويل المديد، ثم مشيئة الله من وراء ذلك.

أحمد زكي

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٥٠ — الثلاثاء ٥ من شوال سنة ١٣٦٤ — ١١ من سبتمبر سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

بداية السلام

في غير الحروب العالمية الحديثة كانت الفترة التي تعقب الحرب فترة هدوء واستجمام يخلد فيها الظافر إلى شيء من الراحة مما احتمله في القتال من متاعب، ويسترخي منتشياً بلذة الظفر، ويرجع فيها المقهور إلى نفسه يداوي ما حل بها من إعياء، ويضمد ما أصابها من جراح. وكانت أضرار الحرب مقصورة على ميادين الحرب والمحاربين فيها، أما ما عداها من البلاد فسليمة من الأذى. وغير المقاتلين من سكانها لا يمسهم سوء إلا ما تقتضيه حاجات الحرب من نقص في الأرزاق وتقييد للحرية، ولهذا كان من الميسور أن تعود الأمور لمجراها الطبيعي وتزول آثار الحرب في زمن قصير. وكانت الحرب محدودة الدائرة لا تمتد لغير المحاربين، فإذا خرجوا من الحرب سارعت البلاد غير المحاربة إلى الاتصال بهم ومعاونتهم على استئناف الحياة الطبيعية

أما هذه الحروب العالمية فتختلف في طبيعتها عما سبقها من الحروب، فهي حروب شاملة زلزلت أركان العالم جميعاً وقلقلت أوضاع الحياة كلها وعم الضرر فيها، فلم يسلم منه بر ولا بحر، ولا حضر ولا ريف، ولم ينج من أذاها مسالم أو مقاتل، ولم يقف أثرها عند الأمم المتحاربة بل امتد إلى كل أمة محايدة ومقاتلة، قريبة من ميادين القتال أو بعيدة. وأنهكت فيها قوى الغالب والمغلوب على السواء. فهي تنتهي اليوم ولكن لا تنتهي معها المتاعب، بل تخلف تركة ثقيلة من المشاكل لا تدع وقتاً لراحة ولا تحتمل تسويفاً ولا تأجيلاً، وتتطلب خططاً دقيقة كخطط الحرب ونشاطاً متصلاً سريعاً كنشاطها

وثمة جانب آخر يلازم هذه الحروب الحديثة ويقوى بعد انتهائها، هو قيام حركات فكرية انقلابية تتناول أسس الحياة ونظمها وقيم الأشياء فيها، وكثيراً ما يساعدها انهيار الدول والحكومات وتداعي الأنظمة القائمة في أكثر البلاد على التفكير في بناء العالم كله على أسس جديدة والترويج لفلسفة جديدة للحياة؛ فهذه التيارات الفكرية الثورية التي تظهر في أوان التقلقل والاضطراب تزيد الأمور تعقيداً بما يقوم بينها وبين المذاهب التقليدية وروح المحافظة من نزاع قد يصل لأبعد الحدود، وهي عامل من العوامل التي تؤخر الاستقرار والعودة إلى الأحوال الطبيعية.

يضاف إلى ما تقدم أن الحروب نفسها وما استعانت به من وسائل وما استحدثته من أساليب جديدة وما أفادته في تحقيق أغراضها من المبتكرات في المواد واستخدامها والقوى وتسخيرها، كل أولئك يضع بين يدي الناس مواد جديدة ومصادر للقوى مستحدثة وأساليب في معالجة الأمور لم يسبق إليها، فهي تهيئ لعالم جديد غير عالم ما قبل الحرب، وتتطلب نشاطاً في الانتفاع بتلك الوسائل وتعديل الحياة على مقتضاها.

فنحن نفرغ من الحرب لنواجه تبعات أشد منها تقتضينا أولا التخلص من آثارها المادية وتعمير ما خرب وإصلاح ما فسد، وتقتضينا ثانيا العمل على الوصول إلى حالة استقرار فكري واطمئنان إلى نظام اجتماعي سليم قوي الدعائم، وتقتضينا أخيراً الافادة مما أحدثته الحرب في ترقية الحياة ورفع مستواها، وهي غايات جسام تتطلب همماً عظيمة متضافرة متعاونة تعمل منذ الساعة عملا قويا متصلا شاملا. ولقد كان من نتائج هذه الحرب أن انحصرت القوة المالية في الدول الكبرى الظافرة، وأصبحت تملك من الوسائل ما تستطيع به أن تملي إرادتها على أمم الأرض جميعاً، وهو وضع لا يطمئن النفوس كثيراً لولا ما يصرح به أقطاب تلك الدول من نيات طيبة وروح إنسانية كريمة. ويبدو أن هذه الدول تريد أن تنظم العالم وتعالج مشاكله على الوجه الذي يسمح به تفاهمها جميعاً واتفاقها فيما بينها.

وهو مطلب طموح يلقي عليها من الأعباء ما ينوء به كاهلها على ما به من قوة وبأس. وسينتهي الأمر بها أخيراً قريباً أو بعيداً إلى ترك أمور كل دولة لأهلها.

ونحسب كل أمة قمينة بأن تفكر لنفسها وتضطلع بحمل أعبائها الخاصة وحل مشاكلها. ولو فعلت الأمم كلها ذلك بروح طيبة تنشد السلم وتسعى للتعاون مع سواها من الأمم لكان ذلك أعمل في تقريب أمد العودة للحياة الطبيعية. ولعل أكبر المشاكل الحاضرة تعقيداً بالنسبة للأمم جميعاً هي مشاكل النقد والتصدير والاستيراد. فالدول الكبيرة تفرض شيئاً من التحكم والتضييق على الأمم الصغيرة في هذه الناحية. وحجتها في ذلك أن من المواد ما لا يمكن إطلاق تداوله، وإلا حرمت منه أمم وظفرت منه أخرى بأكثر من نصيبها العادل.

ونعتقد أن الاستيراد والتصدير يجب أن يطلقا بغير قيد، وأن تعالج مشكلة النقد على وجه ما، وإلا انتهى الحال بالأمم إلى تقاطع وتباين وتحاجز وتباعد، وشعور بالوفرة الكاسدة في بعض الأمم والحرمان الشديد في أمم أخرى، وهي حالات نفسية شديدة الخطر تجر وراءها الثورات والحروب.

ونعتقد أن إعادة الإنتاج إلى ما يكفي حاجات الأمم وتنشيط التجارة الحرة بين الدول جميعاً وتيسير التعامل وتبادل النقد هي أهم الأمور الأساسية الكفيلة بتحسين العلاقات بين الدول.

ومع أن الأمور المعنوية المتصلة بالكيان السياسي والحقوق القومية من الأهمية بمكان، إلا أننا نرى أن حل المشاكل الاقتصادية أولى بالعناية العاجلة؛ فلا حرية لجائع ولا استقلال لأمة فقيرة مكبلة بقيود اقتصادية تحول دون نشاطها ونهضتها.

***

أنا هَهُناك كما هنا

أنا ها هناك كما هنا   عبد السآمة والملال !
أمسى إلى شط الغرو   ب ولست أدرى ما المآل !
بيدىّ للبلوى ممـا   زقٌ قد بكت فيها الليالى !
وعلى جبينى أحرفٌ   صفراء يكتبها الزوال !!
تبدو لعينى زائل   مثلى يسير على الرمال
وعلى لسانى غنوة   نكراء من لغة الضلال
أنا ذلك الهادى إلى الـ   وادى وروحى فى الجبال
لا أعرف الدنيا سوى   شبح تسربل بالمحال !
ليل وصبح يلعبان   ولا جواب ولا سؤال
وعوالم قامت بما   طلها تزاويق الخيال
أنا هاهنا أحيى بعمـ   ـر كأنى بيت التلال
التربة الحمقاء. تكـ   ـربنى وتأكل ما أمال
والوحشة الخرساء. لمـ   تبقى سلافات الوصال !
يا ضلة الدنيا أما   لك غير رأسى من مجال
ذهب الرفاق بكل مُسعدة ورحت على وبال !
ذهبوا بعيدا فى الحيا   ة ورحت وحدى فى شمال !
ماذا تريد بى الحيا   ة وعهدها عندى مذال
تلك الشكول عرفتها   للدهر حالاً بعد حال
أنا هاهنا وحدى وإن   جثمت على صدرى الليالى
أشدو مع الأطيار والـ   أطيار ترقص كالقبال
فى منزل ناء. تهد   د تحت أقدام الجبال
آه لنفس حرة   خطبت عرائس لا تنال
ما كان أقرب راحتى   لو لا التعلق بالمحال

القاهرة   أحمد عبد الرحمن عيسى

حيرة قلب ...

من لقلب يسكب التحنان والوجد دموعا
حائر فى الحب كالشمس أفولا وطلوعا
بات فى سجن من الأشجان سمَّوه ضلوعا
يتنزّى فى قيافيه جراحا وصدوعا
كلما تأسره الأوهام تلقيه مطيعا
وبعينه ... فى زورق الحب وقد ضلّ ، صريعا
أترى يحمله الموج إلى الشط سريعا
أم ترى يقذفه فى غمرة اليم صريعا
يا له من عاطفة أشربَ الحب رضيعا
لم يكن يوما وإن طار به الحزن جزوعا
لفحات لا يرى فى حرها إلا ربيعا
وخراب لا يرى فى وخزها إلا دروعا
جَمّلت منه على ساح الهوى حصنا منيعا
صلوات الحب أفنته خشوعا وخضوعا
حسبه أن يبصر المحراب لم يخبُ سطوعا
ويرى النور يعم الأرض والدنيا جميعا

بدر أحمد

الخـــــوف

من ذا الذى لا يعرف الخوف ؟ هناك قوم يدعون أنهم لا يخافون ، ولست أدرى بم أصف دعواهم إذا أردت أن أتجنب السباب واتهام الناس بالكذب . وغاية ما أستطيع أن أقوله فى مجاملة هؤلاء المدعين أنهم مخدوعون عن حقيقة أنفسهم . فالخوف غريزة حيوانية قبل أن تكون غريزة إنسانية . وعلى ذلك فهى أعمق أصلا فى الحياة من كثير من الغرائز الإنسانية الأخرى .

يصف أهل العلم بطبائع الحيوان أن أشجع أنواعه تعرف الخوف . فالأسد يخاف من كثير من الأشياء ، وقال أحد الرحالة مرة إنه أخاف أسداً ضخما عندما فتح مظلته فجأة فى وجهه ، فقد ذعر ذعراً شديداً عند ذلك وأخذ يعدو ولم يقف حتى أحس أنه قد نجا بنفسه ، ولا شك فى أن الرحالة المسكين كان عند ذلك قد أحس قلبه يغوص إلى أسفل قدميه من الرعب . فالأسد المعروف بشجاعته وشراسته وقوته لا ينجو من الخوف شأنه فى ذلك شأن كل أصناف الحيوان . والإنسان المسكين أحق بالعذر إذا هو عرف الخوف ، فان الحياة التى تحيط به ملأى بما يهدده ويخيفه .

وللخوف طبائع عجيبة ! فلو بحثت عن سلوك الإنسان لوجدت الخوف كامناً تحت كثير من مظاهره . ولا مبالغة إذا قلنا إن كل الفضائل وكل الآداب الاجتماعية وكل أنواع الحكمة وكل النظم الأخلاقية التى خلقها الإنسان كان مبعثها غريزة الخوف .

فالأصل فى الإنسان مثلا أن يكون مثل القط ومثل الفأر ومثل الأسد أو النمر فى طبع المحافظة على الحياة بالأكل ، فكل الحيوانات إذا وجدت أكلا ذهبت إليه وأصابت منه ما يذهب عنها الجوع ، سواء أكان ذلك الأكل نباتاً أم حيواناً . فالأسد الذى يفترس زنجية حسناء لا يقصد أن يرتكب جريمة القسوة ، بل يقصد أن يملأ تجويف معدته التى تصيح طالبة منه الأكل . وأما الإنسان فقد يكون جائعاً ويمر بمطعم تفوح منه الروائح المختلفة بين رائحة شواء ورائحة مقلى ، ولكنه إذا لم يجد النقود الكافية فى جيبه يمر على ذلك المطعم مر الكرام ويكتفى بأن يملأ رئتيه من الروائح اللذيذة المتصاعدة منه ، ولا يتجرأ على أن يقتحم بابه بالقوة لكى يصيب من طعامه ما يسكت نداء معدته . ومن السهل أن نعلم بأن الذى يمنع هذا الإنسان الجائع من اقتحام باب المطعم وأخذ ما يشبعه من الطعام إنما هو شىء واحد ، شعور الخوف . فهو يخاف من أن يمسك صاحب المطعم بتلابيبه ويسوقه إلى قسم البوليس . وإذا كان رجلا ممن يحترمون أنفسهم فانه يخاف كذلك من أن يتعرض لسخرية الناس منه وتسميته لصاً أو متوحشاً ، وقد يخاف من أن يراه أحد أقرانه فيشنع عليه بأنه فقير لا يملك من النقود ما يكفى لكى يدخل إلى المطعم دخول الرجل المحترم الذى يدفع ثمن طعامه ويدفع فوق ذلك حسنة للخادم ويخرج شبعان مرفوع الرأس فائزاً بتحية الإكبار من الخادم .

وقد يكون السلوك الذى نسميه سلوكاً حسناً فى أغلب الأحوال نتيجة للخوف من سوء رأى الناس ، فكثير ممن يمتنعون عن الرذائل إنما يمتنعون عنها لخوفهم من سوء القالة فيهم .

وإذا نحن أنعمنا النظر فى الحياة الإنسانية كلها وجدنا أن الخوف أساس هذا الترابط الاجتماعى الذى عاد بالخير العميم على الإنسان منذ أقدم العصور ؛ فالنظام الذى يسود المجتمعات ما هو إلا نتيجة لخوف الأفراد من سطوة الدولة ، واليوم الذى لا يحس فيه الأفراد خوفا من سطوة أحد هو اليوم الذى تنقلب فيه المجتمعات إلى غابات استوائية يكون فيها القانون هو قانون القوة ؛ وعند ذلك ينفلت الخوف الكامن ويصبح خوفا مكشوفا فتمتلىء قلوب الأفراد جميعاً

به صباحا ومساء، وكل فرد يحاول أن يحمي نفسه من جاره بقدر استطاعته ، إما بالقوة أو بالمكر والحيلة أو باتحاد الضعفاء ضد القوي . وقصارى القول أن الخوف من سطوة السلطان هو الذي يمسك المجتمعات ويحفظها من قانون الغابات وانقلاب الخوف طليقاً في كل الأفراد .

وقد يصل الخوف بالناس إلى حد أن يخدعوا أنفسهم عنه ويطلقوا عليه أسماء أخرى بعيدة كل البعد عنه . فكثيراً ما يدعي الناس أنهم يحبون رجلا عظيما ، وكثيراً ما يكونون في دعواهم مخدوعين إلى حد أنهم يعتقدون أنهم صادقون وأنهم بعيدون عن الملق والرياء . ولكن ذلك الرجل العظيم إذا تجرد فجأة من قوته لسبب من الأسباب ظهرت الحقيقة كذلك فجأة ، فإذا بأكثر من يحبونه يذوبون من حوله كما يذوب الملح في الماء القراح .

والتاريخ لا يذكر أكثر من الحالات التي كان الناس يزعمون أنهم يحسون أعمق الحب للطغاة الذين ملأوا الأرض فزعاً وخوفا . ولكن الحوادث كانت دائما تتكشف عن أن ذلك الحب المزعوم إنما هو خوف متنكر وأن الناس لم يكونوا يحسون حباً لطاغية، ولكنهم كانوا يخشون سوطه الذي يعرفون أنه يستطيع أن يلهب به ظهورهم في كل وقت

ولست أريد في هذا الحديث أن أتكلم عن الخوف من حيث أنه غريزة كما يبدو من ظاهر الحال ؛ فإني أقصد من وراء هذا الحديث قصداً آخر ، وهو أن أبين أن مستقبل الإنسانية منوط بغريزة الخوف أكثر مما هو منوط بغريزة الحب . فإن الدول بعد اختراع القنبلة الذرية أصبحت في داخل ضميرها ترتجف فزعاً من الدولة أو الدول التي عندها سر تلك القنبلة ، ولا شك في أن الدول معذورة كل العذر في ارتجافها فزعا ، ولا عار على أحد في أن يخاف من أن تسقط على مدينة من مدن وطنه قنبلة صغيرة فتحيل المدينة كلها جحيما والعياذ بالله . فالقنبلة الواحدة تقضي على ستين ألفا دفعة واحدة وتدفع من ورائهم مائة وخمسين ألفا آخرين في سبيل الفناء ، وهي من بعد كل ذلك تهدد أجيال البشر لمدة عشرات الأعوام وتشردهم من الإقامة في ذلك المكان الموبوء بآثار الذرة الحطامة . نعوذ بالله ! نعوذ بالله !

ومجمل القول أن البشر أكبر الظن إذا هم خافوا وإذا هم ساروا مع الخوف إلى أبعد الغايات . وسيتنكر الخوف في القلوب حتى يصبح وقد ظهر في مظهر الإعجاب والحب والاحترام ، وستصبح الدولة أو الدول صاحبة القنبلة الذرية في نظر الدول الأخرى هي أكرم الدول وأحسن الدول وأطيب الدول وأعدل الدول وأرحم الدول وأحكم الدول إلى آخر ما في صفات الخير من صيغ التفضيل . وسيتقرب البشر إليها ويقدمون إليها القرابين من خيرات الأرض ومن عبارات المدح .

ولو كنت أنا رئيس دولة لما استطعت أن أنطق بحرف واحد إذا لم يكن مدحا لتلك الدولة العظيمة خوفاً من أن يصيبني شر من هذه القنابل الجبارة ، ولكني فرد واحد ولا يمكن أن تصيبني القنبلة الجبارة لأنها لا تقدر على إصابة هدف . فأنا لذلك قادر على أن أنطق بما أشاء ، وأبشر الأفراد جميعا بأنهم لن يشعروا بالخوف من أذى الدولة صاحبة الذرة ، وسوف يبقى الأفراد أحراراً بنجوة من خوف القنبلة الذرية ، ولن يحس الخوف منها إلا الدول في مجموعها ممثلة في شخص حكامها . وسيكون الخوف مقصورا على الدول التي تريد النزاع وتتطلع إلى نزع سيادة العالم .

ولهذا فلن يكون على مصر بأس من الخوف لأنها بحمد الله لا تنازع الدول الأخرى سيادة العالم ولا تطمع في أكثر من أن تعيش حرة في حدود بلادها التي وهبها الله لها منذ ألوف السنين . ولن يكون على أحد من المصريين بأس من الخوف كذلك لأنهم لا يطمعون في شيء أكثر من أن يتمكنوا من الإنتاج والسعي المجدي في الحياة ومشاركة الإنسانية السليمة في جهودها نحو المثل العليا الإنسانية .

وقصارى القول أن الخوف سيكون وقفا على الدول الطامحة إلى السيادة، فهي إذا أرادت أن تهب إلى ترع المجد الزائف هبت لها الدول صاحبة القنابل الذرية فأرجعتها إلى الصواب. وإذا هي تمكنت من اختراع ما يشبه القنابل الذرية وصرفت ذكاءها في إعداد عدة الموت، كانت النتيجة صراعا هائلا يقف الضعفاء فيه على الحياد ليروا كيف يقضي بعض الأقوياء على بعض قضاءً مبرما، وسيكون الضعفاء عند ذلك مثل الرجل الذي وقف ينظر إلى الأسدين المفلتين وهما يتقاتلان وينهش كل منهما جسم الآخر، ويأكل الواحد منهما أعضاء منافسه حتى لم يبق أخيرا منهما إلا ذيلان بعد أن أكل الأسدان جسميهما كليهما.

فالخوف الذي يتوقعه العالم بعد اليوم لن يكون خوفا مزعجا لأفراد الناس ولا للضعفاء من الدول، وسيكون مقصورا على الدول الكبرى التي تعودت أن تخيف العالم كله. ولعله يكون دواءً ناجعا لشيطنتها حتى يأمن المستقبل من طغيانها.

ولست أستبعد شيئا من هذا فهو استنتاج من تفكير بسيط طبيعي. وإذا شئت أن أضرب الأمثال التي توضحه سهل علي أن أضرب مثلا ساذجا: عمدة قرية قوي من النوع الذي كان في وقت من الأوقات (فتوة) من فتوات الليل. فهذا العمدة يستطيع بنبوته أن يرهب أشقياء القرية حتى يجعلهم يطمئنون في عقر دارهم فيأمن الناس الوادعون شرهم ويعم الأمن قريته من أثر الخوف الذي أدخله على قلوب هؤلاء الأشقياء.

وإني أسوق هذا القول إلى بني مصر وإلى الضعفاء من أمم الشرق لكي أطمئنهم على المستقبل، فإن الحق أقوى من كل قوي، ونحن ننشده جميعا لأنه كفيل بأن يجعلنا في مأمن من الخوف الجارف الذي سيرفرف بجناحيه على العالم بعد قليل. ولن تكون قوة القنبلة الذرية وأمثالها من وسائل الهلاك كافية لإرهابنا معاشر الشرقيين، لأننا لسنا هدفا لها. ونحن لا نطلب سوى أن نحيا الحياة الإنسانية السليمة في ظل الحرية التي هي الحق الأول للإنسان. فإذا كانت القنبلة الذرية توجه إلينا لكي تسلبنا تلك الحرية فرحبا بالموت الذي تسوقه إلينا. فإن بطن الأرض خير لنا من ظهرها إذا كانت الحرية الإنسانية في خطر من الزوال إلى الأبد.

محمد فريد أبو حديد

حقائق عن البرامكة

سيدى صاحب مجلة الثقافة :

قرأت فى العدد (٣٣٢) من مجلتكم المحترمة مقالا للدكتور يحيى الخشاب تحت عنوان (سياست نامة — نظام الملك والبرامكة) ، وقد ساقنى جمال أسلوب الكاتب المحترم إلى قراءة المقال أكثر من مرة ، وقد لاحت لى أثناء القراءة بعض الهفوات أعتقد أنها وقعت سهواً من حضرته ، وها أنا أسجلها على صفحات الثقافة خدمة للحقيقة والتاريخ ، وقد رأيت أن أناقش بعض النقاط البارزة فقط .

١ — جاء فى صدد المقارنة بين يحيى البرمكى ونظام الملك ما نصه (وكما نجح يحيى بن خالد البرمكى فى صرف الهادى عن تولية ابنه جعفر بدل أخيه هارون ، كذلك نجح نظام الملك . . . . .) وقد راجعت ما وقع تحت يدى من المصادر الموثوق بها حول هذه النقطة فوجدتها مجمعة تقريباً على أن يحيى لم ينجح قط فى إقناع الهادى وردعه عن فكرة تولية ابنه جعفر بدل أخيه هارون ، وبقى الهادى مصراً على فكرته حتى وفاته الفجائية التى ظن أن للخيزران وليحيى البرمكى أثراً فيها ، ويحيى نفسه كان سجيناً فى الليلة التى توفى فيها الهادى نتيجة لمشايعته لهارون ، فذكر الجهشيارى أن يحيى كان بالحبس ويخشى القتل فى تلك الليلة وأنه قال : (فإذا أنا بخادم يقول لى السيدة تدعوك ، فقالت لى إن هذا الرجل قد مات[1] ، وأما الطبرى فيقول : (ولما لم ير الهادى يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون عما بذل له من إكرام . . . . . . بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه . . . . فلم تزل تلك الحال من الخوف

(١) الجهشيارى « الوزراء والكتاب » (مصر مطبعة البابى الحلبى وأولاده — الطبعة الأولى ١٩٣٨) صفحة ١٧٤ .

والخطر[1] ثم إنه يوضح القصية أكثر بقوله : إن جماعة من القواد تآمروا على حمل الهادى على قتل يحيى ليلة وفاته ، ولكنهم عدلوا عن رأيهم ، وبعد ذلك جاء الخبر ليحيى وهو فى السجن بموت الهادى ، فيقول الطبرى : (ثم بعثت الخيزران إلى يحيى تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره بالاستعداد لما يفيق)[2] . فمن هذا يظهر أن يحيى البرمكى لم ينجح قط فى حمل الهادى على تغيير فكرته فيما يخص عزل الرشيد .

٢ — يرى الأستاذ أن جعفراً جد البرامكة استقدم من بلخ بناء على طلب الخليفة سليمان ويرى فى موضع آخر أنه قدم على عبد الملك — والتسمية خطأ فى كلتا الحالتين ، لأن الذى قدم هو برمك لا جعفر[3] والطبرى نفسه يؤيد ما ذهبنا إليه ، فيقول : إن برمك والد خالد قدم للشام فى ٨٦ هجرية لمداواة مسلمة بن عبد الملك[4] .

٣ — ذكر الأستاذ بشأن قوامة البرامكة على النوبهار ما نصه (وهم يتوارثون — منذ الفتح العربى لبلادهم — القوامة على بيت النوبهار) والمعلوم أن البرامكة كانوا سدنة لبيت النوبهار منذ عهد قديم يسبق الفتح العربى ، فأورد ياقوت الحموى فى معجم البلدان (كانت البرامكة أهل شرف ببلخ قبل ملوك الطوائف)[5] كما أن القزوينى وغيره يروون أن البرامكة كانوا سدنة للنوبهار منذ عهد يسبق الفتح العربى بكثير ، فأورد القزوينى (وملوك الهند والصين يأتون إليه — النوبهار — فإذا وافوا سجدوا للصنم وقبلوا يد برمك ، وكذلك الفرس والترك تحج إليه)[6] .

(١) الطبرى « تاريخ الأمم والملوك » . القاهرة مطبعة الاستقامة ١٩٣٦ . ج ٦ ص ٤٢٦ . (٢) الطبرى نفس المصدر ج ٦ ص ٤٢٧ . (٣) بارتولد (البرامكة) الموسوعة الاسلامية الترجمة العربية ج ٣ ص ٤٦٣ . (٤) الطبرى (نفس المصدر) ج ٥ ص ٢١٦ . (٥) الحموى — ياقوت — (معجم البلدان) مصر مطبعة السعادة (الطبعة الأولى ١٩٠٦) ج ٨ ص ٣٢١ (٦) القزوينى (آثار البلاد وأخبار العباد) — طبعة كوتنجن ١٨٤٨ م ص ٢٢٣ وبارتولد : — تركستان — الطبعة الانجليزية أكسفورد مطبعة الجامعة ١٩٢٨

٤ — ذكر الدكتور خرافة الخاتم الذى يحمل السم الذى اكتشفه الخليفة بصدفة تتحرك على ذراعه كلما دخل عليه شخص معه سم ، وقد جاءت هذه الخرافة بأسلوب جناب يوهم القارئ، أنه فى جزائر (واق الواق) حيث يحكم العالم المردة والشياطين ، ونحن نستغرب قبول الدكتور هذه الخرافة دون تعليق مع أنها خطأ من الناحية العلمية على الأقل ! ومما يزيد استغرابنا هو أن القصة بالرغم من أنها خرافية كان باستطاعة الدكتور نقضها — لو أراد — من نقدها الداخلى ؛ فجاء فى إحدى حواشى مقاله (ثم اتصل — جعفر — بسليمان فغضب عليه لأنه يحمل صدفة على ذراعه تتحرك إذا دخل أحد عليه ومعه سم ، فتحركت حين دخل جعفر ، فلما سأله عن السم الذى معه قال إنى أحمل قدراً من السم فى فص خاتمى . . . .) وفى مكان آخر من المقال تذكر القصة كلام الخليفة مع جعفر نفسه حول معرفة الخليفة للسم الذى مع جعفر (فقال الخليفة إن معى سواراً هو أثمن الكنوز جميعاً . . . . وهو عشر صدفات . . . . فإذا دخل فى غرفتى طعام أو شراب مسموم أو دخل من يحمل سماً اضطربت الصدفات وفقدت هدوءها ، وبفضل هذا السوار عرفت أنك تحمل السم . . .) فلا شك أنك لاحظت فى الشطر الأول من الكلام أن الخليفة اكتشف السم بوساطة الخرزة التى فى كتفه — وفى الشطر الثانى بوساطة السوار . وبالرغم من أن كلا القسمين خرافى وخطأ من الوجهة العلمية يظهر التناقض بينهما .

٥ — جاء فى الحاشية . . (وقد تدرج البرامكة فى خدمة الأمويين والعباسيين وبلغوا أعلى الدرجات) والخطأ فى هذه النقطة هو أن المصادر المشهورة والموجودة لدينا لم تذكر لنا أن البرامكة خدموا الأمويين كموظفين هامين أو وزراء فى الدولة ؛ وجل ما هناك أن أحدهم قدم كطبيب بسيط إلى بلاط عبد الملك بن مروان . وإذا كانت هناك مصادر غابت عنا تبيّن خدمة البرامكة للأمويين نرجو من حضرة الكاتب أن ينبهنا إليها وله جزيل الشكر .

والثابت هو أن البرامكة لم يكن لهم شأن يذكر فى الدولة الإسلامية إلا فى العهد العباسى ، وخاصة عندما اتصل خالد البرمكى بالسفاح ومحمد بن على وإبراهيم الإمام قبله[1] وظهر دور خالد العملى لأول مرة حينما أرسله أبو مسلم الخراسانى مع قحطبة لفتح طوس بعد هرب نصر ابن سيار من مرو[2] . فمن هذا يظهر أن البرامكة لم يكن لهم شأن فى العهد الأموى .

وبهذا أنهى ملاحظاتى عن مقال الدكتور راجياً أن أكون قد وفقت لإماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية ، كما أنى أرجو من حضرته أن لا يبخل علينا بآرائه وتعليقاته فى هذا الموضوع فى المستقبل وله ولمجلة الثقافة الغراء جميل شكرى .

م . أبو صبير

١ — ابن عساكر « التاريخ الكبير » (مطبعة روضة الشام) ج ٥ ص ٢٨ واليافعى (مرآة الجنان) — حيدر آباد — دكن — المطبعة النظامية — ١٣٣٧ هجرية ج ١ (٢) الطبرى « نفس المصدر » (مصر المطبعة الحسينية) ج ٦ ص ١٠٤

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكردامى
تليفون — ٠٦٧٦٩
القاهرة

أمور الأمم المغلوبة
وكيف تعالج

وقفت الحرب فى جميع الميادين ، ووقف العالم فى مستهل عهده الجديد يواجه المشكلات التى خلفتها هذه الحرب ، وأضحى مستقبله أمانة فى عنق أولئك الذين بيدهم زمام الأمر . وإذا كانت الأمم قد دفعت ملايين الأرواح والأموال ثمناً لكسب الحرب ، فلا أقل من أن تكون على استعداد لدفع مايتطلبه السلم — وهو خير وأبقى — من بعض التضحية والنزول على إرادة سياسة حكيمة عادلة تصان بها حقوق الدول وتنعم فى ظلها فى بحبوحة من الأمن والسلام .

وأمور الأمم المغلوبة فى أيدى الدول الغالبة ، فإن أخذتها بالحكمة والروية فقد نجحت فى مهمتها ، وإن أساءت التقدير وجرت وراء المطامع فقد تجعل من عهد السلام الذى طلع علينا الجزء القريب هدنة بين حربين ، ونحن مهما أضفينا على الحرب الماضية من صفات الوحشية والبربرية فلا يمكن أن تقاس بما ستتصف به الحرب القادمة — بعد أن وصل العلم إلى إحدى معجزاته ، وهى تسخير الطاقة الذرية فى خدمة بنى الإنسان — إنها بلا منازع ستكون حرب دمار وفناء .

ليس شىء أدعى إلى التورط فى الخطأ حين التصدى لمعالجة شئون الأمم المغلوبة من عدم فهمها على حقيقتها وعدم تقدير ما هى فى مسيس الحاجة إليه . والرجال العسكريون أقصر الرجال نظراً وأقلهم خبرة فى هذه الناحية ، فهم أكفاء فى تدبير أمور القتال دون غيرها ، لذا وجب أن تنتهى مهمتهم عند كسب الحرب ويترك أمر السلم لمن هم أقدر منهم على معالجة شؤونه ، لرجال درسوا أمور السلم وعرفوا أن مبادئه الصحيحة هى ما يمكن أن يقبلها ويرتضيها كل محب لخير الإنسانية فى أية بقعة من بقاع الأرض .

ينادى البعض : « ألق بعدوك إلى الأرض ودسه ولا تمنحه فرصة القيام ومعاودة الكرة » ، وينادون كذلك أن أدر على خصمك الكأس التى طالما أدارها على خصمه . وينادون كذلك : « أنزل بعدوك العقاب جزاءً وفاقاً لما اقترفه من الآثام ، وليكن عقاباً صارماً حتى يكون عبرة لغيره » .

جميع هذه الأقوال والأحكام جائرة . صحيح أن هناك مسؤولين من إثارة الحرب وهم مجرمو الحرب ، وهؤلاء فقط هم الذين يصح عقابهم عندما تقوم الأدلة على إدانتهم . أما بقية الطبقات فلن يأتى إنزال العقاب بهم والانتقام منهم بشىء سوى إثارة حفيظتهم وبث روح التذمر والتمرد والميل إلى الثأر مما قد يدفعهم إلى الثورة والانفجار . وكفى بالجيل الحاضر ما نزل به من بلاء ، ومايقاسيه من ويلات الجوع والمرض والتشرد وما يرزح تحته من آلام نفسية نتيجة لهزيمته واندحار وطنه ، وما موجات الانتحار التى تجتاح البلاد المغلوبة إلا دليل على مقدار تدهور الروح المعنوية فيها .

أما الجيل الناشىء فبأى جرم يمكن أن يؤخذ ، وهو لا يعرف من أمر الحرب شيئاً ، ولم يساهم فيها بشىء ، وكيف يعاقب على جرم اقترفه غيره ؟

ويمكن القول إجمالا إن معاملة المغلوبين على هذا النحو سيسىء إلى قضية السلام وسيؤدى إلى انقسام شعوب العالم إلى غالب ومغلوب ، وحاكم ومحكوم ، وسيد ومسود ، وسجين وحارس ، وهذا التباين والخلاف يوسع الهوة بينهما ، ويجعل أمر السلام مستحيلا ؛ إذ لا يمكن أن نطمع فى سلام مادامت مثل هذه الروح تسود شعوب العالم . ويؤثر عن الرئيس روزفلت فى هذا الصدد ما جاء فى إحدى خطاباته إلى الشعب الأمريكى : « إن الصراع الحالى قد علمنا أن حرية الفرد وضمان حقوقه فى أى بلد

من بلاد العالم مرتبطة ارتباطا وثيقا بحريته وضمان حقوقه فى أى بلد آخر . » فأسس السلام لا يمكن أن تستقر فى دولة ما . إذا كانت هناك دول أخرى لا تنعم بالسلام والاستقرار .

إن منطق الحرب ينادى أن اسلك لعدوك نفس الطريق الذى سلكه إليك ، وكن الأسبق . ومنطق السلم يقول : « عامل الغير بما تحب أن يعاملوك به . »

وعلى ذلك من أكبر الخطأ أن نصف الشعوب المغلوبة بأنها شعوب جبلت على الإجرام وحب الشر . فهذه الشعوب — كأى شعوب الأرض — تضم طبقات متباينة من الزراع والعمال والصناع وأصحاب المهن والموظفين ، وجلهم لا يملك سوى الطاعة والانقياد لأوامر حكامه ، وإن هذه الطبقات وإن كانت قد ارتضت واعتنقت بعض المذاهب الفلسفية المتطرفة فذلك لأنها كانت ترى فى هذه المذاهب وسيلة لتحقيق أهداف جديدة ملأ بها الحكام رؤوسهم من الأخذ بيد الإنسانية إلى عهد جديد رائده السلام والخير . ويمكن القول بأن النازية الألمانية قد نجحت فى تعليم الشعب حب الإقدام والمخاطرة لأنها كانت تمنيه بحياة أكثر أمنا واستقرارا من الحياة التى كان يحياها قبل قيامها .

وإننا إذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أن الشعبين الانجليزى والفرنسى كانا من أميل الشعوب للقتال . ودليل ذلك تلك الحروب التى ظلت مشتعلة بينهما عهودا طوالا ، ومع ذلك فقد لا يمكن الحكم عليهما الآن بأنهما من الشعوب الميالة للحرب . وإن أشد الانجليز نقمة على النزعة الحربية الألمانية التى أثارت هذه الحرب مقتنعون بأنه من الممكن محو هذه النزعة وتقبل نزعات سلمية جديدة . ويذهب B. vansitart فى كتابه « السجل الأسود — ماضى الألمان وحاضرهم » إلى أنه من الأمور الميسورة تبديل الروح الألمانية ، وأنه إذا كانت بعض الدول قد نجحت فى هذه التجربة ، فلماذا لا تنجح ألمانيا واليابان وغيرها من الدول المغلوبة ؟ » .

وهنا نعود فنؤكد أن الغرض الرئيسى من اتفاقيات السلام هو تمهيد السبيل . لجميع الشعوب — حلفاء كانوا أم أعداء — لحياة تظلها الحرية والعدل والمساواة التى ينشدها الجميع والتى تعتبر أقوى أسس السلام . ونؤكد أيضا أن الأمم الغالبة يجب أن تعرف أن الانفعالات التى تلون أعمال الكثيرين بعد الحرب مباشرة إن هى إلا ظاهرة وقتية تزول بزوال مؤثراتها . وأنها لا يمكن اتباعها عند البت فى تقرير أمور العالم الجديد .

من المسلم به أن تبعة التدمير الذى حل بالعالم تقع على عاتق الدول التى كانت سببا فى إشعال نار الحرب . ومن الإنصاف أن تتحمل النفقات اللازمة للتعمير والإصلاح . ولكن يجب أن يلاحظ أن لا تكون هذه التعويضات باهظة إلى الحد الذى يثقل كاهل هذه الدول ويشل حركتها الاقتصادية ، فإن ذلك يشجع قيام العناصر الناهضة التى تعمل على نشر الاضطرابات وإقامة العراقيل أمام سبل الإصلاح

وقد تنبأ J. H. Keynes فى مؤلفه « النتائج الاقتصادية للسلم » بما سيؤول إليه أمر التعويضات التى فرضت على ألمانيا بعد الحرب الماضية . فالدول الغالبة لم تكسب شيئاً بل وخسرت الكثير .

وقد حاولت هذه الدول إصلاح ما جرته هذه السياسة الخاطئة فأجلت قواتها عن منطقة الرهر ، وعقدت معاهدة لوكارنو وخفضت قيمة التعويضات ، ولكن كل هذا لم يأت بالنتيجة المرجوة ، لأن الأسس التى قامت عليها سياسة التعويضات كانت خاطئة من مبدئها ، فوضت صرح كل المحاولات التى تمتها . وكانت نتائج هذه السياسة حدوث الأزمة الاقتصادية فى ألمانيا وقيام الحزب النازى واشتداد شوكته ، وأصبحت كل تسوية مآلها الفشل ، وجاء دور تشمبرلين وسياسة تهدئة الخواطر ، وأخيراً انتهى الأمر إلى الحرب . أما من ناحية المبادىء السياسية التى تطبق على

الى الشباب الفلسطينى الناهض أصبح أن هذا المرافع

خواطر من وحى الديمقراطية

فى صميم الشباب

(كان) :

وهو منتظر دخولها عليه .

منتظرا بين أصوات وغواش تطلقها على أذنيه وتبثها فى روعه طوائف من الخواطر وموجات من العواطف وشخوص من الأحلام . تبرد جميعا إلى ذاكرته حيث لا يدرى ، وكان يجول بخياله فى بيداء من الآمال يفتش فى عرصاتها عن أشياء يتمناها ولا يدرك بفكره حقيقتها ولا يبصره صورتها .

وإنما ترسم هذه الأشياء على مرآة تصوره فيودّ لو تظهر صورتها بينة وتنجلى هذه الأشياء كما تنجلى السماء الصافية فى اليوم الشموس . فيتبين له كيف يقطف ثمارها وكيف ينعم بلذة اليقين الذى لا يدانيه شك ولا يداخله أدق ريب فى سمو هذه الأشياء المبهمة ونفاسة معدنها ..

وليس حاله هذا الحال فحسب ، وإنما كانت تنهال عليه جيوش من الهواجس التى كان لها وثيق الاتصال بتربيته والتى لها تمام الامتزاج فى ثقافته وتجاريبه فى سبل الحياة ومعلومات العيش حلوه ومره .

وكان فوق ذلك له خيال يرتفع حتى طبقات السماء . يجوس خلالها متطلعا إلى أقباس من النور تظهر له مشرقة . ينظر إشراقها فى معين ذلك الأمل البعيد ، وكذلك يقينها من خلف قطع من الليل البهيم وطخية من ضلالات الزمن العنيد ...

وكذلك كان يغور بفكره فى بواطن أنظمة الحياة التى يريد أن يحياها مع تلك المخلوقة التى هو فى صدد انتظارها ...

ومع هذا كله كان يسائل نفسه قائلا : ترى ما الذى يجب على أن أطلبه أولا ، وأنشده أن يكون مع تلك المخلوقة التى أريد أن أجعلها ميناء تلجأ إليهـا سفنى الحائمة فى يم الحياة ولجتها .

ثم من هذه الخواطر ، تراه يطلق لفكره العنان لاجا فى هذه الآمال السابقة ..

ومن هذه الآمال الغر الزاهية ، كان يود لو يأتيه الوحى من بين يديه ومن خلفه ليعلم منه علم اليقين ، عما تكون عليه هذه المخلوقة من البدائع والروائع ..

الدول المغلوبة فهى أمر سيكون موضع تنافس عاجل بين الدول المنتصرة ؛ فأمريكا وبريطانيا تنتصران للديمقراطية ، وروسيا فى الجانب الآخر تؤيد المبادىء الشيوعية .

وقد ظهرت بوادر هـذا التنافس فى البلاد الأوربية المحررة وفى الصين ؛ وسيشهد العالم هذا التنافس على أشده فى المدة التى تعقب الحرب ، وستكشف لنا الأيام من تطوراته المقبلة ونتائجه .

ويرى الكاتب الأمريكى المعروف M C. Juer أنه من الخير لقضية السلام أن لا يفرض اللون السياسى على الأمم المغلوبة فرضا ، إذ فى هذا الفرض ما يدعو إلى انقسام العالم إلى مبادىء متعددة تدفع معتنقيها إلى حمايتها وتأييدها ، فتقوم فى العالم معسكرات مختلفة المشارب والاتجاهات قد تؤدى إلى قيام خلاف بينها .

ويعتقد أن أسلم علاج لهذه المشكلة هو أن يسن للعالم نظام يكفل حقوق الأفراد والشعوب ويطبق على جميع الدول ، ويمنحون فى ظله من الحرية ما يساعدهم على اختيار نوع الحـكم الذى يرتضونه ، وبهذا يسلم العالم من شر الانقسامات .

محمد شاهين الجرهمى

وكانت تتوارد عليه مجموعة من الأسئلة منها ما هو مشرق ومنها ما هو مغرب، ولا يبقى في يقينه منها إلا هل هي حسناء، حسَّانة، وسيمة؟ هل هي قسيمة غانية رائعة؟ وهل هي ممطال مكسال باهرة؟ إلى غير ذلك من مثل هذه الأسئلة الكثيرة في هذه الناحية الواسعة. وليت الأمر مقتصراً على هذه الأسئلة فحسب.

وإنما هنالك أسئلة تأتيه من ناحية أخرى غير هذه الناحية، وهذه الأسئلة تأتيه وبين يديها طوائف من المسائل ولا يثبت في رويه منها إلا أمهاتها، فيتنفس بها عن صدره قائلا: وهل هي ظريفة اللسان بديعة البيان كاملة تربية الحواس... وياليتها حية الضمير رقيقة الإحساس هياجة العاطفة.

ثم يرجع معللا نفسه: مالي ولهذا كله؟ إني لراكب شططاً... ثم يقول لخواطره مبكتها... وهل يوجد هذا كله عند فتاة حدثة السن؟

وهل عرفت أنثى بكامل هذه السمات أو تخلقت امرأة بكل هذه الخلائق النفيسات ...؟

وهنا يتنفس قائلا: مالي ولهذا؟ إنه لأجل وأسمى مما طويت عليه كشحا وجملته شططا ...

ولم تكد ترجع عنه هذه الوجدانيات من هذه الجهة، حتى تنهال عليه من جهة أخرى: طوائف من الخواطر الدمقراطية، تسوق بين يديها كثيرا من الذكريات والصور، فتدور جميعا طائرة بخياله ذاهبة بلبه إلى ما لا نهاية له ...

ومن هذه الخواطر يتسنَّى لهُ أنْ يرجع الكرة أخرى ... مستعرضا بجدها عوالم المستقبل الذي يتمناه والذي يأمل أن يتيه دلالا بين روضاته وأنهاره وبين أزهاره وأثماره. فينفذ من كل هذه الخواطر قائلا: نعم. نعم. إن هذا لشيء عظيم! ويليق بها أخرى أن تدرك المعاني التي يحيا بها الروح وتنعم بها النفس ويجب أن تدرك من حدسها جميع المؤثرات التي يغشيها الوهم والحق.

وما أجل هذه إن وجدت تدرك ما أدرك، وترى ما أرى من الخواطر المثلى والضمير الأمثل والخوالج التي تفهم كلاما بلا أصوات تتكلم، والأنغام التي يحيي بها القسم الميت من جسم الإنسان، والنوازع التي في إخفائها وكبتها نفع ولذة ويسر أكثر مما في ظهورها وانتشارها. نعم نعم نعم. ويجب أن آنس من جانبها هذا وأن أسألها عن كل سانحة وبارحة. ثم يقول: إن هذا لحلم عزيز. ولكني أرى وجوده مستحيلا ولا أظنه موجودا في الرجال العباقرة، فكيف أطلبه أن يكون موجودا عند صغار الفتيات؟ وأوجب أن يكون عند هذه المخلوقة متيسراً متوفراً؟ إن هذا لفي الحق ما لا يطاق. فكيف ألزم هذه الإنسانة وأحملها ما لا يطاق؟ إنه لأمر عظيم وإنه لواقع ما له من دافع ...

ومهما يكن فإن طلبه لا يعد مستحيلاً. فلا بد لي من طلبه، فإذا لم أدركه كله فلعلي أدرك جله.

ومن هنا قد لاح له أن يسكن قليلا من مور تلك الخواطر والعواطف لعله يلقى هذه الفتاة، منشرح الصدر صافي الضمير هادئ الروع قرير العين، فيتيسر لها في ذاته الأنس والاطمئنان. ثم بعد برهة يردد ذلك المسكين أنغامه قائلا: نعم. نعم. إن هذا لهو الحق المبين. فيتهيأ ساكنا ...

ولم يكد المسكين يحس أو يشعر بشيء من السكون، حتى استفزته خواطر أخرى كانت كامنة في أصل فطرته. فتتشكل هذه الخواطر أشخاصا تقول له ...

تذكرت ما تذكرت. وقد نسيت أن هنالك ما هو أولى بالتذكر وأجدر بالذكرى ...

فتهتز لهذا النبأ المبهم العظيم كل ساكنة من جوارحه، وتتكلم كل ملكة في نفسه قائلة مستفهمة: أي شيء هو هذا؟ (فيوحى إليه ألا إنه الحب) فيضج كل ساكن منه مرددا تلك النغمة السابقة: نعم. نعم. ألا إنه الحب.

ومن هنا يدخل المسكين طوراً جديداً . فيندفع مرغما آخذاً فى صنوف من الأحلام ومجموعات من الصور . وهواجس شتى كلها مغايرة تمام المغايرة لتلك الهواجس التى كان آخذاً فى تصورها وتكوينها سابقا .

فترد كلها عليه أسئلة مجسمة مكبرة مزفوفة فى عوالم من التصور مبلورة لا يوجد فيها إلا أطياف الحب وشخوصه وصوره ، ولا يفهم من تلك الأسئلة المزفوفة شىء يغاير مبادئ الحب وشرائعه وأصوله وفصوله .

فتتجلى هذه الأسئلة جميعا عليه وتتراءى فى مرآة يقينه حافة بها غرائزه ، وعواطفه ، وتحيط بها أحاسيسه وشعوره ، فيحس من أريجها فيضا يغمر نفسه وروحه وبرداً يراه ساريا بين جلده ولحمه واصلا إلى قلبه ونفسه . فينجذب مفتونا بلذاتها مأخوذا بسحرها .

فإذا يتنفس المسكين قائلا : أما والحب إنه لا شىء فى هذه الحياة الدنيا إلا وهو مفتقر إلى الحب ... الحب ! وأى شىء أعرف فضله أو أفهم إعجازه ، أو يحلو لدى طعمه أو يعزو على قدره ونفاسة معدنه إلا الحب ؟ الحب هو الفيصل القائم بين الرضى والراحة والشعور بالجمال والكرامة والسعادة بالحياة الدنيوية والأخروية وبين السخط والقبح والشقاء والشناعة والشعور بكل ذلك فى الحياة وبعد الممات .

الحب ! ولولا أن منّ الله على هذه الحياة الدنيا بالحب لكانت هى جهنم بذاتها . وإنى لا أظن جهنم إلا اسما لدنيا رفع الله من بين عرصاتها الحب .

ثم يسترسل فى هذه الخواطر قائلا : يا ليت هذه المخلوقة إذاً تعرف الحب وتتذوق مرارة الحب وحلاوته ، ويا ليت قلبها تتأود فيه أغصان الحب وتنبت فى غياضه بذور الحب نامية رابية تؤتى أكلها مرتين . لأن القلب الإنسانى الأصيل معدن والمقطوعة من طينة الخلق الإنسانية لا بد وأن تكون خير مزرعة للحب . ذلك لأن القلوب خلقت من طينة الحب ثم بعد ذلك تكونت قلوبا إنسانية متدرجة إلى الكمال الأصيل ... ولا غرابة فى ذلك ، لأن الحب هو الكمال الأصيل وإنى لا أظن قلبا كاملا إنسانيا خلق من غير طينة الحب إلا إذا كان ذلك القلب قلب مخلوق من غير مخلوقات الله . وهيهات هيهات أن يعرف قلب من غير مخلوقات الله . وكذلك هيهات أن تعرف مخلوقات أن جميع القلوب تعرف الحب . حتى قلوب الجمادات إذا ثبت أنه يوجد هنالك جمادات .

ولكن هذا الحب يعرف أسمى وأكمل عند الخيرة البررة الخالدين من بنى الإنسان ...

فما زالت به هذه الأفكار الحزينة الضاحكة المخمورة بخمار الحب وسكرة الجمال . حتى أيقن المسكين أن الحب يجب أن يكون أول شىء ينشده عند هذه التى يريد ، حتى ولو لم يوجد عندها غيره شىء لكان كافيا . وعند هذه الحالة الشعورية يتراءى له أن ضميره يعاتبه عتابا لطيفا ، وما زالت تكمل صورة هذا العتاب إلا بلسان من الغيب يتصدى لها قائلا معاذ الله .

وهل يوجد الحب الأصيل فى قلب أحد من المخلوقات كما هو شريفاً كاملا نقيا إلا ويكون رفيقه كل شىء من الكمال النقى الأصيل .

ذلك لأن الحب الأصيل كان رفيقا فى معدن الأصل إلى الكمال الأصيل . وإنه لعدو فى سنة الكون على النقص مناوئ له . فكيف يكون فساد سنة كونية قائمة من الأبد إلى الأزل . فيتقارب الكمال والنقص على ما كان بينهما من الشذوذ والبعد ؟ إن هذا لبعيد وإنه لمن المستحيل !

وهنا يتنفس المسكين قائلا : آه آه ! يا ليت هذه المخلوقة إذاً تفهم الحب على هذا النحو ! وهنا أيضا يرد نفسه قائلا : وكيف يمكننى أن أعرف كل هذا وأنا أرانى وحيدا هنهنا ؟

إندونسيا

(٢)

تكلمت فى العدد ٣٤٠ من مجلتنا هذه عن تسمية مجموعة تلك الجزائر الغنية بهذا الاسم كما تكلمت عن جغرافيتها . والآن أحدث القارىء الفاضل عن المواصلات فى إندونسيا ثم عن مساحتها وسكانها .

المواصلات :

١ — المواصلات المائية :

لاشك فى أن المواصلات من أهم مقومات الزراعة والصناعة والتجارة ، وهى فى نفس الوقت مظهر من مظاهر مدنية البلاد كما أنها عامل هام من عوامل حضارتها وتقدمها فى شتى النواحى . إذا أمعنا النظر فى خرائط العالم نجد أن سطوح القارات ومساحات الجزائر منحدرة فى الغالب نحو الغرب ومنبسطة نحو الشرق ، وهذه الظاهرة واضحة فى الأمريكتين . فأمريكا الشمالية تنحدر نحو الغرب من جبال روكى وكذلك تنحدر أمريكا الجنوبية نحو الغرب من جبال أنديز ، وتمر فى الأجزاء الشرقية لكل منهما الأنهار الطويلة العريضة الصالحة للملاحة ، وكذلك الحال فى جزائر الهند الشرقية ، حيث نجد أن سطح سومطرة أو بورنيو مثلا منحدر نحو الغرب ومنبسط نحو الشرق ، لذلك يمر فى أجزائهما الشرقية الكثير من الأنهار الطويلة الصالحة للملاحة ، وأهم من ذلك أيضا أن البحار والمضايق التى تفصل الجزر بعضها عن بعض كلها صالحة للملاحة . فطرق المواصلات المائية متوافرة فى إندونسيا والطرق المائية أسهل المواصلات وأقلها كلفة ، وهذا يساعد على سهولة استغلال أراضى تلك الجزر ، لأن أى جزء فى الداخل يعتبر قريباً من الموانى الكثيرة التى تتصل بالأسواق الخارجية .

٢ — المواصلات البرية : ا — الطرق

كل جزيرة من تلك الجزائر تتخللها الطرق المعبدة والسكك الحديدية . وقال سمو الأمير محمد على فى كتاب عن رحلة سموه إلى جاوة فى ١٩٢٩ : « إن الطرق الجاوية على غاية من النظام وإن العناية بها جديرة بالإعجاب ، فهى فى جاوة متعددة يتصل بعضها ببعض وتجوبها السيارات دون عناء ولقد اكتملت لبعض الجزر الأخرى تلك الميزة الخاصة بجاوة »

هذه هى الحالة فى سنة ١٩٢٩ . وفى إمكان سيدى القارىء أن يتصور مدى تطور هذه الحالة خلال هذه الست عشرة سنة وبالأخص منذ نشوب الحرب فى الشرق الأقصى حتى اليوم .

وبعض هذه الطرق أنشأها الأهالى كما أنشأ البعض الآخر الشركات الزراعية والصناعية والاستخراجية الأجنبية ، وأنشأت الحكومة قسما آخر ، وهذه الطرق تنقسم إلى رئيسية وبعضها يمتد من شمال سومطرة إلى جنوبها والأخرى ممتدة من غرب جاوة إلى شرقها مارة بمدنها الكبرى وعواصمها الهامة ، وتوجد أيضا الطرق الرئيسية فى الأجزاء الساحلية من جزيرة بورنيو وكذلك فى الجزر الأخرى ، ثم طرق ثانوية وهى تربط القرى بعضها

وأحس أيضا أن هذه الطفولة تعانى أسر العادات لأنى أسمع أنينها وهى تقول ما أخزى العقائد العمياء ! وما أمر أسر العادات ! كيف يتسنى أن يتذوق حلاوة الحرية وهو يعانى مرارة الأسر فى سجون العادات ؟

فلا يتدرج فرد ولا تتدرج أمة إلى العمل إلا إذا خلصت من أسر العادات وقيادتها . مهلا فمهلا ! فلا يمكننا التعارف السامى ولا العيش الرغيد والمناعة الديمقراطية السامية إلا بعد الخروج من أسر العادات .

إلى اللقاء فإلى اللقاء ......

(القدس) بدر الدين عبد الفتاح

ببعض فى داخل الجزيرة وفى سواحلها ، وعلى ذلك فى إمكان المسافر أن يسافر من أى جزء من هذه البلاد إلى آخر بكل سهولة .

وهذه الطرق الكثيرة المتشعبة تتخلل سلسلة الجبال وتتسلقها ثم تشق الوديان وتقطع الأنهار . فالمسافر يرى كثيراً طريقاً واسعاً ممتداً يجارى نهراً مسافة بعيدة ثم يقطعه ويجاريه فى ناحية أخرى ، ويرى غالباً بجانبيه أشجاراً تظلله وتزينه ويرى أحياناً قضبان سكة الحديد بجانبه وجسرين متقاربين أحدهما للطريق والآخر للسكك الحديدية . وتزيد هذه المناظر جمالا ورونقاً أشجار النرجيل الباسقة التى تبعث السرور والهناء فى الناظرين .

فإذا قيل إن لبنان لما فيها من جو نقى ومناظر خلابة هى جنة الله فى أرضه ، فقد صدق « المركيز دى بوفوار » الرحالة العالمى فى قوله حينما زار إندونسيا : « كنت كأنى فى جنة النعيم ، قد نقلت إلى الأرض » . فلا غرابة إذاً أن نرى المستعمرين وذوى نعرة الاستعباد يستميتون فى حرب حامية الوطيس فيما بينهم لأجل استرداد تلك الجزر أو لإبقائها تحت استعمارهم ونفوذهم . ولكن كفاح الأهالى الأندونسيين لتحقيق استقلالهم وحريتهم قد بدأ فى سنة ١٩٠٨ ويستمر إلى اليوم بدون يأس ولا ملل ، لأن الحق كل الحق لهم وحدهم دون سواهم . ولعل سيدى القارىء يعتقد معى أن السلم الدائم العالمى الذى يتمنى كل إنسان أن تنتهى إليه هذه الحرب الكبرى الثانية لا يمكن أن يتحقق أو أن يستقر طالما كان الاستعمار موجوداً وطالما كانت مطامع الاستعباد مشتعلة .

هذا شأن طرق المواصلات البرية ، اللهم إلا فى جزيرة غينة الجديدة ، حيث كانت لا توجد فيها طرق كثيرة ممهدة ، ولكن خطة الحكومة الهولندية التى خطتها منذ ١٩٢٦ وهى اتخاذ هذه الجزيرة الكبيرة منفى لأكثر من خمسة آلاف من الأندونسيين الذين اشتركوا فى الثورة سنة ١٩٢٦ والذين اتهموا بخطرهم على مصلحة الحكومة فيما بعد تلك الثورة ، كانت سبباً لتعمير تلك الجزيرة حتى أصبح فيها الآن كثير من الطرق التى تستعمل اليوم لنقل الجيوش والمعدات الحربية فى المعركة التى تدور رحاها بين الحلفاء واليابان .

ب — السكك الحديدية :

توجد السكك الحديدية فى كل من جاوة وسومطرة وبورنيو وسيليبس وشبه جزيرة الملايو ، ففى سومطرة وسيليبس تكاد السكك الحديدية تخترق كلا منهما من الشمال إلى الجنوب . وقد فكر أولو الأمر فى سنة ١٩٣٨ فى مشروع توصيل سكة الحديد بشمال سومطرة بسكة الحديد فى وسطها ثم بجنوبها ، ولعل الأهالى قد قاموا بتنفيذ هذا المشروع خلال هذه السنوات الست التى انقطعت فيها عنا أخبارهم .

أما فى جاوة فتصل السكك الحديدية غربها بشرقها وتنتشر فى بقية الجزيرة شبكة من السكك الحديدية تربط المدن والقرى بعضها ببعض ، وفى بورنيو تمتد السكك الحديدية فى أجزائها الساحلية الجنوبية .

ح — الطرق الجوية :

وإن الناظر إلى خريطة العالم يرى أهمية موقع تلك المجموعة من الجزائر من ناحية المواصلات الدولية بحرية كانت أو جوية ، إذ أن إندونسيا تقع بين قارة آسيا وقارة أستراليا وبين المحيط الهادى والمحيط الهندى ، وهى عبارة من مجموعة جزائر صغيرة المساحة تفصل بعضها عن بعض مضايق وبوغازات ، فالطرق الجوية فيها والحالة هذه أهمية كبرى ، لذلك يكاد يوجد مطار فى كل مدينة من مدن إندونسيا ، وذلك علاوة على المطارات الثلاثة الخاصة بالطرق الجوية العالمية ، وهى سنغافورة وبتافيا وسورابايا .

المساحة :

ويقصد بلفظ « إندونسيا » أصلا وجغرافيا كما تقدم بيانه جميع الجزائر التى تقع بين القارتين آسيا واستراليا

أو بين المحيطين الهندى والهادى ، أى أن إندونسيا تشمل أيضا شبه جزيرة الملايو وجزائر الفيلبين ، وحتى فى بعض الأقوال إنها تشمل كذلك جزيرة مدغسكار لأن سكانها الأصليين من جنس الملايو .

هذا أصل « إندونسيا » جغرافيا ، ولكن لانقسام تلك الجزائر بين السلطات المختلفة التى كانت تسيطر عليها اضطر الزعماء الإندونسيون إلى إطلاق اسم « إندونسيا » مؤقتاً على جزائر الهند الشرقية الهولندية فقط ، فكلمة إندونسيا فى هذه الحالة تشبه كلمة « الشام » ، إذ أن الشام فى الأصل يشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، ولكن لانقسامها بين مختلف السلطات تطلق كلمة الشام على سوريا فقط ، وكذلك إندونسيا ، إذ أن شبه جزيرة الملايو مثلا والجزء الشمالى من بورنيو كان تابعاً لانجلترا وجزائر الفيلبين تابعة للولايات المتحدة ، وكان جزء من جزيرة تيمور تابعاً للبرتغال .

مساحة إندونسيا أى مساحة جزائر الهند الشرقية التى كانت تابعة لهولندة هى ١٩٠٤٣٧١ ك . م مربع أما مساحة إندونسيا بمعناها الأصلى الأصح أى بما فيها الأجزاء التابعة لإنجلترا والبرتغال فهى ٢٥٠٠٠١٣ ك . م مربع أى قدر مساحة القطر المصرى مرتين ونصف مرة بما فيها صحراؤه ، أربع مرات ونصف ، وقدر مساحة فرنسا ، هذا إذا لم ندخل فى الحسبان مساحة جزائر الفيلبين ، لأن اندماج شبه جزيرة الملايو والجزء الشمالى من بورنيو والنصف الشرقى من غينة الجديدة أسهل تنفيذاً من اندماج الفيلبين فيها . وذلك لبعد الفيلبين عنها ولوجود رغبة الإندونسيين فى إنشاء الفيلبين دولة مستقلة وحدها تفصل بين اليابان وهى دولة كبيرة وبين إندونسيا التى ستكون — بعون الله — دولة كبيرة فتية تختلف عن اليابان فى شعورها ولغتها ودينها وتقاليدها وعاداتها وفى غيرها من مظاهر الحياة .

(للكلام بقية) فريد الدين برقس

قصة الذئب الهرم

[نقلنا هذه القصة عن الشاعر والناقد الألمانى الشهير جوتهولد إفرايم ليسنج Lessing الذى يعد فى الإقدام ، والدءوب ، ومحاولة الزراعة مثالا فذاً للذهن البشرى ، فهو القائل : ليست الحقيقة التى وصل إليها الانسان أو التى يظن أنه وصل إليها هى ما تدل على قيمته ، بل الجهد الخالص الذى يبذله للوصول إلى ما وراء الحقيقة .

ولد ليسنج فى سنة ١٧٢٩ ابنا لعالم ورع من علماء الدين . فلما دخل المدرسة تبين فيه معلموه « جوادا » يطلب منه العلف المخصص للجياد ، فألف فى سن الخامسة عشرة ملهاة « العالم الشاب » وترجم « أناكريون » فكان بذلك النابغة والأديب الطموح ، وقد دخل الجامعة فى سن السابعة عشرة ليدرس اللاهوت فلم يلبث أن انصرف عنه إلى الأدب فألف أغانى صغيرة وكتب ملهاة « الشيطان » وقيد اسمه فى جامعة ليبسيج Leipzig لدراسة الطب فهجر الطب بعد سنة من التحاقه ، وتوفر على التأريخ المسرح وكتابة المسرحيات ، ثم توجه إلى فتنبرج Wittenberg فحصل من جامعتها على الماجستير فى سنة ١٧٥٢ . وقد توالى إنتاجه الأدبى والعلمى وتلاحق ، وتدفقت كتاباته فى الشعر والفن والعلم والخرافة والمسرحية . وتعاظمت مكانته وهيبته فى أوساط الأدباء والعلماء وهو بعد شاب .

ومن آثار ليسنج الخالدة لاؤكون Laokoon ومينا فون بارنهلم . ومن آثاره الفنية العظيمة ماسيجله فى الفن المسرحى وحرر به المسرحية الألمانية من رق السيادة الفرنسية .

ولقد كان النقد هو النزعة الغالبة على نشاط ليسنج ، لكنه كان بناء غير هدام ، وكان متواضعا جدا مع نفسه فلم ينسب نجاحه العظيم كشاعر إلى شىء سوى استعداده للنقد . وكان شأنه فى تكوين الذهن الألمانى هائلا لا يحد ، لوجهه فى الفن والجمال والفلسفة واللاهوت ، وأدخل على الشعر والفن كما كانا فى ألمانيا وقتئذ إصلاحا أساسيا ، فرسم لها الحدود البينة الأمينة بين فنونها المختلفة . ويمتاز ليسنج بأسلوب لم يعل عليه أسلوب ألمانى فى أى عصر .

وقد مات فى سنة ١٧٨١ فى الثانية والخمسين من عمره] .

— ١ —

لما هرم الذئب الشرير ، وبلغ أرذل العمر ، صحت عزيمة النفاق فيه على العيش مع الرعيان فى سلام . فخرج إلى الراعى الذى تجاور قطعانه جحره ، وقال له : أيها الراعى !

إنك تسميني لصا متعطشا إلى الدماء ، وإن كنت في الحقيقة غير ذلك . صحيح أنه لا معدى لي من الهجوم على غنمك إذا جعت ، ذلك أن الجوع مؤلم . فقني شر الجوع ! أشبعني تسلم ولا تر مني مكروها ! فإني في الحق أودع مخلوق على وجه الأرض وأدمث مخلوق خلقا حين أشبع .

فقال الراعي : حين تشبع ؟ ربما . لكنه متى كنت شبعان ؟ إنك والبخل صنوان لا يشبعان ، فامض !

— ٢ —

وجاء الذئب المهور إلى راع ثان وقال له : إنك تعلم أيها الراعي أني أستطيع أن أنكبك في عامك في بضعة من خرافك . فإذا خصصتني في العام بستة منها قنعت . واستطعت أنت أن تنام ملء جفونك ، واستغنيت مطمئنا عن كلابك .

قال الراعي : ستة خراف ؟ إن هـذا لقطيع كامل !

فقال الذئب : أكتفي بخمسة من أجلك بالذات .

قال الراعي : خمسة ! إنك تهذي ! إن خمسة خراف يكاد ألا يبلغها كل عام قرباني لبان(١) إله الرعيان .

فقال الذئب : ولا أربعة .

فهز الراعي رأسه سخرا .

فقال الذئب : ثلاثة ؟ — اثنان ؟ —

وكان الجواب الأخير : ولا واحد ! فإن من الحمق أن أجعل لعدوي جعلا علي وأنا قادر باليقظة أن أتقي شره .

— ٣ —

وقال الذئب في نفسه : الثالثة ثابتة ! وقصد إلى راع ثالث ، وقال له : أكاد أن أكون عندكم يا معشر الرعاة الوحش الذي لا حد لضراوته ، ولا وزن لضميره . لكني سأثبت لك أنت مبلغ ظلمكم إياي . أعطني خروفا واحدا كل عام ترعى قطعانك وهي آمنة مطمئنة في تلك الغابة التي لا يذهب بأمنها سواي ، خروفا واحدا . ما أتفهه أجرا ! هل يمكن أن أكون أكرم من ذلك وأكثر في المساومة تجردا عن المصلحة ؟ أتضحك أيها الراعي ؟ فعلام الضحك إذن ؟

فأجاب الراعي : لا أضحك على شيء . لكن هلا خبرتني كم عمرك يا صديقي ؟

قال الذئب : وماذا يعنيك عمري ؟ إني أستطيع في أي عمر أن أنكبك في أعز حملانك .

قال الراعي : كفكف من غربك أيها الذئب الهرم . فإنه ليؤسفني أن تتقدم باقتراحك بعد فوات الأوان ببضع سنوات . وفكك الأدرد شاهد على ذلك . إنك تصطنع التجرد والزهد لتحصيل القوت بأهون خطر وأدنى جهد .

— ٤ —

فتضايق الذئب لكنه تمالك . وذهب بالتالي إلى الراعي الرابع . وكان كلبه الأمين قد نفق ولما يكد . فأراد الذئب أن يستغل هذا الظرف ، قال : أيها الراعي ! لقد تصرم بيني وبين إخوتي في الغابة حبل المودة ، وانقطع الأمل في التصافي . وأنت عليم بمبلغ الخشية منهم ، فإذا استأجرتني بدلا من كلبك النافق ضمنت لك ألا ترنوا إلى غنمك بعين ولا تحيلوا إليها .

فقال الراعي : إذاً تريد أن تحمي غنمي من إخوتك في الغابة ؟

قال الذئب : بلى ، وهل أقصد غير ذلك ؟

قال الراعي : ليكونن بلا ريب عملا طيبا ! لكن قل لي : من عساه أن يدفع عدوانك عندئذ عن خرافي المساكين إذا أنا أدخلتك بينها ؟ هل أتخذ في بيتي لصا ليدفع عني غائلة لصوص الخارج ؟ هذا نسميه نحن الآدميين —

(١) Ban .

قال الذئب : نعم ! فلا حاجة إلى محاضرة في الأخلاق ! وداعاً !

— ٥ —

وحرّق الذئب الأرّم : آه لو لم أكن هذا الهرم ! لكن لا مناص من أن أرضخ لحكم الزمان .

وذهب إلى الراعي الخامس وقال له : أتعرفني أيها الراعي ؟

قال الراعي : مثلك على الأقل لا يجهل .

قال الذئب : مثلي ؟ إني أشك فيما تعني كثيرا . إني ذئب بلغ من غرابة شأنه أنه حقيق بمودتك أنت وإخوتك الرعاة جميعاً .

قال الراعي : كيف ذلك ؟

قال الذئب : لو جاءني خروف حي ما استطعت خنقه بله أكله ، ولو كلفني عجزي هذا حياتي . إني أقتات بالخراف النافقة وحدها . أليس هذا جديراً بالحمد ؟ فهلاّ سمحت لي أن أمر بقطيعك الفينة بعد الفينة وأسأل هل من —

فقاطعه الراعي بقوله : وفّر كلامك ! فما ينبغي أن تأكل خرافنا إطلاقا ، ولا النافق منها ، إذا شئت ألاّ أكون عدوك . والحيوان الذي يألف أكل الخراف النافقة لا يلبث أن يعتد مريضها ميتا ، وصحيحها مريضا . فاذهب ولا تحمل صداقتي في حسابك .

— ٦ —

وفكر الذئب : لابدّ أن أفرغ قصاراي وألاّ أدخر في سبيل الوصول إلى غرضي وسعاً .

وأتى الراعي السادس وقال له : أيها الراعي ! كيف ترى فروتي .

قال الراعي : فروتك ؟ أرني ! إنها جميلة ! ولا بد أن الكلاب لم تظفر بك كثيراً .

قال الذئب : إذاً فاسمع أيها الراعي ! لقد هرمت ، ولن أستطيع بعد اليوم سعيا . فأطعمني حتى أموت أهب لك بعد الموت فروتي .

قال الراعي : ياعجبا ! أنت أيضاً تلجأ إلى حيل الطاعنين في السن من البخلاء . كلا ! فما أرى فروتك إلا ستكلفني في النهاية أضعاف أضعاف ما تستحق . إذا كنت جاداً فيما تعلنه من الرغبة في إهداء فروتك فهبنيها الآن في الحال .

وطلب الراعي هراوته فلاذ الذئب بالفرار .

— ٧ —

وعوى الذئب : يا لهؤلاء القساة ! وأخذ منه الغضب مأخذه ، ولم يعرف غيظه حدا . وقال : هل أصبر حتى أموت جوعا ؟ بل سأموت عدواً لهم ما داموا يكرهون الإصلاح .

وعدا يطلب بيوتهم فسطا عليها ، وفتك بأطفالها ، ولم يتمكن منه الرعاة إلا بعد جهد جهيد .

عندئذ قال الحكماء منهم : لقد أخطأنا إذ أحرجنا الذئب هذا الحرج الشديد فحرمناه كل وسيلة للاصلاح وأحبطنا كل محاولة وإن جاءت متكلفة وبعد الأوان .

محمود الدسوقي

رفاعة ومنتسكيو

لرفاعة جهود منخمة في الترجمة والتأليف والنشر ، غير أن جهوده في الترجمة تفوق جهوده في الميادين العلمية الأخرى ؛ فقد ترجم – لكتاب فرنسيين كثيرين – كتبا في علوم مختلفة ، كالهندسة والمعادن والطب والجغرافيا والأدب ... الخ ؛ وكتبه التي ترجمها معروفة ذكرها هو فيما كتب عن نفسه ، وذكرها مؤرخوه الذين كتبوا عنه . غير أن هناك زاوية من زوايا هذه الجهود لا زالت مظلمة يكتنفها الغموض ، وقد حاولت أن أنير ظلمتها في هذه الكلمة ، راجيا كل من لديه معلومات موضحة أن يتكرم فيدلي بها على صفحات الثقافة ، أو يتفضل فيرسلها إليّ .

أشار رفاعة في بعض شعره الذي قاله في السودان إلى أنه ترجم عن « مونتسكيو » فقال :

على عدد التواتر معرباتي ... تفي بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل ... ومنتسكو يقر بلا تمادي

فهذه إشارة واضحة ، أكدها بعد وفاته الشيخ محمود كتلك الطهطاوي ، الذي أشرف على تصحيح الطبعة الثانية من كتاب « مناهج الألباب » فقد أشاد في آخره بجهود محمد بك رفاعة (حفيد رفاعة بك) ، وسعيه لنشر هذا الكتاب وأشار إلى أن همته لم تقف « عند إنجاز طبع هذا الأثر ، بل عزم حضرته على إحياء باقي الكتب التي ترجمها جده من الفرنساوية إلى العربية ، كرواية « تلماك » الشهيرة وترجمة « ملطبرون » وترجمة (منتسكو) وغير ذلك ... الخ .

وأورد بعد ذلك صورة خطاب كتبه الشيخ عبد الكريم سلمان إلى حفيد رفاعة بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ ، قال فيه : « أجمل كتابي هذا غير قاصر على تقريظ عملك الجديد المفيد ، ومده إلى إنجاد ذينك السفرين (ترجمة ملطبرون وترجمة مونتسكيو) . ولقد رويت من عمك الأعز رحمه الله أن والده الأكرم أكرم الله مثواه ترجمهما ، وأن نسختهما موجودة ، وأحمق ما بقيت حافظته إلى الآن مما يبرهن على أنه طيب الله ثراه ترجمهما ، وهو : وملطبرون يشهد وهو حبر ... ومنتسكو يقول ولا يماري »

وعلق على هذا الخطاب بقوله : « ونحن نزف البشرى إلى الجمهور بوجود أصل هذين الكتابين في خزانة كتب المؤلف ، وتعويل حضرة حفيده الأكرم على طبعهما إجابة لطلب فضيلة الأستاذ ، وحبا في تعميم النفع لأبناء المصر »

وغاية ما نستطيع أن نقول أننا رجعنا إلى ثبت ما ترجم رفاعة من كتب في عهدي محمد علي وإسماعيل ، فلم نجد من بينها كتابا لمونتسكيو ، وكل ما نعرفه أنه قرأ كتبه وهو في باريس ، وتأثر بها كثيرا في بعض كتبه ، وخاصة كتاب « مناهج الألباب المصرية » فهو متأثر فيه بكتاب مونتسكيو « روح الشرائع » ؛ كذلك لم يترجم تلاميذه في مدرسة الألسن من كتب « مونتسكيو » إلا كتاب « برهان البيان وبيان البرهان في استكمال واختلال دولة الرومان » ، فقد ترجمه حسن أفندي الجبيلي ، وكانت الترجمة تحت إشراف رفاعة ، فقد قال المترجم في مقدمته : « ولم أغفل عن مراجعة الفاضل اللبيب ، والكامل الأريب ، الدقيق فهمه ، الكثير علمه ، سيدي رفاعة أفندي ، في حل بعض مشكلاته ، وفك ما عسر عليّ فهمه من معضلاته ... »

ولم ينته الجبيلي من ترجمته إلا في الثاني عشر من ربيع الآخر ١٢٩٠ بُعيد وفاة أستاذه رفاعة ، وتم طبع الكتاب بعد ثلاث سنوات ، في ذي القعدة سنة ١٢٩٣ .

لم يبق إذاً إلا أن يكون رفاعة قد ترجم حقا بعض كتب « مونتسكيو » وأجزاء أخرى من جغرافية « ملطبرون » – غير التي طبعت ، وأن مسودات هذه الكتب ضاعت بعد وفاته ، أو لا تزال مخطوطة في مكتبته .

جمال الدين الشيال

على هامش الحياة الجامعية:

فَايِـــــد

هو فتىً في الرابعة والعشرين، متوسط القامة، أخضر العينين، يمشي في خِفّة، ويكثر من حركاته وإشاراته حين يتحدث، جميل النكتة، حلو الدعابة، تعلو الابتسامة شفتيه دائماً إلا حين يضيق صدره من الحياة، عندئذ يعبس ويقطب ثم لا يلبث أن يعود إلى الابتسام.

كان النهار قد كاد ينصرم، والوقت صيفاً، وكان فايد قد استيقظ من النوم متكاسلا متثاقلا، فجلس على مقعده حيناً، وقد أسند رأسه على راحة يده، وأخذ ينظر إلى محتويات غرفته . . .

وتنهد فايد يبعث من نفسه ألماً مكبوتاً، وقال كمن يستغيث:

وا رباه!

وجال ببصره هنا وهناك في شيء من التهكم والسخرية. نظر إلى ما بغرفته من أثاث.. أثاث بال عَفّى عليه الزمن، نظر إلى السرير الكبير الضخم الذي كان يهتز ويتأرجح، وإلى المائدة العرجاء، وإلى المقعدين المحطَّمين، وإلى الحصير الرث المهلهل، وإلى الأوراق المبعثرة في كل مكان . . . ثم إلى الصور المعلقة فوق الجدران، صور لأبطال التاريخ ونجوم الشاشة البيضاء . .

وهزّ فايد رأسه، ثم وقف ينفض عن نفسه عناء الكسل، ولكن دون جدوى . . . تثاءب مرّة ثم أخرى، ثم وقف يطل من شرفة غرفته الخشبية إلى الطريق المتل، بالأطفال وهُمْ يلعبون ويملأون الدنيا صراخاً. سحقاً لهذه الغرفة الضَّيِّقَة! سحقاً لهذه الزنزانة الخبيثة! قال فايد هذا ساخطاً، ثم مدَّ يده يتناول حلّته.. حلته البالية التي اشتراها منذ سنين، وقلّبها مرة بعد مرة! ووقف أمام المرآة المهشمة يعالج ما بهندامه المتيق، ثم أغلق غرفته، وغادر الدار بعد أن ألقى التحية على جارته الفتاة الرشيقة الحسناء.

كان فايد كلما ضاق ذرعاً بهذا المكان، يفر إلى العاصمة ينشد فيها شيئاً من التسلية يروح بهما عن نفسه المثقلة بالهموم. وعن فؤاده المُتْعَباً بالآسي.

كان فايد يلقي الدنيا في صبر وأمل.

وركب فايد الترام فأخذ يمشي ويزحف كالسلحفاة، وانزوى فايد في أحد الأركان، وأخذ يمتع ناظره بالمنازل الجميلة والفلات الضخمة التي على الجانبين.. ثم عرض على أسنانه ... إن الحياة جميلة ساحرة، وإن الدنيا لتضحك لبعض الناس.

والتفت عيناً يرقب مشاجرة بين كمسري الترام وبعض الراكبين وأنصت فايد للشتائم وهي تنطلق من الأفواه كالقنابل، ثم أخذ يضحك في صمت ...

وامتدت يده نحو جيبه، وتحسست ما به من نقود... نقود قليلة لا تغني ولا تسمن ... وصمت فايد.

ووصل الترام ميدان الملكة، فنزل وانطلق يسير بين الجموع المتزاحمة، ثم حانت منه التفاتة إلى ساعة البريد فإذا بها تدق الثامنة.

وبسط فايد صدره يستنشق الهواء، وابتسم ابتسامته الخفيفة الحلوة التي تعلو ثغره كلما ارتاح باله وهدأ خاطره.. إنه في القاهرة، والأنوار قد بدأت تتلألأ في الطرق وفي المحلات وفي دور الملاهي.

أين يذهب؟

وأخذ فايد يفكر. وهو سائر في الطريق نحو شارع فؤاد ... أين يقضي المساء ..؟ أين يجد اللذة والمتعة والرفاهية؟

ونظر فايد إلى الأنوار، وهز رأسه في أسف ... هيهات!!

إن المال قليل ، وإن النفس وجلة !

ومشى مطأطئ الرأس إلى إحدى دور الخيالة ، ثم وقف قليلا يتطلع إلى الصور ، ويعجب من الواقفين ... إن الناس يحشدون زينتهم عند كل سينما ، وإنهم يذهبون رجالا ونساء ... وهو ؟!

وهز رأسه في أسى ، وتقدم إلى النافذة ليقطع تذكرته وتريث قليلا يتأمل الفتاة وهي تأخذ منه النقود ... إنها فتاة ساحرة وإن عينيها خضراوان .

ودخل دار الخيالة ، وجلس يستمع إلى الموسيقى التي كانت تصدح في المكان .. كانت موسيقى شجيّة .. ودق قلب عابد دقاً عنيفاً وقال يحدث نفسه ... إن الموسيقى ترطب القلوب وتطب الأفئدة ، القلوب العُزّل والأفئدة الحزينة ... ليتني أستطيع أن أعزف ... ليتني !

وبدأت السينما تعمل ، فاضطجع عابد في كرسيه ، وأخذ يتأمل الصور وهي تترى على الشاشة ، وينظر بين الحين والحين إلى الجالسين معه في الصالة .

كانت القصة ذات معنى ، وذات مغزى .. إنها تصور الفناء في الحب ، والبقاء على الهوى ... إنها تمثل المتحابين وقد أخلصا ...

وتمتم عابد يحدث جاره : أين الحياة من شيء كهذا ؟!

ثم جمع عابد أشتات نفسه ، عند ما انتهى الفيلم ، وهمّ واقفاً وغادر المكان سيراً على الأقدام بين ضجيج السيارات الواقفة عند الباب .

وأخذ عابد يمشي في الطرقات يضرب هنا ويضرب هناك وهو يفكر ... إن في دار الخيالة عجائب ، وإنها تملأ الذهن بالأحلام ... إن قلبه يدق وإنه في حاجة إلى فتاة كالتي رآها على الشاشة ... فتاة يشكو لها آلامه ، ويبث أحزانه ، ويحدثها عما في حياته من أفانين .

وألهاه الازدحام عن التفكير ، فسار على مهل يتأمل المحلات ، وينظر إلى ما بداخلها من معروضات ... كان يرى فساتين للسهرة طويلة ، وملابس للبحر قصيرة ...

ووقف يحك ذقنه ويبتسم .. ثم نظر إلى حاجيات الأطفال

وعادت الذكرى بعابد إلى أيام الطفولة ... يوم كان بقريته صبياً صغيراً يلعب .

وضحك عابد وكاد يستلقي على قفاه ... تذكر الجلباب الرث المرقع ، وتذكر اللعب التي كان يصنعها من الطين ، وتذكر حين كان يبكي ساعات وساعات وهو مُلْقًى فوق كوم من التراب ، وتذكر الضرب بالعصيّ

وأفاق عابد من تخيلاته فمشى في الطريق صامتاً ساهماً ، تقوده قدماه ، دون وعي منه ، إلى محل البرازيل .

يا إلهي !! وتحسس ما تبقى معه من نقود ، ولم يلبث أن مرق بين الناس المكتظين كالذئب يريد الفرار ، ثم توقف هنيهة واحتسى كوباً من الماء المثلج ، وعندئذ رقت عيناه فغادر المكان يشمخ بأنفه ، ويرفع من رأسه .

لكن عابد لم يلبث أن أحس بالجوع يعصر معدته ، أين يأكل ؟ وقطع الطرق واحداً بعد واحد ، يبحث عن مطعم للفول .

وتناول العشاء ، ثم انطلق في شارع سليمان ، وقد امتلأت معدته واطمأنت نفسه ، وطاب خاطره ... كان يسير على مهل وفي جذل ، وقد وضع يديه في جيبي (بنطلونه) وأخذ يصفر وهو يتأمل ما يمر به من وجوه مختلفة ، وينصت لكل حديث .. حديث متباين بكل لغة .

وتوقف عابد عن الصفير ، وأخذ يفكر كعادته ، بعد أن أخرج يديه من جيبيه .

ومرة أخرى أعياه التفكير ، فتمهل ينظر لبعض الجنود وهم يعبرون الطريق سكارى يترنحون ، ثم التفت لأحد البارات وقد امتلأ بالجالسين يشربون النخب ويقرعون الكأس .

ووصل إلى الميدان ، وفي الميدان تذكر مدارس الرقص ، وتساءل عابد كعادته ... تساءل .. لِمَ لا يتعلم الرقص ،

ويقرع الكأس ؟ ولِمَ لا يلهو كالناس ؟

وجاءه الجواب : إن المال قل ، وإن النفس وجلة .

ووصل فايد أخيراً إلى داره ، فإذا الليل قد انتصف ، وإذا المدينة قد بدأت تسكن ... كانت الحال مقلقة ما عدا بائع المصير .. عصير القصب .

ومال فايد فاحتسى كوباً أروى به ظمأه ، وطمأن به معدته ، ثم سار في الظلام يتلمس طريقه نحو البيت ... إن السواد مخيم ، وإن الدار في أزقة وتعاريج ملتوية التواء الثعابين .

وأبطأ في خطوه كي لا تزل قدمه في الوحل حتى وصل إلى المنزل ، ففتح الباب في حذر ، ثم توقف ينصت ..؟ كان يخشى صاحبة الدار أن تراه ، وخلع فايد نعليه ، وأخذ يصعد السلم على مهل ، لكن صاحبة الدار تنبهت واستيقظت ، ففتحت غرفتها ونظرت إليه ، ثم انهالت عليه بعبارات السب والشتم ، ووجهت إليه مختلف النصائح ... التفت إلى نفسك ودع اللهو والعبث والمجون ...

ولم يستطع فايد أن يفتح فاه .. فصمت على مضض ، ثم دخل غرفته وأنار مصباحه ، وارتمى فوق المقعد في تعب .

وطرق باب الغرفة طارق ، ففتح فايد الباب في تراخ إذ كان الصداع يفتت رأسه ، والنوم يثقل جفنيه .

كان الطارق هو (فرديناندو) خروف صاحبة الدار .

وضرب فايد الباب بخلفه في حنق ، ثم نظر إلى السرير ، بعد أن خلع بذلته ورمى بها في ركن من أركان الغرفة .. وقرض فايد على أسنانه من الغيظ ... لم يكن ليستطيع أن ينام فوق السرير ، فالجو حار ، والنمل ، والجيوش الحمراء .

وجذب فايد ملاءة السرير ، وذهب إلى الشرفة ، والتف في الملاءة ثم نام ، ولم يلبث أن راح في سبات عميق .

هالو ... هالو ...

صاحت الفتاة الحسناء ، وهي واقفة على الشاطئ لابسة لباس البحر تخاطب فايد الذي كان جالساً فوق الرمال .

قال فايد مجيباً : هالو ...

ثم ابتسم للفتاة فابتسمت له ، وجلسا يتحدثان ، ثم قفزا إلى البحر وأخذا يسبحان .

كان الشاطئ شاطئ جزيرة ، جزيرة ممتدة وسط بحر خضم أزرق الماء .. وكانت الجزيرة ممتلئة بأشجار الفاكهة وفيها جوز الهند ..

ما أشبهني بالسندباد ... فضحكت الفتاة وهي تخرج من الماء يتبعها فايد ، وأمسك كل منهما بيد الآخر ، وسارا معاً بين الأشجار ، ثم فوق التلال .

كان فايد يسير مع الفتاة وقد نسي نفسه ، إنها تقوده ، وحين بلغت أعلى التل نظرت إلى أسفل وأشارت بيدها في الوادي وقالت : هذا قصري .

ورأى فايد أمامه قصراً منيفاً عالياً ، وانحدرا نحوه ثم دخلا .. كان فايد مذهولا مأخوذاً .

وأخذته الفتاة من يده ، وأخذت تطوف به الغرف ، وتريه ما بها من أثاث فخم جميل . وفتحت الدواليب وهي تشير لفايد أن ما بها من حلل جميلة كلها له ..

وجاءته الفتاة بواحدة فارتداها ، ثم وقفا في ردهة القصر معاً ، فرأى البيانو موضوعاً فتقدم نحوه وجلس وبدأ يعزف .. كان يعزف قطعة موسيقية جميلة .

ثم بدأت الفتاة تغني ، وأخذت ترقص في الردهة فأخذها من يدها وظلا يرقصان .

وعضهما الجوع فجلسا أمام مائدة طويلة متسعة . . .

ونظر فايد إلى ما عليها من ألوان الطعام فزاغ بصره وسال لعابه فانهال يأكل في لذة .

ووقف قرب النافذة يتطلع إلى السماء ، ويتحدث إلى الفتاة .

كان يقص عليها قصة حياته : لقد جاهدت ، وعانيت لم أكن أنظر أبداً إلى الوراء ... كنت أتطلع دائماً وراء الأفق .. كنت أبتسم للدنيا في صبر وأمل ..

بين المسموع والمقروء

تسعة تصيب ، وعاشرة تخيب

صاحب قصتنا اليوم طبيب فى بلد ناء عبر البحار أتم دراسته الثانوية فدخل كلية الطب وقضى فيها سنوات لم يسمع فيها غير الحمد ، ولم تقع فى يده أثناءها غير شهادات بالثناء عطرات ، إلى جانب مكافآت مالية كسبها بالعمل المتواصل والفطنة المؤاتية

وختم دراسته فنال الوسام الذهبى . وأطال دراسته من بعد ذلك فنال زمالة الكلية الملكية للجراحين بلندن

ويشاء القدر بعد سنوات أن يجد نفسه طبيباً فى مدينة صغيرة من مدن الريف ، يحيى تلك الحياة الراتبة الهادئة السلسة ، والتى قد تسئم أحياناً . وكان يتعلق بالجراحة تعلقاً كبيراً ، ويعد نفسه جراحاً أولاً ثم طبيباً بعد ذلك .

وأراد أن يؤكد ذلك فكتب على لوحة داره « جراح وطبيب » . والحق أنه فى أيام تلمذته عاون فى جراحات كثيرة شيقة ، ولكن لم تتح له الفرص التى يتزعم فيها تلك العمليات . ومنذ حضر إلى هذا البلد الريفى الصغير ندر أن يأتى إليه أحد بجراحات ذات بال — بجراحات تستأهل أن يباشرها زميل من كلية الجراحين بلندن ، فإن أقصى الجراحات التى جاءت له لم تسمُ إلا أكثر من دمامل وخراريج . فكان من ذلك أن نسى الجراحة على توالى السنين .

ويأتى كوبيد إلى قلب الجراح الشاب بقوسه وسهمه فيضربه فى الصميم . فقد تعلق بفتاة هى ابنة مزارع فى مزرعة قريبة من البلدة . ولم يلبث أن تزوجها . ولم تكن الفتاة قد عرفت من الدنيا غير الريف ، ولا من البلدان غير هذا البلد الصغير . وكانت جميلة ، فى وجهها بياض اللبن وحمرة الورد ، وفى عينيها ابتسامة لا تزول أبداً .

ثم مشى قايد إلى غرفة النوم ، وارتمى فوق الفراش ، الفراش الناعم ، ووضع رأسه على الوسادة .. الوسادة الليِّنة الطريَّة ، ثم تقلب على جنبيه .

تقلب قايد على جنبيه فإذا هو فى الشرفة الخشبية ملتف فى ملاءة السرير ، وإذا قطعة من الطوب أسفل ظهره تقلق مضجعه . وسبَّ ولعن وأخذ يستعيذ من الشيطان الرجيم .

وهبَّ جالساً ، وأخذ يفتح عينيه .

وسمع طرقاً مرة أخرى على الباب ، وإذا به صاحبه وصديقه الحميم (فرديناندو) . وقال قايد مخاطباً الحروف فى انزعاج : اذهب يا فرديناندو إن الوقت لا زال مبكراً .

ولكن الوقت لم يكن مبكراً ، إن صوت بائع اللبن فى الطريق ينادى ، وإن الصبح قد تنفس .

ووقف قايد وسط غرفته يتثاءب ، وتذكر ليلة الأمس .

فإذا كل قطعة من جسده تصرخ ، وإذا كل عضو فيه يئن .

وتناول الكوب وذهب ليشترى لبناً ، ويبتاع جريدة الصباح ، ثم عاد فأوقد الموقد وبدأ يتناول طعام الإفطار ثم وقف فى الشرفة يحتسى الشاى ويقرأ الأخبار .

وتنهد قايد .. إن الدنيا فى واد ، وهو فى واد آخر .

ورمى بالجريدة ، وأخذ ينظف غرفته ، ويرتب ما بها من قطع الأثاث ، ويغسل الأكواب والأطباق ، ثم ارتدى حلته البالية وغادر الدار .

سار قايد فى الطريق الطويل الممتد أمامه صامتاً .. لقد نسى كل شىء مر به بالأمس ، ولم يتذكر سوى شىء واحد كان قايد ذاهباً إلى المكتبة ليقرأ فصولا فى التاريخ ليستعد للامتحان الذى بقيت عليه أسابيع ..

إن قايد طالب .. وطالب بالجامعة .

شحاته آدم محمد
طالب بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

وشعرها تدلّى على كتفيها فى خصل محوّاة صفراء . وفورة الحياة ملأتها فأغشت كل من قاربها . كانت تضحك وتزأط لغير ما شىء ، إلا أنها سعيدة بالحياة

ولم تُعجَب بشىء إعجابها بمنزلها ، فقد كان لها حب بقعة فى الأرض . ودارت على حجره تلطف آثاثه ، وتمسح تحفه ، وتمر بالريشة على مساقط التراب ، فتجد فى كل هذا لذة لا تعدلها لذة . كان همها أن ترى هذا العش ، الذى هو لها ولزوجها ، دائماً نظيفاً لمّاعا

ولكن كان أكبر إعجابها بزوجها . كان جميلا ، وكان مخلصاً ، ثم هو فيه كثير . كان علمه من ذلك النوع الذى لا يتطاول إلى فهمه عقول الطغام . ويأتيه صديق فى المساء فيأخذ وإياه يتحادثان عن الفيتامينات والهرمونات وعن ضغط الدم والتهاب الكلى ، ويتحدثان بذلاقة وفى غير عسر ، فتجلس إليهما تنصت فاغرة فاها من الدهشة لهذا العلم الحق النادر الذى احتواه زوجها الحبيب العزيز

كانت زوجها سعيدة ، وكان زوجها بها سعيداً ، ولم يدع شيئاً يجلب لها السرور إلا أتاه . وكان به مس من غرور . وعبدته فزادته غروراً . كانت تقول له إنه خير من حملت الأرض . وقالته مراراً وتكراراً حتى بدأ بداخله أن الذى تقول قد لا يخلو من حق . وطلبت إليه أن يبرز شهاداته الكثيرة ويعلقها على حوائط الدار ، فأبى ، فزادت إعجابا بإبائه . زادت إعجابا بهذه العبقرية المتواضعة

وفى صحو هذه الحياة الصافية تتراءى غمامة سوداء .

فى صباح يوم أحست هذه الزوجة الصبية الهانئة بآلام . ويفحصها زوجها فيعلم أنه الأعور — أنها الزائدة الدودية ، وأنه لا بد من استئصالها . لقد كانت آلام كهذه تأتيها فى صباها الأول ، ولكنها انقطعت من زمان بعيد ، ولم تكن بمثل هذه الشدة التى جاءتها اليوم . ويقرر الزوج أنه لا بد من عملية . ويختار الجراح الذى يقوم بها . ويطلع زوجته على ما اعتزم ، فتأبى كل الإباء . تأبى أن يقوم بإجراء العملية ذلك الجراح الشيخ العتيق الذى أكل عليه الدهر وشرب ، الدكتور هارون . لا أبدا . لا يمكن أن يمسها ذلك الرجل العفن . فإن كان لا بد من عملية فليس لها إلا رجل واحد ، ذلك زوجها الحبيب . زوجها العبقرى هو وحده القمين بها . وهى لن تثق بأحد سواه . ثم ما فائدة المهارة والعلم والفن إذا لم يبذلها الرجل لزوجته أول باذل .

ولم يحاول الزوج أن يرفض ما سألته ، وعقد إطراؤها إياه لسانه فلم يقل لها إن مجرد فكرة إجراء العملية تصيب رأسه بدوار وقلبه بخور ومعدته بالغثيان . وذهب تملقها إياه بالبقية الباقية فيه من بصيرة ، فاعتزم أن يقوم بالعملية . وزاد فى عزمه ما قد يثيره إجراؤها فى البلدة من أثر محمود ، فلا شك أن الناس سيقولون هذا جراح ماهر وثق كل الثقة بنفسه فلم يتردد فى إجرائها حتى على زوجته . وعدا هذا ، فساعده فى إجرائها سيكون زميله طبيب البلدة الآخر . ولا شك أنه سيزداد به إعجابا عندما يراه يقلب أحدث ما عرف الطب من أداة للجراحة فى خفة يد ولباقة إصبع . ثم ثقة زوجته به لا بد أن يحتفظ بها ، وإعجابها بمهارته لا بد أن يحققه . ونسى أن هذه أول عملية كبرى أجراها فى حياته .

وفزع إلى كتبه يقرأ فيها ليسترجع كل ما نسى من تفاصيل . وتراءت له العملية فى كل تفاصيلها يسيرة هينة ، وذكر أنه حضر هذه العملية مرارا وتكرارا ورآها تجرى فى سهولة بالغة . ونسى أن كل شىء فى اليد الماهرة يتراءى سهلا بالغ السهولة . وقرأ أن هذه العملية تكون بسيطة لا تعقيد فيها فى تسع حالات من عشر ، وذكر أن الحالات التى حضرها كانت كلها من النوع البسيط ، فكفر بأن هناك حالة عاشرة تتعقد فيها الأمور .

وجاء يوم العملية فنقلت الفتاة إلى الحجرة التى أعدت لها ، وأرقدت على منضدة ، ترامى من فوقها صباها نائما مرهماً . ونظرت إلى زوجها فى دثاره الأبيض وابتسمت له . ثم مدت إليه يدها ، فرفضها خشية أن تمس يده وهى معقمة ، فقالت له : اخلع عن وجهك هذا الجد ، إلى

لست خائفة ، وإني بين يديك آمنة . ولكني أرجو منك أن تكون إلى جانبي عند زوال البنج فإني أريد أن أفتح عيني أول شيء عليك .

وبدأت العملية . وضرب بمشرطه في ذلك الجلد الأبيض الناعم الجميل . وما انبجس منه الدم حتى كادت تخور من الرجل قواه ، وتراءى له أن يحجم من بعد إقدام . ولكن غروره أبى عليه ذلك فاندفع . وأراد أن يتظاهر بالهدوء فأخذ يحدث مساعده الطبيب الآخر عن الجو وأشياء لا تتصل بالعملية في كثير أو قليل .

وجرى كل شيء مجراه الطبيعي . وعادت إلى الطبيب ثقته بنفسه فارتاح . ولكن مابلغ من الجراح غوره حتى ظهر له ما لم يكن في الحسبان . ظهرت له أنسجة ملتحمة مختلطة لا يبين بعضها من بعض . ولم يكن قرأ عن شيء كهذا أبداً . ولم يكن فيما حضره من عمليات رأى شيئاً كهذا أبداً . إنها الحالة العاشرة ، الحالة المعقدة ، هي التي زامت له الساعة على غير انتظار . فأخذه القلق ، ثم أخذه الخوف وأحس كمن ضل طريقه من بعد هدى . وصمت فلم يتكلم ، وصنع ما صنع ليحتفظ بهدوئه . وبذل الجهد من بعد الجهد ليجد من هذه الورطة مخلصاً . ثم فارقه اتئاده وأخذ يخبط خبط الأعشى . وحدث شيء فظيع : شيء انفجر فانبعث منه الدم الكثير . فأحس بأن قلبه قد وقف ، وبأن رأسه قد دار . وتجمع على جبينه عرق بارد ، وأخذ يغور بأصابعه وهي ترتعش في أعمق الجرح . فسأله مساعده الطبيب : ماذا جرى ؟ فكان جوابه جواب من فقد عصبه . قال له : اخرس .

وأراد أن يصلح ما أفسد ، فرفع الأداة من بعد الأداة ، حتى امتلأ جسم المريضة مما انتشر فوقه من عدد . ورفع يده إلى جبينه يمسح ما كساها من العرق ، فخلف عليها خطوطاً من الدم حمراء . وارتعدت فرائصه فأراد أن يذهب بارتعاده فظل يدق الأرض بقدمه دقاً .

ونظر إلى الحجرة بعين هائجة كأنما يطلب العون من أركانها . ونظر إلى وجه زوجته يطلب منها المدد الذي كانت تسبغه عليه فمر ذلك الآن مدداً . ونظر إليه صاحب البنج يقول : إلى كم تستمر العملية ؟ إن النبض خافت ، وهي لن تستطيع أن تستمر طويلا .

فلم يكن له من بد غير رقع الفتق وسد الجرح . وارتمى من بعد ذلك على كرسي ، وقد وضع وجهه في يديه وفيهما الدم غير قليل . وحملت المريضة إلى حجرة أخرى . والطبيب المساعد انسل من الحجرة انسلالا صامتا لم يفه بكلمة . وبقي الطبيب وحده في حجرة العملية يفكر في الذي جرى . ووجد منديل زوجته على الأرض فرفعه إلى فمه وأخذ يعضه عضاً . ماذا صنع ؟ وإلى صنع ؟ إنها زوجته من دون نساء الدنيا .

وقام فاعترضته على الحائط مرآة ، فنظر وجهه فيها ملطخاً بالدم ، فتراءى له أنه وجه القاتل من بعد جريمة .

وذهب إلى حيث رقدت زوجته ، فوجد الستائر مرخاة ، والجو مثقلا بالذي فيه من أثير ، ونظر إلى الفراش فتبين جسم زوجته تحت الغطاء نحيلا ، وتسمع لأنفاسها في هدوء الحجرة الرهيب فلم يسمع شيئاً ، وكان على جانب السرير الممرضة ، وكان على الجانب الآخر صاحب البنج ، فظلا صامتين لا يقولان شيئاً ، وما كان هناك من شيء يقال .

فخرج الزوج كالمجنون يطلب الرجل العمن ، الرجل العتيق الذي أكل عليه الدهر وشرب ، الدكتور هارون . فحضر الدكتور بعد قليل ، وفي حجرة صغيرة حاول الزوج في قول مضطرب أن يصف له ماجرى ، ودخل الجراح على المريضة ففحصها فلم يلبث طويلا ، وخرج وأغلق باب الحجرة من ورائه . ووجد الزوج ينتظره هالعاً ، فوضع يده على عاتق الزوج وهز رأسه ، ثم مضى يطلب باب الدار دون أن يقول شيئاً

أحمد زكي

البلاستكس (١)

[ملخصة من الانجليزية]

البلاستكس مادة غير قابلة للاشتعال وليست هشة ولا مسامية . وهي غير منفذة للحرارة أو الرطوبة ووزنها نصف وزن الألومنيوم . ثم هي فوق هذا ذات قوة هائلة للتمدد وتبق بقاء البرونز . وأما فوائدها لجمة في حالتي السلم والحرب . .

وما كان للدبابات ولا للطائرات أن تبلغ من قوة اندفاعها ووثاقة تركيبها ما بلغته لولا البلاستكس التي تدخل في بنائها . وإنك لتجدها في الغواصات وفي أجهزة التلغراف وفي مجموعات التليفون وفي المدافع أيضا . ونفعها يعود على الجندي في ميدان الحرب وعلى الصانع سواء بسواء .

هي غير هشة . وليست موصلة للكهربية ، ثم هي ذات قدرة غريبة في التشكل وفي الصنع والتحول وفي مختلف الأغراض إلى الحد الذي يصل إليه نبوغ الإنسان .

فإذا كانت هي تتبوأ القمة من مواد كسب الحرب فلسوف تتضاعف قيمتها ويعم نفعها مستقبلا في وقت السلام .

ولقد يظن أنها ابنة تفكير العصور الحديثة من حيث نشأتها ووجودها ، إلا أنها متقادمة الميلاد قدم العلم نفسه ، فهي في هيئة الزجاج كانت قد عرفت منذ ٣٣٠٠ سنة مضت . فالمصريون والرومان قد استعملوها بكثرة منذ الماضي البعيد . ثم تقدم بها الزمن فاستخدمت في المصنع وفي المطبخ على صور مختلفة : منها أيادي فرش الأسنان والجرامفون وأغطية زجاجات البيرة وآلات الزينة وحلت ضيفا نافعا على شتى أغراض كثيرة .

وعرف عنها العلماء مادة جامعة مشتركة أكثر من الصلب تناولا وأجف من الخشب وأطرى من الحرير . واهتدوا لجعلوا منها قوالب مكتلة وجعلوا منها نسيجا من أجود خيوط النسيج .

وهي تستخلص من مصادر كثيرة . فمن اللبن ومن الثياب البالية ومن الفحم ومن بعض الأحماض ومن النباتات أيضا . بل هي تستخلص كذلك من ذات الهواء المحيط . ولكن الفحم هو أكثر هذه المواد إدراراً لها . فمن أجل ذلك كانت المناجم البريطانية ذات أثر فعال في عموم صناعتها بما حبت به الطبيعة أرض بريطانيا من مناجم كثيرة للفحم .

ومن عجيب التوفيق أنها لا تستهلك الفحم إذا هي استخلصت منه . فتبقى له فوائده . فعلى حرائق الفحم ولازاته يعتمد انتشارها ونفعها وتعدد ألوانها فيما بعد الحرب .

فكان طبيعيا على ما قدمنا أن تجيب مصانع الأزرار — على سؤال سألته وزارة التموين البريطانية — إن باستطاعتها أن تتم صنع (٥٠٠٠٠٠٠٠ زر) في ستة أيام . ذلك أنه ثبت أنه لو ضغط مسحوق البلاستكس على تقدير طن واحد للبوصة المربعة في درجة حرارة ٣٥٠ فهرنهيت يكون من المستطاع أن يتشكل هذا المسحوق بأي شكل يراد منه . فليس من المستغرب إذاً أن المصانع كان من السهل عليها أن تخرج قبيل الحرب ٢٠٠٠٠٠٠٠ من أيادي فرش الأسنان وثلاثة أمثال هذا العدد من الأزرار ، بالإضافة إلى مقادير هائلة من رؤوس المسامير (البرمة) ومقابض الأبواب ومفاتيح النور الكهربي وغير ذلك .

---

(١) رجعنا في تحقيق هذا المقال إلى السيد [illegible] المدير الفني لشركة البلاستكس المصرية . والذي عرفنا منه أن مدلول كلمة بلاستكس لا يحصرها لفظ عربي بمعناها الحديث فهي تضم إلى ألوان كثيرة من المادة منها : —

Methyl — methacrylate, Casein, Bituminous Compounds, Urea — Formaldehyde, Phenol — Formaldehyde, Cellulose acetate, Cellulose Nitrate, Ethyl Cellulose, Polystyrene etc.

ولقد نغفل ألوانا كثيرا مما ذكرنا . ولعل القارئ يلمس هذا الذي ذهبنا إليه بعد قراءته هذا المقال .

فأصبحت صناعة البلاستكس بذلك ولها أثرها الملموس في شؤوننا اليومية . ولسوف يتضاعف هذا الأثر ويبلغ مداه في وقت السلم العام .

فالطيران مثلا ، قد أثبتت التجارب الحديثة أن الطائرة من البلاستكس يمكن بناؤها في سبع ساعات ونصف ساعة بأيدي رجال لا يتجاوزون التسعة عدا . ثم إن مصهورها من الخفة بحيث يستطيع الرجل بمفرده أن يحملها بغير كبير عناء . إلا أنها في قوتها ومتانتها مما لا مدخل إلى شك في ذلك . أما سرعتها فدونها سرعة الطائرة العادية بسبعة أميال في الساعة . وثمة مصنع أمريكي في مقدوره أن ينتج طائرات للعائلات يبلغ ثمن الواحدة منها ٣٠٠ جنيه متى ما تهيأت الفرصة وحان حينها .

أما الشرائح أي الصفائح الرقيقة منها ، فقد تكلف مصنع ما — قبل اليوم — في إنتاج مازنته رطل في استخدامه استخداما صناعيا عمليا مبلغ ٥٠٠٠ جنيه . إلا أن ثمنها وتكاليفها كانت في مواضعها يومذاك . أما اليوم فهو غيره بالأمس ، ثم هذه استعمالاتها تعم وتشمل ما لم تكن قد شملته من حيث التعدد والغرض .

وثمة سؤال كان قد حير المهندسين والعلماء ، وهو : كيف يمكن خلط المعدن بالخشب مما كانت تتشعب بهم الآراء من أجل ذلك حتى كانت البلاستكس وحلت المعضلة .

واليوم لا يرجع فضلها إلى ذلك فحسب بل في ضم المعدن إلى المعدن بغير ما (برشمة) ، فكان لهذا أثره الذي لا يقدر في المصانع والمركبات والطائرات وعربات السكك الحديدية والسفن والبيوت .

ثم هي أيضا واسع مدى انتشارها في الطب وفي طب الأسنان الذي يدين لها بنفع غير قليل . فقد يصنع منها أسنان صناعية تعجز أن تميز بينها وبين الأسنان الطبيعية .

وهي ليست بأقل نفعا من ذلك في استعمالها كأعضاء مستعارة للإنسان بدل أعضائه المبتورة كالأيدي والأصابع بل حتى الآذان والأنوف حتى لقد بلغ من دقة ذلك أن جماعة من الأطباء كانوا يفحصون جنديا جريحا فلم يلحظوا أنفه الصناعي الذي كان قد عمل له منها في مستشفى بالجيريا !

فهذه إن أعجبتك فهناك حالة أخرى هي أبعد من أن تكون حالة عادية : ذلك أن عاملا قد تحطمت جمجمته في حادثة ما . فما هو إلا أن صنعوا له من البلاستكس جمجمة بشعرها فاستتر بها مخه العاري .

ثم طب العظام . فإنهم ليستعينون بها أي بالبلاستكس على ما يفسد من العظام لو يعتريها ما يتحتم معه إزالة الجزء الفاسد . فتحل محله .

فما تقدم يتضح أنه لا حد لألوانها أو لتعدد أغراضها ، مما لا يدع الشك يتطرق إلى ما سوف تبلغه من الأهمية في بناء ما بعد الحرب .

هذا ولتتوثقن الصلة بينها وبين ربات البيوت في صور مختلفة . في القدور والمواقد وأدوات الزينة وأدوات البيت وغير ذلك مما يدخل في نطاق لوازمهن .

بل ولقد تغزو غرف النوم والجلوس وإطارات الصور والنوافذ وأثواب السيدات والأثاث ، فتغدو كلها بمنأى من البقع ومن الخدش . ويدخل ضمن هذا النطاق والتحف . فأية فائدة هي عائدة على ربة البيت بذلك وقد ضمنت بقاء أوانيها بغير كسر وقماشها بغير بقع ، وما يترتب على هذا من تقليل نفقات الغسيل والمكواة !

كذلك يمكن عمل المعاطف من البلاستكس يتقى بها المطر . وتنسج الأربطة أيضا . وإن رخص هذه المادة وطول بقائها وسهولة غسلها يجعل في حكم المحقق صنع خزائن الملابس منها .

فأما نسيجها وأما الجوارب منها فمن الجودة والحسن بحيث لا يدع لغيرها سبيلا إلى الرغبة فيه .

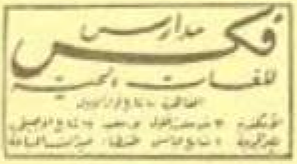
ياقوت صدقي
كلية الآداب

بين الحب والنصر

[عندما تردد نواقيس النصر أغاريد الحب والسلام]

كلُّ شيء لنا رضيٌّ مباحُ / ولنا اليومَ ساعةُ استباحُ
ساعةُ النصر هذه فتغنّيها / مهجاتُ القلوبِ ، والأرواحُ
طوّقت حولنا جناحاً من الحبّ / كما طاف بالسماءِ صباحُ
والتقينا بها وكنا حسبنا / منذُ عهدٍ لقاءنا لا يُتاحُ
موعدٌ ضمّنا على غير ظنٍّ / أخمدت فيه للحروبِ صفاحُ
تنفضُ الحربُ عنه عبئاً ثقيلاً / واستقرّت به قناً ، ورماحُ
واطمأنّت لنفسها كلُّ نفسٍ / وعلى جرحٍ نامت جراحُ
وبطونٌ سواجمٌ دامعاتٌ / غاض منها مرقرقٌ سحّاحُ
وعيونٌ ثملاتٌ من عيونٍ / فهي من فرحةٍ وضاءٌ فصاحُ
وشفاهٌ على الشفاهِ تلاقت / قبلاتٍ يشيعُ فيها المراحُ
تملأ الآن عالماً فاسمعيها / كالأغاريد هلّلتها الرياحُ
فهي تعلو لنا الغداةَ كما تعـ / ـلو لمن شفّه النوى والكفاحُ
كُلُّ ما حولنا جميلٌ جميلٌ / وجمالُ الحياة كأسٌ وراحُ
كوثرٌ من تُقى ورِقٍّ فيها / سائغٌ يُشتهى وماءٌ قراحُ
خالطَ النورُ لونَه وعلاه / كاليواقيتِ جوهرٌ لمّاحُ
نشوةُ الراحِ ذوّبت في سناه / ما علينا إذا انتشينا جناحُ
لا تظنّي مذاقَه فيه إثمٌ / رُبّ إثمٍ تزيله الأقداحُ
فالمنى ساعةٌ لنا في مداها / كلُّ ما قد يُتاحُ أو لا يُتاحُ

محمد البرعي



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧٠ — الثلاثاء ٢٥ من صفر سنة ١٣٦٥ — ٢٩ من يناير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

السياسة المصرية فى ربع قرن

لما قامت هذه البلاد سنة ١٩١٩ تطالب بحقوقها وثارت لذلك ثورتها التاريخية كان لها هدفان تسعى لتحقيقهما :

الأول : الاستقلال التام الذى يكفل لها مركزاً دولياً تتمتع فيه بالسيادة الذاتية الكاملة بعيدة من أى خضوع لنفوذ أجنبي .

الثانى : قيام حكومة وطنية دستورية على أسس الديمقراطية الصحيحة التى تكفل الحرية والمساواة والعدالة لجميع أفراد الشعب والتى تجعل كلمة الشعب هى العليا فى كل شئون البلاد .

ولقد مر علينا منذ ذلك الحين أكثر من ربع قرن تقلبت فيه ظروفنا وأحوالنا السياسية واختلفت علينا فيه العهود والحكومات ، وقامت فى داخل البلاد وخارجها أحداث كان لها أثرها فى تقريبنا من أهدافنا أو إبعادنا عنها . فلننظر أين نحن الآن من هذين الهدفين وهل تقدمنا أو تأخرنا فى سبيل تحقيقهما .

فأما الاستقلال التام فقد كان أمنيتنا الكبرى التى انعقد عليها إجماعنا سنة ١٩١٩ . ولقد قابلت إنجلترا حركتنا فى بداية أمرها بالعنف والشدة فنفت من رجالنا من نفت وسجنت من سجنت ، ولكن العنف لم يجد أمام إجماع أمة موحدة الكلمة صادقة العزم ، ولهذا اضطرت الملاينة وإرجاع المنفيين وإطلاق سراح المسجونين ، ثم اضطرت لمفاوضة زعماء البلاد فى مطالبهم . ولكنها لم تكن مستعدة لإجابة هذه المطالب وحاولت إقناعهم بقبول عروض جزئية ، فلم يجد فى البلاد من رضى بها دون الاستقلال التام . وبدا أن المشكلة مستعصية الحل ، ولكن فكرة

تحت تأثيرها المحتل بالارتياح وسارع إلى تنفيذها ، وهى إعلان إنجلترا اعترافها من جانبها بالاستقلال لمصر وبأنها دولة ذات سيادة مع تحفظات أوردتها وسائل علقتها إلى أن يقوم بينها وبين مصر مفاوضات بشأنها .

ومع أن المصريين لم يرضوا بما أعلن إلا أنهم تقبلوه على أنه كسب مؤقت وخطوة تمهيدية تتبعها خطوات ، وزاد قبولهم لهذا الوضع أنه سيتيح لهم فرصة لتحقيق هدفهم الثانى وهو قيام حكومة وطنية على أسس ديمقراطية .

واستمرت الحكومات المصرية المتعاقبة تحاول إكمال هذه الخطوة وتفاوض الحكومة البريطانية فى أمر إقامة العلاقات بين مصر وانجلترا على أسس ثابتة توطد الصداقة بين الطرفين وتحقق لمصر أمنيتها التالية وهى الاستقلال التام ، إلى أن تبلورت تلك المحاولات فى معاهدة الصداقة التى تمت بينهما سنة ١٩٣٦ وفيها نصوص صريحة توقت الاحتلال لأمد وتحدد إقامته فى منطقة خاصة ، وفيها حقوق والتزامات متبادلة .

وجاءت الحرب العظمى فخلقت ظروفاً غير عادية لم تكن مقدرة ومارست إنجلترا حقوقها الواردة فى المعاهدة كاملة ، وحملتنا الالتزامات المنصوص عنها فى المعاهدة لأبعد ما يحتمله تأويل نصوصها ، وأصبحت موارد نا ومدننا وموانينا ووسائل المواصلات لدينا تحت تصرفها ، واحتمل الشعب أكبر التضحيات فى سبيل الوفاء بتعهداته ، وصبر على ما أصابه من المتاعب والحرمان ومشاركة الملايين من جنود الحلفاء له فى أرزاقه وأمواله . بل لقد قدم مختاراً كل ما استطاعه من المعاونة لمصر قضيتهم حتى انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، فحمد الله على تلك النتيجة وارتقب الفرج بعد زوال هذه الغمة وتطلع بأمل كبير إلى حليفته العظيمة التى لمست ما بذل لها من تضحية وما قدم لها من معونة ، راجياً أن يكون ذلك محل تقديرها ، واثقاً من أنها ستسبقه إلى أكثر مما يرجو منها وأنها ستبادره بسحب جنودها اعتماداً على صداقته التى شهدت بها ظروف الشدة والمحنة .

ولكن الأمر ما لا تزال الحليفة مغضية الطرف . وقد طلبت إليها الحكومة رسمياً فتح باب المفاوضات لتعديل المعاهدة على أساس الجلاء عن مصر وضمان وحدة وادى النيل . ومع أن الرأى العام البريطانى لا يبدى استنكاراً لهذا المطلب العادل ، ومع أنه لا مبرر لها فى تأخير إجابة هذه الرغبة ، فإن الحكومة البريطانية تمانع الأمر ببطء يدعو للريبة ، ويبدو أنها تطاول كسباً للوقت . على أننا مطمئنون إلى عدالة قضيتنا واثقون من أن بريطانيا لن تجد لها عذراً تعتذر به عن إجابته ، والظروف الدولية مواتية لنا واختيار مصر عضواً فى مجلس الأمن يتيح لها الفرصة لعرض المشكلة على الدول إذا لم تنته فيها مع بريطانيا إلى حل يرضيها .

فإذا كنا لم نحقق هذا الهدف — الاستقلال التام — كاملا إلى اليوم فقد خطونا خطوات فى سبيل ذلك ، وكل الظروف مساعدة على أن نصل إلى أمنيتنا بها إن شاء الله .

أما الحياة الديمقراطية وهى الهدف الثانى لنهضتنا ، فقد سارعنا منذ اعترفت انجلترا من جانبها باستقلالنا إلى العمل على تحقيقها ووضع لنا دستور مستمد من أحدث الأنظمة النيابية ، ووضع قانون للانتخابات العامة على طراز ما يعمل به فى أرقى الدول الديمقراطية ، وأجريت الانتخابات وافتتح البرلمان وانتخبت الحكومة من ممثلى الأغلبية ، وبدا كأن كل شيء يسير فى السبيل المرسوم وأن هذا الهدف قد تحقق على أكمل وجه .

ولكن الأمور لم تسر فى هذا السبيل بهذه السهولة ؛ فالديمقراطية مذهب اجتماعى قبل أن تكون نظاما للحكم ، وهو فى صميمه قائم على احترام الفرد وعدم التعرض لحريته فى حدود النظم والقوانين ؛ ونجاح مثل هذا النظام يتطلب من الحاكم البعد عن كل مظاهر السيادة والاستبداد ومن كل فرد من أفراد الشعب أن يدرك مكانته كمواطن وكرامته

من خدمات العلم للإنسان

فى تصميم السفن [1]

لكى ينجح المهندس المعمارى البحرى فى تصميم السفن لابد له من استخدام كل فرع من فروع العلم :

فالعلوم الميكانيكية تستخدم فى تصميم المحرك والغلاية ليؤديا عملهما كما ينبغى ، وكذلك فى تصميم الهيكل أو البدن حيث يكون الهدف الجمع بين منتهى الخفة ومنتهى المتانة .

والعلوم الطبيعية تستخدم فى تصميم آلات الملاحة ، كجهاز صوت الصدى ، وأجهزة معرفة الاتجاه باللاسلكى ، وكذلك أجهزة التبريد أو تكييف الهواء فى عنابر السفينة ، وهذا التكييف وذلك التبريد مكنانا فى العصر الحديث من نقل اللحوم عبر البحور وكذلك من نقل الفواكه سهلة العطب كالموز مثلا .

والعلوم الكيماوية تستخدم فى استنباط الوسائل التى تتبع لتقليل حدوث التآكل وغيره من الفساد فى قاع السفينة ، تلك الوسائل التى تزيد فى عمرها وتحول دون هبوط سرعتها هبوطاً ذا بال .

والعلوم الطبية نفسها يُلجأ إليها عند وضع تصميم السفن المستخدمة كمستشفيات ، وتصميم مواضع عزل المرضى فى سفن نقل الركاب وفى السفن الحربية .

والعلوم الرياضية تستخدم بطبيعة الحال على نطاق واسع لإجراء الحسابات المتصلة باتزان السفن ومتانتها

(١) نقل عنا من L. Kent المرئيس معمل فرود بالمعمل الأهلى الطبيعى بانجلترا .

كانسان وحقه الكامل فى الحرية فى ممارسة حقوقه والارتياح لأداء واجباته .

فى شعب بادىء حديث العهد بمثل هذا النظام قريب العهد بالنظم الاستبدادية كان من الضرورى أن يسلك إلى تدعيم الحياة الديمقراطية برفق وحذر ، وأن يحرص القادة على تنوير الشعب وإفهامه حقوقه وكرامته قبل حرصهم على كسب ثقته ؛ ولو تواصوا بذلك لما قامت وسائل الدعاوة ولا نظمت طرق التأثير بالإغراء والتشهير ولما ارتفعت بعد ذلك شكوى من عمليات الانتخاب .

وقد جرت الأمور مع الأسف فى غير هذا الطريق ؛ فقد كان الساسة أحرص على كسب الأصوات من تنوير أذهان الناخبين وتعويدهم الحرية والمحافظة على الكرامة .

وكان من الطبيعى أن تقوم الأحزاب فى ظل الحياة النيابية ، ولكنها أحزاب لا تقوم على خلاف فى المبادىء والأهداف ، وإنما يقوم الخلاف على أشخاص الرؤساء والزعماء .

وحيث يكون « شخص الرئيس » هو محور الحزب كان من الطبيعى أن يحاط هذا الزعيم بهالة من التقديس والاحترام وأن يرتفع إلى مكانة تتنافى مع النظام الديمقراطى السليم .

فأنت ترى أننا ظفرنا من الحياة الديمقراطية — هدفنا الثانى — بشكلها وظاهرها ولم نصل إلى لبها ، وهذا الكسب الشكلى جر علينا ويلات كثيرة وخلق مشاكل اجتماعية كثيرة .

فمهمتنا الآن يجب أن تتجه إلى إشاعة الروح الديمقراطى الصحيح فى نفوس الشعب . وهذا العبء يقع أكثره على الشباب المستنير الذى لم ينغمس فى خلافات السياسيين ، فهو الجدير بأن يحمل الشعلة المقدسة ويتبع السبيل الصحيح للديمقراطية الخالصة التى تقوم على الحرية والعدالة والمساواة .

(. . .)

ومقاومتها (أو مقاومة الماء لحركتها) ، وبعض هذه الحسابات معقد إلى أقصى حد .

وعلم الاقتصاد يلعب دوره فى دراسة الطرق التجارية وما يكتنفها من ظروف خاصة مما له أعظم الأثر فى تصميم السفينة وتحديد أبعادها .

وهكذا نرى أن كل فرع من فروع العلوم يجب أن يساهم فى معاونتنا على الوصول إلى التصميم الكامل لسفينة المستقبل الناجحة .

والأغراض التى تبنى من أجلها السفن هى من الكثرة والتباين بحيث يكون لكل نوع منها صعوباته الخاصة ومسائله بالذات التى تتطلب الحل ؛ ونظرة سطحية عاجلة إلى عدد قليل منها تبين ، على ما أعتقد ، كيف يستخدم العلم لحل هذه المسائل والتغلب على تلك الصعوبات :

فالسفن الحربية قد يكون من واجبها أن تحمل المدافع الكبيرة الثقيلة مسافات طويلة بسرع عظيمة ، وأن تعمل فى أسطول متراص ، وأن تكون قادرة على القيام بالهجوم ليلا أو نهارا فى جميع الأجواء ، هذا عدا ما يطلب منها فوق ذلك من حماية نفسها ضد مختلف الأعمال العدائية الموجهة نحوها ، كالقنابل والطربيدات والألغام ونيران المدافع .

ولتحقيق ذلك كله تحتاج هذه السفن إلى حشد متباين من آلات غاية فى الدقة يتطلب تصميمها من المهارة العلمية الفائقة ما يبهر ويذهل .

والغواصات وحاملات الطائرات لم تصبح سفناً عملية إلا بعد أن أجريت بحوث علمية كثيرة على تصميماتها ، كما أن كاسحات الألغام لم يستفد الإنسان منها إلا بعد جهد علمى كبير ، أعان على الوصول بها إلى تلك الدرجة من النجاح .

أما فيما يتعلق بالملاحة التجارية فإن العلوم تعمل على أن تضمن للراكب وسائل الراحة ، بأن تهيئ له درجة حرارة معتدلة فى مسكنه الصغير بالسفينة (أى فى الكبين) الذى يتحتم أيضاً أن يخلص من الروائح الكريهة ومن الأصوات البغيضة . ثم إن هذه الكبينات تفرش بما يتفق مع أبسط حاجيات الراكب ، ومع الذوق الفنى السليم . كما تعمل العلوم جاهدة على أن توفر له مع ذلك كله أكبر قدر ممكن من الحيز .

بل إن ذلك القارب الأفقى القاع والمكعب الشكل تقريباً والذى يستخدم لنقل البضائع أحياناً وللسكن أحياناً أخرى (كذهبية) ، وينتقل فى مجارى المياه الصغيرة وتجره الجياد أحياناً وهى على الطريق الجانبى ، هذا القارب كان موضع دراسة وتجربة وبحث علمى دقيق فى إنجلترا زمناً طويلا ، وهى تجارب صارت تاريخية معروفة . وحتى إلى يومنا هذا لا يزال العلم يوحى بتعديلات فى أشكال تلك القوارب كان من أثرها تقليل مقدار المقاومة التى تلقاها فى سيرها فى الماء ، بنحو ٤٠ ٪ بغير أدنى تضحية فى الحيز المخصص لحمل البضائع ، وبغير أدنى مضاعفة فى نفقات الصنع .

بل إن اليخوت ومراكب السباق قد استفادت هى الأخرى فى تصميمها واختبارها من البحث العلمى الذى يجرى على نماذج لها تسيّر فى أحواض تجريبية خاصة . وكانت الفائدة عظيمة حقاً من حيث تقليل المقاومة ، وتخفيف الوزن ، وزيادة المتانة .

* * *

ولكى نوضح كيف يسخر العلم الحديث لتصميم السفن نضرب مثلا صغيراً نسبياً يتصل بهذا التصميم ، لكنه على صغره عظيم الأهمية ، ألا وهو العمل على إيجاد أحسن شكل وأفضله للبدن أو للسطح الخارجى لكل نوع من أنواع السفن بحيث يتفق مع الغرض الذى أنشئ هذا النوع من أجله .

هنا يجب أن نلم إلماماً بكل من الأمور الآتية : تكاليف الصنع ، وضمان الأمن ، وتوفير السعة ، وسهولة الإنشاء ، ومختلف الأبعاد اللازمة ، والتسهيلات الضرورية في مختلف الموانى التي في الطريق ، كالرسو عند الأرصفة وما إليه ، إلى غير ذلك من الأمور التي لا بد من مراعاتها .

فيجب أن يكون الهدف إنقاص المقاومة حتى تقل كية الوقود المستهلك ، ويتم هذا طبقاً لقواعد علم الإيدروديناميكا (أي الحركة في السوائل أو الأصح الموائع) . وإذا كانت القواعد والنظريات في هذه الناحية لا تسعفنا ، لتخلف العلم من الناحية النظرية ، فإننا نلجأ إلى التجارب نجريها على النماذج التي نصنعها لكل شكل يراد تجربته . وبهذه التجارب نتغلب على العقبات العملية ونتخطى ما في معلوماتنا النظرية من ثغرات لم يقو العلم النظري بعد على سدها .

وتُجرى هذه التجارب في أحواض تجريبية منشأة لهذا الغرض تشبه حمامات السباحة الفسيحة التي في اتساع الشارع الكبير عرضاً ، وتصل في الطول إلى نحو ٢٠٠ ياردة ، وفي العمق إلى ما بين ١٠ ، ١٦ قدماً ؛ كما تنشأ أيضاً نماذج مصغرة لفتحات قليلة العمق تمثل مصاب بعض الأنهار الكبيرة ، وكذلك الطرق المائية التي فتحها الإنسان كقنال السويس ، لتدرس فيها المسائل العويصة التي من نوع تسيير السفن في حيز محدود من المياه .

وهناك قنطرة (أو كُبرى) كبيرة من الصلب تزن عدة أطنان وتعبر الحوض ، ويمكن تحريكها بسرع مضبوطة في اتجاه طول الحوض على قضبان أفقية مثبتة على جدرانه . وتستخدم هذه القنطرة كمركبة تجر النماذج في الماء وتحمل الشخص القائم بالتجربة ومعه أجهزة القياس اللازمة له .

أما نموذج البدن أو الشكل الخارجي فيصنع عادة من الشمع الذي يصب في قوالب من الصيني ويتحدد شكله بالدقة بواسطة آلة مصنوعة لهذا الغرض بتصميم خاص ، فهي تكشط من الشمع القدر المناسب حتى يأخذ البدن الشكل المطلوب . والجهاز يقوم بهذا الكشط (أو قطع الشمع) حالما يكون القائم بالعملية يمر بقلمه على الخطوط المحددة لهذا الشكل في الرسم واحداً بعد واحد . أي أن العملية ميكانيكية تتم بصفة آلية .

وهذه النماذج الشمعية ليست بالصغيرة البسيطة فإن طولها يتراوح بين ١٦ ، ٢٠ قدماً ، ووزنها بين ½ ، ١½ طن ، وقد يصل في بعض الحالات الخاصة إلى أربعة أو خمسة أطنان حينما تكون كاملة الشحنة أو الحمولة . وقد يحدث في بعض الأحيان أن يستدعى الأمر نزول الرجال إلى النموذج للقيام بعمل خاص ، وقد بلغ عدد من نزل منهم في النموذج في ظرف من الظروف ثلاثة أشخاص .

وحين يتم صنع النموذج يسحب في ماء الحوض بسرع مختلفة ويقاس مقدار مقاومة الماء لحركته فيه ، وتؤخذ صور فوتوغرافية للأمواج الحادثة ، لتكون هذه الصور محل دراسة خاصة . وبهذا كله يستطيع المهندس المعماري البحري أن يحسب حساب الوقود المستهلك ويتأكد من مطابقته القواعد الاقتصادية ؛ فإذا لم يجده منطبقاً عليها أخذ يستخدم خبرته ويستغل سابق تعليمه في اقتراح التعديلات والتغييرات في هذا البدن أو الشكل الخارجي التي من شأنها تحقيق الاقتصاد المطلوب ، وسرعان ما تنفذ هذه الاقتراحات على الفور وتُغير الآلة الشكل الخارجي للنموذج الشمعي طبقاً للاقتراح الجديد ، وتعاد التجربة ثانية وثالثة الخ حتى يتحقق الغرض المنشود .

بعد ذلك يعمل تصميم المروحة التي تدفع السفينة في الماء ، ويركب نموذج لها على نموذج البدن ، وتجرى التجارب الأخرى اللازمة لحساب القدرة الحصانية المنتفع بها في

مختلف السرع ومختلف عدد لفات المحرك الخ . وفى السنوات الخمس عشرة الأخيرة أدت أمثال هذه التجارب إلى إنقاص الوقود المستهلك (وبالتالى إنقاص تكاليفه) ٢٠ ٪ وتوفرت منه مئات الآلاف من الأطنان كان العالم فى أشد الحاجة إليها .

هذا وتثار فى مياه الحوض أمواج صناعية بواسطة جهاز خاص حتى تجرى التجارب على المياه الثائرة كما يحدث فى الطبيعة بالفعل . وتوضع على النموذج أجهزة خاصة لتسجيل مختلف الحركات كالموج (ارتفاع مقدم السفينة وانخفاضه بفعل الأمواج) . كل ذلك بقصد الوصول إلى اتزان السفينة وإنقاص الحركات التى تضايق الركاب وتحرمهم من الاستمتاع بالرحلة كما ينبغى .

وعلاوة على هذه الأحواض التجريبية الكبيرة تستخدم أنفاق مائية ينساب فيها الماء بالسرع التى نريدها وتحت الضغط الذى نشاؤه لدراسة المسائل المتصلة بتسيير الغواصات والمدمرات وما إليها . وهذه الأنفاق المائية تشبه الأنفاق الهوائية المستخدمة فى دراسة مسائل الطيران والتى فيها يمر تيار الهواء السريع على أنموذج الجناح أو الطائرة ويكون لذلك نفس الأثر الذى لمرور هذه فى الهواء بنفس السرعة . وميزة هذه الطريقة أننا نسيطر على السرع ونتمكن من ضبط القياسات إلى غير ذلك من المزايا التى لا يمكن شرحها هنا .

ويحدث أحياناً أن تتغير الأحوال الاقتصادية تغيرات سريعة كما يحدث فى أوقات الكساد أو أوقات الرواج فى التجارة العالمية . وعند ذاك تصبح السفن التجارية التى كانت إلى وقت قريب تؤدى وظيفتها على أكمل وجه — تصبح فجأة غير صالحة من الناحية الاقتصادية ولا سيما من حيث أبعادها وسعتها المخصصة للبضاعة ؛ فإذا أريد لها أن تتلاءم مع الظروف الجديدة فلا مناص من إجراء عملية جراحية تُشق فى خلالها السفينة نصفين ويضاف إليها أو يقتطع منها أجزاء كاملة . فإذا استدعى الأمر إجراء شيء من هذا فلا بد من إجرائه طبقاً للقواعد العلمية الدقيقة ، وقد يقتضى الحال إجراء تجارب جديدة لهذا الغرض بالذات على نموذج السفينة المراد إجراء هذه العملية الجراحية لها . وكثيراً ما تتطلب أمثال هذه التجارب من القائمين بها تحمل المشاق وركوب الصعاب بل التعرض للأخطار . .

* * *

وهكذا ظل تصميم السفن قروناً عديدة فناً من الفنون يتوقف النجاح فيه على مهارة المهندس المعمارى البحرى والصناع المشتغلين تحت إشرافه ؛ وبتقدم الحضارة والعلوم استحال هذا الفن بالتدريج إلى علم من تلك العلوم ، وسيطرد تقدمه ويزداد تبعاً لذلك تحسن تصميم السفن ما دام العالم محافظاً على تشجيع البحث العلمى .

وبعد فهل بذل كل تلك الجهود والنفقات والوقت الثمين فى الحصول على تصميم علمى جيد لحاملة بضائع أمر ضرورى حقاً ؟ لقد علمتنا تجارب الحرب أننا حين نقتصر على مجرد الضروريات اللازمة لحفظ الحياة فإن الحضارة تضمحل وترتد إلى الوراء ؛ فليس من المغالاة أن نقول إن تقدم الحضارة واطراد سير المدنية يتوقف قبل كل شيء على توافر الكماليات التى تزدان بها الحياة كالفنون فى جميع صورها والأشياء التى تسر الحواس الخمس كالفواكه والزهور والروائح العطرية وكالشاى والسكر والتوابل وكالمطاط الخ ، كل هذه يجب أن تصبح فى متناول الجميع .

ونحن نعرف أن النقل الجوى سيظل غالى التكاليف دائماً ، ولما كان كل عمل من شأنه إنقاص تكاليف النقل البحرى وتسهيل هذا النقل خدمة للمدنية ولتقدمها ، ومن ثم يكون لكل هذا الكلام الذى مر أهمية عظمى فى الحياة العملية وفى التقدم الإنسانى .

أحمد عبد السلام الكرداني

٢ - الاتجاهات الحديثة

فى دراسة اللغة

الاتجاه النفسي والفلسفي والمنطقي – وتخصصت طائفة أخرى من علماء الغرب لدراسة اللغة دراسة فلسفية من حيث علاقتها بالنفس ومن حيث علاقتها بالمنطق وغير ذلك؛ فقد رأوا – مثلا – أن دراسة الكلمة ليست كدراسة أى شيء مادى كالعصا والكرسي والقلم والدواة، فهذه الأشياء ونحوها لا يحتاج فى دراستها إلا لتحليل الشيء المادى نفسه ومعرفة عناصره، وما يجرى على الشيء الواحد منها يجرى على أمثاله. أما الكلمة أو اللفظة فلها روح، لها معنى، فإذا قلت محمد يقرأ فلا بد لفهمها من ثلاثة أشياء عقل القائل وعقل السامع والفكرة التى انتقلت من عقل القائل إلى السامع – وكذلك لا بد من لفظة هى التى نطق بها القائل وسمعها السامع. ومن ناحية ثالثة لا بد من الحقائق نفسها وهى حقيقة محمد وحقيقة القراءة والعلاقة بين محمد والقراءة. وبالإجمال لا بد من ثلاثة أنواع: الفكرة واللفظة والشيء ذاته المتحدث عنه – وعلى هذه الفكرة الأساسية البسيطة قاموا بأبحاث قيمة عميقة: هل كانت اللغة حادثاً حادثاً عارضاً فى تاريخ الإنسان أو نشأت عن قصد وتعمد؟ هل يمكن التفكير من غير ألفاظ؟ هل يمكن أن تكون لغة من غير ألفاظ؟ ما العلاقة بين اللفظ والمعنى؟ ما معنى المعنى؟ ما الذى يجعل لغة أرقى من لغة؟ إن اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية تركيبية أكثر منها تحليلية، واللغات الحديثة تحليلية أكثر منها تركيبية؛ فهل الانتقال من التركيبية إلى التحليلية رقى أو تدهور؟ هل يمكن وضع لغة عالمية أو لا، وإذا أمكن فهل هو فى صالح الجنس البشرى أو لا؟. وهكذا من أبحاث لا عداد لها، وبعضها بل أكثرها لم يجد الإجابة الحاسمة عنها. وإنى أدخل فى باب عريض لو عرضت لحضراتكم ملخصاً للنظريات التى أثيرت حول كل موضوع.

واتجهت طائفة أخرى إلى العلاقة بين اللغة والمنطق، فاللغة ليست وظيفتها – فقط – نقل المعنى من ذهن إلى ذهن، ولكن لها وظيفتان أساسيتان: فهى إما إخبارية تنقل المعنى من ذهن إلى ذهن ككلامنا العادى وكصحيفة الحوادث الداخلية والخارجية فى الجرائد وككتب العلوم مثل الرياضة والطبيعة والفلك وما إلى ذلك، وإما «ديناميكية» أى قوة محركة للعواطف. والناحية الأولى عقلية والناحية الثانية شعورية للتحدث عن العواطف أو تهييجها، فإذا قلت إن الإنسان حيوان ناطق فهو من الضرب الأول، وإذا قلت إنه حشرة أو قلت إن النساء ملائكة أو شياطين فهو من الضرب الثانى.

وكان هذا أساساً لبحوث كثيرة واسعة للتفريق بين القضايا الإخبارية والقضايا العاطفية وما تؤديه كل منها، وهل قضايا الأخلاق من النوع الأول أو الثانى – وبيان أن لغة الشعر من الضرب الثانى وما يتطلب ذلك من ألفاظ خاصة وأسلوب خاص وبيان الخطأ فى استعمال اللغة الإخبارية محل العاطفية والعكس؛ كما أدى هذا إلى البحث الواسع فى معانى الألفاظ على هذا الأساس وأثر القضايا المختلفة على العقل وعلى الشاعر – وكيفية بناء اللغة وتركيبها وكيفية بناء الحقائق وتركيبها وكيف يتلاقى بناء اللغة مع بناء الحقائق، ولماذا تتبع اللغة قواعد خاصة فى بنائها دون غيرها، وهل لذلك سبب نفسى الخ.

وناحية أخرى توجه إليها بعض الباحثين وهى أن أهم بحث فى الفلسفة «نظرية المعرفة» أى كيف نعرف الحقائق، ولهذا اتصال وثيق باللغة، فما لم يعبر عن الحقيقة لا يمكن أن يقال إنها حق أو باطل؛ وقد ذهب بعض الفلاسفة المعاصرين إلى أن أكثر مشاكلنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية يرجع إلى استبداد الألفاظ بنا وتحجرها وضياع الحقائق

وراءها ، وفلسفة اللغة كفيلة بإظهار هذا . ثم بحثت هذه الطائفة أيضاً في الرمزية وفي نظرية أن كل لغة ليست إلا رمزاً للحقائق والأشياء والمعاني وإن كانت تختلف الموضوعات في مقدار الرمزية فيها ، فلغة الشعر ولغة الدين ولغة ما وراء الطبيعة أكثر رمزاً ؛ وبحثوا — خاصة — في لغة ما وراء الطبيعة ورمزيتها ، إذ بدون شرح الرمزية فيما وراء الطبيعة يصبح الكلام فيها ضرباً من الخيال وسبحاً في الأوهام لا يدل على حقائق ثابتة معينة ، وهكذا .

الاتجاه الاجتماعي — هناك اتجاه ثالث وهو الاتجاه الاجتماعي ، وذلك من حيث إن اللغة نظام اجتماعي كالأسرة والدين والحكومة الخ لها أثر كبير في حياة كل جماعة وكل أمة . فهي واسطة الاتصال بين كل شخصين وكل جماعة ، وهي التي تمد الإنسان بالمعلومات والمعارف التي وصلت إليها الأجيال السابقة والحاضرة ، وهي التي ترعى الإنسان وتتعهده بالرقي من حين طفولته إلى حين وفاته — ومن عوامل رقي الأمم وانحطاطها لغتها ، فأدب كل أمة قوياً أو ضعيفاً يطبع الناس بطابعه ؛ ولو نزل غريب ببلد وكان يعرف لغتها واطلع على جرائدها ومجلاتها وكتبها المؤلفة في عصرها الحاضر وأساليب أحاديثها لاستطاع أن يحكم لها أو عليها حكماً صادقاً بدرجة رقيها أو انحطاطها ؛ فاللغة هي التي تصور رغبات الأمة وعواطفها ودينها وعقليتها وشهواتها وكل شيء فيها ، وتنقل ذلك من الفرد إلى المجموع ومن المجموع إلى الفرد ، فيتفاعلون كما تتفاعل عناصر الكيمياء . وبدون اللغة (وأعني باللغة كل وسائل التفاهم من إشارة وإيماء وكلام) يكون الإنسان بجانب الإنسان كالحجر بجانب الحجر . إنما يربط بينهما اللغة ، وهي التي توحد بين الجماعة في المشاعر والأفكار ؛ ولذلك تجتهد كل أمة حية قوية أن تنشر لغتها في أوسع مدى ممكن علماً منها بأن ذلك من وسائل التفاهم وسهولة التعامل وعظم التقدير وخاصة من الضعيف للقوي .

هذه الناحية التي عرضتها عرضاً بسيطاً كانت مجالا لطائفة من العلماء ، بحثوا فيها كثيراً من المسائل اللغوية الاجتماعية بحثاً مستفيضاً : ما الذي تقوم به اللغة في مجال الرقي العقلي ؟ — إن اللغة نتيجة طبيعية من نتائج الحياة الإنسانية فكيف تستمر الحياة في تغذية اللغة من بداوة إلى حضارة ومن حضارة أولية إلى حضارة راقية حتى تساير الإنسان في نموه ورقيه ؟ — لقد راقبوا اللغة مراقبة دقيقة في نشوئها ورقيها ، وعرفوا كيف نمت بنمو الحياة وكيف تدرجت من تعبير من العواطف إلى لغة عمل وأمر ونهي إلى لغة علم وأدب وهكذا ، وسجلوا في ذلك نتائج قيمة في هذا التطور .

واللغة مع أنها من نتاج الحياة وخاضعة لها فيها صفة المحافظة والتخلف والميل إلى الوقوف ، لا تندفع مع الحياة وتسايرها إلا بدفعة من أبنائها الأقوياء . ثم اللغة تختلف معاني كلماتها باختلاف الأفراد والطبقات مهما جهدت المعاجم في تحديد معانيها ، وتختلف عند العامة والخاصة . فكل لغة ليست لغة واحدة وإنما هي في الحقيقة لغات ، وقد يكون للكلمة معنى عند بعض الجماعات في مستوى عقلي خاص ، فإذا انتقلت الكلمة إلى جماعة أرقى عقلياً تطور معناها . وبالغ بعضهم فقال إن لكل إنسان لغته كما له وجهه . وعلماء اللغة ميالون إلى مراعاة وجوه الاتفاق أكثر من مراعاة وجوه الخلاف ، ومراعاة التعميم أكثر من مراعاة التخصيص

إن كل جمعية حية تعمل للانتفاع بلغتها وتسييرها في خدمتها وتبذل جهداً كبيراً لتكميلها من النقص وجعلها صالحة للحياة المتجددة .

وكذلك بحثوا بحثاً مستفيضاً في علاقة اللغة بالمدنية : أكلما رقيت المدنية رقيت اللغة ؟ وأدائم ذلك إلى الوقوف عند المدنية : ما معناها ، واللغة ما معنى تقدمها ؟ إلى كثير من أمثال ذلك .

فإذا نحن نظرنا إلى اللغة العربية في ضوء ما عرضنا تولانا الجزع من تخلف لغتنا عن مسايرة حياتنا . فالمعاجم التي هي سجل الكلمات المستعملة الصحيحة لا تفي بحاجاتنا

ولا تصفها، ووقفت عند العصر العباسي بل إن واضعي المعاجم في تلك العصور أبوا أن يدخلوا فيها كلمات كثيرة وردت في كتب الأدب والعلوم مما كان يستعمله العلماء والأدباء العباسيون، وأغمضوا عيونهم عن الأشياء المادية والمعنوية التي خلقتها الحضارة العباسية، ولم يعترفوا إلا بالألفاظ البدوية وما استعمل قبل الاختلاط بالأعاجم، وغفلوا عن أن اللغة تابعة للحياة يجب أن تنمو بنموها وأن الأمة إذا تقدمت لا يصح أن تكون أسيرة لآبائها قبل أن يتقدموا وأن ما يملكه البدائي في خلق اللغة يجب أن يملكه وأكثر منه المتحضر العالم. ولعل ما أداهم إلى هذا الموقف إيمانهم بالنظرية الساذجة، وهي أن اللغة توقيف لا وضع، وأنها خلقت دفعة واحدة وانتهت، وقد كان عمل الأقدمين في قصر ما يأخذون على القبائل التي لم تختلط بغيرها عملا جليلاً من ناحية فهم اللغة العربية في أصلها وفهم الكتاب والسنة والشعر القديم؛ ولكن قصر مؤلفي المعاجم أنفسهم على هذا خلط بين غرضين، فالغرض الأول معرفة اللغة في أصل استعمالها، والغرض الثاني تسجيل ما يصح أن يتكلم الناس به، وفي الغرض الثاني تكون لغة الحضر أوفق وأنفع في الاستعمال من لغة الوبر؛ فبحثنا اللغوي الاجتماعي البسيط سيؤدي بنا حتما إلى المناداة بدفع اللغة أن تقفز من العصر العباسي إلى يومنا، وأن تفسح صدرها لحاجاتنا، وأن تتطور لتكون في خدمتنا، وأن يقر أهلها بأن رجال لغتها لهم الحق أن يعربوا كلمات وأن يخلقوا كلمات، وأن يشتقوا كلمات حتى يواجهوا موقفهم الحاضر، فلا تتخلف عقليتهم كما تخلفت لغتهم، كما سيتضح من أول بحث لغوي اجتماعي أن تقدم الأمة تقدماً حقيقياً مستحيل ما لم تتقدم اللغة وتستخدم في مصلحتها وتملأ كل فراغ موجود الآن من أسماء الماديات والمعنويات وما ولدته القرون الأخيرة من أفكار ومخترعات، كما سيتضح أن الأمة لا ترقى إذا كانت لغتها لا تصلح إلا لخاصتها دون عامتها؛ فالعصر الذي نعيش فيه يعتبر الحق لكل فرد الحق فيه أن يتعلم وأن يتثقف، وواجب الحكومات فيه أن تعلمه وتثقفه؛ ولا يمكن تثقيف الشعوب وتعليمها إلا بمرونة اللغة وتبسيطها وجعلها صالحة للشيوع والذيوع وحمل المعاني والأفكار والعلوم حملاً قريب المنال.

***

ثم آخرون من اللغويين الاجتماعيين اتجهوا في بحثهم إلى الناحية الاجتماعية الروحية — فالكلمات والجمل روح فعالة في النفوس غير معانيها التي في المعاجم؛ والفرق بين المعنى المعجمي والمعنى الروحي كالفرق بين النحوي في نظرته إلى تركيب الجمل وعوامل الرفع والنصب والجر والجزم وبين الفنان الذي يتذوق جمال الكلمات وجمال الأسلوب؛ وهذه الناحية الروحية للغة هي التي استخدمها ومهر فيها المتصوفة في أساليبهم ورجال الدين في وعظهم وإرشادهم وأمرهم ونهيهم وترغيبهم وترهيبهم، ورجال الشعر في خيالهم ورجال الخطابة في خطاباتهم. وكما كان في كل ناحية من النواحي مهرجون ومزيفون كان مزيفو هذه الناحية المشعوذين بالرقى والتعاويذ وأسماء الجن التي لا معنى لها، وهي مع ذلك تؤثر بروحها الضالة في النفوس الضعيفة

عكف هؤلاء الذين اتجهوا هذا الاتجاه الاجتماعي الروحي على البحث في الدور الذي تقوم به اللغة في الأديان وفي الشعر وفي العلم، وما للغة من ناحية باطنية تخلقها عواطف الفرد والأمة وناحية ظاهرية يتفاهمون بها في معاملاتهم ومحادثاتهم، وأن هناك صراعاً دائماً بين الناحيتين؛ وهذا قادهم إلى البحث في لغة الأمة وأثرها في عواطفها وعقليتها.

وعلى الجملة فقد كان من مباحثهم أيضاً — اللغة الشفوية في العادة واللغة المكتوبة والفرق بينهما من حيث التأثير النفسي — واللغة والبيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأت فيها، واللغة والدين، والناحية العملية والناحية الميتافيزيقية للغة، واللغة والشعور القومي، واللغة والشعر الخ.

وإذ كان هذا البحث حديثاً فقد وصلوا فيه إلى نظريات لا تزال مجالا للأخذ والرد ولم تستقر بعد.

***

الاتجاه التربوي — عند علماء التربية غرضهم الذي ينشدونه من تعليم اللغة ؛ وهو أن يمكنوا المتعلم — في أقصر زمن ممكن وبأقل جهد ممكن — أن يفهم فهماً صحيحاً ما يسمع وما يقرأ وأن يعبر عن نفسه تعبيراً دقيقاً فيما يلفظ وفيما يكتب .

وهذا الغرض المحدود شعّب البحث في أركانه وهي اللغة وطبيعتها والمتعلم وطبيعته والمعلم وطبيعته ومناهج تعليم اللغة ؛ فالبحث في اللغة ومزاياها وعيوبها وما فيها من وجوه قوة وضعف يساعد كثيراً على وضع منهج التعليم ، والمتعلمون يختلفون في القدرة على تعلم اللغة ، والمعلمون يختلفون في القدرة على تعليمها ؛ فما هي ملكات اللغة وكيف تدرس ويوضع لها المناهج المختلفة ؟ وما هو المثل الأعلى للبرنامج وكيف نصممه ؟

قد وصلوا من هذا إلى بحوث طويلة عريضة ، وقد استغل الباحثون استغلالا بديعا البحوث والنتائج التي وصل إليها علماء النفس والاجتماع ، وهذا باب من أهم الأبواب . فالإصابة في تعليم اللغة القومية يكوّن الأمة في تفكيرها ويعودها الدقة والنظام فيما تقول وتكتب وتفعل ، وإذاعتها في أمة الفوضى في التفكير والكلام السائح غير المنضبط والإقبال على الأدب الرخيص دون ما يتطلب الجهد . فمن أهم أسباب ذلك فساد تعليم اللغة القومية ؛ كيف نبدأ في تعليم اللغة ، وكيف نتدرج مع المتعلم منذ الطفولة إلى أن ينتهي من مراحل التعلم ، وكيف أكوّن المتعلم معجمه وكيف أضبط فهمه وأضبط لسانه وأضبط كتابته في أقرب زمن وبأقل جهد ؟ هذا ما يحاول هذا الاتجاه الاجابة عنه بشتى البحوث وشتى التجارب التي تشبه تجارب الطبيعة والكيمياء .

وأكتفي من هذه الناحية بهذه اللمحة .

لعل في هذا العرض السريع عبرة ، فلغتنا العربية العزيزة علينا ، والتي تكوننا ونكونها ، والتي يبلغ عدد المتكلمين بها نحو سبعين مليوناً تتطلب من أبنائها البررة مجهوداً جباراً في مثل هذه النواحي التي ذكرت .

تتطلب معجماً واسعاً تستغل فيه كل الدراسات التي عملت في اللغات المختلفة وخاصة اللغات السامية والفارسية لمعرفة أصل الكلمة وممّ أخذت وكيف تطورت على مر الزمان — معجماً لا يقف عند كلمات العرب الأقدمين ولا كلمات واستعمالات العباسيين ، بل يحدثه حيث وقف على بعد ثمانية قرون إلى حيث نحن وحيث نحيا وحيث نستعمل وحيث نفكر .

وتتطلب اللغة العربية دراسة نفسية وفلسفية واجتماعية على النحو الذي ذكرت .

وتتطلب من رجال التربية أن يقولوا بعد البحث والتجارب كيف نعلم لغتنا على خير وجه وكيف نتغلب على صعوبتها .

إن اللغة العربية تتطلب منا كل ذلك ، وليس إصلاح اللغة العربية من هذه الجهات ينتج نفعاً للقلم واللسان فقط بل هو — أيضاً — إصلاح للأمة في تفكيرها وفي خلقها وفي عقليتها وفي مشاعرها ، إن تعلم عدد قليل من الأمة لغات أوروبية يقرءون فيها ويستمتعون بها قليل الأثر في حياة الأمم ، إنما الأثر الأكبر للغة القومية التي يفكر بها الشعب بأجمعه وترفعه أو تضعه ، وتحيي عقله وشعوره أو تميته ، وليست الأمة تصلح بنقل بعض أفرادها إلى حيث النور ، ولكن بنقل النور إلى حيث الأمة كلها حتى يتبدد الظلام .

والله ولي التوفيق . **أحمد أمين**

كل شيء

في

يد الله

إلى من يلزم من أولي الأمر والرأي العام :

وقصر إسماعيل

هو قصر جليـل ظريف تقبل عليه من أي النواحي أتيته فتجده منيفاً يكتنفه روعة . ذلك لأن فيه شيئاً من روح الملك اسماعيل . وتدخل إلى حجراته وأبهائه فتجد فيه قطعاً من بقايا عزه القديم تلمح فيها روح الفنان الذي ابتدعها ، وكل جزء من تلك القطع جدير بأن يدخر مع محفوظات الآثار التي تتحدث عنها الأجيال ، لأن عصر اسماعيل كان عصراً فذا له شخصيته التي استمدها من ذوق الفنـان اسماعيل . ومع ذلك فقد ترك ذلك القصر لكي يتهدم ولكي يتدثر قطعة بعد قطعـة ولـكي يتساقط حجراً بعد حجر بغير أن تعبأ العيون بما فيه من تحف وبغير أن تفطن القلوب إلى ما ينطوي عليه من روح . وهذه حديقته الفسيحة التي كانت بغير شك آية من آيات الإبداع فيها الكهوف الصناعية البديعة وفيها الوديان المبنية الأنيقة ، وفيها العيون تنفجر بالمياه الصافيـة كأنها قد نبعت من ثنايا الصخر ، وفيها الأشجار العجيبة التي لم يعرف أحد أن يجلب مثلها إلى مصر سوى الشاعر اسماعيل . بل إن هناك الحشائش ذات الأزهار الغريبة ، وهناك الشجيرات ذات الألوان الساحرة ، ولـكن ذلك كله قد صار اليوم إلى أحراش موحشة شعثاء بعد أن كان جنة فيحاء ، وتحول إلى أكوام وأخاديد بعد أن كان من مسارح الروح ومسارح النغم ؛ فواحسرتاه أهذا قصر إسماعيل ؟ .

وقد زار هـذا القصر قوم بعد قوم من أهل البلاد الأخرى الذين يؤمون هـذه البلاد ولـكنهم لم يزوروا القصر لـكي يروا بدائعه ويمتعوا عيونهم بمباهج ذكرياته ، بل لـكي يزوروا بعض معاهد العلم التي يؤويها ذلك القصر اليوم لأن قصور اسماعيل ما زالت هي المأوى الذي يظل المعاهد ودور الحكومة إلى اليوم . وسأل هؤلاء الزائرون عمن بنى ذلك الأثر الذي يأبى جماله إلا أن يظهر من ثنايا حطامه والذي يأبى جلاله إلا أن يشعر الزائرين الروعة من خلال أخاديده وكثبانه . ولما علموا أن الذي بناه اسماعيل تحركت قلوبهم عطفاً يشوبه العجب وإجلالا ممتزجاً بالرثاء ، وقال قائلهم : وكيف تـكون هذه حال الأثر الجليل ؟ ثم علموا بعد ذلك أن القصر قد صار إلى أيدي الأفراد ملكيته ولها أن تتصرف فيه كما تشاء ، فقد تبيعه وقد تهدمه وقد تقسم أرضه إقتضاء الربح وتشق فيه الشوارع والأزقة ، فتربح من وراء ذلك ربحاً جليلا وقد تقيم فيه قصورا حديثة فتمحو بذلك على أثر قصر « اسماعيل » . وما إن سمع الزائرون بذلك حتى انطلقت منهم كلمة تكاد تـكون صيحة ، فقالوا : أينبغي لهذه الآثار أن تباع ؟ وما الذي يباع منها ؟ أهي الأحجار والأخشاب وقطع من الجذوع والأغصان ؟ إن مصر إذاً تسرف في بقايا مجدها ، وهي إذاً مثـل الذي ملك تمثالا من تماثيل عباقرة القدماء ، فلما احتاج إلى أن يسد ثلمة في جدار حطم ذلك التمثال ليصيب منه قطعة من حجر . هذا ما قاله الزائرون الذين يأتون من بلاد غير هذه البلاد ، لأن أذهانهم لم تعتد تصور مثل هذا الإسراف . وأما نحن الذين نعيش في مصر فقـد تعودت أعيننا النظر إلى مثل ذلك التحطيم وتعودت أفئدتنا تصور مثل هذا التضييع . فهناك قصور أخرى آلت إلى أفراد من الناس بعد أن كانت منازل الملوك فاقتطع منها ما اقتطع من الأرض وبيع منها ما بيع من التحف واستقر فيها المالك الجديد يتمتع بما كان ينبغي أن يكون تراثاً للأجيال بعد الأجيال . وإنه ليحزن النفس أن ترى مثل هذا التصرف الذي يكاد يبلغ حد التدنيس ، فإن هذه القصور تمثل حقبة من حياتنا القومية وتصور لوناً من ألوان تطور حضارتنا الناشئة . ولم يكن إسماعيل يعيش لنفسه بل كان يعيش لمصر ، وما كان يبني لنفسه بل كان يبني لمصر ، وكان يحمل بين جنبيه نفساً

ممتلئة بحب مصر ويحمل في خياله صورة المثل الذي ينبغي أن تكون عليه مصر، فكان يعمر وينشئ وينسق وينمق، ويتكلف النفقة الجسيمة ويواصل التفكير والابتكار في كل ما يؤدي إلى تحقيق تلك الصورة حتى تكون مصر حيث أراد وحتى تصبح صورتها وفق ماتخيله لها . وها نحن أولاء نتمتع إلى اليوم بآثار فنه ويتحرك الشعر في جوانحنا كلما جسنا خلال قصائده المجسدة في منشآته ؛ فحديقة الحيوان مفخرة من مفاخره وهي في ظل قصر من قصوره ، ودواوين الحكومة لا تزال تتمتع ببقايا عماراته ، وطريق الأهرام متنزهنا وهو الذي بناه ، وحدائق القناطر آية من التنسيق وأنموذج البساتين وهي من الكنوز الفنية التي ورثها لمصر؛ ولو شئنا أن نعدد ما نتمتع به من عطايا عبقرية ذلك الرجل العظيم لطال بنا السرد والتعداد . وهذا كله طبيعي لأن الأمم مازالت منذ القدم تتمتع بمآثر قدمائها وتسمو بمجد عظمائها وتزهى بمفاخر آبائها وجدودها ، ولكن العجب العجاب أن يخلف الأقدمون ميراثاً مجيداً لا يعرف الأبناء قيمته ويلقون به غير حافلين بما له من قيمة خالدة .

لم يبن إسماعيل قصوره لكي تؤول بعد جيلين إلى أفراد يشترونها بالثمن البخس ولا يلتمسون من ورائها إلا اختطاف الربح ، بل إن هذه القصور لم تكن من أول الأمر محلا للبيع والشراء ، وإذا كان ولا بد من بائع لها فما ينبغي أن يكون المشتري سوى الحكومة المصرية لأن واجبها أن تؤتمن على تراث البلاد . فالبيع من أول أمره منقوض لأنه بيع لما لا ينبغي له أن يباع . وإن من حق كل مصري أن يطالب باسترجاع الصفقة وإعادة الثمن إلى صاحبه بحكم القانون سواء أكان ذلك يرضيه أم لا يرضيه .

إن كرامة مصر تأبى أن ترى قصور اسماعيل في أيد من الأفراد؛ فهي إما أن تكون ملكا للأمة كلها وإما أن تكون محفوظة على أصحابها الأمراء الذين لهم صفة العموم، وإنها لبدعة من الأمم أن ينظر المصري إلى مثل هذا القصر ويتحسر أن يجده حيث لا يعنى به ولا يفطن إلى قدره . إن هذه القصور القديمة تتنفس بالذكريات ، والمعاهد التي تستظل بظلها تستطيع أن تستمد من تلك الذكريات مادة قومية لا تجود بها أعظم المباني الحديثة وأجملها وأبدعها هندسة . والأمة التي لا تحتفظ بذكريات ماضيها والتي لا تستشعر الكبرياء في اتصالها بأجيال آبائها وأجدادها تكون في خطر دائم من ضياع مثلها العليا وثقتها بنفسها .

ولست أريد أن أحتاط في التعبير أو أن أتجمل في الرجاء، فإني أطالب الحكومة أن تعمل على استرداد هذا القصر وأمثاله من قصور اسماعيل حتى تعود إلى الأمة المصرية التي تعرف كيف تحتفظ بها وكيف تتنفس من ذكرياتها وكيف تصل بها حاضرها بماضيها . وفي الجانب الغربي من النيل على الأقل قصران من تلك القصور ؛ وإنها لأمانة في أعناقنا جميعاً أن نطالب الحكومة باستردادهما ، ولن يكلفها العدل أكثر من رد مادفع فيهما من الثمن في أول الأمر ، وحسب الأفراد الذين ملكوهما أنهم فازوا منهما بربح وافر من ثمن ماحطموه منهما وما نزعوه من تحفهما، لأنهم لم يعرفوا لهما قدراً إلا فيما يعود عليهم منها من الذهب، ولم تتعلق أفئدتهم في شيء منهما إلا على أنهما سلعتان في تجارة تعود عليهم بالربح الوفير .

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

يوحنا پستالوتزى

(١٧٤٦ — ١٨٢٧)

في اليوم الثاني عشر من شهر يناير الحالي احتفل المربون، والمصلحون الاجتماعيون، في مدينة جنيف، بمرور مائتي عام على ميلاد المصلح الاجتماعي والمربي العظيم بستالوتزي. وقد ساهمت وزارة المعارف المصرية في الاحتفاء بهذه الذكرى، وأرسلت برقية تشارك بها المحتفين في نبيل شعورهم، وتسجل وافر تقديرها لما أسداه هذا المربي المتحمس للمجتمع وللتربية من خدمات جليلة.



وبستالوتزي سويسري الوطن ولد بزوريخ حينما كانت سويسرا مقسمة إلى ثماني عشرة إمارة مستقلة، وسبع وعشرين ولاية شبه مستقلة، ويربطها جميعها تحالف ضعيف. وكانت لكل إمارة وولاية إدارتها الداخلية القائمة على نظام الطبقات؛ هذا النظام الاجتماعي البغيض الذي تحكم به الأعيان والأغنياء في طبقة الفلاحين الفقراء، ووصلوا بهم إلى حال شبيهة بحال العبيد.

وكان لعزلة سويسرا عن بقية القارة الأوروبية نصيب في أنها لم تتأثر إلا قليلا بالأفكار الإصلاحية، التي ظهرت في أنحاء القارة. فقد كان الكتاب الفرنسيون يدعون إلى الإخاء الاجتماعي، وتحسين حال الفقراء، وكانت كتابات روسو في التربية والاجتماع قد أحدثت صدى قويا في المجتمعات الراقية. وبدأ الارستقراط يفكرون في إنشاء مدارس للفقراء، بعد أن كان التعليم مقصوراً على أبنائهم، وفي تحسين أماكن التعليم. أما في بروسيا فإن فردريك الأكبر قد أصدر قوانين سنة ١٧٦٣ و سنة ١٧٦٥، تحتم أن يكون التعليم إجباريا على كل طفل من سن الخامسة إلى الثالثة عشرة. وفي النمسا شرعت ماريا تريزا في تعميم التعليم بين الطبقات.

وإذاً فقد كانت في أوربا يقظة تربوية ديمقراطية. ولم يكن الباعث عليها في الواقع الشعور بحقوق الشعب، وإنما كان مبعثها خيرا إنسانيا. وظهر لهذه اليقظة صدى في سويسرا؛ فأخذ الكتاب ينادون بضرورة تعليم أبناء الفقراء، وأخذ الأعيان يقدمون المساعدات المالية للمدارس القائمة، ويقيمون مدارس جديدة لأبناء الفلاحين. ولكن هذا لم يكن إصلاحا شاملا، وإنما كان تفضلا قليلا وغير منظم جادت به أريحية الأغنياء، فلم يكن له أثر قوي.

وإذاً فقد كانت البلاد في حاجة إلى رجل من أبناء الشعب الفقراء الذين نشئوا في أحضان البؤس والشقاء، وعرفوا الداء والدواء، حتى يكون الإصلاح مبنيا على الخبرة والشعور بمواطن النقص. وقد كان هذا الرجل بستالوتزي.

تيتم صاحبنا وهو في الخامسة. وكانت أمه رقيقة الحال، ولكنها صالحة طيبة القلب، غمرت ابنها بعنايتها وعطفها. ولم يكن هو مبرزاً في حياته المدرسية، ولا في دراسته بالكلية التي أمضى فيها سنتين يتعلم اللاهوت.

وكان أثناء تلمذته يتردد على جده في قرية خارج زوريخ، فشاهد بنفسه ما كان فيه الفلاحون من بؤس، وهاله ما هم فيه من فقر وتعس. فصمم على أن يهب نفسه لخدمة الفقراء، ومقاومة الظلم. وهذا ما حدا به لأن يكون

قسيسا . غير أنه لم يوفق فى أول صلاة أقامها فى الكنيسة ، فترك مهنة اللاهوت وحاول أن يشتغل بالقانون ليجارى رجال السياسة من أهل زوريخ . وكان أن اشترك فى الجمعية الهلفتية التى جعلت هدفها تحرير العامة من سلطان النبلاء وأغرم بكتابات روسو وآرائه ، وأخذ يحارب بقلمه ولسانه طغيان الأرستقراط . ولكنه طورد وسجن ، فقرر أن يعمل برأى روسو وأن « يرجع إلى الطبيعة » . فذهب إلى الريف وهناك بنى على ضيعة كبيرة منزلا سماه « نيوهوف » وأراد أن يعيش وسط الفلاحين ليساعدهم ، ويعلمهم خير الطرق فى الفلاحة والحياة المنزلية . ولكنه كان سىء الحظ ففشل فى مشروعه .

لم يزعزع فشل بستالوتزى من إيمانه برسالته ، فقد كان يعتقد أن الفقر لا غضاضة فيه . وإنما الغضاضة فى أن يستعبد الفقراء لجهلهم ، وأن يعيشوا عيشة خالية من الكرامة . ولذلك قرر أن يجعل من منزله — نيوهوف — مدرسة صناعية يدخلها أبناء الفقراء لينالوا من التربية الجسمية والخلقية والعقلية ما يساعدهم على تحسين حالهم ، وخلع نير السيادة عنهم . ثم نفذ مشروعه الجديد ، ووقف زمنه ومجهوده وماله على تربية الفقراء . وكان تلاميذه يفلحون الأرض فى الصيف ، ويشتغلون بالغزل والنسج فى الشتاء . أما البنات فيتعلمن التدبير المنزلى والحياكة وفلاحة البساتين . هذا إلى ما كان يتعلمه الجميع من مبادىء القراءة والكتابة والحساب . وكان من المبادىء التى وضعها وطبقها ما قاله من أن تربية الفقير يجب ألا تعوقه عن أن يعيش فى حال الفقر التى كان عليها . وهو لم يغفل مع هذا التربية الخلقية لأنه كان يعتقد أن التربية الصناعية وسيلة من وسائل التربية الخلقية ، ولم يغفل التربية الدينية بل رآها ضرورية لإيقاظ قلوب الفقراء ، وجعل وسيلتها الوعظ والإرشاد واشتراكهم معه فى الصلوات ، وقد أثمرت مجهودات هذا الرجل ، ورأى نمو الأطفال فى أجسامهم وأخلاقهم ، وعقولهم ، فزاد عددهم . ولكنه لم يستطع الاستمرار فى الانفاق على مدرسته ، فأفلس وأغلقها ؛ وقد كتب بهذه المناسبة يقول : « لقد بذلت أقصى جهدى ، وتعلمت كثيراً من الحقائق ، واكتسبت تجارب قيمة . ولم تكن ثقتى بالأهداف التى سعيت إليها ، ولا بأهمية المشروع الذى بدأته أقوى فى أى لحظة منها فى اللحظة التى فشلت فيها . »

ظل بستالوتزى بعد إغلاق مدرسته ثمانية عشر عاما — إلى سنة ١٧٩٨ — فى عيشة فقر مدقع ، وقد أنفق هذه المدة فى الكتابة والتأليف ، وتدوين آرائه وتجاربه فى التربية . وقد ذكرنا أنه كان نصير الشعب ، مدافعا عن حريته . فلذلك لا غرابة أن نجده من أكبر أنصار الثورة الفرنسية ، والداعين لها فى بلاده . وفى سنة ١٧٩٨ كان الجنود الفرنسيون قد خربوا مدينة ستانز ، وقتلوا كثيراً من سكانها ، وخلفوا وراءهم عدداً من الأطفال الأيتام ، فاستدعى بستالوتزى ليؤسس لهم مدرسة ، فلبى الدعوة رغبة صادقة . وهناك حول ديراً إلى مدرسة . وعاش مع الأطفال كأنه واحد منهم . فكان يقوم بوظيفة الأستاذ والوالد والخادم والوصى والممرضة . ولم يكن عنده شىء من الأدوات المدرسية ، فاعتمد على الطبيعة وجعلهم يلاحظون ويختبرون ، ويكشفون ويفهمون . ولقد وصف حياته فى هذه المدرسة بقوله : « كنت ألازم الأطفال من الصباح إلى المساء . ولم أدع فرصة يستعان بها على إنماء أجسامهم وعقولهم إلا انتهزتها . وكانت يدى فى أيديهم فى كل عمل وساقى تصحب سيقانهم فى كل حين . وكنا نقتسم الطعام والشراب ، ونمشى فى الحقول والزرع نستنشق طلق الهواء ، وكنت أحس الصحة والعافية ما داموا فى صحة وعافية » غير أن بستالوتزى لم يكن فى هذه المرة بأحسن حظا منه

في المرات السابقة ، فلم تمض خمسة أشهر حتى اتخذ جنود فرنسا مدرسته مستشفى للجرحى فغادرها آسفاً .

لم يقف نشاط بستالوتزى عند هذا الحد ، بل أتيحت له الفرصة ليكون معلماً في مدرسة برجدورف . وقد وجد في هذه المدرسة مجالا أوسع لتطبيق تجاربه ، وأفكاراً جديدة ، فقد ذهب الى أن الطفل مزود بقوى ومواهب ، وأن وظيفة المدرس هي إنماؤها . وذهب الى أن معارف الأطفال تأتى اليهم من طريق حواسهم ، فلا بد إذاً من تنمية هذه الحواس ، حتى يكون فهمهم لما يحيط بهم صحيحا . وهكذا نجد نظرياته التربوية قد صارت أشمل مما كانت عليه من قبل . ولم يلبث في هذه المدرسة الجديدة أن حبب إليه التلاميذ فتعلقوا به ، مما أثار الحسد في نفس الناظر فتخلص منه .

كل هذا لم يقض على آمال بستالوتزى ولم يثن من عزمه . وها نحن أولاء نجده في سنة ١٨٠٥ شريكا في معهد ايفردون ، وكان في هذه المرة أكثر توفيقا ؛ فقد وفد اليه التلاميذ من جميع أنحاء أوربا . وتنبه كثير من الحكومات لطرقه في التعليم وإصلاحاته الاجتماعية ، فأرسلت أبناءها ليتلقوا تعاليمه ، وهكذا ظل بستالوتزى في معهده عشرين عاما انتشرت فيها آراؤه ، ولكن في النهاية دب الخلاف بينه وبين زملائه ، فترك المعهد ، ورجع الى نيوهوف موطن شبابه .

كانت حياة هذا الرجل سلسلة من المخاطرات في سبيل الفقراء ، وحرية الشعب . فقد عمل وعلم وكتب وأنفق المال والجهد . وخلد له تاريخ التربية آراء لا تزال معالم يهتدى بها المربون ؛ ونادى بضرورة أن يتعلم الطفل بنفسه وعن طريق تجاربه ، حتى تنمو مواهبه وتكمل فرديته .

وبستالوتزى هو الذى نادى بأن تكون تربية الفقراء غير مانعة لهم من أن يعيشوا في ظروف الفقر التى نشئوا فيها . وقد أراد بهذا أن تكون المدرسة إعداداً للحياة الخارجية ، والظروف الواقعية .

نعم عاش بستالوتزى للفقراء ، وأحب الفقراء ودافع عنهم . وكان في طليعة القائلين بأن أى إصلاح لا يمكن أن يقوم إلا على تربية الجمهور ، وأن تعليم هؤلاء لا يجدى ما لم يكن مصحوبا بالحب والعطف .

عاش هذا الرجل ، وضحى وعمل ، وكتب ونشر في سبيل التربية الشعبية الأولية . ولما مات كتب على قبره :

« بذل كل شىء في سبيل غيره ، ولا شىء لنفسه »

عبد العزيز عبد المجيد

لوح الحياة

كل شيء مسطر مكتوب
وهو لوح من الورى محجوب
فيه هذى المنى وهذى الخطوب

* * *

خط ما خط من سطور القضاء
لا تحاول إبدال ياء بباء
فالأواني مقدرات تصير
والمواضي والحادثات سطور
ضقت ذرعاً يا صاح لا حو –
ل ، لا طول ردها ، لا احتيالا

* * *

كذلك راح عمر بن الخيام ، الشاعر الفلكي الفارسي يطلق لتأملاته العنان ، وهو يطل من ثغرة خيمته المصنوعة من وبر الإبل ، وكذلك حاول أن يصور في القرن الحادي عشر ، آواني الحياة ومواضي الأيام ، فرفع بصره إلى الملاء ، وأجال طرفه في النجوم والأقمار ، من « كل سار وغاد » وتشبههن هائمات في « الفلك الدوار » « فاعتراه الدوار » أمام تلك القدرة الفائقة ، التي جعلت « هذى الحياة كالجوكان [١] » ونحن فيها :

تلك الكرات والحبال
هو رب القضا وهذا المجال

فتخشعت نفسه أمام ذلك « الخيال » الذي لا تدرك مدى قدرته أبصار الخلائق ، ولم يسعه إلا أن يقول :

فلتسلم أمره تسليما
فهو من كان بالمصير عليما
منذ كانت هذى البرايا سديما

(١) « الجوكان » اسم لعبة فارسية هي لعبة الصولجان (الجولف) التي أخذها الأعاجم عن الفرس وأغرموا بها =

وأدرك أن ذاك الذي كان بالمصير عليما ، يعرف أننا لا نستطيع علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ، ولذلك لا يمكن أن تكون يده التي أعدت لنا لوح الحياة ، يداً مستبدة عاتية ، فإنها لا تسطر خطوط ذلك اللوح ، قبل أن نحيا هذه الحياة ، وكذلك يجب أن نوقن بأن الحظوظ وطوالع النحس ، لا تتصرف فينا ، إلا بقدر انقيادنا الأعمى لها ، واستيائنا مما ترسمه لنا ، وأن الذي نشكوه من نكود الحظ العاثر ، أو نحوس الطالع ، دليل جحودنا قدرة « رب القضاء » ولا ينبغي أن نعزوه إلى « النجوم والأقمار » . وينصحنا الخيام بأن « نعد ، أمثالا » وبأن نعلم أن الصنع متصل بالصانع أبداً ، وأن كينونة العوالم غير المنظورة توجهنا وتسدد خطواتنا ، وتسهر على حركاتنا وسكناتنا ، ولا تأخذنا بالجبرية . فالإساءة والإحسان ، وكل ما يختلف علينا من النقم والنعم ، من فعلنا ، بل إن جميع ما يعرض لنا في الدنيا من إيلاء وبلوى عمد أو اتفاق ! أو ليس الخيام هو القائل : « لقد بعثت إلى روحي في العالم غير المنظور ، رسالة عن الحياة المقبلة لكي تقرأها فعادت إلى روحي بعد قليل وقالت : إني أنا نفسي الجنة ، وأنا النار »

حقاً أن كل يوم من أيام حياتنا هو وحدة كاملة نحياها حياة مستقلة تامة ، ومتى انقضى ذلك اليوم سجلت سطوره في لوح الماضي الأبدي ، الذي لا يمكن أن تنمحي منه كلمة أو حرف واحد . وها هي سنة جديدة ، قد سطعت علينا بإشراقها منذ أيام لتضاف إلى لوح وجودنا ، فهل يستطيع كل منا أن يقطع على نفسه العهود في غضونها فيقول :

« إني سأبدأ من جديد في هذا الصباح ، فأصطنع لحياتي دستوراً أسمى وأنقى من ذلك الذي اتبعته في سالف أيامي ! .

وسأثني عزمي عن الوقوف ، لتعقب سقطات جاري ، وتتبع هفواته ، وترصد عثراته وإعلانها للملأ بالصوت الجهير .

وسأحبس عنانى وأغل خطاى عن الجلوس ، للانصراف إلى التبرم والتذمر ، وسد أذنى عن الاستجابة للصوت الذى يدعونى إلى واجبى فى صراحة ولين وحسم .

وإن أضيع لحظة فى الرثاء والعويل ، ولن يعرف قلبى الوجل والتهيب .

وسأجيل الطرف حولى فى أحايين ، منقباً عن المآثر المحمودة ، والمناقب المشكورة التى يشيع بالثناء خبرها ، ويحمل فى الصحائف ذكرها ، وسأبحث عن الروائع التى تغيب عن بصر كل متأفف متسخط ! !

وسألتمس أسباب الرضى فى المسالك المحتومة التى لا تنطلق نفسى لاجتيازها ، وتجتوى مشارفها .

وسأتجنب الإحساس بالامتعاض والحنق حين أرى أن الآخرين قد سبقونى فى العلم والفضل ، وأربوا على .

ولن أدب لنافسىّ فى قلبى عقارب الحسد ، وأبرز لهم صفحة المباراة ، لأنهم قد بلغوا المنزلة التى اشرأبت إليها أعناق الأمانى ، بل سأصفهم أجمل وصف ، وأذيع مفاخرهم ، وأطنب فى مدائحهم وفضائلهم ، وأقضيهم حق اللهج بها وأؤديهم مفترض إذاعتها ، وسأجاهد لكى أجرى معهم حقاً فى عنانى ، وأثبت أنى من أكفائهم وعدلائهم . وسأحاول أن أبصر على الدوام الجمال الماثل أمامى فى الصحو والغيم . .

وسأكف عن تقريع الغير والإقبال عليه باللوم ، والإلحاح فى مناداته إلى واجبه وإظهاره عليه ، لأزداد عناية بمعرفة واجبى ، مذكرة نفسى بقول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا كى ما يصح به وأنت سقيم

ولقد قال الخيام الذى انصرفت فى هذا الصباح الناضر إلى تلاوة سيرته

فاغتنم فرصة البقاء فإن الـ
موت ما عود الفتى إمهالا

فما أحرانا بأن نغتنم فرصة هذا البقاء لكى نحيا حياة نافعة .

ما أحرانا بأن نمد يد العون إلى مجاهد نبيل أدركه فى كفاحه العثار والخوار كى نمكنه من استرداد أداة دفاعه ليستأنف اجتهاده المقدس !

ما أحرانا بأن نستعير من الشمس شعاعها كى تنفذ إلى بعض النواحى المظلمة فى وجودنا قبل أن يخط ما يخط من سطور القضاء فى اللوح المحجوب ولا نملك حولا ولا طولا لمحاولة إدخال الباء فيه بباء .

قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » . (الزهرة)



(٦) الأشعار الأندلسية

وعلاقتها بالأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

فى هذه الظروف السياسية المضطربة عاش ابن قزمان وكان بطبعه حساساً قابلا للتأثر بكل ما يحيط به ، وكان كذلك متداخلاً ميالا إلى المغامرة ، غير هياب من الإلقاء بنفسه فى معترك الحياة ، ولم يكن حاله بأحسن من حال معاصريه من حيث الشغف بالمتعة والميل إلى الإسراف فى اللذة وعدم الاكتراث بمصير الجماعة التى كان يعيش فيها. وكانت الجماعة القرطبية قد تطورت تطوراً ظاهراً خلال فترة الطوائف وتحت حكم المرابطين ، شملهم الأمن فترات متقطعة طويلة أو قصيرة ، وارتفعت عنهم مطامع الثائرين والمتنافسين والنصارى وكان قد هاجر إليها نفر كبير من سروات الأندلس وأهل السلطان الذاهب فى كثير من المدن الأخرى ، هاجروا إليها بما لأنهم وأموالهم ، وأخذوا يحيون حياة فراغ واستمتاع ؛ وكان فى قرطبة إذ ذاك ألوان شتى من المتاع أهمها النساء والخمر . فأما النساء فقد كانت تقبل على البلد جماعات لا حصر لها من الجوارى من كل صنف ولون . كان تجار الرقيق يحملون إلى البلد أطيب ما يصل إليهم من السبايا القشتاليات ، والكتلانيات ، والجليقيات والإيطاليات والبربريات ، فكثر الجوارى فى كل بيت ، وأخذ سادتهن يعلمونهن الغناء والرقص ، ويعدونهن للمتاع والتسلية ، فكان لكل سيد فى هذا العصر حريم صغير أو كبير فيه من المغنيات وصاحبات اللهو نفر كبير ، واستتبع ذلك الإسراف فى الجوارى إسرافاً فى الخمر . وأهل الأندلس معروفون منذ أقدم أيامهم بحبهم للخمر وتفننهم فى صناعتها ، وفى التغنى بمجالسها والتمدح فيها ، فلما سقطت خلافة قرطبة ، وزال عنهم سلطان الدولة أسرفوا فيها إسرافاً بالغاً ، وانعقدت مجالسها فى منازل المترفين والأوساط كل ليلة : يشرب السادة فيسرفون فى الشراب ، وتغنى الجوارى فيبدعن فى الغناء ، وتتصل أصوات المعازف من بيت لبيت ، ويتجمع الصبية والطغام والمارة على قوارع الطرق ينصتون ويرددون ، ويسود البلدة كلها فى الليل جو من المرح والمتعة والإباحة لم تشهده فيما سبق من تاريخها .

هذه المجالس الصاخبة كانت فى حاجة إلى ما تتغنى به . فأما القصائد العربية القديمة فلم يكن لهم إليها ميل شديد ، بل كانوا يكرهون الإعراب فى أغانيهم ويؤثرون عليه « البلدى القريب » كما يقول ابن قزمان نفسه ، وكانت الجوارى لا يحسنّ حفظ القصائد الفصيحة أو إلقاءها ، وكان صبية الشوارع لا يستطيعون ترديدها . وإنما تعلقت الأنفس بالأزجال العامية والموشحات البسيطة التى أعطت الأندلسية الروح السهلة الحفظ والتلحين والإنشاد ، فبدأت موجة هذين الفنين الشعريين تعلو وتنافس فيهما أرباب الشعر ، بل أخذ الكثيرون من الشعراء يهجرون الشعر الفصيح والموشح المعرب إلى الزجل العامى البسيط .

فى مقدمة هؤلاء الذين هجروا الشعر إلى الزجل أبو بكر محمد بن قزمان ، وكان كما ذكرنا شاباً مترفاً فيه ميل شديد إلى اللهو والعبث ، وكانت له نفس وثابة تحدثه بالشهرة والتفوق ، فأخذ يقرض الشعر المعرب ، ولكنه أحسّ أنه لن يوفق فيه إلى نجاح كبير ، فانصرف إلى الزجل العامى ، وكان عليه أقدر ، ولما كان بطبعه مستهتراً فقد أخذ يضفى على أزجاله لوناً مستهتراً ، فوجد هذا الفحش قبولا من الناس ، فمضى فيه وأسرف إسرافاً شديداً ، وأخذ يضع أزجالا ، فيها من المجاهرة بالمنكر والتصريح بالفحش قدر يجرح الذوق السليم وينفر الحياء ، وليس إلى الشك سبيل فى أن ابن قزمان هذا هو غير ابن قزمان الذى تذكر المراجع أنه كان وزيراً للمتوكل بن هود ، لأن

المتوكل توفى سنة ١٠٩٥ أى وابن قزمان الزجال بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من عمره ، ولا يمكن أن يكون قد تولى الوزارة قبل هذه السن ، ولا أدرى كيف خفى هذا على دوزى فى خطابه الذى أرسله إلى البارون فن روزن وأكد فيه أن ابن قزمان الزجال وابن قزمان الوزير هما شخص واحد ، معتمداً فى ذلك على عبارة لابن الخطيب يقول فيها «... ... ثم جرت عليه — أى على ابن قزمان ، محنة بسبب شكاسة خلق كان به شقى بسببها وقد ذكر ذلك الفتح فى قلائده» وهى عبارة ليست من الصراحة والوضوح بحيث تسمح للانسان بالقطع فى هذا الموضوع . على أى الأحوال ثبت لنا الآن بصورة لا تقبل الشك أن ابن قزمان الوزير هو غير ابن قزمان الزجال ، وقد أطلعنى زميلى الأستاذ عبد العزيز الأهوانى على عبارة صريحة لابن سعيد لا تسمح بأى شك فى هذا الموضوع بعد ذلك ، وقد لاحظت فى كتابات الأسبان أنهم يعرفون هذه الحقيقة منذ سنوات فخدالد بالنبيه بلقب ابن قزمان فى كتابه بالشاب أو الأصغر تفرقة له عن ابن قزمان الأكبر وهو الوزير . أما تسمية ابن قزمان لنفسه وتلقيب الناس إياه بالوزير فهذا لا يعنى شيئاً ، لأن هذا اللقب وغيره من الألقاب التى كانت معروفة حينئذ كالفقيه والأستاذ والحاجب ، كانت قد فقدت كل قيمة رسمية ، وابتذلت حتى تسمى بها كل من هب ودب من الناس ، وقد قرر المقرى ذلك فى نفح الطيب صراحة .

تصف المراجع ابن قزمان الزجال بأنه كان أشقر أحمر الشعر واللحية والشارب ، وقد أراد ريبرا أن يعلق على هذه الأوصاف أهمية خاصة ، فذهب إلى أنه من أصل قوطى ، وإلى أن هذا الأصل القوطى هو السر فى اتجاهه الشعرى الخاص ، وهو اتجاه مهما يكن من مشابهته لما كان ينظم فى وقته إلا أنه على كل حال فريد فى بابه غير مألوف عند العرب والمسلمين ، بل هو أقرب إلى روح الأشعار والقصائد التى كانت شائعة فى شمال أسبانيا وجنوبى فرنسا والتى تطورت منها فيما بعد أشعار المغنين الجوالين المعروفين بالتروبادور ، ولكن هذه حجة واهية ظاهرة التكلف ، لأن الشقرة واحمرار الشعر كانا من الأوصاف الشائعة بين مسلمى الأندلس ، فقد كان الكثيرون منهم من أمهات شُقر ، ثم إن النقاد ومؤرخى الأدب تولوا دحض هذا الرأى من الوجهة الشعرية الصرفة ، فذكر جورج كولان فى مقال له فى الهسبريس أنه مع موافقته على أن أزجال ابن قزمان تمثل مزاجاً جديداً غير معروف فى الأدب العربى ، إلا أنها على كل حال لا تعيننا على إيجاد حلقة الاتصال بين الأشعار الأندلسية وأشعار التروبادور ، بل إن للأندلسيين موشحات وأزجالاً هى أقرب إلى أن تكون أصل أغانى التروبادور من أزجال ابن قزمان هذا ، لأن أزجاله المسرفة فى الفحش بعيدة فى روحها من روح أغانى التروبادور عما تمتاز به من احتشام ، ولكن أزجال رجل كالأخطل ابن نمرة وأقاصيص ابن حزم التى أوردها فى «طوق الحمامة» أقرب فى روحها إلى الأشعار الأوربية التى نشأت بعد ذلك بقليل من أزجال ابن قزمان . فكولان ومن على رأيه من نقاد الأدب يقررون أن موشحات الأندلسيين وأزجالهم هى أصل أشعار التروبادور ، ولكنهم ينكرون أن ابن قزمان يمثل هذه الأزجال الأندلسية ، إنما يمثلها فى رأيهم ابن زهر فى غزلياته القليلة وأبو الهيثم الأشبيلى وأم الكرام بنت المعتصم صاحب المرية ، وابراهيم بن سهل اليهودى ، بل إن السيو كور ناشر ديوان ابن زيدون وجارثيا جوميز مترجم قصائده إلى الشعر الأسبانى ابريان فى ابن زيدون وأزجاله الأصل البعيد لشعر التروبادور ، لأن فيها وقاراً وتسامياً يقربانها من الحب المحتشم Amour courtois الذى يشيع فى الأشعار التى ذاعت فى جنوبى أوربا ابتداء من القرن الثانى عشر

(للبحث بقية) حسين مؤنس

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألمانى رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

مقدمة

في يوم من أخريات أيام الخريف من سنة ١٩٠٢ كان يجلس في ظلال أشجار الكستناء العتيقة بحديقة الأكادمية الحربية بمدينة ڤينا فتى لم يبلغ بعد العشرين ، اسمه فرانتز كسافر كَپُّس ، شاءت له الظروف أن يستعد لأن يكون ضابطا ، على حين كان ميله إلى الشعر أقوى من ميله للجندية .

انتحى الفتى من حديقة الأكادمية هذه الناحية يشبع شوق نفسه بقراءة كتاب يحوى قصائد للشاعر الألمانى رَيْنَر مَريا رِلكه (Rainer Maria Rilke) . وقد بلغ من شدة استغراقه في القراءة أنه لم يكد يتنبه لمجىء قسيس الأكادمية إليه ، وهو العلامة الفاضل هوراجيك ، الأستاذ الوحيد الذى لم يكن في سلك الضباط بين أساتذة الأكادمية .

أخذ الأستاذ الروحى الكتاب من يد الفتى ، ونظر غلافه ، فهز رأسه وسأل في روية : أشعار مريا رلكه ؟ ثم أخذ يقلب صحائف الكتاب ويقرأ بعض الأبيات قراءة هى أشبه بمرور الطائر ، ثم أرسل بصره في الفضاء البعيد متفكراً وقال : هكذا صار الطالب رينر مريا رلكه شاعراً .

قص القسيس على الضابط التلميذ قصة رينر مريا رلكه ، ذلك الفتى النحيف الباهت اللون الذى بعث به أبواه منذ أكثر من خمسة عشر عاما إلى المدرسة الحربية الاعدادية في سانكت بولتن غير بعيد من ڤينا كى يتخرج ضابطا . وكان هوراجيك في ذلك الحين يقوم بوظيفة أستاذ روحى في تلك المدرسة ، ولكنه رغم طول العهد كان لا يزال يذكر ذلك الفتى رلكه تماما ، يذكر أنه كان شابا هادئا عظيم الكفاية يؤثر أن يقف من زملائه جانباً ويحتمل صابراً كل ما في حياة الطالب الداخلى من قيود ، ويذكر أيضاً أنه بعد أربع سنين انتقل مع غيره إلى المدرسة الحربية الثانوية في إحدى مدن بوهيميا ، وهناك تبين أن جسم الفتى لا يقوى على احتمال الأعباء الحربية فأخرجه أبواه من المدرسة الحربية كى يواصل دراسته الأخرى في بلدهما براج . وإلى هنا انتهت حكاية هوراجيك للظروف الخارجية لحياة رلكه .

كان طبيعيا أن يقرر كپس في تلك الساعة إرسال محاولاته الشعرية إلى رلكه يطلب رأيه فيها ، وكأنما أحس بمناسبة روحية بينه وبين رلكه لأنه كان يشعر أن ميوله تعارض المهنة الحربية أشد المعارضة ، فرجا أن يجد عند رلكه ، الذى بدأ حياته ضابطا لكنه انتهى بأن صار شاعراً ، ما يشعر بحاجته إليه من العطف إن كان يأمل أن يجد ذلك عند إنسان ما . ولقد فاض عن نفس الفتى خطاب إلى رلكه أرفقه بأشعاره ، وأفضى له فيه بأسرار نفسه دون تحفظ وعلى نحو لم يصرح به لأحد قبل ذلك ولا بعده .

وقد انتظر الفتى أسابيع كثيرة حتى جاءه الرد ، وكان خطاباً ثقيل الوزن يحمل ختما من باريس ، وعلى غلافه خط واضح جميل يدل على هدوء الكاتب وثقته واتزانه .

وهكذا بدأت مراسلة منتظمة بين كپس الذى صار شاعراً وأديباً وبين رينر مريا رلكه واستمرت حتى عام ١٩٠٨ ، ثم تراخت حبالها شيئاً فشيئاً لأن الحياة ساقت فتانا إلى طرق كان رلكه يود بعناية رقيقة حارة مؤثرة أن يقيه إياها .

وبعد أن انقضت على انتهاء هذه المراسلة أكثر من عشرين سنة نشر كپس عشرة خطابات من التى بعث بها إليه رلكه ، وهى عظيمة الدلالة على روح هذا الشاعر الألمانى العظيم وعلى العالم النفسى الذى كان فيه يعيش وينتج كما أنها نافعة جداً لكثير من الشعراء والأدباء

الناشئين . ورغم أن خطابات كبس ليست بين أيدينا فإننا نستطيع أن نستشف موضوعها من وراء كلمات رلكه إن حاولنا إدراك معانيها وتنبهنا إلى دقائق ما تحويه من آراء ومشكلات لا تخلو منها حياة إنسان ناشيء . وأحب أن أعرض للقراء هذه الخطابات التي كانت في بعض سنيه القربة الطويلة غذاء نفسياً لي وسلوى من كثير من الآلام.

الخطاب الأول

باريس في ١٧ فبراير ١٩٠٣

أيها السيد المكرّم

لم يصلني خطابك إلا منذ أيام قلائل ، وأريد أن أشكرك على ما تضمنه من ثقة كبيرة كريمة ؛ غير أني أكاد لا أقدر على أكثر من الشكر ، فأنا لا أستطيع أن أتناول خصائص أشعارك بالبحث الدقيق لأني أبعد ما أكون من القصد إلى النقد ، إذ لا شيء أبعد من فهم العمل الفني من كلمات النقاد ، لأنها دائماً تتضمن سوء فهم يختلف حظه من التوفيق ؛ وليست الأشياء كلها في متناول إدراكنا وتعبيرنا كما يُراد في كثير من الأحيان إقناعنا بذلك ، بل إن معظم الحوادث العميقة في نفوسنا لا يمكن وصفها لأنها تحدث في مجال لم تطأه أقدام الألفاظ قط . وأعصى ما يكون أمام الألفاظ هي المبتكرات الفنية ، تلك الكائنات المحوطة بالأسرار والتي لا تزال تبقى بعد انقضاء حياتنا الفانية .

فأنا إذ أقدم هذه الملاحظة بين يدي خطابي ، أود رغم ذلك أن تسمح لي بأن أقول لك إن أشعارك ليس لها بعد طابع خاص يميزها ، هي بالأحرى مبادىء هادئة مستترة للتعبير عن شيء شخصي يميزك ، وأوضح ما أشعر بذلك في القصيدة الأخيرة التي عنوانها (روحي) . هنا ألمح شيئاً خاصاً بك يريد أن يتخذ لنفسه عبارة وصورة يظهر فيهما ، وربما يكون في القصيدة الجميلة التي توجهها إلى ليوپردي (١) شبه يتجلّى بينك وبين هذا الشاعر العظيم المتوحّد . ولكن قصائدك ليس لها رغم ذلك طابع خاص هي ليست شيئاً مستقلا بذاته ، حتى القصيدة الأخيرة والقصيدة الموجهة إلى ليوپردي . وإن خطابك الكريم الذي أرفقته بأشعارك لا يفوته أن يعلل لي بعض النقص الذي أحس به عند قراءة أشعارك والذي لا أستطيع مع ذلك أن أعبر عنه بالألفاظ .

إنك تسألني إن كانت أشعارك جيدة ، تسألني أنا ، وقد سألت آخرين قبل ، ثم إنك تبعث بها إلى المجلات ، وتقارنها بأشعار أخرى ، ويُقلقك أن ترفضها بعض هيئات التحرير . والآن ، بما أنك قد سمحت لي أن أنصحك ، فإني أرجوك أن تترك هذا كله ، إنك تنظر إلى الخارج ، وهذا بنوع خاص ما ينبغي ألا تفعله الآن . لا أحد يستطيع أن ينصحك أو يساعدك ، لا أحد ؛ وليس أمامك إلا طريق واحد : أدخل إلى نفسك وابحث عن السبب الذي يدعوك إلى الكتابة ، وتحقق مما إذا كانت أصوله ممتدة إلى أعمق مكان في قلبك ، تحقق من أنك لا بد أن تموت إن حيل بينك وبين الكتابة ؛ اسأل نفسك قبل كل شيء ، في أهدأ ساعات الليل هذا السؤال : هل لابد أن أكتب ؟ وتقب في نفسك عن إجابة عميقة ، فإذا جاءت هذه الإجابة مُقرّة لك على ذلك ، وإذا استطعت الإجابة عن ذلك السؤال الخطير بعبارة بسيطة قوية هي : لابد أن أكتب ، إذاً فابنِ حياتك طبقاً لهذه الضرورة القاهرة ، ويجب أن تكون حياتك حتى في أقل ساعاتها شأناً وأضعفها اهتماماً ، يجب أن تكون شاهداً وعلامة على هذه الرغبة التي تدفعك . بعد ذلك اقترب من الطبيعة ، وحاول أن تعبر عما ترى وتحس ، عما تحب وتفقد ، كأنك أول إنسان يفعل ذلك ، وتجنب أن تكتب أشعاراً غرامية ، وتجنب أولا أنواع الشعر الجاري المألوف فهي أصعب أنواعه ، وإن ابتكار شيء جديد خاص ، حيث توجد مأثورات غزيرة جيدة بعضها باهر ، يقتضي قوة كبيرة ناضجة ؛ ولذلك فلتتخلص من

(١) شاعر إيطالي عاش بين ١٧٩٨ و ١٨٣٧ وهو من أكبر الشعراء الغنائيين في القرن التاسع عشر وقد ساقته ظروف حياته إلى اليأس والتشاؤم .

الأغراض الشعرية العامة ولتقصد نحوما تعرضه لك حياتك اليومية ، فصِفْ أحزانك ورغباتك وأفكارك الجارية السريعة وإيمانك بأي نوع من أنواع الجمال ، صف ذلك بإخلاص هادئ ، عميق متواضع ، واستعمل في تعبيرك عن نفسك ما تجده حولك ، استعمل صور أحلامك ومادة ذكرياتك ؛ فإذا بدت لك حياتك اليومية فقيرة فلا تلمها بل لُمْ نفسك ، وقل لنفسك إنك لست بعدُ شاعراً لهمن ملكة الشعر ما يكفي لإدراك ما في الحياة اليومية من كنوز ؛ ذلك أنه لا فقر بالنسبة للشاعر المبتكر ، وليس ثمّ مكان فقير لا يثير الاهتمام . ولو أنك كنت في سجن لا تدع حيطانه شيئاً يصل إلى حواسك من ضوضاء العالم الخارجي أليس لا يزال عندك بعد ذلك طفولتك ، تلك الثروة الملوكية الجميلة وذلك الكنز العظيم من الذكريات ؟ وجّه اهتمامك إلى هذا وحاول أن تستخرج الإحساسات التي غرقت وتوارت في ذلك الماضي البعيد ، وهكذا ستقوى شخصيتك وتتسع وحدتك التي تشعر بها حتى تصير لك مأوى تمُرُّ ضوضاء الآخرين بعيداً عنه . وعند ذلك فإذا خرجت أشعار من هذا الاتجاه إلى داخل نفسك ومن الغَوْص في العالم الداخلي فيك فلا تفكر في أن تسأل أحداً إن كانت أشعارك هذه جيدة ، ولا تحاول أن تجعل المجلات تهتم بها ، لأنك ستجد فيها ثروتك الطبيعية العزيزة وقطعة من حياتك وصوتاً لها . إن العمل الفني يكون جيداً وذا قيمة إذا فاض من صاحبه ضرورة ، وقيمته والحكم عليها إنما يكونان بحسب صدوره على هذه الصورة لا بحسب شيء آخر . لذلك لا أعرف أيها السيد الكريم ما أنصحك به غير هذا : وهو أن تدخل إلى نفسك وتفحص الأعماق التي تنبع منها حياتك وفي هذا النبع ستجد الإجابة عن سؤالك : هل يجب أن أنتج ؟ خذ هذا الجواب كما هو بلا تأويل ، فربما تبين أنك مستعد ومُقدَّر لك أن تكون فناناً ، وعند ذلك فلتأخذ الأمر على عاتقك ولتحمل عبئه وعظمه دون أن تسأل أجراً قد يأتيك من الخارج ، لأن الفنان المنتج يجب أن يكون عالماً قائماً بذاته وأن يجد كل شيء في نفسه وفي الطبيعة التي يعتبر نفسه جزءاً منها .

وربما اضطررت بعد الغوص في نفسك وفي وحدتك إلى الزهد في أن تكون شاعراً ، إذ يكفي كما قلت لك أن يشعر الإنسان بعدم قدرته على الحياة إن لم يكتب ، وإلا فينبغي ألا يكتب قط ، ولكن هذا الرجوع إلى نفسك ، وهو ما أرجوك أن تفعله ، لن يكون في هذه الحالة سُدًى . ومهما كان الأمر فإن حياتك ستجد من عند هذه النقطة طريقها الخاص ، وإني لأرجو لك أن يكون هذا الطريق خيراً غنياً فسيحاً فوق ما أستطيع أن أعبر لك .

ماذا عسى أن أقول لك بعد ذلك ؟ يظهر لي أني قد أكدت ما أقوله بقدر ما ينبغي له من التأكيد . وأحب أخيراً أن أنصحك أيضاً بأن تنمو في تطورك هادئاً جاداً ، ولا شيء يكدر عليك هذا النمو تكديراً شديداً أكثر من أن تنظر إلى الخارج وتنتظر الإجابة عن الأسئلة التي لمك لن تجد الإجابة عنها إلا في أعماق شعورك عند أهدأ ساعاتك .

لقد سرّني أن أجد في خطابك ذكر الأستاذ الفر هوراجيك ؛ فإني أُكِنّ لهذا العلامة الجدير بالحب إجلالا كبيراً وشكراناً يدوم مع السنين ، فأرجوك أن تبلغه شعوري هذا ، ومن كبير البرّ أنه لا يزال يذكرني ، وهذا ما أقدره منه حق التقدير .

أما الأشعار التي تفضلت بأن عهدت بها إليّ فإني أعيدها مع هذا إليك ، وأشكرك مرة أخرى لثقتك القلبية العظيمة . وقد حاولت بهذه الإجابة الخالصة ، التي أبعثها إليك بحسب خير ما أعرف ، أن أكون أكثر استحقاقاً لثقتك مما أنا بالفعل ، أنا الرجل الغريب عنك .

مع عظيم الإخلاص والعطف

رَيْنَرْ مَرِيا رِلْكَه

(يتبع)

أحـــــرار

وافت الاجازة فذهبت إلى القرية . ذهبت مشوقة إلى ريف جميل هادئ، تنسم فيه الحياة أجمل أنسامها ويخصه الله بأحسن ما يخص به مكاناً من أرضه . . ريف فطرى لم تلوثه الحضارة بقطعة أناس فطريون بلا قيود تعاق فى تفكيرهم . . إنهم لم يتعلموا الذوق وآداب المواضعات ، وحبذا ذوقهم وحبذا أرضاؤهم . . ثم لم يتعلموا كيف الخداع ، ولم تلقنهم الحضارة كيف النفاق ، فعاشوا صرحاء . ذهبت إلى هؤلاء بعد أن خلعت من نفسى قلب المدينة حتى أضطرب مع القوم فأستريح معهم وأرتح . ويندر بالقرية المتعلمون فإن وجدوا ذهبوا إلى المدينة يلتمسون بها (تراب الميرى) . فما أنت ذا تراهم يسلكون الحياة من أقصر سبيل وأسهله ، ولكن قد رزق الله القرية التعلم اللازم لها . . وكان أن رزق الله قريتنا فرداً من هذا الطراز ، وهو أديب شاعر وهو صديق الوحيد بالقرية ، وهو ذو نفس شفافة له شعر سهل يهدف إلى ما يريد فى أقصر طريق وأجمل لفظ ، وتعودت عند ذهابى إلى القرية أن أذهب إليه من فورى ، فهو فوق ما وصفت جذاب فى حديثه غير متكلف فى أسلوبه ولفظه .

لاقانى بِبشر ورحاب ثم أخذنا فى السمر فقال :

— الحمد لله على سلامتك . . أو تاهيك القاهرة عنا هكذا ؟ . . معك حق . فهناك الحياة الجميلة وهناك الفن ومجالس الأدب . وهناك المكتبات تمدك بما تريد من كتب . . أما هنا فالقذارة والجهل والحياة المجدبة والمجالس التى تتناقل أخبار القاهرة وكأنها أقصى ما وصلت إليه الحضارة .

— لا والله فالحياة الجميلة عندكم ، فقد امتدت الحضارة فى القاهرة إلى نفوس القوم فجعلت منهم المنافقين والداهنين . . امتدت إلى نفوسهم فطوقتها بسياج ليس لها منه فكاك . . . . نجد هناك (الإتيكيت) والذوق (والبروتوكول) . والحضارة . ألا حبذا ريفكم !

— ألا حبذا مدينتكم أنتم . . مدينة النور مشعاً كالكوكب الدرى . . مدينتكم حيث يتسرب الماء داخل الجدران ثم تتحكمون فيه . . مدينتكم ياسيدى أنكرها ! وتدعى أن الريف خير منها وأن هؤلاء القوم العراة جسومهم البلهاء وجوههم ، هؤلاء القوم خير من شبان المدن الذين يضمخون أنفسهم بالأريج الذكى ، ويقصون ملابسهم مبرزة معالم جسومهم ، ويهدلون شعورهم فوق جباههم ، فتزيدهم روعة على روعتهم وتكسبهم جمالاً على جمالهم . . لا ياسيدى إنى أراك متحاملاً وإلا كيف . .

قطع علينا الحديث تحية مسلمة ألقاها ابن الفلاح يفلح أرضنا ، وكان أسمر الوجه خفيف الظل ، فوددت لو يصحبنى إلى القاهرة فقلت له :

— إيه محسن كيف الحال ؟

— رضا . . والحمد لله

— أمسرور من أرضكم ؟

— أجل قد أنتجنا سبعة قناطير من القطن محصولا ثلاثين قيراطا .

— ألا تود أن تأتى إلى مصر ؟

— فرد الأستاذ الشاعر :

— وهل يتوصل ؟ وكيف له بها . . مصر يامحسن أتفكر ؟

— لا يا مرالحج . . . إنى لا أفكر ولا أقبل .

— كيف ! مصر . . . حيث الكهرباء والسيارات ، وحيث تلبس الملابس الزاهية النظيفة ! وحيث كل شىء . .

— نعم ؛ ولكننا هنا أحرار .

— طيب يابنى مع السلامة

نظرت إلى الحاج وقلت له :

— كيف الحال ؟ .

الرجل السعيد

لسومرست موم

من الخطر أن ينظم المرء حياة الآخرين ، ولطالما تعجبت من هؤلاء الساسة والمصلحين وأمثالهم الذين يثقون بأنفسهم والذين هم مستعدون لأن يسنوا قوانين من شأنها أن تغير من أخلاق بني وطنهم وعاداتهم ووجهة نظرهم . ولكم ترددت في إسداء النصح ، إذ كيف يمكن للمرء أن ينصح آخر بما يعمل وهو لا يعرف هذا الآخر كما يعرف نفسه ؟ ويعلم الله أنى أعرف القليل عن نفسى ولا أعرف شيئاً عن غيرى ، فإن كل ما يمكننا هو أن نحدس ما هي أفكار جيراننا وعواطفهم ، فكل منا سجين في برج منعزل يتصل بسائر السجناء الذين يكونون البشرية بواسطة مصطلحات لا تعنى لهم ما تعنى بالنسبة إليه . ومن سوء الحظ أن الحياة لا تعود القهقرى وأن الخطأ لا يمكن تصحيحه . ومن أنا حتى أوجه هذا وذاك إلى الطريقة التى يقضون بها حياتهم ؟ إن الحياة عمل شاق ومن الصعب جداً أن أحيا حياة كاملة مستقرة ولم تحدثنى نفسى بأن أرشد أحداً عما يعمل في حياته . ولكن من الناس من يتعثرون في بدء الرحلة فتظهر الطريق أمامهم ملتوية خطرة ؛ ومع ذلك فقد حدث أنى رغم إرادتى أثرت بإصبع القدر ، وقد كان الناس يسألوننى في بعض الأحيان : ماذا سأفعل بحياتى ؟ حينئذ كنت أرى نفسى لفترة وجيزة متنكراً في ثوب القدر المظلم .

لقد عرفت مرة أخرى أنى أسديت نصيحة طيبة .

كنت حديث السن وكنت أعيش في مسكن متواضع بالقرب من محطة فيكتوريا بلندن ، وذات مساء بينما كنت على وشك الاكتفاء بما عملت في يومى سمعت رنة الجرس ففتحت الباب لغريب لم أره من قبل ، سألنى عن اسمى فأجبته ، وسأل عما إذا كان يمكنه الدخول فأجبته : بكل تأكيد .

وسرت أمامه إلى حجرة الجلوس وطلبت منه أن يجلس ، وظهر ارتباكه قليلا . فعرضت عليه سجارة لاقى صعوبة في إشعالها دون أن يدع قبعته تسقط . وسألته عما إذا كان من الممكن أن أضعها على كرسى ففعل هو هذا بسرعة ولكنه أسقط مظلته بينما كان يضعها ثم قال :

آمل ألا تؤاخذنى على مجيئى هكذا لرؤيتك إن اسمى « ستيفنز » ومهنتى طبيب . وأظن أنك من الأطباء ؟

قلت : نعم ، ولكنى لا أمتهن الطب .

فقال : أنا أعرف ذلك وكل ما هنالك أنى قرأت

— إنه جاهل ، منعم نعيم البهائم .

— وهل تنعم البهائم الحرة ؟ ؟ لا ياسيدى . إنه سعيد السعادة التى نطلبها نحن في مصر فلا نجدها ، إنه يعرف أن لا حرية هناك .

— أجل ، لا حرية إذا كان سيعمل كأجير . أما السيد فلديه الحرية .

— لا ياسيدى ، وهل نحسن هنا إلا أجير ، ولكنه يدرى ما نحن فيه من قيود ، ونفسه لا تقبل هذه القيود .

— أرانى سأهزم ، وعلى كل فأنت أدرى بالقاهرة منا .

ولكن لم إذاً يقول المصلحون إنهم يريدون تحسين حال الفلاح ، وإنهم :

— كنت إخالك ستقول هذا . . المصلحون يريدون تحسين حال الفلاح من الوجهة المادية ، وأنا لا أنكر أن حالة المعيشة هنا في حاجة إلى إصلاح . أما إذا قصدوا إصلاح النفوس ، فما أجدرنا نحن بهذا الإصلاح .

— إذاً فنحن خير منكم .

— لا شك .

ثروت أباظة

كتاباً لك من اسبانيا وأود أن أسألك عنها .

فقلت : أخاف ألا يكون كتابي غاية في الجودة .

قال : ولكن الحقيقة ستظل أنك تعرف شيئاً عن أسبانيا ولا أعرف غيرك يعرف عنها شيئاً ، وظننت أنه ربما لا يكون لديك ما يمنع من إفادتي عن بعض المعلومات .

قلت : سأكون جد مسرور .

ثم ظل صامتاً لحظة سعى بعدها إلى قبعته وأمسكها بإحدى يديه في ذهول وربت عليها بالأخرى ، ومن ثم تسرب إلى ذهني أنها تكسبه إيماناً وقال :

آمل ألا تظن أنه من العجيب أن يتحدث إليك شخص لم تعرفه من قبل ، ثم ضحك ضحكة أراد بها الاعتذار وقال : إني لست أنوي أن أسرد قصة حياتي عليك وأنا أعرف أنه عند ما يقول الناس هذا القول فإن يفعلوا شيئاً غير ذلك ، والحق يقال أني أستحسنه ، وواصل الحديث قائلا :

لقد تولى تربيتي عمتان عجوزان ولم يحدث لي ابداً أن ذهبت إلى مكان أو فعلت شيئاً ، وبرغم أني تزوجت من ست سنين فليس لدي أطفال وأنا أشغل وظيفة طبيب في مصحة كامبرويل ولا يمكنني الاستمرار فيها أكثر من ذلك .

وكان هناك ما يسترعي النظر في هذه الجمل القصيرة الحادة التي كان يستعملها . فقد كان لها رنين قوي ولم أكن قد نظرت إليه إلا نظرة عابرة فبدأت الآن أمعن فيه النظر .

لقد كان رجلا صغيراً ملء البدن تقرب سنه من الثلاثين على وجه التقريب . له وجه مستدير أحمر برقت فيه عينان صغيرتان سوداوان براقتان ، وقد قص شعره الأسود قصيراً لاصقاً برأسه الدبب وكان يرتدي رداء أزرق لا يصلح للبس بأي حال فقد كان مهدلا عند الركبتين له جيوب منتفخة وقال :

وأنت تعرف واجب الطبيب الموظف في مصحة . إن كل يوم كسابقه في كل شيء ، تقريباً ، وهذا كل ما أنتظره طوال حياتي ؛ فهل تعتقد أن هذا العمل يستحق ذلك ؟

فأجبته : ولكنه طريق لكسب العيش . قال :

نعم أعرف ذلك كما أعرف أن المال فيه خير كثير .

فقلت : ولكني لا أعرف حقاً ما جاء بك إلى هنا .

قال : لقد أردت أن أعرف إن كنت تعتقد أن في أسبانيا مجالا لطبيب انجليزي .

فسألته : ولماذا أسبانيا ؟

فقال : لا أدري . إنها مجرد خيال عابر .

فقلت له : لعلك تعرف أنها ليست مثل كارمن ، وتبسمت .

قال : ولكن الشمس تشرق هناك ، كما أن هناك نبيذاً جيداً ومناظر ممتعة وهواء تستنشقه . على كل دعني أطلعك على ما أريد أن أقول فوراً . ذلك أني علمت مصادفة أنه لا يوجد في أشبيلية أي طبيب انجليزي . أتظن أنه من الممكن أن أكسب عيشي هناك أم أنه من الجنون أن أطيح بوظيفة حسنة آمنة في سبيل شيء غير مضمون ؟

قلت : وما رأي زوجك في هذا ؟

قال : إنها راغبة .

فقلت : إنها لمخاطرة كبيرة .

فأجاب : إني أعرف ، ولكن إذا قلت لي أقدم فسأفعل ، وإذا أوصيتني بالبقاء حيث أنا فسأبقى .

لقد كان ينظر إلي في إمعان بعينيه السوداوين البراقتين وتحققت أنه جاد في كلامه ففكرت قليلا وقلت : إن مستقبلك كله مرتبط بذلك ، ولذا يجب أن تقرر بنفسك . ولكن يمكنني إرشادك . ذلك أنه إذا كنت لا تريد مالا وكنت تقنع بما يمسك البدن بالروح ألا ينفصلا فاذهب فستحيا حياة عجيبة .

وتركني الرجل . وظل في ذاكرتي يوماً أو اثنين ثم نسيته فقد امّحى الموقف من ذاكرتي امحاء تاماً . وبعد عدة سنين خمس عشرة على الأقل اتفق أن كنت في

أشبيلية وشعرت بتعب طفيف . فلما سألت البواب عما إذا كان هناك طبيب انجليزى . أجابنى بأنه يوجد وأعطانى عنوانه ، فأخذت عربة إلى هناك ، وبينما كنت أقودها نحو المنزل خرج إلى رجل صغير ملىء ، وتردد قليلا عندما رآنى ثم قال :

هل أتيت لترانى ؟ إننى الطبيب الإنجليزى .

ولما شرحت له سبب مجيئى طلب إلى أن أدخل . لقد كان يعيش فى منزل أسبانى عادى بدهليز . وفى حجرة الاستشارات فى نهاية الدهليز انتثرت هنا وهناك أوراق وكتب وأدوات طبية وأثاثات تالفة . إنه لنظر يفزع منه المريض المتخوف . ولما قضينا أمرنا سألت الطبيب عن أتعابه فهز رأسه قائلا : ليست هناك أتعاب . فقلت : ولم بالله ذلك ؟ قال : ألا تذكرنى ؟ لماذا ؟ لقد جاءت بى إلى هنا كلمات قلتها لى . ولقد غيرت مجرى حياتى بأكمله . فأنا استيفنز .

ولم يكن لدى أية فكرة عمن كان يتكلم عنه ، ولكنه ذكرنى بمقابلتنا وأعاد على سمعى ما كان قد قاله ، فانجلى الحادث قليلا قليلا وعادت تفاصيله إلى ذاكرتى وقال :

لقد كنت أسائل نفسى عما إذا كنت سأراك ثانية كما كنت أسائلها عما إذا كانت ستسنح لى فرصة تقديم الشكر على ما فعلته من أجلى

قلت : لقد وفقت إذاً ؟

ونظرت إليه . لقد زاد جسمه الآن امتلاءً وأصبح أصلع الرأس ، ولكن عينيه كانتا تبرقان فى مرح ، وقد ظهر على وجهه الملىء الأحمر أمارات السرور التام ، وكان يلبس ثياباً كالحة إلى حد مخيف من صنع حائك أسبانى ، وكانت قبعته اسبانية عريضة الجوانب ، ومع أن منظره كان مترهلا فلقد كان مقبولا ، وإنك لتتردد فى السماح له بإجراء عملية لك ، ولكن لا يمكنك أن تتصور مخلوقا أمتع منه صحبة لشرب زجاجة من النبيذ .

قلت له : من المؤكد أنك كنت متزوجا .

فقال : نعم ! لكن زوجى لم تحب أسبانيا فعادت إلى كامبرويل حيث ألفت الحياة .

فقلت : إن هذا لما يدعو إلى الأسف

فأبرقت عيناه بابتسامة سكير . فقد كان منظره يشبه منظر سيلينوس الصغير وقال : إن الحياة مليئة بالمسرات .

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى ظهرت أمام الباب امرأة أسبانية . قد تعدت سن الصبا ، ومع ذلك فقد كان فى جمالها جرأة وحيوية ، وكلمته بالاسبانية فعرفت أنها كانت مديرة المنزل .

وبينما كان يودعنى إلى الباب قال لى :

لقد أخبرتنى عند ما رأيتك آخر مرة أنى سأكتسب إذا أتيت إلى هنا ما يمسك بدنى وروحى ألا ينفصلا . ولكنى سأحيا حياة عجيبة . وأريد أن أخبرك أنك كنت على صواب ، لقد عشت فقيراً وسأعيش دائما فقيراً ، ولكن يشهد الله لقد متعت نفسى ولن أبدل حياتى بحياة أى ملك فى العالم .

(ترجمة) السيد محمد عثمان

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة فلاح يابانى

وتابع صاحبنا الأمريكي حديثه . قال :

ونزلت إلى الشاطىء أطلب البحر بعد الحقل ، فوجدت رماله بيضاء ناعمة ، ترتد عنها الشمس فتجهر بها العين . وكانت ناعمة فلا تكاد تجد حصاة فيها . وتدخل الماء فتجد الأرض من تحته تميل قليلا قليلا فى تدرّج صغير طويل . والماء رائق وبه دفء ، وهو يشف عما فيه ، فترى صغار السمك تعوم على قرابة من الشاطىء تستدفىء بشمسه . وتدخل فى الماء أبعد مما فعلت ، فتجد قناديل البحار ، بعضها أزرق اللون لا يؤذى ، وبعضها تجرى فى أجسامه خطوط حمراء ، فهو سام لادغ . وقناديل البحر لها أجسام كالفالوذج . وهى تعوم فتتراءى كالمظلة المفتوحة وقد استرخت أضلاعها . وهى تتموج لتسير فى الماء . ومن تحت المظلة ، حيث وجب أن تكون يدها ، تجد بديلا عن هذه اليد ، أصابع كالشرائط رخوة تلعب فى الماء تتحسس ما فيه .

وكان البحر هادئا فى ذلك اليوم . وهو هدوء قد يغرّ غير عارفه فيحسبه هدوءا فى الطبع لا يتغير . وما هو بذلك ، فتلك السواحل تأتيها الزوابع بغتة فتغدر بمن يكون فى الماء عند ذاك من أغراب يجهلون ، وما يكون على الماء من سفن صغيرة فتنقلب انقلابا . حتى السمك تصيبه الدواهى إذ يقذف به الماء على الأرض الجامدة ، ثم ينحسر عنه وعنها ، ويتركه على الرمل فيعجز عن العودة ، فهو بالطبع لا يتحرك إلا فى الماء .

حدث ذات مرة أن قامت على تلك الشواطىء اليابانية زوبعة ثم هدأت . وحضرتُ عند هدوئها ، فأغرانى طول السكون وجمود الدم فى عروقى ، أغرانى على دخول الماء . وكنت عوّاما ماهرا . فلم أخش من البحر غاشية . ومضت العشر الدقائق الأولى فى سلام ، بل فى متعة كبيرة . وعرفت كيف أزوغ من قاصمات الظهور من الأمواج . فكنت أركب رأس الموجة وهى قادمة ، ويداى إلى جانبى ووجهى إلى أسفل ، ورأسى مرفوع بالقدر القليل الذى يمكننى من أن أرى وأن أستنشق الأنفاس . وتتالى الموج قاهرا قويا قاسيا ، فلم يتخلف قط ، ولم يخطىء قط . وما كان الموج العاتى أن يخطىء . ولكنى أنا الذى أخطأت .

أخطأت فى تقدير الزمن ، فانكسرت الموجة على رأسى ، وكان حقها أن تنكسر على ما دون صدرى . فلم أدر إلا وأنا فى قاع البحر ، وإلا ورأسى يدق أرضه كأنما غصت فى حوض السباحة لاماء فيه ، وفقدت الوعى دقيقة . ولكن ما أجمل الجسم الإنسانى ، وما أبدع تركيبه . فما كاد يغيب وعيى برهة حتى أخذت أعصابى غير الواعية تحرك عضلاتى حركة ميكانيكية لم أفهمها معنى ، وصحوت من غيبتى القصيرة فوجدت يدىّ ورجلىّ تتحرك عارفة أو غير عارفة بالذى تفعل . وبلغت الشاطىء ، وخرجت أزحف عليه وقد خيلت أن الشلل أصابنى من خاصرتى إلى رأسى . وظهر على وجهى ما أضحك إخوانى ، غير عالمين بالذى جرى ، فأخذت أدمدم وأسب قوما يضحكون من رجل أوشك أن يكون له من الماء قبر بغير أكفان .

ذكرت فى هذا اليوم وأنا أرتاد الشاطىء تجربتى تلك الماضية ، فذهبت رغبتى فى نزول البحر . ونظرت فإذا الرجال غير بعيد منى يجرّون الشباك وقد ملأها الصيد . وهى شباك طويلة ، غير عريضة ، ربط أحد جانبيها الطويلين بعوامات تمنع هذا الجانب أن ينطس فى الماء . أما الجانب الآخر فيتدلى فيه فيكتسح أمامه على الحركة الأسماك . وغنى أحد البحارة فأجابه الآخرون . وظل يغنى ، وظلوا يرددون . ولما اقتربوا من الشاطىء ، استدار الرجال ،

واستدارت معهم الشبكة ، وظلت القوارب الصغيرة داخلها تحرك الماء بمجاديفها . فلما تمت الحلقة أو كادت ، زامت الأسماك متجمعة متزاحمة فزادوا فى ضيق الشبكة ، وضيق الحلقة ، ثم أخذوا يرفعون السمك ويجمعونه .

وهو سمك صغير ، لا يزيد طوله على خنصر اليد ، ولكنهم يجففونه ، ويأكلونه كله ، حتى رؤوسه ، مع الأرز . فهذا طعام اليابانيين الشائع . والسمك على كل حال طعامهم لندرة المراعى ، فندرة اللحوم من شياه وأبقار .

وتخرج الشباك فى شباكهم قناديل البحر ، من سامة وغير سامة . ومن عجب أنهم يرفعونها بأيديهم دون أن يصيبهم أذى . ولست أدرى كيف يفعلون . ولكنى أدرى أن القرصة من قنديل البحر ، وهو سام ، تورّم الرجل فلا تلبث أن تصبح ضعف حجمها .

واليابانيون يقبلون على اصطياد السمك بالشباك ، وبالعود والصنارة . وجلست مرة على صخرة عند ساحل عميق أجرب حظى . فخرجت لى سمكة من نوع يكثر غيره من أنواع السمك فى تلك البحار . ويسمونه فوجو . وكانت سمكة صغيرة لها بطن أبيض . والتفّ حولى صبية جاءوا من قرية مجاورة ، وأخذوا يتسلون بمرأى هذا الغريب الذى جاء من بلد لا شك بعيد ليصطاد أسماكهم اليابانية فى غير حذق كبير . وسرّتهم غبطتى بأول سمكة اصطدتها . فجاءنى أحدهم يقول إنى لو أعطيته هذه السمكة لأرانى شيئا عجبا . فخلّصتها من الصنارة وأعطيتها إياه ، فأخذ يحكّ بطنها ، فأخذت تنتفخ . وزادها حكا ، فزادت انتفاخا . فلما صارت كالكرة ، أخذها إلى حجر عظيم ، ودقها بقدمه العارية فانفجرت .

ونظر الصبية إلىّ . وكان قد ساءنى ما فى هذا الصنيع من غلظة ، فلم أتحرك للذى كان من فرقعة . نظروا إلىّ ثم عجبوا لجمودى ، فانصرفوا عنى . ومن بعيد سمعتهم يتناقشون فى أمر هذا العفريت الأجنبى ، فى زيه هذا الغريب ، وطباعه وهى أشد غرابة .

وقد علمت بعد ذلك أن هذا السمك ، الفوجو ، من ألذ أسماكهم . ولكنه لا يؤكل فى البيوت ، ولكن يؤكل فى المطاعم العامة . ذلك أن به غدة تفرز سما ، لا تستطيع ربات البيوت أن تنزعها من غير أن تجرحها أو تفقعها غير واعية فيسيل بعض ما بها إلى السمك فيهلك آكلها . ولكن المطاعم بها رجال خبروا هذا الأمر وحذقوه ، فاطمأن إليهم آكلوه . على أن روّاد هذه المطاعم يأكلون هذا السمك ويحملون تبعة أكله على عواتقهم وحدها .

إن أحسن ما يمتع صائد السمك فى اليابان ، صائده بالعود والصنارة ، إنما هو منظر السمك فى ألوانه الجميلة وهو يعوم بين الصخر ، وبين العشب ، فى ماء يصفو كالبلور أو هو أشد صفاء . وتختلف ألوانه وتزهو ، وهو يترقط بها أو يتخطط ، ويتبع بعضه بعضا فى مواكب من دونها كثيرا مواكب أعراس الملوك وأفراحهم .

وطالت ظلال الأشياء بانحدار الشمس المغيب . فلما قربت صعدت الجبل إلى القرية ، إلى بيت مضيف . وجلسنا إلى العشاء ، وفرغنا من العشاء ....

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧١ — الثلاثاء ٣ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ٥ من فبراير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

السيطرة الكيماوية على الآفات [1]

الإنسان كبقية المخلوقات منهمك فى صراع لا آخر له من أجل الحاجيات الضرورية للحياة ، لأنه حيثما اتجه يلاقى غريما ينازعه . فكثير من أنواع البكتيريا مثلا تستطيع ، على الرغم من تفاهتها وهى فرادى ، أن تقتله بمجرد تجمعها عليه . والمحصولات التى يعتمد عليها فى إقامة أوده عرضة لأن ينقض عليها جيش جرار من الكائنات الحية التى تسارعها ، وقد يبيدها المرض أو يخنقها نمو الأعشاب المتطفلة . وهناك أنواع من الحشرات لا حصر لها تناصب الانسان العداء فيما يتصل بحياته وسعادته ، بعضها كالجراد والنمل الأبيض ، يلتهم المواد الغذائية ويخرب الممتلكات ؛ والبعض الآخر ، كالبعوض والقمل ، ترجع خطورته إلى كونه ناقلا للأمراض . أما الفيران صغيرها وكبيرها ، والحشرات الخبيثة الأخرى ، فتلعب دورا خطيرا بطرق شبيهة بتلك . ومن ثم ظلت المشكلة القائمة منذ القدم ، مشكلة السيطرة على الآفات ، ولا تزال تنتظر الحل الحاسم الشاق .

وقد بعث تقدم الكيمياء قوة جديدة فى سلاح من أقدم الأسلحة التى تدرع بها الانسان لحماية نفسه ، ألا وهو الانتفاع بالسموم . ويرجع استنباط المواد السامة واستخدامها إلى أقدم العصور ؛ ومعظم ما كان منها معروفا للأقدمين يرجع إلى أصل طبيعى ويشمل مركبات الرصاص والزرنيخ وسم الأفاعى ومستخرجات من نباتات معينة كالشوكران . ونعلم كذلك من كتابات هومر أن اليونان استخدموا ثانى أكسيد الكربون للتبخير به ، لأن أبخرته تقتل الجراثيم ،

(١) نقل هنا من مجلة « Endeavour » التى تصدرها كل ثلاثة أشهر شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية لتسجل فيها بعض نواحى التقدم العلمى التى تسخر لخدمة الانسان .

وتحوى هذه القائمة كثيراً من السموم الفعالة لكن فائدتها كانت لا تزال محدودة بسبب أن فعلها لا تمييز فيه؛ فهي لا تميت الضحايا المقصودة بالذات فحسب، بل تميت الإنسان نفسه، وتلبها به أحياناً أشد فتكاً، ومن ثم كان استخدامها محفوفاً بالصعوبات الجسيمة والأخطار. وقد خطا العلم خطوة عظيمة إلى الأمام في القرن التاسع عشر باكتشاف السموم النوعية أي التي يقتصر فعلها على نوع أو أنواع بالذات. وقد استطاع إرليخ الذي كان في طليعة العلماء المشتغلين بهذه المسائل أن يبين أن مركبات معينة مشتقة من الزرنيخ تقتل البكتيريا التي في جسم الإنسان بغير أن تحدث في نفس الوقت لأنسجة جسم المريض من الأضرار ما لا سبيل إلى علاجه.

ثم لم يثمر التقدم العلمي في يكتشف من هذه المواد المعينة إلا القليل، ولكن سلطان الكيمياء وسيطرتها على الآفات البكتيرية قد قويت في العقد الأخير إلى حد مدهش؛ وذلك أولاً باكتشاف العقاقير السلفوناميدية ذات الأثر الفعال ضد الاستفلوكوكس (البكتريا العنقودية) والاستربتوكوكس (البكتريا السبحية). ثم بما حدث أخيراً من اكتشاف البنسلين الذي هو مادة نوعية، إلى حد أن فعلها الشديد يقتصر على مقاومة نوع معين من البكتيريا بحيث لا يكاد يمرض المريض المعالج بها لأي خطر ناجم من إعطائه جرعة منها أكثر مما ينبغي.

ولا ترجع أهمية هذه الاكتشافات إلى استخداماتها المباشرة فحسب، بل إلى أنها قد أثبتت بغير أدنى احتمال للشك أن ميدان البحث عن السموم النوعية (أي التي يصيب مفعولها كما قدمنا نوعاً أو أنواعاً خاصة دون غيرها) قد أخذ يكشف عن نجاح الإنسان فيه وقرب فوزه منه بثمرة كده؛ وقد فتح هذا النوع من السموم مجالاً جديداً للنشاط الكيماوي — مجالاً بدأت تظهر الثمار فيه بالفعل. ومن الظواهر المهمة أن بعض هذه السموم النوعية قد عثر عليه فيما يتصل بنباتات معينة، وبدأ استخدامه بالفعل في الزراعة لاستئصال الأعشاب الطفيلية؛ ومن هذه المواد مادة تسمى الميثوكسون تحضر الآن متجرياً، لأن الاختبار قد أثبت لها نفعاً عظيماً في تنقية محاصيل الحبوب من الأعشاب الضارة دون أن تحدث أي أثر غير محمود في تلك المحاصيل.

ومن أمثلة السموم الطبيعية التي لها مفعول نوعي بالنسبة للحشرات أوراق البيرثرم (عود القرح) والدريات، وقد أضيف إليها في السنوات القليلة الماضية ما هو من أبعد من بعض العقاقير التي لا توجد في الطبيعة، ولكن يصنعها الكيماويون مثل مادة D. D. T. اختصاراً لاسمها الكيماوي الذي هو (dichloro — diphenyl — trichloroethane) وهي مواد على الرغم من أنها لا تؤثر في الحيوانات أثراً يذكر، لا تكاد تؤثر أيضاً في أوراق الأشجار، فإنها من أقوى ما عرف من مبيدات الحشرات.

والكثرة الغالبة من السموم النوعية التي تم تحضيرها إلى الآن قد اكتشفت إما بطريق المصادفة وإما بطريق الفحص العلمي لآلاف من المركبات المختلفة رجاء العثور بينها إن عاجلاً وإن آجلاً على ما يدفع للغرض المطلوب. وكلتا الطريقتين أشبه بالبحث في الظلام عن شيء لا ندري أين هو. فلو أمكن الوصول إلى طريقة تكون أقرب إلى المنطق يستنار بها في البحث لكان ذلك تقدماً حقيقياً يعين على النمو السريع لهذا الفرع المهم من الكيمياء التطبيقية. ولما كان الوصول إلى طريقة كهذه غير ممكن إلا إذا فهمت الكيفية التي بها تؤثر تلك السموم النوعية وتسمم ما تسممه من الأنواع الحية، فإن مما يبعث على الرضا أن الطريق إلى هذا الفهم قد أخذ ينفتح، بعد أن ظهر ما يدل على أن بعض هذه السموم النوعية على الأقل يشبه في شكله وترتيب الذرات داخل جزيئه الكيماوي بعض المركبات المعروف أنها لازمة لتمثيل خلايا الجسم للغذاء المهضوم. اقترح بعض المشتغلين بهذا الباب تفسيراً لفعل تلك السموم أنها تحل في خلايا البدن محل المركبات الضرورية التي

تشبهها فى الشكل الجزيئى ، كما يحل فى قفل مفتاح دخيل محل مفتاح أصيل ليس بينهما من الشبه إلا ما يسمح بالحلول من غير أن يسمح بفتح القفل أو حتى بالخروج منه بعد تعذر الفتح به ، فينسد باب تمثيل الغذاء فى الخلية بجزيئات السم النوعى ، كما يحول انسداد القفل بالمفتاح الدخيل دون انفتاح الباب . ويحدث التسمم نتيجة لتعطيل عملية التمثيل .

هذا التفسير لا يزال فرضياً إلى حد كبير ، لكنه على أى حال ابتداء يهيئ نقطة ارتكاز ننكر إليها فى معالجة الموضوع ومحاولة الوصول إلى الأصل أو الأصول التى يقوم عليها التأثير النوعى للسموم النوعية . وهى معالجة أو محاولة يرجى ازدياد التقدم فيها باطراد .

وسواء أكان التقدم سريعاً أم بطيئاً فإن اكتشاف السموم النوعية يبين بوضوح أننا نقترب بالتدرج من عصر يصبح فيه القضاء على الآفات أو السيطرة عليها بوسائل كيماوية أمراً عملياً . ويبدو للإنسان فى أول وهلة أن المستقبل محفوف بالبهجة والغبطة ، فهو يتصور الغيطان والحدائق قد استؤصلت منها الأعشاب الضارة ، وأماكن خزن الحبوب قد خلت من الحيوانات التى تقرضها ، وكل مرض ناشئ من البكتريا قد صارت له مادة كيماوية مناسبة تبطل فعله . لكن الحذر مع ذلك يقضى علينا أن نحترس مما قد يكون مخبأ لنا فى الطريق من أخطار . فالإنسان فى هذا الكون يعيش فى نظام معقد يحوى كائنات متفاعلة تقوم بينها جميعاً حالة شبيهة أو قريبة من الاتزان الديناميكى . وفى قبضة الإنسان فى الوقت الحاضر الوسائل التى بها يسيطر على عدد من العوامل المؤثرة فى هذا النظام سيطرة تغير منه تغييرات أساسية . وهو يحس بطبيعة الحال بدافع نفسى يغريه باستخدام هذه الوسائل فى الحال فيما يعتقد أنه يؤدى إلى مصلحته . على أنه مع التسليم بأن النتائج المباشرة لمثل هذه السيطرة قد تكون فى مصلحة بنى البشر ، فإن ما لديهم من بعد النظر لا يزال محدوداً إلى درجة تجعلنا لا نقوى على الجزم بأن الآثار التى سيؤدى إليها تصرفه ستكون فى المصلحة . وعلى العكس من ذلك ، من السهل علينا أن نتصور أن القضاء على آفة قد يؤدى إلى انتشار آفة أخرى كانت الآفة الأولى تسطو عليها فتمنعها من الظهور .

فالتدخل فيما تحدثه الطبيعة من موازنة لا بد أن يكون محفوفاً بشئ من الخطر الكبير أو الصغير . ولا يحتاج الأمر لخيال بارع لتصور نتائج القضاء على البكتريا التى تمد الأرض بالأزوت مثلا ؛ وقد لا يكون من المحتمل حدوث مثل هذه الطامة الكبرى ، لكن حدوث شئ من نوعها وإن كان أصغر منها يصح أن يسبب قلقاً شديداً . ولا يجوز أن نسقط من حسابنا احتمال حدوثها إذا كانت السيطرة الكيماوية على الآفات ستطبق بغير الحذر والحكمة الضروريين ، وبدون إجراء مباحث تمهيدية ، هذه الاستنتاجات العامة يراها الإنسان بطبيعة الحال بديهية عند ما يفكر فيها ، لكن للأسف ليس هناك ما يدل على أنها تحرس دراسة جدية ؛ ويبدو من المحتمل أن استخدام السموم النوعية فى المستقبل قد يكون له من الأثر فى تغيير وجه الطبيعة الحية أكثر مما كان يحدثه فيما مضى تطبيق المعلومات العلمية ، وإذا كانت الاكتشافات ذات القدرة العظيمة على إنتاج الخير تتحول بسبب العجلة وقلة التدبر أو سوء الاستعمال إلى أداة تجر الوبال والشر على البشر ، فإن هذه تكون مأساة مؤلمة حقاً .

وإذا كان هذا الكلام يقال بشأن الأمم الأوروبية التى لا يفتك بها من الميكروبات والجراثيم كالذى يفتك بنا ، والتى متوسط مستوى الحياة العامة فيها أرفع منه عندنا بحيث ينال الفرد من الغذاء والكساء ما يحميه ويقويه على المقاومة ، فكيف بنا نحن وحالتنا هى ما هى ، وحالة أرضنا الزراعية قد أصبحت من حيث فتك الآفات الزراعية بها تنذر بخطر وبيل إن لم يتدارك أمرها ؟ .

أحمد عبد السلام الكردانى

جانب من شخصية

نابليـــون

نابليون بونابرت من الأفراد القلائل الذين ملأوا الخافقين الأرض دوياً ، وشغلوا الناس على اختلاف مذاهبهم طويلاً ، وهو في رأى الكثيرين أقوى شخصية وأعظم عبقرية عرفتها العصور الحديثة ، ولم يكن الرجل قديساً على خلق عظيم ، ولا بطلاً قد اجتمعت له أسمى معاني البطولة وأجل صفاتها ، ولم تجر حياته على أصول الآداب المرعية ، وقواعد الأخلاق المتواضع عليها ، وكان لا يتردد قليلاً في اختيار الأساليب الملائمة لتحقيق أغراضه ، وقد قتل مليون من الرجال في سبيل أطماعه ومآربه ، وترك فرنسا أصغر رقعة وأسوأ حالاً مما كانت حين استولى على زمام الأمر فيها ، ولكن العظمة في هذه الحياة الدنيا قد لا تقترن بالفضيلة في مختلف الظروف والمواقف ، وحقيقة أن هناك العظمة الأخلاقية التي تتجلى في حياة الأنبياء والقديسين والشهداء ، ولكن العظمة ليس من أول شرائطها أن تكون أخلاقية حريصة على الفضيلة ، بل هي في الواقع قد تكون مناقضة للأخلاق ، وفي اعتقادي أنه لا فائدة من الإسراف في انتحال الأعذار لأخطاء العظماء ونقائصهم حرصاً على الجمع بين العظمة والفضيلة ؛ ولكن ما هي هذه العظمة التي قد تخلب ألبابنا وتبهر أبصارنا وتذهلنا عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة ؟ ولماذا كان نابليون عظيماً ؟ ولو أننا خصصنا بالعظمة كل من قام بعمل خالد الأثر لأخرجنا كبار السياسيين وعظماء الفاتحين من سلك العظماء الخالدين ، لأن الفتوح الباهرة عارية مستردة ، والدول تبنى وتهدم ، والقوانين تتغير وتتبدل ، والأفكار تنقض وتبطل ، ويتصل لونها ، وتنفد حيويتها ، فالعظمة إذاً لا تقوم على بقاء الأعمال ، فكل شيء في هذه الحياة لا محالة زائل ، فلماذا نسمى أحد السياسيين أو الفاتحين عظيما وقد اندثرت آثاره ودالت دولته ، وذهبت فتوحه ؟ ولماذا نعجب بقيصر والاسكندر ونابليون ونسميهم عظماء ؟

هم عظماء فيما أعتقد لأنهم كانت لهم شخصية قوية منيفة ساحرة جذابة ، وقد كانت حياة نابليون على ما بها من سقطات ومآخذ ملحمة رائعة حافلة بالمغامرات والمواقف الحرجة الحاسمة ، وقد كان رجلا من غمار الشعب ، ولكنه وصل إلى أسمى منصب بهمته وسعيه لا بحسبه ونسبه ، وقد التقت فيه القوة العملية الفائقة والقدرة الفكرية الممتازة ، وكان له جلد عجيب وقوة احتمال تفوق المألوف ، حتى يخيل إلى الإنسان أنه قد قد من الصخر أو صيغ من الفولاذ ، وكان يستطيع أن يمضى ست عشرة ساعة على متن جواده دون أن يعتريه الكلال ، وأن يظل أياما متصلة بلا راحة سوى لحظات قصار ثم يثب مع ذلك وثبة النمر ويهجم هجمة الأسد في الوقت المناسب ، وكان يعرف ما هو صانع ، ويحكم الرماية ، ويصيب الهدف ، ولم يكن بطبيعته فظاً غليظاً ، وإنما كان لا يريد أن يقف شيء في طريقه ، وقد ذكر عنه أصحابه أنه كان كثيراً ما يظلم كبار قواده وينتهب مفاخرهم ويعزوها إلى نفسه ، وأنه كان كثير الكذب ولوعاً بالتأثيرات المسرحية ، ولكن حياته من ناحية أخرى أنموذج في المثابرة والشجاعة والدقة والإحكام ، وهي في مجموعها حياة تطلق الخيال وتفسح مجال التفكير .

ويروى عن نابليون بألسنة أصدقائه وأعدائه وأنصاره وخصومه نكات مضحكة عظيمة وطرائف فريدة ونوادر مستملحة ، تكشف من النفاثات إنسانية ، وتدل على نفس عميقة الإحساس جائشة العواطف : كان مرة في الصيد والقنص فمر بكوخ للكاتب الكبير شاتو بريان الذي نفاه وأبعده ، فكسر غصناً من إحدى أشجار الغار ووضعه على باب خصمه ؛ ولما حملت له زوجته الثانية طفلاً ليرث عرشه قال له الطبيب وهي تعالج آلام الوضع : « لا يمكن إنقاذ

الأم إلا بالقضاء على الطفل فى أثناء العملية » فأمره الإمبراطور قائلا : « أنقذ حياة الأم فى بادئ الأمر » ، وبعض هذه الحكايات والنوادر والملاحظات أدل على عظمته وكثرة جوانبه وسعة آفاقه من أعظم وقائعه وأروع انتصاراته .

والقصة الآتية التى أرويها من الكاتب كونراد فوس بارك لا أعرف مدى نصيبها من الحقيقة التاريخية ، ولكن كيفما كان الأمر فهى تشير إلى جانب من شخصية نابليون تواترت الروايات على تأكيده ، وقامت على صحته الشواهد ، وأثر هذا الجانب فى نفوسنا أقوى وأعظم وأبقى وأدوم ، لأنه يرينا أن هذا البطل الكرار الذى قضى خير أيامه فى زماجر اللاحم وتحت قساطل الوقائع لم يفقد إنسانيته ولم يتحجر قلبه أو يتبلد إحساسه ، وهى قصة مروية فى صورة خطاب من الدمو إدوارد حيرا إلى لوشيان :

عزيزى لوشيان

ستعلم أن ولنجتن كسب معركة ووترلو ، ولكن برغم ذلك أتسامحنى إذا سألتك أن تسمع قصة الطفلة فى النزل القريب من نهر السومبر ؟

كان بناء قديما يرفرف عليه الهدوء والسكينة وقد توافرت فيه أسباب الراحة وظللته أشجار الدردار الفارعة ، وكان صغير الجرم محدود الذى لا يكاد يوجد به حجرة لنا ، وكنت قد رقيت إلى مقر القيادة حديثا ، فلما وصلت إلى هناك لم أجد لى فراشاً لأنام فيه ، لجميع الحجرات التى يمكن الانتفاع بها كانت مكتظة بكبار الضباط والقواد .

وكان الإمبراطور يحرص فى كل يوم على أن يسمع أنباء الإجراءات التى تتخذ لراحة رجاله ، ويطلع على التقريرات الخاصة بحالتهم الصحية والتوسعة عليهم ، وتقضى زمن قبل أن أحظى برؤيته ، ودعيت أخيراً للمثول بين يديه وكان توهج ضوء الشمس الغاربة قد زايل الأفق ، وكان هناك مصباحان يشعان ضوءاً شاحباً على منضدة الخريطة التى كان يجلس قبالتها ، وكان يرتدى — إذا كانت ذاكرتى لم تخنى — سترة مارشال فرنسا ، ولم تكن تتسق بحال مع ضيق الحجرة التى كان يزحمها فراش كبير وكرسيان ومنضدة .

وألقى على نظرة حينما دخلت وأصغى إلى وقد وضع رأسه بين يديه الرشيقتين الحساستين وأنا أتلو على مسامعه التقرير الذى كتبته ، ولما بلغت منتصف التقرير اعترضنى :

— حسن حسن . ليس هناك نقص ولا تقصير ؟

— لا ياسيدى كل شئ على ما يرام !

فنظر إلى وتبينت من نظرته أنه متعب وأن الإعياء قد بلغ منه مبلغاً ، وكان قد قضى أسابيع مكباً على العمل ليلاً ونهاراً يصرف شئون الدولة ويعالج المشكلات .

— إذاً كان يجب أن تصل إلى النتيجة فى وقت أسرع من ذلك يا كولونيل !

وكنت أهم بالجواب ولكنى أبصرت عينيه شاخصتين نحوى فأدركت أنه من الحكمة أن ألزم الصمت ، ونهض من مقعده وأخذ يتمشى فى حدود الحجرة الضيقة صامتاً ، وكان فى حالة من تلك الحالات الهادئة الخطرة التى كانت تنتابه فى بعض الأحايين ، وكان الشحوب يغشى وجهه الحائل اللون ويحيط بمحجرى عينيه اللذين كان يبدو منهما أنه يحمل متاعب الدنيا جميعها ، فأى جهد وإعياء كان يبدو عليه ! وبغتة التقى ناظرى وناظره وعلقت عيناه عينى ، وكانت نظراته تنم على القسوة والجبروت .

ثم صاح فى فجأة وفى غير انتظار : « حسن » فشعرت بأن سيفى يصل فى غمده ، وأؤكد لك ياصديقى أنى لست منخوب الفؤاد ولا ممن يسرع إليهم الجزع ، ولكن إمبراطورنا كان له أسلوب يسترهب كبار القواد ، وصدقنى أن هذا شئ يقام له وزن ويحسب له حساب ، ومهما يكن من الأمر فقد طقطق مهمازا حذائى واصطكا .

وسمعت فى تلك اللحظة قرعاً خفيفاً على الباب ، ودخل الضابط الوكيل بالحراسة وبدا لى أنه متردد بين الإحجام والإقدام :

— سيدى !

وتوقف عن الكلام كأنه ليس على بينة من أمره ، وسرعان ما أدركت السبب ، فقد جاءت إلى ركن الحجرة طفلة صغيرة فى حالة عصبية ، وكانت سنها لا تتجاوز التاسعة أو العاشرة ، وقد ارتدت ثوباً قديم الطراز مهلهل النسج كان يسبغ عليها ألفة منزلية طريفة ، وكانت تحمل شيئاً ضخماً عرفت معرفة ملتبسة غامضة أنه ذلك الشئ الذى يضمه السيدات العجائز فى فراشهن التدفئة .

وكانت تبدو فى صورة فكهة مضحكة وهى واقفة فى طريق الباب وقد ظهرت عليها أمارات الخوف والقلق ومعها الضابط يشرف عليها من عليائه وهو يرتدى سترته الزرقاء القصيَّة .

وكان الإمبراطور أمامى ولذا لم أستطع أن أرى وجهه وقد انحنى قريباً من غدائرها الناعمة المترسلة ، وخرج الحارس وقد تنفس الصعداء .

وقال الإمبراطور فى رفق : « حسن يا طفلتى » .

وكان صوتاً لم أعهده .

واطمأنت الطفلة وسكن روعها وألقت الإناء ، وتهلل وجهها وقالت فى تلك اللهجة البغيضة ، لهجة سكان البسائط الشمالية : « الفراش » .

ويمكنك أن تتصور أن صبرى بدأ ينفد .

— لأجل فراشى ؟ .

وصمتت الطفلة طرفها وتغضن وجهها الصغير وأجابت : « لا أعرف ، لقد قالت لى أمى إن على أن أسخنه فى الفراش الكبير ، هذا ما قالته لى أمى وهذا ما أمرتنى به » .

فاعترض الإمبراطور حديثها فى رفق ولين : « دعينى أحمله عنك » . وحمل الإناء من طرفيه وتناول إمبراطور فرنسا والطفلة على رفع الإناء الساخن فى وقار إلى الفراش .

ونظر إلى غدائر شعرها السبط ولمسها فى رفق ، وخطر بفكرى أنه كان يأنس بالنظر إلى غدائرها وبراءتها بعد معاناة الأيام الوقرات بالمتاعب ، ورأيته ينحنى ويهمس فى أذنها وسمعتها تضحك ، ثم ربت وجنتها وقبلها قبلة الوداع فى أعلى جبينها :

— اذهبى الآن إلى فراشك يا صغيرتى .

ولكنها تعلقت بيديه وتشبثت بهما وقالت وهى مغيظة :

— لقد استأثر الجنود بالفُرُش .

— ما هذا ؟ .

فتجهم وجه الطفلة وقالت : « لقد غص النزل بالجنود وقد رقد فى فراشى أحد أعيان القواد بالحجرة المجاورة ، وفراشى لا يتسع له ، ولذا رأيت ساقيه متدليتين منه ، وأمى وأبى راقدان فى المرعى » .

وانتفضت الطفلة :

— أنا لا أحب المرعى ! .

— ولكنهم لم يخرجوك من مرقدك أيتها الصغيرة ؟ .

— لقد أخرجت ، وقد أخبرتك بذلك وقد شغله الرجل العظيم ، وهو الذى تقول إن علينا أن نقدم فرشنا لأن الجنود لا ينامون فى المرعى ، وهو الذى تخشى بأسهم .

وبصعوبة كظمت غيظى من ثرثرتها ، ولكن الإمبراطور هب قائماً وأشار إشارة تنم عن الضيق والتأفف وقال فى حدة وقد حول وجهه إلى : « هذا غير ممكن ، ألا تسمع هذا يا كولونيل ؟ أنا لا أريد أن يستبد رجالى بالفلاحين ويأخذوهم بالعنف ، ابحث عن فراش لهذه الطفلة ، وأعطها فراشك إذا استدعى الأمر » .

فأجبت — وأنا أعجب من اهتمام إمبراطور فرنسا بطفلة صغيرة مغرورة ابنة أحد أصحاب الفنادق البلجيكية :

— أنا كذلك أنام فى المرعى يا سيدى .

فنظر إلىَّ نظرة عجيبة :

— أكبر الظن أنك أيها الشيطان جئت متأخراً إلى ميدان التزاحم على الفرش !

— نعم ياسيدى ، وفى هذا النزل سبع حجرات وقد بها خمسة عشر رجلا من رجال هيئة أركان الحرب ، ويخيل إلى أن المرى مزدحم كذلك .

فصاح وهو يضحك ضحكاً خفيفة : « لتذهب فى داهية ، وما أظن أحداً منهم قد فكر فيك أو اعتنى بك » وانحنى وابتسم للطفلة الصغيرة .

— حسن يا كولونيل ارفع هذه الستارة التى تحجب الفراش .

وكان هناك ستارة ملأى بالثقوب مستندة إلى الحائط

— ضعها هنا بحيث تحجب الفراش . والآن أيتها الصغيرة هنا مكان نومك هذه الليلة .

فحملقت إليه الطفلة مشدوهة مدهوشة وجمدت فى مكانها .

— فى الفراش الكبير ؟

— الفراش الكبير .

— ولكنى لم أنم قط فى الفراش الكبير

— إذاً ستكونين ناعمة مسرورة .

— ولكن والدتى ...... ؟

— سأسوى الأمر مع والدتك ، وستكونين فى حرز حريز ، انظرى ، إننا سنضع هذه الستارة بحيث تحجب الفراش ، فلا تخشى شيئاً أيتها الصغيرة ورددى صلواتك وأدعيتك .

وخطوت إلى الأمام .

— سيدى .

— نعم يا كولونيل .

— سيدى أستميحك العذر .. ولكن

— ولكن ماذا ؟ آه أنت لا توافق على ذلك .

ولم تكن المسألة كما ترى مسألة موافقة أو غير ذلك ، فقد كنا نعلم أن الإمبراطور كان متعباً منهوكاً ، وقد بلغ منه الإعياء إلى حد أنه ألغى عرضين للجيوش فى ذلك الأسبوع ، وكانت أعباء الدولة ومستلزمات الحرب الراهنة قد أثقلتا عليه ، وكان مستقبل فرنسا فى يد رجل واحد ، ومن اللازم أن لا يعرض هذا الرجل للخطر لقلة النوم ونقص الراحة ، وقد شعرت بهذا أكثر مما فكرت فيه حينما أجبته :

— فى وسعنا أن نخرج أحد أركان الحرب من مرقده يا سيدى .

فابتسم وقال : « يا عزيزى الكولونيل ! أتقترح اقتراحاً جدياً أن أخرج أحد رجالى المحاربين القدامى من مرقده فى هذه الساعة من الليل لأضع هذه الطفلة مكانه ؟ فيا لله ! أتستطيع أن تتصور ماذا سيظنه بى ؟ لا أستطيع أن أحتمل عاقبة ذلك » .

وبدت له الفكرة مسلية إلى حد أنى اجترأت على أن أذهب إلى أبعد من ذلك .

— حسن ياسيدى ، إنها تستطيع أن تنام فى المرى

— ولكنها تخاف المرى يا كولونيل .

— إذاً فى أى مكان مناسب ياسيدى وسأدبر ذلك ، لا فى فراشك فإنك فى حاجة إلى النوم فى هذه الليلة .

— هكذا .

ودنا منى والطفلة تراقبنا .

— أتظن يا كولونيل أنى فى حاجة إلى النوم فى هذه الليلة ؟ ومتى كان لك أنت أو أى شخص غيرك من هيئة أركان الحرب حق الفصل فى مسألة متى وفى أى وقت أكون محتاجاً إلى النوم ؟

فأدركت أنى قد تجاوزت حدى ، وكانت هذه هى طريقة الإمبراطور ، فهو يسمح لك بشئ من رفع الكلفة ثم فجأة بكلمة أو بإشارة يعرفك مكانك .

فأجبت فى شئ من الخشونة : « أبداً يا سيدى ،

وإنمـا حرصى على راحتكم هو الذى أوحى إلىّ هذا الاقتراح .

فأعرض الإمبراطور عن ملاحظتى ولم يعبأ بها .

— الراحة ؟ هى أساس الموضوع ، إذا حرمنا الطفلة من الفراش فإنها حينما تشب وتكبر ستضع جيش فرنسا فى صف جيوش اللصوص والسلابين .

ونظر إلىّ كأنه إما أن يكون قد قال أكثر مما يلزم وإما أن يكون قد قال أقل مما يلزم ، ولم يكن على بينة من الحد الذى يسمح به لأحد أركان حربه بإحراز ثقته . وإنى أصارحك بأنى كنت عاجزاً من فهم وجهة نظره ، فأنا جندى خشن أكثر منى مفكراً أو سياسياً . ولست أستجيب لهذه البحوث الأخلاقية ، ولكنها كانت مزية أن أقف هنالك وأستمع إلى هذا الرجل الذى طأطأت له رقاب عواهل أوربا وأعظم أبناء فرنسا وهو ينظر بجد واهتمام فى آراء طفلة فلاحة ! .

واتجه إلى الطفلة الصغيرة وكانت لا تزال واقفة وقد عرتها الحيرة وأمرها بأن تذهب إلى الفراش ، ولم تكن فى حاجة إلى أمر آخر لتختفى خلف الستارة .

— والآن يا كولونيل أرجو لك ليلة سعيدة .

— ليلتك سعيدة ياسيدى .

وتريثت قليلاً ، ولكنى لم أكن أستطيع شيئاً ، وكان الضابط الموكل بالحراسة ينتظر خروج الطفلة ، فرفع إلىّ حاجبيه سائلاً مستفسراً ، فلم أستطع أن أمسك من الإفضاء إليه همساً بما حدث .

فانفجر قائلاً : « يا إلهى ، إنى أعلم أن هذه هى الليلة الثانية التى لم يذق فيها الامبراطور النوم ، ولو صنع بنفسه مثلى أو مثلك هذا الصنيع لفقد صوابه » ثم شد شاربه واسترسل يقول : « آه ولكن ماذا نعمل ؟ إن هذا شيء به ، أليس كذلك ؟ » .

وقادنى خادمى فى أسفل النزل ، وتقدمنى إلى المرعى واستلقيت فى فراشى وقد ذهب بى الفكر كل مذهب ، وانتحتنى الهموم ، وتذكرت قول حارسه : « إنهـا الليلة الثانية التى لم يذق فيها الإمبراطور النوم » وتقلبت فى فراشى ، ونمت فى عقب ذلك نوماً مضطرباً متقطعاً .

وتقدمنا فى صباح اليوم التالى للقاء الجيش الإنجليزى الذى يقوده ولنجتن ، وشاهدت وأنا إلى جانب الإمبراطور كيف تبدد شمل حرسه الملكى وكسرت شوكته ، وكانت الدموع تسيل على خدى فى غير خجل ، وكنت قائد الحرس قبل ترقيتى إلى مقر القيادة العليا ، والتفت إلىّ الإمبراطور وفى عينيه بريق النصر وصاح بى : تقدم يا كولونيل جيرا بفرقتك إلى الجناح الأيمن ! لقد غلبه ياصديقى الإعياء من قلة النوم لا القائد الإنجليزى ، لقد أنساه أنى لم أعد قائداً للفرقة العاشرة من فرق الحرس .

الوداع

ادوارد جيرا

جزيرة سنت هيلانه ، سنة ١٨١٦

على أدهم

البول السكرى

فى الأطفال

تحسبه لفرط حلاوة اللفظ نهراً يجرى ويروى ، وهو فى الحقيقة والواقع نار تشوى وتكوى . لا يعرف سناً ولا جاهاً ولا مالا . له لسنة لينة تجعل من التبر تراباً ومن السهل الخصيب رمالا . الكل عنده سواء . الأطفال والرجال والنساء . لا يرحم طفولة بضة أو شباباً غضاً ، بل ينزل على الجميع كالصاعقة منقضاً . يتخفى حيناً ويسكت حيناً ، والمريض يهدأ تارة وطوراً يئن أنيناً . تذوب منه الأنسجة وهو لا يدرى ، فلا يشعر إلا بالغصن اليانع يذبل ويذوى ، يحب الماء حباً جماً ، ويأكل الطعام أكلا لماً ، عبثاً ولا تعويض ما فقد ، أو استرداد بعض ما نفد ، وهو حائر لا يدرى إلى النجاة سبيلا ، حتى يهل عليه الطب الحديث فيشبع المرض طعناً وتقتيلا ، ويضمد من المريض الجرح دون أن يبرئه تماما ولو أنه يكفيه مؤونة عذاب طويل ، ويساعده على اجتياز مرحلة كلها منحنيات ومنعرجات . وقانا الله جميعاً شرها .

ويندر أن يبدأ مرض البول السكرى فى الأطفال قبل السنة الثالثة ، ولو أن هناك حالات شاذة بدأ فيها المرض فى الشهور الأولى من العمر . وقد ثبت أن للوراثة علاقة وثيقة بهذا الداء الملعون ، وفى خمس وعشرين فى المائة من الحالات شوهدت إصابات مماثلة فى الوالدين أو الأعمام أو أبناء العمومة . ولا صحة لما يقال إن البول السكرى يكثر حدوثه بين الأطفال المولعين بالإفراط فى أكل الحلوى ، فأروني الطفل الذى يزهد فى الالتماس حتى فى رأسه فى بير ملء بأنواع الحلوى والسكريات . إن هذا الحب العظيم لمن عادات الطفولة السيئة ، فمجرد حدوثه ليس إلا مصادفة لابد منها فى الأطفال الذين قسم لهم أن يقعوا فريسة لهذا المرض

وهجوم المرض فى الأطفال خاطف نوعاً ما ، إذ قلما تزيد فترة الاستعداد والتغلغل من شهور أو أسابيع يصبح بعدها المرض واضحاً لكل ذى عينين ، فيشعر الطفل بهزال وضعف يتعب بسرعة لأى مجهود ، ويلتهم الماء فى شغف عجيب ، وقد يصل ما يستهلكه إلى بضع لترات فى اليوم الواحد ، لا يلبث أن يطردها من جسمه بولا ، فيبول بكثرة فى الليل والنهار ، فيأرق نومه ويسوء يومه ، وقد يبول على نفسه فتبتل ملابسه وفراشه ، وتنحط حالته النفسية عندما يجد نفسه عرضة لهزء وسخرية من حوله ، وهم لو علموا لالتمسوا له العذر . ولكن قد يكون بول الطفل على نفسه أول علامة من علامات المرض ، وما لم يفطن الطبيب إلى ذلك ترك الداء يسرى ويتسلل فى ميدان خال من كل وسائل الدفاع ، ولا يشعر الطفل بالجوع الشديد إلا فى خمسة عشر فى المائة من الحالات ، وفى الأغلبية الباقية تكون الشهية أقرب إلى النقصان والفقدان . أما ما يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، فهو فقدان الوزن الذى قد يكون من السرعة بحيث يفقد الطفل من ستة إلى ثمانية أرطال فى الشهر الواحد ، فلا تمضى بضعة شهور حتى يجف الجسم ولا يبقى منه إلا هيكل بشرى يكسوه جلد مجعد خال تقريباً من الكساء الدهنى الذى يكسب الجسم الجمال وحسن الرونق .

هذه آفة البول السكرى فى الأطفال . هجوم خاطف وخط دفاع واه لا يلبث أن ينهار إذا لم تصله الإمدادات فى الوقت المناسب . فإذا وضع الطفل تحت إشراف طبى دقيق أمكنه أن يحيا حياة طبيعية قريبة من التى يتمتع بها الطفل الطبيعى ، فتختفى الأعراض التى تنغص عيشه ، ويزيد وزنه وينمو وهو قانع راض إلى سن المراهقة ثم البلوغ ، ولكنه عرضة طوال هذه السنين إلى أن تنتكس حالته لأوهى الأسباب ، وخاصة إذا تهاون أهله فى نظام غذائه أو إذا أصيب بعدوى أحد الأمراض أو انتابته صدمة نفسية . ومن أهم المضاعفات استرسال الطفل فى غيبوبة كالتى تصيب الكبار . والواقع أن الطفل أكثر عرضة

لحصولها ؛ لذا كان حقنه بمادة الأنسولين مبدأ أساسياً منذ اليوم الأول في العلاج . ومن كل هذا يمكننا أن ندرك أهمية التشخيص المبكر للمرض ، فيجب فحص البول لإثبات وجود المرض من عدمه في كل الأطفال الذين يميلون إلى تجرع كميات كبيرة من الماء ، والذين يبولون بكثرة في الليل والنهار وخاصة في الحالات التي يبول فيها الطفل على نفسه . وكذلك في الأطفال الذين يلاحظ عليهم الهزال وفقدان الوزن دون سبب ظاهر ، وأكثر ما يخشاه الطبيب في الأطفال المرضى بالبول السكري حدوث إصابات نتيجة العدوى بجراثيم التقيح ، فيجب أن نعنى مثلا بصحة الجلد ونظافته ، فإن دملا صغيراً قد يتحول إلى جمرة خبيثة إذا أهملنا علاجه . كذلك تجب وقايته من الأمراض بمختلف أنواعها ، كحقنه مثلا بالطعم الواقي من التيفود أو التيفوس أو الدفتريا أو الجدري ، وعزله من المصابين حتى بالرشح البسيط لأن العدوى به قد تمتد إلى الشعب والرئة محدثة التهاباً رئوياً شعبياً . ويجب في الوقت نفسه أن نولد في الطفل روح الثقة بنفسه ونشعره أنه يشاطر طبيبه مسؤولية العلاج ، فنعلمه كيف يفحص بوله لاكتشاف مادة السكر ونفهمه بالرفق والحسنى أن أي تراخ أو إهمال قد يؤدي إلى أوخم العواقب .

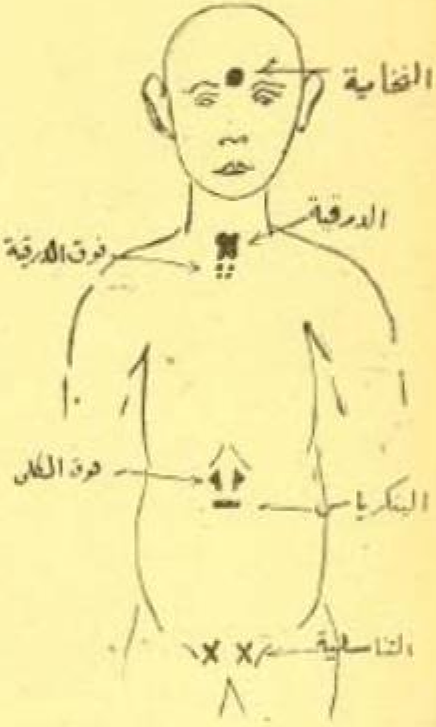
ولقد كان اكتشاف الأنسولين نعمة كبرى على الطفل بصفة خاصة . فقبل ذلك كان الأطفال المصابون بالبول السكري لا يعيشون أكثر من أشهر معدودات . أما الآن فإنهم يسعدون بحياة طويلة حافلة بالنشاط ما داموا يجتازون السنتين الأوليين من العلاج بسلام ، لأن هذه الفترة بالذات تعد أشد مراحل المرض خطراً ، ويتأرجح المريض خلالها بين مد وجزر ، ولا يقربه إلى شاطئ السلامة والاستقرار إلا منطقة النجاة وهي الأنسولين ، فتزيد أو تنقص من كميته بحسب مقدار المواد النشوية والسكرية المسموح بها حتى نصل به تدريجيا إلى مستوى من الغذاء أو المعيشة يجعله يكاد لا يشعر بأنه يعيش على هامش الحياة . وما دمنا نقيه من الجراثيم على اختلاف أنواعها ونفهمه أن الشيء الكثير يتوقف على إخلاصه لنفسه ولطبيبه المهيمن على علاجه فلا يخدعه أو يكذب عليه أو يراوغه في تنفيذ نظام الغذاء ، فإن أمامه فرصة طيبة ليحيا حياة هانئة لا تشوبها من العوارض المزعجة أكثر مما ينتاب الطفل العادي . وقد يتمرد الطفل إذا تقدمت به السنون إلى دور المراهقة الخطر حين يداخله الغرور ويتحدى من حوله ، فيطلب أن يترك وشأنه يأكل ما يشاء بغير حساب ، فيجب أن نستعد لهذا الدور بإشراكه في تنفيذ العلاج بشكل صريح ، فنعلمه كيف يحقن نفسه بالأنسولين وكيف يفحص بوله يوميا لاكتشاف وجود السكر من عدمه ، ونفهمه أن كل شيء يتوقف عليه وأن أي تقصير من جهته يضيع عليه وعلى طبيبه مجهود سنين طوال .

* * *

وقد يكون من لغو القول ذكر علاقة البول السكري بغدة البنكرياس وإفرازها الداخلي الشهير بين الخاص والعام بالأنسولين ، فإن هذه العلاقة أصبحت أشهر من أن تعرف ، وفي مادة الأنسولين حياة لمرضى البول السكري ، فطوبى لمكتشفه (بانتنج) الذي يرقد الآن في مكانه المختار بين البررة والقديسين ، وكانت وفاته نتيجة حادث طيارة منذ سنوات قلائل ، ولم تحدث وفاته التأثير البالغ الذي كنا ننتظر ، لأن قصف مدافع الحرب الأخيرة طغى على كل شيء آخر ، فاكتنفت روحه وقفت بصلاة رحمة هامسة أسبغها عليه كل معترف بجميله العظيم وفضله العميم .

وفي الطبعات القديمة الأولى من قصة البول السكري سرق الأنسولين كل فصول الرواية ، وبدا كالبطل الفرد الذي دانت له الرقاب وخسفت بجانبه شموس كل الأبطال ، ثم برز في الطبعات الجديدة أبطال جدد اختلسوا بعض أنوار المسرح ، ولكن الأنسولين بقي كما هو رئيس فرقة موسيقية

يعرف أفرادها فى نغم متزن ، والويل لجسم الإنسان إذا تنازع أفرادها الأسبقية أو أرسل أحدهم النغم نشازاً بقصد أو دون قصد ، فإن توازن الجسم يختل وتنتج من هذا الاختلال أمراض كثيرة لا يهمنا منها فى هذا المجال سوى البول السكرى .



ونظرة واحدة إلى الرسم المرفق بهذا تبين لنا فى وضوح أفراد الفرقة ، ونعنى بها مجموعة الغدد الصماء التى شغلت إفرازاتها الداخلية — أى الهورمونات — أذهان الأطباء وأنصاف الأطباء من الجمهور ؛ فهناك الغدة النخامية الموجودة داخل الجمجمة تحت المخ مباشرة ، والغدة الدرقية وهى المعروفة بتفاحة آدم وموقعها فى الرقبة ، والغدة فوق الكلى .

وهذه الغدد الثلاث تضع نفسها فى كفة واحدة محاولة الحد من فعل الأنسولين . فإذا زادت إفرازاتها من الحد الطبيعى تقهقر الأنسولين . وترك وراءه صواميل مفككة لا رابط لها فيفلت الزمام من الكبد ، وهذه تفشل فى اختزان المواد النشوية فترتفع نسبة السكر فى الدم لدرجة تعجز معها الكليتان عن احتجازه فيندفع إلى خارج الجسم فى البول حيث يسهل اكتشافه بالتحليل الكيميائى . وعلى العكس من هذا إذا قل إفراز الأنسولين نتيجة مرض فى غدة البنكرياس فإن إفرازات الغدد الأخرى — وهى دائما فى حالة تحفز — تزيل عن نفسها مركب النقص وتندفع إلى مخازن المواد النشوية فى الكبد والعضلات وتطلق سراحها إلى الدورة الدموية ثم إلى مجارى البول فتضيع هباء دون أن يستفيد منها الجسم ؛ وهذا سر الضعف والهزال اللذين يتميز بهما مرض البول السكرى . فنستنتج من هذا أن مفعول الأنسولين يتلخص فى تمكين الجسم من اختزان المواد السكرية والنشوية ثم إطلاق سراحها فى بطء واتزان حسب حاجة الجسم إليها . فإذا حقن فى المريض بالبول السكرى ساعد على الحيلولة دون ضياع هذه المواد السكرية هباء ، وبتوفيرها يغنى الجسم عن استهلاك مواده الدهنية التى يضطر إلى الالتجاء إليها ليستمد منها الحياة والنشاط ، ويزداد تبعاً لهذا وزن المريض فتمتلىء منه البروز العظمية ويبدو أكثر صحة وأسلم عاقبة .

ويميل الرأى الحديث فى علاج البول السكرى فى الأطفال والكبار إلى الإكثار من نسبة المواد السكرية والنشوية فى غذاء الطفل لأنه وجد أن هذا ينبه غدة البنكرياس المريضة الضعيفة ويوقظها من سبات عميق ، وكأنه السوط يلهب به ظهر جواد متراخ كسول . ومن مزايا هذه الطريقة أيضاً أن المريض لا يشعر بالحرمان الذى يسيل بسببه لعابه عند رؤية الغير يتمتعون بألوان الطعام الشهية ، فيتعاون مع الطبيب المعالج ولا يرى نفسه مضطراً لسرقة ما حرم عليه . وقد وجد أيضاً أن هذه السياسة الغذائية تقلل من تعرض المريض لتصلب الشرايين الذى

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألمانى رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٢ —

فيارجيو ، بجوار بيزا (إيطاليا)

٥ إبريل ١٩٠٣

لا بد أيها السيد العزيز المكرّم ، أن تتجاوز عن أنى لم أذكر خطابك المؤرخ ٢٤ فبراير إلا اليوم شاكراً لك عليه ؛ فلقد كنت طوال هــذه الفترة موجَعاً ، لم أكن مريضاً حقاً ، لكنى كنت أنوء تحت فتور من نوع الانفلونزا أعجزنى عن كل شىء ؛ وأخيراً لما أبى الحال أن يتغير رحلت إلى هذا البحر الجنوبى الذى أفادنى أثره الحسن مرة من قبل ؛ غير أنى لم أعد بعد إلى الصحة ولا تزال الكتابة ثقيلة علىّ ، ولذلك لا بد أن تقوم هــذه الأسطر القليلة عندك مقام أكثر منها .

وبالطبع لا بد أن تعلم أنك تسرنى دائماً بكل خطاب تكتبه إلىّ ، ولكن لا بد أن تكون عفُوّاً إذا جاءك الرد ، وربما تركك خالى اليدين ، لأننا فى الحقيقة وفى أعمق الأشياء وأهمها نكون فى وَحدة تامة لا توصَف . ولكى يتيسر للواحد أن ينصح الآخر أو يعينه فلا بد من أشياء كثيرة ومن أن يسعدهما الحظ الكبير ، لا بد أن تتحقق مجموعة كاملة من الأشياء لكى يسعد الحظ بذلك مرة واحدة ؛ وأريد اليوم أن أتحدث إليك فى شيئين اثنين فقط :

التهكُّم : لا تدع التهكم سبيلا إلى السيطرة عليك وخصوصاً فى أوقات عدم الابتكار . ولتحاول فى أوقات الابتكار أن تستخدمه وسيلة تضيفها لما عندك ابتغاء الفهم للحياة ، وإذا أنت استخدمت التهكم خالصاً من الأغراض كان بريئاً ولا غبار عليه وينبغى ألا تخجل منه ؛ أما إذا شعرت أنك قد ألفته فلتحذر ازدياد الألفة له ، وتحوَّل إلى الموضوعات الجادَّة الكبيرة التى يقف التهكم أمامها ضعيفاً عاجزاً ، ولتبحث من أعماق الأمور ، لأن التهكم لا يستطيع قط أن يبلغ هذه الأعماق ، وإذا أنت قاربت الأمور العظيمة فينبغى أن تتحقق فى الوقت عينه مما إذا كانت الطريقة التهكُّمية فى تصور الأشياء مصدرها ضرورة قاهرة فى ذاتك ، لأن التهكم بتأثير الجاد من الأمور إما أن يسقط عنك ، إن كان شيئاً عارضاً ، وإما أن يقوى ويصير أداة قوية ويندمج فى سلك الوسائل التى لا بد لك أن تبنى بها فنك ، إن كان التهكم من صفاتك الفطرية حقيقة .

وأما الأمر الثانى الذى أردت اليوم أن أتحدث إليك فيه فهو هذا : إنى لا أستطيع الاستغناء إلا عن القليل من كتبى ، وإن اثنين منها لا يزالان دائماً ضمن حاجياتى أينما كنت ، وهما الكتاب المقدس ومؤلفات الشاعر الدنمركى العظيم ينس بيتر يا كبسن (Jens Peter Jacobsen)[1] :

(١) عاش هــذا الشاعر من ١٨٤٧ إلى ١٨٨٥ ، وكان يميل إلى المذهب الطبيعى وفى الوقت نفســه يجرب إلى ما فوق المحسوس ، ويسبب هذا الانقسام فى نفسه تجد فى طبيعة الشاعر وفى إنتاجه خصائص البطولة الحزينة .

يعد من أهم مضاعفات البول السكرى فى الكبار . أما الأنسولين فإنه يعطى بالمقدار الذى يجعل البول خالياً من السكر فى الوقت الذى يسمح فيه للمريض بنسبة معقولة من السكريات قد تصل إلى خمسة وأربعين فى المائة من مجموع غذائه اليومى وهــذه نعمة كبرى لمريض اعتاد فى الزمان الماضى الذلة والحرمان .

ويلاحظ عند حقن الأنسولين النظافة التامة والتعقيم الكامل ، وتغيير موضع الحقن بحيث لا يحقن فى المكان الواحد أكثر من مرة فى الشهر . وتزاد الكمية عند إصابة المريض بأى توعك لأن حاجة الجسم إلى الأنسولين تزيد فى المرض .

دكتور مصطفى الديوانى

فليت شعري هل تعرف كتبه ؟ إنك تستطيع أن تحصل عليها بسهولة ، لأن طائفة منها ظهرت ضمن نشرات ركلام في ترجمة جيدة جداً ، فاطلب الجزء المسمى ست روايات (Sechs Novellen) من مؤلفات هذا الشاعر ، واطلب روايته المسماة نيلز ليني (Niels Lyhne)[1] وابدأ بقراءة الرواية الأولى من الست وهي التي عنوانها موجنس (Mogens). إن عالماً جديداً سينفتح عليك ، ستجد السعادة والثروة وعالماً لا تستطيع إدراك عظمته . فتعش وقتاً في هذه الكتب ولتتعلم منها ما يبدو لك جديراً بالتعلم ، ولتحاول قبل كل شيء أن تحبها ، وهذا الحب سيعود عليك مضاعفاً آلاف المرات ؛ ومهما آلت إليه حياتك فإني واثق أن هذا الحب سيدخل في نسيج تطورك كأهم خيط من خيوط تجاربك وما ذقت من خيبة أمل أو نعمت به من سعادة .

وإذا كان لا بد أن أعترف بمن تعلمت منهم شيئاً عن ماهية الابتكار الفني وعن عمقه وخلوده فليس عندي إلا اسمان أستطيع ذكرهما : الشاعر الدنمركي العظيم ياكبسن والمثال الذي لا نظير له بين جميع الفنانين الذين يعيشون في عصرنا وهو أوجوست رودان (Auguste Rodins)[2].

ثم أتمنى لك كل نجاح فيما تسلك من طرق .

رينر ماريا رلكه

— ٣ —

فياريجو ، إلى جوار بيزا (إيطاليا)

٢٣ إبريل ١٩٠٣

لقد سرني خطابك أيها السيد العزيز الكريم ، بما حمل من تحية عيد الفصح سروراً عظيماً ، لأنه ينبئ بالكثير الطيب من أخبارك . وإن كيفية كلامك عما يا كبسن من فن عظيم محبوب ليبين لي أني لم أكن مخطئاً حين وجهت حياتك وما فيها من مسائل كثيرة إلى هذا المعين الفياض .

(١) رواية ظهرت عام ١٨٨٠ ويسميها البعض الجيل الإلحاد .
(٢) مثال فرنسي عظيم عاش بين ١٨٤٠ و ١٩١٧ .

وإذاً فسينفتح أمامك الكتاب الذي عنوانه نيلز ليني (Niels Lyhne) ، وهو كتاب حافل بكل ما هو سام وعميق ، وكلما كرر الإنسان قراءته ظهر له أن فيه كل شيء ، من أرق عبير في هذه الحياة إلى أكمل وأعظم ثمراتها الشهية الثقيلة . ليس فيه قط شيء إلا ونحن نفهمه وندركه ونحسه ونحتفظ به متردداً في ذاكرتنا كالنغم الرقيق . لا نجد فيه تجربة داخلية واحدة إلا وكانت عند المؤلف عظيمة الشأن ، ونجد أن أصغر الحوادث شأناً ينفتح وينمو كالقدر ، ونرى القدر نفسه كنسيج عجيب عريض كل خيط فيه تمسكه يد لا نهاية لرقتها وتضمه إلى جانب الخيوط الأخرى حيث تحمله وتمسك مائة خيط أخرى . إنك ستشعر بأكبر سعادة حين تقرأ هذا الكتاب لأول مرة وستسير بين مفاجآته التي لا تحصى كأنك في حلم جديد . ولكن أستطيع أن أقول لك إن الإنسان فيما بعد أيضاً يسير في قراءته لهذه الكتب مندهشاً دائماً كما كان في أول مرة قرأها ، فهي لا تفقد شيئاً من قوتها العجيبة ولا من صبغتها الخيالية التي تغمر بها القارئ أول مرة ، فالإنسان لا يزال أبداً متلذذاً من هذه الكتب ولا يزال شاكراً ، وسيصير نظره في الحياة على نحو ما أجود وأبسط وسيصير إيمانه بالحياة أعمق ، وهو سيكون في الحياة أسعد وأعظم .

وبعد ذلك عليك بقراءة الكتاب العجيب الذي يتجلى فيه فعل القدر وفعل الشرق ، وعنوانه فراو ماري جروبه (Frau Marie Grubbe)[1] ثم اقرأ خطابات ياكبسن ويومياته وشذراته ، وأخيراً أشعاره . وهذه الأشعار وإن كانت في ترجمة متوسطة ، فإنها لا تزال لها رنتها الذي لا نهاية له . وأحب أن أنصحك إلى جانب هذا بشراء الطبعة الجميلة لجميع مؤلفات ياكبسن إن أردت ذلك ، وهي تحوي كل ما كتب ، وقد ظهرت في ثلاثة مجلدات مترجمة ترجمة جيدة

(١) رواية تاريخية من عصر النهضة الدنمركية ظهرت عام ١٨٧٦ وفيها تأثر ياكبسن عظيم .

بقلم أويجين ديدريخس (Eugen Diederichs) عديدة لينزج ، وقتها يحسب ما أعلم خمسة أو ستة ماركات لشكل مجلد .

أما فيما يتعلق برأيك في : « هنا كان يجب أن يكون ورود » (Hier sollten Rosen stehen) ، وهو الكتاب الذي لا نظير له في صورته ورقته ، فإنك بالطبع محق كل الحق فيما تقوله عند كتاب المقدمة ، وهنا أحب أن أرجو منك شيئاً : قلل ما استطعت من قراءة النقد الذي يتعرض لنا في الإنتاج الفني من جمال ، لأن هذا النقد إما أن يكون آراء متحجرة قد أصبحت سلبية متحجرة لا حياة فيها ولا معنى ، أو يكون لعباً حاذقاً بالألفاظ ينصر اليوم رأياً وغداً رأياً مضاداً له . إن الآثار الفنية توجد في وحدة لا حد لها ، والنقد هو أقل شيء يوصلنا إليها ، فلا يدركها ويمسكها ويعطيها حقها إلا الحب . فلتقر دائماً نفسك وشعورك على مسلكهما إزاء مثل هذه المناقشات النقدية والبحوث وإزاء ما للأعمال الفنية من مقدمات تكتب لها . وحتى لو كنت مخطئاً فإن النمو الطبيعي لحياتك الداخلية سيؤدي بك رويداً ومع سير الزمن إلى معارف أخرى ، واتدع أحكامك تنمو وتنضج فيما ينبغي لها من هدوء لا يعكره شيء ؛ وهذا النضج ، شأنه شأن كل تقدم ، يجب أن يكون صادراً من الصميم ، ولا يمكن أن يستحثه أو يسرع به شيء مهما يكن ، إن كل شيء هو بمثابة الحمل ثم الولادة ، فينبغي أن تترك كل أثر لفكرة وكل جذرة لشعور حتى يتكامل نموه في نفسه ، في الظلام ، في ذلك المجال الذي لا يمكن وصفه ، في اللاشعور ، في الميدان الذي لا يصل إليه العقل ؛ وينبغي أن تنتظر في تواضع وصبر ساعة الميلاد لنور جديد ؛ وعلى هذا النحو ، ودون غيره ، تكون حياة الفنان ، في فهمه للأشياء ، وفي إنتاجه الفني .

وهنا ينبغي ألا نحسب بقياس الزمن ، هنا لا اعتبار للسنين ، فالعشر سنين ليست هنا شيئاً . إن معنى كون الإنسان فناناً هو أنه لا يحسب ولا يعد ، بل هو ينضج كالشجرة التي لا تستحث عصيرها في مسيره ، بل تقف هادئة وسط عواصف الربيع دون أن تخشى عدم مجيء الصيف بعد تلك العواصف ، فإنه لا بد آت ، ولكنه لا يأتي إلا للصابرين الذين يقفون هادئين كأن الأبد كله أمامهم في اتساعه وسكونه الذي لا يعكره القلق . إني أتعلم هذا كل يوم ، أتعلمه بالآلام التي أنا شاكر لها : إن الصبر هو كل شيء .

أما ريخارد دِمل (Richard Dehmel)[1] فقد عرفته معرفة المار ؛ وإنه ليقع لي من كتب هذا الرجل ومنه نفسه أيضاً ، إذا قرأت له صفحة من الصفحات الجميلة ، أني أخشى دائماً الصفحة التالية التي قد تفسد كل شيء ، والتي قد يقلب فيها ما هو جدير بالجمال شيئاً لا قيمة له ؛ ولقد أحسنت في وصفه إذ تقول : « حياة شوق ملتهب وشعر » . والواقع أن الإحساس الفني يقع قريباً جداً من الشعور الجنسي في ألمه ولذته قرباً مدهشاً ، حتى إنهما في الواقع ليسا سوى صورتين مختلفتين لشيء واحد هو الشوق والسعادة ، وإذا جاز لنا أن نقول بدل حياة الشهوة الجنسية الحياة الجنسية ، وأقصد الجنس بمعناه الكبير الواسع النقي الذي لم تلحقه الريبة بسبب سوء فهم الكنيسة ، فربما كان فن دِمل عظيماً جداً وذا شأن لا حد له . إن مقدرة دمل الشعرية عظيمة وهي قوية كقوة الغرائز الأصيلة ، لها قوانين اندفاعها الخاصة التي لا تبالي بشيء ، وهي تنفجر منه كأنما تتشقق منها الجبال .

ولكن يظهر أن هذه المقدرة ليست دائماً مخلصة تماماً ولا بريئة من التكلف (غير أن هذا أيضاً من أشق ما يُمتحن به الفنان المبدع : فإن الفنان ينبغي أن يظل دائماً غير شاعر بأحسن فضائله ، ولا متفطن لها ، وإلا فإنه يفقدها بساطتها ونقاءها) ، وهي ، إذ تموج بها باطنه ، إن انتهت إلى الجنسيات لم تجد فيه عند ذلك الإنسان

(١) عاش بين ١٨٦٣ و ١٩٢٠ ، من أكبر شعراء ألمانيا الغنائيين وأهميته تتلخص في شعره الذاتي وفي محاولاته في الدراما ، يتميز إنتاجه بشعور متفجر وتخلط في نظرته السكون النزوع إلى الظهر إزاء الغالب

الذى قد بلغ من درجة النقاء والوضوح والنضج ما نحتاج إليه ، لأنه لا يوجد عنده هنا عالم جنسى ناضج النضج التام وفى النقاء التام ، أقصد عالما إنسانيا بالدرجة الكافية ، ليس هنا إلا عالم صبغته صبغة الرجل ، عالم مملوء بالشهوة المادية واللذة الثائرة والاضطراب مُثقل بالأحكام العرجة الفاسدة وبضروب الغرور الكاذب التى شوه بها الرجل صورة الحب وحمّله أوزارها ، لأنه لا يحب إلا من حيث هو رجل لا من حيث هو إنسان ، ولذا انحطاطه فى شعوره الجنسى ضيقا ووحشية ظاهرة ، فيه شىء محمل بالحقد ، ومؤقت لا دوام له ، وهذا يقلل قيمة فنه ويجعله ملتبساً مريبا ، هو فن ليس ريشا من التلطيخ ، هو مصطبغ بصبغة الشهوة والزمن ، وقلّ منه ما سيبقى ويدوم . على أن معظم الفن هو هكذا ، ولكن الإنسان يستطيع رغم ذلك أن يغتبط اغتباطا عميقا لما فى فن دهل من أشياء عظيمة ، ولكن ينبغى ألا يضل فيلحق بالعالم الذى يعيش فيه دهل بما فيه من ألم وخوف لا حد لها وبما هو مملوء به من وصف الحياة الزوجية والاضطراب ، ولأنه بعيد من تلك الأقدار الحقيقية التى تدنى صاحبها من الآلام أكثر من هذه الآلام المؤقتة ، لكنها تهيئ له أيضا فرصة لذكر الرفعة والسمو وتعطيه قوة أكبر على الخلود .

وأخيراً فيا يتعلق بكتبى لا أحب إلى نفسى من أن أبعث إليك بكل ما يسرك منها أى سرور ، غير أنى فقير جدا ، وكتبى تخرج من حوزتى بمجرد ظهورها ، ولا أستطيع أنا نفسى شراءها أو إعطاءها للكثيرين ممن يعرفون من السرور بها .

ولهذا فإنى أبعث إليك على ورقة اسم أحدث ما ظهر من كتبى واسم المطبعة ، وأقول : أحدث ما ظهر ، لأنى قد نشرتُ فى الجملة اثنى عشر أو ثلاثة عشر كتابا ، وإنى مضطر أيها السيد العزيز أن أترك لك شراء بعضها إن أردت . ويسرنى أن تكون كتبى فى حوزتك

(يتبع) مثى سعيدا معاق

ح . ج

لقينى ذات مرة صديقى الشاعر المحترم الأستاذ « حسن الجداوى » وكان ذلك عقب ظهور المقالات الأولى التى نشرتها « مجلة الثقافة » بتوقيع (ح . ج) وقال لى إنه تلقى عدة رسائل من أصدقائه الذين حسبوا أنه هو كاتب تلك المقالات وقال لى مازحا : إنه يجب أن أتحمل المتاعب التى سببها له تشابه الحروف الأولى بين اسمينا مادمت أنا كاتب هذه المقالات ، فاعتذرت إليه من ذلك وفكرت عقب هذا الحديث فى أن أوقع باسمى كاملاً على ما أكتبه من كلام حتى لا أسىء إلى إخوانى — الذين تتشابه أسماؤهم مع اسمى فى الحروف الأولى — بنسبة هذا الكلام إليهم .

ولكنى ما لبثت أن أدركت أن قراء مجلة الثقافة التى اعتدت أن أكتب فيها — والتى لم أكتب قط فى غيرها فى السنوات الخمس الأخيرة على الأقل — قد عرفوا صاحب هذا التوقيع ، فلم أر بى حاجة إلى استعمال اسمى الكامل ، لا سيما فى تلك الفترة التى كانت تقتضى تنكير توقيعى لأسباب ذكرتها فى بعض تلك المقالات .

واليوم لفت نظرى بعض إخوانى إلى قصص ومقالات نشرتها بعض الصحف الأسبوعية بتوقيع (ح . ج) وكان آخرها قصة الأسبوع التى نشرتها مجلة (المصور) الغراء فى عدد يوم الخميس ٢٤ يناير سنة ١٩٤٦ .

فرأيت المرة الثانية أن بقاء توقيعى على هذه الصورة المختصرة سوف يسىء إلى بعض زملائى من جديد ، إذ يسبغ على فضل ما يكونون هم أصحاب الفضل فى كتابته ، بعد أن لازمنى التوقيع بهذين الحرفين كل هذه السنين

فأنا اليوم أبادر بنشر كلمتى هـذه إقرارا للواقع ومنعاً لحصول لبس جديد ، لأن توقيعى بعد اليوم فيما يأذن الله لى بكتابته سيكون : حسن جلال

(٧) الأشعار الأندلسية

وعلاقتها بالأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

ولكن ابن قزمان يقترب من التروبادور فى أسلوب الحياة التى كان يحياها ، وفى الطريقة التى كان ينشد بها أشعاره ، فقد كان يقود فرقة من المغنين والموسيقيين ، ويتنقل بها بين مجالس اللهو والغناء فى قرطبة وغيرها من مدائن الأندلس ، وكان مدار معظم أناشيده هو الحب : الحب بجميع صوره وألوانه ، ولما كان معظم أشعار التروبادور يدور حول هذه العاطفة الإنسانية الجليلة ، فقد حسب ريبرا أن ديوان ابن قزمان إنما هو الحلقة المفقودة التى تثبت لنا بجلاء مقدار دين المغنين المتجولين الفرنسيين لابن قزمان وأمثاله من زجالى الأندلس ، وزاده إيماناً برأيه ما وجد من تطابق بين الطريقة التى كان ابن قزمان يلقى بها أناشيده وطريقة التروبادور ، فقد كان ابن قزمان يقصد بأغانيه سراة الناس وأصحاب الجاه منهم ، فيقف مع فرقته فى فناء الدار أو على قارعة الطريق أمامه ، ويلتف الناس من حوله حلقة . ومن البديهى أن هؤلاء الذين كانوا يلتفون حوله لم يكونوا من علية الناس أو مثقفيهم ، وإنما كانوا خليطاً من طغام المدن من صبية الشوارع والخدم والجوارى والباعة . ولسنا ندرى إن كان هو الذى يلقى أغانيه بنفسه أو أنه كان يكتفى بوضع اللحن ومرافقة المغنين ، وكانت فرقته تتكون من ضارب للعود وزمار وضارب للدف وعدد من المغنين رجالا ونساءً ، وتبدأ الفرقة بإلقاء مطلع بسيط مكون من مصراعين مثل :

يا من مضى عنّ وانقطع خبرُو
وليس لى سمعٌ وكمد فنتظرْ

وبعد أن تنتهى الفرقة من ترديد هذا المطلع ، يأخذ مغن (أو مغنية) فى إنشاد البيت الأول من الأغنية ، ويتكون عادة من مصراعين مثل :

حتى نرى إن رأيتَ فيك أمَل
ونجتمعْ بِكْ قبل أن يجين أجل

أو من ثلاثة مصاريع على نفس الوزن والقافية :

أنا الذى قد رَيتْ منهم طوايف
لم قط نُرى معشوقْ إلا مخالف
إن قلت له اجلس يقوم هوْ واقف

ثم تلى ذلك فقرة قاصلة من وزن وقافية المطلع ، فإذا فرغ المنشد من إنشادها ، رددت الفرقة كلها مطلع القطعة وصاحبها جمهور النظارة فى الإنشاد والتصفيق ، وربما صاحب الغناء الرقص ، فبرزت راقصة وأخذت ترقص رقصاً قريباً جداً من أسلوب الرقص الذى نراه الآن فى جنوب الأندلس وفى بعض نواحى الشمال الأفريقى .

وهذا زجل كامل من أزجال ابن قزمان لكى تأخذ فكرة عن الأسلوب العام لهذه الأزجال ، وقد وضعتُ الحركات على الحروف كما وردت فى النص ورسمت الكلمات التى شككت فى قراءتها كما هى :

صبى نعشق من السوق إن عرَضْ لك ستدريه
كن تقول كيف اسمُ وليس تجرى تسميه

أنت يا من يقتل الناس على يَد ما يكلم
اش ذا السلك يا آخى نمىْ رتّاك المعلم
والله إنك مُقنّبه وارض مكار وسلم
وإذا نهت تستحسُن أن يشا كلك التيه

أنا نسكت ونصبر وبدا كلْ تمتشق
وإذا ريتو نتّبهت واش على مَنْ قال الحق
بالله لو كان بودي ما مشيت من أحمق(١)
ولو أختفيت إلاّ لو قدير عير(٢) يخفيه

---

(١) أى ما اختلف حالى من حال الأحمق .

(٢) غيرى .

٩ يا مُدَلَّلْ علىَّ يا مليحْ التَّجنِّي
إيش تَطلِبْلى حديثك وحديثك قتلى
عهد يا قلب انجُنت لا تَزُلْ قط منى
إيش يكايد مُستَبْكِن بَلَّه عهنو وقربه

١٣ صاحب العين الأشهل الرقيق الحواجب
يقول إلى غلام ، والذى قال فواجب
لا يكن من عبيدُ إلا شاعر وكاتب
لس ما عاز عنى ولاه يد عاز بيه[1]

١٧ كَيف[2] يصح أن يهاوَد ومتى يلو عنقو
وصَواحبه راوه ورأوا حسن خلقْ
قالت الواحدة للأخرى أبلاك الله بعشق
[3]

٢١ الشّها منْ أقرب لا يغرّك سَلام
إنما يخدع الناس بحلاوة كلام
وترى فيه طهارة وهو يجمع لجام
وافخ منصوب بإصباح من يقع فيه

٢٥ كل يوم الطمع فيه والسَّمير كل ليله[4]
ليس يحى بعد قيس فى هواه إلا قبيله[5]
قد بغيت أن نُقدِّمه فى زجل قبيله[6]
واش فى ذا لو عطاها لى قبل أن نُقدّمه

٢٩ اختصر هذا كله واحمل مربوع القد
لمن نريد أن نقبل البنان يا بن اجود
نحو حراماً علىَّ إن درى فا الخبر حسد
كل خبير زد لى ، الذى تطيخ أشويه[1]

٣٣ ومن ذا الليلة فرح ومن ذا الليلة نسكر[2]
ومن الفرح نسمن وقداً لس نُميز
شرب الوَشكى ماى على غيض ابن أبى الطر[3]
لم نغمض طول الليل إلا نشرب ونسقيه

قد تمت الزجل وهو من قلبى مقطوع
وبا من سحر بابل ومن الدُّر مجموع
تسمع الناس يقولوا إن ذا باخ مطبوع

ويلاحظ القارئ أن قراءة هذا الزجل قراءة صحيحة تستلزم إطالة بعض المقاطع وتقصير بعضها ، والضغط على مقطع دون آخر ، وقد رأى كاتب الديوان ذلك فحذف حرف العلة حيث ينبغى إهماله فى النطق ، وأثبت حرف علة فى حيث يقتضى النطق إطالة الحركة كما يرى فى السطر السابع عشر مثلا فى تقصير كيف إلى كف و « مد عنقه » إلى « عنقو » مما يدل على أن أساس الوزن فى هذه الأزجال إنما كان طول المقاطع وقصرها وليس عددها ، وهذه مسألة اكتشفها نيكل عند ما نشر الديوان وصحح بذلك قراءة الأزجال مما قررها أستاذه ريبرا ، وقد علق على ذلك جورج كولان فى مقاله الذى سبقت الإشارة إليه فقال :

(البحث بقية) حسين مؤنس

(١) لم أستطع فهم المراد بلفظ بيه بالضبط .
(٢) كيف
(٣) هنا مصراع ثالث استحسنت أن أستغنى عنه
(٤) أى السهر .
(٥) الغالب أن المراد بلفظ قبيله هنا : نادراً .
(٦) أى قررت أن أبادله زجلا جميلا .

(١) أى أنا دعى تمام الاتفاق وما عليك أنت أيه آ .
(٢) أى نعتز وهذا رأى دوزى فى تفسير هذا اللفظ .
(٣) أى غيضاً ابن أبى الطر أحد مترهات قرطبة .

الفكاهة فى الشعر المصرى

— ٤ —

رأينا ابن دانيال فى كتابه « طيف الخيال » يسلك مسلكا تهريجياً فى فكاهته ، فهو يضحك الناس من نفسه وبيته وأهله ، وقد ضمن كتابه بعض أزجال ، ولكنا لا نستطيع أن نعرض لها لما فيها من إثم وفحش . ومن يرجع إلى نصوص القرن السابع الهجرى ، قرن ابن دانيال يجد الأزجال تشيع بمصر وتكثر ، وقد عرض ابن سعيد فى كتابه « المغرب » زجلين كانا مشهورين لعهده ، ومطلع أحدهما : القليب قلبى عليه يخفق ومطلع الثانى :

يمشى من الدين الثانى رجع لحبيى الخفانى

والزجلان أيضاً بهما بذاء ومجون ، وهناك زجل آخر ليس فيه إثم ولا بذاء ، وربما كان أطرف الأزجال التى وصلتنا عن القسم الأول من عصر المماليك ، وقد نظمه أحد الزجالة فى رثاء الفيل الكبير « مرزوق » وهو الفيل الذى أهداه تيمورلنك إلى سلطان مصر ، فقد تصادف أن فيالته الوكلين به أخذوه وساروا نحو بولاق ، ثم رجعوا مجازفين من على قنطرة الفخر وكان هناك بجمون (قنطرة ضعيفة على ماء) فسار الفيل على ذلك البجمون فخسف به ولم يقدر أحد على إنقاذه وبقى كذلك ساعة ثم مات ، فلما أشيع خبره فى القاهرة خرج الناس إليه زُمَراً يتفرجون عليه ، ورثاه بعض الزجالة بهذا الزجل اللطيف :

تعالوا اسمعوا بالله يا ناس الفى خبرة
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة
لما أقلبوا فلسان الفيل راموا الجراق
خدوه وراحوا صوب بولاق يشقوا الطاق
رأوا شوخ من أهل الله ما فيه خلاق
جو بأخذو شاشو منو بالزعطرة
دعا على الفيل القنطر فى القنطرة
قالوا يأتو فى البجمون مغروس يصيح
فظلت حتى أروح أبصر إن كان صحيح
أبص ألاقى الفيل ميت ملقى طريح
والناس تطلع فوق ظهره مستظهرة
لما وقع يوم الاثنين فى القنطرة
وأولاد ديار مصر السادة حولو زمر
يتعجبوا من هذا الفيل الذى انحصر
رأوا دموع عينو تجرى مثل المطر
ولمو رجيمبو والعالم دول متمسكرة
لما وقع يوم الاثنين فى القنطرة
فقلت لو يا فيل مرزوق يا اسود دغوش
أين حرمتك بين العالم واتنا نهوش
وكنت يا فيل السلطان زين الوحوش
وكنت بالإعجاب زهو فى المظاهرة
وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطرة
والفيل لسان حالو ناطق للناس يقول
كم كنت نا ادور فى الزفه فوق طبول
وكنت نا ادور فى الجمل ولى قبول
حكى عروسه حين تجلى فى المنظرة
واليوم كان آخر مشيو فى القنطرة
وقالت الفيله امراتو من لى معين
بهم الفراق قد صاب قلبى يا مسلمين
وانا غريبه بعدو قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى لا منكرة
واليوم كان آخر عمرو فى القنطرة
وصرخت حتى أبكت جيرانها
من كثر ما ناحت نادو لأحزانها
من نارها سارت تلطم بودانها
حتى الزرافه جاتها متحسرة
تبكى على الفيل اللى مات فى القنطرة

وما من ريب فى أن هذا الزجال كانت لديه روح فكهة خفيفة كما كانت لديه لفتات ذهن بديعة ، وقد ظهرت هذه

الفتات في تصويره لزوج الفيل الهندية وما كان من لطمها « بودانها » كما ظهرت في استقلاله لما عرف من صمت الزرافة وما يبدو عليها من تأمل وحزن كأنما أفلت منها شيء ، وقد جاء بها هنا لتسد القبلة في بكائها .

ونحن لا نمضي في مصر المماليك إلى القرن التاسع الهجري حتى نلتق بأكبر شخصية فكهة ، ونقصد شخصية ابن سودون . ويظهر مما ترجم له السخاوي أنه بدأ حياته جاداً في تحصيل العلوم والفنون المعروفة لعصره وقد وظف إماما ببعض المساجد ، ولكنه سرعان ما تعلق بالهزل والخلاعة فراج أمره جداً وطار اسمه وتنافس الظرفاء في تحصيل شعره .

وقد ترك ابن سودون ديواناً طريفاً سماه « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وواضح من هذا الاسم أنه ملآن بالدعابة والفكاهة ، وهو نفسه يقول في مقدمته إنه « يشتمل على أنواع من الأقاويل الهزليات » وفيه خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، والباب الثاني في الحكايات اللاذيق ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية ، والباب الرابع في الدوبيت والزجل وأنواع من المواليا ، والباب الخامس في الطرف العجيبة والتحف الغريبة .

وإذاً في هزليات ابن سودون بابان نثر خالص وهما : الحكايات اللاذيق والطرف العجيبة ، والأبواب الثلاثة الباقية شعر خالص ، وقد بدأها بباب القصائد والتصاديق ، وهو يريد بالتصاديق ما يتقدم به بعض قصائده من مقدمات نثرية تشبه ما نعرفه من المقامات إلا أنها قصيرة . أما قصائده فتمتاز بأنه يعنى فيها باللفظ العربي الفصيح على خلاف القسمين الآخرين من « الموشحات والأزجال » و « الدوبيت والمواليا » ، فهذه كلها بنيت على اللفظ العامي . وليس معنى ذلك أن قصائده تخلو من العامية خلواً تاماً فيها كثير من العامية أيضاً ، ولكن العامية فيها محدودة ، وقد صاغها على أوزان العرب المعروفة بخلاف أوزانه في الموشحات والأزجال فهي تعتمد في أكثر جوانبها على أذنه هو ، كما تعتمد على موسيقى عصره .

ونحن لا نكاد نلم بديوان ابن سودون حتى نجده يتبع في هزله طريقة خاصة تقوم على عرض الحقائق مع ضروب من المفارقات المنطقية ، إذ ما زال يسمو بنا في كثير من شعره بأنه آخذ مأخذ الجد فإذا هو ينتقل فجأة وبدون مقدمات إلى هزل خالص ، واستمع إليه يقول في وصف الربيع :

إلى الربيع أرى الأهواء تحويني
لما بدا زهرهُ في حسن تلوينِ
وماس في زهيِّ الزهر ذا صلف
بين الرياض قضيبين الياسمين
كأنهُ وهْو بالكتان مختلطٌ
يهود بين نصارى في شعانين
وطرالأرض تنشرُ الفول حين سرت
نسيمةٌ سحراً منــهُ تحييني
كأن زهرتهُ أمُّ الخـــلول إذا
فلقتها فوق إدماعٍ بصحنونِ
وكاد يشبهه تاجُ القمح بأمية
لولا شعورٌ كأعراف البراذين
وانظر إلى زهر البرسيم كيف حكى
أبيضَ التوت في أطراف مرسينِ
والمجر من الماء وسط البحر كيف غدا
يمشى بلا قدمٍ سحباً على الطين
مسلسلاً قد جرى إصباح منطلقاً
فاعجبْ لمن جمع الضدين في حين
ترى الغصون عليه ذاك منحنياً
وذاك من خشية تلواهُ تحنيني

وأنت تراه في مطلع هذه المقطوعة يتخذ ثوب الحزم والجد ، فهو يعمد إلى الجناس كما يعمد إلى التصوير ، وهو يغرب في تصويره ، إذ تراه يشبه زهر الياسمين والكتان بيهود ونصارى اجتمعوا في عيد الشعانين وعليهم عمائمهم الصفر والسود . وبينما نحن نفكر في تلك الصورة التي تجعلنا نظن بعض الظن أننا بصدد شاعر يتعب نفسه في

صنع شعره إذا به ينقلنا فجأة إلى تشبيه زهر الفول بأم الحلول وعليها التمتاع لا فوق محن بل فوق مجنون . وهنا تأتي مفارقة ابن سودون ، فهو يخلط بين الجد والهزل هذا الخلط الذي نحس فيه دائماً انحرافاً عن المنطق بل نحس فيه غفلة وتبالها ، إذ نراه ينتقل من جد إلى هزل في غير روية ولا ترتيب . وأعد النظر في المقطوعة فإنك تراه يشبه زهر البرسيم بأبيض التوت كما يشبه سنابل القمح « بالبامية » وهي كلها تشبيهات مضحكة لأنه يعمد إلى صور بعيدة لا تتفق في العادة على أذهاننا فيقربها بعضها إلى بعض ، فإذا هي حينما تقترن تخرج منها ضروب من المفارقة المنطقية التي تجعلنا نضحك . وأي صلة بين الأصل والفرع المشبه به في هذه الصور جميعاً ؟! واستمر معه فستراه أثناء هزله وما يصوره من سحب الماء على الطين يدعونا إلى أن نقف معه متأملين في هذا الماء المتسلسل المنطلق الذي يجمع بين الضدين . فأين نحن ؟ وما هذه الفلسفة أثناء هزله ؟ ولكنها ضرب آخر من مفارقته . وأنت كلما قرأت فيه وجدت نفساً كثيراً ينصب من هذه المفارقة ، ومن الغريب أنها تستقيم له ، ولو لم يعتمد على مثل ما سبق من ضم صور متباعدة تؤدي ما يريد من هزل ، فقد يكتفي بذكر الحقائق ولكنها لا تسجل في شعره حتى نحس أنها أخذت شكلاً مضحكاً على نحو ما تجد في قوله :

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ ... بقراً تمشي ولها ذنبُ
ولها في بزبزها لبنٌ ... يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما في مصر ترى ... الكرمَ يرى فيه العنبُ
والنخلُ يرى فيه بلحٌ ... أيضاً ويرى فيه رطبُ
ووسيمٌ بها البرسيمُ كذا ... في الجيزة قد زرع القصبُ
والمركبُ مع ما قد وسقت ... في البحر بحبلٍ تنسحبُ
والناقة لا منقار لها ... والوزة ليس لها قتبُ
لا بد لهذا من سببٍ ... حزر زر ماذا السببُ

وليس في هذه القطعة شيء يضحك سوى ما استعان به من المفارقة ، فإنه يبدأ بقوله : « عجب عجب » وننتبه ظانين أننا سنستمع إلى عجائب ، فإذا هو لا يأتي بشيء لا نعرفه ، ومع ذلك نحس أننا بإزاء قطعة فكهة لا لسبب إلا لتلك المفارقة التي وصفناها ، فهو يدعو إلى العجب من أشياء معروفة لنا غير مجهولة . ولكنه يسوقها في صورة من البلاهة تجعلنا نحس عدوانا على منطقنا ، وخاصة حينما نصل إلى تعجبه من تلك الحقيقة المعروفة ، وهي أن الناقة لا منقار لها ، والوزة ليس لها قتب ، فقد قرن الناقة تلك الدابة الكبيرة إلى الوزة تلك الطائرة الصغيرة ، ثم ذهب يقول في غفلة وتباله : إن الناقة لا منقار لها كأنه يظنها من الطير ، فهو يرى أجنحتها ولكنه لا يرى منقارها ! أما الوزة فيظنها من فصيلة الإبل فهي ضخمة وتمشي على أربع ولكنه لا يرى قتبها ! ويندهش ابن سودون من هذه الصور التي لا يكاد يفهمها فيتساءل متحيراً عن سببها ، وهو يقرن هذا التساؤل بكلمة « حزر زر » التي تلوكها العامة عندنا في « الفوازير » . وما من ريب في أن هذه كلها مفارقات يعتدي بها على المنطق والواقع جميعاً ، وهذا هو سر ما فيها من فكاهة ، إذ نضحك منها لأنها جاءت في غير مكانها ومن غير أهبة لها ، وكأنها تهزنا هزاً لأنها تعتدي على حسنا كما تعتدي على عقلنا ، ولكن هل جاء ابن سودون بشيء سوى الحقائق نفسها ؟ ثم هو لا يصنع أكثر من وضعها في غير نظام ، فإذا هي تستوي في هذه الصور المضحكة التي تجعلنا نشعر كأن توازنها قد اختل ، فهي تصعد أمامنا وتهوي وكأنها تهوي من أمكنة عالية ، هي أمكنة المنطق والواقع ، فنضطرب معها ونضحك في غير نظام ، على نحو ما تجد في قوله :

البحر بحرٌ ولو سموه بالنيل ... ولو بدا فيه بلطيٌ وبنّي لي
كم مُسْطٌ في مائه حوتٌ وماطلني
فهل يجود بطوطار لمطلول
فيه الطيورُ مع الأسماك قد تركا
قلبي وطرفي كمسلوب ومسبول
أحداقُ زهر القتالي فيه ساهرةٌ
والفرع يرقدُ كالمطول بالطول

عجنت فيه دقيق الفكر منطرحاً
في ظل نخيل به تخمير تخييل
حتى عرفت بأن الناس إن شربوا
لم ينقصوه ولو جادوه بالنيل
وليس ينقص من تحويل ساقية
ولا انسكاب عيون ذات تحويل
والوز فيه إذا ما عام يعجبني
وكلما مر فيه صار يحلو لي
أتا ته زوجها الذكرور ينقضها
إذ سودته وروها بتذييل
مع القفايس في البحرور كم مرحت
وكم يوم مرحت في مرجة الفول
قاقت لهم أي تعالوا ها أنا أمكم
بالإنس فرو ستجابر وقاقوا لي

ولعلك لاحظت أنه يستخدم في كثير من جواب هذا الهزل ضروباً من مصطلحات اللغة التقليدية وما تعتمد عليه من جناس وطباق وصور بيانية ، وهو يضيف ذلك كله إلى لغته لا لسبب إلا لأنه يستمد منه ألواناً من المفارقة . وارجع إليه فانظر كيف يتغزل في الطيور والأسماك ، وإنه ليستمر فيتكلم عن زهر « القت » . أما القرع فإنه يرقد على الأرض كالسطول بالطول ، وإنه ليجلس في ظل نخل « يخمّر » تخييله ويعجن فكره ، فإذا به يصل إلى هذه الحقيقة الغريبة ، وهي أن الناس لا ينقصون النيل بشربهم لا هم ولا سواقيهم ولا ما يسكب منه ، تسكبه عيون ذات تحويل . والتورية هنا واضحة ، وقد استمر فوصف الوز وهو يعوم فيه وأخرج هذا الوصف مخرجاً هزلياً طريفاً اعتمد فيه على أبنية غريبة من مثل الذكرور والبحرور والتبييض والتسويد ، وما زال به هزله حتى حكى لغة الوزة وأنها « قاقت » لأبنائها ، وكل ذلك ليستكمل فكاهته ويستتم دعابته .

(للكلام صلة)

شوقي ضيف

أقدم قصة فى العالم

هى قصة «أنبو وباتا» ذكرها العالم فلندرز بترى فى كتابه — «حكايات مصرية» وقد ترجمها من أوراق البردى.

وقال عنها الدكتور جاردنر : — هذه أقدم قصة وصلت إلينا مدونة مكتوبة وإن كان لا جدال فى أن الخيال البشرى كان خصباً وكان طيب الثمر لأجيال عديدة سبقت عصر هذه القصة.

وكذلك لا جدال فى صحة حوادثها وفى الدقة التاريخية فيما لابسها من زمان ومكان.

ووقائعها باقية كما كتبها كاتبها لم يمسها التبديل والتحويل.

والأوراق التى كتب عليها القصة بخط يده الكاتب المصرى «أناتا» لا تزال بالمتحف البريطانى.

وقد حلت رموزها. ثم ترجمت إلى الإنجليزية ثم أصبحت حقائقها — بعد أن خيم عليها الظلام — سافرة تمشى على الأرض.

والقصص المصرية — يقول العالم فلندرز بترى — ليست من نسج الخيال ووحيه. إنما هى قصص تحدثنا أحاديث الرجال والنساء الذين كانوا يعيشون عيشنا والذين أضحكهم الدهر وأبكاهم، والذين شربوا كأس الحب حلوه ومره.

فإذا رأيت فى ثنايا القصة أشياء لا يستسيغها عقلك فاعلم أن تلك الأشياء هى وليدة معتقدات القوم ووحى أساطيرهم.

ولكن جل ما جاء بالقصة ممكن حدوثه اليوم فى أى زاوية من زوايا البيوت فى أى ركن من أركان العالم. ما دام المعتقدات القديمة عند أصحابها مربع ومصيف.

وأنت ترى المصريين فى هذه القصة ليسوا بناة أهرام وصانعو موميات. بل تراهم رجالاً ونساءً عاشوا ولهم أهواؤهم وعيوبهم. ولهم إيمانهم وجنونهم.

والعالم «بترى» يرجع بالقصة إلى المائة التاسعة عشرة، بل إلى أبعد منها فى بعض المواضع.

وإليك القصة ملخصة : —

يحكى أنه كان هناك أخوان من أب وأم واحدة وكان اسم أكبرهما «أنبو» وكان اسم الأصغر «باتا».

وكان لأكبرهما بيت. وكانت له زوجة. وكان أخوه الأصغر فى مقام الولد. وكان هذا يخيط للأكبر ثيابه ويحرث له أرضه ويحصد له زرعه.

وكان يسوق الماشية صباح كل يوم إلى الغيط ثم يردها كل مساء إلى البيت محملة بخيرات الأرض وباللبن وبالحطب.

وكان يأكل ويشرب وينام مع الماشية حيث تنام، وكان فوق ذلك من رعاة الغنم القادرين.

فإذا جاء أوان الحرث قال له أخوه الأكبر : — إن الأرض قد بلعت ماءها وأصبحت صالحة للحرث فأتنا بزوج من الثيران ثم أتنا بالبذور لكى نبدأ الحرث فى صباح الغد.

وإذ هما يحرثان الأرض بدا للأخ الأكبر أن يبعث بأخيه الأصغر إلى البيت ليأتى بمقدار آخر من البذور.

وفى البيت لقى امرأة أخيه تمشط شعرها. فاستعجلها فى طلب البذور فأشارت إليه أن اذهب إلى الصومعة وخذ منها ما تشاء. فصدع بما أمرت وقال لها إنى أخذت ثلاثة مكاييل من الشعير ومكيالين من القمح. فوقفت تنظر إليه وهى تقول : — إنك لقوى متين وإنى لأراك تزداد بسطة فى الجسم كل يوم. وقد قالت هذا القول بوحى من شبابها. ثم قامت إليه تكلمه وهى تقول : — تعال واجلس إلى فسوف أجعلك من السعداء. وسوف أصنع لك ملابس جميلة. فهاج لذلك الكلام هائج الفتى. وثار ثائره. فارتاعت المرأة لذلك واذعرت.

ثم قال لها الفتى : — أنت منى فى منزلة الأم وزوجك منى فى منزلة الوالد، فهو الذى ربانى صغيرا. فما قول الزور هذا الذى تقولين؟ أنصح لك أن لا تقوليه مرة أخرى.

ولست بقاتله لكائن من كان ذلك لأني لا أريد أن يجيء القول فيه كائن من كان .

ثم احتمل حمله وسار إلى الغيط قدما . ولق أخاه . فأ كلا ما بدءاه من عمل .

وفي المساء سبق الأخ الأكبر أخاه إلى البيت وسار في أثره بعد قليل أخوه يجر الثيران ويحمل إلى البيت ما وسعه حمله من خيرات الأرض .

ونحن الآن في البيت ننظر إلى الزوجة وقد شربت مقداراً غير قليل من السمن فورم جسمها وبدت كأنها قد ضربت ضرباً مبرحا وكأنها تريد أن تقول لزوجها : —

إنه أخوك الأصغر هو الذي فعل بي ما ترى . ثم عبست في وجهه وتولت . ولم تصب له الماء على يديه كعادتها . ولم توقد له القنديل . وامتدت فوق سريرها مريضة عليلة .

فسألها زوجها : ما بك ؟ قالت : إن أخاك قد أساء الي وقد مسني منه الضر فقد راودني عن نفسي فزجرته وقلت له : — ألست منك في منزلة الأم . وأليس زوجي منك في منزلة الأب ؟ فارتاع لقولي وذعر ثم ضربني ليخيفني حتى لا أنبئك بما كان منه . فإذا أنت أبقيت على حياته مت أنا حزنا وغما .

فهاج هائج الزوج وأعد سكينا وأمسك بها ووقف خلف الباب ليذبح أخاه .

وإذ دخل أخوه الأصغر حظيرة الماشية قالت له أولى البقرات : — انظر الى أخيك إنه واقف أمامك وفي يده السكين ليذبحك فانج بنفسك هربا . ثم أيدت قولها بقرة أخرى ، فنظر فرأى أخاه في الهيئة التي وصفتها البقرتان ، فرمى الى الأرض ما كان يحمله وولى هاربا .

فجرى أخوه وراءه فدعا الأخ الأصغر ربه وقال : — رب إنك أنت الذي تميز الخبيث من الطيب . وأنت خير الحاكمين . فسمع الإله صرخته وأجاب دعاءه وجعل الإله بينه وبين أخيه نهراً يموج بالتماسيح .

فكان أحد الأخوين على إحدى الضفتين وكان الآخر على العدوة الأخرى .

فنادى الأكبر أخاه وقال له : إني لست بذابحك فأجابه الأصغر : لنمهل كلانا أخاه إلى صباح الغد ولنحتكم إلى الإله « رع » عند شروقه . فهو أعدل من يحكم بيننا . وسوف لا تراني بعد يومنا هذا . وسوف أهجرك هجراً طويلا . وسأذهب إلى وادي السنط .

فلما أصبح صباح اليوم التالي وأشرقت « رع » قال الأخ الأصغر لأخيه : ما الذي حدا بك أن تجري ورائي لتذبحني خيانة وغدرا ؟ ولماذا لم تستمع إلى حججي ؟ ألست أخاك ؟ أليست امرأتك مني بمنزلة الأم ؟ ولكن امرأتك قد ضلت بك . وكذبتك القول . وخلقت مني متهما . وأنا البريء العف الذيل ، وجعلت من نفسها بريئة وهي المجرمة الجانية ... ثم أخذ الصغير سكينا وقطع قطعة من لحمه ورمى بها الى الماء فأكلها السمك .

ثم أغمي إغماءة من فاضت روحه ... فندم أخوه على فعلته وود لو استطاع أن يمتطي ظهر تمساح ليلحق بأخيه على الضفة الأخرى .

ثم رجع إلى بيته يكاد يقتله الحزن ثم ما لبث أن ذبح امرأته ورمى بجيفتها الى الكلاب ثم جلس يندب أخاه ... »

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الطبيعة

لجويته Goethe

الطبيعة ! تحيط بنا ، وتلتف حولنا ونعجز عن التخلص منها ، والتعمق فيها . تدفعنا إلى مرقصها ، لم ترجُنا ، ولم تشعرنا . وتندفع معنا حتى نعيي فنرتمي في أحضانها .

تخلق دائماً أشخاصاً جُدُداً ؛ فما يكون لم يكن قط ، وما كان لا يعود أبداً . كل شيء جديد ، وهو مع ذلك القديم دائماً .

نحيا في قلبها ، ونظل غرباء عنها . تتحدث إلينا حديثاً متواصلاً ، ولا تبوح لنا بسرها . نؤثر دائماً فيها ، ولا نتسلط مع ذلك عليها .

تبدو والفردية غرضها ، ثم لا تهتم بالأفراد . تبني دائماً وتهدم دائماً ولا تمكن الدخول إلى معملها .

تعيش في الأطفال وحدهم . فمن أمها ؟ فنانة ، هي الوحيدة التي تخلق من أبسط المواد أعظم الأشياء تبايناً ، وتتم من دون جهد ظاهر أروع الأشياء كمالا . تصل إلى أدق ضبط ، وعليها دائماً مسحة التراخي .

لكل من أعمالها كيان خاص ، ولكلٍّ من ظاهراتها معنى مستقل عن غيره كل الاستقلال ، منفصل كل الانفصال ؛ ومع ذلك فكل شيء عندها واحد .

تمثل رواية لا نعلم هل تشهدها هي ، ومع ذلك فهي تمثل لنا نحن الذين نقف متزوين .

فيها حياة ، وتطور ، وحركة ؛ ولا تتقدم مع ذلك . تتحول دائماً ، ولا تسكن من الحركة لحظة واحدة ، ولا تفهم معنى السكون لتثبتها رهن توقفها .

مكينة ؛ مقيسة الخطوة ؛ نادرة الاستثناء ؛ ثابتة القوانين . فكّرت وتفكر دائماً ، لكنها لا تفكر كما يفكر الانسان ؛ ولكن كما تفكر الطبيعة . اختصت نفسها بفهم محيط بكل شيء لا يستطيع الانسان إدراكه .

الناس جميعاً فيها ، وهي في الجميع . تلعب مع الجميع دوراً خفياً ، ويسرها أن يأخذ الناس عنها . وتلعب دورها مع الكثيرين لعباً خفياً ، فتنتهي منه قبل أن يفطنوا إليه .

أبعد الأشياء عن الطبيعة هي كذلك طبيعة . فمن لم يرها في كل مكان لم يحسن رؤيتها في أي مكان .

تحب ذاتها ، وتنظر دائماً إلى نفسها ، وتهفو بأعين وأفئدة لا حصر لها . تفرقت لتنعم بذاتها . لتستكثر من المستمتعين بها ، ولا تشبع من التحدث عن نفسها .

تسر بالوهم ، فمن بدد وهمه وأوهام الغير عاقبته بطش الظالم الغاشم . من يسلس لها القياد تضمه كالطفل إلى صدرها .

أطفالها لا يعدون تحت حصر ، ولا تمنعهم شيئاً . لكن فيهم من هو أثير عندها ، تبذل له الكثير ، وتضحي له بالكثير . وهي لا تحمي الصغير ، بل تحمي الكبير .

تطلق مخلوقاتها من العدم ، ولا تقول لهم إلى أين يذهبون ، ولا من أين أتوا . عليهم أن يسيروا فحسب ، فهي تعرف الطريق .

دوافعها قليلة ، لكنها لا تبلى أبداً . فعالة دائماً ، متفاوتة دائماً .

روايتها جديدة دائماً ، لأنها تخلق دائماً نظارة جُدُداً . الحياة أجمل ما ابتدعت ؛ والموت عندها هو الذي الأثمر للإكثار من الحياة .

تطوي الانسان في الظلام ، وتحثه أبداً على الخروج إلى النور . ترهقه بالأرض ، وتبتليه بالبلادة والثقل ، ثم تستنهضه دائماً . تخلق له الحاجات لأنها تحب الحركة . ومن عجب أنها تبلغ كل هذه الحركة بالنزر اليسير . كل حاجة عندها خير ، تقضى بسرعة ، وتنبت ثانية بسرعة . فإذا قضت المرء حاجة أخرى ، فلوناً جديداً من المسرة ، لكنها لا تلبث أن تعود إلى الموازنة .

تتأهب في كل لحظة لأطول شوط ثم تجدها كل لحظة عند هدفها .

هي الغرور بعينه ، ولكن ليس في نظرنا نحن الذين باتت الطبيعة عندنا أعظم الأشياء شأناً .

تدع كل طفل يصلح من هندامه ، وكل غر يدين نفسه ، وألفاً من الناس يهملون ذواتهم في بلادة ، ولا يبصرون شيئاً . تغتبط بالجميع ، وتحاسب الجميع .

والناس يطيعون قوانينها حتى وهم يخالفونها ، ويعملون معها حتى وهم يعملون ضدها .

تحيل كل ما تهبه خيراً ، لأنها تجعله لازماً . تبطئ ليطلبها الناس ، وتسرع حتى لا يزهدها الناس .

لا لغة لها ، ولا كلام عندها . لكنها تخلق أفئدة وألسنة تشعر بها وتتكلم .

تاجها الحب . فبالحب وحده يقترب المرء منها . تحدث الهوة بين الشيء والشيء ، فيريد كل شيء أن يبتلع كل شيء . عزلت كل شيء لتجتذب كل شيء . تحمل الحياة المكدودة عديمة الأذى ببضع جرعات من قدح المحبة .

هي كل شيء ، تكافئ نفسها ، وتعاقب نفسها ؛ وتنعم بنفسها ، وتعذب نفسها . هي قاسية رحيمة ، لطيفة مرعبة ، عاجزة قاهرة . كل شيء موجود فيها دائماً ، لا تعرف ماضياً ، ولا مستقبلاً ، والحاضر أبدها . طيبة ، أحمد لها كل فعالها . حكيمة هادئة . لا تنتزع منها إيضاحاً ، ولا تغتصبها هبة لا تهبها طوعاً . خداعة ، ولكن لغرض حسن دائماً ، وخير لك ألا تلحظ خداعها .

كلٌّ كامل ، ومع ذلك ، فهي دائماً ناقصة . وكما تتصرف مرة تستطيع أن تتصرف دائماً .

تبدو لكل فرد على وجه خاص مختلف . تتنكر تحت آلاف من الأسماء والمصطلحات . وتظل دائماً هي هي .

لقد أدخلتني هذه الدنيا ، وستخرجني أيضاً منها . وإني لواثق بها ، فلتفعل بي ما تشاء ، فلن تبغض ما صنعته يدها . لم أتحدث بهذا الكلام عنها . كلا . بل كل شيء إن صدقاً وإن كذباً قد كان حديثها . كل ذنب ذنبها ، وكل فضل فضلها .

محمود الدسوقي

نبوءة صادقة

كانت حمى الانتخابات قد شملت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها قبيل الانتخابات الأخيرة : استعمل الناس مئات الأطنان من الورق واستنفدوا مقادير هائلة من الحبر ، وشغلت كل خطوط البرق والتليفون بالدعاية .. وكل هذا لكي تعطى فرنسا جوابها على سؤالين اثنين ! وقبل ثمانية أيام من إجراء الانتخابات كانت النتيجة قد عرفت وأذيعت على الناس : ذلك أن المسيو جالوب محرر صحيفة L'aube نشر في صحيفته أن سبعة في المائة من الفرنسيين سيجيبون من السؤال الأول بلا ، وأن ثلاثة وتسعين سيجيبون بنعم . وأما السؤال الثاني فستكون نتيجته ٣٣٪ لا ، مقابل ٦٧ ٪ نعم .

ثم أتى يوم الانتخاب ، وبلغت الحمى أقصى درجاتها ، وأرسلت الحكومة مئات من الموظفين إلى دوائر الانتخاب في العاصمة وفي الريف لإحصاء الأصوات واستخراج النتيجة ، وأرسل كل عمدة نتيجة قريته إلى المديرية وأرسلتها هذه بدورها إلى الوزارة ، وهناك أخذ مئات من الموظفين يعملون في الإحصاء والحساب والجمع .

وفي فجر اليوم التالي أعلنت النتيجة فإذا هي بالضبط كما أعلنها المسيو جالوب قبل ذلك بأيام !

وقد سئل الصحفي النابه عن الوسيلة التي استعملها لمعرفة النتيجة بهذه الدقة ، دون الحاجة إلى جيش هائل من الموظفين فقال : في فرنسا ٣٩٫٩٩٧٫٠٠٠ ساكن وهؤلاء يتفرقون في ثلاثة آلاف طائفة كل منها ١٣٫٣٣٣ فرنسياً يشتركون في الذوق والميول والتفكير والوضع الاجتماعي والآراء السياسية .

لقد أرسلت إلى كل واحد من هؤلاء الثلاثة آلاف وحصلت على آرائهم وكفاني هذا مئونة إجراءات الحكومة المعقدة ! .

(عن Temps Présent — باريس)

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة فلاح يابانى

واستطرد الأمريكى يحكى : —

وجلسنا إلى العشاء ، وفرغنا من العشاء ، ثم أنصتنا للإذاعة ، وكانت على العادة ملخصا للأخبار يذاع على الموجة القصيرة باللغة الانجليزية . وبينما أنا أنصت ، لاحظت أن مضيفى يرشقنى بنظرات حادة طويلة .

وجلسنا من بعد ذلك على الأرض نتمدد فى غير كلفة ، وسكن المكان إلا من أصوات الحشرات وأنغامها خارج الدار . وسألت صاحبى : لم كان يرمينى بنظراته تلك الطويلة ؟ وكان سؤالا — لا شك — فاجئا ، فاختبل الرجل بعض حين ، ولكنه مالبث أن عاد يعتذر عن فعلته أحر اعتذار . وأحجاها سوء أدب . وحسب بذلك أنه خلص من سؤالى وهرب من جوابه . فألححت عليه . فقال إنه كان ينظر إلى متفحصا ليعرف وقع ما أسمع من أخبار المذياع فى نفسى ، ليعرف هل آمنت أم كفرت بها . إنه سمع كثيرا من الأجانب يقولون إن اليابان لا حرية للقول فيها ، لهذا توقع أنى أضحك مما أسمع خفية فى صدرى .

فأعطانى كلامه هذا فرصة كنت أنتظرها .

قلت : إنى أعرف اليابان ، وأفهم أهلها ، فقد عشت فيها دهرا غير قصير . وإنى لأعلم أن بعض الأخبار تصاغ هنا استجابة لبعض الظروف وبعض المواقف ، ولكنى أعلم كذلك أن فى بعض الأمم التى تدعى الحرية فى القول توجد رقابة لا مرية فيها على الصحافة وعلى الإذاعة ، رقابة مباشرة أو غير مباشرة . هذا رأيى . وهو لا قيمة له الآن عندى . إنما الذى له قيمته الآن هو رأيك أنت . هل تعتقد أنت صحة ماسمعت ؟ هل توافق على الآراء التى أذيعت ؟ هل تبرر سياسة جرت عليها دولتك ؟ .

ومضى غير قليل من الوقت قبل أن يقبل صاحبى على الحديث . كانت به خشية أن يخطئ فيترك عندى أثرا غير محمود . وأحس أن شرف أمته فى يده — فى لسانه ، فاختار أن يمضى فى القول على حذر . ولكنى أرت فيه نائرة الحجاج عمدا ، فاستجاب ، وانطلق لسانه بعض انطلاق .

قال : لقد قرأت بعض كتبك ، ووجدت فيها الكثير الحق مما تحكى عن هذه البلاد ، ولكنى وجدت أيضا فيها الكثير من الخطأ فى أشد الأمور خطرا . إنك لا تفهم الشعب اليابانى . إننا قبيل فى الناس غريب ، فينا صلف وفينا زهو وكبرياء . وإذا أساء الأقوام فهمنا ، فنقدونا ، أخذتنا العزة فلم نتنازل ، فنرد نقدا بنقد ، أو نصحح رأيا فينا فسد . إننا نعتقد أننا إنما نفعل صوابا ، وهذه العقيدة تكفى لأن يكون ما نفعل الصواب . ونحن فى غير حاجة إلى تأمين الغير على ما نفعل . تصور كم يغضب الانجليز إذا نقد الناقد صنيعهم فى ارلندا . ونحن مثلهم ، يجرح نفوسنا أن يساء فهم نياتنا ، ولكنا لا نتضع فنعتذر عنها أبدا .

فقطعت عليه الحديث . قلت : مهلك ، مهلك ! ما أسرعكم أيها اليابانيون إلى الحديث عن الشرف القومى ، وإلى الحديث عن بلادكم كأنها شىء واحد . على كل حال دعنا الآن من هذا ، فسوف يجئ وقت هذا . وحدثنى عما تراه فى أمر الشعب اليابانى . عما تراه فى أمر نفسك أنت ، وأمر امرأتك ، وكيف تنظر أنت وكيف تنظر هى إلى الأشياء . إن بعض الكتب التى ألفت عن اليابان ، وبعض كاتبيها ذوو سمعة وذوو نباهة ، هذه الكتب تصف اليابان على أنها تجلس على فوهة بركان لا يلبث أن يتحرك . إنهم يقولون إن اليابانيين على وشك الثورة ، وإنهم جياع ، ورجال الشرطة ورجال الجيش يسومونهم شر معاملة ، وإن أصحاب الأراضى يفرضون على الفلاحين الزارعين إيجارات باهظة معجزة ، وإن الأرز الذى ينتجونه لا يكاد يسد أرماقهم ،

وإن الدين يثقل بأمنائهم . فحدثني عما ترى في هذا . حدثني عن هذا ، فهذا هو الأمر الأخطر الذي منه تُستنتج خاتمة الأمور .

فسكت صاحبي ساعة وهو ينظر إلى الأرض ، ثم رفع رأسه يقول في جمل يزن ألفاظها وزناً : أنا لست ثورياً ، ولست أحاول أن أقطع أغلالاً ، من نظُم للاقتصاد أو نظُم للادارة ، تربطني بطاين هذه الأرض التي تمدُّ في الأرز كل عام فلا تخلف وعداً . إلى راض بقسمتي . وقسمتي هذه خير من قسمة أبي ، ولي كل ما أحتاجه . وإن كان صاحب الأرض جشعاً طامعاً ، فهذه شيمة كل ذي أرض بكل بلد من بلاد الله . ويفيض لي من بعد طمعه وجشعه فضل على كل حال يكفيني . حتى إذا ساء المحصول عاماً فلي قدرتي أن أصبر إلى عام يطيب المحصول فيه . وأنا في عيشي في سكون لا يهوشه عليّ أحد ، إلا إذا بدأت أنا بإثارة الناس إلى تهويشه .

قلت : ولكنك تضطر إلى دخول الجيش غصباً .

قال : نعم . ولكن كان هذا وأنا صبي ، فلم أكن ارتبطت عندئذ بأسرة ، ولم أكن بدأت أحصل العيش . ودخلت الجيش لمدة غير طويلة ، فأطعموني وكسوني ، وعلموني فيه الشيء الكثير ، وخرجت منه أقوى جسداً وأصح عقلاً .

قلت : ولكني علمت أن العيش بالجيش ذو مشقة وذو غلظة ، وأن الناشز فيه يلقى شر عقاب .

قال : نعم كان العيش شاقاً ، ووجب أن يكون شاقاً . إن الجيش يعلم الرجل الحرب ، فيعوده ركوب الصعب ، ويدربه على احتمال الألم . وقد تمشي الأميال الطويلة في لفحة الشمس وهي من نار ، وقد يدوخ الجندي من شدة الحر فيؤذن له بالسقوط على حافة الطريق ، ويظل الباقون في سيرهم لا يلتفتون إلى الوراء ولا يتوقفون . ولم يشك منا أحد ، لأننا عرفنا الحكمة من كل هذا . إن التدريب في ساعة السلم ، ولو شاقاً ، يهون أكبر الهون في ساعات الحرب ، حيث لا هوادة تُرجى ولا رحمة تساق .

قلت : فما بال التشاز ، وما يسام به صاحبه من قسوة ؟

قال : لقد حدثتك نسيت هذا ، فرضيت بأن لا أقول فيه شيئاً . ولكن إذ قد أصررت فاعلم أن الكثير من الجنود فقراء ، وهم على غير جانب كبير من الثقافة . وكثيراً ما يقعون نهبة لصنوف من الأفكار ضالة مضلة . فهذا لا يصبر عليه الجيش . فالجيش يعلم الجند الطاعة العمياء لضباطهم ، وللامبراطور ، فإذا حالت بين الجندي وبين هذا الواجب فكرة سياسية ، فالويل للجندي عند ذلك . والجندي على كل حال تجب حمايته من كل فكرة غريبة من جنسنا ، غريبة الأسلوب عن فكرنا .

قلت : لقد فهمت ما قلت ، ولكنك لم تقنعني بالذي قلته .

قال : إني لم أتوقع أنك تقتنع . إن بكم أيها الغربيون صفة من أجود الصفات ، تلك أنكم تستوعبون كل فكر ، وتجمعون كل علم ، ثم تصنفون ما تستوعبون ، وتغربلون ما تجمعون ، فتحتفظون بلبابه ، وترمون ما تخلف من خُشاره . أما نحن هنا في اليابان فحريصون كل الحرص على كل صنف من صنوف الفكر ، وكل نوع من أنواع العرفان أيًّا كان . وكل ما نجمع من هذا نحتفظ به ، لبابه وخُشاره .

قلت : هذا قول جميل حقاً . فلقد رأيت في طول البلاد وعرضها شباب الطلاب ، في أرديتهم السوداء ، يدخلون المدارس ، يحاولون جهدهم أن يجمعوا من صنوف العرفان ما استطاعوا . وهم يجمعون منه المقادير الهائلة على التعب الكثير وعلى الجهد الزائد ، ولكنهم لا يهضمون فينتفعون بالذي جمعوا . ويبين لهم بطلان ما اعتزوا به من غايات للحياة اعتنقوها دهراً ، فيرفضونها ، ويخرجون على العقائد ، ويخرجون على الأوضاع . ولكنهم لا يلبثون

أن يعودوا من الباب الذي منه خرجوا . إنكم أيها اليابانيون قوم ذوو ثبات وذوو احتفاظ ، ما أمسكتموه لا تفلتونه أبداً .

قال : هذا حق . أما سببه فإن الولد اليابانى يذهب إلى المدرسة فيتعلم التاريخ اليابانى ، وهو مزيج من دين قوى وقصص تقليدى ، ثم يمضى الطالب فى دراسته فيكتشف روسو ، وفلتير وأشباههما ، فيعجب بهم ويسحر بآرائهم ، ويفرح بهم فرحه بالجديد . وتُشبع بهم ما فى نفس الشاب من ميل إلى الثوران والثورة . ويتحمس لهم تحمساً كبيراً ، ويرى فيما يصفون عالماً جديداً ، وحياة جديدة ، ودنيا جديدة . ويرسل شعره ، ويخطب الخطب الجامحة ، ويزج فى السجن ، فلا يزيده هذا إلا استشاطة . ولكنه لا يلبث أن يأتيه السأم فيرغب عن كل هذا . يأتيه السأم فلا يطول به الحال حتى يتكشف له أن هذه الآراء ، آراء قد تكون طيبة نافعة للأجنبى ، وللشباب أيضاً ، وحتى يدرك أنه من أمة غير الأمم ، من أمة نزلت من أصلاب أنقى وأفضل من أصلاب نزل منها الغربيون ، فهى أحسن مادة وأدق نسجاً ، وهم من أجل هذا ليسوا فى حاجة إلى طلب الخلاص مما هم فيه من ضيق ، من آراء أجنبية ، وعقائد غريبة ، يقتبسونها ممن هم دونهم من عشائر بنى الإنسان . وعندئذ تعود الوطنية الحارة ، وهى قديمة عتيقة ، إلى تلك القلوب الشابة ، وتتراءى بعد اختفاءه ، فتطغى على كل شئ وتملأ عين الشباب اليابانى فلا يرى غيرها من الدنيا شيئاً .

وزاد صاحبى فقال مبتسماً : ثم بعد هذا ، فكل صبى إلى الرجولة صائر ، وفى الرجولة لا بد للرجل من تحصيل عيشه ومن الكسب لدنياه .

فقلت فى شئ من السخرية : بالطبع أن الوطنية العتيقة لا بد أن تُسعد أحياناً . ولكن ماذا ترى فيما نسمع به أمريكا وانجلترا من شباب ، لم يخرج فى كثير من الأحيان عن دور اليفاعة ، زجه بوليسكم فى السجن ، على غضاضة من العمر ، فيقوم بتعذيبه على أبشع صورة ، رجاء أن يكف عن عقيدة الاشتراكية أو فكرة غير تقليدية ؟

قال : فكّر ياصديقى قليلا تجد أن ما تصف لا يختلف كثيراً عما يستطيع أن يصف به الواصف بعض ما يجرى فى أمريكا أو فى انجلترا . خذ انجلترا مثلا : إن فى انجلترا لا تقع الاضطرابات السياسية إلا نادرة ، لأن القوم محافظون ، ويرغبون عن التحول والتجديد . ولكن مع هذا فماذا ترى فى بيترلو ، وماذا ترى فى ميدان ترافلجار ، وماذا ترى فى غاندى ، وماذا ترى فى ارلنده ؟ وهذا قليل من كثير . وفى الولايات المتحدة ماذا ترى فى العصابات ، وماذا ترى فى الذى يصنعه البوليس عند الاعتصابات . وزر ألمانيا ، وزر أمم أوروبا ، وانظر ما الذى يجرى للأقليات فيها ، ولأحرار الرأى فيها ، وما تصنعه الحكومات ! كل هذه أخطاء لا تحصونها كما تحصون أخطاءنا ، ولا تذيعونها كما تذيعون أمثالا لها فينا .

وكان الليل قد تقدم . وأخذ التثاؤب ينتاب الضيف وصاحب الدار . فاقترحت النوم فما أسرع ما وافق صاحبى . أما سبب موافقته . . .

أحمد زكى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧٢ — الثلاثاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٢ من فبراير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

حديث المفاوضات

وأخيرا جاء الرد البريطاني على مذكرة الحكومة المصرية بطلب فتح باب المفاوضات بين الدولتين لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ ونشرت مذكرة الحكومة المصرية ورد الحكومة الإنجليزية عليها . فأثار نشر المذكرتين ضجة كبرى في الأوساط السياسية ، وسارعت الهيئات السياسية لنشر البيانات تعليقا عليهما ، وتسابق المفكرون في نشر آرائهم المختلفة من الموقف وتحديد ما يرونه فيه من ربح للبلاد وخسارة عليها ، وتبارى خطباء البرلمان في التعليق وتخريج المعاني الظاهرة والخفية من محتويات المذكرتين ، وبالإجمال يمكن القول بأن نشر المذكرتين قد بعث نشاطا سياسيا كبيرا وأيقظ الحس الوطني أشد إيقاظ ، وحرك الأذهان لإعادة النظر في علاقتنا ببريطانيا وتدبر نياتها نحونا .

ويمكن تلخيص ما يقال حول المذكرتين فيما يأتي :

أولا : أن المذكرة المصرية أشارت بوضوح إلى حجة مصر في طلب تعديل المعاهدة ، فالظروف الدولية الشاذة التي عقدت فيها قيدتها بقيود شديدة تتنافى مع الاستقلال التام ، ولم يعد لها محل الآن مع تغير الوضع الدولي ووجود ميثاق الأمن بين الدول المتحدة .

ثانيا : أن المذكرة المصرية حددت أهدافها التي ترمي إليها من وراء تعديل المعاهدة ، وهي جلاء الجنود البريطانيين عن مصر . وبحث مسألة السودان على أساس تحقيق أماني السودانيين .

وهذه الناحية الأخيرة يأخذ عليها الكثيرون عبارتها المبهمة . وكانوا يرجون أن تكون صريحة في أن الغاية وحدة وادي النيل ، وإن كانت الحكومة تستطيع أن تقول إن ما لديها من معلومات يقنعها بأن رغبات السودانيين واضحة في تحقيق وحدة وادي النيل .

ثالثا : أشارت المذكرة إلى أنها ستقوى الجيش المصري حتى يستطيع الوقوف في وجه كل معتد على مصر

إلى أن توافيه النجدات من الدولة الحليفة والدول المتحدة.

ويرى بعض الناقدين أن الإشارة الأخيرة لم يكن لها ضرورة، فميثاق الأمن صريح بما صرح بما يجمع عليه الاعتداء إذا كان بحاجة لهذا العون.

رابعا: يرى بعض الناقدين أن المذكرة صيغت في لين وضعف، وكان الواجب أن تكون قوية صريحة تشعر الجانب الآخر بالإصرار والتصميم على تحقيق ما نقصد إليه.

هذا مجمل التعليق على المذكرة المصرية. أما المذكرة الانجليزية فالتعليق عليها ينصب على النقط الآتية:

أولاً: أشارت المذكرة إلى قبول بريطانيا مبدأ المفاوضة واعترفت صراحة باحترامها استقلال مصر. وهذا كسب لا شك فيه.

ثانيا: تحفظ الرد البريطاني تحفظا ظاهرا بذكره دروس الحرب الماضية وما تحملته إنجلترا منها، وهي إشارة تنطوي وراءها معان لا تبعث على الاطمئنان. فلا بد أن تكون انجلترا ترمي من وراء ذلك إلى تمسكها ببعض الاعتبارات التي كانت تتمسك بها من قبل لما تسميه تأمين مواصلاتها، وغير ذلك من الاحتياطات الوهمية التي تخلقها العقلية العسكرية الضيقة.

ثالثا: ورد في الرد البريطاني إشارة إلى قيام العلاقات بين الدولتين على أساس المشاركة مع أجزاء الامبراطورية، وهي عبارة بغيضة تدل على نظرة خاطئة لمركز مصر وفهم غير مقبول لصلتها بها.

رابعا: مرت المذكرة البريطانية بمسألة السودان مرًا خفيفا مشيرة إلى أنها علمت رغبة مصر في المباحثات بشأنها ولم تحدد بجلاء رأيها في ذلك.

والرأي المنصف أن المذكرة المصرية كانت وافية ببسط مطالب مصر وإن كان أكثر المفكرين على أنه كان من الممكن أن تصاغ على صورة أقوى مما صيغت به وأوضح دلالة على ما نريده وأكثر استمساكا بحقنا الدولي طبقا لميثاق الأمن، وأصرح تعبيرا في المطالبة بوحدة النيل.

أما المذكرة الانجليزية فقد صيغت بتحفظ يبعث على الريبة ويدعو للشك في حسن نيات انجلترا في إجابة ما نريده وأن الكسب الظاهر هو قبولها المفاوضة، وهي تعلم ما نريده وتدرك حق الادراك ما نرمي إليه.

فالأمر — على أسوأ الأوضاع — هو أننا صارحناها بأننا نفاوضها على أساس جلاء جنودها عن بلادنا وعلى أساس حل مشكلة السودان. وصارحتنا بأنها تقبل ذلك، ولكن لديها اعتبارات خاصة تحرص عليها قد تكون مقيدة لنا بعض التقييد.

والسؤال الذي يقوم بالذهن بعد ذلك هو: هل ندخل في المفاوضات على هذا الأساس أو لا ندخل؟

يذهب البعض إلى أن هذا الوضع لا يصلح أساسا للدخول في المفاوضات. وأنه لا يصح التفاوض حتى يعدل الانجليز عقليتهم ويقبلوا ما طلبناه بلا تحفظ. ولو صح هذا لما كانت هناك حاجة لمفاوضات. فالأمر لن يعدو في هذه الحالة أن يكون تبليغا من جانبنا وقبولا من جانبهم ومسارعة للتنفيذ (وكفى الله المؤمنين القتال).

وقد كان هذا طبيعيا وممكنا لو أن الانجليز يعالجون الأمر بعقليتنا ويفهمون عما نقتنع به من أن ما يتمسكون به من احتياطات وما يخلقونه من اعتبارات تمس مصالحهم الامبراطورية لا مبرر له مع قيام النظام الدولي الحاضر. ولكن جمود العقلية السياسية الانجليزية وبقايا الشكوك القائمة في أذهان ساستهم تجعلهم لا يدركون ما ندرك. ونحن بحاجة إلى أن نتصل بهم ونحاول تغيير عقليتهم وإزالة الأوهام والشكوك القائمة في رؤوسهم وتلمس الوسائل لإدخال الطمأنينة على أنفسهم من حيث تلك المصالح المزعومة، ونحن بحاجة لإقناعهم بأن صلات الود والصداقة بيننا وبينهم أكفل بصون مصالحهم ولإشعارهم أن كل تدخل في شئوننا أو تقييد لحريتنا يفسد جو الصداقة المنشود بيننا وبينهم، وكل هذا هو ما نرمي إليه المفاوضة.

هناك أمر واحد يجب أن نطمئن إليه هو أن المفاوض المصري يكون مؤمنا بالأهداف الوطنية قادرا على إبرازها في أجلى صورها قويا في الدفاع عنها واسع الحيلة في سد

من الأقوال المأثورة
فى الأدب الغربى والعربى

من الإنجليزية والأمريكية :

حكومة الحافظين نفاق منظم .

سأل قسيس رجلا : لماذا ينجح الممثلون أكثر مما ينجح الواعظون ؟ فقال : « إن الممثلين يتكلمون عن الأشياء الخيالية كأنها حقيقية ، والواعظين يتكلمون عن الأشياء الحقيقية كأنها خيالية » .

إن قُبلة من أى جماعتى فنانا .

إن المعرفة الإنسانية ليست إلا جهلاً مبوّبا .

كل عقلاء الناس على دين واحد .

قد يصح للانسان أن يغير رأيه ولكن لا يصح له أن يغير مبدأه .

يجب أن يصرف الإنسان بعض زمنه مع الضاحكين .

السفير رجل أمين أرسلته دولته إلى الخارج ليكذب لها .

كل إنسان يستطيع أن يعمل أى عمل عمله الآخر .

أراد ابن أن يقرأ لأبيه فقال الأب : كل شئ إلا التاريخ فإنه باطل .

إنما يعتذر عما لا يمكن تغييره .

الاقتيال لا يغير تاريخ العالم .

الجامعة يجب أن تكون مكان الضوء ومكان الحرية ومكان العلم .

كن عادلا وأنت لا تخشى شيئا .

الكتب والكنائس والحكومات هى ما نعمل .

الطرق على الأساليب السياسية الماكرة التى يتقنها الساسة الانجليز ، حريصا على ألا يقبل ما يتنافى مع كرامة البلاد واستقلالها ، وأن يرجع للأمة قبل أن يقطع برأى فى مصاير البلاد . وأن يقطع المفاوضات إذا وجدها تتجه فى غير الاتجاه الذى نريده .

فلا ضير علينا أن نفاوض مادمنا ندخلها غير مقيدين إلا برغبات البلاد ، فإن نجحنا فيها ، وإلا فليست هذه أول مفاوضة بيننا وبينهم لم تتلاق فيها رغباتنا مع رغباتهم . ولن نخسر بهذه المحاولة شيئا ، وسنكون فى حل إن فشلنا من طرح قضيتنا على مجلس الأمن .

لسنا من المتفائلين ، بل لعلنا — على ضوء الذكرة البريطانية — أميل إلى التشاؤم ، ولكن هذا لا يسوغ أن نوصد بابا فتح أمامنا ، ولو كان كل ما يفتحه لنا بريق أمل ضعيف . إن أمامنا جهادا شاقا ، ولكن حجتنا قوية والظروف الدولية كما أشرنا فى غير هذا المقال مواتية لنا . ومصر تتمتع اليوم بمكانة دولية تجعل صوتنا مسموعا .

ومنزلتنا فى الجامعة العربية تزيدنا قوة وتمكينا ، ويجب أن نستثمر هذه الاعتبارات كلها ، ونحن نفاوض . ولا نتردد فى موقفنا ، فالحق معنا .

بقى أمر آخر له أهمية كبرى فى نجاح المفاوضات ، وهو أن تقف الأمة وراء مفاوضيها تسندهم وتؤيدهم وتبصرهم وتراقبهم ، ولا يكون هذا بتفكك القوى وتعارض الهيئات وتنازعهم على الشكليات وتقسيم الغنائم والمغنوات الصغيرة لإضعاف مراكز المفاوضين وتخذيلهم فى سعيهم .

ولعل الوسيلة العملية الوحيدة للتغلب على هذه الصعوبة أن يشترك أقطاب البلاد وزعماؤها وكبار ساستها جميعا فى هذه المفاوضات وأن يسموا جميعا أمام هذه المهمة الوطنية الكبرى عن الخصومات الحزبية والنازعات الصغيرة .

إن الشعب ليتطلع إلى الجميع أن يعيدوا الجبهة الوطنية الموحدة ، وأن يواجهوا خصمهم كتلة واحدة تشمل أكفأ عناصر البلاد وأقدرها على السير بالمفاوضات إلى النجاح المحقق . جمع الله كلمة الأمة ووفق قادتها للتعاون على خيرها .

(. . .)

قد لا يكون لمعرفة حكمة القانون ولكنه أحب إلى الناس .

الديمقراطية كالقبر لا ترد ما تأخذ .

الخلاف في الدين ينتج من الخصومة أكثر مما ينتج الخلاف في السياسة .

يقول المثل الفرنسي : أجناس الناس ثلاثة : الرجل والمرأة ورجل الدين .

أداء الواجب يحدد القدر .

لكل إنسان ثمنه .

في السياسة ليست هناك كلمة أخيرة .

القوة ليست علاجا .

كثيراً ما ترتقي الصداقة إلى حب ولكن الحب لا يهبط أبداً إلى صداقة .

أنا فقير وفقير جداً ولكن ملك انجلترا ليس له من الثروة ما يستطيع بها أن يشتريني .

حريتي أو موتي .

الشكر على نعمة الماضي أمل في نعمة المستقبل .

الأشياء العظيمة لا ترى إلا على بعد .

لو خدمت الله نصف ما خدمت مليكي لأسبغ عليّ نعمته في آخر أيامي ولم يتركني لأعدائي .

ليست السعادة غاية الحياة بل الخلق .

الناس لا يقدرون البساطة حق قدرها مع أنها مفتاح القلب .

إذا تحققت كل رغباتنا ضاعت أكثر لذائذنا .

إذا صوبت كل سيوف إنجلترا إلى رأسي لم يحرك ذلك من نفسي .

إذا كان لي ابن اجتهدت أن أعلمه الفرنسية والألمانية أما اللاتينية واليونانية فترف .

إذا أغرقنا كل المادة الطبية في قاع البحر كان ذلك خيراً على الإنسان وشراً على البحر .

الجهل لا يحسم نزاعا .

سأحاول ما عشت أن أخدم إلهي ومليكي ووطني ولذلك سيسكنني الله مع من أحبوه .

لقد وهبت حياتي للقانون والسياسة ، أما القانون فأمر مشكوك فيه وأما السياسة فلا شك أنها عبث .

قال أمير وهو يحتضر : لقد ملكت المال والجاه والقوة ولكن إذا كان هذا كل ما أملك فتعساً لي .

لقد سمعت أن شيئين سالبين يكونان موجباً ولكن لم أسمع أن لا شيء ولا شيء يكونان أي شيء .

لقد تعلمت أخيراً ما تعلمت قبل ، وهو أن لا شيء يصح أن يؤخذ قضية مسلمة .

لقد اقتنعت أن عظمة إنجلترا واستقرار أساس شؤونها إنما هو في أمريكا .

ما فائدة التاريخ وأقوال الحكماء وتجارب السلف إذا لم تكن دليلا هادياً للخلف ؟ .

لقد تعلمت من الحديث مع الناس أكثر مما تعلمت من كل ما قرأت .

في الأمة الناجحة يكون التغير دائماً .

الأفراد قد يكونون جماعات ولكن النقابات هي التي تكون الأمة .

لم يبلغ إنسان من الشر مبلغاً لا يستطيع معه أن يأتي بخير .

ثورة الأفكار تأتي دائماً قبل ثورة الجيوش .

ما أسفت على شيء أسفي على أن لي حياة واحدة أهبها لقومي .

الصلح الظالم خير من القتال العادل .

أحمد أمين

قصيدة

مهداة لحضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم

بمناسبة عيد ميلاده السعيد — ١١ فبراير سنة ١٩٤٦

وحيٌ تهبُّ من الوادي نسائمُهُ
أم روضُ مشجرةٍ غنّت حمائمُهُ ؟
أم أنّهُ عصرُ أمجادٍ مذهّبةٍ
تفتّحتْ في الربى طيباً كمائمُهُ
وقفتُ . . والفجرُ بالأضواءِ منتصرٌ
والدجى عسكرٌ تجري هزائمُهُ
والدوح مُغنينٌ لحنُهُ عطِرٌ
والجداولُ ترّانٌ يُناغمُهُ
والسيلُ كالأبدِ الروحيّ منحدرٌ
من الغيوبِ ، قوي الفيض عارمُهُ
والربيع أغاريدُ الضحى سَفَرَتْ
ألحانُها الوردُ قد غنّت براعمُهُ
هذا هو الوطنُ الباني حضارتَهُ
من مشرقِ الدهرِ لا تخفى معالمُهُ
تألّقتْ ليلةَ الميلادِ فرحتُهُ
وهنّأتْ عيد «فاروق» مواسمُهُ

* * *

تخيّر اللهُ للميلادِ . . مشرقَهُ
فجرُ الربيعِ قد افترّتْ مباسمُهُ
لجاء رمزاً لميلادٍ أنت شائدُهُ
فجرَ البناء ، وظلم أنت هادمُهُ
مولاي ! بشرُ الروضِ أنت غارسُهُ
في ربوة النيل شاقِ السحرِ هائمُهُ
من الجمالِ معانيهِ منسّقةً
ومن شبابِ العُلا زُهرٌ مكارمُهُ

عيدٌ يهيمُ خيالي في معانيه
والخيال حقيقاتٌ تواءمُه
ولا يكون جمال الشعر منسجماً
حتى ترى واقعَ الأيام حالمه
فما الذي أبصرتْ عيناي من شرفٍ
لغير وضعك لم تُبنَ دعائمه ؟
بل رأيتُ وفود الشرق مقبلةً
إلى المليك الذي فاقت عظائمه
ليثُ الجزيرة لاقى منك خير أخٍ
والغاب بعدكما سالت ضراغمه
وشعلة الحبّ من لبنان صارخة
إن يشعل الزيت فالوجدان ضارمه
وشعلة الكرنك المسحور من قدم
بداه رمسيس في البردي راقمه
يهيب دونك ؛ أتمم ما بدأتُ به !
فناره في يد الذكرى وصارمه
سبحان من يجمع العهدين قدرته
محمد تصافح ماضيه وقادمه

* * *

مولاي ! عيدك أسرار تطالعنا
فأيّ سرّ جديد أنت كاتمه ؟
من آية الله هذا العام أنّ له
من مولد المصطفى عيداً يلازمه
عيد الرسول ، وعيد التاج قد جمعا
فنوّر الكون وانجابت غمائمه
الدين بالعرش قد تمت مباهجه
والشرق بالنور قد ماجت مواسمه
ومن يكن لرسول الله مصطحباً
فالله ناصره ، والله عاصمه !

* * *

مولاى ! مصرُ ذكرناها وما برحت
في خاطر المجد أطيافاً تنادمُهُ
لا أطلُمُ الشعرَ إلا في المتون بها
أما الرقيبُ فقد سالتْ مراحمُهُ
إنّا نسيرُ إلى شماء عاتيةٍ
وقد شكا الصخرُ من لُجِّ يلاطمُهُ
وزورقُ المجدِ في يُسراك دفّتهُ
والبحرُ حياك مجداف يصادمُهُ
تجرى به عاصفات الريح مجتنباً
هوجاء لولاك ما كانت تسالمُهُ
فإن حكمتك العلياء ما برحت
تحبو اليقين فؤاداً ضلّ واهمُهُ
سدادُ رأيك شمسٌ طالما كشفت
بنورها من دُجى خطبٍ غمائمُهُ
تخرو الجبلَ من قيدٍ بقى لَهُ
فالجبلُ من ذهبٍ أنت معاصمُهُ !
نَرادُ للقيدِ ألوانٌ ، فويحَ له !
وهل تكونُ سوى جرحٍ علائمُهُ ؟
وقد يُعانى أشدُّ القيدِ منطلق
على السبيل جميلُ الوشى ناعمُهُ
لا كرّم الله حلفاً أنت ناقمُهُ
ولا رعى الله جهلاً أنت عالمُهُ
لا ينهضُ النسرُ إلا وهو مقتدرٌ . .
عزّتْ خوافيهِ واشتدّتْ قوادمُهُ
الشعبُ خلفك يا فاروقُ محتشدٌ
وأنت بالحبِّ والإخلاصِ حاكمُهُ
فانهضْ به نهضةً غراء خالدةً
واكتبْ صحائفَ نصرٍ أنت راسمُهُ

***

مولاى ! هذا خيالُ الشعرِ منطلقٌ
إلى سمائك لا طيرٌ يزاحمُهُ
الصدق أغرودةٌ أضحى يُرقرقها
عطراً على الوردِ حتى هبَّ نائمُهُ !
فهل يوفّى نشيدى بعضَ واجبهِ
وهل يوفّقُ في الإبداع ناظمُهُ
مولاى جدّدْتَ عصراً أنت مالكُهُ
فمن لشعرى بتجديد يلائمُهُ ؟
إذا استمدَّ علاك الشعر من شرف
مستوحياً ، فلقد عزّتْ ملاحمُهُ

عامر محمد بحيرى
وزارة المعارف

حول مستحدثات العلم واستعمالها :

انقاذ الأرواح فى البحار (١)

كانت الأرواح التى تزهق على أثر غرق السفن فى البحار كثيرة بلغ عددها فى إنجلترا ١٣٠٠٠ عام ١٩١٢ . لكن العلم قد وصل فى الثلاثين سنة الأخيرة إلى اكتشافات أنقصت إلى حد كبير احتمال ارتطام السفن فى المحيطات وغرقها . ويكفى أن نشير هنا إلى الابتكارات والتحسينات التى أدخلت على اللاسلكى وغيره من وسائل الإشارات وجعلت فى إمكان المستغيثين وطلاب الغوث أن يدلوا على مواضع السفن التى تنقلهم ، أولئك الذين يبعدون عنهم أميالا عديدة . ثم نشير إلى الطائرة الحديثة التى مكنتها سرعتها العظيمة من ارتياد مساحات واسعة شاسعة فى زمن قليل نسبياً . وقد نتج عن ذلك كله أن أصبحت أخطار البحار فى أوقات السلم الطبيعية قليلة جداً بالنسبة لما كانت عليه منذ ثلاثين أو أربعين سنة حين كانت النجاة مرهونة إلى حد كبير بتصادف مرور سفينة بالقرب من المنكوبين ورؤيتها إياهم .

لكن قل أن يدرك الناس ماذا فعل العلم وماذا يفعل الآن فى سبيل تحسين تصميم قوارب النجاة وفى سبيل تخفيف متاعب من يركبون فيها حتى تصل إليهم المعونة أو يغيثهم من يلبون نداءهم .

ولننظر الآن فى الحاجيات الرئيسية للانسان : إنها الهواء للتنفس والماء للشرب والطعام للأكل والدفء ، والملبس والمأوى للحماية من العوامل الطبيعية ، وأهم هذه جميعاً الهواء والماء ، فمن المعروف جيداً أن فى استطاعة الإنسان أن يعيش عدة أسابيع بغير طعام ، لكن ليس فى استطاعته أن يعيش أكثر من أيام قليلة بغير الماء .

ولا يدرك معنى العطش الحقيقى إلا أولئك الذين قاسوه بالفعل فى ظروف عز عليهم فيها الماء ، وجدوا فى البحث عنه جد المستيئس ؛ ولك أن تسأل عن هذا جندى الصحراء الذى تصادف أن انحرف عن وحدته وضل الطريق ، أو البحار الذى ضربت سفينته بالطربيد وقضى أسابيع فوق قطعة خشب تلعب بها الرياح والأمواج

وقد لقيت بطبيعة الحال مشاكل إنقاذ الأرواح فى البحر عناية عظيمة فى خلال سنوات الحرب الأخيرة ، وكان من نتائجها أن أدخلت تحسينات على جانب عظيم من الأهمية فى وسائل الإنقاذ ودرست بصفة خاصة مسألة مياه الشرب وخير الطرق لتوفيرها ، وتعاونت على هذه الدراسة فرق من العلماء الباحثين التابعين لعدة مصالح حكومية ، ومنشآت أهلية ؛ ومن أهم هذه المشاكل البحث عن خير الطرق لاستخلاص ماء صالح للشرب من مياه البحور المالحة .

وأول ما يتحتم على المشتغل بحل هذه المسألة أن يعرفه هو كمية الماء التى يحتاجها الشخص فى اليوم الواحد ، وعدد الأيام التى يراد توفير الماء له فيها . ويقال إنه إذا كان الطقس معتدلا كان متوسط كمية الماء التى يحتاجها جسم الإنسان البالغ على وجه التقريب هى ٢ ½ باينت (١) فى اليوم لكن المعروف أن مقادير أصغر من هذه بكثير تكفى للابقاء على الحياة عدة أسابيع . فإذا فرضنا أن الإنسان يحتاج إلى باينت واحد فى اليوم لمدة أربعة أسابيع (وهو تقدير مناسب) كان الماء اللازم وجوده فى قارب النجاة الذى يحمل أربعين شخصاً هو ١٤٠ جالوناً . وليس من المستطاع عملياً فى الوقت الحاضر أن يتسع فى قارب نجاة مزدحم فراغ يكفى لخزن ١٤٠ جالوناً من الماء ، وذلك

(١) ننقل هنا عن الدكتور ألبرت باركر مدير البحوث الخاصة بالوقود فى إنجلترا .

(١) الباينت هو المكيال الإنجليزى المناظر لمكيال رطل اللبن فى مصر وهو يعادل ⅛ جالون إنجليزى .

بالنسبة لكثرة المعدات الأخرى الضرورية .

وكان المتبع قبل الحرب أن يحوى كل قارب من قوارب النجاة بعشرة جالونات من مياه الشرب تخزن فيه . لكن يلاحظ أن السفن فى أوقات السلام تتبع خطوط سير معروفة مطروقة ، ومن ثم يصلها الغوث عادة فى خلال ساعات أو أيام قليلة . أما فى زمن الحرب فقد تتأخر الإغاثة أكثر من ذلك لأن السفن تسير فى طرق متعرجة غير معروفة ولا مطروقة لتضليل عدوها . ولما جرت العادة أن يعد قارب النجاة فى الحرب بما يقرب من الثلاثين جالوناً من الماء المخزون فيه ، وهذا يعادل توفير نحو ½ جالون يومياً لكل فرد فى القارب لمدة أربعة أسابيع ، وقد اقتضى هذا التحسين مهارة فائقة فى التنظيم الداخلى للقارب ، وبخاصة بالنسبة للفراغ المعد لخزن الأشياء المحمولة .

وفى الجو الممطر يمكن أن يزداد مدد الماء الصالح للشرب بجمع ماء المطر ، وقد صمم لهذا الغرض قماش يجمع المطر ، إذا طوى للحزم والخزن فلا يزيد طوله عن القدم إلا قليلا ولا يتجاوز عرضه بضع بوصات . أما إذا بسط فإن مسطحه الذى يجمع ماء المطر يبلغ نحو ست ياردات مربعة ، وعند ما يكون المطر غزيرا يصل ما يجمع به فى ساعات قليلة إلى نحو ٢٥ جالوناً . لكن المطر ليس بالأمر المستديم الذى يعتمد عليه ، فلا بد من وسيلة أخرى لتدبير الماء اللازم .

ولعلك تتساءل : كيف يعز ماء الشرب على الذين يحيط بهم من كل جانب ملايين من الجالونات من الماء ؟ والجواب على هذا : أن ماء البحر لسوء الحظ غير صالح للشرب لكثرة ما به من ملح ذائب يجعل شربه فى الواقع خطرا مالم يشرب الإنسان معه كذلك قدرا أكبر منه بكثير من المياه التى لا تحتوى أملاحا أو تحتوى منها مقادير لا تذكر .

وقد جرت بحوث متواصلة لمدة سنوات عديدة على أيدى هيئات دولية فى مياه البحار وفى كمية الأملاح التى تحتويها وفى طبيعة تلك الأملاح ، وتبين من هذه البحوث أن مياه البحر تحتوى مزيجا من الأملاح أربعة أخماسه هى بعينها ملح الطعام المستخدم فى الطهى ، ويبلغ مقدار ما فى مياه البحر من الأملاح بوجه عام ما بين ٣ و ٤ فى المائة ، وهذه النسبة نحو أربعة أمثال نسبة الملح فى جسم الإنسان . ومن هنا يتضح الضرر الذى ينجم من شرب مياه البحر وحدها . ويلاحظ أن معظم الناس لا يستسيغون الماء الذى يحتوى عشر ما يحتويه ماء البحر من ملح ويجدون فى طعمه غضاضة كثيرة .

فنحن إذاً محتاجون وقت وقوع الخطر فى البحر إلى طريقة سهلة لإزالة الملح من بعض ماء البحر حتى يصبح صالحاً للشرب . وهناك عدة طرق لإجراء هذه العملية معظمها صعب ، وأقربها وأوضحها عملية التقطير أى غلى ماء البحر وتكثيف البخار . ومن المعلوم أيضا أن ماء البحر إذا برد إلى درجة التجمد كان الجمد (أو الثلج) المتكون أول الأمر لا يحتوى من الملح إلا قليلا جدا ، لأن معظمه يظل ذائبا فى المياه التى لا تتجمد . وهناك طرق أخرى . فبإضافة كيماويات خاصة مثلا يمكن فصل الأملاح على صورة أجسام صلبة تخلص منها بالترشيح ، وهذه طريقة معقدة وغير مضمونة إذا لم تجر بغاية الدقة والعناية . ومنذ عشر سنين اكتشف بعض الكيماويين أن أنواعا من الراتينج التركيبى (Syntheaeresin وهى نوع من المواد المعروفة بالموالك) فى قدرتها استلاب الأملاح من ماء البحر ، وذلك بأن يمرر ماء البحر هذا من خلال قطع مجروشة من أحد أنواع الراتينج ثم من خلال نوع آخر منها ، وفعل هذه الراتينجات مشابه لفعل المادة المستخدمة فى المنازل عادة لتحويل الماء من عسر إلى يسر . لكن من سوء الحظ أن حجم ماء الشرب المستخلص بهذه الطريقة لا يكاد يزيد على حجم الراتينج المستخدم فى الحصول عليه .

ومن أحدث البحوث نستنتج أن الطريقتين اللتين تنتظر أن تصادفا نجاحا فى تحقيق غرضنا هما التقطير والمعالجة

الكيماوية بطريقة شبيهة بالتى تستخدم فيها الراتينجات . وقد استقر الرأى بعد القيام بتجارب عديدة على أن التقطير هو خير ما يصلح من هذه الطرق لقوارب النجاة .

وتصميم مقطر صغير لقوارب النجاة ليس من السهولة بالقدر الذى قد يبدو ، لأنه لا بد من استيفاء عدة شروط عامة . فالحيز الذى يشغله المقطر والوقود المستخدم فيه يجب أن يكون أقل بكثير من الماء المقطر المستخرج بتشغيل المقطر بضع ساعات فى اليوم لمدة أسبوعين مثلا ، وإلا كان من الأفضل خزن الماء كالعادة ، ثم إن البساطة والسهولة فى تشغيل المقطر شرط أساسى ، كما يجب ألا يكون هناك نظام آلى معقد فيه أدنى احتمال للعطل وقت الحاجة الملحة . وأخيرا يجب أن يكون تصميم هذا الجهاز بحيث يسمح بصنع أعداد كبيرة منه بطرق الإنتاج بالجملة بأقل ما يمكن من العمل الذى يحتاج لمهارة يدوية .

وفى أول الأمر وضع تصميم عدة مقطرات تنتج ما بين باينت واحد وأربع باينتات من مياه الشرب فى الساعة ، وقام بصنع هذه المقطرات عمال فنيون فى درجة عالية من المهارة ، وأجريت فى الوقت نفسه تجارب عديدة تعاون فى إجرائها رجال صناعة الزيوت والوقود وغيرهم لاختيار الوقود المناسب والمصباح الصالح لتسخين المقطرات . وفى المرحلة التالية استخدم الجهاز فى تقطير المياه فى بحر الشمال .

ثم أجريت اختبارات فى الورش وفى الهواء الطلق فى ظروف مشابهة لما يكون عليها القارب فى البحر ، ولتقليد حركات القارب شغلت المقطرات وهى كأرجوحة البندول ولتقليد الرياح الشديدة سلط على الجهاز تيار من الهواء منبعث من مروحة ، وبعد ذلك أجريت اختبارات قامت بها عدة مجموعات من البحارة تستخدم المقطرات فى قوارب النجاة فى البحر ، ونتج من هذا كله إدخال عدة تحسينات . وفى خلال ذلك كله اشتغل العلماء متعاونين مع الشركات التى ينتظر أن تقوم بصنع المقطرات والمصابيح على نطاق واسع .

وهذه هى المرحلة التى يتحول فيها النموذج الدقيق الذى يشتغل عليه القائمون بإجراء البحوث الفنية إلى الشكل الحقيقى الذى يكون فيه سلعة تجارية تؤدى عملها كما ينبغى على الرغم من إنتاجها بكميات كبيرة على نطاق واسع .

وقد اختير بالفعل نوعان من المقطرات يجرى صنعهما الآن ولا يزال الثالث قيد الفحص ، وكل من المقطرين ينتج نحو أربعة باينتات من مياه الشرب فى الساعة ، وحجم المياه الناتجة من المقطر إذا اشتغل عدة ساعات فى اليوم لمدة أسبوعين أكثر بكثير من حجم المقطر والوقود . وأحد المقطرين يتم التسخين فيه بمصباح يحرق زيتا ، والآخران يسخنان بحرق الوقود الصلب (قوالب الفحم أو الخشب أو غيرها) .

ولنتصور أننا فى قارب نجاة ونريد أن نشغل المقطر الذى يسخن بالزيت : هذا المقطر على شكل أسطوانة رأسية وفيه مدخنة متوسطة تحتوى المصباح ، ويثبت المقطر أولا فى المكان المخصص له فى القارب ثم يصب ماء البحر فى الخزان الذى فى قمته ، هذا الخزان يشبه القدر التى لا ينسكب منها الحبر ، وذلك حتى لا ينسكب ماء البحر حين تلاعب الأمواج بالقارب ، وإذا أدرنا مسمارا محوريا فتح أنبوبة تغذى المصباح بالزيت من خزان يحيط بالمقطر ثم يضاء المصباح . وكل ما هو مطلوب بعد ذلك هو إضافة ماء البحر من آن لآخر ، فبعد فترة قصيرة من الزمن يفيض ماء الشرب باستمرار من أنبوبة قرب قاع المقطر ويستمر فيضانها بحيث تمدنا بأربعة باينتات فى الساعة ما دام المصباح مشتعلا .

وفى النية الاستمرار فى خزن مياه الشرب فى قوارب النجاة بالقدر الذى كان يخزن فيما مضى وأن يكون كل من القماش الذى يجمع مياه المطر والمقطر من المعدات الإضافية فى قارب النجاة ، وذلك كله فى سبيل المحافظة على أرواح المنكوبين فى البحار .

أحمد عبد السلام الكرداني

العربة والحصان

كثيرا ما يسمع الإنسان في أثناء المناقشات عبارة يلقيها بعض المتجادلين في أسنان بعض ، ويكون لها في أغلب الأوقات قوة سحرية عجيبة في الإقناع . وأكبر ظني أن كل من تقع عيناه على هذا المقال قد سمعوا هذه العبارة في بعض الأوقات أو استعملوها لاقناع خصومهم في المناقشات ، وهي عبارة : « هـذا قلب للأمور . هـذا وضع العربة أمام الحصان » .

فإذا اختلف جانبا المناقشة في وجهة النظر ولم يجد أحد الجانبين حجة دامغة يقنع بها خصمه قال له : « ولكن رأيك هذا يكون بمثابة وضع العربة أمام الحصان » ومعنى هذا كما هو معروف أن حجة الخصم وجيهة ، ولكنها موضوعة في مكان غير مناسب .

ولست أدري أي الأمم اخترعت هذه العبارة ! فهي مستعملة في اللغة الانجليزية وفي غيرها ، وقد نقلناها إلى العربية لأنها مفيدة جدا لمن يشعر بالحرج في الجدال .

ومهما يكن من أمر هـذه العبارة فإن الأمة التي اخترعتها ليست من الأمم العصرية بغير شك . فقد كانت صحيحة عنـد ما كانت الأمم تستعمل في جر الأثقال تلك العربات الثقيلة البطيئة التي نسميها نحن « الكارو » . وهذه يصح فيها أن يقال إن وضع العربة أمام الحصان ليس هو الوضع الصحيح ، لأننا لا نستطيع أن نتصور حصانا حكيما تصل به البراعة في الاحتيال أن يدفع العربة أمامه . والخيل تسير على أربع أرجل ، ولا يمكنها أن ترفع أيديها الأمامية لتدفع بها العربة كما يفعل الباعة الجوالون .

فمجمل القول أن هذه العبارة كانت صحيحة في الأزمان الماضية عندما كانت الأمم لا تعرف سوى العربات « الكارو » والخيل .

ولكننا الآن لا نستعمل هذه العربات كثيرا ، وأغلب الناس يستعملون اليوم قطر البخار وقطر الكهرباء والموتورات ذات الاحتراق الداخلي . وكثيرا ما نشاهد القطار البخاري يدفع العربات أمامه ويسير في سهولة ويسر كما لو كان يجرها من خلفه ، وكذلك الحال في الترام ، فإن القاطرة الكهربائية تستطيع أن تجر العربة من خلفها إذا شاءت ، ولها مطلق الحرية في أن تتخلف هي إلى الوراء وتدفع العربة أمامها ، فالعالم يتغير ومن الواجب أن نستعمل العبارات المناسبة للعصر الذي نعيش فيه .

وإني أسوق هذه المقدمة لكي أتقدم بها على نفسي لأني كنت منـذ أيام غارقاً في حلم من أحلام اليقظة ؛ وبهذه المناسبة أرجو ألا يساء فهم قولي . فإني لم أكن نائما بل كنت أفكر وأنا صاح ، ولكني كنت مستغرقا في أفكاري إلى غاية بعيدة حتى كنت بمثابة المستغرق في الأحلام . وكثيرا ما يصاب الناس بمثل هذه العادة التي يقول عنها علماء النفس بأنها من طبائع الطفولة ، ولهم فيها أقوال كثيرة لا أميل إلى تصديقها لأني مصاب بأحلام اليقظة .

وكانت أفكاري متجهة نحو تصور حالة مصر التي أعني تحقيقها سريعا . فقد تصورت أنني أسير في طرق القاهرة وكانت كلها مثل شارع سليمان باشا مع فارق واحد وهو أنها فسيحة لا تهدد السائرين فيها بالاصطدام في كل لحظة . وكانت المتاجر على الجانبين مصرية في الغالب ، وهذا طبيعي لبلد أكثر سكانه من المصريين ، وكان الشعب السائر في الشوارع كله نظيفا يلبس الثياب التي نسميها (أفرنجية) والأحذية اللامعة تشع من أسفل أرجلهم جميعا وكلهم منصرفون إلى أعمالهم ، فلا تقع العين على (لمة) ملتفة حول منظر تافه لأن وقتهم جميعا ثمين ، وهم جميعا كما يلوح على وجوههم من المتعلمين الذين تظهر عليهم مظاهر الكرامة والاعتداد بالنفس . وبعد أن تصورت سيري في هذه الشوارع ذهبت حينا إلى حي سيدنا الحسين لرؤية احتفال المولد

النبوى ، فلم أجد هناك تلك الثياب الرقعة وتلك الأعلام الخضراء ذات اللون الحائل ولا تلك الطبول المتخلفة من القرون الوسطى ولا تلك اللحى الرثة التى يتنع بها بعض الناس ويجعلونها من أهم شعائر الدين ، بل رأيت الاحتفال وإنما فيه روايات تمثيلية تعيد إلى الذهن عصور المجد القديم وسمعت موسيقى مطربة لا أثر فيها للميوعة التى اعتدنا سماعها ، ورأيت مواكب جميلة تمثل الحياة فى مختلف حقب التاريخ ، ورأيت ورأيت . . . وكان كل ما رأيت يشيع القلب فرحا ويهزه هزا ويعيد إليه كل ذكريات العز مجلوة فى أبهى مظاهرها .

ثم تصورت أنى خرجت من المدينة إلى الطرق المؤدية للريف ، وكنت أركب (أوتوبيسا) جميلا رشيقا كله درجة واحدة ، فليس فيه (ريعو) ولا (ترسو) وكل من فيه من الناس فى هيئة محترمة لا يحملون (زكائب) ولا أقفاص ولا (سلالا) بل كان ما معهم من المتاع موضوعا فى حقائب مختلفة الأصناف بعضها من الجلد المعتاد وبعضها مصنوع من القماش أو الخوص أو الليف ، ولكنها كلها جميلة المنظر سهلة التناول — وعلى فكرة — كان الأوتوبيس نفسه ملكا لشركة مصرية ومن صناعة مصرية — ولم لا ؟

ثم ذهب بنا الأوتوبيس فى طريق مرصوفة من تلك الطرق السوداء اللون الأنيقة التى أهدتها إلينا المعاهدة المصرية الإنجليزية منذ سنوات . وسرنا فى ذلك الطريق حتى وصلنا إلى وسط القرية التى نقصدها ، لأننا كنا نريد أن نقضى فسحة آخر الأسبوع فى الريف ، وكانت منازل القرية بديعة المنظر مع بساطتها ، وكان سكانها فى أتم حالات النظافة فى أجسامهم وملابسهم مع أن حالهم كانت كما يبدو رقيقة ليس فيها بذخ الغنى . وكان منظر القرية فى مجموعه رائعا لأن الحدائق تتخللها والشجيرات المتسلقة تكسو جدرانها بفروعها وأزهارها ، والحقول تبتسم بروائحها وخضرتها ، والجداول الصافية تجرى بينها فى مجار مبنية بالأسمنت — وعلى فكرة — كان مكتوبا على هذه الجداول الصافية « ممنوع شرب البهائم » لأن للبهائم أحواضا خاصة تملأ من طلمبة الماء الصغيرة التى يديرها مجلس القرية بالكهرباء . ورأيت ورأيت مما يطول وصفه حتى انتهيت إلى الفندق الصغير الذى تحيط به حديقة صغيرة ظريفة فى آخر القرية ، وهناك قضيت يومى الخميس والجمعة للاستراحة من ملل العمل طول الأسبوع . وقد أوحى إلى الهدوء فى هذه البيئة الجميلة ذات الهواء الطلق بقصة صغيرة أرسلتها إلى مجلة الثقافة وأخذت أجرها مائة جنيه كاملة .

هذا ما تصورته ثم صحوت من أحلامى ، فإذا بى أضحك من نفسى وقلت لها : « متى يكون هذا ؟ » وقلت بعد ذلك فى نفسى قولا طويلا معناه أن هذه الحال تستلزم أولا أن نكون شعبا راقيا مستقلا . ثم عدت فقلت إننا علينا أن نصنع من أنفسنا شعبا على هذه الصورة لأنه لا توجد قوة على الأرض تمنعنا من الإصلاح حتى نبلغ مثل هذه الرتبة . فإذا نحن جمعنا همنا وقمنا بما نعتزم عليه من إصلاح أنفسنا كنا بالفعل شعبا راقيا لا يمكن إلا أن يكون مستقلا . وهنا بدأت المعركة بين بعض نفسى والبعض الآخر . فأيها يبدأ أولا : الاستقلال أو العمل على الرقى ؟ فقال صوت فى داخلى : « الاستقلال بلا شك » وقال صوت آخر : « ولكن ما دخل الاستقلال فى أمر نملكه إذا توفرت لنا الإرادة ؟ » . وهنا سمعت صوتا يهمس فى أذنى قائلا : « إن هذا يكون بمثابة وضع العربة أمام الحصان » .

ولكنى قدمت فى مطلع هذا الحديث أن الحصان الحديث يمكن أن يوضع أمام العربة كما يمكن أن يوضع وراءها .

فالذين يريدون أن ينتظروا الاستقلال حتى يبدأوا السعى إلى التقدم غير معذورين ، لأننا نريد حياة طيبة كشعب متحضر جدير بماضيه العظيم ؛ هذا ما نريده وهذا هو المهم . وأما الحصان فليوضع فى أى وضع يحب والسلام .

محمد فريد أبو حديد

آذربيجان

يتردد اسم آذربيجان فى أخبار العالم كثيرا لحوادث أثارها جماعة منها يريدون الاستقلال الإدارى لها ولاختلاف الدول الكبرى فى موقفها من هذه الحوادث .

فرأيت أن أذكر طرفاً من أوصافها وتاريخها تعريفاً بهذا الإقليم الكبير .

آذربيجان اسم لإقليم واسع إلى الشمال والغرب من إران الحاضرة .

ولم تختلف حدوده كثيرا على مر العصور .

يصاقبها من الجنوب الشرقى إقليم الجبال الذى يسمى العراق العجمى ، ومن الشرق موقان وجيلان من أقاليم بحر قزوين ، ومن الشمال أرّان من أقاليم القوقاز ، ومن الغرب أرمينية ومن الجنوب الغربى الجزيرة . وهى اليوم مجاورة لتركيا والقوقاز الروسى .

وهى نجد يحيط به جبال أعلاها جبل أرارات الصغير فى الشمال الغربى ، ويعلو زهاء ٤٠٠٠ متر . وأوطأ جهاتها الوسط حيث بحيرة أرمينية أكبر بحيرات إران والارتفاع هناك ١٣٠٠ متر .

وفى آذربيجان أنهار أعظمها نهر الرس (نهر أراس) فى الشمال الغربى يجرى مسافة طويلة جداً بين إران وروسيا ونهر قزل أوزون . ومعناه بالتركية النهر الأحمر الطويل . وهو يفصل بينها وبين العراق العجمى .

ومجراه الأسفل يسمى سفيد رود أى النهر الأبيض بالفارسية ، وكان هذا اسما للنهر كله فى الجغرافيا العربية .

وكلا النهرين يجرى إلى بحر قزوين .

ومساحة الإقليم ١٠٤ ألف كيل ، وسكانها زهاء ألفى ألف منهم تركمان فى الشمال الشرقى ، وكرد فى الجنوب الغربى ، وأرمن منثورون فى أرجائه . ومعظم الفرس فى الجانب الشرقى . وحول أرمية جاليات من السوريين .

وقال ياقوت فى وصف هذا الإقليم :

«وهو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال، وفيها قلاع كثيرة ، وخيرات واسعة ، وفوا كه جمة . ما رأيت ناحية أكثر بساتين منها ولا أغزر مياها وعيونا، لا يحتاج السائر بنواحيها إلى حمل إناء للماء ، لأن المياه جارية تحت أقدامه أين توجه . وهو ماء بارد عذب صحيح ، وأهلها صباح الوجوه حمرها ، رقاق البشرة ، ولهم لغة يقال لها الأذرية لا يفهمها غيرهم . وفى أهلها لين وحسن معاملة ، إلا أن البخل يغلب على طباعهم . وهى بلاد فتنة وحرب ، ما خلت قط منها . فلذلك أكثر مدنها خراب ، وقراها يباب» .

وحق أنه كان لهذا الإقليم خطر على مر العصور إذ كان ملتقى طرق بين شرق آسيا وغربها .

ويرجح الباحثون أن هذا الاقليم كان موطن زردشت نبى إران فى العصور الأولى وأنه نشأ على شواطئ بحيرة أرمية .

وقد فتحت آذربيجان أيام عمر بن الخطاب وصارت قطراً إسلاميا خاضعا للخلفاء على امتناعه بوعورته وجباله . وفى جباله كانت معاقل بابك الخرمى الذى ثار فى أوائل عهد المأمون العباسى ، واستمر زهاء عشرين عاما مستعصيا على جند الخلافة ، حتى رماه المعتصم بما لا قبل له به من الجند والقواد والقوة والعزمة ، فانتهى أمره إلى الفرار ثم الأسر وأتى به إلى سامرا فصلب .

وقد نظم أبو تمام وحده فى هذه الوقائع أكثر من عشر قصائد .

وكانت أردبيل حاضرته فى أوائل العصر العباسى ثم اتخذت تبريز مكانها .

وقد عنى بها المغول الإيلخانيون وأقاموا بها كثيرا وبنوا مدناً واتخذوا أردبيل حاضرة لها ثم تبريز ، وفيها نشأت الدولة الصفوية فاتخذت أردبيل دار ملك ثم تحولت إلى تبريز حينا .

وتبريز من المدن العظيمة في التاريخ الإسلامي ، وهي اليوم أكبر مدن إيران بعد طهران .

وأما اللغة الآذرية التي ذكرها ياقوت فهي لهجة من التركية . وقد دخلت في شعر بعض شعراء الترك العثمانيين مثل فضول البغدادي .

ولا بد من كلمة في اسم هذا الإقليم ، فقد اختلفت فيه الآراء كثيراً . وفسره بعض الفرس بأنه مركب من « آذر » ومعناه النار ، « وبايكان » . وزعموا أن معناه مكان النار . وسوغ لهم هذا التأويل أنه كان في هذا الإقليم على عهد الساسانيين بيوت نار كثيرة ، منها البيت الكبير الذي كان في مدينة جنزة . ويقال أيضاً إن النار تشتعل على سطح الأرض في مواضع من هذا الإقليم . وليس هذا بعيداً فقد رأينا في كركوك أرضاً نفطية إذا دلكها الإنسان برجله اشتعلت فيها نار زرقاء .

وقال ياقوت في الكلام على هذا الاسم :

« وقيل بل آذر اسم النار بالفهلوية . وبايكان معناه الحافظ والخازن ، فكان معناه بيت النار أو خازن النار ، وهذا أشبه بالحق وأحرى به ؛ لأن بيوت النار في هذه الناحية كانت كثيرة جداً » . اهـ

أقول بل الأشبه بالحق ما فسره استرابو الجغرافي أن هذه التسمية نسبة إلى وال فارسي اسمه أتروپاتس ، انحاز إلى الإسكندر ثم استولى على هذا الإقليم حينما تقسم خلفاء الإسكندر مملكته ، وبقى لأسرة هذا الأمير ملك فيه إلى العصر الميلادي ، فسمي الإقليم أتروپاتين . وقد كتبه مؤرخو الأرمن القدماء أتُرپتكان . وعرف في القرن الثالث الميلادي باسم آذرباذگان ، وبقى هذا اسماً رسمياً في الدولة الساسانية .

وذكرها كتاب السريان في القرن الخامس باسم آذربيغان ، وسماها العرب آذَرْبيجان وأذْرَبيجان . وجاءت في شعر الشماخ :

تذكرتها وهناً وقد حال دونها
قرى أذْرَبيجان المسالح والجال

وقال أبو تمام في القصيدة التي مدح بها المعتصم ووصف وقائع بابك :

فلأذْرَبيجان اختيال بعد ما
كانت معرّس عبرة ونكال

وقال العرب في النسبة إليها : « أذْرِيٌّ وأذَرِي وأذْرَبِيٌّ » وقد جاء في كلام الصديق رضي الله عنه : « حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذْرَبي » .

وأظن أن كلمة آذر داخلة في اسم آذربيجان على التأويلين كليهما ؛ فأتروپاتس هذا الذي نسب إليه الإقليم يظهر أن اسمه كان آذربد ، وأن أتروپاتس تحريف يوناني . ومعنى آذربد خازن النار . فإن لم يكن معنى آذربيجان مكان النار كما فسرها بعض المؤرخين فهو نسبة إلى رجل اسمه « خازن النار » .

ويؤيد هذا ما رواه ياقوت عن ابن المقفع أنها منسوبة إلى آذرباذ ، بن إيران ، إلى آخر الخرافة ، فآذرباذ أو آذربد هو فيما أظن أتروپاتس .

عبد الوهاب عزام

الرجل الذى اخترع لغة

فى اليوم الخامس من شهر ديسمبر من سنة وأربعين عاماً اجتمع عدد من الشبان فى وليمة أقاموها احتفالا بعيد ميلاد ، وكان ضيف الشرف فى هذا الاحتفال شاباً لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره يدعى لدفيك زمنوف ؛ ولكن ذلك اليوم لم يكن عيد ميلاد لدفيك نفسه ، بل إن هذا الشاب قد دعى إلى الوليمة فيمن دعى إليها من الشبان والرجال احتفالا بتذكار مولد اللغة التى اخترعها ، وليس فى لغات العالم لغة غيرها من اختراع إنسان . وهذه اللغة هى التى عرفت فيما بعد باسم لغة الإسبرنتو التى لم يسمع بها العالم إلا بعد أن مضى على اختراعها عدة سنين .

وذلك أن لدفيك زمنوف جالت فى خاطره ، وهو غلام صغير فكرة اختراع لغة دولية جديدة يتخاطب بها الناس كافة ، وكانت بلدته التى ولد فيها فى عام ١٨٥٩ لا ينقطع النزاع بين أهلها ، وكثيراً ما كان هذا النزاع يؤدى إلى قتال تسيل فيه الدماء ، ذلك أن أهلها كانوا خليطاً من الروس والبولنديين والليتوانيين والألمان واليهود التابعين لأمم مختلفة ، وقد شاهد هذا الفتى أن منشأ ما تنطوى عليه قلوب هؤلاء السكان من الريبة والبغضاء هو عجز كل طائفة منهم من أن تفهم لغة كل طائفة أخرى ، وبدأ من ذلك الحين يحلم باختراع لغة عامة تتفاهم بها أمم الأرض قاطبة .

وكان وهو فى المدرسة محباً لتعلم اللغات قديمها وحديثها ، وظن فى أول الأمر أن اللغة اليونانية أو اللاتينية القديمة تفى بالغرض الذى يعمل له ، ولكنه وجد أن كلتيهما لغة ميتة وأن ليس من السهل تعلمها لكثرة ما بها من تعقيد ، وليس من المستطاع تجديدها أو تبسيطها . ثم أخذ ينظر فى اللغات القومية الحديثة لعله يجد منها ما يصلح لأن يكون لغة عالمية ، ولكنه أدرك أنه إذا اختار واحدة منها فإن ما يعقب هذا الاختيار من تنافس وتحاسد بينها وبين سائر اللغات سيزيد ما بين الأمم من بغضاء ونفور ، ولذلك قرر آخر الأمر أنه لا يصلح لغرضه إلا لغة جديدة كل الجدة .

وظل هذا الشاب البولندى يكد شهوراً وأعواماً ليصل إلى حل لهذه المشكلة حتى اهتدى إلى ذلك الحل فى آخر الأمر . فقد لاحظ أن كثيراً من الألفاظ فى بعض اللغات متشابهة فى هجائها ونطقها ، فاختار للغته الجديدة أكثر الكلمات شيوعاً فى اللغات المختلفة وكتب كل كلمة منها كما ينطق بها ، ولم يضع للغته من قواعد النحو والصرف إلا أبسطها وإلا ما تقضى به الضرورة القصوى . ولم تزد تلك القواعد الأساسية على ست عشرة قاعدة ، وقد استغنى من الألفاظ الكثيرة بطائفة من المقاطع الإضافية توضع فى أوائل الكلمات وأواخرها ليبنى بها ألفاظاً جديدة ، وأتم مشروعه كله قبل أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره .

ولكن زمنوف لم يذع على الناس مشروعه حين أتمه ، ذلك أن أباه وهو مدرس لم يرض عن آراء ابنه الخيالية الغريبة وطلب إليه أن ينصرف إلى عمل مفيد ويعد نفسه لمهنة فى الحياة أجدى عليه وأنفع ؛ فذهب الشاب إلى مسكو ليدرس الطب ، ولكنه عاد بعد سنتين إلى وارسو لعجزه عن نفقات الدراسة بعيداً عن أهله . فلما عاد وجد أن أباه قد أحرق كل أوراقه ليحول بينه وبين الاستمرار فى غوايته . لكن الفتى لم ييأس وبدأ من جديد يعيد من ذاكرته تجديد ما أتلفه أبوه ، وظل فى الوقت نفسه يدرس الطب فى بلده .

وشرع وقتئذ يترجم مختارات من التوراة ومن آداب اللغات الحية ، ويحاول ما استطاع أن يحتفظ لهذه المختارات بكل ما لها فى لغاتها الأصلية من رونق وبهاء ، وكان يقرؤها لنفسه بعد كتابتها بصوت عال ، ويحاول أن يجعل لغته الجديدة لغة موسيقية يسهل التكلم بها كما يسهل تعلمها ،

وأنشأ بها فضلا عن ذلك قطعاً أدبية منثورة أو منظومة، وكان المبدأ الذى وضعه نصب عينيه على الدوام أن تكون هذه اللغة بسيطة طبيعية ، صالحة لأداء كل أغراض الحياة العامة ، وأن تكون فوق هذا كله جميلة . وما وافت سنة ١٨٨٧ حتى طلع على العالم بلغته الجديدة .

وكان زمنوف فى ذلك الوقت قد تزوج واحترف طب العيون فى وارسو ، وصعب عليه أول الأمر أن يجد ناشراً لكتابه ، وكان يحتوى على قواعد النحو الأساسية وتمارين عليها ومختارات مترجمة من لغات أخرى ومعجماً بألفاظ هذه اللغة . وأخيراً أعانه والد زوجته على نشر كتابه وظهر الكتاب باسم « الدكتور اسبرنتو » أى « المرتجى » .

وتقبل كثير من الناس كتابه بقبول حسن وتلقى رسائل التهنئة على عمله المجيد من بلاد كثيرة ، وكان من بينها رسالة من الكاتب الروسى الكبير ليو تولستوى ، وأعيد طبع الكتاب على الفور بالحروف الروسية والبولندية والألمانية والفرنسية ، ولم يحتفظ المؤلف لنفسه بحق من الحقوق التى يحتفظ بها المؤلفون عادة ، بل أهداه إلى العالم كله ، وقال فى مقدمته إن اللغة الجديدة ملك لكل من يريد الانتفاع بها . وفى السنة التالية نشر زمنوف كتاباً آخر كله باللغة الإسبرنتو ، وما لبث أن التف حوله عدد كبير من الأنصار والمريدين من كافة أنحاء العالم ، وأخذ هؤلاء الأنصار أنفسهم يكتبون بالاسبرنتو ويترجمون إليها ويتراسلون ليتحدثوا باللغة الجديدة ؛ وفى عام ١٨٨٩ ظهرت فى نورمبرج أول صحيفة بلغة الاسبرنتو وفى السنة التالية أصبح زمنوف نفسه رئيس تحريرها ، وظل عدد أنصار اللغة الجديدة فى ازدياد مستمر ، وبقيت الصحيفة حتى عام ١٨٩٥ حين حرم الرقيب فى الروسيا دخولها تلك البلاد بعد أن نشرت مختارات مترجمة من كتابات تولستوى .

ولما ناهضت الحكومة الروسية لغة الأسبرنتو وجه أصحابها جهودهم نحو فرنسا وانجلترا وكثر فيهما أنصارها ، وكان من أعظمهم الصحفى المعروف ولم استد ، وصدرت فى انجلترا صحيفة جديدة فى عام ١٩٠٤ وما زالت تصدر فيها إلى يومنا هذا .

وعقدت عدة مؤتمرات للغة الجديدة منها اثنان عقدا فى كاليه ودوفر سنة ١٩٠٤ وثالث فى بولونى سنة ١٩٠٥ ، وفى هذا المؤتمر الأخير ألقيت الخطب كلها ودار الحديث كله بلغة الاسبرنتو وتحقق حلم زمنوف إذ رأى رجالا من كافة الأجناس يتكلمون — وبعضهم للمرة الأولى — بلغة واحدة ومنهم من لم ير محدثه من قبل رأى العين ولم يعرفه إلا بالمراسلة . وعقدت بعد عام ١٩٠٥ مؤتمرات فى كل سنة عدا سنى الحرب الأوربية الأولى ، وأخذ زمنوف يتنقل بين سويسرا وألمانيا وأسبانيا وإنجلترا وأمريكا وهولندا والنمسا وبولونيا ، يدعو إلى لغته الجديدة ويذيعها ، ودعا إلى مؤتمر جديد فى عام ١٩١٤ ، ولكن الحرب وقفت فى سبيله فعاد إلى بولندا ليواصل جهوده ، وظل يكتب بلغته الجديدة نثراً وشعراً ويترجم إليها من اللغات الحية ، وكان من أعظم ما أخرج ترجمة للكتاب المقدس نقلها عن اللغة العبرية .

ثم مرض زمنوف فى سنى الحرب الأولى ولم يكن قد جاوز منتصف العقد السادس ، ولكن جهوده العقلية الطويلة أثرت فى صحته ، ولم ينقطع فى أثناء مرضه عن العمل حتى قضى نحبه فى ١٧ إبريل من عام ١٩١٧ ودفن فى وارسو .

مات زمنوف ولكن موته لم يؤثر فى مشروعه العظيم بل ظلت اللغة تنمو وتنتشر ووفت بكثير من الأغراض التى كان يرجوها منها واضعها ، فأفاد منها الرحالة والسياسيون ورجال الأعمال والعلماء ، وكثير من الناس العاديين الذين يريدون أن يعرفوا شيئاً عن غير بلادهم وغير شعوبهم ، وظلت اللغة آخذة فى الانتشار وأوصت بتعلمها عصبة

لماذا تعود الحيوانات

إلى منازلها ؟

تؤيد الأبحاث التي أجريت على الحيوانات لاختبار قدرتها على العودة إلى مساكنها الرأي القائل بأن لها حاسة سادسة هي حاسة الاتجاه، وقد انتهت الأبحاث التي قام بها معهد روزتن بإيجاد حل لهذه المسألة المعضلة. لاحظ العلماء في أول الأمر أن مالك الحزين الذي يولد ويتربى في شرق ألمانيا يسلك في هجرته طريقا غير الذي يسلكه مالك الحزين الذي يولد في في غربيها، فالأول يسلك طريقا جنوبيا غربياً ويخترق فلسطين في طريقه إلى إفريقية، وأما الغربي فيذهب إلى أفريقية عن طريق جبل طارق. فأخذوا عددا من مالك الحزين الشرقي وانتظروا حتى بلغ من العمر أشهراً ثم نقلوه إلى غربي ألمانيا، وهناك أطلقوه، فلما أتى الخريف أخذ طريقه إلى إفريقية مخترقا فلسطين، فاستنتجوا من هذا أن هذا الطير توجهه في سيره حاسة داخلية مركبة في طبعه.

ثم أتى العالم روبل بثلاثمائة وثلاثة وخمسين طيراً من ذوات الهجرة إلى برلين من نواح يتراوح بعدها عن برلين بين تسعة وعشرين ومائة وثلاثين ميلا وأطلقها في حدائق البلد، فلم يلبث أن عاد كل منها إلى مسقط رأسه سالكا طريقاً معيناً، مما دله على أن في طباع هذه الطيور شعوراً واضحا بالوجهة التي يهدف إليها.

ثم ذهب العالم باستيان شميد الذي توفى حديثا، إلى أبعد من ذلك فأجرى تجارب على الكلاب، فنقل ثلاثة كلاب يافعة في سيارات إلى أماكن بعيدة تفصلها عن مساقط رءوسها غابات وجبال ووديان، وأطلقها في يوم عابس يملأ جوه الضباب، فلاحظ أن أحدها أخذ في أول الأمر يجري في كل اتجاه ويشتم كل وجهة، كأنه «يحلل» في نفسه كل الاتجاهات، ثم قفز إلى ربوة عالية، ولبث لحظة اهتدى بعدها إلى الاتجاه الصحيح، ثم لاحظ الكلب أثناء عودته إلى بيته فوجده يتجنب الغابات والقرى والناس والعجلات، ويسلك أبعد الطرق عنها، فلما صار على مقربة من قريته الأصلية رفع ذيله واتجه نحوها مسرعاً قبل أن يبدو له منزل واحد من منازلها. ولما أجريت هذه التجربة مرة أخرى بعد ثمانية عشر يوماً لامتحان قوة الذاكرة عند الكلب، لوحظ أنه قضى خمس دقائق فقط في «تحليل» المكان الذي كان فيه، قبل أن يهتدي إلى الاتجاه الصحيح بدلاً من نصف ساعة في المرة الأولى. فتبين من هذا أن للكلب ذاكرة صحيحة، ولوحظ كذلك أنه سلك طريقا أقصر من الأول، وأنه لم يعتمد كثيرا على بصره في تبين اتجاهه.

(من Bodensee — Rundschau كونستانس ألمانيا)

الأمم في تقرير لها وضعته عام ١٩٢٢؛ وأصدر بها مكتب العمل الدولي كثيراً من نشراته، وأثنى عليها كثير من رجال التربية وأشادوا ببساطتها وفائدتها وهي تدرس الآن كما تدرس سائر اللغات.

وقد نشرت بها كتب ومسرحيات وأشرطة وأغان شعبية، وكان كثير من محطات الإذاعة قبل الحرب الأخيرة يذيع بها برامج في أوقات منتظمة. وتصدر بها الآن مئات من المجلات، وتطبع بها كتب كثيرة بالخط البارز للعميان يقرؤها آلاف ممن لا يبصرون في العالم كله، واعترف بها مؤتمر البرق الدولي الذي عقد في عام ١٩٢٦ كما اعترفت بها مصلحة البريد الإنجليزية.

والآن يستطيع السائح الذي يعرف الإسبرانتو أن يجد في كل بلد يحل به زميلا له يتحدث إليه بلغته، وقد بلغ الناطقون بها الآن عدة ملايين وإن لم يكن عددهم معروفاً بالضبط حتى الآن.

محمد بدران

خطابات إلى شاعر ناشيء

كتبها الشاعر الألماني رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٤ —

فوربسفيدى ، قرب برمن
١٦ يوليه ١٩٠٣

غادرت باريس منذ نحو عشرة أيام موجعا جداً ومتعباً وقصدت سهلا شماليا فسيحا أرجو أن يعيدنى اتساعه وهدوؤه وسماؤه إلى الصحة ، ولكنى صادفت خلال مطر طال أمده ، ولم يرد الجو أن يصحو إلا اليوم على هذه البلاد المتموّجة بالرياح ، وإنى لأنتهز هذه اللحظة الأولى من الجو المُنير لأحييك أيها السيد العزيز .

يا عزيزى هر كبس ! لقد تركت خطابا منك فترة طويلة دون أن أجيب عليه ، لا لأنى نسيتك ، كلا : فهو من نوع تلك الخطابات التى يعيد الإنسان قراءتها إن وجدها بين خطاباته ، وفى هذا الخطاب قد عرفتك كأنى منك على قرب شديد . ذلك هو خطابك المحرر فى ٢ مايو ، ولاشك أنك تذكره ، وإنى اذا قرأته كما أقرؤه الآن فى الهدوء التام بهذا المكان النائى تهتز نفسى لما أراه من قلقك الجميل من أجل هذه الحياة . وإنى لأتأثر الآن من قراءته أكثر مما شعرت بذلك من قبل فى باريس ، فلكل شيء هناك صدى آخر فى ظهوره واختفائه بسبب ما يطغى عليه من الضوضاء الساحقة التى ترتجف منها الأشياء . أما هنا حيث يحيط بى سهل شاسع الأطراف تهب عليه الرياح من البحار الشمالية ، هنا أشعر أنه لا يستطيع انسان الاجابة على تلك الأسئلة والاحساسات التى تحيا حياتها الخاصة فى أعماق نفسك ، وان أحسن الناس ليخطئون فى العبارة اذا أرادوا التعبير بالكلام عن أدق الأمور التى يكاد يكون التعبير عنها غير ممكن ، ولكنى أعتقد رغم ذلك أنك لن تبقى بدون حل لو أنك وقفت عند تأمل أشياء كالتى تجد عيناى راحة فى النظر إليها ، لو أنك تمسكت بالطبيعة ، بأبسط وأصغر مافيها ، وهو الذى نكاد لا نراه ، والذى يمكن مع ذلك أن يكون دون توقع منا شيئاً كبيراً لاحدود له ، إن استطعت أن تمنح هذا الحب لأصغر شيء ، وحاولت فى إخلاص تام أن تكتسب كالخادم ثقة ما يبدو لك صغيراً فقيرا ، إذاً لسهل عليك كل شيء وأصبح وحدة أكثر انسجاما قد لا تتذوقها بطريق العقل الذى يقصر عن إدراك ذلك مشدوها ، بل بطريق شعورك العميق ، بطريق اليقظة والعرفان . إنك ما تزال صغيراً ، لم تبدأ بعدُ شيئاً ، وأود جهدى أن أرجوك أن تتذرع بالصبر على كل ما لا تجد له حلا فى قلبك من أنواع المشكلات وأن تحاول أن تحب هذه المشكلات نفسها كما تحب غرفاً مقفلة أو كتباً مكتوبة بلغة غريبة جداً عنك . فلا تبحث الآن عن الأجوبة ، فهى لا يمكن أن تعطى لك ، لأنك لا تستطيع أن تعيشها وتحسّ بها ، والمهم هو أننا يجب أن نعيش كل شيء وتحسّ به ، فلتعش الآن هذه المشكلات ولتحسّ بها ، فربما استطعت فيما بعد ، دون أن تشعر وفى يوم بعيد ، أن تعيش الإجابة وتنفذ إليها ، وربما أنك تحمل فى نفسك القدرة على البناء والتشكيل كفنٍّ خالص تسعد به فى حياتك سعادة خاصة ؛ فلتربِّ نفسك لذلك ، ولكن خذ ما يأتيك فى ثقة كبيرة ، وإذا صدر عن إرادتك ونشأ من صميم ذاتك ضرورةً ، فاحمله على كاهلك ولا تبغض شيئاً . إن الشعور الجنسى عبء ثقيل ، نعم ، ولكن كل ما كلف الإنسان به ثقيل أيضاً ، وكل جادّ وخطير من الأمور فهو ثقيل ، وكل شيء جادّ وخطير . فإذا عرفت هذا واستطعت ، من نفسك ، من استعدادك وخصائصك ومن تجاربك وطفولتك وقوّتك ، أن تتوصل بالكفاح لأن تتخذ إزاء الجنس مسلكا خاصاً بك غير

متأثر فى ذلك بالعُرف والعادة ، فلا ينبغى لك بعد هذا أن تخشى فقدان نفسك أو أن تصبح غير جدير بأعز ما فقدت.

إن اللذة البدنية تجربة شعور حسى ، وهى لا تختلف عن مجرد النظر أو الشعور الخالص الذى تملأ به لسانها لنا كمية الطيبة ، وهى تجربة عظيمة لا نهاية لها أعطيت لنا ، هى معرفة ما بالكون ، هى نهاية المعرفة وأبهى جمالها ، وليس الشر فى أن نذوق هذه المعرفة ، إنما الشر فى أن كل الناس تقريبا يسيئون التصرف فى هذه التجربة ويبددونها ويستخدمونها مجرد مثير للنقط الضعيفة فى حياتهم لأجل التسرية عن النفس بدلا من أن يجمعوا بها الهمة إلى الأغراض السامية ، بل إن الناس قد جعلوا الطعام لغير ما ينبغى أن يكون له : فالفاقة فى جهة والوَفْر المفرط فى جهة أخرى قد أفسدا نقاء هذه الحاجة ، وهكذا تكدرت جميع الحاجات العميقة البسيطة التى تتجدد فيها الحياة ، ولكن الفرد يستطيع أن يزيل هذا الكدر ويعيش على بساطة ونور ، وإن لم يستطع الفرد ذلك لفرط اعتماده على الآخرين فليستطعه التوحد الذى ينسحب من الناس ويعتزلهم ، هو يستطيع أن يذكر أن كل جمال فى الحيوان أو النبات إنما هو صورة هادئة دائمة من حب وشوق ، ويستطيع أن يشاهد أنواع الحيوان والنبات كيف تتحد وتتناسل وتنمو صابرة راضية لا عن لذة مادية ولا عن ألم مادى ، بل متجهة نحو قوانين ضرورية هى أكبر من اللذة والألم وأقوى من الإرادة والامتناع ، فياليت الإنسان يتلقى فى شىء أكثر من التواضع هذا السر الذى تفيض به الأرض حتى فى أصغر الأشياء ! وياليته يحتمله فى شىء أكثر من الجد ! يحتمله ويشعر بمقدار ثقله بدلا من أن يستهين به ، وياليته يُجل ما فى هذا السر من خصوبة ، هى فى الحقيقة نوع واحد ، سواء أظهرت عقلية أو جسمية . ذلك لأن مصدر الإنتاج العقلى هو نفسه أيضاً مصدر اللذة البدنية ؛ والإنتاج العقلى يشترك مع اللذة فى طبيعته ، وهو ليس إلا صورة أخرى للذة البدنية ، صورة رقيقة سامية خالدة .

« إن فكرة أن يكون الإنسان فناناً خالقاً ومنشئاً وبانيا » ليست شيئاً إن لم تتحقق ويتردد صداها على نطاق واسع تحققاً فعلياً مستمراً فى الحياة ، هى ليست شيئاً إذا لم تجد ما يؤيدها من آلاف الحالات فى الأشياء والحيوان ، غير أن لذة الخلق الفنى إنما تكون غنية جميلة إلى درجة تسمو على الوصف ، لأنها تكون ممتلئة من الذكريات الموروثة وثمرة ميلاد جاء من طريق الملايين ، وعند كل فكرة لفنان مُبدع تستيقظ آلاف من ليالى الحب المنسيّة وتملأ الفكرة سموّاً ، وإن الذين يجمعهم الليل فى مهد اللذة المتأرجحة بهم إنما يعملون عملاً جاداً كأنهم نحل يجمعون الرحيق الحلو ويهيئون القوة والعمق لأغنية ينشدها شاعر آتٍ سيصحو من ذلك النوم ويعبر عن سعادة لا توصف ، وهم يمهدون المستقبل ، وحتى لو لم يخطئوا لما فى عملهم من جدّ ، فإن المستقبل آتٍ لامحالة ، وسينهض إنسان جديد ؛ وهنا يُخيل لنا أن الأمر أمر مصادفة ، لكنه هو القانون الذى بمقتضاه تشق النطفة القوية طريقها إلى البويضة التى تنتظرها بذراعين ممدودتين ، فلا تضللنك ظواهر الأمور ، ففى الأعماق كل شىء قانون . وإن الذين يعيشون هذا السر على غير وجهه وعلى خلاف ماينبغى له ، وكثير ماهم ، إنما يفقدونه بالنسبة لأنفسهم فقط ، فهم يسلمونه لمن بعدهم كخطاب مغلق من غير أن يعلموا ما فيه ، ولا تضللنك كثرة الأسماء ولا تعقد الحالات ، فلعل وراء كل ميل جنسى نوعاً من الأمومة الكبرى على صورة شوق عام ، وإن جمال الفتاة الناشئة ، هذا المخلوق « الذى لم يُنتج شيئاً بعدُ » ، كما قلت بهذه العبارة الجميلة ، إنما هو أمومة تشعر بنفسها فى إبهام وتتأهب وتخاف وتشتاق ، أما جمال الأم فهو الأمومة الخادمة ، وهو فى بيضاء الرأس ذكرى كبيرة . ويظهر لى أن فى الرجل أيضاً أمومة بدنية وروحية ، فإن إنتاجه إنما هو أيضاً ضرب من الولادة ، وهو إذا فاض إنتاجه من المنابع الغزيرة فى نفسه فكأنه يلد ،

وربما كان الجنسان أكثر تقاربا وأقوى نسباً مما نظن ، وربما يكون التجدد الكبير في الحياة منحصراً في أن الفتى والفتاة إذا تحررا من كل أنواع الشعور الضال ومن الآلام فإن أحدهما سيطلب الآخر لا كضدين بل كأخوين أو جارين ، وسيجتمعان كإنسانين ليحتملا معاً في بساطة وجد وصبر ما أُلقي على كاهلهما من عبء الاختلاف الجنسي .

ولكن كل ما قد يكون في يوم من الأيام ميسوراً للكثيرين يستطيع المتوحد الآن أن يهيئه ويبنيه بيديه اللتين قلّ ما تخطئان ؛ ولذلك فلتحب وحدتك يا سيدي العزيز ، ولتحتمل ما تسببه لك من ألم شاكياً شكواك الجميلة الصدى . تقول لي إنك تشعر بأن القريبين منك يبعدون عنك ، وهذا يدل على أن الفضاء المحيط بك قد بدأ يزداد اتساعاً ، فتصير مركزاً لعالم خاص بك ، وإذا كان القريب منك بعيداً ، فإن ما بعُد عنك قد سار مع النجوم وصار مطافُك عظيما ، وإذاً فلتبتهج بهذا النمو في نفسك وهو الذي لا تستطيع أن تستصحب أحداً فيه ، ولتكن نبيلا مع الذين يتخلفون ، وكن أمامهم هادئاً واثقاً من نفسك ، ولا تؤلمهم بشكوكك ، ولا تُرعبهم بثقتك أو بسرورك ، فقد لا يستطيعون إدراك ذلك ، حاول أن تحيا معهم حياة مشتركة في إخلاص ووفاء ، ولا يتحتم أن تتغير من ذلك ، وإن هم تقلبوا وتقلبوا ؛ ولتحب فيهم الحياة في صورة أخرى ، واصطنع الصفو من الذين يكبرون ويتقهقرون عقلا من الناس والذين يخشون الوحدة التي تثق أنت بها ، وتجنب أن تهيئ مادة لتلك الرواية التي لا تفتأ تدور فصولها محتدمة بين الآباء والأبناء ، إنها تستنفد الكثير من قوة الأبناء وتأكل حب الآباء ، هذا الحب الذي يؤثر ويدفئ ، وإن كان لا يفهم ، ولا تطلب منهما نصيحة قط ، ولا تنتظر أي فهم منهما لك ، ولكن اعتقد بالحب الذي يكتنزانه لك كميراث عزيز ، وثق أن في هذا الحب قوة وبركة لا ينبغي أن تخرج منها وتمعن في البعد عنها .

ويحسن أن تدخل أولاً في مهنة تجعلك مستقلاً ومعتمداً على نفسك اعتماداً تاماً من كل وجه ، فانتظر صابراً لترى هل ستشعر من أعماق نفسك بأن رسوم هذه المهنة ستضيق عليك ، إني أعتبر هذه المهنة شاقة وكثيرة المطالب لأنها مثقلة بكثير من المصطلحات الكبيرة ، وهي لا تدع مجالاً لمن يريد أن يتصور واجباتها التصور الشخصي الذي يريده ، ولكن عزلتك ستكون لك ، حتى في وسط هذه الظروف الغريبة جداً ، وطناً وعماداً ، ومن هذه الوحدة ستجد كل الطرق التي ستسلكها ، إن كل تمنياتي مستعدة أن ترافقك وإن تثق معك .

— ٥ —

روما في ٢٩ أكتوبر ١٩٠٣

أيها السيد العزيز الكريم

تسلمت خطابك المحرر ٢٩ أغسطس وأنا في مدينة فلورنسه ، والآن — بعد شهرين — أحدثك عنه ، فاصفح عن هذا التأخير . على أني لا أحب كتابة الخطابات وأنا على سفر ، لأني أحتاج في كتابة الخطابات إلى أكثر من الأدوات التي لا غنى للكاتب عنها ، أحتاج إلى شيء من الهدوء والعزلة وإلى ساعة غير عادية .

نزلنا روما منذ نحو ستة أسابيع وفي وقت كانت فيه هذه المدينة لا تزال هي هي المدينة الحارة المشهورة بحُمّياتها ، وانضمت إلى ذلك صعوبات عملية أخرى مصدرها أمور الإقامة هنا ، فكانت سبباً في أن قلة هدوئنا أبت أن تقف عند حد . ثم إن الاغتراب زاد فيما نحتمله من أعباء التنقل وقلة الاستقرار في مكان . هذا إلى أن روما عند من لا عهد له بها تؤثر فيمن ينزل فيها أيامه الأولى تأثيراً محزناً يكسر الخاطر ؛ وذلك لأن الإنسان يشعر فيها كأنه في متحف غير منير ولا حياة فيه ، وهذه المسحة منتشرة فيها إلى حد تضيق له النفس ، وأيضاً بسبب غزارة ما فيها من معالم الماضي التي أبرزت وحفظت بعناية ، هذه المعالم

التي يتشدق منها خاصر صغير الشأن ، وبسبب المبالغة في تقدير كل هذه الآثار المشوهة التافهة التي ليست في الحقيقة أكثر من بقايا أخطأتها سهام الفساد فبقيت مصادفة من عصر سالف ومن حياة أخرى ليست حياتنا ولا ينبغي أن تكون حياتنا ، تلك المبالغة المفرطة التي يؤيدها العلماء والمقرظون ويقلدهم فيها من يجرى على عادة السفر إلى إيطاليا. وأخيراً بعد أسابيع لابد للانسان فيها من أن يدافع عن نفسه كل يوم يعود الإنسان إلى نفسه ، وإن كان لا يزال به بقية من التشويش ، ويقول لنفسه : لا ، ليس هاهنا من الجمال أكثر مما في غيره من الأماكن ، وكل هذه الأشياء التي أعجبت بها الأجيال دائماً وتناولتها أيدى من ليسوا بعنايين حقيقيين بالتحسين والإكمال ، لاتدل على شيء وليست شيئاً ، بل هي لا قلب لها ولا قيمة . غير أن هنا الكثير من الجمال ، لأن الكثير من الجمال يوجد أيضاً في كل مكان ، في رومه مياه لا نهاية لها ، وهي تجرى غزيرة متدفقة على الجسور القديمة صوب المدينة ، وهي ترقص في كثير من الميادين على صحون من الحجر الأبيض وتنتشر في أحواض واسعة ، ولها في النهار خرير يرتفع صوته ليلاً . والليل هنا رائع مزدان بالنجوم ناعم من النسيم؛ وهنا حدائق وطرق وسلالم لا ينسى جمال منظرها ، سلالم قد اخترعها ميكائيل أنجلو ، سلالم بنيت على مثال المياه المنحدرة إلى الوراء ، وهي عريضة المنحدر يخرج بعضها من بعض كموجة تلدها موجة . بتأثير مثل هذه الأشياء في النفس يستطيع الإنسان أن يجمع خاطره المشتت فيعود إلى نفسه مستخلصاً إياها من الكثير الذي يشغله والذي يتكلم ويثرثر (وما أكثر ثرثرته) ؛ وعند ذلك تتبين ببطء تلك الأشياء القليلة جداً التي تتمثل فيها حياة شيء خالد يستطيع الإنسان أن يحبه أو حياة شيء فريد يمكنه أن يتذوقه في هدوء .

وأنا أقيم في المدينة نفسها عند الكابتول غير بعيد من أجمل تمثال صنع لفارس ، ذلك هو تمثال مارك أوريل الذي بقي لنا من الفن الروماني ؛ ولكن بعد أسابيع قليلة سأنتقل إلى غرفة هادئة بسيطة عتيقة جداً تقع وسط حديقة عظيمة كأنها مفقودة فيها ، فهي مختبئة بعيدة عن المدينة وضوضائها وما يعرض فيها . هناك سأقيم الشتاء كله سعيداً بالهدوء التام الذي أنتظر منه أن يجود علىّ بساعات جميلة خصبة .

من تلك الغرفة التي سأكون فيها أكثر استقراراً وشعوراً بهدوء الحياة المنزلية سأكتب إليك خطاباً طويلاً وسأحدثك فيه أيضاً من خطابك ، وأحب أن أقول لك وربما كان من الصواب أن أكون قلت ذلك من قبل ، إن الكتاب الذي أنبأتني به والذي يحتوى بعض أشعارك لم يصلني إلى هنا ، فهل عاد إليك ، من فوربسفيدى على ما يحتمل ؟ فالطرود لا تلحق صاحبها إلى الخارج ، وهذا الاحتمال هو أصح ما قد أستطيع تأكيده ، فأرجو ألا يكون قد ضاع ، وليس ضياع الرسائل ، للأسف ، من الأمور الشاذة في هذه الأحوال التي عليها البريد الإيطالي . ولقد كان يسرني أن أتسلم هذا الكتاب وكلّ ما يحمل شيئاً من أخبارك . أما الأشعار التي قد تظهر لك فيما بين ذلك فاني — إن أنت عهدت بها إلي — سأقرؤها مراراً وأتذوقها بقدر ما أستطيع من الإتقان وروح المودة ، مع تمنياتي وتحياتي .

رينر ماريا رلكه

قصة مراكشية :

فتاة من باريس

عاشت الفتاة كاودبت في جو مراكش عشر سنوات ، وإنها لتحتفظ بأطيب الذكريات لذلك الشخص الذي التحقت بخدمته في باريس وهي في السادسة عشرة من عمرها ؛ وكانت فتاة مهيضة الجناح ، فرق ليتمها وعاملها معاملة ابنته : وهو الشخص الذي حرمته الحياة نعمة الأبوة وساق القدر إلى بابه هذه الفتاة .

ولما انتهت مهمته التجارية في تلك المدينة العتيدة وأصبح على أهبة العودة إلى بلاده تغلبت عليه عاطفته فعرض عليها أن تصحبه لتعيش معه ومع زوجته في منزلهما الجميل ، فاستعظمت هي أن تفارق بلادها لتعيش بين قوم لا تعرف عنهم شيئاً ، ثم لاحت لها قساوة الحياة وما هي مهددة به من الشقاء إذا رفضت ، وقضت ليلتها تفكر وتتخيل دون أن تنام ، وفي الصباح قدمت إليه لتقول له وفي صوتها نبرة البكاء : إنها لا تستطيع ! وودعت الرجل وزوجته في منظر مؤثر ، ولكنهما لم يكادا يغيبان من الأنظار حتى أحست بالوحدة تطبق عليها من جديد ، ولاح لها شبح الندم يهددها بإفناء أزهاق الحياة ، ووجدت لها الفرصة الذهبية تضيع بها وتستعجلها ، فلم تعرف كيف قادتها رجلاها إلى محطة القطار حيث وجدت الرجل وزوجته وكأنهما كانا ينتظرانها ، فاغرورقت عيناها بدموع الفرح وعانقتهما . لقد عزمت ، وهي لا تعرف ماذا سيكون نتيجة عزمها ولكنها تشعر من أعماق نفسها بأنها لم تخطئ الصواب .

***

وبرهنت لها الأيام بعد ذلك على أنها لم تخطئ الصواب ، فقد لقيت بعض الصعوبة في الانتقال من حياة إلى حياة ، وقلقت لذلك بعض القلق ، ولكنها بدأت تعتاد عالمها الجديد رويداً رويداً إلى أن ألفته ثم أعجبت به . وأخيراً فهمت أن الإنسان إنسان في كل مكان ، وأن هذه الفروق الزيفة التي تفصل بين الأمم والشعوب إن هي إلا خزعبلات يهذي بها المؤرخون والرحالون ، بل إن حياة المراكشيين خالية من الرياء والتصنع بشكل لم تتخيله من قبل . إنها لتشرف على الحديقة الغناء من نافذة غرفتها ، ثم ترجع ببصرها إلى الوراء وتتصور طريق الوحل والظلام الذي أوشكت الأيام أن تنحدر بها فيه ، فتشعر بموجة من الحمد تغمر نفسها ، ويزداد حبها لذلك الرجل الذي أنقذ حياتها ، دون أن يكون له دافع إلى ذلك سوى العاطفة الرقيقة والشعور النبيل . لم تعد الحياة قاسية كالحة الوجه كما كانت ، أليست رحيمة وهي التي قادت إليها هذا الرجل من وراء البحار لينقذ حياتها .

ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن بعيدة كل البعد عن الجو الذي كانت تعيش فيه ، فقد وجدت جوانب من الحياة الأوربية في بعض الأحياء ، فرادت المسارح واختلفت إلى دور الصور المتحركة ، واستطاعت أن تظل على اتصال بما يشبه الجو الذي كانت تعيش فيه .

أحاطها الرجل بكل ما تتمنى فتاة في سنها أن تحاط به ، وعاملها معاملة ابنته فعرفت الحرير والدعة والنعمة ، وسرت دماء الشباب في جسمها تتدفق وهي في سن العشرين : شعرها المتموج الفاحم ، أهدابها الوطفاء ذات الظلال ، قدها المشوق الرخص ، مشيتها المتكسرة الراقصة ، وجهها المشرق الضاحك ، صدرها الناضج المثمر . . . لم يعد هناك ما يدل على أنها عرفت الشقاء في حياتها .

وتفتحت أكمام الخير في نفسها عن ورود فائحة ، فكانت فتاة مستقيمة رزينة ، ولم تعد تتخيل تلك الصور البشعة الشوهاء التي كانت تقض مضجعها ؛ وقد كانت

فتنة للشبان الفرنسيين الذين عرفوها أو تقابلوا بها ، ولكنها لم تسمح لنفسها بمجرد التفكير في هواجس الشباب ، وانقادت مع الحياة في سهولة ويسر كما ينقاد الشراع الجميل لتيار هادئ وديع .

* * *

بيد أن الحب ليس غريباً من النفوس الخيرة ، فقد تبينت كلوديت أن الفتى هنري يحبها ، ولم تستسلم له أبداً ، بل حاولت أن تقاومه ، ولكن أوتار الحب في نفسها بدأت تحدث ألحاناً جميلة خلابة ، فتبادلت معه الحديث مرة وأعجبت بأدبه ورقته ، ثم تقابلا مصادفة مرة أخرى ، ثم لم يكن بد من ميعاد .

كان هنري يحبها ويقدرها ، وكانت كلوديت تبادله هذا التقدير والحب ؛ وقد كشفت له عن حياتها وكشف لها عن حياته ، وما هي إلا أسابيع حتى انقلب ذلك الحب إلى نوع من الوله ، واقتنع الاثنان بأن كل واحد منهما قد خلق للآخر .

سعدا مدة من الزمان ، وبلغ خبرهما الرجل المراكشي الذي تبنى كلوديت ، فلما علم أن هنري يخطبها وافق على ذلك ، فإن كلوديت كانت قد بلغت سن الزواج ، وعندما تمت الخطبة ازدادت الحياة نضارة وجمالا أمامهما ؛ كانا سعيدين بالحب وبالتوفيق الذي أصاباه ، وكانا يشعران بأن الحياة تفتح لهما ذراعيها كما تفتح الأم الرؤوم ذراعيها لاستقبال طفلها المحبوب .

أصبحت حياتهما أحلاماً وخيالات ، وكانت نفساهما تزدادان رقة وصفاء ، وبات للورود والأزهار والطيور والأعشاب والأشجار وكل ما في الحياة ، معان جديدة . استيقظا على الحب فإذا بروح جديدة تتغلغل في كل الأرجاء ، وتوحي بالابتهاج والانشراح .

* * *

وأمهلتهما الحياة سنة من الزمان ، وكانت الخطبة على وشك أن تنقلب إلى زواج ، فإذا بوحوش الحرب تنطلق من عقالها لتحطم الآمال والأحلام وتسوق الشباب المتفتح اليافع إلى ميادين القتال ، ومن بينها أحلام كلوديت وهنري .

بكت الفتاة وهي تودع خطيبها الذاهب وشيعته بدموعها وهو يغيب عن نظراتها الشاردة في الأبعاد ، لترجع إلى الحياة وحيدة تجر ذيول الخيبة والحسرة والتوجس ، فماذا تضمر لها الأيام في المستقبل ؟ أتنهار تلك الأحلام وتعصف بها أعاصير الحرب وزوابعها ، أم يرجع إليها هنري مرة أخرى ؟ .

لقد انقلبت أحاديثهما الطويلة إلى رسائل تدبج على الورق ويسعى بها البريد بينهما ، وأخيراً رجع إليها هنري بعد مدة طويلة ليقضي معها شهراً من الزمان ثم يعود إلى ميدان القتال ؛ ولكن العاصفة أطبقت على فرنسا فجأة ، فترنحت ثم تداعت ثم هوت إلى الأرض صريعة تتخبط في الدماء . وإذاً فلن يعود هنري إلى الميدان ، بل سوف يظل جندياً في مراكش ، إلى أن تنتهي الأقدار من كتابة هذا الفصل المهول من تاريخ البشرية .

كان يلقاها من آن لآخر حينما يقبل إلى المدينة ، فخفف عنها ذلك الألم المرير الذي خلفه في نفسها سقوط بلادها فرنسا ، ثم كتب لذلك الألم أن يتلاشى حينما بدأت كفة الحرب ترجح مرة أخرى ، وبدأت الجيوش الفرنسية ترجع قليلا قليلا إلى صفوف القتال .

عادت الحياة تبتسم مرة أخرى لكلوديت ، فلم تعد تخشى على حبيبها ما دامت قضية فرنسا في الميزان ... وأبلى الجندي هنري بلاء حسنا في ميدان تونس ، فرقي إلى رتبة ضابط ، وقد ازداد جمالا في عيني كلوديت وهو يرتدي تلك البذلة الأنيقة .

* * *

هل تريد الحياة أن تبتسم لها مرة أخرى ؟ كلا ، فقد

استيقظت ذات صباح على صيحات مدوية فى الشارع ، فلما تساءلت من الخبر ، قيل لها إن الشعب يتظاهر لأجل الحصول على حقوقه ، إنه يريد الحرية والاستقلال ، واستمر الأمر على ذلك أياماً متوالية والمدينة مضطربة هائجة . ولكن جاءت أمر الفرنسيون باحتلالها والقضاء على الحركة بحد السلاح .

ترددت كلوديت فى الحكم على الحركة ، ثم بدأت تتبين الحقيقة شيئاً فشيئاً ؛ ثم ذعرت وهى مارة فى الشارع إذ أبصرت هنرى فى لباس الميدان وهو مدجج بالسلاح يلقى الأوامر هنا وهناك ؛ نعم ، هنرى يأمر بإطلاق الرصاص على الأبرياء العزل ، وهبهم على خطأ ، هب أن حب الحرية إثم من الآثام ، فهل يقابل بالقتل والتشريد والقسوة ؟ .

وسمعت إليه : « هنرى ! ماذا تفعل ؟ » فابتسم لها ورجاها أن تعود لئلا تصاب بأذى ، وهو يعدها بأن يقابلها فى أول فرصة سانحة ، فرجعت وهى ترتجف ، لقد خيل إليها أن تلك المآقى السامية التى كانت تقرأها فى وجهه قد غارت جميعاً وحلت محلها سحنة كالحة تتوثب لسفك الدماء ، وتضطرم حقداً وضغينة .

وسألته أول ما جاء : « هنرى ! كيف تأمر بإطلاق النار على الأهال ؟ » فابتسم وهو يقول : « لأنهم يعملون ضد فرنسا » .

— ولكنهم يطلبون الحرية التى تطلبها فرنسا .

— من الذى علمك هذه اللغة الجديدة ؟ لا تنسى أن فرنسا فوق الجميع يا كلوديت .

— هنرى . كيف تسمح لنفسك أن تتكلم هكذا ؟ كنت أعرفك إنساناً رحيماً .

فاحمر وجهه بدافع مزيج من الغضب والكبرياء وهو يقول : نحن حماتهم ويجب علينا أن نربيهم حتى لا يلفظوا الحرية مرة أخرى .

— هنرى ، هـذا مروع ! إنى لا أصدق ما أسمع ، ألا تؤمن بأن هؤلاء أناس مثلنا يجب أن يتمتعوا بما نتمتع به ؟ .

فتضاحك : تسمين هؤلاء هكذا ؟ هذه الحيوانات !

— أرجو يا هنرى ألاّ تقول هذا ، إنى أحبك لأنك إنسان ، فارحمنى ولا تتكلم هكذا .

— إن مستقبلى يتوقف على هذا ، لقد أصبحت لى أطماع فى الجيش ، أريد أن أرقى .

— هل تريد أن ترقى بواسطة قتل هؤلاء الأبرياء ؟

— ليسوا أبرياء ، إنهم يتصفون برذيلة العمل ضد فرنسا .

— لا تقل ضد فرنسا ، ولكن قل إنهم يحبون الحرية .

— حيوانات تريد الحرية !

راعها تماديه واستخفافه ، فصاحت به : إنى لا أسمح لك بأن تسميهم حيوانات . فأنا أعيش معهم وأحبهم وهم يبادلوننى هذا الحب ، فحكمك عليهم حكم علىّ أنا .

— إن المسألة بسيطة يا كلوديت ، لا تستدعى كل هذه المناقشة .

— لا تقل بسيطة ، فلست أستطيع أن أتصورك تحمل عاطفة ضد أناس أحبهم .

فقال لها وقد بدأ يتضجر : يظهر أن إقامتك بينهم قد أنستك فرنسا .

فلذعتها كلماته وصاحت فى غضب : « أنا لم أنس فرنسا يا هنرى » .

— إذاً فلماذا تحبينهم ؟ .

— واعجبا ! هل فى حبهم نسيان لفرنسا ؟ .

— أنا أعتقد ذلك .

— هـنرى يا حبيبى أرجوك ، قل إنك هازل ، إن

طلباً من النازي الساهية يهار أمامي الآن ، متى كان أبناء فرنسا جزارين ؟ .

— لا تقول جزارين ، نحن حماة فرنسا !

وتشعب الحديث ، فتوسلت إليه ، وبكت ، وحاولت أن تصرفه ، ولكنه ازداد تشبثاً بكلامه ، وأخيراً بدأت تفهم أن هنري الوديع الرحيم قد تغير لطول إقامته في معسكرات مراكش الفرنسية .

كانت تمر بنفس المكان كل يوم وتقف بعيداً لترى هنري الضابط يوقف ويعتقل ويأمر بإطلاق النار ، وكانت تبكي وتنتحب لأن حبيبها قد انقلب إلى وحش ضار سفاك ، واضطربت أعصابها ، وراعها أن يكون أبناء جنسها سبباً في تشريد شعب أحسن إليها أحد أبنائه .

وألحت عليه ، وطاردته في كل مكان بدموعها وتوسلاتها ، وبدأت تشعر بأنه يتضايق بها ، وأن عواطفه نحوها قد بدأت تتغير ، إنه يبتعد شيئاً فشيئاً من كل ما يتصل بالآدمية .

وذات يوم وثبت إليه أول ما قابلته وشدته من سترته ترجوه وتستعطفه ، فصاح بها في حدة : كفى يا كلوديت كفى ! قال لها ذلك وهو يدفعها .

فردت عليه بين أسنانها وهي تبتعد عنه شيئاً فشيئاً كما لو كانت تبتلعها سحابة : إذاً فالوداع يا هنري الوداع ، سأختفي عنك إلى الأبد لأنك لم تعد تنتسب إلى عالمي ، قد أصبحت شخصاً آخر ، لو أبصرتك أمك لأنكرتك يا هنري . الوداع الوداع ، اذهب أنت إلى صفوف الطغاة ، أما أنا فذاهبة إلى صفوف الأبرياء ، أجل سوف أسير معهم هاتفة في الشوارع ، وسوف أموت معهم ، وأحاول أن أمسح عن فرنسا ما ألحقتم بها من عار . وإذا واجهتني في الصفوف فاستمر في الأمر بإطلاق النار وامزج دمي بدمائهم ، الوداع يا هنري الوداع ! .

واختفت عن نظره وهو يرنو في الفراغ كالمشدوه .

عبد الحميد بن جلون

رجل يصور صراعه مع الموت

اشترك صحفيان سويديان في قافلة بحرية كانت مكلفة رفع سفينة كانت قد أغرقت عند زيبداد منذ عامين حاملة قدراً عظيماً من الذهب ، ولم يكن غرضهما الاشتراك في عمليات رفع السفينة وإنما تصويرها تحت الماء ، فنزل أحدهما بآلته السينمائية الفوتوغرافية المصورة ، وبقي الثاني على سطح الماء ممسكاً بحبل متصل بزميله ليتلقى إشاراته ، وما هي إلا دقائق حتى جُذِب الحبل دليلاً على استغاثة المصور تحت الماء ، فسارع العمال وأخذوا يجذبون الصحفي المستغيث ، ولم تمض ثوان حتى أحسوا أن شيئاً ثقيلاً قد انفصل من الحبل ، وأعقب ذلك طُفُوّ جهاز التنفس الخاص بالصحفي المصور ، فسارع زميله بالغوص لإنقاذه ولكنه لم يوفق ، وذهبت كل الجهود التي بذلت عبثاً فلم يعثر عليه ، وإنما عُثِرَ على آلة تصويره فاستخرجت . وعندما فتحت و « حُمِضَ » الفيلم الذي كان فيها تبين الناس أن آلة التصوير الأوتوماتيكية قد صورت صراع الصحفي مع حوت ضخم من نوع الشارك ، هاجمه أثناء عمله ، فاتجه الصحفي عندما هوجم نحوه وآلة التصوير مثبتة في صدره فسجلت عليها أدوار الصراع بين الإنسان والوحش تصويراً رهيباً ، ومن الغريب أن الحوت حينما تمكن من الرجل سقطت الآلة المصورة إلى قاع الماء ، وأخفت عدستها تسجل آخر لحظات صاحبها والحوت يلتهمه رويداً رويداً .

(عن « برو » ، بلغراد ، يوغوسلافيا)

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع السكردان
التليفون — ٦٢٣٦٩
القاهرة

من آثار الحرب في روسيا

من مقال للكبير صحفي الروس إيليا اهرنبرج

— في أثناء حصار الألمان الأول لموسكو في سبتمبر سنة ١٩٤١ كان ميدان القتال لا يبعد عن مركز صحيفتنا «الأزفزتيا» أكثر من ثلاثة أو أربعة كيلومترات ، وكانت مهمتنا من أعسر ما يكون : كان عددنا اثنين وثلاثين ، فقتل منا برصاص الأعداء ستة عشر .

— رأيت في منسك آلاف الجثث تحترق ، وبين موسكو وفيلنا مساحة تزيد على سبعمائة كيلو متر أصبحت حولها بلقعا كأنها صحراء . وفي سمولنسك ، وهي مدينة كان سكانها قبل الحرب مائتي ألف لم يبق قائماً أكثر من أربعة منازل . ولكني أظن أن أحداً من الدنيا لم يقاس أكثر من أهل لننجراد : ففي أثناء الحصار الطويل الذي دام أكثر من سنتين ، لم يكن أحد من الناس يصيب أكثر من ١٢٥ جراما من الخبز ، ولم يكن هناك ماء صالح للشرب ، وقد قتل من أهل هذه المدينة أكثر من مليون رجل وامرأة ، وقد أكل الناس كل الدواب حتى لم يبق منها إلا أربعة عشر كلباً ، عرضت على الناس بعد تحرير المدينة . وقد لقيت إحدى الفتيات فقالت لي : في هذه الليالي الطويلة أعدت قراءة تورجنيف وفلوبرت . فقلت لها : وكيف ولم يكن لديكم ضوء في الليل ؟ قالت : أريد أن أقول إني كنت أخادع البرد والجوع أثناء الليل الطويل باستعادة كل سطر قرأته من هذه الروايات . . أعيد تأليفها في ذهني ! إن التاريخ لن يستطيع إيفاء نساء لننجراد حقهن من التمجيد . ومن الغريب أن هذه المدينة هي أسرع مدائن الروسيا نهوضا اليوم . فالبناء والإنشاء قائمان فيها على قدم وساق .

وإيليا اهرنبرج يهودي روسي ، وهو صحفي نابه ، يقف اليوم على حدود الخامسة والخمسين من عمره ، وكان في أحلك سني الحرب مراسلا للنجم الأحمر ، وهو اليوم مدير مكتب الأنباء الروسية . وكان هتلر يكرهه كراهة بالغة ويذكره في الكثير من خطبه ، وهو الآن في نورنبرج يحضر محاكمة النازيين وينتظر بفارغ الصبر يوم يدلي بشهادته ضد خصمه اللدود يواكيم فون ريبنتروب .

(عن Les Lettres Francaise)

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة فلاح يابانى

قال محدثى :

وكان الليل تقدم . وأخذ التثاؤب ينتابنى ، أما الضيف وينتاب صاحب الدار . فاقترحت النوم ، فما أسرع ما وافق صاحبى .

أما سبب موافقته فهو أن الغد كان عطلة رسمية ، وأنه كان يريد أن يذهب إلى المدينة ليرى أخاً له لم يكن رآه منذ سنوات . وكان من أغراض هذه الزيارة أيضاً أن تتيح لى فرصة أرى فيها مصنعاً لأخيه ، يصنع فيه ذلك الطلاء اليابانى الأسود الجميل المعروف فى العالم كله باللاكيه ، وتتيح لى الفرصة أرى فيها كيف امتزجت المدنية الحديثة فى اليابان بالذى فيها من عرف ومن تقاليد . وعلى هذا الأمل ذهبت إلى حجرة نومى أريح رأسى وعظامى ، فوجدت الفراش قد افترش الأرض ، والكِلّة التى تدفع الناموس قد تدلت من السقف ، والأبواب جميعاً قد أوصدت حتى الصباح الطالع .

واستيقظت فى البكرة الباكرة ، فوجدت صحابى قد لبسوا أحسن الثياب ، واستعاروا لهذا اليوم المختار من الأدب . وتركنا المنزل بالقرية فى الثامنة ، وركبنا الترام ليذهب بنا إلى القطار الذى يحملنا إلى المدينة . فوجدت فى المحطة جمعاً كبيرا ، قد لبسوا الجديد هم أيضاً كما لبس أصحابى ، وظلوا على الرصيف ينتظرون .

وحضر القطار ، فأسرع إليه هذا الجمع دفعة واحدة وازدحموا على مداخله . وعندئذ سأل صديقى زوجته أن تزحم فى الزاحمين ، وأن تحجز لنا أماكن ثلاثة حتى نجىء . فأخذت الزوجة تخرم طريقها فى هذا الزحام ، برأسها تارة ، وبمرفقها تارة أخرى . فلما دخلنا العربة وجدناها قد جلست فى شىء من العُجب والرضاء على مقعد ، وبسطت متاعها على المقعدين الآخرين احتفاظاً بهما . وجلسنا . ثم أخذت أنظر فيمن حولى ، فوجدت جمعاً من الناس قد ارتدوا مثل الثياب التى ارتداها صاحبى الفلاح . فكلهم لا شك فلاحون ذاهبون إلى المدينة ليستمتعوا فيها ببعض حين . وكلهم لبس السواد ، فهذا هو اللون الرسمى المختار . وكلهم تزينوا وتجملوا ، ولكن ما لبث أن قصّر جمال السلوك وجمال الآداب ، عن جمال الثياب .

ولم يكن بينهم من أفسد الشراب طبعه بعد ، ولكن كان فيهم من أوشك أن يفسده ، فقعدنا من هؤلاء على حذر . وكان مع الأزواج ، أو من بين طيهم الثراء ، بنات لا ريب استأجروهن على العادة ، لتكون ساعات النهار بهن ، على البهجة ، أقصر ، وطأها أخف .

وما بدأ القطار يتحرك حتى أخذ الرجال يتخففون من ملابسهم ، فخلعوا منها ما علا ، واضطجعوا فيما تحتها وهم يروحون بالمراوح على الوجوه استبرادا . ثم ما لبث أن غط بعضهم فى النوم غطيطا .

وجرى الأطفال فى العربة بين المقاعد من طرف إلى طرف ، أو هم ركبوا على المقاعد وأطلوا من النوافذ ، وفى أيديهم جميعاً أكياس واحدة من الحلوى ، بعضها الصغير بخمسة مليمات ، وبعضها الكبير بعشرة .

وكان القطار يجرى بالكهرباء . وكانت عرباته من نوع البولمان . وكانت المسافة إلى المدينة نحواً من أربعين ميلا ، قطعها القطار فى خمس وأربعين دقيقة لم يتوقف أثناءها غير وقفتين . ولم يتأخر من بلوغ وقفاته أو يتقدم عن الموعد المضروب أكثر من دقيقة أو دقيقتين . ونظرنا إلى المحطات ، وإلى رجالها ، فوجدناها ووجدناهم غاية فى النظافة ، غاية فى الأمانة . واختصارا إن سكك حديد اليابان عظيمة فائقة .

وما بلغ القطار المدينة حتى هجم علينا الحمالون ، ولهم

فلانس جزاء يعرفون بها . ولم يكن بنا إليهم حاجة ، فدفعنا قدماً إلى حاجز المحطة وعنده سلمنا التذاكر . وما تعدينا من الحاجز حتى هجم علينا فئة أخرى من الناس تطلب وتصر وتصطخب ، وأحياناً تهدد . فهؤلاء هم أصحاب التكسيات . ولم يكن بنا إليهم حاجة ، فأغفلناهم ، وخرجنا من المحطة إلى ساحة عظيمة . ساحة اختلطت فيها الحركة واشتبكت ، جرى فيها الترام ، وجرت البصات ، وجرت التكسيات ، وفي خلال كل هذه جرت العجلات (البسكلتات) آلافاً . فهذا ولد على عجلة قد أمسك يدها وهي جارية بشماله ، وحمل على يمينه في اتزان بارع صينية حملت غداء بعض الناس . وهذا صبي على عجلة أخرى تجر وراءها عربة قد امتلأت لحماً . وهذا رجل على عجلة ثالثة ، في جاكتة سوداء وبنطلون أسود (أدركنا يا مجمع اللغة أدركنا !) ، وعلى رأسه قبعة حمراء ، فلعله محام قد هرع إلى بعض زبائنه .

إن العجلات في اليابان رخيصة . وعليها ضريبة ولكنها غير معجزة . وهي وسيلة للتنقل السريع شائعة ، يقبل عليها كل من لا يجد غضاضة في استخدام عضله ، وكل من يأنس في نفسه القدرة على الخلاص برقبته سليمة بين الترامات والتكسيات والبصات .

وصعدنا الترام فلم نجد به الراحة . ففيه الزحام شديداً . والناس من كثرتهم يقفون فيه على كل موقع لقدم ، ويستندون بأيديهم إلى كل مسند . وخير من الترام البصة فهي أخفض صوتاً وأروح مجلساً ، ولو أنها أعلى أجراً . وكسارو الترام من الرجال . وكسارو البصات من النساء ، وهن يتناولن أجوراً دون أجور الرجال ، على الرغم من مشقة الأعمال ، ولكنهن بذلك راضيات ، لأنه عمل خير من عمل الروتين ، وهو يحتاج إلى شيء كثير من اليقظة ، ومن الفهم ومن علم المدينة واطلاع على نواحيها .

وبالمدينة ترامات تحت الأرض ، هي قطر كهربائية ، وهي واسعة نظيفة سريعة ، وفيها التهوية كافية . ولكنها لم تتم بعد ، ومع هذا فقد خففت ضغط المرور تخفيفاً كثيراً .

وبينما نحن في الترام — فوق الأرض — لفتني مضيق إلى كثير مما في المدينة من أشياء . لفتني إلى كل ما هو غربي . لفتني إلى الشوارع الواسعة ، والأبنية الضخمة العالية ، وإلى ما في المدينة من حدائق يستكن فيها الناس من زئاط وصخب . وقد رأيت من ذلك الشيء الكثير ، ولكن رغبتي كانت في استطلاع جوانب المدينة اليابانية . جوانبها اليابانية الصميمة .

وقد كنا نأتي بين تلك الأبنية الحديثة الفارعة ، على أبنية قصيرة عتيقة خيل إلي أنها تنتظر هبة من ريح لتسجد سجوداً ليس من بعده قيام . أو لعلها تنتظر هزة من تلك الهزات الأرضية التي صدمت اليابان الخير الكثير في عهودها الحديثة ، فكان منها هدم جاء من ورائه بناء وتجديد ، فهكذا تجددت يوكوهاما . وهكذا تجددت توكيو العاصمة .

حدث هذا في عام ١٩٢٣ . وكنت عندئذ في مصيف بالجبل . وبدأ الزلزال في الأول من سبتمبر ، واشتد غاية الشدة ، وظل يروح ويغدو سبع ساعات . وكان مصيفنا على بعد مائة ميل من طوكيو ، ولكنا رأينا أسرّتنا تجري في حجراتنا على عجلاتها من حائط إلى حائط ، ومن ركن إلى ركن . وأباريق الماء انكفأت وانصب ما فيها . ونظرنا نظرة تجاه العاصمة ، وتجاه يوكوهاما ، فوجدنا اللهب الأحمر يتصاعد منهما بدخانه إلى السماء . وانقطعت الأسلاك التليفونية ، وانقطعت الأسلاك التلغرافية ، ولم يأتنا خبر عن هذه المدينة أو تلك . ثم أخذت الأخبار تتقصّد إلينا رويداً رويداً . لقد دمرت العاصمة إلا قليلا . وفقد فيها الألوف الحياة . وخرج الناس إلى الساحات ، وإلى الحدائق ، يطلبون النجاة ، فما أسعفهم داعٍ بنجاة . فئات في الحدائق أصابهم اللهب الطويل من كل جانب فاحترقوا . ودخل بعضهم

لإنقاذ مستقبل الأطفال الفرنسيين

في فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية التي دام الاحتلال الأجنبي بها، واكتوت بنيران الحرب أكثر من خمس سنوات. يتجه الاهتمام اليوم بشأن الأطفال الذين ولدوا قبيل الحرب أو أثناءها، وقضوا سنوات طفولتهم الأولى في جو من الحرمان من كل شيء، فمعظم هؤلاء الأطفال مرضى الأجسام بسبب سوء التغذية، ومرضى الأعصاب بسبب ويلات الحرب، ومعظمهم لم ير في حياته برتقالة ولم يذق الشوكولاته ولا الموز، ولم يأخذ كفايته أبداً من اللبن الدسم أو الخبز النظيف أو النوم الهادئ، فهم في حاجة إلى العلاج قبل حاجتهم إلى التعليم، وتركهم يشبون من غير علاج خطر عظيم على مستقبل هذه البلاد كلها.

ولما كان كثير من هؤلاء الأطفال يحبو اليوم بين السادسة والسابعة من عمره، فقد فكرت وزارة المعارف الفرنسية في وسيلة تجمع بها بين العلاج والتعليم حتى لا يضيع وقت هؤلاء الأطفال، فتقرر أن لا يكتفي بأن يكون طبيب المدرسة مشرفاً على صحة التلاميذ فقط، بل أن يشترك مع المدرسين اشتراكا فعلياً في العناية بشئون الأطفال، فتوضع لكل تلميذ بطاقة طبية تعليمية، يقيد فيها طوله ووزنه كل ثلاثة أشهر، وعلى الطبيب أن يقرأ بعناية ما يقيده المدرسون من غياب التلميذ وحضوره وأسباب غيابه، وحالته الأسرية، ومقدار احتماله للتعب، وقدرته على العمل العقلي وملاحظاتهم على إبصاره وسمعه وانتباهه.

وعلى هذا الأساس تسير العناية بجسم الطفل جنباً إلى جنب مع العناية بعقله؛ فهيئة المدرسين وفيهم الطبيب تقرر نظام التغذية اللازم لكل طفل، وخطة علاج ما عسى أن يكون به من مرض جسمي أو عصبي، وترسله إذا شاءت إلى المصحة أو إلى مستشفى الوقاية، أو إلى فصول الطلبة المتأخرين، أو تحاول إصلاح وسطه العائلي.

ولما كان تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى نفقات كبيرة، فإن الحكومة ستتدرج في تنفيذه مراعاة لحالة ميزانيتها، فقد افتتحت فعلا مصحة من مصحات الطلبة وستفتتح الثانية عن قريب.

وهذه الرقابة الصحية لا تقتصر على التلاميذ، بل على المدرسين، وكل الأشخاص الذين يعملون في المدرسة كذلك، حتى لا يتعرض الأطفال لأي عدوى من الذين يتصلون بهم في حياتهم المدرسية.

عن : [Les Etoiles — باريس]

بحيرة الحديقة يحتمي في مائها، فغلى الماء بهم حتى تبخر.

وما سكن الزلزال حتى ركب الناس القطر من كل صوب يطلبون توكيو، ويطلبون يوكوهاما — يطلبون فيهما بيوتهم، ويطلبون أسرهم وأصدقاءهم. وتكدست على جوانب الطرق جثث الموتى. وسار الأحياء بين الركام يحملون لافتات عليها أسماء من يطلبون من آباء أو أمهات أو أبناء أو أخوات. وقل الطعام، وقل الدواء، وأخذت الأوبئة ترمي غير محجوزة أو مردودة.

وبقيت حيث كنت حتى تهدأ الأمور وتستقر الأحوال. ومن بعد أشهر وقف بي القطار في يوكوهاما، أو ما كان يوكوهاما، وهي ميناء اليابان الأعظم. ونظرت فلم يحجب بصري في الأفق حاجب. لم أر إلا رماداً بارداً قد امتد مع العين امتدادا.

وذهبت إلى طوكيو فوجدتها على نحو هذا الخراب.

واليوم (الحديث قبل عام ١٩٣٩)، كيف تجد هاتين المدينتين؟ تجد مكان هذا الخراب البيوت قد علت، والطرقات قد اتسعت، واستقر على تلك الساحات مدينتان تنافسان المدن رصانة بناء، وحسن تصميم، وعزاً ورفعها.

وهكذا تمهد المصائب للتقدم، وتخلق من الألم اللذة، ومن الخراب العمار.

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرباسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٩٩

العدد ٣٧٣ — الثلاثاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٩ من فبراير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

الاختلاف رحمـــــة

لست أدري المصدر الأول المثل الذي يجري على ألسنتنا بأن « اختلافهم رحمة » . ولا أدري لمن يرجع ضمير « هم » . ومن هم أولئك الناس أو تلك الطائفة التي يكون اختلافها رحمة للعالمين ، فليس في اختلاف الإخوان والأصدقاء والأزواج والأحزاب رحمة ظاهرة ولا باطنة . فمن عساهم يكونون أولئك السادة الذين اختلافهم رحمة واتفاقهم نقمة ؟ .

من الجائز أن هذا الاختلاف الذي تتولد منه الرحمة هو اختلاف النحويين ، وهم طبقة من الناس تختلف لحسن الحظ اختلافاً كثيراً ، حتى لنستطيع أن نقول إنها ما وجدت على سطح الأرض إلا لكي تنشر ظاهرة الخلاف في جميع الأقطار والأمصار . فلقد اتفق النحويون فيما بينهم على أمر واحد وهو أن شخصاً اسمه زيد سيتولى ضرب شخص آخر اسمه عمرو على مدى القرون والأحقاب والأجيال . أما فيما عدا ذلك فقد شاع بينهم الاختلاف والانشقاق ، فكان اختلافهم نعمة ورحمة ، لأننا استطعنا أن نتكلم ونكتب ونخطب دون أن نخشى ارتكاب الخطأ أو الوقوع في الزلل . لأننا إن نعدم مذهباً من المذاهب النحوية يكون ذلك الخطأ عند أصحابه هو الصواب بعينه . ولا زال بين زملائي من يذكر الكتاب الرابع المدارس الثانوية وفيه تلك العبارة الجميلة التي تبرق بين سطوره : « أما اسم كذا فلك أن ترفعه أو تنصبه أو تجره ... » لقد كانت هذه العبارة أحب العبارات إلى نفسي وأشهاها إلى قلبي . وهي عندي جديرة بأن تنقش بماء الذهب على صفحات من خالص الدمقس .

ومن منا لا يذكر دهشته عند ما سمع لأول مرة

مطلعاً للمتنبي يقول فيـه : بأبي هواك صبرت أم لم تصبرا ؟ لقد دهش الناس في زمن المتنبي لهذا المطلع كما دهشنا نحن . ولـكن كان في ركاب المتنبي شخص يحوى اسمه ابن جنى — ولا أعرف لـماذا كان أبوه جنيا مع أن والدته من الإنس — وقد تولى ابن جنى الدفاع عن مطلع المتنبي دفاعاً عظيما لا يقل عن دفاع الروس عن ستالينجراد . فأذعن النـاس لحجته الدامغة ، وأيقنوا أن مطلع المتنبي مطابق تماماً لأحدث الأساليب النحوية .

فاختلاف النحويين رحمة من أكرم الرحمات . . وهنالك طائفة أخرى يرى الناس أن اختلافها رحمة . ولعلها هي الجماعة التي يقصدها الناس بهذه العبارة أكثر من سواها . ألا وهي طائفة الفقهاء ، أصحاب المذاهب الدينية ، ويين يدى وأنا أكتب هذه السـطور بعض الفتاوى في موضوع له خطره وشأنه في حياتنا . وقد قالت دار الإفتاء فيـه : إنه مباح إطلاقاً عند الحنفية ، مباح بشروط عند الشافعية ، مكروه عند المالـكية ، حرام عند الحنبليين . . لا شك أن اجتهاد الفقهاء رحمة كبيرة للناس . فقد مكنهم هذا الاجتهاد من أن يختلفوا ، وأن يجني عباد الله من هذا الخلاف وسيلة للتيسير والتخفيف . .

***

أنتقل الآن من ميدان النحو والفقه إلى الميدان الذي عودت القراء أن أتحدث فيه ، وهو ميدان السـياسة الدولية ، فهنا مجال واسع عظيم لـكي نطبق فيـه مبدأ « الاختلاف رحمة » . وحسبي أن أقصر الـكلام على ناحية واحدة ، ونوع واحد من أنواع الخلاف ، وهو أن اختلاف الدول التي يسميها الناس « الدول الـكبيرة » فيه رحمة بالدول والشعوب التي يسميها الناس « الصغيرة » .

في عام ١٨٩٥ سولت لإيطاليا نفسها — والنفس أمارة بالسوء — أن تغير على الدولة الحبشية . وعاهلها في ذلك الوقت منليك الثاني الإمبراطور الوطني العظيم ، وكان هنالك دولتان كبيرتان ترقبان ما يجرى في هذا الركن من العالم ، باهتمام شديد ، وهما بريطانيا وفرنسا .

فأما بريطانيا ، فلم تكن راضية كل الرضى عن هذه المغامرات الإيطاليـة ، ولـكن كان هنالك أمر تخشاه وتتحاماه أكثر من التوسع الإيطالي ، وهو التوسع الفرنسي . . فقد احتلت فرنسا إقليم جيبوتي ، أو الـصومال الفرنسي ، على بوغاز باب المندب ، مهددة بذلك طريق المواصلات إلى الهند . كما احتلت مساحات عظيمة في غرب إفريقية وحول بحيرة تشاد ، وكان يخشى أن تحاول وصل مستعمراتها في الشرق بممتلكاتها في الغرب وفي ذلك من الخطر ما فيه . لذلك رأت بريطانيا أن تشجع أو على الأقل تغض النظر عن التوغل الإيطالي في إريترية ، وعن المغامرة الإيطالية في الحبشة ، أملها بذلك أن ترى السياسة الفرنسية والسياسة الإيطالية يلقى بعضها بعضاً ، ويدفع الشر بالشر .

هذا ما كان من أمر بريطانيا ، وأما ما كان من أمر فرنسا فإنها عجبت أشد العجب من إيطاليا وهي تلك الدولة التي لم تولد إلا بالأمس ، والتي كان لفرنسا فضل كبير في إيجادها من العدم — كيف تسول لها نفسها أن تجارى الدول العريقة في الحضارة والاستعمار ، وأن تحاول منافستها في سياسة الإغارة والعدوان ! إن هذا السلوك العجيب ينطوى على جرأة منقطعة النظير . لهذا لم تحاول فرنسا أن تخفى سخطها على السياسة الإيطالية . . ولـكنها لم ترد أن تقاومها برجال فرنسيين ودماء فرنسية مع وفرة الأحباش والدماء الحبشية . فاكتفت بأن أتاحت للنجاشي العظيم الحصول على عدد كبير من المدافع المتينة والذخائر الحربية الثمينة . ولم يفتها أيضاً أن تتقاضى أجراً على هذه الخدمة الجليلة بأن مكنت لبعض رعاياها من الحصول على امتياز

مد الخط الحديدى من جيبوتى على بوغاز باب المندب ، إلى العاصمة الحبشية أديس أبابا .

وأثمرت المساعدة الفرنسية والهمة الحبشية الحرة المرجوة ، فسحق الجيش الايطالى ، ومنى بالهزيمة الشنيعة فى عدوة (مارس ١٨٩٦) وارتد الايطاليون على أعقابهم خاسرين . ولم تقع هذه الضربة على إيطاليا وحدها ، بل على السمعة الأوربية والشهوة الاستعمارية أيضاً . إذ استطاعت دولة إفريقية أن توقع الهزيمة بجيوش دولة أوربية .

وهكذا كان الاختلاف بين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا رحمة من غير شك بهذا الشعب الحبشى البرىء النبيل الذى استطاع أن يشيد دعائم استقلاله ، وأن ينعم بهذا الاستقلال أربعين عاماً أى لغاية عام ١٩٣٥ . . . فى هذا العام كانت تلك الدول الأوربية نفسها فرنسا وبريطانيا وإيطاليا ، مع الأسف الشديد مؤتلفة لا مختلفة . وثار الطمع الأشعبى مرة أخرى بالنفس الايطالية . فأكدت لها فرنسا فى مؤتمر ستريزا بأنها « لا مانع » عندها من أن تغير إيطاليا على الحبشة مادامت تترك فرنسا فى سلام فى تونس . ولم تكتف فرنسا بهذا ، بل سلمت لايطاليا بنصيب الأسد فى سكة الحديد الحبشية الممتدة من جيبوتى إلى أديس أبابا . وكان ممثل فرنسا فى مؤتمر ستريزا هو بعينه المسيو لافال الذى كان لا يألو جهداً فى اكتساب رضى إيطاليا .

ولذلك كانت فرنسا تؤيد إيطاليا فى مغامرتها الحبشية الثانية كل التأييد . أما بريطانيا ، فقد كان موقفها من المغامرة الفاشية ، موقفاً غريباً . فقد كان نصفها يؤيد ، ونصفها يتظاهر بالمعارضة . والوثائق التى نشرت إلى اليوم تدل على أن العنصر المؤيد كان أشد قوة ونفوذاً فى الحكومة البريطانية . ولكن عند ما اتضح الأمر أو أوشك أن يتضح استقال وزير بريطانى وحل آخر محله عملاً بالتقاليد البريطانية المأثورة . وفى وسعنا أن نقرر أن الدول الثلاث كانت راضية فى ذلك الوقت كل الرضى — أو معظم الرضى — عن الغزو الايطالى ، فكانت العاقبة ضياع استقلال الحبشة فترة من الزمن كما هو معروف .

وقد ساقنا الحديث عن مسلك الدول الكبرى حول الحبشة فى أواخر القرن الماضى ، إلى الاشارة إلى الاختلاف السائد بين الدولتين الفرنسية والبريطانية . فى ذلك الوقت لم تكن إحدى الدولتين تحاول إخفاء ما تكنه من المواقف المتجهمة نحو جارتها ، وكانت كل منهما تبذل الجهود الجبارة لمناوأة الأخرى فى ميدان الاستعمار عامة وفى القارة الافريقية بوجه خاص . وقد كان لنا — نحن معشر المصريين — من وراء هذا الاختلاف بعض الرحمة . فقد أرادت فرنسا أن تحتل أعالى النيل فى عام ١٨٩٨ ، فاعترضها الجنرال البريطانى كتشنر . ووقف بجيشه أمام قوة صغيرة يقودها ضابط فرنسى شاب اسمه مرشان . . التقى الجمعان فى فاشودة ، حيث رفع الفرنسيون الراية المثلثة الألوان . فأجاب كتشنر على هذا التحدى بأن رفع الراية المصرية العثمانية !

فياله من يوم مجيد ، ونصر عظيم للراية المصرية ، قد أحرزته بسبب الاختلاف الكبير ، والهوة السحيقة ، التى كانت تفصل بين بريطانيا وفرنسا . فى ذلك الوقت كانت فرنسا لا تنكف عن مناوأة السياسة البريطانية فى وادى النيل ، حتى اضطر كبار الساسة وأولو الأمر فى بريطانيا إلى أن يعلنوا مراراً أنهم سيرحلون عن وادى النيل بسرعة ، وأن احتلالهم لمصر ما هو إلا إجراء مؤقت . ثم دارت الأيام دورتها وعقدت فرنسا وبريطانيا اتفاقهما المشهور فى عام ١٩٠٤ ، فإذا وعود الجلاء تختفى ، فلا يبدو لها أثر . وإذا جيش الاحتلال يتضاعف عدده وتتزايد عدته .

وبذكرنا الاتفاق الفرنسى البريطانى فى عام ١٩٠٤

بالاتفاق المتمم له بين بريطانيا وروسيا في عام ١٩٠٧ ، الخاص إيران . قبل ذلك التاريخ لم تكن بريطانيا راضية عن سياسة روسيا القيصرية في إيران ، لا حباً في إيران ، بل شفقة من أن التوغل الروسي يهدد مركز بريطانيا في الهند . ودام الخلاف بين الدولتين زمناً استطاعت فيه إيران أن تنظم شئونها بعض التنظيم ، وأن ترسم برامجها للتقدم والإصلاح . وكان من سوء حظ إيران أن اتفقت الدولتان بعد اختلاف ، وصفت علاقتهما بعد التكدر . فقسموا إيران إلى مناطق نفوذ : الأولى روسية في الشمال ، والثانية بريطانية في الجنوب ، وبينهما منطقة « محايدة » ! ولا أظن أن من الناس من يشك في أن هذا الاتفاق كان نكبة على إيران ، كما كان الاختلاف رحمة من قبل .

* * *

والآن نستطيع أن ننتقل إلى ميدان السياسة الدولية في زماننا هذا . ففي العالم اليوم خمس دول يقال إنها هي الدول الكبرى ، وهي فرنسا والصين وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ، ولكن هنالك من يرى أن الدول الكبيرة ثلاث فقط ، وذلك بحذف كل من فرنسا والصين ، فكلتاهما لا تعد كبيرة إلا بشيء كثير من التجاوز والتسامح .

وسواء أكانت تلك الدول الكبيرة خمساً أو ثلاثاً ، فإنها من غير شك تريد اليوم أن تقود العالم كله ، وهي تزعم أنها تقوده إلى الخير . ومنذ أن انتهت الحرب التي شنت على دول المحور ، قد ساد بينها الاتفاق تارة ، والاختلاف تارة أخرى . وليس من الاسراف في شيء أن نقول إن الاختلاف بينها كان أكثر ظهوراً من الاتفاق . وكان الاختلاف يدور دائماً حول السيطرة والتسلط على بعض الأقطار ، أي أنه خاص بالميدان الاستعماري ، أي بنفس الميدان القديم — ميدان التناحر والتكالب الذي كان سبباً في إثارة الحرب العالمية الشعواء في عامي ١٩١٤ و ١٩٣٩ .

وقد ظهر الاختلاف في صورة حادة بين الاتحاد السوفياتي من جهة وبين بريطانيا من جهة أخرى . ومن حسن حظ الاتحاد السوفياتي أن له في جامعة الأمم المتحدة دولتين ، هما جزء منه ، ولكن لهما مكانين مستقلين في تلك الهيئة ، وهما أوكرانيا وروسيا البيضاء ، إلى جانب المكان الأكبر الذي يحتله الاتحاد السوفياتي نفسه . وقد رأت الحكومة السوفياتية من الخير أن تدع لأوكرانيا إثارة مسألة إندونيسيا في مجلس الأمن . فكان هذا عملا سياسياً بديعاً سواء أكان ذلك من ناحية الشكل أو الموضوع .

فأما من ناحية الشكل فإن تولى حكومة أوكرانيا نقد السياسة البريطانية يجعل من الممكن أن يقول الناس أن ليست حكومة الاتحاد السوفياتي هي وحدها التي اشمأزت من السياسة البريطانية في إندونيسيا ، وبذلك يكون الاختلاف من الناحية الشكلية اختلافاً بين بريطانيا وأوكرانيا .

أما من ناحية الموضوع ، فقد أحسنت روسيا كل الإحسان باختيارها إندونيسيا بالذات . لأن قضية العدل والإنسانية فيها واضحة كل الوضوح . وقد أمكن لروسيا أن تشير إلى بعض الأعمال الشاذة التي ارتكبها البريطانيون ، فلقد ذهبوا إلى إندونيسيا — في زعمهم — لإجلاء الجنود اليابانية عنها ، فإذا هم يسخرون هؤلاء الجنود لتنكيل بالوطنيين من أهل إندونيسيا . وهذه الوصمة الهائلة لم يحاول وزير بريطانيا — على الرغم من لباقته — أن ينكرها أو يفندها .. وقد أحرج أشد الإحراج عندما طلب منه أن يسمح بإرسال لجنة تمابن أو تشاهد ما يجرى في إندونيسيا . ولو كان المسلك البريطاني بريئاً لا غبار عليه ، لما خشى من أن توضع التصرفات البريطانية تحت ضياء الحقيقة الساطع ولما تردد في الترحيب بأية لجنة تطالع أو تحقق كما تشاء .

إن رفع قضية إندونيسيا إلى هيئة الأمم المتحدة كان

(٢) من الأقوال المأثورة

فى الأدب الغربى والعربى

من الإنجليزية والأمريكية :

أن تنقد أسهل من أن تنشئ

قد يكون بعض النساء أذكى من بعض الرجال ، ولكن هناك مستوى ممتاز لا يصلن إليه أبدا .

من الصعب قيادة مجلس النواب ، وأصعب من ذلك إدارة مجلس الوزراء ، ولكن أصعب من الجميع قيادة جيش

كل الأشياء سواء فى النهاية .

الحب كمرض الحصبة ، خطير إن جاء متأخراً عن زمنه

الطبيعة تعمل أكثر مما يعمل الطب .

لا تنس ما قاله لك إنسان وقت غضبه .

الكتب أجمل أثاث ولو لم تفتحها أو تقرأ منها كلمة .

قد لا يستطيع إنسان أن يقدم لأمته خدمة جليلة ما لم يضح بالفضائل الصغيرة .

مظهراً من مظاهر الاختلاف بين بريطانيا وروسيا . ولا شك أن هذا كان لصالح قضية الوطنيين الأندونيسيين .

ولا يزال اختلاف الدول الكبرى — مع الأسف الشديد — من أهم العوامل فى أن تنال الشعوب الضعيفة شيئا من العدل والانصاف . ولكن هذا لا يرجع إلى أن الاختلاف فى ذاته رحمة . ولو أن الدول الكبرى كانت كلها تسلك مسلكا نظيفا مبرأ من كل عيب ، وتنشد العدل والانصاف فى سياستها ، لأمكنها أن تتفق على البر والتقوى ، وعلى اتباع المبادئ الإنسانية السليمة فى السياسة المالية . وعند ذلك يكون اتفاقها مصدر نعمة وسلم ورخاء لها ولجميع الشعوب .

محمد عوض محمد

لا يستطيع صديق حتى أن يبقى صديقه على توليه رياسة الحكومة ، فإن كل تصرف يتصرفه يزيد عدد أعدائه .

لا شىء يؤثر فى الأطفال كالثناء عليهم .

كان لنيوتن كلب اسمه دياموند ، أفسد يوماً أصول تأليف له قيم . فلم يزد على أن قال : « دياموند ! دياموند ! قلما تعرف مقدار ما آذيتنى » .

سئل « ملتن » : هلا تعلم ابنتك لغة أخرى ؟ فقال : لسان واحد يكفى المرأة .

إنه وطننا أخطأ أم أصاب ، أساء أم أحسن .

الحب فى الأسرة أساس للحكومة الطيبة .

الكلام فى البرلمان ، كالعزف على السكمان ، يحتاج إلى مران .

الحزب فكرة منظمة .

الشعر بلاغة الدين وحرارته .

الشعر مهنة الكسالى .

إنما ينجح الشعراء فى التخيلات لا فى الحقائق .

إن أردت أن ترى المستحيل ممكنا فاقرأ الجرائد .

إن مالك الأرض عليه واجب يؤديه ، كما أن من حقه أجراً يقبضه .

عصيان الظالم طاعة لله .

الثورة لا تتراجع .

السخرية أصح امتحان للحقيقة .

قيل لهنرى كلي Clay : إن القضية التى تدافع عنها تبعدك عن منصب الرياسة ، فقال : إنى أحب أن أكون محقا أكثر مما أحب أن أكون رئيساً .

ست ساعات نوم كافية للرجل ، وسبع للمرأة ، وثمان للمغفل .

بعض الناس لهم مال كثير ولا عقل ، وبعضهم له عقل

كبير ولا مال ، ولا شك أن الأولين خلقوا الآخرين .

بعض الناس يحمل بين جنبيه كتاباً واحداً ، وبعضهم مكتبة .

إذا كان القلب طاهراً فلا يهم ما في الرأس .

احفظ القرش والجنيه يحفظ نفسه .

كانت آخر كلمة قالها نلسون : « الحمد لله ، قد أديت واجبي » .

ما يسمى ثباتاً في العظماء يسمى بلادة في الحمير .

عمل اليوم سابقة الغد .

إن معركة « واترلو » كسبت في ملعب كلية إيتون .

خير ما خلفت لأولادى حرية القول وإعطاؤهم المثل كيف يستعملونها .

أحسن الأطباء هم الدكتور « رجيمة » والدكتور « راحة البال » والدكتور « سرور » .

كلما عظمت الحقيقة عظم نقدها .

الشعب لا يتخلى عن حريته إلا بضرب من الخداع .

أساس النجاح المثابرة على السير نحو الغرض .

العالم ملهاة لمن يفكر ، مأساة لمن يشعر .

العالم ليس إلا سجناً كبيراً ينفذ حكم الإعدام كل يوم على بعض من فيه .

عند ما ينتهي القانون يبدأ الاستبداد .

يبقى الأمل ما بقيت الحياة .

لماذا نحرص على الحياة وأولها صراخ وآخرها أنين .

اكسب قلوب الناس تكسب ما لهم .

النساء فهم القلب ، وهو خير من فهم العقل .

* * *

من الأدب الفرنسي

لا شيء يستحيل على القلب الشجاع .

عند كل امرأة دائماً شيء تخفيه .

خير أن تعيش صياداً فقيراً من أن تحكم .

فرق تحكم .

بين الجليل والهزأة خطوة .

قابل كل شيء بجد ، ولكن لا تقابل شيئاً بحزن .

الصديق كالقطعة من الأثاث يتغير إذا بلى .

لا جديد إلا ما نسي .

بين لا شيء والواحد أكثر مما بين الواحد والألف

إني أحب أسرتي أكثر مما أحب نفسي ، وأحب وطني أكثر مما أحب أسرتي ، ولكني أحب الإنسانية أكثر مما أحب وطني .

أحمد الله إذ لم يجعلني امرأة ولا قسيسا .

قال جسندى « الفيلسوف الفرنسي » وهو يحتضر : لقد ولدت ولا أعرف لماذا ، وعشت ولا أعرف كيف ، وها أنا أموت ولا أعرف لماذا ولا كيف .

الثقة يجب أن تأتي من أسفل ، والقوة يجب أن تأتي من أعلى .

قال ميرابو وهو يموت : « دعوني أمت على صوت الموسيقى » .

الصقر يطير من قمة إلى قمة حتى يصل إلى برج « نوتردام » .

القراءة تعمل في عقلك ما يعمل الطبيخ على مائدتك في خدك .

الحب ملك الشباب وطاغية الشيوخ .

الحب أقوى من الصعاب التي تعترضه .

(يتبع) أحمد أمين

في آخر قول من (الأقوال المأثورة في الأدب الغربي والعربي) ذكرتم المثل المأثور الآتي : (الصلح الظالم خير من القتال العادل) مع أن العرب قالوا : (صلح مجحف خير من قضاء مخلف) أفلا يحسن إيراد الأصل العربي بدل الترجمة الأفرنجية ولا سيما أن الأصل العربي جمع بين الإيجاز والإعجاز ؟ عزت عاشكي

على ذكرى
المولد النبوي الكريم

يحتفل المسلمون كل عام بمولد النبي صلوات الله عليه ثم يمر الاحتفال كما ينقضي عيد أو ينفض سوق ، من غير أن يترك أثره العملي في حياة الناس . لو كان المسلمون مستمسكين بسنته صلى الله عليه وسلم لكان مفهوماً أن يعودوا بعد الاحتفال إلى سيرتهم التي كانوا عليها قبله ، وإن كان هناك حتى في هذه الحالة مستزاد من العمل بالسنة المطهرة . أما والمسلمون على ما هم عليه ، وبُعد ما بينهم وبين دينهم وسنة نبيهم هو ما هو ، فقد كان يرجى على الأقل أن يقربهم كل احتفال بالمولد النبوي من روح نبيهم ولو خطوة وأن تغريهم الذكرى المباركة بالاستزادة من العمل بدينهم ولو قليلا ، والقليل إلى القليل سيصير على الأعوام المتتالية كثيراً مباركا فيه ، فلا يكون المسلمون من البعد عن سنة نبيهم ولا من التأخر في عصرهم على الحال التي هم عليها اليوم .

ما هو الحائل بين المسلم وبين العمل بالإسلام يا ترى ؟ إن كل فرد يملك أمر نفسه على الأقل إن لم يملك أمر أسرته إن كان رب أسرة ، فما الذي يحول بين المسلم وبين الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله في ذات نفسه ؟

إن الجهل بالكتاب والسنة عامل من عوامل الانصراف من العمل ، فإن العلم بما سيعمل به ضروري للعمل من غير شك . وتعلم كل فرد ما يتعلق بحياته من الكتاب والسنة أمر ممكن ، لكن تحقيق ذلك من شأن القوامين على تربية الفرد في الأصل ، في البيت وفي المدرسة . فأولو الأمر في البيت وفي البلاد هم المسئولون إذاً عن هذا العامل من عوامل الحيلولة بين المسلم وبين العمل بالإسلام .

لكن في الناس من يعلم من الإسلام ما يكفي لإسعاده وإسعاد كثيرين غيره لو عمل به ، ثم هو لا يعمل أو هو يقصر كثيراً في العمل ؛ فلم كان هذا يا ترى ؟ أهو ضعف الإيمان جرد العلم بالدين من قائدته العملية للمتدين ؟ إن هذا على خطورته هو فيما يبدو التفسير الممكن لهذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة التدين الذي لا يعمل بدينه . إن الإنسان ليس فقط مدنياً بالطبع ولكنه أيضاً متدين بالطبع ، غير أنه في تدينه يحتاج إلى شيئين اثنين لا غنى له عنهما كي ينتفع بدينه انتفاعاً كاملا : أن يعرف دينه الصحيح معرفة صحيحة كافية ، وأن يقوى إيمانه بدينه قوة تكفي لحمله على العمل به . إن الإيمان بمعناه المطلق هو في الواقع القوة الدافعة إلى العمل في حياة الإنسان . فالإنسان يعمل بما يؤمن به ، خطأ كان ما يؤمن به أو صوابا ، وهماً كان أو حقيقة . وكلنا يعرف في طفولته بل في رجولته كيف كان يتجنب الطريق إذا توهم أن به ما يؤذى أو يخيف من نحو جن أو وحش أو لص ، وإن خلا الطريق في الواقع من كل ما توهم . فالإنسان في الواقع هو في عمله عبد الفكرة : تسيطر الفكرة عليه فيعمل بها ؛ بل يعمل بما يبلغ عنده درجة الرجحان بله درجة اليقين .

هذا هو الواقع . وهو أيضاً ما يقضي به العقل إن كان الترجيح على أساس ، بل هو ما يقضي ويعمل به العلم بالفعل في فروضه ونظرياته . أفيكون انصراف المسلم من العمل بدينه راجعاً إذاً إلى ترجيحه للمذاهب والآراء التي يعمل بها — إذ لا بد له من شيء يعمل به عندئذ — على دينه الذي يدين به ؟ هذه نتيجة حتمية لما ثبت من خضوع الإنسان لما يسيطر عليه من فكرة أو من أفكار ، وما جنون الفكرة المعروف في الطب إلا مثل متطرف لهذا القانون النفسي العام : قانون استرقاق الأفكار للإنسان . من هنا الأهمية القصوى للاستيثاق من صحة الأفكار التي نسمح بدخولها في عقول أطفالنا ونشئنا وشبابنا ، وبعبارة أخرى لتعليم الدين والتنشئة عليه في الصغر ، لأن الدين

هو الشيء الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بالاجتماعيات والروحانيات ؛ ثم من هنا الخطر الكبير الذي يهدد الطفل المسلم والناشيء في فوضى الأفكار هذه النشأة فيما يطبع ويعلم ويذاع .

فانصراف المسلم من الأخذ بدينه كما ينبغي راجع إذاً إما إلى الجهل به ، وإما إلى ضعف الإيمان . والجهل وضعف الإيمان درجات يتسع كل منها ويضيق ليشمل الكثير أو القليل من الدين ، ثم كل منهما قد يتعلق بالأصول فيدخل بصاحبه دائرة النفاق والعياذ بالله ، أو يتعلق بالفروع فيشك في الحكم الفرعي أو يتأول النص إلى ما يعتقد أنه الصواب من غير أن يكلف نفسه البحث هل تأويله يتفق أو لا يتفق مع ما يسلم ويؤمن به من الأصول والأحكام الأخرى في الدين .

وإذا كان المسلم بعض العذر في الجهل بدينه لتقصير القوامين على تعليمه ، فليس له في الواقع عذر في ضعف إيمانه مهما كان الحال . إن من الممكن أن يقسم غير العاملين بالإسلام من المسلمين على الإجمال والتقريب إلى قسمين كبيرين : إلى عوام شديدي الإيمان قليلي العلم ، وآفة هؤلاء الجهل ؛ فلو عني بتعليمهم دينهم لكان رقي الأمة بهم سريعا . وإلى متفقين يجمعون بين ضعف الإيمان والجهل بالدين ، وهؤلاء من الصعب أن يلتمس لهم عذر الأولين لأنهم بثقافتهم قادرون على البحث والسؤال عما خفي عنهم من أمر دينهم حتى يعلموه . أما قوة الإيمان إذا توفر العلم فأمر مضمون في الاسلام ، لأنه قام على العقل ودعا إلى استعماله وإلى التدبر والتفكر وتطلب البرهان . ثم هو لا يخشى من العلم الطبيعي شيئاً لأنه « أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » أي أنزله فاطر الفطرة التي كشف العلم ويكشف من أسرارها ، فصار بذلك مقداراً كسب الانسان قوة ، أحسن الانسان استخدامها أو أساء . فالاسلام من هذه الناحية تام من ثم : ينصره العقل والعلم معاً ولا يخاصمه أو يخالفه إلا الباطل . فالخطر الذي يتهدد الاسلام في صدر المسلم ليس هو الحق الذي كشف أو يمكن أن يكشف عنه العلم ، ولكن هو الباطل الذي يمكن أن يلتبس أو يُلَبَّس على المسلم بالحق .

هذه هي المسألة مختصرة مجملة . ويكفي هنا في التفصيل أن ننبه إلى أن الالتباس أو التلبيس قد يأتي من طريقين : سوء فهم الدين أو سوء فهم العلم . فلو أمن الانسان هذين مع قوة على التفكير لما كان هناك لاختلاف الدين والعلم أو العقل والقلب وما ينشأ عنه من ضعف الإيمان عند الانسان أي احتمال . وليس معنى هذا أن أسرار الدين ستصبح عندئذ كتاباً مفتوحاً للانسان يقرأه . إن كانت أسرار الفطرة عند علمائها كتاباً مفتوحا يقرأونه فكذلك يصح أن يكون كتاب الدين . إن الكتابين كليهما من عند الله فاطر الفطرة ومنزل الدين ، فلا بد أن يكون فيهما ما يخفى على الانسان ويعلو على فهمه حتى يرقى فضلا من الارتقاء يكفي لكشف ما خفي وفهم ما غمض . لكن الشيء الموثوق به في الاسلام هو أنه لن يكون هناك في تلك الحالة خلاف أو تناقض يحيله العقل .

على أن احتمال وقوع الخلاف عند المسلم بين العقل والقلب أو بين العلم والدين يتعلق بالفروع وبالاجتهادي منها ولا يمكن أن يتعلق بالأصول . فمن فضل الله على الإنسان ، ومن دلائل أن الإسلام دين الفطرة ، أن أصوله كلها معقولة ميسورة البرهان . وهذا هو السبب في أنه لا عذر لمسلم في ضعف الإيمان وما يؤدي إليه من ضعف في العمل بالدين . إنك من أي أقطار الإسلام تأتيه امتحانا واختبارا تجده قائما بالحق ، ثابتا على الامتحان بالحق والاختبار : إذا أتيته من ناحية سيرة الرسول قبل البعثة وجدته ، أو بعد البعثة وجدته ؛ أو أتيته من ناحية القرآن وإحكامه وإعجازه وجدته ، أو تاريخه بعد الرسول وانتفاء التحريف والتبديل عنه وجدته ؛ أو أتيته من ناحية ما ينبغي أن يكون الدين

الصحيح من أثر فى المؤمن العامل به من فرد أو أمة وجدته؛ أو حتى من ناحية ما يفعل الله بمخالفيه والخارجين عليه وجدته. من أى النواحى أتيته وجدته ثابتا على الاختبار الدقيق الصحيح. فأى الأديان قبله بقيت معجزته فى كتابه خالدة على الدهر ليمتحنها من شاء، وليتجدد إعجازها بتصديق الأحداث لها؟ أى الأديان قبله أو أى المذاهب بعده كان له ما للاسلام من أثر، أو خرّج من الخلفاء مثل أبى بكر أو عثمان أو على أو عمر؟ ثم أى الأديان أو المذاهب قبله أو بعده وحّد الوجود وأزال التناقض بين الدين والفطرة، وبين العقل والوجدان عند الإنسان؟

ومع ذلك نجد من المنتسبين إليه من أهله من يطلبون التجديد والإصلاح من طريق غير طريقه، فيكونون عاملا من عوامل انصراف أهله عن العمل به، ومن عوامل تأخير نهضتهم بالتبع. يطلبون التجديد والإصلاح عن طريق فلسفات أوربا وسياساتها حتى بعد أن حاق بأوربا ما حاق، لأنهم ينزلون مذاهب أوربا الاجتماعية منزلة طياراتها ودباباتها واختراعاتها، فلا يفرقون بين قوة أوربا المادية المبنية على اختراعاتها الدقيقة، أو ما كان منها، وبين ضعف أوربا فى أمورها الاجتماعية والروحية التى لا تستند فيها إلى سنن الفطرة، أى سنن الله فى الاجتماعيات والروحانيات، كما استندت فى اختراعاتها إلى سنن الفطرة أى سنن الله فى الماديات. فكان مثلهم فى هذا كمثل الذى يستدل على رقى نفس النمر بقوته فى العضل والمخلب والناب. ولو نظروا لوجدوا فى اتفاق أوربا والغرب كله على ما به رقيه المادى من العلوم الطبيعية دليلاً على أن ذلك الرقى المادى صحيح وأن تلك العلوم الطبيعية حق؛ ولوجدوا فى اختلافها الشديد فى مذاهبها الاجتماعية الإصلاحية وفلسفاتها الروحية دليلا على أن تلك المذاهب إن لم تكن كلها باطلة فلا يمكن أن تكون كلها حقا. ففيم إذاً الدعوة إليها؟ وإلى أين إذاً يدعون، وعن الإسلام دين محمد بن عبد الله يذهبون؟

إن علوم الغرب الطبيعية أدت إلى قوته المادية، ومذاهبه الاجتماعية أدت إلى استعمال تلك القوة على الوجه الذى خرب من أوربا وغير أوربا ما خرب، وشرد من أهلها من شرد، وجعل العالم كله ينظر راثيا ولا يكاد يستطيع أن يدفع عن أمم بأسرها شبح المجاعة ولا رهق الذلة والضراعة. فلنأخذ من الغرب علومه الطبيعية ولنسأل الله أن يهدينا ويهدى الغرب إلى تطلب حلول ما نواجه ويواجه من مشاكل اجتماعية فى دين الفطرة، دين الله الذى أنزله على محمد بن عبد الله.

محمد أحمد الغمراوى

فى الموز:

كان أبو الحسين بن جبير الرحالة الأندلسى المعروف شاعرا لطيفا ولكنه كان مقلاً، فكان ينظم أبياتا لطيفة يبعثها إلى أصحابه فى مناسبات مختلفة، وقد ذكر هو نفسه بعض أشعاره فى رحلته، وروى المقرى طرفا آخر منها. ومن طريف شعره هذان البيتان اللذان بعث بهما إلى صديق له يشكره على هدية موز:

يا مهدى الموز تبقى ومنيه لكَ تامّه
وزانه عن قريب لمن تعاديه تامّه

بين الأحياء المائيــة

تحت هــذا العنوان سأحاول أن أجول مع القــارئ بين أحياء عالم غير العالم الذى نعيش فيه . عالم يزخر بالغريب من الأحياء ، زاد عددها إلى حد استحال على البشر حصره ، وتنوعت أشكالها ، فمنها الدقيق فى حجمه حتى لا يُرى إلا بالقوى من العدسات المكبرة ، ومنهــا ما كبر حجمه حتى صار أكبر المخلوقات . وهكذا نجد تباينا كبيراً بين الأحياء المــائية ، وإن كانت تعيش فى وسط واحد ، وقد كونت فيما بينها حلقة متصلة ، شأنها فى ذلك شأن الأحياء الأرضية . وسنتناول فى هذا المقال الــكائنات الهائمة أى Planktons

أول ما يتجه إليه الإنسان إذا فــكر فى الأحياء المائية ، هو ما فى البحر من أسماك وحيتان ودلافين (جمع دلفين) وقواقع وغيرها . وقد يذكر أعشــاب البحر إن كان من سكان الشواطئ . ولــكن هل هذا هو كل ما فى الماء من أحياء ؟ كلا ، فالبحر كالجو ، مزدحم بالــكائنات المتباينة ، منها الــكبير الذى أشرنا إلى بعضه ، ومنها الدقيق الذى يصعب على العين المجردة أن تتبينه إلا إذا استعانت بالمجهر وبينهما تدرج كالمألوف فى الطبيعة عادة .

فإذا ما أخذنا نقطة من ماء البحر ، الذى قد يبــدو لأعيننا رائقاً متجانسا ، ووضعناها على شريحة زجاجية ، وفحصناها بالمجهر ، تبين لنا أنها أشبه بحديقة الحيوان وقد انتشر فيها الــكثير من النباتات . ففى هذه النقطة المائية نجد أحياء دقيقة متباينة ، شــكلا ونوعاً وحركة ، هذه الــكائنات الدقيقة هى قوام الحياة فى البحار ، تحملها المياه من مكان لآخر على غير هدى ، ومن ثم سميت بالأحياء الهائمة .

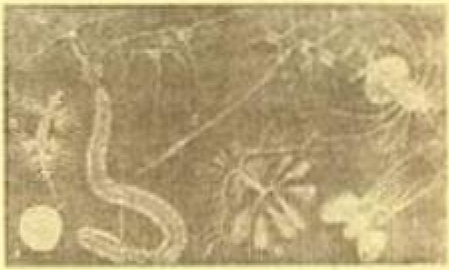
وهى نوعان : حيوانية ونباتية . والــكائنات النباتية أساس الحياة ، إذ أنها تعتمد على نفسها فى معيشتها ، تتغذى على البسيط من المواد وعليها تعتمد الــكائنات الحيوانيــة إذ تتغذى على بعضها . ثم إن عملية التمثيل الــكلوروفيلى التى تقوم بها الــكائنات النباتية تعوض الأكسجين المستهلك فى التنفس كما يحــدث على الأرض تماماً فتحفظ النسبة الملائمة ، وبذا تجعل مياه البحر صالحة لحياة هذه الــكائنات كما ينبغى .

وصغر الــكائنات النباتيــة يزيد من سطحها المعرض للماء ، وبالتالى لامتصاص الأغذية من المحلول الذى يحيط بها ، إذ المعروف أنه لو اجتمعت الأفراد الصغيرة وكونت فرداً واحداً كبيراً لــكان سطحه الخارجى أقل من مجموع أسطح الأفراد الصغيرة مجتمعة .

ولا تقتصر ميزة صغر الــكائنات عند هذا الامتصاص فحسب ، بل إن هذا الصغر يساعدها كذلك على أن تفوز بقسط أكبر من أشعة الشمس ، كما يساعدها فى أداء جميع وظائفها الأخرى بسهولة . فالــكائن منها على بساطة شكله وتركيبه ، يقوم بكل وظائف الحياة من تغذية وتنفس وإخراج وتكاثر .

وتتــكون الهــائمات النباتية غزيرة إلى حد كبير ، فتسبب تلون المــاء فى مساحات كبيرة على الرغم من أنها لا ترى بالعين المجردة . وكان المعتقد أن معظمها يمكن اقتناصه بالشباك الدقيقة جداً ، ولــكن ظهر بعد ذلك أن بعضها يستدق إلى درجة تمكنه من النفاذ من الشباك مهما ضاقت وتقاربت خيوطها . وقد استطاع لومان أن يجمع من هذه الــكائنات مقادير متكاثفة ، باستخدامه طريقــة الطرد المركزى وذلك بجمع كمية من الماء المتحمل بهذه الــكائنات فى أنبوبة ووضعها فى آلة طاردة مركزية . فإذا ما دارت الآلة وفحصنا الأنبوبة ، تبينا فى قاعها تــكاثفا عزته بلونه القاتم . وإذا أخذنا جزءاً من هذه المنطقة التى فى قاع الأنبوبة ، أمكننا فحص هذه الــكائنات ودراســة خواصها .

والنباتات الهائمة كغيرها من النباتات المائية والأرضية تتغذى بامتصاص المحاليل الغذائية من الوسط الذى تعيش فيه ، كما تستعين بالضوء على القيام بعملية التمثيل ، لذا كان من الضرورى لها أن تبقى طافية على سطح الماء لينالها من الضوء المقدار الكافى ، ولأن الضوء كما نعرف يتناقص القدر النافذ منه إلى أعماق البحار حتى يتلاشى عند عمق لا يزيد على ثلاثين مترا .



مجموعة من أحياء البلانكتون ونرى فيها (ك) كوبيبود — (ل) ، (ح) حيوانات سوطية — (د) دياتوم متشابكة — (ه) يرقة حيوان اللابحرست أو الوبستر — ويلاحظ كثرة زوائدها التى تساعدها على أن تطفو

وتتكون كل واحدة من هذه الهائمات النباتية من خلية واحدة ، وأهمها المجموعة المعروفة بالدياتوم شكل ١ . وهى خلايا لها هيكل من السليكا ، ولونها بنى مخضر . وقد تحتوى الخلية على نقطة من الزيت تساعدها على الطفو ، كما قد يكون لأفرادها أشواك تتشابك لتكون سلسلة متصلة تساعدها على أن تطفو على سطح الماء .

وتكثر نباتات الدياتوم فى الربيع ، فإذا ما بلغت أوجها من النمو والكثرة صارت غذاء صالحا لبعض الكائنات الحيوانية . ولا شك أن كثرة هذه الكائنات تستنفد جزءا كبيرا من الأملاح فى المياه السطحية ، فإذا ما حل الشتاء وبردت هذه المياه السطحية زادت كثافتها ، وغاصت إلى الأعماق ، وحل محلها مياه أخرى غنية بأملاحها . وإذا ما أقبل الربيع وبدأ الدفء ، نشطت نباتات الدياتوم وتكررت الدورة التى شرحناها . ومعنى هذا أن نشاط هذه النباتات يسير مع فصول العام ، إذ تبلغ حدها الكبير من النشاط فى الربيع ثم لا تلبث أن تسكن ويقل نشاطها وتكاثرها فى الصيف ، ثم تعود فتنشط قليلا فى الخريف ثم تسكن فى الشتاء . وقد تعلل الزيادة فى الربيع فى معظم بلاد العالم بزيادة الضوء وارتفاع درجة الحرارة ، وهذه الزيادة كما ذكرنا تؤدى إلى نقص كبير فى المواد الأزوتية والفسفورية الضرورية ؛ لذا يقف النمو ، فإذا ما برد الماء تحدث تيارات مائية تغير من تركيب الماء ، فيساعد ذلك على نمو الدياتوم وتكاثرها . وفى الخريف يحدث نشاط محدود يعقبه سكون مدة الشتاء ، وذلك لانخفاض الحرارة بالرغم من تجدد المياه ووفرة الغذاء .

ومن الغريب أن هذا التعاقب الذى يلاحظ فى نشاط الدياتوم فى معظم بحار العالم ، لا ينطبق على الحالة فى مصر ، بل يلاحظ تباينا كبيرا ، يختلف عند قرب مصب نهر النيل ، وكذلك شمال قناة السويس وجنوبها . وهذا ما نرجو أن نبينه فى المقال الآتى إن شاء الله .

محمد أحمد بدوى

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألماني رلكه

(١٨٧٥ – ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٦ —

رومه في ٢٣ ديسمبر ١٩٠٣

عزيزي هر كپس

لا ينبغي أن تمر عليك أيام عيد الميلاد من غير تحية مني ، إذا كان احتمالك لوحدتك في وسط هذا العيد أشق عليك منه في غيره ؟ ولكن إذا لاحظتَ أن هذه الوحدة عظيمة فاغتبط بذلك ، وإلا فتسائل نفسك : ما قيمة تلك الوحدة التي لا تكون عظيمة ؟ ليس ثَمّ إلا وحدةٌ واحدة وهي كبيرة ليس من اليسير احتمالها . وإنه لتمر بكل إنسان ساعات قد يحب أن يفر منها إلى أية صحبة ولو كانت رخيصة مُبتذلة ، هو يفر منها إلى أول من يلقاه من الناس وإلى أقلهم قدرا ، ممن لا يجد بينه وبينهم إلا وفاقا هو بالظاهر أشبه منه بالحقيقة ... ولكن ربما كانت هذه الساعات نفسها هي التي كانت تنمو فيها الوحدة وتثمر ، لأن نمو الوحدة مؤلم كنمو الطفل حزين كأوائل الربيع ؟ ولكن ينبغي ألا يضلك هذا لأن المهم هو شيء واحد ، هو الوحدة ، الوحدة الداخلية الكبيرة ، وغَوْص الإنسان في نفسه ، ولقاؤه ساعات طويلة لا يرى فيها أحداً ، هذا هو ما ينبغي أن يستطيع الإنسان القدرة عليه ، هو ينبغي أن يكون قادراً على أن يكون وحيداً كما كان في طفولته وحيدا ، حينما كان الكبار يطوفون حوله مشغولين بأشياء كانت تبدو له مهمة وعظيمة القدر لمجرد أن الكبار كانت تلوح عليهم علامات الاهتمام بها ولأنه لم يكن يفهم شيئا مما يعملون . وإذا تبين للانسان يوما أن مشاغل الناس حقيرة القدر وأن مايشتغلون به من ضروب المِهَن قد أصبح جامداً ولا صلة له بالحياة فلماذا لا ينظر الإنسان إلى ذلك كما ينظر الطفل إلى شيء غريب عنه ؟ لماذا لا ينظر إليه من أعماق العالم الخاص الذي يعيش فيه ومن وراء عزلته البعيدة التي هي له عمل وجد ومهنة ؟ ولماذا يريد أن يترك مسلك الطفل وحكمته إذ يقول : لا أفهم ذلك ، ويعرّض نفسه إلى احتقار الناس وتوقّي أذاهم ، لأن عدم الفهم هو أيضاً وحدة ، أما الاحتقار وتوقي الأذى فهو مشاركة للناس فيما يريد الإنسان بهذه الوسائل أن يفرّ منه .

فكّر ياسيدي العزيز في العالم الذي تحمله في نفسك ، وسمِّ هذا التفكير بأي اسم تريد ؟ وسواء أكان تذكراً لطفولتك أم شوقاً إلى مستقبلك ، فعليك أن تكون منتبها لما يظهر في نفسك وأن تضعه فوق كل ما تشاهده حولك ، فإن مايحدث في أعماق نفسك خليق بكل حبك ، وينبغي أن تشتغل به على نحو ما وألا تضيع من الوقت أو تفقد من القوة الروحية على الحياة أكثر مما ينبغي ، بأن تحاول أن تشرح موقفك للناس ؟ فمن قال لك إن لك موقفاً خاصاً بك على الإطلاق ؟ إني أعلم أن مهنتك شاقة مملوءة بأشياء لا تتفق مع طبيعتك ، وقد تنبأت بشكواك وتوقعت أنها ستأتي ، والآن وقد جاءت فلا أستطيع أن أعزيك ولا أملك إلا أن أنصحك بالتفكر في المهن كلها ، أليست كلها كذلك مثقلة بالأعباء وبعداوة الفرد ومشبعة أيضاً ببغض الذين يقومون بواجبهم العام صامتين صابرين ؟ إن الطبقة التي لا بد لك أن تعيش فيها الآن ليست مثقلة بضروب العادات الاصطلاحية والأخطاء والسبق بالفاسد من الأحكام أكثر مما عداها من الهيئات ، وإذا كان ثم من المهن ما يعطيك في الظاهر حظاً أكبر من الحرية فليس بين المهن قط مهنة فسيحة في ذاتها كبيرة المجال تصل بين صاحبها وبين الأمور الكبيرة التي بها قوام الحياة الحقة . والإنسان المتوحد هو ، دون من عداه ، كشيء

وضع تحت القوانين المعيقة ، فإذا استطاع أن يخرج في الصباح إذا طلع أو يخرج في الليل الذي يتمخض من ضروب الحوادث ، وإذا شعر بما يقع في ذلك سقطت عنه عند ذلك أعباء الهيئة التي يعيش فيها ، كما تسقط عن البيت ، وإن كان هو لا يزال يقف وسط معمعان الحياة النابضة . وإن ما لا بد لك أن تعانيه ، يا عزيزي هركيس ، في حياتك كضابط ، كنت تعاني مثله في كل مهنة من المهن الموجودة الآن ؛ بل لو كنت خارج كل المناصب وحاولت أن تنشئ بين نفسك وبين الجماعة صلة سهلة حرة لما بقيت بنجوة من هذا الشعور الذي يضيق له صدرك ؛ هكذا الحال في كل المهن ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكون سبباً للخوف أو الحزن ، وإذا لم يكن بينك وبين الناس حياة مشتركة فلتحاول أن تقترب من الأشياء ، فهذه لن تتركك ، ثم دونك الليالي والرياح التي تسير خلال الأشجار وتطوف بلاد كثيرة ، ودونك بعد هذا عالم الأشياء والحيوان وما يحفل به من حوادث ، فلتأخذ بحظ من النظر في ذلك ، ودونك الأطفال فهم كذلك هم ، كما كنت طفلاً ، سعداء جداً وحُزناء جداً ، وإذا ذكرت طفولتك فعش بين الأطفال مرة أخرى ، بين الأطفال الوحيدين ؛ أما الكبار فليسوا بشيء ، وقضاؤهم على الأطفال لا قيمة له .

وإذا ضاق صدرك وتألمت من تذكر طفولتك وما يتصل بها من بساطة وهدوء ، لأنك لا تستطيع بعدُ أن تعتقد بوجود الله ، مع أنه بارز في كل شيء فلتسائل نفسك ، يا عزيزي هركيس ، هل فقدتَ الله حقاً ؟ أليس الأحرى أن يُقال إنك لم تعرفه قط ؟ وإلا فمتى كان فقدانك له ؟ هل تعتقد أن الطفل يستطيع أن يتمسك بالله إذا عرفت أن الرجال لا يستطيعون حمل ذلك إلا بالجهد وعلى حين أنك ترى الشيوخ كأنما انحنت كواهلهم من طول حمل هذه الأمانة الثقيلة ؟ هل تعتقد أنه يمكن لمن عرف الله أن يفقده كما يفقد حجراً صغيراً ؟ أليس يجب أن تقصد بكلامك أن من عرف الله فلن يفقده ، بل إن الله قد يتركه ؟ على أنك إذا كنت تعتقد أن الله لم يكن في طفولتك ، وإذا خطر لك أن عيسى من قبل قد خُدع بشوقه إلى الله وأن محمداً قد خدعه الغرور بأنه قد وصل إليه ، وإذا روّعك الشعور بأن الله ليس موجوداً الآن أيضاً في هذه الساعة التي نتكلم عنه فيها ، فأي شيء إذاً يبرر لك أن تفتقد شيئاً لم يكن قط كأنما قد كان أو أن تبحث عنه كأنك قد فقدته ؟

ولماذا لا تقول إن الله هو الآتي ، الذي كان مجيئه قريباً منذ الأزل ، وإنه هو المستقبل الذي هو الثمرة لشجرة نحن أوراقها ؟ وأي شيء يمنعك من أن تلقي ميلاده على لوحة العصور المتجددة ، وأن تحيا حياتك كيوم مؤلم جميل في تاريخ حَمْل كبير ؟ ألا ترى إذاً كيف أن كل ما يحدث فهو دائماً بداية ، أفلا يمكن أن يكون الوجود بداية له ، لأن البداية في ذاتها جميلة دائماً ؟ وإذا كان الله هو الأكمل أفليس ينبغي ألا يكون قبله شيء حقير قط ليستطيع أن يختار من غزارة ووَفْرة ؟ وأليس ينبغي أن يكون هو الآخر ليحوي في نفسه كل شيء ؟ وأي معنى كان يكون لوجودنا لو أن ما نطلبه كان موجوداً من قبل ؟ .

وكما أن النحل تجمع العسل فلنبحث عن أحلى ما في كل شيء ولنَبْنِه ، ولنبدأ بالصغير حتى بما لا نكاد نراه ما دام يصدر عن الحب وحده ، لنبدأ بالعمل وبالسكوت بعده ، بصمت أو بسعادة صغيرة نتمتع بها في عزلة ، بكل ما نستطيع فعله وحدنا بلا مشاركين ولا أنصار . لنبدأ غرس ما لن نشاهد ثمره قط ، كما أن أسلافنا لم يشاهدونا ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأسلاف الغابرين يعيشون فينا في صورة استعداد وعبء على مصيرنا ، في صورة دم يجري فينا وإشارة ودليل يخرجان من أعماق الزمن البعيد ؛ وهل ثم شيء يجرّدك من الأمل أن تكون في الله يوماً ما أُدمج بعده القصي ؟ .

فلتحتفل يا عزيزي هركيس بعيد الميلاد بهذا الشعور

(٨) الأشعار الأندلسية

وعلاقتها بالأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

« وكان نيكل يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك فيقول : إن الزجل ما هو إلا موشحة مصوغة فى اللهجة الأسبانية الدارجة بدلا من العربية الفصيحة ، وقد أثبت هارتمان فى رسالته الصغيرة عن الوشح أن هذا النوع من الشعر ذى الفقرات strofhèlque مبنى على طول مقاطع الكلمات وقصرها ، موزونةً على أساس موازين الشعر العربى الفصيح » وأوضح هذا الكلام بمثال : لنأخذ الفقرة التى تبدأ بالمصراع الثالث عشر فنلاحظ أننا إذا قرأنا المصراعين الخامس عشر والسادس عشر كما نقرأ الشعر العربى الفصيح اختل الوزن ، وأن الاتزان لا يعود إلا إذا قصرنا « عبيده » إلى عبيدُ وإلا إذا قرأنا « عبيد إلاَّ » كما نقرأ كلمة واحدة وكذلك « لى دا عار علىَّ » وكذلك « عاربيه » فالكلمات تنطق مجموعات لكل منها وزن واحد ، وهذا يقتضى بالطبع التصرف فى مد حروف العلة وتقصيرها كما نرى فى مد « به » إلى « بيه » كما نفعل نحن فى لغتنا العامية ، وهذا يخالف قواعد الشعر العربى الصحيح مخالفة صريحة .

وليست ألفاظ ابن قزمان وعباراته كلها عربية فصيحة أو دارجة ، وإنما يختلط بها كثير من الألفاظ الأسبانية الرومانية التى كانت شائعة فى كلام المدجنين فى أسبانيا كما نرى فى الفقرة التالية :

يا مُطَرِن شلبـاطو
تونْ حزن تونْ يناطو
ترى اليـوم وَسطاطو
لم تذق فيـه غير لقيمه

فهذه فقرة أقرب إلى أن تكون أسبانية وقد ترجمها ريبرا إلى شعر أسبانى هكذا :

Oh ! mi inconstante Salvado
Tu estàs triste y apenado
Te hallaràs hoy disgustado
Sòlo hay un bocadillo.

وفى هذه الترجمة الأسبانية خطأ نشأ عن خطأ ريبرا فى قراءة بعض الألفاظ فقد قرأ « مطرن » « مُطَرَّنْتى » وهذا اللفظ لا معنى له ولهذا تصرف فيه فترجمه Triste أى حزن ، وصحته يا مطرنى ، وهناك كذلك خلاف كبير حول قراءة « تون حزن ... » وترجمتها بضمير المخاطب المفرد حقاً . وأمثلة هذا كثيرة ، وفى قراءتها وتفسيرها كذلك خلاف كبير .

ومعظم أزجال ابن قزمان يدور حول الغزل بالنساء والغلمان والخمر والموسيقى ومتاع الحياة ، وهو ينشدها على لسان النساء وصبية الشوارع والبائعين ، وبعضها على لسان نصارى أندلسيين أو نصارى أسبان من أهل الشمال ؛ ولهذا فهذه الأزجال تعرض علينا صوراً حية من الحياة اليومية التى كان يحياها الأسبان المسلمون والمستعربون ، وهناك فقرة لطيفة تبين كيف كان الناس يسمرون إذا خلوا مع عشاقهم :

من التقوى ؛ وهو أن الله لعله يحتاج منك إلى هذا القلق على الحياة لكى يبدأ عمله فيك . وإن هذه الأيام التى تجتاز فيها مرحلة من مراحل حياتك هى الوقت الذى فيه كل ما فيك مشتغل بالله كما كنت تشتغل به طفلا إلى أقصى حدود قوتك . فلتكن صبوراً راضياً ، واعلم أنه مهما قل ما تستطيع أن تعمله فإنه لن يحمل الحىُّ على الله أصعب مما تحمله الأرض بالنسبة للربيع إذا أراد أن يحىَ . وإذا انتظرت هى صابرة ؛ ولتكن مغتبطاً مُعتَرى .

رينر ماريا رلكه

واش إلاَّ القَلايا والقديد الشرح
وشوّاى لجبن وأنا جالس علّج
وتستُّف على النار ثم تبتدى يَخلج
وأنا كَنْشطّبطْ فى دخان مشمّر

ولأزجال هذا الديوان ميزة لا زال تفسيرها إلى الآن موضع خلاف بين الباحثين ، هى أن كل زجل ينقسم قسمين قسم غزل وقسم مديح ، فهو يبدأ كل زجل بأبيات فى الغزل ، فإذا فرغ من هذا « التغزل » كما يسميه ختم الزجل بمدح صديق له أو أحد كبار الناس ، وهذا يدلنا على أن ابن قزمان كان ينهج فى صياغة أزجاله منهج شعراء العرب ، فهو يستعمل الزجل مدخلا للمديح ، وربما استطعنا أن نستنتج من ذلك أن غزل ابن قزمان لم يكن هو الغرض الأول من أزجاله ، وإنما كان تمهيداً فقط لما يأتى بعده ، وفى هذا دلالة على أن الزجل كان يكسب عيشه بصياغة مدائح للناس فيتصدر مع فرقته ، ويقف بأبواب دورهم ، ويبدأ بكلام غزل يستجلب به النظارة والمتفرجين ويرغمهم به على الترديد والغناء معه ، ثم يتخلص من ذلك إلى الغرض الأساسى وهو المديح .

والآن وقد ألقينا هذه النظرة العاجلة على ابن قزمان وأزجاله ، نعود إلى العلاقة بينها وبين الأشعار الأوربية التى يظن أنها نسجت على منوالها .

* * *

لعل القارئ قد لحظ من قراءة هذا المثل البسيط القيمةَ التاريخية واللغوية لهذا الديوان ، فعلى الرغم من تفاهة المواضيع التى تدور حولها الأزجال ، وعلى الرغم من تواتر المعنى الواحد فى أكثر من زجل واحد ، فإن كل زجل يعرض علينا لوناً من الحياة الأندلسية عرضاً لا نجده عند أكثر مؤلفينا ؛ فنحن نجد هنا أسماء عشرات من أصناف الثياب والطعام وعشرات من أسماء أدوات المنزل وآنية الشرب وقطع الزينة للرجال والنساء ، ونحن نستطيع كذلك أن نتصور كيف كان عامة الناس يتكلمون وفيم كانوا يفكرون ، وتلك كلها أمور فى المكان الأول من الأهمية للمؤرخ المدقق ، ولا نظفر بها عند أحد من المؤرخين الأندلسيين .

ولكن أكبر قيمة لهذا الديوان هو أنه قرّر بصورة لا تكاد تقبل الجدال مقداراً دين الآداب العالمية لأدباء الأندلس ، ذلك أن هذا الأسلوب فى صياغة الشعر بما فيه من الملاءمة للروح الشعبى وبما فيه من انسجام مع الإيقاع الموسيقى لم يلبث — كما رأينا — أن شاع بين الناس واجتذب إليه كبار الشعراء ، فأخذ كثير منهم يصنع قطعاً من الزجل لا تلبث لسهولتها وملاءمتها للموسيقى أن تجرى على كل لسان ويتغنى بها فى كل ناحية من نواحى الأندلس ؛ وقد بلغ الزجل هذا الذيوع قبيل زمان ابن قزمان وفى حياته نفسها ، أى من أوائل القرن الحادى عشر الميلادى إلى منتصف الثانى عشر ، ويفهم من قول ابن خلدون : « ولما شاع التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً (واستحدثوا فناً) سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة (وأول) من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية (أبو بكر بن قزمان) (المقدمة ، طبعة كترمير ج ٣ ص ٤٠٤) ، ومن قوله بعد ذلك وهو يتحدث عن ابن قزمان راوياً عن ابن سعيد : « ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب ... » (نفس المصدر والصفحة) أن الأزجال شاعت فى نواحى العالم الإسلامى شيوعاً عظيما ، وأن أهل كل ناحية أخذوا ينشئون أزجالا بلهجتهم العامية ، وأن هذه البدعة الفنية الأندلسية

أصبحت لوناً شعرياً مقرر القواعد والأصول في شتى نواحي العالم الإسلامي.

بل لم يقتصر أمرها على العالم الإسلامي، وتعداه إلى العالم النصراني في شمال الأندلس وخلف البرانس، ذلك أن الذي لا نزاع فيه أن ما بين يدينا من أشعار التروبادور لا يكاد يختلف في معانيه وأسلوب صياغته عن هذه الأزجال الأندلسية، بل كان أول هؤلاء الشعراء الجوّالين وهو الكونت دِ بواتييه معاصراً لابن قزمان (عاش من ١٠٧١ إلى ١١٢٦)، ثم إنه اشترك في حملات كثيرة قام بها البروفنسيون ضد مسلمي إسبانيا، وكان قبل اشتراكه في هذه الحروب ينظم قصائد صغيرة تتكون من فقرات كل منها أربعة مصاريع يتفق الأول والثالث منها في قافية والثاني والرابع في قافية أخرى، أي أن نظام قصائده كان ا ب ا ب، فلما عاد من هذه الحروب بدأت قصائده تأخذ صورة الزجل الأندلسي، أي أنه أخذ يبدؤها بمطلع من مصراعين، تليه فقرة من ثلاثة مصاريع على قافية واحدة ثم مصراع على نفس الوزن ولكن من قافية المطلع، أي أن نظام قصائده أصبح ا ا ب ب ب ا، وهذا وحده برهان كاف لإثبات أثر الفن الأندلسي في تطور فن التروبادور. ولو ذهبنا نحلل قصائد الكونت وغيره من أئمة الشعراء البروفنسيين لازددنا بهذا الرأي إيماناً، فإن معانيها قريبة جداً من معاني أزجال الأندلسيين، بل من أسلوب تفكيرهم وإليك أمثلة صغيرة تستطيع أن تجد لها أصولاً في أقاصيص طوق الحمامة وقصائده وفي أشعار الأندلسيين وموشحاتهم وأزجالهم: «إن ما تبثه (الحبيبة) من الغبطة في النفوس ليشفي العليل، وهي إذا غضبت على أحد فإن غضبها هذا كفيل بأن يقتل أوفر الناس صحة، وجمالها يسلب أعقل الناس لبّه، ويفقد أجمل الناس جماله، ويستطيع أن يحيل أوفر الناس أدباً شريراً ذميماً، ويجعل من الشرير إنساناً مهذباً»(١).

«عندما يأخذ النهار في الطول في الربيع، أجد في نفسي لغناء الطير وقعاً جميلاً، فإذا انقطع عني هذا الغناء تحسست في أعماق نفسي آثار حب بعيد، فتجدني إذ ذاك غارقاً في التفكير حزيناً خافض الرأس، وهنا لا أجد في نفسي لغناء الطير لذة ولا للزهر فتنة»(٢).

«ليس بغريب أن يكون غنائي أجمل من غناء أي إنسان غيري، لأني أشد الناس خضوعاً للحب وانقياداً لأمره، فإن قلبي وجسمي وفهمي وحسي، وجاهي وقوتي كلها رهنتها بأمره...»(٣).

ولم يكتف التروبادور باقتباس هذه المعاني بل أخذوا يقلدون ما يسمعون من أشعار المسلمين وأزجالهم في كل شيء: فهم يشكون في قلب المرأة وطبعها ويحذرون الإنسان من كيدها(٤)، ويزهدون في هذه الدنيا بكلام هو أقرب ما يكون إلى تفكير زهاد المسلمين من ناحية وابن قزمان من ناحية أخرى(٥)، بل إن الكونت دِ بواتييه نفسه يتصنع التوبة في آخر أيامه ويلتزم الزهد في الدير كما فعل ابن قزمان إذ تاب عن شروره وعكف على الصلاة والأذان في أحد مساجد قرطبة في أواخر أيامه.

فالمسألة إذاً لم تعد مسألة نظرية غير مؤسسة كما كانت أيام دوزي، بل حقيقة ثابتة يستطيع الإنسان أن يلتمس لها الدليل بعد الدليل، ولا يضيرنا في هذا المقام أن نجزم

(١) Guillaume IX, Comte de Poitiers : Mout jauzen me prenc en amar.

(٢) Jaufré Rudel : Lanquam li jorn son lonc en mai.

(٣) Bernar de Ventadour : Non es maravela s'ieu chan.

(٤) Cerveri de Girone : A greu pot om Conno- isser en la mar.

(٥) Guillaume de Poitiers : Pos de chantar m'es pres talenz.

بعض النقاد وأساتذة الآداب في فرنسا وإيطاليا موقف النقاد ، لأن غالبية العلماء في يومنا هذا يأخذون بنظرية الأصل الأندلسي بدون مناقشة ، وقد كان الناهضون لهذا الرأي يزعمون أن روح أشعار التروبادور أرفع بكثير من روح أشعار ابن قزمان وأن فيها تسامياً بالحب لم يخطر ببال المسلمين ، فلم يكد الباحثون يعرضون عليهم صوراً من تفكير ابن داود وابن حزم وغيرهما في الحب وتساميهم به وتعمقهم في فهم أسراره وأطواره حتى آمنوا أن الأمر أوثق أساساً مما يحسبون ، وأن الأدلة أنصع من أن يمارى فيها . وقد أشرت في أول هذا البحث إلى تحول منتقدة يدال إلى ناحيتنا وكان من قبل عدواً لكل ما هو إسلامي أو عربي لا يكاد يقبل حتى مجرد التفكير فيه .

* * *

وبعد فهذا موضوع شاسع لا يستطاع تفصيله في مقال صغير كهذا ، ولكني حاولت جهدي أن ألفت نظر القارئ إلى جانب مجهول من جوانب فضل المسلمين على الحضارة الإنسانية ، فإن التروبادور هم آباء الأشعار الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، فإذا كان قد ثبت على هذا المنوال أن المسلمين هم آباء شعراء التروبادور فإنه يثبت لنا بهذا أن أشعارنا وأزجالنا أصل من أصول الشعر الأوربي ، بيد أن الأمر لا زال محتاجاً إلى البحث والتحقيق ، ولم يعد الناس يقبلون فروضاً تعتمد على الإلهام أو على حسن الظن وحدهما ، وقد مضى الزمن الذي حسب فيه ريبرا أنه حل المشكلة حينما « اكتشف » أن تروبادور آتية من اللفظ العربي طرب !

حسين مؤنس

فى الأقصر

دفعنى موج الذكريات إلى أرض الذكريات . فذرعت الرمال والسهول بين وادى الملوك ووادى الملكات .

واستلهمت الوحى مما مضى وولى وترحمت على من قضى ومات ، وهتفت فى جنبات نفسى : هيهات نحن من هؤلاء ، هيهات . وعجبت لشعب ورث ذهبا ضخما فأحاله إلى تراب وذرات ، ومن قوم نسوا الماضى وانغمسوا فى عبث وملذات . فكفروا بنعمة خالق الأرض والسموات ، وحقت عليهم الذلة حتى يوم تبعث من قبورها الرفات .

ولا تظن يا أخى أنى ذهبت إلى هناك لأنى كنت أنسى افتقادى إياك لدار الأبرار منذ ثلاثة شهور قصار ، وأقسم لروحك أنه لم يكن النسيان وإنما هو نشدان السلوى فى موج غامر من الأسى يبلغ الجبال طولا ، ولو شئت لبقيت مغمورا دون أن يطفو منى الرأس أو الجسد ، ولكن هى الأمواج ترفع وتخفض ، فكنت أجد نفسى أحيانا على الشاطئ زاحفا دون وعى وسط ظلام دامس ، ولكنى على الأرض على أى حال ، أدب كأى مخلوق يسعى وراء الحياة والرزق ، ثم لا يلبث الجزر أن يجرفنى إلى الأمان ثانية ، فأغوص فى خضم اليأس والاستسلام ، وكنت أنتصر حينا وأهزم حينا حتى دفعنى فيض الكأس إلى الهجرة إلى وادٍ سحيق قيل لى عنه إنه خير مكان لدفن الذكريات ، ووالله ما غبت من خاطرى ولا ناظرى لحظة ، فكنت كلما تبعت الدليل إلى داخل قبر فى وادى الملوك هتفت من قلبى تحيا الأرواح الهائمة حولى عسى أن تكون روحك بينها تتبعنى فى عتاب ورجاء . وكنت كلما أشار الدليل بأصبعه الخابطة إلى تابوت حجرى تخيلتك مسجى بين طيات الثرى جسدا هامدا ورفاتا لا يؤنسها فى وحدة قاتلة سوى حجر وسكون وتراب ، وبالذات جئت فى خاطرى وأنا أنظر إلى صورة عجل منقوشة فى حجر كبير بأحد المعابد ، فتخيلت العجل الصغير الذى تحيينا به وأنت تغادر الدار ، وتذكرتنى وأنا جالس على مقربة منه أنظر إليه وينظر إلى نظرات كلها تضرع وعتاب ، وكأنه يقول لماذا تذبحوننى بمجرد موتى ، أطلقوا سراحى وأنا أشفع له عند من يفهمنا جميعا بلسانى وعقلى ، وكل قطرة من دمى الذى سوف يراق عبثا ، وتذكرتنى وأنا أنظر إليه شزرا وأقول وأنا أرثى شفقتى فى تصميم ضعيف الحيلة الذى وجد للانتقام من قسوة القدر منفذا : هيهات لك هذا ! من ذا الذى يشفع لك عندى وفى يدى روح أقبضها متى شئت لأربط مصيرها بمصير من أحب ، يالى من قوى فى ساعة ضعف ومغرور فى لحظة انهيار وهوان ! والحقيقة أيها العجل أنى راجعت نفسى فيما بعد وندمت على مجرد خاطرى نحوك ، فكنت كلما زرت والدى الثاكلة ورأيت آثار دمك عند عتبة الدار وقفت عندها وتأملت كثيرا وترحمت على من ذبحت فداءه ، وقرأت الفاتحة التى لا بد أن ينالك منها نصيب ، فقد خلقك الله كما خلقنا ولا بد أن لك حياة أخرى كالتى وعدنا بها ، ألسنا نستوى جميعا أمام الله : الحشرة الحقيرة والحيوان الأعجم والإنسان المغرور والله أعلم أينا الفضل عند الديان الذى لا يعرف عند الحساب ثروة ولا جاها ولا مالا ولا أملاكا ، وهو الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما .

وأقسم لك يا أخى أنى كنت ذات يوم أستمع إلى الدليل (عبد السيد) وهو يشرح صورة موكب جنائزى فلما أشار بأصبعه الخابطة إلى الكهنة وهم يتلون صلاة الجنازة تذكرت نفسى وأنا جالس فى الصيوان على بعد أمتار من غرفتك ، وكيف فاضت روحى إلى قدمى وأنا أسمع الذين يقومون بواجباتهم الأخيرة نحوك وهم يتلون الصمدية أى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) بصوت كان يعلو وينخفض ويسرع ويبطئ لم أدر لماذا ، ولكنهم لما قرأوا الفاتحة أدركت أنهم انتهوا من صب الماء الساخن ثم إلباسك الرداء الأخير الذى

كان كل ما خرجت به من هذه الدنيا الزائلة . ولا بد أن روحك قد رأت كيف تهاوت آنئذ الحنايا، على الروعة التي كنت عليها إبان حياتك . معذرة يا حبيبي على جريمة نشدان السلوى بين الوديان والرمال ، فما كان هذا والله بنسيان بل مجرد محاولة لنقل صورة طيفك التي لا أود أن تفارقني ، من العقل الظاهر إلى العقل الباطن الذي تدفن فيه أعز الذكريات وأحلاها .

* * *

إذا شئت أن تسافر إلى جهات بعيدة كالأقصر أو أسوان مثلا فلا تستعمل من مهمات سكة حديد الحكومة المصرية إلا القضبان والقاطرة ، أما ما عدا هذه فإرهاق وكلال وملل . إن الفرق بين تكاليف عربات النوم التابعة لشركة أجنبية والعربات التابعة لمصلحتنا الحكومية لا يعدو بضعة جنيهات لا ترهق القدم على رحلة طويلة كثيرة النفقات ، إن المسافة بين العربتين لا تعدو بضع الخطوات ، ولكنك تشعر بانتقال غريب من جو إلى جو . فموظفو عربة النوم من طينة أخرى مشبعة بطابع اللباقة واحترام الغير ونظافة المظهر ، وكلها طباع لا تكلف صاحبها شيئا ، ولكنها هداية من الله أسبغها على هؤلاء الأجانب بسخاء فاستغلوها أحسن استغلال حتى بزوا غيرهم في تأدية الواجب على الوجه الأكمل . لو علم الشرقي أن من أسهل السهل عليه أن يكون مؤدبا لبقا في معاملة الناس ، لأزالت من سحنته نبرة التحدي التي نلحظها في صغار المحتكين بالجمهور من موظفين في أول درجات السلم يحسبون من أنفسهم آلهة ويعاملونك بطريقة لا عاصمك من صفعهم بسببها إلا الأدب الذي لا يكلف شيئا !

* * *

تصل مدينة الأقصر فيستقبلك الضجيج المصري العادي على الأرصفة وفي الطرقات ، وتحملك عربة الأجرة حملا إلى الفندق خلال شوارع من أقذر ما شاهدته العين حتى تصل بك إلى الجنة الموعودة وهي شارع البحر ، وهناك تبتهج نفسك بعض الشيء ، إذ تجد الفنادق التي ليس لمصري فضل في تأسيسها وتأثيثها ، ولكنها ترحب بك ترحيبا عظيما وتغدق عليك من حسن المعاملة ما يجعلك تنسى أنك غريب في بلدك ، وهذا هو فن الاستعمار الدقيق الذي يأسر القلب ويسلب ما في الجيب وأنت قانع مسرور . وفي الأقصر عدة فنادق من الطراز الأول تشرف على النيل الذي تأمل من فرط ما تعززنا بطميه الأسود وانسيابه الخالد بين الشاطئين ، ويلفت نظرك معبد الأقصر بأعمدته الضخمة التي يمكنك أن تميز خلالها تمثال رمسيس الثاني وقد وضع بحيث يتجه نحو الرامسيوم على الشاطئ الغربي ، ويقع معبد الأقصر على الشاطئ الشرقي ، بين الفنادق ومنازل الأعيان من أهل المدينة ، فتعتاد العين رؤيته لأنك تمر عليه في الذهاب والإياب ، حتى إنه لا يكاد يلفت نظرك في الأيام الأخيرة من رحلتك ، وما أرخص الشيء ، إذا اعتادته اليد والعين والنفس وما أعزه إذا ترفع وشمخ وتجبر . وفي هذا المعبد بالذات بدأ موكب الشعلة وكان لي حظ سماع خطبة ضابط عظيم اقتبس فيها بضع كلمات من دعاء نصف شعبان المعظم ليضفي عليها من السحر والجلال ما يتناسب مع فخامة مظاهره وروعة المناسبة .

وبجانب هذا المعبد العظيم يوجد مقام متواضع لشيخ يتبرك الناس به ولا يعدم كل صباح زيارة سيدتين أو ثلاث يخلعن نعالهن في خشوع ويجلسن تحت قبته المتواضعة يتحدثن ويتسامرن وقد وضعت كل منهن يدها على خدها تشكو الأخرى عوادي الزمان ودلال الزوج ، فلا تنس أن تقرأ الفاتحة على روحه عند زيارتك للمدينة ، فاعمل في قراءتها عزاء وسلوى لروحه التي تحتمل كل هذا وهي صابرة .

* * *

وفي الفندق قابلت صديقا طبيبا لعله المتزوج الوحيد في العالم الذي لم تخنه ابتسامته منذ أن تزوج ، وكان أول

ما رأيت منه ظهوره الذى تضخم نتيجة ترهل معقول ، وأقسم أنى رأيت الابتسامة مرتسمة على ظهره قبل أن يستدير وجهه فى اتجاهى ، وقلت لنفسى لا بد أن هذا فلان ، وقد صدق حدسى ، وجلست معهما أتأمل فى التى روضت هذا المتمرد القديم، فوجدت أدبا وخلقا جديرين بالاحترام ووجها ارتسمت عليه نصف ابتسامة دائمة أعتقد أنها تلازمه فى الصحو والمنام ، وكنت أينما أراهما منفردين فى أية ساعة من ساعات اليوم أدهش للبسمة العريضة على وجه الزوج مقرونة بدعابات مستمرة يسرها فى أذنها من فوق كتفها فيتحول إشراقها الدائم إلى ضحك خافت مكتوم يهتز له الزوج طرباً ، ولقد مضت على هذه الحال عشر سنوات ، فيالها من سيدة وياله من زوج !

* * *

ولا بد أن تقودك قدماك إلى معبد الكرنك ، وإذا كنت ممن يترنمون بأغانى عبد الوهاب فإنك لا بد مردداً أنغام أغنيته الجميلة وأنت تسير بين أرجائه مأخوذا مدهوشا لعجائب أجداد لسنا بهم جديرين ، وعندما يفسر لك الدليل الرموز المنقوشة على الجدران وتفاصيل المعارك ورجوع المنتصر تتساءل بينك وبين نفسك قائلا :

أين يا أطلال جند الغالب أين آمون وصوت الراهب

والواقع أن هذا المعبد فخر للأولين والآخرين . ويا ليتنا نرى ونتعظ ونثبت للعالم أننا بأجدادنا جديرون ، ويكفى أن تسير فى طريق الكباش وتدخل من بابه لتدرك أنك مقبل على زيارة مجد غابر لأمة كانت عظيمة ، ولو حافظت على تراثها لكان لها شأن أى شأن .

أما زيارة وادى الملوك فتستلزم منك رحلة نيلية إلى الشاطئ الغربى ، وهناك تخرج من مقبرة لتدخل أخرى ، وفاك فاغر من فرط الدهشة ولا سيما لجمال ألوان الطلاء التى يخيل إليك أنها من صنع الأمس القريب رغم مرور أربعة آلاف سنة عليها .

ويدهشك أثناء كل هذا أن العنصر المصرى بين الزائرين نادر حقا ، بينما إقبال الأجانب وخاصة ضباط الحليفة وضابطاتها يدعو إلى الدهش والاستغراب .

ولن أنسى وأنا أغادر الفندق فى اليوم الأخير فى ساعة مبكرة ، إذ كان بعض السادة والسيدات من جيش الحليفة على وشك بدء رحلة إلى الشاطئ الغربى ، وكنت أود لو أن نرى علامات المرح والانشراح على السيدات منهم ، وكأنهن مقبلات على غزو كبير مضمون ، وخيل إلى لفرط نضارتهن أن عشر ساعات على الأقل قد مضت منذ استيقاظهن الذى لم يكن مضى عليه سوى ساعة أو أقل . ووقفت بجانبهن أربع سيدات مصريات تمضين الوقت فى تثاؤب وتثاقل وكأنهن مقدمات على واجب غير مرغوب فيه ، مع أن الأجداد جدودنا والآباء آباؤنا ، وكنت تسمع الانجليزيات يترنمن بأغنيات رقيقة ، عجيب كيف طاوعتهن حناجرهن على إخراجها فى هذه الساعة المبكرة ، ورنت ضحكاتهن ونغماتهن فى أذنى وأنا أبتعد عن الفندق فى عربة تربع الكسل على راكبها وسائقها وخيلها ، واختلطت فى ذهنى ذكريات الرحلة الممتعة الحلوة ، ولم يخطر على بالى سوى بضع كلمات من أنشودة الكرنك التى يغنيها عبد الوهاب

أنا هيمان ويا طول هيامى صور الماضى ورائى وأمامى

دكتور مصطفى الديواني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

الدمع

بحث رجل من شيء أضاعه الناس في جميع بقاع الأرض التي توجد فيها أشعة الشمس ونور القمر وأضواء النجوم ، وجاهد في البحث عنه تحت جذور الحشائش ، وفي الترع الناضبة من الماء ، وفي تراب الشوارع ، وفي كل جزء من الهواء الذي يأتيه ، ولكن لم يجده في كل هذه ، فتنفس تنفساً أشد عمقاً وأكثر حزناً من تنفس الغابة الكثيفة ، وقال : « أين الشيء الذي أريده ؟ أين الشيء الذي أريده ؟ » .

وجاء « الرجل المتفائل » وسأله قائلا : « لماذا تبحث تحت جذور الحشائش ؟ هل ضاع منك اللؤلؤ ؟ ولماذا تبحث في الترع ؟ هل ضاع منك الزئبق ؟ ولماذا تبحث في التراب ؟ هل ضاع منك الدم ؟ ولماذا تبحث في الهواء ؟ هل ضاعت منك الرائحة الطيبة ؟ » .

فهز الرجل رأسه وزفر قائلا : « كلا ، لم تضع مني هذه الأشياء . »

فرد عليه المتفائل : « أنت أحمق إذاً ، فإن الإنسان لا يبحث مع التعب والجهد إلا من هذه الأشياء القيمة ، وأرى أنه يجب عليك أن تستريح ولا تتعب نفسك وتهلكها لأجل شيء لا قيمة له . » قال المتفائل هذه الكلمات . وقد ملأت الابتسامة وجهه ، وارتفع لحم خديه وتجعد الجلد الذي حول عينيه تجعداً عميقاً ، كما هي صفته التي تعودها كلما تكلم مع الناس .

وأجابه الرجل قائلا : « إن الشيء الذي أبحث عنه أهم من الأشياء التي ذكرتها ، وإني قد بحثت عنه كل يوم وفي كل مكان فلم أجده ! إني أبحث عن الدمع . »

ولما سمع المتفائل كلام الرجل فتح فمه — كأنه الكهف العميق ورفع رأسه إلى السماء يقهقه بلا انقطاع ، وقال بعد حين : « الدمع وهل للدمع أتعبت نفسك وجاهدت في البحث عنه ؟ إني لا تدمع عيناي دمعة واحدة ، ولا أعرف أين منبع الدمع من جسم الإنسان ، وإنما رأيت بعض الحمقى تنزل الدموع من عيونهم ، وسأخبرك عن الأمكنة التي تنزل دموعهم فيها :

«اذهب إلى المحطات والمرافئ تجد هناك رجالاً ونساء كأن قلوبهم قد ربط بعضها ببعض ، لا يضيعون لحظة من الزمن ، وإنما يتحادثون فيها ولو بتكلف ، وإذا لم يتمكنوا من الكلام غابوا في أحلام ، كأن البرهة تساوي زمناً طويلاً لا نهاية له ، وتجد هناك أيضاً الأيدي بالأيدي ، والأذرع بالأكتاف ، والأفواه بالأفواه ، كأنها مشدودة ملتصقة ولا تنفك بعد ، فإذا اتفق أن صفرت ما سورة البخار انقطت المحادثات ، واستيقظ الحالمون ، وانفكت الأيدي والأذرع المشدودة ، فسالت الدموع من عيونهم سيلان الماء من الينابيع ، وإني أرى أن هذه المناظر حقيرة مضحكة ، ولكن إذا ذهبت إلى هناك وجدت الدمع بدون تعب ولا مشقة . »

وأجاب الرجل قائلا : « لا أريد هذه الدموع لأنها دموع الحب والغرام ، وأنها كثيرة جداً يسهل علي أن أجدها ، وإذا كنت أريدها لذهبت إلى المحطات والمرافئ منذ زمن . »

وقال الرجل المتفائل : « لا تريد هذه الدموع ، إذاً فاذهب إلى حجور الأمهات أو إلى المهاد تجد فيها أطفالاً راقدين تعجبك وجوههم الحمراء الجميلة ، وشعورهم الصفراء الذهبية ، وعيونهم السوداء النيرة . وتدعوك إلى رحمتهم والعطف عليهم ، وتراهم يبكون فجأة بكاء شديداً ، ثم يوقفونه بدون تكلف ، ولا تكون دموعهم أكثر من الرجال والنساء المذكورين ، ولكنني أظن أنها تكفيك وتقنع أملك ، فاذهب إلى هناك . »

وأجاب الرجل قائلاً : «لا أريد هذه الدموع أيضاً ، لأنها دموع الطفولة ، وأنها موجودة في كل بيت يسهل علي

أن أجدها ، وإذا كنت أريدها ذهبت إلى حجور الأمهات أو إلى المهاد باحثاً فيها . »

وقال المتفائل : « إذا أنت لم ترد هذه الدموع فاذهب إلى الملاهي ودور التمثيل تر على مسارحها رجالاً ونساء يمثلون أحياناً روايات محزنة خيالية ، ويقومون فيها بأدوار مضحكة ومناظر محتقرة . كموت زوج المرأة ، أو مصرع قائد الجيش المدافع عن بلاده ، أو حب الفتى والفتاة وتعذر اجتماعهما . أو غير ذلك ، وإذا مثلوا في الرواية ووصلوا إلى أشد الأمور حزناً وألمها بكوا بكاء شديداً ، ونزلت الدموع من عيونهم ، ولا يهمنا أن الرواية حقيقية أو كاذبة ، فعلى كل حال هم يبكون ، وستجد على عيونهم الدموع ، فاذهب إلى الملاهي وابحث عن الدموع في مسارحها . »

وأجاب الرجل قائلاً : « لا أريد هذه الدموع كذلك لأنها دموع خيالية كاذبة ، ووجودها غير معتبر في العالم ، فماذا أذهب إلى الملاهي وأبحث عنها ؟ »

ولم يستطع الرجل المتفائل أن يزيد عن تلك الدموع المذكورة ، فنظر إلى الرجل فاتحاً عينيه ، وبعد برهة سأله قائلاً : « إذاً أى دمع تريد ؟ لأنى أعتقد أنه لا توجد في العالم إلا الدموع التى ذكرتها ، فهل تعلم دمعاً غيرها ؟ »

وأجاب الرجل قائلاً : « نعم ، علمت أن في العالم دمعاً غير تلك الدموع ، وأنا لا أبحث إلا عنه ، وأصرح لك بأنه دمع العطف والرحمة لا غير . »

فعجب المتفائل من كلام الرجل ، وحدق بعينيه في وجهه ، وهز رأسه هزة خفيفة ، وقال : « لعل هذا الدمع ليس موجوداً في العالم ، دمع العطف والرحمة ، لم أكن أسمع هذا الاسم الغريب ، ولم أعرف من الذى يترل من عينيه هذا الدمع ولأى سبب يترل ، فإذا علمته فهل لك أن تخبرنى عنه بالتفصيل ؟ »

فقال الرجل : « نعم ، سأخبرك عنه بكل رضى وسرور . إن دمع العطف والرحمة لا يسيل لشخص أو لشخصين فحسب ، بل للناس الكثيرين ، وإن صاحب هذا الدمع يترل من عينيه إذا رأى المأساة وتأثر قلبه بها تأثراً شديداً ، وليس كدموع الأطفال لأنها طبيعية بغير تأثر ، وإن هذا الدمع يسيل للإخلاص والصدق ، ولا يوجد فيه شيء من الخيال والكذب ، وأما أى شخص يسيل منه هذا الدمع فإنى لا أعرفه ، وقد بحثت عنه في كل مكان ، ودققت النظر في عيون الناس ، فلم أجد قطرة من هذا الدمع ، ومن يدرى أنه ليس موجوداً ؟ وربما سقط وضاع من عيون الناس في مكان ، وكل شيء إذا ضاع يمكن أن يوجد بالبحث عنه ، وسأبحث عنه ، لعلى أجده وأرده إلى أصحابه ، وما عثرت على الذين يسيل من عيونهم هذا الدمع ، ولكن عسى أن أجدهم خلال بحثى عنه . »

ولم يصدق المتفائل كلامه ، وهز رأسه هزات ثم قال : « إنى لا أفهم كلامك ، وإنما إذا كان هناك شخص يسيل من عينيه هذا الدمع فإنه أكثر حمقاً وأشد سفهاً من الأشخاص الذين ذكرتهم لك ، فإن الإنسان أذكى وأعز من كل شيء ، ويستحيل أن يبلغ هذا المبلغ من الحمق والسفه ، فلا أستطيع أن أصدق كلامك . »

ونظر الرجل إلى المتفائل نظرة عطف وإشفاق ، ثم تنهد وقال بصوت رقيق : « وأنت أيضاً من الذين أضاعوا هذا الدمع ! فيجب عليك أن تبحث عنه معى ، وإذا وجدته استرددت الشيء الذى أضعته ، فهل لك أن ترافقنى ؟ »

ولم يرض المتفائل عن كلامه بالطبع وقال : « كيف ضاع منى هذا الدمع ؟ إن عينى لم تدمع دمعة واحدة ، ولا أحب أن يسيل الدمع منى ، ولا أرضى أن أعمل معك عملا ليس فيه فائدة ، لذلك سأذهب إلى حفلة الغناء والرقص ،

أغني فيها غناء السرور ، وأرقص رقصاً جميلا . »

ولما رأى الرجل أن التفاؤل لا يرضى أن يبحث معه من الدمع فارقه واستمر في عمله ، ووقف التفاؤل عند ذهاب الرجل يضحك ضحكا عميقاً من حمقه وسفهه ، ثم ذهب إلى مكان السرور ، وشغل فيه باللهو والغناء .

ولم يجد الرجل الدمع في تلك الأمكنة ، فغير رأيه ، وذهب إلى مكان مزدحم بالناس باحثاً بينهم عن الدمع ، فوقف بجانب شارع ، ورأى السيارات تسير فيه أسرع من الريح ، تأتيه فجأة وتروح لا يكاد يشعر بها ، ورأى الماشين في الشارع يضطربون اضطراباً شديداً ، وينظرون أمامهم وينظرون خلفهم خائفين من السيارات أن تقتلهم وتمزق أجسامهم إرباً ، ووجد البغال تجر العربات الكبيرة المحملة بالفحم هزيلة الأجسام كأن اللحم لا يوجد فيها ، والعرق المتصبب منها بلل شعورها السوداء ، وكلما خطت خطوة كادت تقع على الأرض وأخذت تجر قوائمها وتجدد قوتها في كل خطوة وتذهب بذهابها إلى الأمام تغمض بعض إغماض ، وأما سواقوها فقد ملأ غبار الفحم وجوههم ، وجعلها سوداء قاتمة ، وكأن عيونهم مغمضة ، وأصبحت شفاههم حمراء مخيفة ، ورأى الرجل من ناحية أخرى رجالاً يجرون «العربات اليابانية»[١] التي يركبها الناس ، يعدون كالخيل ، ويمسكون بأيديهم أذرع العربات ، يطوون أرجلهم في العدو حتى تكاد تصل إلى أدبارهم ، ويرفعون أعضادهم كما ترفع الطيور أجنحتها . وإذا اتفق أن هاجت الريح التراب وألقته في وجوههم ، فيدخل أنوفهم وأفواههم ، يتنفسون بأصوات عالية خشنة كأنها البخار يخرج من أنابيبه ، وتنزل العرق من وجوههم ولا تسمح الظروف لهم أن يمسحوه منهم ، وإنما يسيل بنفسه إلى الأرض ويتلاشى في الرمل والتراب.

فقال الرجل في نفسه : « لعله هنا يوجد دمع العطف والرحمة . » ولكن لما بحث عنه بحثاً دقيقاً لم يجد قطرة منه ، ونظر إلى سائقي السيارات والماشين والبغال وسائقي عربات الفحم وجاري العربات اليابانية والجالسين عليها كأنهم لم تسل منهم الدموع مطلقاً ولن تسيل منهم أبداً ، فغادر ذلك الشارع خائب الأمل .

وذهب إلى دار الاحتفالات الكبرى ، فوجد فيها الناس مزدحمين ، أخذوا يعدون حفلة فخمة لاستقبال رجل عظيم ، وسمعهم يتكلمون عن تاريخ هذا الرجل : « كان هذا الرجل العظيم يخوض غمار الحروب مرات كثيرة ، وهزمت بخططه جيوش العدو التي كان عددها لا يحصى ولا يعد ، وكانت كل جثة تستلقي على ظهرها أو تحبو على بطنها فوق الأراضي الواسعة الخضراء ، وفي ترع الأوحال العميقة مصابة برصاصه وقنابله ، وخربت الحقول ، وهدمت الحدائق ، وسكتت أصوات التلاميذ في المدارس ، ووقفت حركات الآلات في المصانع بمدافعه وطائراته ، وأصبحت الأيدي مقطوعة ، والأرجل مكسورة ، وفقدت النساء أزواجهن ، والأمهات أبناءهن بقضائه وقدره ، وهو يمر الآن بهذا البلد بعد انتصاره في الحرب . »

فقال الرجل : « لعل هنا يوجد دمع العطف والرحمة » ولكنه لما جاء الرجل العظيم ظهر على وجوه الناس كبير الاحترام وشديد الفرح ، فقفزوا ورقصوا كأنهم جماعة من الضفادع ، وظلت أصوات هتافهم كالأمواج تصخب ، ورموا قلانسهم إلى السماء تتراقص في الهواء ، وفي هذه الضوضاء ، وذلك الجنون دخل الرجل العظيم ، وتبعه الناس ، وافتتح الاحتفال ! ورأى الرجل أنه لا يوجد في وجوه هؤلاء الناس إلا ابتسامة وسرور كأن عيونهم لم تسل منها الدموع مطلقاً ، ولن تسيل منها أبداً ! فغادر تلك الدار صفر اليدين .

(١) هي عربات يجرها المشاؤون ، يسميها الصينيون العربات اليابانية ، لأن أحد أبناء اليابان اخترعها .

وذهب الرجل إلى مصنع كبير ، فوجد رجالا ونساء كثيرين يعملون فيه ، وقد أصمت أصوات الآلات آذانهم ، وسدت روائحها أنوفهم ، وما أكبر العجلات التي لا يستطيع الإنسان أن يحركها إلا بقوة كبيرة ! ورأى الرجل أن علامات الموت تدب على وجوههم من شحوب وامتقاع ويحني بعضهم ظهره بجانب الآلات يأكل الطعام الخشن الردئ ، ويقف بعض النساء يفكرن في أطفالهن الذين تركنهم في البيوت ، فربما بكوا بكاء شديداً إذا لم يجدوا أمهاتهم ، ولكن لا يمكن لهؤلاء الرجال والنساء أن يضيعوا وقتاً كبيراً ، ويلزمهم أن يأكلوا بسرعة ، وعلى النساء أن يستيقظن من أحلام التفكير في أطفالهن ، ويجب عليهم وعليهن أن يواصلوا العمل ، ولما غابت الشمس خرج هؤلاء العمال من المصنع ، ومروا بالسوق الليلية التي يطوف بها الرجال والنساء يبحثون عن السعادة والفرح ، فدخل العمال في أمواج هؤلاء السعداء المزدحمين واختلطوا بهم .

وتبع الرجل هؤلاء العمال مفكراً : « لعله يوجد هنا دمع العطف والرحمة . » ولكن هؤلاء الناس كماء النهر إذا دخله ماء آخر اختلطا وسارا معاً بدون تأثر ، وكذلك اختلط الناس في السوق بالعمال الذين دخلوا بينهم ، ولم يتأثر بعضهم ببعض ، فدقق الرجل نظره في عيونهم كأنها قعور الآبار الجافة لم تسل منها الدموع مطلقاً ولن تسيل منها أبداً ! فغادر تلك السوق يائس الرجاء .

ورأى الرجل أنه لم يجد دمع العطف والرحمة في الناس أيضاً فحزن حزناً كبيراً ، فمشى في الطريق حتى وصل إلى قرية بغير قصد ، ورأى كوخاً صغيراً ، أمامه ميدان واسع وحوله بضع أشجار من الصفصاف ، تجعل أشعة الشمس أوراقها الخضراء جميلة رشيقة ، ويظهر أن عند صاحب الكوخ ضيوفاً يعد لهم وليمة ، وبدأت امرأة تذبح الدجاج ، وبجنبها قفص فيه بضع عشرة دجاجة ، فأخذت المرأة دجاجة واحدة ، وأمسكت بيدها اليسرى جناحيها وعرف رأسها ، ونزعت بيدها اليمنى شعر عنقها ، ثم أخذت سكيناً وذبحتها ، فحركت الدجاجة رجليها كأنها تريد أن تدافع عن حياتها ، ولكن لم تقدر على ذلك ، فنزل الدم من عنقها في طاسة صغيرة ، فوضعتها المرأة على الأرض بعد انتهاء نزول الدم ، وتحركت الدجاجة على الأرض حركة خفيفة ، ولم تلبث أن أصبحت كومة من الريش من غير روح ، وذبحت المرأة الدجاجة الثانية والثالثة كما ذبحت الأولى .

ولما ذبحت المرأة الدجاجة الخامسة خرج من الكوخ ولد ذو وجه أحمر ، وعينين سوداوين يلمع بهما . وسعى إلى المرأة ، فرأى أكواماً من الريش ودجاجاً في القفص ، ووجد واحدة منها في يد المرأة منظرها يؤلم القلوب ، فأسرع ليمسك بيد المرأة اليمنى ، وخرج البكاء المحزن من فمه ، وتدفقت الدموع من عينيه كتدفق الينبوع .

ولما رأى الرجل هذه الدموع لم يصدق أن عينيه تريانها حقيقة ، ولكنها جزاء تنبيه القائل الذي أتى بدون حسبانه ، ودقق النظر فيها فوجدها حقيقية تسيل من عيني الولد قطرة قطرة كأنها درر لامعة ، ففرح فرحاً شديداً كأنه وجد اللؤلؤ ، وصاح قائلاً : « لم أكن أظن أني أجدها هنا ! » وتقدم إلى الولد ، ووقف أمامه ماداً يديه تحت عينيه ، وبعد برهة ملأت دموع الولد كفيه .

فقال : « لقد وجدت الآن هذه الدموع التي أضاعها الناس ! وإن واجبي الآن أن أردها إليهم » . فراح قاصداً إلى « الرجل الفاضل » ليردها إليه أولاً ، لأنه لم يصدق أنه أضاع هذه الدموع ، وطلب منه أن يحفظها ولا يضيعها مرة ثانية ، ثم ذهب إلى كل مكان ليهدي هذه الهدية القيمة الفاخرة التي لا مثيل لها عنده إلى كل إنسان ، استعدوا أيها القراء الكرام ، لتأخذوا هديته ، فربما ذهب إليكم قريباً .

عبد الله ما — جي — كر

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة شعب يابانى :

فى زيارة مصنع يابانى

واستطرد محدثى يقول :

لم يكن فى أوسط المدينة غير مصنعين أو ثلاثة . ذلك أنهم جعلوا المصانع فى جهات معلومة خارج المدينة ، وبذلك حموا المدينة من ازدحام المرور ، وجعلوا النقل على تلك المصانع أسهل . وبتجميعها فى صعيد واحد تيسرت لها موارد الكهرباء والقوة ، وكانت قليلة الثمن ، وكذلك تيسرت الإدارة .

وأكثر المصانع الصغير الذى لا يضم من العمال إلا العدد القليل . وباليابان خمسون ألف مصنع ، ولكن أكثر من نصفها يشتغل بخمسة عمال أو تسعة . وليس منها غير خمسة فى المائة تضم أكثر من مائة عامل .

والمصانع الصغيرة تختص بإنتاج البضائع للاستهلاك المحلى . وهى بضائع قديمة الطلب ، طلبتها الجماهير اليابانية الغفيرة من مئات السنين على الصورة القديمة نفسها ، أو على صورة تقرب أن تكون كذلك . وقد أجروا إحصاء منذ سنوات فى أعمار هذه المصانع فوجدوا أن ٢٥٠٠ مصنع من تلك المصانع عاشت أكثر من سبعين سنة . وهو عمر طويل إذا اعتبرنا عمر اليابان وهى حديثة .

ويبدو قدم هذه المصانع ، وتبدو عتاقتها من زيارتها . فهذا مصنع يملكه رجل واحد ، هو مالكه وهو مديره ، يساعده عاملان أو ثلاثة ، ثم نحوهما من الصبية ليتعلموا الصنعة . والمصنع يجرى على نفس الأسلوب الذى جرى عليه منذ عهد الإقطاع . فالعمال ينامون فى المصنع ، ومن أجل هذا لا يأجرهم صاحب المصنع أجرا كبيرا . وهو مصنع لا يضم من الأجراء غير خمسة أو ستة ، لهذا لا ينطبق عليه قانون العمال والأعمال ، فهذا القانون إنما جعل للمصانع التى تضم أكثر من عشرة .

وإذا نظرنا إلى هذه المصانع الصغيرة وجدنا الأجور فيها واطئة ، واطئة بالنسبة لما تعودناه نحن أهل الغرب ؛ فالعاملة التى تصنع الكبريت تعطى ٦٥ مليما فى اليوم . والأوسطى الذى يقوم على الخرطة يعطى خمسين قرشاً . ومعيشة العمال فى هذه المصانع سيئة ، ومرافقهم الصحية غير مرضية . وطعامهم ليس فى استطاعته أن يهبط عن طعام الرجل العادى . وكيف يستطيع أن يهبط عنه وهو إنما يتألف دائما أبدا من أرز وسمك مملوح أو غير مملوح ، ومخلل . وهذه أرخص الأشياء فى اليابان . ومن نعم الله أنه لبساطتها لا يدخلها الغش أبدا .

ومع هذا ، وعلى الرغم من قلة الأجور ، فهذه المصانع الصغيرة نعمة على العمال لا شك فيها . وأحوال العيش السائدة فى المصنع لا شك خير من حال تسود منازل العمال . إن العامل تعوّد طول حياته الفقر ، فهو إذ يخرج إلى المصنع يجد فيه شيئاً من الغنى ، وشيئاً من الفرج ، ويستطيع مما يكسب أن يشترى بعض لذائذ الحياة ويتذوقها . ولا تألو الحكومة اليابانية جهدا فى تحسين الأحوال ، ورجال الشرطة يرقبون عن قرب مرافق الصحة بالمصانع ، ويحملون أصحابها فى شئ من الضغط على النظافة . ونحن الغربيين مهما قلنا فى هذه المصانع اليابانية وانتقدناها بنسبتها إلى ما فى أمثالها عندنا من صحة ونظافة ونعمة ، فهى مصانع خير ألف مرة من مصانع رأيتها فى الصين وأخرى رأيتها فى الهند .

وعدا هذا ، فلن ننسى أن قلة الأجور فى اليابان يصحبها قلة فى الأسعار . ولقد استطعت أن أشترى فى اليابان أشياء ، فى مثل جودة ما نشتريه فى بلادنا الغربية ، ودفعت ثلث الثمن . وبهذا الاعتبار يظهر أن العامل اليابانى ليس من السوء بما تدل عليه ظاهرا قلة أجره .

على أن في اليابان مصانع أخرى كبيرة ، تلك التي تُصنَع فيها الأشياء للإصدار . فهذه مصانع تضارع مصانع الغرب ضخامة ، وحسن إدارة ، وطيب رعاية لعمالها . فالأجور فيها حسنة ، وساعات العمل قصيرة ، والمرافق جيدة . وللعمال فراغ ينفق في الدرس أحيانا ، تُدرَّس فيه العلوم وتُدرَّس الفنون ، وأحيانا ينفق في الرياضة على ساحات خصيصة بها ، وأحيانا في السباحة في أحواض لها . إنها مصانع كبيرة ثرية في مقدورها أن تنفق أكثر كثيرا مما ينفقه مصنع صغير كالمصنع الذي قصدنا إلى المدينة نبغي زيارته .

• • •

كان هذا المصنع كما قدمت مصنعا لأخ مضيق ، الفلاح الياباني ، تاناكا . وكان اسم الأخ يوسوكي . وبلغنا منزل يوسوكي ، فتلقانا بالتأهيل والترحيب . وقدم لنا فناجين صغيرة من الشاي ، تحية القدوم ، قدمها إلينا في احتفال كبير . وكان يوسوكي يتحرق إلى أن يرينا مصنعه ، واستيقظ فيه تَحَبُّب الصانع الناجح ، ولكنه ظل يماطلنا بحجة أن المصنع صغير حقير لا يستأهل منا أن نوسخ أطراف ملابسنا بالسير في حجراته القذرة . ولكنا ألححنا في طلب رؤيته ، وذكرنا أننا إنما جئنا خصيصا لزيارته ، وأن فى رده إيانا عنه خيبة عظمى ، وبعد لأْيٍ رضى .

وكنا في القاعة السفلى ، وهي قاعة للاستقبال ، وقاعة لعرض أبنيا في يوم البيع رائج . وصعد بنا يوسوكي غرفة عليا ، وجدنا بها نماذج من أنتجة المصنع مرصوصة مصفوفة نضيدة . وتبينها نوعين : نوعا صارخ اللون زائطا رخيصا ، فهذا ما يُبعث به إلى خارج البلاد على أنه الشيء الأصيل من اللاكيه ، وما هو به . ونوعا آخر جيد الصنع بارعا ، ولكنه ذو كلفة ، فهذا يُستهلك على الأكثر في البلاد فلا يخرج منها . وسألَنا صاحبُ المصنع أن نختار لأنفسنا هدايا مما نرى . فأحرجنا بسؤاله . ومددنا أيدينا إلى أرخص الأشياء ، فنزع من أيدينا ما اخترناه في شيء من الشدة ، وأبدلنا به أشياء من جيد المصنوع وأغلاه . ولكنا خشينا الإجحاف به فسلكنا معه مسلكا وسطا ، فأخذنا شيئا من الرخيص وشيئاً من الغالي . وأردنا دخول المصنع ، فحذَّرنا في شيء من الاخلاص من خيبة تلحق آمالنا مما سنطَّلع عليه في المصنع من وضاعة حال . وذكَّرنا بأن اليوم يوم عطلة ، ولكن بالمصنع بعض العمال يعملون . واطمأننت أنا لتحقق أملي في رؤية تلك الصناعة اليابانية البارعة التي بهرت أوربا وبهرت أمريكا ، زمانا ، أعني صناعة اللاكيه .

وخرجنا إلى ساحة صغيرة في ظاهر الدار ، فوجدناها مليئة بالخشب من كل حجم ، وكل شكل . ووجدنا بالساحة خزانة من الخشب مسقوفة ، بها منشار مكنيّ دوَّار . ولم يكن يدور في ذلك اليوم . وكان دورانه بالكهرباء . فقلت لصاحبي : ألا يخشى الحوادث من هذا المنشار المكنيّ في تلك الحظيرة الضيقة . فقال : إنها خاطرة لم تخطر بباله ، وإنه لم يقع من تلك المكنة في حظيرتها الضيقة سوء قط . فذكَّرته بما صدر في البلاد من قوانين تحمي العمال من أمثال هذه المكنات المكشوفة ، فقال إنها قوانين لا تعنيه ، لأنه لا يستخدم من العمال غير ستة . وهو بهذا جد سعيد ، فلا تقلقه طلبات السلطة ولا زيارة المفتشين ولا ينغص عليه تنكيدهم وتدخُّلهم في أمره بالحق وبالباطل .

ودخلنا غرفة النجارة ، فكانت ضيقة أيضا . وفيها ينشر الخشب وفيها يدوَّر . وكانت حجرة مظلمة ، تثقل فيها رائحة الغراء . ولكن راعني منها ترتيبها ونظافتها . فكل عدة في مكانها من الحائط ، والأرض ليس عليها من نشارة الخشب قطعة واحدة .

وأخيراً بلغنا الحجرة التي هي بيت القصيد ، حجرة اللاكيه . وهي حجرة كبيرة ، سدت فيها النافذ جميعا إلا بابا واحداً ، فهذا أغلق أيضا . والفرجات التي قامت في النوافذ والأبواب المسدودة ، ألصقوا عليها أشرطة عليها الصمغ لسدها ، وذلك حتى لا يتسرب إلى الحجرة شيء حتى الغبار فهو إذا دخل أفسد الطلاء ، اللاكيه ، أي إفساد . ودخلنا

ذكرى الميلاد النبوى

عادت الذكرى لنا فاحتفل
واعرضى الماضى على المستقبل
وأعيدى باسم طه موسما
للتهانى ، حافلا بالجحفل
واسأل التاريخ عن معجزه
فهو عنوان كتاب الأزل
هبت الصحراء من رقدتها
وتهادت للصراط الأمثل
ولدت للخلد ناموس الهدى
وهى غير التى لمّا تحمل
مولد النهضة ما أقدسه
إنه تاريخ وحى الدول

* * *

سائل البطحاء ماذا راعها
وهى فى ظلمها المنعزل
واسأل الأصنام من عليائها
من رماها للحضيض الأسفل
وادخل البيت فنى جانبه
أمة مجموعة فى رجل
شيبة الحمد ، وما أعظمه
قائدا حاز وسام البطل
كم له دون العلا من موقف
سار فى الدهر مسير المثل
وانظرى الوفد تسعى حوله
وتحيى مجده بالقبل
واسمعى الشاعر يشدو راويا
فنه عن نغمات البلبل

الحجرة فكأنما صدمنا فيها صادم . ولم يكن ذلك من ثقل الرائحة ، ولكن من غيبة الهواء . وحلّ محل الهواء شيء خُيِّل لنا أنا نراه رأى العين .

وتحدثت إلى صبيٍّ يقوم بالطلاء . فقال لى : إنه يحب عمله ، وليس يدرى لماذا يحبه ، وقد قضى فى المصنع سنتين ، وهو لا يأخذ أجراً على عمله ، ولكن صاحب المصنع يطعمه ويكسوه ويسكنه فى المصنع وأحيانا يعطيه نفقة جيب . ولا يحس بفقدان الهواء أو ثقل الجوّ إلا عند خروجه من البيت — من المصنع — إلى جوّ الدنيا . وأنس إلى حديثى فاستطرد يقول : إنه بدأ فى هذا المصنع بحمل الرسائل ، ويؤدى البضائع . وكان فى أثناء ذلك يدخل المصنع يجرِّب يده فى الطلاء . وكانت تمرع نفسه فى تلك الحجرة . وظلّ أشهرا يحس باقتراب التَّقْىء فيها . ولكنه اعتاد كل ذلك بالزمن ، وأصبح اليوم لا يلحظ كثافة الجوّ إذا دخل فيه .

وسألته : وما الذى حدا بك إلى اختيار هذه الصنعة بعد أن فارقت المدرسة ؟ ولم لم تقع على صناعة أكثر حركة وأنشط وأجدر بالشباب ؟

ففكر طويلا ، ثم اعترف لى بأنه حقا لا يدرى لم فعل هذا . إنه جاء هنا لأنه وجد مكانا له هنا . وهو لم يحب هذا العمل لما بدأه ، ولكنه تعوّده بعد ذلك . وهو الآن قد عرف الكفاية منه فصار يتقنه ما الجودة وتلذّ له الاجادة ، ويزهوه الصنف الذى يخرجه كيفا وكمًّا . فلمَّحت إلى أنها صناعة قد لا تعود على رئته بالصحة التامّة . فهز كتفيه ، وقال : « شيكا ناجا ناى » ، وهى الكلمة العالية المعروفة ، وترجمتها : « ما باليد حيلة » . لم يكن الصبي مسدّدا بالذى هو فيه فحسب ، بل كان كأنه يعتقد أن هذا قضاء لا بد منه ، وهو واقع على كل حال ، أى صنعة اتخذ ، وفى أى مجرى من مجارى العيش سار .

أحمد زكى

بلفظ المعنى عما ينشده
والمعاني معجزات الجمل
ينثر الدمعة في بسمته
هل تذوقت الرنا بالغزل ؟
تمـل الحفل من ألحانه
وانثنى من شعره المرتجل
انظـره ثورة هـادئة
وأماناً باعثاً للوجل
يبعث الأفراح في أنغامه
هاتفاً باسم الوليد المقبل
فشت في الحفل من ذكر اسمه
هزة أرثت جلال المحفل
لست أدرى هل وعى باطنه
أن هذا اسم النبي المرسل

***

ترك الأمة في عاداتها
وانزوى في ركنه المنعزل
يرمق الأجواء في منظاره
خارقاً حجب الظلام المسدل
ما هي الأصنام ما تأثيرها
في نظام العالم المكتمل ؟!
لمَ يسرى الفكر في منحرف
من طريق الواقع المعتدل ؟
هذه العادات أمضى فتكة
بالورى من فتكات الأجل

***

نزل الوحى عليه فانبرى
يمحق اليأس بنور الأمل
يحمل الشمل باليمنى وقد
خص يسراه لحمل المعول
في سبيل الحق كم من مشكل
حله صبراً وكم من معضل
جاهد الأغراض حتى انهزمت
تستر العار بذيل الفشل
فإذا الشرق بصبح نير
بعد ما بات بليل أليل

(النجف) . محمد جمال الهاشمي

مما لم ينشر من شعر حافظ ابراهيم :

الى سعادة الدكتور على باشا ابراهيم

هل رأيتم موفقاً كعليّ
في الأطباء يستحق الثناء
أودع الله صدره حكمة العلم
وأجرى على يديه الشفاء
كم نفوس قد سلّها من يد المو
ت بلطف منه وكم سلّ داءَ
فأرانا لقمان في مصر حياً
وحبانا لكل داء دواءَ
حفظ الله مبضعاً في يديه
قد أمات الأسى وأحيا الرجاء

***

أعلى ابراهيم دامت لك اليد
تشفى الجروح وبرؤها لك يشهد
من ذا الذي في حسن طبك يمترى
من بعد رأيك لا يكون تردد
ولئن قضت روح على جسم ذوى
أصلحت بينهما وأنت السيد
علم وأعمال وأخلاق رضى
أحسنت في كل فأنت الفرد

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر